الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد الثامن و الثلاثون

الاجزاء من ٧٤٧ الى ٧٦٩

الحاوي في التفسير

الشيخ عبد الرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ
الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ ٭

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
747	سورة الحديد	الآية 1 الى الآية 15	2
748	=	الآية 16 الى الآية 27	499
749	=	الآية 28 الى الآية 29	885
750	سورة المجادلة	فصول مهمة	1323
751	=	الآية 1 الى الآية 8	1507
752	=	الآية 9 الى الآية 20	1867
753	=	الآية 21 الى الآية 22	2069
754	سورة الحشر	فصول مهمة	2640
755	=	الآية 1 الى الآية 10	2798
756	=	الآية 11 الى الآية 21	3182
757	=	الآية 22 الى الآية 24	3346
758	سورة الممتحنة	فصول مهمة	4200
759	=	الآية 1 الى الآية 11	4376
760	=	الآية 12 الى الآية 13	4658
761	سورة الصف	فصول مهمة	5193
762	=	الآية 14	5458
763	سورة الجمعة	فصول مهمة	5736
764	=	الآية 9 الى الآية 11	5957
765	سورة المنافقون	فصول مهمة	6547
766	سورة التغابن	فصول مهمة	7033
767	=	الآية 14 الى الآية 18	7249
768	سورة الطلاق	فصول مهمة	7566
769	=	الآية 1 الى الآية 7	7741

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والأربعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والأربعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من (سورة الحديد)

وحتى الآية ﴿ 15 ﴾ من السورة

(4/747)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/747)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الحديد

قال بعضهم: وجه اتصالها بالواقعة: أنها قدمت بذكر التسبيح ، وتلك ختمت بالأمر به

قلت: وتمامه: أن أول الجديد واقع موقع العلة للأمر به ، وكأنه قال (فسَبِح باسم ربك

العظيم) لأنه (سبح للهِ ما في السموات والأَرض) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 135﴾

(6/747)

قوله تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي أحاطت إلاهيته بجميع الموجودات (الرحمن) الذي وسعهم جوده في جميع الحركات والسكنات (الرحيم) الذي خص من بينهم بما له من الاختيار في كمال الاقتدار أهل ولايته بما يرضيه من العبادات .

(7/747)

ولما ختمت الواقعة بالأمر بتنزيهه عما أنكره الكفرة من البعث ، جاءت هذه لتقرير ذلك التنزيه وتبيينه بالدليل والبرهان والسيف والسنان فقال تعالى كالتعليل لآخر الواقعة : ﴿ سبح ﴾ أي أوقع التسبيح بدلالة الجبلة تعظيماً له سبحانه وإقراراً بربوبيته وإذعاناً لطاعته ، وقصره ، وهو متعد ليدل على العموم بقصره ، وعلى الإخلاص بتعديته باللام وجعله ماضياً هنا وفي الحشر والصف ومضارعاً في الجمعة والتغابن ليدل على أن مما أسند إليه التسبيح هو من شأنه وهجيراه وديدنه وتخصيص كل من الماضي والمضارع بما افتتح به لما يأتي في أول الجمعة ، والإتيان بالمصدر أول الإسراء أبلغ من حيث إنه يدل إطلاقه على استحقاق التسبيح من كل شيء وفي كل حال ﴿ لله ﴾ أي الملك المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ ما في السماوات ﴾ أي الأجرام العالية والذي فيها وهي الأرض ومن فيها وكل سماء ومن فيها ، وما بينهما لأنها كلها في العرش الذي هو أعلى الخلق .

ولما كان الكلام آخر الواقعة مع أهل الخصوص بل هو أخص أهل الخصوص ، لم يحتج إلى تأكيد فحذف ما جعلا للخافقين كشيء واحد لأن نظره لهما نظر علو نظراً واحداً لما أخبر به عنهما من التنزيه فقال : ﴿ والأرض ﴾ أي وما فيها وكذا نفس الأراضي كما تقدم ، فشمل ، ذلك جميع الموجودات لأنه إذا سبح ذلك كله فتسبيح العرش بطريق الأولى وتنزيه هذه الأشياء بما فيها من الآيات الدالة على أنه سبحانه لا يلم بجنابه شائبة نقص ، وأن كل شيء واقف على الباب يشاهد الطلب ، قال القشيري : التسبيح : التقديس

والتنزيه، ويكون بمعنى سباحة الأسرار في بحار الإجلال، فيظفرون بجواهر التوحيد، وينظمونها في عقد الإيمان، ويرصعونها في أطواق الوصلة.

ولما قرر ذلك، دل على أنه لا قدرة لشيء على الانفكاك عنه، وأن له كل كمال، فهو المستحق للتسبيح والحمد فقال: ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ العزيز ﴾ الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ﴿ الحكيم ﴾ الذي أتقن كل شيء صنعه.

(8/747)

وقال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير العاصمي في برهانه: لما تقدم قوله سبحانه وتعالى ﴿ فلولا تصدقون ﴾ [الواقعة: 57] وفيه من التقريع والتوبيخ لمن قرع به ما لا خفاء به، ثم اتبع بقوله تعالى ﴿ أفرءيتم ما تمنون ﴾ [الواقعة: 58] الآيات إلى قوله ﴿ ومتاعاً للمقوين ﴾ [الواقعة: 73] فعزروا ووبخوا على سوء جهلهم وقبح ضلالهم، ثم قال سبحانه وتعالى بعد ذلك ﴿ أبهذا الحديث أنتم مدهنون ﴾ [الواقعة: 81] واستمر توبيخهم إلى قوله: ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ [الواقعة: 87] فلما أشارت هذه الآيات إلى قبائح مرتكباتهم، أعقب تعالى ذلك تنزيهه عز وجل عن سوء ما انتحلوه وضلالهم فيما جهلوه فقال تعالى ﴿ فسبح باسم ربك ﴾ [الواقعة: 69] أي نزهه عن عظيم ضلالهم

وسوء اجترائهم ، ثم أعقب ذلك بقوله ﴿ سبح لله ما في السماوات والأرض ﴾ أي سبح باسم ربك ، فهي سنة العالم بأسرهم

﴿ وله أسلم من في السماوات والأرض ﴾ [آل عمران : 83] ﴿ سبح لله ما في السماوات والأرض ﴾ ثم أتبع ذلك بقوله : ﴿ له الملك وله الحمد ﴾ فبين تعالى انفراده بصفة الجلال ونعوت الكمال ، وأنه المتفرد بالملك والحمد وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن إلى قوله : ﴿ وهو عليم بذات الصدور ﴾ فتضمنت هذه الآيات إرغام من أشير إلى حاله في الآية المتقدمة من سورة الواقعة وقطع ضلالهم والتعريف بما جهلوه من صفاته العلى وأسمائه الحسنى جل وتعالى ، وافتتحت آي السورتين واتصلت معانيها ثم صرف الخطاب إلى عباده المؤمنين فقال تعالى ﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾ واستمرت الآي على خطابهم إلى آخر السورة - انتهى .

(9/747)

ولما أخبر بذلك ، دل على وجه مصرح بما أفهمه الأول من تسبيح السماوات والأرض بقوله : ﴿ له ﴾ أي وحده ﴿ ملك السماوات والأرض ﴾ أي وملك ما فيهما وما بينهما ظاهراً وباطناً ، فالملك الظاهر ما هو الآن موجود في الدنيا من أرض مدحية وسماء مبنية

وكواكب مضية وأفلاك علية ورياح محسوسة وسحاب مرئية - وما تفصل إلى ذلك من خلق وأمر ، والملك الباطن الغائب عنا ، وأعظمه المضاف إلى الآخر وهو الملكوت ، قال القشيري : الملك مبالغة من الملك يعني بدلالة الضمة ، قال ، والملك بالكسر أي القدرة على الإبداع فلا مالك إلا الله ، وإذا قيل لغيره : مالك ، فعلى المجاز بالأحكام المتعلقة في الشريعة على ملك الناس أي بتصحيحه أو إفساده ونحوه ذلك ، فالآية من الاحتباك : ذكر ما بين السماوات والأرض أولاً دليلاً على حذف ما بينهما ثانياً ، وذكر الخافقين ثانياً دليلاً على حذف مثل ذلك أولاً ليكون التسبيح والملك شاملاً للكل .

ولما كان ذلك مما لا نزاع فيه ، وكان ربما عاند معاند ، دل عليه بما لا مطمع فيه لغيره فقال مقدماً الإحياء لأنه كذلك في الخارج ولأن زمن الحياة أكثر لأن البعث حياة دائمة لا موت بعدها : ﴿ يحيي ﴾ أي له صفة الإحياء فيحيي ما يشاء من الخلق بأن يوجده على صفة الإحياء كيف شاء في أطور يتقلبها كيف شاء وكيف يشاء ومما يشاء ﴿ ويميت ﴾ أي له هاتان الصفتان على سبيل الاختيار والتجد والاستمرار ، فهو قادر على البعث بدليل ما ثبت له من صفة الإحياء .

ولما كان هذا شاملاً للقدرة على التجديد والإعادة ، عم الحكم بقوله : ﴿ وهو على كل شيء ﴾ أي من الإحياء والإماتة وغيرهما من كل ممكن ﴿ قدير ﴾ أي بالغ القدرة إلى حد لا يمكن الزيادة عليه .

ولما أخبر بتمام القدرة ، دل على ذلك بقوله : ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الأول ﴾ أي بالأزلية قبل كل شيء فلا أول له ، والقديم الذي منه وجود كل شيء وليس وجوده من شيء لأن كل ما نشاهده متأثر لأنه حقير ، وكل ما كان ما كان كذلك فلا بد له من موجد غير متأثر ﴿ والآخر ﴾ بالأبدية ، الذي ينتهي إليه وجود كل شيء في سلسلة الترقي وهو بعد فناء كل شيء ولو بالنظر إلى ما له من ذاته فلا آخر له لأنه يستحيل عليه نعت العدم لأن كل ما سواه متغير ، بنوع من التغيير جاز إعدامه ، وما جاز إعدامه فلا بد له من معدم يكون بعده ولا يمكن إعدامه .

ولما كان السبق يقتضي البطون ، والتأخر يوجب الظهور ، وكانا أمرين متضادين لا يكاد الإنسان يستقل بتعلقهما في شيء واحد ، نبه على اجتماعهما فيه ، فقال مشيراً بالواو إلى تمام الاتصاف وتحققه : ﴿ والظاهر ﴾ أي بالأحدية للعقل بأدلته الظاهرة في المصنوعات بما له من الأفعال ظهوراً لا يجهله عاقل ، وهو الغالب في رفعته وعلوه فليس فوقه شيء ﴿ والباطن ﴾ بالصمدية وعن انطباع الحواس وارتسام الخيال وتصور الفهم والفكر وبتمام

العلم والحكمة بما له من العظمة في ذاته بكثرة التعالي والحجب بطوناً لا يكتنه شيء ، وقال القشيري : الأول بلا ابتداء ، الآخر بلا انتهاء .

(11/747)

الظاهر بلا خفاء ، الباطن بنعت العلا وعز الكبرياء - انتهى ، والعطف للدلالة كما أشير إليه على الإحاطة التامة لأنها لما كانت متضادة كانت بحيث لو أعريت عن الواو لربما ظن أن وجودها لا على سبيل التمكن ، فلا تكون محيطة بل مقيدة بحيثية مثلاً فجاءت الواو دلالة على تمكن الوصف وإحاطته وإنه واقع بكل اعتبار ليس واحد من الأوصاف مكملاً لشيء آخر ولا شارحاً لمعناه ، فهو أول على الإطلاق وآخر كذلك ، وظاهر حتى في حال بطونه وباطن كذلك ، وهذا على الأصل فإن صفاته تعالى محيطة فلا إشكال ، إنما الإشكال عند الخلو من العطف فهو الأغلب في إيرادها كما آخر الحشر ، ولعل ذلك مراد الكشاف بقوله : إن الواو الأولى معناها الدلالة على الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية ، أي جمعاً هو في غاية المكنة ، والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء ، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأولين ومجموع الصفتين الأخيرتين ، فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية .

انتهى .

ولما كان من ظهر لشيء بطن عن غيره ، ومن بطن لشيء غاب عنه علمه ، وكان سبحانه في ظهوره على ذلك بمعنى أنه ليس فوقه شيء ، وفي بطونه بحيث ليس دونه شيء ، فقد جمعت الأوصاف إحاطة العلم والقدرة ، أعلم نتيجة ذلك فقال : ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ أي لكون الأشياء عنده على حد سواء ، والبطون والظهور إنما هو بالنسبة إلى الخلق ، وأما هو سبحانه فلا باطن من الخلق عنده بل هو في غاية الظهور لديه لأنه الذي أوجدهم ، وهذا معنى ما قال البغوي رحمه الله تعالى : سأل عمر ـ رضى الله عنه ـ كعباً عن هذه الآية فقال : معناها أن علمه بالأول كعلمه بالآخر ، وعلمه بالظاهر كعلمه بالباطن - انتهى .

لأن العلم يستلزم القدرة على حسبه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 432 . 436 ﴾

(12/747)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ أخذ ﴾ مجهولاً ﴿ ميثاقكم ﴾ بالرفع : أبو عمرو ﴿ وكل ﴾ بالرفع : ابن عامر ﴿ انظرونا ﴾ من الأنظار : حمزة ﴿ الأماني ﴾ بسكون الياء : يزيد ﴿ لا تؤخذ ﴾ بالتأنيث : ابن عامر ويزيد وسهل ويعقوب ﴿ وما نزل ﴾ بالتشديد مجهولاً : عباس ﴿ نزل ﴾ بالتخفيف من النزول : نافع وحفص. الباقون : بالتشديد ﴿ ولا تكونوا ﴾ على الخطاب : رويس ﴿ المصدقين والمصدقات ﴾ بتشديد الدال فقط : ابن كثير وأبو بكر وحماد ﴿ بما أتاكم ﴾ مقصوراً من الإتيان : أبو عمرو ﴿ فإن الله هو الغني ﴾ بغير الفصل : أبو جعفر ونافع وابن عامر ﴿ إبراهام ﴾ كنظائره.

(13/747)

الوقوف : ﴿ الأرض ﴾ ج لعطف الجملتين المختلفتين ﴿ الحكيم ﴾ ه ﴿ والأرض ﴾ ج لاحتمال أن يكون قوله ﴿ يحيى ﴾ مستأنفاً لا محل له أو له محل بتقدير هو يحيى وأن يكون حالاً من المجرور في قوله ﴿ له ﴾ والجار عاملاً فيها . ﴿ ويميت ﴾ ج ﴿ قدير ﴾ ه ﴿ والباطن ﴾ ج ﴿ عليم ﴾ ه ﴿ العرش ﴾ ط ﴿ فيها ﴾ ط ﴿ كنتم ﴾ ط ﴿ بصير ﴾ ه ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ الأمور ﴾ ه ﴿ في الليل ﴾ ط ﴿ الصدور ﴾ ه ﴿ فيه ﴾ ط ﴿ كبير ﴾ ه ﴿ بالله ﴾ ط ﴿ مؤمنين ﴾ ه ﴿ إلى النور ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ ه

﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ وقاتل ﴾ ط ﴿ وقاتلوا ﴾ ط ﴿ الحسنى ﴾ ط ﴿ خبير ﴾ ه ﴿ كريم ﴾ ج لاحتمال تعلق الظرف بقوله ﴿ وله أجر ﴾ أو بقوله ﴿ بشراكم ﴾ أي يقال لهم ذلك يومئذ أو هو مفعول "اذكر" ﴿ فيها ﴾ ط ﴿ العظيم ﴾ ه ج وإن وصل وقف على ﴿ نوركم ﴾ لأن ﴿ يوم ﴾ قد يتعلق بالنور فيوقف على ﴿ نوركم ﴾ وقد يتعلق بقوله ﴿ قيل ارجعوا ﴾ ﴿ نوراً ﴾ ط ﴿ باب ﴾ ط ﴿ العذاب ﴾ ط ﴿ معكم ﴾ ط ﴿ الغرور ﴾ ه ﴿ كفروا ﴾ ط ﴿ النار ﴾ ط ﴿ مولاكم ﴾ ط ﴿ المصير ﴾ ه ﴿ الحق ﴾ ط إلا لمن قرأ ﴿ ولا تكونوا ﴾ على النهي ﴿ قلوبهم ﴾ ط ﴿ فاسقون ﴾ ه ﴿ موتها ﴾ ط ﴿ تعقلون ﴾ ه ﴿ كريم ﴾ ه ﴿ الصديقون ﴾ ه والوصل أولى ومن وقف على ﴿ الصديقين ﴾ لم يقف على ﴿ ربهم ﴾ ﴿ ونورهم ﴾ ط ﴿ الجحيم ﴾ ه ﴿ والأولاد ﴾ ط ﴿ حطاماً ﴾ ط ﴿ ورضوان ﴾ ط ﴿ الغرور ﴾ ه ﴿ ورسله ﴾ ط ﴿ من يشاء ﴾ ط ﴿ العظيم ﴾ ه ﴿ نبرأها ﴾ ط ﴿ يسير ﴾ ه ج لاحتمال تعلق اللام بما قبله أو بمحذوف أي ذلك لكيلا ﴿ أتاكم ﴾ ط ﴿ فخور ﴾ ه لا لأن ما بعده بدل ﴿ بالبخل ﴾ ط ﴿ الحميد ﴾ ه ﴿ بالقسط ﴾ ط ه للعطف ظاهراً مع أن إنزال الحديد ابتداء إخبار غير مختص بالرسل ﴿ بالغيب ﴾ ط ﴿ عزيز ﴾ ه ﴿ مهتد ﴾ ج لأن الجملتين وإن اتفقتا لفظاً إلا أن الأولى للبعض القليل والثانية

للكثير فيبنى على الاستئناف ﴿ فاسقون ﴾ ه ﴿ ورحمة ﴾ ط لأن ما بعدها منصوب بابتدعوا المقدر ﴿ رعايتها ﴾ ط لأن الجملتين وإن اتفقتا لفظاً إلا

(14/747)

أن قوله ﴿ فآتينا ﴾ ليس جزاء ترك الرعاية إنما هو تمام بيان الفرقة بين الفريقين فيرجع إلى قوله ﴿ فمنهم مهتد ﴾ ﴿ أجرهم ﴾ ه ط لما مر ﴿ فاسقون ﴾ ه ﴿ ويغفر لكم ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ ه لا وقد يجوز الوقف بناء على أن المراد ذلك ليعلم ﴿ يشاء ﴾ ط ﴿ العظيم ﴾ ه. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 249. 250﴾

(15/747)

فصل

قال الفخر :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

التسبيح تبعيد الله تعالى من السوء ، وكذا التقديس من سبح في الماء وقدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد .

واعلم أن التسبيح عن السوء يدخل فيه تبعيد الذات عن السوء ، وتبعيد الصفات وتبعيد الأفعال ، وتبعيد الأسماء وتبعيد الأحكام ، أما في الذات : فأن لا تكون محلاً للإمكان ، فإن السوء هو العدم وإمكانه ، ثم نفي الإمكان يستلزم نفي الكثرة ، ونفيها يستلزم نفي الجسمية والعرضية ، ونفي الضد والند وحصول الوحدة المطلقة .

وأما في الصفات : فأن يكون منزهاً عن الجهل بأن يكون محيطاً بكل المعلومات ، ويكون قادراً على كل المقدورات ، وتكون صفاته منزهة عن التغيرات .

وأما في الأفعال : فأن تكون فاعليته موقوفة على مادة ومثال ، لأن كل مادة ومثال فهو فعله ، لما بينا أن كل ما عداه فهو ممكن ، وكل ممكن فهو فعله ، فلو افتقرت فاعليته إلى مادة ومثال ، لزم التسلسل ، وغير موقوفة على زمان ومكان ، لأن كل زمان فهو مركب من أجزاء منقضية ، فيكون ممكناً ، كل مكان فهو بعد ممكن مركب من أفراد الأحياز ، فيكون كل واحد منهما ممكناً ومحدثاً ، فلو افتقرت فاعليته إلى زمان وإلى مكان ، لافتقرت فاعلية الزمان والمكان إلى زمان ومكان ، فيلزم التسلسل ، وغير موقوفة على جلب منفعة ، ولا دفع مضرة ، وإلا لكان مستكملاً بغيره ناقصاً في ذاته ، وذلك محال .

وأما في الأسماء : فكما قال : ﴿ وَلِلَّهِ الأسماء الحسنى فادعوه بِهَا ﴾ [الأعراف : 18] .

وأما في الأحكام : فهو أن كل ما شرعه فهو مصلحة وإحسان وخير ، وأن كونه فضلاً وخيراً ليس على سبيل الوجوب عليه ، بل على سبيل الإحسان ، وبالجملة يجب أن يعلم من هذا الباب أن حكمه وتكليفه لازم لكل أحد ، وأنه ليس لأحد عليه حكم ولا تكليف ولا يجب لأحد عليه شيء أصلاً ، فهذا هو ضبط معاقد التسبيح .

المسألة الثانية :

(16/747)

جاء في بعض الفواتح ﴿ سَبِّحِ ﴾ على لفظ الماضي ، وفي بعضها على لفظ المضارع ، وذلك إشارة إلى أن كون هذه الأشياء مسبحة غير مختص بوقت دون وقت ، بل هي كانت مسبحة أبداً في الماضي ، وتكون مسبحة أبداً في المستقبل ، وذلك لأن كونها مسبحة صفة لازمة لماهياتها ، فيستحيل انفكاك تلك الماهيات عن ذلك التسبيح ، وإنما قلنا : إن هذه المسبحية صفة لازمة لماهياتها ، لأن كل ما عدا الواجب ممكن ، وكل ممكن فهو مفتقر إلى الواجب ، وكون الواجب واجباً يقتضي تنزيهه عن كل سوء في الذات والصفات والأفعال والأحكام والأسماء على ما بيناه ، فظهر أن هذه المسبحية كانت حاصلة في

الماضي ، وتكون حاصلة في المستقبل ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

هذا الفعل تارة عدي باللام كما في هذه السورة ، وأخرى بنفسه كما في قوله :

﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفتح : 9] وأصله التعدي بنفسه ، لأن معنى سبحته أي بعدته عن السوء ، فاللام إما أن تكون مثل اللام في نصحته ونصحت له ، وإما أن يراد يسبح لله أحدث التسبيح لأجل الله وخالصاً لوجهه .

المسألة الرابعة :

زعم الزجاج أن المراد بهذا التسبيح ، التسبيح الذي هو القول ، واحتج عليه بوجهين الأول : أنه تعالى قال : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] فلو كان المراد من التسبيح ، هو دلالة آثار الصنع على الصانع لكانوا يفقهونه الثاني : أنه تعالى قال : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ ﴾ [الأنبياء : 79] فلو كان تسبيحاً عبارة عن دلالة الصنع على الصانع لما كان في ذلك تخصيص لداود عليه السلام .

واعلم أن هذا الكلام ضعيف (لحجتين) :

(17/747)

أما الأولى : فلأن دلالة هذه الأجسام على تنزيه ذات الله وصفاته وأفعاله من أدق الوجوه ، ولذلك فإن العقلاء اختلفوا فيها ، فقوله : ﴿ ولكن لَّا تَفْقَهُونَ ﴾ لعله إشارة إلى أقوام جهلوا بهذه الدلالة ، وأيضاً فقوله : ﴿ لَّا تَفْقَهُونَ ﴾ إشارة إن لم يكن إشارة إلى جمع معين ، فهو خطاب مع الكل فكأنه قال : كل هؤلاء ما فقهوا ذلك ، وذلك لا ينافي أن يفقهه بعضهم .

وأما الحجة الثانية : فضعيفة ، لأن هناك من المحتمل أن الله خلق حياة في الجبل حتى نطق بالتسبيح .

(18/747)

أما هذه الجمادات التي تعلم بالضرورة أنها جمادات يستحيل أن يقال : إنها تسبح الله على سبيل النطق بذلك التسبيح ، إذ لو جوزنا صدور الفعل المحكم عن الجمادات لما أمكننا أن نستدل بأفعال الله تعالى على كونه عالماً حياً ، وذلك كفر ، بل الحق أن التسبيح الذي هو القول لا يصدر إلا من العاقل العارف بالله تعالى ، فينوي بذلك القول تنزيه ربه سبحانه ، ومثل ذلك لا يصح من الجمادات ، فإذاً التسبيح العام الحاصل من العاقل والجماد لا بد وأن يكون مفسراً بأحد وجهين الأول : أنها تسبح بمعنى أنها تدل على تعظيمه وتنزيهه والثاني : أن الممكنات بأسرها منقادة له يتصرف فيها كيف يريد ليس له عن فعله وتكوينه مانع ولا

دافع، إذا عرفت هذه المقدمة، فنقول: إن حملنا التسبيح المذكور في الآية على التسبيح بالقول، كان المراد بقوله: ﴿ مَا فِي السموات ﴾ من في السموات ومنهم حملة العرش: ﴿ فَإِنِ استكبروا فالذين عِندَ رَبّكَ يُسَبّحُونَ ﴾ [فصلت: 38] ومنهم المقربون: ﴿ قَالُواْ سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ﴾ [سبأ: 41] ومن سائر الملائكة: ﴿ قَالُوا سبحانك مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا ﴾ [الفرقان: 18] وأما المسبحون الذين هم في الأرض فمنهم الأنبياء كما قال ذو النون: ﴿ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سبحانك ﴾ [الأنبياء: 87] وقال موسى: ﴿ سبحانك إِنّي تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: 143] والصحابة يسبحون كما قال: ﴿ سبحانك فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: 191] وأما إن حملنا هذا التسبيح على التسبيح المعنوي: فأجزاء السموات وذرات الأرض والجبال والرمال والبحار والشجر والدواب والجنة والنار والعرش والكرسي واللوح والقلم والنور والظلمة والذوات والصفات والأجسام والأعراض كلها مسبحة خاشعة خاضعة لجلال الله منقادة لتصرف الله كما قال عز من قائل:

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] وهذا التسبيح هو المراد بالسجود في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ [النحل : 49] أما قوله : ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ فالمعنى أنه القادر الذي لا ينازعه شيء ، فهو إشارة إلى كمال القدرة ، والحكيم إشارة إلى أنه العالم الذي لا يحتجب عن علمه شيء من الجزئيات والكليات أو أنه الذي يفعل أفعاله على وفق الحكمة والصواب ، ولما كان العلم بكونه قادراً متقدماً على العلم بكونه عالماً لا جرم قدم العزيز على الحكيم في الذكر .

واعلم أن قوله : ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ يدل على أن العزيز ليس إلا هو لأن هذه الصيغة تفيد الحصر ، يقال : زيد هو العالم لا غيره ، فهذا يقتضي أنه لا إله إلا الواحد ، لأن غيره ليس بعزيز ولا حكيم وما لا يكون كذلك لا يكون إلهاً .

لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2)

واعلم أن الملك الحق هو الذي يستغني في ذاته ، وفي جميع صفاته عن كل ما عداه ، ويحتاج كل ما عداه إليه في ذواتهم وفي صفاتهم ، والموصوف بهذين الأمرين ليس إلا هو سبحانه .

أما أنه مستغن في ذاته وفي جميع صفاته عن كل ما عداه فلأنه لو افتقر في ذاته إلى الغير لكان ممكناً لذاته فكان محدثاً ، فلم يكن واجب الوجود ، وأما أنه مستغن في جميع صفاته السلبية والإضافية عن كل ما عداه ، فلأن كل ما يفرض صفة له ، فإما أن تكون هويته سبحانه كافية في تحقق تلك الصفة سواء كانت الصفة سلباً أو إيجاباً أو لا تكون كافية في ذلك ، فإن كانت هويته كافية في ذلك من دوام تلك الهوية دوام تلك الصفة سلباً كانت الصفة أو إيجاباً ، وإن لم تكن تلك لزم الهوية كافية ، فحينئذ تكون تلك الهوية ممتنعة الانفكاك عن ثبوت تلك الصفة وعن سلبها ، ثم ثبوت تلك الصفة وسلبها ، يكون متوقفاً على ثبوت أمر آخر وسلبه ، والموقوف على الموقوف على الشيء موقوف على ذلك الشيء ، فهويته سبحانه تكون موقوفة التحقق على تحقق علة ثبوت تلك الصفة أو علة سلبها ، والموقوف على الغير ممكن لذاته فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته ، وهذا خلف ، فثبت أنه سبحانه غير مفتقر لا في ذاته ، ولا في شيء من صفاته السلبية ولا الثبوتية إلى غيره ، وأما أن كل ما عداه مفتقر إليه فلأن كل ما عداه ممكن ، لأن واجب الوجود لا يكون أكثر من واحد والممكن لا بد له من مؤثر ، ولا واجب إلا هذا الواحد فإذن كل ما عداه فهو مفتقر إليه سواء كان جوهراً أو عرضاً ، وسواء كان الجوهر روحانياً أو جسمانياً ، وذهب جمع من العقلاء إلى أن تأثير واجب الوجود في إعطاء الوجود لا في الماهيات فواجب الوجود يجعل السواد موجوداً ، أما أنه يستحيل أن يجعل السواد سواداً ، قالوا : لأنه لو كان كون

السواد سواداً بالفاعل ، لكان يلزم من فرض عدم ذلك الفاعل أن لا يبقى السواد سواداً وهذا محال ، فيقال لهم يلزمكم على هذا التقدير أن لا يكون الوجود أيضاً بالفاعل ، وإلا لزم من فرض عدم ذلك الفاعل أن لا يكون الوجود وجوداً ، فإن قالوا : تأثير الفاعل ليس في الوجود بل في جعل الماهية موصوفة بالوجود ،

(21/747)

قلنا : هذا مدفوع من وجهين الأول : أن موصوفية الماهية بالوجود ليس أمراً ثبوتياً ، إذ لو كان أمراً ثبوتياً لكانت له ماهية ووجود ، فحينئذ تكون موصوفية تلك الماهية بالوجود زائدة عليه ولزم التسلسل وهو محال ، وإذا كان موصوفية الماهية بالوجوه ليس أمراً ثبوتياً ، استحال أن يقال : لا تأثير للفاعل في الماهية ولا في الوجود بل تأثيره في موصوفية الماهية بالوجود الثاني : أن بتقدير أن تكون تلك الموصوفية أمراً ثبوتياً ، استحال أيضاً جعلها أثراً للفاعل ، وإلا لزم عند فرض عدم ذلك الفاعل أن تبقى الموصوفية موصوفية ، فظهر أن الشبهة التي ذكروها لو تمت واستقرت يلزم نفي التأثير والمؤثر أصلاً ، بل كما أن الماهيات إنما صارت موجودة بتأثير واجب الوجود ، فكذا أيضاً الماهيات إنما صارت ماهيات بتأثير واجب الوجود ، وإذا لاحت هذه الحقائق ظهر بالبرهان العقلي صدق قوله تعالى : ﴿لَّهُ

مُلْكُ السموات والأرض ﴾ بل ملك السموات والأرض بالنسبة إلى كمال ملكه أقل من الذرة ، بل لا نسبة له إلى كمال ملكه أصلاً ، لأن ملك السموات والأرض ملك متناه ، وكمال ملكه غير متناه ، والمتناهي لا نسبة له ألبتة إلى غير المتناهي ، لكنه سبحانه وتعالى ذكر ملك السموات والأرض لأنه شيء مشاهد محسوس ، وأكثر الخلق عقولهم ضعيفة قلما يمكنهم الترقي من المحسوس إلى المعقول .

ثم إنه سبحانه لما ذكر من دلائل الآفاق ملك السموات والأرض ذكر بعده دلائل الأنفس فقال : ﴿ يُحيي ويُمِيتُ وَهُوَ على كل شيءٍ قدير ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(22/747)

ذكر المفسرون فيه وجهين أحدهما : يحيي الأموات للبعث ، ويميت الأحياء في الدنيا والثاني : قال الزجاج : يحيي النطف فيجعلها أشخاصاً عقلاء فاهمين ناطقين ، ويميت وعندي فيه وجه ثالث وهو أنه ليس المراد من تخصيص الإحياء والإماتة بزمان معين وبأشخاص معينين ، بل معناه أنه هو القادر على خلق الحياة والموت ، كما قال في سورة الملك : ﴿ الذي خَلَقَ الموت والحياة ﴾ [الملك : 2] والمقصود منه كونه سبحانه هو

المنفرد بإيجاد هاتين الماهيتين على الإطلاق ، لا يمنعه عنهما مانع ولا يرده عنهما راد ، وحينئذ يدخل فيه الوجهان اللذان ذكرهما المفسرون .

المسألة الثانية :

موضع ﴿ يحيي ويميت ﴾ رفع على معنى هو يحيي ويميت ، ويجوز أن يكون نصباً على معنى : له ملك السموات والأرض حال كونه محيياً ومميتاً .

واعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل الآفاق أولاً : ودلائل الأنفس ثانياً : ذكر لفظاً يتناول الكل فقال : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وفوائد هذه الآية مذكورة في أول سورة الملك .

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(23/747)

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في تفسير هذه الآية : " إنه الأول ليس قبله شيء والآخر ليس بعده شيء " واعلم أن هذا المقام مقام مهيب غامض عميق والبحث فيه من وجوه : الأول : أن تقدم الشيء على الشيء يعقل على وجوه أحدها : التقدم

بالتأثير فإنا نعقل أن لحركة الأصبع تقدماً على حركة الخاتم ، والمراد من هذا التقدم كون المتقدم مؤثراً في المتأخر وثانيها : التقدم بالحاجة لا بالتأثير ، لأنا نعقل احتياج الاثنين إلى الواحد وإن كنا نعلم أن الواحد ليس علة للاثنين وثالثها : التقدم بالشرف كتقدم أبي بكر على عمر ورابعها : التقدم بالرتبة ، وهو إما من مبدأ محسوس كتقدم الإمام على المأموم ، أو من مبدأ معقول ، وذلك كما إذا جعلنا المبدأ هو الجنس العالي ، فإنه كلما كان النوع أشد تسفلاً كان أشد تأخراً ، ولو قلبناه انقلب الأمر وخامسها : التقدم بالزمان ، وهو أن الموجود في الزمان المتقدم ، متقدم على الموجود في الزمان المتأخر ، فهذا ما حصله أرباب العقول من أقسام القبلية والتقدم وعندي أن ههنا قسماً سادساً ، وهو مثل تقدم بعض أجزاء الزمان على البعض ، فإن ذلك التقدم ليس تقدماً بالزمان ، وإلا وجب أن يكون الزمان محيطاً بزمان آخر ، ثم الكلام في ذلك المحيط كالكلام في المحاط به ، فيلزم أن يحيط بكل زمان زمان آخر لا نهاية بحيث تكون كلها حاضرة في هذا الآن ، فلا يكون هذا الآن الحاضر واحداً ، بل يكون كل حاضر في حاضر آخر لا إلى نهاية وذلك غير معقول ، وأيضاً فلأن مجموع تلك الآنات الحاضرة متأخر عن مجموع الآنات الماضية ، فلمجموع الأزمنة زمان آخر محيط بها لكن ذلك محال ، لأنه لما كان زماناً كان داخلاً في مجموع الأزمنة ، فإذاً ذلك لزمان داخل في ذلك المجموع وخارج عنه وهو محال ، فظهر بهذا البرهان الظاهر أن

تقدم بعض أجزاء الزمان على البعض ليس بالزمان ، وظاهر أنه ليس بالعلة ولا بالحاجة ، وإلا لوجدا معاً ، كما أن العلة

(24/747)

والعلول يوجدان معاً ، والواحد والإثنين يوجدان معاً ، وليس أيضاً بالشرف ولا بالمكان ، فثبت أن تقدم بعض أجزاء الزمان على البعض قسم سادس غير الأقسام الخمسة المذكورة ، وإذا عرفت هذا فنقول : إن القرآن دل على أنه تعالى أول لكل ما عداه ، والبرهان دل أيضاً على هذا المعنى ، لأنا نقول : كل ما عدا الواجب ممكن ، وكل ممكن محدث ، فكل ما عدا الواجب فهو محدث ، وذلك الواجب أول لكل ما عداه ، إنما قلنا : أن ما عدا الواجب ممكن ، لأنه لو وجد شيئآن واجبان لذاتهما لاشتركا في الواجب الذاتي ، ولتباينا بالتعين وما به المشاركة غير ما به الممايزة ، فيكون كل واحد منهما مركباً ، ثم كل واحد من جزأيه إن كان واجباً فقد اشترك الجزآن في الوجوب وتباينا بالخصوصية ، فيكون كل واحد من ذينك الجزأين أيضاً مركباً ولزم التسلسل ، وإن لم يكونا واجبين أو لم يكن أحدهما واجباً ، كان الكل المتقوم به أولى بأن لا يكون واجباً ، فثبت أن كل ما عدا الواجب ممكن ، وكل ممكن محدث ، لأن كل ممكن مفتقر إلى المؤثر ، وذلك الافتقار إما حال الوجود أو حال العدم

، فإذاً كان حال الوجود ، فإما حال البقاء وهو محال لأنه يقتضي إيجاد الموجود وتحصيل الحاصل وهو محال ، فإن تلك الحاجة إما حال الحدوث أو حال العدم ، وعلى التقديرين فيلزم أن يكون كل ممكن محدثاً ، فثبت أن كل ما عدا ذلك الواجب فهو محدث محتاج إلى ذلك الواجب ، فإذاً ذلك الواجب يكون قبل كل ما عداه ، ثم طلب العقل كيفية تلك القبلية فقلنا : لا يجوز أن تكون تلك القبلية بالتأثير ، لأن المؤثر من حيث هو مؤثر مضاف إلى الأثر من حيث هو أثر والمضافان معاً ، والمع لا يكون قبل ، ولا يجوز أن تكون لمجرد الحاجة لأن المحتاج والمحتاج إليه لا يمتنع أن يوجدا معاً ، وقد بينا أن تلك المعية ههنا ممتنعة ، ولا يجوز أن تكون لمحض الشرف فإنه ليس المطلوب من هذه القبلية ههنا مجرد أنه تعالى أشرف من الممكنات ، وأما القبلية

(25/747)

المكانية فباطلة ، وبتقدير ثبوتها فتقدم المحدث على المحدث أمر زائد آخر وراء كون أحدهما فوق الآخر بالجهة ، وأما التقدم الزماني فباطل ، لأن الزمان أيضاً ممكن ومحدث ، أما أولاً فلما بينا أن واجب الوجود لا يكون أكثر من واحد ، وأما ثانياً فلأن أمارة الإمكان والحدوث فيه أظهر كما في غيره لأن جميع أجزائه متعاقبة ، وكل ما وجد بعد العدم وعدم

بعد الوجود فلا شك أنه ممكن المحدث ، وإذا كان جميع أجزاء الزمان ممكناً ومحدثاً والكل متقوم بالأجزاء فالمفتقر إلى الممكن المحدث أولى بالإمكان والحدوث ، فإذن الزمان بمجموعه وبأجزائه ممكن ومحدث ، فتقدم موجده عليه لا يكون بالزمان ، لأن المتقدم على جميع الأزمنة لا يكون بالزمان ، وإلا فيلزم في ذلك الزمان أن يكون داخلاً في مجموع الأزمنة لأنه زمان ، وأن يكون خارجاً عنها لأنه ظرفها ، والظرف مغاير للمظروف لا محال ، لكن كون الشيء الواحد داخلاً في شيء وخارجاً عنه محال ، وأما ثالثاً فلأن الزمان ماهيته تقتضي السيلان والتجدد ، وذلك يقتضي المسبوقية بالغير والأزل ينافي المسبوقية بالغير ، فالجمع بينهما محال ، فثبت أن تقدم الصانع على كل ما عداه ليس بالزمان ألبتة ، فإذن الذي عند العقل أنه متقدم على كل ما عداه ، أنه ليس ذلك التقدم على أحد هذه الوجوه الخمسة ، فبقي أنه نوع آخر من التقدم يغاير هذه الأقسام الخمسة ، فأما كيفية ذلك التقدم فليس عند العقل منها خبر ، لأن كل ما يخطر ببال العقل فإنه لا بد وأن يقترن به حال من الزمان ، وقد دل الدليل على أن كل ذلك محال ، فإذن كونه تعالى أولاً معلوم على سبيل الإجمال ، فأما على سبيل التفصيل والإحاطة بحقيقة تلك الأولية ، فليس عند عقول الخلق منه أثر .

النوع الثاني : من هذا غوامض الموضع ، وهو أن الأزل متقدم على اللايزال ، وليس الأزل شيئاً سوى الحق ، فتقدم الأزل على اللايزال ، يستدعي الامتياز بين الأزل وبين اللايزال ، فهذا يقتضي أن يكون اللايزال له مبدأ وطرف ، حتى يحصل هذا الامتياز ، لكن فرض هذا الطرف محال ، لأن كل مبدأ فرضته ، فإن اللايزال ، كان حاصلاً قبله ، لأن المبدأ الذي يفرض قبل ذلك الطرف المفروض بزيادة مائة سنة ، يكون من جملة اللايزال ، لا من جملة الأزل ، فقد كان معنى اللايزال موجوداً قبل أن كان موجوداً وذلك محال .

النوع الثالث : من غوامض هذا الموضوع ، أن امتياز الأزل عن اللايزال ، يستدعي انقضاء حقيقة الأزل ، وانقضاء حقيقة الأزل محال ، لأن مالا أول له يمتنع انقضاؤه ، وإذا امتنع انقضاؤه امتنع أن يحصل عقيبه ماهية اللايزال ، فإذن يمتنع امتياز الأزل عن اللايزال ، وامتياز اللايزال عن الأزال ، وإذا امتنع حصول هذا الإمتياز امتنع حصول التقدم والتأخر ، فهذه أبحاث غامضة في حقيقة التقدم والأولية والأزلية ، وما هي إلا بسبب حيرة العقول البشرية في نور جلال ماهية الأزلية والأولية ، فإن العقل إنما يعرف الشيء إذا أحاط به ، وكل ما استحضره العقل ، ووقف عليه فذاك يصير محاطاً به ، والمحاط يكون متناهياً ، والأزلية تكون خارجة عنه ، فهو سبحانه ظاهر باطن في كونه أولاً ، لأن العقول شاهدة بإسناد المحدثات إلى موجد متقدم عليها فكونه تعالى أولاً أظهر من كل ظاهر من هذه الجهة ، ثم إذا أردت أن تعرف حقيقة تلك الأولية عجزت لأن كل ما أحاط به عقلك وعلمك فهو

محدود عقلك ومحاط علمك فيكون متناهياً ، فتكون الأولية خارجة عنا ، فكونه تعالى أولاً إذا اعتبرته من هذه الجهة كان إبطن من كل باطن ، فهذا هو البحث عن كونه تعالى أولاً .

(27/747)

أما البحث عن كونه آخراً ، فمن الناس من قال : هذا محال ، لأنه تعالى إنما يكون آخر الكل ما عداه ، لو بقي هو مع عدم كل ما عداه لكن عدم ما عداه إنما يكون بعد وجوده ، وتلك البعدية ، زمانية ، فإذن لا يمكن فرض عدم كل عداه إلا مع وجود الزمان الذي به تتحقق تلك البعدية ، فإذن حال ما فرض عدم كل ما عداه ، أن لا يعدم كل ما عداه ، فهذا خلف ، فإذن فرض بقائه مع عدم كل ما عداه محال ، وهذه الشبهة مبنية أيضاً على أن التقدم والتأخر لا يتقرران إلا بالزمان ، وقد دللنا على فساد هذه المقدمة فبطلت هذه الشبهة ، وأما الذين سلموا إمكان عدم كل ما عداه مع بقائه ، فمنهم من أوجب ذلك حتى يتقرر كونه تعالى آخراً للكل ، وهذا مذهب جهم ، فإنه زعم أنه سبحانه يوصل الثواب إلى أهل الثواب ، ويوصل العقاب إلى أهل العقاب ، ثم يفني الجنة وأهلها ، والنار وأهلها ، والعرش والكرسي والملك والفلك ، ولا يبقى مع الله شيء أصلاً ، فكما أنه كان موجوداً في الأزل

ولا شيء يبقى موجوداً في اللايزال أبد الآباد ولا شيء ، واحتج عليه بوجوه أولها : قوله هو الآخر ، يكون آخراً إلا عند فناء الكل وثانيها : أنه تعالى إما أن يكون عالماً بعدد حركات أهل الجنة والنار ، أو لا يكون عالماً بها ، فإن كان عالماً بها كان عالماً بكميتها ، وكل ماله عدد معين فهو متناه ، فإذن حركات أهل الجنة متناهية ، فإذن لا بد وأن يحصل بعدها عدم أبدي غير منقض وإذا لم يكن عالماً بها كان جاهلاً بها والجهل على الله محال وثالثها : أن الحوادث المستقبلة قابلة للزيادة والنقصان ، وكل ما كان كذلك فهو متناه والجواب : أن إمكان استمرار هذه الأشياء حاصل إلى الأبد ، والدليل عليه هو أن هذه الماهيات لو زالت إمكاناتها ، لزم أن ينقلب الممكن لذاته ممتنعاً لذاته ، ولو انقلبت قدرة الله من صلاحية التأثير إلى امتناع التأثير ، لانقلبت الماهيات وذلك محال ، فوجب أن يبقى هذا الإمكان أبداً ، فإذن

(28/747)

ثبت أنه يجب انتهاء هذه المحدثات إلى العدم الصرف ، أما التمسك بالآية فسنذكر الجواب عنه بعد ذلك إن شاء الله تعالى وأما الشبهة الثانية : فجوابها أنه يعلم أنه ليس لها عدد معين ، وهذا لا يكون جهلاً ، إنما الجهل أن يكون له عدد معين ولا يعلمه ، أما إذا لم يكن له

عدد معين وأنت تعلمه على الوجه فهذا لا يكون جهلاً بل علماً وأما الشبهة الثالثة :
فجوابها أن الخارج منه إلى الوجود أبداً لا يكون متناهياً ، ثم إن المتكلمين لما أثبتوا إمكان بقاء العالم أبداً عولوا في بقاء الجنة والنار أبداً ، على إجماع المسلمين وظواهر الآيات ، ولا يخفى تقريرها ، وأما جمهور المسلمين الذين سلموا بقاء الجنة والنار أبداً ، فقد اختلفوا في معنى كونه تعالى آخراً على وجوه أحدها : أنه تعالى يفني جميع العالم والممكنات فيتحقق كونه آخراً ، ثم إنه يوجدها ويبقيها أبداً وثانيها : أن الموجود الذي يصح في العقل أن يكون آخراً لكل الأشياء ليس إلا هو ، فلما كانت صحة آخرية كل الأشياء مختصة به سبحانه ، لا جرم وصف بكونه آخراً وثالثها : أن الوجود منه تعالى يبتدىء ، ولا يزال ينزل وينزل حتى ينتهي إلى الموجود الأخير ، الذي كون هو مسبباً لكل ما عداه ، ولا يكون سبباً لشيء آخر ، فبهذا الاعتبار يكون الحق سبحانه أولاً ، ثم إذا انتهى أخذ يترقى من هذا الموجود الأخير درجة فدرجة حتى ينتهي إلى آخر الترقي ، فهناك وجود الحق سبحانه ، فهو سبحانه أول في نزول الوجود منه إلى الممكنات ، آخر عند الصعود من الممكنات إليه ورابعها : أنه يميت الخلق ويبقى بعدهم ، فهو سبحانه آخر بهذا الاعتبار وخامسها : أنه أول في الوجود وآخر في الاستدلال ، لأن المقصود من جميع الاستدلالات معرفة الصانع ، وأما سائر الاستدلالات التي لا يراد منها معرفة الصانع فهي حقيرة خسيسة ، أما كونه تعالى

ظاهراً وباطناً ، فاعلم أنه ظاهر بحسب الوجود ، فإنك لا ترى شيئاً من الكائنات والممكنات إلا

(29/747)

ويكون دليلاً على وجوده وثبوته وحقيقته وبراءته عن جهات التغير على ما قررناه ، وأما كونه تعالى باطناً فمن وجوه الأول : أن كمال كونه ظاهراً سبب لكونه باطناً ، فإن هذه الشمس لو دامت على الفلك لما كنا نعرف أن هذا الضوء إنما حصل بسببها ، بل ربما كنا نظن أن الأشياء مضيئة لذواتها إلا أنها لما كانت بحيث تغرب ثم ترى أنها متى غربت أبطلت الأنوار وزالت الأضواء عن هذا العالم ، علمنا حينئذ أن هذه الأضواء من الشمس ، فههنا لو أمكن انقطاع وجود الله عن هذه الممكنات لظهر حينئذ أن وجود هذه الممكنات من وجود الله تعالى ، لكنه لما دام ذلك الجود ولم ينقطع صار دوامه وكماله سبباً لوقوع الشبهة ، حتى إنه ربما يظن أن نور الوجود ليس منه بل وجود كل شيء له من ذاته ، فظهر أن هذا الاستتار إنما وقع من كمال وجوده ، ومن دوام جوده ، فسبحان من اختفى عن العقول لشدة ظهوره ، واحتجب عنها بكمال نوره .

الوجه الثاني : أن ماهيته غير معقولة للبشر ألبتة ، ويدل عليه أن الإنسان لا يتصور ماهية

الشيء إلا إذا أدركه من نفسه على سبيل الوجدان كالألم واللذة وغيرهما أو أدركه بحسه كالألوان والطعوم وسائر المحسوسات ، فأما ما لا يكون كذلك فيتعذر على الإنسان أن يتصور ماهيته ألبتة ، وهويته المخصوصة جل جلاله ليست كذلك فلا تكون معقولة للبشر ، ويدل عليه أيضاً أن المعلوم منه عند الخلق ، إما الوجود وإما السلوب ، وهو أنه ليس بجسم ولا جوهر ، وإما الإضافة ، وهو أنه الأمر الذي من شأنه كذا وكذا ، والحقيقة المخصوصة مغايرة لهذه الأمور فهي غير معقولة ويدل عليه أن أظهر الأشياء منه عند العقل كونه خالقاً لهذه المخلوقات ، ومتقدماً عليها ، وقد عرفت حيرة العقل ودهشته في معرفة هذه الأولية ، فقد ظهر بما قدمناه أنه سبحانه هو الأول وهو الآخر ، وهو الظاهر وهو الباطن ، وسمعت والدي رحمه الله يقول : إنه كان يروى أنه لما نزلت هذه الآية أقبل المشركون نحو البيت وسجدوا .

(30/747)

المسألة الثانية :

احتج كثير من العلماء في إثبات أن الإله واحد بقوله : ﴿ هُوَ الأول ﴾ قالوا الأول هو الفرد السابق ، ولهذا المعنى لو قال : أول مملوك اشتريته فهو حر ، ثم اشترى عبدين لم يعتقا ، لأن

شرط كونه أولاً حصول الفردية ، وههنا لم تحصل ، فلو اشترى بعد ذلك عبداً واحداً لم يعتق ، لأن شرط الأولية كونه سابقاً وههنا لم يحصل ، فثبت أن الشرط في كونه أولاً أن يكون فرداً ، فكانت الآية دالة على أن صانع العالم فرد .

المسألة الثالثة :

أكثر المفسرين قالوا : إنه أول لأنه قبل كل شيء ، وإنه آخر لأنه بعد كل شيء ، وإنه ظاهر بحسب الدلائل ، وإنه باطن عن الحواس محتجب عن الأبصار ، وأن جماعة لما عجزوا عن جواب جهم قالوا : معنى هذه الألفاظ مثل قول القائل : فلان هو أول هذا الأمر وآخره وظاهره وباطنه ، أي عليه يدور ، وبه يتم .

واعلم أنه لما أمكن حمل الآية على الوجوه التي ذكرناها مع أنه يسقط بها استدلال جهم لم يكن بنا إلى حمل الآية على هذا المجاز حاجة ، وذكروا في الظاهر والباطن أن الظاهر هو الغالب العالي على كل شيء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُواْ ظاهرين ﴾ [الصف : 14] أي غالبين عالين ، من قولك : ظهرت على فلان أي علوته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف : 33] وهذا معنى ما روى في الحديث : " وأنت الظاهر فليس فوقك شيء " وأما الباطن فقال الزجاج : إنه العالم بما بطن ، كما يقول القائل : فلان يظن أمر فلان ، أي يعلم أحواله الباطنة قال الليث : يقال : أنت أبطن بهذا الأمر من فلان ، أي أخبر

بباطنه، فمعنى كونه باطناً، كونه عالماً ببواطن الأمور، وهذا التفسير عندي فيه نظر، لأن قوله بعد ذلك: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يكون تكراراً.

(31/747)

أما على التفسير الأول فإنه يحسن موقعه لأنه يصير التقدير كأنه قيل: إن أحداً لا يحيط به ولا يصل إلى أسراره، وإنه لا يخفى عليه شيء من أحوال غيره ونظيره ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة: 116]. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 179.187﴾

(32/747)

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض ﴾

أي مَجّد الله ونزّهه عن السوء.

وقال ابن عباس: صلّى لله "مَا فِي السَّمَوَاتِ" ممن خلق من الملائكة "وَالأَرْضِ" من شيء فيه

رُوح أو لا رُوح فيه .

وقيل : هو تسبيح الدلالة .

وأنكر الزجاج هذا وقال : لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة ؛ فِلم قال : ﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] وإنما هو تسبيح مقال .

واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ ﴾ [الأنبياء : 79] فلو كان هذا تسبيح دلالة فأيّ تخصيص لداود ؟ !

قلت : وما ذكره هو الصحيح ، وقد مضى بيانه والقول فيه في "سبحان" عند قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ أي انفرد بذلك .

والْملكُ عبارة عن المُلْك ونفوذ الأمر فهو سبحانه الملك القادر القاهر .

وقيل : أراد خزائن المطر والنبات وسائر الرزق .

﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ يميت الأحياء في الدنيا ويحيي الأموات للبعث .

وقيل : يُحيي النطف وهي موات ويُميت الأحياء .

وموضع ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ رفع على معنى وهو يحيي ويميت .

ويجوز أن يكون نصباً بمعنى ﴿ لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ محييا ومميتا على الحال من المجرور في "لَهُ" والجار عاملاً فيها .

﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي الله لا يعجزه شيء .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ اختلف في معاني هذه الأسماء وقد بيناها في الكتاب الأسنى .

(33/747)

وقد شرحها رسول الله صلى الله عليه وسلم شرحاً يغني عن قول كل قائل ؛ فقال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة : " اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين واغننا من الفقر " عنى بالظاهر الغالب ، وبالباطن العالم ؛ والله أعلم .

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ بما كان أو يكون فلا يخفى عليه شيء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(34/747)

وقال الآلوسى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السماوات والأرض ﴾

التسبيح على المشهور تنزيه الله تعالى اعتقاداً وقولاً وعملاً عما لا يليق بجنابه سبحانه من سبح في الأرض والماء إذا ذهب وأبعد فيهما ، وحيث أسند ههنا إلى غير العقلاء أيضاً فإن ما في السماوات والأرض يعم جميع ما فيهما سواء كان مستقراً فيهما أو جزءاً منهما بل المراد بما فيهما الموجودات فيكون أظهر في تناول السماوات والأرض ويتناول أيضاً الموجودات المجردة عند القائل بها ، قال الجمهور : المراد به معنى عام مجازي شامل لما نطق به لسان المقال كتسبيح الملائكة والمؤمنين من الثقلين ، ولسان الحال كتسبيح غيرهم فإن كل فرد من أفراد الموجودات يدل بإمكانه وحدوثه على الصانع القديم الواجب الوجود المتصف بكل كمال المنزه عن كل نقص ، وذهب بعض إلى أن التسبيح على حقيقته المعروفة في الجميع وهو مبني على ثبوت النفوس الناطقة والإدراك لسائر الحيوانات والجمادات على ما يليق بكل ، وقد صرح به جمع من الصوفية فتسبيح كل شيء عندهم قالي وإن تفاوت الأمر ، وقيل : معنى سبح حمل رائيه العاقل على قول سبحان الله تعالى ونبهه عليه وهو كما ترى ، ومن يجوز استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه معاً لا يحتاج إلى عموم المجاز ، وجوز الطبرسي كون ﴿ مَا ﴾ للعالم فقط مثلها في قول أهل الحجاز كما حكى أبو زيد عند سماع الرعد سبحان ﴿ مَا ﴾ سبحت له ولا يخفى أن عمومها العالم

وغيره أولى ، والظاهر أنها في الوجهين موصولة ، وقال بعضهم : إنها نكرة موصوفة وأن أصل الكلام ما في السماوات وما في الأرض ثم حذفت ﴿ مَا ﴾ الثانية وأقيمت صفتها مقامها ، ولا يحسن أن تكون موصولة لأن الصلة لا تقوم مقام الموصول عند البصريين وتقوم الصفة مقام الموصوف عند الجميع ، والحمل على المتفق عليه أولى من الحمل على المختلف فيه وكون المذكورة موصولة والمحذوفة نكرة موصوفة مما لا وجه له انتهى .

(35/747)

وأنت تعلم أن حذف الموصول الصريح في مثل ذلك أكثر من أن يحصى وجيء باللام مع أن التسبيح متعد بنفسه كما في قوله تعالى : ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ للتأكيد فهي مزيدة لذلك كما في نصحت له وشكرت له ، وقيل : للتعليل والفعل منزل منزلة اللازم أي فعل التسبيح وأوقعه لأجل الله تعالى وخالصاً لوجهه سبحانه ، وفيه شيء لا يخفى ، وعبر بالماضي هنا وفي بعض الأخوات وبالمضارع في البعض الآخر إيذاناً بتحقق التسبيح في جميع الأوقات ، وفي كل دلالة على أن من شأن ما أسند إليه التسبيح أن يسبحه وذلك هجيراه وديدنه ، أما دلالة المضارع عليه فللدلالة على الاستمرار إلى زمان الأخبار وكذلك فيما يأتي من الزمان لعموم المعنى المقتضى للتسبيح وصلوح اللفظ لذلك حيث جرد عن الدلالة على الزمان

وأوثر على الاسم دلالة على تجدد تسبيح غبّ تسبيح ، وأما دلالة الماضي فللتجرد عن الزمان أيضاً مع التحقيق الذي هو مقتضاه فيشمل الماضي من الزمان ومستقبله كذلك ، وقيل : الإيذان والدلالة على الاستمرار مستفادان من مجموعي الماضي والمضارع حيث دل الماضي على الاستمرار إلى زمان الإخبار والمضارع على الاستمرار في الحال والاستقبال فشملا معاً جميع الأزمنة ، وقال الطيبي : افتتحت بعض السور بلفظ المصدر وبعض بالماضي وبعض بالمضارع وبعض بالأمر فاستوعب جميع جهات هذه الكلمة إعلاماً بأن المكونات من لدن إخراجها من العدم إلى الوجود إلى الأبد مسبحة مقدسة لذاته سبحانه وتعالى قولاً وفعلاً طوعاً وكرهاً

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الاسراء : 44] ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ القادر الغالب الذي لا ينازعه ولا يمانعه شيء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله مشعر بعلة الحكم ، وكذا قوله تعالى :

﴿ لَّهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾

أي التصرف الكلي فيهما وفيما فيهما من الموجودات من حيث الإيجاد والإعدام وسائر التصرفات، وقوله سبحانه: ﴿ لاَ إله ﴾ أي يفعل الإحياء والإماتة استئناف مبين لبعض أحكام الملك وإذا جعل خبر مبتدأ محذوف أي هو يحيي ويميت كانت تلك الجملة كذلك وجعله حالاً من ضمير له يوهم تقييد اختصاص الملك بهذه الحال، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ على كُلّ شَىْء ﴾ من الأشياء التي منجملتها ما ذكر من الإحياء والإماتة ﴿ قَدِيرٌ ﴾ مبالغ في القدرة تذييل وتكميل لما قبله.

﴿ هُوَ الأول ﴾ السابق على جميع الموجودات فهو سبحانه موجود قبل كل شيء حتى الزمان لأنه جل وعلا الموجد والمحدث للموجودات ﴿ والاخر ﴾ الباقي بعد فنائها حقيقة أو نظراً إلى ذاتها مع قطع النظر عن مبقيها فإن جميع الموجودات الممكنة إذا قطع النظر عن علتها فهي فانية.

(37/747)

ومن هنا قال ابن سينا: الممكن في حدّ ذاته ليس وهو عن علته أيس فلا ينافي هذا كون بعض الموجودات الممكنة لا تفنى كالجنة والنار ومن فيهما كما هو مقرر مبين بالآيات والأحاديث لأن فناءها في حدّ ذاتها أمر لا ينفك عنها، وقد يقال: فناء كل ممكن بالفعل

ليس بمشاهد ، والذي يدل عليه الدليل إنما هو إمكانه فالبعدية في مثله بحسب التصور والتقدير ، وقيل : هو الأول الذي تبتدئ منه الأسباب إذ هو سبحانه مسببها ﴿ والاخر ﴾ الذي تنتهي إليه المسببات فالأولية ذاتية والآخرية بمعنى أنه تعالى إليه المرجع والمصير بقطع النظر عن البقاء الثابت بالأدلة ، وقيل : الأول خارجاً لأنه تعالى أوجد الأشياء فهو سبحانه متقدم عليها في نفس الأمر الخارجي والآخر ذهناً وبحسب التعلق لأنه عز شأنه يستدل عليه بالموجودات الدالة على الصانع القديم كما قيل : ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله تعالى بعده ، وقال حجة الإسلام الغزالي : إن الأول يكون أولاً بالإضافة إلى شيء ، والآخر يكون آخراً بالإضافة إلى شيء ، وهما متناقضان فلا يتصور أن يكون الشيء الواحد من وجه واحد بالإضافة إلى شيء واحد أولاً وآخراً جميعاً بل إذا نظرت إلى ترتيب الوجود ولاحظت سلسلة الموجودات المترتبة فالله تعالى بالإضافة إليها أول إذ كلها استفادات الوجود منه سبحانه وأما هو عز وجل فموجود بذاته وما استفاد الوجود من غيره سبحانه وتعالى عن ذلك ، ومهما نظرت إلى ترتيب السلوك ولاحظت منازل السالكين فهو تعالى آخر إذ هو آخر ما ترتقي إليه درجات العارفين وكل معرفة تحصل قبل معرفته تعالى فهي مرقاة إلى معرفته جل وعلا ، والمنزل الأقصى هو معرفة الله جل جلاله فهو سبحانه بالإضافة إلى السلوك آخر وبالإضافة إلى الوجود أول فمنه عز شأنه المبدأ أولاً وإليه سبحانه والمرجع والمصير آخراً انتهى .

والظاهر أن كونه تعالى أولاً وآخراً بالنسبة إلى الموجودات أولى ولعل ما ذكره أوفق بمشرب القوم.

(38/747)

﴿ والظاهر ﴾ أي بوجوده لأن كل الموجودات بظهوره تعالى ظاهر ﴿ والباطن ﴾ بكنهه سبحانه فلا تحوم حوله العقول، وقال حجة الإسلام: هذان الوصفان من المضافات فلا يكون الشيء ظاهراً لشيء وباطناً له من وجه واحد بل يكون ظاهراً من وجه بالإضافة إلى إدراك وباطناً من وجه آخر فإن الظهور والبطون إنما يكون بالإضافة إلى الإدراكات والله تعالى باطن إن طلب من إدراك الحواس وخزانة الخيال ظاهر إن طلب من خزانة العقل بالاستدلال والريب من شدة الظهور وكل ما جاوز الحد انعكس إلى الضد، وإلى تفسير الباطن بغير المدرك بالحواس ذهب الزمخشري، ثم قال: إن الواو الأولى لعطف المفرد على المفرد فتفيد أنه تعالى الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية والأخيرة أيضاً كذلك فتفيد أنه تعالى الجامع بين الظهور والخفاء، وأما الوسطى فلعطف المركب على المركب فتفيد أنه جل وعلا الجامع بين مجموع الصفتين الأولين ومجموع الصفتين الأخريين فهو تعالى المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية وهو تعالى في جميعها ظاهر وباطن جامع للظهور

بالأدلة والخفاء فلا يدرك بالحواس ، وفي هذا حجة على من جوز إدراكه سبحانه في الآخرة بالحاسة أي وذلك لأنه تعالى ما من وقت يصح اتصافه بالأولية والآخرية إلا ويصح اتصافه بالظاهرية والباطنية معاً ، فإذا جوز إدراكه سبحانه بالحاسة في الآخرة فقد نفى كونه سبحانه باطناً وهو خلاف ما تدل عليه الآية ، وأجاب عن ذلك صاحب الكشف فقال : إن تفسير الباطن بأنه غير مدرك بالحواس تفسير بحسب التشهي فإن بطونه تعالى عن إدراك العقول كبطونه عن إدراك الحواس لأن حقيقة الذات غير مدركة لا عقلاً ولا حساً باتفاق بين المحققين من الطائفتين ، والزمخشري ممن سلم فهو الظاهر بوجوده والباطن بكنهه وهو سبحانه الجامع بين الوصفين أزلاً وأبداً ، وهذا لا ينافي الرؤية لأنها لا تفيد ذلك عند مثبتها انتهى ، وهو حسن فلا تغفل .

وعليه فالتذليل بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لئلا يتوهم أن بطونه تعالى عن الأشياء يستلزم بطونها عنه عز وجل كما في الشاهد ، وقال الأزهري : قد يكون الظاهر والباطن بمعنى العالم لما ظهر وبطن ؛ وذلك أن من كان ظاهراً احتجب عنه الباطن ومن كان باطناً احتجب عنه الظاهر فإن أردت أن تصفه بالعلم قلت هو ظاهر باطن مثله قوله

تعالى : ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ [النور : 35] أي لا شرقية فقط ولا غربية فقط ولكنها شرقية غربية ، وفي التذييل المذكور حينئذٍ خفاء ، وقريب منه من وجه ما نقل أن الظاهر بمعنى العالي على كل شيء الغالب له من قولهم ظهر عليهم إذا علاهم وغلبهم ، والباطن الذي بطن كل شيء أي علم باطنه ، وتعقب بفوات المطابقة بين الظاهر والباطن عليه وأن بطنه بمعنى علم باطنه غير ثابت في اللغة ، لكن قيل : في الآثار ما ينصر تفسير الظاهر بما فسر .

أخرج مسلم .

والترمذي .

وابن أبي شيبة .

والبيهقي عن أبي هريرة قال : " جاءت فاطمة رضي الله تعالى عنها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله خادماً فقال لها : قولي اللهم رب السماوات السبع ورب العرش الكريم العظيم ربنا ورب كل شيء منزل التوراة والإنجيل والفرقان فالق الحب والنوى أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر "

وقال الطيبي : المعنى بالظاهر في التفسير النبوي الغالب الذي يغلب ولا يغلب فيتصرف في المكونات على سبيل الغلبة والاستيلاء إذ ليس فوقه أحد يمنعه ، وبالباطن من لا ملجأ ولا منجى دونه يلتجئ إليه ملتجئ ، وبحث فيه بجواز أن يكون المراد أنت الظاهر فليس فوقك شيء في الظهور أي أنت أظهر من كل شيء إذ ظهور كل شيء بك وأنت الباطن فليس دونك في البطون شيء أي أنت أبطن من كل شيء إذ كل شيء يعلم حقيقته غيره وهو أنت وأنت لا يعلم حقيقتك غيرك ، أو لأن كل شيء يمكن معرفة حقيقته وأنت لا يمكن أصلاً معرفة حقيقتك ، وأيضاً في دلالة الباطن على ما قال : خفاءً جداً على أنه لو كان الأمر كما ذكر ما عدل عنه أجلة العلماء فإن الخبر صحيح ، وقد جاء نحوه من رواية الإمام أحمد .

وأبي داود .

وابن ماجه ؛ ويبعد عدم وقوف أولئك الأجلة عليه ، وأبعد من ذلك أن يكون ما ذكره صلى الله عليه وسلم من أسمائه تعالى غير ما في الآية ، ويحتمل أنه عليه الصلاة والسلام أراد بقوله : " فليس دونك شيء " ليس أقرب منك شيء ، ويؤيده ما أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات عن مقاتل قال : بلغنا في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الأول ﴾ الخ هو الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء والظاهر فوق كل شيء والباطن أقرب من كل شيء ، وإنما

يعني القرب بعلمه وقدرته وهو فوق عرشه والذي يترجح عندي ما ذكر أولاً ، وعن بعض المتصوفة أهل وحدة الوجود أن المراد بقوله سبحانه : ﴿ هُوَ الْأَولُ ﴾ الخ أنه لا موجود غيره تعالى إذ كل ما يتصور موجوداً فهو إما أول أو آخر أو ظاهر أو باطن فإذا كان الله تعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن لا غيره كان كل ما يتصور موجوداً هو سبحانه لا غيره ، وأيدوه بما في حديث مرفوع أخرجه الإمام أحمد .

وعبد بن حميد .

والترمذي .

وابن المنذر .

(41/747)

وجماعة عن أبي هريرة " والذي نفسي بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله " قال أبو هريرة ، ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ هُوَ الْأَولُ والاخر والظاهر والباطن وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وحال القول بوحدة الوجود مشهور وأما الخبر فمن المتشابه ، وقد قال فيه الترمذي : فسر أهل العلم الحديث فقالوا : أي لهبط على علم الله تعالى وقدرته وسلطانه ، ويؤيد هذا ذكر

التذييل وعدم اقتصاره عليه الصلاة والسلام على ما قبله ، وهذه الآية ينبغي لمن وجد في نفسه وسوسة فيما يتعلق بالله تعالى أن يقرأها ، فقد أخرج أبو داود عن أبي زميل أن ابن عباس قال له وقد أعلمه أن عنده وسوسة في ذلك : ﴿ إِذَا وَجَدتَّ فِى نَفْسِكَ شَيْئًا فَقُلْ هُوَ الأول ﴾ الآية .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر .

وأبي سعيد رضي الله تعالى عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا هذا الله كان قبل كل شيء فماذا كان قبل الله فإن قالوا لكم ذلك فقولوا هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم " . انتهى .

اهـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(42/747)

وقال ابن عاشور :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

افتتاح السورة بذكر تسبيح الله وتنزيهه مؤذن بأن أهم ما اشتملت عليه إثبات وصف الله بالصفات الجليلة المقتضية أنه منزّه عما ضل في شأنه أهل الضلال من وصفه بما لا يليق

بجلاله ، وأول التنزيه هو نفي الشريك له في الإلهية فإن الوحدانية هي أكبر صفة ضل في كنهها المشركون والمانوية ونحْوهم من أهل التثنية وأصحاب التثليث والبراهمة ، وهي الصفة التي ينبىء عنها اسمه العَلَم أعني "الله" لما علمت في تفسير الفاتحة من أن أصله الإِله ، أي المنفرد بالإِلهية .

وأتبع هذا الاسم بصفات ربانية تدل على كمال الله تعالى وتنزّهُهُ عن النقص كما يأتي بيانه فكانت هذه الفاتحة براعة استهلال لهذه السورة ، ولذلك أتبع اسمهُ العلَم بعشر صفات هي جامعة لصفات الكمال وهي : العزيز ، الحكيم ، له ملك السماوات والأرض ، يحيي ، ويميت ، وهو على كل شيء قدير ، هو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، وهو بكل شيء عليم .

وصيغ فعل التسبيح بصيغة الماضي للدلالة على أن تنزيهه تعالى أمر مقرر أمر الله به عباده من قبل وألهمه الناس وأودعَ دلائله في أحوال ما لا اختيار له ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ [الرعد : 15] وقوله : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ [الإسراء : 44] .

ففي قوله : ﴿ سبح ﴾ تعريض بالمشركين الذين أهملوا أهم التسبيح وهو تسبيحه عن

الشريك والند .

واللام في قوله : ﴿ لله ﴾ لام التبيين .

(43/747)

وفائدتها زيادة بيان ارتباط المعمول بعامله لأن فعل التسبيح متعدَ بنفسه لا يحتاج إلى التعدية بحرف ، قال تعالى : ﴿ فاسجد له وسبحه ﴾ [الإنسان : 26] ، فاللام هنا نظيره اللام في قولهم : شكرتُ لك ، ونصحتُ لك ، وقوله تعالى : ﴿ ونقدس لك ﴾ [البقرة : 30] ، وقولهم سَقْيا لك ورعيا لك ، وأصله : سقَيَك ورَعْيَك .

و﴿ ما في السموات والأرض ﴾ يعم الموجودات كلها فإن ﴿ ما ﴾ اسم موصول يعمّ العقلاء وغيرهم ، أو هو خاص بغير العقلاء فجرى هنا على التغليب ، وكلها دال على تنزيه الله تعالى عن الشريك فمنها دلالة بالقول كتسبيح الأنبياء والمؤمنين ، ومنها دلالة بالفعل كتسبيح الملائكة ، ومنها دلالة بشهادة الحال كما تنبىء به أحوال الموجودات من الافتقار إلى الصانع المنفرد بالتدبير ، فإن جُعل عموم ﴿ ما في السموات والأرض ﴾ مخصوصاً بمن يتأتى منهم النطق بالتسبيح وهم العقلاء كان إطلاق التسبيح على تسبيحهم حقيقة .

وإن حمل العموم على ظاهره لزم تأويل فعل ﴿ سبح ﴾ بما يشمل الحقيقة والمجاز فيكون مستعملاً في حقيقته ومجازه .

والعزيز : الذي لا يغلب ، وهذا الوصف ينفي وجود الشريك في الإلهية .

و﴿ الحكيم ﴾ الموصوف بالحكمة ، وهي وضع الأفعال حيث يليق بها ، وهي أيضاً العلم الذي لا يخطىء ولا يتخلف ولا يحول دون تعلقه بالمعلومات حائل ، وتقدما في سورة البقرة .

وهذا الوصف يثبت أن أفعاله تعالى جارية على تهيئة المخلوقات لما به إصابة ما خُلقت لأجله ، فلذلك عززها الله بإرشاده بواسطة الشرائع .

لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2)

استئناف ابتدائي بذكر صفة عظيمة من صفات الله التي متعلقها أحوال الكائنات في السماوات والأرض وخاصة أهل الإدراك منهم .

ومضمون هذه الجملة يؤذن بتعليل تسبيح الله تعالى لأن من له ملك العوالم العليا والعالم الدنيوي حقيق بأن يعرف الناس صفات كماله .

وأفاد تعريف المسند قصر المسند على المسند إليه وهو قصر ادعائي لعدم الاعتداد بملك غيره في الأرض إذ هو ملك ناقص فإن الملوك مفتقرون إلى من يدفع عنهم العوادي بالأحلاف والجند ، وإلى من يدبر لهم نظام المملكة من وزراء وقواد ، وإلى أخذ الجباية والجزية ونحو ذلك ، أو هو قصر حقيقي ، إذَا اعتبرتْ إضافة ﴿ ملك ﴾ إلى مجموع ﴿ السموات والأرض ﴾ فإنه لا ملك لمَالك على الأرض كلها بَلْهَ السماوات معها .

وهذا معنى صفته تعالى "الملك" ، وتقدم في آخر سورة آل عمران .

وجملة ﴿ يحي ويميت ﴾ بدل اشتمال من مضمون ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ فإن الإِحياء والإِماتة مّما يشتمل عليه معنى مُلك السماوات والأرض لأنهما من أحوال ما عليهما ، وتخصيص هذين بالذكر للاهتمام بهما لدلالتهما على دقيق الحكمة في التصرف في السماء والأرض ولظهور أن هاذين الفعلين لا يستطيع المخلوق ادعاء أن له عملاً فيهما ، وللتذكير بدليل إمكان البعث الذي جحده المشركون ، وللتعريض بإبطال زعمهم إلهية أصنامهم كما قال تعالى : ﴿ ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ [الفرقان : 3] ، ومن هذين الفعلين جاء وصفه تعالى بصفة "المحيي المميت" .

وتقدم ذكر الإِحياء والإِماتة عند قوله تعالى : ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ في أول سورة البقرة (28) .

وجملة وهو على كل شيء قدير ﴾ تفيد مفاد التذييل لجملة ﴿ يحي ويميت ﴾ لتعميم ما

دل عليه قوله : ﴿ يحيي ويميت ﴾ من بيان جملة ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ ، وإنما عطفت بالواو وكان حق التذييل أن يكون مفصولاً لقصد إيثار الإخبار عن الله تعالى بعموم القدرة على كل موجود ، وذلك لا يفيت قصد التذييل ، لأن التذييل يحصل بالمعنى .

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3)

(45/747)

استئناف في سياق تبيين أن له ملك السماوات والأرض ، بأن مُلكه دائم في عموم الأزمان وتصرف فيهما في كل الأحوال ، إذ هو الأول الأزلي ، وأنه مستمر من قبل وجود كل محدث ومن بعد فنائه إذ الله هو الباقي بعد فناء ما في السماوات والأرض ، وذلك يظهر من دلالة الآثار على المؤثر فإن دلائل تصرفه ظاهرة للمتبصر بالعقل وهو معنى ﴿ الظاهر ﴾ كما يأتي ، وأن كيفيات تصرفاته محجوبة عن الحس وذلك معنى ﴿ الباطن ﴾ تعالى كما سيأتي .

فضمير ﴿ هو ﴾ ليس ضمير فصل ولكنه ضمير يعبر عن اسم الجلالة لاعتبارنا الجملة مستأنفة ، ولو جعلته ضمير فصل لكانت أوصاف ﴿ الأول والأخر والظاهر والباطن ﴾ أخباراً عن ضمير ﴿ هو العزيز الحكيم ﴾ [الحديد : 1] .

وقد اشتملت هذه الجملة على أربعة أَخبار هي صفات لله تعالى .

فأما وصف ﴿ الأول ﴾ فأصل معناه الذي حصُل قبل غيره في حالة تُبينُها إضافة هذا الوصف إلى ما يدل على الحالة من زمان أو مكان ، فقد يقع مع وصف (أول) لفظ يُدل على الحالة التي كان فيها السبق ، وقد يستدل على تلك الحالة من سياق الكلام ، فوصف ﴿ الأول ﴾ لا يتبين معناه إلا بما يتصل به من الكلام ولا يتصور إلا بالنسبة إلى موصوف آخر هو متأخر عن الموصوف بـ (أول) في حالة مَّا .

فقول امرىء القيس:

ومُهلهل الشعراء ذَاك الأول . . .

يفيد أنه مهلهل سابق غيره من الشعراء في الشعر ، وقوله تعالى : ﴿ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾ [الأنعام : 14] أي أولهم في اتباع الإِسلام ، وقوله : ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ [البقرة : 41] ، أي أولهم كُفراً وقوله : ﴿ وقالت أولاهم لأخراهم ﴾ [الأعراف : 39] ، أي أُولاهم في الدخول إلى النار .

وأشهر معاني الأوّلية هو السبق في الوجود ، أي في ضد العدم ، ألا ترى أن جميع الأحوال التي يسبق صاحبُها غيره فيها هي وجودات من الكيفيات ، فوصف الله بأنه ﴿ الأول ﴾ معناه : أنه السابق وُجوده على كل موجود وُجد أو سيوجد ، دون تخصيص جنس ولا نوع ولا صنف ، ولكنه وصف نسبي غير ذاتي .

ولهذا لم يذكر لهذا الوصف هنا متعلِّق بكسر اللام ، ولا ما يدل على متعلِّق لأن المقصود أنه الأول بدون تقييد .

ويرادف هذا الوصفَ في اصطلاح المتكلمين صفةُ القدم .

واعلم أن هذا الوصف يستلزم صفة الغِنَى المطلق ، وهي عدم الاحتياج إلى المخصِّص ، أي مخصص يخصصه بالوجود بدلاً عن العدم ، لأن الأول هنا معناه الموجودِ لذاته دون سبق عدم ، وعدم الاحتياج إلى محل يقوم به قيام العرض بالجوهر .

ويستلزم ذلك انفراده تعالى بصفة الوجود لأنه لو كان غيرُ الله واجباً وجودُه لما كان الله موصوفاً بالأولية ، فالموجودات غير الله ممكنة ، والممكن لا يتصف بالأولية المطلقة ، فلذلك تثبت له الوحدانية ، ثم هذه الأولية في الوجود تقتضي أن تثبت لله جميع صفات الكمال اقتضاء عقلياً بطريق الالتزام البيِّن بالمعنى الأعمّ وهو الذي يلزم من تصور ملزومه وتصوُّره الجزم بالملازمة بينهما .

وأما وصف ﴿ الآخر ﴾ فهو ضد الأول ، فأصله : هو المسبوق بموصوف بصفة

متحدث عنها في الكلام أو مشار إليها فيه بما يذكر من متعلق به، أو تمييزه، على نحو ما تقدم في قوله: ﴿ هو الأول ﴾ كقوله تعالى: ﴿ حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ﴾ [الأعراف: 38] أي أخراهم في الإدِّرَاك في النار، وقول النبي صلى الله عليه وسلم "آخر أهل الجنة دخولاً الجنة...

" الخ، وقول الحريري في المقامة الثانية "وجلس في أُخريات الناس"، أي الجماعات الأخريات في الجلوس، وهو وصف نسبيّ.

(47/747)

ووصف الله تعالى بأنه ﴿ الآخر ﴾ بعد وصفه بأنه ﴿ الأول ﴾ مع كون الوصفين متضادّين يقتضي انفكاك جهتي الأولية والآخرية، فلما تقرر أن كونه الأول متعلق بوجود الموجودات اقتضى أن يكون وصفه بـ ﴿ الآخر ﴾ متعلقاً بانتقاض ذلك الوجود، أي هو الآخر بعد جميع موجودات السماء والأرض، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ نرث الأرض ومن عليها ﴾ [مريم: 40] وقوله: ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ [القصص: 88].

فتقدير المعنى: والآخِر في ذلك أي في استمرار الوجود الذي تقرر بوصفه بأنه الأول.

وليس في هذا إشعار بأنه زائل ينتابه العدم، إذ لا يشعر وصف الآخِر بالزوال لا مطابقة ولا

التزاماً ، وهذا هو صفة البقاء في اصطلاح المتكلمين .

فآل معنى ﴿ الآخر ﴾ إلى معنى "الباقي" ، وإنما أوثر وصف ﴿ الآخر ﴾ بالذكر لأنه مقتضى البلاغة ليتم الطباق بين الوصفين المتضادين ، وقد عُلم عند المتكلمين أن البقاء غير مختص بالله تعالى وأنه لا ينافي الحُدوث على خلاف في تعيين الحوادث الباقية ، بخلاف وصف القدم فإنه مختص بالله تعالى ومتنافٍ مع الحدوث .

واعلم أن في قوله : ﴿ هو الأول والأخر ﴾ دلالة قصر من طريق تعريف جزأي الجملة .

فأما قصر الأولية على الله تعالى في صفة الوجود فظاهر ، وأما قصر الآخرية عليه في ذلك وهو معنى البقاء ، فإن أريد به البقاء في العالم الدنيوي عرض إشكال المتعارض بما ورد من بقاء الأرواح ، وحديث "أن عَجْب الذنَّب لا يفنى وأن الإِنسان منه يعادُ" .

ورفع هذا الإشكال أن يجعل القصر ادعائياً لعدم الاعتداد ببقاء غيره تعالى لأنه بقاء غير واجب بل هو بجعل الله تعالى .

والجمع بين وصفي ﴿ الأول والأخر ﴾ فيه محسّن الطباق .

و ﴿ الظاهر ﴾ الأرجح أنه مشتق من الظُّهور الذي هو ضد الخفاء فيكون وصفه تعالى به مجازاً عقلياً ، فإن إسناد الظهور في الحقيقة هو ظهور أدلة صفاته الذاتية لأهل النظر والاستدلال والتدبر في آيات العالم فيكون الوصف جامعاً لصفته النفسية ، وهي الوجود ، إذ أدلة وجوده بيّنة واضحة ولصفاته الأخرى مما دل عليها فعله من قدرة وعلم وحياة وإرادة ، وصفات الأفعال من الخلق والرزق والإِحياء والإِماتة كما علمت في قوله : ﴿ هو الأول ﴾ عن النقص أو ما دل عليها تنزيهه عن النقص كصفة الوحدانية والقدم والبقاء والغنى المطلق ومخالفة الحوادث ، وهذا المعنى هو الذي يناسبه المقابلة بالباطن .

ويجوز أن يكون مشتقاً من الظهور ، أي الغلبة كالذي في قوله تعالى : ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم ﴾ [الكهف : 20] ، فمعنى وصفه تعالى بـ ﴿ الظاهر ﴾ أنه الغالب . وهذا لا يناسب مقابلته بـ ﴿ الباطن ﴾ إلا على اعتبار محسِّن الإِيهام ، وما وقع في حديث أبي هريرة في "صحيح مسلم" من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " وأنت الظاهر فليس فوقك شيء " فمعنى فاء التفريع فيه أن ظهوره تعالى سبب في انتفاء أن يكون شيء فوق الله في الظهور ، أي في دلالة الأدلة على وجوده واتصافه بصفات الكمال ، فدلالة الفاء تفريع لا تفسير .

و ﴿ الباطن ﴾ الخفي يقال : بطن ، إذا خفي ومصدره بُطُون .

ومعنى وصفه تعالى بباطن وصف ذاته وكنهه لأنه محجوب عن إدراك الحواس الظاهرة قال

تعالى: ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ [الأنعام: 103].

والقصر في قوله: ﴿ والظاهر والباطن ﴾ قصر ادعائي لأن ظهور الله تعالى بالمعنيين ظهور لا يدانيه ظهور غيره، وبطونه تعالى لا يشبهه بطون الأشياء الخفية إذ لا مطمع لأحد في إدراك ذاته ولا في معرفة تفاصيل تصرفاته.

والجمع بين وصفه بـ ﴿ الظاهر ﴾ بالمعنى الراجح و ﴿ الباطن ﴾ كالجمع بين وصفه بـ ﴿ الأول والآخر ﴾ كما علمته آنفاً.

وفي الجمع بينهما محسن المطابقة.

(49/747)

وفائدة إجراء الوصفين المتضادين على اسم الله تعالى هنا التنبيه على عظم شأن الله تعالى ليتدبر العالمون في مواقعها.

واعلم أن الواوات الثلاثة الواقعة بين هذه الصفات الأربع متحدة المعنى تقتضي كل واحدة منها عطف صفة.

وقال الزمخشري: "الواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوّلية والآخريّة.

والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء ، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأولين ومجموع الصفتين الأخريين" أ هـ .

وهو تشبث لا داعي إليه ولا دليل عليه ولو أريد ذلك لقال : هو الأول الآخر ، والظاهر الباطن ، بحذف واوين .

والمعنى الذي حاوله الزمخشري : تقتضيه معاني هاته الصفات بدون اختلاف معاني الواوات .

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم ﴾ .

عطف على جملة ﴿ هو الأول والآخر ﴾ الخ عطفت صفة علمه على صفة ذاته ، وتقدم نظير هذه الجملة في أوائل سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(50/747)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى التسبيح)

وهو تنزيه الله تعالى .

وأَصله المَرُّ السّريع فى عبادة الله .

وجُعِل لك فى فعل الخير ؛ كما جعل الإِبعاد فى الشرّ ، فقيل : أَبعده الله .

وجعل التَّسبيح عامّاً فى العبادات ، قولاً كان ، أَو فعلاً ، أَو نِيّة .

وقوله – تعالى – : ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ قيل : من المصلّين .

والأُولى أَن يُحمل على ثلاثها والتَّسبيح ورد فى القرآن على نحو من ثلاثين وجهاً .

ستَّة منها للملائكة ، وتسعة لنبيّنا محمّد – صلَّى الله عليه وسلَّم – وأَربعة لغيره من الأَنبياء ، وثلاثة للحيوانات والجمادات ، وثلاثة للمؤمنين خاصّة .

وستَّة لجميع الموجودات .

أَما الّتى للملائكة فدعوى جبريل فى صفّ العبادة : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ .

الثانى : دعوى الملائكة فى حال الخصومة : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ .

الثالث : تسبيحهم الدّائم من غير سآمة : ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴾ .

الرابع : تسبيحهم المعرَّى عن الكسل ، والفَتْرة : ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ .

الخامس : تسبيحهم المقترن بالسجدة : ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ .

السادس : تسبيحهم مقترناً بتسبيح الرّعد على سبيل السياسة والهيبة ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ

بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ .

وأمّا التسعة الّتي لنبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم ، فالأول : تسبيح مقترن بسجدة اليقين ، والعبادة : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ .

الثاني : تسبيح في طرفي النّهار ، مقترنٌ بالاستغفار من الزلّة : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ .

(51/747)

الثالث تسبيح في بطون الدياجر ، والخلوة : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ .

الرّابع تسبيح في الابتداءِ ، والانتهاءِ ، حال العبادة : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ .

الخامس تسبيح مقترن بالطّلوع ، والغروب لأجل الشّهادة ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ .

السّادس تسبيح دائم لأجل الرّضا والكرامة ﴿ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ .

السّابع : تسبيح مقترن بذكر العظمة : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ .

الثّامن : تسبيح بشكر النعمة : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ .

التّاسع : تسبيح لطلب المغفرة : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ قال صلّى الله عليه وسلم : "ما أُوحى إِلَيَّ أن اجمعِ المال وكن من التّاجرين ، ولكن أُوحى إلى أن سبّح بحمد ربّك وكن من السّاجدين ، واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين" .

وأمّا الأربعة التى للأنبياءِ فالأوّل لزكريّا علامةً على ولادة يحيى : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ .

الثّانى : فى وصيّته لقومه على محافظة وظيفة التسبيح : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ .

الثالث : فى موافقة الجبال ، والظباءِ ، والحيتان ، والطيور لداود فى التسبيح : ﴿ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ .

الرّابع : فى نجاة يونس من ظلمات البحر وبطن الحوت ببركة التسبيح ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ .

وأمّا الثلاثة التى لخواصّ المؤمنين ، فالأوّل فى أَمر الله تعالى لهم بالجمع بين الذكر والتسبيح دائماً : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ .

الثانى : فى ثناءِ الحقّ تعالى على قوم إِذا ذُكر الله عندهم سجدوا له وسبّحوا : ﴿ خَرُّواْ سُجَّداً وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ .

الثالث : فى أُناس يختلون فى المساجد .

ويواظبون على التسبيح والذكر ، ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ ﴾ .

وأَمّا الثلاثة الّتى فى الحيوانات .

والجمادات ، فالأَول : فى أَنّ كلّ نوع من الموجدات مشتغِل بنوع من التسبيحات : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَاكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ .

الثانى : فى أَنّ الطُّيور فى الهواءِ مصطفَّة لأَداءِ وِرْد التسبيح : ﴿ وَالطَّيْرُ صَآفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ .

الثَّالث : أَنّ حَمَلة العرش والكرسىّ فى حال الطواف بالعرش والكرسىّ مستغرقون فى التسبيح والاستغفار : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ ، ﴿ وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ .

وأمّا الستّة الّتى للعامّة فالأَوّل: على العموم فى تسبيح الحقّ على الإِحياءِ والإِماتة:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إِلى قوله: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

الثانى: فى أَنّ كلّ شىءٍ فى تسبيح الحقّ على إِخراج أَهل الكفر، وإِزعاجهم ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ إِلى قوله: ﴿هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

(53/747)

الثّالث: أَنّ الكلّ فى التسبيح، ومَن خالف قوله فعله مستحِقّ للذمّ والشكاية: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ إِلى قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾.

الرّابع: فى أَنّ الكلّ فى التسبيح للقدس والطّهارة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ إِلى قوله: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾.

الخامس: فى أَنّ الكل فى التسبيح على تحسين الخِلْقة والصّورة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ إِلى قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

السادس: فى الملامة والتعيير من أَصحاب ذلك النسيان بعضِهم لبعض من جهة التقصير فى تسبيح الحقّ - تعالى -: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ﴾.

الحادى والثلاثون: خاصّ بالنبىّ - صلّى الله عليه وسلّم - فى الأَمر بالجمع بين التوكُّل والتسبيح: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 285. 289 ﴾

(54/747)

قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى:

ولما كان الصانع للشيء عالماً به، دل على علمه وما تقدم من وصفه بقوله: ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الذي خلق السماوات ﴾ وجمعها لعلم العرب بتعددها ﴿ والأرض ﴾ أي الجنس الشامل للكل، أفردها لعدم توصلهم إلى العلم بتعددها ﴿ في ستة أيام ﴾ سناً للتأني وتقريراً للأيام التي أوترها سابعها الذي خلق فيه الإنسان الذي دل خلقه باسمه

﴿ الجمعة ﴾ على أنه المقصود بالذات وبأنه السابع على أنه نهاية المخلوقات – انتهى .

ولما كان تمكن الملك من سرير الملك كناية عن انفراده بالتدبير وإحاطة قدرته وعلمه ، وكان ذلك هو روح الملك ، دل عليه منبهاً على عظمته بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم استوى ﴾ أي أوجد السواء وهو العدل إيجاد من هو شديد العناية ﴿ على العرش ﴾ المحيط بجميع الموجودات بالتدبير المحكم للعرش وما دونه ومن دونه ليتصور للعباد أن العرش منشأ التدبير ، ومظهر التقدير ، كما يقال في ملوكنا : جلس فلان على سرير الملك ، بمعنى أنه انفرد بالتدبير ، وقد لا يكون هناك سرير فضلاً عن جلوس .

ولما كان المراد بالاستواء الانفراد بالتدبير ، وكان التدبير لا يصح إلا بالعلم والقدرة ، كشفه بقوله دالاًّ على أن علمه بالخفايا كعلمه بالجلايا : ﴿ يعلم ما يلج ﴾ أي يدخل دخولاً يغيب به ﴿ في الأرض ﴾ أي من النبات وغيره من أجزاء الأموات وغيرها وإن كان ذلك بعيداً من العرش ، فإن الأماكن كلها بالنسبة إليه على حد سواء في القرب والبعد ﴿ وما يخرج منها ﴾ كذلك ، وفي التعبير بالمضارع دلالة على ما أودع في الخافقين من القوى فصار بحيث يتجدد منهما ذلك بخلقه تجدد استمرار إلى حين خرابهما .

ولما قرر ذلك فيما قد يتوهم بعده لبعده عن العرش بسفوله تنبيهاً على التنزه عن التحيز فكان أولى بالتقديم، أتبعه قسيمه وهو جهة العلو تعميماً للعمل بسائر الخلق فقال: ﴿ وما ينزل من السماء ﴾ ولم يجمع لأن المقصود حاصل بالواحدة مع إفهام التعبير بها الجنس السافل للكل، وذلك من الوحي والأمطار والحر والبرد وغيرهما من الأعيان والمنافع التي يوجدها سبحانه من مقادير أعمار بني آدم وأرزاقهم وغيرها من جميع شؤونهم ﴿ وما يعرج ﴾ أي يصعد ويرتقي ويغيب ﴿ فيها ﴾ كالأبخرة والأنوار والكواكب والأعمال وغيرها.

ولما كان من يتسع ملكه يغيب عنه علم بعضه لبعده عنه، عرف أنه لا مسافة أصلاً بينه وبين شيء من الأشياء فقال: ﴿ وهو معكم ﴾ أي أيها الثقلان المحتاجان إلى التهذيب بالعلم والقدرة المسببين عن القرب ﴿ أين ما كنتم ﴾ فهو عالم بجميع أموركم وقادر عليكم تعالياً عن اتصال بالعلم ومماسة، أو انفصال عنه بغيبة أو مسافة، قال أبو العباس ابن تيمية في كتابه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: لفظ "مع" لا يقتضي في لغة العرب أن يكون أحد الشيئين مختلطاً بالآخر لقوله

﴿ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ [التوبة : 119] وقوله : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ﴾ ولفظ " مع " جاءت في القرآن عامة وخاصة ، فالعامة ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم ﴾ [المجادلة : 7] فافتتح الكلام بالعلم واختتمه بالعلم ، ولهذا قال ابن عباس . رضى الله عنهما . والضحاك وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل : هو معهم بعلمه ، وأما المعية الخاصة فقوله تعالى : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ [النحل : 128] وقوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ [طه : 46] وقال : ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ [التوبة : 40] يعني النبي . صلى الله عليه وسلم . وأبو بكر الصدّيق . رضى الله عنه . ، فهو مع موسى وهارون عليهما السلام دون فرعون ، ومع محمد . صلى الله عليه وسلم . وصاحبه . رضى الله عنه . دون أبي جهل وغيره من أعدائه ، ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين ، فلو كان معنى المعية أنه بذاته في كل مكان تناقض الخبر الخاص والخبر العام ، بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك ، وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ [الزخرف : 84] أي هو إله في السماء وإله في الأرض كما قال تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الروم : 27] وكذلك في قوله تعالى :

﴿ وهو الله في السماوات وفي الأرض ﴾ كما فسره أئمة العلم كأحمد وغيره أنه المعبود في السماوات والأرض .

(57/747)

ولما كانت الأعمال منها ظاهر وباطن ، عبر في أمرها باسم الذات دلالة على شمولها بالعلم والقدر وتنبيهاً على عظمة الإحاطة بها وبكل صفة من صفاته فقال : ﴿ والله ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال ، وقدم الجارّ لمزيد الاهتمام والتنبيه على تحقق الإخاطة كما مضى التنبيه عليه غير مرة وتمثيله بنحو : أعرف فلاناً ولا أعرف غيره ؛ فقال : ﴿ بما تعملون ﴾ أي على سبيل التجدد والاستمرار ﴿ بصير ﴾ أي عالم بجلائله ودقائقه .

ولما كان صانع الشيء قد لا يكون ملكاً ، وكان الملك لا يكمل ملكه إلا بعلم جميع ما يكون في مملكته والقدرة عليه ، وكان إنكارهم للبعث إنكاراً لأن يكون ملكاً ، أكد ذلك بتكرير الإخبار به فقال : ﴿ له ﴾ أي وحده ﴿ ملك السماوات ﴾ وجمع لاقتضاء المقام له ﴿ والأرض ﴾ أفرد لخفاء تعددها عليهم مع إرادة الجنس ، ودل على دوام ملكه وإحاطته بقوله عاطفاً على ما تقديره : فمن الله المبدأ ، معبراً بالاسم الأعظم الجامع لئلا يظن الخصوص بأمور ما تقدم : ﴿ وإلى الله ﴾ أي الملك الذي لا كفؤ له وحده ﴿ ترجع ﴾

بكل اعتبار على غاية السهولة ﴿ الأمور ﴾ أي كلها حساً بالبعث ومعنى بالإبداء والإفناء ، ودل على هذا الإبداء والإفناء بأبدع الأمور وأروقها فقال : ﴿ يولج ﴾ أي يدخل ويغيب بالنقص والمحو ﴿ الّيل في النهار ﴾ فإذا قد قصر بعد طوله ، وقد انمحى بعد تشخصه وحلوله ، فملأ الضياء الأقطار بعد ذلك الظلام ﴿ ويولج النهار ﴾ الذي عم الكون ضياؤه وأناره لألأوه ﴿ في الّيل ﴾ الذي قد كان غاب في علمه ، فإذا الظلام قد طبق الآفاق ، والطول ، الذي كان له قد صار نقصاً .

ولما كان في هذا إظهار أخفى الأشياء حتى يصير في غاية الجلاء ، أتبعه علم ما هو عند الناس أخفاء ما يكون فقال : ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ عليم ﴾ أي بالغ العلم ﴿ بذات الصدور ﴾ أي ما يصحبها فتخفيه فلا يخرج منها الهمزات على مدى الأيام على كثرة اختلافها وتغيرها وإن خفيت على أصحابها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 7 صـ 438.436﴾

(58/747)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ وهو مفسر في الأعراف والمقصود منه دلائل القدرة .

ثم قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السماء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ وهو مفسر في سبأ ، والمقصود منه كمال العلم ، وإنما قدم وصف القدرة على وصف العلم ، لأن العلم بكونه تعالى قادراً قبل العلم بكونه تعالى عالماً ، ولذلك ذهب جمع من المحققين إلى أن أول العلم بالله ، هو العلم بكونه قادراً ، وذهب آخرون إلى أن أول العلم بالله هو العلم بكونه مؤثراً ، وعلى التقديرين فالعلم بكونه قادراً متقدم على العلم بكونه عالماً .

ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه قد ثبت أن كل ما عدا الواجب الحق فهو ممكن ، وكل ممكن فوجوده من الواجب ، فإذن وصول الماهية الممكنة إلى وجودها بواسطة إفادة الواجب الحق ذلك الوجود لتلك الماهية فالحق سبحانه هو المتوسط بين كل ماهية وبين وجودها ، فهو إلى كل ماهية أقرب من وجود تلك الماهية ، ومن هذا السر قال المحققون : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله ، وقال المتوسطون : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه ، وقال الظاهريون : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله بعده .

واعلم أن هذه الدقائق التي أظهرناها في هذه المواضع لها درجتان إحداهما : أن يصل الإنسان إليها بمقتضى الفكرة والروية والتأمل والتدبر والدرجة الثانية : أن تتفق لنفس الإنسان قوة ذوقية وحالة وجدانية لا يمكن التعبير عنها ، وتكون نسبة الإدراك مع الذوق إلى الإدراك لا مع الذوق ، كنسبة من يأكل السكر إلى من يصف حلاوته بلسانه .

المسألة الثانية :

(59/747)

قال المتكلمون : هذه المعية إما بالعلم وإما بالحفظ والحراسة ، وعلى التقديرين فقد انعقد الإجماع على أنه سبحانه ليس معنا بالمكان والجهة والحيز ، فإذن قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ لا بد فيه من التأويل وإذا جوزنا التأويل في موضع وجب تجويزه في سائر المواضع .

المسألة الثالثة :

اعلم أن في هذه الآيات ترتيباً عجيباً ، وذلك لأنه بين قوله : ﴿ هُوَ الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ كونه إلهاً لجميع الممكنات والكائنات ، ثم بين كونه إلهاً للعرش والسموات والأرضين .

ثم بين بقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ معينه لنا بسبب القدرة والإيجاد والتكوين

وبسبب العلم وهو كونه عالماً بظواهرنا وبواطننا ، فتأمل في كيفية هذا الترتيب ، ثم تأمل في ألفاظ هذه الآيات فإن فيها أسراراً عجيبة وتنبيهات على أمور عالية .

لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5)

أي إلى حيث لا مالك سواه ، ودل بهذا القول على إثبات المعاد .

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (6)

وهذه الآيات قد تقدم تفسيرها في سائر السور ، وهي جامعة بين الدلالة على قدرته ، وبين إظهار نعمه ، والمقصود من إعادتها البعث على النظر والتأمل ، ثم الاشتغال بالشكر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 187 . 188 ﴾

(60/747)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ تقدّم في "الأعراف" مستوفًى .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرض ﴾ أي يدخل فيها من مطر وغيره ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من نبات وغيره ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السمآء ﴾ من رزق ومطر ومَلَك ﴿ وَمَا يَعْرُجُ

فِيهَا ﴾ يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يعني بقدرته وسلطانه وعلمه ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يبصر أعمالكم ويراها ولا يخفى عليه شيء منها .

وقد جمع في هذه الآية بين ﴿ استوى عَلَى العرش ﴾ وبين ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ والأخذ بالظاهرين تناقض فدل على أنه لا بدّ من التأويل ، والإعراضُ عن التأويل اعتراف بالتناقض .

وقد قال الإمام أبو المعالي : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء لم يكن بأقرب إلى الله عز وجل من يونس بن متى حين كان في بطن الحوت .

وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ لَّهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ هذا التكرير للتأكيد أي هو المعبود على الحقيقة ﴿ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور ﴾ أي أمور الخلائق في الآخرة .

وقرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حَيْوة وابن مُحَيصن وحميد والأعمش وحمزة والكسائي وخلف "تَرْجِع" بفتح التاء وكسر الجيم .

الباقون "تُرْجَعُ" .

قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل ﴾ تقدّم في "آل عمران" .

﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ أي لا تخفى عليه الضمائر ، ومن كان بهذه الصفة فلا يجوز أن يعبد من سواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(61/747)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

والتسبيح هنا عند الأكثرين بمعنى التنزيه المعروف في قولهم : سبحان الله ، فقيل : هو حقيقة في الجميع ، وقيل : فيمن يمكن التسبيح منهم ، وقيل : مجاز ، بمعنى : أن أثر الصنعة فيها ينبه الرائي على التسبيح .

وقيل : التسبيح هنا الصلاة ، ففي الجماد بعيد ، وفي الكافر سجود ظله صلاته ، وفي المؤمن ذلك سائغ ، واللام في ﴿ لله ﴾ ، إما أن تكون بمنزلة اللام في : نصحت لزيد ، يقال : سبح الله ، كما يقال ؛ نصحت زيداً ، فجيء باللام لتقوية وصول الفعل إلى المفعول ؛ وإما أن تكون لام التعليل ، أي أحدث التسبيح لأجل الله ، أي لوجهه خالصاً .

﴿ يحيي ويميت ﴾ : جملة مستقلة لا موضع لها من الإعراب لقوله : ﴿ له ملك السماوات والأرض ﴾ .

لما أخبر بأنه له الملك ، أخبر عن ذاته بهذين الوصفين العظيمين اللذين بهما تمام التصرف في الملك ، وهو إيجاد ما شاء وإعدام ما شاء ، ولذلك أعقب بالقدرة التي بها الإحياء والإماتة .

وجوز أن يكون خبر مبتدأ ، أي هو يحيي ويميت .

وأن يكون حالاً ، وذو الحال الضمير في له ، والعامل فيها العامل في الجار والمجرور .

﴿ هو الأول ﴾ : الذي ليس لوجوده بداية مفتتحة ، ﴿ والآخر ﴾ : أي الدائم الذي ليس له نهاية منقضية .

وقيل : الأول الذي كان قبل كل شيء ، والآخر الذي يبقى بعد هلاك كل شيء .

﴿ والظاهر ﴾ بالأدلة ونظر العقول في صفته ، ﴿ والباطن ﴾ لكونه غير مدرك بالحواس .

وقال أبو بكر الورّاق : الأول بالأزلية ، والآخر بالأبدية .

وقيل : ﴿ الظاهر ﴾ العالي على كل شيء ، الغالب له من ظهر عليه إذا علاه وغلبه ؛ ﴿ والباطن ﴾ : الذي بطن كل شيء ، أي علم باطنه .

وقال الزمخشري ؛ فإن قلت : فما معنى الواو ؟ قلت : الواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية ؛ والثانية على أنه الجامع بين الظهور والخفاء ؛ وأما الوسطى فعل أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأولين ومجموع الصفتين الأخرين .

فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية ، وهو في جميعها ظاهر وباطن .

جامع الظهور بالأدلة والخفاء ، فلا يدرك بالحواس ؛ وفي هذا حجة على من جوز إدراكه في الآخرة بالحاسة .

انتهى ، وفيه دسيسة الاعتزال .

﴿ يعلم ما يلج في الأرض ﴾ من المطر والأموات وغير ذلك ، ﴿ وما يخرج منها ﴾ من النبات والمعادن وغيرها ، ﴿ وما ينزل من السماء ﴾ من الملائكة والرحمة والعذاب وغيره ، ﴿ وما يعرج فيها ﴾ من الملائكة وصالح الأعمال وسيئها ، ﴿ وهو معكم أين ما كنتم ﴾ : أي بالعلم والقدرة .

قال الثوري : المعني علمه معكم ، وهذه آية أجمعت الأمّة على هذا التأويل فيها ، وأنها لا تحمل على ظاهرها من المعية بالذات ، وهي حجة على من منع التأويل في غيرها مما يجري مجراها من استحالة الحمل على ظاهرها .

وقال بعض العلماء : فيمن يمتنع من تأويل ما لا يمكن حمله على ظاهره ، وقد تأول هذه الآية ، وتأول الحجر الأسود يمين الله في الأرض ، لو اتسع عقله لتأول غير هذا مما هو في معناه .

وقرأ الجمهور : ﴿ ترجع ﴾ ، مبنياً للمفعول ؛ والحسن وابن أبي إسحاق والأعرج : مبنياً للفاعل ؛ والأمور عام في جميع الموجودات ، أعراضها وجواهرها .

وتقدم شرح ما قبل هذا وما بعده ، فأغنى عن إعادته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(63/747)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ سَبَّحَ للَّهِ مَا فِى السموات والأرض ﴾

التَّسبيحُ تنزيهُ الله تعَالَى اعتِقَاداً وقَولاً وعملاً عمَّا لا يَليقُ بجنابه سُبحانَه من سبَحَ في الأرضِ والماءِ إذا ذهبَ وأبعدَ فيهمَا وحيثُ أُسندَ هَهُنا إلى غيرِ العُقلاءِ أيضاً فإنَّ ما في السمواتِ والأرضِ يعمُّ جميعَ ما فيهمَا سواءً كانَ مستقراً فيهما أو جُزءاً منهمَا كما مرَّ في آيةِ الكرسيِّ . أُريدَ به مَعْنى عامٌّ مجازيٌّ شاملٌ لما نطقَ به لسانُ المقالِ كتسبيحِ غيرِهم فإنَّ كلَّ فردٍ من أفرادِ الموجوداتِ يدلُّ بإمكانِه وحدوثه على الصانعِ القديمِ الواجبِ الوجودِ المُتَّصفِ بالكمالِ المُنزهِ عن النُّقصانِ وهُو المرادُ بقولِه تعالى : ﴿ وَإِن مّن شَىْء إِلاَّ يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ وهُو متعدَ بنفسِه كما في قولِه تعالَى : وسبِّحُوه . واللامُ إمَّا مَزيدةٌ للتأكيدِ كما في

نصحت لَهُ وشكرت لَهُ أو للتعليلِ أي فعَل التسبيحَ لأجلِ الله تعالَى وخالِصاً لوجهِه ، ومجيئُه في بعض الفواتحِ ماضياً وفي البعضِ مضارعاً للإيذانِ بتحققِه في جميعِ الأوقاتِ ، وفيهِ تنبيهٌ على أنَّ حقَّ مَنْ شأنُه التسبيحُ الاختياريُّ أنْ يُسبّحهُ تعالَى في جميعِ أوقاتِه كما عليهِ الملأُ الأَعلى حيثُ يُسبحونَ الليلَ والنهارَ لا يفترُونَ ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ القادرُ الغالبُ الذي لا يُمانعُه ولا يُنازِعُه شيءٌ ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يفعلُ إلا ما تقتضيهِ الحكمةُ والمصلحةُ ، والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لمضمون ما قبلَهُ مشعرٌ بعلة الحكمِ وكَذا قولُه تعالَى : ﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ أي التصرفُ الكليُّ فيهِمَا وفيمَا فيهما مِنَ الموجوداتِ من حيثُ الإيجادُ والإعدامُ وسائرُ التصرفاتِ مما نعلمُه وما لا نعلمُه . وقولُه تعالَى :

(64/747)

﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ استئنافٌ مبينٌ لبعضِ أحكامِ الملكِ والتصرفِ . وجعلُه حالاً من ضميرِ لَه ليس كَما ينبغِي ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْء ﴾ منَ الأشياءِ التي مِنْ جُمْلتها ما ذُكِرَ من الإحياءِ والإماتِه ﴿ قَدِيرٌ ﴾ مُبالغٌ في القُدرةِ ﴿ هُوَ الأول ﴾ السابقُ على سائرِ الموجُوداتِ لِما أنَّه مُبدئُها ومُبدعُها ﴿ والأخر ﴾ الباقي بعدَ فنائِها حقيقةً أوْ نظراً إلى

ذاتها مع قطعِ النّظرِ عن مُبقيها فإن جميعَ الموجوداتِ المُمكنةِ إذا قُطعَ النظرُ عن عللِها فهيَ فانيةٌ ﴿ والظاهر ﴾ وجُوداً لكثرة دلائله الواضحةِ ﴿ والباطن ﴾ حقيقةً فلا تحومُ حولَهُ العقولُ . والواوُ الأُولى والأخيرةُ للجمعِ بينَ الوصفينِ المُكتنفينِ بهمَا والوُسطى للجمعِ بين المجموعينَ فهو متصفٌ باستمرارِ الوجودِ في جميعِ الأوقاتِ والظهورِ والخفاءِ ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يَعزُبُ عنْ علمِه شيءٌ منَ الظَّاهرِ والخفيِّ .

﴿ هُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ بيانٌ لبعضِ أحكامِ ملكِهما وقد مرَّ تفسيرُه مِراراً ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِى الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السماء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ مرَّ بيانُه في سورةِ سبأ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ تمثيلٌ لإحاطةِ علمِه تعالى بهم وتصويرٌ لعدمِ خروجِهم عنه أينما دارُوا . وقولُه تعالى : ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ عبارةٌ عن إحاطتِه بأعمالِهم فتأخيرُه عن الخلقِ لما أنَّ المرادَ به ما يدورُ عليه الجزاءُ من العلمِ التابعِ للمعلومِ لا لما قيلَ من أنه دليلٌ عليه . وقولُه تعالى :

(65/747)

﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ تكريرٌ للتأكيدِ وتمهيدٌ لقولِه تعالى : ﴿ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور ﴾ أي إليهِ وحدَهُ لا إلى غيرِه استقلالاً أو اشتراكاً ترجعُ جميعُ الأمورِ ، على البناءِ

للمفعولِ من رجعَ رَجْعاً . وقُرِئ على البناءِ للفاعلِ منْ رجعَ رُجُوعاً . ﴿ يُولِجُ الليلَ فِى النهارِ ويُولِجُ النهارَ فِى الليلِ ﴾ مرَّ تفسيرُه مراراً . وقولُه تعالى :

﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ ﴾ أيْ مُبالِغٌ في العلمِ ﴿ بِذَاتِ الصدور ﴾ أي بمكنوناتِها اللازمةِ لها ، بيانٌ لإحاطةِ علمِه تعالَى بمَا يُضمرونَهُ من نيَّاتِهم بعدَ بيانِ إحاطتِه بأعمالِهم التي يُظهرونَهَا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(66/747)

وقال الآلوسى :

﴿ هُوَ الذى خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾

بيان لبعض أحكام ملكهما وقد مر تفسيره مراراً ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِى الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السماء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ مر بيانه في سورة سبأ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ تمثيل لإحاطة علمه تعالى بهم وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما كانوا ، وقيل : المعية مجاز مرسل عن العلم بعلاقة السببية والقرينة السابق واللحاق مع استحالة الحقيقة ، وقد أول السلف هذه الآية بذلك ، أخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه قال فيها : عالم بكم أينما كنتم .

وأخرج أيضاً عن سفيان الثوري أنه سئل عنها فقال: علمه معكم، وفي "البحر" أنه اجتمعت الأمة على هذا التأويل فيها وأنها لا تحمل على ظاهرها من المعية بالذات وهي حجة على منع التأويل في غيرها مما يجري مجراها في استحالة الحمل على الظاهر، وقد تاول هذه الآية.

وتأول الحجر الأسود يمين الله في الأرض، ولو اتسع عقله لتأول غير ذلك مما هو في معناه انتهى.

وأنت تعلم أن الأسلم ترك التأويل فإنه قول على الله تعالى من غير علم ولا نؤوّل إلا ما أوّله السلف ونتبعهم فيما كانوا عليه فإن أوّلوا أوّلنا وإن فوضوا فوضنا ولا نأخذ تأويلهم لشيء سلماً لتأويل غيره، وقد رأيت بعض الزنادقة الخارجين من ربقة الإسلام يضحكون من هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ ويسخرون من القرآن الكريم لذلك وهو جهل فظيع وكفر شنيع نسأل الله تعالى العصمة والتوفيق.

(67/747)

﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ عبارة عن إحاطته بأعمالهم وتأخير صفة العلم الذي هو من صفات الذات عن الخلق الذي هو من صفات الأفعال مع أن صفات الذات متقدمة على

صفات الأفعال لما أن المراد الإشارة إلى ما يدور عليه الجزاء من العلم التابع للمعلوم ، وقيل : إن الخلق دليل العلم إذ يستدل بخلقه تعالى وإيجاده سبحانه لمصنوعاته المتقنة على أنه عز وجل عالم ومن شأن المدلول التأخر عن الدليل لتوقفه عليه ، وقوله تعالى :

﴿ لَّهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيد لقوله سبحانه المشعر بالإعادة :

﴿ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الامور ﴾ أي إليه تعالى وحده لا إلى غيره سبحانه استقلالاً أو اشتراكاً ترجع جميع الأمور أعراضها وجواهرها ، وقرأ الحسن .

وابن أبي إسحاق .

والأعرج ﴿ تُرْجَعُ ﴾ مبنياً للفاعل من رجع رجوعاً ، وعلى البناء للمفعول كما في قراءة الجمهور هو من رجع رجعاً .

﴿ يُولِجُ الليل فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى الليل ﴾ مر تفسيره مراراً ؛ وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ ﴾ أي مبالغ في العلم ﴿ بِذَاتِ الصدور ﴾ أي بمكنوناتها اللازمة لها بيان لإحاطة علمه تعالى بما يضمرونه من نياتهم بعد بيان إحاطة بأعمالهم التي يظهرونها ، وجوز أن يراد ﴿ بِذَاتِ الصدور ﴾ نفسها وحقيقتها على أن الإحاطة بما فيها تعلم بالأولى . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السموات والأرض ﴾

أي : نزّهه ومجده .

قال المقاتلان : يعني كل شيء من ذي روح وغيره ، وقد تقدّم الكلام في تسبيح الجمادات عند تفسير قوله : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] والمراد بالتسبيح المسند إلى ما في السموات والأرض من العقلاء وغيرهم ، والحيوانات والجمادات هو ما يعم التسبيح بلسان المقال كتسبيح الملائكة والإنس والجنّ ، وبلسان الحال كتسبيح غيرهم ، فإن كل موجود يدل على الصانع .

وقد أنكر الزجاج أن يكون تسبيح غير العقلاء هو تسبيح الدلالة وقال : لو كان هذا تسبيح الدلالة ، وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة ، فلم قال : ﴿ ولكن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ وإنما هو تسبيح مقال ، واستدل بقوله : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ ﴾ [الأنبياء : 79] فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص داود فائدة ، وفعل التسبيح قد يتعدّى بنفسه تارة ، كما في قوله : ﴿ وَسَبِّحُوهُ ﴾ [الأحزاب : 42] وباللام أخرى كهذه الآية ، وأصله أن يكون متعدياً بنفسه ؛ لأن معنى سبحته : بعدته عن السوء ، فإذا استعمل باللام ، فهي إما مزيدة للتأكيد ، كما في شكرته ، وشكرت له ، أو

هي للتعليل ، أي : افعل التسبيح ؛ لأجل الله سبحانه خالصاً له ، وجاء هذا الفعل في بعض الفواتح ماضياً كهذه الفاتحة ، وفي بعضها مضارعاً ، وفي بعضها أمراً للإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبحة في كل الأوقات لا يختصّ تسبيحها بوقت دون وقت ، بل هي مسبحة أبداً في الماضي ، وستكون مسبحة أبداً في المستقبل ، ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ أي : القادر الغالب الذي لا ينازعه أحد ، ولا يمانعه ممانع كائناً ما كان ﴿ الحكيم ﴾ الذي يفعل أفعال الحكمة والصواب .

(69/747)

﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ يتصرّف فيه وحده ، ولا ينفذ غير تصرّفه وأمره ، وقيل : أراد خزائن المطر والنبات ، وسائر الأرزاق ﴿ يحيى ويميت ﴾ الفعلان في محل رفع على أنهما خبر لمبتدأ محذوف ، أو في محل نصب على الحال من ضمير له ، أو كلام مستأنف ، لبيان بعض أحكام الملك ، والمعنى : أنه يحيي في الدنيا ويميت الأحياء ، وقيل : يحيي النطف وهي موات ، ويميت الأحياء ، وقيل : يحيي الأموات للبعث ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء كائناً ما كان .

﴿ هُوَ الاول ﴾ قبل كل شيء ﴿ والآخر ﴾ بعد كل شيء ، أي : الباقي بعد فناء خلقه

﴿ والظاهر ﴾ العالي الغالب على كل شيء ، أو الظاهر وجوده بالأدلة الواضحة ﴿ والباطن ﴾ أي : العالم بما بطن ، من قولهم : فلان يبطن أمر فلان ، أي : يعلم داخلة أمره ، ويجوز أن يكون المعنى المحتجب عن الأبصار ، والعقول ، وقد فسّر هذه الأسماء الأربعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما سيأتي ، فيتعين المصير إلى ذلك ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يعزب عن علمه شيء من المعلومات .

﴿ هُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ هذا بيان لبعض ملكه للسموات والأرض .

وقد تقدّم تفسيره في سورة الأعراف وفي غيرها مستوفى ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِى الأرض ﴾ أي : يدخل فيها من مطر وغيره ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من نبات وغيره ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السماء ﴾ من مطر وغيره ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أي : يصعد إليها من الملائكة ، وأعمال العباد ، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة سبأ ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ أي : بقدرته ، وسلطانه ، وعلمه ، وهذا تمثيل للإحاطة بما يصدر منهم أينما داروا في الأرض من برّ وبحر ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم شيء ﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ هذا التكرير للتأكيد ﴿ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور ﴾ لا إلى غيره .

قرأ الجمهور ﴿ ترجع ﴾ مبنياً للمفعول .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن عامر على البناء للفاعل .

﴿ يُولِجُ اليل فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى اليل ﴾ قد تقدّم تفسير هذا في سورة آل عمران ، وفي مواضع ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ أي : بضمائر الصدور ومكنوناتها ، لا يخفى عليه من ذلك خافية .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، ومسلم ، والترمذي ، والبيهقي ، عن أبي هريرة قال : جاءت فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله خادماً ، فقال : قولي : " اللَّهمّ ربّ السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، وربنا وربّ كل شيء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحبّ والنوى ، أعوذ بك من شرّ كل شيء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول ، فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر ، فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر ، فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن ، فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر " وأخرج أحمد ، ومسلم ، وغيرهما من حديث أبي هريرة من وجه آخر مرفوعاً مثل هذا في الأربعة الأسماء المذكورة ، وتفسيرها .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر وأبي سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا : هذا الله كان قبل كل شيء ، فماذا كان

قبل الله ؟ فإن قالوا لكم ذلك ، فقولوا : هو الأوّل قبل كل شيء ، والآخر فليس بعده شيء ، وهو الظاهر فوق كل شيء ، وهو الباطن دون كل شيء ، وهو بكل شيء عليم " وأخرج أبو داود عن أبي زميل قال : سألت ابن عباس ، فقلت : ما شيء أجده في صدري ، قال ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلم به ، قال : فقال لي : أشيء من شك ؟ قال ، وضحك ، قال : ما نجا من ذلك أحد ، قال : حتى أنزل الله : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ ﴾ الآية [يونس : 94] قال : وقال لي : إذا وجدت في نفسك شيئًا فقل : ﴿ هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ﴾ .

(71/747)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ قال : عالم بكم أينما كنتم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 164.166 ﴾

(72/747)

وقال ابن عاشور :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾

موقع هذه الجملة استئناف كموقع جملة ﴿ هو الأول والآخر ﴾ [الحديد : 3] الآية ، فهذا استئناف ثان مفيد الاستدلال على انفراده تعالى بالإِلهية ليقلعوا عن الإِشراك به . ويفيد أيضاً بياناً لمضمون جملة ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ [الحديد : 5] وجملة ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ [الحديد : 2] ، فإن الذي خلق السماوات والأرض قادر على عظيم الإِبداع .

والاستواءُ على العرش تمثيل للمُلك الذي في قوله : ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ [الحديد : 2]

وهذا معنى اسمه تعالى : "الخالق" ، وتقدم قريب من هذه الآية في أوائل سورة الأعراف (11) .

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السمآء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ استئناف لتقرير عموم علمه تعالى بكل شيء فكان بيانَ جملة ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ [الحديد : 2] وجملة ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ [الحديد : 3] جارياً على طريقة النشر للّف على الترتيب ، وتقدم نظير هذه الآية في سورة سبأ .

فانظر ذلك .

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير ﴾ .

عطف معنى خاص على معنى شمله وغيرَه لقصد الاهتمام بالمعطوف .

والمعيّة تمثيل كنائي عن العلم بجميع أحوالهم .

و﴿ أين ما ﴾ ظرف مركب من (أين) وهي اسم للمكان ، و (ما) الزائدة للدلالة على تعميم الأمكنة .

وجملة ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ تكملة لمضمون ﴿ وهو معكم أين ما كنتم ﴾ ، وكان حقها أن لا تعطف وإنما عطفت ترجيحاً لجانب ما تحتوي عليه من الخبر عن هذه الصفة .

(73/747)

﴿ لَّهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ .

هذا تأكيد لنظيره الذي في أول هذه السورة كرر ليبنى عليه قوله : ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ ، فكان ذكره في أول السورة مبنيّاً عليه التصرفُ في الموجودات القابلة للحياة والموت في الدنيا ، وكان ذكره هنا مبنيًّا عليه أن أمور الموجودات كلّها ترجع إلى تصرفه .

وتقديم المسند لقصر الإلهية عليه تعالى فيفيد صفة الواحد .

﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ .

عطف على ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ عطفَ الخاص من وجه على العام منه فيما يتعلق بالأمور الجارية في الدنيا ، وعطف المغاير فيما يتعلق بالأمور التي تجري يوم القيامة على ما سيتضح في تفسير معنى ﴿ الأمور ﴾ .

فالأمور : جمع أمر ، واشتهر في اللغة أن الأمر اسم للشأن والحادث فيعم الأفعال والأقوال .

وقال ابن عطية : ﴿ الأمور ﴾ هنا : جميع الموجودات لأن الأمر والشيء والموجود أسماء شائعة في جميع الموجودات : أعراضِها وجواهرها " أ هـ .

ولم أره لغيره .

وفي "المحصول" و"شرحه" في أصول الفقه ، ومن تبعه من كتب أصول الفقه أن كلمة (أمر) مشتركة بين الفعل والقول والشأن والشيء ولم أر عزو ذلك إلى معروف ولا أتوا له بمثال سالم عن النظر ولا أحسب أن ذلك من اللغة .

فإن أَخَذْنَا بالمشهور في اللغة كان المعنى تَرجع أفعال الناس إلى الله ، أي ترجع في الحشر ، والمراد : رجوع أهلها للجزاء على أعمالهم إذ لا يتعلق الرجوع بحقائقها ، فعطف قوله : ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ تتميم لجملة ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ ، أي له ملك العوالم في الدنيا وله التصرف في أعمال العقلاء من أهلها في الآخرة .

وإن أخذنا بشمول اسم الأمور للذوات كان مفيداً لإِثبات البعث ، أي الذوات التي كانت في الدنيا تصير إلى الله يوم القيامة فيجازيها على أعمالها .

وعلى كلا الاحتمالين فمفادهُ مفاد اسمه (المهيمن) .

وتعريف الجمع في ﴿ الأمور ﴾ من صيغ العموم .

(74/747)

وتقديم المجرور على متعلّقه للاهتمام لا للقصر إذ لا مقتضى للقصر الحقيقي ولا داعي للقصر الإضافي إذ لا يوجد من الكفار من يثبت البعث ولا من زعموا أن الناس يصيرون في تصرف غير الله .

والرجوع : مستعار للكونِ في مكان غير المكان الذي كان فيه دون سبق مغادرة عن هذا المكان .

وإظهار اسم الجلالة دون أن يقول : وإليه ترجع الأمور ، لتكون الجملة مستقلة بما دلت عليه فتكون كالمَثل صالحة للتسيير .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم وأبو جعفر ﴿ ترجع ﴾ بضم التاء وفتح الجيم على معنى يرجعها مُرجع وهو الله قسراً .

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف ﴿ تَرجِع ﴾ بفتح التاء وكسر الجيم ، أي ترجع من تلقاء أنفسها لأنها مسخرة لذلك في آجالها .

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (6)

مناسبة ذكره هذه الجملة أن تقدير الليل والنهار وتعاقبهما من التصرفات الإلهية المشاهدة في أحوال السماوات والأرض وملابسات أحوال الإنسان، فهذه الجملة بدل اشتمال من جملة ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ [الحديد: 5]

وهو أيضاً مناسب لمضمون جملة ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ [الحديد: 5] تذكير للمشركين بأن المتصرف في سبب الفناء هو الله تعالى فإنهم يعتقدون أن الليل والنهار هما اللذان يُفنيان الناس، قال الأعشى:

ألم تَروا إرَماً وعاداً . . .

أفناهُما الليلُ والنهار

وحكى الله عنهم قولهم: ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية: 24] فلما قال: ﴿ له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ﴾ [الحديد: 5]، أبطل بعده اعتقاد أهل الشرك أن للزمان الذي هو تعاقب الليل والنهار والمعبر عنه بالدهر تصرفاً فيهم، وهذا معنى اسمه تعالى: "المدبر".

﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

لما ذكر تصرف الله في الليل وكان الليل وقت إخفاء الأشياء أعقب ذكره بأن الله عليم بأخفى الخفايا وهي النوايا ، فإنها مع كونها معاني غائبة عن الحواس كانت مكنونة في ظلمة باطن الإِنسان فلا يطلع عليها عالم إلا الله تعالى ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ﴾ [الأنعام : 59] ، وقوله : ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ [هود : 5] .

﴿ ذات الصدور ﴾ : ما في خواطر الناس من النوايا ، ف (ذات) هنا مؤنث (ذو) بمعنى صاحبة .

والصحبة : هنا بمعنى الملازمة .

ولما أريد بالمفرد الجنس أضيف إلى "جمع" ، وتقدم ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ في سورة الأنفال (43) .

وقد اشتمل هذا المقدار من أول السورة إلى هنا على معاني ست عشرة صفة من أسماء الله الحسنى : وهي : الله ، العزيز ، الحكيم ، الملك ، المحيي ، المميت ، القدير ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، العليم ، الخالق ، البصير ، الواحد ، المدبر .

وعن ابن عباس أن اسم الله الأعظم هو في ست آيات من أول سورة الحديد فهو يعني مجموع هذه الأسماء .

واعلم أن ما تقدم من أول السورة إلى هنا يرجح أنه مكي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(76/747)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾

يدل على أنه تعالى مستو على عرشه عال على كل جميع خلقه .

وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ يوهم خلاف ذلك .

والجواب: أنه تعالى مستو على عرشه كما قال بلا كيف ولا تشبيه استواء لائقا بكماله وجلاله وجميع الخلائق في يده أصفر من حبة خردل فهو مع جميعهم بالإحاطة الكاملة والعلم التام ونفوذ القدرة سبحانه وتعالى علوا كبيرا فلا منافاة بين علوه على عرشه ومعيته لجميع الخلائق ألا ترى ولله المثل الأعلى أن أحدنا لو جعل في يده حبة من خردل أنه ليس داخلا في شيء من أجزاء تلك الحبة مع أنه محيط بجميع أجزائها ومع جميع أجزائها والسموات والأرض ومن فيهما في يده تعالى أصغر من حبة خردل في يد أحدنا وله المثل

الأعلى سبحانه وتعالى علوا كبيرا فهو أقرب إلى الواحد منا من عنق راحلته بل من حبل وريده مع أنه مستو على عرشه لا يخفى عليه شيء من عمل خلقه جل وعلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 285 ﴾

(77/747)

قوله تعالى ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قامت الأدلة على تنزيهه سبحانه عن شائبة كل نقص ، وإحاطته بكل صفة كمال ، المقتضي لثبوت أن الملك له ، الموجب قطعاً لتفرده بعموم الإلهية ، المقتضي لإرسال من يريده إلى جميع من في ملكه ، وختم بالعلم بالضمائر التي أجلها الإيمان ، قال آمراً بالإذعان له ولرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ آمنوا ﴾ أي أيها الثقلان ﴿ بالله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا مثل له ﴿ ورسوله ﴾ الذي عظمته من عظمته .

ولما كان الإيمان أساساً ، والإنفاق وجهاً ظاهراً ورأساً ، قال جامعاً بين الأساس الحامل الخفي والوجه الظاهر الكامل البهي : ﴿ وأنفقوا ﴾ أي في إظهار دينه : ورغبهم في ذلك بطلب اليسير مما أعطاهم الله وزهدهم منه بقوله : ﴿مما جعلكم ﴾ أي بقدرته ﴿ مستخلفين ﴾ أي مطلوباً موجوداً خلافتكم ﴿ فيه ﴾ وهو له دونكم بما يرضي من استخلفكم في تمهيد سبيله فطيبوا بها نفساً لأنها ليست في الحقيقة لكم وإنما أنتم خزان ، وخافوا من عزلكم من الخلافة بانتزاعها من أيديكم بتولية غيركم أمرها ، إما في حياتكم ، وإما بعد مماتكم ، كما فعل بغيركم حين أوصل إليكم ما وصل من أموالهم ، " فليس لكم منها إلا ما أكلتم فأفنيتم أو لبستم فأبليتم أو تصدقتم فأبقيتم - وفي رواية : فأمضيتم " وليهن الإنفاق منها عليكم كما يهون على الإنسان النفقة من مال غيره إذا كان أذن له فيه .

ولما أمر بالإنفاق ووصفه بما سهله ، سبب عنه ما يرغب فيه فقال مبالغاً في تأكيد الوعد لما في ارتكابه من العسر بالتعبير عنه بالجملة الاسمية وبناء الحكم على الضمير بالوصف بالكبير وغير ذلك : ﴿ فالذين آمنوا ﴾ وبين أن هذا خاص بهم لضيق الحال في زمانهم فقال : ﴿ منكم وأنفقوا ﴾ أي من أموالهم في الوجوه التي ندب إليها على وجه الإصلاح كما

دل عليه التعبير بالإنفاق ﴿ لهم أجر كبير ﴾ أي لا تبلغ عقولكم حقيقة كبره فاغتنموا الإنفاق في أيام استخلافكم قبل عزلكم وإتلافكم .

(79/747)

ولما رغب في الإنفاق والإيمان ، وكان الإيمان مقتضى بالإنفاق ، عجب ممن لا يبادر إلى الحاصل على كل خير ، فقال مفصلاً لما أجمل من الترغيب فيهما ، بادئاً بأبين كل خير ، منفساً عنهم بالتعبير بأداة الاستقبال بالبشارة بالعفو عن الماضي مرهباً موبخاً لمن لا يبادر إلى مضمون ما دخل عليه الاستفهام ، عاطفاً على ما تقديره : فما لكم لا تبادرون إلى ذلك : ﴿ وما ﴾ أي وأيّ شيء ﴿ لكم ﴾ من الأعذار أو غيرها في أنكم ، أو حال كونكم ﴿ لا تؤمنون بالله ﴾ أي تجددون الإيمان – أي تجديداً مستمراً – بالملك الأعلى أي الذي له الملك كله ولأمر كله بعد سماعكم لهذا الكلام : لأن " لا " لا تدخل على مضارع إلا وهو بمعنى الاستقبال ، ولو عبر بعبارة تدل على الحال لربما تعنت متعنت فقال : فأت ما طلب منا ، والذي بعد هذا من الحال التي هي في معنى دالة على هذا ، وهي قوله : ﴿ والرسول ﴾ أي والحال أن الذي له الرسالة العامة ﴿ يدعوكم ﴾ صباحاً ومساء على ما له من مقتضيات القبول منه من حسن السمت وجلالة القدر وإظهار الخوارق وغير ذلك

﴿ لتؤمنوا ﴾ أي لأجل أن تجددوا الإيمان ﴿ بربكم ﴾ أي الذي أحسن تربيتكم بأن جعلكم من أمة هذه النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . وشرفكم به ﴿ وقد ﴾ أي والحال أنه قد ﴿ أخذ ميثاقكم ﴾ أي وقع أخذه فصار في غاية القباحة ترك ما وقع التوثق بسببه بنصب الأدلة والتمكين من النظر بإبداع العقول ، وذلك كله منضم إلى أخذ الذرية من ظهر آدم عليه الصلاة والسلام وإشهادهم على أنفسهم وإشهاد الملائكة عليهم ، وبنى الفعل للمفعول في قراءة أبي عمرو ليكون المعنى أيّ أخذ كان لأن الغدر عند الكرماء شديد من غير نظر إلى معين لا سيما العرب فكيف إذا كان الآخذ الملك الأعظم القادر على كل شيء العالم بكل شيء ، ورسوله الذي تعظيمه من تعظيمه ، كما صرحت به قراءة الجماعة بالبناء للفاعل ولا يخفى الإعراب ، والحاصل أنهم نقضوا الميثاق في الإيمان ، فلم يؤاخذهم حتى أرسل الرسل .

(80/747)

ولما حثهم على تجديد الإيمان على سبيل الاستمرار بالتعجب من ترك ذلك ، وكان كل واحد يدعي العراقة في الخير ، هيجهم وألهبهم بقوله : ﴿ إن كنتم ﴾ أي جبلة ووصفاً ثابتاً

﴿ مؤمنين ﴾ أي عريقين في وصف الإيمان ، وهو الكون على نور الفطرة الأولى . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 438. 440 ﴾

(81/747)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ آمنوا بالله وَرَسُولِهِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواعاً من الدلائل على التوحيد والعلم والقدرة ، أتبعها بالتكاليف ، وبدأ بالأمر بالإيمان ورسوله ، فإن قيل قوله : ﴿ ءَامَنُواْ ﴾ خطاب مع من عرف الله ، أو مع من لم يعرف الله ، فإن كان الأول كان ذلك أمراً بأن يعرفه من عرف ، فيكون ذلك أمراً بتحصيل الحاصل وهو محال ، وإن كان الثاني ، كان الخطاب متوجهاً على من لم يكن عارفاً به ، ومن لم يكن عارفاً به استحال أن يكون عارفاً بأمره ، فيكون الأمر متوجهاً على من يستحيل أن يعرف كونه مأموراً بذلك الأمر ، وهذا تكليف مالا يطاق والجواب : من الناس من قال : معرفة وجود الصانع حاصلة للكل ، وإنما المقصود من هذا الأمر معرفة الصفات .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فالذين ءامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لهم أجرٌ كبيرٌ ﴾ في هذه الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه أمر الناس أولاً بأن يشتغلوا بطاعة الله ، ثم أمرهم ثانياً بترك الدنيا والإعراض عنها وإنفاقها في سبيل الله ، كما قال : ﴿ قُلِ الله ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ [الأنعام : 91] ، فقوله : ﴿ قُلِ الله ﴾ هو المراد ههنا من قوله : ﴿ آمنوا بالله وَرَسُولِهِ ﴾ وقوله : ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ هو المراد ههنا من قوله : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ .

المسألة الثانية :

(82/747)

في الآية وجهان الأول : أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها ، ثم إنه تعالى جعلها تحت يد المكلف ، وتحت تصرفه لينتفع بها على وفق إذن الشرع ، فالمكلف في تصرفه في هذه الأموال بمنزلة الوكيل والنائب والخليفة ، فوجب أن يسهل عليكم الإنفاق من تلك الأموال ، كما يسهل على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه الثاني : أنه جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم ، لأجل أنه نقل أموالهم إليكم على سبيل الإرث ،

فاعتبروا بحالهم ، فإنها كما انتقلت منهم إليكم فستنقل منكم إلى غيركم فلا تبخلوا بها .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في هذا الإنفاق ، فقال بعضهم : هو الزكاة الواجبة ، وقال آخرون : بل يدخل فيه التطوع ، ولا يمتنع أن يكون عاماً في جميع وجوه البر ، ثم إنه تعالى ضمن لمن فعل ذلك أجراً كبيراً فقال : ﴿ فالذين ءامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ قال القاضي : هذه الآية تدل على أن هذا الأجر لا يحصل بالإيمان المنفرد حتى ينضاف هذا الإنفاق إليه ، فمن هذا الوجه يدل على أن من أخل بالواجب من زكاة وغيرها فلا أجر له .

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف ، وذلك لأن الآية تدل على أن من أخل بالزكاة الواجبة لم يحصل له ذلك الأجر الكبير ، فلم قلتم : إنها تدل على أنه لا أجر له أصلاً .

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى وبخ على ترك الإيمان بشرطين أحدهما : أن يدعو الرسول ، والمراد أنه يتلو عليهم القرآن المشتمل على الدلائل الواضحة الثاني : أنه أخذ الميثاق عليهم ، وذكروا في أخذ الميثاق وجهين الأول : ما نصب في العقول من الدلائل الموجبة لقبول دعوة الرسل ، واعلم أن تلك الدلائل كما اقتضت وجوب القبول فهي أوكد من الحلف واليمين ، فلذلك سماه ميثاقاً ، وحاصل الأمر أنه تطابقت دلائل النقل والعقل ، أما النقل فبقوله : ﴿ والرسول يَدْعُوكُمْ ﴾ ، وأما العقل فبقوله : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ ميثاقكم ﴾ ومتى اجتمع هذان النوعان ، فقد بلغ الأمر إلى حيث تمتنع الزيادة عليه ، واحتج بهذه الآية من زعم أن معرفة الله تعالى لا تجب إلا بالسمع ، قال : لأنه تعالى إنما ذمهم بناء على أن الرسول يدعوهم ، فعلمنا أن استحقاق الذم لا يحصل إلا عند دعوة الرسول الوجه الثاني في تفسير أخذ الميثاق : قال عطاء ومجاهد والكلبي والمقاتلان : يريد حين أخرجهم من ظهر آدم ، وقال : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف : 172] وهذا ضعيف ، وذلك لأنه تعالى إنما ذكر أخذ الميثاق ليكون ذلك سبباً في أنه لم يبق لهم عذر في ترك الإيمان بعد ذلك ، وأخذ الميثاق وقت إخراجهم من ظهر آدم غير معلوم للقوم إلا بقول الرسول ، فقبل معرفة صدق الرسول لا يكون ذلك سبباً في وجوب تصديق الرسول ، أما نصب الدلائل والبينات فمعلوم لكل أحد ، فذلك يكون سبباً لوجوب الإيمان بالرسول ، فعلمنا أن تفسير الآية بهذا المعنى غير جائز .

المسألة الثانية :

قال القاضي قوله : ﴿ وَمَا لَكُمْ ﴾ يدل على قدرتهم على الإيمان إذ لا يجوز أن يقال ذلك إلا لمن لا يتمكن من الفعل ، كما لا يقال : مالك لا تطول ولا تبيض ، فيدل هذا على أن الاستطاعة قبل الفعل ، وعلى أن القدرة صالحة للضدين ، وعلى أن الإيمان حصل بالعبد لا بخلق الله .

المسألة الثالثة :

(84/747)

قرئ : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ ميثاقكم ﴾ على البناء للفاعل ، أما قوله : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فالمعنى إن كنتم تؤمنون بشيء لأجل دليل ، فما لكم لا تؤمنون الآن ، فإنه قد تطابقت الدلائل النقلية والعقلية ، وبلغت مبلغاً لا يمكن الزيادة عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 188.189 ﴾

(85/747)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ آمِنُواْ باللهِ ورَسُولِهِ ﴾

أي صدّقوا أن الله واحد وأن محمداً رسوله ﴿ وَأَنفِقُواْ ﴾ تصدّقوا .

وقيل أنفقوا في سبيل الله .

وقيل : المراد الزكاة المفروضة .

وقيل : المراد غيرها من وجوه الطاعات وما يقرب منه ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾

دليل على أن أصل الملك لله سبحانه ، وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذي يرضي الله

فيثيبه على ذلك بالجنة .

فمن أنفق منها في حقوق الله وهان عليه الإنفاق منها ، كما يهون على الرجل النفقة من مال

غيره إذا أذن له فيه ، كان له الثواب الجزيل والأجر العظيم .

وقال الحسن : ﴿ مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ بوراثتكم إياه عمن كان قبلكم .

وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم في الحقيقة ، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النوّاب والوكلاء ،

فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحق قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم .

﴿ فالذين آمَنُواْ ﴾ وعملوا الصالحات ﴿ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ ﴾ في سبيل الله ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ

﴾ وهو الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بالله ﴾ استفهام يراد به التوبيخ .

أي أيّ عذر لكم في ألاّ تؤمنوا وقد أزيحت العلل؟! ﴿ والرسول يَدْعُوكُمْ ﴾ بيّن بهذا أنه لا حكم قبل ورود الشرائع.

وقرأ أبو عمرو: ﴿ وَقَدْ أُخِذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ على غير مسمى الفاعل.

والباقون على مسمَّى الفاعل؛ أي أخذ الله مِيثاقكم.

قال مجاهد: هو الميثاق الأوّل الذي كان وهم في ظهر آدم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه.

وقيل: أخذ مِيثاقكم بأن ركّب فيكم العقول، وأقام عليكم الدلائل والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسول ﴿ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إذ كنتم.

وقيل: أي إن كنتم مؤمنين بالحجج والدلائل.

وقيل: أي إن كنتم مؤمنين بحق يوماً من الأيام؛ فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج والأعلام ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم فقد صحت براهينه.

(86/747)

وقيل: إن كنتم مؤمِنين بالله خالقكم.

وكانوا يعترفون بهذا.

وقيل: هو خطاب لقوم آمنوا وأخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم ميثاقهم فارتدوا.

وقوله : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إن كنتم تقرون بشرائط الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(87/747)

وقال الآلوسى :

﴿ ءامِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾

أي جعلكم سبحانه خلفاء عنه عز وجل في التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة ، عبر جل شأنه عما بأيديهم من الأموال بذلك تحقيقاً للحق وترغيباً في الإنفاق فإن من علم أنها لله تعالى وإنما هو بمنزلة الوكيل يصرفها إلى ما عينه الله تعالى من المصارف هان عليه الانفاق ، أو جعلكم خلفاء عمن كان قبلكم فيما كان بأيديهم فانتقل لكم ، وفيه أيضاً ترغيب في الانفاق وتسهيل له لأن من علم أنه لم يبق لمن قبله وانتقل إليه علم أنه لا يدوم له وينتقل لغيره فيسهل عليه إخراجه ويرغب في كسب الأجر بإنفاقه ويكفيك قول الناس فيما ملكته لقد كان هذا مرة لفلان ، وفي الحديث "يقول ابن آدم : ما لي ما لي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت" والمعنى الأول هو المناسب لقوله تعالى : ﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ [الحديد : 5] وعليه ما حكى أنه قيل لاعرابي : لمن

هذه الإبل ؟ فقال : هي لله تعالى عندي ، ويميل إليه قول القائل

: وما المال والأهلون (إلا ودائع) . . .

ولا بد يوماً أن ترد الودائع

والآية على ما روى عن الضحاك نزلت في تبوك فلا تغفل ﴿ فالذين ءامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ ﴾ حسبما أمروا به ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وعد فيه من المبالغات ما لا يخفى حيث جعل الجملة اسمية وكان الظاهر أن تكون فعلية في جواب الأمر بأن يقال مثلاً آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا تعطوا أجراً كبيراً ، وأعيد ذكر الايمان والانفاق دون أن يقال فمن يفعل ذلك فله أجر كبير وعدل عن فالذين آمنوا منكم وأنفقوا أجر إلى ما في النظم الكريم وفخم الأجر بالتنكير ، ووصف بالكبير ، وقوله عز وجل :

(88/747)

﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بالله ﴾ استئناف قيل : مسوق لتوبيخهم على ترك الايمان حسبما أمروا به بإنكار أن يكون لهم في ذلك عذر ما في الجملة على أن لا تؤمنون حال من ضمير لكم والعامل ما فيه من معنى الاستقرار أي أيّ شيء حصل لكم غير مؤمنين على توجيه الانكار والنفي إلى السبب فقط مع تحقق المسبب وهو مضمون الجملة الحالية أعني عدم

الايمان فأي لإنكار سبب الواقع ونفيه فقط ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح : 13] وقد يتوجه الانكار والنفي في مثل هذا التركيب لسبب الوقوع فيسريان إلى المسبب أيضاً كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ﴾ [يس : 22] الخ ولا يمكن إجراء ذلك هنا لتحقق عدم الايمان وهذا المعنى مما لا غبار عليه ، وقوله تعالى : ﴿ والرسول يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبّكُمْ ﴾ حال من ضمير ﴿ لاَ تُؤْمِنُونَ ﴾ مفيدة على ما قيل : لتوبيخهم على الكفر مع تحقق ما يوجب عدمه بعد توبيخهم عليه مع عدم ما يوجبه ، ولام ﴿ لّتُؤْمِنُواْ ﴾ صلة يدعو وهو يتعدى بها وبإلى أي وأي عذر في ترك الايمان ﴿ والرسول يَدْعُوكُمْ ﴾ إليه وينبهكم عليه ، وجوّز أن تكون اللام تعليلية وقوله سبحانه : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ ميثاقكم ﴾ حال من فاعل يدعوكم أو من مفعوله أي وقد أخذ الله ميثاقكم بالايمان من قبل كما يشعر به تخالف الفعلين مضارعاً وماضياً ، وجوز كونه حالاً معطوفة على الحال قبلها فالجملة حال بعد حال من ضمير ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ والتخالف بالاسمية والفعلية يبعد ذلك في الجملة ، وأياً مّا كان فأخذ الميثاق إشارة إلى ما كان منه تعالى من نصب الأدلة الآفاقية والأنفسية والتمكين من النظر فقوله تعالى : ﴿ والرسول يَدْعُوكُمْ ﴾ إشارة إلى الدليل السمعي وهذا إشارة إلى الدليل العقلي وفي التقديم والتأخير ما يؤيد القول بشرف السمعي على العقلي .

وقال البغوي : هو ما كان حين أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم بأنه سبحانه ربهم فشهدوا وعليه لا مجاز والأول اختيار الزمخشري ، وتعقبه ابن المنير فقال : لا عليه أن يحمل العهد على حقيقته وهو المأخوذ يوم الذر وكل ما أجازه العقل وورد به الشرع وجب الايمان به ، وروى ذلك عن مجاهد .

وعطاء .

والكلبي .

ومقاتل ، وضعفه الإمام بأن المراد إلزام المخاطبين الايمان ونفي أن يكون لهم عذر في تركه وهم لا يعلمون هذا العهد إلا من جهة الرسول فقبل التصديق بالرسول لا يكون سبباً للالزامهم الايمان به ، وقال الطيبي : يمكن أن يقال : إن الضمير في ﴿ أَخَذَ ﴾ إن كان لله تعالى فالمناسب أن يراد بالميثاق ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا اهبطوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ﴾

[البقرة : 38] الخ لأن المعنى ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنّى هُدًى ﴾ [طه : 123] برسول أبعثه إليكم وكتاب أنزله عليكم ، ويدل على الأول قوله سبحانه : ﴿ والرسول يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ ﴾ وعلى الثاني ﴿ هُوَ الذى يُنَزّلُ على عَبْدِهِ ءايات ﴾ [الحديد : 9] الخ ، وإن كان للرسول صلى الله عليه وسلم فالظاهر أن يراد به ما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ الله

ميثاق النبيين لَمَا ءاتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ [آل عمران : 81] على أن يضاف الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الموثق لا الموثق عليه أي الميثاق الذي وثقه الأنبياء على أممهم ، وهو الوجه لأن الخطاب مع الصحابة رضي الله تعالى عنهم كما يدل عليه ما بعد ، ولعل الميثاق نحو ما روينا عن الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في النشاط والكسل .

وعلى النفقة في العسر واليسر .

وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(90/747)

وعلى أن نقول في الله تعالى ولا نخاف لومة لائم انتهى .

ويضعف الأول بنحو ما ضعف به الإمام حمل العهد على ما كان يوم الذر ، وضعف الثاني أظهر من أن ينبه عليه .

والخطاب قال "صاحب الكشف" : عام يوبخ من لم يؤمن منهم بعدم الايمان ثم من آمن بعدم الانفاق في سبيله .

وكلام أبي حيان ظاهر في أنه للمؤمنين، وجعل ﴿ آمنوا ﴾ [الحديد : 7] أمراً بالثبات على الايمان ودوامه ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ ﴾ الخ على معنى كيف لا تثبتون على الايمان ودواعي ذلك موجودة.

(91/747)

وظاهر كلام بعضهم كونه للكفرة وهو الذي أشرنا إليه من قبل، ولعل ما ذكره "صاحب الكشف" أولى إلا أنه قيل عليه: إن آمنوا إذا كان خطاباً للمتصفين بالايمان ولغير المتصفين به يلزم استعمال الأمر في طلب أصل الفعل نظراً لغير المتصفين وفي طلب الثبات نظراً للمتصفين وفيه مافيه، ويحتاج في التفصي عن ذلك إلى إرادة معنى عام للأمرين، وقد يقال أراد أنه عمد إلى جماعة مختلفين في الأحوال فأمروا بأوامر شتى وخوطبوا بخطابات متعددة فتوجه كل أمر وكل خطاب إلى من يليق به وهذا كما يقول الوالي لأهل بلده: أذنوا وصلوا ودرسوا وأنفقوا على الفقراء وأوفوا الكيل والميزان إلى غير ذلك فإن كل أمر ينصرف إلى من يليق به منهم فتأمل، وقرىء ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ ﴾ بالله ورسوله، وقرأ أبو عمرو ﴿ وَقَدْ أَخَذَ ميثاقكم ﴾ بالبناء للمفعول ورفع ﴿ ميثاقكم ﴾ ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ شرط جوابه محذوف دل عليه ما قبل، والمعنى إن كنتم مؤمنين لموجب مّا فهذا

موجب لا موجب وراءه ، وجوز أن يكون المراد إن كنتم ممن يؤمن فما لكم لا تؤمنون والحالة هذه ، وقال الواحدي : أي إن كنتم مؤمنين بدليل عقلي أو نقلي فقد بان وظهر لكم على يدي محمد صلى الله عليه وسلم ببعثته وإنزال القرآن عليه ؛ وأياً مّا كان فلا تناقض بين هذا وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ ﴾ وقال الطبري في ذلك : المراد إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال فآمنوا الآن ؛ وقيل : المراد إن كنتم مؤمنين بموسى وعيسى عليهما السلام فآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم فإن شريعتهما تقتضي الايمان به عليه الصلاة والسلام أو إن كنتم مؤمنين بالميثاق المأخوذ عليكم في عالم الذر فآمنوا الآن ، وقيل : المراد إن دمتم على الايمان فأنتم في رتب شريفة وأقدار رفيعة ، والكل كما ترى .

(92/747)

وظاهر الأخير أن الخطاب مع المؤمنين وهو الذي اختاره الطيبي ، وقال في هذا الشرط : يمكن أن يجري على التعليل كما في قوله تعالى : ﴿ يحْزَنونَ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ اتقوا الله وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ الربا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : 278] لأن الكلام مع المؤمنين على سبيل التوبيخ والتقريع يدل عليه ما بعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(93/747)

وقال ابن عاشور :

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾

استئناف وقع موقع النتيجة بعد الاستدلال فإن أول السورة قرر خضوع الكائنات إلى الله تعالى وأنه تعالى المتصرف فيها بالإيجاد والإعدام وغير ذلك فهو القدير عليها ، وأنه عليم بأحوالهم مطّلع على ما تضمره ضمائرهم وأنهم صائرون إليه فمحاسبهم ، فلا جرم تهيأ المقام لإبلاغهم التذكير بالإيمان به إيماناً لا يشوبه إشراك والإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم إذ قد تبين صدقه بالدلائل الماضية التي دلت على صحة ما أخبرهم به مما كان محل ارتيابهم وتكذيبهم كما أشار إليه قوله : ﴿ والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ﴾ [الحديد : 8] .

فذلك وجه عطف ﴿ ورسوله ﴾ على متعلق الإيمان مع أن الآيات السابقة ما ذكرت إلا دلائل صفات الله دون الرسول صلى الله عليه وسلم

فالخطاب بـ ﴿ آمنوا ﴾ للمشركين ، والآية مكية حسب ما رُوي في إسلام عُمَر وهو الذي يلائم اتصال قوله : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله ﴾ [الحديد : 8] الخ بها .

والمراد بالإنفاق المأمور به : الإنفاق الذي يدعو إليه الإيمان بعد حصول الإيمان وهو الإنفاق على الفقير ، وتخصيص الإنفاق بالذكر تنويه بشأنه ، وقد كان أهل الجاهلية لا ينفقون إلا في

اللذات ، والمفاخرة والمقامرة ، ومعاقرة الخمر ، وقد وصفهم القرآن بذلك في مواضع كثيرة كقوله : ﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ﴾ [الحاقة : 34] وقوله : ﴿ بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لّمّاً وتحبون المال حباً جماً ﴾ [الفجر : 17 20] وقوله : ﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ﴾ [التكاثر : 1 ، 2] إلى آخر السورة .

(94/747)

وقيل : نزلت في غزوة تبوك يعني الإنفاق بتجهيز جيش العُسْرة قاله ابن عطية عن الضحاك ، فتكون الآية مدنية ويكون قوله : ﴿ آمنوا ﴾ أمراً بالدوام على الإيمان كقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ [النساء : 136]

ويجوز أن يكون أمراً لمن في نفوسهم بقية نفاق أو ارتياب ، وأنهم قبضوا أيديهم عن تجهيز جيش العُسرة كما قال تعالى : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض إلى قوله : ويقبضون أيديهم ﴾ [التوبة : 67] ، فهم إذا سمعوا الخطاب علموا أنهم المقصود على نحو ما في آيات سورة براءة ، ولكن يظهر أن سنَة غزوة تبوك لم يبق عندها من المنافقين عدد يعتد به فيوجه إليه خطاب كهذا .

وجيء بالموصول في قوله : ﴿ مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ دون أن يقول : وأنفقوا من أموالكم أو مما رزقكم الله لما في صلة الموصول من التنبيه على غفلة السامعين عن كون المال لله جعلَ الناسَ كالخلائف عنه في التصرف فيه مدةً مّا ، فلما أمرهم بالإنفاق منها على عباده كان حقاً عليهم أن يمتثلوا لذلك كما يمتثل الخازن أمرَ صاحب المال إذا أمره بإنفاذ شيء منه إلى من يعيِّنه .

والسين والتاء في ﴿ مستخلفين ﴾ للمبالغة في حصول الفعل لا للطلب لاستفادة الطلب من فعل ﴿ جعلكم ﴾ .

ويجوز أن تكون لتأكيد الطلب .

والفاء في قوله : ﴿ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾ تفريع وتسبب على الأمر بالإيمان والإنفاق لإفادة تعليله كأنه قيل لأن الذين آمنوا وأنفقوا أعددنا لهم أجراً كبيراً .

والمعنى على وجه كون الآية مكية : أن الذين آمنوا من بينكم وأنفقوا ، أي سبقوكم بالإيمان والإنفاق لهم أجر كبير ، أي فاغتنموه وتداركوا ما فاتوكم به .

و(مِن) للتبعيض ، أي الذين آمنوا وهم بعض قومكم .

وفي هذا إغراء لهم بأن يماثلوهم .

ويجوز أن يكون فعلا المضيِّ في قوله : ﴿ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا ﴾ مستعملان في معنى المضارع للتنبيه عن إيقاع ذلك .

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8)

ظاهر استعمال أمثال قوله : ﴿ وما لكم لا تؤمنون ﴾ أن يكون استفهاماً مستعملاً في التوبيخ والتعجيب ، وهو الذي يناسب كون الأمر في قوله : ﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾ مستعملاً في الطلب لا في الدوام .

وتكون جملة ﴿ لا تؤمنون ﴾ حالاً من الضمير المستتر في الكون المتعلق به الجار والمجرور كما تقول : ما لك قائماً ؟ بمعنى ما تصنع في حال القيام .

والتقدير : وما لكم كافرين بالله ، أي ما حصل لكم في حالة عدم الإيمان .

وجملة ﴿ والرسول يدعوكم ﴾ حال ثانية ، والواو واو الحال لا العطف ، فهما حالان متداخلتان .

والمعنى : ماذا يمنعكم من الإيمان وقد بين لكم الرسول من آيات القرآن ما فيه بلاغ وحجة على أن الإيمان بالله حق فلا عذر لكم في عدم الإيمان بالله فقد جاءتكم بينات حقيّته فتعين أن إصراركم على عدم الإيمان مكابرة وعناد .

وعلى هذا الوجه فالميثاق المأخوذ عليهم هو ميثاق من الله ، أي ما يماثل الميثاق من إيداع الإيمان بوجود الله وبوحدانيته في الفطرة البشرية فكأنه ميثاق قد أخذ على كل واحد من الناس في الأزل وشرط التكوين فهو ناموس فطري .

وهذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ وقد تقدم في سورة الأعراف (172) .

فضمير ﴿ أخذ ﴾ عائد إلى اسم الجلالة في قوله : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله ﴾ والمعنى : أن النفوس لو خلت من العناد وعن التمويه والتضليل كانت منساقة إلى إدراك وجود الصانع ووحدانيته وقد جاءهم من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ما يكشف عنهم ما غشى على إدراكهم من دعاء أئمة الكفر والضلال .

وجملة ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ مستأنفة ، وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله : ﴿ والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ﴾ .

واسم فاعل في قوله ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ مستعمل في المستقبل بقرينة وقوعه في سياق الشرط ، أي فقد حصل ما يقتضي أن تؤمنوا من السبب الظاهر والسبب الخفي المرتكز في

الجبلة .

ويرجح هذا المعنى أن ظاهر الأمر في قوله : ﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾ [الحديد : 7] أنه لطلب إيجاد الإيمان كما تقدم في تفسيرها وأن الآية مكية .

وقرأ الجمهور ﴿ أخذ ﴾ بالبناء للفاعل ونصب ﴿ ميثاقكم ﴾ على أن الضمير عائد إلى اسم الجلالة ، وقرأه أبو عمرو ﴿ أُخِذ ﴾ بالبناء للنائب ورفع ﴿ ميثاقُكم ﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(97/747)

قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (9) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وصفه بالربوبية ، دل عليها بقوله : ﴿ هو ﴾ أي وحده لا غيره ﴿ الذي ينزل ﴾ أي على سبيل التدريج والموالاة بحسب الحاجة .

ولما كان الخطاب في هذه السورة للمخلص ، قال مضيفاً إلى ضميره غير مقرون بما يدل على الجلال والكبرياء ﴿ على عبده ﴾ أي الذي هو أحق الناس بحضرة جماله وإكرامه لأنه ما تعبد لغيره قط ﴿ آيات ﴾ أي علامات هي من ظهورها حقيقة بتأن يرجع إليها ويتقيد بها ﴿ بينت ﴾ جداً على ما له من النعوت التي هي في غاية الوضوح ﴿ ليخرجكم ﴾ أي الله أي عبده بما أنزل إليه مع أنه بشر مثلكم ، والجنس إلى جنسه أميل ومنه أقبل ، ولا سيما إن كان قريباً ولبيباً أريباً ﴿ من الظلمات ﴾ التي أنتم منغمسون فيها من الحظوظ والنقائص التي جبل عليها الإنسان والغفلة والنسيان ، الحاملة على تراكم الجهل ، فمن آتاه سبحانه العلم والإيمان فقد أخرجه نم هذه الظلمات التي طرأت عليه ﴿ إلى النور ﴾ الذي كان وصفاً لروحه وفطرته الأولى السليمة .

(98/747)

ولما كان التقدير : فإن الله به للطيف خبير ، عطف عليه قوله مؤكداً لأجل زلزال من يطول به البلاء من المؤمنين وإنكار الكفار : ﴿ وإن الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ بكم ﴾

قدم الجارّ لأن عظيم رحمته لهذه الأمة موجب لعد نعمته على غيرنا عدماً بالنسبة إلى نعمته علينا ﴿لرؤوف رحيم﴾ أي كنتم بالنظر إلى رحمته الخاصة التي هي لإتمام النعمة صنفين: منكم من كان له به وصلة بما يفعل في أيام جاهليته من الخيرات كالإنفاق في سبيل المعروف، وعبر بالإنفاق لكونه خيراً لا رياء ونحوه فيه كالصديق. رضى الله عنه. فعاد عليه، بعد عموم رحمته بالبيان، بخصوص رحمة عظيمة أوصلته إلى أعظم درجات العرفان، ومنكم من كان بالغاً في اتباع الهوى فابتدأه بعد عموم رحمة البيان بخصوص رحمة هداه بها إلى أعمال الجنان، وهي دون ما قبلها في الميزان، وفوقها من حيث إنها بدون سبب من المرحوم.

(99/747)

ولما أمرهم بالإيمان والإنفاق، وكان الإيمان مع كونه الأساس الذي لا يصح عمل بدونه ليس فيه شيء من خسران أو نقصان، فبدأ به لذلك، ورغب بختم الآية بالإشارة بالرأفة إلى أن من توصل إليه بشيء من الإيمان أو غيره زاده من فضله "من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً - إلى قوله: ومن أتاني يمشي أتيته هرولة" عطف عليه الترغيب في التوصل إليه بالإنفاق منكراً على من تركه موبخاً لمن حاد عنه هو يعلم أنه فان، مفهماً بزيادة "أن"

المصدرية اللوم على تركه في جميع الأزمنة الثلاثة فقال : ﴿ وما ﴾ أي وأيّ شيء يحصل ﴿ لكم ﴾ في ﴿ ألا تنفقوا ﴾ أي توجدوا الإخراج للمال ﴿ في سبيل الله ﴾ أي في كل ما يرضي الملك الأعظم الذي له صفات الكمال لتكون لكم به وصلة فيخصكم بالرأفة التي هي أعظم الرحمة ، فإنه أم يخل به أحد عن وجه خير إلا سلط الله عليه غرامة في وجه شر ، وأظهر موضع الإضمار في جملة حالية باعثاً على الإنفاق بأبلغ بعث فقال : ﴿ ولله ﴾ تأكيداً للعظمة بالندب إلى ذلك باستحضار جميع صفات الكمال لا سيما صفة الإرث المقتضية للزهد في الموروث ﴿ ميراث ﴾ أي الإرث والموروث والموروث عنه وغير ذلك ﴿ السماوات والأرض ﴾ جميعاً لا شيء فيهما أو منهما إلا هو كذلك يزول عن المنتفع به ويبقى لله بقاء الإرث ، ومن تأمل أنه زائل هو وكل ما في يده والموت من ورائه ، ويد طوارق الحوادث مطبقة به ، وعما قليل ينقل ما في يده إلى غيره هان عليه الجود بنفسه وماله .

ولما رغبهم في الإنفاق على الإطلاق ، رغبهم في المبادرة إليه ، مادحاً أهله خاصاً منهم أهل السياق فقال : ﴿ لا يستوي ﴾ .

ولما كان المراد أهل الإسلام بين بقوله : ﴿ منكم من أنفق ﴾ أي أوجد الإنفاق في ماله وجميع قواه وما يقدر عليه .

ولما كان المقصود الإنفاق في زمان الإيمان لا مطلق الزمان، خص بالجارّ فقال: ﴿من قبل الفتح﴾ أي الذي هو فتح جميع الدنيا في الحقيقة وهو فتح مكة الذي كان سبباً لظهور الدين على الدين كله لما نال المنفق إذ ذاك بالإنفاق من كثرة المشاق لضيق المال حينئذ، وذلك مستلزم لكون المنفق أنفذ بصيرة ونفقته أعظم غنّى وأشد نفعاً، وفيه دليل على فضل أبي بكر - رضى الله عنه - فإنه أول من أنفق ولم يسبقه في ذلك أحد، وفيه نزلت الآية - كما حكاه البغوي عن الكلبي.

ولما كان المراد بالإيمان خدمة الرحمة، وكان الإنفاق وإن كان مصدقاً للإيمان لا يكمل تصديقه إلا ببذل النفس قال: ﴿وقاتل﴾ أي سعياً في إنفاق نفسه لمن آمن به، وحذف المنفي للتسوية به وهو من لم ينفق مطلقاً أو بقيد القبلية لدلالة ما بعده، ولعله أفرد الضمير إشارة إلى قلة السابقين.

ولما كان نفي المساواة لا يعرف منها الفاضل من غيره، وقد كان حذف قسيم من أنفق لوضوحه والتنفير منه ودلالة ما بعده عليه، نفى اللبس بقوله: ﴿أولئك﴾ أي المنفقون المقاتلون وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، المقربون من أهل الرتبة العية لمبادرتهم إلى الجود بالنفس والمال ﴿أعظم درجة﴾ وبعظم الدرجة يكون عظم صاحبها ﴿من الذين أنفقوا﴾ ولما كان المراد التفضيل على أوجد الإنفاق والقتال في

زمان بعد ذلك ، لا على من استغرق كل زمان بعده بالإنفاق والقتال أدخل الجار فقال : ﴿ من بعد وقاتلوا ﴾ ولما كان التفضيل مفهماً اشتراك الكل في الفضل ، صرح به ترغيباً في الإنفاق على كل حال فقال : ﴿ وكلاً ﴾ أي من القسمين ﴿ وعد الله ﴾ أي الذي له الجلال والكمال والإكرام ﴿ الحسنى ﴾ أي الدرجة التي هي غاية الحسن وإن كانت في نفسها متفاوتة ، وقرأ ابن عامر ﴿ وكل ﴾ وهو أوفق لما عطف عليه .

(101/747)

ولما كان زكاء الأعمال إنما هو بالنيات ، وكان التفضيل مناط العلم ، قال مرغباً في إحسان النيات مرهباً من التقصير فيها : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة الشاملة بجميع صفات الكمال ، وقدم الجار إعلاماً بمزيد اعتناء بالتمييز عند التفضيل فقال : ﴿ بما تعملون ﴾ أي تجددون عمله على مر الأوقات ﴿ خبير ﴾ أي عالم بباطنه وظاهره علماً لا مزيد عليه بوجه ، فهو يجعل جزاء الأعمال على قدر النيات التي هي أرواح صورها .

ولما فضل السابقين بالإنفاق ، ووعد بالحسنى اللاحقين بحسن الاتباع ، وأشار إلى أنه ربما ألحقهم ببعضهم بصفاء الإخلاص فتوفرت الدواعي على البذل ، أثمر ذلك قوله مسيماً الصدقة التي صورتها صورة إخراج من غير عوض باسم القرض الذي هو إخراج بعوض

ترغيباً فيها لما أعد عليها من الجزاء المحقق فكيف إذا كان مضاعفاً : ﴿ من ﴾ وأكد بالإشارة بقوله : ﴿ ذا ﴾ لأجل ما للنفوس من الشح ﴿ الذي يقرض الله ﴾ أي يعطي الذي له جميع صفات الجلال والإكرام بإعطاء المستحق لأجله عطاء من ماله هو على صورة القرض لرجائه الثواب ﴿ قرضاً حسناً ﴾ أي طيباً خالصاً فيه متحرياً به أفضل الوجوه طيبة به النفس من غير من ولا كدر بتسويف ونحوه .

ولما كان ما يعطي الله المنفق من الجزاء مسبباً عن إنفاقه ، ربطه بالفاء فقال عطفاً على ﴿ يقرض ﴾ : ﴿ فيضاعفه له ﴾ مرغباً فيه بجعله مبالغاً بالتضعيف أولاً وجعله من باب المفاعلة ثانياً ، وكذا التفضيل في قراءة ابن كثير وابن عامر ويعقوب ﴿ فيضعفه ﴾ وقرأه ابن عامر ويعقوب بالنصب جواباً للاستفهام تأكيداً للربط والتسبيب .

ولما كانت المضاعفة منه سبحانه لا يعلم كنهها إلى هو قال : ﴿ وله ﴾ أي المقرض من بعد ما تعقلونه من المضاعفة زيادة على ذلك ﴿ أجر ﴾ لا يعلم قدره إلى الله ، وهو معنى وصفه بقوله : ﴿ كريم ﴾ أي حسن طيب زاك نام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 440.443 ﴾

(102/747)

فصل

قال الفخر :

﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

قال القاضي : بين بذلك أن مراده بإنزال الآيات البينات التي هي القرآن ، وغيره من المعجزات أن يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ولو كان تعالى يريد من بعضهم الثبات على ظلمات الكفر ، ويخلق ذلك فيهم ، ويقدره لهم تقديراً لا يقبل الزوال لم يصح هذا القول ، فإن قيل : أليس أن ظاهره يدل على أنه تعالى يخرج من الظلمات إلى النور ، فيجب أن يكون الإيمان من فعله ؟ قلنا : لو أراد بهذا الإخراج خلق الإيمان فيه لم يكن لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُنَزِّلُ على عَبْدِهِ ءايات بينات لِّيُخْرِجَكُمْ ﴾ معنى ، لأنه سواء تقدم ذلك أو لم يتقدم ، فخلقه لما خلقه لا يتغير ، فالمراد إذن بذلك أنه يلطف بهم في إخراجهم من الظلمات إلى النور ولولا ذلك لم يكن بأن يصف نفسه بأنه يخرجهم من الظلمات إلى النور أولى من أن يصف نفسه بأنه يخرجهم من النور إلى الظلمات .

واعلم أن هذا الكلام على خسته وروغته معارض بالعلم ، وذلك لأنه تعالى كان عالماً بأن علمه سبحانه بعدم إيمانهم قائم ، وعالماً بأن هذا العلم ينافي وجود الإيمان ، فإذا كلفهم بتكوين أحد الضدين مع علمه بقيام الضد الآخر في الوجود بحيث لا يمكن إزالته وإبطاله ،

فهل يعقل مع ذلك أن يريد بهم ذلك الخير والإحسان ، لا شك أن مما لا يقوله عاقل ، وإذا توجهت المعارضة زالت تلك القوة ، أما قوله : ﴿ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فقد حمله بعضهم على بعثة محمد صلى الله عليه وسلم فقط ، وهذا التخصيص لا وجه له ، بل يدخل فيه ذلك مع سائر ما يتمكن به المرء من أداء التكاليف .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السموات والأرض ﴾ .

(103/747)

لما أمر أولاً بالإيمان وبالإنفاق ، ثم أكد في الآية المتقدمة إيجاب الإيمان أتبعه في هذه الآية بتأكيد إيجاب الإنفاق ، والمعنى أنكم ستموتون فتورثون ، فهلا قدمتموه في الإنفاق في طاعة الله ، وتحقيقه أن المال لا بد وأن يخرج عن اليد ، إما بالموت وإما بالإنفاق في سبيل الله ، فإن وقع على الوجه الأول ، كان أثره اللعن والمقت والعقاب ، وإن وقع على الوجه الثاني ، كان أثره المدح والثواب ، وإذا كان لا بد من خروجه عن اليد ، فكل عاقل يعلم أن خروجه عن اليد بحيث يستعقب المدح والثواب أولى منه بحيث يستعقب اللعن والعقاب .

ثم لما بين تعالى أن الإنفاق فضيلة بين أن المسابقة في الإنفاق تمام الفضيلة فقال :

﴿ لاَ يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفتح وقاتل أولئك أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الذين أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ

وقاتلوا ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

تقدير الآية : لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح ، ومن أنفق من بعد الفتح ، كما قال : ﴿ لاَ يَسْتَوِى أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ [الحشر : 20] إلا أنه حذف لوضوح الحال .

المسألة الثانية :

المراد بهذا الفتح فتح مكة ، لأن إطلاق لفظ الفتح في المتعارف ينصرف إليه ، قال عليه الصلاة والسلام : " لا هجرة بعد الفتح " وقال أبو مسلم : ويدل القرآن على فتح آخر بقوله : ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [الفتح : 27] وأيهما كان ، فقد بين الله عظم موقع الإنفاق قبل الفتح .

المسألة الثالثة :

قال الكلبي : نزلت هذه الآية في فضل أبي بكر الصديق ، لأنه كان أول من أنفق المال على رسول الله في سبيل الله ، قال عمر : "كنت قاعداً عند النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها في صدره بخلال ، فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام ، فقال : مالي أرى أبا بكر عليه عباءة خللها في صدره ؟ فقال : " أنفق ماله علي قبل الفتح "

واعلم أن الآية دلت على أن من صدر عنه الإنفاق في سبيل الله ، والقتال مع أعداء الله قبل الفتح يكون أعظم حالاً ممن صدر عنه هذان الأمران بعد الفتح ، ومعلوم أن صاحب الإنفاق هو أبو بكر ، وصاحب القتال هو علي ، ثم إنه تعالى قدم صاحب الإنفاق في الذكر على صاحب القتال ، وفيه إيماء إلى تقديم أبي بكر ، ولأن الإنفاق من باب الرحمة ، والقتال من باب الغضب ، وقال تعالى : " سبقت رحمتي غضبي " فكان السبق لصاحب الإنفاق ، فإن قيل : بل صاحب الإنفاق هو علي ، لقوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام ﴾ [الإنسان : 8] قلنا : إطلاق القول بأنه أنفق لا يتحقق إلا إذا أنفق في الوقائع العظيمة أموالاً عظيمة ، وذكر الواحدي في البسيط أن أبا بكر كان أول من قاتل على الإسلام ، ولأن علياً في أول ظهور الإسلام كان صبياً صغيراً ، ولم يكن صاحب القتال وأما أبا بكر فإنه كان شيخاً مقدماً ، وكان يذب عن الإسلام حتى ضرب بسببه ضرباً أشرف به على الموت .

المسألة الرابعة :

جعل علماء التوحيد هذه الآية دالة على فضل من سبق إلى الإسلام ، وأنفق وجاهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الفتح ، وبينوا الوجه في ذلك وهو عظم موقع نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام بالنفس ، وإنفاق المال في تلك الحال ، وفي عدد المسلمين قلة ، وفي الكافرين شوكة وكثرة عدد ، فكانت الحاجة إلى النصرة والمعاونة أشد بخلاف ما بعد

الفتح ، فإن الإسلام صار في ذلك الوقت قوياً ، والكفر ضعيفاً ، ويدل عليه قوله تعالى :

﴿ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار ﴾ [التوبة : 100] وقوله عليه الصلاة والسلام : " لا تسبوا أصحابي ، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه "

ثم قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ الله الحسنى والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أي وكل واحد من الفريقين ﴿ وَعَدَ الله بالحسنى ﴾ أي المثوبة الحسنى ، وهي الجنة مع تفاوت الدرجات .

المسألة الثانية :

القراءة المشهورة ﴿ وَكُلاًّ ﴾ بالنصب ، لأنه بمنزلة : زيداً وعدت خيراً ، فهو مفعول وعد ، وقرأ ابن عامر : (وكل) بالرفع ، وحجته أن الفعل إذا تأخر عن مفعوله لم يقع عمله فيه ، والدليل عليه أنهم قالوا : زيد ضربت ، وكقوله في الشعر :

قد أصبحت أم الخيار تدعى . . علي ذنباً كله لم أصنع

روي (كله) بالرفع لتأخر الفعل عنه لموجب آخر ، واعلم أن للشيخ عبد القاهر في هذا الباب كلاماً حسناً ، قال : إن المعنى في هذا البيت يتفاوت بسبب النصب والرفع ، وذلك لأن النصب يفيد أنه ما فعل كل الذنوب ، وهذا لا ينافي كونه فاعلاً لبعض الذنوب ، فإنه إذا قال : ما فعلت كل الذنوب ، أفاد أنه ما فعل الكل ، ويبقى احتمال أنه فعل البعض ، بل عند من يقول : بأن دليل الخطاب حجة يكون ذلك اعترافاً بأنه فعل بعض الذنوب .

أما رواية الرفع ، وهي قوله : كله لم أصنع ، فمعناه أن كل واحد واحد من الذنوب محكوم عليه بأنه غير مصنوع ، فيكون معناه أنه ما أتى بشيء من الذنوب ألبتة ، وغرض الشاعر أن يدعي البراءة عن جميع الذنوب ، فعلمنا أن المعنى يتفاوت بالرفع والنصب ، ومما يتفاوت فيه المعنى بسبب تفاوت الإعراب في هذا الباب قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] فمن قرأ (كل) شيء بالنصب ، أفاد أنه تعالى خلق الكل بقدر ، ومن قرأ (كل) بالرفع لم يفد أنه تعالى خلق الكل ، بل يفيد أن كل ما كان مخلوقاً له فهو إنما خلقه بقدر ، وقد يكون تفاوت الإعراب في هذا الباب بحيث لا يوجب تفاوت المعنى كقوله :

﴿ والقمر قدرناه ﴾ [يس : 39] فإنك سواء قرأت ﴿ والقمر ﴾ بالرفع أو بالنصب فإن المعنى واحد فكذا في هذه الآية سواء قرأت ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحسنى ﴾ أو قرأت

﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الحسنى ﴾ فإن المعنى واحد غير متفاوت .

المسألة الثالثة :

(106/747)

تقدير الآية : وكلا وعده الله الحسنى إلا أنه حذف الضمير لظهوره كما في قوله : ﴿ أهذا الذي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً ﴾ [الفرقان : 41] وكذا قوله : ﴿ واتقوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ [البقرة : 48] ثم قال : ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ والمعنى أنه تعالى لما وعد السابقين والمحسنين بالثواب فلا بد وأن يكون عالماً بالجزئيات ، وبجميع المعلومات ، حتى يمكنه إيصال الثواب إلى المستحقين ، إذ لو لم يكن عالماً بهم وبأفعالهم على سبيل التفصيل ، لما أمكن الخروج عن عهدة الوعد بالتمام ، فلهذا السبب أتبع ذلك الوعد بقوله : ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكروا أن رجلاً من اليهود قال عند نزول هذه الآية ما استقرض إله محمد حتى افتقر ، فلطمه أبو بكر ، فشكا اليهودي ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : ما

أردت بذلك ؟ فقال : ما ملكت نفسي أن لطمته فنزل قوله تعالى : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذين أُوتُوا الكتاب مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الذين أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ﴾ [آل عمران : 186] قال المحققون : اليهودي إنما قال ذلك على سبيل الاستهزاء ، لا لأن العاقل يعتقد أن الإله يفتقر ، وكذا القول في قولهم : ﴿ إِنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء ﴾ [آل عمران : 181] .

المسألة الثانية :

أنه تعالى أكد بهذه الآية ترغيب الناس في أن ينفقوا أموالهم في نصرة المسلمين وقتال الكافرين ومواساة فقراء المسلمين ، وسمي ذلك الإنفاق قرضاً من حيث وعد به الجنة تشبيهاً بالقرض .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في المراد من هذا الإنفاق ، فمنهم من قال : المراد الإنفاقات الواجبة ، ومنهم من قال : بل هو في التطوعات ، والأقرب دخول الكل فيه .

المسألة الرابعة :

ذكروا في كون القرض حسناً وجوهاً أحدها : قال مقاتل : يعني طيبة بها نفسه وثانيها : قال الكلبي : يعني يتصدق بها لوجه الله وثالثها : قال بعض العلماء : القرض لا يكون حسناً حتى يجمع أوصافاً عشرة الأول : أن يكون من الحلال قال عليه الصلاة والسلام : " إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب " وقال عليه الصلاة والسلام : " لا يقبل الله صلاة بغير طهور ، ولا صدقة من غلول " والثاني : أن يكون من أكرم ما يملكه دون أن ينفق الرديء ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ الخبيث مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : 267] ، الثالث : أن تتصدق به وأنت تحبه وتحتاج إليه بأن ترجو الحياة وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ [البقرة : 177] وبقول : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ ﴾ [الإنسان : 8] على أحد التأويلات وقال عليه الصلاة والسلام : " الصدقة أن تعطي وأنت صحيح شحيح تأمل العيش ، ولا تمهل حتى إذا بلغت التراقي قلت لفلان كذا ولفلان كذا " والرابع : أن تصرف صدقتك إلى الأحوج الأولى بأخذها ، ولذلك خص الله تعالى أقواماً بأخذها وهم أهل السهمان الخامس : أن تكتم الصدقة ما أمكنك لأنه تعالى قال : ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفقراء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 271] ، السادس : أن لا تتبعها مناً ولا أذى ، قال تعالى : ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ [البقرة : 264] ، السابع : أن تقصد بها وجه الله ولا ترائي ، كما قال : ﴿ إِلَّا ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى * وَلَسَوْفَ يرضى ﴾ [الليل :

20 ، 21] ولأن المرائي مذموم بالاتفاق الثامن : أن تستحقر ما تعطي وإن كثر ، لأن ذلك قليل من الدنيا ، والدنيا كلها قليلة ، وهذا هو المراد من قوله تعالى :

(108/747)

﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر : 6] في أحد التأويلات التاسع : أن يكون من أحب أموالك إليك ، قال تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : 92] ، العاشر : أن لا ترى عز نفسك وذل الفقير ، بل يكون الأمر بالعكس في نظرك ، فترى الفقير كأن الله تعالى أحال عليك رزقه الذي قبله بقوله : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأرض إِلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا ﴾ [هود : 6] وترى نفسك تحت دين الفقير ، فهذه أوصاف عشرة إذا اجتمعت كانت الصدقة قرضاً حسناً ، وهذه الآية مفسرة في سورة البقرة .

ثم إنه تعالى قال : ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

أنه تعالى ضمن على هذا القرض الحسن أمرين أحدهما : المضاعفة على ما ذكر في سورة البقرة ، وبين أن مع المضاعفة له أجر كريم ، وفيه قولان : الأول : وهو قول أصحابنا أن المضاعفة إشارة إلى أنه تعالى يضم إلى قدر الثواب مثله من التفضيل والأجر الكريم عبارة

عن الثواب ، فإن قيل : مذهبكم أن الثواب أيضاً تفضل فإذا لم يحصل الامتياز لم يتم هذا التفسير الجواب : أنه تعالى كتب في اللوح المحفوظ ، أن كل من صدر منه الفعل الفلاني ، فله قدر كذا من الثواب ، فذاك القدر هو الثواب ، فإذا ضم إليه مثله فذلك المثل هو الضعف والقول الثاني : هو قول الجبائي من المعتزلة أن الأعواض تضم إلى الثواب فذلك هو المضاعفة ، وإنما وصف الأجر بكونه كريماً لأنه هو الذي جلب ذلك الضعف ، وبسببه حصلت تلك الزيادة ، فكان كريماً من هذا الوجه .

المسألة الثانية :

قرأ ابن كثير وابن عامر : (فيضعفه) مشددة بغير ألف ، ثم إن ابن كثير قرأ بضم الفاء وابن عامر بفتح الفاء ، وقرأ عاصم (فيضاعفه) بالألف وفتح الفاء ، وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي : فيضاعفه بالألف وضم الفاء ، قال أبو علي الفارسي : يضاعف ويضعف بمعنى إنما الشأن في تعليل قراءة الرفع والنصب ، أما الرفع فوجهه ظاهر لأنه معطوف على ﴿يُقْرِضُ﴾ ، أو على الإنقطاع من الأول ، كأنه قيل : فهو يضاعف ، وأما قراء النصب فوجهها أنه لما قال : ﴿مَّن ذَا الذى يُقْرِضُ﴾ فكأنه قال : أيقرض الله أحد

قرضاً حسناً ، ويكون قوله : ﴿ فَيُضَاعِفَهُ ﴾ جواباً عن الاستفهام فحينئذ ينصب .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 190 . 194 ﴾

(110/747)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

قال أكثر المفسرين : التسبيح هنا هو التنزيه المعروف في قولهم : سبحان الله ، وهذا عندهم إخبار بصيغة الماضي مضمنه الدوام أن التسبيح مما ذكر دائم مستمر ، واختلفوا هل هذا التسبيح حقيقة أو مجاز على معنى أثر الصنعة فيها تنبه الرائي على التسبيح ، فقال الزجاج وغيره : والقول بالحقيقة أحسن ، وقد تقدم القول فيه غير مرة ، وهذا كله في الجمادات ، وأما ما يمكن التسبيح منه فقول واحد إن تسبيحهم حقيقة ، وقال قوم من المفسرين : التسبيح في هذه السورة : الصلاة ، وهذا قول متكلف ، فأما فيمن يمكن منه ذلك فسائغ ، وأما سجود ظلال الكفار هي صلاتهم ، وأما في الجمادات فيقلق ، وذلك أن خضوعها وخشوع هيئاتها قد يسمى في اللغة سجوداً أو استعارة كما قال الشاعر [زيد الخيل] : [الطويل]

ترى الأكم فيها سُجَّداً للحوافر . . . وبعد أن تسمى تلك صلاة الأعلى تحامل .

وقوله : ﴿ ما في السماوات والأرض ﴾ عام في جميع المخلوقات ، وقال بعض النحاة ، التقدير : ما في السماوات وما في الأرض ، ف " ما " نكرة موصوفة حذفها وأقام الصفة مقامها ، ﴿ وهو العزيز ﴾ بقدرته وسلطانه ، ﴿ الحكيم ﴾ بلطفه وتدبيره وحكمته . و﴿ ملك السماوات والأرض ﴾ هو سلطانها الحقيقي الدائم ، لأن ملك البشر مجاز فان .

(111/747)

وقوله تعالى : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي على كل شيء مقدور ، ﴿ هو الأول ﴾ الذي ليس لوجوده بداية مفتتحة . ﴿ والآخر ﴾ الدائم الذي ليس له نهاية منقضية . قال أبو بكر الوراق ﴿ هو الأول ﴾ بالأزلية ، ﴿ والآخر ﴾ بالأبدية ، و﴿ هو الأول ﴾ بالوجود ، إذ كل موجود فبعده وبه . ﴿ والآخر ﴾ إذا ترقى العقل في الموجودات حتى يكون إليه منتهاها ، قال عز وجل : ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ [النجم : 42] . ﴿ والظاهر ﴾ معناه بالأدلة ونظر العقول في صنعته . ﴿ والباطن ﴾ بلطفه وغوامض حكمته وباهر صفاته التي لا يصل إلى معرفتها على ما هي عليه الأوهام .

ويحتمل أن يريد بقوله : ﴿ الظاهر والباطن ﴾ أي الذي بهر وملك فيما ظهر للعقول وفيما خفي عنها فليس في الظاهر غيره حسب قيام الأدلة ، وليس في باطن الأمر وفيما خفي عن النظرة مما عسى أن يتوهم غيره .

وقوله تعالى : ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ عام في الأشياء عموماً تاماً . وقد تقدم القول في خلق السماوات والأرض . وأكثر الناس على أن بدأة الخلق هي في يوم الأحد ، ووقع في مسلم : أن البدأة في يوم السبت ، وقال بعض المفسرين : الأيام الستة من أيام القيامة . وقال الجمهور : بل من أيام الدنيا .

قال القاضي أبو محمد : وهو الأصوب .

والاستواء على العرش هو بالغلبة والقهر المستمرين بالقدرة ، وليس في ذلك ما في قهر العباد من المحاولة والتعب . وقد تقدم القول في مسألة الاستواء مستوعباً في : " طه " وغيرها .

و: ﴿ ما يلج في الأرض ﴾ هو المطر والأموات وغير ذلك ، ﴿ وما يخرج منها ﴾ النبات والمعادن وغير ذلك . ﴿ وما ينزل من السماء ﴾ الملائكة والرحمة والعذاب وغير ذلك . ﴿ وما يعرج ﴾ الأعمال صالحها وسيئها والملائكة وغير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ معناه بقدرته وعلمه وإحاطته . وهذه آية أجمعت الأمة على هذا التأويل فيها ، وأنها مخرجة عن معنى لفظها المعهود ، ودخل في الإجماع من يقول بأن المشتبه كله ينبغي أن يمر ويؤمن به ولا يفسر فقد أجمعوا على تأويل هذه لبيان وجوب إخراجها عن ظاهرها . قال سفيان الثوري معناه : علمه معكم ، وتأولهم هذه حجة عليهم في غيرها .

لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5)

قوله تعالى : ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ خبر يعم جميع الموجودات ، و﴿ الأمور ﴾ هنا ليست جمع المصدر بل هي جميع الموجودات ، لأن الأمر والشيء والوجود أسماء شائعة في جميع الموجودات أعراضها وجوهرها .

وقرأ الجمهور : " تُرجع " بضم التاء ، وقرأ الأعرج والحسن وابن أبي إسحاق : " تَرجع " بفتح التاء . وقوله تعالى : ﴿ يولج الليل في النهار ﴾ الآية تنبيه على العبرة فيما يتجاذبه الليل والنهار من الطول والقصر ، وذلك متشعب مختلف حسب اختلاف الأقطار والأزمان الأربعة ، وذلك بحر من بحار الفكرة لمن تأمله . ﴿ ويولج ﴾ معناه : يدخل . و: ﴿ ذات الصدور ﴾ ما فيها من الأسرار والمعتقدات ، وذلك أغمض ما يكون . وهذا كما قالوا : الذئب مغبوط بذي بطنه ، وكما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : إنما هو ذو بطن بنت خارجة .

قوله تعالى : ﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾ الآية أمر للمؤمنين بالثبوت على الإيمان والنفقة في سبيل الله ، ويروى أن هذه الآية نزلت في غزوة العسرة وهي غزوة تبوك ، قاله الضحاك ، وقال : الإشارة بقوله : ﴿ فالذين آمنوا وأنفقوا ﴾ إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وحكمها باق يندب إلى هذه الأفعال بقية الدهر .

(113/747)

وقوله : ﴿ مما جعلكم مستخلفين ﴾ تزهيد وتنبيه على أن الأموال إنما تصير إلى الإنسان من غيره ويتركها لغيره ، وليس له من ذلك إلا ما تضمنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم : "يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت" ويروى أن رجلاً مر بأعرابي له إبل ، فقال له : يا أعرابي ، لمن هذه الإبل ؟ فقال : هي لله عندي . فهذا موقف مصيب إن كان ممن صحب قوله عمله .

وقوله تعالى : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله ﴾ الآية توطئة لدعائهم وإيجاب لأنهم أهل هذه الرتب الرفيعة فإذا تقرر ذلك فلا مانع من الإيمان ، وهذا كما تريد أن تندب رجلاً إلى عطاء فتقول له : أنت يا فلان من قوم أجواد فينبغي أن تكرم ، وهذا مطرد في جميع الأمور إذا أردت من أحد فعلاً خلقته بخلق أهل ذلك الفعل وجعلت له رتبتهم ، فإذا تقرر في هؤلاء أن

الرسول يدعو وأنهم ممن أخذ الله ميثاقهم فكيف يمتنعون من الإيمان .

وقرأ جمهور القراء : " وقد أَخذ " على بناء الفعل للفاعل . وقرأ أبو عمرو : " قد أُخذ " على بناء الفعل للمفعول والآخذ على كل قول هو الله تعالى ، وهو الآخذ حين الإخراج من ظهر آدم على ما مضى في غير هذه السورة ، والمخاطبة ببناء الفعل للمفعول أشد غلظة على المخاطب ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ [هود : 112] وكما تقول لامرئ : افعل كما قيل لك ، فهو أبلغ من قولك : افعل ما قلت لك .

وقوله : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ قال الطبري المعنى : إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال فالآن .

قال القاضي أبو محمد : وهذا معنى ليس في ألفاظ الآية وفيه إضمار كثير ، وإنما المعنى عندي أن قوله : وإن الرسول ﴿ يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴾ ، يقتضي أن يقدر بأثره : فأنتم في رتب شريفة وأقدار رفيعة إن كنتم مؤمنين ، أي إن دمتم على ما بدأتم به .

وقرأ بعض السبعة: "ينزّل" مثقلة. وقرأ بعضهم: "ينزِل" مخففة. وقرأ الحسن وعيسى بالوجهين. وقرأ الأعمش: "أنزل". والعبد في قوله: ﴿ على عبده ﴾ محمد رسوله. والآيات: آيات القرآن. و﴿ الظلمات ﴾: الكفر و﴿ النور ﴾: الإيمان، وباقي الآية وعد وتأنيس مؤكد.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

والمعنى: ﴿ وما لكم لا تنفقوا في سبيل الله ﴾ وأنتم تموتون وتتركون أموالكم، فناب مناب هذا القول قوله: ﴿ ولله ميراث السماوات والأرض ﴾، وفيه زيادة تذكير بالله وعبرة، وعنه يلزم القول الذي قدرناه.

وقوله تعالى: ﴿ لا يستوي منكم ﴾ الآية، روي أنها نزلت بسبب أن جماعة من الصحابة أنفقت نفقات كثيرة حتى قال ناس: هؤلاء أعظم أجراً من كل من أنفق قديماً، فنزلت الآية مبينة أن النفقة قبل الفتح أعظم أجراً.

وهذا التأويل على أن الآية نزلت بعد الفتح، وقد قيل إنها نزلت قبل الفتح تحريضاً على الإنفاق، والأول أشهر وحكى الثعلبي أنها نزلت في أبي بكر الصديق ونفقاته، وفي معناه قول النبي عليه السلام لخالد بن الوليد: "اتركوا لي أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه".

واختلف الناس في ﴿ الفتح ﴾ المشار إليه في هذه الآية. فقال أبو سعيد الخدري

والشعبي : هو فتح الحديبية. وقد تقدم في سورة " الفتح " تقرير كونه فتحاً ، ورفعه أبو سعيد الخدري إلى النبي عليه السلام أن أفضل ما بين الهجرتين فتح الحديبية. وقال قتادة ومجاهد وزيد بن أسلم : هو فتح مكة الذي أزال الهجرة.

(115/747)

قال القاضي أبو محمد : وهذا هو المشهور الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية. " وقال له رجل بعد فتح مكة : أبايعك على الهجرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الهجرة قد ذهبت بما فيها " . وإن الهجرة شأنها شديد ، ولكن أبايعك على الجهاد وحكم الآية باق غابر الدهر من أنفق في وقت حاجة السبيل أعظم أجراً ممن أنفق مع استغناء السبيل.

وأكثر المفسرين على أن قوله : ﴿ يستوي ﴾ مسند إلى ﴿ من ﴾ ، وترك ذكر المعادل الذي لا يستوي معه ، لأن قوله تعالى : ﴿ من الذين أنفقوا من بعد ﴾ قد فسره وبينه.

ويحتمل أن يكون فاعل ﴿ يستوي ﴾ محذوفاً تقديره : لا يستوي منكم الإنفاق ، ويؤيد ذلك أن ذكره قد تقدم في قوله : ﴿ وما لكم ألا تنفقوا ﴾ ويكون قوله : ﴿ من ﴾ ابتداء وخبره الجملة الآتية بعد.

وقرأ جمهور السبعة : " وكلاًّ وعد الله الحسنى " وهي الوجه ، لأن وعد الله ليس يعوقه عائق على أن ينصب المفعول المقدم . وقرأ ابن عامر : " وكل وعد الله الحسنى " ، فأما سيبويه رحمه الله فقدر الفعل خبر الابتداء ، وفيه ضمير عائد وحذفه عنده قبيح لا يجري إلا في شعر ونحوه ، ومنه قول الشاعر [جرير بن عطية] : [الرجز]

قد أصبحت أم الخيار تدعي . . . عليّ ذنباً كله لم أصنع

قال : ولكن حملوا الخبر على الصفات كقول جرير : [الوافر]

وما شيء حميت بمستباح . . . وعلى الصلات كقوله تعالى : ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ﴾ [الفرقان : 41] وذهب غير سيبويه إلى أن ﴿ وعد ﴾ في موضع الصفة ، كأنه قال : " أولئك كل وعد الله الحسنى " ، وصاحب هذا المذهب حصل في هذا التعسف في المعنى فراراً من حذف الضمير في خبر المبتدأ . و: ﴿ الحسنى ﴾ الجنة ، قاله مجاهد وقتادة ، والوعد يتضمن ما قبل الجنة من نصر وغنيمة .

وقوله تعالى : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ قول فيه وعد ووعيد .

وقوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ الآية ، قال بعض النحويين : ﴿ من ﴾ ابتداء و: ﴿ ذا ﴾ خبر ، و﴿ الذي ﴾ صفة ، وقال آخرون منهم : ﴿ من ﴾ ابتداء و: ﴿ ذا ﴾ زائد مع الذي ، و﴿ الذي ﴾ خبر الابتداء ، وقال الحسن : نزلت هذه الآية في التطوع في جميع أمر الدين . والقرض : السلف ونحوه أن يعطي الإنسان شيئاً وينتظر جزاءه ، والتضعيف من الله هو في الحسنات ، يضاعف الله لمن يشاء من عشرة إلى سبعمائة ، وقد ورد أن التضعيف يربى على سبعمائة ، وقد مر ذكر ذلك في سورة البقرة بوجوهه من التأويل .

وقرأ أبو عمرو ونافع وحمزة والكسائي : "فيضاعفُه" بالرفع على العطف أو على القطع والاستئناف . وقرأ عاصم : "فيضاعفَه" بالنصب في الفاء في جواب الاستفهام ، وفي ذلك قلق . قال أبو علي : لأن السؤال لم يقع عن القرض ، وإنما يقع السؤال عن فاعل القرض ، وإنما تنصب الفاء فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه ، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى ، كأن قوله : ﴿ من ذا الذي يقرض ﴾ بمنزلة أن لو قال : أيقرض الله أحداً فيضاعفه ؟ وقرأ ابن كثير "فيضعّفُه" مشددة العين مضمومة الفاء . وقرأ ذلك ابن عامر ، إلا أنه فتح الفاء .

والأجر الكريم الذي يقرض به رضى وإقبال ، وهذا معنى الدعاء : يا كريم العفو ، أي أن مع

عفوه رضى وتنعيماً وعفو البشر ليس كذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5

صـ ﴾

(117/747)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُنَزِّلُ على عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾

يريد القرآن .

وقيل : المعجزات ؛ أي لزمكم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لما معه من المعجزات ، والقرآنُ أكبرها وأعظمها .

﴿ لِّيُخْرِجَكُمْ ﴾ أي بالقرآن .

وقيل : بالرسول .

وقيل : بالدعوة .

﴿ مِّنَ الظلمات ﴾ وهو الشرك والكفر ﴿ إِلَى النور ﴾ وهو الإيمان .

﴿ وَإِنَّ الله بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي أيُّ شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله ، وفيما يقرِّبكم من ربكم وأنتم تموتون وتخلفون أموالكم وهي صائرة إلى الله تعالى .

فمعنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق .

﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السماوات والأرض ﴾ أي إنهما راجعتان إليه بانقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحق له .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفتح وَقَاتَلَ ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد بالفتح فتح مكة .

وقال الشعبيّ والزهريّ : فتح الحُدَيْبية .

قال قتادة : كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك .

وفي الكلام حذف ؛ أي ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفتح وَقَاتَلَ ﴾ ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل ؛ فحذف لدلالة الكلام عليه .

وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم ؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام ، وفِعل

ذلك كان على المنفقين حينئذ أشقّ والأجر على قدر النَّصَب .

والله أعلم .

(118/747)

الثالثة : روي أشهب عن مالك قال : ينبغي أن يُقدَّم أهل الفضل والعزم ؛ وقد قال الله تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفتح وَقَاتَلَ ﴾ وقال الكلبي : نزلت في أبي بكر رضي الله عنه ؛ ففيها دليل واضح على تفضيل أبي بكر رضي الله عنه وتقديمه ؛ لأنه أوّل من أسلم .

وعن ابن مسعود : أوّل من أظهر الإسلام بسيفه النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ؛ ولأنه أوّل من أنفق على نبيّ الله صلى الله عليه وسلم .

"وعن ابن عمر قال : كنت عند النبيّ صلى الله عليه وسلم وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خَلَّلها في صدره بخِلاَل فنزل جبريل فقال : يا نبيّ اللها مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خَلَّلها في صدره بخِلاَل ؟ فقال : "قد أنفق عليّ ماله قبل الفتح" قال : فإن الله يقول لك اقرأ على أبي بكر السلام وقل له أراضٍ أنت في فقرك هذا أم ساخط ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أبا بكر إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول أراضٍ أنت في فقرك

هذا أم ساخط" ؟ فقال أبو بكر : أأسخط على ربي ؟ إني عن رَبِّي لراضٍ إنّي عن ربّي لراضٍ إني عن ربي لراضٍ قال : "فإن الله يقول لك قد رضيت عنك كما أنت عني راضٍ" فبكى أبو بكر فقال جبريل عليه السلام : والذي بعثك يا محمد بالحقّ ، لقد تَخَلَّلت حملةُ العرش بالعُبِيّ منذ تَخلّل صاحبك هذا بالعباءة ؛ " ولهذا قدّمته الصحابة على أنفسهم ، وأقرُّوا له بالتقدّم والسبق .

وقال عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه : سبق النبيُّ صلى الله عليه وسلم وصَلَّى أبو بكر وثَلَّثَ عمر ؛ فلا أوتي برجل فَضَّلني على أبي بكر إلا جلدته حدّ المفتري ثمانين جلدة وطرح الشهادة .

فنال المتقدّمون من المشقة أكثر مما نال من بعدهم ، وكانت بصائرهم أيضاً أنفذ .

(119/747)

الرابعة : التقدّم والتأخر قد يكون في أحكام الدنيا ، فأما في أحكام الدِّين فقد قالت عائشة رضي الله عنها : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم .

وأعظم المنازل مرتبة الصلاة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم في مرضه : "مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس" الحديث .

وقال : " يؤم القومَ أقرؤهم لكتاب الله " وقال : " وليؤمّكما أكبركما " من حديث مالك بن الحُوَيْرث وقد تقدم .

وفهم منه البخاري وغيره من العلماء أنه أراد كِبر المنزلة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " الولاء لِلكبَر " ولم يعن كبر السن .

وقد قال مالك وغيره : إن للسنّ حقّاً .

وراعاه الشافعي وأبو حنيفة وهو أحقّ بالمراعاة ؛ لأنه إذا اجتمع العلم والسنّ في خيّرين قُدِّم العلم ، وأما أحكام الدنيا فهي مرتبة على أحكام الدِّين ، فمن قُدِّم في الدين قُدِّم في الدنيا .

وفي الآثار : " ليس مِنا من لم يوقِّر كبيرَنَا ويرحمْ صغيرنا ويعرفْ لعالمنا حقَّه " ومن الحديث الثابت في الأفراد : " ما أكرم شاب شيخاً لسِنّه إلا قَيّض الله له عند سنّه من يكرمه "

وأنشدوا :

يا عائباً لِلشيوخ مِن أَشَرِ . . .

دَاخَلَهُ في الصِّبَا ومِن بَذَخِ

اذكر إذا شئتَ أن تُعيّرَهُمْ . . .

جدَّكَ واذكر أباك يا بن أخِ

واعلم بأن الشباب منسلِخٌ . . .

عنك وما وِزْرُه بمنسلِخِ

من لا يعزّ الشيوخَ لا بلغتْ . . .

يوماً به سِنُّه إلى الشّيَخِ

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحسنى ﴾ أي المتقدمون المتناهون السابقون ، والمتأخرون اللاحقون ، وعَدَهم الله جميعاً الجنة مع تفاوت الدرجات .

وقرأ ابن عامر "وَكُلٌّ" بالرفع ، وكذلك هو بالرفع في مصاحف أهل الشام .

الباقون "وَكُلاًّ" بالنصب على ما في مصاحفهم ؛ فمن نصب فعلى إيقاع الفعل عليه أي وعد الله كلاّ الحسنى .

ومن رفع فلأن المفعول إذا تقدم ضعف عمل الفعل ، والهاء محذوفة من وَعَدَه .

(120/747)

قوله تعالى : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً ﴾

ندب إلى الإنفاق في سبيل الله .

وقد مضى في "البقرة" القول فيه .

والعرب تقول لكل من فعل فعلاً حسناً : قد أقرض ؛ كما قال :

وإذا جُوزِيتَ قَرْضاً فاجزه . . .

إِنَّمَا يَجْزِي الفتى ليس الْجَمَلْ

وسمّي قرضاً ؛ لأن القرض أخرج لاسترداد البدل .

أي من ذا الذي ينفق في سبيل الله حتى يبدِله الله بالأضعافِ الكثيرة .

قال الكلبي : "قَرْضاً" أي صدقة "حَسَناً" أي محتسباً مِن قلبه بلا مَنٍّ ولا أذىً .

﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ ما بين السبع إلى سبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف .

وقيل : القرض الحسن هو أن يقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ؛ رواه سفيان عن ابي حيان .

وقال زيد بن أسلم : هو النفقة على الأهل .

الحسن : التطوع بالعبادات .

وقيل : إنه عمل الخير ؛ والعرب تقول : لي عند فلان قرض صِدقٍ وقرض سوء .

القشيري : والقرض الحسن أن يكون المتصدق صادق النية طيب النفس ، يبتغي به وجه الله دون الرياء والسُّمعة ، وأن يكون من الحلال .

ومن القرض الحسن ألا يقصد إلى الرديء فيخرجه ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : 267] وأن يتصدق في حال يأمل الحياة ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن أفضل الصدقة فقال : " أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش ولا تمهل حتى إذا بلغت التراقي قلت لفلان كذا ولفلان كذا " وأن يخفى صدقته ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفقرآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 271] وألاّ يمنّ ؛ لقوله تعالى : ﴿ لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بالمن والأذى ﴾ [البقرة : 264] وأن يستحقر كثير ما يعطي ؛ لأن الدنيا كلها قليلة ، وأن يكون من أحبّ أمواله ؛ لقوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا البر حتى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : 92] وأن يكون كثيراً ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " أفضل الرقاب أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها " ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ وقرأ ابن كثير وابن عامر "فَيُضَعِّفُه" بإسقاط الألف إلا ابن عامر ويعقوب نصبوا الفاء .

وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة "فَيُضَاعِفُه" بالألف وتخفيف العين إلا أن عاصماً نصب الفاء .

ورفع الباقون عطفاً على "يُقْرِضُ" .

وبالنصب جواباً على الاستفهام .

وقد مضى في "البقرة" القول في هذا مستوفى : ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني الجنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾

لما ذكر تعالى تسبيح العالم له ، وما احتوى عليه من الملك ، والتصرف ، وما وصف به نفسه من الصفات العلا ، وختمها بالعالم بخفيات الصدور ، أمر تعالى عباده المؤمنين بالثبات على الإيمان وإدامته ، والنفقة في سبيل الله تعالى .

قال الضحاك : نزلت في غزوة تبوك .

﴿ مستخلفين فيه ﴾ : أي ليست لكم بالحقيقة ، وإنما انتقلت إليكم من غيركم .

وكما وصلت إليكم تتركونها لغيركم ، وفيه تزهيد فيما بيد الناس ، إذ مصيره إلى غيره ، وليس له منه إلا ما جاء في الحديث : "يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت" وقيل لأعرابي : لمن هذه الإبل ؟ فقال : هي لله تعالى عندي .

أو يكون المعنى : إنه تعالى أنشأ هذه الأموال ، فمتعكم بها وجعلكم خلفاء في التصرف فيها ، فأنتم فيها بمنزلة الوكلاء ، فأنفقوا منها في حقوق الله تعالى .

ثم ذكر تعالى ما للمؤمن المنفق من الأجر ، ووصفة بالكرم ليصرعه في أنواع الثواب .

قيل : وفيه إشارة إلى عثمان بن عفان ، حيث بذل تلك النفقة العظيمة في جيش العسرة ، ثم قال : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله ﴾ ، وهو استفهام على سبيل التأنيب والإنكار : أي كيف لا تثبتون على الإيمان ؟ ودواعي ذلك موجودة ، وذلك ركزة فيكم من دلائل العقل .

وموجب ذلك من السمع في قوله : ﴿ والرسول يدعوكم ﴾ لهذا الوصف الجليل .

وقد تقدم أخذ الميثاق عليكم بالإيمان ، فدواعي الإيمان موجودة ، وأسبابه حاصلة ، فلا مانع منه ، ولا عذر في تركه .

و﴿ لا تؤمنون ﴾ حال ، كما تقول : ما لك لا تقوم تنكر عليه انتفاء قيامه ؟ ﴿ والرسول ﴾ : الواو واو الحال ، فالجملة بعده حال ، وقد أخذ حال ثالثة ، وهذا الميثاق قيل : هو الذي أخذ عليهم حين الإخراج من ظهر آدم عليه الصلاة والسلام .

(123/747)

وقيل : ما نصب من الأدلة وركز في العقول من النظر فيها .

﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ : شرط وجوابه محذوف ، أي إن كنتم مؤمنين لموجب مّا ، فهذا هو الموجب لإيمانكم ، أو إن كنتم ممن يؤمن ، فما لكم لا تؤمنون والحالة هذه ؟ وهي دعاء

الرسول وأخذ الميثاق .

وقال الطبري : إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال فالآن .

وقرأ الجمهور : ﴿ وقد أخذ ﴾ مبنياً للفاعل ، ﴿ ميثاقكم ﴾ بالنصب ؛ وأبو عمرو : مبنياً للمفعول ، ميثاقكم رفعاً .

وقال ابن عطية : في قوله : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ وإنما المعنى أن قوله : ﴿ والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴾ يقتضي أن يقدر بأثره ، فأنتم في رتب شريفة وأقدار رفيعة .

﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ : أي إن دمتم على ما بدأتم به .

ولما ذكر توطئة ما يوجب الإيمان دعاء الرسول إياهم للإيمان ، ذكر أنه تعالى هو المنزل على رسوله (صلى الله عليه وسلم) ما دعا به إلى الإيمان ، وذلك الآيات البينات المعجزات ، ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، أي الله تعالى ، إذ هو المخبر عنه ، أو الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، لأنه أقرب .

وقرىء في السبعة : ﴿ ينزل ﴾ مضارعاً ، فبعض ثقل وبعض خفف .

وقراءة الحسن : بالوجهين ؛ وزيد بن علي والأعمش : أنزل ماضياً ، ووصف نفسه تعالى بالرأفة والرحمة تأنيساً لهم .

ولما كان قد أمرهم بالإيمان والإنفاق ، ثم ترك تأنيبهم على ترك الإيمان مع حصول موجبه ،

أنبهم على ترك الإنفاق في سبيل الله مع قيام الداعي لذلك ، وهو أنهم يموتون فيخلفونه .

ونبه على هذا الموجب بقوله : ﴿ ولله ميراث السماوات والأرض ﴾ وهذا من أبلغ البعث على الإنفاق .

وأن لا تنفقوا تقديره : في أن لا تنفقوا ، فموضعه جر أو نصب على الخلاف ، وأن ليست زائدة ، بل مصدرية .

(124/747)

وقال الأخفش : في قوله : ﴿ وما لنا أَن لا نقاتل ﴾ إنها زائدة عاملة تقديره عنده : وما لنا لا نقاتل ، فلذلك على مذهبه في تلك هنا تكون أن ، وتقديره : وما لكم لا تنفقون ، وقد رد مذهبه في كتب النحو .

﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ ، قيل : نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، إذ كان أول من أسلم وهاجر وأنفق رضي الله تعالى عنه ، وكذا من تابعه في السبق في ذلك ، ولذلك قال : ﴿ أولئك أعظم درجة ﴾ .

وقيل : نزلت بسبب أن ناساً من الصحابة أنفقوا نفقات جليلة حتى قيل : إن هؤلاء أعظم أجراً من كل من أنفق .

وهذه الجملة تضمنت تباين ما بين المنفقين.

وقرأ الجمهور: ﴿ من قبل الفتح ﴾؛ وزيد بن علي، قيل: بغير من.

والفتح مكة، وهو المشهور، وقول قتادة وزيد بن أسلم ومجاهد.

وقال أبو سعيد الخدري والشعبي: هو فتح الحديبة، وقد تقدم في أول سورة الفتح كونه فتحاً، ورفعه أبو سعيد إلى النبي (صلى الله عليه وسلم): إن أفضل ما بين الهجرتين فتح الحديبة.

والظاهر أن ﴿ من ﴾ فاعل ﴿ لا يستوي ﴾، وحذف مقابله، وهو من أنفق من بعد الفتح وقاتل، لوضوح المعنى.

﴿ أولئك ﴾: أي الذين أنفقوا قبل الفتح وقبل انتشار الإسلام وفشوّه واستيلاء السلمين على أم القرى، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين جاء في حقهم قوله (صلى الله عليه وسلم): "لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه" وأبعد من ذهب إلى الفاعل بلا يستوي ضمير يعود على الإنفاق، أي لا يستوي، هو الإنفاق، أي جنسه، إذ منه ما هو قبل الفتح وبعده؛ ومن أنفق مبتدأ، وأولئك مبتدأ خبره ما بعده، والجملة في موضع خبر من، وهذا فيه تفكيك للكلام، وخروج عن الظاهر لغير موجب.

وحذف المعطوف لدلالة المقابل كثيرة، فأنفق لا سيما المعطوف الذي يقتضيه وضع الفعل

، وهو يستوي.

وقرأ الجمهور: ﴿ وكلاً ﴾ بالنصب، وهو المفعول الأول لوعد.

(125/747)

وقرأ ابن عامر وعبد الوارث من طريق المادر أي: وكل بالرفع والظاهر أنه مبتدأ، والجملة بعده في موضع الخبر، وقد أجاز ذلك الفراء وهشام، وورد في السبعة، فوجب قبوله؛ وإن كان غيرهما من النحاة قد خص حذف الضمير الذي حذف من مثل وعد بالضرورة.

وقال الشاعر:

وخالد تحمد ساداتنا . . .

بالحق لا تحمد بالباطل

يريده: تحمده ساداتنا، وفر بعضهم من جعل وعد خبراً فقال: كل خبر مبتدأ تقديره: وأولئك كل، ووعد صفة، وحذف الضمير المنصوب من الجملة الواقعة صفة أكثر من حذفه منها إذا كانت خبراً، نحو قوله:

وما أدري أغيرهم تناء . . .

وطول العهد أم مال أصابوا

يريد : أصابوه ، فأصابوه صفة لمال ، وقد حذف الضمير العائد على الموصوف والحسنى : تأنيث الأحسن ، وفسره مجاهد وقتادة بالجنة .

والوعد يتضمن ذلك في الآخرة ، والنصر والغنيمة في الدنيا .

﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ : فيه وعد ووعيد .

وتقدم الكلام على مثل قوله : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ﴾ ، إعراباً وقراءة وتفسيراً ، في سورة البقرة .

وقال ابن عطية : هنا الرفع يعني في يضاعفه على العطف ، أو على القطع والاستئناف .

وقرأ عاصم : فيضاعفه بالنصب بالفاء على جواب الاستفهام ، وفي ذلك قلق .

قال أبو علي ، يعني الفارسي : لأن السؤال لم يقع على القرض ، وإنما وقع السؤال على فاعل القرض ، وإنما تنصب الفاء فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه ، لكن هذه الفرقة ، يعني من القراء ، حملت ذلك على المعنى ، كأن قوله : ﴿ من ذا الذي يقرض ﴾ بمنزلة أن لو قال : أيقرض الله أحد فيضاعفه ؟ انتهى .

وهذا الذي ذهب إليه أبو علي من أنه إنما تنصب الفاء فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه ليس بصحيح ، بل يجوز إذا كان الاستفهام بأدواته الاسمية نحو : من يدعوني فأستجيب له ؟ وأين بيتك فأزورك ؟ ومتى تسير فأرافقك ؟ وكيف تكون فأصحبك ؟ فالاستفهام هنا واقع عن ذات الداعي ، وعن ظرف المكان وظرف الزمان والحال ، لا عن الفعل .

وحكى ابن كيسان عن العرب : أين ذهب زيد فنتبعه ؟ وكذلك : كم مالك فنعرفه ؟ ومن أبوك فنكرمه ؟ بالنصب بعد الفاء .

وقراءة فيضاعفه بالنصب قراءة متواترة ، والفعل وقع صلة للذي ، والذي صفة لذا ، وذا خبر لمن .

وإذا جاز النصب في نحو هذا ، فجوازه في المثل السابقة أحرى ، مع أن سماع بن كيسان ذلك محكياً عن العرب يؤيد ذلك .

والظاهر أن قوله : ﴿ وله أجر كريم ﴾ هو زيادة على التضعيف المترتب على القرض ، أي وله مع التضعيف أجر كريم . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ ءَامِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾

أي جعلكم خلفاءَ في التصرفِ فيهِ من غيرِ أنْ تملكوه حقيقةً عبرَ عمَّا بأيديهم من الأموالِ والأرزاقِ بذلكَ تحقيقاً للحقِّ وترغيباً لهم في الإنفاقِ ، فإنَّ من علمَ أنَّها اللهُ عزَّ وجلَّ وإنَّما هُو بمنزلةِ الوكيلِ يَصرفها إلى ما عيّنه اللهُ تعالى من المصارفِ هانَ عليه الإنفاقُ أو جعلكم خلفاءَ ممَّن قبلكَم فيما كَانَ بأيديهم بتوريثه إيَّاكُم فاعتبرُوا بحالِهم حيثُ انتقلَ منهم إليكم وسينتقلُ منكم إلى مَنْ بعدكُم فلا تبخلُوا به ﴿ فالذين ءامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ ﴾ حسبمَا أُمروا به ﴿ لَهُمْ ﴾ بسببِ ذلكَ ﴿ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وفيه من المُبالغاتِ ما لا يَخفْى حيثُ جعلَ الجملةَ إسميةً ، وأُعيدَ ذكرُ الإيمانِ والإنفاقِ وكُررَ الإسنادُ وفُخم الأجرُ بالتنكيرِ ووصفَ بالكبيرِ .

(128/747)

وقولُه عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بالله ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتوبيخِهم على تركِ الإيمانِ حسبَما أمروا به بإنكارِ أنْ يكونَ لهمُ في ذلك عذرٌ ما في الجملةِ على أنَّ لا تؤمنونَ حالٌ من الضميرِ في لكُم والعاملُ ما فيه من مَعْنى الاستقرارِ أي أيُّ شيءٍ حصلَ لكُم غيرَ

مؤمنينَ ، على توجيه الإنكارِ والنفي إلى السببِ فقطْ مع تحقيق المسببِ لا إلى السببِ والمسببِ جميعاً كَما في قولِه تعالى : ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ الذى فَطَرَنى ﴾ فإنَّ همزةَ الاستفهامِ كَما تكونُ تارةً لإنكارِ الواقعِ كما في أتضربُ أباكَ وأخرى لإنكارِ الوقوعِ كما في أأضربُ أبي كذلكَ ما الاستفهاميةُ قد تكونُ لإنكارِ سببِ الواقعِ ونفيِه فقطْ كما فيما نحنُ فيهِ وفي قولِه تعالى : ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ فيكونُ مضمونُ الجملةِ الحاليةِ مُحققاً فإنّ كلاًّ من عدمِ الإيمانِ وعدمِ الرجاءِ أمرٌ محققٌ قد أنكرَ ونفيَ سببُه وقد تكونُ لإنكارِ سببِ الوقوعِ ونفيِه فيسريانِ إلى المسببِ أيضاً كَما في قولِه تعالى : ﴿ وَمَا لِىَ لآ أَعْبُدُ ﴾ إلى آخرِه فيكونُ مضمونُ الجملةِ الحاليةِ مفروضاً قطعاً فإنَّ عدمَ العبادةِ أمرٌ مفروضٌ حتماً قد أنكرَ ونُفيَ سببُه فانتفَى نفسُه أيضاً . وقوله تعالى :

(129/747)

﴿ والرسول يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ ﴾ حالٌ من ضميرِ لا تُؤمنون مفيدةٌ لتوبيخِهم على الكُفرِ مع تحققِ ما يُوجبُ عدمَهُ بعدَ توبيخِهم عليهِ مع عدمِ ما يُوجبه ، أيْ وأيُّ عذرٍ في تركِ الإيمانِ والرسولُ يدعُوكم إليهِ وينبهكم عليهِ . وقولُه تعالى : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ ميثاقكم ﴾ حالٌ من مفعولِ يدعُوكم أيْ وقد أخذَ اللهُ تعالَى ميثاقَكُم بالإيمانِ من قبلُ وذلك بنصب

الأدلةِ والتمكينِ من النظرِ . وقرِئ وقدْ أُخذَ مبنياً للمفعولِ برفعِ ميثاقكم ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ لموجبٍ ما فإنَّ هذا موجبٌ لا موجبَ وراءَهُ . ﴿ هُوَ الذى يُنَزِّلُ على عَبْدِهِ ﴾ حسبَما يعنُّ لكُم منَ المصالحِ ﴿ ءاياتٍ بَيّنَاتٍ ﴾ واضحاتٍ ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ ﴾ أي اللهُ تعالَى أو العبدُ بها ﴿ مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ من ظلماتِ الكفرِ إلى نورِ الإيمانِ ﴿ وَإِنَّ الله بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيثُ يهديكُم إلى سعادةِ الدارينِ بإرسالِ الرسولِ وتنزيلِ الآياتِ بعد نصبِ الحُججِ العقليةِ .

(130/747)

وقولُه تعالَى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ توبيخٌ لهم على تركِ الإنفاقِ المأمورِ به بعدَ توبيخِهم على تركِ الإيمانِ بإنكارِ أنْ يكونَ لهم في ذلكَ أيضاً عذرٌ من الأعذارِ .

وحذفُ المفعولِ لظهورِ أنَّه الذي بُيّنَ حالُه فيما سبقَ وتعيينُ المُنفَقِ فيهِ لتشديدِ التوبيخِ ، أيْ وأيُّ شيءٍ لكُم في أنْ لا تنفقُوا فيمَا هُو قربةٌ إلى اللهِ تعالَى ما هُو له في الحقيقةِ وإنَّما أنتُم خلفاؤُه في صرفِه إلى ما عيَّنهُ من المصارفِ . وقولُه : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السموات والأرض ﴾ حالٌ من فاعلِ لا تنفقُوا ومفعولِه مؤكدةٌ للتوبيخِ فإنَّ تركَ الإنفاقِ بغيرِ سببٍ قبيحٌ منكرٌ ومع تحققِ ما يوجبُ الإنفاقَ أشدُّ في القبحِ وأدخلُ في الإنكارِ ، فإنَّ بيانَ بقاءِ جميعِ ما في

السمواتِ والأرضِ من الأموالِ بالآخرةِ للهِ عزَّ وجلَّ من غيرِ أنْ يبقَى من أصحابِها أحدٌ أقوى في إيجابِ الإنفاقِ عليهم من بيانِ أنَّها للهِ تعالى في الحقيقةِ وهم خُلفاؤه في التصرفِ فيها كأنَّه قيلَ وما لكُم في تركِ إنفاقِها في سبيلِ اللهِ والحالُ أنَّه لا يبقَى لكُم منها شيءٌ بل تَبْقى كلُّها للهِ تعالَى، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في موقعِ الإضمارِ لزيادةِ التقريرِ وتربيةِ المهابةِ.

(131/747)

وقولُه تعالى: ﴿ لاَ يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفتح وقاتل ﴾ بيانٌ لتفاوتِ درجاتِ المنفقينَ حسبَ تفاوتِ أحوالِهم في الإنفاقِ بعدَ بيانِ أنَّ لهم أجراً كبيراً على الإطلاقِ حثّاً لهم على تحرِّي الأفضلِ، وعطفُ القتالِ على الإنفاقِ للإيذانِ بأنَّه من أهمِّ موادِّ الإنفاقِ مع كونِه في نفسِه من أفضلِ العباداتِ وأنه لا يخلو من الإنفاقِ أصلاً. وقسيمُ مَنْ أنفقَ محذوفٌ لظهورِه ودلالةِ ما بعدهُ عليهِ وقُرِىءَ قبلَ الفتحِ بغيرِ مِنْ والفتحُ فتحُ مكَةَ ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى مَنْ أنفقَ والجمعُ بالنظرِ إلى مَعْنى مَنْ كما أنَّ أفرادَ الضميرينِ السابقينِ بالنظرِ إلى لفظِها، وما فيهِ من مَعْنى البُعد مع قُربِ العهدِ بالمشارِ إليهِ للإشعارِ ببُعدِ منزلتِهم وعلوِّ طبقاتِهم في الفضلِ، ومحلُّه الرفعُ على الابتداءِ أي أولئكَ المنعوتونَ بذينكَ النعتينِ الجميلينِ ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾ وأرفعُ منزلةً ﴿ مّنَ الذين أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وقاتلوا ﴾ لأنَّهم إنما فعلوا ما

فعلوا من الإنفاق والقتالِ قبل عزة الإسلامِ وقوةِ أهلِه عند كمال الحاجةِ إلى النصرة بالنفسِ والمالِ وهم السابقونَ الأولونَ من المهاجرينَ والأنصارِ الذينَ قالَ فيهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم : "لو أنفقَ أحدكم مثلَ أحدٍ ذهباً ما بلغَ مُدَّ أحدِهم ولا نصيفَهُ" وهؤلاءِ فعلُوا ما فعلوا بعد ظهورِ الدينِ ودخولِ الناسِ فيه أفواجاً وقلةِ الحاجةِ إلى الإنفاقِ والقتالِ ﴿ وَكُلاًّ ﴾ أي وكلَّ واحدٍ من الفريقينِ ﴿ وَعَدَ الله الحسنى ﴾ أي المثوبةَ الحُسنى وهي الجنةُ لا الأولينَ فقطْ . وقرِىءَ وكلٌّ بالرفعِ على الابتداءِ أي وكلٌّ وعدَهُ الله تعالَى ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ بظواهرِهِ وبواطنِهِ فيجازيكُم بحسبِهِ وقيلَ نزلتْ الآيةُ في أبي بكرٍ رضيَ الله تعالَى عنه فإنَّه أولُ مَنْ آمنَ وأولُ من أنفقَ في سبيلِ الله وخاصمَ

الكفَّارَ حتى ضُرِبَ ضرباً أشرفَ به على الهلاكِ .

وقولُه تعالَى : ﴿ مَّن ذَا الذى يُقْرِضُ الله قَرْضًا حَسَنًا ﴾

ندبٌ بليغٌ من الله تعالى إلى الإنفاقِ في سبيلِه بعد الأمرِ به والتوبيخ على تركه وبيانِ درجاتِ المنفقينَ أي مَنْ ذَا الذي ينفقَ مالَه في سبيلِه تعالَى رجاءَ أنْ يعوضَهُ فإنَّه كمنْ يُقرضُه وحُسنُ الإنفاقِ بالإخلاصِ فيه وتحرّي أكرمِ المالِ وأفضلِ الجهاتِ ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ بالنصب

على جوابِ الاستفهامِ باعتبارِ المَعْنى كأنَّه قيل أيقرضُ اللهَ أحدٌ فيضاعفَهُ له أي فيعطيهِ أجرَهُ أضعافاً ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أي وذلكَ الأجرُ المضمومُ إليهِ الأضعافُ كريمٌ في نفسِه حقيقٌ بأنْ يتنافسَ فيه المتنافسونَ وإنْ لم يُضاعفْ فكيفَ وقد ضُوعفَ أضعافاً كثيرة.

وقُرِىءَ بالرفعِ عطفاً على يقرضُ أو حملاً على تقديرِ مبتدأٍ أي فهُو يضاعفُه، وقُرِىءَ يُضعفَهُ بالرفعِ والنصبِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(133/747)

وقال الآلوسى :

﴿ هُوَ الذى يُنَزّلُ على عَبْدِهِ ﴾

حسبما يعن لكم من المصالح ﴿ ءايات بينات ﴾ واضحات، والظاهر أن المراد بها آيات القرآن، وقيل : المعجزات ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ ﴾ أي الله تعالى إذ هو سبحانه المخبر عنه، أو العبد لقرب الذكر والمراد ليخرجكم بها ﴿ مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الايمان، وقرىء في السبعة ينزل مضارعاً فبعض ثقل وبعض خفف.

وقرأ الحسن بالوجهين، وقرأ زيد بن علي.

والأعمش أنزل ماضياً ﴿ وَإِنَّ الله بِكُمْ لَرَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ مبالغ في الرأفة والرحمة حيث

أزال عنكم موانع سعادة الدارين وهداكم إليها على أتم وجه، وقرىء في السبعة ﴿ لَرَؤُوفٌ ﴾ بواوين، وقوله عز وجل:

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا ﴾ توبيخ على ترك الانفاق إما للمؤمنين الغير المنفقين أو لأولئك الموبخين أولاً على ترك الايمان، وبخهم سبحانه على ذلك بعد توبيخهم على ترك الايمان بإنكار أن يكون لهم في ذلك أيضاً عذر من الأعذار، و﴿ إن ﴾ مصدرية لا زائدة كما قيل، واقتضاه كلام الأخفش والكلام على تقدير حرف الجر، فالمصدر المؤول في محل نصب أو جر على القولين وحذف مفعول الانفاق للعلم به مما تقدم وقوله تعالى: ﴿ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ لتشديد التوبيخ، والمراد به كل خير يقربهم إليه تعالى على سبيل الاستعارة التصريحية أي أيّ شيء لكم في أن لا تنفقوا فيما هو قربة إلى الله تعالى ما هو له في الحقيقة وإنما أنتم خلفاؤه سبحانه في صرفه إلى ما عينه عز وجل من المصارف، أو ما انتقل إليكم من غيركم وسينتقل منكم إلى الغير.

﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السموات والأرض ﴾ أي يرث كل شيء فيهما ولا يبقى لأحد مال على أن ميراثهما مجاز أو كناية عن ميراث ما فيهما لأن أخذ الظرف يلزمه أخذ المظروف.

وجوز أن يراد برثهما وما فيهما ، واختير الأول أنه يكفي لتوبيخهم إذ لا علاقة لأخذ السماوات والأرض هنا ، والجملة حال من فاعل لا تنفقوا أو مفعوله مؤكدة للتوبيخ فإن ترك الانفاق بغير سبب قبيح منكر ومع تحقق ما يوجب الانفاق أشد في القبح وأدخل في الإنكار فإن بيان بقاء جميع ما في السماوات والأرض من الأموال بالآخرة لله عز وجل من غير أن يبقى لأحد من أصحابها شيء أقوى في إيجاب الانفاق عليهم من بيان أنها لله تعالى في الحقيقة ، أو أنها انتقلت إليهم من غيرهم كأنه قيل : وما لكم في ترك إنفاقها في سبيل تعالى ، والحال أنه لا يبقى لكم ولا لغيركم منها شيء بل تبقى كلها لله عز وجل ، وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لزيادة التقرير وتربية المهابة ، وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ الفتح وقاتل ﴾ بيان لتفاوت درجات المنفقين حسب تفاوت أحوالهم في الانفاق بعد بيان أن لهم أجراً كبيراً على الإطلاق حثاً لهم على تحري الأفضل ، وعطف القتال على الانفاق للإيذان بأنه من أهم مواد الانفاق مع كونه في نفسه من أفضل العبادات وأنه لا يخلو من الانفاق أصلاً وقسيم ﴿ مَّنۡ أَنفَقَ ﴾ محذوف أي لا يستوي ذلك وغيره ، وحذف لظهوره ودلالة ما بعد عليه ، والفتح فتح مكة على ما روى عن قتادة .

وزيد بن أسلم .

ومجاهد وهو المشهور فتعريفه للعهد أو للجنس ادعاءاً ، وقال الشعبي : هو فتح الحديبية وقد مروجه تسميته فتحاً في سورة الفتح ، وفي بعض الآثار ما يدل عليه .

أخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه .

(135/747)

وأبو نعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن عطاءاً بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية حتى إذا كان بعسفان قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : يوشك أن يأتي قوم يحتقرون أعمالكم مع أعمالهم قلنا : من هم يا رسول الله أقريش ؟ قال : لا ولكن هم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً ، فقلنا : أهم خير منا يا رسول الله ؟ قال : لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ما أدرك مدّ أحدكم ولا نصيفه ألا إن هذا فصل ما بيننا وبين الناس ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفتح ﴾ [الحديد : 10] .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ قَبْلُ ﴾ بغير ﴿ مِنْ ﴾ ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى من أنفق ، والجمع بالنظر إلى معنى ﴿ مِنْ ﴾ كما أن إفراد الضميرين السابقين بالنظر إلى لفظها ، ووضع اسم الإشارة البعيد موضع الضمير للتعظيم والاشعار بأن مدار الحكم

هو إنفاقهم قبل الفتح وقتالهم ، ومحله الرفع على الابتداء ؛ والخبر قوله تعالى : ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾ أي أولئك المنعوتون بذينك النعتين الجليلين أرفع منزلة وأجل قدراً .

(136/747)

﴿ مِّنَ الذين أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ ﴾ بعد الفتح ﴿ وَقَٰتَلُواْ ﴾ وذهب بعضهم إلى أن فاعل ﴿ لاَ يَسْتَوِى ﴾ ضمير يعود على الانفاق أي لا يستوي هو أي الانفاق أي جنسه إذ منه ما هو قبل الفتح ومنه ما هو بعده ، و ﴿ مَّنْ أَنفَقَ ﴾ مبتدأ ، وجملة ﴿ أُوْلَٰئِكَ أَعْظَمُ ﴾ خبره وفيه تفكيك الكلام وخروج عن الظاهر لغير موجب فالوجه ما تقدم ، ويعلم منه التزاماً التفاوت بين الانفاق قبل الفتح والانفاق بعده ، وإنما كان أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا بعد لأنهم إنما فعلوا ما فعلوا عند كمال الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال لقلة المسلمين وكثرة أعدائهم وعدم ما ترغب فيه النفوس طبعاً من كثرة الغنائم فكان ذلك أنفع وأشد على النفس وفاعله أقوى يقيناً بما عند الله تعالى وأعظم رغبة فيه ، ولا كذلك الذين أنفقوا بعد ﴿ وَكُلاًّ ﴾ أي كل واحد من الفريقين لا الأولين فقط ﴿ وَعَدَ الله الحسنى ﴾ أي المثوبة الحسنى وهي الجنة على ما روى عن مجاهد .

وقتادة ، وقيل : أعم من ذلك والنصر والغنيمة في الدنيا ، وقرأ ابن عامر .

وعبد الوارث وكل بالرفع ، والظاهر أنه مبتدأ والجملة بعده خبر والعائد محذوف أي وعده كما في قوله

: وخالد (يحمد) ساداتنا . . .

بالحق لا يحمد بالباطل

يريد يحمده والجملة عطف على أولئك أعظم درجة وبينهما من التطابق ما ليس على قراءة الجمهور ، ومنع البصريون حذف العائد من خبر المبتدا ، وقالوا : لا يجوز إلا في الشعر بخلاف حذفه من جملة الصفة وهم محجوجون بهذه القراءة ، وقول بعضهم : فيها إن كل خبر مبتدا تقديره ، وأولئك كل ، وجملة ﴿ وَعَدَ اللهُ ﴾ صفة كل تأويل ركيك ، وفيه زيادة حذف ، على أن بعض النحاة منع وصف كل بالجملة لأنه معرفة بتقدير وكلهم ، وقال الشهاب : الصحيح ما ذهب إليه ابن مالك من أن عدم جواز حذف العائد من جملة الخبر في غير كل وما ضاهاها في الافتقار والعموم فإنه في ذلك مطرد لكن ادعى فيه الاجماع وهو محل نزاع .

﴿ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ عالم بظاهره وباطنه ويجازيكم على حسبه فالكلام وعد ووعيد ، وفي الآيات من الدلالة على فضل السابقين المهاجرين والأنصار ما لا يخفى ، والمراد بهم المؤمنون المنفقون المقاتلون قبل فتح مكة أو قبل الحديبية بناءاً على الخلاف السابق ، والآية على ما ذكره الواحدي عن الكلبي نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أي بسببه ، وأنت تعلم أن خصوص السبب لا يدل على تخصيص الحكم ، فلذلك قال : ﴿ أولئك ﴾ ليشمل غيره رضي الله تعالى عنه ممن اتصف بذلك ، نعم هو أكمل الأفراد فإنه أنفق قبل الفتح وقبل الهجرة جميع ماله وبذل نفسه معه عليه الصلاة والسلام ولذا قال صلى الله عليه وسلم : " ليس أحد أمنّ علي بصحبته من أبي بكر " وذلك يكفي لنزولها فيه ، وفي "الكشاف" إن أولئك هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال النبي صلى الله عليه وسلم فيهم : " ولو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه " قال الطيبي : الحديث من رواية البخاري .

ومسلم .

وأبي داود .

والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسبوا أصحابي فلو أن أحداً أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه " وتعقبه في "الكشف" بأنه على هذا لا يختص بالسابقين الأولين كما أشار في "الكشاف" إليه وهو

مبني على أن الخطاب في لا تسبوا ليس للحاضرين ولا للموجودين في عصره صلى الله عليه وسلم بل لكل من يصلح للخطاب كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ ﴾ [الأنعام : 30] الآية وإلا فقد قيل : إن الخطاب يقتضي الحضور والوجود ولا بد من مغايرة المخاطبين بالنهي عن سبهم فهم السابقون الكاملون في الصحبة .

(138/747)

وأقول شاع الاستدلال بهذا الحديث على فضل الصحابة مطلقاً بناءاً على ما قالوا : إن إضافة الجمع تفيد الاستغراق وعليه "صاحب الكشف" ، واستشكل أمر الخطاب ، وأجيب عنه بما سمعت وبأنه على حدّ خطاب الله تعالى الأزلي لكن في بعض الأخبار ما يؤيد أن المخاطبين بعض من الصحابة والممدوحين بعض آخر منهم فتكون الإضافة للعهد أو بحمل الأصحاب على الكاملين في الصحبة .

أخرج أحمد عن أنس قال : "كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام فقال خالد لعبد الرحمن بن عوف : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم " ثم في هذا الحديث تأييد مّا لكون أولئك هم الذين أنفقوا قبل الحديبية لأن

إسلامه رضي الله تعالى عنه كان بين الحديبية وفتح مكة كما في "التقريب" وغيره ، والزمخشري فسر الفتح بفتح مكة فلا تغفل ، قال الجلال المحلي : كون الخطاب في "لا تسبوا" للصحابة السابين ، وقال : نزلهم صلى الله عليه وسلم بسبهم الذي لا يليق بهم منزلة غيرهم حيث علل بما ذكره وهو وجه حسن فتدبر ؛ وقوله تعالى :

﴿ مَّن ذَا الذى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ ندب بليغ من الله تعالى إلى الانفاق في سبيله مؤكد للأمر السابق به وللتوبيخ على تركه فالاستفهام ليس على حقيقته بل للحث ، والقرض الحسن الانفاق بالإخلاص وتحري أكرم المال وأفضل الجهات ، وذكر بعضهم أن القرض الحسن ما يجمع عشر صفات .

أن يكون من الحلال فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً .

وأن يكون من أكرم ما يملكه المرء .

وأن يكون والمرء صحيح شحيح يأمل العيش ويخشي الفقر .

وأن يضعه في الأحوج الأولي : وأن يكتم ذلك .

وأن لا يتبعه بالمنّ والأذى .

وأن يقصد به وجه الله تعالى .

وأن يستحقر ما يعطي وإن كثر .

وأن يكون من أحب أمواله إليه .

وأن يتوخى في إيصاله للفقير ما هو أسر لديه من الوجوه كحمله إلى بيته.

ولا يخفى أنه يمكن الزيادة والنقص فيما ذكر.

وإيما كان فالكلام إما على التجوز في الفعل فيكون استعارة تبعية تصريحية أو التجوز في مجموع الجملة فيكون استعارة تمثيلية وهو الأبلغ أي من ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله تعالى مخلصاً متحرياً أكرمه وأفضل الجهات رجاء أن يعوضه سبحانه بدله كمن يقرضه ﴿ إِنَّ لَهُ ﴾ فيعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً أضعافاً كثيرة من فضله.

﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أي وذلك الأجل المضموم إليه الإضعاف كريم مرضي في نفسه حقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون، ففيه إشارة إلى أن الأجر كما أنه زائد في الكم بالغ في الكيف فالجملة حالية لا عطف على ﴿ فَيُضَاعِفَهُ ﴾، وجوز العطف والمغايرة ثابتة بين الضعف والأجر نفسه فإن الاضعاف من محض الفضل والمثل فضل هو أجر، ونصب يضاعفه على جواب الاستفهام بحسب المعنى كأنه قيل: أيقرض الله تعالى أحد فيضاعفه له فإن المسؤول عنه بحسب اللفظ وإن كان هو الفاعل لكنه في المعنى هو الفعل إذ ليس المراد أن الفعل قد وقع السؤال عن تعيين فاعله كقولك: من جاءك اليوم؟ إذا علمت أنه جاءه جاء لم

تعرفه بعينه وإنما أورد على هذا الأسلوب للمبالغة في الطلب حتى كأن الفعل لكثرة دواعيه قد وقع وإنما يسأل عن فاعله ليجازي ولم يعتبر الظاهر لأنه يشترط بلا خلاف في النصب بعد الفاء أن لا يتضمن ما قبل وقوع الفعل نحو لَم ضربت زيداً فيجازيك فإنه حينئذ لا يتضمن سبق مصدر مستقبل وعلى هذا يؤل كل ما فيه نصب وما قبل متضمن للوقوع، وقرأ غير واحد ﴿ فَيُضَاعِفَهُ ﴾ بالرفع على القياس نظراً للظاهر المتضمن للوقوع وهو إما عطف على يقرض أو على ﴿ فَهُوَ يضاعفه ﴾ وقرئ فيضعفه بالرفع والنصب. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(140/747)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ آمنوا بالله وَرَسُولِهِ ﴾

أي : صدقوا بالتوحيد ، وبصحة الرسالة ، وهذا خطاب لكفار العرب .

ويجوز أن يكون خطاباً للجميع ، ويكون المراد بالأمر بالإيمان في حق المسلمين الاستمرار عليه ، أو الازدياد منه .

ثم لما أمرهم بالإيمان أمرهم بالإنفاق في سبيل الله ، فقال : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم

مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ أي : جعلكم خلفاء في التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة ، فإن المال مال الله ، والعباد خلفاء الله في أمواله ، فعليهم أن يصرفوها فيما يرضيه ، وقيل : جعلكم خلفاء من كان قبلكم ممن ترثونه ، وسينتقل إلى غيركم ممن يرثكم ، فلا تبخلوا به . كذا قال الحسن وغيره .

وفيه الترغيب إلى الإنفاق في سبيل الخير قبل أن ينتقل عنهم ، ويصير إلى غيرهم .

والظاهر أن معنى الآية الترغيب في الإنفاق في الخير ، وما يرضاه الله على العموم ، وقيل : هو خاص بالزكاة المفروضة ، ولا وجه لهذا التخصيص .

ثم ذكر سبحانه ثواب من أنفق في سبيل الله فقال : ﴿ فالذين ءامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أي : الذين جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله ، وبين الإنفاق في سبيل الله لهم أجر كبير ، وهو الجنة .

﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بالله ﴾ هذا الاستفهام ، للتوبيخ والتقريع ، أي : أيّ عذر لكم ، وأيّ مانع من الإيمان ، وقد أزيحت عنكم العلل ، و ﴿ ما ﴾ مبتدأ ، و ﴿ لكم ﴾ خبره ، و ﴿ لا تؤمنون ﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿ لكم ﴾ ، والعامل ما فيه من

معنى الاستقرار ، وقيل : المعنى : أي شيء لكم من الثواب في الآخرة إذا لم تؤمنوا ؟ وجملة : ﴿ والرسول يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير لا تؤمنون على التداخل ، ولتؤمنوا متعلق بيدعوكم ، أي : يدعوكم للإيمان ، والمعنى : أيّ عذر لكم في ترك الإيمان ، والرسول يدعوكم إليه ، وينبهكم عليه ؟ وجملة : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ ميثاقكم ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يدعوكم على التداخل أيضاً ، أي : والحال أن قد أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم ، أو بما نصب لكم من الأدلة الدالة على التوحيد ، ووجوب الإيمان .

قرأ الجمهور : ﴿ وقد أخذ ﴾ مبنياً للفاعل ، وهو الله سبحانه لتقدم ذكره .

وقرأ أبو عمرو على البناء للمفعول .

﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بما أخذ عليكم من الميثاق ، أو بالحجج والدلائل ، أو إن كنتم مؤمنين بسبب من الأسباب ، فهذا من أعظم أسبابه وأوضح موجباته .

﴿ هُوَ الذى يُنَزّلُ على عَبْدِهِ ءايات بينات ﴾ أي : واضحات ظاهرات ، وهي الآيات القرآنية ، وقيل : المعجزات والقرآن أعظمها ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ أي : ليخرجكم الله بتلك الآيات من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، أو ليخرجكم الرسول بتلك الآيات ، أو بالدعوة ﴿ وَإِنَّ الله بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : لكثير الرأفة والرحمة بليغهما

حيث أنزل كتبه ، وبعث رسله لهداية عباده ، فلا رأفة ولا رحمة أبلغ من هذه ، والاستفهام في قوله : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

(142/747)

للتقريع والتوبيخ ، والكلام في إعراب هذا كالكلام في إعراب قوله ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ وفي هذه الآية دليل على أن الإنفاق المأمور به في قوله ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ هو الإنفاق في سبيل الله ، كما بينا ذلك ، والمعنى : أيّ عذر لكم ، وأيّ شيء يمنعكم من ذلك ، والأصل في أن لا تنفقوا ، وقيل : إن " أن " زائدة ، وجملة ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السموات والأرض ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل ﴿ أَلَّا تُنفِقُوا ﴾ أو من مفعوله ، والمعنى : أيّ شيء يمنعكم من الإنفاق في ذلك الوجه ، والحال أن كل ما في السموات والأرض راجع إلى الله سبحانه بانقراض العالم كرجوع الميراث إلى الوارث ، ولا يبقى لهم منه شيء ، وهذا أدخل في التوبيخ ، وأكمل في التقريع ، فإن كون تلك الأموال تخرج عن أهلها ، وتصير لله سبحانه ، ولا يبقى أحد من مالكيها أقوى في إيجاب الإنفاق عليهم من كونها لله في الحقيقة ، وهم : خلفاؤه في التصرّف فيها .

ثم بيّن سبحانه فضل من سبق بالإنفاق في سبيل الله ، فقال : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفتح ﴾ قيل : المراد بالفتح : فتح مكة ، وبه قال أكثر المفسرين .

(143/747)

وقال الشعبي ، والزهري : فتح الحديبية ، قال قتادة : كان قتالان ، أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك ، وكذا قال مقاتل وغيره ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : لا يستوي من أنفق من قبل الفتح ﴿ وقاتل ﴾ ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل ، فحذف لظهوره ، ولدلالة ما سيأتي عليه ، وإنما كانت النفقة والقتال قبل الفتح أفضل من النفقة والقتال بعد الفتح ؛ لأن حاجة الناس كانت إذ ذاك أكثر ، وهم أقلّ وأضعف ، وتقديم الإنفاق على القتال للإيذان بفضيلة الإنفاق لما كانوا عليه من الحاجة ، فإنهم كانوا يجودون بأنفسهم ، ولا يجدون ما يجودون به من الأموال .

والجود بالنفس أقصى غاية الجود . . . والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى " من " باعتبار معناها ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً مّنَ الذين أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وقاتلوا ﴾ أي : أرفع منزلة وأعلا رتبة من الذين أنفقوا أموالهم في سبيل الله من بعد الفتح ، وقاتلوا مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، قال عطاء : درجات الجنة تتفاضل ، فالذين أنفقوا من قبل الفتح في أفضلها .

قال الزجاج : لأن المتقدّمين نالهم من المشقة أكثر مما نال من بعدهم ، وكانت بصائرهم أيضاً أنفذ .

وقد أرشد صلى الله عليه وسلم إلى هذه الفضيلة بقوله فيما صحّ عنه :

" لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه " وهذا خطاب منه صلى الله عليه وسلم للمتأخرين وصحبه ، كما يرشد إلى ذلك السبب الذي ورد فيه هذا الحديث ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ الله الحسنى ﴾ أي : وكل واحد من الفريقين وعد الله المثوبة الحسنى ، وهي الجنة مع تفاوت درجاتهم فيها .

قرأ الجمهور ﴿ وكلاً ﴾ بالنصب على أنه مفعول به للفعل المتأخر .

وقرأ ابن عامر بالرفع على الابتداء ، والجملة بعده خبره ، والعائد محذوف ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، ومثل هذا قول الشاعر :

قد أصبحت أمّ الخيار تدّعي . . . عليّ ذنباً كله لم أصنع

﴿ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شيء .

ثم رغب سبحانه في الصدقة فقال : ﴿ مَّن ذَا الذى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أي : من ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله ، فإنه كمن يقرضه ، والعرب تقول لكل من فعل فعلاً حسناً قد أقرض ، ومنه قول الشاعر :

وإذا جوزيت قرضاً فأجزه . . . إنما يجزى الفتى ليس الجمل

قال : الكلبي ﴿ قَرْضًا ﴾ أي : صدقة ﴿ حَسَنًا ﴾ أي : محتسباً من قلبه بلا منّ ولا أذى .

قال مقاتل : حسناً ، طيبة به نفسه ، وقد تقدّم تفسير الآية في سورة البقرة ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ قرأ ابن عامر ، وابن كثير : (فيضعفه) بإسقاط الألف إلاّ أن ابن عامر ويعقوب نصبوا الفاء ، وقرأ نافع ، وأهل الكوفة ، والبصرة ، ﴿ فيضاعفه ﴾ بالألف وتخفيف العين إلاّ أن عاصماً نصب الفاء ، ورفع الباقون .

قال ابن عطية : الرفع على العطف على ﴿ يقرض ﴾ ، أو الاستئناف والنصب لكون الفاء في جواب الاستفهام .

وضعف النصب أبو عليّ الفارسي قال ؛ لأن السؤال لم يقع عن القرض ، وإنما وقع عن فاعل القرض ، وإنما تنصب الفاء فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه ، لكن هذه الفرقة حملت

ذلك على المعنى ؛ كأن قوله : ﴿ مَّن ذَا الذى يُقْرِضُ الله ﴾ بمنزلة قوله أيقرض الله أحد ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو الجنة ، والمضاعفة هنا هي كون الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف على اختلاف الأحوال والأشخاص والأوقات .

(145/747)

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يوشك أن يأتي قوم يحقرون أعمالكم مع أعمالهم " ، قلنا من هم يا رسول الله ؟ أقريش ؟ قال : " لا ، ولكنهم أهل اليمن ، هم : أرقّ أفئدة ، وألين قلوباً " فقلنا : أهم خير منا يا رسول الله ؟ قال : " لو كان لأحدهم جبل من ذهب ما أدرك مدّ أحدكم ، ولا نصيفه ، إلاّ أن هذا فصل ما بيننا وبين الناس : ﴿ لاَ يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفتح وقاتل ﴾ " الآية وهذا الحديث قال ابن كثير : هو غريب بهذا الإسناد ، وقد رواه ابن جرير ، ولم يذكر فيه الحديبية .

وأخرج أحمد عن أنس قال : كان بين خالد بن الوليد ، وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ،

فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ؟ فبلغ النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " دعوا لي أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم " والذي في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظ " لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه " وفي لفظ " ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه " أخرج هذا الحديث البخاري ، ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال : لا تسبوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره . انتهى انتهى . اهـ ﴿فتح القدير حـ 5 صـ 167. 169﴾

(146/747)

وقال ابن عاشور :

﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

استئناف ثالث انتقل به الخطاب إلى المؤمنين ، فهذه الآية يظهر أنها مبدأ الآيات المدنية في هذه السورة ويزيد ذلك وضوحاً عطف قوله : ﴿ وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ﴾ [

الحديد : 10] الآيات كما سيأتي قريباً .

والخطاب هنا وإن كان صالحاً لتقرير ما أفادته جملة ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ﴾ [الحديد : 8] ولكن أسلوب النظم وما عطف على هذه الجملة يقتضيان أن تكون استئنافاً انتقالياً هو من حسن التخلص إلى خطاب المسلمين ، ولا تفوته الدلالة على تقرير ما قبله لأن التقرير يحصل من انتساب المعنيين : معنى الجملة السابقة ، ومعنى هذه الجملة الموالية .

فهذه الجملة بموقعها ومعناها وعلتها وما عُطف عليها أفادت بياناً وتأكيداً وتعليلاً وتذييلاً وتخلصاً لغرض جديد ، وهي أغراض جمعْتها جمعاً بلغ حد الإعجاز في الإيجاز ، مع أن كل جملة منها مستقلة بمعنى عظيم من الاستدلال والتذكير والإرشاد والامتنان .

والرؤوف : من أمثلة المبالغة في الاتصاف بالرأفة وهي كراهية إصابة الغير بضر .

والرحيم : من الرحمة وهي محبة إيصال الخير إلى الغير .

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم ﴿ لرؤوف ﴾ بواو بعد الهمزة على اللغة المشهورة .

وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بدون واو بعد الهمزة وهي لغة ولعلها تخفيف ، قال جرير :

يرى للمسلمين عليه حقاً . . .

كفعل الوالد الرّؤُف الرحيم

وتأكيد الخبر بـ ﴿ إنّ ﴾ واللام في قوله : ﴿ وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴾ لأن المشركين في إعراضهم عن دعوة الإسلام قد حسبوها إساءة لهم ولآبائهم وآلهتهم ، فقد قالوا : ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ [الفرقان : 41 ، 42] .

(147/747)

وهذا يرجح أن قوله تعالى : ﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾ [الحديد : 7] إلى هنا مكّي .

فإن كانت الآية مدنيّة فلأن المنافقين كانوا على تلك الحالة .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ الله وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السماوات والأرض ﴾ .

الإنفاق في سبيل الله بمعناه المشهور وهو الإنفاق في عتاد الجهاد لم يكن إلا بعد الهجرة فإن سبيل الله غلب في القرآن إطلاقه على الجهاد ويؤيده قوله عقبه : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح ﴾ ، لأن الأصل أن يكون ذلك متصلاً نزوله مع هذا ولو حمل الإنفاق على معنى الصدقات لكان مقتضياً أنها مدنية لأن الإنفاق بهذا المعنى لا يطلق إلا على الصدقة على المؤمنين فلا يُلام المشركون على تركه .

وعليه فالخطاب موجّه للمؤمنين ، فقد أعيد الخطاب بلون غير الذي ابتدىء به .

ومن لطائفه أنه موجه إلى المنافقين الذين ظَاهِرُهم أنهم مسلمون وهم في الباطن مشركون فهم الذين شحّوا بالإِنفاق .

ووجه إلحاق هذه الآية وهي مدنيّة بالمكيّ من السورة مناسبة استيعاب أحوال الممسكين عن الإِنفاق من الكفار والمؤمنين تعريضاً بالتحذير من خصال أهل الكفر إذ قد سبقها قوله : ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ [الحديد : 7] .

و﴿ ما ﴾ استفهامية مستعملة في اللوم والتوبيخ على عدم إنفاقهم في سبيل الله .

و(أَنْ) مصدرية ، والمصدر المنسبك منها والفعل المنصوب بها في محل جر باللام ، أو بـ (في) محذوف ، والتقدير : ما حصل لكم في عدم إنفاقكم ، أي ذلك الحاصل أمر منكر .

وعن الأخفش أنَّ (أَنْ) زائدة فيكون بمنزلة قوله : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله ﴾ [الحديد : 8] .

وليس نصبها الفعل الذي بعدها بمانع من اعتبارها زائدة لأن الحرف الزائد قد يعمل مثلَ حرف الجر الزائد ، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ قالوا وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله ﴾ في سورة البقرة (246) .

والواو في ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾ واو الحال وهو حال من ضمير ﴿ تنفقوا ﴾ باعتبار أن عموم السماوات والأرض يشمل ما فيهما فيشمل المخاطبين فذلك العموم هو الرابط .

والتقدير : لله ميراث ما في السماوات والأرض ، ويشمل ميراثُه إياكم .

والمعنى : إنكار عدم إنفاق أموالهم فيما دعاهم الله إلى الإنفاق فيه وهم سيهلكون ويتركون أموالهم لمن قدّر الله مصيرها إليه فلو أنفقوا بعض أموالهم فيما أمرهم الله لنالوا رضى الله وانتفعوا بمال هو صائر إلى من يرثهم .

وإضافة ميراث إلى السماوات والأرض من إضافة المصدر إلى المفعول وهو على حذف مضاف ، تقديره : أهلها ، وليس المراد ميراث ذات السماوات والأرض لأن ذلك إنما يحصل بعد انقراض الناس فلا يؤثر في المقصود من حثهم على الإنفاق .

﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفتح وقاتل أولئك أَعْظَمُ درجَةً مِّنَ الذين أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وقاتلوا وَكُلاًّ وَعَدَ الله الحسنى والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير ﴾ .

استئناف بياني ناشىء عمّا يجول في خواطر كثير من السامعين من أنهم تأخروا عن الإنفاق غير ناوين تركه ولكنهم سيتداركونه .

وأدمج فيه تفضيل جهاد بعض المجاهدين على بعض لمناسبة كون الإنفاق في سبيل الله

يشمل إنفاق المجاهد على نفسه في العُدة والزاد وإنفاقَه على غَيْرِه ممن لم يستكمل عُدته ولا زاده ، ولأن من المسلمين من يستطيع الجهاد ولا يستطيع الإِنفاق ، فأريد أن لا يغفل ذكره في عداد هذه الفضيلة إذ الإِنفاق فيها وسيلة لها .

وظاهر لفظ الفتح أنه فتح مكة فإن هذا الجنس المعرّف صار علماً بالغلبة على فتح مكة ، وهذا قول جمهور المفسرين .

(149/747)

وإنما كان المنفقون قبل الفتح والمجاهدون قبله أعظم درجة في إنفاقهم وجهادهم لأن الزمان الذي قبل فتح مكة كان زمان ضعف المسلمين لأن أهل الكفر كانوا أكثَرَ العرب فلما فُتحت مكة دَخلت سائر قريش والعرب في الإِسلام فكان الإِنفاق والجهاد فيما قبل الفتح أشَقّ على نفوس المسلمين لقلة ذات أيديهم وقلة جمعهم قبالة جمع العدوّ ، ألا ترى أنه كان عليهم أن يثبتوا أمام العدوّ إذا كان عدد العدوّ عشرة أضعاف عدد المسلمين في القتال قال تعالى :

﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ [الأنفال : 65] .

وقيل المراد بالفتح : صلح الحديبية ، وهذا قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه والزهري ، والشعبي ، وعامر بن سعد بن أبي وقاص ، واختاره الطبري .

ويؤيده ما رواه الطبري عن أبي سعيد الخدري "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية عام الحديبية" وهو الملائم لكون هذه السورة بعضها مكي وبعضها مدنيّ فيقتضي أن مدنيّها قريب عهد من مدة إقامتهم بمكة، وإطلاق الفتح على صلح الحديبية وَارِدٌ في قوله تعالى: ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ [الفتح: 1].

و﴿ مَن أنفق ﴾ عامٌّ يشمل كلّ من أنفق.

وقيل: أريد به أبو بكر الصديق فإنه أنفق ماله كله من أول ظهور الإسلام.

ونفي التسوية مراد به نفيها في الفضيلة والثواب فإن نفي التسوية في وصف يقتضي ثبوت أصل ذلك الوصف لجميع من نفيت عنهم التسوية، فنفي التسوية كناية عن تفضيل أحد جانبين وتنقيص الجانب الآخر نقصاً متفاوتاً.

ويعرف الجانب الفاضل والجانب المفضول بالقرينة أو التصريح في الكلام، وليس تقديم أحد الجانبين في الذكر بعد نفي التسوية بمقتض أنه هو المفضل فقد قال الله تعالى: ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ﴾ [النساء: 95] وقدم هذه الآية الجانب المفضَّل، وكذا الذي في قول السموأل:

فليس سواءً عالم وجَهول...

وقد أكد هذا الاقتضاء بقوله : ﴿ أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ﴾ ، أي أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا من بعد الفتح ، فإن اسم التفضيل يدل على المشاركة فيما اشتق منه اسم التفضيل وزيادة من أخبر عنه باسم التفضيل في الوصف المشتق منه ، أي فكلا الفريقين له درجة عظيمة .

وحُذف قسم من أنفق من قبل الفتح إيجازاً لدلالة فعل التسوية عليه لا محالة .

والتقدير : لا يستوي من أنفق من قبل الفتح ومن أنفق بعده .

والدرجة : مستعارة للفضل لأن الدرجة تستلزم الارتقاء ، فوصف الارتقاء ملاحظ فيها ، ثم يشبَّه الفضل والشرف بالارتقاء فعبر عنه بالدرجة ، فالدرجة من أسماء الأجناس التي لوحظت فيها صفات أو صاف مثل اسم الأسد بصفة الشجاعة في قول الخارجي:

أسد علي وفي الحروب نعامة . . .

وقوله : ﴿ وكلاًّ وعد الله الحسنى ﴾ احتراس من أن يتوهم متوهم أن اسم التفضيل مسلوب المفاضلة للمبالغة مثل ما في قول : ﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ [يوسف : 33] ، أي حبيب إليّ دون ما يدعونني إليه من المعصية .

وعبر بـ ﴿ الحسنى ﴾ لبيان أن الدرجة هي درجة الحسنى ليكون للاحتراس معنى زائد على التأكيد وهو ما فيه من البيان .

والحسنى : لقب قرآني إسلامي يدل على خيرات الآخرة ، قال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [يونس : 26] .

وقوله : ﴿ منكم ﴾ حال من ﴿ من أنفق ﴾ أصله نعت قُدّم للاهتمام تعجيلاً بهذا الوصف .

وجيء باسم الإِشارة في قوله : ﴿ أولئك أعظم درجة ﴾ دون الضمير لما تؤذن به الإِشارة من التنويه والتعظيم ، وللتنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما يذكر بعد اسم الإِشارة ، لأجل ما ذُكر قبله من الإِخبار ومثله قوله : ﴿ أولئك على هدًى من ربهم ﴾ [البقرة : 4] بعد قوله : ﴿ هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ﴾ [البقرة : 3] الخ .

(151/747)

وقرأ الجمهور ﴿ وكلاًّ وعد الله الحسنى ﴾ بنصب ﴿ كلاًّ ﴾ على أنه مفعول أول مقدم على فعله على طريقة الاشتغال بالضمير المحذوف اختصاراً .

وقرأه ابن عامر بالرفع على الابتداء وهما وجهان في الاشتغال متساويان .

وهذه الآية أصل في تفاضل أهل الفضل فيما فُضلوا فيه ، وأن الفضل ثابت للذين أسلموا بعد الفتح من أهل مكة وغيرهم .

وبئس ما يقوله بعض المؤرخين من عبارات تؤذن بتنقيص من أسلموا بعد الفتح من قريش مثل كلمة "الطلقاء" وإنما ذلك من أجل حزازات في النفوس قبلية أو حزبية ، والله يقول :

﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ [الحجرات : 11] .

وجملة ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ تذييل ، والواو اعتراضية ، والمعنى : أن الله يعلم أسباب الإنفاق وأوقاته وأعذاره ، ويعلم أحوال الجهاد ونوايا المجاهدين فيعطي كل عامل على نية عمله .

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11)

موقع هذه الجملة موقع التعليل والبيان لجملة ﴿ وكلاًّ وعد الله الحسنى ﴾ [الحديد : 10] .

وما بينهما اعتراض ، والمعنى : أن مثل المنفق في سبيل الله كمثل من يُقرض الله ومَثَلُ الله تعالى في جزائه كمثل المستسلف مع من أحسن قرضه وأحسن في دفعه إليه .

و ﴿ من ﴾ استفهامية كما هو شأنها إذا دخلت على اسم الإشارة والموصول ، و ﴿ الذي يقرض ﴾ خبرها ، و ﴿ ذا ﴾ معترضة لاستحضار حال المقترض بمنزلة الشخص الحاضر القريب .

وعن الفراء : (ذا) صلة ، أي زائدة لمجرد التأكيد مثل ما قال كثير من النحاة : إن (ذا) في (

ماذا) ملغاة ، قال الفراء : رأيتها في مصحف عبد الله ﴿ منذا الذي ﴾ والنون موصولة بالذال أ هـ .

والاستفهام مستعمل في معنى التحريض مجازاً لأن شأن المحرِّض على الفعل أن يبحث عمن يفعله ويتطلب تعيينه لينوطه به أو يجازيه عليه .

(152/747)

والقرض الحسن : هو القرض المستكمل محاسن نوعه من كونه عن طيب نفس وبشاشة في وجه المستقرض ، وخلو عن كل ما يعرِّض بالمنة أو بتضييق أجل القضاء .

والمشبّه هنا بالقرض الحسن هو الإنفاق في سبيل الله المنهيُّ عن تركه في قوله : ﴿ وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ﴾ [الحديد : 10] .

وقرأ الجمهور ﴿ فيضاعفه ﴾ بألف بعد الضاد .

وقرأه ابن كثير وابن عامر ويعقوب ﴿ فيضعِّفه ﴾ بدون ألف وبتشديد العين .

والفاء في جملة ﴿ فيضاعفه له ﴾ فاء السببية لأن المضاعفة مسببة على القرض .

وقرأ الجمهور فعل ﴿ يضاعفُه ﴾ مرفوعاً على اعتباره معطوفاً على ﴿ يقرض ﴾ .

والمعنى : التحريض على الإِقراض وتحصيل المضاعفة لأن الإِقراض سبب المضاعفة

فالعمل لحصول الإِقراض كأنه عمل لحصول المضاعفة .

أو على اعتبار مبتدأ محذوف لتكون الجملة اسمية في التقدير فيقع الخبر الفعلي بعد المبتدأ مفيداً تقوية الخبر وتأكيد حصوله ، واعتبارِ هذه الجملة جواباً ، ل (مَن) الموصولة بإشراب الموصول معنى الشرط وهو إشراب كثير في القرآن .

وقرأه حفص عن عاصم وابن عامر ويعقوب كل على قراءته بالنصب على جواب الاستفهام .

ومعنى ﴿ وله أجر كريم ﴾ : أن له أنفس جنس الأجور لأن الكريم في كل شيء هو النفيس ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ إني ألقي إلي كتاب كريم ﴾ في سورة النمل (29) .

وجعل الأجر الكريم مقابل القرض الحسن فَقُوبِل بهذا موصوف وصفته بمثلهما .

والمضاعفة : مماثلة المقدار ، فالمعنى : يعطيه مثلي قرضه .

والمراد هنا مضاعفته أضعافاً كثيرة كما قال : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ﴾ الآية في سورة البقرة (261) .

وقال : ﴿ من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ [البقرة : 245] .

وضمير النصب في ﴿ يضاعفه ﴾ عائد إلى القرض الحسن ، والكلام على حذف مضاف تقديره : فيضاعف جزاءه له .

لأن القرض هنا تمثيل بحال السلف المتعارف بين الناس فيكون تضعيفه مثل تضعيف مال السلف وذلك قبل تحريم الربا .

والأجر : ما زاد على قضاء القرض من عطية يسديها المستسلف إلى من سلفه عندما يجد سعة ، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم " خيركم أحسنكم قضاء "

وقال تعالى : ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ [النساء : 40] .

والظاهر أن هذا الأجر هو المغفرة كما في قوله تعالى : ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم ﴾ في سورة التغابن (17) .

وهذا يشمل الإنفاق في الصدقات قال تعالى : ﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم ﴾ [الحديد : 18] ، وهو ما فسره قول النبي صلى الله عليه وسلم " والصدقة تطفىء الخطايا كما يطفىء الماء النار " أي زيادة على مضاعفتها مثل الحسنات كلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي:

ولما بين ما لهذا المقرض، بين بعض وصفه بالكرم ببيان وقته فقال: ﴿ يوم ﴾ أي لهم ذلك في الوقت الذي ﴿ ترى ﴾ فيه بالعين، وأشار إلى أن المحبوب من المال لا يخرج عنه ولا سيما مع الإقتار إلا من وقر الدين في قلبه بتعبيره بالوصف فقال: ﴿ المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي الذي صار الإيمان لهم صفة راسخة ﴿ يسعى ﴾ شعاراً لهم وأمارة على سعادتهم ﴿ نورهم ﴾ الذي يوجب إبصارهم لجميع ما ينفعهم فيأخذوه وما يضرهم فيتركوه، وذلك

بقدر أعمالهم الصالحة التي كانوا يعملونها بنور العلم الذي هو ثمرة الإيمان كما أنهم قدموا المال الذي إنما يقتنيه الإنسان لمثل ذلك جزاء وفاقاً .

(155/747)

ولما كان من يراد تعظيمه يعطى ما يجب وما بعده شريفاً (؟) في الأماكن التي يحبها قال : ﴿ بين أيديهم ﴾ أي حيث ما توجهوا ، ولذلك حذف الجار ﴿ وبأيمانهم ﴾ أي وتلتصق بتلك الجهة لأن هاتين الجهتين أشرف جهاتهم ، وهم إما من السابقين ، وإما من أهل اليمين ، ويعطون صحائفهم من هاتين الجهتين ، والشقي بخلاف ذلك لا نور له ويعطى صحيفته بشماله ومن وراء ظهره ، فالأول نور الإيمان والمعرفة والأعمال المقولة ، والثاني نور الإنفاق لأنه بالإيمان - نبه - عليه الرازي .

ولما ذكر نفوذهم فيما يحبون من الجهات وتيسيره لهم ، أتبعه ما يقال لهم من المحبوب في سلوكهم لذلك المحبوب فقال : ﴿ بشراكم اليوم ﴾ أي بشارتكم العظيمة في جميع ما يستقبلكم من الزمان .

ولما تشوفوا لذلك أخبروا بالمبشر به بقوله مخبراً إشارة إلى أن المخبر به يحسد من البشرى لكونه معدن السرور ﴿ جنات ﴾ أي كائنة لكم تتصرفون فيها أعظم تصرف ، والخبر في

الأصل دخول ، ولكنه عدل عنه لما ذكر من المبالغة ثم وصفها بما لا تكمل اللذة إلا به فقال : ﴿ تجري ﴾ وأفهم القرب بإثبات الجارّ فقال : ﴿ من تحتها الأنهار ﴾ ولما كان ذلك لا يتم مع خوف الانقطاع قال : ﴿ خالدين فيها ﴾ خلوداً لا آخر له لأن الله أورثكم ذلك ما لا يورث عنكم كما كان حكام الدنيا لأن الجنة لا موت فيها .

ولما كان هذا أمراً سارّاً في ذلك المقام الضنك محباً بأمر استأنف مدحه بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي هذا الأمر العظيم جداً ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الفوز العظيم ﴾ أي الذي ملأ بعظمته جميع الجهات من ذواتكم وأبدانكم ونفوسكم وأرواحكم .

(156/747)

ولما عظم هذا الأجر الكريم ببيان ما لأهله في الوقت الكائن فيه ، عظمه بما لأضدادهم من النكال ، فقال مبدلاً من الظرف الأول : ﴿ يوم يقول ﴾ أي قولاً مجدداً يلجئ إليه من الأمور العظيمة الشاقة ﴿ المنافقون والمنافقات ﴾ أي بالعراقة في إظهار الإيمان وإبطان الكفران ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي ظاهراً وباطناً ، وأما من علا من هذا السن من المؤمنين ومن فوقهم فالظاهر أنهم لا يرونهم ليطمعوا في مناداتهم " وأين الثريا من يد المتناول " ﴿ انظرونا ﴾ أي انظرونا بأن تمكثوا في مكانكم لنلحق بكم ، وكأن الفعل جرد في قراءة الجماعة لاقتضاء

الحال الإيجاز بغاية ما توصل المقدرة إليه خوف الفوت ، لأن المسؤولين يسرعون إلى الجنة كالبرق الخاطف ، وقد حققت المعنى قراءة حمزة بقطع الهمزة وكسر الظاء أي أخرونا في المشي وتأنوا علينا وأمهلوا علينا ، لا تطلبوا منا السرعة فيه بل امكثوا في مكانكم لننظر في أمرنا كيف نلحق بكم ، والحاصل أنهم عدوا تأنيهم في المشي وتلبثهم ليلحقوا بهم إنظاراً لهم ﴿ نقتبس ﴾ أي نأخذ ونصيب ونستصبح ﴿ من نوركم ﴾ أي هذا الذي نراه لكم ولا يلحقنا منه بشيء كما كنا في الدنيا نرى إيمانكم بما نرى من ظواهركم ولا تعلق من ذلك بشيء جزاء وفاقاً ، وسبب هذا القول أنهم يعطون مع المؤمنين نوراً خديعة لهم بما خادعوا في الدنيا لتعظم عليهم المشقة بفقده لأنه لا يلبث أن يبعث الله عليهم ريحاً وظلمة فتطفئ نورهم ويبقون في الظلمة ، وإلى ذلك ينظر قول المؤمنين ﴿ أتمم لنا نورنا ﴾ أي لا تطفئه كما أطفأت نور المنافقين .

(157/747)

ولما كان المنكئ لهم إنما هو الرد من أي قائل كان ، بنى للمفعول قوله : ﴿ قيل ﴾ أي لهم جواباً لسؤالهم قول رد وتوبيخ وتهكم وتنديم : ﴿ ارجعوا وراءكم ﴾ أي في جميع جهات الوراء التي هي أبعد الجهات عن الخير كما كنتم في الدنيا لا تزالون مرتدين على أعقابكم عما

يستحق أن يقبل عليه ويسعى إليه ﴿ فالتمسوا ﴾ بسبب ذلك الرجوع ﴿ نوراً ﴾ ويصح أن يراد بالوراء الدنيا لأن هذا النور إنما هو منها بسبب ما عملوا فيها من الأعمال الزاكية والمعارف الصافية ، ولهذا قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كتاب المحبة من الإحياء : إن هذه الآية تدل على أن الأنوار لا بد أن يتجدد أصلها في الدنيا ثم يزداد في الآخرة إشراقاً فأمّا أن يتجدد ثَمَّ نور فلا .

ولما كان التقدير : فرجعوا أو فأقاموا في الظلمة ، سبب عنه وعقب قوله : ﴿ فضرب ﴾ مبنياً للمفعول على نحو الأول ، ولإفادة أن الضرب كان في غاية السرعة والسهولة ، ويجوز أن تكون الفاء معقبة على ما قبله من غير تقدير ﴿ بينهم ﴾ أي في جميع المسافة التي بين الذين آمنوا وأضدادهم في وقت قولهم هذا .

(158/747)

ولما كان المقصود أن ضربه كان في غاية السرعة ، لم يوقع الفعل وأتى بالفاء ليفيد أنه كان كأنه عصاً ضربت به الأرض ضربه واحدة ، فقال : ﴿ بسور ﴾ أي جدار محيط محيل بين الجنة والنار لا يشذ عنه أحد منهم ولا يقدر أحد ممن سواهم أن يتجاوزه إليهم ﴿ له باب ﴾ موكل به حجاب لا يفتحون إلا لمن أذن الله له من المؤمنين بما يهديهم إليه من نورهم

الذي بين أيديهم لشفاعة أو نحوها ﴿ باطنه ﴾ أي ذلك السور الباب وهو الذي من جهة الذين آمنوا جزاء لإيمانهم الذي هو غيب ﴿ فيه الرحمة ﴾ وهي ما لهم من الكرامة بالجنة التي هي ساترة ببطن من فيها بأشجارها وبأسبابها كما كانت بواطنهم ملاء رحمة ﴿ وظاهره ﴾ أي السور أو الباب الذي يظهر لأهل النار ، مبتدئ ﴿ من قبله ﴾ أي تجاه ذلك الظاهر وناحيته وجهته وعنده ﴿ العذاب ﴾ من النار ومقدماتها لاقتصار أهله على الظواهر من غير أن يكون لهم نفوذ إلى باطن وعكس ما أرادوا من حفظ ظواهرهم في الدنيا مع فساد بواطنهم ، ودل على ما أفهمه التعبير بالمضارع في " يقول " من التكرير بقوله استئنافاً : ﴿ ينادونهم ﴾ أي المنافقون والمنافقات ، يواصلون النداء وهم في الظلمة للذين آمنوا يترفقون لهم في مدة هذا القول والضرب : ﴿ ألم نكن ﴾ أي بكليتنا ﴿ معكم ﴾ أي فيما كنتم فيه من الدين فنستحق المشاركة فيما صرتم إليه بسبب ذلك الدين الذين كنا معكم فيه ﴿ قالوا ﴾ أي الذين آمنوا ﴿ بلى ﴾ قد كنتم معنا ﴿ ولكنكم فتنتم ﴾ أي كنتم بما كان لكم من الذبذبة تختبرون ﴿ أنفسكم ﴾ فتخالطونها باختبار أحوال الدين مخالطة محيلة لها مميلة عما كانت عليه من أصل الفطرة من الاستقامة ، تريدون بذلك أن تظهر لكم فيه أمور محسوسة لتخلصوا فيه من الشكوك فتخلصوا ، فما آمنتم بالغيب فأهلكتموها وتبعتم أيضاً الأمور التي كنتم تفتنون بها من الشهوات ، فأوجبتهم لكم

الإعراض عن المعالي الباطنات ﴿ وتربصتم ﴾ أي كلفتم أنفسكم أن أخرجتموها عن الفطرة الأولى فأمهلتم وانتظرتم لتروا الأمر عياناً أو

(159/747)

لم تفعلوا كما فعلنا من الإيمان بالغيب وترك التجربة ونسبة ما يحصل لنا مما فيه فتنة إلى أنفسنا بتقصيرنا ، وكنا كلما حصل لنا ما يزلزل نقول : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ولا يزيدنا ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً وانتظرتم أيضاً الدوائر بأهل الإيمان لتظهروا النفاق ﴿ وارتبتم ﴾ أي شككتم بتكليف أنفسكم الشك بذلك التربص ﴿ وغرتكم الأماني ﴾ أي ما تتمنون أي تريدون وتقدرون من الإرادات التي معها شهوة عظيمة من الأطماع الفارغة التي لا سبب لها غير شهوة النفس إياها بما كنتم تتوقعون لنا من دوائر السوء ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ أي قضاء الملك المتصف بجميع صفات الكمال فلا كفوء له ولا خلف لقوله من الموت ومقدمات من الأمور الدهشة ، فكما كنتم في الدنيا مقصرين كنتم في هذا الموطن ﴿ وغركم بالله ﴾ أي الملك الذي له جميع العظمة ، فهو بحيث لا يخلف الميعاد وهو الولي الودود ﴿ الغرور ﴾ أي من لا صنع له إلا الكذب وهو الشيطان وهو العدو الحسود ، فإنه ينوع لكم بغروره التسويف ويقول : إن الله غفور رحيم وعفو كريم

، وماذا عسى أن تكون ذنوبكم عنه وهو عظيم ومحسن وحليم ونحو هذا ، فلا يزال حتى يوقع الإنسان ، فإذا أوقع واصل عليه مثل ذلك حتى يتمادى ، فإذا تمادى صار الباعث له حينئذ من قبل نفسه فصار طوع يده .

ولما أقروا لهم بالكون الجامع ، وذكروا ما حصل به والفرق المانع فظهر أن لا كون ، سببوا عنه قولهم : ﴿ فاليوم ﴾ أي بسبب أفعالكم تلك ﴿ لا يؤخذ ﴾ بناء للمفعول لأن الضار عدم الأخذ لا كونه من آخذ معين وليفيد سد باب الأخذ مطلقاً ﴿ منكم فدية ﴾ أي نوع من أنواع الفداء وهو البدل والعضو للنفس على أي حال من قلة أو كثرة أو حسن أو غيره لأن الإله غني وقد فات محل العمل الذي شرعه لإنقاذ أنفسكم .

ولما كانوا مكذبين أكد فقال : ﴿ ولا من الذين كفروا ﴾ أي أظهروا كفرهم ولم يستروه كما سترتموه أنتم لمساواتكم لهم في الكفر .

ولما كان كأنه قيل : فأين نكون ؟ قال : ﴿ مأواكم ﴾ أي منزلكم ومسكنكم ومجمعكم ﴿ النار ﴾ لا مقر لكم غيرها ، تحرقكم كما كنتم تحرقون قلوب الأولياء بإقبالكم على الشهوات ، وإضاعتكم حقوق ذوي الحاجات ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ هي ﴾ أي لا غيرها

﴿ مولاكم ﴾ أي قرينتكم وموضع قربكم ومصيركم وناصركم على نحو " تحية بينهم ضرب وجيع " فهي أولى لكم ، لا قرب لكم إلى غيرها ، ولا غيرها مولى ولا مصير إلى سواها ولا ناصر إلا هي .

ولما كان التقدير : فبئس المولى هي ، عطف عليه قوله : ﴿ وبئس المصير ﴾ أي هذه النار التي صرتم إليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 443 . 447 ﴾

(161/747)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ ترَى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيدِيهِمْ وبأيمانهم ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ يَوْمَ ترَى ﴾ ظرف لقوله : ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد : 11] أو منصوب بأذكر تعظيماً لذلك اليوم .

المسألة الثانية :

المراد من هذا اليوم هو يوم المحاسبة ، واختلفوا في هذا النور على وجوه : أحدها : قال قوم : المراد نفس النور على ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أن كل مثاب فإنه يحصل له النور على قدر عمله وثوابه في العظم والصغر " فعلى هذا مراتب الأنوار مختلفة فمنهم من يضيء له نور كما بين عدن إلى صنعاء ، ومنهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من لا يضيء له نور إلا موضع قدميه ، وأدناهم نوراً من يكون نوره على إبهامه ينطفىء مرة ويتقد أخرى ، وهذا القول منقول عن ابن مسعود ، وقتادة وغيرهما ، وقال مجاهد : ما من عبد إلا وينادي يوم القيامة يا فلان ها نورك ، ويا فلان لا نور لك ، نعوذ بالله منه ، واعلم أنا بينا في سورة النور ، أن النور الحقيقي هو الله تعالى ، وأن نور العلم الذي هو نور البصيرة أولى بكونه نوراً من نور البصر ، وإذا كان كذلك ظهر أن معرفة الله هي النور في القيامة فمقادير الأنوار يوم القيامة على حسب مقادير المعارف في الدنيا القول الثاني : أن المراد من النور ما يكون سبباً للنجاة ، وإنما قال : ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم ﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين ، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ، ووراء ظهورهم القول الثالث : المراد بهذا النور الهداية إلى الجنة ، كما يقال ليس لهذا الأمر نور ، إذا لم يكن المقصود حاصلاً ، ويقال : هذا الأمر له نور ورونق ، إذا كان المقصود حاصلاً .

المسألة الثالثة :

قرأ سهل بن شعيب ﴿ وبإيمانهم ﴾ بكسر الهمزة ، والمعنى يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم حصل ذلك السعي ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج : 10] أي ذلك كائن بذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ بُشْرَاكُمُ اليوم جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

حقيقة البشارة ذكرناها في تفسير قوله : ﴿ وَبَشّرِ الذين ءامَنُواْ ﴾ [البقرة : 25] ثم قالوا : تقدير الآية وتقول لهم الملائكة بشراكم اليوم ، كما قال : ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مّن كُلّ بَابٍ * سلام عَلَيْكُمُ ﴾ [الرعد : 23 ، 24] .

المسألة الثانية :

دلت هذه الآية على أن المؤمنين لا ينالهم أهوال يوم القيامة لأنه تعالى بين أن هذه صفتهم يوم القيامة من غير تخصيص .

المسألة الثالثة :

احتج الكعبي على أن الفاسق ليس بمؤمن فقال : لو كان مؤمناً لدخل تحت هذه البشارة ، ولو كان كذلك لقطع بأنه من أهل الجنة ، ولما لم يكن كذلك ثبت أنه ليس بمؤمن والجواب : أن

الفاسق قاطع بأنه من أهل الجنة لأنه إما أن لا يدخل النار أو إن دخلها لكنه سيخرج منها وسيدخل الجنة ويبقى فيها أبد الآباد ، فهو إذن قاطع بأنه من أهل الجنة ، فسقط هذا الاستدلال .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ ذلك ﴾ عائد إلى جميع ما تقدم وهو النور والبشرى بالجنات المخلدة .

المسألة الخامسة :

قرئ : (ذلك الفوز) ، بإسقاط كلمة : هو .

واعلم أنه تعالى لما شرح حال المؤمنين في موقف القيامة أتبع ذلك بشرح حال المنافقين .

فقال :

قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ المنافقون والمنافقات لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارجعوا وَرَاءكُمْ فالتمسوا نُوراً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ﴾ ، بدل من ﴿ يَوْمَ ترَى ﴾ [الحديد : 12] ، أو هو أيضاً منصوب باذكر تقديراً .

المسألة الثانية :

قرأ حمزة وحده (أنظرونا) مكسورة الظاء ، والباقون (أنظروا) ، قال أبو علي الفارسي لفظ النظر يستعمل على ضروب أحدها : أن تريد به نظرت إلى الشيء ، فيحذف الجار ويوصل الفعل ، كما أنشد أبو الحسن :

ظاهرات الجمال والحسن ينظرن . . كما ينظر الأراك الظباء

والمعنى ينظرن إلى الأراك وثانيها : أن تريد به تأملت وتدبرت ، ومنه قولك : إذهب فانظر زيداً أيؤمن ، فهذا يراد به التأمل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ انظر كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأمثال ﴾ [الأسراء : 48] ، ﴿ انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ ﴾ [النساء : 50] ، ﴿ انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ﴾ [الإسراء : 21] قال : وقد يتعدى هذا بإلى كقوله : ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية : 17] وهذا نص على التأمل ، وبين وجه الحكمة فيه ، وقد يتعدى بفي ، كقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السموات والأرض ﴾ [الأعراف : 185] ، ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [الروم : 8] وثالثها : أن يراد بالنظر الرؤية كما في قوله :

ولما بدا حوران والآل دونه . . نظرت فلم تنظر بعينك منظراً

والمعنى نظرت ، فلم تر بعينك منظراً تعرفه في الآل قال : إلا أن هذا على سبيل المجاز ، لأنه دلت الدلائل على أن النظر عبارة عن تقلب الحدقة نحو المرئي التماساً لرؤيته ، فلما كانت الرؤية من توابع النظر ولوازمه غالباً أجرى على الرؤية لفظ النظر على سبيل إطلاق اسم السبب على المسبب قال : ويجوز أن يكون قوله : نظرت فلم تنظر ، كما يقال : تكلمت وما تكلمت ، أي ما تكلمت بكلام مفيد ، فكذا هنا نظرت وما نظرت نظراً مفيداً ورابعها : أن يكون النظر بمعنى الانتظار ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إلى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاه ﴾ [الأحزاب : 53] أي غير منتظرين إدراكه وبلوغه ، وعلى هذا الوجه يكون نظرت معناه انتظرت ، ومجيء فعلت وافتعلت بمعنى واحد كثير ، كقولهم : شويت واشتويت ، وحقرت واحتقرت ، إذا عرفت هذا فقوله : ﴿ انظرونا ﴾ يحتمل وجهين الأول : أنظرونا ، أي انتظرونا ، لأنه يسرع بالمؤمنين إلى الجنة كالبروق الخاطفة ، والمنافقون مشاة والثاني : أنظرونا أي أنظروا إلينا ، لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم ، والنور بين أيديهم فيستضيئون به ، وأما قراءة (أنظرونا) مكسورة الظاء فهي من النظرة والإمهال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَنظِرْني إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر : 36] وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإنظار المعسر ، والمعنى أنه جعل اتئادهم في المشي إلى أن يلحقوا بهم إنظاراً لهم .

واعلم أن أبا عبيدة والأخفش كانا يطعنان في صحة هذه القراءة ، وقد ظهر الآن وجه

صحتها .

المسألة الثالثة :

(165/747)

اعلم أن الاحتمالات في هذا الباب ثلاثة أحدها : أن يكون الناس كلهم في الظلمات ، ثم إنه تعالى يعطي المؤمنين هذه الأنوار ، والمنافقون يطلبونها منهم وثانيها : أن تكون الناس كلهم في الأنوار ، ثم إن المؤمنين يكونون في الجنات فيمرون سريعاً ، والمنافقون يبقون وراءهم فيطلبون منهم الانتظار وثالثها : أن يكون المؤمنون في النور والمنافقون في الظلمات ، ثم المنافقون يطلبون النور مع المؤمنين ، وقد ذهب إلى كل واحد من هذه الاحتمالات قوم ، فإن كانت هذه الحالة إنما تقع عند الموقف ، فالمراد من قوله : ﴿ انظرونا ﴾ انظروا إلينا ، لأنهم إذا نظروا إليهم ، فقد أقبلوا عليهم ، ومتى أقبلوا عليهم وكانت أنوارهم من قدامهم استضاءوا بتلك الأنوار ، وإن كانت هذه الحالة إنما تقع عند مسير المؤمنين إلى الجنة ، كان المراد من قوله : ﴿ انظرونا ﴾ يحتمل أن يكون هو الانتظار وأن يكون النظر إليهم .

المسألة الرابعة :

القبس : الشعلة من النار أو السراج ، والمنافقون طمعوا في شيء من أنوار المؤمنين أن

يقتبسوه كاقتباس نيران الدنيا وهو منهم جهل ، لأن تلك الأنوار نتائج الأعمال الصالحة في الدنيا ، فلما لم توجد تلك الأعمال في الدنيا امتنع حصول تلك الأنوار في الآخرة ، قال الحسن : يعطى يوم القيامة كل أحد نوراً على قدر عمله ، ثم إنه يؤخذ من حر جهنم ومما فيه من الكلاليب والحسك ويلقى على الطريق ، فتمضي زمرة من المؤمنين وجوههم كالقمر ليلة البدر ، ثم تمضي زمرة أخرى كأضواء الكواكب في السماء ، ثم على ذلك تغشاهم ظلمة فتطفىء نور المنافقين ، فهنالك يقول المنافقون للمؤمنين : ﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ كقبس النار .

المسألة الخامسة :

(166/747)

ذكروا في المراد من قوله تعالى : ﴿ قِيلَ ارجعوا وَرَاءكُمْ فالتمسوا نُوراً ﴾ وجوهاً أحدها : أن المراد منه : ارجعوا إلى دار الدنيا فالتمسوا هذه الأنوار هنالك ، فإن هذه الأنوار إنما تتولد من اكتساب المعارف الإلهية ، والأخلاق الفاضلة والتنزه عن الجهل والأخلاق الذميمة ، والمراد من ضرب السور ، هو امتناع العود إلى الدنيا وثانيها : قال أبو أمامة : الناس يكونون في ظلمة شديدة ، ثم المؤمنون يعطون الأنوار ، فإذا أسرع المؤمن في الذهاب

قال المنافق : ﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ فيقال لهم : ﴿ ارجعوا وَرَاءكُمْ فالتمسوا نُورًا ﴾ قال : وهي خدعة خدع بها المنافقون ، كما قال : ﴿ يخادعون الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء : 142] فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئًا ، فينصرفون إليهم فيجدون السور مضروبًا بينهم وبين المؤمنين وثالثها : قال أبو مسلم : المراد من قول المؤمنين : ﴿ ارجعوا ﴾ منع المنافقين عن الاستضاءة ، كقول الرجل لمن يريد القرب منه : وراءك أوسع لك ، فعلى هذا القول المقصود من قوله : ﴿ ارجعوا ﴾ أن يقطعوا بأنه لا سبيل لهم إلى وجدان هذا المطلوب ألبتة ، لا أنه أمر لهم بالرجوع .

قوله تعالى : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرحمة وظاهره مِن قِبَلِهِ العذاب ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

اختلفوا في السور ، فمنهم من قال : المراد منه الحجاب والحيلولة أي المنافقون منعوا عن طلب المؤمنين ، وقال آخرون : بل المراد حائط بين الجنة والنار ، وهو قول قتادة ، وقال مجاهد : هو حجاب الأعراف .

المسألة الثانية :

الباء في قوله : ﴿ بِسُورٍ ﴾ صلة وهو للتأكيد والتقدير : ضرب بينهم سور كذا ، قاله الأخفش ، ثم قال : ﴿ لَّهُ بَابٌ ﴾ أي لذلك السور باب ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرحمة ﴾ أي في باطن ذلك السور الرحمة ، والمراد من الرحمة الجنة التي فيها المؤمنين ﴿ وظاهره ﴾ يعني وخارج السور ﴿ مِن قِبَلِهِ العذاب ﴾ أي من قبله يأتيهم العذاب ، والمعنى أن ما يلي المؤمنين ففيه الرحمة ، وما يلي الكافرين يأتيهم من قبله العذاب ، والحاصل أن بين الجنة والنار حائط وهو السور ، ولذلك السور باب ، فالمؤمنون يدخلون الجنة من باب ذلك السور ، والكافرون يبقون في العذاب والنار .

يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في الآية قولان : الأول : ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ في الدنيا والثاني : ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ في العبادات والمساجد والصلوات والغزوات ، وهذا القول هو المتعين .

المسألة الثانية :

البعد بين الجنة والنار كثير ، لأن الجنة في أعلى السموات ، والنار في الدرك الأسفل ، فهذا يدل على أن البعد الشديد لا يمنع من الإدراك ، ولا يمكن أن يقال : إن الله عظم صوت الكفار بحيث يبلغ من أسفل السافلين إلى أعلى عليين ، لأن مثل هذا الصوت إنما يليق بالأشداء الأقوياء جداً ، والكفار موصوفون بالضعف وخفاء الصوت ، فعلمنا أن البعد لا يمنع من الإدراك على ما هو مذهبنا ، ثم حكى تعالى : أن المؤمنين قالوا بلى كنتم معنا إلا أنكم فعلتم أشياء بسببها وقعتم في هذا العذاب أولها : ﴿ ولكنكم فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي بالكفر والمعاصي وكلها فتنة وثانيها : قوله : ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ وفيه وجوه أحدها : قال ابن عباس : تربصتم بالتوبة وثانيها : قال مقاتل : وتربصتم بمحمد الموت ، قلتم يوشك أن يموت فنستريح منه وثالثها : كنتم تتربصون دائرة السوء لتلتحقوا بالكفار ، وتتخلصوا من النفاق وثالثها : قوله : ﴿ وارتبتم ﴾ وفيه وجوه الأول : شككتم في وعيد الله وثانيها : شككتم في نبوة محمد وثالثها : شككتم في البعث والقيامة ورابعها : قوله : ﴿ وَغرَّتْكُمُ الأماني ﴾ قال ابن عباس : يريد الباطل وهو ما كانوا يتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين ﴿ حتى جَاء أَمْرُ الله ﴾ يعني الموت ، والمعنى ما زالوا في خدع الشيطان وغروره حتى أماتهم الله

وألقاهم في النار .

قوله تعالى : ﴿ وَغَرَّكُم بالله الغرور ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ سماك بن حرب : ﴿ الغرور ﴾ بضم الغين ، والمعنى وغركم بالله الاغترار وتقديره على حذف المضاف أي غركم بالله سلامتكم منه مع الاغترار .

المسألة الثانية :

﴿ الغرور ﴾ بفتح الغين هو الشيطان لإلقائه إليكم أن لا خوف عليكم من محاسبة ومجازاة .

ثم قال تعالى : ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ﴾ .

الفدية ما يفتدى به وهو قولان : الأول : لا يؤخذ منكم إيمان ولا توبة فقد زال التكليف وحصل الإلجاء .

الثاني : بل المراد لا يقبل منكم فدية تدفعون بها العذاب عن أنفسكم ، كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شفاعة ﴾ [البقرة : 123] ، واعلم أن الفدية ما يفتدى به فهو

يتناول الإيمان والتوبة والمال ، وهذا يدل على أن قبول التوبة غير واجب عقلاً على ما تقوله المعتزلة لأنه تعالى بين أنه لا يقبل الفدية أصلاً والتوبة فدية ، فتكون الآية دالة على أن التوبة غير مقبولة أصلاً ، وإذا كان كذلك لم تكن التوبة واجبة القبول عقلاً أما قوله : ﴿ وَلاَ مِنَ الذين كَفَرُواْ ﴾ ففيه بحث : وهو عطف الكافر على المنافق يقتضي أن لا يكون المنافق كافراً لوجوب حصول المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه والجواب : المراد الذين أظهروا الكفر وإلا فالمنافق كافر .

ثم قال تعالى : ﴿ مَأْوَاكُمُ النار هِىَ مولاكم وَبِئْسَ المصير ﴾ .

وفي لفظ المولى ههنا أقوال : أحدها قال ابن عباس : ﴿ مولاكم ﴾ أي مصيركم ، وتحقيقه أن المولى موضع الولي ، وهو القرب ، فالمعنى أن النار هي موضعكم الذي تقربون منه وتصلون إليه ، والثاني : قال الكلبي : يعني أولى بكم ، وهو قول الزجاج والفراء وأبي عبيدة ، واعلم أن هذا الذي قالوه معنى وليس بتفسير للفظ ، لأن لو كان مولى وأولى بمعنى واحد في اللغة ، لصح استعمال كل واحد منهما في مكان الآخر ، فكان يجب أن يصح أن يقال : هذا مولى من فلان كما يقال : هذا أولى من فلان ، ويصح أن يقال : هذا أولى فلان كما يقال

: هذا مولى فلان ، ولما بطل ذلك علمنا أن الذي قالوه معنى وليس بتفسير ، وإنما نبهنا على هذه الدقيقة لأن الشريف المرتضى لما تسمك بإمامة علي ، بقوله عليه السلام : " من كنت مولاه فعلي مولاه " قال : أحد معاني مولى أنه أولى ، واحتج في ذلك بأقوال أئمة اللغة في تفسير هذه الآية ، بأن مولى معناه أولى ، وإذا ثبت أن اللفظ محتمل له وجب حمله عليه ، لأن ما عداه إما يبن الثبوت ، ككونه ابن العم والناصر ، أو يبن الإنتفاء ، كالمعتق والمعتق ، فيكون على التقدير الأول عبثاً ، وعلى التقدير الثاني كذباً ، وأما نحن فقد بينا بالدليل أن قول هؤلاء في هذا الموضع معنى لا تفسير ، وحينئذ يسقط الاستدلال به ، وفي الآية وجه آخر : وهو أن معنى قوله : ﴿ هِيَ مولاكم ﴾ أي لا مولى لكم ، وذلك لأن من كانت النار مولاه فلا مولى له ، كما يقال : ناصره الخذلان ومعينه البكاء ، أي لا ناصر له ولا معين ، وهذا الوجه متأكد بقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ﴾ [محمد : 11] ومنه قوله تعالى : ﴿ يُغَاثُواْ بِمَاء كالمهل ﴾ [الكهف : 29] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 194 . 199 ﴾

(171/747)

وقال ابن عطية :

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾

العامل في : ﴿ يوم ﴾ قوله ﴿ وله أجر كريم ﴾ [الحديد : 11] . والرؤية في هذه الآية رؤية عين . والنور : قال الضحاك بن مزاحم : هي استعارة ، عبارة عن الهدى والرضوان الذي هم فيه . وقال الجمهور : بل هو نور حقيقة ، وروي في هذا عن ابن عباس وغيره آثار مضمنها : أن كل مؤمن ومظهر للإيمان يعطى يوم القيامة نوراً فيطفأ نور كل منافق ويبقى نور المؤمنين . حتى أن منهم من نوره يضيء كما بين مكة وصنعاء ، رفعه قتادة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من نوره كالنخلة السحوق . ومنهم من نوره يضيء ما بين قرب من قدميه ، قال ابن مسعود : ومنهم من يهم بالانطفاء مرة ويتبين مرة على قدر المنازل في الطاعة والمعصية . وخص تعالى بين الأيدي بالذكر لأنه موضع حاجة الإنسان إلى النور .

واختلف الناس في قوله : ﴿ وبأيمانهم ﴾ فقال بعض المتأولين المعنى : وعن أيمانهم ، فكأنه خص ذكر جهة اليمين تشريفاً ، وناب ذلك مناب أن يقول : وفي جميع جهاتهم ، وقال آخرون منهم ، المعنى : ﴿ وبأيمانهم ﴾ كتبهم بالرحمة . وقال جمهور المفسرين ، المعنى : يسعى نورهم بين أيديهم ، يريد الضوء المنبسط من أصل النور . ﴿ وبأيمانهم ﴾ أصله ، والشيء الذي هو متقد فيه .

قال القاضي أبو محمد : فضمن هذا القول أنهم يحملون الأنوار ، وكونهم غير حاملين أكرم ،

ألا ترى أن فضيلة عباد بن بشر وأسيد بن حضير إنما كانت بنور لا يحملانه . هذا في الدنيا فكيف في الآخرة ، ومن هذه الآية انتزع حمل المعتق للشمعة .

وقرأ الناس : " بأيمانهم " جمع يمين . وقرأ سهل بن سعد وأبو حيوة : " بإيمانهم " بكسر الألف ، وهو معطوف على قوله : ﴿ بين أيديهم ﴾ كأنه قال : كائناً بين أيديهم ، وكائناً بسبب إيمانهم .

(172/747)

وقوله تعالى : ﴿ بشراكم ﴾ معناه ، يقال لهم : بشراكم جنات ، أي دخول جنات ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه .

وقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ إلى آخر الآية ، مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن مسعود : " ذلك الفوز العظيم " بغير هو .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات ﴾ قال بعض النحاة : ﴿ يوم ﴾ بدل من الأول وقال آخرون منهم العامل فيه فعل مضمر تقديره : اذكر .

قال القاضي أبو محمد : ويظهر لي أن العامل فيه قوله تعالى : ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ ويجيء معنى ﴿ الفوز ﴾ أفخم ، كأنه يقول : إن المؤمنين يفوزون بالرحمة يوم يعتري

المنافقين كذا وكذا ، لأن ظهور المرء يوم خمول عدوه ومضاده أبدع وأفخم ، وقول المنافقين هذه المقالة الممكنة هو عند انطفاء أنوارهم كما ذكرنا قبل .

وقولهم : ﴿ انظرونا ﴾ معناه : انتظرونا ، ومنه قول الحطيئة : [البسيط]

وقد نظرتكمُ أبناء عائشة . . . للخمس طال بها حبسي وتبساسي

وقرأ حمزة وحده وابن وثاب وطلحة والأعمش : " أنظِرونا " بقطع الألف وكسر الظاء على وزن أكرم .

ومنه قول عمرو بن كلثوم : [الوافر]

أبا هند فلا تعجل علينا . . . وأنظرنا نخبّرك اليقينا

ومعناه : أخرونا ، ومنه النظرة إلى الميسرة ، وقول النبي عليه السلام : " من أنظر معسراً " الحديث ، ومعنى قولهم : أخرونا ، أخروا مشيكم لنا حتى نلحق ف ﴿ نقتبس من نوركم ﴾ ، واقتبس الرجل واستقبس أخذ من نور غيره قبساً . وقوله تعالى : ﴿ قيل ارجعوا وراءكم ﴾ يحتمل أن يكون من قول المؤمنين ، ويحتمل أن يكون من قول الملائكة .

وقوله : ﴿ وراءكم ﴾ حكى المهدوي وغيره من المفسرين أنه لا موضع له من الإعراب ، وأنه كما لو قال ارجعوا ارجعوا ، وأنه على نحو قول أبي الأسود الدؤلي للسائل : وراءك أوسع لك .

قال القاضي أبو محمد : ولست أعرف مانعاً يمنع من أن يكون العامل فيه ﴿ ارجعوا ﴾ ، والقول لهم : ﴿ فالتمسوا نوراً ﴾ هو على معنى التوبيخ لهم ، أي أنكم لا تجدونه .

ثم أعلم عز وجل أنه يضرب بينهم في هذه الحال ﴿ بسور ﴾ حاجز ، فيبقى المنافقون في ظلمة ويأخذهم العذاب من الله ، وحكي عن ابن زيد أن هذا السور هو الأعراف المذكور في سورة " الأعراف " وقد حكاه المهدوي ، وقيل هو حاجز آخر غير ذلك ، وقال عبد الله بن عمر وكعب الأحبار وعبادة بن الصامت وابن عباس : هو الجدار الشرقي في مسجد بيت المقدس . وقال زياد بن أبي سوادة : قام عبادة على السور الشرقي من بيت المقدس فبكى وقال : من ها هنا أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى جهنم .

قال القاضي أبو محمد : وفيه باب يسمى باب الرحمة ، سماه في تفسير هذه الآية عبادة وكعب . وفي الشرق من الجدار المذكور واد يقال له : وادي جهنم ، سماه في تفسير هذه الآية عبد الله بن عمر وابن عباس ، وهذا القول في السور بعيد ، والله أعلم وقال قتادة وابن زيد ، ﴿ الرحمة ﴾ : الجنة . و ﴿ العذاب ﴾ : جهنم .

والسور في اللغة الحجي الذي للمدن وهو مذكور . والسور أيضاً جمع سورة ، وهي القطعة من البناء ينضاف بعضها إلى بعض حتى يتم الجدار ، فهذا اسم جمع يسوغ تذكيره وتأنيثه ، وهذا الجمع هو الذي أراد جرير في قوله : [الكامل]

لما أتى خبر الزبير تضعضعت . . . سور المدينة والجبال الخشع

وذلك أن المدينة لم يكن لها قط حجي ، وأيضاً فإن وصفه أن جميع ما في المدينة من بناء تواضع أبلغ ، ومن رأى أنه قصد قصد السور الذي هو الحجي ، قال : إن ذلك إذا تواضع فغيره من المباني أحرى بالتواضع .

قال القاضي أبو محمد : فإذا كان السور في البيت محتملاً للوجهين فليس هو في قوة مر الرياح وصدر القناة وغير ذلك مما هو مذكر محض استفاد التأنيث مما أضيف إليه .

وقوله تعالى : ﴿ باطنه فيه الرحمة ﴾ أي جهة المؤمنين ، ﴿ وظاهره ﴾ جهة المنافقين ، والظاهر هنا البادي ، ومنه قول : من ظاهر مدينة كذا ، وقوله تعالى : ﴿ ينادونهم ﴾ معناه : ينادي المنافقون المؤمنين ﴿ ألم نكن معكم ﴾ في الدنيا ؟ فيرد المؤمنون عليهم : ﴿ بلى ﴾ كنتم معنا ، ولكنكم عرضتم أنفسكم للفتنة ، وهو حب العاجل والقتال عليه ، قال مجاهد : ﴿ فتنتم أنفسكم ﴾ بالنفاق .

﴿ وتربصتم ﴾ معناه هنا : بأمانكم ﴿ فأبطأتم ﴾ به حتى متم . وقال قتادة معناه : تربصتم بنا وبمحمد عليه السلام الدوائر وشككتم في أمر الله . والارتياب : التشكك . و:

﴿ الأماني ﴾ التي غرتهم هي قولهم : سيهلك محمد هذا العام ستهزمه قريش ، ستأخذه الأحزاب ، إلى غير ذلك من أمانيهم ، وطول الأمل غرار لكل أحد ، و﴿ أمر الله ﴾ الذي ﴿ جاء ﴾ هو الفتح وظهور الإسلام ، وقيل هو موت المنافقين وموافاتهم على هذه الحال الموجبة للعذاب و: ﴿ الغرور ﴾ الشيطان بإجماع من المتأولين .

وقرأ سماك بن حرب بضم الغين ، وأبو حيوة . وينبغي لكل مؤمن أن يعتبر هذه الآية في نفسه وتسويفه في توبته .

قوله تعالى : ﴿ فاليوم لا يؤخذ ﴾ استمرار في مخاطبة المنافقين . قاله قتادة وغيره : وروي في معنى قوله : ﴿ ولا من الذين كفروا ﴾ حديث ، وهو أن الله تعالى يقرر الكافرين فيقول له : أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا أكنت تفتدي بجميع ذلك من عذاب النار ؟ فيقول : نعم يا رب ، فيقول الله تعالى : قد سألتك ما هو أيسر من هذا وأنت في صلب أبيك آدم أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك .

وقرأ جمهور القراء والناس : " يؤخذ " بالياء من تحت . وقرأ أبو جعفر القارئ : " تؤخذ " بالتاء من فوق ، وهي قراءة ابن عامر في رواية هشام عنه ، وهي قراءة الحسن وابن أبي إسحاق والأعرج

وقوله : ﴿ هي مولاكم ﴾ قال المفسرون معناه : هي أولى بكم ، وهذا تفسير بالمعنى ، وإنما هي استعارة ، لأنها من حيث تضمنهم وتباشرهم هي تواليهم وتكون لهم مكان المولى ، وهذا نحو قول الشاعر [عمرو بن معد يكرب] : [الوافر]

تحية بينهم ضرب وجميع . . . وقوله تعالى : ﴿ ألم يأن ﴾ الآية ابتداء معنى مستأنف ، وروي أنه كثر المزاح والضحك في بعض تلك المدة في قوم من شبان المسلمين فنزلت هذه الآية . وقال ابن مسعود : مل الصحابة ملة فنزلت الآية . انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(176/747)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات ﴾

العامل في "يَوْمَ" ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ وفي الكلام حذف أي "وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ" في "يَوْمَ تَرَى" فيه ﴿ المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهُم ﴾ أي يمضي على الصراط في قول الحسن ، وهو الضياء الذي يمرون فيه ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي قدّامهم .

﴿ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ قال الفراء : الباء بمعنى في ؛ أي في أيمانهم .

أو بمعنى عن أي عن أيمانهم .

وقال الضحاك : ﴿ نُورُهُم ﴾ هداهم ﴿ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ كتبهم ؛ واختاره الطبري .

أي يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم ، وفي أيمانهم كتب أعمالهم .

فالباء على هذا بمعنى في .

ويجوز على هذا أن يوقف على ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ولا يوقف إذا كانت بمعنى عن .

وقرأ سهل بن سعد الساعدي وأبو حيوة "وبِإِيمَانِهِم" بكسر الألف ، أراد الإيمان الذي هو ضد الكفر .

وعطف ما ليس بظرف على الظرف ؛ لأن معنى الظرف الحال وهو متعلق بمحذوف .

والمعنى يسعى كائناً ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وكائناً "بِإِيمَانِهِمْ" ، وليس قوله : ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ متعلقاً بنفس "يَسْعَى" .

وقيل : أراد بالنور القرآن .

وعن ابن مسعود : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم ؛ فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره على إبهام رجله فيطفأ مرة ويوقد أخرى .

وقال قتادة : ذكر لنا أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن مِن المؤمنين من يضيء نوره

كما بين المدينة وعدنٍ أو ما بين المدينة وصنعاء ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه" قال الحسن : ليستضيئوا به على الصراط كما تقدم .

وقال مقاتل : ليكون دليلاً لهم إلى الجنة .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ بُشْرَاكُمُ اليوم جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ التقدير يقال لهم : ﴿ بُشْرَاكُمُ اليوم ﴾ دخول جناتٍ .

(177/747)

ولا بد من تقدير حذف المضاف ؛ لأن البشرى حدث ، والجنة عين فلا تكون هي هي .

﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ أي من تحتهم أنهار اللبن والماء والخمر والعسل من تحت مساكنها .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال من الدخول المحذوف ؛ التقدير "بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ" دخول جناتٍ ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ مقدرين الخلود فيها ولا تكون الحال من بشراكم ؛ لأن فيه فصلاً بين الصلة والموصول .

ويجوز أن يكون مما دل عليه البشرى ، كأنه قال : تبشرون خالدين .

ويجوز أن يكون الظرف الذي هو "الْيَوْمَ" خبراً عن "بُشْرَاكُمُ" و "جَنَّاتٌ" بدلاً من البشرى على تقدير حذف المضاف كما تقدم.

و"خَالِدِينَ" حال حسب ما تقدم.

وأجاز الفراء نصب "جَنَّات" على الحال على أن يكون "الْيَوْمَ" خبراً عن "بُشْرَاكُمُ" وهو بعيد؛ إذ ليس في "جَنَّات" معنى الفعل.

وأجاز أن يكون "بُشْرَاكُمُ" نصباً على معنى يبشرونهم بشرى وينصب "جنات" بالبشرى وفيه تفرقة بين الصلة والموصول.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ المنافقون ﴾

العامل في "يَوْمَ" ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ﴾.

وقيل: هو بدل من اليوم الأول.

﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ ﴾ قراءة العامة بوصل الألف مضمومة الظاء من نظر؛ والنظر الانتظار أي انتظرونا.

وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى بن وثّاب "أَنظِرُونَا" بقطع الألف وكسر الظاء من الإنظار.

أي أمهلونا وأخرونا؛ أنظرته أخرته، واستنظرته أي استمهلته.

وقال الفراء: تقول العرب: أنظِرني انتظرني؛ وأنشد لعمرو بن كلثوم:

أبا هِندٍ فلا تَعْجلْ عَلَيْنَا . . .

وأَنظِرْنَا نُخَبِّرْكَ اليَقِينَا

أي انتظرنا .

﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ أي نستضيء من نوركم .

قال ابن عباس وأبو أمامة : يغشى الناس يوم القيامة ظلمة قال الماوردي : أظنها بعد فصل القضاء ثم يعطون نوراً يمشون فيه .

(178/747)

قال المفسرون : يعطي الله المؤمنين نوراً يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط ، ويعطي المنافقين أيضاً نوراً خديعةً لهم ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء : 142] .

وقيل : إنما يعطون النور ؛ لأن جميعهم أهل دعوة دون الكافر ، ثم يسلب المنافق نوره لنفاقه ؛ قاله ابن عباس .

وقال أبو أمامة : يعطي المؤمن النور ويترك الكافر والمنافق بلا نور .

وقال الكلبي : بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور ، فبينما هم يمشون إذ بعث الله فيهم ريحاً وظلمة فأطفأ بذلك نور المنافقين ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا

نُورَنَا ﴾ يقوله المؤمنون ؛ خشية أن يُسلبوه كما سلبه المنافقون ، فإذا بقي المنافقون في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم قالوا للمؤمنين : ﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ .

﴿ قِيلَ ارجعوا وراءَكُمْ ﴾ أي قالت لهم الملائكة "ارجعوا" .

وقيل : بل هو قول المؤمنين لهم ﴿ ارجعوا وَرَاءَكُم ﴾ إلى الموضع الذي أخذنا منه النور فاطلبوا هنالك لأنفسكم نوراً فإنكم لا تقتبسون من نورنا .

فلما رجعوا وانعزلوا في طلب النور ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ ، وقيل : أي هلاّ طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا .

"بِسُورٍ" أي سُورٌ ؛ والباء صلة .

قاله الكسائي .

والسُّور حاجز بين الجنة والنار .

وروي أن ذلك السُّور ببيت المَقْدس عند موضع يعرف بوادي جهنم .

﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرحمة ﴾ يعني ما يلي منه المؤمنين ﴿ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العذاب ﴾ يعني ما يلي المنافقين .

قال كعب الأحبار : هو الباب الذي ببيت المقدس المعروف بباب الرحمة .

وقال عبد الله بن عمرو : إنه سُور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه المسجد ﴿ وَظَاهِرُهُ

مِن قِبَلِهِ العذاب ﴾ يعني جهنم.

ونحوه عن ابن عباس.

(179/747)

وقال زياد ابن أبي سوادة: قام عبادة بن الصامت على سُور بيت المقدس الشرقي فبكى، وقال: من ههنا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جهنم.

وقال قتادة: هو حائط بين الجنة والنار "بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ" يعني الجنة ﴿ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العذاب ﴾ يعني جهنم.

وقال مجاهد: إنه حجاب كما في "الأعراف" وقد مضى القول فيه.

وقد قيل: إن الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين، والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين.

قوله تعالى: ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ في الدنيا يعني نصلي مثل ما تصلون، ونغزو مثل ما تغزون، ونفعل مثل ما تفعلون ﴿ قَالُواْ بلى ﴾ أي يقول المؤمنون "بَلَى" قد كنتم معنا في الظاهر ﴿ ولكنكم فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي استعملتموها في الفتنة.

وقال مجاهد: أهلكتموها بالنفاق.

وقيل : بالمعاصي ؛ قاله أبو سنان .

وقيل : بالشهوات واللذات ؛ رواه أبو نمير الهمْداني .

﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ وارتبتم ﴾ أي "تَرَبَّصْتُمْ" بالنبيّ صلى الله عليه وسلم الموت ، وبالمؤمنين الدوائر .

وقيل : "تَرَبَّصْتُمْ" بالتوبة ﴿ وارتبتم ﴾ أي شككتم في التوحيد والنبوة ﴿ وَغرَّتْكُمُ الأماني ﴾ أي الأباطيل .

وقيل : طول الأمل .

وقيل : هو ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين ونزول الدوائر بهم .

وقال قتادة : الأماني هنا خدع الشيطان .

وقيل : الدنيا ؛ قاله عبد الله بن عباس .

وقال أبو سنان : هو قولهم سَيُغْفَر لنا .

وقال بلال بن سعد : ذكرك حسناتِك ونسيانك سيئاتِك غِرَّةً .

﴿ حتى جَآءَ أَمْرُ الله ﴾ يعني الموت .

وقيل : نصرة نبيِّه صلى الله عليه وسلم .

وقال قتادة : إلقاؤهم في النار .

﴿ وَغَرَّكُم ﴾ أي خدعكم ﴿ بالله الغرور ﴾ أي الشيطان ؛ قاله عكرمة .

وقيل : الدنيا ؛ قاله الضحاك .

(180/747)

وقال بعض العلماء : إن للباقي بالماضي معتبراً ، وللآخر بالأول مزدجراً ، والسعيد من لا يغتر بالطمع ، ولا يركن إلى الخُدَع ، ومن ذكر المنيّة نسي الأمنيّة ، ومن أطال الأمل نسي العمل ، وغفل عن الأجل .

وجاء "الْغَرُورُ" على لفظ المبالغة للكثرة .

وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السَّمَيْقَع وسِمَاك بن حرب "الْغُرُورُ" بضم الغين يعني الأباطيل وهو مصدر .

وعن ابن عباس : "أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم خطّ لنا خطوطاً ، وخطّ منها خطًّا ناحية فقال : "أتدرون ما هذا ؟ هذا مثل ابن آدم ومثل التمني وتلك الخطوط الآمال بينما هو يتمنى إذ جاءه الموت" " وعن ابن مسعود قال : " خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًّا مربعاً ، وخطّ وسطه خطًّا وجعله خارجاً منه ، وخطّ عن يمينه ويساره خطوطاً صغاراً فقال : "هذا ابن آدم وهذا أجله محيط به وهذا أمله قد جاوز أجله وهذه

الخطوط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا" " .

قوله تعالى : ﴿ فاليوم لا يُؤْخَذ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ أيها المنافقون ﴿ وَلا مِنَ الذين كَفَرُوا ﴾ أيأسهم من النجاة .

وقراءة العامة ﴿ يُؤْخَذُ ﴾ بالياء ؛ لأن التأنيث غير حقيقي ؛ ولأنه قد فصل بينها وبين الفعل .

وقرأ ابن عامر ويعقوب "تُؤْخَذُ" بالتاء واختاره أبو حاتم لتأنيث الفدية .

والأوّل اختيار أبي عبيد ؛ أي لا يقبل منكم بدل ولا عوض ولا نفس أخرى .

﴿ مَأْوَاكُمُ النار ﴾ أي مقامكم ومنزلكم ﴿ هِيَ مَوْلاَكُمْ ﴾ أي أَوْلى بكم ، والمولى من يتولى مصالح الإنسان ، ثم استعمل فيمن كان ملازماً للشيء .

وقيل : أي النار تملك أمرهم ؛ بمعنى أن الله تبارك وتعالى يُركّب فيها الحياة والعقل فهي تتميز غيظاً على الكفار ، ولهذا خوطبت في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30] .

﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ .

أي ساءت مرجعاً ومصيراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾

العامل في يوم ما عمل في لهم ؛ التقدير : ومستقر له أجر كريم يوم ترى ، أو اذكر يوم ترى إعظاماً لذلك اليوم .

والرؤية هنا رؤية عين ، والنور حقيقة ، وهو قول الجمهور ، وروي في ذلك عن ابن عباس وغيره آثار ، وأن كل مظهر من الإيمان له نور ، فيطفىء نور المنافق ، ويبقى نور المؤمن ، وهم متفاوتون في النور .

منهم من يضيء ، كما بين مكة وصنعاء ، ومن نوره كالنخلة السحوق ، ومن يضيء له ما قرب قدميه .

ومنهم من يهم بالانطفاء مرة ويبين مرة ، وذلك على قدر الأعمال .

وقال الضحاك : النور استعارة عن الهدى والرضوان الذي هم فيه .

والظاهر أن النور يتقدم لهم بين أيديهم ، ويكون أيضاً بأيمانهم ، فيظهر أنهما نوران : نور ساع بين أيديهم ، ونور بأيمانهم ؛ فذلك يضيء الجهة التي يؤمونها ، وهذا يضيء ما حواليهم من الجهات .

وقال الجمهور : النور أصله بأيمانهم ، والذي بين أيديهم هو الضوء المنبسط من ذلك النور .

وقيل : الباء بمعنى عن ، أي عن أيمانهم ، والمعنى : في جميع جهاتهم .

وعبر عن ذلك بالأيمان تشريفاً لها .

وقال الزمخشري : وإنما قال ﴿ بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ ، لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين ، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ وبأيمانهم ﴾ ، جمع يمين ؛ وسهل بن شعيب السهمي ، وأبو حيوة : بكسر الهمزة ، وعطف هذا المصدر على الظرف لأن الظرف متعلق بمحذوف ، أي كائناً بين أيديهم ، وكائناً بسبب أيمانهم .

﴿ بشراكم اليوم جنات ﴾ : جملة معمولة لقول محذوف ، أي تقول لهم الملائكة : الذين يتلقونهم جنات ، أي دخول جنات .

قال ابن عطية : ﴿ خالدين فيها ﴾ ، إلى آخر الآية ، مخاطبة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) . انتهى .

ولا مخاطبة هنا ، بل هذا من باب الالتفات من ضمير الخطاب في ﴿ بشراكم ﴾ إلى ضمير الغيبة في ﴿ خالدين ﴾ .

ولو جرى على الخطاب ، لكان التركيب خالداً أنتم فيها ، والالتفات من فنون البيان ﴿ يوم يقول ﴾ بدل من ﴿ يوم ترى ﴾ .

وقيل : معمول لاذكر .

قال ابن عطية : ويظهر لي أن العامل فيه ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ ، ومجيء معنى الفوز أفخم ، كأنه يقول : إن المؤمنين يفوزون بالرحمة يوم يعتري المنافقين كذا وكذا ، لأن ظهور المرء يوم خمول عدوه ومضاده أبدع وأفخم . انتهى .

فظاهر كلامه وتقديره أن يوم منصوب بالفوز ، وهو لا يجوز ، لأنه مصدر قد وصف قبل أخذ متعلقاته ، فلا يجوز إعماله .

فلو أعمل وصفة ، وهو العظيم ، لجاز ، أي الفوز الذي عظم ، أي قدره ﴿ يوم يقول ﴾ .

﴿ انظرونا ﴾ : أي انتظرونا ، لأنهم لما سبقوكم إلى المرور على الصراط ، وقد طفئت أنوارهم ، قالوا ذلك .

قال الزمخشري : ﴿ انظرونا ﴾ : انتظرونا ، لأنهم يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة على ركاب تذف بهم وهؤلاء مشاة ، أو انظروا إلينا ، لأنهم إذا انظروا إليهم استقبلوهم بوجوهم والنور بين أيديهم فيستضيئون به .

انتهى .

فجعل انظرونا بمعنى انظروا إلينا ، ولا يتعدى النظر هذا في لسان العرب إلا بإلى لا بنفسه ،

وإنما وجد متعدياً بنفسه في الشعر .

وقرأ زيد بن علي وابن وثاب والأعمش وطلحة وحمزة : أنظرونا من أنظر رباعياً ، أي أخرونا ، أي اجعلونا في آخركم ، ولا تسبقونا بحيث تفوتوننا ، ولا نلحق بكم .

﴿ نقتبس من نوركم ﴾ : أي نصب منه حتى نستضيء به .

ويقال : اقتبس الرجل واستقبس : أخذ من نار غيره قبساً .

﴿ قيل ارجعوا وراءكم ﴾ : القائل المؤمنون ، أو الملائكة .

والظاهر أن ﴿ وراءكم ﴾ معمول لارجعوا .

وقيل : لا محل له من الأعراب لأنه بمعنى ارجعوا ، كقولهم : وراءك أوسع لك ، أي ارجع تجد مكاناً أوسع لك .

(183/747)

وارجعوا أمر توبيخ وطرد ، أي ارجعوا إلى الموقف حيث أعطينا الفوز فالتمسوه هناك ، أو ارجعوا إلى الدنيا والتمسوا نوراً ، أي بتحصيل سببه وهو الإيمان ، أو تنحوا عنا ، ﴿ فالتمسوا نوراً ﴾ غير هذا فلا سبيل لكم إلى الاقتباس منه .

وقد علموا أن لا نور وراءهم ، وإنما هو إقناط لهم .

﴿ فضرب بينهم ﴾ : أي بين المؤمنين والمنافقين ، ﴿ بسور ﴾ : بحاجز .

قال ابن زيد : هو الأعراف .

وقيل : حاجز غيره .

وقرأ الجمهور : فضرب مبنياً للمفعول ؛ وزيد بن علي وعبيد بن عمير : مبنياً للفاعل ، أي الله ، ويبعد قول من قال : إن هذا السور هو الجدار الشرقي من مسجد بيت المقدس ، وهو مروي عن عبادة بن الصامت وابن عباس وعبد الله بن عمر وكعب الأحبار ، ولعله لا يصح عنهم .

والسور هو الحاجز الدائر على المدينة للحفظ من عدو .

والظاهر في باطنه أن يعود الضمير منه على الباب لقربه .

وقيل : على السور ، وباطنه الشق الذي لأهل الجنة ، وظاهره ما يدانيه من قبله من جهته العذاب .

﴿ ينادونهم ﴾ : استئناف إخبار ، أي ينادون المنافقون المؤمنين ، ﴿ ألم نكن معكم ﴾ : أي في الظاهر ، ﴿ قالوا بلى ﴾ : أي كنتم معنا في الظاهر ، ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴾ : أي عرضتم أنفسكم للفتنة بنفاقكم ، ﴿ وتربصتم ﴾ أي بأيمانكم حتى وافيتم على الكفر ، أو تربصتم بالمؤمنين الدوائر ، قاله قتادة ، ﴿ وارتبتم ﴾ : شككتم في أمر الدين ، ﴿ وغرتكم الأماني ﴾ : وهي الأطماع ، مثل قولهم : سيهلك محمد هذا العام ، تهزمه

قبيلة قريش مستأخرة الأحزاب إلى غير ذلك ، أو طول الآمال في امتداد الأعمار ، ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ ، وهو الموت على النفاق ، والغرور : الشيطان بإجماع.

وقرأ سماك بن حرب : الغرور ، وتقدم ذلك .

(184/747)

﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ﴾ أيها المنافقون ، والناصب لليوم الفعل المنفي بلا ، وفيه حجة على من منع ذلك ، ﴿ ولا من الذين كفروا ﴾ ، في الحديث : " إن الله تعالى يعزر الكافر فيقول له : أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا ، أكنت تفتدي بجميع ذلك من عذاب النار ؟ فيقول : نعم يا رب ، فيقول الله تبارك وتعالى : قد سألتك ما هو أيسر من ذلك وأنت في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك "

وقرأ الجمهور : لا يؤخذ ؛ وأبو جعفر والحسن وابن أبي إسحاق والأعرج وابن عامر وهارون عن أبي عمرو : بالتاء لتأنيث الفدية .

﴿ هي مولاكم ﴾ ، قيل : أولى بكم ، وهذا تفسير معنى .

وكانت مولاهم من حيث أنها تضمهم وتباشرهم ، وهي تكون لكم مكان المولى ، ونحوه قوله :

تحية بينهم ضرب وجيع . . .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد هي ناصركم ، أي لا ناصر لكم غيرها .

والمراد نفي الناصر على البتات ، ونحوه قولهم : أصيب فلان بكذا فاستنصر الجزع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يغاثوا بماء كالمهل ﴾ وقيل : تتولاكم كما توليتم في الدنيا أعمال أهل النار .

انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(185/747)

وقال الثعالبى :

وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ . . . ﴾ الآية ، العامل في ﴿ يَوْمَ ﴾ قوله : ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ والرؤية هنا رؤية عينٍ ، والجمهور أَنَّ النورَ هنا هو نور حقيقة ، وقد روي في هذا عن ابن عباس وغيره آثار مضمنها : أَنَّ كل مؤمن ومُظْهِرٍ للإيمان ، يُعْطَى يومَ القيامة نورا فَيُطْفَأُ نورُ كُلِّ منافقٍ ، ويبقى نورُ المؤمنين ، حتى إنَّ منهم مَنْ نورُه يضيء كما بين مَكَّةَ وصنعاءَ ؛ رفعه قتادة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنهم مَنْ نوره كالنخلة السحوق ، ومنهم مَنْ نورُه يضيء ما قَرُبَ من قدميه ؛ قاله ابن مسعود ، ومنهم مَنْ يَهُمُّ بالانطفاء مرة وَيَبِينُ مرة على قدر المنازل في الطاعة والمعصية ، قال

الفخر : قال قتادة : ما من عبد إلاَّ وينادى يوم القيامة : يا فلان ، هذا نورك ، يا فلان ، لا نورَ لك ، نعوذ باللَّه من ذلك ! واعلم أَنَّ العلمَ الذي هو نور البصيرة أولى بكونه نوراً من نور البصر ، وإذا كان كذلك ظهر أَنَّ معرفة اللَّه تعالى هي النورُ في القيامة ، فمقادير الأنوار يومَ القيامة على حسب مقادير المعارف في الدنيا ، انتهى ، ونحوه للغزالي ، وخَصَّ تعالى بين الأيدي بالذكر ؛ لأَنَّهُ موضع حاجة الإنسان إلى النور ، واخْتُلِفَ في قوله تعالى : ﴿ وبأيمانهم ﴾ فقال بعض المتأولين : المعنى : وعن أيمانهم ، فكأَنَّه خَصَّ ذكر جهة اليمين ؛ تشريفاً ، وناب ذلك مَنَابَ أَنْ يقول : وفي جميع جهاتهم ، وقال جمهور المفسرين : المعنى : يسعى نورُهم بين أيديهم ، يريد الضوء المنبسط من أصل النور ، ﴿ وبأيمانهم ﴾ : أصله ، والشيءُ الذي هو مُتَّقَدٌ فيه ، فتضمن هذا القول أُنَّهم يحملون الأنوار ، وكونهم غير حاملين أكرم ؛ أَلاَ ترى أَنَّ فضيلةَ عباد بن بشر وأسيد بن حضير إنَّما كانت بنور لا يحملانه ، هذا في الدنيا ، فكيف بالآخرة ؟ ! * ت * : وفيما قاله * ع * : عندي

(186/747)

نظر ، وأَيضاً فأحوال الآخرة لا تُقَاسُ على أحوال الدنيا ! .

وقوله تعالى : ﴿ بُشْرَاكُمُ ﴾ أي : يقال لهم : بشراكم ﴿ جنات ﴾ أي دخولُ جنات .

* ت * : وقد جاءت بحمد اللَّه آثار بتبشير هذه الأُمَّةِ المحمديَّة ، وخَرَّجَ ابن ماجة قال : أخبرنا جُبَارة بن المغلّس ، قال : حدثنا عبد الأعلى ، عن أبي بردة ، عن أبيه قال : قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إذَا جَمَعَ [اللَّهُ] الخَلاَئِقَ يَوْمَ الْقِيَامَة ، أَذِنَ لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم في السُّجُودِ ، فَسَجَدُوا طَوِيلاً ، ثُمَّ يُقَالُ : ارْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ ، فَقَدْ جَعَلْنَا عِدَتَكُمْ فِدَاءَكُمْ مِنَ النَّارِ » ، قال ابن ماجه : وحدَّثنا جُبَارَةُ بْنُ المُغَلّسِ ، حدثنا كَثِيرُ بن سليمان : عن أنس بن مالك ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنَّ هذه الأُمَّةَ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ ، عَذَابُهَا بِأَيْدِيهَا ، فَإذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دُفِعَ إلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ رَجُلٌ مِنَ المُشْرِكِينَ فَيُقَالُ : هذا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ »

(187/747)

، وفي « صحيح مسلم » : " دَفَعَ اللَّهُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ : هذا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ " انتهى من « التذكرة » .

وقوله تعالى : { يَوْمَ يَقُولُ المنافقون } قيل : { يَوْمَ } هو بدل من الأول ، وقيل : العامل فيه « اذكر » ، قال * ع * : ويظهر لي أَنَّ العامل فيه قوله تعالى : { ذلك هُوَ الفوز العظيم } ويجيء معنى الفوز أَفْخَمَ ؛ كأَنَّهُ يقول : إنَّ المؤمنين يفوزون بالرحمة يوم يعتري المنافقين

كذا وكذا ، لأَنَّ ظهورَ المرء يومَ خمول عَدُوّه ومُضادِّه أَبْدَعُ وأَفْخَمُ ، وقول المنافقين هذه المقالةَ المحكية ، هو عند انطفاء أنوارهم ، كما ذكرنا قبل ، وقولهم : «انْظُرُونَا» معناه : انتظرونا ، وقرأ حمزة وحده : ﴿ انظرونا ﴾ بقطع الألف وكسر الظاء ومعناه أَخِّرُونا ؛ ومنه : ﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ ومعنى قولهم أَخِّرونا ، أي : أَخِّروا مشيَكم لنا ؛ حَتَّى نلتحق فنقتبسَ من نوركم ، واقتبس الرجل : أخذ من نور غيره قَبَساً ، قال الفخر : القَبَسُ : الشعلة من النار والسراج ، والمنافقون طَمِعُوا في شيء من أنوار المؤمنين ، وهذا منهم جهل ؛ لأَنَّ تلك الأنوار نتائج الأعمال الصالحة في الدنيا ، وهم لم يقدموها ، قال الحسن : يُعْطَى يومَ القيامة كُلُّ أحد نوراً على قَدْرِ عمله ، ثم يؤخذ من حجر جهنم ومِمَّا فيها من الكلاليب والحسك ويُلْقَى على الطريق ، ثم تمضي زمرة من المؤمنينَ ، وُجُوهُهُم كالقمر ليلةَ البدر ، ثم تمضي زمرة أُخرى كأضوأ كوكب في السماء ، ثم على ذلك ، ثم تغشاهم ظلمة تُطْفِىءُ نورَ المنافقين ، فهنالك يقول المنافقون للذين آمنوا : ﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ ، انتهى .

(188/747)

وقوله تعالى: ﴿ قِيلَ ارجعوا وَرَاءَكُمْ ﴾ يحتمل أنْ يكون من قول المؤمنين [لهم] ، [ويحتمل أنْ يكون من قول] الملائكة ، والقول لهم: ﴿ فالتمسوا نُوراً ﴾ : هو على معنى التوبيخ لهم ، أي: إنَّكم لا تجدونه ، ثم أعلم تعالى أَنَّهُ يضرب بينهم في هذه الحال بسورٍ حاجز ، فيبقى المنافقون في ظُلْمَةٍ وعذاب .

وقوله تعالى: ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرحمة ﴾ أي: جهة المؤمنين ﴿ وظاهره ﴾ : جهة المنافقين ، والظاهر هنا: البادي؛ ومنه قول الكُتَّابِ: من ظاهر مدينة كذا ، وعبارة الثعلبيِّ: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ : وهو حاجز بين الجنة والنار ، قال أبو أمامة الباهليُّ: فيرجعون إلى المكان الذي قُسِّمَ فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم ، وقد ضُرِبَ بينهم بسور ، قال قتادة: حائط بين الجنة والنار ، له باب ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرحمة ﴾ ، يعني: الجنة ، ﴿ وظاهره مِن قِبَلِهِ العذاب ﴾ يعني النار ، انتهى ، قال ❊ ص ❊ : قال أبو البقاء: الباء في ﴿ بِسُورٍ ﴾ زائدة ، وقيل: ليست بزائدة ، قال أبو حيان: والضمير في ﴿ بَاطِنُهُ ﴾ عائدٌ على الباب ، وهو الأظهر لأَنَّهُ الأقرب ، وقيل: على سور ، أبو البقاء: والجملة صفة لـ«باب» أو لـ«سور» ، انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ ينادونهم ﴾ معناه : ينادي المنافقون المؤمنين : ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ : في الدنيا ، فيردّ المؤمنون عليهم : ﴿ بلى ﴾ : كنتم معنا ، ولكن عرَّضْتُمْ أنفسكم للفتنة ، وهي حُبُّ العاجل والقتال عليه ، قال مجاهد : فتنتم أنفسكم بالنفاق ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ معناه هنا : بإيمانكم فأبطأتم به ، حَتَّى مُتُّم ، وقال قتادة : معناه : تربصتم بِنَا وبمحمد صلى الله عليه وسلم الدوائرَ ، وشككتم ، والارتياب : التشكك ، والأماني التي غرتهم هي قولهم : سَيَهْلَكُ محمد هذا العام ، سَتَهْزِمُهُ قريش ، ستأخذه الأحزاب . . . إلى غير ذلك من أمانيهم ، وطول الأمل : غرار لكل أحد ، وأمر اللَّه الذي جاء هو : الفتح وظهور الإسلام ، وقيل : هو موتهم على النفاق المُوجِب للعذاب ، و ﴿ الغرور ﴾ : الشيطان بإجماع المتأولين ، وينبغي لكل مؤمن أَنْ يعتبر هذه الآيةَ في نفسه ، وتسويفَه في توبته ، واعلم أيها الأخ أَنَّ الدنيا غَرَّارة للمقبلين عليها ، فإنْ أردت الخلاص والفوز بالنجاة ، فازهدْ فيها ، وأقبلْ على ما يعنيك من إصلاح دينك والتزود لآخرتك ، وقد روى ابن المبارك في «رقائقه» عن أبي الدرداء أَنَّهُ قال يعني لأصحابه : لَئِنْ حَلَفْتُم لي على رجل منكم أَنَّه أزهدكم ، لأحلفنَّ لكم أنه خيركم ، وروى ابن المبارك بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّه قال : "يَبْعَثُ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِهِ كَانَا عَلَى سِيرَةٍ وَاحِدَةٍ ، أَحَدُهُمَا مَقْتُورٌ عَلَيْهِ ، وَالآخَرُ مُوَسَّعٌ عَلَيْهِ [فَيُقْبِلُ الْمَقْتُورُ عَلَيْهِ] إلَى الجَنَّةِ ، وَلاَ

يَنْثَنِي عَنْهَا حَتَّى يَنْتَهِي إِلَى أَبْوَابِهَا، فَيَقُولُ حَجَبَتُهَا: إِلَيْكَ إِلَيْكَ! فَيَقُولُ: إِذَنْ لاَ أَرْجِعَ، قَالَ: وَسَيْفُهُ فِي عُنُقِهِ فَيَقُولُ: أُعْطِيتُ هذا السَّيْفَ فِي الدُّنْيَا أُجَاهِدُ

(190/747)

بِهِ، فَلَمْ أَزَلْ مُجَاهِداً بِهِ حتى قُبِضْتُ وَأَنَا على ذَلِكَ، فَيَرْمِي بِسَيْفِهِ إِلَى الخَزَنَةِ، وَيَنْطَلِقُ، لاَ يُثْنُونَهُ وَلاَ يَحْبِسُونَهُ عَنِ الجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا، فَيَمْكُثُ فِيهَا دَهْراً، ثُمَّ يَمُرُّ بِهِ أَخُوهُ المُوسَّعُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ لَهُ: يَا فُلاَنُ، مَا حَبَسَكَ؟! فَيَقُولُ: مَا خُلِّيَ سَبِيلِي إِلاَّ الآنَ، وَلَقَدْ حُبِسْتُ مَا لَوْ أَنَّ ثَلاَثَمِائَةِ بَعِيرٍ أَكَلَتْ خَمْطاً، لاَ يَرِدْنَ إِلاَّ خِمْساً وَرَدْنَ عَلَى عِرْقِي لَصَدَرْنَ مِنْهُ رِيًّا" انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ فاليوم لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ... ﴾ الآية: استمرارٌ في مخاطبة المنافقين؛ قاله قتادة وغيره.

وقوله تعالى: ﴿ هِىَ مولاكم ﴾ قال المفسرون: معناه: هي أولى بكم، وهذا تفسير بالمعنى، وإنَّما هي استعارة؛ لأَنَّها من حيث تَضُمُّهم وتباشِرُهم هي تواليهم وتكون لهم مكانَ المولى، وهذا نحو قول الشاعر: [الوافر]

. . . . تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(191/747)

وقال أبو السعود :

﴿ يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات ﴾

ظرفٌ لقولِه تعالَى وله أجر كريمٌ أو لقوله تعالى فيضاعفَهُ أو منصوبٌ بإضمارٍ اذكُرْ تفخيماً لذلك اليومِ . وقولُه تعالى : ﴿ يسعى نُورُهُم ﴾ حالٌ من مفعولِ تَرَى قيل نورَهم الضياءُ الذي يُرَى ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم ﴾ وقيلَ : هو هُداهُم وبأيمانِهم كتبهم أي يسعَى إيمانُهم وعملهم الصالحُ بينَ أيديهم وفي أيمانِهم كتبُ أعمالِهم ، وقيلَ هو القرآنُ وعنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ تعالَى عنْهُ : (يُؤتون نورَهُم على قدرِ أعمالهم فمنهُم مَنْ يُؤتى نوره كالنخلة ومنهم مَن يُؤتَى كالرجلِ القائمِ وأدناهُم نوراً مَنْ نورُه على إبهامِ رجلِه ينطفىءُ تارةً ويلمعُ أُخرَى) . قالَ الحسنُ : يستضيئُونَ به على الصراطِ . وقالَ مقاتلٌ : يكونُ لهم دليلاً إلى الجَنَّةِ ﴿ بُشْرَاكُمُ اليوم جنات ﴾ مقدرٌ بقولٍ هو حالٌ أو استئنافٌ أيْ يقالُ لهم بُشراكم أي ما تبشرونَ بِهِ جنَّاتٌ أو بُشراكم دخولُ جنَّاتٍ ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدينِ فِيهَا ذلك

﴿ أي ما ذُكِرَ من النُّورِ والبُشرى بالجناتِ المخلدةِ ﴿ هُوَ الفوزُ العظيم ﴾ الذي لا غايةَ وراءَهُ وقرئ ذلكَ الفوزُ العظيمُ .

(192/747)

﴿ يَوْمَ يَقُولُ المنافقونَ والمنافقاتُ ﴾ بدلٌ مِنْ يومَ تَرَى ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ انظرونا ﴾ أي انتظرونَا يقولونَ ذلكَ لما أنَّ المؤمنينَ يُسرعُ بهم إلى الجنَّةِ كالبرقِ الخاطفِ على ركابٍ تزفُّ بهم وهؤلاءِ مشاةٌ أو انظروا إلينَا فإنَّهم إذا نظرُوا إليهم استقبلُوهم بوجوهِهم فيستضيئُونَ بالنُّورِ الذي بينَ أيديهم . وقُرِىءَ أَنظِرُونا من النَّظِرةِ وهي الإمهالُ جعلَ اتئادَهم في المُضيِّ إلى أنْ يلحقُوا بهم إنظاراً لهم ﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ أي نستضىءْ منه وأصلُه اتخاذُ القبسِ . ﴿ قِيلَ ﴾ طرداً لهم وتهكماً بهم من جهةِ المؤمنينَ أو جهةِ الملائكةِ ﴿ ارجعوا وَرَاءكُمْ ﴾ أي إلى الموقفِ ﴿ فالتمسوا نُوراً ﴾ فإنَّه من ثمَّ يُقتبسُ أو إلى الدُّنيا فالتمسُوا النورَ بتحصيلِ مباديهِ من الإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ أو ارجعوا خائبينَ خاسئينَ فالتمسُوا نوراً آخرَ وقد علمُوا أنْ لا نورَ وراءَهم وإنَّما قالُوه تخييباً لهم أوْ أرادُوا بالنورِ ما وراءَهُم من الظُّلمةِ الكثيفةِ تهكماً بهم ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم ﴾ بينَ الفريقينِ ﴿ بِسُورٍ ﴾ أي حائطٍ ، والباءُ زائدةٌ ﴿ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ ﴾ أي باطنُ السُّورِ أو البابِ وهو الجانبُ الذي يلي الجنَّةَ ﴾

فِيهِ الرحمةِ وظاهره ﴾ وهو الطرفُ الذي يَلي النّارَ ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ من جهتِه ﴿ العذاب ﴾ وقُرِئ فضَرَبَ على البناءِ للفاعلِ.

(193/747)

﴿ ينادونهم ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤالِ كأنَّه قيلَ فماذا يفعلونَ بعد ضربِ السُّورِ ومشاهدةِ العذابِ فقيل يُنادونَهم ﴿ أَلَمْ نَكُن ﴾ في الدُّنيا ﴿ مَّعَكُمْ ﴾ يريدونَ به موافقتَهم لهُم في الظَّاهرِ ﴿ قَالُواْ بلى ﴾ كنتُم معنا بحسبِ الظاهرِ ﴿ ولكنكم فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ محنتُموها بالنفاقِ وأهلكتُموها ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالمؤمنينَ الدوائرَ ﴿ وارتبتم ﴾ في أمرِ الدِّينِ ﴿ وَغرَّتْكُمُ الأمانى ﴾ الفارغةُ التي من جُمْلتها الطمعُ في انتكاسِ أمرِ الإسلامِ ﴿ حتى جاء أَمْرُ الله ﴾ أي الموتُ ﴿ وَغَرَّكُم بالله ﴾ الكريمِ ﴿ الغرور ﴾ أي غرَّكُم الشيطانُ بأنَّ اللَّهَ عفوٌّ كريمٌ لا يُعذبكم. وقُرِئ الغُرورُ بالضمِّ ﴿ فاليوم لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ فداءٌ وقُرِئ تُؤخذُ بالتاءِ ﴿ وَلاَ مِنَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي ظاهراً وباطناً ﴿ مِنَ النار ﴾ لا تبرحُونَها أبداً ﴿ هِىَ مولاكم ﴾ أي أَوْلَى بكم وحقيقتُه مكانُكُم الذي يُقالُ فيهِ هو أَوْلَى بكُم كما يقالُ هو مِئْنةُ الكرمِ أي مكانٌ لقولِ القائلِ إنَّه لكريمٌ أو مكانُكم عن قريبٍ من الولِي وهو القُربُ أو ناصرُكم على طريقةِ قولِه :

تحِيَّةُ بينِهم ضَرَبٌ وَجِيْعُ . . . أو متوليكُم تتولاَّكم كَما توليتُم موجباتِها ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ أي النَّارُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(194/747)

وقال الآلوسى :

﴿ يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات ﴾

ظرف لما تعلق به ﴿ له ﴾ [الحديد : 11] أوله أو لقوله تعالى : ﴿ فَيُضَاعِفَهُ ﴾ [الحديد : 11] أو منصوب بإضمار اذكر تفخيماً لذلك اليوم ، والرؤية بصرية والخطاب لكل من تتأتى منه أو لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم ، وقوله عز وجل : ﴿ يسعى نُورُهُم ﴾ حال من مفعول ترى والمراد بالنور حقيقته على ما ظهر من شموس الأخبار وإليه ذهب الجمهور والمعنى يسعى نورهم إذا سعوا .

﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم ﴾ أخرج ابن أبي شيبة .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والحاكم وصححه .

وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال : " يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نوراً من نوره على إبهامه يطفأ مرة ويقد أخرى " وظاهره أن هذا النور يكون عند المرور على الصراط ، وقال بعضهم : يكون قبل ذلك ويستمر معهم إذا مروا على الصراط ، وفي الأخبار ما يقتضيه كما ستسمعه قريباً إن شاء الله تعالى ، والمراد أنه يكون لهم في جهتين جهة الإمام وجهة اليمين وخصا لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم ، وفي "البحر" الظاهر أن النور قسمان : نور بين أيديهم يضيء الجهة التي يؤمونها .

ونور بأيمانهم يضيء ما حوليهم من الجهات ، وقال الجمهور : إن النور أصله بأيمانهم والذي بين أيديهم هو الضوء المنبسط من ذلك ، وقيل : الباء بمعنى عن أي وعن أيمانهم والمعنى في جميع جهاتهم ، وذكر الأيمان لشرفها انتهى ، ويشهد لهذا المعنى ما أخرج ابن أبي حاتم .

والحاكم وصححه .

وابن مردويه عن عبد الرحمن بن جبير بن نضير أنه سمع أبا ذر .

وأبا الدرداء قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة وأول من يؤذن له فيرفع رأسه فأرفع رأسي فأنظر بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي فأعرف أمتي بين الأمم فقيل : يا رسول الله وكيف تعرفهم من بين الأمم ما بين نوح عليه السلام إلى أمتك ؟ قال : غرّ محجلون من أثر الوضوء ولا يكون لأحد غيرهم وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود وأعرفهم بنورهم الذي يسعى بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم " وظاهر هذا الخبر اختصاص النور بمؤمني هذه الأمة وكذا إيتاء الكتب بالأيمان وبعض الأخبار يقتضي كونه لكل مؤمن ، أخرج ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال : " تبعث ظلمة يوم القيامة فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه حتى يبعث الله تعالى بالنور للمؤمنين بقدر أعمالهم "

الخبر ، وأخرج عنه الحاكم وصححه .

وابن أبي حاتم من وجه آخر .

وابن المبارك .

والبيهقي في الأسماء والصفات خبراً طويلاً فيه أيضاً ما هو ظاهر في العموم وكذا ما أخرج ابن جرير .

والبيهقي في "البعث" عن ابن عباس قال : بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله تعالى نوراً فلما

رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلاً لهم من الله عز وجل إلى الجنة ، ولا ينافي هذا الخبر كونهم يرون بنورهم على الصراط كما لا يخفى ، وكذا إيتاء الكتب بالايمان ، ففي هداية المريد لجوهرة التوحيد ظاهر الآيات والأحاديث عدم اختصاصه يعني أخذ الصحف بهذه الأمة وإن تردد فيه بعض العلماء انتهى .

(196/747)

ويمكن أن يقال : إن ما يكون من النور لهذه الأمة أجلى من النور الذي يكون لغيرها أو هو ممتاز بنوع آخر من الامتياز ، وأما إيتاء الكتب بالأيمان فعله لكثرته فيها بالنسبة إلى سائر الأمم تعرف به ، وفي هذا المطلب أبحاث أخر تذكر إن شاء الله تعالى في محلها ، وقيل : أريد بالنور القرآن ، وقال الضحاك : النور استعارة عن الهدى والرضوان الذي هم فيه ، وقرأ سهل بن شعيب السهمي .

وأبو حيوة ﴿ وبأيمانهم ﴾ بكسر الهمزة ، وخرج ذلك أبو حيان على أن الظرف يعني بين أيديهم متعلق بمحذوف والعطف عليه بذلك الاعتبار أي كائناً بين أيديهم وكائناً بسبب إيمانهم وهو كما ترى ، ولعله متعلق بالقول المقدر في قوله تعالى :

﴿ بُشْرَاكُمُ اليوم جنات ﴾ أي وبسبب إيمانهم يقال لهم ذلك ، وجملة القول ، إما معطوفة

على ما قبل أو استئناف أو حال ويجوز على الحالية تقدير الوصف منه أي مقولاً لهم ، والقائل الملائكة الذين يتلقونهم .

والمراد بالبشرى ما يبشر به دون التبشير والكلام على حذف مضاف أي ما تبشرون به دخول جنات يصح بدونه أي ما تبشرون به جنات ، ويصح بدونه أي ما تبشرون به جنات ، وما قيل : البشارة لا تكون بالأعيان فيه نظر ، وتقدير المضاف لا يغني عن تأويل البشرى لأن التبشير ليس عين الدخول ، وجملة قوله تعالى : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ في موضعه الصفة لجنات ، وقوله سبحانه : ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حال من جنات ، قال أبو حيان : وفي الكلام التفات من ضمير الخطاب في ﴿ بُشْرَاكُمُ ﴾ إلى ضمير الغائب في ﴿ خالدين ﴾ ولو أجرى على الخطاب لكان التركيب خالداً أنتم فيها :

(197/747)

﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ يحتمل أن يكون من كلامه تعالى فالإشارة إلى ما ذكر من النور والبشرى بالجنات ، ويحتمل أن يكون من كلام الملائكة عليهم السلام المتلقين لهم ، فالإشارة إلى ما هم فيه من النور وغيره أو إلى الجنات بتأويل ما ذكر أو لكونها فوزاً على ما قيل ، وقرىء ذلك الفوز بدون ﴿ هُوَ ﴾ .

﴿ يَوۡمَ يَقُولُ المنافقون والمنافقات ﴾ بدل من ﴿ يَوۡمَ تَرَى ﴾ [الحديد : 12] ، وجوز أن يكون معمولاً لا ذكر .

وقال ابن عطية : يظهر لي أن العامل فيه ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [الحديد : 12] ، ويكون معنى الفوز عليه أعظم كأنه قيل : إن المؤمنين يفوزون يوم يعتري المنافقين والمنافقات كذا وكذا لأن ظهور المرء يوم خمول عدوه مضادة أبدع وأفخم ، وتعقبه في "البحر" بأن ظاهره تقريره أن يوم منصوب بالفوز وهو لا يجوز لأنه مصدر قد وصف قبل أخذ متعلقاته فلا يجوز إعماله ولو أعمل وصفه وهو العظيم لجاز أي الفوز الذي عظم أي قدره يوم انتهى ، وفي عدم جواز إعمال مثل هذا المصدر في مثل هذا المعمول خلاف ، ثم إن تعلق هذا الظرف بشيء من تلك الجملة خلاف الظاهر ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ انظرونا ﴾ أي انتظرونا ﴿ نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ ﴾ نصب منه وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به .

وقيل : فيأخذوا شيئاً منه يكون معهم تخيلوا تأتّى ذلك فقالوه ، وأصل الاقتباس طلب القبس أي الجذوة من النار ، وجوز أن يكون المعنى انظروا إلينا نقتبس الخ لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به فانظرونا على الحذف والايصال لأن النظر بمعنى مجرد الرؤية يتعدى بإلى فإن أريد التأمل تعدى بفي لكن حمل الآية على ذلك خلاف الظاهر ؛ وقولهم : للمؤمنين ذلك لأنهم في ظلمة لا يذرون كيف يمشون

فيها ، وروى أنه يكون ذلك على الصراط .

وفي الآثار دلالة على أنهم يكون لهم نور فيطفأ فيقولون ذلك ، أخرج الطبراني .

(198/747)

وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأمهاتهم ستراً منه على عباده وأما عند الصراط فإن الله تعالى يعطي كل مؤمن نوراً وكل منافق نوراً فإذا استووا على الصراط أطفأ الله نور النافقين والمنافقات فقال المنافقون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وقال المؤمنون : أتمم لنا نورنا فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً " وفي حديث آخر مرفوع عنه أيضاً " إن نور المنافق يطفأ قبل أن يأتي الصراط " وأخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر عن أبي فاختة يجمع الله تعالى الخلائق يوم القيامة ويرسل الله سبحانه على الناس ظلمة فيستغيثون ربهم فيؤتى الله تعالى كل مؤمن منهم نوراً ويؤتى المنافقين نوراً فينطلقون جميعاً متوجهين إلى الجنة معهم نورهم فبينما هم كذلك إذ أطفأ الله تعالى نور المنافقين فيترددون في الظلمة ويسبقهم المؤمنون بنورهم بين أيديهم فيقولون : انظرونا نقتبس من نوركم الخبر ، والاخبار في إيتاء المنافق نوراً ثم إطفائه كثيرة وليس في الآية ما يأباه .

وقرأ زيد بن علي.

وابن وثاب.

والأعمش.

وطلحة وحمزة ﴿ انظرونا ﴾ بقطع الهمزة وفتحها وكسر الظاء من النظرة وهي الإمهال يقال أنظر المديون أي أمهله، وضع ﴿ انظرونا ﴾ بمعنى المهلة وإنظار الدائن المديون موضع اتئاد الرفيق ومشيه الهوينا ليلحقه رفيقه على سبيل الاستعارة بعد سبق تشبيه الحالة بالحالة مبالغة في العجز وإظهار الافتقار، وقيل: هو من أنظر أي أخر، والمراد اجعلونا في آخركم ولا تسبقونا بحيث تفوتونا ولا نلحق بكم.

وقال المهدوي: ﴿ انظرونا ﴾ بمعنى وهما من الانتظار تقول العرب: أنظرته بكذا وانتظرته بمعنى واحد والمعنى امهلونا ﴿ فاسمعون قِيلَ ﴾ القائلون على ما روى عن ابن عباس المؤمنون، وعلى ما روى عن مقاتل الملائكة عليهم السلام.

﴿ ارجعوا وَرَاءكُمْ ﴾ قال ابن عباس: أي من حيث جئتم من الظلمة أو إلى المكان الذي قسم فيه النور على ما صح عن أبي أمامة ﴿ فالتمسوا نُوراً ﴾ هناك، قال مقاتل: هذا

من الاستهزاء بهم كما استهزءوا بالمؤمنين في الدنيا حين قالوا ﴿ آمنا ﴾ [البقرة : 14] وليسوا بمؤمنين ، وذلك قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة : 15] أي حين يقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، وقال أبو أمامة : يرجعون حين يقال لهم ذلك إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور وهي خدعة الله تعالى التي خدع بها المنافقين حيث قال سبحانه : ﴿ يخادعون الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء : 142] ، وقيل : المراد ارجعوا إلى الدنيا والتمسوا نوراً أي بتحصيل سببه وهو الايمان أو تنحوا عنا والتمسوا نوراً غير هذا فلا سبيل لكم إلى الاقتباس منه ، والغرض التهكم والاستهزاء أيضاً .

وقيل أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة الكثيفة تهكما بهم وهو خلاف الظاهر ، وأياً مّا كان فالظاهر أن وراءكم معمول لارجعوا .

وقيل : لا محل له من الإعراب لأنه بمعنى ارجعوا فكأنه قيل : ارجعوا ارجعوا كقولهم ﴿ وراءك ﴾ أوسع لك أي ارجع تجد مكاناً أوسع لك ﴿ نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم ﴾ أي بين الفريقين ، وقرأ زيد بن علي .

وعبيد بن عمير ﴿ فَضَرَبَ ﴾ مبنياً للفاعل أي فضرب هو أي الله عز وجل ﴿ بِسُورٍ ﴾

أي بحاجز، قال ابن زيد : هو الاعراف، وقال غير واحد : حاجز غيره والباء مزيدة ﴿

لَّهُ بَابُ بَاطِنُهُ ﴾ أي الباب كما روي عن مقاتل أو السور وهو الجانب الذي يلي مكان

المؤمنين أعني الجنة ﴿ فِيهِ الرحمة ﴾ الثواب والنعيم الذي لا يكتنه ﴿ وظاهره ﴾

الجانب الذي يلي مكان المنافقين أعني النار ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من جهته ﴿ العذاب ﴾

وهذا السور قيل : يكون في تلك النشأة وتبدل هذا العالم واختلاف أوضاعه في موضع

الجدار الشرقي من مسجد بيت المقدس.

أخرج عبد بن حميد عن أبي سنان قال : كنت مع علي بن عبد الله بن عباس عند وادي

جهنم يعني المكان المعروف عند بيت المقدس فحدث عن أبيه أنه قال : وقد تلا قوله تعالى

: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ هذا موضع السور عند وادي جهنم، وأخرج هو.

وابن جرير.

وابن المنذر.

والحاكم وصححه وغيرهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : إن السور الذي ذكره الله

تعالى في القرآن ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ هو سور بيت المقدس الشرقي (باطنه فيه

الرحمة) المسجد ﴿ وظاهره مِن قِبَلِهِ العذاب ﴾ يعني وادي جهنم وما يليه.

وأخرج عن عبادة بن الصامت أنه كان على سور بيت المقدس الشرقي فبكى فقيل : ما

يبكيك؟ فقال: ههنا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جهنم ولا يخفى أن هذا ونظائره أمور مبنية على اختلاف العالمين وتغاير النشأتين على وجه لاتصل العقول إلى إدراك كيفيته والوقوف على تفاصيله، فإن صح الخبر لم يسعنا إلا الإيمان لعدم خروج الأمر عن دائرة الإمكان، وأبو حيان حكى عمن سمعت.

وعن كعب الاحبار أنه الجدار الشرقي من مسجد بيت المقدس واستبعده ثم قال: ولعله لا يصح عنهم.

(201/747)

﴿ ينادونهم ﴾ استئناف مبني على السؤال كأنه قيل: فماذا يفعلون بعد ضرب السور ومشاهدة العذاب؟ فقيل: ينادي المنافقون والمنافقات المؤمنين والمؤمنات ﴿ أَلَمْ نَكُن ﴾ في الدنيا ﴿ مَّعَكُمْ ﴾ يريدون به موافقتهم لهم في الظاهر ﴿ قَالُواْ بلى ﴾ كنتم معنا كما تقولون ﴿ ولكنكم فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ محنتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿ وارتبتم ﴾ وشككتم في أمور الدين ﴿ وَغرَّتْكُمُ الامانى ﴾ الفارغة التي من جملتها الطمع في انتكاس الإسلام، وقال ابن عباس: ﴿ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ بالشهوات واللذات ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالتوبة ﴿ وارتبتم ﴾ قال محبوب الليثي

: شككتم في الله ﴿ وَغرَّتْكُمُ الامانى ﴾ طول الآمال ، وقال أبو سنان : قلتم سيغفر لنا

﴿ حتى جاَء أَمْرُ الله ﴾ أي الموت ﴿ وَغرَّكُم بالله الغرور ﴾ الشيطان قال لكم : إن الله

عفو كريم لا يعذبكم .

وعن قتادة كانوا على خدعة من الشيطان والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله تعالى في

النار .

وقرأ سماك بن حرب الغرور بالضم ، قال ابن جنى : وهو كقوله : وغركم بالله تعالى الاغترار

، وتقديره على حذف المضاف أي وغركم بالله تعالى سلامة الاغترار ومعناه سلامتكم

منه اغتراركم .

﴿ فاليوم لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ ﴾ أيها المنافقون ﴿ فِدْيَةٌ ﴾ فداء وهو ما يبذل لحفظ النفس

عن النائبة والناصب ليوم الفعل المنفي بلا ، وفيه حجة على من منع ذلك ، وقرأ أبو جعفر .

والحسن .

وابن أبي إسحق .

والأعرج .

وابن عامر .

وهارون عن أبي عمرو ولا تؤخذ بالتاء الفوقية ﴿ طَرَفاً مِّنَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي ظاهراً وباطناً فيغاير المخاطبين المنافقين ، ثم الظاهر إن المراد بالفدية ما هو من جنس المال ونحوه ، وجوز أن يراد بها ما يعم الإيمان والتوبة فتدل الآية على أنه لا يقبل إيمانهم وتوبتهم يوم القيامة وفيه بعد ، وفي الحديث " إن الله تعالى يقول للكافر : أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا أكنت تفتدي بجميع ذلك من عذاب النار ، فيقول : نعم يا رب فيقول الله تبارك وتعالى : قد سألتك ما هو أيسر من ذلك وأنت في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك " ﴿ مَأْوَاكُمُ النار ﴾ محل أويكم ﴿ هِىَ مولاكم ﴾ أي ناصركم من باب تحية بينهم ضرب وجيع والمراد نفي الناصر على البتات بعد نفي أخذ الفدية وخلاصهم بها عن العذاب ، ونحوه قولهم : أصيب بكذا فاستنصر الجزع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يُغَاثُواْ بِمَاء كالمهل ﴾ [الكهف : 29] وقال الكلبي .

والزجاج.

والفراء .

وأبو عبيدة : أي أولى بكم كما في قول لبيد يصف بقرة وحشية نفرت من صوت الصائد :

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه . . .

مولى المخافة خلفها وأمامها

أي فغدت كلا جانبيها الخلف والإمام تحسب أنه أولى بأن يكون فيه الخوف ، قال الزمخشري : وحقيقة مولاكم هي على هذا محراكم ومقمنكم أي المكان الذي يقال فيه هو أولى بكم كما قيل : هو مئنة للكرم أي مكان لقول القائل : إنه لكريم فأولى نوع من اسم المكان لوحظ فيه معنى أولى إلا أنه مشتق منه كما أن المئنة ليست مشتقة من إن التحقيقية ، وفي التفسير الكبير إن قولهم ذلك بيان لحاصل المعنى وليس بتفسير اللفظ لأنه لو كان مولى وأولى بمعنى واحد في اللغة لصح استعمال كل لأمنهما في مكان الآخر وكان يجب أن يصح هذا أولى فلان كما يقال : هذا مولى فلان ولما بطل ذلك علمنا أن الذي قالوه معنى وليس بتفسير ، ثم صرح بأنه أراد بذلك رد استدلال الشريف المرتضى بحديث الغدير " من كنت مولاه " فعليّ مولاه على إمامة الأمير كرم الله تعالى وجهه حيث قال : أحد معاني المولى الأولى .

وحمله في الخبر عليه متعين لأن إرادة غيره يجعل الأخبار عبثاً كإرادة الناصر والصاحب وابن العم ، أو يجعله كذباً كالمعتق والمعتق ولا يخفى على المنصف أنه إن أراد بكونه معنى لا تفسير ما أشار إليه الزمخشري من التحقيق فهو لا يرد الاستدلال إذ يكفي للمرتضى أن

يقول: المولى في الخبر بمعنى المكان الذي يقال فيه أولى إذ يلزم على غيره العبث أو الكذب وإن أراد أن ذلك معنى لازم لما هو تفسير له كأن يكون تفسيره القائم بمصالحكم ونحوه مما يكون ذلك لازماً له ففي رده الاستدلال أيضاً تردد، وإن أراد شيئاً آخر فنحن لا ندري ما هو وهو لم يبينه والحق أنه ولو جعل المولى بمعنى الأولى أو المكان الذي يقال فيه الأولى لا يتم الاستدلال بالخبر على الإمامة التي تدعيها الإمامية للأمير كرم الله تعالى وجهه لما بين في موضعه، وفي التحفة الأثنى عشرية ما فيه كفاية لطالب الحق.

(204/747)

وقال ابن عباس أي مصيركم وتحقيقه على ما قال الإمام: إن المولى بمعنى موضع الولي وهو القرب والمعنى هي موضعكم الذي تقربون منه وتصلون إليه، وأنت تعلم أن الأخبار بذلك بعد الأخبار بأنها مأواهم ليس فيه كثير جدوى على أن وضع اسم المكان للموضع الذي يتصف صاحبه بالمأخذ حال كونه فيه والقرب من النار وصف لأولئك قبل الدخول فيها ولا يحسن وصفهم به بعد الدخول ولو اعتبر مجاز الكون كما لا يخفى، وجوز بعضهم اعتبار كونه اسم مكان من الولي بمعنى القرب لكن على أن المعنى هي مكان قربكم من الله سبحانه ورضوانه على التهكم بهم؛ وقيل: أي متوليكم أي المتصرفة فيكم كتصرفكم

فيما أوجبها واقتضاها في الدنيا من المعاصي والتصرف استعارة للاحراق والتعذيب ، وقيل : مشاكلة تقديرية ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ أي النار وهي المخصوص بالذم المحذوف لدلالة السياق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(205/747)

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات ﴾

العامل في الظرف مضمر وهو اذكر ، أو كريم ، أو فيضاعفه ، أو العامل في لهم ، وهو الاستقرار ، والخطاب لكل من يصلح له ، وقوله ﴿ يسعى نُورُهُم ﴾ في محل نصب على الحال من مفعول ترى ، والنور هو الضياء الذي يرى ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم ﴾ وذلك على الصراط يوم القيامة ، وهو دليلهم إلى الجنة .

قال قتادة : إن المؤمن يضيء له نور كما بين عدن إلى صنعاء ، حتى إن من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلاّ موضع قدميه .

وقال الضحاك ، ومقاتل : وبأيمانهم : كتبهم التي أعطوها ، فكتبهم بأيمانهم ، ونورهم بين أيديهم ، قال الفراء : الباء بمعنى " في " : أي في أيمانهم ، أو بمعنى " عن " ، قال الضحاك

أيضاً : نورهم : هداهم ، وبأيمانهم : كتبهم ، واختار هذا ابن جرير الطبري ، أي : يسعى أيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم ، وفي أيمانهم كتب أعمالهم .

قرأ الجمهور : ﴿ بأيمانهم ﴾ جمع يمين .

وقرأ سهل بن سعد الساعديّ ، وأبو حيوة : (بإيمانهم) بكسر الهمزة على أن المراد بالإيمان ضدّ الكفر ، وقيل : هو القرآن ، والجار والمجرور في الموضعين في محل نصب على الحال من نورهم ، أي : كائناً بين أيديهم وبأيمانهم ﴿ بُشْرَاكُمُ اليوم جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ﴾ بشراكم مبتدأ ، وخبره جنات على تقدير مضاف ، أي : دخول جنات ، والجملة مقول قول مقدّر ، أي : يقال لهم هذا ، والقائل لهم هم الملائكة .

قال مكيّ : وأجاز الفراء نصب جنات على الحال ، ويكون اليوم خبر بشراكم ، وهذا بعيد جداً ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حال مقدّرة ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى النور والبشرى ، وهو مبتدأ ، وخبره ﴿ هُوَ الفوز العظيم ﴾ أي : لا يقادر قدره حتى كأنه لا فوز غيره ، ولا اعتداد بما سواه .

﴿ يَوْمَ يَقُولُ المنافقون والمنافقات ﴾ ﴿ يوم ﴾ بدل من ﴿ يوم ﴾ الأوّل ، ويجوز أن يكون العامل فيه : ﴿ الفوز العظيم ﴾ ، ويجوز أن يكون منصوباً بفعل مقدّر ، أي : اذكر ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ اللام للتبليغ كنظائرها .

قرأ الجمهور ﴿ انظرونا ﴾ أمراً بوصل الهمزة وضم الظاء من النظر بمعنى الانتظار ، أيّ : انتظرونا .

يقولون ذلك لما رأوا المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة .

وقرأ الأعمش ، وحمزة ، ويحيى بن وثاب بقطع الهمزة وكسر الظاء من الإنظار ، أي : أمهلونا ، وأخرونا ، يقال : أنظرته واستنظرته ، أي : أمهلته واستمهلته .

قال الفراء : تقول العرب أنظرني ، أي : انتظرني ، وأنشد قول عمرو بن كلثوم :

أبا هند فلا تعجل علينا . . . وأنظرنا نخبرك اليقينا

وقيل : معنى انظرونا : انظروا إلينا ؛ لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم ، فيستضيئون بنورهم ﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ أي : نستضيء منه ، والقبس : الشعلة من النار والسراج ، فلما قالوا ذلك ﴿ قِيلَ ارجعوا وَرَاءكُمْ ﴾ أي : قال لهم المؤمنون ، أو الملائكة زجراً لهم ، وتهكماً بهم ، أي : ارجعوا وراءكم إلى الموضع الذي أخذنا منه النور ﴿ فالتمسوا نُوراً ﴾ أي : اطلبوا هنالك نوراً لأنفسكم ، فإنه من هنالك يقتبس ، وقيل : المعنى : ارجعوا إلى الدنيا ، فالتمسوا النور بما التمسناه به من الإيمان ، والأعمال الصالحة ،

وقيل : أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة تهكماً بهم : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ السور : هو الحاجز بين الشيئين ، والمراد به هنا الحاجز بين الجنة والنار ، أو بين أهل الجنة وأهل النار .

قال الكسائي : والباء في بسور زائدة .

(207/747)

ثم وصف سبحانه السور المذكور فقال : ﴿ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرحمة ﴾ أي : باطن ذلك السور ؛ وهو الجانب الذي يلي أهل الجنة فيه الرّحمة : وهي الجنة ﴿ وظاهره ﴾ وهو الجانب الذي يلي أهل النار ﴿ مِن قِبَلِهِ العذاب ﴾ أي : من جهته عذاب جهنم ، وقيل : إن المؤمنين يسبقونهم فيدخلون الجنة ، والمنافقون يحصلون في العذاب وبينهم السور ، وقيل : إن الرّحمة التي في باطنه : نور المؤمنين ، والعذاب الذي في ظاهره : ظلمة المنافقين .

ولما ضرب بالسور بين المؤمنين والمنافقين أخبر الله سبحانه عما قاله المنافقون إذ ذاك ، فقال : ﴿ ينادونهم أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أي : موافقين لكم في الظاهر نصلي بصلاتكم في مساجدكم ، ونعمل بأعمال الإسلام مثلكم ، والجملة مستأنفة كأنه قيل : فماذا قال المنافقون بعد ضرب السور بينهم وبين المؤمنين؟ فقال : ﴿ ينادونهم ﴾ ، ثم أخبر

سبحانه عما أجابهم به المؤمنون فقال : ﴿ قَالُواْ بلى ﴾ أي : كنتم معنا في الظاهر ﴿ ولكنكم فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ بالنفاق وإبطان الكفر ، قال مجاهد : أهلكتموها بالنفاق ، وقيل : بالشهوات واللذات ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبمن معه من المؤمنين حوادث الدّهر ، وقيل : تربصتم بالتوبة ، والأوّل أولى ﴿ وارتبتم ﴾ أي : شككتم في أمر الدين ولم تصدّقوا ما نزل من القرآن ، ولا بالمعجزات الظاهرة ﴿ وَغرَّتْكُمُ الأمانى ﴾ الباطلة التي من جملتها ما كنتم فيه من التربص ، وقيل : هو طول الأمل ، وقيل : ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين ، وقال قتادة : الأمانيّ هنا : غرور الشيطان ، وقيل : الدنيا ، وقيل : هو طمعهم في المغفرة ، وكل هذه الأشياء تدخل في مسمى الأمانيّ ﴿ حتى جَاء أَمْرُ الله ﴾ وهو الموت ، وقيل : نصره سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم .

وقال قتادة : هو إلقاؤهم في النار ﴿ وَغَرَّكُم بالله الغرور ﴾ قرأ الجمهور ﴿ الغرور ﴾ بفتح الغين ، وهو صفة على فعول ، والمراد به : الشيطان : أي خدعكم بحلم الله ، وإمهاله الشيطان .

وقرأ أبو حيوة ، ومحمد بن السميفع ، وسماك بن حرب بضمها ، وهو مصدر .

﴿ فاليوم لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ تفدون بها أنفسكم من النار أيها المنافقون ﴿ وَلاَ مِنَ الذين كَفَرُواْ ﴾ بالله ظاهراً وباطناً ﴿ مَأْوَاكُمُ النار ﴾ أي : منزلكم الذي تأوون إليه النار ﴿ هِىَ مولاكم ﴾ أي : هي أولى بكم ، والمولى في الأصل من يتولى مصالح الإنسان ، ثم استعمل فيمن يلازمه ، وقيل : معنى ﴿ مولاكم ﴾ : مكانكم عن قرب ، من الولي ، وهو القرب .

وقيل : إن الله يركب في النار الحياة والعقل ، فهي تتميز غيظاً على الكفار ، وقيل المعنى : هي ناصركم على طريقة قول الشاعر :

تحية بينهم ضرب وجيع . . . ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ الذي تصيرون إليه وهو النار .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود ﴿ يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ قال : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرّون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، وأدناهم نوراً من نوره على إبهامه يطفأ مرّة ، ويوقد أخرى .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال : بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه ، وكان النور دليلهم من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا إلى النور تبعوهم ، فأظلم الله على المنافقين ،

فقالوا حينئذ : ﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ فإنا كنا معكم في الدنيا ، قال المؤمنون : ﴿ ارجعوا وَرَاءكُمْ ﴾ من حيث جئتم من الظلمة ﴿ فالتمسوا ﴾ هنالك النور .

(209/747)

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأمهاتهم ستراً منه على عباده ، وأما عند الصراط ، فإن الله يعطى كل مؤمن نوراً ، وكل منافق نوراً ، فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات ، فقال المنافقون : ﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ وقال المؤمنون : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ [التحريم : 8] فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً " وفي الباب أحاديث وآثار .

وأخرج عبد بن حميد عن عبادة بن الصامت : أنه كان على سور بيت المقدس ، فبكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : هاهنا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جهنم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : إن السور الذي ذكره الله في القرآن ﴿

﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ هو: السور الذي ببيت المقدس الشرقي ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرحمة ﴾ المسجد ﴿ وظاهره مِن قِبَلِهِ العذاب ﴾ يعني: وادي جهنم، وما يليه.

(210/747)

ولا يخفاك أن تفسير السور المذكور في القرآن في هذه الآية بهذا السور الكائن ببيت المقدس فيه من الإشكال ما لا يدفعه مقال، ولا سيما بعد زيادة قوله: ﴿ باطنة فيه الرّحمة ﴾ المسجد، فإن هذا غير ما سيقت له الآية، وغير ما دلت عليه، وأين يقع بيت المقدس أو سوره بالنسبة إلى السور الحاجز بين فريقي المؤمنين والمنافقين، وأيّ معنى لذكر مسجد بيت المقدس هاهنا، فإن كان المراد أن الله سبحانه ينزع سور بيت المقدس، ويجعله في الدار الآخرة سوراً مضروباً بين المؤمنين والمنافقين، فما معنى تفسير باطن السور، وما فيه من الرّحمة بالمسجد، وإن كان المراد: أن الله يسوق فريقي المؤمنين والمنافقين إلى بيت المقدس، فيجعل المؤمنين داخل السور في المسجد، ويجعل المنافقين خارجه، فهم إذ ذاك على الصراط وفي طريق الجنة، وليسوا ببيت المقدس، فإن كان مثل هذا التفسير ثابتاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلناه، وآمنا به، وإلاّ فلا كرامة ولا قبول.

وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله: ﴿ ولكنكم فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ قال:

بالشهوات واللذات ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ قال : بالتوبة ﴿ وَغرَّتْكُمُ الأمانى حتى جَاء أَمْرُ اللهِ ﴾ قال : الموت ﴿ وَغرَّكُم باللهِ الغرور ﴾ قال : الشيطان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 169 . 173 ﴾

(211/747)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾

لما كان معلوماً أن مضاعفة الثواب وإعطاء الأجر يكون في يوم الجزاء ، ترجح أن يكون قوله : ﴿ يوم ترى المؤمنين ﴾ منصوباً بفعل محذوف تقديره : اذكُر تنويهاً بما يحصل في ذلك اليوم من ثواب للمؤمنين والمؤمنات ومن حرمان للمنافقين والمنافقات ، ولذلك كرر ﴿ يوم ﴾ لِيَختصّ كل فريق بذكر ما هو من شؤونه في ذلك اليوم .

وعلى هذا فالجملة متصلة بالتي قبلها بسبب هذا التعلق ، على أنه في نظم الكلام يصح جعله ظرفاً متعلقاً بـ ﴿ يُضاعفه له وله أجر كريم ﴾ [الحديد : 11] على طريقة التخلص لذكر ما يجري في ذلك اليوم من الخيرات لأهلها ومن الشر لأهله .

وعلى الوجه الأول فالجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً لمناسبة ذكر أجر المنفقين فعقب

ببيان بعض مزايا المؤمنين ، وعلى الوجه الثاني فهي متصلة بالتي قبلها بسبب التعلق .

والخطاب في ﴿ ترى ﴾ لغير معينّ ليكون على منوال المخاطبات التي قبله ، أي يوم يرى الرائي ، والرؤية بصرية ، و ﴿ يوم ﴾ مبني على الفتح لأنه أضيف إلى جملة فعلية ، ويجوز كونها فتحة إعراب لأن المضاف إلى المضارع يجوز فيه الوجهان .

ووجه عطف ﴿ المؤمنات ﴾ على ﴿ المؤمنين ﴾ هنا ، وفي نظائره من القرآن المدني التنبيه على أن حظوظ النساء في هذا الدين مساوية حظوظ الرجال إلا فيما خُصصن به من أحكام قليلة لها أدلتها الخاصة وذلك لإِبطال ما عند اليهود من وضع النساء في حالة ملعونات ومحرومات من معظم الطاعات .

وقد بيّنا شيئاً من ذلك عند قوله تعالى : ﴿ والأنثى بالأنثى ﴾ في سورة البقرة (178) .

والنور المذكور هنا نور حقيقي يجعله الله للمؤمنين في مسيرهم من مكان الحشر إكراماً لهم وتنويهاً بهم في ذلك المحشر .

والمعنى : يسعى نورهم حين يسعون ، فحذف ذلك لأن النور إنما يسعى إذا سعى صاحبه وإلا لا نفصل عنه وتركه .

وإضافة (نور) إلى ضميرهم وجعلُ مكانه من بين أيديهم وبأيمانهم يبين أنه نور لذواتهم أكرموا به .

وانظر معنى هذه الإِضافة لِضميرهم ، وما في قوله : يسعى ﴾ من الاستعارة ، ووجه تخصيص النور بالجهة الأمام وبالأيمان كل ذلك في سورة التحريم .

والباء في ﴿ وبأيمانهم ﴾ بمعنى (عن) واقتصر على ذكر الأيمان تشريفاً لها وهو من الاكتفاء ، أي وبجانبيهم .

ويجوز أن تكون الباء للملابسة ، ويكون النور الملابس لليمين نورَ كتاب الحسنات كما قال تعالى : ﴿ فأمَّا من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ [الانشقاق : 7 ، 8] فإن كتاب الحسنات هدى فيكون لفظ "النور" قد استعمل في معنييه الحقيقي والمجازي وهو الهدى والبركة .

قال ابن عطية : "ومن هذه الآية انتُزع حمل المعتَق للشمعة" اه .

(لعله يشير إلى عادة كانت مألوفة عندهم أن يجعلوا بيد العبد الذي يعتقونه شمعة مشتعلة يحملها ساعة عتقه ولم أقف على هذا في كلام غيره) .

والبشرى : اسم مصدر بشَّر وهي الإِخبار بخبر يسر المخبَر ، وأطلق المصدر على المفعول وهو إطلاق كثير مثل الخَلْق بمعنى المخلوق ، أي الذي تُبشَّرون به جناتٌ ، والكلام على

حذف مضافين تقديرهما : إعلام بدخول جنات كما دل عليه قوله : ﴿ خالدين فيها ﴾ .

وجملة ﴿ بشراكم ﴾ إلى آخرها مقول قول محذوف ، والتقدير : يقال لهم ، أي يقال من جانب القدس ، تقوله الملائكة ، أو يسمعون كلاماً يخلقه الله يعلمون أنه من جانب القدس .

وجملة ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ يحتمل أن يكون من بقية الكلام المحكي بالقول المبشَّر به ، ويحتمل أن يكون من الحكاية التي حكيت في القرآن ، وعلى الاحتمالين فالجملة تذييل تدل على مجموع محاسن ما وقعت به البشرى .

واسم الإِشارة للتعظيم والتنبيه ، وضميرُ الفصل لتقوية الخبر .

(213/747)

﴿ يوم يقول ﴾ بدل من ﴿ يوم ترى المؤمنين ﴾ [الحديد : 12] بدلاً مطابقاً إذا اليوم هو عين اليوم المعرف في قوله : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم ﴾ [الحديد : 12] .

والقول في فتحة ﴿ يوم ﴾ تقدم في نظره قريباً .

وعطف ﴿ المنافقات ﴾ على ﴿ المنافقون ﴾ كعطف ﴿ المؤمنات على المؤمنين ﴾ في الآية (12) قبل هذه .

والذين آمنوا تغليب للذكور لأن المخاطبين هم أصحاب النور وهو للمؤمنين والمؤمنات .

و﴿ انظرونا ﴾ بهمزة وصل مضموماً ، من نظره ، إذا انتظره مثل نظر ، إذا أبصر ، إلا أن نظر بمعنى الانتظار يتعدّى إلى المفعول ، ونظر بمعنى أبصر يتعدى بحرف (إلى) قال تعالى : ﴿ وانظر إلى العظام كيف ننشرها ﴾ [البقرة : 259] .

والانتظار : التريث بفعل مَّا ، أي تريثوا في سيركم حتى نلحق بكم فنستضيءَ بالنور الذي بين أيديكم وبجانبكم وذلك يقتضي أن الله يأذن للمؤمنين الأولين بالسيْر إلى الجنة فَوجا ، ويجعلُ المنافقين الذين كانوا بينهم في المدينة سائرين وراءهم كما ورد في حديث الشفاعة " وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها " والمعنى : أنهم يسيرون في ظلمات فيسأل المنافقون المؤمنين أن ينتظروهم .

وقرأ الجمهور ﴿ انظرونا ﴾ بهمزة وصل وضم الظاء ، وقرأه حمزة وحده بهمزة قطع وكسر الظاء ، من أنظرهُ ، إذا أمهله ، أي أمهلونا حتى نلحق بكم ولا تعجلوا السير فينأى نوركم عنا وهم يحسبون أن بُعدهم عنهم من جراء السرعة .

والاقتباس حقيقته : أخذ القَبَس بفتحتين وهو الجذوة من الجَمْر .

قال أبو علي الفارسي : ومَجيء فَعلت وافتعلت بمعنىً واحد كثير كقولهم : شويتُ واشتويت ، وحقَرت واحتقرت .

قلت : وكذلك حفرت واحتفرت ، فيجوز أن يكون إطلاق تقتبس هنا حقيقة بأن يكونوا

ظنّوا أن النور الذي كان مع المؤمنين نور شُعلة وحسبوا أنهم يستطيعون أن يأخذوا قبساً منه يُلقى ذلك في ظنهم لتكون خيبتهم أشدَّ حسرة عليهم .

(214/747)

ويجوز أن يستعار الاقتباس لانتفاع أحد بضوء آخر لأنه يشبه الاقتباس في الانتفاع بالضوء بدون علاج فمعنى ﴿ نقتبس من نوركم ﴾ نُصِب منه ونلتحق به فنستنِرْ به .

ويظهر من إسناد ﴿ قيل ﴾ بصيغة المجهول أن قائله غير المؤمنين المخاطبين وإنما هو من كلام الملائكة السائقين للمنافقين .

وتكون مقالة الملائكة للمنافقين تهكما إذ لا نور وراءهم وإنما أرادوا إطماعهم ثم تخييبهم بضرب السور بينهم وبين المؤمنين ، لأن الخيبة بعد الطمع أشد حسرة .

وهذا استهزاء كان جزاء على استهزائهم بالمؤمنين واستسخارهم بهم ، فهو من معنى قوله تعالى : ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ﴾ [التوبة : 79] .

و﴿ وراءكم ﴾ : تأكيد لمعنى ﴿ ارجعوا ﴾ إذ الرجوع يستلزم الوراء ، وهذا كما يقال : رجع القهقرى .

ويجوز أن يكون ظرفاً لفعل ﴿ التمسوا نوراً ﴾ ، أي في المكان الذي خلَفكم .

وتقديمه على عامله للاهتمام فيكون فيه معنى الإِغراء بالتماس النور هناك وهو أشد في الإِطماع ، لأنه يوهم أن النور يُتناول من ذلك المكان الذي صدر منه المؤمنون ، وبذلك الإِيهام لا يكون الكلام كذباً لأنه من المعاريض لاسيما مع احتمال أن يكون ﴿ وراءكم ﴾ تأكيداً لمعنى ﴿ ارجعوا ﴾ .

وضمير ﴿ بينهم ﴾ عائد إلى المؤمنين والمنافقين .

وضرب السور : وضعه ، يقال : ضرب خيمة ، قال عبدة بن الطيِّب:

إن التي ضربتْ بيتاً مُهاجَرة . . .

بكوفةِ الجُند غالتْ ودَّها غُولُ

وضمن ﴿ ضُرب ﴾ في الآية معنى الحجْز فعدي بالباء ، أي ضرب بينهم سورٌ للحجز به بين المنافقين والمؤمنين ، خلقه الله ساعتئذٍ قطعاً لأطماعهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، فحَق بذلك التمثيل الذي مثّل الله به حالهم في الدنيا بقوله : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾ في سورة البقرة (17) .

وأن الحيرة وعدم رؤية المصير عذاب أليم .

ولعل ضرب السور بينهم وجعْلَ العذاب بظاهره والنعيم بباطنه قصد منه التمثيل لهم بأن الفاصل بين النعيم والعذاب هو الأعمال في الدنيا وأن الأعمال التي يعملها الناس في الدنيا منها ما يفضي بعامله إلى النعيم ومنها ما يفضي بصاحبه إلى العذاب فأحد طرفي السور مثال لأحد العملين وطرفه الآخر مثال لضده .

والباب واحد وهو الموت ، وهو الذي يسلك بالناس إلى أحد الجانبين .

ولعل جعل الباب في سور واحد فيه مع ذلك ليمر منه أفواج المؤمنين الخالصين من وجود منافقين بينهم بمرأى من المنافقين المحبوسين وراء ذلك السور تنكيلاً بهم وحسرة حين يشاهدون أفواج المؤمنين يفتح لهم الباب الذي في السور ليجتازوا منه إلى النعيم الذي بباطن السور .

وركَّب القصَّاصُون على هذه الآية تأويلات موضوعة في فضائل بلاد القُدس بفلسطين عَزوها إلى كعببِ الأحْبارِ فسموا بعض أبواب مدينة القدس باب الرحمة ، وسموا مكاناً منها وادي جهنم ، وهو خارج سور بلاد القدس ، ثم ركبوا تأويل الآية عليها وهي أوهام على أوهام .

واعلم أن هذا السور المذكور في هذه الآية غير الحجاب الذي ذكر في سورة الأعراف .

وضمائر له باب ﴿ و ﴿ باطنه ﴾ و ﴿ ظاهره ﴾ عائدة إلى السور ، والجملتان صفتان ل ﴿ سور ﴾ .

وإنما عطفت الجملة الثالثة بالواو لأن المقصود من الصفة مجموع الجملتين المتعاطفتين كقوله تعالى : ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ [التحريم : 5] .

والباطن : هو داخل الشيء ، والظاهر : خارجه .

فالباطن : هو داخل السور الحاجز بين المسلمين والمنافقين وهو مكان المسلمين .

والبطون والظهور هنا نسبيان ، أي باعتبار مكان المسلمين ومكان المنافقين ، فالظاهر هو الجهة التي نحو المنافقين ، أي ضُرب بينهم بسور يشاهِد المنافقون العذاب من ظاهره الذي يواجههم ، وأن الرحمة وراء ما يليهم .

(216/747)

و (قبل) بكسر ففتح ، الجهةُ المقابلة ، وقوله : ﴿ من قلبه ﴾ خبر مقدم ، و ﴿ العذاب ﴾ مبتدأ والجملة خبر عن ﴿ ظاهره ﴾ .

و ﴿ مِنْ ﴾ بمعنى (في) كالتي في قوله تعالى : ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ﴾ [الجمعة : 9] فتكون نظير قوله : ﴿ باطنه فيه الرحمة ﴾ .

والعذاب : هو حرق جهنم فإن جهنم دار عذاب ، قال تعالى:

﴿ إن عذابها كان غَراماً ﴾ [الفرقان : 65] .

وجملة ﴿ ينادونهم ﴾ حال من ﴿ يقول المنافقون والمنافقات ﴾ .

وضمائر ﴿ ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ﴾ تعرف مراجعُها مما تقدم من قوله : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات ﴾ الآية .

و ﴿ ألم نكن معكم ﴾ استفهام تقريري ، استعمل كناية عن طلب اللحاق بهم والانضمام إليهم كما كانوا معهم في الدنيا يعملون أعمال الإسلام من المسلمين .

والمعية أطلقت على المشاركة في أعمال الإسلام من نطق بكلمة الإسلام وإقامة عبادات الإسلام ، توهموا أن المعاملة في الآخرة تجري كما تجري المعاملة في الدنيا على حسب صور الأعمال ، وما دَرَوا أن الصور مُكملات وأن قِوامها إخلاص الإِيمان وهذا الجواب إقرار بأن المنافقين كانوا يعملون أعمالهم معهم .

ولما كان هذا الإقرار يوهم أنه قول بموجَب الاستفهام التقريري أعقَبوا جوابهم الإِقراريّ بالاستدراك الرافع لما توهمه المنافقون من أن الموافقة للمؤمنين في أعمال الإسلام تكفي في التحاقهم بهم في نعيم الجنة فبينوا لهم أسباب التباعد بينهم بأن باطنهم كان مخالفاً لظاهرهم .

وذكروا لهم أربعة أصول هي أسباب الخسران ، وهي : فتنة أنفسهم ، والتربص بالمؤمنين ،

والارتياب في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم والاغترار بما تُموِّه إليهم أنفسهم .

وهذه الأربعة هي أصول الخصال المتفرعة على النفاق .

(217/747)

الأول : فتنتهم أنفسهم ، أي عدم قرار ضمائرهم على الإِسلام ، فهم في ريبهم يترددون ، فكأنَّ الاضطراب وعدم الاستقرار خُلُق لهم فإذا خطرت في أنفسهم خواطر خير من إيمان ومحبة للمؤمنين نقضوها بخواطر الكفر والبغضاء ، وهذا من صنع أنفسهم فإسناد الفَتْن إليهم إسناد حقيقي ، وكذلك الحال في أعمالهم من صلاة وصدقة .

وهذا ينشأ عنه الكذب ، والخداع ، والاستهزاء ، والطعن في المسلمين ، قال تعالى : ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴾ [النساء : 60] .

الثاني : التربص ، والتربص : انتظار شيء ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ﴾ [البقرة : 228] الآية .

ويتعدى فعله إلى المفعول بنفسه ويتعلق به ما زاد على المفعول بالباء .

وحذف هنا مفعوله ومتعلقه ليشمل عدة الأمور التي ينتظرها المنافقون في شأن المؤمنين وهي كثيرة مرجعها إلى أذى المسلمين والإضرار بهم فيتربصون هزيمة المسلمين في الغَزوات

ونحوها من الأحداث ، قال تعالى في بعضهم : ﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ [التوبة : 98] ، ويتربصون انقسام المؤمنين فقد قالوا لفريق من الأنصار يندّمونهم على من قتل من قومهم في بعض الغزوات ﴿ لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ [آل عمران : 168] .

الثالث : الارتياب في الدين وهو الشك في الاعتماد على أهل الإسلام أو على الكافرين وينشأ عنه القعود عن الجهاد قال تعالى : ﴿ فهم في ريبهم يترددون ﴾ [التوبة : 45] ولذلك كانوا لا يؤمنون بالآجال ، وقالوا لإخوانهم : ﴿ لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾ [آل عمران : 156] .

الرابع : الغرور بالأماني ، وهي جمع أمنية وهي اسم التمني .

والمراد بها ما كانوا يمنون به أنفسهم من أنهم على الحق وأن انتصار المؤمنين عرض زائل ، وأن الحوادث تجري على رغبتهم وهواهم ، ومن ذلك قولهم:

(218/747)

﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ [المنافقون : 8] وقولهم : ﴿ لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ﴾ [آل عمران : 167] ولذلك يحسبون أن العاقبة لهم ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ [المنافقون : 7] .

وقد بينتُ الخصال التي تتولد على النفاق في تفسير سورة البقرة فطبِّق عليه هذه الأصول الأربعة وألحق فروع بعضها ببعض .

والمقصود من الغاية بـ ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ التنديدُ عليهم بأنهم لم يرعَوُوا عن غيهم مع طول مدة أعمارهم وتعاقب السنين عليهم وهم لم يتدبروا في العواقب ، كما قال تعالى : ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ [فاطر : 37] وإسناد التغرير إلى الأماني مجاز عقلي لأن الأماني والطمع في حصولها سبب غرورهم وملابِسُه .

ومَجيء أمر الله هو الموت ، أي حتى يتمّ على تلك الحالة السيئة ولم تقلعوا عنها بالإِيمان الحق .

والغاية معترضة بين الجملتين المتعاطفتين ، ومن حق المؤمن أن يعتبر بما تضمنه قوله تعالى : ﴿ وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله ﴾ الآية ، فلا يماطل التوبة ولا يقول : غداً غدا .

وجملة ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ عطف على جملة ﴿ وغرتكم الأماني ﴾ تحقيراً لغرورهم وأمانيهم بأنها من كيد الشيطان ليزدادوا حسرة حينئذٍ .

والغَرور : بفتح الغين مبالغة في المتصف بالتغرير ، والمراد به الشيطان ، أي بإلقائه خواطر النفاق في نفوسهم بتلوينه في لون الحق وإرضاء دين الكفر الذي يزعمون أنه رضي الله ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ [الزخرف : 20] .

ويجوز أن يراد جنس الغَارِّين، أي وغركم بالله أئمة الكفر وقادة النفاق.

والتغرير: إظهار الضار في صورة النافع بتمويه وسفسطة.

(219/747)

والباء في قوله: ﴿ بالله ﴾ للسببية أو للآلة المَجازية، أي جعل الشيطان شأن الله سبباً لغروركم بأن خَيّل إليكم أن الحِفاظ على الكفر مرضي لله تعالى وأن النفاق حافظتم به على دينكم وحفظتم به نفوسكم وكرامة قومكم واطلعتم به على أحوال عدوكم.

وهذا كله معلوم عندهم قد شاهدوا دلائله فمِنْ أجل ذلك فرَّعوا لهم عليه قولَهم: ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ﴾ [الحديد: 15]، قطعاً لطمعهم أن يكونوا مع المؤمنين يومئذٍ كما كانوا معهم في الحياة.

فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (15)

يجوز أن يكون هذا الكلام من تتمة خطاب المؤمنين للمنافقين استمراراً في التوبيخ والتنديم.

وهذا ما جرى عليه المفسرون، فموقع فاء التفريع بيّن والعلم للمؤمنين بأن لا تؤخذ فدية من المنافقين والذين كفروا حاصل مما يسمعون في ذلك اليوم من الأقضية الإلهية بين الخلق بحيث

صار معلوماً لأهل المحشر ، أو هو علم متقرر في نفوسهم مما علموه في الدنيا من أخبار القرآن وكلام النبي صلى الله عليه وسلم وذلك موجب عطف ﴿ ولا من الذين كفروا ﴾ تعبيراً عما علموه بأسره وهو عطف معترض جَرَّته المناسبة .

ويجوز أن يكون كلاماً صادراً من جانب الله تعالى للمنافقين تأييساً لهم من الطمع في نوال حظ من نور المؤمنين ، فيكون الفاء من عطف التلقين عاطفة كلام أحد على كلام غيره لأجل اتحاد مكان المخاطبة على نحو قوله تعالى قال : ﴿ ومن ذريتي ﴾ [إبراهيم : 40] .

ويكون عطف ﴿ ولا من الذين كفروا ﴾ جمعاً للفريقين في توبيخ وتنديم واحد لاتحادهما في الكفر .

وإقحام كلمة ﴿ فاليوم ﴾ لتذكيرهم بما كانوا يضمرونه في الدنيا حين ينفقون مع المؤمنين رِيَاء وتقيّة .

وهو ما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر ﴾ [التوبة : 98] .

وقرأ الجمهور ﴿ لا يؤخذ ﴾ بياء الغائب المذكر لأن تأنيث ﴿ فدية ﴾ غير حقيقي ، وقد فُصل بين الفعل وفاعله بالظرف فحصل مسوغان لترك اقتران الفعل بعلامة المؤنث .

وقرأه ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بمثناة فوقية جرياً على تأنيث الفاعل في اللفظ ، والقراءتان سواء .

وكني بنفي أخذ الفدية عن تحقق جزائهم على الكفر ، وإلا فإنهم لم يبذلوا فدية ، ولا كان النفاق من أنواع الفدية ولكن الكلام جرى على الكناية لما هو مشهور من أن الأسير والجاني قد يتخلصان من المؤاخذة بفدية تبذل عنهما .

فعطف ﴿ ولا من الذين كفروا ﴾ قُصد منه تعليل أن لا محيص لهم من عذاب الكفر ، مثل الذين كفروا ، أي الذين أعلنوا الكفر حتى كان حالةً يعرفون بها .

وهذا يقتضي أن المنافقين كانوا هم والكافرون في صعيد واحد عندَ أبوابِ جهنم ، ففيه احتراس من أن يتوهم الكافرون الصرحاء من ضمير ﴿ لا يؤخذ منكم فدية ﴾ أن ذلك حكم خاص بالمنافقين تعلقاً بأقل طمع ، فليس ذكر ﴿ ولا من الذين كفروا ﴾ مجرد استطراد .

والمأوى : المكان الذي يُؤوى إليه ، أي يصار إليه ويُرجع ، وكني به عن الاستمرار والخلود . وأكد ذلك بالصريح بجملة ﴿ مأواكم النار هي مولاكم ﴾ أي ترجعون إليها كما يرجع المستنصر إلى مولاه لينصره أو يفادي عنه ، فاستعير المولى للمَقَرّ على طريقة التهكم .

ويجوز مع ذلك أن يجعل المولى اسم مكان الوَلْي ، وهو القرب والدنوّ ، أي مقركم ، كقول لبيد :

فغدتْ كلا الفرجينْ تحسب أنه . . .

مَولَى المخافة خلْفُها وأمامُها

أي مكان المخافة ومقرها .

و﴿ بئس المصير ﴾ تذييل يشمل جميع ما يصيرون إليه من العذاب .

وقد يحصل العلم للمؤمنين بما أجابوا به أهل النفاق لأنهم صاروا إلى دار الحقائق . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(221/747)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت سورة الحديد بالمدينة .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن ابن الزبير قال : أنزلت سورة الحديد بالمدينة .

وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نزلت سورة الحديد يوم الثلاثاء ، وخلق الله الحديد يوم الثلاثاء ، وقتل ابن آدم أخاه يوم الثلاثاء ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحجامة يوم الثلاثاء " .

وأخرج الديلمي عن جابر مرفوعاً : "لا تحتجموا يوم الثلاثاء فإن سورة الحديد أنزلت عليّ يوم الثلاثاء " .

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه النسائي وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان "عن عرباض بن سارية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال إن فيهن آية أفضل من ألف آية " .

وأخرج ابن الضريس عن يحيى بن أبي كثير قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ المسبحات ، وكان يقول : إن فيهن آية هي أفضل من ألف آية " ، قال يحيى : فنراها الآية التي في آخر الحشر .

وأخرج البزار وابن عساكر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الدلائل عن عمر قال : كنت أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا أنا في يوم حار بالهاجرة في بعض طريق مكة إذ لقيني رجل فقال : عجبا لك يا ابن الخطاب إنك تزعم أنك وأنك ، وقد دخل عليك الأمر في بيتك ، قلت : وما ذاك ؟ قال : هذه أختك قد أسلمت ، فرجعت مغضباً حتى قرعت الباب فقيل : من هذا ؟ قلت : عمر ، فتبادروا ، فاختفوا مني ، وقد كانوا يقرأون صحيفة بين أيديهم تركوها أو نسوها ، فدخلت حتى جلست على السرير ، فنظرت إلى الصحيفة ، فقلت : ما هذه ؟ ناولينيها ، قالت : إنك لست من أهلها إنك لا تغتسل من الجنابة ، ولا تطهر ، وهذا كتاب لا يمسه إلا المطهرون ، فما زلت حتى ناولتنيها ففتحتها فإذا فيها بسم الله الرحمن الرحيم ، فلما قرأت الرحمن الرحيم ذعرت ، فألقيت الصحيفة من يدي ، ثم رجعت إلى نفسي فأخذتها فإذا فيها بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ فكلما مررت باسم من أسماء الله ذعرت ثم ترجع إليَّ نفسي حتى بلغت ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فخرج القوم مستبشرين فكبروا .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن أبي الأسود قال : قال رأس الجالوت : إنما التوراة الحلال والحرام إلا أن في كتابكم جامعاً ﴿ سبح لله ما في السماوات والأرض ﴾ وفي التوراة يسبح

لله الطير والسباع.

قوله تعالى: ﴿ هو الأول والآخر ﴾ .

(223/747)

أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي وأبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة قال: " بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: " هل تدرون ما هذا ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا العنان هذه روايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه، ثم قال: هل تدرون ما فوقكم ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف. ثم قال: هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: بينكم وبينها خمسمائة سنة، ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: فإن فوق ذلك سماءين ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة حتى عدد سبع سموات ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض، ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بعد مثل ما بين السماءين، ثم قال: هل تدرون ما الذي تحتكم ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها الأرض. ثم قال: هل

تدرون ما تحت ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن تحتها الأرض الأخرى بينهما مسيرة خمسمائة عام ، حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال : والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم أحدكم بحبل إلى الأرض السابعة السفلى لهبط على الله ، ثم قرأ ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ " قال : الترمذي فسر بعض أهل العلم هذا الحديث فقالوا : إنما هبط على علم الله وقدرته وسلطانه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس بن عبد المطلب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " والذي نفس محمد بيده لو دليتم أحدكم بحبل إلى الأرض السابعة لقدم على ربه ، ثم تلا ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن هو بكل شيء عليم ﴾ " .

(224/747)

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات " عن أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو بهؤلاء الكلمات : اللهم أنت الأول فلا شيء قبلك ، وأنت الآخر فلا شيء بعدك ، أعوذ بك من شر كل دابة ناصيتها بيدك ، وأعوذ بك من الإِثم والكسل ، ومن عذاب النار ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة الغنى ، ومن فتنة الفقر ، وأعوذ بك من المأثم والمغرم " .

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وحسنة والبيهقي عن أبي هريرة قال : " جاءت فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأل خادماً فقال لها : قولي اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، وربنا ورب كل شيء منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب النوى أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو عند النوم : " اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر " .

وأخرج البيهقي عن ابن عمر قال : كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول : " يا كائن قبل أن يكون شيء ، والمكوّن لكل شيء ، والكائن بعدما لا يكون شيء ، أسألك بلحظة من لحظاتك الحافظات الوافرات الراجيات المنجيات " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن محمد بن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم علم عليّاً دعوة يدعوها عند ما أهمه ، فكان علي رضي الله عنه يعلمها لولده : يا كائن قبل كل شيء ويا مكوّن كل شيء ويا كائن بعد كل شيء أفعل بي كذا وكذا .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن مقاتل بن حيان رضي الله عنه قال : بلغنا في قوله عز وجل هو الأوّل قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء والظاهر فوق كل شيء والباطن أقرب من كل شيء وإنما يعني بالقرب بعلمه وقدرته وهو فوق عرشه وهو بكل شيء عليم ﴿ هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ﴾ مقدار كل يوم ألف عام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض من القطر وما يخرج منها من النبات ، وما ينزل من السماء من القطر وما يعرج فيها يعني ما يصعد إلى السماء من الملائكة وهو معكم أينما كنتم يعني قدرته وسلطانه وعلمه معكم إينما كنتم والله بما تعملون بصير .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر وأبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يزال الناس يسألون عن كل شيء حتى يقولوا هذا الله كان قبل كل شيء فماذا كان قبل الله ؟ فإن قالوا لكم ذلك فقولوا : هو الأوّل قبل كل شيء وهو الآخر فليس بعده شيء وهو الظاهر فوق كل شيء وهو الباطن دون كل شيء وهو بكل شيء عليم " .

وأخرج أبو داود عن أبي زميل قال : سألت ابن عباس رضي الله عنهما فقلت : ما شيء

أجده في صدري قال : ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلم به فقال لي : أشيء من شك ؟ وضحك ؟ قال : ما نجا من ذلك أحد حتى أنزل الله تعالى ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلت إليك ﴾ الآية وقال لي : إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل : هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وهو معكم أين ما كنتم ﴾ قال : عالم بكم أينما كنتم .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن سفيان الثوري رضي الله عنه أنه سئل عن قوله : ﴿ وهو معكم ﴾ قال : علمه .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن من أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله تعالى معه حيث كان" .

وأخرج ابن النجار في تاريخ بغداد بسند ضعيف عن البراء بن عازب قال : قلت لعليّ رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين أسألك بالله ورسوله إلا خصصتني بأعظم ما خصك به رسول الله صلى الله عليه وسلم واختصه به جبريل ، وأرسله به الرحمن ، فقال : إذا أردت

أن تدعو الله باسمه الأعظم فاقرأ من أول سورة الحديد إلى آخر ست آيات منها ﴿ عليم بذات الصدور ﴾ وآخر سورة الحشر يعني أربع آيات ، ثم ارفع يديك فقل : يا من هو هكذا أسألك بحق هذه الأسماء أن تصلّي على محمد وأن تفعل بي كذا وكذا مما تريد ، فوالله الذي لا إله غيره لتنقلبن بحاجتك إن شاء الله .

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7)

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ قال : معمرين فيه بالرزق ، وفي قوله : ﴿ وقد أخذ ميثاقكم ﴾ قال : في ظهر آدم ، وفي قوله : ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ قال : من الضلالة إلى الهدى .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وعبد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح ﴾ يقول : من أسلم ﴿ وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ﴾ يعني أسلموا يقول ليس من هاجر كمن لم يهاجر ﴿ وكلاً وعد الله الحسنى ﴾ قال : الجنة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح ﴾ الآية، قال: كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر، وكانت نفقتان احداهما أفضل من الأخرى، قال: كانت النفقة والقتال قبل الفتح فتح مكة أفضل من النفقة والقتال بعد ذلك ﴿ وكلاً وعد الله الحسنى ﴾ قال: الجنة.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ قال أبو الدحداح: والله لأنفقن اليوم نفقة أدرك بها من قبلي ولا يسبقني بها أحد بعدي، فقال: اللهم كل شيء يملكه أبو الدحداح فإن نصفه لله حتى بلغ فرد نعله ثم قال: وهذا.

وأخرج سعيد بن منصور عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يأتيكم قوم من ههنا، وأشار بيده إلى اليمن، تحقرون أعمالكم عند أعمالهم، قالوا: فنحن خير أم هم؟ قال: بل أنتم، فلو أن أحدهم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك أحدكم ولا نصيفه فصلت هذه الآية بيننا وبين الناس ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا ﴾ ".

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: " خرجنا مع رسول الله صلى

الله عليه وسلم عام الحديبية إذا كان بعسفان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم ، قلنا : من هم يا رسول الله أقريش ؟ قال : لا ، ولكنهم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة وألين قلوباً ، فقلنا : أهم خير منا يا رسول الله ؟ قال : لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ما أدرك مد أحدكم ولا نصيفه إلا أن هذا فصل ما بيننا وبين الناس ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ الآية " .

(228/747)

وأخرج أحمد عن أنس قال : "كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن بن عوف : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم " " .

وأخرج أحمد عن يوسف بن عبد الله بن سلام قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنحن خير أم من بعدنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أنفق أحدهم أحداً ذهباً ما بلغ مد أحدكم ولا نصيفه " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال : لا تسبوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره .

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن الحسن في قوله : ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ قال : على الصراط حتى يدخلوا الجنة .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ قال : على الصراط .

وأخرج ابن المنذر عن يزيد بن شجرة قال : إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم وسيماكم وحلاكم ونجواكم ومجالسكم ، فإذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان ابن فلان هلم بنورك ويا فلان ابن فلان لا نور لك .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في الآية قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن من المؤمنين يوم القيامة من يضيء له نوره كما بين المدينة إلى عدن أبين إلى صنعاء فدون ذلك حتى أن من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلا موضع قدميه ، والناس منازل بأعمالهم " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ قال : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم ، يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نوراً من نوره على إبهامه يطفأ مرة ويقد أخرى .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن عبد الرحمن بن جبير أنه سمع أبا ذر وأبا الدرداء قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة وأول من يؤذن له أن يرفع رأسه ، فأرفع رأسي فأنظر بين يدي وعن خلفي وعن يميني وعن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم فقيل : يا رسول الله وكيف تعرفهم من بين الأمم ما بين نوح إلى أمتك ؟ قال : غر محجلون من أثر الوضوء ، ولا يكون لأحد غيرهم ، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود ، وأعرفهم بنورهم الذي يسعى بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم " .

وأخرج ابن المبارك وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي أمامة الباهلي أنه قال : أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر ، وهو القبر بيت الوحدة وبيت الظلمة وبيد الدود وبيت الضيق ، إلا ما وسع الله ، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة ، فإنكم لفي بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر الله ، فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى موضع آخر فتغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً وهو المثل الذي ضرب الله في كتابه إلى قوله ولا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير ، ويقول المنافق للذين آمنوا : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال :

﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ [النساء : 142] فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم ، ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ ينادونهم ألم نكن معكم نصلي صلاتكم ونغزو مغازيكم ؟ قالوا : بلى إلى قوله : ﴿ وبئس المصير ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عن أبي أمامة قال : تبعث ظلمة يوم القيامة فما من مؤمن

ولا كافر يرى كفه حتى يبعث الله بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم فيتبعهم المنافقون فيقولون : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال : بينما الناس في ظلمة إذا بعث الله نوراً فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلاً لهم من الله إلى الجنة فلما رأى المنافقون المؤمنين انطلقوا إلى النور تبعوهم ، فأظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ فإنا كنا معكم في الدنيا قال المؤمنون : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأمهاتهم ستراً منه على عباده ، وأما عند الصراط فإن الله يعطي كل مؤمن نوراً وكل منافق نوراً فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات ، فقال المنافقون : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ وقال المؤمنون : ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا جمع الله الأولين والآخرين دعا اليهود فقيل لهم : من كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد الله ، فيقال لهم : كنتم تعبدون معه غيره فيقولون : نعم ، فيقال لهم : من كنتم تعبدون معه ؟ فيقولون : عُزيراً فيوجهون وجهاً ، ثم يدعو النصارى ، فيقال لهم : من كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد الله ، فيقول لهم : هل كنتم تعبدون معه غيره ؟ فيقولون : نعم ، فيقال لهم : من كنتم تعبدون معه ؟ فيقولون : المسيح ، فيوجهون وجهاً ثم يدعى المسلمون وهم على رابة من الأرض فيقال لهم : من كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد الله وحده ، فيقال لهم : هل كنتم تعبدون معه غيره ؟ فيغضبون فيقولون : ما عبدنا غيره فيعطى كل إنسان منهم نوراً ، ثم يوجهون إلى الصراط ثم قرأ ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا أنظرونا نقتبس من نوركم ﴾ الآية وقرأ ﴿ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم ﴾ [التحريم : 8] إلى آخر الآية " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات ﴾ الآية قال : بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور لهم دليلاً إلى الجنة من الله فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا تبعوهم ، فأظلم الله على

المنافقين، فقالوا حينئذ : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ فإنا كنا معكم في الدنيا قال المؤمنون : ارجعوا من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور .

(233/747)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبي فاختة قال : يجمع الله الخلائق يوم القيامة، ويرسل الله على الناس ظلمة فيستغيثون ربهم فيؤتي الله كل مؤمن يومئذ نوراً ويؤتي المنافقين نوراً فينطلقون جميعاً متوجهين إلى الجنة معهم نورهم، فبينما هم كذلك إذ طفأ الله نور المنافقين، فيترددون في الظلمة، ويسبقهم المؤمنون بنورهم بين أيديهم فينادونهم ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه ﴾ حيث ذهب المؤمنون فيه الرحمة ومن قبله الجنة، ويناديهم المنافقون ألم نكن معكم؟ قالوا : بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم فيقول المنافقون بعضهم لبعض : وهم يتسكعون في الظلمة تعالوا نلتمس إلى المؤمنين سبيلاً فيسقطون على هوة، فيقول بعضهم لبعض : إن هذا ينفق بكم إلى المؤمنين فيتهافتون فيها فلا يزالون يهوون فيها حتى ينتهوا إلى قعر جهنم، فهنالك خدع المنافقون كما قال الله : ﴿ وهو خادعهم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ انظرونا ﴾ موصولة برفع الألف .

وأخرج عبد بن حميد عن الأعمش أنه قرأ ﴿ انظرونا ﴾ مقطوعة بنصب الألف وكسر الظاء .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي الدرداء قال : أين أنت من يوم جيء بجهنم قد سدت ما بين الخافقين وقيل : لن تدخل الجنة حتى تخوض النار ، فإن كان معك نور استقام بك الصراط فقد والله نجوت وهديت ، وإن لم يكن معك نور تشبث بك بعض خطاطيف جهنم أو كلاليبها ، فقد والله رديت وهويت .

(234/747)

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن مقاتل في قوله : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا وهم على الصراط انظرونا ﴾ يقول : ارقبونا ﴿ نقتبس من نوركم ﴾ يعني نصيب من نوركم فنمضي معكم قيل : يعني قالت الملائكة لهم : ﴿ ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً من حيث جئتم ﴾ هذا من الاستهزاء بهم استهزؤوا بالمؤمنين في الدنيا حين قالوا : آمنا وليسوا بمؤمنين فذلك قوله : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ حين يقال لهم : ﴿ ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾ ﴿ فضرب بينهم بسور له باب ﴾ يعني بالسور حائط بين أهل الجنة والنار ﴿ باب باطنه ﴾ يعني باطن السور ﴿ فيه الرحمة ﴾ مما يلي الجنة

﴿ وظاهره من قبله العذاب ﴾ يعني جهنم وهو الحجاب الذي ضرب بين أهل الجنة وأهل النار .

وأخرج عبد بن حميد عن عبادة بن الصامت أنه كان على سور بيت المقدس الشرقي فبكى فقيل له ما يبكيك ؟ فقال : ههنا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جهنم يحدث عن أبيه أنه قال : ﴿ فضرب بينهم بسور ﴾ قال : هذا موضع السور عند وادي جهنم .

وأخرج عبد بن حميد عن عن أبي سنان قال : كنت مع علي بن عبد الله بن عباس عند وادي جهنم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : إن السور الذي ذكره الله في القرآن ﴿ فضرب بينهم بسور ﴾ هو السور الذي ببيت المقدس الشرقي ﴿ باطنه فيه الرحمة ﴾ المسجد ﴿ وظاهره من قبله العذاب ﴾ يعني وادي جهنم وما يليه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ فضرب بينهم بسور ﴾ قال : حائط بين الجنة والنار .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن في قوله : ﴿ باطنه فيه الرحمة ﴾ قال : الجنة ﴿ وظاهره من قبله العذاب ﴾ قال : النار .

وأخرج آدم بن أبي إياس وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد في قوله: ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات ﴾ الآية، قال: إن المنافقين كانوا مع المؤمنين أحياء في الدنيا يناكحونهم ويعاشرونهم وكانوا معهم أمواتاً ويعطون النور جميعاً يوم القيامة فيطفأ نور المنافقين إذا بلغوا السور يماز بينهم يومئذ والسور كالحجاب في الأعراف فيقولون: ﴿ أنظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله: ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴾ قال: بالشهوات واللذات وتربصتم بالتوبة ﴿ وارتبتم ﴾ أي شككتم في الله ﴿ وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله ﴾ قال: الموت ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ قال: الشيطان.

وأخرج عبد بن حميد عن أبي سفيان ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴾ قال: بالمعاصي وتربصتم بالتوبة ﴿ وارتبتم ﴾ شككتم ﴿ وغرتكم الأماني ﴾ قلتم: سيغفر لنا حتى جاء أمر الله قال: الموت ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ قال: الشيطان.

وأخرج عبد بن حميد عن محبوب الليثي ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴾ أي بالشهوات ﴿

وتربصتم ﴾ بالتوبة ﴿ وارتبتم ﴾ أي شككتم في الله ﴿ وغرتكم الأماني ﴾ قال : طول الأمل ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ قال : الموت ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ قال : الشيطان .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ وتربصتم ﴾ قال : تربصوا بالحق وأهله ﴿ وارتبتم ﴾ قال : كانوا في شك من أمر الله ﴿ وغرتكم الأماني ﴾ قال : كانوا على خدعة من الشيطان والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ قال : الشيطان ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ﴾ يعني من المنافقين ولا من الذين كفروا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 57.45 ﴾

(236/747)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السموات ﴾

يعني : صلى لله ما في السموات من الملائكة ﴿ والأرض ﴾ من المؤمنين ، فسمى الصلاة تسبيحاً ، لأنه يجري فيها التسبيح .

ويقال: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ ، يعني: ذكر الله ما في السموات.

يعني: جميع ما في السَّموات من الشمس، والقمر والنجوم والأرض، يعني: جميع ما في الأرض من الإنس، والأشجار، والأنهار، والجبال، وغير ذلك.

ويقال: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ يعني: خضع لله جميع ما في السَّموات، والأرض، وقال بعضهم: التسبيح آثار صنعه، يعني: في كل شيء دليل لربوبيته، ووحدانيته.

ويقال: هو التسبيح بعينه.

يعني: يسبح جميع الأشياء كقوله: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: 44] وقال الحسن البصري (لولا ما يخفى عليكم من تسبيح من معكم في البيوت ما تقادرتم).

وروى سمرة بن جندب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " أَفْضَلُ الكَلامِ أَرْبَعَةٌ: سُبْحَانَ الله، وَالحَمْدُ لله، وَلا إِله إِلاَّ الله، وَالله أَكْبَرُ " وَلا يَضرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ.

﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ يعني: العزيز بالنقمة لمن لا يوحّده، ﴿ والعزيز ﴾ في اللغة: الذي لا يعجزه عما أراد.

ويقال: ﴿ القوى العزيز ﴾ الذي لا يوجد مثله ﴿ الحكيم ﴾ في أمره، وقضائه.

ثم قال عز وجل: ﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ يعني: له خزائن السَّموات والأرض.

يعني: خزائن السَّموات المطر، وخزائن الأرض النبات.

ويقال: معناه له نفاذ الأمر في السَّموات والأرض.

ثم قال: ﴿ لاَ إله ﴾ يعني: يحيي للبعث، ويميت في الدنيا ﴿ وَهُوَ على كُلّ شَىْء قَدِيرٌ ﴾ من الإحياء والإماتة.

(237/747)

ثم قال عز وجل: ﴿ هُوَ الاول ﴾ يعني: الأول قبل كل أحد ﴿ والاخر ﴾ بعد كل أحد ﴿ والظاهر ﴾ يعني: الغالب على كل شيء ﴿ والباطن ﴾ يعني: العالم بكل شيء.

ويقال: ﴿ هُوَ الاول ﴾ يعني: مؤول كل شيء ﴿ والاخر ﴾ يعني: مؤخر كل شيء ﴿ والظاهر ﴾ يعني: المظهر ﴿ والباطن ﴾ يعني: المبطن.

ويقال: هو ﴿ الاول ﴾ يعني: خالق الأولين ﴿ والاخر ﴾ يعني: خالق الآخرين ﴿ والظاهر ﴾ يعني: خالق الآدميين، وهم ظاهرون.

﴿ والباطن ﴾ يعني: خالق الجن، والشياطين الذين لا يظهرون.

ويقال: ﴿ هُوَ الاول ﴾ يعني: خالق الدنيا ﴿ والاخر ﴾ يعني: خالق الآخرة.

﴿ والظاهر والباطن ﴾ يعني: عالم بالظاهر والباطن.

ويقال: ﴿ هُوَ الاول ﴾ بلا ابتداء ﴿ والاخر ﴾ بلا انتهاء .

﴿ والظاهر والباطن ﴾ يعني: منه نعمة ظاهرة.

ويقال: هو ﴿ الاول والاخر والظاهر والباطن ﴾ يعني: هو الرب الواحد .

ثم قال: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يعني: من أمر الدنيا والآخرة.

ثم قال عز وجل: ﴿ هُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأرض ﴾ يعني: ما يدخل في الأرض من الماء ، والكنوز ، والأموات ، ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من النبات ، والكنوز ، والأموات ، ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السماء ﴾ وهو المطر ، والثلج ، والرزق ، والملائكة ، ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ يعني: ما يصعد فيها من الملائكة ، وأعمال العباد ، والأرواح ، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ يعني: عالم بكم ، وبأعمالكم ، أينما كنتم في الأرض ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم بالخير خيراً ، وبالشر شراً .

ثم قال عز وجل: ﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض وَإِلَى الله تُرْجَعُ الامور ﴾ .

ثم قال عز وجل: ﴿ يُولِجُ الليل فِى النهار ﴾ يعني: يُدخل الليل في النهار ، إذا جاء الليل ذهب النهار .

﴿ وَيُولِجُ النهار فِي الليل ﴾ يعني : يُدخل النهار في الليل ، إذا جاء النهار ذهب الليل .

ومعنى آخر : يعني : يدخل زيادة الليل في النهار .

يعني : يصير الليل أطول ما يكون خمس عشرة ساعة ، والنهار أقصر ما يكون تسع ساعات .

والليل والنهار أربع عشرون ساعة .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ يعني : بما في القلوب من الخير والشر .

ثم قال : ﴿ بالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ ﴾ يعني : صدقوا بوحدانية الله تعالى ، وصدقوا برسوله ، ﴿ وَأَنفِقُواْ ﴾ يعني : تصدقوا في طاعة الله تعالى ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ يعني : مما جعلكم مالكين من المال .

ويقال : معناه إن الأموال والدنيا كلها لله تعالى ، فيجعل العباد مستخلفين على أمواله ، وأمرهم بالنفقة ، مما جعلهم خليفة فيها .

ثم بيّن ثواب الذين آمنوا فقال : ﴿ فالذين ءامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ ﴾ يعني : صدقوا بوحدانية الله تعالى ، وتصدقوا ، ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ يعني : عظيم وهو الثواب الحسن في الجنة .

ويقال : إن هذه الآية نسخت بآية الزكاة .

ويقال : إنها ليست بمنسوخة ، ولكنها حث على الصدقة ، والنفقة في طاعة الله تعالى .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ يعني : ما لكم لا تصدقون بوحدانية الله تعالى ﴿ والرسولُ يَدْعُوكُمْ ﴾ قرأ بعضهم : ﴿ والرسولُ ﴾ بضم اللام .

يعني : ما لكم لا تؤمنون بالله ، وتم الكلام .

ثم قال : ﴿ والرسولُ يَدْعُوكُمْ ﴾ إلى توحيد الله تعالى .

وقراءة العامة ﴿ والرسولِ ﴾ بكسر اللام .

(239/747)

يعني : ما لكم لا تصدقون بالله ، وبرسوله حين يدعوكم ، ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ يعني : لتصدقوا بوحدانية الله تعالى ﴿ وَقَدْ أَخَذَ ميثاقكم ﴾ يعني : أخذ الله تعالى إقراركم ، والميثاق حين أخرجكم من صلب آدم ﴿ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يعني : مصدقين قرأ أبو عمرو : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ ميثاقكم ﴾ بضم القاف ، وكسر الخاء ، على معنى فعل ما لم يسم فاعله ، والباقون : يعني : أخذ الله ميثاقكم .

ثم قال : ﴿ هُوَ الذى يُنَزّلُ على عَبْدِهِ ﴾ هو الذي ينزل جبريل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم ، يقرأ عليه ﴿ بَيّنَاتٍ فاسأل ﴾ يعني : آيات القرآن ، واضحات بيّن فيها الحلال ، والحرام ، والأمر ، والنهي .

﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ يعني : يدعوكم من الشرك إلى الإيمان .

ويقال : ﴿ بَيِّنَاتٍ فاسأل ﴾ يعني : واضحات .

ويقال : ﴿ ءايات ﴾ يعني : علامات النبوة ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ يعني : ليوفقكم الله تعالى للهدى ، ويخرجكم من الكفر .

﴿ وَإِنَّ الله بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعني : هداكم لدينه ، وأنزل عليكم .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ يعني : ما لكم ألا تصدقوا ، أو ألا تنفقوا أموالكم في طاعة الله .

﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السموات والأرض ﴾ يعني : إلى الله يرجع ميراث السموات والأرض ، أي : شيء ينفعكم ترك الإنفاق ، ميتون ، تاركون أموالكم .

ويقال : معناه : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُواْ ﴾ والأموال كلها لله تعالى وهو يأمركم بالنفقة .

ويقال : أنفقوا ما دمتم في الحياة ، فإنكم إن بخلتم ، فإن الله هو يرثكم ، ويرث أهل السموات .

يعني : أنفقوا قبل أن تفنوا ، وتصير كلها ميراثاً لله تعالى بعد فنائكم ، وإنما ذكر لفظ الميراث ، لأن العرب تعرف ما ترك الإنسان ميراثاً ، فخاطبهم بما يعرفون فيما بينهم .

ثم قال: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم ﴾ يعني: لا يستوي منكم في الفضل، والثواب عند الله تعالى ﴿ مَّنْ أَنفَقَ ﴾ ماله في طاعة الله ﴿ مِن قَبْلِ الفتح ﴾ يعني: قاتل العدو.

وفي الآية: تقديم يعني: من أنفق وقاتل ﴿ مِن قَبْلِ الفتح ﴾ يعني: فتح مكة.

ونزلت الآية في شأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين والأنصار.

يعني: الذين أنفقوا أموالهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقاتلوا الكفار، لا يستوي حالهم وحال غيرهم.

ويقال: نزلت الآية في شأن أبي بكر رضي الله عنه كان جالساً مع نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوقعت بينهم منازعة في شيء، فنزل في تفضيل أبي بكر رضي الله عنه ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ ﴾ ماله ﴿ مِن قَبْلِ الفتح ﴾ يعني: من قبل ظهور الإسلام ﴿ وقاتل ﴾ يعني: وجاهد ﴿ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾ يعني: أبا بكر رضي الله عنه ﴿ مِّنَ الذين أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وقاتلوا ﴾ العدو مع النبي صلى الله عليه وسلم.

ويقال: هذا التفضيل لجميع أصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

وروى سفيان عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سَيَأْتِي قَوْمٌ بَعْدَكُمْ يَحْقِرُونَ أَعْمَالَكُمْ مَعَ أَعْمَالِهِمْ".

قالوا: يا رسول الله نحن أفضل أم هم؟ فقال: "لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً، مَا

أَدْرَكَ فَضْلَ أَحَدِكُمْ ولا نِصْفَهُ " .

﴿ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ درجَةً ﴾ قال الفقيه : حدثني الخليل بن أحمد .

ثنا الديبلي .

ثنا عبيد الله عن سفيان ، عن زيد بن أسلم ﴿ مّنَ الذين أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وقاتلوا ﴾ ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ الله الحسنى ﴾ قرأ ابن عامر : ﴿ وَكُلٌّ وَعَدَ الله الحسنى ﴾ بضم اللام .

والباقون : بالنصب .

فمن قرأ بالضم ، صار ضمّاً لمضمر فيه ، فكأنه قال : أولئك وعد الله الحسنى .

ومن نصب : معناه وعد الله كلّاً الحسنى يعني : الجنة .

(241/747)

ثم قال : ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يعني : ما أنفقتم .

ثم قال : ﴿ مَّن ذَا الذى يُقْرِضُ الله قَرْضًا حَسَنًا ﴾ يعني : من ذا الذي يعطي من أموال الله قرضاً حسناً .

يعني : وفقاً بالإخلاص ، وطلب ثواب الله تعالى : ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ في الحسنات ، ويعطي من الثواب ما لا يحصى ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني : ثواباً حسناً في الآخرة .

ويقال : نزلت الآية في شأن أبي الدحداح .

ويقال : هو حث لجميع المسلمين .

ثم قال عز وجل : ﴿ يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات ﴾ يعني : في يوم القيامة على الصراط ﴿ يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم ﴾ يعني : بتصديقهم في الدنيا ، وبأعمالهم الصالحة ، فيعطى لهم النور ، يمضون به على الصراط ، فيكون النور بين أيديهم ، وأيمانهم ، وعن شمائلهم ، إلا أن ذكر الشمائل مضمر .

وتقول لهم الملائكة : ﴿ بُشْرَاكُمُ اليوم ﴾ يعني : أبشروا هذا اليوم بكرامة الله تعالى .

﴿ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ﴾ يعني : مقيمين في الجنة ، ونجوا من العذاب ﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ المنافقون والمنافقات لِلَّذِينَ ءامَنُواْ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ يعني : نُصِبْ من نوركم ، فتضيء معكم .

وروي عن أبي أمامة الباهلي أنه قال : "بينما العباد يوم القيامة عند الصراط ، إذ غشيتهم ظلمة .

ثم يقسم الله تعالى النور بين عباده ، فيعطي الله المؤمن نوراً ، ويبقى الكافر والمنافق لا يعطيان نوراً ، فكما لا يستضيء الأعمى بنور البصر ، كذلك لا يستضيء الكافر والمنافق

بنور الإيمان ، فيقولان : انظرونا نقتبس من نوركم ، فيقال لهم : ﴿ قِيلَ ارجعوا ﴾ حيث قسم النور فيرجعون ، فلا يجدون شيئاً ، فيرجعون ، وقد ضرب بينهم بسور .

(242/747)

وعن الحسن البصري قال : إن المنافقين يخادعون الله ، وهو خادعهم ، لأنه يعطي المؤمن والمنافق نوراً ، فإذا بلغوا الصِّراط ، اطفىء نور المنافق ، فيقول : المنافقون ﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ قال : فيشفق المؤمنون حين طفىء نور المنافقين ، فيقولون : عند ذلك ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ .

قرأ حمزة ﴿ انظرونا ﴾ بنصب الألف ، وكسر الظاء المعجمة .

والباقون : بالضم .

فمن قرأ : بالنصب ، فمعناه : أمهلونا .

ومن قرأ بالضم ، فمعناه : انتظرونا .

فقال لهم المؤمنون : ارجعوا ﴿ وَرَآءكُمْ فالتمسوا نُوراً ﴾ يعني : ارجعوا إلى الدنيا ، فإنا جعلنا النور في الدنيا .

ويقال : ارجعوا إلى المحشر حيث أعطينا النور ، واطلبوا نوراً ، فيرجعون في طلب النور ،

فلم يجدوا شيئاً ، ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ يعني : ظهر لهم .

ويقال : بين أيديهم بسور .

يعني : بحائط بين أهل الجنة ، وأهل النار ، ﴿ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ ﴾ يعني : باطن السور ﴿ فِيهِ الرحمة ﴾ يعني : الجنة ﴿ وظاهره مِن قِبَلِهِ العذاب ﴾ يعني : النار .

ويقال : هو السور الذي عليه أصحاب الأعراف ، فيظهر بين الجنة ، والنار .

باب يعني : عليه : باب فيجاوز فيه المؤمنون ، ويبقى المنافقون على الصراط في الظلمة ﴿ ينادونهم ﴾ من وراء السور ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ يعني : ألم نكن معكم في الدنيا على دينكم ، وكنا معكم في الجماعات ، والصلوات ، فيجيبهم المؤمنون .

﴿ قَالُواْ بلى ﴾ يعني : قد كنتم معنا في الدنيا ، أو في الظاهر .

﴿ ولكنكم فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ يعني : قد أصبتم أنفسكم حيث كفرتم في السر .

ويقال : ﴿ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ يعني : ثبتم على الكفر الأول في السر ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ يعني : انتظرتم موت نبيكم .

ويقال : ﴿ تربصتم ﴾ يعني : أخرتم التوبة ، وسوّفتُمْ فيها .

﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ وارتبتم ﴾ يعني : شككتم في الدين ، وشككتم في البعث ﴿ وَغرَّتْكُمُ الامانى ﴾ يعني : أباطيل الدنيا ﴿ حتى جاء أَمْرُ الله ﴾ يعني : القيامة ﴿ وَغرَّكُم بالله الغرور ﴾ يعني : الشياطين .

وقال الزجاج : ﴿ الغرور ﴾ على ميزان فعول ، وهو من أسماء المبالغة ، وكذلك الشياطين ﴿ الغرور ﴾ لأنه يغري ابن آدم كثيراً .

ثم قال : ﴿ فاليوم لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ يعني : في هذا اليوم وهو يوم القيامة .

وقرأ ابن عامر : ﴿ فاليوم لاَ ﴾ بالتاء لأن الفدية مؤنثة .

وقرأ الباقون : بالياء .

وجمع على المعنى ، لأن معنى الفدية فداء ، ومعناه : ﴿ فاليوم لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ ﴾ الفداء يعني : المنافقين ﴿ وَلاَ مِنَ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : الذين جحدوا بتوحيد الله تعالى ، ﴿ مَأْوَاكُمُ النار ﴾ يعني : مصيركم إلى النار يعني : المنافقين ، والكافرين ﴿ هِىَ مولاكم ﴾ يعني : هي أولى بكم بما أسلفتم من الذنوب ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ يعني : بئس المرجع النار للكافرين ، والمنافقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 379. 384 ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم * لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ يعني ﴿ هُوَ الأول ﴾ قبل كل شيء بِلا حَد ولا ابتداء ، كان هو ولا شيء موجود ﴿ والآخر ﴾ بعد فناء كل شيء ﴿ والظاهر ﴾ الغالب العالي على كل شيء ، وكل شيء دونه ﴿ والباطن ﴾ العالم بكل شيء ، فلا أحد أعلم منه .

وهذا معنى قول ابن عباس .

وقال ابن عمر : الأول بالخلق والآخر بالرزق ، والظاهر بالاحياء والباطن بالإماتة .

وقال الضحّاك : هو الذي أول الأول وآخر الاخر ، وأظهر الظاهر وأبطن الباطن .

مقاتل بن حيان : هو الأول بلا تأويل أحد ، والآخر بلا تأخير أحد والظاهر بلا إظهار أحد والباطن بلا إبطان أحد .

وقال يمان : هو الأول القديم ، والآخر الرحيم ، والظاهر الحليم ، والباطن العليم .

وقال محمد بن الفضل : الأول ببرّه والآخر بعفوه ، والظاهر بإحسانه والباطن بسرّه .

وقال أبو بكر الوراق : هو الأول بالأزلية والآخر بالأبدية ، والظاهر بالأحدية والباطن بالصمدية .

عبد العزيز بن يحيى : هذه الواوات مقحمة والمعنى : هو الأول الآخر الظاهر الباطن ، لأن

من كان منا أولا لا يكون آخراً ، ومن كان ظاهراً لا يكون باطناً .

وقال الحسين بن الفضل : هو الأول بلا ابتداء ، والآخر بلا إنتهاء ، والظاهر بلا إقتراب ، والباطن بلا إحتجاب .

وقال القناد : الأول السابق إلى فعل الخير والمتقدم على كل محسن إلى فعل الإحسان ، والآخر الباقي بعد فقد الخلق ، والخاتم بفعل الإحسان ، والظاهر الغالب لكل أحد ، ومن ظهر على شيء فقد غلبه ، والظاهر أيضاً : الذي يعلم الظواهر ويشرف على السرائر ، والظاهر أيضاً : ظهر للعقول بالإعلام وظهر للأرواح باليقين وإن خفي على أعين الناظرين ، والباطن الذي عرف المغيّبات وأشرف على المستترات ، والباطن أيضاً : الذي خفي عن الظواهر فلم يدرك إلاّ بالسرائر .

وقال السدي : الأول ببرّه إذ عرّفك توحيده ، والآخر بجوده إذ عرّفك التوبة على ما جنيت ، والظاهر بتوفيقه إذ وفقك للسجود له ، والباطن بستره إذ عصيته فستر عليك .

وقال ابن عطاء : الأول بكشف أحوال الدنيا حتى لا يرغبوا فيها ، والآخر بكشف أحوال العقبى حتى لا يشكّوا فيها ، والظاهر على قلوب أوليائه حتى يعرفوه ، والباطن عن قلوب

أعدائه حتى ينكروه .

وقيل : الأول قبل كل معلوم ، والآخر بعد كل مختوم ، والظاهر فوق كل مرسوم ، والباطن محيط بكل مكتوم .

وقيل هو الأول بإحاطة علمه بذنوبنا قبل وجود ذنوبنا ، والآخر بسترها علينا في عقبانا ، والظاهر بحفظه إيانا في دنيانا ، والباطن بتصفية أسرارنا وتنقية أذكارنا .

وقيل : هو الأول بالتكوين ، بيانه قوله ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] والآخر بالتلقين ، بيانه قوله ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمَنُواْ ﴾ [إبراهيم : 27] الآية .

والظاهر بالتبيين بيانه ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [النساء : 26] والباطن بالتزيين بيانه ﴿ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : 7] .

وقال محمد بن علي الترمذي : الأول بالتأليف والآخر بالتكليف والظاهر بالتصريف ، والباطن بالتعريف .

قال الجنيد : هو الأول بشرح القلوب ، والآخر بغفران الذنوب ، والظاهر بكشف الكروب ، والباطن بعلم الغيوب .

وسأل عمر كعباً عن هذه الآية فقال : معناها أن علمه بالأول كعلمه بالآخر وعلمه بالظاهر كعلمه بالباطن .

وقيل : هو الأول بالهيبة والسلطان ، والآخر بالرحمة والاحسان ، والظاهر بالحجة والبرهان ، والباطن بالعصمة والامتنان .

وقيل : هو الأول بالعطاء ، والآخر بالجزاء ، والظاهر بالثناء ، والباطن بالوفاء .

وقيل : هو الأول بالبرّ والكرم ، والآخر بنحلة القسم ، والظاهر باسباغ النعم ، والباطن بدفع النقم .

وقيل : هو الأول بالهداية ، والآخر بالكفاية ، والظاهر بالولاية ، والباطن بالرعاية .

وقيل : هو الأول بالانعام ، والآخر بالاتمام ، والظاهر بالأكرام ، والباطن بالالهام .

وقيل : هو الأول بتسمية الأسماء ، والآخر بتكملة النعماء ، والظاهر بتسوية الأعضاء ، والباطن بصرف الأهواء .

وقيل : هو الأول بإنشاء الخلائق ، والآخر بافناء الخلائق ، والظاهر باظهار الحقائق ، والباطن بعلم الدقائق .

وقال الواسطي : لم يدع للخلق نفساً بعد ما أخبر عن نفسه أنه الأول والآخر والظاهر والباطن .

وسمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت أبا بكر الرازي يقول : سمعت الشبلي يقول : في هذه الآية أشياء ساقطة فإني أول آخر ظاهر باطن .

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أخبرنا شعيب بن محمد أخبرنا مكي بن عبدان أخبرنا أحمد بن الأزهر حدّثنا روح بن عبادة ، حدّثنا سعيد عن قتادة قال : " ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في أصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال : " هل تدرون ما هذا ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : " هذا العنان هذا روايا الأرض يسوقه الله عزّوجل إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه "

ثم قال هل تدرون ما فوق ذلك ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : " فإنها الرقيع موج مكفوف وسقف محفوظ " .

قال : " فكم تدرون بينكم وبينها ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : " فإن بينكم وبينها مسيرة خمسمائة سنة "

قال : " هل تدرون ما فوق ذلك ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : " فإن فوقها سماء أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة " حتى عدّد سبع سماوات بين كل سماءين مسيرة خمسمائة سنة .

ثم قال : " هل تدرون ما فوق ذلك ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : " فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء السابعة مثلما بين سماءين " .

ثم قال : " هل تدرون ما الذي تحتكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : " فإنها الأرض " .

قال : " فهل تدرون ما تحتها ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : " فإن تحتها أرضاً أخرى وبينهما مسيرة خمسمائة سنة حتى عدّد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة " ، ثم قال : والذي نفس محمد بيده لو دليتم أحدكم بحبل إلى الأرض السابعة السفلى لهبط على الله " ثم قرأ ﴿ هُوَ الأول والآخر والظاهر والباطن وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ "

ومعناه بالعلم والقدرة والخلق والملك .

أخبرنا عبد الله بن حامد ، أخبرنا أبا مكي ، أخبرنا أحمد بن منصور المروزي ، حدّثنا علي ابن الحسن ، حدّثنا أبو حمزة عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : "

دخلت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته خادماً فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا أدلك على ما هو خير لك من ذلك أن تقولي : اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى أعوذ بك من شر كل شيء أنت أخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقضِ عنّا الدين وأغننا من الفقر " " .

(248/747)

﴿ هُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ أخبرني ابن فنجويه ، حدّثنا عمر بن الخطاب ، حدّثنا عبد الله بن الفضل حدّثني أحمد بن وركان ، حدّثنا علي بن الحسن بن شقيق قال : قلت لعبد الله بن المبارك : كيف نعرف ربنا عزّوجل ؟ قال : في السماء السابعة على عرشه ، ولا تقول كما قالت الجهمية : ههنا في الأرض .

وقد ذكرنا معنى الاستواء وحققنا الكلام فيه فأغنى عن الإعادة .

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السمآء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾

بالعلم والقدرة ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَّهُ مُلْكُ السماوات والأرض وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمور * يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور * آمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ مملكين، معمرين فيه ﴿ فالذين آمَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بالله والرسول يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ في ظهر آدم بان الله ربكم لا إله لكم سواه. قاله مجاهد.

وقيل: ﴿ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ بأن ركّب فيكم العقول وأقام الحجج والدلائل التي تدعو إلى متابعة الرسول.

وقراءة العامة: بفتح الهمزة والقاف.

وقرأ أبو عمرو بضمّهما على وجه ما لم يسمى فاعله. ﴿ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ يوماً من الأيام، فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج والأعلام على حقيقة الإسلام وصحة نبوة المصطفى (عليه السلام).

﴿ هُوَ الذي يُنَزِّلُ على عَبْدِهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُمْ ﴾ الله بالقرآن، وقيل: ليخرجكم الرسول بالدعوة ﴿ مِّنَ الظلمات إِلَى النور وَإِنَّ الله بِكُمْ

لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السماوات والأرض ﴾ ثم بيّن سبحانه فضل السابقين في الانفاق والجهاد فقال عزّ من قائل " ﴿ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفتح ﴾ يعني : فتح مكة في قول أكثر المفسرين .

وقال الشعبي : هو صلح الحديبية قال : وقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله أفتح هو ؟ قال : " نعم عظيم " وقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أولئك أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الذين أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ ﴾ أي من بعد الفتح ﴿ وَقَاتَلُواْ ﴾ .

أخبرني عقيل أن المعافى أخبرهم عن محمد بن جرير حدّثني ابن البرقي ، حدّثنا ابن أبي مريم أخبرنا محمد بن جعفر أخبرني زيد بن أسلم عن أبي سعيد التمار عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم " . قال : من هم يا رسول الله ؟ قريش .

قال : " لا هم أرق أفئدة وألين قلوباً " وأشار بيده إلى اليمن فقال : " هم أهل اليمن ، ألا إن الإيمان يمان والحكمة يمانية " فقلنا : يا رسول الله هم خير منّا ؟ قال : " والذي نفسي بيده لو كان لأحدهم جبل من ذهب ينفقه ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه " ثم جمع أصابعه ومدّ خنصره فقال : " ألا إن هذا فضل ما بيننا وبين الناس لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل " .

وروى محمد بن الفضل عن الكلبي أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وفي هذه الآية دلالة واضحة وحجة بيّنة على فضل أبي بكر بتقديمه لأنه أول من أسلم .

(250/747)

أخبرنا عبد الله بن حامد ، أخبرنا أبو بكر ، أخبرنا أحمد بن إسحاق الفقيه أخبرنا محمد بن أيوب ، أخبرنا أبو الوليد الطيالسي ، حدّثنا عكرمة بن عماد ، حدّثنا شداد بن عبد الله أبو عمار وقد كان أدرك نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال أبو امامة لعمرو بن عبسة بأي شيء تدّعي أنك ربع الإسلام ؟ قال : إني كنت أرى الناس على الضلالة ولا أرى الأوثان شيئاً ، ثم سمعت عن رجل يخبرنا أخبار مكة فركبت راحلتي حتى قدمت عليه ، فإذا قومه عليه جرآء قال : قلت : ما أنت ؟

قال : أنا نبي . قلت : وما نبي ؟ قال : رسول الله .

قلت : بأي شيء أرسلك ؟ قال : " أوحد الله ولا أشرك به شيئاً وكسر الأوثان وصلة الأرحام " " .

قلت : من معك على هذا ؟ قال : حرّ وعبد . وإذا معه أبو بكر وبلال ، فأسلمت عند ذلك فلقد رأيتني ربع الإسلام .

ولأنه أول من أظهر الإسلام :

أخبرنا أبو محمد الأصبهاني ، أخبرنا أبو بكر الصعي ، أخبرنا عبد الله بن احمد بن حنبل ، أخبرنا أبي ، حدّثنا يحيى بن أبي كثير ، حدّثنا زائدة عن عاصم بن أبي النجود عن زر عن عبد الله ابن مسعود قال : كان أول من أظهر الإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمار وأُمّه سمية وصهيب وبلال والمقداد .

ولأنه أول من قاتل على الإسلام :

أخبرنا أبو نصر النعمان بن محمد الجرجاني بها ، أخبرنا أبو الطاهر محمد بن الحسن المحمدآبادي وحدّثنا أبو قلابة ، حدّثنا يحيى بن أبي كثير ، حدّثنا زائدة عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود قال : أول من أظهر الإسلام بسيفه النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه . ولأنه أول من أنفق على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله .

أخبرنا عبد الله بن حامد ، أخبرنا أحمد بن إسحاق بن أيوب ، أخبرنا محمد بن يونس ، حدّثنا العلا بن عمرو الشيباني ، حدّثنا أبو إسحاق الفزاري ، حدّثنا سفيان بن سعيد

عن آدم بن علي عن ابن عمر قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو بكر الصديق وعليه عباءة قد خلّلها في صدره بخلال فقال : " أنفق ماله عليَّ قبل الفتح " . قال : فإن الله عزّوجل يقول : إقرأ عليه السلام وتقول له : أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط ؟

فقال أبو بكر : أأسخط ؟ إني عن ربي راض إني عن ربي راض .

ولهذا قدّمه الصحابة على أنفسهم وأقروا له بالتقدم والسّبق .

وأخبرنا عبد الله بن حامد ، أخبرنا أبو بكر بن إسحاق ، أخبرنا محمد بن يونس عقبة بن سنان ، حدّثنا أبو بشر ، حدّثنا الهيصم بن شداخ عن الأعمش عن عمرو بن مرّة عن عبد الله بن سلمة عن علي رضي الله عنه قال : سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى أبو بكر وثلث عمر فلا أُوتي برجل فضلني على أبي بكر وعمر إلاّ جلدته جلد المفتري وطرح الشهادة .

﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحسنى والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ .

﴿ يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهُم ﴾ على الصراط ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ .

قال بعضهم : أراد جميع جوانبهم ، فعبّر بالبعض عن الكل على مذهب العرب في الإيجاز ،

ومجازه : عن أيمانهم . وقال الضحّاك : أراد ﴿ يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ كتبهم .

وقرأ سهل بن سعد الساعدي : بإيمانهم بكسر الهمزة ، والقراءة الصحيحة ما عليه العامة ، وأراد بالنور : القرآن .

قال عبد الله بن مسعود : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يأتي نوره كالنخلة ومنهم من يؤتي نوره كالرجل القائم وأدناهم نوراً على إبهامه فيطفأ مرة ويقد مرة .

(252/747)

وقال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء ودون ذلك ، حتى إن من المؤمنين من لا يضيء نوره موضع قدميه ، وتقول لهم الملائكة : ﴿ بُشْرَاكُمُ اليوم جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا ذِلَكَ هُوَالفوز العظيم ﴾ " .

﴿ يَوْمَ يَقُولُ المنافقون والمنافقات لِلَّذِينَ آمَنُواْ انظرونا ﴾ قرأة العامة : موصولة أي انتظرونا .

وقرأ يحيى والأعمش وحمزة : (أنظرونا) بفتح الألف وكسر الظاء أي أمهلونا .

وقال الفراء : تقول العرب : أنظرني أي إنتظرني ، وأنشد في ذلك بيت عمرو بن كلثوم :

أبا هند فلا تعجل علينا . . . وانظرنا نخبرك اليقينا

قال : يعني انتظرنا .

﴿ نَقْتَبِسْ ﴾ نستضيء ﴿ مِن نُّورِكُمْ ﴾ قال المفسرون : إذا كان يوم القيامة أعطى الله تعالى المؤمنين نوراً على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط ، وأعطى المنافقين الضالّين كذلك خديعة لهم وهو قوله عزّوجل ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء : 142] .

وقال الكلبي : بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور .

(253/747)

قالوا فبينما هم يمشون إذ بعث الله تعالى ريحاً وظلمة فأطفأ نور المنافقين ، فذلك قوله عزّ وجل ﴿ يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النبي والذين آمَنُواْ مَعَهُ نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ [التحريم : 8] مخافة أن يُسلبوا نورهم كما سلب المنافقون ، فإذا بقي المنافقون في الظلمة قالوا للمؤمنين ﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارجعوا وَرَآءَكُمْ ﴾ من حيث جئتم ﴿ فالتمسوا ﴾ فاطلبوا هناك لأنفسكم ﴿ نُوراً ﴾ فإنه لا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ أي سور والباء صلة ، عن الكسائي .

وهو حاجز بين الجنة والنار ﴿ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرحمة ﴾ يعني الجنة ﴿ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ ﴾ أي من قبل ذلك الظاهر ﴿ العذاب ﴾ وهو النار .

أخبرني ابن فنجويه ، حدّثنا أحمد بن ماجة القزويني ، حدّثنا محمد بن أيوب الرازي ، حدّثنا موسى بن إسماعيل قال : وأخبرني ابن حمدان ، حدّثنا ابن ماهان ، حدّثنا موسى بن إسماعيل حماد عن أبي سنان قال : كنت مع علي بن عبد الله بن عباس عند وادي جهنم فحدّث عن أبيه وقرأ ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ ﴾ الآية ثم قال : أي هذا موضع السور ، يعني وادي جهنم .

وأخبرني ابن فنجويه ، حدّثنا أحمد بن محمد بن إسحاق السني أخبرني أحمد بن عمير بن يوسف ، حدّثنا عبد السلام بن عتيق ، حدّثنا أبو مسهر ، حدّثنا سعيد بن عبد العزيز عن عطية بن قيس حدّثني أبو العوام مؤذن أهل بيت المقدس عن عبد الله بن عمرو قال : إن السور الذي ذكر الله عزّوجل في القرآن ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرحمة وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العذاب ﴾ سور مسجد بيت المقدس الشرقي باطنه من المسجد وظاهره من قبله ﴿ العذاب ﴾ الوادي : وادي جهنم .

وأخبرني ابن فنجويه ، حدّثنا السني ، حدّثنا أبو يعلي الموصلي حدّثنا أبو نصر التمار ، حدّثنا سعيد بن عبد العزيز ، عن زياد بن أبي سودة أن عبادة بن الصامت قام على سور بيت المقدس الشرقي فبكى . فقال بعضهم : ما يبكيك يا أبا الوليد ؟ فقال : من هاهنا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جهنم .

وأخبرني عقيل أن أبا الفرج حدثهم عن محمد بن جرير حدّثني محمد بن عوف ، حدّثنا أبو المغيرة ، حدّثنا صفوان ، حدّثنا شريح أن كعباً يقول في الباب الذي يسمى باب الرحمة في بيت المقدس أنه الباب الذي قال الله عزّوجل ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ الآية .

﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ يعني ينادي المنافقون المؤمنين حين حجز بينهم بالسور ، فبقوا في الظلمة والعذاب ، وصار المؤمنون في النور والرحمة ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ في الدنيا نصوم ونصلي ونناكحكم ونوارثكم ؟ ﴿ قَالُواْ بلى ولكنكم فَتَنتُمْ ﴾ أهلكتم ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾ بالنفاق ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالأيمان .

وقال مقاتل : بل تربّصتم بمحمد الموت وقلتم : يوشك أن يموت محمد فنستريح ﴿ وارتبتم ﴾ شككتم في التوحيد والنبوة ﴿ وَغرَّتْكُمُ الأماني ﴾ للأباطيل .

وقال أبو بكر الورّاق : طول الأمل .

أخبرني الحسين ، حدّثنا ابن حمدان ، حدّثنا يوسف بن عبد الله ، حدّثنا مسلم بن أدهم حدّثنا همام بن يحيى ، حدّثنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك " أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم خط خطوطاً وخط خطاً منها ناحية فقال : تدرون ما هذا ؟ هذا مثل ابن آدم ومثل التمني ، وذلك الخط الأمل بينما هو يتمنى إذ جاءه الموت " .

وأخبرنا الحسين ، حدّثنا الكندي ، حدّثنا أبو عيسى حمزة بن الحسين بن عمر ، حدّثنا يحيى بن عبد الباقي ، حدّثنا عمرو بن عثمان ، حدّثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن بلال بن سعد قال : ذكرك حسناتك ونسيانك سيئاتك غرّة .

(255/747)

﴿ جَآءَ أَمْرُ الله ﴾ يعني الموت ﴿ وَغَرَّكُم بالله الغرور ﴾ أي الشيطان . وقرأ سماك بن حرب : بضم الغين يعني الأباطيل .

قال قتادة : كانوا على خدعة من الشيطان وما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار .

﴿ فاليوم لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ بدل وعوض .

قراءة العامة يؤخذ بالياء .

وقرأ ابن عامر والحسن وأبو جعفر ويعقوب بالتاء واختاره أبو حاتم .

﴿ وَلاَ مِنَ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني المشركين ﴿ مَأْوَاكُمُ النار ﴾ أي صاحبتكم وأولى بكم وأحق بأن تكون مسكناً لكم .

قال لبيد :

فعذب كلا الفريقين بجسب أنه . . . مولى المخافة خَلَفَهَا وإمامها

﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 227 . 239 ﴾

(256/747)

وقال الزمخشري :

سورة الحديد

مدنية ، وهي تسع وعشرون آية [نزلت بعد الزلزلة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحديد (57) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ

يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)

لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (6)

(257/747)

جاء في بعض الفواتح سَبَّحَ على لفظ الماضي ، وفي بعضها على لفظ المضارع ، وكل واحد منهما معناه : أنّ من شأن من أسند إليه التسبيح أن يسبحه ، وذلك هجيراه وديدنه ، وقد عدى هذا الفعل باللام تارة وبنفسه أخرى في قوله تعالى وَتُسَبِّحُوهُ وأصله : التعدي بنفسه ، لأنّ معنى سبحته : بعدته عن السوء ، منقول من سبح إذا ذهب وبعد ، فاللام لا تخلو إما أن تكون مثل اللام في : نصحته ، ونصحت له . وإما أن يراد بسبح لله : أحدث التسبيح لأجل اللّه ولوجهه خالصا ، ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ما يتأتى منه التسبيح ويصح . فإن قلت : ما محل يُحْيِي ؟

قلت : يجوز أن لا يكون له محل ، ويكون جملة برأسها ، كقوله لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وأن يكون مرفوعا على : هو يحيى ويميت ، ومنصوبا حالا من المجرور في لَهُ والجار عاملا فيها .

ومعناه :

يحيى النطف والبيض والموتى يوم القيامة ويميت الأحياء هُوَ الْأَوَّلُ هو القديم الذي كان قبل كل شيء وَالْآخِرُ الذي يبقى بعد هلاك كل شيء وَالظَّاهِرُ بالأدلة الدالة عليه وَالْباطِنُ لكونه غير مدرك بالحواس. فإن قلت : فما معنى الواو ؟ «1» قلت الواو الأولى معناها الدلالة «2» على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية ، والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء. وأما الوسطى ، فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأولين ومجموع الصفتين الأخريين ، فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية ، وهو في جميعها ظاهر وباطن : جامع للظهور بالأدلة والخفاء ، فلا يدرك بالحواس. وفي هذا حجة على من جوّز إدراكه «3» في الآخرة بالحاسة. وقيل : الظاهر العالي على كل شيء الغالب له ، من ظهر عليه إذا علاه وغلبه. والباطن الذي بطن كل شيء ، أى علم باطنه ، وليس بذاك مع العدول عن الظاهر المفهوم.

---

(1) . قال محمود : «إن قلت : ما معنى الواو وأجاب بأن المتوسطة بين الأول والآخر للجمع بين معنى الأولية والبقاء الخ. قال : ومعنى الظاهر أى بالأدلة والباطن أى عن الحواس. وقيل : وفيه دليل الرد على من زعم أنه تعالى يرى في الآخرة بالحاسة» قال أحمد : «لا دليل فيه على ذلك ، فان لنا أن نقول : إن المراد عدم الإدراك بالحاسة في الدنيا لا في الآخرة. ونحن نقول به ، أو في الآخرة. والمراد : الكفار والجاحدون للرؤية كالقدرية ألا

ترى إلى قوله كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ فانه قيل: تقييد وتخصيص على خلاف الظاهر. قلنا والمسألة قطعية، فيكفى الاحتمال. وأيضا فقسيمه لا بد فيه من تخصيص، فانه تعالى لم يظهر جميع خلقه على الأدلة الموصلة إلى معرفته، بل أخفاها عن كثير منهم وحرمهم الفوز بالايمان به عز وجل، فالظاهر إذا معناها في التخصيص كالثاني طبقا بينه وبين الأول.

(2). قوله «قلت الواو الأولى معناها الدلالة» الأولى إنما دلت على اجتماع الصفتين الأوليين، والثالثة على اجتماع الأخريين. والثانية على اجتماع المجموعين. (ع)

(3). قوله «حجة على من جوز إدراكه» يريد أهل السنة، وهم قد جوزوا رؤيته مطلقا، وقالوا: لا تدركه الأبصار، أى لا تحيط به، والمعتزلة أحالوا رؤيته تعالى، وتفصيله في التوحيد. (ع)

(258/747)

[سورة الحديد (57): الآيات 7 إلى 8]

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7) وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8)

مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ يعنى أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال اللّه بخلقه وإنشائه لها ، وإنما موّلكم إياها ، وخوّلكم الاستمتاع بها ، وجعلكم خلفاء في التصرف فيها ، فليست هي بأموالكم في الحقيقة. وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنوّاب ، فأنفقوا منها في حقوق اللّه ، وليهن عليكم الإنفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه. أو جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيما في أيديكم : بتوريثه إياكم ، فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم ، وسينقل منكم إلى من بعدكم ، فلا تبخلوا به ، وانفعوا بالإنفاق منها أنفسكم لا تُؤْمِنُونَ حال من معنى الفعل في مالكم ، كما تقول : مالك قائما ، بمعنى : ما تصنع قائما ، أى : وما لكم كافرين باللّه. والواو في وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ واو الحال ، فهما حالان متداخلتان. وقرئ :

وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ والمعنى : وأى عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج ، وقبل ذلك قد أخذ اللّه ميثاقكم بالإيمان : حيث ركب فيكم العقول ، «1» ونصب لكم الأدلة ، ومكنكم من النظر ، وأزاح عللكم ، فإذ لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول وتنبيه الرسول ، فما لكم لا تؤمنون إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ لموجب ما ، فإن هذا الموجب لا مزيد عليه. وقرئ : أخذ ميثاقكم ، «2» على البناء للفاعل ، وهو اللّه عز وجل.

[سورة الحديد (57) : آية 9]

هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (9)

لِيُخْرِجَكُمْ اللّه بآياته من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. أو ليخرجكم الرسول بدعوته

---

(1) . قال محمود: «أخذ الميثاق عبارة عن تركيب العقول فيهم... الخ» قال أحمد: وما عليه أن يحمل أخذ الميثاق على ما بينه اللّه في آية غير هذه، إذ يقول تعالى وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى ولقد يريبني منه إنكاره لكثير من مثل هذه الظواهر والعدول بها عن حقائقها مع إمكانها عقلا ووقوعها بالسمع قطعا إلى ما يتوهمه من تمثيل يسميه تخييلا، فالقاعدة التي تعتمد عليها كى لا يضرك ما يومئ إليه أن ما كل ما جوزه العقل وورد بوقوعه السمع وجب حمله على ظاهره واللّه الموفق.

(2) . قوله «وقرئ: أخذ ميثاقكم» يفيد أن القراءة على البناء للمفعول أشهر. (ع)

لَرَؤُفٌ وقرئ لرؤوف «1» .

[سورة الحديد (57) : الآيات 10 إلى 11]

وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11)

وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا في أن لا تنفقوا وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يرث كل شيء فيهما لا يبقى منه باق لأحد من مال وغيره، يعنى: وأى غرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله والجهاد مع رسوله والله مهلككم فوارث أموالكم، وهو من أبلغ البعث على الإنفاق في سبيل الله. ثم بين التفاوت بين المنفقين منهم فقال لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ قبل فتح مكة قبل عز الإسلام وقوّة أهله ودخول الناس في دين الله أفواجا وقلة الحاجة إلى القتال والنفقة فيه، ومن أنفق من بعد الفتح فحذف لوضوح الدلالة أُولئِكَ الذين أنفقوا قبل الفتح وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم:

«لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه» «2» أَعْظَمُ دَرَجَةً. وقرئ:

قبل الفتح وَكُلًّا وكل واحد من الفريقين وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى أى المثوبة الحسنى وهي الجنة مع

تفاوت الدرجات . وقرئ بالرفع على : وكل وعده اللّه . وقيل : نزلت في أبى بكر رضى اللّه عنه ، لأنه أول من أسلم وأول من أنفق في سبيل اللّه . القرض الحسن : الإنفاق في سبيله . شبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز ، لأنه إذا أعطى ماله لوجهه فكأنه أقرضه إياه فَيُضاعِفَهُ لَهُ أى يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفا «أضعافا» من فضله وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ يعنى : وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه . وقرئ : فيضعفه . وقرئا منصوبين على جواب «3» الاستفهام «و الرفع عطف على يُقْرِضُ ، أو على فَيُضاعِفَهُ .

---

(1) . قوله وقرئ «لرؤوف» يفيد أن القراءة بالقصر أشهر ، وفيه نظر فلينظر . وفي الصحاح : رؤف به - بالضم ، ورأف به - بالفتح ، ورئف به - بالكسر ، فهو رؤف على فعول . قال كعب بن مالك الأنصارى :

نطيع نبينا ونطيع ربا هو الرحمن كان بنا رءوفا

ورؤف أيضا على فعل . قال جرير :

يرى للمسلمين عليه حقا كفعل الوالد الرؤوف الرحيم

والظاهر أن رسمه بواو واحدة حال المد والقصر ، فيكون الأشهر قراءة المد ، كما هو الأشهر في الاستعمال اللغوي . (ع)

(2) . متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه . [. . . . .]

(3) . قوله «و قرئا منصوبين على جواب» أى قوله : فيضاعفه ، وقوله فيضعفه . (ع)

[سورة الحديد (57) : آية 12]

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)

يَوْمَ تَرَى ظرف لقوله: وله أجر كريم. أو منصوب بإضمار «اذكر» تعظيما لذلك اليوم.

وإنما قال بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ لأنّ السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ومن وراء ظهورهم، فجعل النور في الجهتين شعارا لهم وآية، لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا وبصحائفهم البيض أفلحوا، فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومروا على الصراط يسعون: سعى بسعيهم ذلك النور جنيبا لهم ومتقدما. ويقول لهم الذين يتلقونهم من الملائكة. بُشْراكُمُ الْيَوْمَ. وقرئ: ذلك الفوز.

[سورة الحديد (57) : الآيات 13 إلى 15]

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ (13) يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ

الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (15)

يَوْمَ يَقُولُ بدل من يوم ترى انْظُرُونا انتظرونا ، لأنهم يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة على ركاب تزف «1» بهم . وهؤلاء مشاة . وانظروا إلينا ، لأنهم إذا نظروا اليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به . وقرئ : أنظرونا من النظرة وهي الإمهال : جعل اتئادهم في المضي إلى أن يلحقوا بهم إنظارا لهم نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ نصب منه ، وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً طرد لهم وتهكم بهم ، أى : ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور فالتمسوه هنالك ، فمن ثم يقتبس . أو ارجعوا إلى الدنيا ، فالتمسوا نورا بتحصيل سببه وهو الإيمان . أو ارجعوا خائبين وتنحوا عنا ،

---

(1) . قوله «تزف بهم» أى : تسرع . أفاده الصحاح . (ع)

فالتمسوا نورا آخر ، فلا سبيل لكم إلى هذا النور ، وقد علموا أن لا نور وراءهم ، وإنما هو تخييب وإقناط لهم فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ بين المؤمنين والمنافقين بحائط حائل بين شق الجنة

وشق النار . وقيل : هو الأعراف لذلك السور بابٌ لأهل الجنة يدخلون منه باطِنُهُ باطن السور أو الباب ، وهو الشق الذي يلى الجنة وَظاهِرُهُ ما ظهر لأهل النار مِنْ قِبَلِهِ من عنده ومن جهته الْعَذابُ وهو الظلمة والنار . وقرأ زيد بن على رضى اللّه عنهما : فضرب بينهم على البناء للفاعل أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ يريدون موافقتهم في الظاهر فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ محنتموها بالنفاق وأهلكتموها وَتَرَبَّصْتُمْ بالمؤمنين الدوائر وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ طول الآمال والطمع في امتداد الأعمار حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وهو الموت وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ وغرّكم الشيطان بأنّ اللّه عفوّ كريم لا يعذبكم . وقرئ : الغرور ، بالضم فِدْيَةٌ ما يفتدى به هِيَ مَوْلاكُمْ قيل : هي أولى بكم ، وأنشد قول لبيد :

فندت كلا الفرجين تحسب أنّه مولى المخافة خلفها وأمامها «1»

وحقيقة مولاكم : محراكم ومقمنكم «2» . أى : مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم ، كما قيل : هو مئنة للكرم ، أى مكان ، لقول القائل : إنه لكريم . ويجوز أن يراد : هي ناصركم ، أى لا ناصر لكم غيرها . والمراد : نفى الناصر على البتات . ونحوه قولهم : أصيب فلان بكذا فاستنصر الجزع «3» . ومنه قوله تعالى يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ وقيل : تتولاكم كما توليتم في الدنيا أعمال أهل النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 471. 476﴾

---

(1) وتوجست رز الأنيس فراعها عن ظهر غيب والأنيس سقامها

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها

البيد من معلقته . يصف بقرة وحشية ، توجست : أى تسمعت البقرة . والتوجس : التسمع . ويقال : رزت السماء رزا ، بتقديم الراء إذا صوتت عند المطر فالرز بالفتح : التصويت الخفي ، وبالكسر : اسم للصوت الخفي .

ورز : أى صوت الأنيس ، وهم الصياد ، فأفزعها بظهر الغيب . وإقحام الظهر في مثل هذا التركيب : مبالغة في الخفاء ، لأن ما وراء الظهر لا يعلم ولا يدرى ما هو . وسمى الصياد أنيسا بالنسبة إلينا لا إليها ، لأنه عناؤها وسبب خوفها ، فجعله نفس السقام مبالغة . وكلا الفرجين : مبتدأ . وتحسب أنه مولى المخافة : خبر ، أى أنه الأولى بالخوف من جهته .

وخلفها وأمامها : خبر لمبتدإ محذوف ، أو بدل من كلا الفرجين للتوضيح والتبيين ، أى : لهما ما بين رجليها وما بين يديها ، وبعضهم فسرهما بنقرتين في الجبل ، وعليه فلا معنى للام العهد فيهما .

(2) . قوله «محراكم ومقمنكم» يقال : هو حرى أن يفعل كذا ، وهو قمن أن يفعله ، أى : جدير بذلك وحقيق به . أفاده الصحاح . (ع)

(3) . قوله «فاستنصر الجزع» لعله : الجزع ، أى : نقيض الصبر . (ع)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾

في هذا التسبيح ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني أن خلق ما في السموات والأرض يوجب تنزيهه عن الأمثال والأشباه .

الثاني : تنزيه الله قولاً لما أضاف إليه الملحدون ، وهو قول الجمهور .

الثالث : أنه الصلاة ، سميت تسبيحاً لما تتضمنه من التسبيح ، قاله سفيان ، والضحاك .

فقوله : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ يعني الملائكة وما فيهن من غيرهم وما في الأرض يعني في الحيوان والجماد ، وقد ذكرنا في تسبيح الجماد وسجوده ما أغنى عن الإعادة .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ في انتصاره ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في تدبيره .

﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ ﴾ يريد بالأول أنه قبل كل شيء لقدمه ، وبالآخر لأنه بعد كل شيء لبقائه .

﴿ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : الظاهر فوق كل شيء لعلوه ، والباطن إحاطته بكل شيء لقربه ، قاله ابن حيان .

الثاني : أنه القاهر لما ظهر وبطن كما قال تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِم فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ .

الثالث : العالم بما ظهر وما بطن .

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٍ ﴾ يعني بالأول والآخر والظاهر والباطن .

ولأصحاب الخواطر في ذلك ثلاثة أوجه :

أحدها : الأول في ابتدائه بالنعم ، والآخر في ختامه بالإحسان ، والظاهر في إظهار حججه للعقول ، والباطن في علمه ببواطن الامور .

الثاني : الأول بكشف أحوال الآخرة حين ترغبون فيها ، والآخر بكشف أحوال الدنيا حين تزهدون فيها ، والظاهر على قلوب أوليائه حين يعرفونه ، والباطن على قلوب أعدائه حين ينكرونه .

الثالث : الأول قبل كل معلوم ، والآخر بعد كل مختوم ، والظاهر فوق كل مرسوم ، والباطن محيط بكل مكتوم .

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ ﴾ قال مقاتل : من مطر ، وقال غيره : من مطر وغير مطر .

﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ قال مقاتل : من نبات وغير نبات .

﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ قال مقاتل : من الملائكة ، وقال غيره : من ملائكة وغير ملائكة .

ويحتمل وجهاً آخر : ما يلج في الأرض من بذر ، وما يخرج منها من زرع ، وما ينزل من السماء من قضاء ، وما يعرج فيها من عمل ، ليعلموا إحاطة علمه بهم فيما أظهروه أو ستروه ، ونفوذ قضائه فيهم بما أرادوه أو كرهوه .

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : علمه معكم أينما كنتم حيث لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، قاله مقاتل .

والثاني : قدرته معكم أينما كنتم حيث لا يعجزه شيء من أموركم .

﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ تحتمل هذه النفقة وجهين :

أحدهما : أن تكون الزكاة المفروضة .

والثاني : أن يكون غيرها من وجوه الطاعات .

وفي ﴿ ما جَعَلَكُمْ مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ قولان :

أحدهما : يعني مما جعلكم معمرين فيه بالرزق ، قاله مجاهد .

الثاني : مما جعلكم مستخلفين فيه بوراثتكم له عمن قبلكم ، قاله الحسن .

ويحتمل ثالثاً : مما جعلكم مستخلفين على القيام بأداء حقوقه .

﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : معناه ولله ملك السموات والأرض .

الثاني : أنهما راجعان إليه بانقباض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحق .

﴿ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لا يستوي من أسلم من قبل فتح مكة وقاتل ومن أسلم بعد فتحها وقاتل ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

الثاني : يعني من أنفق ماله في الجهاد وقاتل ، قاله قتادة .

وفي هذا الفتح قولان :

أحدهما : فتح مكة ، قاله زيد بن أسلم .

الثاني : فتح الحديبية ، قاله الشعبي ، قال قتادة : كان قتالان أحدهما أفضل من الأخر ، وكانت نفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك .

﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الحسنى الحسنة ، قاله مقاتل .

الثاني : الجنة ، قاله مجاهد .

ويحتمل ثالثاً : أن الحسنى القبول والجزاء .

﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أن القرض الحسن هو أن يقول : سبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله والله أكبر ، رواه سفيان عن ابن حيان .

الثاني : أنه النفقة على الأهل ، قاله زيد بن أسلم .

الثالث : أنه التطوع بالعبادات ، قاله الحسن .

الرابع : أنه عمل الخير ، والعرب تقول لي عند فلان قرض صدق أو قرض سوء ، إذا فعل به خيراً أو شراً ، ومنه قول الشاعر :

وتجزي سلاماً من مقدم قرضها . . . بما قدمت أيديهم وأزلت

الخامس : أنه النفقة في سبيل الله ، قاله مقاتل بن حيان .

وفي قوله : ﴿ حَسَناً ﴾ وجهان :

أحدهما : طيبة بها نفسه ، قاله مقاتل .

الثاني : محتسباً لها عند الله ، قاله الكلبي ، وسمي قرضاً لاستحقاق ثوابه ، قاله لبيد :

وإذا جوزيت قرضاً فاجزه . . . إنما يجزى الفتى ليس الجمل

وفي تسميته ﴿ حَسَناً ﴾ وجهان :

أحدهما : لصرفه في وجوه حسنة .

الثاني : لأنه لا مَنّ فيه ولا أذى .

﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فيضاعف القرض لأن جزاء الحسنة عشر أمثالها .

الثاني : فيضاعف الثواب تفضلاً بما لا نهاية له .

﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : لم يتذلل في طلبه . الثاني : لأنه كريم الخطر .

الثالث : أن صاحبه كريم .

فلما سمعها أبو الدحداح تصدق بحديقة فكان أول من تصدق بعد هذه الآية .

وروى سعيد بن جبير أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم عند نزول هذه الآية ، فقالوا يا محمد ، أفقير ربك يسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ الآية .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ وفي نورهم ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه ضياء يعطيهم الله إياه ثواباً وتكرمة ، وهذا معنى قول قتادة .

الثاني : أنه هداهم الذي قضاه لهم ، قاله الضحاك .

الثالث : أنه نور أعمالهم وطاعتهم .

قال ابن مسعود : ونورهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم مَن نوره مثل النخلة ، وأدناهم نوراً مَن نوره على إبهام رجله يوقد تارة ويطفأ أخرى .

وقال الضحاك : ليس أحد يعطى يوم القيامة نوراً ، فإذا انتهوا إلى الصراط أطفىء نور المنافقين ، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن ينطفىء نورهم كما طفىء نور المنافقين ، فقالوا : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ .

وفي قوله : ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وجهان :

أحدهما : ليستضيئوا به على الصراط ، قاله الحسن .

والثاني : ليكون لهم دليلاً إلى الجنة ، قاله مقاتل .

وفي قوله : ﴿ بِأَيْمَانِهِم ﴾ في الصدقات والزكوات وسبل الخير .

الرابع : بإيمانهم في الدنيا وتصديقهم بالجزاء ، قاله مقاتل .

قوله تعالى ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن نورهم هو بشراهم بالجنات .

الثاني : هي بشرى من الملائكة يتلقونهم بها في القيامة ، قاله الضحاك .

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ ﴾ الآية . قال ابن عباس وأبو أمامة : يغشى الناس يوم القيامة ظلمة أظنها بعد فصل القضاء ، ثم يعطون نوراً يمشون فيه .

وفي النور قولان :

أحدهما : يعطاه المؤمن بعد إيمانه دون الكافر .

الثاني : يعطاه المؤمن والمنافق ، ثم يسلب نور المنافق لنفاقه ، قاله ابن عباس .

فيقول المنافقون والمنافقات حين غشيتهم الظلمة .

﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ حين أعطوا النور الذي يمشون فيه :

﴿ انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ أي انتظروا ، ومنه قول عمرو بن كلثوم :

أبا هند فلا تعجل علينا . . . وأنظرنا نخبرك اليقينا

﴿ قِيلَ ارْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُواْ نُوراً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : ارجعوا إلى الموضع الي أخذنا منه النور فالتمسوا منه نوراً .

الثاني : ارجعوا فاعملوا عملاً يجعل الله بين أيديكم نوراً .

ويحتمل في قائل هذا القول وجهان :

أحدهما : أن يقوله المؤمنون لهم .

الثاني : أن تقوله الملائكة لهم .

﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه حائط بين الجنة والنار ، قاله قتادة .

الثاني : أنه حجاب في الأعراف ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه سور المسجد الشرقي ، [بيت المقدس] قاله عبد الله بن عمرو بن العاص .

﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الرحمة التي في باطنه الجنة ، والعذاب الذي في ظاهره جهنم ، قاله الحسن .

الثاني : أن الرحمة التي في باطنه : المسجد وما يليه ، والعذاب الذي في ظاهره : وادي جهنم يعني بيت المقدس ، قاله عبد الله بن عمرو بن العاص .

ويحتمل ثالثاً : أن الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين ، والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين .

وفيمن ضرب بينهم وبينه بهذا السور قولان :

أحدهما : أنه ضرب بينهم وبين المؤمنين الذي التمسوا منهم نوراً ، قاله الكلبي ومقاتل .

الثاني : أنه ضرب بينهم وبين النور بهذا السور حتى لا يقدروا على التماس النور .

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ يعني نصلي مثلما تصلون ، ونغزو مثلما تغزون ، ونفعل مثلما تفعلون .

﴿ قَالُواْ بَلَى وَلَكِنَّكُم فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بالنفاق ، قاله مجاهد .

الثاني : بالمعاصي ، قاله أبو سنان .

الثالث : بالشهوات ، رواه أبو نمير الهمداني .

﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : بالحق وأهله ، قاله قتادة .

الثاني : وتربصتم بالتوبة ، قاله أبو سنان .

﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ يعني شككتم في أمر الله .

﴿ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : خدع الشيطان ، قاله قتادة .

الثاني : الدنيا ، قاله ابن عباس .

الثالث : سيغفر لنا ، قاله أبو سنان .

الرابع : قولهم اليوم وغداً .

﴿ حَتَّى جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : الموت ، قاله أبو سنان .

الثاني : إلقاؤهم في النار ، قاله قتادة .

﴿ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُوْرُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الشيطان ، قاله عكرمة .

الثاني : الدنيا ، قاله الضحاك . انتهى انتهى . اهـ ﴿النكت والعيون حـ 5 صـ 468 .

476﴾

(268/747)

وقال ابن الجوزى :

سورة الحديد

قوله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لله ما في السموات والأرض ﴾

أمّا تسبيح ما يعقل، فمعلوم، وتسبيح ما لا يعقل، قد ذكرنا معناه في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شيء إلا يُسَبِّحُ بحمده ﴾ [الإسراء: 44].

قوله تعالى: ﴿ هو الأول ﴾ قال أبو سليمان الخطابي: هو السابق للأشياء ﴿ والآخِر ﴾ الباقي بعد فناء الخلق ﴿ والظاهر ﴾ بحججه الباهرة، وبراهينه النَّيِّرة، وشواهده الدّالة على صِحَّة وحدانيته.

ويكون: الظاهر فوق كل شيء بقدرته.

وقد يكون الظهور بمعنى العلوِّ، ويكون بمعنى الغلبة.

والباطن: هو المحتجب عن أبصار الخلق الذي لا يستولي عليه توهُّم الكيفية.

وقد يكون معنى الظهور والبطون: احتجابه عن أبصار الناظرين، وتجلِّيه لبصائر المتفكِّرين.

ويكون معناه: العالم بما ظهر من الأمور، والمطَّلع على ما بطن من الغيوب ﴿ هو الذي خلق السموات والأرض ﴾ مفسر في [الأعراف: 54] إلى قوله تعالى: ﴿ يعلم ما يلج في الأرض ﴾ وهو مفسر في [سبأ: 2] إلى قوله تعالى: ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ أي: بعلمه وقدرته.

وما بعده ظاهر إلى قوله تعالى: ﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾ قال المفسرون: هذا الخطاب

لكفار قريش ﴿ وأنفِقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ يعني : المال الذي كان بأيدي غيرهم ، فأهلكهم الله ، وأعطى قريشاً ذلك المال ، فكانوا فيه خلفاء من مضى .

قوله تعالى : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله ﴾ هذا استفهام إنكار ، والمعنى : أيُّ شيء لكم من الثواب في الآخرة إذا لم تؤمنوا بالله ﴿ وقد أخذ ميثاقكم ؟ ﴾ قرأ أبو عمرو "أُخذ" بالرفع .

وقرأ الباقون "أخذ" بفتح الخاء ﴿ ميثاقَكم ﴾ بالفتح .

والمراد به : حين أُخرجتم من ظهر آدم ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ بالحجج والدلائل .

(269/747)

قوله تعالى : ﴿ هو الذي ينزِّل على عبده ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ آياتٍ بيناتٍ ﴾ يعني : القرآن ﴿ ليخرجكم من الظلمات ﴾ يعني الشرك ﴿ إلى ﴾ نور الإيمان ﴿ وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴾ حين بعث الرسول ونصب الأدلة .

ثم حثهم على الإنفاق فقال : ﴿ وما لكم ألاَّ تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض ﴾ أي : أي شيءٍ لكم في ترك الإنفاق مما يقرب إلى الله عز وجل وأنتم ميتون تاركون أموالكم ؟ ! ثم بين فضل من سبق بالإنفاق فقال : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من

قبلِ الفتح ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : أنه فتح مكة ، قاله ابن عباس ، والجمهور .

والثاني : أنه فتح الحديبية ، قاله الشعبي .

والمعنى : لا يستوي من أنفق قبل ذلك ﴿ وقاتل ﴾ ومن فعل ذلك بعد الفتح .

قال المفسرون : نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق .

﴿ أولئك أعظم درجةً ﴾ قال ابن عباس : أعظم منزلةً عند الله .

قال عطاء : درجات الجنة تتفاضل ، فالذين أنفقوا من قبل الفتح في أفضلها .

قال الزجاج : لأن المتقدمين كانت بصائرهم أنفذ ، ونالهم من المشقة أكثر ﴿ وكلاًّ وعد الله الحسنى ﴾ أي : وكلا الفريقين وعده الله الجنة .

وقرأ ابن عامر "وكُلٌّ" بالرفع .

قوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفَه له ﴾ قرأ ابن كثير ، وابن عامر "فيضعّفَه" مشددة بغير ألف ، إلا أن ابن كثير يضم الفاء ، وابن عامر يفتحها .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي "فيضاعفُه" بالألف وضم الفاء ، وافقهم عاصم ، إلا أنه فتح الفاء .

قال أبو علي : يضاعِف ويضعِّف بمعنى واحد ، إلا أن الرفع في "يضاعف" هو الوجه ، لأنه محمول على "يُقرض" .

أو على الانقطاع من الأول، كأنه [قال:] فهو يضاعف.

ويحمل قول الذي نصب على المعنى، لأنه إذا قال: من ذا الذي يُقرض اللهَ، معناه: أيقرض اللهَ أحدٌ قرضاً فيضاعفه.

والآية مفسرة في [البقرة: 245] والأجر الكريم: الجنة.

(270/747)

قوله تعالى: ﴿ يسعى نورهم ﴾ قال المفسرون: يضيء لهم نور عملهم على الصراط على قدر أعمالهم.

قال ابن مسعود: منهم مَن نوره مثل الجبل، وأدناهم نوراً نوره على إبهامه يطفىء مرة، ويتَّقد أخرى.

وفي قوله تعالى: ﴿ وبأيمانهم ﴾ قولان.

أحدهما: أنه كتبهم يعطَونها بأيمانهم، قاله الضحاك.

والثاني: أنه نورهم يسعى، أي: يمضي بين أيديهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم.

والباء بمعنى: "في".

و"في" بمعنى "عن" هذا قول الفراء.

قوله تعالى : ﴿ بشراكم اليوم ﴾ هذا قول الملائكة لهم .

قوله تعالى : ﴿ انظرونا نقتبس ﴾ وقرأ حمزة : "أنظِرونا" بقطع الهمزة ، وفتحها ، وكسر الظاء .

قال المفسرون : يغشى الناس يوم القيامة ظلمة شديدة ، فيعطَى المؤمنون النور ، فيمشي المنافقون في نور المؤمنين ، فإذا سبقهم المؤمنون قالوا : انظرونا نقتبس من نوركم ﴿ قيل : ارجعوا وراءكم ﴾ في القائل قولان .

أحدهما : أنهم المؤمنون ، قاله ابن عباس .

والثاني : الملائكة ، قاله مقاتل .

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : ارجعوا إلى المكان الذي قبستم فيه النور ، فيرجعون ، فلا يرون شيئاً .

والثاني : ارجعوا فاعملوا عملاً يجعله الله لكم نوراً .

والثالث : أن المعنى : لا نور لكم عندنا ﴿ فضرب بينهم بسُور ﴾ قال ابن عباس : هو الأعراف ، وهو سُورٌ بين الجنة والنار ﴿ باطنه فيه الرحمة ﴾ وهي : الجنة ﴿ وظاهره ﴾ يعني : من وراء السور ﴿ من قِبله العذاب ﴾ وهو جهنم .

وقد ذهب قوم إلى أن هذا السور يكون ببيت المقدس في مكان السور الشرقي بين الوادي

الذي يسمى : وادي جهنم ، وبين الباب الذي يسمى : باب الرحمة ، وإلى نحو هذا ذهب عبادة بن الصامت ، وعبد الله بن عمرو ، وكعب .

قوله تعالى : ﴿ ينادونهم ﴾ أي : ينادي المنافقون المؤمنين من وراء السور : ﴿ ألم نكن معكم ﴾ أي : على دينكم نصلي بصلاتكم ، ونغزو معكم ؟ ! فيقول لهم المؤمنون : ﴿ بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴾ قال الزجاج : استعملتموها في الفتنة .

وقال غيره : آثمتموها بالنفاق ﴿ وتربَّصتم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : تربَّصتم بالتوبة .

والثاني : تربَّصتم بمحمد الموتَ ، وقلتم : يوشك أن يموت فنستريح ﴿ وارتبتم ﴾ شككتم في الحق ﴿ وغرّتكم الأمانيُّ ﴾ يعني : ما كانوا يتمنّون من نزول الدوائر بالمؤمنين ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : أنه الموت .

والثاني : إلقاؤهم في النار ﴿ وغركم بالله الغَرور ﴾ أي : غركم الشطيان بحكم الله وإمهاله ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ﴾ وقرأ أبو جعفر ، وابن عامر ، ويعقوب "لا تؤخذ"

بالتاء ، أي : بدل وعوض عن عذابكم .

وهذا خطاب للمنافقين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا من الذين كفروا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ هي مولاكم ﴾ قال أبو عبيدة : أي : أولى بكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 160 . 167 ﴾

(272/747)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ سبح لله ما في السموات والأرض ﴾

يعني كل ذي روح وغيره يسبح الله تعالى فتسبيح العقلاء تنزيه الله عن كل سوء وعما لا يليق بجلاله وتسبيح غير العقلاء من ناطق وجماد اختلفوا فيه فقيل تسبيحه دلالته على صانعه فكأنه ناطق بتسبيحه وقيل تسبيحه بالقول يدل عليه قوله ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ أي قولهم والحق أن التسبيح هو القول الذي لا يصدر إلا من العاقل العارف بالله تعالى وما سوى العاقل ففي تسبيحه وجهان أحدهما أنها تدل على تعظيمه وتنزيهه والثاني أن جميع الموجودات بأسرها منقادة له يتصرف فيها كيف يشاء فإن حملنا التسبيح المذكور في الآية على القول كان المراد بقوله ما في السموات والأرض من في السموات وهم الملائكة

ومسبحي الأرض وهم المؤمنون العارفون بالله وإن حملنا التسبيح على التسبيح المعنوي فجميع أجزاء السموات وما فيها من شمس وقمر ونجوم وغير ذلك وجميع ذرات الأرضين وما فيها من جبال وبحار وشجر ودواب وغيره ذلك كلها مسبحة خاشعة خاضعة لجلال عظمة الله جل جلاله وتقدست أسماؤه وصفاته منقادة له يتصرف فيها كيف يشاء .

فإن قلت قد جاء في بعض فواتح السور سبح بلفظ الماضي وفي بعضها يسبح بلفظ المضارع فما معناه .

قلت فيه إشارة إلى كون جميع الأشياء مسبحاً لله أبداً غير مختص بوقت دون وقت بل هي كانت مسبحة أبداً في الماضي وستكون مسبحة أبداً في المستقبل ﴿ وهو العزيز ﴾ أي الغالب الكامل القدرة الذي لا ينازعه شيء ، ﴿ الحكيم ﴾ أي الذي جميع أفعاله على وفق الحكمة والصواب ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ أي أنه الغني عن جميع خلقه وكلهم محتاجون إليه ، ﴿ يحيي ويميت ﴾ أي يحيي الأموات للبعث ويميت الأحياء في الدنيا ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ قوله : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ يعني هو الأول قبل كل شيء بلا ابتداء كان هو ولم يكن شيء موجوداً والآخر بعد فناء كل

أحد بلا انتهاء يفني الأشياء ويبقى هو والظاهر الغالب العالي على كل شيء والباطن العالم بكل شيء هذا معنى قول ابن عباس وقيل هو الأول بوجوده ليس قبله شيء والآخر ليس بعده شيء وقيل هو الأول بوجوده في الأزل وقيل الابتداء والآخر بوجوده في الأبد وبعد الانتهاء والظاهر بالدلائل الدالة على وحدانيته والباطن الذي احتجب عن العقول أن تكيفه ، وقيل هو الأول الذي سبق وجوده كل موجود والآخر الذي يبقى بعد كل مفقود وقال الإمام أبو بكر بن الباقلاني معناه أنه تعالى الباقي بصفاته من العلم والقدرة وغيرهما التي كان عليها في الأزل ، ويكون كذلك بعد موت الخلائق وذهاب علومهم وقدرهم وحواسهم وتفرق أجسامهم قال وتعلقت المعتزلة بهذا الاسم فاحتجوا لمذهبهم في فناء الأجسام وذهابها بالكلية قالوا معناه أنه الباقي بعد فناء خلقه ومذهب أهل الحق يعني أهل السنة بخلاف ذلك وأن المراد الآخر بصفاته بعد ذهاب صفاتهم كما يقال آخر من بقي من بني فلان فلان يراد حياته ولا يراد فناء أجسام موتاه وذهابها بالكلية هذا آخر كلام ابن الباقلاني ، وقيل هو الأول السابق للأشياء والآخر الباقي بعد فناء الأحياء والظاهر بحججه الباهرة وبراهينه النيرة الزاهرة وشواهده الدالة على وحدانيته والباطن الذي احتجب عن أبصار الخلق فلا

تستوي عليه الكيفية وقيل هو الأول القديم والآخر الرحيم والظاهر الحكيم والباطن العليم ، وقيل هو الأول ببره إذ عرفك توحيده والآخر بجوده إذ عرفك طريق التوبة عما جنيت والظاهر بتوفيقه إذ وفقك للسجود له والباطن بستره إذا عصيت يستر عليك ، وقال الجنيد هو الأول بشرح القلوب والآخر بغفران الذنوب والظاهر بكشف الكروب والباطن بعلم الغيوب وسأل عمر كعباً عن هذه الآية فقال معناها أن علمه بالأول كعلمه بالآخر وعلمه الظاهر كعلمه بالباطن ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ (م) عن سهيل بن أبي صالح قال كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول " اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته " وفي رواية " من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر " وكان يروى ذلك عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وعن أبي هريرة أيضاً قال

" بينما النبي (صلى الله عليه وسلم) جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أتدرون ما هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال هذه العنان هذه روايا الأرض يسوقها الله تعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه ثم قال هل تدرون ما فوقكم ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف ثم قال هل بينكم وبينها ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال بينكم وبينها خمسمائة سنة ثم قال هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال سماءان بعد ما بينهما خمسمائة سنة حتى عد سبع سموات ما بين كل سماء كما بين السماء والأرض ، ثم قال هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بعد ما بين السماءين ثم قال هل تدرون ما الذي تحتكم ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال فإنها الأرض ثم قال هل تدرون ما الذي تحت ذلك ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال فإن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة ثم قال والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السابعة السفلى لهبط على الله ثم قرأ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم "

﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور ﴾ تقدم تفسيره .

قوله تعالى : ﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾ لما ذكر أنواعاً من الدلائل الدالة على التوحيد والعلم والقدرة شرع يخاطب كفار قريش ويأمرهم بالإيمان بالله ورسوله ويأمرهم بترك الدنيا والإعراض عنها والنفقة في جميع وجوه البر وهو قوله تعالى : ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ يعني المال الذي كان بيد غيركم فأهلكهم وأعطاكم إياه فكنتم في ذلك المال خلفاء عمن مضى ﴿ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ﴾ يعني وأي عذر لكم في ترك الإيمان بالله والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبرهان والحجج ، ﴿ وقد أخذ ميثاقكم ﴾ أي أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر آدم عليه السلام بأن الله ربكم لا إله لكم سواه وقيل أخذ ميثاقكم حيث ركب فيكم العقول ونصب لكم الأدلة والبراهين والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسول ، ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي يوماً ما فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج والإعلام ببعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو قوله تعالى : ﴿ هو الذي ينزل على عبده ﴾ يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) ﴿ آيات بينات ﴾ يعني القرآن ﴿ ليخرجكم ﴾ يعني الله بالقرآن وقيل الرسول بالدعوة ﴿ من

الظلمات إلى النور ﴾ أي من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ﴿ وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴾ قوله تعالى : ﴿ وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض ﴾ يقول أي شيء لكم في ترك الإنفاق فيما يقربكم من الله تعالى وأنتم ميتون تاركون أموالكم لغيركم فالأولى أن تنفقوها أنتم فيما يقربكم إلى الله تعالى وتستحقون به الثواب ثم بين فضل من سبق بالإنفاق في سبيل الله وبالجهاد فقال تعالى : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ يعني فتح مكة في قول أكثر المفسرين وقيل هو صلح الحديبية ، والمعنى لا يستوي في الفضل من أنفق ماله وقاتل العدو مع رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) قبل فتح مكة مع من أنفق ماله وقاتل بعد الفتح ﴿ أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ﴾ قال الكلبي إن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق لأنه أول من أسلم وأول من أنفق ماله في سبيل الله وذهب عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال عبد الله بن مسعود أول من أظهر إسلامه سبع منهم النبي (صلى الله عليه وسلم) وأبو بكر وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عمر قال "كنت عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خلها في صدره بخلال فنزل جبريل فقال ما لي أرى

أبا بكر عليه عباءة قد خلها في صدره بخلال فقال أنفق ماله على قبل الفتح قال فإن الله يقول اقرأ عليه السلام وقل له أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يا أبا بكر إن الله يقرئك السلام ويقول لك أراض أنت في فقرك هذا أم ساخط فقال أبو بكر أأسخط على ربي إني على ربي راض إني على ربي راض "

﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ أي صادقاً محتسباً بالصدقة طيبة بها نفسه وسمي هذا الإنفاق قرضاً من حيث إنه وعد به الجنة تشبيهاً بالقرض قال بعض العلماء القرض لا يكون حسناً حتى تجمع فيه أوصاف عشرة وهي أن يكون المال من الحلال وأن يكون من أجود المال وأن تتصدق به وأنت محتاج إليه وأن تصرف صدقتك إلى الأحوج إليها وأن تكتم الصدقة ما أمكنك وأن لا تتبعها بالمن والأذى وأن تقصد بها وجه الله ولا ترائي بها الناس وأن تستحقر ما تعطي وتتصدق به وإن كان كثيراً وأن يكون من أحب أموالك إليك وأن لا ترى عز نفسك وذل الفقير فهذه عشرة أوصاف إذا اجتمعت في الصدقة كانت قرضاً حسناً ، ﴿ فيضاعفه له ﴾ يعني يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً ، ﴿ وله أجر كريم ﴾ يعني وذلك الأجر كريم في نفسه .

قوله : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ﴾ يعني على الصراط ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ أي عن أيمانهم وقيل أراد جميع الجوانب فعبر بالبعض عن الكل وذلك دليلهم إلى الجنة ، وقال قتادة ذكر لنا أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء ودون ذلك حتى إن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه " وقال عبد الله بن مسعود يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتي نوره كالنخلة ومنهم من يؤتي نوره كالرجل القائم وأدناهم نوراً من نوره على إبهامه فيطفأ مرة ويوقد مرة وقيل في معنى الآية يسعى نورهم بين أيديهم أي يعطون كتبهم بأيمانهم وتقول لهم الملائكة ﴿ بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا ﴾ أي انتظرونا ﴿ نقتبس من نوركم ﴾ أي نستضيء من نوركم قيل تغشى الناس ظلمة شديدة يوم القيامة فيعطي الله المؤمنين نوراً على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط ويعطي المنافقين أيضاً نوراً خديعة لهم فبينما هم يمشون إذ بعث الله ريحاً وظلمة فأطفأت نور المنافقين فذلك قوله تعالى ﴿ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ مخافة أن يسلبوا نورهم كما سلب نور المنافقين وقيل بل يستضيئون بنور المؤمنين ولا يعطون النور فإذا سبقهم المؤمنون بقوا في الظلمة وقالوا للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم ، ﴿ قيل ارجعوا وراءكم ﴾ قال ابن عباس يقول لهم المؤمنون وقيل يقول لهم الملائكة

ارجعوا وراءكم من حيث جئتم وقيل ارجعوا إلى الدنيا فاعملوا فيها أعمالاً يجعلها الله لكم نوراً وقيل معناه لا نور لكم عندنا فارجعوا وراءكم ﴿ فالتمسوا ﴾ أي اطلبوا لأنفسكم هناك ﴿ نوراً ﴾ أي لا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا فيرجعون في طلب النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون

إليهم ليلقوهم فيميز بينهم وبين المؤمنين فذلك قوله تعالى : ﴿ فضرب بينهم ﴾ أي المؤمنين والمنافقين ﴿ بسور ﴾ وهو حائط بين الجنة والنار ﴿ له ﴾ أي لذلك السور ﴿ باب باطنه فيه الرحمة ﴾ أي في باطن ذلك السور الرحمة وهي الجنة ﴿ وظاهره من قبله العذاب ﴾ أي من قبل ذلك الظاهر العذاب وهو النار وروي عن عبد الله بن عمر قال إن السور الذي ذكر في القرآن هو سور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه المسجد وظاهره من قبله العذاب وادي جهنم وقال ابن شريح كان كعب يقول في الباب الذي يسمى باب الرحمة في بيت المقدس إنه الباب الذي قال الله تعالى : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب ﴾ الآية .

﴿ ينادونهم ﴾ يعني ينادي المنافقون المؤمنين من وراء ذلك السور حين حجز بينهم وبقوا في الظلمة ﴿ ألم نكن معكم ﴾ أي في الدنيا نصلي ونصوم ﴿ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴾ أي أهلكتموها بالنفاق والكفر واستعملتموها في المعاصي والشهوات وكلها فتنة ﴿ وتربصتم ﴾ أي بالإيمان والتوبة وقيل تربصتم بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وقلتم يوشك أن يموت فنستريح منه ﴿ وارتبتم ﴾ أي شككتم في نبوته وفيما أوعدكم به ﴿ وغرتكم الأماني ﴾ أي الأباطيل وذلك ما كنتم تتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ يعني الموت وقيل هو إلقاؤهم في النار وهو قوله تعالى : ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ يعني الشيطان قال قتادة ما زالوا على خدعة من الشيطان حتى قذفهم الله في النار ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ﴾ أي عوض وبدل بأن تفدوا أنفسكم من العذاب وقيل معناه لا يقبل منكم إيمان ولا توبة ﴿ ولا من الذين كفروا ﴾ يعني المشركين وإنما عطف الكفار على المنافقين وإن كان المنافق كافراً في الحقيقة لأن المنافق أبطن الكفر والكافر أظهره فصار غير المنافق فحسن عطفه على المنافق ﴿ مأواكم النار ﴾ أي مصيركم ، ﴿ هي مولاكم ﴾ أي وليكم وقيل هي أولى بكم لما أسلفتم من الذنوب والمعنى هي التي تلي عليكم لأنها ملكت أمركم وأسلمتم إليها فهي أولى بكم من كل شيء وقيل

معنى الآية لا مولى لكم ولا ناصر لأن من كانت النار مولاه فلا مولى له ﴿ وبئس المصير ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 34.29 ﴾

(281/747)

وقال النسفى :

سورة الحديد

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾

جاء في بعض الفواتح "سبح" بلفظ الماضي ، وفي بعضها بلفظ المضارع ، وفي "بني إسرائيل" بلفظ المصدر ، وفي "الأعلى" بلفظ الأمر استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها وهي أربع : المصدر والماضي والمضارع والأمر .

وهذا الفعل قد عُدي باللام تارة وبنفسه أخرى في قوله ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ [الفتح : 9]

وأصله التعدي بنفسه لأن معنى سبحته بعدته من السوء منقول من سبح إذا ذهب وبعد ، فاللام إما أن تكون مثل اللام في نصحته ونصحت له ، وإما أن يراد بسبح الله اكتسب التسبيح لأجل الله ولوجهه خالصاً ﴿ مَا فِى السماوات والارض ﴾ ما يتأتى منه التسبيح ويصح ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ المنتقم من مكلف لم يسبح له عناداً ﴿ الحكيم ﴾ في مجازاة من

سبح له انقياداً ﴿ لَّهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ لا لغيره وموضع ﴿ يُحْيِى ﴾ رفع أي هو يحيي الموتى ﴿ وَيُمِيتُ ﴾ الأحياء أو نصب أي له ملك السماوات والأرض محيياً ومميتاً ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْء قَدِيرٌ هُوَ الأول ﴾ هو القديم الذي كان قبل كل شيء ﴿ والآخر ﴾ الذي يبقي بعد هلاك كل شيء ﴿ والظاهر ﴾ بالأدلة الدالة عليه ﴿ والباطن ﴾ لكونه غير مدرك بالحواس وإن كان مرئياً .

والواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية ، والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء ، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ومجموع الصفتين الأخريين فهو مستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية ، وهو في جميعها ظاهر وباطن .

وقيل : الظاهر العالي على كل شيء الغالب له من ظهر عليه إذا علاه وغلبه ، والباطن الذي بطن كل شيء أي علم باطنه ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

(282/747)

﴿ هُوَ الذى خَلَقَ السماوات والأرض فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ عن الحسن : من أيام الدنيا ولو أراد أن يجعلها في طرفة عين لفعل ولكن جعل الستة أصلاً ليكون عليها المدار ﴿ ثُمَّ استوى ﴾

استوى ﴿ عَلَى العرش يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ ﴾ ما يدخل في الأرض من البذر والقطر والكنوز والموتى ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من النبات وغيره ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السماء ﴾ من الملائكة والأمطار ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ من الأعمال والدعوات ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ بالعلم والقدرة عموماً وبالفضل والرحمة خصوصاً ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم على حسب أعمالكم ﴿ لَّهُ مُلْكُ السماوات والأرض وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور يُولِجُ الليل فِى النهار ﴾ يدخل الليل في النهار بأن ينقص من الليل ويزيد في النهار ﴿ وَيُولِجُ النهار فِى الليل وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ .

﴿ ءامِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُواْ ﴾ يحتمل الزكاة والإنفاق في سبيل الله ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ يعني أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها وإنما مولكم إياها للاستمتاع بها وجعلكم خلفاء في التصرف فيها فليست هي بأموالكم في الحقيقة ، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب ، فأنفقوا منها في حقوق الله تعالى ، وليهن عليكم الإنفاق منها كما يهون على الرجل الإنفاق من مال غيره إذا أذن له فيه ، أو جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيما في أيديكم بتوريثه إياكم وسينقله منكم إلى من بعدكم فاعتبروا بحالهم ولا تبخلوا به ﴿ فالذين ءامَنُواْ ﴾ بالله ورسله ﴿ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بالله ﴾ هو حال من معنى الفعل في ﴿ مَالَكُمْ ﴾ كما تقول : مالك قائماً ؟ بمعنى ما تصنع قائماً أي وما لكم كافرين بالله .

والواو في ﴿ والرسول يَدْعُوكُمْ ﴾ واو الحال فهما حالان متداخلتان ، والمعنى وأي عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ ميثاقكم ﴾ وقبل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بقوله : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : 172] أو بما ركب فيكم من العقول ومكنكم من النظر في الأدلة ، فإذا لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول وتنبيه الرسول فما لكم لا تؤمنون ؟ ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ لموجب ما فإن هذا الموجب لا مزيد عليه ﴿ أُخِذَ ميثاقكم ﴾ أبو عمرو .

﴿ هُوَ الذى يُنَزّلُ على عَبْدِهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ءايات بَيّنَاتٍ ﴾ يعني القرآن ﴿ لِيُخْرِجَكُمْ ﴾ الله تعالى أو محمد بدعوته ﴿ مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿ وَإِنَّ الله بِكُمْ لَرَءوفٌ ﴾ بالمد والهمزة : حجازي وشامي وحفص ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ الرأفة أشد الرحمة ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُواْ ﴾ في أن لا تنفقوا ﴿ فِى سَبِيلِ الله وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السماوات والأرض ﴾ يرث كل شيء فيهما لا يبقى منه باقٍ لأحد من مال وغيره يعني وأي غرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله والجهاد مع رسوله والله مهلككم فوارث أموالكم ؟ وهو من أبلغ البعث على الإنفاق في سبيل الله .

ثم بين التفاوت بين المنفقين منهم فقال ﴿ لاَ يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفتح وقاتل ﴾ أي فتح مكة قبل عز الإسلام وقوة أهله ودخول الناس في دين الله أفواجاً ، ومن أنفق من بعد الفتح فحذف لأن قوله : ﴿ مّنَ الذين أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ ﴾ يدل عليه ﴿ أولئك ﴾ الذين أنفقوا قبل الفتح وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم : "لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه" ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً مّنَ الذين أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وقاتلوا وَكُلاًّ ﴾ أي كل واحد من الفريقين ﴿ وَعَدَ الله الحسنى ﴾ أي المثوبة الحسنى وهي الجنة مع تفاوت الدرجات .

﴿ وَكُلاًّ ﴾ مفعول أول ل ﴿ وَعْدُ ﴾ و ﴿ الحسنى ﴾ مفعول ثان .

﴿ وَكُلٌّ ﴾ : شامي أي وكل وعده الله الحسنى نزلت في أبي بكر رضي الله عنه لأنه أول من أسلم وأول من أنفق في سبيل الله وفيه دليل على فضله وتقدمه ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فيجازيكم على قدر أعمالكم .

﴿ مَّن ذَا الذى يُقْرِضُ الله قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بطيب نفسه والمراد الإنفاق في سبيله واستعير لفظ القرض ليدل على التزام الجزاء ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ أي يعطيه أجره على إنفاقه

أضعافاً مضاعفة من فضله ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أي وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه .

﴿ فيضعّفُه ﴾ مكي ﴿ فيضعفه ﴾ شامي ﴿ فَيُضَاعِفَهُ ﴾ : عاصم وسهل ﴿ فيضاعفُه ﴾ غيرهم .

فالنصب على جواب الاستفهام ، والرفع على فهو يضاعفه أو عطف على ﴿ يُقْرِضُ ﴾ ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ظرف لقوله ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أو منصوب بإضمار "اذكر" تعظيماً لذلك اليوم ﴿ يسعى ﴾ يمضي ﴿ نُورُهُم ﴾ نور التوحيد والطاعات .

(285/747)

وإنما قال ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم ﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم ، فيجعل النور في الجهتين شعاراً لهم وآية لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا وبصحائفهم البيض أفلحوا ، فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومروا على الصراط يسعون سعي بسعيهم ذلك النور وتقول لهم الملائكة ﴿ بُشْرَاكُمُ اليوم جنات ﴾ أي دخول جنات لأن البشارة تقع بالأحداث دون الجثث ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ﴾ .

﴿ يَوۡمَ يَقُولُ ﴾ هو بدل من ﴿ يَوۡمَ تَرَى ﴾ ﴿ المنافقون والمنافقات لِلَّذِينَ ءامَنُواْ انظرونا ﴾ أي انتظرونا لأنه يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة.

﴿ أَنظُرُونَا ﴾ حمزة من النظرة وهي الإمهال جعل اتئادهم في المضي إلى أن يلحقوا بهم إنظاراً لهم ﴿ نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ ﴾ نصب منه وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به ﴿ قِيلَ ارجعوا وَرَاءكُمْ فالتمسوا نُوراً ﴾ طرد لهم وتهكم بهم أي تقول لهم الملائكة، أو المؤمنون ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور فالتمسوه هنالك فمن ثم يقتبس، أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً بتحصيل سببه وهو الإيمان ﴿ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم ﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿ بِسُورٍ ﴾ بحائط حائل بين شق الجنة وشق النار.

(286/747)

قيل: هو الأعراف ﴿ لَهُ ﴾ لذلك السور ﴿ بَابٌ ﴾ لأهل الجنة يدخلون منه ﴿ بَاطِنُهُ ﴾ باطن السور أو الباب وهو الشق الذي يلي الجنة ﴿ فِيهِ الرحمة ﴾ أي النور أو الجنة ﴿ وظاهره ﴾ ما ظهر لأهل النار ﴿ مِن قِبَلِهِ ﴾ من عنده ومن جهته ﴿ العذاب ﴾ أي الظلمة أو النار ﴿ ينادونهم ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ يريدون مرافقتهم في الظاهر ﴿ قَالُواْ ﴾ أي المؤمنون ﴿ بلى ولكنكم فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾

محنتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿ وارتبتم ﴾ وشككتم في التوحيد ﴿ وَغرَّتْكُمُ الأمانى ﴾ طول الآمال والطمع في امتداد الأعمار ﴿ حتى جاء أَمْرُ الله ﴾ أي الموت ﴿ وَغَرَّكُم بالله الغرور ﴾ وغركم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعذبكم أو بأنه لا بعث ولا حساب.

﴿ فاليوم لاَ يُؤْخَذُ ﴾ وبالتاء: شامي ﴿ مّنكُمْ ﴾ أيها المنافقون ﴿ فِدْيَةٌ ﴾ ما يفتدى به ﴿ وَلاَ مِنَ الذين كَفَرُواْ مَأْوَاكُمُ النار ﴾ مرجعكم ﴿ هِىَ مولاكم ﴾ هي أولى بكم وحقيقة مولاكم محراكم أي مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم كما يقال: هو مئنة للكرم أي مكان لقول القائل إنه لكريم ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ النار. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 222. 226 ﴾

(287/747)

وقال ابن جزى:

سورة الحديد

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض ﴾

هذا التسبيح المذكور هنا وفي أوائل سائر السور المسبحات يحتمل أن يكون حقيقة، أو أن

يكون بلسان الحال ؛ لأن كل ما في السموات والأرض دليل على وجود الله وقدرته ، وحكمته ، والأول أرجح لقوله : ﴿ ولكن لَّا تفقهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] ، وذكر التسبيح هنا وفي الحشر والصف بلفظ سبح الماضي ، وفي الجمعة والتغابن بلفظ يسبحُ المضارع ، وكل واحد منهما يقتضي الدوام .

﴿ هُوَ الأول والآخر ﴾ أي ليس لوجوده بداية ولا لبقائه نهاية ﴿ والظاهر والباطن ﴾ أي الظاهر للعقول بالأدلة ، والبراهين الدالة على الباطن ، الذي لا تدركه الأبصار ، أو الباطن الذي لا تصل العقول إلى معرفة كنة ذاته ، وقيل : الظاهر : العالي على كل شيء فهو من قولك : ظهرت على الشيء إذا علوت عليه ، والباطن الذي بطن كل شيء أي علم باطنه ، والأول أظهر وأرجح . ودخلت الواو بين هذه الصفات لتدل على أنه تعالى جامع لها ، مع اختلاف معانيها ، وفي ذلك مطابقة لفظية ، وهي من أحسن أدوات البيان .

﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ قد ذكر في [الأعراف : 53] وكذلك ما بعده ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ يعني أنه حاضر مع كل أحد بعلمه وإحاطته . وأجمع العلماء على تأويل هذه الآية بذلك .

﴿ يُولِجُ الليل ﴾ ذكر في [الحج : 61 ، ولقمان : 29] .

﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ يعني الإنفاق في سبيل الله وطاعته ، وروي أنها نزلت في الإنفاق في غزوة تبوك ، وعلى هذا روي أن قوله " فالذين آمنوا منكم وأنفقوا " نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فإنه جهز جيش العسرة يومئذ ، ولفظ الآية مع ذلك عام وحكمها باق لجميع الناس ، وقوله : مستخلفين فيه يعني أن الأموال التي بأيديكم إنما هي أموال الله ؛ لأنه خلقها ، ولكنه متّعكم بها وجعلكم خلفاء بالتصرف فيها ، فأنتم فيها بمنزلة الوكلاء ، فلا تمنعوها من الإنفاق فيما أمركم مالكها أن تنفقوها فيه ، ويحتمل أن يكون ﴿ جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ ﴾ عمن كان قبلكم فورثتم عنه الأموال ، فأنفقوها قبل أن تخلفوها لمن بعدكم ، كما خلفها لكم من كان قبلكم ، والمقصود على كل وجه : تحريض على الإنفاق وتزهيد في الدنيا .

﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ معناه أي شيء يمنعكم من الإيمان ، والرسول يدعوكم إليه بالبراهين القاطعة والمعجزات الظاهرة ؟ فقوله : ﴿ وَمَا لَكُمْ ﴾ استفهام يراد به الإنكار ، و ﴿ لاَ تُؤْمِنُونَ ﴾ في موضع الحال من معنى الفعل الذي يقتضيه ما لكم . في قوله : ﴿ الرسول يَدْعُوكُمْ ﴾ ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون هذا الميثاق ما جعل في العقول من النظر الذي يؤدي إلى الإيمان ، أو يكون الميثاق الذي أخذه على بني آدم ؛ حين أخرجهم من ظهر آدم ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى .

﴿ هُوَ الذي يُنَزِّلُ على عَبْدِهِ آيَاتٍ ﴾ يعني سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم، والعبودية هنا للتشريف والاختصاص، والآيات هنا القرآن: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ الله ﴾ الآية: معناه أي شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله؟ والله يرث ما في السموات والأرض إذا فني أهلها. ففي ذلك تحريض على الإنفاق وتزهيد في الدنيا ﴿ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفتح وَقَاتَلَ ﴾ الفتح هنا فتح مكة، وقيل: صلح الحديبية، والأول أظهر وأشهر، ومعنى الآية التفاوت في الأجر والدرجات؛ بين من أنفق في سبيل الله وقاتل قبل فتح مكة، وبين من أنفق وقاتل بعد ذلك، فإن الإسلام قبل الفتح كان ضعيفاً، والحاجة إلى الانفاق والقتال كانت أشد، ويؤخذ من الآية أن من أنفق في شدة أعظم أجراً ممن أنفق في حال الرخاء، وفي الآية حذف دل عليه الكلام تقديره: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل مع من أنفق من بعد الفتح وقاتل. ثم حذف ذلك لدلالة قوله: ﴿ أولئك أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الذين أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وَقَاتَلُواْ ﴾ وفي هذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه"، يعني السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وخاطب بذلك من

جاء بعدهم من سائر الصحابة ، ويدخل في الخطاب كل من يأتي إلى يوم القيامة ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحسنى ﴾ أي كل واحدة من الطائفتين الذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح وبعده ؛ وعدهم الله الجنة .

﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ ذكر في [البقرة : 245] .

(290/747)

﴿ يَوْمَ تَرَى ﴾ العامل في الظرف آجر كريم أو تقدير اذكر ﴿ يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ قيل : إن هذا النور استعارة يراد به الهدى والرضوان ، والصحيح هو قول الجمهور أنه حقيقة ، وقد روي ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالمعنى على هذا أن المؤمنين يكون لهم يوم القيامة نور يضيء قدّامهم وعن يمين كل واحد منهم . وقيل : يكون أصله في أيمانهم يحملونه فينبسط نوره قدامهم ، وروي أن نور كل أحد على قدر إيمانه ، فمنهم من يكون نوره كالنخلة ، ومنهم من يضيء ما قرب من قدميه ، ومنهم من يضيء مرة ويهمُّ بالإطفاء مرة ، قال ابن عطية : ومن هذه الآية أخذ الناس مشي المعتَق بالشمعة قُدَّام معتِقه إذا مات ﴿ بُشْرَاكُمُ اليوم جَنَّاتٌ ﴾ أي يقال لهم ذلك .

(291/747)

﴿ يَوْمَ يَقُولُ المنافقون والمنافقات لِلَّذِينَ آمَنُوا انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نورِكُمْ ﴾ ﴿ يَوْمَ ﴾ بدل من يوم ترى أو متعلق بالفوز العظيم ، أو بمحذوف : تقديره اذكر ومعنى الآية : أن كل مؤمن مظهر للإيمان يعطى يوم القيامة نوراً فيبقى نور المؤمنين وينطفئ نور المنافقين ، فيقول المنافقون للمؤمنين ، ﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نورِكُمْ ﴾ أي نأخذ منه ونستضيء به . ومعنى انظرونا : انتظرونا . وذلك لأن المؤمنين يسرعون إلى الجنة كالبرق الخاطف ، والمنافقون ليسوا كذلك . ويحتمل أن يكون من النظر أي انظروا إلينا ، لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فاستضاؤوا بنورهم . ولكن يضعف هذا لأن نظر إذا كان بمعنى النظر بالعين يتعدى بإلى ، وقرئ انظرونا بهمزة قطع ومعناه أخرونا أي أمهلونا في مشيكم حتى نلحقكم ﴿ قِيلَ ارجعوا وَرَآءَكُمْ فالتمسوا نُوراً ﴾ يحتمل أن يكون هذا من قول المؤمنين ، أو قول الملائكة ومعناه الطرد للمنافقين ، والتهكم بهم ؛ لأنهم قد علموا أن ليس وراءهم نور ، ﴿ وَرَآءَكُمْ ﴾ ظرف العامل فيه ﴿ ارجعوا ﴾ وقيل : إنه لا موضع له من الإعراب ، وأنه كما لو قال : ارجعوا ومعنى هذا الرجوع ، ارجعوا إلى الموقف فالتمسوا فيه النور ، أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور بتحصيل الإيمان أو ارجعوا خائبين ، وتنحوا عنا فالتمسوا نوراً آخر ، فلا سبيل لكم إلى هذا النور ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ ﴾ أي ضرب بين المؤمنين والمنافقين بسور يفصل بينهم ، وفي ذلك السور باب لأهل الجنة يدخلون

منه وقيل : إن هذا السور هو الأعراف وهو سور بين الجنة والنار . وقيل : هو الجدار الشرقي من بيت المقدس ، وهذا بعيد ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرحمة وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العذاب ﴾ باطنه هو جهة المؤمنين ، وظاهره هو جهة المنافقين وهي خارجة . كقوله ظاهر المدينة أي خارجها . والضمير في باطنه وظاهره يحتمل أن يكون للسور أو للباب

والأول أظهر .

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين فيقولون لهم : ألم نكن معكم في الدنيا ؟ يريدون إظهارهم الإيمان ﴿ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي أهلكتموها وأظللتموها بالنفاق ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ أي أبطأتم بإيمانكم وقيل : تربصتم الدوائر بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالمسلمين ﴿ وارتبتم ﴾ أي شككتم في الإيمان ﴿ وَغرَّتْكُمُ الأماني ﴾ أي طول الأمل والتمني ، ومن ذلك أنهم كانوا يتمنون أن يهلك النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، أو يهزمون إلى غير ذلك من الأماني الكاذبة ﴿ حتى جَآءَ أَمْرُ الله ﴾ أي الفتح وظهور الإسلام ، أو موت المنافقين على الحال الموجبة للعذاب ﴿ الغرور ﴾ هو الشيطان ﴾

هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أي هو أولى بكم وحقيقة المولى الولي الناصر ، فكان هذا استعارة منه ، أي لا وليّ لكم تأوون إليه إلا النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 95.97 ﴾

(293/747)

وقال البيضاوى :

سورة الحديد

مدنية وقيل مكية وآيها تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السموات والأرض ﴾

ذكرها هنا وفي "الحشر" و"الصف" بلفظ الماضي ، وفي "الجمعة" و"التغابن" بلفظ المضارع إشعاراً بأن من شأن ما أسند إليه أن يسبحه في جميع أوقاته ، لأنه دلالة جبلّية لا تختلف باختلاف الحالات ، ومجيء المصدر مطلقاً في "بني إسرائيل" أبلغ من حيث إنه يشعر بإطلاقه على استحقاق التسبيح من كل شيء وفي كل حال ، وإنما عدي باللام وهو متعد بنفسه مثل نصحت له في نصحته إشعاراً بأن إيقاع الفعل لأجل الله وخالصاً لوجهه .

﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ حال يشعر بما هو المبدأ للتسبيح .

﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ فإنه الموجد لها والمتصرف فيها . ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ استئناف أو خبر لمحذوف ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الإِحياء والإِماتة وغيرهما . ﴿ قَدِيرٌ ﴾ تام القدرة .

﴿ هُوَ الأول ﴾ السابق على سائر الموجودات من حيث إنه موجدها ومحدثها . ﴿ والآخر ﴾ الباقي بعد فنائها ولو بالنظر إلى ذاتها مع قطع النظر عن غيرها ، أو ﴿ هُوَ الأول ﴾ الذي تبتدىء منه الأسباب وتنتهي إليه المسببات ، أو ﴿ الأول ﴾ خارجاً و ﴿ الآخر ﴾ ذهناً . ﴿ والظاهر والباطن ﴾ الظاهر وجوده لكثرة دلائله والباطن حقيقة ذاته فلا تكتنهها العقول ، أو الغالب على كل شيء والعالم بباطنه والواو الأولى والأخيرة للجمع بين الوصفين ، والمتوسطة للجمع بين المجموعين . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يستوي عنده الظاهر والخفي .

(294/747)

﴿ هُوَ الذي خَلَقَ السموات والأرض فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأرض ﴾ كالبذور . ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ كالزروع . ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السماء ﴾ كالأمطار . ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ كالأبخرة . ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ لا ينفك علمه

وقدرته عنكم بحال . ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم عليه ، ولعل تقديم الخلق على العلم لأنه دليل عليه .

﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ ذكره مع الإِعادة كما ذكره مع الإِبداء لأنه كالمقدمة لهما . ﴿ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور ﴾ .

﴿ يُولِجُ اليل فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى اليل وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ بمكنوناتها .

﴿ آمِنُوا بالله وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ من الأموال التي جعلكم الله خلفاء في التصرف فيها فهي في الحقيقة له لا لكم ، أو التي استخلفكم عمن قبلكم في تملكها والتصرف فيها ، وفيه حث على الإِنفاق وتهوين له على النفس . ﴿ فالذين ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وعد فيه مبالغات جعل الجملة اسمية وإعادة ذكر الإِيمان والإِنفاق وبناء الحكم على الضمير وتنكير الأجر ووصفه بالكبر .

﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بالله ﴾ أي وما تصنعون غير مؤمنين به كقولك : مالك قائماً . ﴿ والرسول يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبّكُمْ ﴾ حال من ضمير تؤمنون ، والمعنى أي عذر لكم في ترك الإِيمان والرسول يدعوكم إليه بالحجج والآيات . ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ أي وقد أخذ الله ميثاقكم بالإِيمان قبل ذلك بنصب الأدلة والتمكين من النظر ، والواو للحال من مفعول ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ ، وقرأ أبو عمرو وعلى البناء للمفعول ورفع "ميثاقكم" . ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ لموجب ما فإن هذا موجب لا مزيد عليه .

﴿ هُوَ الذى يُنَزِّلُ على عَبْدِهِ ءايات بينات لّيُخْرِجَكُمْ ﴾ أي الله أو العبد . ﴿ مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . ﴿ وَإِنَّ الله بِكُمْ لَرَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث نبهكم بالرسول والآيات ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُواْ ﴾ وأي شيء لكم في ﴿ أَلاَّ تُنفِقُواْ ﴾ . ﴿ فِى سَبِيلِ الله ﴾ فيما يكون قربة إليه . ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السموات والأرض ﴾ يرث كل شيء فيهما فلا يبقى لأحد مال ، وإذا كان كذلك فإنفاقه بحيث يستخلف عوضاً يبقى وهو الثواب كان أولى .

﴿ لاَ يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفتح وقاتل أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾ بيان لتفاوت المنفقين باختلاف أحوالهم من السبق وقوة اليقين ، وتحري الحاجات حثاً على تحري الأفضل منها بعد الحث على الإنفاق ، وذكر القتال للاستطراد وقسيم من أنفق محذوف لوضوحه ودلالة ما بعده عليه ، و﴿ الفتح ﴾ فتح مكة إذ عز الإسلام به وكثر أهله وقلت الحاجة إلى المقاتلة والإنفاق . ﴿ مّنَ الذين أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ ﴾ أي من بعد الفتح . ﴿ وقاتلوا وَكُلاًّ وَعَدَ الله الحسنى ﴾ أي وعد الله كلا من المنفقين المثوبة الحسنى وهي الجنة . وقرأ ابن عامر "وَكُلٌّ" بالرفع على الابتداء أي وكل وعده الله ليطابق ما عطف

عليه . ﴿ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ عالم بظاهره وباطنه فيجازيكم على حسبه ، والآية نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه فإنه أول من آمن وأنفق في سبيل الله وخاصم الكفار حتى ضرب ضرباً أشرف به على الهلاك .

﴿ مَّن ذَا الذى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أي من الذي ينفق ماله في سبيله رجاء أن يعوضه ، فإنه كمن يقرضه وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه وتحري أكرم المال وأفضل الجهات له . ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ أي يعطي أجره أضعافا . ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أي وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه ينبغي أن يتوخى وإن لم يضاعف ، فكيف وقد يضاعف أضعافاً . وقرأ عاصم "فَيُضَاعِفَهُ" بالنصب على جواب الاستفهام باعتبار المعنى فكأنه قال : أيقرض الله أحد فيضاعفه له . وقرأ ابن كثير "فيضعفه" مرفوعاً وقرأ ابن عامر ويعقوب "فيضعفه" منصوباً .

﴿ يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات ﴾ ظرف لقوله ﴿ وَلَهُ ﴾ أو ﴿ فَيُضَاعِفَهُ ﴾ أو مقدر باذكر ﴿ يسعى نُورُهُم ﴾ ما يوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة . ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم ﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين . ﴿ بُشْرَاكُمُ اليوم جنات ﴾

أي يقول لهم من يتلقاهم من الملائكة ﴿ بُشْرَاكُمُ ﴾ أي المبشر به جنات ، أو ﴿ بُشْرَاكُمُ ﴾ دخول جنات . ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ذلك الفوز العظيم ﴾ الإِشارة إلى ما تقدم من النور والبشرى بالجنات المخلدة .

(297/747)

﴿ يَوْمَ يَقُولُ المنافقون والمنافقات ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ ترى ﴾ . ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ انظرونا ﴾ انتظرونا فإنهم يسرع بهم إلى الجنة كالبرق الخاطف ، أو انظروا إلينا فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنور بين أيديهم . وقرأ حمزة "أنظرونا" على أن اتئادهم ليلحقوا بهم إمهال لهم . ﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ نصب منه . ﴿ قِيلَ ارجعوا وَرَاءكُمْ ﴾ إلى الدنيا . ﴿ فالتمسوا نُوراً ﴾ بتحصيل المعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة ، فإنه يتولد منها أو إلى الموقف فإنه من ثمة يقتبس ، أو إلى حيث شئتم فاطلبوا نوراً آخر فإنه لا سبيل لكم إلى هذا ، وهو تهكم بهم وتخييب من المؤمنين أو الملائكة ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم ﴾ بين المؤمنين والمنافقين . ﴿ بِسُورٍ ﴾ بحائط . ﴿ لَّهُ بَابٌ ﴾ يدخل منه المؤمنون . ﴿ بَاطِنُهُ ﴾ باطن السور أو الباب . ﴿ فِيهِ الرحمة ﴾ لأنه يلي الجنة . ﴿ وظاهره مِن قِبَلِهِ العذاب ﴾ من جهته لأنه يلي النار .

﴿ ينادونهم أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ يريدون موافقتهم في الظاهر . ﴿ قَالُواْ بلى ولكنكم فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ بالنفاق . ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالمؤمنين الدوائر . ﴿ وارتبتم ﴾ وشككتم في الدين . ﴿ وَغرَّتْكُمُ الأمانى ﴾ كامتداد العمر . ﴿ حتى جَاء أَمْرُ الله ﴾ وهو الموت .

﴿ وَغَرَّكُم بالله الغرور ﴾ الشيطان أو الدنيا .

﴿ فاليوم لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ فداء وقرأ ابن عامر ويعقوب بالتاء . ﴿ وَلاَ مِنَ الذين كَفَرُواْ ﴾ ظاهراً وباطناً . ﴿ مَأْوَاكُمُ النار هِىَ مولاكم ﴾ هي أولى بكم كقول لبيد :

فَغَدَتْ كِلاَ الفرجَيْنِ تَحْسِبُ أَنَّه . . . مَوْلَى المَخَافَةِ خَلْفَهَا وَأَمامها

وحقيقته محراكم أي مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم كقولك : هو مئنة الكرم أي مكان قول القائل إنه لكريم ، أو مكانكم عما قريب من الولي وهو القرب ، أو ناصركم على طريقة قوله :

(298/747)

تَحِيَّةُ بَيْنِهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ . . . أو متوليكم يتولاكم كما توليتم موجباتها في الدنيا . ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 294.

300 ﴾

وقال العلامة نظام الدين النيسا بورى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

التفسير : معنى تسبيح الموجودات قد تقدم في قوله

﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ [الإسراء : 44] والآن نقول : إنه بدأ في سورة بني إسرائيل بلفظ المصدر وهو ﴿ سبحان ﴾ وفي هذه السورة وفي الحشر والصف بلفظ الماضي . وفي الجمعة والتغابن بلفظ المستقبل ، وفي سورة الأعلى بلفظ الأمر استيعاباً للأقسام وذلك دليل على أن التسبيح لله تعالى مستمر دائم في الأوقات كلها من الأزل إلى الأبد . وتفسير أسماء الله الحسنى المذكورة في أول هذه السورة قد سبق في البسملة فلا حاجة إلى إعادة كلها إلا أننا نذكر ما أورده الإمام فخر الدين ههنا على سبيل الإيجاز مع تنقيح ما يجب تنقيحه . قال : هذا مقام مهيب والبحث فيه من وجوه : الأول أن تقدم

الشيء على الشيء إما تقدم التأثير كتقدم حركة الإصبع على حركة الخاتم ، وإما التقدم بالحاجة لا بالتأثير كتقدم الإمام على المأموم ، أو معقول كما إذا جعلنا المبدأ هو الجنس العالي ، وإما بالزمان كتقدم الأب على الابن قال : وتقدم بعض أجزاء الزمان على الزمان عندي ليس من هذه الأقسام الخمسة ، أما التأثير والحاجة فلأنه لو كان كذلك لوجدا معاً كما أن العلة والمعلول يوجدان معاً وكذا الواحد والاثنان . وأما الشرف والمكان فظاهران ، وأما بالزمان فإن الزمان لا يقع في الزمان وإلا تسلسل . قلت : لم لا يجوز أن يكون تقدم أجزاء الزمان بعضها على بعض بالحاجة أي بالطبع فإن الزمان كما لا يخفى حين كان كما متصلاً غير قار الذات اقتضت حقيقته أن يكون له وجود سيال يعقب بعض أجزائه بعضاً لا تنتهي النوبة إلى جزء مفروض منه إلا وقد انقضى منه جزء مفروض على الاتصال .

وقال : إذا عرفت ذلك فنقول : القرآن دال على أنه تعالى قبل كل شيء والبرهان أيضاً يدل على هذا لأن انتهاء الممكنات لا بد أن يكون إلى الواجب إلا أن تلك القبلية ليست بالتأثير لأن المؤثر من حيث هو مؤثر مضاف إلى الأثر من حيث هو أثر والمضافان معاً . والمعي لا يكون قبل لا بالحاجة لأنهما قد يكونان معاً كما قلنا ، ولا لمحض

الشرف فإن تلك القبلية ليست مرادة ههنا ولا بالمكان وهو ظاهر ، ولا بالزمان لأن الزمان بجميع أجزائه ممكن الوجود ، والتقدم على جميع الأزمنة لا يكون بالزمان فإذن تقدم الواجب تعالى على ما عداه خارج عن هذه الأقسام الخمسة وكيفيته لا يعلمها إلا هو . قلت : إنه سبحانه متقدم على ما سواه بجميع أقسام التقدمات الخمسة . أما بالتأثير فظاهر قوله والمضافان معاً . قلنا : إن أردت من الحيثية المذكورة فمسلم ولا محذور ، وإن أردت مطلقاً فممنوع . وأما بالطبع فلأن ذات الواجب من حيث هو لا تفتقر إلى الممكن من حيث هو وحال الممكن بالخلاف ، وأما بالشرف فظاهر ، وأما بالمكان فلأنه وراء كل الأماكن ومعها لقوله

﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ [البقرة : 115] وقد جاء في الحديث " لو أدليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله " ثم قرأ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وههنا سر لعلنا قد رمزنا إليه في هذا الكتاب تفهمه بإذن الله إن كنت أهلاً له . وأما بالزمان فأظهر قوله والتقدم على الزمن لا يكون بالزمان : قلنا : ممنوع لأن الزمان عند المحققين هو أمر وهمي ، والزمان الذي يتكلم هو فيه إنما هو مقدار حركة الفلك الأعظم ، ولا ريب أن قبل هذه

الحركة لا يوجد لها مقدار إلا أن قبل كل شيء يوجد امتداد وهمي يحصل فيه وجود الواجب سبحانه ، ومن هذا التحقيق يرتفع ما أشكل على الإمام من التمييز بين الأزل وما لا يزال فإن المبادئ الوهمية تتغير بتغير الاعتبارات وباختلافها تختلف حقائقها إذ ليس لها وجود سواها فقد يصير ما هو في جانب الأزل في جانب لا يزال ، وبالعكس إذا تغيرت المبادئ المفروضة . قال : أما البحث عن كونه تعالى آخراً بمعنى أنه يبقى وكل شيء يفنى فمنهم من أوجب ذلك حتى يتقرر كونه آخراً وهو مذهب جهم فإنه زعم أنه سبحانه يوصل الثواب إلى أهل الثواب ، والعقاب إلى أهل العقاب ، ثم يفني الجنة وأهلها والنار وأهلها والعرش والكرسي والملك والفلك ولا يبقى مع الله شيء أصلاً في أبد الآباد كما لم يكن قبله شيء في أزل الآزال قال : ومن حجج جهنم أنه تعالى إما أن يكون عالماً بعدد حركات أهل الجنة والنار أولاً . فإن كان عالماً لزم تناهيه فإن الأحاطة بما لا يتناهى مستحيلة . إن لم يعلم لزم نسبة الجهل إليه تعالى وذلك محال . وأيضاً الحوادث المستقبلة قابلة للزيادة والنقصان وكل ما كان كذلك فهو متناه . وأجاب عن الأول بأن إمكان استمرار هذه الأشياء حاصل إلى الأبد ، والدليل عليه أن هذه الماهيات لو زال إمكانها لزم انقلاب الممكن إلى الممتنع ، ولزم أن تنقلب قدرة الله من صلاحية التأثير إلى امتناع التأثير . قلت : هذه مغالطة فإنه لا يلزم من الإمكان

الذاتي للشيء وقوعه في الخارج ولا من عدم وقوعه في الخارج الامتناع الذاتي وأجاب عن الثاني بأنه لا يعلم أن عددها ليس بمعين وهذا لا يكون جهلاً إنما الجهل أن يكون له عدد معين ولا يعلمه . قلت : الذي علمه متناه يجب أن يكون معلومه متناهياً ، أما الذي لا نهاية لعلمه فلم يبعد بل يجب أن تكون معلوماته غير متناهية . وأجاب عن الثالث بأن الخارج منه إلى الوجود أحداً يكون متناهياً . قلت : الزيادة والنقصان لا يوجبان التناهي كتضعيف الألف والألفين مراراً غير متناهية قال : فالمتكلمون حين أثبتوا إمكان بقاء العالم عولوا في أبدية الجنة والنار على إجماع المسلمين .

(304/747)

واختلفوا في معنى كونه تعالى آخراً على وجوه أحدها : أنه تعالى يفني جميع العالم ليتحقق كونه آخراً ، ثم إنه يوجدها ويبقيها أبداً . قلت : هذا حقيق بأن لا يسمى آخرية بل يسمى توسطاً . وثانيها أن صحة آخرية كل الأشياء مختصة به فلا جرم وصف بكونه آخراً . أقول : هذا أول المسألة لأن الكلام لم يقع في اختصاص وجوده وعدمه وإنما النزاع في معنى قوله آخراً . وثالثها أنه أول في الوجود آخر في الاستدلال لأن المقصود من جميع الاستدلالات

معرفة ذات الصانع وصفاته ، وأما سائر الاستدلالات التي لا يراد بها معرفة الصانع فهي حقيرة خسيسة . قلت : أراد أنه غاية الأفكار ونهاية الأنظار وهذا معنى حسن في نفسه إلا أنه لا يطابق معنى الأول كل المطابقة . ورابعها أنه أول في ترتيب الوجود وآخر إذا عكس الترتيب . قلت : هذا تصور صحيح ينطبق على السلسلة المترتبة من العلل والمعلولات ، وعلى المترتبة من الأشرف إلى الأخس . وعلى الآخذة من الوحدة إلى الكثرة ، وكما يلي الأزل إلى ما يلي الأبد ، ومما يلي المحيط إلى ما يقرب من المركز فهو سبحانه أول بالترتيب الطبيعي وآخر بالترتيب المنعكس فقد وضح بهذا البيان صحة إطلاق التقدمات الخمسة ومقابلاتها عليه تعالى ، وهذا من غوامض الاسرار وقد وفقني الله تعالى لحلها وبيانها فالشكر على آلائه . أما تفسير الظاهر والباطن فالمحققون قالوا : إنه الظاهر بالأدلة الدالة على وجوده . والباطن لأنه جل عن إدراك الحواس والعقول إياه إما في الدنيا أو فيها وفي الآخرة جميعاً . وقيل : معنى الظاهر الغالب ، والباطن العالم بما بطن أي خفي . قال الليث : يقال أنت أبطن بهذا الأمر أي أخبر به . وباقي الآيات قد سبق تفسيرها في مواضع إلا قوله ﴿ يعلم ما يلج ﴾ فإنه قد مر في أول "سبأ" فقط فلا حاجة إلى الإعادة . وقوله ﴿ وهو معكم ﴾ معية العلم والقدرة أو استصحاب المكان عند بعض قوله ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ وبعده مثله ليس بتكرار لأن الأول في

الدنيا لقوله ﴿ يحي ويميت ﴾ والثاني في العقبى لقوله ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ قوله ﴿ مستخلفين فيه ﴾ أراد أن المال مال الله والعباد عباد الله إلا أنه قد جعل أرزاقهم متداولة بيد حكمته متعلقة بالوسائط والروابط ، فالسعيد من وفقه الله تعالى لرعاية حق الاستخلاف فيتصرف فيما آتاه الله على وفق ما أمره الله من الإنفاق في سبيل الله قبل أن ينتقل منه إلى غيره بإرث أو حادث كما انتقل من غيره إليه بأحد السببين . قوله ﴿ لا تؤمنون ﴾ حال من معنى الفعل كقولك " مالك قائماً " أي ما تصنع . والواو في قوله ﴿ والرسول ﴾ للحال من ضمير ﴿ لا تؤمنون ﴾ فهما حالان متداخلتان .

(306/747)

وأخذ الميثاق إشارة إلى الأقوال المذكورة في تفسير قوله ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ﴾ [الأعراف : 172] ، والمراد أنه قد تعاضدت الدلائل السمعية والبراهين العقلية على الإيمان بالله فأي عذر لكم في تركه ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ لموجب ما فإن هذا الموجب لا مزيد عليه ولا ريب أن الإيمان بالله شامل لتصديق بجميع أوامره وأحكامه ومن جملتها الإيمان بالرسول وبالقرآن وبما فيه . استدل القاضي بقوله ﴿ وما لكم ﴾ على أن

العبد قادر على الإيمان وعلى الاستطاعة قبل لافعل وإلا لم يصح التوبيخ كما لا يقال مالك لا تطول ولا تبيض . والبحث في أمثاله مذكور في مواضع . والضمير في قوله ﴿ ليخرجكم ﴾ لله تعالى أو لعبده والميراث مجاز عن بقائه بعد فناء الخلق وقد مر في "آل عمران" : قال المفسرون : إن أبا بكر أول من أنفق في سبيل الله فنزل فيه وفي أمثاله السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح ﴾ أي فتح مكة وتمامه أن يقال : ومن أنفق بعد الفتح فحذف لدلالة قوله ﴿ أولئك ﴾ الذين أنفقوا قبل الفتح وهم الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم "لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه" ﴿ أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ﴾ وسبب الفضل أنهم أنفقوا قبل عز الإسلام وقوة أهله فكانت الحاجة إلى الإنفاق حينئذ أمسّ مع أنه كان أصدق إنباء عن ثقة صاحبه بهذا الدين ﴿ وكلاً وعد الله الحسنى ﴾ المثوبة الحسنى وهي الجنة مع تفاوت الدرجات . ومن قرأ بالرفع فتقديره وكل وعده الله والقرض مجاز عن إنفاق المال في سبيل الله . وقد مر في أواخر "البقرة" . قال أهل السنة : إنه تعالى كتب في اللوح المحفوظ أن كل من صدر عنه الفعل الفلاني فله كذا من الثواب وهو الأجر الكريم ، فإذا ضم إلى ذلك مثله فهو المضاعفة . وقال الجبائي : إن الأعواض تضم إلى الثواب فهو المضاعفة . وإنما وصف الأجر بالكريم لأنه جلب ذلك الضعف

وبسببه حصلت لكل الزيادة فكان كريماً من هذا الوجه . ثم أكد الإيمان بالله ورسوله والإنفاق في سبيله بتذكير يوم المحاسبة فقال ﴿ يوم ترى ﴾ يا محمد أو يا من له أهلية الخطاب وقد مر إعرابه . عن ابن مسعود وقتادة مرفوعاً أن كل إنسان مؤمن فإنه يحصل له النور يوم القيامة على قدر ثوابه منهم من يضيء له نور كما بين عدن إلى صنعاء ، ومنهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه ، وأدناهم نوراً من يكون نوره على إبهامه ينطفىء مرة ويتقد أخرى . وقال مجاهد : ما من عبد إلا وينادى يوم القيامة يا فلان هذا نورك ، ويا فلان لا نور لك .

هذا وقد بينا لك في هذا الكتاب مراراً أن الكمالات والخيرات كلها أنوار وأكمل الأنوار معرفة الله سبحانه . وإنما قال ﴿ بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ لأن ذلك جعل إمارة النجاة ولهذا ورد أن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم . ومعنى سعي النور سعيه بسعيهم جنيباً لهم ومتقدماً ويقول لهم الذي يتلقونهم من الملائكة ﴿ بشراكم اليوم جنات ﴾ قوله ﴿ يوم يقول ﴾ بدل من قوله ﴿ يوم ترى ﴾ ومنصوب ب "أذكر" مقدراً . قال جمع من العلماء : الناس كلهم يوم القيامة في الظلمات ثم إنه تعالى يعطي المؤمنين هذه الأنوار والمنافقون يطلبونها منهم قائلين ﴿ انظرونا ﴾ لأنهم إذا نظروا إليهم والنور قدامهم استضاؤا بتلألؤ تلك الأنوار . قال

الفارسي : حذف الجار وأوصل الفعل وأنشد أبو الحسن :

ظاهرات الجمال والحسن ينظرن . . . كما ينظر الأراك الظباء

والمعنى ينظرن إلى الأراك فإن كانت هذه الحالة عند الموقف فالمراد انظروا إلينا ، وإن كانت هذه الحالة عند سير المؤمنين إلى الجنة احتمل أن يكون النظر بمعنى الانتظار لأنهم يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة على الركاب وهؤلاء مشاة في القيود والسلاسل . ومن قرأ ﴿ انظرونا ﴾ أي أمهلونا جعل استبطاءهم في المضي إلى أن يلحقوا بهم إمهالاً لهم . قال الحسن : يعطى يوم القيامة كل أحد نوراً على قدر عمله . ثم إنه يؤخذ من جمر جهنم وما فيه من الكلاليب والحسك وتلقى على الطريق فتمضي زمرة من المؤمنين وجوههم كالقمر ليلة البدر ، ثم تمضي زمرة أخرى كأضواء الكواكب في السماء . ثم على ذلك ثم على ذلك ، ثم تغشاهم الظلمة فينطفىء نور المنافقين فهناك يقول المنافقون للمؤمنين انظرونا ﴿ نقتبس من نوركم ﴾ والاقتباس أخذ القبس أي الشعلة من النار ﴿ قيل ارجعوا وراءكم ﴾ أي إلى الموقف حيث أعطينا هذا النور فاطلبوا نوراً وهو تهكم بهم أو إلى الدنيا ﴿ فالتمسوا نوراً ﴾ بتحصيل سببه وهو الإيمان والعمل الصالح أو اكتساب

المعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة كأنها خدعة خدع بها المنافقون كقوله ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ [البقرة : 9] وعلى هذا فالسور هو امتناع العود إلى الدنيا وعلى الأول قالوا : إنهم يرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم فيجدون السور مضروباً بينهم وبين المؤمنين وهو حائط الجنة أو هو الأعراف ﴿ باطنه ﴾ أي باطن السور أو الباب وهو الشق الذي يلي الجنة ﴿ فيه الرحمة وظاهره ﴾ وهو ما ظهر لأهل النار ﴿ من قبله ﴾ أي من جهته ﴿ العذاب ﴾ قال أبو مسلم : المراد من قول المؤمنين ﴿ ارجعوا ﴾ منع المنافقين عن الاستضاءة كقول الرجل لمن يريد القرب منه " وراءك أوسع لك " والمراد أنه لا سبيل لهم إلى هذا النور ، والمراد من السور منعهم من رؤية المؤمنين قال الأخفش : الباء في قوله ﴿ بسور ﴾ صلة وفائدته التوكيد وأرادوا بقوله ﴿

ألم نكن معكم ﴾ مرافقتهم في الظاهر .

ومعنى ﴿ فتنتم ﴾ محنتم ﴿ أنفسكم ﴾ بالنفاق وأهلكتموها ﴿ وتربصتم ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿ وارتبتم ﴾ وشككتم في وعيد الله أو في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو في البعث أو في كل ما هو من عند الله ﴿ وغرتكم الأماني ﴾ بكثرة الآمال وطول

الآجال ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ بالموت على النفاق ثم أوقعكم في النار ﴿ وغرّكم بالله

﴾ الشيطان ﴿ الغرور ﴾ فنفخ في خيشومكم إن الله غفور إن باب التوبة مفتوح ﴿

فاليوم لا يؤخذ منكم ﴾ أيها المنافقون ﴿ فدية ﴾ قيل أي توبة والأولى العموم ليشمل كل

ما يفتدى به ﴿ ولا من الذين كفروا ﴾ في الظاهر . فالحاصل أنه لا فرق بين الذين أضمروه

فإن كلا منكم ﴿ مأواكم النار هي مولاكم ﴾ وقيل : المراد أنها تتولى أموركم كما توليتم في

الدنيا أعمال أهل النار وقيل : أراد هي أولى بكم . قال جار الله حقيقته هي محراكم

ومقمنكم أي مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم كما قيل هو مئنة للكرم أي مكان لقول

القائل " إنه لكريم " . قال في التفسير الكبير : هذا معنى وليس بتفسير للفظ من حيث اللغة

، وغرضه أن الشريف المرتضى لما تمسك في إمامة علي رضي الله عنه بقوله صلى الله

عليه وسلم " من كنت مولاه فعلي مولاه " فهذا علي مولانا احتج بقول الأئمة تفسير الآية أن

المولى معناه الأولى ، وإذا ثبت أن اللفظ محتمل وجب حمله عليه لأن ما عداه بين الثبوت

ككونه ابن العم والناصر ، أو بين الانتفاء كالمعتق والمعتق فيكون على التقدير الأول عبثاً ،

وعلى التقدير الثاني كذباً . قال : وإذا كان قول هؤلاء معنى لا تفسيراً بحسب اللغة سقط

الاستدلال . قلت : في هذا الإسقاط بحث لا يخفى . وجوز أن يراد في الآية نفي الناصر

لأنه إذا قال هي ناصركم على سبيل التهكم وليس لها نصرة لزم نفي الناصر رأساً كقوله

تعالى ﴿ يغاثوا بماء كالمهل ﴾ [الكهف : 29] ويقال ناصره الخذلان ومعينه البكاء .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 250 . 256 ﴾

(310/747)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الحديد

مكية أو مدنية وهي تسع وعشرون آية وخمسمئة وأربع وأربعون كلمة وألفان وأربعمئة وستة وسبعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي أحاطت هيبته بجميع الموجودات ﴿ الرحمن ﴾ الذي وسعهم جوده في جميع الحركات والسكنات ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أهل ولايته بما يرضيه من العبادات

ولما ختمت الواقعة بالأمر بتنزيهه عما أنكره الكفرة من البعث جاءت هذه لتقرير ذلك التنزيه فقال تعالى:

﴿ سبح لله ﴾ أي : الملك المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ ما في السموات ﴾ أي : الإجرام العالية والذي فيها ﴿ والأرض ﴾ والذي فيها أي : نزهه كل شيء فاللام مزيدة وجيء بما دون من تغليباً للأكثر ﴿ وهو ﴾ أي : وحده ﴿ العزيز ﴾ الذي يغلب كل شيء

ولا يغلبه شيء ﴿ الحكيم ﴾ أي : الذي أتقن كل شيء صنعه ، وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بضمها ﴿ له ﴾ أي : وحده ﴿ ملك السموات والأرض ﴾ وما فيهما وما بينهما ظاهراً أو باطناً فالملك الظاهر ما هو الآن موجود في الدنيا من أرض مدحية وسماء مبنية وكواكب مضية وأفلاك ورياح وسحاب مرئية وغير ذلك مما يحيط به علمه تعالى والملك الباطن الغائب عنا وأعظمه المضاف إلى الآخرة وهو الملكوت ﴿ يحيي ﴾ أي : له صفة الإحياء فيحيي ما شاء من الخلق بأن يوجده على صفة الحياة كيف شاء في أطوار يقلبها كيف شاء ومما شاء ﴿ ويميت ﴾ أي : له هاتان الصفتان على سبيل الاختيار والتجدد والاستمرار فهو قادر على البعث بدليل ما ثبت له من صفة الإحياء ﴿ وهو على كل شيء ﴾ أي : من الإحياء والإماتة وغيرهما من كل ممكن ﴿ قدير ﴾ أي : بالغ القدرة .

(311/747)

﴿ هو ﴾ أي : وحده ﴿ الأول ﴾ بالأزلية قبل كل شيء فلا أوّل له ، والقديم الذي منه وجود كل شيء ، وليس وجوده من شيء لأنّ كل ما نشاهده متأثر لأنه متغير وكل ما كان كذلك فلا بدّ له من موجد غير متأثر ولا متغير ﴿ والآخر ﴾ أي : بالأبدية الذي ينتهي إليه

وجود كل شيء في سلسلة الترقي وهو بعد فناء كل شيء باق فلا آخر له ، لأنه يستحيل عليه نعت العدم لأنّ كل ما سواه متغير وكل ما تغير بنوع من التغير جاز إعدامه وما جاز إعدامه فلا بدّ له من معدم يكون بعده ولا يمكن إعدامه ﴿ والظاهر ﴾ أي : الغالب العلي على كل شيء ﴿ والباطن ﴾ أي : العالم بكل شيء هذا معنى قول ابن عباس ، وقال يمان : هو الأوّل القديم والآخر الرحيم والظاهر الحكيم والباطن العليم ؛ وقال السدي : هو الأول ببره إذ عرفك توحيده والآخر بجوده إذ عرفك التوبة على ما جنيت والظاهر بتوفيقه إذ وفقك للسجود له والباطن بستره إذ عصيته فستر عليك ؛ وقال الجنيد : هو الأول بشرح القلوب والآخر بغفران الذنوب والظاهر بكشف الكروب والباطن بعلم الغيوب ؛ وسأل عمر كعباً عن هذه الآية فقال : معناها أن علمه بالأوّل كعلمه بالآخر وعلمه بالظاهر كعلمه بالباطن ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ أي : لكون الأشياء عنده على حد سواء البطون والظهور إنما هو بالنسبة إلى الخلق ، وأما هو سبحانه وتعالى فلا باطن من الخلق عنده بل هم في غاية الظهور لديه لأنه الذي أوجدهم .

فإن قيل : ما معنى هذه الواوات ؟

أجيب : بأنّ الواو الأولى : معناها الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية ؛ والثالثة : أنه الجامع بين الظهور والخفاء ، وأمّا الوسطى : فعلى أنه الجامع بين الصفتين الأولين ومجموع الصفتين الآخرين فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والحاضرة والآتية وهي في جميعها ظاهر وباطن جامع للظهور بالأدلة والخفاء فلا يدرك بالحواس ؛ قال الزمخشري : وفي هذا حجة على من جوز إدراكه في الآخرة بالحاسة وهذا على رأيه الفاسد وهو على رأي المعتزلة المنكرين رؤية الله تعالى في الآخرة ؛

وأما أهل السنة فإنهم يثبتون الرؤية للأحاديث الدالة على ذلك من غير تشبيه ولا تكييف تعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً ؛ وعن سهل قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول : اللهمّ ربّ السموات والأرض ربّ العرش العظيم ربنا ورب كل شيء ، فالق الحبّ والنوى ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شرّ كل شيء أنت آخذ بناصيته ، اللهمّ أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين وأغننا من فضلك . وكان يروى ذلك عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم

﴿ هو ﴾ أي : وحده ﴿ الذي خلق السموات ﴾ وجمعها لعلم العرب بتعددها ﴿ والأرض ﴾ أي : الجنس الشامل للكل وأفردها لعدم توصلهم إلى العلم بتعدّدها وقال تعالى : ﴿ في ستة أيام ﴾ أي : من أيام الدنيا أولها الأحد وآخرها الجمعة سناً للتأني في الأمور وتقدير للأيام التي أوترها سابعها الذي خلق فيه الإنسان الذي دل يوم خلقه باسمه الجمعة على أنه المقصود بالذات وبأنه السابع نهاية المخلوقات وقوله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ أي : السرير كناية عن انفراده بالتدبير وإحاطة قدرته وعلمه ، كما يقال في ملوكنا جلس فلان على سرير الملك بمعنى : أنه انفرد بالتدبير لا يكون هناك سرير فضلاً عن جلوس وأتى بأداة التراخي تنبيهاً على عظمته ﴿ يعلم ما يلج ﴾ أي : يدخل دخولاً يغيب فيه ﴿ في الأرض ﴾ أي : من النبات وغيره من أجزاء الأموات وغيرها وإن كان ذلك في غاية البعد فإنّ الأماكن كلها بالنسبة إليه تعالى على حد سواء في القرب والبعد ﴿ وما يخرج منها ﴾ كذلك .

تنبيه : في التعبير بالمضارع دلالة على ما أودع في الخافقين من القوى فصارا بحيث يتجدد منهما ذلك بخلقه تجدّد مستمرّاً إلى حين خرابهما ﴿ وما ينزل من السماء ﴾ من الوحي

والأمطار والحرّ والبرد وغيرها من الأعيان والمنافع التي يوجدها سبحانه وتعالى من مقادير أعمار بني آدم وأرزاقهم وغيرها من جميع شؤونهم ﴿ وما يعرج ﴾ أي: يصعد ويرتقي ويغيب ﴿ فيها ﴾ كالأبخرة والأنوار والكواكب والأعمال وغيرها ولم يجمع السماء لأنّ المقصود حاصل بالواحدة مع إفهام التعبير بها الجنس الشامل للكل ﴿ وهو معكم ﴾ بالعلم والقدرة أيها الخلق ﴿ أينما كنتم ﴾ لا ينفك علمه وقدرته عنكم بحال فهو عالم بجميع أموركم وقادر عليكم تعالى الله عن اتصال بالعالم ومماسة أو انفصال عنه بغيبة أو مسافة ﴿ والله ﴾ أي: المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ بما تعملون ﴾ أي: على سبيل التجدّد والاستمرار ﴿ بصير ﴾ أي: عالم بجليله وحقيرة فيجازيكم به وقدم الجار لمزيد الاهتمام والتنبيه على تحقيق الإحاطة ﴿ له ﴾ أي: وحده ﴿ ملك السموات ﴾ وجمع لاقتضاء المقام له ﴿ والأرض ﴾ وأفرد لخفاء تعدّدها عليهم مع إرادة الجنس، ودل على إرادة ملكه وإحاطته بقوله تعالى: ﴿ وإلى الله ﴾ أي: الملك الذي لا كفؤ له وحده ﴿ ترجع ﴾ بكل اعتبار على غاية السهولة ﴿ الأمور ﴾ أي: كلها حساً لبعثٍ ومعنى بالابتداء والإفناء ودل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ يولج ﴾ أي: يدخل ويغيب بالنقص والمحو ﴿ الليل في النهار ﴾ فإذا هو قد قصر بعد طوله وقد انمحى بعد شخوصه وحلوله، وزاد النهار وملأ الضياء الأقطار بعد ذلك الظلام ﴿ ويولج النهار ﴾ الذي عمّ الكون ضياؤه ﴿ في الليل ﴾ الذي كان قد غاب في علمه فإذا الظلام قد طبق الآفاق فيزيد الليل والطول الذي كان في

النهار قد صار نقصاً ﴿ وهو ﴾ أي : وحده ﴿ عليم ﴾ أي : بالغ العلم ﴿ بذات الصدور ﴾ أي : بما فيها من الأسرار والمعتقدات على كثرة اختلافها وتغيرها وإن خفيت على أصحابها .

ولما قامت الأدلة على تنزيهه سبحانه قال تعالى آمراً بالإذعان له ولرسوله صلى الله عليه وسلم

﴿ آمنوا ﴾ أي : أيها الثقلان ﴿ بالله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي لا مثل له ﴿ ورسوله ﴾ الذي عظمته من عظمته ، ونزل في غزوة العسرة وهي غزوة تبوك ﴿ وأنفقوا ﴾ أي : في سبيل الله ﴿ مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ أي : من الأموال التي في أيديكم فإنها أموال الله تعالى لأنها بخلقه وإنشائه لها ، وإنما موّلكم إياها وخولكم بالاستمتاع بها وجعلكم خلفاء في التصرّف فيها فليست هي بأموالكم في الحقيقة وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب ، فأنفقوا منها في حقوق الله تعالى وليهن عليكم الإنفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه ، أو جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيما في أيديكم بتوريثه إياكم فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم وسينقل منكم إلى من بعدكم ، فلا تبخلوا به

وانفعوا بالإنفاق منها أنفسكم.

ولما أمر تعالى بالإنفاق ووصفه بما سهله سبب عنه ما يرغب فيه فقال تعالى: ﴿ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا ﴾ من أموالهم في الوجوه التي ندب إليها على وجه الإصلاح على ما دلّ عليه التعبير بالإنفاق ﴿ لهم أجر كبير ﴾ أي: لا تبلغ عقولكم حقيقة كبره فاغتنموا الإنفاق في أيام استخلافكم قبل عزلكم وإتلافكم، وخصهم بالذكر بقوله تعالى: ﴿ منكم ﴾ لضيق في زمانهم، وقيل: إنّ ذلك إشارة إلى عثمان فإنه جهز جيش العسرة.

(316/747)

وقوله تعالى: ﴿ وما ﴾ أي: وأيّ شيء ﴿ لكم ﴾ من الأعذار أو غيرها في أنكم أو حال كونكم ﴿ لا تؤمنون بالله ﴾ أي: تجدّدون الإيمان تجديداً مستمراً بالملك الأعلى، أي: الذي له الملك كله والأمر كله خطاب للكفار، أي: لا مانع لكم بعد سماعكم ما ذكر ﴿ والرسول ﴾ أي: والحال أن الذي له الرسالة العامة ﴿ يدعوكم ﴾ في الصباح والمساء ﴿ لتؤمنوا ﴾ أي: لأجل أن تؤمنوا ﴿ بربكم ﴾ الذي أحسن تربيتكم بأن جعلكم من أمّة هذا النبيّ الكريم فشرفكم به ﴿ وقد ﴾ أي: والحال أنه قد ﴿ أخذ ميثاقكم ﴾ أي: وقع أخذه فصار في غاية القباحة، ترك التوثق بسبب نصب الأدلة والتمكين من النظر بإبداع

العقول وذلك كله منضم إلى أخذ الذرّية من ظهر آدم عليه السلام حين أشهدهم على أنفسهم ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ (الأعراف :)

(317/747)

وقرأ أبو عمرو : بضم الهمزة وكسر الخاء ورفع القاف على البناء للمفعول ليكون المعنى : من أيّ أخذ كان من غير نظر إلى معين وقرأ الباقون بفتح الهمزة والخاء ونصب القاف على البناء للفاعل والآخذ هو الله القادر على كل شيء العالم بكل شيء ، والحاصل : أنهم نقضوا الميثاق في الإيمان فلم يؤاخذهم حتى أرسل الرسل ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي : مريدين الإيمان فبادروا إليه ﴿هو﴾ أي : لا غيره ﴿الذي ينزل﴾ أي : على سبيل التدريج والموالاة بحسب الحاجة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي ، والباقون بفتح النون وتشديد الزاي ﴿على عبده﴾ الذي هو أحق الناس بحضرة جماله وإكرامه وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿آيات﴾ أي : علامات هي من ظهورها حقيقة أن يرجع إليها ويتعبد بها ﴿بينات﴾ أي : واضحات وهي آيات القرآن الكريم ﴿ليخرجكم﴾ أي : الله بالقرآن أو عبده بالدعوة ﴿من الظلمات﴾ التي أنتم منغمسون فيها من الحظوظ والنقائص التي جبل عليها الإنسان والغفلة الكاملة على تراكم الجهل ، فمن

آتاه الله تعالى العلم والإيمان فقد أخرجه من هذه الظلمات التي طرأت عليه ﴿ إلى النور ﴾ الذي كان له وصفاً لروحه وفطرته الأولى السليمة ﴿ وإن الله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال ﴿ بكم لرؤوف رحيم ﴾ أي : حيث نبهكم بالرسل والآيات ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية ، وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي بقصر الهمزة ، والباقون بالمدّ ، وورش على أصله بالمدّ والتوسط والقصر ، وليس قصره كقصر أبي عمرو ومن معه وإنما قصره كمدّ قالون ومن وافقه ﴿ وما ﴾ أي : وأي شيء يحصل ﴿ لكم ﴾ في ﴿ أن لا تنفقوا ﴾ أي : توجدوا الإنفاق للمال ﴿ في سبيل الله ﴾ أي : في كل ما يرضى الملك الأعظم الذي له صفات الكمال ليكون لكم به وصلة فيخصكم بالرأفة التي هي أعظم الرحمة ، فإنه ما يبخل أحد عن وجه خير إلا سلط الله عليه غرامة في وجه شرّ ﴿ ولله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال لا سيما صفة الإرث المقتضية للزهد في الموروث

(318/747)

﴿ ميراث السموات والأرض ﴾ أي : يرث كل شيء فيهما فلا يبقى لأحد مال فمن تأمّل أنه زائل هو وكل ما في يده والموت من ورائه وطوارق الحوادث مطبقة به وعما قليل ينقل ما في يده إلى غيره هان

عليه الجود بنفسه وماله

لا

(319/747)

ثم بين تعالى التفاوت بين المنفقين منهم فقال تعالى : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق ﴾ أي : أوجد الإنفاق في ماله وجميع قواه وما يقدر عليه ﴿ من قبل الفتح ﴾ أي : الذي هو فتح جميع الدنيا في الحقيقة وهو فتح مكة الذي كان سبباً لظهور الدين الحق ﴿ وقاتل ﴾ سعياً في إنفاق نفسه لمن آمن به قبل الإسلام وقوة أهله ودخول الناس في دين الله أفواجاً وقله الحاجة إلى القتال والنفقة فيه ومن أنفق من بعد الفتح ، فحذف لوضوحه ودلالة ما بعده عليه ، وفضل الأوّل لما ناله إذ ذاك بالإنفاق من كثرة المشاق لضيق المال حينئذ ، وفي هذا دليل على فضل أبي بكر فإنه أول من أنفق لم يسبقه في ذلك أحد ، وخاصم الكفار حتى ضرب ضرباً شديداً أشرف منه على الهلاك ، روى محمد بن فضيل عن الكلبي : أنّ هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، وعن ابن عمر قال : "كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أبو بكر الصديق عليه عباءة قد خلها في صدره بخلال فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال : مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلها بخلال ؟ فقال : أنفق

ماله عليّ قبل الفتح قال : فإنّ الله عز وجل يقول : اقرأ عليه السلام وقل له : أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط ؟ فقال أبو بكر : أسخط على ربي إني عن ربي راض"

﴿ أولئك ﴾ أي : المنفقون المقاتلون وهم السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار الذين قال فيهم النبيّ صلى الله عليه وسلم "لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلع مدّ أحدهم ولا نصيفه" لمبادرتهم إلى الجود بالنفس والمال ﴿ أعظم درجة ﴾ وتعظيم الدرجة يكون لعظم صاحبها ﴿ من الذين أنفقوا من بعد ﴾ أي : من بعد الفتح ﴿ وقاتلوا ﴾ أي : من بعد الفتح ﴿ وكلا ﴾ أي : وكل واحد من الفريقين ﴿ وعد الله ﴾ أي : الذي له

الجلال والإكرام ﴿ الحسنى ﴾ أي : المثوبة الحسنى وهي : الجنة مع تفاوت الدرجات ، وقرأ ابن عامر : برفع اللام على الابتداء أي : وكل وعده ليطابق ما عطف عليه والباقون بنصبها أي : وعد كلا ﴿ والله ﴾ أي : الذي له الإحاطة الكاملة بجميع صفات الكمال ﴿ بما تعملون ﴾ أي : تجدّدون عمله على الأوقات ﴿ خبير ﴾ أي : عالم بباطنه وظاهره علماً لا مزيد عليه بوجه فهو يجعل جزاء الأعمال على قدر النيات التي هي أرواح صورها .

تنبيه : التقدم والتأخر قد يكون في أحكام الدين وقد يكون في أحكام الدنيا فأمّا التقدّم في أحكام الدين فقالت عائشة "أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم وأعظم المنازل مرتبة الصلاة" وقد قال صلى الله عليه وسلم في مرضه : "مروا أبا بكر فليصل بالناس" وقال : "يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله" وقال : "فليؤمكما أكبركما" وأما أحكام الدنيا فهي مرتبة على أحكام الدين فمن قدّم في الدين قدّم في الدنيا ، وفي الحديث "ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا" وفي الحديث : "ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له عند سنه من يكرمه"

ثم رغب في الإنفاق بقوله تعالى : ﴿ من ﴾ وأكد بالإشارة بقوله تعالى : ﴿ ذا ﴾ لأجل ما للنفوس من الشح ﴿ الذي يقرض الله ﴾ أي : يعطي الذي له جميع صفات الجلال والإكرام شبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز لأنه إذا أعطى المستحق ما له لوجه الله تعالى فكأنه أقرضه إياه ﴿ قرضاً حسناً ﴾ أي : طيباً خالصاً مخلصاً فيه متحرياً به أفضل الوجوه من غير منّ وكدر بتسويف وغيره ﴿ فيضاعفه له ﴾ أي : يؤتي أجره من عشرة إلى أكثر من سبعمئة كما ذكره في البقرة إلى ما شاء الله تعالى من الأضعاف ، وقيل : القرض الحسن أن

يقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وقال زيد بن أسلم : هو النفقة على الأهل ، وقال الحسن : التطوع بالعبادات ، وقرأ ابن عامر وعاصم بنصب الفاء بعد العين والباقون بالرفع وقرأ ابن كثير وابن عامر بغير ألف بعد الضاد وتشديد العين ، والباقون بألف بعد الضاد وتخفيف العين ﴿ وله ﴾ أي : للمقرض زيادة على ذلك ﴿ أجر ﴾ لا يعلم قدره إلا الله تعالى وهو معنى وصفه بقوله تعالى : ﴿ كريم ﴾ أي : حسن طيب زاك تامّ

وقوله تعالى:

(322/747)

﴿ يوم ﴾ ظرف لقوله تعالى : ﴿ وله أجر كريم ﴾ أو منصوب بإضمار أذكر أي : واذكر يوم ﴿ ترى ﴾ أي : بالعين ﴿ المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي : الذين صار الإيمان لهم صفة راسخة ﴿ يسعى نورهم ﴾ أي : ما يوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة ﴿ بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين ، كما أنّ الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم فيجعل النور في الجهتين شعار لهم وآية لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا وبصحائفهم البيض أفلحوا ، فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومرّوا على الصراط يسعون يسعى معهم ذلك النور حبيباً لهم ومتقدّماً ، والأوّل : نور الإيمان والمعرفة والأعمال المقبولة

، والثاني : نور الإنفاق لأنه بالإيمان نبه عليه الرازي وقال قتادة : ذكر لنا أنّ نبيّ الله صلى الله عليه وسلم "قال من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن ودون ذلك حتى أنّ من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه" . وقال عبد الله بن مسعود : "يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم وأدناهم نوراً نوره على إبهامه فيطفأ مرة ويتقد أخرى ويقول لهم الذين يتلقونهم من الملائكة :

﴿ بشراكم اليوم ﴾ أي : بشارتكم العظيمة في جميع ما يستقبلكم من الزمان .

تنبيه : ﴿ بشراكم اليوم ﴾ مبتدأ واليوم ظرف وقوله تعالى : ﴿ جنات ﴾ خبره على حذف مضاف أي : دخول جنات وهو المبشر به ثم وصفها بما لا تكمل اللذة إلا به بقوله :

﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ ثم آمنهم من خوف الانقطاع بقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ أي : خلوداً لا آخر له لأنّ الله تعالى أورثهم ذلك فلا يورث عنه لأنّ الجنة لا موت فيها

﴿ ذلك ﴾ أي : هذا الأمر العظيم المتقدّم من النور والبشرى بالجنات المخلدة ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ أي : الذي ملأ بعظمته جميع جهاتهم .

ولما شرح تعالى حال المؤمنين في موقف القيامة أتبع ذلك بشرح حال المنافقين بقوله : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات ﴾ وهم المظهرون الإيمان المبطنون الكفر .

تنبيه : يوم بدل من يوم ترى أو منصوب بأذكر ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي : ظاهراً وباطناً ﴿ انظرونا ﴾ أي : انتظرونا لأنه يسرع بهم إلى الجنة كالبرق الخاطف على ركائب تزف بهم وهؤلاء مشاة ، أو انظروا إلينا لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به ، وقرأ حمزة : بقطع الهمزة في الوصل وكسر الظاء والباقون بوصل الهمزة ورفع الظاء ، وأما الوقف على آمنوا والابتداء بانظرونا فحمزة على حاله كما يقرأ في الوصل ، والباقون بضم همزة الوصل في الابتداء والظاء على حالها من الضم ﴿ نقتبس ﴾ أي : نستضيء ﴿ من نوركم ﴾ أي : هذا الذي نراه لكم ولا يلحقنا منه شيء كما كنا في الدنيا نرى إيمانكم بما نرى من ظواهركم ولا نتعلق من ذلك بشيء ، ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ (النبأ :)

وذلك لأنّ الله تعالى يضيء للمؤمنين نوراً على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط ، ويعطي المنافقين أيضاً نوراً خديعة لهم وهو قوله تعالى : ﴿ وهو خادعهم ﴾ (التحريم :)

فبينما هم يمشون إذ بعث الله ريحاً وظلمة فأطفأت نور المنافقين فذلك قوله تعالى : ﴿ يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه ﴾ الآية مخافة أن يسلبوا نورهم كما سلب نور المنافقين والقبس الشعلة من النار أو السراج ، قال ابن عباس وأبو إمامة : يغشى الناس يوم القيامة ظلمة ؛ قال الماوردي : أظنها بعد فصل القضاء ثم يعطون نوراً يمشون فيه ؛ وقال الكلبي : بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور فإذا سبقهم المؤمنون وبقوا في الظلمة قالوا للمؤمنين : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ قيل لهم جواباً لسؤالهم ؛ قال ابن عباس يقول لهم المؤمنون : أي : قول ردّ وتوبيخ وتهكم وتنديم ﴿ ارجعوا وراءكم ﴾ أي : ارجعوا إلى الموقف حيث أعطينا النور ﴿ فالتمسوا نوراً ﴾ هناك فمن ثم يقتبس أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً بتحصيل سببه وهو الإيمان أو ارجعوا خائبين وتنحوا عنا والتمسوا نوراً آخر فلا سبيل لكم إلى هذا النور ، وقد علموا أن لا نور وراءهم وإنما هو تخييب وإقناط لهم ، وقال قتادة : تقول لهم الملائكة : ارجعوا وراءكم من حيث جئتم ، وقرأ هشام والكسائي : بضم القاف والباقون بكسرها .

ولما كان التقدير فرجعوا أو فأقاموا في الظلمة سبب عنه وعقب قوله تعالى : ﴿ فضرب بينهم ﴾ أي : بين المؤمنين والمنافقين ﴿ بسور ﴾ أي : حائط حائل بين شق الجنة وشق النار ﴿ له ﴾ أي : لذلك السور ﴿ باب ﴾ موكل به حجاب لا يفتحون إلا لمن أذن له الله تعالى من المؤمنين لما يهديهم إليه من نورهم الذي بين أيديهم بشفاعة أو نحوها ﴿ باطنه ﴾ أي : ذلك السور أو الباب وهو الشق الذي يلي الجنة من جهة الذين آمنوا جزاء لإيمانهم الذي هو غيب ﴿ فيه الرحمة ﴾ وهي ما لهم من الكرامة لأنه يلي الجنة التي هي ساترة تبطن من فيها بأشجارها وبأستارها كما كانت بواطنهم ملآنة رحمة ﴿ وظاهره ﴾ أي : ما ظهر لأهل النار ﴿ من قبله ﴾ أي : من عنده ومن جهته ﴿ العذاب ﴾ وهو الظلمة والنار لأنه يليها لاقتصار أهلها على الظواهر من غير أن يكون لهم نفوذ إلى باطن ، وروي عن عبد الله بن عمر أنّ السور الذي ذكر الله تعالى في القرآن هو سور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه المسجد وظاهره من قبله العذاب وادي جهنم .

وقال ابن سريج : كان كعب يقول : في الباب الذي يسمى باب الرحمة في بيت المقدس إنه الباب الذي قال الله تعالى : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب ﴾ الآية ، وقيل : السور عبارة

عن منع المنافقين عن طلب المؤمنين ﴿ ينادونهم ﴾ أي : ينادي المنافقون الذين آمنوا ويترقون لهم ﴿ ألم نكن معكم ﴾ أي : في الدنيا نصلي ونصوم فنستحق المشاركة فيما صرتم إليه بسبب ذلك الذي كنا معكم فيه ﴿ قالوا ﴾ أي : الذين آمنوا ﴿ بلى ﴾ أي : كنتم معنا في الظاهر ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم ﴾ أهلكتموها بالنفاق والكفر واستعملتموها في المعاصي والشهوات وكلها فتنة ﴿ وتربصتم ﴾ أي : بالإيمان والتوبة وبمحمد صلى الله عليه وسلم وقلتم : يوشك أن يموت فنستريح منه ﴿ وارتبتم ﴾ أي : شككتم في الدين وفي نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفيما وعدكم به ﴿ وغرّتكم الأمانيّ ﴾ أي : ما تتمنون من الإرادات التي معها شهوة عظيمة من الأطماع الفارغة التي لا سبب لها غير شهوة النفس إياها بما كنتم تتوقعون لنا من دوائر السوء ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ أي : قضاء الملك المتصف بجميع صفات الكمال فلا كفؤ له ولا خلف وقرأ قالون وأبو عمرو بإسقاط الهمزة الأولى مع المدّ والقصر ، وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية ، وأيضاً لهما إبدالها والباقون بتحقيقهما ، وأمال الألف بعد الميم حمزة وابن ذكوان ، والباقون بالفتح وإذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة الثانية مع المدّ والتوسط والقصر ﴿ وغرّكم بالله ﴾ أي : الملك الذي له جميع العظمة ﴿ الغرور ﴾ أي : من لا صنع له إلا الكذب وهو الشيطان فإنه يزين لكم بغروره التسويف ويقول : إنّ الله غفور رحيم وعفو كريم وماذا عسى أن تكون ذنوبكم عنده وهو عظيم ومحسن وحليم ونحو ذلك فلا يزال

حتى يوقع الإنسان فإذا أوقعه واصل عليه مثل ذلك حتى يتمادى فإذا تمادى صار الباعث له حينئذ من قبل نفسه فصار طوع يده ﴿ فاليوم ﴾ أي : بسبب أفعالكم تلك ﴿ لا يؤخذ منكم فدية ﴾ أي : نوع من أنواع الفداء وهو البدل والعوض للنفس على أي

(327/747)

حال كان من قلة أو

كثرة لأنّ الإله غني وقد فات محل العمل الذي شرعه لكم لانقياد أنفسكم ، وقرأ ابن عامر بالتاء الفوقية على التأنيث والباقون بالتحتية على التذكير ﴿ ولا من الذين كفروا ﴾ أي : الذين أظهروا كفرهم ولم يستروه كما سترتموه أنتم لمساواتكم لهم في الكفر ، وإنما عطف الكافر على المنافق وإن كان المنافق كافراً في الحقيقة لأنّ المنافق أبطن الكفر والكافر أظهره فصار غير المنافق فحسن عطفه على المنافق ﴿ مأواكم النار ﴾ أي : منزلكم ومسكنكم لا مقر لكم غيرها تحرقكم كما كنتم تحرقون قلوب الأولياء بإقبالكم على الشهوات وإضاعة حقوق ذوي الحاجات ، وقرأ حمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين ، والباقون بالفتح ، وورش لا يبدل هذه الهمزة ثم أكد ذلك بقوله تعالى :

﴿ هي ﴾ أي : لا غيرها ﴿ مولاكم ﴾ أي : هي أولى بكم وأنشد قول لبيد :

*

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه ** مولى المخافة خلفها وأمامها *

والشاهد في مولى المخافة فمولى بمعنى أولى والفرجان الجانبان وهو الخلف والقدام وهو وصف بقرة وحشية أي : غدت على حالة كلا جانبيها مخوف وحقيقته في الآية محراكم بحاء مهملة وراء أي : مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم كما قيل هو مئنة للكرم أي : مكان ، كقول القائل : إنه لكريم ، ويجوز أن يراد هي ناصركم ، أي : لا ناصر لكم غيرها ، والمراد : نفي الناصر على البنات ، وقيل : تتولاكم كما توليتم في الدنيا أعمال أهل النار . ولما كان التقدير بئس المولى هي عطف عليه قوله تعالى : ﴿ وبئس المصير ﴾ أي : هذه النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 7 صـ 305 .316 ﴾

(328/747)

وقال القاسمى :

سورة الحديد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سبح لله ما فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أي : أظهر كل موجود تنزيهه عن الشريك والولد ، وكل مالا يليق به ، وآذن بانفراده في ألوهيته ، وتدبيره وعلمه وقدرته ؛ فإن من شاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على حال من الترتيب والإحكام ، وربط الأسباب بالمسببات ، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض ، لا تنقضي عجائبه ، ولا تنتهي غاياته ، فبالضرورة يقضي بأن هذا الترتيب المحكَم هو أثرُ خالق واحد ، مدبر لنظامه ، مريد لسيره في سننه ، كما بسطناه في " دلائل التوحيد " .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي : القويّ الذي يقهر كل ما في السماوات والأرض ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ أي : الذي رتب نظام كل موجود على ترتيب حكمي .

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : سلطانهما ، ونفوذ الأمر فيهما ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي : يوجد ما يشاء من الحيوان والنبات كيفما شاء ، ويميته بعد بلوغه أجله فيفنيه ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي : تام القدرة ، فلا يتعذر عليه شيء أراده من إحياء وإماته وغيرهما .

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ ﴾ أي : السابق على كل موجود ، من حيث إنه موجده ومحدثه ﴿ وَالْآخِرُ ﴾ أي : الباقي بعد فناء كل شيء ﴿ وَالظَّاهِرُ ﴾ أي : وجوده بالأدلة الدالة عليه . وقال ابن جرير : أي : الظاهر على كل شيء من دونه ، وهو العالي فوق كل شيء فلا شيء أعلى منه ﴿ وَالْبَاطِنُ ﴾ أي : باحتجابه بذاته وماهيته ، أو العالم بباطن كل شيء . قال

ابن جرير : أي : الباطن جميع الأشياء فلا شيء أقرب إلى شيء منه ، كما قال ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : 16] ، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : تام العلم ، فلا يخفى عليه شيء .

(329/747)

وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو عند النوم : < اللهم ربَّ السماوات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الديَّن وأغننا من الفقر > رواه مسلم وغيره .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ قال القاشانيّ : أي : من الأيام الإلهية ، وقيل المعهودة ، والله أعلم .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ قال ابن جرير : أي : هو الذي أنشأ السماوات السبع والأرضين ، فدبّرهن وما فيهن ، ثم استوى على عرشه فارتفع عليه وعلا .

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : من خلقه ، كالأموات والبذور والحيوانات ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أي : كالزروع ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء ﴾ أي : من الأمطار والثلوج والبرَد والأقدار والأحكام ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أي : من الملائكة والأعمال وغيرها ﴿ وهو معكم اينما كنتم ﴾ قال ابن جرير : أي : وهو شاهد لكم ، أينما كنتم ، يعلَمكُم ويعلم أعمالكم ومتقلبكم ومثواكم ، وهو على عرشه فوق سماواته السبع .

(330/747)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في " شرح حديث النزول " : لفظ المعية في سورة الحديد والمجادلة ، في آيتيهما ، ثبت تفسيره عن السلف بالعلم ، وقالوا : هو معهم بعلمه . وقد ذكر الإمام ابن عبد البر وغيره ، أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولم يخالفهم أحد يعتدّ بقوله ، وهو مأثور عن ابن عباس والضحاك ومقاتل بن حيان وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل وغيرهم . قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية : هو على العرش وعلمه معهم ، وهكذا عمن ذكر معه . وقد بسط الإمام أحمد الكلام على المعية في " الرد على الجهمية " . ولفظ المعية في كتاب الله جاء عاماً كما في هاتين الآيتين ، وجاء خاصاً كما في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : 128] ، وقوله :

﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : 46] ، وقوله : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : 40] ، فلو كان المراد بذاته مع كل شيء ، لكان التعميم يناقض التخصيص ، فإنه قد علم أن قوله :

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أراد به تخصيصه وأبا بكر ، دون عدوهم من الكفار .

وكذلك قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ خصهم بذلك دون الظالمين والفجار . وأيضاً فلفظ المعية ، ليست في لغة العرب ، ولا شيء من القرآن أن يراد بها اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى ، كما في قوله :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [الفتح : 29] ، وقوله : ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : 146] ، وقوله :

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : 119] وقوله : ﴿ وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ ﴾ [الأنفال : 75] ، ومثل هذا كثير . وأيضاً فامتنع أن يكون قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يدل على أن ذاته مختلطة بذوات الخلق . وأيضاً فإنه افتتح الآية بالعلم ، وختمها بالعلم ، فكان

السياق يدل على أنه أراد أنه عالم به . وقد بُسِط الكلام عليه في موضع آخر ، وبيّن أن لفظ المعية في اللغة ، وإن اقتضى المصاحبة والمقاربة ، فهو إذا كان مع العباد ، لم يناف ذلك علوَّه على عرشه ، ويكون حكم معيته في كل موطن بحسبه ، فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ، ويخص بعضهم بالإعانة والنصر والتأييد . انتهى .

وقال الإمام موفق الدين بن قدامة المقدسي رضي الله عنه في كتاب " ذم التأويل " :

فإن قيل : فقد تأولتم آيات وأخباراً ، فقلتم في قوله تعالى :

﴿ وهو معكم اينما كنتم ﴾ أي : بالعلم ، ونحو هذا من الآيات والأخبار ، فيلزمكم ما لزمنا ؟

قلنا : نحن لم نتأول شيئاً ، وحملُ هذه اللفظات على هذه المعاني ليس بتأويل لأن التأويل صرف اللفظ عن ظاهره ، وهذه المعاني هي الظاهر من هذه الألفاظ ، بدليل أنه المتبادر إلى الإفهام منها . وظاهر اللفظ هو ما يسبق إلى الفهم منه ، حقيقة كان أو مجازاً ، ولذلك كان ظاهر الأسماء العرفية ، المجاز دون الحقيقة ، كاسم الرواية والظعينة وغيرهما من الأسماء العرفية ، فإن ظاهر هذا المجاز دون الحقيقة ، وصرفها إلى الحقيقة يكون تأويلاً

يحتاج إلى دليل ، وكذلك الألفاظ التي لها عرف شرعيّ وحقيقة لغوية ، كالوضوء والطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج ، إنما ظاهرها العرف الشرعيّ دون الحقيقة اللغوية . وإذا تقرر هذا فالمتبادر إلى الفهم من قولهم : إن الله معك ، أي : بالحفظ والكلاءة ؛ ولذلك قال تعالى فيما أخبر عن نبيّه ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : 40] ، وقال لموسى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : 46] ، ولو أراد أنه بذاته مع كل أحد لم يكن لهم بذلك اختصاص ؛ لوجوده في حق غيرهم كوجوده فيهم ، ولم يكن ذلك موجباً لنفي الحزن عن أبي بكر ، ولا علة له ؛ فعلم أن ظاهر هذه الألفاظ هو ما حملت عليه ، فلم يكن تأويلاً ، ثم لو كان تأويلاً فما نحن تأولناه ، وإنما السلف رحمة الله عليهم ، الذين ثبت صوابهم ، ووجب اتباعهم ، هم الذين تأوّلوه ، فإن ابن عباس والضحاك ومالكاً وسفيان وكثيراً من العلماء قالوا في قوله :

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ : أي : علمه ، ثم قد ثبت بكتاب الله ، والمتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماع السلف ، أن الله تعالى في السماء على عرشه ، وجاءت هذه اللفظة مع قرائن محفوفة بها دالة على إرادة العلم منها ، وهو قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا

فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [المجادلة : 7] ، ثم قال في آخرها : ﴿ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فبدأها بالعلم ، وختمها به ، ثم سياقها لتخويفهم بعلم الله تعالى بحالهم ، وأنه ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ويجازيهم عليه ، وهذه قرائن كلها دالة على إرادة العلم ، فقد اتفق فيها هذه القرائن ، ودلالة الأخبار على معناها ، ومقالة السلف وتأويلهم ؛ فكيف يلحق بها ما يخالف الكتاب والأخبار ومقالات السلف ؟ فهذا لا يخفى على عاقل إن شاء الله تعالى ، وإن خفي فقد كشفناه وبيناه بحمد الله تعالى ، ومع هذا لو سكت إنسان عن تفسيرها وتأويلها لم يخرج ولم يلزمه شيء ، فإنه لا يلزم أحداً الكلام في التأويل إن شاء الله تعالى . انتهى كلام ابن قدامة رحمه الله .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي : فيجازيكم عليه .

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أي : أمور جميع خلقه ، فيقضي بينهم بحكمه .

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أي : يدخل ما نقص من ساعات أحدهما فيجعله زيادة في الآخر بحكمته وتقديره ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي : بضمائر صدور عباده ، وما عزمت عليه نفوسهم من خير أو شر .

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ أي : آمنوا الإيمان اليقيني ليظهر أثره عليكم ، فيسهل عليكم الإنفاق من مال الله الذي موّلكم إياه ، وجعلكم مستخلفين فيه ، بتمكينكم وإقداركم على التصرف فيه بحكم الشرع ؛ إذ الأموال كلها لله ، واختصاص نسبة التصرف إنما هو بحكمه في شريعته ، أفاده القاشانيّ .

وقال الشهاب : الخلافة إمّا عمّن له التصرف الحقيقيّ ، وهو الله تعالى ، وهو المناسب لقوله : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أو عمّن تصرّف فيها قبلهم ممن كانت في أيديهم فانتقلت لهم . وعلى كلٍّ ففيه حث على الإنفاق وتهوين له ، أما على الأول فظاهر ؛ لأنه أذن له في الإنفاق من ملك غيره ، ومثله يسهل إخراجه وتكثيره . وعلى الثاني أيضاً ، لأن من علم أنه لم يبق لمن قبله ، علم أنه لا يدوم له أيضاً ، فيسهل عليه الإخراج .

وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعُ ولا بدَّ يوماً أن تُردَ الودائع

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ أي : وما يصدّكم عنه ، وقد ظهرت دواعيه , اتضحت سبله لذويه كما قال ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ أي : يدعوكم من طريق النظر والتفكر إلى الإيمان بالذي ربّاكم بنعمه ، وصرّفكم بآلائه ، فوجب عليكم شكره .

﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ أي : بالإيمان ، إذ ركّب فيكم العقول ، ونصب الأدلّة .

ومكّنكم من النظر ، بل أودع في فطركم ما يضطركم لذلك إذا نُبهتم ، وقد حصل ذلك بتذكير الرسول ، فما عليكم إلا أن تأخذوا في سبيله .

﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ قال القاشانيّ : أي : إن بقي نور الفطرة والإيمان الأزلي فيكم .

﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي : حُججاً واضحات ، وبراهين قاطعات

﴿ لِيُخْرِجَكُم ﴾ أي : الله ، أو عبده بآياته ﴿ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أي : من ظلمات الجهل والكفر والأهواء المتضادّة ، إلى نور الهدى واليقين ، الذي تشعر به النفوس ، وتطمئن به القلوب . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

أي في إنزاله الكتب ، وإرساله الرسل لهدايتكم ، إزاحة للعلل ، وإزالة للشبهة .

ولما كان إنزال هذه السورة للأمر بالإنفاق في سبيل الله ، والترغيب فيه ، والحث عليه ، أكثر من ذكره في ضروب من البيان ، وفنون من الإحكام ، ولذا قال سبحانه :

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : يرث كل شيء فيهما ، ولا يبقى لأحد مال . وإذا كان كذلك ، فما أجدر أن ينفق المرء في حياته ، ويتخذه ذخراً يجده بعد مماته .

قال الشهاب : هذا من أبلغ ما يكون في الحث على الإنفاق ، لأنه قرنه بالإيمان أولاً لما أمرهم به ، ثم وبخهم على ترك الإيمان ، مع سطوع براهينه ، وعلى ترك الإنفاق في سبيل من أعطاه لهم ، مع أنهم على شرف الموت ، وعدم بقائه لهم إن لم ينفقوه ، وسبيل الله كل خير يوصلهم إليه ، أعم من الجهاد وغيره . وقصر بعضهم إياه على الجهاد ، لأنه فرده الأكمل ، وجزؤه الأفضل ، من باب قصر العامّ على أهم أفراده وأشملها ، لا سيما وسبب النزول كان لذلك

.

(336/747)

﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ أي : من قبل فتح مكة ، أو صلح الحديبية ، وقاتل لتعلو كلمة الحق . ومن أنفق من بعد وقاتل في حال قوة الإسلام ، وعزة أهله . فحذف الثاني لوضوح الدلالة عليه فإن الاستواء لا يتم إلا بذكر شيئين ، على أنه أشير إليه بقوله مستأنفاً عنهم زيادة في التنويه بهم : ﴿ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ أي : لعظم موقع نصرة الرسول ، صلوات الله عليه ، بالنفس ، وإنفاق المال في تلك الحال ، وفي المسلمين قلة ، وفي الكافرين شوكة وكثرة عدد ؛ فكانت الحاجة إلى النصرة والمعاونة أشد ، بخلاف ما بعد الفتح ، فإن الإسلام صار في ذلك الوقت قوياً ،

والكفر ضعيفاً ، ويدل عليه قوله تعالى :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ ﴾ [التوبة : 100] ، وقوله عليه السلام : < لا تسبوا أصحابي ، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه > . وهذه الآية دالة على فضل من سبق إلى الإسلام وأنفق وجاهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم أفاده الرازيّ .

وفي " الإكليل " : في الآية دليل على أن للصحابة مراتب ، وأن الفضل للسابق ، وعلى تنزيل الناس منازلهم ، وعلى أن أفضلية العمل على قدر رجوع منفعته إلى الإسلام والمسلمين ، لأن الأجر على قدر النصب . انتهى .

﴿ وَكُلّاً ﴾ أي : وكل واحد من الفريقين ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ أي : المثوبة الحسنى ، وهي الجنة ، لا الأولين فقط ، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء .

قال ابن كثير : وإنما نبه بهذا لئلا يهدر جانب آخر ، فيمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه ، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه ، مع تفضيل الأول عليه .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي : من النفقة في سبيله ، وجهاد أعدائه ، وغير ذلك فيجازيكم على جميع ذلك .

قال ابن كثير : ولخبرته تعالى ، فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل, ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول ، وإخلاصه التامّ ، وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق ، وفي الحديث : < سبق درهم مائة ألف > ولا شك عند أهل الإيمان أن الصدِّيق أبا بكر رضي الله عنه له الحظّ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله عزّ وجلّ ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها . وقوله تعالى :

﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ قال أبو السعود : ندب بليغ من الله تعالى إلى الإنفاق في سبيله ، بعد الأمر به ، والتوبيخ على تركه ، وبيان درجات المنفقين ، أي : من ذا الذي ينفق ماله في سبيله تعالى رجاء أن يعوضه ، فإنه كمن يقرضه ، وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه ، وتحري أكرم المال ، والإنفاق وأفضل الجهات له . فالقرض مجاز عن حسن إنفاقه مخلصاً في أفضل جهات الإنفاق ؛ وذلك إما بالتجوز في الفعل ، فيكون استعارة تبعية تصريحية ، أو في مجموع الجملة ، فيكون استعارة تمثيلية ، وقد زعم بعضهم أنها مقصورة على النفقة في القتال ، وآخرون على نفقة العيال . قال ابن كثير : والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق في سبيل الله بنيّة خالصة ، وعزيمة صادقة ، دخل في عموم هذه الآية .

وهو جليّ ، وقد أسلفنا بيانه مرارا ً .

وقوله تعالى :

﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ أي : يعطيه ثوابه أضعافا ً مضاعفة ، ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أي : جزاء شريف جميل . والجملة حالية ، أو معطوفة مشيرة إلى أن الأجر كما زاد كَمُّهُ ، راد كَيْفُهُ .

(338/747)

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ أي : لكونهم على الصراط المستقيم ، متوجهين إليه تعالى . و النور إما حقيقيّ حسيّ, على ما روي عن ابن مسعود : أن نورهم على قدر أعمالهم ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، فدون ذلك . قيل : وإنما خصصت تلك الجهات ؛ لأن منها أخذت صحف الأعمال ، فجعل الله معها نورا ً يعرف به أنهم من أصحاب اليمين ، وإما مجازيّ معنوي مراد به ما يكون سببا ً للنجاة ، واختاره ابن جرير ، وأيده بقوله : لو عنى بذلك النور الضوء المعروف ، لم يخص عنه الخبر بالسعي بين الأيدي والأيما ن ، دون الشمائل ، لأن ضياء المؤمنين الذين يؤتونه في الآخرة يضيء لهم جميع ما حولهم ، وفي تخصيص الخبر عن سعيه بين أيديهم وبأيمانهم ، دون الشمائل ، ما يدل على أنه معنيّ به غير الضياء وإن

كانوا لا يخلون من الضياء ؛ فتأويل الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا : وكلاً وعد الله الحسنى يوم ترون المؤمنين والمؤمنات يسعى ثواب إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم وفي أيمانهم كتب أعمالهم تطَايرُ . ويعني بقوله : ﴿ يَسْعَى ﴾ يمضي والباء في قوله :

﴿ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ بمعنى في ، وكان بعض نحويي البصرة يقول : الباء في قوله :

﴿ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ بمعنى على أيمانهم ، وقوله :

﴿ يَوْمَ تَرَى ﴾ من صلة وَعَدَ . انتهى .

﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ ﴾ أي : يقول لهم من يتلقاهم من الملائكة : بشراكم ، أي : المبشَّر به جنات أو بشراكم دخول جنات . وقد قيل : إن البشارة تكون بالأعيان فلا حاجة لتقدير مضاف تصحيحاً للحمل .

﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

(339/747)

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ أي : نصب منه ، يقال : اقتبس ، أي : أخذ قبساً ، وهو الشعلة . و ﴿ انظُرُونَا ﴾ بمعنى انظروا إلينا ، على الحذف والإيصال ؛ لأن النظر بمعنى مجرد الرؤية ، يتعدى بـ إلى ، فإن أريد التأمل تعدى

بـفي . وقولهم ذلك إما حينما يساق المؤمنون إلى الجنة زمراً ، والمنافقون في العرصات شاخصون إليهم ، أو حينما يشرفون من الغرف على المنافقين ، وهم في ضوضائهم وجلبتهم في جهنم ، كقوله تعالى :

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ [الأعراف : 50] الآية .

وقيل :

﴿ انظُرُونَا ﴾ بمعنى انتظرونا ، وهو الذي عول عليه ابن جرير . والمراد حينئذ من الانتظار للاقتباس ، هو رجاء شفاعتهم لهم ، أو دخولهم الجنة معهم طمعاً في غير مطمع ، يقولون لهم ذلك حينما يسرع بهم إلى الجنة .

﴿ قِيلَ ﴾ أي : قالت الملائكة أو المؤمنون : ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً ﴾ قال الزمخشري : طردٌ لهم ، وتهكم بهم ، أي : ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور فالتمسوه هناك ، فمن ثم يقتبس ، أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً بتحصيل سببه ، وهو الإيمان . أو ارجعوا خائبين ، وتنحوا عنا فالتمسوا نوراً آخر ، فلا سبيل لكم إلى هذا النور وقد علموا أن لا نور وراءهم ، وإنما هو تخييب وإقناط لهم . وكلامه يدل على حمل النور على حقيقته ، ولا مانع من أنه كنى به عن الإيمان والعمل الصالح ، أي : ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا إيماناً وعملاً طيباً يهديكم إلى النجاة ، كما أن النور يهدي في الظلمات ، على

طريق الاستعارة . والأمر للتخسير والتنديم . وهذا مع ما ذكره الزمخشري رحمه الله ، وجه رابع .

(340/747)

ونقل الرازيّ عن أبي مسلم ، أن المراد من قول المؤمنين : ﴿ ارْجِعُوا ﴾ منع المنافقين عن الاستضاءة كقول الرجل لمن يريد القرب منه : وراءك أوسع لك . قال الرازيّ : فعلى هذا القول ، المقصود من قوله : ﴿ ارْجِعُوا ﴾ أن يقطعوا بأنه لا سبيل لهم إلى وجدان هذا المطلوب ، لأنه أمر لهم بالرجوع . انتهى ، وهذا وجه خامس .

ثم أشار إلى امتياز الفريقين في المنازل وتباينهما فيها ، بقوله سبحانه :

﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ أي : بين المؤمنين والمنافقين بحائط متين يحجزهم عن أنوار المؤمنين ، لتتم ظلمتهم ﴿ لَهُ ﴾ أي : لذلك السور ﴿ بَابٌ ﴾ أي : لأهل الجنة يدخلون منه ، ويرى به المنافقون المؤمنين ليكلموهم ﴿ بَاطِنُهُ ﴾ وهو الجانب الذي يلي المؤمنين ﴿ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ يعني : الجنة وما فيها من رضوان الله والنعيم المقيم ﴿ وَظَاهِرُهُ ﴾ وهو الذي يلي المنافقين ﴿ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ أي : من عنده ، ومن جهته الظلمة والنار .

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ يريدون موافقتهم في الظاهر ﴿ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ

أَنفُسَكُمْ ﴾ أي : محنتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ أي : بالمؤمنين الدوائر ، ليظهر الكفر فتظهروا ما في أنفسكم ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أي : في توحيد الله ونبوة نبيّه ، أو في البعث بعد الموت ، أو في قوله ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [التوبة : 33] و [الفتح : 28] ، ووعده بنصر المؤمنين ، أو في جميع ذلك .

﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ أي : طول الآمال والطمع في امتداد الأعمار ، أو قولهم : ﴿ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾

﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ يعني : الموت ، أو مصداق وعده بنصرة رسوله وإظهار دينه ، أو عذاب النار ﴿ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ أي : الشيطان ، فأطمعكم بالنجاة والفوز والغلبة . وقرئ : ﴿ الغرور ﴾ بالضم .

﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ هذا من تتمة قول المؤمنين للمنافقين بعد أن ميز بينهم ، أي : فاليوم لا يقبل منكم ما يفتدى به ، بدلاً من عذابكم ، وعوضاً من عقابكم ﴿ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعني المجاهرين بالكفر من المحادّين لله ولرسوله ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ

﴾ أي: أولى بكم، أو تتولاكم كما توليتم موجباتها في الدنيا ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي: النار. انتهى انتهى. اهـ ﴿محاسن التأويل جـ 16 صـ 36.25 ﴾

(342/747)

وقال الشيخ سيد قطب:

سورة الحديد

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

هذا المطلع الموحي المختار . وما حشد فيه من خصائص الألوهية الفاعلة المؤثرة المبدعة لكل شيء , المحيطة بكل شيء , المهيمنة على كل شيء , العليمة بكل شيء . وما تعرضه من إبداع اليد القادرة وهي تجول في محيط السماوات والأرض , وتتلطف إلى خبايا الصدور وطوايا القلوب , وتشرف من عل على الوجود وما فيه ومن فيه . .

هذا المطلع الموحي المختار يتناول القلوب , فيهزها هزا , ويأخذها أخذا , وهو يجول بها في الوجود كله فلا تجد إلا الله , ولا ترى إلا الله , ولا تحس بغير الله , ولا تعلم لها مهربا من قدرته ولا مخبأ من علمه , ولا مرجعا إلا إليه , ولا متوجها إلا لوجهه الكريم:

(سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) . .

هكذا ينطلق النص القرآني الكريم في مفتتح السورة ; فتتجاوب أرجاء الوجود كله بالتسبيح لله . ويهينم كل شيء في السماوات والأرض , فيسمعه كل قلب مفتوح غير محجوب بأحجبة الفناء . ولا حاجة لتأويلالنص عن ظاهر مدلوله . فالله يقول . ونحن لا نعلم شيئا عن طبيعة هذا الوجود وخصائصه أصدق مما يقوله لنا الله عنه . . (سبح لله ما في السماوات والأرض) تعني سبح لله ما في السماوات والأرض . . ولا تأويل ولا تعديل ! ولنا أن نأخذ من هذا أن كل ما في السماوات والأرض له روح , يتوجه بها إلى خالقه بالتسبيح وإن هذا لهو أقرب تصور يصدقه ما وردت به الآثار الصحيحة , كما تصدقه تجارب بعض القلوب في لحظات صفائها وإشراقها , واتصالها بالحقيقة الكامنة في الأشياء وراء أشكالها ومظاهرها . .

وقد جاء في القرآن الكريم: (يا جبال أوبي معه والطير) . . فإذا الجبال كالطير تؤوب مع داود ! وجاء في الأثر:أخرج مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة قال:قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :" إن بمكة حجرا كان يسلم علي ليالي بعثت . إني لأعرفه الآن " . . وروى الترمذي - بإسناده - عن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - قال:كنت مع

رسول الله بمكة فخرجنا في بعض نواحيها , فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول: "السلام عليك يا رسول الله" . . وروى البخاري في صحيحه بإسناده عن أنس بن مالك قال: "خطب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى لزق جذع . فلما صنعوا له المنبر فخطب عليه حن الجذع حنين الناقة , فنزل الرسول فمسحه , فسكن" . .

وآيات القرآن كثيرة وصريحة في تقرير هذه الحقيقة الكونية: (ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه) . . (ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس) . . (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) . . ولا داعي لتأويل هذه النصوص الصريحة لتوافق مقررات سابقة لنا عن طبائع الأشياء غير مستمدة من هذا القرآن . فكل مقرراتنا عن الوجود وكل تصوراتنا عن الكون ينبغي أن تنبع أولا من مقررات خالق هذا الكون ومبدع هذا الوجود .

(وهو العزيز الحكيم) . . فتسبيح ما في السماوات والأرض له فرع عن العزة الغالبة والحكمة البالغة . فهو المهيمن على كل شيء بقوته , وهو جاعل كل شيء وفق حكمته .

الدرس الثاني:2 الله المالك المحيي المميت القادر

وما يكاد القلب البشري يفيق من فيض هذا النص , ومن مهرجان الوجود المسبح لخالقه في

السماوات والأرض , حتى يعالجه السياق برحلة جديدة في ملكوت السماوات والأرض:

(له ملك السماوات والأرض , يحيي ويميت , وهو على كل شيء قدير) . .

(344/747)

إن كل شيء في السماوات والأرض سبح لله . مالك السماوات والأرض . الذي لا شريك له في ملكه . فهو تسبيح المملوك لمالكه المتفرد , الذي يحيي ويميت , فيخلق الحياة ويخلق الموت . ويقدر الحياة لكل حي ويقدر له الموت ; فلا يكون إلا قدره الذي قضاه .

والحياة ما تزال سرا في طبيعتها , وسرا في مصدرها ; ولا يملك أحد أن يقول من أين جاءت , ولا كيف جاءت . فضلا على أن أحدا لا يدري ما هي على وجه الحقيقة . والنص القرآني يقول:إن الله هو الذي يحيي . الذي يعطي الحياة للأحياء . وما يملك أحد أن ينكر هذا ولا أن يثبت غيره . والموت كالحياة سر مغلف . لا يعرف أحد طبيعته ولا يملك أحد أن يحدثه . لأن أحدا غير واهب الحياة لا يملك سلبها . . وهذا وذلك من مظاهر الملكية المطلقة لله في السماوات والأرض يحيي ويميت . . .

(وهو على كل شيء قدير) . . إجمالا بغير حد ولا قيد . فالمشيئة المطلقة تمضي بغير حد ولا قيد . وتتعلق

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3)

بما تشاء أن تتعلق به كما تشاء . وكل قيد يتصوره العقل البشري بمنطقه هو لهذه المشيئة من أي نوع وأي لون هو تصور باطل , ناشيء من طبيعة العقل البشري المحدود ! واختيار المشيئة لنواميس وسنن لهذا الوجود داخل في حقيقة انطلاقها بلا قيود ولا حدود . فهي تختار هذه النواميس والسنن اختيارا طليقا , وتعملها في الكون غير مقيدة بها بعد إعمالها , ولا محصورة في نطاقها . والاختيار دائم ومطرد وراء هذه السنن والنواميس . .

والقرآن يولي هذه الحقيقة عناية كبيرة , فينص عليها في كل مناسبة بما يفيد طلاقة المشيئة من كل قيد يرد عليها حتى من عملها هي . لتبقى هذه الحقيقة واضحة , ويبقى تصورها غير مشوب . فقد وعد الله أهل الجنة بالخلود فيها وأهل النار كذلك . وهذا الوعد صادر من المشيئة . ولكنه أبقى المشيئة طليقة خارج نطاق هذا الوعد ذاته وهو من عملها وباختيارها . فقال عن هؤلاء وهؤلاء : (خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك . .) . . وهكذا في كل موضع وردت فيه مثل هذه المناسبة . ولا مجال لمنطق العقل البشري ولا لمقرراته في هذا المجال . وعليه أن يأخذ مقرراته كلها من هذا

القرآن , لا من معين آخر غير القرآن !

ومن ثم يتمثل للقلب البشري من خلال هذه الآية سلطان الله المطلق في ملكه الذي لا شريك له فيه , والذي يتوجه إليه سبحانه بالتسبيح وحق له أن يتوجه , وحق عليه أن يسبح .

وما يكاد يفيق من تصور هذه الحقيقة الضخمة التي تملأ الكيان البشري وتفيض , حتى تطالعه حقيقة أخرى , لعلها أضخم وأقوى . حقيقة أن لا كينونة لشيء في هذا الوجود على الحقيقة . فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده سبحانه ; ومن ثم فهي محيطة بكل شيء , عليمة بكل شيء :

(هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) . .

الأول فليس قبله شيء . والآخر فليس بعده شيء . والظاهر فليس فوقه شيء . والباطن فليس دونه شيء .

الأول والآخر مستغرقا كل حقيقة الزمان , والظاهر والباطن مستغرقا كل حقيقة المكان . وهما مطلقتان . ويتلفت القلب البشري فلا يجد كينونة لشيء إلا لله . وهذه كل مقومات الكينونة ثابتة له دون سواه . حتى وجود هذا القلب ذاته لا يتحقق إلا مستمدا من وجود الله . فهذا الوجود الإلهي هو الوجود الحقيقي الذي يستمد منه كل شيء وجوده . وهذه

الحقيقة هي الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقته . وليس وراءها حقيقة ذاتية ولا وجود ذاتي لشيء في هذا الوجود . .

(346/747)

(وهو بكل شيء عليم) . . علم الحقيقة الكاملة . فحقيقة كل شيء مستمدة من الحقيقة الإلهية وصادرة عنها . فهي مستغرقة إذن بعلم الله اللدني بها . العلم الذي لا يشاركه أحد في نوعه وصفته وطريقته . مهما علم المخلوقون عن ظواهر الأشياء !

فإذا استقرت هذه الحقيقة الكبرى في قلب , فما احتفاله بشيء في هذا الكون غير الله سبحانه ? وكل شيء لا حقيقة له ولا وجود - حتى ذلك القلب ذاته - إلا ما يستمده من تلك الحقيقة الكبرى ? وكل شيء وهم ذاهب , حيث لا يكون ولا يبقى إلا الله , المتفرد بكل مقومات الكينونة والبقاء ?

وإن استقرار هذه الحقيقة في قلب ليحيله قطعة من هذه الحقيقة . فأما قبل أن يصل إلى هذا الاستقرار , فإن هذه الآية القرآنية حسبه ليعيش في تدبرها وتصور مدلولها , ومحاولة الوصول إلى هذا المدلول الواحد وكفى !

ولقد أخذ المتصوفة بهذه الحقيقة الأساسية الكبرى , وهاموا بها وفيها , وسلكوا إليها

مسالك شتى , بعضهم قال إنه يرى الله في كل شيء في الوجود . وبعضهم قال: إنه رأى الله من وراء كل شيء في الوجود . وبعضهم

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (5) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (6)

قال: إنه رأى الله فلم ير شيئا غيره في الوجود . . وكلها أقوال تشير إلى الحقيقة إذا تجاوزنا عن ظاهر الألفاظ القاصرة في هذا المجال . إلا أن ما يؤخذ عليهم - على وجه الإجمال - هو أنهم أهملوا الحياة بهذا التصور . والإسلام في توازنه المطلق يريد من القلب البشري أن يدرك هذه الحقيقة ويعيش بها ولها , بينما هو يقوم بالخلافة في الأرض بكل مقتضيات الخلافة من احتفال وعناية وجهاد وجهد لتحقيق منهج الله في الأرض , باعتبار هذا كله ثمرة لتصور تلك الحقيقة تصورا متزنا , متناسقا مع فطرة الإنسان وفطرة الكون كما خلقهما الله .

الدرس الرابع:4 الله الخالق واستواؤه على العرش وعلمه بما في السماوات والأرض

وبعد إطلاق تلك الحقيقة الكبرى جعل يذكر كيف انبثقت منها حقائق الوجود الأخرى:

هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام , ثم استوى على العرش , يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها , وما ينزل من السماء وما يعرج فيها . وهو معكم أينما كنتم . والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض , وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل , وهو عليم بذات الصدور . .

حقيقة خلق السماوات والأرض . وحقيقة الاستواء على العرش والهيمنة على الخلق . وحقيقة العلم بأشياء بعينها من هذا الخلق . وحقيقة الوجود مع كل أحد أينما وجد . وحقيقة رجعة الأمور إليه وحده . وحقيقة تصرفه اللطيف في كيان الوجود , وعلمه الخفي بذات الصدور . .

وكلها حقائق منبثقة عن تلك الحقيقة الأولى . . ولكن عرضها في هذا المجال الكوني يجعل لها في القلب البشري إيقاعات وظلالا . . والسماوات والأرض تواجه هذا القلب وتروعه بضخامتها وجلالها , وتناسقها وجمالها , كما تواجهه وتروعه بدقة نظامها

وانضباط حركاتها , واطراد ظواهرها . ثم إنها خلائق من خلق الله كالقلب البشري . فله بها صلة الأسرة وأنس القرابة . وهي توقع على أوتاره إيقاعات لدنية حين يتوجه إليها , ويسمع لها , ويعاطفها ! وهي تقول له: إن الذي خلقها هو خلقه . وهي تسبح لخالقها فليسبح لخالقه ! كما تقول له: إنها تستمد حقيقة وجودها من وجود خالقها وأنه هو كذلك . فليس هنالك إذن إلا هذه الحقيقة تستحق الاحتفال بها !

والأيام الستة لا يعلم حقيقتها إلا الله . فأيامنا هذه ليست سوى ظلال ناشئة عن حركة الأرض حول نفسها أمام الشمس . وجدت بعد خلق الأرض والشمس فليست هي الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض . فنترك علمها لله يطلعنا عليه إن أراد .

وكذلك العرش . فنحن نؤمن به كما ذكره ولا نعلم حقيقته . أما الاستواء على العرش فنملك أن نقول: إنه كناية عن الهيمنة على هذا الخلق . استنادا إلى ما نعلمه من القرآن عن يقين من أن الله - سبحانه - لا تتغير عليه الأحوال . فلا يكون في حالة عدم استواء على العرش , ثم تتبعها حالة استواء . والقول بأننا نؤمن بالاستواء ولا ندرك كيفيته لا يفسر قوله تعالى: (ثم استوى) . والأولى أن نقول: إنه كناية عن الهيمنة كما ذكرنا . والتأويل هنا لا يخرج على المنهج الذي أشرنا إليه آنفا لأنه لا ينبع من مقررات وتصورات من عند أنفسنا . إنما يستند إلى مقررات القرآن ذاته , وإلى التصور الذي يوحيه عن ذات الله سبحانه وصفاته .

ومع الخلق والهيمنة العلم الشامل اللطيف , يصور النص القرآني مجاله تصويرا عجيبا يشغل القلب بتتبعه في هذا المجال الوسيع , وبتصوره في حركة دائمة لا تفتر . وهذا أمر غير مجرد ذكر العلم وحقيقته المجردة . أمر مؤثر موح يملأ جوانب النفس , ويشغل خوالج القلب , وتترامى به سبحات التصور ووثبات الخيال:

(يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها , وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) . .

وفي كل لحظة يلج في الأرض ما لا عداد له ولا حصر من شتى أنواع الأحياء والأشياء ; ويخرج منها ما لا عداد ولا حصر من خلائق لا يعلمها إلا الله . وفي كل لحظة ينزل من السماء من الأمطار والأشعة والنيازك والشهب , والملائكة والأقدار والأسرار ; ويعرج فيها كذلك من المنظور والمستور ما لا يحصيه إلا الله . . والنص القصير يشير إلى هذه الحركة الدائبة التي لا تنقطع , وإلى هذه الأحداث الضخام التي لا تحصى ; ويدع القلب البشري في تلفت دائم إلى ما يلج في الأرض وما يخرج منها , وما ينزل من السماء وما يعرج فيها , وفي تصور يقظ لعلم الله الشامل وهو يتبع هذه الحركات والأحداث , في مساربها ومعارجها .

والقلب في تلفته ذاك وفي يقظته هذه يعيش مع الله , ويسيح في ملكوته بينما هو ثاو في مكانه ; ويسلك فجاج الكون ويجوب أقطار الوجود في حساسية وفي شفافية , وفي رعشة من الروعة والانفعال .

وبينما القلب في تلفته ذاك في الأرض والسماء , إذا القرآن يرده إلى ذاته , ويلمسه في صميمه . وإذا هو يجد الله معه , ناظرا إليه , مطلعا عليه , بصيرا بعمله , قريبا جد قريب:

وهو معكم أينما كنتم , والله بما تعملون بصير . .

وهي كلمة على الحقيقة لا على الكناية والمجاز . فالله - سبحانه - مع كل أحد , ومع كل شيء , في كل وقت , وفي كل مكان . مطلع على ما يعمل بصير بالعباد . وهي حقيقة هائلة حين يتمثلها القلب . حقيقة مذهلة من جانب , ومؤنسة من جانب . مذهلة بروعة الجلال . ومؤنسة بظلال القربى . وهي كفيلة وحدها حين يحسها القلب البشري على حقيقتها أن ترفعه وتطهره , وتدعه مشغولا بها عن كل أعراض الأرض ; كما تدعه في حذر دائم وخشية دائمة , مع الحياة والتحرج من كل دنس ومن كل إسفاف .

الدرس الخامس:5 الله المالك ورجوع الأمور إليه

ومرة أخرى يعود إلى ملكية السماوات والأرض في مجال آخر غير الذي وردت فيه أول مرة:

(له ملك السماوات والأرض . وإلى الله ترجع الأمور) . .

ففي المرة الأولى جاء ذكرها في معرض الإحياء والإماتة والقدرة المطلقة . وهنا يجيء ذكرها في معرض رجعة الأمور كلها إلى الله . وهي متصلة بملكية الله للسماوات والأرض ومكملة لحقيقتها .

والشعور بهذه الحقيقة يحرس القلب من كل لفتة لغير الله في أي أمر . في أول الأمر وفي آخره . ويحميه من التطلع لغير الله في أي طلب , ومراقبة غير الله في أي عمل . ويقيمه على الطريق إلى الله في سره وعلنه , وحركته وسكونه , وخوالجه ونجواه . وهو يعلم أن لا مهرب من الله إلا إليه , ولا ملجأ منه إلا إلى حماه !

الدرس السادس:6 فعل الله بالليل والنهار وعلمه بذات الصدور

وينتهي هذا المطلع بحركة لطيفة من حركات القدرة في مجال الكون , وفي أطواء الضمير:

(يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل . وهو عليم بذات الصدور) . . .

ودخول الليل في النهار , ودخول النهار في الليل , حركة دائبة , وهي في الوقت ذاته حركة لطيفة سواء كان المعنى طول الليل وأخذه من النهار , وطول النهار وأخذه من الليل ; أو كان المعنى مجرد تداخل الليل في النهار عند الغروب , وتداخل النهار في الليل عند الشروق . .

ومثل هذه الحركة في خفائها ولطفها , حركة العلم بذات الصدور . وذات الصدور هي الأسرار المصاحبة لها , التي لا تفارقها ولا تبرحها !

والشعور بيد الله تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل , في لطف ; ينشئ في القلب حالة من التأمل

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7)

الرفيق , والحساسية الشفيفة . كالشعور بعلم الله يتلطف في الاطلاع على ذات الصدور , الساكنة في خبايا الصدور !

الدرس السابع: 7 – 10 الدعوة إلى الإيمان والإنفاق ومنازل المؤمنين وفضل السابقين

هذا المطلع بإيقاعاته تلك , يدع القلوب في حساسية مرهفة للتلقي . ومن ثم يجيء الهتاف لها بالإيمان والبذل في أنسب أوان . وقد تفتحت مداخلها , وتوفزت مشاعرها , واستعدت للاستماع . وهنا يجيء ذلك الهتاف في المقطع التالي في السياق . ولكنه لا يجيء مجردا . إنما يجيء ومعه مؤثراته وإيقاعاته ولمساته:

(آمنوا بالله ورسوله, وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه, فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير . وما لكم لا تؤمنون بالله, والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم, وقد أخذ ميثاقكم ? إن كنتم مؤمنين . هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور , وإن الله بكم لرؤوف رحيم . وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض ? لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل, أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى, والله بما تعملون خبير) . .

(352/747)

إن الله - سبحانه - يخاطب القلوب التي خلقها, فهو يعلم أحوالها, ويعرف مداخلها, ويطلع على خوافيها . . وهو يعلم أن نقاء العقيدة, وخلوص القلب, واستقرار حقيقة الإيمان استقرارا تنبثق منه آثاره ونتائجه في واقع الحياة, من بذل وتضحية وتقدمة خالصة لله . أن هذا أمر يكلف الطاقة البشرية كثيرا ; ويحتاج منها إلى جهد ومجاهدة طويلة . ومن ثم يحشد لها هذه الإيقاعات وهذه المؤثرات ; ويكشف لها عن الحقائق الكونية لتراها وتتأثر بها, وتزن كل شيء بميزانها الكبير الدقيق . ويعالجها المرة بعد المرة, والخطوة بعد الخطوة ;

ولا يكلها إلى هتاف واحد , أو بيان واحد , أو مؤثر واحد يوقع على أوتارها ثم يغيب . .
ومنهج القرآن الإلهي في علاج القلوب جدير بأن يقف الدعاة إلى الله أمامه طويلا ; ليتدبروه ويحاولوا أن يقلدوه !

إن الإيقاعات الأولى في مطلع السورة من القوة والتوالي والعمق والتأثير , بحيث تزلزل القلوب الجامدة , وتلين القلوب القاسية , وتدعها مرهفة الحساسية . ولكن القرآن لا يكل قلوب المخاطبين إلى هذه اللمسات الأولى , وهو يدعوهم إلى الإيمان والبذل في الفقرة التالية:

(آمنوا بالله ورسوله , وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) . .

والمخاطبون هنا هم مسلمون , ولكنهم يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله . فهي إذن حقيقة الإيمان يدعون لتحقيقها في قلوبهم بمعناها . وهي لفتة دقيقة . وهم يدعون إلى الإنفاق , ومع الدعوة لمسة موحية . فهم لا ينفقون من عند أنفسهم . إنما ينفقون مما استخلفهم الله فيه من ملكه . وهو الذي (له ملك السماوات والأرض) . . فهو الذي استخلف بني آدم جملة في شيء من ملكه . وهو الذي (يحيي ويميت) . . فهو الذي استخلف جيلا منهم بعد جيل .

وهكذا ترتبط هذه الإشارة بما سبق من الحقائق الكلية في مطلع السورة . ثم تقوم هي بدورها في استثارة الخجل والحياء من الله , وهو المالك الذي استخلفهم وأعطاهم , فماذا هم قائلون حين يدعوهم إلى إنفاق شيء مما استخلفهم فيه ومما أعطاهم ? ! وفي نهنهة النفوس عن الشح , والله هو المعطي ولا نفاد لما عنده , فماذا يمسكهم عن البذل والعطاء , وما في أيديهم رهن بعطاء الله ? !

ولكنه لا يكلهم إلى هذا التذكير وما يثيره من خجل وحياء , ومن سماحة ورجاء . إنما يخاطبهم بمؤثر جديد . يخجلهم من كرم الله ويطمعهم في فضله:

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (8) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (9)

(فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) . .

فكيف يتخلف متخلف عن الإيمان والبذل في مواجهة هذا الكرم والفضل ?

غير أن القرآن لا يكلهم إلى هذه اللمسات الأولى . إنما يلح على قلوبهم بموحيات الإيمان وموجباته من واقع حياتهم وملابساتها :

(وما لكم لا تؤمنون بالله , والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم , وقد أخذ ميثاقكم , إن كنتم مؤمنين . هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور . وإن الله

بكم لرؤوف رحيم) . .

فما الذي يعوقهم عن الإيمان – حق الإيمان – وفيهم الرسول يدعوهم إلى الإيمان . وقد بايعوه عليه وأعطوه ميثاقهم ؟ وما الذي يعوقهم عن الإيمان بالله وهو ينزل على عبده آيات بينات تخرجهم من ظلمات الضلال والشك والحيرة إلى نور الهدى واليقين والطمأنينة ؟ وفي هذا وذاك من دلائل الرأفة والرحمة بهم ما فيه .

(354/747)

إن نعمة وجود الرسول بين القوم , يدعوهم بلغة السماء , ويخاطبهم بكلام الله , ويصل بينهم وبين الله في ذوات نفوسهم وخواص شؤونهم . . نعمة فوق التصور حين نتملاها نحن الآن من بعيد . . فهذه الفترة – فترة الوحي وحياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فترة عجيبة حقا . . إن الله – جل جلاله – يخاطب هذا البشر من صنع يديه , على لسان عبده (صلى الله عليه وسلم) وفي رحمة علوية ندية يقول لهم: خذوا هذا ودعوا ذاك ! ها هو ذا طريقي فاسلكوه ! لقد تعثرت خطاكم فهاكم حبلي ! لقد أخطأتم وأثمتم فتوبوا وها هو ذا بابي مفتوح . تعالوا ولا تشردوا بعيدا , ولا تقنطوا من رحمتي التي وسعت كل شيء . . وأنت يا فلان – بذاتك وشخصك – قلت كذا . وهو خطأ . ونويت كذا . وهو إثم

. وفعلت كذا وهي خطيئة . . فتعال هنا قدامي وتطهر وتب وعد إلى حماي . . وأنت يا فلان – بذاتك وشخصك – أمرك الذي يعضلك هذا حله . وسؤالك الذي يشغلك هذا جوابه . وعملك الذي عملت هذا وزنه !

إنه الله . هو الذي يقول . يقول لهؤلاء المخاليق . وهم يعيشون معه . يحسون أنه معهم . حقيقة وواقعا . أنه يستمع إلى شكواهم في جنح الليل ويستجيب لها . وأنه يرعاهم في كل خطوة ويعنى بها . . .

ألا إنه لأمر فوق ما يطيق الذي لم يعش هذه الفترة أن يتصور . ولكن هؤلاء المخاطبين بهذه الآيات عاشوها فعلا . . ثم احتاجوا إلى مثل هذا العلاج ومثل هذه اللمسات , ومثل هذا التذكير . . وهو فضل من الله ورحمة فوق فضله ذاك ورحمته . يدركهما ويشعر بهما من لم تقدر له الحياة في هذه الفترة العجيبة:

ورد في صحيح البخاري أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال يوما لأصحابه: " أي المؤمنين أعجب إليكم ? " قالوا: الملائكة . قال " وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ? " . قالوا: فالأنبياء . قال: " وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ? " . قالوا: فنحن . قال: "

وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ? ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعد كم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها " . .

وصدق رسول الله . إنه لأمر متفاوت . وإن موحيات الإيمان وموجباته لديهم لشيء هائل , هائل , عجيب عجيب . وهو يعجب:ما لهم لا يؤمنون ? ثم يطلب إليهم تحقيق الإيمان في نفوسهم إن كانوا مؤمنين ! ثم ينتقل بهم من موحيات الإيمان وموجباته إلى موحيات الإنفاق وموجباته في توكيد وتكرير:

(وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض ?) . .

وفي هذه الإشارة عودة إلى حقيقة:(له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور) . .

فميراث السماوات

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10)

والأرض ملكه وراجع إليه , وما استخلفوا فيه إذن سيؤول إليه في الميراث ! فما لهم لا ينفقون في سبيله حين يدعوهم إلى الإنفاق . وهو استخلفهم فيه كما قال لهم هناك . وكله عائد إليه كما يقول لهم هنا ? وما الذي يبقى من دواعي الشح وهواتف البخل أمام هذه الحقائق في هذا الخطاب ?

ولقد بذلت الحفنة المصطفاة من السابقين , من المهاجرين والأنصار , ما وسعها من النفس والمال , في ساعة العسرة وفترة الشدة - قبل الفتح - فتح مكة أو فتح الحديبية وكلاهما اعتز به الإسلام أيام أن كان الإسلام غريبا محاصرا من كل جانب , مطاردا من كل عدو , قليل الأنصار والأعوان . وكان هذا البذل خالصا لا تشوبه شائبة من طمع في عوض من الأرض , ولا من رياء أمام كثرة غالبة من أهل الإسلام . كان بذلا منبثقا عن خيرة اختاروها عند الله ; وعن حمية لهذه العقيدة التي اعتنقوها وآثروها على كل شيء وعلى أرواحهم وأموالهم جميعا . . ولكن ما بذلوه - من ناحية الكم - كان قليلا بالقياس إلى ما أصبح الذين جاءوا بعد الفتح يملكون أن يبذلوه . فكان بعض هؤلاء يقف ببذله عند القدر الذي يعرف ويسمع أن بعض السابقين بذلوه ! هنا نزل القرآن ليزن بميزان الحق بذل هؤلاء وبذل أولئك , وليقرر أن الكم ليس هو الذي يرجح في الميزان ; ولكنه الباعث وما يمثله من حقيقة الإيمان:

(لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل . أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) . .

إن الذي ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة , والأنصار قلة وليس في الأفق ظل منفعة ولا سلطان ولا رخاء . غير الذي ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة , والأنصار كثرة , والنصر والغلبة والفوز قريبة المنال . ذلك متعلق مباشرة بالله , متجرد تجردا كاملا لا شبهة فيه , عميق الثقة والطمأنينة بالله وحده , بعيد عن كل سبب ظاهر وكل واقع قريب . لا يجد على الخير عونا إلا ما يستمده مباشرة من عقيدته . وهذا له على الخير أنصار حتى حين تصح نيته ويتجرد تجرد الأولين .

(357/747)

قال الإمام أحمد :حدثنا أحمد بن عبد الملك , حدثنا زهير , حدثنا حميد الطويل , عن أنس , قال:كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام , فقال خالد لعبد الرحمن:تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ! فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي (صلى الله عليه وسلم) فقال:" دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد - أو مثل الجبال - ذهبا ما بلغتم أعمالهم " . .

وفي الصحيح:" لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " .

وبعد أن قرر القيم الحقيقية في ميزان الله لهؤلاء ولهؤلاء عاد فقرر أن للجميع الحسنى:

(وكلا وعد الله الحسنى) . .

فقد أحسنوا جميعا , على تفاوت ما بينهم في الدرجات .

مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)

ومرد ذلك التفاوت وهذا الجزاء بالحسنى للجميع , إلى ما يعلمه الله من تقدير أحوالهم , وما وراء أعمالهم من عزائمهم ونواياهم . وخبرته تعالى بحقيقة ما يعملون:

(والله بما تعملون خبير) . .

وهي لمسة موقظة للقلوب , في عالم النوايا المضمرة وراء الأعمال الظاهرة , وهي التي تناط بها القيم , وترجح بها الموازين . .

الدرس الثامن: 11 - 15 مشهد من مشاهد المرور على الصراط بين المؤمنين والمنافقين

ثم مرحلة أخرى في استجاشة القلوب للإيمان والبذل , ومؤثرات أخرى وراء تلك المؤثرات:

(من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم ? يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا:انظرونا نقتبس من نوركم . قيل:ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فضرب بينهم بسور له باب , باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم:ألم نكن معكم ? قالوا:بلى ! ولكنكم فتنتم أنفسكم , وتربصتم , وارتبتم , وغرتكم الأماني , حتى جاء أمر الله , وغركم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا , مأواكم النار هي مولاكم , وبئس المصير) . .

إنه هتاف موح مؤثر آسر . وهو يقول للعباد الفقراء المحاويج:(من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ?) . . ومجرد تصور المسلم أنه هو الفقير الضئيل يقرض ربه , كفيل بأن يطير به إلى البذل طيرانا ! إن الناس ليتسابقون عادة إلى إقراض الثري المليء منهم - وهم كلهم فقراء - لأن السداد مضمون . ولهم الاعتزاز بأن أقرضوا ذلك الثري المليء ! فكيف إذا كانوا يقرضون الغني الحميد ? !

ولا يكلهم - سبحانه - إلى هذا الشعور وحده , ولكن يعدهم على القرض الحسن , الخالص له , المجرد من كل تلفت إلى سواه . يعدهم عليه الضعف في المقدار , والأجر

الكريم بعد ذلك من عند الله: (فيضاعفه له , وله أجر كريم) .

ثم يعرض لهم صفحة وضيئة من ذلك الأجر الكريم , في مشهد من مشاهد اليوم الذي يكون فيه ذلك الأجر الكريم .

(359/747)

"والمشهد هنا بإجماله وتفصيله جديد - بين المشاهد القرآنية - وهو من المشاهد التي يحييها الحوار بعد أن ترسم صورتها المتحركة رسما قويا . فنحن الذين نقرأ القرآن اللحظة نشهد مشهدا عجيبا . هؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم . ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعا لطيفا هادئا . ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم . فهذه الشخوص الإنسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعت نورا يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها . . إنه النور الذي أخرجها الله إليه وبه من الظلمات . والذي أشرق في أرواحها فغلب على طينتها . أم لعله النور الذي خلق الله منه هذا الكون وما فيه ومن فيه , ظهر بحقيقته في هذه المجموعة التي حققت في ذواتها حقيقتها !

"ثم ها نحن أولاء نسمع ما يوجه إلى المؤمنين والمؤمنات من تكريم وتبشير: (بشراكم اليوم جنات تجري

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ
فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ
(13) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ
الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (15)

من تحتها الأنهار خالدين فيها , ذلك هو الفوز العظيم) . .

(360/747)

ولكن المشهد لا ينتهي عند هذا المنظر الطريف اللطيف . . إن هناك المنافقين والمنافقات , في حيرة وضلال , وفي مهانة وإهمال . وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات: (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: انظرونا نقتبس من نوركم) . . فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف . ولكن أنى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها في الظلام ? إن صوتا مجهلا يناديهم: (قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) . . ويبدو أنه صوت للتهكم , والتذكير بما كان منهم في الدنيا من نفاق ودس في الظلام: ارجعوا وراءكم إلى الدنيا . إلى ما كنتم تعملون . ارجعوا فالنور

يلتمس من هناك . من العمل في الدنيا . ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور !

"وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات . فهذا يوم الفصل إن كانوا في الدنيا مختلطين في الجماعة: (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) . . ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت . فهاهم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين: (ألم نكن معكم ?) . . فما بالنا نفترق عنكم ? ألم نكن معكم في الدنيا نعيش في صعيد واحد ? وقد بعثنا معكم هنا في صعيد واحد ? (قالوا: بلى !) كان الأمر كذلك . (ولكنكم فتنتم أنفسكم) . . فصرفتموها عن الهدى . (وتربصتم) . . فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحاسمة . (وارتبتم) . . فلم يكن لكم من اليقين ما تعزمون به العزمة الأخيرة . (وغرتكم الأماني) . . الباطلة في أن تنجوا وتربحوا بالذبذبة وإمساك العصا من طرفيها ! (حتى جاء أمر الله) . . وانتهى الأمر . (وغركم بالله الغرور) . . وهو الشيطان الذي كان يطمعكم ويمنيكم" .

"ثم يستطرد المؤمنين في التذكير والتقرير , كأنما هم أصحاب الموقف المحكمون فيه:"

(فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا , مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير) .

. أم لعلها كلمة الملأ الأعلى , أو نطق الله الكريم . .

"وننظر من ناحية التناسق الفني في عرض المشهد , فنجد لاختيار مشهد النور في هذا الموضع بالذات حكمة خاصة . . إن الحديث هنا عن المنافقين والمنافقات . . والمنافقون والمنافقات يخفون باطنهم ويتظاهرون بغير ما في الضمير المكنون , ويعيشون في ظلام من النفاق والدس والوقيعة . والنور يكشف المخبوء ويفضح المستور . كما أن الصفحة المقابلة الوضيئة لصفحة النفاق المظلمة المطموسة . فهو أليق شيء بأن تطلق أشعته على المشهد الكبير . وبأن ينير بين أيدي المؤمنين والمؤمنات وبأيمانهم , بينما المنافقون في الظلام الذي يناسب ظلمات الضمير وظلمات الخفاء المستور ! "

وبعد فأي قلب لا يهفو لذلك النور في ذلك اليوم ؟ وأي قلب لا يستجيب لهتاف الإنفاق والبذل تحت إيقاع تلك الموحيات العميقة التأثير ؟

إنه القرآن يعالج القلوب في ثبات واطراد , ويدعوها دعاء العليم الخبير بطبيعتها ومداخلها ومساربها ; وما تستجيب له وما يؤثر فيها .

والشوط الثاني في السورة استطراد في الدعاء , ومزيد من موحيات الاستجابة , على هذا المنهج , وفي هذا الطريق . .

الوحدة الثانية:16 - 26 الموضوع:دعوة إلى الخشوع والإنفاق والتسابق للخير وقيمة

الدنيا بالقياس للآخرة وتاريخ الرسل والرسالات مقدمة الوحدة

هذا الشوط امتداد لموضوع السورة الرئيسي: تحقيق حقيقة الإيمان في النفس, حتى ينبثق عنها البذل الخالص في سبيل الله . وفيه من موحيات الإيمان, ومن الإيقاعات المؤثرة, قريب مما اشتمل عليه الشوط الأول, بعد ذلك المطلع العميق المثير .

(362/747)

وهو يبدأ برنة عتاب من الله - سبحانه - للمؤمنين, الذين لم يصلوا إلى تلك المرتبة التي يريدها الله لهم; وتلويح لهم بما كان من أهل الكتاب قبلهم من قسوة في القلوب وفسق في الأعمال, وتحذير من هذا المآل, الذي انتهى إليه أهل الكتاب بطول الأمد عليهم . مع إطماعهم في عون الله الذي يحيي القلوب كما يحيي الأرض بعد موتها .

فإذا انتهت هذه اللمسة تبعتها لمسة أخرى - مجالها العالم الآخر - وتكررت الدعوة إلى إقراض الله قرضا حسنا, مع بيان ما أعده الله لمن يقرضونه في الدنيا من العوض المضاعف والأجر الكريم . . على نحو مما جاء في الشوط الأول .

ولمسة ثالثة بوضع قيم الدنيا كلها في ميزان الله إلى جانب قيم الآخرة . . حيث تبدو قيم الأرض لعبا خفيفة الوزن; وترجح كفة الآخرة ويبدو فيها الجد الذي يستحق الاهتمام .

ومن ثم يهتف بهم ليسابقوا إلى قيم الآخرة . . في جنة عرضها كعرض السماء والأرض . أعدت للذين آمنوا بالله ورسله .

ولمسة رابعة ترجع بهم من ساحة الآخرة إلى ما هم فيه من واقع الحياة وأحداثها , فتعلق قلوبهم بقدر الله فيها . في السراء والضراء سواء . ومن ثم يهون عليهم البذل , ولا يزدهيهم من أعراض الأرض شيء ; وترتبط أحاسيسهم كلها بالسماء .

وبعد ذلك يعرض عليهم طرفا من تاريخ دعوة الله في الأرض , تبدو فيه وحدة المنهج , واستقامة الطريق . وأن الذي يحيد عنه في كل عهد هم الفاسقون . ويلوح لهم بما كان من بعض أهل الكتاب كما لوح لهم في أول الشوط . لينتهي من هذا الهتاف الأخير لهم بتقوى الله والإيمان برسوله , ليؤتيهم كفلين من رحمته , ويجعل لهم نورا يمشون به ويغفر لهم . ففضل الله ليس وقفا على أهل الكتاب كما يزعمون . إنما هو بيد الله يؤتيه من يشاء (والله ذو الفضل العظيم) . .

وهكذا تكون السورة من أولها إلى آخرها مترابطة الحلقات , في خط واحد ثابت , تتوالى إيقاعاتها على القلوب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3477 . 3488 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

قد قدمنا مراراً أن التسبيح هو تنزيه الله عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله ، وأصله في اللغة الإبعاد عن السوء ، من قولهم سبح . إذا صار بعيداً ، ومنه قيل للفرس : سابح ، لأنه إذا جرى يبعد بسرعة ، ومن ذلك قول عنترة في معلقته :

إذ لا أزال على رحالة سابح . . . نهر تعاوره الكماة مكلم

وقول عباس بن مرداس السلمي :

لا يغرسون فسيل النخل حولهم . . . ولا تخاور في مشتاهم البقر

إلا سوابح كالعقبان مقربة . . . في دارة حولها الأخطار والفكر

وهذا الفعل الذي هو سبح قد يتعدى بنفسه بدون اللام كقوله تعالى : ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح : 9] ، وقوله تعالى ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ [الإنسان : 26] ، وقد يتعدى باللام كقوله هنا : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ ، وعلى هذا فسبحه وسبح له لغتان كنصحه ونصح له . وشكره وشكر له ، وذكر بعضهم في الآية وجهاً آخر ، وهو أن المعنى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض ، أي أحدث التسبيح لأجل الله أي ابتغاء وجهه تعالى . ذكره الزمخشري وأبو حيان ، وقيل : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ أي صلى له .

وقد قدمنا أن التسبيح يطلق على الصلاة ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أهل السماوات والأرض يسبحون لله ، أي ينزهونه عما لا يليق ، بينه الله جل وعلا في آيات أخر من كتابه كقوله تعالى في سورة الحشر ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ [الحشر : 1] وقوله في الصف ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ [الصف : 1] أيضاً وقوله في الجمعة ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ [الجمعة : 2] ، وقوله في التغابن ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض لَهُ الملك وَلَهُ الحمد وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن : 1] .

وزاد في سورة بني إسرائيل أن السموات السبع والأرض يسبحن لله مع ما فيها من الخلق وأن تسبيح السموات ونحوها من الجمادات يعلمه الله ونحن لا نفقه أي لا نفهمه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] وهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن تسبيح الجمادات المذكور فيها وفي قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ ﴾ [الأنبياء : 79] ونحو ذلك تسبيح حقيقي يعلمه الله ونحن لا نعلمه .

والآية الكريمة فيها الرد الصريح ، على زعم من أهل العلم ، أن تسبيح الجمادات هو دلالة

إيجادها على قدرة خالقها ، لأن دلالة الكائنات على عظمة خالقها ، يفهمها كل العقلاء ، كما صرح الله تعالى بذلك في قوله ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تَجْرِي فِي البحر بِمَا يَنفَعُ الناس ﴾ [البقرة : 164] - إلى قوله -

(365/747)

﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : 164] وأمثال ذلك من الآيات كثيرة في القرآن .

وقد قدمنا إيضاح هذا في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بالغدو والآصال ﴾ [الرعد : 15] وفي سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ ﴾ [الكهف : 77] الآية ، وفي سورة الأحزاب في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب : 72] وفي غير ذلك من المواضع .

وقد عبر تعالى هنا في أول الحديد بصيغة الماضي في قوله : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ ، وكذلك في الحشر ، والصف ، وعبر في الجمعة والتغابن ، وغيرهما بقوله : ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ [الحشر : 24] بصيغة المضارع .

قال بعض أهل العلم : إنما عبر بالماضي تارة وبالمضارع أخرى ليبين أن ذلك التسبيح لله ، هو شأن أهل السموات وأهل الأرض ، ودأبهم في الماضي والمستقبل ذكر معناه الزمخشري وأبو حيان .

وقوله : ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ قد قدمنا معناه مراراً وذكرنا أن العزيز ، هو الغالب الذي لا يغلبه شيء ، وأن العزة هي الغلبة ، ومنه قوله : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ ﴾ [المنافقون : 8] وقوله : وعزني في الخطاب : أي غلبني في الخصام ، ومن أمثال العرب من عز بز ، يعنون من غلب استلب ، ومنه قول الخنساء :

كأن لم يكونوا حمى يختشى . . . إذ الناس إذ ذاك من عزبزا

والحكيم ، هو من يضع الأمور في مواضعها ، ويوقعها في مواقعها .

وقوله : ﴿ مَا فِي السماوات والأرض ﴾ . غلب فيه غير العاقل وقد قدمنا في غير هذا الموضع ، أنه تعالى ارة يغلب غير العاقل . في نحو ما في السموات وما في الأرض لكثرته ، وتارة يغلب العاقل لأهميته ، وقد جمع المثال للأمرين قوله تعالى في البقرة : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [البقرة : 116] . فغلب غير العاقل في قوله : ﴿ مَا

فِي السماوات ﴾ ، وغلب العاقل في قوله : ﴿ قَانِتُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا ينزِلُ مِنَ السمآء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

قوله : ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ . قد قدمنا إيضاحه في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 9] - إلى قوله - ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 12] ، وفي سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف : 54] .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى ﴿ ثُمَّ استوى عَلَى العرش يُغْشِي الليل النهار ﴾ [الأعراف : 54] الآية . وذكرنا طرفاً صالحاً من ذلك في سورة القتال في كلامنا الطويل على قوله : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : 24] .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا ينزِلُ مِنَ السمآء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه في أول سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا ينزل مِنَ السمآء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرحيم الغفور ﴾ [سبأ : 2] .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه وبينا الآيات القرآنية الدالة على المعية العامة . والمعية الخاصة ، مع بيان معنى المعية في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله مَعَ الذين اتقوا والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : 128] .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُنَزِّلُ على عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكيمة أنه هو الذي ينزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم آيات بينات ، أي واضحات ، وهي هذا القرآن العظيم ، ليخرج الناس بهذا القرآن العظيم المعبر عنه بالآيات البينات من الظلمات ، أي من ظلمات الكفر والمعاصي إلى نور التوحيد والهدى ، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في قوله تعالى في الطلاق : ﴿ فاتقوا الله ياأولي الألباب الذين آمَنُواْ قَدْ أَنزَلَ الله إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ الله مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [الطلاق : 10 – 11] وآية الطلاق هذه بينت أن آية الحديد من العام المخوص ، وأنه لا يخرج بهذا القرآن

العظيم من الظلمات إلى النور إلا من وفقهم الله للإيمان والعمل الصالح، فقوله في الحديد: ﴿ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ أي بشرط الإيمان والعمل الصالح بدليل قوله: ﴿ لِّيُخْرِجَ الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات مِنَ الظلمات ﴾، الآية.

فالدعوة إلى الإيمان بالقرآن والخروج بنوره من ظلمات الكفر عامة، ولكن التوفيق إلى الخروج به من الظلمات إلى النور خاص بمن وفقهم الله، كما دلت عليه آيات الطلاق المذكورة والله جل وعلا يقول: ﴿ والله يدعوا إلى دَارِ السلام وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس: 25].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون القرآن نوراً يخرج الله به المؤمنين من الظلمات إلى النور، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الناس قَدْ جَآءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ [النساء: 174] وقوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ سُبُلَ السلام وَيُخْرِجُهُمْ مِّنِ الظلمات إِلَى النور بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: 15 – 16] وقوله تعالى: ﴿ فَآمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ والنور الذي أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن: 8] وقوله تعالى: ﴿ فالذين آمَنُواْ بِهِ

وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ واتبعوا النور الذي أُنزِلَ مَعَهُ أولئك هُمُ المفلحون ﴾ [الأعراف : 157]

وقوله تعالى : ﴿ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : 52] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السماوات ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ [مريم : 40] . الآية .

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)

(369/747)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين يوم القيامة ، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، وهو جمع يمين ، وأنهم يقال لهم : ﴿ بُشْرَاكُمُ اليوم جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ﴾ .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة مما ذكرنا ، جاء موضحاً في آيات أخر ، أما سعي نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، فقد بينه تعالى في سورة التحريم ، وزاد فيه بيان دعائهم الذين يدعون به في ذلك الوقت وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يُخْزِى الله النبي والذين آمَنُواْ مَعَهُ نُورُهُمْ يسعى

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ [التحريم : 8] الآية.

وأما تبشيرهم بالجنات، فقد جاء موضحاً في مواضع أخر، وبين الله فيها أن الملائكة تبشرهم وأن ربهم أيضاً يبشرهم كقوله تعالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة : 21 - 22] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : 30] - إلى قوله - ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : 32] إلى غير ذلك من الآيات.

يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14)

الضمير المرفوع في يناودنهم راجع إلى المنافقين والمنافقات، والضمير المنصوب راجع إلى المؤمنين والمؤمنات، وقد ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن المنافقين والمنافقات إذا رأوا نور المؤمنين يوم القيامة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، قالوا لهم : انظرونا نقتبس من نوركم، وقيل لهم جواباً لذلك : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، وضرب بينهم بالسور

المذكور أنهم ينادون المؤمنين: ألم نكن معكم، أي في دار الدنيا، كنا نشهد معكم الصلوات ونسير معكم في الغزوات وندين بدينكم؟ قالوا: بلى، أي كنتم معنا في دار الدنيا، ولكنكم فتنتم أنفسكم.

وقد قدمنا مراراً معاني الفتنة وإطلاقاتها في القرآن، وبينا أن من معاني إطلاقاتها في القرآن الضلال كالفكر والمعاصي، وهو المراد هنا أي فتنتم أنفسكم: أي أضللتموها بالنافق الذي هو كفر باطن، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [البقرة: 193] أي لا يبقى شرك كما تقدم إيضاحه، وقوله: ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ التربص: الانتظار، والأظهر أن المراد به هنا تربص المنافقين بالمؤمنين الدوائر أي انتظارهم بهم نوائب الدهر أن تهلكهم، كقوله تعالى: في منافقي الأعراب المذكورين في قوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الأعراب مُنَافِقُونَ ﴾ [التوبة: 101]، ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدوائر عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء ﴾ [التوبية: 98] وقوله تعالى ﴿ وارتبتم ﴾ أي شككتم في دين الإسلام، وشكهم المذكور هنا وكفرهم بسببه بينه الله تعالى في قوله عنهم: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنكَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر وارتابت قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: 45].

وقوله تعالى : ﴿ وَغرَّتْكُمُ الأماني حتى جَآءَ أَمْرُ الله ﴾ الأماني جمع أمنية ، وهي ما يمنون به أنفسهم من الباطل ، كزعمهم أنهم مصلحون في نفاقهم ، وأن المؤمنين حقاً سفهاء في صدقهم ، أي في إيمانهم ، كما بين تعالى ذلك في قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرض قالوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ المفسدون ﴾ [البقرة : 11 – 12] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَآ آمَنَ الناس قالوا أَنُؤْمِنُ كَمَآ آمَنَ السفهآء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السفهآء ﴾ [البقرة : 13] الآية ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من كون الأماني المذكورة من الغرور الذي اغتروا به جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكتاب مَن يَعْمَلْ سواءا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء : 123] – إلى قوله – ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾ [النساء : 124] .

وقوله : ﴿ حتى جَآءَ أَمْرُ الله ﴾ ، الأظهر أنه الموت لأنه ينقطع به العمل .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَغَرَّكُم بالله الغرور ﴾ هو الشيطان وعبر عنه بصيغة المبالغة ، التي هي الفعول لكثرة غروره لبني آدم ، كما قال تعالى ﴿ وَمَا يَعِدُهُمْ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [النساء : 120] .

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، من أن الشيطان الكثير بالغرور غرهم بالله ، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى في آخر لقمان : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ [لقمان : 33] ، وقوله في أول فاطر ﴿ يا أيها الناس إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بالله الغرور إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السعير ﴾ [فاطر : 5 – 6] وقوله تعالى في آية لقمان وآية فاطر المذكورتين ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ .

وترتيبه على ذلك النهي عن أن يغرهم بالله الغرور ، دليل واضح على أن مما يغرهم به الشيطان أن وعد الله بالعبث ليس بحق ، وأنه غير واقع ، والغرور بالضم الخديعة .

قوله تعالى : ﴿ فاليوم لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الذين كَفَرُواْ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَباً وَلَوِ افتدى بِهِ ﴾ [آل عمران : 91] وفي غير ذلك من المواضع . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الباب)

وقد ورد فى القرآن لاثنى عشر معنى :

الأوّل : لمنازل العقوبة : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ .

الثانى : لمساكن المَثُوبة : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ ، ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ .

الثالث : بمعنى السّكّة والمحلّة : ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ أى من سِككٍ .

الرّابع : باب المكر والحِيلة : ﴿ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ .

الخامس : باب الهَرب والهزيمة من المعصية : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ ، ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ .

السّادس : الأَبواب المعروفة ﴿ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ .

السابع : دروب مدينة (أَريحا وأَذْرُح) ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ .

الثامن : بمعنى مَدْخل الأَمر ومخرجه : ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ أَى الأُمورَ من وجوهها .

التاسع : بمعنى مفتتح الأمر ﴿ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ .

العاشر : بمعنى طرق أعمال العباد إِلى السّماءِ : ﴿ لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ ﴾ .

الحادى عشر : بمعنى أَبواب الاستدراج بإِظهار النّعمَ : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

الثانى عشر : الباب المشترك بين المؤمنين والمنافقين : ﴿ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ .

والباب أَيضاً ، والبابة فى الحدود والحساب : الغاية .

ويجمع الباب على أبوابٍ ، وبيبان ، وعلى أَبوِبة .

وهذا نادر .

وباب له يَبُوب : صار له بَوّاباً .

وحرفته البوِابة .

وتبّوب بوّاباً : اتَّخذه .

ومنه يقال فى العلم : باب كذا ، وهذا العلم باب إِلى كذا أَى يتوصّل إِليه .

وقد يقال : أَبواب الجنّة وأَبواب جهنّم للأَسباب الَّتى يتوصّل بها إِليهما .

وبابات الكتّاب : سطوره لا واحد له .

وهذا بابته أَى يصلح له ؛ قال الشاعر :

*تركت النبيذ وشُرَّابة * وصرت حبيباً لمن عابَهُ*

*شراب يُضلّ سبيل الرّشاد * ويفتح للشرّ أَبوابَه* . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 198 . 199 ﴾

(375/747)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والأربعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/748)

الجزء الثامن والأربعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 16 ﴾ من (سورة الحديد)

وحتى الآية ﴿ 27 ﴾ من السورة

(4/748)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا وعظاً شافياً لسقام القلوب ، وكاشفاً لغطاء الكروب ، انتج قوله حاثاً على الإقبال على كتابه الذي رحم به عباده بإنزاله على لسان نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على وجه معلم بإعجازه أنه كلام مستعطفاً لهم إلى جنابه زاجراً لهم عما سألهم بعضهم فيه سلمان ـ رضى الله عنه ـ من أن يحدثهم عن التوراة والإنجيل ، فكانوا كلما سألوه عن شيء أنزل سبحانه آية يزجرهم بها وينبههم على أن هذا القرآن فيه كل ما يطلب إلى أن أنزل هذه الآية زاجرة هذا الزجر العظيم لئلا يظن ظان أن القرآن غير كاف ، مخوفاً لهم بما وقع لأهل الكتاب من الإعراض عن كتابهم ، قال الكلبي نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة ، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن ، فقال : ﴿ ألم يأن ﴾ أي يحن وينتهي ويدرك إلى غاية ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي أقروا بالإيمان بألسنتهم صدقاً أو كذباً ﴿ أن تخشع ﴾ أي أن يكون لهم رتبة عالية في الإيمان بأن تلين وتسكن وتخضع وتذل وتطمئن فتخبت فتعرض عن الفاني وتقبل على الباقي ﴿ قلوبهم لذكر الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا خير إلا منه فيصدق في إيمانه من كان كاذباً ويقوى في الدين من كان ضعيفاً ، فلا يطلب لذلك دينه دواء ولا لمرض قلبه شفاء في غير القرآن ، فإن ذكر الله يجلو أصداء القلوب ويصقل مرائيها .

ولما كان الذكر وحده كافياً في الخشوع والإنابة والخضوع لأنه مجمع لكل رغبة ومنبع لكل رهبة ، وكان من الناس من لا نفوذ له فيما له سبحانه من الجلال والإكرام قال : ﴿ وما نزل ﴾ أي الله تعالى بالتدريج – على قراءة الجماعة بالتشديد ، وما وجد إنزاله من عند الله على خاتم رسله . صلى الله عليه وسلم . على قراءة نافع وحفص عن عاصم ورويس بخلف عنه عن يعقوب بالتخفيف ﴿ من الحق ﴾ أي من الوعد والوعيد والوعظ وغير ذلك على نبيكم . صلى الله عليه وسلم . من القرآن إشارة إلى أن غير هذا الذكر دخله الدخيل ، وأما هذا فثابت ثباتاً لا يقدر أحد على إزالته .

ولما كان للمسابقة والمنافسة أمر عظيم في تحريك الهمم لأهل الأنفة وأولي المعالي قال : ﴿ ولا يكونوا كالذين ﴾ ولما كان العلم بمجرده كافياً في إعلاء الهمة فكيف إذا كان من عند الله فكيف إذا كان بكتاب ، إشارة إلى ذلك بالبناء للمجهول فقال : ﴿ أوتوا الكتاب ﴾ أي لو كان الإتيان من عند غير الله لكان جديراً بالهداية فكيف وهو من عنده .

ولما كان إنزال الكتب لم يكن إلا على بني إسرائيل فلم يكن مستغرقاً للزمان الماضي أدخل الجارّ فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي قبل ما نزل إليكم وهم اليهود والنصارى .

(6/748)

ولما كانوا في كل قليل يعبرون قال عاطفاً على ﴿ أوتوا الكتاب ﴾ : ﴿ فطال عليهم الأمد ﴾ أي الزمان الذي ضربناه لشرفهم ومددناه لعلوهم من أول إيتائهم الكتاب الذي من شأنه ترقيق القلوب ، والأمد الأجل ، وكل منهما يطلق على المدة كلها وعلى آخرها ، وكذا الغاية بقول النحاة : " من " لابتداء الغاية و " إلى " لانتهائها ، والمراد جميع المدة ﴿ فقسمت ﴾ أي بسبب الطول ﴿ قلوبهم ﴾ أي صلبت واعوجت حتى كانت بحيث لا تنفعل للطاعات والخير فكانوا كل قليل في تعنت شديد على أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام يسألونهم المقترحات ، وأما بعد ايتائهم فأبعدوا في القساوة ، فمالوا إلى دار الكدر بكلياتهم وأعرضوا عن دار الصفاء فانجروا إلى الهلاك باتباع الشهوات ، قال القشيري : وقسوة القلب إنما تحصل من اتباع الشهوة وإن الشهوة والصفوة لا تجتمعان .

ولما كان التقدير : فبعضهم ثبت على تزلزل ، عطف عليه قوله : ﴿ وكثير منهم ﴾ أخرجته قساوته عن الدين أصلاً ورأساً فهم ﴿ فاسقون ﴾ أي عريقون في وصف الإقدام

على الخروج من دائرة الحق التي عداها لهم الكتاب ، وعن عبد الله بن الزبير عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : " لم يكن بين إسلامهم وبين أن نزلت هذه الآية يعا تبهم الله بها إلاّ أربع سنين " رواه الطبراني في الكبير ، قال الهيثمي : وفيه موسى بن يعقوب الربعي وثقه ابن معين وغيره وضعفه ابن المديني وبقية رجاله رجال الصحيح .

انتهى .

(7/748)

ولما كان الموجب الأعظم للقسوة إنكار البعث ، وكان العرب يزيدون على أهل الكتاب من موجبات القسوة به ، وكان عمل العامل بما يدل على القسوة عمل من ينكره ، قال مهدداً به مقرراً لما ابتدأ به السورة من أمر الإحياء مشيراً إلى القدر على إحياء القلوب ممثلاً لإزالة القسمة عنها بصقل الذكر والتلاوة ترغيباً في إدامة ذلك : ﴿ اعلموا ﴾ أي يا من آمن بلسانه ﴿ أن الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الكمال كله فلا يعجزه شيء ﴿ يحيي ﴾ أي على سبيل التجديد والاستمرار كما تشاهدونه ﴿ الأرض ﴾ اليابسة بالنبات .

ولما كان هذا الوصف ثابتاً دائماً بالفعل وبالقوة أخرى ، وكان الجار هنا مقتضياً للتعميم قال : ﴿ بعد موتها ﴾ من غير ذكر الجارّ وكما أنه يحييها فيخرج بها النبات بعد أن كان قد

تفتت وصار ترابا ً فكذلك يحيي بجمع أجسامهم وإفاضة الأرواح كما فعل بالنبات وكما فعل بالأجسام أول مرة سواء ، لا فرق بوجه إلا بأن يقال : الابتداء أصعب في العادة ، فاحذروا سطوته واخشوا غضبه وارجوا رحمته لإحياء القلوب ، فإنه قادر على إحيائها بروح الوحي كما أحيا الأرض بروح الماء لتصير بإحيائها بالذكر خاشعة بعد قسوتها كما صارت الأرض بالماء رابية بعد خشوعها وموتها .

ولما انكشف الأمر بهذا غاية الانكشاف ، أنتج قوله : ﴿ قد بينا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ، ولما كان العرب يفهمون من لسانهم ما لا يفهم غيرهم فكانوا يعرفون - من إعجاز القرآن بكثرة فوائده وجلالة مقاصده ودقة مسالكه وعظمة مداركه ، وجزالة تراكيبه ومتانة أساليبه وغير ذلك من شؤونه وأنواعه وفنونه ، المنتج لتحقق أنه كلام الله - ما لا يعلمه غيرهم فكأنما كانوا مخصوصين بهذا البيان ، فقدم الجارّ فقال : ﴿ لكم الآيات ﴾ أي العلامات المنيرات .

(8/748)

ولما كان السياق للبعث ، وكان من دعائم أصول الدين ، وكان العقل كافياً في قياسه على النبات ، وكان الفعل الذي لا يعود إلى سعادة الآخرة ناقصاً " ، وكان العقل الذي لا ينجي

صاحبه مساوياً للعدم ، قال معبراً بأداة التراخي بخلاف ما سبق في آل عمران فإنه من مصالح النفس التي اختفت ، ودواع تدعو إلى فهمها ، وتبعث إلى إتقان علمها ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي لتكونوا عند من يعلم ذلك ويسمعه من الخلائق على رجاء من حصول العقل لكم بما يتجدد لكم من فهمه على سبيل التواصل الدار بالاستمرار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 447 . 449 ﴾

(9/748)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ الحسن : (ألما يأن) ، قال ابن جني : أصل لما لم ، ثم زيد عليها ما فلم نفي لقوله أفعل ، ولما نفي لقوله قد يفعل ، وذلك لأنه لما زيد في الإثبات قد لا جرم زيد في نفيه ما ، إلا أنهم لما ركبوا لم مع ما حدث لها معنى ولفظ ، أما المعنى فإنها صارت في بعض المواضع ظرفاً ،

فقالوا : لما قمت قام زيد ، أي وقت قيامك قام زيد ، وأما اللفظ فإنه يجوز أن تقف عليها دون مجزومها ، فيجوز أن تقول : جئت ولما ، أي ولما يجيء ، ولا يجوز أن يقول : جئت ولم .

وأما الذين قرأوا : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ فالمشهور ألم يأن من أنى الأمر يأني إذا جاء إناء أتاه أي وقته .

وقرىء : (ألم يئن) ، من أن يئين بمعنى أنى يأني .

المسألة الثانية :

(10/748)

اختلفوا في قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ﴾ فقال بعضهم : نزل في المنافقين الذين أظهروا الإيمان وفي قلوبهم النفاق المباين للخشوع ، والقائلون بهذا القول لعلهم ذهبوا إلى أن المؤمن لا يكون مؤمناً في الحقيقة إلا مع خشوع القلب ، فلا يجوز أن يقول تعالى ذلك إلا لمن ليس بمؤمن ، وقال آخرون : بل المراد من هو مؤمن على الحقيقة ، لكن المؤمن قد يكون له خشوع وخشية ، وقد لا يكون كذلك ، ثم على هذا القول تحتمل الآية وجوهاً أحدها : لعل طائفة من المؤمنين ما كان فيهم مزيد خشوع ولا رقة ، فحثوا عليه بهذه الآية وثانيها : لعل قوماً كان فيهم خشوع كثير ، ثم زال منهم شدة ذلك الخشوع فحثوا على

المعاودة إليها ، عن الأعمش قال : إن الصحابة لما قدموا المدينة أصابوا ليناً في العيش ورفاهية ، ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا بهذه الآية وعن أبي بكر : أن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاء شديداً ، فنظر إليهم فقال : هكذا كنا حتى قست القلوب ، وأما قوله : ﴿لِذِكْرِ الله﴾ ففيه قولان : الأول : أن تقدير الآية ، أما حان للمؤمنين أن ترق قلوبهم لذكر الله ، أي مواعظ الله التي ذكرها في القرآن ، وعلى هذا الذكر مصدر أضيف إلى الفاعل والقول الثاني : أن الذكر مضاف إلى المفعول ، والمعنى لذكرهم الله ، أي يجب أن يورثهم الذكر خشوعاً ، ولا يكونوا كمن ذكره بالغفلة فلا يخشع قلبه للذكر ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

(ما) في موضع جر بالعطف على الذكر وهو موصول ، والعائد إليه محذوف على تقدير وما نزل من الحق ، ثم قال ابن عباس في قوله : ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق﴾ يعني القرآن .

المسألة الثانية :

قال أبو علي : قرأ نافع وحفص والمفضل عن عاصم ، ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق ﴾ خفيفة ، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم ، ﴿ وَمَا نَزَّلَ ﴾ ، مشددة ، وعن أبي عمرو ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق ﴾ مرتفعة النون مكسورة الزاي ، والتقدير في القراءة الأولى : أن تخشع قلوبهم لذكر الله ولما نزل من الحق ، وفي القراءة الثانية ولما نزله الله من الحق ، وفي القراءة الثالثة ولما نزل من الحق .

المسألة الثالثة :

يحتمل أن يكون المراد من الحق هو القرآن لأنه جامع للوصفين الذكر والموعظة وإنه حق نازل من السماء ، ويحتمل أن يكون المراد من الذكر هو ذكر الله مطلقاً ، والمراد بما نزل من الحق هو القرآن ، وإنما قدم الخشوع بالذكر على الخشوع بما نزل من القرآن ، لأن الخشوع والخوف والخشية لا تحصل إلا عند ذكر الله ، فأما حصولها عند سماع القرآن فذاك لأجل اشتمال القرآن على ذكر الله ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَكُونُواْ ﴾ قال الفراء : هو في موضع نصب معناه : ألم يأن أن تخشع قلوبهم ، وأن لا يكونوا ، قال : ولو كان جزماً على النهي كان صواباً ، ويدل على هذا الوجه قراءة من قرأ بالتاء على سبيل الالتفات ، ثم قال : ﴿ كالذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلُ ﴾ يريد اليهود والنصارى : ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

ذكروا في تفسير طول الأمد وجوهاً أحدها : طالت المدة بينهم وبين أنبيائهم فقست قلوبهم وثانيها : قال ابن عباس : مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ الله وثالثها : طالت أعمارهم في الغفلة فحصلت القسوة في قلوبهم بذلك السبب ورابعها : قال : ابن حبان : الأمد ههنا الأمل البعيد ، والمعنى على هذا طال عليهم الأمد بطول الأمل ، أي لما طالت آمالهم لا جرم قست قلوبهم وخامسها : قال مقاتل بن سليمان : طال عليهم أمد خروج النبي عليه السلام وسادسها : طال عهدهم بسماع التوراة والإنجيل فزال وقعهما عن قلوبهم فلا جرم قست قلوبهم ، فكأنه تعالى نهى المؤمنين عن أن يكونوا كذلك ، قاله القرظي .

المسألة الثانية :

قرىء (الأمد) بالتشديد ، أي الوقت الأطول ، ثم قال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ أي خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين ، وكأنه إشارة إلى أن عدم الخشوع في أول الأمر يفضي إلى الفسق في آخر الأمر .

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17)

وفيه وجهان الأول : أنه تمثيل والمعنى أن القلوب التي ماتت بسبب القساوة ، فالمواظبة على الذكر سبب لعود حياة الخشوع إليها كما يحيي الله الأرض بالغيث والثاني : أن المراد من قوله : ﴿ يحيي الأرض بعد موتها ﴾ بعث الأموات فذكر ذلك ترغيباً في الخشوع

والخضوع وزجراً عن القساوة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 199 . 201 ﴾

(13/748)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا ﴾

أي يقرب ويحين ، قال الشاعر :

أَلَمْ يَأْنِ لِي يَا قَلْبُ أَنْ أَتْرُكَ الْجَهْلاَ . . .

وأن يُحْدِثَ الشَّيبُ المبينُ لنا عَقْلاَ

وماضيه أَنَى بالقصر يأنى .

ويقال : آن لك بالمد أن تفعل كذا يَئِين أَيْناً أي حان ، مثل أَنَى لك وهو مقلوب منه .

وأنشد ابن السّكيت :

أَلَمَّا يَئِنْ لِي أَنْ تَجَلَّى عَمَايَتِي . . .

وأَقْصُرُ عن لَيْلَى بَلَى قَدْ أَنَى لِيَا

فجمع بين اللغتين ، وقرأ الحسن "أَلَمَّا يَأْنِ" وأصلها "أَلَمْ" زيدت "ما" فهي نفي لقول القائل :

قد كان كذا ؛ و "لم" نفي لقوله : كان كذا .

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ﴾ إلا أربع سنين .

قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة المَوْجِدة ؛ تقول عاتبته معاتبة ﴿ أَن تَخْشَعَ ﴾ أي تذل وتلين ﴿ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق ﴾ " روي أن المزاح والضحك كثر في أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم لما ترفَّهوا بالمدينة ، فنزلت الآية ؛ ولما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : "إن الله يستبطئكم بالخشوع" فقالوا عند ذلك : خَشَعنا " وقال ابن عباس : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين ، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن .

وقيل : نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة .

(14/748)

وذلك أنهم سألوا سلمان أن يحدثهم بعجائب التوراة فنزلت : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين ﴾ [يوسف : 1-2] إلى قوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ [يوسف : 3] الآية ؛ فأخبرهم أن هذا القصص أحسن من غيره وأنفع لهم ، فكفّوا عن سلمان ، ثم

سألوه مثل الأول فنزلت : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق ﴾ فعلى هذا التأويل يكون الذين آمنوا في العلانية باللسان .

قال السديّ وغيره : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا ﴾ بالظاهر وأسرّوا الكفر ﴿ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ﴾ .

وقيل : نزلت في المؤمنين .

قال سعد : قيل يا رسول الله لو قصصت علينا فنزل : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ فقالوا بعد زمان : لو حدثتنا فنزل : ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ [الزمر : 23] فقالوا بعد مدة : لو ذكرتنا فأنزل الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق ﴾ ونحوه عن ابن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين ، فجعل ينظر بعضنا إلى بعض ويقول : ما أحدثنا ؟ قال الحسن : استبطأهم وهم أحبّ خلقه إليه .

وقيل : هذا الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد عليهم السلام لأنه قال عقيب هذا : "وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ" أي ألم يأن للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تلين قلوبهم للقرآن ، وألا يكونوا كمتقدمي قوم موسى وعيسى ؛ إذ طال عليهم الأمد بينهم وبين نبيّهم فقست قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَكُونُواْ ﴾ أي وألا يكونوا فهو منصوب عطفاً على ﴿ أَن تَخْشَعَ ﴾ .

وقيل : مجزوم على النهي ؛ مجازه ولا يكونن ؛ ودليل هذا التأويل رواية رُوَيس عن يعقوب "لاَ تَكُونُوا" بالتاء ؛ وهي قراءة عيسى وابن إسحاق .

(15/748)

يقول : لا تسلكوا سبيل اليهود والنصارى ؛ أعطوا التوراة والإنجيل فطالت الأزمان بهم .

قال ابن مسعود : إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم ، فاخترعوا كتاباً من عند أنفسهم استحلته أنفسهم ، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم ، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، ثم قالوا : أعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل ، فإن تابعوكم فاتركوهم وإلا فاقتلوهم .

ثم اصطلحوا على أن يرسلوه إلى عالم من علمائهم ، وقالوا : إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد ، وإن أبى قتلناه فلا يختلف علينا بعده أحد ؛ فأرسلوا إليه ، فكتب كتاب الله في ورقة وجعلها في قَرْن وعلّقه في عنقه ثم لبس عليه ثيابه ، فأتاهم فعرضوا عليه كتابهم ، وقالوا : أتؤمن بهذا ؟ فضرب بيده على صدره ، وقال : آمنت بهذا يعني المعلّق على صدره .

فافترقت بنو إسرائيل على بضع وسبعين مِلّة ؛ وخير مللهم أصحاب ذي القَرْن .

قال عبد الله : ومن يعش منكم فسيرى منكراً ، وبِحَسْب أحدكم إذا رأى المنكر لا

يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره .

وقال مقاتل بن حيان : يعني مؤمني أهل الكتاب طال عليهم الأمد واستبطؤوا بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ يعني الذين ابتدعوا الرهبانية أصحاب الصوامع .

وقيل : من لا يعلم ما يتدين به من الفقه ويخالف من يعلم .

وقيل : هم من لا يؤمن في علم الله تعالى .

ثبتت طائفة منهم على دين عيسى حتى بُعِث النبيّ صلى الله عليه وسلم فآمنوا به ، وطائفة منهم رجعوا عن دين عيسى وهم الذين فَسَّقَهم اللَّهُ .

وقال محمد بن كعب : كانت الصحابة بمكة مجدِبين ، فلما هاجروا أصابوا الرِّيف والنعمة ، ففتروا عما كانوا فيه ، فقست قلوبهم ، فوعظهم الله فأفاقوا .

(16/748)

وذكر ابن المبارك : أخبرنا مالك بن أنس ، قال : بلغني أن عيسى عليه السلام قال لقومه : لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسو قلوبكم ، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون .

ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب وانظروا فيها أو قال في ذنوبكم كأنكم عبيد ؛ فإنما الناس رجلان معافًى ومبتلًى ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية .

وهذه الآية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ﴾ كانت سبب توبة الفضيل بن عياض وابن المبارك رحمهما الله تعالى : ذكر أبو المطرِّف عبد الرحمن بن مروان القَلانسيّ قال : حدثنا أبو محمد الحسن بن رشيق ، قال حدّثنا علي بن يعقوب الزيات ، قال حدثنا إبراهيم بن هشام ، قال حدثنا زكريا بن أبي أبان ، قال حدثنا الليث بن الحرث قال حدّثنا الحسن بن داهر ، قال سئل عبد الله بن المبارك عن بدء زهده قال : كنت يوماً مع إخواني في بستان لنا ، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه ، فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا ، وكنت مولعاً بضرب العودِ والطُّنبور ، فقمت في بعض الليل فضربت بصوت يقال له راشين السَّحَر ، وأراد سنان يغنّي ، وطائر يصيح فوق رأسي على شجرة ، والعود بيدي لا يجيبني إلى ما أريد ، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان يعني العود الذي بيده ويقول : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق ﴾ قلت : بلى والله وكسرت العود ، وصرفت من كان عندي ، فكان هذا أوّل زهدي وتشميري .

وبلغنا عن الشعر الذي أراد ابن المبارك أن يضرب به العود :

أَلَمْ يَأْنِ لِي مِنك أن تَرْحَمَا . . .

وتَعْصِ العَواذِلَ واللُّوَّمَا

وتَرْثي لصَبٍّ بكم مُغْرَمِ . . .

أقام على هجرِكم مَا أُتَمَا

يَبيتُ إِذا جَنَّهُ لَيْلُهُ . . .

يُراعِي الكَواكِبَ والأَنْجُمَا

وماذا على الظَّبي لَوْ أَنَّهُ . . .

(17/748)

أحَلَّ مِن الوَصْلِ ما حَرَّمَا

وأما الفضيل بن عياض فكان سبب توبته أنه عشق جارية فواعدته ليلاً ، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع قارئاً يقرأ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ﴾ فرجع القهقري وهو يقول : بلى والله قد آن ! فآواه الليل إلى خربة وفيها جماعة من السابلة ، وبعضهم يقول لبعض : إن فضيلاً يقطع الطريق .

فقال الفضيل : أوّاه ! أراني بالليل أسعى في معاصي الله ، قوم من المسلمين يخافونني ! اللهم إني قد تبت إليك ، وجعلت توبتي إليك جوار بيتك الحرام .

قوله تعالى : ﴿ اعلموا أَنَّ الله يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي "يُحيي الأرض" الجدبة "بَعْدَ

مَوْتِهَا" بالمطر .

وقال صالح المري : المعنى يلين القلوب بعد قساوتها .

وقال جعفر بن محمد : يحييها بالعدل بعد الجور .

وقيل : المعنى فكذلك يحيي الكافر بالهدى إلى الإيمان بعد موته بالكفر والضلالة .

وقيل : كذلك يحيي الله الموتى من الأمم ، ويميّز بين الخاشع قلبه وبين القاسي قلبه .

﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي إحياء الله الأرض بعد موتها دليل على قدرة الله ، وأنه لمحيي الموتى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(18/748)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ﴾

استئناف لعتاب المؤمنين على الفتور والتكاسل فيما ندبوا إليه والمعاتب على ما قاله الزجاج طائفة من المؤمنين وإلا فمنهم من لم يزال خاشعاً منذ أسلم إلى أن ذهب إلى ربه ، وما نقل عن الكلبي .

ومقاتل أن الآية نزلت في المنافقين فهم المراد بالذين آمنوا مما لا يكاد يصح ، وقد سمعت

صدر السورة الكريمة ما روي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه .

وأخرج ابن المبارك .

وعبد الرزاق .

وابن المنذر عن الأعمش قال : لما قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعد ما كان لهم من الجهد فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا فنزلت ﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن الله تعالى استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ الآية ، وفي خبر ابن مردويه عن أنس بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن .

وأخرج عن عائشة قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفر من أصحابه في المسجد وهم يضحكون فسحب رداءه محمراً وجهه فقال : أتضحكون ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم وقد نزل علي في ضحككم آية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ﴾ الخ ؟ قالوا : يا رسول الله فما كفارة ذلك ؟ قال : تبكون بقدر ما ضحكتم ، وفي خبر أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام قد ظهر فيهم المزاح والضحك فنزلت ، وحديث مسلم ومن معه السابق مقدم على هذه الآثار على ما يقتضيه كلام أهل الحديث ، و﴿ يَأْنِ ﴾ مضارع أني

الأمر أنيا ً وأناءا ً وإناءا ً بالكسر إذا جاء أناه أي وقته ، أي ألم يجيء وقت أن تخشع قلوبهم لذكره عز وجل .

وقرأ الحسن .

وأبو السمال ألما بالهمزة ، ولما النافية الجازمة كلم إلا أن فيه أن المنفى متوقع .

(19/748)

وقرأ الحسن يئن مضارع آن أينا بمعنى أني السابق ، وقال أبو العباس : قال قوم : إن يئين أينا الهمزة مقلوبة فيه عن الحاء وأصله حان يحين حينا ً وأصل الكلمة من الحين ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق ﴾ أي القرآن وهو عطف على ذكر الله فإن كان هو المراد به أيضا ً فالعطف لتغاير العنوانين نحو :

هو الملك القرم وابن الهمام . . .

فإنه ذكر وموعظة كما أنه حق نازل من السماء وإلا بأن كان المراد به تذكير الله تعالى إياهم فالعطف لتغاير الذاتين على ما هو الشائع في العطف وكذا إذا أريد به ذكرهم الله تعالى بالمعنى المعروف ، وجوز العطف على الاسم الجليل إذا أريد بالذكر التذكير وهو كما ترى ، وقال الطيبي : يمكن أن يحمل الذكر على القرآن وما نزل من الحق على نزول السكينة معه

أي الواردات الإلهية ويعضده ما روينا عن البخاري.

ومسلم.

(20/748)

والترمذي عن البراء "كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشطنين فغشيته سحابة فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال: تلك السكينة تنزل للقرآن" وفي رواية "اقرأ فلان فإنها السكينة تنزل عند القرآن أو للقرآن" انتهى، ولا يخفى بعد ذلك جداً ولعلك تختار حمل الذكر وما نزل على القرءان لما يحس مما بعد من نوع تأييد له، وفسر الخشوع للقرآن بالانقياد التام لأوامره ونواهيه والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام من غير توان ولا فتور، والظاهر أنه اعتبر كون اللام صلة الخشوع، وجوز كونها للتعليل على أوجه الذكر فالمعنى ألم يأن لهم أن ترق قلوبهم لأجل ذكر الله تعالى وكتابه الحق النازل فيسارعوا إلى الطاعة على أكمل وجوهها، وفي الآية حض على الخشوع، وكان ابن عمر رضي الله تعالى عنهما كما أخرج عنه ابن المنذر إذا تلاها بكى ثم قال: بلى يا رب بلى يا رب، وعن الحسن أما والله لقد استبطأهم وهم يقرؤون من القرآن أقل مما تقرؤون فانظروا في طول ما قرأتم وما ظهر فيكم من الفسق،

وروي السلمي عن أحمد بن أبي الحواري قال بينا أنا في بعض طرقات البصرة إذ سمعت صعقة فأقبلت نحوها فرأيت رجلاً قد خر مغشياً عليه فقلت: ما هذا؟ فقالوا: كان رجلا حاضر القلب فسمع آية من كتاب الله فخر مغشياً عليه فقلت: ما هي؟ فقيل: قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ ﴾ فأفاق الرجل عند سماع كلامنا فأنشأ يقول:

أما آن للهجران أن يتصرما . . .

وللغصن غصن البان أن يتبسما

وللعاشق الصب الذي ذاب وانحنى . . .

ألم يأن أن يبكي عليه ويرحما

كتبت بماء الشوق بين جوانحي . . .

كتاباً حكى نقش الوشى المنمنما

ثم قال: إشكال إشكال إشكال فخر مغشياً عليه فحركناه فإذا هو ميت، وعن أبي بكر رضي الله تعالى عنه إن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاءاً

شديداً فنظر إليهم فقال : هكذا كنا حتى قست القلوب ، ولعله أراد رضي الله تعالى عنه أن الطراز الأول كان كذلك حتى قست قلوب كثير من الناس ولم يتأسوا بالسابقين وغرضه مدح أولئك القوم بما كان هو ونظراؤه عليه رضي الله تعالى عنهم ، ويحتمل أن يكون قد أراد ما هو الظاهر ، والكلام من باب هضم النفس كقوله رضي الله تعالى عنه : أقيلوني فلست بخيركم ، وقال شيخ الإسلام أبو حفص السهروردي قدس سره : معناه تصلبت وأدمنت سماع القرآن وألفت أنواره فما تستغرب حتى تتغير كما تغير هؤلاء السامعون انتهى وهو خلاف الظاهر ، وفيه نوع انتقاص للقوم ورمز إلى أن البكاء عند سماع القرآن لا يكون من كامل كما يزعمه بعض جهلة الصوفية القائلين : إن ذلك لا يكون إلا لضعف القلب عن تحمل الواردات الإلهية النورانية ويجل عن ذلك كلام الصديق رضي الله تعالى عنه ، وقرأ غير واحد من السبعة ﴿ وَمَا نَزَّلَ ﴾ بالتشديد ، والجحدري .

وأبو جعفر .

والأعمش .

وأبو عمرو في رواية يونس .

وعباس عنه ﴿ نُزِّلَ ﴾ مبنياً للمفعول مشدداً ، وعبد الله أنزل بهمزة النقل مبنياً للفاعل .

﴿ وَلاَ يَكُونُواْ كالذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلُ ﴾ ﴿ لا ﴾ نافية وما بعدها منصوب معطوف على تخشع .

وجوز أن تكون ناهية وما بعدها مجزوم بها ويكون ذلك انتقالاً إلى نهي أولئك المؤمنين عن مماثلة أهل الكتاب بعد أن عوتبوا بما سمعت وعلى النفي هو في المعنى نهى أيضاً ، وقرأ أبو بحرية .

وأبو حيوة .

وابن أبي عبلة .

وإسماعيل عن أبي جعفر ، وعن شيبة .

ويعقوب .

وحمزة في رواية عن سليم عنه ﴿ وَلَا تَكُونُوا ﴾ بالتاء الفوقية على سبيل الالتفات للاعتناء بالتحذير ، وفي ﴿ لا ﴾ ما تقدم ، والنهي مع الخطاب أظهر منه مع الغيبة .

(22/748)

﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الامد ﴾ أي الأجل بطول أعمارهم وآمالهم ، أو طال أمد ما بينهم وبين أنبيائهم عليهم السلام وبعد العهد بهم ، وقيل : أمد انتظار القيامة والجزاء ، وقيل : أمد انتظار الفتح ، وفرقوا بين الأمد والزمان بأن الأمد يقال باعتبار الغاية والزمان عام في المبدأ والغاية ، وقرأ ابن كثير في رواية الأمدّ بتشديد الدال أي الوقت الأطول ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ

﴿ صلبت فهي كالحجارة ، أو أشد قسوة ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ خارجون عن حدود دينهم رافضون لما في كتابهم بالكلية ، قيل : من فرط القسوة وذكر أنه مأخوذ من كون الجملة حال ، وفيه خفاء والأظهر أنه من السياق ، والمراد بالكتاب الجنس فالموصول يعم اليهود والنصارى وكانوا كلهم في أوائل أمرهم يحول الحق بينهم وبين كثير من شهواتهم وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله تعالى ورقت قلوبهم فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة وزالت عنهم الروعة التي كانت يجدونها عند سماع الكتابين وأحدثوا ما أحدثوا واتبعوا الأهواء وتفرقت بهم السبل ، والقسوة مبدأ الشرور وتنشأ من طول الغفلة عن الله تعالى ، وعن عيسى عليه السلام لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسو قلوبكم فإن القلب القاسي بعيد من الله عز وجل ولا تنظروا إلى ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا في ذنوبكم كأنكم عباد والناس رجلان مبتلي ومعافى فارحموا أهل البلاء واحمدوا على العافية ومن أحس بقسوة في قلبه فليهرع إلى ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه يرجع إليه حاله كما أشار إليه قوله عز وجل :

﴿ اعلموا أَنَّ اللهَ يُحْيِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فهو تمثيل ذكر استطراداً لاحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث للترغيب في الخشوع والتحذير عن القساوة ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيات ﴾ التي من جملتها هذه الآيات ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ كي تعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها فتفوزوا بسعادة الدارين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(24/748)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾

قد علم من صدر تفسير هذه السورة أن هذه الآية نزلت بمكة سنة أربع أو خمس من البعثة رواه مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود أنه قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ إلى ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ إلا أربعُ سنين .

والمقصود من ﴿ الذين آمنوا ﴾ : إما بعض منهم ربما كانوا مقصرين عن جمهور المؤمنين يومئذٍ بمكة فأراد الله إيقاظ قلوبهم بهذا الكلام المجمل على عادة القرآن وأقوال الرسول

صلى الله عليه وسلم في التعريض مثل قوله : " ما بال أقوام يفعلون كذا " وقوله تعالى : ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ [آل عمران : 154] .

وليس ما قاله ابن مسعود مقتضياً أن مثله من أولئك الذين ذكرهم الله بهذه الآية ولكنه يخشى أن يكون منهم حذراً وحيطة .

فالمراد بـ ﴿ الذين آمنوا ﴾ المؤمنون حقاً لا من يُظهرون الإيمان من المنافقين إذ لم يكن في المسلمين بمكة منافقون ولا كان داعٍ إلى نِفاق بعضهم .

وعن ابن مسعود "لما نزلت جعل بَعضنا ينظر إلى بعض ونَقول : ما أحدثْنا " .

وإما أن يكون تحريضاً للمؤمنين على مراقبة ذلك والحذرِ من التقصير .

والهمزة في ﴿ ألم يأن ﴾ للاستفهام وهو استفهام مستعمل في الإنكار ، أي إنكار نفي اقتراب وقت فاعل الفعل .

ويجوز أن يكون الاستفهام للتقرير على النفي ، وفعل ﴿ يأن ﴾ مشتق من اسم جامد وهو الإَنى بفتح الهمزة وكسرها ، أي الوقت قال تعالى : ﴿ غير ناظرين إناه ﴾ [الأحزاب : 53] .

وقريب من قوله : ﴿ ألم يأن ﴾ قولهم : أما آن لك أن تفعل ، مثل ما ورد في حديث إسلام عمر بن الخطاب من قول النبي صلى الله عليه وسلم له "أَمَا آنَ لك يا ابنَ الخطاب أن تُسلم" وفي خبر إسلام أبي ذر من أن علي بن أبي طالب وجده في المسجد الحرام وأراد أن يُضيفه وقال له : "أما آن للرجل أن يعرِف منزله" يريد : أن يعرف منزلي الذي هو كمنزله .

وهذا تلطف في عرض الاستضافة ، إلا أن فعل ﴿ يأن ﴾ مشتق من الإِنى وهو فعل منقوص آخره ألف .

وفعل : آن مشتق من الأَين وهو الحين وهو فعل أجوف آخره نون .

فأصل : أنى أَنِيَ وأصل آنَ : أوِن وآل معنى الكلمتين واحد .

واللام للعلة ، أي ألم يأن لأجل الذين آمنوا الخشُوع ، أي ألم يحقّ حضوره لأجْلهم .

و﴿ أن تخشع ﴾ فاعل ﴿ يأن ﴾ ، والخشوع : الاستكانة والتذلل .

و﴿ ذِكْر الله ﴾ ما يذكرهم به النبي صلى الله عليه وسلم أو هو الصلاة .

و﴿ ما نزل من الحق ﴾ القرآن ، قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ [الأنفال : 2] .

ويجوز أن يكون الوصفان للقرآن تشريفاً له بأنه ذكر الله وتعريفاً لنفعه بأنه نزل من عند الله ، وأنه الحق ، فيكون قوله : ﴿ وما نزل من الحق ﴾ عطف وصف آخر للقرآن مثل قول الشاعر أنشده في "الكشاف" :

إلى الملك القِرْم وابن الهمّام . . .

البيت . . .

واللام في ﴿ لذكر الله ﴾ لام العلة ، أي لأجل ذكر الله .

ومعنى الخشوع لأجله : الخشوع المسبب على سماعه وهو الطاعة والامتثال .

وقرأ نافع وحفص عن عاصم ﴿ وما نزل ﴾ بتخفيف الزاي .

وقرأه الباقون بتشديد الزاي على أن فاعل ﴿ نزل ﴾ معلوم من المقام ، أي الله .

و﴿ لا يكونوا ﴾ قرأه الجمهور بياء الغائب .

وقرأه رويس عن يعقوب ﴿ ولا تكونوا ﴾ بتاء الخطاب .

و﴿ لا ﴾ نافية على قراءة الجمهور والفعل معمول ل "أنْ" المصدرية التي ذكرت قبله ،

والتقدير : ألم يأن لهم أن لا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب .

(26/748)

وعلى قراءة رويس عن يعقوب فتاء الخطاب الالتفات و (لا) نافية ، والفعل منصوب بالعطف كقراءة الجمهور ، أو (لا) ناهية والفعل مجزوم والعطف من عطف الجُمل .

والمقصود التحذير لا أنهم تلبسوا بذلك ولم يأن لهم الاقلاع عنه .

والتحذير مُنْصَبٌّ إلى ما حدث لأهل الكتاب من قسوة القلوب بعد طول الأمد عليهم في مزاولة دينهم ، أي فليحذر الذين آمنوا من أن يكونوا مثلهم على حدثان عهدهم بالدين .

وليس المقصود عذر الذين أوتوا الكتاب بطول الأمد عليهم لأن طول الأمد لا يكون سبباً في التفريط فيما طال فيه الأمدُ بل الأمر بالعكس ولا قصدُ تهوين حصوله للذين آمنوا بعد أن يطول الأمد لأن ذلك لا يتعلق به الغرض قبل طول الأمد ، وإنما المقصود النهي عن التشبه بالذين أوتوا الكتاب في عدم خشوع قلوبهم ولكنه يفيد تحذير المؤمنين بعد أن يطول الزمان من أن يقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب .

ويستتبع ذلك الأنباءَ بأن مدة المسلمين تطول قريباً أو أكثر من مدة أهل الكتاب الذين كانوا قبل البعثة ، فإن القرآن موعظة للعصور والأجيال .

ويجوز أن تجعل (لا) حرف نهي وتعلق النهي بالغائب التفاتاً أو المراد : أَبْلِغهم أن لا يكونوا .

وفاء ﴿ فطال عليهم الأمد ﴾ لتفريع طول الأمد على قسوة القلوب من عدم الخشوع ، فهذا التفريع خارج عن التشبيه الذي في قوله : ﴿ كالذين أوتوا الكتاب من قبل ﴾ ، ولكنه تنبيه على عاقبة ذلك التشبيه تحذيراً من أن يصيبهم مثل ما أصاب الذين أوتوا الكتاب من قبل .

والأمد : الغاية من مكان أو زمان والمراد به هنا : المدة التي أوصوا بأن يحافظوا على اتباع شرائعهم فيها المغيَّاةُ بمجيء الرسول صلى الله عليه وسلم المبشر في الشرائع ﴿ وإذا أخذ

الله ميثاق النبيئن لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ [آل عمران : 81] .

(27/748)

والمعنى : أنهم نَسُوا ما أوصوا به فخالفوا أحكام شرائعهم ولم يخافوا عقاب الله يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً ، وصار ديدناً لهم رويداً رويداً حتى ضرئوا بذلك ، فقست قلوبهم ، أي تمردت على الاجتراء على تغيير أحكام الدين .

وجملة ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ اعتراض في آخر الكلام .

والمعنى : أن كثيراً منهم تجاوزوا ذلك الحَدّ من قسوة القلوب فنبذوا دينهم وبدلوا كتابهم وحرفوه وأفسدوا عقائدهم فبلغوا حدّ الكفر .

فالفسق هنا مراد به الكفر كقوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثرهم فاسقون ﴾ [المائدة : 59] ، أي غير مؤمنين بدليل المقابلة بقوله : ﴿ آمنا بالله ﴾ إلى آخره .

وبين قوله : ﴿ فقست ﴾ وقوله : ﴿ فاسقون ﴾ محسّن الجناس .

وهذا النوع فيه مركب مما يسمى جناس القلب وما يسمى الجناس الناقص وقد اجتمعا في هذه الآية.

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17)

افتتاح الكلام بـ ﴿ اعلموا ﴾ ونحوه يؤذن بأن ما سيلقى جدير بتوجه الذهن بشراشره إليه ،كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ في سورة [البقرة: 235] وقوله: ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ﴾ الآية في سورة [الأنفال: 41].

وهو هنا يشير إلى أن الكلام الذي بُعده مغزى عظيم غير ظاهرٍ، وذلك أنه أريد به تمثيل حال احتياج القلوب المؤمنة إلى ذكر الله بحال الأرض الميتة في الحاجة إلى المطر، وحالِ الذكر في تزكية النفوس واستنارتها بحال الغَيث في إحياء الأرض الجدبة.

(28/748)

ودل على ذلك قوله بعده: قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾، وإلا فإن إحياء الله الأرض بعد موتها بما يصيبها من المطر لا خفاء فيها فلا يقتضي أن يفتتح الإخبار عنه بمثل ﴿ اعلموا ﴾ إلاّ لأن فيه دلالة غير مألوفة وهي دلالة التمثيل، ونظيره قول النبي صلى الله

عليه وسلم لأبي مسعود البَدري وقد رآه لَطم وجه عبدٍ له "اعلَمْ أبا مسعود ، اعلَمْ أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا" .

فالجملة بمنزلة التعليل لجملة ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ إلى قوله : ﴿ فقست قلوبهم ﴾ [الحديد : 16] لما تتضمنه تلك من التحريض على الخشوع لذكر الله ، ولكن هذه بمنزلة العلة فَصلت ولم تعطف ، وهذا يقتضي أن تكون مما نزل مع قوله تعالى : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم ﴾ الآية .

والخطاب في قوله : ﴿ اعلموا ﴾ للمؤمنين على طريقة الالتفات إقبالاً عليهم للاهتمام .

وقوله : ﴿ أن الله يحي الأرض بعد موتها ﴾ استعارة تمثيلية مصرّحة ويتضمن تمثيلية مَكْنية بسبب تضمنه تشبيه حال ذِكر الله والقرآن في إصلاح القلوب بحال المطر في إصلاحه الأرض بعد جدبها .

وطُوي ذكر الحالة المشبه بها ورُمز إليها بلازمها وهو إسناد إحياء الأرض إلى الله لأن الله يحيي الأرض بعد موتها بسبب المطر كما قال تعالى : ﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ [النحل : 65] .

والمقصود الإرشاد إلى وسيلة الإنابة إلى الله والحث على تعهد النفس بالموعظة ، والتذكير بالإقبال على القرآن وتدبره وكلامِ الرسول صلى الله عليه وسلم وتعليمه وأن في اللجأ إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم نجاة وفي المفزع إليهما عصمة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتابَ الله وسنتي " وقال : " مَثَل ما بَعثني الله به من الهُدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نَقَيّة قبِلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشْب ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناسَ فشربوا وسقَوْا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قِيعانٌ لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً ، فذلك مثَل من فَقُهَ في دين الله ونَفَعه ما بعثني الله به فعَلِم وعلَّم ، ومثُل من لم يرفع لذلك رأساً ولم يقبَل هدى الله الذي أرسلتُ به "

وقوله : ﴿ قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ استئناف بياني لجملة ﴿ أن الله يحي الأرض بعد موتها ﴾ لأن السامع قولَه : ﴿ اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها ﴾ يتطلب معرفة الغرض من هذا الإعلام فيكون قوله : ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ جواباً عن تطلبه ، أي أعلمناكم بهذا تبييناً للآيات .

ويفيد بعمومه مُفاد التذييل للآيات السابقة من أول السورة مكيّها ومدنيها لأن الآية وإن كانت مدنيّة فموقعها بعد الآيات النازلة بمكة مراد لله تعالى ، ويدل عليه الأمر بوضعها في موضعها هذا ، ولأن التعريف في الآيات للاستغراق كما هو شأن الجمع المعرّف باللام .

والآيات : الدلائل .

والمراد بها : ما يشمل مضمون قوله : ﴿ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد ﴾ إلى قوله : ﴿ بعد موتها ﴾ [الحديد : 16] ، وهو محل ضرب المثل لأن التنظير بحال أهل الكتاب ضرب من التمثيل .

وبيان الآيات يحصل من فصاحة الكلام وبلاغته ووفرة معانيه وتوضيحها ، وكل ذلك حاصل في هذه الآيات كما علمت آنفاً .

(30/748)

ومن أوضح البيان التنظير بأحوال المشابهين في حالة التحذير أو التحضيض .

و ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ : رجاء وتعليل ، أي بيّنا لكم لأنكم حالكم كحال من يرجى فهمه ، والبيان علة لفهمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(31/748)

فصل فى منزلة الخشوع

قال ابن القيم :

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة (الخشوع) .

قال الله تعالى: 16: 57 ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: "ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين" وقال ابن عباس: "إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن" وقال تعالى: 23: 1 ، 2 ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ .

و(الخشوع) في أصل اللغة: الانخفاض والذل والسكون قال تعالى: 20: 108 ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ﴾ أي سكنت وذلت وخضعت ومنه وصف الأرض بالخشوع وهو يبسها وانخفاضها وعدم ارتفاعها بالري والنبات قال تعالى: 41: 39 ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ .

و(الخشوع) قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه .

وقيل (الخشوع) الانقياد للحق وهذا من موجبات الخشوع .

فمن علاماته: أن العبد إذا خولف ورد عليه بالحق استقبل ذلك بالقبول والانقياد .

وقيل (الخشوع) خمود نيران الشهوة وسكون دخان الصدور وإشراق نور التعظيم في

القلب.

وقال الجنيد "الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب".

وأجمع العارفون على أن (الخشوع) محله القلب وثمرته على الجوارح وهي تظهره و"رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه" وقال النبي صلى الله عليه وسلم "التقوى ههنا وأشار إلى صدره ثلاث مرات" وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن ورأى بعضهم رجلا خاشع المنكبين والبدن فقال: يا فلان الخشوع ههنا وأشار إلى صدره لا ههنا وأشار إلى منكبيه.

وكان بعض الصحابة رضى الله عنهم وهو حذيفة يقول: "إياكم وخشوع النفاق فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعا والقلب ليس بخاشع" ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا طأطأ رقبته في الصلاة فقال: "يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب" ورأت عائشة رضى الله عنها "شبابا يمشون ويتماوتون في مشيتهم فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نساك فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع وإذا قال: أسمع وإذا ضرب: أوجع وإذا أطعم: أشبع

وكان هو الناسك حقا" وقال الفضيل بن عياض: "كان يكره أن يرى الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه" وقال حذيفة رضي الله عنه: "أول ما تفقدون من دينكم الخشوع وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة ورب مصل لا خير فيه ويوشك

أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعا" وقال سهل: "من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان".

فصل

قال صاحب المنازل:

"الخشوع: خمود النفس وهمود الطباع لمتعاظم أو مفزع".

يعنى: انقباض النفس والطبع وهو خمود قوى النفس عن الانبساط لمن له في القلوب عظمة ومهابة أو لما يفزع منه القلب.

والحق: أن (الخشوع) معنى يلتئم من التعظيم والمحبة والذل والانكسار قال: "وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: التذلل للأمر: والاستسلام للحكم والاتضاع لنظر الحق". التذلل للأمر والاستسلام للحكم والاتضاع لنظر الحق".

التذلل للأمر: تلقيه بذلة القبول والانقياد والامتثال ومواطأة الظاهر الباطن مع إظهار الضعف والافتقار إلى الهداية للأمر قبل الفعل والإعانة عليه حال الفعل وقبوله بعد الفعل.

وأما الاستسلام للحكم: فيجوز أن يريد به: الحكم الديني الشرعي فيكون معناه: عدم

معارضته برأي أو شهوة ويجوز أن يريد به: الاستسلام للحكم القدري وهو عدم تلقيه بالتسخط والكراهة والاعتراض.

والحق: أن (الخشوع) هو الاستسلام للحكمين وهو الانقياد بالمسكنة والذل لأمر الله وقضائه.

(33/748)

وأما الاتضاع لنظر الحق: فهو اتضاع القلب والجوارح وانكسارها لنظر الرب إليها واطلاعه على تفاصيل ما في القلب والجوارح وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى: 55: 46 ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ وقوله: 79: 40 ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية.

فخوفه من هذا المقام: يوجب له خشوع القلب لا محالة وكلما كان أشد استحضارا له كان أشد خشوعا وإنما يفارق القلب إذا غفل عن اطلاع الله عليه ونظره إليه.

والتأويل الثاني: أنه مقام العبد بين يدي ربه عند لقائه.

فعلى الأول: يكون من باب إضافة المصدر إلى الفاعل.

وعلى الثاني: وهو أليق بالآية يكون من باب إضافة المصدر إلى المخوف والله أعلم.

فصل

قال: "الدرجة الثانية: ترقب آفات النفس والعمل ورؤية فضل كل ذي فضل عليك وتنسم نسيم الفناء" .

يريد : انتظار ظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبهما من فإنه يجعل القلب خاشعا لا محالة لمطالعة عيوب نفسه وأعماله ونقائصهما : من الكبر والعجب والرياء وضعف الصدق وقلة اليقين وتشتت النية وعدم تجرد الباعث من الهوى نفساني وعدم إيقاع العمل على الوجه الذي ترضاه لربك وغير ذلك من عيوب النفس ومفسدات الأعمال .

وأما رؤية فضل كل ذي فضل عليك: فهو أن تراعي حقوق الناس فتؤديها ولا ترى أن ما فعلوه من حقوقك عليهم فلا تعاوضهم عليها فإن هذا من رعونات النفس وحماقاتها ولا تطالبهم بحقوق نفسك وتعترف بفضل ذي الفضل منهم وتنسى فضل نفسك .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: "العارف لا يرى له على أحد حقا ولا يشهد له على غيره فضلا ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب" .

وأما تنسم نسيم الفناء : فلما كان الفناء عنده غاية جعل هذه الدرجة كالنسيم لرقته وعبر عنها بالنسيم للطف موقعه من الروح وشدة تشبثها به ولا ريب أن الخشوع سبب موصل إلى الفناء فاضله ومفضوله .

فصل

قال "الدرجة الثالثة: حفظ الحرمة عند المكاشفة وتصفية الوقت من مراءاة الخلق وتجريد رؤية الفضل" .

أما حفظ الحرمة عند المكاشفة: فهو ضبط النفس بالذل والانكسار عن البسط والإدلال الذي تقتضيه المكاشفة فإن المكاشفة توجب بسطا ويخاف منه شطح إن لم يصحبه خشوع يحفظ الحرمة .

وأما تصفية الوقت من مراءاة الخلق: فلا يريد به أنه يصفي وقته عن الرياء فإن أصحاب هذه الدرجة أجل قدرا وأعلى من ذلك .

وإنما المراد: أنه يخفي أحواله عن الخلق جهده كخشوعه وذله وانكساره لئلا يراها الناس فيعجبه اطلاعهم عليها ورؤيتهم لها فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله وكم قد اقتطع في هذه المفازة من سالك والمعصوم من عصمه الله فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل وأنه لا شيء وأنه ممن لم يصح له بعد الإسلام حتى يدعي الشرف فيه .

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من ذلك أمرا لم أشاهده من

غيره وكان يقول كثيرا: ما لي شيء ولا مني شيء ولا في شيء وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدى وابن المكدى ... وهكذا كان أبي وجدي

وكان إذا أثنى عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلاما جيدا .

وبعث إلي في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسيكين في مجموع حالاتى

أنا الظلوم لنفسى وهي ظالمتي ... والخير إن يأتنا من عنده يأتى

لا أستطيع لنفسى جلب منفعة ... ولا عن النفس لى دفع المضرات

وليس لي دونه مولى يدبرني ... ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتى

إلا بإذن من الرحمن خالقنا ... إلى الشفيع كما قد جاء في الآيات

ولست أملك شيئا دونه أبدا ... ولا شريك أنا في بعض ذرات

ولا ظهير له كي يستعين به ... كما يكون لأرباب الولايات

والفقر لى وصف ذات لازم أبدا ... كما الغنى أبدا وصف له ذاتي

وهذه الحال حال الخلق أجمهم ... وكلهم عنده عبد له آتى

فمن بغى مطلبا من غير خالقه . . . فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي

والحمد لله ملء الكون أجمعه . . . ما كان منه وما من بعد قد ياتى

أما تجريد رؤية الفضل: فهو أن لا يرى الفضل والإحسان إلا من الله فهو المان به بلا سبب منك ولا شفيع لك تقدم إليه بالشفاعة ولا وسيلة سبقت منك توسلت بها إلى إحسانه .

والتجريد : هو تخليص شهود الفضل لوليه حتى لا ينسبه إلى غيره وإلا فهو في نفسه مجرد عن النسبة إلى سواه وإنما الشأن في تجريده في الشهود ليطابق الشهود الحق في نفس الأمر والله أعلم .

فصل

فإن قيل: مما تقولون في صلاة من عدم الخشوع في صلاته: هل يعتد بها أم لا ؟ .

قيل: أما الاعتداد بها في الثواب: فلا يعتد له فيها إلا بما عقل فيه منها وخشع فيه لربه .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : "ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها" .

وفى المسند مرفوعا : "إن العبد ليصلي الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها أو ثلثها أو ربعها حتى بلغ عشرها" .

وقد علق الله فلاح المصلين بالخشوع في صلاتهم فدل على أن من لم يخشع فليس من أهل الفلاح ولو اعتد له بها ثوابا لكان من المفلحين .

وأما الاعتداد بها في أحكام الدنيا وسقوط القضاء: فإن غلب عليها الخشوع وتعقلها اعتد بها إجماعا وكانت السنن والأذكار عقيبها جوابر ومكملات لنقصها.

وإن غلب عليه عدم الخشوع فيها وعدم تعقلها فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها فأوجبها أبو عبد الله بن حامد من أصحاب أحمد وأبو حامد الغزالي في إحيائه لا في وسيطه و بسيطه.

واحتجوا بأنها صلاة لا يثاب عليها ولم يضمن له فيها الفلاح فلم تبرأ ذمته منها ويسقط القضاء عنه كصلاة المرائى.

قالوا: ولأن الخشوع والعقل: روح الصلاة ومقصودها ولبها فكيف يعتد بصلاة فقدت روحها ولبها وبقيت صورتها وظاهرها؟.

(36/748)

قالوا: ولو ترك العبد واجبا من واجباتها عمدا لأبطلها تركه وغايته أن يكون بعضا من أبعاضها بمنزلة فوات عضو من أعضاء العبد المعتق في الكفارة فكيف إذا عدمت روحها ولبها ومقصودها وصارت بمنزلة العبد الميت إذا لم يعتد بالعبد المقطوع اليد يعتقه تقربا إلى الله تعالى في كفارة واجبة فكيف يعتد بالعبد الميت.

وقال بعض السلف: الصلاة كجارية تهدى إلى ملك من الملوك فما الظن بمن يهدي إليه جارية شلاء أو عوراء أو عمياء أو مقطوعة اليد والرجل أو مريضة أو دميمة أو قبيحة حتى يهدى إليه جارية ميتة بلا روح وجارية قبيحة فكيف بالصلاة التي يهديها العبد ويتقرب بها إلى ربه تعالى؟ والله

طيب لا يقبل إلا طيبا وليس من العمل الطيب: صلاة لا روح فيها كما أنه ليس من العتق الطيب عتق عبد لا روح فيه.

قالوا: وتعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع: تعطيل لملك الأعضاء عن عبوديته وعزل له عنها فماذا تغني طاعة الرعية وعبوديتها وقد عزل ملكها وتعطل؟.

قالوا: والأعضاء تابعة للقلب تصلح بصلاحه وتفسد بفساده فإذا لم يكن قائما بعبوديته فالأعضاء أولى أن لا يعتد بعبوديتها وإذا فسدت عبوديته بالغفلة والوسواس فأنى تصح عبودية رعيته وجنده ومادتهم منه وعن أمره يصدرون وبه يأتمرون؟.

قالوا: وفي الترمذي وغيره مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل" وهذا إما خاص بدعاء العبادة وإما عام له ولدعاء المسألة وإما خاص بدعاء المسألة الذي هو أبعد فهو تنبيه على أنه لا يقبل دعاء العبادة الذي هو خاص حقه من قلب غافل.

قالوا: ولأن عبودية من غلبت عليه الغفلة والسهو في الغالب لا تكون مصاحبة للإخلاص فإن الإخلاص قصد المعبود وحده بالتعبد والغافل لا قصد له فلا عبودية له.

(37/748)

قالوا: وقد قال الله تعالى: 17 :4، 5 ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ وليس السهو عنها تركها وإلا لم يكونوا مصلين وإنما هو السهو عن واجبها: إما عن الوقت كما قال ابن مسعود وغيره وإما عن الحضور والخشوع والصواب: أنه يعم النوعين فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة ووصفهم بالسهو عنها فهو السهو عن وقتها الواجب أو عن إخلاصها وحضورها الواجب ولذلك وصفهم بالرياء ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء.

قالوا: ولو قدرنا أنه السهو عن واجب فقط فهو تنبيه على التوعد بالويل على سهو الإخلاص والحضور بطريق الأولى لوجوه.

أحدها: أن الوقت يسقط في حال العذر وينتقل إلى بدله والإخلاص والحضور لا يسقط بحال ولا بدل له.

الثاني: أن واجب الوقت يسقط لتكميل مصلحة الحضور فيجوز الجمع بين الصلاتين للشغل

المانع من فعل إحداهما في وقتها بلا قلب ولا حضور كالمسافر والمريض وذي الشغل الذي يحتاج معه إلى الجمع كما نص عليه أحمد وغيره.

فبالجملة: مصلحة الإخلاص والحضور وجمعية القلب على الله في الصلاة: أرجح في نظر الشارع من مصلحة سائر واجباتها فكيف يظن به أنه يبطلها بترك تكبيرة واحدة أو اعتدال في ركن أو ترك حرف أو شدة من القرآن أو ترك تسبيحه أو قول: "سمع الله لمن حمده" أو قول: "ربنا ولك الحمد" أو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة عليه ثم يصححها مع فوات بها ومقصودها الأعظم وروحها وسرها .

فهذا ما احتجت به هذه الطائفة وهي حجج كما تراها قوة وظهورا .

قال أصحاب القول الآخر: قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال: "إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين فإذا قضى التأذين أقبل فإذا ثوب بالصلاة أدبر فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وبين نفسه فيذكره ما لم يكن يذكر يقول: اذكر كذا اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يضل الرجل لا يدري كم صلى فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس" .

قالوا: فأمره النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الصلاة التي قد أغفله الشيطان فيها حتى لم يدركم صلى: بأن يسجد سجدتي السهو ولم يأمره بإعادتها ولو كانت باطلة كما زعمتم لأمره بإعادتها.

قالوا: وهذا هو السر في سجدتي السهو ترغيما للشيطان في وسوسته للعبد وكونه حال بينه وبين الحضور في الصلاة ولهذا سماها النبي صلى الله عليه وسلم المرغمتين وأمر من سها بهما ولم يفصل في سهوه الذي صدر عنه موجب السجود بين القليل والكثير والغالب والمغلوب وقال: "لكل سهو سجدتان" ولم يستثن من ذلك السهو الغالب مع أنه الغالب.

قالوا: ولأن شرائع الإسلام على الأفعال الظاهرة وأما حقائق الإيمان الباطنة: فتلك عليها شرائع الثواب والعقاب فلله تعالى حكمان: حكم في الدنيا على الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح وحكم في الأخرة على الظواهر والبواطن ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل علانية المنافقين ويكل أسرارهم إلى الله تعالى فينا كحون ويرثون ويورثون ويعتد بصلاتهم في أحكام الدنيا فلا يكون حكمهم حكم تارك الصلاة إذ قد أتوا بصورتها الظاهرة وأحكام الثواب والعقاب ليست إلى البشر بل إلى الله والله يتولاه في الدار الآخرة.

قالوا: فنحن في حكم شرائع الإسلام نحكم بصحة صلاة المنافق والمرائى مع أنه لا يسقط عنه العقاب ولا يحصل له الثواب في الآخرة فصلاة المسلم الغافل المبتلى بالوسواس وغفلة القلب عن كمال حضوره أولى بالصحة.

(39/748)

نعم: لا يحصل مقصود هذه الصلاة من ثواب الله عاجلا ولا آجلا فإن للصلاة مزيد ثواب عاجل في القلب من قوة إيمانه واستنارته وانشراحه وانفساحه ووجود حلاوة العبادة والفرح والسرور واللذة التي تحصل لمن اجتمع همه وقلبه على الله وحضر قلبه بين يديه كما يحصل لمن قربه السلطان منه وخصه بمناجاته والإقبال عليه والله أعلى وأجل.

وكذلك ما يحصل هذا من الدرجات العلى في الآخرة ومرافقة المقربين

كل هذا يفوته بفوات الحضور والخضوع وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض وليس كلامنا في هذا كله فإن أردتم وجوب الإعادة: لتحصل هذه الثمرات والفوائد: فذاك إليه إن شاء أن يحصلها وإن شاء أن يفوتها على نفسه وإن أردتم بوجوبها أنا نلزمه بها ونعاقبه على تركها ونرتب عليه أحكام تارك الصلاة فلا.

وهذا القول الثاني أرجح القولين والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مدارج السالكين جـ 1 صـ 530.520 ﴾

(40/748)

فروق لغوية دقيقة :

الفرق بين غاية الشيء ومداه ونهايته وحده وآخره وما يجري مع ذلك

الفرق بين غاية الشيء والمدى

أن أصل الغاية الراية وسميت نهاية الشيء غايته لأن كل قوم ينتهون إلى غايتهم في الحرب أي رايتهم ثم كثر حتى قيل لكل ما ينتهى اليه غايه ولكل غايه نهاية والأصل ما قلناه ومدى الشيء ما بينه وبين غايته والشاهد قول الشاعر من الطويل

ولم ندر إن جضنا عن الموت جيضة

كم العمر باق والمدى متطاول

يعني مدى العمر والمعنى أن الأمل منفسح لما بينه وبين الموت ومن ذلك قولهم هو مني مدى البصر أي هو حيث يناله بصري كأن بصري ينفسح بيني وبينه ثم كثر حتى قيل للغاية مدى كما يسمى الشيء باسم ما يقرب منه

الفرق بين الأمد والغاية

أن الأمد حقيقة والغاية مستعارة على ما ذكرنا ويكون الأمد ظرفا من الزمان والمكان

فالزمان

قوله تعالى (فطال عليهم الأمد) والمكان قوله تعالى (تود لو أن بينهما وبينه امد بعيدا

الفرق بين آخر الشيء ونهايته

أن آخر الشيء خلاف أوله وهما اسمان والنهاية مصدر مثل الحماية والكفاية إلا أنه سمي به منقطع الشيء فقيل هو نهايته أي منتهاه وخلاف المنتهى المبتدأ فكلما أن قولك المبتدا يقتضي ابتداء فعل من جهة اللفظ وقد انتهى الشيء إذا بلغ مبلغا لا يزاد عليه وليس يقتضي النعاية منهى إليه ولو اقتضى ذلك لم يصح أن يقال للعالم نهاية وقيل النهاية منتهى إليه ولو اقتضى ذلك لم يصح أن يقال لعالم نهاية وقيل الدار الآخرة لأن الدنيا يؤدي إليها والدنيا بمعنى الولى وقيل دار الاخرة كما قيل مسجد الجامع والمراد مسجد اليوم الجامع ودار الساعة الآخرة وأما حق اليقين فهو كقولك محض اليقين ومن اليقين وليس قول من يقول هذه إضافة الشيء إلى نعته بشيء لأن الإضافة توجب دخول الأول في الثاني حتى يكون في ضمنه والنعت تحليه وإنما يحلى بالشيء الذي هو بالحقيقة ويضاف إلى ما هو غيره في الحقيقة تقول هذا زيد الطويل فالطويل هو زيد بعينه ولو قلت زيد الطويل وجب أن يكون زيد غير الطويل ويكون في تلك الطويل ولا يجوز إضافة الشيء إلا إلى غيره أو بعضه فغيره نحو عبد زيد وبعضه نحو ثوب حرير وخاتم ذهب أي من حرير ومن ذهب وقال المازني عام

الأول إنما هو عام زمن الأول

الفرق بين الآخر والآخر أن الآخر بعنى ثان وكل شيء يجوز أن يكون له ثلث وما فوق ذلك يقال فيه آخر ويقال للمؤنث آخر وما لم يكن له ثالث فما فوق ذلك قيل الأول والآخر ومن هذا ربيع الأول وربيع الآخر

الفرق بين الحد والنهاية والعاقبة

أن النهاية ما

(42/748)

ذكرناه والحد يفيد معنى تمييز المحدود من غيره ولهذا قال المتكلمون حد القدرة كذا وحد السواد كذا وسمي حدا لأنه يمنع غيره من المحدود في ما هو حد له وفي هذا تمييز له من غيره ولهذا قال الشروطيون اشترى الدار بحدودها ولم يقولوا بناياتها لأن أجمع للمعنى ولهذا يقال للعالم نهاية ولا يقال للعالم حد فإن قيل فعلى الاستعارة وهو بعيد وعندهم أن حد الشيء منه فقال أبو يوسف والحسن بن زياد غذا كتب حدها الأول دار زيد دخلت دار زيد في لاشراء وقال أبو حنيفة لا تدخل فيه وإن كتب حدها الأول المسجد وأدخله فسد البيع في قولهما وقال أبو حنيفة لا يفسد لان هذا على مقتضى العرف وقصد الناس في ذلك

معروف وأما العاقبة فهي ما تؤدي إليه التأدية والعاقبة هي الكائنة بالنسب الذي من شأنه التأدية وذلك أن السبب على وجهين مولده ومود وإنما العاقبة في المؤدي فالعاقبة يؤدي إليها السبب المقدم وليس كذلك الآخرة ولأنه قد كان يمكن أن تجعل هي الأولى في العدة

الفرق بين الجانب والناحية والجهة

قال المتكلمون إن جانب الشيء غيره وجهته ليست غيره ألا ترى أن الله تعالى لو خلق الجزء الذي لا يتجزا منفردا لكانت له جهات ست بدلالة أنه يجوز أن تجاوره ستة أجزاء من كل جهة جزء ولا يجوز ألا ترى أنك تقول للرجل خذ على جانبك اليمن تريد ما يقرب من هذه الجهة لو كان جانبك اليمين أو الشمال منك لم يمكنك الأخذ فيه وقال بعضهم ناحية الشيء كله وجهته بعضه أو

(43/748)

ما هو حكم البعض يقال ناحية العراق أي العراق كلها وجهة العراق يراد بها بعض أطرافها وعند أهل العربية أن الوجه مستقبل كل شيء والجهة النحو يقال كذا على جهة كذا قال الخليل قال ويقال رجل أحمر وجهه) أي في كل وجه استقبلته وأخذت فيه وتجاه الشيء ما استقبلته يقال توجهوا إليك ووجهوا اليك كل يقال غير أن قولك وجهوا اليك على معنى ولوا

وجوهم والتوجيه الفعل الللازم والناحية فاعلة بمعنى مفعولة وذلك أنها منحوة أي مقصودة

كما تقول راحلة وإنما هي مرحولة وعيشة راضية أي مرضية

الفرق بين الجانب والكنف

أن الكنف هو ما يسد الشيء من أحد جانبيه ولهذا يستعمل في المعونة فيقال أكنف الرجل

إذا أعانه وكنفته أذا حطته وكنفت الإبل إذا حطتها في حظيرة من الشجر ويجوز أن يقال

الفرق بين الجانب والكنف أن الكنف هو الجانب المعتمد عليه وليس كذلك الجانب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفروق اللغوية صـ 313.315 ﴾

(44/748)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (19) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت الصدقة كالبذر الذي تقدم أن الله تعالى يحييه ويضاعفه أضعافاً كثيرة على

حسب زكاء الأرض ، قال منتجاً مما مضى ما يعرف أن من أعظم ما دل على الخشوع المحثوث عليه والبعد عن حال الذين أوتوا الكتاب في القسوة الصدقة بالإنفاق الذي قرنه في أولها بالإيمان ، وحث عليه في كثير من آياتها تنبيهاً على أنه ثمرته التي لا تخلف عنه ، معبراً عنه بما يرشد إلى أنه المصدق لدعواه ، وأكده لمن يشك في البعث من إنكار بركة الصدقة عاجلاً أو آجلاً تقيداً بالمحسوسات : ﴿ إن المصدقين ﴾ أي العريقين في هذا الوصف من الرجال ﴿ والمصدقات ﴾ أي من النساء بأموالهم على الضعفاء الذين إعطاؤهم يدل على الصدق في الإيمان لكون المعطى لا يرجى منه نفع دنيوي ، ولعله أدغم إشارة إلى إخفاء الإكثار من الصدقة حتى تصير ظاهرة ، وقراءة ابن كثير وأبي بكر عن عاصم بالتخفيف تدل مع ذلك على التصديق بالإيمان ، فكل من القراءات يدل عليهما ، ومن التفصيل بذكر النوعين تعرف شدة الاعتناء .

(45/748)

ولما كانت صيغة التفعل تدل على التكلف حثاً على حمل النفس على التطبع بذلك حتى يصير لها خلقاً في غاية الخفة عليها فقال عاطفاً على صلة الموصول في اسم الفاعل معبراً بالماضي بعد إفهام الوصف الثبات دلالة على الإيقاع بالفعل عطفاً على ما تقديره موقعاً

ضميراً المذكر على الصنفين تغليباً الذين صدقوا إيمانهم بالتصدق : ﴿ وأقرضوا الله ﴾ الذي له الكمال كله بتصديقهم سواء كانوا من الذكور أو الإناث ، وإنفاقهم في كل ما ندب إلى الإنفاق فيه ، وأكد ووصف بقوله : ﴿ قرضاً حسناً ﴾ أي بغاية ما يكون من طيب النفس وإخلاص النية في الصدقة والنفقة في سبيل الخير ، وحسنه أن يصرف بصره إلى النظر إلى فعله والامتياز به وطلب العوض عليه ، قال الرازي : ﴿ يضاعف ﴾ أي ذاك القرض ﴿ لهم ﴾ ويثابون بحسب تلك المضاعفة لأن الذي كان القرض له سبحانه حليم كريم ولا يرضى في الخير إلا بالفضل ، وثقل في قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب دلالة على المبالغة في التكثير ، وعبر بالمفاعلة في قراءة الجماعة لإفهام أن تلك الكثرة مما لا بد من كونه ، وأنه عمل فيه عمل من يباري آخر ويغالبه ، وبنى للمفعول دلالة على باهر العظمة اللازم عنه كونه بغاية السهولة ﴿ ولهم ﴾ أي مع المضاعفة ﴿ أجر كريم ﴾ أي لا كدر فيه بانقطاع ولا قلة ولا زيادة بوجه من الوجوه أصلاً .

(46/748)

ولما بين سبحانه وتعالى أن الصدقة كالبذر الذي هو من أحسن الأرباح وأبهجها ، بين الحامل عليها ترغيباً فيها ، فقال عاطفاً بالواو ، إشارة إلى التمكن في جميع هذه الصفات :

﴿ والذين آمنوا ﴾ اي أوجدوا هذه الحقيقة العظيمة في أنفسهم ﴿ بالله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الجلال والإكرام ﴿ ورسله ﴾ اي كلهم لما لهم من النسبة إليه ، فمن كذب بشيء على أحد منهم أو عمل عمل المكذب له لم يكن مؤمناً به ﴿ أولئك ﴾ أي الذين لهم الرتب العالية والمقامات السامية ﴿ هم ﴾ أي خاصة لا غيرهم ﴿ الصديقون ﴾ أي الذين هم في غاية الصدق والتصديق لما يحق له أن يصدقه من سمعه ، وقال القشيري : الصديق من استوى ظاهره وباطنه ، ويقال : هو الذي يحمل الأمر على الأشق ولا ينزل إلى الرخص ، ولا يحتاج للتأويلات ، ولما كان الصديق لا يكون عريقاً في الصديقية إلا بالتأهيل لرتبة الشهادة قال تعالى : ﴿ والشهداء ﴾ معبراً بما مفرده شهيد عاطفاً بالواو إشارة إلى قوة التمكن في كل من الوصفين ، قال القشيري : هم الذين يشهدون بقلوبهم بواطن الوصل ويعتكفون بأسرارهم في أوطان القربة ، وزاد المرعظماً بقوله : ﴿ عند ربهم ﴾ أي الذي أحسن إليهم بالقربة بمثل تلك الرتبة العالية من الشهادة لله بكل ما أرسل به رسله ، والأنبياء الماضين على أممهم والحضور في جميع الملاذ بالشهادة في سبيل الله ، قال مجاهد : كل مؤمن صديق وشهيد - وتلا هذه الآية ﴿ لهم ﴾ أي جميع من مضى من الموصوفين بالخير ﴿ أجرهم ﴾ أي الذي جعله ربهم لهم ﴿ ونورهم ﴾ أي الذي زادهموه من فضله برحمته ، أولئك أصحاب النعيم المقيم .

ولما ذكر أهل السعادة جامعاً لأصنافهم ، أتبعهم أهل الشقاوة لذلك قال : ﴿ والذين كفروا ﴾ أي ستروا ما دلت عليه أنوار عقولهم ومرائي فكرهم ﴿ وكذبوا بآياتنا ﴾ على ما لها من العظمة بنسبتها إلينا سواء كانوا في ذلك مساترين أو مجاهرين أو عمل العالم بها عمل المكذب ﴿ أولئك ﴾ أي المبعدون من الخير خاصة ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ أي النار التي هي غاية في توقدها ، خالدون فيها من بين العصاة ، وأما غيرهم فدخولهم لها إذا دخلوها ليس على وجه الصحبة الدالة على الملازمة ، وأولئك هم الكاذبون الذي لا تقبل لهم شهادة عند ربهم ، لهم عقابهم وعليهم ظلامهم ، والآية من الاحتباك : ذكر الصديقية وما معها أولاً دليلاً على أضدادها ثانياً ، والجحيم ثانياً دليلاً على النعيم أولاً ، وسره أن الأول أعظم في الكرامة ، والثاني أعظم في الإهانة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 449. 451 ﴾

(48/748)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال أبو علي الفارسي : قرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر : ﴿ إِنَّ المصدقين والمصدقات ﴾ بالتخفيف ، وقرأ الباقون وحفص عن عاصم : ﴿ إِنَّ المصدقين والمصدقات ﴾ بتشديد الصاد فيهما ، فعلى القراءة الأولى يكون معنى المصدق المؤمن ، فيكون المعنى : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لأن إقراض الله من الأعمال الصالحة ، ثم قالوا : وهذه القراءة أولى لوجهين الأول : أن من تصدق لله وأقرض إذا لم يكن مؤمناً لم يدخل تحت الوعد ، فيصير ظاهر الآية متروكاً على قراءة التشديد ، ولا يصير متروكاً على قراءة التخفيف والثاني : أن المتصدق هو الذي يقرض الله ، فيصير قوله : ﴿ إِنَّ المصدقين والمصدقات ﴾ وقوله : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللهَ ﴾ شيئاً واحداً وهو تكرار ، أما على قراءة التخفيف فإنه لا يلزم التكرار ، وحجة من نقل وجهان أحدهما : أن في قراءة أبي : ﴿ إن المتصدقين والمتصدقات ﴾ بالتاء والثاني : أن قوله : ﴿ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ اعتراض بين الخبر والمخبر عنه ، والاعتراض بمنزلة الصفة ، فهو للصدقة أشد ملازمة منه للتصديق ، وأجاب الأولون : بأنا لا نحمل قوله : ﴿ وَأَقْرَضُوا ﴾ على الاعتراض ، ولكنا

نعطفه على المعنى ، ألا ترى أن المصدقين والمصدقات معناه : إن الذين صدقوا ، فصار تقدير الآية : إن الذين صدقوا وأقرضوا الله .

المسألة الثانية :

(49/748)

في الآية إشكال وهو أن عطف الفعل على الاسم قبيح فما الفائدة في التزامه ههنا ؟ قال صاحب الكشاف قوله : ﴿ وَأَقْرَضُواْ ﴾ معطوف على معنى الفعل في المصدقين ، لأن اللام بمعنى الذين ، واسم الفاعل بمعنى صدقوا ، كأنه قيل : إن الذين صدقوا وأقرضوا ، واعلم أن هذا لا يزيل الإشكال فإنه ليس فيه بيان أنه لم عدل عن ذلك اللفظ إلى هذا اللفظ ، والذي عندي فيه أن الألف واللام في المصدقين والمصدقات للمعهود ، فكأنه ذكر جماعة معينين بهذا الوصف ثم قبل ذكر الخبر أخبر عنهم بأنهم أتوا بأحسن أنواع الصدقة وهو الإتيان بالقرض الحسن ، ثم ذكر الخبر بعد ذلك وهو قوله : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ ﴾ فقوله : ﴿ وَأَقْرَضُواْ الله ﴾ هو المسمى بحشو اللوزنج كما في قوله :

إن الثمانين وبلغتها . . (قد أحوجت سمعي إلى ترجمان)

المسألة الثالثة :

من قرأ : ﴿ المصدقين ﴾ بالتشديد اختلفوا في أن المراد هو الواجب أو التطوع أو هما جميعاً ، أو المراد بالتصدق الواجب وبالإقراض التطوع لأن تسميته بالقرض كالدلالة على ذلك فكل هذه الاحتمالات مذكورة ، أما قوله : ﴿ يضاعف لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ فقد تقدم القول فيه .

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ

اعلم أنه تعالى ذكر قبل هذه الآية حال المؤمنين والمنافقين ، وذكر الآن حال المؤمنين وحال الكافرين ، ثم في الآية مسألتان :

المسألة الأولى :

(50/748)

الصديق نعت لمن كثر منه الصدق ، وجمع صدقاً إلى صدق في الإيمان بالله تعالى ورسله وفي هذه الآية قولان : أحدهما : أن الآية عامة في كل من آمن بالله ورسله وهو مذهب مجاهد قال : كل من آمن بالله ورسله فهو صديق ثم قرأ هذه الآية ، ويدل على هذا ما روي عن ابن عباس في قوله : ﴿ هُمُ الصديقون ﴾ أي الموحدون الثاني : أن الآية خاصة ، وهو قول المقاتلين : أن الصديقين هم الذين آمنوا بالرسل حين أتوهم ولم يكذبوا ساعة قط مثل آل

ياسين ، ومثل مؤمن آل فرعون ، وأما في ديننا فهم ثمانية سبقوا أهل الأرض إلى الإسلام أبو بكر وعلي وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة وتاسعهم عمر ألحقه الله بهم لما عرف من صدق نيته .

المسألة الثانية :

(51/748)

قوله : ﴿ والشهداء ﴾ فيه قولان : الأول : أنه عطف على الآية الأولى والتقدير : إن الذين آمنوا بالله ورسله هم الصديقون وهم الشهداء ، قال مجاهد : كل مؤمن فهو صديق وشهيد وتلا هذه الآية ، جذا القول اختلفوا في أنه لم سمي كل مؤمن شهيد ؟ فقال بعضهم لأن المؤمنين هم الشهداء عند ربهم على العباد في أعمالهم ، والمراد أنهم عدول الآخرة الذي تقبل شهادتهم ، وقال الحسن : السبب في هذا الاسم أن كل مؤمن فإنه يشهد كرامة ربه ، وقال الأصم : كل مؤمن شهيد لأنه قائم لله تعالى بالشهادة فيما تعبدهم به من وجوب الإيمان ووجوب الطاعات وحرمة الكفر والمعاصي ، وقال أبو مسلم : قد ذكرنا أن الصديق نعت لمن كثر منه الصدق وجمع صدقاً إلى صدق في الإيمان بالله تعالى ورسله فصاروا بذلك شهداء على غيرهم القول الثاني : أن قوله : ﴿ والشهداء ﴾ ليس عطفاً

على ما تقدم بل هو مبتدأ ، وخبره قوله : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أو يكون ذلك صفة وخبره هو قوله : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ وعلى هذا القول اختلفوا في المراد من الشهداء ، فقال الفراء والزجاج : هم الأنبياء لقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلى هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] وقال مقاتل ومحمد بن جرير : الشهداء هم الذين استشهدوا في سبيل الله ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما تعدون الشهداء فيكم ؟ " قالوا : المقتول ، فقال : " إن شهداء أمتي إذاً لقليل ، ثم ذكر أن المقتول شهيد ، والمبطون شهيد ، والمطعون شهيد " الحديث .

واعلم أنه تعالى لما ذكر حال المؤمنين ، أتبعه بذكر حال الكافرين فقال : ﴿ والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 202.201 ﴾

(52/748)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المصدقين والمصدقات ﴾

قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد فيهما من التصديق ، أي المصدّقين بما

أنزل الله تعالى.

الباقون بالتشديد أي المتصدقين والمتصدقات فأدغِمت التاء في الصاد، وكذلك في مصحف أُبيّ.

وهو حثٌّ على الصدقات، ولهذا قال: ﴿ وَأَقْرَضُواْ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ بالصدقة والنفقة في سبيل الله.

قال الحسن: كل ما في القرآن من القرض الحسن فهو التطوع.

وقيل: هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسباً صادقاً.

وإنما عطف بالفعل على الاسم، لأن ذلك الاسم في تقدير الفعل، أي إن الذين صدّقوا وأقرضوا ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ أمثالها.

وقراءة العامة بفتح العين على ما لم يسم فاعله.

وقرأ الأعمش "يُضَاعِفُه" بكسر العين وزيادة هاء.

وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب "يُضَعَّفُ" بفتح العين وتشديدها.

﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني الجنة.

قوله تعالى: ﴿ والذين آمَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ أولئك هُمُ الصديقون والشهدآء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ اختلف في ﴿ والشهدآء ﴾ هل هو مقطوع مما قبل أو متصل به.

فقال مجاهد وزيد بن أسلم: إن الشهداء والصدّيقين هم المؤمنون وأنه متصل؛ وروي معناه

عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فلا يوقف على هذا على قوله : ﴿ الصديقون ﴾ وهذا قول ابن مسعود في تأويل الآية .

قال القشيري قال الله تعالى : ﴿ فأولئك مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين والصديقين والشهدآء والصالحين ﴾ [النساء : 69] فالصدّيقون هم الذين يتلون الأنبياء ، والشهداء هم الذين يتلون الصدّيقين ، والصالحون يتلون الشهداء ، فيجوز أن تكون هذه الآية في جملة من صدّق بالرسل ؛ أعني ﴿ والذين آمَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ أولئك هُمُ الصديقون والشهدآء ﴾ .

(53/748)

ويكون المعنى بالشهداء من شهد لله بالوحدانية ، فيكون صدّيق فوق صدّيق في الدرجات ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن أهل الجنات العلا ليراهم من دونهم كما يرى أحدكم الكوكب الذي في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأَنْعَمَا " وروي عن ابن عباس ومسروق أن الشهداء غير الصدّيقين .

فالشهداء على هذا منفصل مما قبله والوقف على قوله : ﴿ الصديقون ﴾ حسن .

والمعنى ﴿ والشهدآء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أي لهم أجر أنفسهم ونور

أنفسهم .

وفيهم قولان أحدهما أنهم الرسل يشهدون على أممهم بالتصديق والتكذيب ؛ قاله الكلبي ؛ ودليله قوله تعالى : ﴿ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] .

الثاني أنهم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة ، وفيما يشهدون به قولان : أحدهما أنهم يشهدون على أنفسهم بما عملوا من طاعة ومعصية .

وهذا معنى قول مجاهد .

الثاني يشهدون لأنبيائهم بتبليغهم الرسالة إلى أممهم ؛ قاله الكلبي .

وقال مقاتل قولاً ثالثاً : إنهم القتلى في سبيل الله تعالى .

ونحوه عن ابن عباس أيضاً قال : أراد شهداء المؤمنين .

والواو واو الابتداء .

والصدّيقون على هذا القول مقطوع من الشهداء .

وقد اختلف في تعيينهم ؛ فقال الضحاك : هم ثمانية نفر ؛ أبو بكر وعليّ وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة .

وتابعهم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم ؛ ألحقه الله بهم لما صدق نبيّه صلى الله عليه وسلم .

وقال مقاتل بن حيان : الصدّيقون هم الذين آمنوا بالرسل ولم يكذبوهم طرفة عين ، مثل

مؤمن آل فرعون ، وصاحب آل ياسين ، وأبي بكر الصديق ، وأصحاب الأخدود .

قوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي بالرسل والمعجزات ﴿ أولئك أَصْحَابُ الجحيم ﴾ فلا أجر لهم ولا نور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(54/748)

وقال الثعالبى :

و﴿ المصدقين ﴾ : يعني به المتصدقين ، وباقي الآية بين .

* ت * : وقد جاءت آثار صحيحة في الحَضِّ على الصدقة ، قد ذكرنا منها جملة في هذا المختصر ، وأسند مالك في «الموطأ» عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أَنَّهُ قال : "يَا نِسَاءَ المُؤْمِنَاتِ ، لاَ تَحْقِرَنَّ إحْدَاكُنَّ لِجَارَتِهَا ، وَلَوْ كُرَاعَ شَاةٍ مُحْرَقاً " وفي «الموطأ» عنه صلى الله عليه وسلم " رُدُّوا السَّائِلَ وَلَوْ بِظِلْفٍ مُحْرَّقٍ " قال ابن عبد البر في «التمهيد» : ففي هذا الحديث الحَضُّ على الصدقة بكل ما أمكن من قليل الأشياء وكثيرها ، وفي قول اللَّه عز وجل : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7] أوضح الدلائل في هذا الباب ، وتصدقت عائشةُ رضي اللَّه عنها بحبتين من عنب ، فنظر إليها بَعْضُ أهل بيتها

فقالت : لا تَعْجَبْنَ ؛ فكم فيها من مثقال ذرة ، ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : "اتَّقُوا النَّارَ ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ " وإذا كان اللَّه عز وجل يُرْبِي الصدقاتِ ، ويأخذ الصدقةَ بيمينه فيُرَبِّيها ، كما يُرَبِّي أَحَدُنَا فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ فما بال مَنْ عَرَفَ هذا يَغْفُلُ عنه ! وما التوفيق إلاَّ باللَّه ، انتهى من «التمهيد» ، وروى ابن المبارك في «رقائقه» قال : أخبرنا حرملة بن عمران أَنَّهُ سَمِعَ يزيد بن أبي حَبِيبٍ يحدِّثُ أَنَّ أبا الخير حدثه : أَنَّه سمع عقبة بن عامر يقول : سَمِعْتُ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يقول : "كُلُّ امْرِىءٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ " قال يزيد : فكان أبو الخير لا يخطئه يومٌ إلاَّ تصدق فيه بشيء ، ولو كَعْكَةً أو بَصَلَةً أو كذا ، انتهى ، و ﴿ الصديقون ﴾ : بناء مبالغة من الصدق أو من التصديق ؛ على ما ذكر الزَّجَّاج .

(55/748)

وقوله تعالى : ﴿ والشهداء عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ : اخْتُلِفَ في تأويله فقال ابن مسعود وجماعة : ﴿ والشهداء ﴾ : معطوف على : ﴿ الصديقون ﴾ والكلامُ متَّصل ، ثم اختلفتْ هذه الفرقةُ في معنى هذا الاتصال ، فقال بعضها : وَصَفَ اللَّه المؤمنين بأَنَّهم صديقون وشهداء ، فَكُلُّ مؤمن شهيد ؛ قاله مجاهد ، وروى البَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال

: «مُؤمِنُو أُمَّتِي شُهَدَاءُ» ، وَتَلا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم هَذِهِ الآية وإنَّما خَصَّ صلى الله عليه وسلم ذكر الشهداء السبعة تشريفاً لهم ؛ لأَنَّهُم في أعلى رتب الشهادة ؛ أَلاَ ترى أَنَّ المقتولَ في سبيل اللَّه مخصوصٌ أيضاً من السبعة بتشريف ينفرد به ، وقال بعضها : ﴿ الشهداء ﴾ هنا : من معنى الشاهد لا من معنى الشهيد ، فكأَنَّه قال : هم أهل الصدق والشهداءُ على الأمم ، وقال ابن عباس ، ومسروق ، والضحاك : الكلام تامٌّ في قوله : ﴿ الصديقون ﴾ ، وقوله : ﴿ والشهداء ﴾ : ابتداءٌ مستأنف ، ثم اختلفتْ هذه الفرقةُ في معنى هذا الاستئناف ، فقال بعضها : معنى الآية : والشهداءُ بأَنَّهم صديقون حاضرون عند ربهم ، وعَنَى بالشهداء الأنبياء عليهم السلام .

(56/748)

ت : وهذا تأويل بعيد من لفظ الآية ، وقال بعضها : قوله : ﴿ والشهداء ﴾ ابتداء يريد به الشهداءَ في سبيل اللَّه ، واستأنف الخبر عنهم بأَنَّهم : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ فكأنَّه جعلهم صِنْفاً مذكوراً وحده .

ت : وأبينُ هذه الأقوال الأوَّلُ ، وهذا الأخيرُ ، وإنْ صَحَّ حديث البَرَاءِ لم يُعْدَلْ عنه ، قال أبو حيان : والظاهر أَنَّ ﴿ الشهداء ﴾ مبتدأ خبره ما بعده ، انتهى .

وقوله تعالى ﴿ وَنُورُهُمْ ﴾ قال الجمهور : هو حقيقة حسبما تقدم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(57/748)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ المصدقين والمصدقات ﴾

أي المتصدقين والمتصدقات ، وقد قرأ أبيّ كذلك ، وقرأ ابن كثير ، وأبو بكر .

والمفضل .

وأبان .

وأبو عمر وفي رواية هارون بتخفيف الصاد من التصديق لا من الصدقة كما في قراءة الجمهور أي الذين صدقوا واللاتي صدقن الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم ، والقرءاة الأولى أنسب بقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ وقيل : الثانية أرجح لأن الإقراض يغني عن ذكر التصدق ، وأنت ستعلم إن شاء الله تعالى فائدته ، وعطف ﴿ أقرضوا ﴾ على معنى الفعل من المصدقين على ما اختاره أبو علي .

(58/748)

والزمخشري لأن أل بمعنى الذين ، واسم الفاعل بمعنى الفعل فكأنه قيل : إن الذين اصدقوا أو صدقوا على القراءتين ﴿ الزكواة وَأَقْرِضُوا ﴾ وتعقبه أبو حيان وغيره بأن فيه الفصل بين أجزاء الصلة إذ المعطوف على الصلة صلة بأجنبي وهو المصدقات ، وذلك لا يجوز ، وقال صاحب التقريب : هو محمول على المعنى كأنه قيل : إن الناس الذين تصدقوا وتصدقن وأقرضوا فهو عطف على الصلة من حيث المعنى بلا فصل ، وتعقب بأنه لا محصل له إلا إذا قيل : إن أل الثانية زائدة لئلا يعطف على صورة جزء الكلمة ، وفيه بعد ، ولا يخفى أن حديث اعتبار المعنى يدفع ما ذكر ، ومن هنا قيل : إنه قريب ولا يبعد تنزيل ما تقدم عن أبي علي ، والزمخشري عليه ، وقيل : العطف على صلة أل في المصدقات واختلاف الضمائر تأنيثاً وتذكيراً لا يضر لأن أل تصلح للجميع فيراد بها معنى اللاتي عند عود ضمير جمع الإناث عليها ومعنى الذين عند عود ضمير جمع الذكور عليها وهو كما ترى ، ومثله ما قيل : هو من باب كل رجل وضيعته أي إن المصدقين مقرونون مع المصدقات في الثواب والمنزلة ، أو يقدر خبر أي إن المصدقين والمصدقات يفلحون ﴿ وَأَقْرِضُوا ﴾ في الوجهين ليس عطفاً على الصلة بل مستأنف ويضاعف بعد صفة قرضاً أو استئناف ومن أنصف لم ير ذلك مما ينبغي أن يخرج عليه كلام أدنى الفصحاء فضلاً عن كلام رب العالمين ، واختار أبو حيان تخريج ذلك على حذف الموصول لدلالة ما قبله عليه

كأنه قيل : والذين أقرضوا فيكون مثل قوله

: فمن يهجر رسول الله منكم . . .

(ويمدحه وينصره) سواء

وهو مقبول على رأي الكوفيين دون رأي البصريين فإنهم لا يجوزون حذف الموصول في مثله

، وبعض أئمة المحققين بعد أن استقرب توجيه التقريب ولم يستبعد تنزيل ما سمعت عن

الزمخشري .

(59/748)

وأبي علي عليه قال : وأقرب منه أن يقال : إن ﴿ المصدقات ﴾ منصوب على

التخصيص كأنه قيل : ﴿ إن المتصدقين ﴾ عاماً على التغليب وأخص المتصدقات منهم

كما تقول : إن الذين آمنوا ولا سيما العلماء منهم وعملوا الصالحات لهم كذا .

ووجه التخصيص ما ورد في قوله صلى الله عليه وسلم : "يا معشر النساء تصدقن فإني

أريتكن أكثر أهل النار" يحضهن على الصدقة بأنهن إذا فعلن ذلك كان له تعالى أقبل

وجزاؤه عنه سبحانه أوفر وأفضل ، ثم قال : ولما لم يكن الاقراض غير ذلك التصدق قيل :

وأقرضوا أي بذلك التصدق تحقيقاً لكينونته وأنهم مثل ذلك ممثلون عند الله تعالى بمن يعامل

مع أجود الأجودين معاملة برضاه ، ولو قيل : والمقرضين لفاتت هذه النكتة انتهى .

ولا يخفى أن نصب المصدقات على التخصيص خلاف الظاهر ، وأما ما ذكره في نكتة العدول عن المقروضين فحسن وهو متأت على تخريج أبي علي .

والزمخشري ، وعلى تخريج أبي حيان ، وقال الخفاجي : القول أي قول أبي البقاء بأن أقرضوا الخ معترض بين اسم إن وخبرها أظهر وأسهل ، وكأن النكتة فيه تأكيد الحكم بالمضاعفة ، وزعم أن الجملة حال بتقدير قد أو بدونها من ضميري المصدقين والمصدقات لا يخفى معنى وعربية فتدبر ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ الضمير لجميع المتقدمين الذكور والإناث على التغليب كضمير أقرضوا ، والجار والمجرور نائب الفاعل ، وقيل : هو ضمير التصدق أو ضمير القرض على حذف مضاف أي يضاعف ثواب التصدق أو ثواب القرض لهم ، وقرأ ابن كثير .

وابن عامر يضعف بتشديد العين ، وقرىء يضاعف بالبناء للفاعل أي يضاعف الله عز وجل لهم ثواب ذلك ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ قد مر الكلام فيه .

﴿ والذين ءامَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ ﴾ قد بين كيفية إيمانهم في خاتمة سورة البقرة ، والموصول مبتدأ أول ، وقوله تعالى : ﴿ أولاك ﴾ مبتدأ ثان ، وهو إشارة إلى الموصول وما فيه من معنى البعد لما مر مراراً ، وقوله سبحانه : ﴿ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ ﴾ مبتدأ ثالث ، وقوله عز وجل : ﴿ الصديقون والشهداء ﴾ خبر الثالث ، والجملة خبر الثاني وهو مع خبره خبر الأول أو هم ضمير فصل وما بعده خبر الثاني ، وقوله تعالى : ﴿ عِندَ رَبّهِمْ ﴾ متعلق على ما قيل : بالثبوت الذي تقتضيه الجملة أي أولئك عند ربهم عز وجل وفي حكمه وعلمه سبحانه هم الصديقون والشهداء .

والمراد أولئك في حكم الله تعالى بمنزلة الصديقين والشهداء المشهورين بعلو الرتبة ورفعة المحل وهم الذين سبقوا إلى التصديق ورسخوا فيه واستشهدوا في سبيل الله جل جلاله وسمي من قتل مجاهداً في سبيله تعالى شهيداً لأن الله سبحانه وملائكته عليهم السلام شهود له بالجنة ، وقيل : لأنه حي لم يمت كأنه شاهد أي حاضر ، وقيل : لأن ملائكة الرحمة تشهده ، وقيل : لأنه شهد ما أعد الله تعالى له من الكرامة ، وقيل : غير ذلك فهو إما فعيل بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول على اختلاف التأويل ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ خبر ثان للموصول على أنه جملة من مبتدأ وخبر ، أو ﴿ لَهُمْ ﴾ الخبر وما بعده مرتفع به على الفاعلية وضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ للموصول ، والضميران الأخيران للصديقين والشهداء ، والغرض بيان ثمرات ما وصفوا به من نعوت الكمال أي أولئك لهم مثل أجر الصديقين

والشهداء ونورهم المعروفين بغاية الكمال وعزة المنال ، وقد حذف أداة التشبيه تنبيهاً على قوة المماثلة وبلوغها حد الاتحاد كما فعل ذلك أولا حيث قيل : أولئك هم الصديقون والشهداء وليست المماثلة بين ما للفريق الأول من الأجر والنور .

(61/748)

وبين تمام ما للفريقين الأخيرين بل بين تمام للأول من الأصل والإضعاف وبين ما للأخيرين من الأصل بدون الإضعاف ، فالإضعاف هو الذي امتاز به الفريقان الأخيران على الفريق الأول وقد لا يعتبر تشبيه بليغ في الكلام أصلا ويبقى على ظاهره والضمائر كلها للموصول أي أولئك هم المبالغون في الصدق حيث آمنوا وصدقوا جميع أخبار الله تعالى وأخبار رسله عليهم الصلاة والسلام والقائمون بالشهادة لله سبحانه بالوحدانية وسائر صفات الكمال ولهم بما يليق بهم من ذلك لهم الأجر والنور الموعودان لهم ، وقال بعضهم : وصفهم بالشهادة لكونهم شهداء على الناس كما نطق به قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا لّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس ﴾ [البقرة : 143] فعند ربهم متعلق بالشهداء ، والمراد والشهداء على الناس يوم القيامة ، وجوز تعلقه بالشهداء أيضاً على الوجه الأول على معنى الذين شهدوا مزيد الكرامة بالقتل في سبيل الله تعالى يوم القيامة أو في حظيرة

رحمته عز وجل أو نحو ذلك، ويشهد لكون الشهداء معطوفاً على الصديقين آثار كثيرة.

أخرج ابن جرير عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن مؤمني أمتي شهداء " ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ والذين ءامَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصديقون والشهداء عِندَ رَبّهِمْ ﴾، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنه قال يوماً لقوم عنده: كلكم صديق وشهيد قيل له: ما تقول يا أبا هريرة؟ قال: اقرءوا ﴿ والذين ءامَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ ﴾ الآية، وأخرج عبد الرزاق.

(62/748)

وعبد بن حميد عن مجاهد قال: كل مؤمن صديق وشهيد ثم تلا الآية، وأخرج عبد بن حميد نحوه عن عمرو بن ميمون، وأخرج ابن حبان عن عمرو بن مرة الجهني قال: " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وصليت الصلوات الخمس وأديت الزكاة وصمت رمضان وقمته فممن أنا؟ قال: من الصديقين والشهداء " وينبغي أن يحمل الذين آمنوا على من لهم كمال في ذلك يعتدّ به ولا يتحقق إلا بفعل طاعات يعتدّ بها وإلا فيبعد أن يكون المؤمن المنهمك في الشهوات الغافل عن الطاعات صديقاً شهيداً، ويستأنس لذلك بما جاء من حديث عمر

رضي الله تعالى عنه ما لكم إذا رأيتم الرجل يخرق أعراض الناس أن لا تعيبوا عليه؟ قالوا: نخاف لسانه قال: ذلك أحرى أن لا تكونوا شهداء، قال ابن الأثير: أي إذا لم تفعلوا ذلك لم تكونوا في جملة الشهداء الذين يستشهدون يوم القيامة على الأمم التي كذبت أنبياءها، وكذا بقوله عليه الصلاة والسلام: اللعانون لا يكونون شهداء بناءاً على أحد قولين فيه. وفي بعض الأخبار ما ظاهره إرادة طائفة من خواص المؤمنين، أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من فرّ بدينه من أرض إلى أرض مخافة الفتنة على نفسه ودينه كتب عند الله صديقاً فإذا مات قبضه الله شهيداً وتلا هذه الآية: ﴿ والذين ءامَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصديقون والشهداء ﴾ ثم قال: هذه فيهم ثم قال: والفرّارون بدينهم من أرض إلى أرض يوم القيامة مع عيسى ابن مريم في درجته في الجنة" ويجوز أن يراد من قوله: "هذه فيهم" أنها صادقة عليهم وهم داخلون فيها دخولاً أولياً، ويقال: في قوله عليه الصلاة والسلام: "مع عيسى في درجته" المراد معه في مثل درجته وتوجه المماثلة بما مر والخبر إذا صح يؤيد الوجه الأول في الآية.

وروي عن الضحاك أنها نزلت في ثمانية نفر سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام وهم

أبو بكر .

وعمر .

وعثمان .

وعلي .

وحمزة .

وطلحة .

والزبير .

وسعد .

وزيد رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وهذا لا يضر في العموم كما لا يخفى ، وقيل : الشهداء مبتدأ و﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ خبره ، وقيل : الخبر ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ والكلام عليهما قد تم عند قوله تعالى : ﴿ الصديقون ﴾ ، وأخرج هذا ابن جرير عن ابن عباس .

والضحاك قالا : ﴿ والذين ءامَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصديقون ﴾ هذه مفصولة سماهم صديقين ، ثم قال : والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم .

وروي جماعة عن مسروق ما يوافقه ، واختلفوا في المراد بالشهداء على هذا فقيل : الشهداء في سبيل الله تعالى .

وحكى ذلك عن مقاتل بن سليمان ، وقيل : الأنبياء عليهم السلام الذين يشهدون للأمم

عليهم ، وحكى ذلك عن مسروق .

ومقاتل بن حيان .

واختاره الفراء .

والزجاج ، وزعم أبو حيان أن الظاهر كون الشهداء مبتدأ وما بعده خبر ، ومن أنصف يعلم

أنه ليس كما قال ، وأن الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم هو ما تقدم ، ثم النور على الجميع

الأوجه على حقيقته ، وعن مجاهد .

وغيره أنه عبارة عن الهدى والكرامة والبشرى .

﴿ والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ أي بجميعها على اختلاف أنواعها وهو إشارة إلى

كفرهم بالرسل عليهم السلام جميعهم ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفة القبيحة ﴿

أصحاب الجحيم ﴾ بحيث لا يفارقونها أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 27

صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾

يقال : أنى لك يأني أنى : إذا حان .

قرأ الجمهور ﴿ ألم يأن ﴾ وقرأ الحسن ، وأبو السماك : (ألما يأن) ، وأنشد ابن السكيت :

ألما يأن لي أن تجلى عمايتي . . . وأقصر عن ليلى ؟ بلى قد أنى ليا

و ﴿ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ فاعل يأن ، أي : ألم يحضر خشوع قلوبهم ويجيء وقته ، ومنه قول الشاعر :

ألم يأن لي يا قلب أن أترك الجهلا . . . وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلا ؟

هذه الآية نزلت في المؤمنين .

قال الحسن : يستبطئهم ، وهم أحبّ خلقه إليه .

وقيل : إن الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد .

قال الزجاج : نزلت في طائفة من المؤمنين ، حثوا على الرّقة والخشوع ، فأما من وصفهم الله بالرّقة والخشوع ، فطبقة فوق هؤلاء .

وقال السديّ وغيره : المعنى : ألم يأن للذين آمنوا في الظاهر ، وأسرّوا الكفر أن تخشع قلوبهم ﴿ لِذِكْرِ اللهِ ﴾ ، وسيأتي في آخر البحث ما يقوّي قول من قال إنها نزلت في المسلمين ،

والخشوع : لين القلب ورقته .

والمعنى : أنه ينبغي أن يورثهم الذكر خشوعاً ورقة ، ولا يكونوا كمن لا يلين قلبه للذكر ولا يخضع له ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق ﴾ معطوف على ذكر الله ، والمراد بما نزل من الحقّ : القرآن ، فيحمل الذكر المعطوف عليه على ما عداه مما فيه ذكر الله سبحانه باللسان ، أو خطور بالقلب ، وقيل : المراد بالذكر هو القرآن ، فيكون هذا العطف من باب عطف التفسير ، أو باعتبار تغاير المفهومين .

قرأ الجمهور : ﴿ نزل ﴾ مشدّداً مبنياً للفاعل .

وقرأ نافع ، وحفص بالتخفيف مبنياً للفاعل .

وقرأ الجحدري ، وأبو جعفر ، والأعمش ، وأبو عمرو في رواية عنه مشدّداً مبنياً للمفعول .

وقرأ ابن مسعود : (أنزل) مبنياً للفاعل ﴿ وَلاَ يَكُونُوا كالذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلُ ﴾ قرأ الجمهور بالتحتية على الغيبة جرياً على ما تقدّم .

(65/748)

وقرأ أبو حيوة ، وابن أبي عبلة بالفوقية على الخطاب التفاتاً ، وبها قرأ عيسى ، وابن إسحاق ، والجملة معطوفة على تخشع أي : ألم يأن لهم أن تخشع ، قلوبهم ، ولا يكونوا ؟ والمعنى : النهي لهم عن أن يسلكوا سبيل اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل من

قبل نزول القرآن ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد ﴾ أي : طال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم .

قرأ الجمهور : ﴿ الأمد ﴾ بتخفيف الدال ، وقرأ ابن كثير في رواية عنه بتشديدها ، أي : الزّمن الطويل ، وقيل : المراد بالأمد على القراءة الأولى : الأجل والغاية ، يقال أمد فلان كذا ، أي : غايته ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ بذلك السبب ، فلذلك حرّفوا وبدّلوا ، فنهى الله سبحانه أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يكونوا مثلهم ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ أي : خارجون عن طاعة الله ؛ لأنهم تركوا العمل بما أنزل إليهم ، وحرّفوا وبدّلوا ، ولم يؤمنوا بما نزل على محمد ، وقيل : هم الذين تركوا الإيمان بعيسى ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : هم الذين ابتدعوا الرهبانية ، وهم أصحاب الصوامع .

﴿ اعلموا أَنَّ الله يُحْيِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فهو قادر على أن يبعث الأجسام بعد موتها ، ويلين القلوب بعد قسوتها ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيات ﴾ التي من جملتها هذه الآيات ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : كي تعقلوا ما تضمنته من المواعظ ، وتعملوا بموجب ذلك .

﴿ إِنَّ المصدقين والمصدقات ﴾ قرأ الجمهور بتشديد الصاد في الموضعين من الصدقة ، وأصله المتصدّقين والمتصدّقات ، فأدغمت التاء في الصاد .

وقرأ أبيّ (المتصدّقين والمتصدّقات) بإثبات التاء على الأصل .

وقرأ ابن كثير بتخفيف الصاد فيهما من التصديق ، أي : صدّقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به ﴿ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ معطوف على اسم الفاعل في المصدّقين ؛ لأنه لما وقع صلة للألف واللام الموصولة حلّ محلّ الفعل ، فكأنه قال : إن الذين تصدّقوا وأقرضوا ، كذا قال أبو علي الفارسي وغيره .

وقيل : جملة : ﴿ وأقرضوا ﴾ معترضة بين اسم إن وخبرها ، وهو ﴿ يضاعف ﴾

وقيل : هي صلة لموصول محذوف ، أي : والذين أقرضوا ، والقرض الحسن عبارة عن التصدق والإنفاق في سبيل الله مع خلوص نية ، وصحة قصد ، واحتساب أجر .

قرأ الجمهور : ﴿ يضاعف لهم ﴾ بفتح العين على البناء للمفعول ، والقائم مقام الفاعل إما الجار والمجرور ، أو ضمير يرجع إلى المصدّقين على حذف مضاف أي : ثوابهم ، وقرأ الأعمش : (يضاعفه) بكسر العين وزيادة الهاء .

وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، ويعقوب : (يضعف) بتشديد العين وفتحها ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو الجنة ، والمضاعفة هنا أن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

﴿ والذين ءامَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ ﴾ جميعاً ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الموصول ، وخبره قوله : ﴿ هُمُ الصديقون والشهداء ﴾ الجملة خبر الموصول .

قال مجاهد : كل من آمن بالله ورسله فهو صدّيق .

قال المقاتلان : هم الذين لم يشكوا في الرسل حين أخبروهم ولم يكذّبوهم .

وقال مجاهد : هذه الآية للشهداء خاصة ، وهم الأنبياء الذين يشهدون للأمم وعليهم ، واختار هذا الفراء ، والزجاج.

(67/748)

وقال مقاتل بن سليمان : هم الذين استشهدوا في سبيل الله ، وكذا قال ابن جرير ، وقيل : هم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة لأنبيائهم بالتبليغ ، والظاهر أن معنى الآية : إن الذين آمنوا بالله ورسله جميعاً بمنزلة الصدّيقين والشهداء المشهورين بعلوّ الدرجة عند الله ، وقيل : إن الصدّيقين هم المبالغون في الصدق حيث آمنوا بالله ، وصدّقوا جميع رسله ، والقائمون لله سبحانه بالتوحيد .

ثم بيّن سبحانه ما لهم من الخير بسبب ما اتصفوا به من الإيمان بالله ورسله فقال : { لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ } والضمير الأوّل راجع إلى الموصول ، والضميران الأخيران راجعان إلى الصدّيقين والشهداء ، أي : لهم مثل أجرهم ونورهم ، وأما على قول من قال : إن الذين آمنوا بالله ورسله هم نفس الصديقين والشهداء ، فالضمائر الثلاثة كلها راجعة إلى شيء واحد ، والمعنى : لهم الأجر والنور الموعودان لهم .

ثم لما ذكر حال المؤمنين وثوابهم ، ذكر حال الكافرين وعقابهم ، فقال : ﴿ والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ أي : جمعوا بين الكفر وتكذيب الآيات ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الموصول باعتبار ما في صلته من اتصافهم بالكفر والتكذيب ، وهذا مبتدأ ، وخبره ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ يعذبون بها ، ولا أجر لهم ولا نور ، بل عذاب مقيم وظلمة دائمة .

وقد أخرج ابن مردويه عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن ، فأنزل الله ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ .

. .

" الآية .

(68/748)

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفر من أصحابه في المسجد ، وهم يضحكون ، فسحب رداءه محمراً وجهه فقال : " أتضحكون ، ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم ، ولقد أنزل عليّ في ضحككم آية : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ﴾ " قالوا : يا رسول الله ، فما كفارة ذلك؟ قال : " تبكون بقدر ما ضحكتم " وأخرج مسلم ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن

مردويه عن ابن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ إلاّ أربع سنين .

وأخرج نحوه عنه ابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طريق أخرى .

وأخرج أبو يعلى ، وابن مردويه عنه أيضاً قال : لما نزلت هذه الآية أقبل بعضنا على بعض : أيّ شيء أحدثنا : أيّ شيء صنعنا ؟ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن الله استبطأ قلوب المهاجرين ، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ .

. .

الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن عبد العزيز بن أبي روّاد أن أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ظهر فيهم المزاح والضحك ، فنزلت هذه الآية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ .

وأخرج ابن المبارك عن ابن عباس ﴿ اعلموا أَنَّ الله يُحْيِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ قال : يعني : أنه يلين القلوب بعد قسوتها .

وأخرج ابن جرير عن البراء بن عازب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " مؤمنو أمتي شهداء " ثم تلا النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ والذين ءامَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ

هُمُ الصديقون والشهداء عِندَ رَبّهِمْ ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال : كل مؤمن صديق وشهيد .

(69/748)

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : إن الرجل ليموت على فراشه ، وهو شهيد ، ثم تلا هذه الآية : وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة نحوه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ والذين ءامَنُوا بالله وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصديقون ﴾ قال : هذه مفصولة ﴿ والشهداء عِندَ رَبّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ .

وأخرج ابن حبان عن عمرو بن مرة الجهني قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلاّ الله ، وأنك رسول الله ، وصليت الصلوات الخمس ، وأدّيت الزكاة ، وصمت رمضان ، وقمته فممن أنا ؟ قال : " من الصدّيقين والشهداء " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 173. 174 ﴾

(70/748)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18) ﴾

يشبه أن تكون هذه الآية من المدني وأن تكون متصلة المعنى بقوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم ﴾ [الحديد : 11] وأن آية ﴿ ألم يأن للذين آمنوا ﴾ [الحديد : 16] وما بعدها معترض .

وقد تخلل المكي والمدني كل مع الآخر في هذه السورة ألا ترى أن ألفاظ الآيتين متماثلة إذ أريد أن يعاد ما سبق من التحريض على الإِنفاق فيُؤتى به في صورة الصلة التي عُرف بها الممتثلون لذلك التحريض .

وعطف ﴿ والمصدقات ﴾ كما تقدم في قوله : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ﴾ [الحديد : 12] ، ولأن الشُحّ يكثر في النساء كما دلت عليه أشعار العرب .

وقرأ الجمهور ﴿ والمصّدقين ﴾ بتشديد الصاد على أن أصله المتصدقين فأدغمت التاء في الصاد بعد قَلْبِهَا صاداً لقرب مخرجيهما تطلباً لخفة الإِدغام ، فقوله : ﴿ واقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ من عطف المرادف في المعنى لما في المعطوف من تشبيه فِعلهم بقرض لله تنويهاً بالصدقات .

وقرأه ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد على أنه من التصديق ، أي الذين

صدَّقوا الرسول صلى الله عليه وسلم أي آمنوا وامتثلوا أمره فأقرضوا الله قرضاً حسناً .

وقرأ الجمهور ﴿ يضاعف لهم ﴾ بألف بعد الضاد .

وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ﴿ يضعّف ﴾ بدون ألف وبتشديد العين .

وعطف ﴿ واقرضوا ﴾ وهو جملة على ﴿ المصدقين ﴾ وهو مفرد لأن المفرد في حكم الفعل حيث كانت اللام في معنى الموصول فقوة الكلام : إن الذين اصَّدَّقوا واللائي تصدقْنَ وأقرضوا ، على التغليب ولا فَصْل بأجنبي على أن الفصل لا يمنع إذا لم يفسد المعنى .

ووجه العدول عن تماثل الصلتين فلم يقل : إن المصدقين والمقرضين ، هو تصوير معنى كون التصدق إقراضاً لله .

(71/748)

وتقدم معنى ﴿ يضاعف لهم ولهم أجر كريم ﴾ في قوله : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ﴾ [الحديد : 11] الآية .

﴿ والذين ءَامَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ أولئك هُمُ الصديقون ﴾

لما ذكر فضل المتصدقين وكان من المؤمنين من لا مال له ليتصدق منه أعقب ذكر المتصدقين ببيان فضل المؤمنين مطلقاً ، وهو شامل لمن يستطيع أن يتصدق ومن لا يستطيع على نحو

التذكير المتقدم آنفاً في قوله : ﴿ وكلاًّ وعد الله الحسنى ﴾ [النساء : 95] .

وفي الحديث : "إن قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدُثور بالأجور يصلّون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم ولا أموال لنا ، فقال : أوليس قد جعل الله لكم ما تصدَّقون به ، إن لكم في كل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة" .

و ﴿ الذين آمنوا ﴾ يعم كل من ثبت له مضمون هذه الصلة وما عطف عليها .

وفي جمع ﴿ ورسله ﴾ تعريض بأهل الكتاب الذين قالوا : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، فاليهود آمنوا بالله وبموسى ، وكفروا بعيسى وبمحمد عليهما الصلاة والسلام ، والنصارى آمنوا بالله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنون آمنوا برسل الله كلهم ، ولذلك وصفوا بأنهم الصدّيقون .

والصدّيق بتشديد الدال مبالغة في المُصَدّق مثل المسّيك للشحيح ، أي كثير الإمساك لماله ، والأكثر أن يشتق هذا الوزن من الثلاثي مثل : الضلّيل ، وقد يشتق من المزيد ، وذلك أن الصيغ القليلة الاستعمال يتوسعون فيها كما توسع في السّميع بمعنى المُسْمِع في بيت عمرو بن معد يكرب ، والحكيم بمعنى المحكم في أسماء الله تعالى ، وإنما وصفوا بأنهم صدّيقون لأنهم

صدّقوا جميع الرسل الحقّ ولم تمنعهم عن ذلك عصبية ولا عناد ، وقد تقدم في سورة يوسف وصفه بالصدّيق ووصفت مريم بالصدّيقة في سورة العقود .

(72/748)

وضمير الفصل للقصر وهو قصر إضافي ، أي هم الصدّيقون لا الذين كذّبوا بعضَ الرسل وهذا إبطال لأن يكون أهل الكتاب صدّيقين لأن تصديقهم رسولهم لا جدوى له إذ لم يصدّقوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم

واسم الإِشارة للتنويه بشأنهم وللتنبيه على أن المشار إليهم استحقوا ما يرد بعد اسم الإِشارة من أجل الصفات التي قبل اسم الإِشارة .

﴿ الصديقون والشهدآء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ .

يجوز أن يكون عطفاً على ﴿ الصديقون ﴾ عطفَ المفرد على المفرد فهو عطف على الخبر ، أي وهم الشهداء .

وحكي هذا التأويل عن ابن مسعود ومجاهد وزيد بن أسلم وجماعة .

فقيل : معنى كونهم شهداء : أنهم شهداء على الأمم يوم الجزاء ، قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة : 143] ، فالشهادة تكون

بمعنى الخبر بما يُثبت حقاً يجازى عليه بخير أو شر .

وقيل معناه : أن مؤمني هذه الأمة كشهداء الأمم ، أي كقتلاهم في سبيل الله وروي عن البراء بن عازب يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم

فتكون جملة ﴿ عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ﴾ استئنافاً بيانياً نشأ عن وصفهم بتينك الصفتين فإن السامع يترقب ما هو نوَالهم من هذين الفضلين .

ويجوز أن يكون قوله : ﴿ والشهداء ﴾ مبتدأ وجملة ﴿ عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ﴾ خبر عن المبتدأ ، ويكون العطف من عطف الجمل فيوقَف على قوله : ﴿ الصديقون ﴾ .

(73/748)

وحكي هذا التأويل عن ابن عباس ومسروق والضحاك فيكون انتقالاً من وصف مزية الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى وصف مزية فريق منهم استأثروا بفضيلة الشهادة في سبيل الله ، وهذا من تتمة قوله : ﴿ وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ﴾ إلى قوله : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ [الحديد : 10] فإنه لما نوّه بوعد المؤمنين المصدقين المعفيين من قوله : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم ﴾ [الحديد : 8] الخ

فأوفاهم حقهم بقوله : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ﴾ أقبل على وعد الشهداء في سبيل الله الذين تضمن ذكرهم قوله : ﴿ وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ﴾ [الحديد : 10] الآيات ، فالشهداء إذن هم المقتولون في الجهاد في سبيل الله .

والمعنيَانِ من الشهداء ممكن الجمع بينهما فتحمل الآية على إرادتهما على طريقة استعمال المشترك في معنييه .

وقد قررنا في مواضع كثيرة أنه جرى استعمال القرآن عليه .

وضميرا ﴿ أجرهم ﴾ و ﴿ نورهم ﴾ يعودان إلى الصدّيقين والشهداء أو إلى الشهداء فقط على اختلاف الوجهين المتقدمين آنفاً في العطف .

و ﴿ عند ربهم ﴾ متعلق بالاستقرار الذي في المجرور المخبر به عن المبتدأ ، والتقدير : لهم أجرهم مستقر عند ربهم ، والعندية مجازية مستعملة في العناية والحظوة .

والظاهر في عود الضمير إلى أن يكون عائداً إلى مذكور في اللفظ بمعناه المذكور فظاهر معنى ﴿ أجرهم ونورهم ﴾ أنه أجر أولئك المذكورين ، ومعنى إضافة أجر ونور إلى ضميرهم أنه أجر يعرَّف بهم ونور يعرف بهم .

وإذ قد كان مقتضى الإضافة أن تفيد تعريف المضاف بنسبته إلى المضاف إليه وكان الأجر والنور غير معلومين للسامع كان في الكلام إبهام يكنى به عن أجر ونور عظيمين ، فهو كناية عن التنويه بذلك الأجر وذلك النور ، أي أجر ونور لا يوصفان إلا أجرهم ونورهم ، أي أجراً ونوراً لائقَيْن بمقام ، مع ضميمة ما أفادته العندية التي في قوله : ﴿ عند ربهم ﴾ من معنى الزلفى والعناية بهم المفيد عظيم الأجر والنور .

ويجوز أن يكون ضميرا ﴿ أجرهم ونورهم ﴾ عائدين إلى لفظي ﴿ الصديقون ﴾ و ﴿ الشهداء ﴾ أو إلى لفظ ﴿ الشهداء ﴾ خاصة على ما تقدم لكن بمعنى آخر غير المعنى الذي حمل عليه آنفاً بل بمعنى الصدّيقين والشهداء ممن كانوا قبلهم من الأمم ، قاله في "الكشاف" .

ومعنى الصديقين والشهداء حينئذٍ مغاير للمعنى السابق بالعموم والخصوص على طريقة الاستخدام في الضمير .

وطريقة التشبيه البليغ في حمل الخبر على المبتدأ في قوله : ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ بتقدير : لهم مثل أجرهم ونورهم ، ولا تأويل في إضافة الأجر والنور إلى الضميرين بهذا المحمل فإن تعريف المضاف بَيّن لأنه قد تقرر في علم الناس ما وُعد به الصدّيقون والشهداء من الأمم الماضية قال تعالى في شأنهم:

﴿ وكانوا عليه شهداء ﴾ [المائدة : 44] وقال : ﴿ فأولئك مع الذين أنعم عليهم من

النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ [النساء : 69] .

وفائدة التشبيه على هذا الوجه تصوير قوة المشبه وإن كان أقوى من المشبه به لأن للأحوال السالفة من الشهرة والتحقق ما يقرِّب صورة المشبه عند المخاطب ، ومنه ما في لفظ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من التشبيه بقوله : "كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم " .

﴿ والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا أولئك أصحاب ﴾ .

تتميم اقتضاه ذكر أهل مراتب الإيمان والتنويه بهم ، فأتبع ذلك بوصف أضدادهم لأن ذلك يزيد التنويه بهم بأن إيمانهم أنجاهم من الجحيم .

(75/748)

والمراد بالذين كفروا بالله وكذّبوا بالقرآن ما يشمل المشركين واليهودَ والنصارى على تفاوت بينهم في دركات الجحيم ، فالمشركون استحقوا الجحيم من جميع جهات كفرهم ، واليهود استحقوه من يوم كذبوا عيسى عليه السلام ، والنصارى استحقّه بعضُهم حين أثبتوا لله ابناً وبعضهم من حين تكذيبهم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم

وفي استحضارهم بتعريف اسم الإشارة من التنبيه على أنهم جديرون بذلك لأجل الكفر

والتكذيب نظيرُ ما تقدم في قوله : ﴿ أولئك هم الصديقون ﴾ .

ولم يؤت في خبرهم بضمير الفصل إذ لا يظن أن غيرهم أصحاب الجحيم .

والتعبير عنهم بأصحاب مضاف إلى الجحيم دلالة على شدة ملازمتهم للجحيم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(76/748)

قوله تعالى ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر سبحانه حال الفريقين : الأشقياء والسعداء ، فتقرر بذلك أمر الآخرة ، فعلموا أنها الحيوان الذي لا انقضاء له من إكرام أو هوان ، وكان الموجب للهوان فيها إنما هو الإقبال على الدنيا لحضورها ونسيان الآخرة لغيابها ، قال منتجاً مما مضى مبيناً لحقيقة ما يرغب فيه المكلف المركب على الشهوة من العاجلة بما نزهه فيه مصدّراً له بما يوجب غاية اليقظة

والحضور : ﴿ اعلموا ﴾ أي أيها العباد المبتلون ، وأكد المعنى بزيادة ﴿ ما ﴾ لما للناس من الغفلة عنه فقال قاصراً قصر قلب : ﴿ إنما الحيوة الدنيا ﴾ أي الحاضرة التي رغبت في الزهد فيها والخروج عنها بالصدقة والقرض الحسن ﴿ لعب ﴾ أي تعب لا ثمرة له فهو باطل كلعب الصبيان ﴿ ولهو ﴾ أي شيء يفرح الإنسان به فيلهيه ويشغله عما يعنيه ثم ينقضي كلهو الفتيان ، ثم أتبع ذلك عظم ما يلهي في الدنيا فقال : ﴿ وزينة ﴾ أي شيء يبهج العين ويسر النفس كزينة النسوان ، وأتبعها ثمرتها فقال : ﴿ وتفاخر ﴾ أي كتفاخر الأقران يفتخر بعضهم على بعض .

(77/748)

ولما كان ذلك مخصوصاً بأهل الشهوات قال : ﴿ بينكم ﴾ أي يجر إلى الترفع الجارّ إلى الحسد والبغضاء ، ثم أتبع ذلك ما يحصل به الفخر فقال : ﴿ وتكاثر ﴾ أي من الجانبين ﴿ في الأموال ﴾ أي التي لا يفتخر بها إلا أحمق لكونها مائلة ﴿ والأولاد ﴾ الذين لا يغتر بهم إلا سفيه لأنهم الأعداء ، وأن جميع ما ذكر زائل وأن الدنيا آفاتها هائلة ، وإنما هي فتنة وابتلاء يظهر بها الشاكر من غيره ، ثم إلى ذلك كله قد يكون ذهابه عن قرب فتكون على أضداد ما كان عليه ، فيكون أشد في الحسرة ، ومطابقة ذلك لما بعده ان الإنسان ينشأ في

حجر وليه فيشب ويقوى ويكسب المال والولد وثم تغشاه الناس فيكون بينهم أمور معجبة وأحوال ملهية مطربة ، فإذا تم شبابه وأطفأه مجيئه وذهابه وأشكاله وأترابه ، أخذ في الانحطاط ولا يزال حتى يشيب ويسقم ويضعف ويهرم وتصيبه النوائب والقوارع والمصائب في ماله وجسمه وأولاده وأصحابه ، ثم في آخر ذلك يموت ، فإذا قد اضمحل أمره ونسي عما قليل ذكره ، وصار ماله لغيره وزينته متمتعاً بها سواه فالدنيا حقيرة وأحقر منها طالبها وأقل منها خطر المزاحم فيها ، فما هي إلا جيفة ، وطلاب الجيفة ليس لهم خطر ، وأخسهم من بخل بها ، قال القشيري : وهذه الدنيا المذمومة هي ما يشغل العبد عن الآخر فكل ما يشغله عن الآخرة فهو الدنيا – انتهى .

ولما قرر سبحانه أنها ظل زائل وعرض هائل ، وكان بعض الناس يتنبه فيشكر وبعضهم يعمى فيكفر ، كان القسم الثاني أكثر لأن وجودها وإقبالها يعمي أكثر القلوب عن حقارتها ، ضرب لذلك مثلاً مقرراً لما مضى من وصفها لأن للأمثال في تقرير الأشياء وتصويرها ما ليس لغيرها فقال تعالى : ﴿ كمثل ﴾ أي هذا الذي ذكرته من أمرها يشبه مثل ﴿ غيث ﴾ أي مطر حصل بعد جدب وسوء حال .

ولما كان المثل في سياق التحقير للدنيا والتنفير عنها ، عبر عن الزارع بما ينفر فقال :

﴿ أعجب الكفار ﴾ أي الزراع الذين حصل منهم الحرث والبذرة الذي يستره الحارث بحرثه كما ستر الكافر حقيقة أنوار الإيمان لما يحصل من الجحد والطغيان ولا يتناهى إعجاب الزارع إلى حد يلهي عن الله إلا مع الكفر به سبحانه فإن المؤمن وإن أعجبه ذلك يتذكر به قدرة الله سبحانه وتعالى وعظمته وما أعد لأهل طاعته في الآخرة ، فيحمله ذلك على الطاعة ، فالتعبير بالكفار الذي هو بمعنى الزراع دونه إشارة إلى عظمة ذلك النبات فإنه لا يعجب العارفين به الممارسين له الذين لهم غاية الإقبال على تلك الحرفة فالمنافسة فيها إلا ما يكون منها نهاية في الإعجاب ، وإلى أنه لا يعجب أحداً شيء من الدنيا إعجاباً يركن ويأنس به أنساً يؤدي إلى ما في الآية من اللهو وما معه إلا لكفر في نفسه أقله كفر النعمة التي من شأنها أن تدعو إلى تذكر الخالق وتذكر الجميل على الشكر ، وترك الشكر كفر

﴿ نباته ﴾ أي نبات ذلك الغيب كما يعجب الكافر في الكفر في الغالب بسط الدنيا له استدراجاً من الله تعالى .

ولما كان الزرع يشيخ بعد مُدَيدة فيضمحل كما هو شأن الدنيا كلها قال : ﴿ ثم يهيج ﴾ أي يسرع تحركه فيتم جفافه فيحين حصاده ﴿ فتراه مصفراً ﴾ أي عقب ذلك بالقرب منه على حالة لا ثمر معها بل ولا نبات ، ولذلك قال معبراً بالكون لأن السياق للتزهيد في الدنيا وأنها ظل زائل لا حقيقة لها : ﴿ ثم ﴾ أي بعد تناهي جفافه وابيضاضه ﴿ يكون ﴾ أي

كوناً كأنه مطبوع عليه ، وأبلغ سبحانه في تقرير اضمحلاله بالإتيان مع فعل الكون هنا للمبالغة لأن السياق لتقرير أن الدنيا عدم وإن كانت في غاية الكثرة والإقبال والمؤاتاة بخلاف ما مضى في الزمر فقال : ﴿ حطاماً ﴾ كأن الحطامية كانت في جبلته وأصل طبعه .

(79/748)

ولما ذكر الظل الزائل ، ذكر أثره الثابت الدائم مقسماً له على قسمين ، فقال عاطفاً على ما تقديره هذا حال الدنيا في سرعة زوالها وتحقق فنائها واضمحلالها : ﴿ وفي ﴾ أي هذا الذي غر من حال الدنيا وهو في ﴿ الآخرة ﴾ على أحدهما ﴿ عذاب شديد ﴾ أي لمن أخذها بغير حقها معرضاً عن ذكر الله لأن الاغترار بها سببه ، فكان كأنه هو .

ولما قدم ما هو السبب الأغلب لأن أكثر الخلق هالك ، أتبعه الصنف الناجي .

فقال : ﴿ ومغفرة ﴾ أي لأهل الدرجة الأولى في الإيمان ﴿ من الله ﴾ أي الملك الأعظم لمن يذكر بما صنعه له في الدنيا عظمته سبحانه وجلاله فتاب من ذنوبه ، ورجع إليه في التطهير من عيوبه ﴿ ورضوان ﴾ لأهل الدرجة العليا وهم من أقبل عليه سبحانه فشكره حق شكره ببذل وسعه فيما يرضيه ، فآخر الآية تقسيم للدنيا على الحقيقة لئلا يظن من حصرها فيما ذكر أول الآية أنها لا تكون إلا كذلك ، فالمعنى أن الذي ذكره أولاً هو الأغلب

لأحوالها وعاقبته النار ، وما كان منها من إيمان وطاعة ونظر توحيد لله وتعظيم ومعرفة تؤدي إلى أخذها تزوداً ونظرها اعتباراً وتعبداً ، فهو آخره لا دنيا ، وقد تحرر أن مثل الغيث المذكور الحطام وتارة يعقبه نكد لازم وأخرى سرور دائم ، فمن عمل في ذلك عمل الحزمة فحرس الزرع ما يؤذيه وحصده في وقته وعمل فيه ما ينبغي ولم ينس حق الله فيه سره أثره وحمدت عاقبته ، ومن أهمل ذلك أعقبه الأسف ، وذلك هو مثل الدنيا : من عمل فيها بأمر الله أعقبته حطاميتها سروراً دائماً ، ومن أهمل ذلك أورثته حزناً لازماً ، وكما كان التقدير : فما الآخرة لمن سعى لها سعيها وهو مؤمن إلا حق مشهور وسعي مشكور ، عطف عليه قوله : ﴿ وما الحياة الدنيا ﴾ أي لكونها تشغل بزينتها مع أنها زائلة ﴿ إلا متاع الغرور ﴾ أي لهو في نفسه غرور لا حقيقة له إلا ذلك ، لأنه لا يجوز لمن أقبل على التمتع إلا ذلك لأنه لا يسر بقدر ما يضر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 7 صـ 451 .

454﴾

(80/748)

فصل

قال الفخر :

ولما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين ذكر بعده ما يدل على حقارة الدنيا وكمال حال الآخرة فقال :

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

المقصود الأصلي من الآية تحقير حال الدنيا وتعظيم حال الآخرة فقال : الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر ، ولا شك أن هذه الأشياء أمور محقرة ، وأما الآخرة فهي عذاب شديد دائم أو رضوان الله على سبيل الدوام ، ولا شك أن ذلك عظيم .

المسألة الثانية :

اعلم أن الحياة الدنيا حكمة وصواب ، ولذلك لما قال تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً . . .

(81/748)

قَالَ إِنِّي أعلم مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 30] ولولا أنها حكمة وصواب لما قال ذلك ، ولأن الحياة خلقه ، كما قال : ﴿ الذي خَلَقَ الموت والحياة ﴾ [الملك : 2] وأنه لا يفعل العبث

على ما قال : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خلقناكم عَبَثاً ﴾ [المؤمنين : 115] وقال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ﴾ ولأن الحياة نعمة بل هي أصل لجميع النعم ، وحقائق الأشياء لا تختلف بأن كانت في الدنيا أو في الآخرة ، ولأنه تعالى عظم المنة بخلق الحياة فقال : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ﴾ [البقرة : 28] فأول ما ذكر من أصناف نعمه هو الحياة ، فدل مجموع ما ذكرنا على أن الحياة الدنيا غير مذمومة ، بل المراد أن من صرف هذه الحياة الدنيا لا إلى طاعة الله بل إلى طاعة الشيطان ومتابعة الهوى ، فذاك هو المذموم ، ثم إنه تعالى وصفها بأمور : أولها : أنها ﴿ لَعِبٌ ﴾ وهو فعل الصبيان الذين يتعبون أنفسهم جداً ، ثم إن تلك المتاعب تنقضي من غير فائدة وثانيها : أنها ﴿ لَهُوَ ﴾ وهو فعل الشبان ، والغالب أن بعد انقضائه لا يبقى إلا الحسرة ، وذلك لأن العاقل بعد انقضائه يرى المال ذاهباً والعمر ذاهباً ، واللذة منقضية ، والنفس ازدادت شوقاً وتعطشاً إليه مع فقدانها ، فتكون المضار مجتمعة متوالية وثالثها : أنها ﴿ زِينَةُ ﴾ وهذا دأب النساء لأن المطلوب من الزينة تحسين القبيح ، وعمارة البناء المشرف على أن يصير خراباً ، والاجتهاد في تكميل الناقص ، ومن المعلوم أن العرضي لا يقاوم الذاتي ، فإذا كانت الدنيا منقضية لذاتها ، فاسدة لذاتها ، فكيف يتمكن العاقل من إزالة هذه المفاسد عنها ، قال ابن عباس : المعنى أن الكافر يشتغل طول حياته بطلب زينة الدنيا دون العمل للآخرة ، وهذا كما قيل :

حياتك يا مغرور سهو وغفلة . . ورابعها : ﴿ تفاخر بينكم ﴾ بالصفات الفانية الزائلة ، وهو إما التفاخر بالنسب ، أو التفاخر بالقدرة والقوة والعساكر وكلها ذاهبة وخامسها : قوله : ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِي الأموال والأولاد ﴾ قال ابن عباس : يجمع المال في سخط الله ، ويتباهى به على أولياء الله ، ويصرفه في مساخط الله ، فهو ظلمات بعضها فوق بعض ، وأنه لا وجه بتبعية أصحاب الدنيا يخرج عن هذه الأقسام ، وبين أن حال الدنيا إذا لم يخل من هذه الوجوه فيجب أن يعدل عنها إلى ما يؤدي إلى عمارة الآخرة ، ثم ذكر تعالى لهذه الحياة مثلاً ، فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ يعني المطر ، ونظيره قوله تعالى :

﴿ واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا كَمَاء ﴾ [الكهف : 45] والكاف في قوله : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ موضعة رفع من وجهين أحدهما : أن يكون صفة لقوله : ﴿ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ ﴾ ، والآخر : أن يكون خبراً بعد خبر قاله الزجاج ، وقوله :

﴿ أَعْجَبَ الكفار نَبَاتُهُ ﴾ فيه قولان : الأول : قال ابن مسعود : المراد من الكفار الزراع قال الأزهري : والعرب تقول للزارع : كافر ، لأنه يكفر البذر الذي يبذره بتراب الأرض ، وإذا أعجب الزراع نباته مع علمهم به فهو في غاية الحسن الثاني : أن المراد بالكفار في هذه

الآية الكفار بالله وهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا وحرثها من المؤمنين، لأنهم لا يرون سعادة سوى سعادة الدنيا، وقوله: ﴿نَبَاتُهُ﴾ أي ما نبت من ذلك الغيث، وباقي الآية مفسر في سورة الزمر.

(83/748)

ثم إنه تعالى ذكر بعده حال الآخرة فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي لمن كانت حياته بهذه الصفة، ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه وأهل طاعته، وذلك لأنه لما وصف الدنيا بالحقارة وسرعة الانقضاء، بين أن الآخرة إما عذاب شديد دائم، وإما رضوان، وهو أعظم درجات الثواب، ثم قال: ﴿وَما الحياة الدنيا إِلَّا متاع الغرور﴾ يعني لمن أقبل عليها، وأعرض بها عن طلب الآخرة، قال سعيد بن جبير: الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم الوسيلة.

انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 202. 204﴾

(84/748)

وقال ابن عطية في الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ ﴾

ومعنى : ﴿ ألم يأن ﴾ ألم يحن ، ويقال : أنى الشيء يأني ، إذا حان ومنه قول الشاعر : [الوافر]

تمخضت المنون له بيوم . . . أنى ولكل حاملة تمام

وقرأ الحسن بن أبي الحسن : " ألما يأن " . وروي عنه أنه قرأ " ألم يين " .

وهذه الآية على معنى الحض والتقريع ، قال ابن عباس : عوتب المؤمنون بهذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن ، وسمع الفضل بن موسى قارئاً يقرأ هذه الآية ، والفضل يحاول معصية ، فكانت الآية سبب توبته . وحكى الثعلبي عن ابن المبارك أنه في صباه حرك العود ليضربه ، فإذا به قد نطق بهذه الآية ، فتاب ابن المبارك وكسر العود وجاء التوفيق . والخشوع : الإخبات والتطامن ، وهي هيئة تظهر في الجوارح متى كانت في القلب ، فلذلك خص تعالى القلب بالذكر . وروى شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أول ما يرفع من الناس الخشوع " .

وقوله تعالى : ﴿ لذكر الله ﴾ أي لأجل ذكر الله ووحيه الذي بين أظهرهم ، ويحتمل أن يكون المعنى : لأجل تذكير الله إياهم وأوامره فيهم .

وقرأ عاصم في رواية حفص ونافع : " وما نزَل " مخفف الزاي . وقرأ الباقون وأبو بكر عن

عاصم : " نزّل " بشد الزاي على معنى : نزّل الله من الحق . وقرأ أبو عمرو في رواية عباس وهي قراءة الجحدري وابن القعقاع : " نزِل " بكسر الزاي وشدها . وقرأ نافع وأبو عمرو والأعرج وأبو جعفر : " ولا يكونوا " بالياء على ذكر الغيب .

وقرأ حمزة فيما روى عنه سليم : ولا تكونوا " بالتاء على مخاطبة الحضور .

(85/748)

والإشارة في قوله : ﴿ أوتوا الكتاب ﴾ إلى بني إسرائيل المعاصرين لموسى عليه السلام ، وذلك قال : ﴿ من قبل ﴾ وإنما شبه أهل عصر نبي بأهل عصر نبي . و: ﴿ الأمد ﴾ قيل معناه : أمد انتظار الفتح ، وقيل أمد انتظار القيامة وقيل أمد الحياة . و: ﴿ قست ﴾ معناه : صلبت وقل خيرها وانفعالها للطاعات وسكنت إلى معاصي الله ، ففعلوا من العصيان والمخالفة ما هو مأثور عنهم .

وقوله تعالى : ﴿ اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ﴾ الآية مخاطبة لهؤلاء المؤمنين الذين ندبوا إلى الخشوع ، وهذا ضرب مثل واستدعاء إلى الخير ، رقيق وتقريب بليغ ، أي لا يبعد عنكم أيها التاركون للخشوع رجوعكم إليه وتلبسكم به ، " فإن الله يحيي الأرض بعد موتها " ، فكذلك يفعل بالقلوب ، يردها إلى الخشوع بعد بعدها عنه ، وترجع هي إليه إذا

وقعت الإنابة والتكسب من العبد بعد نفورها منه كما تحيى الأرض بعد أن كانت ميتة غبراء . وباقي الآية بين جداً .

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18)

قرأ جمهور القراء : "إن المصَّدقين" بشد الصاد المفتوحة على معنى المتصدقين ، وفي مصحف أبيّ بن كعب : "إن المتصدقين" ، فهذا يؤيد هذه القراءة ، وأيضاً فيجيء قوله تعالى : ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ ملائماً في الكلام للصدقة . وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم "إن المصَدقين" بتخفيف الصاد على معنى : إن الذين صدقوا رسول الله فيما بلغ عن الله وآمنوا به ، ويؤيد هذه القراءة أنها أكثر تناولاً ، لأن كثيراً ممن لا يتصدق يعمه اللفظ في التصديق . ثم إن تقييدهم بقوله : ﴿ وأقرضوا ﴾ يرد مقصد القراءتين قريباً بعضه من بعض .

(86/748)

وقوله : ﴿ أقرضوا ﴾ معطوف على المعنى ، لأن معنى قوله : ﴿ إن المصدقين والمصدقات ﴾ إن الذين تصدقوا ، ولا يصح هنا عطف لفظي ، قاله أبو علي في الحجة .

وقد تقدم معنى القرض ، ومعنى المضاعفة التي وعد الله بها هذه الأمة . وقد تقدم معنى

وصف الأجر بالكريم ، كل ذلك في هذه السورة .

قال القاضي أبو محمد : ويؤيد عندي قراءة من قرأ : " إن المصّدقين " بشد الصاد . إن الله تعالى حض في هذه الآية على الإنفاق وفي سبيل الله تعالى . ثم ذكر في هذه أهل الصدقة ووعدهم ، ثم ذكر أهل الإيمان والتصديق في قوله : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ﴾ وعلى قراءة من قرأ : " إن المصَدقين " بتخفيف الصاد فذكر المؤمنين مكرر في اللفظ ، وكون الأصناف منفردة بأحكامها من الوعد أبين .

والإيمان بمحمد يقتضي الإيمان بجميع الرسل ، فلذلك قال : ﴿ ورسله ﴾ . و ﴿ الصديقون ﴾ بناء مبالغة من الصدق أو من التصديق على ما ذكر الزجاج ، وفعيل لا يكون فيما أحفظ إلا من فعل ثلاثي ، وقد أشار بعض الناس إلى أنه يجيء من غير الثلاثي . وقال : مسيك من أمسك ، وأقول إنه يقال : مسك الرجل وقد حكى مسك الشيء ، وفي هذا نظر .

(87/748)

وقوله تعالى : ﴿ والشهداء عند ربهم ﴾ اختلف الناس في تأويل ذلك ، فقال ابن مسعود ومجاهد وجماعة : ﴿ والشهداء ﴾ معطوف على قوله : ﴿ الصديقون ﴾ والكلام

متصل . ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى هذا الاتصال ، فقال بعضها : وصف الله المؤمنين بأنهم صديقون وشهداء ، فكل مؤمن شهيد ، قاله مجاهد . وروى البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مؤمنو أمتي شهداء " ، وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ، وإنما خص رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الشهداء السبعة تشريفاً ، ولأنهم في أعلى رتب الشهادة ، ألا ترى أن المقتول في سبيل الله مخصوص أيضاً من السبعة بتشريف ينفرد به . وقال بعضها : وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم صديقون وشهداء لكن من معنى الشاهد لا من معنى الشهيد ، وذلك نحو قوله تعالى :

﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة : 143] فكأنه قال في هذه الآية : هم أهل الصدق والشهادة على الأمم عند ربهم ، وقال ابن عباس ومسروق والضحاك : الكلام تام في قوله : ﴿ الصديقون ﴾ . وقوله : ﴿ والشهداء ﴾ ابتداء مستأنف .

ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى هذا الاستئناف ، فقال بعضها معنى الآية : ﴿ والشهداء ﴾ بأنهم صديقون حاضرون ﴿ عند ربهم ﴾ . وعنى ب ﴿ الشهداء ﴾ : الأنبياء عليهم السلام ، فكأن الأنبياء يشهدون للمؤمنين بأنهم صديقون ، وهذا يفسره قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ [النساء : 41] . وقال بعضها قوله : ﴿ والشهيد ﴾ ابتداء يريد به الشهداء في سبيل الله ، واستأنف الخبر عنهم بأنهم : ﴿ عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ﴾ فكأنه جعلهم صنفاً مذكوراً

وحده ، وفي الحديث : " إن أهل الجنة العليا ليراهم من دونهم كما ترون الكوكب الدري ، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما " .

(88/748)

وقوله تعالى : ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ خبر عن الشهداء فقط على الأخير من الأقوال ، وهو خبر عن المؤمنين المذكورين في أول الآية على الأقوال الثلاثة .

وقوله تعالى : ﴿ ونورهم ﴾ قال جمهور المفسرين : هو حقيقة حسبما روي مما تقدم ذكره في هذه السورة . وقال مجاهد وغيره : هو مجاز عبارة عن الهدى والكرامة والبشرى التي حصلوا فيها .

ولما فرغ ذكر المؤمنين وأهل الكرامة ، عقب ذكر الكفرة المكذبين ليبين الفرق ، فذكرهم تعالى بأنهم ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ وسكانه .

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ

هذه الآية وعظ وتبيين لأمر الدنيا وضعة منزلتها و: ﴿ إنما ﴾ سادة مسد المفعولين للعلم بأنها تدخل على اثنين وهي وإن كفت عن العمل ، فالجملة بعدها باقية . و: ﴿ الحياة الدنيا ﴾ في هذه الآية عبارة عن الأشغال والتصرفات والفكر التي هي مختصة بالحياة

الدنيا ، وأما ما كان من ذلك في طاعة الله وسبيله وما كان من الضرورات التي تقيم الأود وتعين على الطاعات فلا مدخل له في هذه الآية . وتأمل حال الملوك بعد فقرهم يبين لك أن جميع نزوتهم ﴿ لعب ولهو ﴾ . والزينة : التحسين الذي هو خارج من ذات الشيء ، والتفاخر : هو بالأنساب والأموال وغير ذلك والتكاثر : هو الرغبة في الدنيا ، وعددها لتكون العزة للكفار على المذهب الجاهلي .

ثم ضرب تعالى مثل الدنيا ، فالكاف في قوله : ﴿ كمثل ﴾ في رفع صفة لما تقدم ، وصورة هذا المثال : أن الإنسان ينشأ في حجر مملكة فما دون ذلك فيشب ويقوى ويكسب المال والولد ويغشاه الناس ، ثم يأخذ بعد ذلك في انحطاط ، فيشيب ويضعف ويسقم ، وتصيبه النوائب في ماله وذريته ، ويموت ويضمحل أمره ، وتصير أمواله لغيره ، وتغير رسومه ، فأمره مثل مطر أصاب أرضاً فنبت عن ذلك الغيث نبات معجب أنيق . ثم هاج : أي يبس واصفر ، ثم تحطم ، ثم تفرق بالرياح واضمحل .

(89/748)

واختلف المتأولون في لفظة ﴿ الكفار ﴾ هنا ، فقال بعض أهل التأويل : هو من الكفر بالله ، وذلك لأنهم أشد تعظيماً للدنيا وأشد إعجاباً بمحاسنها . وقال آخرون منهم : هو من

كفر الحب ، أي ستره في الأرض ، فهم الزراع وخصهم بالذكر ، لأنهم أهل البصر بالنبات والفلاحة فلا يعجبهم إلا المعجب حقيقة ، الذي لا عيب له .

وهاج الزرع : معناه : يبس واصفر ، وحطام : بناء مبالغة ، يقال حطيم وحطام بمعنى محطوم ، أو متحطم ، كعجيب وعجاب ، بمعنى معجب ومتعجب منه . ثم قال تعالى : ﴿ وفي الآخرة ﴾ كأنه قال : والحقيقة هاهنا ، ثم ذكر العذاب أولاً تهمماً به من حيث الحذر في الإنسان ينبغي أن يكون أولاً ، فإذا تحرر من المخاوف مد حينئذ أمله . فذكر الله تعالى ما يحذر قبل ما يطمع فيه وهو المغفرة والرضوان . وروي عن عاصم : ضم الراء من : " رُضوان " . و: ﴿ متاع الغرور ﴾ معناه : الشيء الذي لا يعظم الاستمتاع به إلا مغتر . وقال عكرمة وغيره : ﴿ متاع الغرور ﴾ القوارير ، لأن الفساد والآفات تسرع إليها ، فالدنيا كذلك أو هي أشد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(90/748)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾

وجه الاتصال أن الإنسان قد يترك الجهاد خوفاً على نفسه من القتل ، وخوفاً من لزوم الموت

؛ فبين أن الحياة الدنيا منقضِية فلا ينبغي أن يترك أمر الله محافظة على ما لا يبقى .

و"ما" صلة تقديره : اعلموا أنّ الحياة الدنيا لعِب باطل ولهو فرحٍ ثم ينقضي .

وقال قتادة : لعب ولهو : أكل وشرب .

وقيل : إنه على المعهود من اسمه ؛ قال مجاهد : كل لعب لهو .

وقد مضى هذا المعنى في "الأنعام" وقيل : اللَّعب ما رَغَّب في الدنيا ، واللَّهو ما ألهى عن الآخرة ؛ أي شَغل عنها .

وقيل : اللعب الاقتناء ، واللهو النساء .

﴿ وَزِينَةٌ ﴾ الزينة ما يتزين به ؛ فالكافر يتزين بالدنيا ولا يعمل للآخرة ، وكذلك من تزين في غير طاعة الله .

﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ أي يفخر بعضكم على بعض بها .

وقيل : بالخلقة والقوة .

وقيل : بالأنساب على عادة العرب في المفاخرة بالآباء .

وفي صحيح مسلم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد " وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : " أربع في أمتي من أمر الجاهلية الفخر في الأحساب " الحديث .

وقد تقدم جميع هذا .

﴿ وَتَكَاثُرٌ فِي الأموال والأولاد ﴾ لأن عادة الجاهلية أن تكاثر بالأبناء والأموال ، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة .

قال بعض المتأخرين : "لَعِبٌ" كلعب الصبيان "ولَهْوٌ" كلهو الفتيان "وَزِينَةٌ" كزينة النسوان "وَتَفَاخُرٌ" كتفاخر الأقران "وَتَكَاثُرٌ" كتكاثر الدُّهقان .

وقيل : المعنى أن الدنيا كهذه الأشياء في الزوال والفناء .

(91/748)

وعن عليّ رضي الله عنه قال لعمّار : لا تحزن على الدنيا فإن الدنيا ستة أشياء : مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح ؛ فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة ، وأكثر شرابها الماء ويستوي فيه جميع الحيوان ، وأفضل ملبوسها الديباج وهو نسج دودة ، وأفضل المشموم المِسك وهو دم فأرة ، وأفضل المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال ، وأما المنكوح فالنساء وهو مبال في مبال ؛ والله إن المرأة لتزين أحسنها يراد به أقبحها .

ثم ضرب الله تعالى لها مثلاً بالزرع في غيث فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ أي مطر ﴿ أَعْجَبَ الكفار نَبَاتُهُ ﴾ الكفّار هنا : الزرّاع لأنهم يغطّون البذر .

والمعنى أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار ، ثم لا يلبث أن

يصير هشِيماً كأن لم يكن ، وإذا أعجب الزراع فهو غاية ما يستحسن .

وقد مضى معنى هذا المثل في "يونس" و"الكهف" .

وقيل : الكفّار هنا الكافرون بالله عز وجل ؛ لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا من المؤمنين .

وهذا قول حسن ؛ فإن أصل الإعجاب لهم وفيهم ، ومنهم يظهر ذلك ، وهو التعظيم للدنيا وما فيها .

وفي الموحدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم ، وتتقلل عندهم وتدِق إذا ذكروا الآخرة .

وموضع الكاف رفع على الصفة .

﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أن يجفّ بعد خضرته ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ أي متغيراً عما كان عليه من النضرة .

﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ أي فُتاتاً وتِبْناً فيذهب بعد حسنه ، كذلك دنيا الكافر .

﴿ وَفِي الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أي للكافرين .

والوقف عليه حسن ، ويبتدىء ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ الله وَرِضْوَانٌ ﴾ أي للمؤمنين .

وقال الفراء : ﴿ وَفِي الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ تقديره إما عذاب شديد وإما مغفرة ، فلا يوقف على "شَدِيدٌ" .

﴿ وَمَا الحياة الدنيا إِلَّا مَتَاعُ الغرور ﴾ هذا تأكيد ما سبق ؛ أي تغر الكفار ، فأما المؤمن فالدنيا له متاع بلاغ إلى الجنة .

(92/748)

وقيل : العمل للحياة الدنيا متاع الغرور تزهيداً في العمل للدنيا ، وترغيباً في العمل للآخرة .

قوله تعالى : ﴿ سابقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي سارعوا بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم .

وقيل : سارعوا بالتوبة ؛ لأنها تؤدي إلى المغفرة ؛ قاله الكلبي .

وقيل التكبيرة الأولى مع الإمام ؛ قاله مكحول .

وقيل : الصف الأول .

﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السمآء والأرض ﴾ لو وصل بعضها ببعض .

قال الحسن : يعني جميع السموات والأرضين مبسوطتان كل واحدة إلى صاحبتها .

وقيل : يريد لرجل واحد أي لكل واحد جنة بهذه السعة .

وقال ابن كيسان : عنى به جنّة واحدة من الجنّات .

والعرض أقل من الطول ؛ ومن عادة العرب أنها تعبِّر عن سِعَةِ الشيء بعرضه دون طوله .

قال :

كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ وَهْيَ عَرِيضَةٌ . . .

على الْخَائِفِ المطْلوبِ كِفَّةُ حابِلِ

وقد مضى هذا كله في "آل عِمران" .

وقال طارق بن شهاب : قال قوم من أهل الحيرة لعمر رضي الله عنه : أرأيت قول الله عز وجل : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السماء والأرض ﴾ فأين النار ؟ فقال لهم عمر : أرأيتم الليل إذا ولّى وجاء النهار أين يكون الليل ؟ فقالوا : لقد نزعت بما في التوراة مثله .

﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ ﴾ شرط الإيمان لا غير ، وفيه تقوية الرجاء .

وقد قيل : شرط الإيمان هنا وزاد عليه في "آل عمران" فقال : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الذين يُنفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ والضرآء والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس ﴾ [آل عمران : 133-134] .

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ أي إن الجنة لا تُنال ولا تُدخل إلا برحمة الله تعالى وفضله .

وقد مضى هذا في "الأعراف" وغيرها .

﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

عن عبد الله : ملت الصحابة ملة ، فنزلت ﴿ ألم يأن ﴾ .

وعن ابن عباس : عوتبوا بعد ثلاث عشرة سنة .

وقيل : كثر المزاح في بعض شباب الصحابة فنزلت .

وقرأ الجمهور : ﴿ ألم ﴾ ؛ والحسن وأبو السمال : ألما .

والجمهور : ﴿ يأن ﴾ مضارع أنى حان ؛ والحسن : يئن مضارع أن حان أيضاً ، والمعنى : قرب وقت الشيء .

﴿ أن تخشع ﴾ : تطمئن وتخبت ، وهو من عمل القلب ، ويظهر في الجوارح.

وفي الحديث : "أول ما يرفع من الناس الخشوع" ﴿ لذكر الله ﴾ : أي لأجل ذكر الله ، كقوله : ﴿ إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ قيل : أو لتذكير الله إياهم .

وقرأ الجمهور : وما نزل مشدداً ؛ ونافع وحفص : مخففاً ؛ والجحدري وأبو جعفر والأعمش وأبو عمرو في رواية يونس ، وعباس عنه : مبنياً للمفعول مشدداً ؛ وعبد الله : أنزل بهمزة النقل مبنياً للفاعل .

والجمهور : ﴿ ولا يكونوا ﴾ بياء الغيبة ، عطفاً على ﴿ أن تخشع ﴾ ؛ وأبو حيوة وابن

أبي عبلة وإسماعيل عن أبي جعفر ، وعن شيبة ، ويعقوب وحمزة في رواية عن سليم عنه : ولا تكونوا على سبيل الالتفات ، إما نهياً ، وإما عطفاً على ﴿ أن تخشع ﴾ .

﴿ كالذين أوتوا الكتاب من قبل ﴾ ، وهم معاصرو موسى عليه السلام من بني إسرائيل . حذر المؤمنون أن يكونوا مثلهم في قساوة القلوب ، إذ كانوا إذا سمعوا التوراة رقوا وخشعوا ، ﴿ فطال عليهم الأمد ﴾ : أي انتظار الفتح ، أو انتظار القيامة .

وقيل : أمد الحياة .

وقرأ الجمهور : الأمد مخفف الدال ، وهي الغاية من الزمان ؛ وابن كثير : بشدها ، وهو الزمان بعينه الأطول .

﴿ فقست قلوبهم ﴾ : صلبت بحيث لا تنفعل للخير والطاعة .

﴿ يحيي الأرض بعد موتها ﴾ : يظهر أنه تمثيل لتليين القلوب بعد قسوتها ، ولتأثير ذكر الله فيها .

كما يؤثر الغيث في الأرض فتعود بعد إجدابها مخصبة ، كذلك تعود القلوب النافرة مقبلة ، يظهر فيها أثر الطاعات والخشوع .

وقرأ الجمهور : ﴿ المصّدّقين والمصّدّقات ﴾ ، بشدّ صاديهما ؛ وابن كثير وأبو بكر والمفضل وأبان وأبو عمرو في رواية هارون : بخفهما ؛ وأبيّ : بتاء قبل الصاد فيهما ، فهذه وقراءة الجمهور من الصدقة ، والخف من التصديق ، صدّقوا رسوله الله (صلى الله عليه وسلم) فيما بلغ عن الله تعالى .

قال الزمخشري : فإن قلت : علام عطف قوله : ﴿ وأقرضوا ﴾ ؟ قلت : على معنى الفعل في المصدّقين ، لأن اللام بمعنى الذين ، واسم الفاعل بمعنى اصدّقوا ، كأنه قيل : إن الذين اصدقوا وأقرضوا . انتهى .

واتبع في ذلك أبا علي الفارسي ، ولا يصح أن يكون معطوفاً على المصدقين ، لأن المعطوف على الصلة صلة ، وقد فصل بينهما بمعطوف ، وهو قوله : ﴿ والمصدقات ﴾ .

ولا يصح أيضاً أن يكون معطوفاً على صلة أل في المصدقات لاختلاف الضمائر ، إذ ضمير المتصدّقات مؤنث ، وضمير وأقرضوا مذكر ، فيتخرج هنا على حذف الموصول لدلالة ما قبله عليه ، لأنه قيل : والذين أقرضوا ، فيكون مثل قوله :

فمن يهجو رسول الله منكم . . .

ويمدحه وينصره سواه

يريد : ومن يمدحه ، وصديق من أبنية المبالغة .

قال الزجاج : ولا يكون فيما أحفظ إلا من ثلاثي .

وقيل : يجيء من غير الثلاثي كمسيك ، وليس بشيء ، لأنه يقال : مسك وأمسك ، فمسيك من مسك .

﴿ والشهداء ﴾ : الظاهر أنه مبتدأ خبره ما بعده ، فيقف على الصديقون ، وإن شئت فهو من عطف الجمل ، وهذا قول ابن عباس ومسروق والضحاك .

إن الكلام تام في قوله : ﴿ الصديقون ﴾ ، واختلف هؤلاء ، فبعض قال : الشهداء هم الأنبياء ، يشهدون للمؤمنين بالصدّيقية لقوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ الآية ؛ وبعض قال : هم الشهداء في سبيل الله تعالى ، استأنف الخبر عنهم ، فكأنه جعلهم صنفاً مذكوراً وحده لعظم أجرهم .

(95/748)

وقال ابن مسعود ومجاهد وجماعة : والشهداء معطوف على الصديقون ، والكلام متصل ، يعنون من عطف المفرادت ، فبعض قال : جعل الله كل مؤمن صديقاً وشهيداً ، قاله مجاهد .

وفي الحديث ، من رواية البراء : " مؤمنو أمتي شهداء " ، وإنما ذكر الشهداء السبعة تشريفاً لهم لأنهم في أعلى رتب الشهادة ، كما خص المقتول في سبيل الله من السبعة بتشريف تفرد

به ، وبعض قال : وصفهم بالصديقية والشهادة من قوله تعالى : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ ﴿ لهم أجرهم ﴾ : خبر عن الشهداء فقط ، أو عن من جمع بين الوصفين على اختلاف القولين .

والظاهر في نورهم أنه حقيقة .

وقال مجاهد وغيره : عبارة عن الهدى والكرامة والبشرى .

﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ﴾ : أخبر تعالى بغالب أمرها من اشتمالها على أشياء لا تدوم ولا تجدي ، وأما ما كان من الطاعات وضروري ما يقوم به الأود ، فليس مندرجاً في هذه الآية .

﴿ لعب ولهو ﴾ ، كحالة المترفين من الملوك .

﴿ وزينة ﴾ : تحسين لما هو خارج عن ذات الشيء .

﴿ وتفاخر بينكم ﴾ : قراءة الجمهور بالتنوين ونصب بينكم ، والسلمى بالإضافة .

﴿ وتكاثر ﴾ بالعدد والعدد على عادة الجاهلية ، وهذه كلها محقرات ، بخلاف أمر الآخرة ، فإنها مشتملة على أمور حقيقية عظام .

قال الزمخشري : وشبه تعالى حال الدنيا وسرعة تقضيها ، مع قلة جدواها ، بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل ، وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات ، فبعث عليهم العاهة ، فهاج واصفر وصار حطاماً ، عقوبة لهم على جحودهم ،

كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين . انتهى .

وقال ابن عطية : ﴿ كمثل ﴾ في موضع رفع صفة لما تقدّم .

(96/748)

وصورة هذا المثال أن الإنسان ينشأ في حجر مملكة فما دون ذلك ، فيشب ويقوى ويكسب المال والولد ويغشاه الناس ، ثم يأخذ بعد ذلك في انحطاط ، فينشف ويضعف ويسقم ، وتصيبه النوائب في ماله ودينه ، ويموت ويضمحلّ أمره ، وتصير أمواله لغيره وتغير رسومه ، فأمره مثل مطر أصاب أرضاً فنبت عن ذلك الغيث نبات معجب أنيق ، ثم هاج ، أي يبس واصفر ، ثم تحطم ، ثم تفرق بالرياح واضمحل . انتهى .

قيل : الكفار : الزراع ، من كفر الحب ، أي ستره في الأرض ، وخصوا بالذكر لأنهم أهل البصر بالنبات والفلاحة ، فلا يعجبهم إلا المعجب حقيقة .

وقيل : من الكفر بالله ، لأنهم أشدّ تعظيماً للدنيا وإعجاباً بمحاسنها ؛ وحطام : بناء مبالغة كعجاب .

وقرىء : مصفاراً .

ولما ذكر ما يؤول إليه أمر الدنيا من الفناء ، ذكر ما هو ثابت دائم من أمر الآخرة من العذاب

الشديد ، ومن رضاه الذي هو سبب النعيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(97/748)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ﴾

استئنافٌ ناعٍ عليهم تثاقلَهُم في أمورِ الدِّينِ ورخاوةِ عقدِهم فيها واستبطاءٌ لانتدابِهم لما نُدبوا إليهِ بالترغيبِ والترهيبِ . ورُوِيَ أنَّ المؤمنينَ كانُوا مُجْدِبِينَ بمكةَ فلمَّا هاجرُوا أصابُوا الرزقَ والنعمةَ وفترُوا عمَّا كانُوا عليهِ فنزلتْ . وعن ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنْهُ : ما كانَ بينَ إسلامِنا وبينَ أنْ عُوتبنا بهذهِ الآيةِ إلا أربعُ سنينَ . وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ تعالَى عنهُمَا أنَّ اللهَ استبطأَ قلوبَ المؤمنينَ فعاتبَهُم على رأسِ ثلاثَ عشرةَ سنةً من نزولِ القُرآنِ أيْ ألم يجيءْ وقتُ أنْ تخشعَ قلوبُهم لذكرِه تعالَى وتطمئنَ به ويسارعُوا إلى طاعتِه بالامتثالِ بأوامرِه والانتهاءِ عمَّا نُهوا عنهُ منْ غيرِ توانٍ ولا فتورٍ منْ أنى الأمرُ إذا جاءَ أناهُ أي وقته . وقُرِىءَ ألم يئِنْ من آنَ يئِينُ بمعنى أنَى ، وقُرِىءَ ألَّمَا يأنِ ، وفيهِ دلالةٌ على أنَّ المنفَي متوقعٌ . ﴿

وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق ﴾ أي القرآنِ وهو عطفٌ على ذكرِ اللهِ فإنْ كانَ هُو المرادَ به أيضاً

فالعطفُ لتغايرِ العُنوانينِ فإنَّه ذكرٌ وموعظةٌ كما أنَّه حقٌّ نازلٌ منَ السماءِ ، وإلاَّ فالعطفُ كما في قولِه تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءاياته زَادَتْهُمْ إيمانا ﴾ ومَعْنى الخشوعِ له الانقيادُ التامُّ لأوامرِه ونواهيه والعكوفُ على العملِ بما فيهِ من الأحكامِ التي من جُمْلتها ما سبقَ وما لحقَ من الإنفاقِ في سبيلِ الله تعالى . وقُرِىءَ نزل من التنزيلِ مبنياً للفاعلِ وأنزلَ ﴿ وَلاَ يَكُونُواْ كالذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلُ ﴾ عطفٌ على تخشعَ . وقُرِىءَ بالتاءِ على الالتفاتِ ؛ للاعتناءِ بالتحذيرِ ، وقيلَ : هو نهيٌ عن مماثلةِ أهلِ الكتابِ في قسوةِ القلوبِ بعد أنْ وبخوا وذلك أنَّ بني إسرائيلَ كانَ الحقُّ يحولُ بينهُم وبينَ شهواتِهم وإذا سمعُوا التوراةَ

(98/748)

والإنجيلَ خشعُوا للهِ ورقَّتْ قلوبُهم ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد ﴾ أي الأجلُ . وقُرِىءَ الأمدُّ بتشديدِ الدالِ ، أي الوقتُ الأطولُ وغلبهم الجفاءُ وزالتْ عنهم الروعةُ التي كانتْ تأتيهم من الكتابينِ ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فهي كالحجارةِ أو أشدُّ قسوةً ﴿ وَكَثِيرٌ مّنْهُمْ فاسقون ﴾ أي خارجونَ عن حدودِ دينهم رافضونَ لما في كتابهم بالكليةِ .

﴿ اعلموا أَنَّ الله يُحْيِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ تمثيلٌ لإحياءِ القلوبِ القاسيةِ بالذكرِ والتلاوةِ

بإحياءِ الأرضِ الميتةِ بالغيثِ للترغيبِ في الخشوعِ والتحذيرِ عن القساوةِ ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيات ﴾ التي من جُمْلتِها هذهِ الآياتُ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ كي تعقلُوا ما فيهَا وتعملُوا بموجبِها فتفوزُوا بسعادةِ الدارينِ.

(99/748)

﴿ إنَّ المصدقين والمصدقات ﴾ أي المتصدقينَ والمتصدقاتِ وقد قُرِىءَ كذلكَ، وقُرِىءَ بتخفيفِ الصادِ من التصديقِ، أي الذينَ صدقُوا اللهُ ورسولَه ﴿ وَأَقْرَضُواْ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ قيلَ: هُو عطفٌ على ما في المصدقينَ من مَعْنى الفعلِ فإنَّه في حُكمِ الذين اصدّقُوا أو صَدقُوا علَى القراءتينِ وعُقبَ بأنَّ فيهِ فصلاً بين أجزاءِ الصلةِ بأجنبيَ وهو المُصدّقاتِ وأُجيبَ بأنَّ المَعْنى أنَّ الناسَ الذينَ تصدّقُوا وتصدّقنَ وأقرضُوا فهو عطفٌ على الصلةِ من حيثُ المَعْنى من غيرِ فصلٍ، وقيلَ إنَّ المُصدّقاتِ ليسَ بعطفٍ على المُصدّقينِ بل هُو منصوبٌ على الاختصاصِ كأنه قيلَ إنَّ المصدقينَ على العمومِ تغليباً وأخصُّ المصدقاتِ من بينهُم كما تقولُ إنَّ الذينَ آمنُوا ولا سيَّما العلماءُ منهُم وعملُوا الصالحاتِ لهم كذا لكنْ لا على أنَّ مدارَ التخصيصِ مزيدُ استحقاقِهنَّ لمضاعفةِ الأجرِ كما في المثالِ المذكورِ بل زيادةُ احتياجهنَّ إلى التصدقِ الداعيةُ إلى الاعتناءِ بحثهنَّ على التصدقِ

لما رُوِيَ أَنَّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قالَ : " يا معشرَ النِّساءِ تصدَّقن فإِنِّي أُرِيتُكنَّ أَكثرَ أهلِ النَّارِ " وقيلَ : هو صلةٌ لموصولٍ محذوفٍ معطوفٍ على المصدقينَ كأَنَّه قيلَ والذينَ أقرضُوا . والقرضُ الحسنُ عبارةٌ عنِ التصدقِ من الطيبِ عن طيبةِ النفسِ وخلوصِ النيةِ على المستحقِّ للصدقةِ . ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ على البناءِ للمفعولِ مُسنداً إلى ما بعدَهُ من الجارِّ والمجرورِ ، وقيلَ : إلى مصدرِ مَا في حيزِ الصِّلةِ على حذفِ مضافٍ أيْ ثوابُ التصدقِ . وقُرِىءَ على البناءِ للفاعلِ أي يُضاعِفُ اللهُ تعالَى ، وقُرِىءَ يُضعَّفُ بتشديدِ العينِ وفتحِها ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ مرَّ ما فيهِ من الكلامِ .

﴿ والذين ءامَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ ﴾ كافةً وقد مرَّ بيانُ كيفيةِ الإيمانِ بهم في خاتمةِ سورةِ البقرةِ .

﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى الموصولِ الذي هُو مبتدأٌ وما فيهِ من مَعْنى البُعدِ مع قُربِ العهدِ بالمشارِ إليهِ قد مرَّ سرُّه مراراً ، وهو مبتدأٌ ثانٍ . وقولُه تعالَى : ﴿ هُمْ ﴾ مبتدأ ثالث خبره ﴿ الصديقون والشهداء ﴾ وهُو معَ خبرِه خبرٌ للثاني وهو معَ خبره خبر للأول أو هم ضمير الفصل ، وما بعده خبر لأولئك والجملة خبر للموصولِ أي أُولئكَ ﴿ عِندَ رَبّهِمْ ﴾

بمنزلة الصديقينَ والشهداءِ المشهورينَ بعلوّ الرُّتبةِ ورفعةِ المحلّ وهُم الذين سبقُوا إلى التصديقِ واستُشْهِدوا في سبيلِ الله تعالى أو هم المبالغونَ في الصدقِ حيثُ آمنُوا وصدَّقُوا جميعَ أخبارِه تعالى ورسلِه والقائمونَ بالشهادةِ لله تعالى بالوحدانيةِ ولهم بالإيمانِ أو على الأممِ يومَ القيامةِ وقولُه تعالى : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ بيانٌ لثمراتِ ما وُصفوا بهِ من نعوتِ الكمالِ على أنَّه جملةٌ من مبتدأٍ وخبرٍ محلُّها الرفعُ على أنَّه خبرٌ ثانٍ للموصولِ أو الخبرُ هو الجارُّ وما بعدَهُ مرتفع بهِ على الفاعليةِ والضميرُ الأولُ على الوجهِ الأولِ للموصولِ والأخيرانِ للصديقينَ والشهداءُ أيْ لَهُم مثلُ أجرِهم ونورِهم المعروفينِ .

(101/748)

بغايةِ الكمالِ وعزةِ المنالِ وقد حذفَ أداةَ التشبيهِ تنبيهاً على قوةِ المماثلةِ وبلوغِها حدَّ الإتحادِ كما فعلَ ذلكَ حيثُ قيلَ هم الصديقونَ والشهداءُ ، وليستِ المماثلةُ بين ما للفريقِ الأولِ من الأجرِ والنورِ وبينَ تمام ما للفريقينِ الأخيرينِ بل بين تمامِ ما للأولِ من الأصلِ والأضعافِ وبين ما للآخرينَ من الأصلِ بدونِ الأضعافِ وأمّا على الوجهِ الثاني فمرجعُ الكلِّ واحدٌ والمَعْنى لهمُ الأجرُ والنورُ الموعودانِ لهم ، هَذا هو الذي تقتضيهِ جزالةُ النظمِ الكريمِ وقد قيلَ والشهداءُ مبتدأٌ وعندَ ربِهم خبرُهُ وقيلَ : الخبرُ لَهُم أجرُهم الخ ﴿ والذين

كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا أُوْلَئِكَ ﴾ الموصوفون بتلك الصفةِ القبيحةِ ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ بحيث لا يفارقونها أبداً .

(102/748)

﴿ اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الأموال والأولاد ﴾ بعدَ ما بُيِّنَ حالُ الفريقينِ في الآخرة ، شُرِحَ حالُ الحياةِ الدُّنيا التي اطمأنَّ بها الفريقُ الثَّاني ، وأُشيرَ إلى أَنَّها من محقراتِ الأمورِ التي لا يركنُ إليها العقلاءُ فضلاً عن الاطمئنانِ بها وأنَّها مع ذلكَ سريعةُ الزوالِ وشيكةُ الاضمحلالِ حيثُ قيلَ : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكفار ﴾ أي الحُرَّاثَ ﴿ نَبَاتُهُ ﴾ أي النباتُ الحاصلُ بِهِ ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي يجفُّ بعدَ خضرته ونضارتِه ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ﴾ بعدَ ما رأيتَهُ ناضراً مُونِقاً . وقُرِىءَ مُصفاراً وإنما لم يقلْ فيصفرُّ إيذاناً بأنَّ اصفرارَهُ مقارنٌ لجفافِه وإنما المترتبُ عليه رؤيتُه كذلكَ ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ﴾ هشيماً مُتكسراً ومحلُّ الكافِ . قيلَ : النصبُ على الحاليةِ من الضميرِ في لعبٌ لأنَّه في معنى الوصف ، وقيل الرفع على أنه خبر للحياة الدنيا بتقدير المضاف أي مثل الحياةِ الدُّنيا كمثلِ الخ وبعدَ ما بُيِّنَ حقارةُ أمرِ الدُّنيا تزهيداً فيها وتنفيراً عن العكوفِ عليها أُشيرَ إلى فخامة شأنِ الآخرةِ وعظمِ ما فيها من اللذاتِ والآلامِ ترغيباً في تحصيلِ نعيمِها المقيمِ

وتحذيراً من عذابها الأليم ، وقدِّمَ ذكرُ العذابِ فقيل ﴿ وَفِى الأخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لأنَّه من نتائجِ الانهماكِ فيما فُصِّلَ من أحوالِ الدُّنيا ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ عظيمة ﴿ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ﴾ عظيمٌ لا يُقادرُ قدره . ﴿ وَما الحياة الدنيا إِلاَّ مَتاعُ الغرور ﴾ أي لمن اطمأنَّ بها ولم يجعلْها ذريعةً إلى الآخرة . عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ : الدُّنيا متاعُ الغرور إنْ ألهتكَ عن طلب الآخرةِ فأمَّا إذا دعتكَ إلى طلبِ رضوانِ الله تعالَى فنعمَ المتاعُ ونعمَ الوسيلةُ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(103/748)

وقال الآلوسى :

﴿ اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الأموال والأولاد ﴾

بعد ما بين حال الفريقين في الآخرة شرح حال الحياة التي اطمأن بها الفريق الثاني ، وأشير إلى أنها من محقرات الأمور التي لا يركن إليها العقلاء فضلاً عن الاطمئنان بها بأنها لعب لا ثمرة فيها سوى التعب ﴿ وَلَهْوٌ ﴾ تشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ لا يحصل منها شرف ذاتي كالملابس الحسنة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة ﴿ وَتَفَاخُرٌ ﴾ بالأنساب والعظام البالية ﴿ وَتَكَاثُرٌ ﴾ بالعدد والعدد ، وقرأ السلمي ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾

بالإضافة ، ثم أشير إلى أنها مع ذلك سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال بقوله سبحانه :

﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ مطر أَعْجَبَ الكفار ﴾ أي راقهم ﴿ ﴾ أي راقهم ﴿ نعبعاتُهُ ﴾

أي النبات الحاصل به ، والمراد بالكفار إما الحراث على ما روي عن ابن مسعود لأنهم

يكفرون أي يسترون البذر في الأرض ووجه تخصيصهم بالذكر ظاهر ، وأما الكافرون بالله

سبحانه ووجه تخصيصهم أنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا فإن المؤمن إذا رأى معجباً انتقل

فكره إلى قدرة موجده عز وجل فأعجب بها ، ولذا قال أبو نواس في النرجس

: عيون من لجين شاخصات . . .

على أطرافها ذهب سبيك على قضب الزبرجد شاهدات

(بأن الله ليس له شريك) . . .

(104/748)

والكافر لا يتخطى فكره عما أحس به فيستغرق إعجاباً ﴿ أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ يتحرك إلى

أقصى ما يتأتى له ، وقيل : أي يجف بعد خضرته ونضارته ﴿ فتراه ﴾ يا من تصح منه

الرؤية ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ﴾ بعد ما رأيته ناضراً مونقاً ، وقرىء مصفاراً وإنما لم يقل فيصفر

قيل : إيذاناً بأن اصفراره غير مقارن لهيجانه وإنما المترتب عليه رؤيته كذلك ، وقيل :

للإشارة إلى ظهور ذلك لكل أحد ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ هشيماً متكسراً من اليبس ، ومحل الكاف قيل : النصب على الحالية من الضمير في ﴿ لَعِبٌ ﴾ لأنه في معنى الوصف ، وقيل : الرفع على أنه خبر بعد خبر للحياة الدنيا بتقدير المضاف إليه أي مثل الحياة كمثل الخ ، ولتضمن ذلك تشبيه جميع ما فيها من السنين الكثيرة بمدة نبات غيث واحد يفنى ويضمحل في أقل من سنة جاءت الإشارة إلى سرعة زوالها وقرب اضمحلالها ، وبعد ما بين حقارة أمر الدنيا تزهيداً فيها وتنفيراً عن العكوف عليها أشير إلى فخامة شأن الآخرة وعظم ما فيها من اللذات والآلام ترغيباً في تحصيل نعيمها المقيم وتحذيراً من عذابها الأليم ، وقدم سبحانه ذكر العذاب فقال جل وعلا :

﴿ وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لأنه من نتائج الانهماك فيما فصل من أحوال الحياة الدنيا ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ عظيمة ﴿ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ عظيم لا يقادر قدره ، وفي مقابلة العذاب الشديد بشيئين إشارة إلى غلبة الرحمة وأنه من باب "لن يغلب عسر يسرين" .

وفي ترك وصف العذاب بكونه من الله تعالى مع وصف ما بعده بذلك إشارة إلى غلبتها أيضاً ورمز إلى أن الخير هو المقصود بالقصد الأولى ﴿ وَمَا الحياة الدنيا إِلَّا متاع الغرور ﴾ لمن اطمأن بها ولم يجعلها ذريعة للآخرة ومطية لنعيمها ، روي عن سعيد بن جبير الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله تعالى وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾

أعقب التحريض على الصدقات والإنفاق بالإشارة إلى دحض سبب الشح أنه الحرص على استبقاء المال لإِنْفَاقه في لذائذ الحياة الدنيا ، فضُرب لهم مثلُ الحياة الدنيا بحالٍ محقَّرة على أنها زائلة تحقيراً لحاصلها وتزهيداً فيها لأن التعلق بها يعوق عن الفَلاَح قال تعالى : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [الحشر : 9] ، وقال : ﴿ وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ [النساء : 128] . كل ذلك في سياق الحث على الإِنفاق الواجب وغيره ، وأشير إلى أنها ينبغي أن تتخذ الحياة وسيلة للنعيم الدائم في الآخرة ، ووقاية من العذاب الشديد ، وما عدا ذلك من أحوال الحياة فهو متاع قليل ، ولذلك أعقب مثل الحياة الدنيا بالإِخبار عن الآخرة بقوله : "في الآخرة عذاب" الخ .

وافتتاح هذا بقوله تعالى : ﴿ اعلموا ﴾ للوجه الذي بيناه آنفاً في قوله : ﴿ اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ﴾ [الحديد : 17] .

و ﴿ أَنَّمَا ﴾ المفتوحةُ الهمزة أخت (إنما) المكسورة الهمزة في إفادة الحصر ، وحصر الحياة الدنيا في الأخبار الجارية عليها هو قصر أحوال الناس في الحياة على هذه الأمور الستة باعتبار غالب الناس ، فهو قصر ادعائي بالنظر إلى ما تنصرف إليه همم غالب الناس من شؤون الحياة الدنيا ، والتي إن سلم بعضهم من بعضها لا يخلو من ملابسة بعض آخر إلا الذين عصمهم الله تعالى فجعل أعمالهم في الحياة كلها لوجه الله ، وإلا فإن الحياة قد يكون فيها أعمال التقى والمنافع والإحسان والتأييد للحق وتعليم الفضائل وتشريع القوانين .

(106/748)

وقد ذكر هنا من شؤون الحياة ما هو الغالب على الناس وما لا يخلو من مقارفة تضييع الغايات الشريفة أو اقتحام مساوٍ ذميمة ، وهي أصول أحوال المجتمع في الحياة ، وهي أيضاً أصول أطوار آحاد الناس في تطور كل واحد منهم ، فإن اللعب طور سِنّ الطفولة والصبا ، واللهوَ طور الشباب ، والزينة طور الفتوة ، والتفاخرَ طور الكهولة ، والتكاثر طور الشيخوخة .

وذكر هنا خمسة أشياء :

فاللعب : اسم لقول أو فعل يراد به المزح والهزل لتمضية الوقت أو إزالة وحشة الوحدة ، أو

السكون ، أو السكوت ، أو لجلب فرح ومسرة للنفس ، أو يجلب مثل ذلك للحبيب ، أو يجلب ضده للبغيض ، كإعمال الأعضاء وتحريكها دفعاً لوحشة السكون ، والهذيان المقصود لدفع وحشة السكوت ، ومنه العبث ، وكالمزح مع المرأة لاجتلاب إقبالها ومع الطفل تحبباً أو إرضاء له .

واللعب : هو الغالب على أعمال الأطفال والصبيان فطور الطفولة طور اللعب ويتفاوت غيرهم في الإِتيان منه فيقل ويكثر بحسب تفاوت الناس في الأطوار الأولى من الإِنسان وفي رجاحة العقول وضعفها .

والإِفراط فيه من غير أصحاب طوره يؤذن بخسة العقل ، ولذلك قال قوم إبراهيم له:

﴿ أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ [الأنبياء : 55] .

واللعب يكثر في أحوال الناس في الدنيا فهو جزء عظيم من أحوالها وحسبك أنه يَعمُر معظم أحوال الصبا .

واللهو : اسم لفعل أو قول يقصد منه التذاذ النفس به وصرفها عن ألم حاصل من تعب الجسد أو الحزن أو الكمد ، يقال : لها عن الشيء ، أي تشاغل عنه .

قال امرؤ القيس:

وبيضة خدر لا يرام خِباؤها . . .

تمتعتُ من لَهْو بها غيرَ معجَل

وقال النابغة يذكر حجه:

حيّاكِ ربي فإنا لا يحل لنا . . .

لَهْوُ النساء وإن الدّين قد عَزَما

ويغلب اللهو على أحوال الشباب فطور الشباب طوره ، ويكثر اللهو في أحوال الدنيا من تطلب اللذات والطرب .

(107/748)

والزينة : تحسين الذات أو المكان بما يجعل وقعه عند ناظره مُسراً له ، وفي طباع الناس الرغبة في أن تكون مناظرهم حسنة في عين ناظريهم وذلك في طباع النساء أشد ، وربّما كان من أسباب شدته فيهن كثرةُ إغراء الرجال لهن بذلك .

ويكثر التزين في طور الفتوة لأن الرجل يشعر بابتداء زوال محاسن شبابه ، والمرأة التي كانت غانية تحب أن تكون حالِيَة ، وليس ذلك لأجل تعرضها للرجال كما يتوهمه الرجال فيهن غروراً بأنفسهم بل ذلك لتكون حسنة في الناس من الرجال والنساء .

ويغلب التزين على أحوال الحياة فإن معظم المساكن والملابس يراد منه الزينة ، وهي ذاتية ومعنوية ، ومن المعنوية ما يسمى في أصول الفقه بالتحسيني .

والتفاخر : الكلام الذي يفخر به ، والفخر : حديث المرء عن محامده والصفات المحمودة منها فيه بالحق أو الباطل .

وصيغ منه زنة التفاعل لأن شأن الفخر أن يقع بين جانبين كما أنبأ به تقييده بظرف ﴿ بينكم ﴾ .

والناس يتفاخرون بالصفات المحمودة في عصورهم وأجيالهم وعاداتهم ، فمن الصفات ما الفخر به غير باطل .

وهو الصفات التي حقائقها محمودة في العقل أو الشرع .

ومنها ما الفخر به باطل من الصفات والأعمال التي اصطلح قوم على التمدح بها وليست حقيقة بالمدح مثل التفاخر بالإغلاء في ثمن الخمور وفي الميسر والزنى والفخر بقتل النفوس والغارة على الأموال في غير حق .

وأغلب التفاخر في طور الكهولة واكتمال الاشُدّ لأنه زمن الإقبال على الأفعال التي يقصد منها الفخر .

والتفاخر كثير في أحوال الناس في الدنيا ، ومنه التباهي والعُجب ، وعنه ينشأ الحسد .

والتكاثر : تفاعل من الكثرة ، وصيغة التفاعل هنا للمبالغة في الفعل بحيث ينزل منزلة من يغالب غيره في كثرة شيء ، فإنه يكون أحرص على أن يكون الأكثر منه عنده فكان المرء

ينظر في الكثرة من الأمر المحبوب إلى امرىء آخر له الكثرة منه ، ألا ترى إلى قول طرفة:

فلو شاء ربي كنت قيس بن عاصم . . .

ولو شاء ربي كنت عمرو بن مَرثد

فأصبحت ذا مال كثير وطافَ بي . . .

بنونَ كرامٌ سَادة لمسوَّد

ثم شاع إطلاق صيغة التكاثر فصارت تستعمل في الحرص على تحصيل الكثير من غير مراعاة مغالبة الغير ممن حصل عليه ، قال تعالى:

﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ [التكاثر : 1] .

و﴿ في ﴾ من قوله : ﴿ في الأموال والأولاد ﴾ : إما مستعملة في التعليل ، وإما هي الظرفية المجازية ، فإن جُعلت الأموال كالظرف يحصل تكاثر الناس عنده كمن ينزع في بئر .

والمعنى : أن الله أقام نظام أحوال الناس في الحياة الدنيا على حكمة أن تكون الحياة وسيلة لبلوغ النفوس إلى ما هيّأها الله له من العروج إلى سمو المَلَكِيَّة كما دل عليه قوله : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة : 30] ، فكان نظام هذه الحياة على أن تجري أمور

الناس فيها على حسب تعاليم الهدى للفوز بالحياة الأبدية في النعيم الحق بعد الممات والبعث ، فإذا الناسُ قد حرفوها عن مهيعها ، وقد تضمن ذلك قوله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : 97] .

﴿ والاولاد كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكفار نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ ﴾ .

يجوز أن يكون في موضع خبر من مبتدأ محذوف ، أي هي كمثلِ غيث فتكون الجملة استئنافاً ، وحَذفُ المسند إليه من النوع الذي سماه السكاكي "متابعةَ الاستعمال" .

(109/748)

ويجوز أن يكون الكاف في موضع الحال و ﴿ كمثل ﴾ معناه كحال ، أي حال الحياة الدنيا كحال غيث الخ ، فشبهت هيئة أهل الدنيا في أحوالهم الغالبة عليهم والمشار إلى تنويعها بقوله : ﴿ لعب ولهو ﴾ إلى آخره بهيئة غيث أنبت زرعاً فأينع ثم اصفر ثم اضمحلّ وتحطم ، أي تشبيه هيئة هذه الأحوال الغالبة على الناس في الحياة في كونها محبوبة للناس مزهية لهم وفي سرعة تقضيها بهيئةِ نبات جديد أنبته غيث فاستوى واكتمل وأُعجب به من رآه فمضت عليه مدة فيبس وتحطم .

والمقصود بالتمثيل هو النبات ، وإنما ابتدىء بغيث تصويراً للهيئة من مبادِئها لإظهار مواقع الحسن فيها لأن ذلك يكتسب منه المشبه حُسناً كما فعل كعب بن زهير في تحسين أوصاف الماء الذي مُزجت به الراح في قوله:

شُجت بذي شَيم من ماء مَحنية . . .

صافٍ بأبطحَ أضحَى وهو مشمول

تَنفي الرياحُ القَذى عنه وأفرطَه . . .

من صَوْب سارية بيضٌ يعاليل

وعن ابن مسعود "أن الكفار : الزُرّاع ، جمع كافر وهو الزارع لأنه يَكفر الزريعة بتراب الأرض ، والكفر بفتح الكاف الستر ، أي ستر الزريعة ، وإنما أوثر هذا الاسم هنا وقد قال تعالى في سورة [الفتح : 29] : ﴿ يعجب الزراع ﴾ ، قصدا هنا للتورية بالكفار الذين هم الكافرون بالله لأنهم أشد إعجاباً بمتاع الدنيا إذ لا أمل لهم في شيء بعده .

وقال جمع من المفسرين : الكفار جمع الكافر بالله لأنهم قصروا إعجابهم على الأعمال ذات الغايات الدنيا دون الأعمال الدينية ، فذكر الكفار تلويح إلى أن المثل مسوق إلى جانبهم أوّلاً .

والنبات : اسم مصدر نَبت قال تعالى : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ [نوح : 17]

، وهو هنا أطلق على النابت من إطلاق المصدر على الفاعل وهو كثير ، وأصله أن يراد به المبالغة ، وقد يشيع فيزول قصد المبالغة به .

(110/748)

وقوله : ﴿ ثم يهيج ﴾ تضافرت كلمات المفسرين على تفسير يهيج بـ (ييبس) أو يجف ، ولم يستظهروا بشاهد من كلام العرب يدل على أن من معاني الهياج الجفاف ، وقد قال الراغب : يقال : هاج البقل ، إذا اصفَرّ وطاب ، وفي "الأساس" : من المجاز هاج البقل ، إذا أخذ في اليبس .

وهذان الإِمامان لم يجعلا (هاج) بمعنى (يبس) وكيف لفظ الآية ﴿ ثم يهيج فتراه مصفراً ﴾ ، فالوجه أن الهياج : الغلظ ومقاربة اليبس ، لأن مادة الهياج تدل على الاضطراب والثوران وسميت الحرب الهيجاء ، وقال النابغة:

أهاجك من سُعداك مغنى المعاهد . . .

والزرع إذا غلظ يكون لحركته صوت فكأنه هائج ، أي ثائر وذلك ابتداء جفافه ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ كزرع أخرج شطأه فئازره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ﴾ في سورة [الفتح : 29] .

وعطفت جملة يهيج ﴾ بـ (ثم) لإفادة التراخي الرتبي لأن اصفرار النبات أعظم دلالة على التهيّؤ للزوال ، وهذا هو الأهم في مقام التزهيد في متاع الدنيا .

وعطف ﴿ فتراه مصفراً ﴾ بالفاء لأن اصفرار النبت مقارب ليبسه ، وعطف ﴿ ثم يكون حطاماً ﴾ بـ (ثم) كعطف ﴿ ثم يهيج ﴾ .

والحُطام : بضم الحاء ما حطم ، أي كُسر قطعاً .

فضرب مثل الحياة الدنيا لأطوار ما فيها من شباب وكهولة وهرم ففناء ، ومن جدة وتبذّل وبلى ، ومن إقبال الأمور في زمن إقبالها ثم إدبارها بعد ذلك ، بأطوار الزرع .

وكلُّهَا أعراض زائلة وآخرها فناء .

وتندرج فيها أطوار المرء في الحياة المذكورة في قوله : ﴿ لعب ولهو ﴾ إلى ﴿ والأولاد ﴾ كما يظهر بالتأمل .

(111/748)

وهذا التمثيل مع كونه تشبيه هيئة مركّبة بهيئةٍ مثلها هو صالح للتفريق ومقابلة أجزاء الهيئة المشبهة بأجزاء الهيئة المشبه بها ، فيشبَّه أول أطوار الحياة وإقبالها بالنبات عقب المطر ، ويشبّه الناس المنتفعون بإقبال الدنيا بناس زُراع ، ويشبّه اكتمال أحوال الحياة وقوة الكهولة

بهياج الزرع ، ويشبّه ابتداء الشخوخة ثم الهرم وابتداء ضعف عمل العامل وتجارة التاجر وفلاحة الفلاح باصفرار الزرع وتهيئه للفناء ، ويشبه زوال ما كان للمرء من قوة ومال بتحطم الزرع .

ويفهم من هذا أن ما كان من أحوال الحياة مقصوداً لوجه الله فإنه من شؤون الآخرة فلا يدخل تحت هذا التمثيل إلا ظاهراً .

فأعمال البِر ودراسة العلم ونحو ذلك لا يعتريها نقصٌ ما دام صاحبها مقبلاً عليها ، وبعضها يزداد نماء بطول المدة ، وتقدم نظير هذه الآية في سورة الزمر .

﴿ وَفِى الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ الله ورضوان وَمَا الحياة الدنيا إِلاَّ متاع ﴾ .

كان ذكر حال الحياة الدنيا مقتضياً ذكر مقابلة على عادة القرآن ، والخبرُ مستعمل في التحذير والتحريض بقرينة السياق ، ولذلك لم يبين أصحاب العذاب وأصحاب المغفرة والرضوان لظهور ذلك .

وكِنيَ عن النعيم بمغفرة من الله ورضوان لأن النعيم قسمان مادي وروحاني ، فالمغفرةَ والرضوان أصل النعيم الروحاني كما قال تعالى:

﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ [التوبة : 72] وهما يقتضيان النعيم الجسماني لأن أهل الجنة لما ركبت ذواتهم من أجسام وأودعت فيها الأرواح كان النعيمان مناسبين لهم تكثيراً للذات ، وما لذة الأجسام إلا صائرة إلى الأرواح لأنها المدركة اللذات ، وكان رضوان الله

يقتضي إعطائهم منتهى ما به التذاذهم ، ومغفرته مقتضية الصفح عما قد يعوق عن بعض ذلك .

وعطف ﴿ وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور ﴾ على ﴿ وفي الآخرة عذاب شديد ﴾ للمقابلة بين الحالين زيادة في الترغيب والتنفير .

(112/748)

والكلام على تقدير مضاف ، أي وما أحوال الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

والحصر ادعائي باعتبار غالب أحوال الدنيا بالنسبة إلى غالب طالبيها ، فكونها متاعاً أمر مطرد وكون المتاع مضافاً إلى الغرور أمر غالب بالنسبة لما عدا الأعمال العائدة على المرء بالفوز في الآخرة .

والغُرور : الخديعة ، أي إظهار الأمر الضار الذي من شأنه أن يحترز العاقل منه في صورة النافع الذي يرغب فيه .

وإضافة ﴿ متاع ﴾ إلى ﴿ الغرور ﴾ على معنى لام العاقبة ، أي متاع صائر لأجل الغرور به ، أي آيل إلى أنه يغرّ الناظرين إليه فيسرعون في التعلق به . انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (23) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين أن الدنيا خيال ومحال ليصرف الكملة من العباد عنها لسفولها وحقارتها ، وأن الآخرة بقاء وكمال ليرغبوا غاية الرغبة فيها وليشتاقوا كل الاشتياق لكمالها وشرفها وجلالها ، أنتج ذلك قوله تعالى : ﴿ سابقوا ﴾ أي افعلوا في السعي لها بالأعمال الصالحة حق السعي فعل من يسابق شخصاً فهو يسعى ويجتهد غاية الاجتهاد في سبقه ، ولكن ربما كان قرينه بطيئاً فسار هويناً ، وأما المسارعة فلا تكون إلا بجهد النفس من الجانبين مع

السرعة في العرف ، فآية آل عمران الآمرة بالمسارعة الأخص من المسابقة أبلغ لأنها للحث على التجرد عن النفس والمال وجميع الحظوظ أصلاً ورأساً ، ولذلك كانت جنتها للمتقين الموصوفين .

وأما هذه ففي سياق التصديق الذي هو تجرد عن فضول الأموال ولذلك كانت جنته للذين آمنوا .

(114/748)

ولما كان المقام عظيماً ، والإنسان – وإن بذلك الجهد – ضعيفاً ، لا يسعه إلا العفو سواء كان سابقاً أو لاحقاً من الأبرار والمقربين ، نبه على ذلك بقوله في السابقين ؛ ﴿ إلى مغفرة ﴾ أي ستر لذنوبكم عيناً وأثراً ﴿ من ربكم ﴾ أي المحسن إليكم بأن رباكم وطوركم بعد الإيجاد بأنواع الأسباب بأن تفعلوا أسباب ذلك بامتثال أوامره سبحانه واجتناب زواجره .

ولما كان المقصود من المغفرة ما يترتب عليها من نتيجتها قال : ﴿ وجنة ﴾ أي وبستان هو من عظم أشجارها واطراد أنهارها بحيث يستر داخله .

ولما كان ذلك لا يكمل إلا بالسعة قال : ﴿ عرضها ﴾ أي فما ظنك بطولها .

ولما كان السياق كما بين للتجرد عن فضول الأموال فقط لأن الموعود به دون ما في آل عمران

فأفرده وصرح بالعرض فقال : ﴿ كعرض السماء والأرض ﴾ أي لو وصل بعضها ببعض ، فآية آل عمران تحتمل الطول وجميع السماوات والأرض على هيئتها ، ويحتمل أن يكون ذلك على تقدير أن تقد كل واحدة منهما ويوصل رأس كل قدة برأس الأخرى ، وتمتد جميع القدات إلى نهايتها على مثل الشراك ، وهذه الآية ظاهرها عرض واحد وأرض واحدة ﴿ أعدت ﴾ أي هيئت هذه الجنة الموعود بها وفرغ من أمرها بأيسر أمر ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي أوقعوا هذه الحقيقة وهم من هذه الأمة إيقاعاً لا ريب معه ولو أنه على أدنى الوجوه فكانوا من السابقين ، وهذا يدل على أن الجنة موجودة الآن في آيات كثيرة ، وأن الإيمان كاف في استحقاقها ، وأحاديث الشفاعة مؤيدة لذلك ﴿ بالله ﴾ أي الذي له جميع العظمة لأجل ذاته مخلصين له بالإيمان ﴿ ورسله ﴾ فلم يفرقوا بين أحد منهم ، فهذه الجنة غير مذكورة في آل عمران ، وإن قيل : إن السماء هنا للجنس لكون السياق فيه الصديقون والشهداء كانت أبلغته تلك بالتصريح بالجمع وعدم التصريح بالعرض لكونها في سياق صرح فيه بالجهاد ، وقد جرت السنة الإلهية بإعظام للمجاهدين لشدة الخطر في أمر النفس وصعوبة الخروج عنها وعن جميع المألوفات .

ولما كان من ذكر من الوعد بالمغفرة والجنة عظيماً لا سيما لمن آمن ولو كان إيمانه على أعلى الدرجات ومع التجرد من جميع الأعمال، عظمه بقوله رداً على من يوجب عليه سبحانه شيئاً من ثواب أو عقاب: ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم جداً ﴿ فضل الله ﴾ أي الملك الذي لا كفوء له فلا اعتراض عليه ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ ولعل التعبير بالمضارع للإشارة إلى هذا خاص بهذه الأمة التي هي أقل عملاً وأكثر أجراً، فإذا حسدهم أهل الكتاب قال تعالى: هل ظلمتكم من أمركم شيئاً، فإذا قالوا: لا، لأن المصروف من الأجر لجميع الطوائف على حسب الشرط، قال: ذلك فضلي أوتيه من أشاء.

﴿ والله ﴾ أي والحال أن الملك المختص بجميع صفات الكمال فله الأمر كله ﴿ ذو الفضل العظيم ﴾ أي الذي جل عن أن يحيط بوصفه العقول.

(116/748)

ولما كانت الدنيا مانعة عن العكوف إلى الآخرة بلذاتها وآلائها، وكانت كما أنها منزل رخاء هي دار بلاء، وكان قد اقتصر سبحانه في الآية السالفة على الأول لأن السياق للإنفاق والترغيب في معالي الأخلاق وجعل المسابقة إلى السعادة نتيجة الزهد فيها، تحركت النفس إلى السؤال عما يعوق عن الخير من الضرب بسياط البلاء فقال مسلياً عنه لأن

النفوس أشد تأثراً بالمكاره وأسرع انفعالاً بالمقارع ومحققاً ومغرياً بالإعلام بأنه لم يكن فيها خير ولا شر إلا بقضاء حتم في الأزل وقدر أحكم ووجب حين لم يكن غيره شيء عز وجل ، وذكر فعل المؤنث الجائز التذكير لكون التأنيث غير حقيقي إشارة إلى عظم وقع الشر : ﴿ ما أصاب ﴾ وأكد النفي فقال : ﴿ من مصيبة ﴾ وهي في الأصل لكل آت من خير أو شر إلا أن العرف خصها بالشر ، وعم الساكن والمتحرك بقوله : ﴿ في الأرض ﴾ أي من منابتها ومياهها ونحو ذلك ﴿ ولا في أنفسكم ﴾ أي بموت ومرض وعين وعرض ﴿ إلا ﴾ هي كائنة ﴿ في كتاب ﴾ أي مكتوب لأنه مقدر مفروغ من القدم ، وبين أن الكتابة حدثت بعد أن كان هو سبحانه ولا شيء معه بإدخال الجارّ فقال : ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ أي نخلق ونوجد ونقدر المصيبة والأرض والأنفس ، وهذا دليل على أن اكتساب العباد بجعله سبحانه وتقديره .

ولما كان ذلك متعذراً على المخلوق فهو أشد شيء تكرهاً له وقوفاً مع الوهم قال مؤكداً : ﴿ إن ذلك ﴾ أي الأمر الجليل وهو علمه بالشيء وكتبه له على تفاصيله قبل كونه ، ثم سوقه النفوس والأسباب إلى إخراجه بعد التكوين على مقدار ما سبق علمه به وكتبه له ﴿ على الله ﴾ أي على ما له من الإحاطة بالكمال ﴿ يسير ﴾ لأن علمه محيط بكل شيء وقدرته شاملة لا يعجزها شيء .

ولما بين هذا الأمر العظيم الدال على ما له سبحانه من الكبرياء والعظمة ، بين ثمرة أعماله بقوله : ﴿ لكيلا ﴾ أي أعملناكم بأن على ما لنا من العظمة قد فرغنا من التقدير ، فلا يتصور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا تغيير ، لأن الحزن لا يدفعه ، ولا السرور يجلبه ويجمعه ، كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " يا معاذ ليقلّ همك ما قدر يكن " لأجل أن لا ﴿ تأسوا ﴾ أي تحزنوا حزناً كبيراً زائداً ﴿ على ﴾ ما في أصل الجبلة ، يوصل إلى المبلغ بتعاطي أسبابه والتمادي فيها ليتأثر عنها السخط وعدم الرضا بالقضاء ، فربما جر ذلك إلى أمر عظيم ﴿ ما فاتكم ﴾ من المحبوبات الدنيوية ﴿ ولا تفرحوا ﴾ أي تسروا سروراً يوصل إلى البطر بالتمادي مع ما في أصل الجبلة ﴿ بما آتاكم ﴾ أي جاءكم منها على قراءة أبي عمرو بالقصر ، وأعطاكم الله على قراءة الباقين بالمد ، وهي تدل على أن النعم لا بد في إيجادها وإبقائها من حافظ ، ثم إنها لو خليت ونفسها فاتت لأنه ليس من ذاته إلا العدم ، وقد بين سبحانه أن في تقديره هذا وكتبه من السر أن من وطن نفسه على فقد ما لديه من أعيان ومعان قبل أن تأمره بالعدم والوجدان ، فلم يغيره ذلك عن المسابقة المذكورة ، فالمنهي عنه التمادي مع الحزن حتى يخرج عن الصبر ومع الفرح حتى يلهي عن الشكر ، لا أصل المعنى لأنه ليس من الأفعال الاختيارية ، قال جعفر الصادق : ما لك تأسف على مفقود ولا يرده إليك الفوت ، وما لك تفرح بوجود ولا يتركه في يدك الموت – انتهى ، ولقد

عزى الله المؤمنين رحمة لهم في مصائبهم وزهدهم في رغائبهم بأن أسفهم على فوت المطلوب لا يعيده ، وفرحهم بحصول المحبوب لا يفيدهم ، ولأن ذلك لا مطمع في بقائه إلا بادخاره عند الله ، وذلك بأن يقول في المصيبة : قدر الله وما شاء الله فعل ويصير في النعمة هكذا قضى ، وما أدري ما مثله

(118/748)

﴿ هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ﴾ [النمل : 40] فلا يزال خائفاً عند النقمة راجياً أثر النعمة ، قائلاً في الحالين : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأكمل من هذا أن يكون مسروراً بذكر ربه له في كلتا الحالتين كما قال القائل :

سقياً لمعهدك الذي لو لم يكن . . .

ما كان قلبي للصبابة معهدا

وهذه صفة المتحررين من رق النفس ، وقيمة الرجال إنما تعرف بالواردات المغيرة ، فمن لم تغيره المضار ولم يتأثر بالمسار فهو سيد وقته ، أشار إليه القشيري .

ولما كان الإمعان في استجلاب الأسى إنما هو من اليأس ونسيان النعم وزيادة الفرح الموصل إلى المرح إنما يجره الكبر والمرح ، وكان في أوصاف أهل الدنيا التفاخر ، قال تعالى مبيناً أن

المنهي عنه سابقاً التمادي مع الجبلة في الحزن والفرح، عاطفاً على ما تقديره: ﴿ فإن الله لا يحب كل يؤوس كفور ﴾ ﴿ والله لا يحب ﴾ أي لا يفعل فعل المحب بأن يكرم ﴿ كل مختال ﴾ أي متكبر نظر إلى ما في يده في الدنيا ﴿ فخور ﴾ قال القشيري: الاختيال من بقايا النفس ورؤيتها، والفخر من رؤية خطر ما به يفتخر.

ولما كان من جملة صفات المختال المكاثر بالمال البخل، وكان قد تقدم الحث على الإنفاق، وكان ما يوجبه لذة الفخار والاختيال التي أوصل إليها المال حاملة على البخل خوفاً من الإقتار الموجب عند أهل الدنيا للصغار، قال تعالى واصفاً للمختال أو ﴿ لكل ﴾: ﴿ الذين يبخلون ﴾ أي يوجدون هذه الحقيقة مع الاستمرار ﴿ ويأمرون الناس ﴾ أي كل من يعرفونه ﴿ بالبخل ﴾ إرادة أن يكون لهم رفقاء يعملون بأعمالهم الخبيثة فيحامون عنهم أو أنهم يوجبون بأعمالهم من التكبر والبطر في الأموال التي حصلها لهم البخل استدراجاً من الله لهم بخل غيرهم لأنه إذا رآهم عظموا بالمال بخل ليكثر ماله ويعظم، وذلك كله نتيجة فرحهم بالموجود وبطرهم عند إصابته، فكانوا آمرين بالبخل لكونهم أسباباً له والسبب كالآمر في إيجاد شيء.

ولما كان التقدير : فمن أقبل على ما ندب إليه من الإقراض الحسن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن الله شكور حليم ، عطف عليه قوله ذاما للبخل محذراً منه : ﴿ ومن يتول ﴾ أي يكلف نفسه من الإعراض ضد ما في فطرته من محبة الخير والإقبال على الله ﴿ فإن الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الغني ﴾ أي عن ماله وإنفاقه وكل شيء إلى الله مفتقر ﴿ الحميد ﴾ أي المستحق للحمد وسواء حمده الحامدون أم لا ، وقراءة نافع وابن عامر بإسقاط هو مفيدة لحصر المبتدأ في الخبر للتعريف وإن كانت قراءة الجماعة آكد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 7 صـ 454. 458﴾

(120/748)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ سَابِقُواْ إلى مَغْفِرَةٍ مّن رَّبّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السماء والأرض ﴾ والمراد كأنه تعالى قال : لتكن مفاخرتكم ومكاثرتكم في غير ما أنتم عليه ، بل احرصوا على أن تكون مسابقتكم في طلب الآخرة .

واعلم أنه تعالى أمر بالمسارعة في قوله : ﴿ سَارِعُواْ إلى مَغْفِرَةٍ مّن رَّبّكُمْ ﴾ ثم شرح ههنا كيفية تلك المسارعة ، فقال : ﴿ سارعوا ﴾ مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار ، وقوله : ﴿ إلى مَغْفِرَةٍ ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

لا شك أن المراد منه المسارعة إلى ما يوجب المغفرة ، فقال قوم المراد سابقوا إلى التوبة ، وقال آخرون : المراد سابقوا إلى سائر ما كلفتم به فدخل فيه التوبة ، وهذا أصح لأن المغفرة والجنة لا ينالان إلا بالانتهاء عن جميع المعاصي والاشتغال بكل الطاعات .

المسألة الثانية :

احتج القائلون بأن الأمر يفيد الفور بهذه الآية ، فقالوا : هذه الآية دلت على وجوب المسارعة ، فوجب أن يكون التراخي محظوراً ، أما قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السماء والأرض ﴾ وقال : في آل عمران ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السموات والأرض ﴾ [آل عمران : 133] ، فذكروا فيه وجوهاً أحدها : أن السموات السبع والأرضين السبع لو جعلت صفائح وألزق بعضها ببعض لكانت الجنة في عرضها ، هذا قول مقاتل وثانيها : قال

: عطاء (عن) ابن عباس يريد أن لكل واحد من المطيعين جنة بهذه الصفة، وثالثها : قال السدي : إن الله تعالى شبه عرض الجنة بعرض السموات السبع والأرضين السبع، ولا شك أن طولها أزيد من عرضها ، فذكر العرض تنبيهاً على أن طولها أضعاف ذلك، ورابعها : أن هذا تمثيل للعبادة بما يعقلونه ويقع في نفوسهم وأفكارهم، وأكثر ما يقع في نفوسهم مقدار السموات والأرض وهذا قول الزجاج، وخامسها : وهو اختيار ابن عباس أن الجنان أربعة ، قال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] وقال : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 62] فالمراد ههنا تشبيه واحدة من تلك الجنان في العرض بالسموات السبع والأرضين السبع .

ثم قال تعالى : ﴿ أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

احتج جمهور الأصحاب بهذا على أن الجنة مخلوقة ، وقالت المعتزلة هذه الآية : لا يمكن إجراؤها على ظاهرها لوجهين : الأول : أن قوله تعالى : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ [الرعد : 35] يدل على أن من صفتها بعد وجودها أن لا تفنى ، لكنها لو كانت الآن موجودة لفنيت بدليل

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] الثاني : أن الجنة مخلوقة وهي الآن في السماء السابعة ، ولا يجوز مع أنها في واحدة منها أن يكون عرضها كعرض كل السموات ، قالوا : فثبت بهذين الوجهين أنه لا بد من التأويل ، وذلك من وجهين : الأول : أنه تعالى لما كان قادراً لا يصح المنع عليه ، وكان حكيماً لا يصح الخلف في وعده ، ثم إنه تعالى وعد على الطاعة بالجنة ، فكانت الجنة كالمعدة المهيأة لهم تشبيهاً لما سيقع قطعاً بالواقع ، وقد يقول المرء لصاحبه : (أعدت لك المكافأة) إذا عزم عليها ، وإن لم يوجدها ، والثاني : أن المراد إذا كانت الآخرة أعدها الله تعالى لهم كقوله تعالى :

﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ﴾ [الأعراف : 50] أي إذا كان يوم القيامة نادى الجواب : أن قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ ﴾ عام ، وقوله : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ مع قوله : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ خاص ، والخاص مقدم على العام ، وأما قوله ثانياً : الجنة مخلوقة في السماء السابعة قلنا : إنها مخلوقة فوق السماء السابعة على ما قال عليه السلام في صفة الجنة : " سقفها عرش الرحمن " وأي استبعاد في أن يكون المخلوق فوق الشيء أعظم منه ، أليس أن العرش أعظم المخلوقات ، مع أنه مخلوق فوق السماء السابعة .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ﴾ فيه أعظم رجاء وأقوى أمل ، إذ ذكر أن الجنة أعدت لمن آمن بالله ورسله ؛ ولم يذكر مع الإيمان شيئاً آخر ، والمعتزلة وإن زعموا أن لفظ الإيمان يفيد جملة الطاعات بحكم تصرف الشرع ، لكنهم اعترفوا بأن لفظ الإيمان إذا عدي بحرف الباء ، فإنه باق على مفهومه الأصلي وهو التصديق ، فالآية حجة عليهم ، ومما يتأكد به ما ذكرناه قوله بعد هذه الآية : ﴿ ذلك فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ يعني أن الجنة فضل لا معاملة ، فهو يؤتيها من يشاء من عباده سواء أطاع أو عصى ، فإن قيل : فيلزمكم أن تقطعوا بحصول الجنة لجميع العصاة ، وأن تقطعوا بأنه لا عقاب لهم ؟ قلنا : نقطع بحصول الجنة لهم ، ولا نقطع بنفي العقاب عنهم ، لأنهم إذا عذبوا مدة ثم نقلوا إلى الجنة وبقوا فيها أبد الآباد ، فقد كانت الجنة معدة لهم ، فإن قيل : فالمرتد قد آمن بالله ، فوجب أن يدخل تحت الآية قلت : خص من العموم ، فيبقى العموم حجة فيما عداه .

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ زعم جمهور أصحابنا أن نعيم الجنة تفضل محض لا أنه مستحق بالعمل ، وهذا أيضاً قول الكعبي من المعتزلة ، واحتجوا على صحة هذا المذهب بهذه الآية ، أجاب القاضي عنه فقال : هذا إنما يلزم لو امتنع بين كون الجنة مستحقة وبين كونها فضلاً من الله تعالى ، فأما إذا صح اجتماع الصفتين فلا يصح هذا الاستدلال ، وإنما قلنا : إنه لا منافاة بين هذين الوصفين ، لأنه تعالى هو المتفضل بالأمور

التي يتمكن المكلف معها من كسب هذا الاستحقاق ، فلما كان تعالى متفضلاً بما يكسب أسباب هذا الاستحقاق كان متفضلاً بها ، قال : ولما ثبت أن قوله : ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ لا بد وأن يكون مشروطاً بما يستحقه ، ولولا ذلك لم يكن لقوله من قبل : ﴿ سَابِقُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ معنى .

واعلم أن هذا ضعيف لأن كونه تعالى متفضلاً بأسباب ذلك الكسب لا يوجب كونه تعالى متفضلاً بنفس الجنة ، فإن من وهب من إنسان كاغداً ودواة وقلماً ، ثم إن ذلك الإنسان كتب بذلك المداد على ذلك الكاغد مصحفاً وباعه من الواهب ، لا يقال : إن أداء ذلك الثمن تفضيل ، بل يقال : إنه مستحق ، فكذا ههنا ، وأما قوله أولاً إنه لا بد من الاستحقاق ، وإلا لم يكن لقوله من قبل : ﴿ سَابِقُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ ﴾ معنى ، فجوابه أن هذا الاستدلال عجيب ، لأن للمتفضل أن يشرط في تفضله أي شرط شاء ، ويقول : لا أتفضل إلا مع هذا الشرط .

ثم قال تعالى : ﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ والمراد منه التنبيه على عظم حال الجنة ، وذلك لأن ذا الفضل العظيم إذا أعطى عطاء مدح به نفسه وأثنى بسببه على نفسه ، فإنه

لا بد وأن يكون ذلك العطاء عظيماً .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22)

قال الزجاج : إنه تعالى لما قال : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ ﴾ [الحديد : 21] بين أن المؤدي إلى الجنة والنار لا يكون إلا بقضاء وقدر ، فقال : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ والمعنى لا توجد مصيبة من هذه المصائب إلا وهي مكتوبة عند الله ، والمصيبة في الأرض هي قحط المطر ، وقلة النبات ، ونقص الثمار ، وغلاء الأسعار ، وتتابع الجوع ، والمصيبة في الأنفس فيها قولان : الأول : أنها هي : الأمراض ، والفقر ، وذهاب الأولاد ، وإقامة الحدود عليها والثاني : أنها تتناول الخير والشر أجمع لقوله بعد ذلك : ﴿ لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا ءاتاكم ﴾ [الحديد : 23] ثم قال : ﴿ إِلاَّ فِي كتاب ﴾ يعني مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

هذه الآية دالة على أن جميع الحوادث الأرضية قبل دخولها في الوجود مكتوبة في اللوح المحفوظ .

قال المتكلمون : وإنما كتب كل ذلك لوجوه أحدها : تستدل الملائكة بذلك المكتوب على كونه سبحانه وتعالى عالماً بجميع الأشياء قبل وقوعها وثانيها : ليعرفوا حكمة الله فإنه تعالى مع علمه بأنهم يقدمون على تلك المعاصي خلقهم ورزقهم وثالثها : ليحذروا من أمثال تلك المعاصي ورابعها : ليشكروا الله تعالى على توفيقه إياهم على الطاعات وعصمته إياهم من المعاصي .

وقالت الحكماء : إن الملائكة الذين وصفهم الله بأنهم هم المدبرات أمراً ، وهم المقسمات أمراً ، إنما هي المبادىء لحدوث الحوادث في هذا العالم السفلي بواسطة الحركات الفلكية والاتصالات الكوكبية ، فتصوراتها لانسياق تلك الأسباب إلى المسببات هو المراد من قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ .

المسألة الثانية :

استدل جمهور أهل التوحيد بهذه الآية على أنه تعالى عالم بالأشياء قبل وقوعها خلافاً لهشام بن الحكم ، ووجه الاستدلال أنه تعالى لما كتبها في الكتاب قبل وقوعها وجاءت مطابقة لذلك الكتاب علمنا أنه تعالى عالماً بها بأسرها .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ يتناول جميع مصائب الأنفس فيدخل فيها كفرهم ومعاصيهم

، فالآية دالة على أن جميع أعمالهم بتفاصيلها مكتوبة في اللوح المحفوظ ، ومثبتة في علم الله تعالى ، فكان الامتناع من تلك الأعمال محالاً ، لأن علم الله بوجودها مناف لعدمها ، والجمع بين المتنافيين محال ، فلما حصل العلم بوجودها ، وهذا العلم ممتنع الزوال كان الجمع بين عدمها وبين علم الله بوجودها محالاً .

المسألة الرابعة :

(126/748)

أنه تعالى لم يقل : إن جميع الحوادث مكتوبة في الكتاب ، لأن حركات أهل الجنة والنار غير متناهية ، فإثباتها في الكتاب محال ، وأيضاً خصص ذلك بالأرض والأنفس وما أدخل فيها أحوال السموات ، وأيضاً خصص ذلك بمصائب الأرض والأنفس لا بسعادات الأرض والأنفس ، وفي كل هذه الرموز إشارات وأسرار ، أما قوله : ﴿ مّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ فقد اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : من قبل أن نخلق هذه المصائب ، وقال بعضهم : بل المراد الأنفس ، وقال آخرون : بل المراد نفس الأرض ، والكل محتمل لأن ذكر الكل قد تقدم ، وإن كان الأقرب نفس المصيبة لأنها هي المقصود ، وقال آخرون : المراد من قبل أن نبرأ المخلوقات ، والمخلوقات وإن لم يتقدم ذكرها إلا أنها لظهورها يجوز عود الضمير إليها كما في

قوله :

﴿ إِنَّا أنزلناه ﴾ [يوسف : 2] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ ذلك عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ وفيه قولان : أحدهما : إن حفظ ذلك على الله هين ، والثاني : إن إثبات ذلك على كثرته في الكتاب يسير على الله وإن كان عسيراً على العباد ، ونظير هذه الآية قوله : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر : 11] .

لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (23)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

هذه اللام تفيد جعل أول الكلام سبباً لآخره ، كما تقول : قمت لأضربك فإنه يفيد أن القيام سبب للضرب ، وههنا كذلك لأنه تعالى بين أن إخبار الله عن كون هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر ، ومثبتة في الكتاب الذي لا يتغير يوجب أن لا يشتد فرح الإنسان بما وقع ، وأن لا يشتد حزنه بما لم يقع ، وهذا هو المراد بقوله عليه السلام : " من عرف سر الله في

القدر هانت عليه المصائب " وتحقيق الكلام فيه أن على مذهب أهل السنة أن وقوع كل ما وقع واجب ، وعدم كل ما لم يقع واجب أيضاً لأسباب أربعة أحدها : أن الله تعالى علم وقوعه ، فلو لم يقع انقلب العلم جهلاً ثانيها : أن الله أراد وقوعه ، فلو لم يقع انقلبت الإرادة تمنياً ثالثها : أنه تعلقت قدرة الله تعالى بإيقاعه ، فلو لم يقع لانقلبت تلك القدرة عجزاً ، رابعها : أن الله تعالى حكم بوقوعه بكلامه الذي هو صدق فلو لم يقع لانقلب ذلك الخبر الصدق كذباً ، فإذن هذا الذي وقع لو لم يقع لتغيرت هذه الصفات الأربعة من كمالها إلى النقص ، ومن قدمها إلى الحدوث ، ولما كان ذلك ممتنعاً علمنا أنه لا دافع لذلك الوقوع ، وحينئذ يزول الغم والحزن ، عند ظهور هذه الخواطر وهانت عليه المحن والمصائب ، وأما المعتزلة فهب أنهم ينازعون في القدرة والإرادة ، ولكنهم يوافقون في العلم والخبر ، وإذا كان الجبر لازماً في هاتين الصفتين ، فأي فرق بين أن يلزم الجبر بسبب هاتين الصفتين وبين أن يلزم بسبب الصفات الأربع ، وأما الفلاسفة فالجبر مذهبهم ، وذلك لأنهم ربطوا حدوث الأفعال الإنسانية بالتصورات الذهنية والتخيلات الحيوانية ، ثم ربطوا تلك التصورات والتخيلات بالأدوار الفلكية التي لها مناهج مقدرة ، ويمتنع وقوع ما يخالفها ، وأما الدهرية الذين لا يثبتون شيئاً من المؤثرات فهم لا بد وأن يقولوا بأن حدوث الحوادث اتفاقي ، وإذا كان اتفاقياً لم يكن اختيارياً ، فيكون الجبر لازماً ، فظهر أنه لا مندوحة عن هذا لأحد من فرق

العقلاء ، سواء أقروا به أو أنكروه ، فهذا بيان وجه استدلال أهل السنة بهذه الآية ، قالت المعتزلة : الآية دالة على صحة مذهبنا في كون العبد متمكناً مختاراً ، وذلك من وجوه الأول : أن قوله : ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ يدل على أنه تعالى إنما أخبرهم بكون تلك المصائب مثبتة في الكتاب لأجل أن يحترزوا عن الحزن والفرح ، ولولا أنهم قادرون على تلك الأفعال لما بقي لهذه اللام فائدة والثاني : أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لا يريد أن يقع منهم الحزن والفرح وذلك خلاف قول المجبرة : إن الله تعالى أراد كل ذلك منهم والثالث : أنه تعالى قال بعد هذه الآية : ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وهذا يدل على أنه تعالى لا يريد ذلك لأن المحبة والإرادة سواء ، فهو خلاف قول المجبرة : إن كل واقع فهو مراد الله تعالى الرابع : أنه تعالى أدخل لام التعليل على فعله بقوله : ﴿لِّكَيْلَا﴾ وهذا يدل على أن أفعال الله تعالى معللة بالغرض ، وأقول : العاقل يتعجب جداً من كيفية تعلق هذه الآيات بالجبر والقدر وتعلق كلتا الطائفتين بأكثرها .

المسألة الثانية :

قال أبو علي الفارسي قرأ أبو عمرو وحده : ﴿بِمَا ءاتاكم﴾ قصراً ، وقرأ الباقون :

﴿ ءاتاكم ﴾ ممدوداً ، حجة أبي عمرو أن : ﴿ آتَاكُمُ ﴾ معادل لقوله : ﴿ فَاتَكُمْ ﴾ فكما أن الفعل للغائب في قوله : ﴿ فَاتَكُمْ ﴾ كذلك يكون الفعل للآني في قوله : ﴿ بِمَا ءاتاكم ﴾ والعائد إلى الموصول في الكلمتين الذكر المرفوع بأنه فاعل ، وحجة الباقين أنه إذا مد كان ذلك منسوباً إلى الله تعالى وهو المعطي لذلك ، ويكون فاعل الفعل في : ﴿ ءاتاكم ﴾ ضميراً عائداً إلى اسم الله سبحانه وتعالى والهاء محذوفة من الصلة تقديره بما آتاكموه .

المسألة الثالثة :

قال المبرد : ليس المراد من قوله : ﴿ لّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا آتاكم ﴾ نفي الأسى والفرح على الإطلاق بل معناه لا تحزنوا حزناً يخرجكم إلى أن تهلكوا أنفسكم ولا تعتدوا بثواب على فوات ما سلب منكم ، ولا تفرحوا فرحاً شديد يطغيكم حتى تأشروا فيه وتبطروا ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ والله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾ فدل بهذا على أنه ذم الفرح الذي يختال فيه صاحبه ويبطر ، وأما الفرح بنعمة الله والشكر عليها فغير مذموم ، وهذا كله معنى ما روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا للمصيبة صبراً وللخير شكراً .

واحتج القاضي بهذه الآية على أنه تعالى لا يريد أفعال العباد والجواب عنه أن كثيراً من أصحابنا من فرق بين المحبة والإرادة فقال: المحبة إرادة مخصوصة، وهي إرادة الثواب فلا يلزم من نفي هذه الإرادة نفي مطلق الإرادة.

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى:

(130/748)

في الآية قولان: الأول: أن هذا بدل من قوله: ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: 23] كأنه قال: لا يحب المختال ولا يحب الذين يبخلون يريد الذين يفرحون الفرح المطغى فإذا رزقوا مالاً وحظاً من الدنيا فلحبهم له وعزته عندهم يبخلون به ولا يكفيهم أنهم بخلوا به بل يأمرون الناس بالبخل به، وكل ذلك نتيجة فرحهم عند إصابته، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن أوامر الله ونواهيه ولم ينته عما نهى عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتي فإن الله غني عنه القول الثاني: أن قوله: ﴿الذين يَبْخَلُونَ﴾ كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله، وهو في صفة اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وبخلوا ببيان نعته،

وهو مبتدأ وخبره محذوف دل عليه قوله : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الغني الحميد ﴾

وحذف الخبر كثير في القرآن كقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ [الرعد : 31] .

المسألة الثانية :

قال أبو علي الفارسي : قرأ نافع وابن عامر ﴿ فَإِنَّ اللهَ الغني الحميد ﴾ ، وحذفوا لفظ ﴿ هُوَ ﴾ وكذلك ﴿ هُوَ ﴾ في مصاحف أهل المدينة والشأم ، وقرأ الباقون ﴿ هُوَ الغني الحميد ﴾ قال أبو علي : ينبغي أن هو في هذه الآية فصلاً لا مبتدأ ، لأن الفصل حذفه أسهل ، ألا ترى أنه لا موضع للفصل من الإعراب ، وقد يحذف فلا يخل بالمعنى كقوله : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ [الكهف : 39] .

المسألة الثالثة :

(131/748)

قوله : ﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الغني الحميد ﴾ معناه أن الله غني فلا يعود ضرر عليه ببخل ذلك البخيل ، وقوله : ﴿ الحميد ﴾ كأنه جواب عن السؤال يذكر ههنا ، فإنه يقال : لما كان تعالى عالماً بأنه يبخل بذلك المال ولا يصرفه إلى وجوه الطاعات ، فلم أعطاه ذلك المال ؟ فأجاب بأنه تعالى حميد في ذلك الإعطاء ، ومستحق للحمد حيث فتح عليه أبواب رحمته ونعمته

، فإن قصر العبد في الطاعة فإن وباله عائد إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 204.209 ﴾

(132/748)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأرض ﴾

قال مقاتل : القحط وقلة النبات والثمار .

وقيل : الجوائح في الزرع .

﴿ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ بالأوصاب والأسقام ؛ قاله قتادة .

وقيل : إقامة الحدود ؛ قاله ابن حيان .

وقيل : ضيق المعاش ؛ وهذا معنى رواه ابن جريج .

﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ يعني في اللوح المحفوظ .

﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ الضمير في "نَبْرَأَهَا" عائد على النفوس أو الأرض أو المصائب أو الجميع .

وقال ابن عباس : من قبل أن يخلق المصيبة .

وقال سعيد بن جبير : من قبل أن يخلق الأرض والنفس .

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي خَلْق ذلك وحِفْظ جميعه ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ هيّن .

قال الربيع بن صالح : لما أخِذ سعيد ابن جبير رضي الله عنه بَكَيت ؛ فقال : ما يبكيك ؟

قلت : أبكي لما أرى بك ولما تذهب إليه .

قال : فلا تبك فإنه كان في علم الله أن يكون ، ألم تسمع قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ الآية .

وقال ابن عباس : لما خلق الله القلم قال له اكتب ، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة .

ولقد ترك لهذه الآية جماعةٌ من الفضلاء الدواء في أمراضهم فلم يستعملوه ثقة بربهم وتوكّلاً عليه ، وقالوا قد علم الله أيام المرض وأيام الصحة ، فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا ؛ قال الله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ .

وقد قيل : إن هذه الآية تتصل بما قبل ، وهو أن الله سبحانه هوّن عليهم ما يصيبهم في الجهاد من قتلٍ وجرحٍ.

وبيّن أن ما يخلفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال وما يقع فيها من خسران ، فالكل مكتوب مقدّر لا مدفع له ، وإنما على المرء امتثال الأمر ، ثم أدبهم فقال هذا : ﴿ لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ ﴾ أي حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق ؛ وذلك أنهم إذا علموا أن الرزق قد فُرِغ منه لم يأسوا على ما فاتهم منه .

وعن ابن مسعود أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " "لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه"ثم قرأ ﴿ لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ ﴾ "أي كي لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا فإنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم لم يفتكم ﴿ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَآ آتَاكُمْ ﴾ أي من الدنيا ؛ قاله ابن عباس .

وقال سعيد بن جبير : من العافية والخصب .

وروى عِكرمة عن ابن عباس : ليس مِن أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً ، وغنيمته شكراً .

والحزن والفرح المنهيّ عنهما هما اللذان يتعدّى فيهما إلى ما لا يجوز ؛ قال الله تعالى : ﴿ والله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي متكبر بما أوتي من الدنيا ، فخور به على الناس .

وقراءة العامة "آتَاكُمْ" بمد الألف أي أعطاكم من الدنيا .

واختاره أبو حاتم .

وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو "أَتَاكُمْ" بقصر الألف واختاره أبو عبيد .

أي جاءكم ، وهو معادل ل"فَاتَكُمْ" ولهذا لم يقل أفاتكم .

قال جعفر بن محمد الصادق : يا بن آدم ما لك تأسى على مفقود لا يردّه عليك الفوت ، أو تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت .

وقيل لبرزجمهر : أيها الحكيم ! ما لك لا تحزن على ما فات ، ولا تفرح بما هو آت ؟ قال : لأن الفائت لا يتلافى بالْعَبْرَة ، والآتي لا يستدام بالحَبْرَة .

وقال الفضيل بن عِياض في هذا المعنى الدنيا مُبيد ومُفِيد ؛ فما أباد فلا رجعة له ، وما أفاد آذن بالرحيل .

وقيل : المختال الذي ينظر إلى نفسه بعين الافتخار ، والفخور الذي ينظر إلى الناس بعين الاحتقار ، وكلاهما شِرك خفيّ .

والفخور بمنزلة المُصرَّاةِ تُشَدّ أخلافهما ليجتمع فيها اللبن ، فيتوهم المشتري أنّ ذلك معتاد وليس كذلك ؛ فكذلك الذي يرى من نفسه حالاً وزينةً وهو مع ذلك مدّعٍ فهو الفخور .

قوله تعالى : ﴿ الذين يَبْخَلُونَ ﴾ أي لا يحب المختالين "الذين يَبْخَلُونَ" ف"الَّذِينَ" في موضع خفض نعتاً للمختال .

وقيل : رفع با بتداء أي الذين يبخلون فالله غنيٌّ عنهم .

قيل : أراد رؤساء اليهود الذين يبخلون ببيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم التي في كتبهم ؛ لِئلا يؤمن به الناس فتذهب مأكلتهم ؛ قاله السدي والكلبي .

وقال سعيد بن جبير : ﴿ الذين يَبْخَلُونَ ﴾ يعني بالعلم ﴿ وَيَأْمُرُونَ الناس بالبخل ﴾ أي بألاّ يعلّموا الناس شيئاً .

زيد ابن أسلم : إنه البخل بأداء حقّ الله عز وجل .

وقيل : إنه البخل بالصدقة والحقوق ؛ قاله عامر بن عبد الله الأشعريّ .

وقال طوس : إنه البخل بما في يديه .

وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى .

وفرّق أصحاب الخواطِر بين البخل والسخاء بفرقين : أحدهما أن البخيل الذي يلتذ بالإمساك .

والسخيّ الذي يلتذ بالإعطاء .

الثاني : أن البخيل الذي يعطي عند السؤال ، والسخيّ الذي يعطي بغير سؤال .

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي عن الإيمان ﴿ فَإِنَّ الله ﴾ غنيّ عنه .

ويجوز أن يكون لما حثّ على الصدقة أعلمهم أن الذين يبخلون بها ويأمرون الناس بالبخل بها فإن الله غنيّ عنهم .

وقراءة العامة ﴿ بالبخل ﴾ بضم الباء وسكون الخاء .

وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى بن يعمر ومجاهد وحميد وابن محيصن وحمزة والكسائي "بِالْبَخَلِ" بفتحتين وهي لغة الأنصار .

وقرأ أبو العالية وابن السَّمَيْقع "بِالْبَخْل" بفتح الباء وإسكان الخاء .

وعن نصر بن عاصم "الْبُخُلِ" بضمتين وكلها لغات مشهورة .

وقد تقدّم الفرق بين البخل والشحّ في آخر "آل عمران" .

(135/748)

وقرأ نافع وابن عامر ﴿ فَإِنَّ اللهَ الغنى الحميد ﴾ بغير "هُوَ" .

والباقون "هُوَ الْغَنِيُّ" على أن يكون فصلاً .

ويجوز أن يكون مبتدأ و"الْغَنِيُّ" خبره والجملة خبر إن .

ومن حذفها فالأحسن أن يكون فصلاً ؛ لأن حذف الفصل أسهل من حذف المبتدأ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(136/748)

وقال الآلوسي :

﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ ﴾

أي سارعوا مسارعة السابقين لأقرانهم في المضمار إلى أسباب مغفرة عظيمة كائنة ﴿ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ والكلام على الاستعارة أو المجاز المرسل واستعمال اللفظ في لازم معناه وإنما لزم ذلك لأن اللازم أن يبادر من يعمل ما يكون سبباً للمغفرة ودخول الجنة لا أن يعمله أو يتصف بذلك سابقاً على آخر ؛ وقيل : المراد سابقوا ملك الموت قبل أن يقطعكم بالموت عن الأعمال الموصلة لما ذكر ؛ وقيل : سابقوا إبليس قبل أن يصدكم بغروره وخداعه عن ذلك وهو كما ترى .

والمراد بتلك الأسباب الأعمال الصالحة على اختلاف أنواعها ، وعن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال في الآية : كن أوّل داخل المسجد وآخر خارج ، وقال عبد الله : كونوا في أول صف القتال ، وقال أنس : اشهدوا تكبيرة الإحرام مع الإمام وكل ذلك من باب التمثيل ، واستدل بهذا الأمر على أن الصلاة بأول وقتها أفضل من التأخير ﴿ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ السماء والأرض ﴾ أي كعرضهما جميعاً لو ألصق أحدهما بالآخر وإذا كان العرض وهو أقصر الامتدادين موصوفاً بالسعة دل على سعة الطول بالطريق الأولى فالاقتصار عليه أبلغ من ذكر الطول معه ، وقيل : المراد بالعرض البسطة ولذا وصف به الدعاء ونحوه مما ليس

من ذوي الأبعاد وتقدم قول آخر في تفسير نظير الآية من سورة آل عمران وتقديم المغفرة على الجنة لتقدم التخلية على التحلية .

(137/748)

﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أي هيئت لهم ، واستدل بذلك على أن الجنة موجودة الآن لقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ بصيغة الماضي والتأويل خلاف الظاهر ، وقد صرح بخلافه في الأحاديث الصحيحة وتمام الكلام في علم الكلام ، وعلى أن الإيمان وحده كاف في استحقاق الجنة لذكره وحده فيما في حيز ما يشعر بعلة الإعداد وإدخال العمل في الإيمان المعدّى بالباء غير مسلم كذا قالوا ، ومتى أريد بالذين آمنوا المذكورين من لهم درجة في الإيمان يعتد بها ، وقيل : بأنها لا تحصل بدون الأعمال الصالحة على ما سمعته منا قريباً انخدش الاستدلال الثاني في الجملة كما لا يخفى ، وذكر النيسابوري في وجه التعبير هنا بسابقوا وفي آية آل عمران بسارعوا وبالسماء هنا ، بالسماوات هناك وبكعرض هنا وبعرض بدون أداة تشبيه ثمّ كلاماً مبنياً على أن المراد بالمتقين هناك السابقون المقربون ، وبالذين آمنوا هنا من هم دون أولئك حالاً لتأمل ﴿ ذلك ﴾ أي الذي وعد من المغفرة والجنة ﴿ فَضْلُ اللهِ ﴾ عطاؤه الغير الواجب عليه ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ إيتاءه ﴿ والله

ذُو الفضل العظيم ﴾ فلا يبعد منه عز وجل التفضل بذلك على من يشاء وإن عظم قدره ، فالجملة تذييل لإثبات ما ذيل بها .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ أي نائبة أيّ نائبة وأصلها في الرمية وهي من أصاب السهم إذا وصل إلى المرمى بالصواب ثم خصت بها .

(138/748)

وزعم بعضهم أنها لغة عامة في الشر والخير وعرفا خاصة بالشر ، و﴿ مِنْ ﴾ مزيدة للتأكيد ، وأصاب جاء في الشر كما هنا ، وفي الخير كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أصابكم فَضْلٌ مِنَ الله ﴾ [النساء : 73] وذكر بعضهم أنه يستعمل في الخير اعتباراً بالصواب أي بالمطر وفي الشر اعتباراً بإصابة السهم ، وكلاهما يرجعان إلى أصل وتذكير الفعل في مثل ذلك جائز كتأنيثه ، وعليه قوله تعالى : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ [الحجر : 5] والكلام على العموم لجميع الشرور أي مصيبة أيّ مصيبة ﴿ فِى الأرض ﴾ كجدب وعاهة في الزرع والثمار وزلزلة وغيرها ﴿ وَلاَ فِى أَنفُسِكُمْ ﴾ كمرض وآفة كالجرح والكسر ﴿ إِلاَّ فِى كتاب ﴾ أي إلا مكتوبة مثبتة في اللوح المحفوظ ، وقيل : في علم الله عز وجل .

﴿ مّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ أي نخلقها ، والضمير على ما روي عن ابن عباس .

وقتادة.

والحسن.

(139/748)

وجماعة للأنفس، وقيل: للأرض، واستظهر أبو حيان كونه للمصيبة لأنها هي المحدث عنها، وذكر الأرض والأنفس إنما هو على سبيل ذكر محلها، وذكر المهدوي جواز عوده على جميع ما ذكر، وقال جماعة: يعود على المخلوقات وإن لم يجر لها ذكر، وقيل: المراد بالمصيبة هنا الحوادث من خير وشر وهو خلاف الظاهر من استعمال المصيبة إلا أن فيما بعد نوع تأييد له وأياً مّا كان ففي الأرض متعلق بمحذوف مرفوع أو مجرور صفة لمصيبة على الموضع أو على اللفظ، وجوز أن يكون ظرفاً لأصاب أو للمصيبة، قيل: وإنما قيدت المصيبة بكونها في الأرض والأنفس لأن الحوادث المطلقة كلها ليست مكتوبة في اللوح لأنها غير متناهية، واللوح متناه وهو لا يكون ظرفاً لغير المتناهي ولذا جاء " جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة " وفي الآية تخصيص آخر وهو أنه سبحانه لم يذكر أحوال أهل السماوات لعدم تعلق الغرض بذلك مع قلة المصائب في أهلها بل لا يكاد يصيبهم سوى مصيبة الموت، وما ذكره في وجه التخصيص الأول لا يتم إذا أريد بالكتاب علمه سبحانه، وقيل: بأن

كتابة الحوادث فيه على نحو كتابتها في القرآن العظيم بناءاً على ما يقولون : إنه ما من شيء إلا ويمكن استخراجه منه حتى أسماء الملوك ومددهم وما يقع منهم ولو قيل في وجهه إن الأوفق بما تقدم من شرح حال الحياة الدنيا إنما هو ذكر المصائب الدنيوية فلذا خصت بالذكر لكان تاماً مطلقاً ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ أي إثباتها في كتاب ﴿ عَلَى الله ﴾ لا غيره سبحانه ﴿ يَسِيرٌ ﴾ لاستغنائه تعالى فيه عن العدة والمدة ، وإن أريد بذلك تحققها في علمه جل شأنه فيسره لأنه من مقتضيات ذاته عز وجل ، وفي الآية رد على هشام بن الحكم الزاعم أنه سبحانه لا يعلم الحوادث قبل وقوعها ، وفي الإكليل إن فيها رداً على القدرية ، وجاء ذلك في خبر مرفوع ، أخرج الديلمي عن سليم بن جابر الجهيمي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" سيفتح على أمتي باب من القدر في آخر الزمان لا يسدّه شيء يكفيكم منه أن تلقوه بهذه الآية ما أصاب من مصيبة " .

وأخرج الإمام أحمد .

والحاكم وصححه عن أبي حسان أن رجلين دخلا على عائشة رضي الله تعالى عنها

فقالا : " إن أبا هريرة يحدث أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار فقالت : والذي أنزل القرآن على أبي القاسم صلى الله عليه وسلم ما هكذا كان يقول ، ولكن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كان أهل الجاهلية يقولون : إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار " ثم قرأت ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ الآية .

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا ﴾ أي أخبرناكم بذلك لئلا تحزنوا ﴿ على مَا فَاتَكُمْ ﴾ من نعم الدنيا ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءاتاكم ﴾ أي أعطاكموه الله تعالى منها فإن من علم أن الكل مقدر يفوت ما قدّر فواته ويأتي ما قدّر إتيانه لا محالة لا يعظم جزعه على ما فات ولا فرحه بما هو آت ، وعلم كون الكل مقدراً مع أن المذكور سابقاً المصائب دون النعم وغيرها لأنه لا قائل بالفرق وليس في "النظم الكريم" اكتفاء كما توهم ، نعم إن حملت المصيبة على الحوادث من خير وشر كان أمر العلم أوضح كما لا يخفى وترك التعادل بين الفعلين في الصلتين حيث لم يسندا إلى شيء واحد بل أسند الأول إلى ضمير الموصول والثاني إلى ضميره تعالى لأن الفوات والعدم ذاتي للأشياء فلو خليت ونفسها لم تبق بخلاف حصولها وبقائها فإنه لا بد من استنادهما إليه عز وجل كما حقق في موضعه ، وعليه قول الشاعر

: فلا تتبع الماضي سؤالك لم مضى . . .

وعرج على الباقي وسائله لم بقي

ومثل هذه القراءة قراءة عبد الله أوتيتم مبنياً للمفعول أي أعطيتم ، وقرأ أبو عمرو أتاكم من الإتيان أي جاءكم وعليها بين الفعلين تعادل ، والمراد نفي الحزن المخرج إلى ما يذهب صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ورجاء ثواب الصابرين ونفي الفرح المطغي الملهي عن الشكر ، وأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله تعالى والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس بهما .

أخرج جماعة منهم الحاكم وصححه عن ابن عباس أنه قال في الآية : ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ولكن من أصابته مصيبة جعلها صبراً ومن أصابه خير جعله شكراً ، وقوله تعالى :

﴿ والله لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ تذييل يفيد أن الفرح المذموم هو الموجب للبطر والاختيال والمختال المتكبر عن تخيل فضيلة تراءت له من نفسه ، والفخور المباهي في الأشياء الخارجة عن المرء كالمال والجاه .

وذكر بعضهم أن الاختيال في الفعل والفخر فيه وفي غيره ، والمراد من لا يحب يبغض إذ لا واسطة بين الحب والبغض في حقه عز وجل وأولاً بالإثابة والتعذيب ، ومذهب السلف ترك التأويل مع التنزيه ، ومن لا يحب كل مختال لا يحب كل فرد فرد من ذلك لا أنه لا يحب البعض دون البعض ويرد بذلك على الشيخ عبد القاهر في قوله : إذا تأملنا وجدنا إدخال

كل في حيز النفي لا يصلح إلا حيث يراد أن بعضاً كان وبعضاً لم يكن، نعم إن هذا الحكم أكثري لا كلي، وقوله تعالى:

(142/748)

﴿ الذين يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ الناس بالبخل ﴾ بدل من ﴿ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾ [الحديد: 23] بدل كل من كل فإن المختال بالمال يضن به غالباً ويأمر غيره بذلك، والظاهر أن المراد أنهم يأمرون حقيقة، وقيل: كانوا قدوة فكأنهم يأمرون أو هو خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين الخ، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره يعرضون عن الإنفاق الغني عنه الله عز وجل، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ الله هُوَ الغنى الحميد ﴾ فإن معناه ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله سبحانه غني عنه وعن إنفاقه محمود في ذاته لا يضره الإعراض عن شكره بالتقرب إليه بشيء من نعمه جل جلاله، وقيل: تقديره مستغنى عنهم، أو موعودون بالعذاب أو مذمومون.

وجوز أن يكون في موضع نصب على إضمار أعني أو على أنه نعت لكل مختال فإنه مخصص نوعاً مّا من التخصيص فساغ وصفه بالمعرفة وهذا ليس بشيء، وقال ابن عطية: جواز مثل ذلك مذهب الأخفش ولا يخفى ما في الجملة من الإشعار بالتهديد لمن تولى، وقرأ

نافع .

وابن عامر فإن الله الغني بإسقاط هو وكذا في مصاحف المدينة والشام وهو في القراءة الأخرى ضمير فصل ، قال أبو علي : ولا يحسن أن يكون مبتدأ وإلا لم يجز حذفه في القراءة الثانية لأن ما بعده صالح لأن يكون خبراً فلا يكون هناك دليل على الحذف وهذا مبني على وجوب توافق القراءتين إعراباً وليس بلازم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(143/748)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾

لما ذكر سبحانه حال الفريق الثاني ، وما وقع منهم من الكفر والتكذيب ، وذلك بسبب ميلهم إلى الدنيا وتأثيرها ، بيّن لهم حقارتها وأنها أحقر من أن تؤثر على الدار الآخرة ، واللعب : هو الباطل ، واللهو : كل شيء يتلهى به ثم يذهب .

قال قتادة : لعب ولهو : أكل وشرب .

قال مجاهد : كلّ لعب لهو ، وقيل : اللعب ما رغب في الدنيا ، واللهو : ما ألهى عن الآخرة

وشغل عنها ، وقيل : اللعب : الاقتناء ، واللهو : النساء ، وقد تقدّم تحقيق هذا في سورة الأنعام ، والزينة : التزين بمتاع الدنيا من دون عمل للآخرة ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ قرأ الجمهور بتنوين ﴿ تفاخر ﴾ والظرف صفة له ، أو معمول له ، وقرأ السلمي بالإضافة ، أي : يفتخر به بعضكم على بعض ، وقيل : يتفاخرون بالخلقة والقوّة ، وقيل : بالأنساب والأحساب ، كما كانت عليه العرب ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِى الأموال والأولاد ﴾ أي : يتكاثرون بأموالهم وأولادهم ، ويتطاولون بذلك على الفقراء .

ثم بيّن سبحانه لهذه الحياة شبهاً ، وضرب لها مثلاً فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكفار نَبَاتُهُ ﴾ أي : كمثل مطر أعجب الزراع نباته ، والمراد بالكفار هنا : الزراع لأنهم يكفرون البذر ، أي : يغطونه بالتراب ، ومعنى نَبَاتُهُ : النبات الحاصل به ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي : يجفّ بعد خضرته وييبس ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ﴾ أي : متغيراً عما كان عليه من الخضرة والرّونق إلى لون الصفرة والذبول ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ﴾ أي : فتاتاً هشيماً متكسراً متحطماً بعد يبسه ، وقد تقدّم تفسير هذا المثل في سورة يونس والكهف ، والمعنى : أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه ، لخضرته وكثرة نضارته .

ثم لا يلبث أن يصير هشيماً تبناً كأن لم يكن .

وقرئ : (مصفارّاً) والكاف في محل نصب على الحال ، أو في محل رفع على أنها خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف .

ثم لما ذكر سبحانه حقارة الدنيا ، وسرعة زوالها ، ذكر ما أعدّه للعصاة في الدار الآخرة فقال : ﴿ وَفِى الأخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ وأتبعه بما أعدّه لأهل الطاعة ، فقال : ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مّنَ الله ورضوان ﴾ ، والتنكير فيهما للتعظيم .

قال قتادة : عذاب شديد لأعداء الله ، ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه وأهل طاعته .

قال الفراء : التقدير في الآية إما عذاب شديد وإما مغفرة ، فلا يوقف على شديد .

ثم ذكر سبحانه بعد الترهيب والترغيب حقارة الدنيا ، فقال : ﴿ وَما الحياة الدنيا إِلاَّ متاع الغرور ﴾ لمن اغترّ بها ولم يعمل لآخرته .

قال سعيد بن جبير : متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة ، ومن اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه .

وهذه الجملة مقرّرة للمثل المتقدّم ومؤكدة له .

ثم ندب عباده إلى المسابقة إلى ما يوجب المغفرة من التوبة والعمل الصالح ، فإن ذلك سبب إلى الجنة ، فقال : ﴿ سَابِقُواْ إلى مَغْفِرَةٍ مّن رَّبّكُمْ ﴾ أي : سارعوا مسارعة السابقين بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم ، وتوبوا مما وقع منكم من المعاصي ،

وقيل : المراد بالآية التكبيرة الأولى مع الإمام ، قاله مكحول ، وقيل : المراد الصفّ الأوّل ، ولا وجه لتخصيص ما في الآية بمثل هذا ، بل هو من جملة ما تصدّق عليه صدقاً شمولياً أو بدلياً ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السماء والأرض ﴾ أي : كعرضهما ، وإذا كان هذا قدر عرضها ، فما ظنك بطولها .

قال الحسن : يعني جميع السموات والأرضين مبسوطات كل واحدة إلى صاحبتها ، وقيل : المراد بالجنة التي عرضها هذا العرض هي جنة كل واحد من أهل الجنة .

وقال ابن كيسان : عنى به جنة واحدة من الجنات ، والعرض أقل من الطول ، ومن عادة العرب أنها تعبر عن الشيء بعرضه دون طوله ، ومن ذلك قول الشاعر :

كأن بلاد الله وهي عريضة . . . على الخائف المطلوب كفة حابل

وقد مضى تفسير هذا في سورة آل عمران .

ثم وصف سبحانه تلك الجنة بصفة أخرى ، فقال : ﴿ سَابِقُواْ إلى مَغْفِرَةٍ مّن رَّبّكُمْ ﴾

ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة .

وفي هذا دليل على أن استحقاق الجنة يكون بمجرّد الإيمان بالله ورسله ، ولكن هذا مقيد

بالأدلة الدالة على أنه لا يستحقها إلاّ من عمل بما فرض الله عليه ، واجتنب ما نهاه الله عنه ، وهي أدلة كثيرة في الكتاب والسنة ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما وعد به سبحانه من المغفرة والجنة ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ أي : يعطيه من يشاء إعطاءه إياه تفضلاً وإحساناً ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ فهو يتفضل على من يشاء بما يشاء ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، والخير كله بيده ، وهو الكريم المطلق ، والجواد الذي لا يبخل .

ثم بيّن سبحانه أن ما يصاب به العباد من المصائب قد سبق بذلك قضاؤه وقدره ، وثبت في أمّ الكتاب ، فقال : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ من قحط مطر ، وضعف نبات ، ونقص ثمار .

قال مقاتل : القحط وقلة النبات والثمار ، وقيل : الجوائح في الزرع ﴿ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ قال قتادة : بالأوصاب والأسقام .

وقال مقاتل : إقامة الحدود .

وقال ابن جريج : ضيق المعاش ﴿ إِلَّا فِى كتاب ﴾ في محل نصب على الحال من مصيبة ، أي : إلاّ حال كونها مكتوبة في كتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، وجملة : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ في محل جر صفة لكتاب ، والضمير في نبرأها عائد إلى المصيبة ، أو إلى الأنفس ، أو إلى

الأرض، أو إلى جميع ذلك، ومعنى ﴿ نَّبْرَأَهَا ﴾ : نخلقها ﴿ إِنَّ ذلك عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ أي: أن إثباتها في الكتاب على كثرته على الله يسير غير عسير.

(146/748)

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا على مَا فَاتَكُمْ ﴾ أي: اختبرناكم بذلك، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءاتاكم ﴾ منها أي: أعطاكم منها، فإن ذلك يزول عن قريب، وكلّ زائل عن قريب لا يستحق أن يفرح بحصوله، ولا يحزن على فواته، ومع أن الكل بقضاء الله وقدره، فلن يعدو امرأ ما كتب له، وما كان حصوله كائناً لا محالة، فليس بمستحقّ للفرح بحصوله، ولا للحزن على فوته، قيل: والحزن والفرح المنهيّ عنهما هما اللذان يتعدّى فيهما إلى ما لا يجوز، وإلاّ فليس من أحد إلاّ وهو يحزن ويفرح.

قرأ الجمهور: ﴿ بما آتاكم ﴾ بالمدّ، أي: أعطاكم، وقرأ أبو العالية، ونصر بن عاصم، وأبو عمرو بالقصر، أي: جاءكم، واختار القراءة الأولى أبو حاتم، واختار القراءة الثانية أبو عبيد ﴿ والله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي: لا يحبّ من اتصف بهاتين الصفتين، وهما الاختيال والافتخار، قيل: هو ذمّ للفرح الذي يختال فيه صاحبه ويبطر، وقيل: إن من فرح بالحظوظ الدنيوية، وعظمت في نفسه اختال وافتخر بها، وقيل: المختال الذي

ينظر إلى نفسه ، والفخور الذي ينظر إلى الناس بعين الاستحقار .

والأولى تفسير هاتين الصفتين بمعناهما الشرعي ثم اللغوي ، فمن حصلتا فيه فهو الذي لا يحبه الله .

﴿ الذين يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ الناس بالبخل ﴾ الموصول في محل رفع بالابتداء ، وهو كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله ، والخبر مقدّر ، أي : الذين يبخلون فالله غنيّ عنهم ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ الله هُوَ الغنى الحميد ﴾ .

وقيل : الموصول في محل جرّ بدل من مختال ، وهو بعيد ، فإن هذا البخل بما في اليد ، وأمر الناس بالبخل ليس هو معنى المختال الفخور ، لا لغة ولا شرعاً .

وقيل : هو في محل جرّ نعت له ، وهو أيضاً بعيد .

قال سعيد بن جبير : الذين يبخلون بالعلم ، ويأمرون الناس بالبخل به لئلا يعلموا الناس شيئًا .

وقال زيد بن أسلم : إنه البخل بأداء حق الله ، وقيل : إنه البخل بالصدقة ، وقال طاووس : إنه البخل بما في يديه ، وقيل : أراد رؤساء اليهود الذين بخلوا ببيان صفة محمد في كتبهم لئلا

يؤمن به الناس ، فتذهب مآكلهم ، قاله السدّي والكلبي ، قرأ الجمهور : ﴿ بالبخل ﴾ بضم الباء وسكون الخاء .

وقرأ أنس ، وعبيد بن عمير ، ويحيى بن يعمر ، ومجاهد ، وحميد ، وابن محيصن ، وحمزة ، والكسائي بفتحتين ، وهي لغة الأنصار .

وقرأ أبو العالية ، وابن السميفع بفتح الباء وإسكان الخاء .

وقرأ نصر بن عاصم بضمهما ، وكلها لغات ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الغنى الحميد ﴾ أي : ومن يعرض عن الإنفاق ، فإن الله غنيّ عنه محمود عند خلقه لا يضره ذلك .

قرأ الجمهور ﴿ هو الغني ﴾ بإثبات ضمير الفصل .

وقرأ نافع ، وابن عامر : (فإن الله الغني الحميد) بحذف الضمير .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأرض وَلاَ فِى أَنفُسِكُمْ ﴾ يقول : في الدين والدنيا ﴿ إِلاَّ فِى كتاب مّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ قال : نخلقها ﴿ لّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ ﴾ من الدنيا ﴿ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا ءاتاكم ﴾ منها .

وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : هو شيء قد فرغ منه من قبل أن تبرأ الأنفس .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عنه أيضاً في قوله : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ ﴾ الآية قال : ليس أحد إلاّ وهو يحزن ويفرح ، ولكن من أصابته مصيبة جعلها صبراً ، ومن أصابه خير جعله شكراً .

وأخرج ابن المنذر عنه في الآية قال : يريد مصائب المعاش ، ولا يريد مصائب الدين ، إنه قال : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَا ءاتاكم ﴾ وليس هذا من مصائب الدين ، أمرهم أن يأسوا على السيئة ويفرحوا بالحسنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿فتح القدير حـ 5 صـ 177.175﴾

(149/748)

وقال ابن عاشور :

﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

فذلكة لما تقدم من قوله تعالى : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم ﴾ [الحديد : 12] إلى هنا فذلك مسوق مساق الترغيب فيما به تحصيل نعيم الآخرة والتحذير من

فواته وما يصرف عنه من إيثار زينة الدنيا ، ولذلك فُصلت الجملة ولم تُعطف ، واقتُصر في الفذلكة على الجانب المقصود ترغيبه دون التعرض إلى المحذر منه لأنه المقصود .

وعبر عن العناية والاهتمام بفعل السابقة لإلهاب النفوس بصرف العناية بأقصى ما يمكن من الفضائل كفعل من يسابق غيره إلى غاية فهو يحرص على أن يكون المجلِّي ، ولأن المسابقة كناية عن المنافسة ، أي واتركوا المقتصرين على متاع الحياة الدنيا في الآخريات والخوالف .

وتنكير ﴿ مغفرة ﴾ لقصد تعظيمها ولتكون الجملة مستقلة بنفسها ، وإلا فإن المغفرة سبق ذكرها في قوله : ﴿ ومغفرة من الله ﴾ ، فكان مقتضى الظاهر أن يقال : سابقوا إلى المغفرة ، أي أكثروا من أسبابها ووسائلها : فالمسابقة إلى المغفرة هي المسابقة في تحصيل أسبابها .

والعَرْض : مستعمل في السعة وليس مقابل الطُول لظهور أنه لا طائل في معنى ما يقابل الطول ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ [فصلت : 51] ، وقول العُديل لما فَرَّ من وعيد الحجاج :

ودون يد الحجاج من أن تنالني

بساط بأيدي الناعجات عَريض . . .

وتشبيه عَرْض الجنة بعَرْض السماء والأرض ، أي مجموع عرضيهما لقصد تقريب المشبه

بأقصى ما يتصوره الناس في الاتساع، وليس المراد تحديد ذلك العرض ولا أن الجنة في السماء حتى يقال: فماذا بقي لمكان جهنم.

(150/748)

وهذا الأمر شامل لجميع المسابقات إلى أفعال البر الموجبة للمغفرة ونعيم الجنة، وشامل للمسابقة الحقيقية مع المجازية على طريقة استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، وهي طريقة شائعة في القرآن إكثاراً للمعاني، ومنه الحديث: "لو يعلم الناس ما في الصف الأول لاستبقوا إليه أو استهموا إليه"

وليس في الآية دليل على أن الجنة غير مخلوقة الآن إذ وجه الشبه في قوله: ﴿ كعرض السماء والأرض ﴾ هو السعة لا المقدار ولا على أن الجنة في السماء الموجودة اليوم ولا عدمه، وتقدم من معنى هذه الآية قوله: ﴿ سارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ الآية في سورة [آل عمران: 133].

وظاهر قوله: أعدت ﴾ أن الله خلقها وأعدّها لأن ظاهر استعماله الفعل في الزمان الماضي إن حصل مصدره فيه، فقد تمسك بهذا الظاهر الذين قالوا: إن الجنة مخلوقة الآن، وأما الذين نفوا ذلك فاستندوا إلى ظواهر أخرى وتقدم ذلك في سورة آل عمران.

وعُلم من قوله : ﴿ أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ﴾ أن غيرهم لا حظَ لهم في الجنة لأن معنى اعداد شيء لشيء قصره عليه .

وجَمْع الرسل هنا يشمل كل أمة آمنوا بالله وبرسولهم الذي أرسله الله إليهم ، وليس يلزمها أن تؤمن برسول أرسل إلى أمة أخرى ولم يَدْعُ غيرها إلى الإيمان به .

والإشارة في ﴿ ذلك فضل الله ﴾ إلى المذكور من المغفرة والجنة .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا

لما جرى ذكر الجهاد آنفاً بقوله : ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ [الحديد : 10] وقوله : ﴿ والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ﴾ [الحديد : 19] على الوجهين المتقدمين هنالك ، وجرى ذكر الدنيا في قوله : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغروب ﴾ [الحديد : 20] وكان ذلك كله مما تحدُث فيه المصائب من قتل وقطع وأسر في الجهاد ، ومن كوارث تعرض في الحياة من فقد وألم واحتياج ، وجرى مَثَل الحياة الدنيا بالنّبات ، وكان ذلك ما يعرض له القحط والجوائح ، أُتبع ذلك بتسلية المسلمين على ما يصيبهم لأن المسلمين كانوا قد تخلقوا بآداب الدنيا من قبلُ فربما لحقهم ضر أو رزء خارج

عن نطاق قدرتهم وكسبهم فأعلموا أن ذلك مما اقتضاه ارتباط أسباب الحوادث بعضها ببعض على ما سيرها عليه نظام جميع الكائنات في هذا العالم كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ [الحديد : 22] كما ستعلمه ، فلم يملكهم الغم والحزن ، وانتقلوا عن ذلك إلى الإقبال على ما يهمهم من الأمور ولم يلهمهم التحرق على ما فات على نحو ما وقع في قوله : ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ [البقرة : 154 156] ، ولعل المسلمين قد أصابتهم شدة في إحدى المغازي أو حبس مطر أو نحو ذلكم مما كان سبب نزول هذه الآية .

و(ما) نافية و (من) زائدة في النفي للدلالة على نفي الجنس قصداً للعموم .

ومفعول ﴿ أصاب ﴾ محذوف تقديره : ما أصابكم أو ما أصاب أحداً .

وقوله : ﴿ في الأرض ﴾ إشارة إلى المصائب العامة كالقحط وفيضان السيول وموتان الأنعام وتلف الأموال .

وقوله: ﴿ ولا في أنفسكم ﴾ إشارة إلى المصائب اللاحقة لذوات الناس من الأمراض وقطع الأعضاء والأسر في الحرب وموت الأحباب وموت المرء نفسه فقد سماه الله مصيبة في قوله: ﴿ فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ [المائدة: 106].

وتكرير حرف النفي في المعطوف على المنفي في قوله: ﴿ ولا في أنفسكم ﴾ لقصد الاهتمام بذلك المذكور بخصوصه فإن المصائب الخاصة بالنفس أشد وقعاً على المصاب، فإن المصائب العامة إذا اخْطأَتْه فإنما يتأثر لها تأثراً بالتعقل لا بالحسّ فلا تدوم ملاحظة النفس إياه.

والاستثناء في قوله: ﴿ إلا في كتاب ﴾ استثناء من أحوال منفية بـ(ما)، إذ التقدير: ما أصاب من مصيبة في الأرض كائنة في حال إلا في حال كونها مكتوبة في كتاب، أي مثبتة فيه.

والكتاب: مجاز عن علم الله تعالى ووجه المشابهة عدم قبوله التبديل والتغيير والتخلف، قال الحارث بن حلزة:

حذر الجور والتطاخي وهل

ينْقض ما في المهارق الأهواء...

ومن ذلك علمه وتقديره لأسباب حصولها ووقت خلقها وترتب آثارها والقصر المفاد بـ(إلاّ) قصر موصوف على صفة وهو قصر إضافي، أي إلا في حال كونها في كتاب دون عدم

سبق تقديرها في علم الله ردّاً على اعتقاد المشركين والمنافقين المذكور في قوله تعالى:

﴿ وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾ [آل عمران: 156] وقوله: ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ [آل عمران: 168].

وهذا الكلام يجمع الإِشارة إلى ما قدمناه من أن الله تعالى وضع نظام هذا العالم على أن تترتب المسببات على أسبابها، وقدر ذلك وعلمه، وهذا مثل قوله: ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ [فاطر: 11] ونحو ذلك.

والبرءُ: بفتح الباء: الخَلْق ومن أسمائه تعالى البارىء، وضمير النصب في ﴿ نبرأها ﴾ عائد إلى الأرض أو إلى الأنفس.

(153/748)

وجملة ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ ردّ على أهل الضلال من المشركين وبعض أهل الكتاب الذين لا يثبتون لله عموم العلم ويجوّزون عليه البَداء وتمشّي الحِيَل، ولأجل قصد الرد على المنكرين أكد الخبر بـ(إنّ).

والتعليل بلام العلة و(كي) متعلق بمقدر دل عليه هذا الإِخبار الحكيم، أي أعلمناكم

بذلك لكي لا تأسوا على ما فاتكم الخ ، أي لفائدة استكمال مدركاتكم وعقولكم فلا تجزعوا للمصائب لأن من أيقَنَ أن ما عنده من نعمة دنيوية مفقود يوماً لا محالة لم يتفاقم جزعه عند فقده لأنه قد وطّن نفسه على ذلك ، وقد أخذ هذا المعنى كُثّير في قوله :

فقلت لها يا عزّ كل مصيبة

إذا وُطِّنت يوماً لها النفس ذلّتِ . . .

وقوله : ﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ تتميم لقوله : ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ﴾ فإن المقصود من الكلام أن لا يأْسَوْا عند حلول المصائب لأن المقصود هو قوله : ﴿ ما أصاب من مصيبة . . .

إلا في كتاب ﴾ ثم يعلم أن المسرات كذلك بطريق الاكتفاء فإن من المسرات ما يحصل للمرء عن غير ترقب وهو أوقع في المسرة كَمُل أدبه بطريق المقابلة .

والفرح المنفي هو الشديد منه البالغ حدّ البطر ، كما قال تعالى في قصة قارون ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ [القصص : 76] .

وقد فسره التذييل من قوله : ﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ .

والمعنى : أخبرتكم بذلك لتكونوا حكماء بُصراء فتعلموا أن لجميع ذلك أسباباً وعللاً ، وأن للعالم نظاماً مرتبطاً بعضه ببعض ، وأن الآثار حاصلة عقب مؤثراتها لا محالة ، وإن إفضاءها إليها بعضه خارجٍ عن طوق البشر ومتجاوز حد معالجته ومحاولته ، وفعل الفوات مشعر بأن الفائتَ قد سعى المفوتُ عليه في تحصيله ثم غُلب على نواله بخروجه عن مِكنته ، فإذا رسخ ذلك في علم أحد لم يحزن على ما فاته مما لا يستطيع دفعه ولم يغفل عن ترقب زوال ما يسره إذا كان مما يسره ، ومن لم يتخلق بخُلق الإسلام يتخبط في الجوع إذا أصابه مصاب ويُستطار خُيلاء وتطاولاً إذا ناله أمر محبوب فيخرج عن الحكمة في الحالين .

والمقصود من هذا التنبيهُ على أن المفرحات صائرة إلى زوال وأن زوالها مصيبة .

واعلم أن هذا مقام المؤمن من الأدب بعد حلول المصيبة وعند نوال الرغيبة .

وصلة الموصول في ﴿ بما آتاكم ﴾ مشعرة بأنه نعمة نافعة ، وفيه تنبيه على أن مقام المؤمن من الأدب بعد حلول المصيبة وعند انهيال الرغيبة ، هو أن لا يحزن على ما فات ولا يبطر بما ناله من خيرات ، وليس معنى ذلك أن يترك السعي لنوال الخير واتقاء الشر قائلاً : إن الله كتب الأمور كلها في الأزل ، لأن هذا إقدام على إفساد ما فَطر عليه الناس وأقام عليه نظام العالم .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للذين قالوا أفلا نتَّكِل "اعمَلوا فكل ميسَّر لما خُلق له"

وقوله : ﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ تحذير من الفرح الواقع في سياق تعليل الأخبار

بأن كل ما ينال المرءَ ثابت في كتاب ، وفيه بيان للمراد من الفرح أنه الفرح المفرط البالغ بصاحبه إلى الاختيال والفخر .

(155/748)

والمعنى : والله لا يحب أحداً مختالاً وفخوراً ولا تتوهمْ أن موقع (كل) بعد النفي يفيد النفي عن المجموع لا عن كل فرد لأن ذلك ليس مما يقصُده أهل اللسان ، ووقع للشيخ عبد القاهر ومتابعيه توعم فيه ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾ في سورة البقرة (276) ونبهت عليه في تعليقي على دلائل الإعجاز .

وقرأ الجمهور آتاكم ﴾ بمدّ بعد الهمزة مُحول عن همزة ثانية هي فاء الكلمة ، أي ما جعله آتياً لكم ، أي حاصلاً عندكم ، فالهمزة الأولى للتعدية إلى مفعول ثان ، والتقدير : بما آتاكموه .

والإِتيان هنا أصله مجاز وغلب استعماله حتى ساوَى الحقيقة ، وعلى هذه القراءة فعائد الموصول محذوف لأنه ضمير متصل منصوب بفعل ، والتقدير : بما آتاكموه ، وفيه إدماج المنة مع الموعظة تذكيراً بأن الخيرات من فضل الله .

وقرأه أبو عمرو وَحدَه بهمزة واحدة على أنه من (أتى) ، إذا حَصل ، فعائد الموصول هو

الضمير المستتر المرفوع بـ (آتى) ، وفي هذه القراءة مقابلة ﴿ آتاكم ﴾ بـ (فاتكم) وهو محسن الطباق ففي كلتا القراءتين محسّن .

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)

يجوز أن يكون ﴿ الذين يبخلون ﴾ ابتداء كلام على الاستئناف لأن الكلام الذي قبله ختم بالتذييل بقوله : ﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ [الحديد : 23] فيكون ﴿ الذين يبخلون ﴾ مبتدأ وخبره محذوفاً يدل عليه جواب الشرط وهو ﴿ فإن الله هو الغني الحميد ﴾ .

والتقدير : فإن الله غني عنهم وحامد للمنفقين .

ويجوز أن يكون متصلاً بما قبله على طريقة التخلص فيكون ﴿ الذين يبخلون ﴾ بدلاً من ﴿ كل مختال فخور ﴾ ، أو خبراً لِمبتدأ محذوف هو ضمير ﴿ كل مختال فخور ﴾ .

(156/748)

تقديره : هم الذين يبخلون ، وعلى هذا الاحتمال الأخير فهو من حذف المسند إليه اتّباعا للاستعمال كما سماه السكاكي ، وفيه وجوه آخر لا نطوِّل بها .

والمراد بـ ﴿ الذين يبخلون ﴾ : المنافقون ، وقد وصفهم الله بمثل هذه الصلة في سورة

النساء ، وأمرهم الناس بالبخل هو الذي حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ [المنافقون : 7] ، أي على المؤمنين .

وجملة ﴿ ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد ﴾ تذييل لأن ﴿ من يتولّ ﴾ يعم ﴿ الذين يبخلون ﴾ وغيرهم فإنّ ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ أي في سبيل الله وفي النفقات الواجبه قد تولوا عن أمر الله و (مَن) شرطية عامة .

وجملة ﴿ فإن الله هو الغني الحميد ﴾ قائمة مقام جواب الشرط لأن مضمونها علة للجواب ، فالتقدير : ومن يتولّ فلا يضر الله شيئاً ولا يضر الفقير لأن الله غني عن مال المتوّلين ، ولأن له عباداً يطيعون أمره فيحمدهم .

والغنيّ : الموصوف بالغنى ، أي عدم الاحتياج .

ولما لم يذكر له متعلق كان مفيداً الغنى العام .

والحميد : وصف مبالغة ، أي كثير الحمد للمنفقين على نحو قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ [المائدة : 54] الآية .

ووصفه بـ ﴿ الحميد ﴾ هنا نظير وصفه ب"الشكور" وفي قوله : ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم ﴾ [التغابن : 17] ، فإن اسمه ﴿ الحميد ﴾ صالح لمعنى المحمود فيكون فعيلاً بمعنى مفعول ، وصالح لمعنى كثير الحمد ،

فيكون من أمثلة المبالغة لأن الله يثيب على فعل الخير ثواباً جزيلاً ويُثني على فاعله ثناء جميلاً فكان بذلك كثير الحمد .

وقد حمله على كلا المعنيين ابن بَرَّجَان الأشبيلي في "شرحه لأسماء الله الحسنى" ووافقه كلام ابن العربي في "أحكام القرآن" في سورة الأعراف ، وهو الحق .

(157/748)

وقصره الغزالي في "المقصد الأسنى" على معنى "المحمود" .

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿ فإن الله الغني الحميد ﴾ بدون ضمير فصل ، وكذلك هو مرسوم في مصحف المدينة ومصحف الشام .

وقرأه الباقون ﴿ فإن الله هو الغني الحميد ﴾ بضمير فصل بعد اسم الجلالة وكذلك هو مرسوم في مصاحف مكة والبصرة والكوفة ، فهما روايتان متواترتان .

والجملة مفيدة للقصر بدون ضمير فصل لأن تعريف المسند إليه والمسند من طرق القصر ، فالقراءة بضمير الفصل تفيد تأكيد القصر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(158/748)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

أخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه أنه قرأ " ألما يان للذين آمنوا " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس لا أعلمه إلا مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : " استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة من نزول القرآن ، فأنزل الله ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ الآية " .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفر من أصحابه في المسجد وهم يضحكون فسحب رداءه محمراً وجهه فقال : أتضحكون ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم ولقد أنزل عليّ في ضحككم آية ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ قالوا يا رسول الله : فما كفارة ذلك ؟ قال : تبكون قدر ما ضحكتم " .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ قال : ذكر لنا أن شداد بن أوس كان يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : " أول ما يرفع من الناس الخشوع " .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم ﴾ يقول : ألم يحن للذين آمنوا .

وأخرج ابن المبارك عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ﴾ قال : تليين القلوب بعد قسوتها .

وأخرج مسلم والنسائي وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال : ما كان بين أسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ إلا أربع سنين .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه والطبراني والحاكم وصححه عن عبد الله بن الزبير أن ابن مسعود أخبره أنه لم يكن بين إسلامهم وبين أن نزلت هذه الآية يعاتبهم الله بها إلا أربع سنين ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون .

(159/748)

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ الآية أقبل بعضنا على بعض أي شيء أحدثنا ؟ أي شيء صنعنا ؟ .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن عبد العزيز بن أبي رواد أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ظهر منهم المزاح والضحك فنزلت ﴿ ألم يأن للذين آمنوا ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذوا في شيء من المزاح فأنزل الله ﴿ ألم يأن للذين آمنوا ﴾ الآية .

وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وابن المنذر عن الأعمش قال : لما قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعد ما كان بهم من الجهد ، فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه ، فعوتبوا ، فنزلت ﴿ ألم يأن للذين أمنوا ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي عن القاسم قال : ملّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ملة فقالوا : حدثنا يا رسول الله فأنزل الله ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ [يوسف : 3] ثم ملوا ملة فقالوا حدثنا يا رسول الله فأنزل الله ﴿ ألم يأن للذين آمنوا ﴾ الآية .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم ألا أن كل ما هو آت قريب ، ألا إنما البعيد ما ليس بآت " .

وأخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعاً .

وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم استهوته قلوبهم ، واستحلته ألسنتهم وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون فقالوا : أعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل فإن تابعوكم فاتركوهم ، وإن خالفوكم فاقتلوهم ، قالوا : لا بل أرسلوا إلى فلان رجل من علمائهم فاعرضوا عليه هذا الكتاب ، فإن تابعكم فلن يخالفكم أحد بعده ، وإن خالفكم فاقتلوه فلن يختلف عليكم أحد بعده ، فأرسلوا إليه فأخذ ورقة وكتب فيها كتاب الله ثم علقها في عنقه ، ثم لبس عليه الثياب فعرضوا عليه الكتاب فقالوا : أتؤمن بهذا ؟ فأومأ إلى صدره فقال : آمنت بهذا وما لي لا أومن بهذا ؟ يعني الكتاب الذي فيه القرآن فخلوا سبيله ، وكان له أصحاب يغشونه ، فلما مات وجدوا الكتاب الذي فيه القرآن معلق عليه فقالوا : ألا ترون إلى قوله : آمنت بهذا وما لي لا أومن بهذا ؟ إنما عنى هذا الكتاب ، فاختلف بنوا إسرائيل على بضع وسبعين ملة وخير مللهم أصحاب ذي القرآن . قال عبد الله : وإن من بقي منكم سيرى منكراً وبحسب امرىء يرى منكراً لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه

أنه كاره له.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا تلا هذه الآية ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ ثم قال: بلى يا رب بلى يا رب.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في الآية شداد بن أوس: أول ما يرفع من الناس الخشوع.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿ الأمد ﴾ قال: الدهر.

(161/748)

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي حرب بن أبي الأسود عن أبيه قال: جمع أبو موسى الأشعري القراء فقال: لا يدخلن عليكم إلا من جمع القرآن، فدخلنا ثلاثمائة رجل فوعظنا وقال: أنتم قراء هذه البلد والله ليطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب أهل الكتاب.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (19)

أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من فرّ بدينه من أرض إلى أرض مخافة الفتنة على نفسه ودينه كتب عند الله صديقاً ، فإذا مات قبضه الله شهيداً ، وتلا هذه الآية ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم ﴾ ثم قال : والفارون بدينهم من أرض إلى أرض يوم القيامة مع عيسى ابن مريم في درجته في الجنة " .

وأخرج ابن جرير عن البراء بن عازب رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " مؤمنو أمتي شهداء ، ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم ﴾ " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن الرجل ليموت على فراشه وهو شهيد ثم تلا ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال يوماً وهم عنده : كلكم صديق وشهيد ، قيل له : ما تقول يا أبا هريرة ؟ قال : أقرأوا ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إنما الشهيد الذي لو مات على فراشه دخل الجنة يعني الذي يموت على فراشه ولا ذنب له .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه قال : كل مؤمن صديق وشهيد ثم تلا ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن عمرو بن ميمون قال : كل مؤمن صديق ثم قرأ ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ﴾ قال : هذه مفصولة ﴿ والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ﴾ قال : هذه مفصولة سماهم صديقين ثم قال : ﴿ والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن مسروق قال : هي للشهداء خاصة .

وأخرج ابن حبان عن عمرو بن ميمون الجهني قال : " جاء رجل للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وصليت الصلوات الخمس وأديت الزكاة وصمت رمضان وقمته فممن أنا ؟ قال : من الصديقين والشهداء " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة

من الله ورضوان ﴾ قال : صار الناس إلى هذين الحرفين في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 57. 61 ﴾

(163/748)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى عرض)

العَرْض خلاف الطُّول ، وأَصله فى الأَجسام ثمّ يستعمل فى غيرها .

يقال : كلام له طول وعَرْض ، قال تعالى : ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ .

والعُرض بالضمّ خصّ بالجانب .

وأَعرض الشَّىءُ : بَدَا عُرضه .

ومنه عرضتُ العُودَ على الإِناءِ .

وعَنّى : ولَّى مُبْدياً عُرْضه .

واعترض الشىءُ فى حَلْقِه أَى وقف فيه بالعَرْض .

وعرضت الجيشَ عَرْض عَيْن : إِذا أَمررته على بصرك لِتعرف مَن غاب ومن حضر .

ونظرتُ إليه معارضة، أَى من عُرْض.

وبعير معارِض: لا يستقيم فى قِطَار.

وعرضت الشىءَ على البيع وعلى فلان، قال تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ﴾.

والعارِض: البادى عُرْضُه أَى جانبه، فتارة يُخصّ بالسّحاب كقوله تعالى: ﴿هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾، وتارة بما يعرض من مرض ونحوه فيقال: به عارِض من سقم، وتارة بالخدّ نحو: أَخَذَ من عارضَيْه، وتارة بالسنّ: ومنه قيل للثَّنايا التى تظهر عند الضَّحك: العوارض.

ويقال: فلان شديد العارضة (كناية عن جودة بيانه).

(وأَعرض: أَظهر عُرضه أَى ناحيته.

وإِذا قيل: أَعرض لى كذا أَى بدا لي عُرْضه فأَمكن تناوله، وإِذا قيل: أَعرض عنى، معناه ولَّى مبدياً عُرْضه).

والعُرضة: ما يجعل مُعرَّضاً للشىءِ قال تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلُواْ اللَّهَ عُرْضَةً لأَيمَانِكُمْ﴾ وبعيرى عُرْضَة للسّفر أَى مُعرَّض له.

وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ قيل هو العَرْض ضدّ الطُّول. وتَصوُّر ذلك على أَحد وجوه: إِمّا أَن يريد به أَن يكون عَرْضها فى النشأَة الآخرة كعَرْض السمّاواة والأَرض فى النشأَة الأُولى، وذلك أَنَّه قال: ﴿يوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ

وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ قال : فلا يمتنع أَن يكون السماوات والأَرض فى النشأَة الآخرة أَكبر ممّا هى الآن .

(164/748)

وسأَل يهودىّ عمر رضى الله عنه عن الآية وقال : فأَين النار ؟ فقال عمر : إِذا جاءَ الليل فأَين النَّهار ؟ وقد قيل : يُعنى بعرضها سعتها ، لا من حيث المساحة ولكن من حيث المسرّة ؛ كقولهم فى ضدّه : الدنيا على فلان كحلْقة خاتم ، وسعةُ هذه الدار كسعة الأَرض .

وقيل : العَرْض ههنا عَرْض البيع من قولهم : بِيع له كذا بعَرْض : إِذا بِيع بسِلعة ، فمعنى عرضها بدلها وعوضها ؛ كقولك : عَرْض هذا الثوب كذا وكذا والله أَعلم .

والعَرَض / محرّكة : ما لا يكون له ثبات .

ومنه استعار المتكلِّمون العَرَض لما لا ثبات له إِلاَّ بالجوهر كاللون والطَّعم .

وقيل : الدنيا عَرَض حاضر تنبيهاً أَن لا ثبات لها ، قال تعالى : ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ ، وقوله : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً ﴾ أَى مطلبًا سهلاً .

والتَّعريض فى الكلام : أَن يكون له وجهان مِن صدق وكذب ، أَو ظاهر وباطن .

وقوله : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ﴾ قيل : هو أَن يقول لها : أَنت جميلة ، وكلّ أَحد يرغب فى مثلك ، ونحو هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 44. 46 ﴾

(165/748)

قوله تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (26) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ظهرت الأدلة حتى لم يبق لأحد علة ، وانتشر نورها حتى ملأ الأكوان ، وعلا علواً تضاءل دون عليائه كيوان ، وكان فيما تقدم شرح مآل الدنيا وبيان حقيقتها ، وأن الأدمي إذا خلي ونفسه ارتكب ما لا يليق من التفاخر وما شاكله وترك ما يراد به مما دعي إليه من الخير جهلاً منه وانقياداً مع طبعه ، وكان ختم الآية السابقة ربما أوهم المشاركة ، قال تعالى

نافياً ذلك في جواب من توقع الإخبار عن سائر الأنبياء : هو أوتوا من البيان ما أزال اللبس ، مؤكداً لإزالة العذر بإقامة الحجج بإرسال الرسل بالمعجزات الحاضرة والكتب الباقية ، معلماً أن من أعرض كلف الإقبال بالسيف ، فإن الحكيم العظيم تأبى عظمته وحكمته أن يخلي المعرض عن بينة ترده عما هو فيه ، وقسر يكفيه عما يطغيه : ﴿ لقد أرسلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ رسلنا ﴾ أي الذين لهم نهاية الإجلال بما لهم بنا من الاتصال من الملائكة إلى الأنبياء على جميعهم أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام ، ومن الأنبياء إلى الأمم ﴿ بالبينات ﴾ أي الموجبة للإقبال في الحال لكونها لا لبس فيها أصلاً ، ودل على عظمة أنبيائه عليهم الصلاة والسلام بأنهم لعلو مقاماتهم بالإرسال كأنهم أتوا إلى العباد من موضع عال جداً فقال : ﴿ وأنزلنا ﴾ بعظمتنا التي لا شيء أعلى منها ﴿ معهم الكتاب ﴾ أي الحافظ في زمن الاستقبال في الأحكام والشرائع .

ولما كان فهم الكتاب ربما أشكل فإنه يحتاج إلى ذهن صقيل وفكر طويل ، وصبر كبير وعلم كثير - قال الرازي : وبهذا قيل : لولا الكتاب لأصبح العقل حائراً ولولا العقل لم ينتفع بالكتاب ، عقبه بما يشترك في معرفته الكبير والصغير ، والجاهل والنحرير ، وهو أقرب

الأشياء إلى الكتاب في العلم بمطابقة الواقع لما يراد فقال : ﴿ والميزان ﴾ أي العدل والحكمة ، ولعله كل ما يقع به التقدير حساً أو معنى ، وتعقيبه به إشارة إلى أن عدم زيغه لعدم حظ ونحوه ، فمن حكم الكتاب خالياً عن حظ نفس وصل إلى المقصود ﴿ ليقوم الناس ﴾ أي الذين فيهم قابلية التحرك إلى المعالي كلهم ﴿ بالقسط ﴾ أي العدل الذي لا مزيد عليه لانتظام جميع أحوالهم ، هذا لمن أذعن للبينات لذات من أقامها أو للرغبة فيها عنده .

ولما كان الإعراض بعد الإبلاغ في الإيضاح موجباً للرد عن الفساد بأنواع الجهاد ، قال مهدداً وممتناً ترغيباً وترهيباً معبراً عن الخلق بالإنزال تشريفاً وتعظيماً : ﴿ وأنزلنا ﴾ أي خلقنا خلقاً عظيماً بما لنا من القدرة ﴿ الحديد ﴾ أي المعروف على وجه من القوة والصلابة واللين والحدة لقبول التأثير يعد به كالبائن لما في الأرض ، فلذلك سمي إيجاده إنزالاً ، ولأن الأوامر بالإيجاد والإعدام تنزل من السماء على أيدي الملائكة لأن السماء محل الحوادث الكبار ، والبدائع والأسرار ، لأن الماء الذي هو أصله وأصل كل نام ينزل من السماء وتكون الأرض له بمنزلة الرحمن للنطفة .

ولما وقع التشوف إلى سبب إنزاله ، قال : ﴿ فيه بأس ﴾ أي قوة وشدة وعذاب ﴿ شديد ﴾ لما فيه من الصلابة الملائمة للمضاء والحدة ﴿ ومنافع للناس ﴾ بما يعمل منه من مرافقهم ومعاونهم لتقوم أحوالهم بذلك ، قال البيضاوي : ما من صنعة إلا والحديد آلتها .

ولما كان التقدير : ليعلم الله من يعصيه ويخذل أولياءه ، بوضع بأسه في غير ما أمر به نصرة لشيطانه وهواه وافتنانه ، عطف عليه قوله : ﴿ وليعلم الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة علم شهادة لأجل إقامة الحجة بما يليق بعقول الخلق فيكون الجزاء على العمل لا على العلم ، وأوقع ضمير الدين عليه سبحانه تعظيماً له لأنه شارعه فقال : ﴿ من ينصره ﴾ أي يقبل مجداً على الاستمرار على نصر دينه ﴿ ورسله ﴾ بالذب عنهم والدعاء إليهم ، كائناً ذلك النصر ﴿ بالغيب ﴾ من الوعد والوعيد ، أي بسبب تصديق الناصر لما غاب عنه من ذلك ، أو غائباً عن كل ما أوجب له النصرة ، وروي عن ابن عباس .رضى الله عنهما .أنه قال : ينصرونه ولا يبصرونه – انتهى .

فلم يدع سبحانه في هذه الآية لأحد عذراً بالرسل الذين هم الجنس مع تأييدهم بما ينفي عنهم اللبس ، والكتاب العالي عن كلام الخلق ، والعقل الذي عرف العدل ، والسلاح الذي يرد أولي الجهل ، كما قال .صلى الله عليه وسلم .:

" بعثت بين يدي الساعة بالسيف " فبيان الشرائع بالكتاب ، وتقويم أبواب العدل بالميزان ، وتنفيذ هذه المعاني بالسيف ، فإن مصالح الدين من غير هيبة السلطان لا يمكن رعايتها ،

فالملك والدين توأمان ، فالدين بلا ملك ضائع ، والملك من غير دين باطل ، والسلطان ظل الله في الأرض ، فظواهر الكتاب للعوام ، ووزن معارفه لأهل الحقائق بالميزان ، ومن خرج عن الطائفتين فله الحديد وهو السيف ، لأن تشويش الدين منه - نبه عليه الرازي .

ولما كان طالب النصرة مظنة لتوهم الضعف ، قال نافياً لذلك مؤكداً قطعاً لتعنت المتعنتين مظهراً للاسم الأعظم إشارة إلى أن من له جميع صفات الكمال لا يمكن أن تطرقه حاجة : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له العظمة كلها .

(168/748)

ولما لم يكن هنا داع إلى أكثر من هذا التأكيد : بخلاف ما أشير إليه من الإخراج من الديار المذكورة في الحج ونحوه ، قال معلماً بأنه غني عن كل شيء معرياً الخبر من اللام : ﴿ قوي ﴾ أي فهو قادر على إهلاك جميع أعدائه وتأييد من ينصره من أولياءه ﴿ عزيز ﴾ فهو غير مفتقر إلى نصر أحد ، وإنما دعا عباده إلى نصر دينه ليقيم الحجة عليهم فيرحم من أراد بامتثال المأمور ، ويعذب من يشاء بارتكاب المنهي ، ببنائه هذه الدار على حكمة ربط المسببات بالأسباب .

ولما عم الرسل جامعاً لهم في البينات ، فكان السامع جديراً بأن يتوقع التعيين ، وخص من

بينهم من أولي العزم أبوين جامعين في الذرية والرسالة ، لأن ذلك أنسب لمقصود السورة لتبيين فضل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي عم برسالته عموماً لم يكن لأحد غيره ، فنوح عليه السلام أرسل لأهل الأرض لكونهم كانوا على لسان واحد ، وعموم إبراهيم عليه السلام بأولاده عليهم السلام ونص بعدهما على عيسى عليه السلام بما له من عموم الرسالة إلى بني إسرائيل بالنسخ والتشريع ، ثم من نزوله في هذه الأمة بالتقرير والتجديد فقالك ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ أي بما لنا من صفات الكمال والجمال والجلال ﴿ نوحاً ﴾ الأب الثاني ، وجعلنا الأغلب على رسالته مظهر الجلال ﴿ وإبراهيم ﴾ أبا العرب والروم وبني إسرائيل الذي أكثر الأنبياء من نسله ، وجعلنا الأغلب على رسالته مجلى الإكرام ﴿ وجعلنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ في ذريتهما النبوة ﴾ المقتضية للوصلة بالملك الأعظم لتنفيذ الأوامر ﴿ والكتاب ﴾ الجامع للأحكام الضابط للشرائع بأن استنبأنا بعض ذريتهما وأنزلنا إليهم الكتب فلا يوجد نبي ولا كتاب إلا وهو مدلٍ إليهما بأمتن الأسباب وأعظم الأنساب .

ولما كان مظهر العظمة مقتضياً لإشقاء من أريد إشقاؤه مع عدم المبالاة به ، كائناً من كان ، سواء اتصل بالأولياء أو الأعداء لئلا يأمن أحد فيقع في الخسران أو ييأس أحد فيلزم الهوان قال : ﴿ فمنهم ﴾ أي ذرية هذين الصنفين ﴿ مهتد ﴾ هو بعين الرضا منا – وهو من لزم طريق الأصفياء واستمسك بعهدهم ولم يزغ أصلاً وإن كان من أولاد الأعداء .

ولما كان من زاغ بعد تذكيره بالكتب والرسل ، كان مستحقاً للمبالغة في الذم ولو أنه واحد فكيف إذا كان كثيراً ، نبه بتغيير السياق على ذلك وعلى أن الأغلب الضلال فقال : ﴿ وكثير منهم ﴾ أي الذرية الموصوفين ﴿ فاسقون ﴾ هم بعين السخط وإن كانوا أولاد الأصفياء وهم من خالف الأولياء بمنابذة أو ابتداع أو زيغ عن سبيلهم بما لم ينهجوه من تفريط وإفراط. انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 7 صـ 458. 461 ﴾

(170/748)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات ﴾

وفي تفسير البينات قولان :

الأول : وهو قول مقاتل بن سليمان إنها هي المعجزات الظاهرة والدلائل القاهرة والثاني :

وهو قول مقاتل بن حيان : أي أرسلناهم بالأعمال التي تدعوهم إلى طاعة الله وإلى

الإعراض عن غير الله ، والأول هو الوجه الصحيح لأن نبوتهم إنما ثبتت بتلك المعجزات .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط وَأَنْزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ

شَدِيدٌ ومنافع لِلنَّاسِ ﴾ .

واعلم أن نظير هذه الآية قوله : ﴿ الله الذى أَنزَلَ الكتاب بالحق والميزان ﴾ [الشورى :

17] وقال : ﴿ والسماء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان ﴾ [الرحمن : 7] وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

في وجه المناسبة بين الكتاب والميزان والحديد وجوه .

(171/748)

أحدها : وهو الذي أقوله أن مدار التكليف على أمرين : أحدهما : فعل ما ينبغي فعله

والثاني : ترك ما ينبغي تركه ، والأول هو المقصود بالذات ، لأن المقصود بالذات لو كان هو

الترك لوجب أن لا يخلق أحد ، لأن الترك كان حاصلاً في الأزل ، وأما فعل ما ينبغي فعله ،

فإما أن يكون متعلقاً بالنفس ، وهو المعارف ، أو بالبدن وهو أعمال الجوارح ، فالكتاب هو

الذي يتوسل به إلى فعل ما ينبغي من الأفعال النفسانية ، لأن يتميز الحق من الباطل ، والحجة من الشبهة ، والميزان هو الذي يتوسل به إلى فعل ما ينبغي من الأفعال البدنية ، فإن معظم التكاليف الشاقة في الأعمال هو ما يرجع إلى معاملة الخلق ، والميزان هو الذي يتميز به العدل عن الظلم والزائد عن الناقص ، وأما الحديد ففيه بأس شديد ، وهو زاجر للخلق عما لا ينبغي ، والحاصل أن الكتاب إشارة إلى القوة النظرية ، والميزان إلى القوة العملية ، والحديد إلى دفع ما لا ينبغي ، ولما كان أشرف الأقسام رعاية المصالح الروحانية ، ثم رعاية المصالح الجسمانية ، ثم الزجر عما لا ينبغي ، روعي هذا الترتيب في هذه الآية وثانيها : المعاملة إما مع الخالق وطريقها الكتاب أو مع الخلق وهم : إما الأحباب والمعاملة معهم بالسوية وهي بالميزان ، أو مع الأعداء والمعاملة معهم بالسيف والحديد وثالثها : الأقوام ثلاثة : أما السابقون وهم يعاملون الخلق بمقتضى الكتاب ، فينصفون ولا ينتصفون ، ويحترزون عن مواقع الشبهات ، وإما مقتصدون وهم الذين ينصفون وينتصفون ، فلا بد لهم من الميزان ، وإما ظالمون وهم الذين ينتصفون ولا ينصفون ولا بد لهم من الحديد والزجر ورابعها : الإنسان ، إما أن يكون في مقام الحقيقة وهو مقام النفس المطمئنة ومقام المقربين ، فههنا لا يسكن إلا إلى الله ، ولا يعمل إلا بكتاب الله ، كما قال : ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القلوب﴾ [الرعد : 28] وإما أن يكون في مقام الطريقة وهو مقام النفس اللوامة ،

ومقام أصحاب اليمين ، فلا بد له من الميزان في معرفة الأخلاق حتى يحترز عن طرفي الإفراط والتفريط ، ويبقى على الصراط المستقيم وإما أن يكون في مقام الشريعة وهو مقام النفس الأمارة ، وههنا لا بد له من حديد المجاهدة والرياضات الشاقة وخامسها : الإنسان إما أن يكون صاحب المكاشفة والوصول فلا أنس له إلا بالكتاب ، أو صاحب الطلب والاستدلال فلا بد له من ميزان الدليل والحجة أو صاحب العناد واللجاج ، فلا بد وأن ينفى من الأرض بالحديد وسادسها : أن الدين هو إما الأصول وإما الفروع ، وبعبارة أخرى : إما المعارف وإما الأعمال ، فالأصول من الكتاب ، وأما الفروع : فالمقصود الأفعال التي فيها عدلهم ومصلحتهم وذلك بالميزان فإنه إشارة إلى رعاية العدل ، والحديد لتأديب من ترك ذينك الطريقين وسابعها : الكتاب إشارة إلى ما ذكر الله في كتابه من الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف ، والميزان إشارة إلى حمل الناس على تلك الأحكام المبنية على العدل والإنصاف وهو شأن الملوك ، والحديد إشارة إلى أنهم لو تمردوا لوجب أن يحملوا عليهما بالسيف ، وهذا يدل على أن مرتبة العلماء وهم أرباب الكتاب مقدمة على مرتبة الملوك الذين هم أرباب السيف ، ووجوه المناسبات كثيرة ، وفيما ذكرناه تنبيه على الباقي .

المسألة الثانية :

ذكروا في : إنزال الميزان وإنزال الحديد ، قولين : الأول : أن الله تعالى أنزلهما من السماء ، روي أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح ، وقال : مر قومك يزنوا به ، وعن ابن عباس نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من الحديد السندان والكلبتان والمقمعة والمطرقة والإبرة ، والمقمعة ما يحدد به ، ويدل على صحة هذا ما روى ابن عمر أنه عليه الصلاة والسلام قال : " إن الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض : أنزل الحديد والنار والماء والملح " والقول الثاني : أن معنى هذا الإنزال الإنشاء والتهيئة ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [لزمر : 6] قال قطرب : ﴿ أنزلناها ﴾ [النور : 1] أي هيأناها من النزل ، يقال : أنزل الأمير على فلان نزلاً حسناً ، ومنهم من قال هذا من جنس قوله : علفتها تبناً وماء بارداً ، وأكلت خبزاً ولبناً .

المسألة الثالثة :

ذكر في منافع الميزان أن يقوم الناس بالقسط ، والقسط والإقساط هو الإنصاف وهو أن تعطي قسط غيرك كما تأخذ قسط نفسك ، والعادل مقسط قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المقسطين ﴾ [الحجرات : 9] والقاسط الجائر قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ [الجن : 15] وأما الحديد ففيه البأس الشديد فإن آلات الحروب متخذة منه ، وفيه أيضاً منافع كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ [الأنبياء : 80] ومنها أن مصالح العالم ، إما أصول ، وإما فروع ، أما الأصول فأربعة : الزراعة والحياكة وبناء البيوت والسلطنة ، وذلك لأن الإنسان مضطر إلى طعام يأكله وثوب يلبسه وبناء يجلس فيه ، والإنسان مدني بالطبع فلا تتم مصلحته إلا عند اجتماع جمع من أبناء جنسه يشتغل كل واحد منهم بمهم خاص ، فحينئذ ينتظم من الكل مصالح الكل ، وذلك الانتظام لا بد وأن يفضي إلى المزاحمة ، ولا بد من شخص يدفع ضرر البعض عن البعض ، وذلك هو السلطان ، فثبت أنه لا تنتظم مصلحة العالم إلا بهذه الحروف الأربعة ، أما الزراعة فمحتاجة إلى الحديد ، وذلك في كرب الأراضي وحفرها ، ثم عند تكون هذه الحبوب وتولدها لا بد من خبزها وتنقيتها ، وذلك لا يتم إلا بالحديد ، ثم الحبوب لا بد من طحنها وذلك لا يتم إلا بالحديد ، ثم لا بد من خبزها ولا يتم إلا بالنار ، ولا بد من المقدحة الحديدية ، وأما الفواكه فلا بد من تنظيفها عن قشورها ، وقطعها على الوجوه الموافقة للأكل ولا يتم ذلك إلا بالحديد ، وأما الحياكة فمعلوم أنه يحتاج في آلات الحياكة إلى الحديد ثم

يحتاج في قطع الثياب وخياطتها إلى الحديد ، وأما البناء فمعلوم أن كمال الحال فيه لا يحصل إلا بالحديد ، وأما أسباب السلطنة فمعلوم أنها لا تتم ولا تكمل إلا بالحديد ، وعند هذا يظهر أن أكثر مصالح العالم لا تتم إلا بالحديد ، ويظهر أيضاً أن الذهب لا يقوم مقام الحديد في شيء من

هذه المصالح فلو لم يوجد الذهب في الدنيا ما كان يختل شيء من مصالح الدنيا ، ولو لم يوجد الحديد لاختل جميع مصالح الدنيا ، ثم إن الحديد لما كانت الحاجة إليه شديدة ، جعله سهل الوجدان ، كثير الوجود ، والذهب لما قلت الحاجة إليه جعله عزيز الوجود ، وعند هذا يظهر أثر وجود الله تعالى ورحمته على عبيده ، فإن كل ما كانت حاجتهم إليه أكثر ، جعل وجدانه أسهل ، ولهذا قال بعض الحكماء إن أعظم الأمور حاجة إليه هو الهواء ، فإنه لو انقطع وصوله إلى القلب لحظة لمات الإنسان في الحال ، فلا جرم جعله الله أسهل الأشياء وجداناً ، وهيأ أسباب التنفس وآلاته ، حتى إن الإنسان يتنفس دائماً بمقتضى طبعه من غير حاجة فيه إلى تكلف عمل ، وبعد الهواء الماء ، إلا أنه لما كانت الحاجة إلى الماء أقل من الحاجة إلى الهواء جعل تحصيل الماء أشق قليلاً من تحصيل الهواء ، وبعد الماء الطعام ، ولما

كانت الحاجة إلى الطعام أقل من الحاجة إلى الماء ، جعل تحصيل الطعام أشق من تحصيل الماء ، ثم تتفاوت الأطعمة في درجات الحاجة والعزة فكل ما كانت الحاجة إليه أشد ، كان وجدانه أسهل ، وكل ما كان وجدانه أعسر كانت الحاجة إليه أقل ، والجواهر لما كانت الحاجة إليها قليلة جداً ، لا جرم كانت عزيزة جداً ، فعلمنا أن كل شيء كانت الحاجة إليه أكثر كان وجدانه أسهل ، ولما كانت الحاجة إلى رحمة الله تعالى أشد من الحاجة إلى كل شيء فنرجو من فضله أن يجعلها أسهل الأشياء وجداناً ، قال الشاعر :

سبحان من خص العزيز بعزه . . والناس مستغنون عن أجناسه

وأذل أنفاس الهواء وكل ذي . . نفس فمحتاج إلى أنفاسه

ثم قال تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

المعنى وليعلم الله من ينصره ، أي ينصر دينه ، وينصر رسله باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين بالغيب أي غائباً عنهم .

قال ابن عباس : ينصرونه ولا يبصرونه ، ويقرب منه قوله تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد : 7] .

المسألة الثانية :

احتج من قال بحدوث علم الله بقوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ ﴾ والجواب عنه أنه تعالى أراد بالعلم المعلوم ، فكأنه تعالى قال : ولتقع نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام ممن ينصره .

المسألة الثالثة :

قال الجبائي : قوله تعالى : ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أنزل الميزان والحديد ، ومراده من العباد أن يقوموا بالقسط وأن ينصروا الرسول ، وإذا كان هذا مراده من الكل فقد بطل قول المجبرة أنه أراد من بعضهم خلاف ذلك جوابه : أنه كيف يمكن أن يريد من الكل ذلك مع علمه بأن ضده موجود ، وأن الجمع بين الضدين محال ، وأن المحال غير مراد .

المسألة الرابعة :

لما كانت النصرة قد تكون ظاهرة ، كما يقع من منافق أو ممن مراده المنافع في الدنيا ، بين تعالى أن الذي أراده النصرة بالغيب ، ومعناه أن تقع عن إخلاص بالقلب ، ثم بين تعالى أنه قوي على الأمور عزيز لا يمانع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ واعلم

أنه تعالى لما ذكر أنه أرسل الرسل بالبينات والمعجزات، وأنه أنزل الميزان والحديد، وأمر الخلق بأن يقوموا بنصرتهم أتبع ذلك ببيان سائر الأشياء التي أنعم بها عليهم، فبين أنه تعالى شرف نوحاً وإبراهيم عليهما السلام بالرسالة، ثم جعل في ذريتهما النبوة والكتاب فما جاء بعدهما أحد بالنبوة إلا وكان من أولادهما، وإنما قدم النبوة على الكتاب، لأن كمال حال النبي أن يصير صاحب الكتاب والشرع.

ثم قال تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى:

(177/748)

﴿ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ ﴾ أي فمن الذرية أو من المرسل إليهم، وقد دل عليهم ذكر الإرسال والمرسلين، والمعنى أن منهم مهتد ومنهم فاسق، والغلبة للفساق، وفي الفاسق ههنا قولان: الأول: أنه الذي ارتكب الكبيرة سواء كان كافراً أو لم يكن، لأن هذا الاسم يطلق على الكافر وعلى من لا يكون، كذلك إذا كان مرتكباً للكبيرة، والثاني: أن المراد بالفاسق ههنا الكافر، لأن الآية دلت على أنه تعالى جعل الفساق بالضد من المهتدين، فكأن المراد أن فيهم من قبل الدين واهتدى، ومنهم من لم يقبل ولم يهتد، ومعلوم أن من كان كذلك كان

كافراً ، وهذا ضعيف ، لأن المسلم الذي عصى قد يقال فيه : إنه لم يهتد إلى وجه رشده ودينه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 209 . 213 ﴾

(178/748)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات ﴾

أي بالمعجزات البيّنة والشرائع الظاهرة .

وقيل : الإخلاص لله تعالى في العبادة ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ بذلك دعت الرسل : نوح فمن دونه إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب ﴾ أي الكتب ؛ أي أوحينا إليهم خبر ما كان قبلهم ﴿ والميزان ﴾ قال ابن زيد : هو ما يوزن به ويتعامل ﴿ لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ أي بالعدل في معاملاتهم .

وقوله : ﴿ بالقسط ﴾ يدل على أنه أراد الميزان المعروف .

وقال قوم : أراد به العدل .

قال القشيري : وإذا حملناه على الميزان المعروف ، فالمعنى أنزلنا الكتاب ووضعنا الميزان

فهو من باب :

* عَلَفْتُهَا تِبناً وماءً بارداً . . .

ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان ﴾ [الرحمن : 7] ثم قال : ﴿ وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط ﴾ [الرحمن : 9] وقد مضى القول فيه .

﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ روى عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض : الحديد والنار والماء والملح " وروى عكرمة عن ابن عباس قال : ثلاثة أشياء نزلت مع آدم عليه السلام : الحجر الأسود وكان أشد بياضاً من الثلج ، وعصا موسى وكانت من آس الجنة ، طولها عشرة أذرع مع طول موسى ، والحديد أنزل معه ثلاثة أشياء : السندان والكَلْبَتَان والمِيقَعة وهي المِطرقة ؛ ذكره الماوردي .

وقال الثعلبي : قال ابن عباس نزل آدم من الجنة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدّادين : السَّنْدَان ، والكَلْبَتَان ، والمِيقَعة ، والمِطْرقة ، والإبرة .

وحكاه القشيريّ قال : والمِيقَعة ما يحدّد به ؛ يقال وَقَعْتُ الحديدةَ أقعها أي حددتها .

وفي الصحاح : والمِيقَعة الموضع الذي يألفه البازِي فيقع عليه ، وخشبة القَصّار التي يَدقّ عليها ، والمِطْرقة والمِسنّ الطويل .

وروي أن الحديد أنزل في يوم الثلاثاء .

﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ أي لإهراق الدماء .

ولذلك نهى عن الفصد والحِجامة في يوم الثلاثاء ؛ لأنه يوم جرى فيه الدم .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " في يوم الثلاثاء ساعةً لا يرقأ فيها الدم " وقيل : ﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد ﴾ أي أنشأناه وخلقناه ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأَنعامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ وهذا قول الحسن .

فيكون من الأرض غير منزل من السماء .

وقال أهل المعاني : أي أخرج الحديد من المعادن وعلمهم صنعته بوحيه .

﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يعني السلاح والكُراع والجُنة .

وقيل : أي فيه من خشية القتل خوف شديد .

﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ قال مجاهد : يعني جُنَّة .

وقيل : يعني انتفاع الناس بالماعون من الحديد ، مثل السكين والفأس والإبرة ونحوه .

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ أي أنزل الحديد ليعلم من ينصره .

وقيل : هو عطف على قوله تعالى : ﴿ لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ أي أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم الكتاب ، وهذه الأشياء ؛ ليتعامل الناس بالحق ، ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ وليرى

الله من ينصر دينه ﴿ وَ ﴾ ينصر ﴿ رُسُلَهُ بالغيب ﴾ قال ابن عباس : ينصرونهم لا يكذبونهم ، ويؤمنون بهم "بِالْغَيْبِ" أي وهم لا يرونهم .

﴿ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ "قَوِيٌّ" في أخذه "عَزِيزٌ" أي منيع غالب .

وقد تقدّم .

وقيل : ﴿ بالغيب ﴾ بالإخلاص .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ فصّل ما أجمل من إرسال الرّسل بالكتب ، وأخبر أنه أرسل نوحاً وإبراهيم وجعل النبوّة في نسلهما ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النبوة والكتاب ﴾ أي جعلنا بعض ذريتهما الأنبياء ، وبعضهم أمماً يتلون الكتب المنزلة من السماء : التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

وقال ابن عباس : الكتاب الخط بالقلم ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي من ائتم بإبراهيم ونوح ﴿ مُّهْتَدٍ ﴾ .

وقيل : ﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ﴾ أي من ذريتهما مهتدون .

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ كافرون خارجون عن الطاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(181/748)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

ولما ذكر تعالى ما في الآخرة من المغفرة ، أمر بالمسابقة إليها ، والمعنى : سابقوا إلى سبب مغفرة ، وهو الإيمان وعمل الطاعات .

وقد مثل بعضهم المسابقة في أنواع ؛ فقال عبد الله : كونوا في أول صفة في القتاد .

وقال أنس : اشهدوا تكبيرة الإحرام مع الإمام .

وقال علي : كن أول داخل في المسجد وآخر خارج .

واستدل بهذا السبق على أن أول أوقات الصلوات أفضل ، وجاء لفظ سابقوا كأنهم في مضمار يجرون إلى غاية مسابقين إليهم .

﴿ عرضها ﴾ : أي مساحتها في السعة ، كما قال : فذو دعاء عريض ، أو العرض

خلاف الطول .

فإذا وصف العرض بالبسطة ، عرف أن الطول أبسط وأمد .

﴿ أعدّت ﴾ : يدل على أنها مخلوقة ، وتكرر ذلك في القرآن يقوي ذلك ، والسنة ناصة على ذلك ، وذلك يرد على المعتزلة في قولهم : إنها الآن غير مخلوقة وستخلق .

﴿ ذلك ﴾ : أي الموعود من المغفرة والجنة ، ﴿ فضل الله ﴾ : عطاؤه ، ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ : وهم المؤمنون .

﴿ ما أصاب من مصيبة ﴾ : أي مصيبة ، وذكر فعلها ، وهو جائز التذكير والتأنيث ، ومن التأنيث ﴿ ما تسبق من أمة أجلها ﴾ ولفظ مصيبة يدل على الشر ، لأن عرفها ذلك .

قال ابن عباس ما معناه : أنه أراد عرف المصيبة ، وهو استعمالها في الشر ، وخصصها بالذكر لأنها أهم على البشر .

والمصيبة في الأرض مثل القحط والزلزلة وعاهة الزرع ، وفي الأنفس : الأسقام والموت .

وقيل : المراد بالمصيبة الحوادث كلها من خير وشر ، ﴿ إلا في كتاب ﴾ : هو اللوح المحفوظ ، أي مكتوبة فيه ، ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ : أي نخلقها .

برأ : خلق ، والضمير في نبرأها الظاهر أنه يعود على المصيبة ، لأنها هي المحدث عنها ، وذكر الأرض والأنفس هو على سبيل محل المصيبة .

وقيل: يعود على الأرض.

وقيل: على الأنفس، قاله ابن عباس وقتادة وجماعة.

(182/748)

وذكر المهدوي جواز عود الضمير على جميع ما ذكر.

قال ابن عطية: وهي كلها معارف صحاح، لأن الكتاب السابق أزليّ قبل هذه كلها.

انتهى.

﴿ إن ذلك ﴾: أي يحصل كل ما ذكر في كتاب وتقديره، ﴿ على الله يسير ﴾: أي سهل، وإن كان عسيراً على العباد.

ثم بين تعالى الحكمة في إعلامنا بذلك الذي فعله من تقدير ذلك، وسبق قضائه به فقال:

﴿ لكيلا تأسوا ﴾: أي تحزنوا، ﴿ على ما فاتكم ﴾، لأن العبد إن أعلم ذلك سلم، وعلم أن ما فاته لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، فلذلك لا يحزن على فائت، لأنه ليس بصدد أن يفوته، فهون عليه أمر حوادث الدنيا بذلك، إذ قد وطن نفسه على هذه العقيدة.

ويظهر أن المراد بقوله: ﴿ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ﴾: أن يلحق الحزن الشديد على

ما فات من الخير ، فيحدث عنه التسخط وعدم الرضا بالمقدور .

﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ : أن يفرح الفرح المؤدي إلى البطر المنهي عنه في قوله تعالى :

﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ فإن الحزن قد ينشأ عنه البطر ، ولذلك ختم بقوله :

﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ .

فالفرح بما ناله من حطام الدنيا يلحقه في نفسه الخيلاء والافتخار والتكبر على الناس ، فمثل هذا هو المنهي عنه .

وأما الحزن على ما فات من طاعة الله ، والفرح بنعم الله والشكر عليها والتواضع ، فهو مندوب إليه .

وقال ابن عباس : ليس أحد إلا يحزن ويفرح ، ولكن من أصابته مصيبة فجعلها صبراً ، ومن أصاب خيراً جعله شكراً .

انتهى ، يعني هو المحمود .

وقال الزمخشري : فإن قلت : فلا أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ، ولا عند منفعة ينالها أن لا يحزن ولا يفرح.

قلت : المراد : الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر ، والتسليم لأمر الله تعالى ، ورجاء ثواب الصابرين ، والفرح المطغي الملهي عن الشكر .

فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر ، فلا بأس به . انتهى .

(183/748)

وقرأ الجمهور : بما آتاكم : أي أعطاكم ؛ وعبد الله : أوتيتم ، مبنياً للمفعول : أي أعطيتم ؛ وأبو عمرو : أتاكم : أي جاءكم .

﴿ الذين يبخلون ﴾ : أي هم الذين يبخلون ، أو يكون الذين مبتدأ محذوف الخبر على جهة الإبهام تقديره : مذمومون ، أو موعودون بالعذاب ، أو مستغنى عنهم ، أو على إضمار ، أعني فهو في موضع نصب ، أو في موضع نصب صفة لكل مختال ، وإن كان نكرة ، فهو مخصص نوعاً مّا ، فيسوغ لذلك وصفة بالمعرفة .

قال ابن عطية : هذا مذهب الأخفش . انتهى .

عظمت الدنيا في أعينهم ، فبخلوا أن يؤدوا منها حقوق الله تعالى ، وما كفاهم ذلك حتى أمروا الناس بالبخل ورغبوهم في الإمساك ، والظاهر أنهم أمروا الناس حقيقة .

وقيل : كانوا قدوة فيه ، فكأنهم يأمرون به .

﴿ ومن يتول ﴾ عن ما أمر الله به .

وقرأ الجمهور : ﴿ فإن الله هو ﴾ ؛ وقرأ نافع وابن عامر : بإسقاط هو ، وكذا في مصاحف المدينة والشام ، وكلتا القراءتين متواترة .

فمن أثبت هو ، فقال أبو علي الفارسي : يحسن أن يكون فصلاً ، قال : ولا يحسن أن يكون ابتداء ، لأن حذف الابتداء غير سائغ . انتهى .

يعني أنه في القراءة الأخرى حذف ، ولو كان مبتدأ لم يجز حذفه ، لأنك إذا قلت : إن زيداً هو الفاضل ، فأعربت هو مبتدأ ، لم يجز حذفه ، لأن ما بعده من قولك الفاضل صالح أن يكون خبراً لأن ، فلا يبقى دليل على حذف هو الرابط .

ونظيره : ﴿ الذين هم يراءون ﴾ لا يجوز حذف هم ، لأن ما بعده يصلح أن يكون صلة ، فلا يبقى دليل على المحذوف .

وما ذهب إليه أبو علي ليس بشيء ، لأنه بنى ذلك على توافق القراءتين وتركيب إحداهما على الأخرى ، وليس كذلك .

ألا ترى أنه يكون قراءتان في لفظ واحد ، ولكل منهما توجيه يخالف الآخر ، كقراءة من قرأ :

﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ بضم التاء ، والقراءة الأخرى : ﴿ بما وضعت ﴾ بتاء التأنيث فضم التاء يقتضي أن الجملة من كلام أم مريم ، وتاء التأنيث تقتضي أنها من كلام الله تعالى ، وهذا كثير في القراءات المتواترة .

فكذلك هذا يجوز أن يكون هو مبتدأ في قراءة من أثبته ، وإن كان لم يرد في القراءة الأخرى ، ولكل من التركيبين في الإعراب حكم يخصه .

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ : الظاهر أن الرسل هنا هم من بني آدم ، والبينات : الحجج والمعجزات .

﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ : الكتاب اسم جنس ، ومعهم حال مقدرة ، أي وأنزلنا الكتاب صائراً معهم ، أي مقدراً صحبته لهم ، لأن الرسل منزلين هم والكتاب .

ولما أشكل لفظ معهم على الزمخشري ، فسر الرسل بغير ما فسرناه ، فقال : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا ﴾ ، يعنى : الملائكة ، إلى الأنبياء بالحجج والمعجزات ، ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ : أي الوحي ، ﴿ والميزان ﴾ .

وروي أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان ، فدفعه إلى نوح وقال : مر قومك يزنوا به .

﴿ وأنزلنا الحديد ﴾ ، قيل : نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والإبرة .

وروي : ومعه المسن والمسحاة .

وعن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض، أنزل الحديد والنار والماء والملح. انتهى.

وأكثر المتأولين على أن المراد بالميزان: العدل، فقال ابن زيد وغيره: أراد بالموازين: المعرفة بين الناس، وهذا جزء من العدل.

(185/748)

﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾: الظاهر أنه علة لإنزال الميزان فقط، ويجوز أن يكون علة لإنزال الكتاب والميزان معاً، لأن القسط هو العدل في جميع الأشياء من سائر التكاليف، فإنه لا جور في شيء منها، ولذلك جاء: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ﴾ ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾: عبر عن إيجاده بالإنزال، كما قال: ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ﴾ وأيضاً فإن الأوامر وجميع القضايا والأحكام لما كانت تلقى من السماء، جعل الكل نزولاً منها، قاله ابن عطية.

وقال الجمهور: أراد بالحديد جنسه من المعادن.

وقال ابن عباس: نزل آدم من الجنة ومعه السندان والكلبتان والميقعة.

﴿ فيه بأس شديد ﴾: أي السلاح الذي يباشر به القتال، ﴿ ومنافع للناس ﴾: في

مصالحهم ومعايشهم وصنائعهم ؛ فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها .

﴿ وليعلم الله ﴾ علة لإنزال الكتاب والميزان والحديد .

﴿ من ينصره ورسله ﴾ بالحجج والبراهين المنتزعة من الكتاب المنزل ، وبإقامة العدل ، وبما يعمل من آلة الحرب للجهاد في سبيل الله .

قال ابن عطية : أي ليعلمه موجوداً ، فالتغير ليس في علم الله ، بل في هذا الحدث الذي خرج من العدم إلى الوجود .

وقوله : ﴿ بالغيب ﴾ معناه : بما سمع من الأوصاف الغائبة عنه ، فآمن بها لقيام الأدلة عليها .

ولما قال تعالى : ﴿ من ينصره ورسله ﴾ ، ذكر تعالى أنه غني عن نصرته بقدرته وعزته ، وأنه إنما كلفهم الجهاد لمنفعة أنفسهم ، وتحصيل ما يترتب لهم من الثواب .

وقال ابن عطية : ويترتب معنى الآية بأن الله تعالى أخبر بأنه أرسل رسله ، وأنزل كتباً وعدلاً مشروعاً ، وسلاحاً يحارب به من عاند ولم يهتد بهدي الله ، فلم يبق عذر .

وفي الآية ، على هذا التأويل ، حث على القتال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ

﴿ سَابِقُوا ﴾

أي سارِعُوا مسارعةَ المسابقينَ لأقرانهم في المضمار ﴿ إلى مَغْفِرَةٍ ﴾ عظيمةٍ كائنةٍ ﴿ مِّن رَّبّكُمْ ﴾ أي إلى موجباتِها من الأعمال الصَّالحةِ ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السماء والأرض ﴾ أي كعرضِهما جميعاً وإذا كانَ عرضُها كذلكَ فما ظنُّك بطولِها ، وقيلَ : المرادُ بالعرضِ البسطةُ . وتقديمُ المغفرةِ على الجنةِ لتقديم التخليةِ على التحليةِ . ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الجنةَ مخلوقةٌ بالفعلِ وأنَّ الإيمانَ وحدَهُ كافٍ في استحقاقها ﴿ ذلك ﴾ الذي وعدَ من المغفرةِ والجنةِ ﴿ فَضْلُ الله ﴾ عطاؤُه ﴿ يُؤْتِيهُ ﴾ تفضلاً وإحساناً ﴿ مَن يَشَاء ﴾ إيتاءَهُ إيَّاهُ من غيرِ إيجابٍ ﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ ولذلكَ يُؤتى مَن يشاءُ مثلَ ذلكَ الفضلِ الذي لا غايةَ وراءَهُ .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ ﴾ كجدبٍ وعاهةٍ في الزرعِ والثمارِ ﴿ وَلَا فِى أَنفُسِكُمْ ﴾ كمرضٍ وآفةٍ ﴿ إِلَّا فِى كِتَابٍ ﴾ أي إلا مكتوبةً مثبتةً في علمِ الله تعالى أو في اللّوحِ ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ أي نخلقَ الأنفسَ أو المصائبَ أو الأرضَ ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ أي إثباتَها في كتابٍ ﴿ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ لاستغنائِه فيه عن العُدّةِ والمدةِ. ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ ﴾ أي أخبرناكُم بذلك لئلا تحزنوا ﴿ على مَا فَاتَكُمْ ﴾ من نعمِ الدُّنيا ﴿ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَا ءاتاكم ﴾ أي أعطاكُم الله تعالى منها، فإنَّ من علمَ أنَّ الكلَّ مقدرٌ يفوتُ ما قُدِّرَ فواتُه ويأتي ما قُدِّرَ إتيانُه لا محالةَ لا يعظُم جزعُه على ما فاتَ ولا فرحُه بما هُو آتٍ، وقُرِىءَ بما أَتاكُم من الإتيانِ. وفي القراءةِ الأُولى إشعارٌ بأنَّ فواتَ النعمِ يلحقُها إذا خُلّيتْ وطباعَها وأمَّا حصولُها وبقاؤُها فلابُدَّ لهما من سببٍ يُوجدها ويُبقيها، وقُرِىءَ بما أُوتيتُم. والمرادُ بِهِ نفيُ الأَسَى المانعِ عن التسليمِ لأمرِ الله تعالى والفرحِ الموجبِ للبطرِ والاختيالِ، ولذلكَ عقبَ بقولِه تعالى: ﴿ والله لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ فإنَّ من فرحَ بالحظوظِ الدنيويةِ وعظُمتْ في نفسه اختالَ وافتخرَ بها لا محالةَ، وفي تخصيصِ التذييلِ بالنَّهيِ عن الفرحِ المذكورِ إيذانٌ بأنَّه أقبحُ من الأَسَى.

﴿ الذين يَبْخَلُونَ ويَأْمُرُونَ الناس بالبخل ﴾ بدلٌ من كلِّ مختال ، فإنَّ المختالَ بالمال يضنُّ به غالباً ويأمرُ غيرَهُ به . أو مبتدأٌ خبرُهُ محذوفٌ يدلُّ عليه قولُه تعالَى : ﴿ ومَن يَتَوَلَّ فإنَّ اللهَ هُوَ الغنى الحميد ﴾ فإنَّ معناهُ ومَنْ يُعرِضُ عن الإنفاقِ فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنْهُ وعنْ إنفاقه محمودٌ في ذاتِه لا يضرُّه الإعراضُ عن شكرِه بالتقربِ إليهِ بشيءٍ من نعمِه ، وفيه تهديدٌ وإشعارٌ بأنَّ الأمرَ بالإنفاقِ لمصالحةِ المُنفقِ . وقُرِىءَ فإنَّ اللهَ الغنيُّ .

(189/748)

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾ أي الملائكةَ إلى الأنبياءِ أو الأنبياءَ إلى الأممِ وهُو الأظهرُ ﴿ بالبينات ﴾ أي الحججِ والمعجزاتِ ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب ﴾ أي جنسَ الكتابِ الشاملِ للكُلِّ ﴿ والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ أي بالعدلِ . رُوِيَ (أنَّ جبريلَ عليهِ السَّلامُ نزلَ بالميزانِ فدفعَهُ إلى نوحٍ عليهِ السَّلامُ وقالَ مُرْ قومَكَ يزنُوا بهِ) ، وقيلَ أُريدَ به العدلُ ليُقامَ بهِ السياسةُ ويدفعَ به العُدوانُ . ﴿ وَأَنْزَلْنَا الحديد ﴾ قيلَ : نزلَ آدمُ عليهِ السلامُ من الجنَّةِ ومعَهُ خمسةُ أشياءَ منْ حديدٍ : السندانُ والكلبتانِ والميقعةُ والمطرقةُ والإبرةُ ، ورُوِيَ ومعَهُ المرُّ والمِسحاتُ . وعنِ الحسنِ : وأنزلنَا الحديدَ خلقناهُ كقولِه تعالَى وأنزلَ لكُم من الأنعامِ وذلكَ أنَّ أوامرَهُ تعالَى وقضاياهُ وأحكامَهُ تنزلُ من السماءِ . وقولُه

تعالى : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ لأنَّ آلاتِ الحروبِ إنَّما تتخذُ منْهُ ﴿ ومنافعُ للنَّاسِ ﴾ إذْ مَا من صنعةٍ إلاَّ والحديدُ أو ما يُعمل بالحديدِ آلتُها . والجملةُ حالٌ من الحديدِ . وقولُه تعالَى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ ﴾ عطفٌ على محذوفٍ يدلُّ عليه ما قبلَهُ فإنَّه حالٌ متضمنةٌ للتعليلِ كأنَّه قيلَ ليستعملُوه وليعلمَ اللهُ علماً يتعلقُ به الجزاءُ من ينصرُه ورسلَهُ باستعمالِ السيوفِ والرماحِ وسائرِ الأسلحةِ في مجاهدةِ أعدائِه أو متعلقٌ بمحذوفٍ مؤخرٍ والواوُ اعتراضيةٌ أي وليعلمَ اللهُ مَنْ ينصرُه ورسلَهُ أنزلَه وقيلَ عطفٌ على قولِه تعالَى ليقومَ النَّاسُ بالقسطِ . وقولُه تعالَى : ﴿ بالغيب ﴾ حالٌ من فاعلِ ينصرُ أو مفعولِه أي غائباً عنْهم أو غائبينَ عنه . وقولُه تعالَى : ﴿ إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ جيءَ به تحقيقاً للحقِّ وتنبيهاً على أنَّ تكليفَهُم الجهادَ وتعريضَهُم للقتالِ ليسَ لحاجتِه في إعلاءِ

(190/748)

كلمتِه وإظهارِ دينِه إلى نصرتِهم بل إنَّما هُو لينتفعُوا بهِ ويصلُوا بامتثالِ الأمرِ فيهِ إلى الثوابِ وإلاَّ فهُو غنيٌّ بقدرتِه وعزتِه عنهُم في كلِّ ما يريدُه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وإبراهيم ﴾ نوعُ تفصيلٍ لَما أُجملَ في قولِه تعالَى لقد أرسلنَا رسلنَا إلخ . وتكريرُ القسمِ لإظهارِ مزيدِ الاعتناءِ بالأمرِ أيْ وباللهِ لَقَدْ أرسلناهُمَا ﴿ وَجَعَلْنَا فِى

ذُرِّيَّتِهِمَا النبوة والكتاب ﴾ بأن استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتب وقيل المرادُ بالكتابِ الخطِّ بالقلمِ ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي من الذرية أو من المرسل إليهم المدلولِ عليهم بذكر الإرسالِ والمرسلينَ ﴿ مُّهْتَدٍ ﴾ إلى الحقِّ ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ خارجونَ عن الطريقِ المستقيمِ ، والعدولُ عن سننِ المقابلةِ للمبالغةِ في الذمِّ والإيذانِ بغلبةِ الضُّلالِ وكثرتهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(191/748)

وقال الآلوسى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾

أي من بني آدم كما هو الظاهر ﴿ بالبينات ﴾ أي الحجج والمعجزات ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب ﴾ أي جنس الكتاب الشامل للكل ، والظرف حال مقدرة منه على ما قال أبو حيان ، وقيل : مقارنة بتنزيل الاتصال منزلة المقارنة ﴿ والميزان ﴾ الآلة المعروفة بين الناس كما قال ابن زيد وغيره ، وإنزاله إنزال أسبابه ، ولو بعيدة ، وأمر الناس باتخاذه مع تعليم كيفيته .

﴿ لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ علة لإنزال الكتاب والميزان والقيام بالقسط أي بالعدل يشمل

التسوية في أمور التعامل باستعمال الميزان ، وفي أمور المعاد باحتذاء الكتاب وهو لفظ جامع مشتمل على جميع ما ينبغي الاتصاف به معاشاً ومعاداً .

﴿ وَأَنْزَلْنَا الحديد ﴾ قال الحسن : أي خلقناه كقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [الزمر : 6] وهو تفسير بلازم الشيء فإن كل مخلوق منزل باعتبار ثبوته في اللوح وتقديره موجوداً حيث ما ثبت فيه .

وقال قطرب : هيأناه لكم وأنعمنا به عليكم من نزل الضيف ﴿ فِيهِ بَأْسٌ ﴾ أي عذاب ﴿ شَدِيدٌ ﴾ لأن آلات الحرب تتخذ منه ، وهذا إشارة إلى احتياج الكتاب والميزان إلى القائم بالسيف ليحصل القيام بالقسط فإن الظلم من شيم النفوس ، وقوله تعالى : ﴿ ومنافع لِلنَّاسِ ﴾ أي في معايشهم ومصالحهم إذ ما من صنعة إلا والحديد أو ما يعمل به آلتها للإيماء إلى أن القيام بالقسط كما يحتاج إلى الوازع وهو القائم بالسيف يحتاج إلى ما به قوام التعايش ، ومن يقوم بذلك أيضاً ليتم التمدن المحتاج إليه النوع ، وليتم القيام بالقسط ، كيف وهو شامل أيضاً لما يخص المرء وحده ، والجملة الظرفية في موضع الحال ، وقوله سبحانه :

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ ﴾ عطف على محذوف يدل عليه السياق أو الحال لأنها متضمنة للتعليل أي لينفعهم وليعلم الله علماً يتعلق به الجزاء من ينصره ورسله باستعمال آلات الحرب من الحديد في مجاهدة أعدائه والحذف للإشعار بأن الثاني هو المطلوب لذاته وأن الأول مقدمة له ، وجوز تعلقه بمحذوف مؤخر والواو اعتراضية أي وليعلم الخ أنزله أو مقدم والواو عاطفة والجملة معطوفة على ما قبلها وقد حذف المعطوف وأقيم متعلقه مقامه ، وقوله تعالى : ﴿ بالغيب ﴾ حال من فاعل ينصر ، أو من مفعوله أي غائباً منهم أو غائبين منه ، وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ اعتراض تذييلي جىء به تحقيقاً للحق وتنبيهاً على أن تكليفهم الجهاد وتعريضهم للقتال ليس لحاجته سبحانه في إعلاء كلمته وإظهار دينه إلى نصرتهم بل إنما هو لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب وإلا فهو جل وعلا غني بقدرته وعزته عنهم في كل ما يريد .

هذا وذهب الزمخشري إلى أن المراد بالرسل رسل الملائكة عليهم السلام أي أرسلناهم إلى الأنبياء عليهم السلام ، وفسر البينات كما فسرنا بناءاً على الملائكة ترسل بالمعجزات كإرسالها بالحجج لتخبر بأنها معجزات وإلا فكان الظاهر الاقتصار على الحجج وإنزال

الكتاب أي الوحي مع أولئك الرسل ظاهر ، وإنزال الميزان بمعنى الآلة عنده على حقيقته ، قال : روي أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه السلام ، وقال : مُرْ قومك يزنوا به ، وفسره كثير بالعدل ، وعن ابن عباس في إنزال الحديد نزل مع آدم عليه السلام الميقعة والسندان والكلبتان ، وروى أنه نزل ومعه المرّ والمسحاة ، وقيل : نزل ومعه خمسة أشياء من الحديد السندان والكلبتان والإبرة والمطرقة والميقعة ، وفسرت بالمسن ، وتجىء بمعنى المطرقة أو العظيمة منها ، وقيل : ما تحدّ به الرحى ، وفي حديث ابن عباس نزل آدم عليه السلام من الجنة بالباسنة وهي آلات الصناع ، وقيل : سكة الحرث وليس بعربي محض والله تعالى أعلم .

واستظهر أبو حيان كون ليقوم الناس بالقسط علة لإنزال الميزان فقط وجوز ما ذكرناه وهو الأولى فيما أرى ، وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وإبراهيم ﴾

نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾ [الحديد : 25] وتكرير القسم لإظهار مزيد الاعتناء بالأمر أي وبالله لقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم .

﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النبوة والكتاب ﴾ بأن استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتب ، وقال ابن عباس : الكتاب الخط بالقلم ، وفي مصحف عبد الله والنبية مكتوبة بالياء عوض الواو ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي من الذرية ؛ وقيل : أي من المرسل إليهم المدلول عليهم بذكر الإرسال والمرسلين ﴿ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مّنْهُمْ فاسقون ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم ، ولم يقل ومنهم ضال مع أنه أظهر في المقابلة لأن ما عليه النظم الكريم أبلغ في الذم لأن الخروج عن الطريق المستقيم بعد الوصول بالتمكن منه ، ومعرفته أبلغ من الضلال عنه ولإيذانه بغلبة أهل الضلال على غيرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(195/748)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾

استئناف ابتدائي ناشىء عما تقدم من التحريض على الإنفاق في سبيل الله وعن ذكر الفتح وعن تذييل ذلك بقوله : ﴿ ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد ﴾ [الحديد : 24] ، وهو إعذار للمتولين من المنافقين ليتداركوا صلاحهم باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والتدبر في هدي القرآن وإنذار لهم إن يرعووا وينصاعوا إلى الحجة الساطعة بأنه يكون تقويم

عوجهم بالسيوف القاطعة وهو ما صرح لهم به في وله في سورة [الأحزاب : 60 ، 61] ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في ن في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً ﴾ وقوله في سورة [التحريم : 9] ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ لئلا يحسبوا أن قوله : ﴿ ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد ﴾ [الحديد : 24] مجرد متاركة فيطمئنوا لذلك .

وتأكيد الخبر بلام القسم وحرف التحقيق راجع إلى ما تضمنه الخبر من ذكر ما في إرسال رسل الله وكتبه من إقامة القسط للناس ، ومن التعريض بحمل المعرضين على السيف إن استمروا على غلوائهم .

وجمع (الرسل) هنا لإِفادة أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ليس بدعاً من الرسل ، وأن مكابرة المنافقين عماية عن سنة الله في خلقه فتأكيد ذلك مبني على تنزيل السامعين منزلة من ينكر أن الله أرسل رسلاً قبل محمد صلى الله عليه وسلم لأن حالهم في التعجب من دعواه الرسالة كحال من ينكر أن الله أرسل رسلاً من قبل .

وقد تكرر مثل هذا في مواضع من القرآن كقوله تعالى : ﴿ قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات ﴾ [آل عمران : 183] .

والبينات : الحجج الدالّة على أن ما يدعون إليه هو مراد الله ، والمعجزات داخلة في البينات .

(196/748)

وتعريف ﴿ الكتاب ﴾ تعريف الجنس ، أي وأنزلنا معهم كتباً ، أي مثل القرآن .

وإنزال الكتاب : تبليغ بواسطة المَلك من السماء ، وإنزال الميزان : تبليغ الأمر بالعدل بين الناس .

والميزان : مستعار للعدل بين الناس في إعطاء حقوقهم لأن مما يقتضيه الميزان وجود طرفين يراد معرفة تكافئهما ، قال تعالى : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ [النساء : 58] .

وهذا الميزان تبيّنه كُتب الرسل ، فذكره بخصوصه للاهتمام بأمره لأنه وسيلة انتظام أمور البشر كقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ [النساء : 105] وليس المراد أن الله ألهمهم وضع آلات الوزن لأن هذا ليس من المهم ، وهو مما يشمله معنى العدل فلا حاجة إلى التنبيه عليه بخصوصه .

ويتعلق قوله : ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾ بقوله : ﴿ وأنزلنا معهم ﴾ .

والقيام: مجاز في صلاح الأحوال واستقامتها لأنه سبب لتيسير العمل وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى: ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ في أوائل [البقرة: 3].

والقسط: العدل في جميع الأمور، فهو أعم من الميزان المذكور لاختصاصه بالعدل بين متنازعين، وأما القسط فهو إجراء أمور الناس على ما يقتضيه الحق فهو عدل عام بحيث يقدر صاحب الحق منازعاً لمن قد احتوى على حقه.

ولفظ القسط مأخوذ في العربية من لفظ قسطاس اسم العدل بلغة الرُّوم، فهو من المعرّب وروي ذلك عن مجاهد.

والباء للملابسة، أي يكون أمر الناس ملابساً للعدل ومماشياً للحق، وإنزال الحديد: مستعار لخلق معدنه كقوله: ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [الزمر: 6]، أي خلق لأجلكم وذلك بإلهام البشر استعماله في السلاح من سيوف ودروع ورماح ونبال وخُوذ ودَرَق ومَجَانّ.

ويجوز أن يراد بالحديد خصوص السلاح المتخذ منه من سيوف وأسنة ونبال، فيكون إنزاله مستعاراً لمجرد إلهام صنعه، فعلى الوجه الأول يكون ضمير ﴿ فيه بأس شديد ﴾ عائداً

إلى الحديد باعتبار إعداده للبأس فكأن البأس مظروف فيه .

والبأس : الضر .

والمراد بأس القتل والجرح بآلات الحديد من سيوف ورماح ونبال ، وبأس جُرأة الناس على إيصال الضر بالغير بواسطة الواقيات المتخذة من الحديد .

والمنافع : منافع الغالب بالحديد من غنائم وأسرى وفتح بلاد .

ويتعلق قوله : ﴿ للناس ﴾ بكلٍ من ﴿ بأس ﴾ و ﴿ منافع ﴾ على طريقة التنازع ، أي فيه بأس لِنَاس ومنافع لآخرين فإن مصائب قوم عند قوم فوائد .

والمقصود من هذا لفت بصائر السامعين إلى الاعتبار بحكمة الله تعالى من خَلق الحديد وإلهامِ صنعه ، والتنبيه على أن ما فيه من نفع وبأس إنما أريد به أن يوضع بأسه حيث يستحق ويوضع نفعه حيث يليق به لا لتجعل منافعه لمن لا يستحقها مثل قطّاع الطريق والثوار على أهل العدل ، ولتجهيز الجيوش لحماية الأوطان من أهل العدوان ، وللادخار في البيوت لدفع الضاريات والعاديات على الحُرم والأموال .

وكان الحكيم (انتيثنوس) اليوناني تلميذ سقراط إذا رأى امرأة حالية متزينة في أثينا يذهب إلى بيت زوجها ويسأله أن يريه فرسه وسلاحه فإذا رآهما كاملين أذن لامرأته أن تتزين لأن زوجها قادر على حمايتها من داعرٍ يغتصبها ، وإلا أمرها بترك الزينة وترك الحلي .

وهذا من باب سد الذريعة ، لا ليجعل بأسه لإِخضاد شوكة العدل وإرغام الآمرين

بالمعروف على السكوت، فإن ذلك تحريف لما أراد الله من وضع الأشياء النافعة والقارة، قال تعالى: ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ [البقرة: 205]، وقال على لسان أحد رسله ﴿ إن أُريد إلاّ الإصلاح ما استطعت ﴾ [هود: 88].

(198/748)

وقد أومَا إلى هذا المعنى بالإجمال قوله: ﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾، أي ليظهر للناس أثر علم الله بمن ينصره، فأطلق فعل ﴿ ليعلم ﴾ على معنى ظُهور أثر العلم كقول إياس بن قبيصة الطائي:

وأقبلتُ والخطيُّ يخطر بيننا

لأَعْلَمَ مَن جَبانُها من شُجاعها...

أي ليظهر للناس الجبان والشجاع، أي فيعلموا أني شجاعهم.

ونصرُ الناس الله هو نصرهم دينه، وأما الله فغني عن النصر، وعطف ﴿ ورسله ﴾، أي من ينصر القائمين بدينه، ويدخل فيه نصر شرائع الرسول صلى الله عليه وسلم بعده ونصر ولاة أمور المسلمين القائمين بالحق.

وأعظم رجل نصر دين الله بعد وفاة رسوله صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر الصديق في

قتاله أهل الردة رضي الله عنه .

وقوله : ﴿ بالغيب ﴾ يتعلق بـ ﴿ ينصره ﴾ ، أي ينصره نصراً يدفعه إليه داعي نفسه دون خشية داعٍ يدعوه إليه ، أو رقيب يرقب صنيعه والمعنى : أنه يجاهد في سبيل الله والدفاع عن الدين بمحض الإِخلاص .

وقد تقدم ذكر الحديد ومعدنه وصناعته في تفسير قوله تعالى : ﴿ آتوني زبر الحديد ﴾ في سورة [الكهف : 96] .

وجملة إن الله قوي عزيز ﴾ تعليل لجملة ﴿ أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ إلى آخرها ، أي لأن الله قوي عزيز في شؤونه القدسية ، فكذلك يجب أن تكون رسله أقوياء أعزة ، وأن تكون كتبه معظمة موقرة ، وإنما يحصل ذلك في هذا العالم المنوطة أحداثه بالأسباب المجعولة بأن ينصره الرسل وأقوام مخلصون لله ويُعينوا على نشر دينه وشرائعه .

والقوي العزيز : من أسمائه تعالى .

فالقوي : المتصف بالقوة ، قال تعالى : ﴿ ذو القوة المتين ﴾ [الذاريات : 58] وتقدم القوي في قوله : ﴿ إن الله قوي شديد العقاب ﴾ [الأنفال : 52] .

والعزيز : المتصف بالعزة ، وتقدمت في قوله : ﴿ إن العزة لله جميعاً ﴾ في سورة يونس وقوله : ﴿ فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ [البقرة : 209] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾

معطوف على جملة ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ [الحديد : 25] عطف الخاص على العام لما أريد تفصيل لإجماله تفصيلاً يسجل به انحراف المشركين من العرب والضالّين من اليهود عن مناهج أبويهما : نوح وإبراهيم ، قال تعالى في شأن بني إسرائيل ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾ [الإسراء : 3] ، والعرب لا ينسون أنهم من ذرية نوح كما قال النابغة يمدح النعمان بن المنذر :

فألفيت الأمانة لم تخنْها

كذلك كان نوح لا يخون . . .

والنبوءة في ذريتهما كنبوءة هود وصالح وتُبّع ونبوءة إسماعيل وإسحاق وشعيب ويعقوب .

والمراد بـ ﴿ الكتاب ﴾ ما كان بيد ذرية نوح وذرية إبراهيم من الكتب التي فيها أصول دياناتهم من صحف إبراهيم وما حفظوه من وصاياه ووصايا إسماعيل وإسحاق .

والفسق : الخروج عن الاهتداء ، ومن الفاسقين : المشركون من عاد وثمود وقوم لوط واليمن والأوس والخزرج وهم من ذرية نوح ، ومن مدين والحجاز وتهامة وهم من ذرية إبراهيم .

والمراد : مَنْ أشركوا قبل مجيء الإسلام لقوله : ﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا

بعيسى ابن مريم ﴾ [الحديد : 27] .

وقال الآلوسى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾

أي من بني آدم كما هو الظاهر ﴿ بالبينات ﴾ أي الحجج والمعجزات ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب ﴾ أي جنس الكتاب الشامل للكل ، والظرف حال مقدرة منه على ما قال أبو حيان ، وقيل : مقارنة بتنزيل الاتصال منزلة المقارنة ﴿ والميزان ﴾ الآلة المعروفة بين الناس كما قال ابن زيد وغيره ، وإنزاله إنزال أسبابه ، ولو بعيدة ، وأمر الناس باتخاذه مع تعليم كيفيته .

(200/748)

﴿ لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾

علة لإنزال الكتاب والميزان والقيام بالقسط أي بالعدل يشمل التسوية في أمور التعامل باستعمال الميزان ، وفي أمور المعاد باحتذاء الكتاب وهو لفظ جامع مشتمل على جميع ما ينبغي الاتصاف به معاشاً ومعاداً .

﴿ وَأَنزْلْنَا الحديد ﴾ قال الحسن : أي خلقناه كقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مّنَ الأنعام ثمانية

أزواج ﴾ [الزمر : 6] وهو تفسير بلازم الشيء فإن كل مخلوق منزل باعتبار ثبوته في اللوح وتقديره موجوداً حيث ما ثبت فيه .

وقال قطرب : هيأناه لكم وأنعمنا به عليكم من نزل الضيف ﴿ فِيهِ بَأْسٌ ﴾ أي عذاب ﴿ شَدِيدٌ ﴾ لأن آلات الحرب تتخذ منه ، وهذا إشارة إلى احتياج الكتاب والميزان إلى القائم بالسيف ليحصل القيام بالقسط فإن الظلم من شيم النفوس ، وقوله تعالى : ﴿ ومنافع لِلنَّاسِ ﴾ أي في معايشهم ومصالحهم إذ ما من صنعة إلا والحديد أو ما يعمل به آلتها للإيماء إلى أن القيام بالقسط كما يحتاج إلى الوازع وهو القائم بالسيف يحتاج إلى ما به قوام التعايش ، ومن يقوم بذلك أيضاً ليتم التمدن المحتاج إليه النوع ، وليتم القيام بالقسط ، كيف وهو شامل أيضاً لما يخص المرء وحده ، والجملة الظرفية في موضع الحال ، وقوله سبحانه :

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ ﴾

عطف على محذوف يدل عليه السياق أو الحال لأنها متضمنة للتعليل أي لينفعهم وليعلم الله علماً يتعلق به الجزاء من ينصره ورسله باستعمال آلات الحرب من الحديد في مجاهدة أعدائه والحذف للإشعار بأن الثاني هو المطلوب لذاته وأن الأول مقدمة له ، وجوز تعلقه

بمحذوف مؤخر والواو اعتراضية أي وليعلم الخ أنزله أو مقدم والواو عاطفة والجملة معطوفة على ما قبلها وقد حذف المعطوف وأقيم متعلقه مقامه ، وقوله تعالى : ﴿ بالغيب ﴾ حال من فاعل ينصر ، أو من مفعوله أي غائباً منهم أو غائبين منه ، وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ اعتراض تذييلي جيء به تحقيقاً للحق وتنبيهاً على أن تكليفهم الجهاد وتعريضهم للقتال ليس لحاجته سبحانه في إعلاء كلمته وإظهار دينه إلى نصرتهم بل إنما هو لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب وإلا فهو جل وعلا غني بقدرته وعزته عنهم في كل ما يريد .

(202/748)

هذا وذهب الزمخشري إلى أن المراد بالرسل رسل الملائكة عليهم السلام أي أرسلنا هم إلى الأنبياء عليهم السلام ، وفسر البينات كما فسرنا بناءاً على الملائكة ترسل بالمعجزات كإرسالها بالحجج لتخبر بأنها معجزات وإلا فكان الظاهر الاقتصار على الحجج وإنزال الكتاب أي الوحي مع أولئك الرسل ظاهر ، وإنزال الميزان بمعنى الآلة عنده على حقيقته ، قال : روي أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه السلام ، وقال : مُرْ قومك يزنوا به ، وفسره كثير بالعدل ، وعن ابن عباس في إنزال الحديد نزل مع آدم عليه السلام

الميقعة والسندان والكلبتان ، وروى أنه نزل ومعه المرّ والمسحاة ، وقيل : نزل ومعه خمسة أشياء من الحديد السندان والكلبتان والإبرة والمطرقة والميقعة ، وفسرت بالمسن ، وتجىء بمعنى المطرقة أو العظيمة منها ، وقيل : ما تحدّ به الرحى ، وفي حديث ابن عباس نزل آدم عليه السلام من الجنة بالباسنة وهي آلات الصناع ، وقيل : سكة الحرث وليس بعربي محض والله تعالى أعلم .

واستظهر أبو حيان كون ليقوم الناس بالقسط علة لإنزال الميزان فقط وجوز ما ذكرناه وهو الأولى فيما أرى ، وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وإبراهيم ﴾

نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾ [الحديد : 25] وتكرير القسم لإظهار مزيد الاعتناء بالأمر أي وبالله لقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم .

(203/748)

﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرّيَّتِهِمَا النبوة والكتاب ﴾

بأن استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتب ، وقال ابن عباس : الكتاب الخط بالقلم ، وفي مصحف عبد الله والنبية مكتوبة بالياء عوض الواو ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي من الذرية ؛ وقيل :

أي من المرسل إليهم المدلول عليهم بذكر الإرسال والمرسلين ﴿ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم ، ولم يقل ومنهم ضال مع أنه أظهر في المقابلة لأن ما عليه النظم الكريم أبلغ في الذم لأن الخروج عن الطريق المستقيم بعد الوصول بالتمكن منه ، ومعرفته أبلغ من الضلال عنه ولإيذانه بغلبة أهل الضلال على غيرهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(204/748)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ ، أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي نَظَرْت يَوْمًا فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ وَأَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ فِيهِ ، فَقِيلَ نَزَلَ آدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ الْجَنَّةِ وَمَعَهُ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ مِنْ حَدِيدِ الْكَلْبَتَانِ وَالسَّنْدَانِ وَالْمِطْرَقَةِ وَالْمِيقَعَةِ وَالْإِبْرَةِ ؛ وَالْمِيقَعَةُ خَشَبَةُ الْقَصَّارِ الَّتِي يَدُقُّ عَلَيْهَا ، وَعَنْ الْحَسَنِ ﴿ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ خَلَقْنَاهُ ، كَقَوْلِهِ ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ أَوَامِرَهُ تَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَقَضَايَاهُ وَأَحْكَامُهُ ، فَاسْتَحْسَنْت هَذَا الْقَوْلَ ، وَالتَّعْبِيرُ بِلَفْظِ الْإِنْزَالِ عَنْ

الْخَلْقِ وَالْعَلَاقَةُ بَيْنَهُمَا مَا ذَكَرَ مِنْ أَنَّ الْأَوَامِرَ وَالْقَضَايَا وَالْأَحْكَامَ نَازِلَةٌ مِنْ السَّمَاءِ بِحَسَبِ تَسْمِيَةِ الْمَخْلُوقِ بِالْمُنْزَلِ لِذَلِكَ ، لِأَنَّ كِلَاهُمَا مِنْ الْقَضَايَا الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَى الْأَوَامِرِ وَالْأَحْكَامِ وَالْقَضَايَا ، ثُمَّ فَكَّرْتُ فِي كَوْنِ الْقَضَاءِ وَالْأَوَامِرِ وَالْأَحْكَامِ نَازِلَةً مِنْ السَّمَاءِ فَوَقَعَ لِي أَنَّهَا جِهَةُ الْعُلُوِّ بِالنِّسْبَةِ إلَى الْعَبْدِ الَّذِي هُوَ مَأْمُورٌ وَمَقْضِيٌّ عَلَيْهِ وَمَحْكُومٌ عَلَيْهِ .

(205/748)

وَالْمُنَاسَبَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَأْمُورَ مَحَلُّهُ التَّسَافُلُ وَالذِّلَّةُ وَالْخُضُوعُ ، وَالْأَوَامِرُ الْوَارِدَةُ عَلَيْهِ مَحَلُّهَا الْعُلُوُّ وَالِاسْتِعْلَاءُ وَالْقَهْرُ ، وَذَلِكَ عُلُوٌّ مَعْنَوِيٌّ ، وَالْعُلُوُّ الْمَعْنَوِيُّ يُنَاسِبُهُ الْعُلُوُّ الْحِسِّيُّ ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ الْأَوَامِرُ تَأْتِي مِنْ جِهَةِ الْعُلُوِّ ؛ وَالسَّمَاءُ مُحِيطَةٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ ؛ فَجُعِلَتْ الْأَوَامِرُ مِنْهَا ، وَالْمَأْمُورُ فِي الْحَضِيضِ مِنْهَا لِيَرَى نَفْسَهُ أَبَدًا سَافِلًا رُتْبَةً وَصُورَةً تَحْتَ الْأَوَامِرِ لِيَنْقَادَ إلَيْهَا ، وَذَلِكَ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِهِ ، حَتَّى لَا تَتَكَبَّرَ نَفْسُهُ فَيَهْلَكُ ، فَهَذِهِ حِكْمَةٌ

(206/748)

اللهِ في تَخْصِيصِ السَّمَاءِ بِمَجيءِ الْأَوَامِرِ مِنْهَا ، وكَانَ فِي الْإِمْكَانِ أَنْ يَجْعَلَهَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى ، ولَعَلَّ لِأَجْلِ ذَلِكَ خَلَقَ اللَّهُ الْعَالَمَ عَلَى هذهِ الْهَيْئَةِ ، وخَلَقَ السَّموَاتِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ وَأَسْكَنَهَا مَلَائِكَتَهُ الَّذِينَ هُمْ سُفَرَاءُ بَيْنَهُ وبَيْنَ خَلْقِهِ وحَمَلَةُ أَمْرِهِ وأَحْكَامِهِ وخَلَقَ فَوْقَ ذَلِكَ عَرْشَهُ وكُرْسِيَّهُ لِيُركِّزَ في نُفُوسِ الْعِبَادِ عَظَمَتَهُ واسْتِعْلَاءَ أَوَامِرِهِ عَلَيْهِمْ لِيَنْقَادُوا لَهَا .

وَيُرْشِدُ إِلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ سَخرَ لَكُمْ مَا فِي السَّموَاتِ ومَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ ولَيْسَ ذَلِكَ لِتَحَيُّزِهِ تَعَالَى فِيهَا ، ولَمَّا كَانَتْ جِهَةُ السَّمَاءِ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ وارْتَكَزَتْ الْأُمُورُ الْمَذْكُورَةُ فِي نُفُوسِ الْعِبَادِ رَفَعُوا أَيْدِيَهُمْ فِي الدُّعَاءِ إِلَى تِلْكَ الْجِهَةِ لِنُزُولِ الْقَضَاءِ لَا لِتَحَيُّزِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى فِيهَا ، وإِنَّمَا هُوَ تَدْبِيرٌ فِي الْمَخْلُوقَاتِ ومَا يَرِدُ إِلَيْهِمْ مِنْ الْأَوَامِرِ ومَا يُصْلِحُهُمْ ، والرَّبُّ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى مُتَعَالٍ عَنْ ذَلِكَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ الْعُقُولُ ، وحَسْبُ الْعَبْدِ مَعْرِفَةُ نَفْسِهِ بِالذِّلَّةِ وَالْعَجْزِ وَالْجَهْلِ وَالتَّكْلِيفِ وامْتِثَالِ مَا أُمِرَ بِهِ وكُلِّفَ واجْتِنَابِ مَا نُهِيَ عَنْهُ ، وتَعْظِيمِ الرَّبِّ الَّذِي مِنْهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْوُقُوفُ عِنْدَهُمَا وعَدَمُ التَّفَكُّرِ فِي ذَاتِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ فَالْعُقُولُ تَقْصُرُ دُونَهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انْتَهَى . انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ ﴾

(207/748)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية. 23

. . . وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . . . .

الحديد : 25

بقلم د : زغلول النجار

سورة الحديد سورة مدنية , وهي السورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التي تحمل اسم عنصر من العناصر المعروفة لنا والتي يبلغ عددها مائة وخمسة عناصر ; ويعجب القارئ للقرآن لاختيار هذا العنصر بالذات اسما لهذه السورة التي تدور حول قضية إنزاله من السماء , وبأسه الشديد , ومنافعه للناس . . . . . . ! !

وتبدأ السورة الكريمة بتأكيد أن كل مافي السماوات والأرض خاضع بالعبودية لله , مسبح بحمده , منزه له عن كل وصف لايليق بجلاله , لأنه (تعالي) هو العزيز الحكيم , الذي له ملك السماوات والأرض , الذي يحيي ويميت وهو علي كل شيء قدير ; وتواصل الآيات مزيدا من صفات هذا الخالق العظيم فهو الأول بلا بداية , والآخر بلا نهاية , والظاهر فليس

فوقه شيء , والباطن فليس دونه شيء , وهو العليم بكل شيء , فلا تخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء ; وأنه (تعالي) خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوي علي العرش استواء يليق بجلاله , وأنه (سبحانه) يعلم مايلج في الأرض , ومايخرج منها , وماينزل من السماء , ومايعرج فيها , وأنه مع جميع خلقه أينما كانوا , وفي أي زمان كانوا , فلا الزمان ولا المكان يقف عائقا أمام قدرة الله , وهو (تعالي) مطلع علي جميع خلقه , بصير بما يعملون , وهو الذي له ملك السماوات والأرض , الذي إليه ترجع الأمور , وأن من الدلائل علي طلاقة قدرته أنه (تعالي) يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل , وهو (سبحانه) عليم بذات الصدور , فالكون كله خاضع لإرادته (تعالي) فهو خالقه ومبدعه ,

(208/748)

والمتصرف فيه بما يشاء , وهذه الصفات العليا من خصائص الإله الواحد الأحد , الفرد الصمد , الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد , فلا شريك له في ملكه , ولا منازع له في سلطانه , فهو رب كل شيء ومليكه , بغير شريك ولا شبيه ولا منازع , المسيطر سيطرة مطلقة علي الوجود كله بكل مافيه , ومن فيه , فكل شيء بيديه , وكل شيء راجع إليه , لايخفي شيء عن علمه , ولا يخرج شيء عن أمره , يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور

. . . . ! !

ثم تتحرك الآيات بعد ذلك في إيقاع رقيق يخاطب جماعة المؤمنين , وتدعوهم إلي تجسيد إيمانهم بالله ورسوله في بذل الأموال والمهج والأرواح دفاعا عن هذا الدين , وإلي الإنفاق مما جعلوا مستخلفين فيه حتي ينالوا الأجر الكبير من رب العالمين , فالذي يفعل ذلك كأنما يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة وله أجر كريم , وبالإضافة إلي عمومية الدعوة إلي تلك الحقيقة , فهي تذكرة دائمة لجماعة المؤمنين بما بذله السابقون من المهاجرين والأنصار في سبيل الله , حتي يتأسوا بهم في التجرد الكامل , والاخلاص الصادق لدين الله , والبذل والتضحية بالأموال والأنفس من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض فلا تشدهم الحياة الدنيا عن الجهاد في سبيل الله مهما تكن المغريات , ومهما تكن العوائق . . . . . ! !

وبعد ذلك تعرض الآيات لحال كل من المؤمنين والمؤمنات في جانب , والمنافقين والمنافقات في جانب آخر يوم العرض الأكبر , وشتان ما بين الحالين .

وتتساءل الآيات عن إمكان أن يكون الوقت قد حان لكي تخشع قلوب المؤمنين لذكر الله , وما أنزل من الحق علي خاتم أنبيائه ورسله حتي لايكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون .

وتؤكد الآيات بعد ذلك مرحلية الحياة الدنيا , وأنها ليست إلا متاع الغرور , فلايجوز لعاقل أن ينخدع بها , ويفني عمره في خدمتها , لاهيا عن الأخرة وهي دار

القرار , ولذلك تنادي الآيات بالمسارعة إلي طلب المغفرة من الله , وإلي العمل المخلص الدءوب من أجل الفوز بالجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ; وتضيف الآيات أن كل خطب جلل نزل بالأرض أو بالأنفس مدون في كتاب الله من قبل وقوعه , وأن ذلك علي الله يسير , كي ترضي كل نفسي مؤمنة بقدر الله.خيره وشره.وتؤمن أن فيه الخير كل الخير , فلاتبطر عند مسرة , لأن الله تعالي لايحب كل مختال فخور , ولاتجزع عند مضرة لإيمانها بأن ذلك قدر مقسوم , وأجل محتوم , وأنه لاملجأ ولامنجي من الله إلا إليه . . . . ! !

وتنعي الآيات علي الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل , لأن الله تعالي كريم يحب كل كريم , ومن يتول عن منهج الله فإن الله هو الغني الحميد .

وبعد هذه المقدمة الطويلة يأتي قلب السورة وسر تسميتها في الآية التي يقول فيها ربنا (تبارك وتعالي) :

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز

(*

ثم تأتي الآيات الأربع الأخيرة في السورة لتعرض خط سير رسالة الهداية الربانية , وتاريخ هذا الدين - دين الإسلام الذي علمه ربنا (تبارك وتعالي) لأبينا آدم عليه السلام , وأنزله علي فترة من الرسل من لدن نبي الله نوح (عليه السلام) إلي خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله (عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكي التسليم) , والذي لا يرتضي ربنا (تبارك وتعالي) من عباده دينا سواه بعد أن أكمله , وأتمه , وحفظه في بعثة هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم (صلي الله وسلم وبارك عليه , وعلي آله وصحبه أجمعين) ,

وأشارت الآيات إلي حال بعض من أهل الكتاب ومنهم أتباع نبي الله عيسي (عليه السلام) , واختتمت السورة بالدعوة إلي الإيمان بالنبي الخاتم والرسول

الخاتم , ففي ذلك دخول في رحمة الله , وفي نوره ومغفرته , وهو سبحانه صاحب الفضل العظيم , والمنن العديدة التي يمن بها علي من يشاء من عباده .

والآية الكريمة التي نحن بصددها تؤكد أن الحديد قد أنزل إنزالا كما أنزلت جميع صور الوحي السماوي , وأنه يمتاز ببأسه الشديد , وبمنافعه العديدة للناس , وهو من الأمور التي

لم يصل العلم الإنساني إلي إدراكها إلا في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين .

وهنا يبرز التساؤل : كيف أنزل الحديد ؟ وما هو وجه المقارنة بين إنزال وحي السماء وإنزال الحديد ؟ ما هو بأسه الشديد ؟ وما هي منافعه للناس ؟ وقبل الإجابة علي تلك الأسئلة لابد من استعراض سريع للدلالات اللغوية لبعض ألفاظ الآية الكريمة , وكذلك للمواضع التي ورد فيها ذكر (الحديد) في كتاب الله (تعالي) .

الدلالات اللغوية لبعض ألفاظ الآية الكريمة

(النزول) في الأصل هو هبوط من علو , يقال في اللغة :(نزل) ,(ينزل) (نزولا) , و (منزلا) بمعني حل , يحل , حلولا ; والمنزل بفتح الميم والزاي هو (النزول) وهو الحلول , و (نزل) عن دابته بمعني هبط من عليها , و (نزل) في مكان كذا أي حط رحله فيه , و (النزيل) هو الضيف .

ويقال :(أنزله) غيره بمعني أضافه أو هبط به ; و (استنزله) بمعني (نزله تنزيلا) , و (التنزيل) ايضا هو القرآن الكريم , وهو (الإنزال المفرق) , وهو الترتيب ; وعلي ذلك فإن الإنزال أعم من التنزيل ; و (التنزل) هو (النزول في مهلة) , و (النزل) هو ما يهيأ (للنزيل) أي ما يعد (للنازل) من المكان , والفراش , والزاد , والجمع (انزال) ; وهو أيضا الحظ والريع , و (النزل) بفتحتين , و (المنزل) الدار والمنهل (أي المورد الذي ينتهل منه لأن به (

ماء) أو هو عين ماء ترده الإبل في المراعي , وتسمي المنازل التي في المفاوز علي طرق (

السفار) ; و (المنزلة) مثله , أو هي الرتبة أو المرتبة ; و (المنزلة) لا تجمع .

(211/748)

ويقال استنزل فلان (بضم التاء وكسر الزاي) أي حط عن مرتبته , و (المنزل) بضم الميم وفتح الزاي (الإنزال) , تقول : ' رب أنزلني (منزلا) مباركا , وأنت خير (المنزلين) *' ; و (إنزال) الله (تعالي) نعمه ونقمه علي الخلق هو إعطاؤهم إياها , وقال المفسرون في قول الحق (تبارك وتعالي) : (ولقد رآه نزلة أخري) إن (نزلة) هنا تعني مرة أخري .

وفي قوله (تعالي) ' جنات الفردوس نزلا ' قال الأخفش : هو من (نزول) الناس بعضهم علي بعض , يقال : ما وجدنا عندك نزلا ; و (النازلة) : الشديدة من شدائد الدهر تنزل بالناس , وجمعها (نوازل) ; و (النزال) في الحرب (المنازلة) ; و (النزلة هي الزكمة من الزكام , يقال به (نزلة) , وقد نزل

بضم النون .

الحديد في القرآن الكريم

ورد ذكر الحديد في كتاب الله (تعالي) في ست آيات متفرقات علي النحو التالي :

(1) قل كونوا حجارة أو حديدا *

(الإسراء :50)

(2) آتوني زبر الحديد . . . . . *(الكهف :96)

(3) ولهم مقامع من حديد *(الحج :21)

(4): . . وألنا له الحديد *(سبأ :10)

(5) لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد * . (ق

:22)

(6) . . وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . . *(الحديد :25)

وكلها تشير إلي عنصر الحديد ماعدا آية سورة ق والتي جاءت لفظة (حديد) فيها في مقام التشبيه للبصر بمعني أنه نافذ قوي يبصر به ما كان خفيا عنه في الدنيا .

شروح المفسرين للآية الكريمة

ذكر ابن كثير (يرحمه الله) في تفسير قول الحق (تبارك وتعالي): وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس * .

أي وجعلنا الحديد رادعا لمن أبي الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه , ولهذا أقام رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحي إليه السور المكية , وكلها جدال مع المشركين , وبيان وإيضاح للتوحيد , وبيناته ودلالاته , فلما قامت الحجة علي من خالف , شرع الله الهجرة , وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب , وقد روي الإمام أحمد , عن ابن عمر قال . . قال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتي يعبد الله وحده لا شريك له , وجعل رزقي تحت ظل رمحي , وجعل الذلة والصغار علي من خالف أمري , ومن تشبه بقوم فهو منهم) ولهذا قال تعالي : (فيه بأس شديد) يعني السلاح كالسيوف والحراب والسنان ونحوها (ومنافع للناس) أي في معايشهم كالسكة والفأس والمنشار والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ وغير ذلك . . وقوله تعالي (وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) أي من نيته في حمل السلاح نصرة لله ورسوله (إن الله قوي

عزيز) أي هو قوي عزيز ينصر من نصره من غير احتياج منه إلي الناس , وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض .

وذكر صاحبا تفسير الجلالين (رحمهما الله) في تفسير هذه الآية الكريمة مانصه : لقد أرسلنا رسلنا الملائكة إلي الأنبياء (بالبينات) بالحجج القواطع (وأنزلنا معهم الكتاب) بمعني الكتب و (الميزان) العدل , (ليقوم الناس بالقسط (وأنزلنا الحديد) أي أنشأناه , وخلقناه , لقوله تعالي (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) أي خلق , وقيل : أخرجناه من المعادن , (فيه بأس شديد) يعني السلاح , يقاتل به من أبي الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه , (ومنافع للناس) في معايشهم كالفأس والمنشار وسائر الأدوات والآلات , (وليعلم الله) علم مشاهدة , معطوف علي (ليقوم الناس) (من ينصره) بأن ينصر دينه بآلات الحرب من الحديد وغيره (ورسله بالغيب) حال من هاء (ينصره) أي غائبا عنهم في الدنيا , قال ابن عباس : ينصرونه ولايبصرونه (إن الله قوي عزيز) لاحاجة له إلي النصرة لكنها تنفع من يأتي بها .

وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) : وفي النهاية يجيء المقطع الأخير في السورة , يعرض باختصار خط سير الرسالة , وتاريخ هذه العقيدة من لدن نوح وإبراهيم , مقررا حقيقتها وغايتها في دنيا الناس , ملما بحال أهل الكتاب , وأتباع عيسي . عليه السلام . بصفة خاصة . . فالرسالة واحدة في جوهرها , جاء بها الرسل ومعهم البينات عليها , ومعظمهم جاء بالبينات الخوارق . . والنص يقول : (وأنزلنا معهم الكتاب) بوصفهم وحدة , وبوصف الكتاب وحدة كذلك , إشارة إلي وحدة الرسالة في جوهرها .

(والميزان) . . مع الكتاب , فكل الرسالات جاءت لتقر في الأرض , وفي حياة الناس ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية . . ميزانا لايحابي أحدا لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع , ولايحيف علي أحد لأن الله رب

الجميع .

فلابد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر . . (ليقوم الناس بالقسط) !

(214/748)

(وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس , وليعلم الله من ينصره , ورسله بالغيب) والتعبير بـ (أنزلنا الحديد) كالتعبير في موضع آخر بقوله تعالي (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) كلاهما يشير إلي إرادة الله وتقديره في خلق الأشياء والأحداث . . . أنزل الله الحديد (فيه بأس شديد) وهو قوة الحرب والسلم (ومنافع للناس) وتكاد حضارة البشر القائمة الآن تقوم علي الحديد (وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) وهي إشارة إلي الجهاد بالسلاح , تجيء في موضعها من السورة التي تتحدث عن بذل النفس والمال .

ولما تحدث عن الذين ينصرون الله ورسله بالغيب , عقب علي هذا بإيضاح معني نصرهم لله ورسله , فهو نصر لمنهجه ودعوته , أما الله سبحانه فلايحتاج منهم إلي نصر : إن الله

قوي عزيز . .

وذكر صاحب. (صفوة البيان لمعاني القرآن) : . . و (أنزلنا الحديد) أي خلقناه لكم , كقوله تعالي (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) أي هيأناه لكم , وأنعمنا به عليكم , وعلمناكم استخراجه من الأرض وصنعته بإلهامنا , (فيه بأس شديد) أي فيه قوة وشدة , فمنه جنة وسلاح , وآلات للحرب وغيرها , وفي الآية إشارة إلي احتياج الكتاب والميزان إلي القائم بالسيف , ليحصل القيام بالقسط , (ومنافع للناس) في معاشهم ومصالحهم , وما من صنعة إلا والحديد آلتها , كما هو مشاهد , فالمنة به عظمي . . .

وقال صاحب (صفوة التفاسير) : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) أي وخلقنا وأوجدنا الحديد فيه باس شديد , لأن آلات الحرب تتخذ منه , كالدروع والرماح والتروس والدبابات وغير ذلك ومنافع للناس أي وفيه منافع كثيرة للناس كسكك الحراثة والسكين والفأس وغير ذلك , وما من صناعة إلا والحديد آلة فيها , قال أبوحيان : وعبر تعالي عن إيجاده بالإنزال كما

قال : (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) لأن الأوامر وجميع القضايا والأحكام لما كانت تلقي من السماء جعل الكل نزولا منها , وأراد بالحديد جنسه من المعادن قاله الجمهور .

وذكر أصحاب (المنتخب في تفسير القرآن الكريم) مانصه : لقد أرسلنا رسلنا الذين اصطفيناهم بالمعجزات القاطعة , وأنزلنا معهم الكتب المتضمنة للأحكام وشرائع الدين والميزان الذي يحقق الإنصاف في التعامل , ليتعامل الناس فيما بينهم بالعدل , وخلقنا الحديد فيه عذاب شديد في الحرب , ومنافع للناس في السلم , يستغلونه في التصنيع , لينتفعوا به في مصالحهم ومعايشهم , وليعلم الله من ينصر دينه , وينصر رسله غائبا عنهم إن الله قادر بذاته , لايفتقر إلي عون أحد .

وجاءوا في الهامش ببعض من صفات الحديد وفوائده .

حديد الأرض في العلوم الكونية

بينما لاتتعدي نسبة الحديد في شمسنا 0.0037

فإن نسبته في التركيب الكيميائي لأرضنا تصل إلي 35,9

من مجموع كتلة الأرض المقدرة بحوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طن , وعلي ذلك فإن كمية الحديد في الأرض تقدر بأكثر من ألفي مليون مليون مليون طنا , ويتركز الحديد في قلب الأرض , أو مايعرف باسم لب الأرض , وتصل نسبة الحديد فيه إلي 90

ونسبة النيكل (وهو من مجموعة الحديد) إلي 9

وتتناقص نسبة الحديد من لب الأرض إلي الخارج باستمرار حتي تصل إلي 5,6 في قشرة الأرض .

وإلي أواخر الخمسينيات من القرن العشرين لم يكن لأحد من العلماء إمكانية التصور (ولو من قبيل التخيل) أن هذا القدر الهائل من الحديد قد أنزل إلي الأرض من السماء إنزالا حقيقيا ! !

كيف أنزل ؟ وكيف تسني له اختراق الغلاف الصخري للأرض بهذه الكميات المذهلة ؟ وكيف أمكنه الاستمرار في التحرك بداخل الأرض حتي وصل إلي لبها ؟ وكيف شكل كلا من لب الأرض الصلب ولبها السائل علي هيئة كرة ضخمة من الحديد والنيكل يحيط بها وشاح منصهر من نفس التركيب ,

---

ثم أخذت نسبته في التناقص باستمرار في اتجاه قشرة الأرض الصلبة ؟

لذلك لجأ كل المفسرين للآية الكريمة التي نحن بصددها إلي تفسير (وأنزلنا الحديد) بمعني الخلق والإيجاد والتقدير والتسخير , لأنه لما كانت أوامر الله تعالي وأحكامه تلقي من السماء إلي الأرض جعل الكل نزولا منها , وهو صحيح , ولكن في أواخر القرن العشرين

ثبت لعلماء الفلك والفيزياء , الفلكية أن الحديد لايتكون في الجزء المدرك من الكون إلا في مراحل محددة من حياة النجوم تسمي بالعماليق الحمر , والعماليق العظام , والتي بعد أن يتحول لبها بالكامل إلي حديد تنفجر علي هيئة المستعرات العظام , وبانفجارها تتناثر مكوناتها بما فيها الحديد في صفحة الكون فيدخل هذا الحديد بتقدير من الله في مجال جاذبية أجرام سماوية تحتاج إليه مثل أرضنا الابتدائية التي وصلها الحديد الكوني , وهي كومة من الرماد فاندفع إلي قلب تلك الكومة بحكم كثافته العالية وسرعته المندفع بها فانصهر بحرارة الاستقرار في قلب الأرض وصهرها , ومايزها إلي سبع أرضين ! ! وبهذا ثبت أن الحديد في أرضنا , بل في مجموعتنا الشمسية بالكامل قد أنزل إليها إنزالا حقيقيا .

أولا : إنزال الحديد من السماء

في دراسة لتوزيع العناصر المختلفة في الجزء المدرك من الكون لوحظ أن غاز الإيدروجين هو أكثر العناصر شيوعا إذ يكون أكثر من 74

من مادة الكون المنظور , ويليه في الكثرة غاز الهيليوم الذي يكون حوالي 24

من مادة الكون المنظور , وأن هذين الغازين وهما يمثلان أخف العناصر وأبسطها بناء يكونان معا أكثر من 98

من مادة الجزء المدرك من الكون , بينما باقي العناصر المعروفة لنا وهي (103) عناصر تكون مجتمعة أقل من 2

من مادة الكون المنظور , وقد أدت هذه الملاحظة إلي الاستنتاج المنطقي أن أنوية غاز الإيدروجين هي لبنات بناء جميع العناصر المعروفة لنا وأنها جميعا قد تخلقت باندماج أنوية هذا الغاز البسيط

(217/748)

مع بعضها البعض في داخل النجوم بعملية تعرف باسم عملية الاندماج النووي تنطلق منها كميات هائلة من الحرارة , . وتتم بتسلسل من أخف العناصر إلي أعلاها وزنا ذريا وتعقيدا في البناء .

فشمسنا تتكون أساسا من غاز الإيدروجين الذي تندمج أنويته مع بعضها البعض لتكون غاز الهيليوم وتنطلق طاقة هائلة تبلغ عشرة ملايين درجة مئوية , ويتحكم في هذا التفاعل (بقدرة الخالق العظيم) عاملان هما زيادة نسبة غاز الهيليوم المتخلق بالتدريج , وتمدد الشمس بالارتفاع المطرد في درجة حرارة لبها , وباستمرار هذه العملية تزداد درجة الحرارة في داخل الشمس تدريجيا , وبازديادها ينتقل التفاعل إلي المرحلة التالية التي تندمج فيها نوي ذرات الهيليوم مع بعضها البعض منتجة نوي ذرات الكربون 12 , ثم الأوكسجين 16 ثم النيون 20 , وهكذا .

وفي نجم عادي مثل شمسنا التي تقدر درجة حرارة سطحها بحوالي ستة آلاف درجة مئوية , وتزداد هذه الحرارة تدريجيا في اتجاه مركز الشمس حتي تصل إلي حوالي 15 مليون درجة مئوية , يقدر علماء الفيزياء الفلكية أنه بتحول نصف كمية الإيدروجين الشمسي تقريبا إلي الهيليوم فإن درجة الحرارة في لب الشمس ستصل إلي مائة مليون درجة مئوية , مما يدفع بنوي ذرات الهيليوم المتخلقة إلي الاندماج في المراحل التالية من عملية الاندماج النووي مكونة عناصر أعلي في وزنها الذري مثل الكربون ومطلقة كما أعلي من الطاقة , ويقدر العلماء أنه عندما تصل درجة حرارة لب الشمس إلي ستمائة مليون درجة مئوية يتحول الكربون إلي صوديوم ومغنيسيوم ونيون , ثم تنتج عمليات الاندماج النووي التالية عناصر الألومنيوم , والسيليكون , والكبريت والفوسفور , والكلور , والأرجون , والبوتاسيوم , والكالسيوم علي التوالي , مع ارتفاع مطرد في درجة الحرارة حتي تصل إلي ألفي مليون درجة مئوية حين يتحول لب النجم إلي مجموعات التيتانيوم , والفاناديوم , والكروم ,

---

والمنجنيز والحديد (الحديد والكوبالت والنيكل) ولما كان تخليق هذه العناصر يحتاج إلي درجات حرارة مرتفعة جدا لاتتوافر إلا في مراحل خاصة من مراحل حياة النجوم تعرف

باسم العماليق الحمر والعماليق العظام وهي مراحل توهج شديد في حياة النجوم , فإنها لاتتم في كل نجم من نجوم السماء , ولكن حين يتحول لب النجم إلي الحديد فانه يستهلك طاقة النجم بدلا من إضافة مزيد من الطاقة إليه , وذلك لأن نواة ذرة الحديد هي أشد نوي العناصر تماسكا , وهنا ينفجر النجم علي هيئة مايسمي باسم المستعر الأعظم من النمط الأول أو الثاني حسب الكتلة الابتدائية للنجم , وتتناثر أشلاء النجم المنفجر في صفحة السماء لتدخل في نطاق جاذبية أجرام سماوية تحتاج إلي هذا الحديد , تماما كما تصل النيازك الحديدية إلي أرضنا بملايين الأطنان في كل عام .

ولما كانت نسبة الحديد في شمسنا لاتتعدي 0.0037

من كتلتها وهي أقل بكثير من نسبة الحديد في كل من الأرض والنيازك الحديدية التي تصل إليها من فسحة الكون , ولما كانت درجة حرارة لب الشمس لم تصل بعد إلي الحد الذي يمكنها من انتاج السيليكون , أو المغنيسيوم , فضلا عن الحديد , كان من البديهي استنتاج أن كلا من الأرض والشمس قد استمد ما به من حديد من مصدر خارجي عنه في فسحة الكون , وأن أرضنا حينما انفصلت عن الشمس لم تكن سوي كومة من الرماد المكون من العناصر الخفيفة , ثم رجمت هذه الكومة بوابل من النيازك الحديدية التي انطلقت إليها من السماء فاستقرت في لبها بفضل كثافتها العالية وسرعاتها الكونية فانصهرت بحرارة الاستقرار , وصهرت كومة الرماد ومايزنها إلي سبع أرضين : لب صلب علي هيئة كرة

ضخمة من الحديد (90

) والنيكل (9

) وبعض العناصر الخفيفة من مثل الكبريت , والفوسفور , والكربون (1

) يليه إلي الخارج , لب سائل له نفس التركيب الكيميائي تقريبا , ويكون لب الأرض الصلب

والسائل معا حوالي 31

من

(219/748)

مجموع كتلة الأرض , ويلي لب الأرض إلي الخارج وشاح الأرض المكون من ثلاثة نطق , ثم

الغلاف الصخري للأرض , وهو مكون من نطاقين , وتتناقص نسبة الحديد من لب الأرض

إلي الخارج باستمرار حتي تصل إلي 5,6

في قشرة الأرض وهي النطاق الخارجي من غلاف الأرض الصخري .

من هنا ساد الاعتقاد بأن الحديد الموجود في الأرض والذي يشكل 35,9

من كتلتها لابد وأنه قد تكون في داخل عدد من النجوم المستعرة من مثل العماليق الحمر ,

والعماليق العظام والتي انفجرت علي هيئة المستعرات العظام فتناثرت أشلاؤها في صفحة

الكون ونزلت إلي الأرض علي هيئة وابل من النيازك الحديدية , وبذلك أصبح من الثابت علميا أن حديد الأرض قد أنزل إليها من السماء , وأن الحديد في مجموعتنا الشمسية كلها قد أنزل كذلك إليها من السماء , وهي حقيقة لم يتوصل العلماء إلي فهمها إلا في أواخر الخمسينيات , من القرن العشرين , وقد جاء ذكرها في سورة الحديد , ولايمكن لعاقل أن يتصور ورودها في القرآن الكريم الذي أنزل منذ أكثر من أربعة عشر قرنا علي نبي أمي (صلي الله عليه وسلم) وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين , يمكن أن يكون له من مصدر غير الله الخالق الذي أنزل هذا القرآن بعلمه , وأورد فيه مثل هذه الحقائق الكونية لتكون شاهدة إلي قيام الساعة بأن القرآن الكريم كلام الله الخالق , وأن سيدنا محمدا (صلي الله عليه وسلم) ما كان ينطق عن الهوي (إن هو إلا وحي يوحي * علمه شديد القوي .

ثانيا : البأس الشديد للحديد

الحديد عنصر فلزي عرفه القدماء , فيما عرفوا من الفلزات من مثل الذهب , والفضة , والنحاس , والرصاص , والقصدير والزئبق , وهو أكثر العناصر انتشارا في الأرض 35,9)

) ويوجد أساسا في هيئة مركبات الحديد من مثل أكاسيد , وكربونات , وكبريتيدات , وكبريتات وسيليكات ذلك العنصر , ولايوجد علي هيئة الحديد النقي إلا في النيازك

الحديدية

وفي جوف الأرض .

(220/748)

والحديد عنصر فلزي شديد البأس , وهو أكثر العناصر ثباتا وذلك لشدة تماسك مكونات النواة في ذرته التي تتكون من ستة وعشرين بروتونا , وثلاثين نيوترونا , وستة وعشرين إليكترونا , ولذلك تمتلك نواة ذرة الحديد أعلي قدر من طاقة التماسك بين جميع نوى العناصر الأخرى , ولذا فهي تحتاج إلي كميات هائلة من الطاقة لتفتيتها أو للإضافة إليها .

ويتميز الحديد وسبائكه المختلفة بين جميع العناصر والسبائك المعروفة بأعلي قدر من الخصائص المغناطيسية , والمرونة (القابلية للطرق والسحب وللتشكل) والمقاومة للحرارة ولعوامل التعرية الجوية , فالحديد لاينصهر قبل درجة 1536 مئوية , ويغلي عند درجة 3023 درجة مئوية تحت الضغط الجوي العادي عند سطح البحر , وتبلغ كثافة الحديد 7,874 جرام للسنتيمتر المكعب عند درجة حرارة الصفر المطلق .

ثالثا : منافع الحديد للناس

للحديد منافع جمة وفوائد أساسية لجعل الأرض صالحة للعمران بتقدير من الله , ولبناء

اللبنات الأساسية للحياة التي خلقها ربنا (تبارك وتعالي) فكمية الحديد الهائلة في كل من لب الأرض الصلب , ولبها السائل تلعب دورا مهما في توليد المجال المغناطيسي للأرض , وهذا المجال هو الذي يمسك بكل من الغلاف الغازي والمائي والحيوي للأرض , وغلاف الأرض الغازي يحميها من الأشعة والجسيمات الكونية ومن العديد من أشعات الشمس الضارة , ومن ملايين الأطنان من النيازك , ويساعد علي ضبط العديد من العمليات الأرضية المهمة من مثل دورة كل من الماء , والأوكسجين , وثاني أكسيد الكربون , والأوزون وغيرها من العمليات اللازمة لجعل الأرض كوكبا صالحا للعمران .

والحديد لازمة من لوازم بناء الخلية الحية في كل من النبات والحيوان والانسان إذ تدخل مركبات الحديد في تكوين المادة الخضراء في النباتات (الكلوروفيل) وهو المكون الأساسي للبلاستيدات الخضراء التي تقوم بعملية

(221/748)

التمثيل الضوئي اللازمة لنمو النباتات , ولانتاج الأنسجة النباتية المختلفة من مثل الأوراق والأزهار , والبذور والثمار والتي عن طريقها يدخل الحديد إلي أنسجة ودماء كل من الانسان والحيوان , وعملية التمثيل الضوئي هي الوسيلة الوحيدة لتحويل طاقة الشمس إلي

روابط كيميائية تختزن في أجساد جميع الكائنات الحية , وتكون مصدرا لنشاطها أثناء حياتها , وبعد تحلل أجساد تلك الكائنات بمعزل عن الهواء تتحول إلي مختلف صور الطاقة المعروفة (القش , والحطب , والفحم النباتي , والفحم الحجري , والغاز الفحمي والنفط , والغاز الطبيعي وغيرها) , والحديد يدخل في تركيب بروتينات نواة الخلية الحية الموجودة في المادة الحاملة للشفرة الوراثية للخلية (الصبغيات) كما يوجد في سوائل الجسم المختلفة , وهو أحد مكونات الهيموجلوبين وهي المادة الأساسية في كرات الدم الحمراء , ويقوم الحديد بدور مهم في عملية الاحتراق الداخلي للأنسجة والتمثيل الحيوي بها . ويوجد في كل من الكبد , والطحال والكلي , والعضلات والنخاع الأحمر , ويحتاج الكائن الحي إلي قدر محدد من الحديد إذا نقص تعرض للكثير من الأمراض التي أوضحها فقر الدم والحديد عصب الصناعات المدنية والعسكرية فلا تكاد صناعة معدنية أن تقوم في غيبة الحديد .

العلاقة يين رقم سورة الحديد في المصحف الشريف ورقم الآية في السورة بكل من الوزن الذري والعدد الذري للحديد علي التوالي

للحديد ثلاثة نظائر يقدر وزنها الذري بحوالي 57,56,54 ولكن أكثرها انتشارا هو النظير الذي يحمل الوزن الذري 56(55,847) .

ومن الغريب أن رقم سورة الحديد في المصحف الشريف هو 57, وهو يتفق مع الوزن الذري لأحد نظائر الحديد , ولكن القرآن الكريم يخاطب المصطفي (صلي الله عليه وسلم

) في سورة الحجر بقول الحق (تبارك وتعالي) :

ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم (الحجر : 87)

وواضح من هذه الآية

(222/748)

الكريمة أن القرآن الكريم بنصه يفصل فاتحة الكتاب عن بقية القرآن الكريم , وبذلك يصبح رقم سورة الحديد (56) وهو الوزن الذري لأكثر نظائر الحديد شيوعا في الأرض , كذلك وصف سورة الفاتحة بالسبع المثاني وآياتها ست يؤكد أن البسملة آية منها (ومن كل سورة من سور القرآن الكريم ذكرت في مقدمتها , وقد ذكرت في مقدمة كل سور القرآن الكريم ماعدا سورة (التوبة) وعلي ذلك فإذا أضفنا البسملة في مطلع سورة الحديد إلي رقم آية الحديد وهو (25) أصبح رقم الآية (26) وهو نفس العدد الذري للحديد , ولايمكن أن يكون هذا التوافق الدقيق قد جاء بمحض المصادفة لأنها لايمكن أن تؤدي إلي هذا التوافق المبهر في دقته , وصدق الله العظيم الذي قال في وصفه للقرآن الكريم .

لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفي بالله شهيدا *

(النساء :166)

وقوله تعالي أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (النساء 82) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم د : زغلول النجار ﴾ .

(223/748)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آَثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآَتَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (27) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان من مقاصد هذه السورة العظمى الإعلام بنسخ الشرائع كلها بشريعة هذا النبي الفاتح العام الرسالة لجميع الخلائق - صلى الله عليه وسلم - ، قال مشيراً إلى عظمة الإرسال والرسل بأداة التراخي : ﴿ ثم قفينا ﴾ أي بما لنا من العظمة تقفية لها من العظمة ما يجل وصفه ﴿ على آثارهم ﴾ أي الأبوين المذكورين ومن مضى قبلهما من الرسل ، ولا يعود

الضمير على ﴿ الذرية ﴾ لأنها باقية مع الرسل وبعدهم ﴿ برسلنا ﴾ أي فأرسلناهم واحداً في أثر واحد بين ما لا يحصى من الخلق من الكفرة محروسين منهم في الأغلب بما تقتضيه العظمة ، لا ننشئ آثار الأول منهم حتى نرسل الذي بعده في قفاه ، فكل رسول بين يدي الذي بعده ، والذين بعده في قفاه - فهو مقف له لأن الأول ذاهب إلى الله والثاني تابع له ، فنبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعرق الناس في هذا الوصف لأنه لا نبي بعده ، ولهذا كان الوصف أحد أسمائه .

ولما كان عيسى عليه السلام أعظم من جاء بعد موسى عليه السلام من بني إسرائيل فهو الناسخ لشريعته والمؤيد به هذا النبي الخاتم ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تجديد دينه وتقرير شريعته ، وكان الزهد والرأفة والرحمة في تابعيه في غاية الظهور مع أن ذلك لم يمنعهم من القسوة المنبهة سابقاً على أن الموجب لها طول الأمد الناشئ عنها الإعراض عن الآيات الحاضرة معه والكتاب الباقي بعده ، خصه بالذكر وأعاد العامل فقال : ﴿ وقفينا ﴾ أي أتبعنا بما لنا من العظمة على آثارهم قبل أن تدرس ﴿ بعيسى ابن مريم ﴾ وهو آخر من قبل النبي الخاتم عليهم الصلاة والسلام ، فأمته أول الأمم بالأمر باتباعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ وآتيناه ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ الإنجيل ﴾ كتاباً ضابطاً لما جاء به مقيماً لملته مبيناً للقيامة مبشراً بالنبي العربي موضحاً لأمره مكثراً من ذكره ﴿ وجعلنا ﴾ لعزتنا ﴿ في قلوب الذين اتبعوه ﴾ أي بغاية جهدهم ، فكانوا على مناهجه ﴿ رأفة ﴾ أي أشد رقة

على من كان يتسبب إلى الاتصال بهم ﴿ ورحمة ﴾ أي رقة وعطفاً من لم يكن له سبب في الصلة بهم كما كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم رحماء بينهم حتى كانوا أذلة على المؤمنين مع أن قلوبهم في غاية الصلابة فهم أعزة على الكافرين ، وترتيب الوصفين هكذا أدل دليل على أنهما لم يقصد بهما مراعاة الفواصل في ﴿ رؤف رحيم ﴾ كما قاله بعض المفسرين وتقدم في آخر براءة أن ذلك قول لا يحل التصويب إليه ولا التعويل عليه وإن قاله من قال ﴿ ورهبانية ﴾ أي أموراً حاملة على الرهبية والتزيي بزيها والعمل على حسبها مبالغة في العبادة والرياضة والانقطاع عن الناس .

(224/748)

ولم قدم المعمول لفعل غير مذكور ليدل عليه بما يفسره ليكون مذكوراً مرتين تأكيداً له إفهاماً لذم نفس الابتداع ، أتبعه المفسر لعامله فقال : ﴿ ابتدعوها ﴾ أي حملوا أنفسهم على عملها والتطويق بها من غير أن يكون لهم فيها سلف يعلمونه أو يكون بما صرح به كتابه وإن كانت مقاصده لا تأباها فاعتزلوا لأجلها الناس ، وانقطعوا في الجبال على الاستئناس ، وكانت لهم بذلك أخبار شائعة في النواحي والأمصار ، وفي التقديم على العامل سر آخر وهو الصلاحية للعطف على ما قبلها لئلا يتوهم في لفظ الابتداع أن لا صنع لله فيها ﴿ ما

كتبناها ﴾ أي فرضناها بعظمتنا ﴿ عليهم ﴾ في كتابهم ولا على لسان رسولهم ﴿ إلا ﴾ أي لكن ابتدعوها ﴿ ابتغاء ﴾ أي لأجل تكليفهم أنفسهم الوقوع بغاية الاجتهاد في تصفية القلوب وتهذيب النفوس وتزكية الأعمال على ﴿ رضوان الله ﴾ أي الرضا العظيم من الملك الأعظم ، وساق المنقطع مساق المتصل إشارة إلى أنه مما يرضي الله ، وأنه ما ترك فرضها عليهم إلا رحمة لهم لأجل صعوبتها ، وأنه صيرها بعد إلزامهم بها كالمكتوبة ، فيكون التقدير حينئذ : إلا لأجل أن يبتغوا رضوانه على وجه الثبات والدوام ، قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصري في كتابه " فتوح مصر والمغرب " : فلما أن أغرق الله عز وجل فرعون وجنوده كما حدثنا هانئ بن المتوكل عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن تبيع قال : استأذن الذين كانوا آمنوا من السحرة لموسى عليه السلام في الرجوع إلى أهله وماله بمصر فأذن لهم ودعا لهم فترهبوا مع رؤوس الجبال ، فكانوا أول من ترهب ، وكان يقال لهم الشيعة ، وبقيت طائفة منهم مع موسى عليه السلام حتى توفاه الله عز وجل ، ثم انقطعت الرهبانية بعدهم حتى ابتدعها بعد ذلك أصحاب المسيح عليه السلام .

ولما تسبب عن صعوبتها أنهم أضاعوها بالتقصير عن شؤونها والسفول عن عليائها قال : ﴿ فما رعوها ﴾ أي حفظوها كلهم بحفظ من هو مرتاع من خوف ضياعها ﴿ حق رعايتها ﴾ بصون العناية في رعاية الأعمال والأحوال والأقوال ، فصون الأعمال توفيرها لتحقيرها من غير التفات إليها ، ورعاية الأحوال عند الاجتهاد من أتاه والحال دعوى ، ورعاية الوقت الوقوف مع حضور على بساط شهود الجلال - ذكره الرازي .

بل غلبت عليهم صفات البشر فقصر بعضهم عن عالي مداها ، وانحطوا عن شامخ ذراها ، هذا تنفير عظيم عن البدع ، وحث شديد على لزوم ما سنه الله وشرع ، وتحذير من التشديد ، فإنه لن يشادّ الدين أحد إلا غلبه وهو الترحال إلى البدعة ولهذا أكثر في أهل الرهبانية المروق من الدين بالاتحاد والحلول وغير ذلك من البلايا ولو كان يظهر أن التشديد والتعمق خير لأن الشارع الذي أحاط علماً بما لم يحط به نهى عنه ، وقد أفادت التجربة أنه قد يغر لأن هؤلاء ابتدعوا ما أرادوا الخير ، فكان داعياً لكثير منهم إلى دار البوار ، وفيه أيضاً حث عظيم على المداومة على ما اعتيد من الأعمال الصالحة خصوصاً ، ما عمل النبي -صلى الله عليه وسلم- عملاً إلا دوام عليه ، وكان ينهى عن التعمق في الدين ، ويأمر بالرفق والقصد .

ولما كانت متابعة النفس في التقصير بالإفراط قد توصل إلى المروق من الدين فيوجب الكفر فيحط على الهلاك كله ، أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ فآتينا ﴾ أي بما لنا من صفات الكمال ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي استمروا على الإيمان الكامل ، ولعل في التعبير بالماضي بعد إرادة التعميم للأدنى والأعلى إشارة إلى إن المتعمق بين إيمان وكفر لا تجرد معصيته كما أشار إليه ختم الآية فهو في غاية الذم للتعمق والمدح للاقتصاد ﴿ منهم ﴾ أي من هؤلاء المبتدعين لأنهم رعوها حق رعايتها ووصلوا إيمانهم بعيسى ومن قبله عليهم الصلاة والسلام بإيمانهم بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي دعا إليه الخروج عن النفس الذي هو روح الرهبانية بموافقتهم لما في كتابهم من البشائر به ﴿ أجرهم ﴾ أي اللائق بهم وهو الرضوان المضاعف .

ولما كانت متابعة الأهواء تكسب صفات ذميمة تصير ملكات راسخة للأنفس ، أشار إلى ذلك بالعدول عن النهج الأول فقال : ﴿ وكثير منهم ﴾ أي هؤلاء الذين ابتدعوا فضيعوا ﴿ فاسقون ﴾ أي عريقون في وصف الخروج عن الحدود التي حدها الله تعالى ، روى البغوي من طريق الثعلبي عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " من آمن بي فقد رعاها حق رعايتها ، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون " انتهى .

ومثل هذه الرهبانية في أنها لا تأباها قواعد الدين ما يفهمه بعض العلماء من الكتاب والسنة فيتذكره ، فيكون أخذنا له من الأصول التي نبه عليها لا منه ، كما أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم كانوا يفعلون أشياء فإن قررهم النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت شرعاً لنا وكنا آخذين لها من تفسيره -صلى الله عليه وسلم- لا منهم ، فإن من ملكه الله رتبة الاجتهاد في شيء وأمكنه فيه من القواعد فأداه اجتهاده إلى أن هذا مندوب إليه مرغوب فيه مثلاً ، كان ذلك بما يشهد له من قواعد الدين بمنزلة ما قاله الصحابة -رضى الله عنه- م فأقرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- ، ولا فرق بين أن يقرره النبي -صلى الله عليه وسلم- بنفسه أو بقواعد شريعته ، ومهما كان مقرراً بقواعد شرعه كان عليه أمره ، ومهما لم يكن مقرراً بها كان مما ليس عليه أمره فهو رد على قائله ، فهذا فرق بين البدع الحسنة والبدع القبيحة – والله الموفق ، وذكر ابن برجان تنزيل هذا الحديث الذي فيه "لتتبعن سنن من كان قبلكم" فذكر أن أصحاب عيسى عليه السلام عملوا بعده بالإنجيل حتى قام فيهم ملك بدل كتابهم ، وشايعه على ذلك روم ويونان ، فضعف أهل الإيمان ، فاستذلوهم حتى هربوا إلى البراري ، وعملوا الصوامع وابتدعوا الرهبانية ، وكذلك كان في هذه لتصديق

الحديث الشريف فإنه لما توفي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تبعه خلفاؤه بإحسان ، فلما مضت الخلافة الراشدة تراكمت الفتن كما أخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واشتد البلاء على المتمسكين بصريح الإيمان ، ورجم البيت العتيق بحجارة المنجنيق وهدم ، وقتل عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنهما ـ واستبيحت مدينة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثة أيام ، وقتل خيار من فيها فرأى المسلمون العزلة واجبة ، فلزموا الزوايا والمساجد وابتنوا الروابط على سواحل البحر وأخذوا في الجهاد للعدو والنفوس ، وعالجوا تصفية أخلاقهم ولزموا الفقر أخذاً

(228/748)

من أحوال أهل الصفة ، وتسموا بالصوفية وتكلموا على الورع والصدق والمنازل والأحوال والمقامات فهؤلاء وزان أولئك – والله الموفق .

(229/748)

ذكر ما في الإنجيل ما من الحكم التي توجب الزهد في الدنيا والإقبال على الله التي يصح تمسك أهل هذه الرهبانية بها : قال متى وغيره وأغلب السياق لمتى : إن أخطأ عليك أخوك فاذهب أعتبه وحدكما ، فإن سمع منك فقد ربحت أخاك ، وإن لم يسمع منك فخذ معك واحداً أو اثنين ، لأن من فم شاهدين أو ثلاثة تقوم كل كلمة ، وإن لم يسمع منهم فقل للبيعة ، فإن لم يسمع من البيعة فيكون عندك كالوثني والعشار ، الحق أقول لكم ، وقال لوقا : انظروا الآن إن أخطأ إليك أخوك فانهه ، فإن تاب فاغفر له ، فإن أخطأ إليك سبع دفعات في اليوم ورجع إليك سبع دفعات يقول لك : أنا تائب ، فاغفر له ، وقال متى : حينئذ جاء إليه بطرس وقال له : إذا أخطأ إليّ أخي لم أغفر له سبع مرات ، قال : ليس أقول لك إلى سبع مرات ، بل إلى سبعين مرة ، ولهذا يشبه ملكوت السماوات ملكاً أراد أن يحاسب عبيده ، فلما بدأ بمحاسبتهم قدم إليه عبد مديون عليه جملة وزنات ، ولم يكن معه ما يوفي ، فأمر سيده أن تباع امرأته وبنوه وكل ما له حتى يوفي ، فخر ذلك العبد له ساجداً قائلاً : يا رب ، ترأف عليّ تأن ، أوفك كل مالك ، فتحنن عليه سيده وترك له كل ما عليه ، فخرج ذلك العبد فوجد عبداً من أصدقائه عليه مائة دينار فأمسكه وخنقه وقال : أعطني ما عليك ، فخر ذلك العبد على رجليه وطلب إليه قائلاً : ترأف عليّ فأنا أعطيك مالك ، فأبى ومضى ورتكه في السجن حتى يوفي الدين ، فرأى العبد أصحابه فحزنوا عليه جداً وأعلموا سيده بكل ما كان منه ، حينئذ دعاه سيده وقال له : أيها العبد الشرير ! كل ما

كان عليك تركت بذلك لأنك سألتني ، ما كان ينبغي لك أن ترحكم ذلك العبد صاحبك كرحمتي إياك ، وغضب سيده ودفعه إلى المعذبين حتى يوفي جميع ما عليه ، هكذا أبي السماوي يصنع بكم إن لم تغفروا لإخوانكم سيئاتهم من كل قلوبكم ، فلما أكمل يسوع هذا الكلام انتقل من الجليل وجاء إلى تخوم يهود عبر الأردن فتبعه جمع كثير فأبرأهم

(230/748)

هناك ، قال لوقا : فلما أكمل أيام صعوده أقبل بوجهه إلى يروشليم ، وأرسل مخبرين قدام وجهه فمضوا ودخلوا قرية السامرة ، لكيما يعدوا له فلم يقبلوه فقال تلميذاه يعقوب ويوحنا : يا رب تريد أن نقول فتنزل عليهم نار من السماء فتهلكهم كما فعل إليا ، فالتفت فنهرهما قائلاً : لستما تعرفان أي روح أنتما ، إن ابن البشر لم يأت ليهلك نفوس الناس بل يحيي ، ومضى إلى قرية أخرى ، وقال متى : حينئذ قدم إليه صبيان ليضع يده عليهم ويباركهم فنهرهم التلاميذ فقال لهم يسوع : جعوا الصبيان ولا تمنعوهم أن يأتوا إليّ لأن ملكوت السماوات لمثل هؤلاء ، ووضع يده عليهم وبارك لهم ، وقال مرقس : الحق أقول لكم ، إن من لا يقبل ملكوت الله مثل صبي لا يدخلها ، واحتضنهم ووضع يده عليهم وباركهم ، وقال متى : ومضى من هناك وجاء إليه واحد وقال : يا معلم صالح – وقال مرقس : أيها الملعم

الصالح – ما أعمل من الصلاح لأرث الحياة الدائمة ، قال له : لماذا تقول : صالح ، ولا صالح إلا الله الواحد ، إن كنت تريد أن تدخل الحياة احفظ الوصايا ، قال له : وما هي ؟ قال يسوع : لا تقتل ولا تسرق ولا تزن ولا تشهد الزور ، وقال مرقس : لا تجر ، أكرم أباك وأمك – حب قريبك مثلك ، قال له الشاب : كل هذا قد حفظته من صغري ، قال له يسوع : إن كنت تريد أن تكون كاملاً فاذهب ، وقال مرقس : فنظر إليه يسوع وأحبه ، وقال : تريد أن تكون كاملاً ، واحدة بقيت عليك : امض وبع كل شيء لك وأعطه للمساكين ليكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني ، فلما سمع الشاب الكلام مضى حزيناً لأنه كان له مال كثير ، فقال يسوع لتلامذته : الحق أقول لكم ! إنه يعسر على الغني الدخول إلى ملكوت السماء ، وأيضاً أقول لكم : إنه أسهل أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة من غني يدخل ملكوت السماوات ، فلما سمع التلاميذ بهتوا جداً وقالوا : من يقدر أن يخلص ، فنظر يسوع وقال لهم : أما عند الناس فلا يستطاع هذا ، وأما عند الله فكل

يستطاع ، حينئذ أجاب بطرس وقال له : هوذا نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك ، فماذا عسى أن يكون لنا ، قال لهم يسوع : الحق والحق أقول لكم ! أنتم الذين اتبعتموني في الجبل

الآتي إذا جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم على اثني عشر كرسياً ، تدينون اثني عشر سبط بني إسرائيل ، كل ما ترك بنين أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو بيتاً أو حقلاً من أجل اسمي يأخذ مائة ضعف ويرث حياة الأبد ، وقال لوقا : ما من أحد ترك منزلاً أو والدين أو إخوة أو امرأة أو مالاً من أجل ملكوت الله إلا وينال العوض أضعافاً كثيرة في هذا الزمان وفي الدهر الآتي حياة الأبد ، وقال متى وغيره : كثيراً أولون يصيرون آخرين : وأخرون يصيرون أولين ، يشبه ملكوت السماوات إنساناً رب بيت خرج الغداة ليستأجر فعله لكرمه ، فشارك الأكرة على دينار واحد في اليوم – إلى آخر ما مضى في الأعراف من البشارة بأمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مثل الفعلة في الكرم الذي فضل آخرهم وهو العامل قليلاً على من عمل أكثر النهار وقد ساقه ابن برجان في آخر تفسير سورة الحديد عن الإنجيل بعبارة أخرى تفسيراً كثيراً من عبارة النسخة التي نقلت ذاك منها ، فأحببت أن أذكر عبارة ابن برجان هنا تكميلاً للفائدة ، قال : وفي الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل : وكثيراً يتقدم الآخرون الأولون ويكون الأولون ساقة الآخرين : ولذلك يشبه ملكوت السماوات برجل ملي خرج في استئجار الأعوان لحفر كرم في أول النهار ، وعامل كل واحد في نهاره على درهم ثم أدخلهم كرمه ، فلما كان في الساعة الثالثة بصر لغيرهم في الرحاب لا شغل لهم فقال : اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم وسآمر لكم بحقوقكم ، ففعلوا ، ثم فعل مثل ذلك في الساعة السادسة والتاسعة ، فلما كان في الساعة الإحدى

عشرة وجد غيرهم وقوفاً فقال لهم : لم وقفتم هنا طول نهاركم دون عمل ؟ فقالوا له : إنا لم يستأجرنا أحد ، فقال لهم : اذهبوا أنتم سآمر لكم

(232/748)

بحقوقكم ، فلما انقضى النهار قال لوكيله : ادع الأعوان وأعطهم أجرتهم وابدأ بالآخرين حتى تنتهي إلى الأولين ، فبدأ بالذين دخلوا في الساعة الإحدى عشرة وأعطى كل واحد منهم درهماً ، فأقبل الأولون وهم الذين يرجون الزيادة ، فأعطى كل واحدٍ منهم درهماً ، فاستذكروا ذلك على صاحب الكرم وقالوا : سويتنا بالذين لم يعملوا إلا ساعة من النهار في شخوصنا طول نهارنا وعذابنا بحرارته ، فأجاب أحدهم وقال : لست أظلمك يا صديق ، أما عاملتني على درهم فخذ حقك وانطلق فإنه يوافقني أن أعطي الآخر كما أعطيتك ، أفلا يحل لي ذلك ؟ وإن كنت حسوداً فإني أنا رحيم ، ومن أجل ذلك يتقدم الآخرون الأولين ، ويكون الأولون ساقة الآخرين فالمدعوون كثير ، والخيرون قليل ، وذكر ابن برجان أن الساعة السادسة لعيسى عليه السلام وأصحابه في أول الأمر والتاسعة لمحمد . صلى الله عليه وسلم . والحادية عشرة لآخر الزمان – كأنه يعني ما بعد الدجال من أيام محمد . صلى الله عليه وسلم . التي يكون فيها عيسى عليه السلام مجدداً ، ولهذا جعلهما النبي .

صلى الله عليه وسلم - التي يكون فيها عيسى عليه السلام مجدداً ، ولهذا جعلهما النبي - صلى الله عليه وسلم - في حديث الصحيح شيئاً واحداً من العصر إلى غروب الشمس ، ثم قال متى في بقية ما مضى من الإنجيل في النسخة التي نقلت منها عقب ما تقدم أنه في الأعراف : فصعد يسوع إلى يروشليم وأخذ الاثني عشر ، حينئذ جاءت إليه أم ابني زبدي - هما يعقوب ويوحنا - مع ابنيها وسجدت له ، فقال لها : ماذا تريدين ؟ قالت : أن يجلس ابناي أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك في ملكوتك ، أجاب يسوع : أما جلوسهما عن يميني ويساري فليس لي بل للذي أعده لهم ربي ، فلما سمع العشرة تقمقموا على الآخرين - وقال مرقس : على يعقوب ويوحنا - فدعاهم يسوع وقال لهم : أما علمتم أن رؤساء الأمم يسودونهم وعظماءهم مسلطون عليهم ، ليس هكذا يكون فيكم ، لكن من أراد أن يكون فيكم

كبيراً فيكون لكم خادماً ، ومن أراد أن يكون فيكم أولاً فيكون لكم عبداً ، وقال مرقس : فيكون آخر للكل وخادماً للجميع ، كذلك ابن الإنسان لم يأت ليخدم بل ليخدم ، ويبذل نفسه فداء عن كثير ، فلما خرج من أريحا تبعه جمع كثير وإذا أعميان جالسان على الطريق

فسمعا أن يسوع مجتاز فصرخا قائلين : ارحمنا يا رب يا ابن داود ، فوقف يسوع ودعاهما وقال لهما : ما تريدان أن أفعل لكما ، قالا له : يا رب ، أن تفتح أعيننا ، فتحنن يسوع ولمس أعينهما وللوقت أبصرت أعينهما وتبعاه ، وعبارة مرقس عن ذلك : وجاء إلى أريحا وخرج من هناك وتبعه تلاميذه وجمع كثير وإذا طيماس بن طماس الأعمى جالس يسأل عن الطريق – وقال لوقا : يتوسل – فسمع الجمع المجتاز فسأل : ما هذا ، فأخبروه أن يسوع الناصري جاء ، وقال مرقس : فلما سمع بأن يسوع مقبل بدأ يصيح ويقول : يا يسوع الناصري ابن داود ارحمني ، فانتهروه ليسكت ، فازداد صياحاً قائلاً : يا رب يا ابن داود ، ارحمني ، فوقف يسوع وقال : ادعوه ، فدعي الأعمى وقالوا له : ثق وقم فإنه يدعوك ، وطرح ثوبه ونهض وجاء إلى يسوع فأجابه يسوع وقال له : ما تريد أن أصنع بك ؟ فقال له الأعمى : يا معلم ، وقال لوقا : يا رب – أن أبصر ، فقال له يسوع : اذهب إيمانك خلصك ، وللوقت أبصر ، وتبعه في الطريق – قال لوقا : يمجد الله – وكان جميع الشعب الذين رأوه يسبحون الله .

وقال أيضاً : وكان بينما هو منطلق إلى يروشليم اجتاز بين السامرة والجليل ، وفيما هو داخل إلى إحدى القرى استقبله عشرة رجال برص فوقفوا من بعيد ورفعوا أصواتهم قائلين : يا يسوع المعلم ارحمنا ! فنظر إليهم وقال لهم : اذهبوا وأروا أنفسكم للكهنة ، وفيما هم منطلقون طهروا ، فلما رأى أحدهم أنه قد طهر رجع بصوت عظيم يمجد الله وخر على وجهه عند رجليه شاكراً له ، وكان سامرياً ، أجاب يسوع وقال : أليس العشرة قد طهروا فأين التسعة ، ألم يجدوا ليرجعوا ويمجدوا الله ما خلا هذا الغريب ، ثم قال له : قم فامض ، إيمانكم خلصك .

قال متى : ولما قربوا من يروشليم وجاؤوا إلى بيت فاجي عند جبل الزيتون – وقال مرقس : عند باب فاجي وبيت عنيا جانب طور الزيتون – قال متى : حينئذ أرسل يسوع اثنين من تلاميذه : وقال لهما : اذهبا إلى القرية التي أمامكما فتجدان أتانه مربوطة وجحشاً معهما فحلاهما وائتياني بهما ! فإن قال لكما أحد شيئاً فقولا له : إن الرب محتاج إليهما ! فهو يرسلهما للقوت ، كان هذا ليتم ما قيل في النبي القائل قولوا لابنة صهيون هوذا ملكك يأتيك متواضعاً راكباً على أتانه وجحش ابن أتانة ، فذهب التلميذان وصنعا كما أمرهما يسوع ، فأتيا بالأتانة والجحش وتركوا ثيابهم عليهما ، وجلس معهما ، وجمع كثير فرشوا ثيابهم في الطريق وآخرون قطعوا أغصاناً من الشجر وفرشوها في الطريق ، وعبارة مرقس عن ذلك : تجد أن جحشاً مربوطاً لم يركبه أحد من الناس قط ، فحلاه وائتيا به ، فإن قال

لكما أحد : ما تفعلان بهذا ؟ فقولا : إن الرب محتاج إليه من ساعة يرسله ، فذهبا ووجدا الجحش مربوطاً عند الباب خارجاً عن الطريق فحلاه فقال لهما قوم من القيام هناك : ما تصنعان ؟ فقالا لهم كما قال يسوع فتركوهما ، وجاءا بالجحش إلى يسوع فألقوا عليهم ثيابهم وجلس عليهم وكثير بسطوا ثيابهم في الطريق وآخرون قطعوا أغصاناً من الحقل وفرشوها في الطريق .

(235/748)

قال متى : والجمع الذي تقدمه والذي تبعوا صرخوا قائلين : أوصنا يا ابن داود مبارك الآتي باسم الرب ، قال مرقس : ومباركة المملكة الآتية باسم الرب لأبينا داود أوصنا في العلاء ، وقال لوقا : وكان لما قرب من منحدر جبل الزيتون بدأ جمع الملأ والتلاميذ يفرحون ويسبحون الله ويمجدونه بجميع الأصوات من أجل القوات التي نظروا قائلين : تبارك الملك الآتي باسم الرب والسلامة في السماء والمجد في العلا ، وقوم من الفريسيين من بين الجمع قالوا له : ما معلم انتهر تلاميذك ، فقال لهم : إن سكت التلاميذ نطقت الحجارة ، فلما قرب نظر المدينة وبكى عليها وقال : لو علمت في هذا اليوم ما لك فيه من السلامة ، فأما الآن فإنه قد خفي عن عينيك ، وسوف تأتي أيام تلقى أعداؤك معلمك ويحيطون بك ويضيقون عليك

من كل موضع ويقتلونك وبنيك فيك ولا يتركون فيك حجراً ، وقال متى : فلما دخل إلى

يروشليم ارتجت المدينة كلها قائلين : من هذا ؟ فقال الجمع : هذا يسوع النبي الذي هو من

ناصرة الجليل ، فدخل يسوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين يبيعون ويشترون في الهيكل

وقلب موائد الصيارف وكراسي باعة الحمام وقال لهم : مكتوب أن بيتي بيت الصلاة يدعى

، وأنتم جعلتموه مغارة للصوص .

وقال يوحنا : فصعد يسوع إلي يروشليم فوجد في الهيكل باعة البقرة والكباش والحمام

وصيارف جلوساً ، فصنع محضرة من حبل وأخرج جميعهم من الهيكل فطرد البقر

والخراف وبدد دراهم الصيارف وقلب موائدهم ، وقال متى : وقدم إليه عميان وعرج في

الهيكل فشفاهم ، فرأى رؤساء الكهنة العجائب التي صنع والصبيان يصيحون في الهيكل

ويقولون : أوصنا يا ابن داود ، مبارك الآتي باسم الرب ، فتقمقموا وقالوا : ما تسمع ما يقول

هؤلاء ، فقال لهم يسوع : نعم ، أما قرأتم قط أن من فم الأطفال والمرضعين أعددت سبحاً ،

وتركهم وخرج خارج المدينة وبات هناك في بيت هنيا وفي غد عبر إلى المدينة فجاع ونظر

إلى شجرة تين على الطريق فجاء إليها فلم يجد فيها شيئاً إلا الورق ، فقال لها : لا يخرج

منك ثمرة إلى الأبد ، فيبست تلك الشجرة للوقت ، فنظر التلاميذ وتعجبوا وقالوا : كيف يبست التينة للوقت ، أجاب يسوع وقال لهم : الحق أقول لكم ! إن كان لكم إيمان ولا تشكون ليس مثل هذه الشجرة التين فقط تصنعون ولكن تقولون لهذا الجبل : تعال واسقط في البحر ، فيكون ، وقال مرقس : إن كان لكم إيمان بالله ، لحق أقول لكم : إن من قال لهذا الجبل : انتقل واسقط في هذا البحر ، ولا يشك في قلبه بل يصدق فيكون له الذي قال ، من أجل هذا أقول لكم : إن كل ما تسألونه في الصلاة بإيمان أنكم تنالونه فيكون لكم ، وقال متى : وكل ما تسألونه في الصلاة بإيمان تنالونه ، وقال مرقس : فقال له يوحنا ، يا معلم ! رأينا واحداً يخرج الشياطين باسمك فمنعناه لأنه لم يتبعنا ، قال لهم يسوع : لا تمنعوه ليس يصنع أحد قوة باسمي ، ويقدر سريعاً أن يقول على الشر ، كل من ليس هو عليكم فهو معكم ومن سقاكم كأس ماء باسم أبيكم المسيح الحق أقول لكم : إن أجره لا يضيع .

(237/748)

وفيه مما لا يجوز إطلاقه في شرعنا إطلاق الأب على الله وإطلاق الرب على غيره بلا قيد ، وقد تقدم التنبيه على مثل ذلك غير مرة - والله الهادي للصواب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 461 . 469 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا على ءاثارهم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابن مَرْيَمَ وءاتيناه الإنجيل ﴾ .

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

معنى قفاه أتبعه بعد أن مضى ، والمراد أنه تعالى أرسل بعضهم بعد بعض إلى أن انتهى إلى أيام عيسى عليه السلام فأرسله الله تعالى بعدهم وآتاه الإنجيل .

المسألة الثانية :

قال ابن جني قرأ الحسن : ﴿ وآتيناه الأنجيل ﴾ بفتح الهمزة ، ثم قال : هذا مثال لا نظير له ، لأن أفعيل وهو عندهم من نجلت الشيء إذا استخرجته ، لأنه يستخرج به الأحكام ، والتوراة فوعلة من ورى الزند يرى إذا أخرج النار ، ومثله الفرقان وهو فعلان من فرقت بين الشيئين ، فعلى هذا لا يجوز فتح الهمزة لأنه لا نظير له ، وغالب الظن أنه ما قرأه إلا عن سماع

وله وجهان أحدهما : أنه شاذ كما حكى بعضهم في البرطيل وثانيهما : أنه ظن الإنجيل أعجمياً فحرف مثاله تنبيهاً على كونه أعجمياً .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذين اتبعوه رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(239/748)

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد خلق لله تعالى وكسب للعبد ، قالوا : لأنه تعالى حكم بأن هذه الأشياء مجعولة لله تعالى ، وحكم بأنهم ابتدعوا تلك الرهبانية ، قال القاضي : المراد بذلك أنه تعالى لطف بهم حتى قويت دواعيهم إلى الرهبانية ، التي هي تحمل الكلفة الزائدة على ما يجب من الخلوة واللباس الخشن والجواب : أن هذا ترك للظاهر من غير دليل ، على أنا وإن سلمنا ذلك فهو يحصل مقصودنا أيضاً ، وذلك لأن حال الاستواء يمتنع حصول الرجحان وإلا فقد حصل الرجحان عند الاستواء والجمع بينهما متناقض ، وإذا كان الحصول عند الاستواء ممتنعاً ، كان عند المرجوحية أولى أن يصير ممتنعاً ، وإذا امتنع المرجوح وجب الراجح ضرورة أنه لا خروج عن طرفي النقيض .

المسألة الثانية :

قال مقاتل : المراد من الرأفة والرحمة هو أنهم كانوا متوادين بعضهم مع بعض ، كما وصف الله أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام بذلك في قوله : ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : 29] .

المسألة الثالثة :

قال صاحب الكشاف : قرئ (رآفة) على فعالة .

المسألة الرابعة :

الرهبانية معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهو الخائف فعلان من رهب ، كخشيان من خشي ، وقرئ : (ورهبانية) بالضم كأنها نسبة إلى الرهبان ، وهو جمع راهب كراكب وركبان ، والمراد من الرهبانية ترهبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين ، مخلصين أنفسهم للعبادة ومتحملين كلفاً زائدة على العبادات التي كانت واجبة عليهم من الخلوة واللباس الخشن ، والاعتزال عن النساء والتعبد في الغيران والكهوف ، عن ابن عباس أن في أيام الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام غير الملوك التوراة والإنجيل ، فساح قوم في الأرض ولبسوا الصوف ، وروى ابن مسعود أنه عليه السلام ، قال :

"يا ابن مسعود : أما علمت أن بني إسرائيل تفرقوا سبعين فرقة ، كلها في النار إلا ثلاث فرق ، فرقة آمنت بعيسى عليه السلام ، وقاتلوا أعداء الله في نصرته حتى قتلوا ، وفرقة لم يكن لها طاقة بالقتال ، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وفرقة لم يكن لها طاقة بالأمرين ، فلبس العباء ، وخرجوا إلى القفار والفيافي وهو قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذين اتبعوه رَأْفَةً ﴾ إلى آخر الآية"

المسألة الخامسة :

لم يعن الله تعالى بابتدعوها طريقة الذم ، بل المراد أنهم أحدثوها من عند أنفسهم ونذروها ، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ مَا كتبناها عَلَيْهِمْ ﴾ .

المسألة السادسة :

﴿ رهبانية ﴾ منصوبة بفعل مضمر ، يفسره الظاهر ، تقديره : ابتدعوا رهبانية ابتدعوها ، وقال أبو علي الفارسي : الرهبانية لا يستقيم حملها على ﴿ جَعَلْنَا ﴾ ، لأن ما يبتدعونه هم لا يجوز أن يكون مجعولاً لله تعالى ، وأقول : هذا الكلام إنما يتم لو ثبت امتناع مقدور بين قادرين ، ومن أين يليق بأبي على أن يخوض في أمثال هذه الأشياء .

ثم قال تعالى : ﴿ مَا كتبناها عَلَيْهِمْ ﴾ أي لم نفرضها نحن عليهم .

أما قوله : ﴿ إِلاَّ ابتغاء رضوان الله ﴾ ففيه قولان : أحدهما : أنه استثناء منقطع .

أي ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله الثاني : أنه استثناء متصل ، والمعنى أنا ما تعبدناهم بها إلا على وجه ابتغاء مرضاة الله تعالى ، والمراد أنها ليست واجبة ، فإن المقصود من فعل الواجب ، دفع العقاب وتحصيل رضا الله ، أما المندوب فليس المقصود من فعله دفع العقاب ، بل المقصود منه ليس إلا تحصيل مرضاة الله تعالى .

(241/748)

أما قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَئَاتَيْنَا الذين ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ ففيه أقوال : أحدها : أن هؤلاء الذين ابتدعوا هذه الرهبانية ما رعوها حق رعايتها ، بل ضموا إليها التثليث والاتحاد ، وأقام أناس منهم على دين عيسى حتى أدركوا محمداً عليه الصلاة والسلام فآمنوا به فهو قوله : ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ﴾ ، وثانيها : أنا ما كتبنا عليهم تلك الرهبانية إلا ليتوسلوا بها إلى مرضاة الله تعالى ، ثم إنهم أتوا بتلك الأفعال ، لكن لا لهذا الوجه ، بل لوجه آخر ، وهو طلب الدنيا والرياء والسمعة وثالثها : أنا لما كتبناها عليهم تركوها ، فيكون ذلك ذماً لهم من حيث إنهم تركوا الواجب ورابعها : أن الذين لم يرعوها حق رعايتها هم الذين أدركوا محمداً عليه الصلاة والسلام ، ولم يؤمنوا به ، وقوله : ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ أي الذين آمنوا

بمحمد وكثير منهم فاسقون يعني الذين لم يؤمنوا به ، ويدل على هذا ما روي أنه عليه السلام قال : " من آمن بي وصدقني واتبعني فقد رعاها حق رعايتها ، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون " وخامسها : أن الصالحين من قوم عيسى عليه السلام ابتدعوا الرهبانية وانقرضوا عليها ، ثم جاء بعدهم قوم اقتدوا بهم في اللسان ، وما كانوا مقتدين بهم في العمل ، فهم الذين ما رعوها حق رعايتها ، قال عطاء : لم يرعوها كما رعاها الحواريون ، ثم قال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ والمعنى أن بعضهم قام برعايتها وكثير منهم أظهر الفسق وترك تلك الطريقة ظاهراً وباطناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 213 . 215 ﴾

(242/748)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

لما ذكر تعالى المغفرة التي في الآخرة ، ندب في هذه الآية إلى المسارعة إليها والمسابقة ، وهذه الآية حجة عند جميع العلماء في الندب إلى الطاعات ، وقد استدل بها بعضهم على أن أول أوقات الصلوات أفضل ، لأنه يقتضي المسارعة والمسابقة ، وقد ذكر بعضهم في تفسير هذه

الآية أشياء هي على جهة المثال ، فقال قوم من العلماء منهم ابن مسعود : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ معناه : كونوا في أول صف في القتال . وقال آخرون ، منهم أنس بن مالك معناه : اشهدوا تكبيرة الإحرام مع الإمام ، وقال آخرون منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه : كن أول داخل في المسجد ، وآخر خارج منه ، وهذا كله على جهة المثال . وذكر العرض من الجنة ، إذ المعهود أنه أقل من الطول ، وقال قوم من أهل المعاني : عبر عن الساحة بالعرض ولم يقصد أن طولها أقل ولا أكثر . وقد ورد في الحديث : "إن سقف الجنة العرش " . وورد في الحديث : "إن السماوات السبع في الكرسي كالدرهم في الفلاة ، وإن الكرسي في العرش كالدرهم في الفلاة " .

وقوله تعالى : ﴿ أعدت ﴾ ظاهرة أنها مخلوقة الآن معدة ، ونص عليه الحسن في كتاب النقاش .

وقوله تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة ﴾ قال ابن زيد وغيره المعنى : ما حدث من حادث خير وشر ، فهذا على معنى لفظ : ﴿ أصاب ﴾ لا على عرف المصيبة ، فإن عرفها في الشر . وقال ابن عباس ما معناه : أنه أراد عرف المصيبة وخصها بالذكر ، لأنها أهم على البشر ، وهي بعض من الحوادث تدل على أن جميع الحوادث خيرها وشرها كذلك .

وقوله تعالى : ﴿ في الأرض ﴾ يعني بالقحوط والزلازل وغير ذلك . وقوله : ﴿ في أنفسكم ﴾ يريد بالموت والأمراض وغير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ إلا في كتاب ﴾ معناه : إلا والمصيبة في كتاب . و: ﴿ نبرأها ﴾ معناه : نخلقها ، يقال : برأ الله الخلق : أي خلقهم ، والضمير عائد على المصيبة ، وقيل : على ﴿ الأرض ﴾ ، وقيل : على الأنفس ، قاله ابن عباس وقتادة وجماعة وذكر المهدوي جواز عود الضمير على جميع ما ذكر ، وهي كلها معان صحاح ، لأن الكتاب السابق أزلي قبل هذه كلها .

وقوله تعالى : ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ يريد تحصيل الأشياء كلها في الكتاب . وقوله تعالى : ﴿ لكي لا تأسوا ﴾ معناه : فعل الله ذلك كله وأعلمكم به ليكون سبب تسليمكم وقلة اكتراثكم بأمر الدنيا ، فلا تحزنوا على ما فات ، ولا تفرحوا الفرح المبطر بما آتاكم منها . قال ابن عباس : ليس أحد إلا يفرح ويحزن ، ولكن من أصابته مصيبة يجعلها صبراً ، من أصاب خيراً يجعله شكراً .

وقرأ أبو عمرو وحده : "أتاكم" على وزن مضى ، وهذا ملائم لقوله : ﴿ فاتكم ﴾ .

وقرأ الباقون من السبعة : "آتاكم" ، على وزن أعطاكم ، بمعنى آتاكم الله تعالى ، وهي قراءة الحسن والأعرج وأهل مكة . وقرأ ابن مسعود : "أوتيتم" ، وهي تؤيد قراءة الجمهور .

وقوله تعالى : ﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ يدل على أن الفرح المنهي عنه إنما هو ما أدى إلى الاختيال ، والفخر بنعم الله المقترن بالشكر والتواضع فأمر لا يستطيع أحد دفعه عن نفسه ولا حرج فيه .

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)

(244/748)

اختلف النحاة في إعراب : ﴿ الذين ﴾ فقال بعضهم : هم في موضع رفع على الابتداء ، والخبر عنهم محذوف معناه الوعيد والذم ، وحذفه على جهة الإبهام كنحو حذف الجواب في قوله تعالى : ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض ﴾ [الرعد : 32] الآية ، وقال بعضهم هم رفع على خبر الابتداء تقديره هم الذين ﴿ يبخلون ﴾ . وقال بعضهم في موضع نصب صفة ل ﴿ كل ﴾ [الحديد : 23] ، لأن كلاًّ وإن كان نكرة فهو يخصص نوعاً ما فيسوغ لذلك وصفه بالمعرفة ، وهذا مذهب الأخفش . و : ﴿ يبخلون

﴾ معناه : بأموالهم وأفعالهم الحسنة من إيمانهم وغير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ ويأمرون الناس ﴾ يحتمل أن يصفهم بحقيقة الأمر بألسنتهم ، ويحتمل أن يريد أنهم يقتدى بهم في البخل فهم لذلك كأنهم يأمرون .

وقرأ الحسن : " بالبَخَل " بفتح الباء والخاء . وقرأ جمهور القراء وأهل العراق : " فإن الله هو الغني الحميد " بإثبات : " هو " ، وكذلك في " إمامهم " . وقرأ نافع وابن عامر : " فإن الله الغني الحميد " بترك " هو " ، وهي قراءة أهل المدينة ، وكذلك في " إمامهم " ، وهذا لم يثبت قراءة إلا وقد قرئ على النبي صلى الله عليه وسلم بالوجهين . قال أبو علي ، ف " هو " في القراءة التي ثبت فيها يحسن أن يكون ابتداء ، لأن حذف الابتداء غير سائغ . و : ﴿ الكتاب ﴾ اسم جنس لجميع الكتب المنزلة . ﴿ والميزان ﴾ : العدل في تأويل أكثر المتأولين . وقال ابن زيد وغيره من المتأولين : أراد الموازين المصرفة بين الناس ، وهذا جزء من القول الأول .

وقوله : ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾ يقوي القول الأول .

وقوله تعالى : ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾ عبر عن خلقه وإيجاده بالإنزال كما قال في الثمانية الأزواج من الأنعام ، وأيضاً فإن الأمر بكون الأشياء لما تلقى من السماء ، جعل الكل نزولاً منها . وقال جمهور كثير من المفسرين : ﴿ الحديد ﴾ هنا : أراد به جنسه من المعادن وغيرها . وقال ابن عباس : نزل آدم من الجنة ومعه السندان والكلبتان والميقعة ، قال حذاق من المفسرين : أراد به السلاح ، ويترتب معنى الآية بأن الله أخبر أنه أرسل رسله وأنزل كتباً وعدلاً مشروعاً وسلاحاً يحارب به من عند ولم يهتد بهدي الله فلم يبق عذر ، وفي الآية على هذا التأويل حض على القتال وترغيب فيه .

وقوله : ﴿ وليعلم الله من ينصره ﴾ يقوي هذا التأويل ، ومعنى قوله : ﴿ ليعلم ﴾ أي ليعلمه موجوداً فالتغير ليس في علم الله ، بل في هذا الحدث الذي خرج من العدم إلى الوجود .

وقوله : ﴿ بالغيب ﴾ معناه : بما سمع من الأوصاف الغائبة فآمن بها لقيام الأدلة عليها .

ثم وصف تعالى نفسه بالقوة والعزة ليبين أنه لا حاجة به إلى النصرة ، لكنها نافعة من عصم بها نفسه من الناس . ثم ذكر تعالى رسالة " نوح وإبراهيم " تشريفاً لهما بالذكر ، ولأنهما من أول الرسل . ثم ذكر تعالى نعمه على ﴿ ذريتهما ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ والكتاب ﴾ يعني الكتب الأربعة ، فإنها جميعاً في ذرية إبراهيم عليه السلام . وذكر أنهم مع ذلك منهم من فسق وعند ، فكذلك بل أحرى جميع الناس ، ولذلك يسر السلاح للقتال .

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ

﴿ قفينا ﴾ معناه: جئنا بهم بعد الأولين، وهو مأخوذ من القفا، أي جاء بالثاني في قفا الأول، فيجيء الأول بين يدي الثاني، ومنه القوافي التي تأتي أواخر أبيات الشعر، ثم ذكر " عيسى " عليه السلام تشريفاً وتخصيصاً.

(246/748)

وقرأ الحسين: " الأنجيل " بفتح الهمزة، قال أبو الفتح: هذا مما لا نظير له. و: ﴿ رأفة ورحمة ورهبانية ﴾ مفعولات ﴿ جعلنا ﴾. والجعل في هذه الآية بمعنى: الخلق. وقوله: ﴿ ابتدعوها ﴾ صفة ل ﴿ رهبانية ﴾ وخصها بأنها ابتدعت، لأن الرأفة والرحمة في القلب لا تكسب للإنسان فيها، وأما الرهبانية هم ابتدعوها، والمراد بالرأفة والرحمة: حب بعضهم في بعض وتوادهم، والمراد بالرهبانية: رفض النساء، واتخاذ الصوامع، والمعتزلة تعرب ﴿ رهبانية ﴾ أنها نصب بإضمار فعل يفسره ﴿ ابتدعوها ﴾ وليست بمعطوفة على الرأفة والرحمة ويذهبون في ذلك إلى أن الإنسان يخلق أفعاله فيعربون الآية على مذهبهم، وكذلك أعربها أبو علي. وروي في ابتداعهم الرهبانية أنهم افترقوا ثلاث فرق، ففرقة قاتلت الملوك على الدين، فقتلت وغلبت. وفرقة قعدت في

المدن يدعون إلى الدين ويبينونه ، فأخذتها الملوك ونشرتها بالمناشر وقتلوا ، وفرقة خرجت إلى الفيافي وبنت الصوامع والديارات ، وطلبت أن تسلم على أن تعتزل فتركت وتسموا بالرهبان ، واسمهم مأخوذ من الرهب ، وهو الخوف ، فهذا هو ابتداعهم ولم يفرض الله ذلك عليهم ، لكنهم فعلوا ذلك ﴿ ابتغاء رضوان الله ﴾ ، هذا تأويل أبي أمامة وجماعة ، وقال مجاهد : المعنى ﴿ كتبناها عليهم ﴾ ﴿ ابتغاء رضوان الله ﴾ . ف " كتب " على هذا بمعنى : قضى ، ويحتمل اللفظ أن يكون المعنى : ما كتبناها عليهم إلا في عموم المندوبات ، لأن ابتغاء مرضاة الله بالقرب والنوافل مكتوب على كل أمة فالاستثناء على هذا احتمال متصل .

واختلف الناس في الضمير الذي في قوله : ﴿ فما رعوها ﴾ من المراد به ؟ فقيل إن الذين ابتدعوا الرهبانية بأنفسهم لم يدوموا على ذلك ولا وفوه حقه ، بل غيروا وبدلوا ، قاله ابن زيد وغيره ، والكلام سائغ وإن كان فيهم من رعى : أي لم يرعوها بأجمعهم ، وفي هذا التأويل لزوم الإتمام لكل من بدأ بتطوع ونفل أنه يلزمه أن يرعاه حق رعيه . قال ابن عباس وغيره : الضمير للملوك الذين حاربوهم وأجلوهم وقال الضحاك وغيره : الضمير للأخلاف الذين

جاؤوا بعد المبتدعين لها ، وباقي الآية بين . وقرأ ابن مسعود : " ما كتبناها عليهم لكن ابتدعوها " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(248/748)

وقال القرطبى :

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا ﴾ أي أتبعنا ﴿ على آثَارِهِم ﴾ أي على آثار الذرية .

وقيل : على آثار نوح وإبراهيم ﴿ بِرُسُلِنَا ﴾ موسى وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ فهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإنجيل ﴾ وهو الكتاب المنزل عليه .

وتقدّم اشتقاقه في أوّل سورة "آل عمران" .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذين اتبعوه ﴾ على دينه يعني الحواريين وأتباعهم ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أي مودّة فكان يواد بَعضهم بعضاً .

وقيل : هذا إشارة إلى أنهم أمروا في الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس وألان الله قلوبهم

لذلك ، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرّفوا الكَلِم عن مواضعه .

والرأفة اللين ، والرحمة الشفقة .

وقيل : الرأفة تخفيف الْكَلِّ ، والرحمة تحمُّل الثقل .

وقيل : الرأفة أشد الرحمة .

وتم الكلام .

ثم قال : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها ﴾ أي من قِبل أنفسهم .

والأحسن أن تكون الرهبانية منصوبة بإضمار فعل ؛ قال أبو علي : وابتدعوها رهبانية ابتدعوها .

وقال الزجاج : أي ابتدعوها رهبانية ؛ كما تقول رأيت زيداً وعمراً كلّمت .

وقيل : إنه معطوف على الرأفة والرحمة ؛ والمعنى على هذا أن الله تعالى أعطاهم إياها فغيّروا وابتدعوا فيها .

قال الماوردي : وفيها قراءتان ؛ إحداهما بفتح الراء وهي الخوف من الرَّهب .

الثانية بضم الراء وهي منسوبة إلى الرُّهبان كالرُّضْوانية من الرُّضْوان ؛ وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع ؛ وذلك أن ملوكهم غيّروا وبَدّلوا وبقي نفر قليل فترهّبوا وتبتّلوا .

قال الضحاك : إن ملوكاً بعد عيسى عليه السلام ارتكبوا المحارم ثلاثمائة سنة ، فأنكرها عليهم من كان بقي على منهاج عيسى فقتلوهم ، فقال قوم بقوا بعدهم : نحن إذا نهيناهم قتلونا فليس يسعنا المقام بينهم ، فاعتزلوا الناس واتخذوا الصوامع .

وقال قتادة : الرهبانية التي ابتدعوها رفض النساء واتخاذ الصوامع .

وفي خبر مرفوع : " هي لحوقهم بالبراري والجبال " ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها ؛ قاله ابن زيد .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ ابتغَآءَ رِضْوَانِ اللهِ ﴾ أي ما أمرناهم إلا بما يرضي الله ؛ قاله ابن مسلم .

وقال الزجاج : ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ معناه لم نكتب عليهم شيئاً البَتّة .

ويكون ﴿ ابتغَآءَ رِضْوَانِ اللهِ ﴾ بدلاً من الهاء والألف في "كَتَبْنَاهَا" والمعنى : ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله .

وقيل : ﴿ إِلاَّ ابتغَآءَ ﴾ الاستثناء منقطع ، والتقدير ما كتبناها عليهم لكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله .

﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أي فما قاموا بها حق القيام .

وهذا خصوص ؛ لأن الذين لم يرعوها بعض القوم ، وإنما تسببوا بالترهب إلى طلب الرياسة على الناس وأكل أموالهم كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحبار والرهبان لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الناس بالباطل وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾

[التوبة : 34] وهذا في قوم أدّاهم الترهب إلى طلب الرياسة في آخر الأمر .

(250/748)

وروى سفيان الثوري عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها ﴾ قال : كانت ملوك بعد عيسى بدلوا التوراة والإنجيل ، وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل ويدعون إلى دين الله تعالى ، فقال أناس لملكهم : لو قتلت هذه الطائفة ، فقال المؤمنون : نحن نكفيكم أنفسنا .

فطائفة قالت : ابنوا لنا اسطوانة ارفعونا فيها ، وأعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم .

وقالت طائفة : دعونا نهيم في الأرض ونسيح ، ونشرب كما تشرب الوحوش في البرية ، فإذا قدرتم علينا فاقتلونا .

وطائفة قالت : ابنوا لنا دُوراً في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترث البقول فلا ترونا .

وليس أحد من هؤلاء إلا وله حميم منهم ففعلوا ، فمضى أولئك على منهاج عيسى ، وخلف قوم من بعدهم ممن قد غيّر الكتاب فقالوا : نسيح ونتعبّد كما تعبد أولئك ، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان مَن تقدّم من الذين اقتدوا بهم ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابتغآءَ رِضْوَانِ الله ﴾ الآية .

يقول : ابتدعها هؤلاء الصالحون ﴿ فَمَا رَعَوْهَا ﴾ المتأخرون ﴿ حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ ﴿ فَآتَيْنَا الذين آمَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ يعني الذين ابتدعوها أوّلاً ورعوها ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ يعني المتأخرين ، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ولم يبق منهم إلا قليل ، جاؤوا من الكهوف والصَّوَامع والغِيران فآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

الثالثة : وهذه الآية دالة على أن كل محدثة بدعة ، فينبغي لمن ابتدع خيراً أن يدوم عليه ، ولا يعدل عنه إلى ضده فيدخل في الآية .

وعن أبي أمامة الباهلي واسمه صُدَيّ بن عجلان قال : أحدثتم قيام رمضان ولم يكتب عليكم ، إنما كتب عليكم الصيام ، فدوموا على القيام إذ فعلتموه ولا تتركوه ، فإن ناساً من

بني إسرائيل ابتدعوا بِدعاً لم يكتبها الله عليهم ابتغوا بها رضوان الله فما رَعَوها حق رعايتها ، فعابهم الله بتركها فقال : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابتغَآءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ .

الرابعة : وفي الآية دليل على العزلة عن الناس في الصوامع والبيوت ، وذلك مندوب إليه عند فساد الزمان وتغيّر الأصدقاء والإخوان .

وقد مضى بيان هذا في سورة "الكهف" مستوفًى والحمد لله .

وفي مسند أحمد بن حنبل من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال :

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سَرِيَّة من سراياه فقال : مَرَّ رجلٌ بغار فيه شيء من ماء ، فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار ، فيقوته ما كان فيه من ماء ويصيب ما حوله من البقل ويتخلّى عن الدنيا .

قال : لو أني أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فإن أذن لي فعلت وإلا لم أفعل ، فأتاه فقال : يا نبيّ الله ! إني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل ، فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا .

قال : فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة والذي نفس محمد بيده لَغَدْوَة أو رَوْحَةٌ في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدهم في الصف الأوّل خير من صلاته ستين سنة " وروى الكوفيون " عن ابن

مسعود ، قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل تدري أيّ الناس أعلم" قال :
قلت : الله ورسوله أعلم .

(252/748)

قال : "أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس فيه وإن كان مقصراً في العمل وإن كان يزحف على استه هل تدري من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا إن أفنونا فلم يبق للدين أحد يدعون إليه فتعالوا نفترق في الأرض إلى أن يبعث الله النبيّ الأميّ الذي وعدنا عيسى يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم فتفرقوا في غِيران الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر وتلا "وَرَهْبَانِيَّةً" الآية أتدري ما رهبانية أمتي الهجرة والجهاد والصوم والصلاة والحج والعمرة والتكبير على التلاع يا بن مسعود اختلف من كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة فنجا منهم فرقة وهلك سائرها واختلف مَن كان قبلكم من النصارى على اثنين وسبعين فرقة فنجا منهم ثلاثة وهلك سائرها فرقة وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى عليه السلام حتى قتلوا وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك أقاموا بين ظهراني قومهم فدعوهم إلى دين

الله ودين عيسى ابن مريم فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطعتهم بالمناشير وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهراني قومهم فيدعوهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم فساحوا في الجبال وترهبوا فيها وهي التي قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها ﴾ الآية فمن آمن بي واتبعني وصدّقني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الفاسقون" "يعني الذين تهوّدوا وتنصروا .

وقيل : هؤلاء الذين أدركوا محمداً صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا به فأولئك هم الفاسقون .

وفي الآية تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي إن الأولين أصروا على الكفر أيضاً فلا تعجب من أهل عصرك إن أصروا على الكفر .

والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(253/748)

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا على ءاثارهم بِرُسُلِنَا ﴾

أي أرسلنا بعدهم رسولاً بعد رسول ، وأصل التقفية جعل الشيء خلف القفا ، وضمير

آثارهم لنوح وإبراهيم ومن أرسلا إليهم من قومهما .

وقيل : لمن عاصرهما من الرسل عليهم السلام .

واعترض بأنه لو عاصر رسول نوحاً فإما أن يرسل إلى قومه كهارون مع موسى عليهما السلام أو إلى غيرهم كلوط مع إبراهيم عليهما السلام ولا مجال للأول لمخالفته للواقع ولا إلى الثاني إذ ليس على الأرض قوم غيره ، وأجيب بأن ذاك توجيه لجمع الضمير وكون لوط مع إبراهيم كاف فيه ، وقيل : للذرية ، وفيه أن الرسل المقفى بهم من الذرية فلو عاد الضمير عليهم لزم أنهم غيرهم أو اتحاد المقفى والمقفى به وتخصيص الذرية مرجع الضمير بالأوائل منهم خلاف الظاهر من غير قرينة تدل عليه ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ جعلناه بعده .

وحاصل المعنى أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى الإرسال إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ وءاتيناه ﴾ بأن أوحيناه إليه وليس هو الذي بين أيدي النصارى اليوم أعني المشتمل على قصة ولادته وقصة صلبه المفتراة ؛ وقرأ الحسن ﴿ أَهْلُ الإنجيل ﴾ بفتح الهمزة ، قال أبو الفتح : وهو مثال لا نظير له ، قال الزمخشري : وأمره أهون من أمر البرطيل بفتح الباء والكسر أشهر وهو حجر مستطيل واستعماله في الرشوة مولد مأخوذ منه بنوع

تجوز لأنه عجمي وهذا عربي وهم يتلاعبون بالعجمي ولا يلتزمون فيه أوزانهم ، وزعم بعض أن لفظ الإنجيل عربي من نجلت بمعنى استخرجت لاستخراج الأحكام منه ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الذين اتبعوه رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أي خلقنا أو صيرنا ففي قلوب في موضع المفعول الثاني وأياً مّا كان فالمراد جعلنا ذلك في قلوبهم فهم يرأف بعضهم ببعض ويرحم بعضهم بعضاً ، ونظيره في شأن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : 29] والرأفة في المشهور الرحمة لكن قال بعض الأفاضل : إنها إذا ذكرت معها يراد بالرأفة ما فيه درء الشر ورأب الصدع ، وبالرحمة ما فيه جلب الخير ولذا ترى في الأغلب تقديم الرأفة على الرحمة وذلك لأن درء المفاسد أهم من جلب المصالح وقرىء رآفة على فعالة كشجاعة ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر أي وابتدعوا رهبانية .

﴿ ابتدعوها ﴾ فهو من باب الاشتغال ، واعترض بأنه يشترط فيه كما قال ابن الشجري .

وأبو حيان أن يكون الاسم السابق مختصاً يجوز وقوعه مبتدأ والمذكور نكرة لا مسوغ لها من مسوغات الابتداء ، ورد بأنه على فرض تسليم هذا الشرط الاسم هنا موصوف معنى بما يؤخذ من تنوين التعظيم كما قيل في قولهم : شر أهر ذا ناب .

ومما يدل عليه من النسبة كما ستسمعه إن شاء الله تعالى أو منصوب بالعطف على ما قبل ، وجملة ﴿ ابتدعوها ﴾ في موضع الصفة والكلام على حذف مضاف أي وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة وحب رهبانية مبتدعة لهم ، وبعضهم جعله معطوفاً على ما ذكر ولم يتعرض للحذف ، وقال : الرهبانية من أفعال العباد لأنها المبالغة في العبادة بالرياضة والانقطاع عن الناس ، وأصل معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهو الخائف فعلان من رهب كخشيان من خشي ، وأفعال العباد يتعلق بها جعل الله تعالى عند أهل الحق وهي في عين كونها مخلوقة له تعالى مكتسبة للعبد ، والزمخشري جوز العطف المذكور وفسر الجعل بالتوفيق كأنه قيل : وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية واستحداثها بناءاً على مذهبه أن الرهبانية فعل العبد المخلوق له باختياره ، وفائدة ﴿ فِى قُلُوبِ ﴾ على هذا التصوير على ما قيل ، ولا يخفى ما في هذا التفسير من العدول عن الظاهر لكن الإنصاف أنه لا يحسن العطف بدون هذا التأويل أو اعتبار حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه على ما تقدم أو تفسير الرهبانية بما هو من أفعال القلوب كالخوف المفرط المقتضى للغلو في التعبد ويرتكب نوع تجوز في ابتدعوها وما بعده كأن يكون المراد ابتداع أعمالها وآثارها أو ارتكاب استخدام في الكلام بأن يعتبر للرهبانية معنيان الخوف المفرط مثلاً ، ويراد في جعلنا في قلوبهم رهبانية والأعمال التعبدية الشاقة كرفض الدنيا وشهواتها من

النساء وغيرهن، ويراد في ﴿ ابتدعوها ﴾ وما بعده وليس الداعي للتأويل الاعتزال بل كون الرهبانية بمعنى الأعمال البدنية ليست مما تجعل في القلب كالرأفة والرحمة فتأمل.

(256/748)

وقرئ ﴿ رهبانية ﴾ بضم الراء وهي منسوبة إلى الرهبان بالضم وهو كما قال الراغب: يكون واحداً وجمعاً فالنسبة إليه باعتبار كونه واحداً ومن ظن اختصاص المضموم بالجمع قال: إنه لما اختص بطائفة مخصوصة أعطى حكم العلم فنسبته إليه كما قالوا في أنصار وأنصاري أو أن النسبة إلى رهبان المفتوح وضم الراء في المنسوب من تغييرات النسب كما في دهري بضم الدال، وقوله تعالى: ﴿ ابتدعوها مَا كتبناها عَلَيْهِمْ ﴾.

جملة مستأنفة، وقوله سبحانه:

﴿ إِلاَّ ابتغاء رضوان الله ﴾ استثناء منقطع أي ما فرضناها نحن عليهم رأساً ولكن ابتدعوها وألزموا أنفسهم بها ابتغاء رضوان الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أي ما حافظوا عليها حق المحافظة ذم لهم من حيث إن ذلك كالنذر وهو عهد مع الله تعالى يجب رعايته لا سيما إذا قصد به رضاه عز وجل.

واستدل بذلك على أن من اعتاد تطوعاً كره له تركه، وجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿ مَا

كتبناها ﴾ الخ صفة أخرى لرهبانية والنفي متوجه إلى قيد الفعل لا نفسه كما في الوجه الأول ، وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ ابتغاء ﴾ الخ استثناء متصل من أعم العلل أي ما قضيناها عليهم بأن جعلناهم يبتدعونها لشيء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوان الله تعالى ويستحقوا بها الثواب ، ومن ضرورة ذلك أن يحافظوا عليها ويراعوها حق رعايتها فما رعوها كذلك والوجه الأول مروى عن قتادة .

وجماعة ، وهذا مروى عن مجاهد ولا مخالفة عليه بين ﴿ ابتدعوها ﴾ و ﴿ وَمَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ الخ حيث إن الأول يقتضي أنهم لم يؤمروا بها أصلاً والثاني يقتضي أنهم أمروا بها لابتغاء رضوان الله تعالى لما أشرنا إليه من معنى ﴿ مَا كتبناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابتغاء ﴾ الخ ، ودفع بعضهم المخالفة بأن يقال : الأمر وقع بعد ابتداعها أو يؤل ابتدعوها بأنهم أول من فعلها بعد الأمر ويؤيد ما ذكره في الدفع أولاً ما أخرجه أبو داود .

وأبو يعلى .

(257/748)

والضياء عن أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع

والديارات رهبانية مّا ابتدعوها ما كتبناها عليهم " يعني الآية ، والظاهر أن ضمير فما رعوها لأولئك الذين ابتدعوا الرهبانية ، والمراد نفي وقوع الرعاية من كلهم على أن المعنى فما رعاها كلهم بل بعضهم ، وليس المراد بالموصول فيما سبق أشخاصاً بأعيانهم بل المراد به ما يعم النصارى إلى زمان الإسلام ولا يضر في ذلك أن أصل الابتداع كان من قوم مخصوصين لأن إسناده على نحو الإسناد في بنو تميم قتلوا زيداً والقاتل بعضهم .

وقال الضحاك .

وغيره : الضمير في ﴿ فَمَا رَعَوْهَا ﴾ للاخلاف الذين جاءوا بعد المبتدعين والأول أوفق بالصناعة ، والمراد بالذين آمنوا في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا ءامَنُوا مِنْهُمْ ﴾ الذين آمنوا إيماناً صحيحاً وهو لمن أدرك وقت النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان به عليه الصلاة والسلام أي فآتينا الذين آمنوا منهم إيماناً صحيحاً بعد رعاية رهبانيتهم ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾ أي ما يختص بهم من الأجر وهو الأجر على ما سلف منهم والأجر على الإيمان به عليه الصلاة والسلام ، وليس المراد بهم الذين بقوا على رعاية الرهبانية إلى زمان البعثة ولم يؤمنوا لأن رعايتها لغو محض وكفر بحت وإنما لها استتباع الأجر ، ويجوز أن يقال : إن الذين لم يرعوا الرهبانية حق

رعايتها هم الذين كذبوه عليه الصلاة والسلام ، قال الزجاج : قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ على ضربين : أحدهما : أن يكونوا قصروا فيما ألزموه أنفسهم ، والآخر : وهو الأجود أن يكونوا حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم ولم يؤمنوا فكانوا تاركين لطاعة الله تعالى فما رعوا تلك الرهبانية ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا على ءاثارهم ﴾ الخ انتهى ، فحمل الذين آمنوا على من أدرك وقته عليه الصلاة والسلام منهم وآمن به صلى الله عليه وسلم والفاسقين في قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ على الذين لم يؤمنوا به صلى الله عليه وسلم ، ومقتضى حمل الذين آمنوا على ما سمعت أولاً حمله على الأعم الشامل لمن خرج عن اتباع عيسى عليه السلام من قبل وحمل الفريقين على من مضى من المراعين لحقوق الرهبانية قبل النسخ والمخلين بها إذ ذاك بالتثليث والقول بالاتحاد وقصد السمعة ونحو ذلك من غير تعرض لإيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وكفرهم به مما لا يساعده المقام .

وفي الآثار ما يأباه ففي حديث طويل أخرجه جماعة منهم الحاكم وصححه .

والبيهقي في "شعب الإيمان" من طرق عن ابن مسعود " اختلف من كان قبلنا على ثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرها فرقة وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله وعيسى ابن مريم ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك فأقاموا بين ظهراني قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى فقتلتهم الملوك ونشرتهم بالمناشر ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بالمقام معهم فساحوا في الجبال وترهبوا فيها وهم الذين قال الله : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كتبناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابتغاء رضوان الله فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَئَاتَيْنَا الذين ءامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ الذين آمنوا بي وصدقوني ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ الذين حجدوا بي وكفروا بي " وهذا الخبر يؤيد ما استجوده الزجاج ، ويعلم منه أيضاً سبب ابتداع الرهبانية وليس في الآية ما يدل على ذم البدعة مطلقاً ، والذي تدل عليه ظاهراً ذم عدم رعاية ما التزموه ، وتفصيل الكلام في البدعة ما ذكره الإمام محيي الدين النووي في شرح "صحيح مسلم" .

قال العلماء : البدعة خمسة أقسام واجبة ومندوبة .

ومحرمة .

ومكروهة .

ومباحة فمن الواجبة تعلم أدلة المتكلمين للرد على الملاحدة والمبتدعين وشبه .

ذلك ، ومن المندوبة تصنيف كتب العلم وبناء المدارس والربط وغير ذلك ، ومن المباحة

التبسط في ألوان الأطعمة وغير ذلك ، والحرام والمكروه ظاهران ، فعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم "كل بدعة ضلالة" من العام المخصوص .

(260/748)

وقال صاحب جامع الأصول : الابتداع من المخلوقين إن كان في خلاف ما أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم فهو في حيز الذم والإنكار وإن كان واقعاً تحت عموم ما ندب الله تعالى إليه وحض عليه أو رسوله صلى الله عليه وسلم فهو في حيز المدح وإن لم يكن مثاله موجوداً كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف ، ويعضد ذلك قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في صلاة التراويح : نعمت البدعة هذه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(261/748)

وقال ابن عاشور :

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾

﴿ ثم ﴾ للتراخي الترتبي لأن بعثه رسل الله الذين جاءوا بعد نوح وإبراهيم ومن سَبَق من ذريتهما أعظمُ مما كان لدى ذرية إبراهيم قبل إرسال الرسل الذين قفّى الله بهم ، إذ أرسلوا إلى أمم كثيرة مثل عاد وثمود وبني إسرائيل وفيهم شريعة عظيمة وهي شريعة التوراة .

والتقفية : إتْباع الرسول برسول آخر ، مشتقة من القَفا لأنه يأتي بعده فكأنه يمشي عن جهة قفاه ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ﴾ في سورة [البقرة : 87] .

والآثار : جمع الأثر ، وهو ما يتركه السائر من مواقع رجليه في الأرض ، قال تعالى : ﴿ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ [الكهف : 64] .

وضمير الجمع في قوله : ﴿ على آثارهم ﴾ عائد إلى نوح وإبراهيم وذريتهما الذين كانت فيهم النبوءة والكتاب ، فأما الذين كانت فيهم النبوءة فكثيرون ، وأما الذين كان فيهم الكتاب فمثل بني إسرائيل .

و(على) للاستعلاء .

وأصل (قفى على أثره) يدل على قرب ما بين الماشِيين ، أي حضر الماشي الثاني قبل أن يزول أثر الماشي الأول ، وشاع ذلك حتى صار قولهم : على أثره ، بمعنى بعده بقليل أو متصلاً شأنه بشأن سابقه ، وهذا تعريف للأمة بأن الله أرسل رسلاً كثيرين على وجه الإجمال وهو تمهيد للمقصود من ذكر الرسول الأخير الذي جاء قبل الإسلام وهو عيسى

عليه السلام .

وفي إعادة فعل ﴿ قفينا ﴾ وعدم إعادة ﴿ على آثارهم ﴾ إشارة إلى بُعد المدة بين آخر رسل إسرائيل وبين عيسى فإن آخر رسل إسرائيل كان يونس بن متّى أرسل إلى أهل نَيْنَوى أول القرن الثامن قبل المسيح فلذلك لم يكن عيسى مرسلاً على آثار من قبله من الرسل .

والإنجيل : هو الوحي الذي أنزله الله على عيسى وكَتَبه الحواريون في أثناء ذكر سيرته .

والإِنجيل : بكسر الهمزة وفتحها معرّب تقدم بيانه أول سورة آل عمران .

ومعنى جَعْل الرأفة والرحمة في قلوب الذين اتّبعوه أن تعاليم الإنجيل الذي آتاه الله عيسى أمرتهم بالتخلق بالرأفة والرحمة فعملوا بها ، أو إن ارتياضهم بسيرة عيسى عليه السلام أرسخَ ذلك في قلوبهم وذلك بجعل الله تعالى لأنه أمرهم به ويسّره عليهم .

ذلك أن عيسى بُعث لتهذيب نفوس اليهود واقتلاع القسوة من قلوبهم التي تخلقوا بها في أجيال طويلة قال تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ في سورة [البقرة : 74] .

والرأفة: الرحمة المتعلقة بدفع الأذى والضرّ فهي رحمة خاصة، وتقدمت في قوله تعالى:

﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ في سورة [البقرة: 143] وفي قوله: ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ في سورة [النور: 2].

والرحمة: العطف والملاينة، وتقدمت في أول سورة الفاتحة.

فعطف الرحمة على الرأفة من عطف العام على الخاص لاستيعاب أنواعه بعد أن اهتم ببعضها.

والرهبانية: اسم للحالة التي يكون الراهب متصفاً بها في غالب شؤون دينه، والياء فيها ياء النسبة إلى الراهب على غير قياس لأن قياس النسب إلى الراهب الراهبية، والنون فيها مزيدة للمبالغة في النسبة كما زيدت في قولهم: شَعْراني، لكثير الشعر، ولحياني لعظيم اللحية، ورُوحاني، ونَصراني.

وجعل في الكشاف ﴾ النون جائية من وصف رُهبان مثل نون خشيان من خشي والمبالغة هي هي، إلا أنها مبالغة في الوصف لا في شدة النسبة.

والهاء هاء تأنيث بتأويل الاسم بالحالة وجعل في "الكشاف" الهاء للمرة.

وأما اسم الراهب الذي نسبت إليه الرهبانية فهو وصف عومل معاملة الاسم، وهو العابد من النصارى المنقطع للعبادة، وهو وصف مشتق من الرهَب: أي الخوف لأنه شديد الخوف من غضب الله تعالى أو من مخالفة دين النصرانية.

ويلزم هذه الحالة في عرف النصارى العزلة عن الناس تجنباً لما يشغل عن العبادة وذلك بسكنى الصوامع والأديرة وترك التزوج تجنباً للشواغل ، وربما أوجبت بعض طوائف الرهبان على الراهب تَرك التزوج غلوا في الدين .

وجعل في "الكشاف" : الرهبانية مشتقة من الرهب ، أي الخوف من الجبابرة ، أي الذين لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام من اليهود ، وأن الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعيسى فقاتلوهم ثلاث مرات فَقُتِلوا حتى لم يبق منهم إلا القليل ، فخافوا أن يفتنوا في دينهم فاختاروا الرهبانية وهي ترهبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين أ هـ .

(263/748)

وأول ما ظهر اضطهاد أتباع المسيح في بلاد اليهودية ، فلما تفرق أتباع المسيح وأتباعهم في البلدان ناواهم أهل الإِشراك والوثنية من الروم حيث حلّوا من البلاد التابعة لهم فحدث فيهم أحوال من التقية هي التي دعاها صاحب "الكشاف" بمقاتلة الجبابرة .

فالراهب يمتنع من التزوج خيفة أن تشغله زوجه عن عبادته ، ويمتنع من مخالطة الأصحاب خشية أن يلهوه عن العبادة ، ويترك لذائذ المآكل والملابس خشية أن يقع في اكتساب المال الحرام ، ولأنهم أرادوا التشبه بعيسى عليه السلام في الزهد في الدنيا وترك التزوج ، فلذلك

قال الله تعالى: ﴿ ابتدعوها ﴾، أي أحدثوها فإن الابتداع الإِتيان بالبدعة والبِدَعِ وهو ما لم يكن معروفاً، أي أحدثوها بعد رسولهم فإن البدعة ما كان محدثاً بعد صاحب الشريعة.

ونصب ﴿ رهبانية ﴾ على طريقة الاشتغال.

والتقدير: وابتدعوا رهبانية وليس معطوفاً على ﴿ رأفة ورحمة ﴾ لأن هذه الرهبانية لم تكن مما شرع الله لهم فلا يستقيم كونها مفعولاً ل ﴿ جعلنا ﴾، ولأن الرهبانية عمل لا يتعلق بالقلوب وفعل ﴿ جعلنا ﴾ مقيد بـ ﴿ في قلوب الذين اتبعوه ﴾ فتكون مفعولاته مقيدة بذلك، إلا أن يتأول جعلها في القلوب بجعل حبها كقوله تعالى: ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾ [البقرة: 93].

وعلى اختيار هذا الإعراب مَضى المحققون مثل أبي علي الفارسي والزجاج والزمخشري والقرطبي.

وجوز الزمخشري أن يكون عطفاً على ﴿ رأفة ورحمة ﴾.

واتهم ابن عطية هذا الإعراب بأنه إعراب المعتزلة فقال: "والمعتزلة تعرب ﴿ رهبانية ﴾ أنها نصب بإضمار فعل يفسره ﴿ ابتدعوها ﴾ ويذهبون في ذلك إلى أن الإِنسان يخلق أفعاله فيعربون الآية على هذا" اهـ.

وليس في هذا الإِعراب حجة لهم ولا في إبطاله نفع لمخالفتهم كما علمت.

وإنما عطفت هذه الجملة على جملة ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه ﴾ لاشتراك مضمون الجملتين في أنه من الفضائل المراد بها رضوان الله.

(264/748)

والمعنى: وابتدعوا لأنفسهم رهبانية ما شرعناها لهم ولكنهم ابتغوا بها رضوان الله فقبلها الله منهم لأن سياق حكاية ذلك عنهم يقتضي الثناء عليهم في أحوالهم.

وضمير الرفع من ابتدعوها عائد إلى الذين اتبعوا عيسى.

والمعنى: أنهم ابتدعوا العمل بها فلا يلزم أن يكون جميعهم اخترع أسلوب الرهبانية ولكن قد يكون بعضهم سنها وتابَعَه بقيتهم.

والذين اتبعوه صادق على من أخذوا بالنصرانية كلهم، وأعظم مراتبهم هم الذين اهتدوا بسيرته اهتداء كاملاً وانقطعوا لها وهم القائمون بالعبَادة.

والإِتيان بالموصول وصلته إشعار بأن جعل الرأفة والرحمة في قلوبهم متسبب عن اتباعهم سيرته وانقطاعهم إليه.

وجملة ﴿ ما كتبناها عليهم ﴾ مبينة لجملة ﴿ ابتدعوها ﴾، وقوله: ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ احتراس، ومجموع الجمل الثلاث استطراد واعتراض.

والاستثناء بقوله : ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ معترض بين جملة ﴿ ما كتبناها عليهم ﴾ وجملة ﴿ فما رَعَوْها ﴾ .

وهو استثناء منقطع ، والاستثناء المنقطع يشمله حكم العامل في المستثنى منه وإن لم يشمله لفظ المستثنى منه فإن معنى كونه منقطعاً أنه منقطع عن مدلول الاسم الذي قبله ، وليس منقطعاً عن عامله ، فالاستثناء يقتضي أن يكون ابتغاء رضوان الله معمولاً في المعنى لفعل ﴿ كتبناها ﴾ فالمعنى : لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله ، أي أن يبتغوا رضوان الله بكل عمل لا خصوص الرهبانية التي ابتدعوها ، أي أن الله لم يكلفهم بها بعينها .

وقوله : ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ يجوز أن يكون نفياً لتكليف الله بها ولو في عموم ما يشملها ، أي ليست مما يشمله الأمر برضوان الله تعالى وهم ظنوا أنهم يرضون الله بها .

(265/748)

ويجوز أن يكون نفياً لبعض أحوال كتابة التكاليف عليهم وهي كتابة الأمر بها بعينها فتكون الرهبانية مما يبتغَى به رضوان الله ، أي كتبوها على أنفسهم تحقيقاً لما فيه رضوان الله ، فيكون كقوله تعالى : ﴿ إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ﴾ [آل عمران : 93] ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم " شَدّدوا فشدّد الله عليهم " في قصة

ذبح البقرة .

وهذا هو الظاهر من الآية .

وانتصب ﴿ إِلَّا ﴾ على المفعول به لفعل ﴿ مَا ﴾ ، ولك أن تجعله مفعولاً لأجله بتقدير فعل محذوف بعد حرف الاستثناء ، أي لكنهم ابتدعوها لابتغاء رضوان الله .

وفي الآية على أظهر الاحتمالين إشارة إلى مشروعية تحقيق المناط وهو إثبات العلة في آحاد جزئياتها وإثباتُ القاعدة الشرعية في صورها .

وفيها حجة لانقسام البدعة إلى محمودة ومذمومة بحسب اندراجها تحت نوع من أنواع المشروعية فتعْتريها الأحكام الخمسة كما حققه الشهاب القرافي وحذاق العلماء .

وأما الذين حاولوا حصرها في الذم فلم يجدوا مصرفاً .

وقد قال عمر لما جمع الناس على قارىء واحد في قيام رمضان "نعمت البدعة هذه" .

وقد قيل : إنهم ابتدعوا الرهبانية للانقطاع عن جماعات الشرك من اليونان والروم وعن بطش اليهود ، وظاهر أن ذلك طلب لرضوان الله كما حكى الله عن أصحاب الكهف ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ﴾ [الكهف : 16] .

وفي الحديث : " يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شَعَف الجبال ومواقعَ القَطر يَفرّ بدينه من الفِتَن " ، وعليه فيكون تركهم التزوج عارضاً اقتضاه الانقطاع عن المدن والجماعات فظنه الذين جاءوا من بعدهم أصلاً من أصول الرهبانية .

وأما ترك المسيح التزوج فلعله لعارض آخر أمره الله به لأجله ، وليس ترك التزوج من شؤون النبوءة فقد كان لجميع الأنبياء أزواج قال تعالى : ﴿ وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ [الرعد : 38 .

[

(266/748)

وقيل : إن ابتداعهم الرهبانية بأنهم نذروها لله وكان الانقطاع عن اللذائذ وإعناتُ النفس من وجوه التقرب في بعض الشرائع الماضية بقيت إلى أن أبطلها الإسلام في حديث النذر في "الموطأ" "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً قائماً في الشمس صامتاً فسأل عنه فقالوا : نذر أن لا يتكلم ولا يستظل وأن يصوم يومه فقال : مُروه فليتكلمْ وليستظل وليُتِمَّ صومه إن الله عن تعذيب هذا نفسَه لغني" .

وقد مضى في سورة [مريم : 26] قوله تعالى : ﴿ فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ولا تنافي بين القولين لأن أسباب الرهبانية قد تتعدد باختلاف الأديان .

﴿ وقد فُرع على قوله : ﴿ ابتدعوها ﴾ و ﴿ ما كتبناها عليهم ﴾ وما بعده قوله : ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ أي فترتب على التزامهم الرهبانية أنهم ، أي الملتزِمين للرهبانية

ما رعوها حق رعايتها .

وظاهر الآية أن جميعهم قصروا تقصيراً متفاوتاً ، قصروا في أداء حقها ، وفيه إشعار بأن ما يكتبه الله على العباد من التكاليف لا يشق على الناس العمل به .

والرعي : الحفظ ، أي ما حفظوها حق حفظها ، واستعير الحفظ لاستيفاء ما تقتضيه ماهية الفعل ، فالرهبانية تحوم حول الإِعراض عن اللذائذ الزائلة وإلى التعود بالصبر على ترك المحبوبات لئلا يشغله اللهو بها عن العبادة والنظرِ في آيات الله ، فإذا وقع التقصير في التزامها في بعض الأزمان أو التفريط في بعض الأنواع فقد انتفى حق حفظها .

و﴿ حق رعايتها ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي رعايتها الحق .

وحق الشيء : هو وقوعه على أكمل أحوال نوعه ، وهو منصوب على المفعول المطلق المبين للنوع .

والمعنى : ما حفظوا شؤون الرهبانية حفظاً كاملاً فمصبّ النفي هو القيد بوصف ﴿ حق رعايتها ﴾ .

وهذا الانتفاء له مراتب كثيرة ، والكلام مسوق مساق اللوم على تقصيرهم فيما التزموه أو نذروه ، وذلك تقهقر عن مراتب الكمال وإنما ينبغي للمتقي أن يكون مزداداً من الكمال .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم " أحب الدين إلى الله أدْوَمه " .

وقوله : ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ تفريع على جملة ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه ﴾ إلى آخره وما بينهما استطراد .

والمراد بـ ﴿ الذين آمنوا ﴾ المتصفون بالإِيمان المصطلح عليه في القرآن ، وهو توحيد الله تعالى والإِيمانُ برسله في كل زمان ، أي فآتينا الذين آمنوا من الذين اتبعوه أجرهم ، أي الذين لم يخلطوا متابعتهم إياه بما يفسدها مثل الذين اعتقدوا إلهية عيسى عليه السلام أو بنوتَه لله ، ونحوهم من النصارى الذين أدخلوا في الدين ما هو مناقض لقواعده وهم كثير من النصارى كما قال : ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ .

والمراد بالفسق : الكفر وهذا ثناء على المؤمنين الصادقين ممن مضوا من النصارى قبل البعثة المحمدية وبلوغ دعوتها إلى النصارى ، وادعاؤهم أنهم أتباع المسيح باطل لأنهم ما اتبعوه إلا في الصورة والذين أفسدوا إيمانهم بنقض حصوله هم المراد بقوله تعالى : ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ ، أي وكثير من الذين التزموا دينه خارجون عن الإِيمان ، فالمراد بالفسق ما يشمل الكفر وما دونه مثل الذين بدلوا الكتاب واستخفوا بشرائعه كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴾ [التوبة : 34] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

فائدة

قال ابن القيم :

سورة الحديد

قوله تعالى ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾ الحديد :

رهبانية منصوب بابتدعوها على الاشتغال إما بنفس الفعل المذكور على قول الكوفيين وإما بمقدر محذوف مفسر بهذا المذكور على قول البصريين أي وابتدعوا رهبانية وليس منصوبا بوقوع الجعل عليه فالوقف التام عند قوله : ورحمة ثم يبتدىء ورهبانية ابتدعوها أي لم نشرعها لهم بل هم ابتدعوها من عند أنفسهم ولم نكتبها عليهم

وفي نصب قوله : إلا ابتغاء رضوان الله ثلاثة أوجه

أحدها : أنه مفعول له أي لم نكتبها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله وهذا فاسد فإنه لم يكتبها عليهم سبحانه كيف وقد أخبر : أنهم هم ابتدعوها فهي مبتدعة غير مكتوبة وأيضا فإن المفعول لأجله يجب أن يكون علة لفعل الفاعل المذكور معه فيتحد السبب والغاية نحو :

قمت إكراما فالقائم هو المكرم وفعل الفاعل المعلل ههنا هو الكتابة وابتغاء رضوان الله فعلهم لا فعل الله فلا يصلح أن يكون علة لفعل الله لاختلاف الفاعل وقيل: بدل من مفعول كتبناها أي ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله

وهو فاسد أيضا إذ ليس ابتغاء رضوان الله عين الرهبانية فتكون بدل الشيء من الشيء ولا بعضها فتكون بدل بعض من كل ولا أحدهما مشتمل على الآخر فتكون بدل اشتمال وليس بدل غلط

فالصواب: أنه منصوب نصب الاستثناء المنقطع أي لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله ودل على هذا قوله: ابتدعوها ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية وأنه هو طلب رضوان الله ثم ذمهم بترك رعايتها إذ من التزم لله شيئا لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها وجعلوا التزامها بالشروع كالتزامها بالنذر كما قال: أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه وهو إجماع أو كالإجماع في أحد النسكين

قالوا: والالتزام بالشروع أقوى من الالتزام بالقول فكما يجب عليه رعاية ما التزمه بالنذر

وفاء يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتماما وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة والقصد : أن الله سبحانه وتعالى ذم من لم يرع قربة ابتدعها لله تعالى حق رعايتها فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله ورضيها لعباده وأذن بها وحث عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين جـ 3 صـ32 ـ 33 ﴾

(270/748)

فصل فى منزلة الرعاية

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الرعاية وهي مراعاة العلم وحفظه بالعمل ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص وحفظه من المفسدات ومراعاة الحال بالموافقة وحفظه بقطع التفريق فالرعاية صيانة وحفظ ومراتب العلم والعمل ثلاثة رواية وهي مجرد النقل وحمل المروي ودراية وهي فهمه وتعقل معناه ورعاية وهي العمل بموجب ما عمله ومقتضاه فالنقلة همتهم الرواية والعلماء همتهم الدراية والعارفون همتهم الرعاية وقد ذم الله من لم يرع ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حق رعايته فقال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا

ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ رهبانية منصوب با بتدعوها على الاشتغال إما بنفس الفعل المذكور على قول الكوفيين وإما بمقدر محذوف مفسر بهذا المذكور على قول البصريين أي وابتدعوا رهبانية وليس منصوبا بوقوع الجعل عليه فالوقف التام عند قوله: ورحمة ثم يبتدىء ورهبانية ابتدعوها أي لم نشرعها لهم بل هم ابتدعوها من عند أنفسهم ولم نكتبها عليهم وفي نصب قوله: إلا ابتغاء رضوان الله ثلاثة أوجه

أحدها : أنه مفعول له أي لم نكتبها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله وهذا فاسد فإنه لم يكتبها عليهم سبحانه كيف وقد أخبر: أنهم هم ابتدعوها فهي مبتدعة غير مكتوبة وأيضا فإن المفعول لأجله يجب أن يكون علة لفعل الفاعل المذكور معه فيتحد السبب والغاية نحو: قمت إكراما فالقائم هو المكرم وفعل الفاعل المعلل ههنا هو الكتابة و ابتغاء رضوان الله فعلهم لا فعل الله فلا يصلح أن يكون علة لفعل الله لاختلاف الفاعل

وقيل: بدل من مفعول كتبناها أي ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله وهو فاسد أيضا إذ ليس ابتغاء رضوان الله عين الرهبانية فتكون بدل الشيء من الشيء ولا بعضها فتكون بدل بعض من كل ولا أحدهما مشتمل على الآخر فتكون بدل اشتمال وليس بدل غلط

فالصواب: أنه منصوب نصب الاستثناء المنقطع أي لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله ودل على هذا قوله: ابتدعوها ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية وأنه هو طلب رضوان الله ثم ذمهم بترك رعايتها إذ من التزم لله شيئًا لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها وجعلوا التزامها بالشروع كالتزامها بالنذر كما قال: أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه وهو إجماع أو كالإجماع في أحد النسكين

قالوا: والالتزام بالشروع أقوى من الالتزام بالقول فكما يجب عليه رعاية ما التزمه بالنذر وفاء يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتماما وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة

والقصد: أن الله سبحانه وتعالى ذم من لم يرع قربة ابتدعها لله تعالى حق رعايتها فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله ورضيها لعباده وأذن بها وحث عليها

فصل قال صاحب المنازل: "الرعاية: صون بالعناية وهي على ثلاث درجات

الدرجة الأولى: رعاية الأعمال

والثانية: رعاية الأحوال

والثالثة: رعاية الأوقات

فأما رعاية الأعمال: فتوفيرها بتحقيرها والقيام بها من غير نظر إليها وإجراؤها على مجرى العلم لا على التزين بها أما قوله صون بالعناية أي حفظ بالاعتناء والقيام بحق الشيء الذي يرعاه ومنه راعي الغنم وقوله أما رعاية الأعمال: فتوفيرها بتحقيرها فالتوفير: سلامة من طرفي التفريط بالنقص والإفراط بالزيادة على الوجه المشروع في حدودها وصفاتها وشروطها وأوقاتها وأما تحقيرها: فاستصغارها في عينه واستقلالها وأن ما يليق بعظمة الله وجلاله وحقوق عبوديته أمر آخر وأنه لم يوفه حقه وأنه لا يرضى لربه بعمله ولا بشيء منه

وقد قيل: علامة رضي الله عنك: إعراضك عن نفسك وعلامة قبول عملك: احتقاره واستقلاله وصغره في قلبك حتى إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعته وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثا وأمر الله عباده بالاستغفار عقيب الحج ومدحهم على الاستغفار عقيب قيام الليل وشرع النبي صلى الله عليه وسلم عقيب الطهور التوبة والاستغفار

فمن شهد واجب ربه ومقدار عمله وعيب نفسه: لم يجد بدا من استغفار ربه منه واحتقاره إياه واستصغاره وأما القيام بها فهو توفيتها حقها وجعلها قائمة كالشهادة القائمة والصلاة القائمة والشجرة القائمة على ساقها التي ليست بساقطة

وقوله: من غير نظر إليها أي من غير أن يلتفت إليها ويعددها ويذكرها مخافة العجب والمنة بها فيسقط من عين الله ويحبط عمله

وقوله: وإجراؤها على مجرى العلم هو أن يكون العمل على مقتضى العلم المأخوذ من مشكاة النبوة إخلاصا لله وإرادة لوجهه وطلبا لمرضاته لا على وجه التزين بها عند الناس

(273/748)

قال: وأما رعاية الأحوال: فهو أن يعد الاجتهاد مراءاة واليقين تشبعا والحال دعوى أي يتهم نفسه في اجتهاده: أنه راءى الناس فلا يطغى به ولا يسكن إليه ولا يعتد به وأما عده اليقين تشبعا فالتشبع: افتخار الإنسان بما لا يملكه ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور وعد اليقين تشبعا: يحتمل وجهين أحدهما أن ما حصل له من اليقين لم يكن به ولا منه ولا استحقه بعوض وإنما هو فضل الله وعطاؤه ووديعته عنده ومجرد منته عليه فهو خلعة خلعها سيده عليه والعبد وخلعته ملكه وله فما للعبد في اليقين مدخل وإنما هو متشبع بما هو ملك لله وفضله ومنته على عبده والوجه الثاني: أن يتهم يقينه وأنه لم يحصل له اليقين على الوجه الذي ينبغي بل ما حصل له منه هو كالعارية لا الملك المستقر فهو متشبع بزعم نفسه بأن اليقين ملكه وله وليس كذلك وهذا لا يختص باليقين بل بسائر

الأحوال فالصادق يعد صدقه تشبعا وكذا المخلص يعد إخلاصه وكذا العالم لاتهامه لصدقه وإخلاصه وعلمه وأنه لم ترسخ قدمه في ذلك ولم يحصل له فيه ملكة فهو كالمتشبع به ولما كان اليقين روح الأعمال وعمودها وذروة سنامها: خصه بالذكر تنبيها على ما دونه والحاصل: أنه يتهم نفسه في حصول اليقين فإذا حصل فليس حصوله به ولا منه ولا له فيه شيء فهو يذم نفسه في عدم حصوله ولا يحمدها عند حصوله وأما عد الحال دعوى: أي دعوى كاذبة اتهاما لنفسه وتطهيرا لها من رعونة الدعوى وتخليصا للقلب من نصيب الشيطان فإن الدعوى من نصيب الشيطان وكذلك القلب الساكن إلى الدعوى مأوى الشيطان أعاذنا الله من الدعوى ومن الشيطان

فصل قال: وأما رعاية الأوقات: فأن يقف مع كل خطوة ثم أن

يغيب عن حضوره بالصفاء من رسمه ثم أن يذهب عن شهود صفوه أي يقف مع حركة ظاهره وباطنه بمقدار تصحيحها نية وقصدا وإخلاصا ومتابعة فلا يخطو هجما وهمجا بل يقف قبل خطوة حتى يصحح الخطوة ثم ينقل قدم عزمه فإذا صحت له ونقل قدمه انفصل عنها وقد صحت الغيبة عن شهودها ورؤيتها فيغيب عن شهود تقدمه بنفسه فإن

رسمه هو نفسه فإذا غاب عن شهود نفسه وتقدمه بها في كل خطوة فذلك عين الصفاء من رسمه الذي هو نفسه فعند ذلك يشاهد فضل ربه ولما كانت النفس محل الأكدار سمي انفصاله عنها: صفاء وهذه الأمور تستدعي لطف إدراك واستعدادا من العبد وذلك عين المنة عليه وأما ذهابه عن شهود صفوه: أي لا يستحضره في قلبه ويشهد ذلك الصفو المطلوب ويقف عنده فإن ذلك من بقايا النفس وأحكامها وهو نوع كدر فإذا تخلص من الكدر لا ينبغي له الالتفات والرجوع إليه فيصفو من الرسم ويغيب عن الصفو بمشاهدة المطلب الأعلى والمقصد الأسنى. انتهى انتهى. اهـ ﴿مدارج السالكين حـ 2 صـ 60. 64﴾

(275/748)

فصل

قال الإمام النووى:

قَالَ الْعُلَمَاء : الْبِدْعَة خَمْسَة أَقْسَام : وَاجِبَة ، وَمَنْدُوبَة وَمُحَرَّمَة ، وَمَكْرُوهَة ، وَمُبَاحَة . فَمِنْ الْوَاجِبَة : نَظْم أَدِلَّة الْمُتَكَلِّمِينَ لِلرَّدِّ عَلَى الْمَلَاحِدَة وَالْمُبْتَدِعِينَ وَشِبْه ذَلِكَ . وَمِنْ الْمَنْدُوبَة : تَصْنِيف كُتُب الْعِلْم ، وَبِنَاء الْمَدَارِس وَالرُّبُط وَغَيْر ذَلِكَ . وَمِنْ الْمُبَاح :

التَّبسُّط فِي أَلْوَان الْأَطْعِمَة وَغَيْر ذَلِكَ . وَالْحَرَام وَالْمَكْرُوه ظَاهِرَانِ . وَقَدْ أَوْضَحْت الْمَسْأَلَة بِأَدِلَّتِهَا الْمَبْسُوطَة فِي تَهْذِيب الْأَسْمَاء وَاللُّغَات ، فَإِذَا عُرِفَ مَا ذَكَرْته عُلِمَ أَنَّ الْحَدِيث مِنْ الْعَامّ الْمَخْصُوص . وَكَذَا مَا أَشْبَهَهُ مِنْ الْأَحَادِيث الْوَارِدَة ، وَيُؤَيِّد مَا قُلْنَاهُ قَوْل عُمَر بْن الْخَطَّاب رَضِيَ اللَّه عَنْهُ فِي التَّرَاوِيح : نِعْمَتْ الْبِدْعَة ، وَلَا يَمْنَع مِنْ كَوْن الْحَدِيث عَامًّا مَخْصُوصًا . قَوْله : (كُلّ بِدْعَة) مُؤَكَّدًا (بِكُلِّ) ، بَلْ يَدْخُلهُ التَّخْصِيص مَعَ ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تُدَمِّر كُلّ شَيْء ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ شرح النووى على مسلم جـ 6 صـ 155.154 ﴾

(276/748)

وقال فى تهذيب الأسماء والصفات ما نصه :

بدع : البِدعة بكسر الباء في الشرع هي إحداث ما لم يكن في عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وهي منقسمة إلى: حسنة وقبيحة .

قال الشيخ الإمام المجمع على إمامته وجلالته وتمكنه في أنواع العلوم وبراعته أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام رحمه الله ورضي عنه في آخر كتاب "القواعد" : البدعة منقسمة إلى: واجبة ، ومحرمة ، ومندوبة ، ومكروهة ، ومباحة . قال: والطريق في ذلك أن تعرض

البدعة على قواعد الشريعة ، فإن دخلت في قواعد الإيجاب فهي واجبة ، أو في قواعد التحريم فمحرمة ، أو الندب فمندوبة ، أو المكروه فمكروهة ، أو المباح فمباحة ، وللبدع الواجبة أمثلة منها : الاشتغال بعلم النحو الذي يفهم به كلام الله تعالى وكلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وذلك واجب ؛ لأن حفظ الشريعة واجب ، ولا يتأتى حفظها إلا بذلك وما لا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب ، الثاني حفظ غريب الكتاب والسنة في اللغة ، الثالث تدوين أصول الدين وأصول الفقه ، الرابع الكلام في الجرح والتعديل ، وتمييز الصحيح من السقيم ، وقد دلت قواعد الشريعة على أن حفظ الشريعة فرض كفاية فيما زاد على المتعين ولا يتأتى ذلك إلا بما ذكرناه ، وللبدع المحرمة أمثلة منها : مذاهب القدرية والجبرية والمرجئة والمجسمة والرد على هؤلاء من البدع الواجبة ، وللبدع المندوبة أمثلة منها إحداث الرُبِط والمدارس ، وكل إحسان لم يعهد في العصر الأول ، ومنها التراويح ، والكلام في دقائق التصوف ، وفي الجدل ، ومنها جمع المحافل للاستدلال إن قصد بذلك وجه الله تعالى . وللبدع المكروهة أمثلة: كزخرفة المساجد ، وتزويق المصاحف ، وللبدع المباحة أمثلة: منها المصافحة عقب الصبح والعصر ، ومنها : التوسع في اللذيذ من المآكل ، والمشارب ، والملابس ، والمساكن ، ولبس الطيالسة ، وتوسيع الأكمام . وقد يختلف في بعض ذلك فيجعله بعض العلماء من البدع المكروهة ، ويجعله آخرون من السنن المفعولة في عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فما بعده ، وذلك كالاستعاذة في الصلاة

والبسملة هذا آخر كلامه .

وروى البيهقي بإسناده في "مناقب الشافعي" عن الشافعي رضي الله عنه قال: المحدثات من الأمور ضربان: أحدهما: ما أحدث مما يخالف كتابًا أو سنة أو أثرًا أو إجماعًا ، فهذه البدعة الضلالة ، والثانية: ما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من العلماء ، وهذه محدثة غير مذمومة ، وقد قال عمر رضي الله عنه في قيام شهر رمضان: نعمت البدعة هذه ، يعني أنها محدثة لم تكن ، وإذا كانت ليس فيها رد لما مضى ، هذا آخر كلام الشافعي رضي الله تعالى عنه. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تهذيب الأسماء والصفات / للإمام النووى صـ ﴾

(277/748)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد كلام طويل :

وَمِنْ هُنَا يُعْرَفُ ضَلَالُ مَنْ ابْتَدَعَ طَرِيقًا أَوْ اعْتِقَادًا زَعَمَ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَتِمُّ إلَّا بِهِ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَذْكُرْهُ وَمَا خَالَفَ النُّصُوصَ فَهُوَ بِدْعَةٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَمَا لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ خَالَفَهَا فَقَدْ لَا يُسَمَّى بِدْعَةً قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : الْبِدْعَةُ بِدْعَتَانِ : بِدْعَةٌ خَالَفَتْ كِتَابًا وَسُنَّةً وَإِجْمَاعًا وَأَثَرًا عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهَذِهِ بِدْعَةُ

ضَلَالَةٍ . وَبِدْعَةٌ لَمْ تُخَالِفْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَهَذِهِ قَدْ تَكُونُ حَسَنَةً لِقَوْلِ عُمَرَ : نِعْمَتْ الْبِدْعَةُ هَذِهِ هَذَا الْكَلَامُ أَوْ نَحْوُهُ رَوَاهُ البيهقي بِإِسْنَادِهِ الصَّحِيحِ فِي الْمَدْخَلِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مجموع الفتاوى جـ 20 صـ 163 ﴾

(278/748)

قوله : (وإيّاكم ومحدثاتِ الأمور ، فإنّ كلَّ بدعة ضلالة) تحذيرٌ للأمة مِنَ اتّباعِ الأمورِ المحدَثةِ المبتَدعَةِ ، وأكَّد ذلك بقوله : (كل بدعةٍ ضلالةٌ) ، والمراد بالبدعة : ما أُحْدِثَ ممَّا لا أصل له في الشريعة يدلُّ عليه ، فأمَّا ما كان له أصلٌ مِنَ الشَّرع يدلُّ عليه ، فليس ببدعةٍ شرعاً ، وإنْ كان بدعةً لغةً ، وفي " صحيح

مسلم " (1) عن جابر : أنَّ النّبيَّ - صلى الله عليه وسلم - كان يقول في خطبته : (إنَّ خيرَ الحديثِ

كتابُ الله ، وخير الهدي هديُ محمد ، وشرُّ الأمور محدثاتها ، وكلُّ بدعة ضلالة) .

وخرَّج الترمذي (2) وابن ماجه (3) من حديث كثير بن عبد الله المزني - وفيه ضعف (4) - عن أبيه ، عن جده ، عن النبيّ - صلى الله عليه وسلم - ، قال : (من ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله ، كان عليه مثل آثام مَنْ عمل بها ، لا يَنْقُصُ ذلك مِنْ

أوزارهم شيئاً) .

---

(1) الصحيح 11/3 (867) (43) و(44) و(45) .

(2) في " الجامع الكبير " (2677) .

(3) في " سننه " (209) و(210) .

(4) قال ابن حبان في " المجروحين " 221/2 : (كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني . . . يروي عن أبيه ، عن جده بنسخة موضوعة لا يحل ذكرها في الكتب ولا الرواية عنه إلا على جهة التعجب ، وكان الشافعي رحمه الله يقول : كثير بن عبد الله المزني ركن من أركان الكذب) .

(279/748)

وخرَّج الإمام أحمد (1) من رواية غضيف بن الحارث الثُّمالي قال : بعث إليَّ عبدُ الملك بنُ مروان ، فقال : إنا قد جمعنا الناس على أمرين : رفع الأيدي على المنابر يومَ الجمعة ، والقصص بعد الصُّبح والعصر ، فقال : أما إنَّهما أمثلُ بدعتكم عندي ، ولست بمجيبكم إلى شيءٍ منها ؛ لأنَّ النَّبيَّ - صلى الله عليه وسلم - ، قال : (ما أحْدَثَ قومٌ بدعةً إلا رُفِعَ مثلُها منَ السُّنَّة) فتمسُّكٌ بسنَّةٍ خيرٌ من إحداث بدعةٍ . وقد رُوي عن ابن عمر من قوله

نحو هذا .

فقوله – صلى الله عليه وسلم – : (كلُّ بدعة ضلالة) من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيءٌ ، وهو أصلٌ عظيمٌ من أصول الدِّين ، وهو شبيهٌ بقوله : (مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنا ما لَيسَ مِنهُ فَهو رَدٌّ) (2) ، فكلُّ من أحدث شيئاً ، ونسبه إلى الدِّين ، ولم يكن له أصلٌ من الدِّين يرجع إليه ، فهو ضلالةٌ ، والدِّينُ بريءٌ منه ، وسواءٌ في ذلك مسائلُ الاعتقادات ، أو الأعمال ، أو الأقوال الظاهرة والباطنة .

---

(1) في " مسنده " 105/4 ، وإسناده ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي بن عبد الله .

(2) تقدم عند الحديث الخامس .

وأما ما وقع في كلام السَّلف مِن استحسان بعض البدع ، فإنَّما ذلك في البدع اللُّغوية ، لا الشرعية ، فمِنْ ذلك قولُ عمر – رضي الله عنه – لمَّا جمعَ الناسَ في قيامِ رمضان على إمامٍ واحدٍ في المسجد ، وخرج ورآهم يصلُّون كذلك فقال : نعمت البدعةُ هذه . وروي عنه أنَّه قال : إنْ كانت هذه بدعة ، فنعمت البدعة (1) . وروي أنَّ أبيَّ بن كعب ، قال له : إنَّ هذا لم يكن ، فقال عمرُ : قد علمتُ ، ولكنَّه حسنٌ . ومرادُه أنَّ هذا الفعلَ لم يكن على

هذا الوجه قبل هذا الوقت ، ولكن له أصولٌ منَ الشَّريعةِ يُرجع إليها ، فمنها : أنَّ النَّبيَّ - صلى الله عليه وسلم - كان يحُثُّ على قيام رمضان ، ويُرَغِّبُ فيه ، وكان النَّاس في زمنه يقومون في المسجد جماعاتٍ متفرِّقةً ووحدانًا ، وهو - صلى الله عليه وسلم - صلَّى بأصحابه في رمضانَ غيرَ ليلةٍ ، ثم امتنع مِنْ ذلك معلِّلاً بأنَّه خشي أنْ يُكتب عليهم ، فيعجزوا عن القيام به ، وهذا قد أُمِنَ بعده - صلى الله عليه وسلم - (2) . ورُوِيَ عنه أنَّه كان يقومُ بأصحابه ليالي الأفراد في العشر الأواخر (3) .

ومنها : أنَّه - صلى الله عليه وسلم - أمر باتِّباع سنة خلفائه الراشدين ، وهذا قد صار من سنة خلفائه الراشدين ، فإنَّ النَّاس اجتمعوا عليه في زمن عمر وعثمانَ وعليٍّ .

---

(1) أخرجه : مالك في " الموطأ " (301) برواية يحيى الليثي ، والبخاري 58/3 (2010) ، والبيهقي 493/2 .

(2) أخرجه : البخاري 13/2 (924) و62/2 (1129) ، ومسلم 177/2 (761)

و(177) و(178) من حديث عائشة ، به .

(3) أخرجه : أحمد 159/5 و163 ، والدارمي (1784) ، وأبو داود (1375) ، وابن ماجه (1327) ، والترمذي (806) ، والنسائي 83/3 من حديث أبي

ذر ، وقال الترمذي

: (حسن صحيح) .

(281/748)

ومن ذلك : أذانُ الجمعة الأوّل ، زاده عثمانُ (1) لحاجةِ النّاس إليه ، وأقرّه عليٌّ ، واستمرَّ عملُ المسلمينَ عليه ، وروي عَن ابن عمر أنّه قال : هو بدعة (2) ، ولعلّه أرادَ ما أراد أبوه في قيام رمضان .

ومِنْ ذلك جمع المصحف في كتاب واحدٍ ، توقّف فيه زيدُ بنُ ثابتٍ ، وقال لأبي بكر وعمر : كيف تفعلان ما لم يفعلْهُ النّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - ؟ ثم علم أنّه مصلحةٌ ، فوافق على جمعه (3) ، وقد كان النّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - يأمرُ بكتابة الوحي ، ولا فرق بَيْنَ أنْ يُكتب مفرقاً أو مجموعاً ، بل جمعُه صار أصلح .

وكذلك جمعُ عثمان الأمة على مصحف واحد وإعدامه لما خالفه خشيةَ تفرُّق الأمة ، وقد استحسنه عليٌّ وأكثرُ الصحابة ، وكان ذلك عينَ المصلحة .

وكذلك قتال من منع الزكاة : توقف فيه عمر وغيرُه حتى بيّنَ له أبو بكر أصلَه الذي يرجعُ إليه مِنَ الشّريعة (4) ، فوافقه الناسُ على ذلك .

---

(1) أخرجه: الشافعي في " مسنده " (424) بتحقيقي ، وأحمد 3/449 و450 ،

والبخاري 2/10 (912) و(913) ، وأبو داود (1087) من حديث السائب

بن يزيد ، قال: إنَّ الأذان كان أوله للجمعة حين يجلس الإمام على المنبر على عهد رسول

الله – صلى الله عليه وسلم – وأبي بكر

وعمر ، فلما كان خلافة عثمان كثر الناس أمر عثمان – رضي الله عنه – بأذان ثان فأذن

فثبت الأمر على

ذلك ...) .

(2) أخرجه: ابن أبي شيبة (5441) .

(3) أخرجه: الطيالسي (3) ، وأحمد 1/10 و13 ، والبخاري 6/89 (4679

) ، والترمذي (3103) ، والنسائي في " الكبرى " (7995) من حديث زيد بن

ثابت ، به .

(4) أخرجه: البخاري 2/131 (1400) ، ومسلم 1/38 (20) (32) من

حديث أبي هريرة ، به .

ومِنْ ذلك القصص ، وقد سبق قولُ غضيف بن الحارث : إنَّه بدعةٌ ، وقال الحسن : القصص بدعةٌ ، ونعِمَت البدعةُ ، كم من دعوة مستجابة ، وحاجة مقضية ، وأخٍ مستفاد (1) . وإنَّما عني هؤلاء بأَنَّه بدعة الهيئة الاجتماعية عليه في وقت معين ، فإنَّ النَّبيَّ - صلى الله عليه وسلم - لم يكن له وقت معيَّن يقصُّ على أصحابه فيه غير خطبه الراتبة في الجُمَعِ والأعياد ، وإنَّما كان يذكرهم أحياناً ، أو عندَ حدوث أمرٍ يحتاجُ إلى التَّذكير عنده ، ثم إنَّ الصحابة اجتمعوا على تعيين وقتٍ له كما سبق عن ابنِ مسعودٍ : أنَّه كان يُذكِّرُ أصحابه كلَّ يوم خميس .

وفي " صحيح البخاري " (2) عن ابن عبَّاسٍ قال : حدِّث الناس كلَّ جمعة مرَّةً ، فإنْ أبيتَ فمرَّتين ، فإنْ أكثرت ، فثلاثاً ، ولا تُمِلَّ الناس .

وفي " المسند " (3) عن عائشة أنَّها وصَّت قاصَّ أهلِ المدينة بمثل ذلك . وروي عنها أنَّها قالت لعُبيد بن عُميرٍ : حدِّثِ النَّاسَ يوماً ، ودعِ النَّاس يوماً ، لا تُملَّهم (4) . وروي عن عمر بن عبد العزيز أنَّه أمر القاصَّ أنْ يقصَّ كلَّ ثلاثة أيام مرَّة . ورُوي عنه أنَّه قال له : روِّحِ الناسَ ولا تُثقِلْ عليهم ، ودَعِ القَصَصَ يوم السبت ويوم الثلاثاء .

وقد روى الحافظ أبو نعيم (5) بإسناده عن إبراهيم بن الجنيد ، حدثنا حرملة ابن يحيى قال : سمعتُ الشافعي - رحمة الله عليه - يقول : البدعة بدعتان : بدعةٌ محمودةٌ ، وبدعة مذمومةٌ ، فما وافق السنة فهو محمودٌ ، وما خالف السنة فهو مذمومٌ . واحتجَّ بقول عمر :

نعمت البدعة هي .

---

(1) انظر : كشف الظنون 1909/2 ، وأبجد العلوم 536/2 .

(2) الصحيح 91/8 (6337) .

(3) مسند الإمام أحمد 217/6 .

(4) أخرجه : ابن سعد في "طبقاته" 16/6 .

(5) في "الحلية" 113/9 .

ومراد الشافعي - رحمه الله - ما ذكرناه مِنْ قبلُ : أنَّ البدعة المذمومة ما ليس لها أصل مِنَ الشريعة يُرجع إليه ، وهي البدعةُ في إطلاق الشرع ، وأما البدعة المحمودة فما وافق السنة ، يعني : ما كان لها أصلٌ مِنَ السنة يُرجع إليه ، وإنَّما هي بدعةٌ لغةً لا شرعاً ؛ لموافقتها السنة .

وقد روي عَنِ الشَّافعي كلام آخر يفسِّرُ هذا ، وأنَّه قال : والمحدثات ضربان : ما أُحدِث مما يُخالف كتاباً ، أو سنةً ، أو أثراً ، أو إجماعاً ، فهذه البدعة الضلال ، وما أُحدِث مِنَ الخير ، لا خِلافَ فيه لواحدٍ مِنْ هذا ، وهذه محدثة غيرُ مذمومة (1) .

وكثير من الأمور التي حدثت، ولم يكن قد اختلفَ العلماءُ في أنَّها هل هي بدعةٌ حسنةٌ حتّى ترجع إلى السُّنة أم لا ؟ فمنها: كتابةُ الحديث، نهى عنه عمرُ وطائفةٌ مِنَ الصَّحابة، ورخَّص فيها الأكثرون، واستدلوا له بأحاديث من السُّنَّة.

ومنها: كتابة تفسير الحديث والقرآن، كرهه قومٌ من العُلماء، ورخَّصَ فيه كثيرٌ منهم.

وكذلك اختلافُهم في كتابة الرَّأي في الحلال والحرام ونحوه، وفي توسِعَةِ الكلام في المعاملات وأعمالِ القلوب التي لم تُنقل عَنِ الصحابة والتابعين. وكان الإمام أحمد يكره أكثر ذلك (2)

.

وفي هذه الأزمان التي بَعُدَ العهد فيها بعُلوم السلف يتعيَّن ضبطُ ما نُقِلَ عنهم مِنْ ذلك كلِّه، ليتميَّزَ به ما كان من العلم موجوداً في زمانهم، وما حدث من ذلك بعدَهم، فيُعْلَم بذلك السنةُ من البدعة.

وقد صحَّ عن ابن مسعود أنَّه قال: إنَّكم قد أصبحتُم اليومَ على الفطرة، وإنَّكم ستُحدِثونَ ويُحدَثُ لكم، فإذا رأيتم محدثةً، فعليكم بالهَدْيِ الأوّل (3). وابنُ مسعود قال هذا في زمن الخلفاء الراشدين.

---

(1) أخرجه: البيهقي في "مناقب الشافعي" 1/468 - 469.

(2) انظر: فتح الباري 13/311.

(3) أخرجه: المروزي في "السنة" (80).

وروى ابن مهدي ، عن مالك قال : لم يكن شيءٌ من هذه الأهواء في عهد النّبيِّ – صلى الله عليه وسلم – وأبي بكر وعمر وعثمان(1) . وكأنَّ مالكاً يُشير بالأهواء إلى ما حدث من التفرُّق في أُصول الديانات من أمر الخوارج والروافض والمرجئة ونحوهم ممَّن تكلَّم في تكفير المسلمين ، واستباحة دمائهم وأموالهم ، أو في تخليدهم في النار ، أو في تفسيق خواصِّ هذه الأمة ، أو عكس ذلك ، فزعم أنَّ المعاصي لا تضرُّ أهلَها ، أو أنَّه لا يدخلُ النَّارَ مِنْ أهل التوحيدِ أحدٌ .

وأصعبُ من ذلك ما أُحدِث من الكلام في أفعال الله تعالى من قضائه وقدره ، فكذب بذلك من كذب ، وزعم أنَّه نزَّه الله بذلك عن الظلم .

وأصعبُ من ذلك ما أُحدِثَ مِنَ الكلامِ في ذات الله وصفاته ، ممَّا سكت عنهُ النَّبيُّ – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه والتَّابعونَ لهم بإحسّان ، فقومٌ نَفَوا كثيراً ممَّا ورَدَ في الكتاب والسُّنَّة من ذلك ، وزعموا أنَّهم فعلوه تنْزيهاً لله عمَّا تقتضي العقولُ تنْزيهه عنه ، وزعموا أنَّ لازمَ ذلك مستحيلٌ على الله – عز وجل – ، وقومٌ لم يكتفوا بإثباته ، حتى أثبتوا بإثباتهِ ما يُظَنُّ أنَّه لازمٌ له بالنسبة إلى المخلوقين ، وهذه اللَّوازم نفياً وإثباتاً دَرَجَ صدرُ الأمَّة على

السُّكوت عنها .

ومما أُحدِث في الأمة بعْدَ عصر الصحابة والتابعين الكلامُ في الحلال والحرام بمجرَّدِ الرَّأي ، وردُّ كثيرٍ ممَّا وردت به السُّنة في ذلك لمخالفته للرَّأي والأقيسة العقلية .

---

(1) ذكره الحافظ ابن حجر في " الفتح " 311/13 .

(285/748)

ومما حدث بعد ذلك الكلامُ في الحقيقة بالذَّوق والكشف ، وزعم أنَّ الحقيقة تُنافي الشريعة ، وأنَّ المعرفة وحدَها تكفي مع المحبَّة ، وأنَّه لا حاجةَ إلى الأعمال ، وأنَّها حجابٌ ، أو أنَّ الشَّريعة إنَّما يحتاجُ إليها العوامُّ ، وربما انضمَّ إلى ذلك الكلامُ في الذَّات والصِّفات بما يعلم قطعاً مخالفتُه للكتاب والسُّنة ، وإجماع سلف الأمة ، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ جامع العلوم والحكم ص 266 . 268 ﴾

(286/748)

وقال ابن بطال :

قول عمر : (نعم البدعة) فالبدعة اختراع ما لم يكن قبل ، فما خالف السنة فهو بدعة ضلالة ، وما وافقها فهو بدعة هُدى ، وقد سئل ابن عمر عن صلاة الضحى فقال : بدعة ، ونعم البدعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ شرح صحيح البخارى / لابن بطال حـ 4 صـ 147 ﴾

(287/748)

وقال ابن حجر :

قَوْله (وَشَرّ الْأُمُور مُحْدَثَاتهَا إِلَخْ)

تَقَدَّمَ هَذَا الْحَدِيث بِدُونِ هَذِهِ الزِّيَادَة فِي " كِتَاب الْأَدَب " وَذَكَرْت مَا يَدُلّ عَلَى أَنَّ الْبُخَارِيّ اِخْتَصَرَهُ هُنَاكَ وَمِمَّا أُنَبِّه عَلَيْهِ هُنَا قَبْل شَرْح هَذِهِ الزِّيَادَة أَنَّ ظَاهِر سِيَاق هَذَا الْحَدِيث أَنَّهُ مَوْقُوف ، لَكِنَّ الْقَدْر الَّذِي لَهُ حُكْم الرَّفْع مِنْهُ قَوْله " وَأَحْسَن الْهَدْي هَدْي مُحَمَّد صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " فَإِنَّ فِيهِ إِخْبَارًا عَنْ صِفَة مِنْ صِفَاته صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ أَحَد أَقْسَام الْمَرْفُوع وَقَلَّ مَنْ نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ ، وَهُوَ كَالْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ لِتَخْرِيجِ الْمُصَنِّفِينَ الْمُقْتَصِرِينَ عَلَى الْأَحَادِيث الْمَرْفُوعَة الْأَحَادِيث الْوَارِدَة فِي شَمَائِله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ أَكْثَرهَا يَتَعَلَّق

بِصِفَةِ خَلْقه وَذَاته كَوَجْهِهِ وَشَعْره ، وَكَذَا بِصِفَةِ خُلُقه كَحِلْمِهِ وَصَفْحه ، وَهَذَا مُنْدَرِج فِي ذَلِكَ مَعَ أَنَّ الْحَدِيث الْمَذْكُور جَاءَ عَنْ اِبْن مَسْعُود مُصَرَّحًا فِيهِ بِالرَّفْعِ مِنْ وَجْه آخَر ، أَخْرَجَهُ أَصْحَاب السُّنَن لَكِنْ لَيْسَ هُوَ عَلَى شَرْط الْبُخَارِيّ ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِم مِنْ حَدِيث جَابِر مَرْفُوعًا أَيْضًا بِزِيَادَةٍ فِيهِ ، وَلَيْسَ هُوَ عَلَى شَرْطه أَيْضًا ، وَقَدْ بَيَّنْت ذَلِكَ فِي "كِتَاب الْأَدَب " فِي بَاب الْهَدْي الصَّالِح ، و " الْمُحْدَثَات " بِفَتْحِ الدَّال جَمْع مُحْدَثَة وَالْمُرَاد بِهَا مَا أُحْدِث ، وَلَيْسَ لَهُ أَصْل فِي الشَّرْع وَيُسَمَّى فِي عُرْف الشَّرْع " بِدْعَة " وَمَا كَانَ لَهُ أَصْل يَدُلّ عَلَيْهِ الشَّرْع فَلَيْسَ بِبِدْعَةٍ ، فَالْبِدْعَة فِي عُرْف الشَّرْع مَذْمُومَة بِخِلَافِ اللُّغَة فَإِنَّ كُلّ شَيْء أُحْدِث عَلَى غَيْر مِثَال يُسَمَّى

(288/748)

بِدْعَة سَوَاء كَانَ مَحْمُودًا أَوْ مَذْمُومًا ، وَكَذَا الْقَوْل فِي الْمُحْدَثَة وَفِي الْأَمْر الْمُحْدَث الَّذِي وَرَدَ فِي حَدِيث عَائِشَة " مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدّ " كَمَا تَقَدَّمَ شَرْحه وَمَضَى بَيَان ذَلِكَ قَرِيبًا فِي "كِتَاب الْأَحْكَام " وَقَدْ وَقَعَ فِي حَدِيث جَابِر الْمُشَار إِلَيْهِ " وَكُلّ بِدْعَة ضَلَالَة " وَفِي حَدِيث الْعِرْبَاض بْن سَارِيَة " وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَات الْأُمُور فَإِنَّ كُلّ بِدْعَة ضَلَالَة " وَهُوَ حَدِيث أَوَّله " وَعَظَنَا رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَة بَلِيغَة " فَذَكَرَهُ

وَفِيهِ هذَا أَخْرَجَهُ أَحْمَد وَأَبو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيّ وَصَحَّحَهُ اِبْن مَاجَهْ وَابْن حِبَّان وَالْحَاكِم ، وَهَذَا الْحَدِيث فِي الْمَعْنَى قَرِيب مِنْ حَدِيث عَائِشَة الْمُشَار إِلَيْهِ وَهُوَ مِنْ جَوَامِع الْكَلِم قَالَ الشَّافِعِيّ " الْبِدْعَة بِدْعَتَانِ : مَحْمُودَة وَمَذْمُومَة ، فَمَا وَافَقَ السُّنَّة فَهُوَ مَحْمُود وَمَا خَالَفَهَا فَهُوَ مَذْمُوم " أَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْم بِمَعْنَاهُ مِنْ طَرِيق إِبْرَاهِيم بْن الْجُنَيْد عَنْ الشَّافِعِيّ ، وَجَاءَ عَنْ الشَّافِعِيّ أَيْضًا مَا أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي مَنَاقِبه قَالَ " الْمُحْدَثَات ضَرْبَانِ مَا أُحْدِث يُخَالِف كِتَابًا أَوْ سُنَّة أَوْ أَثَرًا أَوْ إِجْمَاعًا فَهَذِهِ بِدْعَة الضَّلَال ، وَمَا أُحْدِث مِنْ الْخَيْر لَا يُخَالِف شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَهَذِهِ مُحْدَثَة غَيْر مَذْمُومَة " اِنْتَهَى . وَقَسَّمَ بَعْض الْعُلَمَاء الْبِدْعَة إِلَى الْأَحْكَام الْخَمْسَة وَهُوَ وَاضِح ، وَثَبَتَ عَنْ اِبْن مَسْعُود أَنَّهُ قَالَ : قَدْ أَصْبَحْتُمْ عَلَى الْفِطْرَة وَإِنَّكُمْ سَتُحْدِثُونَ وَيُحْدَث لَكُمْ

فَإِذَا رَأَيْتُمْ مُحْدَثَة فَعَلَيْكُمْ بِالْهَدْيِ الْأَوَّل ، فَمِمَّا حَدَثَ تَدْوِين الْحَدِيث ثُمَّ تَفْسِير الْقُرْآن ثُمَّ تَدْوِين الْمَسَائِل الْفِقْهِيَّة الْمُوَلَّدَة عَنْ الرَّأْي الْمَحْض ثُمَّ تَدْوِين مَا يَتَعَلَّق بِأَعْمَالِ الْقُلُوب ، فَأَمَّا الْأَوَّل فَأَنْكَرَهُ عُمَر وَأَبُو مُوسَى وَطَائِفَة وَرَخَّصَ فِيهِ الْأَكْثَرُونَ وَأَمَّا الثَّانِي فَأَنْكَرَهُ جَمَاعَة مِنْ التَّابِعِينَ كَالشَّعْبِيِّ ، وَأَمَّا الثَّالِث فَأَنْكَرَهُ الْإِمَام أَحْمَد وَطَائِفَة يَسِيرَة وَكَذَا اِشْتَدَّ إِنْكَار أَحْمَد

لِلَّذِي بَعْده ، وَمِمَّا حدث أَيْضا تدوين الْقَوْل فِي أُصُول الدّيانَات فتصدى لَهَا الْمُثبتَة والنفاة ، فَبَالغ الأول حَتَّى شبه وَبَالغ الثَّانِي حَتَّى عطل ، وَاشْتَدَّ إِنْكَار السّلف لذَلِك كَأبي حنيفَة وَأبي يُوسُف وَالشَّافِعِيّ ، وكلامهم فِي ذمّ أهل الْكَلَام مَشْهُور ، وَسَببه أَنهم تكلمُوا فِيمَا سكت عَنهُ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَأَصْحَابه ، وَثَبت عَن مَالك أَنه لم يكن فِي عهد النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَأبي بكر وَعمر شَيْء من الْأَهْوَاء – يَعْنِي بدع الْخَوَارِج وَالرَّوَافِض والقدرية – وَقد توسع من تَأَخّر عَن الْقُرُون الثَّلَاثَة الفاضلة فِي غَالب الْأُمُور الَّتِي أنكرها أَئِمَّة التَّابِعين وأتباعهم ، وَلم يقتنعوا بذلك حَتَّى مزجوا مسَائِل الدّيانَة بِكَلَام الْيُونَان ، وجعلوا كَلَام الفلاسفة أصلا يردون إِلَيْهِ مَا خَالفه من الْآثَار بالتأويل وَلَو كَانَ مستكرها ، ثمَّ لم يكتفوا بذلك حَتَّى زعمُوا

(290/748)

أَن الَّذِي رتبوه هُوَ أشرف الْعُلُوم وَأَوْلَاهَا بالتحصيل ، وَأَن من لم يسْتَعْمل مَا اصْطَلحُوا عَلَيْهِ فَهُوَ عَامي جَاهِل ، فالسعيد من تمسك بِمَا كَانَ عَلَيْهِ السّلف وَاجْتنبَ مَا أحدثه الْخلف ، وَإِن لم يكن لَهُ مِنْهُ بُد فليكتف مِنْهُ بِقدر الْحَاجة ، وَيجْعَل الأول الْمَقْصُود بالأصالة وَالله الْمُوفق . وَقد أخرج أَحْمد بِسَنَد جيد عَن غُضَيْف بن الْحَارِث قَالَ بعث إِلَيّ عبد الْملك

بْن مَرْوَان فَقَالَ : إِنَّا قَدْ جَمَعْنَا النَّاس عَلَى رَفْع الْأَيْدِي عَلَى الْمِنْبَر يَوْم الْجُمُعَة ، وَعَلَى الْقَصَص بَعْد الصُّبْح وَالْعَصْر ، فَقَالَ : أَمَّا إِنَّهُمَا أَمْثَل بِدَعِكُمْ عِنْدِي وَلَسْت بِمُجِيبِكُمْ إِلَى شَيْء مِنْهُمَا لِأَنَّ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ " مَا أَحْدَثَ قَوْمٌ بِدْعَة إِلَّا رُفِعَ مِنْ السُّنَّة مِثْلُهَا ؛ فَتَمَسُّكٌ بِسُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ إِحْدَاثِ بِدْعَةٍ " . انْتَهَى وَإِذَا كَانَ هَذَا جَوَاب هَذَا الصَّحَابِيّ فِي أَمْر لَهُ أَصْل فِي السُّنَّة فَمَا ظَنّك بِمَا لَا أَصْل لَهُ فِيهَا ، فَكَيْف بِمَا يَشْتَمِل عَلَى مَا يُخَالِفهَا . وَقَدْ مَضَى فِي " كِتَاب الْعِلْم " أَنَّ اِبْن مَسْعُود كَانَ يُذَكِّر الصَّحَابَة كُلّ خَمِيس لِئَلَّا يَمَلُّوا وَمَضَى فِي " كِتَاب الرِّقَاق " أَنَّ اِبْن عَبَّاس قَالَ : حَدِّثْ النَّاس كُلّ جُمُعَة فَإِنْ أَبَيْت فَمَرَّتَيْنِ ، وَنَحْوه وَصِيَّة عَائِشَة لِعُبَيْدِ بْن عُمَيْر ، وَالْمُرَاد بِالْقَصَصِ التَّذْكِير وَالْمَوْعِظَة ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ فِي عَهْد النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكِنْ لَمْ يَكُنْ يَجْعَلهُ رَاتِبًا كَخُطْبَةِ

(291/748)

الْجُمُعَة بَلْ بِحَسَبِ الْحَاجَة ، وَأَمَّا قَوْله فِي حَدِيث الْعِرْبَاض " فَإِنَّ كُلّ بِدْعَة ضَلَالَة " بَعْد قَوْله " وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَات الْأُمُور " فَإِنَّهُ يَدُلّ عَلَى أَنَّ الْمُحْدَث يُسَمَّى بِدْعَة وَقَوْله " كُلّ بِدْعَة ضَلَالَة " قَاعِدَة شَرْعِيَّة كُلِّيَّة بِمَنْطُوقِهَا وَمَفْهُومهَا ، أَمَّا مَنْطُوقهَا فَكَأَنْ يُقَال " حُكْم كَذَا بِدْعَة وَكُلّ بِدْعَة ضَلَالَة " فَلَا تَكُون مِنْ الشَّرْع لِأَنَّ الشَّرْع كُلّه هَدْي ، فَإِنْ ثَبَتَ أَنَّ الْحُكْم

الْمَذْكُورِ بِدْعَة صَحَّتْ الْمُقَدِّمَتَانِ ، وَأَنْتَجَتَا الْمَطْلُوب ، وَالْمُرَاد بِقَوْلِهِ "كُلّ بِدْعَة ضَلَالَة" مَا أُحْدِث وَلَا دَلِيل لَهُ مِنْ الشَّرْع بِطَرِيقٍ خَاصّ وَلَا عَامّ . وَقَوْله فِي آخِر حَدِيث اِبْن مَسْعُود (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) أَرَادَ خَتْم مَوْعِظَته بِشَيْءٍ مِنْ الْقُرْآن يُنَاسِب الْحَال . وَقَالَ اِبْن عَبْد السَّلَام : فِي أَوَاخِر "الْقَوَاعِد" "الْبِدْعَة خَمْسَة أَقْسَام" فَالْوَاجِبَة" كَالِاشْتِغَالِ بِالنَّحْوِ الَّذِي يُفْهَم بِهِ كَلَام اللَّه وَرَسُوله لِأَنَّ حِفْظ الشَّرِيعَة وَاجِب ، وَلَا يَتَأَتَّى إِلَّا بِذَلِكَ فَيَكُون مِنْ مُقَدِّمَة الْوَاجِب ، وَكَذَا شَرْح الْغَرِيب وَتَدْوِين أُصُول الْفِقْه وَالتَّوَصُّل إِلَى تَمْيِيز الصَّحِيح وَالسَّقِيم "وَالْمُحَرَّمَة" مَا رَتَّبَهُ مَنْ خَالَفَ السُّنَّة مِنْ الْقَدَرِيَّة وَالْمُرْجِئَة وَالْمُشَبِّهَة" وَالْمَنْدُوبَة "كُلّ إِحْسَان لَمْ يُعْهَد عَيْنُهُ فِي الْعَهْد النَّبَوِيّ كَالِاجْتِمَاعِ عَلَى التَّرَاوِيح وَبِنَاء الْمَدَارِس وَالرُّبُط وَالْكَلَام فِي التَّصَوُّف الْمَحْمُود وَعَقْد مَجَالِس الْمُنَاظَرَة إِنْ أُرِيدَ بِذَلِكَ وَجْه اللَّه

(292/748)

" وَالْمُبَاحَة "كَالْمُصَافَحَةِ عَقِب صَلَاة الصُّبْح وَالْعَصْر ، وَالتَّوَسُّع فِي الْمُسْتَلَذَّات مِنْ أَكْل وَشُرْب وَمَلْبَس وَمَسْكَن . وَقَدْ يَكُون بَعْض ذَلِكَ مَكْرُوهًا أَوْ خِلَاف الْأَوْلَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح البارى حـ 8 صـ 252 . 254 ﴾

وقال فى تحفة الأحوذى :

(وَمَنْ اِبْتَدَعَ بِدْعَةَ ضَلَالَةٍ)

قَالَ صَاحِبُ الدِّينِ الْخَالِصِ قَالَ فِي الْمِرْقَاةِ قَيَّدَ بِهِ لِإِخْرَاجِ الْبِدْعَةِ الْحَسَنَةِ وَزَادَ فِي أَشِعَّةِ اللُّمَعَاتِ لِأَنَّ فِيهَا مَصْلَحَةَ الدِّينِ وَتَقْوِيَتَهُ وَتَرْوِيجَهُ اِنْتَهَى . وَأَقُولُ هَذَا غَلَطٌ فَاحِشٌ مِنْ هَذَيْنِ الْقَائِلَيْنِ لِأَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَرْضَيَانِ بِدْعَةً أَيَّ بِدْعَةٍ كَانَتْ وَلَوْ أَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِخْرَاجَ الْحَسَنَةِ مِنْهَا لَمَا قَالَ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ الْأَحَادِيثِ كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ كَمَا وَرَدَ بِهَذَا اللَّفْظِ فِي حَدِيثٍ آخَرَ بَلْ هَذَا اللَّفْظُ لَيْسَ بِقَيْدٍ فِي الْأَصْلِ هُوَ إِخْبَارٌ عَنْ الْإِنْكَارِ عَلَى الْبِدَعِ وَأَنَّهَا مِمَّا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رَهْبَانِيَّةً اِبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ وَأَمَّا ظَنُّ مَصْلَحَةِ الدِّينِ وَتَقْوِيَتِهِ فِيهَا فَمِنْ وَادِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ وَلَا أَدْرِي مَا مَعْنَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ وَلَا أَدْرِي مَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ إِنْ كَانَتْ تِلْكَ الْمَصْلَحَةُ فِي تَرْوِيجِ الْبِدْعَاتِ يَا اللَّهُ الْعَجَبُ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْقَالَةِ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ فِي إِشَاعَةِ الْبِدَعِ إِمَاتَةَ السُّنَنِ وَفِي

إمَاتَتِهَا إِحْيَاءُ الدِّينِ وَعُلُومِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ دِينَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ كَامِلٌ تَامٌّ غَيْرُ نَاقِصٍ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ فِي كَمَالِهِ وَإِتْمَامِهِ وَنُصُوصُهُ مَعَ أَدِلَّةِ السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ كَافِيَةٌ وَافِيَةٌ شَافِيَةٌ لِجَمِيعِ الْحَوَادِثِ وَالْقَضَايَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ انْتَهَى مَا فِي الدِّينِ الْخَالِصِ مُخْتَصَرًا . قُلْتُ : قَوْلُهُ بِدْعَةٌ ضَلَالَةٌ يُرْوَى بِالْإِضَافَةِ وَيَجُوزُ أَنْ يُنْصَبَ مَوْصُوفًا وَصِفَةً ، وَهَذِهِ الصِّفَةُ لَيْسَتْ لِلِاحْتِرَازِ عَنْ الْبِدْعَةِ الْحَسَنَةِ بَلْ هِيَ صِفَةٌ كَاشِفَةٌ لِلْبِدْعَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ" كَمَا فِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(لَا يَرْضَاهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ)

هَذَا أَيْضًا صِفَةٌ كَاشِفَةٌ بِقَوْلِهِ بِدْعَةٌ .

قَوْلُهُ : (هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ)

وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهْ وَالْحَدِيثُ ضَعِيفٌ لِضَعْفِ كَثِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَقَدْ اُعْتُرِضَ عَلَى تَحْسِينِ التِّرْمِذِيِّ لِحَدِيثِهِ . قَالَ الْمُنْذِرِيُّ فِي التَّرْغِيبِ بَعْدَ نَقْلِ تَحْسِينِ التِّرْمِذِيِّ بَلْ كَثِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَتْرُوكٌ وَاهٍ وَلَكِنْ لِلْحَدِيثِ شَوَاهِدُ . اِنْتَهَى . انتهى . اهـ ﴿تحفة الأحوذي جـ 7 ص 370.369﴾

(294/748)

وقال السيوطى :

(وَأَحْسَن الْهَدْي هَدْي مُحَمَّد)

قَالَ الْقُرْطُبِيّ : بِضَمِّ الْهَاء وَفَتْح الدَّال فِيهِمَا وَبِفَتْحِ الْهَاء وَسُكُون الدَّال فِيهِمَا وَهُمَا مِنْ أَصْل وَاحِد وَالْهُدَى بِالضَّمِّ الدَّلَالَة وَالْإِرْشَاد وَالْهَدْي بِالْفَتْحِ الطَّرِيق يُقَال فُلَان حَسَن الْهَدْي أَيْ الْمَذْهَب فِي الْأُمُور كُلّهَا أَوْ السِّيرَة

(وَشَرّ الْأُمُور مُحْدَثَاتهَا)

قَالَ الْقُرْطُبِيّ : يَعْنِي الْمُحْدَثَات الَّتِي لَيْسَ فِي الشَّرِيعَة أَصْل يَشْهَد لَهَا بِالصِّحَّةِ وَهِيَ الْمُسَمَّاة بِالْبِدَعِ

(وَكُلّ بِدْعَة ضَلَالَة)

قَالَ النَّوَوِيّ هَذَا عَامّ مَخْصُوص ، وَالْمُرَاد غَالِب الْبِدَع قَالَ أَهْل اللُّغَة الْبِدْعَة كُلّ شَيْء عُمِلَ عَلَى غَيْر مِثَال سَابِق قَالَ الْعُلَمَاء : الْبِدْعَة خَمْسَة أَقْسَام : وَاجِبَة وَمَنْدُوبَة وَمُحَرَّمَة وَمَكْرُوهَة وَمُبَاحَة ؛ فَمِنْ الْوَاجِبَة نَظْم أَدِلَّة الْمُتَكَلِّمِينَ لِلرَّدِّ عَلَى الْمَلَاحِدَة الْمُبْتَدِعِينَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ وَمِنْ الْمَنْدُوبَة تَصْنِيف كُتُب الْعِلْم وَبِنَاء الْمَدَارِس وَالرُّبُط وَغَيْر ذَلِكَ وَمِنْ الْمُبَاحَة التَّبَسُّط فِي أَلْوَان الْأَطْعِمَة وَغَيْر ذَلِكَ وَالْحَرَام وَالْمَكْرُوه ظَاهِرَانِ وَإِذَا عُرِفَ ذَلِكَ عُلِمَ أَنَّ الْحَدِيث وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ الْعَامّ الْمَخْصُوص يُؤَيِّدهُ قَوْل عُمَر فِي التَّرَاوِيح : نِعْمَتْ الْبِدْعَة وَلَا يَمْنَع مِنْ كَوْن الْحَدِيث عَامًّا مَخْصُوصًا قَوْله كُلّ بِدْعَة بِكُلٍّ بَلْ يَدْخُلهُ

التَّخْصِيص مَعَ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ شرح سنن النسائى / للسيوطى حـ 3 صـ 189 ﴾

(295/748)

وقال الإمام بدر الدين العينى :

البدعة على نوعين إن كانت مما يندرج تحت مستحسن في الشرع فهي بدعة حسنة وإن كانت مما يندرج تحت مستقبح في الشرع فهي بدعة مستقبحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ عمدة القاري حـ 11 صـ 126 ﴾

(296/748)

وقال صاحب دليل الفالحين :

(وإياكم ومحدثات الأمور) كلاهما منصوب بفعل مضمر أي: باعدوا أنفسكم واحذروا الأخذ بالأمور المحدثة في الدين واتباع غير سنن الخلفاء الراشدين (فإن) ذلك بدعة وإن (كل بدعة) وهي لغة المخترع على غير مثال سابق . وشرعاً ما أحدث على خلاف أمر

الشارع ، ودليله الخاص أو العام (ضلالة) لأن الحق فيما جاء به الشرع فما لا يرجع إليه يكون ضلالة ، إذ ليس بعد الحق إلا الضلال ، والمراد بالضلالة هنا ما ليس له أصل في الشرع وإنما حمل عليه مجرد الشهوة أو الإرادة ، بخلاف محدث له أصل في الشرع إما بحمل النظر على النظير أو بغير ذلك فإنه حسن ، إذ هو سنة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين فمنشأ الذم في البدعة ليس مجرد لفظ محدث أو بدعة بل ما اقترن به من مخالفته للسنة ورعايته للضلالة ، ولذا انقسمت البدعة إلى الأحكام الخمسة ، لأنها إذا عرضت على القواعد الشرعية لم تخل عن واحد منها ، فمن البدع الواجبة على الكفاية تعلم العلوم المتوقف عليها فهم الكتاب والسنة والتي فيها حفظ الشريعة ، لأن حفظها واجب على الكفاية فيما زاد على التعين ولا يتأتى حفظها إلا بذلك فوجب .

ومن البدع المحرّمة مذاهب سائر أهل البدع المخالفة لما عليه أهل السنة والجماعة . ومن المندوبة كل إحسان لم يعهد في الصدر الأول كإحداث نحو الربط والمدارس والكلام في دقائق التصوف . ومن المكروهة زخرفة المساجد وتزويق المصاحف ، ومن المباحة التوسع في لذيذ المآكل والمشارب ؛ فعلم أن قوله: «وكل بدعة ضلالة» عام أريد به خاص إذ سنة الخلفاء الراشدين منها مع أنا أمرنا باتباعها لرجوعها إلى أصل شرعي وكذا سنتهم عام أريد به خاص ، إذ لو فرض خليفة راشد سنّ سنة لا يعضدها دليل شرعي امتنع اتباعها ، ولا ينافي ذلك رشده لأنه قد يخطىء المصيب ويزيغ المستقيم يوماً ما (رواه) أحمد

والدارمي في «مسنديهما» .

ورواه عن أحمد (أبو داود) في «سننه» (و) كذا (الترمذي وقال: حديث صحيح) وفي الأربعين للمصنف: وقال حديث حسن ، وفي نسخة من كل من الرياض والأربعين: وقال صحيح حسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دليل الفالحين / لابن علان الصديقى حـ 1 صـ 357.356 ﴾

(297/748)

وقال الزرقانى فى شرح الموطأ :

(فقال عمر: نعمت البدعة هذه) وصفها بنعمت لأن أصل ما فعله سنة وإنما البدعة الممنوعة خلاف السنة . وقال ابن عمر في صلاة الضحى: نعمت البدعة . وقال تعالى: ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ (سورة الحديد: الآية 27) وأما ابتداع الأشياء من عمل الدنيا فمباح قاله ابن عبد البر . وقال الباجي: نعمت التاء على مذهب البصريين لأن نعم فعل لا يتصل به إلا التاء ، وفي نسخ نعمه بالهاء وذلك على أصول الكوفيين ، وهذا تصريح منه بأنه أوّل من جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد لأن البدعة ما ابتدأ بفعلها المبتدع ولم يتقدّمه غيره فابتدعه عمر وتابعه الصحابة

والناس إلى هلم جرا ، وهذا يبين صحة القول بالرأي والاجتهاد انتهى . فسماها بدعة لأنه صلى الله عليه وسلم لم يسنّ الاجتماع لها ولا كانت في زمان الصدّيق وهو لغة ما أحدث على غير مثال سبق ، وتطلق شرعاً على مقابل السنة وهي ما لم يكن في عهده صلى الله عليه وسلم ثم تنقسم إلى الأحكام الخمسة ، وحديث: «كل بدعة ضلالة» عام مخصوص وقد رغب فيها عمر بقوله: نعمت البدعة وهي كلمة تجمع المحاسن كلها ، كما أن بئس تجمع المساوي كلها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر» وإذا أجمع الصحابة على ذلك مع عمر زال عنه اسم البدعة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ شرح الزرقانى على الموطأ حـ 2 صـ 340 ﴾

(298/748)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والأربعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والأربعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 28 ﴾ من (سورة الحديد)

وحتى الآية ﴿ 29 ﴾ آخر السورة

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قرر سبحانه أن الرسل دعاة للحق إلى سيدهم طوعاً أو كرهاً بالكتاب والحديد ، وقرر أن السعادة كلها في اتباعهم ، وأن البدع لا تأتي بخير وإن زين الشيطان أمرها وخيل أنه خير ، وأن أصحاب الذي كان نسخ شريعة من قبله ابتدعوا بدعة حسنة فوكلوا إليها ففسق أكثرهم ، فاقتضى ذلك إرسال من ينسخ كل شريعة تقدمته نسخاً لا زوال له لأنه لا نبي بعده ونهى عن البدع نهياً لم يتقدمه أحد إلى مثله ، أنتج ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي أقروا بذلك إقراراً صحيحاً بنبي مما تقدم أو بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ اتقوا الله ﴾ أي خافوا عقابه فاجعلوا بينكم وبين سخطه - لأنه الملك الأعظم - وقاية بحفظ الأدب معه ولا تأمنوا مكره ، فكونوا على حذر من أن يسلبكم ما وهبكم ، فاتبعوا الرسول تسلموا ، وحافظوا على اتباعه لئلا تهلكوا ﴿ وآمنوا برسوله ﴾ أي الذي لا رسول له الآن غيره ، إيماناً مضموماً إلى إيمانكم بالله فإنه لا يصح الإيمان به إلا مع الإيمان برسوله ، وبأن تثبتوا على الإيمان به ، وتضموا الإيمان به إلى الإيمان بمن تقدمه يا أهل الكتاب ، لأن

رسالته عامة ، لقد نسخ جميع ما تقدمه من الأديان فإياكم أن يميلكم عنه ميل من حسد أو غيره ، فبادروا إلى إجابته والزموا جميعاً حذره فلا تميلوا إلى بدعة أصلاً ﴿ يؤتكم ﴾ ثواباً على اتباعه ﴿ كفلين ﴾ أي نصيبين ضخمين ﴿ من رحمته ﴾ تحصيناً لكم من العذاب كما يحصن الكفل الراكب من الوقوع ، وهو كساء يعقد على ظهر البعير فيلقى مقدمه على الكاهل ومؤخره على العجز ، وهذا التحصين لأجل إيمانكم به . صلى الله عليه وسلم . وإيمانكم بمن تقدمه مع خفة العمل ورفع الأصار وهو أعلى بالأجر من الذي عمل الخير في الجاهلية ، وقال النبي . صلى الله عليه وسلم . لمن سأله عنه " أسلمت على ما أسلفت من خير " ودل على أن الكفلين برفع الدرجات وإفاضة خواص من الخيرات بقوله : ﴿ ويجعل لكم ﴾ أي مع ذلك ﴿ نوراً ﴾ مجازياً في الأولى

بالتوفيق للعمل من المعلوم والمعارف القلبية وحسياً في الآخرة بسبب العمل ﴿ تمشون به ﴾ أي مجازاً في الأولى بالتوفيق للعمل ، وحقيقة في الآخرة بسبب العمل .

ولما كان الإنسان لا يخلو من نقصان ، فلا يبلغ جميع ما يحق للرحمن ، قال : ﴿ ويغفر لكم ﴾ أي ما فرط منكم من سهو وعمد وهزل وجد .

ولما قرر سبحانه وذلك ، أتبعه التعريف بأن الغفران وما يتبعه صفة له شاملة لمن يريده فقال : ﴿ والله ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال والعظمة والكبرياء ﴿ غفور ﴾ أي بليغ المحو للذنب عيناً وأثراً ﴿ رحيم ﴾ أي بليغ الإكرام لمن يغفر له ويوفقه للعمل بما يرضيه .

(6/749)

ولما كان أهل الكتاب قد تابعوا أهويتهم على بغض الأميين ، وأشربت قلوبهم أن النبوة مختصة بهم لأنهم أولاد إبراهيم عليه السلام من ابنة عمه ، والعرب - وإن كانوا أولاده - فإنهم من الأمة وما دروا أن كونهم من أولاده مرشح لنبوة بعضهم وكونهم من الأمة ، مهيئ لعموم الرسالة لأجل عموم النسب ، قال دالاً على أنهم صاروا كالبهائم لا يبصرون إلا المحسوسات معلقاً الجارب ﴿ آمنوا ﴾ و ﴿ يؤتكم ﴾ وما بعده : ﴿ لئلا يعلم ﴾ أي ليعلم علماً عظيماً يثبت مضمون خبره وينتفي ضده - بما أفاده زيادة النافي ﴿ أهل الكتاب ﴾ أي من الفريقين الذي اقتصروا على كتابهم وأنبيائهم ولم يؤمنوا بالنبي الخاتم وما أنزل ﴿ ألا ﴾ أي أنهم لا ﴿ يقدرون ﴾ أي في زمن من الأزمان ﴿ على شيء ﴾ أي وإن قل ﴿ من فضل الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي خصكم بما خصكم به لا يمنع ولا بإعطائكم حيث نزع النبوة منهم ووضعها في بني عمهم إسماعيل عليه السلام الذي كانوا لا يقيمون لهم وزناً فيقولون :

إنهم بنو الأمة ، وإنهم أميون ، وإنهم ليس عليهم منهم سبيل ، وجعل النبوة التي خصكم بها عامة - كما أشار إليه ما في ابن الأمة من شمول بنسبته وانشعابه وحيث عملوا كثيراً وأعطوا قليلاً : " اليهود من أول النهار على قيراط قيراط ، والنصارى من الظهر على قيراط قيراط ، وهذه الأمة من صلاة العصر على قيراطين قيراطين ، فقال الفريقان : ما لنا أكثر عملاً وأقل أجراً ، قالك هل ظلمتكم من حقكم شيئاً ، قالوا : لا ، قال : ذلك فضلي أوتيه من أشاء " وذكر ابن برجان معنى هذا الحديث - كما تقدم عنه قريباً - من الإنجيل وطبقه عليه وذكرته أنا في الأعراف ، روى الإمام أحمد في مواضع من المسند والبخاري في سبعة مواضع في الصلاة والإجارة وذكر بني إسرائيل وفضائل القرآن والتوحيد ، والترمذي في الأمثال - وقال : حسن صحيح - من وجوه شتى جمعت بين ألفاظها عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " مثلكم " -

(7/749)

وفي هذه الرواية : " مثل هذه الأمة " ، وفي رواية : " مثل أمتي " وفي رواية : إنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل ، وفي رواية : " مثلكم ومثل أهل الكتابين كمثل رجل استعمل عملاء " ، وفي رواية : " استأجر أجراء " فقال : " من يعمل لي من صلاة الصبح " وفي رواية

أخرى : " من غدوة إلى نصف النهار على قيراط ، ألا فعملت اليهود " - وفي رواية : " قالت اليهود : نحن - فعملوا ، ثم قال : من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط ، ألا فعملته النصارى " ، وفي رواية : " قالت النصارى : نحن ، فعملوا ، ثم قال : من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس "

(8/749)

- وفي رواية : إلى أن تغيب الشمس - " على قيراطين قيراطين ، ألا فأنتم الذين عملتم " ، وفي رواية : " تعملون " ، وفي رواية " وأنتم المسلمون تعملون من صلاة العصر إلى الليل " ، وفي رواية " إلى مغارب " ، وفي رواية : " مغرب الشمس على قيراطين قيراطين قيراطين ألا لكم الأجر مرتين ، فغضبت اليهود والنصارى " وقالوا : " نحن " - وفي رواية : " ما لنا - أكثر عملاً وأقل عطاء " ، وفي رواية " أجراً ، قال الله تعالى هل " - وفي رواية : " وهل - نقصتكم - " وفي رواية : " هل ظلمتكم - من حقكم شيئاً - " وفي رواية : " أجركم شيئاً ، قالوا : لا ، قال : فإنه " - وفي رواية : " فإنما - هو فضل " ، وفي رواية : " فذلك فضلي أوتيه من أشاء " ، وفي رواية : " أعطيه من شئت " وفي رواية : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو قائم على المنبر يقول : " ألا إن بقاءكم " ، وفي رواية : " إنما بقاؤكم " ، وفي

رواية : " إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم " - وفي رواية : " فيما سلف من قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر والمغرب " - وفي رواية : " إلى غروب الشمس " ، وفي رواية : " ألا إن مثل آجالكم في آجال الأمم قبلكم كما بين صلاة العصر إلى مغيربا ن " ، وفي رواية : " إلى مغرب " ، وفي رواية : " إلى مغارب الشمس ، أعطي " - وفي رواية : " أوتي - أهل التوراة التوراة ، فعملوا بها حتى انتصف النهار فعجزوا ، فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، وأعطي " - وفي رواية : " ثم أوتي - أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى " - وفي رواية : " إلى - صلاة العصر " ، وفي رواية " حتى صليت العصر ، ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس " ، وفي رواية : " حتى غروب الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين " ، وفي رواية : " ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين ، فقال أهل الكتابين " - وفي رواية : " أهل التوراة والإنجيل - ربنا

هؤلاء أقل منا عملاً وأكثر أجراً " ، وفي رواية : " جزاء " ، وفي رواية : " أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ، ونحن أكثر عملاً منهم ، قال الله تبارك

وتعالى : هل " وفي رواية : " فهل ظلمتكم من أجركم " - وفي رواية : " من أجوركم - من شي ؟ فقالوا : لا ، فقال : فهو فضلي " ، وفي رواية " فذلك فضلي ، أوتيه من أشاء " وقد أخذ بعض العلماء من هذا الحديث ما قبل هذه الأمم وترك على ذلك أحوالهم فقال : إنه دال على قوم نوح وإبراهيم عليهما السلام ، كان لهم الليل ، فكان قوم نوح في أوله في ظلام صرف طويل لم يلح لهم شيء من تباشير الضياء ولا أمارات الصبح ، ونوح عليه السلام يخبرهم به ويأمرهم بالتهيؤ له ، فلذلك طال بلاؤه عليه السلام بهم ، وما آمن معه إلا قليل ، وأما قوم إبراهيم عليه السلام فكانوا كأنهم في أواخر الليل ، قد لاحت لهم تباشير الصباح وأومضت لهم بوارق الفلاح ، فلذلك آمن لوط عليه السلام وكذا سارة زوجته وأولاده منها ومن غيرها كلهم ، واستمر الإسلام في أولاده والنبوة حتى جاء موسى عليه السلام ، فكان وقته كما بين الصبح والظهر ، فكان قومه تارة وتارة ، تارة يحسبون أنهم في ضياء كيفما كانوا ، فيروغون يميناً وشمالاً فيكونون كمن دخل غيراناً وكهوفاً وأسراباً ثم يخرجون منها فيرجعون إلى الضياء ، فكانت غلطاتهم تارة كباراً وتارة صغاراً ، وأما قوم عيسى عليه السلام فكانوا كمن هو في الظهيرة في شدة الضياء فالغلط منه لا يكون إلا عن عمى عظيم ، فلذلك كان غلطهم أفظع الغلط وأفحشه - والله الموفق - ﴿ وإن ﴾ أي ولتعلموا أن ﴿ الفضل ﴾ أي الذي لا يحتاج إليه من هو عنده ﴿ بيد الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ منهم أو من غيرهم نبوة كانت أو غيرها .

(10/749)

ولما كان ربما ظن ظان أنه لا يخص به إلا لأنه لا يسع جميع الناس دفع ذلك بقوله : ﴿ والله ﴾ أي الذي أحاط بجميع صفات الكمال ﴿ ذو الفضل العظيم ﴾ أي مالكه ملكاً لا ينفك عنه ولا ملك لأحد فيه معه ولا تصرف بوجه أصلاً ، فلذلك يخص من يشاء بما يشاء ، فلا يقدر أحد على اعتراض بوجه ، فقد نزه له التنزيه الأعظم جميع ما في السماوات والأرض فهو العزيز الحكيم الذي لا عزيز غيره ولا حكيم سواه ، فقد انطبق كما ترى آخرها على أولها ، ورجع مفصلها على موصلها - والله الهادي للصواب وإليه المرجع والمآب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 469.473 ﴾

(11/749)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾

اعلم أنه لما قال في الآية الأولى : ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم ﴾ أي من قوم عيسى : ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾ [الحديد : 27] قال في هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ والمراد به أولئك فأمرهم أن يتقوا الله ويؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ثم قال : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ أي نصيبين من رحمته لإيمانكم أولاً بعيسى ، وثانياً بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ أولئك يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ [القصص : 54] عن ابن عباس أنه نزل في قوم جاءوا من اليمن من أهل الكتاب إلى الرسول وأسلموا فجعل الله لهم أجرين ، وههنا سؤالان :

السؤال الأول : ما الكفل في اللغة ؟ الجواب : قال المؤرج : الكفل النصيب بلغة هذيل وقال غيره بل هذه لغة الحبشة ، وقال المفضل ابن مسلمة : الكفل كساء يديره الراكب حول السنام حتى يتمكن من القعود على البعير .

السؤال الثاني : أنه تعالى لما آتاهم كفلين وأعطى المؤمنين كفلاً واحداً كان حالهم أعظم والجواب : روي أن أهل الكتاب افتخروا بهذا السبب على المسلمين ، وهو ضعيف لأنه لا يبعد أن يكون النصيب الواحد أزيد قدراً من النصيبين ، فإن المال إذا قسم بنصفين كان الكفل الواحد نصفاً ، وإذا قسم بمائة قسم كان الكفل الواحد جزء من مائة جزء ، فالنصيب الواحد من القسمة الأولى أزيد من عشرين نصيباً من القسمة الثانية ، فكذا ههنا ، ثم قال تعالى : ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ وهو النور المذكور

في قوله ﴿ يسعى نُورُهُم ﴾ [الحديد : 12] ﴿ ويَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ما أسلفتم من المعاصي ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

(12/749)

فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال الواحدي هذه آية مشكلة وليس للمفسرين فيها كلام واضح في كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها .

واعلم أن أكثر المفسرين على أن (لا) ههنا صلة زائدة ، والتقدير : ليعلم أهل الكتاب ، وقال أبو مسلم الأصفهاني وجمع آخرون : هذه الكلمة ليست بزائدة ، ونحن نفسر الآية على القولين بعون الله تعالى وتوفيقه .

(13/749)

أما القول المشهور : وهو أن هذه اللفظة زائدة ، فاعلم أنه لا بد ههنا من تقديم مقدمة وهي : أن أهل الكتاب وهم بنو إسرائيل كانوا يقولون : الوحي والرسالة فينا ، والكتاب والشرع ليس إلا لنا ، والله تعالى خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين ، إذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى لما أمر أهل الكتاب بالإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام وعدهم بالأجر العظيم على ذلك الإيمان أتبعه بهذه الآية ، والغرض منها أن يزيل عن قلبهم اعتقادهم بأن النبوة مختصة بهم وغير حاصلة إلا في قومهم ، فقال : إنما بالغنا في هذا البيان ، وأطنبنا في الوعد والوعيد ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بقوم معينين ، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة في قوم مخصوصين ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ولا اعتراض عليه في ذلك أصلاً أما القول الثاني : وهو أن لفظة (لا) غير زائدة ، فاعلم أن الضمير في قوله : ﴿ أَلَّا يَقْدِرُونَ ﴾ عائد إلى الرسول وأصحابه ، والتقدير : لئلا يعلم أهل الكتاب أن النبي والمؤمنين لا يقدرون على شيء من فضل الله ، وأنهم إذا لم يعلموا أنهم لا يقدرون عليه فقد علموا أنهم يقدرون عليه ، ثم قال : ﴿ وَأَنَّ الفضل بِيَدِ الله ﴾ أي وليعلموا أن الفضل بيد الله ، فيصير التقدير : إنا فعلنا كذا وكذا لئلا يعتقد أهل الكتاب أنهم يقدرون على حصر فضل الله وإحسانه في أقوام معينين ، وليعتقدوا أن الفضل بيد الله ، واعلم أن هذا القول ليس فيه إلا أنا أضمرنا فيه زيادة ، فقلنا في قوله : ﴿ وَأَنَّ الفضل بِيَدِ

الله ﴾ تقدير وليعتقدوا أن الفضل بيد الله وأما القول الأول : فقد افتقرنا فيه إلى حذف شيء موجد ، ومن المعلوم أن الإضمار أولى من الحذف ، لأن الكلام إذا افتقر إلى الإضمار لم يوهم ظاهره باطلاً أصلاً ، أما إذا افتقر إلى الحذف كان ظاهره موهماً للباطل ، فعلمنا أن هذا القول أولى ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

(14/749)

قال صاحب الكشاف قرىء : (لكي يعلم) ، و (لكيلا يعلم) ، و (ليعلم) ، و (لأن يعلم) ، بأدغام النون في الياء ، وحكى ابن جني في "المحتسب" عن قطرب : أنه روي عن الحسن : (ليلا) ، بكسر اللام وسكون الياء ، وحكى ابن مجاهد عنه ليلاً بفتح اللام وجزم الياء من غير همز ، قال ابن جني : وما ذكر قطرب أقرب ، وذلك لأن الهمزة إذا حذفت بقي للا فيجب إدغام النون في اللام فيصير للا فتجتمع اللامات فتجعل الوسطى لسكونها وانكسار ما قبلها ياء فيصير ليلاً ، وأما رواية ابن مجاهد عنه ، فالوجه فيه أن لام الجر إذا أضفته إلى المضمر فتحته تقول له : فمنهم من قاس المظهر عليه ، حكى أبو عبيدة أن بعضهم قرأ : ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ [إبراهيم : 46] .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الفضل بِيَدِ الله ﴾ أي في ملكه وتصرفه واليد مثل ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ لأنه قارد مختار يفعل بحسب الاختيار ﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ والعظيم لا بد وأن يكون إحسانه عظيماً ، والمراد تعظيم حال محمد صلى الله عليه وسلم في نبوته وشرعه وكتابه ، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ،

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 215 . 216 ﴾

(15/749)

وقال ابن عطية :

وقوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ﴾

اختلف الناس في المخاطب بهذا ، فقالت فرقة من المتأولين خوطب بهذا أهل الكتاب ، فالمعنى : يا أيها الذين آمنوا بعيسى اتقوا الله وآمنوا بمحمد ، ويؤيد هذا المعنى الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم :

" ثلاثة يؤتيهم الله أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي " ، الحديث وقال آخرون المخاطبة للمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قيل لهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا

اتقوا الله وآمنوا برسوله ﴾ ، أي اثبتوا على ذلك وداوموا عليه ، وهذا هو معنى الأمر أبداً لمن هو متلبس بما يؤمر به .

وقوله : ﴿ كفلين ﴾ أي نصيبين بالإضافة إلى ما كان الأمم قبل يعطونه ، قال أبو موسى الأشعري : ﴿ كفلين ﴾ ضعفين بلسان الحبشة ، وروي أن عمر بن الخطاب قال لبعض الأحبار : كم كان التضعيف للحسنات فيكم ؟ فقال ثلاثمائة وخمسون ، فقال عمر : الحمد لله الذي ضاعف لنا إلى سبعمائة ، ويؤيد هذا المعنى الحديث الصحيح الذي يقتضي أن اليهود عملت إلى نصف النهار على قيراط ، والنصارى من الظهر إلى العصر على قيراط ، وهذه الأمة من العصر إلى الليل على قيراطين ، فلما احتجت اليهود والنصارى على ذلك وقالوا نحن أكثر عملاً وأقل أجراً ، قال الله تعالى : " هل نقصتم من أجركم شيئاً ، قالوا : لا ، قال : فإنه فضلي أوتيه من أشاء " . والكفل : الحظ والنصيب . والنور : هنا إما أن يكون وعداً بالنور الذي يسعى بين الأيدي يوم القيامة ، وإما أن يكون استعارة للهدى الذي يمشي به في طاعة الله .

لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ

روي أنه لما نزل هذا الوعد للمؤمنين حسد أهل الكتاب على ذلك ، وكانت اليهود تعظم دينها وأنفسها وتزعم أنها أحباء الله وأهل رضوانه ، فنزلت هذه الآية معلمة أن الله تعالى فعل ذلك وأعلم به ليعلم أهل الكتاب أنهم ليسوا كما يزعمون ، و" لا " في قوله : ﴿ لئلا ﴾ زائدة كما هي في قوله تعالى : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ [الأنبياء : 95] على بعض التأويلات .

وقرأ ابن عباس " ليعلم أهل الكتاب " ، وروى إبراهيم التيمي عن ابن عباس : " كي يعلم " ، وروي عن ابن عباس : " لكي لا يعلم " . وروي عن حطان الرقاشي أنه قرأ : " لأي يعلم " . وقرأ ابن مسعود وابن جبير وعكرمة : " لكي يعلم أهل الكتاب " ، وقرأ الحسن فيما روى ابن مجاهد : " لَيْلا يعلم " بفتح اللام وسكون الياء . فأما فتح اللام فلغة في لام الجر مشهورة وأصل هذه القراءة " لأن لا " ، استغني عن الهمزة بلام الجر فحذفت فجاء " لأن لا " ، أدغمت النون في اللام للتشابه فجاء " للا " ، اجتمعت أمثلة فقلبت اللام الواحدة ياء .

وقرأ الحسن فيما روى قطرب : " لِيْلا " بكسر اللام وسكون الياء وتعليلها كالتي تقدم .

وقوله تعالى : ﴿ ألا يقدرون ﴾ معناه : أنهم لا يملكون فضل الله ويدخل تحت قدرهم ، وقرأ ابن مسعود : " ألا يقدروا " بغير نون ، وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ ﴾

أي آمنوا بموسى وعيسى ﴿ اتقوا الله وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يُؤْتكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ أي مثلين من الأجر على إيمانكم بعيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ أولئك يُؤْتَونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [القصص : 54] وقد تقدم القول فيه .

والكِفل الحظ والنصيب وقد مضى في "النساء" وهو في الأصل كِساء يكتفل به الراكب فيحفظه من السقوط ؛ قاله ابن جريج .

ونحوه قال الأزهري ، قال : اشتقاقه من الكِساء الذي يحويه راكب البعير على سنامه إذا ارتدفه لئلا يسقط ؛ فتأويله يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصي كما يحفظ الكِفل الراكب .

وقال أبو موسى الأشعري : ﴿ كِفْلَيْنِ ﴾ ضعفين بلسان الحبشة .

وعن ابن زيد : "كِفْلَيْن" أجر الدنيا والآخرة .

وقيل : لما نزلت ﴿ أولئك يُؤْتَونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ افتخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية .

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الحسنة إنما لها من الأجر مِثْل واحد ؛ فقال : الحسنة اسم عام ينطلق على كل نوع من الإيمان ، وينطلق على عمومه ، فإذا انطلقت الحسنة على نوع واحد فليس له عليها من الثواب إلا مِثْل واحد .

وإن انطلقت على حسنة تشتمل على نوعين كان الثواب عليها مثلين ؛ بدليل هذه الآية فإنه قال : ﴿ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ والكفل النصيب كالمثل ، فجعل لمن اتقى الله وآمن برسوله نصيبين ؛ نصيباً لتقوى الله ونصيباً لإيمانه برسوله .

فدل على أن الحسنة التي جعل لها عشر هي التي جمعت عشرة أنواع من الحسنات ، وهو الإيمان الذي جمع الله تعالى في صفته عشرة أنواع ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ المسلمين والمسلمات ﴾ [الأحزاب : 35] الآية بكمالها .

(18/749)

فكانت هذه الأنواع العشرة التي هي ثوابها أمثالها فيكون لكل نوع منها مِثْل .

وهذا تأويل فاسد ، لخروجه عن عموم الظاهر ، في قوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ بما لا يحتمله تخصيص العموم ، لأن ما جمع عشر حسنات فليس يُجزى عن كل حسنة إلا بمثلها .

وبطل أن يكون جزاء الحسنة عشر أمثالها والأخبار دالة عليه .

وقد تقدم ذكرها .

ولو كان كما ذكر لما كان بين الحسنة والسيئة فرق .

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً ﴾ أي بياناً وهدًى ، عن مجاهد .

وقال ابن عباس : هو القرآن .

وقيل : ضياء ﴿ تَمْشُونَ بِهِ ﴾ في الآخرة على الصراط ، وفي القيامة إلى الجنة .

وقيل تمشون به في الناس تدعونهم إلى الإسلام فتكونون رؤساء في دين الإسلام لا تزول عنكم رياسة كنتم فيها .

وذلك أنهم خافوا أن تزول رياستهم لو آمنوا بمحمد عليه السلام .

وإنما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضعفة بتحريف أحكام الله ، لا الرياسة الحقيقية في الدين .

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذنوبكم ﴿ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ أي ليعلم ، و"أن لا" صلة زائدة مؤكدة ؛ قاله الأخفش .

وقال الفراء : معناه لأن يعلم و"لا" صلة زائدة في كل كلام دخل عليه جَحْد .

قال قتادة : حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت : ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ أي لأن يعلم

أهل الكتاب أنهم ﴿ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ .

وقال مجاهد : قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبيّ يقطع الأيدي والأرجل .

فلما خرج من العرب كفروا فنزلت : ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ ﴾ أي ليعلم أهل الكتاب "أَنْ لا يَقْدِرُونَ"

أي أنهم لا يقدرون ؛ كقوله تعالى : ﴿ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ [طه : 89] .

وعن الحسن : "لَيْلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ" وروي ذلك عن ابن مجاهد .

وروى قُطْرُب بكسر اللام وإسكان الياء .

(19/749)

وفتح لام الجر لغة معروفة .

ووجه إسكان الياء أنّ همزة "أَنْ" حذفت فصارت "لَنْ" فأدغمت النون في اللام فصار

"لِلاَّ" فلما اجتمعت اللامات أبدلت الوسطى منها ياء ؛ كما قالوا في أَمَّا : أَيما .

وكذلك القول في قراءة من قرأ "لِيْلاَ" بكسر اللام إلا أنه أبقى اللام على اللغة المشهورة فيها

فهو أقوى من هذه الجهة .

وعن ابن مسعود "لِكَيْلاَ يَعْلَمَ" وعن حِطّان بن عبد الله "لأَنْ يَعْلَمَ" .

وعن عِكرمة "لِيَعْلَمَ" وهو خلاف المرسوم .

"مِنْ فَضْلِ اللَّهِ" قيل : الإسلام .

وقيل : الثواب .

وقال الكلبي : من رزق الله .

وقيل : نعم الله التي لا تحصى .

﴿ وَأَنَّ الفضل بِيَدِ الله ﴾ ليس بأيديهم فيصرفون النبوّة عن محمد صلى الله عليه وسلم إلى من يحبون .

وقيل : ﴿ وَأَنَّ الفضل بِيَدِ الله ﴾ أي هو له ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ .

وفي البخاري : حدثنا الحكم بن نافع ، قال حدثنا شعيب عن الزهري ، قال أخبرني سالم بن عبد الله ، أن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر : " إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أعطى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين قال أهل التوراة ربنا هؤلاءِ أقل عملاً وأكثر أجراً قال : هل ظلمتكم من أجركم من شيء قالوا لا فقال فذلك فضلي أوتيه من أشاء " في رواية : " فغضبت اليهود والنصارى وقالوا ربنا " الحديث ﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ .

(تم تفسير سورة "الحديد" والحمد لله) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(20/749)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾

لما ذكر تعالى إرسال الرسل جملة ، أفرد منهم في هذه الآية نوحاً وإبراهيم ، عليهما السلام ، تشريفاً لهما بالذكر .

أما نوح ، فلأنه أول الرسل إلى من في الأرض ؛ وأما إبراهيم ، فلأنه انتسب إليه أكثر الأنبياء عليهم السلام ، وهو معظم في كل الشرائع .

ثم ذكر أشرف ما حصل لذريتهما ، وذلك النبوة ، وهي التي بها هدي الناس من الضلال ؛ ﴿ والكتاب ﴾ ، وهي الكتب الأربعة : التوراة والزبور والإنجيل والقرآن ، وهي جميعها في ذرية إبراهيم عليه السلام ، وإبراهيم من ذرية نوح ، فصدق أنها في ذريتهما .

وفي مصحف عبد الله : والنبية مكتوبة بالياء عوض الواو .

وقال ابن عباس : ﴿ والكتاب ﴾ : الخط بالقلم ، والظاهر أن الضمير في منهم عائد على

الذرية .

وقيل : يعود على المرسل إليهم لدلالة ذكر الإرسال والمرسلين عليهم .

ومع إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة العلل بذلك ، انقسموا إلى مهتد وفاسق ، وأخبر بالفسق عن الكثير منهم .

﴿ ثم قفينا ﴾ : أي اتبعنا وجعلناهم يقفون من تقدم ، ﴿ على آثارهم ﴾ : أي آثار الذرية ، ﴿ برسلنا ﴾ : وهم الرسل الذين جاءوا بعد الذرية ، ﴿ وقفينا بعيسى ﴾ : ذكره تشريفاً له ، ولانتشار أمته ، ونسبه لأمه على العادة في الإخبار عنه .

وتقدمت قراءة الحسن : الإنجيل ، بفتح الهمزة في أول سورة آل عمران .

قال أبو الفتح : وهو مثال لا نظير له .

انتهى ، وهي لفظة أعجمية ، فلا يلزم فيها أن تكون على أبنية كلم العرب .

وقال الزمخشري : أمره أهون من أمر البرطيل ، يعني أنه بفتح الباء وكأنه عربي ؛ وأما الإنجيل فأعجمي .

وقرىء : رآفة على وزن فعالة ، ﴿ وجعلنا ﴾ : يحتمل أن يكون المعنى وخلقنا ، كقوله : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ ويحتمل أن يكون بمعنى صيرنا ، فيكون ﴿ في قلوب ﴾ : في موضع المفعول الثاني لجعلنا .

﴿ ورهبانية ﴾ معطوف على ما قبله ، فهي داخلة في الجمل .

﴿ ابتدعوها ﴾ : جملة في موضع الصفة لرهبانية ، وخصت الرهبانية بالابتداع ، لأن الرأفة والرحمة في القلب لا تكسب للإنسان فيها ، بخلاف الرهبانية ، فإنها أفعال بدن مع شيء في القلب ، ففيها موضع للتكسب .

قال قتادة : الرأفة والرحمة من الله ، والرهبانية هم ابتدعوها ؛ والرهبانية : رفض الدنيا وشهواتها من النساء وغيرهنّ واتخاذ الصوامع .

وجعل أبو علي الفارسي ﴿ ورهبانية ﴾ مقتطعة من العطف على ما قبلها من ﴿ رأفة ورحمة ﴾ ، فانتصب عنده ﴿ ورهبانية ﴾ على إضمار فعل يفسره ما بعده ، فهو من باب الاشتغال ، أي وابتدعوا رهبانية ابتدعوها .

واتبعه الزمخشري فقال : وانتصابها بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره : وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ، يعني وأحدثوها من عند أنفسهم ونذروها .

انتهى ، وهذا إعراب المعتزلة ، وكان أبو عليّ معتزلياً .

وهم يقولون : ما كان مخلوقاً لله لا يكون مخلوقاً للعبد ، فالرأفة والرحمة من خلق الله ، والرهبانية من ابتداع الإنسان ، فهي مخلوقة له .

وهذا الإعراب الذي لهم ليس بجيد من جهة صناعة العربية ، لأن مثل هذا هو مما يجوز فيه

الرفع بالابتداء ، ولا يجوز الابتداء هنا بقوله : ﴿ ورهبانية ﴾ ، لأنها نكرة لا مسوغ لها من المسوغات للابتداء بالنكرة .

وروي في ابتداعهم الرهبانية أنهم افترقوا ثلاث فرق : ففرقة قاتلت الملوك على الدين فغلبت وقتلت ؛ وفرقة قعدت في المدن يدعون إلى الدين ويبينونه ولم تقاتل ، فأخذها الملوك ينشرونهم بالمناشير فقتلوا ، وفرقة خرجت إلى الفيافي ، وبنت الصوامع والديارات ، وطلبت أن تسلم على أن تعتزل فتركت .

والرهبانية : الفعلة المنسوبة إلى الرهبان ، وهو الخائف بني فعلان من رهب ، كالخشيان من خشي .

وقرىء : ورهبانية بالضم .

قال الزمخشري : كأنها نسبة إلى الرهبان ، وهو جمع راهب ، كراكب وركبان . انتهى .

(22/749)

والأولى أن يكون منسوباً إلى رهبان وغير بضم الراء ، لأن النسب باب تغيير .

ولو كان منسوباً إلى رهبان الجمع لرد إلى مفرده ، فكان يقال : راهبية ، إلا إن كان قد صار كالعلم ، فإنه ينسب إليه على لفظه كالأنصار .

والظاهر أن ﴿ إلا ابتغاء رضوان ﴾ الله استثناء متصل من ما هو مفعول من أجله ، وصار المعنى : أنه تعالى كتبها عليهم ابتغاء مرضاته ، وهذا قول مجاهد ، ويكون كتب بمعنى قضى .

وقال قتادة وجماعة : المعنى : لم يفرضها عليهم ، ولكنهم فعلوا ذلك ابتغاء رضوان الله تعالى ، فالاستثناء على هذا منقطع ، أي لكن ابتدعوها لابتغاء رضوان الله تعالى .

والظاهر أن الضمير في ﴿ رعوها ﴾ عائد على ما عاد عليه في ﴿ ابتدعوها ﴾ ، وهو ضمير ﴿ الذين اتبعوه ﴾ ، أي لم يرعوها كما يجب على الناذر رعاية نذره ، لأنه عهد مع الله لا يحل نكثه .

وقال نحوه ابن زيد ، قال : لم يدوموا على ذلك ، ولا وفوه حقه ، بل غيروا وبدلوا ، وعلى تقدير أن فيهم من رعى يكون المعنى : فما رعوها بأجمعهم .

وقال ابن عباس وغيره : الضمير للملوك الذين حاربوهم وأجلوهم .

وقال الضحاك وغيره : الضمير للأخلاف الذين جاءوا بعد المبتدعين لها .

﴿ فآتينا الذين آمنوا ﴾ : وهم أهل الرأفة والرحمة الذين اتبعوا عيسى عليه السلام .

﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ : وهم الذين لم يرعوها .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ : الظاهر أنه نداء لمن آمن من أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فمعنى آمنوا : دوموا واثبتوا ، وهكذا المعنى في كل أمر يكون المأمور ملتبساً بما أمر به .

﴿ يؤتكم كفلين ﴾ ، قال أبو موسى الأشعري : كفلين : ضعفين بلسان الحبشة .

انتهى ، والمعنى : أنه يؤتكم مثل ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين في قوله : ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين ﴾ إذ أنتم مثلهم في الإيمانين ، لا تفرقوا بين أحد من رسله .

(23/749)

وروي أن مؤمني أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين ، وادعوا الفضل عليهم ، فنزلت .

وقيل : النداء متوجه لمن آمن من أهل الكتاب ، فالمعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى ، آمنوا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، يؤتكم الله كفلين ، أي نصيبين من رحمته ، وذلك لإيمانكم بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، وإيمانكم بمن قبله من الرسل .

﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ : وهو النور المذكور في قوله : ﴿ يسعى نورهم ﴾ ، ويغفر لكم ما أسلفتم من الكفر والمعاصي .

ويؤيد هذا المعنى ما ثبت في الصحيح : " ثلاثة يؤتهم الله أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي " ، الحديث .

ليعلم أهل الكتاب الذين لم يسلموا أنهم لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضله من الكفلين والنور

والمغفرة ، لأنهم لم يؤمنوا برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله ، ولم يكسبهم فضلاً قط .

وإذا كان النداء لمؤمني هذه الأمة والأمر لهم ، فروي أنه لما نزل هذا الوعد لهم حسدهم أهل الكتاب ، وكانت اليهود تعظم دينها وأنفسها ، وتزعم أنهم أحباء الله وأهل رضوانه ، فنزلت هذه الآية معلمة أن الله تعالى فعل ذلك وأعلم به .

ليعلم أهل الكتاب أنهم ليسوا كما يزعمون .

وقرأ الجمهور : ﴿ لئلا يعلم ﴾ ، ولا زائدة كهي في قوله : ﴿ ما منعك أَن لا تسجد ﴾ وفي قوله : ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ في بعض التأويلات .

وقرأ خطاب بن عبد الله : لأن لا يعلم ؛ وعبد الله وابن عباس وعكرمة والجحدري وعبد الله بن سلمة : على اختلاف ليعلم ؛ والجحدري : لينيعلم ، أصله لأن يعلم ، قلب الهمزة ياء لكسرة ما قبلها وأدغم النون في الياء بغير غنة ، كقراءة خلف أن يضرب بغير غنة .

وروى ابن مجاهد عن الحسن : ليلاً مثل ليلى اسم المرأة ، يعلم برفع الميم أصله لأن لا بفتح لام الجر وهي لغة ، فحذفت الهمزة ، اعتباطاً ، وأدغمت النون في اللام ، فاجتمعت الأمثال

وثقل النطق بها ، فأبدلوا من الساكنة ياء فصار ليلاً ، ورفع الميم ، لأن إن هي المخففة من الثقيلة لا الناصبة للمضارع ، إذ الأصل لأنه لا يعلم .

وقطرب عن الحسن أيضاً : لئلا بكسر اللام وتوجيهه كالذي قبله ، إلا أنه كسر اللام على اللغة الشهيرة في لام الجر .

وعن ابن عباس : كي يعلم ، وعنه : لكيلا يعلم ، وعن عبد الله وابن جبير وعكرمة : لكي يعلم .

وقرأ الجمهور : أن لا يقدرون بالنون ، فإن هي المخففة من الثقيلة ؛ وعبد الله بحذفها ، فإن الناصبة للمضارع ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(25/749)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا على ءاثارهم بِرُسُلِنَا ﴾

أي ثمَّ أرسلنَا بعدَهُم رسلنَا ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ أي أرسلنَا رسولاً بعد رسولٍ حتَّى انتهى إلى عيسَى ابنِ مريمَ عليه السَّلامُ والضميرُ لنوحٍ وإبراهيمَ ومَنْ أُرسِلا إليهم ، أو مَنْ عاصرهُما من الرُّسلِ لا للذريةِ فإنَّ الرسلَ المُقفَّى بهم من الذريةِ ﴿ وءاتيناه الإنجيل

﴿ وقُرِئ بفتحِ الهمزةِ فإنّه أعجميٌّ لا يلزمُ فيه مراعاةُ أبنيةِ العربِ ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الذين اتبعوه رَأْفَةً ﴾ وقُرِئَ رآفةً على فَعَالةٍ . ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي وفَّقناهُم للتراحمِ والتعاطفِ بينهُم ونحوه في شأن أصحابِ النبيّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ منصوبٌ إمَّا بفعلٍ مضمرٍ يفسرُه الظاهرُ أيْ وابتدعُوا رهبانيةً ﴿ ابتدعوها ﴾ وإمَّا بالعطفِ على ما قبلَها وابتدعُوها صفةٌ لها أي وجعلنَا في قلوبِهم رأفةً ورحمةً ورهبانيةً مبتدعةً من عندهم أي وفَّقناهُم للتراحم بينهُم ولابتداعِ الرهبانيةِ واستحداثِها وهي المبالغةُ في العبادةِ بالرياضةِ والانقطاعِ عن النَّاسِ ومعناهَا الفعلةُ المنسوبةُ إلى الرَّهبانِ وهو الخائفُ فَعْلانُ من رَهِبَ كخشيانَ من خَشِي ، وقُرِئ بضمِّ الراءِ كأنَّها نسبةٌ إلى الرُّهبانِ وهو جمعُ راهبٍ كراكبٍ وركبانٍ وسببُ ابتداعِهم إيَّاها أنَّ الجبابرةَ ظهروا على المؤمنينَ بعدَ رفعِ عيسَى عليهِ السَّلامُ فقاتلُوهم ثلاثَ مراتٍ فقُتلوا حتَّى لم يبقَ منهُم إلا قليلٌ فخافُوا أنْ يُفتتنُوا في دينِهم فاختارُوا الرَّهبانيةَ في قُللِ الجبالِ فارِّينَ بدينِهم مُخلصينَ أنفسَهُم للعبادةِ . وقولُه تعالَى : ﴿ مَا كتبناها عَلَيْهِمْ ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ ، وقيلَ صفةٌ أُخرى لرهبانيةٍ والنفيُ على الوجهِ الأولِ متوجهٌ إلى أصلِ الفعلِ . وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ ابتغاء رضوان الله ﴾ استثناءٌ منقطعٌ أي ما فرضناهَا نحنُ عليهم رأساً ولكنَّهم ابتدعُوها

ابتغاءَ رضوانِ الله فذمَّهم حينئذٍ بقولِه تعالى : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ من حيثُ أنَّ النذرَ عهدٌ مع الله لا يحلُّ نكثُه لا سيَّما إذَا قُصدَ به رضاهُ تعالَى وعلى الوجهِ الثانِي متوجهٌ إلى قيدِه لا إلى نفسِه . والاستثناءُ متصلٌ من أعمِّ العللِ أي ما كتبنَاها عليهم بأنْ وفقناهُم لابتداعِها لشيءٍ من الأشياءِ إلا ليبتغُوا بها رضوانَ الله ويستحقُّوا بها الثوابَ ومن ضرورةِ ذلكَ أن يحافظُوا عليهَا ويراعُوها حقَّ رعايتِها فما رَعَاها كلُّهم بلْ بعضُهم ﴿ فَئَاتَيْنَا الذين ءَامَنُواْ مِنْهُمْ ﴾ إيماناً صحيحاً وهو الأيمانُ برسول الله صلى الله عليه وسلم بعدَ رعايةِ رهبانيتِهم لا مجردَ رعايتِها فإنَّها بعدَ البعثةِ لغوٌ محضٌ وكفرٌ بَحْتٌ وأنَّى لها استتباعُ الأجرِ ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾ أي ما يخُصُّ بهم من الأجرِ ﴿ وَكَثِيرٌ مّنْهُمْ فاسقون ﴾ خارجونَ عن حدِّ الاتباعِ ، وحملُ الفريقينِ على منْ مضَى من المراعينَ لحقوقِ الرَّهبانيةِ من قبلِ النسخِ والمخلينَ بها إذْ ذاكَ بالتثليثِ والقولِ بالاتحادِ وقصدِ السمعةِ من غيرِ تعرضٍ لإيمانِهم برسولِ الله صلى الله عليه وسلم وكفرِهم به مِمَّا لا يساعدُه المقامُ .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ ﴾

أي بالرسلِ المتقدمةِ ﴿ اتقوا الله ﴾ فيما نهاكُم عنْهُ ﴿ وَءَامَنُواْ بِرَسُولِهِ ﴾ أي بمحمدٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وفي إطلاقهِ إيذانٌ بأَنَّه عَلَمٌ فَردٌ في الرسالةِ لا يذهبُ الوهمُ إلى غيرِه ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ نصيبينِ ﴿ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ لإيمانِكم بالرسولِ وبِمَنْ قبلَهُ من الرسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ لكنْ لا على مَعْنى أنَّ شريعتَهُم باقيةٌ بعد البعثةِ بلْ على أنَّها كانتْ حقَّةً قبلَ النسخِ ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يومَ القيامةِ حسبَما نطقَ به قولُه تعالى : ﴿ يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبِأيمانهم ﴾ ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ما أسلفتُم من الكُفرِ والمَعَاصِي ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي مبالغٌ في المغفرةِ والرحمةِ . وقولُه تعالَى : ﴿ لّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ متعلقٌ بمضمونِ الجملةِ الطلبيةِ المتضمنةِ لمَعْنى الشرطِ إذِ التقديرُ إنْ تتقُوا الله وتُؤمنوا برسولِه يُؤتكم كذَا وكذَا لئلاَّ يعلمَ الذينَ لمْ يُسلموا من أهلِ الكتابِ أي ليعلمُوا ولا مزيدةٌ كما ينبىءُ عنه قراءةُ ليعلَم ولكي يعلمَ ولأن يعلمَ بإدغامِ النونِ في الياءِ وأنْ في قولِه تعالَى : ﴿ أَن لاَ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مّن فَضْلِ الله ﴾ مخففةٌ من الثقيلةِ واسمُها الذي هُو ضميرُ الشأنِ محذوفٌ والجملةُ في حيزِ النصبِ على أنَّها مفعولُ يعلمَ أيْ ليعلمُوا أنَّه لا ينالونَ شيئاً مما ذُكِرَ من فضلِه من الكفلينِ والنورِ والمغفرةِ ولا يتمكنونَ من نيلِه حيثُ لم يأتُوا بشرطِه الذي هُو الإيمانُ برسولِه . وقولُه تعالَى : ﴿ وَأَنَّ الفضل بِيَدِ الله ﴾ عطفٌ على أنْ لا يقدرونَ . وقولُه تعالَى : ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ خبرٌ ثانٍ لأنَّ ، وقيلَ : هُو الخبرُ والجارُّ حالٌ

لازمةٌ. وقولُه تعالى: ﴿ واللهُ ذو الفضل العظيم ﴾ اعتراضٌ تذييليّ مقررٌ لمضمون ما قبلَهُ وقد جُوِّزَ أنْ يكونَ الأمرُ بالتقوى

(28/749)

والإيمانِ لغيرِ أهلِ الكتابِ فالمَعْنى اتقُوا اللهَ واثبتُوا على إيمانكم برسول الله صلى الله عليه وسلم يُؤتكُم ما وعدَ مَنْ آمنَ مِنْ أهلِ الكتابِ من الكفلينِ في قولِه تعالَى: ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ ولا ينقصكُم من مثلِ أجرِهم لأَنَّكُم مثلُهم في الإيمانينِ لا تفرقون بين أحدٍ من رسلِه. ورُوِيَ أنَّ مُؤمني أهلِ الكتابِ افتخرُوا على سائرِ المؤمنينَ بأَنَّهم يُؤتون أجرَهُم مرتين وادَّعوا الفضل عليهم فنزلت. وقرِىءَ لِيَلاَّ بقلبِ الهمزةِ ياءً لانفتاحها بعد كسرةٍ، وقُرِىءَ بسكونِ الياءِ وفتحِ اللامِ كاسمِ المرأةِ، وبكسرِ اللامِ مع سكونِ الياءِ. وقُرِىءَ أنْ لا يقدرُوا. هذا وقد قيل: لاَ غيرُ مزيدةٍ وضميرُ لا يقدرونَ للنبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأَصحابِه والمَعْنى لئلا يعتقدَ أهلُ الكتابِ أنَّه لا يقدرُ النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمؤمنونَ به على شيءٍ من فضلِ اللهِ الذي هو عبارةٌ عمَّا أُوتوه من سعادةِ الدارينِ على أنَّ عدمَ علمِهم بعدمِ قُدرتِهم على ذلك كنايةٌ عن علمِهم بقدرتِهم عليه فيكونُ قولُه تعالَى وأنَّ الفضلَ بيدِ اللهِ إلخ عطفاً على أنْ لا يعلمَ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ ﴾

استظهر أبو حيان كون الخطاب لمن آمن من أمته صلى الله عليه وسلم غير أهل الكتاب والآثار تؤيد ذلك ، أخرج الطبراني في "الأوسط" عن ابن عباس .

وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قالا : إن أربعين من أصحاب النجاشي قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فشهدوا معه أحداً فكانت فيهم جراحات ولم يقتل منهم أحد فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا : يا رسول الله إنا أهل ميسرة فأذن لنا نجيء بأموالنا نواسي بها المسلمين فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ الذى الكتاب مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [القصص : 52 ، 54] فجعل لهم أجرين فلما نزلت هذه الآية قالوا : يا معشر المسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجران ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم فأنزل الله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ الآية أي راداً عليهم قولهم : ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم .

وفي "الكشاف" إن قائل ذلك من لم يكن آمن من أهل الكتاب قالوه حين سمعوا تلك الآية

يفخرون به على المسلمين ، والمعنى يا أيها الذين اتصفوا بالايمان ﴿ اتقوا الله ﴾ أثبتوا على تثواه عز وجل فيما نهاكم عنه .

﴿ وَءامِنُواْ بِرَسُولِهِ ﴾ وأثبتوا على الايمان برسوله الذي أرسله إليكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي التعبير عنه بذلك ما لا يخفى من الدلالة على جلالة قدره عليه الصلاة والسلام ﴿ يُؤْتكُمْ ﴾ بسبب ذلك .

﴿ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ قال أبو موسى الأشعري : ضعفين بلسان الحبشة ، وقال غير واحد : نصيبين ، والمراد إيتاؤهم أجرين كمؤمني أهل الكتاب كأنه قيل : يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الأجرين لأنكم مثلهم في الايمان بالرسل المتقدمين وبخاتمهم صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين لا تفرقون بين أحد من رسله .

(30/749)

وقال الراغب : الكفل الحظ الذي فيه الكفاية كأنه تكفل بأمره ، والكفلان هما المرغوب فيهما بقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ءاتِنَا فِى الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة حَسَنَةً ﴾ [البقرة : 201] .

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يوم القيامة وهو النور المذكور في قوله تعالى : ﴿ يسعى

نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبِأيمانهم ﴾ [الحديد : 12] ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ما سلف منكم ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة فلا بدع إذا فعل سبحانه ما فعل ، وقوله تعالى :

﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب أَلاَّ يَقْدِرُونَ على شَىْءٍ مّن فَضْلِ الله ﴾ قيل : متعلق بمضمون الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى الشرط إذ التقدير إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم كذا وكذا لئلا الخ ، وقيل : متعلق بالأفعال الثلاثة قبله على التنازع ، أو بمقدر كفعل ذلك وأعلمهم ونحوه و ﴿ لا ﴾ مزيدة مثلها في قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف : 12] ويجوز زيادتها مع القرينة كثيراً و ﴿ إن ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها المحذوف ضمير أهل الكتاب أي أنهم ، وقيل : ضمير الشأن وما بعد خبرها والجملة في حيز النصب على أنها مفعول يعلم أي ليعلم أهل الكتاب القائلون من آمن بكتابكم منا فله أجران ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم أنهم لا ينالون شيئاً من فضل الله من الأجرين وغيرهما ولا يتمكنون من نيله ما لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وحاصله الإعلام بأن إيمانهم بنبيهم لا ينفعهم شيئاً ما لم يؤمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام فقولهم : من لم يؤمن بكتابكم فله أجر باطل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : لما نزلت ﴿ أُوْلَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [القصص : 54] فخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : لنا أجران ولكم أجر فاشتد ذلك على أصحابه عليه الصلاة والسلام فأنزل الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الحديد : 28] الخ فجعل لهم سبحانه أجرين مثل ما لمؤمني أهل الكتاب ، وقال الثعلبي : فأنزل الله تعالى : ﴿ مّسْتَقِيمٍ يا أيها الذين ءامَنُواْ اتقوا الله ﴾ الآية فجعل لهم أجرين وزادهم النور ثم قال سبحانه : ﴿ لّئَلاَّ يَعْلَمَ ﴾ الخ ، وحاصله على هذا ليعلموا أنهم ليسوا ملاك فضله عز وجل فيزووه عن المؤمنين ويستبدوا به دونهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الفضل بِيَدِ الله ﴾ عطف على أن لا يقدرون داخل معه في حيز العلم ، وقوله سبحانه : ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ خبر ثان لأن أو هو الخبر وما قبله على ما قيل : حال لازمة أو استئناف ، وقوله عز وجل : ﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله .

وذهب بعض إلى أن الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب اليهود والنصارى أو لمن يؤمن منهم بعد ، فالمعنى يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم أي أثبتوا على الايمان به أو أحدثوا الايمان به عليه الصلاة والسلام يؤتكم نصيبين من رحمته نصيباً على إيمانكم بمن آمنتم به أولاً ونصيباً على إيمانكم بمحمد صلى الله عليه

وسلم آخراً ليعلم الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب أنهم لا ينالون شيئاً مما يناله المؤمنون منهم ولا يتمكنون من نيله حيث لم يأتوا بشرطه الذي هو الايمان برسوله صلى الله عليه وسلم ، وأيد ذلك بما في "صحيح البخاري"

(32/749)

" من كانت له أمة علمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها وأعتقها وتزوجها فله أجران ، وأيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران ، وأيما مملوك أدى حق الله تعالى وحق مواليه فله أجران " ولا إشكال في ذلك بالنسبة إلى النصارى ، ولذا قيل : الخطاب لهم لأن ملتهم غير منسوخة قبل ظهور الملة المحمدية ومعرفتهم بها فيثابون على العمل بها حتى يجب عليهم الايمان بالنبي صلى الله عليه وسلم فإذا آمنوا أثيبوا أيضاً فكان لهم ثوابان ، نعم قد يستشكل بالنسبة إلى غيرهم لأن مللهم منسوخة بملة عيسى عليه السلام والمنسوخ لا ثواب في العمل به ، ويجاب بأنه لا يبعد أن يثابوا على العمل بملتهم السابقة وإن كانت منسوخة ببركة الإسلام .

وأجاب بعضهم أن الإثابة على نفس إيمان ذلك الكتابي بنبيه وإن كان منسوخ الشريعة فإن الإيمان بكل نبي فرض سواء كان منسوخ الشريعة أم لا ، وقيل : إن ﴿ لا ﴾ في ﴿ لِئَلَّا

يَعْلَمَ ﴾ غير مزيدة وضمير لا يقدرون للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أي فعلنا ما فعلنا لئلا يعتقد أهل الكتاب أن الشأن لا يقدر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون به على شيء من فضل الله تعالى الذي هو عبارة عما أوتوه من سعادة الدارين ولا ينالونه ، أو أنهم أي النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنون لا يقدرون الخ ، على أن عدم علمهم بعدم قدرتهم على ذلك كناية عن علمهم بقدرتهم عليه فيكون قوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ الفضل ﴾ الخ معطوفاً على أن لا يعلم داخلاً معه في حيز التعليل دون أن لا يقدر فكأنه قيل : فعلنا لئلا يعتقدوا كذا ولأن الفضل بيد الله فيكون من عطف الغاية على الغاية بناءاً على المشهور ولتكلف هذا القيل مع مخالفته لبعض القراءات لم يذهب إليه معظم المفسرين ، وقرأ خطاب ابن عبد الله لأن لا يعلم بالإظهار ، وعبد الله بن مسعود .

وابن عباس .

وعكرمة .

والجحدري .

وعبد الله بن سلمة على اختلاف ليعلم ، وقرأ الجحدري أيضاً وليعلم على أن أصله لئن يعلم فقلبت الهمزة ياءاً لكسرة ما قبلها وأدغمت النون في الياء بغير غنة ، وروى ابن مجاهد عن الحسن ليلاً مثل ليلى اسم المرأة ﴿ يَعْلَمْ ﴾ بالرفع ، ووجه بأن أصله لأن لا بفتح لام الجر وهي لغة وعليه قوله

: أريد لأنسى ذكرها فكأنما . . .

تمثل لي ليلى بكل سبيل

فحذفت الهمزة اعتباطاً وأدغمت النون في اللام فصار للا فاجتمعت الأمثال وثقل النطق بها فأبدلوا من اللام المدغمة ياءاً نظير ما فعلوا في قيراط ودينار حيث أن الأصل قراط ودنار فأبدلوا أحد المثلين فيهما ياءاً للتخفيف فصار ليلا ورفع الفعل لأن أن هي المخففة من الثقيلة لا الناصبة للمضارع ، وروى قطرب عن الحسن أيضاً ليلاً بكسر اللام ووجهه كالذي قبله إلا أن كسر اللام على اللغة الشهيرة في لام الجر ؛ وعن ابن عباس كي يعلم ، وعنه أيضاً لكيلا يعلم ، وعن عبد الله .

وابن جبير .

وعكرمة لكي يعلم .

وقرأ عبد الله أن لا يقدروا بحذف النون على أن إن هي الناصبة للمضارع ، والله تعالى أعلم .

ومما ذكره المتصوفة قدست أسرارهم في بعض آياتها : ﴿ هُوَ الأول والاخر والظاهر والباطن ﴾ [الحديد : 3] قالوا : هو إشارة إلى وحدانية ذاته سبحانه المحيطة بالكل ، وقالوا في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : 4] إشارة إلى أنهم لا وجود لهم في جميع مراتبهم بدون وجوده عز وجل ، وقوله تعالى : ﴿ يُولِجُ الليل فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى الليل ﴾ [الحديد : 6] إشارة إلى ظهور تجلي الجلال في تجلي الجمال وبالعكس ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : 7] إشارة للمشايخ الكاملين إلى تربية المريدين بإفاضة ما يقوي استعدادهم مما جعلهم الله تعالى متمكنين فيه من الأحوال والملكات .

(34/749)

وقال سبحانه : ﴿ اعلموا أَنَّ الله يُحْيِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الحديد : 17] لئلا يقنط القاسي من رحمته تعالى ويترك الاشتغال بمداواة القلب الميت ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد : 27] أوردها الصوفية في باب الرعاية وقسموها إلى رعاية الأعمال والأحوال والأوقات ويرجع ما قالوه فيها على ما قيل إلى حفظها عن إيقاع خلل فيها ﴿ فاسقون يا أيها الذين ءامَنُواْ اتقوا الله وَءامِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ أي

نصيبين نصيباً من معارف الصفات الفعلية ونصيباً من معارف الصفات الذاتية ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً ﴾ من نور ذاته عز وجل وهو على ما قيل : إشارة إلى البقاء بعد الفناء ، وقيل : هذا النور إشارة إلى نور الكشف والمشاهدة رتب سبحانه جعله للمؤمن على تقواه وإيمانه برسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وقيل : هو نور العلم النافع الذي يتمكن معه من السير في الحضرات الإلهية كما يشير إليه وصفه بقوله عز وجل : ﴿ تَمْشُونَ بِهِ ﴾ [الحديد : 28] ؛ وفي بعض الآثار " من عمل بما علم علمه الله تعالى علم ما لم يعلم " وقال سبحانه : ﴿ اتقوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله ﴾ [البقرة : 282] وكل ذلك في الحقيقة فضل الله تعالى والله عز وجل ذو الفضل العظيم نسأله سبحانه أن لا يحرمنا من فضله العظيم ولطفه العميم وأن يثبتنا على متابعة حبيبه الكريم عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأكمل التسليم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(35/749)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات ﴾

أي : بالمعجزات البينة ، والشرائع الظاهرة ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب ﴾ المراد الجنس ،

فيدخل فيه كتاب كلّ رسول ﴿ والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ قال قتادة ، ومقاتل بن حيان : الميزان : العدل : أمرناهم بالعدل ، كما في قوله : ﴿ والسماء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان ﴾ [الرحمن : 7] وقوله : ﴿ الله الذى أَنزَلَ الكتاب بالحق والميزان ﴾ [الشورى : 17] وقال ابن زيد : هو ما يوزن به ويتعامل به ، ومعنى : ﴿ لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ ؛ ليتبعوا ما أمروا به من العدل ، فيتعاملوا فيما بينهم بالنصفة ، والقسط : العدل ، وهو يدل على أن المراد بالميزان العدل ، ومعنى إنزاله : إنزال أسبابه وموجباته .

وعلى القول بأن المراد به الآلة التي يوزن بها ، فيكون إنزاله بمعنى : إرشاد الناس إليه ، وإلهامهم الوزن به ، ويكون الكلام من باب :

علفتها تبناً وماء بارداً . . . ﴿ وَأَنْزْلنَا الحديد ﴾ أي : خلقناه ، كما في قوله : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مّنَ الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [الزمر : 6] والمعنى : أنه خلقه من المعادن ، وعلم الناس صنعته ، وقيل : إنه نزل مع آدم ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ لأنه تتخذ منه آلات الحرب .

قال الزجاج : يمتنع به ويحارب ، والمعنى : أنه تتخذ منه آلة للدفع ، وآلة للضرب .

قال مجاهد : فيه جنة وسلاح ، ومعنى ﴿ ومنافع لِلنَّاسِ ﴾ : أنهم ينتفعون به في كثير مما يحتاجون إليه مثل السكين ، والفأس ، والإبرة ، وآلات الزراعة ، والنجارة ، والعمارة ﴿ وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب ﴾ معطوف على قوله : ﴿ ليقوم الناس ﴾ أي : لقد

أرسلنا رسلنا ، وفعلنا كيت وكيت ، ليقوم الناس وليعلم ، وقيل : معطوف على علة مقدّرة ، كأنه قيل : ليستعملوه وليعلم الله ، والأوّل أولى .

(36/749)

والمعنى : أن الله أمر في الكتاب الذي أنزل بنصره دينه ورسله ، فمن نصر دينه ورسله علمه ناصراً ، ومن عصى علمه بخلاف ذلك ، و ﴿ بالغيب ﴾ في محلّ نصب على الحال من فاعل ينصره ، أو من مفعوله أي : غائباً عنهم ، أو غائبين عنه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي : قادر على كل شيء غالب لكل شيء ، وليس له حاجة في أن ينصره أحد من عباده وينصر رسله ، بل كلفهم بذلك ؛ لينتفعوا به إذا امتثلوا ، ويحصل لهم ما وعد به عباده المطيعين .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وإبراهيم ﴾ لما ذكر سبحانه إرسال الرسل إجمالاً أشار هنا إلى نوع تفصيل ، فذكر رسالته لنوح وإبراهيم ، وكرّر القسم للتوكيد ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرّيَّتِهِمَا النبوة والكتاب ﴾ أي : جعلنا فيهم النبوّة والكتب المنزلة على الأنبياء منهم ، وقيل : جعل بعضهم أنبياء ، وبعضهم يتلون الكتاب ﴿ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ ﴾ أي : فمن الذرية من اهتدى بهدي نوح وإبراهيم ، وقيل : المعنى فمن المرسل إليهم من قوم الأنبياء مهتد بما جاء به

الأنبياء من الهدى ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ خارجون عن الطاعة.

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا على ءاثارهم بِرُسُلِنَا ﴾ أي: اتبعنا على آثار الذرية، أو على آثار نوح وإبراهيم برسلنا الذين أرسلناهم إلى الأمم كموسى، وإلياس، وداود، وسليمان، وغيرهم ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ أي: أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم، وهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه ﴿ وآتيناه الإنجيل ﴾ وهو الكتاب الذي أنزله الله عليه، وقد تقدّم ذكر اشتقاقه في سورة آل عمران.

(37/749)

قرأ الجمهور ﴿ الإنجيل ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ الحسن بفتحها ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الذين اتبعوه رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ الذين اتبعوه هم الحواريون جعل الله في قلوبهم مودّة لبعضهم البعض، ورحمة يتراحمون بها، بخلاف اليهود، فإنهم ليسوا كذلك، وأصل الرأفة: اللين، والرحمة: الشفقة، وقيل: الرأفة: أشدّ الرحمة ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها ﴾ انتصاب ﴿ رهبانية ﴾ على الاشتغال، أي: وابتدعوا رهبانية ابتدعوها، وليس بمعطوفة على ما قبلها، وقيل: معطوفة على ما قبلها، أي: وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة، ورهبانية مبتدعة من عند أنفسهم.

والأوّل أولى، ورجحه أبو علي الفارسي وغيره، وجملة: ﴿ مَا كتبناها عَلَيْهِمْ ﴾ صفة ثانية لرهبانية، أو مستأنفة مقرّرة؛ لكونها مبتدعة من جهة أنفسهم، والمعنى: ما فرضناها عليهم، والرهبانية بفتح الراء وضمها، وقد قرىء بهما، وهي بالفتح: الخوف من الرهب، وبالضم منسوبة إلى الرهبان، وذلك لأنهم غلوا في العبادة، وحملوا على أنفسهم المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والمنكح، وتعلقوا بالكهوف والصوامع؛ لأن ملوكهم غيروا وبدلوا، وبقي منهم نفر قليل، فترهبوا وتبتلوا، ذكر معناه الضحاك، وقتادة، وغيرهما ﴿ إِلاَّ ابتغاء رضوان الله ﴾ الاستثناء منقطع، أي: ما كتبناها نحن عليهم رأساً، ولكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله.

(38/749)

وقال الزجاج: ما كتبناها عليهم معناه لم نكتب عليهم شيئًا ألبتة، قال: ويكون ﴿ إِلاَّ ابتغاء رضوان الله ﴾ بدلاً من الهاء والألف في كتبناها، والمعنى: ما كتبنا عليهم إلاّ ابتغاء رضوان الله ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أي: لم يرعوا هذه الرهبانية التي ابتدعوها من جهة أنفسهم، بل صنعوها وكفروا بدين عيسى، ودخلوا في دين الملوك الذين غيروا وبدّلوا، وتركوا الترهب، ولم يبق على دين عيسى إلاّ قليل منهم، وهم المرادون بقوله

: ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ الذي يستحقونه بالإيمان ، وذلك لأنهم آمنوا بعيسى ، وثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم لما بعثه الله ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ : خارجون عن الإيمان بما أمروا أن يؤمنوا به ، ووجه الذمّ لهم على تقدير أن الاستثناء منقطع أنهم قد كانوا ألزموا أنفسهم الرهبانية معتقدين أنها طاعة ، وأن الله يرضاها ، فكان تركها وعدم رعايتها حق الرعاية يدل على عدم مبالاتهم بما يعتقدونه ديناً .

وأما على القول بأن الاستثناء متصل ، وأن التقدير : ما كتبناها عليهم لشيء من الأشياء إلاّ ليبتغوا بها رضوان الله بعد أن وفقناهم لابتداعها ، فوجه الذم ظاهر .

(39/749)

ثم أمر سبحانه المؤمنين بالرسل المتقدّمين بالتقوى والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فقال : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ اتقوا الله ﴾ بترك ما نهاكم عنه ﴿ وآمنوا برسوله ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ أي : نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل ، وأصل الكفل : الحظ والنصيب ، وقد تقدّم الكلام على تفسيره في سورة النساء ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يعني : على

الصراط كما قال : ﴿ نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [التحريم : 8] وقيل : المعنى ويجعل لكم سبيلاً واضحاً في الدين تهتدون به ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ما سلف من ذنوبكم ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : بليغ المغفرة والرحمة ﴿ لّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ اللام متعلقة بما تقدّم من الأمر بالإيمان والتقوى ، والتقدير : اتقوا وآمنوا يؤتكم كذا وكذا ؛ ليعلم الذين لم يتقوا ولا آمنوا من أهل الكتاب ﴿ أَن لا يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مّن فَضْلِ الله ﴾ و " لا " في قوله : ﴿ لّئَلاَّ ﴾ زائدة للتوكيد ، قاله الفراء ، والأخفش ، وغيرهما ، و " أن " في قوله : ﴿ أَن لا يَقْدِرُونَ ﴾ هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ، وخبرها ما بعدها ، والجملة في محل نصب على أنها مفعول يعلم ، والمعنى : ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على أن ينالوا شيئًا من فضل الله الذي تفضل به على من آمن بمحمد ، ولا يقدرون على دفع ذلك الفضل الذي تفضل الله به على المستحقين له ، وجملة : ﴿ وَأَنَّ الفضل بِيَدِ الله ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها ، أي : ليعلموا أنهم لا يقدرون ، وليعلموا أن الفضل بيد الله سبحانه ، وقوله : ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ خبر ثان لأنّ ، أو هو الخبر ، والجارّ والمجرور في محل نصب على الحال ﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها ، والمراد بالفضل هنا : ما

تفضل به على الذين اتقوا وآمنوا برسوله من الأجر المضاعف.

وقال الكلبي: هو رزق الله، وقيل: نعم الله التي لا تحصى، وقيل: هو الإسلام، وقد قيل: إن "لا" في ﴿ لئلا ﴾ غير مزيدة، وضمير ﴿ لا يقدرون ﴾ للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

والمعنى: لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبيّ والمؤمنون على شيء من فضل الله الذي هو عبارة عما أوتوه، والأوّل أولى.

وقرأ ابن مسعود: (لكيلا يعلم) وقرأ خطاب بن عبد الله: (لأن يعلم) وقرأ عكرمة: (ليعلم) وقرىء: (ليلا) بقلب الهمزة ياء، وقرىء بفتح اللام.

وقد أخرج عبد بن حميد، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب من طرق [عن] ابن مسعود قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا عبد الله"

، قلت : لبيك يا رسول الله ثلاث مرات ، قال : " هل تدري أيّ عرى الإسلام أوثق ؟ "

قلت : الله ، ورسوله أعلم ، قال : " أفضل الناس أفضلهم عملاً إذ فقهوا في دينهم ؛ يا عبد الله هل تدري أيّ الناس أعلم ؟ " قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس ، وإن كان مقصراً بالعمل ، وإن كان يزحف على استه ، واختلف من كان قبلنا على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرها : فرقة وازرت الملوك وقاتلتهم على دين الله وعيسى ابن مريم ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك ، فأقاموا بين ظهراني قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى ، فقتلهم الملوك ونشرتهم بالمناشير ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك ولا بالمقام معهم ، فساحوا في الجبال وترهبوا فيها ، وهم الذين قال الله : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كتبناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابتغاء رضوان الله فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الذين ءامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ هم الذين آمنوا بي وصدقوني ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ الذين جحدوني وكفروا بي " .

(42/749)

وأخرج النسائي ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : كانت ملوك بعد عيسى بدلت التوراة والإنجيل ، فكان منهم

مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل ، فقيل لملوكهم : ما نجد شيئًا أشدّ من شتم يشتمناه هؤلاء ، إنهم يقرءون ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكافرون ﴾ [المائدة : 44] ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ [المائدة : 45] ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفاسقون ﴾ [المائدة : 47] مع ما يعيبوننا به من أعمالنا في قراءتهم ، فادعوهم فليقرؤوا كما نقرأ ، وليؤمنوا كما آمنا ، فدعاهم فجمعهم ، وعرض عليهم القتل ، أو ليتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلاّ ما بدلوا منهما ، فقالوا : ما تريدون إلى ذلك ؟ دعونا ، فقالت طائفة منهم : ابنوا لنا أسطوانة ، ثم ارفعونا إليها ، ثم أعطونا شيئًا نرفع به طعامنا وشرابنا ، ولا نرد عليكم ، وقالت طائفة : دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونأكل مما تأكل منه الوحوش ، ونشرب مما تشرب ، فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا ، وقالت طائفة : ابنوا لنا دوراً في الفيافي ، ونحتفر الآبار ، ونحرث البقول ، فلا نرد عليكم ولا نمرّ بكم ، وليس أحد من القبائل إلاّ له حميم فيهم ، ففعلوا ذلك ، فأنزل الله ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كتبناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابتغاء رضوان الله فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ وقال الآخرون ممن تعبد من أهل الشرك ، وفني من فني منهم قالوا : نتعبد كما تعبد فلان ، ونسيح كما ساح فلان ، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان ، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم ، فلما بعث النبي ، ولم يبق منهم إلاّ القليل انحط صاحب الصومعة من صومعته ، وجاء السياح من سياحته ،

وصاحب الدير من ديره ، فآمنوا به وصدّقوه ، فقال الله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ اتقوا الله وَءامِنُواْ

(43/749)

بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ أجرين : بإيمانهم بعيسى وتصديقهم والتوراة والإنجيل ، وبإيمانهم بمحمد وتصديقهم به ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ القرآن واتباعهم النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أحمد ، والحكيم الترمذي ، وأبو يعلى ، والبيهقي في الشعب عن أنس أن النبيّ قال : " إن لكل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله " وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعريّ في قوله : ﴿ كِفْلَيْنِ ﴾ قال : ضعفين وهي بلسان الحبشة .

وأخرج الفريابي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عمر في قوله : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ قال : الكفل ثلثمائة جزء وخمسون جزءاً من رحمة الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 177 . 180 ﴾

(44/749)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾

الغالب في القرآن أن الذين آمنوا لقب للمؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم ولكن لما وقع ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ هنا عقب قوله : ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ [الحديد : 27] ، أي من الذين اتبعوا عيسى عليه السلام ، احتمل قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أن يكون مستعملاً استعماله اللَّقبي أعني : كونه كالعلَم بالغلبة على مؤمني ملّة الإسلام .

واحتمل أن يكون قد استُعمل استعماله اللُّغوي الأعَمَّ ، أعني : من حصل منه إيمان ، وهو هنا من آمن بعيسى .

والأظهر أن هذين الاحتمالين مقصودَانِ ليأخذ خُلص النصارى من هذا الكلام حظهم وهو دعوتهم إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ليستكملوا ما سبق من اتباعهم عيسى فيكون الخطاب موجهاً إلى الموجودين ممن آمنوا بعيسى ، أي يا أيها الذين آمنوا إيماناً خالصاً بشريعة عيسى اتقوا الله واخشَوْا عقابه واتركوا العصبية والحسد وسوء النظر وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم

وأما احتمال أن يراد بالذين آمنوا الإطلاق اللقبي فيأخذَ منه المؤمنون من أهل الملة الإِسلامية بشارةً بأنهم لا يقلّ أجرهم عن أجر مؤمني أهل الكتاب لأنهم لما آمنوا بالرسل

السابقين أعطاهم الله أجر مؤمني أهل مِللهم ، ويكون قوله : ﴿ وآمنوا ﴾ مستعملاً في الدوام على الإِيمان كقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ في سورة [النساء : 136] ، ويكون إقحام الأمر بالتقوى في هذا الاحتمالِ قصداً لأن يحصل في الكلام أمر بشيء يتجدد ثم يُردفَ عليه أمر يفهم منه أن المراد به طلب الدوام وهذا من بديع نظم القرآن .

ومعنى إيتاء المؤمنين من أهل ملة الإسلام كفلين من الأجر : أن لهم مثل أجرَي من آمن من أهل الكتاب .

(45/749)

ويشرح هذا حديث أبي موسى الأشعري عن النبي في صحيح البخاري ﴾ الذي فيه " مثل المسلمين واليهود والنصار كمثَل رجل استأجر أَجراء يعملون له ، فعملت اليهود إلى نصف النهار ، وعملت النصارى من الظهر إلى العصر على قيراط ، ثم عمل المسلمون من العصر إلى الغروب على قيراطين ، قال فيه : واستكمَلُوا أجر الفريقين كليهما " أي استكملوا مثل أجر الفريقين ، أي أخذوا ضعف كل فريق .

وتقوى الله تتعلق بالأعمال وبالاعتقاد ، وبعلم الشريعة (وقد استدل أصحابنا على

وجوب الاجتهاد للمتأهل إليه بقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن : 16].

وقوله : ﴿ اتقوا الله ﴾ أمر لهم بما هو وسيلة ومقدمة للمقصود وهو الأمر بقوله : ﴿ وآمنوا برسوله ﴾ .

ورتب على هذا الأمر ما هو جواب شرط محذوف وهو جملة ﴿ يؤتكم كفلين ﴾ الخ المجزوم في جواب الأمر ، أي يؤتكم جزاءً في الآخرة وجزاء في الدنيا فجزاء الآخرة قوله : ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ وقوله : ﴿ ويغفر لكم ﴾ ، وجزاء الدنيا قوله : ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ .

والكِفل : بكسر الكاف وسكون الفاء : النصيب .

وأصله : الأجر المضاعف ، وهو معرب من الحبشية كما قاله أبو موسى الأشعري ، أي يؤتكم أجرين عظيمين ، وكل أجر منهما هو ضِعف الآخر مماثل له فلذلك ثُني كفلين كما يقال : زوج ، لأحد المتقارين ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ [الأحزاب : 68] وقوله : ﴿ يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ [الأحزاب : 30] .

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاثة يوتَوْن أجورهم مرتيْن : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيئه وآمن بي ، واتبعني ، وصدقني فله أجران " الحديث .

ويتعلق ﴿ من رحمته ﴾ بـ ﴿ يؤتكم ﴾ ، و (من) ابتدائية مجازياً ، أي ذلك من رحمة الله بكم ، وهذا في جانب النصارى معناه لإِيمانهم بمحمد وإيمانهم بعيسى ، أي من فضل الله وإكرامه وإلا فإن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم واجب عليهم كإيمانهم بعيسى وهو متمم للإِيمان بعيسى وإنما ضوعف أجرهم لما في النفوس من التعلق بما تدين به فيعسر عليها تركه ، وأما في جانب المسلمين فهو إكرام لهم لئلا يفوقهم بعض من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من النصارى .

ويجوز أن يكون ﴿ من رحمته ﴾ صفةً لـ ﴿ كفلين ﴾ وتكون (من) بيانية ، والكلام على حذف مضاف ، تقديره : من أثر رحمته ، وهو ثواب الجنة ونعيمها .

وقوله : ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ تمثيل لحالة القوم الطالبين التحصيل على رضى الله تعالى والفوز بالنعيم الخائفين من الوقوع في ضد ذلك بحالة قوم يمشون في طريق بليل يخشون الخطأ فيه فيعطون نوراً يتبصرون بالثنايا فيأمنون الضلال فيه .

والمعنى : ويجعل لكم حالة كحالة نور تمشون به ، والباء للاستعانة مثل : كتبت بالقلم .

والمعنى : ويُيسّر لكم دلالة تهتدون بها إلى الحق .

وجميع أجزاء هذا التمثيل صالحة لتكون استعارات مفردة ، وهذا أبلغ أحوال التمثيل ، وقد عرف في القرآن تشبيه الهدى بالنور ، والضلال بالظلمة ، والبرهان بالطريق ، وإعمال النظر بالمشي ، وشاع ذلك بعد القرآن في كلام أدباء العربية .

والمغفرة : جزاء على امتثالهم ما أمروا به ، أي يغفر لكم ما فرط منكم من الكفر والضلال .

لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

(47/749)

اسم ﴿ أهل الكتاب ﴾ لقب في القرآن لليهود والنصارى الذين لم يتديّنوا بالإسلام لأن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل إذا أضيف إليه (أهل) ، فلا يطلق على المسلمين : أهل الكتاب ، وإن كان لهم كتاب ، فمن صار مسلماً من اليهود والنصارى لا يوصف بأنه من أهل الكتاب في اصطلاح القرآن ، ولذلك لما وصف عبد الله بن سلام في القرآن وصف بقوله : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ [الرعد : 43] وقوله : ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ [الأحقاف : 10] ، فلما كان المتحدث عنهم آنفاً صاروا مؤمنين

بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد انسلخ عنهم وصف أهل الكتاب ، فبقي الوصف بذلك خاصاً باليهود والنصارى ، فلما دعا الله الذين اتبعوا المسيح إلى الإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ووعدهم بمضاعفة ثواب ذلك الإيمان ، أعلمهم أن إيمانهم يُبطل ما ينتحلُه أتباع المسيحية بعد ذلك من الفضل والشرف لأنفسهم بدوامهم على متابعة عيسى عليه السلام فيغالطوا الناس بأنهم إن فاتهم فضل الإسلام لم يفتهم شيء من الفضل باتباع عيسى مع كونهم لم يغيروا دينهم .

وقد أفاد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله ﴾ .

قال الفخر : قال الواحدي : هذه آية مشكلة وليس للمفسرين كلام واضح في اتصالها بما قبلها انتهى . اهـ أي هل هي متصلة بقوله : ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ [الحديد : 28] الآية ، أو متصلة ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ إلى قوله : ﴿ والله ذو الفضل غفور رحيم ﴾ [الحديد : 27 ، 28] .

يريد الواحدي أن اتصال الآية بما قبلها ينبني عليه معنى قوله تعالى : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله ﴾ .

فاللام في قوله : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ يحتمل أن تكون تعليلية فيكون ما بعدها معلولاً بما قبلها ، وعليه فحرف (لا) يجوز أن يكون زائداً للتأكيد والتقوية .

والمعلَّل هو ما يرجع إلى فضل الله لا محالة وذلك ما تضمنه قوله : ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم ﴾ أو قوله : ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم إلى غفور رحيم ﴾ [الحديد : 27 ، 28] .

وذهب جمهور المفسرين إلى جعل (لا) زائدة .

وأن المعنى على الإِثبات ، أي لأن يعلم ، وهو قول ابن عباس وقرأ ﴿ ليعلم ﴾ ، وقرأ أيضاً ﴿ لكي يعلم ﴾ (وقراءته تفسير) .

وهذا قول الفرّاء والأخفش ، ودرج عليه الزمخشري في "الكشاف" وابن عطية وابن هشام في "مغني اللبيب" ، وهو بناء على أن (لا) قد تقع زائدة وهو ما أثبته الأخفش ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعني ﴾ [طه : 92 ، 93] وقوله : ﴿ ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك ﴾ [الأعراف : 12] وقوله : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ [الواقعة : 75] ونحو ذلك وقوله : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ [الأنبياء : 95] على أحد تأويلات ، وروي أن العرب جعلتها حشواً في قول الشاعر أنشده أبو عمرو بن العلاء :

أَبَى جُودُه لا البخلَ واستعجلت به

"نعم" من فتى لا يمنع الجود قائلُه

في رواية بنصب (البخل) ، البخل وأن العرب فسروا البيتَ بمعنى أَبَى جودُه البخلَ .

والمعنى : على هذا الوجه أن المعلَّل هو تبليغ هذا الخبر إلى أهل الكتاب ليعلموا أن فضل الله أُعطيَ غيرَهم فلا يتبجحوا بأنهم على فضل لا ينقص عن فضل غيرهم إذا كان لغيرهم فضل وهو الموافق لتفسير مجاهد وقتادة .

وعندي : أنه لا يعطي معنى لأن إخبار القرآن بأن للمسلمين أجرين لا يصدِّق به أهل الكتاب فلا يستقر به علمهم بأنهم لا فضل لهم فكيف يعلل إخبار الله به بأنه يُزيل علم أهل الكتاب بفضل أنفسهم فيعلمون أنهم لا فضل لهم .

(49/749)

وذهب أبو مسلم الأصفهاني وتبعه جماعة إلى أن (لا) نافية ، وقرره الفخر بأن ضمير ﴿ يقدرون ﴾ عائد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا به (أي على طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة وأصله أن لا تقدروا) وإذا انتفى علم أهل الكتاب بأن الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين لا يقدرون على شيء من فضل الله ثبت ضد

ذلك في علمهم أي كيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين يقدرون على فضل الله ، ويكون ﴿ يقدرون ﴾ مستعاراً لمعنى : ينالون ، وأن الفضل بيد الله ، فهو الذي فضلهم ، ويكون ذلك كناية عن انتفاء الفضل عن أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم

ويرد على هذا التفسير ما ورد على الذي قبله لأن علم أهل الكتاب لا يحصل بإخبار القرآن لأنهم يكذبون به .

وأنا أرى أن دعوى زيادة (لا) لا داعي إليها ، وأن بقاءها على أصل معناها وهو النفي متعيّن ، وتجعل اللام للعاقبة ، أي أعطيناكم هذا الفضل وحرم منه أهل الكتاب ، فبقي أهل الكتاب في جهلهم وغرورهم بأن لهم الفضل المستمر ولا يحصل لهم علم بانتفاء أن يكونوا يملكون فضل الله ولا أن الله قد أعطى الفضل قوماً آخرين وحَرمَهَم إيّاه فينسون أن الفضل بيد الله ، وليس أحد يستحقه بالذات .

وبهذا الغرور استمروا على التمسك بدينهم القديم ، ومعلوم أن لام العاقبة أصلها التعليل المجازي كما علمته في تفسير قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ في سورة [القصص : 8] .

وقوله : ﴿ أهل الكتاب ﴾ يجوز أن يكون صادقاً على اليهود خاصة إن جعل التعليل تعليلاً لمجموع قوله : ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ [الحديد : 27] وقوله : ﴿

يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ [الحديد : 28].

ويجوز أن يكون صادقاً على اليهود والنصارى إن جعل لام التعليل علة لقوله : ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ .

و(أن) من قوله : ﴿ أن لا يقدرون ﴾ مخفّفة من (أنّ) واسمها ضمير شأن محذوف.

والمعنى : لا تكترثوا بعدم علم أهل الكتاب بأنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله وبأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، أي لا تكترثوا بجهلهم المركب في استمرارهم على الاغترار بأن لهم منزلة عند الله تعالى فإن الله عالم بذلك وهو خلقهم فهم لا يقلعون عنه ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ في سورة [البقرة : 7].

وجملة والله ذو الفضل العظيم ﴾ تذييل يعمّ الفضلَ الذي آتاه الله أهل الكتاب المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وغيرَه من الفضل. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

فائدة

قال ابن القيم :

قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾

وفي قوله تمشون به إعلام بأن تصرفهم وتقلبهم الذي ينفعهم إنما هو النور وأن مشيهم بغير النور غير مجد عليهم ولا نافع لهم بل ضرره أكثر من نفعه وفيه أن أهل النور هم أهل المشي في الناس ومن سواهم أهل الزمانة والانقطاع فلا مشي لقلوبهم ولا لأحوالهم ولا لأقوالهم ولا لأقدامهم إلى الطاعات وكذلك لا تمشي على الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم وفي قوله تمشون به نكتة بديعة وهي أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم كما يمشون بها بين الناس في الدنيا ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدما عن قدم على الصراط فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ اجتماع الجيوش الإسلامية ص 10 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم ﴾ يقول : في الدنيا ولا في الدين ﴿ إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ قال : نخلقها ﴿ لكي لا تأسوا على ما فاتكم ﴾ من الدنيا ﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم منها ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ ما أصاب من مصيبة ﴾ الآية قال : هو شيء قد فرغ منه من قبل أن تبرأ الأنفس .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن أبي حسان أن رجلين دخلا على عائشة فقالا : إن أبا هريرة يحدث أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إنما الطيرة في الدابة والمرأة والدار ، فقالت : والذي أنزل القرآن على أبي القاسم ما هكذا كان يقول : ولكن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كان أهل الجاهلية يقولون : إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار ، ثم قرأت ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ " .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن أنه سئل عنه هذه الآية فقال : سبحان الله من

يشك في هذا كل مصيبة في السماء والأرض ففي كتاب من قبل أن تبرأ النسمة .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عباس في قوله : ﴿ لكي لا تأسوا على ما فاتكم ﴾ الآية قال : ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكن إن أصابته مصيبة جعلها صبراً وإن أصابه خير جعله شكراً .

(53/749)

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ يريد مصائب المعاش ولا يريد مصائب الدين أنه قال : ﴿ لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ وليس عن مصائب الدين أمرهم أن يأسوا على السيئة ويفرحوا بالحسنة .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن في الآية قال : إنه ليقضي بالسيئة في السماء وهو كل يوم في شأن ، ثم يضرب لها أجل فيحسبها إلى أجلها فإذا جاء أجلها أرسلها فليس لها مردود أنه كائن في يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا في بلد كذا من المصيبة من القحط والرزق والمصيبة في الخاصة والعامة حتى إن الرجل يأخذ العصا يتوكأ بها ، وقد كان لها كارهاً ،

ثم يعتادها حتى ما يستطيع تركها .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن أبي صالح قال : دخلت على سعيد بن جبير في نفر ، فبكى رجل من القوم ، فقال : ما يبكيك ؟ فقال : أبكي لما أرى بك ولما يذهب بك إليه ، قال : فلا تبك فإنه كان في علم الله أن يكون ألا تسمع إلى قوله : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب ﴾ قال : الأوجاع والأمراض ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ قال : من قبل أن نخلقها .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه في الآية قال : أنزل الله المصيبة ثم حبسها عنده ثم يخلق صاحبها فإذا عمل خطيئتها أرسلها عليه .

وأخرج الديلمي عن سليم بن جابر النجيمي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سيفتح على أمتي باب من القدر في آخر الزمان لا يسده شيء يكفيكم منه أن تقوهم بهذه الآية ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب ﴾ الآية " .

وأخرج عبد بن حميد وعبد بن أحمد في زوائد الزهد عن قزعة قال : رأيت على ابن عمر ثياباً خشنة ، فقلت : يا أبا عبد الرحمن إني قد أتيتك بثوب لين مما يصنع بخراسان وتقر عيني أن أراه عليك ، فإن عليك ثياباً خشنة ، قال : إني أخاف أن ألبسه فأكون مختالاً فخوراً ﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ

أخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ﴾ قال : العدل .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴾ قال : جنة وسلاح .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾ الآية قال : إن أول ما أنزل الله من الحديد الكلبتين والذي يضرب عليه الحديد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه سئل عن الأيام فقال : السبت عدد ، والأحد عدد ، والاثنين يوم تعرض فيه الأعمال ، والثلاثاء يوم الدم ، والأربعاء يوم الحديد ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ والخميس يوم تعرض فيه الأعمال ، والجمعة يوم بدأ الله الخلق وفيه تقوم الساعة .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه ﴾ الآية .

أخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر من طرق " عن ابن مسعود قال : " قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله : قلت : لبيك يا رسول الله ثلاث مرات ، قال : هل تدري أي عرا الإيمان أوثق ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : أوثق عرا الإيمان الولاية في الله بالحب فيه والبغض فيه ، قال : هل تدري أي الناس أفضل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : أفضل الناس عملاً إذا تفقهوا في الدين ، يا عبد الله هل تدري أي الناس أعلم ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس ، وإن كان مقصراً بالعمل ، وإن كان يزحف على استه ، واختلف من كان قبلنا على اثنتين وسبعين فِرْقَةً نجا منها ثلاث وهلك سائرها فُرْقَةً ، وزت الملوك وقاتلتهم على دين الله وعيسى ابن مريم حتى قتلوا ، وفرقة لم يكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بالمقام معهم ، فساحوا في الجبال ، وترهبوا فيها وهم الذين قال الله : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا

الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ الذين آمنوا بي وصدقوني ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ الذين كفروا بي وجحدوني " " .

(56/749)

وأخرج النسائي والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : كانت ملوك بعد عيسى بدلت التوراة والإنجيل ، فكان منهم مؤمنون يقرأون التوراة والإنجيل فقيل لملوكهم : ما نجد شيئاً أشد من شتم يشتمنا هؤلاء انهم يقرؤون ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [المائدة : 44] ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ [المائدة : 45] ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ [المائدة : 47] مع ما يعيبوننا به من أعمالنا في قراءتهم فادعهم فليقرؤوا كما نقرأ وليؤمنوا كما آمنا فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منها ، فقالوا : ما تريدون إلى ذلك ؟ دعونا ، فقالت طائفة منهم : ابنوا لنا اسطوانة ثم ارفعونا إليها ، ثم أعطونا شيئاً ترفع به طعامنا وشرابنا ، ولا ترد عليكم ، وقالت طائفة : دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونأكل مما تأكل منه الوحوش ونشرب مما تشرب فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا وقالت طائفة : ابنوا لنا دوراً في الفيافي

ونحتفر الآبار ونحرث البقول ، فلا نَرِد عليكم ولا نمر بكم ، وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم ، ففعلوا ذلك فأنزل الله ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾ قال : والآخرون ممن تعبد من أهل الشرك وفني من قد فني منهم قالوا : نتعبد كما تعبد فلان ، ونسيح كما ساح فلان ونتخذ ديوراً كما اتخذ فلان ، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يبق منهم إلا القليل انحط صاحب الصومعة من صومعته ، وجاء السائح من سياحته وصاحب الدير من ديره ، فآمنوا به وصدقوه ، فقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ أجرين بإيمانهم بعيسى ونصب أنفسهم والتوراة

(57/749)

والإنجيل ، وبإيمانهم بمحمد وتصديقهم ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ القرآن واتباعهم النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أبو يعلى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم فتلك بقاياهم في

الصوامع والديارات ﴿ رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ " .

وأخرج البيهقي في الشعب عن سهل بن أبي أمامة بن سهل بن جبير عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تشددوا على أنفسكم فإنما هلك من كان قبلكم بتشديدهم على أنفسهم وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات " .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه وابن نصر عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : إن الله كتب عليكم صيام شهر رمضان ولم يكتب عليكم قيامه ، وإنما القيام شيء ابتدعتموه فدوموا عليه ولا تتركوه ، فإن ناساً من بني إسرائيل ابتدعوا بدعة فعابهم الله بتركها وتلا هذه الآية ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ .

وأخرج أحمد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وأبو يعلى والبيهقي في الشعب عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ قال : ذكر لنا أنهم رفضوا النساء واتخذوا الصوامع " .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ

أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس أن أربعين من أصحاب النجاشي قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فشهدوا معه أحداً فكانت فيهم جراحات ولم يقتل منهم أحد ، فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا يا رسول الله : إنا أهل ميسرة فائذن لنا نجيء بأموالنا نواسي بها المسلمين فأنزل الله فيهم ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ﴾ إلى قوله : ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ فجعل لهم أجرين ، قال : ﴿ ويدرءون بالحسنة السيئة ﴾ قال : أي النفقة التي واسوا بها المسلمين فلما نزلت هذه الآية قالوا : يا معاشر المسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجران ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم ﴾ فزادهم النور والمغفرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : لما نزلت ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ فخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : لنا أجران ولكم أجر ، فاشتد ذلك على الصحابة فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ فجعل لهم أجرين مثل أجور مؤمني أهل الكتاب وسوى بينهم في الأجر .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ قال: أجرين ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ قال: القرآن.

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ قال: ضعفين ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ قال: هدى.

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك في قوله: ﴿ كفلين ﴾ قال: أجرين.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ كفلين ﴾ قال: حظين.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿ كفلين ﴾ قال: ضعفين.

(59/749)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي موسى في قوله: ﴿ كفلين ﴾ قال: ضعفين، وهي بلسان الحبشة.

وأخرج الفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عمر في قوله: ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ قال: الكفل ثلاثمائة جزء وخمسون جزءاً من رحمة الله.

وأخرج عبد بن حميد عن أبي قلابة في قوله: ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ قال: الكفل ثلاثمائة جزء من الرحمة.

وأخرج ابن الضريس عن سعيد بن جبير ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ قال : القرآن .

وأخرج عبد بن حميد عن يزيد بن حازم قال : سمعت عكرمة وعبد الله بن أبي سلمة رضي الله عنهما قرأ أحدهما ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ وقرأ الآخر " ليعلم أهل الكتاب " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله قسم العمل وقسم الأجر ، وفي لفظ : وقسم الأجل ، فقيل لليهود : اعملوا فعملوا إلى نصف النهار ، فقيل : لكم قيراط ، وقيل للنصارى : اعملوا فعملوا من نصف النهار إلى العصر ، فقيل : لكم قيراط ، وقيل للمسلمين : اعملوا فعملوا من العصر إلى غروب الشمس فقيل : لكم قيراطان ، فتكلمت اليهود والنصارى في ذلك ، فقالت اليهود : أنعمل إلى نصف النهار فيكون لنا قيراط ؟ وقالت النصارى : أنعمل من نصف النهار إلى العصر فيكون لنا قيراط ؟ ويعمل هؤلاء من العصر إلى غروب الشمس فيكون لهم قيراطان ؟ فأنزل الله ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله ﴾ إلى آخر الآية ثم قال : إن مثلكم فيما قبلكم من الأمم كما بين العصر إلى غروب الشمس " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ الآية حسدهم أهل الكتاب عليها فأنزل الله ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه قال : قالت اليهود : يوشك أن يخرج منا نبي فيقطع الأيدي والأرجل ، فلما خرج من العرب كفروا فأنزل الله ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ الآية يعني بالفضل النبوة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه قرأ "كي لا يعلم أهل الكتاب ، " والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 62.68 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ﴾ يعني : ألم يجيء وقت تخاف قلوبهم ، فترق قلوبهم .

يقال : إناءً يأني إناءً إذا حان وجاء وقته وأوانه .

قال الفقيه : حدّثنا الخليل بن أحمد .

ثنا : أبو جعفر محمد بن إبراهيم الديبلي .

قال : حدّثنا أبو عبيد الله .

قال : ثنا سفيان ، عن عبد الرحمن بن عبد الله ، عن القاسم قال : ملّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملة ، فقالوا : حدّثنا يا رسول الله ، فأنزل الله تعالى : ﴿ الذى نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كتابا متشابها ﴾ ثم ملوا ملّة أخرى فقالوا : حدّثنا يا رسول الله .

فأنزل الله تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ﴾ ويقال : إن المسلمين قالوا لسلمان الفارسي : حدّثنا عن التوراة ، فإن فيها عجائب .

فنزل ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ فكفوا عن السؤال ، ثم سألوه عن ذلك ، فنزلت هذه الآية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ﴾ يعني : ترق قلوبهم لذكر الله ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق ﴾ يعني : القرآن بذكر الحلال والحرام .

قرأ نافع ، وعاصم ، في رواية حفص ﴿ وَمَا نَزَلَ ﴾ بالتخفيف .

والباقون : بالتشديد على معنى التكثير ، والمبالغة .

ثم وعظهم فقال : ﴿ وَلاَ يَكُونُواْ كالذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلُ ﴾ يعني : ولا تكونوا في القسوة كاليهود ، والنصارى ، من قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الامد ﴾ يعني : الأجل .

ويقال: خروج النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ يعني: جفّت، ويبست قلوبهم عن الإيمان، فلم يؤمنوا بالقرآن إلا قليل منهم ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ يعني: عاصون.

(62/749)

ويقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ يعني: المنافقين الذين آمنوا بلسانهم دون قلوبهم.

وقال أبو الدرداء: استعيذوا بالله من خشوع النفاق.

قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً، والقلب ليس بخاشع.

قوله تعالى: ﴿ اعلموا أَنَّ الله يُحْىِ الأرض ﴾ يعني: يصلح الأرض، فاعتبروا بذلك ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يعني: بعد يبسها، وقحطها، فكذلك يحيي القلوب بالقرآن، ويصلح بعد قساوتها حتى تلين، كما أحيا الأرض كذلك بعد موتها بالمطر.

﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيات ﴾ يعني: العلامات في القرآن ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يعني: لكي تعقلوا أمر البعث كذلك إنكم أيضاً تبعثون.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ المصدقين والمصدقات ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم، في رواية أبي بكر ﴿ إِنَّ المصدقين والمصدقات ﴾ كليهما بالتخفيف، والباقون: بالتشديد.

فمن قرأ بالتخفيف ، فمعناه : إن المؤمنين من الرجال ، والمؤمنات من النساء ، فمن صدق الله ورسوله ورضي بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم .

ومن قرأ : بالتشديد .

يعني : المتصدقين من الرجال ، والمتصدقات من النساء ، فأدغمت التاء في الصاد ، وشددت .

﴿ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ يعني : يتصدقون ، محتسبين بطبيعة أنفسهم ، صادقين من قلوبهم ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ الحسنات ، والثواب بكل واحد عشرة إلى سبعمائة ، إلى ما لا يحصى ، ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني : ثواباً حسناً في الجنة .

ثم قال عز وجل : ﴿ والذين ءامَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ ﴾ يعني : صدّقوا بتوحيد الله ، وصدقوا بجميع الرسل ، ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصديقون ﴾ والصدِّيق : اسم المبالغة في الفعل .

يقال : رجل صدِّيق ، كثير الصدق .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : فمن آمن بالله ورسله فهو من الصدِّيقين .

ثم قال : ﴿ والشهداء عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ قال مقاتل : هذا استئناف فقال : ﴿ الشهداء ﴾ يعني : من استشهد عند ربهم .

يعني : يطلب شهادة على الأمم ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ يعني : ثوابهم ﴿ وَنُورُهُمْ ﴾ ويقال : هذا بناء على الأول .

يعني : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصديقون والشهداء عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة .

ويقال : معناه ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصديقون ﴾ ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الشهداء ﴾ عند ربهم ، ويكون لهم أجرهم ، ونورهم .

قال مجاهد : كل مؤمن صديق ، شهيد .

ثم وصف حال الكفار فقال عز وجل : ﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : بوحدانية الله تعالى ﴿ وَكَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ يعني : جحدوا بالقرآن ﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ .

ثم قال عز وجل : ﴿ اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ يعني : باطلاً ، ولهواً .

يعني : فرحاً يلهون فيها ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ يعني : زينة الدنيا ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ عن الحسب ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِى الاموال والاولاد ﴾ تفتخرون بذلك .

وروى إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَا لِي وَلِلدُّنْيَا ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رَاكِبٍ قَامَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا " .

ثم ضرب للدنيا مثلاً آخر فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ يعني : كمثل مطر نزل من السماء

فينبت به الزرع، والنبات، ﴿ أَعْجَبَ الكفار نَبَاتُهُ ﴾ يعني: فرح الزارع بنباته، ويقال: ﴿ أَعْجَبَ الكفار ﴾ يعني: الكفار بالله، لأنهم أشد إعْجاباً بزينة الدنيا من المؤمنين.

ويقال: ﴿ الكفار ﴾ كناية عن الزراع، لأن الكَفْر في اللغة هو التغطية، ولهذا سمي الكافر كافراً لأنه يغطي الحق بالباطل.

فسمي الزراع كفاراً لأنهم يغطون الحب تحت الأرض، وليس ذلك الكفر الذي هو ضد الإيمان، والطريقة الأولى أحسن إن أراد به الكفار، لأن ميلهم إلى الدنيا أشد ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ يعني: ييبس فيتغير ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ﴾ بعد خضرته ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ﴾ يعني: يابساً.

(64/749)

ويقال: ﴿ حطاما ﴾ يعني: هالكاً، فشبّه الدنيا بذلك، لأنه لا يبقى ما فيها، كما لا يبقى هذا النبت ﴿ فِى الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٍ ﴾ لمن افتخر بالدنيا، واختارها ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مّنَ الله ورضوان ﴾ لمن ترك الدنيا، واختار الآخرة على الدنيا.

ويقال: عذاب شديد لأعدائه، ومغفرة من الله لأوليائه.

ثم قال: ﴿ وَما الحياة الدنيا إِلاَّ متاع الغرور ﴾ يعني: كمتاع الغرور، يعني: كالمتاع الذي

يتخذ من الزجاج، والخزف، يسرع إلى الفناء ولا يبقى .

ثم قال عز وجل : ﴿ سَابِقُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني : سارعوا بالأعمال الصالحة .

ويقال : بادروا بالتوبة .

وقال مكحول : سابقوا إلى تكبيرة الافتتاح ﴿ وَجَنَّةٍ ﴾ يعني : إلى جنة ﴿ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السماء والأرض ﴾ يعني : لو ألصقت بعضها على بعض .

يعني : سبع سموات، وسبع أرضين، ومدت مد الأديم، لكان عرض الجنة أوسع من ذلك؛ وإنما بين عرضها ، ولم يبين طولها .

ويقال : لو جعلت السموات والأرض لكانت الجنة بعد ذلك .

هذا مثل يعني : إنها أوسع شيء رأيتموه ﴿ سَابِقُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني : خلقت، وهيئت للذين صدقوا بوحدانية الله تعالى، وصدقوا برسله، ﴿ ذلك فَضْلُ الله ﴾ يعني : ذلك الثواب فضل الله على العباد ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ يعني : يعطيه من يشاء من عباده ، وهم المؤمنون، ﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ يعني : ذو العطاء العظيم، وذو المَنّ الجسيم .

قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأرض وَلاَ فِى أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني : من قحط المطر ، وغلاء السعر، وقلة النبات، ونقص الثمار، ﴿ وَلاَ فِى أَنفُسِكُمْ ﴾ من البلايا ، والأمراض، والأوجاع .

﴿ إِلاَّ فِى كِتَاب ﴾ يعني : إلا في اللوح المحفوظ ﴿ مّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ يعني : من قبل أن نخلق تلك النسمة .

وذكر الربيع بن أبي صالح الأسلمي قال : دخلت على سعيد بن جبير حين جيء به إلى الحَجّاج أراد قتله ، فبكى رجل من قومه فقال سعيد : ما يبكيك ؟ قال : لما أصابك من مصيبة .

قال : فلا تبك ، قد كان في علم الله تعالى أن يكون هذا .

ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مّصِيبَةٍ فِى الأرض وَلاَ فِى أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَاب مّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ يعني : من قبل أن نخلقها .

ويقال : قبل أن نخلق تلك النفس ﴿ إِنَّ ذلك عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ يعني : هيناً ، ﴿ لّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ ﴾ يعني : لكيلا تحزنوا ﴿ على مَا فَاتَكُمْ ﴾ من الرزق والعافية ، إذا علمتم أنها مكتوبة عليكم قبل خلقكم ، ﴿ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا ءاتاكم ﴾ يعني : بما أعطاكم في الدنيا ، ولا تفتخروا بذلك ﴿ والله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ يعني : متكبراً ، فخوراً ، بنعم الله تعالى ، ولا يشكروه .

قرأ أبو عمرو ﴿ بِمَا ءاتاكم ﴾ بغير مدّ .

والباقون : بالمد .

فمن قرأ : بغير مد ، فمعناه : لكيلا تفرحوا بما جاءكم من حطام الدنيا ، فإنه إلى نفاد .

ومن قرأ : بالمد بما أعطاكم .

وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ليس أحد إلا وهو يحزن ، ويفرح.

ولكن المؤمن من جعل الفرح والمصيبة صَبْراً .

ثم قال عز وجل : ﴿ الذين يَبْخَلُونَ ﴾ يعني : لا يحب الذين يبخلون .

يعني : يمسكون أموالهم ، ولا يخرجون منها حق الله تعالى ﴿ وَيَأْمُرُونَ الناس بالبخل ﴾

ويقال : الذين يبخلون .

يعني : يكتمون صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويأمرون الناس بالبخل .

يعني : يكتمون صفة النبي صلى الله عليه وسلم ونعته .

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ يعني : يعرض عن النفقة .

ويقال : يعرض عن الإيمان ﴿ فَإِنَّ الله هُوَ الغنى الحميد ﴾ يعني : غنيٌّ عن نفقتهم ، وعن إيمانهم ، ﴿ الحميد ﴾ في فعاله .

قرأ حمزة ، والكسائي ، ﴿ وَيَأْمُرُونَ الناس بالبخل ﴾ بنصب الخاء ، والباء .

وقرأ الباقون: بضم الباء، وإسكان الخاء، ومعناهما واحد.

قرأ نافع، وابن عامر: ﴿ فَإِنَّ اللهَ الغنى الحميد ﴾ الذي لا غني مثله.

والباقون: ﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الغنى الحميد ﴾ بإثبات هو.

ثم قال: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات ﴾ يعني: بالأمر، والنهي، والحلال، والحرام، ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب ﴾ يعني: أنزلنا عليهم الكتاب ليعلموا أمتهم ﴿ والميزان ﴾ يعني: العدل.

ويقال: هو الميزان بعينه، أنزل على عهد نوح عليه السلام ﴿ لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ يعني: لكي يقوم الناس ﴿ بالقسط ﴾ يعني: بالعدل ﴿ وَأَنْزَلْنَا الحديد ﴾ يعني: وجعلنا الحديد ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يعني: فيه قوة شديدة في الحرب.

وعن عكرمة أنه قال: ﴿ وَأَنْزَلْنَا الحديد ﴾ يعني: أنزل الله تعالى الحديد لآدم عليه السلام، العلاة، والمطرقة، والكلبتين فيه بأس شديد.

ثم قال عز وجل: ﴿ ومنافع لِلنَّاسِ ﴾ يعني: في الحديد ﴿ منافع لِلنَّاسِ ﴾ مثل السكين، والفأس، والإبرة.

يعني: من معايشهم.

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ يعني: ولكن يعلم الله من ينصره على عدوه ﴿ وَرُسُلَهُ

بالغيب ﴾ بقتل أعدائه كقوله : ﴿ إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ ويقال : لكي يرى الله من استعمل هذا السلام في طاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بالغيب .

يعني : يصدق بالقلب ﴿ إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ ﴾ في أمره ﴿ عَزِيزٌ ﴾ في ملكه .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وإبراهيم ﴾ يعني : بعثناهما إلى قومهما ، ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ﴾ يعني : في نسليهما ﴿ النبوة والكتاب ﴾ وكان فيهم الأنبياء مثل موسى ، وهارون ، وداود ، ويونس ، وسليمان ، وصالح ، ونوح ، وإبراهيم عليهم السلام ﴿ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ يعني : كثير من ذريتهم تاركون للكتاب .

(67/749)

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا على ءاثارهم ﴾ يعني : وصلنا ، وأتبعنا على آثارهم ﴿ بِرُسُلِنَا ﴾ واحداً بعد واحد ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ يعني : وأرسلنا على آثارهم بعيسى ابن مريم ﴿ وَقَفَّيْنَا على ﴾ يعني : أعطيناه الإنجيل ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الذين اتبعوه ﴾ يعني : الذين آمنوا به ، وصدقوه ، واتبعوا دينه ، ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ يعني : المودة .

والمتوادين الذين يود بعضهم بعضاً .

ويقال: الرأفة على أهل دينهم، يرحم بعضهم بعضاً، وهم الذين كانوا على دين عيسى، لم يتهوَّدوا، ولم يتنصروا.

ثم استأنف الكلام فقال: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها ﴾ يعني: ابتدعوا رهبانية ﴿ مَا كتبناها عَلَيْهِمْ ﴾ يعني: لم تكتب عليهم الرهبانية ﴿ إِلاَّ ابتغاء رضوان الله ﴾ وذلك أنه لما كثر المشركون، خرج المسلمون منهم، فهربوا، واعتزلوا في الغيران، واتبعوا الصوامع، فطال عليهم الأمد، ورجع بعضهم عن دين عيسى ابن مريم، وابتدعوا النصرانية.

قال الله تعالى: ﴿ ابتدعوها ﴾ يعني: الرهبانية، والخروج إلى الصوامع، والتبتل للعبادة ﴿ مَا كتبناها عَلَيْهِمْ ﴾ يعني: ما أوجبنا عليهم، ولم نأمرهم إلا ابتغاء رضوان الله.

يعني: أمرناهم بما يرضي الله تعالى لا غير ذلك.

ويقال: ﴿ ابتدعوها ﴾ لطلب رضى الله تعالى ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ يعني: لم يحافظوا على ما أوجبوا على أنفسهم.

ويقال: فما أطاعوا الله حين تهودوا، وتنصَّروا.

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا على ءاثارهم بِرُسُلِنَا ﴾ في الآخرة ﴿ وَكَثِيرٌ مّنْهُمْ فاسقون ﴾ يعني: عاصين.

وهم الذين تهودوا.

وفي هذه الآية دليل وتنبيه للمؤمنين أن من أوجب على نفسه شيئاً، لم يكن واجباً عليه أن

يتبعه ، ولا يتركه ، فيستحق اسم الفسق .

وروي عن بعض الصحابة أنه قال : عليكم بإتمام هذه التراويح ، لأنها لم تكن واجبة عليكم .

(68/749)

فقد أوجبتموها على أنفسكم فإنكم إن تركتموها صرتم فاسقين ثم قرأ هذه الآية ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ .

ثم قال عز وجل : ﴿ مّسْتَقِيمٍ يا أيها الذين ءامَنُواْ اتقوا الله ﴾ يعني : أطيعوه فيما يأمركم به ، وفيما ينهاكم عنه ، ﴿ يا أيها الذين ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ، يعني : اثبتوا على الإسلام بعد نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ويقال يا أيها الذين آمنوا بعيسى ابن مريم : آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ يعني : أجرين من فضله ، ويقال : لما نزلت في أهل مكة ﴿ أولئك يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَؤُنَ بالحسنة السيئة وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ [القصص : 54] ، حزن المسلمون ، فنزل فيهم ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ وأصل الكِفْل النصيب ، يعني : نصيبين من رحمته ، أحدهما : بإيمانه بنبيه قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم ، والآخر الإيمان

بمحمد صلى الله عليه وسلم .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يعني : يجعل لكم سبيلاً واضحاً تهتدون به ، ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ يعني : يغفر لكم ذنوبكم ، ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعني : يغفر الذنوب للمؤمنين ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهم ، ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب أَلاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّن فَضْلِ الله ﴾ ولا مؤكدة في الكلام ، ومعناه لأن يعلموا أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله ورحمته ، يعني : مؤمني أهل الكتاب ، يعلمون أنهم لا يقدرون من فضل الله إلا برحمته لا برحمته ، ﴿ وَأَنَّ الفضل بِيَدِ الله ﴾ يعني : الثواب من الله تعالى ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ من كان أهلاً لذلك من العبادة ﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ يعني : هو المعطي وهو المانع والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 384. 390 ﴾

(69/749)

وقال الثعلبى :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا ﴾ الآية .

قال الكلبي ومقاتل : نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة ، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي ذات يوم فقالوا : حدّثنا عمّا في التوراة فإن فيها العجائب ، فنزلت الآية ﴿ تِلْكَ

آياتُ الكتاب المبين ﴾ [يوسف : 1] إلى قوله ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ [يوسف : 3] فخبّرهم بأن هذا القرآن أحسن من غيره وأنفع لهم، فكفّوا عن سؤال سلمان ما شاء الله ثم [عادوا] فسألوا سلمان عن مثل ذلك فنزلت ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ [الزمر : 23] الآية. فكفّوا عن سؤال سلمان ما شاء الله ثم (عادوا) أيضاً فسألوا فقالوا: حدّثنا عن التوراة فإن فيها العجائب، ونزلت هذه الآية.

فعلى هذا القول يكون تأويل الآية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا ﴾ في العلانية واللسان.

وقال غيرهما: نزلت في المؤمنين.

قال عبد الله بن مسعود: مَلَّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله لو حدّثتنا فأنزل الله عزّوجل ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ [الزمر : 23] الآية.

فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله عزّوجل ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ [يوسف : 3] الآية.

فقالوا: يا رسول الله لو ذكّرتنا ووعظتنا. فأنزل الله عزّوجل هذه الآية.

وقال ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلاّ أربع سنين، فجعل المؤمنون يعاتب بعضهم بعضاً.

وقال ابن عباس: إن الله تعالى استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، فقال ﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ يحن ﴿ لِلَّذِينَ آمنوا أَن تَخْشَعَ ﴾ ترق وتلين وتخضع

﴿ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ ﴾ .

قرأ شيبة ونافع وعاصم برواية المفضل وحفص : خفيفة الزاي ، غيرهم : مشددة .

﴿ مِنَ الحق ﴾ وهو القرآن ، قال مجاهد : نزلت هذه الآية في المتعرّبين بعد الهجرة .

(70/749)

أخبرنا عبد الله بن حامد ، حدّثنا محمد بن خالد ، حدّثنا سليمان بن داود ، حدّثنا عبد بن حميد ، حدّثنا يزيد بن هارون ، حدّثنا الحسام بن المصك عن الحسن عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أول ما يرفع من الناس الخشوع" .

﴿ وَلاَ يَكُونُواْ ﴾ يعني وألاّ يكونوا ، محله نصب بالعطف على ﴿ تَخْشَعَ ﴾ قال الأخفش : وإن شئت جعلته نهياً فيكون مجازه : ولا يكونن ، ودليل هذا التأويل رواية يونس عن يعقوب أنه قرأ : (ولا تكونوا) بالتاء .

﴿ كالذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلُ ﴾ وهم اليهود والنصارى . ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد ﴾ الزمان والدهر والغاية بينهم وبين أنبيائهم ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

روى الأعمش عن عمارة بن عمير عن الربيع بن عُميلة ، حدّثنا عبد الله حدّثنا ، ما سمعت حدّثنا هو أحسن منه إلاّ كتاب الله عزّوجل أو رواية عن النبي صلى الله عليه

وسلم أن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم فاخترعوا كتاباً من عند أنفسهم استهوته قلوبهم واستحلته أنفسهم ، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، فقالوا : إعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل فإن تابعوكم فأتركوهم ، وإن خالفوكم فاقتلوهم ، ثم قالوا : لا بل أرسلوا إلى فلان رجلا من علمائهم فاعرضوا عليه الكتاب فإن تابعكم فلن يخالفكم أحد بعده وإن خالفكم فإقتلوه فلن يختلف عليكم بعده أحد .

فأرسلوا إليه ، فأخذ ورقة فكتب فيها كتاب الله عزّوجل ثم جعلها في قَرن ثم علّقها في عنقه ، ثم لبس عليه الثياب ، ثم أتاهم فعرضوا عليه الكتاب فقالوا : أتؤمن بهذا ؟ فأومأ إلى صدره فقال : آمنت بهذا ، ومالي لا أومن بهذا ؟ يعني الكتاب الذي في القَرن ، فخلّوا سبيله .

(71/749)

وكان له أصحاب يغشونه ، فلما مات نبشوه فوجدوا القَرن ووجدوا فيه الكتاب ، فقالوا : ألا ترون قوله : آمنت بهذا ، ومالي لا أُومن بهذا ؟ إنما عني هذا الكتاب ؟ فاختلف بنو إسرائيل على بضع وسبعين ملة ، وخير مللهم أصحاب ذي القَرن .

قال عبد الله : وإن من بقي منكم سيرى منكراً ، وبحسب أمرى يرى منكراً لا تستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره .

وقال مقاتل بن حيان : إنما يعني بذلك مؤمني أهل الكتاب قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد ﴾ يعني خروج النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ يعني الذين ابتدعوا الرهبانية أصحاب الصوامع ، ثبتت طائفة منهم على دين عيسى حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم وآمنوا به ، ومنهم طائفة رجعت عن دينها وهم الذين فسّقهم فكفروا بدين عيسى ولم يؤمنوا بمحمد (عليه السلام) .

وقال محمد بن كعب : كانت الصحابة بمكة مجدين ، فلما هاجروا أصابوا الريف والنعمة ففتروا عمّا كانوا فيه ، فقست قلوبهم ، فينبغي للمؤمنين أن يزدادوا إيماناً ويقيناً وإخلاصاً في طول صحبة الكتاب .

أنبأني عبد الله بن حامد ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن العباس الضبّي ، أخبرنا أبو جعفر محمد بن عبد الله النيّري ، حدّثنا أبو سعيد الأشج ، حدّثنا أبو خالد الأحمر ، عن ابن عجلان ، عن وائل بن بكر قال : قال عيسى (عليه السلام) : " لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فَتقسوَ قلوبكم فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد فإنما الناس رجلان مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية " .

أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن يحيى ، حدّثنا أبو عبد الله المقرىء قال : سمعت أبا الحسن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يقول : سمعت أبا عمار الحسين ابن حريث يقول : سمعت الفضل بن موسى السيناني يقول : كان سبب توبة الفضل بن عياض أنه عشق جارية فواعدته ليلا ، فبينما هو يرقى الجدران إليها إذ سمع قارئاً يقرأ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ﴾ فرجع القهقرى .

وهو يقول : بلى فلان بلى والله فلان . فأواه الليل إلى خربة وفيها جماعة من السابلة ، وإذا بعضهم يقول لبعض بالفارسية : فضيل بدر أهست در ما راه بُرّد .

فقال الفضيل في نفسه : الا أراني أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين يخافونني ؟

اللهم إني قد تبت إليك ، وجعلت توبتي إليك جوار بيتك الحرام .

ثم أقبل عليهم فقال لهم بالفارسية : منم فضيل كناه كار أز من ترسيد يد أكنون مترسيد .

قال الفضل بن موسى : ثم خرج فجاور .

وحدّثنا أبو سعد بن أبي عثمان الزاهد ، أخبرنا أبو الفضل أحمد بن أبي عمران بمكة ، حدّثنا أبو يعقوب البزاز ، حدّثنا محمد بن حاتم السمرقندي ، حدّثنا أحمد بن زيد ،

حدّثنا حسين ابن الحسن قال : سئل ابن المبارك وأنا حاضر عن أول زهده فقال : إني كنت في بستان ، وأنا شاب مع جماعة من أترابي ، وذلك في وقت الفواكه ، فأكلنا وشربنا وكنت مولعاً بضرب العود فقمت في بعض الليل ، فإذا غصن يتحرك عند رأسي فأخذت العود لأضرب به فإذا بالعود ينطق وهو يقول ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ﴾ قال : فضربت بالعود الأرض فكسرته وصرفت ما عندي من جميع الأمور التي كنت عليها مما شُغلت عن الله ، وجاء التوفيق من الله عزّ وجل فكان ما سُهل لنا من الخير بفضل الله .

(73/749)

﴿ اعلموا أَنَّ الله يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * إِنَّ المصدقين والمصدقات ﴾ . قرأ ابن كثير وعاصم برواية أبي بكر والمفضل بتخفيف الصادين من التصديق مجازه : إن المؤمنين والمؤمنات .

وقرأ الباقون : بتشديدهما بمعنى أن المتصدقين والمتصدقات ، فأدغم التاء في الصاد كالمزمل والمدثر ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم اعتباراً لقراءة أُبي : (إن المتصدقين والمتصدقات واقرضوا الله قرضاً حسناً) بالصدقة والنفقة في سبيله .

قال الحسن : كل ما في القرآن من القرض الحسن فهو التطوع وإنما عطف بالفعل على الاسم لأنه في تقدير الفعل ، مجازه : إن الذين صدقوا وأقرضوا يضاعف لهم أمثالها .

قراءة العامة : بالألف وفتح العين . وقرأ الأعمش : (يضاعفه) بكسر العين وزيادة هاء .

وقرأ ابن عامر وابن كثير وأبو جعفر (يضعّف) بالتشديد .

﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو الجنة ﴿ والذين آمَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ أولئك هُمُ الصديقون ﴾ واحدهم : صديق وهو الكثير الصدق .

قال الضحاك : هم ثمانية نفر سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام : أبو بكر وعلي وزيد وعثمان بن عفان وطلحة والزبير وسعد وحمزة بن عبد المطلب ، تاسعهم عمر بن الخطاب ألحقه الله بهم لما عرف من صدق نبيّه .

﴿ والشهدآء عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ اختلف العلماء فى نظم هذه الآية وحكمها ، فقال قوم : تمام الكلام عند قوله : ﴿ الصديقون ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ والشهدآء ﴾ وأراد بهم شهداء المؤمنين خاصة ، والواو فيه واو الاستئناء ، وهذا قول ابن عباس ومسروق وجماعة من العلماء . وقال الآخرون : هي متصلة بما قبلها ، والواو فيه واو النسق .

ثم اختلفوا في معناها ، فقال الضحّاك : نزلت في قوم مخصوصين من المؤمنين ، وكانوا كلّهم شهداء ، وقد مرّ ذكرهم .

وقال غيره : نزلت في المؤمنين المخلصين كلّهم .

أخبرني عبد الله بن حامد إجازة قال : أخبرنا أحمد بن عبد الله المزني قال : حدّثنا عبد الله ابن غنام النخعي قال : حدّثنا أبو كريب قال : حدّثنا عبيد بن سعيد ، عن شعبة ، عن أبي قيس ، عن الهرمل ، عن عبد الله قال : إنّ الرجل ليقاتل الناس ليرى مكانه ، وإنّ الرجل ليقاتل على الدنيا ، وإنّ الرجل ليقاتل ابتغاء وجه الله ، وإنّ الرجل ليموت على فراشه فيكون شهيداً ، ثم قرأ : ﴿ والذين آمَنُوا بالله وَرُسُلِهِ أولئك هُمُ الصديقون والشهداء عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمّد بن خالد قال : حدّثنا داود بن سليمان قال : حدّثنا عبد بن حميد قال : حدّثنا أبو نعيم قال : حدّثنا سفيان بن ليث ، عن مجاهد قال : كلّ مؤمن صدّيق شهيد ، ثم قرأ هذه الآية ، يعني موصولة .

وقال ابن عباس في بعض الروايات : أراد بالشهداء الأنبياء خاصّة .

﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ في ظلمة القيامة . ﴿ والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أولئك أَصْحَابُ الجحيم * اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا ﴾ : ﴿ ما ﴾ صلة مجازه ﴿ اعلموا ﴾ .

﴿ لَعِبٌ ﴾ باطل لا حاصل له ﴿ وَلَهْوٌ ﴾ : فرح ثم ينقضي ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ منظر يتزيّنون

به ، ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ : يفخر به بعضكم على بعض ، ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِي الأموال والأولاد ﴾ أي يُبَاه بكثرة الأموال والأولاد .

وقال بعض المتأوّلين من المتأخّرين : لعب كلعب الصبيان ، ولهو كلهو الفتيان ، وزينة كزينة النسوان ، وتفاخر كتفاخر الأقران ، وتكاثر كتكاثر الدهقان .

(75/749)

وقال عليّ بن ابي طالب لعمار بن ياسر : "لا تحزن على الدنيا ، فإن الدنيا ستّة أشياء : مطعوم ، ومشروب ، وملبوس ، ومشموم ، ومركوب ، ومنكوح . فأكبر طعامها العسل وهي بزقة ذبابة ، وأكبر شرابها الماء ويستوي فيه جميع الحيوان ، وأكبر الملبوس الديباج وهي نسجة دود ، وأكبر المشموم المسك ، وهي دم فأرة ظبية ، وأكبر المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال ، وأكبر المنكوح النساء وهو مبال في مبال . والله إن المرأة ليزيّن أحسنها يراد به أقبحها " .

ثم ضرب جل ذكره لها مثلا فقال عزّ من قائل : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكفار ﴾ أي الزرّاع ﴿ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ فيبلى ويفنى ﴿ وَفِي الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ ، يعني : أو مغفرة ﴿ مِّنَ الله وَرِضْوَانٌ وَمَا الحياة الدنيا إِلاَّ مَتَاعُ

الغرور * سابقوا ﴾ : سارعوا ﴿ إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ﴾ : سعتها ﴿ كَعَرْضِ السمآء والأرض ﴾ لوصل بعضها ببعض.

وقال ابن كيسان: عنى به جنّة واحدة من الجنان.

﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم * مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأرض ﴾ بالجدب والقحط وذهاب الزرع والثمر ﴿ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ بالأوصاب والأسقام.

وقال الشعبي: المصيبة: ما يكون من خير وشرّ وما يسيء ويسرّ.

ودليل هذا التأويل قوله سبحانه: ﴿ لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَآ آتَاكُمْ ﴾ فذكر الحالتين جميعاً: ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ يعني: اللوح المحفوظ ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾: من قبل أن نخلق الأرض والأنفس.

وقال ابن عباس: يعني المصيبة.

وقال أبو العالية: يعني النسمة ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ إن خلق ذلك وحفظه على الله هيّن.

أخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا محمّد بن مخلد قال: أخبرنا داود قال: حدّثنا عبيد قال: حدّثنا أبو نعيم قال: حدّثنا الربيع بن أبي صالح قال: دخلت على سعيد بن جبير في نفر فبكى رجل من القوم، فقال: ما يبكيك؟ قال: أبكي لما أرى بك ولما يذهب بك إليه. قال: فلا تبكِ، فإنّه كان في علم الله سبحانه أن يكون، ألم تسمع إلى قول الله عزّ وجلّ:

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ الآية.

﴿ لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ ﴾: تحزنوا ﴿ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ من الدنيا، ﴿ وَلاَ تَفْرَحُواْ ﴾: تبطروا ﴿ بِمَآ آتَاكُمْ ﴾. قراءة العامّة بمدّ الألف، أي (أعطاكم)، واختاره أبو حاتم. وقرأ أبو عمرو بقصر الألف أي: (جاءكم)، واختاره أبو عبيد، قال: لقوله سبحانه: ﴿ فَاتَكُمْ ﴾ ولم يقل: (أفاتكم) فجعل له، فكذلك (أتاكم) جعل الفعل له ليوافق الكلام بعضه بعضاً.

قال عكرمة: ما من أحد إلاّ وهو يفرح ويحزن فاجعلوا للفرح شكراً وللحزن صبراً.

﴿ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾: متكبّر بما أُوتي من الدنيا، فخور به على الناس.

وقال ابن مسعود: لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت، وأبقت ما أبقت، أحبّ إليّ من أن أقول لشيء كان: ليته لم يكن، أو لشيء لم يكن: ليته كان.

قال جعفر الصادق: "يا بن آدم، مالك تأسّف على مفقود لا يردّه إليك الفوت؟ ومالك تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت؟".

وقيل لبزرجمهر : ما لك أيها الحكيم لا تأسف على ما فات ولا تفرح بما هو آت ؟ فقال : لأنّ الفائت لا يتلافى بالعبرة ، والآتي لا يستدام بالحبرة .

وقال الفضيل في هذا المعنى : الدنيا مفيد ومبيد فما أباد فلا رجعة له ، وما أفاد فقد أذن بالرحيل .

وقال الحسين بن الفضل : حمل الله سبحانه بهذه الآية المؤمنين على مضض الصبر على الفائت ، وترك الفرح بالآتي ، والرضا بقضائه في الحالتين جميعاً .

(77/749)

وقال قتيبة بن سعيد : دخلت بعض أحياء العرب فإذا أنا بفضاء من الأرض مملوء من الإبل الموتى والجيف بحيث لا أُحصي عددها ، فسألت عجوزاً : لمن كانت هذه الإبل ؟ فأشارت إلى شيخ على تلّ يغزل صوفاً ، فقلت له : يا شيخ ألك كانت هذه الإبل ؟ قال : كانت باسمي . قلت : فما أصابها ؟ قال : ارتجعها الذي أعطاها . قلت : وهل قلت في ذلك شيئاً ؟ قال : نعم :

لا والذي أخذ [. . .] من خلائقه . . . والمرء في الدهر نصب الرزء والمحنِ

ما سرّني أنّ إبْلي في مباركها . . . وما جرى في قضاء الله لم يكنِ

وقال سلم الخوّاص : من أراد أن يأكل الدارين فليدخل في مذهبنا عامين ؛ ليضع الله سبحانه الدنيا والآخرة بين يديه . قيل : وما مذهبكم ؟ قال : الرضا بالقضا ، ومخالفة الهوى . وأنشد :

لا تطل الحزن على فائت . . . فقلّما يجدي عليك الحزنْ

سيّان محزون على ما مضى . . . ومظهرٌ حزناً لما لم يكنْ

﴿ الذين يَبْخَلُونَ ﴾ ، قيل : هو في محل الخفض على نعت (المختال) ، وقيل : هو رفع بالابتداء وخبره ما بعده . ﴿ وَيَأْمُرُونَ الناس بالبخل وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ الله هُوَ الغني الحميد ﴾ قرأ أهل المدينة والشام بإسقاط ﴿ هُوَ ﴾ وكذلك هو في مصاحفهم . الباقون بإثباته .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان ﴾ يعني له يعدل . وقال ابن زيد : ما يوزن به . ﴿ لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ : ليعمل الناس بينهم بالعدل ﴿ وَأَنْزَلْنَا الحديد ﴾ ، قال ابن عباس : نزل آدم من الجنّة معه خمسة أشياء من الحديد : السندان ، والكلبتان ، والمنقعة ، والمطرقة ، والأُبرة .

وقال أهل المعاني : يعني أنه أخرج لهم الحديد من المعادن ، وعلمهم صنيعته بوحيه .

وقال قطرب : هذا من النُزُل كما تقول : أنزل الأمر على فلان نزلا حسناً ، فمعنى الآية أنه

جعل ذلك نزلا لهم ، ومثله قوله :

﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [الزمر : 6] .

(78/749)

ودليل تأويل السلف من المفسرين ما أخبرنا أبو سفيان الحسن بن عبد الله الدهقان قال : حدّثنا الحسن بن إسماعيل بن خلف الخيّاط قال : حدّثنا أبو بكر محمّد بن الفرج المعدّل قال : حدّثنا محمّد بن عبيد بن عبد الملك قال : حدّثنا سفيان بن محمّد أبو محمّد (ابن أخت سفيان الثوري) عن عبد الملك بن ملك التميمي عن عبد الله بن خليفة عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنّ الله عزّ وجل أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض : فأنزل الحديد ، والنّار ، والماء والملح " .

﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ ، قوّة شديدة ، يعني : السلاح والكراع ، ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ ممّا يستعملونها في مصالحهم ومعايشهم ؛ إذ هو آلة لكلّ صنعة . ﴿ وَلِيَعْلَمَ الله ﴾ ، يعني : أرسلنا رسلنا ، وأنزلنا معهم هذه الأشياء ؛ ليعامل الناس بالحقّ والعدل وليرى سبحانه ﴿ مَن يَنصُرُهُ ﴾ أي دينه ﴿ وَرُسُلَهُ بالغيب إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النبوة والكتاب فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ

فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا على آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابن مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإنجيل وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذين اتبعوه ﴾ على دينه ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ والرأفة أشد الرقّة ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها ﴾ من قبل أنفسهم ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا ﴾ فرضناها وأوجبناها ﴿ عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابتغاء ﴾ يعني : ولكنهم ابتغوا ﴿ رِضْوَانِ الله ﴾ بتلك الرهبانية ﴿ فَآتَيْنَا الذين آمَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ ، وهم أهل الرأفة والرحمة والرهبانية التي ابتدعوها طلباً لرضا الله ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ يعني الذين لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها وكفروا بدين عيسى وتهوّدوا وتنصّروا . وبنحو ما فسّرنا ورد فيه الآثار .

(79/749)

" وقال ابن مسعود : كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار ، فقال لي : " يا ابن أمّ عبد ، هل تدري من أين اتّخذت بنو اسرائيل الرهبانية ؟ " . قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : " ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى (عليه السلام) يعملون بمعاصي الله سبحانه ، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبقَ منهم إلاّ القليل ، فقالوا : إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ولم يبقَ للدين أحد يدعو إليه ، فتعالوا نتفرّق في الأرض إلى أن يبعث

الله النبي الذي وعدنا عيسى يعنون محمّداً فتفرّقوا في غيران الجبال، وأحدثوا الرهبانية، فمنهم من تمسّك بدينه ومنهم من كفر". ثم تلا هذه الآية ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ الآية.

﴿ فَآتَيْنَا الذين آمَنُواْ مِنْهُمْ ﴾ يعني: من ثبتوا عليها ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم "يا ابن أم عبد، أتدري ما رهبانية أُمتي؟" قلت: الله ورسوله أعلم. قال: "الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة والتكبير على التلاع"".

وأنبأني عبد الله بن حامد قال: أخبرنا أحمد بن عبد الله المزني قال: حدّثنا محمّد بن عبد الله ابن سليمان قال: حدّثنا شيبان بن فرّوخ قال: حدّثنا الصعق بن حزن، عن عقيل الجعدي، عن أبي إسحاق، عن سويد بن غفلة، "عن ابن مسعود قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا بن مسعود، اختلف من كان قبلكم على ثنتين وسبعين فرقة ونجا منها ثلاث وهلك سائرهن، فرقة وازت الملوك وقاتلوهم على دين عيسى فأخذوهم وقتلوهم، وفرقة لم يكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهرانيهم تدعوهم إلى دين الله سبحانه ودين عيسى، فساحوا في البلاد وترهّبوا وهم الذين قال الله سبحانه: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾".

قال النبي صلى الله عليه وسلم " من آمن بي وصدّقني واتّبعني فقد رعاها حقّ رعايتها ، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون "

وروى الضحّاك وعطّية عن ابن عباس قال : كتب الله سبحانه عليهم القتال قبل أن يبعث محمّداً صلى الله عليه وسلم فلما استخرج أهل الإيمان ولم يبقَ منهم إلاّ قليل وكثر أهل الشرك ، وذهبت الرسل وقهروا ، اعتزلوا في الغيران فلم يزل بهم ذلك حتى كفرت طائفة منهم ، وتركوا أمر الله ودينه ، وأخذوا بالبدعة وبالنصرانيّة وباليهودية ، ولم يرعوها حقّ رعايتها ، وثبتت طائفة على دين عيسى حتى جاءهم البيّنات ، وبعث الله سبحانه محمّداً صلى الله عليه وسلم وهم كذلك . فذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمّد بن جعفر قال : حدّثنا عليّ بن حرب قال : حدّثنا ابن فضيل قال : حدّثنا عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس .

وحدّثت عن محمّد بن جرير ، قال : حدّثنا أبو عمّار الحسين بن حريث قال : حدّثنا الفضل ابن موسى عن سفيان ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كانت ملوك بعد عيسى (عليه السلام) بدّلوا التوراة والإنجيل . وكان فيهم مؤمنون يقرأون التوراة والإنجيل ويدعونهم إلى دين الله ويأمرونهم بتقوى الله سبحانه ، فقيل لملكهم : لو جمعت هؤلاء الذين شقّوا عليكم وآذوكم فقتلتموهم ، أقرّوا بما نقرّ به ، ودخلوا فيما نحن فيه . فدعاهم ملكهم وجمعهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل . إلاّ ما بدّلوا فيها ، فقالوا : ما تريد منّا ؟ نحن نكفيكم أنفسنا . فقالت طائفة منهم : ابنوا لنا اسطوانة ثم ارفعونا إليها ثم اعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نردّ عليكم . وقالت طائفة أخرى : دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونسرب كما تسرب الوحش فإن قدرتم علينا بأرض فاقتلونا . وقالت طائفة منهم : ابنوا لنا دوراً في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترث البقول فلا نرِد عليكم ولا نمرّ بكم . وليس أحد من أولئك إلاّ له حميم منهم ، ففعلوا ذلك بهم فمضى أولئك على منهاج عيسى ، وخلف قوم من بعدهم ممّن قد غيّر الكتاب ، فجعل الرجل يقول : نكون في مكان فلان فنتعبّد كما تعبّد فلان ، ونسيح كما ساح فلان ، ونتّخذ دوراً كما اتّخذ فلان ، وهم على شركهم ، ولا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم ، فذلك قوله سبحانه : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابتغآء رِضْوَانِ الله ﴾ . قال : ابتدعها هؤلاء الصالحون فما رعوها حقّ رعايتها ، يعني الآخرين

الذين جاؤوا من بعدهم ، ﴿ فَآتَيْنَا الذين آمَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ يعني الذين : ابتدعوها ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ : الذين جاؤوا من بعدهم . قال : فلمّا بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم (عليه السلام) ولم يبق منهم إلاّ قليل ، انحطّ رجل من صومعته ، وجاء

(82/749)

السائح من سياحته وصاحب الدير من ديره ، وآمنوا به وصدّقوه فقال الله عزّ وجلّ : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ ﴾ محمّد (عليه السلام) ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ قال : أجرين ؛ لإيمانهم بعيسى والإنجيل وإيمانهم بمحمّد والقرآن ، ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يعني : القرآن ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ الذين يتشبّهون بهم ﴿ أَلاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّن فَضْلِ الله ﴾ إلى آخرها .

وقال قوم : انقطع الكلام عند قوله : ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ ثم قال : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ وذلك أنّهم تركوا الحقّ ، وأكلوا لحم الخنزير ، وشربوا الخمر ، ولم يتوضّؤوا ولم يغتسلوا من جنابة ، وتركوا الختان ، ﴿ فَمَا رَعَوْهَا ﴾ يعني : الطاعة والملّة ﴿ حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ . كناية عن غير مذكور . ﴿ فَآتَيْنَا الذين آمَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ ، وهم أهل الرأفة والرحمة ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ، وهم أهل الرهبانية والبدعة ، وإليه

ذهب مجاهد .

ومعنى قوله : ﴿ إِلاَّ ابتغآء رِضْوَانِ الله ﴾ : وما أمرناهم إلاّ بذلك وما أمرناهم إلاّ بالترهّب ، أو يكون وجهه : إلاّ ابتغاء رضوان الله بزعمهم وعَنَدهم ، والله أعلم .

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَآمِنُواْ بِرَسُولِه ﴾ محمّد (عليه السلام) ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ : نصيبين ﴿ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ ؛ لإيمانكم بالأوّل وإيمانكم بالآخر .

وقال أبو موسى الأشعري : كفلين : ضعفين بلسان الحبشة .

قال ابن جبير : وأصله ما يكتفل به الراكب من الثياب والمتاع فيحبسه ويحفظه من السقوط ، يقول : يحصنكم هذا الكفل من العذاب كما يحصن الراكب الكفل من السقوط . ومنه الكفالة ؛ لأنّها تحصن الحقّ .

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ في الناس ، وعلى الصراط أحسن .

وقال ابن عباس : النور القرآن .

(83/749)

وقال مجاهد : الهدى والبيان ، ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قال سعيد بن جبير : بعث النبي صلى الله عليه وسلم جعفراً رضي الله عنه في سبعين

راكباً للنجاشي يدعوه ، فقدم عليه فدعاه فاستجاب له وآمن به ، فلمّا كان عند انصرافه قال ناس ممّن آمن به من أهل مملكته وهم أربعون رجلا : ايذن لنا فنأتي هذا النبيّ صلى الله عليه وسلم فنلمّ به ونجدّف بهؤلاء في البحر ؛ فإنا أعلم بالبحر منهم . فقدموا مع جعفر على النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد تهيأ النبيّ صلى الله عليه وسلم (عليه السلام) لوقعة أحد ، فلمّا رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة وشدّة الحال استأذنوا النبيّ صلى الله عليه وسلم (عليه السلام) فقالوا : يا رسول الله إنّ لنا أموالا ، ونحن نرى ما بالمسلمين من خصاصة ، فإن أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها . . فأذن لهم فانصرفوا وأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين ، فأنزل الله سبحانه فيهم ﴿ الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص : 52] إلى قوله ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [القصص : 54] فكانت النفقة التي واسوا بها المسلمين فلما سمع أهل الكتاب ممن لم يؤمن قوله : ﴿ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ [القصص : 54] ، فجروا على المسلمين فقالوا : يا معشر المسلمين ، أما من آمن منّا بكتابكم وكتابنا فله أجره مرتين ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم فما فضلكم علينا ؟ فأنزل الله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ فجعل لهم أجرين وزادهم النور والمغفرة ثم قال : ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ ، وهكذا قرأها سعيد بن جبير ﴿ أَلاَّ يَقْدِرُونَ ﴾ الآية .

وروى حنان عن الكلبي قال : كان هؤلاء أربعة وعشرين رجلا قدموا من اليمن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ، لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، وكانوا على دين الأنبياء فأسلموا ، فقال لهم أبو جهل : بئس القوم أنتم والوفد لقومكم . فردّوا عليه : ﴿ وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بالله وَمَا جَآءَنَا مِنَ الحق ﴾ [المائدة : 84] ، فجعل الله سبحانه لهم والمؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه أجرين اثنين ، فجعلوا يفخرون على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : نحن أفضل منكم لنا أجران ولكم أجر واحد ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ الآية .

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه قال : حدّثنا أبو بكر بن مالك قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل قال : حدّثني أبي قال : حدّثنا عبد الرحمن بن سفيان ، عن صالح ، عن الشعبي ، عن أبي بردة ، عن أبي موسى ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من كانت له أمة فعلّمها فأحسن تعليمها ، وأدّبها فأحسن تأديبها ، وأعتقها وتزوّجها فله أجران ، وعبد أدّى حقّ الله وحقّ مواليه ، ورجل من أهل الكتاب آمن بما جاء به موسى أو ما جاء به عيسى وما جاء به محمّد صلى الله عليه وسلم فله أجران " .

وقال قتادة : حسد أهل الكتاب المسلمين ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

وقال مجاهد : قالت اليهود : يوشك أن يخرج منا نبيّ يقطع الأيدي والأرجل ، فلمّا خرج من

العرب كفروا ، فأنزل الله سبحانه ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ أي ليعلم ﴿ لا ﴾ صلة ﴿ أَلاَّ يَقْدِرُونَ ﴾ يعني أنّهم لا يقدرون ، كقوله : ﴿ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً ﴾ [طه : 89]

وأنشد الفرّاء :

إنّي كفيتك ما تو . . . ثق إنْ نجوت إلى الصباحْ

وسلمت من عرض الجنو . . . ن من الغدوّ إلى الرواح

إن تهبطنّ بلاد قو . . . مي يرتعون من الطلاحْ

أي : إنّك تهبطن .

﴿ على شَيْءٍ مِّن فَضْلِ الله ﴾ الآية .

(85/749)

أخبرني ابن فنجوية قال : حدّثني أبو بكر بن خرجة قال : حدّثنا محمّد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي قال : حدّثنا الحسن بن السكن البغدادي ، قال : حدّثنا أبو زيد النحوي ، عن قيس بن الربيع عن الأعمش ، عن عطيّة ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عزّ وجلّ قسّم الأجر وقسّم العمل ، فقيل لليهود ، اعملوا ، فعملوا إلى نصف النهار ، فقيل : لكم نصف قيراط . وقيل للنصارى : اعملوا ، فعملوا من

نصف النهار إلى العصر ، فقيل : لكم قيراط . وقيل للمسلمين : اعملوا ، فعملوا من صلاة العصر إلى غروب الشمس بقيراطين . فتكلّم اليهود والنصارى في ذلك ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الفضل بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 251.239 ﴾

(86/749)

وقال الزمخشرى :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ من أنى الأمر يأنى ، إذا جاء إناه ، أى . وقته . وقرئ : ألم يئن ، من آن يئين بمعنى : أنى يأنى ، وألما يأن ، قيل : كانوا مجدبين بمكة ، فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه ، فنزلت . وعن ابن مسعود : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين «1» . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : أنّ اللّه استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن . وعن الحسن رضى اللّه عنه : أما واللّه لقد استبطأهم وهم يقرؤن من القرآن أقل مما تقرءون . فانظروا في طول ما قرأتم منه

وما ظهر فيكم من الفسق.

وعن أبى بكر رضى اللّه عنه أنّ هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة، فبكوا بكاء شديدا، فنظر إليهم فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب. وقرئ: نزّل ونزل. وأنزل وَلا يَكُونُوا عطف على تخشع، وقرئ بالتاء على الالتفات. ويجوز أن يكون نهيا لهم عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وبخوا، وذلك أنّ بنى إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا للّه ورقت قلوبهم، فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره. فإن قلت:

ما معنى لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ؟ قلت: يجوز أن يراد بالذكر وبما نزل من الحق: القرآن، لأنه جامع للأمرين: للذكر والموعظة، وأنه حق نازل من السماء، وأن يراد خشوعها إذا ذكر اللّه وإذا تلى القرآن كقوله تعالى إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً أراد بالأمد: الأجل، كقوله:

...... إذا انتهى أمده «2»

وقرئ: الأمدّ، أى: الوقت الأطول وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين.

[سورة الحديد (57): آية 17]

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17)

---

(1) . أخرجه مسلم بلفظ «و بين أن عاتبنا اللّه» ووهم الحاكم فاستدركه.

(2) . قوله «كقوله إذا انتهي أمده» البيت من أوله:

كل حى مستكمل مدة العمر ومود إذا انتهى أمده . . . . اه عليان

قلت: قد تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 277 فراجعه إن شئت. اه

مصححه.

(87/749)

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قيل: هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب، وأنه يحييها كما يحيى الغيث الأرض.

[سورة الحديد (57) : آية 18]

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18)

الْمُصَّدِّقِينَ المتصدّقين. وقرئ على الأصل. والمصدّقين من صدق، وهم الذين صدقوا اللّه ورسوله يعنى المؤمنين. فإن قلت: علام عطف قوله وَأَقْرَضُوا؟ قلت: على معنى الفعل في المصدّقين، لأنّ اللام بمعنى الذين، واسم الفاعل بمعنى اصدقوا، كأنه قيل: إنّ

الذين اصدقوا وأقرضوا . والقرض الحسن : أنّ يتصدق من الطيب عن طيبة النفس وصحة النية على المستحق للصدقة . وقرئ : يضعف ، ويضاعف ، بكسر العين ، أى : يضاعف اللّه .

[سورة الحديد (57) : آية 19]

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (19)

يريد أنّ المؤمنين باللّه ورسله هم عند اللّه بمنزلة الصديقين والشهداء : وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا في سبيل اللّه لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ أى : مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم . فإن قلت : كيف يسوّى بينهم في الأجر ولا بدّ من التفاوت ؟ قلت : المعنى أنّ اللّه يعطى المؤمنين أجرهم ويضاعفه لهم بفضله ، حتى يساوى أجرهم مع أضعافه أجر أولئك .

ويجوز أن يكون وَالشُّهَداءُ مبتدأ ، ولَهُمْ أَجْرُهُمْ خبره .

[سورة الحديد (57) : آية 20]

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ (20)

أراد أنّ الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور وهي اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر. وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام، وهي: العذاب الشديد والمغفرة ورضوان اللّه. وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل «1» وأعجب به

(1). قوله «فاستوى واكتهل» في الصحاح: اكتهل النبات، أى: تم طوله وظهر نوره. (ع)

(88/749)

الكفار الجاحدون لنعمة اللّه فيما رزقهم من الغيث والنبات، فبعث عليه العاهة فهاج واصفرّ وصار حطاما عقوبة لهم على جحودهم، كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين. وقيل الْكُفَّارَ: الزراع. وقرئ: مصفارا

[سورة الحديد (57) : آية 21]

سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21)

سابِقُوا سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار ، إلى جنة عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ قال السدى : كعرض سبع السماوات وسبع الأرضين ، وذكر العرض دون الطول ، لأنّ كل ماله عرض وطول فإنّ عرضه أقل من طوله ، فإذا وصف عرضه بالبسطة : عرف أنّ طوله أبسط وأمدّ . ويجوز أن يراد بالعرض : البسطة ، كقوله تعالى فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ لما حقر الدنيا وصغر أمرها وعظم أمر الآخرة : بعث عباده على المسارعة إلى نيل ما وعد من ذلك : وهي المغفرة المنجية من العذاب الشديد والفوز بدخول الجنة ذلِكَ الموعود من المغفرة والجنة فَضْلُ اللَّهِ عطاؤه يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وهم المؤمنون .

[سورة الحديد (57) : الآيات 22 إلى 24]

ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (23) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)

المصيبة في الأرض : نحو الجدب وآفات الزروع والثمار . وفي الأنفس : نحو الأدواء والموت فِي كِتابٍ في اللوح مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها يعنى الأنفس أو المصائب إِنَّ ذلِكَ إنّ تقدير ذلك وإثباته في كتاب عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ وإن كان عسيرا على العباد ، ثم علل ذلك وبين الحكمة فيه فقال لِكَيْلا تَأْسَوْا . . . وَلا تَفْرَحُوا يعنى أنكم إذا علمتم أنّ كل شيء مقدر مكتوب عند الله قلّ

أساكم على الفائت وفرحكم على الآتي ، لأنّ من علم أن ما عنده معقود لا محالة : لم يتفاقم جزعه عند فقده ، لأنه وطن نفسه على ذلك ، وكذلك من علم أنّ بعض الخير واصل إليه ، وأن وصوله لا يفوته بحال : لم يعظم فرحه عند نيله وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ

(89/749)

فَخُورٍ

لأنّ من فرح بحظ من الدنيا وعظم في نفسه : اختال وافتخر به وتكبر على الناس .

قرئ : بما آتاكم . وأتاكم ، من الإيتاء والإتيان . وفي قراءة ابن مسعود : بما أوتيتم . فإن قلت : فلا أحد يملك نفسه – عند مضرة تنزل به ، ولا عند منفعة ينالها – أن لا يحزن ولا يفرح . قلت : المراد : الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر اللّه ورجاء ثواب الصابرين ، والفرح المطغى الملهى عن الشكر ، فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام ، والسرور بنعمة اللّه والاعتداد بها مع الشكر : فلا بأس بهما الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بدل من قوله كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ كأنه قال : لا يحب الذين يبخلون ، يريد : الذين يفرحون الفرح المطغى إذا رزقوا مالا وحظا من الدنيا فلحبهم له وعزته عندهم وعظمه في عيونهم : يزوونه عن حقوق اللّه ويبخلون به ، ولا يكفيهم أنهم بخلوا حتى يحملوا الناس على

البخل ويرغبوهم في الإمساك ويزينوه لهم، وذلك كله نتيجة فرحهم به وبطرهم عند إصابته وَمَنْ يَتَوَلَّ عن أوامر اللّه ونواهيه ولم ينته عما نهى عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتى: فإنّ اللّه غنى عنه. وقرئ: بالبخل. وقرأ نافع: فإنّ اللّه الغنى، وهو في مصاحف أهل المدينة والشام كذلك.

[سورة الحديد (57): آية 25]

لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)

لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا يعنى الملائكة إلى الأنبياء بِالْبَيِّناتِ بالحجج والمعجزات وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ أى الوحى وَالْمِيزانَ روى أنّ جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح وقال: مر قومك يزنوا به وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ قيل: نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد: السندان، والكلبتان، والميقعة، والمطرقة «1»

، والإبرة. وروى: ومعه المر والمسحاة. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم: أنّ اللّه تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض:

أنزل الحديد، والنار، والماء، والملح «2»

. وعن الحسن وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ: خلقناه، كقوله تعالى وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ وذلك أن أوامره

تنزل من السماء وقضاياه وأحكامه فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وهو القتال به وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ في مصالحهم ومعايشهم وصنائعهم، فما من صناعة

---

(1). قوله «والميقعة والمطرقة... الخ» في الصحاح «الميقعة»: المطرقة. والميقعة - أيضا -: المسن الطويل.

والمر: الحبل، والمسحاة كالمجرفة، إلا أنها من حديد. (ع)

(2). أخرجه الثعلبي من حديث ابن عمر، وفي إسناده من لا أعرفه.

(90/749)

إلا والحديد آلة فيها، أو ما يعمل بالحديد وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين بِالْغَيْبِ غائبا عنهم، قال ابن عباس رضى اللّه عنهما: ينصرونه ولا يبصرونه إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ غنى بقدرته وعزته في إهلاك من يريد هلاكه عنهم، وإنما كلفهم الجهاد لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب.

[سورة الحديد (57): آية 26]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (26)

وَالْكِتابَ والوحى. وعن ابن عباس: الخط بالقلم، يقال: كتب كتابا وكتابة مِنْهُمْ فمن الذرية أو من المرسل إليهم، وقد دل عليهم ذكر الإرسال والمرسلين. وهذا تفصيل لحالهم، أى: فمنهم مهتد ومنهم فاسق، والغلبة للفساق.

[سورة الحديد (57) : آية 27]

ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (27)

قرأ الحسن: الإنجيل، بفتح الهمزة، وأمره أهون من أمر البرطيل والسكينة فيمن رواهما بفتح الفاء، لأنّ الكلمة أعجمية لا يلزم فيها حفظ أبنية العرب. وقرئ: رآفة، على: فعالة، أى: وفقناهم للتراحم والتعاطف بينهم. ونحوه في صفة أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رُحَماءُ بَيْنَهُمْ. والرهبانية: ترهبهم في الجبال فارّين من الفتنة في الدين، مخلصين أنفسهم للعبادة، وذلك أنّ الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد موت عيسى، فقاتلوهم ثلاث مرات، فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا القليل، فخافوا أن يفتنوا في دينهم، فاختاروا الرهبانية: ومعناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان، «1»

وهو الخائف: فعلان من رهب، كخشيان من خشي. وقرئ: ورهبانية بالضم، كأنها نسبة إلى الرهبان: وهو جمع راهب كراكب وركبان، وانتصابها بفعل مضمر «2»

يفسره

---

(1) . قال محمود : «الرهبانية : الفعلة المنسوبة للرهبان . . . الخ» قال أحمد : وفيه إشكال ، فان النسب إلى الجمع على صيغته غير مقبول عندهم حتى يرد إلى مفرده ، إلا أن يقال : إنه لما صار الرهبان طائفة مخصوصة صار هذا الاسم - وإن كان جمعا - كالعلم لهم ، فلحق بأنصارى ومدائنى وأعرابى .

(2) . قال محمود : «وهي منصوبة بفعل مضمر . . . الخ» قال أحمد : في إعراب هذه الآية تورط أبو على الفارسي وتحيز إلى فئة الفتنة وطائفة البدعة ، فأعرب رهبانية على أنها منصوبة بفعل مضمر يفسره الظاهر ، وعلل امتناع العطف فقال : ألا ترى أن الرهبانية لا يستقيم حملها على جَعَلْنا مع وصفها بقوله ابْتَدَعُوها لأن ما يجعله هو تعالى لا يبتدعونه هم ، والزمخشري ورد أيضا مورده الذميم ، وأسلمه شيطانه الرجيم ، فلما أجاز ما منعه أبو على من جعلها معطوفة : أعذر لذلك بتحريف الجعل إلى التوفيق ، فرارا مما فر منه أبو على : من اعتقاد أن ذلك مخلوق للّه تعالى ، وجنوحا إلى الاشراك واعتقاد أن ما يفعلونه هم لا يفعله اللّه تعالى ولا يخلقه ، وكفى بما في هذه الآية دليلا بعد الأدلة القطعية والبراهين العقلية على بطلان ما اعتقداه ، فانه ذكر محل الرحمة والرأفة مع العلم بأن محلها القلب ، فجعل قوله فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ تأكيدا لخلقه هذه المعاني وتصويرا لمعنى الخلق بذكر محله ، ولو كان المراد أمرا غير مخلوق في قلوبهم للّه تعالى كما زعما : لم يبق لقوله في قلوب الذين

اتبعوه موقع ، ويأبى اللّه أن يشتمل كتابه الكريم على مالا موقع له ، ألهمنا اللّه الحجة ونهج بنا واضح المحجة ، إنه ولى التوفيق وواهب التحقيق .

(91/749)

الظاهر : تقديره . وابتدعوا رهبانية ابْتَدَعُوها يعنى : وأحدثوها من عند أنفسهم ونذروها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ لم نفرضها نحن عليهم إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ استثناء منقطع ، أى :

ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان اللّه فما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها كما يجب على الناذر رعاية نذره ، لأنه عهد مع اللّه لا يحل نكثه فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا يريد : أهل الرحمة والرأفة الذين اتبعوا عيسى وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ الذين لم يحافظوا على نذرهم . ويجوز أن تكون الرهبانية معطوفة على ما قبلها ، وابتدعوها : صفة لها في محل النصب ، أى : وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم ، بمعنى : وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية واستحداثها ، ما كتبناها عليهم إلا ليبتغوا بها رضوان اللّه ويستحقوا بها الثواب ، على أنه كتبها عليهم وألزمها إياهم ليتخلصوا من الفتن ويبتغوا بذلك رضا اللّه وثوابه ، فما رعوها جميعا حق رعايتها ، ولكن بعضهم ، فآتينا المؤمنين المراعين منهم للرهبانية أجرهم

، وكثير منهم فاسقون. وهم الذين لم يرعوها.

[سورة الحديد (57) : آية 28]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا يجوز أن يكون خطابا للذين آمنوا من أهل الكتاب والذين آمنوا «1» من غيرهم، فإن كان خطابا لمؤمنى أهل الكتاب. فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد يُؤْتِكُمْ اللّه كِفْلَيْنِ أى نصيبين مِنْ رَحْمَتِهِ لإيمانكم بمحمد وإيمانكم بمن قبله وَيَجْعَلْ لَكُمْ يوم القيامة نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وهو النور المذكور في قوله يَسْعى نُورُهُمْ. وَيَغْفِرْ لَكُمْ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي.

[سورة الحديد (57) : آية 29]

لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

---

(1) . قوله «والذين آمنوا» لعله والذين آمنوا. (ع)

لِئَلَّا يَعْلَمَ ليعلم أَهْلُ الْكِتابِ الذين لم يسلموا ، ولا مزيدة أَلَّا يَقْدِرُونَ أن مخففة من الثقيلة ، أصله : أنه لا يقدرون ، يعنى : أنّ الشأن لا يقدرون عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أى : لا ينالون شيئا مما ذكر من فضله من الكفلين : والنور والمغفرة ، لأنهم لم يؤمنوا برسول اللّه ، فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله ، ولم يكسبهم فضلا قط . وإن كان خطابا لغيرهم ، فالمعنى : اتقوا اللّه واثبتوا على إيمانكم برسول اللّه يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين في قوله أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ولا ينقصكم من مثل أجرهم ، لأنكم مثلهم في الإيمانين لا تفرقون بين أحد من رسله . روى أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعث جعفرا رضى اللّه عنه في سبعين راكبا إلى النجاشي يدعوه ، فقدم جعفر عليه فدعاه فاستجاب له ، فقال ناس ممن آمن من أهل مملكته وهم أربعون رجلا . ائذن لنا في الوفادة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فأذن لهم فقدموا مع جعفر وقد تهيأ لوقعة أحد ، فلما رأوا ما بالمسلمين من خصاصة : استأذنوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فرجعوا وقدموا بأموال لهم فآسوا بها المسلمين «1»

،

فأنزل اللّه الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ . . . إلى قوله . . . وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ فلما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ فخروا على المسلمين وقالوا : أما من آمن بكتابكم وكتابنا فله أجره مرّتين ، وأما من لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجركم ، فما فضلكم

علينا ؟ فنزلت . وروى أنّ مؤمنى أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرّتين ، وادعوا الفضل عليهم ، فنزلت . وقرئ لكي يعلم . ولكيلا يعلم . وليعلم . ولأن يعلم : بإدغام النون في الياء . ولين يعلم : بقلب الهمزة ياء وإدغام النون في الياء . وعن الحسن : ليلا يعلم ، بفتح اللام وسكون الياء . ورواه قطرب بكسر اللام . وقيل في وجهها : حذفت همزة أن ، وأدغمت نونها في لام لا ، فصار «للا» ثم أبدلت من اللام المدغمة ياء ، كقولهم : ديوان ، وقيراط . ومن فتح اللام فعلى أن أصل لام الجرّ الفتح ، كما أنشد :

أريد لأنسى ذكرها . «2» . .

---

(1) . المعروف أن جعفر إنما قدم بعد أحد بزمان ، قدم عند فتح خيبر . [. . . . .]

(2) أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل

لقيس بن الملوح مجنون ليلى العامرية . وقيل : لكثير صاحب عزة ، وكنى عنها بليلى تسترا . وقيل : سرقه كثير من شعر جميل صاحب بثنية . وقوله : لأنسى بفتح لام الجر على الأصل في الحروف المفردة ، وتلك : لغة عكل ، ويتعين فيها إذا دخلت على فعل منصوب بأن مضمرة كما هنا . وتروى بالكسر على اللغة المشهورة ، أى : أريد لنسيان تذكرها ، واللام زائدة ، لكنها هي التي أشعرت بحذف «إن» ، وتمثل : أصله تتمثل ، أى تتشكل وتتخيل أمامى ليلى بكل طريق ، إما الحسى وإما طريق الذكر ، والأول أوجه ،

بدليل قوله «كأنما» وتمثلها له يوجب تذكرها . وما زائدة بعد كان ، كافة لها عن العمل فلذلك دخلت على الفعل .

(93/749)

وقرئ : أن لا يقدروا بِيَدِ اللَّهِ في ملكه وتصرفه . واليد مثل يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ ولا يشاء إلا إيتاء من يستحقه . عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا باللّه ورسله» «1» . انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 477.484﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى كعب .

(94/749)

وقال الماوردى :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها نزلت في قوم موسى عليه السلام قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم ،

قاله ابن حيان .

الثاني : في المنافقين آمنوا بألسنتهم وكفروا بقلوبهم ، قاله الكلبي .

الثالث : أنها في المؤمنين من أمتنا ، قاله ابن عباس وابن مسعود ، والقاسم بن محمد .

ثم اختلف فيها على ثلاثة أقاويل :

أحدها : ما رواه أبو حازم عن عون بن عبد الله عن ابن مسعود قال : ما كان بين أن أسلمنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين ، فجعل ينظر بعضنا إلى بعض ويقول ما أحدثنا .

قال الحسن : يستبطئهم وهم أحب خلقه إليه .

الثاني : ما رواه قتادة عن ابن عباس أن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاثة عشرة سنة ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ الآية .

الثالث : ما رواه المسعودي عن القاسم قال : مل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة فقالوا يا رسول الله حدثنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ ثم ملوا مرة فقالوا : حدثنا يا رسول الله ، فأنزل الله ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

قال شداد بن أوس : كان يروى لنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْخُشُوعُ " . ومعنى قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ ألم يحن ، قال الشاعر :

ألم يأن لي يا قلب أن اترك الجهلا . . . وأن يحدث الشيب المبين لنا عقلا

وفي ﴿ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن تلين قلوبهم لذكر الله .

الثاني : أن تذل قلوبهم من خشية الله .

الثالث : أن تجزع قلوبهم من خوف الله .

وفي ذكر الله ها هنا وجهان :

أحدهما : أنه القرآن ، قاله مقاتل .

(95/749)

الثاني : أنه حقوق الله ، وهو محتمل .

﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : القرآن ، قاله مقاتل .

الثاني : الحلال والحرام ، قاله الكلبي .

الثالث : يحتمل أن يكون ما أنزل من البينات والهدى .

﴿ اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يلين القلوب بعد قسوتها ، قاله صالح المري .

الثاني : يحتمل أنه يصلح الفساد .

الثالث : أنه مثل ضربه لإحياء الموتى . روى وكيع عن أبي رزين قال : قلت يا رسول الله كيف يحيى الله الأرض بعد موتها ؟ فقال : "يَا أَبَا رُزَيِنَ أَمَا مَرَرْتَ بِوَادٍ مُمْحَلٍ ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرَةً؟ قال : بلى ، قَالَ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ المَوتَى " .

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : المصدقين لله ورسوله .

الثاني : المتصدقين بأموالهم في طاعة الله .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ أي المؤمنون بتصديق الله ورسله .

﴿ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الذين آمنوا بالله ورسله هم الصديقون وهم الشهداء عند ربهم ، قاله زيد بن أسلم .

الثاني : أن قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ كلام تام .

وقوله : ﴿ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ كلام مبتدأ وفيهم قولان :

أحدهما : أنهم الرسل يشهدون على أممهم بالتصديق والتكذيب ، قاله الكلبي .

الثاني : أنهم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة .

وفيما يشهدون به قولان :

أحدهما يشهدون على أنفسهم بما عملوا من طاعة ومعصية ، وهذا معنى قول مجاهد .

الثاني : يشهدون لأنبيائهم بتبليغ الرسالة إلى أممهم ، قاله الكلبي .

وقال مقاتل قولاً ثالثاً : أنهم القتلى في سبيل الله لهم أجرهم عند ربهم يعني ثواب أعمالهم .

﴿ وَنُورُهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : نورهم على الصراط .

(96/749)

الثاني : إيمانهم في الدنيا ، حكاه الكلبي .

﴿ اعْلَمُواْ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أكل وشرب ، قاله قتادة .

الثاني : أنه على المعهود من اسمه ، قال مجاهد : كل لعب لهو .

ويحتمل تأويلاً ثالثاً : أن اللعب ما رغَّب في الدنيا ، واللهو ما ألهى عن الآخرة .

ويحتمل رابعاً : أن اللعب الاقتناء ، واللهو النساء .

﴿ وَزِينَةٌ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن الدنيا زينة فانية .

الثاني : أنه كل ما بوشر فيها لغير طاعة .

﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : بالخلقة والقوة .

الثاني : بالأنساب على عادة العرب في التنافس بالآباء .

﴿ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ ﴾ لأن عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأموال والأولاد ، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعات .

ثم ضرب لهم مثلاً بالزرع ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ بعد خضرة .

﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ حُطَاماً ﴾ بالرياح الحطمة ، فيذهب بعد حسنه ، كذلك دنيا الكافر .

﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله أبو سعيد .

الثاني : الصف الأول ، قاله رباح بن عبيد .

الثالث : إلى التكبيرة الأولى مع الإمام ، قاله مكحول .

الرابع : إلى التوبة : قاله الكلبي .

﴿ وجَنَةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَآءِ ﴾ ترغيباً في سعتها ، واقتصر على ذكر العرض دون الطول لما في العرض من الدلالة على الطول ، ولأن من عادة العرب أن تعبر عن سعة الشيء

بعرضه دون طوله ، قال الشاعر :

كأن بلاد الله وهي عريضة . . . على الخائف المطلوب حلقة خاتم .

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الجنة ، قاله الضحاك . الثاني : الدين ، قاله ابن عباس .

وفي ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ قولان :

أحدهما : من المؤمنين ، إن قيل إن الفضل الجنة .

(97/749)

الثاني : من جميع الخلق ، إن قيل إنه الدين .

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الجوائح في الزرع والثمار .

الثاني : القحط والغلاء .

﴿ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : في الدين ، قاله ابن عباس .

الثاني : الأمراض والأوصاب ، قاله قتادة .

الثالث : إقامة الحدود ، قاله ابن حبان .

الرابع : ضيق المعاش ، وهذا معنى رواية ابن جريج .

﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ يعني اللوح المحفوظ .

﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ قال سعيد بن جبير : من قبل أن نخلق المصائب ونقضيها .

﴿ لِكَيْلاَ تَأْسَوْاْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من الرزق الذي لم يقدر لكم ، قاله ابن عباس ، والضحاك .

الثاني : من العافية والخصب الذي لم يقض لكم ، قاله ابن جبير .

﴿ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَاكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من الدنيا ، قاله ابن عباس .

الثاني : من العافية والخصب ، وهذا مقتضى قول ابن جبير .

وروى عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ لِكَيْلاَ تَأْسَوْاْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَاكُمْ ﴾ قال : ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً ، والخير شكراً .

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : الذين يبخلون يعني بالعلم ، ويأمرون الناس بالبخل بألا يعلموا الناس شيئاً ، قاله ابن جبير .

الثاني : أنهم اليهود بخلوا بما في التوارة من ذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله الكلبي ، والسدي .

الثالث : أنه البخل بأداء حق الله من أموالهم ، قاله زيد بن أسلم .

الرابع : أنه البخل بالصدقة والحقوق ، قاله عامر بن عبد الله الأشعري .

الخامس : أنه البخل بما في يديه ، قال طاووس .

وفرق أصحاب الخواطر بين البخيل والسخي بفرقين :

أحدهما : أن البخيل الذي يلتذ بالإمساك ، والسخي الذي يلتذ بالعطاء .

الثاني : أن البخيل الذي يعطي عند السؤال ، والسخي الذي يعطي بغير سؤال .

﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الله أنزله مع آدم . روى عكرمة عن ابن عباس قال : ثلاث أشياء نزلت مع آدم : الحجر الأسود ، كان أشد بياضاً من الثلج ، وعصا موسى وكانت من آس الجنة ، طولها عشرة أذرع مثل طول موسى ، والحديد ، أنزل معه ثلاثة أشياء : السندان والكلبتان والميقعة وهي المطرقة .

الثاني : أنه من الأرض غير منزل من السماء ، فيكون معنى قوله :

﴿ وَأَنزَلْنَا ﴾ محمولاً على أحد وجهين :

أحدهما : أي أظهرناه .

الثاني : لأن أصله من الماء المنزل من السماء فينعقد في الأرض جوهره حتى يصير بالسبك حديداً .

﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لأن بسلاحه وآلته تكون الحرب التي هي بأس شديد .

الثاني : لأن فيه من خشية القتل خوفاً شديداً .

﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ما تدفعه عنهم دروع الحديد من الأذى وتوصلهم إلى الحرب والنصر .

الثاني : ما يكف عنهم من المكروه بالخوف عنه .

وقال قطرب : البأس السلاح ، والمنفعة الآلة .

﴿ . . وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن الرأفة اللين ، والرحمة الشفقة .

الثاني : أن الرأفة تخفيف الكل ، والرحمة تحمل الثقل .

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ فيه قراءتان :

إحداهما : بفتح الراء وهي الخوف من الرهب .

الثانية : بضم الراء وهي منسوبة إلى الرهبان ومعناه أنهم ابتدعوا رهبانية ابتدؤوها .

وسبب ذلك ما حكاه الضحاك : [أنهم] بعد عيسى ارتكبوا المحارم ثلاثمائة سنة فأنكرها عليهم من كان على منهاج عيسى فقتلوهم ، فقال قوم بقوا بعدهم : نحن إذا نهيناهم قتلونا ، فليس يسعنا المقام بينهم ، فاعتزلوا النساء واتخذوا الصوامع ، فكان هذا ما ابتدعوه من الرهبانية التي لم يفعلها من تقدمهم وإن كانوا فيها محسنين .

(99/749)

﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي لم تكتب عليهم وفيها ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها رفض النساء واتخاذ الصوامع ، قاله قتادة .

الثاني : أنها لحوقهم بالجبال ولزومهم البراري ، وروي فيه خبر مرفوع .

الثالث : أنها الانقطاع عن الناس والانفراد بالعبادة .

وفي الرأفة والرحمة التي جعلها في قلوبهم وجهان :

[الأول] : أنه جعلها في قلوبهم بالأمر بها والترغيب فيها .

الثاني : جعلها بأن خلقها فيهم وقد مدحوا بالتعريض بها .

﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَآءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ أي لم تكتب عليهم قبل ابتداعها ولا كتبت بعد ذلك عليهم .

الثاني : أنهم تطوعوا بها بابتداعها ، ثم كتبت بعد ذلك عليهم ، قاله الحسن .

﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنهم ما رعوها لتكذيبهم بمحمد .

الثاني : بتبديل دينهم وتغييرهم فيه قبل مبعث الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله عطية العوفي .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِ ﴾ معناه يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد .

﴿ يُؤْتِكُم كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن أحد الأجرين لإيمانهم بمن تقدم من الأنبياء ، والآخر لإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن أحدهما : أجر الدنيا ، والآخر أجر الآخرة ، قاله ابن زيد .

ويحتمل ثالثاً : أن أحدهما أجر اجتناب المعاصي ، والثاني أجر فعل الطاعات .

ويحتمل رابعاً : أن أحدهما أجر القيام بحقوق الله والثاني أجر القيام بحقوق العباد .

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه القرآن ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه الهدى ، قاله مجاهد .

(100/749)

ويحتمل ثالثاً : أنه الدين المتبوع في مصالح الدنيا وثواب الآخرة . وقد روى أبو بريدة بن أبي موسى الأشعري عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثَلاَثَةٌ يُؤْتَونَ أَجْرَهُم مَرَّتَين : رَجُلٌ آمَنَ بِالكِتَابِ الأَوَّلِ وَالْكِتَابِ الآخِرِ ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا وَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَنَصَحَ لِسَيِّدِهِ " .

﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ قال الأخفش : معناه ليعلم أهل الكتاب وأن " لا " صلة زائدة

وقال الفراء : لأنْ لا يعلم أهل الكتاب و " لا " صلة زائدة في كلام دخل عليه جحد .

﴿ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من دين الله وهو الإسلام قاله مقاتل .

الثاني : من رزق الله ، قاله الكلبي .

وفيه ثالث : أن الفضل نعم الله التي لا تحصى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 5 صـ 477.486﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا ﴾

اختلفوا فيمن نزلت على قولين .

أحدهما : أنها نزلت في المؤمنين .

قال ابن مسعود : ما كان بين إسلامنا ، وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين ، فجعل المؤمنون يعاتب بعضهم بعضاً .

والثاني : أنها نزلت في المنافقين ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

قال مقاتل : سأل المنافقون سلمان الفارسي فقالوا : حدِّثنا عن التوراة ، فإن فيها العجائب ، فنزلت هذه الآية .

وقال الزجاج : نزلت هذه الآية في طائفة من المؤمنين حُثُّوا على الرِّقَّة والخشوع .

فأما من كان وصفه الله عز وجل بالخشوع ، والرِّقَّة ، فطبقة من المؤمنين فوق هؤلاء .

فعلى الأول : يكون الإيمان حقيقة .

وعلى الثاني : يكون المعنى : "ألم يأن للذين آمنوا" بألسنتهم .

قال ابن قتيبة : المعنى : ألم يحن ، تقول : أنى الشيء : إذا حان .

قوله تعالى : ﴿ أن تخشع قلوبهم ﴾ أي : تَرِقّ وتلين لذكر الله .

المعنى : أنه يجب أن يورثهم الذِّكْر خشوعاً ﴿ وما نزل من الحق ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي "وما نزَّل" بفتح النون ، والزاي ، مع تشديد الزاي .

وقرأ نافع ، وحفص ، والمفضل عن عاصم "نزل" بفتح النون ، وتخفيف الزاي .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، ويونس بن حبيب عن أبي عمرو ، وأبان عن عاصم "نُزِّل" برفع النون ، وكسر الزاي ، مع تشديدها .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو رجاء "وما أَنزل" بهمزة مفتوحة ، وفتح الزاي .

وقرأ أبو مجلز ، وعمرو بن دينار مثله ، إلا أنه بضم الهمزة ، وكسر الزاي .

و"الحق" القرآن ﴿ ولا يكونوا ﴾ قرأ رويس عن يعقوب "لا تكونوا" بالتاء ﴿ كالذين أوتوا الكتاب ﴾ يعني : اليهود ، والنصارى ﴿ فطال عليهم الأمد ﴾ وهو : الزمان .

وقال ابن قتيبة : الأمد : الغاية .

والمعنى : أنه بَعُد عهدهم بالأنبياء والصالحين ﴿ فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾ وهم الذين لم يؤمنوا بعيسى ومحمد عليهما السلام ﴿ إعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ﴾ أي : يخرج منها النبات بعد يبسها ، فكذلك يقدر على إحياء الأموات ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي : لكي تتأملوا .

قوله تعالى : ﴿ إن المصَّدّقين والمصَّدّقات ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم إلا حفصاً بتخفيف الصاد فيهما على معنى التصديق وقرأ الباقون ، بالتشديد على معنى الصدقة .

قوله تعالى : ﴿ أولئك هم الصِّدّيقون والشهداء عند ربهم ﴾ اختلفوا في نظم الآية على قولين .

أحدهما : أن تمام الكلام عند قوله تعالى : ﴿ أولئك هم الصِّدّيقون ﴾ ثم ابتدأ فقال تعالى : ﴿ والشهداء عند ربهم ﴾ هذا قول ابن عباس ، ومسروق ، والفراء في آخرين .

والثاني : أنها على نظمها .

والواو في "والشهداء" واو النسق .

ثم في معناها قولان .

أحدهما : أن كل مؤمن صِدّيق شهيد ، قاله ابن مسعود ، ومجاهد .

والثاني : أنها نزلت في قوم مخصوصين ، وهم ثمانية نفر سبقوا إلى الإسلام : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وحمزة بن عبد المطلب ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وزيد ، قاله

الضحاك .

وفي الشهداء قولان .

أحدهما : أنه جمع شاهد .

ثم فيهم قولان .

أحدهما : أنهم الأنبياء خاصة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم الشاهدون عند ربهم على أنفسهم بالإيمان لله ، قاله مجاهد .

والقول الثاني : أنه جمع شهيد ، قاله الضحاك ، ومقاتل .

قوله تعالى : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا ﴾ يعني : الحياة في هذه الدار ﴿ لعب ولهو ﴾ أي : غرور ينقضي عن قليل .

(103/749)

وذهب بعض المفسرين إلى أن المشار بهذا إلى حال الكافر في دنياه ، لأن حياته تنقضي على لهو ولعب وتزين الدنيا ، ويفاخر قرناءه وجيرانه ، ويكاثرهم بالأموال والأولاد ، فيجمع من غير حلّه ، ويتطاول على أولياء الله بماله ، وخدمه ، وولده ، فيفنى عمره في هذه الأشياء ، ولا يلتفت إلى العمل للآخرة .

ثم بين لهذه الحياة شبهاً، فقال: ﴿ كمثل غيث ﴾ يعني: مطراً ﴿ أعجب الكفار ﴾ وهم الزُرَّاع، وسموا كفاراً، لأن الزارع إذا ألقى البذر في الأرض كفره، أي: غطاه ﴿ نباتُه ﴾ أي: ما نبت من ذلك الغيث ﴿ ثم يهيج ﴾ أي: ييبس ﴿ فتراه مصفراً ﴾ بعد خضرته ورِيِّه ﴿ ثم يكون حطاماً ﴾ أي: ينحطم، وينكسر بعد يبسه.

وشرح هذا المثل قد تقدم في "يونس" عند قوله تعالى: ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا ﴾ [آية: 24] وفي "الكهف" عند قوله تعالى: ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ﴾ [آية: 45].

قوله تعالى: ﴿ وفي الآخرة عذاب شديد ﴾ أي: لأعداء الله ﴿ ومغفرة من الله ورضوان ﴾ لأوليائه وأهل طاعته.

وما بعد هذا مذكور في [آل عمران: 185] إلى قوله: ﴿ ذلك فضل الله ﴾ فبين أنه لا يدخل الجنة أحد إلا بفضل الله.

قوله تعالى: ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ﴾ يعني: قحط المطر، وقلة النبات، ونقص الثمار ﴿ ولا في أنفسكم ﴾ من الأمراض، وفقد الأولاد ﴿ إلا في كتاب ﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ أن نخلقها، يعني: الأنفس ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ أي: إثبات ذلك على كثرته هيِّن على الله عز وجل ﴿ لكيلا تأسَوا ﴾ أي: تحزنوا ﴿ على ما فاتكم ﴾ من الدنيا ﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ وقرأ أبو عمرو الا

اختيار اليزيدي بالقصر على معنى : جاءكم من الدنيا .

وقرأ الباقون بالمدّ على معنى : أعطاكم الله منها .

وأعلم أنه من علم أن ما قضي لا بدّ أن يصيبه قلّ حُزنه وفرحه .

وقد روى قتيبة بن سعيد قال : دخلت بعض أحياء العرب ، فإذا بفضاء من الأرض فيه من الإبل ما لا يحصى عدده كلُّها قد مات ، فسألت عجوزاً : لمن كانت هذه الإبل ؟ فأشارت إلى شيخ على تلٍّ يغزل الصوف فقلت له : يا شيخ ألك كانت هذه الإبل ؟ قال : كانت باسمي ، قلت : فما أصابها ؟ قال : ارتجعها الذي أعطاها ، قلت : فهل قلت في ذلك شيئاً ؟ قال نعم ، قلت :

لا والَّذي أَنَا عَبْدٌ في عِبَادَتِهِ . . .

والمَرْءُ في الدَّهْر نصْبَ الرُّزْءِ والحَزَنَ

ما سَرَّني أَنَّ إِبْلي في مَبارِكها . . .

وما جرى في قَضَا رَبِّ الوَرَى يَكُنِ

وما بعد هذا قد ذكرناه في سورة [النساء : 37] والذي قيل في البخل هناك هو الذي قيل

هاهنا إلى قوله: ﴿ ومن يتول ﴾ أي: عن الإيمان ﴿ فإن الله هو الغني ﴾ عن عباده ﴿ الحميد ﴾ إلى أوليائه.

وقد سبق معنى الاسمين في [البقرة: 267] وقرأ نافع وابن عامر: "فإن الله الغني الحميد" ليس فيها "هو" وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة، والشام.

قوله تعالى: ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ أي: بالآيات والحجج ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ ببيان الشرائع، والأحكام.

وفي "الميزان" قولان.

أحدهما: أنه العدل، قاله ابن عباس، وقتادة.

والثاني: أنه الذي يوزن به، قاله ابن زيد ومقاتل.

فعلى القول الأول: يكون المعنى: وأمرنا بالعدل.

وعلى الثاني: ووضعنا الميزان، أي: أمرنا به ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾ أي: لكي يقوموا بالعدل.

قوله تعالى: ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾ فيه قولان.

أحدهما: أن الله تعالى أنزل مع آدم السندان، والكلبتين، والمطرقة، قاله ابن عباس.

والثاني: أن معنى "أنزلنا": أنشأنا وخلقنا، كقوله تعالى: ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [الزمر: 6].

قوله تعالى : ﴿ فيه بأس شديد ﴾ قال الزجاج : وذلك أنه يُمتَنع به ، ويُحارَب به ﴿ ومنافع للناس ﴾ في أدواتهم : وما ينتفعون به من آنية وغيرها .

(105/749)

قوله تعالى : ﴿ وليعلمَ الله ﴾ هذا معطوف على قوله تعالى : ﴿ ليقومَ الناس ﴾ ، والمعنى : ليتعامل الناس بالعدل وليعلم الله ﴿ من ينصره بالقتال في سبيله ، ونصرة دينه ، وذلك أنه أمر في الكتاب الذي أنزل بذلك .

وقد سبق معنى قوله تعالى : ﴿ وليعلم الله ﴾ في مواضع .

وقوله تعالى : ﴿ بالغيب ﴾ أي : ولم ير الله ، ولا أحكام الآخرة ، وإنما يجهد ويثاب من أطاع بالغيب .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ يعني : الكتب ﴿ فمنهم ﴾ يعني : من الذرية ﴿ مهتدٍ وكثير منهم فاسقون ﴾ فيه قولان .

أحدهما : كافرون ، قاله ابن عباس .

والثاني : عاصون ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ ثم قَفَّينا على آثارهم ﴾ أي : أَتْبَعْنا على آثار نوح ، وإبراهيم ، وذريتهما

﴿ بعيسى ﴾ وكان آخر أنبياء بني إسرائيل ، ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتَّبعوه ﴾ يعني : الحواريين وغيرهم من أتباعه على دينه ﴿ رأفةً ﴾ وقد سبق بيانها [النور : 2] متوادّين ، كما وصف الله تعالى أصحاب نبينا عليه الصلاة والسلام ، فقال تعالى : ﴿ رحماء بينهم ﴾ [الفتح : 29] .

قوله تعالى : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ ليس هذا معطوفاً على ما قبله ، وإنما انتصب بفعل مضمر ، يدل عليه ما بعده ، تقديره : وابتدعوا رهبانيةً ابتدعوها ، أي : جاؤوا بها من قِبل أنفسهم ، وهي غلوُّهم في العبادة ، وحمل المشاق على أنفسهم في الامتناعِ عن المطعم والمشرب والملبس والنكاح والتعبُّد في الجبال ﴿ ما كتبناها عليهم ﴾ أي : ما فرضناها عليهم .

وفي قوله تعالى : ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ قولان .

أحدهما : أنه يرجع إلى قوله تعالى : "ابتدعوها" ، وتقديره : ما كتبناها عليهم إلا أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ، ذكره علي بن عيسى ، والرماني عن قتادة ، وزيد بن أسلم .

والثاني : أنه راجع إلى قوله تعالى : "ما كتبناها" ثم في معنى الكلام قولان .

أحدهما : ما كتبناها عليهم بعد دخولهم فيها تطوعاً إلا ابتغاء رضوان الله .

قال الحسن : تطوَّعوا بابتداعها ثم كتبها الله عليهم .

وقال الزجاج : لما ألزموا أنفسهم ذلك التطوع لزمهم إِتمامه ، كما أن الإِنسان إِذا جعل على نفسه صوماً لم يفترض عليه ، لزمه أن يتمَّه .

قال القاضي أبو يعلى : والابتداع قد يكون بالقول ، وهو ما ينذره ويوجبه على نفسه ، وقد يكون بالفعل بالدخول فيه .

وعموم الآية تتضمن الأمرين ، فاقتضى ذلك أن كل من ابتدع قربة ، قولاً ، أو فعلاً ، فعليه رعايتها وإِتمامها .

والثاني : أن المعنى : ما أمرناهم منها إِلا بما يرضي الله عز وجل ، لا غير ذلك ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ فما رَعَوْها حق رعايتها ﴾ في المشار إليهم قولان .

أحدهما : أنهم الذين ابتدعوا الرهبانية ، قاله الجمهور .

ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم ما رَعَوْها لتبديل دينهم وتغييرهم له ، قاله عطية العوفي .

والثاني : لتقصيرهم فيما ألزموه أنفسهم .

والثالث : لكفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم لما بُعث ، ذكر القولين الزجاج .

والثاني : أنهم الذين اتبعوا مبتدعي الرهبانية في رهبانيتهم ، ما رَعوها بسلوك طريق أوليهم ، روى هذا المعنى سعيد بن جبير عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ فيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : الذين آمنوا بمحمد ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ وهم الذين لم يؤمنوا به .

والثاني : أن الذين آمنوا : المؤمنون بعيسى ، والفاسقون : المشركون .

والثالث : أن الذين آمنوا : مبتدعو الرهبانية ، والفاسقون : متبعوهم على غير القانون الصحيح .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ﴾ عامة المفسرين على أن هذا الخطاب لليهود والنصارى .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله ، وآمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يؤتكم كفلين ﴾ أي : نصيبين ، وحظّين ﴿ من رحمته ﴾ قال الزجاج : الكفل : كساء يمنع الراكب أن يسقط ، فالمعنى : يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصي .

وقد بينا "معنى" "الكفل" في سورة [النساء : 85] وفي المراد بالكفلين ها هنا قولان .

أحدهما : لإيمانهم بمن تقدَّم من الأنبياء ، والآخر : لإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن أحدهما : أجر الدنيا ، والثاني : أجر الآخرة ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ ويجعل لكم نوراً ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدها : القرآن ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : نوراً تمشون به على الصراط ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : الهدى ، قاله مجاهد .

والرابع : الإيمان ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ لئلا يعلم ﴾ "لا" زائدة .

قاله الفراء : والعرب تجعل "لا" صلة في كل كلام دخل في آخره أو أوله جحد ، فهذا مما جُعل في آخره جحد .

والمعنى : ليعلم ﴿ أهل الكتاب ﴾ الذين لم يؤمنوا بمحمد ﴿ ألاَّ يقدرون ﴾ أي : أنهم لا يقدرون ﴿ على شيءٍ من فضل الله ﴾ والمعنى : أنه جعل الأجرين لمن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ليعلم من لم يؤمن به أنه لا أجر لهم ولا نصيب في فضل الله ﴿ وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴾ فآتاه المؤمنين .

هذا تلخيص قول الجمهور في هاتين الآيتين .

وقد ذهب قوم إلى أنه لما نزل في مُسلمة أهل الكتاب ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أولئك يؤتَون أجرهم مرتين ﴾ [القصص : 54 ، 52] افتخروا على المسلمين بزيادة الأجر ، فشق ذلك على المسلمين ، فنزلت هاتان الآيتان ، وهذا المعنى في رواية أبي صالح عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل .

(108/749)

فعلى هذا يكون الخطاب للمسلمين ، ويكون المعنى : يؤتكم أجرين ليعلم مؤمنو أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله الذي خصّكم ، فإنه فضّلكم على جميع الخلائق .
وقال قتادة : لما نزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله . . . ﴾ الآية ، حسد أهل الكتاب المسلمين عليها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب . . . ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 167.179 ﴾

(109/749)

وقال الخازن:

قوله تعالى: ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾

(110/749)

قيل نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة وذلك أنهم قالوا لسلمان الفارسي ذات يوم حدثنا عن التوراة فإن فيها العجائب فنزل ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ فأخبرهم أن القرآن أحسن من غيره فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله ثم عادوا فسألوه مثل ذلك فنزل ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ الآية فكفوا عن سؤاله ما شاء الله ثم عادوا فسألوه فنزلت هذه الآية فعلى هذا القول يكون تأويل قوله: ﴿ ألم يأن للذين آمنوا ﴾ يعني في العلانية باللسان ولم يؤمنوا بالقلب، وقيل نزلت في المؤمنين وذلك أنهم لما قدموا المدينة أصابوا من لين العيش ورفاهيته ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا ونزل في ذلك ألم يأن للذين آمنوا الآية قال ابن مسعود ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين أخرجه مسلم وقال ابن عباس إن الله تعالى استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال ألم يأن يعني أما حان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم أي ترق وتلين وتخضع قلوبهم لذكر الله أي لمواعظ الله ﴿ وما نزل من الحق ﴾ يعني القرآن ﴿

ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ﴾ يعني اليهود والنصارى ، ﴿ فطال عليهم الأمد ﴾ أي الزمان الذي بينهم وبين أنبيائهم ﴿ فقست قلوبهم ﴾ قال ابن عباس مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ القرآن والمعنى أن الله نهى المؤمنين أن يكونوا في صحبة القرآن كاليهود والنصارى الذين قست قلوبهم لما طال عليهم الدهر روي عن أبي موسى الأشعري أنه بعث إلى قراء البصرة فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرؤوا القرآن فقال أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ يعني الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد (صلى الله عليه وسلم) قوله : ﴿ اعلموا أن الله يحيي الأرض ﴾ أي بالمطر ﴿ بعد موتها ﴾ أي يخرج منها النبات بعد يبسها فكذلك يقدر على إحياء الموتى وقال ابن

عباس يلين القلوب بعد قسوتها فيجعلها مخبتة منيبة وكذلك يحيي القلوب الميتة بالعلم والحكمة وإلا فقد علم إحياء الأرض بالمطر مشاهدة ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ أي الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿ لعلكم تعقلون إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ أي بالنفقة والصدقة في سبيل الله ﴿ يضاعف لهم ﴾ أي ذلك القرض ﴿

ولهم أجر كريم ﴾ أي ثواب حسن وهو الجنة.

﴿ والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون ﴾ أي الكثير والصدق قال مجاهد كل من آمن بالله ورسوله فهو صديق وتلا هذه الآية فعلى هذا الآية عامة في كل من آمن بالله ورسوله وقيل إن الآية خاصة في ثمانية نفر من هذه الأمة سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام وهم أبو بكر وعلي وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة وتاسعهم عمر بن الخطاب ألحقه الله بهم لما عرف من صدق نيته، ﴿ والشهداء عند ربهم ﴾ قيل أراد بالشهداء المؤمنين المخلصين قال مجاهد كل مؤمن صديق شهيد وتلا هذه الآية وقيل هم التسعة الذين تقدم ذكرهم وقيل تم الكلام عند قوله هم الصديقون ثم ابتدأ والشهداء عند ربهم وهم الأنبياء الذين يشهدون على الأمم يروى ذلك عن ابن عباس وقيل هم الذين استشهدوا في سبيل الله، ﴿ لهم أجرهم ﴾ أي بما عملوا من العمل الصالح ﴿ ونورهم ﴾ يعني على الصراط ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ لما ذكر حال المؤمنين أتبعه بحال الكافرين.

قوله : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا ﴾ أي مدة الحياة في هذه الدار الدنيا وإنما أراد من صرف حياته في غير طاعة الله فحياته مذمومة ومن صرف حياته في طاعة الله فحياته خير كلها ثم وصفها بقوله ﴿ لعب ﴾ أي باطل لا حاصل له كلعب الصبيان ﴿ ولهو ﴾ أي فرح ساعة ثم ينقضي عن قريب ﴿ وزينة ﴾ أي منظر يتزينون به ﴿ وتفاخر بينكم ﴾ يعني إنكم تشتغلون في حياتكم بما يفتخر به بعضكم على بعض ﴿ وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾ أي مباهاة بكثرة الأموال والأولاد وقيل بجمع ما لا يحل له فيتطاول بماله وخدمه وولده على أولياء الله تعالى وأهل طاعته ثم ضرب لهذه الحياة مثلاً فقال تعالى : ﴿ كمثل غيث أعجب الكفار ﴾ أي الزراع إنما سمي الزراع كفاراً لسترهم الأرض بالبذر ﴿ نباته ﴾ أي ما نبت بذلك الغيث ﴿ ثم يهيج ﴾ أي ييبس ﴿ فتراه مصفرّاً ﴾ أي بعد خضرته ﴿ ثم يكون حطاماً ﴾ أي يتحطم ويتكسر بعد يبسه ويفنى ﴿ وفي الآخرة عذاب شديد ﴾ أي لمن كانت حياته بهذه الصفة قال أهل المعاني زهد الله بهذه الآية في العمل للدنيا وهذه صفة حياة الكافرين وحياة من يشتغل باللعب واللهو ورغب في العمل للآخرة بقوله : ﴿ ومغفرة من الله ورضوان ﴾ أي لأوليائه وأهل طاعته وقيل عذاب شديد لأعدائه ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه لأن الآخرة إما عذاب وإما جنة ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ أي لمن عمل لها ولم يعمل للآخرة فمن اشتغل في الدنيا بطلب الآخرة في له بلاغ إلى ما هو خير منه وقيل متاع الغرور لمن لم يشتغل فيها بطلب الآخرة .

قوله : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ معناه لتكن مفاخرتكم ومكاثرتكم في غير ما أنتم عليه بل احرصوا على أن تكون مسابقتكم في طلب الآخرة والمعنى سارعوا مسارعة المسابقين في المضمار إلى مغفرة أي إلى ما يوجب المغفرة وهي التوبة من الذنوب وقيل سابقوا إلى ما كلفتم به من الأعمال فتدخل فيه التوبة وغيرها ، ﴿ وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ قيل إن السموات السبع والأرضين السبع لو جعلت صفائح وألزق بعضها ببعض لكان عرض الجنة في قدرها جميعاً وقال ابن عباس إن لكل واحد من المطيعين جنة بهذه السعة وقيل إن الله تعالى شبه عرض الجنة بعرض السموات والأرضين ولا شك أن الطول يكون أزيد من العرض فذكر العرض تنبيهاً على أن طولها أضعاف ذلك وقيل إن هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه ويقع في نفوسهم وأفكارهم وأكثر ما يقع في نفوسهم مقدار السموات والأرض فشبه عرض الجنة بعرض السموات والأرض على ما يعرفه الناس ، ﴿ أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ﴾ فيه أعظم رجاء وأقوى أمل لأنه ذكر أن الجنة أعدت لمن آمن بالله ورسله ولم يذكر مع الإيمان شيئاً آخر يدل عليه قوله في سياق الآية ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ فبين أنه لا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله تعالى لا بعمله ،

﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لن يدخل أحداً منكم الجنة عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل رحمته" وقد تقدم الكلام على معنى هذا الحديث والجمع بينه وبين قوله ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون في تفسير سورة النحل.

(114/749)

قوله تعالى: ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ﴾ يعني عدم المطر وقلة النبات ونقص الثمار، ﴿ ولا في أنفسكم ﴾ يعني الأمراض وفقد الأولاد ﴿ إلا في كتاب ﴾ يعني في اللوح المحفوظ ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ أي من قبل أن نخلق الأرض والأنفس وقال ابن عباس من قبل أن نبرأ المصيبة ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ أي إثبات ذلك على كثرته هين على الله: ﴿ لكيلا تأسوا ﴾ أي تحزنوا ﴿ على ما فاتكم ﴾ من الدنيا ﴿ ولا تفرحوا ﴾ أي لا تبطروا ﴿ بما آتاكم ﴾ أي أعطاكم قال عكرمة ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً قال صاحب الكشاف: إن قلت ما من أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ولا عند منفعة ينالها أن لا يحزن ولا يفرح قلت المراد الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء ثواب الصابرين والفرح المطغي

الملهي عن الشكر فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس بهما والله أعلم وقال جعفر بن محمد الصادق يا ابن آدم ما لك تأسف على مفقود لا يرده إليك الفوت وما لك تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت، ﴿ والله لا يحب كل مختال ﴾ أي متكبر بما أوتي من الدنيا ﴿ فخور ﴾ أي بذلك الذي أوتي على الناس ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ قيل هذه الآية متعلقة بما قبلها والمعنى والله لا يحب الذين يبخلون يريد إذا رزقوا مالاً وحظاً من الدنيا فلحبهم له وعزته عندهم يبخلون به ولا ينفقونه في سبيل الله ووجوه الخير ولا يكفيهم أنهم بخلوا به حتى يأمروا الناس بالبخل وقيل إن الآية كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله وإنها في صفة اليهود الذين كتموا صفة محمد (صلى الله عليه وسلم) وبخلوا ببيان نعته ﴿ ومن يتول ﴾ قال ابن عباس عن الإيمان ﴿ فإن الله هو الغني ﴾ أي عن عباده ﴿ الحميد ﴾ أي إلى أوليائه.

(115/749)

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ معناه أنه تعالى شرف نوحاً وإبراهيم بالرسالة وجعل في ذريتهما النبوة والكتاب فلا يوجد نبي إلا من

نسلهما ﴿ فمنهم ﴾ أي من الذرية ﴿ مهتد وكثير منهم فاسقون ثم قفينا ﴾ أي اتبعنا ﴿ على آثارهم برسلنا ﴾ والمعنى بعثنا رسولاً بعد رسول إلى أن انتهت الرسالة إلى عيسى ابن مريم وهو قوله تعالى : ﴿ وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه ﴾ أي على دينه ، ﴿ رأفة ورحمة ﴾ يعني أنهم كانوا متوادين بعضهم لبعض ، ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ ليس هذا عطفاً على ما قبله والمعنى أنهم جاؤوا بها من قبل أنفسهم وهي ترهبهم في الجبال والكهوف والغيران والديرة فروا من الفتنة وحملوا أنفسهم المشاق في العبادة الزائدة وترك النكاح واستعمال الخشن في المطعم والمشرب والملبس مع التقلل من ذلك ﴿ ما كتبناها عليهم ﴾ أي ما فرضناها نحن عليهم ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ أي لكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ يعني أنهم يرعوا تلك الرهبانية حق رعايتها بل ضيعوها وضموا إليها التثليث والاتحاد وكفروا بدين عيسى ودخلوا في دين ملوكهم وأقام أناس منهم على دين عيسى حتى أدركوا محمداً (صلى الله عليه وسلم) فآمنوا به فذلك قوله تعالى : ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ وهم الذين ثبتوا على الدين الصحيح ، ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ وهم الذين تركوا الرهبانية وكفروا بدين عيسى (صلى الله عليه وسلم) وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن مسعود قال دخلت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال يا ابن مسعود " اختلف من كان قبلكم على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرهن :

فرقة وازت الملوك وقاتلوهم على دين عيسى فأخذوهم وقتلوهم ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا أن يقيموا بين ظهرانيهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى فساحوا في البلاد وترهبوا وهم

(116/749)

الذين قال الله فيهم ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم " قال (صلى الله عليه وسلم) " من آمن بي وصدقني واتبعني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون " وعنه قال كنت رديف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على حمار فقال لي " يا ابن أم عبد هل تدري من أين أخذت بنو إسرائيل الرهبانية ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بالمعاصي فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا إن ظهرنا لهؤلاء فتنونا ولم يبق أحد يدعو إليه تعالى فتعالوا لنتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا عيسى به - يعنون محمداً (صلى الله عليه وسلم) - فتفرقوا في غيران الجبال وأحدثوا الرهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ثم تلا هذه الآية ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ إلى ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم ﴾ "

(117/749)

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ أجرين بإيمانهم بعيسى وبالتوراة والإنجيل وبإيمانهم بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وتصديقهم له وقال ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ القرآن واتباعهم النبي (صلى الله عليه وسلم) وقال ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ الذين يتشبهون بكم ﴿ ألا يقدرون على شيء من فضل الله ﴾ الآية أخرجه النسائي موقوفاً على ابن عباس وقال قوم انقطع الكلام عند قوله ورحمة ثم قال ورهبانية ابتدعوها وذلك أنهم تركوا الحق فأكلوا الخنزير وشربوا الخمر وتركوا الوضوء والغسل من الجنابة والختان ، ﴿ فما رعوها ﴾ يعني الملة والطاعة حق رعايتها كناية عن غير مذكور ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ وهم أهل الرأفة والرحمة ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ هم الذين غيروا وبدلوا وابتدعوا الرهبانية ويكون معنى قوله : ﴿ ابتغاء رضوان الله ﴾ على هذا التأويل : ﴿ ما كتبناها عليهم ﴾ ولكن ابتغاء رضوان الله وابتغاء رضوان الله اتباع ما أمر به دون الترهب لأنه لم يأمر به .

(118/749)

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ الخطاب لأهل الكتابين من اليهود والنصارى يعني يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله في محمد وآمنوا به وهو قوله تعالى : ﴿ وآمنوا برسوله ﴾ يعني بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ يؤتكم كفلين ﴾ أي نصيبين ﴿ من رحمته ﴾ يعني يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى والإنجيل وبمحمد (صلى الله عليه وسلم) والقرآن (ق) عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد (صلى الله عليه وسلم) والعبد المملوك الذي أدى حق مواليه وحق الله ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران " ، ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ يعني على الصراط وقال ابن عباس : النور هو القرآن وقيل هو الهدى والبيان أي يجعل لكم سبيلاً واضحاً في الدين تهتدون به ﴿ ويغفر لكم ﴾ أي ما سلف من ذنوبكم قبل الإيمان بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، ﴿ والله غفور رحيم لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ قيل لما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله : ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين ﴾ ، قالوا للمسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين لإيمانه بكتابكم وكتابنا ومن لم يؤمن فله أجر كأجركم فما فضلكم علينا فنزل ﴿ لئلا يعلم ﴾ أي ليعلم ولا صلة أهل الكتاب يعني الذين لم يؤمنوا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وحسدوا المؤمنين ﴿ ألا يقدرون ﴾ يعني أنهم لا يقدرون ﴿ على شيء من فضل الله ﴾ والمعنى جعلنا الأجرين

لمن آمن بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ليعلم الذين لم يؤمنوا به أنهم لا أجر لهم ولا نصيب من فضل الله وقيل لما نزل في مسلمي أهل الكتاب ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين ﴾ افتخروا على المسلمين بزيادة الأجر فشق ذلك على المسلمين فنزل لئلا يعلم أهل الكتاب يعني المؤمنين منهم أن لا يقدرون على شيء من فضل الله ، ﴿ وأن الفضل بيد الله ﴾

يعني الذي خصكم به فإنه فضلكم على جميع الخلائق وقيل يحتمل أن يكون الأجر الواحد أكثر من الأجرين وقيل قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبي يقطع الأيدي والأرجل فلما خرج من العرب كفروا به فأنزل هذه الآية فعلى هذا يكون فضل الله النبوة ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) وهو قوله ﴿ وأن الفضل بيد الله ﴾ أي في ملكه وتصرفه يؤتيه من يشاء لأنه قادر مختار ، ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ (خ) عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو قائم على المنبر يقول

" إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الأمم كما بين الصلاة العصر إلى غروب الشمس أوتي أهل التوراة التوراة فعلموا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطا ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين فقال اهل الكتابين أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطا قيراطا ونحن أكثر عملا قال الله تعالى هل ظلمتكم من أجركم شيئا قالوا لا قال فهو فضلي أوتيه من أشاء " وفي رواية إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقال من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط فعملت اليهود إلة نصف النهار على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ثم قال من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين إلا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى غروب الشمس ألا لكم الأجر مرتين فغضبت اليهود والنصارى وقالوا نحن أكثر عملا وأقل عطاء قال الله عز وجل وهل ظلمتكم من حقكم شيئا قالوا لا قال فإنه فضلي أصيب به من شئت " أي أعطيه من شئت

(خ) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوما يعملون له إلى الليل على أجر

معلوم فعملوا إلى نصف النهار فقالوا لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل فقال لهم لا تفعلوا اعملوا بقية يومكم وخذوا أجركم كاملا فأبوا وتركوا واستأجر آخرين بعدهم فقال اعملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا ما عملنا

(121/749)

باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه فقال أكملوا بقية عملكم فإن ما بقى من النهار شيء يسير فأبوا فاستأجر قوما أن يعملوا بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كليهما فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 34. 42 ﴾

(122/749)

وقال النسفى :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾

من أنى الأمر يأنى إذا جاء إناه أي وقته .

قيل : كانوا مجدبين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين .

وعن ابن أبي بكر رضي الله عنه : إن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاء شديداً فنظر إليهم فقال : هكذا كنا حتى قست القلوب ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق ﴾ بالتخفيف : نافع وحفص .

الباقون ﴿ نَزَّلَ ﴾ و "ما" بمعنى "الذي" ، والمراد بالذكر وما نزل من الحق القرآن لأنه جامع للأمرين للذكر والموعظة وأنه حق نازل من السماء ﴿ وَلاَ يَكُونُواْ كالذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلُ ﴾ القراءة بالياء عطف على ﴿ تَخْشَعَ ﴾ وبالتاء : ورش على الالتفاف ، ويجوز أن يكون نهياً لهم عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وبخوا ، وذلك أن بني إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم ، فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد ﴾ الأجل أو الزمان ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ باتباع الشهوات ﴿ وَكَثِيرٌ مّنْهُمْ فاسقون ﴾ خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين أي وقليل منهم

مؤمنون ﴿ اعلموا أَنَّ اللهَ يُحْيِ الأَرضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ قيل : هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب وأنه يحييها كما يحيي الغيث الأرض .

﴿ إِنَّ المصدقين والمصدقات ﴾ بتشديد الدال وحده : مكي وأبو بكر وهو اسم فاعل من "صدق" وهم الذين صدقوا الله ورسوله يعني المؤمنين .

(123/749)

الباقون بتشديد الصاد والدال وهو اسم فاعل من "تصدق" فأدغمت التاء في الصاد وقرىء على الأصل ﴿ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَنَاً ﴾ هو عطف على معنى الفعل في ﴿ المصدقين ﴾ لأن اللام بمعنى "الذين" واسم الفاعل بمعنى الفعل وهو اصدقوا كأنه قيل : إن الذين اصدقوا وأقرضوا والقرض الحسن أن يتصدق من الطيب عن طيبة النفس وصحة النية على المستحق للصدقة ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ ﴾ ﴿ يضعف ﴾ مكي وشامي ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أي الجنة ﴿ والذين ءامَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصديقون والشهداء عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يريد أن المؤمنين بالله ورسله هم عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا في سبيل الله ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أي مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم ، ويجوز أن يكون ﴿ والشهداء ﴾ مبتدأ و ﴿ لَهُمْ

أَجْرُهُمْ ﴾ خبره ﴿ والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ .

﴿ اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ ﴾ كلعب الصبيان ﴿ وَلَهْوٌ ﴾ كلهو الفتيان ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ كزينة النسوان ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ كتفاخر الأقران ﴿ وَتَكَاثُرٌ ﴾ كتكاثر الدهقان ﴿ فِى الأموال والأولاد ﴾ أي مباهاة بهما والتكاثر ادعاء الاستكثار ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكفار نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ﴾ بعد خضرته ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ﴾ متفتتاً ، شبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى وقوي وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات ، فبعث عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطاماً عقوبة لهم على جحودهم كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين .

وقيل : الكفار الزراع ﴿ وَفِى الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ للكفار ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ الله ورضوان ﴾ للمؤمنين يعني أن الدنيا وما فيها ليست إلا من محقرات الأمور وهي اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر ، وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام وهي العذاب الشديد والمغفرة والرضوان من الله الحميد .

والكاف في ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ في محل رفع على أنه خبر بعد خبر أي الحياة الدنيا مثل غيث ﴿ وَمَا الحياة الدنيا إِلاَّ متاع الغرور ﴾ لمن ركن إليها واعتمد عليها .

قال ذو النون : يا معشر المريدين لا تطلبوا الدنيا وإن طلبتموها فلا تحبوها فإن الزاد منها والمقيل في غيرها .

ولما حقر الدنيا وصغر أمرها وعظم أمر الآخرة بعث عباده على المسارعة إلى نيل ما وعد من ذلك وهي المغفرة المنجية من العذاب الشديد والفوز بدخول الجنة بقوله ﴿ سَابِقُواْ ﴾ أي بالأعمال الصالحة ﴿ إلى مَغْفِرَةٍ مّن رَّبّكُمْ ﴾ وقيل : سارعوا مسارعة السابقين لأقرانهم في المضمار ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السماء والأرض ﴾ قال السدي : كعرض سبع السماوات وسبع الأرضين .

وذكر العرض دون الطول لأن كل ماله عرض وطول فإن عرضه أقل من طوله ، فإذا وصف عرضه بالبسطة عرف أن طوله أبسط ، أو أريد بالعرض البسطة وهذا ينفي قول من يقول : إن الجنة في السماء الرابعة ، لأن التي في إحدى السماوات لا تكون في عرض السماوات والأرض ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ ﴾ وهذا دليل على أنها مخلوقة ﴿ ذلك ﴾ الموعود من المغفرة والجنة ﴿ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ وهم المؤمنون ، وفيه دليل على أنه لا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله ﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ .

ثم بين أن كل كائن بقضاء الله وقدره بقوله ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ ﴾ من الجدب وآفات الزروع والثمار .

وقوله ﴿ فِى الأَرْضِ ﴾ في موضع الجر أي ما أصاب من مصيبة ثابتة في الأرض ﴿ وَلاَ فِى أَنفُسِكُمْ ﴾ من الأمراض والأوصاب وموت الأولاد ﴿ إِلاَّ فِى كتاب ﴾ في اللوح وهو في موضع الحال أي إلا مكتوباً في اللوح ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ من قبل أن نخلق الأنفس ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ إن تقدير ذلك وإثباته في كتاب ﴿ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ وإن كان عسيراً على العباد .

ثم علل ذلك وبين الحكمة فيه بقوله :

﴿ لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ ﴾ تحزنوا حزناً يطغيكم ﴿ على مَا فَاتَكُمْ ﴾ من الدنيا وسعتها أو من العافية وصحتها ﴿ وَلاَ تَفْرَحُواْ ﴾ فرح المختال الفخور ﴿ بِمَا ءاتاكم ﴾ أعطاكم من الإيتاء .

أبو عمرو وأتاكم أي جاءكم من الإتيان يعني أنكم إذا علمتم أن كل شيء مقدر مكتوب عند الله ، قل أساكم على الفائت وفرحكم على الآتي ، لأن من علم أن ما عنده مفقود لا محالة لم يتفاقم جزعه عند فقده لأنه وطن نفسه على ذلك ، وكذلك من علم أن بعض الخير واصل إليه وأن وصوله لا يفوته بحال لم يعظم فرحه عند نيله ، وليس أحد إلا وهو يفرح عند منفعة تصيبه ويحزن عند مضرة تنزل به ولكن ينبغي أن يكون الفرح شكراً والحزن صبراً ، وإنما يذم من الحزن الجزع المنافي للصبر ومن الفرح الأشر المطغي الملهي عن الشكر ﴿ والله لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ لأن من فرح بحظ من الدنيا وعظم في نفسه اختال وافتخر به وتكبر على الناس ﴿ الذين يَبْخَلُونَ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أو بدل من كل مختال فخور كأنه قال : لا يحب الذين يبخلون ، يريد الذين يفرحون الفرح المطغي إذا رزقوا مالاً وحظاً من الدنيا ، فلحبهم له وعزته عندهم يزوونه عن حقوق الله ويبخلون به ﴿ وَيَأْمُرُونَ الناس بالبخل ﴾ ويحضون غيرهم على البخل ويرغبونهم في الإمساك ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ يعرض عن الإنفاق أو عن أوامر الله ونواهيه ولم ينته عما نهى عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتي ﴿ فَإِنَّ الله هُوَ الغنى ﴾ عن جميع المخلوقات فكيف عنه ؟ ﴿ الحميد ﴾ في أفعاله .

﴿ فَإِنَّ الله الغنى ﴾ بترك "هو" : مدني وشامي .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾ يعني أرسلنا الملائكة إلى الأنبياء ﴿ بالبينات ﴾ بالحجج والمعجزات ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب ﴾ أي الوحي .

وقيل : الرسل الأنبياء .

(127/749)

والأول أولى لقوله ﴿ مَعَهُمْ ﴾ لأن الأنبياء ينزل عليهم الكتاب ﴿ والميزان ﴾ رُوي أن جبريل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح وقال : مر قومك يزنوا به ﴿ لِيَقُومَ الناس ﴾ ليتعاملوا بينهم إيفاء واستيفاء ﴿ بالقسط ﴾ بالعدل ولا يظلم أحد أحداً ﴿ وَأَنْزْلْنَا الحديد ﴾ قيل : نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والإبرة .

ورُوي ومعه المرّ والمسحاة .

وعن الحسن : وأنزلنا الحديد خلقناه ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ وهو القتال به ﴿ ومنافع لِلنَّاسِ ﴾ في مصالحهم ومعايشهم وصنائعهم فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها أو ما يعمل بالحديد ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ ﴾ باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين .

وقال الزجاج : ليعلم الله من يقاتل مع رسوله في سبيله ﴿ بالغيب ﴾ غائباً عنهم ﴿ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ ﴾ يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته ﴿ عَزِيزٌ ﴾ يربط بعزته جأش من يتعرض لنصرته .

والمناسبة بين هذه الأشياء الثلاثة أن الكتاب قانون الشريعة ودستور الأحكام الدينية يبين سبل المراشد والعهود ويتضمن جوامع الأحكام والحدود ، ويأمر بالعدل والإحسان وينهى عن البغي والطغيان ، واستعمال العدل والاجتناب عن الظلم إنما يقع بآلة يقع بها التعامل ويحصل بها التساوي والتعادل وهي الميزان .

ومن المعلوم أن الكتاب الجامع للأوامر الإلهية والآلة الموضوعة للتعامل بالسوية إنما تحض العامة على اتباعهما بالسيف الذي هو حجة الله على من جحد وعنَدَ ، ونزع عن صفقة الجماعة اليد .

وهو الحديد الذي وصف بالبأس الشديد .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وإبراهيم ﴾ خصا بالذكر لأنهما أبوان للأنبياء عليهم السلام ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ﴾ أولادهما ﴿ النبوة والكتاب ﴾ الوحي .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الخط بالقلم .

يقال: كتب كتاباً وكتابة ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ فمن الذرية أو من المرسل إليهم وقد دل عليهم ذكر الإرسال والمرسلين ﴿ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ هذا تفصيل لحالهم أي فمنهم من اهتدى باتباع الرسل، ومنهم من فسق أي خرج عن الطاعة والغلبة للفساق.

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا على ءاثارهم ﴾ أي نوح وإبراهيم ومن مضى من الأنبياء ﴿ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابن مَرْيَمَ وءاتيناه الإنجيل وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الذين اتبعوه رَأْفَةً ﴾ مودة وليناً ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ تعطفاً على إخوانهم كما قال في صفة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: 29] ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ هي ترهبهم في الجبال فارّين من الفتنة في الدين مخلصين أنفسهم للعبادة وهي الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهو الخائف.

فعلان من رهب كخشيان من خشي.

وانتصابها بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره وابتدعوا رهبانية ﴿ ابتدعوها ﴾ أي أخرجوها من عند أنفسهم ونذروها ﴿ مَا كتبناها عَلَيْهِمْ ﴾ لم نفرضها نحن عليهم ﴿ إِلاَّ ابتغاء رضوان الله ﴾ استثناء منقطع أي ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ كما يجب على الناذر رعاية نذره لأنه عهد مع الله لا يحل نكثه ﴿ فَئَاتَيْنَا الذين ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ أي أهل الرأفة والرحمة الذين اتبعوا عيسى عليه السلام والذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ الكافرون.

(129/749)

﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ ﴾ الخطاب لأهل الكتاب ﴿ اتقوا الله وَءامِنُواْ بِرَسُولِهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يُؤْتِكُمْ ﴾ الله ﴿ كِفْلَيْنِ ﴾ نصيبين ﴿ مّن رَّحْمَتِهِ ﴾ لإيمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلم وإيمانكم بمن قبله ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ ﴾ يوم القيامة ﴿ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ وهو النور المذكور في قوله ﴿ يسعى نُورُهُم ﴾ الآية ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذنوبكم ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ لّئَلاَّ يَعْلَمَ ﴾ ليعلم ﴿ أَهْلِ الكتاب ﴾ الذين لم يسلموا و "لا" مزيدة ﴿ أَلاَّ يَقْدِرُونَ ﴾ "أن" مخففة من الثقيلة أصله أنه لا يقدرون يعني أن الشأن لا يقدرون ﴿ على شَىْءٍ مّن فَضْلِ الله ﴾ أي لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضل الله من الكفلين والنور والمغفرة لأنهم لم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله ولم يكسبهم فضلاً قط ﴿ وَأَنَّ الفضل ﴾ عطف على ﴿ أن لا يَقْدِرُونَ ﴾ ﴿ بِيَدِ الله ﴾ أي في ملكه وتصرفه ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ من عباده ﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 226 . 230 ﴾

(130/749)

وقال ابن جزى :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ﴾

معنى ﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ : أَلَمْ يَحِنْ . يقال : أنى الأمر إذا حان وقته ، وذكر الله يحتمل أن يريد به القرآن أو الذكر ، أو التذكير بالمواعظ وهذه أية موعظة وتذكير قال ابن عباس : عوتب المؤمنون بهذه الآية بعد ثلاثة عشر سنة من نزول القرآن ، وسمع الفضيل بن عياض قارئاً يقرأ هذه الآية فقال : قد آن فكان سبب رجوعه إلى الله . وحكي أن عبد الله بن المبارك أخذ العود في صباه ليضربه فنطق بهذه الآية فكسره ابن المبارك ، وتاب إلى الله ﴿ وَلَا يَكُونُوا كالذين أُوتُوا الكتاب مِن قَبْلُ ﴾ عَطَفَ ولا يكون أن تخشع ويحتمل أن يكون نهياً ، والمراد التحذير من أن يكون المؤمنون كأهل الكتب المتقدمة وهم اليهود والنصارى ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد ﴾ أي مدة الحياة وقيل : انتظار القيامة ، وقيل : انتظار الفتح والأول أظهر .

﴿ اعلموا أَنَّ الله يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي يحييها بإنزال المطر وإخراج النبات ، وقيل : إنه تمثيل للقلوب أي : يحيي الكله القلوب بالمواعظ كما يحيي الأرض بالمطر ، وفي هذا تأنيس للمؤمنين الذين ندبوا إلى أن تخشع قلوبهم ، والأول أظهر وأرجح لأنه الحقيقة .

﴿ إِنَّ المصدقين والمصدقات ﴾ بتشديد الصاد وأصله المتصدقين ، وكذلك قرأ أبيّ بن كعب وقرأ بالتخفيف من التصديق ، أي صدقوا الرسول عليه الصلاة والسلام ، ﴿ وَأَقْرَضُواْ اللَّهَ ﴾ معطوف على المعنى ، كأنه قال إن الذين تصدقوا وأقرضوا ، وقد ذكرنا معنى أقرضوا في قوله : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ اللَّهَ ﴾ [الحديد : 11] ﴿ الصديقون ﴾ مبالغة من الصدق أو من التصديق ، وكونه من الصدق أرجح ؛ لأن صيغة فِعّيل لا تبنى إلا من فعل ثلاثي في الأكثر ، وقد حُكي بناؤها من رباعي كقولهم : رجل مِسّك من أمسك ﴿ والشهدآء عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يحتمل أن يكون الشهداء مبتدأ وخبره ما بعده ، أو يكون معطوفاً على الصديقين ، فإن كان مبتدأ ففي المعنى قولان : أحدهما أنه جمع شهيد في سبيل الله فأخبر أنهم عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والآخر أنه جمع شاهد ، ويراد به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لأنهم يشهدون على قومهم ، وإن كان معطوفاً ففي المعنى قولان : أحدهما : أنه جمع شهيد فوصف الله المؤمنين بأنهم صديقون وشهداء : أي جمعوا الوصفين ، وروي في هذا المعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مؤمنوا أمتي شهداء وتلا هذه الآية ، والآخر أنه جمع شاهد ، لأن المؤمنين يشهدون على الناس كقوله : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس ﴾ [البقرة : 143] ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ هذا خبر عن الشهداء خاصة إن كان مبتدأ ، أو خبر عن المؤمنين إن كان الشهداء معطوفاً ،

ونورهم هو النور الذي يكون لهم يوم القيامة ، حسبما ذكره في هذه السورة ، وقيل : هو عبارة عن الهدى والإيمان .

(132/749)

﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكفار نَبَاتُهُ ﴾ الآية معناها تشبيه الدنيا بالزرع الذي ينبته الغيث في سرعة تغيره بعد حسنه ، وتحطمه بعد ظهوره والكفّار هنا يراد به الزراع فهو من قوله : كفرتُ الحبَّ إذا سترته تحت الأرض : وخصهم بالذكر لأنهم أهل البصر بالزرع والفلاحة ، فلا يعجبهم إلا ما هو حقيق أن يعجب ، وقيل : أراد الكفار بالله وخصهم بالذكر ؛ لأنهم أشد إعجاباً بالدنيا وأكثر حرصاً عليها .

﴿ سابقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي سابقوا إلى الأعمال التي تستحقون بها المغفرة ، فقيل : المعنى كونوا في أول صف من القتال ، احضروا تكبيرة الإحرام مع الإمام ، وقيل : كونوا أو داخل إلى المسجد ، وأول خارج منه وهذه أمثلة ، والمعنى العام : المسابقة إلى جميع الأعمال الصالحات ، وقد استدل بها قوم على أن الصلاة في أول الوقت أفضل ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السمآء والأرض ﴾ السماء هنا يراد به جنس السموات بدليل قوله في [آل عمران : 133] ، وقد ذكرنا هناك معنى عرضها .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾
المعنى أن الأمور كلها مقدرة مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن تكون ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله كتب مقادير الأشياء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة" وعرشه على الماء ، والمصيبة هنا عبارة عن كل ما يصيب من خير أو شر ، وقيل : أراد به المصيبة في العرف وهو ما يصيب من الشر ، وخص ذلك بالذكر لأنه أهم على الناس ، وفي الأرض يعني القحوط والزلازل وغير ذلك ، وفي أنفسكم يعني الموت ، والفقر ، وغير ذلك ونبرأها معناه : نخلقها والضمير يعود على المصيبة أو على أنفسكم أو على الأرض ، وقيل : يعود على جميعها لأن المعنى صحيح في كلها .

(133/749)

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ المعنى فعل الله ذلك وأخبركم به لكيلا تتأسفوا على ما فاتكم ، ومعنى لا تأسوا : لا تحزنوا أي فلا تحزنوا على ما فاتكم منها ولا تفرحوا فيها ، وقرأ الجمهور بما آتاكم بالمدّ أي بما أعطاكم الله من الدنيا ، وقرأ أبو عمرو بما أتاكم بالقصر أي بما جاءكم من الدنيا فإن قيل : إن الإنسان لا يملك نفسه أن يفرح بالخير ويحزن للشر كما قال : أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما أُتي بمال كثير : اللهم إنا لا نستطيع

إلا أن نفرح بما زينت لنا ، فالجواب : أن النهي عن الفرح إنما هو عن الذي يقود إلى الكبر والطغيان ، وعن الحزن الذي يخرج عن الصبر والتسليم ﴿ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ المختال صاحب الخيلاء ، والفخور شديد الفخر على الناس .

﴿ الذين يَبْخَلُونَ ﴾ بدل من كل مختار فخور أو خبر ابتداء مضمر تقديره : هم الذين أو منصوب بإضمار : أعني أو مبتدأ وخبره محذوف .

﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان ﴾ الكتاب هنا جنس الكتب الميزان العدل وقيل : الميزان الذي يوزن به ، ورُوي أن جبريل نزل بالميزان ودفعه إلى نوح وقال له : مر قومك يزنوا به ﴿ وَأَنْزَلْنَا الحديد ﴾ خبر عن خلقه وإيجاده بالإنزال وقيل : بل أنزله حقيقة ، لأن أدم نزل من الجنة ومعه المطرقة والإبرة ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يعني أنه يعمل من سلاح للقتال ولذلك قال : وليعلم الله من ينصره ورسله والمنافع للناس : سكك الحرث والمسامير وغير ذلك .

﴿ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي من ذرية نوح وإبراهيم مهتدون قليلون ، وأكثرهم فاسقون لأن منهم اليهود والنصارى وغيرهم .

﴿ قَفَّيْنَا ﴾ ذكر في [القرة : 87] ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذين اتبعوه رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ هذه ثناء عليهم بمحبة بعضهم في بعض كما وصف أصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، بأنهم رحماء بينهم ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها ﴾ الرهبانية هي الانفراد في الجبال ، والانقطاع عن الناس في الصوامع ، ورفض النساء وترك الدنيا ، ومعنى ابتدعوها أي أحدثوها من غير أن يشرعها الله لهم ، وإعراب رهبانية معطوف على رأفة ورحمة أي جعل الله في قلوبهم الرأفة والرحمة والرهبانية ، وابتدعوها صفة للرهبانية ، والجعل هنا بمعنى الخلق . والمعتزلة يعربون رهبانية مفعولاً بفعل مضمر يفسره ابتدعوها ؛ لأن مذهبهم أن الإنسان يخلق أفعاله ، فأعربوها على مذهبهم ، وكذلك أعربها أبو علي الفارسي وذكر الزمخشري الوجهين ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابتغآء رِضْوَانِ الله ﴾ كتبنا هنا بمعنى ، فرضنا وشرعنا وفي هذه قولان : أحدهما أن الاستثناء منقطع ، والمعنى ما كتبنا عليهم الرهبانية ، ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ، ابتغاء رضوان الله ، والآخر أن الاستئناف متصل والمعنى كتبناها عليهم ابتغاء رضوان الله والأول أرجح لقوله " ابتدعوها " ولقراءة عبد الله بن مسعود : ما كتبناها عليهم لكن ابتدعوها ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أي لم يدوموا عليها ، ولم يحافظوا ابتدعوا الرهبانية وكان يجب عليهم إتمامها ، وإن لم يكتبها الله سبحانه وتعالى عليهم ، لأن دخل في شيء من النوافل يجب عليه إتمامه وقيل : الضمير لمن جاء بعد الذين ابتدعوا الرهبانية من أتباعهم .

﴿ وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ ﴾ إن قيل : كيف خاطب الذين أمنوا وأمرهم بالإيمان وتحصيل الحاصل لا ينبغي ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما أن معنى آمنوا دوموا على الإيمان وأثبتوا عليه ، والآخر أنه خطاب لأهل الكتاب فالمعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويؤيد هذا قوله : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ أي نصيبين ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي " الحديث ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يحتمل أن يريد النور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين يوم القيامة ، أو يكون عبارة عن الهدى ويؤيد الأول أنه مذكور في هذه السورة ، ويؤيد الثاني قوله : وجعلنا له نوراً يشمي به في الناس ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ لا في قوله : لئلا زائدة ، والمعنى : ليعلم أهل الكتاب وكذلك قرأها ابن عباس وقرأ ابن مسعود لكيلا يعلم ، والمعن : إن كان الخطاب لأهل الكتاب : يا أهل الكتاب آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ليلعم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا أن لا يقدروا على شيء من فضل الله الذي وعد من آمن منكم ، وهو تضعيف الأجر والنور

والمغفرة ، لأنهم لم يسلموا ، فلم ينالوا شيئاً ، من ذلك ، وإن كان الخطاب للمسلمين ، فالمعنى : ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا أنهم لا يقدرون أن ينالوا شيئاً ممن أعطى الله المسلمين من تضعيف الأجر والنور والمغفرة ، وقد روي في سبب نزول الآية : أن اليهود افتخرت على المسلمين فنزلت الآية في الرد عليهم ، وهو يقوي هذا القول ، وروي أيضاً أن سببها أن الذين أسلموا من أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المسلمين بأنهم يؤتيهم الله أجرهم مرتين فنزلت الآية معلمة أن المسلمين مثلهم في ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 4 صـ 101.97﴾

(136/749)

وقال البيضاوى :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ﴾

ألم يأت وقته يقال أنى الأمر يأني أنياً وأناً إذا جاء إناه ، وقرىء "ألم يئن" بكسر الهمزة وسكون النون من آن يئين بمعنى أنى ولما يأن . روي أن المؤمنين كانوا مجدبين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت . ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق ﴾ أي القرآن وهو عطف على الذكر عطف أحد الوصفين على الآخر ، ويجوز أن يراد بالذكر أن

يذكر الله، وقرأ نافع وحفص ويعقوب ﴿ نَزَلَ ﴾ بالتخفيف. وقرئ "أنزل". ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ﴾ عطف على ﴿ تَخْشَعَ ﴾، وقرأ رويس بالتاء والمراد النهي عن مماثلة أهل الكتاب فيما حكي عنهم بقوله: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي فطال عليهم الأجل لطول أعمارهم وآمالهم، أو ما بينهم وبين أنبيائهم ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾. وقرئ ﴿ الأمد ﴾ وهو الوقت الأطول. ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فاسقون ﴾ خارجون عن دينهم رافضون لما في كتابهم من فرط القسوة.

﴿ اعلموا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بالإحياء والإموات ترغيباً في الخشوع وزجراً عن القساوة. ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ كي تكمل عقولكم.

﴿ إِنَّ المصدقين والمصدقات ﴾ إن المتصدقين والمتصدقات، وقد قرئ بهما، وقرأ ابن كثير وأبو بكر بتخفيف الصاد أي الذين صدقوا الله ورسوله. ﴿ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ عطف على معنى الفعل في المحل باللام لأن معناه: الذين أصدقوا، أو صدقوا وهو على الأول للدلالة على أن المعتبر هو التصدق المقرون بالإخلاص. ﴿ يضاعف لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ معناه والقراءة في ﴿ يضاعف ﴾ كما مر غير أنه لم يجزم لأنه خبر إن وهو مسند إلى ﴿ لَهُمْ ﴾ أو إلى ضمير المصدر.

﴿ والذين ءَامَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصديقون والشهداء عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي أولئك عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء ، أو هم المبالغون في الصدق فإنهم آمنوا وصدقوا جميع أخبار الله ورسله والقائمون بالشهادة لله ولهم ، أو على الأمم يوم القيامة . وقيل ﴿ والشهداء عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ مبتدأ وخبر ، والمراد به الأنبياء من قوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ أو الذين استشهدوا في سبيل الله . ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم ولكنه من غير تضعيف ليحل التفاوت ، أو الأجر والنور الموعودان لهم . ﴿ والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ فيه دليل على أن الخلود في النار مخصوص بالكفار من حيث أن التركيب يشعر بالاختصاص والصحبة تدل على الملازمة عرفاء .

(138/749)

﴿ اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الأموال والأولاد ﴾ لما ذكر حال الفريقين في الآخرة حقر أمور الدنيا أعني ما لا يتوصل به إلى الفوز الآجل ، بأن بين أنها أمور خيالية قليلة النفع سريعة الزوال لأنها لعب يتعب الناس فيه أنفسهم جداً

إتعاب الصبيان في الملاعب من غير فائدة ، ولهو يلهون به أنفسهم عما يهمهم وزينة كالملابس الحسنة والمواكب البهية والمنازل الرفيعة ، وتفاخر بالأنساب أو تكاثر بالعدد والعدد ، ثم قرر ذلك بقوله : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكفار نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ﴾ وهو تمثيل لها في سرعة تقضيها وقلة جدواها بحال نبات أنبته الغيث فاستوى وأعجب به الحراث ، أو الكافرون بالله لأنهم أشداء إعجاباً بزينة الدنيا ولأن المؤمن إذا رأى معجباً انتقل فكره إلى قدرة صانعه فأعجب بها ، والكافر لا يتخطى فكره عما أحس به فيستغرق فيه إعجاباً ، ثم هاج أي يبس بعاهة فاصفر ثم صار حطاماً ، ثم عظم أمور الآخرة الأبدية بقوله : ﴿ وَفِى الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ تنفيراً عن الانهماك في الدنيا وحثاً على ما يوجب كرامة العقبى ، ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مّنَ الله ورضوان ﴾ أي لمن أقبل عليها ولم يطلب إلا الآخرة . ﴿ وَما الحياة الدنيا إِلاَّ متاع الغرور ﴾ أي لمن أقبل عليها ولم يطلب بها الآخرة .

(139/749)

﴿ سَابِقُواْ ﴾ سارعوا مسارعة المسابقين في المضمار . ﴿ إلى مَغْفِرَةٍ مّن رَّبّكُمْ ﴾ إلى موجباتها . ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السماء والأرض ﴾ أي عرضها كعرضهما وإن كان

العرض كذلك فما ظنك بالطول ، وقيل المراد به البسطة كقوله : ﴿ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ ﴾ ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ﴾ فيه دليل على أن الجنة مخلوقة وأن الإيمان وحده كاف في استحقاقها . ﴿ ذلك فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ ذلك الموعود يتفضل به على من يشاء من غير إيجاب . ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ منه التفضل بذلك وإن عظم قدره .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأرض ﴾ كجدب وعاهة . ﴿ وَلاَ فِى أَنفُسِكُمْ ﴾ كمرض وآفة . ﴿ إِلاَّ فِى كتاب ﴾ إلا مكتوبة في اللوح مثبتة في علم الله تعالى . ﴿ مّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ نخلقها والضمير لل ﴿ مُّصِيبَةٍ ﴾ أو ﴿ الأرض ﴾ أو للأنفس . ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ أي إثباته في كتاب . ﴿ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ لاستغنائه تعالى فيه عن العدة والمدة . ﴿ لّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ ﴾ أي أثبت وكتب كي لا تحزنوا ﴿ على مَا فَاتَكُمْ ﴾ من نعم الدنيا ﴿ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا ءاتاكم ﴾ بما أعطاكم الله منها فإن من علم أن الكل مقدر هان عليه الأمر ، وقرأ أبو عمرو ﴿ بِمَا ءاتاكم ﴾ من الإتيان ليعادل ما فاتكم ، وعلى الأول فيه إشعار بأن فواتها يلحقها إذ خليت وطباعها ، وأما حصولها وإبقاؤها فلا بد لهما من سبب يوجدها ويبقيها ، والمراد نفي الآسي المانع عن التسليم لأمر الله والفرح الموجب للبطر والاحتيال ، ولذلك عقبه بقوله : ﴿ والله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ إذ قل من يثبت نفسه في حالي الضراء والسراء .

﴿ الذين يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ الناس بالبخل ﴾ بدل من كل مختال فإن المختال بالمال يضن به غالباً أو مبتدأ خبره محذوف مدلول عليه بقوله : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ الله هُوَ الغنى الحميد ﴾ لأن معناه ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله غني عنه وعن إنفاقه محمود في ذاته لا يضره الإعراض عن شكره ولا ينفعه التقرب إليه بشكر من نعمه ، وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق وقرأ نافع وابن عامر ﴿ فَإِنَّ الله الغنى ﴾ .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾ أي الملائكة إلى الأنبياء أو الأنبياء إلى الأمم . ﴿ بالبينات ﴾ بالحجج والمعجزات . ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب ﴾ ليبين الحق ويميز صواب العمل . ﴿ والميزان ﴾ لتسوى به الحقوق ويقام به العدل كما قال تعالى : ﴿ لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ وإنزاله إنزال أسبابه والأمر باعداده ، وقيل أنزل الميزان إلى نوح عليه السلام ، ويجوز أن يراد به العدل . ﴿ لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ لتقام به السياسة وتدفع به الأعداء كما قال : ﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ فإن آلات الحروب متخذة منه . ﴿ ومنافع لِلنَّاسِ ﴾ إذ ما من صنعة إلا والحديد آلاتها . ﴿ وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ ﴾ باستعمال الأسلحة في مجاهدة الكفار والعطف على محذوف دل عليه ما قبله فإنه حال يتضمن تعليلاً ، أو اللام صلة لمحذوف أي أنزله ليعلم الله . ﴿ بالغيب ﴾ حال من المستكن في ينصره . ﴿ إِنَّ الله

قَوِىٌّ ﴾ ، على إهلاك من أراد إهلاكه . ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يفتقر إلى نصرة وإنما أمرهم بالجهاد لينتفعوا به ويستوجبوا ثواب الامتثال فيه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وإبراهيم وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النبوة والكتاب ﴾ بأن استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتب . وقيل المراد بالكتب الخط . ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ فمن الذرية أو من المرسل إليهم وقد دل عليهم ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ . ﴿ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مّنْهُمْ فاسقون ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم والعدول عن السنن القابلة للمبالغة في الذم والدلالة على أن الغلبة للضلال .

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا على ءاثارهم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ أي أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى عليه السلام ، والضمير لنوح وإبراهيم ومن أرسلا إليهم ، أو من عاصرهما من الرسل لا للذرية ، فإن الرسل الملقى بهم من الذرية . ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ

﴾ وقرىء بفتح الهمزة وأمره أهون من أمر البرطيل لأنه أعجمي . ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الذين اتبعوه رَأْفَةً ﴾ وقرىء "رآفة" على فعالة . ﴿ وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها ﴾ أي وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ، أو رهبانية مبتدعة على أنها من المجعولات وهي المبالغة في العبادة والرياضة والانقطاع عن الناس ، منسوبة إلى الرهبان وهو المبالغ في الخوف من رهب كالخشيان من خشي ، وقرئت بالضم كأنها منسوبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان . ﴿ مَا كتبناها عَلَيْهِمْ ﴾ ما فرضناها عليهم . ﴿ إِلاَّ ابتغاء رضوان الله ﴾ استثناء منقطع أي ولكنهم ابتدعوها ﴿ ابتغاء رضوان الله ﴾ . وقيل متصل فإن ﴿ مَا كتبناها عَلَيْهِمْ ﴾ بمعنى ما تعبدناهم بها وهو كما ينفي الإِيجاب المقصود منه دفع العقاب ينفي الندب المقصود منه مجرد حصول مرضاة الله ، وهو يخالف قوله ﴿ ابتدعوها ﴾ إلا أن يقال ﴿ ابتدعوها ﴾ ثم ندبوا إليها ، أو ﴿ ابتدعوها ﴾ بمعنى استحدثوها وأتوا بها ، أو لأنهم اخترعوها من تلقاء أنفسهم . ﴿ فَمَا رَعَوْهَا ﴾ أي فما رعوها جميعاً . ﴿ حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ بضم التثليث والقول بالاتحاد وقصد السمعة والكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ونحوها إليها . ﴿ فَآتَيْنَا الذين آمَنُوا ﴾ أتوا بالإِيمان الصحيح ومن ذلك الإِيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وحافظوا حقوقها . ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من المتسمين باتباعه . ﴿ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مّنْهُمْ فاسقون ﴾ خارجون عن حال الاتباع .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالرسل المتقدمة. ﴿ اتقوا الله ﴾ فيما نهاكم عنه. ﴿ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ نصيبين. ﴿ مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾ لإيمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلم إيمانكم بمن قبله، ولا يبعد أن يثابوا على دينهم السابق وإن كان منسوخاً ببركة الإسلام، وقيل الخطاب للنصارى الذين كانوا في عصره صلى الله عليه وسلم. ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يريد المذكور في قوله: ﴿ يسعى نُورُهُم ﴾ أو الهدى الذي يسلك به إلى جناب القدس. ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ أي ليعلموا و"لا" مزيدة ويؤيده أنه قرىء "ليعلم" و"لكي يعلم" و"لأن يعلم" بادغام النون في الياء.

﴿ أَلاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّن فَضْلِ الله ﴾ أن هي المخففة والمعنى: أنه لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضله ولا يتمكنون من نيله لأنهم لم يؤمنوا برسوله وهو مشروط بالإيمان به، أو لا يقدرون على شيء من فضله فضلاً عن أن يتصرفوا في أعظمه وهو النبوة فيخصوها بمن أرادوا ويؤيده قوله: ﴿ وَأَنَّ الفضل بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ وقيل "لا" غير مزيدة، والمعنى لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبي والمؤمنون به على شيء من فضل الله ولا ينالونه، فيكون ﴿ وَأَنَّ الفضل ﴾ عطفاً على ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ ﴾، وقرىء

"ليلا يعلم" ووجهه أن الهمزة حذفت وأدغمت النون في اللام ثم أبدلت ياء . وقرئ "ليلا" على أن الأصل في الحروف المفردة الفتح .

عن النبي صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسله أجمعين" . (1) انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 306 ﴾

---

(1) حديث موضوع.

(144/749)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

قوله سبحانه ﴿ ألم يأن للذين آمنوا ﴾

من أنى الأمر يأني إذا جاء إناه أي وقته . قال جمع من المفسرين : نزل في المنافقين الذين أظهروا الإيمان وفي قلوبهم النفاق المباين للخشوع . وقال آخرون : نزل في المؤمنين المحقين . روى الأعمش أن الصحابة لما قدموا المدينة أصابوا ليناً في العيش ورفاهية فغيروا بعض ما كانوا عليه فعوتبوا بهذه الآية . وعن أبي بكر الصديق أن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من اليمامة فبكوا بكاء شديداً فنظر إليهم فقال : هكذا كنا حتى قست القلوب . وعن ابن مسعود : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين . وعن ابن عباس أنه

عاتبه على رأس ثلاث عشرة. وقوله ﴿ لذكر الله ﴾ من إضافة المصدر إلى الفاعل أي ترق قلوبهم لمواعظ الله التي ذكرها في القرآن ﴿ وما نزل من الحق ﴾ وأراد أن القرآن جامع للوصفين الذكر والموعظة ولكونه حقاً نازلاً من السماء.

(145/749)

ويجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول أي لذكرهم الله والقرآن كقوله ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ [الأنفال : 2] ويحتمل أن تكون اللام للتعليل أي يجب أن يورثهم الذكر خشوعاً ولا يكونوا كمن يذكره بالغفلة. ومن قرأ ﴿ ولا تكونوا ﴾ بالتاء الفوقانية فهي الناهية. ومن قرأ بالياء التحتانية احتمل أن يكون منصوباً عطفاً على أن تخشع والأمد الأجل والأمل أي طالت المدة بين اليهود والنصارى وبين أنبيائهم، أو طالت أعمارهم في الغفلة والأمل البعيد فحصلت القسوة في قلوبهم بسببه فاختلفوا فيما أحدثوا من التحريف والبدع. وقال مقاتل بن سليمان : طال عليهم أمد خروج النبي صلى الله عليه وسلم، أو طال عليهم عهدهم بسماع التوراة والإنجيل فزال وقعهما في قلوبهم قاله القرطبي، وقرىء الأمد بالتشديد أي الوقت الأطول ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين،

وفيه إشارة إلى أن عدم الخشوع في أول الأمر يفضي إلى الفسوق في آخر الأمر . قال الحسن : أما والله لقد استبطأ قلوب المؤمنين وهم يقرأون من القرآن أقل مما تقرأون فانظروا في طول ما قرأتم منه وما ظهر فيكم من الفسوق . قوله ﴿ اعلموا أن الله يحيي الأرض ﴾ فيه وجهان : الأول أنه تمثيل والمعنى أن القلوب التي ماتت بسبب القساوة فالموظبة على الذكر سبب لعود حياة الخشوع إليها كما يحيي الله الأرض بالغيث ، الثاني أنه زجر لأهل الفسق وترغيب في الخشوع لأنه يذكر القيامة وبعث الأموات . ثم استأنف وعد المنفقين ووعيد أضدادهم بقوله ﴿ إن المصدقين ﴾ وأصله المتصدقين وعطف عليه قوله ﴿ وأقرضوا الله ﴾ لأن الألف واللام بمعنى الذي كأنه قال : إن الذين تصدقوا وأقرضوا . والظاهر أن الأول هو الواجب الثاني هو التطوع لأن تشبيهه بالقرض كالدلالة على ذلك . وأيضاً ذكر الأول بلفظ اسم الفاعل الدال على الاستمرار ينبىء عن الالتزام والوجوب .

(146/749)

ومن قرأ بتشديد الدال فقط فمعناه إن الذين صدقوا الله ورسوله وأقرضوا ويندرج تحت التصديق الإيمان وجميع الأعمال الصالحات إلا أنه أفرد الإنفاق بالذكر تحريضاً عليه كما أنه أفرد الإيمان لتفضيله والترغيب فيه . وقال ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم

الصديقون ﴾ الكاملون في الصدق إذ لا قول أصدق من التوحيد والاعتراف بالرسالة ، أوهم الكثير والصدق من حيث إنهم ضموا صدقاً إلى صدق وهو الإيمان بالله والاعتراف بالرسالة ، أو هم الكثيرر والصدق من حيث إنهم ضموا صدقاً إلى صدق وهو الإيمان بالله ورسوله أو به وبرسوله رسوله . ثم حث على الجهاد بقوله ﴿ والشهداء ﴾ وهو مبتدأ حبره ﴿ عند ربهم ﴾ وفيه بيان أنهم من الله بمنزلة وسعة وقد بين ثوابهم الجسماني ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ ويجوز أن يكون قوله ﴿ عند ربهم ﴾ حالاً أو صفة للشهداء كقوله " مررت على اللئيم يسبني " وما بعده خبر .

(147/749)

وقال الفراء والزجاج : هم الأنبياء لقوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ [النساء : 41] ومن جعل ﴿ الشهداء ﴾ عطفاً على ما قبله قال : أراد أنهم عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا في سبيل الله . قال مجاهد : كل مؤمن فهو صديق وشهيد . وقال جار الله : المعنى أن الله يعطي المؤمنين أجرهم ويضاعفه لهم بفضله حتى يساوي أجرهم مع أضعافه أجر أولئك . وقيل : أريد أنهم شهداء عند ربهم على أعمال عباده . وعن الحسن : كل مؤمن فإنه يشهد كرامة ربه .

وعن الأصم . إن المؤمن قائم لله تعالى بالشهادة فيما تعبدهم به من الإيمان والطاعة . ثم ذكر ما يدل على حقارة أمور الدنيا وشبهها في سرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث ورباه إلى أن يتكامل نشوه . ومعنى إعجاب الكفار أنهم جحدوا نعمة الله فيه بعد أن راق في نظرهم فبعث الله عليه العاهة فصيره كلا شيء كما فعل بأصحاب الجنتين في " الكهف " وفي " سبأ " وبأصحاب الجنة في " نون " . ومن جعل الكفار بمعنى الزراع فظاهر قاله ابن مسعود وصيرورته حطاماً هي عودة إلى كمال حاله في النضج واليبس . ثم عظم أمور الآخرة بتنوين التنكير في قوله ﴿ وفي الآخرة عذاب شديد ﴾ للكافرين ﴿ ومغفرة من الله ورضوان ﴾ للمؤمنين قال سعيد بن جبير : الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة . فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله ولقائه فنعم المتاع ونعم الوسيلة . ثم حث على المسابقة إلى المغفرة وإلى الجنة وقد مر نصير في " آل عمران " إلا أن البشارة ههنا أعم لأنه قال هناك ﴿ أعدت للمتقين الذين ينفقون ﴾ [الآية : 133] إلأى آخره . وههنا قال ﴿ أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ﴾ ولأن هؤلاء أدون حالاً من أولئك جعل عرض الجنة هنا أقل فقال ﴿ وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ فلم يجمع السماء وأدخل حرف التشبيه الدال على أن المشبه أدون حالاً من المشبه به . وفي لفظ ﴿ سابقوا ﴾ ههنا إشارة إلى أن مراتب

هؤلاء مختلفة بعضها أسبق من بعض كالمسابقة في الخيل وفي لفظ ﴿ سارعوا ﴾ هنالك رمز إلى أن كلهم مستوون في القرب أو متقاربون لأن المرتبة العليا واحدة وهي مرتبة السابقين المقربين وإنها غاية الرتب الإنسانية فافهم هذه الأسرار فإن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قال الزجاج : لما أمرنا بالمسابقة إلى المغفرة بين أن الوصول إلى الجنة والحصول في النار بالقضاء والقدر فقال ﴿ ما أصاب من مصيبة ﴾ أي لا يوجد مصيبة ﴿ في الأرض ﴾ من القحط والوباء والبلاء ﴿ ولا في أنفسكم ﴾ من المرض والفتن ﴿ إلا في كتاب ﴾ أي هو مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ وإنما قيد المصائب بكونها في الأرض والأنفس لأن الحوادث المطلقة كلها ليست مكتوبة في اللوح لأن حركات أهل الجنة والنار غير متناهية فإثباتها في الكتاب محال ولهذا قال

" جف القلم بما هو كائن إلى يوم الدين " ولم يقل إلى الأبد .

وفي الآية تخصيص آخر وهو أنه لم يذكر أحوال أهل السموات وفيه سر قال أهل البرهان :

فصل في هذه السورة وأجمل في " التغابن " فقال ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ﴾ [

الحديد : 22] والتفصيل بهذه السورة أليق لأنه فصل أحوال الدنيا والآخرة بقوله ﴿ اعلموا إنما الحياة الدنيا ﴾ إلى آخره قوله ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ من قبل أن نخلق المصائب والأنفس أو الأرض أو المخلوقات ﴿ إن ذلك ﴾ الإثبات أو الحفظ ﴿ على الله يسير ﴾ وإن كان عسيراً على غيره . ثم بين وجه الحكمة في ذلك الإثبات قائلاً ﴿ لكيلا تأسوا ﴾ أي لكيلا تحزنوا ﴿ على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ نظيره ما ورد في الخبر : من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب لأنه لما علم وجوب وقوعه من حيث تعلق علم الله وحكمه وقدرته به عرف أن الفائت لا يرده الجزع والمعطى لا يكاد يثبت ويدوم لأنه عرضة للزوال ونهزة للانتقال فلا يشتد به فرحه . روى عكرمة عن ابن عباس : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا للمصيبة صبراً وللخير شكراً أو المراد أنه لم ينف الأسى والفرح على الإطلاق ولكنه نفى ما بلغ الجزع والبطر ولا لوم على ما يخلو منه البشر . والباقي ظاهر وقد مر في النساء . والمقصود أن البخيل يفرح فرحا مطغياً لحبه المال ليفتخر به ويتكبر على الناس ويحمل غيره على إمساك المال لمقتضى شحه الطبيعي ﴿ ومن يتول ﴾ عن أوامر الله ونواهيه ولا يعرف حق الله فما أعطاه ﴿ فإن الله هو الغني ﴾ عن طاعة المطيعين ﴿ الحميد ﴾ في ذاته وإن لم يحمده الحامدون . وقيل : إن الآية نزلت في اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وبخلوا ببيان نعته .

ثم أراد أن يبين الغرض من بعثة الرسل المؤيدين بالمعجزات ومن إنزال الكتاب والميزان معهم. يروى أن جبرائيل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح فقال: مر قومك يزنوا به. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض. أنزل الحديد والنار والماء والملح. وعن الحسن: إنزالها تهيئتها كقوله ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [الزمر: 6] وقال قطرب: هو من النزل يقال: أنزل الأمير على فلان نزلاً حسناً منهم من قال: هو من باب "علفتها تبناً وماء بارداً". وللعلماء في المناسبة بين الكتاب والميزان والحديد وجوه.

(151/749)

أحدها أن مدار التكليف على فعل ما ينبغي وترك ما لا ينبغي. والثاني لا يتم بالحديد الذي فيه بأس شديد والأول إما أن يكون من باب الاعتقادات ولن يتم إلا بالكتاب السماوي ولا سيما إذا كان معجزاً. وإما أن يكون من باب المعاملات ولا ينتظم إلا بالميزان فأشرف الأقسام ما يتعلق بالوقة النظرية الروحانية، ثم ما يتعلق بالعملية الجسمانية، ثم ما يتعلق بالزواجر وقد روعي في الآية هذا النسق. وثانيها المعاملات إما مع الخالق وطريقها

الكتاب أو مع الخلق وهم ، إما أحباب ويفتقر في نظام أمور تمدنهم إلى الميزان ، وإما أعداء فيدفعون بالسيف . وثالثها السابقون يعاملون بمقتضى الكتاب فينصفون ولا ينتصفون ويحترزون عن مواقع الشبهات ، والمقتصدون ينصفون وينتصفون فلا بد لهم من الميزان ، والظالمون ينتصفون من غير إنصاف فلا بدّ لهم من السيوف الزواجر . واربعها أن الإنسان في مقام الحقيقة وهو مقام النفس المطمئنة المقربين لا يسكن إلا بكتاب الله ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [الرعد : 28] أو هو في مقام الطريقة وهو النفس اللوامة . وأصحاب اليمين لا بد لهم من الميزان في معرفة الأخلاق المتوسطة غير المائلة إلى طريق الإفراط والتفريط ، أو هو في مقام الشريعة والنفس الأمارة لا تنزجر إلا بحديد المجاهدة وسيف الرياضة . وخامسها السالك إما أن يكون صاحب المكاشفة والوصول فانتبه بميزان الكتاب ، أو صاحب الطلب والاستدلال فانتبه بميزان الدليل والحجة ، وإن كان صاحب العناد واللجاج فلا بد له من الحديد . وسادسها الأقوال تصحح بالكتاب والأعمال تقوم بالميزان ، وميزان العدل والأحوال يعتبر بحديد الرياضة . أو نقول : الأقوال تصحح بالكتاب والأعمال تقوّم بالميزان ، والمنحرفون من أحد الموضوعين يولون بالسيف . وسابعها الكتاب للعلماء . والميزان للعوام والسيف للملوك . قال أهل التجارب : في منافع الحديد ما من صناعة إلا والحديد آلة فيها . أو ما يعمل بالحديد بيانه أن

أصول الصناعة أربعة : الزراعة والحياكة والبناء والإمارة . أما الزراعة فتحتاج إلى الحديد في كراية الأرض وإصلاحها وحفرها وتنقية آبارها . ثم الحبوب لا بد من طحنها وخبزها وكل منهما يحتاج إلى شيء من حديد وأكل الفواكه واللحوم وغيرها يفتقر أيضاً في التغيير والتقطيع إلى الحديد وأما الحياكة فتحتاج إلى آلات الحراثة وإلى آلات الغزل وإلى أدوات الحياكة والخياطة ، وأما البناء فلا يكمل الحال فيه إلا بالآلات حديدية وأما الإمارة فلا تتم إلا بأسباب الحرب وآلات السياسة فظهر أن أكثر مصالح العالم لا تتم إلا بالحديد ولا يقوم الذهب ولا الجواهر في أكثرها مقام الحديد فلو لم يوجد الذهب والجواهر في الدنيا لم يختل شيء من المهمات ولو لم يوجد الحديد لاختلت المصالح فعند هذا يظهر أثر عناية الله بحال عبيده ، فإن كل شيء تكون حاجاتهم إليه أكثر يكون وجوده أسهل . قال بعضهم :

سبحان من خص الفلز بعزه . . . والناس مستغنون عن أجناسه

وأذ أنفاس الهواء وكل ذي . . . نفس فمحتاج إلى أنفاسه

نظيره الحاجة إلى الطعام ثم إلى الهواء ، فالطعام قلما يوجد إلا بالثمن والماء قد يباع في بعض الأمكنة والزمان والهواء لا يباع أصلاً لأن الحاجة إلى النفس أمس . قال بعض المحققين ههنا إن العلم أبلغ ما يحتاج الإنسان إليه إذ به قوام روحه وصلاح معاده فلا جرم لا يقع في عرضة البيع وكثيراً ما يعطى الأجر على تعلمه قوله ﴿ وليعلم الله ﴾ ظاهره أنه معطوف على المعنى التقدير : وأنزلنا الحديد لأجل المنافع الدنيوية ولأجل المصالح الدينية وهو ظهور معلوم الله وتعلق علمه بما سيقع من نصرة دينه ورسله باستعمال السيوف والرماح وغيرها . ويجوز أن يكون المعطوف عليه محذوفاً بدليل ما تقدمه أي وأنزلنا الحديد ليقوم الناس بالقسط خوفاً من أن يجعل وليعلم الله ومعنى ﴿ بالغيب ﴾ غائباً عنهم . قال ابن عباس : ينصرونه ولا يبصرونه ، وفيه إشارة إلى أن الجهاد المعتبر هو الذي يوجد عن إخلاص القلب خالياً من النفاق والرياء وفي قوله ﴿ إن الله قوي عزيز ﴾ رمز إلى أنه تعالى قادر على إهلاك أعداء الدين وإعلاء كلمته بدون واسطة الجهاد ، ولكنه كلفهم ذلك ليتوسلوا به إلى نيل درجة الصديقين والشهداء .

وحين حكى قصة الرسل مجملة أعقبها بنوع من التفصيل والكتاب ظاهره الوحي . عن ابن عباس هو الخط بالقلم والضمير في ﴿ فمنهم ﴾ للذرية أو للمرسل إليهم بدليل الإرسال . والفاسقون إما العاصون بارتكاب الكبائر ، وإما الكافرون ولعل هذا أظهر لوقوعه في طباق المهتدين إلا أن يحمل الفاسق على الذي لا يهتدي لوجه رشده قال مقاتل : المراد بالرأفة والرحمة هو ما أوقع الله تعالى في قلوبهم من التواد والتعاطف كما جاء في نعت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ رحماء بينهم ﴾ [الفتح : 29] قال أبو علي الفارسي : الرهبانية لا يستقيم حمل نصبها على ﴿ جعلنا ﴾ لأن ما يبتدعونه لا يجوز أن يكون مجعولاً لله قال في التفسير الكبير : هذا الكلام إنما يتم لو ثبت امتناع مقدور بين قادرين من أين يليق بأبي علي أن يخوض في أمثال هذه الأشياء . قلت : الظن بالعلماء ينبغي أن يكون أحسن من هذا ولا حاجة إلى إحالة تمام الكلام على المسألة المذكورة ولكن يرد على أبي علي أنه إذا جاز أن يكون الكفر والفسوق وسائر المعاصي الصادرة عن العبد منسوبة إلى تخليق الله ، فلم لا يجوز أن يكون الابتداع وهو إحداث أمر من عند نفسه لا على ألسنة الرسل . مجعولاً لله سبحانه ؟ قال المفسرون : إن الجبابرة ظهروا على أمة عيسى بعد رفعه فقاتلوهم ثلاث مرات فقتلوهم حتى لم يبق منهم إلا القليل ، فترهبوا على رؤوس الجبال فارين من الفتنة متحملين كلفاً ومشاق زائدة على العبادات المكتوبة عليهم من الخلوة

والاعتزال والتعبد في الغيران والكهوف ، روى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال

" يا ابن مسعود أما علمت أن بني إسرائيل تفرقوا سبعين فرقة كلها في النار إلا ثلاث فرق فرقة آمنت بعيسى عليه السلام وقاتلوا أعداءه في نصرته حتى قتلوا وفرقة لم يكن لها طاقة بالقتال فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وفرقة لم يكن لها طاقة بالأمرين فلبسوا العباء وخرجوا إلى القفار والفيافي وهو قوله ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ﴾ " الآية قال العلماء : لم يرد الله تعالى بقوله ﴿ ابتدعوها ﴾ طريقة الذم ولكن المراد أنهم أحدثوها من عند أنفسهم ونذورها . والرهبانية بفتح الراء مصدر وهو الفعلة المنسوبة إلى الرهبان بالفتح أيضاً وهو الخائف " فعلان " من رهب كخشيان من خشي . وقرىء بالضم وهو نسبة إلى الرهبان جمع الراهب . وقوله ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ استثناء منقطع عند الأكثر أي ما فرضناها نحن عليهم ولكنهم ابتدعوها طلب رضوان الله . وقال آخرون : إنه متصل والمعنى ما تعبدناهم بها إلا على وجه تحصيل مرضاة الله فتكون ندباً إن أتى بها ارتضاها الله وإن لم يأت بها فلا حرج . وفي قوله ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ أقول :

أحدها أنهم ما أقاموا على تلك السيرة ولكنهم ضموا إليه التثليث والإلحاد إلا إناساً منهم أقاموا على دين عيسى حتى أدرجوا محمداً صلى الله عليه وسلم فآمنوا به ، وثانيها أن أكثرهم لم يتوسلوا بها إلى مرضاة الله ولكنهم جعلوها سلماً إلى المنافع الدنيوية . وثالثها أن يكون في الكلام إضمار أي لم نفرضها أولاً عليهم بل كانت على جهة الاستحباب ، ثم فرضناها عليهم فما رعوها إلا قليلاً منهم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد أن استقاموا على الطريقة . ورابعها أن الصالحين من قوم عيسى ابتدعوا الرهبانية وانقرضوا عليها ثم جاء بعدهم من لم يرعها كما رعاها الحواريون . ثم خاطب المؤمنين منهم بقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي بعيسى ﴿ اتقوا الله وآمنوا برسوله ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يؤتكم كفلين ﴾ نصيبين ﴿ من رحمته ﴾ لإيمانكم

(156/749)

أولاً بعيسى وثانياً بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ وهو النور المذكور في قوله ﴿ يسعى نورهم ﴾ أو النور المذكور في قوله ﴿ أو من ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ [الأنعام : 122] ويجوز أن يكون الخطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم والمراد اثبتوا على إيمانكم برسول الله صلى الله عليه وسلم

يؤتكم ما وعد مؤمني أهل الكتاب في قوله ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين ﴾ [القصص : 54] وذلك أن مؤمني أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين وادعوا الفضل عليهم فنزلت وفيه أنهم مثلهم في الإيمانين لأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله على أنه يجوز أن يكون النصيب الواحد من الأجر أزيد من نصيبين فإن المال إذا قسم نصفين كان الكفل الواحد نصفاً ، وإذا قسم عشرة أقسام كان الكفل الواحد جزءاً من عشرة .

(157/749)

ولا شك أن النصيب الواحد من القسمة الأولى أزيد من النصيب الواحد من القسمة الثانية . قوله ﴿ لئلا يعلم ﴾ الآية . أكثر المفسرين والنحويين على أن " لا " زائدة والمعنى ليعلم ﴿ أهل الكتاب ﴾ الذين لم يسلموا أن الشأن لا ينالون ولا يقدرون على شيء من الكفلين . والنور والمغفرة لأنهم لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم فلم ينفعهم إيمانهم من قبله ، أو المراد أنا بالغنا في هذا البيان وأمعنا في الوعد لهم والوعيد ليعلم أهل الكتاب أن الشأن هو أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بقوم معينين ، ولا يمكنهم حصر الأجر في طائفة مخصوصين ﴿ وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴾ وقيل : غير زائدة والضمير في

﴿ لا يقدرون ﴾ للرسول وأصحابه . والعلم بمعنى الاعتقاد والمعنى لئلا يعتقد أهل الكتاب أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لا يقدرون على شيء من فضل الله ، ولكي يعتقدوا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، وقد خص بذلك محمداً صلى الله عليه وسلم ومن آمن به وبالله التوفيق وإليه المرجع والمآب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 256 . 263 ﴾

(158/749)

وقال الخطيب الشربينى :

واختلف في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ألم يأن ﴾ أي : يحن ويدرك وينتهي إلى الغاية ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي : أقرّوا بالإيمان ﴿ أن تخشع ﴾ أي : تلين وتسكن وتخضع وتذل وتطمئن ﴿ قلوبهم لذكر الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي لا خير إلا منه فيصدق في إيمانه من كان كاذباً ويقوى في الدين من كان ضعيفاً فيعرض عن الفاني ويقبل على الباقي ولا يطلب لداء دينه دواء ولا لمرض قلبه شفاء في غير القرآن ، فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع

سنين ، وعن الحسن : أما والله لقد استبطأهم وهم يقرؤون من القرآن أقل ما تقرؤون فانظروا في طول ما قرأتم منه وما ظهر فيكم من الفسق ، وقيل : كانوا مجدبين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت ؛ وعن أبي بكر رضى الله عنه : أنّ هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاء شديداً فنظر إليهم وقال : هكذا كنا حتى قست القلوب وقال الشاعر :

*ألم يأن لي يا قلب أن نترك الجهلا ** وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلا*

(159/749)

وقوله تعالى : ﴿ وما نزل من الحق ﴾ أي : القرآن عطف على الذكر عطف أحد الوصفين على الآخر لأن القرآن جامع للأمرين للذكر والموعظة أو أنه حق نازل من السموات ؛ ويجوز أن يراد بالذكر أن يذكر الله تعالى ، وقرأ نافع وحفص بتخفيف الزاي والباقون بالتشديد

وقوله تعالى : ﴿ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ﴾ أي : قبل ما نزل إليكم وهم اليهود والنصارى معطوف على تخشع والمراد : النهي عن مماثلة أهل الكتاب فيما حكى عنهم بقوله تعالى : ﴿ فطال عليهم الأمد ﴾ أي : الأجل لطول أعمارهم أو آمالهم أو ما بينهم وبين أنبيائهم ﴿ فقست ﴾ أي : بسبب الطول ﴿ قلوبهم ﴾ أي : صلبت واعوجت

بحيث لا تنفعل بالطاعات والخير فكانوا كل حين في تعنت جديد على أنبيائهم عليهم السلام يسألونهم المقترحات، وأما بعد أنبيائهم فابعدوا في القساوة فمالوا إلى دار الكدر وأعرضوا عن دار الصفاء فانجروا إلى الهلاك باتباع الشهوات؛ قال القشيري: وقسوة القلب إنما تحصل باتباع الشهوة فإن الشهوة والصفوة لا يجتمعان؛ وعن أبي موسى الأشعري: أنه بعث إلى قراء البصرة فدخل عليه ثلاث مئة رجل قد قرؤوا القرآن فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاقرؤه ولا تطيلوا عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم ﴿ وكثير منهم ﴾ أخرجته قساوته عن الدين أصلاً ورأساً فهم ﴿ فاسقون ﴾ أي: عريقون في صفة الإقدام على الخروج من دائرة الحق التي حدها لهم الكتاب حتى تركوا الإيمان بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وقوله تعالى:

﴿ اعلموا أن الله ﴾ أي: الملك الأعظم الذي له الكمال كله فلا يعجزه شيء ﴿ يحيي ﴾ أي: على سبيل التجديد والاستمرار كما تشاهدونه ﴿ الأرض ﴾ أي: بالنبات ﴿ بعد موتها ﴾ أي: يبسها تمثيل لإحياء الأموات بجميع أجسادهم وإفاضة الأرواح عليها كما فعل بالنبات وكما فعل بالأجسام أول مرة، ولإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة

فاحذروا سطوته واخشوا غضبه وارجوا رحمته ، لإحياء القلوب فإنه قادر على إحيائها بروح الوحي كما أحيا الأرض بروح الماء لتصير بأحيائها بالذكر خاشعة بعد قسوتها كما صارت الأرض رابية بعد خشوعها وموتها .

ولما انكشف الأمر بهذه غاية الانكشاف أنتج قوله تعالى : ﴿ قد بينا ﴾ أي : على مالنا من العظمة ﴿ لكم الآيات ﴾ أي : العلامات النيرات ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي : لتكونوا عند من يعلم ذلك ويمنعه من الخلائق على رجاء من حصول العقل لكم بما يتجدد لكم من فهمه على سبيل التواصل الدائم بالاستمرار

(161/749)

وقرأ : ﴿ إن المصدقين ﴾ أي : العريقين في هذا الوصف من الرجال ﴿ والمصدقات ﴾ أي : من النساء ، ابن كثير وشعبة بتخفيف الصاد فيهما من التصديق بالإيمان والباقون بالتشديد فيهما من التصدق أدغمت التاء في الصاد أي : الذين تصدقوا وقوله تعالى : ﴿ وأقرضوا الله ﴾ أي : الذي له الكمال كله عطف على معنى الفعل في المصدقين لأنّ اللام بمعنى الذين واسم الفاعل بمعنى أصدقوا كأنه قيل : إنّ الذين أصدقوا وأقرضوا الله ﴿ قرضاً حسناً ﴾ أي : بغاية ما يكون من طيب النفس وإخلاص النية والنفقة في سبيل

الخير وحسنه ؛ كما قال الرازي : أن يصرف بصره عن النظر إلى فعله والنفقة وإلا متنا به وطلب العوض عليه ﴿ يضاعف ﴾ أي : ذلك القرض ﴿ لهم ﴾ من عشرة إلى سبعمائة كما مرّ لأنّ الذي كان له العرض كريم ، وقرأ ابن كثير وابن عامر : بتشديد العين ولا ألف بينها وبين الضاد ؛ والباقون بتخفيف العين وبينها وبين الضاد ألف ﴿ ولهم ﴾ أي : مع المضاعفة ﴿ أجر كريم ﴾ أي : ثواب حسن وهو الجنة والنظر إلى وجهه الكريم .

(162/749)

ثم بين سبحانه وتعالى الحامل على الصدقة ترغيباً فيه وهو الإيمان فقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا ﴾ أي : أوجدوا هذه الحقيقة العظيمة في أنفسهم ﴿ بالله ﴾ أي : الملك الأعلى الذي له الجلال والإكرام ﴿ ورسله ﴾ أي : كلهم لأجل ما لهم من النسبة إليه فمن كذب واحد منهم لم يكن مؤمناً بالله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ أي : هؤلاء العالو الرتبة ﴿ هم الصديقون ﴾ أي : الذين هم في غاية الصدق والتصديق لما يحق له أن يصدقه من سمعه ؛ وقال القشيري الصديق من استوى ظاهره وباطنه ؛ ويقال : هو الذي يحمل الأمر على الأشق ولا ينزل إلى الرخص ولا يجنح للتأويلات ؛ وقال مجاهد : كل من آمن بالله تعالى ورسله عليهم السلام فهو صدّيق وتلا هذه الآية ؛ وقال الضحاك : الآية خاصة في ثمانية نفر من هذه الأمة سبقوا أهل

الأرض في زمانهم إلى الإسلام أبو بكر وعلي وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة وتاسعهم عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ألحقه الله تعالى بهم لما عرف من صدق نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، واختلف في نظم قوله تعالى : ﴿ والشهداء عند ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم بالتربية لمثل تلك الرتبة العالية فمنهم من قال : هي متصلة بما قبلها والواو للنسق وأراد بالشهداء المؤمنين المخلصين ، وقال الضحاك : هم التسعة الذين سميناهم رضي الله عنهم ؛ وقال مجاهد : كل مؤمن صدّيق وشهيد وتلا هذه الآية ، وقال قوم : تم الكلام عند قوله تعالى : ﴿ هم الصديقون ﴾ ثم ابتدأ بقوله تعالى : ﴿ والشهداء ﴾ فهو مبتدأ وخبره ﴿ لهم أجرهم ﴾ أي : جعله ربهم لهم ﴿ ونورهم ﴾ أي : الذي زادهموه من فضله برحمته قالوا : والواو للاستئناف وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ومسروق وجماعة ؛ ثم اختلفوا فيهم فمنهم من قال : هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين يشهدون على الأمم يروى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو قول مقاتل بن حيان ، وقال مقاتل بن سليمان : هم الذين استشهدوا في سبيل الله عز وجل .

ولما ذكر تعالى أهل السعادة جعلنا الله تعالى ووالدينا ومحبينا منهم جامعاً لأصنافهم أتبعهم أهل الشقاوة لذلك بقوله تعالى : ﴿ والذين كفروا ﴾ أي : ستروا ما دلت عليه الأدلة ﴿ وكذبوا بآياتنا ﴾ أي : على مالها من العظمة بنسبتها إلينا ﴿ أولئك ﴾ أي : هؤلاء البعداء من كل خير ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ أي : النار التي هي غاية في توقدها وفي ذلك دليل على أنّ الخلود في النار مخصوص بالكفار من حيث أن التركيب يشعر بالاختصاص ، والصحبة تدل على الملازمة عرفاً ، وأما غيرهم من العصاة فدخولهم فيها ليس على وجه الصحبة الدالة على الملازمة .

(164/749)

ثم بين سبحانه وتعالى الحامل على الصدقة ترغيباً فيه وهو الإيمان فقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا ﴾ أي : أوجدوا هذه الحقيقة العظيمة في أنفسهم ﴿ بالله ﴾ أي : الملك الأعلى الذي له الجلال والإكرام ﴿ ورسله ﴾ أي : كلهم لأجل ما لهم من النسبة إليه فمن كذب واحد منهم لم يكن مؤمناً بالله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ أي : هؤلاء العالو الرتبة ﴿ هم الصديقون ﴾ أي : الذين هم في غاية الصدق والتصديق لما يحق له أن يصدقه من سمعه ؛ وقال القشيري الصديق من استوى ظاهره وباطنه ؛ ويقال : هو الذي يحمل الأمر على الأشق ولا ينزل إلى

الرخص ولا يجنح للتأويلات ؛ وقال مجاهد : كل من آمن بالله تعالى ورسله عليهم السلام فهو صدّيق وتلا هذه الآية ؛ وقال الضحاك : الآية خاصة في ثمانية نفر من هذه الأمة سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام أبو بكر وعلي وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة وتاسعهم عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ألحقه الله تعالى بهم لما عرف من صدق نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، واختلف في نظم قوله تعالى : ﴿ والشهداء عند ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم بالتربية لمثل تلك الرتبة العالية فمنهم من قال : هي متصلة بما قبلها والواو للنسق وأراد بالشهداء المؤمنين المخلصين ، وقال الضحاك : هم التسعة الذين سميناهم رضي الله عنهم ؛ وقال مجاهد : كل مؤمن صدّيق وشهيد وتلا هذه الآية ، وقال قوم : تم الكلام عند قوله تعالى : ﴿ هم الصديقون ﴾ ثم ابتدأ بقوله تعالى : ﴿ والشهداء ﴾ فهو مبتدأ وخبره ﴿ لهم أجرهم ﴾ أي : جعله ربهم لهم ﴿ ونورهم ﴾ أي : الذي زادهموه من فضله برحمته قالوا : والواو للاستئناف وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ومسروق وجماعة ؛ ثم اختلفوا فيهم فمنهم من قال : هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين يشهدون على الأمم يروى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو قول مقاتل بن حيان ، وقال مقاتل بن سليمان : هم الذين استشهدوا في سبيل الله عز وجل .

ولما ذكر تعالى أهل السعادة جعلنا الله تعالى ووالدينا ومحبينا منهم جامعاً لأصنافهم أتبعهم أهل الشقاوة لذلك بقوله تعالى : ﴿ والذين كفروا ﴾ أي : ستروا ما دلت عليه الأدلة ﴿ وكذبوا بآياتنا ﴾ أي : على ما لها من العظمة بنسبتها إلينا ﴿ أولئك ﴾ أي : هؤلاء البعداء من كل خير ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ أي : النار التي هي غاية في توقدها وفي ذلك دليل على أنّ الخلود في النار مخصوص بالكفار من حيث أن التركيب يشعر بالاختصاص ، والصحبة تدل على الملازمة عرفاً ، وأما غيرهم من العصاة فدخولهم فيها ليس على وجه الصحبة الدالة على الملازمة .

ولما ذكر تعالى حال الفريقين في الآخرة حقر أمر الدنيا بقوله تعالى : ﴿ اعلموا ﴾ أي : أيها العباد المبتلون بحب الدنيا ﴿ أنما الحياة الدنيا ﴾ أي : الحاضرة التي رغب في الزهد فيها والخروج عنها بالصدقة والقرض الحسن ، وما مزيدة للتأكيد أي : الحياة في هذه الدار ﴿ لعب ﴾ أي : لعب لا ثمرة له فهو باطل كلعب الصبيان ﴿ ولهو ﴾ أي : شيء يفرح به الإنسان فيلهيه أي يشغله عما يعنيه ثم ينقضي كلهو الفتيان ، ثم أتبع ذلك أعظم ما يلهي في

الدنيا بقوله تعالى : ﴿ وزينة ﴾ أي : شيء يبهج العين ويسر النفس كزينة النسوان وأتبعها ثمرتها بقوله تعالى : ﴿ وتفاخر بينكم ﴾ أي : كتفاخر الأقران يفتخر بعضهم على بعض فيجر ذلك إلى الحسد والبغضاء وأتبع ذلك بما يحصل به الفخر بقوله تعالى : ﴿ وتكاثر ﴾ أي : من الجانبين كتكاثر الرهبان ﴿ في الأموال ﴾ أي : التي لا يفتخر بها إلا أحمق لكونها مائلة ﴿ والأولاد ﴾ أي : التي لا يغتر بها إلا سفيه لأنها زائلة وآفاتها هائلة وإنما هي فتنة وابتلاء يظهر بها الشاكر من غيره ، ثم ذلك كله قد يكون ذهابه عن قريب فيكون على أضداد ما كان عليه فيكون أشد في الحسرة ثم في آخر ذلك يموت فإذا هو قد اضمحل أمره ونسى عما قليل ذكره وصار ماله لغيره وزينته متمتعاً بها سواه ، فالدنيا حقيرة وأحقر منها طالبها لأنها جيفة وطالب الجيفة ليس له خطر وأخسهم من يبخل بها ، وقال علي لعمار : لا تحزن على الدنيا فإنّ الدنيا ستة أشياء : مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح ، فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة ، وأكثر شرابها الماء ويستوي فيه جميع الحيوان ، وأفضل ملبوسها الديباج وهو نسج دودة ، وأفضل مشمومها المسك وهو دم فأرة ، وأفضل المركوب الفرس وعليها تقتل الرجال ، وأما المنكوح فهو النساء وهو مبال في مبال والله إنّ المرأة لتزين أحسنها فيراد منها أقبحها ا . هـ . ويناسب بعض ذلك قول الشاعر :

*فخير لباسها نسجات دود

* وخير شرابها قيء الذباب

*وأشهى ما ينال المرء فيها

* مبال في مبال مستطاب

قال القشيري : وهذه الدنيا المذمومة هي ما يشغل العبد عن الآخرة فكل ما يشغله عن الآخرة فهو الدنيا ا .ه . أي : وأما الطاعات وما يعين عليها فمن أمور الآخرة ثم ضرب الله للدنيا مثلاً بقوله تعالى : { كمثل } أي : هذا الذي ذكرته من أمرها يشبه مثل { غيث } أي : مطر حصل بعد جدب وسوء حال { أعجب الكفار } أي : الزراع الذين حصل منهم الحرث والبذر الذي يستره الحارث كما يستر الكافر حقيقة أنوار الإيمان بما يحصل منه من الجحد والطغيان { نباته } أي : نبات ذلك الغيث كما يعجب الكافر في الغالب بسط الدنيا له استدراجاً من الله تعالى : { ثم يهيج } أي : ييبس فيتم جفافه فيحين حصاده { فتراه } أي : عقب كل ذلك وبالقرب منه { مصفراً } أي : على حالة لا نموّ بعدها { ثم } أي : بعد تناهي الجفاف { يكون } أي : كونا كأنه مطبوع عليه { حطاماً } أي : فتاتاً يضمحل بالرياح.

ولما ذكر تعالى الظل الزائل ذكر أثره الثابت الدائم مقسماً له إلى قسمين فقال تعالى : { وفي

الآخرة عذاب شديد ﴾ أي : على من آثر الدنيا وأخذها بغير حقها معرضاً عن ذكر الله تعالى وعن الآخرة هذا أحد القسمين ، وأما القسم الآخر فهو : ما ذكره بقوله تعالى : ﴿ ومغفرة ﴾ أي : ولمن أقبل على الآخرة ورفض الدنيا ولم تشغله عن ذلك الله تعالى مغفرة ﴿ من الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ ورضوان ﴾ أي : في جنة عالية تفضلاً منه تعالى ورحمة ، وقوله تعالى جل وعلا : ﴿ وما الحياة الدنيا ﴾ أي : لكونها تشغل بزينتها مع أنها زائلة ﴿ إلا متاع الغرور ﴾ أي : هو في نفسه غرور لا حقيقة له إلا ذلك لأنه لا يسر بقدر ما يضر تأكيد لما سبق ، قال سعيد بن جبير : الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة .

ثم أرشدهم الله تعالى إلى المسابقة إلى الخيرات لأنّ الدنيا خيال ومحال ، والآخرة بقاء وكمال بقوله تعالى:

﴿ سابقوا ﴾ أي : سارعوا مسارعة المسابقين في المضمار ﴿ إلى مغفرة ﴾ أي : ستر لذنوبكم عيناً وأثراً ﴿ من ربكم ﴾ أي : المحسن إليكم بأنواع الخيرات التي توجب المغفرة لكم من ربكم ، وقال الكلبي : سارعوا بالتوبة لأنها تؤدي إلى المغفرة ، وقال مكحول : هي

التكبيرة الأولى مع الإمام، وقيل: الصف الأول ﴿وجنة﴾ أي: وبستان هو من عظم أشجاره واطراد أنهاره بحيث يستر داخله ﴿عرضها كعرض السماء والأرض﴾ أي: السموات السبع والأرضين السبع لو جعلت صفائح وألزق بعضها ببعض لكان عرض الجنة في قدرها جميعاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أن لكل واحد من المطيعين جنة بهذه السعة، وقال مقاتل: إنّ السموات السبع والأرضين السبع لو جعلت صفائح وألزق بعضها إلى بعض لكانت عرض جنة واحدة من الجنان، وسأل عمر ناس من اليهود إذا كانت الجنة عرضها ذلك فأين النار؟ فقال لهم: أرأيتم إذا جاء الليل أين يكون النهار؟ وإذا جاء النهار أين يكون الليل؟ فقالوا: إنه لمثلها في التوراة. ومعناه: أنه حيث شاء الله وهذا عرضها ولا شك أن الطول أزيد من العرض فذكر العرض تنبيهاً على أن طولها أضعاف ذلك، وقيل إن هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه ويقع في أنفسهم وأفكارهم وأكثر ما يقع في أنفسهم مقدار السموات والأرض فشبه عرض الجنة بما تعرفه الناس ﴿أعدت﴾ أي: هيئت هذه الجنة الموعود بها وفرغ من أمرها بأيسر أمر ﴿للذين آمنوا﴾ أي: أوقعوا هذه الحقيقة ﴿بالله﴾ أي: الذي له جميع العظمة لأجل ذاته مخلصين له الإيمان ﴿ورسله﴾ فلم يفرقوا بين أحد منهم وفي هذا أعظم رجاء وأقوى أمل لأنه ذكر أنّ الجنة أعدت لمن آمن بالله ورسله ولم يذكر مع الإيمان شيئاً آخر، يدل عليه قوله تعالى في سياق الآية ﴿ذلك﴾ أي: الفضل العظيم جداً ﴿فضل الله﴾ أي: الملك الذي لا كفؤ له فلا اعتراض عليه

﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ فبين أنه لا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله لا بعمله ، لما روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم

"لن يدخل الجنة أحداً منكم عمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل رحمة" . ولا ينافي ذلك قوله تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ لأنّ الباء في الحديث عوضيه ، وفي الآية سببية ، فإن قيل : يلزم على هذا أن يقطع بحصول الجنة لجميع العصاة وأن يقطع بأنه لا عقاب عليهم ؟

أجيب : بأنا نقطع بحصول الجنة ولا نقطع بنفي العقاب عنهم لأنهم إذا عذبوا مدة ثم نقلوا إلى الجنة بقوا فيها أبد الآباد فكانت معدة لهم ﴿ والله ﴾ أي : والحال أنّ الملك المختص بجميع صفات الكمال فله الأمر كله ﴿ ذو الفضل العظيم ﴾ أي : الذي جل أن تحيط بوصفه العقول ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ﴾ أي : من قحط المطر وقلة النبات ونقص الثمرات وغلاء الأسعار وتتابع الحوائج وغير ذلك ﴿ ولا في أنفسكم ﴾ أي : من الأمراض والفقر وذهاب الأولاد وضيق العيش وغير ذلك ﴿ إلا في كتاب ﴾ أي : مكتوبة

في اللوح مثبتة في علم الله تعالى : ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ أي : نخلق ونوجد ونقدر المصيبة في الأرض والأنفس ، وهذا دليل على أنّ اكتساب العباد بخلقه سبحانه وتعالى وتقديره ﴿ إن ذلك ﴾ أي : الأمر الجليل وهو علمه بالشيء وكتبه له على تفاصيله قبل أن يخلقه ﴿ على الله ﴾ أي : لما له من الإحاطة بصفات الكمال ﴿ يسير ﴾ لأن علمه محيط بكل شيء فقدرته شاملة لا يعجزه فيها شيء .

(170/749)

ثم بين ثمرة إعلامه بذلك بقوله تعالى : ﴿ لكيلا ﴾ أي : أعلمناكم بأنا على مالنا من العظمة قد فرغنا من التقدير فلا يتصور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا تغيير لا الحزن يدفعه ولا السرور يجلبه ويجمعه كما قال صلى الله عليه وسلم "يا معاذ ليقل همك ما قدر يكن" لأجل أن ﴿ لا تأسوا ﴾ أي : تحزنوا حزناً كبيراً زائداً على ما في أصل الجبلة فربما جرّ ذلك إلى السخط وعدم الرضا بالقضاء ﴿ على ما فاتكم ﴾ أي : من المحبوبات الدنيوية ﴿ ولا تفرحوا ﴾ أي : تسروا سروراً يوصلكم إلى البطر بالتمادي على ما في أصل الجبلة وقوله تعالى : ﴿ بما آتاكم ﴾ قرأه أبو عمرو بقصر الهمزة ، أي : جاءكم منه ، والباقون بالمد أي

أعطاكم قال جعفر الصادق رضي الله عنه : مالك تأسف على مفقود ولا يردّه عليك الفوت ومالك تفرح بموجود ولا يتركه في يدك الموت ا .ه .

(171/749)

ولقد عزى الله تعالى المؤمنين رحمة بهم في مصائبهم وزهدهم في رغائبهم بأن أسفهم على فوت المطلوب لا يعيده ، وفرحهم بحصول المحبوب لا يفيده ، وبأن ذلك لا مطمع في بقائه إلا بإدخاره عند الله تعالى وذلك بأن يقول : المصيبة قدر الله تعالى وما شاء فعل ويصبر ؛ وفي النعمة هكذا قضى وما أدري مآله هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر فلا يزال خائفاً عند النعمة قائلاً في الحالين ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن ، وأكمل من هذا أن يكون مسروراً بذكر ربه في كلتا الحالتين ، وقيمة الرجال إنما تعرف بالواردات المغيرة فمن لم يتغير بالمضار ولم يتأثر بالمسار فهو سيد وقته كما أشار إليه القشيري ؛ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً وغنيمته شكراً والحزن والفرح المنهي عنهما هما اللذان تتعدى فيهما إلى ما لا يجوز ﴿ والله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال ﴿ لا يحب ﴾ أي : لا يفعل فعل المحب بأن يكرم ﴿ كل مختال ﴾

أي : متكبر نظراً إلى ما في يده من الدنيا ﴿ فخور ﴾ أي : به على الناس قال القشيري : الاختيال من بقايا النفس ورؤيتها ، والفخر من رؤية خطر ما به يفتخر .

(172/749)

وقوله تعالى : ﴿ الذين يبخلون ﴾ بدل من كل مختال فخور فإنّ المختال بالمال يضن به غالباً ﴿ ويأمرون الناس ﴾ أي : كل من يعرفونه ﴿ بالبخل ﴾ إرادة أن يكونوا لهم رفقاء يعملون بأعمالهم الخبيثة أو مبتدأ خبره محذوف مدلول عليه بقوله تعالى : ﴿ ومن يتول ﴾ أي : يكلف نفسه الإعراض ضد ما في فطرته من محبة الخير والإقبال على الله تعالى : ﴿ فإن الله ﴾ الذي له جميع صفات الكمال ﴿ هو ﴾ أي : وحده ﴿ الغني الحميد ﴾ لأنّ معناه ومن يعرض عن الإنفاق فإنّ الله غني أي : عن ماله وعن إنفاقه وكل شيء مفتقر إليه وهو مستحق للحمد سواء أحمده الحامدون أم لا ﴿ لقد أرسلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ رسلنا ﴾ أي : الذين لهم نهاية الجلال بما لهم بنا من الاتصال من الملائكة إلى الأنبياء على جميعهم أفضل الصلاة والسلام ومن الأنبياء إلى الأمم ﴿ بالبينات ﴾ أي : الحجج القواطع ﴿ وأنزلنا ﴾ أي : بعظمتنا التي لا شيء أعلى منها ﴿ معهم الكتاب ﴾ أي : الكتب المتضمنة للأحكام وشرائع الدين ﴿ والميزان ﴾ أي : العدل ، وقيل : الآلة روي أن

جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال مر قومك يزنوا به ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾ أي : ليتعاملوا بينهم بالعدل ﴿ وأنزلنا ﴾ أي : خلقنا خلقا عظيماً بما لنا من القوة ﴿ الحديد ﴾ أي : المعروف على وجه من القوّة والصلابة واللين فلذلك سمي إيجاده إنزالاً ؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزل آدم عليه السلام من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد وروي من آلة الحدادين السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والإبرة ، وحكاه القشيري قال : والميقعة ما يحدد به يقال : وقعت الحديدة أقعها أي : حددتها وفي الصحاح : الميقعة الموضع الذي يألفه البازي فيقع عليه ، وخشبة القصار التي يدق عليها والمطرقة والمسن الطويل ، وروي ومعه المبرد والمسحاة ، وعن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض أنزل الحديد والنار

والماء والملح" . وروى عكرمة

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "أنزل ثلاثة أشياء مع آدم عليه السلام الحجر الأسود وكان أشد بياضاً من الثلج وعصا موسى عليه السلام وكانت من آس طولها عشرة أذرع

مع طول موسى" ؛ وعن الحسن ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾ خلقناه كقوله تعالى : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ﴾ (الزمر :)

وذلك أن أوامره تنزل من السماء وقضاياه وأحكامه ﴿ فيه بأس ﴾ أي : قوة وشدّة ﴿ شديد ﴾ أي : قوة شديدة فمنه جنة وهي آلة الدفع ومنه سلاح وهو آلة الضرب ﴿ ومنافع للناس ﴾ بما يعمل منه من مرافقهم لتقوم أحوالهم بذلك قال البيضاوي : ما من صنعة إلا والحديد آلتها ، وقال مجاهد : يعني جنة ، وقيل : انتفاع الناس بالماعون الحديد كالسكين والفأس ونحو ذلك ، وروي أنّ الحديد أنزل في يوم الثلاثاء فيه بأس شديد ، أي مهراق الدماء ولذلك نهي عن الفصد والحجامة في يوم الثلاثاء لأنه يوم جرى فيه الدم ؛ وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "أن في يوم الثلاثاء ساعة لا يراقد فيها الدم" .

(174/749)

وقوله تعالى : ﴿ وليعلم الله ﴾ أي : الذي له جميع العظمة علم شهادة لأجل إقامة الحجة بما يليق بعقول الخلق فيكون الجزاء على العمل لا على العلم ، عطف على قوله تعالى : ﴿ ليقوم الناس ﴾ أي : لقد أرسلنا رسلنا وفعلنا كيت وكيت ليقوم الناس وليعلم الله ﴿ من ينصره ﴾ أي : ينصر دينه بآلات الحرب من الحديد وغيره وقوله تعالى : ﴿ ورسله ﴾

عطف على مفعول ينصره أي : وينصر رسله وقوله تعالى : ﴿ بالغيب ﴾ حال من هاء ينصره ، أي : غائباً عنهم في الدنيا ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ينصرونه ولا يبصرونه ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له العظمة كلها ﴿ قوي ﴾ أي : فهو قادر على إهلاك جميع أعدائه وتأييد من ينصره من أوليائه ﴿ عزيز ﴾ فهو غير مفتقر إلى نصرة أحد وإنما دعا عباده إلى نصرة دينه ليقيم الحجة عليهم فيرحم من أراد بامتثال المأمور ويعذب من يشاء بارتكاب المنهي لبناء هذه الدار على حكمة ربط المسببات بالأسباب ولما أجمل الرسل في قوله تعالى:

(175/749)

﴿ لقد أرسلنا رسلنا ﴾ (الحديد :)فصل هنا ما أجمل من إرسال الرسل بالكتب فقال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ نوحاً ﴾ وهو الأب الثاني وجعلنا الأغلب على رسالته مظهر الجلال ﴿ وإبراهيم ﴾ وهو أبو العرب والروم وبني إسرائيل الذي أكثر الأنبياء من نسله وجعلنا الأغلب على رسالته تجلى الإكرام ﴿ وجعلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ في ذريتهما النبوّة ﴾ فلا يوجد نبي إلا من نسلهما ﴿ والكتاب ﴾ أي : الكتب الأربعة وهي التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما :

الكتاب الخط بالقلم يقال : كتب كتاباً وكتابة والضمير في قوله تعالى : ﴿ فمنهم مهتد ﴾ يعود على الذرية لتقدم ذكرها لفظاً وقيل : يعود على المرسل إليهم لدلالة أرسلنا ، أي : هو بعين الرضا منا وهو من لزم طريقة الاصفياء وإن كان من أولاد الأعداء ﴿ وكثير منهم ﴾ أي : المذكورين ﴿ فاسقون ﴾ أي : هم بعين السخط وإن كانوا من أولاد الأصفياء ، والمراد بالفاسق ههنا : الكافر لأنه جعل الفساق ضد المهتدين ، وقيل : هو الذي ارتكب الكبيرة سواء أكان كافراً أم لم يكن لإطلاق هذا الاسم وهو يشمل الكافر وغيره ﴿ ثم قفينا ﴾ أي : أتبعنا بما لنا من العظمة ﴿ على آثارهم ﴾ أي : الأبوين المذكورين ومن مضى قبلهما من الرسل أو عاصرهما منهم ﴿ برسلنا ﴾ أي : فأرسلناهم واحداً في أثر واحد كموسى والياس وداود وغيرهم ، ولا يعود الضمير على الذرية لأنها باقية مع الرسل وبعدهم وأيضاً الرسل المقفى بهم من الذرية ﴿ وقفينا ﴾ أي : أتبعنا بما لنا من العظمة على آثارهم قبل أن تندرس ﴿ بعيسى ابن مريم ﴾ وهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه وهو آخر من جاء قبل النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام فأمته أولى الأمم باتباعه صلى الله عليه وسلم ﴿ وآتيناه ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ الإنجيل ﴾ كتاباً ضابطاً لما جاء به مقيماً لملته مبشراً بالنبيّ العربيّ موضحاً لأمره مكثراً من ذكره ﴿ وجعلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ في قلوب

الذين اتبعوه ﴾ أي : على

دينه بغاية جهدهم فكانوا على

(177/749)

منهاجه ﴿ رأفة ﴾ أي : أشدّ رقة على من كان ينسب إلى الاتصال بهم ﴿ ورحمة ﴾ أي : رقة وعطفاً على من لم يكن له سبب في الاتصال بهم كما كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين رحماء بينهم حتى كانوا أذلة على المؤمنين مع أنّ قلوبهم في غاية الصلابة فهم أعزة على الكافرين متوادين بعضهم لبعض وقوله تعالى : ﴿ ورهبانية ﴾ منصوب بفعل مقدر يفسره الظاهر وهو قوله تعالى : ﴿ ابتدعوها ﴾ قال أبو علي : ابتدعوا رهبانية ابتدعوها فتكون المسألة من باب الاشتغال وإلى هذا نحا الفارسي والزمخشري وأبو البقاء وجماعة إلا أن هذا يقال : إنه إعراب المعتزلة ، وذلك أنهم يقولون : ما كان من فعل الإنسان فهو مخلوق له فالرحمة والرأفة لما كانتا من فعل الله تعالى نسب خلقهما إليه ، والرهبانية لما لم تكن من فعل الله تعالى بل من فعل العبد يستقل بفعلها نسب ابتداعها إليه ، وقيل : إن رهبانية معطوفة على رأفة ورحمة ، وجعل إما بمعنى خلق أو بمعنى صيّر وابتدعوها على

هذا صفة الرهبانية ، وإنما خصت بذكر الابتداع لأنّ الرأفة والرحمة في القلب أمر غريزي لا تكلف للإنسان فيهما بخلاف الرهبانية فإنها أفعال البدن وللإنسان فيها تكسب ، لكن أبو البقاء منع هذا بأن ما جعله الله تعالى ليبتدعونه . وجوابه : ما تقدم من أنه لما كانت مكتسبة صح ذلك بها والمراد من الرهبانية ترهبهم في الجبال فارّين من الفتنة في الدين متحملين كلفاً زائدة على العبادات التي كانت واجبة عليهم من الخلو واللباس والخشن والاعتزال عن النساء والتعبد في الكهوف والغيران ، روي أنّ ابن عباس رضي الله عنهما قال : في أيام الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم غير الملوك التوراة والإنجيل فساح نفر وبقي نفر قليل فترهبوا وتبتلوا ؛ قال الضحاك : إن ملوكاً بعد عيسى عليه السلام ارتكبوا المحارم ثلاثمائة سنة فأنكرها عليهم من كان بقي على منهاج عيسى فقتلوهم ، فقال قوم بقي بعدهم : نحن إذا

نهيناهم قتلونا فليس يسعنا المقام بينهم

فاعتزلوا الناس واتخذوا الصوامع . وقال قتادة : الرهبانية التي ابتدعوها رفض النساء واتخاذ الصوامع . وفي خبر مرفوع هي لحوقهم بالبراري والجبال وقوله تعالى : ﴿ ما كتبناها ﴾ صفة لرهبانية ويجوز أن يكون استئناف إخبار بذلك ، قال ابن زيد : معناه ما فرضناها ﴿ عليهم ﴾ ولا أمرناهم بها في كتابهم ولا على لسان رسولهم وقوله تعالى : ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ أي : الملك الأعظم استثناء منقطع ، أي : ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ، وقيل : متصل بما هو مفعول من أجله والمعنى : ما كتبناها عليهم الشيء من الأشياء إلا لابتغاء مرضاة الله ويكون كتب بمعنى : قضى فصار المعنى : كتبناها عليهم ابتغاء مرضاة الله ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ أي : ما قاموا بها حق القيام بل ضموا إليها التثليث وكفروا بدين عيسى ودخلوا في دين ملكهم وبقي على دين عيسى كثير منهم وآمنوا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فآتينا ﴾ أي : بما لنا من صفات الكمال ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي : بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ منهم أجرهم ﴾ أي : اللائق بهم وهو الرضوان المضاعف ﴿ وكثير منهم ﴾ أي : من هؤلاء الذين ابتدعوها فضيعوا ﴿ فاسقون ﴾ أي : عريقون في وصف الخروج عن الحدود التي حدّها الله تعالى وهم الذين تركوا الرهبانية وكفروا بدين عيسى عليه السلام ، روى البغوي بسنده عن ابن مسعود أنه قال : "دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن مسعود

اختلف من كان قبلكم على اثنتين وسبعين فرقة نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم فرقة غزت الملوك وقاتلوهم على دين عيسى وفرقة لم يكن لهم طاقة بمعاداة الملوك ولا أن يقيموا بين أظهرهم فدعوهم إلى دين الله تعالى ودين عيسى عليه السلام فساحوا في البلاد فترهبوا وهم الذين قال الله عز وجل : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ " ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم "من آمن بي وصدقني واتبعني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم

الهالكون" .

(180/749)

وعن ابن مسعود أيضاً قال : "كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار فقال : يا ابن أم عبد هل تدري من أين اتخذت بنو إسرائيل الرهبانية ؟ فقلت الله ورسوله أعلم ، قال : ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بالمعاصي فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزموا أهل الإيمان ثلاث مرار فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا : إن ظهرنا لهؤلاء قتلونا ولم يبق للدين أحد يدعو إليه فتعالوا نتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله تعالى النبيّ الذي وعدنا عيسى عليه السلام يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم فتفرّقوا في غيران الجبال وأحدثوا

الرهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ثم تلا هذه الآية ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ يعني من ثبت عليها أجرهم ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم يا ابن أم عبد أتدري ما رهبانية أمتي قلت الله ورسوله أعلم قال : الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة"

m

(181/749)

وعن أنس أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ لكلّ أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله تعالى" وعن ابن عباس قال : كانت ملوك بني إسرائيل بعد عيسى عليه السلام بدلوا التوراة والإنجيل وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل ويدعونهم إلى دين الله تعالى : فقيل لملوكهم : لو جمعتم هؤلاء الذين شقوا عليكم فقتلتموهم أو دخلوا فيما نحن فيه فجمعهم ملكهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل وإلا فما بدلوا منهما فقالوا نحن نكفيكم أنفسنا ، فقالت طائفة : ابنوا لنا اسطوانة ثم ارفعونا إليها أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم ، وقالت طائفة : دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش فإن قدرتم علينا بأرض فاقتلونا ، وقالت طائفة : ابنوا لنا دوراً

في الفيافي نحتفر الآبار ونحترث البقر فلا نرد عليكم ولا نراكم ففعلوا بهم ذلك ، فمضى أولئك على منهاج عيسى عليه السلام ، وخلف قوم من بعدهم ممن غير الكتاب فجعل الرجل يقول : نكون في مكان فلان فنتعبد كما تعبد ونسيح كما ساح فلان ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم فذلك قوله عز وجلّ :

﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ ابتدعها هؤلاء الصالحون فما رعوها حق رعايتها ، يعني الآخرين الذين جاؤوا من بعدهم ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ يعني : الذين اتبعوها ابتغاء مرضاة الله ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ هم الذين جاؤوا من بعدهم قال : فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ولم يبق منهم إلا القليل انحط رجل من صومعته وجاء سائح من سياحته وصاحب دير من ديره فآمنوا وصدّقوا فقال الله تعالى :

(182/749)

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي : بموسى وعيسى عليهما السلام إيماناً صحيحاً ﴿ اتقوا الله ﴾ أي : خافوا عقاب الملك الأعظم ﴿ وآمنوا برسوله ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم إيماناً مضموماً إلى إيمانكم بمن تقدّمه ، هذا إذا كان خطاباً لمؤمني أهل الكتاب ، وأمّا إذا كان خطاباً للمؤمنين من أهل الكتاب وغيرهم ، فالمعنى : آمنوا برسوله إيماناً مضموماً إلى

إيمانكم بالله تعالى فإنه لا يصح الإيمان بالله إلا مع الإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ يؤتكم ﴾ أي : يثبكم على اتباعه ﴿ كفلين ﴾ أي : نصيبين ضخمين ﴿ من رحمته ﴾ يحصنانكم من العذاب كما يحصن الكفل الراكب من الوقوع وهو كساء يعقد على ظهر البعير فيلقي مقدّمه على الكاهل ومؤخره على العجز وهذا التحصين لأجل إيمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلم وإيمانكم بمن تقدّمه مع خفة العمل ورفع الآصار ، ولا يبعد أن يثابوا على دينهم السابق وإن كان منسوخاً ببركة الإسلام . وقيل : الخطاب للنصارى الذين كانوا في عصره صلى الله عليه وسلم وقال أبو موسى الأشعري : كفلين ضعفين بلسان الحبشة ، وقال ابن زيد : كفلين أجر الدنيا وأجر الآخرة ، وعن أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ثلاث يؤتون أجرهم مرتين رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوّجها ، ورجل من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وعبد أحسن عبادة الله ونصح سيده" ﴿ ويجعل لكم ﴾ أي : مع ذلك ﴿ نوراً ﴾ مجازياً في الدنيا من العلوم والمعارف القلبية وحسياً في الآخرة بسبب العمل ﴿ تمشون به ﴾ أي : مجازاً في الدنيا بالتوفيق للعمل وحقيقة في الآخرة بسبب العمل ، وقال مجاهد : النور هو البيان والهدى ، وقال ابن عباس : هو القرآن ، وقال الزمخشري : هو النور المذكور في قوله تعالى : ﴿ نورهم يسعى ﴾ (التحريم :)

وقيل : يمشون في الناس يدعونهم إلى الإسلام فيكونون رؤساء في دين الإسلام لا تزول عنكم رياستكم فيه وذلك أنهم خافوا أن تزول رياستهم لو آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وإنما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضعفة بتحريف أحكام الله تعالى لا الرياسة الحقيقية في الدين ﴿ ويغفر لكم ﴾ أي : ما فرط منكم من سهو وعمد وهزل وجدّ ﴿ والله ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ غفور ﴾ أي : بليغ المحو للذنوب عيناً وأثر ﴿ رحيم ﴾ أي : بليغ الإكرام لمن يغفر له ويوفقه للعمل بما يرضيه .

(184/749)

ولما بلغ من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله تعالى : ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين ﴾ قالوا للمسلمين : أمّا من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين لإيمانه بكتابكم وبكتابنا ومن لم يؤمن منا فله أجره كأجوركم فما فضلكم علينا فأنزل الله تعالى : ﴿ لئلا يعلم ﴾ أي : ليعلم ولا زائدة للتأكيد ﴿ أهل الكتاب ﴾ الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ أن ﴾ مخففة من الثقيلة اسمها ضمير الشان والمعنى أنهم ﴿ لا يقدرون على شيء ﴾ في زمن من الأزمان ﴿ من فضل الله ﴾ أي : الملك الأعلى فلا أجر لهم ولا نصيب في فضله إن لم يؤمنوا بنبيه

محمد صلى الله عليه وسلم وقال قتادة : حسد الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب المؤمنين منهم فنزلت هذه الآية . وقال مجاهد : قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبيّ يقطع الأيدي والأرجل فلما خرج من العرب كفروا به فنزلت الآية . وروي أن مؤمني أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين وادّعوا الفضل عليهم فنزلت ، وقيل : المراد من فضل الله الإسلام ، وقيل : الثواب ، وقال الكلبي : من رزق الله وقيل : نعم الله تعالى التي لا تحصى ﴿ وأنّ ﴾ أي : وليعلموا أن ﴿ الفضل ﴾ أي : الذي لا يحتاج إليه من هو عنده ﴿ بيد الله ﴾ الذي له الأمر كله ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ لأنه قادر مختار فآتى المؤمنين منهم أجرهم مرتين ﴿ والله ﴾ أي : الذي أحاط بجميع صفات الكمال ﴿ ذو الفضل العظيم ﴾ أي : مالكه ملكاً لا ينفك ولا ملك لأحد فيه معه ولا تصرف بوجه أصلاً فلذلك يخص من يشاء بما يشاء

(185/749)

روى البخاري عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر : "إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أعطي أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا

قيراطاً قيراطاً ، ثم أعطي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين ، قال أهل التوراة : ربنا هؤلاء أقل عملاً وأكثر أجراً قال : هل ظلمتكم من أجركم شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال فذلك فضلي أوتيه من أشاء" وفي رواية "فغضبت اليهود والنصارى وقالوا : ربنا" الحديث ، وفي رواية "إنما أجلكم في أجل من كان قبلكم خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس" ؟ "وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً فقال : من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط فعلمت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط ، ثم قال : من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى من نصف النهار إلى العصر على قيراط قيراط ، ثم قال من يعمل لي من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ألا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس ألا لكم الأجر مرتين ، فغضبت اليهود والنصارى وقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل عطاء قال الله تعالى : هل ظلمتكم من حقكم شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال : فإنه فضلي أوتيه من شئت" . وعن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم فعملوا إلى نصف النهار فقالوا : لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل ، فقال لهم : لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً فأبوا

وتركوا واستأجر آخرين من بعدهم فقال : أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذي شرطت لهم من

(186/749)

الأجر فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه فقال : أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير فأبوا فاستأجر آخرين على أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كلاهما فذلك مثلهم ومثل ما بقوا من هذا النور" . وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسله" حديث موضوع. انتهى انتهى . ا هـ ﴿السراج المنير حـ 7 صـ 316 . 330﴾

(187/749)

وقال القاسمي :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [16]

ثم نعى عليهم رخاوة عقدهم فيما ندبوا إليه من التصدق في سبيل الله ، بأن ذلك من أثر قلة العناية بالخضوع لذكره وتنزيله ، تعريضاً بالمنافقين ، وسوقاً للمؤمنين إلى الكمال ، فقال سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ أي : لم يحن ، من : أنى الأمر يأنى ، إذا جاء إناه ، أي : وقته ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي : أن تلين وترقّ وتخلص قلوبهم لذكر اسمه الكريم وما يوجبه من الوجل منه والخشية ، أو لذكر وعده ووعيده ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ يعني القرآن الذي لو أنزل على جبل لتصدع . قال أبو السعود : ومعنى الخشوع له ، الانقياد التامّ لأوامره ونواهيه ، والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام التي من جملتها ما سبق وما لحق من الإنفاق في سبيل الله تعالى . وقد قيل : إن عطفه على الذكر عطف أحد الوصفين على الآخر ، وأن ذكر الله ككلام الله ، بمعنى القرآن ، وكذا ما نزل من الحق ، فالعطف لتغاير العنوانين ، فإنه ذكر وموعظة ، كما أنه حق نازل ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ﴾ أي : الأجل والإمهال والاستدراج ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : لزوال الخشية والروعة التي كانت تأتيهم من الكتابين ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي :

خارجون عن دينهم ، نابذون لما في كتابهم .

تنبيه :

(188/749)

قال ابن كثير : في الآية نهي للمؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ، فإنهم لما تطاول عليهم الأمد ، وبدلوا كتاب الله الذي بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال في دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فقست قلوبهم ، وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه ؛ ولهذا نهى المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية ، ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ ﴾ [النساء : 155] ، و [المائدة : 13] ، إلى آخرها .

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [17]

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي : فهو محييكم بعد مماتكم ومحاسبكم ، فلا منتدح لكم عن الجزاء ، أي : فاحذروا مغبة القسوة والفسق .

﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ أي : الحجج وضروب الأمثال ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : لتثوبوا

إلى عقولكم ومراشدكم .

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ ﴾ أي : المتصدقين والمتصدقات في سبيل الله ﴿ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أي : لتصديقهم بجميع أخبار الله وأحكامه ، وشهادتهم بحقية جميع ذلك . وقد جوز في ﴿ الشُّهَدَاء ﴾ وجهان : أحدهما : أن يكون معطوفاً على ما قبله ، أخبر عن الذين آمنوا أنهم صديقون شهداء ، وهو الظاهر ، لأن الأصل الوصل لا التفكيك .

والثاني : أن يكون مبتدأ ، خبره ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ ، و ﴿ الشُّهَدَاء ﴾ حينئذ إما الأنبياء الذين يشهدون على قومهم بالتبليغ أو الذين يشهدون للأنبياء على قومهم ، أو الذين قتلوا في سبيل الله . واختار الوجه الثاني ابن جرير ، قال : لأن الإيمان غير موجب في المتعارف للمؤمن اسم شهيد ، لا بمعنى غيره ، إلا أن يراد به شهيد على ما آمن به وصدقه ، فيكون ذلك وجهاً ، وإن كان فيه بعض البعد ، لأن ذلك ليس بالمعروف من معانيه إذا أطلق بغير وصل فتأويل قوله : ﴿ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ إذن والشهداء الذين قتلوا في

سبيل الله ، أو أهلكوا في سبيله ، عند ربهم ، لهم ثواب الله في الآخرة ونورهم . انتهى .

ثم رأيت لابن القيم في " طريق الهجرتين " بسطاً لهذين الوجهين في بحث الصديقية ، ننقله لنفاسته ، قال رحمه الله في مراتب المكلفين في الآخرة وطبقاتهم :

الطبقة الرابعة : ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم ، وهم القائمون بما بعثوا به علماً وعملاً ، ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم ، وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسل و النبوة ، وهي مرتبة الصديقية ؛ ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء ، فقال تعالى :

﴿ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً ﴾ [النساء : 69] ، فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة ، وهؤلاء هم الربانيون ، وهم الراسخون العلم ، وهم الوسائط بين الرسول وأمته ؛ فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه ، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك .

(190/749)

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ قيل : إن الوقف على قوله :

﴿ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ ثم يبتدئ : ﴿ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فيكون الكلام جملتين ، أخبر في إحداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون ، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل ، والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه . وأخبر في الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين ، هنا وفي سورة النساء ، وهكذا جاء ذكرهم مقدماً على الشهداء في كلام النبي في قوله : < اثبت أحد فإنما عليك نبيّ وصديق وشهيد > . ولهذا كان نعت الصديقية وصفاً لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبي بكر الصديق ، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتاً له رضي الله عنه .

وقيل : إن الكلام جملة واحدة ، أخبر عن المؤمنين أنهم هم الصديقون والشهداء عند ربهم ، وعلى هذا فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة ، وهي قوله : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة : 143] ، وهم المؤمنون ، فوصفهم بأنهم صديقون في الدنيا ، وشهداء على الناس يوم القيامة ، ويكون الشهداء وصفاً لجملة المؤمنين الصديقين .

وقيل : الشهداء هم الذين قتلوا في سبيل الله ، وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين ، ويكون قوله :

﴿ وَالشُّهَدَاء ﴾ مبتدأ خبره ما بعده ، لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيداً في سبيل الله ،

ويرجحه أيضاً أنه لو كان ﴿ الشُّهَدَاء ﴾ داخلاً في جملة الخبر ، لكان قوله : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ داخلاً أيضاً في جملة الخبر عنهم ، ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء :

أحدها : أنهم هم الصديقون .

والثاني : أنهم هم الشهداء .

والثالث : أن لهم أجرهم ونورهم .

(191/749)

وذلك يتضمن عطف الخبر الثاني على الأول ، ثم ذكر الخبر الثالث مجرداً عن العطف ، وهذا كما تقول : زيد كريم وعالم له مال . والأحسن في هذا تناسب الأخبار ، بأن تجردها كلها من العطف أو تعطفها جميعاً ، فقول : زيد كريم عالم له مال ، أو كريم وعالم وله مال ، فتأمله ! ويرجحه أيضاً أن الكلام يصير جملاً مستقلة قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء ، وهم الصديقون والشهداء والصالحون ، وهم المذكورون في الآية ، وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً ؛ فهؤلاء ثلاثة أصناف ، ثم ذكر الرسل في قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ [الحديد : 25] ، فيتناول ذلك الأصناف الأربعة المذكورة في سورة النساء فهؤلاء هم السعداء ، ثم ذكر الأشقياء وهم نوعان : كفار

ومنافقون ، فقال :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا ﴾ الآية ، وذكر المنافقين في قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ ﴾ [الحديد : 13] الآية ، فهؤلاء أصناف العالم كلهم . وترك سبحانه ذكر المخلّط صاحب الشائبتين ، على طريق القرآن في ذكر السعداء والأشقياء ، دون المخلطين غالباً ، لسرّ اقتضته حكمته ؛ فليحذر صاحب التخليط ، فإنه لا ضمان له على الله ، فلا هو من أهل وعده المطلق ، ولا ييأس من روح الله ، فإنه ليس من الكفار الذين قطع لهم بالعذاب ، ولكنه بين الجنة والنار واقف بين الوعد والوعيد ، كل منهما يدعوه إلى موجبه لأنه أتى بسببه ، وهذا هو الذي لحظه القائلون بالمنزلة بين المنزلتين ، ولكن غلطوا في تخليده في النار ، ولو نزلوه بين المنزلتين ، ووكلوه إلى المشيئة لأصابوا . انتهى كلام ابن القيم ، وفيه موافقة لما اختاره ابن جرير في الآية .

ولما ذكر تعالى السعداء ومآلهم ، عطف بذكر الأشقياء ، وبين حالهم بقوله :

(192/749)

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ ثم حقر تعالى أمر الدنيا ، وبين حاصل أمرها عند أهلها ، بقوله :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ﴾ أي: تفريح للنفس ﴿ وَلَهْوٌ ﴾ أي: باطل ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ أي: منظر حسن ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ أي: في الحسب والنسب ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ أي: مطر ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ ﴾ أي: الزراع ﴿ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي: يجف بعد خضرته ونضرته ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ أي: من اليبس ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ أي: هشيما متكسرا، وكذلك الدنيا لا تبقى كما لا يبقى النبات ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أي: لمن ترك طاعة الله ومنع حق الله ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ أي: في الآخرة لمن أطاع الله، وأدى حق الله من ماله ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ قال المهايميّ: يأخذ صاحبها ملاعب الدنيا بدل ملاعب الحور العين، ولهوها بملاذ الجنة، وزينتها بزينة الجنة، والتفاخر بدل التفاخر بجوار الله والقرب، والتكاثر بالأموال والأولاد بدل نعم الله والولدان المخلدين في الجنة.

ولما حقر الحياة الحسية النفسية الفانية، وصورها في صورة الخضراء السريعة الانقضاء، دعاهم إلى الحياة الباقية، فقال تعالى:

﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [21]

﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي : بادروا بالتوبة من ذنوبكم إلى نيل مغفرة وتجاوز عن خطيئاتكم من ربكم ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أي : الإيمان اليقينيّ .

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : المغفرة والجنة ﴿ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ أي : ممن كان أهلاً له ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ قال ابن جرير : أي : بما بسط لخلقه من الرزق في الدنيا ، ووهب لهم من النعم ، وعرفهم موضع الشكر ، ثم جزاهم في الآخرة على الطاعة ، ما وصف أنه أعده لهم .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [22 - 24]

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : من قحط وجدب ووباء وغلاء ﴿ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ أي : من خوف ومرض وموت أهل وولد ، وذهاب مال ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ أي : إلا في علم أزلي من قبل خلق المصيبة أو الأنفس . وما علم الله كونه

فلا بد من حصوله ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ أي : حفظه وتقديره على الأنفس المبروءة ما قدر ، ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي : لسعة علمه وإحاطته .

(194/749)

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا ﴾ أي : تحزنوا ﴿ عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ أي : من عافية ورزق ونحوهما ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا ﴾ أي : تبطروا ﴿ بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أي : من نعم الدنيا . والمعنى : أعلمناكم بأنا قد فرغنا من التقدير ، فلا يتصور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا تغيير ، فلا الحزن يدفعه ، ولا السرور يجلبه ويجمعه . قال القاشانيّ : أي : لتعلموا علماً يقينياً أن ليس لكسبكم وحفظكم وحذركم وحراستكم فيما آتاكم ، مدخل وتأثير ، ولا لعجزكم وإهمالكم وغفلتكم وقلة حيلتكم وعدم احترازكم واحتفاظكم فيما فاتكم مدخل ؛ فلا تحزنوا على فوات خير ، ونزول شر ، ولا تفرحوا بوصول خير وزوال شر ؛ إذ كلها مقدرة ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾ أي : متبختر من شدة الفرح بما آتاه ﴿ فَخُورٍ ﴾ أي : به على الناس لعدم يقينه وبعده عن الحق بحب الدنيا واحتجابه بالظلمات عن النور .

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ أي : بالإنفاق في سبيل الله ، لشدة محبة المال ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ أي : لاستيلاء الرذيلة عليهم ، والموصول إما مبتدأ وخبره محذوف ، أي : لهم

وعيد شديد ، أو خبر ومبتدؤه محذوف ، أي : هم اللذين ، أو بدل من كل .

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي : يعرض عن ذكر الله وما أمر به ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أي : عنه ، لاستغنائه بذاته ﴿ الْحَمِيدِ ﴾ أي : لاستقلاله بكماله ، وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق ، لا لما يعود عليه تعالى ، فإنه الغنيّ المطلق .

(195/749)

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : بالحجج والبراهين القاطعة على صحة ما يدعون إليه ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ أي : التامّ في الحكم والأحكام ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ أي : العدل ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . قال ابن كثير : وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة ، المخالفة للآراء السقيمة ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ أي : بالحق والعدل ، وهو إتباع الرسل فيما أمروا به ، وتصديقهم فيما أخبروا عنه ، فإن الذي جاؤوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق ، كما قال :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام : 115] . أي : صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأوامر والنواهي ، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوؤوا غرف الجنات : ﴿ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [

الأعراف : 43] .

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يعني القتال به ، فإن آلات الحروب متخذة منه ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أي : في مصالحهم ومعايشهم ، فما من صناعة إلا وللحديد يدٌ فيها .

فإن قيل : الجمل المتعاطفة لابد فيها من المناسبة ، وأين هي في إنزال الحديد مع ما قبله ؟

فالجواب : أن بينهما مناسبة تامة ؛ لأن المقصود ذكر ما يتم به انتظام أمور العالم في الدنيا حتى ينالوا السعادة في الأخرى ، ومن هداه الله من الخواص العقلاء ينتظم حاله في الدارين بالكتب والشرائع المطهرة ، ومن أطاعهم وقلدهم من العامة بإجراء قوانين الشرع العادلة بينهم ، ومن تمرد وطغى وقسا يضرب بالحديد الرادّ لكل مَريد . وإلى الأولين أشار بقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ فجمعهم وأتباعهم في جملة واحدة ، وإلى الثالث أشار بقوله :

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ فكأنه قال : أنزلنا ما يهتدي به الخواصّ ، وما يهتدي به من لم يتبعهم ، فهي حينئذ معطوفة ، لا معترضة لتقوية الكلام كما توهم ، إذ لا داعي له ، وليس في الكلام ما يقتضيه ، بل فيه ما ينافيه . قال العتبي : في أول " تاريخه " : كان يختلج في صدري أن في

الجمع بين الكتاب والميزان والحديد تنافراً ، وسألت عنه فلم أحصل على ما يزيح العلة وينقع الغلة ، حتى أعملت التفكر ، فوجدت الكتاب قانون الشريعة ، ودستور الأحكام الدينية ، يتضمن جوامع الأحكام والحدود ، وقد حظر فيه التعادي والتظالم ، ودفع التباغي والتخاصم ، وأمر بالتناصف والتعادل ، ولم يكن يتم إلا بهذه الآلة ، فلذا جمع ﴿ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ وإنما تحفظه العامة على اتباعها بالسيف ، وجذوة عقابه ، وعذاب عذابه ، وهو الحديد الذي وصفه الله بالبأس الشديد . فجمع بالقول الوجيز ، معاني كثيرة الشعوب ، متدانية الجنوب ، محكمة المطالع ، مقومة المبادئ والمقاطع ، نقله الشهاب .

(197/749)

وأوّل القاشانيّ ﴿ الْبَيِّنَاتِ ﴾ بالمعارف والحكم ، و ﴿ الْكِتَابُ ﴾ بالكتابة ، و ﴿ الْمِيزَانَ ﴾ بالعدل ، لأنه آلته ، و ﴿ الْحَدِيدِ ﴾ بالسيف ، لأنه مادته ، قال : وهي الأمور التي بها يتم الكمال النوعي ، وينضبط الكليّ المؤدي على صلاح المعاش والمعاد ؛ إذ الأصل المعتبر والمبدأ الأول ، وهو العلم والحكمة . والأصل المعول عليه في النوع الاستقامة في طريق الكمال هو العدل ، ثم لا ينضبط النظام ولا يتمشى صلاح الكل إلا بالسيف والقلم الذين يتم بهما أمر السياسة ؛ فالأربعة هي أركان كمال النوع ، وصلاح الجمهور . ويجوز أن

تكون ﴿ الْبَيِّنَاتِ ﴾ إشارة إلى المعارف والحقائق النظرية ، و ﴿ الْكِتَابُ ﴾ إشارة إلى الشريعة والحكم العملية و ﴿ الْمِيزَانَ ﴾ إلى العمل بالعدل والسوية و ﴿ الْحَدِيدِ ﴾ إلى القهر ودفع شرور البرية . وقيل : ﴿ الْبَيِّنَاتِ ﴾ العلوم الحقيقية ، والثلاثة الباقية هي النواميس الثلاثة المشهورة المذكورة في الكتب الحكمية ، أي : الشرع ، والدينار المعدل للأشياء في المعاوضات ، والملك . وأيّاً ما كان فهي الأمور المتضمنة للكمال الشخصيّ والنوعيّ في الدارين ؛ إذ لا يحصل كمال الشخص إلا بالعلم والعمل ، ولا كمال النوع إلا بالسيف والقلم ، أما الأول فظاهر ، وأما الثاني فلأن الْإِنْسَان مدني بالطبع ، محتاج إلى التعامل والتعاون ، لا تمكن معيشته إلا بالاجتماع ، والنفوس إما خيّرة أحرار بالطبع ، منقادة للشرع ، وإما شريرة عبيد بالطبع آبية للشرع ؛ فالأولى يكفيها في السلوك طريق الكمال والعمل بالعدالة واللطف وسياسة الشرع ، والثانية لا بد لها من القهر وسياسة الملك . انتهى .

تنبيه :

لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة في معنى نزول القرآن ولفظ النزول ، حيث ذكر في كتاب الله تعالى ، بيّن فيها أن كثيراً من الناس فسروا النزول في مواضع من القرآن بغير ما هو معناه المعروف ؛ لاشتباه المعنى في تلك المواضع ، وصار ذلك حجة لمن فسر نزول القرآن بتفسير أهل البدع ، وحقق رحمه الله أن ليس في القرآن ولا في السنة لفظ : نزول إلا فيه معنى النزول المعروف ، قال : وهو اللائق بالقرآن ، فإنه نزل بلغة العرب ، ولا تعرف العرب منزولاً إلا بهذا المعنى ، ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطاباً بغير لغتها . ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنى ، في معنى آخر بلا بيان ، وهذا لا يجوز بما ذكرنا ، قال : وقد ذكر سبحانه إنزال الحديد ، والحديد يخلق في المعادن ، وما يذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن آدم عليه السلام نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والإبرة ، فهو كذب لا يثبت مثله . وكذلك الحديث الذي رواه الثعلبي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض ، فأنزل الحديد والماء والنار والملح ، حديث موضوع ومكذوب والناس يشهدون أن هذه الأمة تصنع من حديد المعادن ما يريدون . فإن قيل : إن آدم عليه السلام نزل معه جميع الآلات ، فهذه مكابرة للعيان .

فإن قيل : بل نزل معه آلة واحدة ، وتلك لا تعرف ، فأي فائدة في هذا لسائر الناس ؟ ثم ما يصنع بهذه الآلات إذا لم يكن ثمّ حديد موجود يطرق بهذه الآلات ؟ وإذا خلق الله الحديد

صنعت منه هذه الآلات .

ثم أخبر أنه أنزل الحديد ، فكان المقصود الأكبر بذكر الحديد هو اتخاذ آلات الجهاد منه ، الذي به ينصر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . وهذا لم ينزل من السماء .

(199/749)

فإن قيل : نزلت الآلة التي يطبع بها . قيل : فالله أخبر أنه أنزل الحديد لهذه المعاني المتقدمة ، والآلة وحدها لا تكفي ، بل لابد من مادة يصنع بها آلات الجهاد .

ثم قال : وجعل بعضهم نزول الحديد بمعنى الخلق ، لأنه أخرجه من المعادن ، وعلمهم صنعته ، فإن الحديد إنما يخلق المعادن ، والمعادن إنما تكون في الجبال ؛ فالحديد ينزله الله من معادنه التي في الجبال ، لينتفع به بنو آدم . انتهى كلامه رحمه الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أي : باستعمال الحديد في مجاهدة أعدائه . عطف على محذوف دلّ عليه ما قبله ، أي : لينتفعوا به ويستعملوه في الجهاد ، وليعلم الله . . . . إلخ . وحذف المعطوف عليه إيماء إلى أنه مقدمة لما ذكر ، وهذا المقصود منه . أو اللام متعلقة بمحذوف ، أي : أنزله ليعلم . . . إلخ والجملة معطوفة على ما قبلها ؛ فحذف المعطوف ، وأقيم متعلقة مقامه ، وقيل : عطف على ﴿

لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ قال الشهاب : وهو قريب بحسب اللفظ ، بعيد بحسب المعنى .

﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ ﴾ أي : على إهلاك من أراد إهلاكه ﴿ عَزِيزٌ ﴾ أي : غالب قاهر لمن شاء .

(200/749)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم ﴾ أي : من الذرية ﴿ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي : خارجون عن طاعته بترك نصوص كتبه وتحريفها ، وإيثار آراء الأحبار والرهبان عليها ، واجترام ما نهوا عنه ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا ﴾ أي : أتبعنا ﴿ عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أي : حناناً ورقة على الخلق لكثرة ما وصى به عيسى عليه السلام ، من الشفقة وهضم النفس والمحبة ، وكان في عهده أمتان عظيمتا القسوة والشدة : اليهود والرومان ، وهؤلاء أشد قسوة ، وأعظم بطشاً ، لا سيما في العقوبات ، فقد كان لهم أفانين في تعذيب النوع البشريّ بها ، ومنها تسليط الوحوش المفترسة عليه ، وتربيتها لذلك ،مما جاءت البعثة المسيحية على أثرها ، وجاهدت في مطاردتها ، وصبرت على منازلتها ، حتى ظهرت عليها بتأييده تعالى ونصره - كما بينه آخر سورة الصف - ﴿

وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي : ما فرضناها عليهم ، وإنما هم التزموها من عند أنفسهم .

﴿ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ استثناء منقطع ، أي : ولكنهم ابتدعوها طلبَ مرضاة الله عنهم .

﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أي : ما قاموا بما التزموه منها حق القيام من التزهد ، والتخلي للعبادة وعلم الكتاب ، بل اتخذوها آلة للترؤس والسؤدد وإخضاع الشعب لأهوائهم .

﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ يعني الذين آمنوا الإيمان الخالص عن شوائب الشرك والابتداع ، ومنه الإيمان بمحمد صلوات الله عليه ، المبشر به عندهم .

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي : خارجون عن مواجب الإيمان ومقاصده .

تنبيهات :

الأول : الرهبانية هي المبالغة في العبادة والرياضة ، والانقطاع عن الناس ، وإيثار العزلة والتبتل ، وأصلها الفعلة المنسوبة إلى الرهّبان ، وهو الخائف ، فعلان ، من رهب ،

كخشيان من خشي .

الثاني : قال ابن كثير في قوله تعالى :

﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ : ذمٌّ لهم من وجهين :

أحدهما : في الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله .

والثاني : في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل .

الثالث : رأيت في كثير من مؤلفات علماء المسيحيين المتأخرين ذم بدعة الرهبنة وما كان لتأثيرها في النفوس والأخلاق من المفاسد والأضرار ، فقد قال صاحب " ريحانة النفوس " منهم ، في الباب السابع عشر ، في الرهبنة :

إن الرهبنة قد نشأت من التوهم بأن الانفراد عن معاشرة الناس ، واستعمال التقشفات والتأملات الدينية ، هي ذات شأن عظيم ، ولكن لا يوجد سند لهذا الوهم في الكتب المقدسة لأن مثال المسيح ، ومثال رسله يضادانه باستقامة ، فإنهم لم يعتزلوا عن الاختلاط بالناس ، لكي يعيشوا بالانفراد ، بل إنما كانوا دائماً مختلطين بالعالم ، يعلّمون وينصحون .

ونحن نقول بكل جراءة : إنه لا يوجد في جميع الكتاب المقدس مثال للرهبنة ، ولا يوجد أمر من أوامره يلزم بها ، بل العكس ، فإن روح الكتاب وفحواه يضادّ كل دعوى مبنية على العيشة المنفردة المقرونة بالتقشفات ، ولكن مع أن الكتاب المقدس لا يمدح العيشة الانفرادية ، فقد ظهر الميل الشديد إليها في الكنيسة ، في أواخر الجيل الثاني وأوائل الجيل

الثالث ، وأيد الباحثين المقاومين لها وقتئذ ، أنها عادة سرت للمسيحيين من الهنود الوثنيين السمانيين ، فإن لهم أنواعاً كثيرة من عبادات تأمر كهنتها بالبتولية والامتناع عن أكل اللحم وأموراً أخرى مقرونة بخرافات .

(202/749)

ثم قال : ومع أن الرهبنة حصل عليها مقاومة من العقلاء ، امتدت وانتشرت في المسكونة ، وكان ابتداؤها في مصر في الجيل الرابع ، على أثر اشتهار أحد الرهبان وممارسته التقشفات ، بسبب الاضطهاد الذي أصابه ، وآثر لأجله الطواف في البراري ، فراراً من أيادي مضطهديه ، ثم عطف على الوحدة وعاش بها ، وذلك في الجيل الثالث . ثم امتدت من مصر إلى فلسطين وسورية إلى أكثر الجهات ؛ توهماً بأن رسم المسيحية الكاملة لا يوجد إلا في المعيشة الضيقة القشفة ، فدعا ذلك كثيرين إلى ترك المعيشة المألوفة بالاعتزال في الأديرة مع أن ذلك الوهم باطل ، ومضادّ للكتب المقدسة ، ولما كثر عدد الرهبان كثرة هائلة ، ونجم عن حالهم أضرار عظيمة للمجتمع ، أصدر كثير من الملوك أوامر بمنع هذه العادة ، إلا أنها لم تنجح كثيراً .

وأما بدعة العزوبة والتبتل ، فنشأت من حضّ بولس عليها ، وترغيبهم فيها ، كما أفصح

عنه كلامه في آخر الفصل السابع من رسالته الأولى .

وقد قال صاحب " ريحانة النفوس " أيضاً : إن هذه العادة لا يوجد لها برهان في الكتاب المقدس ، وإنما دخلت بالتدريج ، لما خامرهم من توهم أفضلية البتولية ، وظنهم أنها أزكى من الزواج ، ومدح من جاء على أثرهم لها مدحاً بالغاً النهاية في الإطراء ، فحسبوها من الواجبات الأدبية المأمور بها ، ووضع نظام وقوانين لوجوبها في الجيل الثالث ، حتى قاومتها كنائس أخرى ، ورفضت بدعة البتولية وقوانينها ، لمغايرتها للطبيعة ، ومضادتها لنص الكتب الإلهية ، واستقرائها أديرة الراهبات ، بأنها في بعض الأماكن كانت بيوتاً للفواحش والفساد .

وفي كتاب " البراهين الإنجيلية ضد الأباطيل الباباوية " : إن ذم الزيجة خطأ لأنها عمل الأفضل ، لأن الرسول أخبر بأن الزواج خير من التوقد بنار الشهوة ، وإن الأكثرين من رسل المسيح كانوا ذوي نساء ، تجول معهم . ومن المعلوم أن الطبيعة البشرية تغصب الْإِنْسَانْ على استيفاء حقها ، ومن العدل أن تستوفيه ، وليس بمحرم عليها استيفاؤه حسب الشريعة ، ولا استطاعة لجميع البشر على حفظ البتولية ؛ ولذلك نرى كثيرين من الأساقفة

والقسوس والشمامسة ، لا بل البابوات المدعين بالعصمة ، قد تكردسوا في هوة الزنا لعدم تحصنهم بالزواج الشرعي ، هذا وإن ذات النذر بالامتناع عن الزواج هو غير عادل لتضمنه سلب حقوق الطبيعة وكونه يضع الإنسان تحت خطر السقوط في الزنا ويفتح باباً واسعاً لدخول الشيطان ، وكأن الراهب ينذر على نفسه مقاومة أمر قبيح ، ويعدم وجود ألوف ألوف ، ربما كانت تتولد من ذريته ، فكأنه قد قتلها . وهذا النذر لم تأمر به الشريعة الإنجيلية قط ؛ فالطريقة الرهبانية هي اختراع شيطاني قبيح ، لم يكن له رسم في الكتب المقدسة ، ولا في أجيال الكنيسة الأولى, وهو مضر على أنفس الرهبان ، وعلى الشعب ، فمن يقاومه يقاوم الشيطان . وهؤلاء الرهبان لا نفع منهم للرعية ، إنما هم كالأمراء الذين يتخذون لأنفسهم قصوراً خارج العمران ، فيتنعمون وحدهم في أديرتهم ، ويسلبون أموال الشعب بالحيل والمخادعات وهم كسالى بطّالون ، يعيشون من أتعاب غيرهم ، خلافاً لسلوك رسل المسيح والمبشرين القدماء ، الذين لم نر واحداً منهم انفرد عن العالم في مكان نزهته ، واحتال بأن يعيش من أتعاب الشعب ؛ إن بولس كان يخدم الكنائس ، ويعيش من شغل يديه ، وهو يوصي بأن الذي لا يعمل ، فلا يطعم . ولا تتسع الصحف لشرح جميع الأضرار التي وقعت على العالم بسبب الرهبنات . انتهى . وهو حجة عليهم منهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قال ابن كثير : حمل ابن عباس هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب ، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين ، كما في الآية التي في القصص ، وكما في حديث الشعبي عن أبي بردة ، عن أبيه موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي ، فله أجران ، وعبد مملوك أدّى حق الله وحق مولاه ، فله أجران ، ورجل أدبَ أَمَتَهُ فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران > أخرجاه في الصحيحين . ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك وعتبة بن أبي حكيم وغيرهما ، وهو اختيار ابن جرير .

وقال سعيد بن جبير : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى هذه الآية في حق هذه الأمة . والظاهر أن لفظها أعم وأن المقصود بها حث كل من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم على الثبات في الإيمان والرسوخ فيه ، والانصياع لأوامره . ومنه ما حرض عليه في الآيات قبلها من الإنفاق في سبيله ، وسخاوة النفس فيه ، وأن لهم في مقابلة ذلك أجراً وافراً ، كما قال في أول السورة :

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ فآخر السورة ، فيه رجوع لأوائلها بتذكير ما أمرت به ، وما سبق نزولها لأجله .

وأصل الكفل الحظ ، وأصله ما يكتفل به الراكب فيحبسه ويحفظه عن السقوط ، والتثنية في مثله إما على حقيقتها ، أو هي كناية عن المضاعفة . والنور هو ما يبصر من عمى الجهالة والضلالة ، ويكشف الحق لقاصده . كما قال سبحانه :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال : 29] .

﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ متعلق بمضمون الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى الشرط والتقدير : إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم ما ذكر ، ليعلم أهل الكتاب الذين لم يسلموا عدم قدرتهم على شيء من فضل الله ، وثبوت أن الفضل بيد الله . والمراد بالفضل ما آتاه المسلمين وخصهم به ؛ لأنهم كانوا يرون أن الله فضلهم على جميع خلقه ، فأعلمهم الله جل ثناؤه أنه قد آتى أمة محمد صلى الله عليه وسلم من الفضل والكرامة ما لم يؤتهم ، ليعلموا أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله ، فضلاً عن أن يتصرفوا في أعظمه ، وهو النبوة ، فيخصوا بها من أرادوا ، وأن الفضل بيد الله دونهم ، ودون غيرهم من الخلق ، يؤتيه من

يشاء من عباده .

ولا في ﴿ لِئَلَّا ﴾ صلة . قال السمين : وهو حرف شاعت زيادته .

وقال ابن جرير : وذكر أن في قراءة عبد الله : لكي يعلم قال : لأن العرب تجعل لا صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحد غير مصرح ، كقوله في الجحد السابق الذي لم يصرح به : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف : 12] ، وقوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : 109] . وقوله : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ [الأنبياء : 95] الآية . ومعنى ذلك : أهلكناها أنهم يرجعون . انتهى .

ونقل الثعالبي في " فقه اللغة " : زيادتها في عدة شواهد في فصل الزوائد والصلات التي هي من سنن العرب ، فانظره تزدد علماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 36 49 ﴾.

(206/749)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾

منوعة ومتشابهة . فيها من التكرار القدر اللازم لتعميق أثر الإيقاع في القلب , وطرقه وهو

ساخن بحرارة الإيقاع بعد الإيقاع !

الدرس الأول:16 - 17 دعوة إلى الخشوع وعلاج قسوة القلب

(ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ? ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل , فطال عليهم الأمد , فقست قلوبهم , وكثير منهم فاسقون , اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها . قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) . .

إنه عتاب مؤثر من المولى الكريم الرحيم ; واستبطاء للإستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله ; فبعث فيها الرسول يدعوها إلى الإيمان بربها , ونزل عليه الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور ; وأراها من آياته في الكون والخلق ما يبصر ويحذر .

عتاب فيه الود , وفيه الحض , وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله , والخشوع لذكره , وتلقي ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة والاستسلام , مع رائحة التنديد والاستبطاء في السؤال:

(ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ?) . .

وإلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذير من عاقبة التباطؤ والتقاعس عن الاستجابة , وبيان لما يغشى القلوب من الصدأ حين يمتد بها الزمن بدون جلاء , وما تنتهي إليه من القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله , وحين لا تخشع للحق:

(ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل , فطال عليهم الأمد , فقست قلوبهم , وكثير منهم فاسقون) . .

وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج .

(207/749)

إن هذا القلب البشري سريع التقلب , سريع النسيان . وهو يشف ويشرق فيفيض بالنور , ويرف كالشعاع ; فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر تبلد وقسا , وانطمست إشراقته , وأظلم وأعتم ! فلا بد من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع , ولا بد من الطرق عليه حتى يرق ويشف ; ولا بد من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبلد والقساوة . ولكن لا يأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبلد . فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة , وأن يشرق فيه النور , وأن يخشع لذكر الله . فالله يحيي الأرض بعد موتها , فتنبض بالحياة , وتزخر بالنبت والزهر , وتمنح الأكل والثمار . . وكذلك القلوب حين يشاء الله:

(اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها) . .

وفي هذا القرآن ما يحيي القلوب كما تحيا الأرض ; وما يمدها بالغذاء والري والدفء:

(قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) . .

الدرس الثاني: 18 - 19 المصدقون والشهداء في مقابل الكفار المكذبين المعتدين

ويتبع هذه اللمسة المحيية, وذلك العتاب المخجل, وذاك التذكير والتحذير, بحافز جديد للبذل والفداء:

(إن المصدقين والمصدقات, وأقرضوا الله قرضا حسنا, يضاعف لهم ولهم أجر كريم. والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون, والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم; والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (19)

أصحاب الجحيم)..

إن المتصدقين والمتصدقات لا يتفضلون على آخذي الصدقات, ولا يتعاملون في هذا مع الناس. إنما هم يقرضون الله ويتعاملون مباشرة معه. فأي حافز للصدقة أوقع وأعمق من شعور المعطي بأنه يقرض الغني الحميد, وأنه يتعامل مع مالك الوجود؟ وأن ما ينفقه مخلف عليه مضاعفا; وأن له بعد ذلك كله أجرا كريما؟

ومقام الصديقين مقام رفيع كما تصوره الأحاديث النبوية الشريفة . ومع علو هذا المقام فهو بفضل الله ميسور لمن أراد , وليس وقفا على أفراد ولا على طائفة . فكل من يحقق إيمانه بالله ورسله يطمع في هذا المقام الرفيع , ولا حجر على فضل الله:

(والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون) . .

وتلك خاصية هذا الدين وميزته . إنه طريق مفتوح لجميع البشر , وأفق يتطلع إليه الجميع , ليس فيه احتكار للمقامات , وليس فيه خصوصيات محجوزة لأناس بأعيانهم . وليس إلا العمل يصعد بصاحبه إلى أرقى الدرجات . إنه دين لا مجال فيه للطبقات المحفوظة المقام !

روى الإمام مالك في كتابه "الموطأ" عن صفوان بن سليم , عن عطاء بن يسار , عن أبي سعيد الخدري , أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: " إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب , لتفاضل ما بينهم " . . قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال: " بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين " . .

فهذه لمسة الإيمان . فأما لمسة الفداء فقوله بعد ذلك:

(والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم) . .

والحديث عن مقام الشهداء ورد مرات في القرآن , وتواترت به الأحاديث النبوية . فهذا الدين لا يقوم بغير حراسة ; ولا يتحقق في الأرض بغير جهاد . جهاد لتأمين العقيدة وتأمين

الدعوة وحماية أهله من الفتنة وشريعته من الفساد . ومن ثم كان للشهداء في سبيل الله - وهم وحدهم الذين يسمون الشهداء - مقامهم , وكان لهم قربهم من ربهم . القرب الذي يعبر عنه بأنهم (عند ربهم) . .

جاء في الصحيحين: " أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت , ثم تأوي إلى تلك القناديل . فاطلع عليهم ربهم اطلاعة , فقال: ماذا تريدون ! فقالوا: نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك فنقتل كما قتلنا أول مرة . فقال: إني قد قضيت أنهم إليها لا يرجعون " .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه , قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء - إلا الشهيد - يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات , لما يرى من الكرامة " . .

وكذلك كانت تهون الحياة على من يسمع هذه الموحيات , ويعرف مقام الشهادة عند الله .

. روى الإمام مالك . . . عن يحيى بن سعيد "أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رغب في الجهاد وذكر الجنة , ورجل من الأنصار يأكل تمرات في يده . فقال: إني لحريص على

الدنيا إن جلست حتى أفرغ منهن ! فرمى ما في

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20)

يده وحمل بسيفه حتى قتل" . . وقد روي أن هذا كان هو عمير بن الحمام عليه رضوان الله .

وبينما الصديقون في ذلك المقام والشهداء في هذا المقام يقول النص القرآني عن الكافرين المكذبين:

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) . .

فمن ذا الذي يترك الكرامة والنعيم , ويختار أن يكون من أصحاب الجحيم ؟ !

الدرس الثالث:20 - 21 قيمة الدنيا في مقابل الآخرة والدعوة للتسابق فيها

واللمسة الثالثة في هذا الشوط تجيء تعقيبا على دعوة الإيمان والبذل , ودعوة الفداء والتضحية . تعقيبا يصور الدنيا كلها بصورة هزيلة زهيدة تهون من شأنها وترفع النفوس

عنها , وتعلقها بالآخرة وقيمها :

(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة , وتفاخر بينكم , وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته , ثم يهيج فتراه مصفرا , ثم يكون حطاما . وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) . .

والحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي وتوزن بموازينها تبدو في العين وفي الحس أمرا عظيما هائلا . ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئا زهيدا تافها . وهي هنا في هذا التصوير تبدوا لعبة أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة من جد تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة !

لعب . ولهو . وزينة . وتفاخر . وتكاثر . . . هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدوا فيها من جد حافل واهتمام شاغل . . ثم يمضي يضرب لها مثلا مصورا على طريقة القرآن المبدعة . . (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) . . والكفار هنا هم الزراع . فالكافر في اللغة هو الزارع , يكفر أي يحجب الحبة ويغطيها في التراب . ولكن اختياره هنا فيه تورية وإلماع إلى إعجاب الكفار بالحياة الدنيا ! (ثم يهيج فتراه مصفرا) للحصاد . فهو موقوت الأجل , ينتهي عاجلا , ويبلغ أجله قريبا (ثم يكون حطاما) . . وينتهي شريط الحياة كلها بهذه الصورة المتحركة المأخوذة من مشاهدات البشر المألوفة . . ينتهي بمشهد الحطام !

فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن , شأن يستحق أن يحسب حسابه , وينظر إليه ,

ويستعد له: (وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان) . . فهي لا تنتهي في لمحة كما تنتهي الحياة الدنيا . وهي لا تنتهي إلى حطام كذلك النبات البالغ أجله . . إنها حساب وجزاء . . ودوام . . يستحق الاهتمام !

(وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) . .

(211/749)

فما لهذا المتاع حقيقة ذاتية , إنما يستمد قوامه من الغرور الخادع ; كما أنه يلهي وينسي فينتهي بأهله إلى غرور خادع .

وهي حقيقة حين يتعمق القلب في طلب الحقيقة . حقيقة لا يقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض , ولا إهمال عمارتها وخلافتها التي ناطها بهذا الكائن البشري . إنما يقصد بها تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية , والاستعلاء على غرور المتاع الزائل وجاذبيته المقيدة بالأرض . هذا الاستعلاء الذي كان المخاطبون بهذه السورة في حاجة إليه ليحققوا إيمانهم . والذي يحتاج إليه كل مؤمن بعقيدة , ليحقق عقيدته ; ولو اقتضى تحقيقها أن يضحي بهذه الحياة الدنيا جميعا .

سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ

وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21) مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22)

ومن ثم يدعوهم إلى السباق في ميدان السباق الحقيقي, للغاية التي تستحق السباق .

الغاية التي تنتهي إليها مصائرهم, والتي تلازمهم بعد ذلك في عالم البقاء:

(سابقوا إلى مغفرة من ربكم, وجنة عرضها كعرض السماء والأرض, أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم) . .

فليس السباق إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر بسباق يليق بمن شبوا عن الطوق, وتركوا عالم اللهو اللعب للأطفال والصغار ! إنما السباق إلى ذلك الأفق, وإلى ذلك الهدف, وإلى ذلك الملك العريض: (جنة عرضها كعرض السماء والأرض) . .

(212/749)

وربما كان بعضهم في الزمن الخالي - قبل أن تكشف بعض الحقائق عن سعة هذا الكون - يميل إلى حمل مثل هذه الآية على المجاز, وكذلك حمل بعض الأحاديث النبوية . كذلك الحديث الذي أسلفنا عن أصحاب الغرف التي يتراءاها سكان الجنة كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب . . فأما اليوم ومراصد البشر الصغيرة

تكشف عن الأبعاد الكونية الهائلة التي ليس لها حدود , فإن الحديث عن عرض الجنة , والحديث عن تراءي الغرف من بعيد , يقع قطعا موقع الحقيقة القريبة البسيطة المشهودة , ولا يحتاج إلى حمله على المجاز إطلاقا ! فإن ما بين الأرض والشمس مثلا لا يبلغ أن يكون شيئًا في أبعاد الكون يقاس !

وذلك الملك العريض في الجنة يبلغه كل من أراد , ويسابق إليه كل من يشاء .

وعربونه: الإيمان بالله ورسله . (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) . . (والله ذو الفضل العظيم) . . وفضل الله غير محجوز ولا محجور . فهو مباح متاح للراغبين والسابقين . وفي هذا فليتسابق المتسابقون , لا في رقعة الأرض المحدودة الأجل المحدودة الأركان !

ولا بد لصاحب العقيدة أن يتعامل مع هذا الوجود الكبير ; ولا يحصر نفسه ونظره وتصوره واهتمامه ومشاعره في عالم الأرض الضيق الصغير . . لا بد له من هذا ليؤدي دوره اللائق بصاحب العقيدة . هذا الدور الشاق الذي يصطدم بحقارات الناس وأطماعهم , كما يصطدم بضلال القلوب والتواء النفوس . ويعاني من مقاومة الباطل وتشبثه بموضعه من الأرض ما لا يصبر عليه إلا من يتعامل مع وجود أكبر من هذه الحياة , وأوسع من هذه الأرض , وأبقى من ذلك الفناء . .

إن مقاييس هذه الأرض وموازينها لا تمثل الحقيقة التي ينبغي أن تستقر في ضمير صاحب العقيدة . وما تبلغ من تمثيل تلك الحقيقة إلا بقدر ما يبلغ حجم الأرض بالقياس إلى حجم الكون ; وما يبلغ عمر الأرض بالقياس إلى الأزل والأبد . والفارق هائل هائل لا تبلغ مقاييس الأرض كلها أن تحدده ولا حتى أن تشير إليه !

ومن ثم يبقى صاحب العقيدة في أفق الحقيقة الكبيرة مستعليا على واقع الأرض الصغير . مهما تضخم هذا الواقع وامتد واستطال . يبقى يتعامل مع تلك الحقيقة الكبيرة الطليقة من قيود هذا الواقع الصغير . ويتعامل مع الوجود الكبير الذي يتمثله في الأزل والأبد . وفي ملك الآخرة الواسع العريض . وفي القيم الإيمانية الثابتة التي لا تهتز لخلل يقع في موازين الحياة الدنيا الصغيرة الخادعة . . وتلك وظيفة الإيمان في حياة أصحاب العقائد المختارين لتعديل قيم الحياة وموازينها , لا للتعامل بها والخضوع لمقتضياتها . . .

الدرس الرابع:22 - 24 التسليم والرضا بقدر الله وذم الكفار لبعض صفاتهم

ثم تجيء اللمسة الرابعة في إيقاع عميق , عن قدر الله , الذي لا يكون سواه:

(ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير .

لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (23)

لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم , والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل , ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد) . .

(214/749)

إن هذا الوجود من الدقة والتقدير بحيث لا يقع فيه حادث إلا وهو مقدر من قبل في تصميمه , محسوب حسابه في كيانه . . لا مكان فيه للمصادفة . ولا شيء فيه جزاف . وقبل خلق الأرض وقبل خلق الأنفس كان في علم الله الكامل الشامل الدقيق كل حدث سيظهر للخلائق في وقته المقدور . . وفي علم الله لا شيء ماض , ولا شيء حاضر , ولا شيء قادم . فتلك الفواصل الزمنية إنما هي معالم لنا - نحن أبناء الفناء - نرى بها حدود الأشياء . فنحن لا ندرك الأشياء بغير حدود تميزها . حدود من الزمان وحدود من المكان . نحن لا نملك إدراك المطلق إلا في ومضات تتصل فيها أرواحنا بذلك المطلق , عن طريق غير الطريق الذي اعتدناه في إدراك الأشياء . فأما الله - سبحانه - فهو الحقيقة المطلقة التي تطلع جملة على هذا الوجود , بلا حدود ولا قيود . وهذا الكون وما يقع فيه من أحداث وأطوار منذ نشأته إلى نهايته كائن في علم الله جملة لا حدود فيه ولا فواصل من زمان أو مكان . ولكل حادث موضعه في تصميمه الكلي المكشوف لعلم الله . فكل

مصيبة - من خير أو شر فاللفظ على إطلاقه اللغوي لا يختص بخير ولا بشر - تقع في الأرض كلها وفي أنفس البشر أو المخاطبين منهم يومها . . هي في ذلك الكتاب الأزلي من قبل ظهور الأرض وظهور الأنفس في صورتها التي ظهرت بها . . (إن ذلك على الله يسير) . .

وقيمة هذه الحقيقة التي لا يتصور العقل غيرها حين يتصور حقيقة الوجود الكبرى . قيمتها في النفس البشرية أن تسكب فيها السكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث خيرها وشرها . فلا تجزع الجزع الذي تطير به شعاعا وتذهب معه حسرات عند الضراء . ولا تفرح الفرح الذي تستطار به وتفقد الاتزان عند السراء:

(لكي لا تأسوا على ما فاتكم, ولا تفرحوا بما آتاكم) . .

فاتساع أفق النظر, والتعامل مع الوجود الكبير, وتصور الأزل والأبد, ورؤية الأحداث في مواضعها المقدرة في علم الله, الثابتة في تصميم هذا الكون . . كل أولئك يجعل النفس أفسح وأكبر وأكثر ثباتا ورزانة في مواجهة الأحداث العابرة . حين تتكشف للوجود الإنساني وهي مارة به في حركة الوجود الكوني .

إن الإنسان يجزع ويستطار وتستخفه الأحداث حين ينفصل بذاته عن هذا الوجود . ويتعامل مع الأحداث كأنها شيء عارض يصادم وجوده الصغير . فأما حين يستقر في تصوره وشعوره أنه هو والأحداث التي تمر به ، وتمر بغيره ، والأرض كلها . . ذرات في جسم كبير هو هذا الوجود . . وأن هذه الذرات كائنة في موضعها في التصميم الكامل الدقيق . لازم بعضها لبعض . وأن ذلك كله مقدر مرسوم معلوم في علم الله المكنون . . حين يستقر هذا في تصوره وشعوره ، فإنه يحس بالراحة والطمأنينة لمواقع القدر كلها على السواء . فلا يأسى على فائت أسى يضعضعه ويزلزله ، ولا يفرح بحاصل فرحا يستخفه ويذهله . ولكن يمضي مع قدر الله في طواعية وفي رضى . رضى العارف المدرك أن ما هو كائن هو الذي ينبغي أن يكون !

وهذه درجة قد لا يستطيعها إلا القليلون . فأما سائر المؤمنين فالمطلوب منهم ألا يخرجهم الألم للضراء ، ولا الفرح بالسراء عن دائرة التوجه إلى الله ، وذكره بهذه وبتلك ، والاعتدال في الفرح والحزن . قال عكرمة - رضي الله عنه - "ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا الفرح شكرا والحزن صبرا" . . وهذا هو اعتدال الإسلام الميسر للأسوياء . .

(والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) . .

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)

ووجه الصلة بين الحقيقة السابقة وبين الاختيال والفخر , ثم بين هذا وذلك وبين البخل والأمر بالبخل , هو أن من يشعر بأن كل ما يصيبه هو من أمر الله , لا يختال ولا يفخر بما يعطاه . ولا يبخل ولا يأمر بالبخل في عطاء . فأما الذي لا يشعر بتلك الحقيقة فيحسب أن ما يؤتاه من مال وقوة وجاه هو من كسبه فيفخر ويختال به ; ثم يبخل كذلك ببذل شيء منه , ويحث غيره على البخل ليحقق مبدأه ومنهجه !

(ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد) . .

فمن ينفق فإنما ينفق لنفسه , ومن يستجب فإنما يستجيب لمصلحته . والله هو الغني فما به من حاجة إلى العباد المحاويج . والله هو الحميد بذاته فما يناله شيء من حمد الحامدين !

الدرس الخامس:25 - 27 خلاصة تاريخ الرسل والرسالات

وفي النهاية يجيء المقطع الأخير في السورة , يعرض باختصار خط سير الرسالة , وتاريخ هذه العقيدة , من لدن نوح وإبراهيم ; مقررا حقيقتها وغايتها في دنيا الناس ; ملما بحال أهل الكتاب وأتباع عيسى - عليه السلام - بصفة خاصة .

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات , وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط , وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس , وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . إن الله قوي عزيز . ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم , وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب , فمنهم مهتد

وكثير منهم فاسقون . ثم قفينا على آثارهم برسلنا , وقفينا بعيسى ابن مريم , وآتيناه الإنجيل , وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة , ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم , إلا ابتغاء رضوان الله , فما رعوها حق رعايتها , فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم , وكثير منهم فاسقون) . .

فالرسالة واحدة في جوهرها , جاء بها الرسل ومعهم البينات عليها , ومعظمهم جاء بالمعجزات الخوارق . وبعضهم أنزل عليه كتاب . والنص يقول: (وأنزلنا معهم الكتاب) بوصفهم وحدة , وبوصف الكتاب وحدة كذلك , إشارة إلى وحدة الرسالة في جوهرها .

(والميزان) . . مع الكتاب . فكل الرسالات جاءت لتقر في الأرض وفي حياة الناس ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية , لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال ; وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة , وتصادم المصالح والمنافع . ميزانا لا يحابي أحدا لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع , ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع .

هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواطف , ومصطخب المنافسة وحب الذات . فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر , فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة . (ليقوم الناس بالقسط) . . فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته , لا يهتدي الناس إلى العدل , وإن اهتدوا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه , وهي تضطرب في مهب الجهالات والأهواء !

(وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس , وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) . . والتعبير [بأنزلنا الحديد] كالتعبير في موضع آخر بقوله: (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) . كلاهما يشير إلى إرادة الله وتقديره في خلق الأشياء والأحداث , فهي منزلة بقدره وتقديره . فوق ما فيه هنا من تناسق مع جو الآية , وهو جو تنزيل الكتاب والميزان , فكذلك ما خلقه الله من شيء مقدر تقدير كتابه وميزانه .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ

عَزِيزٌ (25) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (26) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (27)

أنزل الله الحديد (فيه بأس شديد) . . وهو قوة في الحرب والسلم (ومنافع للناس) . . وتكاد حضارة البشر القائمة الآن تقوم على الحديد . (وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) . وهي إشارة إلى الجهاد بالسلاح; تجيء في موضعها في السورة التي تتحدث عن بذل النفس والمال .

ولما تحدث عن الذين ينصرون الله ورسله بالغيب , عقب على هذا بإيضاح معنى نصرهم لله ورسله , فهو نصر لمنهجه ودعوته , أما الله سبحانه فلا يحتاج منهم إلى نصر: (إن الله قوي عزيز) . .

ولما انتهى من تقرير وحدة الرسالة في جوهرها وكتابها وميزانها عاد يقرر وحدتها في رجالها , فهم من ذرية نوح وإبراهيم .

(ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب) . .

فهي شجرة واحدة باسقة , متشابكة الفروع , فيها النبوة والكتاب . ممتدة من فجر البشرية منذ نوح , حتى إذا انتهت إلى إبراهيم , تفرعت وامتدت وانبثقت النبوات من ذلك الفرع الكبير الذي صار أصلا باسقا ممتدا إلى آخر الرسالات .

فأما الذرية التي جاءتها النبوات والكتب فلم تكن على شاكلة واحدة: (فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) . .

وهو تلخيص قصير لذلك الخط الطويل !

وقرب نهاية الخط يجيء عيسى بن مريم:

ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم . .

أي على آثار السابقين من ذرية نوح وإبراهيم . فكانت الرسالة ممتدة واحدة على إثر واحدة حتى جاء عيسى ابن مريم .

ويذكر هنا صفة بارزة من صفات الذين اتبعوا عيسى بن مريم: (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة) . . وهم الثمرة الطبيعية لدعوة المسيح - عليه السلام - وروحها السمحة وتطهرها الروحي , وشفافيتها الوضيئة والرأفة والرحمة ظاهرة واضحة في المؤمنين حقيقة برسالة عيسى عليه السلام , وممن أحسنوا اتباعه . وقد أشارت إليها آيات أخرى في القرآن الكريم , كما حفظ منها التاريخ صورا يرويها الرواة عن النجاشي وعن

وفد نجران وعن أفراد ممن وفدوا على دار الإسلام بعد ظهوره راغبين في الإسلام , بحكم ما استقر في قلوبهم من الحق , مذ كانوا أتباع عيسى بن مريم بحق .

كذلك يذكر النص هنا ظاهرة أخرى عرفت في تاريخ أتباع المسيح عيسى بن مريم:

(ورهبانية ابتدعوها - ما كتبناها عليهم - إلا ابتغاء رضوان الله) . .

(220/749)

والراجح في تفسير الآية أن هذه الرهبانية التي عرفها تاريخ المسيحية كانت اختيارا من بعض أتباع عيسى عليه السلام , ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله , وابتعادا عن أوضار الحياة , ولم يكتبها الله عليهم ابتداء . ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم صاروا مرتبطين أمام الله بأن يرعوا حقوقها , ويحافظوا على مقتضياتها من تطهر وترفع , وقناعة وعفة , وذكر وعبادة . . مما يحقق في أنفسهم حقيقة التجرد لله , التي قصدوا إليها بهذه الرهبانية التي ابتدعوها .

ولكنها انتهت إلى أن تصبح في الغالب طقوسا وشعائر خالية من الروح , وأن يتخذها الكثيرون مظهرا عاريا من الحقيقة . فلا يصبر على تكاليفها إلا عدد منهم قليل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ

بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (28) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

(فما رعوها حق رعايتها . فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم , وكثير منهم فاسقون) . .

والله لا يأخذ الناس بالمظاهر والأشكال , ولا بالطقوس والمسوح . إنما يأخذهم بالعمل والنية , ويحاسبهم على حقيقة الشعور والسلوك . وهو الذي يعلم خبايا القلوب وذوات الصدور .

الدرس السادس:28 - 29 دعوة أتباع الديانات للدخول في الإسلام لنيل الأجرين

وبعد هذا العرض السريع يجيء الهتاف الأخير للذين آمنوا , وهم الحلقة الأخيرة في سلسلة المؤمنين برسالة الله في تاريخها الطويل ; وورثة هذه الرسالة الذين يقومون عليها إلى يوم الدين:

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته , ويجعل لكم نورا تمشون به , ويغفر لكم , والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله , وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء , والله ذو الفضل العظيم) . .

ونداؤهم على هذا النحو: يا أيها الذين آمنوا فيه لمسة خاصة لقلوبهم , واستحياء لمعنى الإيمان , وتذكير برعايته حق رعايته ; واستجاشة للصلة التي تربطهم بربهم الذي يناديهم هذا النداء الكريم الحبيب . وباسم هذه الصلة يدعوهم إلى تقوى الله والإيمان برسوله . فيبدو للإيمان المطلوب معنى خاص . . معنى حقيقة الإيمان وما ينبثق عنها من آثار . اتقوا الله وآمنوا برسوله . . (يؤتكم كفلين من رحمته) . . أي يعطكم نصيبين من رحمته وهو تعبير عجيب . فرحمة الله لا تتجزأ , ومجرد مسها لإنسان يمنحه حقيقتها . ولكن في هذا التعبير زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض . .

(ويجعل لكم نورا تمشون به) . وهي هبة لدنية يودعها الله القلوب التي تستشعر تقواه , وتؤمن حق الإيمان برسوله . هبة تنير تلك القلوب فتشرق , وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز , ومن وراء الأشكال والمظاهر ; فلا تتخبط , ولا تلتوي بها الطريق . . (نورا تمشون به) . .

(ويغفر لكم . والله غفور رحيم) . . . فالإنسان إنسان مهما وهب من النور . إنسان يقصر حتى لو عرف الطريق . إنسان يحتاج إلى المغفرة فتدركه رحمة الله . . (والله غفور رحيم) . .

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله) . لتنالوا كفلين من رحمة الله . ويكون لكم ذلك النور تمشون به . وتدرككم رحمة الله بالمغفرة من الذنب والتقصير . . (لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) . . فقد كان أهل الكتاب يزعمون أنهم شعب الله المختار , وأنهم أبناء الله وأحباؤه: (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) . . (وقالوا:لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) . . فالله يدعو الذين آمنوا إلى استحقاق رحمته وجنته وهبته ومغفرته حتى يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على احتجاز شيء من فضله , وأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء , غير مقصور على قوم , ولا محجوز لطائفة , ولا محدود ولا قليل: (والله ذو الفضل العظيم) . . وهي دعوة فيها تحضيض واستجاشة واستثارة للسباق إلى الجنة والرحمة . تختم بها السورة ختاما يتناسق مع سياقها كله , ومع الهتاف المكرر فيها لهذه القلوب كي تحقق إيمانها وتخشع لربها وتستجيب لتكاليف الإيمان في الأموال والأرواح . في تجرد وإخلاص .

وبعد فهذه السورة نموذج من النماذج القرآنية الواضحة في خطاب القلوب البشرية , واستجاشتها بأسلوب عميق التأثير . وهي في بدئها وسياقها وختامها ; وفي إيقاعاتها وصورها وظلالها ; وفي طريقة تناولها للموضوع وسيرها فيه جولة بعد جولة , وشوطا

بعد شوط . . هي في هذا كله درس بديع لأصحاب هذه الدعوة , يعلمهم كيف يخاطبون الناس , وكيف يوقظون الفطرة , وكيف يستحيون القلوب !

إنها درس رباني من صانع القلوب , ومنزل القرآن , وخالق كل شيء بقدر . وفي هذه المدرسة الإلهية يتخرج الدعاة المستجابون الموفقون . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3489.3497 ﴾

(223/749)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

قد قدمنا مراراً أن كل فعل مضارع في القرآن مجزوم بلم ، إذا تقدمتها همزة الاستفهام كما هنا فيه وجهان من التفسير معروفان .

الأول منهما : هو أن تقلب مضارعته ماضوية ، ونفيه إثباتاً ، فيكون بمعنى الماضي المثبت ، لأن لم حرف قلب تقلب المضارع من معنى الاستقبال إلى معنى المضي ، وهمزة الاستفهام إنكارية فيها معنى النفي ، فيتسلط النفي الكامن فيها على النفي الصريح في لم فينفيه .

ونفي النفي إثبات ، فيرجع المعنى إلى الماضي المثبت . وعليه فالمعنى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ

﴿ : أي آن للذين آمنوا .

والوجه الثاني : أن الاستفهام في جميع ذلك للتقرير ، وهو حمل المخاطب على أن يقر فيقول : بلى ، وقوله : يأن : هو مضارع أنى يأنى إذا جاء إناه أي وقته ، ومنه قول كعب بن مالك رضي الله عنه :

ولقد أنى لك أن تناهي طائعاً . . . أو تستفيق إذا نهاك المرشد

فقوله : أنى لك أن تناهى طائعا ، أي جاء الإناه الذي هو الوقت الذي تتناهى فيه طائعاً ، أي حضر وقت تناهيك ، ويقال في العربة : آن يئين كباع يبيع ، وأنى يأني كرمى يرمي ، وقد جمع اللغتين قول الشاعر :

ألماَّ يئن لي أن تجلى عمايتي . . . وأقصر عن ليلى بلى قد أنى ليا

والمعنى على كلا القولين أنه حان للمؤمنين ، وأنى لهم أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أي جاء الحين والأوان لذلك ، لكثرة ما تردد عليهم من زواجر القرآن ومواعظه .

وقوله تعالى : ﴿ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ المصدر المنسبك من أن وصلتها في محل رفع فاعل بأن ، والخشوع أصله في اللغة السكون والطمأنينية والانخفاض ، ومنه قول نابغة ذبيان :

رماد ككحل العين لأياً أبينه . . . ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع

فقوله : خاشع أي منخفش مطمئن ، والخشوع في الشرع خشية من الله تداخل القلوب ، فتظهر آثارها على الجوارح بالانخفاض والشكون ، كما هو شأن الخائف .

وقوله : ﴿ لِذِكْرِ الله ﴾ ، الأظهر منه أن المراد خشوع قلوبهم لأجل ذكر الله ، وهذا المعنى دل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الانفال : 2] أي خافت عند ذكر الله ، فالوجل المذكور في آية الأنفال هذه ، والخشية المذكورة هنا معناهما واحد .

وقال بعض العلماء : المراد بذكر الله القرآن ، وعليه فقوله : ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق ﴾ من عطف الشيء على نفسه مع اختلاف اللفظين ، كقوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى الذي خَلَقَ فسوى والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 1 - 3] ، كما أوضحناه مراراً .

وعلى هذا القول ، فالآية كقوله تعالى : ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ [الزمر : 23] ، فالاقشعرار المذكور ، ولين الجلود والقلوب عند سما هذا القرآن العظيم المعبر عنه بأحسن الحديث ، يفسر معنى الخشوع لذكر الله ، وما نزل من الحق هنا كما ذكر ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَكُونُواْ كالذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قد قدمنا في سورة البقرة في الكلام على قوله : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم ﴾ [البقرة : 74]

بعض أسباب قسوة قلوبهم ، فذكرنا منها طول الأمد المذكور هنا في آية الحديد هذه ، وغير ذلك في بعض الآيات الأخر .

(225/749)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كثرة الفاسقين ، من أهل الكتاب جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ مِّنْهُمُ المؤمنون وَأَكْثَرُهُمُ الفاسقون ﴾ [آل عمران : 110] وقوله تعالى : ﴿ فَآتَيْنَا الذين آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : 27] إلى غير ذلك من الآيات .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أن كل ما أصاب من المصائب في الأرض كالقحط والجدب والجوائح في الزراعة والثمار وفي الأنفس ، من الأمراض والموت كله مكتوب في كتاب قبل خلق الناس ، وقبل وجود المصائب ، فقوله : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ ، الضمير فيه عائد على الخليقة المفهومة في ضمن قوله : ﴿ وفي أَنفُسِكُمْ ﴾ [الذاريات : 21] أو

إلى المصيبة، واختار بعضهم رجوعه لذلك كله.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي سهل هين لإحاطة علمه وكمال قدرته.

(226/749)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه لا يصيب الناس شيء من المصائب إلا وهو مكتوب عند الله قبل ذلك، أوضحه الله تعالى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمؤمنون ﴾ [التوبة: 51] وقوله تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [التغابن: 11] وقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ والجوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ وَبَشِّرِ الصابرين ﴾ [البقرة: 155]، لأن قوله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الخوفِ والجوعِ ﴾ قبل وقوع ذلك دليل على أن هذه المصائب معلومة له جل وعلا قبل وقوعها، ولذا أخبرهم تعالى بأنها ستقع، ليكونوا مستعدين لها وقت نزولها بهم، لأن ذلك يعينهم على الصبر عليها، ونقص الأموار والثمرات مما أصاب من مصيبة، ونقص الأنفس في قوله: والأنفس، مما أصاب من مصيبة في النفس، وقوله في آية الحديد هذه ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا على مَا فَاتَكُمْ وَلَا تفرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد: 23] أي بينا لكم أن الأشياء مقدرة مكتوبة قبل وجود الخلق، وأن ما

كتب واقع لا محالة لأجل ألا تحزنون على شيء فاتكم، لأن فواته لكم مقدر، وما لا طمع فيه قل الأسى عليه، ولا تفرحوا بما ىتاكم، لأنكم إذا علمتم أن ما كتب لكم من الرزق والخير لا بد ان يأتيكم قل فرحكم به، وقوله: تأسوا، مضارع أسى بكسر السين يأسى بفتحها أسى بفتحتين على القياس، بمعنى حزن ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلاَ تَأْسَ عَلَى القوم الكافرين ﴾ [المائدة: 68] وقوله: من مصيبة مجرور في محل رفع لأنه فاعل أصاب جر بمن المزيدة لتوكيد النفي، وما نافية.

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾.

(227/749)

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الشورى في الكلام على قوله: ﴿ الله الذي أَنزَلَ الكتاب بالحق والميزان ﴾ [الشورى: 17]، وقدمنا هناك كلام أهل العلم في معناه.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾.

بينا الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة والتي قبلها، أن إقامة دين الإسلام تنبني على أمرين: أحدهما هو ما ذكره بقوله ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان ﴾ لأن في ذلك إقامة البراهين

على الحق وبين الحجة وإيضاح الامر والنهي والثواب والعقاب ، فإذا أصر الكفار على الكفر وتكذيب الرسل مع ذلك البيان والإيضاح ، فإن الله تبارك وتعالى أنزل الحديد أي خلقه لبني آدم ليردع به المؤمنون الكافرين المعاندين ، وهو قتلهم إياهم بالسيوف والرماح والسهام ، وعلى هذا فقوله هنا : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيد ﴾ توضحه آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 14] ، وقوله تعالى : ﴿ فاضربوا فَوْقَ الأعناق واضربوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الانفال : 12] ، والآيات في مثل ذلك كثيرة معلومة ، وقوله : ﴿ وَمَنَافِعَ لِلنَّاسِ ﴾ ، لا يخفى ما في الحديد من المنافع للناس ، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ ﴾ [الرعد : 17] لأن مما يوقد عليه في النار ابتغاء المتاع الحديد .

قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بَلْ مَتَّعْتُ هؤلاء ﴾ [الزخرف : 28 - 29] الآية .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28)

قد قدمنا أن التحقيق أن هذه الآية الكريمة من سورة الحديد في المؤمنين من هذه الأمة ، وأن سياقها واضح في ذلك ، وأن من زعم من أهل العلم انها في أهل الكتاب فقد غلط ، وأن ما وعد الله به المؤمنين من هذه الأمة أعظم مما وعد به مؤمني أهل الكتاب وإتيانهم أجرهم مرتين كما قال تعالى فيهم : ﴿ الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يتلى عَلَيْهِمْ قالوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أولئك يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ [القصص : 52 - 54] الآية .

وكون ما وعد به المؤمنين من هذه الأمة أعظم من أن إيتاء أهل الكتاب أاجرهم مرتين أعطى المؤمنين من هذه الأمة مثله كما بينه بقوله : ﴿ يُؤْتُكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ ، وزادهم بقوله : ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الفضل بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الفضل بيد الله وحده وأنه يؤتيه من يشاء جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس : 107] .

وقد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ الله

لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : 2] . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(229/749)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الْحَدِيدِ

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ ﴾ الْآيَةَ .

رُوِيَ عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ : فَصْلُ ﴿ مَا بَيْنَ الْهِجْرَتَيْنِ فَتْحُ الْحُدَيْبِيَةِ وَفِيهِ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَتْحٌ هُوَ ؟ قَالَ : نَعَمْ عَظِيمٌ .

﴾ وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ : " هُوَ فَتْحُ مَكَّةَ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَبَانَ عَنْ فَضِيلَةِ الْإِنْفَاقِ قَبْلَ الْفَتْحِ عَلَى مَا بَعْدَهُ لِعِظَمِ عَنَاءِ النَّفَقَةِ فِيهِ وَكَثْرَةِ الِانْتِفَاعِ بِهِ ؛ وَلِأَنَّ الْإِنْفَاقَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَ أَشَدَّ عَلَى النَّفْسِ لِقِلَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَكَثْرَةِ الْكُفَّارِ مَعَ شِدَّةِ الْمِحْنَةِ وَالْبَلَاءِ وَلِلسَّبْقِ إلَى الطَّاعَةِ .

أَلَا تَرَى إلَى قَوْلِهِ : ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ ﴾

؟ فَهَذِهِ الْوُجُوهُ كُلُّهَا تَقْتَضِي تَفْضِيلَهَا .

وقَوْلُه تَعَالَى - : ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ﴾ الْآيَة .

يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كَثْرَةَ الْمَعَاصِي وَمُسَاكَنَتَهَا وَأُلْفَهَا تُقَسِّي الْقَلْبَ وَتُبْعِدُ مِنْ التَّوْبَةِ ، وَهُوَ نَحْوُ قَوْلِهِ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

(230/749)

وقَوْلُه تَعَالَى - : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاَللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمْ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ رَوَى الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ شَهِيدٌ ﴾ لِهَذِهِ الْآيَةِ وَجَعَلَ قَوْلَهُ : ﴿ وَالشُّهَدَاءُ ﴾ صِفَةً لِمَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَهُوَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ وَمُجَاهِدٍ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوقٌ وَأَبُو الضُّحَى وَالضَّحَّاكُ : " هُوَ ابْتِدَاءُ كَلَامٍ وَخَبَرُهُ : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ .

وقَوْلُه تَعَالَى - : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَخْبَرَ عَمَّا ابْتَدَعُوهُ مِنْ الْقُرَبِ وَالرَّهْبَانِيَّةِ ، ثُمَّ ذَمَّهُمْ عَلَى تَرْكِ رِعَايَتِهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ .

(231/749)

وَالِابْتِدَاعُ قَدْ يَكُونُ بِالْقَوْلِ وَهُوَ مَا يُنْذِرُهُ وَيُوجِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَقَدْ يَكُونُ بِالْفِعْلِ بِالدُّخُولِ فِيهِ ، وَعُمُومُهُ يَتَضَمَّنُ الْأَمْرَيْنِ ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ ابْتَدَعَ قُرْبَةً قَوْلًا أَوْ فِعْلًا فَعَلَيْهِ رِعَايَتُهَا ، وَإِتْمَامُهَا ، فَوَجَبَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ مَنْ دَخَلَ فِي صَلَاةٍ أَوْ صَوْمٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ الْقُرَبِ فَعَلَيْهِ إتْمَامُهَا ، وَلَا يَلْزَمُهُ إتْمَامُهَا إلَّا وَهِيَ وَاجِبَةٌ عَلَيْهِ فَيَجِبُ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ إذَا أَفْسَدَهَا

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ : "كَانَ نَاسٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ ابْتَدَعُوا بِدَعًا لَمْ يَكْتُبْهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ ابْتَغَوْا بِهَا رِضْوَانَ اللَّهِ فَلَمْ يَرْعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَعَابَهُمْ اللَّهُ بِتَرْكِهَا فَقَالَ : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ الْآيَةَ" .

آخِرُ سُورَةِ الْحَدِيدِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(232/749)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْحَدِيدِ

[فِيهَا أَرْبَعُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي كِتَابِ الْأَمَدِ تَفْسِيرَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ ، وَحَقَّقْنَا أَنَّ الْأَوَّلَ هُوَ الْآخِرُ بِعَيْنِهِ [يَعْنِي] لِأَنَّهُ وَاحِدٌ ، وَأَنَّ الظَّاهِرَ هُوَ الْبَاطِنُ ، وَأَنَّ الْأَوَّلَ هُوَ الْبَاطِنُ ، وَأَنَّ الْآخِرَ هُوَ الظَّاهِرُ ؛ إذْ هُوَ تَعَالَى وَاحِدٌ تَخْتَلِفُ أَوْصَافُهُ ، وَتَتَعَدَّدُ أَسْمَاؤُهُ ، وَهُوَ تَعَالَى وَاحِدٌ .

قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : قَالَ مَالِكٌ : لَا يُحَدُّ وَلَا يُشَبَّهُ .

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : سَمِعْت مَالِكًا يَقُولُ : مَنْ قَرَأَ "يَدُ اللَّهِ" وَأَشَارَ إلَى يَدِهِ ، وَقَرَأَ عَيْنُ اللَّهِ ، وَأَشَارَ إلَى ذَلِكَ الْعُضْوِ مِنْهُ يُقْطَعُ تَغْلِيظًا عَلَيْهِ فِي تَقْدِيسِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَنْزِيهِهِ عَمَّا أَشْبَهَ إلَيْهِ ، وَشَبَّهَهُ بِنَفْسِهِ ، فَتُعْدَمُ [نَفْسُهُ وَ] جَارِحَتُهُ الَّتِي شَبَّهَهَا بِاَللَّهِ ، وَهَذِهِ غَايَةٌ فِي التَّوْحِيدِ لَمْ يَسْبِقْ إلَيْهَا مَالِكًا مُوَحِّدٌ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ ﴿ : ذُكِرَ الدَّجَّالُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ .

وَأَشَارَ بِيَدِهِ إلَى عَيْنِهِ ، وَأَنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ ﴾ .

فَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ هَذَا خَبَرٌ وَاحِدٌ ، لَا يُوجِبُ عِلْمًا .

الثَّانِي أَنَّ هَذِهِ الْإِشَارَةَ فِي النَّفْيِ لَا فِي الْإِثْبَاتِ، وَفِي التَّقْدِيسِ لَا فِي التَّشْبِيهِ، وَهَذَا نَفِيسٌ فَاعْرِفْهُ.

.

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاَللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ: الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: نَفَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُسَاوَاةَ بَيْنَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ فَتْحِ مَكَّةَ وَبَيْنَ مَنْ أَنْفَقَ بَعْدَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ حَاجَةَ النَّاسِ كَانَتْ قَبْلَ الْفَتْحِ أَكْثَرُ، لِضَعْفِ الْإِسْلَامِ، وَفِعْلُ ذَلِكَ كَانَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ أَشَقُّ، وَالْأَجْرُ عَلَى قَدْرِ النَّصَبِ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: رَوَى أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ قَالَ: يَنْبَغِي أَنْ يُقَدَّمَ أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْعَزْمِ.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ وَقَدْ بَيَّنَّا نَحْنُ فِيمَا تَقَدَّمَ تَرْتِيبَ أَحْوَالِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمَنَازِلَهُمْ فِي التَّقَدُّمِ وَالتَّأَخُّرِ وَمَرَاتِبَ التَّابِعِينَ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: إذَا ثَبَتَ انْتِفَاءُ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْخَلْقِ وَقَعَ التَّفْضِيلُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحِكْمَةِ وَالْحُكْمِ؛ فَإِنَّ التَّقَدُّمَ وَالتَّأَخُّرَ يَكُونُ [فِي الدِّينِ وَيَكُونُ] فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا، فَأَمَّا فِي أَحْكَامِ الدِّينِ فَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿ : أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ، وَأَعْظَمُ الْمَنَازِلِ مَرْتَبَةً الصَّلَاةُ ﴾ .

﴿ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِهِ: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ.

فَقِيلَ لَهُ: إنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ إذَا قَامَ مَقَامَك لَمْ يُسْمِعْ النَّاسَ مِنْ الْبُكَاءِ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ.

فَقَالَ: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ ﴾ .

الْحَدِيثَ.

فَقَدَّمَ الْمُقَدَّمَ، وَرَاعَى الْأَفْضَلَ.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ مِنْ رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ: ﴿ يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ؛ فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَكْبَرُهُمْ سِنًّا، وَلَا يَؤُمُّ الرَّجُلُ فِي سُلْطَانِهِ، وَلَا يَجْلِسُ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ .

وَفِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِمَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ وَأَخِيهِ فَأَذِّنَا وَأَقِيمَا وَلْيَؤُمَّكُمَا أَكْبَرُكُمَا ﴾ .

(235/749)

فَفَهِمَ مِنْهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ أَرَادَ كِبَرَ الْمَنْزِلَةِ ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْوَلَاءُ لِلْكُبْرِ ﴾ .

وَلَمْ يَعْنِ كِبَرَ السِّنِّ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ كِبَرَ الْمَنْزِلَةِ .

وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ : وَإِنَّ لِلسِّنِّ حَقًّا .

وَرَاعَاهُ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ ، وَهُوَ أَحَقُّ بِالْمُرَاعَاةِ ؛ لِأَنَّهُ إذَا اجْتَمَعَ الْعِلْمُ وَالسِّنُّ فِي خَيِّرَيْنِ قُدِّمَ الْعِلْمُ وَأَمَّا أَحْكَامُ الدُّنْيَا فَهِيَ مُرَتَّبَةٌ عَلَى أَحْكَامِ الدِّينِ ، فَمَنْ قُدِّمَ فِي الدِّينِ قُدِّمَ فِي الدُّنْيَا .

وَفِي الْآثَارِ : ﴿ لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا ، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا ، وَيَعْتَرِفْ لِعَالِمِنَا ﴾ .

وَفِي الْحَدِيثِ الثَّابِتِ فِي الْأَفْرَادِ : ﴿ مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ سِنِّهِ مَنْ يُكْرِمُهُ ﴾ .

وَأَنْشَدَنِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ قَاسِمٍ الْعُثْمَانِيُّ الشَّهِيدُ نَزِيلُ الْقُدْسِ لِابْنِ عَبْدِ الصَّمَدِ

السَّرَقُسْطِيّ : يَا عَائِبًا لِلشُّيُوخِ مِنْ أَشَرٍ دَاخَلَهُ لِلصِّبَا وَمِنْ بَذَخِ اُذْكُرْ إِذَا شِئْتَ أَنْ تَعِيبَهُمْ جَدَّكَ وَاذْكُرْ أَبَاكَ يَا بْنَ أَخِي وَاعْلَمْ بِأَنَّ الشَّبَابَ مُنْسَلِخٌ عَنْكَ وَمَا وِزْرُهُ بِمُنْسَلِخِ مَنْ لَا يُعِزُّ الشُّيُوخَ لَا بَلَغَتْ يَوْمًا بِهِ سِنُّهُ إِلَى الشَّيْخِ

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاَللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمْ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَاَلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ .

(236/749)

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالشُّهَدَاءُ ﴾ وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُمْ النَّبِيُّونَ .

الثَّانِي : أَنَّهُمْ الْمُؤْمِنُونَ .

الثَّالِثُ أَنَّهُمْ الشُّهَدَاءُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ شَهِيدٌ ، أَمَّا الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ فَهُمْ شُهَدَاءُ عَلَى الْأُمَمِ ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَهُمْ شُهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ [كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾] .

وَأَمَّا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ شَهِيدٌ عَلَى الْكُلِّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ عَلَى الْعُمُومِ فِي كُلِّ شَاهِدٍ .

وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ خَيْرُ الشُّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا ، وَلَهُ الْأَجْرُ إِذَا أَدَّى وَالْإِثْمُ إِذَا كَتَمَ ﴾ .

وَنُورُهُمْ [قِيلَ] وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ هُوَ ظُهُورُ الْحَقِّ بِهِ ، وَقِيلَ نُورُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَالْكُلُّ صَالِحٌ لِلْقَوْلِ حَاصِلٌ لِلشَّاهِدِ بِالْحَقِّ .

وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الشُّهَدَاءَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُمْ الَّذِينَ قَاتَلُوا لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .

وَهُمْ أَوْفَى دَرَجَةً وَأَعْلَى .

وَالشُّهَدَاءُ قَدْ بَيَّنَّا عَدَدَهُمْ ، وَهُمْ الْمَقْتُولُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

الْمَقْتُولُ دُونَ مَالِهِ [الْمَقْتُولُ دُونَ أَهْلِهِ] .

الْمَطْعُونُ .

الْغَرِقُ .

الْحَرِقُ .

الْمَجْنُونُ .

الْهَدِيمُ .

ذَاتُ الْجَمْعِ .

الْمَقْتُولُ ظُلْمًا .

أَكِيلُ السَّبْعِ .

الْمَيِّتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

(237/749)

مَنْ مَاتَ مِنْ بَطْنٍ فَهُوَ شَهِيدٌ .

الْمَرِيضُ شَهِيدٌ .

الْغَرِيبُ شَهِيدٌ .

صَاحِبُ النَّظْرَةِ شَهِيدٌ .

فَهَؤُلَاءِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهِيدًا .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُمْ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَالَ جَمَاعَةٌ : إنَّ قَوْلَهُ ﴿ وَالشُّهَدَاءُ ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الصِّدِّيقُونَ ﴾ عَطْفُ الْمُفْرَدِ عَلَى الْمُفْرَدِ يَعْنِي أَنَّ الصِّدِّيقَ هُوَ الشَّهِيدُ ، وَالْكُلُّ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ .

وَقِيلَ : هُوَ عَطْفُ جُمْلَةٍ عَلَى جُمْلَةٍ ، وَالشُّهَدَاءُ ابْتِدَاءُ كَلَامٍ وَالْكُلُّ مُحْتَمَلٌ ، وَأَظْهَرُهُ عَطْفُ الْمُفْرَدِ عَلَى الْمُفْرَدِ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي الْمُلْجِئَةِ .

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾.

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ: الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى الرَّهْبَانِيَّةُ: فَعْلَانِيَّةٌ مِنْ الرَّهَبِ كَالرَّحْمَانِيَّةِ؛ وَقَدْ قُرِئَتْ بِضَمِّ الرَّاءِ وَهِيَ مِنْ الرُّهْبَانِ كَالرِّضْوَانِيَّةِ مِنْ الرُّضْوَانِ.

[وَالرَّهَبُ هُوَ الْخَوْفُ، كَنَّى بِهِ عَنْ فِعْلِ الْتَزَمَ خَوْفًا مِنْ اللَّهِ وَرَهَبًا مِنْ سَخَطِهِ].

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي تَفْسِيرِهَا: وَفِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ أَنَّهَا رَفْضُ النِّسَاءِ، وَقَدْ نُسِخَ ذَلِكَ فِي دِينِنَا، كَمَا تَقَدَّمَ.

(238/749)

الثَّانِي: اتِّخَاذُ الصَّوَامِعِ لِلْعُزْلَةِ؛ وَذَلِكَ مَنْدُوبٌ إلَيْهِ عِنْدَ فَسَادِ الزَّمَانِ.

الثَّالِثُ: سِيَاحَتُهُمْ، وَهِيَ نَحْوٌ مِنْهُ.

الرَّابِعُ رَوَى الْكُوفِيُّونَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ ﴿ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ تَدْرِي أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟ قَالَ: قُلْت: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ : أَعْلَمُ النَّاسِ أَبْصَرُهُمْ بِالْحَقِّ إِذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ مُقَصِّرًا فِي الْعَمَلِ ، وَإِنْ كَانَ يَزْحَفُ عَلَى اسْتِهِ ﴾ .

وَافْتَرَقَ مَنْ [كَانَ] قَبْلَنَا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، نَجَا مِنْهَا ثَلَاثٌ ، وَهَلَكَ سَائِرُهَا : فِرْقَةٌ آزَتْ الْمُلُوكَ ، وَقَاتَلَتْهُمْ عَلَى دِينِ اللَّهِ وَدِينِ عِيسَى حَتَّى قُتِلُوا ، وَفِرْقَةٌ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ طَاقَةٌ بِمُوَازَاةِ الْمُلُوكِ أَقَامُوا بَيْنَ ظَهْرَانِي قَوْمِهِمْ يَدْعُونَهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَدِينِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، فَأَخَذَتْهُمْ الْمُلُوكُ وَقَتَلَتْهُمْ وَقَطَّعَتْهُمْ بِالْمَنَاشِيرِ ، وَفِرْقَةٌ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ طَاقَةٌ بِمُوَازَاةِ الْمُلُوكِ ، وَلَا بِأَنْ

يُقِيمُوا بَيْنَ ظَهْرَانِي قَوْمِهِمْ ، فَيَدْعُوهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ [وَدِينِهِ] وَدِينِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، فَسَاحُوا فِي الْجِبَالِ ، وَتَرَهَّبُوا فِيهَا ، وَهِيَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِيهَا : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ رُوِيَ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ، وَاسْمُهُ صُدَيُّ بْنُ عَجْلَانَ ، وَأَنَّهُ قَالَ : أَحْدَثْتُمْ قِيَامَ رَمَضَانَ وَلَمْ يُكْتَبْ عَلَيْكُمْ ، إنَّمَا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ ؛ فَدُومُوا عَلَى الْقِيَامِ إذَا فَعَلْتُمُوهُ

، وَلَا تَتْرُكُوهُ؛ فَإِنَّ نَاسًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ابْتَدَعُوا بِدَعًا لَمْ يَكْتُبْهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ، ابْتَغَوْا بِهَا رِضْوَانَ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، فَعَاتَبَهُمْ اللَّهُ بِتَرْكِهَا، فَقَالَ: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ يَعْنِي تَرَكُوا ذَلِكَ فَعُوقِبُوا عَلَيْهَا.

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ مِنْ وَصْفِ الرَّهْبَانِيَّةِ، وَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ابْتَدَعُوهَا ﴾.

وَقَدْ زَاغَ قَوْمٌ عَنْ مَنْهَجِ الصَّوَابِ فَظَنُّوا أَنَّهَا رَهْبَانِيَّةٌ كُتِبَتْ عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ الْتَزَمُوهَا، وَلَيْسَ يَخْرُجُ هَذَا مِنْ قَبِيلِ مَضْمُونِ الْكَلَامِ، وَلَا يُعْطِيهِ أُسْلُوبُهُ وَلَا مَعْنَاهُ، وَلَا يُكْتَبُ عَلَى أَحَدٍ شَيْءٌ إِلَّا بِشَرْعٍ أَوْ نَذْرٍ، وَلَيْسَ فِي هَذَا اخْتِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ الْمِلَلِ.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى انتهى. اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(240/749)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين:

سورة الحديد

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1)

قوله : ﴿ لِلَّهِ ﴾ : يجوزُ في هذه اللامِ وجهان ، أحدهما : أنها مزيدةٌ كهي في " نَصَحْتُ لزيدٍ " و " شكرْتُ له " إذ يقال : سَبَّحْتُ اللهَ تعالى . قال تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف : 206] . والثاني : أَنْ تكونَ للتعليلِ ، أي : أَحْدَثَ التسبيحَ لأجلِ الله تعالى .

لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2)

قوله : ﴿ لَهُ مُلْكُ ﴾ : جملةٌ مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب .

قوله : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ يجوزُ في هذه الجملةِ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنها لا مَحَلَّ لها كالتي قبلها . والثاني : أنها خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هو له مُلك . والثالث : أنها حالٌ من الضمير في " له " فالعامل فيها الاستقرارُ ، ولم يُذْكَرْ مفعولا الإحياءِ والإماتةِ ؛ إذ الغَرَضُ ذِكْرُ الفعلَيْنِ فقط .

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3)

قوله : ﴿ هُوَ الأول والآخر ﴾ : قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : ما معنى الواو؟ قلت : الواوُ الأولى معناها الدلالةُ على أنه الجامعُ بين الصفتَيْن الأَوَّلِيَّةِ والآخِرِيَّةِ ، والثالثةُ على أنه الجامعُ بين الظهورِ والخَفاءِ ، وأمَّا الوُسْطى فعلى أنه الجامعُ بين مجموعِ الصفتَيْن الأُوْلَيَيْن

ومجموعِ الصفَتَيْن الأُخْرَيين " .

لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5)

(241/749)

قوله : ﴿ تُرْجَعُ الأمور ﴾ : قد تقدَّم في البقرة أن الأَخوَين وابنَ عامر يقرؤون بفتح التاء وكسر الجيم مبنياً للفاعل ، والباقون مبنياً للمفعول في جميع القرآن . وقال الشيخ هنا : " وقرأ الجمهور " تُرْجَعُ " مبنياً للمفعول . والحسن وابن أبي إسحاق والأعرج مبنياً للفاعل " وهذا عجيبٌ منه ، وقد وقع له مِثْلُ ذلك كما نَبَّهْتُ عليه . /

وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ ﴾ قد تقدَّم مثلُه في سورة سبأ .

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8)

قوله : ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ ﴾ : مبتدأ وخبرٌ ، وحالٌ ، أي : أيُّ شيءٍ استقر لكم غيرَ مؤمنين ؟

وقوله : ﴿ والرسول يَدْعُوكُمْ ﴾ جملةٌ حاليةٌ من " يُؤمنون " . قال الزمخشري : " فهما حالان متداخلان و " لِتُؤْمنوا " متعلِّقٌ ب " يَدْعو " أي : يدعوكم للإِيمان كقولك : دَعَوْتُه

لكذا . ويجوزُ أَنْ تكونَ اللامُ للعلةِ ، أي : يدعوكم إلى الجنةِ وغفرانِ اللهِ لأجلِ الإيمانِ . وفيه بُعْدٌ .

قوله : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ ﴾ حالٌ أيضاً . وقرأ العامَّةُ " أَخَذَ " مبنياً للفاعلِ ، وهو اللَّهُ تعالى لتقدُّمِ ذِكْرِه . وأبو عمرو " أُخِذ " مبنياً للمفعول ، حُذِفَ الفاعلُ للعِلْم به . و " ميثاقَكم " منصوبٌ في قراءةِ العامةِ ، مرفوعٌ في قراءةِ أبي عمروٍ . و " إنْ كنتم " جوابُه محذوفٌ تقديرُه : فما يَمْنَعُكم من الإيمانِ . وقيل : تقديرُه : إنْ كنتم مؤمنين لموجِبٍ ما ، فهذا هو الموجبُ . وقدَّره ابنُ عطية : " إنْ كنتم مؤمنين فأنتم في رتبةٍ شريفةٍ . وقد تقدَّمَتْ قراءتا " يُنَزِّل " تخفيفاً وتشديداً في البقرة . وزيد بن علي " أُنْزَل " ماضياً .

(242/749)

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10)

قوله : ﴿ أَلاَّ تُنفِقُواْ ﴾ كقوله ﴿ وَمَا لَنَآ أَلاَّ نُقَاتِلَ ﴾ [البقرة : 246] فالأصلُ : في أن لا تُنْفِقُوا ، فلمَّا حُذِف حرفُ الجرِّ جَرى الخلافُ المشهورُ . وأبو الحسن يرى زيادتَها كما تقدَّم

تقريرُه في البقرة .

قوله : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ﴾ جملةٌ حاليةٌ مِنْ فاعل الاستقرار ومفعولِه ، أي : وأيُّ شيءٍ يمنعُكم من الإِنفاقِ في سبيلِ اللهِ والحالُ أنَّ ميراثَ السماواتِ والأرضِ له ، فهذه حالٌ منافيةٌ لبُخْلِكم .

(243/749)

قوله : ﴿ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ ﴾ في فاعل "يَسْتوي" وجهان ، أظهرُهما : أنه مَنْ أَنْفَق ، وعلى هذا فلا بُدَّ مِنْ حذفِ معطوفٍ يتمُّ به الكلامُ ، فقدَّره الزمخشري : "لا يَسْتوي منكم مَنْ أنفقَ قبل فتحِ مكةَ وقوةِ الإِسلام ومَنْ أنفق مِنْ بعدِ الفتح ، فحَذَفَ لوضوحِ الدلالة" وقَدَّره أبو البقاء "ومَنْ لم يُنْفِق" قال : "ودلَّ على المحذوفِ قولُه : ﴿ مِّنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الفتح ﴾ والأول أحسنُ لأنَّ السِّياقَ إنما جيء بالآيةِ ليُفرِّق بين المُنْفِقين في زمانَيْن . والثاني : أنَّ فاعلَه ضميرٌ يعود على الإِنفاقِ ، أي : لا يَسْتوي جنسُ الإِنفاقِ إذ منه ما وَقَعَ قبل الفتح ، ومنه ما وقَعَ بعدَه ، فهذان النوعان متفاوتان . وعلى هذا فتكون "مَنْ" مبتدأ و "أولئك" مبتدأٌ ثانٍ و "أَعظَمُ" خبرُه ، والجملةُ خبرُ "مَنْ" وهذا ينبغي أن لا يجوزَ البتةَ ، وكأنَّ هذا المُعْرِبَ غَفَلَ عن قولِه : "منكم" ولو أعربَ هذا القائلُ "منكم" خبراً مقدماً ، و "مَنْ

"مبتدأ مؤخراً . والتقدير : مِنْكم مَنْ أنفق من قبلِ الفتحِ ، ومنكم مَنْ لم يُنْفِقْ قبلَه ولم يقاتِلْ ، وحُذِف هذا لدلالةِ الكلامِ عليه لكان سديداً ، ولكنه سها عن لفظةِ " منكم " .

قوله : ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحسنى ﴾ قراءةُ العامَّةِ بالنصبِ على أنه مفعولٌ مقدمٌ ، وهي مرسومةٌ في مصاحفِهم " وكلاًّ " بألفٍ ، وابنُ عامر برفعِه ، وفيه وجهان ، أظهرُهما : أنه ارتفعَ على الابتداءِ ، والجملة بعدَه خبرٌ ، والعائدُ محذوفٌ ، أي : وعده اللهُ . ومثلُه :

4231 قد أصبحَتْ أمُّ الخِيارِ تَدَّعِي . . . عليَّ ذَنْباً كلُّه لم أَصْنَعِ

برفع "كلُّه " ، أي : لم أَصْنَعْه . والبصريُّون لا يُجيزون هذا إلاَّ في شعرٍ كقولِه :

4232 وخالِدٌ يَحْمَدُ ساداتُنا . . . بالحقِّ لا يُحْمَدُ بالباطلِ

(244/749)

وقد نقل ابن مالك الإِجماعَ من البصريين والكوفيين على جواز ذلك إنْ كان المبتدأ " كلاً " أو ما أشبهَها في الافتقارِ والعمومِ ، وهذا لم أَرَه لغيره . وقد تقدَّم نحوٌ مِنْ ذلك في سورة المائدةِ عند قولِه : ﴿ أَفَحُكْمَ الجاهلية يَبْغُونَ ﴾ [المائدة : 50] ولم يُرْوَ قولُه : "كلُّه لم أصنعِ " إلاَّ بالرفعِ مع إمكانِ أنْ ينصبَه فيقول : "كلَّه لم أصنعِ " مفعولاً مقدَّماً . قال أهل البيان : لأنه قصد عمومَ السلبِ لا سَلْبَ العمومِ ، فإن الأولَ أبلغُ ، وجعلوا من ذلك قولَه عليه السلام :

"كل ذلك لم يكنْ" ولو قال: "لم يكن كلُّ ذلك" لكان سَلْباً للعُموم، والمقصودُ عمومُ السَّلْب.

والثاني: أن يكونَ "كل" خبرَ مبتدأ محذوفٍ، و ﴿ وَعَدَ اللهُ الحسنى ﴾ صفةٌ لما قبله، والعائدُ محذوف، أي: وأولئك كلٌّ وعدَه اللهُ الحسنى. فإن قيل: الحذفُ موجودٌ أيضاً وقد عُدْتم لما فرَرْتُم منه. فالجوابُ: أنَّ حَذْفَ العائدِ من الصفة كثيرٌ بخلاف حَذْفِه من الخبرِ. ومِنْ حَذْفِه من الصفة قولُه:

4233 وما أَدْري أغَيَّرهم تَناءٍ ... وطولُ العَهْدِ أم مالٌ أصابوا

أي أصابوه، ومثله كثيرٌ. وهي في مصاحفِ الشامِ مرسومةٌ "وكلٌّ" بدون ألف، فقد وافق كلٌّ مصحفَه. و "الحُسْنى" مفعولٌ ثانٍ، والأول محذوفٌ على قراءةِ الرفع، وأمَّا النصبُ فالأولُ مقدَّمٌ/ على عامِله.

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11)

(245/749)

قوله: ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ ﴾: قد تقدَّم بحمدِ الله هذا وما بعده مستوفىً، واختلافُ القرَّاءِ فيه في سورةِ البقرة. وقال ابن عطية هنا: "الرفعُ على العطفِ أو القطعِ

والاستئنافِ" . وقرأ عاصم "فيضاعِفَه" بالنصب بالفاء على جواب الاستفهام . وفي ذلك قَلَقٌ ، قال أبو علي : "لأنَّ السؤال لم يقَعْ عن القَرْض ، وإنما وقع عن فاعلِ القَرْض ، وإنما تَنْصِبُ الفاءُ فعلاً مردوداً على فعلٍ مُسْتَفْهَمٍ عنه ، لكن هذه الفِرْقَةَ حَمَلَتْ ذلك على المعنى ، كأنَّ قوله ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِض ﴾ بمنزلةِ قولِه أيقرِضُ اللَّهَ أحدٌ" انتهى . وهذا الذي قاله أبو علي ممنوعٌ ، ألا ترى أنه يُنْصَبُ بعد الفاءِ في جواب الاستفهام بالأسماءِ ، وإن لم يتقدَّم فعلٌ نحو : "أين بيتُك فأزورَكَ" ومثلُ ذلك : "مَنْ يَدْعوني فأَستجيبَ له" و "متى تسير فأرافِقك" و "كيف تكونُ فأَصْحَبَكَ" فالاستفهام إنما وقع عن ذاتِ الداعي وعن ظرفِ الزمان وعن الحال ، لا عن الفعل . وقد حكى ابنُ كيسانُ عن العرب : أين ذَهَبَ زيدٌ فنَتْبَعَه ، ومَنْ أبوك فنُكْرِمَه .

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)

قوله : ﴿ يَوْمَ تَرَى ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه معمولٌ للاستقرار العاملِ في "لهم أجرٌ" ، أي : استقرَّ لهم أجرٌ في ذلك اليوم . الثاني : أنه مضمرٌ ، أي : اذكرْ فيكون مفعولاً به . الثالث : أنه يُؤْجَرون يومَ ترى فهو ظرفٌ على أصلِه . الرابع : أنَّ العاملَ فيه "يَسْعى" ، أي : يَسْعى نورُ المؤمنين والمؤمناتِ يومَ تراهم ، هذا أصلُه . الخامس : أنَّ العاملَ فيه "فيضاعفه" قالهما أبو البقاء .

قوله: ﴿ يسعى ﴾ حالٌ، لأنَّ الرؤيةَ بَصَرِيَّة، وهذا إذا لم يَجْعَلْه عامِلاً في "يوم" و "بين أيديهم" ظرفٌ للسَّعْي، ويجوزُ أَنْ يكونَ حالاً مِنْ "نورُهم".

قوله: ﴿ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾، أي: وفي جهةِ أيمانهم. وهذه قراءةُ العامَّةِ أعني بفتح الهمزة جمع يَمين. وقيل: الباءُ بمعنى "عن"، أي: عن جميعِ جهاتِهم، وإنما خَصَّ الأَيْمانَ لأنها أشرفُ الجهاتِ. وقرأ أبو حيوة وسهل بن شعيب بكسرِها. وهذا المصدرُ معطوفٌ على الظرفِ قبلَه.

والباءُ سببيةٌ، أي: يسعى كائناً وكائناً بسببِ إيمانهم. وقال أبو البقاء تقديرُه: وبإيمانِهم استحقُّوه، أو بإيمانهم يُقال لهم: بُشْراكم.

قوله: ﴿ بُشْرَاكُمُ ﴾ مبتدأٌ، و "اليومَ" ظرفٌ. و "جناتٌ" خبرُه على حذفِ مضافٍ، أي: دخولُ جناتٍ. وهذه الجملةُ في محلِ نصبٍ بقولٍ مقدر، وهو العاملُ في الظرفِ كما تقدَّم. وقال مكي: "وأجاز الفراءُ نصبَ "جنات" على الحال ويكون "اليومَ" خبرَ "بُشْراكم" قال: وكونُ "جنات" حالاً لا معنى له؛ إذ ليس فيها معنى فِعْل. وأجاز أَنْ يكونَ "بُشْراكم" في موضع نصبٍ على: يُبَشِّرونهم بالبُشْرى، وتُنْصَبُ "جنات"

بالبُشْرى . وكلُّه بعيدٌ لأنه لا يُفصَل بين الصلةِ والموصول باليوم " انتهى . وعجيبٌ من الفراء كيف يَصْدُرُ عنه ما لا يُتَعَقَّل ، ولا يجوز صناعةً ، كيف تكون " جنات " حالاً وماذا صاحبُ الحال ؟ .

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13)

(247/749)

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ﴾ : بدلٌ مِنْ " يوم ترى " أو معمولٌ ل " اذْكُر " . وقال ابن عطية : " ويظهرُ لي أنَّ العاملَ فيه ﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ ويجيء معنى الفوز أفخم ، كأنه يقول : إن المؤمنين يفوزون بالرحمةِ يومَ يَعْتري المنافقين كذا وكذا ؛ لأنَّ ظهورَ المرءِ يومَ خمول عَدُوِّه ومُضادِّه أبدعُ وأفخمُ " . قال الشيخ : " وظاهرُ كلامِه وتقديره أنَّ " يومَ " معمولٌ للفوز . وهو لا يجوزُ ، لأنه مصدرٌ قد وُصِفَ قبل أَخْذِ متعلَّقاته فلا يجوز إعمالُه ، فلو أُعْمِل وصفُه لجاز ، أي : الذي عَظُمَ قَدْرُه يومَ " . قلت : وهذا الذي قاله ابنُ عطية صَرَّح به مكي فقال : " ويومَ ظرفٌ العاملُ فيه ذلك الفوزُ ، أو هو بدلٌ من " اليوم " الأول " .

قوله : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ [الحديد : 12] نصبٌ على الحالِ العاملُ فيها المضافُ المحذوف إذ التقديرُ : بُشْراكم دخولُكم جناتٍ خالدين فيها ، فحذف الفاعلَ وهو ضميرُ المخاطبِ ، وأُضيف المصدرُ لمفعولِه فصار : دخولَ جنات ، ثم حُذِف المضافُ وقام المضافُ إليه مَقَامَه في الإِعراب ، ولا يجوز أَنْ يكونَ " بُشْراكم " هو العاملَ فيها ؛ لأنه مصدرٌ قد أُخْبر عنه قبل ذِكْرِ متعلَّقاتِه ، فيلزَمُ الفصلُ بأجنبي . وظاهرُ كلامِ مكي أنه عاملٌ في الحالِ فإنَّه قال : " خالدين نصبٌ على الحالِ من الكاف والميم " والعاملُ في الحالِ هو العاملُ في صاحِبها فلَزِمَ أَنْ يكونَ " بُشْراكم " هو العامل ، وفيه ما تقدَّم من الفصلِ بينَ المصدرِ ومعمولِه .

(248/749)

قوله : ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ اللامُ للتبليغ . و " انْظُرونا " قراءةُ العامَّةِ " انظرونا " أَمْراً من النظر . وحمزة " أَنْظِرونا " بقطع الهمزةِ وكَسْرِ الظاء من الإِنْظار بمعنى الانتظار ، أي : انتظرونا لِنَلْحَقَ بكم فنستضيْءَ بنورِكم . والقراءةُ الأولى يجوز أَنْ تكونَ بمعنى هذه إذ يقال : نَظَرَه بمعنى انتظره ، وذلك أنه يُسْرَعُ بالخُلَّصِ إلى الجنَّة على نُجُبٍ ، فيقول المنافقون : انتظرونا لأنَّا مُشاةٌ لا نَسْتطيع لُحوقَكم . ويجوز أَنْ يكونَ مِنَ النظر وهو الإِبصارُ لأنَّهم إذا نظروا إليهم

استقبلوهم بوجوهِهم فيضيءُ لهم المكانُ ، وهذا أليقُ بقولِه ﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ قال معناه الزمخشري . إلاَّ أنَّ الشيخ قال : إنَّ النظرَ بمعنى الإِبصار لا يتعدَّى بنفسِه إلاَّ في الشعر ، إنما يتعدَّى بنفسِه إلاَّ في الشعر ، إنما يتعدَّى ب " إلى " / .

قوله : ﴿ وَرَآءَكُمْ ﴾ فيه وجان ، أظهرُهما : أنه منصوبٌ ب ارْجِعوا على معنى : ارْجِعوا إلى الموقفِ ، إلى حيث أُعطِينا هذا النورَ فالتِمسوه هناك مِمَّنْ نقتبس ، أو ارْجِعوا إلى الدنيا فالتِمسوا نوراً بتحصيلِ سببِه وهو الإِيمانُ ، أو فارْجِعوا خائبين وتَنَحَّوْا عنا فالتمسُوا نوراً آخرَ ، فلا سبيلَ لكم إلى هذا النورِ . والثاني : أنَّ " وراءكم " اسمٌ للفعلِ فيه ضميرُ فاعلٍ ، أي : ارْجِعوا ارْجِعوا ، قاله أبو البقاء ، ومنع أَنْ يكونَ ظَرْفاً ل ارْجِعوا قال : لقلةِ فائدتِه لأنَّ الرجوعَ لا يكونُ إلاَّ إلى وراء .

وهذا فاسدٌ ؛ لأنَّ الفائدةَ جليلةٌ كما تقدَّم شَرْحُها .

قوله : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ العامَّةُ على بنائِه للمفعول . والقائمُ مَقامَ الفاعلِ يجوز أَنْ يكونَ " بسورٍ " وهو الظاهرُ ، وأَنْ يكونَ الظرفَ . وقال مكي : " الباءُ مزيدةٌ ، أي : ضُرِب سورٌ " ثم قال : " والباءُ متعلِّقةٌ بالمصدر ، أي : ضرباً بسُور " وهذا متناقضٌ ، إلاَّ أَنْ يكونَ

قد غُلِط عليه من النُسَّاخ، والأصل "أو الباءُ متعلقةٌ بالمصدر"، والقائمُ مقامَ الفاعلِ الظرفُ. وعلى الجملةِ هو ضعيفٌ.

والسُّور: البناءُ المحيطُ. وتقدَّم اشتقاقُه أولَ البقرة.

قوله: ﴿ لَّهُ بَابٌ ﴾ مبتدأ وخبرٌ في موضع جرٍّ صفةً لِ سُوْر.

قوله: ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرحمة ﴾ هذه الجملةُ يجوزُ أَنْ تكونَ في موضع جرٍّ صفةً ثانيةً لِ "سُوْر"، ويجوز أن تكونَ في موضع رفعٍ صفةً لِ "بابٌ"، وهو أَوْلَى لقُرْبِه. والضميرُ إنما يعود على الأَقْرب إلاَّ بقرينةٍ.

وقرأ زيد بن علي وعبيد بن عمير "فَضَرَبَ" مبنياً للفاعل وهو اللهُ أو المَلَكَ.

يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14)

قوله: ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾: يجوز أَنْ يكونَ حالاً من الضميرِ في "بَيْنهم" قاله أبو البقاء، وهو ضعيفٌ لمجيءِ الحالِ من المضافِ إليه في غيرِ المواضعِ المستثناة، وأَنْ تكونَ مستأنفةً، وهو الظاهرُ.

قوله: ﴿ أَلَمْ نَكُن ﴾ يجوز أَنْ يكونَ تفسيراً للنداءِ، وأَنْ يكونَ منصوباً بقولٍ مقدرٍ.

قوله: ﴿ الغرور ﴾ قراءةُ العامَّة بفتح الغَيْن، وهو صفةٌ على فَعول، والمرادُ به الشيطانُ. وقرأ سماك بن حرب "الغُرور" بالضم، وهو مصدرٌ، وتقدَّم نظيرُه.

فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (15)

قوله : ﴿ فاليوم ﴾ : منصوبٌ ب "يُؤْخَذُ" . ولا يُبالَى ب "لا" النافيةِ ، وهو قولُ الجمهورِ . وقد تقدَّم أولَ هذا الموضوعَ أخرَ الفاتحةِ أنَّ فيها ثلاثةَ أقوالٍ . وقرأ ابن عامر "تُؤْخَذُ" بالتأنيثِ للفظِ الفِدْية . والباقون بالياء مِنْ تحت ؛ لأنَّ التأنيثَ مجازيٌّ وللفَصْلِ .

قوله : ﴿ هِيَ مَوْلاَكُمْ ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ مصدراً ، أي : ولايتكم ، أي : ذاتُ وِلايتكم . وأَنْ يكونَ مكاناً ، أي : مكانَ ولايتكم ، وأَنْ يكونَ بمعنى أَوْلَى بكم ، كقولك : هو مَوْلاه .

وبئس المصيرُ ، أي : هي .

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16)

قوله : ﴿ أَن تَخْشَعَ ﴾ : فاعلُ "يَأْنِ" ، أي : ألم يَقْرُبْ خشوعُ قلوبهم . واللامُ قال أبو البقاء : "للتبيين" فعلى هذا تتعلَّق بمحذوفٍ ، أي : أَعْني الذينَ ، ولا حاجةَ إليه . والعامة "أَلَمْ" . والحسن وأبو السَّمَّال "أَلَمَّا" وقد عَرَفْتَ الفرقَ بين الحرفين مِمَّا تقدَّم . والعامَّةُ أيضاً "

يَأْنِ " مضارعَ أَنَى ، أي : حان وقَرُبَ مثل : رمى يَرْمي . والحسن "يَئِنْ" مضارع آن بمعنى حانَ أيضاً مثل : باع يبيع .

(251/749)

قوله : ﴿ وَمَا نَزَلَ ﴾ قرأ نافع وحفص " نَزَل " مخففاً مبنياً للفاعلِ . وباقي السبعةِ كذلك إلاَّ أنه مشدَّدٌ . والجحدري وأبو جعفر والأعمش وأبو عمروٍ في روايةٍ " نُزِّلَ " مشدَّداً مبنياً للمفعولِ . وعبد الله " أُنْزَل " مبنياً للفاعلِ هو الله تعالى . و " ما " في " ما نَزَلَ " مخففاً يتعيَّنُ أَنْ تكونَ اسميةً . ولا يجوزُ أَنْ تكونَ مصدريةً ؛ لئلا يَخْلو الفعلُ من الفاعل ، وما عداها يجوزُ أَنْ تكونَ مصدريةً ، وأَنْ تكونَ بمعنى الذي . فإن قلتَ : وقراءةُ الجحدريّ ومَنْ معه ينبغي أَنْ تكونَ فيها اسميةً ، لئلا يخلوَ الفعلُ مِنْ مرفوعٍ . فالجواب : أنَّ الجارَّ وهو قولُه " من الحق " يقوم مَقامَ الفاعل .

والعامَّةُ على الغيبة في " ولا يكونوا " جَرْياً على ما تقدَّم . وأبو حيوة وابنُ أبي عبلة بالتاء مِنْ فوقُ على سبيل الالتفات . ثم هذا يُحْتمل أَنْ يكونَ منصوباً عطفاً على " تَخْشَعَ " كما في قراءةِ الغَيْبة وأَنْ يكونَ نهياً ، فتكونَ " لا " ناهيةً والفعلُ مجزومٌ بها . ويجوزُ أَنْ يكونَ نهياً في قراءة الغَيْبة أيضاً ، ويكونُ ذلك انتقالاً إلى نهيِ أولئك المؤمنين عن كونِهم مُشْبِهين لمَنْ تَقَدَّمهم

نحو : لا يَقُمْ زيدٌ .

قوله : ﴿ الأمد ﴾ العامَّةُ على تخفيف الدال بمعنى العامّة كقولك : أَمَدُ فلانٍ ، أي : غايتُه . وابن كثير في روايةٍ بتشديدِها وهو الزمنُ الطويل .

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18)

(252/749)

قوله : ﴿ المصدقين والمصدقات ﴾ : خَفَّفَ الصاد منها ابنُ كثير وأبو بكر ، وثَقَّلها باقي السبعة . فقراءةُ ابنِ كثيرٍ من التصديق ، أي : صَدَّقوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به كقولِه تعالى : ﴿ والذي جَآءَ بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ [الزمر : 33] ، وقراءةُ الباقين من الصدقة وهو مناسِبٌ لقولِه " وأَقْرَضوا " والأصل : المُتَصَدِّقين والمُتَصدِّقات فأَدْغَمَ ، وبها قرأ أُبَيٌّ . وقد يُرَجَّحُ الأول . بأنَّ الإِقراضَ مُغْنٍ عن ذِكْرِ الصدقة .

قوله ﴿ وَأَقْرَضُواْ ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه معطوفٌ على اسم الفاعلِ في " المُصَدِّقين " لأنَّه لمَّا وقع صلةً لأل حَلَّ مَحَلَّ الفعلِ ، فكأنَّه قيل : إن الذين صَدَّقوا وأَقْرضوا ، وعليه جمهورُ المُعربين . وإليه ذهب الفارِسيُّ والزمخشري وأبو البقاء . وهو فاسدٌ لأنه

يَلْزَمُ الفصلُ بين أَبْعاضِ الصلة بأجنبي . ألا ترى أنَّ " المُصَّدِّقات " عطفٌ على " المصَّدِّقين " قبل تمام الصلةِ ، ولا يجوز أن يكونَ عطفاً على المُصَّدِّقاتِ لتغايُرِ الضمائرِ تذكيراً وتأنيثاً .

الثاني : أنه معترضٌ بين اسم " إنَّ " وخبرها وهو " يُضاعَفُ " . قال أبو البقاء : " وإنما قيل ذلك لئلاَّ يُعْطَفَ الماضي على اسم الفاعل " ولا أَدْري ما هذا المانعُ؟ لأنَّ اسمَ الفاعلِ متى وقع صلةً لأل صَلَحَ للأزمنةِ الثلاثة ، ولو مَنَع بما ذكَرْتُه من الفصلِ بالأجنبي لأصابَ ، ولكن خَفي عليه كما خَفي على مَنْ هو أكبرُ منه : الفارسيُّ والزمخشريُّ .

الثالث : أنه صلةٌ لموصول محذوفٍ لدلالةِ الأول عليه كأنه قيل : والذين أَقْرضوا كقولِه :

4234 أَمَنْ يَهْجُو رسولَ اللَّهِ مِنْكُمْ . . . ويَمْدَحُه ويَنْصُرُه سَواءُ

أي : ومَنْ ينصُرُه واختاره الشيخ : وهذا قد عَرَفْتَ ما فيه في أوائلِ هذا التصنيفِ .

(253/749)

قوله ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ القائم مقامَ الفاعلِ فيه وجهان ، أحدهما : وهو الظاهرُ أنَّه الجارُّ بعده . والثاني : أنَّه ضميرُ التصديق ، ولا بُدَّ مِنْ حَذْفِ مضافٍ ، أي : ثوابُ التصديق .

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (19)

قوله : ﴿ والذين آمَنُوا ﴾ : [مبتدأ] و " أولئك " مبتدأ ثان و " هم " يجوز أَنْ يكونَ مبتدأ ثالثاً و " الصِّدِّيقون " خبرُه ، وهو مع خبرِه خبرُ الثاني ، والثاني وخبرُه خبرُ الأول . ويجوزُ أَنْ يكون " هم " فصلاً فأولئك وخبرُه خبرُ الأول .

قوله ﴿ والشهدآء ﴾ يجوز فيه وجهان : أنه معطوفٌ على ما قبلَه ، ويكون الوقفُ على الشهداء تاماً . أخبر عن الذين آمنوا أنهم صِدِّيقون شهداءُ . فإنْ قيل : الشهداءُ مخصوصون بأوصافٍ أُخَرَ زائدةٍ على ذلك كالسبعةِ المذكورين . أجيب : بأنَّ تَخْصِيصَهم بالذِّكْر لشَرَفِهم على غيرِهم لا للحَصْر .

والثاني : أنه مبتدأٌ ، وفي خبرِه وجهان ، أحدهما : أنه الظرفُ بعده . والثاني : أنه قولُه " لهم أَجْرُهم " إمَّا الجملة ، وإمَّا الجارُّ وحدَه ، والمرفوع فاعلٌ به . والوقفُ لا يَخْفَى على ما ذَكَرْتُه من الإِعراب .

والصِّدِّيقُ : مثالُ مبالغةٍ ، ولا يجيءُ إلاَّ من ثلاثيٍ غالباً . قال بعضُهم : وقد جاء " مِسِّيك " مِنْ أَمْسَك . وهو غَلَطٌ لأنه يقال : مَسَك ثلاثياً فمِسِّيك منه .

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20)

قوله : ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ : العامَّةُ على تنوين " تَفاخُرٌ " موصوفٌ بالظرفِ أو عاملٌ فيه ، والسُّلميُّ أضافه إليه .

قوله : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ في موضعِ نصبٍ حالاً من الضميرِ في " لَعِبٌ " لأنه بمعنى الوصفِ ، وأَنْ يكونَ خبراً لمبتدأ محذوف ، أي : ذلك كمَثَل . وجوَّز ابن عطية أَنْ يكونَ في موضعِ رفعٍ صفةً لِما تقدَّم . ولم يُبَيِّنْه مكي فقال : " نعت ل تَفاخُر " . وفيه نظرٌ لتخصيصه له مِنْ بين ما تقدَّم . وجوَّز أَنْ يكون خبراً بعد خبرٍ للحياة الدنيا .

وقُرِىء " مُصْفاراً " مِنْ اصفارَّ وهي أبلغُ مِنْ اصْفَرَّ .

قوله : ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ خبرٌ مقدمٌ وما بعده مبتدأ . أخبر أنَّ في الآخرةِ عذاباً شديداً ، ومغفرةً منه ورضواناً ، وهذا معنىً حسنٌ ، وهو أنه قابل العذابَ بشيئَين : بالمغفرة والرضوان فهو من باب " لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَين " .

سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21)

قوله : ﴿ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ﴾ : مبتدأٌ وخبرٌ . والجملة صفةٌ لجنة وكذلك " أُعِدَّتْ " .

ويجوز أَنْ يكونَ " أَعِدَّتْ " مستأنفةٌ .

(255/749)

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22)

قوله : ﴿ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ : فاعل " أصاب " . و " مِنْ " مزيدةٌ لوجودِ / الشرطين . وذَكَّر فعلَها لأنَّ التأنيث مجازيٌّ .

قوله ﴿ فِي الأرض ﴾ يجوز أَنْ يتعلَّق ب أصاب ، وأَنْ يتعلَّقَ بنفس " مصيبةٍ " ، وأَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه صفةٌ لمصيبة وعلى هذا فيَصْلُح أَنْ يُحْكَمَ على موضِعه بالجرِّ نظراً إلى لفظِ موصوفِه وبالرفع نظراً إلى مَحَلِّه ، إذ هو فاعلٌ . والمُصيبة غَلَبَتْ في الشر . وقيل : المرادُ بها جميعُ الحوادثِ مِنْ خيرٍ وشرٍ ، وعلى الأول يُقال : لِمَ ذُكِرَتْ دون الخير؟ وأجيب : بأنه إنَّما خَصَّصَها بالذِّكْرِ لأنها أهمُّ على البشر .

قوله ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ حال مِنْ " مصيبة " ، وجاز ذلك وإنْ كانت نكرةً لتخصُّصِها : إمَّا بالعملِ أو بالصفةِ ، أي : إلاَّ مكتوبةً .

قوله ﴿ مِّن قَبْلِ ﴾ نعتُ لِ كتاب ، ويجوز أَنْ يتعلَّقَ به قاله أبو البقاء ؛ لأنه هنا اسمٌ للمكتوبِ ، وليس بمصدرٍ . والضميرفي " نَبْرَأَها " الظاهرُ عَوْدُه على المصيبة . وقيل : على الأنفس . وقيل : على الأرض أو على جميع ذلك ، قاله المهدويُّ ، وهو حسنٌ .

لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (23)

(256/749)

قوله : ﴿ لِّكَيْلاَ ﴾ : هذه اللامُ متعلقةٌ بقولِه " ما أصابَ " ، أي : أَخبرَنا كم بذلك لكيلاَ يَحْصُلَ لكم الحزنُ المُقْنِط أو الفرحُ المُطْغي ، فأمَّا دون ذلك فالإِنسانُ غيرُ مؤاخذٍ به . و " كي " هنا ناصبةٌ بنفسِها فهي مصدريةٌ فقط لدخولِ لامِ الجرِّ عليها ، وقرأ أبو عمرو " بما أتاكم " مقصوراً من الإِتْيان ، أي : بما جاءكم . وباقي السبعة " آتاكم " ممدوداً من الإِيتاء أي : بما أعطاكم اللَّهُ إياه . وقرأ عبد الله " أُوْتيتم " .

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)

قوله : ﴿ الذين يَبْخَلُونَ ﴾ : قد تقدَّم مثلُ هذا في سورة النساء ، وتكلمتُ عليه بما يَكْفي ، فلا معنى لإِعادته .

(257/749)

قوله ﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الغني ﴾ قرأ نافع وابن عامر " فإن الله الغنيُّ " بإسقاطِ " هو " وهو ساقطٌ في مصاحف المدينةِ والشام . والباقون بإثباتِه وهو ثابتٌ في مصاحِفهم ، فقد وافق كلٌّ مصحَفه . قال أبو علي : " مَنْ أثبت " هو " يَحْسنُ أَنْ يكونَ فصلاً ، ولا يَحْسُنُ أن يكونَ ابتداءً ؛ لأنَّ الابتداءَ لا يَسُوغ حَذْفُه " يعني أنه تُرَجَّحُ فصليَّتُه بحذفه في القراءةِ الأخرى ، إذ لو كان مبتدأً لضَعُف حَذْفُه ، لا سيما إذا صَلَحَ ما بعده أَنْ يكونَ خبراً لِما قبله ، ألا تراك لو قلت : " إنَّ زيداً هو القائمُ " لم يَحْسُنْ حَذْفُ " هو " لصلاحيةِ " القائمُ " خبراً ل " إنَّ " : وهذا كما قالوا في الصلة : إنه يُحْذَفُ العائدُ المرفوعُ بالابتداء بشروطٍ منها : أن لا يكونَ ما بعدَه صالحاً للصلة نحو : " جاء الذي هو في الدار " أو " هو قائم أبوه " لعدمِ الدلالةِ . إلاَّ أنَّ للمنازِعِ أن ينازِعَ أبا علي ويقول : لا ألتزم تركيب إحدى القراءتين على الأخرى ، وكم مِنْ قراءتَيْنِ تغاير معناهما كقراءتَيْ : ﴿ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ [آل عمران : 36] و " وضَعَتْ " ، إلاَّ أنَّ توافُقَ القراءتَيْن في معنىً واحدٍ أَوْلى ، هذا ما لا نزاعَ فيه .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ

عَزِيزٌ (25)

قوله : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ : جملةٌ حاليةٌ من " الحديد " .

(258/749)

قوله : ﴿ مَّعَهُمُ ﴾ حالٌ مقدرة ، أي : صائراً معهم ، وإنَّما احتَجْنا إلى ذلك لأنَّ الرسلَ لم يُنْزَلوا ، ومقتضى الكلامِ أن يَصْحبوا الكتابَ في النزولِ . وأمَّا الزمخشريُّ فإنه فَسَّرَ الرسلَ بالملائكةِ الذين يَجيئون بالوحيِ إلى الأنبياءِ فالمعيَّةُ متحققةٌ .

قوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ﴾ عطفٌ على قولِه " ليقومَ الناسُ " ، أي : لقد أَرْسَلْنا رُسُلَنا وفَعَلْنا كيتَ وكيتَ ليقومَ الناسُ وليعلمَ اللَّهُ . وقال الشيخ : " علةٌ لإِنزالِ الكتابِ والميزانِ والحديدِ " ، والأولُ أظهرُ لأنَّ نصرةَ اللَّهِ ورسلِه مناسبةٌ للإِرسال .

قوله ﴿ وَرُسُلَهُ ﴾ عطفٌ على مفعولِ " يَنْصُرُه " ، أي : وينصرُ رسُلَه . قال أبو البقاء : " ولا يجوزُ أَنْ يكونَ معطوفاً على " مَنْ " لئلا يُفْصَلَ به بين الجارِّ وهو " بالغَيْب " وبينَ ما يتعلَّق به وهو " يَنْصُرُ " . قلت : وجَعْلُه العلةَ ما ذكرَه مِنْ الفصلِ بين الجارِّ وما يتعلَّق به مَنْ يُوْهِمُ أنَّ معناه صحيحٌ لولا هذا المانعُ ، وليس كذلك إذ يصيرُ التقديرُ : وليعلمَ اللَّهُ مَنْ ينصرُه بالغيب . ولِيَعْلَمَ رسُلَه . وهذا معنىً لا يَصِحُّ البتةَ فلا حاجةَ إلى ذِكْرِ ذلك . و " بالغيب " حالٌ

وقد تقدم مثله أول البقرة .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (26)

قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ ﴾ : الضميرُ يجوزُ عَوْدُه على الذرِّيَّة ، وهو أَوْلَى لتقدُّم ذِكْرِه لفظاً .

وقيل : يعودُ على المُرْسَل إليهم لدلالة " أَرْسَلْنا " والمرسلين عليهم .

(259/749)

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (27)

قوله : ﴿ الإِنجيل ﴾ : قد تقدَّم أنَّ الحسنَ قرأه بفتح الهمزة في أول آل عمران . قال الزمخشري : " أَمْرُه أهونُ / مِنْ أَمْرِ البِرْطيل والسَّكِّين فيمن رَواهما بفتح الفاء لأنَّ الكلمة أعجمية لا يلزمُ فيها حِفْظُ أبنية العرب " . وقال أبو الفتح : " هو مثالٌ لا نظيرَ له " .

قوله : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها ﴾ في انتصابها وجهان ، أحدهما : أنها معطوفةٌ على " رأْفَةً ورحمةً " . و " جَعَلَ " إمَّا بمعنى خَلَق أو بمعنى صيَّر ، و " ابْتدعوها " على هذا

صفةٌ لـ " رَهْبانية " وإنما خُصَّتْ بذِكرِ الابتداعِ لأنَّ الرأَفة والرحمةَ في القلب أمرٌ غريزةٍ لا تَكَسُّبَ للإنسانِ فيها بخلافِ الرهبانية فإنها أفعالُ البدن، وللإنسانِ فيها تكسُّبٌ. إلاَّ أنَّ أبا البقاء منعَ هذا الوجهَ بأنَّ ما جعله اللَّهُ لا يَبْتدعونه. وجوابُه ما تَقَدَّم: مِنْ أنَّه لَمَّا كانت مكتسبةً صَحَّ ذلك فيها. وقال أيضاً: " وقيل: هو معطوفٌ عليها، وابتدعوها نعتٌ له. والمعنى: فَرَضَ عليهم لزومَ رهبانيةٍ ابتدعوها، ولهذا قال: ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابتغآءَ رِضْوَانِ الله ﴾.

(260/749)

والوجه الثاني: أنه منصوبةٌ بفعلٍ مقدرٍ يُفَسِّره الظاهرُ وتكون المسألةُ من الاشتغالِ. وإليه نحا الفارسيُّ والزمخشريُّ وأبو البقاء وجماعةٌ إلاَّ أنَّ هذا يقولون إنه إعرابُ المعتزلة؛ وذلك أنَّهم يقولون: ما كانَ مِنْ فِعْلِ الإنسانِ فهو مخلوقٌ له، فالرحمةُ والرأفةُ لَمَّا كانتْ من فِعْلِ اللَّهِ تعالى نَسَبَ خَلْقَهما إليه. والرَّهْبانِيَّةُ لَمَّا لم تكنْ من فِعْلِ اللهِ تعالى بل مِنْ فعل العبدِ يَسْتَقِلُّ بفعلِها نَسَبَ ابتداعَها إليه، وللردِّ عليهم موضعٌ آخرُ هو أليقُ به من هذا الموضعِ، وسأُبَيِّنُه إنْ شاء الله في " الأحكام ".

ورَدَّ الشيخُ عليهم هذا الإِعرابَ من حيث الصناعةُ وذلك أنَّه مِنْ حَقِّ اسمِ المُشْتَغَلِ عنه

أن يَصْلُح للرفع بالابتداءِ و " رهبانية " نكرةٌ لا مُسوِّغ للابتداء بها ، فلا يصلح نصبُها على الاشتغال . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّا لا نُسَلِّمُ أولاً اشتراطَ ذلك ، ويَدُلُّ عليه قراءةُ مَنْ قرأ " سورةً أنزَلْناها " بالنصب على الاشتغال كما قَدَّمْتُ تحقيقه في موضعه . ولِئِنْ سَلَّمْنا ذلك فثَمَّ مُسَوِّغٌ وهو العطفُ . ومِنْ ذلك قولُه :

4235 عندي اصْطِبارٌ وشكْوى عند قاتلتي . . . فهل بأعجبَ مِنْ هذا امرؤٌ سَمِعا

وقوله :

4236 تَعَشَّى ونجمٌ قد أضاء فَمُذْ بدا . . . مُحَيَّاكَ أَخْفَى ضوْءُه كلَّ شارِقِ

ذكر ذلك الشيخُ جمال الدين بن مالك . وقرأ الحسن " رَآفة " بزنة فَعالة . والرَّهْبانيةُ منسوبةٌ إلى الرَهْبان فهو فَعْلان مِنْ رَهِب كقولِهم : " الخَشْيان " مِنْ خَشِي . وقد تقدَّم معنى هذه المادةِ في المائدة مستوفى وقُرِىء بضمِّ الراء . قال الزمخشري : " كأنَّها نِسْبةٌ إلى الرُّهْبان وهو جمعُ راهبٍ كراكب ورُكْبان " .

قال الشيخ : " والأَوْلَى أَنْ يكونَ منسوباً إلى رَهْبان يعني بالفتح وغُيِّر ؛ لأنَّ النسبَ بابُ تغيير ، ولو كان منسوباً لرُهبان الجمع لرُدَّ إلى مفردِه ، إلاَّ إنْ كان قد صار كالعَلَم فإنه يُنْسَبُ

إليه كالأنصار " .

قوله : ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا ﴾ صفةٌ ل " رَهْبانيةً " ، ويجوز أَنْ يكونَ استئناف إخبارٍ بذلك .

قوله : ﴿ إِلاَّ ابتغآء رِضْوَانِ الله ﴾ فيه أوجه ، أحدها : أنه استثناء متصلٌ ممَّا هو مفعولٌ من أجلِه . والمعنى : ما كَتَبْناها عليهم لشيءٍ من الأشياءِ إلاَّ لابتغاءِ مَرْضاتِ اللَّهِ ، ويكون "كتب" بمعنى قضى ، فصار : كَتَبْناها عليهم ابتغاءَ مرضاةِ اللَّهِ ، وهذا قولُ مجاهد .

والثاني : أنه منقطعٌ . قال الزمخشري : ولم يذكُرْ غيرَه ، أي : ولكنهم ابْتَدعوها . وإلى هذا ذهب قَتادةُ وجماعةٌ ، قالوا : معناه لم يَفْرِضْها عليهم ولكنهم ابتدعوها . الثالث : أنه بدلٌ من الضميرِ المنصوبِ في "كَتَبْنَاها " قاله مكيٌّ وهو مُشْكِلٌ : كيف يكونُ بدلاً ، وليس هو الأولَ ولا بعضَه ولا مشتملاً عليه ؟ وقد يُقال : إنه بدلُ اشتمال ، لأن الرهبانيةَ الخالصةَ المَرْعِيَّةَ حقَّ الرِّعاية قد يكون فيها ابتغاءَ رضوانِ اللَّهِ ، ويصير نظيرَ قولِك " الجاريةُ ما أحببتها إلاَّ أدبَها " فإلاَّ أدبَها بدلٌ من الضمير في " أَحْبَبْتُها " بدلُ اشتمالٍ ، وهذا نهايةُ التمحُّلِ لصحةِ هذا القولِ واللَّهُ أعلم .

والضميرُ المرفوعُ في " رَعَوْها " عائدٌ على مَنْ تقدَّمَ . والمعنى : أنهم لم يَدُوموا كلُّهم على رعايتها ، وإنْ كان وُجِدَ هذا في بعضِهم . وقيل : يعودُ على الملوكِ الذين حاربوهم . وقيل : على أحلافِهم . و " حَقَّ " نصبٌ على المصدر .

لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

قوله: ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ ﴾ : هذه اللامُ متعلقةٌ بمعنى الجملة الطلبية المتضمنةِ لمعنى الشرطِ، إذ التقدير: إنْ تتقوا اللَّهَ وآمنتم برسلِه يُؤْتِكم كذا وكذا، لئلا يعلمَ. وفي "لا" هذه وجهان، أحدهما: / وهو المشهورُ عند النحاةِ والمفسِّرين والمُعْربين أنها مزيدةٌ كهي في ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف: 12]، و ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: 31] على خلافٍ في هاتين الآيتين. والتقدير: أَعْلَمَكم اللَّهُ بذلك، ليعلمَ أهلُ الكتابِ عدمَ قدرتِهم على شيءٍ مِنْ فضلِ اللَّهِ وثبوتَ أنَّ الفَضْلَ بيدِ الله، وهذا واضحٌ بَيِّنٌ، وليس فيه إلاَّ زيادةُ ما ثبتَتْ زيادتُه شائعاً ذائعاً.

والثاني: أنها غيرُ مزيدةٍ. والمعنى لئلا يعلمَ أهلُ الكتابِ عَجْزَ المؤمنين، نقل ذلك أبو البقاء وهذا لفظُه، وكان قد قال قبل ذلك: "لا" زائدة والمعنى: ليعلمَ أهلُ الكتابِ عَجْزَهم" وهذا غيرُ مستقيم؛ لأنَّ المؤمنين عاجزون أيضاً عن شيءٍ مِنْ فضلِ اللَّهِ وكيف يعملُ هذا القائلُ بقولِه ﴿ وَأَنَّ الفضل بِيَدِ الله ﴾ ؛ فإنه معطوفٌ على مفعولِ العِلْمِ المنفيِّ فيصيرُ التقدير: ولئلا يعلمَ أهلُ الكتابِ أنَّ الفضلَ بيد الله؟ هذا لا يستقيمُ نَفْيُ العِلْمِ به البتة، فلا جرم كان قولاً مُطَّرحاً ذكَرْتُه تنبيهاً على فسادِه.

وقراءةُ العامَّةِ "لئلا" بكسر لام كي وبعدها همزةٌ مفتوحةٌ مخففةٌ . وورش يُبْدِلها ياءً مَحْضَةَ وهو تخفيفٌ قياسيٌّ نحو : مِيَة وفِيَة ، في : مئة وفئة . ويدلُّ على زيادتِها قراءةُ عبد الله وابن عباس وعكرمة والجحدري وعبد الله بن سلمة "لِيَعْلَم" بإسقاطِها ، وقراءةُ حطان ابن عبد الله "لأَنْ يعلمَ" بإظهار "أَنْ" . والجحدري أيضاً والحسن "لِيَنَّعَلَمَ" وأصلُها كالتي قبلها لأَنْ يعلم ، فأبدل الهمزةَ ياءً لانفتاحِها بعد كسرة ، وقد تقدم أنه قياسٌ كقراءة ورش "لِيَلاَّ" ثم أَدْغَمَ النون في الياء . قال الشيخ : "بغير غُنَّة كقراءة خلف ﴿ أَن يَضْرِبَ ﴾ [البقرة : 26] بغيرِ غُنَّة" انتهى . فصار اللفظ لِيَنَّعْلَمَ . وقوله : "بغير غنَّة" ليس عَدَمُ الغنَّةِ شرطاً في صحة هذه المسألةِ ، بل جاء على سبيل الاتفاقِ ولو أُدْغِمَ بغُنَّةٍ لجاز ذلك فسقوطُها في هذه القراءاتِ يؤيِّد زيادتها في المشهورةِ .

وقرأ الحسن أيضاً فيما رَوَى عنه أبو بكر ابن مجاهد "لَيْلاَ يَعْلَمَ" بلام مفتوحةٍ وياءٍ ساكنةٍ كاسم المرأة ورفعِ الفعلِ بعدها . وتخريجُها : على أنّ أصلَها : لأَنْ لا ، على أنها لامُ الجرِّ ولكنْ فُتِحَتْ على لغةٍ معروفة ، وأنشدوا :

4237 أُريدُ لأَنْسَى ذِكْرَها . . . .

. . . .

بفتح اللام ، وحُذِفت الهمزةُ اعتباطاً ، وأُدْغمت النونُ في اللام فاجتمع ثلاثة أمثال فَثَقُلَ النطقُ به فأبدل الوسطَ ياءً تخفيفاً ، فصار اللفظ " لَيْلا " كما ترى ورُفِع الفعل ؛ لأنَّ " أَنْ " هي المخففةُ لا الناصبة ، واسمُها على ما تقرَّر ضميرُ الشأنِ ، وفُصِل بينها وبين الفعلِ الذي هو خبرُها بحرفِ النفي .

(264/749)

وقرأ الحسن أيضاً فيما روى عنه قطرب " لِيْلا " بلام مكسورة وياءٍ ساكنةٍ ورفع الفعل ، وهي كالتي قبلها في التخريج . غايةُ ما في الباب أنه جاء بلامٍ مكسورةٍ كما في اللغة الشهيرة . ورُوي عن ابن عباس " لكي يعلَمَ " ، و " كي يعلم " وعن عبد الله " لكيلا " وهذه كلُّها مخالِفةٌ للسوادِ الأعظمِ ولسوادِ المصحف .

وقرأ العامَّةُ ﴿ أَنْ لاَّ يَقْدِرُونَ ﴾ بثوبت النون على أنَّ " أَنْ " هي المخففة وعبد الله بحَذْفِها على أنَّ " أَنْ " هي الناصبة وهذا شاذٌّ جداً ؛ لأنَّ العِلْمَ لا تقع بعده الناصبةُ .

وقوله : ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ الظاهرُ أنه مستأنف . وقيل : هو خبرٌ ثانٍ عن الفضل .

وقيل : هو الخبرُ وحدَه ، والجارُّ قبله حالٌ وهي حالٌ لازِمةٌ ؛ لأنّ كونَه بيدِ الله تعالى لا ينتقِلُ البتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 10 صـ 235 . 260 ﴾

(265/749)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الحديد

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

سماع بسم الله الرحمن الرحيم شراب يسقي به الحق سبحانه وتعالى قلوب أحبائه ، فإذا شربوا طربوا ، وإذا طربوا انبسطوا ثم لشهود حقه تعرضوا وبنسيم قربه استأنسوا ، وعند الإحساس بهم غابوا .

. فعقولهم تستغرق في لطفه ، وقلوبهم تستهلك في كشفه .

قولهَ جل ذكره : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

التسبيحُ التقديسُ والتنزيه ، ويكون بمعنى سباحة الأسرار في بحار الإجلال ، فيظفرون بجواهر التوحيد ويَنْظِمونها في عقود الإيمان ، ويُرَصِّعونها في أطواق الوصلة :

وقله ﴿ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ المردُ به " من " في السموات والأرض ، يسجدون لله طوعاً وكرهاً ؛ طوعاً تسبيحَ طاعةٍ وعبادة ، وكرهاً تسبيح علامة ودلالة .

وتُحْمل " ما " عل ظاهرها فيكون لمعنى : ما من مخلوقٍ من عينٍ أو أَثَرٍ إلا ويَدُلُّ على الصانع ، وعلى إثبات جلاله ، وعلى استحقاقه لنعوت كبريائه .

ويقال : يُسبح لله ما في السموات والأرض ، كلٌّ واقفٌ على الباب بشاهدِ الطَّلَب . . . ولكنه – سبحانه عزيزٌ .

ويقال : ما تَقَلّب أحدٌ من جاحدٍ أو ساجدٍ إلا في قبضة العزيز الواحد ، فما يُصرِّفهم إلا مَنْ خَلَقَهم ؛ فمِنْ مُطيعٍ أَلْبَسَه نطاق وفاقه – وذلك فَضْلُه ، ومِنْ عاصٍ ربَطَه بمثقلة الخذلان – وذلك عَدْلُه .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ : العزيز : المُعِزُّ لمَنْ طَلَبَ الوصول ، بل العزيز : المتقدِّسُ عن كل وصول . . فما وَصَلَ مَنْ وَصَلَ إلا حظّه ونصيبه وصفته على ما يليق به .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

المُلْك مبالغةٌ من المِلْك ، وهو القدرة على الإبداع ، ولا مالكَ إلا الله . وإذا قيل لغيره : مالك فعلى سبيل المجاز ؛ فالأحكام المتعلقة في الشريعة على مِلْكَ الناس صحيحةٌ في الشرع ، ولكنّ لفظَ المِلْك فيها توسُّع كما ان لفظَ التيمم في استعمال التراب – عند عدم الماء – في السفر مجازٌ ، فالمسائل الشرعية في التيمم صحيحة ، ولكن لفظ التيمم في ذلك مجاز .

﴿ يُحْيِ ويُمِيتُ ﴾ : يحيي النفوس ويميتها . يُحْيي القلوبَ بإقباله عليها ، ويميتها بإعراضه عنها . ويقال : يحييها بنظره وتفضُّله ، ويميتها بقهره وتعزُّزه .

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3)

﴿ الأول ﴾ : لاستحقاقه صفة القِدَم ، و ﴿ الآخِر ﴾ لاستحالة نعت العدَم .

و ﴿ الظاهر ﴾ : بالعلو والرفعة ، و ﴿ الباطن ﴾ : بالعلم والحكمة .

ويقال : ﴿ الأول ﴾ فلا افتتاحَ لوجوده و ﴿ الآخر ﴾ فلا انقطاعَ لثبوته .

﴿ الظاهر ﴾ فلا خفاءَ في جلال عِزّه ، ﴿ الباطن ﴾ فلا سبيل إلى إدراك حقِّه .

ويقال ﴿ الأول ﴾ بلا ابتداء ، و ﴿ الآخِر ﴾ بلا انتهاء ، و ﴿ الظاهر ﴾ بلا خفاء ، و ﴿ الباطن ﴾ بنعت العلاء وعِزّ الكبرياء .

ويقال ﴿ الأول ﴾ بالعناية ، ﴿ والآخر ﴾ بالهداية ، و ﴿ الظاهر ﴾ بالرعاية ، و ﴿ الباطن ﴾ بالولاية . ويقال : ﴿ الأول ﴾ بالخَلْق ، و ﴿ الآخِر ﴾ بالرزق ، و ﴿ الظاهر ﴾ بالإحياء ، و ﴿ الباطن ﴾ بالإماتة والإفناء . قال تعالى : ﴿ اللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ

ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [الروم: 40]. ويقال: ﴿ الأول ﴾ لا بزمان، و ﴿ الآخر ﴾ لا بأوان، و ﴿ الظاهر ﴾ بلا اقتراب، و ﴿ الباطن ﴾ بلا احتجاب.

ويقال: ﴿ الأول ﴾ بالوصلة، و ﴿ الآخر ﴾ بالخلّة، و ﴿ الظاهر ﴾ بالأدلة، و ﴿ الباطن ﴾ بالبعد عن مشابهة الجملة.

ويقال: ﴿ الأول ﴾ بالتعريف، و ﴿ والآخر ﴾ بالتكليف، و ﴿ والظاهر ﴾ بالتشريف و ﴿ والباطن ﴾ بالتخفيف.

ويقال: ﴿ الأول ﴾ بالإعلام، ﴿ والآخر ﴾ بالإلزام، ﴿ والظاهر ﴾ بالإنعام ﴿ والباطن ﴾ بالإكرام.

ويقال: ﴿ الأول ﴾ بأن اصطفاك ﴿ والآخر ﴾ بأن هداك، ﴿ والظاهر ﴾ بأن رعاك، ﴿ والباطن ﴾ بأن كفاك.

ويقال: مَنْ كان الغالبُ عليه اسمه ﴿ الأول ﴾ كانت فكرته في حديثِ سابقته: بماذا سمّاه مولاه؟ وما الذي أجرى له في سابق حُكْمه؟ أبسعادته أم بشقائه؟

ومَنْ كان الغالبُ على قلبه اسمه ﴿ الآخِر ﴾ كانت فكرته فيه: بماذا يختم له حالَه؟ وإلام

يصير مآلُه ؟ أَعَلى التوحيد يَخْرُجُ من دنياه أو - والعياذُ بالله - في النارِ غداً - مثواه ؟

ومَن كان الغالبُ عل قلبه اسمُه ﴿ الظاهر ﴾ فاشتغاله بشكر ما يجرى في الحال من توفيق الإحسان وتحقيق الإيمان وجميل الكفاية وحُسْنِ الرعاية .

ومَنْ كان الغلبُ على قلبه اسمه ﴿ الباطن ﴾ كانت فكرتُه في استبهام أمره عليه فيتعثَّر ولا يدري . . . أَفَضْلٌ ما يعامله به ربٌّ أم مَكْرٌ ما يستدرجه به ربُّه ؟

ويقال : ﴿ الأول ﴾ علم ما يفعله عبادُه ولم يمنعه عِلْمُه من تعريفهم ، ﴿ والآخِر ﴾ رأى ما عَمِلوا ولم يمنعه ذلك من غفرانهم ﴿ والظاهر ﴾ ليس يَخْفَى عليه شيءٌ من شأنهم ، وليس يَدَعُ شيئاً من إحسانهم ﴿ والباطن ﴾ يعلم ما ليس لهم به عِلْمٌ من خسرانهم ونقصانهم فيدفع عنهم فنونَ مَحَنهم وأحزانهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ﴾ .

مضى الكلام في ذلك .

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ .

أي ما يدخل فيها من القَطْرِ ، والكنوزِ ، والبذور ، والأموات الذين يُدْفَنون فيها ، ﴿ وما يخرج منها ﴾ من النبات وانفجار العيون وما يُسْتَخْرَجُ من المعادن .

﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ ﴾ .

من المطر والأرزاق. أو ما يأتي به الملائكةُ من القضاء والوحي.

﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾.

أي وما يصعد إليها من الملائكة، وطاعاتِ العِباد، ودعوات الخَلْقِ، وصحف المُكَلَّفين، وأرواح المؤمنين.

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

﴿ وهو معكم ﴾ بالعلم والقدرة.

ويقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ ﴾ إذا دُفِنَ العَبْدُ فاللَّه سبحانه يعلم ما الذي كان في قلبه من إخلاصٍ في توحيدِه، ووجوهِ أحزانه خسرانه، وشَكِّه وجحوده، واوصافه المحمودة والمذمومة... ونحو ذلك مما يخفى عليكم.

﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ ﴾ على قلوب أوليائه من الألطاف والكشوفات وفنون الأحوال العزيزة.

﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ من أنفاس الاولياء إذا تصاعدت، وحسراتهم إذا عَلَت.

قوله جلّ ذكره: ﴿ يُولِجُ الَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى الَّيْلِ ﴾.

مضى معناه.

﴿ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ .

صدِّقوا باللَّهِ ورسولِه، وتصدَّقوا ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ بتمليككم ذلك وتصييره إليكم. والذين آمنوا منكم وتصدّقوا على الوجه الذي أُمروا به لهم ثوابٌ عظيمٌ؛ فإنَّ ما تحويه الأيدي مُعرَّضٌ للزوال فالسَّعيدُ مَنْ قَدَّمَ في دنياه مالَه في الآخرة عمارة حاله، والشقيُّ من سار فيما له في الآخرة وبالُ مآله.

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

(269/749)

أي شيء لكم في تَرْكِكُم الإيمان بالله وبرسوله، وما أتاكم به من الحشر والنشر، وقد أزاح العِلَّةَ بأنْ ألاحَ لكم الحُجَّة، وقد أخذَ ميثاقكم وقتَ الذرِّ، وأوجب عليكم ذلك بحُكم الشَّرْع.

قوله جلّ ذكره: ﴿ هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ

اللَّهَ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ليخرجكم من ظلماتِ الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلمات الشكّ إلى نور اليقين .

وكذلك يُريهم في أنفسهم من الآياتِ بكشوفاتِ السِّرّ وما يحصل به التعريف مما يجدون فيه النفع والخيرَ ؛ فيخرجهم من ظلمات التدبير إلى سعة فضاء التفويض ، وملاحظة فنون جريان المقادير .

وكذلك إذا أرادت النَّفْس الجنوحَ إلى الرُّخصِ والأخذِ بالتخفيف وما تكون عليه المطالبةُ بالأشَقِّ - فإن بادرَ إلى ما تدعوه الحقيقةُ إليه وجَدَ في قلبه من النور ما يَعْلَمُ به ظلمةَ هواجس النَّفْسِ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

ما في أيديكم ميراثُه الله ، وعن قريبٍ سيُنْقَلُ إلى غيركم ولا تبقون بتطاول أحمالكم . وهو بهذا يحثهم على الصدقةِ والبدار إلى الطاعة وتَرْكِ الإخلاد إلى الأمل . . ثم قال :

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

لا يستوي منكم من أنفق قبل فتح مكة والحديبية والذين أنفقوا من بعد ذلك . بل أولئك اعظم ثواباً وأعلى درجةً من هؤلاء ؛ لانَّ حاجةَ الناسِ كانت أكثر إلى ذلك وكان ذلك أشقَّ

على أصحابه.

ثم قال: ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ إلاَّ انَّ فضيلة السَّبْقِ لهم، ولهذا قالوا:

(270/749)

السابقَ السابقَ قولاً وفعلاً... حذِّرْ النَّفْسَ حَسْرَةَ المسبوق

قوله جلّ ذكره: ﴿ مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾.

المراد بالقرض الصدقة، وإنما ذكرها سبحانه كذلك تطييباً لقلوبهم، فكأن المتصدِّق وهو يقرض شيئاً كالذي يقطع شيئاً من ماله ليدفعه إلى المُسْتَقْرِض.

ويقال: ﴿ يُقْرِضُ ﴾ أي يفعل فعلاً حسناً، وأراد بالقرض الحسن ها هنا ما يكون من وجهٍ حلال ثم عن طِيبِ قلب، وصاحبُه مخلِصٌ فيه، بلا رياء يشوبه، وبلا مَنِّ على الفقير، ولا يُكَدِّره تطويلُ الوعد ولا ينتظر عليه كثرة الأعواض.

ويقال: أن تقرضه وتقطع عن قلبك حُبَّ الدارين، ففي الخبر: "خير الصدقة ما كان عن ظهر غنًى" ومَنْ لم يتحرَّرْ من شيء فخروجُه عنه تكلُّفٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

وهو نورٌ يُعْطَى للمؤمنين والمؤمنات بقَدْر أعمالهم الصاحة ، ويكون لذلك النور مطارحُ شعاع يمشون فيها والنورُ يسعى بين أيديهم ، ويحيط جيمع جهاتهم .

ويقال : ﴿ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ كتبهم .

﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ ﴾ أي بشارتكم اليومَ – من الله جنات . وكما أن لهم في العرصة هذا النور فاليومَ لهم في قلوبهم وبواطنهم نورٌ يمشون فيه ، ويهتدون به في جميع أحوالهم ، قال صلى الله عليه وسلم : "المؤمن ينظر بنور الله" وقال تعالى : ﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر : 22] .

وربما ينبسط ذلك النورُ على مَنْ يَقْرُبُ منهم . وربما يقع من ذلك على القلوب قَهْراً – ولأوليائه – لا محالةَ – هذه الخصوصية .

(271/749)

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ .

انتظرونا فنلحق بكم لنقتبسَ من نوركم . وذلك لأن المؤمنين والمنافقين يُعطَوْن كُتُبهم وهم في في النور ، فإذا مَرُّوا . . . انطفأ النور أمام لمنافقين وسَبقَ المؤمنون ، فيقول المنافقون

للمؤمنين : انتظرونا حتى نقتبسَ من نوركم . فيقول المؤمنون :

﴿ قِيلَ ارْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُواْ نُوراً ﴾ .

أي إلى الدنيا وأَخلِصوا ! - تعريفاً لهم أنهم كانوا منافقِين في الدنيا .

ويقال : ارجعوا إلى حُكْم الأزلِ فاطلبوا هذا من القِسْمة ! - وهذا على جهة ضربِ المَثل والاستبعاد .

﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ .

﴿ بِسُورٍ ﴾ : وهو جبَل أُصحاب الاعراف ، يستر بينهم وبين المنافقين ، فالوجهُ الذي يلي المؤمن فيه الرحمة وفي الوجه الآخر العذابُ .

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

ألم نكن معكم في الدنيا في أحكام الإيمان في المناحكة والمعاشرة ؟

قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم .

﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ .

تربصتم عن الإخلاص ، وشككتم ، وغرّكم الشيطان ، وركنتم إلى الدنيا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

النارُ ماواكم ومصيركم ومُتقَلبُكم .

و﴿ هي مولاكم ﴾ أي هي أوْلَى بكم ، وبئس المصير !

ويقال : مخالفة الضمائر والسرائر لا تنكتم بموافقة الظاهر ، والأسرار لا تنكتم عند الاختبار .

(272/749)

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُواْ كَالَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

ألم يَحِنْ للذين آمنوا أن تتواضعَ قلوبُهم وتلين لذِكْرِ اللَّهِ وللقرآنِ وما فيه من العِبَر ؟ وألا يكونوا كالذين أوتوا الكتابَ من قبل ؟ وأراد بهم اليهودَ ، وكثيرٌ من اليهود فاسقون كافرون .

وأراد بطول الأمَدِ الفترَةَ التي كانت بين موسى ونبيّنا صلى الله عليه وسلم ، وفي الخبر : " أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أَصابتهم ملالةٌ فقالوا : لو حَدَّثْتنا " .

فأنزل اللَّهُ تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [الزمر : 23] . فبعد مُدَّةٍ قالوا : لو قَصَصْتَ علينا !

فأنزل اللَّهُ تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ [الكهف : 13] فبعد مدةٍ قالوا :

لو ذَكَّرتنا ووَعَظْتَنا !

فأنزل الله تعالى هذه السورة .

وفي هذه الآية ما يشبه الاستبطاء .

وإن قسوة القلب تحصل من اتباع الشهوة ، والشهوة والصفة لا تجتمعان ؛ فإذا حَصَلت الشهوةُ رَحَلت الصفوة . وموجبُ القسوة هو انحرافُ القلب عن مراقبة الربّ . ويقال : موجب القسوة أوّلُه خطْرة - فإلم تُتَدارَكْ صارت فكرة ، وإلم تُتَدارَكْ صارت عزيمة ، فإن لم تُتَدارَكْ جرَت المخالفة ، فإن لم تُتدارَكْ بالتلافي صارت قسوةً وبعدئذ تصير طَبعاً ورَيْناً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْأَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

يُحْيي الأرضَ بعد موتها بإنزال المطرِ عليها وإخراج النّبتِ منها . ويُحيي القلوبَ الميتةَ - بعد إعراضِ الحقِّ عنها - بحسن إقباله عليها .

(273/749)

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ .

أي المتصدقين والمتصدقات .

﴿ وَأَقْرَضُواْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ : يعني في النوافل .

﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ في الحسنات ، الحسنةُ بعَشْر أمثالها . . إلى ما شاء اللهُ .

﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ : ثوابٌ كبيرٌ حسَنٌ . والثوابُ الكريمُ أنَّه لا يضن بأقصى الأجْرِ على الطاعةِ - وإنْ قلَّتْ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ .

الصدِّيقون : مبالغة في الصدق ، والشهداء : الذين استشهدوا في سبيل الله ، فالمؤمنون بمنزلة الصديقين والشهداء - لهم أجرهم في الجنة ونورهم في القيامة .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَآ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ .

والصدِّيق مَنْ استوى ظاهرُه وباطنُه .

ويقال : هو الذي يحمل الأمرَ على الأشقِّ ، ولا ينْزل إلى الرُّخَصِ ، ولا يجنح للتأويلات .

والشهداءُ : الذين يشهدون بقلوبهم مواطن الوصلة ، ويعتكفون بأسرارهم في أوطان القربة ، ﴿ وَنُورُهُمْ ﴾ : ما كحل الحقُّ به بصائرهم من أنوار التوحيد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ اعْلَمُواْ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ ﴾ .

الحياةُ الدنيا مُعرَّضةٌ للزوال ، غيرُ لابثةٍ ولا ماكثة ، وهي في الحال شاغلةٌ عن الله ، مُطْمِعةٌ وغير مُشْبِعة ، وتجري على غير سَنَن الاستقامة كجريان لَعِب الصبيان ، فهي تُلْهي عن الصواب واستبصار الحقّ ، وهي تفاخرٌ وتكاثرٌ في الأوال والأولاد .

﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ .

(274/749)

الكفار : الزُّرَّاع .

هو في غاية الحُسْنِ ثم يهيج فتراه يأخذ في الجفاف ، ثم ينتهي إلى أنْ يتحطّم ويتكسَّر .

﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ .

لأهله من الكفَّار .

﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ .

لأهله من المؤمنين .

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ .

الدنيا حقيرةٌ - وأحقرُ منها قَدْراً طالبُها وأقلُّ منه خَطَراً المزاحم فيها ، فما هي إلا جيفة ؛ وطالِبُ الجيفة ليس له خطرٌ . وأخس أهل الدنيا مَنْ بَخِلَ بها .

وهذه الدنيا المذمومة هي التي تَشْغَل العبدَ عن الآخرة!

قوله جلّ ذكره: ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾.

أي سارِعوا إلى عَمَلٍ يوجب لكم مغفرةً من ربّكم، وذلك العملُ هو التوبة.

﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ﴾ ذَكر عَرْضها ولم يذكرْ طولها؛ فالطول على ما يوافيه العَرْضُ.

﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾: وفي هذا دليلٌ على أنّ الجنةَ مخلوقة.

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾.

وفي ذلك ردٌّ على من يقول: "إن الجنة مُسْتَحَقّةٌ على الطاعات، ويجب على الله إيصالُ العبدِ إليها".. لأن الفضلَ لا يكون واجباً.

ويقال: لمَّا سمعت أسرار المؤمنين هذا الخطاب ابتدرت الأرواحُ مُقْتَضِيةً المسارعة من الجوارح، وصارت الجوارحُ مستجيبةً للمُطالَبِة، مُستبشرة برعاية حقوق الله؛ لأنها علمت أن هذا الاستدعاءَ من جانب الحقّ سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾.

المصيبة حَصْلة تقع وتحصل . فيقول تعالى : لا يحصل في الأرض ولا في أنفسكم شيء إلى وهو مُثْبَتٌ في اللوح المحفوظ على الوجه الذي سبق به العِلْم ، وحقَّ فيه الحكم ؛ فقبل أن نخلق ذلك أثبتناه في اللوح المحفوظ .

فكلُّ ما حصل في الأرض من خصب أو جدبٍ ، من سعة أو ضيق ، من فتنة أو استقامة وما حصل في النفوس من حزن أو سرور ، من حياةٍ أو موت كلُّ ذلك مُثبت في اللوح المحفوظ قبل وقوعه بزمان طويل .

وفي قوله : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ دليلٌ على أن أكساب العباد مخلوقة لله سبحانه .

وللعبدِ في العلم بأنَّ ما يصيبه : من بسطٍ وراحةٍ وغير ذلك من واردات القلوب من اللَّهِ – أشدُّ السرور وأتمُّ الإنْسِ ؛ حيث عَلِمَ أنه أُفْرِدَ بذلك بظهر غيبٍ منه ، بل وهو في كنز العَدَم ، ولهذا قالوا :

سقياً لمعهدك الذي لو لم يكن . . . ما كان قلبي للصبابة معهدا

قوله جلّ ذكره : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَاكُمْ ﴾ .

عَدَمُ الفرحة بما آتاهم هو من صفات المتحررين من رِقِّ النَّفْس ، فقيمةُ الرجالِ تتبين بتغيُّرِهم – فَمَنْ لم يتغيَّرْ بما يَرِدُ عليه – مما لا يريده – من جفاءٍ أو مكروهٍ أو محنة فهو كاملٌ ، ومَنْ لم يتغيَّرْ بالمسارّ كما لا يتغير بالمضارِ ، ولا يَسُرُّه الوجودُ كما لا يُحزِنُه العَدَمُ – فهو سيِّد

وقته .

ويقال : إذا أردْتَ أن تعرفَ الرجلَ فاطلبْه عند الموارد ؛ فالتغيُّرُ علامةُ بقاء النَّفْس بأيِّ وجهٍ كان :

﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ .

فالاختيال من علامات بقاء النفس ورؤيتها ، والفخرُ (ناتجٌ) عن رؤيةِ ما به يفتخر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

(276/749)

بخلوا بكتمان صفة نبيِّنا صلى الله عليه وسلم وأمروا أتْباعَهم بذلك ، وذلك لما خافوا من كسادِ سُوقِهم وبطلان رياستهم .

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ عن الإيمان ، أو إعطاء الصدَقة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

والبخلُ - على لسان العلم - منْعُ الواجب ، فأمّا على بيان هذه الطائفة فقد قالوا : البخلُ رؤيةُ قَدْرٍ للأشياء ، والبخيلُ الذي يُعْطِي عند السؤال ، وقيل : مَنْ كَتَبَ على خاتمه اسمه فهو بخيل .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ ﴾ .

أي أرسلناهم مُؤَيَّدين بالحُجَجِ اللائحة والبراهين الواضحة ، وأَزَحْنا العِلَّةَ لِمَنْ أراد سلوكَ الحُجَّةِ المُثْلى ، ويَسَّرنا السبيل على مَنْ آثَرَ اتّباعَ الهُدَى . وأنزلنا معهم الكُتُبَ المُنَزّلةَ ، و ﴿ الميزان ﴾ : أي الحُكْمَ بالقرآن ، واعتبار العَدْلِ والتسويةِ بين الناس .

﴿ لِيَقومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ : فلا يَظْلِمُ أحدٌ أحداً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

﴿ أنزلنا الحديد ﴾ : أي خلقنا الحديد .

ونصرة الله هي نصرةُ دينه ، ونصرةُ الرسولِ باتّباعِ سُنَّتِه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ : أقوى من أن يُنزَعَه شريكٌ ، أو يضارِعَه في المُلْكِ مليك ، وأعزُّ من أن يحتاج إلى ناصر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ .

أي أرسنا نوحاً ، ومن بعده إبراهيم ، وجعلنا في نَسْلِهما النبوّةَ والكتاب .

﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ﴾ .

أي : مستجيبٌ .

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

خرجوا عن الطاعة .

(277/749)

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى ءَاثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ .

أي : أرسلنا بعدهم عيسى ابن مريم .

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ .

بيّن أنه لم يأمرهم بالرهبانيّة بل هم الذي ابتدعوها ثم قال :

﴿ إِلاَّ ابْتِغَآءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ .

هم الذين انفردوا بما عقدوه معنا أن يقوموا بحقّنا .

﴿ فَئَاتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

نزلت في قوم من أهل الكتاب أسلموا .

﴿ كِفْلَيْنِ ﴾ : أي نَصِيبَيْنِ ؛ نصيباً على الإيمان بالله ، وآخَرَ على تصديقهم وإيمانهم بالرُّسُل .

قوله جل ذكره : ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

ومعناه : يعلم أهل الكتاب ، و " لا " صلة . أي : ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله ، فإن الفضل بيد الله . و " اليد " هنا بمعنى : القدرة ، فالفضلُ بقدرة الله .

والإشارة في هذا : اتَّقُوا الله بحِفْظِ الأدبِ معه ، ولا تأمنوا مَكْرَه أن يَسْلُبَكم ما وَهَبَكم من أوقاتكم . وكونوا على حَذَرٍ من بَغَتَاتِ تقديره في تغيير ما أذاقكم من أُنْسِ محبته .

واتّبعوا السُّفَراء والرُسُل ، وحافظوا على اتِّباعهم حتى يُؤتِيَكُم نصيبين من فضله : عصمةً ونعمةً ؛ فالعصمة من البقاء عنه ، والنعمة هي البقاء به .

(278/749)

ويقال : يؤتكم نصيبين : نصيباً من التوفيق في طَلَبِه ، ونصيباً من التحقيق في وجوده . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 530 . 547 ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الحديد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)

لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (6)

الإعراب :

(للّه) متعلّق بـ (سبّح) " 1 " ، (ما) موصول في محلّ رفع فاعل (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة ما ، (الواو) حالية (الحكيم) خبر ثان للمبتدأ (هو) .

جملة : " سبّح للّه ما في السموات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " هو العزيز . . . " في محلّ نصب حال " 2 " 2 - 3 - (له) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (ملك) ، (الواو) عاطفة في الموضعين (على كلّ) متعلّق بـ (قدير) (بكلّ) متعلّق بـ (عليم) وجملة : " له ملك السموات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يحيى . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 3 " وجملة : " يميت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يحيي وجملة : " هو . . . قدير " لا محلّ لها معطوفة على جملة يحيي وجملة : " هو الأول . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " هو . . . عليم " لا محلّ لها معطوفة على جملة هو الأوّل 4 - (في ستة) متعلّق بـ (خلق) ، (على العرش) متعلّق بـ (استوى) ، (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به (في الأرض) متعلّق بـ (يلج) ، (ما) الثاني معطوف على الأول في محلّ نصب (منها) متعلّق بـ (يخرج) ، (ما) الثالث معطوف على الأول وكذلك (ما) الرابع . . . في محلّ نصب (من السماء) متعلّق بـ (ينزل) ، (فيها) متعلّق بـ (يعرج) بتضمينه معنى يدخل (معكم) ظرف

---

(1) اللام قد تكون للتعليل كما هو أعلاه ، وقد تكون زائدة للتوكيد كما يقال شكرت له

ونصحت لك، فلفظ الجلالة مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به

(2) يجوز أن تكون استئنافيّة لا محلّ لها

(3) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من الضمير في (له) والعامل فيها الاستقرار

(281/749)

منصوب متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (هو)، (أين ما) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بمضمون الجواب " 1 "، (كنتم) فعل ماض تامّ، في محلّ جزم فعل الشرط (ما) حرف مصدري " 2 " . . .

والمصدر المؤول (ما تعملون . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بالخبر (بصير) وجملة: "هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "خلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) وجملة: "استوى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلق وجملة: "يعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " وجملة: "يلج . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول وجملة: "يخرج . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني وجملة: "ينزل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثالث وجملة: "يعرج . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الرابع وجملة: "هو معكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف المتقدّم وجملة: "كنتم

. . . "لا محلّ لها اعتراضيّة . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله وجملة : "

اللّه . . . بصير "لا محلّ لها معطوفة على جملة هو معكم وجملة : " تعملون . . . "لا محلّ

لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) 5 – 6 – (له ملك) مثل الأولى (الواو) عاطفة (إلى اللّه)

متعلّق بـ (ترجع) ،

---

(1) أو متعلّق بفعل كنتم التام . . . وحقّ (أين ما) أن ترسم متّصلة ولكنّها رسمت في المصحف منفصلة

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف أي تعملونه ، والجملة بعده صلة

(3) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من فاعل خلق ، واستوى [. . . . .]

(في النهار) متعلّق بـ (يولج) الأول ، (في الليل) متعلّق بـ (يولج) الثاني (الواو) عاطفة (بذات)

متعلّق بـ (عليم) . . .

وجملة : "له ملك . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ترجع الأمور . . . "لا محلّ لها

معطوفة على جملة له ملك . . .

وجملة : "يولج الليل . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "يولج النهار . . . "لا محلّ لها

معطوفة على جملة يولج (الأولى) وجملة: " هو عليم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة

الصرف:

(4) يلج: فيه إعلال بالحذف، هو معتلّ مثال حذفت فاؤه في المضارع، ماضيه ولج، وزنه يعل (6) الصدور: جمع الصدر . . . اسم للعضو المعروف، وزنه فعل بفتح فسكون، والصدور فعول بالضم

البلاغة

الكناية: في قوله تعالى وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ.

كناية عن إحاطة اللّه سبحانه وتعالى بأقوالهم وأعمالهم وجميع أحوالهم، لأن الحاضر مع القوم لا يخفى عليه شي ء من ذلك، فعبّر بأنه معهم، وأراد ما يلزم ذلك من وقوفه على أحوالهم كافة، فأطلق اللازم وأراد الملزوم.

[سورة الحديد (57) : آية 7]

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7)

الإعراب:

(باللّه) متعلّق بـ (آمنوا)، (ممّا) متعلّق بـ (أنفقوا)، (فيه) متعلّق بـ (مستخلفين)، (الفاء)

تعليليّة (منكم) متعلّق بحال من فاعل آمنوا (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (أجر)

جملة: "آمنوا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "أنفقوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة: "جعلكم . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة: "الذين آمنوا . . . "لا محلّ لها تعليليّة وجملة: "آمنوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة: "أنفقوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة وجملة: "لهم أجر . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين)

الصرف:

(مستخلفين)، جمع مستخلف، اسم مفعول من السداسيّ استخلف، وزنه مستفعل بضمّ الميم وفتح العين

[سورة الحديد (57): آية 8]

وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (لكم) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (لا) نافية (باللّه) متعلّق بـ (تؤمنون) ، (الواو) حاليّة (اللام) للتعليل (تؤمنوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (بربّكم) متعلّق بـ (تؤمنوا) ، (الواو) واو الحال (قد) حرف تحقيق (كنتم) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط والمصدر المؤوّل (أن تؤمنوا . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يدعوكم) جملة : " ما لكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " لا تؤمنون . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في (لكم) وجملة : " الرسول يدعوكم . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في (لكم)

وجملة : " يدعوكم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الرسول) وجملة : " تؤمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر وجملة : " أخذ . . . " في محلّ نصب حال من ربّكم وجملة : "كنتم مؤمنين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب الشرط محذوف تقديره : فبادروا إلى الإيمان به

[سورة الحديد (57) : الآيات 9 إلى 10]

هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (9) وَما لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا وَكُلاًّ

وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10)

الإعراب:

(284/749)

(على عبده) متعلّق بـ (ينزّل) ، (اللام) للتعليل (من الظلمات) متعلّق بـ (يخرجكم) وكذلك (إلى النور) والمصدر المؤوّل (أن يخرجكم . . .) في محلّ جرّ باللام متعلق بـ (ينزّل) (الواو) عاطفة (بكم) متعلّق بالخبر (رؤف) ، (اللام) المزحلقة للتوكيد جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ينزّل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) وجملة : " يخرجكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر

وجملة : " إنّ اللَّه . . . لرؤوف " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة 10 - (الواو) استئنافيّة - أو عاطفة - (ما لكم) مرّ إعرابها " 1 " ، (أن) حرف مصدري (لا) نافية (في سبيل) متعلّق بـ (تنفقوا) المنفي . . والمصدر المؤوّل (ألّا تنفقوا . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بحال من الضمير في (لكم) أي : ما لكم متمادين في عدم الإنفاق (الواو) حاليّة (للَّه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ميراث) ، (لا) نافية (منكم) متعلّق بحال من الموصول (من) فاعل يستوي (من قبل) متعلّق بـ (أنفق) ، (درجة) تمييز منصوب (من

الذين) متعلّق بـ (أعظم) ، (بعد) اسم ظرفيّ مبني على الضمّ في محلّ جرّ بـ (من) متعلّق بـ (أنفقوا) ، (الواو) عاطفة في الموضعين (كلّا) مفعول به مقدّم (الحسنى) مفعول به ثان منصوب (ما) حرف مصدري "2" . . .

والمصدر المؤوّل (ما تعملون . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بالخبر (خبير) وجملة: "ما لكم . . . "لا محلّ لها استئنافيّة" 3 " وجملة: "تنفقوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة: "للّه ميراث . . . "في محلّ نصب حال وجملة: "لا يستوي منكم من . . . "لا محلّ لها تعليليّة وجملة: "أنفق . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة: "قاتل . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة أنفق وجملة: "أولئك أعظم درجة . . . "لا محلّ لها استئناف بياني

---

(1) في الآية (8) من هذه السورة

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ، والعائد محذوف

(3) أو معطوفة على جملة ما لكم لا تؤمنون - في الآية (8) - وما بينهما اعتراض

وجملة : " أنفقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " قاتلوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنفقوا وجملة : " وعد اللَّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أولئك أعظم . . .

وجملة : " اللَّه . . . خبير " لا محلّ لها معطوفة على جملة وعد اللَّه وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما)

البلاغة

1 - الحذف : في قوله تعالى وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

حيث حذف مفعول " تنفقوا " لتشديد التوبيخ ، أي : وأي شيء لكم في أن لا تنفقوا فيما هو قربة إلى اللَّه تعالى .

2 - الحذف : في قوله تعالى لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ " .

قسيم من أنفق محذوف ، لظهوره ودلالة ما بعده عليه ، والتقدير : لا يستوي منكم من أنفق من قبل فتح مكة وقوة الإسلام ومن أنفق من بعد الفتح .

[سورة الحديد (57) : الآيات 11 إلى 14]

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ (13) يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14)

الإعراب:

(من) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (ذا) اسم إشارة في محلّ رفع خبر "1"، (الذي) موصول في محل رفع بدل من ذا (قرضا) مفعول مطلق منصوب (الفاء) فاء السببيّة (يضاعفه) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء، والفاعل هو أي اللَّه (له) متعلّق بـ (يضاعفه)، (له) الثاني خبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (أجر) . . .

والمصدر المؤوّل (أن يضاعفه . . .) في محلّ رفع معطوف على مصدر مأخوذ من الاستفهام المتقدّم أي: أثمّة إقراض منكم للَّه فمضاعفه منه لكم في الأداء . . .

جملة: "من ذا الذي . . ." لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "يقرض . . ." لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) وجملة: "يضاعفه . . ." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر

وجملة: "له أجر . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة يضاعفه 12 - (يوم) ظرف زمان منصوب متعلق بالاستقرار الذي تعلّق به (له) "2" ، (بين) ظرف منصوب متعلّق بـ (يسعى) "3" (بأيمانهم) متعلّق بما تعلّق به الظرف

---

(1) يجوز أن يكون (من ذا) مبتدأ خبره (الذي) ، فيكتب موصولا (منذا)

(2) أو متعلّق بفعل محذوف تقديره يؤجرون . . . ويجوز أن يكون مفعولا به لفعل محذوف تقديره اذكر . . .

(3) أو متعلّق بحال من (نورهم)

بين فهو معطوف عليه (بشراكم) مبتدأ مرفوع (اليوم) ظرف منصوب متعلّق بفعل مقدّر أي يقال لهم بشراكم (جنّات) خبر المبتدأ بحذف مضاف أي دخول جنّات (من تحتها) متعلّق بـ (تجري) "1" وفيه حذف مضاف أي من تحت أشجارها . . (خالدين) حال منصوبة من الضمير المستتر في المضاف المقدّر أي دخولكم جنّات خالدين فيها "2" ، (فيها) متعلّق بـ (خالدين) ، (هو) ضمير فصل "3" . .

---

(1) أو متعلّق بحال من الأنهار

(2) لا يجوز أن يعمل المصدر بشراكم في الحال لوجود أجنبي - وهو الخبر - بينه وبين معموله

(3) يجوز أن يكون ضميرا منفصلا مبتدأ خبره الفوز، والجملة خبر الإشارة

(4) والإشارة في الجملة إلى النور والبشرى بالجنّات . . . أو إلى الجنّة.

(288/749)

وجملة: " ترى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة: " يسعى نورهم . . . " في محلّ نصب حال من المؤمنين وجملة: " بشراكم . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي تقول لهم الملائكة وجملة: " تجري . . . " في محلّ رفع نعت لجنّات وجملة: " ذلك . . . الفوز . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة " 4 " 13 - (يوم) ظرف بدل من يوم الأول (للذين) متعلّق بـ (يقول)، (نقتبس) مضارع مجزوم جواب الأمر (من نوركم) متعلّق بـ (نقتبس)، (وراءكم)، ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (ارجعوا)، (الفاء) عاطفة في الموضعين (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (ضرب)، (بسور) نائب الفاعل (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (باب)، وكذلك (فيه) خبر المبتدأ (الرحمة) و(من قبله) خبر المبتدأ

(العذاب) .

وجملة : " يقول المنافقون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " انظرونا . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " نقتبس " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء وجملة : " قيل " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ارجعوا " في محلّ رفع نائب الفاعل " 1 " وجملة : " التمسوا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة ارجعوا وجملة : " ضرب . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي فرجعوا فضرب . . .

وجملة : " له باب . . . " في محلّ جرّ نعت لسور وجملة : " باطنه فيه الرحمة . . . " في محلّ رفع نعت لباب وجملة : " فيه الرحمة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (باطنه) وجملة : " ظاهره من قبله العذاب " في محلّ رفع معطوفة على جملة باطنه فيه الرحمة وجملة : " من قبله العذاب " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ظاهره) 14 - (الهمزة) للاستفهام التعجبي (معكم) ظرف منصوب متعلّق بخبر نكن (بلى) حرف جواب لإثبات الإيجاب (الواو) عاطفة (حتّى) حرف غاية وجرّ (باللَّه) متعلّق بـ (غرّكم) بحذف مضافين أي : بسعة رحمة اللَّه أو مضاف واحد وجملة : " ينادونهم . . . " لا محلّ لها استئناف بياني وجملة : " ألم نكن معكم . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 "

---

(1) لأنها في الأصل جملة مقول القول .

(2) ومقول القول محذوف بعد حرف الجواب أي : بلى كنتم معنا ولكنّكم . . .

(289/749)

وجملة : " لكنّكم فتنتم . . . " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول المقدّر وجملة : " فتنتم . . . " في محلّ رفع خبر لكنّ وجملة : " تربّصتم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة فتنتم وجملة : " ارتبتم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة فتنتم . . .

وجملة : " غرّتكم الأماني . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة فتنتم وجملة : " جاء أمر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) لمضمر والمصدر المؤوّل (أن جاء أمر . . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (غرّتكم) وجملة : " غرّكم باللّه الغرور " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفيّ

الصرف :

(13) سور : اسم للحاجز بين موضعين ، وزنه فعل بضمّ فسكون

البلاغة

1 - الاستعارة التصريحية التبعية : في قوله تعالى مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً .

فقد شبه سبحانه وتعالى الإنفاق في سبيل اللَّه بإقراضه ، ثم حذف المشبه ، وأبقى المشبه به ، والجامع بينهما إعطاء شيء بعوض .

2 – الاستعارة التصريحية الأصلية : في قوله تعالى يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ .

فالنور استعارة عن الهدى والرضوان الذي هم فيه ، حيث حذف المشبه وأبقى المشبه به .

3 – الالتفات : في قوله تعالى " خَالِدِينَ فِيهَا " .

التفات من ضمير الخطاب في " بشراكم " إلى ضمير الغائب في (خالدين) ، ولو أجري على الخطاب لكان التركيب خالدا أنتم فيها .

4 – التهكم : في قوله تعالى قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً .

هذا من الاستهزاء والتهكم بهم كما استهزءوا بالمؤمنين في الدنيا ، حين قالوا : آمنا ، وليسوا بمؤمنين ، وقيل : أي ارجعوا إلى الدنيا ، فالتمسوا نورا ، بتحصيل سببه ، وهو الإيمان ، أو ارجعوا خائبين ، وتنحوا عنا ، فالتمسوا نورا آخر ، فلا سبيل لكم إلى هذا النور ، وقد علموا أن لا نور وراءهم ، وإنما هو إقناط لهم .

5 - الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ .

حيث شبّه بقاء المنافقين في نفاقهم وظلامه ، بمن ضرب بينهم وبين النور الهادي سور يحجب كل نور .

6 - المقابلة : وفي الآية الكريمة فن ثان هو المقابلة ، فقد طابق بين باطنه وظاهره وبين الرحمة والعذاب .

الفوائد :

- أوصاف الصدقة حتى تكون قرضا حسنا . .

(291/749)

القرض الحسن ، هو أن يكون صاحبه صادقا محتسبا ، طيبة به نفسه ، وسمي هذا الإنفاق قرضا لأن اللّه عز وجل سيجزي صاحبه في الآخرة أضعافا مضاعفة ، قال بعض العلماء : القرض لا يكون حسنا حتى تجتمع فيه أوصاف عشرة : هي أن يكون المال من الحلال ، وأن يكون من أجود المال ، وأن تتصدق به وأنت محتاج إليه ، وأن تصرف صدقتك إلى الأحوج إليها ، وأن تكتم الصدقة ما أمكنك وأن لا تتبعها بالمن والأذى ، وأن تقصد بها

وجه اللّه عز وجل ولا ترائي بها الناس ، وأن تستحقر ما تعطي وتتصدق به وإن كان كثيرا ، وأن يكون من أحب أموالك إليك ، وأن لا ترى عز نفسك وذل الفقير ، فهذه عشرة أوصاف إذا اجتمعت في الصدقة كانت قرضا حسنا ورجي لها القبول .

[سورة الحديد (57) : آية 15]

فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (15)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يؤخذ) المنفيّ (لا) نافية (منكم) متعلّق بـ (يؤخذ) ، (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (من الذين) متعلّق بما تعلّق به (منكم) فهو معطوف عليه . . . والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره هي أي النار .

جملة : " لا يؤخذ . . . فدية " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " مأواكم النار . . . " لا محلّ لها تعليليّة وجملة : " هي مولاكم . . . " لا محلّ لها استئناف بياني وجملة : " بئس المصير . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

الصرف :

(مولاكم) ، جاء في حاشية الجمل ما يلي : " يجوز أن يكون مصدرا أي ولايتكم أي ذات

ولايتكم، وأن يكون مكانا أي مكان ولايتكم، وأن يكون بمعنى أولى كقولك هو مولاه أي أولى به" أ ه

[سورة الحديد (57) : آية 16]

(292/749)

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (16)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام وفيه معنى العتاب (للذين) متعلّق بـ (يأن) ، (أن) حرف مصدري ونصب (لذكر) متعلّق بـ (تخشع) ،

والمصدر المؤوّل (أن تخشع قلوبهم ...) في محلّ رفع فاعل (يأن) (الواو) عاطفة (ما) موصول في محلّ جرّ معطوف على ذكر (من الحقّ) متعلّق بحال من فاعل نزل " 1 " ، (الواو) عاطفة (لا) نافية " 2 " (يكونوا) مضارع ناقص منصوب معطوف على (تخشع) ،

(كالذين) متعلّق بخبر يكونوا (الكتاب) مفعول به منصوب (قبل) اسم ظرفيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أوتوا) ، (الفاء) عاطفة (عليهم) متعلّق بـ (طال) ، (الفاء) الثانية عاطفة وكذلك

الواو ، (منهم) متعلّق بنعت لـ (كثير) (فاسقون) خبر المبتدأ (كثير) جملة : " يأن . . . أن تخشع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " تخشع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة : " نزل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " لا يكونوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تخشع وجملة : " أوتوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني وجملة : " طال عليهم الأمد " لا محلّ لها معطوفة على جملة أوتوا . . .

وجملة : " قست قلوبهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة طال عليهم الأمد وجملة : " كثير . . . فاسقون " لا محلّ لها معطوفة على جملة قست " 3 "

الصرف :

(يأن) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الحزم ، ماضية أنى كرمي بمعنى أتى وقته . . . وزنه يفع

---

(1) يجوز أن يكون الجارّ والمجرور تمييزا للموصول .

(2) يجوز أن تكون (لا) ناهية ، والفعل بعدها مجزوم ، والجملة معطوفة على الاستئنافيّة [. . . . .]

(3) أو في محلّ نصب حال من الضمير في قلوبهم .

[سورة الحديد (57) : آية 17]

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17)

الإعراب:

(بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ (يحيي) ، (قد) حرف تحقيق (لكم) متعلّق بـ (بيّنا) .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه يحيي . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ المفعولين لفعل اعملوا جملة: "اعلموا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "يحيي . . . "في محلّ رفع خبر أنّ وجملة: "قد بيّنا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "لعلّكم تعقلون" لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة: "تعقلون" في محلّ رفع خبر لعلّ

البلاغة

الاستعارة التمثيلية التصريحية: في قوله تعالى اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها .

تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة، بإحياء الأرض الميتة بالغيث، للترغيب في الخشوع، والتحذير عن القساوة. وقد شبه يبس الأرض بالموت.

وشبه ازدهار النبات فيها بالحياة، وصرح بلفظ المشبه به دون المشبه.

[سورة الحديد (57) : آية 18]

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (قرضا) مفعول مطلق منصوب (لهم) نائب الفاعل "1"، (الواو) عاطفة (لهم) الثاني متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (أجر) ..

جملة: "إنّ المصدّقين ... "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "أقرضوا ... "لا محلّ لها اعتراضيّة بين اسم إنّ وخبرها "2" وجملة: "يضاعف لهم ... "في محلّ رفع خبر إنّ وجملة: "لهم أجر ... "في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر

الصرف:

---

(1) يجوز أن يكون نائب الفاعل ضميرا يعود على التصدّق أو ثوابه المفهوم من السياق، فيتعلّق الجار بالفعل.

(2) يجوز أن تكون الجملة حالا بتقدير قد بعد واو الحال والعامل هو ما في (إنّ) من معنى التوكيد.

(المصدّقين) ، جمع المصدّق ، اسم فاعل من اصدّق زنة افّعل بتشديد الفاء والعين . . .

وفيه إبدال ، أصله تصدّق ، أبدلت التاء صادا للمجانسة ثمّ أدغمت في فاء الكلمة بعد تسكينها ، ثمّ زيدت همزة الوصل في أوله للتخلّص من الساكن فأصبح اصدّق ، فوزن اسم الفاعل على هذا متفعّل بضمّ الميم وكسر العين (المصّدّقات) ، جمع الصّدّقة مؤنّث المصدّق . . . وقد ذكر أعلاه

[سورة الحديد (57) : آية 19]

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (19)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (باللَّه) متعلّق بـ (آمنوا) ، (هم) ضمير فصل " 1 " ، (عند) ظرف منصوب متعلّق بحال من الشهداء والعامل فيه الإشارة "

، (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (أجرهم) ، (الواو) عاطفة (بآياتنا) متعلّق بـ (كذّبوا) .

جملة : " الذين آمنوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " أولئك . . . الصدّيقون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) وجملة : " لهم أجرهم . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (الذين) " 3 " وجملة : " الذين كفروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الذين آمنوا . . .

وجملة: "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني وجملة: "كذّبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كفروا وجملة: "أولئك أصحاب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين)

[سورة الحديد (57) : الآيات 20 إلى 23]

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره الصدّيقون، والجملة خبر أولئك.

(2) أو هو خبر للمبتدأ الشهداء . . أو هو متعلّق بالشهداء على أنّه مبتدأ والخبر جملة لهم أجرهم.

(3) يجوز أن تكون حالا من الضمير في (الصديقون، الشهداء).

(295/749)

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى ما فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (23)

الإعراب:

(أنّما) كافّة ومكفوفة (بينكم) ظرف منصوب متعلّق بـ (تفاخر) (في الأموال) متعلّق بـ (تكاثر) (كمثل) متعلّق بمحذوف خبر ثان للحياة " 1 "، (ثمّ) حرف عطف وكذلك الفاء، (مصفرّا) حال منصوبة من ضمير الغائب في تراه، (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة، واستئنافيّة في الموضع الرابع (في الآخرة) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (عذاب)، (مغفرة) معطوف على عذاب مرفوع (من الله) متعلّق بنعت لـ (مغفرة)، (ما) نافية مهملة (إلّا) للحصر...

---

(1) أو هو خبر لمبتدأ تقديره هي، أو مثلها...

جملة: " اعلموا... " لا محلّ لها استئنافيّة والمصدر المؤوّل (أنّما الحياة... لعب...) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي اعلموا وجملة: " أعجب... نباته " في محلّ جرّ نعت لغيث وجملة: " يهيج... " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أعجب وجملة: " تراه

. . . "في محلّ جرّ معطوفة على جملة يهيج وجملة: "يكون . . . "في محلّ جرّ معطوفة على جملة تراه وجملة: "في الآخرة عذاب . . . "في محلّ رفع معطوفة على خبر الحياة وجملة: "ما الحياة. إلّا متاع" لا محلّ لها استئنافيّة مؤكّدة لما سبق 21 - (إلى مغفرة) متعلّق بـ (سابقوا)، (من ربّكم) متعلّق بنعت لـ (مغفرة) (عرض) متعلّق بخبر المبتدأ (عرضها)، (للذين) متعلّق بـ (أعدّت)، (بالله) متعلّق بـ (آمنوا)، والإشارة في ذلك إلى الموعود به من المغفرة والجنّة، (من) موصول في محلّ نصب مفعول به ثان . . .

وجملة: "سابقوا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "عرضها كعرض . . . "في محلّ جرّ نعت لجنّة وجملة: "أعدّت . . . "في محلّ جرّ نعت ثان لجنّة وجملة: "آمنوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة: "ذلك فضل . . . "لا محلّ لها تعليليّة وجملة: "يؤتيه . . . "في محلّ نصب حال عامله الإشارة وجملة: "يشاء . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة: "الله ذو الفضل . . . "لا محلّ لها استئنافيّة 22 - (ما) نافية، ومفعول (أصاب) محذوف أي أصابكم (مصيبة) مجرور لفظا

مرفوع محلّا فاعل أصاب " 1 " (في الأرض) متعلّق بنعت لـ (مصيبة) " 2 " ، (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (في أنفسكم) متعلّق بما تعلّق به (في الأرض) فهو معطوف عليه (إلّا) للحصر (في كتاب) متعلّق بحال من مصيبة " 3 " ، (من قبل) متعلّق بما تعلّق به (في كتاب) ، (أن) حرف مصدري ونصب (على اللّه) متعلّق بالخبر (يسير) والمصدر المؤوّل (أن نبرأها) في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " أصاب من مصيبة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " نبرأها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة : " إنّ ذلك على اللّه يسير " لا محلّ لها استئناف بياني 23 - (اللام) للجرّ (لا) نافية في المواضع الثلاثة (على ما) متعلّق بـ (تأسوا) ، (بما) متعلّق بـ (تفرحوا) والمصدر المؤوّل (كيلا تأسوا . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف تقديره أخبر اللّه بذلك وجملة : " تأسوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (كي) وجملة : " فاتكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول وجملة : " تفرحوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تأسوا وجملة : " آتاكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني وجملة : " اللّه لا يحبّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " لا يحب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه)

---

(1) جاز تذكير الفعل - والفاعل مؤنث - لأنّ التأنيث مجازي .

(2) أو متعلّق بـ (أصاب) ، أو بمصيبة .

(3) لتخصّصها بالعمل أو بالوصف أو بالحصر . . .

الصرف :

(20) تفاخر : مصدر قياسيّ من الخماسيّ تفاخر ، وزنه تفاعل بفتح التاء وضمّ العين

(تكاثر) ، مصدر قياسيّ من الخماسيّ تكاثر ، وزنه تفاعل بفتح التاء وضمّ العين

(الكفّار) ، جمع الكافر وهو الزارع ، اسم فاعل من (كفر) بمعنى ستر ، وزنه فاعل والكفّار

فعّال بضمّ الفاء (نباته) ، اسم جمع بمعنى الزرع أو ما ينبت من الأرض ، الواحدة نبتة زنة

فعلة بفتح فسكون ، ووزن نبات فعال بفتح الفاء ، ويأتي اللفظ مصدرا للثلاثيّ نبت . . .

انظر الآية (37) من سورة آل عمران (21) عرضها : اسم لقياس الأطوال يقابل الطول من

الشيء ويعارضه ، وزنه فعل بفتح فسكون (23) تأسوا : فيه إعلال بالحذف أصله

تأساوا ، التقى ساكنان - الألف والواو - فحذفت الألف لام الكلمة فأصبح تأسوا ،

وبقي ما قبل الواو مفتوحا دلالة على الألف المحذوفة ، وزنه تفعوا

البلاغة

1 - الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ

مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ " .

فقد شبه حال الدنيا ، وسرعة انقضائها ، مع قلة جدواها ، بنبات أنبته الغيث ، فاستوى واكتهل ، وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة اللّه فيما رزقهم من الغيث والنبات ، فبعث عليه العاهة ، فهاج واصفر وصار حطاما ، عقوبة لهم على جحودهم ، كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين.

2 - الطباق : في قوله تعالى وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ.

حيث طابق سبحانه وتعالى بين العذاب والمغفرة في هذه الآية الكريمة.

[سورة الحديد (57) : آية 24]

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)

الإعراب :

(الذين) موصول في محلّ رفع مبتدأ خبره محذوف تقديره معذّبون " 1 " ، (بالبخل) متعلّق بـ (يأمرون) (الواو) عاطفة (من) اسم شرط في محلّ رفع مبتدأ (الفاء) رابطة لجواب الشرط (هو) ضمير فصل " 2 ".

جملة : " الذين يبخلون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يبخلون . . . " لا محلّ لها

صلة الموصول (الذين) وجملة: "يأمرون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة

وجملة: "من يتولّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "يتولّ . . . " في محلّ رفع خبر

المبتدأ (من) " 3 " وجملة: "إنّ الله . . . الغنيّ " في محلّ جزم جواب الشرط " 4 "

[سورة الحديد (57) : آية 25]

لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)

---

(1) يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هم، والجملة استئناف بياني . . . كما يجوز أن يكون بدلا من (كلّ مختال) في الآية السابقة (23) .

(2) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره الغنيّ، والجملة خبر إنّ.

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(4) يجوز أن تكون الجملة تعليلا للجواب المحذوف أي: من يتولّ فالله غنيّ عنه لأنّ الله هو الغني. [. . . . .]

الإعراب :

(اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (بالبيّنات) متعلّق بحال من المفعول أو من الفاعل (الواو) عاطفة في المواضع الآتية (معهم) ظرف منصوب متعلّق بحال من الكتاب أي محمولا معهم (اللام) للتعليل (يقوم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (بالقسط) متعلّق بـ (يقوم) بتضمينه معنى يتعاملون . . .

والمصدر المؤوّل (أن يقوم . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أنزلنا ، أرسلنا) (فيه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (بأس) ، (للناس) متعلّق بـ (منافع) ، (ليعلم) مثل ليقوم (رسله) معطوف على ضمير الغائب في (ينصره) ، (بالغيب) متعلّق بحال من الضمير في ينصره . .

جملة : " أرسلنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة وجملة : " أنزلنا " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم وجملة : " يقوم الناس . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر وجملة : " أنزلنا (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزلنا (الأولى) وجملة : " فيه بأس . . . " في محلّ نصب حال من الحديد وجملة : " يعلم الله . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر الثاني

والمصدر المؤوّل (أن يعلم . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أنزلنا الحديد) ، وهو معطوف على مصدر مقدّر أي ليستعملوه وليعلم . . .

وجملة : " ينصره . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة : " إنّ الله قوي . . . " لا

محلّ لها استئنافيّة

[سورة الحديد (57) : الآيات 26 إلى 27]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (26) ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (27)

الإعراب:

(301/749)

(ولقد أرسلنا) مرّ إعرابها " 1 " ، (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (في ذرّيّتهما) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان مقدّم (الفاء) للتفريع (منهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (مهتد) ، وهو مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة فهو اسم منقوص و(منهم) الثاني نعت لـ (كثير) جملة: " أرسلنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . . وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة

(1) في الآية السابقة (25) .

وجملة : " جعلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم وجملة : " منهم مهتد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " كثير منهم فاسقون " لا محلّ لها معطوفة على جملة منهم مهتد 27 - (على آثارهم) متعلّق بـ (قفّينا) ، وكذلك (برسلنا) ، (بعيسى) متعلّق بـ (قفّينا) الثاني (في قلوب) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (رهبانية) معطوف على رأفة بالواو " 1 " ، (ما) نافية (عليهم) متعلّق بـ (كتبناها) ، (إلّا) للحصر (ابتغاء) مفعول لأجله منصوب (الفاء) عاطفة في الموضعين (حقّ) مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه أضيف إلى المصدر (منهم) متعلّق بحال من فاعل آمنوا ، و(منهم) الثاني نعت لـ (كثير) .

---

(1) أو هو مفعول به لفعل محذوف على الاشتغال يفسّره الفعل المذكور أي : ابتدعوا رهبانيّة .

وجملة: "قفّينا ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلنا وجملة: "قفّينا (الثانية) "لا محلّ لها معطوفة على جملة قفّينا (الأولى) وجملة: "آتيناه ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة قفّينا (الثانية) وجملة: "جعلنا ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة آتيناه وجملة: "ابتدعوها "في محلّ نصب نعت لرهبانية وجملة: "ما كتبناها ... "في محلّ نصب نعت ثان لرهبانيّة وجملة: "رعوها ... "في محلّ نصب معطوفة على جملة كتبناها وجملة: "آتينا ... "في محلّ نصب معطوفة على جملة ما رعوها وجملة: "آمنوا ... "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة: "كثير ... فاسقون "لا محلّ لها استئنافيّة فيها معنى التعليل لعدم الرعاية

الصرف:

(27) رهبانيّة: اسم منسوب إلى الرهبان فهو من نوع المصدر الصناعيّ، أو هو مصدر أصلا بمعنى الرياضة والانقطاع عن الناس والترهب، وزنة فعلانيّة بفتح فسكون (رعوها) فيه إعلال بالحذف أصله رعاوها، التقي ساكنان فحذفت الألف لام الكلمة فأصبح رعوها وبقي ما قبل الواو مفتوحا دلالة على الألف المحذوفة، وزنه فعوها ...

(رعايتها)، مصدر سماعيّ لفعل رعي الثلاثيّ بمعنى حفظ وتدبّر الشؤون، وزنه فعالة بكسر الفاء

الفوائد :

- الواو المفردة . .

وتنقسم إلي الأقسام التالية :

1 - العاطفة ، ومعناها مطلق الجمع ، كقوله تعالى : فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ .

2 - أن تكون بمعنى باء الجر كقولهم : (أنت أعلم ومالك) أي بمالك .

3 - واو الاستئناف التي يرتفع بعدها الفعل ، كقوله تعالى : لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ .

4 - واو الحال الداخلة على الجملة الاسمية ، نحو : (جاء زيد والشمس طالعة) .

(304/749)

---

5 - واو المعية : وينتصب الاسم بعدها على أنه مفعول معه ، مثل : (سرت والجبل) ، أو ينتصب المضارع بعدها بأن المضمرة كقول الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

6 - واو القسم ، ولا تدخل إلا على اسم ظاهر ، ولا تتعلق إلا بمحذوف تقديره أقسم ،

كقوله تعالى وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ.

7 - واو (رب) كقول امرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخي سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي

ولا تدخل إلا على نكرة.

8 - الواو الزائدة كقوله تعالى حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها.

9 - واو ضمير الذكور مثل: (قاموا) وقد تستعمل لغير العقلاء، كقوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ.

10 - الواو التي تأتي لإشباع الضم (واو الإشباع) كقول الشاعر:

جازيتموني بالوصال قطيعة شتّان بين صنيعكم وصنيعي

الشاهد الواو في (جازيتموني).

[سورة الحديد (57): الآيات 28 إلى 29]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28) لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

الإعراب:

(أيها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الذين) موصول في محلّ نصب بدل من أيّ – أو عطف بيان عليه – (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (برسوله) متعلّق بـ (آمنوا) ، (يؤتكم) مضارع مجزوم جواب الأمر (من رحمته) متعلّق بنعت لـ (كفلين) ، (يجعل) مضارع مجزوم معطوف على (يؤتكم) ، وكذلك (يغفر) ، (لكم) الأول مفعول به ثان ، والثاني متعلّق بـ (يغفر) ، (به) متعلّق بـ (تمشون) والباء سببية ، وضمّن الفعل معنى تهتدون (الواو) استئنافيّة جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " اتّقوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء وجملة : " يؤتكم . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء وجملة : " يجعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يؤتكم وجملة : " تمشون . . . " في محلّ نصب نعت لـ (نورا) " 1 " وجملة : " يغفر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يؤتكم وجملة : " اللّه غفور . . . " لا محلّ لها استئنافيّة 29 – (اللام) للتعليل (أن) حرف مصدري ونصب (لا) زائدة (ألّا) مخفّفة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف " 2 " و(لا) نافية (على شيء) متعلّق بـ (يقدرون) ، (من فضل) متعلّق بنعت لـ (شيء) . . . (بيد) متعلّق بخبر أنّ والمصدر المؤوّل (أن يعلم . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف أي : أعلمكم بذلك ليعلم . . .

والمصدر المؤوّل (ألّا يقدرون . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يعلم والمصدر المؤوّل (أنّ الفضل بيد . . .) في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل ألّا يقدرون . . .

وجملة: "يعلم أهل . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة: "يقدرون . . . " في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة وجملة: "يؤتيه . . . "في محلّ رفع خبر ثان ل (أنّ) وجملة: " يشاء . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة: "اللّه ذو الفضل . . . "لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة. انتهى انتهى. اهـ ﴿الجدول حـ 27 صـ 164.135﴾

---

(1) أو في محلّ نصب حال من الضمير في (لكم) والعامل فيها يجعل.

(2) يجوز أن يكون اسمها ضميرا يعود على أهل الكتاب أي أنّهم لا يقدرون على شيء من فضل اللّه.

(306/749)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(57) سورة الحديد

مدنيّة وآياتها تسع وعشرون

[سورة الحديد (57) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)

لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (6)

(307/749)

الإعراب:

(سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) سبّح فعل ماض مبني على الفتح ولله متعلقان بسبّح وقيل اللام زائدة في المفعول، وقد تقدم القول في هذا الفعل وأنه قد يتعدى بنفسه تارة وباللام أخرى، وجاء هذا الفعل في بعض الفواتح ماضيا كهذه الفاتحة وفي بعضها مضارعا وفي بعضها أمرا للإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبّحة في كل الأوقات،

وما فاعل سبّح وفي السموات متعلقان بمحذوف صلة الموصول والأرض عطف على السموات والواو حالية أو مستأنفة وهو مبتدأ والعزيز خبر أول والحكيم خبر ثان وعبّر بما دون من تغليبا للأكثر (لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ) له خبر مقدّم وملك السموات مبتدأ مؤخر والأرض عطف على السموات وجملة يحيي حال من الضمير في له أو مستأنفة وجملة له ملك السموات مستأنفة لا محل لها (وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) الواو عاطفة وهو مبتدأ وقدير خبره والجار والمجرور متعلقان بقدير (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) هو مبتدأ والأول خبره وما بعده عطف عليه وهو مبتدأ وعليم خبره وبكل شيء متعلقان بعليم (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ) هو مبتدأ والذي خبره وجملة خلق السموات والأرض صلة الموصول لا محل لها وفي ستة أيام متعلقان بخلق وثم حرف عطف للترتيب مع التراخي واستوى فعل ماض وفاعله مستتر يعود على اللّه وعلى العرش متعلقان باستوى (يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها) جملة يعلم حالية أو مستأنفة ويعلم فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو وفي الأرض متعلقان بيلج وما يخرج منها عطف على ما يلج في الأرض ومنها متعلقان بيخرج (وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها) وما عطف

على ما الأولى وما يعرج فيها

عطف أيضا ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الواو حرف عطف وهو مبتدأ ومعكم ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر وأينما اسم شرط جازم في محل نصب على الظرفية المكانية وهو متعلق بجوابه المحذوف، وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والجواب محذوف دلّ عليه ما قبله أي فهو معكم وكنتم تامة، واللّه مبتدأ وبصير خبر وبما تعملون متعلقان ببصير وجملة تعملون صلة الموصول لا محل لها ﴿لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ له خبر مقدم وملك السموات خبره وإلى اللّه متعلقان بترجع وترجع فعل مضارع مبني للمجهول والأمور نائب فاعل ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ﴾ الجملة حالية أو مستأنفة والليل مفعول يولج وفي النهار متعلقان بيولج وما بعده عطف عليه ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ الواو عاطفة وهو مبتدأ وعليم خبره وبذات الصدور متعلقان بعليم.

[سورة الحديد (57) : الآيات 7 إلى 10]

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7) وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (9) وَما لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10)

(310/749)

الإعراب:

(

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) كلام مستأنف مسوق للشروع في مخاطبة كفّار قريش وأمرهم بالإيمان بعد أن ذكر أنواعا من الدلائل على التوحيد. وآمنوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وبالله متعلقان بآمنوا ورسوله عطف عليه وأنفقوا عطف على آمنوا ومما متعلقان بأنفقوا وجملة جعلكم صلة الموصول والكاف مفعول أول ومستخلفين مفعول ثان لجعل وفيه متعلقان بمستخلفين أي من مال مقتنى وعتاد مجتنى

(فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) الفاء استئنافية والذين مبتدأ وجملة آمنوا لا محل لها لأنها صلة الموصول ومنكم حال وأنفقوا عطف على آمنوا داخل في حيز الصلة ولهم خبر مقدم وأجر مبتدأ مؤخر وكبير نعت وجملة لهم أجر كبير خبر الذين (وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ) الواو استئنافية وما اسم استفهام إنكاري في محل رفع مبتدأ ولكم خبر وجملة لا تؤمنون في محل نصب على الحال وبالله متعلقان بتؤمنون والمعنى أي شيء استقر لكم غير مؤمنين والواو حالية والرسول مبتدأ وجملة يدعوكم خبر والجملة في محل نصب على الحال من الواو في تؤمنون (لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) اللام للتعليل وتؤمنوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بيدعوكم وبربكم متعلقان بتؤمنوا والواو حالية وقد حرف تحقيق وأخذ ميثاقكم فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به والجملة في محل نصب على الحال من فاعل يدعوكم على التداخل أيضا ، وفي قراءة أخذ بالبناء

للمجهول فيكون ميثاقكم نائب فاعل أي نصب لكم من الأدلة والتمكّن من النظر بمثابة أخذ الميثاق وقيل إشارة إلى إشهادهم على أنفسهم بقوله " ألست بربكم قالوا بلى " وإن

شرطية وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والجواب محذوف تقديره فالآن ظهرت أعلام اليقين ووضّحت الدلائل والبراهين ولزمتكم الحجج العقلية والسمعية ، ومؤمنين خبر كنتم (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) هو مبتدأ والذي خبره وجملة ينزل صلة لا محل لها وعلى عبده متعلقان بينزل وآيات مفعول به وبيّنات صفة واللام للتعليل ويخرجكم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بينزل ومن الظلمات متعلقان بيخرجكم أي من الكفر وإلى النور متعلقان بيخرجكم أيضا أي إلى الإيمان (وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ) الواو عاطفة وإن واسمها وبكم متعلقان برءوف واللام المزحلقة ورءوف خبر إن الأول ورحيم خبر إن الثاني (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الواو استئنافية وما اسم استفهام إنكاري مبتدأ ولكم خبر وأن حرف مصدري ونصب ولا نافية وتنفقوا فعل مضارع منصوب بأن وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل نصب بنزع الخافض أي في أن لا تنفقوا أو من أن لا تنفقوا والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال وفي سبيل اللّه متعلقان بتنفقوا والواو حالية وللّه خبر مقدّم وميراث السموات مبتدأ مؤخر والأرض عطف على السموات والجملة في محل نصب حال من فاعل الاستقرار أو مفعوله أي وأي شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله والحال أن ميراث السموات والأرض له (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ

مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ) كلام مستأنف مسوق لبيان تفاوت درجات المنفقين ، ولا نافية ويستوي فعل مضارع

(312/749)

مرفوع ومنكم حال ومن فاعله وجملة أنفق صلة الموصول لا محل لها ومن قبل الفتح متعلقان بأنفق وقاتل عطف على أنفق ، وفي

الكلام حذف سيأتي ذكره في باب البلاغة (أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا) أولئك مبتدأ والإشارة إلى من أنفق وأعظم خبر ودرجة تمييز ومن الذين متعلقان بأعظم وجملة أنفقوا صلة ومن بعد متعلقان بأنفقوا وقاتلوا عطف على أنفقوا (وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى) والله فاعل وعد والحسنى مفعول به ثان والله مبتدأ وخبير خبره وبما تعملون متعلقان بخبير .

البلاغة :

1- الحذف : الحذف في هذه الآيات كثير ونلخصة فيما يلي :

- حذف مفعول أنفقوا للمبالغة في الحثّ على الإنفاق وعدم البخل بالمال .

- حذف مفعول " تنفقوا في سبيل اللّه " لما تقدم ولتشديد التوبيخ أي : وأي شيء لكم في

أن لا تنفقوا ما هو قربة إلى اللّه تعالى .

- حذف ثاني الاستواءين لأن الاستواء لا يتم إلا بعد شيئين فلا بدّ من حذف مضاف تقديره : لا يستوي منكم من أنفق من قبل فتح مكة وقوة الإسلام ومن أنفق من بعد الفتح ، فحذف لوضوح الدلالة عليه ، وعبارة أبي حيان بهذا الصدد : " والظاهر أن " من " فاعل " لا يستوي " وحذف مقابله وهو " ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل " لوضوح المعنى أولئك أي الذين أنفقوا قبل الفتح وقبل انتشار الإسلام وفشوّه واستيلاء المسلمين على أم القرى وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين جاء في حقهم قوله صلى اللّه عليه وسلم : لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه ، وأبعد من ذهب إلى أن الفاعل

بلا يستوي ضمير يعود على الإنفاق أي لا يستوي هو الإنفاق أي جنسه إذ منه ما هو قبل الفتح وبعده ومن أنفق مبتدأ وأولئك مبتدأ خبره ما بعده والجملة في موضع رفع خبر من وهذا فيه تفكيك للكلام وخروج عن الظاهر لغير موجب وحذف المعطوف لدلالة المقابل كثير " وإنما كانت النفقة والقتال قبل الفتح أفضل من النفقة والقتال بعد الفتح لأن حاجة

الناس كانت إذ ذاك أكثر وهم أقل وأضعف.

2- في قوله "في سبيل اللّه" استعارة تصريحية أي طاعته، وسبيل اللّه كل خير يوصلهم إليه.

[سورة الحديد (57) : الآيات 11 إلى 15]

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ (13) يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (15)

اللغة:

(انْظُرُونا) أمر من النظر، والنظر هو تقليب العين إلى الجهة التي فيها المرئي والمراد رؤيته، ومما يدل على ذلك قوله:

فيا ميّ هل يجزى بكائي بمثله مرارا وأنفاسي إليك الزوافر

وإني متى أشرف على الجانب الذي به أنت من بين الجوانب ناظر

فلو كان النظر الرؤية لم يطلب عليه الجزاء لأن المحبّ لا يستثيب من النظر إلى محبوبه شيئًا بل يريد ذلك ويتمناه ، ويدلّ على ذلك قول الآخر :

ونظرة ذي شجن وامق إذا ما الركائب جاوزن ميلا

وأما قوله سبحانه : ولا ينظر إليهم يوم القيامة فالمعنى أنه سبحانه لا ينيلهم رحمته ، وقد تقول نظر إليّ فلان إذا كان ينيلك شيئًا ، ويقول القائل : انظر إليّ نظر اللّه إليك يريد أنلني خيرا أنالك اللّه ، ونظرت فعل يستعمل وما تصرّف منه على ضروب :

1- أحدها أن تريد به : نظرت إلى الشيء ، فتحذف الجار وتصل الفعل ، ومن ذلك ما أنشده أبو الحسن :

ظاهرات الجمال والحسن ينظرن كما ينظر الأراك الظباء

والمعنى ينظرن إلى الأراك ، فحذف الجار ، ولهذا قال أبو حيان :

" إن النظر بمعنى الإبصار لا يتعدى بنفسه إلا في الشعر وإنما يتعدى بإلى " .

2- والثاني : أن تريد به تأملت وتدبرت وهو فعل غير متعدّ فمن ذلك قولهم اذهب فانظر زيدا أبو من هو ، فهذا يراد به التأمّل ، ومن ذلك قوله : انظر كيف ضربوا لك الأمثال ،

وانظر كيف فضّلنا بعضهم على بعض وقد يتعدى هذا بالجار كقوله تعالى : " أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت " فهذا حضّ على التأمل ، وقد يتعدى هذا بفي نحو قوله :

أفلم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ، فأما قول امرئ القيس :

فلما بدا حوران والآل دونه نظرت فلم تنظر بعينك منظرا

فيجوز أن يكون نظرت فلم تر بعينك منظرا إلى الآل أي السراب ، وقد جوّز أن يعني بالنظر الرؤية على الاتّساع لأن تقليب البصر نحو المبصر تتبعه الرؤية وقد يجري على الشيء لفظ ما يتبعه ويقترن به كقولهم للمزادة راوية ، وقد يكون نظرت فلم تنظر مثل تكلمت ولم تتكلم ، أي لم تأت بكلام على حسب ما يراد فكذلك نظرت فلم تنظر بعينك منظرا كما تريد أو تر منظر ما يروق .

3- والثالث : أن تريد به انتظرته من ذلك قوله : غير ناظرين إناه ، ومثله قول الفرزدق :

نظرت كما انتظرت الله حتى كفاك الماحلين لك المحالا

يريد انتظرت كما انتظرت .

4- والرابع أن يكون أنظرت بمعنى انتظرت تطلب بقولك انظرني

التنفيس الذي يطلب الانتظار فمن ذلك قول عمرو بن كلثوم :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا

ومن ذلك قوله " فأنظرني إلى يوم يبعثون " إنما هو طلب الإمهال والتسويف وعلى ذلك قراءة حمزة أنظرونا بقطع الهمزة وكسر الظاء .

(يُقْرِضُ) القرض ما تعطيه غيرك ليقضيكه فهو قطعه عن مالكه بإذنه على ضمان ردّ مثله ، والعرب تقول : لي عندك قرض صدق وقرض سوء إذا فعل به خيرا أو شرّا ، قال الشاعر :

ويقضي سلامان بن مفرج قرضها بما قدّمت أيديهم وأزلت

وسيأتي المزيد من معناه هنا في باب البلاغة .

الإعراب :

)

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ) فيه أوجه أحدها أن تكون من استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء وذا اسم إشارة خبره والذي صفة له أو بدل منه ، ويصحّ أن يكون من ذا استفهاما برأسه مرفوع المحل بالابتداء والذي خبره ، ويصحّ أن

تكون ذا مبتدأ والذي يقرض اللّه صفة ومن خبر المبتدأ قدم عليه لما فيه من معنى الاستفهام. ويقرض فعل مضارع وفاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول واللّه مفعوله وقرضا مفعول مطلق وحسنا نعت والفاء سببية ويضاعفه فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء على جواب الاستفهام وقرئ بالرفع على الاستئناف أو العطف، ولأبي حيان هنا كلام لطيف نورده فيما يلي: "وقرأ عاصم فيضاعفه بالنصب بالفاء على جواب الاستفهام وفي ذلك قلق قال أبو علي الفارسي لأن السؤال لم يقع على القرض وإنما وقع السؤال على فاعل القرض وإنما تنصب

الفاء فعلا مردودا على فعل مستفهم عنه لكن هذه الفرقة يعني من القرّاء حملت ذلك على المعنى كأن قوله من ذا الذي يقرض بمنزله أن لو قال أيقرض اللّه أحد فيضاعفه، وهذا الذي ذهب إليه أبو علي - من أنه إنما تنصب الفاء فعلا مردودا عى فعل مستفهم عنه - ليس بصحيح بل يجوز إذا كان الاستفهام بأدواته الاسمية نحو من يدعوني فأستجيب له وأين بيتك فأزورك ومتى تسير فأرافقك وكيف تكون فأصحبك، فالاستفهام هنا واقع عن ذات الداعي وعن ظرف المكان وظرف الزمان والحال لا عن الفعل، وحكى ابن كيسان

عن العرب : أين ذهب زيد فنتبعه وكذلك كم مالك فنصرفه ومن أبوك فنكرمه ، بالنصب بعد الفاء وقراءة فيضاعفه بالنصب قراءة متواترة والفعل واقع صلة للذي والذي صفة لذا وذا خبر له وإذا جاز النصب في نحو هذا فجوازه في المثل السابقة أحرى " وله متعلقان بيضاعفه والواو حالية وله خبر مقدّم وأجر مبتدأ مؤخر وكريم صفة (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) يوم ظرف متعلق بالاستقرار العامل في وله أجر أي استقر له أجر في ذلك اليوم أو بمضمر تقديره يؤجرون منصوب بأذكر فيكون مفعولا به ، وقال أبو البقاء : العامل فيه فيضاعفه وجملة ترى المؤمنين والمؤمنات في محل جر بإضافة الظرف إليها وجملة يسعى نورهم حال لأن الرؤية بصرية ونورهم فاعل يسعى والظرف متعلق بيسعى وبأيمانهم عطف على أيديهم (بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الجملة مقول قول محذوف أي ويقال لهم ، وبشراكم مبتدأ واليوم ظرف متعلق بالقول المحذوف ، وجنات خبر بشراكم وجملة تجري من تحتها الأنهار صفة لجنات وخالدين حال والعامل فيها المضاف المحذوف إذ التقدير بشراكم دخولكم جنات خالدين فيها فحذف الفاعل وهو ضمير المخاطب وأضيف المصدر لمفعوله

فصار دخول جنات ثم حذف

المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه في الإعراب ، وفيها متعلقان بخالدين وذلك مبتدأ وهو مبتدأ ثان والفوز خبره والجملة خبر ذلك والعظيم نعت للفوز (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ) الظرف بدل من يوم قبله ، وقال ابن عطية " ويظهر لي أن العامل فيه ذلك هو الفوز العظيم كأنه يقول أن المؤمنين يفوزون بالرحمة يوم يعتري المنافقين كذا وكذا لأن ظهور المرء يوم خمود عدوه أبدع وأفخم " وردّه أبو حيان ، وجملة يقول المنافقون في محل جر بإضافة الظرف إليها والمنافقات عطف على المنافقون وللذين متعلقان بيقول وجملة آمنوا صلة وجملة انظرونا مقول القول وهذا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل ونا ضمير متصل في محل نصب مفعول به ونقتبس فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب أي نأخذ الإضاءة ومن نوركم متعلقان بنقتبس (قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً) قيل فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر يعود على المؤمنين أو الملائكة الموكلين بهم وارجعوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة مقول القول ووراءكم ظرف متعلق بارجعوا أي ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور فالتمسوا نورا آخر إذ لا سبيل لكم إلى هذا النور ، واختار أبو البقاء أن يكون وراءكم اسم فعل أمر فيه ضمير فاعل أي ارجعوا ارجعوا ، ومنع

أن يكون ظرفا لارجعوا قال : لقلة فائدته لأن الرجوع لا يكون إلا إلى وراء وليس هذا بسديد ، والفاء عاطفة والتمسوا فعل أمر معطوف على ارجعوا ونورا مفعول به (فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ) الفاء عاطفة وضرب فعل ماض مبني للمجهول وبسور في محل رفع نائب فاعل وقيل الظرف هو نائب الفاعل وقيل الباء زائدة في نائب الفاعل أي ضرب بينهم سور والجملة معطوفة على قوله : قيل ارجعوا فإن المؤمنين أو الملائكة لما منعوهم من اللحاق بهم للاقتباس من نورهم ، بقي

أولئك المنافقون في ظلمة داكنة لا تختلج العين من جانبها بقبس ، وسيأتي المزيد من هذا المعنى في باب البلاغة ، وله خبر مقدّم وباب مبتدأ مؤخر والجملة صفة لسور وباطنه مبتدأ وفيه خبر مقدم والرحمة مبتدأ مؤخر وجملة فيه خبر لباطنه والجملة صفة ثانية لسور أو صفة لباب ولعله أولى لقربه والضمير يعود على الأقرب إلا بقرينة وهي غير متعينة هنا ،

وظاهره الواو عاطفة وظاهره مبتدأ ومن قبله خبر مقدم والعذاب مبتدأ مؤخر والجملة خبر ظاهره والجملة كلها معطوفة على سابقتها (يُنادُونَهُمْ: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ) جملة ينادونهم مستأنفة وقيل حالية من الضمير في الظرف والهمزة حرف استفهام ولم حرف نفي وقلب وجزم ونكن فعل مضارع ناقص واسمها مستتر تقديره نحن ومعكم ظرف متعلق بمحذوف خبر وجملة الاستفهام مفسّرة لا محل لها أو منصوبة بقول مقدّر (قالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ) قالوا فعل وفاعل وبلى حرف جواب ولكنكم لكن واسمها وجملة فتنتم أنفسكم خبر لكنكم، وتربصتم وارتبتم معطوفان على فتنتم، ومتعلق الأفعال الثلاثة محذوف أي فتنتم أنفسكم بالنفاق وتربصتم بالمؤمنين الدوائر وارتبتم في الدين (وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) الواو عاطفة وفعل وفاعل وحتى حرف غاية وجر، وجاء أمر الله فعل وفاعل أي الموت وغرّكم عطف على وغرتكم وبالله متعلقان بغرّكم والغرور فاعل أي الشيطان (فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) الفاء الفصيحة أي إن شئتم أن تعرفوا مآلكم ومصائركم فاليوم، واليوم ظرف متعلق بيؤخذ ولا نافية ويؤخذ فعل مضارع مبني للمجهول ومنكم متعلقان بيؤخذ أيضا وفدية نائب فاعل وذكر الفعل لأن التأنيث مجازي وقرئ تؤخذ بالتاء، ولا من الذين كفروا عطف على

منكم وجملة كفروا لا محل لها لأنها صلة الموصول (مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

مأواكم النار خبر مقدّم ومبتدأ مؤخر أو بالعكس وهي

مبتدأ ومولاكم خبر ، ومولاكم يصح أن يكون بمعنى أولى بكم قال لبيد :

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها

وهو من معلقته يصف بقرة وحشية والفرج : موضع المخافة وما بين قوائم الدواب فما بين اليدين فرج وما بين الرجلين فرج ، وقال ثعلب إن المولى في هذا البيت بمعنى الأولى بالشيء كقوله تعالى : " مأواكم النار هي مولاكم " أي أولى بكم ، يقول : فغدت تلك البقرة وهي تحسب أن كلا فرجيها مولى المخافة أي موضعها وصاحبها أو تحسب أن كل فرج من فرجيها هو الأولى بالمخافة منه أي بأن يخاف منه ، وقال الأصمعي :

أراد بالمخافة الكلاب وبمولاها صاحبها أي غدت وهي لا تعرف أن الكلاب والكلاب خلفها أم أمامها فهي تظن كل جهة من الجهتين موضعا للكلاب ، والضمير الذي هو اسم إن عائد إلى كلا وهو مفرد اللفظ وإن كان يتضمن معنى التثنية ويجوز حمل الكلام بعده على لفظه مرة ، وعلى معناه أخرى والحمل على اللفظ أكثر وتمثيلهما كلا أخويك سبّني وكلا أخويك سبّاني وقال الشاعر :

كلاهما حين جدّ الجري بينهما قد أقلعا وكلا أنفيهما رابي

حمل أقلعا على معنى كلا وحمل رابيا على لفظه وقال اللّه عزّ وجلّ : "كلتا الجنتين قد آتت أكلها " حملا على لفظ كلتا وخلفها وأمامها خبر مبتدأ محذوف تقديره هو خلفها وأمامها ويجوز أن يكون بدلا من كلا الفرجين وتقديره فغدت كلا الفرجين خلفها وأمامها تحسب أنه مولى المخافة وحقيقة مولاكم محراكم ومقمنكم يقال هو حري أن يفعل كذا وهو قمين أن يفعله أي جدير بذلك وحقيق به أي مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم كما قيل هو مئنة للكرم أي مكان لقول القائل : أنه لكريم فيكون اسم مكان لا كغيره من أسماء الأمكنة فإنها

(322/749)

مكان للحدث بقطع النظر عمّن صدر عنه وهذا مثل للمفضل على غيره الذي هو صفته فهو ملاحظ فيه معنى أولى لأنه مشتق منه كما أن المئنة مأخوذة من إن وليست مشتقة منها ويجوز أن يراد هو ناصركم أي لا ناصر لكم إلا النار وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم والمصير فاعل والمخصوص بالذم محذوف أي النار .

البلاغة :

1- في قوله " من ذا الذي يقرض اللّه قرضا حسنا " استعارة تصريحية تبعية ، فقد شبّه الإنفاق في سبيل اللّه بإقراضه ثم حذف المشبّه وأبقى المشبه به ، والجامع بينهما إعطاء

شيء بعوض ومعنى كونه حسنا أي خالصا من شوائب الرياء . أما القرض الذي يدفع إلى الإنسان من المال بشرط ردّ بدله فهو سنّة مؤكدة وقد يجب للمضطر ويحرم على من يستعين به على معصية .

2- وفي قوله " يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم " استعارة تصريحية أصلية " فالنور استعارة عن الهدى والرضوان الذي هم فيه فحذف المشبّه وأبقى المشبّه به .

3- وفي قوله " خالدين فيها " بعد قوله " بشراكم اليوم " التفات من الخطاب إلى الغيبة ، وقد تقدم القول في الالتفات كثيرا .

4- وفي قوله " فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب " فنّان رفيعان أولهما الاستعارة التمثيلية ، شبّه بقاء المنافقين في حندس نفاقهم وظلامه بمن ضرب بينهم وبين النور الهادي سور يحجب كل نور ، والفن الثاني المقابلة فقد طابق بين باطنه وظاهره وبين الرحمة والعذاب .

[سورة الحديد (57) : الآيات 16 إلى 20]

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (19) اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20)

اللغة:

)

يَأْنِ) مضارع أنى يأني من باب رمى فهو معتل حذفت منه الياء التي هي لامه للجازم كما يأتي في الإعراب ومعنى أنى إذا جاء إناه أي وقته، وأنشد ابن السكّيت:

ألما يأن لي أن تجلّى عمايتي وأقصر عن ليلى بلى قد أنى لنا

الإعراب:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) الهمزة للاستفهام ولم حرف نفي وقلب وجزم ويأن فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة وللذين متعلقان بمحذوف تقديره أعني ، فهي للتبيين ، وهذا ما اختاره أبو البقاء ولا داعي له ، فيتعلق الجار والمجرور بيأن ، وجملة آمنوا صلة الموصول لا محل لها وأن وما في حيزها فاعل يأن أي ألم يقرب وقت خشوع قلوبهم ويجيء وقته ، ومنه قول الشاعر :

ألم يأن لي يا قلب أن أترك الجهلا وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلا

ولذكر الله متعلقان بتخشع والواو حرف عطف وما اسم موصول معطوف على ذكر الله وجملة نزل صلة ومن الحق متعلقان بمحذوف حال (وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ) الواو حرف عطف ولا نافية ويكونوا عطف على تخشع ويجوز أن تكون لا ناهية ويكون ذلك انتقالا إلى نهي المؤمنين عن كونهم مشبهين لمن تقدمهم ويكونوا فعل مضارع ناقص والواو اسمها وكالذين خبرها وجملة أوتوا صلة والكتاب مفعول به ثان ومن قبل متعلقان بأوتوا ، فطال عطف على أوتوا وعليهم متعلقان بطال والأمد فاعل (فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) فقست قلوبهم عطف على فطال عليهم الأمد وكثير مبتدأ ومنهم صفة لكثير ولذلك ساغ الابتداء به وفاسقون خبر كثير (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي

الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها) كلام مستأنف مسوق لخطاب المؤمنين المذكورين على طريق الالتفات ، واعلموا فعل أمر مبني على حذف

النون والواو فاعل وأن وما في حيزها سدّت مسدّ مفعولي اعلموا وأن واسمها وجملة يحيي الأرض خبر أن والظرف متعلق بيحيي وموتها مضاف إليه (قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) قد حرف تحقيق وبينا فعل وفاعل ولكم متعلقان ببيّنّا والآيات مفعول ولعلّ واسمها وجملة تعقلون خبرها (إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ) إن واسمها والمصدقات عطف على المصدقين وأقرضوا عطف على معنى الفعل في المصدقين لأن اللام بمعنى الذين واسم الفاعل بمعنى اصدّقوا كأنه قيل إن الذين اصدّقوا وأقرضوا ، ولفظ الجلالة مفعول به وقرضا مفعول مطلق وحسنا نعت ويضاعف فعل مضارع مبني للمجهول ولهم قائم مقام الفاعل ويجوز أن يكون القائم مقام الفاعل مضمرا يعود على ضمير التصدّق ولا بدّ من حذف مضاف أي ثواب التصدّق ، ولهم متعلقان بيضاعف والواو عاطفة ولهم خبر مقدّم وأجر مبتدأ مؤخر وكريم نعت (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ) الواو استئنافية والذين مبتدأ وجملة آمنوا

صلة وبالله متعلقان بآمنوا ورسله عطف على الله وأولئك مبتدأ ثان ، وهم يجوز أن يكون فصلا والصدّيقون خبر أولئك وأولئك وخبره خبر الأول ويجوز أن يكون هم مبتدأ ثالثا والصدّيقون خبرهم وهو مع خبره خبر الثاني والثاني وخبره خبر الأول (وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) يجوز أن تنسق الشهداء على ما قبله فالوقف عنده تام ، أخبر عن الذين آمنوا أنهم صدّيقون شهداء ، ويجوز أن تكون الواو استئنافية والشهداء مبتدأ ولك في خبره وجهان أحدهما أنه الظرف بعده والثاني أنه قوله لهم أجرهم ولهم خبر مقدّم وأجرهم مبتدأ مؤخر ونورهم عطف على أجرهم والظرف متعلق بمحذوف حال (وَالَّذِينَ

كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ) والذين مبتدأ وجملة كفروا صلة وكذبوا عطف على كفروا وبآياتنا متعلقان بكفروا وأولئك مبتدأ وأصحاب

الجحيم خبره (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ) كلام مستأنف مسوق لتحقير الدنيا وهوان أمرها ، واعلموا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وأن ما في حيزها سدّت مسدّ مفعولي اعلموا وأنما هنا كافّة ومكفوفة والحياة مبتدأ والدنيا نعت لها ولعب خبر الحياة وما بعدها منسوق عليها وبينكم

ظرف متعلق بمحذوف صفة لتفاخر وفي الأموال نعت لتكاثر (كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا) الكاف خبر لمبتدأ محذوف أو الجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف أو في موضع نصب حال من معنى ما تقدم أي ثبتت لها هذه الصفات مشبهة بغيث ، وجملة أعجب نعت لغيث والكفّار مفعول مقدّم لأعجب وهم الزارع ونباته فاعل مؤخر ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ويهيج فعل مضارع مرفوع وفاعله هو يعود إلى النبات أي ييبس وهاج الثلاثي معناه يبس ، فتراه عطف على يهيج وفاعل تراه أنت والهاء مفعول به مصفرّا حال لأن الرؤية بصرية ، ثم يكون حطاما عطف على ما تقدم

(وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ) الواو

عاطفة وفي الآخرة خبر مقدّم وعذاب مبتدأ مؤخر وشديد نعت لعذاب ومغفرة عطف على عذاب ومن اللّه صفة لمغفرة ورضوان عطف على مغفرة ، وسيأتي المزيد من أسرار هذا التركيب في باب البلاغة (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) الواو عاطفة وما نافية والحياة مبتدأ والدنيا نعت للحياة وإلا أداة حصر والغرور مضاف إليه والإضافة بيانية والغرور بالضم ما اغترّ به الشخص من متاع الدنيا .

البلاغة :

1- الاستعارة التمثيلية : في قوله " اعلموا أن اللّه يحيي الأرض بعد موتها " استعارة تمثيلية

، شبّه تليين القلوب بالذكر والتلاوة بعد قساوتها

ونبوّها عن استماع الحق والعمل بأوامره بإحياء الأرض الميتة بالغيث من حيث اشتمال كل واحد منهما على بلوغ الشيء إلى كماله المتوقع بعد خلوّه عنه أو يكون استعارة تمثيلية لإحياء الأموات بأنه شبّه إحياءها بإحياء الأرض الميتة ، وأن من قدر على الثاني قادر على الأول فحقّه أن تخشع القلوب لذكره .

2- وفي قوله "كمثل غيث أعجب الكفّار نباته " الآية استعارة تمثيلية أيضا ، فهو تمثيل للحياة الدنيا في سرعة انقضائها وقلّة جدواها بحال نبات أنبته الغيث فاستوى وأعجب به الحراث أو الكافرون - على خلاف بين المفسرين - لأن هؤلاء وأولئك أشدّ إعجابا بزينة الحياة الدنيا .

3- الطباق : وطابق في قوله " وفي الآخرة عذاب " بين العذاب ، والمغفرة في قوله " ومغفرة من اللّه ورضوان " ولكنه طباق بين واحد وشيئين فهو من باب لن يغلب عسر يسرين وسيأتي تفصيله في سورة الانشراح.

[سورة الحديد (57) : الآيات 21 إلى 25]

سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21) ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (23) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24) لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)

الإعراب:

)

سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) كلام مستأنف مسوق لبيان أسباب وذرائع المفاخرة الحقيقية التي يصحّ التفاخر بها ، وسابقوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وإلى مغفرة متعلقان بسابقوا ومن ربكم نعت لمغفرة (وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ

لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ) وجنة عطف على مغفرة وعرضها مبتدأ وكعرض السموات خبر والجملة نعت لجنة والأرض عطف على السموات وأعدّت فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل المستتر تقديره هي والجملة نعت ثان لجنة ويجوز أن تكون مستأنفة وللذين متعلقان بأعدّت وجملة آمنوا صلة للموصول لا محل لها وبالله متعلقان بآمنوا ورسله عطف على بالله (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) ذلك مبتدأ وفضل الله خبر وجملة يؤتيه في محل نصب حال ويؤتيه فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ومن اسم موصول في محل نصب مفعول ثان وجملة يشاء صلة من والله مبتدأ وذو الفضل العظيم خبر (ما أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا) ما نافية وأصاب فعل ماض ، ومن مصيبة : من حرف جر

(330/749)

زائد ومصيبة مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه فاعل أصاب وذكر الفعل لأن تأنيث المصيبة مجازي ، وفي الأرض نعت لمصيبة أو متعلقان بأصاب أو بنفس مصيبة ، ولا في أنفسكم عطف على في الأرض وإلا أداة حصر وفي كتاب حال من مصيبة لتخصصها بالوصف أو بالعمل إذا علق في الأرض بها أو بمحذوف تقديره إلا هي كائنة في كتاب فهو في محل رفع

خبر لمبتدأ محذوف ومن قبل متعلقان بما تعلق به قوله في كتاب أي إلا ثابتة في كتاب من قبل أن نبرأها ، ونبرأها فعل مضارع منصوب بأن والفاعل مستتر يعود على اللّه تعالى والهاء ضمير متصل في محل نصب مفعول به وهو يعود على المصيبة وقيل على الأنفس وقيل على الأرض وأن وما في حيزها في محل جر بإضافة الظرف إليها والجملة في محل جر صفة لكتاب والضمير في نبرأها عائد إلى المصيبة أو إلى الأنفس أو إلى الأرض أو إلى جميع ذلك ومعنى نبرأها نخلقها (إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) إن واسمها وعلى اللّه متعلقان بيسير ويسير خبر إن (لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ) اللام حرف جر وكي حرف مصدري بمنزلة أن وليست للتعليل لأنها لو كانت كذلك لم يدخل عليها حرف تعليل آخر ولا نافية وتأسوا فعل مضارع منصوب بكي وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل وأصله تأسيون تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا فصار تأساون فالتقى ساكنان الألف والواو التي هي الفاعل فحذفت الألف لالتقاء الساكنين . وفي المصباح : وأسي أسى من باب تعب حزن فهو أسي على فعيل مثل حزين .

واللام الجارّة وما في حيزها متعلقان بمحذوف تقديره: وأعلمناكم أو أخبرناكم وقدّره بعضهم اختبرناكم، والواو حرف عطف ولا نافية وتفرحوا عطف على تحزنوا وبما متعلقان بتفرحوا وجملة آتاكم صلة ومتعلق فاتكم وآتاكم محذوف تقديره من النعم (وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ) والله مبتدأ وجملة لا يحبّ خبر وكل مختال مفعول به وفخور نعت

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ)

الذين بدل من قوله كل مختال فخور كأنه قال: لا يحبّ الذين يبخلون ويجوز أن يكون محله رفعا على الابتداء ويكون خبره محذوفا والتقدير فإنهم يستحقون العذاب ويصحّ أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف أي هم الذين أو منصوبا على الذم بفعل محذوف تقديره أذمّ وهذه الأوجه كلها متساوية في الترجيح وجملة يبخلون صلة الموصول لا محل لها ويأمرون عطف على يبخلون والناس مفعول به وبالبخل متعلقان بيأمرون. واستبعد بعضهم البدلية والوصفية وجعله كاملا مستأنفا لا تعلق له بما قبله (وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم مبتدأ ويتولّ فعل الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلّة والفاء رابطة لجواب الشرط لوقوعه جملة اسمية وإن واسمها وهو ضمير فصل وفي قراءة بسقوطه مما يرجح كونه فعلا لا مبتدأ والغني خبر إن والحميد خبر ثان

والجملة في محل جزم جواب الشرط (لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ) اللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وأرسلنا فعل وفاعل ورسلنا مفعول به وبالبيّنات حال والجملة استئنافية (وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) وأنزلنا عطف على أرسلنا ومعهم ظرف مكان متعلق بمحذوف حال أي وأنزلنا الكتاب حال كونه آئلا وصائرا لأن يكون معهم إذا وصل إليهم في الأرض ، والكتاب مفعول به والميزان عطف على الكتاب واللام للتعليل ويقوم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وبالقسط أي بالعدل متعلقان بمحذوف حال أي قاسطين عادلين ، ولك أن تعلقه بيقوم واللام ومجرورها متعلقان بأرسلنا وأنزلنا لأنها علّة الإرسال والإنزال (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ) الواو عاطفة وأنزلنا فعل وفاعل والحديد مفعول به وفيه خبر مقدّم وبأس مبتدأ مؤخر والجملة حالية من الحديد وشديد صفة أي فيه قوة ومنعة ، والكلام في ذلك طويل ، ومنافع للناس عطف على بأس شديد ، وقلّما تخلو صناعة من الحديد (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

الواو عاطفة وليعلم معطوف على محذوف دلّت عليه جملة فيه بأس شديد فهو علّة للتعليل لا علّة للإرسال والإنزال وبذلك تعلم فساد قول بعض المعربين كالجلال وغيره أنه معطوف على ليقوم ، والله فاعل ومن مفعول به وجملة ينصره صلة من ورسله عطف على الهاء أي

وينصر رسله أيضا وبالغيب حال من هاء ينصره أي غائبا عنهم في الدنيا وإن واسمها وخبراها .

الفوائد :

(333/749)

العطف على الظاهر والضمير : يعطف على الظاهر والضمير المنفصل مرفوعا كان أو منصوبا ، والضمير المتصل المنصوب بلا شرط كقام زيد وعمرو وأنا وأنت قائمان وإياك والأسد ، والعطف على الضمير المتصل المنصوب نحو جمعناكم والأولين فالأولين عطف على الكاف ، ولا يحسن العطف على الضمير المرفوع المتصل بارزا كان أو مستترا إلا بعد توكيده بضمير منفصل نحو " لقد كنتم أنتم وآباؤكم " ونحو " اسكن أنت وزوجك الجنة " وقد أشار ابن مالك في الخلاصة إلى ذلك بقوله :

وإن على ضمير رفع متصل عطفت فافصل بالضمير المنفصل

[سورة الحديد (57) : الآيات 26 إلى 29]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (26) ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ

وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (27) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

(334/749)

اللغة :

(

(

وَقَفَّيْنا) التقفية جعل الشيء في إثر الشيء على الاستمرار فيه ولهذا قيل لمقاطع الشعر قواف إذ كانت تتبع البيت على إثره مستمرة في غيره على منهاجه ، وفي المختار : " قفا أثره اتبعه وبابه عدا وقفى على أثره بفلان أي اتبعه إياه ومنه قوله تعالى : ثم قفينا على آثارهم برسلنا ومنه الكلام المقفى " .

(وَرَهْبانِيَّةً) الرهبانية : المبالغة في العبادة والرياضة والانقطاع عن الناس منسوبة إلى

الرهبان وهو المبالغ في الخوف من رهب كالخشيان من خشي وقرئت بالضم كأنها نسبت إلى الرهبان جمع راهب كراكب وركبان ، وعبارة القاموس : " والراهب واحد رهبان النصارى ومصدره الرهبة والرهبانية أو الرهبان بالضم قد يكون واحد وجمعه رهابين ورهابنة ورهبانون ولا رهبانية في الإسلام هي كالإخصاء واعتناق السلاسل ولبس المسوح وترك اللحم ونحوها " واكتفى صاحب المنجد بالقول : " الرّهبانية والرهبانية : طريقة الرهبان " وعرف الراهب بقوله :

" من اعتزل الناس إلى دير طلبا للعبادة " وسيأتي المزيد من معناها في باب الإعراب .

(كِفْلَيْنِ) نصيبين ضخمين والكفل الحظ ومنه الكفل الذي يتكفل به الراكب وهو كساء أو نحوه يحويه على الإبل إذا أراد أن يرقد فيحفظه من السقوط ففيه حظ من التحرّز من الوقوع .

الإعراب :

)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ) الواو حرف عطف واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وتكرير القسم لإظهار مزيد العناية بالأمر ، وأرسلنا فعل وفاعل ونوحا مفعول به وإبراهيم عطف على نوحا ، وجعلنا عطف على أرسلنا وفي ذريتهما في موضع المفعول الثاني والنبوّة مفعول جعلنا الأول والكتاب عطف على النبوّة وأراد بالكتاب الجنس أي الكتب الأربعة (فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ) الفاء تفريعية ومنهم خبر مقدّم ومهتد مبتدأ مؤخر وكثير مبتدأ ومنهم نعت لكثير وفاسقون خبر كثير (ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وقفينا فعل وفاعل وعلى آثارهم متعلقان بقفينا والباء حرف جر زائد ورسلنا مجرور لفظا منصوب محلا (وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ) وقفينا عطف على قفينا الأولى وبعيسى الباء حرف جر زائد وعيسى مجرور لفظا مفعول به محلا وبن بدل ومريم مضاف إليه ، وآتيناه الواو عاطفة وآتيناه فعل وفاعل ومفعول به أول والإنجيل مفعول به ثان (وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً
وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ)

وجعلنا فعل وفاعل وفي قلوب في موضع المفعول الثاني والذين مضاف إليه وجملة اتبعوه من الفعل والفاعل والمفعول به صلة ورأفة مفعول به أول ورحمة مفعول به ثان ، ورهبانية فيها وجهان : 1- أولهما أنها منسوقة على رأفة ورحمة وجملة ابتدعوها نعت لها وإنما خصّت بذكر الابتداع لأن الرحمة والرأفة في القلب أمر غريزي لا تكسّب للإنسان فيه بخلاف الرهبانية فإنها من أفعال البدن وللإنسان فيها تكسّب. 2- الثاني أنها منصوبة بفعل مقدّر يفسّره الظاهر فتكون المسألة من باب الاشتغال وإلى هذا الإعراب نحا الزمخشري وأبو علي الفارسي والمعتزلة ، وذلك أنهم يقولون ما كان من فعل الإنسان فهو مخلوق له فالرأفة والرحمة لما كانتا من فعل اللّه نسب خلقهما أو تصييرهما إليه والرهبانية لما لم تكن من فعل اللّه تعالى بل من فعل العبد نسب خلقها إليه وإلى القارئ نص عبارة أبي حيان : " ورهبانية معطوف على ما قبله فهي داخلة في الجمل وجملة ابتدعوها جملة في موضع الصفة لرهبانية وخصّت الرهبانية بالابتداع لأن الرأفة والرحمة في القلب لا تكسب للإنسان فيها بخلاف الرهبانية فإنها أفعال بدن مع شيء في القلب ففيها موضع للتكسّب ، قال قتادة : الرحمة من اللّه والرهبانية هم ابتدعوها " والرهبانية رفض الدنيا وشهواتها من النساء وغيرهنّ واتخاذ الصوامع ، وجعل أبو علي الفارسي ورهبانية مقتطعة من العطف على ما قبلها من رأفة ورحمة فانتصب عنده ورهبانية على إضمار فعل يفسّره ما بعده فهو من باب الاشتغال أي وابتدعوا رهبانية ابتدعوها واتبعه الزمخشري فقال :

"

وانتصابها بفعل مضمر يفسّره الظاهر تقديره وابتدعوا رهبانية ابتدعوها يعني وأحدثوها من عند أنفسهم ونذروها " وهذا إعراب المعتزلة وكان أبو علي معتزليا وهم يقولون ما كان مخلوقا للّه لا يكون مخلوقا للعبد ، والرأفة والرحمة من خلق اللّه والرهبانية من ابتداع الإنسان فهي مخلوقة

(337/749)

له ، وهذا الإعراب الذي لهم ليس بجيد من جهة صناعة العربية لأن مثل هذا مما لا يجوز فيه الرفع بالابتداء ولا يجوز الابتداء هنا بقوله ورهبانية لأنها نكرة لا مسوغ لها من المسوغات للابتداء بالنكرة . وقال ابن المنير متعقبا الزمخشري : " في إعراب هذه الآية تورّط أبو علي الفارسي وتحيز إلى فئة الفتنة وطائفة البدعة فأعرب رهبانية على أنها منصوبة بفعل مضمر يفسّره الظاهر وعلّل امتناع العطف فقال : ألا ترى أن الرهبانية لا يستقيم حملها على جعلنا مع وصفها بقوله ابتدعوها لأن ما يجعله هو تعالى لا يبتدعونه هم ، والزمخشري أيضا ورد مورده الذميم وأسلمه شيطانه الرجيم فلما أجاز ما منعه أبو علي من جعلها معطوفة أعذر لذلك بتحريف الجعل إلى معنى التوفيق فرارا مما فرّ منه أبو علي

من اعتقاد أن ذلك مخلوق للّه تعالى وجنوحا إلى الإشراك واعتقاد أن ما يفعلونه هم لا يضلّه اللّه تعالى ولا يخلقه وكفى بما في هذه الآية دليلا بعد الأدلة القطعية والبراهين العقلية على بطلان ما اعتقداه فإن ذكر محل الرحمة والرأفة مع العلم بأن محلها النصب فجعل قوله في قلوب الذين اتبعوه تأكيدا لخلقه هذه المعاني وتصويرا لمعنى الخلق بذكر محله ، ولو كان المراد أمرا غير مخلوق في قلوبهم للّه تعالى كما زعما لم يبق لقوله في قلوب الذين اتبعوه موقع ويأبى اللّه أن يشتمل كتابه الكريم على ما لا موقع له" . أما أبو البقاء فقد جمع بين الرأيين فقال : "قوله تعالى : ورهبانية هو منصوب بفعل دلّ عليه ابتدعوها لا بالعطف على الرحمة لأن ما جعله اللّه تعالى لا يبتدعونه ، وقيل هو معطوف عليها وابتدعوها نعت له والمعنى فرض عليهم لزوم رهبانية ابتدعوها ولهذا قال : ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان اللّه" .

أما ابن هشام فقد قال في المغني : "وقول الفارسي في ورهبانية ابتدعوها أنها من باب زيدا ضربته واعترضه ابن الشجري بأن المنصوب في هذا الباب شرطه أن يكون مختصّا ليصحّ رفعه بالابتداء والمشهور أنه عطف

على ما قبله وابتدعوها صفة ولا بدّ من تقدير مضاف أي وجد رهبانية وإنما لم يحمل أبو

علي الآية على ذلك لاعتزاله فقال : لأن ما يبتدعونه لا يخلقه اللّه عزّ وجلّ" . وخلاصة الخلاف أنه لو جعل ورهبانية عطفا على ما قبله لكان في الكلام تناقض وذلك أن مفاد الكلام يقتضي أن تكون الرهبانية مخلوقة للّه والوصف بالابتداع يقتضي أنها مخلوقة لهم وما كان مخلوقا لهم لا يخلقه اللّه فهو تناقض فعدل الفارسي وتبعه الزمخشري عن العطف وجعله من باب الاشتغال . وإنما أوردنا هذه الأقوال لنريك ما للإعراب من تأثير في توجيه المعتقد ولهذا لم نر لأنفسنا مساغا للترجيح فتدبر . ونعود إلى تتمة إعراب الآية فنقول :

وجملة ابتدعوها إما صفة لرهبانية وإما مفسّرة على القولين وما نافية وكتبناها فعل وفاعل ومفعول به والجملة صفة لرهبانية على كل حال ويجوز أن تكون مستأنفة وإلا أداة استثناء إذا اعتبرنا الاستثناء منقطعا أو أداة حصر إذا اعتبرناه متصلا ، فعلى الأول تعرب ابتغاء استثناء منقطعا وتكون إلا بمعنى لكن والمعنى لم نفرضها عليهم ولكنهم ابتدعوها ، وعلى الثاني تعرب ابتغاء مفعولا من أجله والمعنى ما كتبناها عليهم لشيء من الأشياء إلا لابتغاء مرضاة اللّه ويكون كتب بمعنى قضى .

واكتفى الزمخشري بالوجه الأول (فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها) الفاء عاطفة وما نافية

ورعوها فعل وفاعل ومفعول به وحق رعايتها مفعول مطلق (فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ

وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ) الفاء حرف عطف وآتينا فعل وفاعل والذين مفعول به وجملة آمنوا لا

محل لها لأنها صلة الموصول ومنهم حال وأجرهم مفعول به ثان وكثير مبتدأ ومنهم نعت

وفاسقون خبر (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ) يا حرف

نداء وأي منادى نكرة مقصودة مبني على الضم والهاء للتنبيه والذين بدل وجملة آمنوا صلة

واتقوا اللّه فعل أمر وفاعل ومفعول به وآمنوا فعل أمر معطوف على اتقوا وبرسوله متعلقان

بآمنوا ويؤتكم فعل

(340/749)

مضارع مجزوم لأنه جواب الأمر وعلامة جزمه حذف حرف العلّة والكاف مفعول به أول

وكفلين مفعول به ثان ومن رحمته نعت لكفلين (وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ) عطف على

يؤتكم ولكم متعلقان بيجعل أو في موضع المفعول الثاني ونورا مفعول يجعل وجملة تمشون به

نعت لنورا (وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) عطف على ما تقدم ولكم متعلقان بيغفر واللّه

مبتدأ وغفور خبر أول ورحيم خبر ثان (لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ

فَضْلِ اللَّهِ) اللام لام التعليل وأن حرف مصدري ونصب ولا زائدة ويعلم فعل مضارع منصوب بأن أي ليعلم أعمالكم بذلك فاللام متعلقة بمحذوف مقتبس من معنى الجملة الطلبية وأهل الكتاب فاعل يعلم وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ولا نافية وجملة يقدرون خبر أن والمعنى أنهم لا يقدرون وعلى شيء متعلقان بيقدرون ومن فضل الله نعت لشيء وأن وما في حيزها سدّت مسدّ مفعولي يعلم (وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ) الواو عاطفة وأن وما في حيزها عطف على أن لا يقدرون داخل في حيّز المعلوم وأن واسمها وبيد الله خبر أن وجملة يؤتيه مستأنفة أو خبر ثان لأن والهاء مفعول به أول ومن مفعول به ثان وجملة يشاء صلة (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) الله مبتدأ وذو الفضل خبره والعظيم نعت للفضل.

الفوائد :

قد يعترض الكلام نفي فيلزم إظهار "أن" بعد لام التعليل التي لحقتها "لا" ولو أضمرت "أن" هنا لم يجز لأن إضمارها يؤدي إلى مباشرة حرف الجر حرف النفي وذلك غير جائز.

انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 9 صـ 451. 480﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخمسون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخمسون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة المجادلة)

(4/750)

(سورة المجادلة)

(5/750)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة المجادلة

مقصودها الإعلام بإيقاع البأس الشديد ، الذي أشارت إليه الحديد ، بمن حاد الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) لما له سبحانه من تمام العلم ، اللازم عنه تمام القدرة ، اللازم عنه الإحاطة بجميع صفات الكمال ، وعلى ذلك دلت تسميتها بالمجادلة بأول قصتها

وآخرها ، وعلى تكرير الاسم الأعظم الجامع في القصة وجميع السورة تكريرا لم يكن في سواها بحيث لم تخل منه آية ، وأما الآيات التي تكرر في كل منها المرتين فأكثر فكثرة كل ذلك ، للدلالة على أن الأكثر منها المراد فيها بالخطاب من يصح أن ينظر إليه تارة بالجلال ، وتارة بالكمال ، فيجمع له الوصفان ، وهو من آمن ووقع منه هفوة أو عصيان ، ولهذا ضمنها أشياء شدد النكير فيها حين وقع بعض أهل الإيمان ، ولم يبحها لهم عند وقوعهم فيها ردا للشرع إلى ما دعا إليه الطبع كما فعل في غيرها كالأكل والجماع في ليل رمضان من غير تقييد بيقظة ولا منام ، لمنابذتها للحكمة ، وبعدها عن موجبات الرحمة ، وهذا مؤيد لما تقدم من سر إخلاء الواقعة والرحمن والقمر من هذا الاسم الجامع . والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 474 ﴾

(6/750)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . قد سمع)

السّورة مدنيّة بالاتّفاق .

آياتها اثنتان وعشرون عند الجمهور ، وإِحدى وعشرون عند المكّيين .

وكلماتها أَربعمائة وثلاث وسبعون .

وحروفها أَلف وسبعمائة واثنتان وتسعون .

المختلف فيها آية واحدة : ﴿ فِي الأَذَلِّينَ ﴾ مجموع فواصل آياتها (من زرد) وعلى حرف الزّاءِ آية واحدة : ﴿ عَزِيزٌ ﴾ فحسب .

سمّيت سورة المجادلة ، لقوله : ﴿ تجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ .

معظم مقصود السّورة : بيان حُكْم الظِّهار ، وذكر النجوى والسّرار ، والأَمر بالتَّوسع فى المجالس ، وبيان فضل أَهل العلم ، والشكاية من المنافقين ، والفرق بين حِزب الرّحمن ، وحزب الشيطان ، والحكم على بعض بالفلاح ، وعلى بعض بالخسران ، فى قوله : ﴿ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ و ﴿ هُمُ المُفْلِحُوْنَ ﴾ .

المتشابهات

﴿ الَّذينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِّن نِّسَآئِهِمْ ﴾ وبعده : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِّن نِّسَآئِهِمْ ﴾ لأَنَّ الأَوّل خطاب للعرب ؛ وكان طلاقهم فى الجاهلية الظِّهار ، فقيّده بقوله : ﴿ مِنكُمْ ﴾ وبقوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً ﴾ ثمّ بيّن أَحكام الظِّهار للنَّاس عامّة ، فعطف عليه فقال : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ ﴾ فجاءَ فى كلّ آية ما اقتضاه معناه .

قوله : ﴿ وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، وبعده : ﴿ وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ لأَنَّ الأَوّل

متَّصل بضدّه، وهو الإِيمان فتوعَدهم على الكفر بالعذاب الأَليم الَّذى هو جزاء الكافرين، والثَّانى متَّصل بقوله: ﴿كُبِتُواْ﴾ وهو الإِذْلال والإِهانة، فوصف العذاب بمثل ذلك فقال: ﴿مُّهِينٌ﴾.

قوله: ﴿جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ بالفاءِ؛ لما فيه من التعقيب، أَى فبئس المصِيرُ ما صاروا إِليه، وهو جهنَّم.

(7/750)

قوله: ﴿مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَائِكَ﴾ بغير واو، موافقة للجمل الَّتى قبلها، وموافقة لقوله: ﴿أُوْلَائِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾.

فضل السّورة

فيه حديثان ضعيفان: مَن قرأَ سورة المجادلة كُتِب من حزب الله يوم القيامة، وحديث علىّ: يا علىّ من قرأَها قضى الله له أَلف حاجة أَدناها أَن يُعتقه من النّار، ونزلت عليه أَلفُ ملك يستغفرون له باللَّيل، ويكتبون له الحسنات، وله بكلّ آية قرأَها مثل ثُواب مَنْ يطلب قُوَتَه من الحلال. انتهى انتهى. اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 456. 457﴾

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة المجادلة

432 - مسألة :

قوله تعالى : (وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ؟ .

وقال تعالى بعده (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ)

جوابه :

لما قابل في الأولى الإيمان بالكفر في قوله

تعالى : (ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) قال : (عَذَابٌ مُهِينٌ)

وكل عذاب مؤلم مهين . ولما قال تعالى في الثانية : (كُبِتُوا) ، والكبت هو : الإذلال والإهانة ،

ناسب ختمه بـ

(عَذَابٌ مُهِينٌ) .

433 - مسألة :

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ ؟ .

وفى آخر السورة : ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾

جوابه :

أن الأولى : مطلق في المؤمن والكافر .

والثانية : في المنافقين خاصة ، لأنهم كانوا يحلفون للنبي – صلى الله عليه وسلم – لنفى ما ينسب إليهم من النفاق وما يدل عليه .

434 – مسألة :

قوله تعالى : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ وقال تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾

جوابه تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 353.354﴾

(9/750)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة المجادلة

سميت هذه السورة في كتب التفسير وفي المصاحف وكتب السنة سورة المجادِلَة بكسر الدال أو بفتحه كما سيأتي . وتسمى سورة قد سمع وهذا الاسم مشتهر في الكتاتيب في تونس ، وسميت في مصحف أُبيّ بن كعب سورة الظهار .

ووجه تسميتها سورة المجادلة لأنها افتتحت بقضية مجادلة امرأة أوس بن الصامت لدى النبي في شأن مظاهَرة زوجها .

ولم يذكر المفسرون ولا شارحو كتب السنة ضبطه بكسر الدال أو فتحها . وذكر الخفاجي في حاشية البيضاوي (عن (الكشف) أن كسر الدال هو المعروف (ولم أدر ما أراد الخفاجي بالكشف الذي عزا إليه هذا) ، فكشف القزويني على (الكشاف) لا يوجد فيه ذلك ، ولا في التفسير المسمى (الكشفَ والبيان) للثعلبي . فلعلّ الخفاجي رأى ذلك في (الكشف) الذي ينقل عنه الطّيبي في مواضع تقريرات لكلام (الكشاف) وهو غير معروف في عداد شروح (الكشاف) ، وكسر الدال أظهر لأن السورة افتتحت بذكر التي تُجادِل في زوجها فحقيقة أن تضاف إلى صاحبة الجدال ، وهي التي ذكرها الله بقوله : (التي تجادلك في زوجها ((المجادلة : 1) . ورأيت في نسخة من حاشية محمد الهمداني على (الكشاف) المسماة (توضيح المشكلات) ، بخط مؤلفها جعل علامة كسرة تحت دال المجادلة . وأما فتح الدال فهو مصدر مأخوذ من فعل) تجادلك (كما عبر عنها بالتحاور في قوله تعالى : (والله يسمع تحاوركما ((المجادلة : 1) .

وهذه السورة مدنية قال ابن عطية : بالإجماع . وفي (تفسير القرطبي) عن عطاء : أن العشر الأول منها مدني وباقيها مكي . وفيه عن الكلبي أنها مدنية إلا قوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) (المجادلة : 7) الآية نزلت بمكة .

(10/750)

وهي السورة المائة وثلاث في عداد نزول سور القرآن نزلت بعد سورة المنافقين وقبل سورة التحريم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ 6.5 ﴾

(11/750)

وقال الشيخ سيد قطب :

مقدمة لسورة المجادلة

نحن في هذه السورة - وفي هذا الجزء كله تقريبا - مع أحداث السيرة في المجتمع المدني . مع الجماعة المسلمة الناشئة ; حيث تربى وتقوم , وتعد للنهوض بدورها العالمي , بل بدورها الكوني , الذي قدره الله لها في دورة هذا الكون ومقدراته . وهو دور ضخم يبدأ من

إنشاء تصور جديد كامل شامل لهذه الحياة , في نفوس هذه الجماعة , وإقامة حياة واقعية على أساس هذا التصور , ثم تحمله هذه الجماعة إلى العالم كله لتنشئ للبشرية حياة إنسانية قائمة على أساس هذا التصور كذلك . . وهو دور ضخم إذن يقتضي إعدادا كاملا .

ولقد كان أولئك المسلمون الذين يعدهم القدر لهذا الدور الضخم , ناسا من الناس . منهم السابقون من المهاجرين والأنصار الذين نضج إيمانهم , واكتمل تصورهم للعقيدة الجديدة , وخلصت نفوسهم لها , ووصلوا . . وصلوا إلى حقيقة وجودهم وحقيقة هذا الوجود الكبير ; واندمجت حقيقتهم مع حقيقة الوجود , فأصبحوا بهذا طرفا من قدر الله في الكون ; لا يجدون في أنفسهم عوجا عنه , ولا يجدون في خطاهم تخلفا عن خطاه , ولا يجدون في قلوبهم شيئًا إلا الله . . كانوا كما جاء عنهم في هذه السورة:(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله , ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان , وأيدهم بروح منه , ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . رضي الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون) . .

ولكن هؤلاء السابقين كانوا قلة بالقياس إلى الجماعة المسلمة المتزايدة العدد - وبخاصة بعد أن أصبح الإسلام قوة ترهب - حتى قبل الفتح - ودخل فيه من لم يتلق من التربية الإسلامية القسط الكافي, ولم يتنفس في الجو الإسلامي فترة طويلة. كما دخل فيه من المنافقين من آثر المصلحة أو العافية على دخل في القلوب, وتربص بالفرص, وذبذبة بين المعسكر الإسلامي والمعسكرات القوية المناوئة له في ذلك الحين. سواء معسكرات المشركين أو اليهود! ولقد اقتضت تربية النفوس وإعدادها للدور الكوني الكبير المقدر لها في الأرض جهودا ضخمة, وصبرا طويلا, وعلاجا بطيئا, في صغار الأمور وفي كبارها.. كانت حركة بناء هائلة هذه التي قام بها الإسلام, وقام بها رسول الإسلام (صلى الله عليه وسلم) بناء النفوس التي تنهض ببناء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية, وتقوم على منهج الله, تفهمه وتحققه, وتنقله إلى أطراف الأرض في صورة حية متحركة, لا في صحائف وكلمات.

ونحن نشهد في هذه السورة - وفي هذا الجزء كله - طرفا من تلك الجهود الضخمة, وطرفا من الأسلوب القرآني كذلك في بناء تلك النفوس, وفي علاج الأحداث والعادات والنزوات; كما نشهد جانبا من الصراع الطويل بين الإسلام وخصومه المختلفين من مشركين ويهود ومنافقين.

وفي هذه السورة بصفة خاصة نشهد صورة موحية من رعاية الله للجماعة الناشئة; وهو

يصنعها على عينه , ويربيها بمنهجه , ويشعرها برعايته , ويبني في ضميرها الشعور الحي بوجوده - سبحانه - معها في أخص خصائصها , وأصغر شؤونها , وأخفى طواياها ; وحراسته لها من كيد أعدائها خفيه وظاهره ; وأخذها في حماه وكنفه , وضمها إلى لوائه وظله ; وتربية أخلاقها وعاداتها وتقاليدها تربية تليق بالجماعة التي تنضوي إلى كنف الله , وتنتسب إليه , وتؤلف حزبه في الأرض , وترفع لواءه لتعرف به في الأرض جميعا .

(13/750)

ومن ثم تبدأ السورة بصورة عجيبة من صور هذه الفترة الفريدة في تاريخ البشرية . فترة اتصال السماء بالأرض في صورة مباشرة محسوسة , ومشاركتها في الحياة اليومية لجماعة من الناس مشاركة ظاهرة:(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله , والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) . فنشهد السماء تتدخل في شأن يومي لأسرة صغيرة فقيرة مغمورة , لتقرر حكم الله في قضيتها , وقد سمع - سبحانه - للمرأة وهي تحاور رسول الله فيها , ولم تكد تسمعها عائشة وهي قريبة منها ! وهي صورة تملأ القلب بوجود الله وقربه وعطفه ورعايته .

يليها في سياق السورة توكيد أن الذين يحادون الله ورسوله - وهم أعداء الجماعة المسلمة

التي تعيش في كنف الله - مكتوب عليهم الكبت والقهر في الأرض , والعذاب المهين في الآخرة , مأخوذون بما عملوا مما أحصاه الله عليهم , ونسوه هم وهم فاعلوه !(والله على كل شيء شهيد) . .

ثم توكيد وتذكير بحضور الله - سبحانه - وشهوده لكل نجوى في خلوة , يحسب أصحابها أنهم منفردون بها . والله معهم أينما كانوا: (ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة , إن الله بكل شيء عليم) . . وهي صورة تملأ القلب كذلك بوجود الله وحضوره , كما تملؤه برقابته واطلاعه .

وهذا التوكيد مقدمة لتهديد الذين يتناجون في خلواتهم لتدبير المكايد للمسلمين , وملء قلوبهم بالحزن والهم والتوجس . تهديد بأن أمرهم مكشوف , وأن عين الله مطلعة عليهم , ونجواهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول مسجلة , وأن الله آخذهم بها ومعذبهم عليها . ونهي للمسلمين عن التناجي بغير البر والتقوى , وتربية نفوسهم وتقويمها بهذا الخصوص .

ثم يستطرد في تربية هذه النفوس المؤمنة ; فيأخذها بأدب السماحة وبالطاعة في مجلس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومجالس العلم والذكر . كما يأخذها بأدب السؤال والحديث مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) والجد في هذا الأمر والتوقير .

أما بقية السورة بعد هذا فتنصرف إلى الحديث عن المنافقين الذين يتولون اليهود ; ويتآمرون معهم , ويدارون تآمرهم بالكذب والحلف للرسول وللمؤمنين . وتصورهم في الآخرة كذلك حلافين كذابين ; يتقون بالحلف والكذب ما يواجههم من عذاب الله , كما كانوا يتقون بهما في الدنيا ما يواجههم من غضب رسول الله والمؤمنين ! مع توكيد أن الذين يحادون الله ورسوله كتب الله عليهم أنهم في الأذلين وأنهم هم الأخسرون . كما كتب أنه ورسله هم الغالبون . وذلك تهوينا لشأنهم , الذي كان بعض المنتسبين إلى الإسلام - وبعض المسلمين - يستعظمه , فيحافظ على مودته معهم , ولا يدرك ضرورة تميز الصف المسلم تحت راية الله وحدها , والاعتزاز برعاية الله وحده , والاطمئنان إلى حراسته الساهرة للفئة التي يصنعها على عينه , ويهيئها لدورها الكوني المرسوم .

وفي ختام السورة تجيء تلك الصورة الوضيئة لحزب الله . هذه الصورة التي كان يمثلها بالفعل أولئك السابقون من المهاجرين والأنصار . والتي كانت الآية الكريمة تشير لها كي ينتهي إليها أولئك الذين ما زالوا بعد في الطريق !

(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله . .)الخ الآية . . .

كما وردت في أول هذا التقديم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3533 .

وقال الشيخ الصابونى :

سورة المجادلة

مدنية وآياتها اثنان وعشرون آية

بين يدي السورة

* سورة المجادلة مدنية ، وقد تناولت أحكاما تشريعية كثيرة كأحكام الظهار ، والكفارة التي تجب على المظاهر ، وحكم التناجى ، وآداب المجالس ، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وعدم مودة أعداء الله ، إلى غير ذلك ، كما تحدثت عن المنافقين وعن اليهود .

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان قصة المجادلة (خولة بنت ثعلبة) التي ظاهر منها زوجها - على عادة أهل الجاهلية في تحريم الزوجة بالظهار - وقد جاءت تلك المرأة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تشكو ظلم زوجها لها وقالت يا رسول الله : " أكل مالي ، وأفنى شبابي ، ونثرت له بطني ، حتى إذا كبرت سني ، وانقطع ولدي ، ظاهر مني) ورسول الله ، يقول لها : (ما أراك إلا قد حرمت عليه) ، فكانت تجادله وتقول يا رسول الله : ما طلقني

ولكنه ظاهر مني ، فيرد عليها قوله السابق ، لم قالت : اللهم إني أشكو إليك ، فاستجاب الله دعاءها ، وفرج كربتها وشكواها [قد سمع الله قول التى تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله . .] الآيات .

* ثم تناولت حكم كفارة الظهار [الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور . .] الآيات .

* ثم تحدثت عن موضوع التناجي ، وهو الكلام سرا بين اثنين فأكثر ، وقد كان هذا من دأب اليهود والمنافقين لإيذاء المؤمنين ، فبينت حكمه وحذرت المؤمنين من عواقبه [ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم . .] الآيات .

* وتحدثت السورة عن اليهود اللعناء ، الذين كانوا يحضرون مجلس الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيحيونه بتحية ملغوزة ، ظاهرها التحية والسلام ، وباطنها الشتيمة والمسبة ، كقولهم : السام عليك يا محمد يعنون الموت [وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله] الآيات .

* وتناولت السورة الحديث عن المنافقين بشيء من الإسهاب ، فقد اتخذوا اليهود بخاصة أصدقاء ، يحبونهم ويوالونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ، فكشفت الستار عن هؤلاء المذبذبين وفضحتهم [ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم . .] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة ببيان حقيقة الحب في الله ، والبغض في الله ، الذي هو أصل الإيمان ، وأوثق عرى الدين ، ولا بد في اكتمال الإيمان من معاداة أعداء الله [لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان . .] إلى آخر السورة الكريمة .

انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 333. 334 ﴾

(17/750)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة المجادلة

سمع : أي أجاب وقبل ، كما يقال سمع الله لمن حمده ، والتي تجادلك فى زوجها : هى خولة

بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية ، وتجادلك : أي تراجعك الكلام فى أمره وفيما صدر منه فى شأنها ، وتشتكى إلى اللّه : أي تبثّ إليه ما انطوت عليه نفسها من غمّ وهمّ وتضرع إليه أن يزيل كربها ، وزوجها : هو أوس بن الصامت أخو عبادة ابن الصامت ، والسمع : صفة تدرك بها الأصوات أثبتها اللّه تعالى لنفسه ، والتحاور :

المرادّة فى الكلام ، والكلام المردّد ، كما يقال كلمته فما رجع إلىّ حوارا : أي ما ردّ علىّ بشىء ، والظهار : لغة من ظاهر ويراد به معان مختلفة باختلاف الأغراض فيقال ظاهر فلان فلانا : أي نصره ، وظاهر بين ثوبين : أي لبس أحدهما فوق الآخر ، وظاهر من امرأته : أي قال لها أنت علىّ كظهر أمي ، أي محرمة ، وقد كان هذا أشدّ طلاق فى الجاهلية ، والظهار شرعا : تشبيه المرأة أو عضو منها بامرأة محرمة نسبا أو رضاعا أو مصاهرة بقصد التحريم لا بقصد الكرامة ، ولهذا المعنى نزلت الآية ، "إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ" : أي ما أمهاتهم ، والمنكر : ما ينكره الشرع والعقل والطبع ، وزورا : أي كذبا ، فتحرير رقبة : أي عتق عبد أو جارية ، أن يتماسا : أي يجتمعا اجتماع الأزواج ، متتابعين : أي متواليين ، فمن لم يستطع : أي لم يقدر على ذلك لكبر سنّ أو ضعف أو شبق إلى النساء ، حدود اللّه : أي أحكام شريعته ، وللكافرين : أي للذين يتعدّون الأحكام ولا يعملون بها .

يحادون : أي يشاقون ويعادون ، وأصل المحادّة الممانعة ومنه قيل للبواب حداد ، كبتوا : أي خذلوا ، وقال المبرد : كبت اللّه فلانا إذا أذله ، والمردود بالذل : مكبوت ، آيات بينات : أي حججا وبراهين مبينة لحدود شرائعنا ، مهين : أي يلحق بهم الهوان والذل ، فينبئهم بما عملوا : أي يخبرهم بأعمالهم توبيخا وتقريعا لهم ، أحصاه اللّه : أي أحاط به عدّا لم يغب عنه شىء منه ، شهيد : أي مشاهد لا يخفى عليه شىء

ألم تر : أي ألم تعلم ، ما يكون : أي ما يوجد ، والنجوى : التناجي والمسارّة كما قال :

"لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ"

وقد يستعمل فى المتناجين كما قال : " وَإِذْ هُمْ نَجْوى " أي أصحاب نجوى .

الذين نهوا عن النجوى : هم اليهود والمنافقون ، بالإثم : أي بما هو معصية وذنب ، والعدوان : الاعتداء على غيرهم كمعصية الرسول ومخالفته ، لولا يعذبنا اللّه : أي هلا يعذبنا بسبب ذلك ، حسبهم جهنم : أي عذاب جهنم كاف لهم ، يصلونها : أي يقاسون حرّها .

تفسحوا : أي توسعوا وليفسح بعضكم عن بعض ، من قولهم : افسح عنى أي تنحّ ، يفسح اللّه لكم : أي فى رحمته ويوسع لكم فى أرزاقكم ، انشزوا : أي انهضوا للتوسعة على المقبلين ، فانشزوا أي فانهضوا ولا تتباطئوا ، يرفع اللّه الذين آمنوا : أي يرفع منزلتهم يوم

القيامة ، ويرفع الذين أوتوا العلم درجات ، أي ويرفع العالمين منهم خاصة درجات فى الكرامة وعلوّ المنزلة .

ناجيتم الرسول : أي أردتم مناجاته والحديث معه ، فقدموا بين يدى نجواكم صدقة : أي فتصدقوا قبلها ، أطهر : أي أزكى ، لتعويد النفس بذل المال وعدم الضنّ به ، أشفقتم : أي خفتم ، تاب اللّه عليكم : أي رخص لكم فى المناجاة من غير تقديم صدقة .

(19/750)

ألم تر : أي أخبرنى وهو أسلوب من الكلام يراد به التعجب وإظهار الغرابة المخاطب ، والمراد من الذين تولوا : المنافقون ، والتولي : من الموالاة وهى المودة والمحبة ، والقوم : هم اليهود ، وغضب اللّه : سخطه والطرد من رحمته ، ما هم منكم ولا منهم : أي لأنهم مذبذبون ، على الكذب : أي على أنهم معكم على الإيمان ، جنة : أي وقاية وسترا عن المؤاخذة ، على شىء : أي من جلب منفعة أو دفع مضرة ، استحوذ على الشيء : حواه وأحاط به قال المبرد ويقال حاوزت الإبل وحزتها إذا استوليت عليها وجمعتها ، قالت عائشة : كان عمر أحوذيا نسيج وحده : أي سائسا ضابطا للأمور لا نظير له ، فأنساهم ذكر اللّه : أي لم يمكنهم من ذكره بما زين لهم من الشهوات ، وحزب

الشيطان: جنوده وأتباعه.

يحادون: أي يعادون ويشاقون، في الأذلين: أي في جملة أذلّ خلق اللّه، لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر، كتب اللّه: أي قضى وحكم، لأغلبنّ: أي بالحجة والسيف، وأيدهم: أي قواهم، بروح من عنده: أي بنور يقذفه في قلب من يشاء من عباده، لتحصل له الطمأنينة والسكينة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿تفسير المراغي حـ 28 صـ 25.4﴾. باختصار.

(20/750)

وقال الفراء:

سورة (المجادلة)

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

قوله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا . . . ﴾.

نزلت فى امرأة يقال لها: خولة بنت ثعلبة، وزوجها أوس بن الصامت الأنصارى، قال لها [/ب] إن لم أفعل كذا وكذا قبل أن تخرجى من البيت فأنت علىّ كظهر أمى، فأتت خولة

رسول الله صلى الله عليه تشكو، فقالت: إن أوس بن الصامت تزوجنى شابة غنية، ثم قال لى كذا وكذا وقد ندم، فهل من عذر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه: ما عندى فى أمرك شىء، وأنزل الله الآيات فيها، فقال عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾، وهى فى قراءة عبدالله: (قد يسمع الله)، "والله قد يسمع تحاوركما"، وفى قراءة عبدالله: "قول التى تحاورك فى زوجها" حتى ذكر الكفّارة فى الظهار، فصارت عامة.

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِّن نِّسَآئِهِمْ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ...﴾.

قرأها يحيى والأعمش وحمزة (يظّاهرون)، وقرأها بعض أهل الحجاز كذلك، وقرأها الحسن ونافع "يظَّهَّرُون" فشدد، ولا يجعل فيها ألفا، وقرأها عاصم وأبو عبد الرحمن السلمى (يُظاهِرون) يرفعان الياءَ، ويثبتان الألف، ولا يشددان، ولا يجوز فيه التشديد إذا قلت: (يظاهرون) وهى فى قراءة أبىّ: يتظاهرون من نسائهم قوة لقراءة أصحاب عبدالله.

وقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ...﴾.

الأمهات فى موضع نصب لما ألقيت منها الباء نصبتَ ، كما قال فى سورة يوسف: ﴿ مَا هذا بَشراً ﴾ إنما كانت فى كلام أهل الحجاز: ما هذا ببشر ؛ فلما ألقيت الباء ترك فيها أثر سقوط الباء وهى فى قراءة عبد الله "ما هن بأمهاتهم" ، وأهل نجد إذا ألقوا الباء رفعوا ، فقالوا "ما هذا بشر" ، "ما هن أمهاتهم" .

أنشدنى بعض العرب:

رِكابُ حُسَيلٍ آخرَ الصيفِ بُدَّن * وناقةُ عمرو ما يُحلّ لها رحل

ويزعم حسل أنه فرع قومه * وما أنت فرع يا حسيل ولا أصل

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ . . . ﴾ .

يصلح فيها فى العربية: ثم يعودون إلى ما قالوا ، وفيما قالوا . يريد : يرجعون عما قالوا ، وقد يجوز فى العربية أن تقول: إن عاد لما فعل ، يريد إن فعله مرة أخرى ، ويجوز: إن عاد لما فعل: إن نقض ما فعل ، وهو كما تقول: حلف ان يضربك فيكون معناه: حلف لا يضربك وحلف ليضربنك .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ

وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

وقوله: ﴿ كُبِتُوا . . . ﴾ .

غيظوا وأحزِنوا يوم الخندق ﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يريد: من قاتل الأنبياء من قبلهم.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى . . . ﴾ .

(22/750)

القراء على الياءِ فى يكون، وقرأها بعضهم: ما تكون؛ لتأنيث: النجوى.

وقوله: ﴿ ثَلَاثَةٍ . . . ﴾ .

إن شئت خفضتها على أنها من نعت النجوى، وإن شئت أضفت النجوى إليها، ولو نصبت على أنها لكان.كان صوابا.

وقوله: ﴿ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ . . . ﴾ .

وهى فى قراءة عبد الله: "ولا أربعة إلاَّ هو خامسُهم" لأن المعنى غير مضمور له، فكفى ذكر بعض العدد من بعض.

وقوله: ﴿ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ... ﴾.

موضع: أدنى، وأكثر. خفض لاتباعه: الثلاثة، والخمسة، ولو رفعه رافع كان صواباً، كما قيل: ﴿ ما لكم من إله غيرُه ﴾، كأنه قال: ما لكُم إله غيره.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

[١/] وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى... ﴾.

نزلت فى اليهود والمنافقين، وكانوا إذا قاعدوا مسلماً قد غزا له قريب فى بعض سرايا رسول الله صلى الله عليه تناجى الاثنان من اليهود والمنافقين بما يوقع فى قلب المسلم أن صاحبه قد قتل، أو أصيب، فيحزن لذلك، فنهوا عن النجوى.

وقد قال الله: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ . . . ﴾

وقوله: ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ . . . ﴾ .

قراءة العوام بالألف ، وقرأها يحيى بن وثاب: وينتجون ، وفى قراءة عبد الله: إذا انْتَجَيْتُمْ فلا تَنْتَجُوا .

وقوله: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ . . . ﴾ .

كانت اليهود تأتى النبى صلى الله عليه ، فيقولون: السام عليك: فيقول لهم: وعليكم ، فيقولون: لو كان محمد نبياً لاستجيب له فينا ؛ لأنّ السام: الموت ، فذلك قوله: ﴿ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ : أى: هلاَّ .

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا . . . ﴾ .

قرأها الناس: تفَسَّحُوا ، وقرأ الحسن: تفاسحوا ، وقرأ أبو عبد الرحمن: فى المجالِس ، وتفاسحوا ، وتفسَّحوا متقاربان مثل: تظاهرون ، وتظَّهرون ، وتعاهدته وتعهّدته ، راءيت ورأّيت ، ولا تُصاعر ولا تُصعّر .

وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا . . . ﴾ .

قرأ الناس بكسر الشين ، وأهل الحجاز يرفعونها ، وهما لغتان كقولك: يَعْكِفُونَ ويَعْكُفُون ،

ويعرِشون ، ويعرُشون .

(24/750)

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً . . . ﴾ .

كانوا قد أُمروا أن يتصدقوا قبل أن يكلموا رسول الله صلى الله عليه. بالدرهم ونحوه ، فثقُل ذلك عليهم ، وقلَّ كلامهم رسول الله صلى الله عليه بخلاً بالصدقة ، فقال الله:

﴿ أَأَشْفَقْتُمْ . . . ﴾ أى: أبخلتم أن تتصدقوا ، فإن فعلتم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فنَسخت الزكاة ذلك الدرهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى

الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً . . . ﴾ .

نزلت فى المنافقين كانوا يوالون اليهود "ما هم منكم" من المسلمين ، "ولا منهم" على دين المنافقين ؛ هم يهود .

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ . . . ﴾ .

غلب عليهم .

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

وقوله: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي . . . ﴾ .

الكتاب: يجرى مجرى القول ، تدخل فيه أن ، وتستقبل بجواب اليمين ؛ لأنك تجد الكتاب قولا فى المعنى كُنى عنه بالكتاب ، كما يكنّى عن القول: بالزعم ، والنداء ، والصياح ، وشبهه .

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

[/ب] وقوله: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . . ﴾ .

نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة ، وذلك أنه كتب إلى أهل مكة: أن النبى صلى الله عليه يريد أن يغزوكم فاستعدوا لمّا أراد رسول الله صلى الله عليه افتتاح مكة ، فأتى النبىَّ صلى الله عليه بذلك الوحى ، فقال له: ما دعاك إلى ما فعلت؟ قال: أحببت أن أتقرب إلى أهل مكة لمكان عيالى فيهم ، ولم يكن عن عيالى ذابٌّ هناك ، فأنزل الله هذه الآية .

الجماعة من أهل الكوفة والبصرة والحجاز على: كَتَبَ فِى قُلُوبِهِم ، وقَرأ بعضهم: كُتِبَ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 138. 142 ﴾

(26/750)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة المجادلة

(قد سمع الله) [1] نزلت في خولة بنت ثعلبة بن خويلد وزوجها أوس بن الصامت ، قال لها : أنت علي كظهر أمي ، وكان الظهار طلاق الجاهلية . (ثم يعودون لما قالوا) [3] توهم بعض الناس من هذا أن الظهار لا يقع في أول مرة حتى يعود إليه مرة أخرى .

وقد يكون العود في كلام العرب أن يصير إلى [شيء] ، وإن لم يكن عليه قبل ، ومنه يقال للآخرة: المعاد ، وهو في شعر الهذليين شائع ، قال ساعدة بن جؤية: 1258- حتى يقال وراء الدار منتبذاً قم لا أبالك سار الناس [فاحتزم] 1259- فقام يرعد كفاه بميبله قد عاد رهباً [رذياً طائش] القدم/وقال أبو خراش:

1260- وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى الحق شيئاً واستراح العواذل 1261- وأصبح إخوان الصفاء كأنما أهال عليهم جانب الترب هائل . وإذا ثبت هذا فقد قال [عبيد الله بن الحسين]: معنى (ثم يعودون لما قالوا) : أي: يعودون إلى المقول ، أي: إلى نسائهم . كأن التقدير: والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة لما قالوا ، ثم يعودون إلى نسائهم . وصرف هذا التأويل ، أن "ما قالوا" بمعنى المصدر ، والمصدر بمعنى المفعول ، مثل قولهم: هذا ضرب الأمير ، ونسج بغداد ، أي: مضروبه ومنسوجها . وقد قال كثير في المقالة بمعنى المفعول:

1262- وإن ابن ليلى [فاه] لي بمقالة ولو سرت فيها كنت ممن ينيلها . فإن المعنى: ولو سرت في طلبها كنت ممن ينيله إياها ، وإنما يطلب ما يعد به الملوك من جوائزها ، لا ما تلفظ

به. {ذلك لتؤمنوا بالله} [4] تطيعوه، ولا تذهبوا إلى طلاق الجاهلية. وقيل: تقديره: ذلك لإيمانكم بالله، فيقتضي أن لا يصح ظهار [الذمي]. {كبتوا} [5] أي: في يوم الأحزاب. {كما كبت الذين من قبلهم}

(27/750)

في يوم بدر. {نهوا عن النجوى} [8] أي: السرار. وقيل: إن النجوى أخص من السرار، فإن الإنسان يسر في نفسه ولا يناجي نفسه، وإنما النجوى: إجالة الرأي: مع القلب [المختار]، كما قال نصيب: 1263- من النفر البيض الذين إذا انتجوا أقرت لنجواهم لؤي بن غالب 1264- يحيون بسامين طوراً وتارةً يحيون عباسين شوس الحواجب.

[تمت سورة المجادلة]. انتهى انتهى. اهـ ﴿باهر البرهان صـ 1479. 1483﴾

(28/750)

وقال الأخفش:

سورة (المجادلة)

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِّن نِّسَآئِهِمْ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾

قال ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ ﴾ خفيفة وثقيلة. ومن ثقل جعلها من "تَظَهَّرْت" ثم ادغم التاء في الظاء.

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

وقوله ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ المعنى: "فتحريرُ رقَبَةٍ من قبْلِ أَنْ يَتماسّا فمن لم يَجِدْ فإِطْعَامُ سِتِينَ مِسكينا ثُمَّ يَعُودونَ لِمَا قالُوا: "أَنْ لا نَفْعَلَه" "فَيَفْعَلُونَهُ" هذا الظهار، يقول: "هِيَ عَلَيَّ [175] كَظَهْرِ أُمّي" وما أشبه هذا من الكلام، فاذا اعتق رقبة او اطعم ستين مسكينا عاد لهذا الذي قد قال: "إِنَّهُ عَلَيَّ حرامٌ" ففعله. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 537 ﴾

(29/750)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة المجادلة

مدنية كلها

1 - وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ أي تشكو، يقال: اشتكيت ما بي وشكوته.

3 - وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ أي: يحرّمونهم تحريم ظهور الأمهات.

ويروي: ان هذا نزل في رجل ظاهر، فذكر اللّه قصته.

ثم تبع هذا كلّ ما كان من الأم محرما على الابن ان يطأه: كالبطن والفخذ، وأشباه ذلك.

وقوله: ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا، يتوهم قوم: ان الظاهر لا يحسب ولا يقع حتى يتكرر اللفظ به، لقول اللّه تعالى: ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا.

وقد اجمع الناس على ان الظّهار يقع بلفظ واحد.

فأمّا تأويل قوله: ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا، فإن أهل الجاهلية كانوا يطلّقون بالظّهار، فجعل اللّه حكم الظّهار في الإسلام خلاف حكمه عندهم في الجاهلية، وأنزل: وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ في الجاهلية ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا: [لما] كانوا يقولونه من هذا الكلام.

فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ أي عتقها مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا.

5 - كُبِتُوا قال ابو عبيدة: أهلكوا.

وقال غيره: غيظوا وأخزوا.

وقد تقدم ذكر هذا في سورة آل عمران.

8 - و10 - النَّجْوى: السّرار.

11 - تَفَسَّحُوا أي توسّعوا.

انْشُزُوا: قوموا. و«الناشز» منه.

ومنه قيل: نشزت المرأة على زوجها.

18 - يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً، فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ أي يحلف المنافقون للّه يوم القيامة، كما حلفوا لأوليائه في الدنيا. هذا قول قتادة.

19 - اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ أي غلب عليهم واستولي -

21 - كَتَبَ اللَّهُ أي قضي الله: لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي.

22 - حَادَّ اللَّهَ و«شاقّة» واحد. انتهى انتهى. ا هـ ﴿تأويل مشكل القرآن ص 392.

393﴾

وقال الغزنوى:

سورة المجادلة

1 قَدْ سَمِعَ اللَّهُ في خولة بنت ثعلبة بن خويلد. قال لها زوجها أوس بن الصّامت: أنت عليّ كظهر أمي «1».

3 لِما قالُوا: لنقض ما قالوا «2»، أو هو العود بالعزم على الوطء «3».

قال عبد الله «4» بن الحسين أي: يعودون إلى المقول [فيهن] «5»، أي: إلى نسائهم، كأنّ التقدير: والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة لما قالوا، ثم يعودون إلى نسائهم فيكون «ما قالوا» بمعنى المصدر، والمصدر، بمعنى المفعول، كقولهم: ضرب الأمير ونسج بغداد.

---

(1) ورد التصريح بذكر أوس بن الصّامت وخولة بنت ثعلبة في رواية الإمام أحمد في مسنده:

(6/ 410، 411)، وأبي داود في سننه: 2/ 663، كتاب الطلاق، باب «في الظهار» حديث رقم 2214.

والحاكم في المستدرك: 2/ 481، والواحدي في أسباب النزول: 472 وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره: 8/ 62: «هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة ...».

وانظر الروايات التي صرحت بذكر أوس بن الصامت وخولة بنت ثعلبة رضي الله عنهما في الدر المنثور: (8/ 70، 71).

(2) ذكره الفراء في معانيه: 3/ 139، وقال: «وهو كما تقول: حلف أن يضربك فيكون معناه:

حلف لا يضربك وحلف ليضربنك».

وانظر تفسير الطبري: 28/ 8، وزاد المسير: 8/ 183.

(3) هذا قول الحنفية كما في فتح القدير لابن الهمام: 4/ 85، ومجمع الأنهر: 1/ 448 ونسب إلى الإمام مالك في الخرشي على مختصر خليل: 4/ 110، وتفسير القرطبي: 17/ 280.

(4) لعله عبد الله بن الحسين الناصحي الخراساني، أبو محمد، قاضي القضاة، الإمام الفقيه الحنفي، المتوفى سنة 447هـ.

قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: 17/ 660: وطال عمره، وعظم قدره، وكان قاضي السلطان محمود بن سبكتكين. اهـ.

له كتاب أدب القاضي، والجمع بين وقفي هلال والخصاف، جمع فيه بين كتاب الوقف لهلال بن يحيى وكتاب أحمد بن عمرو الخصاف.

وانظر ترجمته في تاريخ بغداد: 9/ 443، والجواهر المضيئة: 2/ 305.

(5) عن نسخة «ج».

(32/750)

---

4 ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ: تطيعوه ولا تطلّقوا طلاق الجاهلية بالظّهار. أو ذلك لإيمانكم بالّله، فيقتضي أن لا يصح ظهار الذميّ «1».

5 كُبِتُوا في يوم الأحزاب. كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ يوم بدر «2».

8 نُهُوا عَنِ النَّجْوى: السّرار «3».

حَيَّوْكَ كانوا يقولون: السّام عليك «4».

10 إِنَّمَا النَّجْوى أي: النّجوى بالإثم.

11 تَفَسَّحُوا: توسّعوا.

انْشُزُوا: ارتفعوا «5».

19 اسْتَحْوَذَ: استولى «6»، جاء على الأصل لأنه لم يبن على «حاذ» «7»، كما يقال: افتقر من غير أن قيل: فقر. انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن/ للغزنوى حـ 2 ص 807.806﴾

---

(1) هذا قول الحنفية والمالكية كما في فتح القدير لابن الهمام: 4/ 85، وأحكام القرآن لابن العربي: 4/ 1750. قال القرطبي - رحمه الله - في تفسيره: 17/ 276: «و دليلنا قوله تعالى:

مِنْكُمْ يعني من المسلمين، وهذا يقتضي خروج الذمي من الخطاب ...».

(2) ذكره القرطبي في تفسيره: 17/ 288، وأبو حيان في البحر المحيط: 8/ 234.

(3) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 457، وتفسير الماوردي: 4/ 200، واللسان: 15/ 308 (نجا). [.....].

(4) أخرج الإمام مسلم في صحيحه: 4/ 1707، كتاب السلام، باب «النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم» عن عائشة رضي اللّه تعالى عنها قالت: «أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم أناس من اليهود فقالوا: السّام عليك يا أبا القاسم! قال: وعليكم ...».

وانظر تفسير الطبري: (27/ 13، 14)، وأسباب النزول للواحدي: 474، وتفسير ابن كثير: 8/ 68.

(5) ينظر تفسير الماوردي: 4/ 202، والمفردات للراغب: 493، وتفسير القرطبي: 17/ 299، واللسان: 5/ 417 (نشز).

(6) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 458 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 140 ، وتفسير البغوي :

4/312 .

(7) عن معاني القرآن للزجاج : 5/ 140 ، ونص كلامه : «وهذا مما خرج على أصله ومثله في الكلام : أجودت وأطيبت ، والأكثر : أجدت وأطبت ، إلّا إنّ «استحوذ» جاء على الأصل ، لأنه لم يقل على «حاذ» لأنه إنما بني على «استفعل» في أول وهلة كما بني «افتقر» على «افتعل» ، وهو من الفقر ، ولم يقل منه : «فقر» ولا استعمل بغير زيادة ، ولم يقل : «حاذ عليهم الشيطان» ، ولو جاء «استحاذ» لكان صوابا ، ولكن «استحوذ» هاهنا أجود لأن الفعل في ذا المعنى لم يستعمل إلا بزيادة» اه- .

(33/750)

وقال ملاحويش :

تفسير سورة المجادلة

عدد 19 و105 - 58

نزلت بالمدينة بعد سورة المنافقين وهي اثنتان وعشرون آية وأربعمائة وثلاث وسبعون

كلمة والف وسبعمئة واثنان وتسعون حرفا .

ولا يوجد سورة مبدوءة بما بدئت غير سورة الجن كما لا يوجد سورة مختومة بما ختمت غير آل عمران ومثلها في عدد الآي سورة البروج.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما" مبادلتكما الكلام ومراجعتكما فيه يا سيد الرّسل أنت والمرأة "إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ" لمن يناجيه "بَصِيرٌ" (1) بأمر من يشتكي إليه يجيب دعاء المضطر من عباده ، وسبب نزول أوائل هذه السّورة هو أن خولة بنت ثعلبة قالت يا رسول اللّه إن زوجي أديس بن الصّامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات أهل ومال ، حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلى وكبر سني ظاهرني وقد ندم ، فهل من شيء يجمعني وإياه فتنعشني به ؟ وذلك أن الظّهار الآتي بيانه كان زمن الجاهلية مما تحرم به المرأة على البتات ، ولذلك لم يفتها حضرة الرّسول لأنه لم يتلق من ربه ما يبطله وقال لها صلّى اللّه عليه وسلم حرمت عليه ، فقالت والذي بعثك بالحق وأنزل عليك الكتاب ما ذكر الطّلاق وأنه أبو ولدي وأحب النّاس إليّ ، فقال حرمت عليه ، فقالت أشكو إلى اللّه فاقتي ووحدتي ، ثم قالت يا رسول اللّه قد طالت له صحبتي ونثرت له بطني ، فقال ما أراك إلّا حرمت عليه ولم أومر بشأنك بشيء ، فجعلت تراجع الرسول ، وكلما قال لها حرمت قالت أشكو إلى اللّه فاقتي ووحدتي وشدّة

حالي ثم قالت يا رسول اللّه إن لي منه صبية صغارا إن ضممتهم إليّ جاعوا ، وإن ضممتهم إليه

ضاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السّماء وتقول اللّهم إليك أشكو فأنزل اللّه أوائل هذه السّورة .

(34/750)

روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت الحمد للّه الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وكلمته في جانب البيت وما أسمع ما تقول ، فأنزل اللّه (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ) وذم الظّهار بقوله عزّ قوله "الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ" حتى يجعلوهن مثلهن "إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ" لا زوجاتهم "وَإِنَّهُمْ" المظاهرون الّذين يجعلون زوجاتهم كأمهاتهم "لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً" كذبا باطلا لأن الأمهات محرمات على التأبيد بتحريم اللّه تعالى ، والزوجات لا يحرمن بمجرد تشبيههن بالأمهات "وَإِنَّ اللَّهَ" المنفرد بأمر عباده كثير الصّفح والسّماح والمنّ والعفو عنهم وعما سلف مما وقع من المظاهرين "لَعَفُوٌّ غَفُورٌ" .

مطلب في الظّهار وحكمه والمخلص منه وكيفيته والمشاورة والنّجوى والتكلم بغير لغة القوم :

(35/750)

الحكم الشّرعي هو أن الظّهار من طلاق الجاهلية كالإيلاء راجع الآية 227 من البقرة تجد بحثه وهو أن يقول الرّجل لزوجته أنت علي كظهر أمي ، ومعناه علوّي عليك حرام كعلوي على أمي ، وعلوه على أمه حرام لأنهم يريدون بهذا العلو الجماع ، لأن الرّجل يعلو المرأة فيه ، وكذلك لو قال كبطن أمي أو شبه عضوا منها بعضو أمه ، وكذلك إذا شبهها بإحدى محرماته بلفظ من هذه الألفاظ فيكون مظاهرا من زوجته ، ثم بين اللّه تعالى المخرج من مأزق هذا اليمين مما يجعله حلّا منه ويسترد به زوجته لعصمته فقال "وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا" أي يرجعون عن أقوالهم لنسائهم من الألفاظ التّشبيهية لهن بأمهاتهم أو غيرهن من محارمهم ليحلوا ما حرموا على أنفسهم منهن ، وكيفية العود أن يبقيها عنده ولا يخرجها من بيته ، ولكن لا يعاملها معاملة الأزواج حتى يكفر عن يمينه بما ذكره اللّه ، فيعد هذا رجوعا وندما على ما وقع منه .

ثم ذكر الله تعالى الكفارة التي يتحلى بها يمينه بقوله أولا "فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ" عتق عبد من عبيده إذا كان له عبيد ، وإلّا فيشتري عبدا ويعتقه "مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا"

(36/750)

إذ يجب عليه العتق أولا ثم يعامل زوجته معاملة الأزواج إذ لا يجوز له قربانها قبل التكفير "ذِلكُمْ" الحكم الشّرعي شرعه اللّه لكم في تحليل المظاهرات "تُوعَظُونَ بِهِ" أيها المؤمنون وتتأدبون من أن تعودوا لمثله "وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" (3) لا يحتاج إلى إخبار لأن أعمالكم كلها من جملة معلوماته الأزلية وإنها معروفة عنده "فَمَنْ لَمْ يَجِدْ" رقبة يعتقها ولم يقدر على شرائها لضيق ذات يده فصيام شهرين متتابعين تكون كفارته تخفيفا عليه وتيسيرا من ربه ، وهذا الصّيام أيضا يجب أن يتمه "مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا" مثل كفارة العتق "فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ" أن يصوم لكبره أو مرضه المزمن "فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً" كفارته تسهيلا عليه من لطف اللّه تعالى والإطعام يكون لكل مسكين نصف صاع من البر أو صاع من غيره وهو ما يغذي الرّجل يوما واحدا من أوسط الطّعام كما سيأتي بيانه مفصلا في الآية 92 من سورة المائدة ، وكذلك يجب أن يتصدق بهذا الإطعام قبل المجامعة "ذِلكَ" البيان الشّافي والتخفيف الكافي "لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ" وتزدادوا إيمانا وشكرا وحمدا إذ لم يجعل عليكم حرجا فيما

شرعه لكم إكراما لرسولكم كما هو مدون في أزله وتعملوا بما أمرتم به عن اعتقاد ويقين وصدق وحزم وتتركوا ما كان عليه أسلافكم من أمور الجاهلية التي قلدتموهم بها .

(37/750)

واعلم أن هذه لا تعد ناسخة لما كان في الجاهلية ، لأن الظّهار لم يقرر في الإسلام كشرع ولم يعمل به كمأمور به ، وإنما كان عادة مستقة من عوائد الجاهلية ، والنّسخ لا يدخل إلا على ما كان مشروعا كما أشرنا إليه في الآيتين 17 و150 من سورة البقرة ، وما كان عليه عمل الجاهلية لا يسمى شرعا لأنهم لم يأخذوها من شرع قديم أو يكتسبوها من تعاليم الأنبياء ، إذ لا شرع ولا كتاب لهم بل من عوائد آبائهم ، لأن نبيهم إسماعيل عليه السّلام اندرست شريعته ولم يترك لهم كتابا يرجعون اليه ، ولهذا لم يفت به حضرة الرّسول ، لأنه حكم من الأحكام ولم ننزل عليه فيه شيء ، وهو لا ينطق عن هوى .

قال تعالى "تِلْكَ" الأحكام المتلوة عليكم أيها النّاس في "حُدُودُ اللَّهِ" التي لا يجوز تخطيها المفروض عليكم اتباعها "وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ" (4) يوم القيامة عدا ما ينالونه في الدّنيا تدل هذه الآية دلالة قاطعة

(38/750)

على أن من لم يقبل شيئًا من أحكام اللّه منكرا صحته فهو كافر ، وعليه فإن من يصلي بلا وضوء جاحدا فرضيته فهو كافر ، وإلّا فيستحق العقاب ، لأن اللّه أمره به عند الإقدام على الصّلاة كما سنبينه في الآية السّادسة من المائدة الآتية ، وقد مر نهي الجنب عن الدّخول فيها في الآية 23 من سورة النّساء ، ولهذا عبّر ممن لم يتقيد بحدوده بالكافرين ، وأعقبها بقوله عز قوله "إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" بمخالفة أمرهما وانتهاك حرماتها ومعنى المحادة المعاداة والمشاقة للّه ورسوله "كُبِتُوا" أحزوا وذلّوا وهلكوا منكبين على وجوههم "كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" بمعاداتهم اللّه ورسله رمشافقتهما هم "وَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ" بمنع المخالفة والانقياد للشريعة والتباعد عن الشّقاق "وَلِلْكافِرِينَ" بها الجاحدين حقيقتها "عَذابٌ مُهِينٌ" (5) لهم يشينهم مرآه بين النّاس في المشهد العظيم "يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً" للحساب "فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا" في دنياهم من خير

أو شر جهرا أو سرا مباحا أو حراما إذ "أَحْصاهُ اللَّهُ" عليهم كله فحفظه في كتابهم "وَنَسُوهُ" مع أنهم اقترفوه لعدم مبالاتهم به "وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" بما يعمله خلقه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم خفيها وعلانيتها كيف وهو القائل (إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) الآية 285 من البقرة ولا تكون المحاسبة إلّا عن علم أي يعلمه ويحاسبكم عليه .

فيا أيها الغافل "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ" خفية وجلية لا يعزب عن علمه شيء وانه "ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى " تشاور وأسرار بين "ثَلاثَةٍ" من الخلق وحدهم "إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ" حاضر معهم يعلم ما يتناجون به كما هو عالم به أزلا من قبل مناجاتهم "وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ" اثنين أو واحد "وَلا أَكْثَرَ" سبعة فما فوق إلى ما لا نهاية "إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا" في الأرض أو السّماء أو فيما تحتها وفوقها وبينهما وما فوق الماء وتحته "ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا" في مناجاتهم ومكانها وزمانها كسائر أعمالهم الأخرى "يَوْمَ الْقِيامَةِ" حينما تنشر الأعمال بالصحف على أربابها كي يتحقق لديهم ذلك ويقولوا بعد أن كانوا ينكرون "إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"

(7) لا تخفى عليه خافية، وإنما خص الثلاثة والخمسة في المشاورة لأن العددين أقل ما يكفي في المشاورة، ولأن الاثنين يوشك أن يتفقا على غلط أو يتخالفا في الرّأي فالثالث يكون كالحكم.

ويوشك أن ينقسم كل اثنين من الخمسة فيذهب إلى رأي فيكون الخامس كالحكم أيضا يرجح رأي من ينضم إليها، فينم الغرض الذي من أجله شرعت المشاورة.

قال تعالى "أَلَمْ ترَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى " وهم اليهود والمنافقون إذ كانوا إذا رأوا المؤمنين طفقوا يتناجون بينهم قصدا كي يظن المؤمنون أنهم قد علموا سوء بسراياهم وغزاتهم فيحزنون ، فشكوهم إلى الرّسول فمنعهم من ذلك ولم يمتنعوا ، فأنزل اللّه فيهم هذه الآية "ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ" من النّجوى ولم يمتثلوا أمر الرسول "وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ" إساءة له ولأصحابه "وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ" أولئك الخبثاء "بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ" فيقولون السّام عليك بدل السّلام وراعنا بدل انظرنا واسمع غير مسمع كما مر في الآية 104 من البقرة ومع هذا فإن الرّسول يغض عنهم ولا يرد عليهم مع علمه بنياتهم بذلك ، ولذلك تمادوا في مثل هذه الألفاظ المراد بها غير ظاهرها المعروف "وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ" في شأن محمد وأصحابه وعليهم وهو يزعم أنه نبيه لفعل إذ لا يعجزه شيء ولا يغفل عما نقول ، فلو كان نبيا لانتقم له منا ولكنه ليس بني قاتلهم اللّه ، بلى واللّه إنه لنبي وإن اللّه معذبهم على ذلك ومنتقم لنبيه منهم إذ يقول جل قوله "حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ" عذابا يوم القيامة "يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ" (8) هي لمن يصلى بها ، روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت دخل رهط من اليهود على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقالوا السام

عليك ، قالت عائشة رضي اللّه عنها فقلت عليكم السّام واللّعنة ، قالت فقال رسول اللّه مهلا يا عائشة ان الله يحب الرّفق في الأمر كله ، فقلت يا رسول اللّه ألم تسمع ما قالوا قال قد قلت وعليكم أي أنه سمع ويرد عليهم قولهم بحيث كأنه لم تحاشيا عن المقابلة بالسوء .

(41/750)

قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم "إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ

الرَّسُولِ"

وهذا مما يؤيد ويؤكد أن المراد بهؤلاء المؤمنين ، المنافقون لا المخلصون لأنهم لا يتصور عنهم مشاورة بمعصية الرّسول ، وإنما سماهم مؤمنين بحسب الظّاهر وبمقتضى زعمهم ، راجع الآية 159 من آل عمران المارة وما ترشدك اليه من المواضع في بحث الشّورى والمشاورة . والنّهي عام يدخل فيه المنافق دخولا أوليا وغيره بالتبعية ، كما أن قوله تعالى "وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" (9) يوم القيامة فيحاسبكم على ما وقع منكم عام أيضا .

قال تعالى "إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ" إذا كانت بالسوء وإنها لا تضر المؤمن وانه يسوق

اتباعه على فعلها "لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا" لأنهم يظنون أنها فيهم أو فيمن يتعلق بهم ، ولذلك تغضبهم "وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ" أي نجوى الشّيطان واتباعه المتناجين لا تضر المؤمنين "شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ" لأن الضر والنّفع منه وبيده أمرهما "وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" (10) لا على غيره ، وعليهم ألّا يلتفتوا إلى نجواهم ، ولا يلقوا لها بالا ، لأن من يتوكل على الله لا يخيّب أمله ولا يبطل سعيه .

واعلم أن النّجوى تطلق غالبا على الشّر والمشاورة على الخير ويجوز استعمال كلّ منهما موضع الآخر ، وهي من سوء أدب المجالسة التي نهى اللّه عنها وأدب عباده بها ، ولذلك لا ينبغي أن يتشاور اثنان بحضرة واحد أو يتكلما بلغة لا يعرفها أو يرامزان بأي نوع من أنواع الإشارة ، لأن هذا مما يقلقه ويغيظه ويسلب راحته ، ولذلك نهى الشّارع عنه .

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال إذا كانوا ثلاثة فلا يتنجى اثنان دون الثالث .

زاد ابن مسعود في رواية فإن ذلك يحزنه .

وهذه الزيادة في سند أبي داود والكلام الذي لا يعرفه الثالث بمثابة المشاورة لما ورد من

عرف العربية وتكلم بغيرها فذلك علامة النّفاق ، أي إذا تكلم بغيرها اثنان بحضور ثالث لا يعرفها ، أما إذا كان الكل يحسنونها فلا بأس .

وهذا لا يعني تقبيح تعليم اللّغات الأجنبية ، كلا ، بل هو مطلوب ، فقد ورد من تعلم لسان قوم أمن مكرهم .

ولا يخفى أن كل لسان يتكلم به الرّجل بمقابلة انسان آخر لا يعرفه ، فهو نصّ عنه ، أما بحضور من يعرفه أو بحضور جماعة فلا بأس به .

وقد نهى عنه إذا كان ينافق فيه ويتبجح

به أمام من يعرفه .

أو أمام صاحب تلك اللّغة ليبين له أنه يعرف لغته وأنه يميل إليها بقصده التقرب منه ، أما إذا كان التكلم بين جماعة لحاجة فجائز ، والمذموم التكلم بها لغير حاجة يخشى من اطلاع الغير عليها بحضور من لا يعرفها ، لأنه من علائم النّفاق .

روى الحاكم في مستدركه بسند صحيح عن عبد اللّه بن عمر قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من أحسن منكم أن يتكلم بالعربية فلا يتكلمن بالفارسية فإنه يورث النّفاق .

ويدل هذا الحديث على أن جميع اللّغات غير العربية إذا تكلم بها بلا موجب من تعليم أو تفاهم أو حاجة كما مر يورث النّفاق ، وإنما اختار الفارسية بحديثه صلّى اللّه عليه وسلم

دون غيرها من اللّغات لأنها أقدس منها وأكثر أهل الشّرق يتكلمون بها .

مطلب آداب المجالسة وفضل العلم والعلماء وما يتعلق بذلك :

(43/750)

قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ" التي أنتم جالسون بها لقدوم غيركم عليها "فَافْسَحُوا" وسعوا لهم ليجلسوا بينكم لأن هذا من آداب المجالسة وكرم الأخلاق التي يهذبكم الله بها ويريدكم إليها ويأمركم بها فإذا فعلتم ذلك "يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ" في جميع أموركم من الأمكنة والأعمال والأرزاق وغيرها لاطلاق اللّفظ "وَإِذا قِيلَ" لكم أيها المؤمنون "انْشُزُوا" ارتفعوا وانهضوا عن مواقعكم ليجلس فيها إخوانكم القادمين عليكم الّذين يرى النّاس لهم فضلا من علم أو فصاحة أو أدب أو شجاعة أو أمارة أو فعل ما "فَانْشُزُوا" وأخلوا لهم مواضعكم وأكرموهم بالجلوس فيها ولا تضاموا أو تغضبوا ، وليكن ذلك عن طيب قلب منكم محافظة على التفاضل الذي سنة اللّه في خلقه المنوه به في قوله "يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ" على غيرهم بكثرة الطّاعة وامتثال الأوامر "وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ" كثيرة يرفعهم على غيرهم في الدّنيا والآخرة قال تعالى (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) الآية 9 من سورة الزمرج 2 ، والآية 254 من البقرة المارة ،

وهي مكررة في القرآن العظيم باللفظ وبالمعنى وهذا التفاضل نسبي بين النّاس أجمعين ، حتى الأنبياء ، قال تعالى (لَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ) الآية 56 من

سورة الإسراء ج 2 ، وقال تعالى (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ) الآية 253 من البقرة المارة وفي الرّزق أيضا قال تعالى (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ) الآية 71 من سورة النّحل ج 2 "وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" (11) وسبب نزول هذه الآية على ما قالوا هو أنه جاء أناس من المهاجرين والأنصار إلى مجلس الرّسول فسلموا فرد عليهم السّلام ثم سلموا على الجالسين فردوا عليهم السّلام وبقوا قائمين حيال رسول اللّه لعدم وجود محل يجلسون فيه ، لأن المجلس غاص بالناس ، فشق قيامهم على حضرة الرسول لمكانتهم عنده ، فقال لمن حوله قم يا فلان وأنت يا فلان فأقام من المجلس بقدر أولئك النّفر وأجلسهم ، فشق ذلك على الّذين أقامهم وعرف الكراهية في وجوههم ، فلما أنزل اللّه هذه الآية طابت نفوسهم وركنت إلى أمره الذي هو من أمر اللّه وفيها تعليم لعباده واخبارهم بأنهم متفاضلون ، وإن من الأدب أن يحترم الأدنى الأفضل ، قال صلّى اللّه عليه وسلم لا تزال أمتي بخير ما تفاضلت .

ومن كمال الآداب احترام من هو دونه أيضا بالملاقاة والتكلم والمجالسة على أن لا يتجاوز فيه الحد بالنسبة له ، مثل أن يقوم العالم أو الفاصل لمن هو دونه ، فيقدم له الحداء فهذا بعد تخاسا لا أدبا ، إذ لكل شيء حد يجب الوقوف عنده ، لأن الإفراط والتفريط قد يقضيان للحط من كرامة الرّجل ويوجبان الغيبة له ، ورحم اللّه امرأ جبّ الغيبة عن نفسه ، بأن يتحاشى أن يفعل ما يغتاب عليه به فيقطع ألسنة الناس عنه ، ومما جاء في فضل العلم ما أخرجه الترمذي عن بن كثير قال قدم رجل من المدينة على أبي الدّرداء وهو بدمشق ، فقال ما أقدمك يا أخي ؟ قال حديث بلغني انك تحدثه عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال أما جئت لحاجة غيره ؟ قال لا قال أما قدمت في تجارة ؟ قال لا ، قال ما جئت إلّا في طلب الحديث ؟ قال نعم ، قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول من سلك طريقا يبتغي فيه علما سلك اللّه به طريقا إلى الجنّة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السّموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ،

وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر .

وأخرج أبو داود نحوه وهذا الفضل لا يختص بمن يأتي لطلب العلم من مكان بعيد ، بل إذا ذهب لطلبه من دار لأخرى في بلده أو حيه ينال هذا الأجر ، واللّه ذو الفضل العظيم يضاعف لمن يشاء بحسب بعد المكان وقربه وحسب نية الطّالب ، فأين من يطلبه ويتعرض لنفحاته .

وجاء في بعض الأخبار كن عالما أو متعلما أو مستمعا ولا تكن الرّابعة فتهلك ، أجارنا اللّه من الهلاك .

وروى البخاري ومسلم عن معاوية ابن أبي سفيان قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول من يرد اللّه به خيرا يفقهه في الدين

.

وأخرج الترمذي مثله عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، وروى البغوي بسنده عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم مر بمجلسين في مسجده أحد المجلسين يدعون اللّه ويرغبون إليه ، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه ، فقال كلا المجلسين على

خير وأحدهما أفضل من صاحبه ، أما هؤلاء فيدعون اللّه ويرغبون إليه ، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه ويعلمونه الجاهل فهؤلاء أفضل .

وإنما بعثت معلما .

ثم جلس فيهم .

مطلب في تقديم الصّدقة عند مناجاة الرّسول وعفوها وبعض أحوال المنافقين في الدّنيا والآخرة :

قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ" أي إذا أردتم مناجاته والتكلم معه "فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً" أي قبل مناجاتكم له تصدقوا ثم ناجوه "ذلِكَ" التصدق قبل المناجاة لحضرته "خَيْرٌ لَكُمْ" في دينكم ودنياكم لما فيها من احترام الرّسول والثناء الحسن والأدب الوافر والأخلاق الكاملة والاعتراف بالفضل والمحبة الصّادقة لحضرته وفي آخرتكم لما فيها من طاعة اللّه ورسوله وامتثال أوامره عن طيب قلب "وَأَطْهَرُ" لأن الصدقة زكاة المال والمتصدق "فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا" ما تتصدقون به "فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (12) بعباده الفقراء ، ومن رحمته بهم عفوهم من تقديمها ولهم أن يناجوه بلا تصدق . لما أكثر النّاس من سؤال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في الصّغيرة والكبيرة وشق ذلك عليه أراد اللّه تعالى أن يخفف عنه ويثبط النّاس عن ذلك فأمرهم

بالتصدق عند إرادة مناجاته لاعظامها ونفع الفقراء ولئلا يقوم كلّ أحد فيما أهمه وما لم يهمه على سؤاله وليختصروا على الأهم الذي لا بد لهم من معرفته أو القضاء به إلّا ببيان الرّسول ، فنزلت هذه الآية ، فتوقف النّاس لأنهم لم يعرفوا بعد هذه الجهة ولم يعلموا ما هي هذه الصّدقة وكم هي ، قال علي كرم اللّه وجهه قال لي الرسول ما ترى في قدر هذه الصّدقة أدينار ؟ قلت لا يطيقون ، قال فكم ؟ قلت شعيرة أي وزنها ذهبا ، قال إنك لزهيد أي قليل المال قدرت على قدر حالك فتصدق علي بدينار ، ونزلت الرّخصة في الآية الآتية ، فكان عليه السّلام يقول في خفف اللّه عن هذه الأمة ، وقال آية في كتاب اللّه لم يعمل بها أحد غيري وفيها منقبة عظيمة له عليه السّلام وهو أبو المناقب ، وليس فيها طعن على أحد لأن الزمن لم يتسع للعمل بها ، إذ نزلت الرّخصة بتركها فور اذاعة أمر الصّدقة بين النّاس والتحدث بها على أثر تصدق سيدنا علي كرم اللّه وجهه لأن القصد منها زيادة احترام حضرة الرّسول ، وقد حصلت بمجرد نزول الآية ووقر في قلوب النّاس معناها وعرفوا المراد من مغزاها وتحاشوا عن كثرة المراجعة له .

قال الكلبي ما كان إلّا ساعة من نهار ، وقال مقاتل كان بين هذه الآية وبين آية الرّخصة عشرة أيام .

وهو الأصح إذ لا يمكن إذاعتها للآفاق دون هذه المدة بالنسبة لذلك الزمن .

(48/750)

قال تعالى "أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ" مع حضرة الرّسول "صَدَقَاتٍ" أي خفتم العيلة والفاقة أم بخلتم بهذه الصّدقة أو خشيتم من أدائها "فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا" ما أمرتم به من التصدق فقد خفف اللّه عنكم ويسر عليكم وأزال عنكم المؤاخذة على عدمها وسهل لكم مناجاة الرّسول بدونها وجعلها لكم مجانا كما كانت إذا حصل المقصود منها وهو تعظيم حضرة النّبي واحترامه والتباعد عن الإفراط في سؤاله والميزة بين المؤمن والمنافق من حيث تلقي هذا الأمر بالقبول "وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ" في عدم مسارعتكم إلى فعل هذه الصّدقة.

وتشير هذه الآية إلى تأخرهم عن أداء تلك الصّدقة حال نزول هذه الآية ذنب بالنسبة لمن هي لأجله وإلى زيادة تعظيم قدر الرّسول عند ربه عز وجل، ولهذا أمرهم بقوله جل قوله "فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ"

(49/750)

تداركا لما فاتكم في المسارعة لإنقاذ أمره قبل إنزال التخفيف والترخيص بعدمه أي إذ فاتكم التصدق في المناجاة وفرطتم بها فلا تفرطوا بإقامة الصّلاة وأداء الزكاة وطاعة اللّه ورسوله فيما يأمركم وينهاكم، بعد بل سارعوا له واغتنموا فعله ولا تقاعسوا ولا تتوانوا عنه أو تعتذروا منه وفيها إشارة إلى فعل أحد هذه الثلاثة قبل المناجاة لحضرة الرّسول بدلا من الصّدقة "وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ" (11) وهذه إحدى الآيات الثلاث التي نوهنا بها في المقدمة في بحث النّاسخ والمنسوخ وبينا توجيهها هناك وإنها غير ناسخة للآية قبلها والآية الثانية مرت في سورة المزمل ج 1 والثالثة في سورة الأنفال المارة، راجع بحث النّاسخ والمنسوخ في المقدمة ج 1 ولما اختلا المنافقون باليهود ونصحوهم (بل غشوهم) عن موالاة الرّسول ونقلوا إليهم أسرار المؤمنين وقالوا لهم نحن نتولاكم من دونه أنزل اللّه عز وجل "أَلَمْ تَرَ" يا سيد الرسل "إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ" وهم اليهود "ما هُمْ" أولئك المنافقون "مِنْكُمْ" أيها المؤمنون لأنهم يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان "وَلا مِنْهُمْ" أي اليهود الّذين ولوا أمرهم المنافقين وهم كما وصفهم اللّه مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء الآية 43 من سورة النّساء المارة "وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ" بأنهم مؤمنون مثلكم "وَهُمْ يَعْلَمُونَ" (14) انهم كاذبون بحلفهم "أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً" في الآخرة لكذبهم وحلفهم على الكذب إنه ليس بكذب "إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ" (15) في دنياهم هذه إذ "اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً" وقاية يتقون بها حفظ أنفسهم من الجلاء والأسر والقتل وأموالهم

وأولادهم ونسائهم عن الاستيلاء عليها والسّبي "فَصَدُّوا" الناس "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" وأعرضوا عن رسوله في الدّنيا "فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ" (16) جزاء ذلك ،

(50/750)

قالوا إن حضرة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم قال لأحدهم عبد اللّه بن نبتل في قولهم لليهود لا توالوا الرّسول إلخ كما مر آنفا فحلف أنه لم يقل وجاء بأصحابه فحلقوا كذلك فكذبهم اللّه تعالى في هذه الآيات التي أنزلها على رسوله فيما وقع منهم قاتلهم اللّه ما أكذبهم ، وهؤلاء أشد من مغالاتهم ، لأن حب المال والدّنيا هو الذي حدا بهم إلى ذلك ، ولا ريب أن الّذين لا يؤمنون بالآخرة يغريهم حب المال والرّئاسة

قال تعالى "لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ" المنافقون المتولون لليهود والحالفون كذبا متخذون إيمانهم وقاية لصون دمائهم وأموالهم وأولادهم ، الصادون النّاس عن سبيل اللّه المعرضون عنه هم "أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ" (17) أبدا لا يتحولون عنها .

واعلم يا حضرة الرسول أن هؤلاء المنافقين وأصحابهم اليهود "يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً" في الموقف المهيب فيسألهم عما وقع منهم في الدّنيا من هذه الأحوال وغيرها وهو غني عن

سؤالهم لأنه يعلم كلّ ما وقع منهم أزلا ولكن ليفضحهم على رؤوس الأشهاد "فَيَحْلِفُونَ لَهُ" في ذلك المشهد العظيم "كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ" يا أكمل الرسل بأنهم صادقون وهم كاذبون "وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ" من قبول أيمانهم الكاذبة عند اللّه كما كانت تقبل منهم بالدنيا ظاهرا ، كلّا ليسوا على شيء من ذلك أصلا "أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ" (18) في الدّنيا والآخرة تشير أداة التنبيه في مطلع هذه الآية والتوكيد بأن واللام على توغلهم بالنفاق والكذب وتعودهم عليهما وفساد ظنهم على رواج إيمانهم بين يدي علام الغيوب وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد .

(51/750)

قال تعالى "اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ" أي استحوى واستولى عليهم فملك قلوبهم وغلبهم على أمرهم وأحاط بهم من كلّ جانب ، وجاء هذا الفصل على خلاف قاعدة اللّغويين من أن الواو إذا تحركت بالفتحة تقلب الفاء على هذه القاعدة يكون استحاذ إلّا أنه جاء على الأصل ، ومثله استصوب واستشوف ، والأحوذي السّائس الضّابط للأمور ، قالت عائشة رضي اللّه عنها كان عمر أحوذيا أي مدبرا للأمور ضابطها وهؤلاء الّذين استولى عليهم الشّيطان "فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ" إذ أشغل ليهم عن التفكير والمراقبة بجمع حطام الدّنيا

وتدبير شئونها ، فأشغل حواسهم الظّاهرة والباطنة وحصرها في أمور الدّنيا وصرفها عما يتعلق بالآخرة فلم يبق في

قلوبهم خطرة للتفكير في آلاء اللّه أو لمحة لشكر نعمائه أو حركة للنظر في ملكوت أرضه وسمائه وأشغل ألسنتهم عن ذكر الله بالغيبة والنميمة وقول الزور في الكذب والافتراء والبهتان ، فلم يترك لها فسحة لتلاوة شيء من ذكره ولا فرجة لتحميده وتسبيحه ، وأشغل جوارحهم بالأكل والشّرب واللّباس والمساكن

فلم يفسح لهم طريقا للانفاق وعمل الخير ومساواة الفقراء والمساكين "أُولَئِكَ" الّذين هذه صفتهم هم "حِزْبُ الشَّيْطانِ" وأولياؤه وحلفاؤه وأنصاره "أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ" (19) في الدّارين .

قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ يُحادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" يعادونهما وأوليائهما ويتعدون حدودها ولا يعملون بأوامرها "أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ" (20) في جملة من أذلهم اللّه في الدّنيا وإن ما هم عليه من النّعم الفانية لا قيمة لها لأن مرجعهم للآخرة التي سيهانون فيها ويحقرون ويعلمون أن ما رأوه في الدّنيا هو ذلّ أيضا بسبب تكالبهم على جمعها وعدم مبالاتهم بجمعه إذ لا يتورعون عن مغصوب وحرام ، فالعز الذي نالوه من هذا المال هو ذل أيضا من حيث النّتيجة .

قال تعالى "كَتَبَ اللَّهُ" في لوحه المحفوظ أذلا "لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي" المحادين والمخالفين والمعرضين مهما كانوا عليه من قوّة ومنعة "إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ" لا يغلب منيع لا ينال "عَزِيزٌ" (21) لا يدرك عظيم لا يرام راجع الآية 172 من الصّافات في ج 2 والآية 56 من المائدة الآتية واعلم يا سيد الرّسل انك "لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" فإذا رأيت متصفا بالإيمان موادا لهؤلاء فاحكم بنفاقه وبأن إيمانه صوريّ لا ينتفع به، لأن المؤمن لا يوالي الكافر ولا يخالف اللّه ورسوله ولا يحب أعدائهما، لذلك من الممتنع جدا أن تجد قوما مؤمنين متصفين بتلك الصّفات "وَلَوْ كانُوا" أي المحادون "آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ" فلا ينبغي أن يوالوهم، بل يجب عليهم أن يخذلوهم ولو كانوا أولى الناس بهم.

ولهذا البحث صلة في الآية 34 من سورة التوبة الآتية فراجعها.

ولهذا فإن عبيدة بن الجراح رضي اللّه عنه قتل أباه يوم أحد، وعبد اللّه استأذن حضرة الرّسول بقتل أبيه عبيد اللّه أبي بن سلول كما مر في الآية 8 من سورة المنافقين، وأبا بكر الصّديق رضي اللّه عنه أراد قتل ابنه يوم بدر فمنعه حضرة الرسول من مبارزته، ومصعب ابن عمر قتل أخاه عبد اللّه وأبو عبيدة بن الجراح وحمزة بن عبد المطلب وعلي كرم اللّه

وجهه قتلوا عتبة وشيبة بن ربيعة ، والوليد ابن عتبة يوم بدر وهم من عمومتهم ، وعمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام

(53/750)

ولم تثنهم قراباتهم لهم عن عزمهم لأجل الله وصرفهم في الله فقتلوهم ابتغاء مرضاة الله وهذا من قوة إيمانهم بالله وشدة الصّدق لرسوله وغاية الوثوق بوعد الله ونهاية التمسك بنصرة الله رغبة فيما لهم عند الله وأمثال هؤلاء هم الّذين تكفل الله بنصرتهم ولو يوجد الآن من هؤلاء عصبة لما حل بالمسلمين ما حل من الذل والهوان والقتل والأسر والجلاء والاستيلاء على أوطانهم وأموالهم وذراريهم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

اللهم ألهم أمة محمد رشدهم ووحد كلمتهم على الحق وانصرهم على عدوهم "أُولَئِكَ" الّذين هذا شأنهم الّذين لا تأخذهم في الله قرابة ولا صداقة ولا لومة لائم في ارحم أو حبيب فيعادون من حادّ الله ورسوله ويوالون من والاهما ويحبون من وادّ الله ورسوله هؤلاء الأبرار المخلصون "كَتَبَ" الله وأثبت "فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ" للكامل الخالص "وَأَيَّدَهُمْ" قواهم وأعزّهم "بِرُوحٍ مِنْهُ" قذفه في قلوبهم فنورها وقوى عزائمهم وألقى الخوف في قلوب أعدائهم والرّعب فيمن ناوئهم فينصرهم في الدّنيا "وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهارُ" في الآخرة "خالِدِينَ فِيها" لا يتحولون عنها أبدا إذ "رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ" الراضون المرضيون العاملون المخلصون هم "حِزْبُ اللَّهِ" المؤيد بتأييده المنصور بنصره "أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (22) الناجحون الفائزون الرّابحون فيعملهم فليعمل العاملون وبأوصافهم فليتنافس المتنافسون اللّهم اجعلنا ، منهم هذا واللّه أعلم وأستغفر اللّه ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعهم وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 6 صـ 201. 214 ﴾

(54/750)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة المجادلة

مدنية

تحاوركما كاف وكذا بصير وما هن أمهاتهم وهو خبر الذين يظهرون ولدنهم كاف وكذا وزورا غفور حسن أن يتماسا كاف وكذا توعظون به وخبير وأن يتماسا ومسكينا ورسله حسن وكذا وتلك حدود الله والأول أحسن والأولى أن لا يجمع بينهما أليم تام من قبلهم

كاف وكذا آيات بينات وهو أكفى مهين صالح ونسوه كاف شهيد تام وما في الأرض حسن

أينما كانوا كاف وكذا يوم القيامة شيء عليم تام ومعصيت الرسول وكذا بما نقول ويصلونها

المصير تام بالبر والتقوى كاف تحشرون حسن بأذن الله كاف المؤمنين تام يفسح الله لكم

كاف وكذا درجات خبير تام صدقة صالح وكذا وأطهر رحيم كاف وكذا صدقات

ورسوله بما تعملون تام وهم يعلمون شديدا كاف وكذا يعلمون مهين حسن وكذا شيئًا

أصحاب النار صالح خالدون حسن وكذا على شيء الكاذبون تام ذكر الله كاف وكذا

الشيطان الخاسرون تام وكذا في الاذلين ورسلي كاف عزيز حسن وكذا عشيرتهم ورضوا

عنه خرب الله كاف آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد ص ﴾

(55/750)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة المجادلة

مدنية وهذه السورة وثمان آيات من الحشر ليس فيها آية إلاّ وفيها اسم الله تعالى مرة أو مرتين

ولا نظير لها في القرآن وهي نصف القرآن بالنسبة لعدد سوره لأنَّها ابتداء ثمان وخمسين

سورة كلمها أربعمائة وثلاث وسبعون كلمة وحروفها ألف وسبعمائة واثنان وسبعون حرفاً

وآيها إحدى أو اثنتان وعشرون آية

في زوجها ليس بوقف لأنَّ وتشتكي عطف على تجادلك فهي صلة أو هي في موضع نصب على الحال أي تجادلك شاكية حالها إلى الله تعالى وهو أولى وحسن على أن تشتكي مبتدأ لا عطف على تجادلك

تحاوركما (كاف)

بصير (تام) ومثله هنَّ أمهاتهم الذين مبتدأ خبره ما هن أمهاتهم وما هي الحجازية التي ترفع الاسم وتنصب الخبر فهنَّ اسمها وأمهاتهم خبرها ومثله ما هذا بشراً وكذا فما منكم من أحد عنه حاجزين على قراءة العامة أمهاتهم بالنصب وقرئ أمهاتهم بالرفع على لغة تميم وقرأ ابن مسعود بأمهاتهم بزيادة الباء وهي لا تزاد إلاَّ إذا كانت عاملة فلا تزاد في لغة تميم قال ابن خالويه ليس في كلام العرب لفظ جمع لغات ما النافية إلاَّ حرف واحد في القرآن جمع اللغات الثلاث غيرها

ولدنهم (كاف) ومثله وزوراً

غفور (تام) لأنَّ والذين مبتدأ وقوله فتحرير مبتدأ ثان وخبره مقدر أي فعليهم أو فاعل بفعل مقدر أي فيلزمهم تحرير أو خبر مبتدأ محذوف أي فالواجب عليهم تحرير وعلى التقادير الثلاثة فالجملة خبر المبتدأ ودخلت الفاء لما تضمنه المبتدأ من معنى الشرط

أن يتماسا (كاف) ومثله توعظون به وكذا خبير ومثله أن يتماسا ومسكينا ورسوله كلها

وقوف كافية

وتلك حدود الله (أكفى) مما قبله

أليم (تام) لانتهاء القصة التي أنزلها الله تعالى في شأن خولة بنت ثعلبة

من قبلهم (تام) عند نافع

(56/750)

بينات (كاف) ومثله مهين إن نصب يوم بفعل مقدر وكذا إن جعل العامل فيه يبعثهم العامل في ضمير الكافرين أو جعل جواباً لمن سأل متى يكون عذاب هؤلاء فقيل له يوم يبعثهم لا أن نصب بمهين أو بللكافرين أي يهينهم ويذلهم يوم يبعثهم أولهم عذاب يهانون به يوم يبعثهم لأنَّه يصير ظرفاً لما قبله وحسن لكونه رأس آية

جميعاً ليس بوقف لمكان الفاء

ونسوه (كاف)

شهيد (تام)

في الأرض (حسن) ولا وقف من قوله ما يكون من نجوى إلى قوله أينما كانوا فلا يوقف على رابعهم ولا على سادسهم ولا على أكثر لأنَّ هذه الجمل بعد إلاَّ في موضع نصب على الحال

أي ما يوحد شيء من هذه الأشياء إلاَّ في حال من هذه الأحوال فالاستثناء مفرغ من الأحوال العامة

أينما كانوا (كاف) لأنَّ ثم لترتيب الأخبار ومثله يوم القيامة

عليم (تام)

لما نهوا عنه (جائز)

ومعصيت الرسول (حسن) ورسموا معصيت في الموضعين بالتاء المجرورة كما ترى

به الله ليس بوقف لأنَّ ويقولون حال أو عطف وكلاهما يقتضي عدم الوقف

بما تقول كاف ومثله يصلونها

المصير (تام)

ومعصيت الرسول (جائز)

بالبر والتقوى (كاف)

تحشرون (تام)

آمنوا (جائز)

إلاَّ بإذن الله (كاف)

المؤمنون (تام)

يفسح الله لكم (كاف) ولا يوقف على فانشزوا لأنَّ الذي بعده جواب له ولا يوقف على

منكم لأن والذين أوتوا العلم عطف على الذين آمنوا

درجات (كاف)

خبير (تام)

صدقة (حسن) ومثله وأطهر

رحيم (تام)

صدقات (كاف) لتناهي الاستفهام

وتاب الله عليكم ليس بوقف لأنَّ جواب إذ لم يأت على إذا أو بمعنى إن الشرطية وهو قريب

مما قبله كذا في السمين

ورسوله (كاف)

بما تعملون (تام)

ولا منهم ليس بوقف لأنَّ ما بعده حال أي والحال هم يحلفون والعامل معنى الفعل في الجار

وهم يعلمون (كاف) على استئناف ما بعده

شديداً (كاف) ومثله يعملون

عن سبيل الله (جائز)

مهين (كاف)

شيأ (حسن)

أصحاب النار (جائز)

خالدون (كاف) إن جعل العامل في يوم مضمر أو جائز إن جعل ظرفاً لما قبله

(57/750)

جميعاً ليس بوقف لمكان الفاء

كما يحلفون لكم (حسن)

على شيء (كاف) للابتداء بأداة التنبيه

لكاذبون (تام)

ذكرامة (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده متصلاً بما قبله

الشيطان (كاف) والشرط فيه ما تقدم 0

الخاسرون (تام) ومثله في الأذلين وكتب أجرى مجرى القسم فأجيب بما يجاب به وليس

لأغلبنَّ جواب قسم مقدر كما قيل

أنا ورسلي (كاف)

عزيز (تام) ولا وقف من قوله لا تجد قوماً إلى قوله أو عشيرتهم لأنَّ العطف بأو صير ذلك

كالشيء الواحد فلا يوقف على واليوم الآخر لأنَّ يوادون مفعول ثان لتجد أو صفة لقوماً ولا

على ورسوله لأنَّ الواو في ولو كانوا للحال وهكذا إلى قوله أو عشيرتهم لاتصال الكلام بعضه ببعض 0

أو عشيرتهم (حسن) نزلت هذه الآية في أبي عبيدة عامر بن الجراح لما قتل أباه حين تعرض له يوم بدر فأعرض عنه فلازمه فلما أكثر عليه قتله وفي أبي بكر الصديق دعا أباه إلى البراز يوم بدر وفي مصعب بن عمير قتل أخاه يوم أُحد وفي عمر بن الخطاب قتل خاله العاصي بن هشام يوم بدر وفي علي وحمزة قتلا الوليد وشيبة يوم بدر بدأ أولاً بالآباء لأنَّ الواجب على الأولاد طاعتهم فنهاهم عن توادهم ثم ثنَى بالأبناء ثم ثلَّث بالإخوان ثم ربَّع بالعشيرة والمعنى لا توادوا الكفار ولو كانوا آباءكم كأبي عبيدة عامر بن الجراح وأبي بكر الصديق أو إخوانكم كمصعب بن عمير أو عشيرتكم كعمر وعلي وحمزة

كتب في قلوبهم الإيمان (حسن) ومثله وأيدهم بروح منه للعدول عن الماضي إلى المستقبل وهو من مقتضيات الوقف قرأ العامة كتب مبنياً للفاعل وقرأ أبو حيوة الشامي وعاصم في رواية المفضل كتب مبنياً للمفعول والإيمان نائب الفاعل 0

خالدين فيها (حسن) ومثله ورضوا عنه 0

حزب الله (كاف) 0

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى ص ﴾

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة ابن جنى :

سورة المجادلة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ1" ، بالتاء - أبو جعفر وأبو حية .

قال أبو الفتح : التذكير الذي عليه العامة هو الوجه ؛ لما هناك من الشياع وعموم الجنسية ، كقولك : ما جاءني من امرأة ، وما حضرني من جارية . وأما "تكون" ، بالتاء فلاعتزام لفظ التأنيث ، حتى كأنه قال : ما تكون2 من نجوى ثلاثة ، كما تقول : ما قامت امرأة ، ولا حضرت جارية وما تكون نجوى ثلاثة .

ومن ذلك قرأ الحسن وداود بن أبي هند3 : "تَفَاسَحُوا4" ، بألف .

قال أبو الفتح : هذا لائق بالغرض ؛ لأنه إذا قيل : تفسحوا في المجلس لم يكن فيه إصراح بدليل : ليفسح بعضكم لبعض ، وإنما ظاهر معناه : ليكن هناك تفسح .

وأما التفاسح فتفاعل ، والمراد به هنا المفاعلة ، وبابها أن يكون فما فوق الواحد ، كالمقاسمة والمكايلة والمساقات والمشاربة ، إلا أنه قد يستفاد أيضا مع "تفسحوا" هذا المعنى ؛ لأنه لم يقصد به تفسح مخصوص ، فهو شائع بينهم ، فسرى لذلك في جميعهم .

ومن ذلك قراءة الحسن: "اتَّخَذُوا أَيمَانَهُم5 ، " بكسر الهمزة.

قال أبو الفتح: هذا على حذف المضاف، أي: اتخذوا إظهار إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين، وهذا حديث المنافقين المعروف. انتهى انتهى. اهـ

﴿المحتسب جـ 2 صـ 314﴾

---

1 سورة المجادلة: 7.

2 كذا في الأصل، ولا مكان لـ"من" هنا، وعليها في الأصل ما يشبه الترميج.

3 هو داود بن أبي هند القشيري مولاهم أبو بكر المصري: أحد الأعلام. روى عن المسيب وأبي العالية والشعبي وغيرهم، وروى عنه يحيى بن سعيد قرينة وقتادة كذلك والثوري وخلق. مات سنة 139، وقيل سنة 140. الخلاصة: 95.

4 سورة المجادلة: 11.

5 سورة المجادلة: 16.

وقال العلامة الدمياطى:

سورة المجادلة

مدنية قيل إلا قوله تعالى ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم وقيل العشر الأول منها مدني وباقيها مكي وآيها عشرون وآية مكي ومدني وأخير واثنان في الباقي خلافها آية في الأذلين تركها مكي ومدني أخير مشبه الفاصلة عذابا شديدا القرآت أدغم دال قد سمع أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف

وقرأ (يظاهرون) الآية 2 في الموضعين هنا بفتح الياء وتشديد الهاء مفتوحتين بلا ألف نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بفتح الياء وبتشديد الظاء وألف بعدها وفتح الهاء مخففة وقرأ عاصم بضم الياء وتخفيف الظاء وألف بعدها وكسر الهاء بعد الألف وإنما خالف حمزة ومن معه قراءتهم في الأحزاب لعدم المسوغ لأن الحذف إنما كان لاجتماع التائين وهنا ياء تحتية ثم تاء فوقية فلم يجتمع المثلان وقرأ ﴿ (اللاءي ﴾ بإثبات ياء ساكنة بعد الهمزة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف والباقون بحذفها وحققها منهم أعني الحاذقين قالون وقنبل ويعقوب وسهلها بين بين ورش وأبو جعفر وبه قرأ أبو عمرو والبزي من طريق العراقيين والوجه الثاني لهما إبدال الهمزة ياء ساكنة وعليه سائر المغاربة ويشبع المد للساكنين وكل من سهل إذا وقف يقلبها ياء ساكنة كما مر بتوجيهه

وأمال (أحصاه) حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

واختلف في) ما يكون ( ) الآية 7 فأبو جعفر بالتاء من فوق الباقون بالتذكير

واختلف في (ولا أكثر من ذلك) الآية 7 فيعقوب بالرفع عطفا على محل نجوى لأنه مجرور بمن الزائدة للتأكيد وافقه الحسن وزاد فقرأ بالموحدة بدل المثلثة والباقون بالفتح مجرورا على لفظ نجوى

(60/750)

واختلف في (يتناجون) الآية 8 فحمزة ورويس ﴿ ينتجون ﴾ بنون ساكنة بعد الياء وضم الجيم بلا ألف على وزن ينتهون من النجوى وهو السر وأصله ينتجيون نقلت ضمة الياء لثقلها إلى الجيم ثم حذفت لسكونها مع سكون الواو وافقهما الأعمش والباقون بتاء ونون مفتوحتين وألف وفتح الجيم من التناجي من النجوى أيضا

واختلف في ( ) فلا تتناجوا (الآية 9 فرويس ﴿ تنتجوا ( ) ﴾ بوزن تنتهوا كذلك وعن ابن محيصن فلا تناجوا بتاء واحدة خفيفة وعنه تشديدها والباقون تتناجوا بتاءين خفيفتين ونون وألف وجيم مفتوحة ووقف على معصيت بالهاء ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب

وقرأ (ليحزن) الآية 11 بضم الياء وكسر الزاي نافع ومر بآل عمران وأشم قاف قيل معا هشام والكسائي ورويس

واختلف في ( ) تفسحوا في المجالس (الآية 11 فعاصم المجالس بالجمع وافقه الحسن وعنه

﴿ تفاسحوا) ﴾ بألف بعد الفاء وتخفيف السين والباقون ﴿ المجلس ﴾ بالتوحيد

واختلف في ( ) انشزوا فانشزوا (الآية 11 فنافع وابن عامر وحفص وأبو بكر فيما رواه عنه الجمهور وأبو جعفر بضم الشين فيهما والباقون بالكسر وكذلك والوجهان صحيحان عن أبي بكر وهما لغتان كيعكف ويعكف ويحرص ويحرص وسهل الثانية وأدخل الفاء في أأشفقتم قالون وأبو عمرو وهشام بخلفه وأبو جعفر وبلا ألف ورش وابن كثير ورويس وللأزرق إبدالها ألفا مع المد المشبع والثاني لهشام تحقيقها مع المد والثالث له تحقيقها مع القصر وبه قرأ الباقون وإذا وقف حمزة عليه فله في الثانية التحقيق والتسهيل لأنه متوسط بزائد وفتح سين ويحسبون ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر

وأمال (فأنساهم) الآية 19 حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وفتح ياء الإضافة من رسلي إن نافع وابن عامر وأبو جعفر

المرسوم اتفقوا على كتابة معصيت معا بالتاء ياءات الإضافة واحدة) ورسلي إن (الآية 21 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضي :

" سورة المجادلة "

" يظاهرون " معا قرأ نافع والمكي والبصريان بفتح الياء وتشديد الظاء والهاء وفتحها من غير ألف بعد الظاء وعاصم بضم الياء وتخفيف الظاء والهاء وكسرها وألف بعد الظاء . وقرأ أبو جعفر والشامي والأخوان بفتح الياء وتشديد الظاء وألف بعدها مع تخفيف الهاء وفتحها .

" اللائي " سبق بسط الكلام عليه لجميع القراء وصلا ووقفا في سورة الأحزاب .

" لعفو غفور " فتحرير ، يصلونها ، فبئس ، خير ، الصلاة ، خبير ، ليحزن ، قيل ، ءأشفقتم ، كله جلي .

" ما يكون " قرأ أبو جعفر بالتاء الفوقية وغيره بالياء التحتية .

" ولا أكثر " قرأ يعقوب برفع الراء وغيره بنصبها .

" ويتناجون " قرأ حمزة ورويس بتقديم النون على التاء مع إسكان النون وضم الجيم من غير ألف مثل ينتهون . فيصير النطق بنون ساكنة بعد الياء وبعد النون تاء مفتوحة وبعد التاء جيم مضمومة وبعدها واو ساكنة والباقون بتاء ونون مفتوحتين وبعد النون ألف مع فتح الجيم .

" فلا تتناجوا " قرأ رويس بتقديم النون على التاء كالأول فينطق بتاء مفتوحة فنون ساكنة

فتاء مفتوحة فجيم مضمومة والباقون بتاءين مفتوحتين خفيفتين فنون مفتوحة بعدها ألف

فجيم مفتوحة ولا خلاف بين العشرة في تناجيتم ولا في: وتناجوا .

" ومعصيت معا " رسم بالتاء ووقف عليه بالهاء المكي والبصريان والكسائي وغيرهم

بالتاء

" المجلس " قرأ عاصم بفتح الجيم وألف بعدها على الجمع وغيره بإسكان الجين على

الإفراد ،

" انشزوا فانشزوا " قرأ المدنيان والشامي وحفص وشعبة بخلف عنه بضم الشين والباقون

بكسرها وهو الوجه الثاني لشعبة ومن ضم الشين ضم الهمزة ابتداء ومن كسرها كسر

الهمزة ابتداء أيضاً .

" تعملون " آخر الربع .

الممال

للكافرين معا بالإمالة للبصري والدوري ورويس والتقليل لورش . أحصاه وأدنى بالإمالة

للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . نجوى والنجوى معا والتقوى ونجواكم معا بالإمالة

للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . جاءوك لابن ذكوان وخلف وحمزة .

المدغم

" الصغير " قد سمع للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " فتحرير رقبة . يعلم ما ، الذين نهوا . قيل لهم .

" قوما غضب " فيه إخفاء أبي جعفر .

" عليهم " ويحسبون . عليهم الشيطان . ذكر الله . الخاسرون . عشيرتهم " قلوبهم الإيمان .

منه . واضح كله .

" ورسلي إن " فتح الياء المدنيان والشامي وأسكنها غيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البدور الزاهرة صـ 322 . 323 ﴾

(63/750)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة المجادلة

قوله تعالى ﴿ الذين يظاهرون ﴾ مذكوران بوجوه قراءاتها وعللهما في سورة الأحزاب

قوله تعالى ﴿ ويتناجون بالإثم ﴾ يقرأ بالنون قبل التاء وطرح الالف وبالتاء قبل النون واثبات الالف فالاول وزنه يفتعلون والثاني وزنه يتفاعلون وكلاهما من المناجاة ومعناها الحديث والكلام

قوله تعالى ! ? ! ? < في المجلس > ? اجمع القراء فيه على التوحيد الا عاصما فإنه قرأه بالجمع فالحجة في التوحيد انه اريد به في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فيكون الخطاب خاصا للصحابة والحجة في الجمع انه اريد به مجلس العلم والذكر فيكون الخطاب عاما لكافة المؤمنين

قوله تعالى ﴿ وإذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾ يقرأ بضم الشين وكسرها وهما لغتان مثل يلمزون ويلمزون وقد ذكر واصل النشوز التحرك والارتفاع والتحول . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 344.343 ﴾

وقال ابن زنجلة :

58 – سورة المجادلة

الذين يظهرون منكم من نسائهم ما هن أمهتهم إن أمهتهم إلا اللائي ولدنهم 2

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو يظهرون بتشديد الظاء من غير ألف وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي الذين يظاهرون بالألف والتشديد وقرأ عاصم يظاهرون بضم الياء وتخفيف الظاء وكسر الهاء

تقول ظاهر من امرأته وظهر مثل ضاعف وضعف فتدخل التاء على كل واحد منهما فيصير تظاهر وتظهر يدخل حرف المضارعة فيصير يتظاهر ويتظهر ثم تدغم التاء في الظاء لمقاربتها فتصير يظاهر ويظهر بفتح الياء التي هي حرف المضارعة لأنها للمطاوعة كما يفتحها في يتدحرج الذي هو مطاوع دحرجته فتدحرج

ووجه الرفع في قوله ما هن أمهاتهم أنه لغة تميم قال سيبويه وهو أقيس الوجهين وذلك أن النفي كالاستفهام فكما لا يغير الاستفهام الكلام عما كان عليه في الواجب ينبغي ألا يغيره النفي عما كان عليه في الواجب ووجه النصب أنه لغة أهل الحجاز والأخذ بلغتهم في القرآن أولى وعليها جاء ما هذا بشرا

واما قول عاصم يظاهرون على وزن يفاعلون فحجته قولهم الظهار وكثر ذلك على الألسنة اللائي قد ذكرت في سورة الأحزاب ويتنجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول 8

2 - قرأ حمزة ويتنجون بالإثم بالنون وضم الجيم من غير ألف على يفتعلون والأصل ينتجبون لأن لام الفعل ياء من ناجيت فاستثقلوا الضمة على الياء فحذفوها وقد حذفت

لسكونها وسكون الواو يقال انتجى القوم ينتجون إذا تسارروا

وقرأ الباقون ويتناجون على يتفاعلون لأن التفاعل والمفاعلة لا يكون إلا من اثنين فصاعدا

فكذلك المناجاة بين جماعة وهو الأشبه بتشاكل الكلام في هذا الموضع قال الله جل وعز

بعدها إذا تناجيتم وقال وتناجوا بالبر والتقوى فوقع الخط في هذين الموضعين على شيء

يشاكل يتناجون

وقرأ حمزة مثله لأن العرب تقول اختصموا يختصمون وتخاصموا يتخاصمون وتقاتلوا

واقتتلوا وكذلك انتجوا وتناجوا بمعنى كذا قال سيبويه يأيها الذين ءامنوا إذا قيل لكم

تفسحوا في المجلس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشرزو 11

قرأ عاصم في المجالس بالألف جعله عاما أي إذا قيل لكم توسعوا في المجالس أي مجالس

العلماء والعلم فتفسحوا

وقرأ الباقون في المجلس على التوحيد أي في مجلس رسول الله صلى الله عليه خاصة

قرأ نافع وابن عامر وحفص وإذا قيل انشزوا فانشرزوا بضم الشين فيهما وقرأ الباقون

بكسر الشين وهما لغتا نشز ينشز وينشز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 702 - 705.﴾

(66/750)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة المجادلة

مدنية ونظيرتها في غير المدني الأخير والمكي البروج وفي الأخير والمكي الليل

وكلمها أربع مئة وثلاث وسبعون كلمة

وحروفها ألف وسبع مئة واثنان وتسعون حرفا

وهي إحدى وعشرون آية في المدني الأخير والمكي واثنتان وعشرون في عدد الباقين

اختلافها آية (﴿ أولئك في الأذلين ﴾) لم يعدها المدني الأخير والمكي وعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل موضع واحد وهو (﴿ شديدا ﴾)

ورؤوس الآي

بصير

1 غفور

2 خبير

3 أليم

4 مهين

5 شهيد

6 عليم

7 المصير

8 تحشرون

9 المؤمنون

10 خبير

11 رحيم

12 تعملون

13 يعلمون

14 يعملون

15 مهين

16 خالدون

17 الكاذبون

18 الخاسرون

19 عزيز

21 المفلحون

22 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 242 ﴾

(67/750)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (وتشتكى) يجوز أن يكون معطوفا على تجادل ، وأن يكون حالا .

قوله تعالى (أمهاتهم) بكسر التاء على أنه خبر " ما " وبضمها على اللغة التميمية و (منكرا) أي قولا منكرا .

قوله تعالى (والذين يظاهرون) مبتدأ ، و (تحرير رقبة) مبتدأ أيضا تقديره: فعليهم ، والجملة

خبر المبتدأ ، وقوله (من قبل أن يتماسا) محمول على

المعنى: أي فعلى كل واحد .

قوله تعالى (لما قالوا) اللام تتعلق بيعودون ، ومعنى يعودون للمقول فيه ، هذا إن جعلت " ما " مصدرية ، ويجوز أن تجعله بمعنى الذى ونكرة موصوفة ، وقيل اللام بمعنى في ، وقيل بمعنى إلى ، وقيل في الكلام تقديم تقديره: ثم يعودون فعليهم تحرير رقبة لما قالوا ، والعود هنا ليس بمعنى تكرير الفعل ، بل بمعنى العزم على الوطئ .

قوله تعالى (يوم يبعثهم الله) أي يعذبون أو يهانون ، واستقر ذلك يوم يبعثهم ، وقيل هو ظرف ل (أحصاه) .

قوله تعالى (ثلاثة) هو مجرور بإضافة نجوى إليه ، وهى مصدر بمعنى التناجى أو الالتجاء ، ويجوز أن تكون النجوى اسما للمتناجين ، فيكون ثلاثة صفة أو بدلا

(ولا أكثر) معطوف على العدد ويقرأ بالرفع على الابتداء وما بعده الخبر ، ويجوز أن يكون معطوفا على موضع من نجوى .

قوله تعالى (ويتناجون) يقرأ " وينتجون " وهما بمعنى ، يقال تناجوا وانتجوا .

قوله تعالى (فإذ لم) قيل إذ بمعنى إذا كما ذكرنا في قوله تعالى " إذ الأغلال في أعناقهم " وقيل هي بمعنى إن الشرطية ، وقيل هي على بابها ماضية ، والمعنى إنكم تركتم ذلك فيما مضى فتداركوه بإقامة الصلاة .

قوله تعالى (استحوذ) إنما صحت الواو هنا بنية على الأصل ، وقياسه استحاذ مثل استقام .

قوله تعالى (لأغلبن) هو جواب قسم محذوف ، وقيل هو جواب كتب ، لأنه بمعنى قال .

(68/750)

قوله تعالى (يوادون) هو المفعول الثاني لتجد ، أو حال أو صفة لقوم ، وتجد بمعنى تصادف على هذا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن جـ 2 صـ ﴾

(69/750)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة المجادلة

[سورة المجادلة (58) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللَّهَ

سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1)

"قَدْ سَمِعَ" حرف تحقيق وماض "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "قَوْلَ" مفعول به مضاف "الَّتِي" مضاف إليه "تُجادِلُكَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة "فِي زَوْجِها" متعلقان بالفعل. "وَتَشْتَكِي" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "إِلَى اللَّهِ" متعلقان بالفعل. "وَاللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "يَسْمَعُ" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية حال.

"تَحاوُرَكُما" مفعول به. "إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ" إن واسمها وخبراها والجملة الاسمية تعليلية.

[سورة المجادلة (58) : آية 2]

الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (2)

"الَّذِينَ يُظاهِرُونَ" مبتدأ ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة "مِنْكُمْ" متعلقان بمحذوف حال "مِنْ نِسائِهِمْ" متعلقان بالفعل "ما" نافية تعمل عمل ليس "هُنَّ"

أُمَّهاتِهِمْ" اسمها وخبرها والجملة خبر الذين وجملة الذين . . استئنافية لا محل لها . "إِنْ" نافية "أُمَّهاتِهِمْ" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "اللَّائِي" اسم الموصول خبر المبتدأ والجملة استئنافية لا محل لها . "وَلَدْنَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة . "وَإِنَّهُمْ" إن واسمها "لَيَقُولُونَ" اللام المزحلقة ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر إنهم والجملة الاسمية حالية "مُنْكَراً" صفة مفعول مطلق محذوف "مِنَ الْقَوْلِ" صفة لمنكر "وَزُوراً" معطوف على منكرا . "إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ" إن واسمها واللام المزحلقة وعفو غفور خبران والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة المجادلة (58) : آية 3]

وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3)

"وَالَّذِينَ" الواو استئنافية ومبتدأ "يُظاهِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "مِنْ نِسائِهِمْ" متعلقان بالفعل "ثُمَّ" حرف عطف "يَعُودُونَ" معطوف على يظاهرون "لِما" متعلقان بالفعل "قالُوا" ماض وفاعله والجملة صلة ما "فَتَحْرِيرُ" الفاء زائدة وتحرير مبتدأ مضاف "رَقَبَةٍ" مضاف إليه والخبر محذوف والجملة الاسمية خبر الذين وجملة الذين . . استئنافية لا محل لها ، "مِنْ قَبْلِ" متعلقان بتحرير "أَنْ يَتَماسَّا" مضارع منصوب بأن وعلامة

نصبه حذف النون والألف فاعله وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة ، "ذِلكُمْ" مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "تُوعَظُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو

(71/750)

نائب فاعل والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "بِهِ" متعلقان بالفعل "وَاللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "بِما" متعلقان بخبير "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة ما "خَبِيرٌ" خبر والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة المجادلة (58) : آية 4]

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (4)

"فَمَنْ" اسم شرط مبتدأ "لَمْ يَجِدْ" مضارع مجزوم بلم فاعله مستتر "فَصِيامُ" الفاء رابطة وصيام مبتدأ خبره محذوف "شَهْرَيْنِ" مضاف إليه "مُتَتابِعَيْنِ" صفة شهرين والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط وجوابه خبر من "مِنْ قَبْلِ" متعلقان بصيام "أَنْ يَتَمَاسَّا" مضارع منصوب بأن والألف فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بالإضافة . "فَمَنْ" الفاء حرف عطف اسم شرط مبتدأ "لَمْ يَسْتَطِعْ" مضارع

مجزوم بلم "فَإِطْعامُ" الفاء رابطة "إطعام" مبتدأ خبره محذوف والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من . . وجملة فمن لم . . معطوفة على ما قبلها "سِتِّينَ" مضاف إليه مجرور بالياء "مِسْكِيناً" تمييز "ذلِكَ" مبتدأ "لِتُؤْمِنُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "وَرَسُولِهِ" معطوف على ما قبله "وَتِلْكَ حُدُودُ" مبتدأ وخبره "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَلِلْكافِرِينَ" خبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ "أَلِيمٌ" صفة عذاب والجملة معطوفة على ما قبلها .

(72/750)

[سورة المجادلة (58) : آية 5]

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (5)

"إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "يُحَادُّونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "وَرَسُولَهُ" معطوف على ما قبله ، "كُبِتُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب

فاعل والجملة خبر إن والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها . "كَما كُبِتَ" الكاف حرف جر وتشبيه وما مصدرية وماض مبني للمجهول "الَّذِينَ" نائب فاعل "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بالكاف والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "وَقَدْ" حرف تحقيق "أَنْزَلْنا آياتٍ" ماض وفاعله ومفعوله "بَيِّناتٍ" صفة آيات والجملة حال "وَلِلْكافِرِينَ" خبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر "مُهِينٌ" صفة عذاب والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة المجادلة (58) : آية 6]

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6)

"يَوْمَ" ظرف زمان "يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ" مضارع ومفعوله ولفظ الجلالة فاعله "جَمِيعاً" حال منصوبة والجملة في

محل جر بالإضافة "فَيُنَبِّئُهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر "بِما" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "عَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة صلة ، "أَحْصاهُ اللَّهُ" ماض ومفعوله ولفظ الجلالة فاعله والجملة استئنافية لا محل لها "وَنَسُوهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة حال . "وَاللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "عَلى كُلِّ" متعلقان بشهيد "شَيْءٍ" مضاف إليه "شَهِيدٌ" خبر والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة المجادلة (58) : آية 7]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)

"أَلَمْ تَرَ" الهمزة للاستفهام ومضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر "أَنَّ اللَّهَ" أن واسمها "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها مفعول به والجملة الفعلية ألم تر . . استئنافية لا محل لها . "ما" اسم موصول مفعول به "فِي السَّمَاوَاتِ" صلة الموصول "وَمَا فِي الْأَرْضِ" معطوفة على ما قبله . "ما" نافية "يَكُونُ" مضارع تام "مِنْ نَجْوَى" مجرور لفظا بمن الزائدة مرفوع محلا فاعل يكون "ثَلَاثَةٍ" مضاف إليه "إِلَّا" حرف حصر "هُوَ رَابِعُهُمْ" مبتدأ وخبره والجملة حال والواو حرف عطف "لا" نافية "خَمْسَةٍ" معطوف على ثلاثة "إِلَّا" حرف حصر "هُوَ سَادِسُهُمْ" مبتدأ وخبره والجملة حال ، "وَلَا" الواو حرف عطف "لا" نافية "أَدْنَى " معطوف على لفظ نجوى "مِنْ ذَلِكَ" متعلقان بأدنى "وَلَا أَكْثَرَ" معطوف على ولا أدنى "إِلَّا" حرف حصر "هُوَ مَعَهُمْ" مبتدأ وخبره والجملة حال "أَيْنَ مَا" ظرف مكان وما زائدة "كَانُوا" ماض تام وفاعله والجملة في

محل جر بالإضافة "ثُمَّ" حرف عطف "يُنَبِّئُهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "بِما" متعلقان بالفعل "عَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة صلة ما ، "يَوْمَ" ظرف زمان "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "أَنَّ اللَّهَ" إن واسمها "بِكُلِّ" متعلقان بعليم "شَيْءٍ" مضاف إليه "عَلِيمٌ" خبر إن والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة المجادلة (58) : آية 8]

(74/750)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8)

"أَلَمْ تَرَ" انظر الآية السابقة . "إِلَى الَّذِينَ" متعلقان بالفعل "نُهُوا" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة صلة "عَنِ النَّجْوى" متعلقان بالفعل ، "ثُمَّ" حرف عطف "يَعُودُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "لِما" متعلقان بالفعل "نُهُوا" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل "عَنْهُ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "وَيَتَناجَوْنَ" معطوف على يعودون "بِالْإِثْمِ" متعلقان بالفعل "وَالْعُدْوانِ" معطوف على الإثم "وَمَعْصِيَةِ" معطوف على

العدوان "الرَّسُولِ" مضاف إليه . "وَإِذا"

ظرفية شرطية غير جازمة "جاؤُكَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "حَيَّوْكَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب الشرط لا محل لها "بِما" متعلقان بالفعل "لَمْ يُحَيِّكَ" مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والكاف مفعول به "بِهِ" متعلقان بالفعل "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل والجملة صلة ما ، "وَيَقُولُونَ" مضارع وفاعله "فِي أَنْفُسِهِمْ" متعلقان بالفعل "لَوْلا" حرف تحضيض "يُعَذِّبُنَا" مضارع ومفعوله "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله "بِما" متعلقان بالفعل وجملة يعذبنا مقول القول "نَقُولُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة ما ، "حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "يَصْلَوْنَها" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة الفعلية حال "فَبِئْسَ" ماض جامد لإنشاء الذم "الْمَصِيرُ" فاعل والجملة استئنافية لا محل لها .

(75/750)

[سورة المجادلة (58) : آية 9]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9)

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" : سبق إعرابها ، "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "تَناجَيْتُمْ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "فَلا تَتَناجَوْا" الفاء رابطة ومضارع مجزوم بلا والواو فاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها . "بِالْإِثْمِ" متعلقان بالفعل "وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ" معطوفان على الإثم "الرَّسُولِ" مضاف إليه ، "وَتَناجَوْا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله "بِالْبِرِّ" متعلقان بالفعل "وَالتَّقْوى" معطوف على البر ، "وَاتَّقُوا اللَّهَ" أمر وفاعله ولفظ الجلالة مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "الَّذِي" صفة للّه "إِلَيْهِ" متعلقان بتحشرون "تُحْشَرُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة .

[سورة المجادلة (58) : آية 10]

إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10)

"إِنَّمَا" كافة ومكفوفة "النَّجْوى" مبتدأ "مِنَ الشَّيْطانِ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية تعليل لا محل لها .

"لِيَحْزُنَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر ثان "الَّذِينَ" مفعول به "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَلَيْسَ" ماض ناقص اسمه مستتر "بِضارِّهِمْ" مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليس "شَيْئاً" مفعول به والجملة حال .

"إِلَّا" حرف حصر "بِإِذْنِ" متعلقان بمحذوف حال "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه. "وَعَلَى اللَّهِ" حرف عطف ومتعلقان بيتوكل "فَلْيَتَوَكَّلِ" الفاء حرف استئناف ومضارع مجزوم بلام الأمر "الْمُؤْمِنُونَ" فاعل والجملة استئنافية لا محل لها.

[سورة المجادلة (58) : آية 11]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11)

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا" تقدم إعرابها "قِيلَ" ماض مبني للمجهول "لَكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة في محل

جر بالإضافة "تَفَسَّحُوا" أمر وفاعله "فِي الْمَجالِسِ" متعلقان بالفعل والجملة مقول القول "فَافْسَحُوا" الفاء رابطة وأمر وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "يَفْسَحِ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا" تقدم إعراب مثيله. "يَرْفَعِ اللَّهُ" مضارع مجزوم ولفظ الجلالة فاعله "الَّذِينَ" اسم

الموصول مفعول به "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْكُمْ" متعلقان بمحذوف حال "وَالَّذِينَ" معطوف على ما قبله "أُوتُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل "الْعِلْمَ" مفعول به ثان "دَرَجاتٍ" منصوب بنزع الخافض. "وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" سبق إعرابها.

[سورة المجادلة (58) : آية 12]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12)

(77/750)

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا" سبق إعرابها "ناجَيْتُمُ" ماض وفاعله "الرَّسُولَ" مفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "فَقَدِّمُوا" الفاء رابطة وأمر وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "بَيْنَ" ظرف مكان مضاف "يَدَيْ" مضاف إليه "نَجْواكُمْ" مضاف إليه "صَدَقَةً" مفعول به "ذلِكَ خَيْرٌ" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "لَكُمْ" متعلقان بخير "وَأَطْهَرُ" معطوف على خير "فَإِنْ" الفاء حرف استئناف وإن شرطية "لَمْ تَجِدُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله والجملة استئنافية لا محل لها، "فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" إن واسمها وخبراها والجملة الاسمية تعليل.

[سورة المجادلة (58) : آية 13]

أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (13)

"أَأَشْفَقْتُمْ" الهمزة حرف استفهام وماض وفاعله "أَنْ تُقَدِّمُوا" مضارع منصوب بأن والواو فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل منصوب بنزع الخافض وجملة أشفقتم استئنافية لا محل لها "بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ" سبق إعرابها "صَدَقاتٍ" مفعول به "فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا" إذ ظرف لما مضى من الزمن ومضارع مجزوم بلم والواو فاعله وو الجملة في محل جر بالإضافة وجملة إذ استئنافية لا محل لها . "وَتابَ اللَّهُ" ماض وفاعله "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة حال "فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ" الفاء رابطة وأمر وفاعله ومفعوله والجملة جواب إذ لا محل لها "وَآتُوا الزَّكاةَ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ" معطوفتان على ما قبلهما .

"وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ" سبق إعرابها .

[سورة المجادلة (58) : آية 14]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14)

"أَلَمْ تَرَ" سبق إعرابها "إِلَى الَّذِينَ" متعلقان بالفعل "تَوَلَّوْا" ماض وفاعله والجملة صلة "قَوْماً" مفعول به وجملة ألم تر استئنافية لا محل لها "غَضِبَ اللَّهُ" ماض وفاعله "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل والجملة

صفة قوما "ما" نافية لا عمل لها "هُمْ" مبتدأ "مِنْكُمْ" خبر المبتدأ والجملة استئنافية لا محل لها "وَلا" الواو حرف عطف "لا" نافية "مِنْهُمْ" معطوف على منكم "وَيَحْلِفُونَ" مضارع وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "عَلَى الْكَذِبِ" متعلقان بالفعل "وَهُمْ يَعْلَمُونَ" الواو حالية ومبتدأ ويعلمون مضارع وفاعله والجملة الفعلية خبر هم والجملة الاسمية حال .

[سورة المجادلة (58) : آية 15]

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (15)

"أَعَدَّ اللَّهُ" ماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "عَذاباً" مفعول به "شَدِيداً" صفة "إِنَّهُمْ" إن واسمها "ساءَ" ماض لإنشاء الذم والفاعل مستتر وجوبا "ما" نكرة مبنية على السكون في محل نصب على التمييز وجملة ساء خبر إن . وجملة إنهم . . استئنافية لا محل لها "كانُوا" كان واسمها "يَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا والجملة الفعلية صفة ما .

[سورة المجادلة (58) : آية 16]

اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (16)

(79/750)

"اتَّخَذُوا" ماض وفاعله "أَيْمانَهُمْ" مفعوله الأول "جُنَّةً" مفعوله الثاني والجملة الفعلية مفسرة لجملة ساء . . ، "فَصَدُّوا" ماض وفاعله "عَنْ سَبِيلِ" متعلقان بالفعل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها . "فَلَهُمْ" خبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر "مُهِينٌ" صفة عذاب والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة المجادلة (58) : آية 17]

لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (17)

"لَنْ تُغْنِيَ" مضارع منصوب بلن "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل "أَمْوالُهُمْ" فاعل "وَلا أَوْلادُهُمْ" معطوف على أموالهم "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بتغني "شَيْئاً" مفعول مطلق "أُولئِكَ أَصْحابُ" مبتدأ وخبره "النَّارِ" مضاف إليه والجملة استئنافية لا محل لها "هُمْ" مبتدأ "فِيها" متعلقان بخالدون "خالِدُونَ" خبر والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة المجادلة (58) : آية 18]

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ (18)

"يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ" ظرف زمان ومضارع ومفعوله "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله والجملة في محل جر بالإضافة "جَمِيعاً" حال، "فَيَحْلِفُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على يبعثهم "لَهُ" متعلقان بالفعل "كَما" صفة مفعول مطلق محذوف "يَحْلِفُونَ" مضارع مرفوع الواو فاعله والجملة صلة الموصول الحرفي "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "وَيَحْسَبُونَ" مضارع وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "أَنَّهُمْ" أن واسمها "عَلى شَيْءٍ" خبر أنهم والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي يحسبون "أَلا" حرف تنبيه واستفتاح "أَنَّهُمْ" إن واسمها "هُمُ" ضمير فصل "الْكاذِبُونَ" خبر والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها.

(80/750)

[سورة المجادلة (58) : آية 19]

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ (19)

"اسْتَحْوَذَ" ماض "عَلَيْهِمُ" متعلقان بالفعل "الشَّيْطانُ" فاعله والجملة استئنافية لا محل لها "فَأَنْساهُمْ" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر "ذِكْرَ" مفعوله الثاني "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها ، "أُولئِكَ حِزْبُ" مبتدأ وخبره "الشَّيْطانُ" مضاف إليه والجملة استئنافية لا محل لها . "أَلا" حرف تنبيه واستفتاح "إِنَّ حِزْبَ" إن واسمها "الشَّيْطانُ" مضاف إليه "هُمُ" ضمير فصل "الْخاسِرُونَ" خبر إن والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة المجادلة (58) : آية 20]

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20)

"إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" سبق إعرابها . "أُولئِكَ" اسم الإشارة مبتدأ ، "فِي الْأَذَلِّينَ" خبر وجملة أولئك خبر إن وجملة إن استئنافية لا محل لها .

[سورة المجادلة (58) : آية 21]

كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21)

"كَتَبَ" ماض "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله والجملة استئنافية لا محل لها "لَأَغْلِبَنَّ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة "أَنَا" تأكيد للفاعل المستتر "وَرُسُلِي" معطوف على أنا . والجملة جواب القسم المحذوف لا محل لها .

"إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ" إن واسمها وخبراها والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة المجادلة (58) : آية 22]

(81/750)

لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)

"لا" نافية "تَجِدُ" مضارع فاعله مستتر "قَوْماً" مفعول به "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل والجملة صفة قوما "وَالْيَوْمِ" معطوف على ما قبله "الْآخِرِ" صفة اليوم وجملة لا تجد . .

استئنافية لا محل لها "يُوادُّونَ" مضارع وفاعله "مَنْ" مفعول به والجملة حال "حَادَّ اللَّهَ" ماض فاعله مستتر ولفظ الجلالة مفعول به والجملة صلة من "وَرَسُولَهُ" معطوف على الله ، والواو حالية "وَلَوْ" الواو للحال ولو وصلية "كَانُوا آبَاءَهُمْ" كان واسمها وخبرها والجملة حال ، "أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ" معطوف على آباءهم "أُولَئِكَ" اسم الإشارة

مبتدأ "كَتَبَ" ماض فاعله مستتر والجملة خبر أولئك والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "فِي قُلُوبِهِمُ" متعلقان بالفعل "الْإِيمَانَ" مفعول به ، "وَأَيَّدَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر

(82/750)

"بِرُوحٍ" متعلقان بالفعل "مِنْهُ" صفة روح والجملة معطوفة على كتب "وَيُدْخِلُهُمْ" مضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر "جَنَّاتٍ" مفعول به ثان والجملة استئنافية لا محل لها .

"تَجْرِي" مضارع "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بالفعل "الْأَنْهَارُ" فاعل والجملة صفة جنات "خَالِدِينَ" حال "فِيهَا" متعلقان بخالدين "رَضِيَ اللَّهُ" ماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها . "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل "وَرَضُوا عَنْهُ" معطوف على ما قبله "أُولَئِكَ حِزْبُ" مبتدأ وخبره "اللَّهَ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة استئنافية لا محل لها . "أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" سبق إعرابها برقم 19 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 316.323﴾

(83/750)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة المجادلة

ذكر فِيهَا أَرْبَعَة عشر حَدِيثا

1301 - الحَدِيث الأول رُوِيَ أَن خَوْلَة بنت ثَعْلَبَة رَآهَا زَوجهَا وَهِي تصلي وَهُوَ أَوْس بن الصَّامِت أَخُو عبَادَة وَكَانَت حَسَنَة الْجِسْم فَرَاودهَا فَأَبت فَغَضب وَكَانَ بِهِ خفَّة لمم فَظَاهر مِنْهَا فَأَتَت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَت إِن أَوْسًا تزَوجنِي وَأَنا شَابة مَرْغُوب فِي فَلَمَّا خلا سني وَنَثَرت بَطْني أَي كثر ولدهَا جعلني عَلَيْهِ كَأُمِّهِ

رُوِيَ أَنَّهَا قَالَت إِن لي صبية صغَارًا إِن ضَمَمْتهمْ إِلَى جَاعُوا وَإِن ضَمَمْتهمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا فَقَالَ مَا عِنْدِي فِي أَمرك شَيْء

وَرُوِيَ أَنه قَالَ لَهَا حرمت عَلَيْهِ فَقَالَت يَا رَسُول الله مَا ذكر طَلَاقا وَإِنَّمَا هُوَ أَبُو وَلَدي وَأحب النَّاس إِلَيّ قَالَ حرمت عَلَيْهِ فَقَالَت أَشْكُو إِلَى الله فاقتي ووحدتي كلما قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حرمت عَلَيْهِ هَتَفت وشكت إِلَى الله تَعَالَى فنزلت قد سمع الله الْآيَة

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ وَالدَّارَقُطْنِيّ فِي سننيهما بروايات مُخْتَلفَة وَفِي أبي دَاوُد مِنْهُ شَيْء يسير وَكَذَلِكَ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وخولة بنت ثَعْلَبَة وَيُقَال خُوَيْلَة وَالْأول أشهر

وَالرِّوَايَة الثَّالِثَة عِنْد الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره ثَنا ابْن حميد ثَنا مهْرَان عَن نجيح

أبي معشر الْمدنِي عَن مُحَمَّد بن كَعْب الْقرظِيّ قَالَ كَانَت خَوْلَة بنت ثَعْلَبه تَحت أَوْس ابْن الصَّامِت وَكَانَ رجلا بِهِ لمم فَقَالَ فِي بعض هجْرَاته أَنْت عَليّ كَظهر أُمِّي ثمَّ نَدم وَقَالَ مَا أَظُنك إِلَّا حرمت فَجَاءَت إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَت يَا نَبِي الله إِن أَوْس بن الصَّامِت أَبُو وَلَدي وَأحب النَّاس إِلَيّ وَالَّذِي أنزل عَلَيْك الْكتاب مَا ذكر طَلَاقا وَإِنَّمَا قَالَ أَنْت عَليّ كَظهر أُمِّي ثمَّ نَدم فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (كَمَا أَرَاك إِلَّا حرمت عَلَيْهِ) فَقَالَت يَا رَسُول الله لَا تقل كَذَلِك وَالله مَا ذكر طَلَاقا فَرَادتْ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مرَارًا ثمَّ قَالَت اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْك فاقتي وحدتي وَمَا يشق عَليّ من فِرَاقه اللَّهُمَّ فَأنْزل على نبيك وَفِي لفظ لَهُ عَن أبي الْعَالِيَة قَالَ فَجعلت كلما قَالَ لَهَا حرمت عَلَيْهِ هتفت وَقَالَت أَشْكُو إِلَى الله فاقتي فَلم ترم مَكَانهَا حَتَّى نزلت الْآيَة فَدَعَاهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فقرأها عَلَيْهِ ثمَّ قَالَ لَهُ أعتق رَقَبَة قَالَ لَا أجد قَالَ (فَصم شَهْرَيْن مُتَتَابعين) قَالَ لَا أَسْتَطِيع أَن أَصوم الْيَوْم الْوَاحِد قَالَ (أطْعم سِتِّينَ مِسْكينا) قَالَ أما هَذَا فنعم فَهَذَا مُرْسل وَالَّذِي قبله أَيْضا

1302 - الحَدِيث الثَّانِي عَن عَائِشَة قَالَت الْحَمد لله الَّذِي وسع سَمعه الْأَصْوَات لقد

كلمت المجادلة رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَانب الْبَيْت وَأَنا عِنْده لَا أسمع وَقد سمع الله لَهَا

(85/750)

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير وَفِي الطَّلَاق وَابْن ماجة فِي السّنة من حَدِيث الْأَعْمَش عَن تَمِيم بن سَلمَة عَن عُرْوَة عَن عَائِشَة أَنَّهَا قَالَت الْحَمد لله الَّذِي وسع سَمعه الْأَصْوَات لقد جَاءَت خَوْلَة إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تشكو زَوجهَا فَكَانَ يخفى عَليّ كَلَامهَا فَأنْزل الله قد سمع الله قَول الَّتِي تُجَادِلك الْآيَة

وَرَوَاهُ أَحْمد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم والطبري فِي تَفْسِيره وَكَذَلِكَ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره وَالْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه تَعْلِيقا فَقَالَ وَقَالَ الْأَعْمَش عَن تَمِيم بن سَلمَة عَن عُرْوَة عَن عَائِشَة فَذكره فِي كتاب التَّوْحِيد وألفاظهم كلهم الْحَمد لله الَّذِي وسع سَمعه الْأَصْوَات لقد جَاءَت المجادلة إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكَلمه وَأَنا فِي نَاحيَة الْبَيْت لَا أسمع مَا يَقُول فَأنْزل الله قد سمع الله إِلَى آخر الْآيَة

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك وَلَفظه قَالَت تبَارك الَّذِي وسع سَمعه كل شَيْء إِنِّي لأسْمع كَلَام

خوْلَة بنت ثَعْلَبَة ويخفى عَلَى بعضه وَهِي تَشْتَكِي زَوجهَا إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهِي تَقول يَا رَسُول الله أكل شَبَابِي وَنَثَرت لَهُ بَطْني حَتَّى إِذا كبر سني وَانْقطع وَلَدي ظَاهر مني اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْك

قَالَت عَائِشَة فَمَا بَرحت حَتَّى نزل جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام بهؤلاء الْآيَات (قد سمع الله قَول الَّتِي تُجَادِلك فِي زَوجهَا) وَزوجهَا أَوْس بن الصَّامِت

انْتَهى

وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

(86/750)

1303 - الحَدِيث الثَّالِث عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ لسلمة بن صَخْر البياضي حِين قَالَ لَهُ يَا رَسُول الله ظَاهَرت من امْرَأَتي ثمَّ أَبْصرت خلْخَالهَا فِي لَيْلَة قَمْرَاء فواقعْتهَا فَقَالَ (اسْتغْفر الله وَلَا تعد حَتَّى تكفر

قلت رَوَاهُ أَصْحَاب السّنَن الْأَرْبَعَة فِي كتبهمْ من حَدِيث الْفضل بن مُوسَى عَن معمر عَن الحكم بن أبان عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس أَن رجلا ظَاهر من امْرَأَته ثمَّ وَاقعهَا قبل أَن يكفر فَأتى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأخْبرهُ قَالَ (مَا حملك عَلَى مَا صنعت) قَالَ رَأَيْت

بَيَاض سَاقيهَا فِي الْقَمَر قَالَ (فَاعْتَزلهَا حَتَّى تكفر عَنْك) وَلَفظ التِّرْمِذِيّ قَالَ رَأَيْت خلْخَالهَا فِي ضوء الْقَمَر قَالَ (فَلَا تقربهَا

حَتَّى تفعل مَا أَمرك الله)

انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث حسن غَرِيب صَحِيح

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ من طَرِيق عبد الرَّزَّاق أَنا معمر بِهِ فَذكره مُرْسلا قَالَ النَّسَائِيّ والمرسل أولى بِالصَّوَابِ

انْتَهَى

وَرووا إِلَّا النَّسَائِيّ من حَدِيث سَلمَة بن صَخْر البياضي قَالَ كنت امْرَءًا أستَكْثر من النِّسَاء لَا أرى رجلا يُصِيب من ذَلِك مَا كنت أُصِيب فَلَمَّا دخل رَمَضَان ظَاهَرت من امْرَأَتي حَتَّى يَنْسَلِخ رَمَضَان فَبَيْنَمَا هِيَ تُحَدِّثنِي ذَات لَيْلَة انْكَشَفَ لي مِنْهَا شَيْء فَوَثَبت عَلَيْهَا فواقعتها الحَدِيث بِطُولِهِ وَلَيْسَ فِيهِ اسْتغْفر الله إِلَى آخِره

1304 - الحَدِيث الرَّابِع عَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أَنه قَالَ (إِذا كُنْتُم ثَلَاثَة فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَان دون صَاحبهمَا فَإِن ذَلِك يحزنهُ) وَرُوِيَ دون الثَّالِث

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَأخرجه مُسلم فِي آخر الاسْتِئْذَان وَهُوَ بعد الْأَدَب من حَدِيث أبي وَائِل شَقِيق عَن عبد الله بن مَسْعُود قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِذا كُنْتُم ثَلَاثَة فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَان دون صَاحبهمَا فَإِن ذَلِك يحزنهُ)

انْتَهَى دون آخر انْتَهَى

والْحَدِيث فِيهِ رِوَايَات فدون آخر اتفقَا عَلَيْهِ وَدون صَاحبهمَا وَدون وَاحِد انْفَرد بهما مُسلم وَدون ثَالِث انْفَرد بهَا الْبُخَارِيّ وَأَخْرَجَا عَن نَافِع عَن ابْن عمر مَرْفُوعا إِذا كَانَ ثَلَاثَة فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَان دون وَاحِد

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث ابْن عمر وَزَاد فِيهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ قَالَ قلت فَإِن كَانُوا أَرْبَعَة قَالَ لَا بَأْس بِهِ

انْتَهَى

1305 - الحَدِيث الْخَامِس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (بَين الْعَالم وَالْعَابِد مائَة دَرَجَة بَين كل دَرَجَتَيْنِ

حضر الْجواد الْمُضمر سبعين سنة)

قلت رَوَى أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده من حَدِيث عبد الله بن مُحَرر عَن الزُّهْرِيّ عَن

أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فضل الْعَالم عَلَى العابد سَبْعُونَ دَرَجه مَا بَين كل دَرَجَتَيْنِ مسيرَة مائَة عَام حضر الْفرس السَّرِيع) انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وأعله بِعَبْد الله بن مُحَرر ثمَّ أسْند عَن ابْن الْمُبَارك بَعرَة أحب إِلَيّ مِنْهُ وَعَن ابْن معِين قَالَ ضَعِيف وَعَن السّديّ هَالك وَعَن النَّسَائِيّ وَالْفَلَّاس مَتْرُوك الحَدِيث وَعَن قَتَادَة مُنكر الحَدِيث ووافقهم وَقَالَ رواياته غير مَحْفُوظَة

انْتَهَى

(88/750)

وَرَوَاهُ أَبُو الْقَاسِم الْأَصْبَهَانِيّ فِي كتاب التَّرْغِيب والترهيب أخبرنَا أَبُو الْخَيْر ابْن هَارُون أَنا أَبُو الْفرج الْبُرْجِي أَنا مُحَمَّد بن عمر بن حَفْص ثَنَا إِسْحَاق بن الْفَيْض ثَنَا الْقَاسِم بن الحكم عَن سَلام عَن خَارِجَة بن مُصعب عَن زيد ابْن أسلم عَن عبد الرَّحْمَن عَن عبد الله بن عَمْرو قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فضل الْعَالم عَلَى العابد سَبْعُونَ دَرَجَة مَا بَين كل دَرَجَتَيْنِ حضر الْجواد سبعين عَاما)

انْتَهَى

وَفِي كتاب الْعلم لِابْنِ عبد الْبر قَالَ وروى ابْن عون عَن مُحَمَّد بن سِيرِين عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بَين الْعَالم والْعَابِد مائَة دَرَجَة بَين كل دَرَجَتَيْنِ حضر الْجواد الْمُضمر سبعين سنة)

انْتَهى

1306 - الحَدِيث السَّادِس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فضل الْعَالم عَلَى العابد كفضل الْقَمَر لَيْلَة الْبَدْر عَلَى سَائِر الْكَوَاكِب)

قلت رَوَاهُ أَصْحَاب السّنَن الْأَرْبَعَة من حَدِيث أبي الدَّرْدَاء وَقد تقدم فِي سُورَة النَّمْل

1307 - الحَدِيث السَّابِع

وَعَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (يشفع يَوْم الْقِيَامَة ثَلَاثَة الْأَنْبِيَاء ثمَّ الْعلمَاء ثمَّ الشُّهَدَاء)

قلت رَوَاهُ ابْن ماجة فِي آخر سنَنه من حَدِيث عَنْبَسَة بن عبد الرَّحْمَن الْقرشِي عَن علاان بن أبي مُسلم عَن أبان بن عُثْمَان عَن عُثْمَان بن عفَّان قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يشفع يَوْم الْقِيَامَة) إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْبَعْث والنشور وَأَبُو عمر بن عبد الْبر فِي كتاب الْعلم وَأخرجه ابْن عدي فِي الْكَامِل والعقيلي فِي ضعفاءه وَأَعلاهُ بعَنْبَسَة ونقلا عَن البُخَارِيّ أَنه قَالَ فِيهِ تَرَكُوهُ وَرَوَاهُ أَبُو يعلى الْموصِلِي فِي مُسْنده بسَنَدِهِ الْمَذْكُور وَمَتنه

1308 - قَوْله عَن ابْن عَبَّاس خير سُلَيْمَان بَين الْعلم وَالْمَال وَالْملك فَاخْتَارَ الْعلم فَأعْطِي الْعلم وَالْملك وَالْمَال

قلت ذكره ابْن عبد الْبر فِي كتاب الْعلم هَكَذَا من غير سَنَد وَذكره أَبُو شُجَاع الديلمي فِي كتاب الفردوس عَن ابْن عَبَّاس مَرْفُوعا عَلَى اصْطِلَاحه فِي حذف اسْمه عَلَيْهِ السَّلَام

1309 - 09 الحَدِيث الثَّامِن قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أوحى الله إِلَى إِبْرَاهِيم يَا إِبْرَاهِيم إِنِّي أحب كل عليم)

قلت ذكره ابْن عبد الْبر أَيْضا فِي كتاب الْعلم من غير سَنَد فَقَالَ وَرُوِيَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (أوحى الله) إِلَى آخِره

1310 - قَوْله عَن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أَنه قَالَ من أفضل مَا أُوتيت الْعَرَب الشّعْر يقدمهُ الرجل أَمَام حَاجته فيستمطر بِهِ الْكَرِيم ويُسْتَنْزَلُ بِهِ اللَّئِيم

1311 - الحَدِيث التَّاسِع وَرُوِيَ أَن النَّاس أَكْثرُوا مُنَاجَاة رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِمَا يُرِيدُونَ حَتَّى أملوهُ فَأمروا بِالصَّدَقَةِ لمن أَرَادَ الْمُنَاجَاة قَالَ عَلّي لما نزلت دَعَانِي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ (مَا تَقول فِي دِينَار) قلت لَا يطيقُونَهُ قَالَ قلت حَبَّة

أَو شعيرَة قَالَ (إِنَّك لزَهِيد) قَالَ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِك اشْتَدَّ عَلَيْهِم فارْتدعُوا وكفوا أما الْغَنِيّ فلشحه وَأما الْفَقِير فلعُسْرَته

(90/750)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ فِي سنَنه الْكُبْرَى فِي خَصَائِص عَلّي بِنَقص يسير من حَدِيث عُثْمَان بن الْمُغيرَة عَن سَالم بن أبي الْجَعْد عَن عَلّي بن عَلْقَمَة الْأَنمَارِي عَن عَلّي بن أبي طَالب قَالَ لما نزلت يَا أَيهَا الَّذين آمنُوا إِذا نَاجَيْتُم الرَّسُول

فقدموا بَين يَدي نجواكُمْ صَدَقَة)

قَالَ لي النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَا ترى فِي دِينَار) قلت لَا يطيقُونَهُ قَالَ (فَنصف دِينَار) قلت لَا يطيقُونَهُ قَالَ (فكم) قلت شعيرَة قَالَ (إِنَّك لزَهِيد) قَالَ فَنزلت أأشْفَقْتُم أَن تقدمُوا بَين يَدي نجواكُمْ صدقَات الْآيَة قَالَ فَبِي خفف الله عَن هَذِه الْأمة

انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث حسن غَرِيب إِنَّمَا نعرفه من هَذَا الْوَجْه وَمعنى شعيرَة أَي وزن شعيرَة من ذهب

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّامِن من الْقسم الثَّالِث وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة وَعبد بن حميد وَالْبَزَّار وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مسانيدهم قَالَ الْبَزَّار لَا نعلم رَوَاهُ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَّا عَلّي وَلَا نَحْفَظهُ عَن عَلّي إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَاد وَعُثْمَان بن الْمُغيرَة رَوَى عَنهُ جمَاعَة كَثِيرَة

(91/750)

وروى الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره ثني عَلّي ثَنَا أَبُو صَالح ثَنَا مُعَاوِيَة عَن ابْن أبي طَلْحَة عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى يأيها الَّذين آمنُوا إِذا نَاجَيْتُم الرَّسُول الْآيَة قَالَ وَذَلِكَ أَن الْمُسلمين أَكْثرُوا الْمسَائِل على رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَتَّى شقوا عَلَيْهِ فَأَرَادَ أَن يُخَفف عَن نبيه فَلَمَّا قَالَ ذَلِك ضن كثير من النَّاس فَكف كثير من النَّاس عَن الْمَسْأَلَة فَأنْزل الله بعد هَذَا فَإِذْ لم تفعلوا وَتَابَ الله عَلَيْكُم الْآيَة فوسع الله عَلَيْهِم

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه كَذَلِك

1312 - قَوْله عَن عَلّي رَضِي اللَّهُ عَنهُ قَالَ إِن فِي كتاب الله لآيَة مَا عمل بهَا أحد قبلي وَلَا يعْمل بهَا أحد بعدِي كَانَ لي دِينَار فصرفته فَكنت إِذا نَاجَيْته تَصَدَّقت بدرهم

قَالَ الْكَلْبِيّ تصدق بِهِ فِي عشر كَلِمَات سَأَلَهُنَّ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك من حَدِيث عبد الرَّحْمَن بن أبي لَيْلَى قَالَ

قَالَ عَلّي بن أبي طَالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْه إِن فِي كتاب الله لآيَة مَا عمل بهَا أحد قبلي وَلَا يعْمل بهَا أحد بعدِي آيَة النَّجْوَى (يأيها الَّذين آمنُوا إِذا نَاجَيْتُم الرَّسُول فقدموا بَين يَدي نَجوَاكُمْ صَدَقَة) الْآيَة قَالَ كَانَ عِنْدِي دِينَار فبعْته بِعشْرَة دَرَاهِم فناجيت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكنت كلما نَاجَيْته قدمت بَين يَدي نَجْوَايَ درهما ثمَّ نسخت فَلم يعْمل بهَا أحد فَنزلت أأَشْفَقْتُم أَن تقدمُوا بَين يَدي نَجوَاكُمْ صدقَات الْآيَة وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ

انْتَهَى

(92/750)

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُسْنده ثَنَا عبد الله بن إِدْرِيس عَن لَيْث عَن مُجَاهِد قَالَ قَالَ عَلّي فَذكره بِلَفْظ الْمُصَنّف

وَقَالَ الْكَلْبِيّ لم أَجِدهُ 1313 الحَدِيث الْعَاشِر رُوِيَ أَن عبد الله بن نَبْتَل الْمُنَافِق كَانَ يُجَالس رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمَّ يرفع حَدِيثه إِلَى الْيَهُود فَبَيْنَمَا رَسُول الله صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حجرَة من حجره إِذْ قَالَ (يدْخل عَلَيْكُم الْآن رجل قلبه قلب جَبَّار وَينظر بِعَين شَيْطَان) فَدخل ابْن نَبْتَل وَكَانَ أَزْرَق فَقَالَ لَهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (علام تَشْتمنِي أَنْت وَأَصْحَابك) فَحلف بِاللَّه مَا فعل فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (فعلت) فَانْطَلق فجاء بِأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا بِاللَّه مَا سبوه فَنزلت

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك بِنَقص يسير من حَدِيث سماك بن حَرْب عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ظل حجرَة وَقد كَاد الظل أَن يَتَقَلَّص فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّه سَيَأْتِيكُمْ إِنْسَان فَينْظر إِلَيْكُم بِعَين الشَّيْطَان فَإِذا جَاءَكُم فَلَا تُكَلِّمُوهُ) فَلم يلبثُوا أَن طلع عَلَيْهِم رجل أَزْرَق أَعور فَقَالَ حِين رَآهُ دَعَاهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ (علام تَشْتمنِي أَنْت وَأَصْحَابك) فَقَالَ ذَرْنِي آتِك بهم فَانْطَلق فَدَعَاهُمْ فَحَلَفُوا مَا قَالُوا وَمَا فعلوا فَأنْزل الله عز وَجل يَوْم يبعثهم الله جَمِيعًا فَيحلفُونَ لَهُ كَمَا يحلفُونَ لكم وَيَحْسبُونَ أَنهم على شَيْء أَلا إِنَّهُم هم الْكَاذِبُونَ وَقَالَ صَحِيح على شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

رَوَاهُ أَحْمد وَابْن أبي شيبَة وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة والواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول والطبري وَابْن أبي حَاتِم فِي تفسيريهما وَهَذَا سَنَد جيد وَابْن مرْدَوَيْه أَيْضا

1314 - الحَدِيث الْحَادِي عشر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه كَانَ يَقُول (اللَّهُمَّ لَا تجْعَل لفَاجِر وَلَا الْفَاسِق عِنْدِي نعْمَة فَإِنِّي وجدت فِيمَا أُوحيت لَا تَجِد قوما يُؤمنُونَ بِاللَّه الْآيَة

قلت رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا عبد الله بن مُحَمَّد ثَنَا مُحَمَّد بن يَحْيَى ثنَا أَحْمد بن إِسْحَاق ثَنَا أَبُو أَحْمد الزبيرِي ثنَا جَعْفَر الْأَحْمَر عَن كثير ابْن عَطِيَّة عَن رجل قَالَ قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اللَّهُمَّ لَا تجْعَل لفَاجِر عِنْدِي يدا وَلَا نعْمَة فَإِنِّي أجد فِيمَا أنزلت (لَا تَجِد قوما يُؤمنُونَ بِاللَّه وَالْيَوْم الآخر) الْآيَة

انْتَهَى

وَهُوَ فِي الفردوس لأبي شُجَاع الديلمي من حَدِيث معَاذ

1315 - الحَدِيث الثَّانِي عشر رُوِيَ أَن أَبَا قُحَافَة سبّ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَكَّهُ أَبُو بكر صَكه سقط مِنْهَا إِلَى الأَرْض فَقَالَ لَهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَو فعلته) قَالَ نعم قَالَ (لَا تعد) قَالَ وَالله لَو كَانَ السَّيْف إِلَى جَانِبي لقتلته

قلت غَرِيب وَنَقله الثَّعْلَبِيّ عَن ابْن جريج قَالَ حدثت أَن أَبَا قُحَافَة إِلَى آخِره وَزَاد فَأنْزل الله

لَا تجد قوما الْآيَة وَكَذَلِكَ ذكره الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول نَحوه سوَاء

1316 - الحَدِيث الثَّالِث عشر رُوِيَ أَن أَبَا عُبَيْدَة بن الْجراح قتل أَبَاهُ عبد الله بن الْجراح يَوْم أحد

(94/750)

وَأَبُو بكر دَعَا ابْنه إِلَى البرَاز يَوْم بدر وَقَالَ لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعْنِي أكن فِي الرَّعْلَة الأولى قَالَ (متعنا بِنَفْسِك يَا أَبَا بكر أما تعلم أَنَّك عِنْدِي بِمَنْزِلَة سَمْعِي وبصري)

وَمصْعَب بن عُمَيْر قتل أَخَاهُ عبيد بن عُمَيْر يَوْم أحد

وَعمر قتل خَاله الْعَاصِ بن هِشَام يَوْم بدر

وَعلي وَحَمْزَة وَعبيدَة بن الْحَارِث قتلوا شيبَة وَعتبَة ابْني رَبِيعه والوليد ابْن عتبَة يَوْم بدر

قلت فِي تَفْسِير الثَّعْلَبِيّ وَرَوَى مقَاتل بن حَيَّان عَن مرّة الْهَمدَانِي عَن عبد الله ابْن مَسْعُود فِي الْآيَة وَلَو كَانُوا آبَاءَهُم يَعْنِي أَبَا عُبَيْدَة قتل أَبَاهُ فَذكره إِلَى آخِره

وَفِي أَسبَاب النُّزُول لِلْوَاحِدِيِّ وَرُوِيَ عَن ابْن مَسْعُود أَنه قَالَ نزلت هَذِه الْآيَة فِي أبي عُبَيْدَة بن الْجراح فَذكره إِلَى آخِره

1317 - الحَدِيث الرَّابِع عشر عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (من قَرَأَ سُورَة

المجادلة كتب من حزب الله يَوْمَ الْقِيَامَة)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذكره وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار جـ 3 صـ 423. 434 ﴾

(95/750)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة المجادلة

قوله تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها) ، الآية/ 1 .

وهي مفتتحة بذكر الظهار ، وكان طلاقا جاهليا ، فجعله الشرع على حكم آخر .

وروى أصحاب الأخبار : جاءت خولة بنت ثعلبة إلى النبي وزوجها أوس بن الصامت

فقالت :

إن زوجها جعلها عليه كظهر أمه ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام :

ما أراك إلا حرمت عليه ، وهو حينئذ يغسل رأسه فقالت : انظر جعلني اللّه فداك يا

رسول اللّه ، فقال : ما أراك إلا حرمت عليه ، فكرر ذلك مرارا ، فأنزل اللّه تعالى :

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها) «1» .

وقوله عليه الصلاة والسلام : «حرمت عليه» ، ظاهره يعني به تحريم الطلاق ، وإلا فحكم

الظهار بينه اللّه تعالى من بعد ، وهذا يحتج به من يجوز

(1) أخرجه الحافظ ابن كثير في تفسيره ، والواحدي النيسابوري في أسباب النزول ، والسيوطي في الدر المنثور ج 6 .

(96/750)

رفع الحكم بعد ثبوته في الشيء الواحد في الوقت الواحد ، فإن رسول اللّه صلى اللّه عليه

وسلّم قال لها : «حرمت عليه» ، ثم حكم فيها بعينها بالظهار بعد حكمه بالطلاق ،

وذلك القول بعينه في شخص واحد بعينه ، والنسخ عند من يخالف هؤلاء ، يوجب الحكم

في المستقبل بخلاف الأول في الماضي .

وغاية جواب المخالف، أن من الممكن أن الله تعالى وعد رسوله بذلك، فلم يحكم بالطلاق جزما، وإنما ذكره معلقا.

قوله تعالى: (وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ)، الآية/ 2.

يدل على أن ذلك منكرا لأنه كذب.

قوله تعالى: (ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا)، الآية/ 3.

اعتبر العود، وقد اختلف الناس فيه، وأبو حنيفة، يقول: هو استباحة الوطء، فعليه الكفارة قبل الاستباحة، ومعنى الاستباحة العزم على الوطء «1».

والشافعي يقول: هو أن يمسكها بعد الظهار مدة يمكنه أن يطلقها فيه فلا تطلق.

ورأى الشافعي أن ذلك أشبه بالعود، لأنه إذا رآها، كالأم فلم يمسكها، فإن الأم لا تمسك بالنكاح، وأما العزم على الفعل، فهو عزم على محرم، فلا أثر له قبل مواقعة المحرم «2».

انتهى انتهى. اهـ ﴿أحكام القرآن/ للكيا هراسي جـ 4 صـ 403. 404﴾

---

(1) أحكام القرآن للجصاص ج 5.

(2) راجع أحكام القرآن للقرطبي تفسير سورة المجادلة.

وقال السايس :

من سورة المجادلة

قال اللّه تعالى : قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1)

ثبت في السنن والمسانيد «1»

أنّ أوس بن الصامت قال لزوجته خولة بنت ثعلبة بن مالك في شيء راجعته فيه : أنت عليّ كظهر أمّي وكان الرجل في الجاهلية إذا قال لزوجته ذلك حرمت عليه ، فندم من ساعته ، فدعاها ، فأبت ، وقالت : والذي نفس خولة بيده ، لا تصل إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم اللّه ورسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، فأتت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقالت : يا رسول اللّه إنّ أوسا تزوّجني وأنا شابة مرغوب فيّ ، فلما خلا سنّي ، ونثرت بطني ، جعلني عليه كأمه ، وتركني إلى غير أحد ، فإن كنت تجد لي رخصة يا رسول اللّه تنعشني بها وإياه فحدثني بها ، فقال عليه الصلاة والسلام :

«ما أمرت في شأنك بشيء حتى الآن» وفي رواية : «ما أراك إلا قد حرمت عليه» .

قالت : ما ذكر طلاقا ، وجادلت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم مرارا ، ثم قالت : اللهم إني أشكو إليك فاقتي ، وشدّة حالي ، وروي أنها قالت : إنّ لي صبية صغارا ، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليّ جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء ، وتقول

: اللهم إني أشكو إليك ، اللهم فأنزل على لسان نبيك ، وما برحت حتى نزل القرآن فيها .

فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «يا خولة أبشري» قالت : خيرا ، فقرأ عليه الصلاة والسلام عليها : قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها .

قال النحاة : إنّ قد الداخلة على الماضي لا بدّ فيها من معنى التوقع ، يعنون أنه لا يقال : قد فعل إلا لمن ينتظر الفعل ، أو يسأل عنه ، ولذلك قال سيبويه : وأما قد فجواب هل فعل ، لأنّ السائل ينتظر الجواب ، وقال الخليل : هذا الكلام لقوم ينتظرون الخبر ، يريد أنّ الإنسان إذا سئل عن فعل ، أو علم أنّ المحدّث يتوقع أن يخبر به قال : قد فعل . وإذا كان المخبر مبتدئا قال : فعل كذا وكذا .

و(قد) هنا فيها معنى التوقع ، فإنّ السماع في قوله تعالى : قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها

---

(1) رواه أبو داود في السنن (2/ 241) ، كتاب الطلاق ، باب الظهار حديث رقم (2214) .

مجاز عن القبول والإجابة بعلاقة السببية . ولا شكّ أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان يتوقع أن يجيب اللّه دعاءها ويفرّج كربها .

تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها أي تراجعك الكلام في شأن زوجها وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ الشكوى أن تخبر عن مكروه أصابك ، وهي من الشكو ، وأصله فتح الشكوة ، وإظهار ما فيها ، والشكوة وعاء كالدلو ، أو القربة الصغيرة ، يتخذ للماء واللبن ونقع الزبيب والتمر ، ثم شاع استعمال الشكوى في إظهار البثّ ، وما انطوت عليه النفس من المكروه .

وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما السمع هنا على حقيقته المعروفة ، وهي أنّه صفة يدرك بها الأصوات ، غير صفة العلم ، أو أنه نوع من الإدراك يرجع إلى صفة العلم . والتحاور : المرادّة في الكلام ، وهو قريب من معنى المجادلة .

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ أي أنه تعالى يسمع كل المسموعات ، ويبصر كل المبصرات ، على أتم وجه وأكمله ، ومن لازم ذلك أن يسمع تحاورهما ، ويبصر هيئة المجادلة حين رفعت رأسها إلى السماء مبتهلة ضارعة .

قالت عائشة رضي اللّه عنها : الحمد للّه الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت خولة بنت ثعلبة تشكو إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأنا في كسر البيت يخفى عليّ بعض كلامها ، فأنزل اللّه تعالى : قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1) أخرجه البخاري والنسائي «1» .

قال اللّه تعالى : الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (2) الظهار لغة مصدر ظاهر ، مفاعلة . يقال : ظاهر زيد عمرا ، إذا قابل ظهره بظهره حقيقة ، وظاهره غايظه ، وإن لم يكن هناك تقابل حقيقة ، باعتبار أنّ المغايظة تقتضي هذه المقابلة ، وظاهره : ناصره باعتبار أنّه يقال قوّى ظهره إذا نصره ، وظاهر بين ثوبين إذا لبس أحدهما فوق الآخر ، باعتبار ما يلي به كل منهما الآخر ظهر الثوب . وظاهر من امرأته قال لها : أنت علي كظهر أمي . وكان ذلك طلاقا في الجاهلية كما تقدم ، وقال بعض العلماء : وكان طلاقا أيضا في أوّل الإسلام ،

لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم في الرواية السابقة : «ما أراك إلا قد حرمت عليه»

. وحكى بعضهم أنّه كان طلاقا يوجب حرمة مؤبدة لا رجعة فيه . وقيل : لم يكن طلاقا من كل وجه ، بل كانت الزوجة تبقى معلقة ، لا ذات زوج ،

---

(1) رواه البخاري (8/ 212) ، 98 - كتاب التوحيد ، 9 - باب وَكانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً والنسائي كتاب الطلاق ، باب الظهار حديث رقم (3460) .

ولا خلية تنكح غيره ، وكان الظاهر أن يقال : ظاهر زوجته ، كما يقال طلق زوجته ، إلا أنّه لتضمنه معنى التبعيد عدّي بمن .

وقوله تعالى : ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ ليس خبر المبتدأ ، إنما هو دليله ، والخبر محذوف ، والتقدير : الذين يظاهرون من نسائهم مخطئون ، لسن أمهاتهم ، ما أمهاتهم على الحقيقة إلا اللائي ولدنهم ، فلا يشبّه بهن في الحرمة إلا من ألحقها اللّه بهن .

وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وصف اللّه الظهار بأنه منكر وزور ، باعتبار أنّ قول الرجل لامرأته (أنت عليّ كظهر أمي) يتضمّن إخبارا وإنشاء ، فالأول من جهة إخباره بأنها تشبه أمه ، والثاني من جهة أنه أنشأ طلاقها وتحريمها ، فهو خبر زور ، وإنشاء منكر ، ينكره الشرع ، ولا يعرفه .

وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ كثير العفو والمغفرة ، فيغفر لهم ما سلف من الظهار ، ويعفو عمن ارتكبه إذا تاب .

تمسّك المالكية بظاهر قوله تعالى : مِنْكُمْ في أنّ الذمي إذا قال لزوجته أنت عليّ كظهر أمي لم يعتبر ذلك ظهارا ، ولم تترتب عليه أحكام . وهذا هو المنقول عن الحنابلة ، وهو المعول عليه عند الحنفية ، إلا أنّ الحنفية لم يستدلوا عليه بمفهوم قوله تعالى : مِنْكُمْ ، بل حجتهم في ذلك أنّ الذمي ليس من أهل الكفّارة .

وقال الشافعية كما يصح طلاق الذمي وتترتب عليه أحكامه ، يصحّ ظهار الذمي وتترتب

عليه أحكامه ، وقوله تعالى : مِنْكُمْ إنّما ذكر للتصوير والتهجين ، لأن الظهار كان مخصوصا بالعرب ، فليس من مفهوم الصفة ليستدل به على عدم صحة الظهار من الذمي .

واعترض قول الشافعية بصحة ظهار الذمي مع اشتراطهم النية في الكفارة بخصالها الثلاث والإيمان في الرقبة . والذمي ليس من أهل النية ، ويتعذّر ملكه للرقبة المؤمنة .

وأجابوا عن ذلك بأنّ خصال الكفارة منها ما هو عبادة بدنية وهو الصوم ، ومنها ما هو من قبيل الغرامات وهو العتق والإطعام ، والنية فيما كان من قبيل الغرامات إنّما هي للتمييز ، فلا يشترط فيها الإسلام ، كما في قضاء الديون . فالذمي يكفّر بالإعتاق والإطعام ، ولا يكفّر بالصوم ، لأنه لا يصح منه ، كما أنّ العبد المظاهر لا يكفّر بغير الصوم ، لأنه لا يملك . ويتصور ملك الذمي للعبد المسلم بإسلام قنّه ، أو بقوله لمسلم : أعتق عبدك عن كفارتي فيجيبه ، فإن لم يمكنه شيء من ذلك وهو موسر ، منع الوطء لقدرته على ملك الرقبة المسلمة ، بأن يسلم فيشتريها ، وكذلك لا ينتقل من الصوم إلى الإطعام لقدرته عليه بالإسلام . فإن عجز عن الصوم لكبر ونحوه انتقل إلى الإطعام ، ونوى للتمييز أيضا .

قال العلماء : لفظ النساء المضاف إلى الرجال حقيقة في الزوجات دون الإماء ، لأنّ المتبادر من كلمة نساء الرجل إنما هو زوجاته دون إمائه ، فلا يقال فيهن نساؤه ، إنما يقال جواريه وإماؤه وسراريه . والتبادر من أمارات الحقيقة ، وحينئذ يكون ظاهر قوله تعالى : مِنْ نِسائِهِمْ أنّ الظهار إنما يكون في الزوجات ، فلو قال لأمته :

الموطوءة ، أو غير الموطوءة : أنت عليّ كظهر أمي ، لم يعتبر ذلك ظهارا ، ولم تترتب عليه أحكام الظهار ، وهو منقول عن كثير من الصحابة والتابعين رضي اللّه عنهم ، وإليه ذهب الحنفية ، والشافعية ، والحنابلة .

وقد نقل عن مالك والثوري صحة الظهار في الأمة مطلقا .

وعن سعيد بن جبير وعكرمة وطاوس والزهري صحته في الأمة الموطوءة ، ذهبوا إلى التعميم في قوله تعالى : مِنْ نِسائِهِمْ كما عمّ قوله تعالى : وَرَبائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائِكُمُ [النساء : 23] الزوجات والإماء ، فحرّم بنت الأمة كما حرّم بنت الزوجة .

واقتضى قوله تعالى : الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ أنه ليس للنساء ظهار ، فلو ظاهرت امرأة من زوجها لم يلزمها شيء ، وهو متفق عليه بين الأئمة الأربعة ، وقال أبو بكر بن العربي : وهو صحيح معنى ، لأنّ الحل والعقد والتحليل والتحريم في النكاح بيد الرجال ، ليس بيد المرأة منه شيء .

ونقل أبو حيان عن الحسن بن زياد أنّها تكون مظاهرة ، ويلزمها التكفير قبل التماس .

وعن الأوزاعي وعطاء وإسحاق أنّ عليها كفّارة يمين ، وعن الزهري : أنها تكفّر كفّارة الظهار ، ولا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها أن يصيبها .

وكذلك اقتضى عموم الموصول في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ صحة ظهار العبد من زوجته ، لأنّ أحكام النكاح في حقه ثابتة . وإن تعذّر عليه العتق والإطعام ، فإنه قادر على الصيام . وحكى الثعلبي عن مالك أنّه لا يصح ظهار العبد .

ولكنّ الذي عليه المعوّل عند المالكية هو صحة ظهاره .

ويؤخذ من قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أنّ الظهار حرام ، بل اعتمد فقهاء الشافعية القول بأنه كبيرة ، لأنّ فيه الإقدام على إحالة حكم اللّه تعالى وتبديله دون إذنه سبحانه . ولأنّ من أقدم على الظهار بعد أن أخبر اللّه بأنه منكر من القول وزور يعتبر كاذبا معاندا للشرع ، فمن ثمّ كان كبيرة .

قال اللّه تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾

ذِلكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (4)

رتب اللّه الكفارة على الظهار الذي يعقبه العود، وقد اختلف أهل التأويل في العود ما هو؟

فحكى عن مجاهد أنّ الظهار في الإسلام عود إلى ما كان عليه أهل الجاهلية، ومعنى الآية عنده: والذين كان من عادتهم أن يظاهروا من نسائهم، فقطعوا ذلك بالإسلام، ثم يعودون لمثله، فعلى من عاد منهم تحرير رقبة من قبل أن يتماسا.. إلخ فالكفارة تجب بنفس الظهار في الإسلام. وقد روي مثل ذلك عن طاوس والثوري وعثمان البتّي.

وقال أبو العالية وأهل الظاهر: العود تكرار لفظ الظهار وإعادته، فلا تلزم الكفارة إلا إذا أعاد لفظ الظهار.

واختلفت الروايات عن الأئمة الأربعة، فأصحّ الروايات عن أبي حنيفة أنّ العود هو العزم على الوطء.

وروى ابن الجلّاب عن مالك روايتين: أولاهما: أنه العزم على الوطء. وثانيتهما: أنه العزم على الإمساك. وابن العربي ينقل عن «الموطأ» أنه العزم عليهما معا.

وقال الإمام أحمد في قوله تعالى: ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا قال: هو الغشيان إذا أراد أن يغشى كفّر. اه.

وقال الشافعي : الذي عقلت مما سمعت في يَعُودُونَ لِما قالُوا أنّ المظاهر حرم مس امرأته بالظهار ، فإذا أتت على المظاهر مدة بعد القول بالظهار ولم يحرّمها بالطلاق الذي يحرّم به ، ولا شيء يكون له مخرج من أن تحرم عليه به ، فقد وجب عليه كفارة الظهار ، كأنهم يذهبون إلى أنه إذا أمسك ما حرّم على نفسه عاد لما قال فخالفه ، فأحل ما حرّم ، ولا أعلم له معنى أولى به من هذا .

فأمّا مجاهد ومن يرى رأيه ، فلم يخف عليهم أنّ العود شرط في الكفارة ، ولكنّ العود عندهم هو العود إلى ما كان عليه أهل الجاهلية من المظاهرة من الزوجات ، وهكذا استعملوا العود في معناه الحقيقي ، كما قال اللّه تعالى في جزاء الصيد : عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ [المائدة : 95] أي ومن عاد للاصطياد بعد نزول تحريمه ، وكما قال تعالى : عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا [الإسراء : 8] أي وإن عدتم إلى الذنب عدنا إلى العقوبة ، وقد أخبر اللّه عن الظهار أنه منكر وزور ، فهو معصية منهيّ عنه ، والعود إلى المنهي عنه فعله بعد النهي عنه .

ولا يخفى أنّ حمل الكلام على تأويل مجاهد ومن يرى رأيه خروج بالآية عن مقتضى الفصاحة ، وتفكيك لنظمها . فإنّهم جعلوا الفعل المستقبل الدالّ على الاستمرار يَظْهَرُونَ بمعنى الماضي المنقطع . وجعلوا العائد غير المظاهر ، إذ المظاهرون على رأيهم أهل الجاهلية ، والعائدون أهل الإسلام ، فإذا ساغ فهم ذلك في رجل ظاهر في الجاهلية ، ثمّ ظاهر في الإسلام ، فكيف يسوغ في رجل لم يظاهر في الجاهلية ، أو لم يدرك الجاهلية أصلا ؟

ومعلوم أنّ مساق الآية لبيان حكم المظاهر في الإسلام ، وعليه ينطبق سبب النزول ، وأيضا فإنّ رسول اللّه صلّى الله عليه وسلّم أمر أوس بن الصامت بالكفّارة ، ولم يسأله أظاهر في الجاهلية أم لا ؟

وأما أبو العالية وأهل الظاهر فقد استدلوا على رأيهم بأنّ الذي يعقل من لغة العرب في العود إلى الشيء إنما هو فعل مثله مرّة ثانية ، كما قال تعالى : وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ [الأنعام : 28] والفعل معدّى باللام كآية الظهار سواء بسواء ، واتفق أهل التأويل على أن عودهم لما نهوا عنه هو إتيانهم مرة ثانية بمثل ما أتوا به أول مرة .

وكذلك قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وهو في سورة المجادلة بعد ذكر الظهار بآيات ، والعهد قريب .

وقالوا أيضا : أصحّ خبر في الظهار حديث عائشة رضي اللّه عنها أنّ أوس بن الصامت

كان به لمم ، فكان إذا اشتد به لممه ظاهر من زوجته ، فأنزل اللّه فيه كفّارة الظهار . فهذا الحديث يقتضي التكرار .

وقالوا أيضا : فما عدا تكرار اللفظ : إما إمساك وإما عزم وإنما فعل ، وليس واحد منها عودا لما قال ، فلا يكون الإتيان به عودا ، لا لفظا ولا معنى .

وأجاب الجمهور عن ذلك بأنّ هذا الرأي يقتضي أنّ الظهار أول مرة لا يترتب عليه كفارة ، وقصة خولة تدفعه ، لأنّه لم ينقل التكرار ، ولا سأل عنه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وكذلك لم يسأل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم سلمة بن صخر حين ظاهر من زوجته فألزمه الكفارة : أهذا ظهار مكرّر ، أم هو أول ظهار ؟

وأما حديث عائشة فما أصحّه ، وما أبعد دلالته على ما قالوا ، فإنّ غاية ما أفاده أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته مرات كثيرة ، وأن زوجته جاءت آخر مرة تجادل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وتشتكي إلى اللّه ، فأنزل اللّه تحريم الظهار ، ورتّب عليه وجوب الكفارة قبل التماس ، فكان الذي أخذ هذا الحكم هو المرة الأخيرة ، وأما ما قبلها من مرات المظاهرة فإنّها لغو لا حكم لها ، أو أنها كما في بعض الآراء كانت طلاقا .

أما الأئمة الأربعة وأكثر المجتهدين فلم يخف عليهم أنّ الظاهر من قوله تعالى :

ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا أنّهم يكررون ما قالوا ، إلّا أنّه منع من هذا الظاهر أن التكرار لم ينقل في قصة خولة وزوجها أوس ، ولا في قصة سلمة بن صخر ، وأنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم لم يسأل أوسا ولا سلمة عنه .

وقد قال أهل اللغة إذا قال قائل : (عاد لما فعل) جاز أن يريد أنه فعله مرة أخرى ، وهذا ظاهر . وجاز أن يريد أنه نقض ما فعل وتداركه . لأنّ التصرف في الشيء بنقضه وتداركه لا يمكن إلا بالعود إليه ، فلما منع من إجراء اللفظ على ظاهره ما تقدم ، وجب المصير إلى المعنى الثاني وهو النقض والتدارك .

إلا أنّ الأئمة مختلفون في العمل الذي ينقضه المظاهر ويتداركه ، فيرى غير الشافعي أنّ الظهار يوجب تحريما للزوجة لا يرفعه إلا الكفارة ، فالذي يريد المظاهر نقضه وتداركه هو تحريمها عليه ، ونقض ذلك التحريم وتداركه إنما يكون بوطئها ، أو بالعزم على وطئها ، أو باستباحة وطئها ، على خلاف بينهم تقدم بيانه .

ويرى الشافعي أنّ كلمة الظهار فيها تشبيه الزوجة بالأم ، وهذا التشبيه يقتضي فراقها ، فالذي يريد المظاهر نقضه والرجوع عنه هو فراقها ، فإن مضت مدة تتسع للفراق الشرعي ولم يفارق صار ناقضا لمقتضى ما قال راجعا عنه . وإن اتصل بلفظ الظهار فرقة فليس بعائد .

واعترض القول بأن العود هو الوطء بأنّ الآية ناصّة على وجوب الكفارة قبل الوطء ، فيكون العود سابقا عليه ، فكيف يكون هو الوطء ؟

وأجاب بعض من يرى هذا الرأي بأنّ المراد من قوله تعالى : فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا من قبل أن يباح التماس شرعا ، والوطء أولا حرام ، موجب للتكفير ، وهذا الجواب خروج باللفظ عن مقتضى ظاهره ، من غير أن يقوم عليه دليل سوى التزام هذا المذهب .

وأجاب آخرون : بأنّ قوله تعالى : ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا معناه ثم يريدون العود ، كما قال تعالى : فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ [النحل : 98] وكما قال : إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ [المائدة : 6] ونظائره مما يطلق الفعل فيه على إرادته لوقوعه بها ، وهذا معنى قول الإمام أحمد وقد تقدّم : إذا أراد أن يغشى كفّر .

واعترض القول بأنّ العود هو العزم على الوطء بأنّ الآية لما نزلت ، وأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم المظاهر بالكفارة ، لم يسأله هل عزم على الوطء ؟ والأصل عدم ذلك ، والوقائع القولية كهذه يعمّها الاحتمال ، فتكون الكفارة واجبة ، سواء أعزم على الوطء أم لم يعزم .

والجواب أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم ترك السؤال عن ذلك ، لعلمه به من خولة ، فقد أخرج

الإمام أحمد وأبو داود «1» وغيرهما من طريق يوسف بن عبد اللّه بن سلام قال: حدثتني خولة بنت ثعلبة قالت: فيّ وفي أوس بن الصامت أنزل اللّه تعالى صدر سورة المجادلة، كنت عنده شيخا كبيرا قد ساء خلقه، فدخل عليّ يوما، فراجعته بشيء، فغضب، فقال: أنت عليّ كظهر أمي، ثم رجع، فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليّ، فإذا هو يريدني عن نفسي، قلت: كلا والذي نفس خولة بيده، لا تصل إليّ وقد قلت ما قلت، حتّى يحكم اللّه ورسوله فينا. ثم جئت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فذكرت له ذلك، فما برحت حتّى نزل القرآن... الخبر. فإنّ ظاهر قولها: فذكرت له ذلك أنّها ذكرت كلّ ما وقع. ومنه طلب أوس وطأها، المكنّى عنه ب: يريدني عن نفسي. وذكرها ذلك له عليه الصلاة والسلام أهمّ لها من ذكرها إياه ليوسف بن عبد اللّه بن سلام.

واعترض القول بأنّ العود هو إمساكها زمنا يتّسع للفراق الشرعي ولم يفارق، بأن اللّه تعالى قال: ثُمَّ يَعُودُونَ وكلمة (ثم) تقتضي التراخي الزماني، والإمساك المذكور معقب لا متراخ، فلا يعطف بثم، بل بالفاء.

والجواب أن زمن الإمساك ممتدّ، ومثله يجوز فيه العطف بثم، والعطف بالفاء باعتبار ابتدائه وانتهائه.

وقوله تعالى : فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مبتدأ ثان ، خبره محذوف أي فعليهم تحرير رقبة ، والجملة خبر الموصول ، ولتضمنه معنى الشرط زيدت الفاء في خبره ، والمراد بالرقبة المملوك من تسمية الكل باسم الجزء فتحرير الرقبة إعتاق المملوك ، وجعله حرّا .

وقد أطلق اللّه الرقبة هنا ، ولم يقيّدها بالإيمان ، فاقتضى ذلك إجزاء عتق الرقبة في الكفارة ، وبهذا الظاهر قال الحنفية وأهل الظاهر ، وقالوا : لو كان الإيمان شرطا لبيّنه سبحان ، كما بينه في كفارة القتل ، فوجب أن يطلق ما أطلقه اللّه ، ويقيد ما قيده ، فيعمل بكلّ منهما في موضعه ، وزاد الحنفية أنّ اشتراط الإيمان هنا زيادة على النص ، وهو نسخ ، والقرآن لا ينسخ إلّا بالقرآن أو الخبر المشهور ، ولا يحمل المطلق على المقيّد إلا في حكم واحد في حادثة واحدة ، ولا يلزم من التقييد في كفارة القتل الذي هو أعظم ، ثبوت مثله في كفارة الظهار الذي هو أخف ، فلا يصحّ أن تكون آية القتل بيانا لآية الظهار .

وذهب مالك والشافعي وأحمد في ظاهر مذهبه إلى اشتراط الإيمان في كفارة غير القتل ، كما هو شرط في كفارة القتل ، قالوا في بيان ذلك واللفظ للشافعي : شرط اللّه سبحانه في الرقبة في القتل أن تكون مؤمنة ، وأطلق هنا ، كما شرط العدالة في

---

(1) سبق تخريجه .

الشهادة ، وأطلق الشهود في مواضع ، فاستدللنا به على أنّ ما أطلق على معنى ما شرط .

على أنّه سبحانه إنما ردّ زكاة المسلمين على المسلمين لا على المشركين وفرض اللّه

الصدقات ، فلم تجز إلا لمؤمن ، وكذلك ما فرض من الرقاب ، لا يجوز إلا لمؤمن .

قال الشافعي : وإنّ لسان العرب يقتضي حمل المطلق على المقيد إذا كان من جنسه ،

فحمل عرف الشرع على مقتضى لسانهم . قال : ولو نذر رقبة مطلقة لم يجزه إلا مؤمنة ،

وهذا بناء على هذا الأصل ، وأن النذر محمول على واجب الشرع ، وواجب العتق لا

يتأدّى إلا بعتق المسلم . ومما يدلّ على هذا

أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم قال لمن استفتى في عتق رقبة منذورة : «ائتني بها» ، فسألها

: «أين اللّه» ؟ فقالت : في السماء .

فقال : «من أنا» ؟ فقالت : أنت رسول اللّه . فقال : «أعتقها فإنّها مؤمنة» «1»

قال الشافعي : فلما وصفت بالإيمان أمر بعتقها اه .

والضمير في قوله تعالى : مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا للمظاهر والمظاهر منها معلومين من السياق ،

والتماسّ كناية عن الجماع ، فدلّت الآية على حرمة الجماع قبل التكفير .

وألحق الحنفية بالجماع دواعيه من التقبيل ونحوه ، لأنّ الأصل أنه إذا حرّم الشيء حرّم

بدواعيه ، إذ طريق المحرم محرم ، وأظهر القولين عند الشافعية الجواز ، لأن حرمة الجماع

ليست لمعنى يخل بالنكاح، فلا يلزم من تحريم الجماع تحريم دواعيه، فإنّ الحائض يحرم جماعها دون دواعيه، والصائم يحرم منه الوطء دون دواعيه، والمسبية يحرم وطؤها دون دواعيه.

أوجبت الآية الكفارة قبل المسيس، وقد يذهب من يتمسّك بالظواهر إلى أنّه إذا وطئ قبل أن يكفّر أثم، وسقطت عنه الكفارة، لأنه قد فات وقتها، ولم يبق له سبيل إخراجها قبل التماس، وهذا الحكم منقول عن الزهري وسعيد بن جبير وأبي يوسف.

ولكنّك تعلم أنّ الآية مع أنّها وقتت للكفارة ميقاتا هو ما قبل المسيس، فإنّها مع ذلك حرّمت على المظاهر العائد المسيس حتى يكفر، فما لم يكفر لا يحل له وطؤها، ولو وطئها مئة مرة، وفوات وقت الأداء لا يسقط الواجب في الذمة، كالصلاة والصيام وسائر العبادات. فلا يزال المظاهر مطالبا بالكفّارة.

وقد دلت على ذلك السنة الصحيحة

أخرج أبو داود والترمذي «2» وغيرهما أنّ سلمة بن صخر البياضي ظاهر من امرأته، فوقع عليها قبل أن يكفّر، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «ما

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (1/ 381)، 5 - كتاب المساجد، 7 - باب الكلام في الصلاة حديث رقم (33).

(2) رواه الترمذي في الجامع الصحيح (3/ 503)، كتاب الطلاق، باب كفارة الظهار

حديث رقم (1200) ، وأبو داود (2/ 240) ، كتاب الطلاق ، باب الظهار حديث رقم (2213) ، وابن ماجه في السنن (1/ 665) ، 10 - كتاب الطلاق ، 25 - باب الظهار حديث رقم (2062) .

حملك على ذلك» ؟ فقال : رأيت خلخالها في ضوء القمر . قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم :

«فاعتزلها حتى تكفّر»

فحكم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بوجوب الكفارة على من وطئ قبل أن يكفّر ، وإلى ذلك ذهب الأئمة الأربعة وأكثر المجتهدين .

ويروى عن مجاهد في الرجل يطأ قبل أن يكفّر أنّ عليه كفارتين ، وصحّ مثله عن ابن عمر وعمرو بن العاص رضي اللّه عنهم ، ووجه قولهم : أنّ إحدى الكفارتين للظهار الذي اقترن به العود . والثانية للوطء المحرم ، كالوطء في نهار رمضان ، وكوطء المحرم . وعن الحسن وإبراهيم أنّ عليه ثلاث كفارات ، ولا يعلم لذلك وجه إلا أن يكون عقوبة على إقدامه على الحرام ، وحكم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يدلّ على خلاف هذه الأقوال .

ذِلكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ أي الحكم بالكفارة ، تزجرون به عن مباشرة ما يوجبه وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ عالم بجميع أعمالكم ، ظواهرها وبواطنها ، ومجازيكم عليها كلها ، فحافظوا على حدود ما شرع لكم ، ولا تخلّوا بشيء منه .

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (4) .

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا أي فمن لم يجد الرقبة فعليه صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا .

والمراد بمن لم يجد الرقبة من لم يملك الرقبة ولا ثمنها فاضلا عن قدر كفايته ، واختلفت مذاهب الفقهاء في بيان قدر الكفاية ، ومحلّ ذلك كتب الفروع ، وكذلك اختلفوا في اعتبار وقت اليسار والإعسار . فذهب مالك والشافعي في أظهر أقواله إلى اعتبار ذلك بوقت التكفير والأداء ، لأنّ الكفّارة عبادة لها بدل من غير جنسها ، كالوضوء والتيمم ، والقيام من الصلاة والقعود فيها ، فاعتبر وقت أدائها .

وذهب أحمد والشافعي في أحد أقواله إلى اعتبار ذلك بوقت الوجوب ، تغليبا لشائبة العقوبة ، كما لو زنى قنّ ثم عتق ، فإنّه يحدّ حدّ القنّ .

وقد جرى عرف الشارع على اعتبار الشهور بالأهلة ، فلا فرق بين التام والناقص ، فمن بدأ بالصوم في أول الشهر كمّل الشهرين بالهلال ، ولو اتفق أنهما ناقصان أجزأه ذلك

إجماعا . ومن بدأ بالصوم في أثناء الشهر – فقد اختلفوا فيه ، فقال الشافعية : يحسب الشهر بعده بالهلال لتمامه ، ويتم الأول من الثالث ثلاثين يوما ، لتعذّر الهلال فيه . وقال الحنفية : لا بدّ من ستين يوما .

أوجبت الآية التتابع في صيام الشهرين ، فلو أفطر يوما منهما ولو الأخير من غير عذر ، انقطع التتابع ، ولزمه الاستئناف اتفاقا . ومن صور الفطر بغير عذر أن

(107/750)

يتخللها يوم يحرم صومه كيوم النحر ، لأنّه لو ابتدأ صوم الشهرين وهو يعلم أنّ يوم النحر سيتخللهما فسد صومه ، لأنّه نيته لصوم الكفارة مع علمه بطروء المبطل تلاعب منه ، فهو كالإحرام بالظهر قبل وقتها ، مع العلم بذلك . ولو ابتدأ صومهما وهو لا يعلم أنّ يوم النحر سيتخللهما صحّ صومه ، لكنّه لا يعتدّ به في الكفارة ، لأنّه قطع التتابع بتقصيره .

أما الإفطار بعذر فقد اختلفت مذاهب الفقهاء فيه ، فذهب الحنفية إلى وجوب الاستئناف لزوال التتابع المشروط ، وهو قادر عليه عادة .

وذهب مالك والشافعي في أحد قوليه إلى أنه لا يقطع التتابع ، لأنّ التتابع لا يزيد على أصل وجوب رمضان ، وهو يسقط بالعذر .

وفرّق بعض العلماء بين العذر الذي يمكن معه الصوم : كالسفر والمرض ، والعذر الذي لا يمكن معه الصوم : كالجنون والإغماء جميع النهار ، فجعل الأول قاطعا للتّتابع ، والثاني غير قاطع له .

وأوجبت الآية أن يكون صوم الشهرين المتتابعين قبل المسيس ، وقد رأى بعض الظاهرية أنّ من وطئ قبل أن يصوم شهرين متتابعين أثم بالوطء ، وسقطت عنه الكفارة لفوات وقتها وعدم التمكن من إيقاع الصيام المتتابع قبل المسيس . كما قالوا ذلك فيمن وطئ قبل العتق ، وقد تقدم . والجواب هنا هو الجواب هناك .

واختلف الفقهاء فيمن وطئ التي ظاهر منها في خلال الشهرين ليلا متعمدا ونهارا ناسيا . فذهب أبو حنيفة ومحمد ومالك وأحمد في ظاهر مذهبه إلى وجوب استئناف الصوم عملا بظاهر الآية ، فإنها أمر بصيام شهرين متتابعين لا مسيس فيهما . فإذا جامعها في خلال الشهرين لم يأت بالمأمور به .

وذهب أبو يوسف والشافعي وأحمد في رواية أخرى عنه إلى عدم وجوب الاستئناف ، لأنّ هذا الوطء لم يفسد الصوم ، فلم يتخلّل الشهرين إفطار ، فلم ينقطع التّتابع ، وليس من شرط التّتابع ألا يتخلل الشهرين جماع .

وكما أنّ ظاهر الآية وجوب صوم شهرين متتابعين لا مسيس فيهما ، كذلك ظاهرها وجوب صوم شهرين متتابعين لا مسيس قبلهما ، فلو كان الواطئ في خلالهما غير آت

بالمأمور به ، لكان الوطئ قبلهما غير آت بالمأمور به ، ولفات الامتثال بالوطء قبلهما ، ولا قائل به غير أهل الظاهر ، فوجب حينئذ حمل قوله تعالى : مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا على تحريم المسيس قبل أن يتمّ صيام الشهرين المتابعين ، لا على أنّ عدم المسيس شرط في الاعتداد بالصوم .

(108/750)

فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا أي فمن لم يستطع صيام شهرين متتابعين بأن لم يستطع الصيام : أو لم يستطع تتابعه لسبب من الأسباب ، كهرم ، ومرض لا يرجى زواله ، أو يطول زمانه ، أو لحوق مشقة شديدة لا تحتمل عادة ، فعليه إطعام ستين مسكينا .

أطلقت الآية إطعام المساكين ، ولم تقيده بقدر ولا تتابع ، فاقتضى ذلك أنّه لو أطعمهم فغداهم وعشاهم من غير تمليك جاز ، وكان ممتثلا لأمر اللّه تعالى ، وهذا قول الجمهور أبي حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه ، وسواء أطعمهم جملة أم متفرقين ، وليس معنى هذا [أن] تمليك المساكين لا يجزئ ، بل المراد أنّ الآية أمرت بالإطعام الذي هو حقيقة في إعطاء الطعام ، سواء أكان ذلك بالتمليك أم بالإباحة ، فأيهما وقع من المكفر أجزأه .

وأوجب الشافعية تمليكهم ، قالوا : نحن لا ننكر أنّ الآية تحتمل التمليك والإباحة ، إلا أنّ

السنة وردت بالتمليك ، وجرى عرف الشرع في الصدقة الواجبة أنّها مقدرة مشروط فيها التمليك ، فكما أنّ الزكاة وصدقة الفطر لا بدّ فيهما من التمليك ، كذلك الكفارة لا بدّ فيها من التمليك ، ولا تجزئ فيها الإباحة . وذلك لأن التمليك أدفع للحاجة ، فلا تقوم مقامه الإباحة .

ثم اختلفت المذاهب في المقدار الذي يملّك لكل مسكين . فقال الحنفية : يعطى لكل مسكين نصف صاع من برّ ، أو صاع من شعير أو تمر ، ومستندهم في ذلك أخبار ذكرها صاحب «فتح القدير» .

وقال الشافعية : لكل مسكين مدّ من غالب قوت محل المكفّر ، لأنّه صحّ في رواية عنه صلّى اللّه عليه وسلّم تقدير الكفارة بستين مدا ، وصحّ في رواية أخرى تقديرها بستين صاعا ، والنسخ هنا متعذّر للجهل بالتاريخ ، ولإمكان الجمع بين الروايتين ، فكان ذلك الجمع متعينا ، فحملت رواية الستين صاعا على بيان الجواز الصادق بالندب .

ومذهب مالك فيما روى عنه ابن وهب مدان ، وقيل : مد وثلثا مد ، وقيل : ما يشبع من غير تحديد .

وظاهر قوله تعالى : فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً أنّه لا بدّ من استيفاء عدد الستين ، فلو أطعم واحدا ستين يوما لم يجزه إلا عن واحد . هذا قول الجمهور مالك والشافعي وأحمد في إحدى الروايات عنه ، والثانية إن وجد غيره لم يجزئه ، وإن لم يجد غيره أجزأه . وهو ظاهر

مذهبه. والثالثة: أنّ الواجب إطعام طعام ستين مسكينا، ولو لواحد في ستين يوما، وهو مذهب أبي حنيفة «1» رحمه الله، قالوا: لأنّ المقصود سدّ خلة

(1) انظر الهداية شرح بداية المبتدي للمرغيناني (1 - 2/ 301).

المحتاج، والحاجة تتجدد كل يوم، فالدفع إليه في اليوم الثاني كالدفع إلى غيره، وكالدفع إليه في اليوم الأول، وأنت تعلم أنّ الآية نصّت على ستين مسكينا، وبتكرر الحاجة في مسكين واحد لا يصير هو ستين مسكينا، فكان التعليل بأنّ المقصود سدّ خلة المحتاج إلخ مبطلا لمقتضى النصّ فلا يجوز.

ألا ترى الحنفية حين قالوا: لا يجزئ الدفع لمسكين واحد طعام ستين دفعة واحدة، علّلوا ذلك بأنّ التفريق واجب بالنص، مع أنّ تفريق الدفع غير مصرّح به، وإنما هو مدلول التزامي لعدد المساكين، فالنص على العدد أولى بالاعتبار، لأنّه المستلزم، وغاية ما يعطيه كلامهم أنّه بتكرر الحاجة يتكرر المسكين حكما، فكان تعدّدا حكما. وحينئذ يلزم أن يكون المراد بالستين مسكينا في الآية مسكينا حقيقة أو حكما، من باب عموم المجاز الذي يشمل تعدد المساكين حقيقة، وتعددهم حكما، فيكون ستين مسكينا مجازا عن ستين حاجة،

وهو أعم من كونها حاجات ستين مسكينا ، أو حاجات واحد في ستين يوما . ولا يخفى أنّه لا مقتضى للعدول عن الحقيقة إلى هذا المجاز ، وأن ظاهر الآية إنما هو عدد معدوده ذوات المساكين ، وتعدد الذوات مما يصح أن يكون مقصودا معقول المعنى لما في تعميم الجميع من بركة الجماعة ، وشمول المنفعة ، واجتماع القلوب على المحبة والدعاء .

وظاهر الاقتصار في الآية على المساكين أنّه لا يجزئ دفع الكفارة إلّا إلى المساكين ، ويدخل فيهم الفقراء ، كما يدخل المساكين في لفظ الفقراء عند الإطلاق .

وقد قالوا : كما علمت المسكين والفقير إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا ، هذا مذهب الجمهور .

وعمّم أصحاب أحمد وغيرهم الحكم في كلّ من يأخذ من الزكاة لحاجته ، وهم الفقراء والمساكين وابن السبيل والغارم لمصلحته والمكاتب ، ولكنّ ظاهر القرآن اختصاصها بالمساكين على ما علمت .

وقد أطلقت الآية المسكين هنا ، ولكنّ الفقهاء شرطوا فيه اعتبارا بمسكين الزكاة ألّا يكون ممن تلزم المكفر نفقته ، وألا يكون هاشميا ولا مطلبيا ولا كافرا على خلاف في ذلك بين الفقهاء ، منشؤه اختلاف أقوالهم في مسكين الزكاة .

واستنبط بعض الشافعية من التعبير في جانب تحرير الرقبة بعدم الوجود ، وفي جانب الصيام بعدم الاستطاعة ، أنّه لو كان له مال غائب ينتظره ليعتق منه ولا يصوم ، ولو كان

مريضا يرجى برؤه ، ولكنه يدوم في ظنه مدة شهرين يطعم ، ولا ينتظر البرء ليصوم ، ووافقهم الحنفية في عدم الصوم لا في الإطعام .

ثمّ إنّ اللّه سبحانه قيّد التكفير بكونه قبل المسيس في العتق والصيام ، وأطلقه في

الإطعام ، فكان ذلك ظاهرا في أنّه لو وطئ قبل الإطعام أو في خلاله لم يأثم ، ولا يستأنف ، ونقل عن هذا بعض الناس عن أبي حنيفة ، ولكنّه توهم ، والذي عليه المعول عنده رحمه اللّه أنّه يأثم ، ولا يستأنف الإطعام ، وبهذا قال جمهور الفقهاء .

أما عدم استئناف الإطعام فوجهه ظاهر ، وأما حرمة الوطء فدليل الفقهاء عليها مختلف بحسب اختلافهم في قواعد الأصول ، فمن يرى حمل المطلق على المقيد في مثل هذه الحادثة يقول : استفيد حكم ما أطلقه اللّه مما قيّده ، إما بيانا ، وإما قياسا قد ألغي فيه الفارق بين الصورتين ، فإنّ المعروف عن الشرع في الأعم الأغلب ألا يفرّق بين المتماثلين ، وقد ذكر اللّه مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا مرتين ، ونبّه بذلك على تكرّر حكمه في الكفارات الثلاث ، ولو ذكره في آخر الكلام مرة واحدة لأوهم اختصاصه بالإطعام ، ولو ذكره في أول مرة فقط لأوهم اختصاصه بالعتق ، وإعادته في كل مرة تطويل ، فكان أفصح الكلام وأبلغه وأوجزه ما جاء

به النظم الجليل .

وأيضا فإنّه نبه بوجوب التكفير قبل المسيس في الصوم مع تطاول زمنه وشدة الحاجة إلى المسيس فيه ، على أن اشتراط تقدم الإطعام الذي لا يطول زمنه أولى .

على أنّ قوله صلّى اللّه عليه وسلّم في الخبر الحسن . وقد تقدّم

«اعتزلها حتّى تكفّر عنك» «1»

يشمل التكفير بالإطعام .

وأما الحنفية الذين لا يرون حمل المطلق على المقيد في مثل هذه الحادثة ، فلهم على حرمة الوطء قبل الإطعام دليلان .

الأول : أنّ إباحة الوطء قبل الإطعام قد تفضي إلى الممتنع ، والمفضي إلى الممتنع ممتنع ، بيان ذلك : أنّه لو قدر على العتق أو الصيام في خلال الإطعام أو قبله يلزمه التكفير بالمقدور عليه ، فلو أبيح للعاجز عنهما القربان قبل الإطعام ثم اتفق أنّه قدر على العتق فوجب التكفير به ، لزم أن يقع العتق بعد التماس ، وهو ممتنع .

واعترض على هذا الدليل بأنّ القدرة حال قيام العجز بالفقر والكبر والمرض الذي لا يرجى زواله أمر موهوم ، والأمور الموهومة لا تراعى في إثبات الأحكام ابتداء ، بل غايتها أن تراعى في ثبوت الاستحباب ورعا .

والدليل الثاني : ما تقدم من

قوله صلّى اللّه عليه وسلّم: «اعتزلها حتى تكفّر»

وقد يقال: إن هذا الحديث ليس نصا في الموضوع، لأنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال ذلك للمظاهر قبل أن يتبين عجزه

---

(1) رواه الترمذي في الجامع الصحيح (3/ 503)، كتاب الطلاق، باب في المظاهر حديث رقم (1199)، وأبو داود في السنن (2/ 242)، كتاب الطلاق، باب في الظهار حديث رقم (2221)، والنسائي (5 - 6/ 479)، كتاب الطلاق، باب الظهار حديث رقم (3458)، وابن ماجه في السنن (1/ 666)، 10 - كتاب الطلاق 26 - باب المظاهر حديث رقم (2065).

عن الإعتاق والصوم، فجاز أن يراد اعتزلها حتى تكفّر بالعتق، أو حتّى تكفر بالصوم.

بقي أن يقال: لم تذكر الآية حكم من عجز عن الخصال الثلاث، أتسقط الكفارة عنه أم تستقر في ذمته ويحرم عليه المسيس حتى يكفر؟

والذي استظهره العلماء أنّها لا تسقط، بل تستقر في ذمته، حتى يتمكن، قياسا على سائر الديون والحقوق والمؤاخذات، كجزاء الصيد وغيره. ولأنّ أصحاب السنن رووا أنّ

النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم أعان أوس بن الصامت بعذق من تمر ، وأعانته زوجته بمثله فكفّر ، وأمر سلمة بن صخر أن يأخذ صدقة قومه فيكفّر بها عن نفسه ، ولو سقطت بالعجز لما أمرهما بإخراجها .

وقد أطلنا هنا بذكر الفروع ، لأننا نراها كلها متعلقة بتفسير الآية ، واللّه الموفق .

ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الإشارة إلى ما سبق من البيان وتفصيل الأحكام ، وتعليمهم إياها . أي ذلك الذي بيّنا فيما مرّ واقع وحاصل لتؤمنوا باللّه ورسوله ، وتعملوا بما شرع لكم ، وترفضوا ما كنتم عليه في جاهليتكم .

وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ أي الأحكام المذكورة حدود اللّه فالزموها ، وقفوا عندها لا تتعدوها وَلِلْكافِرِينَ الذين يتعدونها عَذابٌ أَلِيمٌ على كفرهم . وأطلق الكافر على متعدي الحدود تغليظا وزجرا ، نظير قوله تعالى : وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ [آل عمران : 97] .

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9) إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10)

التناجي : التسار والمناجاة المسارّة . مأخوذ من النجوة ، وهي ما ارتفع من الأرض ، وسمّيت بذلك ، لأن المتسارين يكونان بخلوة في نجوة من الأرض ، بعيدا عن المتسمعين ، أو سمّيت بذلك لأنّ السرّ يصان ، فكأنه ارتفع عن الناس ، ومن هذا قال الشاعر :

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم على سرّ بعض غير أني جماعها

يظلّون شتّى في البلاد وسرّهم إلى صخرة أعيا الرّجال انصداعها

وقيل : إنّ التناجي من المناجاة ، وهي الخلاص ، وكأنّ المتناجيين يتعاونان على أن يخلّص أحدهما الآخر .

والآية التي معنا خطاب المؤمنين ، وأريد من النهي هنا التعريض بأولئك الذين كانوا يدورون في المجالس يشيعون السوء ويتناقلونه ، حتى يؤثّر ذلك في أقارب

(112/750)

الغائبين في الغزو من المؤمنين الخلص ، فكانوا يقولون : تم كيت وكيت ، فكانت تتخلع قلوب أقارب المؤمنين من سوء ما يشاع عن أهليهم ، وكان يكاد يؤثّر ذلك فيهم لولا أن الكذب حبله غير طويل ، فلم يلبث الغائبون أن يعودوا منصورين على خير ما يكون النصر ، ويفتضح أمر أولئك الذين لا تخلو منهم أمة ، أولئك دعاة التردد والهزيمة ، ضعفاء النفوس ، لا تقوى نفوسهم على مجالدة أعدائهم ، فيلجؤون إلى مقالة السوء يرددونها ، يرجون من وراء ذلك الفتّ في عضد خصومهم ، ولقد كان اليهود والمنافقون يلجأون إلى هذه الحال دائما ، فكانوا يتناجون دون المؤمنين .

وكلّما مروا بهم يتغامزون ، فلما كثر ذلك ، شكا منهم المؤمنون إلى الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، فنهاهم عن ذلك ، ولكن الضعيف دائما يجد في هذا التناجي سلوة يستر بها ضعفه ، فلم ينتهوا ، فأنزل الله فيهم . أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ .

وكانت هذه الحال حالا ذميمة مؤذية ، فنهى المؤمنين أن يفعلوا هذا ، فيكون فيهم هذا الصنف من الناس ، فهم لم يكن منهم هذا التناجي المذموم حتى ينهوا عنه ، إنما نهوا عنه تعريضا بأولئك الذين لا يعيشون إلّا في الظلام ، ويصطادون في الماء العكر ، أرأيت الآية التي سقنا لك فيهم ، وهذا الآية كيف نهي المؤمنون فيها أن يتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهذا هو الذي كان منهم ، ثم هو تحذير للمؤمنين أن يفعلوا فعلهم ، فيستحقوا ما استحق أولئك من العاقبة .

وقيل : بل الخطاب للمنافقين ، وسمّاهم مؤمنين باعتبار ثوبهم الذي يظهرون فيه ، والظاهر الأول ، فإنّ الآية نهت المؤمنين أن يتناجوا بالإثم والعدوان ، أي بما هو إثم في ذاته ، ثم هو عدوان على منصب الرسالة ، إذ يجعل الناس ينفضّون من حول الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم أمرتهم إذا كان لا بدّ لهم من التناجي أن يتناجوا بما هو برّ وخير ، وبما هو وقاية لهم ، وحفظ من عذاب اللّه ، ثم أمرتهم بأن يتقوا اللّه الذي إليه يحشرون ، فيحاسبهم على ما كان منهم بعد أن يطلعهم عليه ، لا تخفى عليه منه خافية ، ثم قال اللّه في تعليل ما تقدّم

إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا .

وأسندت النجوى إلى الشيطان باعتبار أنّه الذي يوسوس بها ويزينها للناس فيرتكبونها ، وغايته منه إدخاله الحزن على الذين آمنوا ، ولكنّهم ما داموا مؤمنين فلن يضرّهم منه شيء وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ واسم ليس إمّا الشيطان ، وإمّا التناجي ، وما دام الأمر كلّه لله ، فإن قدّر اللّه مكروها فهو لا بدّ كائن ، وإن أراد خيرا فلا رادّ لفضله ، يصيب به من يشاء .

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ولا يبالوا ما يكون من نجوى الشيطان ، لأن الذي

(113/750)

يتناجى به المنافقون إن وقع فهو بقضاء اللّه ومشيئته ، وما شاء لا بدّ أن يكون .

والقصد من هذا إزالة ما عساه يدخل في نفوس المؤمنين بتأثير هذه المناجاة .

ثم إنّ التناجي بين المؤمنين قد يكون منهيا عنه ، روى البخاريّ ومسلم «1» وغيرهما عن ابن مسعود رضي اللّه عنه أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الآخر ، حتى تختلطوا بالناس ، من أجل أنّ ذلك يحزنه» .

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ

لَكُمْ وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11) كان المؤمنون يتنافسون في القرب من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ويتسابقون إلى ذلك ، لا يكاد أحد يؤثر غيره بمجلسه من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، واتفق أنّ رسول اللّه صلّى الله عليه وسلّم جلس يوم الجمعة في الصّفّة ، وفي المكان ضيق ، وكان عليه الصلاة والسلام يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر ، منهم ثابت بن قيس بن شماس ، وقد سبقوا إلى المجالس ، فقاموا حيال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة اللّه وبركاته ، فردّ النبي عليهم . ثم سلّموا على القوم ، فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ، ينتظرون أن يوسع لهم ، فشقّ ذلك على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال لبعض من حوله : قم يا فلان ويا فلان ، فأقام نفرا مقدار من قدم ، فشقّ ذلك عليهم ، وعرفت كراهيته في وجوههم .

واتخذ المنافقون من ذلك طريقا عسى أن يصلوا منه إلى قلوب المؤمنين ، فقالوا : ما عدل رسول اللّه بإقامة من أخذ مجلسه وأحبّ قربه لمن تأخر عن الحضور ، فأنزل اللّه قوله تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا الآية .

أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان .

والتفسّح في المجلس : التوسع فيه ، أي إذا قال لكم قائل كائنا من كان : توسعوا ، فليفسح بعضكم عن بعض ، ليأخذ القادم مكانه في المجلس ، فإنّ ذلك سبب

المودة والمحبة بينكم، ومدعاة للألفة وصفاء النفوس.

ولئن كانت الآية نزلت في خصوص التوسع في مجلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فإنّها لمرسلة عامة في كل المجالس التي يكون فيها خير للناس، مجالس العلم، ومدارسة القرآن، ومجالس القتال إذا اصطفوا للحرب، ومجالس الرأي والشورى، ومجالس الناس في مجتمعاتهم للأغراض الدينية.

---

(1) رواه البخاري في الصحيح (7/ 183)، 79 - كتاب الاستئذان، 46 - باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة حديث رقم (2690)، ومسلم في الصحيح (4/ 1718)، 39 - كتاب السلام، 15 - باب تحريم المناجاة حديث رقم (37/ 2184).

يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ في رحمته، أو في منازلكم في الجنة، أو في قبوركم، أو في دوركم، أو في رزقكم، وفي كل ما تحبّون التوسعة فيه.

وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا النشز: الارتفاع في مكان، والمراد هنا النهوض من المجلس، أي: وإذا قيل لكم انهضوا للتوسعة على المقبلين فانهضوا، ولا تباطؤوا.

وقال الحسن وقتادة والضحاك: إنّ المعنى: وإذا دعيتم إلى قتال أو صلاة أو طاعة

فأجيبوا .

وقيل : إذا دعيتم للقيام عن مجلس الرسول فقوموا ، لأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كان أحيانا يؤثر الانفراد في أمر الإسلام أو لبعض شأنه ، ولا مانع من تعميم الحكم في كل مجلس ، فإذا دعت الحاجة إلى أن ينفرد صاحب المجلس في أمر ، أو إلى أن يخلو ببعض الجالسين ، فله أن يطلب في رفق إلى الجالسين أن يقوموا ، إذا لم يترتب على ذلك مفسدة أعظم ضررا من فوات المصلحة التي دعت إلى الانفراد .

وهذا مما لا نزاع لأحد في جوازه .

نعم لا يجوز للقادم أن يقيم أحدا ليجلس هو في مجلسه ،

فقد روى مالك والبخاريّ ومسلم « 1 » وغيرهم عن ابن عمر رضي اللّه عنهما أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ، ولكن تفسّحوا أو توسّعوا» .

وقد جرى الحكم أنّ من سبق إلى مباح فهو أولى به ، والمجالس من هذا المباح ، وعلى القادم أن يجلس حيث انتهى به المجلس ، إلا أنّ مكارم الأخلاق تقضي على الجالسين بتقديم أولي الفضل وأهل الحجى والحلوم ، بذلك جرى عرف الناس وعوائدهم في القديم والحديث .

ولقد كان هذا هو الشأن بين الصحابة في مجلس الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، فكانوا يقدّمون بالهجرة وبالعلم وبالسن .

روى أبو بكر بن العربي «2» بسنده عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه: بينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في المسجد وقد طاف به أصحابه إذ أقبل علي بن أبي طالب، فوقف وسلّم، ثم نظر مجلسا يشبهه، فنظر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في وجوه أصحابه أيهم يوسّع له، وكان أبو بكر جالسا على يمين النبي صلّى اللّه عليه وسلّم، فتزحزح له عن محله، وقال: هاهنا يا أبا الحسن، فجلس بين النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وبين أبي بكر، فقال: «يا أبا بكر! إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل».

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (3/ 1714)، 39 - كتاب السلام، 11 - باب تحريم إقامة الإنسان، والبخاري في الصحيح (7/ 177)، 79 - كتاب الاستئذان، 31 - باب لا يقيم الرجل الرجل حديث رقم (6269).

(2) انظر أحكام القرآن لابن العربي (4/ 1747).

وثبت في «الصحيح «1» أنّ عمر بن الخطاب كان يقدّم عبد اللّه بن عباس على الصحابة، فكلّموه في ذلك، فدعاهم ودعاه، وسألهم عن تفسير إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) [النصر: 1] فسكتوا. فقال ابن عباس: هو أجل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم. فقال

عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم ، ثم قال : بهذا قدمت الفتى .

وكان التقدم في مجلس الجمعة بالبكور ، إلا ما يلي الإمام ، فإنّه لذوي الأحلام والنّهى .

وكان التقدم في مجلس القتال إذا اصطفوا للحرب لذوي النجدة والمراس من الناس ، والتقدم في مجلس الرأي والشورى لمن له بصر بالشورى ، وخبرة بالأمور .

يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ . اختلف المفسرون في المراد بالموصول هنا الَّذِينَ آمَنُوا ووَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ فقال جماعة : المراد من (الذين آمنوا) كلّ المؤمنين ، سواء من أوتوا العلم منهم ، ومن لم يؤتوه . والمراد من (الذين أوتوا العلم) العلماء من المؤمنين خاصة ، وعلى ذلك يكون العطف من عطف الخاص على العام ، تعظيما للعلماء بحسبانهم ، كأنهم جنس آخر .

وقال قوم : المراد بالذين آمنوا : المؤمنون الذين لم يؤتوا العلم ، بدليل مقابلته بالذين أوتوا العلم ، وهذا مروي عن ابن مسعود ، وابن عباس رضي اللّه عنهم ، وعليه يكون العطف عطف متغايرين بالذات ، ويكون الموصول الثاني معمولا لفعل محذوف دلّ عليه المذكور ، ويكون معمول الفعل المذكور محذوفا ، دلّ عليه المعمول المذكور ، ويكون الكلام من عطف الجمل ، والتقدير : يرفع اللّه الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات تليق بهم ، ويرفع الذين أوتوا العلم درجات .

وقال آخرون : المراد بالموصولين واحد ، والعطف لتنزيل التغاير في الصفات منزلة التغاير في

الذوات . والمعنى : يرفع اللّه الذين آمنوا العالمين درجات .

وعلى هذه الأوجه يكون رفع الدرجات جزاء لامتثالهم لأمر النهوض من المجالس ، وفي هذا الجزاء مناسبة للعمل المأمور به ، وهو ترك ما كانوا يتنافسون فيه من الجلوس في أرفع المجالس وأقربها من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فلما كان الممتثل لذلك يخفض نفسه تواضعا للّه ، وامتثالا لأمره جوزي على تواضعه برفع الدرجات و«من تواضع للّه رفعه» وذهب آخرون إلى أنّ جملة يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ كالتعليل للأمر السابق ، أي إذا قيل لكم انهضوا للتوسعة على القادمين فانهضوا ، لأنّ

---

(1) رواه البخاري في الصحيح (6/ 113) ، 65 - كتاب التفسير ، 40 - باب قوله تعالى : (فسبح بحمد ربك) حديث رقم (4970) .

(116/750)

منهم مؤمنين علماء رفعهم اللّه درجات على غيرهم ، فأوسعوا لهم في المجالس وأكرموهم كما أكرمهم اللّه .

ثم الآية بعد هذا دليل على فضل العلماء ، ولا يقلّ ما روي من الآثار والأخبار في ذلك عن دلالة الآية في الظهور والوضوح ،

فقد أخرج الترمذي وأبو داود «1» وغيرهما عن أبي الدرداء مرفوعا «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» .

وأخرج الدارمي «2» عن عمر بن كثير عن الحسن قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام ، فبينه وبين النبيين درجة»

وعنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «بين العالم والعابد مئة درجة ، بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعون سنة» «3» .

وعنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء» «4» .

وحسب العلماء أن يلوا الأنبياء ، ويتقدّموا الشهداء .

والمراد بالعلم الذي أوتوه هو العلم النافع في الدنيا والدين ، ولن يكون العلم نافعا يرفع صاحبه حتى يكون هو من العاملين ، وإلا كان من الذين يقولون ما لا يفعلون ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ (3) .

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (13) قد علمتم فيما سبق أن الصحابة كانوا يتنافسون في

القرب من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في مجلسه ، ويتسابقون عليه ، وأنه صعب على بعضهم أن يقوم للمتأخر ، وقد كان بعضهم يناجي الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم في بعض شأنه ، وكانوا يكثرون من هذه المناجاة ، فكان ذلك يشقّ على الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقد يستثقله الحاضرون ، فأراد اللّه أن يحدّ من هذه المناجاة ، وهي لا يمكن منعها ، فقد يكون لبعض الناس شأن لا يحبّ الكلام فيه إلا مناجاة ، وشؤون الناس لا يمكن ضبطها ، ولا معرفة مقدار الأهمية فيها ، إلا بعد

---

(1) رواه الترمذي في الجامع الصحيح (5/ 47) ، كتاب العلم ، باب ما جاء في فضل الفقه حديث رقم (2682) ، وأبو داود في السنن (3/ 313) ، كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم حديث رقم (3641) . [. . . . .]

(2) رواه الدارمي في السنن (1/ 100) ، باب فضل العلم والعالم .

(3) المرجع نفسه .

(4) رواه ابن ماجه في السنن (2/ 1443) ، 37 - كتاب الزهد 37 - باب ذكر الشفاعة حديث رقم (4313) .

حصول المناجاة بالفعل ، فأمر اللّه المؤمنين أن يقدّموا صدقات عند مناجاة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، بهذا ترى أنّ الآية متصلة بما قبلها تمام الاتصال ، فكلّ منهما متعلّق بما يكون في مجلس الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وما يفعله الجالسون في المجلس الشريف .

أمر اللّه المؤمنين بذلك حدّا للمناجاة التي تكون لغير حاجة ومنعا منها ، ونفعا للفقراء الذين يكونون في مجلس الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وقد تدعو المناجاة إلى أن يقوموا من مجلسهم لهذا الذي يريد أن يناجي الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، فإذا كان هذا القيام سيعود بالفائدة على الفقراء اطمأنت قلوب القائمين ، فقراء كانوا أو أغنياء ، فإنّ الأغنياء يطيب خاطرهم لنفع الفقراء .

والتعبير بقوله تعالى : بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً يراد منه أن تكون الصدقة حاضرة عند النجوى ، على طريق تمثيل النجوى بمن له يدان ، أو هو استعارة مكنية تقوم على تشبيه النجوى بالإنسان ، وإثبات اليدين تخييل .

ويقول المفسرون : إن هذا الأمر اشتمل على فوائد كثيرة :

منها : تعظيم أمر الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، وإكبار شأن مناجاته ، كأنها شيء لا ينال بسهولة .

ومنها : التخفيف عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالتقليل من المناجاة .

ومنها : تهوين الأمر على الفقراء الذين قد يغلبهم الأغنياء على مجلس الرسول صلّى اللّه

عليه وسلّم ، فإنهم إذا علموا أنّ قرب الأغنياء من الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، ومناجاتهم له تسبقها الصدقة لم يضجروا .

ومنها : عدم شغل الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم بما لا يكون مهما من الأمور ، فيتفرغ للرسالة فإنّ الناس وقد جبلوا على الشحّ بالمال يقتصدون في المناجاة التي تسبقها الصدقة .

ومنها : تمييز محبّ الدنيا من محبّ الآخرة ، فإنّ المال محكّ الدواعي .

هذا وقد اختلف العلماء في مقتضى هذا الأمر ، أهو الوجوب أم هو الندب .

فقال بعضهم بالوجوب ، مستدلا بأنّ الآية فيها أمر بتقديم الصدقة عند النجوى ، والأمر للوجوب ، ثم قال اللّه في آخر الآية : فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ومثل هذا لا يقال إلا في الواجبات التي لا تترك .

وقال بعضهم : إن الأمر هنا للندب والاستحباب ، وذلك أنّ اللّه قال في الآية : ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ومثل هذا قرينة تصرف الأمر عن ظاهره ، وهو إنما يستعمل في التطوع دون الفرض .

وأيضا قال اللّه تعالى في الآية التي بعد هذه مباشرة : أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ وهذا يزيل ما في الأمر الأوّل من احتمال الوجوب ، انظر إلى قوله : فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ .

وقد أجاب القائلون بالوجوب : بأنه كما يوصف التطوع بأنّه خير وأطهر ، كذلك يوصف الفرض ، بل هو أولى .

وأما آية أأشفقتم فهي ناسخة للوجوب الذي ثبت بالأمر ، ولا يلزم من اتصال الآيتين في التلاوة اتصالهما في النزول .

وهؤلاء القائلون بالوجوب وبالنسخ اختلفوا في مقدار تأخر الناسخ عن المنسوخ ، فقال بعضهم : ما بقي المنسوخ إلّا ساعة من نهار ، وينسب ما روي عن تأخّر كبار الصحابة عن تقديم الصدقة إلى ضيق الوقت ، وروي أنه بقي الأمر عشرة أيام ثم نسخ .

وقد روى عن علي بن أبي طالب أنه أول من عمل بهذا الأمر ، وآخر من عمل به ، وأنه كان عنده دينار فصرفه إلى عشرة دراهم ، فكلما ناجى الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم قدّم درهما .

ويرى أبو مسلم الأصفهاني عدم وقوع النسخ ، ويقول في هذه الآية : إنّه كان يوجد بين المؤمنين جماعة من المنافقين ، كانوا يمتنعون من بذل الصدقات ، وإنّ فريقا منهم عدل عن نفاقه ، وصار مؤمنا ظاهرا وباطنا إيمانا حقيقيا . فأراد اللّه تعالى أن يميزهم عن المنافقين

الذين لا يزالون على نفاقهم ، فأمر بتقديم الصدقة ، ليتميز هؤلاء من هؤلاء ، وإذا كان هذا التكليف لهذه المصلحة المقدرة لذلك الوقت ، لا جرم يقدر التكليف بذلك الوقت .

قال الفخر الرازي : وحاصل قول أبي مسلم أنّ ذلك التكليف كان مقدرا بغاية مخصوصة ، فوجب انتهاؤه عند الانتهاء إلى الغاية المخصوصة ، فلا يكون هذا نسخا .

ثم قال : وهذا كلام حسن لا بأس به ، والمشهور عند الجمهور أنه منسوخ بقوله تعالى : أَأَشْفَقْتُمْ ومنهم من قال : إنه منسوخ بوجوب الزكاة .

ونحن نرى مع الفخر الرازي أنّ كلام أبي مسلم كلام حسن ، لكنّا نبحث عن أولئك الذين حسن إيمانهم ، الذين أريد تمييزهم من المنافقين ، فلا نجد أنّ أحدا تصدّق .

بل لقد روي أنّه لم يعمل بهذه الآية إلا الإمام علي بن أبي طالب ، ولقد عجب الناس كيف لم يعمل كبار الصحابة بهذا التكليف ، وصاروا يعتذرون عنه بأنه لم يبق إلا ساعة من نهار ، ومنهم من قال : إنّه استمر عشرة أيام ، ومنهم من قال : نسخ قبل أن يعمل به أحد .

ويعجبنا قول الفخر في الدفاع عن عدم عمل الصحابة : أنه على تقدير أن أفاضل الصحابة وجدوا الوقت ولم يفعلوا فهذا لا يجر إليهم طعنا ، وذلك أن الإقدام على هذا العمل مما يضيق به قلب الفقير ، ويوحش قلب الغني ، لأنه إن لم يفعل جرّ ذلك إلى الطعن فيه ، فهذا العمل لما كان سببا لحزن الفقير ، ووحشة الغني ، لم يكن في تركه كبير مضرة ، بل لقد بينا

أنهم إنما كلّفوا بهذه الصدقة ليتركوا هذه المناجاة. ولما كان الأولى بهذه المناجاة أن تكون متروكة، لم يكن تركها سببا للطعن.

والذي أعجبنا من كلام الفخر هو الجزء الأخير منه، وأما ما قبله فهو قابل للمناقشة، وما نرى في عدم فعل الصحابة طعنا ولا شينا، بل إنّهم فهموا أنّ شرعية هذا الحكم قصد منها الحد من المناجاة الكثيرة، فيضيع وقت الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم، وقد سبق أن قلنا: إن المناجاة لا يمكن منعها، فمنها الضروري، ومنها ما يكون فيه مصلحة عامة للمسلمين.

وأما الصدقة فلم تطلب لأنّها صدقة، فالصدقات مطلوبة، ومرغب فيها من غير توقف على المناجاة، ولو أنّ الصحابة فهموا أن المقصود التوسل بالمناجاة لتكون بابا من أبواب الصدقة ما تأخروا، فمنهم من نزل عن جميع ماله، ومنهم من كان يريد أن يتصدّق بالثلثين، لأنه لا يرثه إلا ابنة واحدة. وما دام المقصود القصد من المناجاة التي تشغل الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم فليحرصوا على القصد، على أنّهم وجدوا في قوله تعالى:

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ فسحة. فمن ذا الذي كانت دراهمه ودنانيره حاضرة

معه في مجلس الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم حتى يتصدق بها ، أو يقال : إنه لم يمتثل الأمر ؟

ونظنّ أنّا بما قدمنا نجدك في غنى عن تفسير الآية الأولى ، وأما قوله : أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (13) فمعناه أخفتم تقديم الصدقات لما فيها من إنفاق المال ، فإذ لم تفعلوا ما أمرتم به ، وتاب عليكم ، ورخّص لكم في الترك ، فأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، ولا تفرّطوا فيها وفي سائر الطاعات .

وليس يشتمّ من هذه الآية أنه وقع منهم تقصير ، فإنّ التقصير إنما يكون إذا ثبت أنه كانت مناجاة لم تصحبها الصدقة ، والآية قالت : فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا أي ما أمرتم به من التصدق ، وقد يكون عدم الفعل لأنهم لم يناجوا ، فلا يكون عدم الفعل تقصيرا .

وأما التعبير بالإشفاق من جانبهم فلا يدل على تقصيرهم ، فقد يكون اللّه علم أنّ كثيرا منهم استكثر التصدق عند كل مناجاة في المستقبل لو دام الوجوب ، فقال اللّه لهم : أَأَشْفَقْتُمْ .

وكذلك ليس في قوله : وَتابَ اللَّهُ ما يدل على أنهم قصّروا ، فإنّه يحمل على أنّ المعنى أنه تاب عليهم برفع التكليف عنهم تخفيفا ، ومثل هذا يجوز أن يعبّر عنه بالتوبة ، ولذلك عقب عليه بما يكون شكرا على هذا التخفيف فقال : فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ يعني أنّه إذا تاب عليكم ، وكفاكم هذا التكليف ، فاشكروه

بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ومداومة الطاعة، لأنه المحيط بأعمالكم ونياتكم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿تفسير آيات الأحكام/ للسايس صـ 750.728﴾

(120/750)

من مجازات القرآن في السورة الكريمة

قال ابن المثنى:

«سورة المجادلة» (58)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«كُبِتُوا» (5) أهلكوا «1» «كَما كُبِتَ» (5) كما أهلك..

«تَفَسَّحُوا» (11) توسّعوا..

«وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا» (11) قوموا..

«اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ» (19) غلب «2» عليهم وحازهم..

«كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي» (21) أي قضى الله..

«مَنْ حَادَّ اللَّهَ» (22) ومن شاقّ الله واحد..

«أَيَّدَهُمْ» (22) قوّاهم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 255﴾

---

(1) . - 3 «أهلكوا» : مروى عن أبى عبيدة فى القرطبي (2/ 165) وفتح الباري 8/ 482.

(2) . - 6 «غلب» : كما فى البخاري ، قال ابن حجر هو قول أبى عبيدة (فى فتح الباري 8/ 482) .

(121/750)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة القنوجى :

سورة المجادلة

اثنتان وعشرون آية

وهي مدنية ، قاله القرطبي «1» : في قول الجميع ، إلا رواية عن عطاء : أن العشر الأول منها مدنية .

[الآيتان : الأولى والثانية]

وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ

يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (4) .

وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ : بأن يقول الزوج لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي كذا قال ابن عباس .

فالمعنى والذين يقولون ذلك القول المنكر الزور .

ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا : بالتدارك والتلافي ، كما في قوله : أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ [النور : 17] ، أي إلى مثله .

قال الأخفش : لما قالوا وإلى ما قالوا يتعاقبان . قال : وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا [الأعراف : 43] ، وقال : فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (23) [الصافات : 23] ، وقال :

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) [الزلزلة : 5] ، وقال : وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ [هود : 36] .

وقال الفراء : اللام بمعنى ثم يرجعون عما قالوا ويريدون الوطء .

وقال الزجاج : المعنى يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا .

---

(1) انظره في «تفسيره» (17/ 269) .

قال الأخفش أيضا : الآية فيها تقديم وتأخير ، والمعنى والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما كانوا عليه من الجماع .

فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، لما قالوا . أي فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا .

واختلف أهل العلم في تفسير العود المذكور على أقوال :

الأول : أنه العزم على الوطء ، وبه قال العراقيون : أبو حنيفة وأصحابه ، وروي عن مالك .

وقيل : هو الوطء نفسه ، وبه قال الحسن . وروي أيضا عن مالك ، وهو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق ، وبه قال الشافعي .

وقيل : هو الكفارة ، والمعنى أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة ، وبه قال الليث بن سعد وروي عن أبي حنيفة .

وقيل : هو تكرير الظهار بلفظه ، وبه قال أهل الظاهر .

والظاهر أنها تجزىء أي رقبة كانت .

وقيل : يشترط أن تكون مؤمنة ، كالرقبة في كفارة القتل . وبالأول قال أبو حنيفة وأصحابه ، وبالثاني قال مالك والشافعي واشترطا سلامتها من كل عيب .

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا المراد بالتماس : هنا الجماع ، وبه قال الجمهور ، فلا يجوز للمظاهر الوطء حتى يكفّر .

وقيل : المراد به الاستمتاع بالجماع أو اللمس أو النظر إلى الفرج بشهوة ، وبه قال مالك ، وهو أحد قولي الشافعي .

والإشارة بقوله : ذِلكُمْ إلى الحكم المذكور ، وهو مبتدأ وخبره :

تُوعَظُونَ : أي تؤمرون بِهِ أو تزجرون به عن ارتكاب الظهار . وفيه بيان لما هو المقصود من شرع الكفارة .

قال الزجاج : المعنى ذلكم التغليظ في الكفارة توعظون به ، أي أن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار .

وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) : لا يخفى عليه شيء من أعمالكم فهو مجازيكم عليها .

(123/750)

ثم ذكر سبحانه حكم العاجز عن الكفارة ، فقال : فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا أي فمن لم يجد الرقبة في ملكه ولم يتمكن من قيمتها ، فعليه صيام شهرين متواليين لا يفطر فيهما ، فإن أفطر يستأنف إن كان الإفطار لغير عذر ، وإن كان لعذر من سفر أو مرض ، فقال سعيد بن المسيب والحسن وعطاء بن أبي رباح وعمر بن دينار والشعبي والشافعي ومالك : يبني ولا يستأنف .

وقال أبو حنيفة : إنه يستأنف ، وهو مروي عن الشافعي . فلو وطئ ليلا أو نهارا عمدا أو خطأ استأنف ، وبه قال أبو حنيفة ومالك .

وقال الشافعي : لا يستأنف إذا وطئ ليلا لأنه ليس محلا للصوم . والأول أولى .

فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً لكل مسكين مدّان ، وهما نصف صاع . وبه قال أبو حنيفة وأصحابه .

وقال الشافعي وغيره : لكل مسكين مد واحد . والظاهر من الآية أنه يطعمهم حتى يشبعوا مرة واحدة ، أو يدفع إليهم ما يشبعهم ، ولا يلزمه أن يجمعهم مرة واحدة ، بل يجوز له أن يطعم بعض الستين في يوم وبعضهم في يوم آخر .

والإشارة بقوله : ذلِكَ إلى ما تقدم من الأحكام ، وهو مبتدأ وخبره مقدر ، أي ذلك واقع . لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ : أي لتصدقوا أن الله أمر به وشرعه ، أو لتطيعوا اللّه ورسوله في الأوامر والنواهي وتقفوا عند حدود الشرع ، ولا تعتدوها ولا تعودوا إلى الظهار الذي هو منكر من القول وزور .

والإشارة بقوله : وَتِلْكَ إلى الأحكام المذكورة ، وهو مبتدأ وخبره :

حُدُودُ اللَّهِ : فلا تجاوزوا حدوده التي حدها لكم ، فإنه قد بين لكم أن الظهار معصية ، وأن كفارته المذكورة توجب العفو والمغفرة .

وَلِلْكافِرِينَ : الذين لا يقفون عند حدود اللّه ولا يعملون بما حده اللّه لعباده وسماه كفرا

تغليظا وتشديدا.

عَذابٌ أَلِيمٌ (4) : هو عذاب جهنم «1» . انتهى انتهى. ا هـ ﴿نيل المرام صـ 432. 434﴾

---

(1) انظر في تفسير هذه الآية وأقوال أهل العلم فيها : الأحكام لابن العربي (4/ 1734 إلى 1746) ، والناسخ والمنسوخ (2/ 881) ، مراتب الإجماع لابن حزم (ص 93) الروضة الندية للمصنف

(124/750)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «المجادلة»

[سورة المجادلة (58) : آية 7]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)

قوله سبحانه : ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ ، وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ ، وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا [7] وظاهر هذا الكلام محمول على المجاز والاتساع ، لأن المراد به إحاطته تعالى بعلم نجوى المتناجين ، ومعاريض المتخافتين ، فكأنه سبحانه يعلم جميع ذلك ، سامع للحوار ، وشاهد للسّرار .

ولو حمل هذا الكلام على ظاهره لتناقض . ألا ترى أنه تعالى لو كان رابعا لثلاثة فى مكان على معنى قول المخالفين ، استحال أن يكون سادسا لخمسة فى غير ذلك المكان إلا بعد أن يفارق المكان الأول ، ويصير إلى المكان الثاني ، فينتقل كما تنتقل الأجسام ، ويجوز عليه الزوال والمقام . وهذا واضح بحمد اللّه وتوفيقه .

[سورة المجادلة (58) : آية 12]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12)

وقوله سبحانه : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً [12] وهذه استعارة . وقد مضت لها نظائر كثيرة .

والمراد بقوله تعالى : بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ أي أمام نجواكم ، وذلك كقوله سبحانه : وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ «1» أي مطرقة أمام الغيث الوارد ، ومبشّرة بالخير الوافد .

[سورة المجادلة (58) : آية 16]

اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (16)

وقوله سبحانه : اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ [16] وهذه استعارة.

والكلام وارد فى شأن المنافقين.

والمراد أنهم جعلوا إظهار الإيمان الذين «2» يبطنون ضدّه جنّة يعتصمون بها ويستلئمون «3»

---

(1) سورة الأعراف. الآية رقم 56.

(2) هكذا بالأصل. والصواب : الذي

(3) بالأصل : يستلمون، وهو تحريف ويستلئم : أي يلبس الدرع

فيها، تعوّذا بظاهر الإسلام الذي يسع من دخل فيه، ويعيذ «1» من تعوّد به.

[سورة المجادلة (58) : الآيات 21 الى 22]

كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21) لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ

كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)

وقوله سبحانه: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [21] وهذه استعارة. والمراد بالكتابة هاهنا الحكم والقضاء. وإنما كنى تعالى عن ذلك بالكتابة، مبالغة فى وصف ذلك الحكم بالثبات، وأنّ بقاءه كبقاء المكتوبات.

وقوله سبحانه: أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ [22] وفى هذا الكلام استعارتان، إحداهما قوله تعالى: أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ ومعناه أنه ثبّته فى قلوبهم، وقرّره فى ضمائرهم، فصار كالكتابة الباقية، والرّقوم الثابتة، على ما أشرنا إليه من الكلام على الاستعارة المتقدمة. وذلك كقول القائل: هو أبقى من النقش فى الحجر، ومن النقش فى الزّبر.

والاستعارة الأخرى قوله تعالى: وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ولذلك وجهان: إمّا أن يكون المراد بالروح هاهنا القرآن، لأنه حياة فى الأديان، كما أنّ الروح حياة فى أمر الأبدان. وقال سبحانه: وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا «2» والمراد القرآن.

والوجه الآخر أن يكون الروح هاهنا معنى النّصر والغلبة والإظهار للدولة. وقد يعبّر عن ذلك بالريح. والرّوح والريح يرجعان إلى معنى واحد. وقال سبحانه: وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ «3» أي دولتكم واستظهاركم. انتهى انتهى. ا هـ ۞ تلخيص

البيان صـ 328. 329 ﴾

---

(1) فى الأصل «ويعيد» بالدال المهملة، وهو تحريف من الناسخ.

(2) سورة الشورى. الآية رقم 52.

(3) سورة الأنفال الآية رقم 46.

(126/750)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى:

سورة المجادلة

(127/750)

سورة المجادلة أولى سور الجزء الثامن والعشرين فى المصحف الشريف وهى سور مدنية كلها. والمجتمع المدنى كان صنوفا شتى من الناس. هناك المؤمنون الذين يصنعهم الوحى ليقودوا قافلة الإيمان فى المشارق والمغارب. وهناك الوثنيون المتعلقون بأذيال الليل المدبر!

وهناك اليهود الذين يعبدون جنسهم ويريدون فرض أهوائهم على الناس . وهناك المنافقون الذين يجرون وراء مصالحهم ويظهرون فى ألف لون . . وهذه السورة على وجازتها ، تعرضت لأولئك جميعا . فقد بتت فى قضية الظهار ، وهو من شئون الأسرة المسلمة ، وبينت أنه ليس طلاقا ، وذكرت كفارته . والإسلام يهتم بشئون الأسرة ويوضح حدودها ، فيقول هنا "وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم" . ويقول فى سورة البقرة "تلك حدود الله فلا تعتدوها" - بعد أحكام الطلاق - ويقول فى سورة النساء "تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار". بعد أحكام الميراث - وهذه الحدود شىء آخر غير العقوبات المقدرة على بعض الجرائم . ومن أسلوب القرآن أن يمزج الأحكام بالعقائد ليجعل التزامها جزءا من الإيمان ومظهرا لإجلال الله ، ولذلك قال بعدها "ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم . . ." . "وانتقلت السورة عقب ذلك إلى اليهود الذين إذا أرادوا تحية المسلمين قالوا : السام عليكم ! ويجعلون من الشبه بين السام والسلام ذريعة للعن المسلمين وتمنى الهلاك لهم ! وقد سمعتهم عائشة فكشفتهم ونهرتهم ، ولكن النبى - صلى الله عليه وسلم - آثر أسلوبا أليق به ، ونزلت الآية" . . وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير" . ثم

أمر الله المسلمين أن تكون أحاديثهم فى مجالسهم أو مع خصومهم بعيدة عن الشحناء والتحدى وأن يترفعوا عن محاكاة اليهود ، وألا يكترثوا إذا تلاقى اليهود

(128/750)

والمنافقون فتسار بعضهم مع

البعض الآخر فى بشاشة وود – ليحرجوا المؤمنين ويشعروهم بالعزلة " إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون " . والإسلام ينزل الناس منازلهم وفق الإيمان والعلم . ففى صفوف الصلاة ، يقول الرسول: ليلنى منكم أولو الأحلام والنهى . وفى المجالس العامة ، يقول الله تعالى " يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات" . والمسلمون يحبون نبيهم أشد الحب ، ولم لا وقد أخرجهم من الظلمات إلى النور ، وعرفهم بخالقهم ورازقهم ، ووقفهم صفوفا بين يديه يحمدونه ويستهدونه طرفى النهار وزلفا من الليل ؟ ثم إن شخصه النبيل جدير بالحب والحفاوة ، والكمال البشرى جدير بالحب حيث كان . إلا أن عاطفة الالتفاف حول الرسول والجلوس معه لابد من تنظيمها حتى تستقيم شئون الدنيا والدين وحتى يجد وقتا يخلص فيه إلى نفسه وأهله ! ! ولذلك نزلت الآية " يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول

فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم " .

فإذا صعب ذلك على مؤمن ، فأفعال الخير أمامه كثيرة يستطيع بها إرضاء ربه ، وهى أولى به من إيثار الحديث مع الرسول ! قد يكون فى الحديث مع العظماء لذة ، بيد أن نصرة رسالتهم أهم ! "أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . . . " . وفى مجتمع يختلط فيه المؤمنون والمشركون والكتابيون وتشتبك فيه المصالح المادية والأدبية تمتحن المبادئ امتحانا قاسيا ، وقد يقدم الرجل قرابته أو تجارته على مذهبه أو رأيه ! وذاك ما جعل الشاعر يقول قديما لواحد من هؤلاء المتلونين . فإما أن تكون أخى بصدق فأعرف منك غثى من سمينى ! وإما فاطرحنى واتخذنى عدوا أتقيك وتتقينى ! والنفاق داء خبيث شديد الخطر . ومن أيسر الأمور على المنافق أن يحلف كاذبا ، ولذلك قال تعالى يصف هذا الصنف "

(129/750)

ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون * أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون" ويظهر أن الذى يألف نهجا معينا من الحياة يموت به ويبعث عليه ، وذاك ما جعل العامة فى

بلادنا يقولون " يموت الزمار وأصابعه تلعب " ! فإذا مات كذلك بعث كذلك . وربما حاول الدجال فى الدنيا أن يكون دجالا فى الآخرة ، فيحلف على الزور كأن حلفه سينجيه ! "يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون" ، وهيهات . . "إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين" . فى النجاة من هذه الفتن . وتفريقا بين الإيمان الصادق والإيمان المغشوش ، يأمر الله المؤمنين أن يصارحوا بعقائدهم ويتحدّوا بمبادئهم وينحازوا إلى أشكالهم ويجافوا خصومهم . "لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه . . " . انتهى انتهى .

اهـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 446. 448﴾

(130/750)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والخمسون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/751)

الجزء الحادى والخمسون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من (سورة المجادلة)

وحتى الآية ﴿ 8 ﴾ من السورة

(4/751)

(5/751)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة المجادلة

أقول: لما كان في مطلع الحديد ذكر صفاته الجليلة ، ومنها : الظاهر والباطن ، وقال: (يعلمُ ما يلجُ في الأَرضِ وما يخرجُ منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كُنتُم) افتتح هذه بذكر أنه سمع قوله المجادلة التي شكت إليه صلى الله عليه وسلم ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها حين نزلت: (سُبحانَ الذي وسِعَ سمعهُ الأَصوات ، إِني لفي ناحية البيت لا أَعرف ما تقول) وذكر بعد ذلك قوله: (أَلم تر أَن اللهَ يعلمُ ما في السموات وما في الأَرض ما يكون من نجوى ثلاثة إِلا هو رابعهم) وهو تفصيل لقوله: (وهوَ معكُم أَينما كنتُم) وبذلك تعرف الحكمة في الفصل بها بين الحديد والحشر ، مع تآخيهما في الافتتاح ب (سبح) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 136﴾

(6/751)

قوله تعالى ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (2) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

{ بسم الله } الذي أحاط علمه فتمت قدرته فكملت جميع صفاته { الرحمن } الذي شمل الخلائق جودا بالإيجاد وإرسال هداته { الرحيم } الذي خص أصفياءه فتمت عليهم نعمة مرضاته .

(7/751)

لما ختمت الحديد بعد إثبات عجز الخلق بعظيم الفضل له سبحانه ، وكان سماع أصوات جميع الخلائق من غير أن يشغل صوت عن صوت وكلام عن كلام من الفضل العظيم ، وكان قد تقدم ابتداع بعض المتعبدين من الرهبانية بما لم يصرح لهم بالإذن فيه ، فكان سبباً للتضييع ، وكان الظهار على نوعين : موقت ومطلق ، وكان الموقت مما يدخل في الرهبانية

لأنه من التبتل وتحريم ما أحل الله من الطيبات ، وكان بعض الصحابة .رضى الله عنه.م قد منع نفسه بالموقت منه من مرغوبها مما لم يأت عن الله ، فظاهر من امرأته محافظة على كمال التعبد خوفاً من الجماع في نهار رمضان ، وكان ذلك مما لم يأذن به بل نهى عنه كما روى أبو داود عن أنس .رضى الله عنه. والطبراني في الأوسط على سهل بن حنيف .رضى الله عنه. أن النبي .صلى الله عليه وسلم. : "لا تشددوا على أنفسكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بتشديدهم على أنفسهم ، وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات" وكان بعض الصحابة -.رضى الله عنه.م أجمعين- قد ظاهر مطلقاً فشكت امرأته ما لحقها من الضرر إلى رسول الله .صلى الله عليه وسلم. وهتفت باسم الله ، وكان علمه سبحانه بخصوص شكاية هذه المرأة المسكينة وإزالة ضررها بحكم عام لها ولغيرها من عباده حتى صارت واقعتها رخصة عامة للمسلمين إلى يوم القيامة معلماً بأنه ذو الفضل العظيم ، وأنه الظاهر الباطن ، ذو الملك كله ، وكان قد أمر بالإيمان به وبرسوله ووعد على ذلك بالنور ، كان السامع لذلك جديراً بتوقع البيان الذي هو النور في هذه الرهبانية التي ابتدعت في هذه الأمة ، وتخفيف الشديد الذي وقع عن بعضهم ليعلم أهل الكتاب ما لهذه الأمة من الكرامة على ربها وأنه يختص برحمته من يشاء فقال : ﴿قد سمع الله﴾ أي أجاب بعظيم فضله الذي أحاط بجميع صفات الكمال فوسع سمعه الأصوات ﴿قول﴾ وعبر بالوصف

دون الاسم تعريفاً برحمته الشاملة فقال : ﴿ التي تجادلك ﴾ أي تبالغ في أن تقبلك إلى مرادها

(8/751)

﴿ في زوجها ﴾ أي في الأمر المخلص له من ظهاره رحمة لها ﴿ وتشتكي ﴾ أي تتعمد بتلك المجادلة الشكوى ، منتهية ﴿ إلى الله ﴾ أي الملك العظيم الرحيم الذي أحاط بكل شيء علماً ، ولصدقها في شكواها وقطع رجائها في كشف ما بها من غير الله كانت هي والنبيُّ -صلى الله عليه وسلم- متوقعين أن الله يكشف ضرها ﴿ والله ﴾ أي والحال أن الذي وسعت رحمته كل شيء لأنه له الأمر كله ﴿ يسمع تحاوركما ﴾ أي مراجعتكما التي يحور - أي يرجع فيها إلى كل منكما جواب كلامه من الآخر كأنها لتقل ما قدح في أمرها ونزل من ضرها ناشئة عن حيرة .

(9/751)

ولما كان ذلك في غاية ما يكون من خرق العادة بحيث إن الصديقة عائشة .رضى الله عنه .ا قالت عند نزول الآية : " الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد كلمت رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وأنا في جانب البيت ما أسمع كثيراً مما تقول " أكده تنبيهاً على شدة غرابته ولأنه ربما استبعده من اشتد جهله لعراقته في التقيد بالعادات فقال : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي أحاط بجميع صفات الكمال فلا كفؤ له ﴿ سميع بصير ﴾ أي بالغ السمع لكل مسموع ، والبصر لكل ما يبصر والعلم لكل ما يصح أن يعلم أزلاً وأبداً ، وقد مضى نحو هذا التناسب في المائدة حين أتبع تعالى آية القسيسين والرهبان قوله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ [المائدة : 87] غير أن هذا خاص وذاك عام ، فهذا فرد منه ، فالمناسبة واحدة لأن الأخص في ضمن الأعم ، والحاصل أنه سبحانه امتنَّ عليهم بما جعل في قلوبهم من الرهبانية وغيرها ، وأخبر أنهم لم يوفوها حقها ، وأنه آتى مؤمنيهم الأجر ، وأمر المسلمين بالتقوى واتباع الرسول . صلى الله عليه وسلم . ليحصل لهم من فضله العظيم ضعف ما حصل لأهل الكتاب ، ونهاهم عن التشديد على أنفسهم بالرهبانية ، فصاروا مفضلين من وجهين : كثرة الأجر وخفة العمل ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء - والله أعلم ، روى البزار من طريق خصيف عن عطاء من غيرهما أيضاً عن ابن عباس .رضى الله عنهما . أن رجلاً قال : يا رسول الله ! إني ظاهرت من امرأتي ورأيت ساقها في القمر فواقعتها قبل أن أكفر ، قال " كفِّر ولا تعد " وروى أبو داود عن عكرمة أن

رجلاً ظاهر من امرأته ثم واقعها قبل أن يكفر ، فأتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره فقال : " ما حملك على ما صنعت ؟ قال : رأيت بياض ساقيها في القمر ، قال : فاعتزلها حتى تكفر عنك " قال المنذري : وأخرجه أيضاً عن عكرمة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن عكرمة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن النبي ـ صلى

(10/751)

الله عليه وسلم ـ بمعناه ، وأخرجه النسائي وابن ماجة والترمذي – وقال : حديث حسن غريب صحيح – وقال النسائي : المرسل أولى بالصواب من المسند ، وقال أبو بكر المعافري : ليس في الظهار حديث صحيح يعول عليه ، قال المنذري : وفيما قاله نظر ، فقد صححه الترمذي كما ترى ، ورجال إسناده ثقات ، وسماع بعضهم من بعض مشهور ، وترجمة عكرمة عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ م احتج بها البخاري في غير موضع – انتهى .

وللترمذي – وقال حسن غريب – عن سلمة بن صخر ـ رضى الله عنه ـ في المظاهر يواقع قبل أن يكفر قال : "كفّار واحدة"

" وروى أحمد والحاكم وأصحاب السنن إلا النسائي وحسنه الترمذي ، قال ابن الملقن :

وصححه ابن حبان والحاكم – من طريق سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر البياضي. رضى الله عنه. قال: كنت أمرأ أصيب من النساء ما لا يصيب غيري، فلما دخل شهر رمضان خفت أن أصيب من امرأتي شيئاً يتابع بي حتى أصبح فظاهرت منها حتى ينسلخ شهر رمضان، فبينا هي تخدمني ذات ليلة تكشف لي منها شيء فما لبث أن نزوت عليها، فلما أصبحت خرجت إلى قومي فأخبرتهم الخبر وقلت: امشوا معي إلى رسول الله. صلى الله عليه وسلم. ، قالوا: لا والله: فانطلقت إلى النبي. صلى الله عليه وسلم. فأخبرته، فقال "أنت بذاك يا سلمة؟ قلت: أنا بذاك يا رسول الله مرتين، وأنا صابر لأمر الله، فاحكم فيّ بما أراك الله، وفي رواية: فأمض فيَّ حكم الله فإني صابر لذلك، قال حرر رقبة.

قلت: والذي بعثك بالحق ما أملك غيرها – وضربت صفحة رقبتي، قال: فصم شهرين متتابعين، قلت: وهل أصبت الذي أصبت إلا من الصيام، قال: فاطعم وسقاً من تمر بين ستين مسكيناً، قال: والذي بعثك بالحق، لقد بتنا وحشين ما لنا طعام، قال: فانطلق إلى صاحب صدقة بني زريق فليدفعها إليك فأطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر وكل أنت

وعيالك بقيتها " فرجعت إلى قومي فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ، ووجدت عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ السعة وحسن الرأي ، وفي رواية : والبركة وقد أمرني – أو أمر لي – بصدقتكم ، وفي رواية : فادفعوها إليّ ، فدفعوها إليّ) .

وأعله عبد الحق بالانقطاع ، وأن سليمان لم يدرك سلمة ، حكى ذلك الترمذي عن البخاري ، وقال الترمذي : إن سلمة بن صخر يقال له سلمان أيضاً ، ورواه الإمام أحمد أيضاً من طريق أخرى قال " حدثنا عبد الله بن إدريس – هو الأودي – عن محمد بن إسحاق عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر البياضي ـ رضي الله عنه ـ قال : كنت امرأً أصيب من النساء ما لا يصيب غيري ، فلما دخل شهر رمضان خفت فتظاهرت من امرأتي في الشهر فبينا هي تخدمني ذات ليلة إذ تكشف لي منها شيء فلم ألبث أن وقعت عليها ، فأتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبرته فقال " حرر رقبة ، فقلت : والذي بعثك بالحق ، ما أملك غير رقبتي ، قال : صم شهرين متتابعين ، قلت : وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام ؟ قال : فأطعم ستين مسكيناً "

وهذا سند حسن متصل إن شاء الله إن سلم من تدليس ابن إسحاق ، وروى الحاكم والبيهقي من طريق محمد بن عبد الرحمن بن إسحاق ، وروى الحاكم والبيهقي من طريق محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان وأبي سلمة بن عبد الرحمن

" أن سلمة بن صخر البياضي . رضى الله عنه . جعل امرأته عليه كظهر أنه إن غشيها حتى يمضي رمضان ، فذكر ذلك لرسول الله . صلى الله عليه وسلم . فقال : اعتق رقبة " وقصة سلمة هذه أصل الظهار المؤقت ، وقد دلت على أنه لا عود فيه لا كفارة عليه إلا بوطئها في مدة الظهار ، " وروى أبو داود عن خويلة بنت مالك بن ثعلبة . رضى الله عنه ا قال : " ظاهر مني زوجي أوس بن الصامت . رضى الله عنه . فجئت رسول الله . صلى الله عليه وسلم . أشكوا إليه ورسول الله . صلى الله عليه وسلم . يجادلني فيه ويقول : اتقي الله فإنه ابن عمك ، فما برحت حتى نزل القرآن ﴿ قد سمع الله ﴾ إلى الفرض ، فقال : يعتق رقبة ، قالت : لا يجد ، قال : يصوم شهرين متتابعين ، قالت : يا رسول الله ، إنه شيخ كبير ما به من صيام ، قال فليطعم ستين مسكيناً ، قالت : ما عنده من شيء يتصدق به قالت : فأتي ساعتئذ بعرق من تمر ، قلت : يا رسول الله ، فإني أعينه بعرق آخر ، قال : قد أحسنت أذهبي فأطعمي بها عنه ستين مسكيناً ، وارجعي إلى ابن عمك " قال : والعرق ستون صاعاً ، وفي رواية : والعرق مكتل يسع ثلاثين صاعاً ، " وروى الدارقطني أن أنس بن مالك . رضى الله عنه . قال : " إن أوس بن الصامت . رضى الله عنه . ظاهر من امرأته خويلة بنت ثعلبة . رضى الله عنه ا فشكت إلى النبي . صلى الله عليه وسلم . فقالت : ظاهر مني حين كبر سني ورق عظمي ، فأنزل الله آية الظهار ، فقال رسول الله . صلى الله عليه وسلم .

لأوس اعتق رقبة ، قال : مالي بذلك يدان ، قال : فصم شهرين متتابعين ، قال : أما إني إذا أخطأني أن آكل في اليوم مرتين يكل بصري ، قال فأطعم ستين مسكيناً " ، قال : ما أجد إلا أن تعينني منك بعون وصلة ، فأعانه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخمسة عشر صاعاً حتى جمع الله له ، والله رحيم " قال : وكانوا يرون أن عنده مثلها ، وذلك لستين مسكيناً ، وللدراقطني أيضاً والبيهقي " أن خولة بنت

ثعلبة ـ رضى الله عنه ـ ا رآها زوجها وهو أوس بن الصامت أخو عبادة ـ رضى الله عنهما ـ وهي تصلي فراودها فأبت فغضب ، وكان به لمم وخفة فظاهر منها ، فأتت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب فيَّ ، فلما خلا سني ونثرت له بطني جعلني عليه كأمه " وللطبراني من طريق أبي معشر عن محمد بن كعب القرظي قال : "كانت خولة بنت ثعلبة تحت أوس بن الصامت وكان به لمم ، فقال في بعض هجراته : أنت عليّ كظهر أمي ، قال : ما أظنك إلا قد حرمت عليّ ، فجاءت إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : يا رسول الله إن أوس بن الصامت أبو ولديَّ وأحب الناس إليّ والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً ، قال : ما أراك إلا قد حرمت عليه ، فقالت :

يا رسول الله لا تقل كذلك والله ما ذكر طلاقاً ، فرادّت النبي -صلى الله عليه وسلم- مراراً ، ثم قالت : اللهم إني أشكو إليك فاقتي ووحدتي وما يشق عليّ من فراقه " الحديث ، ومن طريق أبي العالية قال : فجعل كلما قال لها " حرمت عليه " هتفت وقالت : أشكو إلى الله ، فلم ترم مكانها حتى نزلت الآية ، وروى أبو داود عن هشام بن عروة أن جميلة كانت تحت أوس ابن الصامت وكان رجلاً به لمم فكان إذا اشتد به لممه ظاهر من امرأته فأنزل الله عز وجل فيه كفارة الظهار ، وأخرجه من حديث عروة عن عائشة -رضى الله عنه- ا مثله .

(14/751)

وقال القشيري : وفي الخبر أنها قالت : يا سول الله إن أوساً تزوجني شابة غنية ذات أهل ومال كثير ، فلما كبر عنده سني ، وذهب مالي وتفرق أهلي ، جعلني عليه كظهر أمه ، وقد ندم وندمت ، وإن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليّ جاعوا ، يعني ففرج الله عنها ، وقد حصل من هذا مسألة ، وهو أن كثيراً من الأشياء ظاهر العلم يحكم فيه بشيء ثم الضرورة تغير ذلك الحكم لصاحبها ، قال البغوي : وكان هذا أول ظهار في الإسلام ، وقال أبو حيان : وكان عمر -رضى الله عنه- يكرم خولة -رضى الله عنه

ا إذا دخلت عليه ويقول : سمع الله لها ، فالمظاهرة في حديث سلمة - رضى الله عنه - ومن نحا نحوه رهبانية مبتدعة لم ترع حق رعايتها كرهبانية النصارى ، ولم يتبع النبي - صلى الله عليه وسلم - في ابتداعها حق الاتباع ، وأما في قصة خولة - رضى الله عنه - ا فهي مصيبة كأن ينبغي فيها التسليم وعدم الحزم كما في آية ﴿ لكيلا تأسوا ﴾ [الحديد : 23] الآية على أن امتناعها من زوجها حين راودها فيه إلمام بالرهبانية ، وإزالة شكايتها مع أنها امرأة ضعيفة من عظيم الفضل ، وزاده عظماً جعله حكماً عاماً لمن وقع فيه من جميع الأمة .

ولما أتم تعالى الخبر عن إحاطة العلم ، استأنف الإخبار عن حكم الأمر المجادل بسببه ، فقال ذاماً للظهار ، وكاسياً له ثوب العار : ﴿ الذين ﴾ ولما كان الظهار منكراً لكونه كذباً ، عبر بصيغة التفعل الدالة عليه فقال : ﴿ يظهرون ﴾ أي يوجدون الظهار في أي رمضان كان وكأنه أدغم تاء التفعل والمفاعلة لأن حقيقته أنه يذهب ما أحل الله له من مجامعة زوجته .

(15/751)

ولما كان الظهار خاصاً بالعرب دون سائر الأمم ، نبه على ذلك تهجيناً له عليهم وتقبيحاً لعادتهم فيه ، تنبيهاً على أن اللائق بهم أن يكونوا أبعد الناس من هذا الكلام لأن الكذب لم يزل مستهجناً عندهم في الجاهلية ، ثم ما زاده الإسلام إلا استهجاناً فقال : ﴿ منكم ﴾

أي أيها العرب المسلمون الذين يستقبحون الكذب ما لا يستقبحه غيرهم وكذا من دان دينهم ﴿ من نسائهم ﴾ أي يحرمون نساءهم على أنفسهم تحريم الله عليهم ظهور أمهاتهم بأن يقول أحدهم لزوجته شيئاً من صرائحه مثل أنت عليّ كظهر أمي وكناياته كأنت أمي ، وكل زوج صح طلاقه صح ظهاره من حر أو عبد مسلم أو ذمي دخل بالزوجة أو لا قادراً على الجماع أو عاجزاً ، صغير كانت الزوجة أو كبيرة ، عاقلة كانت أم مجنونة ، سليمة كانت أو رتقاء ، مسلمة كانت أو ذميمة ، ولو كانت رجعية .

ولما كان وجه الشبه التحريم ، وكان للتحريم رتبتان : عليا موصوفة بالتأبيد والاحترام ، ودنيا خالية عن كل من الوصفين ، وكان التقدير خبراً للمبتدأ : مخطئون في ذلك لأنه كذب ، لأن التشبيه إن أسقطت أداته لم يكن حمله على الحقيقة ليكون من الرتبة العليا ولو على أدنى أحوالها من أنه طلاق لا رجعة فيه ، كما كانوا يعتقدونه ، وإن أثبتت ليكون من الدنيا لم يكن صحيحاً لأنه ممنوع منه لأن التشريع إنما هو لله ، والله لم يكن يشرع ذلك ، وكان تعليل شقي التشبيه يفيد معنى الخبر بزيادة التعليل ، حذف الخبر ، واكتفى بالتعليل فقال معللاً له مهجناً للظهار الذي تعوده العرب من غير أن يشاركهم فيه أحد من الأمم : ﴿ ما هن ﴾ أي نساؤهم ﴿ أمهاتهم ﴾ على تقدير إرادة أحدهم أعلى رتبتي التحريم ، والحاصل أنهم لما كانوا يعتقدون أنه طلاق لا رجعة فيه جعلوا معتقدين أن المرأة أم لأن الحرمة المؤبدة من خصائص الأم فخوطبوا بذلك تقريعاً لهم لأنه أردع ، وفي سورة الأحزاب ما يوضح هذا .

ولما كانوا قد مرنوا على هذا الحكم في الجاهلية ، واستقر في أنفسهم استقراراً لا يزول إلا بغاية التأكيد ، ساق الكلام كذلك في الشقين فقال : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ أمهاتهم ﴾ أي حقيقة ﴿ إلا اللاَّئي ولدنهم ﴾ ونساؤهم لم تلدهم ، فلا يحرمن عليهم حرمة مؤبدة للإكرام والاحترام ، ولا هن ممن ألحق بالأمهات بوجه يصح وكأزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنهن أمهات لما لهن من حق الإكرام والاحترام والإعظام ما لم يكن لغيرهن لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعظم في أبوة الدين من أب النسب وكذلك المرضعات لما لهن من الإرضاع الذي هو وظيفة الأم بالأصالة ، وأما الزوجة فمباينة لجميع ذلك .

ولما فرغ من تعليل الشق الأول على أتم وجه ، أتبعه تعليل الآخر كذلك ، فقال عاطفاً عليه مؤكداً لأنهم كانوا قد ألفوا قوله فأشربته قلوبهم : ﴿ وإنهم ﴾ أي المظهرون ﴿ ليقولون ﴾ أي في هذا التظهر على كل حالة ﴿ منكراً من القول ﴾ ينكره الحقيقة والأحكام ، قال ابن الملقن في عمدة المحتاج : وهو حرام اتفاقاً كما ذكره الرافعي في الشهادات .

﴿ وزوراً ﴾ أي قولاً مائلاً عن السداد ، منحرفاً عن القصد ، لأن الزوجة معدة للاستمتاع الذي هو في الغاية من الامتهان ، والأم في غاية البعد عن ذلك لأنها أهل لكل احترام ، فلا هي أم حقيقة ولا شبيهة بها بأمر نصبه الشارع للاحترام كالإرضاع ، وكونها فراشاً لعظيم كالنبي أو للأب أو للحرمة كاللعان ، فقد علم أن ذلك الكلام ليس بصدق ولا جاء به مسوغ ، فهو زور محض ، وأخصر من هذا أن يقال : ولما كان ظهارهم هذا يشتمل على فعل وقول ، وكان الفعل هو التحريم الذي هو موضع وجه الشبه ، وكانت العادة في وجه الشبه أن يقنع منه بأدنى ما ينطلق عليه الاسم ، وكانوا قد خالفوا ذلك فجعلوه في أعلى طبقاته وهو الحرمة المؤبدة التي يلزم منها أن تكون المشابهة من كل وجه في الحرمة مع أن ذلك بغير مستند من الله تعالى الذي لا حكم لغيره ، ألزمهم أن يكون الشبه من كل وجه مطلقاً ليكونوا جاعلين الزوجة إما حقيقة لا دعوى كما جعلوا الحرمتين كذلك من غير فرق بل أولى لأن الشبه إنما وقع بين الحيثيتين لا بين الحرمتين - ثم وقفهم على جهلهم فيه فقال ﴿ ما هن ﴾ إلى آخره ، ولما وقفهم على جهلهم في الفعل وقفهم على جهلهم في القول : فقال : وأنهم إلى آخره ، قال النووي في الروضة : قال الأصحاب : الظهار حرام ، وله حكمان : أحدهما تحريم الوطء إذا وجبت الكفارة إلى أن يكفر ، والثاني وجوب الكفارة بالعود - انتهى ، وهذا القول وإن أفاد التحريم فإنه يفيد لكونه ممنوعاً منه على وجه ضيق حرج المورد عسر المخرج ليكون عسره زاجراً عن الوقوع فيه ، قال أبو عبد الله القزاز في ديوانه

الجامع : وظاهر الرجل امرأته وظاهر من امرأته إذا قال : أنت عليّ كظهر أمي أو كذاب محرم ، وإنما استخصوا الظهر في الظهار لأن الظهر موضع الركوب ، والمرأة مركب الرجل في النكاح فكني به عن ذلك ، فكأنه قال : ركوبك عليّ للنكاح كركوب أمي ، وكان الظهار في الجاهلية طلاقاً ، ولذلك أشكل معنى

(18/751)

قوله تعالى ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ وقال ابن الأثير في النهاية : ظاهر الرجل من امرأته ظهاراً وتظهر وتظاهر إذا قال لها : أنت عليّ كظهر أمي ، وكان في الجاهلية طلاقاً ، وقيل : إنهم أرادوا أنت عليّ كبطن أمي أي كجماعها ، فكنوا بالظهر عن البطن للمجاورة ، وقيل إن إتيان المرأة وظهرها إلى السماء كان حراماً عندهم ، وكان أهل المدينة يقولون : إذا أتيت المرأة ووجهها إلى الأرض جاء الولد أحول ، فلقصد الرجل المطلق منهم إلى التغليظ في تحريم امرأته عليه شبهها بالظهر ثم لم يقنع بذلك حتى جعلها كظهر أمه ، وإنما عدى الظهار ب ﴿ من ﴾ لأنهم كانوا إذا ظاهروا المرأة تجنبوها كما يتجنبون المطلقة ويحترزون منها ، فكأن قوله : ظاهر من امرأته ، أي بعد واحترز منها كما قيل : آلى من امرأته ، لما ضمن معنى التباعد عدى ب ﴿ من ﴾ -انتهى ، قال : وقال ابن الملقن في العمدة شرح

المنهاج: وكان طلاقاً في الجاهلية، ونقل عن صاحب الحاوي أنه عندهم لا رجعة فيه، قال: فنقل الشارع حكمه إلى تحريم بعد العود ووجوب الكفارة - انتهى وقال أبو حيان: قال أبو قلابة وغيره: كان الظهار في الجاهلية يوجب عندهم فرقة مؤبدة.

ولما كان التقدير: فإن الله حرمه، عطف عليه مرغباً في التوبة وداعياً إليها قوله مؤكداً لأجل ما يعتقدون من غلظه وأنه لا مثنوية فيه ﴿وإن الله﴾ أي الملك الأعظم الذي لا أمر لأحد معه في شرع ولا غيره ﴿لعفو﴾ من صفاته أن يترك عقاب من شاء ﴿غفور﴾ من صفاته أن يمحو عين الذنب وأثره حتى أنه كما لا يعاقب عليه لا يعاتب، فهل من تائب طلباً للعفو عن زلله، والإصلاح لما كان من خلله. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 7 صـ 482.474﴾

(19/751)

"القراءات والوقوف"

قال العلامة النيسابوري رحمه الله:

القراءات ﴿يظاهرون﴾ من المظاهرة: عاصم ﴿يظهرون﴾ بتشديد الظاء والهاء من الظهر وأصله "يتظهرون" أدغمت التاء في الظاء: أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو

وسهل ويعقوب. والباقون ﴿ يظاهرون ﴾ بتشديد الظاء وبزادة الألف من التظاهر وأصله "يتظاهرون" ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ بالرفع: المفضل. الآخرون: بكسر التاء على إعمال "ما" عمل ليس هذه هي الفصحى ﴿ ما تكون ﴾ بتاء التأنيث: يزيد وهو ظاهر. الآخرون: على التذكير بناء على أن التقدير ما يقع شيء من نجوى. ﴿ ولا أكثر ﴾ بالرفع: يعقوب إما على الابتداء كقولك "لا حول ولا قوة" أو للعطف على محل ﴿ من نجوى ﴾ الباقون: بالنصب على أن "لا" لنفي الجنس أو على أنهما مجروران عطفاً على ﴿ نجوى ﴾ كأنه قيل: ما يكون من أدنى ولا أكثر إلا هو معهم. أو عطفاً على العدد والتقدير: ما يكون من نجوى أكثر من ذلك ﴿ وتتناجوا ﴾ على باب الافتعال: حمزة ورويس ﴿ ولا تنتاجوا ﴾ من الافتعال أيضاً. رويس. ﴿ المجالس ﴾ على الجمع: عاصم ﴿ انشزوا ﴾ بضم الشين فيهما: أبو جعفر ونافع وأبن عامر وعاصم غير يحيى وحماد والهراز. الآخرون: بالكسر فيهما وهما لغتان مثل ﴿ يعرشون ﴾ و ﴿ يعرشون ﴾ ﴿ ورسلي ﴾ بفتح الياء: أبو جعفر ونافع وابن عامر ﴿ عشيراتهم ﴾ على الجمع: الشموني ﴿ كتب ﴾ مجهولاً الإيمان بالرفع: المفضل.

(20/751)

الوقوف: ﴿ تحاوركما ﴾ ط ﴿ بصير ﴾ ه ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ ط ﴿ ولدنهم ﴾ ط ﴿ وزوراً ﴾ ط ﴿ غفور ﴾ ه ﴿ يتماسا ﴾ ط ﴿ به ﴾ ط ﴿ خبير ﴾ ه ﴿ يتماسا ﴾ ج ﴿ مسكيناً ﴾ ط ﴿ ورسوله ﴾ ط ﴿ الله ﴾ ط ﴿ أليم ﴾ ه ﴿ بينات ﴾ ق ﴿ مهين ﴾ ه ط لاحتمال تعلق الظرف بما قبله وكونه مفعولاً لاذكر ﴿ عملوا ﴾ ط ﴿ ونسوه ﴾ ط ﴿ شهيد ﴾ ه ﴿ وما في الأرض ﴾ ه ﴿ كانوا ﴾ ج لأن "ثم" للعطف أو لترتيب الاخبار ﴿ القيامة ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ ه ﴿ الرسول ﴾ ز لعطف الجملتين المتفقتين معنى مع أن ﴿ جاؤك ﴾ فعل ماض لفظاً ﴿ به الله ﴾ لا لأن ما بعده حال أو عطف على ﴿ جاؤك ﴾ لمستقبل معنى ﴿ نقول ﴾ ط ﴿ جهنم ﴾ ط لاحتمال الحال وكونه مستأنفاً ﴿ يصلونها ﴾ ج ﴿ المصير ﴾ ه ﴿ والتقوى ﴾ ج ﴿ تحشرون ﴾ ه ﴿ بإذن الله ﴾ ط ﴿ المؤمنون ﴾ ه ﴿ يفسح الله لكم ﴾ ج لابتداء شرط آخر مع العطف ﴿ منكم ﴾ لا للعطف ﴿ درجات ﴾ ط ﴿ خبير ﴾ ه ﴿ صدقة ﴾ ط ﴿ وأطهر ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ ه ﴿ صدقات ﴾ ط لتناهي الاستفهام إلى الشرط ﴿ ورسوله ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ ه ﴿ عيلهم ﴾ ط لتناهي الاستفهام إلى الإخبار ﴿ منهم ﴾ لا بناء على أن ما بعده حاله والعامل معنى الفعل في الجار أي وهم يحلفون قاله السجاوندي ولا يبعد عندي أن يكون مستأنفاً فيحسن الوقف. ﴿ يعلمون ﴾ ه ﴿ شديداً ﴾ ط ﴿ يعملون ﴾ ه ﴿ مهين ﴾ ه ﴿ شيئاً ﴾ ط ﴿ النار ﴾ ط

﴿ خالدون ﴾ ہ ﴿ على شيء ﴾ ط ﴿ الكاذبون ﴾ ہ ﴿ ذكر الله ﴾ ط ﴿ أولئك حزب الشيطان ﴾ ط ﴿ الخاسرون ﴾ ہہ ﴿ الأذلين ﴾ ہ ﴿ رسلي ﴾ ط ﴿ عزيز ﴾ ہ ﴿ عشيرتهم ﴾ ط ﴿ بروح منه ﴾ ط للعدول عن الماضي إلى المستقبل ﴿ فيها ﴾ ط ﴿ عنه ﴾ ط ﴿ أولئك حزب الله ﴾ ط ﴿ المفلحون ﴾ ہ. انتهى انتهى. اهـ

﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 265. 266﴾

(21/751)

فصل

قال الفخر:

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾

روي أن خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت أخي عبادة بن الصامت رآها زوجها وهي تصلي، وكانت حسنة الجسم، وكان بالرجل لمم، فلما سلمت راودها، فأبت، فغضب، وكان به خفة فظاهر منها، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب فيَّ، فلما خلاسني وكثر ولدي جعلني كأمه، وإن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا، ثم ههنا روايتان: يروي

أنه عليه السلام قال لها : " ما عندي في أمرك شيء " وروي أنه عليه السلام قال لها : " حرمت عليه " فقالت : يا رسول الله ما ذكر طلاقاً ، وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إليَّ ، فقال : " حرمت عليه " فقالت : أشكو إلى الله فاقتي ووجدي ، وكلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حرمت عليه " هتفت وشكت إلى الله ، فبينما هي كذلك إذ تربد وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية ، ثم إنه عليه الصلاة والسلام أرسل إلى زوجها ، وقال : " ما حملك على ما صنعت ؟ " فقال : الشيطان فهل من رخصة ؟ فقال : نعم ، وقرأ عليه الأربع آيات ، وقال له : " هل تستطيع العتق ؟ " فقال : لا والله ، فقال : " هل تستطيع الصوم ؟ " فقال : لا والله لولا أني آكل في اليوم مرة أو مرتين لكلَّ بصري ولظننت أني أموت ، فقال له : " هل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً ؟ " فقال : لا والله يا رسول الله إلا أن تعينني منك بصدقة ، فأعانه بخمسة عشر صاعاً ، وأخرج أوس من عنده مثله فتصدق به على ستين مسكيناً " واعلم أن في هذا الخبر مباحث :

الأول : قال أبو سليمان الخطابي : ليس المراد من قوله في هذا الخبر : (وكان به لمم) ، الخبل والجنون إذ لو كان به ذلك ثم ظاهر في تلك الحالة لم يكن يلزمه شيء ، بل معنى اللمم هنا : الإلمام بالنساء ، وشدة الحرص ، والتوقان إليهن .

البحث الثاني : أن الظهار كان من أشد طلاق الجاهلية ، لأنه في التحريم أوكد ما يمكن ، وإن كان ذلك الحكم صار مقرراً بالشرع كانت الآية ناسخة له ، وإلا لم يعد نسخاً ، لأن النسخ إنما يدخل في الشرائع لا في عادة الجاهلية ، لكن الذي روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : " حرمت " أو قال : " ما أراك إلا قد حرمت " كالدلالة على أنه كان شرعاً .

وأما ما روي أنه توقف في الحكم فلا يدل على ذلك .

البحث الثالث : أن هذه الواقعة تدل على أن من انقطع رجاؤه عن الخلق ، ولم يبق له في مهمه أحد سوى الخالق كفاه الله ذلك المهم ، ولنرجع إلى التفسير ، أما قوله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ قَدْ ﴾ معناه التوقع ، لأن رسول الله والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها ، وينزل في ذلك ما يفرج عنها .

المسألة الثانية :

كان حمزة يدغم الدال في السين من : ﴿ قَدْ سَمِعَ ﴾ وكذلك في نظائره ، واعلم أن الله تعالى حكى عن هذه المرأة أمرين أولهما : المجادلة وهي قوله : ﴿ تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ أي تجادلك في شأن زوجها ، وتلك المجادلة أنه عليه الصلاة والسلام كلما قال لها : " حرمت

عليه " قالت : والله ما ذكر طلاقاً وثانيهما : شكواها إلى الله ، وهو قولها : أشكو إلى الله فاقتي ووجدي ، وقولها : إن لي صبية صغاراً ، ثم قال سبحانه : ﴿ والله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ والمحاورة المراجعة في الكلام ، من حار الشيء يحور حوراً ، أي رجع يرجع رجوعاً ، ومنها نعوذ بالله من الحور بعد الكور ، ومنه فما أحار بكلمة ، أي فما أجاب ، ثم قال : ﴿ إِنَّ الله سَمِيعُ بَصِيرٌ ﴾ أي يسمع كلام من يناديه ، ويبصر من يتضرع إليه .

قوله تعالى : ﴿ الذين يظاهرون مِنكُمْ مّن نّسَائِهِمْ مَّا هُنَّ أمهاتهم ﴾ اعلم أن قوله : ﴿ الذين يظاهرون ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

ما يتعلق بالمباحث اللغوية والفقهية ، فنقول في هذه الآية بحثان .

(23/751)

أحدهما : أن الظهار ما هو ؟ .

الثاني : أن المظاهر من هو ؟ وقوله : ﴿ مِن نّسَائِهِمْ ﴾ فيه بحث : وهو أن المظاهر منها من هي ؟ .

أما البحث الأول : وهو أن الظهار ما هو ؟ ففيه مقامان :

المقام الأول : في البحث عن هذه اللفظة بحسب اللغة وفيه قولان : أحدهما : أنه عبارة عن قول الرجل لإمرأته : أنت علي كظهر أمي ، فهو مشتق من الظهر .

والثاني : وهو صاحب "النظم" ، أنه ليس مأخوذاً من الظهر الذي هو عضو من الجسد ، لأنه ليس الظهر أولى بالذكر في هذا الموضع من سائر الأعضاء التي هي مواضع المباضعة والتلذذ ، بل الظهر ههنا مأخوذ من العلو ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ [الكهف : 97] أي يعلوه ، وكل من علا شيئاً فقد ظهره ، ومنه سمي المركوب ظهراً ، لأن راكبه يعلوه ، وكذلك امرأة الرجل ظهره ، لأنه يعلوها بملك البضع ، وإن لم يكن من ناحية الظهر ، فكأن امرأة الرجل مركب للرجل وظهر له ، ويدل على صحة هذا المعنى أن العرب تقول في الطلاق : نزلت عن امرأتي أي طلقتها ، وفي قولهم : أنت عليّ كظهر أمي ، حذف وإضمار ، لأن تأويله : ظهرك علي ، أي ملكي إياك ، وعلوي عليك حرام ، كما أن علوي على أمي وملكها حرام علي .

المقام الثاني : في الألفاظ المستعملة بهذا المعنى في عرف الشريعة .

الأصل في هذا الباب أن يقال : أنت علي كظهر أمي ، فإما أن يكون لفظ الظهر ، ولفظ الأم مذكورين وإما أن يكون لفظ الأم مذكوراً دون لفظ الظهر ، وإما أن يكون لفظ الظهر مذكوراً دون لفظ الأم ، وإما أن لا يكون واحد منهما مذكوراً ، فهذه أقسام أربعة .

القسم الأول : إذا كانا مذكورين وهو معتبر بالاتفاق ، ثم لا مناقشة في الصلات إذا انتظم الكلام ، فلو قال : أنت علي كظهر أمي ، أو أنت مني كظهر أمي ، فهذه الصلات كلها جائزة ولو لم يستعمل صلة ، وقال : أنت كظهر أمي ، فقيل : إنه صريح ، وقيل : يحتمل أن يريد إنها كظهر أمه في حق غيره ، ولكن هذا الاحتمال كما لو قال لامرأته : أنت طالق ، ثم قال : أردت بذلك الإخبار عن كونها طالقاً من جهة فلان .

(25/751)

القسم الثاني : أن تكون الأم مذكورة ، ولا يكون الظهر مذكوراً ، وتفصيل مذهب الشافعي فيه أن الأعضاء قسمان ، منها ما يكون التشبيه بها غير مشعر بالإكرام ، ومنها ما يكون التشبيه بها مشعر بالإكرام ، أما الأول : فهو كقوله : أنت علي كرجل أمي ، أو كيد أمي ، أو كبطن أمي ، وللشافعي فيه قولان : الجديد أن الظهار يثبت ، والقديم أنه لا يثبت ، أما الأعضاء التي يكون التشبيه بها سبباً للإكرام ، فهو كقوله : أنت علي كعين أمي ، أو روح أمي ، فإن أراد الظهار كان ظهاراً ، وإن أراد الكرامة فليس بظهار ، فإن لفظه محتمل لذلك ، وإن أطلق ففيه تردد ، هذا تفصيل مذهب الشافعي ، وأما مذهب أبي حنيفة ، فقال أبو

بكر الرازي في "أحكام القرآن" : إذا شبه زوجته بعضو من الأم يحل له النظر إليه لم يكن ظهاراً ، وهو قوله : أنت علي كيد أمي أو كرأسها ، أما إذا شبهها بعضو من الأم يحرم عليه النظر إليه كان ظهاراً ، كما إذا قال : أنت علي كبطن أمي أو فخذها ، والأقرب عندي هو القول القديم للشافعي ، وهو أنه لا يصح الظهار بشيء من هذه الألفاظ ، والدليل عليه أن حل الزوجة كان ثابتاً ، وبراءة الذمة عن وجوب الكفارة كانت ثابتة ، والأصل في الثابت البقاء على ما كان ترك العمل به فيما إذا قال : أنت علي كظهر أمي لمعنى مفقود في سائر الصور ، وذلك لأن اللفظ المعهود في الجاهلية هو قوله : أنت علي كظهر أمي ، ولذلك سمي ظهاراً ، فكان هذا اللفظ بسبب العرف مشعراً بالتحريم ، ولم يوجد هذا المعنى في سائر الألفاظ ، فوجب البقاء على حكم الأصل .

القسم الثالث : ما إذا كان الظهر مذكوراً ولم تكن الأم مذكورة ، فهذا يدل على ثلاثة مراتب : المرتبة الأولى : أن يجري التشبيه بالمحرمات من النسب والرضاع ، وفيه قولان : القديم أنه لا يكون ظهاراً ، والقول الجديد أنه يكون ظهاراً ، وهو قول أبي حنيفة .

المرتبة الثانية : تشبيهها بالمرأة المحرمة تحريماً مؤقتاً مثل أن يقول لامرأته : أنت علي كظهر فلانة ، وكان طلقها والمختار عندي أن شيئاً من هذا لا يكون ظهاراً ، ودليله ما ذكرناه في المسألة السالفة ، وحجة أبي حنيفة أنه تعالى قال : ﴿ والذين يظاهرون ﴾ وظاهر هذه الآية يقتضي حصول الظهار بكل محرم فمن قصره على الأم فقد خص والجواب : أنه تعالى لما قال بعده : ﴿ مَّا هُنَّ أمهاتهم إِنْ أمهاتهم إِلاَّ اللائى وَلَدْنَهُمْ ﴾ دل على أن المراد هو الظهار بذكر الأم ، ولأن حرمة الأم أشد من حرمة سائر المحارم ، فنقول : المقتضي لبقاء الحل قائم على ما بيناه ، وهذا الفارق موجود ، فوجب أن لا يجوز القياس .

القسم الرابع : ما إذا لم يذكر لا الظهر ولا الأم ، كما لو قال : أنت علي كبطن أختي ، وعلى قياس ما تقدم يجب أن لا يكون ذلك ظهاراً .

البحث الثاني : في المظاهر ، وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال الشافعي رحمه الله : الضابط أن كل من صح طلاقه صح ظهاره ، فعلى هذا ظهار الذمي عنده صحيح ، وقال أبو حنيفة لا يصح ، واحتج الشافعي بعموم قوله تعالى : ﴿ والذين يظاهرون مِن نِّسَائِهِمْ ﴾ وأما القياس فمن وجهين الأول : أن تأثير الظهار في التحريم والذمي أهل لذلك ، بدليل صحة طلاقه ، وإذا ثبت هذا وجب أن يصح هذا التصرف منه قياساً على سائر التصرفات الثاني : أن الكفارة إنما وجبت على المسلم

زجراً له عن هذا الفعل الذي هو منكر من القول وزور ، وهذا المعنى قائم في حق الذمي فوجب أن يصح ، واحتجوا لقول أبي حنيفة بهذه الآية من وجهين الأول : احتج أبو بكر الرازي بقوله تعالى : ﴿ والذين يظاهرون مِنكُمْ مّن نّسَائِهِمْ ﴾ وذلك خطاب للمؤمنين فيدل على أن الظهار مخصوص بالمؤمنين الثاني : من لوازم الظهار الصحيح ، وجوب الصوم على العائد العاجز عن الإعتاق بدليل قوله تعالى :

(27/751)

﴿ والذين يظاهرون مِن نّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ إلى قوله ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ [المجادلة : 4 3] وإيجاب الصوم على الذمي ممتنع ، لأنه لو وجب لوجب ، إما مع الكفر وهو باطل بالإجماع ، أو بعد الإيمان وهو باطل ، لقوله عليه السلام : " الإسلام يجب ما قبله " والجواب : عن الأول من وجوه أحدها : أن قوله : ﴿ مّنكُمْ ﴾ خطاب مشافهة فيتناول جميع الحاضرين ، فلم قلتم : إنه مختص بالمؤمنين ؟ سلمنا أنه مختص بالمؤمنين ، فلم قلتم : إن تخصيصه بالمؤمنين في الذكر يدل على أن حال غيرهم بخلاف ذلك ، لا سيما ومن مذهب هذا القائل : أن التخصيص بالذكر لا يدل على أن حال ما عداه بخلافه ، سلمنا بأنه يدل عليه ، لكن دلالة المفهوم أضعف من دلالة المنطوق ،

فكان التمسك بعموم قوله : ﴿ والذين يظاهرون ﴾ أولى ، سلمنا الاستواء في القوة ، لكن مذهب أبي حنيفة أن العام إذا ورد بعد الخاص كان ناسخاً للخاص ، والذي تمسكنا به وهو قوله : ﴿ والذين يظاهرون مِن نّسَائِهِمْ ﴾ [المجادلة : 3] متأخر في الذكر عن قوله : ﴿ الذين يظاهرون مِنكُمْ ﴾ والظاهر أنه كان متأخراً في النزول أيضاً لأن قوله : ﴿ الذين يظاهرون مِنكُمْ ﴾ ليس فيه بيان حكم الظهار ، وقوله : ﴿ والذين يظاهرون مِن نّسَائِهِمْ ﴾ فيه بيان حكم الظهار ، وكون المبين متأخراً في النزول عن المجمل أولى والجواب عن الثاني من وجوه الأول : أن لوازمه أيضاً أنه متى عجز عن الصوم اكتفى منه بالإطعام فههنا إن تحقق العجز وجب أن يكتفى منه بالإطعام ، وإن لم يتحقق العجز فقد زال السؤال ، والثاني : أن الصوم بدل عن الإعتاق ، والبدل أضعف من المبدل ، ثم إن العبد عاجز عن الإعتاق مع أنه يصح ظهاره ، فإذا كان فوات أقوى اللازمين لا يوجب المنع ، مع صحة الظهار ، ففوات أضعف اللازمين كيف يمنع من القول بصحة الظهار الثالث : قال القاضي حسين من أصحابنا إنه يقال : إن أردت

الخلاص من التحريم ، فأسلم وصم ، أما قوله عليه والسلام : " الإسلام يجب ما قبله " قلنا : إنه عام ، والتكليف بالتكفير خاص ، والخاص مقدم على العام ، وأيضاً فنحن لا نكلفه بالصوم بل نقول : إذا أردت إزالة التحريم فصم ، وإلا فلا تصم .

المسألة الثانية :

قال الشافعي وأبو حنيفة ومالك رحمهم الله : لا يصح ظهار المرأة من زوجها وهو أن تقول المرأة لزوجها : أنت علي كظهر أمي ، وقال الأزواعي : هو يمين تكفرها ، وهذا خطأ لأن الرجل لا يلزمه بذلك كفارة يمين ، وهو الأصل فكيف يلزم المرأة ذلك ؟ ولأن الظهار يوجب تحريماً بالقول ، والمرأة لا تملك ذلك بدليل أنها لا تملك الطلاق .

المسألة الثالثة :

قال الشافعي وأبو حنيفة إذا قال أنت علي كظهر أمي اليوم ، بطل الظهار بمضي اليوم ، وقال مالك وابن أبي ليلى ، هو مظاهر أبداً لنا أن التحريم الحاصل بالظهار قابل للتوقيت وإلا لما انحل بالتفكير ، وإذا كان قابلاً للتوقيت ، فإذا وقته وجب أن يتقدر بحسب ذلك التوقيت قياساً على اليمين ، فهذا ما يتعلق من المسائل بقوله تعالى : ﴿ الذين يظاهرون ﴾ ، أما قوله تعالى : ﴿ مِن نِّسَائِهِمْ ﴾ فيتعلق به أحكام المظاهر منه ، واختلفوا في أنه هل يصح الظهار عن الأمة ؟ فقال أبو حنيفة والشافعي : لا يصح ، وقال مالك والأوزاعي : يصح ، حجة الشافعي أن الحل كان ثابتاً ، والتكفير لم يكن واجباً ، والأصل في الثابت البقاء ، والآية لا

تتناول هذه الصورة لأن قوله : ﴿ والذين يظاهرون مِن نِّسَائِهِمْ ﴾ [المجادلة : 3] يتناول الحرائر دون الإماء ، والدليل عليه قوله : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ [النور : 31] والمفهوم منه الحرائر ولولا ذلك لما صح عطف قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهن ﴾ لأن الشيء لا يعطف على نفسه ، وقال تعالى : ﴿ وأمهات نِسَائِكُمْ ﴾ [النساء : 23] فكان ذلك على الزوجات دون ملك اليمين .

المسألة الرابعة :

(29/751)

فيما يتعلق بهذه الآية من القراءات ، قال أبو علي : قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو : ﴿ والذين يظاهرون ﴾ بغير الألف ، وقرأ عاصم : ﴿ يظاهرون ﴾ بضم الياء وتخفيف الظاء والألف ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي يظاهرون بفتح الياء وبالألف مشددة الظاء ، قال أبو علي : ظاهر من امرأته ، ظهر مثل ضاعف وضعف ، وتدخل التاء على كل واحد منهما فيصير تظاهر وتظهر ، ويدخل حرف المضارعة فيصير يتظاهر ويتظهر ، ثم تدغم التاء في الظاء لمقاربتها لها ، فيصير يظاهر ويظهر ، وتفتح الياء التي هي حرف المضارعة ، لأنها للمطاوعة كما يفتحها في يتدحرج الذي هو مطاوع ، دحرجته فتدحرج ، وإنما فتح

الياء في يظاهر ويظهر ، لأنه المطاوع كما أن يتدحرج كذلك ، ولأنه على وزنهما ، وإن لم يكونا للإلحاق ، وأما قراءة عاصم يظاهرون فهو مشتق من ظاهر يظاهر إذا أتى بمثل هذا التصرف .

المسألة الخامسة :

لفظة : ﴿ مِنكُمْ ﴾ في قوله : ﴿ الذين يظاهرون مِنكُمْ ﴾ توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم في الظهار لأنه كان من أيمان أهل الجاهلية خاصة دون سائر الأمم ، وقوله تعالى : ﴿ مَّا هُنَّ أمهاتهم ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ عاصم في رواية المفضل : ﴿ أمهاتهم ﴾ بالرفع والباقون بالنصب على لفظ الخفض ، وجه الرفع أنه لغة تميم ، قال سيبويه : وهو أقيس الوجهين ، وذلك أن النفي كالاستفهام فكما لا يغير الاستفهام الكلام عما كان عليه ، فكذا ينبغي أن لا يغير النفي الكلام عما كان عليه ، ووجه النصب أنه لغة أهل الحجاز والأخذ في التنزيل بلغتهم أولى ، وعليها جاء قوله :

﴿ مَا هذا بَشَرًا ﴾ [يوسف : 31] ووجهه من القياس أن ما تشبه ليس في أمرين أحدهما : أن : (ما) تدخل على المبتدأ والخبر ، كما أن (ليس) تدخل عليهما والثاني : أن (ما) تنفي ما في الحال ، كما أن (ليس) تنفي ما في الحال ، وإذا حصلت المشابهة من وجهين وجب حصول المساواة في سائر الأحكام ، إلا ما خص بالدليل قياساً على باب ما لا ينصرف .

المسألة الثانية :

في الآية إشكال : وهو أن من قال لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، فهو شبه الزوجة بالأم ، ولم يقل : إنها أم ، فكيف يليق أن يقال على سبيل الإبطال لقوله : ﴿ مَّا هُنَّ أمهاتهم ﴾ وكيف يليق أن يقال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ القول وَزُوراً ﴾ والجواب : أما الكذب إنما لزم لأن قوله : أنت علي كظهر أمي ، إما أن يجعله إخباراً أو إنشاء وعلى التقدير الأول أنه كذب ، لأن الزوجة محللة والأم محرمة ، وتشبيه المحللة بالمحرمة في وصف الحل والحرمة كذب ، وإن جعلناه إنشاء كان ذلك أيضاً كذباً ، لأن كونه إنشاء معناه أن الشرع جعله سبباً في حصول الحرمة ، فلما لم يرد الشرع بهذا التشبيه ، كان جعله إنشاء في وقوع هذا الحكم يكون كذباً وزوراً ، وقال بعضهم : إنه تعالى إنما وصفه بكونه : ﴿ مُنكَراً مِّنَ القول وَزُوراً ﴾ لأن الأم محرمة تحريماً مؤبداً ، والزوجة لا تحرم عليه بهذا القول تحريماً مؤبداً ، فلا جرم كان ذلك منكراً من القول وزوراً ، وهذا الوجه ضعيف لأن تشبيه الشيء بالشيء لا يقتضي وقوع

المشابهة بينهما من كل الوجوه ، فلا يلزم من تشبيه الزوجة بالأم في الحرمة تشبيهها بها في كون الحرمة مؤبدة ، لأن مسمى الحرمة أعم من الحرمة المؤبدة والمؤقتة .

(31/751)

قوله تعالى : ﴿ إِنْ أُمهاتهم إِلاَّ اللائى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ القول وَزُوراً ﴾ أما الكلام في تفسير لفظة اللائي ، فقد تقدم في سورة الأحزاب عند قوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ أزواجكم اللائى تظاهرون ﴾ [الأحزاب : 4] ثم في الآية سؤالان : وهو أن ظاهرها يقتضي أنه لا أم إلا الوالدة ، وهذا مشكل ، لأنه قال في آية آخرى : ﴿ وأمهاتكم اللاَّتِى أَرْضَعْنَكُمْ ﴾ [النساء : 23] وفي آية أخرى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب : 6] ولا يمكن أن يدفع هذا السؤال بأن المعنى من كون المرضعة أماً ، وزوجة الرسول أماً ، حرمة النكاح ، وذلك لأنا نقول : إن بهذا الطريق ظهر أنه لا يلزم من عدم الأمومة الحقيقية عدم الحرمة ، فإذاً لا يلزم من عدم كون الزوجة أماً عدم الحرمة ، وظاهر الآية يوهم أنه تعالى استدل بعدم الأمومة على عدم الحرمة ، وحينئذ يتوجه السؤال والجواب : أنه ليس المراد من ظاهر الآية ما ذكره السائل بل تقدير الآية كأنه قيل : الزوجة ليست بأم ، حتى تحصل الحرمة بسبب الأمومة ، ولم يرد الشرع بجعل هذا اللفظ سبباً لوقوع الحرمة حتى تحصل

الحرمة ، فإذاً لا تحصل الحرمة هناك ألبتة فكان وصفهم لها بالحرمة كذباً وزوراً .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ إما من غير التوبة لمن شاء كما قال : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ أو بعد التوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 222.217 ﴾

(32/751)

وقال ابن عطية :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾

﴿ سمع الله ﴾ عبارة عن إدراكه المسموعات على ما هي ما عليه بأكمل وجوه ذلك دون جارحة ولا محاداة ولا تكييف ولا تحديد تعالى الله عن ذلك .

وقرأ الجمهور : ﴿ قد سمع ﴾ بالبيان : وقرأ ابن محيصن : ﴿ قد سمع ﴾ بالإدغام ، وفي قراءة ابن مسعود : " قد يسمع الله قول التي " ، وفيها : " والله قد يسمع تحاوركما " .

واختلف الناس في اسم التي تجادل ، فقال قتادة هي خويلة بنت ثعلبة ، وقيل عن عمر بن الخطاب أنه قال : هي خولة بنت حكيم . وقال بعض الرواة وأبو العالية هي خويلة بنت دليج ، وقال المهدوي ، وقيل : خولة بنت دليج ، وقالت عائشة : هي خميلة . وقال ابن

إسحاق : هي خولة بنت الصامت . وقال ابن عباس فيها : خولة بنت خويلد ، وقال محمد بن كعب القرظي ومنذر بن سعيد : هي خولة بنت ثعلبة ، قال ابن سلام : " تجادل " معناه تقاتل في القول ، وأصل الجدل القتل ، وأكثر الرواة على أن الزوج في هذه النازلة : أوس بن الصامت أو عبادة بن الصامت . وحكى النقاش وهو في المصنفات حديثاً عن سلمة بن صخر البياضي أنه ظاهر من امرأته أن واقعها مدة شهر رمضان فواقعها ليلة فسأل قومه أن يسألوا له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبوا وهابوا ذلك وعظموا عليه ، فذهب هو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وسأله واسترشده فنزلت الآية . وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتعتق رقبة ؟ فقال له والله ما أملك رقبة غير رقبتي ، فقال : أتصوم شهرين متتابعين ؟ فقال يا رسول الله وهل أتيت إلا في الصوم ، فقال : تطعم ستين مسكيناً ؟ " فقال : لا أجد ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقات قومه فكفر بها فرجع سلمة إلى قومه فقال : إني وجدت عندكم الشدة والغلظة ، ووجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الرخصة والرفق وقد أعطاني صدقاتكم .

وأما ما رواه الجمهور في شأن أوس بن الصامت ، فاختصاره : أن أوساً ظاهر من امرأته خولة بنت خويلد ، وكان الظهار في الجاهلية يوجب عندهم فرقة مؤيدة ، قاله أبو قلابة وغيره ، فلما فعل ذلك أوس ، جاءت زوجته رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن أوساً أكل شبابي ، ونثرت له بطني فلما كبرت ومات أهلي ، ظاهر مني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أراك إلا قد حرمت عليه " ، فقالت يا رسول الله : لا تفعل فإني وحيدة ليس لي أهل سواه ، فراجعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل مقالته ، فراجعته ، فهذا هو جدالها ، وكانت في خلال جدالها تقول : اللهم إليك أشكو حالي وفقري وانفرادي إليه ، وروي أنها كانت تقول : اللهم إن لي منه صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلي جاعوا ، فهذا هو اشتكاؤها إلى الله ، فنزل الوحي عند جدالها على رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآيات .

وكانت عائشة حاضرة لهذه القصة كلها فكانت تقول : سبحان من وسع سمعه الأصوات ، لقد كنت حاضرة وكان بعض كلام خولة يخفى علي ، وسمع الله جدالها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوس فقال له : " أتعتق رقبة ؟ فقال والله ما أملكها ، فقال أتصوم شهرين متتابعين ؟ فقال : والله ما أقدر أن أصبر إلا على أكلات ثلاث في اليوم ، ومتى لم أفعل ذلك غشي بصري فقال له : أتطعم ؟ " فقال له لا أجد إلا أن تعينني يا رسول الله

بمعونة وصلاة يريد الدعاء ، فأعانه رسول الله بخمسة عشر صاعاً ودعا له ، وقيل بثلاثين صاعاً ، فكفر بالإطعام وأمسك أهله .

(34/751)

وفي مصحف عبد الله بن مسعود : " تحاورك في زوجها " ، والمحاورة مراجعة القول ومعاطاته . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو : "يظهرون " ، وقرأ أبي بن كعب بخلاف عنه : "يتظهرون " . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي : "يظاهرون " . وقرأ أبي بن كعب أيضاً : "يتظاهرون " . وقرأ عاصم والحسن وأبو جعفر وقتادة : "يُظاهرون " بضم الياء من قولك فاعل ، وهذه مستعملة جداً وقولهم الظهار دليل عليها ، والمراد بهذا كله قول الرجل لزوجته : أنت علي كظهر أمي ، يريد في التحريم كأنها إشارة إلى الركوب ، إذ عرفه في ظهور الحيوان ، وكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك ، فرد الله بهذه الآية فعلهم ، وأخبر بالحقيقة من أن الأم هي الوالدة ، وأما الزوجة فلا يكون حكمها حكم الأم .

وقرأ جمهور الناس : " أمهاتِهم " بنصب الأمهات ، وقرأ عاصم في رواية المفضل عنه : " أمهاتُهم " بالرفع وهذا على اللغتين في ﴿ ما ﴾ لغة الحجاز ولغة تميم ، وقرأ ابن مسعود " ما هنّ بأمهاتهم " بزيادة باء الجر ، وجعل الله تعالى القول بالظهار ﴿ منكراً ﴾ ﴿ وزوراً ﴾

، فهو محرم ، لكنه ، إذا وقع لزم ، هكذا قال فيه أهل العلم ، لكن تحريمه تحريم المكروهات جداً ، وقد رجى الله تعالى بعده بأنه ﴿ لعفو غفور ﴾ مع الكفارة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(35/751)

وقال القرطبى :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وتشتكي إِلَى الله ﴾ التي اشتكت إلى الله هي خَوْلَة بنت ثعلبة.

وقيل بنت حكيم.

وقيل اسمها جميلة.

وخَوْلَة أصح ؛ وزوجها أَوْس بن الصَّامِت أخو عُبَادة بن الصامت ، وقد مرّ بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته والناس معه على حمار فاستوقفته طويلاً ووعظته وقالت : يا عمر قد كنت تدعى عُمَيْراً ، ثم قيل لك عمر ، ثم قيل لك أمير المؤمنين ؛ فاتق

الله يا عمر ؛ فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب ؛ وهو واقف يسمع كلامها ؛ فقيل له : يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟ فقال : والله لو حبستني من أوّل النهار إلى آخره لازلت إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز ؟ هي خَوْلَة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أيسمع ربّ العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟ وقالت عائشة رضي الله عنها : تبارك الذي وسِع سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خَوْلَة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه ، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهي تقول : يا رسول الله ! أكل شبابي ونثرت له بطني ، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني ؛ اللهم إني أشكو إليك ! فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وتشتكي إِلَى اللهِ ﴾ خرجه ابن ماجه في السنن .

والذي في البخاري من هذا عن عائشة قالت : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادِلة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ .

(36/751)

وقال الماوردي : هي خَوْلَة بنت ثعلبة .

وقيل : بنت خويلد .

وليس هذا بمختلف ؛ لأن أحدهما أبوها والآخر جدّها فنسبت إلى كل واحد منهما .

وزوجها أَوْس بن الصَّامِت أخو عُبَادة بن الصَّامت .

وقال الثعلبي قال ابن عباس : " هي خَوْلة بنت خويلد الخزرجية ، كانت تحت أَوس بن الصَّامت أخو عُبَادة بن الصامت ، وكانت حسنة الجِسم ؛ فرآها زوجها ساجدة فنظر عجيزتها فأعجبه أمرها ، فلما انصرفت أرادها فأبت فغضب عليها قال عُرْوة : وكان امرأ به لَمَم فأصابه بعض لَمَمِه فقال لها : أنت عليّ كظهر أمي .

وكان الإيلاء والظهار من الطلاق في الجاهلية ، فسألت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال لها : "حرِمت عليه" فقالت : والله ما ذكر طلاقاً ؛ ثم قالت : أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ووحشتي وفراق زوجي وابن عمي وقد نفضت له بطني ؛ فقال : "حرِمت عليه" فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت عليه الآية .

وروى الحسن : أنها قالت : يا رسول اللها قد نسخ الله سنن الجاهلية وإن زوجي ظاهر مني ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أوحي إليّ في هذا شيء" فقالت : يا رسول الله ، أوحي إليك في كل شيء وطُوِي عنك هذا ؟ ! فقال : "هو ما قلت لكِ" فقالت : إلى الله أشكو لا إلى رسوله .

فأنزل الله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ﴾ الآية "

وروى الدَّارَقُطْنِيّ من حديث قتادة أن أنس بن مالك حدّثه قال : " إن أَوْس بن الصَّامت ظاهر من امرأته خُوَيْلة بنت ثعلبة فشكت ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ظاهر حين كبِرت سنّي ورقّ عظمي .

فأنزل الله تعالى آية الظهار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأوس : "اعتق رقبة" قال : مالي بذلك يدان .

قال : "فصم شهرين متتابعين" قال : أما إني إذا أخطأني أن آكل في يوم ثلاث مرات يكِلّ بصري .

قال : "فأطعم ستين مسكيناً قال : ما أجد إلا أن تعينني منك بعون وصلة .

(37/751)

قال : فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعاً حتى جمع الله له والله غفور رحيم .

" ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ قال : فكانوا يرون أن عنده مثلها وذلك لستين مسكيناً ، وفي الترمذيّ وسنن ابن ماجه : " أن سلمة بن صخر البياضيّ ظاهر من امرأته ، وأن النبيّ

صلى الله عليه وسلم قال له : "اعتق رقبة" قال : فضربت صفحة عنقي بيدي .

فقلت : لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها .

قال : "فصم شهرين" فقلت : يا رسول اللها وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام .

قال : "فأطعم ستين مسكيناً" " الحديث .

وذكر ابن العربي في أحكامه : " روي : أن خولة بنت دليج ظاهر منها زوجها ، فأتت النبيّ صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "قد حرمت عليه" فقالت : أشكو إلى الله حاجتي .

ثم عادت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حرمت عليه" فقالت : إلى الله أشكو حاجتي إليه وعائشة تغسل شق رأسه الأيمن ، ثم تحوّلت إلى الشق الآخر وقد نزل عليه الوحي ، فذهبت أن تعيد ، فقالت عائشة : اسكتي فإنه قد نزل الوحي .

فلما نزل القرآن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزوجها : "اعتق رقبة" قال : لا أجد .

قال : "صم شهرين متتابعين" قال : إن لم آكل في اليوم ثلاث مرات خفت أن يعشو بصري .

قال : "فأطعم ستين مسكيناً" " قال : فأعني .

فأعانه بشيء .

قال أبو جعفر النحاس : أهل التفسير على أنها خولة وزوجها أَوْس بن الصّامت ، واختلفوا في نسبها ، قال بعضهم : هي أنصارية وهي بنت ثعلبة ، وقال بعضهم : هي بنت دليج ،

وقيل: هي بنت خُوَيلد، وقال بعضهم: هي بنت الصامت، وقال بعضهم: هي أمَة كانت لعبد الله بن أُبَيّ، وهي التي أنزل الله فيها ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ لأنه كان يُكرهها على الزنى.

وقيل: هي بنت حكيم.

(38/751)

قال النحاس: وهذا ليس بمتناقض، يجوز أن تنسب مرةً إلى أبيها، ومرةً إلى أمها، ومرةً إلى جدّها، ويجوز أن تكون أمة كانت لعبد الله بن أبيّ فقيل لها أنصارية بالولاء؛ لأنه كان في عداد الأنصار وإن كان من المنافقين.

الثانية قرىء "قَد سَّمِعَ اللَّهُ" بالادغام و"قَدْ سَمِعَ اللَّهُ" بالإظهار.

والأصل في السماع إدراك المسموعات، وهو اختيار الشيخ أبي الحسن.

وقال ابن فُورك: الصحيح أنه إدراك المسموع.

وقال الحاكم أبو عبد الله في معنى السميع: إنه المدرك للأصوات التي يدركها المخلوقون بآذانهم من غير أن يكون له أُذن، وذلك راجع إلى أن الأصوات لا تخفى عليه؛ وإن كان غير موصوف بالحِس المركب في الأذن؛ كالأصم من الناس لما لم تكن له هذه الحاسة لم يكن أهلاً

لإدراك الصوت .

والسمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة والحياة والإرادة ، فهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه وتعالى متصفاً بهما .

وشكى واشتكى بمعنى واحد .

وقرِىء "تُحَاوِرُكَ" أي تراجعك الكلام و"تُجَادِلُكَ" أي تسائلك .

الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (2)

فيه ثلاث وعشرون مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ الذين يظاهرون ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف "يظَّاهُرونَ" بفتح الياء وتشديد الظاء وألف .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب "يَظَّهَّرُونَ" بحذف الألف وتشديد الهاء والظاء وفتح الياء .

وقرأ أبو العالية وعاصم وزِرّ بن حُبَيش "يُظاهِرُونَ" بضم الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء .

وقد تقدّم هذا في "الأحزاب" .

وفي قراءة أبي "يَتَظَاهَرُونَ" وهي معنى قراءة ابن عامر وحمزة .

وذِكر الظهر كناية عن معنى الركوب ، والآدمية إنما يركب بطنها ولكن كنّي عنه بالظهر ؛ لأن ما يركب من غير الآدميات فإنما يركب ظهره ، فكنّي بالظهر عن الركوب .

ويقال : نزل عن امرأته أي طلقها كأنه نزل عن مركوب .

ومعنى أنت عليّ كظهر أمّي : أي أنت عليّ محرّمة لا يحلّ لي ركوبك .

الثانية : حقيقة الظهار تشبيه ظهر بظهر ، والموجب للحكم منه تشبيه ظهرٍ محلل بظهرٍ محرّم ؛ ولهذا أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجته : أنت عليّ كظهر أمي أنه مظاهر .

وأكثرهم على أنه إن قال لها : أنت عليّ كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم أنه مظاهر .

وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وغيرهما .

واختلف فيه عن الشافعي رضي الله عنه ؛ فروي عنه نحو قول مالك ؛ لأنه شبّه امرأته بظهر محرّم عليه مؤبّد كالأم .

وروى عنه أبو ثور : أن الظهار لا يكون إلا بالأم وحدها .

وهو مذهب قتادة والشعبي .

والأوّل قول الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري .

الثالثة : أصل الظهار أن يقول الرجل لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي .

وإنما ذكر الله الظهر كناية عن البطن وستراً .

فإن قال : أنت عليّ كأمي ولم يذكر الظهر ، أو قال : أنت عليّ مثل أمي ؛ فإن أراد الظهار فله نيته ، وإن أراد الطلاق كان مطلقاً الْبَتَّةَ عند مالك ، وإن لم تكن له نية في طلاق ولا ظهار كان مظاهراً .

ولا ينصرف صريح الظهار بالنية إلى الطلاق ؛ كما لا ينصرف صريح الطلاق وكنايته المعروفة له إلى الظهار ، وكناية الظهار خاصة تنصرف بالنية إلى الطلاق الْبَتّ .

الرابعة : ألفاظ الظهار ضربان : صريح وكناية ؛ فالصريح أنت عليّ كظهر أمي ، وأنت عندي وأنتِ مني وأنتِ معي كظهر أمي .

وكذلك أنت عليّ كبطن أمي أو كرأسها أو فرجها أو نحوه ، وكذلك فرجك أو رأسك أو ظهرك أو بطنك أو رجلك عليّ كظهر أمي فهو مظاهر ؛ مثل قوله : يدك أو رجلك أو رأسك أو فرجك طالق تطلق عليه .

وقال الشافعي في أحد قوليه : لا يكون ظهاراً .

وهذا ضعيف منه ؛ لأنه قد وافقنا على أنه يصح إضافة الطلاق إليه خاصة حقيقة خلافاً لأبي حنيفة فصح إضافة الظهار إليه .

ومتى شبهها بأمه أو بإحدى جداته من قبل أبيه أو أمه فهو ظهار بلا خلاف .

وإن شبهها بغيرهن من ذوات المحارم التي لا تحل له بحال كالبنت والأخت والعمة والخالة كان مظاهراً عند أكثر الفقهاء ، وعند الإمام الشافعي رضي الله عنه على الصحيح من المذهب على ما ذكرنا .

والكناية أن يقول : أنت عليّ كأمي أو مثل أمي فإنه يعتبر فيه النية .

فإن أراد الظهار كان ظهاراً ، وإن لم يرد الظهار لم يكن مظاهراً عند الشافعي وأبي حنيفة .

وقد تقدّم مذهب مالك رضي الله عنه في ذلك ؛ والدليل عليه أنه أطلق تشبيه امرأته بأمّه فكان ظهاراً .

أصله إذا ذكر الظهر وهذا قوي فإن معنى اللفظ فيه موجود واللفظ بمعناه ولم يلزم حكم الظهر للفظه وإنما أُلْزِمَه بمعناه وهو التحريم ؛ قاله ابن العربي .

الخامسة : إذا شبه جملة أهله بعضو من أعضاء أمّه كان مظاهراً ؛ خلافاً لأبي حنيفة في قوله : إنه إن شبهها بعضو يحلّ له النظر إليه لم يكن مظاهراً .

وهذا لا يصح ؛ لأن النظر إليه على طريق الاستمتاع لا يحل له ، وفيه وقع التشبيه وإياه

قصد المظاهر ؛ وقد قال الإمام الشافعي في قول : إنه لا يكون ظهاراً إلا في الظهر وحده .

وهذا فاسد ؛ لأن كل عضو منها محرّم ، فكان التشبيه به ظهاراً كالظهر ؛ ولأن المظاهر إنما يقصد تشبيه المحلل بالمحرم فلزم على المعنى .

السادسة : إن شبه امرأته بأجنبية فإن ذكر الظهر كان ظهاراً حملاً على الأوّل ، وإن لم يذكر الظهر فاختلف فيه علماؤنا ؛ فمنهم من قال : يكون ظهاراً .

ومنهم من قال : يكون طلاقاً .

وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يكون شيئاً .

قال ابن العربي : وهذا فاسد ؛ لأنه شبه محللا من المرأة بمحرم فكان مقيَّداً بحكمه كالظهر ، والأسماء بمعانيها عندنا ، وعندهم بألفاظها وهذا نقض للأصل منهم .

(41/751)

قلت : الخلاف في الظهار بالأجنبية قوي عند مالك .

وأصحابه منهم من لا يرى الظهار إلا بذوات المحارم خاصة ولا يرى الظهار بغيرهن .

ومنهم من لا يجعله شيئاً .

ومنهم من يجعله في الأجنبية طلاقاً .

وهو عند مالك إذا قال : كظهر ابني أو غلامي أو كظهر زيد أو كظهر أجنبية ظهار لا يحل له وطؤها في حين يمينه .

وقد روى عنه أيضاً : أن الظهار بغير ذوات المحارم ليس بشيء ؛ كما قال الكوفي والشافعي .

وقال الأوزاعي : لو قال لها أنت عليّ كظهر فلان رجل فهو يمين يكفرها .

والله أعلم .

السابعة : إذا قال : أنت عليّ حرام كظهر أمي كان ظهاراً ولم يكن طلاقاً ؛ لأن قوله : أنت حرام عليّ يحتمل التحريم بالطلاق فهي مطلقة ، ويحتمل التحريم بالظهار فلما صرح به كان تفسيراً لأحد الاحتمالين يقضي به فيه .

الثامنة : الظهار لازم في كل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها على أي الأحوال كانت من زوج يجوز طلاقه .

وكذلك عند مالك من يجوز له وطؤها من إمائه ، إذا ظاهر منهن لزمه الظهار فيهن .

وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يلزم .

قال القاضي أبو بكر بن العربي : وهي مسألة عسيرة جدًّا علينا ؛ لأن مالكاً يقول : إذا قال لأمته أنت عليّ حرام لا يلزم .

فكيف يبطل فيها صريح التحريم وتصح كنايته .

ولكن تدخل الأمَة في عموم قوله : ﴿ مِّن نِسَآئِهِمْ ﴾ لأنه أراد من محللاتهم .

والمعنى فيه أنه لفظ يتعلق بالبُضع دون رفع العقد فصح في الأمة ؛ أصله الحلف بالله تعالى .

التاسعة : ويلزم الظهار قبل النكاح إذا نكح التي ظاهر منها عند مالك .

ولا يلزم عند الشافعي وأبي حنيفة ؛ لقوله تعالى : ﴿ مِّن نِسَآئِهِمْ ﴾ وهذه ليست من نسائه .

وقد مضى أصل هذه المسألة في سورة "براءة" عند قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللهَ ﴾ [التوبة : 75] الآية .

العاشرة : الذمي لا يلزم ظهاره .

وبه قال أبو حنيفة .

وقال الشافعي : يصح ظهار الذمي ؛ ودليلنا قوله تعالى : ﴿ مِنكُمْ ﴾ يعني من المسلمين .

(42/751)

وهذا يقتضي خروج الذميّ من الخطاب .

فإن قيل : هذا استدلال بدليل الخطاب .

قلنا : هو استدلال بالاشتقاق والمعنى ، فإن أنكحة الكفار فاسدة مستحقة الفسخ فلا

يتعلق بها حكم طلاقٍ ولا ظِهار، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق: 2] وإذا خلت الأنكحة عن شروط الصحة فهي فاسدة، ولا ظهار في النكاح الفاسد بحال.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿ مِنكُمْ ﴾ يقتضي صحة ظهار العبد خلافاً لمن منعه. وحكاه الثعلبي عن مالك، لأنه من جملة المسلمين وأحكام النكاح في حقه ثابتة وإن تعذر عليه العتق والإطعام فإنه قادر على الصيام.

الثانية عشرة: وقال مالك رضي الله عنه: ليس على النساء تظاهر، وإنما قال الله تعالى: ﴿ والذين يظاهرون مِنكُمْ مِّن نِّسَآئِهِمْ ﴾ ولم يقل اللائي يظهرن منكن من أزواجهن، إنما الظهار على الرجال.

قال ابن العربي: هكذا روي عن ابن القاسم وسالم ويحيى بن سعيد وربيعة وأبي الزناد. وهو صحيح معنًى؛ لأن الحل والعقد والتحليل والتحريم في النكاح بيد الرجال ليس بيد المرأة منه شيء وهذا إجماع.

قال أبو عمر: ليس على النساء ظهار في قول جمهور العلماء.

وقال الحسن بن زياد: هي مظاهرة.

وقال الثوري وأبو حنيفة ومحمد: ليس ظهار المرأة من الرجل بشيء قبل النكاح كان أو بعده.

وقال الشافعي : لا ظهار للمرأة من الرجل .

وقال الأوزاعي : إذا قالت المرأة لزوجها : أنت عليّ كظهر أمّي فلانة فهي يمين تكفِّرُهَا .

وكذلك قال إسحاق : قال : لا تكون امرأة متظاهرة من رجل ولكن عليها يمين تكفرها .

وقال الزهري : أرى أن تكفر كفارة الظهار ، ولا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها أن يصيبها ؛ رواه عنه معمر .

وابن جريج عن عطاء قال : حرمت ما أحل الله ، عليها كفارة يمين .

وهو قول أبي يوسف .

وقال محمد بن الحسن : لا شيء عليها .

(43/751)

الثالثة عشرة : من به لَمَمٌ وانتظمت له في بعض الأوقات الكلم إذا ظاهر لزم ظهاره ؛ لما روي في الحديث : أن خَوْلة بنت ثعلبة وكان زوجها أَوْس بن الصّامت وكان به لَمَم فأصابه بعض لَمَمِه فظاهر من امرأته .

الرابعة عشرة : من غضب وظاهر من امرأته أو طلق لم يسقط عنه غضبه حكمه .

وفي بعض طرق هذا الحديث ، قال يوسف بن عبد الله بن سلام : حدّثتني خَوْلَة امرأة أَوْس

بن الصّامت ، قالت : كان بيني وبينه شيء ، فقال : أنت عليّ كظهر أمي ثم خرج إلى نادي قومه .

فقولها : كان بيني وبينه شيء ؛ دليل على منازعة أحرجته فظاهر منها .

والغضب لغو لا يرفع حكماً ولا يغيِّر شرعاً وكذلك السكران .

وهي :

الخامسة عشرة : يلزمه حكم الظهار والطلاق في حال سكره إذا عقَل قولَه ونظَم كلامَه ؛ لقوله تعالى : ﴿ حتى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : 43] على ما تقدم في "النساء" بيانه .

والله أعلم .

السادسة عشرة : ولا يقرب المظاهر امرأته ولا يباشرها ولا يتلذذ منها بشيء حتى يكفّر ، خلافاً للشافعي في أحد قوليه ؛ لأن قوله : أنت عليّ كظهر أمي يقتضي تحريم كل استمتاع بلفظه ومعناه ، فإن وطئها قبل أن يكفّر ، وهي :

السابعة عشرة : استغفر الله تعالى وأمسك عنها حتى يكفّر كفارة واحدة .

وقال مجاهد وغيره : عليه كفارتان .

روى سعيد عن قتادة ، ومطرّف عن رجاء بن حَيْوة عن قَبيصة بن ذؤيب عن عمرو بن العاص في المظاهر : إذا وطىء قبل أن يكفّر عليه كفارتان .

ومعمر عن قتادة قال : قال قبيصة بن ذؤيب : عليه كفارتان .

وروى جماعة من الأئمة منهم ابن ماجه والنسائي عن ابن عباس : " أن رجلاً ظاهر من امرأته فغشيها قبل أن يكفّر فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال : "ما حملك على ذلك" فقال : يا رسول الله ! رأيت بياض خلخالها في ضوء القمر فلم أملك نفسي أن وقعت عليها .

فضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمره ألاّ يقربها حتى يكفّر " وروى ابن ماجه والدَّارَقُطْني عن سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر أنه ظاهر في زمان النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم وقع بامرأته قبل أن يكفّر ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فأمره أن يكفّر تكفيراً واحداً .

الثامنة عشرة : إذا ظاهر من أربع نسوة في كلمة واحدة ؛ كقوله : أنتن عليّ كظهر أمّي كان مظاهراً من كل واحدة منهن ، ولم يجز له وطء إحداهن وأجزأته كفارة واحدة .

وقال الشافعي : تلزمه أربع كفارات .

وليس في الآية دليل على شيء من ذلك ؛ لأن لفظ الجمع إنما وقع في عامة المؤمنين والمعوّل

على المعنى .

وقد روى الدَّارَقُطْنيّ عن ابن عباس قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : إذا كان تحت الرجل أربع نسوة فظاهر منهن يجزيه كفارة واحدة ، فإن ظاهر من واحدة بعد أخرى لزمه في كل واحدة منهن كفارة .

وهذا إجماع .

التاسعة عشرة : فإن قال لأربع نسوة : إن تزوجتكن فأنتن عليّ كظهر أمي فتزوّج إحداهن لم يقربها حتى يكفّر ، ثم قد سقط عنه اليمين في سائرهن .

وقد قيل : لا يطأ البواقي منهن حتى يكفر .

والأوّل هو المذهب .

الموفية عشرين : وإن قال لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي وأنت طالق البَتّة ؛ لزمه الطلاق والظهار معاً ، ولم يكفر حتى ينكحها بعد زوج آخر ولا يطأها إذا نكحها حتى يكفّر ، فإن قال لها : أنت طالق البتة وأنت عليّ كظهر أمي لزمه الطلاق ولم يلزمه الظهار ؛ لأن المبتوتة لا يلحقها طلاق .

الحادية والعشرون : قال بعض العلماء : لا يصح ظهار غير المدخول بها .

وقال المزني : لا يصح الظهار من المطلقة الرجعية ، وهذا ليس بشيء ؛ لأن أحكام الزوجية في الموضعين ثابتة ، وكما يلحقها الطلاق كذلك يلحقها الظهار قياساً ونظراً .

والله أعلم .

الثانية والعشرون : قوله تعالى : ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ أي ما نساؤهم بأمهاتهم .

(45/751)

وقراءة العامة ﴿ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ بخفض التاء على لغة أهل الحجاز ؛ كقوله تعالى : ﴿ مَا هذا بَشَرًا ﴾ [يوسف : 31] .

وقرأ أبو معمر والسلمي وغيرهما "أُمَّهَاتُهُمْ" بالرفع على لغة تميم .

قال الفراء : أهل نجد وبنو تميم يقولون "مَا هَذَا بَشَرٌ" ، و"مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ" بالرفع .

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ ﴾ أي ما أمهاتهم إلا الوالدات .

وفي المثل : ولدِك مَنْ دَمَّى عَقِبَيْكِ .

وقد تقدم القول في اللائي في "الأحزاب" .

الثالثة والعشرون : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ القول وَزُورًا ﴾ أي فظيعا من القول لا يعرف في الشرع .

والزور الكذب ﴿ وَإِنَّ الله لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ إذ جعل الكفارة عليهم مخلّصة لهم من هذا القول المنكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(46/751)

وقال الآلوسى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ﴾

بإظهار الدار ، وقرأ أبو عمرو .

وحمزة .

والكسائي .

(47/751)

وابن محيصن بادغامها في السين ، قال خلف بن هشام البزار : سمعت الكسائي يقول : من قرأ قد سمع فبين الدال فلسانه أعجمي ليس بعربي ، ولا يلتفت إلى هذا فكلا الأمرين فصيح متواتر بل الجمهور على البيان ﴿ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ أي تراجعك الكلام في شأنه وفيما صدر عنه في حقها من الظهار ، وقرء تحاورك والمعنى على ما تقدم

وتحاولك أي تسائلك ﴿ وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ عطف على ﴿ تُجَادِلُكَ ﴾ فلا محل للجملة من الإعراب ، وجوز كونها حالاً أي تجادلك شاكية حالها إلى الله تعالى ، وفيه بعد معنى ، ومع هذا يقدر معها مبتدأ أي وهي تشتكي لأن المضارعية لا تقترن بالواو في الفصيح فيقدر معها المبتدأ لتكون إسمية ، واشتكاؤها إليه تعالى إظهار بثها وما انطوت عليه من الغم والهم وتضرعها إليه عز وجل وهو من الشكو ، وأصله فتح الشكوة وإظهار ما فيها ، وهي سقاء صغير يجعل فيه الماء ثم شاع في ذلك ، وهي امرأة صحابية من الأنصار اختلف في اسمها واسم أبيها ، فقيل : خولة بنت ثعلبة بن مالك ، وقيل : بنت خويلد ، وقيل : بنت حكيم ، وقيل : بنت الصامت ، وقيل : خويلة بالتصغير بنت ثعلبة ، وقيل : بنت مالك بن ثعلبة ، وقيل : جميلة بنت الصامت ، وقيل : غير ذلك ، والأكثرون على أنها خولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية ، وأكثر الرواة على أن الزوج في هذه النازلة أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت ، وقيل : هو سلمة بن صخر الأنصاري ، والحق أن لهذا قصة أخرى ، والآية نزلت في خولة وزوجها أوس ، وذلك أن زوجها أوساً كان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه فدخل عليها يوماً فراجعته بشيء فغضب ، فقال : أنت علي كظهر أمي ، وكان الرجل في الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه وكان هذا أول ظهار في الإسلام فندم من ساعته فدعاها فأبت ، وقالت : والذي نفس خولة بيده لا تصل

إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فينا ، فأتت رسول الله عليه الصلاة

(48/751)

والسلام فقالت : يا رسول الله إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب في فلما خلا سني ونثرت بطني أي كثر ولدي جعلني عليه كأمه وتركني إلى غير أحد فإن كنت تجد لي رخصة يا رسول الله تنعشني بها وإياه فحدثني بها ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : " والله ما أمرت في شأنك بشيء حتى الآن " وفي رواية " مَا أَرَاكُمْ إلا قَدْ حرمات عَلَيْهِ "

قالت : ما ذكر طلاقاً ، وجادلت رسول الله عليه الصلاة والسلام مراراً ثم قالت : اللهم إني أشكو إليه شدة وحدتي وما يشق علي من فراقه ، وفي رواية قالت : أشكو إلى الله تعالى فاقتي وشدة حالي وإن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلي جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إني أشكو إليك اللهم فأنزل علي لسان نبيك وما برحت حتى نزل القرآن فيها ، فقال صلى الله عليه وسلم : " يا خولة أبشري قالت : خيراً ؟ فقرأ عليه الصلاة والسلام عليها ﴿ قَدْ سَمِعَ الله الآيات ﴾ " وكان عمر

رضي الله تعالى عنه يكرمها إذا دخلت عليه ويقول : قد سمع الله تعالى لها .

وروى ابن أبي حاتم .

والبيهقي في الأسماء والصفات أنها لقيته رضي الله تعالى عنه وهو يسير مع الناس فاستوقفته فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها ووضع يده على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين حبست رجال قريش على هذه العجوز قال : ويحك أتدري من هذه ؟ قال : لا قال : هذه امرأة سمع الله تعالى شكواها من فوق سبع سموات هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف حتى أتى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها ، وفي رواية للبخاري في "تاريخه" أنها قالت له : قف يا عمر فوقف فأغلظت له القول ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين ما رأيت كاليوم فقال رضي الله تعالى عنه : وما يمنعني أن أستمع إليها وهي التي استمع الله تعالى لها فأنزل فيها ما أنزل ﴿ قَدْ سَمِعَ الله ﴾ الآيات ، والسماع مجاز عن القبول والإجابة بعلاقة السببية أو كناية عن ذلك ، و ﴿ قَدْ ﴾ للتحقيق أو للتوقع ، وهو مصروف إلى تفريج الكرب لا إلى السمع لأنه محقق أو إلى السمع لأنه مجاز أو كناية عن القبول ، والمراد توقع المخاطب ذلك ، وقد كان صلى الله عليه وسلم

يتوقع أن ينزل الله تعالى حكم الحادثة ويفرج عن المجادلة كربها ، وفي الأخبار ما يشعر بذلك ، والسمع في قوله تعالى :

﴿ والله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُما ﴾ على ما هو المعروف فيه من كونه صفة يدرك بها الأصوات غير صفة العلم ، أو كونه راجعاً إلى صفة العلم ، والتحاور المرادّة في الكلام ، وجوز أن يراد به الكلام المردد ، ويقال : كلمته فما رجع إلى حواراً .

وحويراً .

(50/751)

ومحورة أي مارد على بشيء ، وصيغة المضارع للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور وتجدده ، وفي نظمها في سلك الخطاب تغليباً تشريف لها من جهتين ، والجملة استئناف جار مجرى التعليل لما قبله فإن إلحافها في المسألة ومبالغتها في التضرع إلى الله تعالى ومدافعته عليه الصلاة والسلام إياها وعلمه عز وجل بحالهما من دواعي الإجابة ، وقيل : هي حال كالجملة السابقة ، وفيه أيضاً بعد ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ تعليل لما قبله بطريق التحقيق أي أنه تعالى يسمع كل المسموعات ويبصر كل المبصرات على أتم وجه وأكمله ومن قضية ذلك أن يسمع سبحانه ﴿ تحاورهما ﴾ ، ويرى ما يقارنه

من الهيئات التي من جملتها رفع رأسها إلى السماء وسائر آثار التضرع، والاسم الجليل في الموضعين لتربية المهابة وتعليل الحكم بما اشتهر به الاسم الجليل من وصف الألوهية وتأكيد استقلال الجملتين، وقوله عز وجل :

﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ﴾

شروع في بيان شأن الظهار في نفسه وحكمته المترتب عليه شرعاً، وفي ذلك تحقيق قبول تضرع تلك المرأة وإشكاؤها بطريق الاستئناف.

والظهار لغة مصدر ظاهر وهو مفاعلة من الظهر، ويراد به معان مختلفة راجعة إلى الظهر معنى ولفظاً باختلاف الأغراض، فيقال: ظاهر زيد عمراً أي قابل ظهره بظهره حقيقة وكذا إذا غايظه، وإن لم يقابل حقيقة باعتبار أن المغايظة تقتضي هذه المقابلة، وظاهره إذا نصره باعتبار أنه يقال: قوى ظهره إذا نصره، وظاهر بين ثوبين إذا لبس أحدهما فوق الآخر باعتبار جعل ما يلي به كل منهما الآخر ظهراً للثوب: وظاهر من امرأته إذا قال لها : أنت علي كظهر أمي، وغاية ما يلزم كون لفظ الظهر في بعض هذه التراكيب مجازاً، وهو لا يمنع الاشتقاق منه ويكون المشتق مجازاً أيضاً، وهذا الأخير هو المعنى الذي نزلت فيه الآيات.

وعرفه الحنفية شرعاً بأنه تشبيه المنكوحة أو عضواً منها يعبر به عن الكل كالرأس أو جزء شائع منها كالثلث بقريب محرم عليه على التأييد أو بعضو منه يحرم عليه النظر إليه.

وحكى عن الشافعية أن تشبيهها أو عضو منها بمحرم من نسب.

أو رضاع.

أو مصاهرة.

أو عضو منه لا يذكر للكرامة كاليد والصدر، وكذا العضو الذي يذكر لها كالعين والرأس إن قصد معنى الظهار، وهو التشبيه بتحريم نحو الأم لا أن قصد الكرامة أو أطلق في الأصح، وتخصيص المحرم بالأم قول قديم للشافعي عليه الرحمة، وتفصيل ذلك في كتب الفقه للفريقين، وكان الظهار بالمعنى السابق طلاقاً في الجاهلية قيل: وأول الإسلام.

وحكى بعضهم أنه كان طلاقاً يوجب حرمة مؤبدة لا رجعة فيه، وقيل: لم يكن طلاقاً من كل وجه بل لتبقى معلقة لا ذات زوج ولا خلية تنكح غيره، وذكر بعض الأجلة أنهم كانوا يعدونه طلاقاً مؤكداً باليمين على الاجتناب، ولذا قال الشافعية: إن فيه الشائبتين، وسيأتي إن شاء الله تعالى الإشارة إلى حكمه الشرعي، وعدي بمن مع أنه يتعدى بنفسه لتضمنه معنى التبعيد ولما سمعت أنه كان طلاقاً وهو مبعد، والظهر في قولهم: أنت علي كظهر أمي قيل: مجاز عن البطن لأنه إنما يركب البطن فكظهر أمي أي كبطنها بعلاقة المجاورة، ولأنه عموده لكن لا يظهر ما هو الصارف عن الحقيقة من النكات، وقيل: خص

الظهر لأنه محل الركوب والمرأة مركوب الزوج، ومن ثمي المركوب ظهراً، وقيل: خص ذلك لأن إتيان المرأة من ظهرها في قبلها كان حراماً فإتيانه أمه من ظهرها أحرم فكثر التغليط، وإقحام ﴿ مّنكُمْ ﴾ في الآية للتصوير والتهجين لأن الظهار كان مخصوصاً بالعرب، ومنه يعلم أنه ليس من مفهوم الصفة ليستدل به على عدم صحة ظهار الذمي كما حكى عن المالكية، ومن هنا قال الشافعية: يصح من الذمي والحربي لعموم الآية، وكذا الحنابلة.

(52/751)

والحنفية يقولون: لا يصح منهما، وفي رواية عن أبي حنيفة صحته من الذمي، والرواية المعمول عليها عدم الصحة لأنها ليس من أهل الكفارة، وشنع على الشافعية في قولهم بصحته منه مع اشتراطهم النية في الكفارة والايمان في الرقبة، وتعذر ملكه لها لأن الكافر لا يملك المؤمن، وقال بعض أجلتهم إن في الكفارة شائبة الغرامات ونيتها في كافر كفر بالاعتاق للتمييز كما في قضاء الديون لا الصوم لأنه لا يصح منه لأن عبادة بدنية ولا ينتقل عنه للإطعام لقدرته عليه بالإسلام فإن عجز انتقل ونوى للتمييز أيضاً، ويتصور ملكه للمسلم بنحو إرث أو إسلام قنه، أو يقول: لمسلم أعتق قنك عن كفارتي، فيجيب فإن لم يمكنه شيء من ذلك وهو مظاهر موسى منع من الوطء لقدرته على ملكه بأن يسلم فيشتريه انتهى.

وفي كتب بعض الأصحاب كالبحر وغيره كلام مع الشافعية في هذه المسألة فيه نقض وإبرام لا يخلو عن شيء والسبب في ذلك قلة تتبع معتبرات كتبهم، وقرأ الحرميان.

وأبو عمرو يظهرون بشد الظاء والهاء، والأخوان.

وابن عامر ﴿ يظاهرون ﴾ مضارع اظاهر، وأبي يتظاهرون مضارع تظاهر، وعنه أيضاً يتظهرون مضارع تظهر، والموصول مبتدأ خبره محذوف أي مخطئون، وأقيم دليله وهو قوله تعالى: ﴿ مَّا هُنَّ أمهاتهم ﴾ مقامه أو هو الخبر نفسه أي ما نشاؤهم أمهاتهم على الحقيقة فهو كذب بحت.

وقرأ المفضل عن عاصم ﴿ أمهاتهم ﴾ بالرفع على لغة تميم، وقرأ ابن مسعود بأمهاتهم بزيادة الباء، قال الزمخشري: في لغة من ينصب أي بما الخبر وهم الحجازيون يعني أنهم الذي يزيدون الباء دون التميميين وقد تبع في ذلك أبا علي الفارسي، ورد بأنه سمع خلافه كقول الفرزدق وهو تميمي

: لعمرك ما معن بتارك حقه. . .

ولا منسيء معن ولا متيسر

﴿ إِنْ أمهاتهم ﴾ أي ما أمهاتهم على الحقيقة ﴿ إِلا اللائى وَلَدْنَهُمْ ﴾ فلا يشبه بهن في الحرمة إلا من ألحقها الله تعالى بهن كالمرضعات ومنكوحات الرسول صلى الله عليه وسلم فدخلن في حكم الأمهات ، وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مّنَ القول ﴾ ينكره الشرع والعقل والطبع أيضاً كما يشعر به التنكير ، ومناط التأكيد كونه منكراً ، وإلا فصدور القول عنهم أمر محقق ﴿ وَزُوراً ﴾ أي وكذباً باطلاً منحرفاً عن الحق ، ووجه كون الظهار كذلك عند من جعله إخباراً كاذباً علق عليه الشارع الحرمة والكفارة ظاهر ، وأما عند من جعله إنشاء لتحريم الاستمتاع في الشرع كالطلاق على ما هو الظاهر فوجهه أن ذلك باعتبار ما تضمنه من إلحاق الزوجة بالأم المنافي لمقتضى الزوجية ﴿ وَإِنَّ الله لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أي مبالغ في العفو والمغفرة فيغفر ما سلف منه ويعفو عمن ارتكبه مطلقاً أو بالتوبة ، ويعلم من الآيات أن الظهار حرام بل قالوا : إنه كبيرة لأن فيه إقداماً على إحالة حكم الله تعالى وتبديله بدون إذنه ، وهذا أخطر من كثير من الكبائر إذ قضيته الكفر لولا خلو الاعتقاد عن ذلك ، واحتمال التشبيه لذلك وغيره ، ومن ثم سماه عز وجل ﴿ مُنكَراً مّنَ القول وَزُوراً ﴾ ، وإنما كره على ما ذكره بعض الشافعية أنت علي حرام لأن الزوجية ومطلق الحرمة يجتمعان بخلافها مع التحريم المشابه لتحريم نحو الأم ، ومن ثم وجب هنا الكفارة العظمى .

وثم على ما قالوا : كفارة يمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾

افتتحت آيات أحكام الظهار بذكر سبب نزولها تنويهاً بالمرأة التي وجَّهت شكواها إلى الله تعالى بأنها لم تقصّر في طلب العدل في حقها وحق بَنيها .

ولم ترضَ بعُنجهية زوجها وابتداره إلى ما ينثر عقد عائلته دون تبصّر ولا روية ، وتعليماً لنساء الأمة الإسلامية ورجالها واجب الذود عن مصالحها .

تلك هي قضية المرأة خولة أو خُويلة مصغراً أو جميلة بنت مالك بن ثعلبة أو بنت دُلَيْج (مصغراً) العَوْفية .

وربما قالوا : الخزرجية ، وهي من بني عوف بن مالك بن الخزرج ، من بطون الأنصار مع زوجها أوس بن الصامت الخزرجي أخي عُبادة بن الصامت .

قيل : إن سبب حدوث هذه القضية أن زوجها رآها وهي تصلي وكانت حسنة الجسم ، فلما سلمت أرادها فأبت فغضب وكان قد ساء خلقه فقال لها : أنتِ عليّ كظهر أمي .

قال ابن عباس : وكان هذا في الجاهلية تحريماً للمرأة مؤبّداً (أي وعمل به المسلمون في

المدينة بعلم من النبي صلى الله عليه وسلم وإقراره الناس عليه فاستقرّ مشروعاً) فجاءت خولة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرت له ذلك ، فقال لها : حَرُمتِ عليه ، فقالت للرسول صلى الله عليه وسلم إن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا ، فقال : "ما عندي في أمركِ شيء" ، فقالت : يا رسول الله ما ذكَر طلاقاً .

وإنما هو أبو ولَدِي وأحب الناس إليّ فقال : "حَرُمتِ عليه" .

فقالت : أشكو إلى الله فاقتي ووجدي .

كلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "حَرُمتِ عليه" هتفت وشكت إلى الله ، فأنزل الله هذه الآيات .

وهذا الحديث رواه داود في كتاب الظهار مجملاً بسند صحيح .

(55/751)

وأما تفصيل قصته فمن روايات أهل التفسير وأسباب النزول يزيد بعضها على بعض ، وقد استقصاها الطبري بأسانيده عن ابن عباس وقتادة وأبي العالية ومحمد بن كعب القرظي وكلها متفقة على أن المرأة المجادِلة خولة أو خويلة أو جميلة ، وعلى أن زوجها أَوس بن الصامت .

وروى الترمذي وأبو داود حديثاً في الظهار في قصة أخرى منسوبة إلى سَلمة بن صخر البَيَاضي تشبه قصة خولة أنه ظاهرَ من امرأته ظهاراً موقتاً برمضان ثم غلبته نفسهُ فوطَئها واستفتى في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر القصة، إلاّ أنهما لم يذكرا أن الآية نزلت في ذلك.

وإنما نسب ابنُ عطية إلى النقاش أن الآية نزلت بسبب قصة سلمة ولا يعرف هذا لغيره.

وَأحسب أن ذلك اختلاط بين القصتين وكيف يصح ذلك وصريح الآية أن السائلة امرأة والذي في حديث سلمة بن صخر أنه هو السائل.

و﴿ قد ﴾ أصله حرف تحقيق للخبر، فهو من حروف توكيد الخبر ولكن الخطاب هنا للنبيء صلى الله عليه وسلم وهو لا يخامره تردد في أن الله يعلم ما قالته المرأة التي جادلت في زوجها.

فتعيّن أن حرف ﴿ قد ﴾ هنا مستعمل في التوقع، أي الإِشعار بحصول ما يتوقعه السامع. قال في "الكشاف": لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجادِلة كانا يتوقعان أن يسمع الله لمجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرج عنها اه.

ومعنى التوقع الذي يؤذن به حرف ﴿ قد ﴾ في مثل هذا يؤول إلى تنزيل الذي يَتوقع حصول أمر لشدة استشرافه له منزلةَ المتردد الطالب فتحقيق الخبر من تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لنكتة كما قالوا في تأكيد الخبر بـ(إنّ) في قوله تعالى: ﴿ ولا تخاطبني في

الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ [المؤمنون : 27] إنه جُعل غير السائل كالسائل حيث قُدم إليه ما يلوِّح إليه بالخبر فيستشرف له استشراف الطالب المتردد .

ولهذا جزم الرضيّ في "شرح الكافية" بأن ﴿ قَد ﴾ لا بدّ فيها من معنى التحقيق .

(56/751)

ثم يضاف إليه في بعض المواضع معان أخرى .

والسماع في قوله : ﴿ سمع ﴾ معناه الاستجابة للمطلوب وقبُوله بقرينة دخول ﴿ قد ﴾ التوقعية عليه فإن المتوقَّع هو استجابة شكواها .

وقد استُحضرت المرأة بعنوان الصلة تنويهاً بمجادلتها وشكواها لأنها دلت على توكلها الصادق على رحمة ربها بها وبأبنائها وبزوجها .

والمجادلة : الاحتجاج والاستدلال ، وتقدمت في قوله : ﴿ يجادلونك في الحق بعد ما تبين ﴾ في سورة [الأنفال : 6] .

والاشتكاء : مبالغة في الشكوى وهي ذكر ما آذاه ، يقال : شكا وتشكى واشتكى وأكثرها مبالغة .

اشتكى ، والأكثر أن تكون الشكاية لقصد طلب إزالة الضرّ الذي يشتكي منه بحكم أو

نصر أو إشارة بحيلةِ خلاص .

وتعلق فعل التجادل بالكون في زوجها على نية مضاف معلوم من المقام في مثل هذا بكثرة : أي في شأن زوجها وقضيته كقوله تعالى : ﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ [هود : 74] ، وقوله : ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا ﴾ [المؤمنون : 27] وهو من المسألة الملقبة في "أصول الفقه" بإضافة التحليل والتحريم إلى الأعْيان في نحو ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : 3] .

والتحاور تفاعل من حار إذا أجاب .

فالتحاور حصول الجواب من جانبين ، فاقتضت مراجعةً بين شخصين .

والسماع في قوله : ﴿ والله يسمع تحاوركما ﴾ مستعمل في معناه الحقيقي المناسب لصفات الله إذ لا صارف يصرف عن الحقيقة .

وكون الله تعالى عالماً بما جرى من المحاورة معلوم لا يراد من الإِخبار به إفادة الحكم ، فتعيّن صرف الخبر إلى إرادة الاعتناء بذلك التحاور والتنويه به وبعظيم منزلته لاشتماله على ترقّب النبي صلى الله عليه وسلم ما ينزله عليه من وحي ، وترقب المرأةَ الرحمة ، وإلا فإن المسلمين يعلمون أن الله عالم بتحاورهما .

وجملة ﴿ والله يسمع تحاوركما ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ تجادلك ﴾ .

وجيء بصيغة المضارع لاستحضار حالة مقارنة علم الله لتحاورهما زيادة في التنويه بشأن ذلك التحاور .

(57/751)

وجملة ﴿ الله سميع بصير ﴾ تذييل لجملة ﴿ والله يسمع تحاوركما ﴾ أي : أن الله عالم بكل صوت وبكل مرئيّ .

ومن ذلك محاورة المجادلة ووقوعها عند النبي صلى الله عليه وسلم وتكرير اسم الجلالة في موضع إضماره ثلاث مرات لتربية المهابة وإثارة تعظيم منته تعالى ودواعي شكره .

الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ

تتنزل جملة ﴿ الذين يظّهرون منكم من نسائهم ﴾ وما يتم أحكامها منزلةَ البيان لجملة ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ [المجادلة : 1] الآية لأن فيها مخرجاً ممّا لحق بالمجادِلة من ضُر بظهار زوجها ، وإبطالاً له ، ولها أيضاً موقع الاستئناف البياني لجملة ﴿ قد سمع الله ﴾ يثير سؤالاً في النفس أن تقول : فماذا نشأ عن استجابة الله لشكوى المجادلة فيجاب بما فيه المخرج لها منه .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿ يَظّهرون ﴾ بفتح الياء وتشديد الظاء والهاء

مفتوحتين بدون ألف بعد الظاء على أن أصله : يتَظهرون ، فأدغمت التاء في الظاء لقرب مخرجيهما ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف ﴿ يَظَّاهرون ﴾ بفتح الياء وتشديد الظاء وألف بعدها على أن أصله : يتظاهرون ، فأدغمت التاء كما تقدم ، وقرأ عاصم ﴿ يُظَاهِرون ﴾ بضم الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء على أنه مضارع ظَاهَر .

ولم يأت مصدره إلاّ على وزن الفِعال ووزن المفاعلة .

يقال : صدر منه ظِهار ومُظاهرة ، ولم يقولوا في مصدره بوزن التظَهر ، فقراءة نافع قد استُغني فيها عن مصدره بمصْدر مرادفه .

ومعناه أن يقول الرجل لزوجه : أنتتِ عليّ كظهر أمّي .

وكانَ هذا قولاً يقولونه في الجاهلية يريدون به تأبيد تحريم نكاحها وبتّ عصمته .

وهو مشتق من الظهر ضد البطن لأن الذي يقول لامرأته : أنتتِ عليّ كظهر أمي ، يُريد بذلك أنه حرمها على نفسه .

كما أن أُمه حرام عليه ، فإسناد تركيب التشبيه إلى ضمير المرأة على تقدير حالة من حالاتها ، وهي حالة الاستمتاع المعروف ، سَلكوا في هذا التحريم مسلك الاستعارة المكنية بتشبيه الزوجة حينَ يقربها زوجها بالراحلة ، وإثباتُ الظهر لها تخيّل للاستعارة ، ثم تشبيهِ ظهر زوجته بظهر أمه ، أي في حالة من أحواله ، وهي حالة الاستمتاع المعروف . وجُعل المشبه ذات الزوجة .

والمقصود أخصّ أحوال الزوجة وهو حال قربانها فآل إلى إضافة الأحكام إلى الأعيان .

فالتقدير : قربانكِ كقربان ظهرِ أُمي ، أي اعتلائها الخاص .

ففي هذه الصيغة حذف ومجيء حروف لفظ ظهر في صيغة ظهار أو مظاهرة يشير إلى صيغة التحريم التي هي "أنت عليّ كظهر أمّي" إيماء إلى تلك الصيغة على نحو ما يستعمل في النحت وليس هو من النحت لأن النحت يشتمل على حروف من عدة كلمات .

قال المفسرون وأهل اللغة : كان الظهار طلاقاً في الجاهلية يقتضي تأبيد التحريم .

وأحسب أنه كان طلاقاً عند أهل يثرب وما حولها لكثرة مخالطتهم اليهود ولا أحسب أنّه كان معروفاً عند العرب في مكة وتهامة ونجد وغيرها ولم أقف على ذلك في كلامهم .

وحسبك أن لم يذكر في القرآن إلا في المدني هنا وفي سورة الأحزاب .

والذي يلوح لي أن أهل يثرب ابتدعوا هذه الصيغة للمبالغة في التحريم ، فإنهم كانوا قبل الإِسلام ممتزجين باليهود متخلّقين بعوائدهم ، وكان اليهود يمنعون أن يأتي الرجل امرأَته من

جهة خلفها كما تقدم في قوله تعالى:

﴿ فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ في سورة [البقرة : 223] .

فلذلك جاء في هذه الصيغة لفظ الظَّهر ، فجمعوا في هذه الصيغة تغليظاً من التحريم وهي

أنها كأُمِّه ، بل كظهر أمه .

فجاءت صيغة شنيعة فظيعة .

وأخذوا من صيغة أنت علي كظهر أمي أصرح ألفاظها وأخصها بغرضها وهو لفظ ظَهر

فاشتقّوا منه الفعل بزِنَات متعددة ، يقولون : ظاهر من امرأته ، وظهّر مثل ضاعف وضعَّف

، ويدخلون عليهما تاء المطاوعة .

(59/751)

فيقولون : تَظاهر منها وتظَهر ، وليس هذا من قبيل النحت نحو : بسمل ، وهَلّل ، لعدم

وجود حرف من الكلمات الموجودة في الجملة كلها .

والخطاب في قوله : منكم ﴾ يجوز أن يكون للمسلمين ، فيكون ذكر هذا الوصف للتعميم

بياناً لمدلول الصلة من قوله : ﴿ الذين يظّهّرون ﴾ لئلا يُتوهّم إرادة معيّن بالصلة .

و﴿ مِن ﴾ بيانية كشأنها بعد الأسماء المبهمة فعلم أن هذا الحكم تشريع عام لكل

مظاهر .

وليس خصوصية لخَولة ولا لأمثالها من النساء ذوات الخصاصة وكثرة الأولاَد .

وأما ﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ من نسائهم ﴾ فابتدائية متعلقة بـ ﴿ يظّهّرون ﴾ لتضمنه معنى البعد إذ هو قد كان طلاقاً والطلاق يبعد أحد الزوجين من الآخر ، فاجتلب له حرف الابتداء .

كما يقال : خرج من البلد .

وقد تبين أن المتعارف في صيغة الظهار أن تشتمل على ما يدل على الزوجة والظهر والأم دون التفات إلى ما يربط هذه الكلمات الثلاث من أدوات الربط من أفعال وحروف نحو : أنتتِ عليّ كظهر أمّي ، وأنتتِ مِنّي مثل ظهر أمي ، أو كوني لي كظهر أمي ، أو نحو ذلك .

فأما إذا فُقِد بعض الألفاظ الثلاثة أو جميعها .

نحو : وجهُك عليّ كظهر أمي .

أو كجَنب أمّي ، أو كظهر جدتي ، أو ابنتي ، من كل كلام يفيد تشبيه الزوجة ، أو إلحاقها بإحدى النساء من مَحارِمه بقصد تحريم قربانها ، فذلك كله من الظهار في أشهر أقوال مالك وأقوالِ أصحابه وجمهور الفقهاء ، ولا ينتقل إلى صيغة الطلاق أو التحريم لأن الله أراد التوسعة على الناس وعدمَ المؤاخذة .

ولم يُشِر القرآن إلى اسم الظهر ولا إلى اسم الأم إلا مراعاة للصيغة المتعارفة بين الناس يومئذٍ

بحيث لا ينتقل الحكم من الظهار إلى صيغة الطلاق إلا إذا تجرد عن تلك الكلمات الثلاث تجرداً واضحاً .

والصور عديدة وليست الإِحاطة بها مفيدة ، وذلك من مجال الفتوى وليس من مهيع التفسير .

وجملة ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ خبر عن ﴿ الذين ﴾ ، أي ليس أزواجهم أمهات لهم بقول أحدهم : أنت عليّ كظهر أمّي ، أي لا تصير الزوج بذلك أمًّا لقائل تلك المقالة .

وهذا تمهيد لإِبطال أثر صيغة الظهار في تحريم الزوجة ، بما يشير إلى أن الأمومةَ حقيقةٌ ثابتة لا تُصنع بالقول إذ القول لا يبدل حقائق الأشياء ، كما قال تعالى في سورة [الأحزاب : 4]: ﴿ ذلكم قولكم بأفواهكم ولذلك أعقب هنا بقوله : إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ﴾ أي فليست الزوجاتُ المظاهَرُ منهن بصائرات أمهات بذلك الظهار لانعدام حقيقة الأمومة منهن إذ هن لم يلدن القائلين : أنتِ عليّ كظهر أمي ، فلا يحرمْن عليهم ، فالقصر في الآية حقيقي ، أي فالتحريم بالظهار أمر باطل لا يقتضيه سبب يؤِّثر إيجاده .

وجملة ﴿ إن أمهاتهم ﴾ الخ واقعة موقع التعليل لجملة ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ ، وهو تعليل

للمقصود من هذا الكلام.

أعني إبطال التحريم بلفظ الظهار، إذ كونهن غير أمهاتهم ضروري لا يحتاج إلى التعليل.

وزيد صنيعهم ذَمّاً بقوله: ﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ﴾ توبيخاً لهم على صنيعهم، أي هو مع كونه لا يوجب تحريم المرأة هو قول منكر، أي قبيح لما فيه من تعريض حُرمة الأم لتخيُّلات شنيعة تخطر بخيلة السامع عند ما يسمع قول المظاهر: أنتِ عليّ كظهر أمّي.

وهي حالة يستلزمها ذكر الظهر في قوله: "كظهر أمي".

وأحسب أن الفكر الذي أملى صيغة الظهار على أوّل من نطقَ بها كان مليئاً بالغضب الذي يبعث على بذيء الكلام مثل قولهم: امصُصْ بَظْر أمك في المشاتمة، وهو أيضاً قول زور لأنه كذب إذ لم يحرمها الله.

وقد قال تعالى في سورة [الأحزاب: 4]: ﴿ وما جعل أزواجكم اللائي تظّهّرون منهن أمهاتكم ﴾

وتأكيد الخبر بإنّ ﴾ واللامِ ، للاهتمام بإيقاظ الناس لشناعته إذ كانوا قد اعتادوه فنُزلوا منزلة من يتردد في كونه منكراً أو زوراً ، وفي هذا دلالة على أن الظهار لم يكن مشروعاً في شرع قديم ولا في شريعة الإِسلام ، وأنه شيء وضعَه أهل الجاهلية كما نبه عليه عَدُّهُ مع تكاذيب الجاهلية في قوله تعالى : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظّهّرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ وقد تقدم في سورة [الأحزاب : 4] .

وبعد هذا التوبيخ عَطف عليه جملة وإن الله لعفو ﴾ كناية عن عدم مواخذتهم بما صدر منهم من الظهار قبل هذه الآية ، إذ كان عذرهم أن ذلك قول تابعوا فيه أسلافهم وجرَى على ألسنتهم دون تفكر في مدلولاته .

وأما بعد نزول هذه الآية فمذهب المالكية : أن حكم إيقاعه الحُرمة كما صرح به ابن راشد القفصي في "اللُّباب" لقوله بعده : ﴿ وتلك حدود الله ﴾ [المجادلة : 4] أن إيقاع الظهار معصية ، ولكونه معصية فسّر ابن عطية قوله تعالى : ﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ﴾ .

وبذلك أيضاً فسّر القرطبي قوله تعالى : ﴿ وتلك حدود الله ﴾ .

وقال ابن الفرس : هو حرام لا يحلّ إيقاعه .

ودَل على تحريمه ثلاثة أشياء :

أحدها : تكذيب الله تعالى من فعل ذلك .

الثاني : أنه سمّاه منكراً وزوراً ، والزور الكذب وهو محرّم بإجماع .

الثالث : إخباره تعالى عنه بأنه يعفو عنه ويغفر ولا يُعْفَى ويُغفر إلاّ على المذنبين .

وأقوال فقهاء الحنفية تدل على أن الظهار معصية ولم يصفه أحد من المالكية ولا الحنفية بأنه كبيرة .

ولا حجة في وصفه في الآية بزور ، لأن الكذب لا يكون كبيرة إلا إذا أفضى إلى مضرة .

وعَدّ السبْكي في "جمع الجوامع" الظهارَ من جملة الكبائر وسلمه المحلي .

والكاتبون قالوا : لأن الله سماه زوراً والزور كبيرة فكون الظهار كبيرة قول الشافعية ، وفيه نظر فإنهم لم يَعدوا الكذب على الإِطلاق كبيرة .

(62/751)

وإنما عدوا شهادة الزور كبيرة .

وأعقب ﴿ لعفو ﴾ بقوله : ﴿ غفور ﴾ فقوله : ﴿ وإن الله لعفو غفور ﴾ في معنى : أن الله عفا عنهم وغفر لهم لأنه عفوّ غفور ، يغفر هذا وما هو أشد .

والعفو : الكثير العفو ، والعفو عدم المؤاخذة بالفعل أي عفو عن قولهم : الذي هو منكر

وزور .

والغفور : الكثير الغفران ، والغفران الصفح عن فاعل فعل من شأنه أن يعاقبه عليه ، فذكر وصف ﴿ غفور ﴾ بعد وصف (عفوّ) تتميم لتمجيد الله إذ لا ذنب في المظاهرة حيث لم يسبق فيها نهي ، ومع ما فيه من مقابلة شيئين وهما ﴿ منكراً ﴾ و ﴿ زوراً ﴾ ، بشيْئين هما (عفوّ غفور) .

وتأكيد الخبر في قوله تعالى : ﴿ وإن الله لعفو غفور ﴾ لمشاكلة تأكيد مقابله في قوله : ﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ﴾ .

وقوله : ﴿ وإن الله لعفو غفور ﴾ يدل على أن المظاهرة بعد نزول هذه الآية منهي عنها وسنذكر ذلك .

وقد أَومَأ قوله تعالى : ﴿ وإن الله لعفو غفور ﴾ إلى أن مراد الله من هذا الحكم التوسعة على الناس ، فعلمنا أن مقصد الشريعة الإِسلامية أن تدور أحكام الظهار على محور التخفيف والتوسعة ، فعلى هذا الاعتبار يجب أن يجري الفقهاء فيما يفتون .

ولذلك لا ينبغي أن تلاحظ فيه قاعدة الأخذ بالأحوط ولا قاعدة سدّ الذريعة ، بل يجب أن نسير وراء ما أضاء لنا قوله تعالى : ﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور ﴾ .

وقد قال مالك في "المدونة" : لا يقبّل المظاهر ولا يباشر ولا ينظر إلى صدر ولا إلى شعَر .

قال الباجي في "المنتقى" : فمن أصحابنا من حمل ذلك على التحريم ، ومنهم من حمله على الكراهة لئلا يدعوه إلى الجماع.

وبه قال الشافعي وعبد الملك .

قلت : وهذا هو الوجه لأن القرآن ذكر المسيس وهو حقيقة شرعية في الجماع .

وقال مالك : لو تظاهر من أربع نسوة بلفظ واحد في مجلس واحد لم تجب عليه إلا كفارة واحدة عند مالك قولاً واحداً .

وعند أبي حنيفة والشافعي في أحد قوليهما .

(63/751)

والمقصود من هذه الآية إبطال تحريم المرأة التي يظاهر منها زوجها .

وتحميق أهل الجاهلية الذين جعلوا الظهار محرّماً على المظاهر زوجَه التي ظاهر منها .

وجعل الله الكفارة فدية لذلك وزجراً ليكفّ الناس عن هذا القول .

ومن هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم "من قال لصاحبه : تعالى أَقامرْك فليتصدقْ" أي من جَرى ذلك على لسانه بعد أن حرم الله الميسر . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ﴾

فإن قيل فما تقولون في قول المظاهر أنت علي كظهر أمي هل هو إنشاء لا يقبل التصديق والتكذيب والله سبحانه قد كذبهم هنا في ثلاثة مواضع

أحدها في قوله ما هن أمهاتهم المجادلة فنفى ما أثبتوه وهذا حقيقة التكذيب ومن طلق امرأته لا يحسن أن يقال ما هي مطلقة

والثاني قوله تعالى وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا المجادلة 2 والإنشاء لا يكون منكرا وإنما يكون المنكر هو الخبر والثالث أنه سماه زورا والزور هو الكذب وإذا كذبهم الله دل على أن الظهار إخبار لا إنشاء

الثالث أن الظهار محرم وليست جهة تحريمه إلا كونه كذبا والدليل على تحريمه خمسة أشياء الأول ما وصفه بالمنكر والثاني وصفه بالزور

والثالث أنه شرع فيه الكفارة ولو كان مباحا لم يكن فيه كفارة

والرابع أن الله قال ذلكم توعظون به المجادلة 3 والوعظ إنما يكون في غير المباحات

والخامس قوله وإن الله لعفو غفور المجادلة 2 والعفو والمغفرة إنما يكونان عن الذنب وإن قلتم هو إخبار هو باطل من وجوه

أحدها أن الظهار كان طلاقا في الجاهلية فجعله الله في الإسلام تحريما تزيله الكفارة وهذا متفق عليه بين أهل العلم ولو كان خبرا لم يوجب التحريم فإنه إن كان صدقا فظاهر وإن كان كذبا فأبعد له من أن يترتب عليه التحريم

والثاني أنه لفظ يوجب حكمه الشرعي بنفسه وهو التحريم وهذا حقيقة الإنشاء بخلاف الخبر فإنه لا يوجب حكمه بنفسه فسلب كونه إنشاء مع ثبوت حقيقة الإنشاء فيه جمع بين النقيضين

وثالثها أن إفادة قوله أنت علي كظهر أمي للتحريم كإفادة قوله أنت حرة وأنت طالق وبعتك ووهبتك وتزوجتك ونحوها لأحكامها فكيف يقولون هذه إنشاءات دون الظهار وما الفرق

أما الفقهاء فيقولون الظهار إنشاء ونازعهم بعض المتأخرين في ذلك وقال الصواب إنه إخبار وأجاب عما احتجوا به من كونه إنشاء

قال أما قولهم كان طلاقا في الجاهلية فهذا لا يقتضي أنهم كانوا يثبتون به الطلاق بل يقتضي أنهم كانوا يزيلون العصمة عند النطق به فجاز أن يكون زوالها لكونه إنشاء كما زعمتم أو لكونه كذبا وجرت عادتهم أن من أخبر بهذا الكذب زالت عصمة نكاحه وهذا كما التزموا تحريم الناقة إذا جاءت بعشرة من الولد ونحو ذلك

قال وأما قولكم إنه يوجب التحريم المؤقت وهذا حقيقة الإنشاء لا الإخبار فلا نسلم أن ثم تحريما ألبتة والذي دل عليه القرآن وجوب تقديم الكفارة على الوطء كتقديم الطهارة على الصلاة فإذا قال الشارع لا تصل حتى تتطهر لا يدل ذلك على تحريم الصلاة عليه بل ذلك نوع ترتيب سلمنا أن الظهار ترتب عليه تحريم لكن التحريم عقب الشيء قد يكون لاقتضاء اللفظ له ودلالته عليه وهذا هو الإنشاء وقد يكون عقوبة محضة كترتيب حرمان الإرث على القتل وليس القتل إنشاء للتحريم

وكترتب التعزير على الكذب وإسقاط العدالة به فهذا ترتيب بالوضع الشرعي لا بدلالة اللفظ

وحقيقة الإنشاء أن يكون ذلك وضع لذلك الحكم ويدل عليه كصيغ العقود فسببية القول أعم من كونه سببا بالإنشاء أو بغيره فكل إنشاء سبب وليس كل سبب إنشاء فالسببية أعم فلا يستدل بمطلقها على الإنشاء فإن الأعم لا يستلزم الأخص فظهر الفرق بين ترتب

التحريم على الطلاق وترتبه على الظهار

قال وأما قولكم إنه كالتكلم بالطلاق والعتاق والبيع ونحوها فقياس في الأسباب فلا نقبله ولو سلمناه فنص القرآن يدفعه وهذه الإعتراضات عليهم باطلة

(66/751)

أما قوله إن كونه طلاقا في الجاهلية لا يقتضي أنهم كانوا يثبتون به الطلاق إلى آخره فكلام باطل قطعا فإنهم لم يكونوا يقصدون الإخبار الكذب ليترتب عليه التحريم بل كانوا إذا أرادوا الطلاق أتوا بلفظ الظهار إرادة للطلاق ولم يكونوا عند أنفسهم كاذبين ولا مخبرين وإنما كانوا منشئين للطلاق به ولهذا كان هذا ثابتا في أول الإسلام حتى نسخه الله بالكفارة في قصة خولة بنت ثعلبة كانت تحت عبادة بن الصامت // حسن فقال لها أنت علي كظهر أمي فأتت رسول الله فسألته عن ذلك فقال رسول الله حرمت عليه فقالت يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر الطلاق وإنه أبو ولدي وأحب الناس إلي فقال حرمت عليه فقالت أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي فقال رسول الله ما أراك إلا قد حرمت عليه ولم أومر في شأنك بشيء فجعلت تراجع رسول الله وإذا قال لها حرمت عليه هتفت وقالت أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي وإن لي صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن

ضممتهم إلي جاعوا وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول اللهم إني أشكوا إليك

وكان هذا أول ظهار في الإسلام فنزل الوحي على رسول الله فلما قضى الوحي قال ادعي

زوجك فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سمع الله الآيات

فهذا يدل على أن الظهار كان إنشاء للتحريم الحاصل بالطلاق في أول الإسلام ثم نسخ

ذلك بالكفارة وبهذا يبطل ما نظر به من تحريم الناقة عند ولادتها عشرة أبطن ونحوه فإنه

ليس هناك لفظ إنشاء يقتضي التحريم بل هو شرع منهم لهذا التحريم عند هذا السبب

وأما قوله إنا لا نسلم أنه يوجب تحريما فكلام باطل فإنه لا نزاع بين الفقهاء أن الظهار يقتضي

تحريما تزيله الكفارة فلو وطئها قبل التكفير أثم بالإجماع المعروف من الدين والتحريم المؤقت

هنا كالتحريم بالإحرام وبالصيام والحيض

(67/751)

وأما تنظيره بالصلاة مع الطهر ففاسد فإن الله أوجب عليه صلاة بطهر فإذا لم يأت بالطهر

ترك ما أوجب الله عليه فاستحق الإثم وأما المظاهر فإنه حرم على نفسه امرأته وشبهها

بمن تحرم عليه فمنعه الله من قربانها حتى يكفر فهنا تحريم مستند إلى طهارة وفي الصلاة لا

تجزي منه بغير طهر لأنها غير مشروعة أصلا

وقوله التحريم عقب الشيء قد يكون لاقتضاء اللفظ له وقد يكون عقوبة إلى آخر جوابه أنهما غير متنافيين في الظهار فإنه حرام تحرم به تحريما مؤقتا حتى يكفر وهذا لا يمنع كون اللفظ إنشاء كجمع الثلاث عند من يوقعها والطلاق في الحيض فإنه يحرم ويتعقبه التحريم وقد قلتم إن طلاق السكران يصح عقوبة له مع أنه لو لم يأت بإنشاء السبب لم تطلق امرأته اتفاقا فكون التحريم عقوبة لا ينفي أن يستند إلى أسبابها التي تكون إنشاءات لها

قوله السببية أعم من الإنشاء إلى آخره جوابه أن السبب نوعان فعل وقول فمتى كان قولا لم يكن إلا إنشاء فإن أردتم بالعموم أن سببية القول أعم من كونها إنشاء وإخبارا فممنوع وإن أردتم أن مطلق السببية أعم من كونها سببية بالفعل والقول فمسلم ولا يفيدكم شيئا

وفصل الخطاب أن قوله أنت علي كظهر أمي يتضمن إنشاء وإخبارا فهو إنشاء من حيث قصد التحريم بهذا اللفظ وإخبار من حيث تشبيهها بظهر أمه ولهذا جعله الله منكرا وزورا فهو منكر باعتبار الإنشاء وزور باعتبار الإخبار

وأما قوله إن المنكر هو الخبر الكاذب فالخبر الكاذب من المنكر والمنكر أعم منه فالإنكار في الإنشاء والإخبار فإنه ضد المعروف فما لم يؤذن فيه من الإنشاء فهو منكر وما لم يكن صدقا من الإخبار فهو زور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بدائع الفوائد جـ 1 ص 15.11 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما هجن سبحانه الظهار ، وأثبت تحريمه على أبلغ وجه وآكده ، وكان ما مضت عليه العوائد لا بد أن يبقى منه بقايا ، أتبع ذلك بيان حكم هذه الواقعة وما لعله يقع من نظائرها فقال : ﴿ والذين يظاهرون ﴾ ولما كان في بيان الحكم ، أسقط التقييد إعلاماً بعمومه الكفار كعمومه المسلم ليفيد تغليظ العقاب عليه لئلا يتوهم أنه يخص العرب الذين قصد تهجينه عليهم بأنهم انفرادوا به عن سائر الناس فقال : ﴿ من نسائهم ﴾ بدون ﴿ منكم ﴾ .

ولما كان مقتضى اللفظ المباعدة ممن قيل ذلك فيها ، لكان إمساكها بعده ينبغي أن يكون في غاية البعد ، قال مشيراً إلى ذلك بأداة البعد ﴿ ثم يعودون ﴾ أي بعد هذا القول ﴿ لما قالوا ﴾ بالفعل بأن يعاد هذا القول مرة أخرى أو بالقوة بأن يمسكوا المقول ذلك لها زمناً

يمكن أن يعاد فيه هذا القول مرة ثانية من غير مفاقة بلفظ مما ناط الله الفرقة به من طلاق أو سراح أو نحوهما ، فيكون المظاهر عائداً إلى هذا القول بالقوة لإمكان هذا القول في ذلك الزمن ، وذلك لأن العادة قاضية بأن من قال قولاً ولم يبته وينجزه ويمضه بأن يعود إلى قوله مرة أخرى وهلم جراً ، أو يكون التقدير لنقض ما قالوا : فيحلوا ما حرموا على أنفسهم بعدم البت بالطلاق ، فإن كان الظهار معلقاً لم يلزم حكمه إلا بالحنث ، فإن طلق في الحال وإلا لزمته الكفارة ، وحق العبارة التعبير باللام لدلالتها على الاتصال كما يقتضيه الحال بخلاف " إلى " فإنها تدل على مهلة وتراخ ، هذا في الظهار المطلق ، وأما الموقت بيوم أو شهر أو نحو ذلك فلا يكون عائداً فيه إلا بالوطء في الوقت المظاهر فيه ، وأما مجرد إمساكها فليس بعود لأنه إنما أمسكها لما له فيها من الحل بعد وقت الظهار .

(69/751)

ولما كان المبتدأ الموصول مضمناً معنى الشرط ، أدخل الفاء في خبره ليفيد السببية فيتكرر الوجوب بتكرر سببه فقال : ﴿ فتحرير ﴾ أي فعليهم بسبب هذا الظهار والعود تحرير ﴿ رقبة ﴾ أي سليمة عن عيب يخل بالعمل كاملة الرق مقيدة أيضاً بمؤمنة لأنها قيدت بذلك في كفارة القتل ، فيحمل هذا على ذاك ، ولأن معاوية بن الحكم -رضى الله عنه-

كانت له جارية فقال للنبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " عليّ رقبة أفأعتقها ، فسألها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الله فأخبرته بما دل على توحيدها فقال : من أنا ؟ فقالت : أنت رسول الله ، قال : أعتقها فإنها مؤمنة " رواه مالك ومسلم ، فعلل الإجزاء بالإيمان ولم يسأله عن سبب الوجوب ، فدل على أنه لا فرق بين واجب وواجب ، والموجب للكفارة الظهار والعود جميعاً كما أن الموجب في اليمين اليمين والحنث معاً .

ولما كان التحرير لا يستغرق زمن القبل بل يكون في بعضه ، أدخل الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ ولما كان المراد المس بعد المظاهرة لا مطلقاً قال : ﴿ أن يتماسا ﴾ أي يتجدد منهما مس وهو الجماع سواء كان ابتداء المباشرة منه أو منها بما أفادته صيغة التفاعل ، وهو حرام قبل التكفير ولو كان على أدنى وجوه التماس وأخفاها بما أشار إليه الإدغام ولو كان بإيلاج الحشفة فقط مع الإنزال أو بدونه ، وأما مقدمات الجماع فهي فيها كالحائض لا تحرم على الأظهر ، فإن جامع عصى ولم تجب كفارة أخرى ، لما روى الترمذي عن سلمة بن صخر ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المظاهر يواقع قبل أن يكفر ، قال : "كفارة واحدة " .

ولما كان الوعظ هو الزجر عن الفعل الموعوظ لأجله ، قال مستأنفاً : ﴿ ذلكم ﴾ أي الزجر العظيم جد الذي هو عام لكم من غير شبهة ﴿ توعظون به ﴾ أي يكون بمشقة زاجراً لكم عن العود إلى مقاربة مثل ذلك فضلاً عن مقارفته لأن من حرم من أجلها الله تحريماً متأبداً على زعمه كان كأنه قد قتلها ، ولكون ذلك بلفظ اخترعه وانتهك فيه حرمة أمه كان كأنه قد عصى معصية أوبق بها نفسه كلها إيباقاً أخرجه إلى أن يقتلها عضواً عضواً بإعتاق رقبة تماثل رقبته ورقبة من كان قتلها .

ولما كان التقدير : فالله بما يردعكم بصير ، عطف عليه قوله : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة بالكمال ، وقدم الجار إشارة إلى إرادة المبالغة للتنبيه على الاهتمام بإلزام الانتهاء . عن ذلك فقال : ﴿ بما تعملون ﴾ أي تجددون فعله ﴿ خبير ﴾ أي عالم بظاهره وباطنه ، فهو عالم بما يكفره ، فافعلوا ما أمر الله به وقفوا عند حدوده ، قال القشيري : والظهار - وإن لم يكن له في الحقيقة أصل ولا بتصحيحه نطق ولا له شرع ، بعد ما رفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ولوح بشيء ما وقال : إنه حكمه لا يخل الله من بيان ساق إليه شرعه فقضى فيه بما انتظم فيه الجواب ارتفاع شكواها .

ولما كانت الكفارة مرتبة ، وكان المظاهر كأنه قد قتل نفسه بقتل المظاهر عنها كما مضى ، فكان مفتقراً إلى ما يحيي نفسه فشرع له العتق الذي هو كالإحياء ، شرع له عند العجز عنه ما يميت نفسه التي إماتتها له إحياؤها ، وكان الشهران نصف المدة التي ينفخ فيها الروح ،

فكان صومها كنصف قتل النفس التي قتلها إحياء الروح وإنعاش العقل ، فكان كأنه إماتتها فجعله سبحانه بدلاً عن القتل الذي هو كالإحياء فقال : ﴿ فمن لم يجد ﴾ أي الرقبة المأمور بها بأن كان فقيراً ، فإن كان غنياً وماله غائب فهو واجد ﴿ فصيام ﴾ أي فعليه صيام ﴿ شهرين ﴾ .

(71/751)

ولما كان المراد كسر النفس كما مضى ، وكانت المتابعة أنكى ولذلك سمي رمضان شهر الصبر ، قيد بقوله : ﴿ متتابعين ﴾ أي على أكمل وجوه التتابع على حسب الإمكان بما أشار إليه الإظهار ، فلو قطع التتابع بشيء ما ولو كان بنسيان النية وجب عليه الاستئناف والإغماء لا يقطع التتابع لأنه ليس في الوسع وكذا الإفطار بحيض أو نفاس أو جنون بخلاف الإفطار بسفر أو مرض أو خوف على حمل أو رضيع لأن الحيض معلوم فهو مستثنى شرعاً ، وغيره مغيب للعقل - مزيل للتكليف ، وأما المرض ونحوه ففيه تعمد الإفطار مع وجود العقل .

ولما كان الإمساك عن المسيس قد يكون أوسع من الشهرين ، أدخل الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ وحل المصدر إفادة لمن يكون بعد المظاهرة فقال : ﴿ أن يتماسا ﴾ فإن جامع ليلاً

عصى ولم ينقطع التتابع .

ولما كان إطعام نفس قوت نصف يوم كإماتة نفسه بالصيام يوماً قال تعالى : ﴿ فمن لم يستطع ﴾ أي يقدر على الصيام قدرة تامة – بما أشار إليه إظهار التاء لهرم أو مرض أو شبق مفرط يهيجه الصوم ﴿ فإطعام ﴾ أي فعليه إطعام ﴿ ستين مسكيناً ﴾ لكل مسكين ما يقوته نصف يوم ، وهو مد بمد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك نحو نصف قدح بالمصري ، وهو ملء حفنتين بكفي معتدل الخلق من غالب قوت البلد ، وهو كما في الفطرة سواء ، وحذف قيد المماسة لذكره في الأولين ، ولعل الحكمة في تخصيص هذا به أن ذكره في أول الخصال لا بد منه ، وإعادته في الثاني لطول مدته فالصبر عنه فيها مشقة ، وهذا يمكن أن يفعل في لحظة لطيفة لا مشقة للصبر فيها عن المماسة ، هذا إذا عاد ، فإن وصل الظهار بالطلاق أو مات أحدهما في الحال قبل إمكان الطلاق فلا كفارة ، قال البغوي : لأن العود في القول هو المخالفة ، وفسر ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ العود بالندم فقال : يندمون ويرجعون إلى الألفة ، وهذا يدل على ما قال الشافعي ـ رضى الله عنه ـ : فإن ظاهر عن الرجعية انعقد ظهاره فإن راجعها لزمته الكفارة لأن الرجعة عود .

ولما ذكر الحكم ، بين علته ترغيباً فيه فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي الترخيص العظيم لكم والرفق بكم والبيان الشافي من أمر الله الذي هو موافق للحنيفية السمحة ملة أبيكم إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان ﴿ لتؤمنوا ﴾ أي وهذا الفعل العظيم الشاق ليتجدد إيمانكم ويتحقق وجوده ﴿ بالله ﴾ أي الملك الذي لا أمر لأحد معه فتطيعوه بالانسلاخ من فعل الجاهلية ﴿ ورسوله ﴾ الذي تعظيمه من تعظيمه وقد بعث بملة أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، فلو ترك هذا الحكم الشديد على ما كان عليه في الجاهلية لكان مشككاً في البعث بتلك الملة السمحة .

ولما رغب في هذا الحكم ، رهب من التهاون به فقال : ﴿ وتلك ﴾ أي هذه الأفعال المزكية وكل ما سلف من أمثالها في هذا الكتاب الأعظم ﴿ حدود الله ﴾ أي أوامر الملك الأعظم ونواهيه وأحكامه التي يجب امتثالها والتقيد بها لترعى حق رعايتها فالتزموها وقفوا عندها ولا تعتدوها فإنه لا يطاق انتقامه إذا تعدى نقضه أو إبرامه .

ولما كان التقدير : فللمؤمنين بها جنات النعيم ، عطف عليه قوله ﴿ وللكافرين ﴾ أي العريقين في الكفر بها أو بشيء من شرائعه ﴿ عذاب أليم ﴾ بما آلموا المؤمنين به من الاعتداء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 482 ـ 486 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ والذين يظاهرون مِن نّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾

قال الزجاج : ﴿ الذين ﴾ رفع بالابتداء وخبره فعليهم تحرير رقبة ، ولم يذكر عليهم لأن في الكلام دليلاً عليه ، وإن شئت أضمرت فكفارتهم تحرير رقبة .

أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ فاعلم أنه كثر اختلاف الناس في تفسير هذه الكلمة ، ولا بد أولاً من بيان أقوال أهل العربية في هذه الكلمة ، وثانياً من بيان أقوال أهل الشريعة ، وفيها مسائل :

المسألة الأولى :

قال الفراء : لا فرق في اللغة بين أن يقال : يعودون لما قالوا ، وإلى ما قالوا وفيما قالوا ، أبو علي الفارسي : كلمة إلى واللام يتعاقبان ، كقوله : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى هَدَانَا لهذا ﴾ [الأعراف : 43] وقال : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ [الصافات : 23] وقال تعالى : ﴿ وَأُوحِىَ إلى نُوحٍ ﴾ [هود : 36] وقال : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 5] .

المسألة الثانية :

لفظ ﴿ مَا قَالُواْ ﴾ في قوله : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ فيه وجهان أحدهما : أنه لفظ الظهار ، والمعنى أنهم يعودون إلى ذلك اللفظ والثاني : أن يكون المراد بقوله : ﴿ لِمَا قَالُواْ ﴾ المقول فيه ، وهو الذي حرموه على أنفسهم بلفظ الظهار ، تنزيلاً للقول منزلة المقول فيه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ [مريم : 80] أي ونرثه المقول ، وقال عليه السلام : " العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه " وإنما هو عائد في الموهوب ، ويقول الرجل : اللهم أنت رجاؤنا ، أي مرجونا ، وقال تعالى : ﴿ واعبد رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ [الحجر : 99] أي الموقن به ، وعلى هذا معنى قوله : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ أي يعودون إلى الشيء الذي قالوا فيه ذلك القول ، ثم إذا فسرنا هذا اللفظ بالوجه الأول فنقول : قال أهل اللغة ، يجوز أن يقال : عاد لما فعل ، أي فعله مرة أخرى ، ويجوز أن يقال : عاد لما فعل ، أي نقض ما فعل ، وهذا كلام معقول ، لأن من فعل شيئاً ثم أراد أن يقال مثله ، فقد عاد إلى تلك الماهية لا محالة أيضاً ، وأيضاً من فعل شيئاً ثم أراد إبطاله فقد عاد إليه ، لأن التصرف في الشيء بالإعدام لا يمكن إلا بالعود إليه .

المسألة الثالثة :

ظهر مما قدمنا أن قوله : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ يحتمل أن يكون المراد ثم يعودون إليه بالنقض والرفع والإزالة ، ويحتمل أن يكون المراد منه ، ثم يعودون إلى تكوين مثله مرة أخرى ، أما الاحتمال الأول فهو الذي ذهب إليه أكثر المجتهدين واختلفوا فيه على وجوه : الأول : وهو قول الشافعي أن معنى العود لما قالوا السكوت عن الطلاق بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلقها فيه ، وذلك لأنه لما ظاهر فقد قصد التحريم ، فإن وصل ذلك بالطلاق فقد تمم ما شرع منه من إيقاع التحريم ، ولا كفارة عليه ، فإذا سكت عن الطلاق ، فذاك يدل على أنه ندم على ما ابتدأ به من التحريم ، فحينئذ تجب عليه الكفارة ، واحتج أبو بكر الرازي في "أحكام القرآن" على فساد هذا القول من وجهين : الأول : أنه تعالى قال : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ وثم تقتضي التراخي ، وعلى هذا القول يكون المظاهر عائداً عقيب القول بلا تراخ ، وذلك خلاف مقتضى الآية الثاني : أنه شبهها بالأم والأم لا يحرم إمساكها ، فتشبيه الزوجة بالأم لا يقتضي حرمة إمساك الزوجة ، فلا يكون إمساك الزوجة نقضاً لقوله : أنت علي كظهر أمي ، فوجب أن لا يفسر العود بهذا الإمساك والجواب عن الأول : أن هذا أيضاً وارد على قول أبي حنيفة فإنه جعل تفسير العود استباحة الوطء ، فوجب أن لا يتمكن

المظاهر من العود إليها بهذا التفسير عقيب فراغه من التلفظ بلفظ الظهار حتى يحصل التراخي ، مع أن الأمة مجمعة على أن له ذلك ، فثبت أن هذا الإشكال وارد عليه أيضاً ، ثم نقول : إنه ما لم ينقض زمان يمكنه أن يطلقها فيه ، لا يحكم عليه بكونه عائداً ، فقد تأخر كونه عائداً عن كونه مظاهراً بذلك القدر من الزمان ، وذلك يكفي في العمل بمقتضى كلمة : ثم والجواب عن الثاني : أن الأم يحرم إمساكها على سبيل الزوجية ويحرم الاستمتاع بها ، فقوله : أنت علي كظهر أمي ، ليس فيه بيان أن التشبيه وقع في إمساكها على سبيل الزوجية ، أو

في الاستمتاع بها ، فوجب حمله على الكل ، فقوله : أنت علي كظهر أمي ، يقتضي تشبيهها بالأم في حرمة إمساكها على سبيل الزوجية ، فإذا لم يطلقها فقد أمسكها على سبيل الزوجية ، فكان هذا الإمساك مناقضاً لمقتضى قوله : أنت علي كظهر أمي ، فوجب الحكم عليه بكونه عائداً ، وهذا كلام ملخص في تقرير مذهب الشافعي الوجه الثاني : في تفسير العود ، وهو قول أبي حنيفة : أنه عبارة عن استباحة الوطء والملامسة والنظر إليها بالشهوة ، قالوا : وذلك لأنه لما شبهها بالأم في حرمة هذه الأشياء ، ثم قصد استباحة هذه

الأشياء كان ذلك مناقضاً لقوله : أنت علي كظهر أمي ، واعلم أن هذا الكلام ضعيف ، لأنه لما شبهها بالأم ، لم يبين أنه في أي الأشياء شبهها بها ، فليس صرف هذا التشبيه إلى حرمة الاستمتاع ، وحرمة النظر أولى من صرفه إلى حرمة إمساكها على سبيل الزوجية ، فوجب أن يحمل هذا التشبيه على الكل ، وإذا كان كذلك ، فإذا أمسكها على سبيل الزوجية لحظة ، فقد نقض حكم قوله : أنت علي كظهر أمي ، فوجب أن يتحقق العود الوجه الثالث : في تفسير العود وهو قول مالك : أن العود إليها عبارة عن العزم على جماعها وهذا ضعيف ، لأن القصة إلى جماعها لا يناقض كونها محرمة إنما المناقض لكونها محرمة القصد إلى استحلال جماعها ، وحينئذ نرجع إلى قول أبي حنيفة رحمه الله الوجه الرابع : في تفسير العود وهو قول طاوس والحسن البصري : أن العود إليها عبارة عن جماعها ، وهذا خطأ لأن قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ بفاء التعقيب في قوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ يقتضي كون التكفير بعد العود ، ويقتضي قوله : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ أن يكون التكفير قبل الجماع ، وإذا ثبت أنه لا بد وأن يكون التكفير بعد العود ، وقبل الجماع ، جب أن يكون العود غير الجماع ، واعلم أن أصحابنا قالوا : العود المذكور ههنا ، هب أنه صالح

للجماع، أو للعزم على الجماع، أو لاستباحة الجماع، إلا أن الذي قاله الشافعي رحمه الله، هو أقل ما ينطلق عليه الاسم فيجب تعليق الحكم عليه لأنه هو الذي به يتحقق مسمى العود، وأما الباقي فزيادة لا دليل عليها ألبتة.

(78/751)

الاحتمال الثاني: في قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ أي يفعلون مثل ما فعلوه، وعلى هذا الاحتمال في الآية أيضاً وجوه الأول: قال الثوري: العود هو الإتيان بالظهار في الإسلام، وتقريره أن أهل الجاهلية كانوا يطلقون بالظهار، فجعل الله تعالى حكم الظهار في الإسلام خلاف حكمه عندهم في الجاهلية، فقال: ﴿والذين يظاهرون مِن نِّسَائِهِمْ﴾ يريد في الجاهلية: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ أي في الإسلام والمعنى أنهم يقولون في الإسلام مثل ما كانوا يقولونه في الجاهلية، فكفارته كذا وكذا، قال أصحابنا هذا القول ضعيف لأنه تعالى ذكر الظهار وذكر العود بعده بكلمة: ثم وهذا يقتضي أن يكون المراد من العود شيئاً غير الظهار، فإن قالوا: المراد والذين كانوا يظاهرون من نسائهم قبل الإسلام، والعرب تضمر لفظ كان، كما في قوله: ﴿واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين﴾ [البقرة: 102] أي ما كانت تتلو الشياطين،

قلنا : الإضمار خلاف الأصل القول الثاني : قال أبو العالية : إذا كرر لفظ الظهار فقد عاد ، فإن لم يكن يكرر لم يكن عوداً ، وهذا قول أهل الظاهر ، واحتجوا عليه بأن ظاهر قوله : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ يدل على إعادة ما فعلوه ، وهذا لا يكون إلا بالتكرير ، وهذا أيضاً ضعيف من وجهين : الأول : أنه لو كان المراد هذا لكان يقول ، ثم يعيدون ما قالوا الثاني : حديث أوس فإنه لم يكرر الظهار إنما عزم على الجماع وقد ألزمه رسول الله الكفارة ، وكذلك حديث سلمة بن صخرة البياضي فإنه قال : كنت لا أصبر عن الجماع فلما دخل شهر رمضان ظاهرت من امرأتي مخافة أن لا أصبر عنها بعد طلوع الفجر فظاهرت منها شهر رمضان كله ثم لم أصبر فواقعتها فأتيت رسول الله فأخبرته بذلك وقلت : أمض في حكم الله ، فقال : "أعتق رقبة" فأوجب الرسول عليه السلام عليه الكفارة مع أنه لم يذكر تكرار الظهار القول الثالث : قال أبو مسلم الأصفهاني : معنى العود ، هو أن

(79/751)

يحلف على ما قال أولاً من لفظ الظهار ، فإنه إذا لم يحلف لم تلزمه الكفارة قياساً على ما لو قال في بعض الأطعمة ، إنه حرام عليّ كلحم الآدمي ، فإنه لا تلزمه الكفارة ، فأما إذا حلف عليه لزمه كفارة اليمين ، وهذا أيضاً ضعيف لأن الكفارة قد تجب بالإجماع في المناسك ولا

يمين هناك وفي قتل الخطأ ولا يمين هناك .

أما قوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

اختلفوا فيما يحرمه الظهار ، فللشافعي قولان : أحدهما : أنه يحرم الجماع فقط القول الثاني : وهو الأظهر أنه يحرم جميع جهات الاستمتاعات وهو قول أبي حنيفة رحمه الله ودليله وجوه الأول : قوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ فكان ذلك عاماً في جميع ضروب المسيس ، من لمس بيد أو غيرها والثاني : قوله تعالى : ﴿ والذين يظاهرون مِن نِّسَائِهِمْ ﴾ ألزمه حكم التحريم بسبب أنه شبهها بظهر الأم ، فكما أن مباشرة ظهر الأم ومسه يحرم عليه ، فوجب أن يكون الحال في المرأة كذلك الثالث : روى عكرمة : " أن رجلاً ظاهر من امرأته ثم واقعها قبل أن يكفر فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فقال اعتزلها حتى تكفر "

المسألة الثانية :

اختلفوا فيمن ظاهر مراراً ، فقال الشافعي وأبو حنيفة : لكل ظهار كفارة إلا أن يكون في مجلس واحد ، وأراد بالتكرار التأكيد ، فإنه يكون عليه كفارة واحدة ، وقال مالك : من ظاهر من امرأته في مجالس متفرقة مائة فليس عليه إلا كفارة واحدة ، دليلنا أن قوله تعالى : ﴿ والذين يظاهرون مِن نِّسَائِهِمْ . . .

فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ يقتضي كون الظهار علة لإيجاب الكفارة ، فإذا وجد الظهار الثاني فقد وجدت علة وجوب الكفارة ، والظهار الثاني إما أن يكون علة للكفارة الأولى ، أو لكفارة ثانية والأول باطل لأن الكفارة وجبت بالظهار الأول وتكوين الكائن محال ، ولأن تأخر العلة عن الحكم محال ، فعلمنا أن الظهار الثاني يوجب كفارة ثانية ، واحتج مالك بأن قوله : ﴿ والذين يظاهرون ﴾ يتناول من ظاهر مرة واحدة ، ومن ظاهر مراراً كثيرة ، ثم إنه تعالى أوجب عليه تحرير رقبة ، فعلمنا أن التكفير الواحد كاف في الظهار ، سواء كان مرة واحدة أو مراراً كثيرة والجواب : أنه تعالى قال : ﴿ لاَ يُؤَاخِذُكُمُ الله باللغو فى أيمانكم ولكن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأيمان فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مساكين ﴾ [المائدة : 89] فهذا يقتضي أن لا يجب في الإيمان الكثيرة إلا كفارة واحدة ، ولما كان باطلاً ، فكذا ما قلتموه .

المسألة الثالثة :

رجل تحته أربعة نسوة فظاهر منهن بكلمة واحدة وقال : أنتن علي كظهر أمي ، للشافعي قولان : أظهرهما أنه يلزمه أربع كفارات ، نظراً إلى عدد اللواتي ظاهر منهن ، ودليله ما ذكرنا ، أنه ظاهر عن هذه ، فلزمه كفارة بسبب هذا الظهار ، وظاهر أيضاً عن تلك ،

فالظهار الثاني لا بد وأن يوجب كفارة أخرى .

المسألة الرابعة :

الآية تدل على إيجاب الكفارة قبل المماسة ، فإن جامع قبل أن يكفر لم يجب عليه إلا كفارة واحدة ، وهو قول أكثر أهل العلم ، كمالك وأبي حنيفة والشافعي وسفيان وأحمد وإسحق رحمهم الله ، وقال بعضهم : إذا واقعها قبل أن يكفر فعليه كفارتان ، وهو قول عبد الرحمن بن مهدي دليلنا أن الآية دلت على أنه يجب على المظاهر كفارة قبل العود ، فههنا فاتت صفة القبلية ، فيبقى أصل وجوب الكفارة ، وليس في الآية دلالة على أن ترك التقديم يوجب كفارة أخرى .

المسألة الخامسة :

الأظهر أنه لا ينبغي للمرأة أن تدعه يقربها حتى يكفر ، فإن تهاون بالتكفير حال الإمام بينه وبينها ويجبره على التكفير ، وإن كان بالضرب حتى يوفيها حقها من الجماع ، قال الفقهاء : ولا شيء من الكفارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار وحدها ، لأن ترك التكفير إضرار بالمرأة وامتناع من إيفاء حقها .

المسألة السادسة :

قال أبو حنيفة رحمه الله هذه الرقبة تجزىء سواء كانت مؤمنة أو كافرة ، لقوله تعالى :

﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ فهذا اللفظ يفيد العموم في جميع الرقاب ، وقال الشافعي : لا بد وأن تكون مؤمنة ودليله وجهان الأول : أن المشرك نجس ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ ﴾ [التوبة : 28] وكل نجس خبيث بإجماع الأمة وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ الخبيث ﴾ [البقرة : 267] الثاني : أجمعنا على أن الرقبة في كفارة القتل مقيدة بالإيمان ، فكذا ههنا ، والجامع أن الإعتاق إنعام ، فتقييده بالإيمان يقتضي صرف هذا الإنعام إلى أولياء الله وحرمان أعداء الله ، وعدم التقييد بالإيمان قد يفضي إلى حرمان أولياء الله ، فوجب أن يتقيد بالإيمان تحصيلاً لهذه المصلحة .

المسألة السابعة :

(82/751)

إعتاق المكاتب لا يجزىء عند الشافعي رحمه الله ، وقال أبو حنيفة رحمه الله إن أعتقه قبل أن يؤدي شيئاً جاز عن الكفارة ، وإذا أعتقه بعد أن يؤدي شيئاً ، فظاهر الرواية أنه لا يجزىء ، وروى الحسن عن أبي حنيفة أنه يجزىء ، حجة أبي حنيفة أن المكاتب رقبة

لقوله تعالى : ﴿ وَفِي الرقاب ﴾ [البقرة : 117] والرقبة مجزئة لقوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ ، حجة الشافعي أن المقتضى لبقاء التكاليف بإعتاق الرقبة قائم ، بعد إعتاق المكاتب ، وما لأجله ترك العمل به في محل الرقاب غير موجود ههنا ، فوجب أن يبقى على الأصل ، بيان المقتضي أن الأصل في الثابت البقاء على ما كان ، بيان الفارق أن المكاتب كالزائل عن ملك المولى وإن لم يزل عن ملكه ، لكنه يمكن نقصان في رقه ، بدليل أنه صار أحق بمكاسبه ، ويمتنع على المولى التصرفات فيه ، ولو أتلفه المولى يضمن قيمته ، ولو وطىء مكاتبته يغرم المهر ، ومن المعلوم أن إزالة الملك الخالص عن شوائب الضعف أشق على المالك من إزالة الملك الضعيف ، ولا يلزم من خروج الرجل عن العهدة بإعتاق العبد القن خروجه عن العهدة بإعتاق المكاتب ، والوجه الثاني : أجمعنا على أنه لو أعتقه الوارث بعد موته لا يجزىء عن الكفارة ، فكذا إذا أعتقه المورث والجامع كون الملك ضعيفاً .

المسألة الثامنة :

لو اشترى قريبه الذي يعتق عليه بنية الكفارة عتق عليه ، لكنه لا يقع عن الكفارة عند الشافعي ، وعند أبي حنيفة يقع ، حجة أبي حنيفة التمسك بظاهر الآية ، وحجة الشافعي ما تقدم.

المسألة التاسعة :

قال أبو حنيفة : الإطعام في الكفارات يتأدى بالتمكين من الطعام ، وعند الشافعي لا يتأدى إلا بالتمليك من الفقير ، حجة أبي حنيفة ظاهر القرآن وهو أن الواجب هو الإطعام ، وحقيقة الإطعام هو التمكين ، بدليل قول تعالى : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ [المائدة : 89] وذلك يتأدى بالتمكين والتمليك ، فكذا ههنا ، وحجة الشافعي القياس عن الزكاة وصدقة الفطر .

المسألة العاشرة :

قال الشافعي : لكل مسكين مد من طعام بلده الذي يقتات منه حنطة أو شعيراً أو أرزاً أو تمراً أو أقطاً ، وذلك بمد النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعتبر مد حدث بعده ، وقال أبو حنيفة : يعطى كل مسكين نصف صاع من بر أو دقيق أو سويق أو صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير ولا يجزئه دون ذلك ، حجة الشافعي أن ظاهر الآية يقتضي الإطعام ، ومراتب الإطعام مختلفة بالكمية والكيفية ، فليس حمل اللفظ على البعض أولى من حمله على الباقي ، فلا بد من حمله على أقل ما لا بد منه ظاهراً ، وذلك هو المد ، حجة أبي حنيفة ما روي في حديث أوس بن الصامت : " لكل مسكين نصف صاع من بر " وعن علي وعائشة قالا : لكل مسكين مدان من بر ، ولأن المعتبر حاجة اليوم لكل مسكين ، فيكون نظير صدقة الفطر ، ولا يتأدى ذلك بالمد ، بل بما قلنا ، فكذلك هنا .

المسألة الحادية عشرة :

لو أطعم مسكيناً واحداً ستين مرة لا يجزىء عند الشافعي ، وعند أبي حنيفة يجزىء ، حجة الشافعي ظاهر الآية ، وهو أنه أوجب إطعام ستين مسكيناً ، فوجب رعاية ظاهر الآية ، وحجة أبي حنيفة أن المقصود دفع الحاجة وهو حاصل ، وللشافعي أن يقول : التحكمات غالبة على هذه التقديرات ، فوجب الامتناع فيها من القياس ، وأيضاً فلعل إدخال السرور في قلب ستين إنساناً ، أقرب إلى رضا الله تعالى من إدخال السرور في قلب الإنسان الواحد .

المسألة الثانية عشرة :

قال أصحاب الشافعي : إنه تعالى قال في الرقبة : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ ﴾ وقال في الصوم : ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ فذكر في الأول : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ وفي الثاني : ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ﴾ فقالوا : من ماله غائب لم ينتقل إلى الصوم بسبب عجزه عن الإعتاق في الحال أما من كان مريضاً في الحال ، فإنه ينتقل إلى الإطعام وإن كان مرضه بحيث يرجى زواله ، قالوا : والفرق أنه قال في الانتقال إلى الإطعام : ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ﴾

وهو بسبب المرض الناجز، والعجز العاجل غير مستطيع، وقال في الرقبة: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ والمراد فمن لم يجد رقبة أو مالاً يشتري به رقبة، ومن ماله غائب لا يسمى فاقداً للمال، وأيضاً يمكن أن يقال في الفرق إحضار المال يتعلق باختياره وأما إزالة المرض فليس باختياره.

المسألة الثالثة عشرة:

قال بعض أصحابنا: الشبق المفرط والغلمة الهائجة، عذر في الانتقال إلى الإطعام، والدليل عليه أنه عليه السلام لما أمر الأعرابي بالصوم قال له: وهل أتيت إلا من قبل الصوم فقال عليه السلام "أطعم" دل الحديث على أن الشبق الشديد عذر في الانتقال من الصوم إلى الإطعام، وأيضاً الاستطاعة فوق الوسع، والوسع فوق الطاقة، فالاستطاعة هو أن يتمكن الإنسان من الفعل على سبيل السهولة، ومعلوم أن هذا المعنى لا يتم مع شدة الشبق، فهذه جملة مختصرة مما يتعلق بفقه القرآن في هذه الآية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ قال الزجاج: ﴿ ذلكم ﴾ للتغليظ في الكفارة ﴿ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ أي أن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ولا تعاودوه، وقال غيره ﴿ ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ أي تؤمرون به من الكفارة ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ من التكفير وتركه.

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (4)

ثم ذكر تعالى حكم العاجز عن الرقبة فقال: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ فدلت الآية على أن التتابع شرط، وذكر في تحرير الرقبة والصوم أنه لا بد وأن يوجدا من قبل أن يتماسا، ثم ذكر تعالى أن من لم يستطع ذلك فإطعام ستين مسكيناً، ولم يذكر أنه لا بد من وقوعه قبل المماسة، إلا أنه كالأولين بدلالة الإجماع، والمسائل الفقهية المفرعة على هذه الآية كثيرة مذكورة في كتاب الفقه.

ثم قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ الله وللكافرين عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وفي قوله: ﴿ ذلك ﴾ وجهان الأول: قال الزجاج: إنه في محل الرفع، والمعنى الفرض ذلك الذي وضعناه، الثاني: فعلنا ذلك البيان والتعليم للأحكام لتصدقوا بالله ورسوله في العمل بشرائعه، ولا تستمروا على أحكام الجاهلية من جعل الظهار أقوى أنواع الطلاق، وفي الآية مسائل.

المسألة الأولى:

استدلت المعتزلة باللام في قوله: ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ ﴾ على أن فعل الله معلل بالغرض وعلى أن

غرضه أن تؤمنوا بالله ، ولا تستمروا على ما كانوا عليه في الجاهلية من الكفر ، وهذا يدل على أنه تعالى أراد منهم الإيمان وعدم الكفر .

المسألة الثانية :

(86/751)

استدل من أدخل العمل في مسمى الإيمان بهذه الآية ، فقال : أمرهم بهذه الأعمال ، وبين أنه أمرهم بها ليصيروا بعملها مؤمنين ، فدلت الآية على أن العمل من الإيمان ومن أنكر ذلك قال : إنه تعالى لم يقل : (ذلك لتؤمنوا بالله بعمل هذه الأشياء) ، ونحن نقول المعنى ذلك لتؤمنوا بالله بالإقرار بهذه الأحكام ، ثم إنه تعالى أكد في بيان أنه لا بد لهم من الطاعة ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ الله وللكافرين عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي لمن جحد هذا وكذب به . انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 222.228 ﴾

(87/751)

وقال ابن عطية :

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾

اختلف الناس في معنى قوله عز وجل : ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ فقال قوم : المعنى ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ﴾ في الجاهلية ، كأنه قال : والذين كان الظهار عادتهم ثم يعودون في ذلك في الإسلام ، وقاله القتبي وقال أهل الظاهر المعنى : والذين يظاهرون ثم يظاهرون ثم ثانية فلا يلزم عندهم كفارة إلا بأن يعيد الرجل الظهار ، قاله منذر بن سعيد ، وحينئذ هو عائد إلى القول الذي هو منكر وزور .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول ضعيف ، وإن كان القشيري قد حكاه عن بكير بن عبد الله بن الأشج وقال بعض الناس في هذه الآية تقديم وتأخير ، وتقديرها : " فتحرير رقبة لما قالوا " ، وهذا أيضاً قول يفسد نظر الآية ، وحكي عن الأخفش ، لكنه غير قوي . وقال قتادة وطاوس ومالك والزهري وجماعة كثيرة من أهل العلم معنى : ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ أي للوطء فالمعنى ثم يعودون لما قالوا إنهم لا يعودون فإذا ظاهر الرجل ثم وطئ فحينئذ تلزمه الكفارة في ذمته وإن طلق أو ماتت امرأته . وقال الشافعي وأبو حنيفة ومالك أيضاً وفريق ﴿ يعودون ﴾ معناه : بالعوم على إمساك الزوجة ووطئها والتزام التكفير لذلك ، فمتى وقع من المظاهر هذا العزم لزمت الكفارة ذمته ، طلق أو ماتت المرأة .

قال القاضي أبو محمد : وهذان القولان في مذهب مالك رحمه الله هما حسنان لزمت الكفارة فيهما بشرطين : ظهار وعود .

واختلفا في العود ما هو؟ وقال الشافعي العود الموجب للكفارة : أن يمسك عن طلاقها بعد الظهار ويمضي بعد الظهار ما يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق ، والرقبة في الظهار لا تكون عند مالك إلا مؤمنة ، رد هذا : إلى المقيد الذي في كفارة القتل الخطأ .

(88/751)

واختلف والناس في قوله تعالى : ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ فقال الحسن والثوري وجماعة من قبل الوطء ، وجعلت المسيس هاهنا الوطء ، فأباحت للمظاهر التقبيل والمضاجعة والاستمتاع بأعلى المرأة كالحائض . وقال جمهور أهل العلم قوله : ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ عام في نوع المسيس الوطء والمباشرة ، فلا يجوز لمظاهر أن يطأ ولا يقبل ولا يلمس بيده ، ولا يفعل شيئاً من هذا النوع إلا بعد الكفارة ، وهذا قول مالك رحمه الله .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى التحرير أي فعل عظة لكم لتنتهوا عن الظهار ، والتتابع في الشهرين صيامهما ولا يبن أيامهما ، وجائز أن يصومهما الرجل بالعدد ، فيصوم ستين يوماً تباعاً ، وجائز أن يصومهما بالأهلة ، يبدأ مع الهلال ويفطر مع الهلال ، وإن جاء أحد

شهريه ناقصاً ، وذلك مجزئ عنه ، وجائز إن بدأ صومه في وسط الشهر أن يبعض الشهر الأول فيصوم إلى الهلال ثم يصوم شهراً بالهلال ثم يتم الشهر الأول بالعدد .

ولا خلاف أحفظه من أهل العلم أن الصائم في الظهار إن أفسد التتابع باختياره أنه يبتدأ صومها . واختلف الناس إذا أفسده لعذر غالب : كالمرض والنسيان ونحوه ، فقال أصحاب الرأي والشافعي في أحد قوليه والنخعي وابن جبير والحكم بن عيينة والثوري : يبتدئ ، وقال مالك والشافعي وغيره : يبني . وأجمعوا على الحائض وأنها تبني في صومها التتابع .

(89/751)

وإطعام المساكين في الظهار هو بالمد الهاشمي عند مالك ، وهو مد وثلث بمد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل مدان غير ثلث . وروى عنه ابن وهب أنه يطعم كل مسكين مدين بمد النبي عليه السلام وفي العلماء من يرى إطعام الظهار مداً بمد النبي عليه السلام ، ولا يجزئ في إطعام الظهار إلا إكمال عدد المساكين ، ولا يجوز أن يطعم ثلاثين مرتين ولا ما أشبهه ، والطعام عو غالب قوت البلد . قال مالك رحمه الله وعطاء وغيره : إطعام المساكين أيضاً هو قبل التماس حملاً على العتق والصوم . وقال أبو حنيفة وجمهور من أهل

العلم لم ينص الله على الشرط هنا ، فنحن نلتزمه ، فجاز للمظاهر إذا كان من أهل الإطعام أن يطأ قبل الكفارة ويستمتع .

وقوله : ﴿ ذلك لتؤمنوا ﴾ إشارة إلى الرخصة والتسهيل في النقل من التحرير إلى الصوم ، والإطعام ثم شدد تعالى بقوله : ﴿ تلك حدود الله ﴾ أي فالتزموها وقفوا عندها ، ثم توعد الكافرين بهذا الحديث والحكم الشرعي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(90/751)

وقال القرطبى :

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾

فيه اثنتا عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ والذين يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ هذا ابتداء والخبر ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ وحذف عليهم لدلالة الكلام عليه ؛ أي فعليهم تحرير رقبة .

وقيل : أي فكفارتهم عتق رقبة .

والمجمع عليه عند العلماء في الظهار قول الرجل لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي .

وهو قول المنكر والزور الذي عنى الله بقوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ القول وَزُورًا ﴾

فمن قال هذا القول حرم عليه وطء امرأته .

فمن عاد لما قال لزمته كفارة الظهار ؛ لقوله عز وجل : ﴿ والذين يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ وهذا يدل على أن كفارة الظهار لا تلزم بالقول خاصة حتى ينضم إليها العَوْد ، وهذا حرف مشكل اختلف الناس فيه على أقوال سبعة : الأوّل : أنه العزم على الوطء ، وهو مشهور قول العراقيين أبي حنيفة وأصحابه .

وروي عن مالك : فإن عزم على وطئها كان عَوْداً ، وإن لم يعزم لم يكن عَوْداً .

الثاني : العزم على الإمساك بعد التظاهر منها ؛ قاله مالك .

الثالث : العزم عليهما .

وهو قول مالك في موطئه ؛ قال مالك في قول الله عز وجل : ﴿ والذين يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ قال : سمعت أن تفسير ذلك أن يظاهر الرجل من امرأته ثم يجمع على إصابتها وإمساكها ؛ فإن أجمع على ذلك فقد وجبت عليه الكفارة ، وإن طلّقها ولم يجمع بعد تظاهره منها على إمساكها وإصابتها فلا كفارة عليه .

قال مالك : وإن تزوّجها بعد ذلك لم يمسها حتى يكفّر كفارة التظاهر .

القول الرابع : أنه الوطء نفسه فإن لم يطأ لم يكن عَوْداً ؛ قاله الحسن ومالك أيضاً .

الخامس : وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه : هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق ؛ لأنه لما ظاهر قصد التحريم ، فإن وصل به الطلاق فقد جرى على خلاف ما ابتدأه من إيقاع التحريم ولا كفارة عليه .

وإن أمسك عن الطلاق فقد عاد إلى ما كان عليه فتجب عليه الكفارة .

السادس : أن الظهار يوجب تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة .

ومعنى العَود عند القائلين بهذا : أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة يقدمها ، قاله أبو حنيفة وأصحابه والليث بن سعد .

السابع : هو تكرير الظهار بلفظه .

وهذا قول أهل الظاهر النافين للقياس ، قالوا : إذا كرر اللفظ بالظهار فهو العَوْد ، وإن لم يكرر فليس بِعَود .

ويسند ذلك إلى بكير بن الأشج وأبي العالية وأبي حنيفة أيضاً ، وهو قول الفراء .

وقال أبو العالية : وظاهر الآية يشهد له ؛ لأنه قال : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ أي إلى قول ما قالوا .

وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ والذين يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ هو أن يقول لها أنت عليّ كظهر أمي .

فإذا قال لها ذلك فليست تحل له حتى يكفّر كفارة الظهار .

قال ابن العربي : فأما القول بأنه العَوْد إلى لفظ الظهار فهو باطل قطعاً لا يصح عن بكير ، وإنما يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه .

وقد رويت قصص المتظاهرين وليس في ذكر الكفارة عليهم ذكر لِعَود القول منهم ، وأيضاً فإن المعنى ينقضه ؛ لأن الله تعالى وصفه بأنه منكر من القول وزور ، فكيف يقال له إذا أعدت القول المحرم والسبب المحظور وجبت عليه الكفارة ، وهذا لا يعقل ؛ ألا ترى أن كل سبب يوجب الكفارة لا تشترط فيه الإعادة من قتل ووطء في صوم أو غيره .

(92/751)

قلت : قوله يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه حملٌ منه عليه ، وقد قال بقول داود من ذكرناه عنهم ، وأما قول الشافعي : بأنه ترك الطلاق مع القدرة عليه فينقضه ثلاثة أمور أمهات : الأوّل : أنه قال : "ثُمَّ" وهذا بظاهره يقتضي التراخي .

الثاني : أن قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ ﴾ يقتضي وجود فعل من جهة ومرور الزمان ليس بفعل منه .

الثالث : أن الطلاق الرجعي لا ينافي البقاء على الملك فلم يسقط حكم الظهار كالإيلاء .

فإن قيل : فإذا رآها كالأم لم يمسكها إذ لا يصح إمساك الأم بالنكاح .

وهذه عمدة أهل ما وراء النهر .

قلنا : إذا عزم على خلاف ما قال ورآها خلاف الأم كفّر وعاد إلى أهله .

وتحقيق هذا القول : أن العزم قول نفسيٌّ ، وهذا رجل قال قولاً اقتضى التحليل وهو النكاح ، وقال قولاً اقتضى التحريم وهو الظهار ، ثم عاد لما قال وهو التحليل ، ولا يصح أن يكون منه ابتداء عقد ، لأن العقد باق فلم يبق إلا أنه قول عزم يخالف ما اعتقده وقاله في نفسه من الظهار الذي أخبر عنه بقوله أنت عليّ كظهر أمي ، وإذا كان ذلك كفّر وعاد إلى أهله ؛ لقوله : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ .

وهذا تفسير بالغ (في فنه) .

الثانية : قال بعض أهل التأويل : الآية فيها تقديم وتأخير ، والمعنى ﴿ والذين يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ ﴾ إلى ما كانوا عليه من الجماع ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ لما قالوا ؛ أي فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا : فالجار في قوله : "لِمَا قَالُوا" متعلق بالمحذوف الذي هو خبر الابتداء وهو عليهم ؛ قاله الأخفش .

وقال الزجاج : المعنى ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا .

وقيل : المعنى الذين كانوا يَظَّهَّرون من نسائهم في الجاهلية ، ثم يعودون لما كانوا قالوه في

الجاهلية في الإسلام فكفارة من عاد أن يحرر رقبة.

الفراء: اللام بمعنى عن والمعنى ثم يرجعون عما قالوا ويريدون الوطء.

(93/751)

وقال الأخفش: لما قالوا وإلى ما قالوا واحد، واللام وإلى يتعاقبان؛ قال: ﴿ الحمد للَّهِ الذي هَدَانَا لهذا ﴾ [الأعراف: 43] وقال: ﴿ فاهدوهم إلى صِرَاطِ الجحيم ﴾ [الصافات: 23] وقال: ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة: 5] وقال: ﴿ وَأُوحِيَ إلى نُوحٍ ﴾ [هود: 36].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أي فعليه إعتاق رقبة؛ يقال: حررته أي جعلته حرًّا.

ثم هذه الرقبة يجب أن تكون كاملةً سليمةً من كل عيب، من كمالها إسلامها عند مالك والشافعي؛ كالرقبة في كفارة القتل.

وعند أبي حنيفة وأصحابه تجزي الكافرة ومن فيها شائبة رقٍّ كالمكاتبة وغيرها.

الرابعة: فإن أعتق نصفي عبدين فلا يجزيه عندنا ولا عند أبي حنيفة.

وقال الشافعي يجزىء؛ لأن نصف العبدين في معنى العبد الواحد؛ ولأن الكفارة بالعتق

طريقها المال فجاز أن يدخلها التبعيض والتجزي كالإطعام؛ ودليلنا قوله تعالى: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ وهذا الاسم عبارة عن شخص واحد، وبعض الرقبة ليس برقبة، وليس ذلك مما يدخله التلفيق؛ لأن العبادة المتعلقة بالرقبة لا يقوم النصف من رقبتين مقامها؛ أصله إذا اشترك رجلان في أضحيتين؛ ولأنه لو أمر رجلين أن يحجا عنه حجة لم يجز أن يحج عنه واحد منهما نصفها كذلك هذا؛ ولأنه لو أوصى بأن تشتري رقبة فتعتق عنه لم يجز أن يعتق عنه نصف عبدين، كذلك في مسألتنا وبهذا يبطل دليلهم.

والإطعام وغيره لا يتَجَزَّى في الكفارة عندنا.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ أي يجامعها فلا يجوز للمظاهر الوطء قبل التكفير، فإن جامعها قبل التكفير أثم وعصى ولا يسقط عنه التكفير.

وحكي عن مجاهد: أنه إذا وطئ قبل أن يشرع في التكفير لزمته كفارة أخرى.

وعن غيره: أن الكفارة الواجبة بالظهار تسقط عنه ولا يلزمه شيء أصلاً؛ لأن الله تعالى أوجب الكفارة وأمر بها قبل المسيس، فإذا أخّرها حتى مسّ فقد فات وقتها.

والصحيح ثبوت الكفارة؛ لأنه بوطئه ارتكب إثماً فلم يكن ذلك مسقطاً للكفارة، ويأتي بها

قضاء كما لو أخر الصلاة عن وقتها .

وفي حديث أَوْس بن الصامت لما أخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنه وطىء امرأته أمره بالكفارة .

وهذا نص وسواء كانت كفارة بالعتق أو الصوم أو الإطعام .

وقال أبو حنيفة : إن كانت كفارته بالإطعام جاز أن يطأ ثم يطعم ؛ فأما غير الوطء من القبلة والمباشرة والتلذذ فلا يحرم في قول أكثر العلماء .

وقاله الحسن وسفيان ، وهو الصحيح من مذهب الشافعي .

وقيل : وكل ذلك محرّم وكل معاني المسيس ؛ وهو قول مالك وأحد قولي الشافعي .

وقد تقدم .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ أي تؤمرون به ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ من التكفير وغيره .

السابعة : من لم يجد الرقبة ولا ثمنها ، أو كان مالكاً لها إلا أنه شديد الحاجة إليها لخدمته ، أو كان مالكاً لثمنها إلا أنه يحتاج إليه لنفقته ، أو كان له مسكن ليس له غيره ولا يجد شيئاً سواه ، فله أن يصوم عند الشافعي .

وقال أبو حنيفة : لا يصوم وعليه عتق ولو كان محتاجاً إلى ذلك .

وقال مالك : إذا كان له دار وخادم لزمه العتق فإن عجز عن الرقبة ، وهي :

الثامنة : فعليه صوم شهرين متتابعين .

فإن أفطر في أثنائهما بغير عذر استأنفهما ، وإن أفطر لعذر من سفر أو مرض ، فقيل : يبني ؛ قاله ابن المسيّب والحسن وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار والشعبي .

وهو أحد قولي الشافعي وهو الصحيح من مذهبه .

وقال مالك : إنه إذا مرض في صيام كفارة الظهار بنى إذا صح .

ومذهب أبي حنيفة رضي الله عنه أنه يبتدىء .

وهو أحد قولي الشافعي .

(95/751)

التاسعة : إذا ابتدأ الصيام ثم وجد الرقبة أتم الصيام وأجزأه عند مالك والشافعي ؛ لأنه بذلك أمِر حين دخل فيه .

ويهدم الصوم ويعتق عند أبي حنيفة وأصحابه ؛ قياساً على الصغيرة المعتدة بالشهور ترى الدم قبل انقضائها ، فإنها تستأنف الحيض إجماعاً من العلماء .

وإذا ابتدأ سفراً في صيامه فأفطر ، ابتدأ الصيام عند مالك والشافعي وأبي حنيفة ؛ لقوله : "مُتَتَابِعَيْنِ" .

ويبني في قول الحسن البصري ؛ لأنه عُذر وقياساً على رمضان ، فإن تخللها زمان لا يحلّ صومه في الكفارة كالعيدين وشهر رمضان انقطع .

العاشرة : إذا وطىء المتظاهر في خلال الشهرين نهاراً ، بطل التتابع في قول الشافعي ، وليلاً فلا يبطل ؛ لأنه ليس محلاً للصوم .

وقال مالك وأبو حنيفة : يبطل بكل حال ووجب عليه ابتداء الكفارة ؛ لقوله تعالى : "مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا" وهذا الشرط عائد إلى جملة الشهرين ، وإلى أبعاضهما ، فإذا وطىء قبل انقضائهما فليس هو الصيام المأمور به ، فلزمه استئنافه ؛ كما لو قال : صلّ قبل أن تكلم زيداً .

فكلّم زيداً في الصلاة ، أو قال : صلّ قبل أن تبصر زيداً فأبصره في الصلاة لزمه استئنافها ؛ لأن هذه الصلاة ليست هي الصلاة المأمور بها كذلك هذا ؛ والله أعلم .

الحادية عشرة : ومن تطاول مرضه طولاً لا يرجى برؤه كان بمنزلة العاجز من كبر ، وجاز له العدول عن الصيام إلى الإطعام .

ولو كان مرضه مما يرجى برؤه واشتدت حاجته إلى وطء امرأته كان الاختيار له أن ينتظر البرء حتى يقدر على الصيام .

ولو كفر بالإطعام ولم ينتظر القدرة على الصيام أجزأه .

الثانية عشرة : ومن تظاهر وهو معسر ثم أيسر لم يجزه الصوم .

ومن تظاهر وهو موسر ثم أعسر قبل أن يكفّر صام .

وإنما يُنْظر إلى حاله يوم يكفّر .

ولو جامعها في عدمه وعسره ولم يصم حتى أيسر لزمه العتق .

ولو ابتدأ بالصوم ثم أيسر فإن كان مضى من صومه صدر صالح نحو الجمعة وشبهها تمادى .

(96/751)

وإن كان اليوم واليومين ونحوهما ترك الصوم وعاد إلى العتق وليس ذلك بواجب عليه .

ألا ترى أنه غير واجب على من طرأ الماء عليه وهو قد دخل بالتيمم في الصلاة أن يقطع ويبتدىء الطهارة عند مالك .

الثالثة عشرة : ولو أعتق رقبتين عن كفارتي ظهار أو قتل أو فطر في رمضان وأشرك بينهما في كل واحدة منهما لم يجزه .

وهو بمنزلة من أعتق رقبة واحدة عن كفارتين .

وكذلك لو صام عنهما أربعة أشهر حتى يصوم عن كل واحدة منهما شهرين .

وقد قيل : إن ذلك يجزيه .

ولو ظاهر من امرأتين له فأعتق رقبة عن إحداهما بغير عينها لم يجز له وطء واحدةٍ منهما

حتى يكفّر كفارة أخرى.

ولو عيّن الكفارة عن إحداهما جاز له أن يطأها قبل أن يكفّر الكفارة عن الأخرى.

ولو ظاهر من أربع نسوة فأعتق عنهنّ ثلاث رقاب، وصام شهرين، لم يجزه العتق ولا الصيام ؛ لأنه إنما صام عن كل واحدة خمسة عشر يوماً، فإن كفّر عنهنّ بالإطعام جاز أن يطعم عنهنّ مائتي مسكين، وإن لم يقدر فرّق بخلاف العتق والصيام ؛ لأن صيام الشهرين لا يفرق والإطعام يفرق.

فصل وفيه ست مسائل:

الأولى: ذكر الله عز وجل الكفارة هنا مرتبةً ؛ فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام، فمن لم يطق الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكيناً لكل مسكين مُدّان بمُد النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وإن أطعم مدّاً بمد هشام، وهو مدّان إلا ثلثاً، أو أطعم مدّاً ونصفاً بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أجزأه.

قال أبو عمر بن عبد البر: وأفضل ذلك مدّان بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله عز وجل لم يقل في كفارة الظهار ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ ﴾ [المائدة: 89] فواجب قصد الشبع.

قال ابن العربي : وقال مالك في رواية ابن القاسم وابن عبد الحكم : مُدّ بمدّ هشام وهو الشبع ههنا ؛ لأن الله تعالى أطلق الطعام ولم يذكر الوسط .

(97/751)

وقال في رواية أشهب : مدّان بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم : قيل له : ألم تكن قلت مدّ هشام ؟ قال : بلى ، مدّان بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أحب إليّ .

وكذلك قال عنه ابن القاسم أيضاً .

قلت : وهي رواية ابن وهب ومطرّف عن مالك : أنه يعطي مدّين لكل مسكين بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه .

ومذهب الشافعيّ وغيره مدّ واحد لكل مسكين لا يلزمه أكثر من ذلك ؛ لأنه يكفّر بالإطعام ولم يلزمه صرف زيادة على المدّ ؛ أصله كفارة الإفطار واليمين .

ودليلنا قوله تعالى : ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ وإطلاق الإطعام يتناول الشّبع ، وذلك لا يحصل بالعادة بمدّ واحد إلا بزيادة عليه .

وكذلك قال أشهب : قلت لمالك أيختلف الشّبع عندنا وعندكم ؟ قال نعم ! الشّبع عندنا

مدّ بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم والشّبع عندكم أكثر ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا لنا بالبركة دونكم ، فأنتم تأكلون أكثر مما نأكل نحن .

وقال أبو الحسن القابسي : إنما أخذ أهل المدينة بمدّ هشام في كفارة الظهار تغليظاً على المتظاهرين الذين شهد الله عليهم أنهم يقولون منكراً من القول وزوراً .

قال ابن العربي : وقع الكلام ههنا في مدّ هشام كما ترون ، ووددت أن يهشم الزمان ذكره ، ويمحو من الكتب رسمه ؛ فإن المدينة التي نزل الوحي بها واستقر الرسول بها ووقع عندهم الظهار ، وقيل لهم فيه : ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ فهموه وعرفوا المراد به وأنه الشّبع ، وقدره معروف عندهم متقرر لديهم ، وقد ورد ذلك الشّبع في الأخبار كثيراً ، واستمرت الحال على ذلك أيام الخلفاء الراشدين المهديين حتى نفخ الشيطان في أذن هشام ، فرأى أن مدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يشبعه ، ولا مثله من حواشيه ونظرائه ، فسوّل له أن يتخذ مدّاً يكون فيه شبعه ، فجعله رطلين وحمل الناس عليه ، فإذا ابتل عاد نحو الثلاثة الأرطال ؛ فغيّر السُّنة وأذهب محل البركة .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم حين دعا ربه لأهل المدينة بأن تبقى لهم البركة في مدّهم وصاعهم ، مثل ما بارك لإبراهيم بمكة ، فكانت البركة تجري بدعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم في مدّه ، فسعى الشيطان في تغيير هذه السنة وإذهاب هذه البركة ، فلم يستجب له في ذلك إلا هِشام ، فكان من حق العلماء أن يلغوا ذكره ويمحوا رسمه إذا لم يغيروا أمره ، وأما أن يحيلوا على ذكره في الأحكام ، ويجعلوه تفسيراً لما ذكر الله ورسوله بعد أن كان مفسراً عند الصحابة الذين نزل عليهم فخطب جسيم ، ولذلك كانت رواية أشهب في ذكر مدّين بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم في كفارة الظهار أحبّ إلينا من الرواية بأنها بمدّ هشام .

ألا ترى كيف نبّه مالك على هذا العلم بقوله لأشهب : الشبع عندنا بمدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والشّبع عندكم أكثر لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا لنا بالبركة .

وبهذا أقول ، فإن العبادة إذا أُديت بالسنة ، فإن كانت بالبدن كانت أسرع إلى القبول ، وإن كانت بالمال كان قليلها أثقل في الميزان ، وأبرك في يد الآخذ ، وأطيب في شدقه ، وأقل آفة في بطنه ، وأكثر إقامة لصلبه .

والله أعلم .

الثانية : ولا يجزىء عند مالك والشافعي أن يطعم أقل من ستين مسكيناً .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن أطعم مسكيناً واحداً كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزأه .

الثالثة : قال القاضي أبو بكر بن العربي : من غريب الأمر أن أبا حنيفة قال إن الحجر على الحر باطل .

واحتج بقوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ ولم يفرق بين الرشيد والسفيه ؛ وهذا فقه ضعيف لا يناسب قدره ، فإن هذه الآية عامّة ، وقد كان القضاء بالحجر في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشياً والنظر يقتضيه ، ومن كان عليه حجر لصغرٍ أو لولاية وبلغ سفيهاً قد نهى عن دفع المال إليه ، فكيف ينفذ فعله فيه والخاص يقضي على العام .

(99/751)

الرابعة : وحكم الظهار عند بعض العلماء ناسخ لما كانوا عليه من كون الظهار طلاقاً ؛ وقد روي معنى ذلك عن ابن عباس وأبي قِلابة وغيرهما .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي ذلك الذي وصفنا من التغليظ في الكفارة "لِتُؤْمِنُوا" أي لتصدقوا أن الله أمر به .

وقد استدل بعض العلماء على أن هذه الكفارة إيمان بالله سبحانه وتعالى ؛ لما ذكرها وأوجبها قال : ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي ذلك لتكونوا مطيعين لله تعالى واقفين

عند حدوده لا تتعدّوها ؛ فسمى التكفير لأنه طاعة ومراعاة للحد إيماناً ، فثبت أن كل ما أشبهه فهو إيمان .

فإن قيل : معنى قوله : ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي لئلا تعودوا للظهار الذي هو منكر من القول وزور .

قيل له : قد يجوز أن يكون هذا مقصوداً والأول مقصوداً ، فيكون المعنى ذلك لئلا تعودوا للقول المنكر والزور ، بل تدعونهما طاعة لله سبحانه وتعالى إذ كان قد حرمهما ، ولتجتنبوا المظاهر منها إلى أن تكفِّروا ؛ إذ كان الله منع من مسيسها ، وتكفّروا إذ كان الله تعالى أمر بالكفّارة وألزم إخراجها منكم ؛ فتكونوا بهذا كله مؤمنين بالله ورسوله ؛ لأنها حدود تحفظونها ، وطاعات تؤدّونها والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم إيمان . وبالله التوفيق .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أي بيّن معصيته وطاعته ، فمعصيته الظهار ، وطاعته الكفارة .

﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي لمن لم يصدّق بأحكام الله تعالى عذاب جهنم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى جـ 17 صـ ﴾

وقال الآلوسي :

﴿ والذين يظاهرون مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ الخ

تفصيل لحكم الظهار بعد بيان كونه أمراً منكراً بطريق التشريع الكلي المنتظم لحكم الحادثة انتظاماً أولياً ، والموصول مبتدأ ، وقوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ مبتدأ آخر خبره مقدر أي فعليهم تحرير رقبة ، أو فاعل فعل مقدر أي فيلزمهم تحرير ، أو خبر مبتدأ مقدر أي فالواجب عليهم ﴿ تَحْرِيرُ ﴾ ، وعلى التقادير الثلاثة الجملة خبر الموصول ودخلته الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، وما موصولة أو مصدرية ، واللام متعلقة ب ﴿ يَعُودُونَ ﴾ وهو يتعدى بها كما يتعدى بإلى .

وبفي فلا حاجة إلى تأويله بأحدهما كما فعل البعض ، والعود لما قالوا على المشهور عند الحنفية العزم على الوطء كأنه حمل العود على التدارك مجازاً لأن التدارك من أسباب العود إلى الشيء ، ومنه المثل عاد غيث على ما أفسد أي تداركه بالإطلاح ، فالمعنى والذين يقولون ذلك القول المنكر ثم يتداركونه بنقضه وهو العزم على الوطء فالواجب عليهم إعتاق رقبة .

﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ أي كل من المظاهر والمظاهر منها والتماس قيل : كناية عن الجماع فيحرم قبل التكفير على ما تدل عليه الآية ، وكذا دواعيه من التقبيل ونحوه عندنا ،

قيل : وهو قول مالك .

والزهري .

والأوزاعي .

(101/751)

والنخعي ، ورواية عن أحمد فإن الأصل أنه إذا حرم حرم بدواعيه إذ طريق المحرم محرم ، وعدم إطراد ذلك في الصوم والحيض لكثرة وجودهما فتحريم الدواعي يفضي إلى مزيد الحرج ، وقال العلامة ابن الهمام : التحقيق أن الدواعي منصوص على منعها في الظهار فإنه لا موجب لحمل التماس في الآية على المجاز لإمكان الحقيقة ، ويحرم الجماع لأنه من أفراد التماس كالمس والقبلة ، وقال غيره : تحرم أقسام الاستمتاع قبل التكفير لعموم لفظ التماس فيشملها بدلالة النص ، ومقتضى التشبيه في قوله : كظهر أمي فإن المشبه به لا يحل الاستمتاع به بوجه من الوجوه فكذا المشبه ، ويحرم عند الشافعية أيضاً الجماع قبله ، وكذا يحرم لمس ونحوه من كل مباشرة لا نظر بشهوة في الأظهر كما في المحرر ، وقال الإمام النووي عليه الرحمة : الأظهر الجواز لأن الحرمة ليست لمعنى يخل بالنكاح فأشبه الحيض ، ومن ثم حرم الاستمتاع فيه فيما بين السرة والركبة ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمام الكلام في هذا

المقام.

وحكى البيضاوي عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه أن نقض القول المراد بالعود بإباحة التمتع بها ولو بنظرة بشهوة، وحمل ذلك على استباحة التمتع بمباشرته بوجه مّا دون عدّه مباحاً من غير مباشرة.

ولعله أريد بالمباشرة بوجه ما مباشرة ليست من التماس الذي قالوا بحرمته قبل التفكير، وأياً مّا كان فظاهر تعليق الحكم بالموصول يدل على علية ما في حيز الصلة أعني الظهار والعود له فهما سببان للكفارة وهذا أحد أقوال في المسألة.

(102/751)

قال العلامة ابن الهمام: اختلف في سبب وجوبها فقال في "المنافع": تجب بالظهار والعود لأن الظهار كبيرة فلا يصلح سبباً للكفارة لأنها عبادة، أو المغلب فيها معنى العبادة ولا يكون المحظور سبباً للعبادة فعلق وجوبها بهما ليخف معنى الحرمة باعتبار العود الذي هو إمساك بمعروف فيكون دائراً بين الحظر والإباحة، وعليه فيصلح سبباً للكفارة الدائرة بين العبادة والعقوبة، وقيل: سبب وجوبها العود والظهار شرطه، ولفظ الآية أي المذكورة يحتملهما فيمكن كون ترتيبها عليهما، أو على الأخير لكن إذا أمكن البساطة صير إليها

لأنها الأصل بالنسبة إلى التركيب فلهذا قال في المحيط : سبب وجوبها العزم على الوطء والظهار شرطه ، وهو بناء على أن المراد من العود في الآية العزم على الوطء ، واعترض بأن الحكم يتكرر بتكرر سببه لا شرطه والكفارة متكررة بتكرر الظهار لا العزم ، وكثير من مشايخنا على أنه العزم على إباحة الوطء بناءاً على إرادة المضاف في الآية أي يعودون لضد ما قالوا أو لتداركه ، ويرد عليه ما يرد على ما قبله ، ونص صاحب المبسوط على أن بمجرد العزم لا تتقرر الكفارة حتى لو أبانها أو ماتت من بعد العزم فلا كفارة فهذا دليل على أنها غير واجبة لا بالظهار ولا بالعود إذ لو وجبت لما سقطت بل موجب الظهار ثبوت التحريم ، فإذا أراد رفعه وجب عليه في رفعه الكفارة كما تقول لمن أراد الصلاة النافلة : يجب عليك إن صليتها أن تقدم الوضوء انتهى .

ولا يخفى أن إرادة المضاف غير متعين بناءاً على ما نقل عن الكثير من المشايخ ، وأن ظاهر الآية يفيد السببية كما ذكرنا آنفاً ، ويكون الموجب للكفارة الأمران ، وبه صرح بعض الشافعية وجعل ذلك قياس كفارة اليمين ، ثم قال : وينافي ذلك وجوبها فوراً مع أن أحد سببيها وهو العود غير معصية لأنه إذا اجتمع حلال وحرام ولم يكن تميز أحدهما عن الآخر

غلب الحرام ، وظاهر كلام الإمام النووي عليه الرحمة أن موجبها الظهار والعود شرط فيه وهو بعكس ما نقل عن المحيط ، ثم إن من جعل السبب العزم أراد به العزم المؤكد حتى لو عزم ثم بدا له أن لا يطأها لا كفارة عليه لعدم العزم المؤكد لا أنها وجبت بنفس العزم .

ثم سقطت كما قال بعضهم لأنها بعد سقوطها لا تعود إلا بسبب جديد كذا في البدائع ، وذكر ابن نجيم في "البحر" عن التنقيح أن سبب الكفارة ما نسبت إليه من أمر دائر بين الحظر والإباحة ، ثم قال : إن كون كفارة الظهار كذلك على قول من جعل السبب مركباً من الظهار والعود ظاهر لكون الهظار محظوراً والعود مباحاً لكونه إمساكاً بالمعروف ونقضاً للزور .

وأما على القول بأن المضاف إليه وهو الظهار سبب وهو قول الأصوليين فكونه دائراً بين الحظر والإباحة مع أنه منكر من القول وزور باعتبار أن التشبيه يحتمل أن يكون للكرامة فلم يتمحض كونه جناية ، واستظهر بعد أنه لا ثمرة للاختلاف في سببها معللاً بأنهم اتفقوا على أنه لو عجلها بعد الظهار قبل العود جاز ولو كرر الظهار تكررت الكفارة وإن لم يتكرر العزم ، ولو عزم ثم ترك فلا وجوب ، ولو عزم ثم أبانها سقطت ولو عجلها قبل الظهار لم يصح ، ثم إنه لا استحالة في جعل المعصية سبباً للعبادة التي حكمها أن تكفر المعصية وتذهب السيئة خصوصاً إذا صار معنى الزجر فيها مقصوداً وإنما المحال أن تجعل سبباً للعبادة الموصولة

إلى الجنة انتهى ، ولا يخلو عن حسن ما عدا توجيه كون الظهار دائراً بين الحظر والإباحة فإنه كما ترى .

(104/751)

وفسر بعضهم العود بالرجوع واللام بعن كما نقل عن الفراء أي ثم يرجعون عما قالوا : فيريدون الوطء ، قال الزيلعي : وهذا تأويل حسن لأن الظهار موجبه التحريم المؤبد فإذا قصد وطأه وعزم عليه فقد رجع عما قال ، ولا يخفى أن جعل اللام بمعنى عن خلاف الظاهر ، وقيل : العود الرجوع ، والمراد بما قالوا ما حرموه على أنفسهم بلفظ الظهار وهو التماس تنزيلاً للقول منزلة المقول فيه نحو ما ذكر في قوله تعالى : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ [مريم : 80] والمعنى ثم يريدون العود للتماس ، وفيه تجوزان ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن معنى ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ ﴾ ثم يندمون ويتوبون أي يعزمون على التوبة ، كأنه حمل العود على التدارك والتائب متدارك لما صدر عنه بالتوبة .

واعترض بأنه يقتضي أنه إذا لم يندم لا تلزمه الكفارة وإذا جعلت الكفارة نفس التوبة فأين معنى العود ؟ وأيضاً لا معنى لقول القائل ثم يعزمون على الكفارة ﴿ فَتَحْرِيرُ ﴾ الخ ، والعود عند الشافعية يتحقق في غير مؤقت ورجعية بأن يمسكها على الزوجية ولو جهلاً

ونحوه بعد فراغ ظهاره ولو مكرراً للتأكيد وبعد علمه بوجود الصفة في المعلق وإن نسي أو جنّ وجودها زمن إمكان فرقة شرعاً فلا عود في نحو حائض إلا بالإمساك بعد انقطاع دمها لأن تشبيهها بالمحرم يقتضي فراقها فبعدم فعله صار ناقضاً له متداركاً لما قال ، فلو اتصل بلفظ الظهار فرقة بموت .

أو فسخ .

(105/751)

أو انفساخ بنحو ردة قبل وطء أو طلاق بائن أو رجعي ، ولم يراجع أو جن أو أغمي عليه عقب اللفظ ولم يمسكها بعد الإفاقة فلا عود للفرقة أو تعذرها أولا عنها في الأصح بشرط سبق القذف ، والرفع للقاضي ظهاره في الأصح ولو راجع من ظاهر منها رجعية أو من طلقها رجعياً عقب الظهار أو ارتد متصلاً وهي موطوءة ثم أسلم ، فالمذهب أنه عائد بالرجعة لأن المقصود بها استباحة الوطء لا بالإسلام لأن المقصود به العود للدين الحق والاستباحة أمر يترتب عليه إلا إذا أمسكها بعده زمناً يسع الفرقة ، وفي الظهار المؤقت الواقع كما التزم على الصحيح لخبر صحيح فيه الأصح أن العود لا يحصل بإمساك بل بوطء مشتمل على تغييب الحشفة أو قدرها من مقطوعها في المدة للخبر أيضاً ولأن الحل منتظر

بعدها ، فالإمساك يحتمل كونه لانتظاره أو للوطء فيها فلم يتحقق الامساك لأجل الوطء إلا بالوطء فيها فكان المحصل للعود .

واعترض ما قالوه بأن ﴿ ثُمَّ ﴾ تدل على التراخي الزماني .

والإمساك المذكور معقب لا متراخ فلا يعطف بثم بل بالفاء ، ورد بأن مدة الامساك ممتدة ، ومثله يجوز فيه العطف بثم والعطف بالفاء باعتبار ابتدائه وانتهائه ، وعلى هذا لا حاجة إلى القول بأنها للدلالة على أن العود أشد تبعة وأقوى إثماً من نفس الظهار حتى يقال عليه : إنه غير مسلم ، ولا إلى قول الإمام أن مشترك الالزام بين الشافعية والحنفية القائلين : بأن العود استباحة الاستمتاع فيمنع أيضاً لأن الاستباحة المذكورة عقب الظهار قولاً نادرة فلا يتوجه ذلك على الحنفية .

(106/751)

واعترض أيضاً بأن الظهار لم يوجب تحريم العقد حتى يكون العود إمساكها ، ومن تعليل الشافعية السابق يعلم ما فيه ، وفي التفريع لابن الجلاب المالكي أنه روى عن الإمام مالك في المراد بالعود روايتان : إحداهما أنه العزم على إمساكها بعد الظهار منها ، والرواية الأخرى أنه العزم على وطئها ، ثم قال : ومن أصحابنا من قال : العود في إحدى الروايتين عن مالك

هو الوطء نفسه ، والصحيح عندي ما قدمته انتهى من مدونه .

وابن حجر نسب القول : بأنه العزم على الوطء إلى الإمام مالك .

والإمام أحمد ، والقول : بأنه الوطء نفسه إلى الإمام أبي حنيفة ، وذكر أنهما قولان للإمام الشافعي في القديم ، وما حكاه عن الإمام أبي حنيفة لم يحكه عنه فيما نعلم أحد من أصحابه ، وحكاه الزيلعي عن الإمام مالك ، ولم يحك عنه غيره ، وحكاه أبو حيان في البحر عن الحسن .

وقتادة .

وطاوس .

والزهري .

وجماعة ، وأفاد أنه إحدى روايتين عن مالك ، وثانيتهما أنه العزم على الإمساك والوطء واعترض القول به ممن كان وكذا القول : بأنه العزم على الوطء بأن الآية لما نزلت ، وأمر صلى الله عليه وسلم المظاهر بالكفارة لم يسأله هل وطىء أو عزم على الوطء ؟ والأصل عدم ذلك ، والوقائع القولية كهذه يعممها الاحتمال ، وأنها ناصة على وجوب الكفارة قبل الوطء فيكون العود سابقاً عليه ، فكيف يكون هو الوطء ؟! وأجاب القائل : بأنه العزم على الوطء عن ترك السؤال بأن ذلك لعلمه عليه الصلاة والسلام به من خولة ، فقد أخرج الإمام أحمد .

وأبو داود .

وابن المنذر .

والطبراني .

وابن مردويه .

(107/751)

والبيهقي من طريق يوسف بن عبد الله بن سلام قال : حدثتني خولة بنت ثعلبة قالت : فيّ وفي أوس بن الصامت أنزل الله تعالى صدر سورة المجادلة كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه فدخل علي يوماً فراجعته بشيء فغضب فقال : أنت علي كظهر أمي ، ثم رجع فجلس في نادي قومه ساعة ثم دخل علي فإذا هو يريدني عن نفسي قلت : كلا والذي نفس خولة بيده لا تصل إلى وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فينا ، ثم جئت إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فذكرت له ذلك فما برحت حتى نزل القرآن الخبر ، فإن ظاهر قولها : فذكرت له ذلك أنها ذكرت كل ما وقع ، ومنه طلب أوس وطأها المكنى عنه يريدني عن نفسي ، وذكر ذلك له عليه الصلاة والسلام أهم لها من ذكرها إياه ليوسف بن عبد الله بن سلام .

وأجيب من جهة القائل : بأنه الوطء عن الأخير بأن المراد من الآية عند ذلك القائل من قبل أن يباح التماس شرعاً ، والوطء أولاً حرام موجب للتكفير وهو كما ترى ونقل عن الثوري . ومجاهد أن معنى الآية والذين كانت عادتهم أن يقولوا هذا القول المنكر فقطعوه بالإسلام ، ثم يعودون لمثله فكفارة من عاد أن يحرر رقبة ثم يماس المظاهر منها ، فحملا العود والقول على حقيقتهما ، وفي اعتبار العادة دلالة على أن العدول إلى المضارع في الآية للاستمرار فيما مضى وقتاً فوقتاً ، وأخذ القطع من دلالة ﴿ ثُمَّ ﴾ على التراخي ؛ وليصح على وجه لا يلزم تعليق وجوب الكفارة بتكرار لفظ الظهار كما سيأتي إن شاء الله تعالى حكايته .

(108/751)

وتعقب ذلك بأن فيه أن الاستمرار ينافي القطع ، ثم إنهم ما كانوا قطعوه بالإسلام لأن الشرع لم يكن ورد بعد بتحريمه ، وظاهر النظم الجليل أنه مظاهرة بعد الإسلام لأنه مسوق لبيان حكمه فيه ، وعليه ينطبق سبب النزول وهو يقتضي أن يكون مجرد الظهار من غير عود موجباً للكفارة ، وهو خلاف ما عليه علماء الأمصار ؛ وأجيب عن هذا الأخير بأنهما إن نقل عنهما ذلك اجتهاداً فلا يلزمهما موافقة غيرهما وهو المصرح به في كتاب "الأحكام" . وغيره ، وإن لم ينقل عنهما غير تفسير العود في الآية بما أشير إليه ، فيجوز أن يشترطا

لوجوب الكفارة شيئاً مما مر لكن لا يقولان : إنه المراد بالعود فيها ، وقال أهل الظاهر : المعنى الذين يقولون هذا القول المنكر ثم يعودون له فيكررونه بأن يقول أحدهم : أنت علي كظهر أمي ثم يعود له ويقوله ثانياً فكفارته تحرير رقبة الخ فحملوا العود والقول على حقيقتهما أيضاً .

وروي ذلك عن أبي العالية .

وبكير بن عبد الله بن الأشج .

والفراء أيضاً ، وحكاه أبو حيان رواية عن الإمام أبي حنيفة ، ولا نعلم أحداً من أصحابه رواه عنه ، وتعقب بأنه لو أريد ذلك لقيل : يعودون له فإنه أخصر ولا يبقى لكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ حسن موقع ، هذا ولا فقه فيه من حيث المعنى ، والمنزل فيه أعني قصة خولة يدفعه إذ لم ينقل التكرار ، ولا سأل عنه صلى الله عليه وسلم ، وهذا الدفع قوي ، وأما ما قيل : فقد أجيب عنه بأنه يحتمل أن يكون الفقه فيه أنه ليس صريحاً في التحريم فلعله يسبق لفظه به من غير قصد لمعناه ، فإذا كرره تعين أنه قصده وأن العدول عن له إلى ﴿ لِمَا قَالُواْ ﴾ لقصد التأكيد بالإظهار ، وأن العطف بثم لتراخي رتبة الثاني وبعده عن الأول لأنه الذي تحقق به

الظهار ، وقول الزيلعي في الاعتراض عليه : إن اللفظ لا يحتمله لأنه لو أريد ذلك لقيل : يعيدون القول الأول بضم الياء وكسر العين من الإعادة لا من العود جهل ناشىء من قلة العود لكلام الفصحاء والرجوع إلى محاوراتهم ، وقال أبو مسلم الأصفهاني : معنى العود أن يحلف أولاً على ما قال من الظهار بأن يقول : والله أنت علي كظهر أمي وهو عود لما قال وتكرار له معنى لأن القسم لكونه مؤكداً للمقسم عليه يفيد ذلك فلا تلزم الكفارة في الظهار من غير قسم عنده ، وهذا القول إلغاء للظهار معنى لأن الكفارة لحلفه على أمر كذب فيه ، وأيضاً المنزل فيه يدفعه إذ لم ينقل الحلف ولا سأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم والأصل عدمه ، وقيل : عوده تكراره الظهار معنى بأن يقول : أنت عليّ كظهر أمي إن فعلت كذا ثم يفعله فإنه يحنث وتلزمه الكفارة ، وتعد مباشرته ذلك تكريراً للظهار وليس بشيء كما لا يخفى ، وأما تعليق الظهار فقد ذكر الشافعية أنه يصح لأنه لاقتضاء التحريم كالطلاق والكفارة كاليمين وكلاهما يصح تعليقه ، فإذا قال : إن دخلت الدار فأنت عليّ كظهر أمي فدخلت ولو في حال جنونه أو نسيانه صح لكن لا عود عندهم في الصورة المفروضة حتى يمسكها عقب الإفاقة

أو تذكره وعلمه بوجود الصفة قدر إمكان طلاقها ولم يطلقها ، وقد أطالوا في تفاريع التعليق الكلام بما لا يسعه هذا المقام .

وعندنا أيضاً يصح تعليقه وكذا تقييده بيوم أو شهر ، ولا يبقى بعد مضي المدة ، نعم لو ظاهر واستثنى يوم الجمعة مثلاً لم يجز ولو علق الظهار بشرط ثم أبانها ثم وجد الشرط في العدة لا يصير مظاهراً بخلاف الإبانة المعلقة كما بين في محله ، وقال الأخفش : في الآية تقديم وتأخير وتقديرها والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة لما قالوا : ثم يعودون إلى نسائهم ولا يذهب إليه إلا أخفش أو أعشى أو أعمش ، وفي قوله تعالى : ﴿ مِن نِّسَائِهِمْ ﴾ دليل لنا وكذا للشافعي .

وأحمد .

وجمع كثير من الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عليهم أجمعين على أنه لو ظاهر من أمته الموطوأة أو غيرها لا يصح ، وبيان ذلك أنه يتناول نساءنا والأمة ، وإن صح إطلاق لفظ نسائنا عليها لغة لكن صحة الإطلاق لا تستلزم الحقيقة لأن حقيقة إضافة النساء إلى رجل أو رجال إنما تتحقق مع الزوجات دون الإماء لأنه المتبادر حتى يصح أن يقال : هؤلاء جواريه لا نساؤه ، وحرمة بنت الأمة ليس لأن أمها من نسائنا مرادة بالنص بل لأنها موطوءة وطءاً حلالاً عند الجمهور ، وبلا هذا القيد عندنا على أنه لو أريد بالنساء هناك ما تصح به الإضافة حتى يشمل المعنى الحقيقي وهن الزوجات .

والمجازي أعني الإماء بعموم المجاز لأمكن للاتفاق على ثبوت ذلك الحكم في الإماء كثبوته في الزوجات أما هنا فلا اتفاق ولا لزوم عندنا أيضاً ليثبت بطريق الدلالة لأن الإمام لسن في معنى الزوجات لأن الحل فيهن تابع غير مقصود من العقد ولا من الملك حتى يثبتا مع عدمه في الأمة المجوسية والمراضعة بخلاف عقد النكاح لا يصح في موضع لا يحتمل الحل ،

واستدل أيضاً بأن القياس شأنه أن لا يوجب هذا التشبيه الذي في الظهار سوى التوبة ، وورد الشرع بثبوت التحريم فيه في حق من لها حق الاستمتاع ولا حق للأمة فيه فيبقى في حقها على أصل القياس ، وبأن الظهار كان طلاقاً فنقل عنه إلى تحريم مغيا بالكفارة ولا طلاق في الأمة ، وهذا ليس بشيء للمتأمّل .

ونقل عن مالك .

والثوري صحة الظهار في الأمة مطلقاً ، وعن سعيد بن جبير .

وعكرمة .

وطاوس .

والزهري صحته في الموطوءة ، ثم إن الشرط كونها زوجة في الابتداء فلو ظاهر من زوجته

الأمة ثم ملكها بقي الظهار فلا يجوز له وطؤها حتى يكفر كما صرحوا به ، والمراد بالزوجة المنكوحة التي يصح إضافة الطلاق إليها فلا فرق بين مدخول بها وغيرها فلا يصح الظهار من مبانة ، ومنه ما سمعت آنفاً ولا من أجنبية إلا إذا أضافه إلى التزوج كأن قال لها : إن تزوجتك فأنت عليّ كظهر أمي ثم تزوجها فإنه يكون مظاهراً ، نعم في التاتارخانية : لو قال : إذا تزوجتك فأنت طالق ، ثم قال : إذا تزوجتك فأنت عليّ كظهر أمي فتزوجها يقع الطلاق ، ولا يلزم الظهار في قول أبي حنيفة ، وقال صاحباه : لزماه جميعاً ، وعن مالك أنه إذا ظاهر من أجنبية ثم نكحها لزم الظهار أضافه إلى التزوّج أم لا .

(112/751)

وقال بعض العلماء لا يصح ظهار غير المدخول بها ، وقال المزني : لا يصح ظهار المطلقة الرجعية ، وظاهر ﴿ الذين يظاهرون ﴾ يشمل العبد فيصح ظهاره ، وقد ذكر أصحابنا أنه يصح ظهار الزوج البالغ العاقل المسلم ويكفر العبد بالصوم ، ولا ينصف لما فيه من معنى العبادة كصوم رمضان ، ومثله المحجور عليه بالسفه على قولهما المفتي به .

وحكى الثعلبي عن مالك أنه لا يصح ظهار العبد ، ولا تدخل المرأة في هذا الحكم فلو ظاهرت من زوجها لم يلزم شيء كما نقل ذلك في التاتارخانية عن أبي يوسف ، وقال أبو

حيان : قال الحسن بن زياد : تكون مظاهرة ، وقال الأوزاعي .

وعطاء .

وإسحاق .

وأبو يوسف : إذا قالت المرأة لزوجها : أنت عليّ كظهر فلانة فهي يمين تكفرها ، وقال الزهري : أرى أن تكفر كفارة الظهار ولا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها أن يصيبها انتهى

، والرقبة من الحيوان معروفة ، وتطلق على المملوك ، وذلك من تسمية الكل باسم الجزء كما في المغرب ، وهو المراد هنا .

(113/751)

وفي "الهداية" هي عبارة عن الذات المرقوق من كل وجه فيجزىء في الكفارة إعتاق الرقبة الكافرة والمؤمنة والذكر والأنثى والكبير والصغير ولو رضيعاً لأن الاسم ينطلق على كل ذلك ، ومقتضى ذلك إجزاء إعتاق المرتد والمرتدة والمستأمن والحربي ، وفي التاتارخانية أن المرتد يجوز عند بعض المشايخ ، وعند بعضهم لا يجوز ، والمرتدة تجوز بلا خلاف أي لأنها لا تقتل ، وفي "الفتح" إعتاق الحربي في دار الحرب لا يجزيه في الكفارة ، وإعتاق المستأمن يجزيه ، وفي التاتارخانية لو أعتق عبداً حربياً في دار الحرب إن لم يخل سبيله لا

يجوز وإن خلي سبيله ففيه اختلاف المشايخ ، فبعضهم قالوا : لا يجوز وشمل الرقبة الصحيح والمريض فيجزى كل منهما واستثنى في الخانية مريضاً لا يرجى برؤه فإنه لا يجوز لأنه ميت حكماً ، وفي جواز إعتاق حلال الدم كلام : فحكي في "البحر" أنه إذا أعتق عبداً حلال الدم قد قضى بدمه ثم عفي عنه فلو كان أبيض العينين فزال البياض أو كان مرتداً فأسلم لا يجوز .

وفي "جامع الفقه" جاز المديون والمرهون ومباح الدم ، ويجوز إعتاق الآبق إذا علم أنه حي ، ولا بد أن تكون الرقبة غير المرأة المظاهر منها لما في الظهيرية .

والتاتارخانية أمة تحت رجل ظاهر منها ثم اشتراها وأعتقها كفارة ظهارها قيل : تجزى ، وقيل : لا تجزى في قول أبي حنيفة .

(114/751)

ومحمد خلافاً لأبي يوسف ، ويجوز الأصم استحساناً إذا كان بحيث إذا صيح عليه يسمع ، وفي رواية النوادر لا يجوز ولا تجزى العمياء ولا المقطوعة اليدين أو الرجلين ، وكذا مقطوع إبهام اليدين ومقطوع إحدى اليدين وإحدى الرجلين من جانب واحد والمجنون الذي لا يعقل ، ولا يجوز إعتاق المدبر وأم الولد ، وكذا المكاتب الذي أدى بعض المال وإن اشترى

أباه أو ابنه ينوي بالشراء الكفارة جاز عنها ، وإن أعتق نصف عبد مشترك وهو موسر فضمن قيمة باقية لم يجز عند الإمام ، وجاز عند صاحبيه ، وإن أعتق نصف عبده عن كفارته ثم جامع ثم أعتق باقيه لم يجزه عنده لأن الاعتاق يتجزأ عنده ، وشرط الإعتاق أن يكون قبل المسيس بالنص ؛ وإعتاق النصف حصل بعده ، وعندهما إعتاق النصف إعتاق الكل فحصل الكل قبل المسيس ، واشترط الشافعي عليه الرحمة كون الرقبة مؤمنة ولو تبعاً لأصل .

أو دار .

أو ساب حملاً للمطلق في هذه الآية على المقيد في آية القتل بجامع عدم الاذن في السبب .

وقال الحنفية : لا يحمل المطلق على المقيد إلا في حكم واحد في حادثة واحدة لأنه حينئذٍ يلزم ذلك لزوماً عقلياً إذ الشيء لا يكون نفسه مطلوباً إدخاله في الوجود مطلقاً ومقيداً كالصوم في كفارة اليمين .

ورد مطلقاً ومقيداً بالتتابع في القراءة المشهورة التي تجوز القراءة بمثلها ، والكلام في تحقيق هذا الأصل في الأصول .

وقالوا على تقدر التنزل إلى أصل الشافعية من الحمل مطلقاً : إنه لا يلزم من التضييق في كفارة الأمر الأعظم وهو القتل ثبوت مثله فيما هو أخف منه ليكون التقييد فيه بياناً في المطلق ، وما ذكروه من الجامع لا يكفي ، ووافقوا في كثير مما عدا ذلك ، وخالفوا أيضاً في

كثير فقالوا : يشترط في الرقبة أن تكون بلا عيب يخل بالعمل والكسب فيجزىء صغير ولو عقب ولادته .

وأقرع .

وأعرج يمكنه من غير مشقة لا تحتمل عادة تتابع المشي .

وأعور لم يضعف نظر سليمته حتى أخل بالعمل إخلالاً بيناً .

وأصم .

وأخرس يفهم إشارة غيره ويفهم غيره إشارته مما يحتاج إليه .

وأخشم .

وفاقد أنفه .

وأذنيه .

وأصابع رجليه .

وأسنانه .

وعنين .

ومجبوب .

ورتقاء .

وقرناء .

وأبرص .

ومجذوم .

وضعيف بطش .

ومن لا يحسن صنعة .

وولد زنا .

وأحمق وهو من يضع الشيء في غير محله مع علمه بقبحه وآبق .

ومغصوب .

وغائب علمت حياته أو بانت وإن جهلت حالة العتق لا زمن .

وجنين وإن انفصل لدون ستة أشهر من الإعتاق .

أو فاقد يد .

أو رجل .

أو أشل أحدهما .

أو فاقد خنصر وبنصر معاً من يد .

أو أنملتين من غيرهما .

أو أنملة إبهام كما قال النووي عليه الرحمة ولا هرم عاجز ؛ ولا من هو في أكثر وقته مجنون ولا مريض لا يرجى عند العتق برء مرضه كسلال فإن برأ بعد إعتاقه بأن الإجزاء في الأصح .

ولا من قدم لقتل بخلاف من تحتم قتله في المحاربة قبل الرفع للإمام ، ولا يجزى شراء أو تملك قريب أصل أو فرع بنية كفارة ولا عتق أم ولد ولا ذو كتابة صحيحة قبل تعجيزه ، ويجزى مدبر ومعلق عتقه بصفة غير التدبير ، وقالوا : لو أعتق معسر نصفين له من عبدين عن كفارة فالأصح الإجزاء إن كان باقيهما أو باقي أحدهما حرّاً إلى غير ذلك .

وفي الإتيان بالفاء في قوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ ﴾ الخ دلالة على ما قال بعض الأجلة : على تكرر وجوب التحرير بتكرر الظهار ، فإذا كان له زوجتان مثلاً فظاهر من كل منهما على حدة لزمه كفارتان .

(116/751)

وفي التلويح لو ظاهر من امرأته مرتين أو ثلاثاً في مجلس واحد أو مجالس متفرقة لزمه بكل ظهار كفارة ، وفي إطلاقه بحث ، فقد ذكر بعضهم أنه لو قصد التأكيد في المجلس الواحد لم تتعدد ، وفي شرح الوجيز للغزالي ما محصله : لو قال لأربع زوجات : أنتن عليّ كظهر أمي

فإن كان دفعة واحدة ففيه قولان ، وإن كان بأربع كلمات فأربع كفارات ، ولو كررها والمرأة واحدة فإما أن يأتي بها متوالية أولاً ، فعلى الأول : إن قصد التأكيد فواحدة وإلا ففيه قولان : القديم وبه قال أحمد واحدة كما لو كرر اليمين على شيء واحد ، والقول الجديد التعدد وبه قال أبو حنيفة .

ومالك وإذا لم تتوال أو قصد بكل واحدة ظهاراً أو أطلق ولم ينو التأكيد فكل مرة ظهار برأسه ، وفيه قول : إنه لا يكون الثاني ظهاراً إن لم يكفر عن الأول ، وإن قال : أردت إعادة الأول ففيه اختلاف بناءاً على أن الغالب في الظهار أن معنى الطلاق أو اليمين لما فيه من الشبهين انتهى .

وظاهر بعض عبارات أصحابنا أنه لو قيد الظهار بعدد اعتبر ذلك العدد ؛ ففي التتارخانية لو قال لأجنبية : إن تزوجتك فأنت عليّ كظهر أمي مائة مرة فعليه أي إذا تزوجها لكل كفارة ، وتدل الآية على أن الكفارة المذكورة قبل المسيس فإن مس أثم ولا يعاود حتى يكفر ، فقد روى أصحاب السنن الأربعة عن ابن عباس أن رجلاً وهو سلمة بن صخر الأنصاري كما في حديث أبي داود .

والترمذي .

وغيرهما ظاهر من امرأته فوقع عليها قبل أن يكفر فقال صلى الله عليه وسلم : " ما حملك على ذلك ؟! فقال : رأيت خلخالها في ضوء القمر وفي لفظ بياض ساقها قال عليه الصلاة

والسلام : فاعتزلها حتى تكفر " ولفظ ابن ماجه " فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن لا يقربها حتى يكفر " قال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب ، ونفى كونه صحيحاً ردّه المنذري في مختصره بأنه صححه الترمذي ورجاله ثقات مشهور سماع بعضهم من بعض .

(117/751)

وروى الترمذي وقال : حسن غريب عن ابن إسحاق بالسند إلى سلمة المذكور عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في المظاهر يواقع قبل أن يكفر : "كفارة واحدة تلزمه" ويردّ به على مجاهد في قوله : يلزمه كفارة أخرى ، ونقل هذا عن عمرو بن العاص .

وقبيصة .

وسعيد بن جبير .

والزهري .

وقتادة ، وعلى من قال تلزمه ثلاث كفارات ، ونقل ذلك عن الحسن .

والنخعي ، وبه .

وبما تقدم يردّ على ما قيل : من أنه تسقط الكفارة الواجبة عليه ولا يلزمه شيء ولا ترتفع

حرمة المسيس إلا بها لا بملك ولا بزوج ثان حتى لو طلقها من بعد الظهار ثلاثاً فعادت إليه من بعد زوج آخر أو كانت أمة فملكها بعد ما ظاهر منها لا يحل قربانها حتى يكفر ، وهو واجب على التراخي على الصحيح لكون الأمر الدالة عليه الآية مطلقاً حتى لا يأثم بالتأخير عن أول أوقات الامكان ، ويكون مؤدياً لا قاضياً ، ويتعين في آخر عمره ، ويأثم بموته قبل الأداء ، ولا تؤخذ من تركته إن لم يوص ولو تبرع الورثة في الإعتاق ، وكذا في الصوم لا يجوز كذا في "البدائع" فإن أوصى كان من الثلث ، وفي التاتارخانية لو كان مريد التكفير مريضاً فأعتق عبده عن كفارته وهو لا يخرج من ثلث ماله فمات من ذلك المرض لا يجوز عن كفارته وإن أجازت الورثة ، ولو أنه برىء من مرضه جاز ، وللمرأة مطالبته بالوطء والتكفير ؛ وعليها أن تمنعه من الاستمتاع بها حتى يكفر ، وعلى القاضي أن يجبره على التكفير دفعاً للضرر عنها بحبس فإن أبى ضربه ؛ ولو قال : قد كفرت صدّق ما لم يكن معروفاً عند الناس بالكذب .

(118/751)

هذا وبقيت مسائل أخر مذكورة في كتب الفقه ﴿ ذلكم ﴾ الإشارة إلى الحكم بالكفارة والخطاب للمؤمنين الموجودين عند النزول أو لهم ولغيرهم من الأمة ﴿ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ أي

تزجرون به عن ارتكاب المنكر ، فإن الغرامات مزاجر عن تعاطي الجنايات ، والمراد بيان أن المقصود من شرع هذا الحكم ليس تعريضكم للثواب بمباشرتكم لتحرير الرقبة الذي هو علم في استتباع الثواب العظيم بل هو ردعكم وزجركم عن مباشرة ما يوجبه كذا في "الإرشاد" ، وهو ظاهر في كون الكفارة عقوبة محضة ، وقد تقدم القول بأنها دائرة بين العبادة والعقوبة ، وكلام الزيلعي يدل على أن جهة العبادة فيها أغلب ، وفي شرح منهاج النووي لابن حجر في كتاب كفارة الظهار الكفارة من الكفر وهو الستر لسترها الذنب بمحوه أو تخفيف إثمه بناءاً على أن الكفارات زواجر كالتعازير أو جوابر للخلل ، ورجح ابن عبد السلام الثاني لأنها عبادة لافتقارها للنية أي فهي كسجود السهو .

والفرق بينها على الثاني وبين الدفن الكفارة للبص على ما هو المقرر فيه أنه يقطع دوام الإثم أن الدفن مزيل لعين ما به المعصية فلم يبق بعده شيء يدوم إثمه بخلافها هنا فإنها ليست كذلك ، وعلى الأول الممحو هو حق الله تعالى من حيث هو حقه ، وأما بالنظر لنحو الفسق بموجبها فلا بد فيه من التوبة نظير نحو الحد انتهى .

ومتى قيل : بأن الإعتاق المذكور كفارة وأن الكفارة تستر الذنب بمحوه أو تخفيف إثمه لم يكن بدّ من استتباعه الثواب وكون ذلك لا يعدّ ثواباً لا يخلو عن نظر ؛ ولعل المراد أن المقصود الأعظم من شرع هذا الحكم الردع والزجر عن مباشرة ما يوجبه دون التعريض للثواب ، وإن تضمنه في الجملة فتأمل ﴿ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال كالتفكير وما

يوجبه من جناية الظهار ﴿ خَبِيرٌ ﴾ أي عالم بظواهرها وبواطنها ومجازيكم بها فحافظوا على حدود ما شرع لكم ولا تخلو بشيء منها .

(119/751)

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾

أي فمن لم يجد رقبة فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين من قبل التماس ، والمراد بمن لم يجد من لم يملك رقبة ولا ثمنها فاضلاً عن قدر كفايته لأن قدرها مستحق الصرف فصار كالعدم ، وقدر الكفاية من القوت للمحترف قوت يوم .

وللذي يعمل قوت شهر على ما في "البحر" ومن له عبد يحتاج لخدمته واجد فلا يجزئه الصوم ، وهذا بخلاف من له مسكن لأنه كلباسه ولباس أهله ، وعند الشافعية المراد به من لم يملك رقبة أو ثمنها فاضلاً كل منهما عن كفاية نفسه وعياله العمر الغالب نفقة وكسوة وسكنى وأثاثاً لا بد منه ، وعن دينه ولو مؤجلاً .

وقالوا : إذا لم يفضل القنّ أو ثمنه عما ذكر لاحتياجه لخدمته لمنصب يأبى خدمته بنفسه أو ضخامة كذلك بحيث يحصل له بعتقه مشقة شديدة لا تحتمل عادة ولا أثر لفوات رفاهية أو مرض به أو بمونه فلا عتق عليه لأنه فاقد شرعاً كمن وجد ماءاً وهو يحتاجه لعطش وإلى

اعتبار كون ذلك فاقداً كواجد الماء المذكور ذهب الليث أيضاً .

والفرق عندنا على ما ذكره الرازي في أحكام القرآن أن الماء مأمور بإمساكه لعطشه واستعماله محظور عليه بخلاف الخادم ، واليسار والإعسار معتبران وقت التكفير والأداء ، وبه قال مالك ، وعن الشافعي أقوال في وقتهما أظهرها كما هو عندنا ، قالوا : لأن الكفار أعني الإعتاق عبادة لها بدل من غير جنسها كوضوء وتيمم وقيام صلاة وقعودها فاعتبر وقت أدائها ، وغلب الثاني كمذهب أحمد .

والظاهرية شائبة العقوبة فاعتبر وقت الوجوب كما لو زنى قنّ ثم عتق فإنه يحدّ حدّ القنّ والثالث الأغلظ من الوجوب إلى الأداء ، والرابع الأغلظ منهما ، وأعرض عما بينهما .

(120/751)

ومن يملك ثمن رقبة إلا أنه دين على الناس فإن لم يقدر على أخذه من مديونه فهو فاقد فيجزئه الصوم وإن قدر فواجد فلا يجزئه وإن كان له مال ووجب عليه دين مثله فهو فاقد بعد قضاء الدين ، وأما قبله فقيل فاقد أيضاً بناءاً على قول محمد أنه تحل له الصدقة المشير إلى أن ماله لكونه مستحقاً الصرف إلى الدين ملحق بالعدم حكماً ، وقيل : واجد لأن ملك المديون في ماله كامل بدليل أنه يملك جميع التصرفات فيه .

وفي "البدائع" لو كان في ملكه رقبة صالحة للتكفير فعليه تحريرها سواء كان عليه دين أو لم يكن لأنه واحد حقيقة، وحاصله أن الدين لا يمنع تحرير الرقبة الموجودة، ويمنع وجوب شرائها بما عنده من مثل الدين على أحد القولين، والظاهر أن الشراء متى وجب يعتبر فيه ثمن المثل، وصرح بذلك النووي.

وغيره من الشافعية فقالوا: لا يجب شراء الرقبة بغبن أي زيادة على ثمن مثلها نظير ما يذكر في شراء الماء للطهارة، والفرق بينهما بتكرر ذلك ضعيف، وعلى الأول كما قال الأذرعي.

وغيره نقلاً عن الماوردي واعتمدوه لا يجوز العدول للصوم بل يلزمه الصبر إلى الوجود بثمن المثل، وكذا لو غاب ماله فكيلف الصبر إلى وصوله أيضاً، ولا نظر إلى تضررهما بفوات التمتع مدة الصبر لأنه الذي ورط نفسه فيه انتهى.

(121/751)

وما ذكروه فيما لو غاب ماله موافق لمذهبنا فيه ولو كان عليه كفارتا ظهار لامرأتين وفي ملكه رقبة فقط فصام عن ظهار إحداهما، ثم أعتق عن ظهار الأخرى، ففي المحيط في نظير المسألة ما يقتضي عدم إجزاء الصوم عن الأولى قال: عليه كفارتا يمين، وعنده طعام

يكفي لإحداهما فصام عن إحداهما ثم أطعم عن الأخرى لا يجوز صومه لأنه صام وهو قادر على التكفير بالمال فلا يجزئه ، ويعتبر الشهر بالهلال فلا فرق بين التام والناقص فمن صام بالأهلة واتفق أن كل شهر تسعة وعشرون حتى صار مجموع الشهرين ثمانية وخمسين أجزأه ذلك وإن غم الهلال اعتبر كما في "المحيط" كل شهر ثلاثين وإن صام بغير الأهلة فلا بدّ من ستين يوماً كما في "فتح القدير" ، ويعتبر الشهر بالهلال عند الشافعية أيضاً ، وقالوا : إن بدأ في أثناء شهر حسب الشهر بعده بالهلال لتمامه وأتم الأول من الثالث ثلاثين لتعذر الهلال فيه بتلفقه من شهرين ، وعلى هذا يتفق كون صيامه ستين وكونه تسعة وخمسين ، ولا يتعين الأول كما لا يخفى فلا تغفل ، وإن أفطر يوماً من الشهرين ولو الأخير بعذر من مرض أو سفر لزم الاستئناف لزوال التتابع وهو قادر عليه عادة ، وقال أبو حيان : إن أفطر بعذر كسفر فقال ابن المسيب .

والحسن .

وعطاء .

وعمرو بن دينار .

والشعبي .

ومالك .

والشافعي في أحد قوليه : يبنى اه ، وإن جامع التي ظاهر منها في خلال الشهرين ليلاً عامداً أو نهاراً ناسياً استأنف الصوم عند أبي حنيفة .

(122/751)

ومحمد ، وقال أبو يوسف : لا يستأنف لأنه لا يمنع التتابع إذ لا يفسد به الصوم وهو الشرط ، ولهما أن المأمور به صيام شهرين متتابعين لا مسيس فيهما فإذا جامعها في خلالها لم يأت بالمأمور به ، وإن جامع زوجة أخرى غير المظاهر منها ناسياً لا يستأنف عند الإمام أيضاً كما لو أكل ناسياً لأن حرمة الأكل والجماع إنما هو للصوم لئلا ينقطع التتابع ولا ينقطع بالنسيان فلا استئناف بخلاف حرمة جماع المظاهرة فإنه ليس للصوم بل لوقوعه قبل الكفارة ، وتقدمها على المسيس شرط حلها ، فبالجماع ناسياً في أثنائه يبطل حكم الصوم المتقدم في حق الكفارة ، ثم إنه يلزم في الشهرين أن لا يكون فيهما صوم رمضان لأن التتابع منصوص عليه وشهر رمضان لا يقع عن الظهار لما فيه من إبطال ما أوجب الله تعالى ، وأن لا يكون فيهما الأيام التي نهى عن الصوم فيها وهي يوما العيدين وأيام التشريق لأن الصوم فيها ناقص بسبب النهي عنه فلا ينوب عن الواجب الكامل .

وفي "البحر" : المسافر في رمضان له أن يصومه عن واجب آخر ، وفي المريض روايتان ،

وصوم أيام نذر معينة في أثناء الشهرين بنية الكفارة لا يقطع التتابع ، ومن قدر على الإعتاق في اليوم الأخير من الشهرين قبل غروب الشمس وجب عليه الإعتاق لأن المراد استمرار عدم الوجود إلى فراغ صومهما وكان صومه حينئذٍ تطوعاً ، والأفضل إتمام ذلك اليوم وإن أفطر لا قضاء عليه لأنه شرع فيه مسقطاً لا ملتزماً خلافاً لزفر .

(123/751)

وفي تحفة الشافعية لو بان بعد صومهما أن له مالاً ورثه ولم يكن عالماً به لم يعتدّ بصومه على الأوجه اعتباراً بما في نفس الأمر أي وهو واجد بذلك الاعتبار ، وليس في بالي حكم ذلك عند أصحابنا ، ومقتضى ظاهر ما ذكروه فيمن تيمم وفي رحله ماء وضعه غيره ولم يعلم به من صحة تيممه الاعتداد بالصوم ههنا ، وقد صرح الشافعية فيمن أدرج في رحله ماءاً ولم يقصر في طلبه أو كان بقربه بئر خفية الآثار بعدم بطلان تيممه فلينظر الفرق بين ما هنا وما هناك ، ولعله التغليظ في أمر الكفارة دون التيمم فليرجع ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ﴾ أي صيام شهرين متتابعين ، وذلك بأن لم يستطع أصل الصيام أو بأن لم يستطع تتابعه لسبب من الأسباب ككبر أو مرض لا يرجى زواله كما قيده بذلك ابن الهمام .

وغيره وعليه أكثر الشافعية وقال الأقلون منهم كالإمام ومن تبعه وصححه في "الروضة" :

يعتبر دوامه في ظنه مدة شهرين بالعادة الغالبة في مثله أو بقول الأطباء ، قال ابن حجر : ويظهر الاكتفاء بقول عدل منهم ، وصرح الشافعية بأن من تلحقه بالصيام أو تتابعه مشقة شديدة لا تحتمل عادة وإن لم تبح التيمم فيما يظهر غير مستطيع ، وكذا من خاف زيادة مرض ، وفي حديث أوس على ما ذكر أبو حيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ فقال : والله يا رسول الله إني إذا لم آكل في اليوم والليلة ثلاث مرات كل بصري وخشيت أن تعشو عيني " الخبر ، وعدوا من أسباب عدم الاستطاعة الشبق وهو شدة الغلمة .

واستدل له بما أخرج الإمام أحمد .

وأبو داود .

وابن ماجه .

والترمذي وحسنه .

والحاكم وصححه .

وغيرهم عن سلمة بن صخر قال : كنت رجلاً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري فلما دخل رمضان ظاهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان فرقاً من أن أصيب منها في ليلي فأتتابع في ذلك ولا أستطيع أن أنزع حتى يدركني الصبح فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ تكشف لي منها شيء فوثبت عليها إلى أن قال فخرجت فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بخبري فقال :

" أنت بذاك ؟ قلت : أنا بذاك ، فقال : أنت بذاك ؟ قلت : أنا بذاك وها أنا ذا فامض في حكم الله تعالى فإني صابر لذلك قال : أعتق رقبة فضربت صفحة عنقي بيدي فقلت : لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها ، قال : فصم شهرين متتابعين ، فقلت : وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام ، قال : فأطعم ستين مسكيناً " الحديث فإنه أشار بقوله : " وهل أصابني " الخ إلى شدة شبقه الذي لا يستطيع معه صيام شهرين متتابعين ، وإنما لم يكن عذراً في صوم رمضان قال ابن حجر : لأنه لا بدل له ، وذكر أن غلبة الجوع ليست عذراً ابتداءاً لفقده حينئذٍ فيلزمه الشروع في الصيام فإذا عجز عنه أفطر .

وانتقل عنه للإطعام بخلاف الشبق لوجوده عند الشروع فيدخل صاحبه في عموم قوله تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ﴾ .

﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ لكل مسكين نصف صاع من بر .

أو صاع من تمر .

أو شعير ودقيق كل كأصله ، وكذا السويق ، وذلك لأخبار ذكرها ابن الهمام في "فتح القدير" ، والصاع أربعة أمداد .

وقال الشافعية : لكل مسكين مدّ لأنه صح في رواية ، وصح في الأخرى صاع ، وهي محمولة على بيان الجواز الصادق بالندب لتعذر النسخ فتعين الجمع بما ذكر مما يكون فطرة بأن يكون من غالب قوت محل المكفر في غالب السنة كالأقط ولو للبلدي فلا يجزىء نحو دقيق مما لا يجزى في الفطرة عندهم ، ومذهب مالك كما قال أبو حيان مدّ وثلث بالمدّ النبوي ، وروى عنه ابن وهب مدّان .

(125/751)

وقيل : مدّ وثلثا مدّ ، وقيل : ما يشبع من غير تحديد ، ولا فرق بين التمليك والإباحة عندنا فإن غدى الستين وعشاهم أو غدّاهم مرتين أو عشاهم كذلك أو غداهم وسحرهم أو سحرهم مرتين وأشبعهم بخبز بر أو شعير أو نحوه كذرة بإدام أجزأه ، وإن لم يبلغ ما شبعوا به المقدار المعتبر في التمليك ، ويعتبر اتحاد الستين فلو غدى مثلاً ستين مسكيناً وعشى ستين غيرهم لم يجز إلا أن يعيد على إحدى الطائفتين غداء أو عشاء ، ولو أطعم مائة وعشرين مسكيناً في يوم واحد أكلة واحدة مشبعة لم يجز إلا عن نصف الإطعام فإن أعاده على ستين

منهم أجزأه ، واشترط الشافعية التمليك اعتباراً بالزكاة وصدقة الفطر ، وهذا لأن التمليك أدفع للحاجة فلا ينوب منابه الإباحة ، ونحن نقول : المنصوص عليه هنا هو الإطعام وهو حقيقة في التمكين من الطعم ، وفي الإباحة ذلك كما في التمليك ، وفي الزكاة الإيتاء ، وفي صدقة الفطر الأداء ، وهما للتمليك حقيقة كذا في "الهداية" قال العلامة ابن الهمام : لا يقال : اتفقوا على جواز التمليك فلو كان حقيقة الإطعام ما ذكر كان مشتركاً معمماً أو في حقيقته ومجازه لأنا نقول : جواز التمليك عندنا بدلالة النص ، والدلالة لا تمنع العمل بالحقيقة كما في حرمة الشتم والضرب مع التأفيف فكذا هذا فلما نص على دفع حاجة الأكل فالتمليك الذي هو سبب لدفع كل الحاجات التي من جملتها الأكل أجوز فإنه حينئذٍ دافع لحاجة الأكل وغيره ، وذكر الواني أن الإطعام جعل الغير طاعماً أي آكلاً لأن حقيقة طعمت الطعام أكلته ، والهمزة تعديه إلى المفعول الثاني أي جعلته آكلاً ، وأما نحو أطعمتك هذا الطعام فيكون هبة وتمليكاً بقرينة الحال ، قالوا : والضابط أنه إذا ذكر المفعول الثاني فهو للتمليك وإلا فللإباحة ، هذا والمذكور في كتب اللغة أن الإطعام إعطاء الطعام وهو أعم من أن يكون تمليكاً أو إباحة انتهى فلا تغفل .

ويجوز الجمع بين الإباحة والتمليك لبعض المساكين دون البعض كما إذا ملك ثلاثين وأطعم ثلاثين غداءاً وعشاءاً وكذا لرجل واحد في إحدى روايتين كأن غداة مثلاً وأعطاه مدّاً وإن أعطى مسكيناً واحداً ستين يوماً أجزأه وإن أعطاه في يوم واحد لم يجزه إلا عن يومه لأن المقصود سدّ خلة المحتاج ، والحاجة تتجدد في كل يوم ، فالدفع إليه في اليوم الثاني كالدفع إليه في غيره ، وهذا في الإباحة من غير خلاف ، وأما التمليك من مسكين واحد بدفعات فقد قيل : لا يجزيه ، وقيل : يجزيه لأن الحاجة إلى التمليك قد تتجدد في يوم واحد بخلاف ما إذا دفع بدفعة لأن التفريق واجب بالنص ، وخالف الشافعية ، فقالوا : لا بد من الدفع إلى ستين مسكيناً حقيقة فلا يجزي الدفع لواحد في ستين يوماً ، وهو مذهب مالك ، والصحيح من مذهب أحمد وبه قال أكثر العلماء لأنه تعالى نص على ستين مسكيناف ، وبتكرر الحاجة في مسكين واحد لا يصير هو ستين فكان التعليل بأن المقصود سدّ خلة المحتاج الخ مبطلاً لمقتضى النص فلا يجوز ، وأصحابنا أشدّ موافقة لهذا الأصل ، ولذا قالوا : لا يجزىء الدفع لمسكين واحد وظيفة ستين بدفعة واحدة معللين له بأن التفريق واجب بالنص مع أن تفريق الدفع غير مصرح به ، وإنما هو مدلول التزامي لعدد المساكين فالنص على العدد أولى لأنه المستلزم ، وغاية ما يعطيه كلامهم أنه بتكرر الحاجة يتكرر المسكين حكما فكان تعدداً حكما ، وتمامه موقوف على أن ستين مسكيناً في الآية مراد به الأعم من الستين حقيقة أو حكماً .

ولا يخفى أنه مجاز فلا مصير إليه بموجبه ، فإن قلت : المعنى الذي باعتباره يصير اللفظ مجازاً ويندرج فيه التعدد الحكمي ما هو؟ قلت : هو الحاجة فيكون ستين سكيناً مجازاً عن ستين حاجة ، وهو أعم من كونها حاجات ستين أو حاجات واحد إذا تحقق تكررها إلا أن الظاهر إنما هو عدد معدوده ذوات المساكين مع عقلية أن العدد مما يقصد لما في تعميم الجميع من بركة الجماعة وشمول المنفعة واجتماع القلوب على المحبة والدعاء قاله في فتح القدير وهو كلام متين يظهر منه ترجيح مذهب الجمهور ، وذهب الأصحاب إلى أنه لا يشترط اتحاد نوع المدفوع لكل من المساكين فلو دفع لواحد بعضاً من الحنطة وبعضاً من الشعير مثلا جاز إذا كان المجموع قدر الواجب كأن دفع ربع صاع من بر ونصف صاع من شعير ، وجاز نحو هذا التكميل لاتحاد المقصود وهو الإطعام ولا يجوز دفع قيمة القدر الواجب من منصوص عليه ، وهو البر .

والشعير .

ودقيق كل ، وسويقه .

والزبيب .

والتمر إذا كانت من منصوص عليه آخر إلا أن يبلغ المدفوع الكمية المقدرة شرعاً فلو دفع نصف صاع تمر يبلغ قيمة نصف صاع بر لا يجوز ، فالواجب عليه أن يتم للذين أعطاهم القدر المقدر من ذلك الجنس الذي دفعه إليهم فإن لم يجدهم بأعيانهم استأنف في غيرهم ، ومن غير المنصوص كالأرز .

(128/751)

والعدس يجوز كما إذا دفع ربع صاع من أرز يساوي قيمة نصف صاع من بر مثلاً ، وذلك لأنه لا اعتبار لمعنى النص في المنصوص عليه وإنما الاعتبار في غير المنصوص عليه ، ونقل في ذلك خلاف الشافعي رحمه الله تعالى فلا يجوز دفع القيمة عنده مطلقاً ، ولا يجوز في الكفارة إعطاء المسكين أقل من نصف صاع من البر مثلاً فقط ، ففي التاتارخانية لو أعطى ستين مسكيناً كل مسكين مدّاً من الحنطة لم يجز ، وعليه أن يعيد مدّاً آخر على كل فإن لم يجد الأولين فأعطى ستين آخرين كلا مدّاً لم يجز ، ولو أعطى كلا من المساكين مدّاً ثم استغنوا ثم افتقروا فأعاد على كل مدّاً لم يجز ، وكذا لو أعطى المكاتبين مدّاً مدّاً ثم ردوا إلى الرق ومواليهم أغنياء ثم كوتبوا ثانياً ثم أعاد عليهم لم يجز لأنهم صاروا بحال لا يجوز دفع الكفارة إليهم فصاروا كجنس آخر ، وعليه فالمراد بستين مسكيناً ستون مسكيناً لم يعرض

لهم في أثناء الإطعام ما ينافي ذلك ، والظاهر أن فاعل إطعام هو المظاهر الغير المستطيع للصيام ، ولا فرق بين أن يباشر ذلك أو يأمر به غيره ، فإن أمر غيره فاطعم أجزأ لأنه استقراض معنى ، فالفقير قابض له أولا ثم يتحقق تملكه ثم تمليكه ، والمراد بالمسكين ما يعم الفقير ، وقد قالوا : المسكين والفقير إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا ، ويشترط أن لا يكون المطعم أصله .

أو فرعه .

أو زوجته .

أو مملوكه .

أو هاشمياً لمزيد شرفه فيجل عن هذه الغسالة ، ولا حربياً ولو مستأمناً لمزيد خسته فليس أهلاً لأدنى منفعة ، ويجوز أن يكون ذمياً ولو دفع بتحرّ فبان أنه ليس بمصرف أجزأه عندهما خلافاً لأبي يوسف كما في البدائع .

(129/751)

واستنبط الشافعية من التعبير بعدم الوجود عند الانتقال إلى الصوم ، وبعدم الاستطاعة عند الانتقال إلى الإطعام أنه لو كان له مال غائب ينتظره ولا يصوم ولو كان مريضاً يرجى برؤه

يطعم ولا ينتظر الصحة ليصوم ، وهو موافق لمذهبنا في الصوم لا في الاطعام كما سمعت ، ثم هذا الحكم في الأحرار أما العبد فلا يجوز له إلا الصوم لأنه لا يملك وإن ملك والاعتاق والإطعام شرطهما الملك فإن أعتق عنه المولى أو أطعم لم يجز ولو بأمره ، ويجب تقديم الإطعام على المسيس فإن قريب المظاهر المظاهرة في خلاله أثم ، ولم يستأنف لأنه عز وجل ما شرط فيه أن يكون قبل المسيس كما شرط فيما قبل ، ونحن لا نحمل المطلق على المقيد وإن كانا في حادثة واحدة بعد أن يكونا حكمين ، والوجوب قيل : لم يثبت إلا لتوهم وقوع الكفارة بعد التماس بيانه أنه لو قدر على العتق أو الصيام في خلال الاطعام أو قبله يلزمه التكفير بالمقدور عليه فلو جوز للعاجز عنهم القربان قبل الإطعام ، ثم اتفق قدرته فلزما لتكفير به لزم أن يقع العتق بعد التماس ، والمفضى إلى الممتنع ممتنع .

وتعقب بأن فيه نظراً فإن القدرة حال قيام العجز بالفقر والكبر والمرض الذي لا يرجى زواله أمر موهوم ، وباعتبار الأمور الموهومة لا تثبت الأحكام ابتداءاً بل يثبت الاستحباب ورعا فالأولى الاستدلال على حرمة المسيس قبل الإطعام لمن يتعين كفارة له بما ورد من حديث " اعتزالها حتى تكفر " ونحوه ، وما ذكر من أنه لو قدر على العتق مثلا خلال الإطعام لزم التكفير به خالف فيه الشافعية .

قال ابن حجر عليه الرحمة : لا أثر لقدرته على صوم أو عتق بعد الاطعام ولو لمدّ كما لو شرع في صوم يوم من الشهرين فقدر على العتق ، وأجاز بعض المسيس في خلال الاطعام من غير إثم ، ونقل ذلك عن أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه وهو توهم نشأ من عدم إيجابه الاستئناف ، وقد صرح في الكشاف بأنه لا فرق عند أبي حنيفة بين الكفارات الثلاث في وجوب تقديمها على المساس وإن ترك ذكره عند الإطعام للدلالة على أنه إذا وجد في خلال الإطعام لم يستأنف كما يستأنف الصوم .

وجعل بعضهم ذكر القيد فيما قبل وتركه في الإطعام دليلاً لأبي حنيفة في قوله : بعدم الاستئناف أي مع الإثم .

وتعقبه ابن المنير في الانتصاف بأن لقائل أن يقول لأبي حنيفة : إذا جعلت الفائدة في ذكر عدم التماس في بعضها وإسقاطه من بعضها الفرق بين أنواعها فلم جعلته مؤثراً في أحد الحكمين دون الآخر ؟ وهل التخصيص إلا نوع من التحكم ؟ ثم قال : وله أن يقول : اتفقنا على التسوية بين الثلاث في هذا الحكم أعني حرمة المساس قبل التكفير ، وقد نطقت الآية بالتفرقة فلم يمكن صرفها إلى ما وقع الاتفاق على التسوية فيه فتعين صرفه إلى الآخر ، هذا منتهى النظر مع أبي حنيفة ؛ وأطال الكلام في هذا المقام بما لا يخلو عن بحث على أصول الإمام .

وإذا عجز المظاهر عن الجميع قال الشافعية : استقرت في ذمته فإذا قدر على خصلة فعلها ولا أثر لقدرته على بعض عتق أو صوم بخلاف بعض الطعام ولو بعض ما يجب لواحد من المساكين فيخرجه ، ثم الباقي إذا أيسر ، والظاهر بقاء حرمة المسيس إلى أن يؤدي الكفارة تماماً ولم يبال باضرار المرأة بذلك لأن الأيسار مترقب كزوال المرض المانع من الجماع ، ولم أراجع حكم المسألة في الظاهر عند الحنفية ، وأما في الجماع في نهار رمضان الموجب للكفارة فقد قال ابن الهمام بعد نقل حديث الأعرابي الواقع على امرأته فيه العاجر عن الخصال الثلاثة ، وفيه : " فأتي النبي صلى الله عليه وسلم بعرق فيه تمر فقال : تصدق به ، فقال : أعلى أفقر مني يا رسول الله ؟ فوالله ما بين لابتيها أفقر مني ولا أهل بيت أفقر من أهل بيتي ، فضحك صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال : خذه فأطعمه أهلك " في لفظ لأبي داود زاد الزهري وإنما كان هذا رخصة له خاصة ، ولو أن رجلاً فعل ذلك اليوم لم يكن له بدّ من التكفير ، وجمهور العلماء على قوله ، وذكر النووي في "شرح صحيح مسلم" أن للشافعي في هذا العاجز قولين : أحدهما لا شيء عليه واحتج له بحديث الأعرابي المذكور عليه الصلاة والسلام لم يقل له : إن الكفارة ثابتة في ذمته بل أذن له في إطعام عياله

والثاني وهو الصحيح عند أصحابنا وهو المختار أن الكفارة لا تسقط بل تستقر في ذمته حتى يتمكن قياساً على سائر الديون والحقوق والمؤاخذات كجزاء الصيد وغيره ، وأما الحديث فليس فيه نفي استقرار الكفارة بل فيه دليل لاستقرارها لأنه أخبر النبي : صلى الله عليه وسلم بالعجز عن الخصال ثم أتى عليه الصلاة والسلام بعرق التمر فأمره بإخراجه في الكفارة فلو كانت تسقط بالعجز لم يكن عليه شيء فلم يأمره بالإخراج فدل على ثبوتها في ذمته ، وإنما أذن له في إطعام عياله لأنه محتاج إلى الإنفاق عليهم في الحال والكفارة واجبة على التراخي ، وإنما لم يبين عليه

(132/751)

الصلاة والسلام بقاءها في ذمته لأن تأخير البيان إلى وقت الحاجة جائز عند جماهير الأصوليين فهذا هو الصواب في معنى الحديث ، وحكم المسألة وفيها أقوال وتأويلات أخر ضعيفة انتهى .

ومن الناس من قال : لم يكن هناك تأخير بيان وإنما اكتفى صلى الله عليه وسلم بفهم الأعرابي عن التصريح له بالاستقرار ، والاخبار في وقوع مثل ذلك للمظاهر مضطربة كما لا يخفى على من راجع الدر المنثور للسيوطي .

ومسائل الظاهر كثيرة والمذاهب في ذلك مختلفة ، ومن أراد كمال الاطلاع فليرجع إلى كتب الفروع ، ولولا التأسي ببعض الأجلة لما ذكرنا شيئاً منها ، ومع هذا لا يخلو أكثره عن تعلق بتفسير الآية والله تعالى أعلم .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما مر من البيان والتعليم ، ومحله إما الرفع على الابتداء أو النصب بمضمر معلل بما بعده أي ذلك واقع أو فعلنا ذلك ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وتعملوا بشرائعه التي شرعها لكم وترفضوا ما كنتم عليه في جاهليتكم ﴿ وَتِلْكَ ﴾ الأحكام المذكورة ﴿ حُدُودَ اللهِ ﴾ التي لا يجوز تعديها فالزموها وقفوا عندها ﴿ وللكافرين ﴾ أي الذين يتعدونها ولا يعملون بها ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ على كفرهم وأطلق الكافر على متعدي الحدود تغليظاً لزجره ، ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العالمين ﴾ [آل عمران : 97] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(133/751)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ ﴾

قرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي بإدغام الدال في السين ، وقرأ الباقون بالإظهار .

قال الكسائي : من بيّن الدال عند السين ، فلسانه أعجميّ وليس بعربيّ ﴿ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ أي : تراجعك الكلام في شأنه ﴿ وَتَشْتَكِى إِلَى اللهِ ﴾ معطوف على تجادلك .

والمجادلة هذه الكائنة منها مع رسول الله أنه كان كلما قال لها : " قد حرمت عليه " ، قالت : والله ما ذكر طلاقاً ، ثم تقول : أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ، وإن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليّ جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء ، وتقول : اللّهم إني أشكو إليك ، فهذا معنى قوله : ﴿ وَتَشْتَكِى إِلَى اللهِ ﴾ قال الواحدي : قال المفسرون : نزلت هذه الآية في خولة بنت ثعلبة ، وزوجها أوس بن الصامت ، وكان به لمم ، فاشتد به لممه ذات يوم ، فظاهر منها ، ثم ندم على ذلك ، وكان الظهار طلاقاً في الجاهلية ، وقيل : هي خولة بنت حكيم ، وقيل : اسمها جميلة ، والأوّل أصح ، وقيل : هي بنت خويلد ، وقال الماوردي : إنها نسبت تارة إلى أبيها ، وتارة إلى جدّها ، وأحدهما أبوها ، والآخر جدّها ، فهي : خولة بنت ثعلبة بن خويلد ، وجملة ﴿ والله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُما ﴾ في محل نصب على الحال ، أو مستأنفة جارية مجرى التعليل لما قبلها أي : والله يعلم تراجعكما في الكلام ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ يسمع كل مسموع ، ويبصر كل مبصر ، ومن جملة ذلك ما جادلتك به هذه المرأة .

ثم بيّن سبحانه شأن الظهار في نفسه ، وذكر حكمه ، فقال : ﴿ الذين يظاهرون مِنكُمْ مّن نّسَائِهِمْ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ يظهرون ﴾ بالتشديد مع فتح حرف المضارعة .

(134/751)

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : (يظاهرون) بفتح الياء ، وتشديد الظاء ، وزيادة ألف ، وقرأ أبو العالية ، وعاصم ، وزرّ بن حبيش : (يظاهرون) بفك الإدغام ، ومعنى الظهار : أن يقول لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي ، ولا خلاف في كون هذا ظهاراً .

واختلفوا إذا قال : أنت عليّ كظهر ابنتي ، أو أختي ، أو غير ذلك من ذوات المحارم ، فذهب جماعة منهم أبو حنيفة ومالك إلى أنه ظهار ، وبه قال الحسن ، والنخعي ، والزهري ، والأوزاعي ، والثوري .

وقال جماعة منهم قتادة والشعبي : إنه لا يكون ظهاراً بل يختصّ الظهار بالأمّ وحدها .

واختلفت الرواية عن الشافعي ، فروي عنه كالقول الأوّل ، وروي عنه كالقول الثاني ، وأصل الظهار مشتق من الظهر .

واختلفوا إذا قال لامرأته : أنت عليّ كرأس أمي ، أو يدها ، أو رجلها ، أو نحو ذلك ؟ هل يكون ظهاراً أم لا وهكذا إذا قال : أنت عليّ كأمي ولم يذكر الظهر ، والظاهر أنه إذا قصد

بذلك الظهار كان ظهاراً .

وروي عن أبي حنيفة أنه إذا شبهها بعضو من أمه يحلّ له النظر إليه لم يكن ظهاراً ، وروي عن الشافعي أنه لا يكون الظهار إلاّ في الظهر وحده .

واختلفوا إذا شبّه امرأته بأجنبية فقيل : يكون ظهاراً وقيل : لا ، والكلام في هذا مبسوط في كتب الفروع .

وجملة : ﴿ مَّا هُنَّ أمهاتهم ﴾ في محل رفع على أنها خبر الموصول ، أي : ما نساؤهم بأمهاتهم ، فذلك كذب منهم ، وفي هذا توبيخ للمظاهرين وتبكيت لهم .

قرأ الجمهور ﴿ أمهاتهم ﴾ بالنصب على اللغة الحجازية في إعمال "ما" عمل ليس .

وقرأ أبو عمرو ، والسلمي بالرّفع على عدم الإعمال ، وهي لغة نجد ، وبني أسد .

(135/751)

ثم بيّن سبحانه لهم أمهاتهم على الحقيقة فقال : ﴿ إِنْ أمهاتهم إِلاَّ اللائى وَلَدْنَهُمْ ﴾ أي : ما أمهاتهم إلاّ النساء اللائي ولدنهم ، ثم زاد سبحانه في توبيخهم وتقريعهم ، فقال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مّنَ القول وَزُوراً ﴾ أي : وإن المظاهرين ليقولون بقولهم هذا منكراً من القول ، أي : فظيعاً من القول ينكره الشرع ، والزور : الكذب ، وانتصاب ﴿ منكراً ﴾ ، و ﴿

زوراً ﴾ على أنهما صفة لمصدر محذوف ، أي : قولاً منكراً وزوراً ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أي : بليغ العفو والمغفرة إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم عن هذا القول المنكر .

﴿ والذين يظاهرون مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ لما ذكر سبحانه الظهار إجمالاً ووبخ فاعليه شرع في تفصيل أحكامه ، والمعنى : والذين يقولون ذلك القول المنكر الزور ، ثم يعودون لما قالوا ، أي : إلى ما قالوا بالتدارك والتلافي ، كما في قوله : ﴿ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ ﴾ [النور : 17] أي : إلى مثله ، قال الأخفش : ﴿ لِمَا قَالُواْ ﴾ وإلى ما قالوا يتعاقبان . قال : ﴿ وَقَالُواْ الحمد لِلَّهِ الذى هَدَانَا لهذا ﴾ [الأعراف : 43] وقال : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ [الصافات : 23] وقال : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 5] وقال : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ ﴾ [هود : 36] وقال الفرّاء : اللام بمعنى عن ، والمعنى : ثم يرجعون عما قالوا ، ويريدون الوطء .

وقال الزجاج : المعنى : ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا .

قال الأخفش أيضاً : الآية فيها تقديم وتأخير ، والمعنى : والذين يظهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما كانوا عليه من الجماع ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ لما قالوا ، أي : فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا .

فالجار في قوله : ﴿ لِمَا قَالُواْ ﴾ متعلق بالمحذوف الذي هو خبر المبتدأ ، وهو فعليهم .

واختلف أهل العلم في تفسير العود المذكور على أقوال : الأوّل : أنه العزم على الوطء ، وبه قال العراقيون أبو حنيفة وأصحابه ، وروي عن مالك .

وقيل : هو الوطء نفسه ، وبه قال الحسن ، وروي أيضاً عن مالك .

وقيل : هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق ، وبه قال الشافعي .

وقيل : هو الكفارة ، والمعنى : أنه لا يستبيح وطأها إلاّ بكفارة ، وبه قال الليث بن سعد ، وروي عن أبي حنيفة .

وقيل : هو تكرير الظهار بلفظه ، وبه قال أهل الظاهر .

وروي عن بكير بن الأشبح ، وأبي العالية ، والفراء .

والمعنى : ثم يعودون إلى قول ما قالوا .

والموصول مبتدأ ، وخبره : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ على تقدير ، فعليهم تحرير رقبة ، كما تقدّم ، أو قالوا وجب عليهم إعتاق رقبة ، يقال : حررته ، أي : جعلته حرّاً ، والظاهر أنها تجزىء أيّ رقبة كانت ، وقيل : يشترط أن تكون مؤمنة كالرقبة في كفارة القتل ؛ وبالأول : قال أبو حنيفة وأصحابه ، وبالثاني : قال مالك ، والشافعي ، واشترطا أيضاً سلامتها من كل عيب ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ المراد بالتماس هنا : الجماع ، وبه قال الجمهور ، فلا يجوز للمظاهر الوطء حتى يُكَفّر ، وقيل : إن المراد به الاستمتاع بالجماع ، أو اللمس ، أو

النظر إلى الفرج بشهوة، وبه قال مالك، وهو أحد قولي الشافعي، والإشارة بقوله: ﴿ ذلكم ﴾ إلى الحكم المذكور وهو مبتدأ، وخبره: ﴿ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ أي: تؤمرون به، أو تزجرون به عن ارتكاب الظهار، وفيه بيان لما هو المقصود من شرع الكفارة.

قال الزجاج: معنى الآية ذلكم التغليظ في الكفارة توعظون به أي: إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فهو مجازيكم عليها.

(137/751)

ثم ذكر سبحانه حكم العاجز عن الكفارة، فقال: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ أي: فمن لم يجد الرّقبة في ملكه، ولا تمكن من قيمتها، فعليه صيام شهرين متتابعين متواليين لا يفطر فيهما، فإن أفطر استأنف إن كان الإفطار لغير عذر، وإن كان لعذر من سفر أو مرض، فقال سعيد بن المسيب، والحسن، وعطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، والشعبي، والشافعي، ومالك: إنه يبني، ولا يستأنف.

وقال أبو حنيفة: إنه يستأنف، وهو مرويّ عن الشافعي؛ ومعنى ﴿ مّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾: هو ما تقدّم قريباً، فلو وطىء ليلاً أو نهاراً عمداً أو خطأً استأنف، وبه قال أبو

حنيفة، ومالك.

وقال الشافعي: لا يستأنف إذا وطئ ليلاً؛ لأنه ليس محلاً للصوم، والأول أولى ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ﴾ يعني: صيام شهرين متتابعين ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ أي: فعليه أن يطعم ستين مسكيناً، لكل مسكين مدّان، وهما نصف صاع، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه.

(138/751)

وقال الشافعي وغيره: لكل مسكين مدّ واحد، والظاهر من الآية أن يطعمهم حتى يشبعوا مرّة واحدة، أو يدفع إليهم ما يشبعهم، ولا يلزمه أن يجمعهم مرّة واحدة، بل يجوز له أن يطعم بعض الستين في يوم، وبعضهم في يوم آخر، والإشارة بقوله: ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم ذكره من الأحكام، وهو مبتدأ، وخبره مقدّر، أي: ذلك واقع ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ويجوز أن يكون اسم الإشارة في محل نصب، والتقدير: فعلنا ذلك لتؤمنوا، أي: لتصدّقوا أن الله أمر به وشرعه، أو لتطيعوا الله ورسوله في الأوامر والنواهي، وتقفوا عند حدود الشرع ولا تتعدّوها، ولا تعودوا إلى الظهار الذي هو منكر من القول وزور، والإشارة بقوله: ﴿ وَتِلْكَ ﴾ إلى الأحكام المذكورة، وهو مبتدأ، وخبره: ﴿ حُدُودُ اللهِ ﴾ فلا تجاوزوا حدوده التي حدّها لكم، فإنه قد بيّن لكم أن الظهار معصية، وأن كفارته

المذكورة توجب العفو والمغفرة ﴿ وللكافرين ﴾ الذين لا يقفون عند حدود الله ، ولا يعملون بما حدّه الله لعباده ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهو عذاب جهنم ، وسماه كفراً تغليظاً وتشديداً .

وقد أخرج ابن ماجه ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي عن عائشة قالت : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى عليّ بعضه ، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي تقول : يا رسول الله أكل شبابي ، ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللَّهمّ إني أشكو إليك ، قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ وهو أوس بن الصامت .

(139/751)

وأخرج النحاس ، وابن مردويه ، والبيهقي عن ابن عباس قال : كان أوّل من ظاهر في الإسلام أوس ، وكانت تحته ابنة عمّ له يقال لها : خولة بنت خويلد ، فظاهر منها ، فأسقط في يده وقال : ما أراك إلاّ قد حرمت عليّ ، فانطلقي إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فاسأليه ، فأتت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه ،

فأخبرته ، فقال : " يا خولة ما أمرنا في أمرك بشيء " ، فأنزل الله على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " يا خولة أبشري " قالت : خيراً .

قال : " خيراً " ، فقرأ عليها ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ الآيات .

وأخرج أحمد ، وأبو داود ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقيّ من طريق يوسف بن عبد الله بن سلام قال : حدّثتني خولة بنت ثعلبة قالت : فيّ ، والله ، وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده ، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء ، فغضب فقال : أنت عليّ كظهر أمي ، ثم رجع ، فجلس في نادي قومه ساعة ، ثم دخل عليّ ، فإذا هو يريدني عن نفسي ، قلت : كلا والذي نفس خولة بيده لا تصل إليّ ، وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا ، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرت ذلك له ، فما برحت حتى نزل القرآن ، فتغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يتغشاه ، ثم سري عنه ، فقال لي : " يا خولة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك " ، ثم قرأ عليّ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التى تُجَادِلُكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مريه ، فليعتق رقبة" ، قلت : يا رسول الله ما عنده ما يعتق ، قال :

" فليصم شهرين متتابعين " ، قلت : والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام ، قال : " فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر " ، قلت : والله ما ذاك عنده ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فأنا سأعينه بعرق من تمر " ، فقلت : وأنا يا رسول الله سأعينه بعرق آخر ، فقال : " قد أصبت ، وأحسنت ، فاذهبي ، فتصدّقي به عنه ، ثم استوصي با بن عمك خيراً ، " قالت ، ففعلت وفي الباب أحاديث .

وأخرج ابن المنذر ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ قال : هو الرجل يقول لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي ، فإذا قال ذلك فليس يحلّ له أن يقربها بنكاح ، ولا غيره حتى يُكفر بعتق رقبة ﴿ فَمَنْ ﴾ فإن ﴿ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ والمسّ : النكاح ﴿ فَمَنْ ﴾ فإن ﴿ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ وإن هو قال لها : أنت عليّ كظهر أمي إن فعلت كذا ، فليس يقع في ذلك ظهار حتى يحنث ، فإن حنث ، فلا يقربها حتى يُكَفّر ، ولا يقع في الظهار طلاق .

وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال : ثلاث فيه مدّ : كفارة اليمين ، وكفارة الظهار ، وكفارة الصيام .

وأخرج البزار ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي عن ابن عباس قال : أتى رجل النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إني ظاهرت من امرأتي ، فرأيت بياض خلخالها في ضوء القمر ، فوقعت عليها قبل أن أُكفر ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ألم يقل الله : ﴿ مّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ " ، قال : قد فعلت يا رسول الله ، قال : " أمسك عنها حتى تُكَفر " وأخرج عبد الرزاق ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والحاكم ، والبيهقيّ عن ابن عباس أن رجلاً قال : يا رسول الله إني ظاهرت من امرأتي ، فوقعت عليها من قبل أن أُكفر ، فقال : " وما حملك على ذلك " ؟ قال : رأيت خلخالها في ضوء القمر ، قال : " فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله " وأخرج عبد الرّزاق ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، وأبو داود ، والترمذيّ وحسنه ، وابن ماجه ، والطبراني ، والبغوي في معجمه ، والحاكم وصححه عن سلمة بن صخر الأنصاريّ قال : كنت رجلاً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري ، فلما دخل رمضان ظاهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان ، فرقا من أن أصيب منها في ليلي ، فأتتابع في ذلك ، ولا أستطيع أن أنزع حتى يدركني الصبح ، فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ انكشف لي منها شيء ، فوثبت عليها ، فلما أصبحت غدوت على قومي ، فأخبرتهم خبري ، فقلت : انطلقوا معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بأمري ، فقالوا : لا ، والله لا نفعل نتخوّف أن ينزل فينا القرآن ، أو يقول فينا

رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالة يبقى علينا عارها ؛ ولكن اذهب أنت ، فاصنع ما بدا لك قال : فخرجت ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته خبري ، فقال :

(142/751)

" أنت بذاك ؟ " قلت : أنا بذاك ، قال : " أنت بذاك ؟ " قلت : أنا بذاك ، قال : " أنت بذاك ؟ " قلت : أنا بذاك ، وها أنا ذا ، فأمض فيّ حكم الله ، فإني صابر لذلك ، قال : " أعتق رقبة " ، فضربت عنقي بيدي ، فقلت : لا والذي بعثك بالحقّ ما أصبحت أملك غيرها ، قال : " فصم شهرين متتابعين " ، فقلت : هل أصابني ما أصابني إلاّ في الصيام ؟ قال : " فأطعم ستين مسكيناً " ، قلت : والذي بعثك بالحقّ لقد بتنا ليلتنا هذه وحشاً ما لنا عشاء ، قال : " اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق ، فقل له ، فليدفعها إليك ، فأطعم عنك منها وسقاً ستين مسكيناً ، ثم استعن بسائرها عليك ، وعلى عيالك " فرجعت إلى قومي فقلت : وجدت عندكم الضيق ، وسوء الرأي ، ووجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم السعة والبركة ، أمر لي بصدقتكم ، فادفعوها إليّ ، فدفعوها إليه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 181.185 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾

عطف على جملة ﴿ الذين يظّهّرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ﴾ [المجادلة : 2] أعيد المبتدأ فيها للاهتمام بالحكم والتصريح بأصحابه وكان مقتضى الكلام أن يقال : فإن يعودوا لما قالوا فتحرير رقبة ، فيكون عطفاً على جملة الخبر من قوله : ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ [المجادلة : 2] .

[

و﴿ ثمّ ﴾ عاطفة جملة ﴿ يعودون ﴾ على جملة ﴿ يظّهّرون ﴾ ، وهي للتراخي الرتبي تعريضاً بالتخطئة لهم بأنهم عادوا إلى ما كانوا يفعلونه في الجاهلية بعد أن انقطع ذلك بالإسلام .

ولذلك علق بفعل ﴿ يعودون ﴾ ما يدل على قولهم لفظ الظهار .

والعود : الرجوع إلى شيء تركه وفارقه صاحبه .

وأصله : الرجوع إلى المكان الذي غادره ، وهو هنا عوْد مجازي .

ومعنى ﴿ يعودون لما قالوا ﴾ يحتمل أنهم يعودون لما نطقوا به من الظهار .

وهذا يقتضي أن المظاهِر لا يَكون مظاهراً إلا إذا صدر منه لفظ الظهار مرة ثانية بعد أُولى .

وبهذا فسر الفراء .

وروي عن علي بن طلحة عن ابن عباس : بحيث يكون ما يصدر منه مرة أولى معفواً عنه .

غير أن الحديث الصحيح في قضية المجادِلة يدفع هذا الظاهر لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأوس بن الصامت : "أعتق رقبة" كما سيأتي من حديث أبي داود فتعين أن التكفير واجب على المظاهر من أول مرة ينطلق فيها بلفظ الظهار .

ويحتمل أن يراد أنهم يريدون العود إلى أزواجهم ، أي لا يحبون الفراق ويرومون العود إلى المعاشرة .

وهذا تأويل اتفق عليه الفقهاء عدا داود الظاهري وبُكير بن الأشج وأبا العالية .

(144/751)

وفي "الموطأ" قال مالك في قول الله عز وجل : ﴿ والذين يظّهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ﴾ قال سمعت : أن تفسير ذلك أن يُظاهر الرجل من امرأته ثم يُجمع على إصابتها

وإمساكها فإن أجمع على ذلك فقد وجبت عليه الكفارة وإن طلقها ولم يجمع بعد تظاهره منها على إمساكها فلا كفارة عليه .

وأقوال أبي حنيفة والشافعي والليثِ تحوم حول هذا المعنى على اختلاف في التعبير لا نطيل به .

وعليه فقد استعمل فعل ﴿ يعودون ﴾ في إرادة العودة كما استعمل فعل مستعمل في معنى إرادة العود والعزم عليه لا على العود بالفعل لأنه لو كان عوداً بالفعل لم يكن لاشتراط التفكير قبل المسِيس معنى ، فانتظم من هذا معنى : ثم يريدون العود إلى ما حرموه على أنفسهم فعليهم كفارة قبل أن يعودوا إليه على نحو قوله تعالى : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة : 6] أي إذا أردتم القيام ، وقوله : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ [النحل : 98] ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم " إذا سَألت فاسأل الله وإذا استعَنْت فاستعنْ بالله " .

وتلك هي قضية سبب النزول لأن المرأة ما جاءت مجادلة إلا لأنها علمت أن زوجها المظاهر منها لم يرد فراقها كما يدل عليه الحديث المروي في ذلك في كتاب أبي داود عن خويلة بنت مالك بن ثعلبة قالت : ظاهر منّي زوجي أوس بن الصامت فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم أشكو إليه ورسول الله يجادلني ويقول : اتقي الله .

فإنه ابن عمك ؟ فما برحتُ حتّى نزل القرآن .

فقال : "يعتق رقبة" .

قالت : لا يجد .

قال : "فيصوم شهرين متتابعين" .

قالت : إنه شيخ كبير ما بِه من صيام .

قال : "فليطعم ستين مسكيناً" .

قالت : ما عنده شيء يتصدق به .

فأُتي ساعتئذٍ بعَرَق من تمر قلت : يا رسول الله فإني أعينه بعرَق آخر .

قال : "قد أحسنتِ اذهبي فأَطعمي بهما عنه ستّين مسكيناً وارجعي إلى ابنِ عمّك" .

(145/751)

قال أبو داود في هذا : إنها كفرت عنه من غير أن تستأمره .

والمراد "بما قالوا" ما قالوا بلفظ الظهار وهو ما حَرموه على أنفسهم من الاستمتاع المفاد من

لفظ : أنتِ عليّ كظهر أمي ، لأن : أنت عليّ .

في معنى : قربانك ونحوه عليّ كمِثله من ظهر أمي .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ [مريم : 80] ، أي مالاً وولداً في قوله تعالى : ﴿

وقال لأوتين مالاً وولداً ﴾ [مريم : 77] ، وقوله : ﴿ قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم ﴾ [آل عمران : 183] أي قولكم حتى يأتينا بقربان تأكله النار .

ففعل القول في هذا وأمثاله ناصبُ لمفرد لوقوعه في خلاف جملة مقولة ، وإيثار التعبير عن المعنى الذي وقع التحْريم له .

فلفظ الظهار بالموصول وصلته هذه إيجاز وتنزيه للكلام عن التصريح به .

فالمعنى : ثم يرومون أن يرجعوا للاستمتاع بأزواجهم بعد أن حرموه على أنفسهم .

وفهم من قوله : ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ أن من لم يُرِد العود إلى امرأته لا يخلو حالهُ : فإما أن يريد طلاقها فله أن يوقع عليها طلاقاً آخر لأن الله أبطل أن يكون الظهار طلاقاً ، وإما أن لا يريد طلاقاً ولا عوداً .

فهذا قد صار ممتنعاً من معاشرة زوجه مضِرًّا بها فله حكم الإِيلاء الذي في قوله تعالى : ﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ﴾ [البقرة : 226] الآية .

وقد كانوا يجعلون الظهار إيلاء كما في قصة سلمة بن صخر البياضي .

ثم الزرقي في كتاب أبي داود قال : "كنت امرأ أُصِيب من النساء ما لا يصيب غيري فلما دخل شهر رمضان خفت أن أصيب من امرأتي شيئاً يُتايع بي (بتحتية في أوله مضمومة ثم مثناة فوقية ثم ألف ثم تحتية ، والظاهر أنها مكسورة .

والتتايع الوقوع في الشر فالباء في قوله : (بي) زائدة للتأكيد) حتى أُصبح ، فظاهرتُ منها

حتى ينسلخ شهر رمضان" .

الحديث .

(146/751)

واللام في قوله : ﴿ لما قالوا ﴾ بمعنى (إلى) كقوله تعالى : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ [الزلزلة : 5] ونظيره قوله : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : 28] .

وأحسب أن أصل اللام هو التعليل ، وهو أنها في مثل هذه المواضع إن كان الفعل الذي تعلقت به ليس فيه معنى المجيء حملت اللام فيه على معنى التعليل وهو الأصل نحو: ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ [الزلزلة : 5] ، وما يقع فيه حرف (إلى) من ذلك مجاز بتنزيل من يُفعل الفعل لأجله منزلةَ من يجيء الجائي إليه ، وإن كان الفعل الذي تعلقت به اللام فيه معنى المجيء مثل فعل العَوْد فإن تعلق اللام به يشير إلى إرادة معنى في ذلك الفعل بتمجّز أو تضمينٍ يناسبه حرف التعليل نحو قوله تعالى : ﴿ كل يجري لأجل مسمى ﴾ [الرعد : 2] ، أي جَرْيُه المستمر لقصده أجلاً يبلغه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : 28] أي عاودوا فعله ومنه ما في هذه الآية .

وفي "الكشاف" في قوله تعالى : ﴿ كل يجري لأجل مسمى ﴾ في سورة [الزمر : 5] أنه ليس مثل قوله تعالى : ﴿ كل يجري إلى أجل مسمى ﴾ في سورة [لقمان : 29] أي أنه ليس من تعاقب الحرفين ولا يَسلك هذه الطريقة إلا ضيّق العطن ، ولكن المعنيين أعني الاستعلاء والتخصيص كلاهما ملائم لصحة الغرض لأن قوله : إلى أجل ﴾ معناه يبلغه ، وقوله : ﴿ لأجل ﴾ يريد لإدراك أجل تجعل الجري مختصاً بالإدراك ا ه .

فيكون التقدير على هذا الوجه ثم يريدون العود لأجل ما قالوا ، أي لأجل رغبتهم في أزواجهم ، فيصير متعلّق فعل ﴿ يعودون ﴾ مقدّراً يدل عليه الكلام ، أي يعودون لما تركوه من العصمة ، ويصير الفعل في معنى : يندَمون على الفراق .

وتحصل من هذا أن كفارة الظهار شرعت إذا قصد المظاهر الاستمرار على معاشرة زوجه ، تحلةً لما قصده من التحريم ، وتأديباً له على هذا القصد الفاسد والقول الشنيع .

(147/751)

وبهذا يكون محمل قوله : ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ على أنه من قبل أن يمسّ زوجه مسّ استمتاع قبل أن يكفر وهو كناية عن الجماع في اصطلاح القرآن ، كما قال : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ﴾ [البقرة : 237] .

ولذلك جعلت الكفارة عِتق رقبة لأنه يَفتدي بتلك الرقبة رقبةَ زوجه .

وقد جعلها الله تعالى موعظة بقوله : ﴿ ذلكم توعظون به ﴾ .

واسم الإِشارة في قوله : ﴿ ذلكم ﴾ عائد إلى تحرير رقبة .

والوعظ : التذكير بالخير والتحذير من الشر بترغيب أو ترهيب ، أي فرضُ الكفارة تنبيه لكم لتتفَادَوْا مسيس المرأة التي طلقت أو تستمروا على مفارقتها مع الرغبة في العود إلى معاشرتها لئلا تعودوا إلى الظهار .

ولم يسم الله ذلك كفارة هنا وسمّاها النبي صلى الله عليه وسلم كفارة كما في حديث سلمة بن صخر البياضي في "جامع الترمذي" وإنما الكفارة من نوع العقوبة في أحد قولين عن مالك وهو قول الشافعي حكاه عنه ابن العربي في "الأحكام" .

فالمظاهر ممنوع من الاستمتاع بزوجته المظاهَر منها ، أي ممنوع من علائق الزوجية ، وذلك يقتضي تعطيل العصمة ما لم يكفر لأنه ألزم نفسه ذلك فإن استمتع بها قبل الكفارة كلها فليتُب إلى الله وليستغفر وتتعين عليه الكفارة ولا تتعدد الكفارة بسبب الاستمتاع قبل التكفير لأنه سبب واحد فلا يضرّ تكرر مسببه ، وإنما جعلت الكفارة زجراً ولذلك لم يكن وطء المظاهر امرأته قبل الكفارة زناً .

وقد روى أبو داود والترمذي حديث سلمة بن صخر البياضي أنه ظاهر من امرأته ثم وقع عليها قبل أن يكفر فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بكفارة واحدة ، وهو قول جمهور

العلماء .

وعن مجاهد وعبد الرحمن بن مهدي أن عليه كفارتين .

وتفاصيل أحكام الظهار في صيغته وغير ذلك مفصلة في كتب الفقه .

وقوله : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ تذييل لجملة ﴿ ذلكم توعظون به ﴾ ، أي والله عليم بجميع ما تعملونه من هذا التكفير وغيره .

(148/751)

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾

رخصة لمن لم يجد عتق رقبة أن ينتقل إلى صيام شهرين متتابعين لأنه لما لم يجد رقبة يعتاض بفكها عن فكّ عصمة الزوجة نقل إلى كفارة فيها مشقة النفس بالصبر على لذة الطعام والشراب ليدفع ما التزمه بالظهار من مشقة الصبر على ابتعاد حَليلته فكان الصوم درجة ثانية قريبة من درجة تحرير الرقبة في المناسبة .

وأعيد قيد ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ للدلالة على أنه لا يكون المسّ إلا بعد انقضاء الصيام ، فلا يظن أن مجرد شروعه في الصيام كافٍ في العود إلى الاستمتاع .

﴿ فمن لم يستطع ﴾ ، أي لعجزه أو ضعفه رخص الله له أن ينتقل إلى إطعام ستين مسكيناً عوضاً عن الصيام فالإطعام درجة ثالثة يدفع عن ستين مسكيناً ألم الجوع عوضاً عما كان التزمه على نفسه من مشقة الابتعاد عن لذّاته ، وإنما حددت بستين مسكيناً إلحاقاً لهذا بكفارة فطر يوم من رمضان عمداً بجامع أن كليهما كفارة عن صيام فكانت الكفارة متناسبة مع المكفر عنه مرتبة ترتيباً مناسباً .

وقد أجمل مقدار الطعام في الآية اكتفاء بتسميته إطعاماً فيحمل على ما يقصده الناس من الطعام وهو الشبع الواحد كما هو المتعارف في فعل طعم .

فحمله علماؤنا على ما به شبع الجائع فيقدر في كل قوم بحسب ما به شبع معتاد الجائعين .

وعن مالك رحمه الله في ذلك روايتان ، إحداهما : أنه مُدّ واحد لكل مسكين بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم والثانية : أنه مُدَّان أو مَا يقرب من المدّين وهو مدّ بمدّ هشام (بن إسماعيل المخزومي أمير المدينة) وقدرُه مدَّان إلا ثلث مدّ قال : قال أشهب : قلت لمالك : أيختلف الشبع عندنا وعندكم ؟ قال : نعم الشبع عندنا مدّ بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم والشبع عندكم أكثر (أي لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لأهل المدينة بالبركة) .

وقوله هذا يقتضي أن يكون الإطعام في المدينة مداً بمُدّ النبي صلى الله عليه وسلم مثل كفارة الفطر في رمضان فكيف جعله مالك مقدراً بمدّين أو بمُدّ وثلثين ، وقال : لو أطعم مدّاً ونصفَ مدّ أجزأه .

فتعين أن تضعيف المقدار في الإطعام مراعىً فيه معنى العقوبة على ما صنع ، وإلا فلا دليل عليه من نص ولا قياس .

قال أبو الحسن القابسي : إنما أخذ أهل المدينة بمدّ هشام في كفارة الظهار تغليظاً على المتظاهرين الذين شهد الله عليهم أنهم يقولون منكراً من القول وزوراً فهذا مما ثبت بعمل أهل المدينة .

وقدّر أبو حنيفة الشبع بمدّين بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم فلعله راعى الشبع في معظم الأقطار غير المدينة ، وقدّره الشافعي بمدّ واحد لكل مسكين قياساً على ما ثبت في السنة في كفارة الإفطار وكفارة اليمين .

ولم يذكر مع الإطعام قيدُ ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ اكتفاء بذكره مع تحرير الرقبة وصيام الشهرين ولأنه بدل عن الصيام ومجزّأ لمثل أيام الصيام .

هذا قول جمهور الفقهاء .

وعن أبي حنيفة أن الإطعام لا يشترط فيه وقوعه من قبل أن يتماسّا .

ثم إن وقع المسيس قبل الكفارة أو قبل إتمامها لم يترتب على ذلك إلا أنه آثم إذ لا يمكن أن

يترتب عليه أثر آخر ، وهذا ما بيّنه حديث سلمة بن صخر الذي شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه وقع على امرأته بعد أن ظاهر منها ، فأمره بأن لا يعود إلى مثل ذلك حتى يكفّر .

وهذا قول جمهور الفقهاء ، وقال مجاهد : عليه كفّارتان .

وصريح الآية أن تتابع الصيام شرط في التكفير ، وعليه فلو أفطر في خلاله دون عذر وجب عليه إعادته .

ولا يَمَسّ امرأته حتى يتم الشهران متتابعين فإن مسها في خلال الشهرين أثِم ووجب عليه إعادة الشهرين .

وقال الشافعي : إذا كان الوطء ليلاً لم يبطل التتابع لأن الليل ليس محلاً للصوم ، وهذا هو الجاري على القياس وعلى مقتضى حديث سلمة بن صخر .

وأما كون آثماً بالمسيس قبل تمام الكفارة فمسألة أخرى ، فمن العجب قول أبي بكر ابن العربي في كلام الشافعي أنه كلام من لم يذق طعم الفقه لأن الوطء الواقع في خلال الصوم ليس بالمحل المأذون فيه بالكفارة فإنه وطء تعدَ فلا بدّ من الامتثال للأمر بصوم لا يكون في أثنائه

وطء أهـ .

والمسكين : الشديد الفقر ، وتقدّم في سورة براءة .

والمظاهر إن كان قادراً على بعض خصال الكفارة وأبى أن يكفّر انقلب ظهارُه إيلاءً .

فإن لم ترض المرأة بالبقاء على ذلك فله أجل الإِيلاء فإن انقضى الأجل طلقت عليه امرأته إن طلبت الطلاق .

وإن كان عاجزاً عن خصال الكفارة كلها كان كالعاجز عن الوطء بعد وقوعه منه فتبقى العصمة بين المتظاهر وامرأته ولا يقربها حتى يكفر .

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بكفارة سلمة بن صخر من أموال بيت المال فحقّ على ولاة الأمور أن يدفعوا عن العاجز كفارة ظهاره فإن تعذر ذلك فالظاهر أن الكفارة ساقطة عنه ، وأنه يَعود إلى مسيس امرأته ، وتبقى الكفارة ذنباً عليه في ذمته لأن الله أبطل طلاق الظهار .

﴿ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ ﴾ .

الإِشارة إلى ما ذكر من الأحكام ، أي ذلك المذكورُ لتؤمنوا بالله ورسوله ، أي لتؤمنوا إيماناً كاملاً بالامتثال لما أمركم الله ورسوله فلا تشوبوا أعمال الإِيمان بأعمال أهل الجاهلية ، وهذا زيادة في تشنيع الظهار ، وتحذير للمسلمين من إيقاعه فيما بعد ، أو ذلك النقل من حرج الفراق بسبب قول الظهار إلى الرخصةِ في عدم الاعتداد به وفي الخلاص منه بالكفارة

، لتيسير الإِيمان عليكم فهذا في معنى قوله تعالى:

﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ [الحج : 78] .

و﴿ لتؤمنوا ﴾ خبر عن اسم الإِشارة ، واللام للتعليل .

(151/751)

ولما كان المشار إليه وهو صيام شهرين أو إطعام ستين مسكيناً عِوضاً عن تحرير رقبة كان من عُلّل به تحريرُ رقبة منسحباً على الصيام والإِطعام ، وما علّل به الصيام والإِطعام منسحباً على تحرير رقبة ، فأفاد أن كلاّ من تحرير رقبة وصيام شهرين وإطعام ستّين مسكيناً مشتمل على كلتا العلّتين وهما : الموعظة والإِيمان بالله ورسوله .

والإِشارة في ﴿ وتلك حدود الله ﴾ إلى ما أشير إليه بـ ﴿ ذلك ﴾ ، وجيء له باسم إشارةِ التّأنيث نظراً للإِخبار عنه بلفظ ﴿ حدود ﴾ إذ هو جمع يجوز تأنيث إشارته كما يجوز تأنيث ضميره ومثله قوله تعالى : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾ في سورة [البقرة : 229] .

وجملة وللكافرين عذاب أليم ﴾ تتميم لجملة ﴿ ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ ، أي : ذلك الحكم وهو إبطال التحريم بالظهار حكم الإِسلام .

وأما ما كانوا عليه فهو من آثار الجاهلية فهو سنة قوم لهم عذاب أليم على الكفر وما تولد منه من الأباطيل، فالظهار شرع الجاهلية.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ إنما النسيء زيادة في الكفر ﴾ [التوبة: 37]، لأنه وضعه المشركون ولم يكن من الحنيفية. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(152/751)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى:

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾

لا يخفى أن ترتيبه بالعتق على الظهار والعود معا يفهم منه أن الكفارة لا تلزم إلا بالظهار والعود معا وقوله من قبل أن يتماسا صريح في أن التكفير يلزم كونه قبل العود إلى المسيس.

اعلم أولا أن ما رجحه ابن حزم من قول داود وحكاه ابن عبد البر عن بكير بن الأشج والفراء وفرقة من أهل الكلام وقال به شعبة من أن معنى ثم يعودون لما قالوا هو عودهم إلى لفظ الظهار فيكررونه مرة أخرى قول باطل بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستفصل

المرأة التي نزلت فيها آية الظهار هل كرر زوجها صيغة الظهار أم لا وترك الاستفصال ينزل منزلة العموم في الأقوال كما تقدم مرارا والتحقيق أن الكفارة ومنع الجماع قبلها لا يشترط فيهما تكرير صيغة الظهار وما زعمه البعض أيضا من أن الكلام فيه تقديم وتأخير والذين يظاهرون من يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ثم يعودون لما قالوا سالمين من الإثم بسبب الكفارة غير صحيح أيضا لما تقرر في الأصول من وجوب الحمل على بقاء الترتيب إلا لدليل وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود:

كذلك ترتيب لايجاب العمل

بما له الرجحان مما يحتمل

وسنذكر إن شاء الله الجواب عن هذا الإشكال على مذاهب الأئمة الأربعة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين فنقول وبالله نستعين معنى العود عند مالك فيه قولان تؤولت المدونة على كل واحد منهما وكلاهما مرجح.

الأول _ أنه العزم على الجماع فقط _ الثاني _ أنه العزم على الجماع وإمساك الزوجة معا وعلى كلا القولين فلا أشكال في الآية لأن المعنى حينئذ والذين يظاهرون من نسائهم ثم

يعزمون على الجماع أو عليه مع الإمساك فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا فلا منافاة بين العزم على الجماع أو عليه مع الإمساك وبين الإعتاق قبل المسيس وغاية ما يلزم على هذا القول حذف الإرادة وهو واقع في القرآن كقوله تعالى: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ ﴾ أي أردتم القيام إليها .

وقوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾ أي أردت قراءته فاستعذ بالله الآية .

(154/751)

ومعنى العود عند الشافعي أن يمسكها بعد المظاهرة زمانا يمكنه أن يطلقه فيه فلا يطلق وعليه فلا إشكال في الآية أيضا لأن إمساكه إياها الزمن المذكور لا ينافي التكفير قبل المسيس كما هو واضح ومعنى العود عند أحمد هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه أما العزم فقد بينا أنه لا إشكال في الآية على القول به وأما على القول بأنه الجماع فالجواب أنه إن ظاهر وجامع قبل التكفير يلزمه الكف عن المسيس مرة أخرى حتى يكفر ولا يلزم من هذا جواز الجماع الأول قبل التكفير لأن الآية على هذا القول إنما بينت حكم ما إذا وقع الجماع قبل التكفير وأنه وجوب التكفير قبل مسيس آخر وأما الإقدام على المسيس الأول فحرمته معلومة من عموم قوله: ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ ومعنى العود عند أبي حنيفة رحمه الله

تعالى هو العزم على الوطء وعليه فلا إشكال كما تقدم وما حكاه الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره عن مالك من أنه حكي عنه أن العود الجماع فهو خلاف المعروف من مذهبه وكذلك ما حكاه عن أبي حنيفة من أن العود هو العود إلى الظهار بعد تحريمه ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية فهو خلاف المقرر في فروع الحنفية من أنه العزم على الوطء كما ذكرنا وغالب ما قيل في معنى العود راجع إلى ما ذكرنا من أقوال الإئمة رحمهم الله وقال بعض العلماء المراد بالعود الرجوع إلى الاستمتاع بغير الجماع والمراد بالمسيس في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ خصوص الجماع وعليه فلا إشكال ولكن لا يخفى عدم ظهور هذا القول والتحقيق عدم جواز الاستمتاع بوطء أو غيره قبل التكفير لعموم قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ وأجاز بعضهم الاستمتاع بغير الوطء قائلا إن المراد بالمسيس في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ نفس الجماع لا مقدماته وممن قال بذلك الحسن البصري والثوري وروي عن الشافعي في أحد القولين وقال بعض العلماء اللام في قوله: ﴿لِمَا قَالُوا﴾ بمعنى في أي يعودون فيما

قالوا بمعنى يرجعون عنه قوله صلى الله عليه وسلم: "الواهب العائد في هبته" .

الحديث .

وقيل اللام بمعنى عن أي يعودون لما قالوا أي يرجعون عنه وهو قريب مما قبله .

قال مقيده عفا الله عنه: الذي يظهر والله تعالى أعلم أن العود له مبدأ ومنتهى فمبدؤه العزم على الوطء ومنتهاه الوطء بالفعل فمن عزم على الوطء فقد عاد بالنية فتلزمه الكفارة لإباحة الوطء ومن وطء بالفعل تحتم في حقه اللزوم وخالف بالإقدام على الوطء قبل التكفير ويدل لهذا أنه صلى الله عليه وسلم لما قال: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار" وقالوا" "يا رسول الله قد عرفنا القاتل فما بال المقتول ؟" قال: "إنه كان حريصا على قتل صاحبه" فبين أن العزم على الفعل عمل يؤخذ به الإنسان فإن قيل ظاهر الآية المتبادر منها يوافق قول الظاهرية الذي قدمنا بطلانه لإن الظاهر المتبادر من قوله لما قالوا أنه صيغة الظهار فيكون العود لها تكريرها مرة أخرى .

فالجواب أن المعنى لما قالوا أنه حرام عليهم وهو الجماع ويدل لذلك وجود نظيره في القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ أي ما يقول أنه يؤته من مال وولد في قوله: ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ وما ذكرنا من أن من جامع قبل التكفير يلزمه الكف عن المسيس مرة أخرى حتى يكفر هو التحقيق خلافا لمن قال تسقط الكفارة بالجماع قبل المسيس كما روي عن الزهري وسعيد بن جبير وأبي يوسف ولمن قال تلزم به كفارتان كما روي عن عبد الله بن عمرو بن

العاص وعبد الرحمن بن مهدي ولمن قال تلزم به ثلاثة كفارات كما رواه سعيد بن منصور عن الحسن وإبراهيم والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 290.286 ﴾

(156/751)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾

أخرج سعيد بن منصور والبخاري تعليقاً وعبد بن حميد والنسائي وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه في سننه عن عائشة قالت : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تكلمه وأنا في ناحية البيت لا أسمع ما تقول فأنزل الله ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج ابن ماجة وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن عائشة قالت : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه ، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول : يا رسول الله أكل

شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إني أشكو إليك ، فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ وهو أوس بن الصامت .

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن زيد قال : لقي عمر بن الخطاب امرأة يقال لها خولة وهو يسير مع الناس فاستوقفته ، فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها رأسه ووضع يديه على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت ، فقال له رجل يا أمير المؤمنين : حبست رجال قريش على هذه العجوز ، قال : ويحك وتدري من هذه ؟ قال : لا . قال : هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولة بنت ثعلبة والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها .

(157/751)

وأخرج البخاري في تاريخه وابن مردويه عن ثمامة بن حزن قال : بينما عمر بن الخطاب يسير على حماره لقيته امرأة فقالت : قف يا عمر ، فوقف ، فأغلظت له القول ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين ما رأيت كاليوم ، فقال : وما يمنعني أن أستمع إليها وهي التي استمع الله لها أنزل فيها ما نزل ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ .

وأخرج أحمد وأبو داود وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي من طريق يوسف بن عبد الله بن سلام قال : " حدثتني خولة بنت ثعلبة قالت : فيّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء فغضب فقال : أنت علي كظهر أمي ، ثم رجع فجلس في نادي قومه ساعة ، ثم دخل عليّ فإذا هو يريدني عن نفسي ، قلت : كلا والذي نفس خولة بيده لا تصل إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا ، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرت له ذلك ، فما برحت حتى نزل القرآن ، فتغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يتغشاه ، ثم سرّي عنه ، فقال لي : يا خولة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك ثم قرأ عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ إلى قوله : ﴿ عذاب أليم ﴾ فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : مريه فليعتق رقبة قلت يا رسول الله : ما عنده ما يعتق ، قال : فليصم شهرين متتابعين ، قلت : والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام ، قال : فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر ، قلت : والله ما ذاك عنده ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإنا سنعينه بعرق من تمر ، قلت : وأنا يا رسول الله سأعينه بعرق آخر ، قال : فقد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه ثم استوصي بابن عمك خيراً . قالت : ففعلت " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه والبيهقي " عن عطاء بن يسار أن أوس بن الصامت ظاهر من امرأته خولة بنت ثعلبة ، فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، وكان أوس بن لمم ، فنزل القرآن ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ﴾ فقال لامرأته : مريه فليعتق رقبة ، فقالت يا رسول الله : والذي أعطاك ما أعطاك ما جئت إلا رحمة له إن له فيّ منافع والله ما عنده رقبة ولا يملكها ، قالت : فنزل القرآن وهي عنده في البيت ، قال : مريه فليصم شهرين متتابعين ، فقالت : والذي أعطاك ما أعطاك ما قدر عليه ، فقال : مريه فليتصدق على ستين مسكيناً ، فقالت : يا رسول الله ما عنده ما يتصدق به ، فقال : يذهب إلى فلان الأنصاري فإن عنده شطر وسق تمر أخبرني أنه يريد أن يتصدق به فليأخذ منه ثم ليتصدق على ستين مسكيناً " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في السنن عن عائشة أن خولة كانت امرأة أوس بن الصامت ، وكان إمرأ به لمم فإذا اشتد لممه ظاهر من امرأته فأنزل الله فيه كفارة الظهار .

وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقي من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : كان الرجل في الجاهلية لو قال لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي حرمت عليه ، وكان أول من ظاهر في الإسلام أوس بن الصامت ، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها خولة فظاهر منها فأسقط في

يده وقال : ما أراك إلا قد حرمت عليّ فانطلقي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاسأليه ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فأخبرته فقال : يا خولة ما أمرنا في أمرك بشيء ، فأنزل الله على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا خولة ابشري قالت : خيراً قال : خيرا فأنزل الله على النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليها ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ الآيات .

(159/751)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس " أن خولة أو خويلة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن زوجي ظاهر مني ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : ما أراك إلا قد حرمت عليه ، فقالت أشكو إلى الله فاقتي ، فأنزل الله ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال في القرآن ما أنزل الله جملة واحدة ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ﴾ كان هذا قبل أن تخلق خولة لو أن خولة أرادت أن لا تجادل لم يكن ذلك لأن الله كان قد قدر ذلك عليها قبل أن يخلقها .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾

وذلك " أن خولة امرأة من الأنصار ظاهر منها زوجها ، فقال : أنت عليّ كظهر أمي فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن زوجي كان تزوجني وأنا أحب الناس إليه حتى إذا كبرت ودخلت في السن قال : أنت عليّ كظهر أمي وتركني إلى غير أحد ، فإن كنت تجد لي رخصة يا رسول الله تنعشني وإياه بها فحدثني بها ، قال : والله ما أمرت في شأنك بشيء حتى الآن ، ولكن ارجعي إلى بيتك فإن أومر بشيء لا أعميه عليك إن شاء الله ، فرجعت إلى بيتها فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم في الكتاب رخصتها ورخصة زوجها فقال : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ إلى قوله : ﴿ عذاب أليم ﴾ فأرسل إلى زوجها ، فقال : هل تستطيع أن تعتق رقبة؟ قال : إذن يذهب مالي كله ، الرقبة غالية وأنا قليل المال ، قال : هل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال : والله لولا أني آكل كل يوم ثلاث مرات لكلّ بصري ، قال : هل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟ قال : لا والله إلا أن تعينني ، قال : إني معينك بخمسة عشر صاعاً " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه " أن أوس بن الصامت ظاهر من امرأته خولة بنت ثعلبة فشكت ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ظاهر مني زوجي

حين كبر سني ودق عظمي فأنزل الله آية الظهار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعتق رقبة قال : مالي بذلك يدان ، فصم شهرين متتابعين ، قال : إني إذا أخطأني أن آكل في اليوم ثلاث مرات يكل بصري ، فأطعم ستين مسكيناً قال : ما أجد إلا أن تعينني فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة عشر صاعاً حتى جمع الله له أهله " " .

وأخرج ابن مردويه عن الشعبي قال : المرأة التي جادلت في زوجها خولة بنت ثعلبة وأمها معاذة التي أنزل الله فيها ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ﴾ [النور : 33] وكانت أمة لعبد الله بن أبيّ .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن محمد بن سيرين قال : " إن أول من ظاهر في الإسلام زوج خويلة ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إن زوجي ظاهر مني وجعلت تشكو إلى الله فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : ما جاءني في هذا شيء ، قالت : فإلى من يا رسول الله إن زوجي ظاهر مني ، فبينما هي كذلك إذ نزل الوحي ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ حتى بلغ ﴿ فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ﴾ ثم حبس الوحي فانصرف إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاها عليها ، فقالت : لا يجد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هو ذاك فبينما هي كذلك إذا نزل الوحي ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ﴾ ثم حبس الوحي فانصرف إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلاها عليها فقالت : لا يستطيع أن يصوم يوماً واحداً قال : هو ذاك

فبينما هي كذلك إذ نزل الوحي ﴿ فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ﴾ فانصرف إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاها عليها فقالت : لا يجد يا رسول الله قال : إنا سنعينه " .

(161/751)

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء الخراساني قال : أعانه النبي صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعاً .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي زيد المدني رضي الله عنه أن امرأة جاءت بشطر وسق من شعير فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم أي مدين من شعير مكان مدّ من بر .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن النبي صلى الله عليه وسلم أعانه بخمسة عشر صاعاً من شعير .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه " أن رجلاً ظاهر من امرأته على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وكان الظهار أشد من الطلاق وأحرم الحرام ، إذا ظاهر من امرأته لم ترجع إليه أبداً فأتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا نبي الله إن زوجي وأبا ولدي ظاهر مني وما يطلع إلا الله على ما يدخل عليّ من فراقه ، فقال لها النبي صلى الله

عليه وسلم : قد قال ما قال : قالت : فكيف أصنع ودعت الله واشتكت إليه فأنزل الله ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ﴾ إلى آخر الآيات فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجها فقال : تعتق رقبة قال : ما في الأرض رقبة أملكها قال : تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين قال يا رسول الله : إني بلغت سناً وبي دوران فإذا لم آكل في اليوم مراراً أدير عليّ حتى أقع قال : تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً قال : والله ما أجد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سنعينك " .

(162/751)

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه " أن امرأة أخي عبادة بن الصامت جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تشكو زوجها تظاهر عنها وامرأة تفلي رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قال : تدهنه فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم نظره إلى السماء فقالت التي تفلي لامرأة أخي عبادة بن الصامت رضي الله عنه واسمها خولة بنت ثعلبة يا خولة ألا تسكتي فقد ترينه ينظر إلى السماء فأنزل الله فيها ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عتق رقبة فقال : لا أجد فعرض عليه صيام شهرين متتابعين فقال : لا أطيق إن لم آكل كل يوم ثلاث مرات شق

بي فقال له النبي صلى الله عليه وسلم فأطعم ستين مسكيناً قال : لا أجد فأتى النبي صلى الله عليه وسلم بشيء من تمر فقال له : خذ هذا فأقسمه فقال الرجل : ما بين لابتيها أفقر مني فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : كله أنت وأهلك " .

وأخرج عبد بن حميد " عن يزيد بن زيد الهمداني في قوله : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ قال : هي خولة بنت الصامت ، وكان زوجها مريضاً فدعاها فلم تجبه وأبطأت عليه فقال : أنت عليّ كظهر أمي ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية ﴿ فتحرير رقبة ﴾ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أعتق رقبة ، قال : لا أجد ، قال : فصم شهرين متتابعين ، قال : لا أستطيع ، قال : فأطعم ستين مسكيناً ، قال : لا والله ما عندي إلا أن تعينني فأعانه النبي صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعاً ، فقال : والله ما في المدينة أحوج إليها مني ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فكلها أنت وأهلك " .

وأخرج ابن سعد عن عمران بن أنس قال : " كان أول من ظاهر في الإسلام أوس بن الصامت ، وكان به لمم ، وكان يفيق أحياناً فلاحَا امرأته خولة بنت ثعلبة في بعض صحواته ،

فقال: أنت عليّ كظهر أمي، ثم ندم فقال: ما أراك إلا قد حرمت عليّ، قالت: ما ذكرت طلاقاً فأتت النبيّ صلى الله عليه وسلم، فأخبرته بما قال، قال: وجادلت رسول الله صلى الله عليه وسلم مراراً، ثم قالت: اللهم إني أشكو إليك شدة وحدتي وما يشق عليّ من فراقه، قالت عائشة: فلقد بكيت وبكى من كان في البيت رحمة لها ورقة عليها، ونزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي فسري عنه وهو يبتسم فقال: يا خولة قد أنزل الله فيك وفيه ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ ثم قال: مريه أن يعتق رقبة، قالت: لا يجد، قال: فمريه أن يصوم شهرين متتابعين، قالت: لا يطيق ذلك، قال: فمريه فليطعم ستين مسكيناً قالت: وأنّى له؟ فمريه فليأت أم المنذر بنت قيس فليأخذ منها شطر وسق تمر فليتصدق به على ستين مسكيناً فرجعت إلى أوس، فقال: ما وراءك؟ قالت: خير وأنت ذميم، ثم أخبرته فأتى أم المنذر فأخذ ذلك منها فجعل يطعم مدين من تمر كل مسكين".

وأخرج عبد بن حميد عن أبي قلابة قال: إنما كان طلاقهم في الجاهلية الظهار والإيلاء حتى قال ما سمعت.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ﴾ قال: الزور الكذب.

وأخرج ابن المنذر والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ﴾ قال : هو الرجل يقول لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي ، فإذا قال ذلك : فليس له أن يقربها بنكاح ولا غيره حتى يكفر بعتق رقبة فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا ، والمس النكاح ، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ، وإن هو قال لها : أنت عليّ كظهر أمي ، فإذا قال : إن فعلت كذا فليس يقع في ذلك ظهار حتى يحنث فلا يقربها حتى يكفر ولا يقع في الظهار طلاق .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ثم يعودون لم قالوا ﴾ قال : يعود لمسها .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن طاووس ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ قال : الوطء .

وأخرج ابن المنذر عن طاووس قال : إذا تكلم الرجل بالظهار المنكر والزور فقد وجبت عليه الكفارة حنث أو لم يحنث .

وأخرج عبد الرزاق عن طاووس قال : كان طلاق أهل الجاهلية الظهار فظاهر رجل في الإسلام وهو يريد الطلاق فأنزل الله فيه الكفارة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عطاء أنه سئل عن هذه الآية من قبل أن يتماسّا

قال: هو الجماع.

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ فإطعام ستين مسكيناً ﴾ قال: كهيئة الطعام في اليمين مدين لكل مسكين.

وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال: ثلاث فيهن مد كفارة اليمين وكفارة الظهار وكفارة الصيام.

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الذي أتى أهله في رمضان بكفارة الظهار.

وأخرج عبد الرزاق عن عطاء والزهري وقتادة قالوا: العتق في الظهار والصيام والطعام كل ذلك من قبل أن يتماسّا.

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال:

"كان الظهار في الجاهلية يحرم النساء فكان أوّل من ظاهر في الإسلام أوس بن الصامت، وكانت امرأته خولة بنت خويلد، وكان الرجل ضعيفاً، وكانت المرأة جلدة، فلما تكلم بالظّهار قال: لا أراك إلا قد حرمت عليّ فانطلقي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

لعلك تبتغي شيئاً يردّك عليّ فانطلقت ، وجلس ينتظرها ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم وماشطة تمشط رأسه ، فقالت : يا رسول الله إن أوس بن الصامت من قد علمت من ضعف رأيه وعجز مقدرته ، وقد ظاهر مني فابتغ لي يا رسول الله شيئاً إليه قال يا خويلة : ما أمرنا بشيء في أمرك وأن نؤمر فسأخبرك ، فبينا ماشطته قد فرغت من شق رأسه وأخذت في الشق الآخر أنزل الله عز وجل ، وكان إذا أنزل عليه الوحي تربد لذلك وجهه حتى يجد بردة فإذا سرّي عنه عاد وجهه أبيض كالقلب ، ثم تكلم بما أمر به ، فقالت ماشطته : يا خويلة إني لأظنه الآن في شأنك فأخذها أفكل ثم قالت : اللهم بك أعوذ أن تنزل فيّ إلا خيراً فإني لم أبغ من رسولك إلا خيراً فلما سرّي عنه قال : يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك فقرأ ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ﴾ إلى قوله : ﴿ فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ﴾ فقالت : والله يا رسول الله ما له خادم غيري ولا لي خادم غيره ، قال : ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ﴾ قالت : والله إنه إذا لم يأكل في اليوم مرتين يسدر بصره ، قال : ﴿ فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ﴾ قالت : والله ما لنا في اليوم إلا وقية ، قال : فمريه فلينطلق إلى فلان فليأخذ منه شطر وسق من تمر فليتصدق به على ستين مسكيناً وليراجعك " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن " عن سلمة بن صخر الأنصاري أنه جعل امرأته عليه كظهر أمه ، حتى يمضي رمضان فسمنت وتربصت فوقع عليها في النصف من رمضان ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم كأنه يعظم ذلك ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " أتستطيع أن تعتق رقبة ؟ فقال : لا ، قال : أفتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال : لا ، قال : أفتستطيع أن تطعم ستين مسكيناً ؟ قال : لا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا فروة بن عمرو أعطه ذلك العرق وهو مكتل يأخذ خمسة عشر أو ستة عشر صاعاً فليطعمه ستين مسكيناً ، فقال : أعليّ أفقر مني فوالذي بعثك بالحق ما بين لابتيها أهل بيت أحوج إليه منا فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : اذهب به إلى أهلك " " .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه والبيهقي في السنن عن أبي العالية قال :

"كانت خولة بنت ودبيج تحت رجل من الأنصار ، وكان سيىء الخلق ضرير البصر فقيراً ، وكانت الجاهلية إذا أراد الرجل أن يفارق امرأته قال : أنت عليّ كظهر أمي ، فادارعته

بعض الشيء فقال : أنت عليّ كظهر أمي ، وكان له عيل أو عيلان ، فلما سمعته يقول ما قال احتملت صبيانها فانطلقت تسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوافقته عند عائشة ، وإذا عائشة تغسل شق رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقامت عليه ، ثم قالت : يا رسول الله إن زوجي فقير ضرير البصر سييء الخلق ، وإني نازعته في شيء فقال : أنت عليّ كظهر أمي ، ولم يرد الطلاق ، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه فقال : ما أعلم إلا قد حرمت عليه ، فاستكانت وقالت : أشتكي إلى الله ما نزل بي ومصيبتي ، وتحولت عائشة تغسل شق رأسه الآخر فتحولت معها فقالت : مثل ذلك قالت : ولي منه عيل أو عيلان ، فرفع النبي رأسه إليها فقال : ما أعلم إلا قد حرمت عليه ، فبكت وقالت : أشتكي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيبتي ، وتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت عائشة : وراءك فتنحت ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله ثم انقطع الوحي ، فقال يا عائشة : أين المرأة؟ قالت : ها هي ، قال : ادعيها ، فدعتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اذهبي فجيئي بزوجك ، فانطلقت تسعى فلم تلبث أن جاءت فأدخلته على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو كما قالت : ضرير فقير سييء الخلق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي ﴾ إلى آخر الآية ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أتجد رقبة؟ قال : لا ، قال : أفتستطيع

صوم شهرين متتابعين ؟ قال : والذي بعثك بالحق إني إذا لم آكل المرة والمرتين والثلاثة يكاد يغشى عليّ ، قال : أفتستطيع أن تطعم ستين مسكيناً ؟ قال : لا إلا أن تعينني فيها

(168/751)

فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم فكفر يمينه " .

وأخرج البزار والحاكم والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : " أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : إني ظاهرت من امرأتي فرأيت بياض خلخالها في ضوء القمر فأعجبتني فوقعت عليها قبل أن أكفر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألم يقل الله ﴿ من قبل أن يتماسّا ﴾ قال : قد فعلت يا رسول الله ، قال : أمسك حتى تكفّر " .

وأخرج عبد الرزاق وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم والبيهقي من طريق عكرمة عن ابن عباس " أن رجلاً قال : يا رسول الله إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أكفر ، قال : وما حملك على ذلك ؟ قال : ضوء خلخالها في ضوء القمر ، قال : فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله " .

(169/751)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأحمد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجة والطبراني والبغوي في معجمه والحاكم وصححه والبيهقي " عن سلمة بن صخر الأنصاري قال : كنت رجلاً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري ، فلما دخل رمضان ظاهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان فرقاً من أن أصيب منها في ليلى فأتتابع في ذلك ولا أستطيع أن أنزع حتى يدركني الصبح ، فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ انكشف لي منها شيء ، فوثبت عليها فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم خبري ، فقلت : انطلقوا معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بأمري ، فقالوا : لا والله لا نفعل نتخوف أن ينزل فينا القرآن ، أو يقول فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالة يبقى علينا عارها ، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك ، فخرجت فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبري فقال : أنت بذاك ؟ قلت : أنا بذاك ، قال : أنت بذاك ؟ قلت : أنا بذاك قال : أنت بذاك ؟ قلت : أنا بذاك ، وها أنا ذا فامض فيّ حكم الله فإني صابر لذلك قال : أعتق رقبة فضربت صفحة عنقي بيدي قلت : لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها ، فصم شهرين متتابعين ، قلت : وهل أصابني ما اصابني إلا في الصيام ؟ قال : فأطعم ستين مسكيناً ، قلت : والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وبني ما لنا عشاء ، قال : اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق فقل له ، فليدفعها إليك ، فأطعم عنك منها وسقاً ستين

مسكيناً ، ثم استعن بسائرها عليك وعلى عيالك ، فرجعت إلى قومي فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ووجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم السعة والبركة ، أمر لي بصدقتكم فدفعوها إليه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 69. 79 ﴾

(170/751)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى عود)

عاد إِليه يَعود عوْدا / وعَوْدة ومَعَادًا : رجع .

وقد عاد لَه بعد ما كان أَعرض عنه .

والمَعَاد : المَصِير والمرجع .

والآخرة مَعاد الخَلْق .

وقوله تعالى : ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ قيل : إِلى مكَّة حرسها الله تعالى لأَنَّهَا مَعَاد الحجِيج ؛ لأَنَّهم يعودون إِليها كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ وقوله تعالى :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ .

وقيل : (لرادُّك) أى لباعثك ، (إلى مَعَاد) أى مَبْعثك فى الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أى لتصيرُنَّ إلى مِلَّتنا ، لأَنَّ شعيبا – صلوات الله عليه – ما كان على الكفر قطُّ .

والعرب تقول : عاد علىّ من فلان مكروهٌ ، يريدون صار منه إلىّ .

وقيل : (لَتَعُودُنَّ) يا أَصحاب شعيب وأَتباعه ، لأَنَّ الَّذين اتَّبَعُوه كانوا كفارا ، فأَدخلوا شعيباً فى الخطاب والمراد أَتباعه .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ عند أَهل الظَّاهر أَن يقول ذلك للمرأَة ثانياً فحينئذ تلزمه الكفَّارة .

وعند الشَّافعى رحمه الله هو إِمساكها بعد وقوع الظِّهار عليها مدّة يمكنه أَن يطلِّق فيها فلم يفعل .

وعند أَبى حنيفة –رحمه الله– العَود فى الظِّهار هو أَن يجامعها بعد أَن ظاهر منها ، وقال بعض الفقهاءِ : المظاهرة هو يمين نحو أَن يقول : امرأَتى علىّ كظهر أَمّى إِن فعلْت كذا ، فمتى فعل ذلك حنِث ولزمه من الكفَّارة ما بيَّنه الله تعالى فى هذا المكان .

وقوله : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ يحمله على فعل ما حلف له أَلاَّ يفعل ، وذلك كقولهم : فلان حلف ثمّ عاد ، إِذا فعل ما حَلَف عليه .

قال الأَخفش : قوله : ﴿لِمَا قَالُوا﴾ يتعلق بقوله ، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ، وهذا يقوّى القول الأَخير.

قال : ولزوم هذه الكفارة إذا حنِث كلزوم الكفارة المثْبَتة فى الحلف بالله والحنث فى قوله : ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ .

وأَعاد الشىء إِلى مكانه ، وأَعاد الكلام : ردّده ثانياً ، قال تعالى : ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾ .

وهو مُعيد لهذا الأَمر أَى مطيق له .

والمُعِيد : العالِم بالأُمور الذى ليس بغُمْر .

والمُعِيدُ : الأَسَد ، والفحل الذى قد ضرَب فى الإِبل مرّات .

والعِيد : واحد الأَعياد ، ومنه الحديث : "إِن لكلّ قوم عيدا وهذا عيدنا " .

ويستعمل العيد لكلّ يوم فيه فرح وسرور ، ومنه قوله تعالى : ﴿تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ .

وإِنَّما جمع بالياءِ وأَصله الواو للزومها فى الواحد وقيل : للفرق بينه وبين أَعواد الخشب .

والعادة: الدَّيدَن.

وأَسماؤُها تنيف على مائة وعشرين.

وعادَه واعتاده: صار عادةً له.

ويقال: عُدْ فإِنّ لك عندنا عوادا حسناً -مثلَّثة العين- أَى لك ما تحبّ.

والعَوْد: المُسِنُّ من الإِبل، والطَّريق القديم.

وهذا أَعْوَد عليك من كذا، أَى أَنفع لك.

وهو ذو صفح وعائدة، أَى ذو عَطْف وتعطُّف. انتهى انتهى. ا هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 108.110﴾

(172/751)

وقال الشيخ الصابونى فى الآيات السابقة:

﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير (1) ﴾

سورة المجادلة

[1] الظهار وكفارته في الإسلام

التحليل اللفظي

﴿ سمع الله ﴾ : السمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة ، والحياة والإرادة ، فهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه متصفا بهما .

ومعنى السميع : المدرك الأصوات من غير أن يكون له أذن لأنها لا تخفى عليه .

قال أبو السعود : ومعنى سمعه تعالى لقولها : إجابة دعائها ، لا مجرد علمه تعالى بذلك : كما هو المعني بقوله تعالى : ﴿ والله يسمع تحاوركما ﴾ أي يعلم تراجعكما الكلام .

﴿ تجادلك ﴾ : أي تراجعك في شأن زوجها ، والمجادلة : المناظرة والمخاصمة وفي الحديث : " ما أوتي قوم الجدل إلا ضلوا " والمراد بالحديث الجدل على الباطل ، وطلب المغالبة به ، لا إظهار الحق فإن ذلك محمود لقوله تعالى : ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [النحل : 125] والمراد هنا : المراجعة في الكلام .

﴿ وتشتكي ﴾ : الشكوى إظهار البث وما انطوت عليه النفس من الهم والغم ، وفي التنزيل : ﴿ قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ [يوسف : 86] وشكا واشتكى بمعنى واحد .

﴿ تحاوركما ﴾ : المحاورة المراجعة في الكلام ، من حار الشيء يحور حورا أي رجع يرجع رجوعا ، ومنه حديث : " نعوذ بالله من الحور بعد الكور " ومنه فما أحار بكلمة أي فما أجاب . قال عنترة :

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى . . . ولكان لو علم الكلام مكلمي

يريد به فرسه أي لو كان يعلم الكلام لكلمني .

﴿ يظاهرون ﴾ : الظهار مشتق من الظهر ، وهو قول الرجل لزوجته : أنت علي كظهر أمي . ومعناه الأصلي : مقابلة الظهر بالظهر يقال : ظاهر فلان فلانا أي قابل ظهره بظهره ، ثم استعمل في تحريم الزوجة بجعلها كظهر أمه .

(173/751)

قال الألوسي : الظهار لغة مصدر ظاهر ، وهو (مفاعلة) من الظهر ، ويراد به معان مختلفة ، راجعة إلى الظهر معنى ولفظا باختلاف الأغراض .

فيقال : ظاهر زيد عمرا أي قابل ظهره بظهره حقيقة .

وظاهره إذا غايظه وإن لم يقابل حقيقة ، باعتبار أن المغايظة تقتضي ذلك .

وظاهره إذا ناصره ، باعتبار أنه يقال : قوى ظهره إذا نصره .

وظاهر بين ثوبين إذا لبس أحدهما فوق الآخر .

وظاهر من امرأته إذا قال لها : أنت علي كظهر أمي .

وهذا الأخير هو المعنى الذي نزلت فيه الآيات .

قال في " الفتح " : " وإنما خص الظهر بذلك دون سائر الأعضاء ، لأنه محل الركوب غالبا ، ولذلك سمي المركوب ظهرا ، فشبهت المرأة بذلك لأنها مركوب الرجل " .

﴿ اللائي ﴾ : جمع التي ، فيقال : اللاتي ، واللائي قال تعالى : ﴿ والاتي تخافون نشوزهن ﴾ [النساء : 34] .

﴿ منكرا ﴾ : المنكر من الأمر خلاف المعروف ، وكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منكر .

﴿ وزورا ﴾ : الزور : الكذب ، والباطل الواضح ، ومنه شهادة الزور .

﴿ فتحرير رقبة ﴾ : حررته أي جعلته حرا لوجه الله . والرقبة في الأصل : العنق ثم اطلقت على ذات الإنسان تسمية للشيء ببعضه ، والمراد بها المملوك عبدا أو أمة .

قال الألوسي : وذلك من تسمية الكل باسم الجزء .

﴿ يتمآسا ﴾ : المس : مسك الشيء باليد ، ثم استعير للجماع لأنه لمس والتصاق ، لأن فيه التصاق الجسم بالجسم ، والتماس هنا : كناية عن الجماع .

﴿ مسكينا ﴾ : المسكين الذي لا شيء له ، وقيل الذي لا شيء له يكفي عياله ، وأصل المسكين في اللغة الخاضع . . .

والمراد به هنا ما يعم الفقير ، والمسكين أحسن حالا من الفقير . وقد قالوا : المسكين والفقير إذا اجتمعا يعني (في اللفظ) افترقا (في المعنى) وإذا افترقا اجتمعا .

﴿ حدود ﴾ : الحد : الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أحدهما بالآخر أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر وجمعه حدود .

(174/751)

وحدود الله : الأشياء التي بين تحريمها وتحليلها ، وأمر أن لا يتعدى شيء منها فيتجاوز إلى غير ما أمر فيها أو نهى عنه منها ومنع من مخالفتها .

وهنا قوله ﴿ وتلك حدود الله ﴾ يعني الحدود بين معصيته وطاعته ، فمعصيته الظهار ، وطاعته الكفارة .

المعنى الإجمالي

إن الله تعالى سميع قريب ، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، وهذه امرأة جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم تشكو ظلم زوجها لها ، حيث حرمها على نفسه بلفظ كانت الجاهلية تستعمله ، أفيبقى هذا اللفظ محرما في الإسلام ؟ !

جادلت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوجهت بالدعاء إلى المولى جل وعلا ، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، تشكو إليه وحدتها ، فلا أهل لها ، ولا معيل ولا نصير ، وقد كبر سنها ، وأولادها صغار ، إن أبقتهم عنده ضاعوا ، وإن ضمتهم إليها

جاءوا . . .

ورسول الله صلوات الله عليه لا يشرع من قبل نفسه ، وإنما يتبع الوحي الذي يأتيه من ربه ، ولم يوح إليه في الظهار بشيء ، ولذلك ما كان يجزم بالتحريم ، وإنما كان يقول : " ما أراك إلا قد حرمت عليه " فكانت تجادله .

استجاب الله دعاء هذه المرأة الضعيفة الوحيدة ، ونزل الوحي ليقول للزوج : زوجك التي ظاهرت منها ليست بأمك ، فأمك هي التي ولدتك حقيقة ، وحرمت عليك بذلك ، فكيف تصف ما أباحه الله لك بما حرمه عليك ؟ إنك تقول قولا يمقته الشرع فضلا عن كونه كذبا وزورا ، ومع ذلك فإن الله عفو عمن أخطأ ثم تاب ، غفور لمن وقف عند حدود الشرع ، واتبع أمر الله الذي أنزله على نبيه .

فمن ظاهر من زوجه وقال لها : أنت علي كظهر أمي ، ثم أراد أن ينقض قوله ، ويعود إلى ما أحله الله له من زوجه ، فالواجب عليه أن يحرر عبدا مملوكا قبل أن يمس زوجه ، هذا حكم من ظاهر ليتعظ به المؤمنون ، ويعلموا أن الله جل وعلا خبير بكل ما يعملونه ، فعليهم أن ينتهوا عما نهاهم عنه .

فمن لم يجد الرقبة بأن كان لا يملك ثمنها ، أو لا يجد عبدا يشتريه ويعتقه فليصم شهرين متتابعين من قبل أن يقرب زوجه ، فإذا كان ضعيفا لا يقوى على الصوم ، أو مريضا يضعفه الصوم ، فعليه أن يطعم ستين مسكينا ما يشبعهم ، ذلك هو حكم الله في الظهار ، لتؤمنوا بأن هذا منزل من عند الله تعالى وتتبعوه ، وتقفوا عند حدود ما شرع لكم فلا تتعدوها .

سبب النزول

أولا : عن عائشة رضي الله عنها قالت :

" تبارك الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة ، فكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في جانب البيت أسمع كلامها ، ويخفى علي بعضه ، وهي تشتكي زوجها وتقول : يا رسول الله : أبلى شبابي ، ونثرت له بطني ، حتى إذا كبر سني ، وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إني أشكو إليك .

قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات " .

ثانيا : وقال ابن عباس رضي الله عنهما :

"كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية : أنت علي كظهر أمي ، حرمت عليه فكان أول من ظاهر في الإسلام (أوس) ثم ندم ، وقال لامرأته : انطلقي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسليه ، فأتته ، فنزلت هذه الآيات " .

ثالثا : وعن خولة بن مالك بن ثعلبة قالت :

ظاهر مني زوجي أوس بن الصامت ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم أشكو إليه

وهو يجادلني فيه ويقول : اتقي الله فإنه ابن عمك .

فما برحت حتى نزل القرآن ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها . . . ﴾ إلى

الفرض قال : يعتق رقبة ، قلت لا يجد ، قال : فليطعم ستين مسكينا .

قلت : ما عنده شيء يتصدق به ، قال : فإني سأعينه بعرق من تمر .

قلت : يا رسول الله وإني أعينه بعرق آخر . قال : قد أحسنت اذهبي فأطعمي بهما عنه

ستين مسكينا وارجعي إلى ابن عمك .

قال : والعرق ستون صاعا .

وجوه القراءات

أولا : قوله تعالى : ﴿ قد سمع الله ﴾ بإظهار الدال .

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بإدغام الدال في السين .

قال الكسائي : من قرأ ﴿ قد سمع ﴾ فبين الدال فلسانه أعجمي ليس بعربي .

قال الألوسي : " ولا يلتفت إلى هذا فكلا الأمرين فصيح متواتر ، بل الجمهور على البيان " .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ تجادلك في زوجها ﴾ قراءة الجمهور تجادلك من المجادلة وهي المراجعة في الكلام .

وقرئ ﴿ تحاروك ﴾ أي تراجعك الكلام .

ثالثا : قوله تعالى : ﴿ والذين يظاهرون من نسآئهم ﴾ قرأ حفص وعاصم ﴿ يظاهرون ﴾ بضم الياء وكسر الهاء .

وقرأ نافع وابن كثير وعمر ﴿ يظهرون ﴾ بتشديد الظاء والهاء وحذف الألف وفتح الياء .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ يظاهرون ﴾ بفتح الياء وتشديد الظاء وألف .

وقرأ الحسن وقتادة ﴿ يظهرون ﴾ بفتح الياء وفتح الظاء مخففة مكسورة الهاء مشددة ، والمعنى (يقولون لهن أنتن كظهور أمهاتنا) .

رابعا : قوله تعالى : ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ الجمهور بكسر التاء وهي لغة أهل الحجاز .

وقرأ المفضل عن عاصم ﴿ أمهاتهم ﴾ بالرفع على لغة تميم .

وقرأ ابن مسعود ﴿ بأمهاتهم ﴾ بزيادة الباء .

وجوه الإعراب

أولا : قوله تعالى : ﴿ وتشتكي إلى الله ﴾ عطف على ﴿ تجادلك ﴾ فهو من عطف الجمل لا محل لها من الإعراب لكونها صلة للتي .

وجوز بعضهم أن تكون حالا ، أي تجادلك شاكية حالها إلى الله ويقدر مبتدأ أي وهي تشتكي ؛ لأن المضارعية لا تقترن بالواو في الفصيح فيقدر معها المبتدأ لتكون اسمية .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسآئهم ﴾ اسم الموصول ﴿ الذين ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي مخطئون ، وأقيم دليله هو قوله تعالى : ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ مقامه .

وقال ابن الأنباري : خبره (ما هن أمهاتهم) أي ما نساؤهم أمهاتهم .

ثالثا : قوله تعالى : ﴿ ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم ﴾ .

(177/751)

قال الفراء : وانتصاب الأمهات هاهنا بإلقاء الباء ، وهي قراءة عبد الله ﴿ ما هن بإمهاتهم ﴾ ومثله ﴿ ما هذا بشرا ﴾ أي ما هذا ببشر ، فلما ألقيت الباء أبقى أثرها ، وهو النصب ، وعلى هذا كلام أهل الحجاز ، فأما أهل نجد فإنهم إذا ألقوا رفعوا وقالوا : (ما هن أمهاتهم) و (ما هذا بشر) .

وقال أبو حيان : أجرى (ما) مجرى (ليس) في رفع الاسم ونصب الخبر كما في قوله تعالى : ﴿ ما هذا بشرا ﴾ [يوسف : 31] وقوله : ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ [

الحاقة : 47] .

أقول : هذا هو الصحيح لأن (ما) بمعنى ليس فهي نافية حجازية وهي لغة القرآن .

رابعا : قوله تعالى : ﴿ وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ﴾ انتصب (منكرا وزورا) على الوصف لمصدر محذوف ، وتقديره وإنهم ليقولون قولا منكرا ، وقولا زورا .

خامسا : قوله تعالى : ﴿ والذين يظاهرون من نسآئهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة ﴾ اسم الموصول (الذين) مبتدأ ، وقوله تعالى : ﴿ فتحرير رقبة ﴾ مبتدأ آخر خبره مقدر أي فعليهم تحرير رقبة ، أو فكفارتهم تحرير رقبة .

والجملة من المبتدأ وخبره خبر الموصول ، ودخلته الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط .

سادسا : قوله تعالى : ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ .

قال ابن الأنباري : الجار والمجرور في موضع نصب لأنه يتعلق ب (يعودون) و (ما) مصدرية ، وتقديره (يعودون لقولهم) . والمصدر في موضع المفعول كقولك (هذا الثوب نسج اليمن) ، أي منسوجه ، ومعناه يعودون للإمساك المقول فيه الظهار ولا يطلق .

وقيل : اللام في ﴿ لما قالوا ﴾ بمعنى (إلى) أي يعودون إلى قول الكلمة التي قالوها أولا من قولهم : أنت علي كظهر أمي وهذا من مذهب أهل الظاهر .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : يقول علماء اللغة : (قد) حرف يوجب به الشيء وهي إذا دخلت على الماضي تفيد (التحقيق) وإذا دخلت على المضارع تفيد (التقليل) لأنها تميل إلى الشك تقول : قد ينزل المطر ، وقد يجود البخيل ، وأما في كلام الله فهي للتحقيق سواء دخلت على الماضي أو المضارع كقوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾ [الأحزاب : 18] .

قال الجوهري : (قد) حرف لا يدخل إلا على الأفعال .

قال الزمخشري : " معنى (قد) التوقع لأنه صلى الله عليه وسلم والمجادلة كانا متوقعين أن ينزل الله في شكواها ما يفرج عنها " .

ومعنى سمعه تعالى لقولها إجابة دعائها ، لا مجرد علمه تعالى بذلك ، وهو كقول المصلي : سمع الله لمن حمده .

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ قال الإمام الفخر : هذه الواقعة تدل على أن من انقطع رجاؤه عن الخلق ، ولم يبق له فيما أهمه أحد سوى الخالق كفاه الله ذلك الأمر .

وصيغة المضارع (يسمع) تفيد التجدد ، للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور وتجدده ، وذكرها مع الرسول في سلك الخطاب (تحاوكما) تشريف لها بهذا

الخطاب الكريم ، وإظهار الاسم الجليل في الموضعين لتربية المهابة والروعة في قلوب المؤمنين .

اللطيفة الثالثة : قال ابن منظور : كانت العرب تطلق النساء في الجاهلية بهذه الكلمة (أنت علي كظهر أمي) وإنما خصوا (الظهر) دون البطن ، والفخذ ، والفرج – وهذه أولى بالتحريم – لأن الظهر موضع الركوب ، والمرأة مركوبة إذا غشيت ، فكأنه أراد أن يقول : ركوبك للنكاح علي حرام كركوب أمي للنكاح ، فأقام الظهر مقام الركوب ، وهذا من لطيف الاستعارات للكناية .

(179/751)

وقال الفخر الرازي : ليس الظهار مأخوذا من الظهر الذي هو عضو من الجسد ، لأنه ليس الظهر أولى بالذكر في هذا الموضع من سائر الأعضاء ، التي هي مواضع المباضعة والتلذذ ، بل الظهر هاهنا مأخوذ من العلو ومنه قوله تعالى : ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ﴾ [الكهف : 97] أي يعلوه ، وكل من علا شيئًا فقد ظهره ، ومنه سمي المركوب ظهرا لأن راكبه يعلوه ، وكذا امرأة الرجل ظهره لأنه يعلوها بملك البضع ، فكأن امرأة الرجل مركوب للرجل وظهر له .

ويدل على صحة هذا المعنى أن العرب تقول في الطلاق : نزلت عن امرأتي أي طلقتها ، وفي قولهم : أنت علي كظهر أمي (حذف وإضمار) لأن تأويله : ظهرك علي أيملكي إياك ، وعلوي عليك حرام ، كما أن علوي على أمي وملكها حرام علي .

اللطيفة الرابعة : المظاهر شبه الزوجة بالأم ، ولم يقل هي أم ، فكيف كان ذلك منكرا وزورا ؟

قال الإمام الفخر في الجواب عن ذلك : إن الكذب إنما لزم لأن قوله : (أنت علي كظهر أمي) إم أن يكون إخبارا ، أو إنشاء .

فعلى الأولى : إنه كذب لأن الزوجة محللة ، والأم محرمة ، وتشبيه المحللة بالمحرمة في وصف الحل والحرمة كذب .

وعلى الإنشاء : كان ذلك أيضا كذبا ، لأن معناه أن الشرع جعله سببا في حصول الحرمة ، فلما لم يرد الشرع بهذا التشبيه كان جعله إنشاء في وقوع هذا الحكم كذبا وزورا .

اللطيفة الخامسة : روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر في خلافته على امرأة ، وكان راكبا على حمار والناس معه ، فاستوقفته تلك المرأة طويلا ، ووعظته وقالت له : عهدي بك يا عمر وأنت صغير تدعى عميرا ، ثم قيل لك : يا عمر ، ثم قيل لك : يا أمير المؤمنين ، فاتق الله يا عمر في الرعية ، واعلم أن من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب

خاف العذاب .

وهو واقف يسمع كلامها ، فقيل له : يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟

(180/751)

فقال : والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره ، لا زلت إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز ؟ ! هذه (خولة بنت ثعلبة) التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟ ! .

أقول : رضي الله عنك يا عمر فهذه أخلاق الصديقين .

اللطيفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ الذين يظاهرون منكم ﴾ الخطاب بلفظ (منكم) فيه مزيد توبيخ للعرب ، وتهجين لعادتهم في الظهار ، لأنه كان من أيمان الجاهلية خاصة ، دون سائر الأمم .

اللطيفة السابعة : روى الإمام الترمذي عن (سلمة بن صخر البياضي) أنه قال : "كنت امرأ أصيب من النساء ما لا يصيب غيري ، فلما دخل رمضان خفت أن أصيب امرأتي شيئًا يتابع بي حتى أصبح ، فظاهرت منها حتى ينسلخ رمضان ، فبينا هي تخدمني ذات ليلة إذ انكشف لي منها شيء ، فما لبثت أن نزوت عليها ، فلما أصبحت أخبرت قومي ،

فقلت : امشوا معي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : لا والله .

فانطلقت فأخبرته صلى الله عليه وسلم فقال : " أنت بذاك يا سلمة ! قلت : أنا بذاك يا رسول الله مرتين ، وأنا صابر لأمر الله ، فاحكم فيما أراك الله ؟

قال : " حرر رقبة " ، قلت : والذي بعثك بالحق ما أملك رقبة غيرها وضربت صفحة رقبتي .

قال : " فصم شهرين متتابعين " .

قالت : وهل أصبت الذي أصبت إلا من الصيام ؟

قال : " فأطعم وسقا من تمر بين ستين مسكينا " .

قلت : والذي بعثك بالحق لقد بتنا وحشين ما لنا طعام ! !

قال : " فانطلق إلى صاحب صدقة بني زريق فليدفعها إليك ، فأطعم ستين مسكينا وسقا من تمر ، وكل أنت وعيالك بقيتها " .

فرجعت إلى قومي فقلت : وجدت عندكم الضيق ، وسوء الرأي ، ووجدت عن النبي صلى الله عليه وسلم السعة وحسن الرأي ، وقد أمر لي بصدقتكم " .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل لاظهار مشروع كالطلاق أم هو محرم ؟

كان الظهار في الجاهلية طلاقا ، بل هو أشد أنواع الطلاق عندهم ، لما فيه من تشبيه الزوجة بالأم التي تحرم حرمة على التأبيد ، بل لا تجوز بحال من الأحوال ، وجاء الإسلام فأبطل هذا الحكم ، وجعل الظهار محرما قربان المرأة حتى يكفر زوجها ، ولم يجعله طلاقا كما كانوا يعتبرونه في الجاهلية .

فلو ظاهر الرجل يريد الطلاق كان ظهارا ، ولو طلق يريد به الظهار كان طلاقا ، العبرة باللفظ لا بالنية ، فلا يقوم أحدهما مقام الآخر .

قال ابن القيم : " وهذا لأن الظهار كان طلاقا في الجاهلية فنسخ ، فلم يجز أن يعاد إلى الحكم المنسوخ ، وأيضا فإن (أوس بن الصامت) إنما نوى به الطلاق على ما كان عليه ، وأجرى عليه حكم الظهار دون الطلاق ، وأيضا فإنه صريح في حكمه ، فلم يجز جعله كناية في الحكم الذي أبطله الله بشرعه ، وقضاء الله أحق ، وحكم الله أوجب " .

وقد دلت الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ﴾ على أن الظهار حرام ، بل لقد قال فقهاء الشافعية إنه من الكبائر ، فمن أقدم عليه اعتبر كاذبا معاندا للشرع .

وقد اتفق العلماء على حرمته فلا يجوز الإقدام عليه ، لأنه كذب وزور وبهتان ، وهو يختلف عن الطلاق ، فالطلاق مشروع ، وهذا ممنوع ، ولو أقدم الإنسان عليه يكون قد

ارتكب محرما ويجب عليه الكفارة .

الحكم الثاني : ماذا يترتب على الظهار من أحكام ؟

إذا ظاهر الرجل من امرأته ترتب عليه أمران :

الأول : حرمة إتيان الزوجة حتى يكفر كفارة الظهار لقوله تعالى : ﴿ فتحرير رقبة من قبل أن يتمآسا ﴾ .

والثاني : وجوب الكفارة بالعود لقوله تعالى : ﴿ والذين يظاهرون من نسآئهم ثم يعودون لما قالوا . . . ﴾ الآية وسنتحدث عن معنى العود في الحكم الثالث إن شاء الله .

وكما يحرم المسيس فإنه يحرم كذلك مقدماته ، من التقبيل ، والمعانقة وغيرها من وجوه الاستمتاع ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء (الحنفية والمالكية ، والحنابلة) .

(182/751)

وقال الثوري والشافعي (في أحد قوليه) : إن المحرم هو الوطء فقط ، لأن المسيس كناية عن الجماع .

حجة الجمهور :

أ- العموم الوارد في الآية (من قبل أن يتماسا) فإنه يشمل جميع وجوه الاستمتاع .

ب- مقتضى التشبيه الذي هو سبب الحرمة (كظهر أمي) فكما يحرم مباشرة الأم والاستمتاع بها بجميع الوجوه ، فكذلك يحرم الاستمتاع بالزوجة المظاهر منها بجميع الوجوه عملا بالتشبيه .

ج- أمر الرسول صلى الله عليه وسلم للرجل الذي ظاهر من زوجته بالاعتزال حتى يكفر .

حجة الشافعي والثوري :

أ- الآية ذكرت المسيس وهو كناية عن الجماع فيقتصر عليه .

ب- الحرمة ليست لمعنى يخل بالنكاح فأشبه الحيض ، الذي يحرم الاستمتاع فيه فيما بين السرة والركبة .

أقول : رأي الجمهور أحوط لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، سيما وقد نقل الإمام الفخر أن للشافعي فيه قولين : (أحدهما) أنه يحرم الجماع فقط . (والثاني) أنه يحرم جميع جهات الاستمتاعات ، قال : وهو الأظهر . وكفى الله المؤمنين القتال .

الحكم الثالث : ما المراد بالعود في الآية الكريمة ؟

اختلف الفقهاء في المراد من العود في قوله تعالى : ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ على عدة أقوال .

أ- قال أبو حنيفة : العود : هو عبارة عن العزم على استباحة الوطء والملامسة .

ب- وقال الشافعي : العود : هو أن يمسكها بعد الظهار مع القدر على الطلاق .

ج- وقال مالك وأحمد : العود : هو العزم على الوطء ، أو على الوطء والإمساك .

د- وقال أهل الظاهر : العود : أن يكرر لفظ الظهار مرة ثانية فإن لم يكرر لا يقع الظهار .

والآراء الثلاثة الأولى متقاربة في المعنى لأن العود إلى الإمساك ، أو الوطء ، أو إبقاءها بعد الظهار بدون طلاق ، كلها تدل على معنى الندم وإرادة المعاشرة لزوجه التي ظاهر منها فاللام في (لما) بمعنى (إلى) .

(183/751)

والمعنى : يرجعون إلى تحليل ما حرموا على أنفسهم بالعزم على الوطء ، وقد عدد (القرطبي) فيها سبعة أقوال .

قال الفراء : معنى الآية يرجعون عما قالوا ، وفي نقض ما قالوا .

دليل الظاهرية :

قال أهل الظاهر : إن العود معناه تكرار لفظ الظهار وإعادته ، فلا تلزم الكفارة إلا إذا أعاد اللفظ - يعني ظاهر مرة ثانية - وقالوا : الذي يعقل من قولهم : عاد إلى الشيء أي أنه فعله مرة ثانية كما قال تعالى : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : 28] فإذا لم يتكرر

الظهار لا يقع التحريم .

قال الزجاج : وهذا قول من لا يدري اللغة .

وقال أبو علي الفارسي : ليس هو كما ادعوا ، لأن العود قد يكون إلى شيء لم يكن عليه الإنسان قبل ، وسميت الآخرة معادا ولم يكن فيها أحد ثم عاد الناس إليها ، قال الهذلي :

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل . . . سوى الحق شيئًا واستراح العواذل

وقال ابن العربي : " ويشبه أن يكون هذا من جهالة داود وأشياعه ، وهو باطل قطعا ، لأنه قد رويت قصص المظاهرين وليس فيه ذكر لعود القول منهم ، وأيضا فإن المعنى يقضه ؛ لأن الله تعالى وصفه بأنه منكر من القول وزور ، فكيف يقال له : إذا أعدت القول المحرم والسبب المحظور وجبت عليك الكفارة " .

أقول : ما قاله جمهور الفقهاء أن المراد بالعود ليس تكرار اللفظ ، إنما هو العود إلى معاشرتها والعزم على وطئها هو الصحيح المعقول لغة وشرعا لأن المظاهر قد حرم على نفسه قربان الزوجة ، فهو يريد أن ينقض ذلك ويعيدها إلى نفسه فيلزمه التكفير بهذا العزم .

وأما ما قاله أهل الظاهر فباطل لا يقوم عليه دليل ، بل هو من آثار الفهم السقيم الذي تخبط فيه هؤلاء في كثير من الأحكام الشرعية ويكفي لبطلانه حديث (أوس بن الصامت) فإنه لم يكرر الظهار وقد ألزمه صلى الله عليه وسلم الكفارة ؛ وحديث (سلمة بن صخر) فقد أمره صلى الله عليه وسلم بالكفارة مع أنه لم يكرر اللفظ وقد تقدما ، وكفى بذلك حجة قاطعة ، لا رأي لأحد أمام قول المعصوم صلى الله عليه وسلم .

الحكم الرابع : هل يصح ظهار غير المسلم كالذمي والكتابي ؟

ذهب الجمهور (الحنفية والمالكية والحنابلة) إلى أن ظهار الذمي لا يقع لأن الله تعالى يقول : (الذين يظاهرون منكم) وظاهر قوله : (منكم) أن غير المسلم لا يتناوله الحكم .

وقالوا أيضا : إن الذمي ليس من أهل الكفارة ، لأن فيها إعتاق رقبة ، والصوم ، ولما كان (الصوم) عبادة لا يصح من غير المسلم إذن فلا يصح ظهاره .

فالظهار عندهم لا يكون إلا من الزوج العاقل البالغ المسلم .

مذهب الشافعي : قال الشافعية : كما يصح طلاق الذمي وتترتب عليه أحكامه ، كذلك يقع ظهاره .

وقالوا : يكفر بالإعتاق ، والإطعام ، ولا يكفر بالصوم لأنه عبادة لا تصح إلا من المسلم .

قال الألوسي : والعجب من الإمام الشافعي عليه الرحمة أن يقول بصحته مع أنه يشترط النية في الكفارة ، والإيمان في الرقبة ، والكافر لا يملك المؤمن ؟

أقول : الراجح رأي الجمهور ، واستدلالهم بالكفارة في (العتق والصيام) قوي ، وأما استدلالهم بمفهوم الصفة في الآية الكريمة (منكم) فليس بذاك لأن الآية وردت مورد (التهجين والشنيع) لما مر أن الظهار لم يعرف إلا عند العرب فليس فيها ما يدل لهم والله أعلم .

الحكم الخامس : هل يصح الظهار من الأمة ؟ .

(185/751)

أ- ذهب (الحنفية والحنبلية والشافعية) إلى أن الرجل لو ظاهر من أمته لا يصح ، ولا يترتب عليه أحكام الظهار ، لقوله تعالى : ﴿ من نسآئهم ﴾ لأن حقيقة إطلاق النساء على (الزوجات) دون (الإماء) بدليل قوله تعالى : ﴿ أو نسآئهن أو ما ملكت أيمانهن ﴾ [النور : 31] فقد غاير بينهن ، فالمراد بالنساء في الآية الحرائر .

ب- وذهب مالك : إلى صحة الظهار في الأمة مطلقا لأنها مثل الحرة .

ج- وروي عن الإمام أحمد : أنه لا يكون مظاهرا ، ولكن تلزمه كفارة الظهار .

الحكم السادس : هل يقع ظهار المرأة ؟

اتفق الفقهاء على أنه ليس للنساء ظهار ، فلو ظاهرت امرأة من زوجها بقولها : (أنت علي

كظهر أمي فلا كفارة عليها ولا يلزمها شيء) وكلامها لغو .

قال ابن العربي : وهو صحيح في المعنى ، لأن الحل والعقد ، والتحليل التحريم في النكاح من الرجال ليس بيد النساء منه شيء .

وروي عن الإمام أحمد (في أحد قوليه) أنه يجب عليها الكفارة إذا وطئها وهي التي اختارها الخرقي .

الحكم السابع : هل الظهار مختص بالأم ؟

أ- ذهب الجمهور إلى أن الظهار يختص بالأم ، كما ورد في القرآن الكريم ، وكما جاء في السنة المطهرة ، فلو قال لزوجته : أنت علي كظهر أمي كان مظاهرا ، ولو قال لها : أنت علي كظهر أختي أو بنتي لم يكن ذلك ظهارا .

ب- وذهب أبو حنيفة (والشافعي في أحد قوليه) : إلى أنه يقاس على الأم جميع المحارم . فالظهار عندهم هو تشبيه الرجل زوجته في التحريم ، بإحدى المحرمات عليه على وجه التأبيد بالنسب ، أو المصاهرة ، أو الرضاع ، إذ العلة هي التحريم المؤبد .

وأما من قال لامرأته : يا أختي أو يا أمي على سبيل الكرامة والتوقير فإنه لا يكون مظاهرا ، ولكن يكره له ذلك لما رواه أبو داود عن (أبي تميمة الهجيمي) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول لامرأته : يا أخية ، فكرة ذلك ونهى عنه .

الحكم الثامن : ما هي كفارة الظهار ؟

الكفارة هي : عتق رقبة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا كما دلت عليه الآية .

أ- الإعتاق : وقد أطلقت الرقبة في الآية فهل تجزئ أي رقبة ولو كانت كافرة ؟

ذهب الحنفية : إلى أنه يجزئ في الكفارة إعتاق الرقبة الكافرة والمؤمنة ، والذكر والأنثى ، والكبير والصغير ، ولو رضيعا لأن الاسم ينطلق على كل ذلك .

وذهب الشافعية والمالكية : إلى اشتراط الإيمان في الرقبة ، فلا يصح عتق غير المؤمن حملا للمطلق على المقيد في آية القتل لقوله تعالى : ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ [النساء : 92] بجامع عدم الإذن في السبب في كل منهما .

وقال الحنفية : لا يحمل المطلق على المقيد إلا في حكم واحد في حادثة واحدة ، لأنه حينئذ يلزم ذلك لزوما عقليا إذ الشيء لا يكون نفسه مطلوبا إدخاله في الوجود مطلقا ومقيدا ، كالصوم في كفارة اليمين ، ورد مطلقا ومقيدا بالتتابع في القراءة المشهورة التي تجوز القراءة بمثلها .

والمناقشة : بين القولين تنظر في كتب الأصول والفروع .

وأما الإمام أحمد : ففي المسألة عنه روايتان .

ب- صيام شهرين متتابعين : من عجز عن إعتاق الرقبة فعليه صوم شهرين متتابعين .

ويعتبر الشهر بالهلال فلا فرق بين التام والناقص ، وإن صام بغير الأهلة فلا بد من ستين يوما عند الحنفية .

وعند الشافعية والمالكية : يصوم إلى الهلال ثم شهرا بالهلال ثم يتم الأول بالعدد .

ج- إطعام ستين مسكينا : من لم يستطع صيام شهرين متتابعين بأن لم يستطع أصل الصيام ، أو بأن لم يستطع تتابعه لسبب من كبر أو مرض لا يرجى زواله عادة أو بقول طبيب فعليه إطعام ستين مسكينا .

واختلف الفقهاء في قدر الإطعام لكل مسكين .

قال أبو حيان : والظاهر مطلق الإطعام وتخصصه ما كانت العادة في الإطعام وقت النزول وهو ما يشبع من غير تحديد بمد .

ولا يجزئ عند مالك والشافعي أن يطعم أقل من ستين مسكينا .

وقال أبو حنيفة وأصحابه لو أطعم مسكينا واحدا كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزأه .

الحكم التاسع : هل تتغلظ الكفارة بالمسيس قبل التكفير ؟

أ- ذهب أبو حنيفة : إلى أن المظاهر إذا جامع زوجته قبل أن يكفر أثم وعصى الله ، وتسقط عنه الكفارة لفوات وقتها .

ب- وذهب جمهور الفقهاء إلى أنه أثم وعصى ويستغفر ويتوب ويمسك عن زوجه حتى يكفر كفارة واحدة .

قال أبو بكر الرازي : " إن الظهار لا يوجب كفارة ، وإنما يوجب تحريم الوطء ، ولا يرتفع إلا بالكفارة ، فإذا لم يرد وطأها فلا كفارة عليه ، وإن ماتت أو عاشت فلا شيء عليه إذ كان حكم الظهار إيجاب التحريم فقط مؤقتا بأداء الكفارة ، وأنه متى لم يكفر فالوطء محظور عليه ، فإن وطئ سقط الظهار والكفارة ، وذلك لأنه علق حكم الظهار وما أوجب به من الكفارة بأدائها قبل الوطء لقوله : ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ فمتى وقع المسيس فقد فات الشرط فلا تجب الكفارة بالآية ، لأن كل فرض محصور بوقت أو معلق على شرط ، فإنه متى فات الوقت ، وعدم الشرط ، لم يجب باللفظ الأول واحتيج إلى دلالة أخرى في إيجاب مثله في الوقت الثاني ، فهذا حكم الظهار إذا وقع المسيس قبل التكفير إلا أنه قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا ظاهر من امرأته فوطئها قبل التكفير ثم سأل النبي

صلى الله عليه وسلم فقال له : استغفر الله ولا تعد حتى تكفر ، فصار التحريم الذي بعد الوطء واجبا بالسنة " .

الترجيح : والصحيح ما ذهب إليه الجمهور أنه يأثم بهذا الفعل وتجب عليه كفارة واحدة والله أعلم .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولا : استجابة الله دعاء الشاكي الصادق إذا أخلص الدعاء .

ثانيا : عدم جواز تشبيه الزوجة بمحرم من المحرمات على التأبيد .

ثالثا : عدم جواز مس المرأة قبل أداء كفارة الظهار .

رابعا : خصال الكفارة مرتبة لا يصار إلى التالية قبل العجز عن التي قبلها .

خامسا : حدود الله يجب التزامها ، ولا يجوز تعديها .

حكمة التشريع

لقد شرع الإسلام الزواج عقدا دائما غير مؤقت ، لا يقطعه إلا هاذم اللذات ، أو أبغض الحلال إلى الله ، وبالزواج يحل للرجل كل شيء من زوجه ، في حدود ما أباحه الله تعالى له ،

فإذا جاء الإنسان يريد أن يغير ما أباحه الله له فيجعل الحلال حراما ، فقد ارتكب كبيرة لا محالة ، وتجاوز بذلك الحدود التي شرعها الله له ، فلهذا كان عقابه كبيرا ، وكانت أولى خصال الكفارة ما فيه فائدة للمجتمع ، ألا وهي تحرير رقاب العبيد ، وهذه إحدى سبل تحريرهم ، فإذا لم يستطع شراء العبد وعتقه ، فليصم شهرين متتابعين ، والصوم مدرسة تهذب خلقه ، وتربي نفسه ، وتقوم ما أعوج من تربيته .

هذا إن كان صحيح الجسم ، موفور الصحة ، والله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، فالمريض الذي لا يستطيع الصوم ، ينتقل الواجب في حقه إلى المجتمع أيضا فيطعم ستين مسكينا ، وهكذا تنتقل خصال الكفارة بين فائدة المجتمع ، وفائدة الرجل نفسه .

هذا جزاء من حرم حلالا ، فليتعظ المؤمنون بهذا الجزاء الزاجر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روائع البيان حـ 2 صـ 512. 535 ﴾

(189/751)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (5) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر حدوده ، ولوح بالعطف على غير معطوف عليه إلى بشارة حافظها ، وصرح بتهديد متجاوزيها أتبع ذلك تفصيل عذابهم الذي منه بشارة المؤمنين بالنصر عليهم ، فقال مؤكداً لأجل إنكارهم لأن يغلبوا على كثرتهم وقوتهم وضعف حزبه وقلتهم : ﴿ إن الذين يحادّون الله ﴾ أي يغالبون الملك الأعلى على حدوده ليجعلوا حدوداً غيرها ، وذلك صورته صورة العداوة ، مجددين ذلك مستمرين عليه بأي محادة كانت ولو كانت خفية - بما أشار إليه الإدغام كمحادة أهل الاتحاد الذين يتبعون المتشابه فيجرونه على ظاهره فيخلون به المحكم لتخل الشريعة بأسرها ، فإن كثيراً من السورة نزل في المنافقين واليهود والمهادنين كما يأتي في النجوى وغيرها ﴿ ورسوله ﴾ الذي عزه من عزه ﴿ كبتوا ﴾ أي صرعوا وكبوا لوجوههم وكسروا وأذلوا وأخزوا فلم يظفروا وردوا بغيظهم في كل أمر يرومونه من أي كانت كان بأيسر أمر وأسهله ، وعبر بالماضي إشارة إلى تحقق وقوعه والفراغ من قضائه كما فرغ مما مضى ، فلا قال لتكون الدعوى مقرونة بدليلها : ﴿ كما كبت الذين ﴾ ولما كان المحادون لم يستغرقوا جميع الأزمان الماضية والأماكن ، أدخل الجارّ فقال : ﴿ من قبلهم ﴾ أي المحادين كقوم نوح ومن بعدهم ممن أصر على العصيان ، ولم ينقد لدليل ولا برهان ، قال القشيري : ومن ضيع لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سنة وأحدث في دينه بدعة

انخرط في هذا السلك، ووقع في هذا الذل.

ولما استوفى المقام حظه بياناً وترغيباً وترهيباً، عطف على أول السورة أو على ما يقدر من نحو: فقد كان لكم فيما مضى من أول الإسلام إلى هذا الأوان مما يدل على كونه سبحانه بالنصر والمعونة مع نبيه - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه - رضى الله عنه - م معتبر، قوله: ﴿ وقد أنزلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة عليكم وعلى من قبلكم ﴿ آيات بينات ﴾ أي دلالات عظيمة هي في غاية البيان لذلك ولكل ما يتوقف عليه الإيمان بترك المحادة ويحصل الإذعان.

(190/751)

ولما كان التقدير: فللمؤمنين بها نعيم مقيم في مقام أمين، عطف عليه قوله:

﴿ وللكافرين ﴾ أي الراسخين في الكفر بها وتغيرها من أمر الله ﴿ عذاب مهين ﴾ بما تكبروا واغتروا على أولياء الله وشرائعه، يهينهم ذلك العذاب ويذهب عزهم وشماختهم ويتركون به محادتهم.

ولما ذكر عذابهم، ذكر وقته على وجه مقرر لما مضى من شمول علمه وكمال قدرته فقال:

﴿ يوم يبعثهم الله ﴾ أي يكون ذلك في وقت إعادة الملك الأعظم للكافرين المصرح بهم

والمؤمنين المشار إليهم أحياء كما كانوا ﴿ جميعاً ﴾ في حال كونهم مجتمعين في البعث .

ولما كان لا أوجع من التبكيت بحضرة بعض الناس فكيف إذا كان بحضرتهم كلهم فكيف إذا كان بمرأى من جميع الخلائق ومسمع ، سبب عن ذلك وعقب قوله : ﴿ فينبئهم ﴾ أي يخبرهم إخباراً عظيماً مستقصى ﴿ بما عملوا ﴾ إخزاء لهم وإقامة للحجة عليهم .

ولما كان ضبط ذلك أمراً عظيماً ، استأنف قوله بياناً لهوانه عليه : ﴿ أحصاه الله ﴾ أي أحاط به عدداً كمّاً وكيفاً وزماناً ومكاناً بما له من صفات الجلال والجمال .

ولم ذكر إحصاءه له ، فكان ربما ظن أنه مما يمكن في العادة إحصاؤه ، نفى ذلك بقوله : ﴿ ونسوه ﴾ أي كلهم مجتمعين لخروجه عن الحد في الكثرة فكيف بكل واحد على انفراده ونسوا ما فيه المعاصي تهاوناً بها ، وذلك عين التهاون بالله والاجتراء عليه ، قال القشيري : إذا حوسب أحد في القيامة على عمل عمله تصور له ما فعله ثم يذكر حتى كأنه في تلك الحالة قام من بساط الزلة فيقع عليه من الخجل والندم ما ينسى في جنبه كل عقوبة ، فسبيل المسلم أن لا يخالف أمر مولاه ولا يحوم حوله مخالفة أمره ، فإن جرى المقدور ووقع في هجنة التقصير فليكن من زلته على بال ، وليتضرع إلى الله بحسن الابتهال .

ولما كان التقدير بما أرشد إليه العطف على غير مذكور : فالله بكل شيء من ذلك وغيره عليم ، عطف عليه قوله : ﴿ والله ﴾ أي بما له من القدرة الشاملة والعلم المحيط ﴿ على كل شيء ﴾ على الإطلاق من غير مثنوية أصلاً ﴿ شهيد ﴾ أي حفيظ حاضر لا يغيب ، ورقيب لا يفعل ، حفظه له ورقبه وحضوره إياه مستعل عليه قاهر له بإحاطة قهره بكل شيء ليمكن حفظه له على أتم وجه يريده .

(192/751)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما نزه سبحانه نفسه عن تقول الملحدين ، وأعلم أن العالم بأسره ينزهه عن ذلك بألسنة أحوالهم لشهادة العوالم على أنفسها بافتقارها لحكيم أوجدها ، لا يمكن أن يشبه شيئاً منها بل يتنزه من أوصافها ويتقدس عن سماتها ، فقال ﴿ سبح لله ما في السماوات والأرض ﴾ [الحديد : 1] ومضت أي تعرف بعظيم سلطانه وعليّ ملكه ، ثم انصرف الخطاب إلى عباده في قوله : ﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾ [الحديد : 7] إلى ما بعد ذلك من الآي ، وكان ذلك ضرب من الالتفات ، والواقع هنا منه أشبه بقوله سبحانه في سورة البقرة ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾ [البقرة : 30] فإنه بعد تفصيل حال المتقين وحال من جعل في طرف منهم وحال من يشبه بظاهره بالمتقين وهو معدود في

شرار الكافرين ، فلما تم هذا النمط عدل بعده إلى دعاء الخلق إلى عبادة الله وتوحيده ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ [البقرة : 21] ثم عدل بالكلام جملة وصرف الخطاب إلى تعريف نبيه عليه الصلاة والسلام بين أيدي الخلق ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة : 30] فجاء ضرباً من الالتفات فكذا الواقع هنا بين سبحانه حال مشركي العرب وقبح عنادهم وقرعهم ووبخهم في عدة سور غالب آيها جارٍ على ذلك ومجدد له أولها سورة " ص " كما نبه عليه في سورة القمر ، وإلى الغاية التي ذكرت فيها إلى أن وردت سورة القمر منبئة بقطع دابرهم ، وانجر فيها الإعذار المنبه عليه وكذا في سورة الرحمن بعدها ، ثم أعقب ذلك بالتعريف بحال النزل الأخراوي في سورة الواقعة مع زيادة تقريع وتوبيخ على مرتكبات استدعت تسبيحه تعالى وتقديسه عن شنيع افترائهم فأتبعت بسورة الحديد ، ثم صرف فيها الخطاب إلى المؤمنين ، واستمر ذلك إلى آخر السورة ، جرت سورة المجادلة على هذا القصد مصروفاً خطابها إلى نازلة تشوف المؤمنين إلى تعرف حكمها ، وهو الظهار المبين أمره فيها ، فلم يعد في الكلام بعد كما كان قد صرف إليه في

قوله ﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾ بأكثر من التعرض لبيان حكم يقع منهم ، ثم أن السور الواردة بعد إلى آخر الكتاب استمر معظمها على هذا الغرض لانقضاء ما قصد من التعريف بأخبار القرون السالفة والأمم الماضية ، وتقريع من عاند وتوبيخه ، وذكر مثال الخلق واستقرارهم الأخراوي ، وذكر تفاصيل التكاليف والجزاء عليها من الثواب والعقاب ، وما به استقامة من استجاب وآمن وما يجب أن يلتزمه على درجات التكاليف وتأكيدها ، فلما كمل ذلك صرف الكلام إلى ما يخص المؤمنين في أحكامهم وتعريفهم بما فيه من خلاصهم ، فمعظم آي سورة بعد هذا شأنها ، وإن انجر غيرها فلا استدعاء موجب وهو الأقل كما بينا – انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 486 . 488 ﴾

(194/751)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في المحادة قولان قال المبرد : أصل المحادة الممانعة ، ومنه يقال للبواب : حداد ، وللممنوع الرزق محدود ، قال أبو مسلم الأصفهاني : المحادة مفاعلة من لفظ الحديد ، والمراد المقابلة بالحديد سواء كان ذلك في الحقيقة ، أو كان ذلك منازعة شديدة شبيهة بالخصومة بالحديد ، أما المفسرون فقالوا : يحادون أي يعادون ويشاقون ، وذلك تارة بالمحاربة مع أولياء الله وتارة بالتكذيب والصد عن دين الله .

المسألة الثانية :

الضمير في قوله : ﴿يُحَادُّونَ﴾ يمكن أن يكون راجعاً إلى المنافقين ، فإنهم كانوا يوادون الكافرين ويظاهرون على الرسول عليه السلام فأذلهم الله تعالى ، ويحتمل سائر الكفار فأعلم الله رسوله أنهم ﴿كُبِتُواْ﴾ أي خذلوا ، قال المبرد : يقال : كبت الله فلاناً إذا أذله ، والمردود بالذل يقال له : مكبوت ، ثم قال : ﴿كَمَا كُبِتَ الذين مِن قَبْلِهِمْ﴾ من أعداء الرسل : ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا ءايات بينات﴾ تدل على صدق الرسول : ﴿وللكافرين﴾ بهذه الآيات : ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يذهب بعزهم وكبرهم ، فبين سبحانه أن عذاب هؤلاء المحادين في الدنيا الذل والهوان ، وفي الآخرة العذاب الشديد .

ثم ذكر تعالى ما به يتكامل هذا الوعيد فقال :

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6)

﴿ يَوْمٍ ﴾ منصوب بينبئهم أو بمهين أو بإضمار اذكر ، تعظيماً لليوم ، وفي قوله :

﴿ جَمِيعاً ﴾ قولان : أحدهما : كلهم لا يترك منهم أحد غير مبعوث والثاني : مجتمعين في حال واحدة ، ثم قال : ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ تخليلاً لهم ، وتوبيخاً وتشهيراً لحالهم ، الذي يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار ، لما يلحقهم من الخزي على رؤس الإشهاد وقوله : ﴿ أحصاه الله ﴾ أي أحاط بجميع أحوال تلك الأعمال من الكمية والكيفية ، والزمان والمكان لأنه تعالى عالم بالجزئيات ، ثم قال : ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ لأنهم استحقروها وتهاونوا بها فلا جرم نسوها : ﴿ والله على كُلِّ شَىْء شَهِيدٌ ﴾ أي مشاهد لا يخفى عليه شيء ألبتة.

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 228. 229 ﴾

(196/751)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُحَآدُّونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾

لما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين المخالفين لها .

والمحادة المعاداة والمخالفة في الحدود ؛ وهو مثل قوله تعالى : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ الله

وَرَسُولَهُ ﴾ [الأنفال: 13].

وقيل: ﴿ يُحَادُّونَ اللهَ ﴾ أي أولياء الله كما في الخبر: "من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة".

وقال الزجاج: المحادّة أن تكون في حدّ يخالف حدّ صاحبك.

وأصلها الممانعة؛ ومنه الحديد، ومنه الحدّاد للبوّاب.

﴿ كُبِتُواْ ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش: أهلكوا.

وقال قتادة: اخْزُوا كما أُخْزِي الذين من قبلهم.

وقال ابن زيد: عذبوا.

وقال السدي: لعنوا.

وقال الفراء: غيظوا يوم الخندق.

وقيل: يوم بدر.

والمراد المشركون.

وقيل: المنافقون.

﴿ كَمَا كُبِتَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

وقيل: "كُبِتُوا" أي سيكبتون، وهو بشارة من الله تعالى للمؤمنين بالنصر، وأخرج الكلام بلفظ الماضي تقريباً للمخبر عنه.

وقيل: هي بلغة مَذْحج.

﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ فيمن حادّ الله ورسوله من الذين قبلهم فيما فعلنا بهم.

﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ ﴾ نصب ب "عَذَابٍ مُهِينٍ" أو بفعل مضمر تقديره واذكر تعظيماً لليوم.

﴿ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً ﴾ أي الرجال والنساء يبعثهم من قبورهم في حالة واحدة ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ ﴾ أي يخبرهم ﴿ بِمَا عَملوا ﴾ في الدنيا ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ ﴾ عليهم في صحائف أعمالهم ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ هم حتى ذكرهم به في صحائفهم ليكون أبلغ في الحجة عليهم.

﴿ واللَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ مطّلع وناظر لا يخفى عليه شيء. انتهى انتهى. اهـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(197/751)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة:

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ﴾

بإظهار الدال وقُرىءَ بإدغامِها في السِّينِ ﴿ قَوْلَ التى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ أيْ تراجعكَ الكلامَ في شأنِهِ وفيمَا صدرَ عنْهُ في حقِّهَا من الظهارِ وقُرِىءَ تُحاوركَ وتَحاولكَ أَيْ

تسائلك ﴿ وَتَشْتَكِي إِلَى الله ﴾ عطفٌ عَلَى تجادلك أَيْ تتضرعُ إليهِ تَعَالَى وقيل حالٌ منْ فاعله أيْ تجادلك وَهي مُتضرعةٌ إليه تعَالَى وَهِيَ خَوْلَة بنتُ ثَعْلبة بن مالكِ بن خُزَامة الخزرجيةُ ، ظاهرَ عنْهَا زوجُهَا أَوْسُ بْنُ الصامتِ أخُو عُبَادةَ ثمَّ ندِمَ عَلَى مَا قالَ فقالَ لَهَا مَا أظنكَ إلاَّ قدْ حرمتِ عليّ فشقّ عَلَيْهَا ذلكَ فاستفتتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ حرُمتِ عليهِ فقالتْ يا رسولَ الله ما ذكرَ طَلاقاً فقالَ حرمتِ عليهِ . وَفي روايةٍ : مَا أُراكِ إلا قدْ حرمتِ عليه في المرارِ كلِّها فقالتْ أشكُو إلى الله فَاقتِي وَوَجْدِي وجعلتْ تراجعُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وكُلَّما قالَ عليه الصلاةُ والسلامُ حرمتِ عليهِ هتفتْ وشكتْ إِلَى الله تَعَالَى فنزلتْ وَفي كلمةِ قدْ إشعارٌ بأنَّ الرسولَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ والمجادلة كَانَا يتوقعانِ أنْ ينزلَ الله تعالَى حكمَ الحادثةِ ويفرجَ عَنْهَا كَرْبَهَا كَمَا يلوحُ بِهِ مَا رُويَ أنَّه عليه الصلاةُ والسلامُ قالَ لها عندَ استفتائِهَا مَا عندِي في أمركِ شيءٌ وَأَنَّها كانتْ ترفعُ رأْسَهَا إلى السماءِ وتقولُ : اللهمَّ أني أشكُو إليكَ فأنزلْ عَلى لسانِ نبيكَ ومَعنى سَمْعِهِ تَعَالَى لقولِهَا إجابةُ دُعائِهَا لا مجردَ علمِهِ تعَالى بذلكَ كما هُوَ المَعْنِيُّ بقولِه تعَالَى : ﴿ والله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ أيْ يعلمُ تراجعكُمَا الكلامَ وَصيغةُ المضارعِ للدلالةِ على استمرارِ السمعِ حسَبُ استمرارِ التحاورِ وتجددهِ وَفي نَظْمِها في سلكِ الخطابِ تغليباً تشريفٌ لَهَا منْ جهتيْنِ وَالجملةُ استئنافٌ

جارٍ مَجْرَى التعليلِ لِمَا قبلَهُ فإنَّ إلحافَهَا في المسألةِ ومبالَغَتَهَا في التضرعِ إلى اللهِ تَعَالَى ومدافعَتَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إيَّاهَا بجوابٍ منبىءٍ عنِ التوقفِ وترقبِ الوحيِ وَعِلمَهُ تَعَالَى بحالِهِمَا منْ دواعي الإجابةِ وقيل هي حَالٌ وهُوَ بعيدٌ وَقَوْلُهُ عزَّ وَجَلَّ : ﴿ إنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ تعليلٌ لِمَا قبلَهُ بطريقِ التحقيقِ أيْ مبالغٌ في العلمِ بالمسموعاتِ والمبصَراتِ وَمِنْ قضيتِهِ أنْ يسمعَ تحاورَهُمَا ويَرَى ما يقارنُهُ منَ الهيئاتِ التي منْ جُملتِهَا رفعُ رأسِهَا إلى السماءِ وسائرُ آثارِ التضرعِ . وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في الموقعينِ لتربيةِ المهابةِ وتعليلِ الحكمِ بوصفِ الألوهيةِ وتأكيدِ استقلالِ الجملتينِ .

(199/751)

وَقَوْلُه تَعَالَى : ﴿ الذين يظاهرون منكُم مّن نّسَائِهِمْ ﴾ شروعٌ في بيانِ شأنِ الظهارِ في نفسِهِ وحكمِهِ المترتبُ عليه شرْعاً بطريقِ الاستئنافِ والظهارُ أنْ يقولَ الرجلُ لامرأتِهِ أنتِ عليَّ كظهرِ أُمّي مشتقٌ منَ الظهرِ وقدْ مرَّ تفصيلُهُ في الأحزابِ وألحقَ بهِ الفقهاءُ تشبيهَهَا بجزءٍ مُحرمٍ . وَفِي منكُمْ مزيدُ توبيخٍ للعربِ وتهجينٌ لعادتِهِمْ فيه فإنَّهُ كانَ منْ أيمانِ أهلِ جاهليتِهِمْ خَاصَّةً دونَ سائرِ الأممِ وقُرِىءَ يُظَّاهرونَ منْ اظَّاهرَ ويظَاهرونَ ويظْهرونَ وقولُه تَعَالَى :

﴿ مَّا هُنَّ أمهاتهم ﴾ خبرٌ للموصول أَيْ ما نساؤُهُم أمهاتُهم عَلى الحقيقةِ فهُو كَذبٌ بحتٌ وَقُرِىءَ أمهاتُهم بالرفعِ عَلى لُغةِ تَميمٍ وبأمهاتِهم ﴿ إِنْ أمهاتهم ﴾ أيْ مَا هُنَّ ﴿ إِلاَّ اللائى وَلَدْنَهُمْ ﴾ فلاَ تشبَّهُ بهنَّ فِي الحُرمةِ إلا منْ ألحقَهَا الشرعُ بهنَّ منَ المرضعاتِ وأزواجِ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فدخلنَ بذلكَ في حُكمِ الأمهاتِ وَأَمَّا الزوجاتُ فأبعدُ شيءٍ منَ الأُمومةِ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ ﴾ بقولِهم ذلكَ ﴿ مُنكَراً مّنَ القول ﴾ عَلى أنَّ مناطَ التأكيدِ ليسَ صدورَ القولِ عنْهمْ فإنَّه أمرٌ محققٌ بل كونُهُ منكراً أيْ عندَ الشرعِ وعند العقلِ والطبعِ أيضاً كما يشعرُ بِهِ تنكيره ونظيرِهِ قولُهُ تعالَى إنكُمْ لتقولونَ قولاً عظيماً ﴿ وَزُوراً ﴾ أيْ محرفاً عنِ الحَقِّ ﴿ وَإِنَّ الله لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أيْ مبالغٌ في العفوِ والمغفرةِ فيغفرُ لمَا سلفَ منْهُ عَلَى الإطلاقِ أَوْ بالمتابِ عنْهُ وقولُه تَعَالَى : ﴿ والذين يظاهرون مِن نّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ تفصيلٌ لحكمِ الظهارِ بعدَ بيانِ كونِهِ أمراً منكراً بطريقِ التشريعِ الكليِّ المنتظمِ لحكمِ الحادثةِ انتظاماً أولياً أيْ والذينَ يقولونَ ذلكَ القولَ المنكَرَ ثمَّ يعودونَ لما قالُوا أيْ إلى مَا

قالُوا بالتداركِ والتلافِي لاَ بالتقريرِ والتكريرِ كَما في قولِه تعَالَى : ﴿ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَداً ﴾ فإِنَّ اللامَ وإلى تتعاقبانِ كَثيراً كَما في قولِه تعَالى : ﴿ هَدَانَا لهذا ﴾ وقولِه تعَالَى : ﴿

فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوحى لَهَا ﴾ وقوله تعالى :

﴿ وَأُوحِيَ إلى نُوحٍ. ﴾ ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أي فتداركُهُ أو فعليهِ أوْ فالواجبُ إعتاقُ

رقبةٍ أيِّ رقبةٍ كانتْ وعندَ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ تعَالَى يشترطُ الإيمانُ ، والفاءُ للسببيةِ ومن

فوائدِها الدلالةُ على تكررِ وجوبِ التحريرِ بتكررِ الظهارِ وَقيلَ : (ما قالُوا) عبارةٌ عَمَّا

حرَّمُوهُ عَلى أنفسِهِمْ بلفظِ الظهارِ تنزيلاً للقولِ منزلةَ المَقُولِ فيهِ كَما ذُكِرَ في قولِهِ تَعَالَى : ﴿

وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ أي المقولُ فيهِ منَ المالِ والولدِ فالمَعْنَى ثُمَّ يريدونَ العودَ للاستمتاعِ فتحريرُ

رقبةٍ ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ أيْ مِنْ قبلِ أنْ يستمتعَ كلٌ منَ المُظاهِرِ وَالمُظاهَرِ منْهَا بالآخرِ

جماعاً ولَمساً ونظراً إلى الفرجِ بشهوةٍ وإنْ وقعَ شيءٌ من ذلكَ قبلَ التكفيرِ يجبُ عليهِ أنْ

يستغفرَ ولا يعودَ حتَّى يكفرَ وإنْ أعتقَ بعضَ الرقبةِ ثمَّ مسَّ عليهِ أنْ يستأنفَ عندَ أبي

حنيفةَ رحمَهُ اللهُ تعَالَى ﴿ ذلكم ﴾ إشارةٌ إلى الحكمِ المذكورِ وَهُوَ مبتدأٌ خبرُهُ ﴿

تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ أيْ تزجرونَ بِهِ عنِ ارتكابِ المنكرِ المذكورِ فإنَّ الغراماتِ مزاجرُ عنْ

تعاطِي الجناياتِ والمرادُ بذكرِهِ بيانُ أنَّ المقصودَ منْ شرعِ هَذَا الحكمِ ليسَ تعريضكُمْ للثوابِ

بمباشرتكُمْ لتحريرِ الرقبةِ الذي هُوَ علمٌ في استتباعِ الثوابِ العظيمِ بلْ هُوَ ردعُكم وزجركم

عنَ مباشرةِ ما يوجبُهُ ﴿ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ منَ الأعمالِ التي منْ جُملتِها التكفيرُ وما

يوجبُهُ من جنايةِ الظهارُ ﴾

خَبِيرٌ ﴾ أيْ عالمٌ بظواهِرِهَا وبواطِنَها ومجازيكُم بهَا فحافظُوا على حدود ما شرعَ لكُمْ ولاَ تُخلُّوا بشيءٍ منْهَا .

(202/751)

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ أيْ الرقبةَ ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ ﴾ أيْ فعليهِ صيامُ شهرينِ ﴿ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ ليلاً أوْ نهاراً عمداً أوْ خطأً ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ﴾ أيْ الصيامَ لسببٍ منَ الأسبابِ ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ لكُلِّ مسكينٍ نصفُ صاعٍ منْ برٍّ أوْ صاعٌ منْ غيرِهِ ويجبُ تقديمُهُ علَى المسيسِ لكن لا يستأنفُ إنْ مسَّ في خلالِ الإطعامِ ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى مَا مرَّ من البايِنِ والتعليمِ للأحكامِ والتنبيهُ عليهَا ومَا فيهِ منْ معنى البُعدِ قدْ مرَّ سرُّهُ مِراراً ومحلُّه إمَّا الرفعُ علَى الابتداءِ أو النصبُ بمضمرٍ معللٍ بمَا بعدَهُ أيْ ذلكَ واقعٌ أو فعلْنَا ذلكَ ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ وتعملُوا بشرائِعِهِ التي شرعَهَا لكُم وترفضُوا ما كنتُم عليهِ في جاهليتِكُم ﴿ وَتِلْكَ ﴾ إشارةٌ إلى الأحكامُ المذكورةِ وما فيهِ من مَعْنى البُعدِ لتعظيمِها كما مَرَّ غيرَ مرةٍ ﴿ حُدُودَ الله ﴾ التي لا يجوزُ تعدِّيهَا ﴿ وللكافرين ﴾ أي الذينَ لا يعملونَ بها ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ عبرَ عنْهُ بذلكَ للتغليظِ علَى طريقةِ قولِهِ تعَالَى : ﴿

وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنِ العالمين . ﴾ ﴿ إِنَّ الذين يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أيْ يعادونَهُمَا ويشاقونهُمَا فإنّ كلاًّ من المتعادينِ كَما أنَّه يكونُ في عُدوةٍ وشقٍ غيرِ عُدوةِ الآخرِ وشقّهِ كذلكَ يكونُ في حدَ غيرِ حدّ الآخرِ غيرَ أنَّ لورودِ المحادّةِ في أثناءِ ذكرِ حدودِ الله دونَ المعاداةِ والمشاقةِ من حسنِ الموقعِ ما لا غايةَ وراءَهُ ﴿ كُبِتُواْ ﴾ أيْ أخزُوا وقيلَ خُذلُوا وقيلَ أذلُّوا وقيل أهلكوُا وقيل لعنُوا وقيلَ غِيظُوا وهُوَ ما وقعَ يومَ الخندقِ قالُوا معْنَى كُبتوا سيكبتونَ عَلَى طريقةِ قولِه تعَالَى : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ وقيلَ : أصلُ الكبتِ الكبُّ ﴿ كَمَا كُبِتَ

(203/751)

الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ منْ كُفَّارِ الأممِ الماضيةِ المعادينَ للرسلِ عليهمْ الصلاةُ والسلامُ ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا ءايات بينات ﴾ حالٌ منْ واوِ كُبتوا أيْ كُبتوا لمحادّتِهم والحالُ أنا قدْ أنزلنا آياتٍ واضحاتٍ فيمنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ ممنْ قبلَهُم من الأَممِ وفيمَا فعلْنَا بهِمْ وقيلَ : آياتٌ تدلُّ على صدقِ الرسولِ وصحةِ ما جاءَ بِهِ ﴿ وللكافرين ﴾ أيْ بتلكَ الآياتِ أو بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ بِهِ فيدخلُ فيهِ تلكَ الآياتُ دُخولاً أولياً ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ يذهبُ بعزِّهم وكِبْرِهم . ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ منصوبٌ بمَا تعلقَ بِه اللامُ من الاستقرارِ أوْ بمهينٍ أو بإضمارِ أذكُرْ

تعظيماً لليوم وتهويلاً لَهُ ﴿ جَمِيعاً ﴾ أي كُلُّهم بحيث لا يَبْقى منهُمْ أحدٌ غيرُ مبعوثٍ أوْ مجتمعينَ في حالةٍ واحدةٍ ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ منَ القبائحِ ببيانِ صُدورِها عنهُمْ أوْ بتصويرِهَا في تلكَ النشأةِ بما يليقُ بهَا منَ الصورِ الهائلةِ عَلى رؤوسِ الإشهادِ تخجيلاً لهُم وتشهيراً بحالِهم وتشديداً لعذابهم وقوله تعالَى : ﴿ أحصاه الله ﴾ استئنافٌ وقعَ جَواباً عمَّا نشأَ مِمَّا قبلَهُ منَ السؤالِ إمَّا عنْ كيفيةِ التنبئةِ أو عنْ سببِهَا كأنَّه قيل كيفَ ينبئُهُمْ بأعمالِهم وهيَ أعراضٌ متقضيةٌ متلاشيةٌ فقيلَ أحصاهُ الله عدداً لمْ يفُتْهُ منْهُ شيءٌ فقوله تعالَى : ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ حينئذٍ حالٌ من مفعولِ أحْصَى بإضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور أو قيل لمَ ينبئُهم بذلك فقيل أحصاه الله ونسوه فينبئهُمْ بهِ ليعرفُوا أنّ مَا عاينُوه من العذابِ إنما حاقَ بهمْ لأجلِهِ فيهِ مزيدُ توبيخٍ وتنديمٍ لهُم غيرِ التخجيلِ والتشهير ﴿ والله على كُلّ شَىْء شَهِيدٌ ﴾ لا يغيبُ عنهُ أمرٌ منَ الأمورِ قطٌّ والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لإحصائِهِ تعَالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(204/751)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين يُحَادُّونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾

أي يعادونهما ويشاقونهما لأن كلا من المتعادين في حدّ وجهة غير حدّ الآخر وجهته كما أن كلا منهما في عدوة وشق غير عدوة الآخر وشقه ، وقيل : إطلاق ذلك على المتعادين باعتبار استعمال الحديد لكثرة ما يقع بينهما من المحاربة بالحديد كالسيوف والنصال وغيرها ، والأول أظهر ، وفي ذكر المحادّة في أثناء ذكر حدود الله تعالى دون المعاداة والمشاقة حسن موقع جاوز الحد ، وقال ناصر الدين البيضاوي : أو يضعون أو يختارون حدوداً غير حدود الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ومناسبته لما قبله في غاية الظهور .

قال المولى شيخ الإسلام سعد الله جلبي : وعلى هذا ففيه وعيد عظيم للملوك وأمراء السوء الذين وضعوا أموراً خلاف ما حده الشرع وسموها اليسا والقانون ، والله تعالى المستعان على ما يصفونه اه ، وقال شهاب الدين الخفاجي بعد نقله : وقد صنف العارف بالله الشيخ بهاء الدين قدس الله تعالى روحه رسالة في كفر من يقول : يعمل بالقانون والشرع إذا قابل بينهما ، وقد قال الله تعالى : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : 3] وقد وصل الدين إلى مرتبة من الكمال لا يقبل التكميل ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، ولكن أين من يعقل ؟! انتهى .

وليتني رأيت هذه الرسالة وقفت على ما فيها فإن إطلاق القول بالكفر مشكل عندي فتأمل ، ثم إنه لا شبهة في أنه لا بأس بالقوانين السياسية إذا وقعت باتفاق ذوي الآراء من أهل الحل والعقد على وجه يحسن به إياك أن تقول في مجلسنا : المسألة شرعا كذا ، وقد أصابني منه عامله الله بعدله لعدولي عن قوله مزيد الأذى ، واتفق أن قال لي بعض خاصته يوماً : أرى ثلثي الشرع شراً ، فقلت له وإن كنت عالماً أن في أذنيه وقراً : نعم ظهر الشر لما أذهبتم من الشرع العين ، ولم تأخذوا من اسمه سوى حرفين ؛ فتأمل العبارة وتغير وجهه لما فهم الإشارة ، والذي ينبغي أن يقال في ذلك : إن ما يرجع من تلك الأصول إلى ما يتعلق بسوق الجيوش وتعبئتهم وتعليمهم ما يلزم في الحرب مما يغلب على الظن الغلبة به على الكفرة وما يتعلق بأحكام المدن والقلاع ونحو ذلك لا بأس في أكثره على ما نعلم ، وكذا ما يتعلق بجزاء ذوي الجنايات التي لم يرد فيها عن السارع حد خصوص بل فوض التأديب عليها إلى رأي الإمام كأنواع التعاذير ، وللإمام أن يستوفي ذلك وإن عفا المجني عليه لأن الساقط به حق الآدمي والذي يستوفيه الإمام حق الله تعالى للمصلحة كما نص على ذلك العلامة ابن حجر في "شرح المنهاج" ، والقواعد لا تأباه ، نعم ينبغي أن يجتنب في ذلك الإفراط والتفريط ، وقد شاهدنا في العراق مما يسمونه "جزاءاً" ما القتل أهون منه بكثير .

ومثل ذلك ظلم عظيم وتعد كبير .

وأما ما يتعلق بالحدود الآلهية كقطع السارق.

ورجم الزاني المحصن.

وما فصل في حق قطاع الطريق من قطع الأيدي والأرجل من خلاف وغيره مما فصل في آيتهن إلى غير ذلك فظاهر أمره دخوله في حكم الآية هنا على ما ذكره البيضاوي.

(206/751)

وأما ما يتعلق بالمعاملات والعقود فإن كان موافقاً لما ورد عن الشارع فيها من الصحة وعدمها سميناه "شرعاً" ولا نسميه "قانوناً" و"أصولاً" وإن لم يكن موافقاً لذلك كالحكم في إعطاء الربا مثلا المسمى عندهم بالكرشتة لزعم أنه تتعطل مصالح الناس لو لم يحكم بذلك فهو حكم بغير ما أنزل الله عز وجل.

(207/751)

وأما ما يتعلق بحق بين المال في الأراض فما كان موافقاً لعمل النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين فذاك وما كان مخالفاً لعمل الخلفاء الصادر منهم باجتهاد فإن كانت

مخالفته إلى ما هو أسهل وأنفع للناس فنظراً إلى زمانهم فهو مما لا بأس فيه ، وإن كانت مخالفته إلى ما هو أشق ففيه بأس ، ولا يجري هذا التفصيل فيما وصفه رسول الله عليه الصلاة والسلام كالعشر في بعض الأراضي التي فتحت في زمنه الشريف صلى الله عليه وسلم فإنه لا تجوز المخالفة فيه أصلاً على ما ذكره أبو يوسف في "كتاب الخراج" وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة بحسب الظاهر بأن لم يكن منصوصاً عليه فإن كان يندرج في العمومات المنصوص عليها في أمر الأراضي فذاك وإلا فقبوله ورده باعتبار المدخول في العمومات الواردة في الحظر والإباحة فإن دخل في عمومات الإباحة قبل وإن في عمومات الحظر رد ، وأمر تكفير العامل بالأصول المذكورة خطر فلا ينبغي إطلاق القول فيه ، نعم لا ينبغي التوقف في تكفير من يستحسن ما هو بين المخالفة للشرع منها ويقدمه على الأحكام الشرعية متنقصاً لها به ، ولقد سمعت بعض خاصة أتباع بعض الولاة يقول : وإن تلك الأحكام أصول وقوانين سياسية كانت حسنة في الأزمنة المتقدمة لما كان أكثر الناس بلهاً ، وأما اليوم فلا يستقيم أمر السياسة بها والأصول الجديدة أحسن وأوفق للعقل منها ، ويقول كلما ذكرها : الأصول المستحسنة ، وكان يرشح كلامه بنفي رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وكذا رسالة الأنبياء عليهم السلام قبله ، ويزعم أنهم كانوا حكماء في أوقاتهم توصلوا إلى أغراضهم بوضع ما ادعوا فيه أنه وحي من الله تعالى ، فهذا وأمثاله مما لا شك

في كفره وفي كفر من يدعي للمرافعة عند القاضي فيأبى إلا المرافعة بمقتضى تلك الأصول عند أهل تلك الأصول راضياً بما يقضون به عليه تردد وإنما لم يجزم بكفره مع قوله تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء : 65] لأن حكم أكثر القضاة مخالف لحكم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في أكثر المسائل ، والبلية العظمى أنهم يسمون ذلك شرعاً ومع ذلك يأخذون عليه ما يأخذون من المال ظلماً فلمن لم يرض بالمرافعة عند هؤلاء القضاء العجزة ويرضى بالمرافعة عند أهل الأصول عذر لذلك الانتظام ويصلح أمر الخاص والعام ، ومنها تعيين مراتب التأديب والزجر على معاص وجنايات لم ينص الشارع فيها على حد معين بل فوض الأمر في ذلك لرأي الإمام فليس ذلك من المحادّة لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في شيء بل فيه استيفاء حقه تعالى على أتم وجه لما فيه من الزجر عن المعاصي وهو أمر مهم للشارع عليه الصلاة والسلام ، ويرشد إليه ما في تحفة المحتاج أن للإمام أن يستوفي التعزير إذا عفى صاحب الحق لأن الساقط بالعفو هو حق الآدمي ، والذي يستوفيه الإمام هو حق الله تعالى للمصلحة ، وفي "كتاب الخراج" للإمام أبي يوسف

عليه الرحمة إشارة إلى ذلك أيضاً ؛ ولا يعكر على ذلك ونحوه قوله تعالى : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : 3] لأن المراد إكماله من حيث تضمنه ما يدل على حكمه تعالى خصوصاً أو عموماً ، ويرشد إلى هذا عدم النكير على أحد من المجتهدين إذا قال بشيء لم يكن منصوصاً عليه بخصوصه ، ومن ذلك ما ثبت بالقياس بأقسامه ، نعم القانون الذي يكون وراء ذلك بأن كان مصادماً لما نطقت به الشريعة الغراء زائغاً عن سنن المحجة البيضاء فيه ما فيه كما لا يخفى على العارف النبيه ، وقد يقال في الآية على المعنى الذي ذكره البيضاوي : إن المراد بالموصول الواضعون لحدود الكفر وقوانينه كائمة الكفر أو المختارون لها العاملون بها كأتباعهم ، ثم إن الآية على ما في البحر نزلت في كفار قريش ﴿

(209/751)

كُبِتُواْ ﴾ أي أخزوا كما قال قتادة ، أو غيظوا كما قال الفراء أو ردّوا مخذولين كما قال ابن زيد أو أهلكوا كما قال أبو عبيدة .

والأخفش .

وعن أبي عبيدة أن تاءه بدل من الدال ، والأصل كبدوا أي أصابهم داء في أكبادهم ، وقال السدى : لعنوا ، وقيل : الكبت الكب وهو الإلقاء على الوجه ، وفسره الراغب هنا بالرد

بعنف وتذليل ، وذلك إشارة عند الأكثرين إلى ما كان يوم الخندق ، وقيل : إلى ما كان يوم بدر ، وقيل : معنى ﴿ كُبِتُوا ﴾ سيكبتون على طريقة قوله تعالى : ﴿ اتى أَمْرِ الله ﴾ [النحل : 1] وهو بشارة للمؤمنين بالنصر على الكفار وتحقق كبتهم .

﴿ كَمَا كُبِتَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من كفار الأمم الماضية المحادّين لله عز وجل ورسله عليهم الصلاة والسلام ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا ءايات بينات ﴾ حال من واو ﴿ كُبِتُوا ﴾ أي كبتوا لمحادّتهم ، والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حاد الله تعالى ورسوله من قبلهم من الأمم وفيما فعلنا بهم ، وقيل : آيات تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به ﴿ وللكافرين ﴾ أي بتلك الآيات أو بكل ما يجب الإيمان به فتدخل فيه تلك الآيات دخولاً أولياً ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ يذهب بعزهم وكبرهم .

(210/751)

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ منصوب بما تعلق به اللام من الاستقرار ، أو بمهين أو باضمار اذكر أي أذكر ذلك اليوم تعظيماً له وتهويلاً ، وقيل : منصوب بيكون مضمراً على أنه جواب لمن سأل متى يكون عذاب هؤلاء ؟ فقيل له : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ﴾ أي يكون يوم الخ ، وقيل : بالكافرين وليس بشيء ، وقوله تعالى : ﴿ جَمِيعاً ﴾ حال جيء به للتأكيد ، والمعنى يبعثهم الله

تعالى كلهم بحيث لا يبقى منهم أحد غير مبعوث ، ويجوز أن يكون حالا غير مؤكدة أي يبعثهم مجتمعين في صعيد واحد ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ من القبائح ببيان صدورها عنهم أو بتصويرها في تلك النشأة بما يليق بها من الصور الهائلة على رؤوس الاشهاد تخجيلاً لهم وتشهيراً بحالهم وزيادة في خزيهم ونكالهم ، وقوله تعالى : ﴿ أحصاه الله ﴾ استئناف وقع جواباً عما نشأ مما قبله من السؤال إما عن كيفية التنبئة أو عن سببها كأنه قيل : كيف ينبئهم بأعمالهم وهي أعراض متقضية متلاشية ؟ فقيل : أحصاه الله تعالى عدداً ولم يفته سبحانه منه شيء ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ حينئذ حال من مفعول أحصى باضمار قد أو بدونه ، أو قيل : لم ينبئهم بذلك ؟ فقيل : أحصاه الله تعالى ونسوه فينبئهم به ليعرفوا أن ما عاينوه من العذاب إنما حاق بهم لأجله ، وفيه مزيد توبيخ وتنديم لهم غير التخجيل والتشهير ﴿ والله على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ لا يغيب عنه أمر من الأمور أصلا ، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لإحصائه تعالى أعمالهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الذين يُحَآدُّونَ الله وَرَسُولَهُ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾

لما جرى ذكر الكافرين وجرى ذكر حدود الله وكان في المدينة منافقون من المشركين نقل الكلام إلى تهديدهم وإيقاظ المسلمين للاحتراز منهم .

والمحادَّة : المشاقَّة والمعاداة ، وقد أوثر هذا الفعل هنا لوقوع الكلام عقب ذكر حدود الله ، فإن المحادة مشتقّة من الحد لأن كل واحد من المتعادِيَين كأنّه في حَدّ مخالف لحدّ الآخر ، مثل ما قيل أن العداوة مشتقة من عُدْوَة الوادي لأن كلاًّ من المتعادِيَين يشبه من هو من الآخر في عُدوة أخرى .

وقيل : اشتقت المشاقّة من الشقة لأن كلاًّ من المتخالفين كأنه في شقة غير شقة الآخر .

والمراد بهم الذين يُحَادُون رسول الله صلى الله عليه وسلم المرسَل بدين الله فمحادته محادة لله .

والكبت : الخزي والإذلال وفعل ﴿ كبتوا ﴾ مستعمل في الوعيد أي سيكبتون ، فعبّر عنه بالمضيّ تنبيهاً على تحقيق وقوعه لصدوره عمّن لا خلاف في خبره مثل ﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : 1] ولأنه مُؤيِّدٌ بتنظيره بما وقع لأمثالهم .

وقرينة ذلك تأكيد الخبر بـ ﴿ إنّ ﴾ لأن الكلام لو كان إخباراً عن كبت وقع لم يكن ثم مقتضى لتأكيد الخبر إذ لا ينازع أحد فيما وقع ، ويزيد ذلك وضوحاً قوله : ﴿ كما كبت

الذين من قبلهم ﴾ يعني الذين حادُّوا الله في غزوة الخندق.

وتقدم ذكرها في سورة الأحزاب.

وما كان من المنافقين فيها فالمراد بصلة ﴿ من قبلهم ﴾ من كان من قبلهم من أهل النفاق وهم يعرفونهم.

﴿ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءايات ﴾.

معترضة بين جملة ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله ﴾ وجملة ﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ أي لا عذر لهم في محادّة الله ورسوله فإن مع الرسول صلى الله عليه وسلم آيات القرآن بيّنة على صدقه.

﴿ بينات وللكافرين عَذَابٌ ﴾.

عطف على جملة ﴿ كبتوا كما كبت الذين من قبلهم ﴾، أي لهم بعد الكبت عذاب مهين في الآخرة.

(212/751)

وتعريف (الكافرين) تعريف الجنس ليستغرق كل الكافرين.

ووصف عذابهم بالمهين لمناسبة وعيدهم بالكبت الذي هو الذل والإِهانة.

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6)

يجوز أن يكون ﴿ يوم ﴾ ظرفاً متعلقاً بالكون المقدّر في خبر المبتدأ من ﴿ للكافرين عذاب مهين ﴾ [المجادلة : 5 .

[

ويجوز أن يكون متعلقاً بـ ﴿ مهين ، ويجوز أن يكون منصوباً على المفعول به لفعل تقديره : اذكر تنويهاً بذلك اليوم وتهويلاً عليهم ، وهذا كثير في أسماء الزمان التي وقعت في القرآن .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة أني جاعل في الأرض خليفة ﴾ في سورة [البقرة : 30] .

وضمير الجمع عائد إلى الذين يحادون الله ورسوله ﴾ و ﴿ الذين من قبلهم ﴾ [المجادلة : 5] .

ولذلك أتى بلفظ الشمول وهو ﴿ جميعاً ﴾ حالاً من الضمير .

وقوله : ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ تهديد بفضح نفاقهم يوم البعث .

وفيه كناية عن الجزاء على أعمالهم .

وجملة ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾ في موضع الحال من (ما عملوا) .

والمقصود من الحال هو ما عطف عليها من قوله : ﴿ ونسوه ﴾ لأن ذلك محلّ العبرة .

وبه تكون الحال مؤسسة لا مؤكدة لعاملها ، وهو "ينبئهم" ، أي علمه الله علماً مفصلاً من

الآن ، وهم نسوه ، وذلك تسجيل عليهم بأنهم متهاونون بعظيم الأمر وذلك من الغرور ، أي نسوه في الدنيا بَلْهَ الآخرة فإذا أُنبئوا به عجبوا قال تعالى : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ [الكهف : 49] .

وجملة ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ تذييل .

والشهيد : العالم بالأمور المشاهدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(213/751)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان هذا الإخبار عن إحاطة علمه وشمول قدرته مع أنه بديهي التصور - يحتاج عند من جره الهوى إلى الشرك المقتضي للنقص إلى دليل معه فقد كان العرب ينكرون أن يسع

الناس كلهم إله واحد ، قال تعالى دالاًّ على ذلك بدليل شهودي ليفيد الإنسان بما يراه من المحسوسات ، قاصراً الخطاب على أعلى الخلق إشارة إلى أنه لا يفهم ذلك حق فهمه غيره : ﴿ ألم تر ﴾ أي تعلم علماً هو في وضوحه كالرؤية بالعين ﴿ أن الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال كلها ﴿ يعلم ما في السماوات ﴾ كلها .

(214/751)

ولما كان الخطاب لأعلى الخلق ، وكان المقام لإحاطة العلم ، وكان خطابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك إشارة للسامعين إلى وعورة هذا المقام وأنه بحيث لا يكاد يتصوره ولا يفهمه حق فهمه إلا هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن ألحق به ممن صفا فهمه وسوى ذهنه وانخلع من الهوى والعوائق ، جمع وأكد بإعادة الموصول ، فإفراده ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالخطاب بعد أن كان مع المظاهرين ثم المحادين إشارة إلى التعظيم وتأكيده تنبيه على صعوبة المقام بالتعميم ليرعى حق الرعي توفية بحق التعليم كما رعته الصديقة أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنه ـ ا في قولها (سبحان من وسع سمعه الأصوات) يعني في سماعه مجادلة المرأة وهو في غاية الخفاء فقال تعالى : ﴿ وما في الأرض ﴾ أي كليات ذلك وجزئياته ، لا يغيب عنه شيء منه ، بدليل أن تدبيره محيط بذلك على أتم ما يكون ، وهو يخبر من يشاء من أنبيائه

وأصفيائه بما يشاء من أخبار ذلك ، القاصية والدانية ، الحاضرة والغائبة ، الماضية والآتية ، فيكون كما أخبر .

ولما كان ذلك وإن كان معلوماً يتعذر إحاطة الإنسان بكل جزئي منه ، دل عليه بما هو أقرب منه فقال : ﴿ ما تكون ﴾ بالفوقانية في قراءة أبي جعفر لتأنيث النجوى إشارة إلى العلم بها ولو ضعفت إلى أعظم حد ، وقرأ الباقون بالتحتانية للحائل ، ولأن التأنيث غير حقيقي ، وهي على كل حال من "كان" التامة ، وعمم النفي بقوله : ﴿ من نجوى ﴾ أي تناجي متناجين ، جعلوا نجوى مبالغة ، والنجوى : السر والمسارون ، اسم ومصدر - قاله في القاموس ، وقال عبد الحق في الواعي : النجوى الكلام بين الاثنين كالسر والتشاور - انتهى .

وأصله من النجوى - للمرتفع من الأرض ، والنجو : الخلوص والقطع وكشط الجلد والحدث والكشف ، لأن المسارر يرفع ما كان في ضميره إلى صاحبه ويخلصه بمساررته له ويقطعه من ضميره ويكشطه منه ويحدثه ويكشفه .

ولما كانت النجوى لا تكمل إلا بثالث يحفظ الأنس بإدامة الاجتماع لأن الاثنين ينفردان عند عروض حاجة لأحجهما ويكونان في التناجي والتشاور كالمتنازعين ، والثالث وسط بينهما مع أنه سبحانه وتر يحب الوتر ، والثلاثة أول أوتار العدد ، كما كان حافظاً لها في أزل الأزل قال : ﴿ ثلاثة ﴾ أي في حال من الأحوال ﴿ إلا هو رابعهم ﴾ أي مصيرهم أربعة ، فهو اسم فاعل والمعنى بعلمه وقدرته كما يكون كل من المتناجين عالماً بنجوى البعض ، فروح النجوى العلم بالسر .

ولما كان الثلاثة قد يريد أحدهم أن ينفرد بآخر منهم ، فيصير الثالث وحده ، فإذا كانوا أربعة دام الأنس بينهم ثم لا يكمل إلا بخامس يحفظ الاجتماع إذا عرضت لأحد الاثنين حاجة قال : ﴿ ولا خمسة ﴾ أي من نجواهم ﴿ إلا هو سادسهم ﴾ كذلك ، فالحاصل أنه ما يكون من وتر إلا كان هو سبحانه شافع وتريته ، وأما وتريته هو سبحانه فقد كانت ولا شيء معها أصلاً ، وستكون ولا حي معها ، فلا وتر في الوجود على الحقيقة غيره .

ولما علم بالتكرير أن ما ذكر على سبيل المثال لا لمعنى يخصه من جهة بالعلم ، عم بقوله : ﴿ ولا أدنى ﴾ فبدأ بالقليل لأنه قبل الكثير وهو أخفى منه ﴿ من ذلك ﴾ أي الذي ذكر وهو الواحد والاثنان والأربعة الذي بعيد عن رتبته وإن كان قد شرفه سبحانه بإطلاق معيته بعد أن لا نسبة له منها .

ولما كان العلم بالكثير أعسر من أجل انتشاره قال : ﴿ ولا ﴾ أي يكون من نجوى

﴿أكثر﴾ أي من ذلك كالستة فما فوقها لا إلى نهاية - هذا التقدير على قراءة الجماعة بالجر بفتحة الراء ورفع يعقوب على محل من ﴿نجوى﴾ ﴿إلا هو معهم﴾ أي يعلم ما يجري منهم وبينهم، ويلزم من إحاطة علمه إحاطة قدرته كما تقدم في طه لتكمل شهادته.

(216/751)

ولما كان العموم في المكان يستلزم العموم في الزمان، وكان المكان أظهر في الحس قال: ﴿أين ما﴾ أي في أيّ مكان ﴿كانوا﴾ فإنه لا مسافة بينه وبين شيء من الأشياء لأنه الذي خلق المسافة، وعلمه بالأشياء ليس لقرب مكان حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة ولا بسبب من الأسباب غير وجوده على ما هو عليه من صفات الكمال، قال الرازي: ما فارق الأكوان الحق ولا قارنها، كيف يفارقها وهو موجدها وحافظها ومظهرها، وكيف يقارن الحدث القدم وهو به قوام الكل، وهو القيوم على الكل - انتهى.

والحاصل أنه سبحانه لا يخفى عليه شيء من العالم وإن بلغ في دقته إلى ما لا ينقسم، وهو شاهد لذلك كله حفظاً وعلماً وإحاطة وحضوراً، وآية ذلك في خلقه أن جملة الجسم يحيا بالروح، فلا يبقى جزء منه إلا وهو محفوظ بالروح يحس بسببها وهو سبحانه لا يحجب علمه ولا شيئاً من صفاته حجاب، فقد صحت المعية وهو بحيث لا يحويه المكان ولا

يحصره العد ، يقبض المخلوق ويبسطه ، لا يصعد المخلوق ولا صفته ولا فعله ولا معنى من معانيه إلى صفة من صفاته ، إنما له من المكان المكانة ، ومن العلم العلا ، ومن الأسماء والصفات مقتضاها - أشار إلى لك ابن برجان وقال : ومن تدبر ما قرأه وتفهم ما تعلمه أدرك من التحقيق ما نحن بسبيل تبيانه ما قدر له ، ألا ترى إلى الجن أين مكانهم وإن كانوا موصوفين به ثم الملائكة أرفع قدراً ومكانة ، بل إن الروح من جميع الجملة التي تحمله ، به حييت وبه تدبيرها وبه قيامها بإن الله خالقه ،

(217/751)

" قال عليه الصلاة والسلام في خطبته الكبرى وهي آخر خطبة خطبها أخرجها الحارث بن أبي أسامة : رقي المنبر وقال : " أيها الناس ادنو وأوسعوا لمن خلفكم " - ثلاث مرات ، فدنا الناس وانضم بعضهم إلى بعض ، التفتوا فلم يروا أحداً ، فقال رجل منهم بعد الثالثة : لمن نوسع يا رسول الله أللملائكة ؟ فقال : " لا إنهم إذ كانوا معكم لم يكونوا بين أيديكم ولا من خلفكم ولكن عن أيمانكم وعن شمائلكم " وعلى ذلك فليسوا في مكان الأيمان هنا والشمائل بل في المكان من ذلك ، فالله جل جلاله أعلى وأجل وأنزه مكانة وأكرم استواء - انتهى .

ولما كان الإنسان نساءً ولا سيما إن تمادى به الزمان ، قال عاطفاً على ما تقديره ، فيضبط عليهم حركاتهم وسكناتهم من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، ويحفظها على طول الزمان كما كان حافظاً لها قبل خلقها ثم أزل الأزل ﴿ ثم ينبئهم ﴾ أي يخبر أصحابها إخباراً عظيماً ﴿ بما عملوا ﴾ دقيقة وجليلة ﴿ يوم القيامة ﴾ الذي هو المراد الأعظم من الوجود لإظهار الصفات العلى فيه أتم إظهار .

ولما أخبر تعالى بهذا الأمر العظيم ، علله بما هو دليل على الشهادة فقال مؤكداً لما لهم من الإنكار قولاً أو فعلاً بالاشتراك الذي يلزم منه النقص ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الكمال كله .

ولما كان المقام للإبلاغ في إحاطة العلم ، قدم الجار كما مضت الإشارة إليه غير مرة قال : ﴿ بكل شيء ﴾ مما ذكر وغيره ﴿ عليم ﴾ أي بالغ العلم فهو على كل شيء قدير ، فهو على كل شيء شهيد ، لأن نسبة ذاته الأقدس إلى الأشياء كلها على حد سواء لا فرق أصلاً بين شيء وآخر ، قال القشيري : معية الحق سبحانه وإن كانت على العموم بالعلم والرؤية وعلى الخصوص بالفضل والنصرة ، فلهذا الخطاب في قلوب أهل المعرفة أثر عظيم إلى أن ينتهي الأمر بهم إلى التأويل ، فللوله والهيمان في خمار هذا عين رغد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 488 . 491 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ ترَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

ثم إنه تعالى أكد بيان كونه عالماً بكل المعلومات فقال :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي ألم تعلم وأقول هذا حق لأن كونه تعالى عالماً بالأشياء لا يرى ، ولكنه معلوم بواسطة الدلائل ، وإنما أطلق لفظ الرؤية على هذا العلم ، لأن الدليل على كونه عالماً ، هو أن أفعاله محكمة متقنة منتسقة منتظمة ، وكل من كانت أفعاله كذلك فهو عالم .

أما المقدمة الأولى : فمحسوسة مشاهدة في عجائب السموات والأرض ، وتركيبات النبات والحيوان .

أما المقدمة الثانية : فبديهية ، ولما كان الدليل الدال على كونه تعالى كذلك ظاهراً لا جرم بلغ هذا العلم والاستدلال إلى أعلى درجات الظهور والجلاء ، صار جارياً مجرى المحسوس المشاهد ، فلذلك أطلق لفظ الرؤية فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ وأما أنه تعالى عالم بجميع المعلومات ، فلأن علمه علم قديم ، فلو تعلق بالبعض دون البعض من أن جميع المعلومات مشتركة في

صحة المعلومية لافتقر ذلك العلم في ذلك التخصيص إلى مخصص ، وهو على الله تعالى محال ، فلا جرم وجب كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات ، واعلم أنه سبحانه قال : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ ولم يقل : يعلم ما في الأرض وما في السموات وفي رعاية هذا الترتيب سر عجيب .

ثم إنه تعالى خص ما يكون من العباد من النجوى فقال :

﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثلاثة إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أدنى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ ﴾ .

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(219/751)

قال ابن جني : قرأ أبو حيوة ﴿ مَا تَكُونُ مِن نجوى ثلاثة ﴾ بالتاء ثم قال والتذكير الذي عليه العامة هو الوجه ، لما هناك من الشياع وعموم الجنسية ، كقولك : ما جاءني من امرأة ، وما حضرني من جارية ، ولأنه وقع الفاصل بين الفاعل والمفعول ، وهو كلمة من ، ولأن النجوى تأنيثه ليس تأنيثاً حقيقياً ، وأما التأنيث فلأن تقدير الآية : ما تكون نجوى ، كما يقال : ما

قامت امرأة وما حضرت جارية .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ مَّا يَكُونُ ﴾ من كان التامة ، أي ما يوجد ولا يحصل من نجوى ثلاثة .

المسألة الثالثة :

النجوى التناجي وهو مصدر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ ﴾ [النساء : 114] وقال الزجاج : النجوى مشتق من النجوة ، وهي ما ارتفع ونجا ، فالكلام المذكور سراً لما خلا عن استماع الغير صار كالأرض المرتفعة ، فإنها لارتفاعها خلت عن اتصال الغير ، ويجوز أيضاً أن تجعل النجوى وصفاً ، فيقال : قوم نجوى ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ هُمْ نجوى ﴾ [الإسراء : 47] والمعنى ، هم ذوو نجوى ، فحذف المضاف ، وكذلك كل مصدر وصف به .

المسألة الرابعة :

جر ثلاثة في قوله : ﴿ مِن نجوى ثلاثة ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون مجروراً بالإضافة والثاني : أن يكون النجوى بمعنى المتناجين ، ويكون التقدير : ما يكون من متناجين ثلاثة فيكون صفة .

المسألة الخامسة :

قرأ ابن أبي عبلة (ثلاثة) و (خمسة) بالنصب على الحال ، بإضمار يتناجون لأن نجوى

يدل عليه .

المسألة السادسة :

(220/751)

أنه تعالى ذكر الثلاثة والخمسة ، وأهمل أمر الأربعة في البين ، وذكروا فيه وجوهاً : أحدها : أن هذا إشارة إلى كمال الرحمة ، وذلك لأن الثلاثة إذا اجتمعوا ، فإذا أخذ اثنان في التناجي والمشاورة ، بقي الواحد ضائعاً وحيداً ، فيضيق قلبه فيقول الله تعالى : أنا جليسك وأنيسك ، وكذا الخمسة إذا اجتمعوا بقي الخامس وحيداً فريداً ، أما إذا كانوا أربعة لم يبق واحد منهم فريداً ، فهذا إشارة إلى أن كل من انقطع عن الخلق ما يتركه الله تعالى ضائعاً وثانيها : أن العدد الفرد أشرف من الزوج ، لأن الله وتر يحب الوتر ، فخص الأعداد الفرد بالذكر تنبيهاً على أنه لا بد من رعاية الأمور الإلهية في جميع الأمور وثالثها : أن أقل ما لا بد منه في المشاورة التي يكون الغرض منها تمهيد مصلحة ثلاثة ، حتى يكون الإثنان كالمتنازعين في النفي والإثبات ، والثالث كالمتوسط الحاكم بينهما ، فحينئذ تكمل تلك المشورة ويتم ذلك الغرض ، وهكذا في كل جمع اجتمعوا للمشاورة ، فلا بد فيهم من واحد يكون حكماً مقبول القول ، فلهذا السبب لا بد وأن تكون أرباب المشاورة عددهم فرداً ،

فذكر سبحانه الفردين الأولين واكتفى بذكرهما تنبيهاً على الباقي ورابعها : أن الآية نزلت في قوم من المنافقين ، اجتمعوا على التناجي مغايظة للمؤمنين ، وكانوا على هذين العددين ، قال ابن عباس نزلت هذه الآية في ربيعة وحبيب ابني عمرو ، وصفوان بن أمية ، كانوا يوماً يتحدثون ، فقال أحدهم : هل يعلم الله ما تقول ؟ وقال الثاني : يعلم البعض دون البعض ، وقال الثالث : إن كان يعلم البعض فيعلم الكل وخامسها : أن في مصحف عبد الله : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا الله رابعهم ، ولا أربعة إلا الله خامسهم ، ولا خمسة إلا الله سادسهم ، ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا الله معهم إذا أخذوا في التناجي) .

المسألة السابعة :

قرئ : ﴿ وَلَا أدنى مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ بالنصب على أن لا لنفي الجنس ، ويجوز أن يكون ﴿ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ بالرفع معطوفاً على محل (لا) مع (أدنى) ، كقولك : لا حول ولا قوة إلا بالله ، بفتح الحول ورفع القوة والثالث : يجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء ، كقولك : لا حول ولا قوة إلا بالله والرابع : أن يكون ارتفاعهما عطفاً على محل ﴿ مِن نجوى ﴾ كأنه قيل : ما يكون أدنى ولا أكثر إلا هو معهم ، والخامس : يجوز أن يكونا مجرورين عطفاً على

﴿ نجوى ﴾ كأنه قيل : ما يكون من أدنى ولا أكثر إلا هو معهم .

المسألة الثامنة :

قرىء : ﴿ وَلاَ أَكْبَرَ ﴾ بالباء المنقطعة من تحت .

المسألة التاسعة :

المراد من كونه تعالى رابعاً لهم ، والمراد من كونه تعالى معهم كونه تعالى عالماً بكلامهم وضميرهم وسرهم وعلنهم ، وكأنه تعالى حاضر معهم ومشاهد لهم ، وقد تعالى عن المكان والمشاهدة .

المسألة العاشرة :

قرأ بعضهم : ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم ﴾ بسكون النون ، وأنبأ ونبأ واحد في المعنى ، وقوله : ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ القيامة ﴾ أي يحاسب على ذلك ويجازي على قدر الاستحقاق ، ثم قال : ﴿ أَنَّ الله بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وهو تحذير من المعاصي وترغيب في الطاعات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 229 . 231 ﴾

(222/751)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

هذه الآيات نزلت في منافقين وقوم من اليهود كانوا في المدينة يتمرسون برسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ويتربصون بهم الدوائر ، ويدبرون عليهم ويتمنون فيهم المكروه ويتناجون بذلك ، فنزلت هذه الآيات إلى آخر أمر النجوى فيهم ، والمحادة : أن يعطي الإنسان صاحبه حد قوله أو سلاحه وسائر أفعاله . وقال قوم : هو أن يكون الإنسان في حد ، وصاحبه في حد مخالف . و: كبت الرجل : إذا بقي خزيان يبصر ما يكره ولا يقدر على دفعه . وقال قوم منهم أبو عبيدة أصله كبدوا ، أي أصابهم داء في أكبادهم ، فأبدلت الدال تاء .

قال القاضي أبو محمد : وهذا غير قوي .

و: ﴿ الذين من قبلهم ﴾ سابقو الأمم الماضية الذين حادوا الرسل قديماً .

وقوله تعالى : ﴿ وقد أنزلنا آيات بينات ﴾ يريد في هذا القرآن ، فليس هؤلاء المنافقون بأعذر من المتقدمين .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله ﴾ العامل في : ﴿ يوم ﴾ قوله : ﴿ مهين ﴾ ، ويحتمل أن يكون فعلاً مضمراً تقديره : اذكر . وقوله : ﴿ ونسوه ﴾ نسيان على بابه ، لأن الكافر لا يحفظ تفاصيل أعماله ولما أخبر تعالى أنه ﴿ على كل شيء شهيد ﴾ وقف محمد عليه

السلام توقيفاً تشاركه فيه أمته .

وقوله تعالى : ﴿ من نجوى ثلاثة ﴾ ، يحتمل ﴿ من نجوى ﴾ أن يكون مصدراً مضافاً إلى ﴿ ثلاثة ﴾ ، كأنه قال : من سرار ثلاثة ، ويحتمل ﴿ نجوى ﴾ أن يكون المراد به جمعاً من الناس مسمى بالمصدر كما قال في آية أخرى : ﴿ وإذ هم نجوى ﴾ [الإسراء : 47] أي أولو نجوى ، فيكون قوله تعالى : ﴿ ثلاثة ﴾ على هذا بدلاً ﴿ من نجوى ﴾ وفي هذا نظر .

وقوله تعالى : ﴿ إلا هو رابعهم ﴾ أي بعلمه وإحاطته ومقدرته .

(223/751)

وقرأ جمهور الناس : " ما يكون " وقرأ أبو جعفر القارئ وأبو جيوة : " ما تكون " بالتاء منقوطة من فوق . وفي مصحف ابن مسعود : " ولا أربعة إلا الله خامسهم " ، وكذلك : " إلا الله رابعهم " ، و : " إلا الله سادسهم " .

وقرأ جمهور القراء : " ولا أكثر " عطفاً على اللفظ المخفوض ، وقرأ الأعمش والحسن وابن أبي إسحاق : " ولا أكثرُ " بالرفع عطفاً على الموضع ، لأن التقدير ما يكون نجوى ، ومن جعل النجوى مصدراً محضاً قدر قبل ﴿ أدنى ﴾ فعلاً تقديره : ولا يكون أدنى . وقرأ

الخليل بن أحمد : " ولا أكبر " ، بالباء واحدة من تحت ، وباقي الآية بين . انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(224/751)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾

فلا يخفى عليه سرٌّ ولا علانية .

﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ﴾ قراءة العامة بالياء ؛ لأجل الحائل بينهما .

وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع والأعرج وأبو حَيْوة وعيسى "مَا تَكُونُ" بالتاء لتأنيث الفعل .

والنَّجوى : السِّرَار ؛ وهو مصدر والمصدر قد يوصف به ؛ يقال : قوم نجوى أي ذوو نجوى ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ هُمْ نجوى ﴾ [الإسراء : 47] .

وقوله تعالى : ﴿ ثَلاَثَةٍ ﴾ خفض بإضافة "نَجْوَى" إليها .

قال الفرّاء : "ثَلاَثَةٍ" نعت للنجوى فانخفضت وإن شئت أضفت "نَجْوَى" إليها .

ولو نصبت على إضمار فعل جاز ؛ وهي قراءة ابن أبي عبلة "ثَلاَثَةً" و "خَمْسَةً" بالنصب على الحال بإضمار يتناجون ؛ لأن نجوى يدل عليه ؛ قاله الزمخشري .

ويجوز رفع "ثلاثة" على البدل من موضع "نَجْوَى" .

ثم قيل : كل سِرَار نجوى .

وقيل : النجوى ما يكون من خلوة ثلاثة يسرون شيئاً ويتناجون به .

والسرار ما كان بين اثنين .

﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ يعلم ويسمع نجواهم ؛ يدل عليه افتتاح الآية بالعلم ثم ختمها بالعلم .

وقيل : النجوى من النَّجْوة وهي ما ارتفع من الأرض ، فالمتناجيان يتناجيان ويخلوان بسرهما كخلو المرتفع من الأرض عما يتصل به ، والمعنى : أنّ سَمْعَ الله محيط بكل كلام ، وقد سمع الله مجادلة المرأة التي ظاهر منها زوجها .

﴿ وَلَا أَدنى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ قرأ سلاّم ويعقوب وأبو العالية ونصر وعيسى بالرفع على موضع ﴿ مِن نجوى ﴾ قبل دخول "مِنْ" لأن تقديره ما يكون نجوى ، و ﴿ ثَلَاثَةٍ ﴾ يجوز أن يكون مرفوعاً على محل "لَا" مع "أَدْنَى" كقولك : لا حولَ ولا قوّةُ إلا بالله بفتح الحول ورفع القوّة .

ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء ؛ كقولك لا حولٌ ولا قوّة إلا بالله .

وقد مضى في "البقرة" بيان هذا مستوفىً .

وقرأ الزهري وعكرمة "أكبر" بالباء .

والعامة بالثاء وفتح الراء على اللفظ وموضعها جر .

وقال الفرّاء في قوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ قال : المعنى غير مصمود والعدد غير مقصود لأنه تعالى إنما قصد وهو أعلم أنه مع كل عدد قلّ أو كثر ، يعلم ما يقولون سرًّا وجهراً ولا تخفى عليه خافية ؛ فمن أجل ذلك اكتفى بذكر بعض العدد دون بعض .

وقيل : معنى ذلك أن الله معهم بعلمه حيث كانوا من غير زوال ولا انتقال .

ونزل ذلك في قوم من المنافقين كانوا فعلوا شيئاً سرًّا فأعلم الله أنه لا يخفى عليه ذلك ؛ قاله ابن عباس .

وقال قتادة ومجاهد : نزلت في اليهود .

﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم ﴾ يخبرهم ﴿ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ من حسَن وسيّىء ﴿ يَوْمَ القيامة إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾

قرأ الجمهور : ﴿ قد سمع ﴾ بالبيان ؛ وأبو عمرو وحمزة والكسائي وابن محيصن : بالإدغام ، قال خلف بن هشام البزار : سمعت الكسائي يقول : من قرأ قد سمع ، فبين الدال عند السين ، فلسانه أعجمي ليس بعربي ، ولا يلتفت إلى هذا القول ؛ فالجمهور على البيان .

والتي تجادل خولة بنت ثعلبة ، ويقال بالتصغير ، أو خولة بنت خويلد ، أو خولة بنت حكيم ، أو خولة بنت دليج ، أو جميلة ، أو خولة بنت الصامت ، أقوال للسلف .

وأكثر الرواة على أن الزوج في هذه النازلة أوس بن الصامت أخو عبادة .

" وقيل : سلمة بن صخر البياضي ظاهر من امرأته .

قالت زوجته : يا رسول الله ، أكل أوس شبابي ونثرت له بطني ، فلما كبرت ومات أهلي ظاهر مني ، فقال لها : " ما أراك إلا قد حرمت عليه " ، فقالت : يا رسول الله لا تفعل ، فإني وحيدة ليس لي أهل سواه ، فراجعها بمثل مقالته فراجعته ، فهذا هو جدالها ، وكانت في خلال ذلك تقول : اللهم إن لي منه صبية صغاراً ، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليّ جاعوا .

فهذا هو اشتكاؤها إلى الله ، فنزل الوحي عند جدالها " .

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : سبحان من وسع سمعه الأصوات .

كان بعض كلام خولة يخفى عليّ ، وسمع الله جدالها ، فبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى أوس وعرض عليه كفارة الظهار : "العتق" ، فقال : ما أملك ، و"الصوم" ، فقال : ما أقدر ، و"الاطعام" ، فقال : لا أجد إلا أن تعينني ، فأعانه (صلى الله عليه وسلم) بخمسة عشر صاعاً ودعا له ، فكفر بالإطعام وأمسك أهله .

وكان عمر ، رضي الله تعالى عنه ، يكرم خولة إذا دخلت عليه ويقول : قد سمع الله لها .

وقال الزمخشري : معنى قد : التوقع ، لأنه (صلى الله عليه وسلم) والمجادلة كانا متوقعين أن يسمع الله مجادلتها وشكواها ، وينزل في ذلك ما يفرج عنها . انتهى .

وقرأ الحرميان وأبو عمرو : يظهرون بشدّهما ؛ والأخوان وابن عامر : يظاهرون مضارع ظاهر ؛ وأبيّ : يتظاهرون ، مضارع تظاهر ؛ وعنه : يتظهرون ، مضارع تظهر ؛ والمراد به كله الظهار ، وهو قول الرجل لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي ، يريد في التحريم ، كأنه إشارة إلى الركوب ، إذ عرفه في ظهور الحيوان .

والمعنى أنه لا يعلوها كما لا يعلو أمّه ، ولذلك تقول العرب في مقابلة ذلك : نزلت عن امرأتي ،

أي طلقتها .

وقوله : ﴿ منكم ﴾ ، إشارة إلى توبيخ العرب وتهجين عادتهم في الظهار ، لأنه كان من إيمان أهل جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم .

وقرأ الجمهور : ﴿ أمهاتهم ﴾ ، بالنصب على لغة الحجاز ؛ والمفضل عن عاصم : بالرفع على لغة تميم ؛ وابن مسعود : بأمهاتهم ، بزيادة الباء .

قال الزمخشري : في لغة من ينصب . انتهى .

يعني أنه لا تزاد الباء في لغة تميم ، وهذا ليس بشيء ، وقد رد ذلك على الزمخشري .

وزيادة الباء في مثل : ما زيد بقائم ، كثير في لغة تميم ، والزمخشري تبع في ذلك أبا عليّ الفارسي رحمه الله .

ولما كان معنى كظهر أمي : كأمي في التحريم ، ولا يراد خصوصية الظهر الذي هو من الجسد ، جاء النفي بقوله : ﴿ ما هنّ أمّهاتهم ﴾ ، ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ إن أمّهاتهم ﴾ : أي حقيقة ، ﴿ إلا اللائي ولدنهم ﴾ وألحق بهنّ في التحريم أمّهات الرضاع وأمّهات المؤمنين أزواج الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، والزوجات لسن بأمّهات حقيقة ولا ملحقات بهنّ .

فقول المظاهر منكر من القول تنكره الحقيقة وينكره الشرع ، وزور : كذب باطل منحرف

عن الحق ، وهو محرم تحريم المكروهات جداً ، فإذا وقع لزم ، وقد رجى تعالى بعده بقوله :

﴿ وإن الله لعفو غفور ﴾ مع الكفارة .

(228/751)

وقال الزمخشري : ﴿ وإن الله لعفو غفور ﴾ لما سلف منه إذ تاب عنه ولم يعد إليه .

انتهى ، وهي نزغة اعتزالية .

والظاهر أن الظهار لا يكون إلا بالأم وحدها .

فلو قال : أنت عليّ كظهر أختي أو ابنتي ، لم يكن ظهاراً ، وهو قول قتادة والشعبي وداود ، ورواية أبي ثور عن الشافعي .

وقال الجمهور : الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري وأبو حنيفة ومالك والشافعي في قول هو ظهار ، والظاهر أن الذمي لا يلزمه ظهاره لقوله : ﴿ منكم ﴾ ، أي من المؤمنين وبه قال أبو حنيفة والشافعي لكونها ليست من نسائه .

وقال مالك : يلزمه ظهاره إذا نكحها ، ويصح من المطلقة الرجعية .

وقال : المزني لا يصح .

وقال بعض العلماء : لا يصح ظهار غير المدخول بها ، ولو ظاهر من أمته التي يجوز له وطئها

، لزمه عند مالك .

وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يلزم ، وسبب الخلاف هو : هل تندرج في نسائهم أم لا ؟

والظاهر صحة ظهار العبد لدخوله في يظهرون منكم ، لأنه من جملة المسلمين ، وإن تعذر منه العتق والإطعام ، فهو قادر على الصوم .

وحكى الثعلبي عن مالك أنه لا يصح ظهاره ، وليست المرأة مندرجة في الذين يظهرون ، فلو ظاهرت من زوجها لم يكن شيئاً .

وقال الحسن بن زياد : تكون مظاهرة .

وقال الأوزاعي وعطاء وإسحاق وأبو يوسف : إذا قالت لزوجها أنت عليّ كظهر فلانة ، فهي يمين تكفرها .

وقال الزهري : أرى أن تكفر كفارة الظاهر ، ولا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها أن يصيبها .

والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ : أن يعودوا للفظ الذي سبق منهم ، وهو قول الرجل ثانياً : أنت مني كظهر أمي ، فلا تلزم الكفارة بالقول ، وإنما تلزم بالثاني ، وهذا مذهب أهل الظاهر .

وروي أيضاً عن بكير بن عبد الله بن الأشج وأبي العالية وأبي حنيفة : وهو قول الفراء .

وقال طاووس وقتادة والزهري والحسن ومالك وجماعة : ﴿ لما قالوا ﴾ : أي للوطء ، والمعنى : لما قالوا أنهم لا يعودون إليه ، فإذا ظاهر ثم وطىء ، فحينئذ يلزمه الكفارة ، وإن طلق أو ماتت .

وقال أبو حنيفة ومالك أيضاً والشافعي وجماعة : معناه يعودون لما قالوا بالعزم على الإمساك والوطء ، فمتى عزم على ذلك لزمته الكفارة ، طلق أو ماتت .

قال الشافعي : العود الموجب للكفارة أن يمسك عن طلاقها بعد الظهار ، ويمضي بعده زمان يمكن أن يطلقها فيه فلا يطلق .

وقال قوم : المعنى : والذين يظهرون من نسائهم في الجاهلية ، أي كان الظهار عادتهم ، ثم يعودون إلى ذلك في الإسلام ، وقاله القتيبي .

وقال الأخفش : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : فتحرير رقبة لما قالوا ، وهذا قول ليس بشيء لأنه يفسد نظم الآية .

﴿ فتحرير رقبة ﴾ ، والظاهر أنه يجزىء مطلق رقبة ، فتجزىء الكافرة .

وقال مالك والشافعي : شرطها الإسلام ، كالرقبة في كفارة القتل .

والظاهر إجزاء المكاتب ، لأنه عبد ما بقي عليه درهم ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه : وإن عتق نصفي عبدين لا يجزىء .

وقال الشافعي : يجزىء .

﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ : لا يجوز للمظاهر أن يطأ حتى يكفر ، فإن فعل عصى ، ولا يسقط عنه التكفير .

وقال مجاهد : يلزمه كفارة أخرى .

وقيل : تسقط الكفارة الواجبة عليه ، ولا يلزمه شيء .

وحديث أوس بن الصامت يرد على هذا القول ، وسواء كانت الكفارة بالعتق أم الصوم أم الإطعام .

وقال أبو حنيفة : إذا كانت بالإطعام ، جاز له أن يطأ ثم يطعم ، وهو ظاهر قوله : ﴿ فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ﴾ ، إذ لم يقل فيه : ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ ، وقيد ذلك في العتق والصوم .

والظاهر في التماس الحقيقة ، فلا يجوز تماسهما قبلة أو مضاجعة أو غير ذلك من وجوه الاستمتاع ، وهو قول مالك وأحد قولي الشافعي .

وقال الأكثرون : هو الوطء ، فيجوز له الاستمتاع بغيره قبل التكفير ، وقاله الحسن والثوري ، وهو الصحيح من مذهب الشافعي .

والضمير في ﴿ يتماسا ﴾ عائد على ما عاد عليه الكلام من المظاهر والمظاهر منها .

﴿ ذلكم توعظون به ﴾ : إشارة إلى التحرير ، أي فعل عظة لكم لتنتهوا عن الظهار .

﴿ فمن لم يجد ﴾ : أي الرقبة ولا ثمنها ، أو وجدها ، أو ثمنها ، وكان محتاجاً إلى ذلك ، فقال أبو حنيفة : يلزمه العتق ولو كان محتاجاً إلى ذلك ، ولا ينتقل إلى الصوم ، وهو الظاهر .

وقال الشافعي : ينتقل إلى الصوم .

والشهران بالأهلة ، وإن جاء أحدهما ناقصاً ، أو بالعدد لا بالأهلة ، فيصوم إلى الهلال ، ثم شهراً بالهلال ، ثم يتم الأول بالعدد .

والظاهر وجوب التتابع ، فإن أفطر بغير عذر استأنف ، أو بعذر من سفر ونحوه .

فقال ابن المسيب وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار والشعبي ومالك والشافعي : في أحد قوليه يبني .

وقال النخعي وابن جبير والحكم بن عيينة والثوري وأصحاب الرأي والشافعي : في أحد قوليه .

والظاهر أنه إن وجد الرقبة بعد أن شرع في الصوم ، أنه يصوم ويجزئه ، وهو مذهب مالك والشافعي .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : يلزمه العتق ، ولو وطىء في خلال الصوم بطل التتابع ويستأنف ، وبه قال مالك وأبو حنيفة .

وقال الشافعي : يبطل إن جامع نهاراً لا ليلاً .

﴿ فمن لم يستطع ﴾ لصوم لزمانة به ، أو كونه يضعف به ضعفاً شديداً ، كما جاء في حديث أوس لما قال : هل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ فقال : والله يا رسول الله إني إذا لم آكل في اليوم والليلة ثلاث مرات كل بصري وخشيت أن تعشو عيني .

والظاهر مطلق الإطعام ، وتخصصه ما كانت العادة في الإطعام وقت النزول ، وهو ما يشبع من غير تحديد بمدّ .

ومذهب مالك أنه مد وثلث بالمدّ النبوي ، ويجب استيعاب العدد ستين عند مالك والشافعي ، وهو الظاهر .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : لو أطعم مسكيناً واحداً كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزأه .

﴿ ذلك لتؤمنوا ﴾ ، قال ابن عطية : إشارة إلى الرجعة والتسهيل في الفعل من التحرير إلى الصوم والإطعام .

ثم شدّد تعالى بقوله : ﴿ وتلك حدود الله ﴾ : أي فالزموها وقفوا عندها .

ثم توعد الكافرين بهذا الحكم الشرعي .

وقال الزمخشري : ذلك البيان والتعليم للأحكام والتنبيه عليها ، لتصدقوا بالله ورسوله في العمل بشرائعه التي شرعها في الظهار وغيره ، ورفض ما كنتم عليه من جاهليتكم ، ﴿ وتلك حدود الله ﴾ التي لا يجوز تعديها ، ﴿ وللكافرين ﴾ الذين لا يتبعونها ولا يعملون عليها ﴿ عذاب أليم ﴾ . انتهى .

﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله ﴾ : نزلت في مشركي قريش ، أخزوا يوم الخندق بالهزيمة ، كما أخزى من قاتل الرسل من قبلهم .

ولما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده ، ذكر المحادّين المخالفين لها ، والمحادة : المعاداة والمخالفة في الحدود .

﴿ كبتوا ﴾ ، قال قتادة : أخزوا .

وقال السدي : لعنوا .

قيل : وهي لغة مذحج .

وقال ابن زيد وأبو روق : ردّوا مخذولين .

وقال الفراء : غيظوا يوم الخندق .

﴿ كما كبت الذين من قبلهم ﴾ : أي من قاتل الأنبياء .

وقيل : يوم بدر .

وقال أبو عبيدة والأخفش : أهلكوا .

وعن أبي عبيدة : التاء بدل من الدال ، أي كبدوا : أصابهم داء في أكبادهم .

قيل : والذين من قبلهم منافقو الأمم .

قيل : وكبتوا بمعنى سيكبتون ، وهي بشارة للمؤمنين بالنصر .

وعبر بالماضي لتحقق وقوعه ، وتقدّم الكلام في مادة كبت في آل عمران .

﴿ وقد أنزلنا آيات بينات ﴾ على صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وصحة ما جاء به .

﴿ وللكافرين ﴾ : أي الذين يحادّونه ، ﴿ عذاب مهين ﴾ : أي يهينهم ويذلهم .

والناصب ليوم يبعثهم العامل في للكافرين أو مهين أو اذكر أو يكون على أنه جواب لمن سأل متى يكون عذاب هؤلاء ؟ فقيل له : ﴿ يوم يبعثهم الله ﴾ : أي يكون يوم يبعثهم الله ،

وانتصب ﴿ جميعاً ﴾ على الحال : أي مجتمعين في صعيد واحد ، أو معناه كلهم ، إذ جميع يحتمل ذينك المعنيين ؛ ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ ، تخجيلاً لهم وتوبيخاً .

﴿ أحصاه ﴾ بجميع تفاصيله وكميته وكيفيته وزمانه ومكانه .

﴿ ونسوه ﴾ لاستحقارهم إياه واحتقارهم أنه لا يقع عليه حساب .

﴿ شهيد ﴾ : لا يخفى عليه شيء .

وقرأ الجمهور : ما يكون بالياء ؛ وأبو جعفر وأبو حيوة وشيبة : بالتاء لتأنيث النجوى .

قال صاحب اللوامح : وإن شغلت بالجار ، فهي بمنزلة : ما جاءتني من امرأة ، إلا أن الأكثر في هذا الباب التذكير على ما في العامة ، يعني القراءة العامة ، قال : لأنه مسند إلى ﴿ من نجوى ﴾ وهو يقتضي الجنس ، وذلك مذكر . انتهى .

وليس الأكثر في هذا الباب التذكير ، لأن من زائدة .

فالفعل مسند إلى مؤنث ، فالأكثر التأنيث ، وهو القياس ، قال تعالى : ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم ﴾ ﴿ ما تسبق من أمة أجلها ﴾ ويكون هنا تامة ، ونجوى احتمل أن تكون مصدراً مضافاً إلى ثلاثة ، أي من تناجي ثلاثة ، أو مصدراً على حذف مضاف ، أي من ذوي نجوى ، أو مصدراً أطلق على الجماعة المتناجين ، فثلاثة : على هذين التقديرين .

قال ابن عطية : بدل أو صفة .

وقال الزمخشري : صفة .

وقرأ ابن أبي عبلة ثلاثة وخمسة بالنصب على الحال ، والعامل يتناجون مضمرة يدل عليه نجوى .

وقال الزمخشري : أو على تأويل نجوى بمتناجين ونصبها من المستكن فيه .

وقال ابن عيسى : كل سرار نجوى .

وقال ابن سراقة : السرار ما كان بين اثنين ، والنجوى ما كان بين أكثر .

(233/751)

قيل : نزلت في المنافقين ، واختص الثلاثة والخمسة لأن المنافقين كانوا يتناجون على هذين العددين مغايظة لأهل الإيمان ؛ والجملة بعد إلا في المواضع الثلاثة في موضع الحال ، وكونه تعالى رابعهم وسادسهم ومعهم بالعلم وإدراك ما يتناجون به .

وقال ابن عباس : نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية ، تحدّثوا فقال أحدهم : أترى الله يعلم ما نقول ؟ فقال الآخر : يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً ، فقال الثالث : إن كان يعلم بعضاً فهو يعلمه كله .

﴿ ولا أدنى من ذلك ﴾ : إشارة إلى الثلاثة والخمسة ، والأدنى من الثلاثة الاثنين ، ومن

الخمسة الأربعة ؛ ولا أكثر يدل على ما يلي الستة فصاعداً .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولا أكثر ﴾ عطفاً على لفظ المخفوض ؛ والحسن وابن أبي إسحاق والأعمش وأبو حيوة وسلام ويعقوب : بالرفع عطفاً على موضع نجوى إن أريد به المتناجون ، ومن جعله مصدراً محضاً على حذف مضاف ، أي ولا نجوى أدنى ، ثم حذف وأقيم المضاف إليه مقامه فأعرب بإعرابه .

ويجوز أن يكون ﴿ ولا أدنى ﴾ مبتدأ ، والخبر ﴿ إلا هو معهم ﴾ ، فهو من عطف الجمل ، وقرأ الحسن أيضاً ومجاهد والخليل بن أحمد ويعقوب أيضاً : ولا أكبر بالباء بواحدة والرفع ، واحتمل الإعرابين : العطف على الموضع والرفع بالابتداء .

وقرىء : ﴿ ينبئهم ﴾ بالتخفيف والهمز ؛ وزيد بن علي : بالتخفيف وترك الهمز وكسر الهاء ؛ والجمهور : بالتشديد والهمز وضم الهاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(234/751)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾

استشهاد على شمول شهادته تعالى أي ألم تعلم أنه عز وجل يعلم ما فيهما من الموجودات سواء كان ذلك بالاستقرار فيهما أو بالجزئية منهما .

وقوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثلاثة ﴾ الخ استئناف مقرر لما قبله من سعة علمه تعالى ، و﴿ يَكُونَ ﴾ من كان التامة ، و﴿ مِنْ ﴾ مزيدة ، و﴿ نجوى ﴾ فاعل وهي مصدر بمعنى التناجي وهو المسارة مأخوذة من النجوة وهي ما ارتفع من الأرض لأن المتسارين يخلوان وحدهما بنجوة من الأرض ، أو لأن السر يصان فكأنه رفع من حضيض الظهور إلى أوج الخفاء ، وقيل : أصل ناجيته من النجاة وهو أن تعاونه على ما فيه خلاصه أو أن تنجو بسرك من أن يطلع عليه وهي مضافة إلى ﴿ ثلاثة ﴾ أي ما يقع من تناجي ثلاثة نفر وقد يقدر مضاف أي من ذوي نجوى ، أو يؤول نجوى بمتناجين فثلاثة صفة للمضاف المقدر ، أو لنجوى المؤوّل بما ذكر .

وجوز أن يكون بدلاً أيضاً والتأويل والتقدير المذكوران ليتأتي الاستثناء الآتي من غير تكلف ، وفي القاموس النجوى السر والمسارون اسم مصدر ، وظاهره أن استعماله في كل حقيقة فإذا أريد المسارون لم يحتج إلى تقدير أو تأويل لكن قال الراغب : إن النجوى أصله المصدر كما في الآيات بعد ، وقد يوصف به فيقال : هو نجوى .

وهم نجوى ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ هُمْ نجوى ﴾ [الاسراء : 47] وعليه يحتمل أن يكون من باب زيد عدل .

وقرأ أبو جعفر .

وأبو حيوة .

وشيبة ما تكون بالتاء الفوقية لتأنيث الفاعل ، والقراءة بالياء التحتية قال الزمخشري : على أن النجوى تأنيثها غير حقيقي ، و ﴿ مِنْ ﴾ فاصلة أو على أن المعنى ما يكون شيء من النجوى ، واختار في الكشف الثاني ، فقال : هو الوجه لأن المؤنث وحده لم يجعل فاعلاً لفظاً لوجود ﴿ مِنْ ﴾ ولا معنى لأن المعنى شيء منها ، فالتذكير هو الوجه لفظاً .

(235/751)

ومعنى ، وهو قراءة العامة انتهى ، وإلى نحوه يشير كلام صاحب اللوامح ، وصرح بأن الأكثر في هذا الباب التذكير ، وتعقبه أبو حيان بالمنع وأن الأكثر التأنيث وأنه القياس قال تعالى : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءايَةٍ مِّنْ ءايات رَبّهِمْ ﴾ [الأنعام : 4] ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ [الحجر : 5] [5] فتأمل ، وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، والرابع لإضافته إلى غير مماثلة هنا بمعنى الجاعل المصير لهم أربعة أي ما يكونون في حال من الأحوال إلا في حال تصيير الله تعالى لهم أربعة حيث أنه عز وجل يطلع أيضاً على نجواهم ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَلاَ خَمْسَةٍ ﴾ أي ولا نجوى خمسة ﴿ إِلاَّ هُوَ

سَادِسُهُمْ وَلَا أَدنى ﴾ أي ولا نجوى أدنى ﴿ مِّن ذلك ﴾ أي مما ذكر كالاثنين والأربعة ﴿ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ كالستة وما فوقها .

﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ يعلم ما يجري بينهم ﴿ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ من الأماكن ، ولو كانوا في بطن الأرض فإن علمه تعالى بالأشياء ليس لقرب مكاني حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة قرباً وبعداً ، وفي الداعي إلى تخصيص الثلاثة والخمسة وجهان : أحدهما أن قوماً من المنافقين تخلفوا للتناجي مغايظة للمؤمنين على هذين العددين ثلاثة وخمسة ، فقيل : ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة كما ترونهم يتناجون كذلك ولا أدنى من عددهم ولا أكثر إلا والله تعالى معهم يعلم ما يقولون .

فالآية تعريض بالواقع على هذا ، وقد روي عن ابن عباس أنها نزلت في ربيعة .

وحبيب ابني عمرو .

وصفوان بن أمية كانوا يوماً يتحدثون فقال : أحدهم أترى أن الله يعلم ما نقول ؟ فقال الآخر : يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً ، وقال الثالث : إن كان يعلم بعضا فهو يعلمه كله أي لأن من علم بعض الأشياء بغير سبب فقد علمها كلها لأن كونه عالماً بغير سبب ثابت له مع كل معلوم ،

والثاني أنه قصد أن يذكر ما جرت عليه العادة من اعداد أهل النجوى والجالسين في خلو للشورى والمنتدبون لذلك إنما هم طائفة مجتباة من أولي الأحلام والنهي ، وأول عددهم الاثنان فصاعداً إلى خمسة إلى ستة إلى ما اقتضته الحال ، وحكم به الاستصواب ، فذكر عز وجل الثلاثة والخمسة ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَآ أدنى مِن ذَٰلِكَ ﴾ فدل على الاثنين والأربعة ، وقال تعالى : ﴿ وَلَآ أَكْثَرَ ﴾ فدل على ما يلي هذا العدد ويقاربه كذا في الكشاف .

وفي الكشف في خلاصة الوجه الثاني أنه خص العددان على المعتاد من عدد أهل النجوى فإنهم قليلو العدد غالباً فلزم أن يخص بالذكر نحو الثلاثة والأربعة إلى الثمانية والتسعة فأوثر الثلاثة ليكون قوله تعالى : ﴿ وَلَآ أدنى مِن ذَٰلِكَ ﴾ دالا على ما تحتها إذ لو أوثر الأربعة والستة مثلا كان الأدنى الثلاثة دون الاثنين إلا على التوسع ولما أوثرت جيء بالخمسة لتناسب الوترين وكان الأمر دائراً بين الثلاثة والخمسة والأربعة والستة فأوثرا بالتصريح لذلك ، ولأنه تعالى وتر يحب الوتر انتهى .

وقد يقال : إن التناجي يكون في الغالب للشورى وهي لا تكون إلا بين عدد وأهلها قليلو العدد غالباً ، والأليق أن يكون وتراً من الأعداد كالثلاثة والخمسة والسبعة والتسعة ليتحقق عند الاختلاف طرف يترجح بالزيادة على الطرف الآخر فيرجع إليه دونه كما هو العادة اليوم عند اختلاف أهل الشورى .

وجعل عمر رضي الله تعالى عنه الشورى في ستة لانحصار الأمر فيهم كما يدل عليه قوله لهم : نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض ، ومع هذا أمر ابنه عبد الله رضي الله تعالى عنه أن يحضر معهم وإن لم يكن له من أمر الخلافة شيء ، فدار الأمر بعد اعتبار ما ذكر من وترية العدد وقلته بين الثلاثة والخمسة والسبعة والتسعة فاختيرت الثلاثة لأنها أول الأوتار العددية وإذا ضربت في نفسها حصل منتهاها من الآحاد ولا يخلو منها اعتبار كل ممكن حتى أن المطالب الفكرية للمتناجين مثلاً لا تتم بدون ثلاثة أشياء : الموضوع . والمحمول .

والحدّ الأوسط بل القضية التي تناجى لها لا بد فيها من ثلاثة أجزاء ، والخمسة لأنها عدد دائر لا تنعدم بالضرب في نفسها ، وكذا بضرب الحاصل في نفسه إلى ما لا يتناهى فلها شبه بالثلاثة من حيث أنها دائرة مع مراتب الضرب لا تنعدم أصلاً كما أن الثلاثة دائرة مع اعتبارات الممكن لا تنعدم أصلاً ، ومع ذلك هي عدد المشاعر التي يحتاج إليها في التناجي ، وكذا عدد الحواس الظاهرة ، ويدخل ما عداهما في عموم قوله تعالى : ﴿ وَلاَ أَدنى مِن

ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ ولا يدخل في العموم الواحد لأن التناجي للمشاورة لا بد فيه من اثنين فأكثر ، ومن أدخله لم يعتبر التناجي لها ولا يضر دخول الأشفاع فيه لأن أليقية كون المتناجين وتراً إنما كانت نكتة للتصريح بالعددين السابقين ولا تأبى تحقق النجوى في الأشفاع كما لا يخفى .

وادعى ابن سراقة أن النجوى مختصة بما كان بين أكثر من اثنين وأن ما يكون بين اثنين يسمى سراراً ، وقال ابن عيسى : كل سرار نجوى ، وفي الآية لطائف وأسرار لا يعقلها إلا العالمون فليتأمل .

(238/751)

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ ثلاثة ﴾ و ﴿ خَمْسَةٍ ﴾ بالنصب على الحال بإضمار يتناجون يدل عليه نجوى ، أو على تأويل نجوى بمتناجين ونصبهما من المستكن فيه ، وفي مصحف عبد الله إلا الله رابعهم ولا أربعة إلا الله خامسهم ولا خمسة إلا الله سادسهم ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا الله معهم إذا انتجوا وقرأ الحسن .

وابن أبي إسحق .

والأعمش .

وأبو حيوة .

وسلام .

ويعقوب ﴿ وَلاَ أَكْثَرَ ﴾ بالرفع قال الزمخشري : على أنه معطوف على محل لا أدنى كقولك : لا حول ولا قوة إلا بالله بفتح الحول ورفع القوة ، ويجوز أن يعتبر ﴿ أدنى ﴾ مرفوعاً على هذه القراءة ورفعهما على الابتداء ، والجملة التي بعد ﴿ إِلا ﴾ هي الخبر ، أو على العطف على محل ﴿ مِن نجوى ﴾ أنه قيل : ما يكون أدنى ولا أكثر إلا هو معهم ، و ﴿ أَكْثَرَ ﴾ على قراءة الجمهور يحتمل أن يكون مجروراً بالفتح معطوفاً على لفظ ﴿ نجوى ﴾ كأنه قيل : ما يكون من أدنى ولا أكثر إلا هو معهم ، وأن يكون مفتوحاً لأن ﴿ لا ﴾ لنفي الجنس ، وقرأ كل من الحسن .

ويعقوب أيضاً .

ومجاهد .

والخليل بن أحمد ولا أكبر بالباء الموحدة والرفع وهو على ما سمعت ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ القيامة ﴾ تفضيحاً لهم وإظهاراً لما يوجب عذابهم .

وقرىء ﴿ يُنَبِّئُهُم ﴾ بالتخفيف والهمز ، وقرأ زيد بن علي بالتخفيف وترك الهمز وكسر الهاء .

﴿ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لأن نسبة ذاته المقتضى للعلم إلى الكل على السواء ، وقد بدأ الله تعالى في هذه الآيات بالعلم حيث قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ﴾ الخ ، وختم جل وعلا بالعلم أيضاً حيث قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ ﴾ الخ ، ومن هنا قال معظم السلف فيما ذكر في البين من قوله عز وجل : ﴿ رَابِعُهُمْ ﴾ و ﴿ سَادِسُهُمْ ﴾ و ﴿ مَعَهُمْ ﴾ أن المراد به كونه تعالى كذلك بحسب العلم مع أنهم الذين لا يؤوّلون ، وكأنهم لم يعدّوا ذلك تأويلاً لغاية ظهوره واحتفافه بما يدل عليه دلالة لا خفاء فيها ، ويعلم من هذا أن ما شاع من أن السلف لا يؤولون ليس على إطلاقه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(240/751)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

استئناف ابتدائي هو تخلص من قوله تعالى : ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾ [المجادلة : 6] إلى ذكر علم الله بأحوال المنافقين وأحلافهم اليهود .

فكان المنافقون يناجي بعضهم بعضاً لِيُرِيَ للمسلمين مودة بعض المنافقين لبعض فإن المنافقين بتناجيهم يظهرون أنهم طائفة أمرها واحد وكلمتها واحدة ، وهم وإن كانوا يظهرون الإِسلام يحِبّون أن تكون لهم خيفة في قلوب المسلمين يتقون بها بأسهم إن اتهَموا بعضهم بالنفاق أو بدرت من أحدهم بادرة تنمّ بنفاقه ، فلا يُقدم المؤمنون على أذاه لعلمهم بأن له بطانة تدافع عنه .

وكانوا إذا مرّ بهم المسلمون نظروا إليهم فحسب المارّون لعلّ حدثاً حدث من مصيبة ، وكان المسلمون يومئذٍ على توقع حرب مع المشركين في كل حين فيتوهّمون أن مناجاة المتناجين حديث عن قرب العدوّ أو عن هزيمة للمسلمين في السرايَا التي يَخرجون فيها ، فنزلت هذه الآيات لإِشعار المنافقين بعلم الله بماذا يتناجون ، وأنه مُطلع رسوله على دخيلتهم ليكفُّوا عن الكيد للمسلمين .

فهذه الآية تمهيد لقوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ﴾ الآية [المجادلة : 8] .

و﴿ ألم تر ﴾ من الرؤية العلمية لأن علم الله لا يُرى وسَدّ المصدر مسدّ المفعول .

والتقدير : ألم ترَ الله عالماً .

و﴿ ما في السموات وما في الأرض ﴾ يعمّ المبصرات والمسموعات فهو أعم من قوله : ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ [المجادلة : 6] لاختصاصه بعلم المشاهدات لأن الغرض المفتتح به هذه الجملة هو علم المسموعات .

وجملة ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة ﴾ إلى آخرها بدل البعض من الكل فإن معنى قوله : ﴿ إلا هو رابعهم ﴾ .

وقوله : ﴿ إلا هو سادسهم ﴾ وقوله : ﴿ إلا هو معهم ﴾ ، أنه مطلع على ما يتناجون فيه فكأنه تعالى نجيّ معهم .

و﴿ ما ﴾ نافية .

(241/751)

و ﴿ يكون ﴾ مضارع (كان) التامة ، و ﴿ من ﴾ زائدة في النفي لقصد العموم ، و ﴿ نجوى ﴾ في معنى فاعل ﴿ يكون ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ يكون ﴾ بياء الغائب لأن تأنيث ﴿ نجوى ﴾ غير حقيقي ، فيجوز فيه جري فعله على أصل التذكير ولا سيما وقد فصل بينه وبين فاعله بحرف ﴿ من ﴾ الزائدة .

وقرأه أبو جعفر بتاء المؤنث رعياً لصورة تأنيث لفظه .

والنجوى : اسم مصدر ناجاهُ ، إذا سارّهَ .

و﴿ ثلاثة ﴾ مضاف إليه ﴿ نجوى ﴾ .

أي ما يكون تناجي ثلاثة من الناس إلا الله مطلع عليهم كرابع لهم ، ولا خمسة إلا هو كسادس لهم ، ولا أدنى ولا أكثر إلاّ هو كواحد منهم .

وضمائر الغيبة عائدة إلى ﴿ ثلاثة ﴾ وإلى ﴿ خمسة ﴾ وإلى ﴿ ذلك ﴾ و ﴿ أكثر ﴾ .

والمقصود من هذا الخبر الإنذار والوعيد وتخصيص عددي الثلاثة والخمسة بالذكر لأن بعض المتناجين الذي نزلت الآية بسببهم كانوا حلفاً بعضها من ثلاثة وبعضها من خمسة .

وقال الفراء : المعنى غير مصمود والعدد غير مقصود .

وفي "الكشاف" عن ابن عباس : نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو (بنِ عمير من ثقيف) وصفوان بن أمية (السلمي حليف بني أسد) كانوا يتحدثون فقال أحدهم : أَترى أن الله يعلم ما نقول ؟ فقال الآخر : يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً .

وقال الثالث : إن كان يعلم بعضاً فهو يعلم كله .

اه .

ولم أرَ هذا في غير "الكشاف" ولا مناسبة لهذا بالوعيد في قوله تعالى : ﴿ ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ﴾ فإن أولئك الثلاثة كانوا مسلمين وعدّوا في الصحابة وكأنَّ هذا تخليط من الراوي بين سبب نزول آية ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ﴾ في سورة [فصلت : 22] .

كما في صحيح البخاري ﴾ وبين هذه الآية .

وركبت أسماء ثلاثة آخرين كانوا بالمدينة لأن الآية مدنية فآية النجوى إنما هي في تناجي المنافقين أو فيهم وفي اليهود عن ابن عباس .

(242/751)

والاستثناء في ﴿ إلا هو رابعهم ﴾ ﴿ إلا هو سادسهم ﴾ ﴿ إلا هو معهم ﴾ مفرع من أكوان وأحوال دل عليها قوله تعالى : ﴿ ما يكون ﴾ والجمل التي بعد حرف الاستثناء في مواضع أحوال .

والتقدير : ما يكون من نجوى ثلاثة في حال من علم غيرهم بهم واطلاعه عليهم إلا حالة الله مطلع عليهم .

وتكرير حرف النفي في المعطوفات على المنفي أسلوب عربي وخاصة حيث كان مع كل من المعاطيف استثناء .

وقرأ الجمهور ﴿ ولا أكثر ﴾ بنصب ﴿ أكثر ﴾ عطفاً على لفظ ﴿ نجوى ﴾ .

وقرأه يعقوب بالرفع عطفاً على محل ﴿ نجوى ﴾ لأنه مجرور بحرف جر زائد .

و(أينما) مركب من (أين) التي هي ظرف مكان و (ما) الزائدة .

وأضيف (أين) إلى جملة ﴿ كانوا ﴾ ، أي في أي مكان كانوا فيه ، ونظيره قوله : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ في سورة [الحديد : 4] .

(وثمّ ﴾ للتراخي الرتبي لأن إنباءهم بما تكلموا وما عملوه في الدنيا في يوم القيامة أدل على سعة علم الله من علمه بحديثهم في الدنيا لأن معظم علم العالِمين يعتريه النسيان في مثل ذلك الزمان من الطول وكثرة تدبير الأمور في الدنيا والآخرة .

وفي هذا وعيد لهم بأن نجواهم إثم عظيم فنهي عنه ويشمل هذا تحذير من يشاركهم .

وجملة ﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ تذييل لجملة ﴿ ثم ينبئهم بما عملوا ﴾ فأغنت ﴿ إنّ ﴾ غناء فاء السببية كقول بشار :

إن ذاك النجاح في التبكير

وتأكيد الجملة بـ ﴿ إن ﴾ للاهتمام به وإلا فإن المخاطب لا يتردد في ذلك .

وهذا التعريض بالوعيد يدلّ على أن النهي عن التناجي كان سابقاً على نزول هذه الآية والآيات بعدها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(243/751)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان هذا الدليل أيضاً تتعذر الإحاطة به ، قال دالاًّ عليه بأمر جزئي واقع بعلم المحدث عنه حقيقة ، فإن عاند بعده سقط عنه الكلام إلا بحد الحسام : ﴿ ألم تر ﴾ أي تعلم علماً هو كالرؤية ، ودل على سفول رتبه المرئي بإبعاده عن أعلى الناس قدراً بحرف الغاية فقال : ﴿ إلى الذين ﴾ ولما كان العاقل من إذا زجر عن شيء انزجر حتى يتبين له أنه لا ضرر عليه في فعل ما زجر عنه ، عبر بالبناء للمفعول فقال : ﴿ نهوا ﴾ أي من ناه ما لا ينبغي للمنهي مخالفته حتى يعلم أنه مأمون الغائلة ﴿ عن النجوى ﴾ أي الإسرار لإحلال أنفسهم بذلك في محل التهمة بما لا يرضى من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما قال أبو العلاء المعري :

والخل كالماء يبدي لي ضمائره . . .

مع الصفاء ويخفيها من الكدر

ولما كان الناهي هو الله ، فكان هذا للنهي أهلاً لأن يبعد منه غاية البعد ، عبر بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم يعودون ﴾ أي على سبيل الاستمرار لأنه إذا وقعت مرة بادروا إلى التوبة منها أو فلتة وقعت معفواً عنها ﴿ لما نهوا عنه ﴾ أي من غير أن يعدوا لما يتوقع من جهة الناهي من الضرر عدة ﴿ ويتناجون ﴾ أي يقبل جميعهم على المناجاة إقبالاً واحداً ، فيفعل كل منهم ما يفعله الآخر مرة بعد أخرى على سبيل الاستمرار ، وقراءة حمزة ﴿ وينتجون ﴾ بصيغة الافتعال يدل على التعمد والمعاندة ﴿ بالإثم ﴾ أي بالشيء الذي يكتب عليهم به الإثم بالذنب وبالكذب وبما لا يحل .

ولما ذكر المطلق أتبعه المقيد بالشدة فقال : ﴿ والعدوان ﴾ أي العدو الذي هو نهاية في قصد الشر بالإفراط في مجاوزة الحدود .

ولما كان ذلك شراً في نفسه أتبعه الإشارة إلى أن الشيء يتغير وصفه بالنسبة إلى من يفعل معه فيكبر بكبر المعصي فقال : ﴿ ومعصيت الرسول ﴾ أي الذي جاء إليهم من الملك الأعلى ، وهو كامل الرسلية ، لكونه مرسلاً إلى جميع الخلق وفي كل الأزمان ، فلا نبي بعده ، فهو لذلك يستحق غاية الإكرام .

ولما أنهى تعظيم الذنب إلى غايته آذن بالغضب بأن لفت الكلام إلى الخطاب فقال : ﴿ وإذا جاؤوك ﴾ أيها الرسول الأعظم الذي يأتيه الوحي ممن أرسله ولم يغب أصلاً عنه لأنه المحيط

علماً وقدرة ﴿ حيوك ﴾ أي واجهوك بما يعدونه تحية من قولهم : السام عليك ونحوه ، وعم كل لفظ بقوله : ﴿ بما لم يحيك به الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لا أمر لأحد معه فمن تجاوز ما شرعه فقد عرض نفسه لسخطه ، ومما دخل فيه قوله بعض الناس لبعض " صباح الخير " ونحوه معرضاً عن السلام .

(245/751)

ولما كان المشهور عنهم أنهم يخفون ذلك جهدهم ويعلنون بإملاء الله لهم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يطلع عليه ، وإن اطلع عليه لم يقدر على أن ينتقم منهم ، عبر عن ذلك بقوله : ﴿ ويقولون ﴾ أي عند الاستدراج بالإملاء مجددين قولهم مواظبين عليه ﴿ في أنفسهم ﴾ من غير أن يطلعوا عليه أحداً : ﴿ لولا ﴾ أي هلا ولم لا ﴿ يعذبنا الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بكل شيء على زعم من باهانا ﴿ بما نقول ﴾ مجددين مع المواظبة إن كان يكرهه – كما يقول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ولما تضمن هذا علمه سبحانه وتعالى بهذه الجزئية من هؤلاء القوم ثبت بذلك علمه سبحانه بجميع ما في الكون ، لأن نسبة الكل إليه على حد سواء ، فإذا ثبت علمه بالبعض ثبت علمه بالكل فثبتت قدرته على الكل فكان على كل شيء شهيداً ، قال مهدداً لهم

مشيراً إلى أنه لا ينبغي لأحد أن يقول مثل هذا إلا إن كان قاطعاً بأنه لا يحصل له عذاب ، أو يحصل له منه ما لا يبالي به ثم يرده بقوته : ﴿ حسبهم ﴾ أي كفايتهم في الانتقام منهم وفي عذابهم ورشقهم بسهام لهيبها ومنكئ شررها وتصويب صواعقها ﴿ جهنم ﴾ أي الطبقة التي تلقاهم بالتجهم والعبوسة والتكره والفظاظة .

فإن حصل لهم في الدنيا عذاب كان زيادة على الكفاية ، فاستعجالهم بالعذاب محض رعونة ﴿ يصلونها ﴾ أي يقاسون عذابها دائماً إني أعددتها لهم .

ولما كان التقديرية فإنهم يصيرون إليها ولا بد ، تسبب عنه قوله : ﴿ فبئس المصير ﴾ أي مصيرهم ، وسبب ذلك أن اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون يوهمونهم أنهم يتناجون فيما يسوءهم فيظنون أنه بلغهم شيء من إخوانهم الذين خرجوا في السرايا غزاة في سبيل الله من قتل أو هزيمة فيحزنهم ذلك ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنهاهم عن التناجي في هذه الحالة فلم ينتهوا ، وروى أحمد والبزار والطبراني بإسناد – قال الهيثمي في المجمع إنه جيد لأن حماداً سمع من عطاء بن السائب في حالة الصحة – عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ أن اليهود كانوا

يقولون لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : سام عليك .

ثم يقولون في أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول ، فنزلت .

وروى أبو يعلى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال عند ذلك :

" إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا " وعليك " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 492 ـ 493 ﴾

(247/751)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾

ثم إنه تعالى بين حال أولئك الذين نهوا عن النجوى فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نُهُواْ عَنِ النجوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ واختلفوا في أنهم من هم ؟ فقال الأكثرون : هم اليهود ، ومنهم من قال : هم المنافقون ، ومنهم من قال : فريق من الكفار ، والأول أقرب ، لأنه تعالى حكى عنهم فقال : ﴿ وَإِذَا جَاءوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيّكَ بِهِ الله ﴾ ، وهذا الجنس فيما روي وقع من اليهود ، فقد كانوا إذا سلموا على الرسول عليه السلام قالوا : السام عليك ،

يعنون الموت ، والأخبار في ذلك متظاهرة ، وقصة عائشة فيها مشهورة .

ثم قال تعالى : ﴿ ويتناجون بالإثم والعدوان ومَعْصِيَتِ الرسول وَإِذَا جَاءوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ الله وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال المفسرون : إنه صح أن أولئك الأقوام كانوا يتناجون فيما بينهم ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم ، فيحزنون لذلك ، فلما أكثروا ذلك شكا المسلمون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين ، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقوله : ﴿ ويتناجون بالإثم والعدوان ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن الإثم والعدوان هو مخالفتهم للرسل في النهي عن النجوى لأن الإقدام على المنهي يوجب الإثم والعدوان ، سيما إذا كان ذلك الإقدام لأجل المناصبة وإظهار التمرد .

والثاني : أن الإثم والعدوان هو ذلك السر الذي كان يجري بينهم ، لأنه إما مكر وكيد بالمسلمين أو شيء يسوءهم .

المسألة الثانية :

قرأ حمزة وحده ، (ويتنجون) بغير ألف ، والباقون : ﴿ يتناجون ﴾ ، قال أبو علي : ينتجون يفتعلون من النجوى ، والنجوى مصدر كالدعوى والعدوى ، فينتجون ويتناجون واحد ، فإن يفتعلون ، ويتفاعلون ، قد يجريان مجرى واحد ، كما يقال : ازدوجوا ، واعتوروا ، وتزاوجوا وتعاوروا ، وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا اداركوا فِيهَا ﴾ [الأعراف : 38] وادركوا فادركوا افتعلوا ، وادركوا تفاعلوا وحجة من قرأ : ﴿ يتناجون ﴾ ، قوله : ﴿ إِذَا ناجيتم الرسول ﴾ [المجادلة : 12] ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ [المجادلة : 9] فهذا مطاوع ناجيتم ، وليس في هذا رد لقراءة حمزة : ينتجون ، لأن هذا مثله في الجواز ، وقوله تعالى : ﴿ ومعصية الرسول ﴾ قال صاحب الكشاف : قرىء (ومعصيات الرسول) ، والقولان ههنا كما ذكرناه في الإثم والعدوان وقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ الله ﴾ يعني أنهم يقولون في تحيتك : السام عليك يا محمد والسام الموت ، والله تعالى يقول : ﴿ وسلام على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾ [النمل : 59] و ﴿ يا أيها الرَّسُول ﴾ و ﴿ يا أيها النبي ﴾ ثم ذكر تعالى أنهم ﴿ يَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ ﴾ يعني أنهم يقولون في أنفسهم : إنه لو كان رسولاً فلم لا يعذبنا الله بهذا الاستخفاف .

ثم قال تعالى : ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المصير ﴾ والمعنى أن تقدم العذاب إنما يكون بحسب المشيئة ، أو بحسب المصلحة ، فإذا لم تقتض المشيئة تقديم العذاب ، ولم

يقتض الصلاح أيضاً ذلك ، فالعذاب في القيامة كافيهم في الردع عما هم عليه . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 232.231 ﴾

(249/751)

وقال القرطبى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نُهُواْ عَنِ النجوى ﴾ قيل : إن هذا في اليهود والمنافقين حسب ما قدمناه .

وقيل : في المسلمين .

قال ابن عباس : نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فيقول المؤمنون : لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة ، ويسوءهم ذلك فكثرت شكواهم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت .

وقال مقاتل : كان بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين اليهود موادعة ، فإذا مر بهم رجل من

المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شرًّا ، فيعرج عن طريقه ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينتهوا فنزلت .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يأتي النبيّ صلى الله عليه وسلم فيسأله الحاجة ويناجيه والأرض يومئذ حرب ، فيتوهمون أنه يناجيه في حرب أو بلية أو أمرٍ مهمٍّ فيفزعون لذلك فنزلت .

الثانية : " روى أبو سعيد الخدري قال : كنا ذات ليلة نتحدّث إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "ما هذه النجوى ألم تُنهوا عن النجوى" فقلنا : تبنا إلى الله يا رسول الله ؛ إنا كنا في ذكر المسيخ يعني الدجال فرقاً منه .

فقال : "ألا أخبركم بما هو أخوف عندي منه" قلنا : بلى يا رسول الله ؛ قال : "الشرك الخفيّ أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل" " ذكره الماوردي .

وقرأ حمزة وخلف ورُوَيس عن يعقوب "وَيَنْتَجُونَ" في وزن يفتعلون وهي قراءة عبد الله وأصحابه .

وقرأ الباقون "وَيَتَنَاجَوْنَ" في وزن يتفاعلون ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ﴾ و ﴿ وَتَنَاجَوْا ﴾ .

النحاس : وحكى سيبويه أن تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنى واحد ، نحو تخاصموا واختصموا ، وتقاتلوا واقتتلوا فعلى هذا "يَتَنَاجَوْنَ" و "يَنتجُون" واحد .

ومعنى ﴿ بالإثم والعدوان ﴾ أي الكذب والظلم .

﴿ وَمَعْصِيَةِ الرسول ﴾ أي مخالفته .

وقرأ الضحاك ومجاهد وحميد "وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُول" بالجمع .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ الله ﴾ لا خلاف بين النقلة أن المراد بها اليهود ؛ كانوا يأتون النبيّ صلى الله عليه وسلم فيقولون : السام عليك .

يريدون بذلك السلام ظاهراً وهم يعنون الموت باطناً ، فيقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " عليكم " في رواية ، وفي رواية أخرى " وعليكم " قال ابن العربي : وهي مشكلة .

وكانوا يقولون : لو كان محمد نبيّاً لما أمهلنا الله بسبّه والاستخفاف به ، وجهلوا أن الباري تعالى حليم لا يعاجل من سبّه ، فكيف من سبّ نبيه .

وقد ثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا أحدَ أصبر على الأذى من الله يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهم ويرزقهم "

فأنزل الله تعالى هذا كشفاً لسرائرهم ، وفضحاً لبواطنهم ، معجزةً لرسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد ثبت عن قتادة عن أنس : " أن يهوديًا أتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه فقال : السام عليكم .

فرد عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال : "أتدرون ما قال هذا" قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : " قال كذا ردوه عليّ" فردوه ؛ قال : "قلت السام عليكم" قال : نعم .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم عند ذلك : "إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليك ما قلت" فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ ﴾ " .

قلت : خرجه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح .

وثبت عن عائشة أنها قالت : " جاء أناس من اليهود إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم .

فقلت : السام عليكم وفعل الله بكم وفعل .

فقال عليه السلام : "مَهْ يا عائشة فإن الله لا يحبّ الفُحْش ولا التّفحُّش" فقلت : يا رسول الله ألست ترى ما يقولون ؟ ! فقال : "ألستِ ترين أرد عليهم ما يقولون أقول وعليكم" "

فنزلت هذه الآية ﴿ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ أي إن الله سلّم عليك وهم يقولون السام عليك

، والسام الموت .

خرجه البخاري ومسلم بمعناه .

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال النبيّ صلى الله عليه

وسلم : " إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم " كذا الرواية " وعليكم " بالواو

وتكلم عليها العلماء ؛ لأن الواو العاطفة يقتضي التشريك فيلزم منه أن يدخل معهم فيما

دعوا به علينا من الموت ، أو من سآمة ديننا وهو الملال .

يقال : سَئِم يسأم سآمة وسآماً .

فقال بعضهم : الواو زائدة كما زيدت في قول الشاعر :

* فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى . . .

أي لما أجزنا انتحى فزاد الواو .

وقال بعضهم : هي للاستئناف ، كأنه قال : والسام عليكم .

وقال بعضهم : هي على بابها من العطف ولا يضرنا ذلك ؛ لأنا نجاب عليهم ولا يجابون

علينا ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم .

روي أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : " سلّم ناس من يهود على رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقال : " وعليكم " فقالت عائشة

وغضبت : ألم تسمع ما قالوا ؟ قال : "بلى قد سمعت فرددت عليهم وإنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا" " خرجه مسلم .

ورواية الواو أحسن معنىً ، وإثباتها أصح روايةً وأشهر .

وقد اختلف في رد السلام على أهل الذمة هل هو واجب كالرد على المسلمين ، وإليه ذهب ابن عباس والشّعبي وقتادة ؛ للأمر بذلك .

وذهب مالك فيما روى عنه أشهب وابن وهب إلى أن ذلك ليس بواجب فإن رددت فقل عليك .

وقد اختار ابن طاوس أن يقول في الرد عليهم : علاك السلام أي ارتفع عنك .

(252/751)

واختار بعض أصحابنا : السِّلام بكسر السين يعني الحجارة .

وما قاله مالك أولى اتباعا للسنة ؛ والله أعلم .

وروى مسروق عن عائشة قالت : " أتى النَّبي صلى الله عليه وسلم ناس من اليهود ، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ؛ قال : "وعليكم" قالت عائشة : قلت بل عليك السَّامُ والذَّامُ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا عائشة لا تكوني فاحشة" فقالت : ما سمعت

ما قالوا ! فقال : "أو ليس قد رددتُ عليهم الذي قالوا قلتُ وعليكم" "وفي رواية قال : ففطنت بهم عائشة فسبّتهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَهْ يا عائشة فإن الله لا يحبّ الفحش والتفحش" وزاد فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ إلى آخر الآية .

الذام بتخفيف الميم هو العيب ؛ وفي المثل (لا تَعْدَم الحسناءُ ذاماً) أي عيباً ، ويهمز ولا يهمز ؛ يقال : ذَأَمَهُ يَذْأَمُه ، مثل ذأب يذأب ، والمفعول مذؤوم مهموزا ، ومنه ﴿ مَذْءُوماً مَّدْحُوراً ﴾ [الإسراء : 18] ويقال : ذامَهُ يَذُومُه مخفَّفاً كرامه يرومه .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ قالوا : لو كان محمد نبيًّا لعذّبنا الله بما نقول فهلاّ يعذبنا الله .

وقيل : قالوا إنه يردّ علينا ويقول وعليكم السام والسام الموت ، فلو كان نبيًّا لاستجيب له فينا ومتنا .

وهذا موضع تعجُّب منهم ؛ فإنهم كانوا أهل كتاب ، وكانوا يعلمون أن الأنبياء قد يُغضَبون فلا يعاجل من يغضبهم بالعذاب .

﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي كافيهم جهنم عقاباً غداً ﴿ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي المرجع .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نُهُواْ عَنِ النجوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون دون المؤمنين وينظرون إليهم ويتغامزون بأعينهم يوهمونهم عن أقاربهم أنهم أصابهم شر فلا يزالون كذلك حتى تقدم أقاربهم فلما كثر ذلك منهم شكا المؤمنون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فنهاهم أن يتناجوا دون المؤمنين فعادوا لمثل فعلهم ، وقال مجاهد نزلت في اليهود .

وقال ابن السائب : في المنافقين ، والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والهمزة للتعجيب من حالهم ، وصيغة المضارع للدلالة على تكرر عودهم وتجدده واستحضار صورته العجيبة ، وقوله تعالى :

﴿ ويتناجون بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَتِ الرسول ﴾ عطف عليه داخل في حكمه أي ويتناجون بما هو إثم في نفسه ووبال عليهم وتعدّ على المؤمنين وتواص بمخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجهين وإليه صلى الله عليه وسلم لزيادة تشنيعهم واستعظام معصيتهم .

وقرأ حمزة .

وطلحة .

والأعمش .

ويحيى بن وثاب .

ورويس وينتجون بنون ساكنة بعد الياء وضم الجيم مضارع انتجى ، وقرأ أبو حيوة العدوان بكسر العين حيث وقع ، وقرىء معصيات بالجمع ونسبت فيما بعد إلى الضحاك ﴿ وَإِذَا جَاءوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيّكَ بِهِ الله ﴾ صح من رواية البخاري .

ومسلم .

(254/751)

وغيرهما عن عائشة " أن ناساً من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم فقال عليه الصلاة والسلام : وعليكم ، قالت عائشة : وقلت : عليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم " وفي رواية " عليكم السام والذام واللعنة ، فقال عليه الصلاة والسلام : يا عائشة إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش ، فقلت : ألا تسمعهم يقولون : السام ؟! فقال صلى الله عليه وسلم : أو ما سمعت أقول : وعليكم ؟! فأنزل الله تعالى ﴿ وَإِذَا جاؤك ﴾ " الآية .

وأخرج أحمد .

والبيهقي في "شعب الايمان" بسند جيد عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم سام عليك يريدون بذلك شتمه ثم يقولون في أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول فنزلت هذه الآية ﴿ بالشاكرين وَإِذَا جَاءُكَ ﴾ الخ ، والسام قال ابن الأثير : المشهور فيه ترك الهمز ويعنون به الموت ، وجاء في رواية مهموزاً ومعناه أنكم تسأمون دينكم ، وصرح الخفاجي بأنه بمعنى الموت عبراني ، ولم يذكر فيه الهمز وتركه .

وقال الطبرسي : من قال : السام الموت فهو من سأم الحياة بذهابها وهذا إرجاع له إلى المهموز ، وجعل البيضاوي من التحية التي لم يحيه بها الله تعالى تحيتهم له عليه الصلاة والسلام بأنعم صباحاً وهي تحية الجاهلية كعم صباحاً ولم نقف على أثر في ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي فيما بينهم ، وجوز إبقاؤه على ظاهره ﴿ لَوْلاَ يُعَذّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ ﴾ أي هلا يعذبنا الله تعالى بسبب ذلك لو كان محمد صلى الله عليه وسلم نبياً أي لو كان نبياً عذبنا الله تعالى بسبب ما نقول من التحية أوفق بالأول لأن أنعم صباحاً دعاء بخير والعدول إليه عن تحية الإسلام التي حيا الله تعالى بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأشير إليها بقوله تعالى :

﴿ سلام على المرسلين ﴾ [الصافات : 181] ﴿ وسلام على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾ [النمل : 59] وما جاء في التشهد "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته" ليس فيه كثير إثم يتوقع معه التعذيب الدنيوي حتى أنهم يقولون ذلك إذا لم يعذبوا اللهم إلا إذا انضم إليه أنهم قصدوا بذلك تحقيراً وإعلاناً بعدم الاكتراث ، ولعل قائل ذلك هم المنافقون من المشركين وهو أظهر من كون قائله اليهود ، وحكم التحية به اليوم أنها خلاف السنة ، والقول بالكراهة غير بعيد .

وفي تحفة المحتاج لا يستحق مبتدي بنحو صبحك الله بالخير أو قواك الله جوباً ودعاؤه له في نظيره حسن إلا أن يقصد بإهماله له تأديبه لتركه سنة السلام انتهى ، وأنعم صباحاً نحو صبحك الله بالخير ، غاية ما في الباب أنه دعاء كان يستعمل تحية في الجاهلية ، نعم تحيتهم به له عليه الصلاة والسلام على الوجه الذي قصدوه حرام بلا خلاف ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ عذاباً ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلونها أو يقاسون حرها أو يصطلون بها .

﴿ فَبِئْسَ المصير ﴾ أي جهنم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾

إن كانت هذه الآية والآيتان اللتان بعدها نزلت مع الآية التي قبلها حسبما يقتضيه ظاهر ترتيب التلاوة كان قوله تعالى : ﴿ نهوا عن النجوى ﴾ مؤذناً بأنه سبق نهي عن النجوى قبل نزول هذه الآيات ، وهو ظاهر قول مجاهد وقتادة : نزلت في قوم من اليهود والمنافقين نهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التناجي بحضرة المؤمنين فلم ينتهوا ، فنزلت ، فتكون الآيات الأربع نزلت لتوبيخهم وهو ما اعتمدناه آنفاً .

وإن كانت نزلت بعد الآية التي قبلها بفترة كان المراد النهي الذي أشار إليه قوله تعالى : ﴿ ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ﴾ [المجادلة : 7] كما تقدم ، بأن لم ينتهوا عن النجوى بعد أن سمعوا الوعيد عليها بقوله تعالى : ﴿ ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ﴾ ، فالمراد بـ ﴿ الذين نهوا عن النجوى ﴾ هم الذين عنوا بقوله : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ [المجادلة : 7] الآية .

و﴿ ثم ﴾ في قوله : ﴿ ثم يعودون ﴾ للتراخي الرتبي لأن عودتهم إلى النجوى بعد أن نهوا عنها أعظم من ابتداء النجوى لأن ابتداءها كان إثماً لما اشتملت عليه نجواهم من نوايا سيّئة نحو النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فأما عودتهم إلى النجوى بعد أن نُهوا عنها فقد زادوا به تمرداً على النبي صلى الله عليه وسلم ومشاقّة للمسلمين .

فالجملة مُستأنفة استئنافاً ابتدائياً اقتضاه استمرار المنافقين على نجواهم.

والاستفهام في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى﴾ تَعجيبي مراد به توبيخهم حين يسمعونه.

والرؤية بصرية بقرينة تعديتها بحرف ﴿إلى﴾.

والتعريف في ﴿النجوى﴾ تعريف العهد لأن سياق الكلام في نوع خاص من النجوى.

وهي النجوى التي تحزن الذين آمنوا كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا﴾ [المجادلة: 10].

(257/751)

ويجوز أن يكون النهي عن جنس النجوى في أول الأمر يعمّ كل نجوى بمرأى من الناس سَدّاً للذريعة، قال الباجي في "المنتقى": روي أن النهي عن تناجي اثنين أو أكثر دون واحد أنه كان في بَدء الإِسلام، فلما فشا الإِسلام وآمن الناس زال هذا الحكم لزوال سببه.

قال ابن العربي في "أحكام القرآن" عند قوله تعالى: ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ الآية [114] في سورة النساء: إن الله تعالى أمر عباده بأمرين عظيمين: أحدهما: الإِخلاص وهو أن يستوي ظاهر المرء وباطنه، والثاني: النصيحة لكتاب الله ولرسوله ولأئمة

المسلمين وعامتهم ، فالنجوى خلاف هذين الأصلين وبعدَ هذا فلم يكن بد للخلق من أمر يختصون به في أنفسهم ويَخُص به بعضهم بعضاً فرخص في ذلك بصفة الأمر بالمعروف والصدقة وإصلاح ذات البين أ هـ .

وفي الموطأ ﴿ حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون واحد " زاد في رواية مسلم " إلا بإذنه فإن ذلك يُحزنه "

واختلف في محمل هذا النهي على التحريم أو على الكراهة ، وجمهور المالكية على أنه للتحريم ، قال ابن العربي في "القبس" : فإن كان قوله مخافة أن يُحزنه من قول النبي صلى الله عليه وسلم فقد انحسم التأويل ، وإن كان من قول الراوي فهو أولى من تأويل غيره .

وقال ابن القاسم : سمعت مالكاً يقول : لا يتناجى أربعة دون واحد .

وأما تناجي الجماعة دون جماعة فإنه أيضاً مكروه أو محرم أ هـ .

وحكى النّووي الإِجماع على جواز تناجي جماعة دون جماعة واحتج له ابن التِّين بحديث ابن مسعود قال : فأتيته (يعني النبي صلى الله عليه وسلم وهو في ملأٍ فساررته .

وحديثُ عائِشة في قصة فاطمة دالّ على الجواز .

وقال ابن عبد البر : لا يجوز لأحد أن يدخل على المتناجيين في حال تناجيهما .

وأُلحِقَ بالتناجي أن يتكلم رجلان بلغة لا يعرفها ثالث معهما .

والقول في استعمال ﴿ ثم يعودون لما نهوا عنه ﴾ في معناه المجازي وتعديته باللام نظير القول في قوله تعالى : ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ [المجادلة : 3] .

وكذلك القول في موقع ﴿ ثم ﴾ عاطفة الجملة .

وصيغة المضارع في ﴿ يعودون ﴾ دالة على التجدد ، أي يكررون العدد بحيث يريدون بذلك العصيان وقلة الاكتراث بالنهي فإنهم لو عادوا إلى النجوى مرة أو مرتين لاحتمل حالهم أنهم نسوا .

و"ما نهوا عنه" هو النجوى ، فعدل عن الإتيان بضمير النجوى إلى الموصول وصلته لما تؤذن به الصلة من التعليل لما بعدها من الوعيد بقوله : ﴿ حسبهم جهنم على ما في الصلة من التسجيل على سفههم .

وقرأ الجمهور يتناجون ﴾ بصيغة التفاعل من نَاجى المزيد .

وقرأه حمزة ورويس ويعقوب و ﴿ يَنْتَجُون ﴾ بصيغة الإِفتعال من نَجا الثلاثي المجرد أي سَارَّ غيره ، والافتعال يَرِد بمعنى المفاعلة مثل اختصموا واقتتلوا .

والإِثم : المعصية وهو ما يشتمل عليه تناجيهم من كلام الكفر وذم المسلمين .

و ﴿ العدوان ﴾ بضم العين : الظلم وهو ما يدبرونه من الكيد للمسلمين .

ومعصيةُ الرسول مخالفة ما يأمرهم به ومن جملة ذلك أنه نهاهم عن النجوى وهم يعودون

لها .

والياء للملابسة ، أي يتناجون ملابسين الإِثم والعدوان ومعصية الرسول وهذه الملابسة متفاوتة .

فملابسة الإِثم والعدوان ملابسة المتناجَى في شأنه لفعل المناجين .

وملابسة معصية الرسول صلى الله عليه وسلم ملابسة المقارنة للفعل ، لأن نجواهم بعد أن نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عنها معصية وفي قوله : ﴿ نهوا عن النجوى ﴾ وقوله : ﴿ ومعصيت الرسول ﴾ دلالة على أنهم منافقون لا يهود لأن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان ينهَى اليهود عن أحوالهم .

وهذا يرد قول من تأول الآية على اليهود وهو قول مجاهد وقتادة ، بل الحق ما في ابن عطية عن ابن عباس أنها نزلت في المنافقين .

(259/751)

﴿ الرسول وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ﴾ .

بعد أن ذكر حالهم في اختلاء بعضهم ببعض ذكر حال نياتهم الخبيثة عند الحضور في مجلس

النبي صلى الله عليه وسلم فإنهم يتتبعون سوء نياتهم من كلمات يتبادر منها للسامعين أنها صالحة فكانوا إذا دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم يخفتون لفظ "السلام عليكم" لأنه شعار الإِسلام ولما فيه من جمع معنى السلامة يَعدلون عن ذلك ويقولون : أَنْعِم صباحاً ، وهي تحية العرب في الجاهلية لأنهم لا يحبون أن يتركوا عوائد الجاهلية .

نقله ابن عطية عن ابن عباس .

فمعنى ﴿ بما لم يحيك به الله ﴾ ، بغير لفظ السلام ، فإن الله حيّاه بذلك بخصوصه في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ [الأحزاب : 56] .

وحيّاه به في عموم الأنبياء بقوله : ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ [النمل : 59] وتحية الله هي التحية الكاملة .

وليس المراد من هذه الآية ما ورد في حديث : أن اليهود كانوا إذا حيّوا النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : السّامّ عليك ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرد عليهم بقوله : "وعليكم" .

فإن ذلك وارد في قوم معروف أنهم من اليهود .

وما ذكر أول هذه الآية لا يليق حمله على أحوال اليهود كما علمت آنفاً ولو حمل ضمير ﴿ جاءوك ﴾ على اليهود لزم عليه تشتيت الضمائر .

أما هذه الآية ففي أحوال المنافقين ، وهذا مثل ما كان بعضهم يقول للنبي صلى الله عليه

وسلم ﴿ رَاعِنا ﴾ [البقرة : 104] تعلّموها من اليهود وهم يريدون التوجيه بالرعونة فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم ﴾ [البقرة : 104] ولم يُرد منه نهي اليهود .

(260/751)

ومعنى ﴿ يقولون في أنفسهم يقول بعضهم لبعض على نحو قوله تعالى : ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا عن أنفسكم ﴾ [النور : 61] .

وقوله : ﴿ ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ [النور : 12] ، أي ظن بعضهم ببعض خيراً ، أي يقول بعضهم لبعض .

ويجوز أن يكون المراد بـ ﴿ أنفسهم ﴾ مجامعهم كقوله تعالى : ﴿ وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ [النساء : 63] ، أي قل لهم خالياً بهم ستراً عليهم من الافتضاح .

وتقدم في سورة النساء [63] و ﴿ لولا ﴾ للتحضيض ، أي هلا يعذبنا الله بسبب كلامنا الذي نتناجى به من ذم النبي صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك ، أي يقولون ما معناه لو كان محمد نبيئًا لعذبنا الله بما نقوله من السوء فيه ومن الذم وهو ما لخصه الله من قولهم بكلمهِ ﴿ لولا يعذبنا الله ﴾ فإن ﴿ لولا ﴾ للتحْضيض مستعملة كناية عن جحد نبوءة

النبي صلى الله عليه وسلم أي لو كان نبيًا لغضب الله علينا فلعذبنا الآن بسبب قولنا له .

وهذا خاطر من خواطر أهل الضلالة المتأصلة فيهم ، وهي توهمهم أن شأن الله تعالى كشأن البشر في إسراع الانتقام والاهتزاز مما لا يرضاه ومن المعاندة .

وفي الحديث : " لا أحد أصبر على أذىً يسمعه من الله ، يدعون له نِدّاً وهو يرزقهم على أنهم لجحودهم بالبعث والجزاء يحسبون أن عقاب الله تعالى يظهر في الدنيا " وهذا من الغرور قال تعالى : ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ [فصلت : 23] ، ولذلك قال تعالى رداً على كلامهم ﴿ حسبهم جهنم ﴾ أي كافيهم من العذاب جهنم فإنه عذاب .

وأصل ﴿ يصلونها ﴾ يصْلَون بها ، فضمّن معنى يذوقونها أو يحسونها وقد تكرر هذا الاستعمال في القرآن .

وقوله : ﴿ فبئس المصير ﴾ تفريع على الوعيد بشأن ذم جهنم . انتهى انتهى . اهـ

﴿التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والخمسون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثاني والخمسون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 9 ﴾ من (سورة المجادلة)

وحتى الآية ﴿ 20 ﴾ من السورة

(4/752)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نهى عن النجوى وذم على فعلها وتوعد عليه فكان ذلك موضع أن يظن أن النهي عام لكل نجوى وإن كانت بالخير، استأنف قوله منادياً بالأداة التي لا يكون ما بعدها له وقع عظيم، معبراً بأول أسنان الإيمان باقتضاء الحال له : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي ادعوا أنهم أوجدوا هذه الحقيقة ﴿ إذا تناجيتم ﴾ أي قلع كل منكم الكلام من نفسه فرفعه وكشفه لصاحبه سراً ﴿ فلا تتناجوا ﴾ أي توجدوا هذه الحقيقة ظاهرة كتناجي المنافقين

﴿ بالإثم ﴾ أي الذنب وكل فعل يكتب بسببه عقوبة .

ولما عم خص فقال : ﴿ والعدوان ﴾ أي الذي هو العدو الشديد بما يؤذي وإن كان العادي يظن أنه لا يكتب عليه به إثم .

ولما كان السياق لإجلال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أنه لا تعرف حقيقة الإثم إلا منه قال تعالى : ﴿ ومعصيت الرسول ﴾ أي الكامل في الرسلية فإن ذلك يشوش فكره فلا يدعه يبلغ رسالات ربه وهو منشرح الصدر طيب النفس .

ولما علم أن نهيهم إنما هو عن شر يفسد ذات البين هو ما لا يريدون إطلاع النبي صلى الله عليه ، صرح بقوله حثاً على إصلاح ذات البين لأن خير الأمور ما عاد بإصلاحها ، وشر الأمور ما عاد بإفسادها : ﴿ وتناجوا بالبر ﴾ أي بالخير الواسع الذي فيه حسن التربية ، ولما كان ذلك قد يعمل طبعاً ، حث على القصد الصالح بقوله : ﴿ والتقوى ﴾ وهي ما يكون في نفسه ظاهراً أنه يكون سترة تقي من عذاب الله بأن يكون مرضياً لله ولرسوله .

ولما كانت التقوى أم المحاسن ، أكدها ونبه عليها بقوله : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي اقصدوا قصداً يتبعه العمل أن تجعلوا بينكم وبين سخط الملك الأعظم وقاية .

ولما كانت ذكرى الآخرة هي مجمع المخاوف ولا سيما فضائح الأسرار على رؤوس الأشهاد قال : ﴿ الذي إليه ﴾ أي خاصة ﴿ تحشرون ﴾ أي تجمعون بأيسر أمر وأسهله بقهر وكره ، وهو يوم القيامة ، فيتجلى فيه سبحانه للحكم بين الخلق والإنصاف بينهم

بالعدل ومحاسبتهم على النقير والقطمير لا يخفى عليه خافية ولا تقي منه واقية تنكشف فيه سرادقات العظمة ، ويظهر ظهوراً تاماً نفوذ الكلمة ، ويتجلى في مجالي العز سطوات القهر ، وتنبث لوامع الكبر ، فإذا فعلتم ذلك مستحضرين لذلك لم تقدموا على شيء تريدون إخفاءه من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فيكون ذلك أقر لعينه وأطهر لكم .

ولما شدد سبحانه في أمر النجوى وكان لا يفعلها إلا أهل النفاق ، فكان ربما ظن ظان أنه يحدث عنها ضرر لأهل الدين ، قال ساراً للمخلصين وغاماً للمنافقين ومبيناً أن ضررها إنما يعود عليهم : ﴿ إنما النجوى ﴾ أي المعهودة وهي المنهي عنها ، وهي ما كره صاحبه أن يطلع عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقيل : ما خيله الشيطان من الأحكام المكروهة للإنسان ﴿ من الشيطان ﴾ أي مبتدئه من المحترق بطرده عن رحمة الله تعالى فإنه الحامل عليها بتزيينها ففاعلها تابع لأعدى أعدائه مخالفة لأوليائه .

(5/752)

ولما بين أنها منه ، بين الحامل له على تزيينها فقال : ﴿ ليحزن ﴾ أي الشيطان ليوقع الحزن في قلوب ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي يتوهمهم أنهم بسبب شيء وقع ما يؤذيهم ، والحزن : هم غليظ وتوجع يرق له القلب ، حزنه وأحزنه بمعنى ، وقال في القاموس : أو أحزنه : جعله حزيناً ،

وحزنه : جعل فيه حزناً .

فعلى هذا قراءة نافع من أحزن أشد في المعنى من قراءة الجماعة .

ولما كان ربما خيل هذا من من في قلبه مرض أن في يد الشيطان شيئاً من الأشياء ، سلب ذلك بقوله : ﴿ وليس ﴾ أي الشيطان وما حمل عليه من التناجي ، وأكد النفي بالجار فقال : ﴿ بضارّهم ﴾ أي الذين آمنوا ﴿ شيئاً ﴾ من الضرر وإن قل وإن خفي – بما أفهمه الإدغام ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي تمكين الملك المحيط بكل شيء علماً وقدرة ، روى الشيخان عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه فإن ذلك يحزنه " ولما كان التقدير : فقد علم أنه لا يخشى أحد غير الله لأنه لا ينفذ إلا ما أراده ، فإياه فليخش المربوبون ، عطف عليه قوله :

﴿ وعلى الله ﴾ أي الملك الذي لا كفوء له ، لا على أحد غيره ﴿ فليتوكل المؤمنون ﴾ أي الراسخون في الإيمان في جميع أمورهم ، فإنه القادر وحده على إصلاحها وإفسادها ، ولا يحزنوا من أحد أن يكيدهم بسره ولا بجهره ، فإنه إذا توكلوا عليه وفوضوا أمورهم إليه ، لم يأذن في حزنهم ، وإن لم يفعلوا أحزنهم ، وخص الراسخين لإمكان ذلك منهم في العادة ، وأما أصحاب البدايات فلا يكون ذلك منهم إلا خرق عادة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 494.495 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تتناجوا بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَةِ الرسول وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ .

اعلم أن المخاطبين بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ قولين ، وذلك لأنا إن حملنا قوله فيما تقدم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نُهُواْ عَنِ النجوى ﴾ [المجادلة : 8] على اليهود حملنا في هذه الآية قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ على المنافقين ، أي يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم ، وإن حملنا ذلك على جميع الكفار من اليهود والمنافقين ، حملنا هذا على المؤمنين ، وذلك لأنه تعالى لما ذم اليهود والمنافقين على التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، أتبعه بأن نهى أصحابه المؤمنين أن يسلكوا مثل طريقتهم ، فقال : ﴿ فَلاَ تتناجوا بالإثم ﴾ وهو ما يقبح مما يخصهم ﴿ والعدوان ﴾ وهو يؤدي إلى ظلم الغير ﴿ ومعصية الرسول ﴾ وهو ما يكون خلافاً عليه ، وأمرهم أن يتناجوا بالبر الذي يضاد العدوان وبالتقوى وهو ما يتقي به من النار من فعل الطاعات وترك المعاصي ، واعلم أن القوم متى تناجوا بما هذه صفته قلت : مناجاتهم ، لأن ما يدعو إلى مثل هذا الكلام يدعو إظهاره ، وذلك يقرب من قوله : ﴿ لاَّ خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إصلاح بَيْنَ الناس ﴾ [النساء :

114] وأيضاً فمتى عرفت طريقة الرجل في هذه المناجاة لم يتأذ من مناجاته أحد .

ثم قال تعالى : ﴿ واتقوا الله الذى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي إلى حيث يحاسب ويجازي وإلا فالمكان لا يجوز على الله تعالى .

إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10)

(7/752)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النجوى مِنَ الشيطان لِيَحْزُنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ الألف واللام في لفظ ﴿ النجوى ﴾ لا يمكن أن يكون للاستغراق ، لأن في النجوى ما يكون من الله ولله ، بل المراد منه المعهود السابق وهو النجوى بالإثم والعدوان ، والمعنى أن الشيطان يحملهم على أن يقدموا على تلك النجوى التي هي سبب لحزن المؤمنين ، وذلك لأن المؤمنين إذا رأوهم متناجين ، قالوا : ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا إلى الغزوات أنهم قتلوا وهزموا ، ويقع ذلك في قلوبهم ويحزنون له .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَ بِضَارّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ وفيه وجهان : أحدهما : ليس يضر التناجي بالمؤمنين شيئاً والثاني : الشيطان ليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ، وقوله : ﴿ إِلاَّ

بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فقيل : بعلمه وقيل : بخلقه ، وتقديره للأمراض وأحوال القلب من الحزن والفرح ، وقيل : بأن يبين كيفية مناجاة الكفار حتى يزول الغم .

ثم قال : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ فإن من توكل عليه لا يخيب أمله ولا يبطل سعيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 232 . 233 ﴾

(8/752)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾

هذه الآية نزلت في قوم من اليهود نهاهم رسول الله عن التناجي بحضرة المؤمنين وإظهار ما يستراب منه من ذلك فلم ينتهوا ، فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس نزلت في اليهود والمنافقين .

وقرأ جمهور القراء والناس : " ويتناجون " على وزن يتفاعلون ، وقرأ حمزة والأعمش وطلحة وابن وثاب " وينتجون " على وزن يفتعلون وهما بمعنى واحد كيقتتلون ويتقاتلون وفي مصحف عبد الله بن مسعود : " وعصيان الرسول " .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا جاؤوك حيوك ﴾ الآية ، يريد بذلك ما كانت اليهود تفعله من قولهم

في التحية السام عليك يا محمد ، وذلك أنه روي أن اليهود كانت تأتي فتقول : السام عليك يا محمد ، والسام : الموت ، وإياه كانوا يريدون ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " وعليكم " ، فسمعتهم عائشة يوماً فقالت : بل عليكم السام واللعنة ، فقال رسول الله : " مهلاً يا عائشة إن الله يكره الفحش والتفحش " ، قالت : أما سمعت ما قالوا ؟ قال : " أما سمعت ما قلت لهم ؟ إني قلت وعليكم " . ثم كشف الله تعالى خبث طويتهم والحجة التي إليها يستروحون ، وذلك أنهم كانوا يقولون : نحن الآن نلقى محمداً بهذه الأمور التي تسوؤه ولا يصيبنا سوء ، ولا يعاقبنا الله بذلك ، ولو كان نبياً لهلكنا بهذه الأقوال ، وجهلوا أن أمرهم مؤخر إلى عذاب جهنم ، فأخبر الله بذلك وأنها كافيتهم . وقال ابن عباس : هذه الآية كلها في منافقين ، ويشبه أن من المنافقين من تخلق في هذا كله بصفة اليهود .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ

وصى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بأن لا يكون لهم تناج في مكروه ، وذلك عام في جميع الناس إلى يوم القيامة . وخص " الإثم " بالذكر لعمومه ﴿ والعدوان ﴾ لعظمته في نفسه ، إذ هي ظلامات العباد ، وكذلك ﴿ معصية الرسول ﴾ ذكرها طعناً على المنافقين إذ كان

تناجيهم في ذلك .

وقرأ جمهور الناس : " فلا تتناجوا " على وزن تتفاعلوا ، وقرأ ابن محيصن " تناجوا " بحذف التاء الواحدة . وقرأ بعض القراء : " فلا تّناجوا " بشد التاء لأنها أدغمت التاء في التاء ، وقرأ الأعمش وأهل الكوفة : " فلا تنتجوا " على وزن تفتعلوا . والناس : على ضم العين من " العُدوان " . وقرأها أبو حيوة بكسر العين حيث وقع . وقرأ الضحاك وغيره : " ومعصيات الرسول " على الجمع فيهما .

ثم أمر بالتناجي ﴿ بالبر والتقوى ﴾ ، وذكر بالحشر الذي معه الحساب ودخول أحد الدارين وقوله تعالى : ﴿ إنما النجوى ﴾ ، ليست ﴿ إنما ﴾ للحصر ولكنها لتأكيد الخبر .

واختلف الناس في ﴿ النجوى ﴾ التي هي ﴿ من الشيطان ﴾ التي أخبر عنها في هذه الآية ، فقال جماعة من المفسرين أراد : ﴿ إنما النجوى ﴾ في الإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿ من الشيطان ﴾ ، وقال قتادة وغيره : الإشارة إلى نجوى المنافقين واليهود ، وقال عبد الله بن زيد بن أسلم : الإشارة إلى نجوى قوم من المسلمين كانوا يقصدون مناجاة النبي عليه السلام ، وليس لهم حاجة ولا ضرورة إلى ذلك ، وإنما كانوا يريدون التبجح بذلك ، وكان المسلمون يظنون أن تلك النجوى في أخبار بعد وقاصد أو نحوه .

قال القاضي أبو محمد : وهذان القولان يعضدهما ما يأتي من ألفاظ الآية ، ولا يعضد القول

الأول . وقال عطية العوفي في هذه الآية : نزلت في المنامات التي يراها المؤمن فتسوءه ، وما يراه النائم فكأنه نجوى يناجى بها .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول أجنبي من المعنى الذي قبله والذي بعده .

(10/752)

وقرأ نافع وأهل المدينة : "لَيُحزِن" بضم الياء وكسر الزاي ، والفعل مسند إلى ﴿ الشيطان ﴾ ، وقرأ أبو عمرو والحسن وعاصم وغيرهم : "لَيَحزُن" بفتح الياء وضم الزاي ، تقول حزُنت قلب الرجل : إذا جعلت فيه حزناً ، فهو كقولك كحلت العين ، وهو ضرب من التعدي ، كأن المفعول ظرف . وقد ذكر سيبويه رحمه الله هذا النوع من تعدي الأفعال ، وقرأ بعض الناس : "لَيَحزَن" بفتح الياء والزاي . و: ﴿ الذين ﴾ على هذه القراءة رفع بإسناد الفعل إليهم ، يقال حَزِن الرجل بكسر الزاي .

ثم أخبر تعالى أن الشيطان أو التناجي الذي هو منه ليس بضار أحداً إلا أن يكون ضر بإذن الله أي بأمره وقدره . ثم أمر بتوكل المؤمنين عليه تبارك وتعالى : وهذا كله يقوي أن التناجي الذي من الشيطان إنما هو الذي وقع منه للمؤمنين خوف ، وللخوف اللاحق للقلوب في هذا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يتناجى اثنان دون الثالث" . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(11/752)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ﴾

نهى المؤمنين أي يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ﴾ أي تساررتم .

﴿ فَلاَ تَتَنَاجَوْاْ ﴾ هذه قراءة العامة .

وقرأ يحيى بن وثّاب وعاصم ورويس عن يعقوب "فلا تَنْتَجُوا" من الانتجاء ﴿ بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَةِ الرسول وَتَنَاجَوْاْ بالبر ﴾ أي بالطاعة ﴿ والتقوى ﴾ بالعفاف عما نهى الله عنه .

وقيل : الخطاب للمنافقين ؛ أي يا أيها الذين آمنوا بزعمهم .

وقيل : أي يا أيها الذين آمنوا بموسى .

﴿ واتقوا الله الذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي تجمعون في الآخرة .

إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10)

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النجوى مِنَ الشيطان ﴾ أي من تزيين الشياطين ﴿ لِيَحْزُنَ الذين آمَنُواْ ﴾ إذ توهموا أن المسلمين أصيبوا في السرايا ، أو إذا أجروا اجتماعهم على مكايدة المسلمين ، وربما كانوا يناجون النبيّ صلى الله عليه وسلم فيظن المسلمون أنهم ينتقصونهم عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ ﴾ أي التناجي ﴿ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ أي بمشيئته وقيل : بعلمه .

وعن ابن عباس : بأمره .

﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ أي يكِلون أمرهم إليه ، ويفوّضون جميع شؤونهم إلى عونه ، ويستعيذون به من الشيطان ومن كل شر ؛ فهو الذي سلّط الشيطان بالوساوس ابتلاء للعبد وامتحانا ولو شاء لصرفه عنه .

الثانية : في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الواحد " وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه " فبيّن في هذا الحديث غاية المنع وهي أن يجد الثالث من يتحدّث معه كما فعل ابن عمر ؛ وذلك أنه كان يتحدّث مع رجل فجاء آخر يريد أن يناجيه فلم يناجه حتى دعا رابعاً ، فقال له وللأوّل : تأخرا وناجى الرجل الطالب للمناجاة .

خرجه الموطأ .

وفيه أيضاً التنبيه على التعليل بقوله : "من أجل أن يحزنه" أي يقع في نفسه ما يحزن لأجله .

وذلك بأن يقدّر في نفسه أن الحديث عنه بما يكره ، أو أنه لم يروه أهلاً ليشركوه في حديثهم ، إلى غير ذلك من أُلْقِيات الشيطان وأحاديث النفس .

وحصل ذلك كله من بقائه وحده ، فإذا كان معه غيره أَمِن ذلك ؛ وعلى هذا يستوي في ذلك كل الأعداد ، فلا يتناجى أربعة دون واحدٍ ولا عشرة ولا ألف مثلاً ؛ لوجود ذلك المعنى في حقه ؛ بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأوقع ، فيكون بالمنع أولى .

وإنما خص الثلاثة بالذكر ؛ لأنه أوّل عددٍ يتأتى ذلك المعنى فيه .

وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال ، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور .

وسواء أكان التناجي في مندوبٍ أو مباح أو واجب فإنّ الحزن يقع به .

وقد ذهب بعض الناس إلى أن ذلك كان في أوّل الإسلام ؛ لأن ذلك كان في حال المنافقين فيتناجى المنافقون دون المؤمنين ، فلما فشا الإسلام سقط ذلك .

وقال بعضهم : ذلك خاص بالسفر في المواضع التي لا يأمن الرجل فيها صاحبه ، فأما في الحضر وبين العمارة فلا ؛ فإنه يجد من يعينه ، بخلافِ السفر فإنه مظنة الاغتيال وعدم المغيث .

والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(13/752)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

وَقوله تعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ استشهادٌ على شمولِ شهادتِهِ تعَالَى كَمَا فِي قولِهِ تعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذى حَاجَّ إبراهيم فِى رَبّهِ ﴾ وَفِي قوْلِهِ تعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ أي ألَمْ تعلَمْ علماً يقينياً متاخماً للمشاهدةِ بأنَّه تعَالَى يعلمُ مَا فِيهمَا مِنَ الموجوداتِ سواءٌ كانَ ذلكَ بالاستقرارِ فيهمَا أو بالجزئيةِ منهُمَا وقَوْلُه تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثلاثة ﴾ الخ استئنافٌ مقررٌ لِمَا قَبْلَهُ من سعةِ علمِهِ تعَالَى ومُبينٌ لكيفيتِهِ ويكونُ من كَانَ التامةِ وقُرِىءَ تكونُ بالتاءِ اعتباراً

لتأنيثِ النَّجوى وإنْ كانَ غَيْرَ حقيقيٍّ أيْ ما يقعُ من تناجي ثلاثةِ نفرٍ أي منْ مسارتهم على أنَّ نَجْوى مضافةٌ إلى ثلاثةٍ أوْ عَلَى أنَّها موصوفةٌ بها إمَّا بتقديرِ مضافٍ أيْ منْ أهلِ نَجْوى ثلاثةٍ أو بجعلِهُمْ نَجْوى فِي أنفسهم مبالغةً ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ أي الله عزَّ وجلَّ : ﴿ رَابِعُهُمْ ﴾ أيْ جاعلهم أربعةً منْ حيثُ إنَّه تعالَى يشاركُهُمْ فِي الاطلاعِ عَلَيها وهُوَ استثناءٌ مفرغٌ مِنْ أعمِّ الأحوالِ ﴿ وَلَا خَمْسَةٍ ﴾ ولا نجوى خمسةٍ ﴿ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ وتخصيصُ العددَينِ بالذكرِ إما لخصوصِ الواقعةِ فإنَّ الآيةَ نزلتْ في تناجي المنافقينَ وإمَّا لبناءِ الكلامِ على أغلبِ عاداتِ المتناجينَ وقدْ عممَ الحكمَ بعدَ ذلكَ فقيل : ﴿ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ ﴾ أيْ ممَّا ذُكرَ كالواحدِ والاثنينِ ﴿ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ كالستةِ وما فوقَها ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ يعلمُ ما يَجْرِي بينَهم وقُرِىءَ ولا أكثرُ بالرفعِ عطفاً عَلى محلِ منْ نَجْوى أو محلِ ولا أدْنَى بأنْ جُعِلَ لا لنفيِ الجنسِ ﴿ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ من الأماكنِ ولو كانُوا تحتَ الأرضِ فإنَّ علمَهُ تعالَى بالأشياءِ ليسَ لقربٍ مكانيٍ حتَّى يتفاوت باختلافِ الأمكنةِ قُرباً وبُعداً ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم ﴾ وقُرِىءَ

﴿ يُنَبِّئُهُمْ بالتَّخفيفِ ﴿ بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ القيامة ﴾ تفضيحاً لَهُمْ وإظهاراً لما يوجبُ عذابَهُم ﴿ أَنَّ الله بِكُلّ شَىْء عَلِيمٌ ﴾ لأنَّ نسبةَ ذاتِه المقتضيةِ للعلمِ إلى الكُلِّ سواءٌ .

(15/752)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نُهُواْ عَنِ النجوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ نزلتْ في اليهودِ والمنافقين كانوا يتناجَونَ فيما بينهُمْ ويتغامزونَ بأعينِهم إذَا رأَوْا المؤمنينَ فنهاهُم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثمَّ عادُوا لمثلِ فعلِهمْ والخطابُ للرسولِ عليه الصلاةُ والسَّلامُ والهمزةُ للتعجيبِ منْ حالِهمْ وصيغةُ المضارعِ للدلالةِ عَلَى تكررِ عَودِهمْ وتجددِهِ واستحضارِ صورتِهِ العجيبةِ وقولِه تعَالى : ﴿ ويتناجون بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَتِ الرسول ﴾ عطفٌ عليهِ داخلٌ في حُكمِه أيْ بِمَا هُوَ إثمٌ في نفسِه وعدوانٌ للمؤمنينَ وتواصٍ بمعصيةِ الرسولِ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ وذكرُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بعنوانِ الرسالةِ بينَ الخطابينِ المتوجهينِ إليهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لزيادةِ تشنيعِهم واستعظامِ معصيتِهم وقُرِىءَ وينتجونَ بالإثمِ والعِدْوَانِ بكسرِ العينِ ومعصياتِ الرسولِ : ﴿ وَإِذَا جَاءوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيّكَ بِهِ الله ﴾ فيقولونَ : السامُ عليكمْ . أو أنعِمْ صَباحاً والله سبحانَهُ يقولُ : ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي فيما بينهُمْ ﴿ لَوْلاَ يُعَذّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ ﴾ أيْ هلاَّ يعذبُنا الله

بذلك لو كان محمد نبياً ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ عذاباً ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلونها ﴿ فَبِئْسَ المصير ﴾ أيْ جهنمُ ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ﴾ فِي أنديتكُمْ وفِي خلواتكم ﴿ فَلاَ تتناجوا بالإثم والعدوان ومَعْصِيَةِ الرسول ﴾ كما يفعله المنافقونَ وقُرِىءَ فلا تنتجُوا وفلا تناجَوا بحذفِ إحدى التاءين ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ أيْ بما يتضمنُ خيرَ المؤمنينِ والاتقاءَ عن معصيةِ الرسولِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ . ﴿ واتقوا الله الذى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وحْدَهُ لاَ إلى غيْرِهِ استقلالاً أو اشتراكاً

(16/752)

فيجازيكُم بكُلِّ ما تأتونَ وتذرونَ ﴿ إِنَّمَا النجوى ﴾ المعهودةُ التي هِيَ التناجي بالإثمِ وَالعدوانِ ﴿ مِنَ الشيطان ﴾ لاَ مِنْ غَيْرِه فإنَّه المزينُ لَها والحاملُ عليهَا وقولِه تَعَالى : ﴿ لِيَحْزُنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ خبرٌ آخرُ أيْ إنَّما هِيَ ليحزنَ المؤمنينَ بتوهمهمْ أنَّها فِي نكبةٍ أصابتْهُمْ ﴿ وَلَيْسَ بِضَارّهِمْ ﴾ أي الشيطانُ أو التناجي بضارِّ المؤمنينَ ﴿ شَيْئًا ﴾ مِنَ الأشياءِ أو شيئاً منَ الضررِ ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ أيْ بمشيئتِه ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ ولا يبالُوا بنجواهُم فإنَّه تعالى يعصمُهم منْ شرِّهِ وضرِّه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ﴾

في أنديتكم وفي خلواتكم .

﴿ فَلاَ تتناجوا بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَتِ الرسول ﴾ كما يفعله المنافقون ، فالخطاب

للخلص تعريضاً بالمنافقين ، وجوز جعله لهم وسموا مؤمنين باعتبار ظاهر أحوالهم .

وقرأ الكوفيون .

والأعمش .

وأبو حيوة .

ورويس فلا تنتجوا مضارع انتجى ، وقرأ ابن محيصن فلا تناجوا بادغام التاء في التاء ،

وقرىء بحذف إحداهما ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ بما يتضمن خير المؤمنين والاتقاء

عن معصية الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ واتقوا ﴾ فيما تأتون وما تذرون ﴿ الله

الذى إِلَيْهِ ﴾ وحده لا إلى غيره سبحانه استقلالاً أو اشتراكاً ﴿ تُحْشَرُونَ ﴾ فيجازيكم

على ذلك .

﴿ إِنَّمَا النجوى ﴾ المعهودة التي هي التناجي بالإثم والعدوان والمعصية ﴿ مِنَ الشيطان ﴾ لا من غيره باعتبار أنه هو المزين لها والحامل عليها ، وقوله تعالى : ﴿ لِيَحْزُنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ خبر آخر أي إنما هي ليحزن المؤمنين بتوهمهم أنها في نكبة أصابتهم ، وقرىء ﴿ لِيَحْزُنَ ﴾ بفتح الياء والزاي فالذين فاعل ﴿ وَلَيْسَ بِضَارّهِمْ ﴾ أي ليس الشيطان أو التناجي بضار المؤمنين ﴿ شَيْئاً ﴾ من الأشياء أو شيئاً من الضرر ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ أي إلا بإرادته ومشيئته عز وجل ، وذلك بأن يقضي سبحانه الموت أو الغلبة على أقاربهم ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ ولا يبالوا بنجواهم .

(18/752)

وحاصله أن ما يتناجى المنافقون به مما يحزن المؤمنين إن وقع فبإرادة الله تعالى ومشيئته لا دخل لهم فيه فلا يكترث المؤمنون بتناجيهم وليتوكلوا على الله عز وجل ولا يحزنوا منه ، فهذا الكلام لإزالة حزنهم ، ومنه ضعف ما أشار إليه الزمخشري من جواز أن يرجع ضمير ليس بضارهم للحزن ، وأجيب بأن المقصود يحصل عليه أيضاً فإنه إذا قيل : إن هذا الحزن لا يضرهم إلا بإرادة الله تعالى اندفع حزنهم ، هذا ومن الغريب ما قيل : إن الآية نازلة في المنامات التي يراها المؤمن في النوم تسوؤه ويحزن منها فكأنها نجوى يناجي بها ، وهذا على

ما فيه لا يناسب السباق والسياق كما لا يخفى ، ثم إن التناجي بين المؤمنين قد يكون منهياً عنه ، فقد أخرج البخاري : ومسلم .

والترمذي .

وأبو داود عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه " ومثل التناجي في ذلك أن يتكلم اثنان بحضور ثالث بلغة لا يفهمها الثالث إن كان يحزنه ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(19/752)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِنَّ الذين يُحَادُّونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾

لما ذكر سبحانه المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادّين ، والمحادّة : المشاقة ، والمعاداة ، والمخالفة ، ومثله قوله : ﴿ إِنَّ الذين يُحَادُّونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة : 20] قال الزجاج : المحادّة أن تكون في حدّ يخالف صاحبك ، وأصلها الممانعة ، ومنه الحديد ، ومنه الحدّاد للبوّاب ﴿ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : أذلوا وأخزوا ، يقال : كبت الله

فلاناً : إذا أذله ، والمردود بالذلّ يقال له : مكبوت .

قال المقاتلان : أخزوا ، كما أخزي الذين من قبلهم من أهل الشرك ، وكذا قال قتادة ، وقال أبو عبيدة ، والأخفش : أهلكوا .

وقال ابن زيد : عذبوا .

وقال السديّ : لعنوا .

وقال الفرّاء : أغيظوا ، والمراد بمن قبلهم : كفار الأمم الماضية المعادين لرسل الله ، وعبّر عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه ، وقيل المعنى : على المضيّ ، وذلك ما وقع للمشركين يوم بدر ، فإن الله كبتهم بالقتل والأسر ، والقهر ، وجملة ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا ءايات بينات ﴾ في محل نصب على الحال من الواو في كبتوا ، أي : والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حادّ الله ورسله من الأمم المتقدّمة ، وقيل : المراد الفرائض التي أنزلها الله سبحانه ، وقيل : هي المعجزات ﴿ وللكافرين عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي : للكافرين بكل ما يجب الإيمان به .

فتدخل الآيات المذكورة هنا دخولاً أوّلياً ، والعذاب المهين : الذي يهين صاحبه ، ويذله ، ويذهب بعزّه ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً ﴾ الظرف منتصب بإضمار اذكر ، أو بمهين ، أو بما تعلق به اللام من الاستقرار ، أو بأحصاه المذكور بعده ، وانتصاب ﴿ جميعاً ﴾ على الحال ، أي : مجتمعين في حالة واحدة ، أو يبعثهم كلهم لا يبقي منهم أحد غير مبعوث ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أي : يخبرهم بما عملوه في الدنيا من الأعمال القبيحة توبيخاً لهم وتبكيتاً ، ولتكميل الحجة عليهم ، وجملة ﴿ أحصاه اللهُ وَنَسُوهُ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل كيف ينبئهم بذلك على كثرته واختلاف أنواعه ، فقيل : أحصاه الله جميعاً ، ولم يفته منه شيء ، والحال أنهم قد نسوه ولم يحفظوه ، بل وجدوه حاضراً مكتوباً في صحائفهم ﴿ والله على كلّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ لا يخفى عليه شيء من الأشياء ، بل هو مطلع وناظر .
ثم أكّد سبحانه بيان كونه عالماً بكل شيء ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ أي : ألم تعلم أن علمه محيط بما فيهما بحيث لا يخفى عليه شيء مما فيهما ، وجملة : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثلاثة ﴾ إلخ مستأنفة ؛ لتقرير شمول علمه وإحاطته بكل المعلومات .

قرأ الجمهور : ﴿ يكون ﴾ بالتحتية .

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ، والأعرج ، وأبو حيوة بالفوقية ، وكان على القراءتين تامة ، و " من " مزيدة للتأكيد ، ونجوى فاعل كان ، والنجوى : السرار ، يقال : قوم نجوى ، أي : ذو

نجوى ، وهي مصدر .

والمعنى : ما يوجد من تناجي ثلاثة ، أو من ذوي نجوى ، ويجوز أن تطلق النجوى على الأشخاص المتناجين ، فعلى الوجه الأوّل انخفاض ثلاثة بإضافة نجوى إليه ، وعلى الوجهين الآخرين يكون انخفاضها على البدل من نجوى ، أو الصفة لها .

(21/752)

قال الفرّاء : ثلاثة نعت للنجوى ، فانخفضت ، وإن شئت أضفت نجوى إليها ، ولو نصبت على إضمار فعل جاز ، وهي قراءة ابن أبي عبلة ، ويجوز رفع ثلاثة على البدل من موضع نجوى ﴿ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ هذه الجملة في موضع نصب على الحال ، وكذا قوله : ﴿ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ ﴿ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ ﴾ أي : ما يوجد شيء من هذه الأشياء إلاّ في حال من هذه الأحوال ، فالاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال ، ومعنى رابعهم جاعلهم أربعة ، وكذا سادسهم : جاعلهم ستة من حيث إنه يشاركهم في الاطلاع على تلك النجوى ﴿ وَلاَ خَمْسَةٍ ﴾ أي : ولا نجوى خمسة ، وتخصيص العددين بالذكر ؛ لأن أغلب عادات المتناجين أن يكونوا ثلاثة ، أو خمسة ؛ أو كانت الواقعة التي هي سبب النزول في متناجين كانوا ثلاثة في موضع ، وخمسة في موضع .

قال الفراء : العدد غير مقصود ؛ لأنه سبحانه مع كل عدد قلّ أو كثر ، يعلم السر والجهر ، لا تخفى عليه خافية ﴿ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ ﴾ أي : ولا أقلّ من العدد المذكور : كالواحد والاثنين ، ولا أكثر منه كالستة والسبعة إلاّ هو معهم يعلم ما يتناجون به لا يخفى عليه منه شيء .

قرأ الجمهور : ﴿ ولا أكثر ﴾ بالجرّ بالفتحة عطفاً على لفظ نجوى .

وقرأ الحسن ، والأعمش ، وابن أبي إسحاق ، وأبو حيوة ، ويعقوب ، وأبو العالية ، ونصر ، وعيسى بن عمر ، وسلام بالرفع عطفاً على محل نجوى .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولا أكثر ﴾ بالمثلثة .

وقرأ الزهري ، وعكرمة بالموحدة .

(22/752)

قال الواحدي : قال المفسرون : إن المنافقين واليهود كانوا يتناجون فيما بينهم ، ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم ، فيحزنون لذلك ، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين ، فلم ينتهوا عن ذلك ، وعادوا إلى مناجاتهم ، فأنزل الله هذه الآيات ، ومعنى ﴿ أَيۡنَمَا كَانُواْ ﴾ إحاطة علمه

بكل تناج يكون منهم في أيّ مكان من الأمكنة ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم ﴾ أي : يخبرهم ﴿ بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ القيامة ﴾ توبيخاً لهم ، وتبكيتاً ، وإلزاماً للحجة ﴿ أَنَّ الله بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه شيء كائناً ما كان .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نُهُواْ عَنِ النجوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ هؤلاء الذين نهوا ، ثم عادوا لما نهوا عنه ، هم من تقدّم ذكره من المنافقين واليهود .

قال مقاتل : كان بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين اليهود مواعدة ، فإذا مرّ بهم الرجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظنّ المؤمن شرّاً ، فنهاهم الله ، فلم ينتهوا ، فنزلت .

وقال ابن زيد : كان الرجل يأتي النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فيسأله الحاجة ، ويناجيه ، والأرض يومئذٍ حرب ، فيتوهمون أنه يناجيه في حرب ، أو بلية ، أو أمر مهمّ ، فيفزعون لذلك ﴿ ويتناجون بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَتِ الرسول ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ يتناجون ﴾ بوزن يتفاعلون ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وأبو حاتم ، لقوله فيما بعد : ﴿ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تتناجوا ﴾ .

وقرأ حمزة ، وخلف ، وورش عن يعقوب : (وينتجون) بوزن يفتعلون ، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه ، وحكى سيبويه أن تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنى واحد نحو تخاصموا واختصموا ، وتقاتلوا واقتتلوا ، ومعنى الإثم : ما هو إثم في نفسه كالكذب والظلم ،

والعدوان: ما فيه عدوان على المؤمنين، ومعصية الرسول: مخالفته.

قرأ الجمهور: ﴿ ومعصية ﴾ بالإفراد.

(23/752)

وقرأ الضحاك، وحميد، ومجاهد: (ومعصيات) بالجمع ﴿ وَإِذَا جَاءوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيّكَ بِهِ الله ﴾ قال القرطبي: إن المراد بها اليهود كانوا يأتون النبيّ صلى الله عليه وسلم، فيقولون: السام عليك يريدون بذلك السلام ظاهراً، وهم يعنون الموت باطناً، فيقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: "عليكم" وفي رواية أخرى: "وعليكم" ﴿ وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي: فيما بينهم ﴿ لَوْلاَ يُعَذّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ ﴾ أي: هلا يعذبنا بذلك، ولو كان محمد نبياً لعذبنا بما يتضمنه قولنا من الاستخفاف به.

وقيل المعنى: لو كان نبياً لاستجيب له فينا حيث يقول: وعليكم، ووقع علينا الموت عند ذلك ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ عذاباً ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلونها ﴿ فَبِئْسَ المصير ﴾ أي: المرجع، وهو جهنم.

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تتناجوا بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَةِ الرسول ﴾ لما فرغ سبحانه عن نهي اليهود والمنافقين عن النجوى أرشد المؤمنين إذا تناجوا فيما بينهم أن لا

يتناجوا بما فيه إثم وعدوان ، ومعصية لرسول الله ، كما يفعله اليهود والمنافقون .

ثم بيّن لهم ما يتناجون به في أنديتهم وخلواتهم ، فقال : ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ أي : بالطاعة وترك المعصية ، وقيل : الخطاب للمنافقين ، والمعنى : يا أيها الذين آمنوا ظاهراً ، أو بزعمهم ، واختار هذا الزجاج.

وقيل : الخطاب لليهود .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى ، والأوّل أولى ، ثم خوفهم سبحانه ، فقال : ﴿ واتقوا الله الذى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ، فيجزيكم بأعمالكم .

(24/752)

ثم بيّن سبحانه أن ما يفعله اليهود والمنافقون من التناجي هو من جهة الشيطان ، فقال : ﴿ إِنَّمَا النجوى ﴾ يعني : بالإثم والعدوان ، ومعصية الرسول ﴿ مِنَ الشيطان ﴾ لا من غيره ، أي : من تزيينه وتسويله ﴿ لِيَحْزُنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ أي : لأجل أن يوقعهم في الحزن بما يحصل لهم من التوهم أنها في مكيدة يكادون بها ﴿ وَلَيْسَ بِضَارّهِمْ شَيْئاً ﴾ أو ، وليس الشيطان ، أو التناجي الذي يزينه الشيطان بضارّ المؤمنين شيئًا من الضرر ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ أي : بمشيئته ، وقيل : بعلمه ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ أي : يكلون أمرهم إليه

، ويفوّضونه في جميع شؤونهم ، ويستعيذون بالله من الشيطان ، ولا يبالون بما يزينه من النجوى .

وقد أخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والبزار ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب .

قال السيوطي بسندٍ جيد عن ابن عمر : إن اليهود كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : السام عليك ، يريدون بذلك شتمه ، ثم يقولون في أنفسهم : ﴿ لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا جَاءوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ ﴾ .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، والترمذي وصححه عن أنس : أن يهودياً أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال : السام عليكم ، فردّ عليه القوم ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " هل تدرون ما قال هذا " ؟ قالوا : الله أعلم ، سلم يا نبيّ الله ، قال : " لا ، ولكنه قال كذا ، وكذا ، ردّوه عليّ " فردّوه ، قال : " قلت : السام عليكم ؟ " قال : نعم ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم عند ذلك : " إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب ، فقولوا : عليك ، ما قلت " قال : ﴿ وَإِذَا جَاءوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ ﴾ .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن عائشة قالت : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود ، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقالت عائشة : عليكم السام واللعنة ، فقال : " يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا المتفحش " ، قلت : ألا تسمعهم يقولون السام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أو ما سمعتني أقول : وعليكم " فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في هذه الآية قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حيوه : سام عليك ، فنزلت .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية وأغزاها ، التقى المنافقون ، فأنغضوا رءوسهم إلى المسلمين ، ويقولون : قتل القوم ، وإذا رأوا رسول الله تناجوا وأظهروا الحزن ، فبلغ ذلك من النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن المسلمين ، فأنزل الله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تتناجوا بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَةِ الرسول ﴾ الآية .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كنتم ثلاثة ، فلا يتناجى اثنان دون الثالث ، فإن ذلك يحزنه " وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي سعيد قال : كنا نتناوب رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرقه أمر ، أو يأمر بشيء ، فكثر أهل النوب والمحتسبون ليلة حتى إذا كنا أنداء نتحدّث ،

فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل فقال : " ما هذه النجوى ؟ ألم تنهوا عن النجوى " ؟ قلنا : يا رسول الله إنا كنا في ذكر المسيح فرقاً منه ، فقال : " ألا أخبركم مما هو أخوف عليكم عندي منه " ؟ قلنا : بلى يا رسول الله .

قال : " الشرك الخفيّ أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل " قال ابن كثير : هذا إسناد غريب ، وفيه بعض الضعفاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 185 . 188 ﴾

(26/752)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾

خطاب للمنافقين الذين يظهرون الإيمان فعاملهم الله بما أظهروه وناداهم بوصف الذين آمنوا كما قال : ﴿ من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ﴾ [المائدة : 41] ومنه ما حكاه الله عن المشركين ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ [الحجر : 6] أي يا أيها الذي نزل عليه الذكر بزعمه ، ونبههم إلى تدارك حالهم بالإقلاع عن آثار النفاق على عادة القرآن من تعقيب التخويف بالترغيب .

فالجملة استئناف ابتدائي .

ذلك أن المنافقين كانوا يعملون بعمل أهل الإيمان إذا لَقُوا الذين آمنوا فإذا رجعوا إلى قومهم غلب عليهم الكفر فكانوا في بعض أحوالهم مقارنين الإيمان بسبب مخالطتهم للمؤمنين.

ولذلك ضرب الله لهم مثلاً بالنور في قوله تعالى: ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ﴾ [البقرة: 17] ثم قوله: ﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ [البقرة: 20].

وهذا هو المناسب لقوله تعالى: ﴿ فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول ﴾، ويكون قوله: ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ تنبيهاً على ما يجب عليهم إن كانوا متناجين لا محالة.

ويجوز أن تكون خطاباً للمؤمنين الخلّص بأنْ وجه الله الخطاب إليهم تعليماً لهم بما يحسن من التناجي وما يقبح منه بمناسبة ذم تناجي المنافقين فلذلك ابتدىء بالنهي عن مثل تناجي المنافقين وإن كان لا يصدر مثله من المؤمنين تعريضاً بالمنافقين، مثل قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ﴾ [آل عمران: 156]، ويكون المقصود من الكلام هو قوله: ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ تعليماً للمؤمنين.

والتقييد بـ ﴿ إذا تناجيتم ﴾ يشير إلى أنه لا ينبغي التناجي مطلقاً ولكنهم لما اعتادوا التناجي حُذروا من غوائله ، وإلا فإن التقييد مستغنى عنه بقوله : "لا تتناجوا بالإِثم والعدوان" .

وهذا مثل ما وقع في حديث النهي عن الجلوس في الطرقات من قوله صلى الله عليه وسلم "فإن كنتم فاعلين لا محالة فاحفظوا حَق الطريق" .

وقرأ الجمهور ﴿ فلا تتناجوا ﴾ بصيغة التفاعل .

وقرأه رويس عن يعقوب وحده ﴿ فلا تنتجُوا ﴾ بوزن تَنْتَهُوا .

والأمر من قوله : ﴿ وتناجوا بالبر ﴾ مستعمل في الإِباحة كما اقتضاه قوله تعالى : ﴿ إذا تناجيتم ﴾ .

والإِثم والعدوان ومعصية الرسول تقدمت .

وأما البرّ فهو ضد الإِثم والعدوان وهو يعم أفعال الخير المأمور بها في الدين .

و﴿ التقوى ﴾ : الامتثال ، وتقدمت في قوله تعالى : ﴿ هدى للمتقين ﴾ في سورة [البقرة : 2] .

وفي قوله : الذي إليه تحشرون ﴾ تذكير بيوم الجزاء .

فالمعنى : الذي إليه تحشرون فيجازيكم .

إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10)

تسلية للمؤمنين وتأنيس لنفوسهم يزال به ما يلحقهم من الحزن لمشاهدة نجوى المنافقين لاختلاف مذاهب نفوسهم إذا رأوا المتناجين في عديد الظنون والتخوفات كما تقدم.

فالجملة استئناف ابتدائي اقتضته مناسبة النهي عن النجوى، على أنها قد تكون تعليلاً لتأكيد النهي عن النجوى.

والتعريف في { النجوى } تعريف العهد لا محالة.

أي نجوى المنافقين الذين يتناجون بالإِثم والعدوان ومعصية الرسول صلى الله عليه وسلم.

والحصر المستفاد من { إنما } قصر موصوف على صفة و { من } ابتدائية، أي قصر النجوى على الكون من الشيطان، أي جائية لأن الأغراض التي يتناجون فيها من أكبر ما يوسوس الشيطان لأهل الضلالة بأن يفعلوه ليحزن الذين آمنوا بما يتطرقهم من خواطر الشر بالنجوى.

(28/752)

وهذه العلة ليست قيداً في الحصر فإن للشيطان عللاً أخرى مثل إلقاء المتناجين في الضلالة ، والاستعانة بهم على إلقاء الفتنة ، وغير ذلك من الأغراض الشيطانية .

وقد خصت هذه العلة بالذكر لأن المقصود تسلية المؤمنين وتصبرهم على أذى المنافقين ولذلك عقب بقوله : ﴿ وليس بضارهم شيئاً ﴾ ليطمئن المؤمنون بحفظ الله إياهم من ضر الشيطان .

وهذا نحو من قوله تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ [الحجر : 42]

وقرأ نافع وحده ﴿ ليُحزن ﴾ بضم الياء وكسر الزاي فيكون ﴿ الذين آمنوا ﴾ مفعولاً .

وقرأه الباقون بفتح الياء وضم الزاي مضارع حزم فيكون ﴿ الذين آمنوا ﴾ فاعلاً وهما لغتان .

وجملة ﴿ وليس بضارهم ﴾ الخ معترضة .

وضمير الرفع المستتر في قوله : ﴿ بضارهم ﴾ عائد إلى ﴿ الشيطان ﴾ .

والمعنى : أن الشيطان لا يضرّ المؤمنين بالنجوى أكثر من أنه يحزنهم .

فهذا كقوله تعالى : ﴿ لن يضروكم إلى أذى ﴾ [آل عمران : 111] أو عائد إلى النجوى بتأويله بالتناجي ، أي ليس التناجي بضارّ المؤمنين لأن أكثره ناشىء عن إيهام حصول ما يتقونه في الغزوات .

وعلى كلا التقديرين فالاستثناء بقوله : ﴿ إلا بإذن الله ﴾ استثناء من أحوال والباء

للسببية، أي إلا في حال أن يكون الله قدّر شيئاً من المضرة من هزيمة أو قتل.

والمراد بالإِذن أمر التكوين.

وانتصب ﴿ شيئاً ﴾ على المفعول المطلق، أي شيئاً من الضر.

ووقوع ﴿ شيئاً ﴾ وهو ذكره في سياق النفي يفيد عموم نفي كل ضرّ من الشيطان، أي انتفى كل شيء من ضر الشيطان عن المؤمنين، فيشمل ضر النجوى وضر غيرها،

والاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إلا بإذن الله ﴾ من عموم ﴿ شيئاً ﴾ الواقع في سياق النفي، أي لا ضراً ملابساً لإِذن الله في أن يسلط عليهم الشيطان ضره فيه، أي ضر وسوسته.

واستعير الإِذن لما جعله الله في أصل الخلقة من تأثر النفوس بما يسوّل إليها.

(29/752)

وهو معنى قوله تعالى: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [الحجر: 42] فإذا خلى الله بين الوسوسة وبين العبد يكون اقتراب العبد من المعاصي الظاهرة والباطنة في كل حالة يبتعد فيها المؤمن عن مراقبة الأمر والنهي الشرعيين.

وهذا الضر هو المعبر عنه بالسلطان في قوله تعالى في شأن الشيطان ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاّ من اتّبعك من الغاوين ﴾ أي فلك عليه سلطان.

وهذه التصاريف الإلهية جارية على وفق حكمة الله تعالى وما يعلمه من أحوال عباده وسرائرهم وهو يعلم السر وأخفى.

ولهذا ذيل بقوله: ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ لأنهم إذا توكلوا على الله توكلاً حقاً بأن استفرغوا وسعهم في التحرز من كيد الشيطان واستعانوا بالله على تيسير ذلك لهم فإن الله يحفظهم من كيد الشيطان قال تعالى: ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ [الطلاق: 3].

ويجوز أن يكون عموم ﴿ شيئاً ﴾ مراداً به الخصوص، أي ليس بضارّهم شيئاً مما يوهمه تناجي المنافقين من هزيمة أو قتل إلا بتقدير الله حصول هزيمة أو قتل.

والمعنى: أن التناجي يوهم الذين آمنوا ما ليس واقعاً فأعلمهم الله أن لا يحزنوا بالنجوى لأن الأمور تجري على ما قدره الله في نفس الآمر حتى تأتيهم الأخبار الصادقة.

وتقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ للاهتمام بمدلول هذا المتعلق. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر ما يحزن من السر لكونه اختصاصاً عن الجليس بالمقال فينشأ عنه ظن الكدر وتباعد القلوب ، أتبعه الاختصاص بالمجلس الذي هو مباعدة الأجسام اللازم لها من الظن ما لزم من الاختصاص بالسر في الكلام فينشأ عنه الحزن ، معلماً لهم بكمال رحمته وتمام رأفته بمراعاة حسن الأدب بينهم وإن كان من أمور العادة دون أحكام العبادة ، فقال مخاطباً لأهل الدرجة الدنيا في الإيمان لأنهم المحتاجون لمثل هذا الأدب : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ حداهم بهذا الوصف على الامتثال ﴿ إذا قيل لكم ﴾ أي من أيّ قائل كان فإن الخير يرغب فيه لذاته : ﴿ تفسحوا ﴾ أي توسعوا أي كلفوا أنفسكم في إيساع المواضع ﴿ وفي المجلس ﴾ أي الجلوس أو مكانه لأجل من يأتي فلا يجد مجلساً يجلس فيه ، والمراد بالمجلس جنس المكان الذي هم ماكثون به بجلوس أو قيام في صلاة أو غيرها لأنه أهل لأن يجلس فيه .

وذلك في كل عصر ، ومجلس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أولى بذلك ، وقراءة عاصم بالجمع موضحة لإرادة الجنس ﴿ فافسحوا ﴾ أي وسعوا فيه عن سعة صدر ﴿ يفسح الله ﴾ أي الذي له الأمر كله والعظمة الكاملة ﴿ لكم ﴾ في كل ما تكرهون ضيقه من الدارين .

ولما كانت التوسعة يكفي فيها التزحزح مع دوام الجلوس تارة وأخرى تدعو الحاجة فيها إلى القيام للتحول من مكان إلى آخر قال : ﴿ وإذا قيل ﴾ أيّ من قائل كان – كما مضى – إذا كان يريد الإصلاح والخير ﴿ انشزوا ﴾ أي ارتفعوا وانهضوا إلى الموضع الذي تؤمرون به أو يقتضيه الحال للتوسعة أو غيرها من الأوامر كالصلاة أو الجهاد وغيرهما ﴿ فانشزوا ﴾ أي فارتفعوا وانهضوا ﴿ يرفع الله ﴾ الذي له جميع صفات الكمال ، عبر بالجلالة وأعاد إظهارها موضع الضمير ترغيباً في الامتثال لما للنفس من الشح بما يخالف المألوف ﴿ الذين آمنوا ﴾ وإن كانوا غير علماء ﴿ منكم ﴾ أيها المأمورون بالتفسح السامعون للأوامر ، المبادرون إليها في الدنيا والآخرة بالنصر وحسن الذكر بالتمكن في وصف الإيمان الموجب لعلو الشأن بطاعتهم لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سعة صدورهم بتوسعتهم لإخوانهم .

ولما كان المؤمن قد لا يكون من المشهورين بالعلم قال : ﴿ والذين ﴾ ولما كان العلم في نفسه

كافياً في الإعلاء من غير نظر إلى مؤت معين ، بنى للمفعول قوله : ﴿ أوتوا العلم ﴾ أي وهم مؤمنون ﴿ درجات ﴾ درجة بامتثال الأمر وأخرى بالإيمان ، ودرجة بفضل علمهم وسابقتهم – روى الطبراني وأبو نعيم في كتاب العلم عن ابن عباس .رضى الله عنهما .أن النبي .صلى الله عليه وسلم .قال : " من جاءه أجله وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام لم يفضله النبيون إلا بدرجة واحدة " ، رواه الدارمي وابن السني في رياضة المتعلمين عن الحسن غير منسوب ، قال شيخنا : فقيل : هو البصري فيكون مرسلاً ، وعن الزبير : العلم ذكر فلا يحبه إلا ذكور الرجال .

(32/752)

وكلما كان الإنسان أعلم كان أذكر ، ولعله ترك التقييد ب " من " في هذا وإن كانت مرادة ليفهم أن العلم يعلي صاحبه مطلقاً ، فإن كان مؤمناً عاملاً بعلمه كان النهاية ، وإن كان عاصياً كان أرفع من مؤمن عاص وعار عن العلم ، وإن كان كافراً كانت رفعته دنيوية بالنسبة إلى كافر لا يعلم ، ودل على ذلك بختم الآية بقوله مرغباً مرهباً : ﴿ والله ﴾ أي والحال أن المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ بما تعملون ﴾ أي حال الأمر وغيره ﴿ خبير ﴾ أي عالم بظاهره وباطنه ، فإن كان العلم مزيناً بالعمل بامتثال الأوامر واجتناب

النواهي وتصفية الباطن كانت الرفعة على حسبه ، وإن كان على غير ذلك فكذلك ، وقدم الجار ومدخوله وإن كان علمه سبحانه بالأشياء كلها على حد سواء تنبيهاً على مزيد الاعتناء بالأعمال ، لا سيما الباطنة من الإيمان والعلم اللذين هما الروح الأعظم ، لأن المقام لنزول الإنسان عن مكانه بالتفسح والانخفاض والارتفاع ، ولا يخفى ما في ذلك من حظ النفس الحامل على الجري مع الدسائس ، فكان جديراً بمزيد الترهيب ، وسبب الآية أن أهل العلم لما كانوا أحق بصدر المجلس لأنهم أوعى لما يقول صاحب المجلس ، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول : " ليليني أولو الأحلام منكم والنهى " ، وكان -صلى الله عليه وسلم- يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء أناس من أهل بدر منهم ثابت بن قيس بن شماس وقد سبق غيرهم إلى المجلس فقاموا حيال النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم سلموا على القوم فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفعلوا فقال لمن حوله من غير أهل بدر : قم يا فلان وأنت يا فلان ، فأقام من المجلس بقدر القادمين من أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم ، وعرف النبي -صلى الله عليه وسلم- الكراهية في وجوههم ، فقال المنافقون : ألستم تزعمون أن صاحبكم يعدل

، فوالله ما عدل على هؤلاء ، إن قوماً أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه مكانهم ، فأنزل الله هذه الآية ، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : " لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن افسحوا يفسح الله لكم " رواه مسلم عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ ، وقال الحسن : بلغني أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا قاتل المشركين فصف أصحابه ـ رضى الله عنه ـ م للقتال تشاحوا على الصف الأول فيقول الرجل لإخوانه : توسعوا لنلقى العدو فنصيب الشهادة ، فلا يوسعون له رغبة منهم في الجهاد والشهادة ، فأنزل الله هذه الآية ، وهي دالة على أن الصالح إن كره مجاورة فاسق منع من مجاورته لأنه يؤذيه ويشغله عن كثير من مهماته ، وقد قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

" لا ضرر ولا ضرار " وقال : " أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول " وقال : " شر الناس من لا يأمن جاره بوائقه " فقال تعالى معظماً لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وناهياً عن إبرامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسؤال والمناجاة ، ونافعاً للفقراء والتمييز بين المخلص والمنافق ومحب الآخرة ومحب الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 495 ـ 498 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي المجالس فافسحوا يَفْسَحِ الله لَكُمْ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما نهى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض والتنافر ، أمرهم الآن بما يصير سبباً لزيادة المحبة والمودة ، وقوله : ﴿ تَفَسَّحُواْ فِي المجالس ﴾ توسعوا فيه وليفسح بعضكم عن بعض ، من قولهم : افسح عني ، أي تنح ، ولا تتضاموا ، يقال : بلدة فسيحة ، ومفازة فسيحة ، ولك فيه فسحة ، أي سعة .

المسألة الثانية :

قرأ الحسن وداود بن أبي هند : (تفاسحوا) ، قال ابن جني : هذا لائق بالغرض لأنه إذا قيل : (تفسحوا) ، فمعناه ليكن هناك تفسح ، وأما التفاسح فتفاعل ، والمراد ههنا

المفاعلة ، فإنها تكون لما فوق الواحد كالمقاسمة والمكايلة ، وقرىء : ﴿فِي المجلسِ﴾ قال الواحدي : والوجه التوحيد لأن المراد مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وهو واحد ، ووجه الجمع أن يجعل لكل جالس مجلس على حدة ، أي موضع جلوس .

المسألة الثالثة :

(35/752)

ذكروا في الآية أقوالاً : الأول : أن المراد مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتضامون فيه تنافساً على القرب منه ، وحرصاً على استماع كلامه ، وعلى هذا القول ذكروا في سبب النزول وجوهاً الأول : قال مقاتل بن حيان : كان عليه السلام يوم الجمعة في الصفة ، وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر ، وقد سبقوا إلى المجلس ، فقاموا حيال النبي صلى الله عليه وسلم ينتظرون أن يوسع لهم ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحملهم على القيام وشق ذلك على الرسول ، فقال لمن حوله من غير أهل بدر : قم يا فلان ، قم يا فلان ، فلم يزل يقيم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه ، وشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، وعرفت الكراهية في وجوههم ، وطعن المنافقون في ذلك ، وقالوا : والله ما عدل على هؤلاء ، إن قوماً أخذوا

مجالسهم ، وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه ، فنزلت هذه الآية يوم الجمعة الثاني : روي عن ابن عباس أنه قال : نزلت هذه الآية في ثابت بن قيس بن الشماس ، وذلك أنه دخل المسجد وقد أخذ القوم مجالسهم ، وكان يريد القرب من الرسول عليه الصلاة والسلام للوقر الذي كان في أذنيه فوسعوا له حتى قرب ، ثم ضايقه بعضهم وجرى بينه وبينه كلام ، ووصف للرسول محبة القرب منه ليسمع كلامه ، وإن فلاناً لم يفسح له ، فنزلت هذه الآية ، وأمر القوم بأن يوسعوا ولا يقوم أحد لأحد ، الثالث : أنهم كانوا يحبون القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الرجل منهم يكره أن يضيق عليه فربما سأله أخوه أن يفسح له فيأبى فأمرهم الله تعالى بأن يتعاطفوا ويتحملوا المكروه وكان فيهم من يكره أن يمسه الفقراء ، وكان أهل الصفة يلبسون الصوف ولهم روائح ، القول الثاني : وهو اختيار الحسن أن المراد تفسحوا في مجالس القتال ، وهو كقوله :

﴿ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [آل عمران : 121] وكان الرجل يأتي الصف فيقول تفسحوا ، فيأبون لحرصهم على الشهادة والقول الثالث : أن المراد جميع المجالس والمجامع ، قال القاضي : والأقرب أن المراد ، منه مجلس الرسول عليه السلام ، لأنه تعالى ذكر المجلس على

وجه يقتضي كونه معهوداً ، والمعهود في زمان نزول الآية ليس إلا مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يعظم التنافس عليه ، ومعلوم أن للقرب منه مزية عظيمة لما فيه من سماع حديثه ، ولما فيه من المنزلة ، ولذلك قال عليه السلام : " ليليني منكم أولو الأحلام والنهى " ولذلك كان يقدم الأفاضل من أصحابه ، وكانوا لكثرتهم يتضايقون ، فأمروا بالتفسح إذا أمكن ، لأن ذلك أدخل في التحبب ، وفي الاشتراك في سماع ما لا بد منه في الدين ، وإذا صح ذلك في مجلسه ، فحال الجهاد ينبغي أن يكون مثله ، بل ربما كان أولى ، لأن الشديد البأس قد يكون متأخراً عن الصف الأول ، والحاجة إلى تقدمه ماسة فلا بد من التفسح ، ثم يقاس على هذا سائر مجالس العلم والذكر .

أما قوله تعالى : ﴿ يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ ﴾ فهو مطلق في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة .

واعلم أن هذه الآية دلت على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة ، وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة ، ولا ينبغي للعاقل أن يقيد الآية بالتفسح في المجلس ، بل المراد منه إيصال الخير إلى المسلم ، وإدخال السرور في قلبه ، ولذلك قال عليه السلام : " لا يزال الله في عون العبد ما زال العبد في عون أخيه المسلم "

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم

درجات والله بما تعملون خبير ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(37/752)

قال ابن عباس : إذا قيل لكم : ارتفعوا فارتفعوا ، واللفظ يحتمل وجوهاً أحدها : إذا قيل لكم : قوموا للتوسعة على الداخل ، فقوموا وثانيها : إذا قيل : قوموا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تطولوا في الكلام ، فقوموا ولا تركزوا معه ، كما قال : ﴿ وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النبي ﴾ [الأحزاب : 53] وهو قول الزجاج وثالثها : إذا قيل لكم : قوموا إلى الصلاة والجهاد وأعمال الخير وتأهبوا له ، فاشتغلوا به وتأهبوا له ، ولا تتثاقلوا فيه ، قال الضحاك وابن زيد : إن قوماً تثاقلوا عن الصلاة ، فأمروا بالقيام لها إذا نودي .

المسألة الثانية :

قرىء : ﴿ انشزوا ﴾ بكسر الشين وبضمها ، وهما لغتان مثل : ﴿ يَعْكُفُونَ ﴾ و ﴿ يَعْكُفُونَ ﴾ [الأعراف : 138] ، و ﴿ يَعْرِشُونَ ﴾ و ﴿ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف : 137] .

واعلم أنه تعالى لما نهاهم أولاً عن بعض الأشياء ، ثم أمرهم ثانياً ببعض الأشياء وعدهم على الطاعات ، فقال : ﴿ يَرْفَعِ الله الذين ءامَنُواْ مِنكُمْ والذين أُوتُواْ العلم درجات ﴾ أي يرفع الله المؤمنين بامتثال أوامر رسوله ، والعالمين منهم خاصة درجات ، ثم في المراد من هذه الرفعة قولان : الأول : وهو القول النادر : أن المراد به الرفعة في مجلس الرسول عليه السلام والثاني : وهو القول المشهور : أن المراد منه الرفعة في درجات الثواب ، ومراتب الرضوان .

(38/752)

واعلم أنا أطنبنا في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأسماء كُلَّهَا ﴾ [البقرة : 31] في فضيلة العلم ، وقال القاضي : لا شبهة أن علم العالم يقتضي لطاعته من المنزلة ما لا يحصل للمؤمن ، ولذلك فإنه يقتدي بالعلم في كل أفعاله ، ولا يقتدي بغير العالم ، لأنه يعلم من كيفية الاحتراز عن الحرام والشبهات ، ومحاسبة النفس ما لا يعرفه الغير ، ويعلم من كيفية الخشوع والتذلل في العبادة ما لا يعرفه غيره ، ويعلم من كيفية التوبة وأوقاتها وصفاتها ما لا يعرفه غيره ، ويتحفظ فيما يلزمه من الحقوق ما لا يتحفظ منه غيره ، وفي الوجوه كثرة ، لكنه كما تعظم منزلة أفعاله من الطاعات في درجة الثواب ، فكذلك يعظم عقابه فيما يأتيه من الذنوب ،

لمكان علمه حتى لا يمتنع في كثير من صغائر غيره أن يكون كبيراً منه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 233 . 235 ﴾

(39/752)

وقال القرطبى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي المجالس ﴾ لما بيّن أن اليهود يحيّونه بما لم يحيِّه به الله وذمهم على ذلك وصل به الأمر بتحسين الأدب في مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لا يضيقوا عليه المجلس ، وأمر المسلمين بالتعاطف والتآلف حتى يفسح بعضهم لبعضٍ ، حتى يتمكنوا من الاستماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم والنظر إليه .

قال قتادة ومجاهد : كانوا يتنافسون في مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأُمِروا أن يفسح بعضهم لبعض .

وقاله الضحاك .

وقال ابن عباس : المراد بذلك مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب .

قال الحسن ويزيد بن أبي حبيب : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الأوّل فلا يوسع بعضهم لبعض ؛ رغبةً في القتال والشهادة فنزلت .

فيكون كقوله : ﴿ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [آل عمران : 121] .

وقال مقاتل : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم في الصُّفَّة ، وكان في المكان ضيق يوم الجمعة ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ؛ فجاء أناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس بن شماس وقد سُبِقوا في المجلس ، فقاموا حيال النبيّ صلى الله عليه وسلم على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم ، فشقّ ذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لمن حوله من غير أهل بدر : " قم يا فلان وأنت يا فلان " بعدد القائمين من أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم ، وعرف النبيّ صلى الله عليه وسلم الكراهية في وجوههم ، فغمز المنافقون وتكلموا بأن قالوا : ما أنصف هؤلاء وقد أحبوا القرب من نبيّهم فسبقوا إلى المكان ؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

﴿ تَفَسَّحُوا ﴾ أي توسعوا .

وفَسَحَ فلان لأخيه في مجلسه يَفْسَح فَسْحاً أي وسع له ؛ ومنه قولهم : بلد فَسِيح ولك في كذا فُسْحة ، وفَسَحَ يَفْسَح مثل منع يَمْنَع ، أي وسّع في المجلس ؛ وفَسُح يَفْسُح فَسَاحةً مثل كَرُم يَكْرُم كرامةً أي صار واسعاً ؛ ومنه مكان فسيح .

الثانية : قرأ السُّلَمي وزِرّ بن حُبَيش وعاصم "فِي الْمَجَالِسِ" .

وقرأ قتادة وداود بن أبي هند والحسن باختلاف عنه "إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَاسَحُوا" الباقون "تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ" فمن جمع فلأن قوله : ﴿ تَفَسَّحُوا فِي المجالس ﴾ ينبىء أن لكل واحد مجلساً .

وكذلك إن أريد به الحرب .

وكذلك يجوز أن يراد مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم وجمع لأن لكل جالس مجلساً .

وكذلك يجوز إن أريد بالمجلس المفرد مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن يراد به الجمع على مذهب الجنس ؛ كقولهم : كثر الدينار والدرهم .

قلت : الصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر ، سواء كان مجلس حربٍ أو ذكر أو مجلس يوم الجمعة ؛ فإن كل واحد أحقّ بمكانه الذي سبق إليه قال صلى الله عليه وسلم :

"من سَبَق إلى ما لم يُسبق إليه فهو أحّق به" ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذّ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه .

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يُقِيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه " وعنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر ، ولكن تفسحوا وتوسعوا .

وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه .

لفظ البخاري .

الثالثة : إذا قعد واحد من الناس في موضع من المسجد لا يجوز لغيره أن يقيمه حتى يقعد مكانه ؛ لما روى مسلم عن أبي الزبير عن جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقيمنّ أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيه ولكن يقول افسحوا " .

(41/752)

فرع : القاعد في المكان إذا قام حتى يقعد غيره موضعه نُظِر ؛ فإن كان الموضع الذي قام إليه مثل الأوّل في سماع كلام الإمام لم يكره له ذلك ، وإن كان أبعد من الإمام كره له ذلك ؛ لأن فيه تفويت حظّه .

الرابعة : إذا أمر إنسان إنساناً أن يبكر إلى الجامع فيأخذ له مكاناً يقعد فيه لا يكره ، فإذا جاء الآمر يقوم من الموضع ؛ لما روي : أن ابن سيرين كان يرسل غلامه إلى مجلس له في يوم

الجمعة فيجلس له فيه ، فإذا جاء قام له منه .

فرع : وعلى هذا من أرسل بساطاً أو سجادةً فتُبسط له في موضع من المسجد .

الخامسة : روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قام أحدكم وفي حديث أبي عوانة من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به " قال علماؤنا : هذا يدل على صحة القول بوجوب اختصاص الجالس بموضعه إلى أن يقوم منه ؛ لأنه إذا كان أولى به بعد قيامه فقبله أولى به وأحرى .

وقد قيل : إن ذلك على الندب ؛ لأنه موضع غير متملَّك لأحد لا قبل الجلوس ولا بعده .

وهذا فيه نظر ؛ وهو أن يقال : سلمنا أنه غير متملك لكنه يختص به إلى أن يفرغ غرضه منه ، فصار كأنه يملك منفعته ؛ إذ قد منع غيره من يزاحمه عليه .

والله أعلم .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ ﴾ أي في قبوركم .

وقيل : في قلوبكم .

وقيل : يوسّع عليكم في الدنيا والآخرة .

﴿ وَإِذَا قِيلَ انشزوا فَانشُزُواْ ﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم بضم الشين فيهما .

وكسر الباقون ، وهما لغتان مثل ﴿ يَعْكُفُونَ ﴾ [الأعراف : 138] و ﴿ يَعْرُشُونَ ﴾ [الأعراف : 137] والمعنى انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير ؛ قاله أكثر

المفسرين .

وقال مجاهد والضحاك : إذا نودي للصلاة فقوموا إليها .

وذلك أن رجالاً تثاقلوا عن الصلاة فنزلت .

وقال الحسن ومجاهد أيضاً : أي انهضوا إلى الحرب .

(42/752)

وقال ابن زيد : هذا في بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، كان كل رجل منهم يحبّ أن يكون آخر عهده بالنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشزوا ﴾ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ فَانْشُزُوا ﴾ فإنه له حوائج فلا تمكثوا .

وقال قتادة : المعنى أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف .

وهذا هو الصحيح ؛ لأنه يعم .

والنشز الارتفاع ، مأخوذ من نشز الأرض وهو ارتفاعها ؛ يقال نَشَزَ يَنشُزُ ويَنْشِز إذا انتحى من موضعه ؛ أي ارتفع منه .

وامرأة ناشز منتحية عن زوجها .

وأصل هذا من النّشَز ، والنّشز هو ما ارتفع من الأرض وتنحى ؛ ذكره النحاس .

السابعة: قوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الذين آمَنُواْ مِنكُمْ والذين أُوتُواْ العلم دَرَجَاتٍ ﴾ أي في الثواب في الآخرة وفي الكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم.

وقال ابن مسعود: مدح الله العلماء في هذه الآية.

والمعنى أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم "دَرَجَاتٍ" أي درجات في دينهم إذا فعلوا ما أُمِروا به.

وقيل: كان أهل الغنى يكرهون أن يزاحمهم من يلبس الصوف فيَسْتَبِقون إلى مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم فالخطاب لهم.

" ورأى عليه الصلاة والسلام رجلاً من الأغنياء يقبض ثوبه نفوراً من بعض الفقراء أراد أن يجلس إليه فقال: "يا فلان خشيتَ أن يتعدّى غناكَ إليه أو فقره إليك" " وبين في هذه الآية أن الرفعة عند الله تعالى بالعلم والإيمان لا بالسبق إلى صدور المجالس.

وقيل: أراد بالذين أوتوا العلم الذين قرؤوا القرآن.

وقال يحيى بن يحيى عن مالك: ﴿ يَرْفَعِ الذين آمَنُواْ مِنكُمْ ﴾ الصحابة ﴿ والذين أُوتُواْ العلم دَرَجَاتٍ ﴾ يرفع الله بها العالم والطالب للحق.

قلت: والعموم أوقع في المسألة وأولى بمعنى الآية؛ فيرفع المؤمن بإيمانه أولاً ثم بعلمه ثانياً.

وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقدّم عبد الله بن عباس على الصحابة ، فكلموه في ذلك فدعاهم ودعاه ، وسألهم عن تفسير ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ [النصر : 1] فسكتوا ، فقال ابن عباس : هو أَجَلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله إياه .

فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم .

وفي البخاري عن عبد الله بن عباس قال : قدم عُيَينة بن حصن بن حذيفة بن بدرٍ فنزل على ابن أخيه الحُرِّ بن قيس بن حصن ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ، وكان القرّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً .

الحديثَ وقد مضى في آخر "الأعراف" .

وفي صحيح مسلم أن نافع بن عبد الحرث لقي عمر بِعُسْفَان وكان عمر يستعمله على مكة فقال : من استعملته على أهل الوادي ؟ فقال : ابن أبزى .

فقال : ومن ابن أبزى ؟ قال : مَوْلًى من موالينا .

قال : فاستخلفتَ عليهم مولى قال : إنه قارىء لكتاب الله وإنه عالم بالفرائض .

قال عمر : أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال : " إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين " وقد مضى أول الكتاب .

ومضى القول في فضل العلم والعلماء في غير موضع من هذا الكتاب (والحمد لله) .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حَضْر الجواد المُضمَّر سبعين سنة " وعنه صلى الله عليه وسلم : " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب " وعنه عليه الصلاة والسلام : " يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء " فأعظم بمنزلة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن ابن عباس : خُيِّر سليمان عليه السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطي المال والملك معه . انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(44/752)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾

نزلت ﴿ ألم تر ﴾ في اليهود والمنافقين .

كانوا يتناجون دون المؤمنين ، وينظرون إليهم ويتغامزون بأعينهم عليهم ، موهمين المؤمنين من أقربائهم أنهم أصابهم شر ، فلا يزالون كذلك حتى يقدم أقرباؤهم .

فلما كثر ذلك منهم ، شكا المؤمنون إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المؤمنين ، فلم ينتهوا ، فنزلت ، قاله ابن عباس .

وقال مجاهد : نزلت في اليهود .

وقال ابن السائب : في المنافقين .

وقرأ الجمهور : ﴿ ويتناجون ﴾ ؛ وحمزة وطلحة والأعمش ويحيى بن وثاب ورويس : وينتجون مضارع انتجى .

﴿ بما لم يحيك به الله ﴾ : كانوا يقولون : السام عليك ، وهو الموت ؛ فيرد عليهم : وعليكم .

وتحية الله لأنبيائه : ﴿ وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ ﴿ لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ : أي إن كان نبياً ، فما له لا يدعو علينا حتى نعذب بما نقول ؟ فقال تعالى : ﴿ حسبهم جهنم ﴾ .

ثم نهى المؤمنين أن يكون تناجيهم مثل تناجي الكفار ، وبدأ بالإثم لعمومه ، ثم بالعدوان لعظمته في النفوس ، إذ هي ظلامات العباد .

ثم ترقى إلى ما هو أعظم ، وهو معصية الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفي هذا طعن على المنافقين ، إذ كان تناجيهم في ذلك .

وقرأ الجمهور : ﴿ فلا تتناجوا ﴾ ، وأدغم ابن محيصن التاء في التاء .

وقرأ الكوفيون والأعمش وأبو حيوة ورويس : فلا تنتجوا مضارع انتجى ؛ والجمهور : بضم عين العدوان ؛ وأبو حيوة بكسرها حيث وقع ؛ والضحاك : ومعصيات الرسول على الجمع .

والجمهور : على الإفراد .

وقرأ عبد الله : إذا انتجيتم فلا تنتجوا .

وأل في ﴿ إنما النجوى ﴾ للعهد في نجوى الكفار ﴿ بالإثم والعدوان ﴾ ، وكونها ﴿ من الشيطان ﴾ ، لأنه هو الذي يزينها لهم ، فكأنها منه .

(45/752)

﴿ ليحزن الذين آمنوا ﴾ : كانوا يوهمون المؤمنين أن غزاتهم غلبوا وأن أقاربهم قتلوا .

﴿ وليس ﴾ : أي التناجي أو الشيطان أو الحزن ، ﴿ بضارهم ﴾ : أي المؤمنين ، ﴿ إلا بإذن الله ﴾ : أي بمشيئته ، فيقضي بالقتل أو الغلبة .

وقال ابن زيد : هي نجوى قوم من المسلمين يقصدون مناجاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وليس لهم حاجة ولا ضرورة .

يريدون التبجح بذلك ، فيظن المسلمون أن ذلك في أخبار بعد وقاصداً نحوه .

وقال عطية العوفي : نزلت في المناجاة التي يراها المؤمن في النوم تسوءه ، فكأنه نجوى يناجي بها . انتهى .

ولا يناسب هذا القول ما قبل الآية ولا ما بعدها ، وتقدمت القراءتان في نحو : ﴿ ليحزن ﴾ .

وقرىء : بفتح الياء والزاي ، فيكون ﴿ الذين ﴾ فاعلاً ، وفي القراءتين مفعولاً .

ولما نهى تعالى المؤمنين عن ما هو سبب للتباغض والتنافر ، أمرهم بما هو سبب للتواد والتقارب ، فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ الآية .

قال مجاهد وقتادة والضحاك : كانوا يتنافسون في مجلس الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض .

وقال ابن عباس : المراد مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب .

وقال الحسن ويزيد بن أبي حبيب : كان الصحابة يتشاحون على الصف الأول ، فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة في الشهادة ، فنزلت .

وقرأ الجمهور : ﴿ تفسحوا ﴾ ؛ وداود بن أبي هند وقتادة وعيسى : تفاسحوا .

والجمهور : في المجلس ؛ وعاصم وقتادة وعيسى : ﴿ في المجالس ﴾ .

وقرىء : في المجلس بفتح اللام ، وهو الجلوس ، أي توسعوا في جلوسكم ولا تتضايقوا فيه .

والظاهر أن الحكم مطرد في المجالس التي للطاعات ، وإن كان السبب مجلس الرسول .

وقيل : الآية مخصوصة بمجلس الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكذا مجالس العلم ؛ ويؤيده قراءة من قرأ ﴿ في المجالس ﴾ ، ويتأول الجمع على أن لكل أحد مجلساً في بيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

(46/752)

والجزم ﴿ يفسح الله ﴾ على جواب الأمر في رحمته ، أو في منازلكم في الجنة ، أو في قبوركم ، أو في قلوبكم ، أو في الدنيا والآخرة ، أقوال .

﴿ وإذا قيل انشزوا ﴾ : أي انهضوا في المجلس للتفسح ، لأن مريد التوسعة على الوارد يرتفع إلى فوق فيتسع الموضع .

أمروا أولاً بالتفسح ، ثم ثانياً بامتثال الأمر فيه إذا ائتمروا .

وقال الحسن وقتادة والضحاك : معناه : إذا دعوا إلى قتال وصلاة أو طاعة نهضوا .

وقيل : إذا دعوا إلى القيام عن مجلس الرسول (صلى الله عليه وسلم) نهضوا ، إذ كان عليه الصلاة والسلام أحياناً يؤثر الانفراد في أمر الإسلام .

وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج وابن عامر ونافع وحفص : بضم السين في اللفظين ؛ والحسن والأعمش وطلحة وباقي السبعة : بكسرها .

والظاهر أن قوله : ﴿ والذين أوتوا العلم ﴾ معطوف على ﴿ الذين آمنوا ﴾ ، والعطف مشعر بالتغاير ، وهو من عطف الصفات ، والمعنى : يرفع الله المؤمنين العلماء درجات ، فالوصفان لذات واحدة .

وقال ابن مسعود وغيره : تم الكلام عند قوله : ﴿ منكم ﴾ ، وانتصب ﴿ والذين أوتوا العلم ﴾ بفعل مضمر تقديره : ويخص الذين أوتوا العلم درجات ، فللمؤمنين رفع ، وللعلماء درجات .

وقرأ عياش عن أبي عمرو خبير : بما يعملون بالياء من تحت ، والجمهور بالتاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(47/752)

وقال الآلوسى :

ولما نهى سبحانه عن التناجي والسرار علم منه الجلوس مع الملأ فذكر جل وعلا آدابه بعده بقوله عز من قائل :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى المجالس ﴾ الخ

ولما نهى عز وجل عما هو سبب للتباغض والتنافر أمر سبحانه بما هو سبب لتواد

والتوافق أي إذا قال لكم قائل كائناً من كان : توسعوا فليفسح بعضكم عن بعض في المجالس ولا تتضاموا فيها ، من قولهم : افسح عني أي تنح ، والظاهر تعلق ﴿ المجالس ﴾ بتفسحوا ، وقيل : متعلق بقيل .

وقرأ الحسن .

وداود بن أبي هند .

وقتادة .

وعيسى تفاسحوا وقرأ الأخيران .

(48/752)

وعاصم في المجالس ، والجمهور في المجلس بالإفراد ، فقيل : على إرادة الجنس لقراءة الجمع ، وقيل : على إرادة العهد ، والمراد به مجلسه صلى الله عليه وسلم ، والجمع لتعدده باعتبار من يجلس معه عليه الصلاة والسلام فإن لكل أحد منهم مجلساً ، وفي أخبار سبب النزول ما يؤيد كلا ، أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان "كان صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة في الصفة وفي المكان ضيق وكان عليه الصلاة والسلام يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار فجاء ناس من أهل بدر منهم ثابت بن قيس بن شماس وقد سبقوا إلى المجالس

فقاموا حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته فرد النبي صلى الله عليه وسلم ثم سلم على القوم فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لبعض من حوله : قم يا فلان ويا فلان فأقام نفراً مقدار من قدم فشق ذلك عليهم وعرفت كراهيته وفي جوههم ، وقال المنافقون : ما عدل بإقامة من أخد مجلسه وأحب قربه لمن تأخر عن الحضور فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ "الخ ، وكان ذلك ممن لم يفسح تنافساً في القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ورغبة فيه ولا تكاد نفس تؤثر غيرها بذلك .

وقال الحسن .

(49/752)

ويزيد بن أبي حبيب : كان الصحابة يتشاحون في مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة في الشهادة فنزلت ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ الخ ، والأكثرون على أنها نزلت لما كان عليه المؤمنون من التضام في مجلسه صلى الله عليه وسلم والضنة بالقرب منه وترك التفسح لمقبل ؛ وأياً ما كان فالحكم مطرد في مجلسه عليه الصلاة والسلام

ومصاف القتال وغير ذلك ، وقرئ في المجلس بفتح اللام ، فإما أن يراد به ما أريد بالمكسور والفتح شاذ في الاستعمال ، وإما أن يراد به المصدر ، والجار متعلق بتفسحوا أي إذا قيل لكم توسعوا في جلوسكم ولا تضايقوا فيه ﴿ فافسحوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ ﴾ أي في رحمته .

أو في منازلكم في الجنة .

أو في قبوركم .

أو في صدوركم .

أو في رزقكم أقوال .

وقال بعضهم : المراد يفسح سبحانه لكم في كل ما تريدون الفسح فيه أي مما ذكر وغيره ، وأنت تعلم أن الفسح يختلف المراد منه باختلاف متعلقاته كالمنازل والرزق والصدر فلا تغفل ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشزوا ﴾ أي انهضوا للتوسعة على المقبلين ﴿ فَانشُزُواْ ﴾ فانهضوا ولا تتثبطوا ، وأصله من النشز وهو المرتفع من الأرض فإن مريد التوسعة على المقبل يرتفع إلى فوق فيتسع الموضع ، أو لأن النهوض نفسه ارتفاع قال الحسن .

وقتادة .

والضحاك : المعنى إذا دعيتم إلى قتال أو صلاة أو طاعة فأجيبوا ، وقيل : إذا دعيتم إلى القيام عن مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فقوموا ، وهذا لأنه عليه الصلاة والسلام كان يؤثر أحياناً الانفراد في أمر الإسلام أو لأداء وظائف تخصه صلى الله عليه وسلم لا تتأتى أو

لا تكمل بدون الانفراد ، وعمم الحكم فقيل : إذا قال صاحب مجلس لمن في مجلسه : قوموا ينبغي أن يجاب ، وفعل ذلك لحاجة إذا لم يترتب عليه مفسدة أعظم منها مما لا نزاع في جوازه ، نعم لا ينبغي لقادم أن يقيم أحداً ليجلس في مجلسه ، فقد أخرج مالك .

والبخاري .

ومسلم .

(50/752)

والترمذي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ولكن تفسحوا وتوسعوا " .

وقرأ الحسن .

والأعمش .

وطلحة .

وجمع من السبعة انشزوا فانشزوا بكسر الشين منهما .

﴿ يَرْفَعِ الله الذين ءامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ جواب الأمر كأنه قيل : إن تنشزوا يرفع عز وجل المؤمنين منكم في الآخرة جزاءاً للامتثال ﴿ والذين أُوتُواْ العلم ﴾ الشرعي ﴿ درجات

﴿ أي كثيرة جليلة كما يشعر به المقام ، وعطف الذين أوتوا العلم على ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ من عطف الخاص على العام تعظيماً لهم بعدّهم كأنهم جنس آخر ، ولذا أعيد الموصول في النظم الكريم ، وقد أخرج الترمذي .

وأبو داود .

والدارمي عن أبي الدرداء مرفوعاً " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب " وأخرج الدارمي عن عمر بن كير عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام فبينه وبين النبيين درجة " وعنه صلى الله عليه وسلم : " بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة " وعنه عليه الصلاة والسلام " يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء .

ثم العلماء .

ثم الشهداء " فأعظم بمرتبة بين النبوة والشهادة بشهادة الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، وعن ابن عباس

" خير سليمان عليه السلام بين العلم والملك والمال فاختار العلم فأعطاه الله تعالى الملك والمال تبعاً له " .

وعن الأحنف "كاد العلماء يكونوا أربابا" وكل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل ما يصير ، وعن بعض الحكماء : ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم ؟ وأي شيء فاته من أدرك العلم ؟ والدال على فضل العلم والعلماء أكثر من أن يحصى ، وأرجى حديث عندي في فضلهم ما رواه الإمام أبو حنيفة في مسنده عن ابن مسعود قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يجمع الله العلماء يوم القيامة فيقول : إني لم أجعل حكمتي في قلوبكم إلا وأنا أريد بكم الخير اذهبوا إلى الجنة فقد غفرت لكم على ما كان منكم " .

وذكر العارف الياس الكوراني أنه أحد الأحاديث المسلسلة بالأولية ، ودلالة الآية على فضلهم ظاهرة بل أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أنه قال : ما خص الله تعالى العلماء في شيء من القرآن ما خصهم في هذه الآية فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم بدرجات وجعل بعضهم العطف عليه للتغاير بالذات بجمل ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم ، وفي رواية أخرى عنه يا أيها الذين آمنوا افهموا معنى هذه الآية ولترغبكم في العلم فإن الله تعالى يرفع المؤمن العالم فوق الذي لا يعلم .

وادعى بعضهم أن في كلامه رضي الله تعالى عنه إشارة إلى أن الذين أوتوا معمول لفعل محذوف والعطف من عطف الجمل أي ويرفع الله تعالى الذي أوتوا العلم خاصة درجات ، ونحوه كلام ابن عباس ، فقد أخرج عنه ابن المنذر .

والبيهقي في المدخل .

والحاكم وصححه أنه قال في الآية : يرفع الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم درجات .

(52/752)

وقال بعض المحققين : لا حاجة إلى تقدير العامل ، والمعنى على ذلك من غير تقدير ، واختار الطيبي التقدير وجعل الدرجات معمولاً لذلك المقدر ، وقال : يضمر للمذكور أحط منه مما يناسب المقام نحو أن يقال : يرفع الله الذين آمنوا في الدنيا بالنصر وحسن الذكر أو يرفعهم في الآخرة بالإيواء إلى ما لا يليق بهم من غرف الجنات ، ويرفع الذين أوتوا العلم درجات تعظيماً لهم ، وجوز كون المراد بالموصولين واحداً والعطف لتنزيل تغاير الصفات بمنزلة تغاير الذات ، فالمعنى يرفع الله المؤمنين العالمين درجات ، وكون العطف من عطف الخاص على العام هو الأظهر ، وفي الانتصاف في الجزاء برفع الدرجات مناسبة للعمل المأمور به وهو التفسح في المجالس وترك ما تنافسوا فيه من الجلوس في أرفعها وأقربها من النبي صلى الله عليه وسلم فلما كان الممتثل لذلك يخفض نفسه عما يتنافس فيه من الرفعة امتثالاً وتواضعاً جوزي على تواضعه برفع الدرجات كقوله :

"من تواضع لله تعالى رفعه الله تعالى" ثم لما علم سبحانه أن أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم خصهم بالذكر عند الجزاء ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة في المجلس تواضعاً لله عز وجل.

وقيل: إنه تعالى خص أهل العلم ليسهل عليهم ترك ما عرفوا بالحرص عليه من رفعة المجالس وحبهم للتصدير، وهذا من مغيبات القرآن لما ظهر من هؤلاء في سائر الاعصار من التنافس في ذلك.

(53/752)

والخفاجي أدرج هذا في نقل كلام صاحب الانتصاف وكلامه على ما سمعته أوفق بالأدب مع أهل العلم، ولا أظن بالذين أوتوا العلم المذكورين في الآية أنهم كالعلماء الذين عرّض بهم الخفاجي، نعم إنه عليه الرحمة صادق فيما قال بالنسبة إلى كثير من علماء رخر الزمان كعلماء "زمانه وكعلماء زماننا لكن كثير من هؤلاء إطلاق اسم العالم على أحدهم مجاز لا تعرف علاقته، ومع ذلك قد امتلأ قلبه من حب الصدر وجعل يزاحم العلماء حقيقة عليه ولم يدر أن محله لو أنصف العجز، هذا واستدل غير واحد بالآية على تقديم العالم ولو بأهلياً على الجاهل ولو هاشمياً شيخاً، وهو بناء على ما تقدم من معناها لدلالتها على

فضل العالم على غيره من المؤمنين وأن الله تعالى يرفعه يوم القيامة عليه ، ويجعل منزلته فوق منزلته فينبغي أن يكون محله في مجالس الدنيا فوق محل الجاهل .

وقال الجلال السيوطي في كتاب الأحكام قال قوم : معنى الآية يرفع الله تعالى المؤمنين العلماء منكم درجات على غيرهم فلذلك أمر بالتفسح من أجلهم ، ففيه دليل على رفع العلماء في المجالس والتفسح لهم عن المجالس الرفيعة انتهى .

وهذا المعنى الذي نقله ظاهر في أن المعاطفين متحدان بالذات والعطف لجعل تغاير الصفات بمنزلة تغاير الذات وهو احتمال بعيد ، ويظهر منه يضاً أنه ظن رفع يرفع على أن الجملة استئناف وقع جواباً عن السؤال عن علة الأمر السابق مع أن الأمر ليس كذلك ، ويحتمل أنه علم مجزوم في جواب الأمر لكن لم يعتبر كون الرفع درجات جزاءه الامتثال على نحو كون الفسح قبله جزاءه فتأمله ﴿ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ تهديد لمن لم يمتثل بالأمر واستكره ، وقرىء بما يعملون بالياء التحتانية . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعاني حـ 28 صـ ﴾

(54/752)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا ﴾

فصل بين آيات الأحكام المتعلقة بالنجوى بهذه الآية مراعاة لاتحاد الموضوع بين مضمون هذه الآية ومضمون التي بعدها في أنهما يجمعهما غرض التأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم وتلك المراعاة أولى من مراعاة اتحاد سياق الأحكام.

ففي هذه الآية أدب في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم والآية التي بعدها تتعلق بالأدب في مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخرت تلك عن آيات النجوى العامة إيذاناً بفضلها دون النجوى التي تضمنتها الآيات السابقة ، فاتحاد الجنس في النجوى هو مسوغ الانتقال من النوع الأول إلى النوع الثاني ، والإيماءُ إلى تميزها بالفضل هو الذي اقتضى الفصل بين النوعين بآية أدب المجلس النبوي .

وأيضاً قد كان للمنافقين نية مكر في قضية المجلس كما كان لهم نية مكر في النجوى ، وهذا مما أنشأ مناسبة الانتقال من الكلام على النجوى إلى ذكر التفسح في المجلس النبوي الشريف .

(55/752)

روي عن مقاتل أنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم في الصُفّة ، وكان في المكان ضيق في يوم الجمعة فجاء ناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس بن شَماس قد سُبقوا في المجلس فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يفسح لهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكرم أهل بدر فقال لمن حوله : قم يا فلان بعَدد الواقفين من أهل بدر فشقّ ذلك على الذين أقيموا ، وغمز المنافقون وقالوا : ما أُنصِف هؤلاء ، وقد أحبّوا القرب من نبيهم فسَبَقوا إلى مجلسه فأنزل الله هذه الآية تطييباً لخاطر الذين أقيموا ، وتعليماً للأمة بواجب رعي فضيلة أصحاب الفضيلة منها ، وواجبِ الاعتراف بمزية أهل المزايا ، قال الله تعالى : ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ [النساء : 32] ، وقال : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى ﴾ [الحديد : 10] .

والخطاب بـ ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ خطاب لجميع المؤمنين يعم من حضروا المجلس الذي وقعت فيه حادثة سبب النزول وغيرَهم ممن عسى أن يحضر مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم

وابتدئت الآية بالأمر بالتفسح لأن إقامة الذين أقيموا إنما كانت لطلب التفسيح فإناطة الحكم إيماء إلى علة الحكم .

والتفسح : التوسع وهو تفعل من فسح له بفتح السين مخففة إذا أوجد له فُسحة في مكان ،

وفسُح المكان من باب كرُم إذا صار فسيحاً .

ومادة التفعل هنا للتكلف ، أي يكلف أن يجعل فسحة في المكان وذلك بمضايقة مع الجُلاّس .

وتعريف ﴿ المجلس ﴾ يجوز أن يكون تعريف العهد ، وهو مجلس النبي صلى الله عليه وسلم أي إذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لكم ذلك لأن أمره لا يكون إلا لمراعاة حق راجح على غيره والمجلس مكان الجلوس .

وكان مجلس النبي صلى الله عليه وسلم بمسجده والأكثر أن يكون جلوسه المكان المسمّى بالروضة وهو ما بين منبر النبي صلى الله عليه وسلم وبيته .

(56/752)

ويجوز أن يكون تعريف ﴿ المجلس ﴾ تعريف الجنس .

وقوله : ﴿ يفسح الله لكم ﴾ مجزوم في جواب قوله : ﴿ فافسحوا ﴾ ، وهو وعد بالجزاء على الامتثال لأمر التفسح من جنس الفعل إذ جعلت توسعة الله على الممتثل جزاءً على امتثاله الذي هو إفساحه لغيره فضمير ﴿ لكم ﴾ عائد على ﴿ الذين آمنوا ﴾ باعتبار أن الذين يفسحون هم من جملة المؤمنين لأن الحكم مشاع بين جميع الأمة وإنما الجزاء للذين

تعلق بهم الأمر تعلقاً إلزامياً .

وحذف متعلق ﴿ يفسح الله لكم ﴾ ليعم كل ما يتطلب الناس الإفساح فيه بحقيقته ومجازه في الدنيا والآخرة من مكان ورزق أو جنة عرضها السماوات والأرض على حسب النيات ، وتقديرُه الجزاء موكول إلى إرادة الله تعالى .

وحذف فاعل القول لظهوره ، أي إذا قال لكم الرسول : تفسحوا فافسحوا ، فإن الله يثيبكم على ذلك .

فالآية لا تدلّ إلاّ على الأمر بالتفسح إذا أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ولكن يستفاد منها أن تفسح المسلمين بعضهم لبعض في المجالس محمود مأمور به وجوباً أو ندباً لأنه من المكارمة والإرفاق .

فهو من مكملات واجب التحابّ بين المسلمين وإن كان فيه كلفة على صاحب البقعة يُضايقه فيها غيره .

فهي كلفة غير معتبرة إذا قوبلت بمصلحة التحابّ وفوائده ، وذلك ما لم يفض إلى شدة مضايقة ومضرة أو إلى تفويت مصلحة من سماع أو نحوه مثل مجالس العلم والحديث وصفوفِ الصلاة .

وذلك قياس على مجلس النبي صلى الله عليه وسلم في أنه مجلس خير .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم " أحبكم إليّ أَلْيَنُكم مناكب في الصلاة " قال مالك : ما أرى الحكم إلا يطرد في مجالس العلم ونحوها غابرَ الدهر .

(57/752)

يريد أن هذا الحكم وإن نزل في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فهو شامل لمجالس المسلمين من مجالس الخير لأن هذا أدب ومؤاساة ، فليس فيه قرينة الخصوصية بالمجالس النبوية ، وأراد مالك ب"نحوها " كل مجلس فيه أمر مهمّ في شؤون الدين فمن حق المسلمين أن يحرصوا على إعانة بعضهم بعضاً على حضوره .

وهذا قياس على مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وعلته هي التعاون على المصالح .

وأفهم لفظ التفسح أنه تجنب للمضايقة والمراصة بحيث يفوت المقصود من حضور ذلك المجلس أو يحصل ألم للجالسين .

وقد أرخص مالك في التخلف عن دعوة الوليمة إذا كثر الزحام فيها .

وقرأ الجمهور { في المجلس } وقرأه عاصم بصيغة الجمع { في المجالس } وعلى كلتا القراءتين يجوز كون اللام للعهد وكونها للجنس وأن يكون المقصود مجالس النبي صلى الله عليه وسلم كلما تكررت أو ما يشمل جميع مجالس المسلمين ، وعلى كلتا القراءتين يصح أن

يكون الأمر في قوله تعالى : ﴿ فافسحوا ﴾ للوجوب أو للندب .

وقوله : ﴿ وإذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾ الآية عطف على ﴿ إذا قيل لكم تفسحوا في المجلس ﴾ .

و﴿ انشزوا ﴾ أمر من نَشَزَ إذا نهض من مكانه يقال : نَشُزَ يَنشِزُ من باب قَعد وضرَب إذا ارتفع لأن النهوض ارتفاع من المكان الذي استقرّ فيه ومنه نشوز المرأة من زوجها مجازاً عن بعدها عن مضجعها .

والنشوز : أخص من التفسيح من وجه فهو من عطف الأخص : من وجهٍ على الأعم منه للاهتمام بالمعطوف لأن القيام من المجلس أقوى من التفسيح من قعود .

فذكر النشوز لئلا يتوهم وأن التفسيح المأمور به تفسيح من قعود لا سيما وقد كان سبب النزول بنشوز ، وهو المقصود من نزول الآية على ذلك القول .

ومن المفسرين من فسر النشوز بمطلق القيام من مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم سواء كان لأجل التفسيح أو لغير ذلك مما يؤمر بالقيام لأجله .

روي عن ابن عباس وقتادة والحسن "إذا قيل انشزوا إلى الخير وإلى الصلاة فانشزوا" .

وقال ابن زيد : إذا قيل انشزوا عن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتفعوا فإن للنبيء صلى الله عليه وسلم حوائج ، وكانوا إذا كانوا في بيته أحبّ كل واحد منهم أن يكون آخر عهده برسول الله صلى الله عليه وسلم وسبب النزول لا يخصص العام ولا يقيد المطلق .

وهذا الحكم إذا عسر التفسيح واشتد الزحام والتراصّ فإن لأصحاب المقاعد الحقّ المستقر في أن يستمرّوا قاعدين لا يقام أحد لغيره وذلك إذا كان المقوّم لأجله أولى بالمكان من الذي أقيم له بسبب من أسباب الأوّلية كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في إقامة نفر لإعطاء مقاعدهم للبدريين .

ومنه أولوية طلبة العلم بمجالس الدرس ، وأولوية الناس في مقاعد المساجد بالسبق ، ونحو ذلك ، فإن لم يكن أحد أولى من غيره فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يقيم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه .

وللرجل أن يرسل إلى المسجد ببساطه أو طنفسته أو سجادته لتبسط له في مكان من المسجد حتى يأتي فيجلس عليها فإن ذلك حوز لذلك المكان في ذلك الوقت .

وكان ابن سيرين يرسل غلامه إلى المسجد يوم الجمعة فيجلس له فيه فإذا جاء ابن سرين قام الغلام له منه .

وفي "الموطأ" عن مالك بن أبي عامر قال : كنت أرى طنفسة لعقيل بن أبي طالب يوم الجمعة

تطرح إلى جدار المسجد الغربي فإذا غشي الطنفسة كلها ظِلُّ الجدار خرج عمر بن الخطاب فصلّى الجمعة.

فالطنفسة ونحوها حوز المكان لصاحب البساط.

فيجوز لأحد أن يأمر أحداً يبكر إلى المسجد فيأخذ مكاناً يقعد فيه حتى إذا جاء الذي أرسل ترك له البقعة لأن ذلك من قبيل النيابة في حوز الحق.

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ﴿ انشزوا فانشزوا ﴾ بضم الشين فيهما.

وقرأه الباقون بكسر الشين.

وهما لغتان في مضارع نشز.

وقوله: ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ جواب الأمر في قوله: ﴿ فانشزوا ﴾ فقد أجمع القراء على جزم فعل ﴿ يرفعْ ﴾ فهو جواب الأمر بهذا.

(59/752)

وعد بالجزاء على الامتثال للأمر الشرعي فيما فيه أمر أو لما يقتضي الأمر من علّة يقاس بها على المأمور به أمثالهُ مما فيه علة الحكم كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ فافسحوا ﴾.

ولما كان النشوز ارتفاعاً عن المكان الذي كان به كان جزاؤه من جنسه.

وتنكير ﴿ درجات ﴾ للإشارة إلى أنواعها من درجات الدنيا ودرجات الآخرة .

وضمير ﴿ منكم ﴾ خطاب للذين نودوا بـ ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ .

و(من) تبعيضية ، أي يرفع الله درجات الذين امتثلوا .

وقرينة هذا التقدير هي جعل الفعل جزاء للأمر فإن الجزاء مسبب عما رتب عليه بقوله :

﴿ منكم ﴾ صفة للذين آمنوا .

أي الذين آمنوا من المؤمنين والتغاير بين معنى الوصف ومعنى الموصوف بتغاير المقدَّر وإن كان لفظ الوصف ولفظ الموصوف مترادفين في الظاهر .

فآل الكلام إلى تقدير : يرفع الله الذين استجابوا للأمر بالنشوز إذا كانوا من المؤمنين ، أي دون من يضمه المجلس من المنافقين .

فكان مقتضى الظاهر أن يقال : يرفع الله الناشزين منكم فاستحضروا بالموصول بصلة الإيمان لما تؤذن به الصلة من الإيماء إلى علة رفع الدرجات لأجل امتثالهم أمرَ القائل ﴿ انشزوا ﴾ وهو الرسول صلى الله عليه وسلم إن كان لإيمانهم وأن ذلك الامتثال من إيمانهم ليس لنفاق أو لصاحبه امتعاض .

وعطف "الذين أوتوا العلم منهم" عطف الخاص على العام لأن غشيان مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو لطلب العلم من مواعظه وتعليمه ، أي والذين أوتوا العلم منكم أيها المؤمنون ، لأن الذين أوتوا العلم قد يكون الأمر لأحد بالقيام من المجلس لأجلهم ، أي لأجل إجلاسهم ، وذلك رفع لدرجاتهم في الدنيا ، ولأنهم إذا تمكنوا من مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم كان تمكنهم أجمع للفهم وأنفى للملل ، وذلك أدعى لإطالتهم الجلوس وازديادهم التلقي وتوفير مستنبطات أفهامهم فيما يلقى إليهم من العلم ، فإقامة الجالسين في المجلس لأجل إجلاس الذين أوتوا العلم من رفع درجاتهم في الدنيا .

ولعل البدريين الذين نزلت الآية بسبب قصتهم كانوا من الصحابة الذين أوتوا العلم .

ويجوز أن بعضاً من الذين أمروا بالقيام كان من أهل العلم فأقيم لأجل رجحان فضيلة البدريين عليه ، فيكون في الوعد للذي أقيم من مكانه برفع الدرجات استئناس له بأن الله رافع درجته .

هذا تأويل نظم الآية الذي اقتضاه قوة إيجازه .

وقد ذهب المفسرون في الإفصاح عن استفادة المعنى من هذا النظم البديع مذاهب كثيرة وما سلكناه أوضح منها .

وانتصب ﴿ درجات ﴾ ، على أنه ظرف مكان يتعلق بـ ﴿ يرفع ﴾ أي : يرفع الله الذين آمنوا رفعاً كائناً في درجات .

ويجوز أن يكون نائباً عن المفعول المطلق ل ﴿ يرفع ﴾ لأنها درجات من الرفع ، أي مرافع .

والدرجات مستعارة للكرامة فإن الرفع في الآية رفعاً مجازياً ، وهو التفضيل والكرامة وجيء للاستعارة بترشيحها بكون الرفع درجات .

وهذا الترشيح هو أيضاً استعارة مثل الترشيح في قوله تعالى : ﴿ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ [الرعد : 25] وهذا أحسن الترشيح .

وقد تقدم نظيره في قوله تعالى في سورة [الأنعام : 83] ﴿ نرفع درجات من نشاء .

(61/752)

﴾ وقال عبد الله بن مسعود وجماعة من أهل التفسير : إن قوله : والذين أوتوا العلم درجات ﴾ كلام مستأنف وتم الكلام عند قوله : ﴿ منكم ﴾ قال ابن عطية : ونصب بفعل مُضمر ولعله يعني : نُصب ﴿ درجات ﴾ بفعل هو الخبر عن المبتدأ ، والتقدير : جعلهم .

وجملة ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ تذييل ، أي الله عليم بأعمالكم ومختلف نياتكم من الامتثال كقول النبي صلى الله عليه وسلم " لا يُكلَمُ أحد في سبيل الله .

والله أعلم بمن يكلَم في سبيله" الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(62/752)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى نشز)

النَشْزُ - بالفتح - والنَشَزُ - بالتحريك - : المكانُ المرتفع ، وجمع النَشْزِ فى القِلَّة أَنْشُز ، مثال فَلْس وأَفْلُس ، قال منظورُ بن حَبَّة :

* كأَنَّه فى الرّمل لمّا حَلَّزَا * أَمارَ مِسْحاه يَشُقّ الأَنْشُزَا *

وجمعُ الكثْرة : نُشُوزٌ مثل : فَلْس وفُلُوس ، وجمع النَّشَزَ : أَنْشاز ونِشازٌ مثل : جَبَلٍ وأَجْبال وجبال .

وأَمّا النَّشاز بالفتح فهو المكان المرتفع .

ويُقال للرّجل إِذا أَسَنَّ ولم ينقُصْ : فلانٌ والله نَشَزٌ من الرّجال .

ونَشز الرّجل يَنْشُزُ ويَنْشِزُ نَشْزاً : ارتفع فى المكان .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل انْشزُوا فانْشُزُوا ﴾ .

وقرأ بالضمّ المدنّى والشامىّ وعاصم غير حمّاد بن أَبى زياد ، والباقون بالكسر ، وقيل معناه : انْهَضُوا إلى حرْب أَو إلى أَمر من أُمور الله .

وقال أَبو إسحاق معناه : إذا قيل انْهَضُوا فانهضُوا وقُوموا .

وقيل : قُوموا إلى الصّلاة أَو قضاءِ حقّ أَو شهادة .

وقال أَبو زيد : نَشَزْتُ بِقِرْبى أَنْشُزُ به : إذا حملتَه فصرعْتَه ، وقال شَمِر : كأَنَّه مقلوب شَزِنَ .

ونَشَزَت المرأَةُ تَنْشُز وتَنْشِزُ نُشوزاً : اسْتَعْصَت على بَعْلِها وأَبْغَضَتْه ، ونَشَزَ عليها بَعْلُها : إذا ضرَبها وجفاها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وإِنِ امْرأَةٌ خافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ أى عِصْيانَهنّ وتعالِيهنّ عمّا أَوجب الله عليهنّ .

وقال الأَزهرىّ : والنُّشوز : كراهة كُلّ واحد من الزوجين صاحبَه .

ونَشَزَتْ نَفْسى : جاشَتْ .

وتَلّ ناشِزٌ ، وجمعه نَواشِزُ ، قال الشَمّاخ :

*عفا بَطْنُ قَوّ مِنْ سُلَيمى فَعالِزُ * فذاتُ الغَضا فالمُشْرِفات النّواشِزُ*

وقلبٌ ناشِزٌ : ارتفع عن مَكانه من الرُّعب .

وعِرْقٌ ناشِزٌ : لا يزال مُنْتَبِراً ، يَضْرِبُ من وجَع به .

وركبٌ ناشِزٌ.

وإنشاز عِظام المَيّت: رفْعُها إلى مواضِعها وتركيبُ بعضها على بعض.

ومنه قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ﴾، قال ثعلب: وهذه هى القراءةُ المختارة. انتهى انتهى. اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 54. 55﴾

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (13) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى:

ولما نهى عما يحزن من المقال والمقام ، وكان المنهي عنه من التناجي إنما هو لحفظ قلب الرسول. صلى الله عليه وسلم. عما يكدره فهو منصرف إلى مناجاتهم غيره ، وكان ذلك مفهماً أن مناجاتهم له. صلى الله عليه وسلم. لا حرج فيها ، وكان كثير منهم يناجيه ولا قصد له إلا الترفع بمناجاته فأكثروا في ذلك حتى شق عليه. صلى الله عليه وسلم. ، وكان النافع للإنسان إنما هو كلام من يلائمه في الصفات ويشاكله في الأخلاق ، وكان رسول الله. صلى الله عليه وسلم. أبعد الناس من الدنيا تقذراً لها لأجل بغض الله لها ، أمر من أراد أن يناجيه بالتصدق ليكون ذلك أمارة على الاجتهاد في التخلق بأخلاقه الطاهرة من الصروف عن الدنيا والإقبال على الله ، ومظهراً له عما سلف من الإقبال عليها فإن الصدقة برهان على الصدق في الإيمان ، وليخفف عنه. صلى الله عليه وسلم. ما كانوا قد أكثروا عليه من المناجاة ، فلا يناجيه إلا من قد خلص إيمانه فيصدق ، فيكون ذلك مقدمة لانتفاعه بتلك المناجاة كما أن الهدية تكون مهيئة للقبول كما ورد " نعم الهدية أمام الحاجة " فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي ادعوا أنهم أوجدوا هذه الحقيقة أغنياء كانوا أو فقراء ﴿ إذا ناجيتم ﴾ أي أردتم أن تناجوا ﴿ الرسول ﴾ .صلى الله عليه وسلم. أي الذي لا أكمل منه في الرسلية فهو أكمل الخلق ووظيفته تقتضي أن يكون منه الكلام بما أرسله به الملك وتكون هيبته مانعة من ابتدائه بالكلام ، فلا يكون من المبلغين إلا الفعل بالامتثال لا غير ﴿ فقدموا ﴾ أي بسبب هذه الإرادة العالية على

(65/752)

سبيل الوجوب ومثل النجوى كشخص له يدان يحتاج ان يطهر نفسه ليتأهل للقرب من الرسول. صلى الله عليه وسلم. فقال: ﴿ بين يدي نجواكم ﴾ أي قبل سركم الذي تريدون أن ترتفعوا به ﴿ صدقة ﴾ تكون لكم برهاناً قاطعاً على إخلاصكم كما ورد أن الصدقة برهان، فهي مصدقة لكم في دعوى الإيمان التي هي التصديق بالله تعالى ورسوله. صلى الله عليه وسلم. وبكل ما جاء به عن الله تعالى، ومعظمه الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، ولذلك استأنف قوله: ﴿ ذلك ﴾ أي الخلق العالي جداً من تقديم التصدق قبل المناجاة يا خير الخلق، ولعله أفرده بالخطاب لأنه لا يعلم كل ما فيه من الأسرار غيره.

وعاد إلى الأول فقالك ﴿ خير لكم ﴾ أي في دينكم من الإمساك عن الصدقة ﴿ وأطهر ﴾ لأن الصدقة طهرة ونماء وزيادة في كل خير، ولذلك سميت زكاة ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ والتعبير بأفعل لأنهم مطهرون قبله بالإيمان.

ولما أمر بذلك، وكانت عادته أن لا يكلف بما فوق الوسع للتخفيف على عباده لا سيما هذه الأمة قال: ﴿ فإن لم تجدوا ﴾ أي ما تقدمونه.

(66/752)

ولما كان المعنى الكافي في التخفيف : فليس عليكم شيء ، دل عليه بأحسن منه فقال :

﴿ فإن الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ، وأكده لاستبعاد مثله فإن المعهود من الملك إذا ألزم رعيته بشيء أنه لا يسقطه أصلاً ورأساً ، ولا سيما إن كان يسيراً ، ودل على أنه سبحانه لن يكلف بما فوق الطاقة بقوله : ﴿ غفور رحيم ﴾ أي له صفتا الستر للمساوئ والإكرام بإظهار المحاسن ثابتتان على الدوام فهو يغفر ويرحم تارة بعدم العقاب للعاصي وتارة للتوسعة للضيق بأن ينسخ ما يشق إلى ما يخف ، وهذه الآية قيل : إنها نسخت قبل العمل بها ، وقال علي -رضى الله عنه- : ما عمل بها أحد غيري ، أردت المناجاة ولي دينار فصرفته بعشرة دراهم وناجيته عشر مرات أتصدق في كل مرة بدرهم ، ثم ظهرت فشق ذلك على الناس ، فنزلت الرخصة في ترك الصدقة ، " وروى النسائي في الكبرى والترمذي وقال : حسن غريب وابن حبان وأبو يعلى والبزار عن علي -رضى الله عنه- أنه قال : لما نزلت قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : " مرهم أن يتصدقوا " .

قلت : بكم يا رسول الله ؟ قال : " بدينار " ، قلت : لا يطيقون .

قال : " فنصف دينار " ، قلت : لا يطيقون ، قال : " فبكم ؟ " قلت : بشعيرة : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : " إنك لزهيد " ، فأنزل الله تعالى ﴿ أأشفقتم ﴾ الآية .

وكان علي -رضى الله عنه- يقول : بي خفف الله عن هذه الأمة .

وعدم عمل غيره لا يقدح فيه لاحتمال أن يكون لم يجد عند المناجاة شيئاً أو أن لا يكون احتاج إلى المناجاة.

ولما دل ختم الآية على التخفيف، وكان قد يدعي مدعون عدم الوجدان كذباً فيحصل لهم حرج، وكان تعالى شديد العناية بنجاة هذه الأمة، دل على لطفه بهم بنسخه بعد فرضه.

(67/752)

فقال موبخاً لمن يشح على المال نادباً إلى الخروج عنه من غير إيجاب: ﴿أأشفقتم﴾ أي خفتم من العيلة لما يعدكم به الشيطان من الفقر خوفاً كاد أن يفطر قلوبكم ﴿أن تقدموا﴾ أي بإعطاء الفقراء وهم إخوانكم ﴿بين يدي نجواكم﴾ أي للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وجمع لأنه أكثر توبيخاً من حيث إنه يدل على أن النجوى تتكرر، وذلك يدل على عدم خوفهم من مشقة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ذلك ووجود خوفهم من فعل التصدق فقال: ﴿صدقات﴾ وكان بعضهم ترك وهو واجد فبين سبحانه رحمته لهم بنسخها عنهم لذلك في موضع العقاب لغيرهم عند الترك.

ولما كان من قبلنا إذا كلفوا الأمر الشاق وحملوا على التزامه بمثل رفع الجبل فوقهم، فإذا

خالفوا عوقبوا ، بين فضل هذه الأمة بأنه خفف عنهم ، فقال معبراً بما قد يعشر بأن بعضهم ترك عن قدرة : ﴿ فإذ ﴾ أي فحين ﴿ لم تفعلوا ﴾ أي ما أمرتم به من الصدقة للنجوى بسبب هذا الإشفاق ﴿ وتاب الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي كان من شأن ما هو عليه من العظمة أن يعاقب من ترك أمره ﴿ عليكم ﴾ أي رجع بمن ترك الصدقة عن وجدان ، وبمن تصدق وبمن لم يجد إلى مثل حاله قبل ذلك من سعة الإباحة والعفو والتجاوز والمعذرة والرخصة والتخفيف قبل الإيجاب ولم يعاقبكم على الترك ولا على ظهور اشتغال ذلك منكم ، قال مقاتل بن حيان : كان ذلك عشر ليال ثم نسخ ، وقال الكلبي : ما كانت إلا ساعة من نهار .

وعلى كل منهما فهي لم تتصل بما قبلها نزولاً وإن اتصلت بها تلاوة وحلولاً ﴿ فأقيموا ﴾ بسبب العفو عنكم شكراً على هذا الكرم والحلم ﴿ الصلاة ﴾ التي هي طهرة لأرواحكم ووصلة لكم بربكم ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ التي هي نزاهة لأبدانكم وتطهير ونماء لأموالكم وصلة بإخوانكم ، ولا تفرطوا في شيء من ذلك فتهملوه ، فالصلاة نور تهدي إلى المقاصد الدنيوية والأخروية ، وتعين على نوائب الدارين ، والصدقة برهان على صحة القصد في الصلاة .

ولما خص أشرف العبادات البدنية وأعلى المناسك المالية ، عم فقال حاثاً على زيادة النور والبرهان اللذين بهما تقع المشاكلة في الأخلاق فتكون المناجاة عن أعظم إقبال وإنفاق فقال : ﴿ وأطيعوا الله ﴾ أي الذي له الكمال كله فلم يشركه في إبداعه لكم على ما أنتم عليه أحد ﴿ ورسوله ﴾ الذي عظمته من عظمته في سائر ما يأمر به فإنه ما أمركم لأجل إكرام رسولكم -صلى الله عليه وسلم- إلا بالحنيفية السمحة ، وجعل المحافظة على ذلك قائمة مقام ما أمركم به ، ثم نسخه عنكم من تقديم الصدقة على النجوى .

ولما كان قد عفا عن أمر أشعر السياق بأنه وقع فيه تفريط ، فكان ذلك ربما جرى على انتهاك الحرمات ، رهب من جنابه بإحاطة العلم ، وعبر بالخبر لأن أول الآية وبخ على أمر باطن ولم يبالغ بتقديم الجار لما فيها من الأمور الظاهرة .

فقال عاطفاً على ما تقديره : فالله يحب الذين يطيعون : ﴿ والله ﴾ أي الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ خبير بما تعملون ﴾ أي تجددون عمله ، يعلم بواطنه كما يعلم ظواهره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 498 . 501 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

هذا التكليف يشتمل على أنواع من الفوائد أولها : إعظام الرسول عليه السلام وإعظام مناجاته فإن الإنسان إذا وجد الشيء مع المشقة استعظمه ، وإن وجده بالسهولة استحقره وثانيها : نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة المقدمة قبل المناجاة وثالثها : قال ابن عباس : إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه ، وأراد الله أن يخفف عن نبيه ، فلما نزلت هذه الآية شح كثير من الناس فكفوا عن المسألة ورابعها : قال مقاتل بن حيان : إن الأغنياء غلبوا الفقراء على مجلس النبي عليه الصلاة والسلام وأكثروا من مناجاته حتى كره النبي صلى الله عليه وسلم طول جلوسهم ، فأمر الله بالصدقة عند المناجاة ، فأما الأغنياء فامتنعوا ، وأما الفقراء فلم يجدوا شيئاً ، واشتاقوا إلى مجلس الرسول عليه السلام ، فتمنوا أن لو كانوا يملكون شيئاً فينفقونه ويصلون إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعند هذا التكليف ازدادت درجة الفقراء عند الله ، وانحطت درجة الأغنياء وخامسها : يحتمل أن يكون المراد منه التخفيف عليه ، لأن

أرباب الحاجات كانوا يلحون على الرسول ، ويشغلون أوقاته التي هي مقسومة على الإبلاغ إلى الأمة وعلى العبادة ، ويحتمل أنه كان في ذلك ما يشغل قلب بعض المؤمنين ، لظنه أن فلاناً إنما ناجى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر يقتضي شغل القلب فيما يرجع إلى الدنيا وسادسها : أنه يتميز به محب الآخرة عن محب الدنيا ، فإن المال محك الدواعي .

المسألة الثانية :

(70/752)

ظاهر الآية يدل على أن تقديم الصدقة كان واجباً ، لأن الأمر للوجوب ، ويتأكد ذلك بقوله في آخر الآية : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فإن ذلك لا يقال إلا فيما بفقده يزول وجوبه ، ومنهم من قال : إن ذلك ما كان واجباً ، بل كان مندوباً ، واحتج عليه بوجهين الأول : أنه تعالى قال : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ وهذا إنما يستعمل في التطوع لا في الفرض والثاني : أنه لو كان ذلك واجباً لما أزيل وجوبه بكلام متصل به ، وهو قوله : ﴿ أَأشفقتم أَن تُقَدّمُواْ ﴾ [المجادلة : 13] إلى آخر الآية والجواب عن الأول : أن المندوب كما يوصف بأنه خير وأطهر ، فالواجب أيضاً يوصف بذلك والجواب عن الثاني : أنه لا يلزم من كون الآيتين متصلتين في التلاوة ، كونهما متصلتين في النزول ، وهذا كما قلنا في الآية الدالة

على وجوب الاعتداد بأربعة أشهر وعشراً ، إنها ناسخة للاعتداد بحول ، وإن كان الناسخ متقدماً في التلاوة على المنسوخ ، ثم اختلفوا في مقدار تأخر الناسخ عن المنسوخ ، فقال الكلبي : ما بقي ذلك التكليف إلا ساعة من النهار ثم نسخ ، وقال مقاتل بن حيان : بقي ذلك التكليف عشرة أيام ثم نسخ .

المسألة الثالثة :

روي عن علي عليه السلام أنه قال : إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ، ولا يعمل بها أحد بعدي ، كان لي دينار فاشتريت به عشرة دراهم ، فكلما ناجيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمت بين يدي نجواي درهماً ، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد ، وروي عن ابن جريج والكلبي وعطاء عن ابن عباس : أنهم نهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا فلم يناجه أحد إلا علي عليه السلام تصدق بدينار ، ثم نزلت الرخصة .

قال القاضي والأكثر في الروايات : أنه عليه السلام تفرد بالتصدق قبل مناجاته ، ثم ورد النسخ ، وإن كان قد روي أيضاً أن أفاضل الصحابة وجدوا الوقت وما فعلوا ذلك ، وإن ثبت أنه اختص بذلك فلأن الوقت لم يتسع لهذا الغرض ، وإلا فلا شبهة أن أكابر الصحابة لا

يقعدون عن مثله ، وأقول على تقدير أن أفاضل الصحابة وجدوا الوقت وما فعلوا ذلك ، فهذا لا يجر إليهم طعناً ، وذلك الإقدام على هذا العمل مما يضيق قلب الفقير ، فإنه لا يقدر على مثله فيضيق قلبه ، ويوحش قلب الغني فإنه لما لم يفعل الغني ذلك وفعله غيره صار ذلك الفعل سبباً للطعن فيمن لم يفعل ، فهذا الفعل لما كان سبباً لحزن الفقراء ووحشة الأغنياء ، لم يكن في تركه كبير مضرة ، لأن الذي يكون سبباً للألفة أولى مما يكون سبباً للوحشة ، وأيضاً فهذه المناجاة ليست من الواجبات ولا من الطاعات المندوبة ، بل قد بينا أنهم إنما كلفوا بهذه الصدقة ليتركوا هذه المناجاة ، ولما كان الأولى بهذه المناجاة أن تكون متروكة لم يكن تركها سبباً للطعن .

المسألة الرابعة :

روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال : لما نزلت الآية دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ما تقول في دينار ؟ " قلت : لا يطيقونه ، قال : "كم ؟ " قلت : حبة أو شعيرة ، قال : " إنك لزهيد " والمعنى إنك قليل المال فقدرت على حسب حالك .

أما قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ أي ذلك التقديم في دينكم وأطهر لأن الصدقة طهرة .

أما قوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فالمراد منه الفقراء ، وهذا يدل على أن

من لم يجد ما يتصدق به كان معفواً عنه .

المسألة الخامسة :

(72/752)

أنكر أبو مسلم وقوع النسخ وقال : إن المنافقين كانوا يمتنعون من بذل الصدقات ، وإن قوماً من المنافقين تركوا النفاق وآمنوا ظاهراً وباطناً إيماناً حقيقياً ، فأراد الله تعالى أن يميزهم عن المنافقين ، فأمر بتقديم الصدقة على النجوى ليتميز هؤلاء الذين آمنوا إيماناً حقيقياً عمن بقي على نفاقه الأصلي ، وإذا كان هذا التكليف لأجل هذه المصلحة المقدرة لذلك الوقت ، لا جرم يقدر هذا التكليف بذلك الوقت ، وحاصل قول أبي مسلم : أن ذلك التكليف كان مقدراً بغاية مخصوصة ، فوجب انتهاؤه عند الانتهاء إلى الغاية المخصوصة ، فلا يكون هذا نسخاً ، وهذا الكلام حسن ما به بأس ، والمشهور عند الجمهور أنه منسوخ بقوله : ﴿ أَءشْفَقْتُمْ ﴾ ومنهم من قال : إنه منسوخ بوجوب الزكاة .

أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ

والمعنى أخفتم تقديم الصدقات لما فيه من إنفاق المال ، فإذ لم تفعلوا ما أمرتم به وتاب الله عليكم ورخص لكم في أن لا تفعلوه ، فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات .

فإن قيل : ظاهر الآية يدل على تقصير المؤمنين في ذلك التكليف ، وبيانه من وجوه أولها : قوله : ﴿ أَأَشفقتم أَن تُقَدِّمُوا ﴾ وهو يدل على تقصيرهم وثانيها : قوله : ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ وثالثها : قوله : ﴿ وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ قلنا : ليس الأمر كما قلتم ، وذلك لأن القوم لما كلفوا بأن يقدموا الصدقة ويشغلوا بالمناجاة ، فلا بد من تقديم الصدقة ، فمن ترك المناجاة يكون مقصراً ، وأما لو قيل بأنهم ناجوا من غير تقديم الصدقة ، فهذا أيضاً غير جائز ، لأن المناجاة لا تمكن إلا إذا مكن الرسول من المناجاة ، فإذا لم يمكنهم من ذلك لم يقدروا على المناجاة ، فعلمنا أن الآية لا تدل على صدور التقصير منهم ، فأما قوله : ﴿ أَءشْفَقْتُمْ ﴾ فلا يمتنع أن الله تعالى علم ضيق صدر كثير منهم عن إعطاء الصدقة في المستقبل لو دام الوجوب ، فقال هذا القول ، وأما قوله : ﴿ وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ فليس في الآية أنه تاب عليكم من هذا التقصير ، بل يحتمل أنكم إذا كنتم تائبين راجعين إلى الله ، وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، فقد كفاكم هذا التكليف ، أما قوله : ﴿ والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يعني محيط بأعمالكم ونياتكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 238.235 ﴾

(74/752)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا ﴾

قرأ جمهور الناس : " تفسحوا " ، وقرأ الحسن وداود بن أبي هند : " تفاسحوا " ، وقرأ جمهور القراء : " في المجلس " ، وقرأ عاصم وحده وقتادة وعيسى : " في المجالس " . واختلف الناس في سبب الآية والمقصود بها ، فقال ابن عباس ومجاهد والحسن : نزلت في مقاعد الحرب والقتال .

(75/752)

وقال زيد بن أسلم وقتادة : نزلت بسبب تضايق الناس في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنهم كانوا يتنافسون في القرب منه وسماع كلامه والنظر إليه ، فيأتي الرجل الذي له الحق والسن والقدم في الإسلام فلا يجد مكاناً ، فنزلت بسبب ذلك . وقال مقاتل : أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً ليجلس أشياخ من أهل بدر ونحو ذلك فنزلت

الآية ، وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقم أحد من مجلسه ثم يجلس فيه الرجل ولكن تفسحوا يفسح الله لكم " ، وقال بعض الناس : إنما الآية مخصوصة في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم في سائر المجالس ، ويدل على ذلك قراءة من قرأ : " في المجلس " ، ومن قرأ " في المجالس " فذلك مراده أيضاً لأن لكل أحد مجلساً في بيت النبي صلى الله عليه وسلم وموضعه فتجمع لذلك ، وقال جمهور أهل العلم : السبب مجلس النبي عليه السلام ، والحكم في سائر المجالس التي هي للطاعات ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " أحبكم إلى الله ألينكم مناكب في الصلاة وركباً في المجالس " ، وهذا قول مالك رحمه الله وقال : ما أرى الحكم إلا يطرد في مجالس العلم ونحوها غابر الدهر ، ويؤيد هذا القول قراءة من قرأ : " في المجالس " ، ومن قرأ : " في المجلس " فذلك على هذا التأويل اسم جنس فالسنة المندوب إليها هي التفسح والقيام منهي عنه في حديث النبي صلى الله عليه وسلم حيث نهى أن يقوم الرجل فيجلس الآخر مكانه ، فأما القيام إجلالاً فجائز بالحديث قوله عليه السلام حين أقبل سعد بن معاذ : " قوموا إلى سيدكم " ، وواجب على المعظم ألا يحب ذلك ويأخذ الناس به لقوله عليه السلام : " من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار " .

وقوله تعالى : ﴿ يفسح الله لكم ﴾ معناه : في رحمته وجنته ، وقوله تعالى : ﴿ وإذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾ معناه : إذا قيل لكم ارتفعوا وقوموا فافعلوا ذلك ، ومنه نشوز العظام أي نباتها ، والنشز من الأرض المرتفع ، واختلف الناس في هذا النشوز الذي أمروا بامتثاله إذا دعوا إليه . فقال الحسن وقتادة والضحاك معناه : إذا دعوا إلى قتال أو طاعة أو صلاة ونحوه ، وقال آخرون معناه : إذا دعوا إلى القيام عن النبي عليه السلام لأنه كان أحياناً يحب الانفراد في آمر الإسلام فربما جلس قوم وأراد كل واحد أن يكون آخر الناس عهداً بالنبي عليه السلام ، فنزلت الآية آمرة بالقيام عنه متى فهم ذلك بقول أو فعل ، وقال آخرون معناه : ﴿ انشزوا ﴾ في المجلس بمعنى التفسح لأن الذي يريد التوسعة يرتفع إلى فوق في الهواء فإذا فعل ذلك جملة اتسع الموضع ، فيجيء ﴿ انشزوا ﴾ في غرض واحد مع قوله ﴿ تفسحوا ﴾ ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم : " انشُزوا " برفع الشين وهي قراءة أبي جعفر وشيبة والأعرج.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي بكسر السين فيهما ، وهي قراءة الحسن والأعمش وطلحة . يقال : نشز ينشِز كحشر يحشِر ويحشُر وعكف يعكِف ويعكُف .

وقوله ﴿ يرفع الله ﴾ جواب الأمر ، واختلف الناس في ترتيب قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فقال جماعة من المتأولين المعنى : ﴿ يرفع الله ﴾ المؤمنين العلماء منكم ﴿ درجات ﴾ ، فلذلك أمر بالتفسح من أجلهم ، ويجيء على هذا قوله : ﴿ والذين أوتوا العلم ﴾ بمنزلة قولك جاءني العاقل والكريم والشجاع ، وأنت تريد بذلك رجلاً واحداً ، وقال آخرون المعنى : ﴿ يرفع الله ﴾ المؤمنين والعلماء الصنفين جميعاً ﴿ درجات ﴾ لكنا نعلم تفاضلهم في الدرجات من مواضع أخرى ولذلك جاء الأمر بالتفسح عاماً للعلماء وغيرهم ، وقال عبد الله بن مسعود وغيره : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم ﴾ وتم القول ، ثم ابتدأ بتخصيص العلماء بالدرجات ونصبهم بإضمار فعل ، فالمؤمنون رفع على هذا التأويل وللعلماء درجات ، وعلى هذا التأويل قال مطرف بن عبد الله بن الشخير : فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة وخير دينكم الورع ، ثم توعد تعالى وحذر بقوله : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول ﴾ الآية . روي عن ابن عباس وقتادة في سببها أن قوماً من شباب المؤمنين وأغفالهم كثرت مناجاتهم للنبي صلى الله عليه وسلم في غير حاجة إلا لتظهر منزلتهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمحاً لا يرد أحداً فنزلت هذه الآية مشددة عليهم أمر

المناجاة ، وقال مقاتل : نزلت في الأغنياء لأنهم غلبوا الفقراء على مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم . وقال جماعة من الرواة : لم يعمل بهذه الآية بل نسخت قبل العمل لكن استقر حكمها بالعزم عليه كأمر إبراهيم عليه السلام في ذبح ابنه ، وصح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : ما عمل بها أحد غيري وأنا كنت سبب الرخصة والتخفيف عن المسلمين

(78/752)

وذلك أني أردت مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم في أمر ضروري فصرفت ديناراً بعشرة دراهم ، ثم ناجيته عشر مرار أقدم في كل مرة درهماً ، وروي عنه أنه تصدق في كل مرة بدينار فقال علي ثم فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذه العبادة قد شقت على الناس فقال لي يا علي : كم ترى أن يكون حد هذه الصدقة ، أتراه ديناراً ؟ ، قلت : لا ، قال نصف دينار ، قلت : لا ، قال فكم : قلت حبة من شعير قال إنك لزهيد ، فأنزل الله الرخصة .

قال القاضي أبو محمد : يريد للواجد وأما من لا يجد فالرخصة له ثابتة أولاً بقوله تعالى : ﴿ فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ﴾ . وقال مقاتل : بقي هذا الحكم عشرة أيام ، وقال

قتادة : بقي ساعة من نهار ، وقرأ جمهور من الناس : " صدقة " بالإفراد ، وقرأ بعض القراء " صدقات " بالجمع .

أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ

الإشفاق : الفزع من العجز عن الشيء المتصدق به أو من ذهاب المال في الصدقة وله وجوه كثيرة يقال فيها الإشفاق ، لكنه في هذا الموضع كما ذكرت ، ﴿ وتاب الله عليكم ﴾ معناه : رجع بكم ، وقوله ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ الآية المعنى دوموا على هذه الأعمال التي هي قواعد شرعكم ومن قال إن هذه الصدقة منسوخة بآية الزكاة ، فقوله ضعيف لا يحصل كيف النسخ ، وما ذكر في نحو هذا عن ابن عباس لا يصح عنه والله أعلم . انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(79/752)

وقال القرطبى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرسول ﴾ "ناجيتم" ساررتم .

قال ابن عباس : نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقّوا عليه ؛ فأراد الله عز وجل أن يخفف عن نبيّه صلى الله عليه وسلم ، فلما قال ذلك كفّ كثير من الناس .

ثم وسّع الله عليهم بالآية التي بعدها .

وقال الحسن : نزلت بسبب أن قوماً من المسلمين كانوا يستخلون النبيّ صلى الله عليه وسلم ويناجونه ، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى ، فشقّ عليهم ذلك فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن استخلائه .

وقال زيد بن أسلم : نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبيّ صلى الله عليه وسلم ويقولون : إنه أُذن يسمع كل ما قيل له ، وكان لا يمنع أحداً مناجاته .

فكان ذلك يشقّ على المسلمين ؛ لأن الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم ناجَوْه بأن جموعاً اجتمعت لقتاله .

قال : فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْاْ بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَةِ الرسول ﴾ الآية ، فلم ينتهوا فأنزل الله هذه الآية ، فانتهى أهل الباطل عن النجوى ؛ لأنهم لم يقدموا بين يدي نجواهم صدقة ، وشقّ ذلك على أهل الإيمان وامتنعوا من النجوى ؛ لضعف مقدرة كثير منهم عن الصدقة فخفف الله عنهم بما بعد الآية .

الثانية : قال ابن العربي : وفي هذا الخبر عن زيد ما يدل على أن الأحكام لا تترتب بحسب المصالح ، فإن الله تعالى قال : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ ثم نسخه مع كونه خيراً وأطهر . وهذا رَدٌّ على المعتزلة عظيم في التزام المصالح ، لكن راوي الحديث عن زيد ابنه عبد الرحمن وقد ضعفه العلماء .

(80/752)

والأمر في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ نص متواتر في الرد على المعتزلة . والله أعلم .

الثالثة : روى الترمذي عن عليّ بن علقمة الأنماري عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : " لما نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرسول فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ سألته قال لي النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما ترى ديناراً" ؟ قلت لا يطيقونه .

قال : "فنصف دينار" قلت : لا يطيقونه .

قال : "فكم" قلت : شعيرة .

قال : "إنك لزهيد" قال فنزلت : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ الآية .

قال : فَبِي خفّف الله عن هذه الأمة " قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه ، ومعنى قوله : شعيرة يعني وزن شعيرة من ذهب .

قال ابن العربي : وهذا يدل على مسألتين حسنتين أصوليتين : الأولى نسخ العبادة قبل فعلها .

والثانية النظر في المقدّرات بالقياس ؛ خلافاً لأبي حنيفة .

قلت : الظاهر أن النسخ إنما وقع بعد فعل الصدقة .

وقد روي عن مجاهد : أن أوّل من تصدّق في ذلك عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وناجى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

روي أنه تصدّق بخاتم .

وذكر القشيري وغيره عن عليّ بن أبي طالب أنه قال : "في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي ، وهي : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرسول فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ كان لي دينار فبعته ، فكنت إذا ناجيت الرسول تصدّقت بدرهم حتى نفد ؛ فنسخت بالآية الأخرى ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ .

وكذلك قال ابن عباس : نسخها الله بالآية التي بعدها .

وقال ابن عمر : لقد كانت لعليّ رضي الله عنه ثلاثة لو كانت لي واحدة منهن كانت أحبّ إليّ من حُمُر النَّعم : تزويجه فاطمة ، وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى .

(81/752)

﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي من إمساكها ﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ لقلوبكم من المعاصي ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا ﴾ يعني الفقراء ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ ﴾ استفهام معناه التقرير .

قال ابن عباس : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ ﴾ أي أبخلتم بالصدقة ؛ وقيل : خفتم ، والإشفاق الخوف من المكروه .

أي خفتم وبخلتم بالصدقة وشق عليكم ﴿ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ .

قال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك عشر ليالٍ ثم نسخ .

وقال الكلبي : ما كان ذلك إلا ليلة واحدة .

وقال ابن عباس : ما بقي إلا ساعة من النهار حتى نسخ .

وكذا قال قتادة .

والله أعلم .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي نسخ الله ذلك الحكم .

وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدّق به ﴿ فَأَقِيمُوا الصلاة وَآتُوا الزكاة ﴾ فنسخت فرضية الزكاة هذه الصدقة .

وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل ، وما روي عن عليّ رضي الله عنه ضعيف ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ وهذا يدل على أن أحداً لم يتصدّق بشيء .

والله أعلم .

﴿ وَأَطِيعُوا الله ﴾ في فرائضه ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ في سننه ﴿ والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(82/752)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا ﴾

أيْ توسعُوا وليفسحْ بعضُكُم عنْ بعضٍ ولا تتضامُّوا منْ قولِهم أفسحْ عنِّي أيْ تنحَّ وقُرِىءَ

تفاسحُوا وقولِه تَعَالى : ﴿ فِى المجالس ﴾ متعلقٌ بقيل وقُرِئ َفي المجلسِ عَلى أنَّ المرادَ بِهِ الجنسُ وقيل : مجلسُ الرسولِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وكانُوا يتضامُّون تنافساً في القُربِ منهُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ حِرْصاً على استماعِ كلامِهِ وقيلَ : هو المجلسُ منْ مجالسِ القتالِ وهيَ مركزُ الغُزاةِ كقولِه تعالى : ﴿ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ قيل : كانَ الرجلُ يأتي الصفَّ ويقولُ : تفسحُوا فيأبونَ لحرصِهم عَلى الشهادةِ وقُرِئ َفِي المجلَسِ بفتحِ اللامِ فَهُو متعلقٌ بتفسحُوا قطعاً أيْ توسعُوا فِي جلوسِكم ولا تتضايقُوا فيه ﴿ فافسحوا يَفْسَحِ الله لَكُمْ ﴾ أي فِي كلِّ ما تريدونَ التفسحَ فيهِ منَ المكانِ والرزقِ والصدرِ والقَبرِ وغيرِهَا ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشزوا ﴾ أي انهضُوا للتوسعةِ عَلى المقبلينَ أوْ لِمَا أمرتُم بِهِ منْ صلاةٍ أو جهادٍ أو غَيرِهِمَا منْ أعمالِ الخيرِ ﴿ فَانشُزُواْ ﴾ فانهضُوا ولا تتثبطُوا ولا تفرطُوا وقرئ َبكسرِ الشينِ ﴿ يَرْفَعِ الله الذين ءامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ بالنصرِ وحسنِ الذكرِ في الدُّنيا والإيواءِ إلى غُرفِ الجنانِ في الآخرةِ ﴿ والذين أُوتُواْ العلم ﴾ منهُمْ خصوصاً ﴿ درجات ﴾ عاليةً بمَا جمعُوا منْ أثرتي العلمِ والعملِ فإنَّ العلمَ معَ علوِّ رتبتِه يقتضِي العملَ المقرونُ بِهِ مزيدَ رفعةٍ لا يدركُ شأوَهُ العملُ العاريُّ عَنْهُ وإنْ كانَ فِي غايةِ الصلاحِ ولذلكَ يقتدي بالعالمِ في أفعالهِ ولا يقتدَى بغيرِهِ وفِي الحديثِ : " فضلُ العالمِ عَلى العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ عَلى سائرِ الكواكبِ " ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ تهديدٌ لمنْ لمْ يمتثلْ بالأمرِ وقُرِئ َيعملونَ بالياءِ التحتانيةِ .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُوا إِذَا نَاجيتم الرسول ﴾ في بعضِ شؤونكم المهمةِ الداعيةِ إلى مناجاتِه عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نجواكم صَدَقَةً ﴾ أيْ فتصدقُوا قبلَها مستعارٌ ممنْ لهُ يدانِ وفي هذا الأمرِ تعظيمُ الرسولِ صلى اللهُ عليه وسلم وإنفاعُ الفقراءِ والزجرُ عنِ الإفراطِ في السؤالِ والتمييزُ بينَ المخلصِ والمنافقِ ومحبِّ الآخرةِ ومحبِّ الدُّنيا واختلفَ في أنَّه للندبِ أو للوجوبِ لكنهُ نُسخَ بقولِه تعَالى : ﴿ أَءشْفَقْتُمْ ﴾ وهُوَ وإنْ كَانَ متصلاً بِه تلاوةً لكنَّه متراخٍ عَنْهُ نزولاً وعَنْ عليٍ رضيَ اللهُ عنهُ : " إنَّ في كتابِ اللهِ آيةً ما عَمِلَ بهَا أحدٌ غَيْري كانَ لي دينارٌ فصرفتُه فكنتُ إذَا نَاجيتُه عليهِ الصلاةُ والسلامُ تصدقتُ بدرهم " وهُوَ على القولِ بالوجوبِ محمولٌ على أنَّه لمْ يتفقْ للأغنياءِ مناجاةٌ في مدةِ بقائِه إذْ رُوي أنَّه لمْ يَبقَ إلاَّ عشراً وقيل : إلاَّ ساعةً ﴿ ذلك ﴾ أي التصدق ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ أيْ لأنفسكم منَ الريبةِ وحبِّ المَالِ وهذا يشعرُ بالندبِ لكنَّ قولَهُ تعَالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ منبىءٌ عنِ الوجوبِ لأنَّه ترخيصٌ لمنْ لَمْ يجدْ في المناجَاةِ بلا تصدقٍ .

(84/752)

﴿ أَءشْفَقْتُمْ أَن تُقَدّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نجواكم صدقات ﴾ أيْ أخفتمْ الفقرَ منْ تقديمِ الصدقاتِ أو أخفتمْ التقديمَ لما يعدكُم الشيطانُ عليهِ منَ الفقرِ وجمعَ صدقاتٍ لجمعِ المخاطبينَ ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ ﴾ ما أمرتم بِهِ وشقّ عليكُمْ ذلكَ ﴿ وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بأنْ رخصَ لكُم أنْ لا تفعلُوه وفيه إشعارٌ بأنّ إشفاقَهُم ذنبٌ تجاوزَ اللهُ عنْهُ لما رأَى منهم منَ الانفعالِ مَا قامَ مقامَ توبتهِم وإذْ علَى بابِهَا مِنَ المُضيّ وقيلَ : بمعْنَى إذا كمَا في قولِه تعَالى : ﴿ إِذِ الأغلال فِى أعناقهم ﴾ وقيلَ : بمعنى إنْ : ﴿ فَأَقِيمُواْ الصلاة وَءاتُواْ الزكاة ﴾ أيْ فإذْ فرطتُم فِيمَا أُمِرتمْ بِهِ منْ تقديمِ الصدقاتِ فتداركُوه بالمثابرةِ علَى إقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ ﴿ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في سائرِ الأوامرِ فإنّ القيامَ بها كالجابرِ لما وقعَ في ذلكَ من التفريطِ ﴿ واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ظاهراً وباطناً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(85/752)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا نَاجيتم الرسول ﴾

أي إذا أردتم المناجاة معه عليه الصلاة والسلام لأمرٍ مّا من الأمور ﴿ فَقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ أَوْ

صَدَقَةٍ ﴾ أي فتصدقوا قبلها ، وفي الكلام استعارة تمثيلية ، وأصل التركيب يستعمل فيمن له يدان أو مكنية بتشبية النجوى بالإنسان ، وإثبات اليدين تخييل ، وفي ﴿ بَيْنَ ﴾ ترشيح على ما قيل ، ومعناه قبل ؛ وفي هذا الأمر تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم ونفع للفقراء وتمييز بين المخلص والمنافق ومحب الآخرة ومحب الدنيا ودفع للتكاثر عليه صلى الله عليه وسلم من غير حاجة مهمة ، فقد روى عن ابن عباس .

وقتادة أن قوماً من المسلمين كثرت مناجاتهم للرسول عليه الصلاة والسلام طول جلوسهم ومناجاتهم فنزلت ، واختلف في أن الأمر للندب أو للوجوب لكنه نسخ بقوله تعالى : ﴿ أَءشْفَقْتُمْ ﴾ [المجادلة : 13] الخ ، وهو وإن كان متصلاً به تلاوة لكنه غير متصل به نزولاً ، وقيل : نسخ بآية الزكاة والمعول عليه الأول ، ولم يعين مقدار الصدقة ليجزي الكثير والقليل ، أخرج الترمذي وحسنه .

وجماعة عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : لما نزلت ﴿ خَبِيرٌ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا ناجيتم ﴾ الخ قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : " ما ترى في دينار ؟ قلت : لا يطيقونه ، قال : نصف دينار ؟ قلت : لا يطيقونه ، قال : فكم ؟ قلت : شعيرة ، قال : فإنك لزهيد " فلما نزلت ﴿ أَءشْفَقْتُمْ ﴾ [المجادلة : 13] الآية قال صلى الله عليه وسلم : " خفف الله عن هذه الأمة " ولم يعمل بها على المشهور غيره كرم الله تعالى وجهه ، أخرج الحاكم وصححه .

وابن المنذر .

وعبد بن حميد .

(86/752)

وغيرهم عنه كرم الله تعالى وجهه أنه قال : إن في كتاب الله تعالى لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي آية النجوى ﴿ خَبِيرًا يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا نَاجيتم الرسول ﴾ الخ كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم فكنت كلما ناجيت النبي صلى الله عليه وسلم قدمت بين يدي نجواي درهماً ثم نسخت فلم يعمل بها أحد ، فنزلت ﴿ أَءشْفَقْتُمْ ﴾ الآية ، قيل : وهذا على القول بالوجوب محمول على أنه لم يتفق للأغنياء مناجاة في مدة بقاء الحكم ، واختلف في مدة بقائه ، فعن مقاتل أنها عشرة ليال ، وقال قتادة : ساعة من نهار ، وقيل : إنه نسخ قبل العمل به ولا يصح لما صح آنفاً .

وقرى صدقات بالجمع لجمع المخاطبين ﴿ ذلك ﴾ أي تقديم الصدقات ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ لما فيه من الثواب ﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ وأزكى لأنفسكم لما فيه من تعويدها على عدم الاكتراث بالمال وإضعاف علاقة حبه المدنس لها ، وفيه إشارة إلى أن في ذلك إعداد النفس لمزيد الاستفاضة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عند المناجاة .

وفي الكلام إشعار بندب تقديم الصدقة لكن قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي لمن لم يجد حيث رخص سبحانه له في المناجاة بلا تقديم صدقة أظهر إشعاراً بالوجوب.

أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ

(87/752)

أي أخفتم الفقر لأجل تقديم الصدقات فمفعول ﴿ أشفقتم ﴾ محذوف، و﴿ إن ﴾ على إضمار حرف التعليل، ويجوز أن يكون المفعول ﴿ أَن تُقَدِّمُوا ﴾ فلا حذف أي أخفتم تقديم الصدقات لتوهم ترتب الفقر عليه، وجمع الصدقات لما أن الخوف لم يكن في الحقيقة من تقديم صدقة واحدة لأنه ليس مظنة الفقر بل من استمرار الأمر، وتقديم ﴿ صدقات ﴾ وهذا أولى مما قيل: إن الجمع لجمع المخاطبين إذ يعلم منه وجه إفراد الصدقة فيما تقدم على قراءة الجمهور ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ ما أمرتم به وشق عليكم ذلك ﴿ وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بأن رخص لكم المناجاة من غير تقديم صدقة، وفيه على ما قيل: إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله تعالى عنه لما رؤى منهم من الانقياد وعدم خوف الفقر بعد ما قام مقام توبتهم ﴿ وَإِذْ ﴾ على بابها أعني أنها ظرف لما مضى، وقيل: إنها بمعنى ﴿ إِذْ

﴿ الظرفية للمستقبل كما في قوله تعالى : ﴿ إِذِ الاغلال فِى أعناقهم ﴾ [غافر : 71] .

وقيل : بمعنى إن الشرطية كأنه قيل : فإن لم تفعلوا ﴿ فَأَقِيمُواْ الصلاة وَءاتُواْ الزكواة ﴾

والمعنى على الأول إنكم تركتم ذلك فيما مضى فتداركوه بالمثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، واعتبرت المثابرة لأن المأمورين مقيمون للصلاة ومؤتون للزكاة ، وعدل فصلوا إلى ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ﴾ ليكون المراد المثابرة على توفية حقوق الصلاة ورعاية ما فيه كمالها لا على أصل فعلها فقط ، ولما عدل عن ذلك لما ذكر جيء بما بعده على وزانه ؛ ولم يقل وزكوا لئلا يتوهم أن المراد الأمر بتزكية النفس كذا قيل فتدبر ﴿ وَأَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ ﴾ أي في سائر الأوامر ، ومنها ما تقدم في ضمن قوله تعالى : ﴿ أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى المجالس فافسحوا ﴾ [المجادلة : 11] الآيات وغير ذلك .

﴿ والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ظاهراً وباطناً .

وعن أبي عمرو يعملون بالتحتية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(88/752)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى المجالس ﴾

يقال : فسح له يفسح فسحاً أي : وسع له ، ومنه قولهم بلد فسيح .

أمر الله سبحانه بحسن الأدب مع بعضهم بعضاً بالتوسعة في المجلس ، وعدم التضايق فيه .

قال قتادة ، ومجاهد ، والضحاك : كانوا يتنافسون في مجلس النبيّ ، فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض .

وقال الحسن ، ويزيد بن أبي حبيب : هو مجلس القتال إذا اصطفوا للحرب كانوا يتشاحون على الصفّ الأوّل ، فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة في القتال ؛ لتحصيل الشهادة ﴿ فافسحوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ ﴾ أي : فوسعوا يوسع الله لكم في الجنة ، أو في كلّ ما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق وغيرهما .

قرأ الجمهور : ﴿ تفسحوا في المجلس ﴾ وقرأ السلمي ، وزرّ بن حبيش ، وعاصم : (في المجالس) على الجمع ؛ لأن لكلّ واحد منهم مجلساً ، وقرأ قتادة ، والحسن ، وداود بن أبي هند ، وعيسى بن عمر : (تفاسحوا) قال الواحدي : والوجه التوحيد في المجلس ؛ لأنه يعني به مجلس النبيّ .

وقال القرطبي : الصحيح في الآية أنها عامة في كلّ مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير والأجر ، سواء كان مجلس حرب ، أو ذكر ، أو يوم الجمعة ، وأن كلّ واحد أحقّ بمكانه الذي سبق إليه ، ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذّ بذلك ، فيخرجه الضيق عن موضعه ، ويؤيد هذا حديث ابن عمر عند البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال

: "لا يقم الرجل الرجل من مجلسه، ثم يجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا" ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشزوا فَانشُزُواْ ﴾ قرأ الجمهور بكسر الشين فيها، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم بضمها فيهما، وهما لغتان بمعنى واحد، يقال: نشز، أي: ارتفع، ينشز وينشز كعكف يعكف ويعكف، والمعنى: إذا قيل لكم: انهضوا، فانهضوا.

قال جمهور المفسرين: أي انهضوا إلى الصلاة، والجهاد، وعمل الخير.

(89/752)

وقال مجاهد، والضحاك، وعكرمة: كان رجال يتثاقلون عن الصلاة، فقيل لهم: إذا نودي للصلاة، فانهضوا.

وقال الحسن: انهضوا إلى الحرب.

وقال ابن زيد: هذا في بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم، كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشزوا ﴾ عن النبيّ ﴿ فَانشُزُواْ ﴾ فإن له حوائج، فلا تمكثوا.

وقال قتادة: المعنى أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف، والظاهر حمل الآية على العموم؛ والمعنى: إذا قيل لكم: انهضوا إلى أمر من الأمور الدينية، فانهضوا ولا تتثاقلوا، ولا يمنع

من حملها على العموم كون السبب خاصاً ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما هو الحق ، ويندرج ما هو سبب النزول فيها اندراجاً أوّلياً ، وهكذا يندرج ما فيه السياق ، وهو التفسيح في المجلس اندراجاً أوّلياً ، وقد قدّمنا أن معنى نشز : ارتفع ، وهكذا يقال : نشز ينشز : إذا تنحى عن موضعه ، ومنه امرأة ناشز ، أي : متنحية عن زوجها ، وأصله مأخوذ من النشز ، وهو ما ارتفع من الأرض وتنحى ، ذكر معناه النحاس ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الذين ءامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ في الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيهما ﴿ والذين أُوتُواْ العلم درجات ﴾ أي : ويرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات عالية في الكرامة في الدنيا ، والثواب في الآخرة ، ومعنى الآية : أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات ، ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات ، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات ، ثم رفعه بعلمه درجات ، وقيل : المراد بالذين آمنوا من الصحابة ، وكذلك الذين أوتوا العلم ، وقيل : المراد بالذين أوتوا العلم الذين قرءوا القرآن .

(90/752)

والأولى حمل الآية على العموم في كل مؤمن ، وكل صاحب علم من علوم الدين من جميع أهل هذه الملة ، ولا دليل يدلّ على تخصيص الآية بالبعض دون البعض ، وفي هذه الآية فضيلة

عظيمة للعلم وأهله ، وقد دلّ على فضله وفضلهم آيات قرآنية وأحاديث نبوية ﴿ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم من خير وشرّ ، فهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشرّ شراً .

﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا ناجيتم الرسول فَقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نجواكم صَدَقَةً ﴾ المناجاة المساررة ، والمعنى : إذا أردتم مساررة الرسول في أمر من أموركم ، فقدّموا بين يدي مساررتكم له صدقة .

قال الحسن : نزلت بسبب أن قوماً من المسلمين كانوا يستخلون النبيّ صلى الله عليه وسلم يناجونه ، فظنّ بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى ، فشقّ عليهم ذلك ، فأمرهم الله بالصدقة عند النجوى ؛ لتقطعهم عن استخلائه .

وقال زيد بن أسلم : نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : إنه أذن يسمع كل ما قيل له ، وكان لا يمنع أحداً من مناجاته ، وكان ذلك يشقّ على المسلمين ؛ لأن الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم ناجوه بأن جموعاً اجتمعت لقتاله ، فأنزل الله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْاْ بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَةِ

الرسول ﷺ ، فلم ينتهوا ، فأنزل الله هذه الآية ، فانتهى أهل الباطل عن النجوى ؛ لأنهم لم يقدّموا بين يدي نجواهم صدقة ، وشقّ ذلك على أهل الإيمان ، وامتنعوا عن النجوى لضعف كثير منهم عن الصدقة ، فخفف الله عنهم بالآية التي بعد هذه ، والإشارة بقوله :

﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم من تقديم الصدقة بين يدي النجوى ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ لما فيه من طاعة الله ، وتقييد الأمر بكون امتثاله خيراً لهم من عدم الامتثال ، وأطهر لنفوسهم يدل على أنه أمر ندب لا أمر وجوب ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعني : من كان منهم لا يجد تلك الصدقة المأمور بها بين يدي النجوى ، فلا حرج عليه في النجوى بدون صدقة .

﴿ أَءشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نجواكم صدقات ﴾ أي : أخفتم الفقر والعيلة ؛ لأن تقدّموا ذلك ، والإشفاق : الخوف من المكروه ، والاستفهام للتقرير .

وقيل المعنى : أبخلتم ، وجمع الصدقات هنا باعتبار المخاطبين .

قال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك عشر ليالٍ ، ثم نسخ .

وقال الكلبي : ما كان ذلك إلاّ ليلة واحدة .

وقال قتادة: ما كان إلاّ ساعة من النهار ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ ﴾ ما أمرتم به من الصدقة بين يدي النجوى، وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدق به، ولم يفعل، وأما من لم يجد، فقد تقدّم الترخيص له بقوله: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿ وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بأن رخص لكم في الترك، "وإذ" على بابها في الدلالة على المضيّ، وقيل: هي بمعنى إذا، وقيل: بمعنى إن، وتاب معطوف على لم تفعلوا، أي: وإذا لم تفعلوا، وإذ تاب عليكم ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ والمعنى: إذا وقع منكم التثاقل عن امتثال الأمر بتقديم الصدقة بين يدي النجوى، فاثبتوا على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، فيما تؤمرون به وتنهون عنه ﴿ واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شيء، فهو مجازيكم، وليس في الآية ما يدل على تقصير المؤمنين في امتثال هذا الأمر، أما الفقراء منهم، فالأمر واضح، وأما من عداهم من المؤمنين، فإنهم لم يكلفوا بالمناجاة حتى تجب عليهم الصدقة بل أمروا بالصدقة إذا أرادوا المناجاة فمن ترك المناجاة، فلا يكون مقصراً في امتثال الأمر بالصدقة، على أن في الآية ما يدل على أن الأمر للندب، كما قدّمنا .

وقد استدلّ بهذه الآية من قال بأنه يجوز النسخ قبل إمكان الفعل، وليس هذا الاستدلال بصحيح، فإن النسخ لم يقع إلاّ بعد إمكان الفعل، وأيضاً قد فعل ذلك البعض، فتصدّق بين يدي نجواه، كما سيأتي .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : أنزلت هذه الآية ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى الْمَجالس ﴾ يوم جمعة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذٍ في الصفة ، وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر ، وقد سبقوا إلى المجالس ، فقاموا حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته ، فردّ النبيّ صلى الله عليه وسلم عليهم ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك ، فردّوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فعرف النبيّ ما يحملهم على القيام ، فلم يفسح لهم ، فشق ذلك عليه ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : "قم يا فلان ، وأنت يا فلان" ، فلم يزل يقيمهم بعدّة النفر الذين هم قيام من أهل بدر ، فشقّ ذلك على من أقيم من مجلسه ، فنزلت هذه الآية .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : ذلك في مجلس القتال ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشزوا ﴾ قال : إلى الخير والصلاة .

وأخرج ابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في المدخل عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَرْفَعِ الله الذين ءامَنُواْ مِنكُمْ والذين أُوتُواْ العلم درجات ﴾ قال : يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤمنوا درجات .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في تفسير هذه الآية

قال : يرفع الله الذين آمنوا منكم ، وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات .

وأخرج ابن المنذر عنه قال : ما خصّ الله العلماء في شيء من القرآن ما خصهم في هذه الآية ، فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم .

(94/752)

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِذَا ناجيتم الرسول ﴾ الآية ، قال : إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ، فلما قال ذلك ظنّ كثير من الناس ، وكفوا عن المسئلة ، فأنزل الله بعد هذا : ﴿ أَءشْفَقْتُمْ ﴾ الآية ، فوسع الله عليهم ولم يضيق .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والترمذي وحسنه ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والنحاس ، وابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب قال : لما نزلت : ﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا ناجيتم الرسول فقدّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نجواكم صَدَقَةً ﴾ قال لي النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما ترى ، دينار ؟ " قلت : لا يطيقونه .

قال : " فنصف دينار ؟ " قلت لا يطيقونه ، قال ، " فكم ؟ " قلت : شعيرة ، قال : " إنك لزهيد " ، قال : فنزلت ﴿ أأشفقتم أن تُقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نجواكم صدقات ﴾ الآية ، في

خفف الله عن هذه الآمة ، والمراد بالشعيرة هنا : وزن شعيرة من ذهب ، وليس المراد : واحدة من حبّ الشعير .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه قال : ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت ، وما كانت إلاّ ساعة ، يعني : آية النجوى .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن راهويه ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه أيضاً قال : إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ، ولا يعمل بها أحد بعدي ، آية النجوى ﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا نَاجيتم الرسول فَقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نجواكم صَدَقَةً ﴾ كان عندي دينار ، فبعته بعشرة دراهم ، فكنت كلما ناجيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قدّمت بين يدي نجواي درهماً ، ثم نسخت ، فلم يعمل بها أحد ، فنزلت : ﴿ أأشفقتم أَن تُقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نجواكم صدقات ﴾ الآية .

(95/752)

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه .

قال السيوطي : بسندٍ ضعيف عن سعد بن أبي وقاص قال : نزلت ﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ

إِذَا نَاجيتم الرسول فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نجواكم صَدَقَةً ﴾ ، فقدمت شعيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنك لزهيد" ، فنزلت الآية الأخرى : ﴿ أأشفقتم أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نجواكم صدقات ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 188 . 191 ﴾

(96/752)

وقال ابن عاشور :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾

استئناف ابتدائي عاد به إلى ذكر بعض أحوال النجوى وهو من أحوالها المحمودة .

والمناسبة هي قوله تعالى : ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ [المجادلة : 9] .

فهذه الصدقة شرعها الله تعالى وجعل سببها مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم فذكرت عقب آي النجوى لاستيفاء أنواع النجوى من محمود ومذموم .

وقد اختلف المتقدمون في سبب نزول هذه الآية ، وحكمة مشروعية صدقة المناجاة .

فنقلت عن ابن عباس وقتادة وجابر بن زياد وزيد بن أسلم ومقاتل أقوال في سبب نزولها متخالفة ، ولا أحسبهم يريدون منها إلا حكاية أحوال للنجوى كانت شائعة ، فلما نزل حكم صدقة النجوى أقلّ الناس من النجوى .

وكانت عبارات الأقدمين تجري على التسامح فيطلقون على أمثلة الأحكام وجزئيات الكليات اسمَ أسباب النزول ، كما ذكرناها في المقدمة الخامسة من مقدمات هذا التفسير ، وأمسك مجاهد فلم يذكر لهذه الآية سبباً واقتصر على قوله : نهوا عن مناجاة الرسول حتى يتصدّقُوا .

والذي يظهر لي : أن هذه الصدقة شرعها الله وفرضها على من يجد ما يتصدق به قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم وأسقطها عن الذين لا يجدون ما يتصدقون به ، وجعل سببها ووقتَها هو وقت توجههم إلى مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم وكان المسلمون حريصين على سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمور الدين كل يوم فشرع الله لهم هذه الصدقة كل يوم لنفع الفقراء نفعاً يومياً ، وكان الفقراء أيامئذٍ كثيرين بالمدينة منهم أهل الصُفّة ومعظم المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم .

والأظهر أن هذه الصدقة شرعت بعد الزكاة فتكون لحكمة إغناء الفقراء يوماً فيوماً لأن الزكاة تدفع في رؤوس السنين وفي مُعيَّن الفصول ، فلعل ما يصل إلى الفقراء منها يستنفدونه قبل حلول وقت الزكاة القابلة .

وعن ابن عباس : أن صدقة المناجاة شرعت قبل شرع الزكاة ونسخت بوجوب الزكاة ، وظاهر قوله في الآية التي بعدها ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ [المجادلة : 13] أن الزكاة حينئذٍ شَرْعٌ مفرد معلوم ، ولعل ما نقل عن ابن عباس إن صح عنه أراد أنها نسخت بالاكتفاء بالزكاة .

وقد تعددت أخبار مختلفة الأسانيد تتضمن أن هذه الآية لم يدم العمل بها إلا زمناً قليلاً ، قيل : إنه عشرة أيام .

وعن الكلبي قال : كان ساعة من نهار ، أي أنها لم يدم العمل بها طويلاً إن كان الأمر مراداً به الوجوب وإلا فإن ندب ذلك لم ينقطع في حياة النبي صلى الله عليه وسلم لتكون نفس المؤمن أزكى عند ملاقاة النبي مثل استحباب تجديد الوضوء لكل صلاة .

وتضافرت كلمات المتقدمين على أن حكم الأمر في قوله : ﴿ فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ قد نسخه قوله : ﴿ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم ﴾ [المجادلة : 13] الآية . وهذا مؤذن بأن الأمر فيها للوجوب .

وفي تفسير القرطبي وأحكام ابن الفرس حكاية أقوال في سبب نزول هذه الآية تحوم حول كون هذه الصدقة شرعت لصرف أصناف من الناس عن مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم إذ كانوا قد ألحَفُوا في مناجاته دون داع يدعوهم فلا ينثلج لها صدر العالم لضعفها سنداً ومعنى ، ومنافاتها مقصد الشريعة .

وأقرب ما روي عن خبر تقرير هذه الصدقة ما في "جامع الترمذي" عن علي بن علقمة الأنماري عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ قال لي النبي صلى الله عليه وسلم "ما ترى ديناراً؟

قلت: لا يطيقونه، قال فنصف دينار؟ قلت: لا يطيقونه.

قال: فكم؟ قلت: شعيرة" قال الترمذي: أي وزن شعيرة من ذهب.

قال: إنك لزهيد فنزلت: ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ [المجادلة: 13] الآية.

قال: "في خفف الله عن هذه الأمة".

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه أ هـ.

(98/752)

قلت: علي بن علقمة الأنماري قال البخاري: في حديثه نظر، ووثقه ابن حبان.

وقال ابن الفرس: صححوا عن علي أنه قال: "ما عمل بها أحد غيري".

وساق حديثاً.

ومحمل قول علي "في خفف الله عن هذه الأمة"، أنه أراد التخفيف في مقدار الصدقة من

دينار إلى زنة شعيرة من ذهب وهي جزء من اثنين وسبعين جزءاً من أجزاء الدينار .

وفعل ﴿ ناجيتم ﴾ مستعمل في معنى إرادة الفعل كقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة : 6] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ [النحل : 98] .

والقرينة قوله : ﴿ فقدموا بين يدي نجواكم ﴾ .

والجمهور على أن الأمر في قوله : ﴿ فقدموا ﴾ للوجوب ، واختاره الفخر ورجحه بأنه الأصل في صيغة الأمر ، وبقوله : ﴿ فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ﴾ فإن ذلك لا يقال إلا فيما بفقده يزول الوجوب .

ويناسب أن يكون هذا هو قول من قال : إن هذه الصدقة نسخت بفرض الزكاة ، وهو عن ابن عباس .

وقال فريق : الأمر للندب وهو يناسب قول من قال : إن فرض الزكاة كان سابقاً على نزول هذه الآية فإن شرع الزكاة أبطل كل حق كان واجباً في المال .

و ﴿ بين يدي نجواكم ﴾ معناه : قبل نجواكم بقليل ، وهي استعارة تمثيلية جرت مجرى المثل للقرب من الشيء قبيل الوصول إليه .

شبهت هيئة قرب الشيء من آخر بهيئة وصول الشخص بين يدي من يرد هو عليه تشبيه

معقول بمحسوس .

ويستعمل في قرب الزمان بتشبيه الزمان بالمكان كما هنا وهو كقوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ وقد تقدم في سورة [البقرة : 255] .

والإِشارة بذلك خير لكم ﴾ إلى التقديم المفهوم من "قدموا" على طريقة قوله:

﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة : 8] .

وقوله : ﴿ ذلك خير لكم وأطهر ﴾ تعريف بحكمة الأمر بالصدقة قبل نجوى الرسول صلى الله عليه وسلم ليرغب فيها الراغبون .

(99/752)

و ﴿ خير ﴾ يجوز أن يكون اسم تفضيل ، أصله : أَخْير وهو المزاوج لقوله : ﴿ وأطهر ﴾ أي ذلك أشد خيرية لكم من أن تناجوا الرسول صلى الله عليه وسلم بدون تقديم صدقة ، وإن كان في كلّ خير .

كقوله : ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ [البقرة : 271] .

ويجوز أن يكون اسماً على وزن فَعْل وهو مقابل الشّر ، أي تقديم الصدقة قبل النجوى فيه خير لكم وهو تحصيل رضى الله تعالى في حين إقبالهم على رسوله صلى الله عليه وسلم

فيحصل من الانتفاع بالمناجاة ما لا يحصل مثله بدون تقديم الصدقة .

وأما ﴿ أطهر ﴾ فهو اسم تفضيل لا محالة ، أي أطْهر لكم بمعنى : أشد طهراً ، والطهر هنا معنوي ، وهو طهر النفس وزكاؤها لأن المتصدق تتوجه إليه أنوار ربانية من رضى الله عنه فتكون نفسه زكية كما قال تعالى : ﴿ تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ [التوبة : 103] .

ومنه سميت الصدقة زكاة .

وصفة هذه الصدقة أنها كانت تعطى للفقير حين يعمد المسلم إلى الذهاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليناجيه .

وعذَر الله العاجزين عن تقديم الصدقة بقوله : ﴿ فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ﴾ أي فإن لم تجدوا ما تتصدقون به قبل النجوى غفر الله لكم المغفرةَ التي كانت تحصل لكم لو تصدقتم لأن من نوى أن يفعل الخير لو قدر عليه كان له أجر على نيته .

وأما استفادة أن غير الواجد لا حرج عليه في النجوى بدون صدقة فحاصلة بدلالة الفحوى لأنه لا يترك مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم فإن إرادة مناجاته الرسول صلى الله عليه وسلم ليست عبثاً بل لتحصيل علم من أمور الدين .

وأما قوله : ﴿ رحيم ﴾ فهو في مقابلة ما فات غير الواجد ما يتصدق به من تزكية النفس إشعاراً له بأن رحمة الله تنفعه .

واتفق العلماء على أن حكم هذه الآية منسوخ .

أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ

نزلت هذه الآية عقب التي قبلها : والمشهور عند جمع من سلف المفسرين أنها نزلت بعد عشرة أيام من التي قبلها .

وذلك أن بعض المسلمين القادرين على تقديم الصدقة قبل النجوى شق عليهم ذلك فأمسكوا عن مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم فأسقط الله وجوب هذه الصدقة ، وقد قيل : لم يعمل بهذه الآية غير علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ولعل غيره لم يحتج إلى نجوى الرسول صلى الله عليه وسلم واقتصد مما كان يناجيه لأدنى موجب .

فالخطاب لطائفة من المؤمنين قادرين على تقديم الصدقة قبل المناجاة وشقّ عليهم ذلك أو ثقل عليهم .

والإشفاق توقع حصول مالا يبتغيه ومفعول ﴿ أأشفقتم ﴾ هو ﴿ أن تقدموا ﴾ أي من أن تقدموا ، أي أأشفقتم عاقبة ذلك وهو الفقر .

قال المفسرون على أن هذه الآية ناسخة للتي قبلها فسقط وجوب تقديم الصدقة لمن يريد

مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم وروي ذلك عن ابن عباس واستبعده ابن عطية .

والاستفهام مستعمل في اللوم على تجهم تلك الصدقة مع ما فيها من فوائد لنفع الفقراء .

ثم تجاوز الله عنهم رحمة بهم بقوله تعالى : ﴿ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ الآية .

وقد علم من الاستفهام التوبيخي أي بعضاً لم يفعل ذلك .

و(إذ) ظرفية مفيدة للتعليل ، أي فحين لم تفعلوا فأقيموا الصلاة .

وفاء ﴿ فإذ لم تفعلوا ﴾ لتفريع ما بعدها على الاستفهام التوبيخي .

وجملة ﴿ وتاب الله عليكم ﴾ معترضة ، والواو اعتراضية .

وما تتعلق به (إذ) محذوف دل عليه قوله : ﴿ وتاب الله عليكم ﴾ تقديره : خففنا عنكم وأعفيناكم من أن تقدموا صدقة قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم وفاء ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ عاطفة على الكلام المقدر وحافظوا على التكاليف الأخرى وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله .

أي فذلك لا تسامح فيه ، قيل لهم ذلك لئلا يحسبوا أنهم كلما ثقل عليهم فعل مما كلفوا به يعفون منه .

وإذ قد كانت الزكاة المفروضة سابقة على الأمر بصدقة النجوى على الأصح كان فعل ﴿ آتوا ﴾ مستعملاً في طلب الدوام مثل فعل ﴿ فأقيموا ﴾ .

(101/752)

واعلم أنه يكثر وقوع الفاء بعد (إذْ) ومتعلَّقها كقوله تعالى : ﴿ وإذ لم يهتدوا به فيسقولون هذا إفك قديم ﴾ في سورة [الأحقاف : 11] .

﴿ و إذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ﴾ في سورة [الكهف : 16] .

وجملة والله خبير بما تعملون ﴾ تذييل لجملة ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وهو كناية عن التحذير من التفريط في طاعة الله ورسوله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(102/752)

وقال الشيخ الصابونى فى الآيات السابقة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ﴾

[2] نجوى الرسول صلى الله عليه وسلم

التحليل اللفظي

﴿ تفسحوا ﴾ : توسعوا في المجلس وليفسح بعضكم عن بعض ، من قولهم : إفسح عني أي تنح ، يقال : بلدة فسيحة ، ومفازه فسيحة ، ولك فيه فسحة أي سعة .

قال القرطبي : وفسح يفسح مث منع يمنع ، أي وسع في المجلس ، وفسح يفسح مثل كرم يكرم ، أي صار واسعا ، ومنه مكان فسيح .

﴿ انشزوا ﴾ : انهضوا وارتفعوا ، وأصله من النشز وهو المرتفع من الأرض ، قال في " اللسان " : النشز : المرتفع من الأرض ، ونشز الشيء : ارتفع ، وتل ناشز : مرتفع ، وفي التنزيل : ﴿ وإذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾ قرأها الناس بكسر الشين ، وأهل الحجاز يرفعونها ، وهي لغتان ومعناه : إذا قيل انهضوا وقوموا .

﴿ درجات ﴾ : أي منازل رفيعة ، جمع درجة وهي الرفعة في المنزلة ، مأخوذ من الدرج الذي يرقى به إلى السطح .

قال في اللسان : والدرجة : الرفعة في المنزلة ، والدرجة واحدة الدرجات ، وهي الطبقات من المراتب ، ودرجات الجنة : منازل أرفع من منازل .

﴿ نجواكم ﴾ : النجوى مصدر بمعنى التناجي وهو المسارة مأخوذة من (النجوة) وهي ما ارتفع من الأرض ، فالمتناجيان يخلوان بسرهما كخلو المرتفع من الأرض عما يتصل به .

وقيل : النجوى من المناجاة وهي الخلاص ، وكأن المتناجيين يتعاونان على أن يخلص

أحدهما الآخر .

ومعنى الآية : إذا أردتم مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم لأمر من الأمور فتصدقوا قبلها .

﴿ وأطهر ﴾ : أي أزكى لأنفسكم وأطيب عند الله .

﴿ ءأشفقتم ﴾ : الإشفاق : الخوف من المكروه ، والمعنى : أخفتم وبخلتم بالصدقة ، وشق ذلك عليكم ؟

قال ابن عباس : "أأشفقتم" أي أبخلتم بالصدقة . وهو استفهام معناه التقرير .

المعنى الإجمالي

يقول الله جل ثناؤه ما معناه : يا أيها المؤمنون إذا قيل لكم توسعوا في المجلس لإخوانكم القادمين فتوسعوا لهم ، وافسحوا لهم ، حتى يأخذ القادم مكانه في المجلس ، فإن ذلك سبب المودة والمحبة بينكم ، ومدعاة للألفة وصفاء النفوس ، وإذا فسحتم لهم فإن الله تعالى يفسح لكم في رحمته ، وينور قلوبكم ، ويوسع عليكم في الدنيا والآخرة .

وإذا قيل لكم - أيها المؤمنون - انهضوا إلى الصلاة ، والجهاد ، وعمل الخير فانهضوا ، أو

قيل لكم قوموا من مقاعدكم للتوسعة على غيركم فأطيعوا فإن الله تعالى يحب من عباده الطاعة ، ويرفع درجات المؤمنين ، والعلماء العاملين ، الذين يبتغون بعلمهم وجه الله ، فالعلماء ورثة الأنبياء ، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، وليست الرفعة عند الله تعالى بالسبق إلى صدور المجالس ، وإنما هي بالعلم والإيمان .

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين إذا أرادوا مناجاته عليه السلام لأمر من الأمور ، أن يتصدقوا قبل هذه المناجاة ، تعظيما لشأن الرسول صلى الله عليه وسلم ونفعا للفقراء ، وتمييزا بين المؤمن المخلص ، والمنافق المراوغ ، فإن ذلك أزكى للنفوس ، وأطهر للقلوب ، وأكرم عند الله تعالى ، فإذا لم يتيسر للمؤمن الصدقة فلا بأس عليه ولا حرج .

ثم أخبر تعالى بأن عمل الخير كالصدقة وغيرها لا ينبغي أن يخاف منها الإنسان ، فقال ما معناه : أخفتم تقديم الصدقات لما فيها من إنفاق المال ، فإذا لم تفعلوا ما أمرتم به ، وتاب الله عليكم ورخص لكم في الترك ، فأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ولا تفرطوا فيهما وفي سائر الطاعات لأن الله خبير بما تعملون .

سبب النزول

أ- روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوم جمعة في الصفة ، وفي المكان ضيق ، وكان عليه الصلاة والسلام يكرم أهل بدر من (المهاجرين والأنصار) فجاء ناس من أهل بدر ، منهم (ثابت بن قيس بن شماس) وقد سبقوا إلى المجلس ، فقاموا حيال النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي صلى الله عليه وسلم ثم سلموا على القوم فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فلم يفسحوا لهم ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لبعض من حوله : قم يا فلان ، ويا فلان ، فأقام نفرا مقدار من قدم ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لبعض من حوله : قم يا فلان ، ويا فلان فأقام نفرا مقدار من قدم ، فشق ذلك عليهم ، وعرفت كراهيته في وجوههم ، وقال المنافقون : ما عدل بإقامة من أخذ مجلسه ، وأحب قربه لمن تأخر عن الحضور ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم . . . ﴾ .

ب- وروي عن ابن عباس وقتادة : " أن قوما من المسلمين كثرت مناجاتهم للرسول عليه الصلاة والسلام ، في غير حاجة إلا لتظهر منزلتهم وكان صلى الله عليه وسلم سمحا لا يرد أحدا فنزلت هذه الآية ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول . . . ﴾ الآية .

ج- وروي عن مقاتل : أن الأغنياء كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيكثرون مناجاته ، ويغلبون الفقراء على المجالس ، حتى كره عليه الصلاة والسلام طول جلوسهم

ومناجاتهم فنزلت الآية : ﴿ إذا ناجيتم الرسول ﴾ .

وجوه القراءات

1- قوله تعالى : ﴿ إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس ﴾ قرأ الجمهور ﴿ تفسحوا ﴾ بتشديد السين ، وقرأ قتادة والحسن ﴿ تفاسحوا ﴾ .

2- قرأ الجمهور (في المجلس) بالإفراد على إرادة معنى الجمع ، وقرأ عاصم وقتادة (المجالس) بالجمع .

(105/752)

3- قوله تعالى : ﴿ انشزوا فانشزوا ﴾ : قرأ الجمهور بضم الشين فيهما ، وقرأ حمزة والكسائي ﴿ انشزوا فانشزوا ﴾ بكسر الشين فيهما ، قال الفراء : وهما لغتان مثل يعكفون ويعرشون .

4- قرأ الجمهور (فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) بالإفراد ، وقرئ (صدقات) بالجمع لجمع المخاطبين .

وجوه الإعراب

1- قوله تعالى : ﴿ يفسح الله لكم ﴾ يفسح مضارع لأنه جواب الطلب ، وحرك بالكسر

للتخلص من التقاء الساكنين ، ومثله ﴿ يرفع الله ﴾ مجزوم لأنه جواب الأمر كأنه قيل : إن تنشزوا يرفع الله عز وجل المؤمنين جزاء امتثالهم درجات .

2- قوله تعالى : ﴿ والذين أوتوا العلم درجات ﴾ قال أبو حيان : معطوف على الذين آمنوا عطف صفات .

والمعنى : يرفع الله المؤمنين العلماء درجات ، فالوصفات لذات واحدة .

واختار الطيبي : أن يكون في اللفظ تقدير يناسب المقام نحو أن يقال : يرفع الله الذين آمنوا في الدنيا بالنصر وحسن الذكر ، ويرفع الذين أوتوا العلم درجات تعظيما لهم .

3- قوله تعالى : ﴿ ءأشفقتم أن تقدموا ﴾ أن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول ل ﴿ ءأشفقتم ﴾ والله أعلم .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : لما نهى سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عما يكون سببا للتباعض والتنافر ، أمرهم في هذه الآيات بما يكون سببا لزيادة المحبة والمودة ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم شديدي الحرص على القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم والجلوس بين يديه حرصا على استماع كلامه ، فأمروا بالتوسعة على إخوانهم في المجلس تطييبا لقلوبهم ، وهذا هو السر في مجيء الآيات عقب آيات النهي عن التناجي بالإثم والعدوان .

اللطيفة الثانية : ذكر تعالى في أول الآية مكانة المؤمنين ، ثم عطف عليها بذكر مكانة العلماء ، والعطف في مثل هذا الموطن هو من باب (عطف الخاص على العام) تعظيما لشأن العلماء ، والعطف في مثل هذا الموطن هو من باب (عطف الخاص على العام) تعظيما لشأن العلماء كأنهم جنس آخر ، ولذا أعيد اسم لموصول في النظم الكريم في قوله تعالى :

﴿ والذين أوتوا العلم درجات ﴾ .

اللطيفة الثالثة : الأمر للمؤمنين بالصدقة عند مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم فيه فوائد عديدة :

أولها : تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيم مناجاته .

ثانيها : نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة .

ثالثها : الزجر عن الإفراط في الأسئلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

رابعها : التمييز بين المخلص والمنافق ، ومحب الدنيا ومحب الآخرة .

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ : في هذا اللفظ استعارة يسميها علماء البلاغة (استعارة تمثيلية) وأصل التركيب يستعمل فيمن له يدان كالإنسان فقد استعار اليدين للنجوى ، وقيل إنها (استعارة مكنية) حيث شبه النجوى بإنسان ، وحذف المشبه به وهو الإنسان ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو اليدان على

سبيل الاستعارة المكنية ومثله قوله تعالى : ﴿ بين يدي عذاب شديد ﴾ [سبأ : 46] وذكر اليدين تخييل .

اللطيفة الخامسة : أشاد القرآن بمنزلة العلماء الرفيعة ، ومكانتهم السامية عند الله تعالى ، ويكفيهم هذا الشرف والفخر وقد قال عليه الصلاة والسلام : " من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام ، فبينه وبين النبيين درجة " وقد ذكر بعض الظرفاء مناظرة رمزية بين (العقل والعلم) نذكرها لطرافتها قال بعض الأدباء :

علم العليم وعقل العاقل اختلفا . . . من ذا الذي منهما قد أحرز الشرفا ؟

فالعلم قال : أنا أدركت غايته . . . والعقل قال : أنا الرحمن بي عرفا

فأفصح العلم إفصاحا وقال له : . . . بأينا الله في فرقانه اتصفا ؟

(107/752)

فبان للعقل أن (العلم) سيده . . . فقبل (العقل) رأس العلم وانصرفا

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما المراد ب (المجالس) في الآية الكريمة ؟

اختلف المفسرون في المراد بالمجلس على ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المراد به مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة ، وهو قول مجاهد .

والثاني : أن المراد به مجلس الحرب ، ومقاعد القتال ، حيث كانوا لحرصهم على الشهادة يأبون التوسع ، وهو قول ابن عباس ، والحسن .

والثالث : أن المراد به مجالس الذكر كلها ، وهو قول قتادة وهو الأرجح .

قال الطبري : " والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره أمر المؤمنين ، أن يتفسحوا في المجلس ، ولم يخصص بذلك مجلس النبي صلى الله عليه وسلم دون مجلس القتال ، وكلا الموضعين يقال له : مجلس ، فذلك على جميع المجالس ، من مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ومجالس القتال " .

وقال القرطبي : " والصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر ، سواء كان مجلس حرب ، أو ذكر ، أو مجلس يوم الجمعة ، فإن كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه " .

الحكم الثاني : هل يباح الجلوس مكان الشخص بدون إذنه ؟

دلت الآية الكريمة على وجوب التوسع في المجلس للقادم ، وهذا من مكارم الأخلاق التي أرشد إليها الإسلام ، ولكن لا يباح للإنسان أن يأمر غيره بالقيام ليجلس مجلسه لقوله عليه الصلاة والسلام : " لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن تفسحوا و توسعوا " .

وقد جرى الحكم أن من سبق إلى مباح فهو أولى به ، والمجلس من هذا المباح ، وعلى القادم أن يجلس حيث انتهى به المجلس ، إلا أن الآداب الاجتماعية تقضي على الناس بتقديم أولي (الفضل والعلم) وبذلك جرى عرف الناس وعوائدهم في القديم والحديث .

(108/752)

ولقد كان هذا الأدب السامي شأن الصحابة في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم فكانوا يقدمون بالهجرة ، وبالعلم ، وبالسن ، وما فعله النبي عليه السلام في جماعة (ثابت بن قيس) من أهل بدر ، فإنما كان لتعليم الناس مكارم الأخلاق ، وخاصة من أهل الفضل والعلم ، من المهاجرين والأنصار .

أ- روى ابن العربي بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : " بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وقد طاف به أصحابه ، إذ أقبل علي بن أبي طالب فوقف وسلم ، ثم نظر مجلسا يشبهه ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجوه أصحابه أيهم يوسع له ، وكان أبو بكر جالسا على يمين النبي صلى الله عليه وسلم فتزحزح له عن محله ، وقال : ها هنا يا أبا الحسن !

فجلس بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أبي بكر ، فقال يا أبا بكر : إنما يعرف الفضل ،

لأهل الفضل ، ذوو الفضل " .

ب- وثبت في الصحيح أن عمر بن الخطاب كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة ، فكلموه في ذلك فدعاهم ودعاه ، وسألهم عن تفسير ﴿ إذا جآء نصر الله والفتح ﴾ [النصر : 1] فسكتوا ، فقال ابن عباس : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه إياه ، فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم ، ثم قال : بهذا قدمت الفتى .

وإذا قام الإنسان من مجلسه لحاجة ثم رجع إليه فهو أحق بالمجلس لقوله عليه الصلاة والسلام : " من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به " .

الحكم الثالث : هل يجوز القيام للقادم إذا كان من أهل الفضل والصلاح ؟

ذهب جمهور الفقهاء إلى جواز القيام للقادم إذا كان مسلما من أهل الفضل والصلاح على وجه التكريم لأن احترام المسلم واجب ، وتكريمه لدينه وصلاحه مما يدعو إليه الإسلام ، لأنه سبيل المحبة والمودة ، وقد قال عليه السلام : " لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه بوجهك " .

فالقيام للقادم جائز على وجه التكرمة ، إن لم يكن فاسقا ، ولم يكن سبيلا للكبرياء والخيلاء ، وما لم يصبح ديدنا للإنسان عند كل دخول أو خروج ، وفي كل حين وآن فعند ذلك يكره .

قال العلامة ابن كثير : " وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال ، فمنهم من رخص في ذلك محتجا بحديث (قوموا إلي سيدكم) . ومنهم من منع من ذلك محتجا بحديث : " من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار " ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم في محل ولايته ، كما دل عليه قصة (سعد بن معاذ) فإنه لما استقدمه النبي صلى الله عليه وسلم حاكما في بني قريظة فرآه مقبلا قال للمسلمين : قوموا إلى سيدكم ، وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه والله أعلم .

أقول : جمهور العلماء على جواز القيام للقادم ، إلا إذا كان فاسقا ، أو عاصيا ، أو مرتكبا لكبيرة ، أو مشهورا بالكبر ، وحب الظهور ، وأما ما استدل به بعضهم من منع القيام بحديث : " من أحب أن يتمثل له الناس قياما . . . " الحديث فليس فيه دليل لهم ، لأن الرسول عليه السلام لم يطلق اللفظ وإنما قيده بوصف يدل على الكبرياء وحب الظهور " من أحب أن يتمثل له الناس قياما " ولم يقل صلوات الله " من قام له الناس فليتبوأ مقعده من النار " ولا شك أن هذا الوصف لا ينطبق إلا على المتكبر المغرور ، والفرق دقيق بين اللفظين فلا ينبغي أن يغفل عنه .

وأما ما يقوله بعضهم : من أن القيام ركن من أركان الصلاة ، فلذلك يحرم ، لأنه يشبه العبادة . . . إلخ فهذا جهل مطبق لا يصدر من فقيه عالم يتصدى لاستنباط الأحكام ! !

(110/752)

كيف والصلاة تشتمل على أركان كثيرة كالقعود ، وقراءة القرآن ، والتشهد ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأقوال – كما هو مذهب الإمام الشافعي – فهل يقول أحد : إن الجلوس بين يدي العالم حرام لأنه ركن من أركان الصلاة ؟ وإن تلاوة القرآن لا تجوز أمام أحد لأنها ركن من أركان الصلاة ؟ وإن الصلاة على النبي عليه السلام حرام في حضرة الناس لأنها ركن من أركان الصلاة ؟ ! !

وقياس القيام على الركوع والسجود في الحرمة ، قياس مع الفارق ، وهو قياس باطل ، لأن الركوع والسجود لا يجوز لغير الله كما قال عليه السلام : " لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها " وقد ورد في تحريمه النص القاطع ، أما القيام ، والقعود ، والاضطجاع ، فليس من هذا القبيل ، وكفانا الله شر الجهل ، وحماقة المتطفلين على العلم والعلماء ! !

الحكم الرابع : هل الصدقة عند مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم واجبة ؟

اختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ هل الأمر للوجوب أو الندب ؟

فقال بعضهم : إن الأمر للوجوب ، ويؤيد هذا قوله تعالى في آخر الآية : ﴿ فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ﴾ ومثل هذا لا يقال إلا في الواجبات التي لا يصح تركها .

وقال آخرون : إن الأمر للندب والاستحباب ، وذلك لأن الله تعالى قال في الآية : ﴿ ذلك خير لكم وأطهر ﴾ ومثل هذا قرينة تصرف الأمر عن ظاهره ، وهو إنما يستعمل في التطوع دون الفرض .

ومن جهة أخرى : فإن الله تعالى قال في الآية التي بعد هذه مباشرة ﴿ ءأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ ؟ وهذا يزيل ما في الأمر الأول من احتمال الوجوب ، ويبقى الأمر للندب .

واتفق العلماء على أن الآية منسوخة ، نسختها الآية التي بعدها ﴿ ءأشفقتم أن تقدموا ﴾ وقد اختلفوا في مقدار تأخر الناسخ عن المنسوخ ، فقيل : بقي التكليف عشرة أيام ثم نسخ ، وقيل : ما بقي إلا ساعة من النهار ثم نسخ .

وقد روي عن علي كرم الله وجهه أنه قال : (إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ، ولا يعمل بها أحد بعدي ، كان لي دينار فاشتريت به عشرة دراهم ، فكلما ناجيت الرسول صلى الله عليه وسلم قدمت بين يدي نجواي درهما ، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد) .

قال القرطبي : (وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل ، وما روي عن علي رضي الله عنه ضعيف ، لأن الله تعالى قال : ﴿ فإذ لم تفعلوا ﴾ وهذا يدل على أن أحدا لم يتصدق بشيء ، والله أعلم) .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولا : وجوب التوسعة في المجلس للقادم لأنها من مكارم الأخلاق .

ثانيا : التوسعة للمؤمن في المجلس سبب لرحمة الله عز وجل وطريق لرضوانه .

ثالثا : الرفعة عند الله والعزة والكرامة إنما تكون بالعلم والإيمان .

رابعا : وجوب تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم وعدم الإثقال عليه في المناجاة .

خامسا : تقديم الصدقة قبل المناجاة مظهر من مظاهر تكريم الرسول صلى الله عليه وسلم .

سادسا : نسخ الأحكام الشرعية لمصلحة البشر تخفيف من الله تعالى على عباده .

سابعا : الصلاة والزكاة أعظم أركان الإسلام ولهذا قرن القرآن الكريم بينهما في كثير من الآيات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روائع البيان حـ 2 صـ 536 . 548 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

أخرج الفريابي وعبد بن حميد عن مجاهد ﴿ يحادون ﴾ قال : يتشاقون .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ إن الذين يحادون الله رسوله ﴾ قال : يجادلون الله ورسوله ﴿ كبتوا كما كبت الذين من قبلهم ﴾ قال : خزوا كما خزي الذين من قبلهم .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن الضحاك ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ﴾ قال : هو الله على العرش وعلمه معهم .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ﴾ قال : اليهود .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : كان بين يهود وبين النبي صلى الله عليه وسلم موادعة فكانوا إذا مر بهم رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جلسوا يتناجون

بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن ، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن النجوى فلم ينتهوا ، فأنزل الله ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ﴾ الآية .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبزار وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان بسند جيد عن ابن عمرو رضي الله عنه أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : سام عليك ، يريدون بذلك شتمه – ثم يقولون في أنفسهم : ﴿ لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ فنزلت هذه الآية ﴿ وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ .

(113/752)

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري والترمذي وصححه عن أنس "أن يهودياً أتى على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال : السام عليكم ، فرد عليه القوم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هل تدرون ما قال هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم يا نبي الله ، قال : لا . ولكنه قال : كذا وكذا ، ردوه عليّ فردوه ، قال : قلت السام عليكم ، قال : نعم قال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك : إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا عليك ما قلت ، قال : ﴿ وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ " .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن عائشة قالت : " دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقالت عائشة : وعليكم السام واللعنة ، فقال : يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش ، قلت : ألا تسمعهم يقولون السام عليك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما سمعت ما أقول : وعليكم ، فأنزل الله ﴿ وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في هذه الآية قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حيوه : سام عليك فنزلت .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ يقولون : سام عليك هم أيضاً يهود .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9)

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية وأغزاها التقى المنافقون فانغضوا رؤوسهم إلى المسلمين ، ويقولون : قتل القوم ، وإذا رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تناجوا وأظهروا الحزن فبلغ ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم ومن المسلمين ، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإِثم والعدوان ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : كان المنافقون يتناجون بينهم ، فكان ذلك يغيظ المؤمنين ويكبر عليهم ، فأنزل الله في ذلك ﴿ إنما النجوى من الشيطان ﴾ الآية .

وأخرج البخاري ومسلم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث فإن ذلك يحزنه " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال : "كنا نتناوب رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرقه أمر أو يأمر بشيء فكثر أهل النوب والمحتسبون ليلة حتى إذا كنا نتحدث فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل فقال : ما هذه النجوى ؟ ألم تنهوا عن النجوى ؟ " .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا ﴾ الآية .

أخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه كان يقرأها " تفسحوا في المجالس بالألف فافسحوا

يفسح الله لكم " وقال : في القتال ﴿ وإذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾ قال : إذا قيل : انهدوا إلى الصدر فانهدوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس ﴾ قال : مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ﴾ .

(115/752)

وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ إذا قيل لكم تفسحوا ﴾ الآية قال : نزلت هذه الآية في مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنوا بمجالسهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن في الآية قال : كانوا يجيئون فيجلسون ركاماً بعضهم خلف بعض ، فأمروا أن يتفسحوا في المجلس فانفسح بعضهم لبعض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : أنزلت هذه الآية يوم جمعة وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ في الصفة ، وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من

المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجلس ، فقاموا حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فعرف النبي صلى الله عليه وسلم ما يحملهم على القيام فلم يفسح لهم ، فشق ذلك عليه فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : قم يا فلان ، وأنت يا فلان ، فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام من أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، فنزلت هذه الآية .

وأخرج البخاري ومسلم عن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس ﴾ قال : ذلك في مجلس القتال ﴿ وإذا قيل انشزوا ﴾ قال : إلى الخير والصلاة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ وإذا قيل انشزوا ﴾ قال : إلى كل خير قتال عدوّ وأمر بمعروف أو حق ما كان .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ وإذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾ يقول : إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا .

وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في المدخل عن ابن عباس في قوله : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ قال : يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم درجات .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال : تفسير هذه الآية : يرفع الله الذين آمنوا منكم وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات .

وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال : ما خص الله العلماء في شيء من القرآن ما خصهم في هذه الآية ، فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12)

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ إذا ناجيتم الرسول ﴾ الآية قال : إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلما قال ذلك : امتنع كثير من الناس وكفوا عن المسألة فأنزل الله بعد هذا ﴿ أأشفقتم ﴾ الآية فوسع الله عليهم ولم يضيق .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر

وابن مردويه والنحاس عن علي بن أبي طالب قال: " لما نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ الآية قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: " ما ترى ديناراً قلت: لا يطيقونه، قال: فنصف دينار، قلت: لا يطيقونه، قال: فكم قلت شعيرة؟ قال: إنك لزهيد، قال: فنزلت ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ قال: في خفف الله عن هذه الأمة " ".

(117/752)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن علي قال: ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت وما كانت إلا ساعة يعني آية النجوى.

وأخرج سعيد بن منصور وابن راهويه وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن عليّ قال: إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي آية النجوى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم، فكنت كلما ناجيت النبي صلى الله عليه وسلم قدمت بين يدي درهماً، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد فنزلت ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ الآية.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : نهوا عن مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يقدموا صدقة فلم يناجه إلا عليّ بن أبي طالب ، فإنه قد قدم ديناراً فتصدق به ، ثم ناجى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن عشر خصال ، ثم نزلت الرخصة .

وأخرج سعيد بن منصور عن مجاهد قال : كان من ناجى النبي صلى الله عليه وسلم تصدق بدينار ، وكان أول من صنع ذلك علي بن أبي طالب ، ثم نزلت الرخصة ﴿ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال : إن الأغنياء كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيكثرون مناجاته ، ويغلبون الفقراء على المجالس ، حتى كره النبي صلى الله عليه وسلم طول جلوسهم ومناجاتهم ، فأمر الله بالصدقة عند المناجاة ، فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً ، وكان ذلك عشر ليال ، وأما أهل الميسرة فمنع بعضهم ماله وحبس نفسه إلا طوائف منهم جعلوا يقدمون الصدقة بين يدي النجوى ، ويزعمون أنه لم يفعل ذلك غير رجل من المهاجرين من أهل بدر فأنزل الله ﴿ أأشفقتم ﴾ الآية .

وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند فيه ضعف عن سعد بن أبي وقاص قال : نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ فقدمت شعيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنك لزهيد " فنزلت الآية الأخرى ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ .

وأخرج أبو داود في ناسخه وابن المنذر من طريق عطاء الخراساني عن ابن عباس في المجادلة ﴿ إذا ناجيتم الرسول فقدوا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ قال : نسختها الآية التي بعدها ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن سلمة بن كهيل ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول ﴾ الآية قال : أول من عمل بها عليّ رضي الله عنه ثم نسخت ، والله أعلم . انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 79 . 85 ﴾

(119/752)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (15) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر بإحاطة علمه ردعاً لمن يغتر بطول حلمه ، دل على ذلك باطلاعه على نفاق المنافقين الذي هو أبطن الأشياء ، فقال معجباً مرهباً معظماً للمقام بتخصيص الخطاب بأعلى الخلق . صلى الله عليه وسلم . تنبيهاً على أنه لا يفهم ذلك حق فهمه غيره : ﴿ ألم تر ﴾ ودل على بعدهم عن الخير بحرف الغاية فقال : ﴿ إلى الذين تولوا ﴾ أي تكلفوا بغاية جهدهم أن جعلوا أولياءهم الذين ينزلون بهم أمورهم ﴿ قوماً ﴾ ابتغوا عندهم العزة اغتراراً بما يظهر لهم منهم من القوة ﴿ غضب الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لا ند له ﴿ عليهم ﴾ أي على المتولين والمتوَلّين لأنهم قطعوا ما بينهم وبينه ، والأولون هم المنافقون تولوا اليهود ، وزاد في الشناعة عليهم بقوله مستأنفاً : ﴿ ما هم ﴾ أي اليهود المغضوب عليهم ﴿ منكم ﴾ أيها المؤمنون لتوالوهم خوفاً من السيف ورغبة في السلم ﴿ ولا منهم ﴾ أي المنافقين ، فتكون موالاتهم لهم لمحبة سابقة وقرابة شابكة ، ليكون ذلك لهم عذراً ، بل هم مذبذبون ، فهم مع المؤمنين بأقوالهم ، ومع الكفار بقلوبهم ، فما تولوهم إلا عشقاً في النفاق لمقاربه ما بينهم فيه ، أو يكون المعنى : ما المنافقون المتولون من المسلمين ولا من اليهود المتولين ، وزاد في الشناعة عليهم بأقبح الأشياء الحامل على كل رذيلة ، فقال ذاكراً لحالهم في هذا الاتحاد : ﴿ ويحلفون ﴾ أي المنافقون يجددون الحلف على الاستمرار ،

ودل بأداة الاستعلاء على أنهم في غاية الجرأة على استمرارهم على الأيمان الكاذبة بأن التقدير : مجترئين ﴿ على الكذب ﴾ في دعوى الإسلام وغير ذلك مما يقعون فيه من عظائم الآثام ، فإذا عوتبوا عليه بادروا إلى الإيمان .

(120/752)

ولما كان الكذب قد يطلق في اللغة على ما يخالف الواقع وإن كان عن غير تعمد بأن يكون الحالف يجهل عدم مطابقته للواقع ، قال نافياً لذلك مبيناً أنهم جرؤوا على اليمين الغموس : ﴿ وهم يعلمون ﴾ أي أنهم كاذبون فهم متعمدون ، وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأصحابه : " " يدخل عليكم رجل قلبه قلب جبار وينظر بعيني شيطان " ، فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق أسمر قصيراً خفيف اللحية ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " علام تشتمني أنت وأصحابك ، فحلف بالله ما فعل " فقال له : فعلت .

فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه " ، فنزلت .

ولما أخبر عن حالهم ، أتبعه الإخبار عن مآلهم ، فقال دالاًّ - كما قال القشيري - على أن - من وافق مغضوباً عليه أشرك نفسه في استحقاق غضب من هو غضبان عليه ، فمن تولى مغضوباً عليه من قبل الله استوجب غضب الله وكفى بذلك هواناً وحزناً وحرماناً ،

معبراً بما دل على أنه أمر قد فرغ منه : ﴿ أعد الله ﴾ أي الذي له العظمة الباهرة فلا كفوء له ، وعبر بما دل على التهكم بهم فقال : ﴿ لهم عذاباً ﴾ أي أمراً قاطعاً لكل عذوبة ﴿ شديداً ﴾ يعلم من رآه ورآهم أن ذواتهم متداعية إليه ضعيفة عنه .

ولما أخبر بعذابهم ، علله بما دل على أنه واقع في أتم مواقعه فقال مؤكداً تقبيحاً على من كان يستحسن أفعالهم : ﴿ إنهم ساء ﴾ أي بلغ الغاية مما يسوء ، ودل على أن ذلك كان لهم كالجبلة بقوله : ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ أي يجددون عمله مستمرين عليه لا ينفكون عنه من غشهم المؤمنين ونصحهم الكافرين وعيبهم للإسلام وأهله ، واجترائهم على الأيمان الكاذبة ، وأصروا على ذلك حتى زادهم التمرن عليه جرأة على جميع المعاصي .

(121/752)

ولما دلت هذه الجملة على سوء أعمالهم ومداومتهم عليها ، أكد ذلك بقوله :

﴿ اتخذوا ﴾ أي كلفوا فطرهم الأولى المستقيمة لما لهم من العراقة في اعوجاج الطبع والمحبة للأذى ﴿ أيمانهم ﴾ الكاذبة التي لا تهون على من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ﴿ جنة ﴾ أي وقاية وسترة من كل ما يفضحهم من النفاق كائناً ما كان ، أو يوجب قتلهم بما يقع منهم من الكفران .

ولما كان علمهم بأنه يرضى منهم بالظاهر ويصدق أيمانهم هو الذي جرأهم على العظائم ، فكانوا يرغبون الناس في النفاق بعاجل الشهوات ويثبطونهم عن الدين بما فيه من عاجل الكلف وآجل الثواب ، سبب عن قبول إيمانهم قوله مظهراً بزيادة التوبيخ لهم :

﴿ فصدوا ﴾ أي كان قبول ذلك منهم وتأخير عقابهم سبباً لإيقاعهم الصد ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي شرع الملك الأعلى الذي هو الطريق إلى رضوانه الذي هو سبب الفوز الأعظم ، فإنهم كانوا يثبطون من لقوا عن الدخول في الإسلام ويوهون أمره ويحقرونه ، ومن رآهم قد خلصوا من المكاره بأيمانهم الحانثة وردت عليهم الأرزاق استدراجاً وحصلت لهم الرفعة عند الناس بما يرضونهم من أقوالهم المؤكدة بالأيمان غره ذلك فاتبع سنتهم في أقوالهم وأفعالهم ، ونسج على منوالهم ، غروراً بظاهر أمرهم ، معرضاً عما توعدهم الله سبحانه عليه من جزاء خداعهم ومكرهم ، وأجرى الأمر على أسلوب التهكم باللام التي تكون في المحبوب فقال : ﴿ فلهم ﴾ أي فتسبب عن صدهم أنهم كان لهم ﴿ عذاب مهين ﴾ جزاء بما طلبوا بذلك الصد إعزاز أنفسهم وإهانة أهل الإسلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 503.501 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾

كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم في قوله : ﴿ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : 60] وينقلون إليهم أسرار المؤمنين : ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ ﴾ أيها المسلمون ولا من اليهود ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب ﴾ والمراد من هذا الكذب إما ادعاؤهم كونهم مسلمين ، وإما أنهم كانوا يشتمون الله ورسوله ويكيدون المسلمين فإذا قيل لهم : إنكم فعلتم ذلك خافوا على أنفسهم من القتل ، فيحلفون أنا ما قلنا ذلك وما فعلناه ، فهذا هو الكذب الذي يحلفون عليه .

واعلم أن هذه الآية تدل على فساد قول الجاحظ إن الخبر الذي يكون مخالفاً للمخبر عنه إنما يكون كذباً لو علم المخبر كون الخبر مخالفاً للمخبر عنه ، وذلك لأن لو كان الأمر على ما ذهب إليه لكان قوله : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ تكراراً غير مفيد ، يروى أن عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجرته إذ قال : يدخل عليكم رجل ينظر بعين شيطان أو بعيني شيطان فدخل رجل عيناه زرقاوان فقال له : لم تسبني فجعل يحلف فنزل قوله :

﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (15)

والمراد منه عند بعض المحققين عذاب القبر .

اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (16)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(123/752)

قرأ الحسن : ﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ بكسر الهمزة ، قال ابن جني : هذا على حذف المضاف ، أي اتخذوا ظهار إيمانهم جنة عن ظهور نفاقهم وكيدهم للمسلمين ، أو جنة عن أن يقتلهم المسلمون ، فلما أمنوا من القتل اشتغلوا بصد الناس عن الدخول في الإسلام بإلقاء الشبهات في القلوب وتقبيح حال الإسلام .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي عذاب الآخر ، وإنما حملنا قوله : ﴿ أَعَدَّ الله لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ على عذاب القبر ، وقوله ههنا : ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ على عذاب الآخر ، لئلا يلزم التكرار ، ومن الناس من قال : المراد من الكل عذاب الآخرة ، وهو كقوله :

﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله زدناهم عَذَاباً فَوْقَ العذاب ﴾ [النحل : 88] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 238. 239 ﴾

(124/752)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين تَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ الله عَلَيْهِم ﴾

قال قتادة : هم المنافقون تولّوا اليهود ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ ﴾ يقول : ليس المنافقون من اليهود ولا من المسلمين بل هم مذبذبون بين ذلك ، وكانوا يحملون أخبار المسلمين إليهم .

قال السّدي ومقاتل : نزلت في عبد الله بن أبيّ وعبد الله بن نَبْتَل المنافقَيْن ؛ كان أحدهما يجالس النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، " فبينا النبيّ صلى الله عليه وسلم في حجرة من حجراته إذ قال : "يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعيني شيطان" فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق أسمر قصيراً خفيف اللحية فقال عليه الصلاة والسلام : "علام تشتمني أنت وأصحابك" فحلف بالله ما فعل ذلك .

فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "فعلت" فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه ؛ فنزلت هذه الآية " وقال معناه ابن عباس .

روى عِكرمة عنه ؛ قال : "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم جالساً في ظل شجرة قد كاد الظل يتقلص عنه إذ قال : "يجيئكم الساعة رجل أزرق ينظر إليكم نظر شيطان" فنحن على ذلك إذ أقبل رجل أزرق ، فدعا به النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "علام تشتمني أنت وأصحابك" قال : دعني أجيئك بهم .

فمرّ فجاء بهم فحلفوا جميعاً أنه ما كان من ذلك شيء ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً ﴾ إلى قوله : ﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ "واليهود مذكورون في القرآن ب ﴿ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم ﴾ .

﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ ﴾ أي لهؤلاء المنافقين ﴿ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ في جهنم وهو الدرك الأسفل .

﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بئس الأعمال أعمالهم ﴿ اتخذوا أَيمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ يستجِنُّون بها من القتل .

وقرأ الحسن وأبو العالية "إِيمَانَهُمْ" بكسر الهمزة هنا وفي "الْمُنَافقون" .

أي إقرارهم اتخذوه جنة ، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل ، وكفرت قلوبهم ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار .

والصدّ المنع ﴿ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أي عن الإسلام .

وقيل : في قتلهم بالكفر لما أظهروه من النفاق .

وقيل : أي بإلقاء الأراجيف وتثبيط المسلمين عن الجهاد وتخويفهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(126/752)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾

تعجيب من حال المنافقين الذين كانوا يتخذون اليهود أولياء ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ، وفيه على ما قال الخفاجي : تلوين للخطاب بصرفه عن المؤمنين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أي ألم تنظر ﴿ إِلَى الذين تَوَلَّوْاْ ﴾ أي والوا ﴿ قَوْماً غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ وهم اليهود ﴿ مَّا هُم ﴾ أي الذين تولوا ﴿ مّنكُمْ ﴾ معشر المؤمنين ﴿ وَلاَ مِنْهُمْ ﴾ أي من أولئك القوم المغضوب عليهم أعني اليهود لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك ،

وفي الحديث "مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين غنمين أي المترددة بين قطيعين لا تدري أيهما تتبع" .

وجوز ابن عطية أن يكون ﴿ هُمْ ﴾ للقوم ، وضمير ﴿ مِنْهُمْ ﴾ للذين تولوا ، ثم قال : فيكون فعل المنافقين على هذا أخس لأنهم تولوا مغضوباً عليهم ليسوا من أنفسهم فيلزمهم ذمامهم ولا من القوم المحقين فتكون الموالاة صواباً ؛ والأول هو الظاهر والجملة عليه مستأنفة ، وجوز كونها حالاً من فاعل ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ ورد بعدم الواو ، وأجيب بأنهم صرحوا بأن الجملة الاسمية المثبتة أو المنفية إذا وقعت حالاً تأتي بالواو فقط وبالضمير فقط وبهما معاً ، وما ههنا أتت بالضمير أعني هم ، وعلى ما قال ابن عطية : في موضع الصفة لقوم .

(127/752)

وذكر المولى سعد الله أن في ﴿ مّنكُمْ ﴾ التفاتاً ، وتعقب بأنه إن غلب فيه خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم فظاهر أنه لا التفات فيه وإن لم يغلب فكذلك لا التفات فيه إذ ليس فيه مخالفة لمقتضى الظاهر لسبق خطابهم قبله ، وفي جعله التفاتاً على رأي السكاكي نظر ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب ﴾ عطف على ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ داخل في حيز التعجيب ، وجوز عطفه على جملة ﴿ مَّا هُم مّنكُمْ ﴾ وصيغة المضارع للدلالة على تكرر الحلف ، وقوله

تعالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ حال من فاعل يحلفون مفيدة لكمال شناعة ما فعلوا فإن الحلف على ما يعلم أنه كذب في غاية القبح ، واستدل به على أن الكذب يعم ما يعلم المخبر مطابقته للواقع وما لا يعلم مطابقته له فيرد به على مذهبي النظام .

والجاحظ إذ عليهما لا حاجة إليه ، وبحث فيه أنه يجوز أن يراد بالكذب ما خالف اعتقادهم ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ بمعنى يعلمون خلافه فكيون جملة حالية مؤدة لا مقيدة ، نعم التأسيس هو الأصل لكنه غير متعين ، والاحتمال يبطل الاستدلال والكذب الذي حلفوا عليه دعواهم الإسلام حقيقة ، وقيل : إنهم ما شتموا النبي صلى الله عليه وسلم بناءاً على ما روى "أنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين ، فقال : إنكم سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فإذا جاءكم فلا تكلموه فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق فقال عليه الصلاة والسلام حين رآه : علام تشتمني أنت وأصحابك فقال : ذرني آتك بهم فانطلق فدعاهم فخلفوا" فنزلت ، وهذا الحديث أخرجه الإمام أحمد .

والبزار .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والبيهقي في "الدلائل" .

وابن مردويه .

(128/752)

والحاكم وصححه عن ابن عباس إلا أن آخره "فأنزل الله ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ [المجادلة : 18] "الآية والتي بعدها ، ولعله يؤيد أيضاً اعتبار كون الكذب دعواهم أنهم ما شتموا .

وفي "البحر" رواية نحو ذلك عن السدي .

ومقاتل ، وهو أنه عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه : يدخل عليكم رجل قلبه قلب جبار وينظر بعيني شيطان فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق أمسر قصيراً خفيف اللحية فقال صلى الله عليه وسلم : علام تشتمني أنت وأصحابك فحلف بالله ما فعل فقال له : فعلت فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فنزلت ، والله تعالى أعلم بصحته .

وعبد الله هذا هو الرجل المبهم في الخبر الأول ، وهو ابن نبتل بفتح النون وسكون الباء الموحدة وبعدها تاء مثناة من فوق ولام ابن الحرث بن قيس الأنصاري الأوسي ذكره ابن الكلبي .

والبلاذري في المنافقين ، وذكره أبو عبيدة في الصحابة فيحتمل كما قال ابن حجر : إنه اطلع على أنه تاب ، وأما قوله في "القاموس" : عبد الله بن نبيل كأمير من المنافقين فيحتمل أنه هو هذا ، واختلف في ضبط اسم أبيه ويحتمل أنه غيره .

﴿ أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ نوعاً من العذاب متفاقماً ﴿ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ما اعتادوا عمله وتمرنوا عليه .

(129/752)

﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ الفاجرة التي يحلفون بها عند الحاجة ﴿ جُنَّةً ﴾ وقاية وسترة عن المؤاخذة ، وقرأ الحسن إيمانهم بكسر الهمزة أي إيمانهم الذي أظهروه للنبي صلى الله عليه وسلم وخلص المؤمنين ؛ قال في "الإرشاد" : والاتخاذ على هذا عبارة عن التستر بالفعل كأنه قيل : تستروا بما أظهروه من الإيمان عن أن تستباح دماؤهم وأموالهم ، وعلى قراءة الجمهور عبارة عن إعدادهم لأيمانهم الكاذبة وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويخلصوا عن المؤاخذة لا عن استعمالها بالفعل فإن ذلك متأخر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية ، وعن سببها أيضاً كما يعرب عنه الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَصَدُّوا ﴾ أي الناس .

﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ في خلال أمنهم بتثبيط من لقوا عن الدخول في الإسلام وتضعيف أمر المسلمين عندهم ، وقيل : فصدوا المسلمين عن قتلهم فإنه سبيل الله تعالى فيهم ، وقيل : ﴿ صدوا ﴾ لازم ، والمراد فأعرضوا عن الإسلام حقيقة وهو كما ترى ﴿ اللهُ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وعيد ثان بوصف آخر لعذابهم ، وقيل : الأول عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة ، ويشعر به وصفه بالإهانة المقتضية للظهور فلا تكرار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(130/752)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾

هذه حالة أخرى من أحوال أهل النفاق هي تولّيهم اليهود مع أنهم ليسوا من أهل ملتهم لأن المنافقين من أهل الشرك .

والجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً لأنها عود إلى الغرض الذي سبقت فيه آيات ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا ﴾ [المجادلة : 5] بعد أن فصل بمستطردات كثيرة بعده .

والقوم الذين غضب الله عليهم هم اليهود وقد عرفوا بما يرادف هذا الوصف في القرآن في

قوله تعالى : ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ [الفاتحة : 7] .

والاستفهام تعجيبي مثل قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ﴾ [المجادلة : 8] .

ووجه التعجيب من حالهم أنهم تولَّوْا قوماً من غير جنسهم وليسوا في دينهم ما حملهم على توليهم إلا اشتراك الفريقين في عداوة الإسلام والمسلمين .

وضمير ﴿ ما هم ﴾ يحتمل أن يعود إلى ﴿ الذين تولوا ﴾ وهم المنافقون فيكون جملة ﴿ ما هم منكم ولا منهم ﴾ حالاً من ﴿ الذين تولوا ﴾ ، أي ما هم مسلمون ولا يهود .

ويجوز أن يعود الضمير إلى ﴿ قوماً ﴾ وهم اليهود .

فتكون جملة ﴿ ما هم منكم ﴾ صفة ﴿ قوماً ﴾ قوماً ليسوا مسلمين ولا مشركين بل هم يهود .

وكذلك ضمير ﴿ ولا منهم ﴾ يحتمل الأمرين على التعاكس وكلا الاحتمالين واقع .

ومراد على طريقة الكلام الموجه تكثيراً للمعاني مع الإيجاز فيفيد التعجيب من حال المنافقين أن يتولوا قوماً أجانب عنهم على قوم هم أيضاً أجانب عنهم ، على أنهم إن كان يفرق بينهم وبين المسلمين اختلاف الدّين فإن الذي يفرق بينهم وبين اليهود اختلاف الدين واختلاف النسب لأن المنافقين من أهل يثرب عرب ويفيد بالاحتمال الآخر الإخبار عن المنافقين بأن إسلامهم ليس صادقاً ، أي ما هم منكم أيها المسلمون ، وهو المقصود .

ويكون قوله : ﴿ ولا منهم ﴾ على هذا الاحتمال احتراساً وتتميماً لحكاية حالهم ، وعلى هذا الاحتمال يكون ذم المنافقين أشد لأنه يدل على حماقتهم إذ جعلوا لهم أولياء مَن ليسوا على دينهم فهم لا يوثق بولايتهم وأضمروا بغض المسلمين فلم يصادفوا الدين الحق .

﴿ ويحلفون على الكذب ﴾ عطف على ﴿ تولوا ﴾ وجيء به مضارعاً للدلالة على تجدده ولاستحضار الحالة العجيبة في حين حلفهم على الكذب للتنصل مما فعلوه .

والكذب الخبر المخالف للواقع وهي الأخبار التي يخبرون بها عن أنفسهم في نفي ما يصدر منهم في جانب المسلمين .

﴿ وهم يعلمون ﴾ جملة في موضع الحال ، وذلك أدخل في التعجيب لأنه أشنع من الحلف على الكذب لعدم التثبت في المحلوف عليه .

وأشار هذا إلى ما كان يحلفه المنافقون للنبيء صلى الله عليه وسلم وللمسلمين إذا كشف لهم بعض مكائدهم ، ومن ذلك قول الله تعالى فيهم : ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ﴾ [التوبة : 56] ، وقوله : ﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ﴾ [التوبة : 62] وقوله : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ﴾ [التوبة : 74] .

قال السدّي ومقاتل : نزلت في عبد الله بن أبي وعبد الله بن نبتل (بنون فباء موحدة فمثناة فوقية) كان أحدهما وهو عبد الله بن نبتل يجالس النبي صلى الله عليه وسلم ويرفع أخباره

إلى اليهود ويسبّ النبي صلى الله عليه وسلم فإذا بلغ خبره أو أطلعه الله عليه جاء فاعتذر وأقسم إنه ما فعل .

وجملة ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ تعليل لإِعداد العذاب الشديد لهم ، أي أنهم عملوا فيما مضى أعمالاً سيئة متطاولة متكررة كما يؤذن به المضارع من قوله : ﴿ يعملون ﴾ .

وبين ﴿ يعملون ﴾ ، و ﴿ يعلمون ﴾ الجناس المقلوب قَلْب بعض .

اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (16)

(132/752)

جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً عن جملة ﴿ ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ﴾ [المجادلة : 14] ، لأن ذلك يثير سؤال سائل أن يقول : ما ألجأهم إلى الحلف على الكذب ، فأجيب بأن ذلك لقضاء مآربهم وزيادة مكرهم .

ويجوز أن تجعل الجملة خبراً ثانياً لأن في قوله : ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ [المجادلة : 15] وتكون داخلة في التعليل .

والجُنّة : الوقاية والسترة ، من جَنّ ، إذا استتر ، أي وقاية من شعور المسلمين بهم ليتمكنوا من صدّ كثير ممن يريد الدخول في الإِسلام عن الدخول فيه لأنهم يختلقون أكذوبات ينسبونها

إلى الإِسلام والمسلمين وذلك معنى التفريع بالفاء في قوله تعالى : ﴿ فصدوا عن سبيل الله ﴾ .

و"صدُّوا" يجوز أن يكون متعدّياً ، وحذف مفعوله لظهوره ، أي فصدُّوا الناسَ عن سبيل الله ، أي الإِسلام بالتثبيط وإلصاق التهم والنقائص بالدين .

ويجوز أن يكون الفعل قاصراً ، أي فصدّوا هُم عن سبيل الله ومجيء فعل "صدوا عن سبيل الله" ماضياً مفرعاً على ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ مع أن أيمانهم حصلت بعد أن صدوا عن سبيل الله على كلا المعنيين مراعى فيه التفريع الثاني وهو ﴿ فلهم عذاب مهين ﴾ .

وفُرع عليه ﴿ فلهم عذاب مهين ﴾ ليعلم أن ما اتخذوا من أيمانهم جُنّة سبب من أسباب العذاب يقتضي مضاعفة العذاب .

وقد وصف العذاب أول مرة بشديد وهو الذي يجازون به على تولّيهم قوماً غَضِب الله عليهم وحلفهم على الكذب .

ووصف عذابهم ثانياً بـ ﴿ مهين ﴾ لأنه جزاء على صَدّهم النّاس عن سبيل الله .

وهذا معنى شديد العذاب لأجل عظيم الجرم كقوله تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾ [النمل : 88] .

فكان العذاب مناسباً للمقصدين في كفرهم وهو عذاب واحد فيه الوصفان .

وكرر ذكره إبلاغاً في الإنذار والوعيد فإنه مقام تكرير مع تحسينه باختلاف الوصفين. انتهى

انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(133/752)

قوله تعالى ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (18) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (19) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان لهم أموال وأولاد يتعززون بها ، قال مستأنفاً دالاًّ على أن من استتر بجنة دون طاعته لتسلم دنياه وراءه تكشف لسهام التقدير من حيث لا يشعر ، ثم لا دينه يبقى ولا دنياه تسلم : ﴿لن تغني﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿عنهم﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة بالافتداء ولا بغيره ﴿أموالهم﴾ وأكد النفي بإعادة النافي للتنصيص على كل منهما فقال :

﴿ ولا أولادهم ﴾ أي بالنصرة والمدافعة ﴿ من الله ﴾ إي إغناء مبتدئاً من الملك الأعلى الذي لا كفوء له ﴿ شيئاً ﴾ أي من إغناء ولو قل جدّاً ، فمهما أراد بهم سبحانه كان ونفد ومضى ، لا يدفعه شيء تكذيباً لمن قال منهم : لئن كان يوم القيامة لتكونن أسعد فيه منكم كما نحن الآن ولننصرن بأنفسنا وأموالنا وأولادنا .

ولما انتفى الإغناء المبتدئ من الله فانتفى بانتفائه كل إغنائه سواه ، أنتج ذلك قوله :

﴿ أولئك ﴾ أي البعداء من كل خير ﴿ أصحاب النار ﴾ ولما أفهمت الصحبة الملازمة ، أكدها بقوله : ﴿ هم ﴾ أي خاصة لاضمحلال عذاب غيرهم - لكونهم في الهاوية - في جنب عذابهم ﴿ فيها ﴾ أي خاصة دون شيء يقصر عنها ﴿ خالدون ﴾ أي مقيمون باقون دائمون لازمون إلى غير نهاية .

ولما كان إفسادهم لذات البين سراً ، وحلفهم على نفي ذلك جهراً مع الإلزام بقبول ما ظهر من ذلك منهم مع علمه سبحانه وتعالى بأنه كذب غائظاً موجعاً ، وكان ربما توهم متوهم أنه تعالى كما ألزم بقبولنا لما ظهر منهم في دار العمل يأمر بقبولهم في دار الجزاء ، قال نافياً لذلك معزياً للمؤمنين بأنهم يفعلون ذلك معه سبحانه بعد كشف الغطاء وتحقيق الأمور ، لأن

الإنسان يبعث على ما مات عليه ، لأن ذلك جبلته التي لا ينفك عنها ، ولا ينفعهم ذلك ، ذاكراً ظرف الخلود وإظهار التعذيب : ﴿ يوم يبعثهم الله ﴾ أي الملك الذي له جميع صفات الكمال بإحيائهم عما كانوا فيه من الموت وردهم إلى ما كانوا قبله ﴿ جميعاً ﴾ لا يترك أحداً منهم ولا من غيرهم إلا أعاده إلى ما كان عليه قبل موته ﴿ فيحلفون ﴾ أي فيتسبب عن ظهور القدرة التامة لهم ومعاينة ما كانوا يكبون به من البعث والنار أنهم يحلفون ﴿ له ﴾ أي الله في الآخرة أنهم مسلمون فيقولون : والله ربنا ما كنا مشركين ، ونحوه من الأكذوبات التي تزيدهم ضرراً ، ولا تغني عنهم شيئاً بوجه من الوجوه ، جرياً على ما طبعوا عليه من إيثار الهوى والقصور على النظر في المحسوسات التي ألفوها ﴿ كما يحلفون ﴾ في الدنيا ﴿ لكم ﴾ لكونكم لا تعلمون الغيب مع توقعهم أن الله يفضحهم كما فعل لهم ذلك مراراً ، وحلفهم ناشئ عن اعتقاد بعدهم من القبول فإنه لا يحلف لك إلا من يظن أنك تكذبه : قال القشيري : عقوبتهم الكبرى ظنهم الأجنبية ، وغاية الجهد كبهم على مناخرهم في وهدة ندمهم .

ولما كان الذي يحملهم على الإقدام على ذلك ضعف عقولهم وتوغلهم في النفاق ومرودهم عليه حتى بعثوا على مثل ذلك مع علمهم بأن ذلك لا ينجيهم لإحاطة علمه سبحانه ، عبر بالحسبان ، فقال دالاًّ على أنهم في الغاية من الجهل وقلة العقل : ﴿ ويحسبون ﴾ أي في القيامة بأيمانهم الكاذبة ﴿ أنهم على شيء ﴾ أي يحصل لهم به نفع لتخيلهم أن أيمانهم تروج على الله فتنجيهم كما كانت في الدنيا تنجيهم .

ولما أفهم ذلك أن أمورهم لا حقائق لها لا في إخباراتهم ولا في أيمانهم ولا في حسبانهم ، قال منادياً عليهم مؤكداً لتكذيب حسبانهم : ﴿ ألا إنهم ﴾ أي خاصة ﴿ هم الكاذبون ﴾ أي المحكوم بكذبهم في حسبانهم وفي أخبارهم في الدارين لعراقتهم في وصف الكذب حيث لا يستحيون من الكذب عند الله .

ولما كان هذا الانهماك فيما لا يغني مما يحصل لسامعه غاية العجب من وقوع عاقل فيه مرة من الدهر ، فضلاً عن ملازمته ، أخبر عن الحامل لهم عليه ، فقال مستأنفاً :

﴿ استحوذ ﴾ أي طلب أن يغلب ويسوق ويسرع ويضرب الحوطة ويحث ويقهر ويستولي ﴿ عليهم الشيطان ﴾ مع أنه طريد ومحترق ، ووجد منه جميع ذلك ، ووصل منهم إلى ما يريده ، وملكهم ملكاً لم يبق لهم معه اختيار فصاروا رعيته وأقطاعه ، وصار هو محيطاً بهم من كل جهة ، غالباً عليهم ظاهراً وباطناً ، من قولهم : حذت الإبل أي استوليت عليها ، وحاذ الحمار العانة - إذا جمعها وساقها غالباً لها ، والحوذ : السوق السريع ، ومنه

الأحوذي : الخفيف في المشي لحدقه ، وجاء على الأصل على حكم الصحيح لأنه لم يبن على حاذ كافتقر فإنه لا مجرد له ، لم يقولوا : فقر : ﴿ فأنساهم ﴾ أي فتسبب عن استحواذه عليهم أنه أنساهم ﴿ ذكر الله ﴾ أي الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى بعد أن كان ذكره مركوزاً في فطرهم الأولى ، فصاروا لا يذكرونه أصلاً بقلب ، ولا لسان .

(136/752)

ولما كان ذلك ، أنتج ولا بد قوله : ﴿ أولئك ﴾ أي الذين أحلوا أنفسهم أبعد منزل ﴿ حزب الشيطان ﴾ أي أتباعه وجنده وجماعته وطائفته وأصحابه والمحدقون به والمتحيزون إليه لدفع ما حزبه أي نابه واشتد عليه ، المبعدون المحترقون لأنهم تبعوه ولم يخافوا في مجازيته وإنفاذ ما يريد لومة لائم مع أنه كله نقائص ومعايب ، وهم مطبوعون على بغضه ، وتركوا من له الكمال كله ، وكر وحبه مركوز في فطرهم ، فلذلك كانت ترجمة هذا ونتيجته قوله : ﴿ ألا ﴾ وأكد لظنهم الربح بما لهم في الدنيا من الكثرة وظهرو التعاضد والاستدراج بالبسط والسعة فقال : ﴿ إن حزب الشيطان ﴾ أي الطريد المحترق ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ الخاسرون ﴾ أي العريقون في هذا الوصف لأنهم لم يظفروا بغير الطرد والاحتراق .

ولما بين ما أوصلهم إليه نسيان الذكر من الخسار ، بين أنه أوقعهم في العداوة ، فقال معللاً

الخسار والنسيان والتحزب ، وأكد تكذيباً لحالفهم على نفي ذلك مظهراً موضع الإضمار للتنبيه على الوصف الموقع في الهلاك : ﴿ إن الذين يحادون ﴾ ولعل الإدغام لسترهم ذلك الإيمان ، ويفهم منه الحكم على من جاهر بطريق الأولى ﴿ الله ﴾ أي يفعلون مع الملك الأعظم الذي لا كفوء له فعل من ينازع آخر في أرض فيغلب على طائفة منها فيجعل لها حداً لا يتعداه خصمه ﴿ ورسوله ﴾ الذي عظمته من عظمته .

ولما كانوا لا يفعلون ذلك إلا لكثرة أعوانهم وأتباعهم ، فيظن من رآهم أنهم الأعزاء الذين لا أحد أعز منهم ، قالتعالى نفياً لهذا الغرور الظاهر : ﴿ أولئك ﴾ أي الأباعد الاسافل ﴿ في الأذلين ﴾ أي الذين يعرفون أنهم أذل الخلق بحيث يوصف كل منهم بأنه الأذل مطلقاً من غير مفضل عليه ليعم كل من يمكن منه ذل ، وذلك في الدنيا والآخرة سواء كانوا فارس والروم أو أعظم منهم سواء كانوا ملوكاً كفرة كانوا أو فسقة ، كما قال الحسن : إن للمعصية في قلوبهم لذلاً ، وإن طقطقت بهم اللجم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 506.503 ﴾

(137/752)

فصل

قال الفخر :

﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾

روي أن واحداً منهم قال : لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا ، فنزلت هذه الآية .

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (18)

قال ابن عباس : إن المنافق يحلف لله يوم القيامة كذباً كما يحلف لأوليائه في الدنيا كذباً أما الأول : فكقوله : ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] .

وأما الثاني : فهو كقوله : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بالله إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ [البقرة : 56] والمعنى أنهم لشدة توغلهم في النفاق ظنوا يوم القيامة أنه يمكنهم ترويج كذبهم بالأيمان الكاذبة على علام الغيوب ، فكان هذا الحلف الذميم يبقى معهم أبداً ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 28] قال الجبائي والقاضي : إن أهل الآخرة لا يكذبون ، فالمراد من الآية أنهم يحلفون في الآخرة أنا ما كنا كافرين عند أنفسنا ، وعلى هذا الوجه لا يكون هذا الحلف كذباً ، وقوله : ﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون ﴾ أي في الدنيا ، واعلم أن تفسير الآية بهذا الوجه لا شك أنه يقتضي ركاكة عظيمة في النظم ، وقد استقصينا هذه المسألة في سورة الأنعام في تفسير قوله : ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] .

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (19)

(138/752)

قال الزجاج: استحوذ في اللغة استولى، يقال: حاوزت الإبل، وحذتها إذا استوليت عليها وجمعتها، قال المبرد: استحوذ على الشيء حواه وأحاط به، وقالت عائشة في حق عمر: كان أحوذياً، أي سائساً ضابطاً للأمور، وهو أحد ما جاء على الأصل نحو: استصوب واستنوق، أي ملكهم الشيطان واستولى عليهم، ثم قال: ﴿ فأنساهم ذِكْرَ الله أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشيطان أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشيطان هُمُ الخاسرون ﴾ واحتج القاضي به في خلق الأعمال من وجهين الأول: ذلك النسيان لو حصل بخلق الله لكانت إضافتها إلى الشيطان كذباً والثاني: لو حصل ذلك بخلق الله لكانوا كالمؤمنين في كونهم حزب الله لا حزب الشيطان.

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20)

أي في جملة من هو أذل خلق الله، لأن ذل أحد الخصمين على حسب عز الخصم الثاني،

فلما كانت عزة الله غير متناهية ، كانت ذلة من ينازعه غير متناهية أيضاً . انتهى . ا

هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 239 ﴾

(139/752)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِّنَ اللهِ شَيْئاً ﴾

أي من عذابه شيئاً .

وقال مقاتل : قال المنافقون إن محمداً يزعم أنه يُنصَر يوم القيامة ، لقد شقينا إذاً ! فوالله لننصرنّ يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة .

فنزلت : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً ﴾ أي لهم عذاب مهين يوم يبعثهم ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ اليوم .

وهذا أمر عجيب وهو مغالطتهم باليمين غداً ، وقد صارت المعارف ضرورية .

وقال ابن عباس : هو قولهم ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] .

﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَيْءٍ ﴾ بإنكارهم وحلفهم .

قال ابن زيد : ظنوا أنهم ينفعهم في الآخرة .

وقيل : ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ في الدنيا ﴿ أَنَّهُمْ على شَيْءٍ ﴾ لأنهم في الآخرة يعلمون الحق باضطرار .

والأوّل أظهر .

وعن ابن عباس قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ينادي منادٍ يوم القيامة أين خصماء الله فتقوم القَدَرية مسودّة وجوههم مزرقّة أعينهم مائل شدقهم يسيل لعابهم فيقولون والله ما عبدنا من دونك شمساً ولا قمراً ولا صنماً ولا وثناً ، ولا اتخذنا من دونك إلها " قال ابن عباس : صدقوا والله ! أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون ؛ ثم تلا ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون ﴾ هم والله القَدَرية .

ثلاثاً .

قوله تعالى : ﴿ استحوذ عَلَيْهِمُ الشيطان ﴾ أي غلب واستعلى ؛ أي بوسوسته في الدنيا .

وقيل : قَوِي عليهم .

وقال المفضّل : أحاط بهم .

ويحتمل رابعاً أي جمعهم وضمهم .

يقال : أحوذ الشيء أي جمعه وضم بعضه إلى بعض ، وإذا جمعهم فقد غلبهم وقوي عليهم وأحاط بهم .

﴿ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ أي أوامره في العمل بطاعته.

وقيل: زواجره في النهي عن معصيته.

والنسيان قد يكون بمعنى الغفلة، ويكون بمعنى الترك، والوجهان محتملان هنا.

(140/752)

﴿ أولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ طائفته ورهطه ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ في بيعهم؛ لأنهم باعوا الجنة بجهنم، وباعوا الهدي بالضلالة.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

تقدم أوّل السورة.

﴿ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ أي من جملة الأذلاء لا أذلّ منهم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(141/752)

وقال الآلوسي :

﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أموالهم ولَاَ أولادهم مِّنَ اللهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾

قد سبق مثله في سورة آل عمران ، وسبق الكلام فيه فمن أراده فليرجع إليه .

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً ﴾ تقدم الكلام في نظيره غير بعيد ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ ﴾ أي لله تعالى يومئذٍ قائلين : ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] ﴿ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ في الدنيا أنها مسلمون مثلكم ، والتشبيه بمجرد الحلف لهم في الدنيا وإن اختلف المحلوف عليه بناءاً على ما قدمنا من سبب النزول ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ في الآخرة ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ بتلك الأيمان الفاجرة ﴿ على شَيْءٍ ﴾ من جلب منفعة أو دفع مضرة كما كانوا عليه في الدنيا حيث كانوا يدفعون بها عن أرواحهم وأموالهم ويستجرون بها فوائد دنيوية ﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون ﴾ البالغون في الكذب إلى غاية ليس وراءها غاية حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب ، وزعموا أن أيمانهم الفاجرة تروج الكذب لديه عز وجل كما تروّجه عند المؤمنين .

﴿ استحوذ عَلَيْهِمُ الشيطان ﴾ أي غلب على عقولهم بوسوسته وتزيينه حتى اتبعوه فكان مستولياً عليهم ، وقال الراغب : الحوذ أن يتبع السائق حاذي البعير أي أدبار فخذيه فيعنف في سوقه يقال : حاذ الإبل يحوذها أي ساقها سوقاً عنيفاً ، وقوله تعالى : ﴿

استحوذ عَلَيْهِمُ الشيطان ﴾ أي استقاهم مستولياً عليهم ، أو من قولهم : استحوذ العير على الأتان أي استولى على حاذيها أي جانبي ظهرها اه .

(142/752)

وصرح بعض الأجلة أن الحوذ في الأصل السوق والجمع ، وفي "القاموس" تقييد السوق بالسريع ثم أطلق على الاستيلاء ، ومثله الأحواذ والأحوذي ، وهو كما قال الأصمعي : المشمر في الأمور القاهر لها الذي لا يشذ عنه منها شيء ، ومنه قول عائشة في عمر رضي الله تعالى عنهما كان أحوذياً نسيج وحده مأخوذ من ذلك ، واستحوذ مما جاء على الأصل في عدم إعلاله على القياس إذ قياسه استحاذ بقلب الواو ألفاً كما سمع فيه قليلاً ، وقرأ به هنا أبو عمرو فجاء مخالفاً للقياس كاستنوق .

واستصوب وإن وافق الاستعمال المشهور فيه ، ولذا لم يخل استعماله بالفصاحة ، وفي استفعل هنا من المبالغة ما ليس في فعل ﴿ فأنساهم ذِكْرَ الله ﴾ في معنى لم يمكنهم من ذكره عز وجل بما زين لهم من الشهوات فهم لا يذكرونه أصلاً لا بقلوبهم ولا بألسنتهم ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿ حِزْبُ الشيطان ﴾ أي جنوده وأتباعه .

﴿ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشيطان هُمُ الخاسرون ﴾ أي الموصوفون بالخسران الذي لا غاية وراءه

حيث فوّتوا على أنفسهم النعيم المقيم وأخذوا بدله العذاب الأليم ، وفي تصدير الجملة بحرفي التنبيه والتحقيق وإظهار المتضايفين معاً في موقع الإضمار بأحد الوجهين ، وتوسيط ضمير الفصل من فنون التأكيد ما لا يخفى .

﴿ إِنَّ الذين يُحَادُّونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ استئناف مسوق لتعليل ما قبله من خسران حزب الشيطان عبر عنهم بالموصول ذماً لهم بما في حيز الصلة وإشعاراً بعلة الحكم ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ فِى الاذلين ﴾ أي في جملة من هو أذل خلق الله عز وجل من الأولين والآخرين معدودون في عدادهم لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر وحيث كانت عزة الله عز وجل غير متناهية كانت ذلة من حادّة كذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(143/752)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾

مناسب لقوله : ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ [المجادلة : 16] فكما لم تَقِهم أيمانهم العذابَ لم تُغن عنهم أموالهم ولا أنصارهم شيئاً يوم القيامة .

وكان المنافقون من أهل الثراء بالمدينة ، وكان ثراؤهم من أسباب إعراضهم عن قبول الإِسلام لأنهم كانوا أهل سيادة فلم يرضوا أن يصيروا في طبقة عموم الناس .

وكان عبد الله بنُ أُبيّ ابن سلول مهيّأً لأن يملكوه على المدينة قبيل إسلام الأنصار ، فكانوا يفخرون على المسلمين بوفرة الأموال وكثرة العشائر وذلك في السنة الأولى من الهجرة ، ومن ذلك قول عبدِ الله بن أُبيّ ابن سلول "لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزّ منها الأذل" يريد بالأعز فريقه وبالأذل فريق المسلمين فآذنهم الله بأن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم مما توعدهم الله به من المذلة في الدنيا والعذاب في الآخرة قال تعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً ﴾ [الأحزاب : 60 ، 61] .

وإذا لم تغن عنهم من الله في الدنيا فإنها أجدر بأن لا تغني عنهم من عذاب الآخرة شيئاً ، أي شيئاً قليلاً من الإِغناء .

وعن مقاتل : أنهم قالوا : إن محمداً يزعم أنه ينصر يوم القيامة لقد شقينا إذن .

فوالله لَنُنْصَرَنّ يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة .

فنزلت هذه الآية .

وإقحام حرف النفي في المعطوف على المنفي لتوكيد انتفاء الإِغناء .

ومعنى ﴿ من الله ﴾ من بأس الله أو من عذابه .

وحذفُ مثل هذا كثير في الكلام .

وتقديره ظاهر .

ويلقب هذا الاستعمال عند علماء أصول الفقه بإضافة الحكم إلى الأعيان على إرادة أشهر أحوالها نحو ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : 3] ، أي أكلها .

(144/752)

وجملة ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ﴾ الخبر ثالث أو ثان عن (إنّ) في قوله تعالى : ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ [المجادلة : 15] .

وجملة ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ في موضع العلة لِجملة ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ ، أي لأنهم أصحاب النار ، أي حق عليهم أنهم أصحاب النار .

وصاحب الشيء ملازمه فلا يفارقه .

إذ قد تقرر من قوله : ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ [المجادلة : 15] ومن قوله : ﴿ فلهم عذاب مهين ﴾ [المجادلة : 16] أنهم لا محيص لهم عن النار ، فكيف تغني عنهم أموالهم وأولادهم شيئاً من عذاب النار .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار ﴾ [الزمر : 19] أي ما أنت تنقذه من النار .

فإن اسم الإشارة في مثل هذا الموقع ينبه على أن المشار إليه صار جديراً بما يرد بعد اسم الإشارة من أجل الأخبار التي أخبر بها عنه قبل اسم الإشارة كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ في سورة [البقرة : 5] .

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (18)

هذا متصل بقوله : ﴿ ويحلفون على الكذب ﴾ إلى قوله : ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ [المجادلة : 14 – 16] وتقدم الكلام على نظير قوله : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا ﴾ [المجادلة : 6] .

كما سبق آنفاً في هذه السورة ، أي اذكر يوم يبعثهم الله .

وحلفهم لله في الآخرة إشارة إلى ما حكاه الله عنهم في قوله : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : 23] .

والتشبيه في قوله : ﴿ كما يحلفون لكم ﴾ في صفة الحلف ، وهي قولهم : إنهم غير مشركين ، وفي كونه حلفاً على الكذب ، وهم يعلمون ، ولذلك سماه تعالى فتنة في آية [الأنعام : 23] بقوله تعالى : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين .

﴾ ومعنى ويحسبون أنهم على شيء ﴿ يظنون يومئذٍ أن حلفهم يفيدهم تصديقَهم عند الله فيحسبون أنهم حصّلوا شيئاً عظيماً ، أي نافعاً .

و﴿ على ﴾ للاستعلاء المجازي وهو شدة التلبس بالوصف ونحوِه كقوله : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ في سورة [البقرة : 5] .

وحذفت صفة شيء ﴾ لظهور معناها من المقام ، أي على شيء نافع ، كقوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل ﴾ [المائدة : 68] .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم لَمّا سُئِل عن الكُهّان "ليسوا بشيء" .

وهذا يقتضي توغّلَهم في النفاق ومرونتهم عليه وأنه باق في أرواحهم بعد بعثهم لأن نفوسهم خرجت من عالم الدنيا متخلّقة به ، فإن النفوس إنما تكتسب تزكية أو خبثاً في عالم التكليف .

وحكمة إيجاد النفوس في الدنيا هي تزكيتها وتصفية أكدارها لتخلص إلى عالم الخلود طاهرة ، فإن هي سلكت مسلك التزكية تخلصت إلى عالم الخلود زكية ويزيدها الله زكاء وارتياضاً يوم البعث .

وإن انغمست مدة الحياة في حمأة النقائص وصلصال الرذائل جاءت يوم القيامة على ما كانت عليه تشويهاً لحالها لتكون مهزلة لأهل المحشر .

وقد تبقى في النفوس الزكية خَلائق لا تنافي الفضيلة ولا تناقض عالم الحقيقة مثل الشهوات المباحة ولقاء الأحبة قال تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين يا عبادي لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ﴾ [الزخرف : 67 70] .

(146/752)

وفي الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن رجلاً من أهل الجنة يستأذن ربه أن يزرع ، فيقول الله : أو لستَ فيما شئتَ قال : بلى ولكن أحب أن أزرع ، فأسْرع وبذر فيبادر الطرفَ نباتُه واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثالَ الجبال .

وكان رجل من أهل البادية عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله لا نجد هذا إلا قرشياً أو أنصارياً فإنهم أصحاب زَرع فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم إقراراً لما فهمه الأعرابي "

وفي حديث جابر بن عبد الله عن مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يُبعَث كل

عبد على ما مَات عليه " قال عياض في "الإِكمال" : هو عام في كل حالة مات عليها المرء .

قال السيوطي : يبعث الزمار بمزماره .

وشارب الخمر بقدحه اه .

قلت : ثم تتجلى لهم الحقائق على ما هي عليه إذ تصير العلوم على الحقيقة .

وختم هذا الكلام بقوله تعالى : ﴿ ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ وهو تذييل جامع لحال كذبهم الذي ذكره الله بقوله : ﴿ ويحلفون على الكذب ﴾ [المجادلة : 14] .

فالمراد أن كذبهم عليكم لا يماثله كذب ، حتى قُصرت صفة الكاذب عليهم بضمير الفصل في قوله : ﴿ إنهم هم الكاذبون ﴾ وهو قصر ادعائي للمبالغة لعدم الاعتداد بكذب غيرهم .

وأكد ذلك بحرف التوكيد توكيداً لمفاد الحصر الادعائي ، وهو أن كذب غيرهم كلا كذب في جانب كذبهم ، وبأداة الاستفتاح المقتضية استمالة السمع لخبرهم لتحقيق تمكن صفة الكذب منهم حتى أنهم يلازمهم يوم البعث .

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ

استئناف بياني لأن ما سيق من وصفهم بانحصار صفة الكذب فيهم يثير سؤال السامع أن يطلب السبب الذي بلغ بهم إلى هذا الحال الفظيع فيجاب بأنه استحواذ الشيطان عليهم وامتلاكه زمام أنفسهم يصرِّفها كيف يريد وهل يرضى الشيطان إلا بأشد الفساد والغواية .

والاستحواذ : الاستيلاء والغلب ، وهو استفعال من حَاذ حَوذاً ، إذا حاط شيئاً وصرَّفه كيف يريد .

يقال : حَاذ العِير إذا جمعها وسَاقَها غالباً لها .

فاشتقُّوا منه استفعل للذي يستولي بتدبير ومعالجة ، ولذلك لا يقال : استحوذ إلا في استيلاء العاقل لأنّه يتطلب وسائل استيلاء .

ومثله استولَى .

والسين والتاء للمبالغة في الغلب مثلها في : استجاب .

والأحوذي : القاهر للأمور الصعبة .

وقالت عائشة : "كان عمر أحْوذياً نسيج وَحْدِهِ" .

وكان حق استحوذ أن يقلب عينه ألفاً لأن أصلها واو متحركة إثر ساكن صحيح وهو غير اسم تعجب ولا مضاعف اللام ولا معتل اللام فحقها أن تنقل حركتها إلى الساكن الصحيح قبلها فراراً من ثقل الحركة على حرف العلة مع إمكان الاحتفاظ بتلك الحركة بنقلها إلى الحرف قبلها الخالي من الحركة فيبقى حرف العلة ساكناً سكوناً ميتاً إثر حركة فيقلب مَدّة

مجانسة للحركة التي قبلها مثل يَقوم ويَبين وأَقام ، فحق استحوذ أن يقال فيه : استحَاذ ولكن الفصيح فيه تصحيحه على خلاف غالب بابه وهو تصحيح سماعي ، وله نظائر قليلة منها : استنْوَق الجمل ، وأَغْول ، إذ رفع صوته .

وأَغْيَمَت السماء واستَغْيَل الصبيّ ، إذا شرب الغَيْل وهو لبن الحامل .

وقال أبو زيد : التصحيح هو لغة لبعض العرب مطردة في هذا الباب كله .

وحكى المفسرون أن عمر بن الخطاب قرأ ﴿ استحاذ عليهم الشيطان ﴾ .

وقال الجوهري : تصحيح هذا الباب كله مطرد .

وقال في "التسهيل" : يطرد تصحيح هذا الباب في كل فعل أهمل ثلاثيه مثل : استنوق الجَمل واستتيست الشاة إذا صارت كالتيس .

وتقدم الكلام على الاستحواذ عند قوله تعالى : ﴿ قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾ في سورة [النساء : 141] ، فضُم هذا إلى ذاك .

والنسيان مراد منه لازمه وهو الإِضاعة وترك المُنسي ، لقوله تعالى : ﴿ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ [طه : 126] .

والذكر يطلق على نطق اللسان باسم أو كلام ويطلق على التذكر بالعقل .

وقد يخص هذا الثاني بضم الذال وهو هنا مستعمل في صريحه وكنايته ، أي مستعمل في لازمه وهو العبادة والطاعة لأن المعنى أنه أنساهم توحيد الله بكلمة الشهادة والتوجه إليه بالعبادة .

والذي لا يَتذكر شيئًا لا يتوجه إلى واجباته .

وجملة ﴿ أولئك حزب الشيطان ﴾ نتيجة وفذلكة لقول : ﴿ استحوذ عليهم الشيطان ﴾ فإن الاستحواذ يقتضي أنه صيرهم من أتباعه .

واسم الإِشارة لزيادة تمييزهم لئلا يتردد في أنهم حزب الشيطان .

وجملة ﴿ ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ واقعة موقع التفرع والتسبب على جملة ﴿ أولئك حزب الشيطان ﴾ ، فكان مقتضى الظاهر أن يقال : فإن حزب الشيطان هم الخاسرون ، ولذلك عُدل عن ذلك إلى حرف الاستفتاح تنبيهاً على أهمية مضمونها وأنه مما يحق العناية باستحضاره في الأذهان مبالغة في التحذير من الاندماج فيهم ، والتلبس بمثل أحوالهم المذكورة آنفاً .

وزيد هذا التحذير اهتماماً بتأكيد الخبر بحرف ﴿ إن ﴾ وبصيغة القصر ، إذ لا يتردد أحد في أن حزب الشيطان خاسرون فإن ذلك من القضايا المسلمة بين البشر ، فلذلك لم تكن هذه المؤكدات لرد الإِنكار لتحذير المسلمين أن تغرهم حبائل الشيطان وتروق في

أنظارهم بزة المنافقين وتخدعهم أيمانهم الكاذبة .

وإظهار كلمة ﴿ حزب الشيطان ﴾ دون ضميرهم لزيادة التصريح ولتكون الجملة صالحة للتمثل به مستقلة بدلالتها .

وضمير الفصل أفاد القصر ، وهو قصر ادعائي للمبالغة في مقدار خسرانهم وأنه لا خسران أشد منه فكأن كل خسران غيره عدم فيدعى أن وصف الخاسر مقصور عليهم .

وحزب المرء : أنصاره وجنده ومن يواليه .

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20)

موقع هذه الآية بعد ما ذكر من أحوال المنافقين يشبه موقع آية ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم ﴾ [المجادلة : 5] .

(149/752)

فالذين يحادون الله ورسوله المتقدم ذكرهم المشركون المعلنون بالمحادّة .

وأما المحادّون المذكورون في هذه الآية فهم المُسرُّون للمحادّة المتظاهرون بالموالاة ، وهم المنافقون ، فالجملة استئناف بياني بينت شيئاً من الخسران الذي قضى به على حزب الشيطان الذي هم في مقدمته .

وبهذا تكتسب هذه الجملة معنى بدل البعض من مضمون جملة ﴿ ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ [المجادلة : 19] ، لأن الخسران يكون في الدنيا والآخرة ، وخسران الدنيا أنواع أشدُّها على الناس المذلة والهزيمة ، والمعنى : أن حزب الشيطان في الأذّلين والمغلوبين .

واستحضارهم بصلة ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله ﴾ إظهار في مقام الإضمار فمقتضى الظاهر أن يقال : إنهم في الأذلين فأخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر إلى الموصولية لإفادة مدلول الصلة أنهم أعداء لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وإفادة الموصول تعليل الحكم الوارد بعده وهو كونهم أذّلين لأنهم أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم أعداء الله القادر على كل شيء فَعدوُّه لا يكون عزيزاً .

ومفاد حرف الظرفية أنهم كائنون في زمرة القوم الموصوفين بأنهم أذُّلون ، أي شديدو المذلة ليتصورهم السامع في كل جماعة يرى أنهم أذُّلون ، فيكون هذا النظم أبلغ من أن يقال : أولئك هم الأذّلون .

واسم الإشارة تنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما بعد اسم الإشارة من الحكم بسبب الوصف الذي قبل اسم الإشارة مثل ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : 5] .

وتقدم الكلام على ﴿ يحادون الله ورسوله ﴾ في أوائل هذه السورة [5] . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى.رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والخمسون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث والخمسون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 21 ﴾ من (سورة المجادلة)

وحتى الآية ﴿ 22 ﴾ آخر السورة

(4/753)

قوله تعالى ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أنزلهم بالحضيض الأسفل ، علل ذلك بما يدل على أنه سبحانه لا شريك له بإتمام كلماته بنصر أوليائه على ضعفهم وخذلان أعدائه على قوتهم لأنه سبحانه لا غيب محض لا دلالة عليه إلا بأفعاله فقال : ﴿ كتب ﴾ أي فعل فعل من أبرم أمراً ففرغ منه وكتبه فأوجب وحتم

وقضى وبت ﴿ الله ﴾ أي الملك الذي لا كفوء له ﴿ لأغلبنَّ ﴾ أكد لما لهم من ظن الغلب بالكثرة والقوة ﴿ أنا ورسلي ﴾ أي بقوة الجدال وشدة الجلاد ، فهو صادق بالنسبة إلى من بعث بالحرب ، وإلى من بعث بالحجة ، وعلل هذا القهر بقوله مؤكداً لأن أفعالهم مع أوليائه أفعال من يظن ضعفه : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ قوي ﴾ فهو يفيض من باطن قوته من يظهر به ظاهر قدرته أوليائه ، فإن القوي من له استقلال باطن بما يحمله القائم في الأمر ولو ضوعف عليه ما عسى أن يضاعف وحمايته مما يتطرق إلى الإجلال بشدة وبطش منبعث عن ذلك الاستقلال الباطن ، وما ظهر من أثر ذلك فهو قدرة ، فلا اقتدار يظهر من الخلق إلا بالاستناد إلى القوة بالله ، ولا قيام بالحقيقة لباطن إلا بالله الذي بيده ملكوت كل شيء ، فلذلك كان بالحقيقة لا قوي إلا هو .

(5/753)

ولما كان القوي من المخلوقات قد يكون غيره أقوى من غيره ولو في وقت ، نفى ذلك بقوله : ﴿ عزيز ﴾ أي غالب غلبة لا يجد معها المغلوب نوع مدافعة وانفلات ، ثابت له هذا الوصف دائماً .

ولما ظهر بهذا كالشمس أن من والاه سبحانه كان فائزاً ، ومن عاداه كان خاسراً ، كانت

نتيجته قطعاً التحذير من موالاة أعداء الله في سياق النفي المفيد للمبالغة في النهي عنه والزجر عن قربانه فقال : ﴿ لا تجد ﴾ أي بعد هذا البيان ﴿ قوماً ﴾ أي ناساً لهم قوة على ما يريدون محاولته ﴿ يؤمنون ﴾ أي يجددون الإيمان ويديمونه ﴿ بالله ﴾ أي الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى ﴿ واليوم الآخر ﴾ الذي هو موضع الجزاء لكل عامل بكل ما عمل ، الذي هو محط الحكمة ﴿ يوادون ﴾ أي يحصل منهم ود لا ظاهراً ولا باطناً – بما أشار إليه الإدغام وأقله الموافقة في المظاهرة ﴿ من حاد الله ﴾ أي عادى بالمناصبة في الحدود الملك الأعلى لذلك فالمحادة لا تخفى وإن كانت باطنة يستتر بها زيادة النفرة منهم ﴿ ورسوله ﴾ فإن من حاده فقد حاد الذي أرسله ، بل لا تجدهم إلا يحادونهم ، لا أنهم يوادونهم ، وزاد ذلك تأكيداً بقوله : ﴿ ولو كانوا آباءهم ﴾ الذين أوجب الله على الأبناء طاعتهم بالمعروف ، وذلك كما فعل أبو عبيدة عامر بن الجراح -رضى الله عنه- ، قتل أباه عبد الله بن الجرح يوم أحد ﴿ أو آبناءهم ﴾ الذي جبلوا على محبتهم ورحمتهم كما فعل أبو بكر -رضى الله عنه- فإنه دعا ابنه يوم بدر إلى المبارزة ، وقال : دعني يا رسول الله أكن في الرعلة الأولى ، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- :

"متعنا بنفسك يا أبا بكر ، أما تعلم أنك بمنزلة سمعي وبصري " ﴿ أو إخوانهم ﴾ الذين هم أعضادهم كما فعل مصعب بن عمير. رضى الله عنه. ، قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد وخرق سعد بن أبي وقاص. رضى الله عنه. الصفوف يومئذ على أخيه عتبة بن أبي وقاص غير مرة ليقتله فراغ عنه روعان الثعلب ، فنهاه رسول الله. صلى الله عليه وسلم. وقال : أتريد أن تقتل نفسك وقتل محمد بن مسلمة الأنصاري. رضى الله عنه. أخاه من الرضاع كعب بن الأشرف اليهودي رأس بني النضير ﴿ أو عشيرتهم ﴾ الذين هم أنصارهم وأمدادهم كما فعل عمر. رضى الله عنه. ، قتل خاله العاصي بن هشام بن المغيرة يوم بدر وعلي وحمزة وعبيدة بن الحارث. رضى الله عنه. م قتلوا يوم بدر بني عمهم عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة ، وعن الثوري أن السلف كانوا يرون أن الآية نزلت فيمن يصحب السلطان – انتهى .

ومدار ذلك على أن الإنسان يقطع رجاءه من غير الله ، وإن لم يكن كذلك لم يكن مخلصاً في إيمانه .

ولما كان لا يحمل على البراءة ممن هذا شأنه إلا صريح الإيمان، أنتج قوله: ﴿أولئك﴾ أي الأعظمون شأناً الأعلون همماً ﴿كتب﴾ أي وصل وأثبت وصلاً وهو في لحمته كالخرز في الأديم، وكالطراز في الثوب الرقيم، فلا انفكاك له ﴿في قلوبهم الإيمان﴾ فجعلها أوعية له فأثمر ذلك نور الباطن واستقامة الأعمال في الظاهر ﴿وأيدهم﴾ أي قواهم وشددهم وأعانهم وشجعهم وعظمهم وشرفهم ﴿بروح﴾ أي نور شريف جداً يفهمون به ما أودع في كتابه وسنة رسوله. صلى الله عليه وسلم. من كنوز العلم والعمل فهو لقلوبهم كالروح للأبدان، فلا يفعلون شيئاً من أحوال أهل الجاهلية كالمظاهرة، وزاد هذا التأييد شرفاً بقوله: ﴿منه﴾ أي أحياهم به فلا انفكاك لذلك عنهم في وقت من الأوقات فأثمر لهم استقامة المناهج ظاهراً وباطناً، فقهروا بالدلائل والحجج، وظهروا بالسيف المفني للمهج، وعملوا الأعمال الصالحة فكانوا للدنيا كالسرج، فلا تجد شيئاً أدخل في الإخلاص من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، بل هو عين الإخلاص، ومن جنح إلى منحرف عن دينه أو داهن مبتدعاً في عقده نزع الله نور التوحيد من قلبه.

ولما أخبر بما آتاهم في الدنيا وهو غير مفارق لهم في الآخرة، أخبر بما يؤتيهم في الآخرة فقال: ﴿ويدخلهم جنات﴾ أي بساتين يستر داخلها من كثرة أشجارها، وأخبر عن ريها بقوله: ﴿تجري﴾ ولما كانت المياه لو عمت الأرض لم يكن بها مستقر، أثبت الجار فقال: ﴿من تحتها الأنهار﴾ أي فهي لذلك كثيرة الرياض والأشجار والساحات والديار.

ولما كان ذلك لا يلذ إلا بالدوام قال : ﴿ خالدين فيها ﴾ .

ولما كان ذلك لا يتم إلا برضا مالكها قال : ﴿ رضي الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الأمر كله فلا التفات إلى غيره ﴿ عنهم ﴾ ولما كان ذلك لا يكمل سروره إلا برضاهم ليتم حسن المجاورة قال : ﴿ ورضوا عنه ﴾ أي لأنه أعطاهم فوق ما يؤملون .

(8/753)

ولما أخبر عنهم بما يسر كل سامع فيشتاق إلى مصاحبتهم ومعاشرتهم ومرافقتهم ومقاربتهم ومدحهم وعرفهم بقوله : ﴿ أولئك ﴾ أي الذين هم في الدرجة العليا من العظمة لكونهم قصروا ودهم على الله علماً منهم بأنه ليس النفع والضر إلا بيده ﴿ حزب الله ﴾ أي جند الملك الأعلى الذي أحاط بجميع صفات الكمال وأولياءه ، فإنهم هم يغضبون له ولا يخافون فيه لومة لائم .

ولما تبين مما أعد لهم وأعد لأضدادهم أنهم المختصون بكل خير ، قال على طريق الإنتاج مما مضى مؤكداً لما لأضدادهم من الأنكاد : ﴿ ألا إن حزب الله ﴾ أي جند الملك الأعلى وهم هؤلاء الموصوفون ومن والاهم ﴿ هم ﴾ أي خاصة لا غيرهم ﴿ المفلحون ﴾ أي الذين حازوا الظفر بكل ما يؤملون في الدارين ، وقد علم من الرضى من الجانبين والحزبية

والإفلاح عدم الانفكاك عن السعادة فأغنى ذلك عن تقييد الخلود بالتأبيد ، خصهم بذلك لأن له العزة والقوة والعلم والحكمة ، فلذلك علم أمر المجادلة ورحم شكواها لأنها من حزبه وسمع لها ، ومن سمع له فهو مرضي عنه ، وحرم الظهار بسبب شكواها إكراماً لها بحكمته لأنه منابذ للحكمة لأنه تشبيه خارج عن قادة التشبيهات ، وفيه امتهان للأم التي لها في دينه غاية الإكرام بالتسوية بالزوجة التي هي محل الافتراش ، وختم آيها بأن من تعدى حدوده فعاود أحوال الجاهلية فهو مجادله سبحانه فهو من حزب الشيطان ، فقد عاد آخرها إلى أولها بأدل دليل على أحسن سبيل ، لأن هذا القرآن العظيم أشرف حديث وأقوم قيل وهذا مقصود التي بعدها ، ولا شك أنه موجب للتنزيه مبعد عن التشريك والتشبيه ، فسبحان من أنزله آية دائمة البيان ، موجبة للإيمان ، قامعة للطغيان ، على مدى الدهور وتطاول الأزمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 7 صـ 506.508﴾

(9/753)

فصل

قال الفخر :

ولما شرح ذلهم ، بين عز المؤمنين فقال : ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وابن عامر : ﴿ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ بفتح الياء ، والباقون لا يحركون ، قال أبو علي : التحريك والإسكان جميعاً جائزان .

المسألة الثانية :

غلبة جميع الرسل بالحجة مفاضلة ، إلا أن منهم من ضم إلى الغلبة بالحجة الغلبة بالسيف ، ومنهم من لم يكن كذلك ، ثم قال : ﴿ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ ﴾ على نصرة أنبيائه : ﴿ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا يدفعه أحد عن مراده ، لأن كل ما سواه ممكن الوجود لذاته ، والواجب لذاته يكون غالباً للممكن لذاته ، قال مقاتل : إن المسلمين قالوا : إنا لنرجو أن يظهرنا الله على فارس والروم ، فقال عبد الله بن أبي : أتظنون أن فارس والروم كبعض القرى التي غلبتموها ، كلا والله إنهم أكثر جمعاً وعدة فأنزل الله هذه الآية .

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

المعنى أنه لا يجتمع الإيمان مع وداد أعداء الله ، وذلك لأن من أحب أحداً امتنع أن يحب مع ذلك عدوه وهذا على وجهين أحدهما : أنهما لا يجتمعان في القلب ، فإذا حصل في القلب وداد أعداء الله ، لم يحصل فيه الإيمان ، فيكون صاحبه منافقاً والثاني : أنهما يجتمعان ولكنه معصية وكبيرة ، وعلى هذا الوجه لا يكون صاحب هذا الوداد كافراً بسبب هذا الوداد ، بل كان عاصياً في الله ، فإن قيل : أجمعت الأمة على أنه تجوز مخالطتهم ومعاشرتهم ، فما هذه المودة المحرمة المحظورة ؟ قلنا : المودة المحظورة هي إرادة منافسه ديناً ودنيا مع كونه كافراً ، فأما ما سوى ذلك فلا حظر فيه ، ثم إنه تعالى بالغ في المنع من هذه المودة من وجوه أولها : ما ذكر أن هذه المودة مع الإيمان لا يجتمعان وثانيها : قوله : ﴿ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إخوانهم أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ والمراد أن الميل إلى هؤلاء أعظم أنواع الميل ، ومع هذا فيجب أن يكون هذا الميل مغلوباً مطروحاً بسبب الدين ، قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد ، وعمر بن لخطاب قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر ، وأبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : " متعنا بنفسك " ومصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير ، وعلي بن أبي طالب وعبيدة قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يوم بدر ، أخبر أن هؤلاء لم يوادوا أقاربهم وعشائرهم غضباً لله ودينه وثالثها : أنه تعالى عدد نعمه على

المؤمنين ، فبدأ بقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإيمان ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(11/753)

المعنى أن من أنعم الله عليه بهذه النعمة العظيمة كيف يمكن أن يحصل في قلبه مودة أعداء الله ، واختلفوا في المراد من قوله : ﴿ كتب ﴾ أما القاضي فذكر ثلاثة أوجه على وفق قول المعتزلة أحدها : جعل في قلوبهم علامة تعرف بها الملائكة ما هم عليه من الإخلاص وثانيها : المراد شرح صدورهم للإيمان بالألطاف والتوفيق وثالثها : قيل في : ﴿ كتب ﴾ قضى أن قلوبهم بهذا الوصف ، واعلم أن هذه الوجوه الثلاثة نسلمها للقاضي ونفرع عليها صحة قولنا ، فإن الذي قضى الله به أخبر عنه وكتبه في اللوح المحفوظ ، لو لم يقع لانقلب خبر الله الصدق كذباً وهذا محال ، والمؤدي إلى المحال محال ، وقال أبو علي الفارسي معناه : جمع ، والكتيبة : الجمع من الجيش ، والتقدير أولئك الذين جمع الله في قلوبهم الإيمان ، أي استكملوا فلم يكونوا ممن يقولون : ﴿ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ [النساء : 150] ومتى كانوا كذلك امتنع أن يحصل في قلوبهم مودة الكفار ، وقال جمهور أصحابنا : ﴿ كَتَبَ ﴾ معناه أثبت وخلق ، وذلك لأن الإيمان لا يمكن كتبه ، فلا بد من حمله على

الإيجاد والتكوين.

المسألة الثانية:

(12/753)

روى المفضل عن عاصم: ﴿كتب﴾ على فعل ما لم يسم فاعله، والباقون: ﴿كتب﴾ على إسناد الفعل إلى الفاعل والنعمة الثانية: قوله: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ وفيه قولان: الأول: قال ابن عباس: نصرهم على عدوهم، وسمى تلك النصرة روحاً لأن بها يحيا أمرهم والثاني: قال السدي: الضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ عائد إلى الإيمان والمعنى أيدهم بروح من الإيمان يدل عليه قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: 52] النعمة الثالثة: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا﴾ وهو إشارة إلى نعمة الجنة النعمة الرابعة: قوله تعالى: ﴿رَّضِىَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ وهي نعمة الرضوان، وهي أعظم النعم وأجل المراتب، ثم لما عدد هذه النعم ذكر الأمر الرابع من الأمور التي توجب ترك الموادة مع أعداء الله فقال: ﴿أولئك حِزْبُ الله أَلآ إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ المفلحون﴾ وهو في مقابلة قوله فيهم: ﴿أولئك حِزْبُ الشيطان أَلا إِنَّ حِزْبَ الشيطان هُمُ الخاسرون﴾ [المجادلة: 19].

واعلم أن الأكثرين اتفقوا على أن قوله : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ ﴾ نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وإخباره أهل مكة بمسير النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد فتح مكة ، وتلك القصة معروفة وبالجملة فالآية زجر عن التودد إلى الكفار والفساق .

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : " اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي نعمة فإني وجدت فيما أوحيت ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْماً ﴾ إلى آخره " والله سبحانه وتعالى أعلم .

والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على سيد المرسلين وخاتم النبيين ، سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 239.241 ﴾

(13/753)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا ﴾

نزلت في قوم من المنافقين تولوا قوماً من اليهود وهم المغضوب عليهم ، وقال الطبري : ﴿ ما هم ﴾ يريد به المنافقين و﴿ منكم ﴾ يريد به المؤمنين و﴿ منهم ﴾ يريد به اليهود .

قال القاضي أبو محمد : وهذا التأويل يجري مع قوله تعالى : ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ [النساء : 143] ، ومع قوله عليه السلام : " مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين لأنه مع المؤمنين بقوله ومع الكافرين بقلبه " ، ولكن هذه الآية تحتمل تأويلاً آخر وهو أن يكون قوله ﴿ ما هم ﴾ يريد به اليهود ، وقوله : ﴿ ولا منهم ﴾ يريد به المنافقين فيجيء فعل المنافقين على هذا التأويل أحسن لأنهم تولوا قوماً مغضوباً عليهم ليسوا من أنفسهم فيلزمهم ذمامهم ولا من القوم المحقين فتكون الموالاة صواباً . وقوله ﴿ يحلفون ﴾ يعني المنافقين لأنهم كانوا إذا وقفوا على ما يأتون به من بغض النبي صلى الله عليه وسلم وشتمه وموالاة عدوه حلفوا أنهم لا يفعلون ذلك واستسهلوا الحنث ، ورويت من هذا نوازل كثيرة اختصرتها إيجازاً وإذا تتبعت في المصنفات وجدت كقول ابن أبي لئن رجعنا إلى المدينة وحلفه على أنه لم يقل وغير ذلك ، والعذاب الشديد هو عذاب الآخرة .

وقرأ جمهور الناس : " أيمانهم " جمع يمين . وقرأ الحسن بن أبي الحسن : " إيمانهم " ، أي يظهرونه من الإيمان والجنة : ما يتستر به ويتقي المحذور ، ومنه المجن : وهو الترس : وقوله ﴿ فصدوا عن سبيل الله ﴾ يحتمل أن يكون الفعل غير متعد كما تقول صد زيد ، أي

صدوا هم أنفسهم عن سبيل الله والإيمان برسوله ، ويحتمل أن يكون متعدياً أي صدوا غيرهم من الناس عن الإيمان ممن اقتدى بهم وجرى في مضمارهم ، ويحتمل أن يكون المعنى ﴿ فصدوا ﴾ المسلمين عن قتلهم ، وتلك ﴿ سبيل الله ﴾ فيهم لكن ما أظهروه منا لإيمان صدوا به المسلمين عن ذلك ، والمهين : المذل من الهوان .

لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (17)

(15/753)

روي أن المنافقين فخروا بكثرة أموالهم وأولادهم وأظهروا السرور بذلك ، فنزلت الآية معلمة أن ذلك لا غناء له عنهم ولا مدفع بسببه . والعامل في قوله ﴿ يوم يبعثهم ﴾ ، ﴿ أصحاب ﴾ على تقدير فعل ، وأخبر الله تعالى عنهم في هذه الآية أنه ستكون لهم أيمان يوم القيامة وبين يدي الله يخيل إليهم بجهلهم أنها تنفعهم وتقبل منهم ، وهذا هو حسابهم ﴿ أنهم على شيء ﴾ ، أي على فعل نافع لهم ، وقال ابن عباس في كتاب الثعلبي : قال النبي عليه السلام : " ينادي مناد يوم القيامة : أين خصماء الله ، فتأتي القدرية مسودة وجوههم زرقة أعينهم ، فيقولون والله ما عبدنا شمساً ولا قمراً ولا صنماً ولا اتخذنا من دونك ولياً "

، قال ابن عباس : صدقوا والله ولكن أتاهم الإشراك من حيث لا يعلمون ، ثم تلا ابن عباس هذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ استحوذ عليهم الشيطان ﴾ معناه : تملكهم من كل جهة وغلب على نفوسهم ، وهذا الفعل مما استعمل على الأصل فإن قياس التعليل يقتضي أن يقال : استحاذ ، وحكى الفراء في كتاب اللغات أن عمر رضي الله عنه قرأ : " استحاذ " . و﴿ يحادون ﴾ معناه : يعطون الحد من الأفعال والأقوال ، وقال بعض أهل المعاني : معناه يكونون في حد غير الحد الذي شرع الله تعالى ، ثم قضى تعالى على محاده بالذل وأخبر أنه كتب فيما أمضاه من قضائه وقدره في الأزل أنه يغلب هو ورسله كل من حاد الله والرسل . وقرأ نافع وابن عامر : " ورسليَ " بفتح الياء . وقرأ الباقون بسكونها . وقال الحسن وغيره : ما أمر الله تعالى قط رسولاً بالقتال إلا وغلبه ، وظفره بقوته وعزته لا رب سواه ، وقال غيره : ومن لم يؤمر بقتال فهو غالب بالحجة .

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(16/753)

نفت هذه الآية أن يوجد من يؤمن بالله تعالى حق الإيمان ويلتزم شعبه على الكمال يواد كافراً أو منافقاً . ومعنى يواد : يكون بينهما من اللطف بحيث يود كل واحد منهما صاحبه ،

وعلى هذا التأويل قال بعض الصحابة : اللهم لا تجعل لمشرك قبلي يداً فتكون سبباً للمودة فإنك تقول وتلا هذه الآية ، وتحتمل الآية أن يريد بها لا يوجد من يؤمن بالله والبعث يواد ﴿ من حاد الله ﴾ من حيث هو محاد لأنه حينئذ يود المحادة ، وذلك يوجب أن لا يكون مؤمناً .

(17/753)

ويروى أن هذه الآية نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة ومخاطبته أهل مكة ، وظاهر هذه الآيات ، أنها متصلة المعنى ، وأن هذا في معنى الذم للمنافقين الموالين لليهود ، وإذا قلنا إنها في أمر حاطب جاء ذلك أجنبياً في أمر المنافقين ، وإن كان شبيهاً به ، والإخوان هنا إخوة النسب ، كما عرف الإخوة أنه في النسب ، وقد يكون مستعملاً في إيخاء الود ، و﴿ كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ معناه : أثبته . وخلقه بالإيجاد ، وذهب أبو علي الفارسي وغيره من المعتزلة ، إلى أن المعنى جعل في قلوبهم علامات تعرف الملائكة بها أنهم مؤمنون ، وذلك لأنهم يرون العبد يخلق إيمانه ، وقد صرح النقاش بهذا المذهب ، وما أراه إلا قاله غير محصل لما قال . وأما أبو علي فعن بصيرته ، وقرأ جمهور القراء "كَتَبَ" على بناء الفعل للفاعل ، "والإيمانَ" بالنصب ، وقرأ أبو حيوة وعاصم في رواية المفضل عنه "كُتِبَ" على

بناء الفعل للمفعول ، و" الإيمانُ " بالرفع ، وقوله ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المؤمنين الذين يقتضيهم معنى الآية ، لأن المعنى لكنك تجدهم لا يوادون من حاد الله ، وقوله تعالى : ﴿ بروح منه ﴾ معناه : بهدى ولطف ونور وتوفيق إلهي ينقدح من القرآن ، وكلام النبي عليه السلام ، وقيل : المعنى بالقرآن لأنه روح ، قيل : المعنى بجبريل عليه السلام ، والحزب الطريق الذي يجمعه مذهب واحد ، والمفلح : الفائز ببغيته ، وباقي الآية بين . انتهى انتهى .

اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(18/753)

وقال القرطبى :

﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ ﴾ أي قضى الله ذلك .

وقيل : كتب في اللوح المحفوظ ؛ عن قتادة .

الفراء : كتب بمعنى قال .

﴿ أَنَاْ ﴾ توكيد ﴿ ورسلي ﴾ من بُعث منهم بالحرب فإنه غالب بالحرب ، ومن بُعث منهم بالحجة فإنه غالب بالحجة .

قال مقاتل قال المؤمنون : لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجَوْنا أن يظهرنا

الله على فارس والروم؛ فقال عبد الله بن أُبيّ بن سَلُول : أتظنون الروم وفارس مثل القرى التي غلبتم عليها ؟ ! والله إنهم لأكثر عدداً ، وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك؛ فنزلت : ﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَا ورسلي ﴾ .

نظيره : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171-173] .

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَادُّونَ ﴾ أي يحبون ويوالون ﴿ مَنْ حَآدَّ الله وَرَسُولَهُ ﴾ تقدّم " ﴿ وَلَوْ كانوا آبَآءَهُمْ ﴾ قال السدي : نزلت في عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ، جلس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فشرب النبيّ صلى الله عليه وسلم ماء ؛ فقال له : بالله يا رسول الله ما أبقيت من شرابك فضلةً أسقيها أبي ؛ لعل الله يُطهّر بها قلبه؟ فأفضل له فأتاه بها ؛ فقال له عبد الله : ما هذا ؟ فقال : هي فضلة من شراب النبيّ صلى الله عليه وسلم جئتك بها تشربها لعل الله يطهّر قلبك بها .

فقال له أبوه : فهلا جئتني ببول أمك فإنه أطهر منها .

فغضب وجاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا رسول الله ! أما أذنت لي في قتل أبي ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "بل ترفق به وتحسن إليه" .

وقال ابن جريج : حُدِّثت أن أبا قُحافة سب النبيّ صلى الله عليه وسلم فصكّه أبو بكر ابنه صكةً فسقط منها على وجهه ، ثم أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلَك له ، فقال : "أو فعلته ، لا تعد إليه" فقال : والذي بعثك بالحق نبيّا لو كان السيف مني قريباً لقتلته " وقال ابن مسعود : نزلت في أبي عبيدة بن الجراح ؛ قتل أباه عبد الله ابن الجراح يوم أُحد وقيل : يوم بدر .

وكان الجراح يتصدّى لأبي عبيدة وأبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصد إليه أبو عبيدة فقتله ؛ فأنزل الله حين قتل أباه : ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ﴾ الآية .

قال الواقدي : كذلك يقول أهل الشام .

ولقد سألت رجالاً من بني الحرث بن فهر فقالوا : توفي أبوه من قبل الإسلام .

﴿ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ يعني أبا بكر دعى ابنه عبد الله إلى البراز يوم بدر ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " مَتِّعْنَا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندي بمنزلة السمع والبصر " ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ يعني مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم بدر .

﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ يعني عمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر ،

وعليّاً وحمزة قتلا عُتبة وشيبة والوليد يوم بدر .

وقيل : إن الآية نزلت في حاطب بن أبي بَلْتَعة ، لما كتب إلى أهل مكة بمسير النبيّ صلى الله عليه وسلم عام الفتح ؛ على ما يأتي بيانه أوّل سورة "الممتحنة" إن شاء الله تعالى .

بيّن أن الإيمان يفسد بموالاة الكفار وإن كانوا أقارب .

الثانية : استدل مالك رحمه الله من هذه الآية على معاداة القَدَرية وترك مجالستهم .

قال أشهب عن مالك : لا تجالس القَدَرية وعادِهم في الله ؛ لقوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ واليوم الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ .

قلت : وفي معنى أهل القدر جميع أهل الظلم والعدوان .

(20/753)

وعن الثوري أنه قال : كانوا يرون أنها نزلت في مَن كان يصحب السلطان .

وعن عبد العزيز بن أبي داود أنه لقي المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها .

وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : " اللّهم لا تجعل لفاجر عندي نعمة فإني وجدت فيما أوحيت ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ واليوم الآخر ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان ﴾ " أي خلق في قلوبهم التصديق ؛ يعني من لم يوال من حاد الله .

وقيل : كتب أثبت ؛ قاله الربيع بن أنس .

وقيل : جعل ؛ كقوله تعالى : ﴿ فاكتبنا مَعَ الشاهدين ﴾ [آل عمران : 53] أي اجعلنا .

وقوله : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : 156] وقيل : "كَتَبَ" أي جمع ، ومنه الكَتيبة ؛ أي لم يكونوا ممن يقول نؤمن ببعض ونكفر ببعض .

وقراءة العامة بفتح الكاف من "كَتَبَ" ونصب النون من "الإيمان" بمعنى كَتَبَ الله وهو الأجود ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ وقرأ أبو العالية وزِرّ بن حُبيش والمفضل عن عاصم "كُتِبَ" على ما لم يسمّ فاعله "الإيمَانُ" برفع النون .

وقرأ زِرّ بن حُبيش "وَعَشِيرَاتِهِمْ" بألف وكسر التاء على الجمع ، ورواها الأعمش عن أبي بكر عن عاصم .

وقيل : "كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ" أي على قلوبهم ، كما في قوله ﴿ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ وخص القلوب بالذكر لأنها موضع الإيمان .

"وَأَيَّدَهُمْ" قوّاهم ونصرهم بروح منه ؛ قال الحسن : وبنصر منه .

وقال الربيع بن أنس : بالقرآن وحججه .

وقال ابن جريج : بنور وإيمان وبرهان وهدى .

وقيل : برحمة من الله .

وقال بعضهم : أيدهم بجبريل عليه السلام .

(21/753)

﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ﴾ أي قبل أعمالهم ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ فرحوا بما أعطاهم ﴿ أولئك حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المفلحون ﴾ قال سعيد بن أبي سعيد الجرجاني عن بعض مشايخه، قال داود عليه السلام: إلهي! مَن حزبك وحول عرشك؟ فأوحى الله إليه: "يا داود الغاضّة أبصارهم، النقية قلوبهم، السليمة أكفهم؛ أولئك حزبي وحول عرشي". انتهى انتهى. ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(22/753)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾

﴿ بين يدي نجواكم ﴾: استعارة والمعنى: قبل نجواكم.

وعن ابن عباس وقتادة: أن قوماً من المؤمنين وأغفالهم كثرت مناجاتهم للرسول عليه

الصلاة والسلام في غير جاحة إلا لتظهر منزلتهم وكان (صلى الله عليه وسلم) سمحاً لا يرد أحداً فنزلت مشددة عليهم أمر المناجاة .

وهذا الحكم قيل : نسخ قبل العمل به .

وقال قتادة : عمل به ساعة من نهار .

وقال مقاتل : عشرة أيام .

وقال عليّ كرم الله وجهه : ما عمل به أحد غيري أردت المناجاة ولي دينار فصرفته بعشرة دراهم وناجيت عشر مرار أتصدق في كل مرة بدرهم ثم ظهرت مشقة ذلك على الناس فنزلت الرخصة في ترك الصدقة .

وقرىء : صدقات بالجمع .

وقال ابن عباس : هي منسوخة بالآية التي بعدها .

وقيل بآية الزكاة .

﴿ أأشفقتم ﴾ : أخفتم من ذهاب المال في الصدقة أو من العجز عن وجودها تتصدقون به ؟ ﴿ فإذ لم تفعلوا ﴾ : ما أمرتم به ﴿ وتاب الله عليكم ﴾ : عذركم ورخص لكم في أن لا تفعلوا فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وأفعال الطاعات .

﴿ الذين تولوا ﴾ : هم المنافقون ، والمغضوب عليهم : هم اليهود ، عن السدي ومقاتل ، " أنه (صلى الله عليه وسلم) قال لأصحابه : يدخل عليكم رجل قلبه قلب جبار وينظر

بعيني شيطان ، فدخل عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان أزرق أسمر قصيراً ، خفيف اللحية ، فقال عليه الصلاة والسلام : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ، فقال عليه الصلاة والسلام له : "فعلت" ، فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه " ، فنزلت .

والضمير في ﴿ ما هم ﴾ عائد على ﴿ الذين تولوا ﴾ ، وهم المنافقون : أي ليسوا منكم أيها المؤمنون ، ﴿ ولا منهم ﴾ : أي ليسوا من الذين تولوهم ، وهم اليهود .

(23/753)

وما هم استئناف إخبار بأنهم مذبذبون ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، كما قال عليه الصلاة والسلام : " مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين لأنه مع المؤمنين بقوله ومع الكفار بقلبه " وقال ابن عطية : يحتمل تأويلاً آخر ، وهو أن يكون قوله : ﴿ ما هم ﴾ يريد به اليهود ، وقوله : ﴿ ولا منهم ﴾ يريد به المنافقين ، فيجيء فعل المنافقين على هذا التأويل أحسن ، لأنهم تولوا مغضوباً عليهم ، ليسوا من أنفسهم فيلزمهم ذمامهم ، ولا من القوم المحقين فتكون الموالاة صواباً . انتهى .

والظاهر التأويل الأول ، لأن الذين تولوا هم المحدث عنهم .

والضمير في ﴿ ويحلفون ﴾ عائد عليهم ، فتتناسق الضمائر لهم ولا تختلف .

وعلى هذا التأويل يكون ﴿ ما هم ﴾ استئنافاً ، وجاز أن يكون حالاً من ضمير ﴿ تولوا ﴾ .

وعلى احتمال ابن عطية ، يكون ﴿ ما هم ﴾ صفة لقوم .

﴿ ويحلفون على الكذب ﴾ ، إما أنهم ما سبوا ، كما روي في سبب النزول ، أو على أنهم مسلمون .

والكذب هو ما ادعوه من الإسلام .

﴿ وهم يعلمون ﴾ : جملة حالية يقبح عليهم ، إذ حلفوا على خلاف ما أبطنوا ، فالمعنى : وهم عالمون متعمدون له .

والعذاب الشديد : المعد لهم في الآخرة .

وقرأ الجمهور : ﴿ أيمانهم ﴾ جمع يمين ؛ والحسن : إيمانهم ، بكسر الهمزة : أي ما يظهرون من الإيمان ، ﴿ جنة ﴾ : أي ما يتسترون به ويتقون المحدود ، وهو الترس ، ﴿ فصدوا ﴾ : أي أعرضوا ، أو صدوا الناس عن الإسلام ، إذ كانوا يثبطون من لقوا عن الإسلام ويضعفون أمر الإيمان وأهله ، أو صدوا المسلمين عن قتلهم بإظهار الإيمان ، وقتلهم هو سبيل الله فيهم ، لكن ما أظهروه من الإسلام صدوا به المسلمين عن قتلهم .

﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ : تقدم الكلام على هذه الجملة في

أوائل آل عمران .

﴿ فيحلفون له ﴾ : أي لله تعالى .

ألا ترى إلى قولهم : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ﴿ كما يحلفون لكم ﴾ أنهم مؤمنون ، وليسوا بمؤمنين .

(24/753)

والعجب منهم ، كيف يعتقدون أن كفرهم يخفى على عالم الغيب والشهادة ، ويجرونه مجرى المؤمنين في عدم اطلاعهم على كفرهم ونفاقهم ؟ والمقصود أنهم مقيمون على الكذب ، قد تعودوه حتى كان على ألسنتهم في الآخرة كما كان في الدنيا ، ﴿ ويحسبون أنهم على شيء ﴾ : أي شيء نافع لهم .

﴿ استحوذ عليهم الشيطان ﴾ : أي أحاط بهم من كل جهة ، وغلب على نفوسهم واستولى عليها ، وتقدمت هذه المادة في قوله تعالى : ﴿ ألم نستحوذ عليكم ﴾ في النساء ، وأنها من حاذ الحمار العانة إذا ساقها ، وجمعها غالباً لها ، ومنه كان أحوذياً نسيج وحده .

وقرأ عمر : استحاذ ، أخرجه على الأصل والقياس ، واستحوذ شاذ في القياس فصيح

في الاستعمال.

﴿ فأنساهم ذكر الله ﴾ : فهم لا يذكرونه، لا بقلوبهم ولا بألسنتهم؛ و﴿ حزب الشيطان ﴾ : جنده، قاله أبو عبيدة.

﴿ أولئك في الأذلين ﴾ : هي أفعل التفضيل، أي في جملة من هو أذل خلق الله تعالى، لا ترى أحداً أذل منهم.

وعن مقاتل: لما فتح الله مكة للمؤمنين، والطائف وخيبر وما حولهم، قالوا: نرجو أن يظهرنا الله على فارس والروم، فقال عبد الله بن أبي: أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها؟ والله إنهم لأكثر عدداً وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك، فنزلت:

﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ : ﴿ كتب ﴾ : أي في اللوح المحفوظ، أو قضى. وقال قتادة: بمعنى قال، ﴿ ورسلي ﴾ : أي من بعثت منهم بالحرب ومن بعثت منهم بالحجة.

﴿ إن الله قوي ﴾ : ينصر حزبه، ﴿ عزيز ﴾ : يمنعه من أن يذل.

﴿ لا تجد قوماً ﴾ ، قال الزمخشري، من باب التخييل: خيل أن من الممتنع المحال أن تجد قوماً مؤمنين يوادون المشركين، والغرض منه أنه لا ينبغي أن يكون ذلك، وحقه أن يمتنع، ولا يوجد بحال مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملابسته والتصلب في مجانبة أعداء الله.

وزاد ذلك تأكيداً بقوله: ﴿ ولو كانوا آباءهم ﴾ . انتهى.

وبدأ بالآباء لأنهم الواجب على الأولاد طاعتهم ، فنهاهم عن موادتهم .

وقال تعالى : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما

وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾ ثم ثنى بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب ، ثم أتى ثالثاً بالإخوان

لأنهم بهم التعاضد ، كما قيل :

أخاك أخاك إن من لا أخاً له . . .

كساع إلى الهيجاء بغير سلاح

ثم رابعاً بالعشيرة ، لأن بها التناصر ، وبهم المقاتلة والتغلب والتسرع إلى ما دعوا إليه ، كما

قال :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم . . .

في النائبات على ما قال برهاناً

وقرأ الجمهور : ﴿ كتب ﴾ مبنياً للفاعل ، ﴿ في قلوبهم الإيمان ﴾ نصباً ، أي كتب الله .

وأبو حيوة والمفضل عن عاصم : كتب مبنياً للمفعول ، والإيمان رفع .

والجمهور : ﴿ أو عشيرتهم ﴾ على الإفراد ؛ وأبو رجاء : على الجمع ، والمعنى : أثبت

الإيمان في قلوبهم وأيدهم بروح منه تعالى ، وهو الهدى والنور واللطف .

وقيل : الروح : القرآن .

وقيل : جبريل يوم بدر .

وقيل : الضمير في منه عائد على الإيمان ، والإنسان في نفسه روح يحيا به المؤمن ، والإشارة بأولئك كتب إلى الذين لا يوادّون من حادّ الله ورسوله .

قيل : والآية نزلت في أبي حاطب بن أبي بلتعة .

وقيل : الظاهر أنها متصلة بالآي التي في المنافقين الموالين لليهود .

وقيل : " نزلت في ابن أبيّ وأبي بكر الصديق ، رضى الله تعالى عنه ، كان منه سب للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فصكه أبو بكر صكة سقط منها ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : "أوفعلته" ؟ قال : نعم ، قال : "لا تعد" ، قال : والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته" وقيل : في أبي عبيدة بن الجراح ، قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أُحد ، وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز ، وفي مصعب بن عمير قتل أخاه بن عمير يوم أُحد .

وقال ابن شوذب : يوم بدر ، وفي عمر قتل خاله العاصي بن هشام يوم بدر ، وفي عليّ وحمزة وعبيد بن الحارث ، قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة ، والوليد بن عتبة يوم بدر .

وقال الواقدي في قصة أبي عبيدة أنه قتل أباه ، قال : كذلك يقول أهل الشام ، وقد سألت رجالاً من بني فهر فقالوا : توفي أبوه قبل الإسلام .

انتهى ، يعنون في الجاهلية قبل ظهور الإسلام .

وقد رتب المفسرون .

﴿ ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ على قصة أبي عبيدة وأبي بكر ومصعب وعمر وعليّ وحمزة وعبيد مع أقربائهم ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(27/753)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾

تعجيب منْ حالِ المنافقينَ الذين كانُوا يتخذونَ اليهودَ أولياءَ ويناصحونَهُم وينقلونَ إليهم أسرارَ المؤمنينَ أيْ ألمْ تنظرْ ﴿ إِلَى الذين تَوَلَّوْاْ ﴾ أيْ والوْا ﴿ قوماً غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ ﴾

وَهُمْ اليهودُ كَمَا أنبأَ عَنْهُ قولِهِ تَعَالى : ﴿ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ ﴾ لأنهم منافقونَ مذبذبونَ بينَ ذلكَ والجملةُ مستأنفةٌ أو حالٌ منْ فاعِلِ تولوا ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب ﴾ أي يقولونَ واللهِ إنَّا لمسلمونَ وهو عطفٌ عَلى تولَّوا داخلٌ في حُكمِ التعجيبِ وصيغةُ المضارعِ للدلالةِ على تكرر الحلفِ وتجددِّهِ حسبَ تكررِ ما يقتضيهِ وقولِهِ تَعَالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ حالٌ منْ فاعِلِ يحلفونَ مفيدةٌ لكمالِ شناعةِ ما فعلوا فإنَّ الحلفَ عَلى مَا يُعلمُ أنَّه كذبٌ في غايةِ القُبحِ وفيهِ دلالةٌ على أنَّ الكذبَ يعمُّ ما يعلمُ المخبرُ عدمَ مطابقتِهِ للواقعِ وما لا يعلمُه . رُوي أنَّه عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ كانَ في حجرةٍ من حجراتِه فقال : " يدخل عليكُم الآن رجلٌ قلبُه قلبُ جبارٍ ، وينظرُ بعينِ شيطانٍ " فدخلَ عبدُ اللهِ بن نَبْتَل المنافقُ ، وكان أزرق ، فَقَالَ له رسولُ الله صلى اللهُ عليه وسلم : " علامَ تشتمني أنتَ وأصحابُك " فحلفَ باللهِ ما فعلَ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : " فعلتَ " فانطلق فجاءَ بأصحابهِ فحلفُوا باللهِ ما سبُّوه فنزلتْ .

﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ ﴾ بسببِ ذلكَ ﴿ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ نوعاً من العذابِ متفاقماً ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فيما مَضَى منَ الزمانِ المتطاولِ فتمرنُوا على سوءِ العمل وضرُوْا به وأصرُّوا عليه .

﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ الفاجرةَ التي يحلفونَ بهَا عندَ الحاجَةِ وقُرِىءَ بكسرِ الهمزةِ أيْ إيمانُهم الذي أظهروه لأهلِ الإسلامِ ﴿ جنّةً ﴾ وقايةً وسترةً دونَ دمائِهم وأموالِهم فالاتخاذُ على هذهِ القراءةِ عبارةٌ عن التسترِ بما أظهروه بالفعلِ وأمَّا عَلى القراءةِ الأولى عبارةٌ عن إعدادِهم لأيمانِهم الكاذبةِ وتهيئتِهم لَها إلى وقتِ الحاجةِ ليحلفوا بهَا ويتخلصُوا من المؤاخذةِ لا عنِ استعمالِها بالفعلِ فإنَّ ذلك متأخرٌ عنِ المؤاخذةِ المسبوقةِ بوقوعِ الجنايةِ والخيانةِ ، واتخاذُ الجُنّةِ لاَ بُدَّ أنْ يكونَ قبلَ المؤاخذةِ وعن سببِها أيضاً كَمَا يعربُ عنْهُ الفاءُ فِي قولِهِ تَعَالَى : ﴿ فَصَدُّواْ ﴾ أي الناس ﴿ عَن سَبِيلِ الله ﴾ في خلالِ أمنهم بتثبيطِ من لقوْا عنِ الدخولِ في الإسلامِ وتضعيفِ أمرِ المسلمينَ عندهُمْ ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وعيدٌ ثانٍ بوصفٍ آخرَ لعذابِهم وقيلَ : الأولُ عذابُ القبرِ وهَذا عذابُ الآخرةِ . ﴿ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أموالهم وَلاَ أولادهم مّنَ الله ﴾ أي منْ عذابِه تَعَالَى ﴿ شَيْئاً ﴾ منَ الإغناءِ رُوي أنَّ رجلاً منهم قالَ : لننصرَنَّ يومَ القيامَةِ بأنفسنا وأموالنا وأولادِنا ﴿ أولئك ﴾ الموصوفونَ بما ذكرَ منَ الصفاتِ القبيحةِ ﴿ أصحاب النار ﴾ أيْ ملازمُوهَا ومقارنُوهَا ﴿ هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ لا يخرجونَ منها أبداً ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيعاً ﴾ قيلَ : هو ظرفٌ لقولِه تعَالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ ﴾ أيْ للهِ تعالى يومئذٍ على أنهُمْ مسلمونَ ﴿ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ فِي الدُّنيا ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ في الآخرةِ ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ بتلكَ الأيمانِ الفاجرةِ ﴿ على

شَيْءٍ ﴾ من جلبِ منفعةٍ أو دفعِ مضرةٍ كما كانُوا عليهِ في الدُّنيا حيثُ كانوا يدفعونَ بِهَا عنْ أرواحِهم وأموالِهم ويستجرونَ بها فوائدَ دنيويةً ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ

(29/753)

الكاذبون ﴾ البالغونَ في الكذبِ إلى غايةٍ لا مطمحَ وراءَهَا حيثُ تجاسرُوا عَلَى الكذبِ بينَ يَدي علاَّمِ الغيوبِ وزعمُوا أنَّ أيمانَهُم الفاجرةَ تروجُ الكذبَ لديهِ كَمَا تروجُهُ عندَ الغافلينَ.

﴿ استحوذَ عَلَيْهِمُ الشيطانُ ﴾ أي استولى عليهمْ منْ حُذتُ الإبلَ إذَا استوليتُ عليهَا وجمعتهَا وهوَ مما جاءَ على الأصلِ كاستصوبَ واستنوقَ أي ملكَهُم ﴿ فأنساهم ذِكْرَ الله ﴾ بحيثُ لمْ يذكرُوه بقلوبِهم ولا بألسنتِهم ﴿ أولئك ﴾ الموصوفونَ بما ذكرَ من القبائحِ ﴿ حِزْبُ الشيطانِ ﴾ أيْ جنودُهُ وأتباعُهُ ﴿ إِلاَ أَنْ حِزْبَ الشيطانِ هُمُ الخاسرون ﴾ أي الموصوفونَ بالخُسرانِ الذي لا غايةَ وراءَهُ حيثُ فوتُوا على أنفسِهم النعيمَ المقيمَ وأخذُوا بدلَهُ العذابَ الأليمَ، وفي تصديرِ الجملةِ بحرفي التنبيهِ والتحقيقِ وإظهارِ المضافينِ معاً في موقعِ الإضمارِ بأحدِ الوجهينِ وتوسيطِ ضميرِ الفصلِ منْ فنونِ التأكيدِ ما لا يَخْفَى ﴿ إِنَّ الذين يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتعليلِ ما قبلَهُ من خسرانِ حزبِ

الشيطانِ عبرَ عنهُمْ بالموصولِ للتنبيهِ بما في حيزِ الصلةِ عَلى أنّ مُوادةَ مَنْ حَادّ الله ورسولَهُ محادّةٌ لَهُمَا والإشعارِ بعلةِ الحُكمِ ﴿ أولئك ﴾ بما فعلُوا منَ التوِلي والموادةِ ﴿ فِى الأذلين ﴾ أيْ في جُملةِ منْ هُوَ أذلُّ خلقِ الله منَ الأولينَ والآخرينَ لأنّ ذلةَ أحدِ المتخاصمينَ على مقدارِ عزةِ الآخرِ وحيثُ كانتْ عزةُ الله عزّ وجلّ غيرَ متناهيةٍ كانتْ ذلةُ من يحادُّهُ كذلك .

(30/753)

﴿ كتاب الله ﴾ استئنافٌ واردٌ لتعليلِ كونِهِمْ في الأذلينَ أيْ قَضَى وأثبتَ في اللوحِ وحيثُ جرَى ذلكَ مَجرى القسمِ أجيبَ بما يجابُ به فقيلَ : ﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ أيْ بالحجةِ والسيفِ وما يجري مجراهُ أو بأحدِهِمَا ونظيرُهُ قولُه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ وقُرِىءَ ورسليَ بفتحِ الياءِ ﴿ إِنَّ الله قَوِىٌّ ﴾ عَلَى نصرِ أنبيائِهِ ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يُغلبُ عليهِ في مرادِهِ .

(31/753)

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الخطابُ للنبيِّ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ أوْ لكُلِّ أحدٍ وتجدُ إمَّا متعدٍ إلى اثنينِ فقولِه تعَالى: ﴿ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ مفعولُه الثاني أوْ إلى واحدٍ فهو حالٌ من مفعولِه لتخصصهُ بالصفةِ وقيلَ: صفةٌ أُخرى لَهُ أي قوماً جامعينَ بينَ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخرِ وبينَ موادةِ أعداءِ اللهِ ورسولِه والمرادُ بنفيِ الوجدانِ نفيُ الموادةِ على معْنَى أنهُ لا ينبغي أنْ يتحققَ ذلكَ وحقُّه أن يمتنعَ ولا يوجدَ بحالٍ وإنْ جدَّ في طلبهِ كلُّ أحدٍ ﴿ وَلَوْ كَانُوا ﴾ أي مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ والجمعُ باعتبارِ معنَى مَنْ كمَا أنَّ الإفرادَ فيما قبلَهُ باعتبارِ لفظِها ﴿ ءَابَاءَهُمْ ﴾ آباءُ الموادّينَ ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ فإنَّ قضيةَ الإيمانِ باللهِ تعالى أنْ يهجرَ الجميعَ بالمرةِ والكلامُ في لوْ قدْ مرَّ على التفصيلِ مراراً ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى الذينَ لا يوادونهم وإنْ كانُوا أقربَ النَّاسِ إليهم وأمسَّ رحماً وما فيه من معنَى البعدِ لرفعةِ درجتهم في الفضلِ وهُوَ مبتدأ خبرُهُ ﴿ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ أي أثبتَهُ فيها وفيهِ دلالةٌ عل خروجِ العملِ منْ مفهومِ الإيمانِ فإنَّ جزءَ الثابتِ في القلبِ ثابتٌ فيهِ قطْعاً ولا شيءَ من أعمالِ الجوارحِ يثبتُ فيهِ ﴿ وَأَيَّدَهُم ﴾ أي قوّاهُم ﴿ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أي منْ عندِ اللهِ تعالى وهُوَ نورُ القلبِ أو القرآنُ أو النصرُ على العدوِّ وقيلَ: الضميرُ للإيمانِ لحياةِ القلوبِ بِه فمنْ تجريديةٌ وقولُه تعالَى: ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ ﴾ الخ بيانٌ لآثارِ رحمتِه الأخرويةِ إثرَ بيانِ ألطافِه الدنيويةِ أيْ ويدخلهُم في الآخرةِ ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أبدَ الآبدينَ وقولُه تعَالى: ﴿ رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾

(32/753)

استئنافٌ جارٍ مَجْرَى التعليلِ لما أفاضَ عليهمْ مِنْ آثارِ رحمتِهِ العاجلةِ والآجلةِ وقولُه تَعَالى : ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ بيانٌ لابتهاجهم بما أُوتوه عاجلاً وآجلاً وقولُه تَعَالَى : ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ ﴾ تشريفٌ لهُمْ ببيانِ اختصاصِهِم بهِ عزَّ وجلَّ وقولُه تعالَى : ﴿ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المفلحون ﴾ بيانٌ لاختصاصِهِم بالفوزِ بسعادةِ الدارينِ والفوزِ بسعادةِ النشأتينِ والكلامُ في تحليةِ الجملةِ بفنونِ التأكيدِ كَمَا مَرَّ في مثلِها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(33/753)

وقال الآلوسى :

﴿ كَتَبَ الله ﴾

استئناف وارد لتعليل كونهم في الأذلين أي أثبت في اللوح المحفوظ أو قضى وحكم ، وعن قتادة قال : وأياً مّا كان فهو جار مجرى القسم فلذا قال سبحانه : ﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى

﴾ أي بالحجة والسيف وما يجري مجراه أو بأحدهما ، ويكفي في الغلبة بما عدا الحجة تحققها للرسل عليهم السلام في أزمنتهم غالباً فقد أهلك سبحانه الكثير من أعدائهم بأنواع العذاب كقوم نوح .

وقوم صالح .

وقوم لوط .

وغيرهم ، والحرب بين نبينا صلى الله عليه وسلم وبين المشركين وإن كان سجالاً إلا أن العاقبة كانت له عليه الصلاة والسلام وكذا لأتباعهم بعدهم لكن إذا كان جهادهم لأعداء الدين على نحو جهاد الرسل لهم بأن يكون خالصاً لله عز وجل لا لطلب ملك وسلطنة وأغراض دنيوية فلا تكاد تجد مجاهداً كذلك إلا منصوراً غالباً ، وخص بعضهم الغلبة بالحجة لاطرادها وهو خلاف الظاهر ، ويبعده سبب النزول ، فعن مقاتل لما فتح الله تعالى مكة للمؤمنين .

والطائف .

وخيبر وما حولها قالوا : نرجوا أن يظهرنا الله تعالى على فارس والروم فقال عبد الله بن أبيّ : أتظنون الروم .

وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها ، والله أنهم لأكثر عدداً وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك فنزلت ﴿ كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ ﴿ إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ ﴾ على نصر رسله

﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يغلب على مراده عز وجل .

وقرأ نافع .

وابن عامر ﴿ وَرُسُلِي ﴾ بفتح الياء .

﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ ﴾

(34/753)

خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد يصلح له ، و﴿ تَجِدُ ﴾ إما متعد إلى اثنين فقوله تعالى : ﴿ يُوَادُّونَ ﴾ الخ مفعوله الثاني ، وإما متعد إلى واحد فهو حال من مفعوله لتخصصه بالصفة ، وقيل : صفة أخرى له أي قوماً جامعين بين الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر وبين موادّة أعداء الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وليس بذاك ، والكلام على ما في "الكشاف" من باب التخييل خيل أن من الممتنع المحال أن تجد قوماً مؤمنين يوادّون المشركين ، والغرض منه أنه لا ينبغي أن يكون ذلك وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملابسته والتصلب في مجانبة أعداء الله تعالى ، وحاصل هذا على ما في "الكشف" أنه من فرض غير الواقع واقعاً محسوساً حيث نفى الوجدان على الصفة ، وأريد نفي انبغاء الوجدان على تلك الصفة فجعل الواقع نفي

الوجدان ، وإنما الواقع نفي الانبغاء فخيل أنه هو فالتصوير في جعل ما لا يمتنع ممتنعاً ، وقيل : المراد لا تجد قوماً كاملي الإيمان على هذه الحال ، فالنفي باق على حقيقته ، والمراد بموادة المحادّين موالاتهم ومظاهرتهم ، والمضارع قيل : لحكاية الحال الماضية ، و ﴿ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ظاهر في الكافر ؛ وبعض الآثار ظاهر في شموله للفاسق ، والأخبار مصرحة بالنهي عن موالاة الفاسقين كالمشركين بل قال سفيان : يرون أن الآية المذكورة نزلت فيمن يخالط السلطان ، وفي حديث طويل أخرجه الطبراني .

والحاكم .

والترمذي عن واثلة بن الأسقع مرفوعاً " يقول الله تبارك وتعالى : وعزتي لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي ويعاد أعدائي " .

وأخرج أحمد .

وغيره عن البراء بن عازب مرفوعاً " أوثق الإيمان الحب في الله والبغض في الله " .

(35/753)

وأخرج الديلمي من طريق الحسن عن معاذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم لا تجعل لفاجر وفي رواية ولا لفاسق علي يداً ولا نعمة فيودّه قلبي فإني وجدت فيما

أوحيت إلي ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ " وحكى الكواشي عن سهل أنه قال : من صحح إيمانه وأخلص توحيده فإنه لا يأنس إلى مبتدع ولا يجالسه ولا يؤاكله ولا يشاربه ولا يصاحبه ويظهر له من نفسه العداوة والبغضاء ، ومن داهن مبتدعاً سلبه الله تعالى حلاوة السنن ، ومن تحبب إلى مبتدع يطلب عز الدنيا أو عرضاً منها أذله الله تعالى بذلك العز وأفقره بذلك الغنى ، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله تعالى نور الإيمان من قلبه ، ومن لم يصدق فليجرب انتهى .

(36/753)

ومن العجيب أن بعض المنتسبين إلى المتصوفة وليس منهم ولا قلامة ظفر يوالي الظلمة بل من لا علاقة له بالدين منهم وينصرهم بالباطل ويظهر من محبتهم ما يضيق عن شرحه صدر القرطاس ، وإذا تليت عليه آيات الله تعالى وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم الزاجرة عن مثل ذلك يقول : سأعالج قلبي بقراءة نحو ورقتين من كتاب المثنوي الشريف لمولانا جلال الدين القونوي قدس سره وأذهب ظلمته إن كانت بما يحصل لي من الأنوار حال قراءته ، وهذا لعمري هو الضلال البعيد ، وينبغي للمؤمنين اجتناب مثل هؤلاء ﴿ وَلَوْ كَانُواْ ﴾ أي من حادّ الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام ، والجمع باعتبار معنى من كما أن الإفراد

فيما قبل باعتبار لفظها ﴿ ءَابَاءهُمُ ﴾ أي الموادين ﴿ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إخوانهم أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ فإن قضية الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر الذي يحشر المرء فيه مع من أحب أن يهجروا الجميع بالمرة ، وليس المراد بمن ذكر خصوصهم وإنما المراد الأقارب مطلقاً ، وقدم الآباء لأنه يجب على أبنائهم طاعتهم ومصاحبتهم في الدنيا بالمعروف ، وثنى بالأبناء لأنهم أعلق بهم لكونهم أكبادهم ، وثلث بالأخوان لأنهم الناصرون لهم :

أخاك أخاك إن من لا أخا له . . .

كساع إلى الهيجاء بغير سلاح

وختم بالعشيرة لأن الاعتماد عليهم والتناصر بهم بعد الإخوان غالباً :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي . . .

بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

إذاً لقام بنصري معشر خشن . . .

عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم . . .

في النائبات على ما قال برهانا

وقرأ أبو رجاء وعشائرهم بالجمع ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الذين لا يوادونهم وإن كانوا

أقرب الناس إليهم وأمسهم رحماً بهم وما فيه من معنى البعد لرفعة درجتهم في الفضل ، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى :

(37/753)

﴿ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ﴾ أي أثبته الله تعالى فيها ولما كان الشيء يراد أولاً ثم يقال ثم يكتب عبر عن المبدأ بالمنتهى للتأكيد والمبالغة ، وفيه دليل على خروج العمل من مفهوم الإيمان فإن جزء الثابت في القلب ثابت فيه قطعاً ، ولا شيء من أعمال الجوارح يثبت فيه .

وقرأ أبو حيوة .

والمفضل عن عاصم ﴿ إِنّ كتاب ﴾ مبنياً للمفعول ﴿ الايمان ﴾ بالرفع على النيابة عن الفاعل .

﴿ وَأَيَّدَهُمْ ﴾ أي قواهم ﴿ بِرُوحٍ مّنْهُ ﴾ أي من عنده عز وجل على أن من ابتدائية ، والمراد بالروح نور القلب وهو نور يقذفه الله تعالى في قلب من يشاء من عباده تحصل به الطمأنينة والعروج على معارج التحقيق ، وتسميته روحاً مجاز مرسل لأنه سبب للحياة الطيبة الأبدية ، وجوز كونه استعارة ، وقول بعض الأجلة : إن نور القلب ما سماه الأطباء روحاً وهو الشعاع اللطيف المتكون في القلب وبه الإدراك فالروح على حقيقته ليس بشيء

كما لا يخفى ، أو المراد به القرآن على الاحتمالين السابقين ، واختيرت الاستعارة أو جبريل عليه السلام وذلك يوم بدر ، وإطلاق الروح عليه شائع أقوال .

وقيل : ضمير ﴿ فِيهِ ﴾ للإيمان ، والمراد بالروح الإيمان أيضاً ، والكلام على التجريد البديعي فمن بيانية أو ابتدائية على الخلاف فيها ، وإطلاق الروح على الإيمان على ما مر ؛ وقوله تعالى : ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ ﴾ الخ بيان لآثار رحمته تعالى الأخروية إثر بيان ألطافه سبحانه الدنيوية أي ويدخلهم في الآخرة .

(38/753)

﴿ جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ﴾ أبد الآبدين ، وقوله تعالى : ﴿ رَّضِىَ الله عَنْهُمْ ﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما أفاض سبحانه عليهم من آثار رحمته عز وجل العاجلة والآجلة ، وقوله تعالى : ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ بيان لابتهاجهم بما أوتوه عاجلاً وآجلاً ، وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الله ﴾ تشريف لهم ببيان اختصاصهم به تعالى ، وقوله سبحانه : ﴿ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ المفلحون ﴾ بيان لاختصاصهم بسعادة الدارين ، والكلام في تحلية الجملة بإلا .

وإن على ما مر في أمثالها ، والآية قيل : نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه .

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : حدثت أن أبا قحافة سب النبي صلى الله عليه وسلم فصكه أبو بكر صكة فسقط ؛ فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : أفعلت يا أبا بكر ؟ قال : نعم ، قال : لا تعد ، قال : والله لو كان السيف قريباً مني لضربته وفي رواية لقتلته فنزلت ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْماً ﴾ الآيات .

وقيل : في أبي عبيدة بن عبد الله بن الجراح ، أخرج ابن أبي حاتم .

والطبراني .

وأبو نعيم في "الحلية" .

والبيهقي في سننه عن ابن عباس عن عبد الله بن شوذب قال : جعل والد أبي عبيدة يتصدى له يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله فنزلت ﴿ لَّا تَجِدُ ﴾ الخ ، وفي "الكشاف" أن أبا عبيدة قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد ، وقال الواقدي في قصة قتله إياه : كذلك يقول أهل الشام ، وقد سألت رجالاً من بني فهر فقالوا : توفي أبوه قبل الإسلام أي في الجاهلية قبل ظهور الإسلام انتهى .

والحق أنه قتله في بدر ، أخرج البخاري .

ومسلم عن أنس قال : كان أبي أبو عبيدة قتل أباه وهو من جملة أسارى بدر بيده لما سمع منه في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يكره ونهاه فلم ينته ، وقيل : نزلت فيه حيث قتل أباه .

وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز ، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : دعني أكون في الرعلة الأولى وهي القطعة من الخيل قال :

" متعنا بنفسك يا أبا بكر ما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري " وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد .

وفي عمر قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر .

وفي علي كرم الله تعالى وجهه .

وحمزة .

وعبيدة بن الحرث قتلوا عتبة .

وشيبة ابني ربيعة .

والوليد بن عتبة يوم بدر .

وتفصيل ذلك ما رواه أبو داود عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : لما كان يوم بدر تقدم عتبة ابن ربيعة ومعه ابنه وأخوه فنادى من يبارز إلى قوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" قم يا حمزة قم يا علي قم يا عبيدة بن الحرث " فأقبل حمزة إلى عتبة وأقبلت إلى شيبة

واختلفت بين عبيدة والوليد ضربتان فأثخن كل منهما صاحبه ثم ملنا على الوليد فقتلناه

واحتملنا عبيدة .

هذا ورتب بعض المفسرين ﴿ وَلَوْ كَانُوا ءابَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إخوانهم أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾

على قصة أبي عبيدة .

وأبي بكر .

ومصعب .

وعلي كرم الله تعالى وجهه ومن معه ، وقيل : إن قوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً ﴾ الخ نزل في

حاطب بن أبي بلتعة ، والظاهر على ما قيل : إنه متصل بالآي التي في المنافقين الموالين لليهود

؛ وأياً مّا كان فحكم الآيات عام وإن نزلت في أناس مخصوصين كما لا يخفى ، والله تعالى

أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(40/753)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين تَوَلَّوْاْ قَوْماً ﴾

أي : والوهم .

قال قتادة: هم المنافقون تولوا اليهود.

وقال السديّ، ومقاتل: هم اليهود تولوا المنافقين، ويدلّ على الأوّل قوله: ﴿ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ فإن المغضوب عليهم هم اليهود، ويدلّ على الثاني قوله: ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ فإن هذه صفة المنافقين، كما قال الله فيهم: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاء وَلَا إِلَى هَؤُلَاء ﴾ [النساء: 143] وجملة: ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ في محل نصب على الحال، أو هي مستأنفة ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب ﴾ أي: يحلفون أنهم مسلمون، أو يحلفون أنهم ما نقلوا الأخبار إلى اليهود، والجملة عطف على تولوا داخلة في حكم التعجيب من فعلهم، وجملة: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ في محل نصب على الحال، أي: والحال أنهم يعلمون بطلان ما حلفوا عليه، وأنه كذب لا حقيقة له.

﴿ أَعَدَّ الله لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ بسبب هذا التولي والحلف على الباطل ﴿ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال القبيحة ﴿ اتخذوا أيمانهم جُنَّةً ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ أيمانهم ﴾ بفتح الهمزة جمع يمين، وهي ما كانوا يحلفون عليه من الكذب بأنهم من المسلمين توقياً من القتل، فجعلوا هذه الأيمان وقاية وسترة دون دمائهم، كما يجعل المقاتل الجنة وقاية له من أن يصاب بسيف أو رمح أو سهم.

وقرأ الحسن ، وأبو العالية (إيمانهم) بكسر الهمزة أي : جعلوها تصديقهم جنة من القتل ، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل ، ولم تؤمن قلوبهم ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي : منعوا الناس عن الإسلام بسبب ما يصدر عنهم من التثبيط ، وتهوين أمر المسلمين ، وتضعيف شوكتهم ، وقيل المعنى : فصدّوا المسلمين عن قتالهم بسبب إظهارهم للإسلام ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي : يهينهم ويخزيهم ، قيل : هو تكرير لقوله : ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ للتأكيد ، وقيل : الأوّل عذاب القبر ، وهذا عذاب الآخرة ، ولا وجه للقول بالتكرار ، فإن العذاب الموصوف بالشدّة غير العذاب الموصوف بالإهانة .

﴿ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أموالهم وَلاَ أولادهم مّنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ أي : لن تغني عنهم من عذابه شيئًا من الإغناء .

(42/753)

قال مقاتل : قال المنافقون : إن محمداً يزعم أنه ينصر يوم القيامة لقد شقينا إذن ، فوالله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا ، وأموالنا ، وأولادنا إن كان قيامة ، فنزلت الآية ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ أصحاب النار ﴾ لا يفارقونها ﴿ هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ لا يخرجون

منها ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً ﴾ الظرف منصوب بقوله : ﴿ مُّهِينٌ ﴾ ، أو بمقدّر ، أي : اذكر ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ أي : يحلفون لله يوم القيامة على الكذب كما يحلفون لكم في الدنيا ، وهذا من شدّة شقاوتهم ومزيد الطبع على قلوبهم ، فإن يوم القيامة قد انكشفت الحقائق وصارت الأمور معلومة بضرورة المشاهدة ، فكيف يجترئون على أن يكذبوا في ذلك الموقف ويحلفون على الكذب ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَيْءٍ ﴾ أي : يحسبون في الآخرة أنهم بتلك الأيمان الكاذبة على شيء مما يجلب نفعاً ، أو يدفع ضرراً ، كما كانوا يحسبون ذلك في الدنيا ﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون ﴾ أي : الكاملون في الكذب المتهالكون عليه البالغون فيه إلى حدّ لم يبلغ غيرهم إليه بإقدامهم عليه ، وعلى الأيمان الفاجرة في موقف القيامة بين يدي الرحمن .

﴿ استحوذ عَلَيْهِمُ الشيطان ﴾ أي : غلب عليهم واستعلى واستولى .

(43/753)

قال المبرّد : استحوذ على الشيء : حواه وأحاط به ، وقيل : قوي عليهم ، وقيل : جمعهم ، يقال : أحوذ الشيء ، أي : جمعه وضمّ بعضه إلى بعض ، والمعاني متقاربة ؛ لأنه إذا جمعهم فقد قوي عليهم وغلبهم واستعلى عليهم واستولى ، وأحاط بهم ﴿ فأنساهم ذِكْرَ الله ﴾

أي : أوامره والعمل بطاعاته ، فلم يذكروا شيئًا من ذلك ، وقيل : زواجره في النهي عن معاصيه ، وقيل : لم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى المذكورين الموصوفين بتلك الصفات ، وهو مبتدأ ، وخبره ﴿ حِزْبُ الشيطان ﴾ أي : جنوده ، وأتباعه ، ورهطه ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشيطان هُمُ الخاسرون ﴾ أي : الكاملون في الخسران حتى كأن خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران لأنهم باعوا الجنة والهدى بالضلالة ، وكذبوا على الله وعلى نبيه ، وحلفوا الأيمان الفاجرة في الدنيا والآخرة ﴿ إِنَّ الذين يُحَادُّونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ تقدّم معنى المحادّة لله ولرسوله في أوّل هذه السورة ، والجملة تعليل لما قبلها ﴿ أُوْلَئِكَ فِى الأذلين ﴾ أي : أولئك المحادّون لله ورسوله ، المتصفون بتلك الصفات المتقدّمة من جملة من أذله الله من الأمم السابقة واللاحقة ؛ لأنهم لما حادّوا الله ورسوله صاروا من الذلّ بهذا المكان .

قال عطاء : يريد الذلّ في الدنيا ، والخزي في الآخرة .

﴿ كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها مع كونهم في الأذلين ، أي : كتب في اللوح المحفوظ ، وقضى في سابق علمه : لأغلبنّ أنا ورسلي بالحجة والسيف .

قال الزجاج : معنى غلبة الرسل على نوعين : من بعث منهم بالحرب ، فهو غالب في الحرب ، ومن بعث منهم بغير الحرب ، فهو غالب بالحجة .

قال الفراء : كتب بمعنى قال ، وقوله : ﴿ أَنَاْ ﴾ توكيد ، ثم ذكر مثل قول الزجاج .

﴿ إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ فهو قويّ على نصر أوليائه غالب لأعدائه لا يغلبه أحد .

(44/753)

﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح له أي : يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وشاقهما ، وجملة : ﴿ يُوَادُّونَ ﴾ في محل نصب على أنها المفعول الثاني لتجد إن كان متعدّياً إلى مفعولين ، أو في محل نصب على الحال إن كان متعدّياً إلى مفعول واحد ، أو صفة أخرى ل ﴿ قوماً ﴾ ، أي : جامعون بين الإيمان والموادّة لمن حادّ الله ورسوله ﴿ وَلَوْ كَانُواْ ءابَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إخوانهم أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ أي : ولو كان المحادّون لله ورسوله آباء الموادّين ، إلخ ، فإن الإيمان يزجر عن ذلك ، ويمنع منه ، ورعايته أقوى من رعاية الأبوّة والبنوّة والأخوّة والعشيرة ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإيمان ﴾ يعني : الذين لا يوادّون من حادّ الله ورسوله ، ومعنى ﴿ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإيمان ﴾ : خلقه ، وقيل : أثبته ، وقيل : جعله ، وقيل : جمعه ، والمعاني متقاربة ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ قوّاهم بنصر منه على عدوّهم في الدنيا ، وسمى نصره لهم روحاً لأن به يحيا أمرهم ، وقيل : هو نور القلب .

وقال الربيع بن أنس : بالقرآن والحجة ، وقيل : بجبريل ، وقيل : بالإيمان ، وقيل : برحمة .

قرأ الجمهور : ﴿ كَتَبَ ﴾ مبنياً للفاعل ، ونصب الإيمان على المفعولية .

وقرأ زرّ بن حبيش ، والمفضل عن عاصم على البناء للمفعول ، ورفع الإيمان على النيابة .

(45/753)

وقرأ زرّ بن حبيش : (عشيراتهم) بالجمع ، ورويت هذه القراءة عن عاصم ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ﴾ على الأبد ﴿ رَّضِيَ الله عَنْهُمْ ﴾ أي : قبل أعمالهم ، وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة والآجلة ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ أي : فرحوا بما أعطاهم عاجلاً وآجلاً ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الله ﴾ أي : جنده الذين يمتثلون أوامره ، ويقاتلون أعداءه ، وينصرون أولياءه ، وفي إضافتهم إلى الله سبحانه تشريف لهم عظيم ، وتكريم فخيم ﴿ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ المفلحون ﴾ أي : الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة ، الكاملون في الفلاح الذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل ، حتى كان فلاح غيرهم بالنسبة إلى فلاحهم كلا فلاح .

وقد أخرج أحمد ، والبزار ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

جالساً في ظلّ حجرة من حجره ، وعنده نفر من المسلمين ، فقال : " إنه سيأتيكم إنسان ، فينظر إليكم بعين شيطان ، فإذا جاءكم ، فلا تكلموه " ، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق ، فقال حين رآه : " علام تشتمني أنت وأصحابك " ؟ فقال : ذرني آتيك بهم ، فحلفوا ، واعتذروا ، فأنزل الله : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ الآية والتي بعدها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في سننه عن عبد الله بن شوذب قال : جعل والد أبي عبيدة بن الجرّاح يتقصد لأبي عبيدة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصده أبو عبيدة ، فقتله ، فنزلت : ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿فتح القدير حـ 5 صـ 191 . 194 ﴾

(46/753)

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ كتب الله لأغلبن ﴾

علة لجملة ﴿ أولئك في الأذلين ﴾ أي لأن الله أراد أن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم غالباً لأعدائه وذلك من آثار قدرة الله التي لا يغلبها شيء وقد كتب لجميع رسله الغلبة على

أعدائهم ، فغلبتهم من غلبة الله إذ قدرة الله تتعلق بالأشياء على وفق إرادته وإرادة الله لا يغيّرها شيء ، والإِرادة تجري على وفق العلم ومجموع توارد العلم والإِرادة والقدرة على الموجود هو المسمى بالقضاء .

وهو المعبر عنه هنا بـ ﴿ كتب الله ﴾ لأن الكتابة استعيرت لمعنى : قضى الله ذلك وأراد وقوعه في الوقت الذي علمه وأراده فهو محقق الوقوع لا يتخلف مثل الأمر الذي يراد ضبطه وعدم الإِخلال به فإنه يكتب لكي لا ينسى ولا ينقص منه شيء ولا يجحد التراضي عليه .

فثبت لرسوله صلى الله عليه وسلم الغلبة لشمول ما كتبه الله لرسله إياه وهذا إثبات لغلبة رسوله أقواماً يحادُّونه بطريق برهاني .

فجملة ﴿ لأغلبن ﴾ مصوغة صيغة القول ترشيحاً لاستعارة ﴿ كتب ﴾ إلى معنى قضى وقدر .

والمعنى : قضى مدلول هذه الجملة ، أي قضى بالغلبة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم فكأن هذه الجملة هي المكتوبة من الله .

والمراد : الغلبة بالقوة لأن الكلام مسوق مساق التهديد .

وأما الغلبة بالحجة فأمر معلوم .

وجملة ﴿ إن الله قوي عزيز ﴾ تعليل لجملة ﴿ لأغلبن ﴾ لأن الذي يغالب الغالب مغلوب .

قال حسان :

زعمت سَخينةُ أنْ ستغلبُ ربّها

وليُغْلَبَنّ مُغالب الغلاّب . . .

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

كان للمنافقين قرابة بكثير من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكان نفاقهم لا يخفى على بعضهم ، فحذر الله المؤمنين الخالصين من موادّة من يعادي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم

(47/753)

ورُويت ثمانية أقوال متفاوتة قوة أسانيد استقصاها القرطبي في نزول هذه الآية وليس يلزم أن يكون للآية سبب نزول فإن ظاهرها أنها متصلة المعنى بما قبلها وما بعدها من ذم المنافقين وموالاتهم اليهود ، فما ذكر فيها من قصص لسبب نزولها فإنما هو أمثلة لمقتضى حكمها .

وافتتاح الكلام بـ ﴿ لا تجد قوماً ﴾ يثير تشويقاً إلى معرفة حال هؤلاء القوم وما سيساق في شأنهم من حكم .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم والمقصود منه أمره بإبلاغ المسلمين أن موادّة من يعلم

أنه محادّ الله ورسوله هي مما ينافي الإِيمان ليكف عنها من عسى أن يكون متلبساً بها .

فالكلام من قبل الكناية عن السعي في نفي وجدان قوم هذه صفتهم ، من قبيل قولهم : لا أَرَيَنَّك هاهنا ، أي لا تحضر هنا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض ﴾ [يونس : 18] أراد بما لا يكون ، لأن ما لا يعلمه الله لا يجوز أن يكون موجوداً ، وكانت هذه عادة المؤمنين قبل الهجرة أيام كانوا بمكة .

وقد نقلت أخبار من شواهد ذلك متفاوتة القوة ولكن كان الكفر أيامئذٍ مكشوفاً والعداوة بين المؤمنين والمشركين واضحة .

فلما انتقل المسلمون إلى المدينة كان الكفر مستوراً في المنافقين فكان التحرز من موادّتهم أجدر وأحذر .

والمُوادّة أصلها : حصول المودّة في جانبين .

والنهي هنا إنما هو عن مودة المؤمن الكافرين لا عن مقابلة الكافر المؤمنين بالمودّة ، وإنما جيء بصيغة المفاعلة هنا اعتباراً بأن شأن الودّ أن يجلب وُدًّا من المودود للوادّ .

وإما أن تكون المفاعلة كناية عن كون الودّ صادقاً لأن الوادَّ الصادق يقابله المودود بمثله .

ويعرف ذلك بشواهد المعاملة ، وقرينة الكناية توجيه نفي وجدان الموصوف بذلك إلى القوم الذين يؤمنون بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولذلك لم يقل الله هنا ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ [آل عمران : 28] ، لأن المودة من أحوال القلب فلا تُتَصور معها التقية ، بخلاف قوله : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين إلى قوله : ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ [آل عمران : 28] .

وقولُه : ﴿ ولو كانوا آباءهم ﴾ إلى آخره مبالغة في نهاية الأحوال التي قد يقدم فيها المرء على الترخص فيما نهي عنه بعلة قرب القرابة .

ثم إن الذي يُحَادُّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم إن كان متجاهراً بذلك معلناً به ، أو متجاهراً بسوء معاملة المسلمين لأجل إسلامهم لا لموجب عداوةٍ دنيوية ، فالواجب على المسلمين إظهار عداوته قال تعالى:

﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ [الممتحنة : 9] ولم يرخّص في معاملتهم بالحسنى إلا لاتّقاء شرّهم إن كان لهم بأس قال تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ [آل عمران : 28] .

وأما من عدا هذا الصنف فهو الكافر الممسك شرّه عن المسلمين ، قال تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ [الممتحنة : 8] .

ومن هذا الصنف أهل الذمة وقد بيّن شهاب الدين القرافي في الفرق التاسع عشر بعد المائة مسائل الفرق بين البرّ والمودة وبهذا تعلم أن هذه الآية ليست منسوخة بآية ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴾ [الممتحنة : 8] وأن لكل منهما حالتها .

(49/753)

ف ﴿ لو ﴾ وصلية وتقدم بيان معنى ﴿ لو ﴾ الوصلية عند قوله تعالى : ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ في سورة [آل عمران : 91] ورتبت أصناف القرابة في هذه الآية على طريقة التدلّي من الأقوى إلى من دونه لئلا يتوهم أن النهي خاص بمن تقوى فيه ظنة النصيحة له والائتمار بأمره .

وعشيرة الرجل قبيلته الذين يجتمع معهم في جد غير بعيد وقد أخذ العلماء من هذه الآية أن أهل الإيمان الكامل لا يوادُّون من فيه معنى من محادّة الله ورسوله بخرق سياج شريعته عمداً والاستخفاف بحرمات الإسلام ، وهؤلاء مثل أهل الظلم والعدوان في الأعمال من

كل ما يؤذن بقلة اكتراث مرتكبه بالدّين وينبىء عن ضُعف احترامه للدين مثل المتجاهرين بالكبائر والفواحش الساخرين من الزواجر والمواعظ ، ومثل أهل الزيغ والضلال في الاعتقاد ممن يؤذن حالهم بالإعراض عن أدلة الاعتقاد الحق ، وإيثار الهوى النفسي والعصبية على أدلة الاعتقاد الإسلامي الحق .

فعن الثوري أنه قال : كانوا يرون تنزيل هذه الآية على من يصحب سلاطين الجَور .

وعن مالك : لا تجالِسْ القدرية وعَادِهم في الله لقوله تعالى : لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ .

وقال فقهاؤنا : يجوز أو يجب هجران ذي البدعة الضالّة أو الانغماس في الكبائر إذا لم يقبل الموعظة .

وهذا كله من إعطاء بعض أحكام المعنى الذي فيه حكم شرعي أو وعيد لمعنى آخر فيه وصفٌ من نوع المعنى ذي الحكم الثابت .

وهذا يرجع إلى أنواع من الشبَه في مسالك العلة للقياس فإن الأشياء متفاوتة في الشبه .

وقد استدل أئمة الأصول على حُجِيّة الإجماع بقوله تعالى : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبعْ غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى ونصله جهنم ﴾

[النساء : 115] مع أن مهيع الآية المحْتج بها إنما هو الخروج عن الإسلام ولكنهم رأوا الخروجَ مراتب متفاوتة فمخالفة إجماع المسلمين كلّهم فيه شَبه اتّباع غير سبيل المؤمنين .

﴿ عَشِيرَتَهُمْ أولئك كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإيمان وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانهار خالدين فِيهَا رَضِىَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أولئك حِزْبُ الله أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ ﴾ .

الإشارة إلى القوم الموصوفين بأنهم ﴿ يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ .

والجملة مُستأنفة استئنافاً بيانياً لأن الأوصاف السابقة ووقوعها عقب ما وصف به المنافقون من محادّة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم سابقاً وآنفاً ، وما توعدهم الله به أنه أعدّ لهم عذاباً شديداً ولهم عذاب مهين ، وأنهم حزب الشيطان ، وأنهم الخاسرون ، مما يَستشرِف بعده السامع إلى ما سيخبر به عن المتصفين بضد ذلك .

وهم المؤمنون الذين لا يوادُّون من حادّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم

وكتابة الإيمان في القلوب نظير قوله : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ [المجادلة : 21] .

وهي التقدير الثابت الذي لا تتخلف آثاره ، أي هم المؤمنون حقاً الذين زين الله الإيمان في قلوبهم فاتّبعوا كمالَه وسلكوا شُعبه .

والتأييد : التقوية والنصر .

وتقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾ في سورة [البقرة : 87] ، أي أن تأييد الله إياهم قد حصل وتقرّر بالإِتيان بفعل المضيّ للدلالة على الحصول وعلى التحقق والدوام فهو مستعمل في معنييه .

والروح هنا : ما به كمال نوع الشيء من عمل أو غيره ، وروحٌ من الله : عنايته ولطفه .

ومعاني الروح في قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ في سورة [الإِسراء : 85] ، ووعدهم بأنه يدخلهم في المستقبل الجنات خالدين فيها .

(51/753)

ورضَى الله عنهم حاصل من الماضي ومحقّق الدوام فهو مِثل الماضي في قوله : وأيدهم ﴾ ، ورضاهم عن ربهم كذلك حاصل في الدنيا بثباتهم على الدين ومعاداة أعدائه ، وحاصل في المستقبل بنوال رضى الله عنهم ونوال نعيم الخلود .

وأما تحويل التعبير إلى المضارع في قوله : ﴿ ويدخلهم جنات ﴾ فلأنه الأصل في الاستقبال .

وقد استغني عن إفادة التحقيق بما تقدمه من قوله تعالى : ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان

وأيدهم بروح منه ﴾ .

وقوله : ﴿ أولئك حزب الله ﴾ إلى آخره كالقول في ﴿ أولئك حزب الشيطان ﴾ [المجادلة : 19] .

وحرف التنبيه يحصل منه تنبيه المسلمين إلى فضلهم .

وتنبيه من يسمع ذلك من المنافقين إلى ما حبا الله به المسلمين من خير الدنيا والآخرة لعل المنافقين يغبطونهم فيخلصون الإِسلام .

وشتان بين الحزبين .

فالخسران لحزب الشيطان ، والفلاح لحزب الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(52/753)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ الله وَرَسُولَهُ ﴾ [22

قال : كل من صح إيمانه فإنه لا يأنس بمبتدع ويجابهه ، ولا يؤاكله ولا يشاربه ولا يصاحبه ، ويظهر له من نفسه العداوة والبغضاء ، ومن داهن مبتدعاً سلبه الله حلاوة السنن ، ومن تحبب إلى مبتدع يطلب عزة في الدنيا وعرضاً ، أذله الله بذلك العز ، وأفقره الله بذلك الغنى ، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه ، ومن لم يصدق فليجرب .

قوله تعالى : ﴿ أولئك كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [22] قال : كتب الله الإيمان في قلوب أوليائه سطوراً ، فالسطر الأول التوحيد ، والثاني المعرفة ، والثالث الصدق ، والرابع الاستقامة ، والخامس الصدق ، والسادس الاعتماد ، والسابع التوكل . وهذه الكتابة هي فعل الله لا فعل العبد ، وفعل العبد في الإيمان ظاهر الإسلام ، وما يبدو منه ظاهراً وما كان منه باطناً فهو فعل الله تعالى .

وقال أيضاً : الكتابة في القلب موهبة الإيمان التي وهبها الله منهم قبل أن خلقهم من الأصلاب والأرحام ، ثم أبدى بصراً من النور في القلب ، ثم كشف الغطاء عنه حتى أبصروا ببركة الكتابة ونور الإيمان المغيبات .

وقال : حياة الروح بالذكر ، وحياة الذكر بالذاكر وحياة الذاكر بالمذكور ، رضي الله عنهم بإخلاصهم له في أعمالهم ، ورضوا عنه بجزيل ثوابه لهم على أعمالهم .

﴿ أولئك حِزْبُ الله ﴾ [22] الحزب الشيعة ، وهم الأبدال ، وأرفع منهم الصديقون .

﴿ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ المفلحون ﴾ [22] يعني هم الوارثون أسرار علومهم المشرقون

على معاني ابتدائهم وانتهائهم .

والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 165.164 ﴾

(53/753)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً ﴾ الآية قال : بلغنا أنها نزلت في عبد الله بن نبتل ، وكان رجلاً من المنافقين .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ قال : هم اليهود والمنافقون ويحلفون على الكذب ، وهم يعلمون حلفهم أنهم لمنكم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً ﴾ الآية قال : هم المنافقون تولوا اليهود ﴿ يوم يبعثهم الله ﴾ الآية قال : يحالف المنافقون ربهم يوم القيامة كما حالفوا أولياءه في الدنيا .

وأخرج أحمد والبزار والطبراني وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين فقال : إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعين شيطان ، فإذا جاءكم فلا تكلموه ، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق أعور فقال ، حين رآه : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فقال ذرني آتك بهم ، فانطلق فدعاهم فحلفوا واعتذروا فأنزل الله ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ﴾ الآية والتي بعدها " .

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (19)

أخرج أبو داود والنسائي والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من ثلاثة في قرية ولا بد ولا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ قال : كتب الله كتاباً فأمضاه .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في سننه وابن عساكر عن عبد الله بن شوذب قال : جعل والد أبي عبيدة بن الجراح يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله فنزلت ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : " حدثت أن أبا قحافة سب النبي صلى الله عليه وسلم فصكه أبو بكر صكه فسقط ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : أفعلت يا أبا بكر ؟ فقال : والله لو كان السيف مني قريباً لضربته " ، فنزلت ﴿ لا تجد قوماً ﴾ الآية .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن ثابت بن قيس بن الشماس أنه استأذن النبي صلى الله عليه وسلم أن يزور خاله من المشركين فأذن له ، فلما قدم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأناس حوله ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله ﴾ الآية .

وأخرج ابن مردويه عن كثير بن عطية عن رجل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يداً ولا نعمة فإني وجدت فيما أوحيته إليّ ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ " قال سفيان : يرون

أنها أنزلت فيمن يخالط السلطان.

وأخرج ابن أبي شيبة والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أحب في الله وأبغض في الله وعاد في الله ووال في الله فإنما تنال الله بذلك، ثم قرأ ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون ﴾ الآية.

(55/753)

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أوحى الله إلى نبي من الأنبياء أن قل لفلان العابد أما زهدك في الدنيا فتعجلت راحة نفسك، وأما انقطاعك إليّ فتعززت بي، فماذا عملت في ما لي عليك؟ قال يا رب: وما لك عليّ؟ قال: هل واليت لي ولياً أو عاديت لي عدواً؟".

وأخرج الحكيم الترمذي عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يبعث الله يوم القيامة عبداً لا ذنب له فيقول له: بأيّ الأمرين أحب إليك أن أجزيك بعملك أم بنعمتي عليك؟ قال: رب أنت تعلم أني لم أعصك، قال: خذوا عبدي بنعمة من نعمي فما يبقى له حسنة إلا استغرقتها تلك النعمة، فيقول: رب بنعمتك ورحمتك، فيقول: بنعمتي وبرحمتي ويؤتى بعبد محسن في نفسه لا يرى أن له سيئة فيقال له: هل كنت توالي

أوليائي ؟ قال : يا رب كنت من الناس سلماً . قال : هل كنت تعادي أعدائي قال : يا رب لم أكن أحب أن يكون بيني وبين أحد شيء ، فيقول الله تبارك وتعالى : وعزتي لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي ويعاد أعدائي " .

وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله " .

وأخرج الديلمي من طريق الحسن عن معاذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم لا تجعل لفاجر عندي يداً ولا نعمة فيوده قلبي ، فإني وجدت فيما أوحيت إليّ ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ الآية " . انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 85.87 ﴾

(56/753)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ التى تُجَادِلُكَ ﴾

يعني : تخاصمك ، ﴿ فِى زَوْجِهَا ﴾ يعني : من قبل زوجها .

وروى أبو العالية الرياحي : أن الآية نزلت في شأن أوس بن الصامت وفي امرأته خويلة بنت دعلج ، وعن عكرمة أنه قال : نزلت في امرأة اسمها خويلة بنت ثعلبة وفي زوجها أوس بن الصامت ، جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن زوجها جعلها عليه كظهر أمه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " مَا أَرَاكِ إِلاَّ وَقَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ " .

قالت : انظر يا نبي الله ، جعلني الله فداك يا نبي الله في شأني ، وجعلت تجادله ، وعائشة رضي الله عنها تغسل رأس النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت عائشة رضي الله عنها : اقصري حديثك ومجادلتك يا خويلة ، أما ترين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تربّد ليوحى إليه ، فأنزل الله تعالى ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التى تُجَادِلُكَ ﴾ .

وروى سفيان ، عن خالد ، عن أبي قلابة ، قال : كان طلاقهم في الجاهلية الظهار والإيلاء ، فلما جاء الإسلام جعل الله تعالى في الظهار ما جعل ، وجعل في الإيلاء ما جعل .

ثم قال : ﴿ وَتَشْتَكِى إِلَى الله ﴾ يعني : تتضرع المرأة إلى الله مخافة الفرقة ﴿ والله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُما ﴾ يعني : محاورتكما ومراجعتكما ﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ يعني : سميعاً لمقالة خويلة بصير بأمرها ، وقال مقاتل فهي خويلة بنت ثعلبة .

قوله تعالى : ﴿ الذين يظاهرون مِنكُمْ مّن نّسَائِهِمْ ﴾ قرأ عاصم ﴿ يظاهرون ﴾ بضم الياء وكسر الهاء ، والتخفيف من ظاهر يظاهر ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، ﴿ يَظْهَرُونَ ﴾ بنصب الياء ، مع التشديد ، وهو في الأصل يتظهرون ، فأدغمت التاء في الظاء

، والمعنى في هذا كله واحد ، يقال : ظاهر من امرأته ، وتظهّر منها ، وأظهر منها ، ، إذا قال لها : أنت عليّ كظهر أمي .

(57/753)

ثم قال : ﴿ مّا هُنّ أمهاتهم ﴾ وروى الفضل عن عاصم ، أمهاتُهم بضم التاء ، لأنه خبر ما ، كقولك ما زيد عالم ، وقرأ الباقون بالكسر ، لأن التاء في موضع النصب ، فصار خفضاً لأنها تاء الجماعة ، وهي لغة أهل الحجاز ، فينصبون خبر "ما" ، كقوله ما هذا بشراً ، ما هن كأمهاتهم في الحرمة ﴿ أمهاتهم إنْ ﴾ يعني : ما أمهاتهم ﴿ إلاَّ اللائى وَلَدْنَهُمْ ﴾ يعني : الأم التي ولدته ، والأم التي أرضعته ، لأنه قال في موضع آخر ﴿ حُرّمَتْ عَلَيْكُمْ أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وَبَنَاتُ الاخ وَبَنَاتُ الاخت وأمهاتكم اللاّتِى أَرْضَعْنَكُمْ وأخواتكم مّنَ الرضاعة وأمهات نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاتى فِى حُجُورِكُمْ مّن نّسَآئِكُمُ اللاتى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وحلائل أَبْنَآئِكُمُ الذين مِنْ أصلابكم وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الاختين إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [النساء : 23] .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مّنَ القول وَزُوراً ﴾ يعني : قولاً منكراً وكذباً ﴿ وَإِنَّ الله

لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ يعني : ذو تجاوز ﴿ غَفُورٌ ﴾ ، حيث جعل الكفارة لرفع الحرمة ، ولم يجعل فرقة بينهما .

(58/753)

ثم قال : ﴿ والذين يظاهرون مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ يعني : يعودون لنقض ما قالوا ، ولرفع ما قالوا في الجاهلية ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ يعني : فعليه تحرير رقبة ، ويقال ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ فيه تقديم وتأخير ، يعني : ثم يعودون فتحرير رقبة لما قالوا ويقال : معناه ثم يعودون لما قالوا في الجاهلية ، وذلك أنهم كانوا يتكلمون بهذا القول فيرجعون إلى ذلك القول بعد الإسلام ، وقال بعضهم : لا تجب الكفارة حتى يقول مرتين ، لأنه قال : ثم يعودون لما قالوا ، يعني : يعودون مرة أخرى ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ هذا القول خلاف جميع أهل العلم ، وإنما تجب الكفارة إذا قال مرة واحدة .

والكفارة ما قال الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [

النساء : 92] يعني : عتق رقبة ﴿ مّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ يعني : من قبل أن يجامعها .

ويقال من قبل أن يمس كل واحد منهما صاحبه ﴿ ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ يعني : هذا الحكم الذي تؤمرون به ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ من الوفاء وغيره .

وقوله تعالى ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ يعني : من لم يجد الرقبة ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ يعني : فعليه صيام شهرين متتابعين ، لا يفصل بينهما ﴿ مّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ يعني : من قبل أن يمس كل واحد منهما صاحبه .

(59/753)

وفي الآية دليل أن المرأة لا يسعها أن تدع الزوج يقربها قبل الكفارة ، لأنه نهاهما جميعاً عن المسيس قبل الكفارة ، واتفقوا على أنه إذا أفطر في شهرين يوماً بغير عذر عليه أن يستقبل ، واختلفوا فيمن أفطر لمرض ، أو عذر ، أو غيره .

قال عطاء إذا أفطر من مرض ، فالله أعذره بالعذر يبدله ، ولا يستأنف ، وقال طاوس : يقضي ولا يستأنف ، وهكذا قال سعيد بن المسيب : فهؤلاء كلهم قالوا : لا يستقبل ، وقال إبراهيم النخعي والزهري والشعبي : يستقبل ، وهكذا قال عطاء الخراساني ، والحكم بن كيسان ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم .

ثم قال : ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ﴾ الصيام ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ يعني : فعليه في قول أهل المدينة لكل مسكين صاع من الحنطة .

أو التمر .

وفي قول أهل العراق منوان من حنطة ، أو صاع من تمر ، بدليل ما روى سليمان بن يسار ، عن سلمة بن صخر البياض ، قال : كنت أصيب من النساء ما لا يصيب غيري ، فلما دخل شهر رمضان خفت أن أصيب من أهلي ، فتظاهرت من أهلي حتى ينسلخ الشهر ، فبينما هي تخدمني ذات ليلة ، إذ انكشف لي منها شيء ، فواقعتها ، فلما أصبحت أخبرت قومي ، فقلت : اذهبوا معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ما نذهب وما نأمن أن ينزل فيك قرآن ، فأتيته فأخبرته ، فقال : " حَرِّرْ رَقَبَةً " فقلت ما أملك إلا رقبتي ، قال : " فَصُمْ شَهْرَيْنِ " قلت : وهل أصابني إلا من قبل الصيام ، قال : " فَأَطْعِمْ وَسْقاً مِنْ تَمْرٍ سِتِّينَ مِسْكِيناً " قلت : والذي بعثك بالحق نبياً لقريش ما لنا طعام .

ثم قال : " انْطَلِقْ إلى صَاحِبِ صَدَقَةِ بَنِي زُرَيْقٍ ، فَلْيَدْفَعْهَا إِلَيْكَ " فرجعت إلى قومي فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ، ووجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم السعة وحسن الرأي ، وقد أمر لي بصدقتكم ، فقد بين في هذا الخبر أنه يجب وسقاً من تمر ، والوسق ستون صاعاً ، بالاتفاق .

ثم قال : ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ يعني : لتصدقوا بوحدانية الله تعالى ﴿ وَرَسُولِهِ ﴾ يعني : وتصدقوا برسوله ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ يعني : هذه فرائض الله ، وأحكامه ﴿ وللكافرين عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يعني : الذين لا يؤمنون بالله وبرسوله ، وروي عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها ، إن المرأة لتناجي النبي صلى الله عليه وسلم يسمع بعض كلامها ، ويخفى عليه بعضه ، إذ أنزل الله تعالى ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ وهكذا قال الأعمش .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعني : يعادون ، ويشاقون الله ورسوله ، ويقال يشاقون أولياء الله ورسوله ، يعني : الذين يشاقون أولياء الله ، لأن أحداً لا يعادي الله ، ولكن من عادى أولياء الله فقد عادى الله تعالى .

(61/753)

ثم قال : ﴿ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ قال مقاتل : أخذوا كما أخذ الذين من قبلهم من الأمر ويقال : عذبوا كما عذب الذين من قبلهم ، وقال أبو عبيد : أهلكوا ويقال : غيظوا كما غيظ الذين من قبلهم والكبت هو الغيظ ، ويقال : أحزنوا ، وقال الزجاج : أذلوا

وغلبوا ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا ءايات بينات ﴾ يعني: القرآن فيه بيان أمره ونهيه ويقال: آيات واضحات ﴿ وللكافرين عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ يهانون فيه، ثم قال: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيعاً ﴾ الأولين والآخرين يبعثهم الله من قبورهم ﴿ فَيُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ من خير أو شر ليعلموا وجوب الحجة عليهم ﴿ أحصاه الله وَنَسُوهُ ﴾ يعني: حفظ الله عليهم أعمالهم وهم نسوا أعمالهم ويقال: ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ يعني: وتركوا العمل في الدنيا ﴿ والله على كُلّ شَيْء شَهِيدٌ ﴾ يعني: شاهداً بأعمالهم ثم قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَعْلَمُ ﴾ يعني: ألم تعلم، اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التقرير يعني: أنك تعلم، ويقال: معناه إني أعلمتك أن الله يعلم.

﴿ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾.

يعني: سر أهل السَّموات وسر أهل الأرض ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثلاثة إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ يعني: لا يتناجى ثلاثة فيما بينهم، ولا يتكلمون فيما بينهم بكلام الشر إلا هو رابعهم، لأنه يعلم ما يقولون فيما بينهم.

﴿ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ يعني: كان هو سادسهم، لأنه يعلم ما يقولون فيما بينهم.

﴿ وَلاَ أدنى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ ﴾ يعني: عالم بهم وبأحوالهم ﴿ أَيْنَمَا كَانُواْ ﴾ في الأرض.

﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ ﴾ يعني : يخبرهم بما عملوا يوم القيامة من خير أو شر .

وذلك أن نفراً كانوا يتناجون عند الكعبة قال بعضهم لبعض : لا ترفعوا أصواتكم حتى لا يسمع رب محمد صلى الله عليه وسلم .

(62/753)

ويقال إن المنافقين واليهود كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين ، فامتنعوا من ذلك ثم عادوا إلى النجوى .

﴿ يَوْمَ القيامة إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْء عَلِيمٌ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نُهُواْ عَنِ النجوى ﴾ يعني : عن قول السر فيما بينهم ، ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ويتناجون بالإثم ﴾ يعني : بالكذب ﴿ والعدوان ﴾ يعني : بالجَوْرِ والظلم ، ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يعني : خلاف أمر الله وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم .

قرأ حمزة ﴿ وينتجون ﴾ ، والباقون ﴿ عَنْهُ ويتناجون ﴾ وهما لغتان ، يقال : تناجى القوم وانتجوا .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا جَاءوكَ حَيَّوْكَ ﴾ يعني : إذا جاءك اليهود حيوك ﴿ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ الله ﴾ ، وذلك أنهم كانوا يقولون إذا دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم : السام

عليكم.

فيقول: وعليكم.

فقالت عائشة رضي الله عنها وعليكم السام، لَعَنَكُم الله وَغَضِبَ عَلَيْكُمْ.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "مَهْلًا يا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بالرِّفْقِ.

وإِيَّاكِ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ".

قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: "أَوَلَمْ تَسْمَعِي ما رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ؟ فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ".

فقالت اليهود فيما بينهم: لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يقول، لاستجيب دعاؤه علينا حيث قال: عليكم، فنزل ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ ﴾ يعني: سلموا عليك بما لم يُحَيِّكَ به الله يعني: بما لم يأمرك به الله أن تحيي به، ويقال: بما لم يسلم عليك به الله.

﴿ وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ يعني: فيما بينهم.

﴿ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ ﴾ يعني: هلا يعذبنا الله ﴿ بِمَا نَقُولُ ﴾ لنبيه، يقول الله تعالى: ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ يعني: مصيرهم إلى جهنم، ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يعني: يدخلونها، ﴿ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ما صاروا إليه.

قوله تعالى : ﴿ المصير يا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ﴾ قال مقاتل : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ باللسان دون القلب ﴿ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ﴾ فيما بينكم ، ﴿ فَلاَ تتناجوا بالإثم والعدوان ﴾ ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث سرية ، كان المنافقون يتناجون فيما بينهم ليحزنوا المؤمنين .

وهذا الخطاب للمخلصين في قول بعضهم ، لأن الله تعالى أمرهم أن لا يتناجوا بالإثم والعدوان ، كفعل المنافقين يعني : بالعداوة والظلم ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يعني : خلاف أمر الرسول أي : لا تخالفوا أمره ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ يعني : بالذي أمركم الله تعالى به ، بالطاعة والتقى يعني : ترك المعصية .

ثم خوفهم فقال : ﴿ واتقوا الله ﴾ يعني : اخشوا الله ، فلا تتناجوا بمثل ما تتناجى اليهود والمنافقون .

﴿ الذى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا النجوى مِنَ الشيطان ﴾ يعني : نجوى المنافقين من تزيين الشيطان .

قال قتادة : إذا رأى المسلمون المنافقين جاؤوا متناجين ، فشق عليهم ، فنزل ﴿ إِنَّمَا النجوى مِنَ الشيطان ﴾ يعني : نجوى المنافقين في المعصية من الشيطان .

﴿ لِيَحْزُنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ : قرأ نافع ﴿ لِيَحْزُنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ بضم الياء ، والباقون بالنصب ، ومعناهما واحد .

ثم قال : ﴿ وَلَيْسَ بِضَارّهِمْ شَيْئًا ﴾ يعني : ليس نجوى المنافقين يضر شيئًا للمؤمنين ، أي : لا يضرهم ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ ، إلا أن يشاء .

الله ثم أمر المؤمنين بأن يتوكلوا على الله ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ .

ثم قال عز وجل : ﴿ المؤمنون يا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى المجالس ﴾ . قرأ عاصم ﴿ فِى المجالس ﴾ بلفظ الجمع ، والباقون ﴿ فِى المجالس ﴾ يعني : في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم .

(64/753)

نزلت في ثابت بن قيس ، وكان في أذنيه شيء من الثقل ، فحضر مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وقد أخذوا مجالسهم ، فبقي قائماً فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " رَحِمَ الله مَنْ وَسَّعَ لأَخِيهِ " فنزلت الآية .

وروى معمر ، عن قتادة أنه قال : كان الناس يتنافسون في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم

فقيل لهم : إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس ، ﴿ فافسحوا ﴾ يعني : وسعوا المجلس .

﴿ يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشزوا فَانشُزُواْ ﴾ يعني : إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا .

وروى معمر ، عن الحسن قال : هذا في الغزاة ؛ وقال مجاهد : ﴿ تَفَسَّحُواْ فِى المجالس ﴾ يعني : مجلس النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشزوا ﴾ إلى كل خير وقتال عدو وأمر بالمعروف .

وروي عن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لاَ يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ ، ولكن تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا " .

قرأ نافع وابن عامر وعاصم في إحدى الروايتين ﴿ انشزوا ﴾ بالضم للشين ، والباقون بالكسر وهما لغتان .

يقال : نشز ينشز يعني : إذ قيل لكم انهضوا يعني : قوموا لا تتثاقلوا ، ويقال : ﴿ انشزوا ﴾ يعني : قوموا للصلاة وقضاء حق أو شهادة فانشزوا يعني : انهضوا .

ثم قال : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الذين ءامَنُواْ مِنكُمْ والذين أُوتُواْ العلم درجات ﴾ يعني : من كان له إيمان وعلم ، وكان له فضائل على الذين يقومون وليس بعالم .

قال الضحاك : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الذين ءامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ وقد تم الكلام .

ثم قال : ﴿ والذين أُوتُواْ العلم درجات ﴾ يعني : لأهل العلم درجات ، أي : الذين أوتوا العلم في الدنيا ولهم درجات في العقبى .

قال: وللعلماء مثل درجة الشهداء، وقال مقاتل: إذا انتهى المؤمن إلى باب الجنة، يقال للمؤمن الذي ليس بعالم: ادخل الجنة بعملك، ويقال للعالم: أقم على باب الجنة واشفع للناس.

(65/753)

وقال ابن مسعود: ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الذين ءامَنُواْ مِنكُمْ والذين أُوتُواْ العلم ﴾ على الذين آمنوا منكم ولم يؤتوا العلم درجات.

ثم قال: ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ من التفسح في المجلس وغيره.

قوله تعالى: ﴿ خَبِيرٌيا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا نَاجيتم الرسول ﴾ يعني: إذا كلمتم الرسول سراً، ﴿ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نجواكم صَدَقَةً ﴾ يعني: تصدقوا قبل كلامكم بصدقة.

﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يعني: التصدق خير لكم من إمساكه، ﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ لقلوبكم وأزكى من المعصية.

﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ ﴾ ما تتصدقون، ﴿ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لِمَنْ لم يجد الصدقة.

وذلك أن الأغنياء كانوا يكثرون مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يمكنوا الفقراء من سماع كلامه، وكان يكره طول مجالستهم وكثرة نجواهم، فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند

المناجاة، فانتهوا عن ذلك، فقدرت الفقراء على سماع كلام النبي صلى الله عليه وسلم ومجالسته.

وقال مجاهد: نُهوا عن مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يتصدقوا، فلم يناجه إلاَّ عَليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه قدم ديناراً تصدق به وكلم النبي صلى الله عليه وسلم في عشر كلمات، ثم أنزلت الرخصة بالآية التي بعدها وهو قوله: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ ﴾ يعني: أبخلتم يا أهل الميسرة ﴿ أَءشْفَقْتُمْ أَن تُقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نجواكم صدقات ﴾؟ فلو فعلتم كان خيراً لكم، ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ ﴾ وتكرهوا ذلك، فإن الله تعالى غني عن صدقاتكم.

﴿ وَتَابَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ يعني: تجاوز عنكم.

﴿ أَءشْفَقْتُمْ أَن تُقَدّمُواْ بَيْنَ ﴾، فَنَسَخَت الزكاةُ الصدقةَ التي عند المناجاة.

﴿ وَأَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ ﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه.

﴿ والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الخير والشر والتصدق والنجوى.

(66/753)

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين تَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ الله عَلَيْهِم ﴾ يعني: المنافقين اتخذوا اليهود أولياء وتولَّوهم وناصحوهم، وهم اليهود، وغضب الله عليهم ثم قال: ﴿ مَّا هُم

مّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ ﴾ يعني : ليسوا منكم في الحقيقة ولا من اليهود في العلانية ، وهذا كقوله : لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

وكانوا إذا سألهم المسلمون : إنكم تتولون اليهود ، كانوا يحلفون بالله إنهم من المؤمنين ، كما قال الله تعالى في آية أخرى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مّنكُمْ ﴾ فأخبر الله تعالى إنهم لكاذبون في أيمانهم ، فقال : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : يحلفون أنهم مصدقون في السر وهم يعلمون أنهم مكذبون .

﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ في الآخرة .

﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يعني : بئس ما كانوا يعملون بولايتهم اليهود وكذبهم وحلفهم ، ثم قال عز وجل : ﴿ اتخذوا أيمانهم جُنَّةً ﴾ يعني : جعلوا حلفهم بدلاً عن القتل ، ليأمنوا بها عن القتل والسبي ؛ ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ يعني : صَدّوا وصرفوا الناس عن دين الله تعالى في السر .

﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ يهانون فيه .

قوله تعالى : ﴿ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أموالهم وَلاَ أولادهم مّنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ يعني : لم تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً .

﴿ أُولَئِكَ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ يعني : دائمين .

ثم قال عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً ﴾ يعني : المنافقين واليهود ، ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ ﴾ يعني : يحلفون لله تعالى في الآخرة ، ﴿ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ في الدنيا ؛ وحلفهم في الآخرة ما قال الله تعالى في سورة الأنعام ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُواْ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] ، وروى معمر ، عن قتادة قال : المنافق يحلف لله تعالى يوم القيامة ، كما كان حلف لأوليائه في الدنيا .

ثم قال : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَىْء ﴾ يعني : يحسبون أن يمينهم تنفعهم شيئاً ، ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون ﴾ في قولهم ، ويقال : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَىْء ﴾ من الدين ، ويقال : ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ يعني : يحسب المؤمنون أنهم على شيء ، يعني : إن المنافقين على شيء من الدين ، يعني : إذا سمعوا حلفهم .

قال الله تعالى : من الدين يعني : إذا سمعوا حلفهم ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون ﴾ في حلفهم وهم كافرون في السر .

ثم قال : ﴿ استحوذ ﴾ يعني : غلب ﴿ عَلَيْهِمُ الشيطان ﴾ ، ويقال : استولى عليهم الشيطان .

﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشيطان ﴾ يعني : جند الشيطان ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشيطان هُمُ الخاسرون ﴾ يعني : خسروا أنفسهم وأموالهم في الآخرة .

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الذين يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعني: يعادون الله ويخالفون الله ورسوله ﴿ أُوْلَئِكَ فِى الاذلين ﴾ يعني: في الأسفلين في الدرك الأسفل من النار، وهم المنافقون ويقال: ﴿ أُوْلَئِكَ فِى الاذلين ﴾ يعني: في الهالكين.

قوله تعالى: ﴿ كَتَابَ اللهُ ﴾ يعني: قضى الله ﴿ لاَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ يعني: لأغلبن في الدنيا بالحجة والدلائل في الآخرة، ويقال: ﴿ لاَغْلِبَنَّ ﴾ يعني: لأقهرن أنا ورسلي، فتكون العاقبة للمؤمنين.

(68/753)

﴿ إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾، ويقال: ﴿ كَتَابَ اللهُ ﴾ يعني: قضى الله ذلك قضاء ثابتاً ﴿ لاَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾، وغلبة الرسل تكون على نوعين: من بعث منهم في الحرب، فغلب في الحرب ومن بعث منهم بغير حرب فهو غالب بالحجة ﴿ إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي: مانع حزبه من أن يذل والعزيز الذي لا يغلب ولا يقهر.

ثم قال: ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ﴾ يعني: البعث بعد الموت.

﴿ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعني: يتخذون خلة وصداقة مع الكافرين.

نزلت في "حاطب بن أبي بلتعة" وفيه نزل ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ

بالمودة ﴾ ثم قال عز وجل: ﴿ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخوانهم أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ يعني: لا تتخذوا مع الكافرين صداقة، وإن كانوا من أقربائه.

ثم قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإيمان ﴾ يعني: الذين لا يتخذون مع الكافرين صداقة.

هم الذين جعل في قلوبهم الإيمان يعني: التصديق ﴿ وَأَيَّدَهُمْ ﴾ ، يعني: أعانهم ﴿ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أي: قوّاهم بنور الإيمان وبإحياء الإيمان، وذلك يوصلهم إلى الجنة، ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ ، يعني: في الآخرة ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ ، يعني: في الجنة.

﴿ رَّضِىَ اللهُ عَنْهُمْ ﴾ بإيمانهم وطاعتهم، ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ بالثواب والجنة.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ اللهِ ﴾ يعني: جند الله.

﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المفلحون ﴾ ، يعني: جند الله هم الناجون، الذين فازوا بالجنة وبنعمة الله تعالى وفضله؛ والله أعلم بالصواب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 399.391 ﴾

(69/753)

وقال الثعلبى :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ ﴾ :

تخاصمك وتحاورك وتراجعك ﴿ فِي زَوْجِهَا ﴾ وهي امرأة من الأنصار ثمّ من الخزرج ، واختلفوا في اسمها ونسبها ، فقال ابن عباس : هي خولة بنت خولد . وقال أبو العالية : خويلة بنت الدليم . وقال قتادة : خويلة بنت ثعلبة . وقال المقاتلان : خولة بنت ثعلبة ابن مالك بن خزامة الخزرجية من بني عمرو بن عوف .

عطية عن ابن عباس : خولة بنت الصامت .

وروى هشام بن عروة ، عن أبيه ، " عن عائشة رضي الله عنها أنّ اسمها جميلة ، وزوجها أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت وذلك أنّها كانت حسنة الجسم فرآها زوجها ساجدة في صلاتها فنظر إلى عجزها ، فلمّا انصرفت أرادها فأبت عليه فغضب عليها ، وكان امرءاً فيه سرعة ولمم . فقال لها : أنتِ عليّ كظهر أُمّي . ثم ندم على ما قال ، وكان الظهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية . فقال لها : ما أظنك إلاّ قد حرمتِ عليَّ . قالت : لا تقل ذلك ، ائتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم فسله . فقال : إني أجدني استحي منه أن أسأله عن هذا . قالت : فدعني أسأله . قال : سليه .

فأتت النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة تغسل شقّ رأسه ، فقالت : يا رسول الله ، إنّ زوجي أوس بن الصامت تزوّجني ، وكنت شابّة جميلة ذات مال وأهل ، حتى إذا أكل مالي

وأفنى شبابي وتفرّق وكبرت سنّي ظاهر منّي وقد ندم ، فهل من شيء يجمعني وإيّاه ينعشني ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " حرمت عليه " . فقالت : يا رسول الله ، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً ، وإنّه أبو ولدي وأحبّ الناس إليّ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " حرمت عليه " . فقالت : أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ، قد طالت صحبتي ونفصت له بطني . فقال رسول الله (عليه السلام) : " ما أراك إلاّ وقد حرمتِ عليه ولم أومر في شأنك بشيء " .

(70/753)

فجعلت تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا قال لها رسول الله (عليه السلام) : " حرمت عليه " هتفت وقالت : أشكو إلى الله فاقتي وشدّة حالي ، اللهمّ ، فأنزلْ على لسان نبيّك .

وكان هذا أول ظهار في الإسلام . فقامت عائشة تغسل شقّ رأسه الآخر فقالت : انظر في أمري ، جعلني الله فداك يا نبيّ الله . فقالت عائشة : اقصري حديثك ومحادثتك ، أما ترين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أُنزل عليه أخذه مثل السبات ؟ فلمّا قضى الوحي قال : " ادعي زوجك " . فجاء ، فقرأ ما نزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ ثم بيّن حكم الظهار ، وجعل فيه الكفّارة ، فقال سبحانه : ﴿ الذين يُظَاهِرُونَ ﴾ إلى آخرها ، قالت عائشة : تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلّها ، إنّ المرأة لتحاور رسول الله وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفى عليّ بعضه ، إذ أنزل سبحانه : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ ﴾ الآيات .

فلمّا نزلت هذه الآيات وتلاها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : " هل تستطيع أن تعتق رقبة ؟ " . قال : إذن يذهب مالي كلّه . الرقبة غالية وأنا قليل المال . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ " . قال : والله يا رسول الله ، إني إذا لم آكل في اليوم ثلاث مرات كلّ بصري وخشيت أن تعشو عيني . قال : " فهل تستطيع أن تطعم ستّين مسكيناً ؟ " . قال : لا والله ، إلاّ أن تعينني على ذلك يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنّي معينك بخمسة عشر صاعاً ، وأنا داع لك بالبركة " .

فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعاً واجتمع لهما أمرهما " فذلك قوله : ﴿ والذين يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ ، قد ذكرنا اختلاف القرّاء في هذا الحرف في سورة الأحزاب .

﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ قرأ العامّة بخفض التاء ومحلّه نصب، كقوله سبحانه: ﴿ هذا بَشَراً ﴾ [يوسف: 31]. وقيل: (بأمهاتهم). وقرأ المفضّل بضمّ التاء. ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ القول وَزُوراً ﴾ أي كذباً، والمنكر: الذي لا تعرف صحّته. ﴿ وَإِنَّ الله لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾

﴿ والذين يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾، اعلم أنّ الألفاظ التي يصير المرء بها مظاهراً على ضربين: صريح، وكناية. فالصريح هو أن يقول: أنتِ عليّ كظهر أُمّي، وكذلك إذا قال: أنتِ عليّ كبطن أمّي أو كرأس أمّي أو كفرج أمّي، وهكذا إذا قال: فرجك أو رأسك أو ظهرك أو صدرك أو بطنك أو يدك أو رجلك عليّ كظهر أُمّي، فإنّه يصير مظاهراً، وكلّ ذلك محلّ قوله: يدك أو رجلك أو رأسك أو بطنك طالق فإنّها تطلق، والخلاف في هذه المسألة بين الفريقين كالخلاف في الطلاق.

ومتى ما شبّهها بأمّه أو بإحدى جدّاته من قبل أبيه وأُمّه كان ذلك ظهاراً بلا خلاف. وإن شبّهها بغير الأمّ والجدّة من ذوات المحارم التي لا تحلّ له بحال كالإبنة والأخت والعمّة والخالة ونحوها، كان مظاهراً على الصحيح من المذاهب. فصريح الظهار هو أن يشبّه زوجته أو عضواً من أعضائها بعضو من أعضاء أُمّه، أو أعضاء واحدة من ذوات محارمه.

والكناية أن يقول: أنتِ عليّ كأُمّي، أو مثل أمّي أو نحوها، فإنّه يعتبر فيه نيّته. فإن أراد

ظهاراً كان مظاهراً وإن لم ينو الظهار لا يصِرْ مظاهراً .

وكلّ زوج صحّ طلاقه صحّ ظهاره ، سواءً كان عبداً أو حراً أو ذمّياً أو دخل بالمرأة أو لم يدخل بها ، أو كان قادراً على جماعها أو عاجزاً عنه . وكذلك يصحّ الظهار من كلّ زوجة ، صغيرة كانت أو كبيرة ، أو عاقلة أو مجنونة ، أو رتقاء أو سليمة ، أو صائمة أو محرمة ، أو ذمّية ، أو مسلمة ، أو في عدّة يملك رجعتها .

(72/753)

وقال أبو حنيفة : لا يصحّ ظهار الذمّيّ . وقال مالك : لا يصحّ ظهار العبد ، قال بعض العلماء : لا يصحّ ظهار غير المدخول بها . وقال المزني : إذا طلّق الرجل امرأته طلقة رجعيّة ثم ظاهر فإنّه لا يصحّ .

﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ اعلم أنّ الكفارة تلزم بالظهار وبالعود جميعاً ، ولا تلزم بأحدهما دون الآخر . كما أنّ الكفارة في باب اليمين تجب باليمين والحنث جميعاً معاً ، فإذا عاد في ظهاره لزمته الكفّارة .

واختلف العلماء والفقهاء في معنى العود ؛ فقال الشافعي : العود الموجب للكفّارة أن يمسك عن طلاقها بعد الظهار وتمضي مدّة يمكنهُ أن يطلّقها فلم يطلّقها . وقال قتادة : ﴿

﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ يريد أن يغشاها ويطأها بعدما حرّمها . وإليه ذهب أبو حنيفة ، قال : إن عزم على وطئها ونوى أن يغشاها كان عوداً .

وقال مالك : إن وطئها كان عوداً ، وإن لم يطأها لم يكن عوداً .

وقال أصحاب الظاهر : إن كرّر اللفظ كان عوداً وإن لم يكرّر لم يكن عوداً . وهو قول أبي العالية ، وظاهر الآية يشهد له ، وهو قوله : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ أي إلى ما قالوا ، ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ ؛ لأنّ الله سبحانه قيّد الرقبة بالإيمان في كفّارة القتل وأطلق في هذا الموضع ، ومن حكم المطلق أن يحمل على القيد . وقوله : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ أي يتجامعا ، فالجماع نفسه محرّم على المظاهر حتى يكفّر ، فإن وطئ قبل التكفير فقد فعل محرّماً ، ولا تسقط عنه الكفّارة بل يأتي بها على وجه القضاء ، كما لو أخّر الصلاة عن وقتها ، فإنّه لا يسقط عنه إتيانها بل يلزمه قضاؤها . وسواء كفّر بالإعتاق أو الصيام أو الإطعام فإنّه يجب عليه تقديم الكفّارة ، ولا يجوز له أن يطأها قبل الكفّارة .

وقال أبو حنيفة : إن كفّر بالإطعام جاز له أن يطأ ثم يطعم ولم يخالف في العتق والصيام .

فهذا حكم وطء المظاهر قبل التكفير .

وأمّا غير الوطء من التقبيل والتلذّذ فإنّه لا يحرم في قول أكثر العلماء . وهو قول الحسن وسفيان ، والصحيح من مذهب الشافعي . وقال بعضهم : عنى به جميع معاني المسيس ؛ لأنّه عامّ وهو أحد قولي الشافعي رضي الله عنه .

﴿ ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ : تؤمرون به ، ﴿ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ الرقبة ولا ثمنها ، أو يكون مالكاً للرقبة إلاّ إنّه محتاج إليها لخدمته ، أو يكون مالكاً للثمن ولكن يحتاج إليه لنفقته أو كان له مسكن يسكنه ، فله الانتقال إلى الصوم .

وقال أبو حنيفة : ليس له أن يصوم وعليه أن يعتق الرقبة وإن كان محتاجاً إليها وإلى ثمنها ، فإن عجز عن الرقبة ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ فإنْ أفطر في أثنائها بغير عذر قطع التتابع وعليه أن يستأنف شهرين متتابعين . وإن أفطر بعذر المرض أو السفر ، فاختلف الفقهاء فيه ، فقال قوم : لا ينقطع التتابع وله أن يبني ويقضي الباقي ، وإليه ذهب سعيد بن المسيّب والحسن وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار والشعبي ، وهو أحد قولي الشافعي .

وقال آخرون : ليس له أن يبني بل يلزمه أن يستأنف ويبتدئ ، وهو قول النخعي وأصحابه ، والأصحّ من قولي الشافعي .

وإن تخلّل صوم الشهرين زمان لا يصّح فيه الصوم عن الكفّارة كالعيدين وأيام التشريق وأيام شهر رمضان ، فإنّ التتابع ينقطع بذلك ويجب الاستئناف .

ولو وطئ المظاهر في الشهرين ، نظرَ : فإن وطِئها نهاراً بطل التتابع وعليه الابتداء ، وإن وطِئها ليلا لم يبطل التتابع . وقال أبو حنيفة : سواء وطئ ليلا أو نهاراً فإنّه يبطل التتابع وعليه أن يستأنف صوم شهرين متتابعين .

(74/753)

﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ﴾ الصيام ، وعدمُ الاستطاعة مثل أن يخاف من الصوم لعلة أو لحوق ومشقّة شديدة ومضرّة ظاهرة ، ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ لكلّ مسكين مدّ من غالب قوت بلده ، والخلاف فيه بين الفريقين كالاختلاف في زكاة الفطرة . ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ الذينَ يُحَادُّونَ ﴾ : يخالفون ويعادون ﴿ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُواْ ﴾ : أُهلكوا وأُخزوا وأُحربوا ﴿ كَمَا كُبِتَ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ واللهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض مَا يَكُونُ ﴾ قراءة العامّة بالياء لأجل الحائل ، وقرأ أبو جعفر القارئ (تكون) بالتاء لتأنيث النجوى ، والأول أفصح وأصحّ ﴿ مِن نَجْوَى ﴾ متناجين ﴿ ثَلاَثَةٍ ﴾ ، قال الفراء : إن شئت خفضت الثلاثة على نعت النجوى وإن

شئت أضفت النجوى إليها ، ولو نصبت على أنّها [حال] لكان صواباً . ﴿ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ بالعلم يسمع نجواهم ويعلم فحواهم ، ﴿ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أدنى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ ﴾ ، قراءة العامّة بالنصب في محل الخفض عطفاً . وقرأ يعقوب وأبو حاتم (أَكْثَرَ) بالرفع على محلّ الكلام قبل دخول ﴿ مِنْ ﴾ ، وقرأ الزهري (أَكْثَرَ) بالباء ، ﴿ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

(75/753)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نُهُواْ عَنِ النجوى ﴾ الآية قال ابن عباس : نزلت في اليهود والمنافقين وذلك أنّهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين ، وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا : ما نراهم إلاّ وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو موت أو مصيبة أو هزيمة ، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم ، فلا يزالون كذلك حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم . فلمّا طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهم ألاّ يتناجوا دون المسلمين فلم ينتهوا عن ذلك ، وعادوا إلى مناجاتهم ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

(76/753)

وقال مقاتلان : أنزلت في اليهود ، وكانت بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم موادعة ، فإذا مرّ بهم رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم (عليه السلام) جلسوا يتناجون فيما بينهم حتى ينظر المؤمن أنّهم يتناجون بقتله أو بما يكره ، فينزل الطريق عليهم من المخافة ، فبلغ ذلك النبي (عليه السلام) فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية . وقال ابن زيد : كان الرجل يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله الحاجة ليُريَ الناس أنّه قد ناجى فيقول لهم : إنّما يتناجون في حرب حضرت ، أو جمع قد جمع لكم ، أو أمر مهمّ قد وقع ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ أي يرجعون إلى المناجاة التي نهوا عنها ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ ﴾ ، قرأ يحيى والأعمش وحمزة (ينتجون) على وزن (يفتعلون) ، وقرأ الباقون (يَتَنَاجَوْنَ) على وزن (يتفاعلون) ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : ﴿ بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَتِ الرسول ﴾ و ولم يقل (أنتجيتم) و (انتجوا) . ﴿ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ﴾ وقرأ الضحّاك : (ومعصيات الرسول) فيهما بالجمع ﴿ تناجوا ﴾ وذلك "أنّ اليهود كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون : السام عليك . فيرد عليهم رسول الله : "وعليكم" . ولا يدري ما يقولون ، والسام الموت ، فإذا خرجوا قالوا : لو كان نبيّاً لعُذّبنا واستجيب فينا وعرف قولنا . فدخلوا عليه ذات يوم وقالوا : السام عليك . ففطنت عائشة رضي الله عنه إلى قولهم

وقالت : وعليكم السام والذام والداء واللعنة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مه يا عائشة ، إنّ الله عزّ وجلّ يحبّ الرفق في الأمر كلّه ولا يحبّ الفحش والتفحّش " .

(77/753)

فقالت : يا رسول الله ، ألم تسمع ما قالوا ؟ ، فقال رسول الله (عليه السلام) : " ألم تسمعي ما رددت عليهم ؟ " . فأنزل الله هذه الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم " " .

ثم نهى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْاْ ﴾ ، قراءة العامّة بالألف ، وروى أويس عن يعقوب : (فلا تنتجوا) من الانتجاء .

﴿ بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَتِ الرسول ﴾ كفعل المنافقين واليهود ﴿ وَتَنَاجَوْاْ بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا النجوى مِنَ الشيطان لِيَحْزُنَ الذين آمَنُواْ وَلَيْسَ ﴾ التناجي ﴿ بِضَآرِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ الله وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمّد بن جعفر قال : حدّثنا حمّاد بن الحسن قال : حدّثنا عبيد الله قال : حدّثنا الأعمش ، عن سفيان عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان دون (صاحبهما) ؛ فإنّ ذلك يحزنه " .

أخبرنا محمّد بن حمدون قال : أخبرنا مكّي قال : أخبرنا عبد الله بن بشر قال : حدّثنا سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يتناجَ اثنان دون الثالث " .

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ ﴾ الآية ، قال قتادة : كانوا يتنافسون في مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم (عليه السلام) ، وكانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلا ضنّوا بمجلسهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض .

(78/753)

وقال (المقاتلان) : " كان النبي (عليه السلام) في الصفّة وفي المكان ضيق وذلك يوم الجمعة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرم أهل بدر من المهاجرين الأنصار ، فجاء أناس من أهل بدر وفيهم ثابت بن قيس بن شماس ، وقد سبقوا في المجلس ، فقاموا حيال النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : السلام عليكم أيّها النبّي ورحمة الله . فردّ عليهم النبي (عليه السلام) ثم سلّموا على القوم بعد ذلك ، فردّوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسّع لهم ، فعرف النبي (عليه السلام) ما يحملهم على القيام فلم يفسحوا لهم ، فشقّ ذلك

على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار والتابعين من غير أهل بدر : " قم يا فلان وأنت يا فلان " . فأقام من المجلس بقدر النفر الذين قاموا بين يديه من أهل بدر ، فشقّ ذلك على من أُقيم من مجلسه ، وعرف النبيّ صلى الله عليه وسلم (عليه السلام) الكراهية في وجوهم ، فقال المنافقون للمسلمين : ألستم تزعمون أنّ صاحبكم يعدل بين الناس ؟ فوالله ما عدل على هؤلاء ، أنّ قوماً أخذوا مجالسهم وأحبّوا القرب من نبيّهم فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه مقامهم ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية " .

وقال الكلبي : نزلت في ثابت بن قيس بن الشماس وقد ذكرت هذه القصّة في سورة الحجرات فأنزل الله عزّ وجلّ في الرجل الذي لم يتفّسح له ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ ﴾ : توسّعوا ، ومنه قولهم : مكان فسيح إذا كان واسعاً في المجلس .

قرأ السلمي والحسن وعاصم (فِي المجالس) بالألف على الجمع ، وقرأ قتادة : (تفاسحوا) بالألف فيهما ، وقرأ الآخرون (تَفَسَّحُواْ) (في المجْلس) يعنون مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم واختاره أبو حاتم وأبو عبيد قال : لأنّه قراءة العامّة ، مع أن المجلس يؤدي معناه عن المجالس كلّها من مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم (عليه السلام) وغيره .

أخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا القطيعي قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا عبد الملك بن عمرو قال : حدّثنا فليح ، عن أيوب بن عبد الرحمن بن صعصعة [الأنصاري ، عن يعقوب] بن أبي يعقوب ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن افسحوا يفسح الله لكم " .

وقال أبو العالية والقرظي : هذا في مجالس الحرب ومقاعد القتال ، كان الرجل يأتي القوم في الصّف فيقول لهم : توسّعوا ، فيأبون عليه لحرصهم على القتال ، فأمرهم الله سبحانه أن يفسح بعضهم لبعض . وهذه رواية العوفي عن ابن عباس .

قال الحسن : بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قاتل المشركين وصفّ أصحابه للقتال تشاحّوا على الصف الأوّل ليكونوا في أوّل غارة القوم ، فكان الرجل منهم يجيء إلى الصّف الأوّل فيقول لإخوانه : توسّعوا لي ؛ ليلقى العدوّ ويصيب الشهادة ، فلا يوسّعون له رغبة منهم في الجهاد والشهادة ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

﴿ وَإِذَا قِيلَ انشزوا فَانشُزُوا ﴾ قرأ عاصم وأهل المدينة والشام بضم الشينين ، وقرأ الآخرون بكسرهما . وهما لغتان ، يعني وإذا قيل لكم : قوموا وتحرّكوا وارتفعوا وتوسّعوا لإخوانكم فافعلوا .

وقال أكثر المفسّرين : معناه : وإذا قيل لكم : انهضوا إلى الصلاة والجهاد والذكر وعمل الخير أي حق كان فانشزوا ولا تقصّروا .

قال عكرمة والضحاك : يعني إذا نودي للصلاة فقوموا لها ، وذلك أن رجالا تثاقلوا عن الصلاة إذا نودي لها ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

وقال ابن زيد : هذا في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أن كلّ رجل منهم كان يحبّ أن يكون آخر عهده رسول الله ، فقال الله سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشزوا ﴾ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنّ له حوائج ﴿ فَانشُزُوا ﴾ ولا تطلبوا المكث عنده

(80/753)

﴿ يَرْفَعِ الله الذين آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ بطاعتهم رسول الله وقيامهم من مجالسهم وتفسّحِهم لإخوانهم ﴿ والذين أُوتُوا العلم ﴾ منهم بفضل علمهم وسابقتهم ﴿ دَرَجَاتٍ ﴾ فأخبر الله سبحانه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيب فيما أُمر وأنّ أولئك المؤمنين مثابون فيما ائتمروا ، وأنّ النفر من أهل بدر مستحقّون لما عوملوا من الإكرام ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أبو عبد الله محمّد بن عامر البلخي قال : حدّثنا القاسم ابن عبّاد قال : حدّثنا صالح بن محمّد الترمذي قال : حدّثنا المسيّب بن شريح ، عن أبي بكر الهذلي ، عن الحسن قال : قرأ ابن مسعود هذه الآية ﴿ يَرْفَعِ الله الذين آمَنُوا

مِنكُمْ والذين أُوتُوا العلم دَرَجَاتٍ ﴾ فقال: أيّها الناس، افهموا هذه الآية ولِتَرَغّبكم في العلم فإن الله سبحانه يقول: يرفع الله المؤمن العالم فوق الذي لا يعلم درجات .

وأنبأني عبد الله بن حامد قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن إسحاق الفقيه قال: أخبرنا صالح ابن مقاتل، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فضل العالم على الشهيد درجة، وفضل الشهيد على العابد درجة، وفضل النبيّ صلى الله عليه وسلم على العالم درجة، وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، وفضل العالم على سائر الناس كفضلي على أدناهم " . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من جاءته منيّته وهو يطلب العلم فبينه وبين الأنبياء درجة واحدة " .

﴿ يا أيها الذين آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرسول فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ قال ابن عباس : وذلك أنّ الناس سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكثروا ، حتى شقّوا عليه وأحفوه بالمسألة فأدّبهم الله سبحانه وفطّنهم عن ذلك بهذه الآية، وأمرهم أن لا يناجوه حتى يقدّموا صدقة .

وقال مقاتل بن حيّان : نزلت في الأغنياء ، وذلك أنّهم كانوا يأتون النبيّ صلى الله عليه وسلم فيكثرون مناجاته ويغلبون الفقراء على (المجالس) حتى كره النبي صلى الله عليه وسلم طول جلوسهم ومناجاتهم فأمر الله تعالى بالصدقة عند المناجاة ، فلمّا رأوا ذلك انتهوا عن المناجاة ، فأمّا أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً ، وأمّا أهل الميسرة فبخلوا ومنعوا ، فاشتدّ ذلك على أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت الرخصة ، قال مجاهد : نهوا عن مناجاة النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى يتصدّقوا ، فلم يناجه إلاّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قدّم ديناراً فتصدّق به ثمّ نزلت الرخصة .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : إنّ في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرسول فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ فإنّها فرضت ثم نسخت .

أخبرني عبد الله بن حامد إجازة قال : أخبرنا أبو بكر بن إسحاق الفقيه قال : أخبرنا علي بن صقر بن نصر قال : حدّثنا يحيى بن عبد الحميد قال : حدّثنا أبو عبد الرحمن الأشجعي ، عن سفيان عن عثمان بن المغيرة ، عن [سالم] بن أبي الجعد ، عن عليّ بن علقمة الأنماري ، عن علىّ بن أبي طالب قال : " لمّا نزلت ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرسول فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ما ترى بذي دينار " ؟ . قلت : لا يطيقونه . قال : " كم " ؟ . قلت : حبّة أو شعيرة .

قال : " إنك لزهيد " . فنزلت ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ " الآية .

قال عليّ رضي الله عنه : فِيّ خفَّف الله سبحانه عن هذه الأمّة ، ولم تنزل في أحد قبلي ولن تنزل في أحد بعدي .

(82/753)

قال ابن عمر : كان لعليّ بن أبي طالب ثلاث لو كان لي واحدة منهن كانت أحبّ إليّ من حمر النعم : تزويجه فاطمة ، وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى .

﴿ أَأَشْفَقْتُمْ ﴾ أبخلتم وخفتم بالصدقة الفاقة ﴿ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ فتجاوز عنكم ولم يعاقبكم بترك الصدقة ، وقيل : الواو صلة . مجازه (وإذ لم تفعلوا تاب الله عليكم) تجاوز عنكم وخفّف ونسخ الصدقة .

قال مقاتل بن حيّان : إنّما كان ذلك عشر ليال ثم نسخ .

وقال الكلبي : ما كانت إلاّ ساعة من النهار .

﴿ فَأَقِيمُوا الصلاةَ وَآتُوا الزكاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم ﴾ نزلت في المنافقين تولوا اليهود وناصحوهم ونقلوا

إليهم أسرار المسلمين ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ ﴾ يا معشر المسلمين ﴿ وَلاَ مِنْهُمْ ﴾ يعني اليهود والكافرين . نظيره ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلك لاَ إلى هؤلاء وَلاَ إِلَى هؤلاء ﴾ [النساء : 143] .

" ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال السدّي ومقاتل : خاصّة في عبد الله بن نبتل المنافق ، كان يجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجرة من حجره إذ قال : " يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبّار وينظر بعيني شيطان " فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم " على ما تشتمني أنت وأصحابك " ؟ فحلف بالله ما فعل ، وقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم " فعلت " .

وانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبّوه ، فأنزل الله سبحانه ذكر هذه الآية .

(83/753)

﴿ أَعَدَّ الله لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * اتخذوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ " الكاذبة ، وقرأ الحسن بكسر الألف ، أي إقرارهم ﴿ جُنَّةً ﴾ يستجنّون بها من القتل ويدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ ﴾ يوم القيامة ﴿ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ ﴾ كارهين، ما كانوا كاذبين ﴿ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ ،

قال قتادة: إنّ المنافق يحلف له يوم القيامة كما حلف لأوليائه في الدنيا ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون ﴾ ،

أخبرنا الحسن بن محمّد قال: حدّثنا أحمد بن يعقوب الأنباري قال: حدّثنا أبو حنيفة محمّد بن حنيفة بن ماهان الواسطي قال: حدّثنا إبراهيم بن سليم الهجمي قال: حدّثنا ابراهيم بن سليمان الدبّاس قال: حدّثنا ابن أخي روّاد، عن الحكم عن عيينة عن مقسم عن ابن عباس قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ينادي مناد يوم القيامة: أين خصماء الله؟ فيقوم القدرية وجوههم مسودّة، مزرقّة أعينهم، مائل شدقهم، يسيل لعابهم، فيقولون: والله ما عبدنا من دونك شمساً ولا قمراً ولا صنماً ولا وثناً ولا اتّخذنا من دونك إلهاً ".

فقال ابن عباس: صدقوا والله، أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون، ثم تلا ابن عباس هذه الآية ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون ﴾ ، هم والله القدريون، هم والله القدريون.

﴿ استحوذ ﴾ : غلب واستولى ﴿ عَلَيْهِمُ الشيطان فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ الله أولئك حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ الله وَرَسُولَهُ أولئك فِي الأذلين ﴾ : الأسفلين .

﴿ كَتَبَ الله ﴾ : قضى الله سبحانه ﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي ﴾ ، وذلك أنّ المؤمنين قالوا : لئن فتح الله لنا مكّة وخيبر وما حولها فإنّا لنرجو أن يظفرنا الله على الروم وفارس . فقال عبد الله بن أُبيّ : أتظنّون الروم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها ؟ والله لهم أكثر عدداً وأشدّ بطشاً من ذلك . فأنزل الله سبحانه : ﴿ كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ نظيره قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171-173] .

﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله ﴾ الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكة . وسنذكر القصة في سورة الامتحان إن شاء الله .

وقال السدّي : " نزلت في عبد الله بن عبد الله بن أُبي ، وذلك أنّه كان جالساً إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فشرب رسول الله (عليه السلام) الماء ، فقال عبد الله : يا رسول الله ، أبقِ فضلة من شرابك . قال : " وما تصنع بها " ؟ قال : أسقيها أبي لعلّ الله يطهّر قلبه .

ففعل فأتى بها أباه ، فقال : ما هذا ؟ قال من شراب رسول الله (عليه السلام) جئتك بها لتشربها لعلّ الله سبحانه وتعالى يطهّر قلبك . فقال أبوه : هلاّ جئتني ببول أُمّك . فرجع إلى النبي (عليه السلام) ، فقال : يا رسول الله ، ائذن لي في قتل أبي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "بل ترفّق به وتحسّن إليه " " .

(85/753)

وقال ابن جريج : " حدّثت أنّ أبا قحافة سبّ النبي صلى الله عليه وسلم فصكّه أبو بكر صكّة سقط منها ، ثم ذكر ذلك للنبيّ (عليه السلام) فقال : " أوَفعلته ؟ " . فقال : نعم . قال : " فلا تعد إليه " " .

فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله لو كان السيف منّي قريباً لقتلته ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية : ﴿ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللهَ ﴾ .

وروى مقاتل بن حيّان ، عن مرّة الهمذاني ، عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية : ﴿ وَلَوْ كانوا آبَآءَهُمْ ﴾ يعني أبا عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد " ﴿ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ يعني أبا بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز ، وقال : يا رسول الله : دعني أكرّ في الرعلة الأولى . فقال له رسول الله : " متّعنا بنفسك يا أبا بكر ، أما تعلم أنّك عندي بمنزلة

سمعي وبصري ؟ "" .

﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ يعني مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ يعني عمر قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر ، وعليّاً وحمزة وعبيدة قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر . ﴿ أولئك كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان ﴾ قراءة العامّة بفتح الكاف والنون ،

وروى المفضّل عن عاصم بضمّهما على المجهول ، والأوّل أجود ؛ لقوله : ﴿ وَأَيَّدَهُمْ ﴾ و ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ﴾ [النساء : 57] .

قال الربيع بن أنس : يعني أثبت الإيمان في قلوبهم فهي موقنة مخلصة .

وقيل : معناه كتب في قلوبهم الإيمان ، كقوله : ﴿ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] .

وقيل : حكم لهم بالإيمان فذكر القلوب لأنّها موضعه .

﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ : وقوّاهم بنصر منه ، قاله الحسن ،

(86/753)

وقال السدّي : يعني بالإيمان . ربيع ، بالقرآن وحجّته ، نظيره : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : 52] . ابن جرير : بنور وبرهان وهدى . وقيل : برحمة

. وقيل : أمدّهم بجبريل (عليه السلام) .

﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أولئك حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المفلحون ﴾

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عبد الله بن يوسف قال : حدّثنا محمّد بن حمدان بن سفيان قال : حدّثنا محمّد بن يزيد بن عبد الله بن سلمان قال : حدّثنا المرداس أبو بلال قال : حدّثنا إسماعيل ، عن سعد بن سعيد الجرجاني ، عن بعض مشيخته قال : قال داود (عليه السلام) : "إلهي ، من حزبك وحول عرشك ؟ " .

فأوحى الله سبحانه إليه : "يا داود ، الغاضّة أبصارهم ، النقيّة قلوبهم ، السليمة أكفّهم ، أولئك حزبي وحول عرشي" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 252 . 265 ﴾

(87/753)

وقال الزمخشري :

سورة المجادلة

مدنية ، وآياتها 22 [نزلت بعد المنافقون] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المجادلة (58) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1)

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قالت عائشة رضى اللّه عنها : الحمد للّه الذي وسع سمعه الأصوات : «1» لقد كلمت المجادلة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في جانب البيت وأنا عنده لا أسمع ، وقد سمع «2» لها . وعن عمر أنه كان إذا دخلت عليه أكرمها وقال : قد سمع اللّه لها . وقرئ : تحاورك ، أى : تراجعك الكلام . وتحاولك ، أى : تسائلك ، وهي خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت أخى عبادة :

رآها وهي تصلى وكانت حسنة الجسم ، فلما سلمت راودها فأبت ، فغضب وكان به خفة ولمم «3» ، فظاهر منها ، فأتت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقالت : إن أوسا تزوجني وأنا شابة مرغوب فىّ ، فلما خلا سنى ونثرت بطني - أى : كثر ولدى - جعلني عليه «4» كأمّه . وروى أنها قالت له :

---

(1) . قال محمود : «قالت عائشة رضى اللّه عنها : الحمد للّه الذي وسع سمعه الأصوات

. . . الخ» قال أحمد : ولقد استدل به بعضهم على عدم لزوم ظهار الذمي ، وليس بقوى ، لأنه غير المقصود .

(2) . أخرجه النسائي وابن ماجة والطبري وأحمد وإسحاق والبزار من طريق الأعمش عن تميم بن سلمة عن عروة عن عائشة . وعلقه البخاري ، وأخرجه الحاكم أتم سياقا منه ، وفيه تسميتها وتسمية زوجها .

(3) . قوله «ولمم» أى طرف من الجنون ، أو مس من الجن . أفاده الصحاح (ع)

(4) . أخرجه الدارقطني والبيهقي .

(88/753)

إنّ لي صبية صغارا ، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا . فقال : ما عندي في أمرك شيء . وروى أنه قال لها : حرمت عليه ، فقالت : يا رسول اللّه ، ما ذكر طلاقا وإنما هو أبو ولدى وأحب الناس إلىّ ، فقال : حرمت عليه ، فقالت : أشكو إلى اللّه فاقتي ووجدي ، كلما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : حرمت عليه ، هتفت وشكت إلى اللّه «1»

، فنزلت فِي زَوْجِها في شأنه ومعناه إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يصح أن يسمع كل مسموع ويبصر

كل مبصر. فإن قلت: ما معنى قَدْ في قوله قَدْ سَمِعَ؟ قلت: معناه التوقع، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرّج عنها.

[سورة المجادلة (58) : الآيات 2 إلى 4]

الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (2) وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (4)

الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ في مِنْكُمْ توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم في الظهار، لأنه كان من أيمان أهل جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ وقرئ بالرفع على اللغتين الحجازية والتميمية. وفي قراءة ابن مسعود: بأمّهاتهم، وزيادة الباء في لغة من ينصب. والمعنى أن من يقول لامرأته أنت علىّ كظهر أمى: ملحق في كلامه هذا للزوج بالأم، وجاعلها مثلها. وهذا تشبيه باطل لتباين الحالين إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ يريد أن الأمهات على الحقيقة إنما هنّ الوالدات وغيرهنّ ملحقات بهنّ لدخولهنّ في حكمهنّ، فالمرضعات أمّهات لأنّهنّ

---

(1) . هذه الرواية الثانية أخرجها الطبري من طريق أبى معشر عن محمد بن كعب القرظي

قال : كانت خولة بنت ثعلبة تحت أوس بن الصامت . وكان رجلا به لمم . فقال في بعض هجراته : أنت على كظهر أمى ، قال : ما أظنك إلا قد حرمت على فجاءت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقالت : يا نبى اللّه ، إن أوس بن الصامت أبو ولدى ، وأحب الناس إلى ، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقا قال : ما أراك إلا حرمت عليه ، فقالت : يا رسول اللّه لا تقل كذلك واللّه ما ذكر طلاقا . فراودت النبي صلى اللّه عليه وسلم مرارا ثم قالت : اللهم إنى أشكو إليك فاقتي ووحدتي وما يشق على من فراقه - الحديث» ومن طريق أبى العالية قال : فجعلت كلما قال لها : حرمت عليه ، هتفت وقالت : أشكو إلى اللّه ، فلم ترم مكانها حتى نزلت الآية .

(89/753)

لما أرضعن دخلن بالرضاع في حكم الأمهات ، وكذلك أزواج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمهات المؤمنين ، لأن اللّه حرّم نكاحهن على الأمة فدخلن بذلك في حكم الأمهات . وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة لأنهنّ لسن بأمّهات على الحقيقة . ولا بداخلات في حكم الأمهات ، فكان قول المظاهر : منكرا من القول تنكره الحقيقة وتنكره الأحكام الشرعية وزورا وكذبا باطلا منحرفا عن الحق وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ لما سلف منه إذا تيب

عنه ولم يعد إليه ، ثم قال : وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا يعنى : والذين كانت عادتهم أن يقولوا هذا القول «1»

المنكر فقطعوه بالإسلام ، ثم يعودون لمثله ، فكفارة من عاد أن يحرّر رقبة ثم يماس المظاهر منها لا تحل له مماستها إلا بعد تقديم الكفارة . ووجه آخر : ثم يعودون لما قالوا : ثم يتداركون ما قالوا «2»

، لأنّ المتدارك للأمر عائد إليه . ومنه المثل :

عاد غيث على ما أفسد ، أى : تداركه بالإصلاح . والمعنى : أن تدارك هذا القول وتلافيه بأن يكفر حتى ترجع حالهما كما كانت قبل الظهار . ووجه ثالث : وهو أن يراد بما قالوا : ما حرّموه «3»

---

(1) . قال محمود : «يعنى والذين كانت عادتهم أن يقولوا هذا القول . . . الخ» قال أحمد : وهذا الوجه يلزم الكفارة لمجرد قول الظهار في الإسلام لا غير ، والقول بوجوبها بمجرد الظهار : قول مجاهد من التابعين وسفيان من الفقهاء .

(2) . قال محمود : «و وجه ثان ثم يعودون لما قالوا ثم يتداركون ما قالوا . . . الخ» قال أحمد : وهذا التفسير منزل على أن وجوب الكفارة مشروط بالعود بعد الظهار وهو القول المشهور لفقهاء الأمصار ولا يخص هذا التفسير وجها من وجوه العود التي ذكرها العلماء .

(3) . قال محمود : «و وجه ثالث : وهو أن يكون المراد بما قالوه . . . الخ» قال أحمد :

وهذا التفسير يقوى القول بأن العود الوطء . نفسه ، لأن حاصله : ثم يعودون للوطء ، وظاهر قولك : عاد الوطء . فعله ، وحمل العود على الوطء : من جملة أقوال مالك رحمه الله ، فقد تلخص أن كلام المختلفين في العود له مآخذ من هذه الآية ، فأما من لم يقف وجوب الكفارة عنده إلا على مجرد الظهار ، فحمل العود على الظهار ، وتسميته عودا والحالة هذه باعتبار أنه كان في الجاهلية وانقطع في الإسلام ، فايقاعه بعد الإسلام عود إليه . وأما من أوقفها على العود وجعل العود أن يعيد لفظ الظهار وهو قول داود فاعتبر ظاهر اللفظ ، وأما من حمل العود على العزم على الوطء فرأى أن العود إلى القول الأول عود بالتدارك لا بالتكرار ، وتدارك بعضه ببعضه ، وهل نقيضه العزم على الوطء لأن الأول امتناع منه أو العزم على الإمساك ، لأن العصمة تقتضي الحل وعدم الامتناع ، فيكفى محل خلاف . وأما من حمله على الوطء نفسه فرأى أن المراد بالقول المقول فيه ، ويحمل قوله مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا أى مرة ثانية . وقد اختلف العلماء أيضا فيما إذا قدم الوطء على الكفارة ، فالمذهب المشهور للعلماء أن ذلك لا يسقط الكفارة ولا يوجب أخرى .

وذهب مجاهد إلى إيجاب أخرى به ، وذهبت طائفة إلى إسقاط الكفارة به أصلا ورأسا ، وكأن منشأ خلافهم النظر إلى قوله مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فرآه أكثر العلماء منعا من الوطء قبل التكفير ، حتى كأنه قال : لا تماس حتى تكفر ، ورأته الطائفة المسقطة للكفارة بالوطء شرطا في الوجوب ، فلا جرم إذا مسها ، فقد فقد الشرط الذي هو عدم التماس فسقط

الوجوب . ورآه مجاهد في إيجاب الكفارة ، فإذا تماسا قبل الكفارة تعددت ، ثم فيه نظر آخر : وهو أنه ذكر عدم التماس في كفارتى العتق والصوم ، وأسقطه في كفارة الإطعام ، فتلقى أبو حنيفة بذلك الفرق بين الإطعام وبين الأخريين ، حتى أنه لو وطئ في حال الإطعام لم يجب عليه استئناف كفارة ، بخلاف الأخريين فان الوطء في خلال كل واحدة منهما يوجب إبطالها واستئناف أخرى ، على أن أبا حنيفة سوى بين الثلاث في تحريم المساس قبل حصولها كاملة ، كذا نقل الزمخشري عنه . ولقائل أن يقول على أبى حنيفة : إذا جعلت الفائدة في ذكر عدم التماس في بعضها وإسقاطه من بعضها الفرق بين أنواعها ، فلم صرفت الفرق إلى أحد الحكمين وهو إيجاب الاستئناف بالوطء في خلال الكفارة في بعضها دون البعض دون الحكم الآخر وهو تحريم التماس قبل الشروع في الكفارة ، فما تخصيص أحد الحكمين دون الآخر إلا نوع من التحكم . وله أن يقول : اتفقنا على التسوية فيه فتعين صرفه إلى الآخر هذا منتهى النظر مع أبى حنيفة ، ورأى القائلون بأن الطعام يبطل بتخلل الوطء في أثنائه كالصيام : أن فائدة ذكره عدم المماسة ، ثم إسقاطه للتنبيه على التسوية بين التكفير قبل وبعد . وتقريره : أن ذكره مع الاثنين كذكره مع الثالث ، وإطلاق الثالث كاطلاق الاثنين ، فكأنه قال في الجميع : من قبل أن يتماسا ومن بعد .

وانطوى إيراد الآية على هذا الوجه على إبطال قول من قال : إن الأمر يختلف بين ما قبل التماس وما بعده فيجب قبل ويسقط بعد ، وعلى قول من قال : يجب قبل كفارة وبعد

كفارتان ، وهاهنا نظر آخر : في أنه لم ذكر عدم التماس مع نوعين منها ، وقد كان ذكره مع واحد منها مفيدا لهذه الفائدة على التقرير المذكور . والجواب عنه :

أن ذكره مع العتق مقتصر على إفادة تحريم الوطء قبل العتق ، ولا يتصور في العتق الوطء في أثنائه ، إذ لا يتبعض ولا يتفرق ، فاحتيج إلى ذكره مع الصيام الواقع على التوالي ليفيد تحريم الوطء قبل الشروع فيه وبعد الشروع إلى التمام ، إذ لو لم يذكره هنا لتوهم أن الوطء إنما يحرم قبل الشروع خاصة لا بعد ، لأنها هي الحالة التي دل عليها التقييد في العتق ، فلما ذكره مع الصيام الواقع متواليا : استغنى عن ذكره مع الطعام لأنه مثله في التعدد والتوالي وإمكان الوطء في خلاله ، وهذا التقرير منزل على أن العتق لا يتجزأ ولا يتبعض ، وهذا هو المرضى . وقد نقل العيني عن ابن القاسم أن من أعتق شقصا من عبد يملك جميعه ثم أعتق بقيته عن الظهار : أن ذلك يجزيه ، وهو خلاف أصله في المدونة ، وعابه عليه أصبغ وسحنون وابنه . «تنبيه» إن قال قائل بارتفاع التحريم بالكفارة لا يخلو ، إما أن يكون مشروطا فيلزم أن لا يرتفع التحريم بالكفارة التي تقدم على الشروع فيها مساس ، وإن لم يكن مشروطا لزم ارتفاع التحريم بالكفارة التي تخللها المساس ، وكلاهما غير مقول به عندكم ، فالجواب : أن المساس مناف لصحة الكفارة واعتبارها في رفع التحريم ، فإن وقع قبل الشروع في الكفارة تعذر الحكم ببطلان الكفارة ، لأن المحل لم يوجد ، وتعذر ذلك لا يبطل الحكم ككونه منافيا : أما إن وقع في أثنائها : فالمحل المحكوم فيه بعدم الصحة قائم ، فوجب

إعمال المنافى ، وهذا كالحدث مناف لصحة الصلاة ، فان وقع في أثنائها أثر في إبطالها ، واللّه تعالى الموفق للصواب .

(90/753)

على أنفسهم بلفظ الظهار ، تنزيلا للقول منزلة المقول فيه نحو ما ذكرنا في قوله تعالى وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ ويكون المعنى : ثم يريدون العود للتماس . والمماسة : الاستمتاع بها من جماع ، أو لمس بشهوة ، أو نظر إلى فرجها لشهوة «1»

ذِلكُمْ الحكم تُوعَظُونَ بِهِ لأن الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية ، فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم حتى لا تعودوا إلى الظهار وتخافوا عقاب اللّه عليه . فإن قلت : هل يصح الظهار بغير هذا اللفظ ؟ قلت : نعم إذا وضع مكان أنت عضوا منها يعبر به عن الجملة كالرأس والوجه والرقبة والفرج ، أو مكان الظهر عضوا آخر يحرم النظر إليه من الأم كالبطن والفخذ . ومكان الأمّ ذات رحم محرم منه من نسب أو رضاع أو صهر أو جماع ، نحو أن يقول : أنت علىّ كظهر أختى من الرضاع

---

(1) . قوله «أو نظر إلى فرجها لشهوة» عبارة النسفي بشهوة . (ع)

أو عمتي من النسب أو امرأة ابني أو أبى أو أمّ امرأتى أو بنتها ، فهو مظاهر . وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه . وعن الحسن والنخعي والزهري والأوزاعى والثوري وغيرهم نحوه . وقال الشافعي : لا يكون الظهار إلا بالأمّ وحدها وهو قول قتادة والشعبي . وعن الشعبي : لم ينس اللّه أن يذكر البنات والأخوات والعمات والخالات ، إذ أخبر أن الظهار انما يكون بالأمّهات الوالدات دون المرضعات . وعن بعضهم : لا بد من ذكر الظهر حتى يكون ظهارا . فإن قلت : فإذا امتنع المظاهر من الكفارة ، هل للمرأة أن ترافعه ؟ قلت : لها ذلك . وعلى القاضي أن يجبره على أن يكفر ، وأن يحبسه ، ولا شيء من الكفارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار وحدها ، لأنه يضرّبها في ترك التكفير والامتناع من الاستمتاع ، فيلزم إيفاء حقها . فإن قلت : فإن مسّ قبل أن يكفر ؟ قلت : عليه أن يستغفر ولا يعود حتى يكفر ، لما روى أن سلمة بن صخر البياضي قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ظاهرت من امرأتى ثم أبصرت خلخالها في ليلة قمراء فواقعتها ، فقال عليه الصلاة والسلام : «استغفر ربك ولا تعد حتى تكفر» «1»

فإن قلت : أى رقبة تجزئ في كفارة الظهار ؟ قلت : المسلمة والكافرة جميعا ، لأنها في الآية

مطلقة .

وعند الشافعي لا تجزى إلا المؤمنة . لقوله تعالى في كفارة القتل فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ولا تجزى أمّ الولد والمدبر والمكاتب الذي أدّى شيئًا ، فإن لم يؤدّ شيئًا جاز . وعند الشافعي : لا يجوز :

فإن قلت : فإن أعتق بعض الرقبة أو صام بعض الصيام ثم مس ؟ قلت : عليه أن يستأنف - نهارا مس - أو ليلا - ناسيا أو عامدا - عند أبى حنيفة ، وعند أبى يوسف ومحمد : عتق بعض الرقبة عتق كلها فيجزيه ، وإن كان المسّ يفسد الصوم استقبل ، وإلا بنى . فإن قلت : كم يعطى المسكين في الإطعام ؟

قلت : نصف صاع من برّ أو صاعا من غيره عند أبى حنيفة ، وعند الشافعي مدّا من طعام بلده الذي يقتات فيه . فإن قلت : ما بال التماس لم يذكر عند الكفارة بالإطعام كما ذكر عند الكفارتين ؟ قلت : اختلف في ذلك ، فعند أبى حنيفة : أنه لا فرق بين الكفارات الثلاث في وجوب تقديمها على المساس ، وإنما ترك ذكره عند الإطعام دلالة على أنه إذا وجد في خلال الإطعام لم يستأنف كما يستأنف الصوم إذا وقع في خلاله . وعند غيره : لم يذكر للدلالة على أن

---

(1) . لم أره بهذا اللفظ وهو في السنن الأربعة من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس «أن رجلا ظاهر من امرأته ، ثم واقعها قبل أن يكفر فأتى النبي صلى اللّه عليه وسلم

فأخبره فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال :

رأيت بياض ساقها في القمر . قال : فاعتزلها حتى تكفر عنك» وللترمذي «قال : رأيت خلخالها في القمر . قال :

فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك اللّه» أخرجوه من رواية الفضل بن موسى عن معمر عنه موصولا ، وأبو داود والنسائي من رواية عبد الرزاق عن معمر مرسلا . قال النسائي : هذا أولى بالصواب ولأبى داود والترمذي من حديث سلمة بن صخر بن البياضي قال : كنت امرأ أستكثر من النساء . فذكر القصة مطولة ، وليس فيها «استغفر اللّه» إلى آخره .

(92/753)

التكفير قبله وبعده سواء . فإن قلت : الضمير في أن يتماسا إلام يرجع ؟ قلت : إلى ما دلّ عليه الكلام من المظاهر والمظاهر منها ذِلكَ البيان والتعليم للأحكام والتنبيه عليها لتصدقوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره ، ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ التي لا يجوز تعدّيها وَلِلْكافِرِينَ الذين لا يتبعونها ولا يعملون عليها عَذابٌ أَلِيمٌ .

[سورة المجادلة (58) : الآيات 5 إلى 6]

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (5) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6)

يُحَادُّونَ يعادون ويشاقون كُبِتُوا أخزوا وأهلكوا كَمَا كُبِتَ من قبلهم من أعداء الرسل. قيل: أريد كبتهم يوم الخندق وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به وَلِلْكَافِرِينَ بهذه الآيات عَذَابٌ مُهِينٌ يذهب بعزهم وكبرهم يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ منصوب بلهم. أو بمهين. أو بإضمار اذكر تعظيما لليوم جَمِيعاً كلهم لا يترك منهم أحد غير مبعوث. أو مجتمعين في حال واحدة، كما تقول: حى جميع فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا تخجيلا لهم وتوبيخا وتشهيرا بحالهم، يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار، لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد أَحْصَاهُ اللَّهُ أحاط به عددا لم يفته منه شيء وَنَسُوهُ لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه لم يبالوا به لضراوتهم بالمعاصي، وإنما تحفظ معظمات الأمور.

[سورة المجادلة (58) : آية 7]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)

مَا يَكُونُ من كان التامة. وقرئ بالياء والتاء، والياء على أنّ النجوى تأنيثها غير حقيقى

ومن فاصلة. أو على أنّ المعنى ما يكون شيء من النجوى. والنجوى: التناجي، فلا تخلو إما أن تكون مضافة إلى ثلاثة، أي: من نجوى ثلاثة نفر. أو موصوفة بها، أي: من أهل نجوى ثلاثة، فحذف الأهل. أو جعلوا نجوى في أنفسهم مبالغة، كقوله تعالى: خلصوا نجيا. وقرأ ابن أبى عيلة: ثلاثة وخمسة، بالنصب على الحال بإضمار يتناجون، لأن نجوى يدل عليه. أو

(93/753)

على تأويل نجوى بمتناجين، ونصبها من المستكن فيه. فإن قلت: ما الداعي إلى تخصيص الثلاثة والخمسة؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن قوما من المنافقين تحلقوا للتناجى مغايظة للمؤمنين على هذين العددين: ثلاثة وخمسة، فقيل: ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة كما ترونهم يتناجون كذلك وَلا أَدْنى مِنْ عدديهم وَلا أَكْثَرَ إِلَّا واللّه معهم يسمع ما يقولون، فقد روى عن ابن عباس رضى اللّه عنه: أنها نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية: كانوا يوما يتحدثون، فقال أحدهم: أترى أن اللّه يعلم ما نقول؟ فقال الآخر: يعلم بعضا ولا يعلم بعضا.

وقال الثالث: إن كان يعلم بعضا فهو يعلم كله، وصدق. لأن من علم بعض الأشياء بغير

سبب فقد علمها كلها لأن كونه عالما بغير سبب ثابت له مع كل معلوم ، والثاني : أنه قصد أن يذكر ما جرت عليه العادة من أعداد أهل النجوى والمتخالين للشورى والمندبون «1» لذلك ليسوا بكل أحد وإنما هم طائفة مجتباة من أولى النهى والأحلام ، ورهط من أهل الرأى والتجارب ، وأول عددهم الاثنان فصاعدا إلى خمسة إلى ستة إلى ما اقتضته الحال وحكم الاستصواب . ألا ترى إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه كيف ترك الأمر شورى بين ستة ولم يتجاوز بها إلى سابع ، فذكر عز وعلا الثلاثة والخمسة وقال وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ فدلّ على الاثنين والأربعة وقال وَلا أَكْثَرَ فدلّ على ما يلي هذا العدد ويقاربه . وفي مصحف عبد اللّه : إلا اللّه رابعهم ، ولا أربعة إلا اللّه خامسهم ، ولا خمسة إلا اللّه سادسهم ، ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا اللّه معهم إذا انتجوا . وقرئ : ولا أدنى من ذلك ولا أكثر ، بالنصب على أن لا لنفى الجنس .

ويجوز أن يكون : ولا أكثر ، بالرفع معطوفا على محل لا مع أدنى ، كقولك : لا حول ولا قوّة إلا باللّه ، بفتح الحول ورفع القوّة . ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء ، كقولك :

لا حول ولا قوّة إلا باللّه ، وأن يكون ارتفاعهما عطفا على محل مِنْ نَجْوى كأنه قيل : ما يكون أدنى ولا أكثر إلا هو معهم . ويجوز أن يكونا مجرورين «2»

عطفا على نجوى ، كأنه قيل :

ما يكون من أدنى ولا أكثر إلا هو معهم . وقرئ : ولا أكبر ، بالباء . ومعنى كونه معهم :

أنه يعلم ما يتناجون به ولا يخفى عليه ما هم فيه ، فكأنه مشاهدهم ومحاضرهم ، وقد تعالى عن المكان والمشاهدة . وقرئ : ثم ينبئهم ، على التخفيف .

[سورة المجادلة (58) : آية 8]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8)

---

(1) . قوله «والمندبون لذلك» لعل أصله ، المنتدبون ، فأدغم . (ع)

(2) . قوله «ويجوز أن يكونا مجرورين» على قراءة أكثر بفتح الراء . (ع) [.....]

(94/753)

كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين ، يريدون أن يغيظوهم ، فنهاهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فعادوا لمثل فعلهم ، وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول ومخالفته . وقرئ : ينتجون بالإثم والعدوان ، بكسر العين ، ومعصيات الرسول حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ يعنى أنهم يقولون في تحيتك :

السام عليك يا محمد والسام : الموت ، والله تعالى يقول وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى ويا أَيُّهَا الرَّسُولُ ويا أَيُّهَا النَّبِيُّ : لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ كانوا يقولون : ما له إن كان نبيا لا يدعو علينا حتى يعذبنا الله بما نقول ، فقال الله تعالى حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ عذابا .

[سورة المجادلة (58) : الآيات 9 إلى 10]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9) إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خطاب للمنافقين الذين آمنوا بألسنتهم . ويجوز أن يكون للمؤمنين ، أى : إذا تناجيتم فلا تتشبهوا بأولئك في تناجيهم بالشر وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإنّ ذلك يحزنه» «1» وروى «دون الثالث» . وقرئ فلا تناجوا . وعن ابن مسعود : إذا انتجيتم فلا تنتجوا إِنَّمَا النَّجْوى اللام إشارة إلى النجوى بالإثم والعدوان ، بدليل قوله تعالى لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا والمعنى : أنّ الشيطان يزينها لهم ، فكأنها منه ليغيظ الذين آمنوا ويحزنهم وَلَيْسَ الشيطان أو الحزن بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ . فإن قلت : كيف لا يضرهم الشيطان أو الحزن إلا بإذن الله ؟ قلت : كانوا يوهمون المؤمنين في نجواهم وتغامزهم أن غزاتهم غلبوا وأنّ أقاربهم قتلوا ، فقال : لا يضرهم الشيطان أو الحزن بذلك الموهم إلا بإذن الله ، أى : بمشيئته ، وهو

أن يقضى الموت على أقاربهم أو الغلبة على الغزاة. وقرئ: ليحزن، وليحزن.

---

(1). متفق عليه وهذا اللفظ لمسلم من حديث ابن مسعود. وقوله: «و روى دون الثالث» هذا اللفظ البخاري «فائدة» أخرج البزار من حديث ابن عمر نحوه- وزاد «إلا باذنه» قلت: فان كانوا أربعة؟ قال: لا بأس به».

(95/753)

[سورة المجادلة (58): آية 11]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11)

تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ توسعوا فيه وليفسح بعضكم عن بعض، من قولهم: أفسح عنى، أى: تنح، ولا تتضامّوا. وقرئ: تفاسحوا. والمراد: مجلس رسول اللّه، وكانوا يتضامّون فيه تنافسا على القرب منه، وحرصا على استماع كلامه. وقيل: هو المجلس من مجالس القتال، وهي مراكز الغزاة، كقوله تعالى مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وقرئ: في المجالس. قيل: كان الرجل يأتى الصف فيقول: تفسحوا، فيأبون لحرصهم على الشهادة. وقرئ: في المجلس-

بفتح اللام :

وهو الجلوس ، أى : توسعوا في جلوسكم ولا تتضايقوا فيه يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ مطلق في كل ما يبتغى الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر وغير ذلك انْشُزُوا

انهضوا للتوسعة على المقبلين . أو انهضوا عن مجلس رسول اللّه إذا أمرتم بالنهوض عنه ، ولا تملوا رسول اللّه بالارتكاز فيه : أو انهضوا إلى الصلاة والجهاد وأعمال الخير إذا استنهضتم ، ولا تثبطوا ولا تفرطوا يَرْفَعِ اللَّهُ المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله ، والعالمين منهم خاصة «1»

دَرَجاتٍ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ قرئ بالتاء والياء . عن عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه : أنه كان إذا قرأها قال يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر «2»

سبعين سنة «3»

. وعنه عليه السلام «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»

«4»

وعنه

---

(1) . قال محمود : «فيه تعميم ثم تخصيص للعلماء . . . الخ» قال أحمد : في الجزاء برفع الدرجات هاهنا مناسبة العمل لأن المأمور به تفسيح المجلس كيلا يتنافسوا في القرب من

المكان الرفيع حوله عليه الصلاة والسلام فيتضايقوا ، فلما كان الممتثل لذلك يخفض نفسه عما يتنافس فيه من الرفعة امتثالا وتواضعا : جوزي على تواضعه برفع الدرجات كقوله : «من تواضع للّه رفعه اللّه» ، ثم لما علم أن أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم ، خصهم بالذكر عند الجزاء ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة في المجلس تواضعا للّه تعالى .

(2) . قوله «حضر الجواد المضمر» الذي في الصحاح : أحضر الفرس إحضارا ، واحتضر : أى عدا ، واستحضرته : أعديته ، وفرس محضير : أى كثير العدو اه (ع)

(3) . أخرجه أبو يعلى وابن عدى من رواية عبد اللّه بن محزر عن الزهري عن أبى سلمة عن أبى هريرة ، وعبد اللّه ابن محرز - بمهملات - : ساقط الحديث ، وذكر ابن عبد البر في العلم أن ابن عون رواه عن ابن سيرين عن أبى هريرة ، فينظر من خرجه . وفي الباب عن ابن عمرو بن العاص في الترغيب للأصبهانى .

(4) . أخرجه أصحاب السنن الأربعة من حديث أبى الدرداء رضى اللّه عنه .

عليه السلام «يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء» «1»

فأعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوّة والشهادة بشهادة رسول اللّه . وعن ابن عباس : خير

سليمان بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم فأعطى المال والملك معه «2»

. وقال عليه السلام «أوحى اللّه إلى إبراهيم .

يا إبراهيم ، إنى عليم أحب كل عليم» «3»

وعن بعض الحكماء : ليت شعري أى شيء أدرك من فاته العلم ، وأى شيء فات من أدرك

العلم . وعن الأحنف : كاد العلماء يكونون أربابا ، وكل عز لم يوطد «4»

بعلم فإلى ذل مّا يصير . وعن الزبيري «5»

العلم ذكر فلا يحبه إلا ذكورة الرجال .

[سورة المجادلة (58) : الآيات 12 إلى 13]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (13)

بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ استعارة ممن له يدان . والمعنى : قبل نجواكم كقول عمر : من أفضل ما

أوتيت العرب الشعر ، يقدّمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم ويستنزل به «6»

اللئيم ، يريد : قبل حاجته ذِلكَ التقديم خَيْرٌ لَكُمْ في دينكم وَأَطْهَرُ لأنّ الصدقة طهرة .

روى أن الناس أكثروا مناجاة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بما يريدون حتى أملوه وأبرموه «7» ، فأريد أن يكفوا عن ذلك ، فأمروا بأن من أراد أن يناجيه قدّم قبل مناجاته صدقة . قال على رضى اللّه عنه : لما نزلت دعاني رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : ما تقول في دينار ؟

---

(1) . أخرجه ابن ماجة وأبو يعلى وابن عدى والعقيل والبيهقي في الشعب من حديث عثمان . وفيه عنبسة بن عبد الرحمن القرشي ، وهو متروك .

(2) . ذكره صاحب الفردوس هكذا ، وذكره قبله ابن عبد البر في كتاب العلم بلا إسناد .

(3) . أخرجه ابن عبد البر في العلم قال : روى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم - فذكره بغير إسناد .

(4) . قوله «وكل عز لم يوطد بعلم» في الصحاح : وطدت الشيء ، أى : أثبته وثقلته . (ع)

(5) . قوله «وعن الزبيري : العلم ذكر» قوله الزبيري : هو أبو أحمد محمد بن عبد اللّه بن الزبير مولى لبنى أسد ، وليس من ولد الزبير بن العوام ، كذا في الهداية والإرشاد اه من هامش . (ع)

(6) . لم أجده .

(7) . قوله «حتى أملوه وأبرموه» في الصحاح : أبرمه» أى : أمله وأضجره اه . (ع)

(97/753)

قلت : لا يطيقونه . قال : كم ؟ قلت : حبة أو شعيرة ، قال : إنك لزهيد . فلما رأوا ذلك : اشتدّ عليهم فارتدعوا وكفوا . أما الفقير فلعسرته ، وأما الغنىّ فلشحه «1» . وقيل : كان ذلك عشر ليال ثم نسخ . وقيل : ما كان إلا ساعة من نهار . وعن على رضى اللّه عنه : إن في كتاب اللّه لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي : كان لي دينار فصرفته ، فكنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم «2» . قال الكلبي : تصدق به في عشر كلمات سألهنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «3» . وعن ابن عمر : كان لعلىّ ثلاث : لو كانت لي واحدة منهنّ كانت أحب إلىّ من حمر النعم : تزويجه فاطمة ، وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى . قال ابن عباس : هي منسوخة بالآية التي بعدها ، وقيل : هي منسوخة بالزكاة أَأَشْفَقْتُمْ أخفتم تقديم الصدقات لما فيه من الإنفاق الذي تكرهونه ، وأنّ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ما أمرتم به وشق عليكم ، وتابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وعذركم ورخص لكم في أن لا تفعلوه ، فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر

الطاعات بِما تَعْمَلُونَ قرئ بالتاء والياء .

[سورة المجادلة (58) : الآيات 14 إلى 19]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (15) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (16) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ (18) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ (19)

---

(1) . قلت : هذا ملفق من حديثين . فمن قوله «قال على إنك لزهيد» أخرجه الترمذي وابن حبان وأبو يعلى والبزار من رواية علقمة الأنماري عن على به وأتم منه . وقال بعد قوله «إنك لزهيد : فنزلت أأشفقتم الآية» قال : فمتى خفف الله عن هذه الأمة» قال الترمذي : حسن غريب : إنما نعرفه من هذا الوجه . وقال البزار :

لا يحفظ إلا عن على بهذا الاسناد . وأما أوله وآخره فأخرجه الطبري وابن مردويه من رواية على بن أبى طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال «إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه .

فأراد اللّه أن يخفف عن نبيه صلى اللّه عليه وسلم ، فلما قال ذلك ضن كثير من الناس بأموالهم ، فكف كثير من الناس عن المسألة . فأنزل اللّه تعالى بعد هذا فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الآية فوسع اللّه عليهم .

(2) . أخرجه الحاكم من طريق عبد الرحمن بن أبى ليلى عن على به وأتم منه . وأخرجه ابن أبى شيبة من رواية ليث بن أبى سليم عن على بلفظ المصنف . [. . . . .]

(3) . لم أجده .

(98/753)

كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب اللّه عليهم في قوله تعالى مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ما هُمْ مِنْكُمْ يا مسلمون وَلا مِنْهُمْ ولا من اليهود ، كقوله تعالى مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَلا إِلى هؤُلاءِ . وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ أى يقولون : واللّه إنا لمسلمون ، فيحلفون على الكذب الذي هو ادعاء الإسلام وَهُمْ يَعْلَمُونَ أن المحلوف عليه كذب بحت . فإن قلت : فما فائدة قوله وَهُمْ يَعْلَمُونَ ؟

قلت : الكذب : أن يكون الخبر لا على وفاق المخبر عنه ، سواء علم المخبر أو لم يعلم ، فالمعنى :

أنهم الذين يخبرون وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه ، وهم عالمون بذلك متعمدون له ، كمن يحلف بالغموس «1» . وقيل : كان عبد اللّه بن نبتل المنافق يجالس رسول اللّه «2» صلى اللّه عليه وسلم ، ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، فبينا رسول اللّه في حجرة من حجره إذ قال لأصحابه : يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان ، فدخل ابن نبتل وكان أزرق ، فقال له النبي صلى اللّه عليه وسلم : «علام تشتمني أنت وأصحابك» ؟ فحلف باللّه ما فعل ، فقال عليه السلام : «فعلت» فانطلق فجاء بأصحابه ، فحلفوا باللّه ما سبوه ، فنزلت عَذاباً شَدِيداً نوعا من العذاب متفاقما إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ يعنى أنهم كانوا في الزمان الماضي المتطاول على سوء العمل مصرين عليه . أو هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة . وقرئ : إيمانهم ، بالكسر ، أى : اتخذوا أيمانهم التي حلفوا بها . أو إيمانهم الذي أظهروه جُنَّةً أى سترة يتسترون بها من المؤمنين ومن قتلهم فَصَدُّوا الناس في خلال أمنهم وسلامتهم عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وكانوا يثبطون من لقوا عن الدخول في الإسلام ويضعفون أمر المسلمين عندهم . وإنما وعدهم اللّه العذاب المهين المخزى لكفرهم وصدهم ، كقوله تعالى الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ . مِنَ اللَّهِ من عذاب اللّه شَيْئاً قليلا من الإغناء . وروى أنّ رجلا منهم قال :

---

(1) . قوله «كمن يحلف بالغموس» في الصحاح : الأمر الغموس : الشديد . واليمين الغموس : التي تغمس صاحبها في الإثم . (ع)

(2) . لم أجده هكذا . وروى أحمد والبزار والطبراني والطبري وابن أبى حاتم والحاكم من رواية سماك عن ابن جبير عن ابن عباس قال «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في ظل حجرة وقد كاد الظل أن يتقاص ، فقال :

إنه سيأتيكم إنسان ، فينظر إليكم بعين شيطان . فإذا جاءكم فلا تكلموه . فلم يلبث أن طلع عليهم رجل أزرق أعور فقال حين رآه : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فقال : ذرني آتيك بهم فانطلق فدعاهم فحلفوا ما قالوا وما فعلوا . فأنزل اللّه تعالى الآية» لفظ الحاكم .

(99/753)

لننصرنّ يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا فَيَحْلِفُونَ للّه تعالى على أنهم مسلمون في الآخرة كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ في الدنيا على ذلك وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ من النفع ، يعنى : ليس العجب من حلفهم لكم ، فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر ، وأن لهم نفعا في ذلك دفعا عن أرواحهم واستجرار فوائد دنيوية ، وأنهم يفعلونه في دار لا يضطرون فيها إلى علم ما يوعدون ، ولكن العجب من حلفهم للّه عالم الغيب والشهادة مع عدم النفع والاضطرار إلى علم ما أنذرتهم الرسل ، والمراد : وصفهم بالتوغل في نفاقهم ومرونهم عليه ، وأن ذلك بعد موتهم وبعثهم باق فيهم لا يضمحل ، كما قال وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وقد اختلف

العلماء في كذبهم في الآخرة، والقرآن ناطق بثباته نطقا مكشوفا. كما ترى في هذه الآية وفي قوله تعالى وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ ونحو حسبانهم أنهم على شيء من النفع إذا حلفوا استنظارهم المؤمنين ليقتبسوا من نورهم، لحسبان أن الإيمان الظاهر مما ينفعهم. وقيل عند ذلك: يختم على أفواههم أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ يعنى أنهم الغاية التي لا مطمح وراءها في قول الكذب، حيث استوت حالهم فيه في الدنيا والآخرة اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ استولى عليهم. من حاذ الحمار العانة «1» إذا جمعها وساقها غالبا لها. ومنه: كان أحوذيا نسيج وحده، وهو أحد ما جاء على الأصل، نحو: استصوب واستنوق، أى: ملكهم الشَّيْطانُ لطاعتهم له في كل ما يريده منهم، حتى جعلهم رعيته وحزبه فَأَنْساهُمْ أن يذكروا الله أصلا لا بقلوبهم ولا بألسنتهم. قال أبو عبيدة: حزب الشيطان جنده.

[سورة المجادلة (58) : آية 20]

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20)

فِي الْأَذَلِّينَ في جملة من هو أذل خلق الله لا ترى أحدا أذل منهم.

[سورة المجادلة (58) : آية 21]

كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21)

كَتَبَ اللَّهُ في اللوح لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي بالحجة والسيف. أو بأحدهما.

[سورة المجادلة (58) : آية 22]

لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)

---

(1) . قوله «العانة» هي القطيع من حمر الوحش، كما في الصحاح. (ع)

لا تَجِدُ قَوْماً من باب التخييل. خيل أن من الممتنع المحال: أن تجد قوما مؤمنين يوالون المشركين، والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال، مبالغة في النهى عنه والزجر عن ملابسته، والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء اللّه ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم، وزاد ذلك تأكيدا وتشديدا بقوله وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ وبقوله أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وبمقابلة قوله أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ بقوله أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ فلا تجد شيئا أدخل في الإخلاص من موالاة أولياء اللّه ومعاداة أعدائه، بل هو الإخلاص بعينه كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ أثبته فيها بما وفقهم فيه وشرح له صدورهم وَأَيَّدَهُمْ

بِرُوحٍ مِنْهُ بلطف من عنده حييت به قلوبهم . ويجوز أن يكون الضمير للإيمان ، أى : بروح من الإيمان ، على أنه في نفسه روح لحياة القلوب به . وعن الثوري أنه قال : كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان . وعن عبد العزيز بن أبى رواد : أنه لقيه المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : أنه كان يقول : اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي نعمة ، «1» فإنى وجدت فيما أوحيت إلىّ : لا تجد قوما . وروى أنها نزلت في أبى بكر رضى الله عنه ، وذلك أنّ أبا قحافة سب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فصكه صكة سقط منها ، فقال له رسول اللّه «أو فعلته» ؟ قال : نعم ، قال : «لا تعد» قال :

واللّه لو كان السيف قريبا منى لقتلته «2» . وقيل في أبى عبيدة بن الجراح : قتل أباه عبد اللّه الجراح يوم أحد ، وفي أبى بكر : دعا ابنه يوم بدر إلى البراز ، وقال لرسول اللّه : دعني أكرّ في الرعلة»

الأولى ، قال : متعنا بنفسك يا أبا بكر ، أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصرى «4» . وفي مصعب بن عمير : قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد . وفي عمر : قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر . وفي على وحمزة وعبيدة بن الحرث : قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب اللّه يوم

القيامة» «5» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 484.497 ﴾

---

(1) . ذكره صاحب الفردوس من حديث معاذ . وأورده ابن مردويه من رواية جعفر الأحمر عن كثير بن عطية عن رجل قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر ولا لفاسق .

(2) . نقله الثعلبي عن ابن جريج قال «حدثت أن أبا قحافة . . . فذكره .

(3) . قوله «دعني أكر في الرعلة» هي القطعة من الخيل ، كما في الصحاح. (ع)

(4) . هو في تفسير مقاتل بن حيان عن مرة الهمداني عن ابن مسعود ، وذكره الثعلبي عن تفسير مقاتل .

(5) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى اللّه عنه .

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾

وهي خولة بنت ثعلبة ، وقيل بنت خويلد ، وليس هذا بمختلف لأن أحدهما أبوها والآخر

جدها ، فنسبت إلى كل واحد منهما . وزوجها أوس بن الصامت . قال عروة : وكان امرأً به لمم فأصابه بعض لممه فظاهر من امرأته ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستفتيه في ذلك .

﴿ وتشتكي إلى الله ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تستغيث بالله .

والثاني : تسترحم الله . وروى الحسن أنها قالت : يا رسول الله قد نسخ الله سنن الجاهلية وإن زوجي ظاهر مني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أوحي إليّ في هذا شيء " فقالت : يا رسول الله أوحي إليك في كل شيء وطوي عنك هذا ؟ فقال : " هو ما قلت لك " فقالت : إلى الله أشكو لا إلى رسوله ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك ﴾ الآية . وقرأ ابن مسعود : ﴿ قَد سَّمِعَ ﴾ .

قالت عائشة : تبارك الله الذي أوعى سمعه كل شيء ، سمع كلام خولة بنت ثعلبة وأنا في ناحية البيت ما أسمع بعض ما تقول ، وهي تقول : يا رسول الله أكل شبابي وانقطع ولدي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني ظاهر مني اللهم إني أشكو إليك ، فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية .

﴿ والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ والمحاورة مراجعة الكلام ، قال عنترة :

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى . . . ولكان لو علم الكلام مكلمي .

﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ﴾ الظهار قول الرجل لامرأته .

أنت عليّ كظهر أمي ، سمي ظهاراً لأنه قصد تحريم ظهرها عليه ، وقيل : لأنه قد جعلها عليه كظهر أمه ، وقد كان في الجاهلية طلاقاً ثلاثاً لا رجعة فيه ولا إباحة بعده فنسخه الله إلى ما استقر عليه الشرع من وجوب الكفارة فيه بالعود .

ثم قال : ﴿ . . ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ﴾ تكذيباً من الله تعالى لقول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي .

(102/753)

﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ﴾ يعني بمنكر القول الظاهر ، وبالزور كذبهم في جعل الزوجات أمهات .

﴿ إن الذين يحادُّون الله ورسوله ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعادون الله ورسوله ، قاله مجاهد .

الثاني : يخالفون الله ورسوله ، قاله الكلبي .

وفي أصل المحادة وجهان :

أحدهما : أن تكون في حد يخالف حد صاحبك ، قاله الزجاج .

الثاني : أنه مأخوذ من الحديد المعد للمحادة .

﴿ كبتوا كما كبت الذين من قبلهم ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : [أخزوا] كما أخزي الذين من قبلهم ، قاله قتادة .

الثاني : معناه أهلكوا كما أهلك الذين من قبلهم ، قاله الأخفش وأبو عبيدة .

الثالث : لعنوا كما لعن الذين من قبلهم ، قاله السدي ، وقيل هي بلغة مذحج

الرابع : ردوا مقهورين .

﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ﴾ النجوى السرار ، ومن ذلك قول جرير :

من النفر البيض الذين إذا انتجوا . . . أقرت بنجواهم لؤي بن غالب

والنجوى مأخوذة من النجوة وهي ما له ارتفاع وبعد ، لبعد الحاضرين عنه ، وفيها وجهان :

أحدهما : أن كل سرار نجوى ، قاله ابن عيسى .

الثاني : أن السرار ما كان بن اثنين ، والنجوى ما كان بين ثلاثة ، حكاه سراقة .

وفي المنهي عنه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم اليهود ، كانوا يتناجون بما بين المسلمين ، فنهوا عن ذلك ، قاله مجاهد .

الثاني : أنهم المنافقون ، قاله الكلبي .

الثالث : أنهم المسلمون .

روى أبو سعيد الخدري قال : كنا ذات ليلة نتحدث إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ما هذه النجوى ألم تنهوا عن النجوى " .

فقلنا تبنا إلى الله يا رسول الله إنا كنا في ذكر المسيح يعني الدَّجال فرَقاً منه ، فقال : " ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي منه ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : الشرك الخفي أن يقوم الرجل يعمل لمكان الرجل " .

﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ كانت اليهود إذا دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : السام عليك ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرد عليهم فيقول : ﴿ وعليكم ﴾ ويروى أن عائشة حين سمعت ذلك منهم قالت : وعليكم السام والذام ، فقال عليه السلام : " إن الله لا يحب الفحش والتفحش " .

وفي السام الذي أرادوه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الموت ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنه السيف .

الثالث : أنهم أرادوا بذلك أنكم ستسأمون دينكم ، قاله الحسن ، وكذا من قال هو الموت

لأنه يسأم الحياة.

وحكى الكلبي أن اليهود كانوا إذا رد النبي صلى الله عليه وسلم جواب سلامهم قالوا: لو كان هذا نبياً لاستجيب له فينا قوله وعليكم، يعني السام وهو الموت وليس بنا سامة وليس في أجسادنا فترة، فنزلت فيهم ﴿ ويقولون في أنفسهم ولولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿ إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين ءامنوا ﴾ وجهان:

أحدهما: ما كان يتناجى به اليهود والمنافقون من الأراجيف بالمسلمين.

الثاني: أنها الأحلام التي يراها الإنسان في منامه فتحزنه.

﴿ يأيها الذين ءامنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس.. ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: مجلس النبي صلى الله عليه وسلم خاصة إذا جلس فيه قوم تشاحوا بأمكنتهم على من يدخل عليهم أن يؤثروه بها أو يفسحوا له فيها، فأمروا بذلك قاله مجاهد.

الثاني: أنه في مجالس صلاة الجمعة، قاله مقاتل.

الثالث: أنها في مجالس الذكر كلها، قاله قتادة.

الرابع: أن ذلك في الحرب والقتال، قاله الحسن.

﴿ ... وإذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾ فيه أربعة تأويلات:

أحدها: معناه وإذا قيل لكم انهضوا إلى القتال فانهضوا، قاله الحسن.

الثاني : إذا دعيتم إلى الخير فأجيبوا ، قاله قتادة .

الثالث : إذا نودي للصلاة فاسعوا إليها ، قاله مقاتل بن حيان .

الرابع : أنهم كانوا إذا جلسوا في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أطالوا ليكون كل واحد منهم هو الآخر عهداً به ، فأمرهم الله أن ينشزوا إذا قيل لهم انشزوا ، قاله ابن زيد .

ومعنى ﴿ تفسحوا ﴾ توسعوا . وفي ﴿ انشزوا ﴾ وجهان :

أحدهما : معناه قوموا ، قاله ابن قتيبة .

الثاني : ارتفعوا ، مأخوذ من نشز الأرض وهو ارتفاعها .

وفيما أمروا أن ينشزوا إليه ثلاثة أوجه :

أحدها : إلى الصلاة ، قاله الضحاك .

الثاني : إلى الغزو ، قاله مجاهد .

الثالث : إلى كل خير ، قاله قتادة .

﴿ يرفع الله الذين ءامنوا منكم ﴾ يعني بإيمانه على من ليس بمنزلته في الإيمان .

﴿ والذين أوتوا العلم درجات ﴾ على من ليس بعالم .

ويحتمل هذا وجهين :

أحدهما : أن يكون إخباراً عن حالهم عند الله في الآخرة .

الثاني : أن يكون أمراً يرفعهم في المجالس التي تقدم ذكرها لترتيب الناس فيها بحسب فضائلهم في الدين والعلم .

﴿ يأيها الذين ءامنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ اختلف في سببها على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن المنافقين كانا يناجون النبي صلى الله عليه وسلم بما لا حاجة لهم به ، فأمرهم الله بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن النجوى ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنه كان قوم من المسلمين يستخلون النبي صلى الله عليه وسلم ويناجونه فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى ، فشق عليهم ذلك ، فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن استخلائه ، قاله الحسن .

الثالث : قاله ابن عباس وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ، فلما قال ذلك كف كثير من الناس عن المسألة .

وقال مجاهد : لم يناجه إلا عليٌّ قدّم ديناراً فتصدق به ، فسأله عن عشر خصال ، ثم نزلت الرخصة .

﴿ ءأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ قال علي : ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت ، وأحسبه [قال] وما كانت إلا ساعة ، وقال ابن حبان : كان ذلك ليالي عشراً .

وقال ابن سليمان : ناجاه عليّ بدينار باعه بعشرة دراهم في عشر كلمات كل كلمة بدرهم . وناجاه آخر من الأنصار بآصع وكلمه كلمات ، ثم نسخت بما بعدها .

﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ يعني المنافقين تولوا قوماً غضب الله عليهم هم اليهود .

﴿ ما هم منكم ﴾ لأجل نفاقهم .

﴿ ولا منهم ﴾ لخروجهم بيهوديتهم .

﴿ ويحلفون على الكذب ﴾ أنهم لم ينافقوا .

﴿ وهم يعلمون ﴾ أنهم منافقون .

﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين ﴾ فيه قولان :

أحدهما : قاله السدي .

الثاني : عن سبيل الله في قتلهم بالكفر لما أظهروه من النفاق .

ويحتمل ثالثاً : صدوا عن الجهاد ممايلة لليهود .

﴿ استحوذ عليهم الشيطان ﴾ فيه قولان :

أحدهما : قوي عليهم .

الثاني : أحاط بهم ، قاله المفضل .

وفيه ثالث : أنه غلب واستولى عليهم في الدنيا .

﴿ فأنساهم ذكر الله ﴾ يحتمل ذكر الله ها هنا وجهين :

أحدهما : أوامره في العمل بطاعته .

الثاني : زواجره في النهي عن معصيته .

ويحتمل ما أنساهم من ذكره وجهين :

أحدهما : بالغفلة عنها .

الثاني : بالشرك بها .

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : من حارب الله ورسوله ، قاله قتادة والفراء .

الثاني : من خالف الله ورسوله ، قاله الكلبي .

الثالث : من عادى الله ورسوله ، قاله مقاتل .

﴿ ولو كانوا ءاباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ اختلف فيمن نزلت هذه الآية فيه على ثلاثة أقاويل :

أحدها : ما قاله ابن شوذب : نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه الجراح يوم بدر ، جعل يتصدى له ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصد إليه أبو عبيدة فقتله .

وروى سعيد بن عبد العزيز عن عمر بن الخطاب أنه قال : لو كان أبو عبيدة حياً لاستخاره ، قال سعيد : وفيه نزلت هذه الآية .

وفيه وجهان :

أحدهما : أنه خارج مخرج النهي للذين آمنوا أن يوادوا من حادّ الله ورسوله .

الثاني : أنه خارج مخرج الصفة لهم والمدح بأنهم لا يوادون من حادّ الله ورسوله ، وكان هذا مدحاً .

﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : معناه جعل في قلوبهم الإيمان وأثبته ، قال السدي ، فصار كالمكتوب .

الثاني : كتب في اللوح المحفوظ أن في قلوبهم الإيمان .

الثالث : حكم لقلوبهم بالإيمان .

الرابع : أنه جعل في قلوبهم سمة للإيمان على أنهم من أهل الإيمان ، حكاه ابن عيسى .

﴿ وأيدهم بروح منه ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : أعانهم برحمته ، قاله السدي .

الثاني : أيدهم بنصره حتى ظفروا .

الثالث : رغبهم في القرآن حتى ءامنوا .

الرابع : قواهم بنور الهدى حتى صبروا .

الخامس : قواهم بجبريل يوم بدر .

﴿ رضي الله عنهم ﴾ يعني في الدنيا بطاعتهم .

﴿ ورضوا عنه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : رضوا عنه في الآخرة بالثواب .

الثاني : رضوا عنه في الدنيا بما قضاه عليهم فلم يكرهوه .

﴿ أولئك حزب الله ﴾ فيهم وجهان :

أحدهما : انهم من عصبة الله فلا تأخذهم لومة لائم .

الثاني : أنهم أنصار حقه ورعاة خلقه وهو محتمل .

القول الثاني : ما روى ابن جريج أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق وقد سمع أباه أبا

قحافة يسب النبي صلى الله عليه وسلم فصكه أبو بكر صكة فسقط على وجهه ، فقال ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : " أو فعلته ؟ لا تعد إليه يا أبا بكر " .

فقال والله لو كان السيف قريباً مني لضربته به ، فنزلت هذه الآية .

القول الثالث : ما حكى الكلبي ومقاتل أن هذه الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وقد كتب إلى أهل مكة ينذرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم عام الفتح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 487.497 ﴾

(107/753)

وقال ابن الجوزى :

سورة المجادلة

قوله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾

أما سبب نزولها ، فروي عن عائشة أنها قالت : تبارك الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة فكلَّمتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا في جانب البيت أسمع كلامها ، ويخفى عليَّ بعضه ، وهي تشتكي زوجها وتقول : يا رسول الله : أبلى شبابي ، ونثرتُ له بطني ، حتى إذا كبر سني ، وانقطع ولدي ، ظاهر مني ، اللهم إني أشكو إليك ،

قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات .

فأما تفسيرها ، فقوله تعالى : ﴿ قد سمع الله ﴾ قال الزجاج : إدغام الدال في السين حسن لقرب المخرجين ، لأنهما من حروف طرف اللسان ، وإظهار الدال جائز ، لأنه وإن قرب من مخرج السين ، فله حيّز على حدة ، ومن موضع الدال الطاء والتاء ، فهذه الأحرف الثلاثة موضعها واحد ، والسين والزاي والصاد من موضع واحد ، وهي تسمى : حروف الصفير .

وفي اسم هذه المجادلة ونسبتها أربعة أقوال :

أحدها : خولة بنت ثعلبة ، رواه مجاهد ، عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، وقتادة ، والقرظي .

والثاني : خولة بنت خويلد ، رواه عكرمة .

عن ابن عباس .

والثالث : خولة بنت الصامت ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والرابع : خولة بنت الدليج ، قاله أبو العالية .

واسم زوجها : أوس بن الصامت ، وكانا من الأنصار .

قال ابن عباس : كان الرجل إِذا قال لامرأته في الجاهلية : أنتِ عليّ كظهر أمي ، حرُمَتْ عليه ، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس ، ثم ندم ، وقال لامرأته : انطلقي إلى رسول الله

صلى الله عليه وسلم فسليه ، فأتته ، فنزلت هذه الآيات .

فأما مجادلتها رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان كلمَّا قال لها : قد حرمتِ عليه

تقول : والله ما ذكر طلاقاً ، فقال : ما أُوحي إليّ في هذا شيء ، فجعلت تشتكي إلى الله .

وتشتكي بمعنى : تشكو .

يقال : اشتكيت ما بي ، وشكوته .

(108/753)

وقالت : إن لي صبية صغاراً ، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا .

فأما التحاور ، فهو مراجعة الكلام .

قال عنترة في فرسه :

لو كان يدْري ما المُحاورةُ اشْتكى . . .

ولكانَ لو عَلِمَ الكلامَ مُكلِّمي

قوله تعالى : ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو

"يظَّهَّرون" بفتح الياء ، وتشديد الظاء والهاء وفتحهما من غير ألف .

وقرأ أبو جعفر ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي بفتح الياء ، وتشديد الظاء ، وبألف ،

وتخفيف الهاء .

وقرأ عاصم "يُظاهِرون" بضم الياء ، وتخفيف الظاء والهاء ، وكسر الهاء في الموضعين مع إثبات الألف .

وقرأ ابن مسعود "يتظاهرون" بياءٍ ، وتاءٍ ، وألف .

وقرأ أبي بن كعب "يتظَهَّرون" بياءٍ ، وتاءٍ ، وتخفيف الياء ، وتشديد الهاء من غير ألف .

وقرأ الحسن ، وقتادة ، والضحاك "يظهرون" بفتح الياء ، وفتح الظاء ، مخففة ، مكسورة الهاء مشددة .

والمعنى : تقولون لهن : أنتن كظهور أمهاتنا ﴿ ما هنَّ أمهاتِهم ﴾ قرأ الأكثرون بكسر التاء .

وروى المفضل عن عاصم رفعها .

والمعنى : ما اللواتي تجعلن كالأمهات بأمهات لهم ﴿ إن أمهاتهم ﴾ أي ما أمهاتهم ﴿ إلا اللائي وَلَدْنَهُم ﴾ قال الفراء : وانتصاب ، "الأمهات" هاهنا بإلقاء الباء ، وهي قراءة عبد الله "ما هُنَّ بأمهاتهم" ومثله : ﴿ ما هذا بشراً ﴾ [يوسف : 31] ، المعنى : ما هذا ببشرٍ ، فلما أُلقيت الباء أُبقي أثرها ، وهو : النصب ، وعلى هذا كلام أهلِ الحجاز .

فأما أهل نجد ، فإنهم إذا ألقوا الباء رفعوا ، وقالوا : "ما هن أمهاتُهم" و"ما هذا بشرٌ" أنشدني بعض العرب :

رِكابُ حُسَيْلٍ آخِرَ الصَّيْفِ بُدَّنٌ . . .

وَنَاقَةُ عَمْرٍو مَا يُحَلُّ لَهَا رَحْلُ

وَيَزْعُمُ حَسْلٌ أَنَّهُ فَرْعُ قَوْمِهِ . . .

وَمَا أَنْتَ فَرْعٌ يَا حُسَيْلُ وَلَا أَصْلُ

(109/753)

قوله تعالى : ﴿ وإنهم ﴾ يعني : المظاهرين ﴿ ليقولون منكراً من القول ﴾ لتشبيههم الزوجات بالأمهات ، والأمهات محرمات على التأبيد ، بخلاف الزوجات .

﴿ وزوراً ﴾ أي : كذباً ﴿ وإن الله لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ إذ شرع الكفارة لذلك .

قوله تعالى : ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ اللام في "لما" بمعنى "إلى" والمعنى : ثم يعودون إلى تحليل ما حرَّموا على أنفسهم من وطء الزوجة بالعزم على الوطء .

قال الفراء : معنى الآية : يرجعون عما قالوا ، وفي نقض ما قالوا .

وقال سعيد بن جبير : المعنى : يريدون أن يعودوا إلى الجماع الذي قد حرَّموه على أنفسهم .

وقال الحسن ، وطاووس ، والزهري : العَود : هو الوطء .

وهذا يرجع إلى ما قلناه .

وقال الشافعي : هو أن يمسكها بعد الظهار مدة يمكنه طلاقها فيه فلا يطلقها .

فإذا وجد هذا ، استقرت عليه الكفارة ، لأنه قصد بالظهار تحريمها ، فإن وصل ذلك بالطلاق فقد جرى على ما ابتدأه ، وان سكت عن الطلاق ، فقد ندم على ما ابتدأ به ، فهو عود إلى ما كان عليه ، فحينئذ تجب الكفارة .

وقال داود : هو إِعادة اللفظ ثانياً ، لأن ظاهر قوله تعالى : ﴿ يعودون ﴾ يدل على تكرير اللفظ .

قال الزجاج : وهذا قول من لا يدري اللغة .

وقال أبو علي الفارسي : ليس في هذا كما ادَّعَوا ، لأن العود قد يكون إلى شيء لم يكن الإنسان عليه قبلُ ، وسميت الآخرةُ معاداً ، ولم يكن فيها أحد ثم عاد إليها .

قال الهذلي :

وعَادَ الفَتَى كالكَهْلِ لَيس بقَائِلٍ . . .

سِوى الحَقِّ شيئًا واسْتَرَاحَ العَواذِلُ

وقد شرحنا هذا في قوله تعالى : ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ [البقرة : 210] قال ابن قتيبة : من توَّهم أن الظهار لا يقع حتى يلفظ به ثانية ، فليس بشيء ، لأن الناس قد أجمعوا أن الظهار يقع بلفظ واحد .

وإنما تأويل الآية : أن أهل الجاهلية كانوا يطلِّقون بالظهار ، فجعل الله حكم الظهار في الإسلام خلاف حكمه عندهم في الجاهلية ، وأنزل قوله تعالى : "والذين يظاهرون من نسائهم" يريد في الجاهلية "ثم يعودون لما قالوا" في الإسلام ، أي : يعودون لما كانوا يقولونه من هذا الكلام ، ﴿ فتحرير رقبة ﴾ قال المفسرون : المعنى : فعليهم ، أو فكفارتهم تحرير رقبة ، أي : عتقها .

وهل يشترط أن تكون مؤمنة ؟ فيه عن أحمد روايتان .

قوله تعالى : ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ وهو : كناية عن الجماع على أن العلماء قد اختلفوا : هل يباح للمظاهر الاستمتاع باللمس والقبلة ؟ وعن أحمد روايتان .

وقال أبو الحسن الأخفش : تقدير الآية "والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة" لما قالوا ثم يعودون إلى نسائهم .

فصل

إذا وطئ المظَاهِرُ قبل أن يكفِّر أَثِمَ ، واستقرَّت الكفارة .

وقال أبو حنيفة : يسقط الظهار والكفارة .

واختلف العلماء فيما يجب عليه إذا فعل ذلك ، فقال الحسن ، وسعيد بن المسيب ، وطاووس ، ومجاهد ، وإبراهيم ، وابن سيرين : عليه كفارة واحدة .

وقال الزهري، وقتادة، في آخرين: عليه كفارتان.

فإن قال: أنت عليّ كظهر أمي اليوم، بطل الظهار بمضيِّ اليوم، هذا قول أصحابنا، وأبي حنيفة، والثوري، والشافعي.

وقال ابن أبي ليلى، ومالك، والحسن بن صالح: هو مظاهر أبداً.

واختلفوا في الظهار من الأمة، فقال ابن عباس: ليس من أمة ظهار، وبه قال سعيد بن المسيب، والشعبي، والنخعي، وأبو حنيفة، والشافعي.

وقال سعيد بن جبير، وطاووس، وعطاء، والأوزاعي، والثوري، ومالك: هو ظهار.

ونقل أبو طالب عن أحمد أنه قال: لا يكون مظاهراً من أمته، ولكن تلزمه كفارة الظهار، كما قال في المرأة إذا ظاهرت من زوجها لم تكن مظاهرة، وتلزمها كفارة الظهار.

(111/753)

واختلفوا فيمن ظاهر مراراً، فقال أبو حنيفة، والشافعي: إن كان في مجالس، فكفارات، وإن كان في مجلس واحد، فكفارة: قال القاضي أبو يعلى: وعلى قول أصحابنا: يلزمه كفارة واحدة، سواء كان في مجلس، أو في مجالس، ما لم يكفِّر، وهذا قول مالك.

قوله تعالى: ﴿ ذلكم توعَظون به ﴾ قال الزجاج: ذلكم التغليظ توعظون به.

والمعنى : أن غِلَظَ الكفارة وَغُلظُ لكم حتى تتركوا الظهار .

قوله تعالى : ﴿ فمن لم يجد ﴾ يعني : الرقبة ﴿ فصيام شهرين ﴾ أي : فعليه صيام شهرين ﴿ متتابعين فمن لم يستطع ﴾ الصيام ﴿ ف ﴾ كفَّارته ﴿ إطعام ستين مسكيناً ذلك ﴾ أي : الفرض ذلك الذي وصفنا ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ أي : تصدّقوا بأنّ الله أمر بذلك ، وتصدّقوا بما أتى به الرسولُ ﴿ وتلك حدود الله ﴾ يعني : ما وصفه الله من الكفّارات في الظِّهار ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ قال ابن عباس : لمن جحد هذا وكذَّب به .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يحادُّون اللهَ ورسولَه ﴾ قد ذكرنا معنى المحادَّة في [التوبة : 63] ومعنى "كُبتوا" في [آل عمران] عند قوله تعالى ﴿ أو يكبتهم ﴾ [آية : 127] وقال ابن عباس : أُخزوا يوم الخندق بالهزيمة كما أخزي الذين من قبلهم ممن قاتل الرسل .

قوله تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ أي : من قبورهم ﴿ فينبّئهم بما عملوا ﴾ من معاصيه ، وتضييع فرائضه ﴿ أحصاه الله ﴾ أي : حفظه الله عليهم ﴿ ونسوه والله على كل شيء ﴾ من أعمالهم في السِّر والعلانية ﴿ شهيد ﴾ .

﴿ ألم تر ﴾ أي : ألم تعلم .

قوله تعالى : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة ﴾ وقرأ أبو جعفر "ما تكون" بالتاء .

قال ابن قتيبة : النجوى : السرار .

وقال الزجاج : ما يكون من خلوة ثلاثة يسرِّون شيئاً ويتناجَوْن به ﴿ إلا هو رابعهم ﴾ أي : عالم به .

"ونجوى" مشتق من النجوة ، وهو ما ارتفع .

وقرأ يعقوب "ولا أكثرُ" بالرفع .

وقال الضحاك "إلا هو معهم" أي : علمه معهم .

(112/753)

قوله تعالى : ﴿ ألم ترى إلى الذين نُهوا عن النجوى ﴾ في سبب نزولها قولان .

أحدهما : نزلت في اليهود والمنافقين ، وذلك أنهم كانوا يتناجَوْن فيما بينهم دون المؤمنين ، وينظرون إلى المؤمنين ، ويتغامزون بأعينهم ، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا : ما نراهم إلا قد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا ، قتل أو موت ، أو مصيبة ، فيقع ذلك في قلوبهم ، ويحزنهم ، فلا يزالون كذلك حتى تقدَّم أصحابهم .

فلما طال ذلك وكثر ، شكا المؤمنون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن لا يتناجَوْا دون المسلمين ، فلم ينتهوا عن ذلك ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس .

والثاني : نزلت في اليهود ، قاله مجاهد .

قال مقاتل : وكان بين اليهود وبين رسول الله موادعة ، فإذا رأوا رجلاً من المسلمين وحده تناجَوْا بينهم ، فيظن المسلم أنهم يتناجَوْن بقتله ، أو بما يكره ، فيترك الطريق من المخافة ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنهاهم عن النجوى ، فلم ينتهوا ، وعادوا إليها ، فنزلت هذه الآية .

وقال ابن السائب : نزلت في المنافقين .

والنجوى : بمعنى : المناجاة ﴿ ثم يعودون ﴾ إلى المناجاة التي نهوا عنها ﴿ ويتناجَوْن ﴾ قرأ حمزة ، ويعقوب ، إلا زيداً ، ورَوحاً "ويتنجّوْن" وقرأ الباقون "ويتناجون" بألف .

وفي معنى تناجيهم ﴿ بالإثم والعدوان ﴾ وجهان .

أحدهما : يتناجون بما يسوء المسلمين ، فذلك الإثم والعدوان ، ويوصي بعضهم بعضاً بمعصية الرسول .

والثاني : يتناجَوْن بعد نهي الرسول ، ذلك هو الإثم والعدوان ومعصية الرسول .

قوله تعالى : ﴿ وإذا جاؤوك حيَّوْك بما لم يحيِّكَ به الله ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين .

أحدهما : نزلت في اليهود .

قالت عائشة رضي الله عنها : " جاء ناس من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقلت : السام عليكم ، وفعل الله بكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مه يا عائشة ، فإن الله لا يحب الفحش ، ولا التفحش ، فقلت : يا رسول الله : ترى ما يقولون ؟ فقال : ألست تريني أردُّ عليهم ما يقولون ، وأقول : وعليكم " ، قالت : فنزلت هذه الآية في ذلك .

قال الزجاج : والسام : الموت .

والثاني : أنها نزلت في المنافقين ، رواه عطية عن ابن عباس .

قال المفسرون : ومعنى "حيَّوك" سَلَّموا عليك بغير سلام الله عليك ، وكانوا يقولون : سام عليك .

فإذا خرجوا يقولون في أنفسهم ، أو يقول بعضهم لبعض ، لو كان نبياً عذّبنا بقولنا له ما نقول .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم ﴾ فيها قولان .

أحدهما : نزلت في المنافقين ، فالمعنى : يا أيها الذين آمنوا بزعمهم ، وهذا قول عطاء ومقاتل .

والثاني : أنها في المؤمنين ، والمعنى : أنه نهاهم عن فعل المنافقين واليهود ، وهذا مذهب جماعة ، منهم الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ تتناجَوا ﴾ هكذا قرأ الجماعة بألف .

وقرأ يعقوب وحده "فلا تنتجَوا" .

فأما "البِرُّ" فقال مقاتل : هو الطاعة ، و"التقوى" ترك المعصية .

وقال أبو سليمان الدمشقي : "البِرُّ" الصدق ، و"التقوى" ترك الكذب .

ثم ذكر أن ما يفعله اليهود والمنافقون ، من الشيطان ، فقال تعالى ﴿ إنما النجوى من الشيطان ﴾ أي : من تزيينه ، والمعنى : إنما يزيِّن لهم ذلك ﴿ ليحزن الذين آمنوا ﴾ وقد بيّنا اتِّقاء ما كان يحزن المؤمنين من هذه النجوى ﴿ وليس بضارّهم شيئاً ﴾ أي : وليس الشيطان بضارِّ المؤمنين شيئاً ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي : بإرادته ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي : فليكلوا أُمورهم إليه .

(114/753)

قوله تعالى : ﴿ إذا قيل لكم تفسَّحوا في المجلس ﴾ وقرأ عاصم في "المجالس" على الجمع ، وذلك لأن كل جالس له مجلس ، فالمعنى : ليفسح كل رجل منكم في مجلسه .

قال المفسرون : نزلت في نفر من المؤمنين كانوا يسابقون إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا أقبل المهاجرون وأهل السابقة ، لم يجدوا موضعاً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يليه أولو الفضل ليحفظوا عنه ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم

يوم جمعة جالس في صُفَّةٍ ضيّقةٍ في المسجد ، جاء نفر من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس ابن شماس ، فسلَّموا وانتظروا أن يوسّعوا لهم ، فأوسعوا لبعضهم ، وبقي بعضهم ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال قم يا فلان ، قم يا فلان ، حتى أقام من المجلس على عدة من هو قائم من أهل السابقة ، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجوه من أقامهم الكراهة ، وتكلَّم المنافقون في ذلك وقالوا : والله ما عدل ، فنزلت هذه الآية .

وقال قتادة : كانوا يتنافسون في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا أقبل مقبل ضَنّوا بمجلسهم ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض .

قال المفسرون : ومعنى "تفسَّحوا" توسَّعوا وذلك أنهم كانوا يجلسون متضايقين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يجد غيرهم مجلساً عنده ، فأمرهم أن يوسِّعوا لغيرهم ليتساوى الناس في الحظِّ منه ، ويظهر فضيلة المقرَّبين إليه من أهل بدر وغيرهم .

وفي المراد "بالمجلس" هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه مجلس الحرب ، ومقاعد القتال ، كان الرجل يأتي القوم في الصفِّ ، فيقول لهم : توسَّعوا ، فيأبَوْن عليه لحرصهم على القتال ، وهذا قول ابن عباس ، والحسن ، وأبي العالية ، والقرظي .

والثاني : أنه مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله مجاهد .

وقال قتادة : كان هذا للنبي صلى الله عليه وسلم ومن حوله خاصة .

والثالث : مجالس الذكر كلِّها ، روي عن قتادة أيضاً .

(115/753)

وقرأ علي ابن أبي طالب ، وأبو رزين ، وأبو عبد الرحمن ، ومجاهد ، والحسن ، وعكرمة ، وقتادة ، وابن أبي عبلة ، والأعمش : "تفسحوا في المجالس" بألف على الجمع .

قوله تعالى : ﴿ يفسح الله لكم ﴾ أي : يوسّع الله لكم الجنة ، والمجالس فيها .

﴿ وإذا قيل انشزوا ﴾ قرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم "انشُزوا فانشُزوا" برفع الشين .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : بكسر الشين فيهما .

ومعنى "انشزوا" قوموا .

قال الفراء : وهما لغتان .

وفي المراد بهذا القيام خمسة أقوال :

أحدها : أنه القيام إلى الصلاة ، وكان رجال يتثاقلون عنها ، فقيل لهم : إِذا نودي للصلاة فانهضوا ، هذا قول عكرمة والضحاك .

والثاني : أنه القيام إلى قتال العدو ، قاله الحسن .

والثالث : أنه القيام إلى كل خير من قتال ، أو أمر بمعروف ، ونحو ذلك ، قاله مجاهد .

والرابع : أنه الخروج من بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنهم كانوا إذا جلسوا في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أطالوا ليكون كل واحد منهم آخرهم عهداً به ، فأُمروا أن ينشُزوا إذا قيل لهم : انشزوا ، قاله ابن زيد .

والخامس : أن المعنى : قوموا وتحرّكوا وتوسّعوا لإخوانكم ، قاله الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم ﴾ أي : يرفعهم بإيمانهم على مَن ليس بمنزلتهم من الإيمان ﴿ و ﴾ يرفع ﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ على مَن ليس بعالم .

وهل هذا الرفع في الدنيا ، أم في الآخرة؟ فيه وجهان .

أحدهما : أنه إخبار عن ارتفاع درجاتهم في الجنة .

والثاني : أنه ارتفاع مجالسهم في الدنيا ، فيكون ترتيبهم فيها بحسب فضائلهم في الدّين والعلم .

وكان ابن مسعود يقول : أيها الناس : افهموا هذه الآية ولْتُرغّبكم في العلم ، فإن الله يرفع المؤمن العالم فوق مَن لا يعلم درجات .

قوله تعالى : ﴿ إذا ناجيتم الرسول ﴾ في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن الناس سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقُّوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ، فأنزل هذه الآية ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنها نزلت في الأغنياء ، وذلك أنهم كانوا يكثرون مناجاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويغلبون الفقراء على المجالس ، حتى كره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فنزلت هذه الآية ، فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً ، وأما أهل الميسرة فبخلوا ، واشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الرخصة ، قاله مقاتل بن حيَّان ، وإلى نحوه ذهب مقاتل بن سليمان ، إلا أنه قال : فقدر الفقراء حينئذ على مناجاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يقدِّمْ أحدٌ من أهل الميسرة صدقة غيرَ علي بن أبي طالب .

وروى مجاهد عن علي رضي الله عنه قال : آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي ، ولن يعمل بها أحد بعدي ، آية النجوى .

كان لي دينار ، فبعته بعشرة دراهم ، فكلما أردت أن أناجي رسول الله صلى الله عليه وسلم قدَّمت درهماً ، فنسختها الآية الأخرى ﴿ أأشفقتم أن تقدِّموا . . . ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ ذلك خير لكم وأطهر ﴾ أي : تقديم الصدقة على المناجاة خير لكم ، لما

فيه من طاعة الله ، وأطهر لذنوبكم ﴿ فإن لم تجدوا ﴾ يعني : الفقراء ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ إذ عفا عمن لا يجد .

قوله تعالى : ﴿ أأشفقتم ﴾ أي : خِفتم بالصدقة الفاقةَ ﴿ وتاب الله عليكم ﴾ أي : فتجاوز عنكم ، وخَفَّف بنسخ إيجاب الصدقة .

قال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك عشر ليال .

قال قتادة : ما كان إلا ساعة من نهار .

قوله تعالى : ﴿ ألم ترى إلى الذين تولّوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ نزلت في المنافقين الذين تولّوا اليهود ، ونقلوا إليهم أسرار المؤمنين .

(117/753)

وقال السدي ، ومقاتل : نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق ، وذلك أنه كان يجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويرفع حديثه إلى اليهود ، فدخل عليه يوماً ، وكان أزرق ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "فعلت" فانطلق فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ما سبّوه ، فأنزل الله هذه الآيات .

وروى الحاكم أبو عبد الله في "صحيحه" من حديث ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في ظل حُجرة من حجره، وعنده نفر من المسلمين، فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا أتاكم فلا تُكلّموه، فجاء رجل أزرق، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: علام تشتمني أنت وفلان وفلان؟ فانطلق الرجل فدعاهم، فحلفوا بالله واعتذروا إليه، فأنزل الله تعالى: ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون . . .

﴾ الآية.

فأما التفسير، فالذين تولَّوا: هم المنافقون، والمغضوب عليهم: هم اليهود ﴿ ما هم منكم ﴾ يعني: المنافقين ليسوا من المسلمين، ولا من اليهود ﴿ ويحلفون على الكذب ﴾ وهو ما ذكرنا في سبب نزولها وقال بعضهم حلفوا أنهم ما سبُّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا تولَّوْا اليهود ﴿ وهم يعلمون ﴾ أنهم كَذَبة ﴿ اتخذوا أَيمانهم جُنَّةً ﴾ أي: سترة يَتَّقُون بها القتل.

قال ابن قتيبة: المعنى: استتروا بالحلف فكلما ظهر لهم شيء يوجب معاقبتهم حلفوا كاذبين، ﴿ فصدُّوا عن سبيل الله ﴾ فيه قولان.

أحدهما: صَدُّوا النَّاس عن دين الإسلام قاله السدي.

والثاني: صَدُّوا عن جهادهم بالقتل وأخذ مالهم.

قوله تعالى : ﴿ فيحلفون له ﴾ قال مقاتل ، وقتادة : يحلفون لله في الآخرة أنهم كانوا مؤمنين ، كما حلفوا لأوليائه في الدنيا ﴿ ويحسبون أنهم على شيءٍ ﴾ من أَيمانهم الكاذبة ﴿ ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ في قولهم وأَيمانهم .

(118/753)

قوله تعالى : ﴿ استحوذ عليهم الشيطان ﴾ قال أبو عبيدة : غلب عليهم ، وحاذهم ، وقد بينا هذا في سورة [النساء] عند قوله تعالى : ﴿ نستحوذ عليكم ﴾ [آية : 141] وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى : ﴿ أولئك في الأَذّلِين ﴾ أي : في المغلوبين ، فلهم في الدنيا ذُلٌّ ، وفي الآخرة خِزْيٌ .

قوله تعالى : ﴿ كتب الله ﴾ أي : قضى الله ﴿ لأغلبن أنا ورسلي ﴾ وفتح الياء نافع ، وابن عامر .

قال المفسرون : من بُعث من الرسل بالحرب ، فعاقبة الأمر له ، ومن لم يبعث بالحرب ، فهو غالب بالحجة ﴿ إن الله قويٌّ عزيزٌ ﴾ أي : مانع حزبه من أن يذل .

قوله تعالى : ﴿ لا تجد قوماً . . .

﴾ الآية .

اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال .

أحدها : نزلت في أبي عبيدة بن الجراح ، قتل أباه يوم أُحد ، وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز ، فقال : يا رسول الله دعني أكون في الرَّعلة الأولى ، فقال : متّعنا بنفسك يا أبا بكر ، وفي مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن حمنة يوم أُحد ، وفي عمرو قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر ، وفي علي وحمزة قتلا عتبة وشيبة يوم بدر ، قاله ابن مسعود .

والثاني : أنها نزلت في أبي بكر الصِّدّيق ، وذلك أن أبا قحافة سَبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فصكّه أبو بكر الصديق صَكّةً شديدةً سقط منها ، ثم ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أو فَعلته" ؟ قال : نعم .

قال : فلا تعُد إليه ، فقال أبو بكر : والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن جريج .

والثالث : نزلت في عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ ، وذلك أنه كان جالساً إلى جنب رسول الله ، فشرب رسول الله ماءً ، فقال عبد الله : يا رسول الله أبق فضلة من شرابك ، قال : وما

تصنع بها ؟ قال : أسقيها أبي ، لعل الله سبحانه يطهر قلبه ، ففعل فأتى بها أباه ، فقال : ما هذا ؟ قال : فضلة من شراب رسول الله جئتك بها لتشربها ، لعل الله يطهر قلبك ، فقال : هلا جئتني ببول أُمّكَ ! فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله : ائذن لي في قتل أبي ، قال : فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ارفق به ، وأحسن إليه " ، فنزلت هذه الآية قاله السدي .

والرابع : أنها نزلت في حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ حين كتب إلى أهل مكة يخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزم على قصدهم ، قاله مقاتل ، واختاره الفراء ، والزجاج .

وهذه الآية قد بَيَّنتْ أن مودَّة الكفار تقدح في صحة الإيمان ، وأن من كان مؤمناً لم يوالِ كافراً وإن كان أباه أو ابنه أو أحداً من عشيرته .

قوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ الذين ، يعني : الذين لا يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ﴿ كَتب في قلوبهم الإيمان ﴾ وقرأ المفضل عن عاصم "كُتِبَ" برفع الكاف والنون من "الإيمان" .

وفي معنى "كتب" خمسة أقوال .

أحدها : أثبت في قلوبهم الإيمان ، قاله الربيع بن أنس .

والثاني : جعل ، قاله مقاتل .

والثالث : كتب في اللوح المحفوظ أن في قلوبهم الإيمان حكاه الماوردي .

والرابع : حكم لهم بالإيمان .

وإنما ذكر القلوب، لأنها موضع الإيمان، ذكره الثعلبي.

والخامس: جمع في قلوبهم الإيمان حتى استكملوه، قاله الواحدي.

قوله تعالى: ﴿ وأيّدهم ﴾ أي: قوّاهم ﴿ بروحٍ منه ﴾ وفي المراد "بالروح" هاهنا خمسة أقوال:

أحدها: أنه النصر، قاله ابن عباس، والحسن.

فعلى هذا سمي النصر روحاً، لأن أمرهم يحيا به.

والثاني: الإيمان، قاله السدي.

والثالث: القرآن، قاله الربيع.

(120/753)

والرابع: الرحمة، قاله مقاتل.

والخامس: جبريل عليه السلام أيّدهم به يوم بدر، ذكره الماوردي.

فأما ﴿ حِزْب الله ﴾ فقال الزجاج: هم الداخلون في الجمع الذين اصطفاهم وارتضاهم، و"ألا" كلمة تنبيه وتوكيد للقصة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿زاد المسير حـ 8 صـ 180.

200﴾

(121/753)

وقال الخازن:

قوله: ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾

(122/753)

" نزلت في خولة بنت ثعلبة وقيل اسمها جميلة وزوجها أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت وكان به لمم وكانت هي حسنة الجسم فأرادها فأبت عليه فقال لها أنت عليّ كظهر أمي ثم ندم على ما قال وكان الظهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية فقال ما أظنك إلا قد حرمت عليّ فقالت والله ما ذاك طلاق فأتت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعائشة تغسل شق رأسه فقالت يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات أهل ومال حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبر سني ظاهر مني وقد ندم فهل من شيء يجمعني وإياه وتنعشني به فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حرمت عليه فقالت يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر الطلاق وإنه

أبو ولدي وأحب الناس إليّ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حرمت عليه فقالت أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي قد طالت له صحبتي ونثرت له بطني فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما أراك إلا قد حرمت عليه ولم أومر في شأنك بشيء فجعلت تراجع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكلما قال لها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حرمت عليه هتفت وقالت أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي وشدة حالي وإن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليّ جاعوا وإن ضممتهم إليه ضاعوا وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول اللهم أشكو إليك اللهم فأنزل على لسان نبيك فرجي وهذا كان أول ظهار في الإسلام ، فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر فقالت انظر في أمري جعلني الله فداءك يا نبي الله فقالت عائشة أقصري حديثك ومجادلتك أما ترين وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا نزل عليه الوحي أخذه مثل السبات فلما قضي الوحي قال ادعي لي زوجك فتلا عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها الآية" (ق) عن عائشة قالت الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكلمته في

جانب البيت وما أسمع ما تقول فأنزل الله ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ﴾ الآية وأما تفسير الآية فقوله تعالى قد سمع الله قول التي تجادلك أي تحاورك وتخاصمك وتراجعك في زوجها أي في أمر زوجها ﴿ وتشتكي إلى الله ﴾ أي شدة حالها وفاقتها ووحدتها ، ﴿ والله يسمع تحاوركما ﴾ أي مراجعتكما الكلام ﴿ إن الله سميع ﴾ أي لمن يناجيه ويتضرع إليه ﴿ بصير ﴾ أي بمن يشكو إليه ثم ذم الظهار .

﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ﴾ يعني يقولون لهن أنتن كظهور أمهاتنا ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ أي ما اللواتي يجعلونهن من زوجاتهن كالأمهات بأمهات والمعنى ليس هن بأمهاتهم ﴿ إن أمهاتهم ﴾ أي ما أمهاتهم ﴿ إلا اللائي ولدنهم وإنهم ﴾ يعني المظاهرين ﴿ ليقولون منكراً من القول ﴾ يعني لا يعرف في الشرع ﴿ وزوراً ﴾ يعني كذباً وقيل إنما وصفه بكونه منكراً من القول وزوراً لأن الأم محرمة تحريماً مؤبداً والزوجة لا تحرم عليه بهذا القول تحريماً مؤبداً فلا جرم صار ذلك منكراً من القول وزوراً ﴿ وإن الله لعفو غفور ﴾ عفا الله عنهم وغفر لهم بإيجاب الكفارة عليهم .

(فصل في أحكام الظهار : وفيه مسائل)

المسألة الأولى : في معناه لغة قيل إن مشتق من الظهر وهو العلو وليس هو من ظهر الإنسان إذ ليس الظهر بأولى من سائر الأعضاء التي هي مواضع التلذذ والمباضعة فثبت بهذا أنه مأخوذ من الظهر الذي هو العلو لأن امرأة الرجل مركب له وظهر يدل عليه قول العرب في

الطلاق نزلت عن امرأتي أي طلقتها وفي قولهم أنت علي كظهر أمي حذف وإظمار لأن تأويله ظهرك علي أي ملكي إياك وعلوي عليك حرام كعلوي أمي وعلوه عليها حرام.

المسألة الثانية: كان الظهار من أشد طلاق أهل الجاهلية لأنه في التحريم آكد ما يمكن فإن كان ذلك الحكم صار مقرراً بالشرع كانت الآية ناسخة له وإلا لم يعد نسخاً لأن النسخ إنما يدخل في الشرائع لا في أحكام الجاهلية وعادتهم.

(124/753)

المسألة الثالثة: في الألفاظ المستعملة لهذا المعنى في الشريعة وعرف الفقهاء الأصل في هذا قوله أنت عليّ كظهر أمي وأنت مني أو معي أو عندي كظهر أمي وكذا لو قال أنت عليّ كبطن أمي أو كرأس أمي أو كيد أمي أو قال بطنك أو رأسك أو يدك عليّ كظهر أمي أو شبه عضواً منها بعضو من أعضاء أمه يكون ذلك ظهاراً وقال أبو حنيفة إن شبهها ببطن أمه أو بفرجها أو بفخذها يكون ظهاراً وإن بشبهها بعضو غير هذه الأعضاء لا يكون ظهاراً ولو قال أنت عليّ كأمي أو كروح أمي وأراد به الإعزاز والإكرام لا يكون ظهاراً حتى ينويه ويريده ولو شبهها بجدته فقال أنت عليّ كظهر جدتي يكون ظهاراً وكذلك لو شبهها بامرأة محرمة عليه بالقرابة بأن قال أنت علي كظهر أختي أو عمتي أو خالتي أو شبهها بامرأة

محرمة عليه بالرضاع يكون ظهاراً على الأصح .

المسألة الرابعة : فيمن يصح ظهاره قال الشافعي الضابط في هذا أن كل من صح طلاقه صح ظهاره فعلى هذا يصح ظهار الذمي وقال أبو حنيفة لا يصح احتج الشافعي بعموم قوله ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ﴾ واحتج أبو حنيفة بأن هذا خطاب للمؤمنين فيدل على أن الظهار مخصوص بالمؤمنين وأجيب عنه بأن هذا خطاب يتناول جميع الحاضرين فلم قلتم إنه مختص بالمؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ﴾ يعني يمتنعون بهذا اللفظ من جماعهن ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ اختلف العلماء في معنى العود في قوله ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ ولا بد أولاً من بيان أقوال أهل العربية ثم بيان أقوال الفقهاء فنقول قال الفراء لا فرق في اللغة بين أن يقال يعودون لما قالوا وفيما قالوا وقال أبو علي الفارسي كلمة إلى اللام تتعاقبان كقوله ﴿ وأوحى إلى نوح ﴾ و ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ وأما لفظة " ما " في قوله لما فهي بمعنى الذي والمعنى يعودون إلى الذي قالوا وفي الذي قالوا .

وفيه وجهان :

أحدهما : إنه لفظ الظهار والمعنى أنهم يعودون إلى ذلك اللفظ .

الوجه الثاني : أن المراد لما قالوا أي القول فيه وهو الذي حرموه على أنفسهم بلفظ الظهار تنزيلاً للقول منزلة المقول فيه وعلى هذا المعنى قوله ثم يعودون لما قالوا أي يعودون إلى شيء وذلك الشيء هو الذي قالوا فيه ذلك القول ثم إذا فسر هذا اللفظ بالوجه الأول يجوز أن يكون المعنى عاد لما فعل أي فعله مرة أخرى وعلى الوجه الثاني يجوز أن يقال عاد لما فعل أي نقض ما فعل وذلك أن من فعل شيئاً ثم أراد أن يفعله ثانياً فقد عاد إليه وكذا من فعل شيئاً ثم أراد إبطاله فقد عاد إليه بالتصرف فيه فقد ظهر بما تقدم أن قوله ثم يعودون لما قالوا يحتمل أن يكون المراد ثم يعودون إليه بأن يفعلوا مثله مرة أخرى ويحتمل أن يكون المراد ثم يعودون إليه بالنقض والرفع والإزالة وإلى هذا الاحتمال ذهب أكثر المجتهدين ثم اختلفوا فيه على وجوه :

الأول : وهو قول الشافعي إن معنى العود لما قالوا هو السكوت عن الطلاق بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلقها فيه وذلك لأنه لما ظاهر فقد قصد التحريم فإن وصله بالطلاق فقد تمم ما شرع فيه من إيقاع التحريم ولا كفارة عليه فإذا سكت عن الطلاق فذلك يدل على أنه ندم على ما ابتدأ به من التحريم فحينئذ تجب عليه الكفارة وفسر ابن عباس العود بالندم فقال يندمون فيرجعون إلى الألفة .

الوجه الثاني : في تفسير العود وهو قول أبي حنيفة إنه عبارة عن استباحة الوطء

والملامسة والنظر إليها بالشهوة وذلك أنه لما شبهها بالأم في حرمة هذه الأشياء ثم قصد استباحة ذلك كان مناقضاً لقوله أنت علي كظهر أمي .

الوجه الثالث : وهو قول مالك إن العود إليها عبارة عن العزم على وطئها وهو قريب من قول أبي حنيفة .

(126/753)

الوجه الرابع : وهو قول الحسن وقتادة وطاوس والزهري إن العود إليها عبارة عن جماعها وقالوا لا كفارة عليه ما لم يطأها قال العلماء والعود المذكور هنا هب أنه صالح للجماع أو للعزم عليه أو لاستباحته إلا أن الذي قاله الشافعي هو أقل ما ينطلق عليه الاسم فيجب تعليق الحكم عليه لأنه هو الذي به يتحقق مسمى العود وأما الباقي فزيادة لا دليل عليه وأما الاحتمال الأول في قوله ثم يعودون أي يفعلون مثل ما فعلوه فعلى هذا الاحتمال في الآية وجوه أيضاً الأول قال مجاهد والثوري العود هو الإتيان بالظهار في الإسلام وتجب الكفارة به والمراد من العود هو العود إلى ما كانوا عليه في الجاهلية ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يطلقون بالظهار فجعل الله حكم الظهار في الإسلام على خلاف حكمه عندهم فمعنى ثم يعودون لما قالوا أي في الإسلام فيقولون في الإسلام مثل ما كانوا يقولون في الجاهلية فكفارته كذا وكذا

على الوجه الثاني قال أبو العالية إذا كرر لفظ الظهار فقد عاد وإلا لم يكن عود وهذا قول أهل الظاهر واحتجوا عليه بأن ظاهر قوله ثم يعودون لما قالوا يدل على إعادة ما فعلوه وهذا لا يكون إلا بالتكرير وإن لم يكرر اللفظ فلا كفارة عليه.

﴿ فمن لم يجد ﴾ أي الرقبة ﴿ فصيام شهرين ﴾ أي فكفارته وقيل فعليه صيام شهرين ﴿ متتابعين من قبل أن يتماسّا فمن لم يستطع ﴾ أي الصيام (ف) كفارته ﴿ إطعام ستين مسكيناً ذلك ﴾ أي الفرض الذي وصفناه، ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ أي لتصدقوا الله فيما أمر به وتصدقوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيما أخبر به عن الله تعالى: ﴿ وتلك حدود الله ﴾ يعني ما وصف من الكفارة في الظهار ﴿ وللكافرين ﴾ أي لمن جحد هذا وكذب به ﴿ عذاب أليم ﴾ أي في نار جهنم يوم القيامة.

(فصل: في أحكام الكفارة، وما يتعلق بالظهار)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا فيما يحرمه الظهار فللشافعي قولان: أحدهما أنه يحرم الجماع فقط.

والقول الثاني وهو الأظهر أنه يحرم جميع جهات الاستمتاع وهو قول أبي حنيفة .

المسألة الثانية : اختلفوا فيمن ظاهر مرارا ً فقال الشافعي وأبو حنيفة لكل ظهار كفارة إلا أن يكون في مجلس واحد وأراد التكرار للتأكيد فإن عليه كفارة واحدة وقال مالك من ظاهر من امرأته في مجالس متفرقة فليس عليه إلا كفارة واحدة .

المسألة الثالثة : الآية تدل على إيجاب الكفارة قبل المماسّة سواء أراد التكفير بالإعتاق أو بالصيام أو بالإطعام وعند مالك إن أراد التكفير بالإطعام يجوز له الوطء قبله لأن الله تعالى قيد العتق والصوم بما قبل المسيس ولم يقل في الإطعام ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ فدل على ذلك .

وعند الآخرين الإطلاق في الطعام محمول على المقيد في العتق والصيام فإن جامع قبل أن يكفر لم يجب عليه إلا كفارة واحدة وهو قول أكثر أهل العلم كمالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وسفيان وقال بعضهم وإن واقعها قبل أن يكفر فعليه كفارتان وهو قول عبد الرحمن بن مهدي .

المسألة الرابعة : كفارة الظهار مرتبة فيجب عليه عتق رقبة مؤمنة وقال أبو حنيفة هذه الرقبة تجزي سواء كانت مؤمنة أو كافرة لقوله تعالى : ﴿ فتحرير رقبة ﴾ فهذا اللفظ يفيد العموم في جميع الرقاب .

دليلنا أنا أجمعنا على أن الرقبة في كفارة القتل مقيدة بالايمان فكذا هنا وحمل المطلق على

المقيد أولى .

المسألة الخامسة : الصوم فمن لم يجد الرقبة فعليه صيام شهرين متتابعين فإن أفطر يوماً متعمداً أو نسي النية يجب عليه استئناف الشهرين ولو شرع في الصوم ثم جامع في خلال الشهرين بالليل عصى الله تعالى بتقديم الجماع على الكفارة لكن لا يجب عليه استئناف الشهرين وعند أبي حنيفة يجب عليه استئناف الشهرين .

المسألة السادسة : إن عجز عن الصوم لمرض أو كبر أو فرط شهوة بحيث لا يصبر عن الجماع يجب عليه إطعام ستين مسكيناً كل مسكين مد من الطعام الذي يقتات به أهل البلد من حنطة أو شعير أو أرز أو ذرة أو تمر أو نحو ذلك وقال أبو حنيفة يعطي لكل مسكين نصف صاع من بر أو دقيق أو سويق أو صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير ولو أطعم مسكيناً واحداً ستين جزءاً لا يجزيه عند الشافعي وقال أبو حنيفة يجزيه .

حجة الشافعي ظاهر الآية وهو أن الله تعالى أوجب إطعام ستين مسكيناً فوجب رعاية ظاهر الآية وحجة أبي حنيفة أن المقصود دفع الحاجة وهو حاصل .

وأجيب عنه بأن إدخال السرور على قلب ستين مسكيناً أولى من إدخال السرور على

قلب مسكين واحد .

المسألة الرابعة : إذا كانت له رقبة إلا أنه محتاج إلى الخدمة أو له ثمن الرقبة لكنه محتاج إليه لنفقته ونفقة عياله فله أن ينتقل إلى الصوم وقال مالك والأوزاعي يلزمه الإعتاق إذا كان واجداً للرقبة أو ثمنها وإن كان محتاجاً إليه وقال أبو حنيفة إن كان واجداً لعين الرقبة يجب عليه إعتاقها وإن كان محتاجاً إليه ، وإن كان واجداً لثمن الرقبة لكنه محتاج إليه فله أن يصوم .

المسألة الثامنة : قال أصحاب الشافعي الشبق المفرط والغلمة الهائجة عذر في الانتقال من الصيام إلى الإطعام والدليل عليه ما روي عن سلمة بن صخر البياضي قال "كنت امرأ أصيب من النساء ما لا يصيب غيري فلما دخل شهر رمضان خفت أن أصيب من امرأتي شيئاً تتابع بي حتى أصبحت فظاهرت منها حتى ينسلخ شهر رمضان فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ انكشف لي منها شيء فما لبثت أن نزوت عليها فلما أصبحت خرجت إلى قومي فأخبرتهم الخبر قال فقلت امشوا معي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قالوا لا والله فانطلقت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأخبرته فقال أنت بذاك يا سلمة قلت أنا بذاك يا رسول الله مرتين وأنا صابر لأمر الله فاحكم بما أمرك الله به .

قال حرر رقبة قلت والذي بعثك بالحق نبياً ما أملك رقبة غيرها وضربت صفحة رقبتي قال فصم شهرين متتابعين قال وهل أصبت الذي أصبت إلا من الصيام قال فأطعم وسقاً من تمر ستين مسكيناً قلت والذي بعثك بالحق نبياً لقد بتنا وحشين لا نملك لنا طعاماً قال فانطلق إلى صاحب صدقة بني زريق فليدفعها إليك فأطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر وكُل أنت وعيالك بقيتها فرجعت إلى قومي فقلت وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ووجدت عند النبي (صلى الله عليه وسلم) السعة وحسن الرأي وقد أمر لي بصدقتكم وبنو بياضة بطن من بني زريق " أخرجه أبو داود .

قوله نزوت عليها أي وثبت عليها وأراد به الجماع وقوله تتابع به التتابع الوقوع في الشر واللجاج فيه والوسق ستون صاعاً ، وقوله وحشين يقال رجل وحش إذا لم يكن له طعام وأوحش الرجل إذا جاع .

قوله : ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله ﴾ أي يعادون الله ورسوله ويشاقون ويخالفون أمرهما ، ﴿ كبتوا ﴾ أي ذلوا وأخزوا وأهلكوا ﴿ كما كبت الذين من قبلهم ﴾ أي كما أخزي من كان قبلهم من أهل الشرك ، ﴿ وقد أنزلنا آيات بينات ﴾ يعني فرائض وأحكاماً .

﴿ وللكافرين ﴾ أي الذين لم يعملوا بها وجحدوها ﴿ عذاب مهين يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ﴾ أي حفظ الله أعمالهم ﴿ ونسوه ﴾ أي نسوا ما كانوا يعملون في الدنيا ، ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ قوله تعالى : ﴿ ألم تر ﴾ أي ألم تعلم ﴿ أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بجميع المعلومات لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماوات ثم أكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة ﴾ أي من أسرار ثلاثة وهي المسارة والمشاورة والمعنى ما من شيء يناجي به الرجل صاحبه وقيل ما يكون من متناجين ثلاثة يسارر بعضهم بعضاً ﴿ إلا هو رابعهم ﴾ أي بالعلم يعني يعلم نجواهم كأنه حاضر معهم ومشاهدهم كما تكون نجواهم معلومة عند الرابع الذي يكون معهم ﴿ ولا خمسة إلا هو سادسهم ﴾ فإن قلت لما خص الثلاثة والخمسة .

قلت : أقل ما يكفي في المشاورة ثلاثة حتى يتم الغرض فيكون اثنان كالمتنازعين في النفي والإثبات والثالث كالمتوسط الحاكم بينهما فحينئذ تحمد تلك المشاورة ويتم ذلك الغرض وهكذا كل جمع يجتمع للمشاورة لا بد من واحد يكون حكماً بينهم مقبول القول وقيل إن العدد الفرد أشرف من الزوج فلهذا خص الله تعالى الثلاثة والخمسة ثم قال تعالى : ﴿ ولا أدنى من ذلك ولا أكثر ﴾ يعني ولا أقل من ثلاثة وخمسة ولا أكثر من ذلك العدد ﴿ إلا هو معهم أينما كانوا ﴾ أي بالعلم والقدرة ، ﴿ ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ﴾ نزلت في اليهود والمنافقين وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون بما يسوءهم فيحزن المؤمنين لذلك ويقولون ما نراهم إلا قد بلغهم عن إخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو هزيمة فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم فلما طال على المؤمنين وكثر شكوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأمرهم أن لا يتناجوا دون المؤمنين فلم ينتهوا فأنزل الله ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى أي المناجاة فيما بينهم ، ﴿ ثم يعودون لما نهوا عنه ﴾ أي يرجعون إلى المناجاة التي نهوا عنها ﴿ ويتناجون بالإثم والعدوان ﴾ يعني ذلك السر الذي كان بينهم لأنه إما مكر وكيد بالمسلمين أي شيء يسوءهم وكلاهما إثم وعدوان ، ﴿ ومعصية الرسول ﴾ وذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان قد نهاهم عن النجوى فعصوه وعادوا إليها وقيل معناه يوصي بعضهم

بعضاً بمعصية الرسول ﴿ وإذا جاؤوك ﴾ يعني اليهود ﴿ حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ وذلك أن اليهود كانوا يدخلون على النبي (صلى الله عليه وسلم) ويقولون السام عليك والسام الموت وهم يوهمونه بأنهم يسلمون عليه وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يرد فيقول عليكم ﴿ ويقولون في أنفسهم ﴾ يعني إذا

خرجوا من عنده قالوا ﴿ لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ يريدون لو كان نبياً لعذبنا الله بما نقول من الاستخفاف به قال الله تعالى : ﴿ حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾ المعنى أن تقديم العذاب إنما يكون بحسب المشيئة والمصلحة وإذا لم تقتض المشيئة والمصلحة تقديم العذاب فعذاب جهنم يوم القيامة كافيهم (ق) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴾ في المخاطبين بهذه الآية قولان أحدهما أنه خطاب للمؤمنين وذلك أنه لما ذم اليهود والمنافقين على التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول أتبعه بأن نهى المؤمنين أن يسلكوا مثل طريقهم وأن يفعلوا كفعلهم فقال لا تتناجوا بالإثم وهو ما يقبح من القول والعدوان وهو ما يؤدي إلى الظلم ومعصية الرسول وهو ما يكون خلافاً عليه .

والقول الثاني : وهو الأصح أنه خطاب للمنافقين والمعنى .

يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم وقيل آمنوا بزعمهم كأنه قال لهم لا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ أي بالطاعة وترك المعصية ﴿ واتقوا الله الذي إليه تحشرون إنما النجوى من الشيطان ﴾ أي من تزيين الشيطان وهو ما يأمرهم به . من الإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿ ليحزن الذين آمنوا ﴾ إنما يزين ذلك ليحزن المؤمنين (ق) عن ابن عمر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث " زاد ابن مسعود في رواية " فإن ذلك يحزنه " وهذه الزيادة لأبي داود ﴿ وليس بضارهم شيئاً ﴾ يعني ذلك التناجي وقيل الشيطان ليس بضارهم شيئاً ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي إلا ما أراد الله تعالى وقيل إلا بإذن الله في الضر ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي فليكل المؤمنون أمرهم إلى الله تعالى ويستعيذوا به من الشيطان فإن من توكل على الله لا يخيب أمله ولا يبطل سعيه .

(133/753)

قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا ﴾ الآية قيل في سبب نزولها " إن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار

فجاء ناس منهم يوماً وقد سبقوا إلى المجلس فقاموا حيال النبي (صلى الله عليه وسلم) فسلموا عليه فرد عليهم ثم سلموا على القوم فردوا عليهم ثم قاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا وشق ذلك على النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال لمن حوله قم يا فلان وأنت يا فلان فأقام من المجلس بقدر أولئك النفر الذين كانوا بين يديه من أهل بدر فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف النبي (صلى الله عليه وسلم) الكراهية في وجوههم فأنزل الله هذه الآية " وقيل نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وقد تقدمت القصة في سورة الحجرات ، وقيل كانوا يتنافسون في مجلس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويحبون القرب منه فكانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً تضاموا في مجلسهم فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض وقيل كان ذلك يوم الجمعة في الصفة والمكان ضيق والأقرب أن المراد مجلس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأنهم كانوا يتضامون فيه تنافساً على القرب من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحرصاً على استماع كلامه فأمر الله المؤمنين بالتواضع وأن يفسحوا في المجلس لمن أراد الجلوس عند النبي (صلى الله عليه وسلم) ليتساوى الناس في الأخذ بالحظ منه وقرئ في المجالس لأن لكل واحد مجلساً ومعناه ليفسح كل رجل في مجلسه فافسحوا أي فأوسعوا في المجلس أمروا بأن يوسعوا في المجالس لغيرهم ، ﴿ يفسح الله لكم ﴾ أي يوسع الله لكم في الجنة والمجالس فيها (ق) عن ابن عمر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " لا يقيمن أحدكم رجلاً من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا

وتفسحوا يفسح الله لكم " (م) عن جابر بن عبد الله قال " لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيه ولكن يقول افسحوا "

(134/753)

ذكره الحميدي في أفراد مسلم موقوفاً على جابر ورفعه غير الحميدي وقيل في معنى الآية إن هذا في مجالس العرب ومقاعد القتال كان الرجل يأتي القوم وهم في الصف فيقول توسعوا فيأبون عليه لحرصهم على القتال ورغبتهم في الشهادة فأمروا بأن يوسعوا لإخوانهم لأن الرجل الشديد البأس قد يكون متأخراً عن الصف الأول والحاجة داعية إلى تقدمه فلا بد من التفسح له ثم يقاس على ذلك سائر المجالس كمجالس العلم والقرآن والحديث والذكر ونحو ذلك لأن كل من وسع على عباد الله أنواع الخير والراحة وسع الله عليه خيري الدنيا والآخرة.

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ يعني إذا أردتم مناجاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقدموا أمام ذلك صدقة وفائدة ذلك إعظام مناجاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فإن الإنسان إذا وجد الشيء بمشقة استعظمه وإن وجده بسهولة استحقره ونفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة المقدمة قبل المناجاة قال

ابن عباس إن الناس سألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأكثروا حتى شق عليه فأراد الله تعالى أن يخفف على نبيه (صلى الله عليه وسلم) ويثبطهم على ذلك فأمرهم أن يقدموا صدقة على مناجاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقيل نزلت في الأغنياء وذلك أنهم كانوا يأتون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيكثرون مناجاته ويغلبون الفقراء على المجالس حتى كره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) طول جلوسهم ومناجاتهم فلما أمروا بالصدقة كفوا عن مناجاته فأما الفقراء وأهل العسرة فلم يجدوا شيئاً وأما الأغنياء وأهل الميسرة فضنوا واشتد ذلك على أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنزلت الرخصة وقال مجاهد نهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا فلم يناجه إلا علي بن أبي طالب تصدق بدينار وناجاه ثم نزلت الرخصة فكان علي يقول آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي وهي آية المناجاة.

وعن علي بن أبي طالب قال لما نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ قال لي النبي (صلى الله عليه وسلم) ما ترى ديناراً قلت لا يطيقونه قال فنصف دينار قلت لا يطيقونه قال فكم قلت شعيرة قال إنك لزهيد قال فنزلت.

﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ الآية قال في خفف الله عن هذه الأمة أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب قوله قلت شعيره أي وزن شعيرة من ذهب وقوله إنك لزهيد يعني قليل المال قدرت على قدر حالك .

فإن قلت في هذه الآية منقبة عظيمة لعلي بن أبي طالب إذ لم يعمل بها أحد غيره .

قلت هو كما قلت وليس فيها طعن على غيره من الصحابة ووجه ذلك أن الوقت لم يتسع ليعملوا بهذه الآية ولو اتسع الوقت لم يتخلفوا عن العمل بها وعلى تقدير اتساع الوقت ولم يفعلوا ذلك إنما هو مراعاة لقلوب الفقراء الذين لم يجدوا ما يتصدقون به لو احتاجوا إلى المناجاة فيكون ذلك سبباً لحزن الفقراء إذ لم يجدوا ما يتصدقون به عند مناجاته ووجه آخر وهو أن هذه المناجاة لم تكن من المفروضات ولا من الواجبات ولا من الطاعات المندوب إليها بلى إنما كلفوا هذه الصدقة ليتركوا هذه المناجاة ولما كانت هذه المناجاة أولى بأن تترك لم يعملوا بها وليس فيها طعن على أحد منهم ، وقوله : ﴿ ذلك خير لكم ﴾ يعني تقديم الصدقة على المناجاة لما فيه من طاعة الله وطاعة رسوله ﴿ وأطهر ﴾ أي لذنوبكم ﴿ فإن لم تجدوا ﴾ يعني الفقراء الذين لا يجدون ما يتصدقون به ﴿ فإن الله غفور

رحيم ﴾ يعني أنه تعالى رفع عنهم ذلك ﴿ أأشفقتم ﴾ قال ابن عباس أبخلتم والمعنى أخفتم العيلة والفاقة إن قدمتم وهو قوله ﴿ أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا ﴾ أي ما أمرتم به ، ﴿ وتاب الله عليكم ﴾ أي تجاوز عنكم ونسخ الصدقة قال مقاتل بن حيان كان ذلك عشر ليال ثم نسخ ، وقال الكلبي ما كان إلا ساعة من نهار ثم نسخ ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ أي المفروضة ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ أي الواجبة ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ أي فيما أمر ونهى ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ أي إنه محيط بأعمالكم ونيتكم .

قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ نزلت في المنافقين وذلك أنهم تولوا اليهود ونصحوهم ونقلوا أسرار المؤمنين إليهم فأراد بقوله قوماً غضب الله عليهم اليهود ﴿ ما هم ﴾ يعني المنافقين ﴿ منكم ﴾ أي من المؤمنين في الدين والولاء ﴿ ولا منهم ﴾ يعني ولا من اليهود ﴿ ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ﴾ أي أنهم كذبة " نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق وكان يجالس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويرفع حديثه إلى اليهود فبينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في حجرة من حجره إذ قال يدخل عليكم الآن

رجل قلبه قلب جبار ينظر بعيني شيطان فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق العينين فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) علام تشتمني أنت وأصحابك فحلف بالله ما فعل وجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فأنزل الله هذه الآية " ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون اتخذوا أيمانهم ﴾ يعني الكاذبة ﴿ جنة ﴾ أي يستجنون بها من القتل ويدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم ﴿ فصدوا عن سبيل الله ﴾ يعني أنهم صدوا المؤمنين عن جهادهم بالقتل وأخذ أموالهم بسبب أيمانهم ، وقيل معناه صدوا الناس عن دين الله الذي هو الإسلام ﴿ فلهم عذاب مهين ﴾ يعني في الآخرة .

﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم ﴾ يوم القيامة ﴿ من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له ﴾ يعني كاذبين أنهم ما كانوا مشركين ﴿ كما يحلفون لكم ﴾ أي في الدنيا وقيل كان الحلف جنة لهم في الدنيا فظنوا أنه ينفع في الآخرة أيضاً ﴿ ويحسبون أنهم على شيء ﴾ يعني من أيمانهم الكاذبة ﴿ ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ يعني في أقوالهم وأيمانهم ، ﴿ استحوذ عليهم الشيطان ﴾ أي غلب واستولى عليهم وملكهم ﴿ فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون

إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ﴾ يعني في جملة من يلحقهم الذل في الدنيا والآخرة لأن ذل أحد الخصمين على حسب عز الخصم الثاني .

ولما كانت عزة الله غير متناهية كانت ذلة من ينازعه غير متناهية ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ أي قضى ذلك قضاء ثابتاً قيل غلبة الرسل على نوعين فمنهم من يؤمر بالحرب فهو غالب بالحرب ومن لم يؤمر بالحرب فهو غالب بالحجة ، ﴿ إن الله قوي ﴾ أي على نصر رسله وأوليائه ﴿ عزيز ﴾ أي غالب على أعدائه .

قوله تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ أخبر الله تعالى أن إيمان المؤمنين يفسد بموادة الكافرين وأن من كان مؤمناً لا يوالي من كفر لأن من أحب أحداً امتنع أن يحب عدوه فإن قلت قد أجمعت الأمة على أنه تجوز مخالفتهم ومعاشرتهم فما هذه المودة المحظورة قلت المودة المحظورة هي مناصحتهم وإرادة الخير لهم ديناً ودنيا مع كفرهم ، فأما ما سوى ذلك فلا حظر فيه ثم إنه تعالى بالغ في الذكر عن مودتهم بقوله ﴿ ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ يعني أن الميل إلى هؤلاء من أعظم أنواع الميل ومع هذا فيجب أن يطرح الميل إلى هؤلاء والمودة لهم بسبب مخالفة

الدين قيل نزلت هذه الآية في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى أهل مكة وستأتي قصته في سورة الممتحنة وروي عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية قال ولو كانوا آباءهم يعني أبا عبيدة بن الجراح قتل أباه الجراح يوم أحد أو أبناءهم يعني أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه دعا ابنه يوم بدر إلى البراز وقال يا رسول الله دعني أكن في الرعلة الأولى فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "متعنا بنفسك يا أبا بكر" أو إخوانهم يعني مصعب بن عمير قتل أخاه عبد الله بن عمير أو عشيرتهم يعني عمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر وعلي بن أبي طالب وحمزة وأبا عبيدة قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر، ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ أي أثبت التصديق في قلوبهم فهي مؤمنة موقنة مخلصة وقيل حكم لهم بالإيمان وإنما ذكر القلوب لأنها موضعه ﴿ وأيدهم بروح منه ﴾ أي قواهم بنصر منه وإنما سمى نصره إياهم روحاً لأن به حيي أمرهم.

وقيل الإيمان وقيل بالقرآن وقيل بجبريل وقيل برحمته (ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه) إنما ذكر رضوانه عليهم بعد دخولهم الجنة لأنه أعظم النعم وأجل المراتب ثم لما ذكر هذه النعم اتبعه بما يوجب ترك المودة لأعداء الله سبحانه وتعالى فقال (أولئك حزب الله إلا إن حزب الله هم المفلحون) والله أعلم بمراده. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 42.55 ﴾

وقال النسفى :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التى تُجَادِلُكَ ﴾

تحاورك وقرىء بها ، وهي خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت أخي عبادة رآها وهي تصلي وكانت حسنة الجسم ، فلما سلمت راودها فأبت فغضب فظاهر منها فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب فيّ فلما خلا سني ونثرت بطني أي كثر ولدي جعلني عليه كأمه .

ورُوي أنها قالت : إن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا .

فقال صلى الله عليه وسلم : " ما عندي في أمرك شيء " وروي أنه قال لها : " حرمت عليه " فقالت : يا رسول الله ما ذكر طلاقاً وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إليّ .

فقال : حرمت عليه فقالت : أشكو إلى الله فاقتي ووجدي فكلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " حرمت عليه " هتفت وشكت فنزلت ﴿ فِى زَوْجِهَا ﴾ في شأنه ومعناه

﴿ وَتَشْتَكِى إِلَى اللهِ ﴾ تظهر ما بها من المكروه ﴿ واللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾

مراجعتكما الكلام من حار إذا رجع ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ يسمع شكوى المضطر ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بحاله ﴿ الذين يظاهرون ﴾ عاصم ﴿ يظَّهرون ﴾ : حجازي وبصري غيرهم ﴿ يظاهرون ﴾ وفي ﴿ مّنكُمْ ﴾ توبيخ للعرب لأنه كان من أيمان أهل جاهليتهم خاصة دون

سائر الأمم ﴿ مِن نِّسَائِهِمْ ﴾ زوجاتهم ﴿ مَّا هُنَّ أمهاتهم ﴾ أمهاتهم المفضل، الأول حجازي والثاني تميمي ﴿ إِنْ أمهاتهم إِلاَّ اللائى وَلَدْنَهُمْ ﴾ يريد أن الأمهات على الحقيقة الوالدات والمرضعات ملحقات بالوالدات بواسطة الرضاع، وكذا أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيادة حرمتهن، وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة فلذا قال ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ القول ﴾ تنكره الحقيقة والأحكام الشرعية ﴿ وَزُوراً ﴾ وكذباً باطلاً منحرفاً عن الحق ﴿ وَإِنَّ الله لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ لما سلف منهم.

(141/753)

﴿ والذين يظاهرون مِن نِّسَائِهِمْ ﴾ بين في الآية الأولى أن ذلك من قائله منكر وزور، وبين في الثانية حكم الظهار ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ العود الصيرورة ابتداء أو بناء فمن الأول قوله تعالى: ﴿ حتى عَادَ كالعرجون القديم ﴾ [يس: 39].

ومن الثاني: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء: 8] ويعدى بنفسه كقولك: عدته إذا أتيته وصرت إليه، وبحرف الجر ب "إلى" وعلى وفي واللام كقوله: ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: 28] ومنه ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ أي يعودون لنقض ما قالوا أو لتداركه على حذف المضاف، وعن ثعلبة: يعودون لتحليل ما حرموا على حذف

المضاف أيضاً غير أنه أراد بما قالوا ما حرموه على أنفسهم بلفظ الظهار تنزيلاً للقول منزلة المقول فيه كقوله ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ [مريم : 80] أراد المقول فيه وهو المال والولد .

ثم اختلفوا أن النقض بماذا يحصل ؟ فعندنا بالعزم على الوطء وهو قول ابن عباس والحسن وقتادة ، وعند الشافعي بمجرد الإمساك وهو أن لا يطلقها عقيب الظهار .

﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ فعليه اعتاق رقبة مؤمنة أو كافرة ولم يجز المدبر وأم الولد والمكاتب الذي أدى شيئاً ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ الضمير يرجع إلى ما دل عليه الكلام من المظاهر والمظاهر منها .

والمماسة الاستمتاع بها من جماع أو لمس بشهوة أو نظر إلى فرجها بشهوة ﴿ ذلكم ﴾ الحكم ﴿ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ لأن الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم حتى لا تعودوا إلى الظهار وتخافوا عقاب الله عليه ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ والظهار أن يقول الرجل لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي .

وإذا وضع موضع أنت عضواً منها يعبر به عن الجملة أو مكان الظهر عضواً آخر يحرم النظر إليه من الأم كالبطن والفخذ ، أو مكان الأم ذات رحم محرم منه بنسب أو رضاع أو صهر أو

جماع نحو أن يقول : أنت عليّ كظهر أختي من الرضاع ، أو عمتي من النسب ، أو امرأة ابني ، أو أبي أو أم امرأتي أو ابنتها فهو مظاهر ، وإذا امتنع المظاهر من الكفارة للمرأة أن ترافعه ، وعلى القاضي أن يجبره على أن يكفر وأن يحبسه ، ولا شيء من الكفارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار لأنه يضر بها في ترك التكفير .

والامتناع من الاستمتاع فإن مس قبل أن يكفر استغفر الله ولا يعود حتى يكفر ، وإن أعتق بعض الرقبة ثم مس عليه أن يستأنف عند أبي حنيفة رضي الله عنه .

(143/753)

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ الرقبة ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ ﴾ فعليه صيام شهرين ﴿ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ﴾ الصيام ﴿ فَإِطْعَامُ ﴾ فعليه إطعام ﴿ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ لكل مسكين نصف صاع من بر أو صاع من غيره ، ويجب أن يقدمه على المسيس ولكن لا يستأنف إن جامع في خلال الإطعام ﴿ ذلك ﴾ البيان والتعليم للأحكام ﴿ لّتُؤْمِنُواْ ﴾ لتصدقوا ﴿ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم ﴿ وَتِلْكَ ﴾ أي الأحكام التي وصفنا في الظهار والكفارة ﴿ حُدُودَ الله ﴾ التي لا يجوز تعديها ﴿ وللكافرين ﴾ الذين لا يتبعونها ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

مؤلم ﴿ إِنَّ الذين يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعادون ويشاقون ﴿ كُبِتُواْ ﴾ أخزوا وأهلكوا ﴿ كَمَا كُبِتَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من أعداء الرسل ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا ءايات بينات ﴾ تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به ﴿ وللكافرين ﴾ بهذه الآيات ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ يذهب بعزهم وكبرهم ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ﴾ منصوب ب ﴿ مُّهِينٌ ﴾ أو بإضمار "اذكر" تعظيماً لليوم ﴿ الله جَمِيعًا ﴾ كلهم لا يترك منهم أحداً غير مبعوث أو مجتمعين في حال واحدة ﴿ فَيُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ تخجيلاً لهم وتوبيخاً وتشهيراً بحالهم يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد ﴿ أحصاه الله ﴾ أحاط به عدداً لم يفته منه شيء ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه وإنما تحفظ معظمات الأمور ﴿ والله على كُلّ شَىْء شَهِيدٌ ﴾ لا يغيب عنه شيء .

(144/753)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِى السماوات وَمَا فِى الأرض مَا يَكُونُ ﴾ من "كان" التامة أي ما يقع ﴿ مِن نجوى ثلاثة ﴾ النجوى التناجي وقد أضيفت إلى ثلاثة أي من نجوى ثلاثة نفر ﴿ إِلاَّ هُوَ ﴾ أي الله ﴿ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أدنى ﴾ ولا أقل ﴿ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ ﴾ يعلم ما يتناجون به ولا يخفى عليه ما هم فيه وقد تعالى عن

المكان علواً كبيراً وتخصيص الثلاثة والخمسة لأنها نزلت في المنافقين وكانوا يتحلقون للتناجي مغايظة للمؤمنين على هذين العددين.

وقيل: ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة ولا أدنى من عدديهم ولا أكثر إلا والله معهم يسمع ما يقولون، ولأن أهل التناجي في العادة طائفة من أهل الرأي والتجارب، وأول عددهم الاثنان فصاعداً إلى خمسة إلى ستة إلى ما اقتضته الحال، فذكر عز وعلا الثلاثة والخمسة وقال: ﴿ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ ﴾ فدل على الاثنين والأربعة، وقال ﴿ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ فدل على ما يقارب هذا العدد ﴿ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فيجازيهم عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نُهُوا عَنِ النجوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ويتناجون بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَتِ الرسول ﴾ كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين ويريدون أن يغيظوهم ويوهموهم في نجواهم وتغامزهم أن غزاتهم غلبوا وأن أقاربهم قتلوا، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعادوا لمثل فعلهم وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول ومخالفته، ﴿ وينتجون ﴾ حمزة وهو بمعنى الأول ﴿ وَإِذَا جَاءوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ الله ﴾ يعني أنهم يقولون في تحيتك: السام عليك يا محمد.

والسام الموت والله تعالى يقول ﴿ وسلام على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾ النمل : 59) ،

﴿ يا أيها الرسول ﴾ [المائدة : 67] ، ﴿ يا أيها النبى ﴾ [الأحزاب : 1] ﴿ وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ ﴾ أي يقولون فيما بينهم لو كان نبياً لعاقبنا الله بما نقوله فقال الله تعالى ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ عذاباً ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ حال أي يدخلونها ﴿ فَبِئْسَ المصير ﴾ المرجع جهنم .

﴿ ياأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ ﴾ بألسنتهم وهو خطاب للمنافقين والظاهر أنه خطاب للمؤمنين ﴿ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تتناجوا بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَتِ الرسول ﴾ أي إذا تناجيتم فلا تشبهوا باليهود والمنافقين في تناجيهم بالشر ﴿ وتناجوا بالبر ﴾ بأداء الفرائض والطاعات ﴿ والتقوى ﴾ وترك المعاصي ﴿ واتقوا الله الذى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ للحساب فيجازيكم بما تتناجون به من خير أو شر ﴿ إِنَّمَا النجوى ﴾ بالإثم والعدوان ﴿ مِنَ الشيطان ﴾ من تزيينه ﴿ لِيَحْزُنَ ﴾ أي الشيطان وبضم الياء : نافع ﴿ الذين ءامَنُواْ وَلَيْسَ ﴾ الشيطان أو الحزن ﴿ بِضَارّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ بعلمه وقضائه وقدره ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ أي يكلون أمرهم إلى الله ويستعيذون به من الشيطان .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى المجالس ﴾ (في المجلس) توسعوا فيه ، ﴿ فِى المجالس ﴾ عاصم ونافع والمراد مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا

يتضامون فيه تنافساً على القرب منه وحرصاً على استماع كلامه .

وقيل : هو المجلس من مجالس القتال وهي مراكز الغزاة كقوله ﴿ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [آل عمران : 121] .

(146/753)

مقاتل في صلاة الجمعة ﴿ فافسحوا ﴾ فوسعوا ﴿ يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ ﴾ مطلق في كل ما يبتغي الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر غير ذلك ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشزوا ﴾ انهضوا للتوسعة على المقبلين ، أو انهضوا عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمرتم بالنهوض عنه ، أو انهضوا إلى الصلاة والجهاد وأعمال الخير ﴿ فَانشُزُواْ ﴾ بالضم فيهما : مدني وشامي وعاصم غير حماد ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الذين ءامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ بامتثال أوامره وأوامر رسوله ﴿ والذين أُوتُواْ العلم ﴾ والعالمين منهم خاصة ﴿ درجات والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وفي الدرجات قولان : أحدهما في الدنيا في المرتبة والشرف ، والآخر في الآخرة .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال : يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " فضل العالم على العابد كفضل

القمر ليلة البدر على سائر الكواكب " وعنه صلى الله عليه وسلم : " عبادة العالم يوماً واحداً تعدل عبادة العابد أربعين سنة " وعنه صلى الله عليه وسلم " يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء " فأعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وعن ابن عباس رضي الله عنهما : خير سليمان عليه السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطي المال والملك معه .

وقال صلى الله عليه وسلم : " أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام يا إبراهيم إني عليم أحب كل عليم " وعن بعض الحكماء : ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم ، وأي شيء فات من أدرك العلم .

وعن الزبيري : العلم ذكر فلا يحبه إلا ذكورة الرجال ، والعلوم أنواع فأشرها أشرفها معلوماً .

﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا نَاجيتم الرسول ﴾ إذا أردتم مناجاته ﴿ فَقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نجواكم صَدَقَةً ﴾ أي قبل نجواكم وهي استعارة ممن له يدان كقول عمر رضي الله عنه : من أفضل ما أوتيت العرب الشعر يقدمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم ويستنزل به اللئيم يريد قبل حاجته ﴿ ذلك ﴾ التقديم ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ في دينكم ﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ لأن

الصدقة طهرة ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ ﴾ ما تتصدقون به ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ في ترخيص المناجاة من غير صدقة .

قيل : كان ذلك عشر ليال ثم نسخ .

وقيل : ما كان إلا ساعة من نهار ثم نسخ .

وقال علي رضي الله عنه : هذه آية من كتاب الله ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي ، كان لي دينار فصرفته فكنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم وسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر مسائل فأجابني عنها .

قلت : يا رسول الله ما الوفاء ؟ قال : " التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله " قلت : وما الفساد ؟ قال : " الكفر والشرك بالله " قلت : وما الحق ؟ قال : " الإسلام والقرآن والولاية إذا انتهت إليك " قلت : وما الحيلة ؟ قال : " ترك الحيلة " قلت : وما عليّ ؟ قال : " طاعة الله وطاعة رسوله " قلت : وكيف أدعو الله تعالى ؟ قال : " بالصدق واليقين " قلت : وماذا أسأل الله ؟ قال : " العافية " قلت : وما أصنع لنجاة نفسي ؟ قال : "كل حلالاً وقل صدقاً " قلت : وما السرور ؟ قال : " الجنة " قلت : وما الراحة ؟ قال : " لقاء الله " فلما فرغت منها نزل نسخها .

﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نجواكم صدقات ﴾ أخفتم تقديم الصدقات لما فيه من الإنفاق الذي تكرهونه ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ ما أمرتم به وشق عليكم ﴿ وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي خفف عنكم وأزال عنكم المؤاخذة بترك تقديم الصدقة على المناجاة كما أزال المؤاخذة بالذنب عن التائب عنه ﴿ فَأَقِمُوا الصلاوة وَءَاتُوا الزكاوة وَأَطِعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات ﴿ واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وهذا وعد ووعيد .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم ﴾ كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم في قوله ﴿ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : 60] وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ ﴾ يا مسلمون ﴿ وَلاَ مِنْهُمْ ﴾ ولا من اليهود كقوله : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلك لاَ إلى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء ﴾ [النساء : 143] ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب ﴾ أي يقولون والله إنا لمسلمون لا منافقون ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم كاذبون منافقون ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ نوعاً من العذاب متفاقماً ﴿ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي إنهم كانوا في الزمان الماضي مصرين على سوء العمل أو هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة .

﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ الكاذبة ﴿ جُنَّةً ﴾ وقاية دون أموالهم ودمائهم ﴿ فَصَدُّواْ ﴾ الناس في خلال أمنهم وسلامتهم ﴿ عَن سَبِيلِ الله ﴾ عن طاعته والإيمان به ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وعدهم العذاب المخزي لكفرهم وصدهم كقوله ﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله زدناهم عَذَابًا فَوْقَ العذاب ﴾ [النحل : 88] ﴿ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أموالهم وَلاَ أولادهم مِّنَ الله ﴾ من عذاب الله ﴿ شَيْئًا ﴾ قليلاً من الإغناء ﴿ أُوْلَئِكَ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ ﴾ أي لله في الآخرة أنهم كانوا مخلصين في الدنيا غير منافقين ﴿ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ في الدنيا على ذلك ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ على شَىْءٍ ﴾ من النفع أو يحسبون أنهم على شيء من النفع ثم بأيمانهم الكاذبة كما انتفعوا ههنا ﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون ﴾ حيث استوت حالهم فيه في الدنيا والآخرة .

﴿ استحوذ عَلَيْهِمُ الشيطان ﴾ استولى عليهم ﴿ فأنساهم ذِكْرَ الله ﴾ قال شاه الكرماني : علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من المآكل والمشارب والملابس ، ويشغل قلبه عن التفكر في آلاء الله ونعمائه والقيام بشكرها ،

ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبهتان ، ويشغل لبه عن التفكر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشيطان ﴾ جنده ﴿ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشيطان هُمُ الخاسرون ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِى الأذلين ﴾ في جملة من هو أذل خلق الله تعالى لا ترى أحداً أذل منهم ﴿ كتاب الله ﴾ في اللوح ﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ بالحجة والسيف أو بأحدهما ﴿ إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ ﴾ لا يمتنع عليه ما يريد ﴿ عَزِيزٌ ﴾ غالب غير مغلوب .

(150/753)

﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَادُّونَ ﴾ هو مفعول ثان ل ﴿ تَجِدُ ﴾ أو حال أو صفة ل ﴿ قَوْماً ﴾ وتجد بمعنى تصادف على هذا ﴿ مَنْ حَادَّ اللهَ ﴾ خالفه وعاداه ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ أي من الممتنع أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين ، والمراد أنه لا ينبغي أن يكون ذلك وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال مبالغة في الزجر عن مجانبة أعداء الله ومباعدتهم والاحتراز عن مخالطتهم ومعاشرتهم .

وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله ﴿ وَلَوْ كَانُواْ ءابَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إخوانهم أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

﴿ وبقوله ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإيمان ﴾ أي أثبته فيها وبمقابلة قوله ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشيطان ﴾ بقوله ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الله ﴾ ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مّنْهُ ﴾ أي بكتاب أنزله فيه حياة لهم ، ويجوز أن يكون الضمير للإيمان أي بروح من الإيمان على أنه في نفسه روح لحياة القلوب به .

وعن الثوري أنه قال : كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان .

وعن عبد العزيز بن أبي رواد أنه لقيه المنصور فلما عرفه هرب منه وتلاها .

وقال سهل : من صحح إيمانه وأخلص توحيده فإنه لا يأنس بمبتدع ولا يجالسه ويظهر له من نفسه العداوة ، ومن داهن مبتدعاً سلبه الله حلاوة السنن ، ومن أجاب مبتدعاً لطلب عز الدنيا أو غناها أذله الله بذلك العز وأفقره بذلك الغنى ، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه ، ومن لم يصدق فليجرب .

﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا رَضِىَ الله عَنْهُمْ ﴾ بتوحيدهم الخالص وطاعتهم ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ بثوابه الجسيم في الآخرة أو بما قضى عليهم في الدنيا ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الله ﴾ أنصار حقه ودعاة خلقه ﴿ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ المفلحون ﴾ الباقون في النعيم المقيم الفائزون بكل محبوب الآمنون من كل مرهوب . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 231 . 237 ﴾

وقال ابن جزى :

سورة المجادلة

﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾

نزلت الآية في خولة بنت حكيم ، وقيل خولة بنت ثعلبة ، وقيل خولة بنت خويلد ، وقيل : اسمها جميلة وكانت امرأة أوس بن الصامت الأنصاري أخي عبادة بن الصامت . فاظهر منها ، وكان الظهار في الجاهلية يوجب تحريماً مؤبداً ، " فلما فعل أوس ذلك جاءت امرأته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن أوساً أكل شبابي ونثرت له بطني ، فلما كبرت ومات أهلي ظاهر مني . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيتك إلى قد حرمت عليه ، فقالت : يا رسول الله لا تفعل إني وحيدة ، ليس لي أهل سواه ، فراجعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل مقالته فراجعته " فهذا هو جدالها ﴿ وتشتكي إِلَى الله ﴾ كانت تقول اللهمه : إني أشكو إليك حالي وانفرادي وفقري . وروي أنها كانت تقول : اللهم إن لي منه صبية صغاراً إن ضممتهم إليّ جاعوا ، وإن ضممتهم إليه ضاعوا ﴿ والله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمآ ﴾ المحاروة هي المراجعة في الكلام قالت عائشة رضي الله عنها : سبحان من وسع سمعه الأصوات ، لقد كنت حاضرة وكان بعض كلام خولة يخفى علي وسمع الله كلامها ، " ونزل القرآن في ذلك فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلى زوجها وقال له : أتعتق رقبة ؟ ، فقال : والله ما أملكها . فقال : أتصوم شهرين متتابعين ؟ ، فقال : والله ، ما أقدر ، فقال له : أتطعم ستين مسكيناً ؟ فقال : لا أجد إلا أن يعينني رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعونة وصلاة ، يريد الدعاء فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعاً وقيل : بثلاثين صاعاً ودعا له ، فكفّر بالإطعام وأمسك زوجته " .

(152/753)

﴿ الذين يُظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِّن نِّسَآئِهِمْ ﴾ قرئ يظاهرون بألف بعد الظاء وبحذفها وبالتشديد والتخفيف والمعنى واحد وهو إيقاع الظهار ، والظهار المجموع عليه هو أن يقول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، ويجري مجرى ذلك عند مالك تشبيه الزوجة بكل امراة محرّمة على التأبيد ، كالبنت والأخت وسائر المحرمات بالنسب ، والمحرمات بالرضاع والمصاهرة ، سواء ذكر لفظ الظهر أو لم يذكره كقوله : أنت علي كأمي أو كبطن أمي أويدها أو رجلها خلافاً للشافعي فإن ذلك كله عنده ليس بظهار . لأنه وقف عند لفظ الآية وقاس مالك عليها لأنه رأى أن المقصد تشبيه حلال بحرام ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ رد الله بهذا على من كان يوقع الظهار ويعتقده حقيقة ، وأخبر تعالى : أن تصير الزوجة إمّا

باطل ، فإن الأم في الحقيقة إنما هي الوالدة ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ القول وَزُوراً ﴾ أخبر تعالى أن الظهار منكر وزور ، فالمنكر هو الذي لا تعرف له حقيقة ، والزور هو الكذب . وإنما جعله كذباً لأن المظاهر يصيّر امرأته كأمه . وهي لا تصير كذلك أبداً . والظهار محرم ويدل على تحريمه أربعة أشياء ؛ أحدها قوله تعالى : ما هن أمهاتهم فإن ذلك تكذيب للمظاهر . والثاني أنه سماه منكراً . والثالث أنه سماه زوراً . الرابع قوله : وإن الله لعفو غفور ، فإن العفو والمغفرة لا تقع إلا على ذنب وهو مع ذلك لازم للمظاهر حتى يرفعه بالكفارة .

(153/753)

﴿ والذين يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ جعل الله الكفاكرة في الظهار على ثلاثة أنواع مرتبة لا ينتقل إلى الثاني حتى يعجز عن الأول ولا ينتقل إلى الثالث حتى يعجز عن الثاني ؛ فالأول : تحرير رقبة . الثاني صيام شهرين متتابعين . والثالث إطعام ستين مسكيناً والطعام يكون من غالب قوت البلد ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ مذهب مالك والجمهور أن المسيس هنا يراد به الوطء وما دونه من اللمس والتقبيل وفلا يجوز للمظاهر أن يفعل شيئاً من ذلك حتى يكفر ، ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُواْ ﴾ قال ابن عطية :

الإشارة إلى الرخصة في النقل من التحرير إلى الصوم وقال الزمخشري : المعنى : ذلك البيان والتعليم لتؤمنوا ، وهذا أظهر لأنه أعم .

﴿ إِنَّ الذين يُحَآدُّونَ الله ﴾ أي يخالفون ويعادون ﴿ كُبِتُواْ ﴾ أي هلكوا وقيل : لعنوا وقيل : كبت الرجل إذا بقي خزيان ونزلت الآية في المنافقين واليهود .

﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثَلاَثَةٍ ﴾ يحتمل أن يكون النجوى هنا بمعنى الكلام الخفي ، فيكون ثلاثة مضاف إليه بمعنى الجماعة من الناس فيكون ثلاثة بدل أو صفة ، والأول أحسن ﴿ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ يعني بعلمه وإحاطته ، وكذلك سادسهم ، وهو معهم إينما كانوا .

(154/753)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نُهُواْ عَنِ النجوى ﴾ نزل في قوم من اليهود كانوا يتناجون فيما بينهم ويتغامزون على المؤمنين فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فعادوا ، وقيل : نزلت في المنافقين ، والأول أرجح لقوله : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ الله ﴾ لأن هذا من فعل اليهود والأحسن أن المراد اليهود والمنافقين معاً لقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين تَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ الله عَلَيْهِم ﴾ [المجادلة : 14] فنزلت الآية في الطائفتين ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ الله ﴾ "كانت اليهود يأتوت رسول الله صلى الله عليه وسلم

فيقولون : السام عليك يا محمد بدلاً من السلام عليكم . والسام : الموت . وهو ما أرادوه بقولهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله لهم : وعليكم . فسمعتهم عائشة يوماً فقالت : بل عليكم السام واللعنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهلاً يا عائشة إن الله يكره الفحش والتفحش فقالت : أما سمعت ما قالوا ؟ قال : أما سمعت ما قلت لهم إني قلت : وعليكم " ويريد بقوله ﴿ لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ ﴾ قوله تعالى : ﴿ قُلِ الحمدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾ [النمل : 59] ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ ﴾ كانوا يقولون : لو كان نبياً لعذبنا الله بإذايته فقال : الله : ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي يكفيهم ذلك عذاباً .

﴿ إِنَّمَا النجوى مِنَ الشيطان لِيَحْزُنَ الذين آمَنُواْ ﴾ قيل : يعني النجوى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وحذف وصفها بذلك لدلالة الأول عليه وقيل : أراد نجوى اليهود والمنافقين ويؤيد هذا قوله : ﴿ لِيَحْزُنَ الذين آمَنُواْ ﴾ .

﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي المجالس فافسحوا ﴾ اختلف في سبب نزول الآية فقيل : نزلت في مقاعد الحرب والقتال ، وقيل : نزلت بسبب ازدحام الناس ، في مجلس رسول الله

صلى الله عليه وسلم وحرصهم على القرب منه ، وقيل : أقام النبي صلى الله عليه وسلم قوماً ليُجلسَ أشياخاً من أهل بدر في مواضعهم ، فنزلت الآية . ثم اختلفوا هل هي مقصورة على مجلس النبي صلى الله عليه وسلم أو هي عامة في جميع المجالس ؟ فقال قوم إنها مخصوصة ويدل على ذلك قراءة المجلس بالإفراد ، وذهب الجمهور إلى أنها عامة ويدل على ذلك قراءة المجالس بالجمع ، وهذا هو الأصح ويكون المجلس بالإفراد على هذا للجنس ، والتفسيح المأمور به هو التوسع دون القيام ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يقم أحد من مجلسه ثم يجلس الرجل فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا " وقد اختلف في هذا النهي عن القيام من المجلس لأحد هل هو على التحريم أو الكراهة ﴿ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي يوسع لكم في جنته ورحمته ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشزوا فَانشُزُواْ ﴾ إي إذا قيل لكم : ارتفعوا وقوموا فافعلوا ذلك ، واختلف في هذا النشوز المأمور به فقيل : إذا دعوا إلى قتال أو صلات أو فعل طاعةٍ ، وقيلاً : إذا أُمروا بالقيام من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان يحب الانفراد أحياناً ، وربما جلس قوم حتى يؤمروا بالقيام ، وقيل : المراد القيام في المجلس للتوسع .

﴿ يَرْفَعِ الله الذين آمَنُوا مِنكُمْ والذين أُوتُوا العلم دَرَجَاتٍ ﴾ فيها قولان أحدهما : يرفع الله المؤمنين العلماء درجات فقوله : ﴿ والذين أُوتُوا العلم دَرَجَاتٍ ﴾ صفة للذين آمنوا كقوله : جاءني العاقل الكريم ، وأنت تريد رجلاً واحداً ، والثاني : يرفع الله المؤمنين والعلماء الصنفين جميعاً درجات ، فالدرجات على الأول للمؤمنين بشرط أن يكون علماء ، وعلى الثاني للمؤمنين الذين ليسوا علماء ، وللعلماء أيضاً ولكن بين درجات العلماء وغيرهم تفاوت يوجد في موضع آخر كقوله صلى الله عليه وسلم " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب " ، وقوله عليه الصلاة والسلام : " فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلاً " وقوله عليه السلام : " يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء " فإذا كان لهم فضل على العابدين والشهداء ، فما ظنك بفضلهم على سائر المؤمنين .

(157/753)

﴿ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرسول فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ قال ابن عباس : سببها أن قوماً من شبان المسلمين كثرت مناجاتهم للنبي صلى الله عليه وسلم في غير حاجة ، لتظهر منزلتهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم سمحاً لا يرد أحداً ، فنزلت الآية مشددة في أمر

المناجاة ، وقيل : سببها أن الأغنياء غلبوا الفقراء على مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذه الآية منسوخة باتفاق ، نسخها قوله بعدها : ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ الآية : فأباح الله لهم المناجاة دون تقديم صدقة ، بعد أن كانت أوجب تقديم الصدقة قبل مناجاته عليه السلام ، واختلف هل كان هذا النسخ بعد أن عمل بالآية أم لا ؟ فقال قوم : لم يعمل بها أحد وقال قوم : عمل بها عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه روي أنه كان له دينار فصرفه بعشرة دراهم وناجاه عشر مرات ، تصدق في كل مرة منها بدرهم وقيل : تصدق في كل مرة بدينار ، ثم أنزل الله الرخصة لمن كان قادراً على الصدقة ، وأما من لم يجد فالرخصة لم تزل ثابتة له بقوله : فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ﴿ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ التوبة هنا يراد بها عفو الله عنهم في تركهم للصدقة التي أمروا بها ، أو تخفيفها بعد وجوبها ﴿ فَأَقِيمُوا الصلاة وَآتُوا الزكاة ﴾ أي دُوموا على هذه الأعمال التي هي قواعد شرعكم ، دون ما كنتم قد كلفتم من الصدقة عند المناجاة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين تَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ نزلت في قوم من المنافقين تولوا قوماً من اليهود ، وهم الذين غضب الله عليهم ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ ﴾ يعني أن المنافقين ليسوا

من المسلمين ، ولا من اليهود فهو كقوله فيهم : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلك لاَ إلى هؤلاء وَلاَ إِلَى هؤلاء ﴾ [النساء : 143] ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني أن المنافقين كانوا إذا عوتبوا على سوء أقوالهم وأفعالهم حلفوا أنهم ما قالوا ، ولا فعلوا وقد صدر ذلك منهم مراراً كثيرة وهي مذكورة في السير وغيرها .

﴿ اتخذوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ أصل الجنة ما يستتر به ويتقى به المحذور كالترس ، ثم استعمل هنا استعارة لأنهم كانوا يظهرون الإسلام لتعصم دماءهم وأموالهم ، وقرئ اتخذوا بكسر الهمزة .

﴿ استحوذ عَلَيْهِمُ الشيطان ﴾ أي غلب عليهم وتملك نفوسهم ﴿ فِي الأذلين ﴾ أي في جملة الأذلين . أي معهم ﴿ كَتَبَ الله ﴾ أي قضى وقدر .

(159/753)

﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً ﴾ الآية : معناها لا تجد مؤمناً يحب كافراً ولو كان أقرب الناس إليه ، وهذه حال المؤمن الصادق الإيمان ، ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يقاتلون آباءهم وأبناءهم وإخوانهم إذا كانوا كفاراً ، فقد قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه يوم أحد ، وقتل مصعب بن عمير أخاه عزيزاً بن عمير يوم أحد ، ودعا أبو بكر الصديق ابنه يوم بدر للبراز

فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يقعد ، وقيل : إن الآية نزلت في حاطب حين كتب إلى المشركين يخبرهم بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأحسن أنها على العموم ، وقيل : نزلت فيمن يصحب السلطان وذلك بعيد ﴿ يُوَآدُّونَ ﴾ هذه مفاعلة من المودّة فتقضي أن المودّة من الجهتين ﴿ مَنْ حَآدَّ اللهَ ﴾ أي عاداه وخالفه ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان ﴾ أي أثبته فيها كأنه مكتوب ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أي بلطف وهدى وتوفيق وقيل بالقرآن ، وقيل بجبريل ﴿ أولئك حِزْبُ اللهِ ﴾ هذه في مقابلة قوله : أولئك حزب الشيطان ، والحزب هم الجماعة المتحزبون لمن أضيفوا إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 101 .106 ﴾

(160/753)

وقال البيضاوى :

سورة المجادلة

مدنية وقيل العشر الأول مكي والباقي مدني ، وآيها اثنتان وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللهِ ﴾ روي أن خولة بنت

ثعلبة ظاهر عنها زوجها أوس بن الصامت ، فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " حرمت عليه " ، فقالت : ما طلقني فقال : " حرمت عليه " ، فاغتمت لصغر أولادها وشكت إلى الله تعالى فنزلت هذه الآيات الأربع ، وقد تشعر بأن الرسول عليه الصلاة والسلام أو المجادلة يتوقع أن الله يسمع مجادلتها وشكواها ويفرج عنها كربها ، وأدغم حمزة والكسائي وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر دالها في السين . ﴿ والله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُما ﴾ تراجعكما الكلام وهو على تغليب الخطاب . ﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ للأقوال والأحوال .

﴿ الذين يظاهرون مِنكُمْ مّن نّسَائِهِمْ ﴾ الظهار أن يقول الرجل لامرأته أنت عليّ كظهر أمي مشتق من الظهر ، وألحق به الفقهاء تشبيهها بجزء أنثى محرم ، وفي ﴿ مّنكُمْ ﴾ تهجين لعادتهم فيه فإنه كان من إيمان أهل الجاهلية ، وأصل ﴿ يظاهرون ﴾ يتظاهرون وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي "يظاهرون" من أظاهر وعاصم ﴿ يظاهرون ﴾ من ظاهر . ﴿ مَّا هُنَّ أمهاتهم ﴾ أي على الحقيقة . ﴿ إِنْ أمهاتهم إِلاَّ اللائى وَلَدْنَهُمْ ﴾ فلا تشبه بهن في الحرمة إلا من ألحقها الله بهن كالمرضعات وأزواج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن عاصم أمهاتهم بالرفع على لغة بني تميم ، وقرىء ب "أمهاتهم" وهو أيضاً على لغة من ينصب . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مّنَ القول ﴾ إذ الشرع أنكره . ﴿ وَزُوراً ﴾ منحرفاً

عن الحق فإن الزوجة لا تشبه الأم . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ لما سلف منه مطلقاً ، أو إذا تيب عنه .

(161/753)

﴿ والذين يظاهرون مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ أي إلى قولهم بالتدارك ومنه المثل : عاد الغيث على ما أفسد ، وهو بنقض ما يقتضيه وذلك عند الشافعي بإمساك المظاهر عنها في النكاح زماناً يمكنه مفارقتها فيه ، إذ التشبيه يتناول حرمته لصحة استثنائها عنه وهو أقل ما ينتقض به . وعند أبي حنيفة باستباحة استمتاعها ولو بنظرة شهوة . وعند مالك بالعزم على الجماع ، وعند الحسن بالجماع . أو بالظهار في الإِسلام على أن قوله ﴿ يظاهرون ﴾ بمعنى يعتادون الظهار إذ كانوا يظاهرون في الجاهلية ، وهو قول الثوري أو بتكراره لفظاً وهو قول الظاهرية ، أو معنى بأن يحلف على ما قال وهو قول أبي مسلم أو إلى المقول فيها بامساكها ، أو استباحة استمتاعها أو وطئها . ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أي فعليهم أو فالواجب اعتاق رقبة والفاء للسببية ، ومن فوائدها الدلالة على تكرر وجوب التحرير بتكرر الظهار ، والرقبة مقيدة بالإِيمان عندنا قياساً على كفارة القتل . ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ أن يستمتع كل من المظاهر عنها بالآخر لعموم اللفظ ومقتضى التشبيه ، أو أن

يجامعها وفيه دليل على حرمة ذلك قبل التكفير. ﴿ ذلكم ﴾ أي ذلكم الحكم بالكفارة.

﴿ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ لأنه يدل على ارتكاب الجناية الموجبة للغرامة ويردع عنه. ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ لا تخفى عليه خافية.

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ أي الرقبة والذي غاب ماله واجد. ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ فإن أفطر بغير عذر لزمه الاستئناف وإن أفطر لعذر ففيه خلاف، وإن جامع المظاهر عنها ليلاً لم ينقطع التتابع عندنا خلافاً لأبي حنيفة ومالك رضي الله تعالى عنهما. ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ﴾ أي الصوم لهرم أو مرض مزمن أو شبق مفرط فإنه صلى الله عليه وسلم رخص للأعرابي المفطر أن يعدل لأجله.

(162/753)

﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ ستين مداً بمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو رطل وثلث لأنه أقل ما قيل في الكفارات وجنسه المخرج في الفطرة، وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يعطي كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من غيره، وإنما لم يذكر التماس مع الطعام اكتفاء بذكره مع الآخرين، أو لجوازه في خلال الإطعام كما قال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه. ﴿ ذلك ﴾ أي ذلك البيان أو التعليم للأحكام ومحله النصب بفعل معلل بقوله

: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، أي فرض ذَلِكَ لتصدقوا بالله وَرَسُولِهِ في قبول شرائعهِ ورفض مَا كُنتُمْ عَلَيْهِ في جاهليتكم ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾ لا يجوز تعديها . ﴿ وللكافرين ﴾ أي الذين لا يقبلونها . ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هو نظير قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنِ العالمين ﴾ ﴿ إِنَّ الذين يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعادونهما فإن كلاًّ من المتعادين في حد غير حد الآخر ، أو يضعون أو يختارون حدوداً غير حدودهما . ﴿ كُبِتُواْ ﴾ أخزوا وأهلكوا وأصل الكبت الكب . ﴿ كَمَا كُبِتَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني كفار الأمم الماضية . ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا ءايات بينات ﴾ تدل على صدق الرسول وما جاء به . ﴿ وللكافرين عَذَابٌ مٌّهِينٌ ﴾ يذهب عزهم وتكبرهم .

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ ﴾ منصوب ب ﴿ مٌّهِينٌ ﴾ أو بإضمار اذكر . ﴿ جَمِيعاً ﴾ كلهم لا يدع أحداً غير مبعوث أو مجتمعين . ﴿ فَيُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أي على رؤوس الأشهاد تشهيراً لحالهم وتقريراً لعذابهم . ﴿ أحصاه اللهُ ﴾ أحاط به عدداً لم يغب منه شيء .

﴿ وَنَسُوهُ ﴾ لكثرته أو تعاونهم به . ﴿ والله على كُلّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ لا يغيب عنه شيء .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ كلياً وجزئياً . ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثلاثة ﴾ أي ما يقع من تناجي ثلاثة ، ويجوز أن يقدر مضاف أو يؤول ﴿ نجوى ﴾ بمتناجين ويجعل ﴿ ثلاثة ﴾ صفة لها ، واشتقاقها من النجوة وهي ما ارتفع من الأرض فإن السر أمر مرفوع إلى الذهن لا يتيسر لكل أحد أن يطلع عليه . ﴿ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ إلا الله يجعلهم أربعة من حيث أنه يشاركهم في الاطلاع عليها ، والاستثناء من أعم الأحوال .

﴿ وَلاَ خَمْسَةٍ ﴾ ولا نجوى خمسة . ﴿ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ وتخصيص العددين إما لخصوص الواقعة فإن الآية نزلت في تناجي المنافقين ، أو لأن الله تعالى وتر يحب الوتر ، والثلاثة أول الأوتار أو لأن التشاور لا بد له من اثنين يكونان كالمتنازعين وثالث يتوسط بينهما ، وقرىء ﴿ ثلاثة ﴾ و ﴿ خَمْسَةٍ ﴾ بالنصب على الحال بإضمار ﴿ يتناجون ﴾ أو تأويل ﴿ نجوى ﴾ بمتناجين . ﴿ وَلاَ أدنى مِن ذَلِكَ ﴾ ولا أقل مما ذكر كالواحد والاثنين . ﴿ وَلاَ أَكْثَرَ ﴾ كالستة وما فوقها . ﴿ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ ﴾ يعلم ما يجري بينهم . وقرأ يعقوب ولا أكثر بالرفع عطفاً على محل من ﴿ نجوى ﴾ أو محل لا أدنى بأن جعلت لا لنفي الجنس . ﴿ أَيْنَمَا كَانُواْ ﴾ فإن علمه بالأشياء ليس لقرب مكاني حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة . ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ القيامة ﴾ تفضيحاً لهم وتقريراً لما يستحقونه من الجزاء . ﴿ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للعلم إلى الكل على السواء .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نُهُواْ عَنِ النجوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ ، نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عادوا لمثل فعلهم . ﴿ ويتناجون بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَتِ الرسول ﴾ أي بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول ، وقرأ حمزة "وينتجون" وهو يفتعلون من النجوى وروي عن يعقوب مثله . ﴿ وَإِذَا جَاءوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيّكَ بِهِ الله ﴾ فيقولون السام عليك ، أو أنعم صباحاً والله تعالى يقول : ﴿ وسلام على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ ﴾ فيما بينهم . ﴿ لَوْلاَ يُعَذّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ ﴾ هلا يعذبنا الله بذلك لو كان محمد نبياً . ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ عذاباً . ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلونها . ﴿ فَبِئْسَ المصير ﴾ جهنم .

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ كما يفعله المنافقون وعن يعقوب "فلا تنتجوا" . ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ بما يتضمن خير المؤمنين والاتقاء عن معصية الرسول . ﴿ واتقوا الله الذى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فيما تأتون وتذرون فإنه مجازيكم عليه .

﴿ إِنَّمَا النجوى ﴾ أي النجوى بالإثم والعدوان. ﴿ مِنَ الشيطان ﴾ فإنه المزين لها والحامل عليها. ﴿ لِيَحْزُنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ بتوهمهم أنها في نكبة أصابتهم. ﴿ وَلَيْسَ ﴾ أي الشيطان أو التناجي. ﴿ بِضَارّهِمْ ﴾ بضار المؤمنين. ﴿ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ إلا بمشيئته. ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ ولا يبالوا بنجواهم.

(165/753)

﴿ ا يا أيها الذين ءَامَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى المجالس ﴾ توسعوا فيه وليفسح بعضكم عن بعض من قولهم: افسح عني أي تنح، وقرىء "تفاسحوا" والمراد بالمجلس الجنس ويدل عليه قراءة عاصم بالجمع، أو مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا يتضامون به تنافساً على القرب منه وحرصاً على استماع كلامه. ﴿ فافسحوا يَفْسَحِ الله لَكُمْ ﴾ فيما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق والصدر وغيرها. ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشزوا ﴾ انهضوا للتوسعة أو لما أمرتم به كصلاة أو جهاد، أو ارتفعوا عن المجلس. ﴿ فَانشُزُواْ ﴾ وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بضم الشين فيهما. ﴿ يَرْفَعِ الله الذين ءامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ بالنصر وحسن الذكر في الدنيا، وإيوائهم غرف الجنان في الآخرة. ﴿ والذين أُوتُواْ العلم درجات ﴾ ويرفع العلماء منهم خاصة درجات بما جمعوا من العلم والعمل، فإن العلم مع

علو درجته يقتضي العمل المقرون به مزيد رفعة ، ولذلك يقتدى بالعالم في أفعاله ولا يقتدى بغيره . وفي الحديث " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب "

﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ تهديد لمن لم يتمثل الأمر أو استكرهه .

﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا نَاجيتم الرسول فَقَدّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نجواكم صَدَقَةً ﴾ فتصدقوا قدامها مستعار ممن له يدان ، وفي هذا الأمر تعظيم الرسول وإنفاع الفقراء والنهي عن الإِفراط في السؤال ، والميز بين المخلص والمنافق ومحب الآخرة ومحب الدنيا ، واختلف في أنه للندب أو للوجوب لكنه منسوخ بقوله : ﴿ ءأشفقتم ﴾ وهو وإن اتصل به تلاوة لم يتصل به نزولاً .

(166/753)

وعن علي كرم الله وجهه إن في كتاب الله آية ما عمل بها أحد غيري ، كان لي دينار فصرفته فكنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم . وهو على القول بالوجوب لا يقدح في غيره فلعله لم يتفق للأغنياء مناجاة في مدة بقائه ، إذ روي أنه لم يبق إلا عشراً وقيل إلا ساعة . ﴿ ذلك ﴾ أي ذلك التصدق . ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ أي لأنفسكم من الريبة وحب المال وهو يشعر بالندبية لكن قوله : ﴿ فإن لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي لمن لم يجده حيث

رخص له في المناجاة بلا تصدق أدل على الوجوب .

﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نجواكم صدقات ﴾ أخفتم الفقر من تقديم الصدقة أو أخفتم التقديم لما يعدكم الشيطان عليه من الفقر وجمع ﴿ صدقات ﴾ لجمع المخاطبين ، أو لكثرة التناجي . ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بأن رخص لكم أن لا تفعلوه ، وفيه إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه لما رأى منهم مما قام مقام توبتهم وإذ على بابها وقيل بمعنى إذا أو إن . ﴿ فَأَقِيمُوا۟ الصلاة وَآتُوا۟ الزكوة ﴾ . فلا تفرطوا في أدائهما . ﴿ وَأَطِيعُوا۟ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في سائر الأوامر ، فإن القيام بها كالجابر للتفريط في ذلك . ﴿ والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ظاهراً وباطناً .

(167/753)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين تَوَلَّوْا۟ ﴾ والوا . ﴿ قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني اليهود . ﴿ مَّا هُم مّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ ﴾ لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك . ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب ﴾ وهو ادعاء الإسلام . ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أن المحلوف عليه كذب كمن يحلف بالغموس ، وفي هذا التقييد دليل على أن الكذب يعم ما يعلم المخبر عدم مطابقته وما لا يعلم . وروي أنه عليه الصلاة والسلام كان في حجرة من حجراته فقال " يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب

جبار وينظر بعين شيطان ، فدخل عبد الله بن نبتل المنافق وكان أزرق فقال عليه الصلاة والسلام له : علام تشتمني أنت وأصحابك ، فحلف بالله ما فعل ثم جاء بأصحابه فحلفوا فنزلت " .

﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ نوعاً من العذاب متفاقماً . ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فتمرنوا على سوء العمل وأصروا عليه .

﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ أي التي حلفوا بها ، وقرىء بالكسر أي "أيمانهم" الذي أظهروه . ﴿ جُنَّةً ﴾ وقاية دون دمائهم وأموالهم . ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ فصدوا الناس في خلال أمنهم عن دين الله بالتحريش والتثبيط . ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وعيد ثان بوصف آخر لعذابهم . وقيل الأول عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة .

﴿ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أموالهم وَلاَ أولادهم مّنَ اللهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ قد سبق مثله .

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ ﴾ أي لله تعالى على أنهم مسلمون . ﴿ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ في الدنيا ويقولون إنهم لمنكم . ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَىْءٍ ﴾ في حلفهم

الكاذب لأن تمكن النفاق في نفوسهم بحيث يخيل إليهم في الآخرة أن الأيمان الكاذبة تروج الكذب على الله كما تروجه عليكم في الدنيا . ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون ﴾ البالغون الغاية في الكذب حيث يكذبون مع عالم الغيب والشهادة ويحلفون عليه .

﴿ استحوذ عَلَيْهِمُ الشيطان ﴾ استولى عليهم من حذت الإبل وأحذتها إذا استوليت عليها ، وهو مما جاء على الأصل . ﴿ فأنساهم ذِكْرَ الله ﴾ لا يذكرونه بقلوبهم ولا بألسنتهم . ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشيطان ﴾ جنوده وأتباعه . ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشيطان هُمُ الخاسرون ﴾ لأنهم فوتوا على أنفسهم النعيم المؤبد وعرضوها للعذاب المخلد .

﴿ إِنَّ الذين يُحَادُّونَ الله وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِى الأذلين ﴾ في جملة من هو أذل خلق الله .

﴿ كَتَبَ الله ﴾ في اللوح . ﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ أي بالحجة ، وقرأ نافع وابن عامر "رُسُلِى" بفتح الياء . ﴿ إِنَّ الله قَوِىٌّ ﴾ على نصر أنبيائه . ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يغلب عليه شيء في مراده .

(169/753)

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ ﴾ أي لا ينبغي أن تجدهم وادين أعداء الله ، والمراد أنه لا ينبغي أن يوادوهم . ﴿ وَلَوْ كَانُواْ ءَابَاءهُمْ أَوْ

أَبْنَاءهُمْ أَوْ إخوانهم أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ ولو كان المحادون أقرب الناس إليهم . ﴿ أولئك ﴾ أي الذين لم يوادوهم . ﴿ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإيمان ﴾ أثبته فيها ، وهو دليل على خروج العمل من مفهوم الإيمان ، فإن جزء الثابت في القلب يكون ثابتاً فيه ، وأعمال الجوارح لا تثبت فيه . ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مّنْهُ ﴾ أي من عند الله وهو نور القلب أو القرآن ، أو بالنصر على العدو . قيل الضمير ل ﴿ الإيمان ﴾ فإنه سبب لحياة القلب . ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا رَضِىَ الله عَنْهُمْ ﴾ بطاعتهم . ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ بقضائه أو بما وعدهم من الثواب . ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الله ﴾ جنده وأنصار دينه . ﴿ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ المفلحون ﴾ الفائزون بخير الدارين .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة " .

(1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 315.370 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1) ﴾

(171/753)

التفسير : عن عائشة قالت : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد كلمت المجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم في جانب البيت وأنا عنده لا أسمع وقد سمع الله لها . وعن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخلت عليه أكرمها وقال : قد سمع الله لها أي أجاب وهي خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت أخي عبادة . ورآها وهي تصلي وكانت حسنة الجسم فلما سلمت راودها فأبت فغضب وكان به حدة فظاهر منها ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن أوساً تزوّجني وأنا شابة مرغوب فيّ ، فلما كبر سني ونثرت بطني أي كثر منه ولدي جعلني منه كأمه . وفي رواية أنها قالت : إن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا . فقال صلى الله عليه وسلم لها : ما عندي في أمرك شيء . وروي أنه قال لها مراراً : حرمت عليه . وهي تقول : أشكو إلى الله فاقتي ووجدي فنزلت . ومعنى ﴿ في زوجها ﴾ في شأنه ومعنى " قد "

في ﴿ قد سمع الله ﴾ التوقع لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله عز وجل مجادلتها وشكواها وينزل في شأنها ما يفرج عنها . والتحاور التراجع في الكلام وفي الآية دلالة على أن من انقطع رجاؤه عن الخلق كفاه الله همه . "يروى أنه صلى الله عليه وسلم أرسل إلى زوجها وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : الشيطان ، فهل من رخصة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : نعم وقرأ عليه الآيات الأربع وقال صلى الله عليه وسلم له : هل تستطيع العتق ؟ فقال : لا والله . فقال : فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً ؟ فقال : لا والله يا رسول الله إلا أن تعينني منك بصدقة فأعانه بخمسة عشر صاعاً وأخرج أوس من عنده مثله فتصدق به على ستين" وعلم أن الظهار كان من أشد طلاق الجاهلية لأنه في التحريم غاية فإن كان شرعاً متقدماً فالآية ناسخة له ولا سيما فيمن روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : حرمت عليه . وإن كان عادة الجاهلية فلا نسخ لأن النسخ لا

(172/753)

يوجد إلا في الشرائع . ثم إنه سبحانه وبخ العرب أوّلاً بقوله ﴿ الذين يُظاهِرُونَ منكم ﴾ ثم بين الحكم العام في الآية الثانية ولهذا لم يورد لفظة منكم ونحن نبني تفسير الآية على أبحاث

الأول في معنى الظهار وهو عبارة عن قول الرجل لامرأته " أنت عليّ كظهر أمي " فاشتقاقه من الظهر .

وقال صاحب النظم : ليس الظهر بذلك أولى في يهذا المطلوب من سائر الأعضاء التي هي موضع التلذذ فهو مأخوذ من ظهر إذا علا وغلب وبه سمي المركوب ظهراً لأن راكبه يعلوه ، وكذلك امرأة الرجل مركبه وظهر له . والدليل على صحة هذا المعنى أن العرب تقول في الطلاق : نزلت عن امرأتي أي طلقتها . وفي لفظ الظهار إضمار والتقدير : ظهرك عليّ أي علوي وركوبي عليك حرام علي كعلو أمي . ثم لا مناقشة بين العلماء في الصلات فلو قال : أنت معي أو عندي أو مني أو لي كظهر أمي صح ظهاره . وكذا لو ترك الصلات كلها وقال : أنت كظهر أمي كما أن قوله " أنت طالق " صريح وإن لم يقل " مني " أما إذا شبهها بغير الظهر فذهب الشافعي إلى أن ذلك العضو إن كان مشعراً بالإكرام كقوله أنت علي كروح أمي أو عين أمي صح ظهاره إن أراد الظهار لا الإكرام وإلا فلا . وإن لم ينو شيئاً ففيه قولان ، وإن لم يكن مشعراً بالكرامة كقوله أنت كرجل أمي أو كيدها أو بطنها ففي الجديد ظهار ، وفي القديم لا ، وقد يرجح هذا البراءة الأصلية . وقال أبو حنيفة : إن شبهها بعضو من الأم يحل له النظر إليه كاليد أو الرأس لم يكن ظهاراً ، وإن شبهها بعضو يحرم النظر إليه كالبطن والفخذ كان ظهاراً . وفي التشبيه بالمحرمات الأخر من النسب أو الرضاع سوى الأم في

الجديد وعليه أبو حنيفة أنه ظهار لعموم قوله ﴿ يظاهرون ﴾ ومن قصره على الأم احتج بقوله بعده ﴿ ما هنّ أمهاتهم ﴾ وبأن حرمة الأم أشد .

(173/753)

البحث الثاني في المظاهر وفيه مسائل : الأولى : قال الشافعي : كل من صح طلاقه صح ظهاره وإن كان خصياً أو مجبوباً ، ويتفرع عليه أن ظهار الذمي صحيح . حجة الشافعي عموم قوله تعالى ﴿ والذين يظاهرون ﴾ وأيضاً تأثير الظهار في التحريم والذمي أهل لذلك بدليل صحة طلاقه . وأيضاً إيجاب الكفارة للزجر عن هذا الفعل الذي هو منكر من القول وزور وهذا المعنى قائم في حق الذمي . وقال أبو حنيفة ومالك : لا يصح ظهاره . واحتج أبو بكر الرازي لهما بأن قوله ﴿ والذين يظاهرون منكم ﴾ خطاب للمؤمنين . وأيضاً من لوازم الظهار تصحيح وجوب الصوم على العائد العاجز عن الإعتاق وإيجاب الصوم على الذمي ممتنع لأنه مع الكفر باطل ، وبعد الإسلام غير لازم لأنه يجب ما قبله . وأجيب عن الأول بأن قوله ﴿ منكم ﴾ خطاب للحاضرين فلم قلتم : إنه يختص بالمؤمنين ؟ على أن التخصيص بالذكر عندكم لا يدل على نفي ما عداه . وأيضاً العام عندكم إذا أورد بعد الخاص كان ناسخاً للخاص . وعن الثاني أن من لوازم الظهار أيضاً أنه حين عجز عن الصوم

اكتفي منه بالإطعام فهو ههنا إن تحقق العجز وجب أن يكتفي فيه بالإطعام ، وإن لم يتحقق العجز زال السؤال .

(174/753)

وأيضاً الصوم بدل عن الإعتاق والبدل أضعف عن المبدل . ثم إن العبد عاجز عن الإعتاق مع أنه يصح ظهاره بالاتفاق فإذا كان فوات أقوى اللازمين لا يوجب منع الظهار ففوات الأضعف كيف يمنع ؟ وقال القاضي حسين من أصحاب الشافعي في الجواب : نقول للذمي إن أردت الخلاص من التحريم فأسلم وصم قوله الإسلام يجب ما قبله . قلنا : إنه عام والتكفير خاص والخاص مقدّم على العام . الثانية قال مالك وأبو حنيفة والشافعي : لا يصح ظهار المرأة من زوجها وهو ظاهر ولو قال شهراً فقد قال أبو حنيفة والشافعي : بطل ظهاره بمضي المدة وكان قبل ذلك صحيحاً لما روي أن سلمة بن صخر ظاهر من امرأته حتى ينسلخ رمضان ثم وطئها في المدة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بتحرير رقبة . وأما بطلان ظهاره بعد المدة فلمقتضى اللفظ كما في الأيمان . فإذا مضت المدة حل الوطء لارتفاع الظهار وبقيت الكفارة في ذمته . وقال مالك وابن أبي ليلى : هو مظاهر أبداً .

(175/753)

البحث الثالث في المظاهر عنها . ويصح الظهار عن الصغيرة والمجنونة والأمة المتزوّجة والذمية والرتقاء والحائض والنفساء ، ولا يصح عن الأجنبية سواء أطلق أو علق بالنكاح فقال " إذا نكحتك فأنت عليّ كظهر أمي " . ويصح عن الرجعية ولا يصح عن الأمة وأم الولد عند أبي حنيفة والشافعي لأن قوله تعالى ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ﴾ يتناول الحرائر دون الاماء كما في قوله ﴿ أو نسائهن ﴾ [النور : 31] بدليل أنه عطف عليه قوله ﴿ أو ما ملكت أيمانهن ﴾ [النور : 31] وقال مالك والأوزاعي : يصح لأن قوله ﴿ من نسائهم ﴾ يشمل ملك اليمين لغة . وفي الآية سؤال وهو أن المظاهر شبّه الزوجة بالأم ولم يقل إنها أم فيكف أنكر الله عليه بقوله ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ وحكم بأنه منكر وزور ؟ والجواب أن قوله " أنت عليّ كظهر أمي " إن كان إخباراً فهو كذب لأن الزوجة حلال والأم حرام وتبشيه المحللة بالمحرمة في وصف الحل والحرمة كذب ، وإن كان إنشاء كان معناه أن الشرع جعله سبباً في حصول الحرمة ، ولما لم يرد الشرع بهذا السبب كان الحكم به كذباً وزوراً ولهذا أوجب الله سبحانه الكفارة على صاحب القول بعد العود . سؤال آخر قوله تعالى ﴿ إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ﴾ ظاهره يقتضي أنه لا أم إلا الوالدة لكنه قال في موضع آخر ﴿ وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم ﴾ [النساء : 23] وقال ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب : 6] أجاب في الكشاف بأنه يريد أن الأمهات على الحقيقة إنما هن

الوالدات وغيرهن ملحقات بهن لدخولهن في حكمهن بسبب الإرضاع ، أو لكونها زوجة النبي صلى الله عليه وسلم الذي هو أبو الأمة . وأما الزوجات فلسن من أحد القبيلين وكان قول المظاهر منكراً لمخالفة الحقيقة وزوراً لعدم موافقة الشرع .

(176/753)

قوله ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ قال الفراء : لا فرق في اللغة بين قولك عاد لما قال وإلى ما قال وفيما قال . وقال أبو علي الفارسي : كلمة إلى واللام يتعاقبان قال الله تعالى ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ [الأعراف : 43] وقال ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ [الصافات : 23] وقال أهل اللغة : إذا قال قائل عاد لما فعل جاز أن يريد أنه فعله مرة أخرى وهذا ظاهر ، وجاز أن يريد أن نقض ما فعل لأن التصرف في الشيء بالإعدام لا يمكن إلا بالعودة إليه ، وإلى هذا ذهب أكثر المجتهدين إلا أن الشافعي قال : معنى العود لما قالوا السكوت عن الطلاق قعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلقها فيه ، وذلك أنه لما ظاهر فقد قصد التحريم فإن وصل ذلك بالطلاق فقد تمم ما شرع فيه من إيقاع التحريم ولا كفارة عليه ، فإذا سكت عن الطلاق دل على أنه ندم على ما ابتدأه من التحريم فحينئذ تجب عليه الكفارة . واعترض أبو بكر الرازي في أحكام القرآن عليه من وجهين : الأول أنه تعالى قال

﴿ ثم يعودون ﴾ وكلمة " ثم " تقتضي التراخي . وعلى قول الشافعي يكون المظاهر عائداً عقيب القول بلا تراخ وهذا خلاف مفهوم الآية . الثاني أنه شبهها بالأم والأم لا يحرم إمساكها فلا يكون إمساك الزوجة نقضاً لما قال . وأجيب عن الأول بأنه يوجب أن لا يتمكن المظاهر من العود إليها بهذا التفسير عقيب فراغه من التلفظ بلفظ الظهار حتى يحصل التراخي مع أن الأمة مجمعة على أن له ذلك . والتحقيق أن العبرة بالحكم ونحن لا نحكم بالعود ما لم ينقض زمان يمكنه أن يطلقها فيه فقد تأخر كونه عائداً عن كونه مظاهراً بهذا القدر من الزمان وهذا يكفي في العمل بمقتضى كلمة " ثم " . وعن الثاني أن المراد إمساكها على سبيل الزوجية واللفظ محتمل لهذا وإمساك الأم بهذا الوجه محرم . وقال أبو حنيفة : معناه استباحة الوطء والملامسة والنظر إليها بالشهوة ، وذلك أنه لما شبهها بالأم في حرمة هذه الشياء ثم قصد استباحتها كان مناقضاً

(177/753)

لقوله " أنت عليّ كظهر أمي " . وقال مالك : العود إليها عبارة عن العزم على جماعها ، وضعف بأن العزم على جماعها لا يناقض كونها محرمة إنما المناقض لكونها محرمة هو القصد إلى استحلال جماعها فيرجع إلى قول أبي حنيفة . ولا يرد عليه إلا أنه خص وجه

التشبيه من غير دليل ، والذي ذكره الشافعي أعم وأقل ما يطلق عليه اسم العود فكان أولى . وعن طاوس والحسن أن العود إليها عبارة عن جماعها وخطىء لقوله ﴿ فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ﴾ وإذا كان التكفير قبل الجماع والتكفير لا يثبت إلا بعد العود فالعود غير الجماع .

وأما الاحتمال الأول وهو أن العود لما فعل هو فعلة مرة أخرى ففيه أيضاً وجوه : الأول : قول الثوري : إن العود هو الإتيان بالظهار في الإسلام وزيف بأنه يرجع حاصل المعنى إلى قوله ﴿ والذين ﴾ كانوا ﴿ يظاهرون من نسائهم ﴾ في الجاهلية ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ في الإسلام ﴿ فكفارته ﴾ كذا وكذا وهذا إضمار من غير دليل مع أنه خلاف الأصل . الثاني قال أبو العالية : إذا كرر لفظ الظهار فهو عود وإلا فلا . وضعف بحديث أوس وحديث سلمة بن صخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لزمهما الكفارة مع أنهما لم يكررا الظهار . الثالثة : قال أبو مسلم الأصفهاني : العود هو أن يحلف على ما قال أوّلاً من لفظ الظهار فإذا لم يحلف لم تلزمه الكفارة قياساً على ما لو قال في بعض الأطعمة " إنه حرام عليّ كلحم الآدمي " فإنه لا يلزمه الكفارة إلا إذا حلف عليه . ورد بأن الكفارة قد تجب

بالإجماع في المناسك ولا يمين . وعندي أن هذا الرد مردود لأنه لا يلزم من وجوب الكفارة في الصورتين من غير يمين وجوبها في كل صورة بلا يمين . نعم يرد على أبي مسلم أن تفسير العود بالحلف إثبات اللغة بالقياس ، ولا يخفى أن العود لما قالوا على هذا الاحتمال ظاهر لأنه أريد بالقول اللفظ . وأما الاحتمال الآخر فيحتاج إلى تأويل القول بالمقول فيه وهو ما حرموه على أنفسهم بلفظ الظهار كما مر في قوله ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ [مريم : 81] أي المال والواو للحال .

(179/753)

مسائل : الأولى : الجديد وأبو حنيفة أن الظهار يحرم جميع جهات الاستمتاعات لأن قوله سبحانه ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ يعم جميع ضروب المس من المس بيد وغيرها . " وروى عكرمة أن رجلاً ظاهر من امرأته ثم واقعها قبل أن يكفر فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فقال : اعتزلها حتى تكفِّر " الثانية : اختلفوا فيمن ظاهر مراراً فقال أبو حنيفة والشافعي : لكل ظهار كفّارة إلا أن يكون في مجلس واحد وأراد التكرار للتأكيد . وقال مالك : من ظاهر من امرأته في مجالس متفرقة فليس عليه إلا كفّارة واحدة . وحجتهما أنه تعالى رتب الكفّارة على التلفظ بكلمة الظهار والمعلول يتكرر بتكرر العلة ،

ويتفرع عليه أنه لو كانت تحته أربع نسوة وقال لهن : أنتن عليّ كظهر أمي لزمه أربع كفارات لأن الحكم يتكرر ويتعدّد المحل . حجته أنه رتب الكفارة على مطلق الظهار والمطلق شامل للمتعدد ، ونوقض باليمين فإن الكفارة لازمة في كل يمين . الثالثة : دلت على إيجاب الكفارة قبل التماس فإن جامع قبل أن يكفر لم يجب عليه إلا كفارة واحدة وهو قول أكثر أهل العلم كمالك وأبي حنيفة والشافعي وسفيان وأحمد وإسحق ، لأن سلمة بن صخر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ظاهرت من امرأتي ثم أبصرت خلخالها في ليلة قمراء فواقعتها .

فقال عليه الصلاة والسلام : استغفر ربك ولا تعد حتى تكفّر . وقال بعضهم ومنهم بعد الرحمن بن مهدي : إذا واقعها قبل أن يكفر فعليه كفارتان . الرابعة : لا ينبغي للمرأة أن تدع الزوج يقربها حتى يكفّر فإن تهاون حال الإمام بينهما ويجبره على التكفير وإن كان بالضرب حتى يوفيها حقها من الجماع . قال الفقهاء : ولا شيء من الكفارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار لأن ترك التكفير إضرار بالمرأة وامتناع من إيفاء حقها . الخامسة : قد ذكرنا أن الاستمتاعات محرمة عليه إلى أن يكفّر وذلك صريح في تحرير الرقبة وفي الصيام والآن نقول

: إن التكفير بالإطعام أيضاً كذلك وإن لم يتعرض للتماس في قوله ﴿ فإطعام ستين مسكيناً ﴾ حملاً للمطلق على المقيد عند اتحاد الواقعة ، وللأقل وهو صورة واحدة على الأكثر وهذه من فصاحات القرآن . السادسة : مذهب أبي حنيفة أن هذه الرقبة تجزي وإن كانت كافرة لإطلاق الآية . وقال الشافعي : لا بد أن تكون مؤمنة قياساً على كفارة القتل . والجامع أن الإعتاق إنعام والمؤمن أولى به ، ولأن المشركين نجس وكل نجس خبيث بالإجماع . وقال الله تعالى ﴿ ولا تيمموا الخبيث ﴾ [البقرة : 267] ولا تجزي أم الولد ولا المكاتب عند الشافعي لضعف الملكية فيه ولا يحصل الجزم بالخروج عن العهدة . وقال أبو حنيفة : إن أعتقه قبل أن يؤدي شيئاً جاز عن الكفارة لأنه رقبة بدليل قوله ﴿ وفي الرقاب ﴾ [البقرة : 177] وإن أعتقه بعد أن يؤدي شيئاً لم يجز . والمدبر يجزي عند الشافعي ولا يجزي عند أبي حنيفة . السابعة : يعتبر في الرقبة بعد الإيمان على خلاف فيه السلامة عن العيوب لا التي يثبت بها الرد في البيع ولكن التي تخل بالعمل والاكتساب لأن المقصود هناك المالية وههنا تكميل حاله ليتفرغ للعبادات والوظائف المخصوصة بالأحرار ، فلا يجزي مقطوع اليدين أو الرجلين أو إحداهما ولا المجنون ، ويجزي الأعور والأصم والأخرس ومقطوع الأذنين أو الأنف أو أصابع الرجلين لا

أصابع اليد لأن البطش والعمل يتعلق بها . والعبد الغائب . إن انقطع خبره لا يجزي ولو أعتق بعده عن كفارته شرط أن يردّ ديناراً أو غيره لم يجز بل يجب أن يكون الإعتاق خالياً من شوائب العوض . الثامنة : كفارة الظهار مرتبة على ما في الآية . فإن كان في ملكه عبد فاضل عن حاجته فواجبه هو ، وإن احتاج إلى خدمته لمرض أو كبر أو لأن منصبه يأبى أن يخدم نفسه لم يكلف صرفه إلى الكفارة ، ولو وجد ثمن العبد فكالعبد . والشرط أن يفضل عن حاجة نفقته وكسوته ونفقة عياله وكسوتهم وعن المسكن وما لا بدّ له من الأثاث ولو كانت له ضيعة أو رأس مال يتجر فيه ويفي ما يحصل منهما بكفايته بلا مزيد ولو باعهما لارتدّ إلى حد المساكين لم يكلف صرفه إلى الكفارة .

ولو وجد ثمن العبد فكالعبد والشرط بيعها وإن كان ماله غائباً أو لم يجد الرقبة في الحال لم يجز العدول إلى الصوم بل يصبر ، وإن كان يتضرر بامتناع الابتياع لأنه تعالى قال ﴿ فمن لم يجد ﴾ وهو واجد . أما من كان مريضاً في الحال ولا يقدر على الصوم فإنه ينتقل إلى الإطعام لأنه تعالى قال ﴿ فمن لم يستطع ﴾ وهو غير مستطيع ، والمآل غير معلوم ولا هو متعلق باختياره بخلاف إحضار المال أو تحصيل الرقبة فإن ذلك قد يمكنه . التاسعة : لو أطعم مسكيناً واحداً ستين مرة لا يجزي عند الشافعي لظاهر الآية ، ولأن إدخال السرور في قلب ستين أجمع وأقرب من رضا الله . وقال أبو حنيفة : يجزي . العاشرة : الشبق

المفرط والغلمة عذر عند الأكثرين في الانتقال إلى الإطعام كما في قصة الأعرابي وهل أتيت إلا من قبل الصوم فأمره النبي صلى الله عليه وسلم وقال : أطعم . وحمله آخرون على خاصة الأعرابي . ولنكتف بهذا القدر من المسائل الفقهية في تفسير آية الظهار .

(182/753)

قال الزجاج ﴿ ذلكم توعظون ﴾ أي ذلك التغليظ وعظ لكم حتى تتركوا الظهار . وحين ذكر حكم الآية عقبه بقوله ذلك فيحتمل أن يعود إلى مطلق بيان كفارة الظهار ، ويحتمل أن يعود إلى التخفيف والتوسيع لتصدقوا بالله ورسوله فإن التخفيف مناسب للتصديق والعمل بالشريعة ﴿ وللكافرين ﴾ الذين استمروا على أحكام الجاهلية ﴿ عذاب أليم ﴾ وإنما قال في الآية الثانية ﴿ عذاب مهين ﴾ ليناسب قوله ﴿ كبتوا ﴾ أي أخزوا وأهلكوا . قيل : أريد كبتهم يوم الخندق . وفي الحدود مع المحادة نوع من التجانس ، والمحادّة المشاقة من الحد الطرف كأن كلاًّ من المتخاصمين في طرف آخر كالمشاقة من الشق . وقال أبو مسلم : هي من الحديد كأن كلا منهما يكاد يستعمل الحديد أي السيف وهم المنافقون أو الكافرون على الإطلاق . قوله ﴿ أحصاه الله ﴾ أي أحاط بما عمل كل منهم كماً وكيفاً وزماناً ومكاناً ﴿ ونسوه ﴾ لكثرته أو لقلة اكتراثهم بالمعاصي وإنما يحفظ معظمات

الأمور . ثم قرر كمال علمه بقوله ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة ﴾ نفر ويجوز أن يكون ثلاثة وصفاً للنجوى على حذف المضاف أي من أهل نجوى ، أو لأنهم جعلوا نجوى مبالغة وكذلك كل مصدر وصف به . قال الزجاج : هي مشتقة من النجوة المكان المرتفع لأن الكلام المذكور سراً يجل عن استماع الغير . سؤال : لم ذكر الثلاثة والخمسة وأهمل ذكر الاثنين والاربعة ؟ الجواب من وجوه أحدها : أن الآية نزلت في قوم من المنافقين اجتمعوا على التناجي مغايظة للمؤمنين وكانوا على هذين العددين فحص صورة الواقعة بالذكر . عن ابن عباس أن ربيعة وحبيباً ابني عمرو وصفوان بن أمية كانوا يوماً مّا يتحدثون فقال أحدهم : أترى أن الله يعلم ما نقول . فقال الآخر : يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً .

وقال الثالث : إن كان يعلم بعضاً فهو يعلم كله فنزلت . قالت جماعة : الحق مع الثالث فلعل الآخر كان فلسفي الاعتقاد القائل بأنه تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات . ثانيها أن العدد الفرد أشرف من الزوج لأن الله تعالى وتر ولأن الزوج يحتاج إلى الوتر دون العكس كالواحد . وثالثها أن المتشاورين الاثنين كالمتنازعين في النفي والإثبات ، والثالث كالمتوسط الحكم وهكذا في كل زوج اجتمعوا للمشاورة فلا بد فيهم من واحد يكون حكماً فذكر سبحانه

الفردين الأولين تنبيهاً على الأفراد الباقية . ورابعها أن هذا إشارة إلى كمال المرحمة ، وذلك أن الثلاثة إذا أخذ اثنان منهم في التناجي والمسارّة بقي الواحد ضائعاً وحيداً فيضيق قلبه فيقول الله تعالى : أنا جليسك وأنيسك . وكذا الخمسة إذا اجتمع اثنان اثنان منهم بقي الخامس فريداً فنفس الله تعالى عنه ببشارة المعية . وهذا التأويل لا يتأتى في الاثنين والأربعة فأهمل ذكرهما . وفيه أن من انقطع عن الخلق لم يتركه الله ضائعاً . وخامسها وهو من السوانح . أنه سبحانه لما أراد تكميل الكلام بقوله ﴿ ولا أدنى من ذلك ولا أكثر ﴾ لم يكن بد من الابتداء بالثلاثة مع أنها عدد أكثري في التشاور ، ثم بالخمسة ليكون لكل من العددين طرفا قلة وكثرة . وفيه أيضاً من الفصاحة أنه لم يقع حروف الأربعة مكرراً إذ لو قال "ولا أربعة إلا وهو خامسهم" على ما وقع في مصحف عبد الله لكان في ذكر الرابع والأربعة شبه تكرار . ولعل في الآية إشارة إلى التناجي لا ينبغي أن يكون إلا بين اثنين إلى ستة لتكون الزيادة على الخمسة بقدر احتمال النقصان على الثلاثة ، ويعضده ما روي أن عمر بن الخطاب ترك الأمر شورى بين ستة ولم يتجاوز بها إلى سابع ، وهذه من نكت القرآن زادنا الله اطلاعاً عليها . قال أكثر المفسرين : كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين يريدون بذلك غيظهم ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

ذلك فعادوا لمثله وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمحالفة الرسول صلى الله عليه وسلم فنزل ﴿ ألم تر إلى الذين ﴾ الآية منهم من قال : هم المنافقون ومنهم من قال : فريق من الكفار . والأول أقرب بدليل قوله ﴿ وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك ﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون " السلام عليك يا محمد " والله تعالى يقول ﴿ وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ [النمل : 59] و " يا أيها الرسول " و " يا أيها النبي " . وحديث عائشة مع اليهود في هذا المعنى مذكور مع شهرته وكانوا يقولون : ما له إن كان نبياً لا يدعو علينا حتى يعذبنا الله بما نقول ، فأجاب الله تعالى عن قولهم بأن جهنم تكفيهم .

قال أبو علي : التناجي والانتجاء بمعنى نحو اجتوروا واعتوروا في معنى تجاوروا وتعاوروا . ثم نهى المؤمنين عن مثل تلك النجوى وهو ظاهر . وقال جمع من المفسرين : وهو خطاب المنافقين الذين آمنوا باللسان دون مواطأة القلوب . وأعلم أن المناجاة إذا كانت على طريقة البر والتقوى فقلما تقع الداعية إلى كتمانها فلا تكره النجوى ولا يتأذى بها أحد إذا عرفت سيرة المناجي فلهذا أمر الله سبحانه أن لا يقع التناجي إلا على وجه البر .

قوله ﴿ إنما النجوى ﴾ الألف واللام فيه لا يمكن أن تكون للاستغراق أو للجنس ، فمن النجوى ما تكون ممدوحة لاشتمالها على مصلحة دينية أو دنيوية فهي إذن للعهد وهو التناجي بالإثم والعدوان زينة الشيطان لأجلهم ﴿ ليحزن ﴾ الشيطان ، أو التناجي المؤمنين وكانوا يقولون ما نراهم متناجين إلا وقد بلغهم عن أقاربنا الذين خرجوا إلى الغزوات أنهم قتلوا أو هربوا . ثم بين أن الشيطان أو الحزن لا يضر المؤمن أصلاً إلا بمشيئة الله وإرادته . عن النبي صلى الله عليه وسلم " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه " وفي رواية " دون الثالث " . وحين نهى تعالى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض والتنافر حثهم على ما يوجب مزيد المحبة والألفة . والتفسح في المجلس التوسع لله والمراد مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتضامّون فيه تنافساً في القرب منه وحرصاً على استماع كلامه . ومن قرأ على الجمع جعل لكل جالس مجلساً على حدة . وقيل : هو المجلس من مجالس القتال أي مراكز القتال . كان الرجل يأتي الصف فيقول : تفسحوا . فيأبون حرصاً على الشهادة . والقول الأول أصح . قال مقاتل بن حيان : كان صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة في الصفة وفي المكان ضيق وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجلس فقاموا حيال النبي صلى الله عليه وسلم ينتظرون أن يوسع لهم ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحملهم على القيام وشق ذلك على الرسول فقال لمن حوله من غير أهل بدر : قم يا فلان قم

يا فلان . فلم يزل كذلك حتى أقعد النفر الذين هم قيام بين يديه فعرفت الكراهية في وجه من أقيم من مجلسه ، وطعن المنافقون في ذلك قالوا : والله ما عدل على هؤلاء وإن قوماً أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه فأقامهم فأجلس من أبطأ عنه فنزلت ﴿ وإذا قيل انشزوا ﴾ أي انهضوا للتوسعة على المقبلين فانشزوا ولا تملوا رسول الله صلى الله عليه

(186/753)

وسلم بالارتكاز فيه ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم ﴾ أيها الممتثلون والعالمين منهم خاصة ﴿ درجات ﴾ قال بعض أهل العلم : المراد به الرفعة في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وهو مناسب للمقام لقوله

(187/753)

" ليليني منكم أولو الأحلام والنهى " والمشهور أنه الرفعة في درجات ثواب الآخرة وقد أطنبنا في فضيلة العلم في أوائل البقرة عند قوله ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ [البقرة : 31] والأمر يقتضي أن يقتدى بالعالم في كل شيء ولا يقتدى بالجاهل في شيء ، وذلك أنه

يعلم من كيفية الاحتراز عن الحرام والشبهات ومحاسبة النفس ما لا يعرفه الغير ، ويعلم من كيفية التوبة وأوقاتها وصفاتها ما لا خبر فيه عند غيره ، ويتحفظ فيما يلزمه من الحقوق ما لا يتحفظ غيره ولكنه كما تعظم منزلته عند الطاعة ينبغي أن يعظم عتابه عند التقصيرات حتى كاد تكون الصغيرة بالنسبة إليه كبيرة ، واللهم ثبتنا على صراطك المستقيم ووفقنا للعمل بما فهمنا من كتابك الكريم . قال ابن عباس : كان المسلمون أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه وأراد الله أن يخفف عن نبيه ، فلما نزلت آية النجوى شح كثير من الناس فكفوا عن المسألة . وقال مقاتل بن حيان : إن الأغنياء غلبوا الفقراء في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وأكثروا مناجاته فأمر الله بالصدقة عند المناجاة فازدادت درجة الفقراء وانحطت رتبة الأغنياء وتميز محب الآخرة عن محب الدنيا . قال بعضهم : هذه الصدقة مندوبة لقوله ﴿ ذلك خير لكم ﴾ ولأنه أزيل العمل به بكلام متصل وهو قوله ﴿ أأشفقتم ﴾ والأكثرون على أنها كانت واجبة لظاهر الأمر والواجب قد يوصف بكونه خيراً ولا يلزم من اتصال الآيتين في القراءة اتصالهما في النزول . وقد يكون الناسخ متقدماً على المنسوخ كما مر في آية الاعتداد بالحول في البقرة . واختلفوا في مقدار تأخرها : فعن الكلبي ما بقى ذلك التكليف إلا ساعة من نهار . وعن مقاتل بقي عشرة أيام . وعن علي رضي الله عنه : لما نزلت الآية دعاني رسول الله صلى الله عليه

وسلم فقال : ما تقول في دينار ؟ قلت : لا يطيقونه . قال : كم ؟ قلت : حبة أو شعيرة . قال : إنك لزهيد أي إنك لقليل المال فقدرت على حسب مالك .

(188/753)

وعنه عليه السلام : إن في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي . كان لي دينار فاشتريت به عشرة دراهم فكنت إذا ناجيته تصدّقت بدرهم . قال الكلبي : تصدق به في عشر كلمات سألهن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال القاضي : هذا لا يدل على فضله على أكابر الصحابة لأن الوقت لعله لم يتسع للعمل بهذا الفرض . وقال فخر الدين الرازي : سلمنا أن الوقت قد وسع إلا أن الاقدام على هذا العمل مما يضيق قلب الفقير الذي لا يجد شيئًا وينفر الرجل الغني ولم يكن في تركه مضرة . لأن الذي يكون سبباً للألفة أولى مما يكون سبباً للوحشة . وأيضاً الصدقة عند المناجاة واجبة : أما المناجاة فليست بواجبة ولا مندوبة بل الأولى ترك المناجاة لما بيّنا من أنها كانت سبباً لسآمة النبي صلى الله عليه وسلم .

(189/753)

قلت : هذا الكلام لا يخلو عن تعصب مّا . ومن أين يلزمنا أن نثبت مفضولية علي رضي الله عنه في كل خصلة ، ولم لا يجوز أن يحصل له فضيلة لم توجد لغيره من أكابر الصحابة .

فقد روي عن ابن عمر كان لعلي رضي الله عنه ثلاث لو كانت لي واحدة منهن كانت أحب إليّ من حمر النعم : تزويجه فاطمة رضي الله عنها وإعطاؤه الراية يوم خيبر وآية النجوى .

وهل يقول منصف إن مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم نقيصة على أنه لم يرد في الآية نهي عن المناجاة وإنما ورد تقديم الصدقة على المناجاة فمن عمل بالآية حصل له الفضيلة من جهتين : سدّ خلة بعض الفقراء ، ومن جهة محبة نجوى الرسول صلى الله عليه وسلم ففيها القرب منه وحل المسائل العويصة وإظهار أن نجواه أحب إلى المناجي من المال والظاهر أن الآية منسوخة بما بعدها وهو قوله ﴿ أأشفقتم ﴾ إلى آخرها . قاله ابن عباس . وقيل : نسخت بآية الزكاة . أما أبو مسلم الذي يدعي أن لا نسخ في القرآن فإنه يقول : كان هذا التكليف مقدراً بغاية مخصوصة ليتميز الموافق من المنافق والمخلص من المرائي ، وانتهاء أمد الحكم لا يكون نسخاً له . ومعنى الآية أخفتم تقديم الصدقات لما فيه من الإنفاق المنقص للمال الذي هو أحب الأشياء إليكم ﴿ فإذا لم تفعلوا ﴾ ما أمرتم به ﴿ وتاب الله عليكم ﴾ ورخص لكم في أن لا تفعلوا فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات .

ومن زعم أن العمل بآية النجوى لم يكن من الطاعات قال : إنه لا يمتنع أن الله تعالى علم ضيق

صدر كثير منهم عن إعطاء الصدقة في المستقبل لو دام الوجوب فقال : إذا كنتم تائبين راجعين إلى الله وأقمتم الصلاة وأتيتم الزكاة فقد كفاكم هذا التكليف . قال المفسرون : كان عبد الله بن نبتل المنافق يجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يرفع حديثه إلى اليهود . فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجرة من حجراته إذ قال : يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان ، فدخل ابن نبتل وكان

(190/753)

أزرق فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل فعلت . فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فنزل ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا ﴾ أي وادّوا ﴿ قوماً غضب الله عليهم ﴾ وهم اليهود ﴿ ما هم منكم ﴾ لأنهم ليسوا مسلمين بالحقيقة ﴿ ولا منهم ﴾ لأنهم كانوا مشركين في الأصل ﴿ ويحلفون على الكذب ﴾ وهو ادعاء الإسلام . وفي قوله ﴿ وهم يعلمون ﴾ دلالة على إبطال قول الجاحظ إن الخبر الكذب هو الذي يكون مخالفاً للمخبر عنه مع أن المخبر يعلم المخالفة وذلك أنه لو كان كما زعم لم يكن لقوله ﴿ وهم يعلمون ﴾ فائدة بل يكون تكراراً صرفاً .

قال بعض المحققين : العذاب الشديد هو عذاب القبر ، العذاب المهين الذي يجيء عقيبه هو عذاب الآخرة . وقيل : الكل عذاب الآخرة لقوله ﴿ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾ [النحل : 88] قال جار الله : معنى قوله ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ إنهم كانوا في الزمان الماضي المتطاول مصرين على سور العمل ، أو هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة . ومعنى الفاء في ﴿ فصدوا ﴾ أنهم حين دخلوا في حماية الايمان بالأيمان الكاذبة وأمنوا على النفس والمال اشتغلوا بصدّ الناس عن الدخول في الإسلام بإلقاء الشبهات وتقبيح حال المسلمين . ويروى أن رجلاً منهم قال : لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا فنزل ﴿ لن تغني عنهم ﴾ الآية .

(191/753)

ثم أخبر عن حالهم العجيبة الشأن وهو أنهم يحلفون يوم المحشر لعلام الغيوب كما يحلفون لكم في الدنيا وأنتم بشر يخفى عليكم السرائر ﴿ ويحسبون أنهم على شيء ﴾ من النفع . والمراد أنهم كما عاشوا على النفاق والحلف الكاذب يموتون ويبعثون على ذلك الوصف . قال القاضي والجبائي : إن أهل الآخرة لا يكذبون . ومعنى الآية أنهم يحلفون في الآخرة إما ما كنا كافرين عند أنفسنا . وقوله ﴿ ألا أنهم هم الكاذبون ﴾ في الدنيا . ولا يخفى ما في

هذا التأويل من التعسف وقد مر البحث في قوله ﴿ والله ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : 23] ثم بين أن الشيطان هو الذي زين لهم ذلك . ومعنى استحوذ استولى وغلب ومنه قول عائشة في حق عمر : كان أحوذياً أي سائساً غالباً على الأمور وهو أحد ما جاء على الأصل نحو " استصوب واستنوق " احتج القاضي به في خلق الأعمال بأن ذلك النسيان لو حصل بخلق الله لكانت إضافتها إلى الشيطان كذباً ، ولكانوا كالمؤمنين في كونهم حزب الله لا حزب الشيطان . والجواب ظاهر مما سلف مراراً فإن الكلام في الانتهاء لا في الوسط . قوله ﴿ أولئك في الأذلين ﴾ قال أهل المعنى : إن ذل أحد الخصمين تابع لعز الخصم الآخر . ولما كانت عزة أولياء الله تعالى غير متناهية فذل أعدائه لا نهاية له فهم إذن أذل خلق الله . ثم قرر سبب ذلهم بقوله ﴿ كتب الله ﴾ في اللوح ﴿ لأغلبن أنا ورسلي ﴾ إما بالحجة وحدها أو بها وبالسيف . قال مقاتل : إن المسلمين قالوا : إنا لنرجو أن يظهرنا الله على فارس والروم . فقال عبد الله بن أبيّ : أتظنون أن فارس والروم كبعض القرى التي غلبتموهم عليها ؟ كلا والله إنهم أكثر عدداً وعدّة فنزلت الآية . ثم بين أن الجمع بين الإيمان الخالص وموادّة من حادّ الله ورسوله غير ممكن ولو كان المحادّون بعض الأقربين .

وقال جار الله : هذا من باب التمثيل والغرض أنه لا ينبغي أن يكون وحقه أن يمتنع ولا يوجد . قلت : لو اعتبر كل من الأمرين من حيث الحقيقة كان بينهما أشد التباين ولا حاجة إلى هذا التكلف إلا أن يحمل أحدهما على الحقيقة والآخر على الظاهر فحينئذ قد يجتمعان كما في حق أهل النفاق ، وكما يوجد بعض أهل الإيمان يخالط بعض الكفرة ويعاشرهم لأسباب دنيوية ضرورية . عن النبي صلى الله عليه وسلم "لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي نعمة فإني أجد فيما أوحي إليّ" ﴿ لا تجد قوماً ﴾ يروى أنها نزلت في أبي بكر ، وذلك أن أبا قحافة سب رسول الله صلى الله عليه وسلم فصكه صكة سقط منها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو قد فعلته ؟ قال : نعم . قال : لا تعد . قال : والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته . وقيل : في أبي عبيدة بن الجراح فقتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد ، وفي كثير من أكابر الصحابة أعرضوا عن عشائرهم وعادوهم لحب الله ورسوله . فذهب جمع من المفسرين إلى أنها نزلت في حاطب ابن أبي بلتعة وإخباره أهل مكة بمسير النبي صلى الله عليه وسلم إليهم عام الفتح وسيجيء في الممتحنة . والأظهر عندي نزولها في المؤمنين الخلص لقوله ﴿ أولئك كتب ﴾ أي أثبت ﴿ في قلوبهم الإيمان ﴾ إثبات المكتوب في القرطاس . وقيل : معناه جمع . والتركيب يدور عليه أي استكملوا أجزاء الإيمان بحذافيرها ليسوا ممن يقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض . قوله ﴿ وأيديهم بروح منه ﴾ قال ابن عباس : أي نصرهم على عدوّهم . وسمي النصرة روحاً لأن الأمر

يحيا بها . ويحتمل أن يكون الضمير للإيمان على أنه في نفسه روح فيه حياة القلوب والباقي ظاهر والله أعلم وإليه المصير وبيده التوفيق والإتمام بالصواب . انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 266 . 278 ﴾

(193/753)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة المجادلة

مدنية في قول الجميع الأرواية عن عطاء إلا العشر الأول منها مدني وباقيها مكي ، وقال الكلبي : نزل جميعها بالمدينة غير قوله تعالى : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ نزلت بمكة وهي اثنتان وعشرون آية وأربعمائة وثلاث وسبعون كلمة وألف وسبعمائة واثنان وسبعون حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ الذي تمت قدرته وكملت جميع صفاته ﴿ الرحمن ﴾ الذي شمل الخلائق جوداً بالإيجاد وإرسال الهداة ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أصفياءه فتمت عليهم نعمة مرضاته

ونزل في خولة بنت ثعلبة وكانت تحت أوس بن الصامت وكان قد ظاهر منها .

﴿ قد سمع الله ﴾ أي : أجاب بعظيم فضله الذي أحاط بجميع صفات الكمال فوسع سمعه الأصوات ﴿ قول التي تجادلك ﴾ أي : تراجعك أيها النبيّ ﴿ في زوجها ﴾ المظاهر منها روي "أنّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مرّ بها في خلافته وهو على حمار والناس معه ، فاستوقفته طويلاً ووعظته وقالت : يا عمر قد كنت تدعى عميراً ثم قيل لك : عمر ثم قيل لك : أمير المؤمنين فاتق الله يا عمر فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ومن أيقن بالحساب خاف العذاب وهو واقف يسمع كلامها فقيل له : يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الموقف فقال : والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة أتدرون من هذه العجوز هي : خولة بنت ثعلبة سمع الله تعالى قولها من فوق سبع سموات أيسمع ربّ العالمين قولها ولا يسمعه عمر" وعن عائشة : "تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول : يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللهمّ إني أشكو إليك ، فما برحت حتى نزل بهذه الآية ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ الآية . وروي "أنها كانت حسنة الجسم

فرآها زوجها ساجدة فنظر عجيزتها فأعجبه أمرها فلما انصرفت أرادها فأبت فغضب

عليها ، قال عروة : وكان امرأ به لمم فأصابه بعض لممه فقال لها : أنت عليّ كظهر أمي وكان

الإيلاء والظهار من الطلاق في الجاهلية ، فسألت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إنّ

أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب فيّ فلما علا سنى ونثرت بطني أي : كثر ولدي جعلني

عليه كأمّه فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم حرمت عليه فقالت : والله ما ذكر طلاقاً

وإنه أبو ولدي وأحب الناس إليّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمت عليه

فقالت أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي فقد طالت صحبتي ونفضت له بطني ، فقال رسول

الله صلى الله عليه وسلم ما أراك

(195/753)

إلا حرمت عليه

أو أومر في شأنك بشيء فجعلت تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا قال لها

رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمت عليه ، هتفت وقالت : أشكو إلى الله فاقتي

وشدّة حالي وأنّ لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليّ جاعوا وإن ضممتهم إليه ضاعوا

وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهمّ أني أشكو إليك ، فأنزل على لسان نبيك

وكان هذا أوّل ظهار في الإسلام ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ الآية فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زوجها وقال : ما حملك على ما صنعت قال : الشيطان فهل من رخصة ؟ فقال : نعم وقرأ عليه الأربع آيات فقال له هل تستطيع العتق فقال لا والله فقال هل تستطيع الصوم ؟ فقال لا والله إني إن أخطأني أن آكل في اليوم مرّة أو مرتين لكل صبري ولظننت أني أموت قال : فأطعم ستين مسكيناً ، قال : ما أجد إلا أن تعينني منك بعون وصلة فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعاً ، وأخرج أوس من عنده مثله فتصدق به على ستين مسكيناً " .

وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال لها مريه أن يعتق رقبة فقالت : أيّ رقبة والله لا يجد رقبة وما له خادم غيري ، فقال : مريه أن يصوم شهرين ، فقالت : والله ما يقدر على ذلك إنه يشرب في اليوم كذا كذا مرّة ، فقال : مريه فليطعم ستين مسكيناً ، فقالت : أنّى له ذلك" ﴿ وتشتكي ﴾ أي : تتعمد بتلك المجادلة الشكوى منتهية ﴿ إلى الله ﴾ أي : سؤال الملك الأعظم الرحمة الذي أحاط بكل شيء علماً .

فإن قيل : ما معنى قد في قوله تعالى : ﴿ قد سمع ﴾ أجيب : بأنّ معناها التوقع لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله تعالى تجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرّج عنها لصدقها في شكواها وقطع رجائها في كشف ما بها من غير الله إنّ الله تعالى يكشف كربتها ﴿ والله ﴾ أي : والحال أنّ الذي وسعت رحمته كلّ شيء ، لأنّ له الأمر كله ﴿ يسمع تحاوركما ﴾ أي : تراجعكما الكلام وهو على تغليب الخطاب ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي أحاط بجميع صفات الكمال ﴿ سميع ﴾ أي : بالغ السمع لكل مسموع ﴿ بصير ﴾ أي : بالغ البصر لكل ما يبصر فهما صفتان كالعلم والقدرة والحياة والإرادة وهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه متصفاً بهما

ولما أتم تعالى الخبر عن إحاطة العلم استأنف الإخبار عن حكم الأمر المجادل بسببه فقال تعالى : ﴿ الذين يظهرون ﴾ أي : يوجدون الظهار في أي زمان كان وقوله تعالى : ﴿ منكم ﴾ أي : أيها العرب المسلمون توبيخ لهم وتهجين لعادتهم لأنّ الظهار كان خاصاً بالعرب دون سائر الأمم فنبه تعالى على أنّ اللائق بهم أن يكونوا أبعد الناس عن هذا الكلام لأنّ الكذب لم يزل مستهجناً عندهم في الجاهلية ثم زاده الإسلام استهجاناً ﴿ من نسائهم ﴾ أي : يحرمون نساءهم على أنفسهم تحريم الله تعالى عليهم ظهور أمّهاتهم .

والظهار لغة : مأخوذ من الظهر لأنّ صورته الأصلية أن يقول لزوجته : أنت عليّ كظهر أمي ، وخصوا الظهر دون البطن والفخذ وغيرهما لأنه موضع الركوب والمرأة مركوب الزوج .

وقيل: من العلو قال تعالى: ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ﴾ (الكهف:)

أي: أن يعلوه وكان طلاقاً في الجاهلية، وقيل: في أوّل الإسلام ويقال: كان في الجاهلية إذا كره أحدهم أمرأته أنه ولم يرد أن تتزوج بغيره آلى منها أو ظاهر فتبقى لا ذات زوج ولا خلية تنكح غيره؛ فغير الشارع حكمه إلى تحريمها بعد العود ولزوم الكفارة كما سيأتي.

(197/753)

وحقيقته الشرعية: تشبيه الزوجة غير البائن بأنثى لم تكن حلاله وسمى هذا المعنى ظهاراً لتشبيه الزوجة بظهر الأم، وله أركان أربعة: مظاهر ومظاهره منها وصيغة ومشبه به وشرط في المظاهر كونه زوجاً يصح طلاقه، وشرط في المشبه به كونه كل أنثى محرم أو جزء أنثى محرم لم تكن حلاله كابنته وأخته، وشرط في الصيغة لفظ يشعر بالظهار صريح كأنتِ أو رأسك أو بدنك كظهر أمي أو كجسمها أو بدنها أو كناية كانت أمي أو كعينها أو غيرها مما يذكر للكرامة كرأسها أو روحها ويصح تأقيته وتعليقه، وأصل يظهرون يتظهرون أدغمت التاء في الظاء وقرأ ﴿ الذين يظاهرون ﴾ و ﴿ الذي يظاهرون ﴾ عاصم بضم الياء وتخفيف الظاء وبعدها ألف وتخفيف الهاء مكسورة، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بفتح الياء وتشديد الظاء وتخفيف الهاء مع فتحها وبين الظاء والهاء ألف،

والباقون بفتح الياء وتشديد الظاء والهاء ولا ألف بينهما ﴿ما هنّ﴾ أي: نساؤهم ﴿أمهاتهم﴾ أي: على الحقيقة ﴿إن﴾ أي: ما ﴿أمهاتهم﴾ أي: حقيقة ﴿إلا اللائي ولدنهم﴾ ونساؤهم لم يلدنهم فلا يحرمن عليهم حرمة مؤبدة للإكرام والاحترام، ولا هنّ ممن ألحق بالأمهات بوجه يصح كأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم فإنهنّ أمّهات لما لهنّ من حق الإكرام والاحترام والإعظام؛ لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أعظم في أبوة الدين من أبي النسب، وكذا المرضعات، لما لهنّ من حق الرضاع الذي هو وظيفة الأمّ بالأصالة. وأمّا الزوجة فمباينة لجميع ذلك.

وقرأ قالون وقنبل: بالهمزة المكسورة ولا ياء بعدها، وقرأ ورش والبزي وأبو عمرو بتسهيل الهمزة مع المدّ والقصر وللبزي وأبو عمرو وأيضاً موضع الهمزة ياء ساكنة مع المدّ والباقون بهمزة مكسورة وبعدها ياء وهم على مراتبهم في المدّ ﴿وإنهم﴾ أي: المظاهرون ﴿ليقولون﴾ أي: في هذا التظهر على كلّ حالة ﴿منكراً من القول﴾ إذ الشرع أنكره وهو حرام إتفاقاً كما نقل عن الرافعي في باب الشهادات ﴿وزوراً﴾ أي: قولاً مائلاً عن السداد منحرفاً عن القصد، لأنّ الزوجة معدّة للاستمتاع الذي هو في الغاية من الامتهان

والأمّ في غاية البعد عن ذلك .

فإن قيل : المظاهر إنما قال : أنت عليّ كظهر أمي فشبه بأمه ولم يقل أنها أمّه فما معنى أنه منكر من القول وزور والزور الكذب وهذا ليس بكذب .

أجيب : بأنّ قوله هذا إن كان خبراً فهو كذب وإن كان إنشاء فهو كذلك لأنه جعله سبباً للتحريم والشرع لم يجعله سبباً لذلك ، وأيضاً فإنما وصف بذلك لأنّ الأم مؤبدة التحريم والزوجة لا يتأبد تحريمها بالظهار فهو زور محض .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ إلا اللائي ولدنهم ﴾ يقتضي أن لا أمّ إلا الوالدة وهذا مشكل بقوله تعالى : ﴿ وأمّهاتكم اللاتي أرضعنكم ﴾ (النساء :)

وقوله تعالى : ﴿ وأزواجه أمّهاتهم ﴾ (الأحزاب :)

أجيب : بأنّ الشارع ألحقهنّ بالوالدات لما مر ﴿ وإن الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي لا أمر لأحد معه في شرع ولا غيره ﴿ لعفوّ ﴾ أي : من صفاته أن يترك عقاب من شاء ﴿ غفور ﴾ أي : من صفاته أن يمحو عين الذنب وأثره .

ثم بين أحكام الظهار بقوله تعالى : ﴿ والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ﴾ والعود في ظهار غير مؤقت من غير رجعية أن يمسكها بعد ظهاره مع علمه بوجود الصفة في المعلق زمن إمكان فرقة ولم يفارق ، لأن العود للقول مخالفته ، يقال : قال فلان قولاً ثم عادله وعاد فيه أي : خالفه ونقضه ، وهو قريب من قولهم عاد في هبته ، ومقصود الظهار وصف المرأة بالتحريم وإمساكها يخالفه ، فلو اتصل بظهاره جنونه أو إغماؤه أو فرقة بموت أو فسخ من أحدهما بمقتضية كعيب بأحدهما أو بطلاق بائن أو رجعي ولم يراجع فلا عود ، والعود في ظهار غير مؤقت من رجعية سواء أطلقها عقب الظهار أم قبله أن يراجع .

ولو ارتد متصلاً بالظهار بعد الدخول ثم أسلم في العدّة فلا عود بالإسلام بل بعده ، والفرق أنّ الرجعة إمساك في ذلك النكاح والإسلام بعد الردّة تبديل للدّين الباطل بالحق والحّل تابع له فلا يحصل به إمساك وإنما يحصل بعده فالعود في ظهار مؤقت يحصل بتغييب حشفة أو قدرها من فاقدها في المدّة ويجب في العود به وإن حلّ نزع لما غيبه ، كما لو قال : إن وطأتك فأنت طالق لحرمة الوطء قبل التكفير كما سيأتي وانقضاء المدة واستمرار الوطء وطء ولما كان المبتدأ الموصول يتضمن معنى الشرط أدخل الفاء في خبره ليفيد السببية فيتكرّر الوجوب بتكرير سببه فقال عز من قائل : ﴿ فتحرير ﴾ أي : فعليهم بسبب هذا الظهار والعود تحرير ﴿ رقبة ﴾ مؤمنة فلا تجزىء كافرة قال تعالى في كفارة القتل : ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ (النساء :)

وألحق بها غيرها قياساً عليها بجامع حرمة سببيهما من القتل والظهار أو حملاً للمطلق على المقيد كما في حمل المطلق في قوله تعالى: ﴿واستشهدوا شهدين من رجالكم﴾ (البقرة:)

على المقيد في قوله تعالى: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ (الطلاق:)

(200/753)

بلا عوض ولا بعيب يخل بعمل فيجزئ صغير ولو ابن يوم وأقرع وأعرج يمكنه تباع مشي بأن يكون عرجه غير شديد وأعور لم يضعف عوره بصر عينه السليمة ضعفاً يخل بالعمل وأصم وأخرس يفهم الإشارة وتفهم عنه وأخشم وفاقد أنفه وأذنيه وأصابع رجليه لا فاقد رجل أو خنصر وبنصر من يد أو أنملتين من كلّ منهما أو فاقد أنملتين من أصبع غيرهما أو فاقد أنملة إبهام لا خلال كل من الصفات المذكورة بالعمل.

(201/753)

ولا يجزئ مريض لا يرجى برؤه ولم يبرأ كيد شلاء وهرم بخلاف من يرجى برؤه ومن لا يرجى برؤه إذا برئ ، ولا مجنون إفاقته أقلّ من جنونه تغليباً للأكثر ، ويجزئ معلق عتقه بصفة بأن ينجز عتقه بنية الكفارة أو معلقه كذلك بصفة أخرى وتوجد قبل الأولى ، ويجزئ نصفا رقبتين أعتقهما عن كفارة باقيهما أو في أحدهما كما استظهره بعضهم ، ويجزئ إعتاق رقبتيه عن كفارتيه لأجعل العتق المعلق كفارة عند وجود الصفة ولا مستحق عتق كأم ولد وصحيح كتابة ﴿ من قبل أنّ يتماسا ﴾ أي : يتجدّد بينهما مس روى أبو داود وغيره "أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل ظاهر من امرأته وواقعها : لا تقربها حتى تكفّر" .

وكالتكفير مضى مدة المؤقت لانتهائه بها وحمل التماس هنا لشبه الظهار بالحيض على التمتع بما بين السرّة والركبة ومن حمله على الوطء ألحق به التمتع بغيره فيما بينهما ، ولو ظاهر من أربع بكلمة كأنتن كظهر أمي فإن أمسكهنّ فأربع كفارات لوجود سببها أو ظاهر منهنّ بأربع كلمات ولو متوالية فعائد من غير أخيرة ، ولو كرر في امرأة متصلاً تعدد الظهار إن قصد استئنافاً ويصير المظاهر بالاستئناف عائداً ﴿ ذلكم ﴾ أي : ذلك الحكم بالكفارة ﴿ توعظون به ﴾ أي : أن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ولا تعاودوه ﴿ والله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بالكمال ﴿ بما تعملون ﴾ أي : تجدّدون فعله ﴿ خبير ﴾ أي : عالم بظاهره وباطنه فهو عالم بما يكفره فافعلوا بما أمر به وقفوا عند حدوده ، وإنما يلزم الإعتاق عن الكفارة من ملك رقيقاً أو

ثمنه فاضلاً عن كفاية ممونة من نفسه وغيره.

قال الرافعي: وسكتوا عن تقدير مدة ذلك ويجوز أن تقدر بالعمر الغالب وأن تقدّر بسنة ا ٥٠. والذي عليه الجمهور هو: الأوّل ولا يلزمه بيع عقار ورأس تجارة وماشية لا يفضل دخلوها عن غلة العقار وربح مال التجارة وفوائد الماشية من نتاج وغيره عن كفاية ممونة ولا بيع مسكن ورقيق نفيسين ألفهما ولا يلزمه شراء بغبن.

(202/753)

﴿ فمن لم يجد ﴾ أي: الرقبة بأن عجز المكفر عن الإعتاق حساً أو شرعاً وقت أداء الكفارة ﴿ فصيام ﴾ أي: فعليه صيام ﴿ شهرين متتابعين ﴾ عن كفارته فالرقيق لا يكفر إلا بالصوم لأنه معسر لا يملك شيئاً وليس لسيده منعه من الصوم إن ضره، وإنما اعتبر العجز وقت الأداء لا وقت الوجوب قياساً على سائر العبادات.

ولو ابتدأ الصوم ثم وجد الرقبة لم يلزمه الانتقال عنه، لأنه أمر به حيث دخل فيه، وقال أبو حنيفة: يعتق قياساً على الصغيرة المعتدة بالشهور إذا رأت الدم قبل انقضاء عدّتها فإنها تستأنف الحيض إجماعاً ويكفيه نية صوم الكفارة، وإن لم ينو الولاء، فإن انكسر الشهر الأول أتمه من الثالث ثلاثين لتعذر الرجوع فيه إلى الهلال.

وينقطع التتابع بفوات يوم ولو بعذر كمرض أو سفر فيجب الاستئناف ولو كان الفائت اليوم الأخير أو اليوم الذي نسيت النية له بخلاف ما إذا فات بجنون أو إغماء مستغرق لمنافاة ذلك الصوم ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ كما مرّ في العتق ، فإن جامع ليلاً عصى ولم ينقطع التتابع لأنه ليس محلاً للصوم بخلافه نهاراً وقال أبو حنيفة ومالك : يبطل بكلّ حال ويجب عليه ابتداء الكفارة لقوله تعالى : ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ .

﴿ فمن لم يستطع ﴾ بأن عجز عن صوم أو لا لمرض يدوم شهرين بالظنّ المستفاد من العادة في مثله أو من قول الأطباء أو لمشقة شديدة تلحقه بالصوم أو بولائه ولو كانت المشقة لشدّة شهوة الوطء أو خوف زيادة مرض ﴿ فإطعام ﴾ أي : فعليه إطعام ﴿ ستين مسكيناً ﴾ أي : من قبل أن يتماسا حملاً للمطلق على المقيد بأن يملك كل مسكين من أهل الزكاة مدّاً من جنس الفطرة كبر وشعير وأقط ولبن فلا يجزئ لحم ودقيق وسويق ، وخرج بأهل زكاة غيره فلا يجزئ دفعها لكافر ولا لهاشميّ ومطلبيّ ولا لمواليهما ولا لمن تلزمه مؤنته ولا لرقيق ، لأنها حق الله تعالى فاعتبر فيها صفات الكمال .

﴿ ذلك ﴾ أي : الترخيص العظيم لكم والرفق بكم والبيان الشافي من أمر الله الذي هو موافق للحنيفية السمحة ملة أبيكم إبراهيم عليه السلام ﴿ لتؤمنوا ﴾ أي : ليتحقق إيمانكم ﴿ بالله ﴾ أي : الملك الذي لا أمر لأحد معه فتطيعوا بالانسلاخ عن أمر الجاهلية ﴿ ورسوله ﴾ أي : الذي تعظيمه من تعظيمه .

ولما رغب في هذا الحكم رهب في التهاون به بقوله تعالى : ﴿ وتلك ﴾ أي : هذه الأحكام العظيمة المذكورة ﴿ حدود الله ﴾ أي : أوامر الملك الأعظم ونواهيه التي يجب امتثالها والتعبد بها لترعى حق رعايتها فالتزموها وقفوا عندها ولا تعدوها ، فإنه لا يطاق انتقامه إذا تعدّى نقضه وإبرامه ﴿ وللكافرين ﴾ أي : العريقين في الكفر بها أو بشيء من شرائعه ﴿ عذاب أليم ﴾ أي : بما آلموا المؤمنين به من الاعتداء فإن عجز عن جميع خصال الكفارة لم تسقط الكفارة عنه بل هي باقية في ذمته إلى أن يقدر على شيء منها ، فإذا قدر عل خصلة من خصالها فعلها ، ولا يتبعض العتق ولا الصوم بخلاف الإطعام حتى لو وجد بعض مدّ أخرجه ، لأنه لا بدل له ويبقي الباقي في ذمته .

قال الزمخشري : فإن قلت فإذا امتنع المظاهر من الكفارة هل للمرأة أن تدافعه قلت لها ذلك وعلى القاضي أن يجبره على أن يكفر وأن يحبسه ، ولا شيء من الكفارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار وحدها لأنه يضرّ بها في ترك التكفير والانتفاع بحق الاستمتاع فيلزم أبداً حقها فإن قلت : فإن مس قبل أن يكفر قلت عليه أن يستغفر ولا يعود حتى يكفر لما

روي أن سلمة بن صخر البياضي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرت من امرأتي ثم أبصرت خلخالها في ليلة قمراء فواقعتها فقال عليه الصلاة والسلام: استغفر ربك ولا تعد حتى تكفر" ا .ه. والمراد بالاستغفار هنا: التوبة.

(204/753)

ولما ذكر تعالى المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين المخالفين لها بقوله تعالى: ﴿ إن الذين يحادّون الله ﴾ أي: يغالبون الملك الأعلى على حدوده ليجعلوا حدوداً غيرها وذلك صورته صورة العداوة؛ لأنّ المحادة المعاداة والمخالفة في الحدود وهو كقوله تعالى: ﴿ ومن يشاق الله ﴾ (الحشر:)

﴿ ورسوله ﴾ أي: الذي عزه من عزه، وقيل: يحادّون الله أي: أولياء الله كما في الخبر "من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة" والضمير في قوله تعالى: ﴿ إن الذين يحادّون الله ورسوله ﴾ يحتمل أن يرجع إلى المنافقين، فإنهم كانوا يوادّون الكافرين ويظاهرونهم على النبيّ صلى الله عليه وسلم فأذلهم الله تعالى ويحتمل أن يرجع لجميع الكفار فأعلم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أنهم ﴿ كبتوا ﴾ أي: أذلوا وقال أبو عبيدة والأخفش: أهلكوا، وقال قتادة: أخذوا، وقال أبو زيد: عذبوا، وقال السدي: لعنوا، وقال الفراء: أغيظوا

يوم الخندق .

وقيل : يوم بدر ﴿ كما كبت الذين من قبلهم ﴾ أي : المحادّين المخالفين رسلهم كقوم نوح ومن بعدهم ممن أصرّ على العصيان .

قال القشيريّ : ومن ضيع لرسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو أحدث في دينه بدعة انخرط في هذا السلك ﴿ وقد أنزلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة عليكم وعلى من قبلكم ﴿ آيات بينات ﴾ أي : دلالات عظيمة هي في غاية البيان لذلك ولكل ما يتوقف عليه الإيمان كترك المحادّة وتحصيل الإذعان ﴿ وللكافرين ﴾ أي : الراسخين في الكفر بالآيات أو بغيرها من أوامر الله تعالى : ﴿ عذاب مهين ﴾ بما تكبروا واعتدوا على أولياء الله تعالى وشرائعه يهينهم ذلك العذاب ويذهب عزهم وشماختهم ويتركون به محادتهم .

(205/753)

وقوله تعالى : ﴿ يوم ﴾ منصوب باذكر كما قاله الزمخشري قال : تعظيماً لليوم أو بلهم أي بالاستقرار الذي تضمنه لوقوعه خبراً أو بفعل مقدّر قدّره أبو البقاء يهانون أو يعذبون أو استقرّ ذلك يوم ﴿ يبعثهم الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ جميعاً ﴾ أي : حال كونهم مجتمعين ، الكافرين المصرّح بهم والمؤمنين المشار إليهم الرجال والنساء أحياء كما كانوا لا يترك منهم

أحد ، وقيل : مجتمعين في حال واحد ﴿ فينبئهم ﴾ أي : يخبرهم أخباراً عظيماً مستقصى ﴿ بما عملوا ﴾ تخجيلاً وتوبيخاً وتشهيراً لحالهم ﴿ أحصاه الله ﴾ أي : أحاط به عدداً وكماً وكيفاً وزماناً ومكاناً بماله من صفات الكمال والجلال ﴿ ونسوه ﴾ لأنهم تهاونوا به حيث ارتكبوه ولم يبالوا به لضر أو تهم بالمعاصي وإنما تحفظ معظمات الأمور أو لخروجه عن الحدّ في الكثرة فكيف كل واحد على انفراده ﴿ والله ﴾ أي : بماله من القدرة الشاملة والعلم المحيط ﴿ على كل شيء ﴾ أي : على الإطلاق ﴿ شهيد ﴾ أي : حفيظ حاضر لا يغيب ورقيب لا يغفل .

ثم إنه تعالى أكد بيان كونه عالماً بكل المعلومات فقال جل ذكره:

﴿ ألم تر ﴾ أي : تعلم علماً هو في وضوحه كالرؤية بالعين ﴿ أنّ الله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال كلها ﴿ يعلم ما في السموات ﴾ كلها ﴿ وما في الأرض ﴾ كذلك كليات ذلك وجزئياته لا يغيب عنه شيء منه بدليل أنّ تدبيره محيط بذلك على أتم ما يكون ، وهو يخبر من شاء من أنبيائه وأصفيائه بما يشاء من أخبار ذلك القاصية والدانية والماضية والآتية فيكون كما أخبر ، وقوله تعالى : ﴿ ما يكون من نجوى ﴾ يكون فيه من كان التامة ،

ومن نجوى فاعلها ، ومن مزيدة فيه أي : ما يقع من تناجي ﴿ ثلاثة ﴾ ويجوز أن يقدره مضاف أي : أهل نجوى فيكون ثلاثة صفة لأهل وإن يؤوّل نجوى بمتناجين جعلوا نجوى مبالغة فيكون ثلاثة صفة لنجوى واشتقاقها من النجوة وهي ما ارتفع من الأرض فإنّ السر يرتفع إلى الذهن لا يتيسر لكل أحد أن يطلع عليه وقوله تعالى : ﴿ إلا هو رابعهم ﴾ استثناء من أعمّ الأحوال .

أي : ما يوجد شيء من هذه الأشياء في حال من الأحوال إلا وهو يعلم نجواهم كأنه حاضر معهم وشاهدهم كما تكون نجواهم عند الرابع الذي يكون معهم ﴿ ولا خمسة ﴾ أي : من نجواهم ﴿ إلا هو سادسهم ﴾ أي : يعلم نجواهم كما مرّ .

فإن قيل : ما الداعي إلى تخصيص الثلاثة والخمسة ؟

أجيب : بوجهين أحدهما : أن قوماً من المنافقين تحلقوا للتناجي فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم مغايظة للمؤمنين على هذين العددين ثلاثة وخمسة ، فقيل : ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة كما ترونهم يتناجون ﴿ ولا أدنى من ذلك ﴾ أي : من عددهم ﴿ ولا أكثر ﴾ أي : من ذلك ﴿ إلا هو معهم ﴾ يسمع ما يقولون ﴿ أينما ﴾

أي : في أي مكان ﴿ كانوا ﴾ فإنه لا مسافة بينه وبين شيء فقد روي عن ابن عباس : أنها نزلت في ربيعة وخبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية كانوا يوماً يتحدّثون فقال أحدهم : أترى أن الله يعلم ما نقول ؟ فقال الآخر : يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً وقال الثالث : إن كان يعلم بعضه فهو يعلم كله وصدق لأنّ من علم بعض الأشياء بغير سبب فقد علمها كلها ، لأنّ كونه عالماً بغير سبب ثابت له مع كل معلوم .

والوجه الثاني : أنه قصد أن يذكر ما جرت عليه العادة من أعداد أهل النجوى والمتخالين للشورى والمندوبون لذلك ليسوا بكل أحد وإنما هم طائفة مجتباة من أولي النهي والأحلام ورهط من أهل الرأي والتجارب ، وأوّل عددهم اثنان فصاعداً إلى خمسة إلى ستة إلى ما اقتضته الحال ، وحكم به الاستصواب .

ألا ترى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه كيف ترك الأمر شورى بين ستة ولم يتجاوز بها إلى سابع فذكر عز وجل الثلاثة والخمسة وقال ﴿ ولا أدنى من ذلك ﴾ فدلّ على الاثنين والأربعة ، وقال : ﴿ ولا أكثر ﴾ فدلّ على ما يلي هذا العدد ويقاربه ، وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال في خطبته الكبرى أخرجها الحارث ابن أبي أسامة رقى المنبر وقال :

"يا أيها الناس ادنوا واسمعوا لمن خلفكم ثلاث مرات" فدنا الناس وانضمّ بعضهم إلى بعض والتفتوا فلم يروا أحداً فقال: رجل منهم بعد الثالثة: لمن نسمع يا رسول الله الملائكة فقال: "لا أنهم إذا كانوا معكم لم يكونوا بين أيديكم ولا خلفكم ولكن عن أيمانكم وعن شمائلكم" وعلى ذلك فليسوا في مكان الإيمان هنا والشمائل بل في المكانة من ذلك فالله جلّ جلاله أعلى وأجل وأنزه مكانة وأكرم استواء ﴿ ثم ينبئهم ﴾ أي: يخبر أصحاب النجوى أخباراً عظيماً ﴿ بما عملوا ﴾ دقيقه وجليله ﴿ يوم القيامة ﴾ الذي هو المراد الأعظم من الوجود لإظهار الصفات العلا فيه أتم إظهار ﴿ إنّ الله ﴾ الذي له الكمال كله ﴿ بكل شيء ﴾ أي: مما ذكر وغيره ﴿ عليم ﴾ أي: بالغ العلم فهو على كل شيء شهيد وهذا تحذير من المعاصي وترغيب في الطاعات.

واختلف في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ ألم تر ﴾ أي: تعلم علماً هو كالرؤية ﴿ إلى الذين نهوا عن النجوى ﴾ فقيل: في اليهود وقيل: في المنافقين، وقيل: في فريق من الكفار وقيل في فريق من المسلمين لما روى أبو سعيد الخدري قال: "كنا ذات ليلة نتحدث إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم ما هذه النجوى فقلنا تبنا إلى الله تعالى يا رسول الله إنا كنا في ذكر المسيخ يعني الدجال فرقاً منه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بما هو أخوف عندي منه قلنا بلى يا رسول الله قال: الشرك الخفي أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل" ذكره الماوردي.

وقال ابن عباس : "نزلت في اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون فيما بينهم وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم يوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يسوءهم فيحزنون لذلك ويقولون : ما نراهم إلا وقد بلغهم من إخواننا الذين خرجوا وفي السرايا قتل أو موت أو هزيمة ، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم ، فلما طال ذلك عليهم وأثر شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم فأنزل الله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ﴾ ﴿ ثم يعودون ﴾ أي : على سبيل الاستمرار ، لأنه وقع مرّة وبادروا إلى التوبة منها أو فلتة معفواً عنها ﴿ لما نهوا عنه ﴾ أي : من غير أن يعتدوا لما يتوقع من جهة الناهي من الضرر عنده ﴿ ويتناجون ﴾ أي : يقبل بعضهم على المناجاة إقبالاً واحداً فيفعل كل منهم منها ما يفعله الآخر مرّة بعد أخرى على سبيل الاستمرار .

وقرأ حمزة بعد الياء : بنون ساكنة وبعدها ثاء فوقية مفتوحة ولا ألف قبل الجيم وضم الجيم ، والباقون بتاء فوقية مفتوحة وبعدها نون مفتوحة وبعد النون ألف وفتح الجيم

﴿ بالإثم ﴾ أي : بالشيء الذي لا يثبت عليهم به الذنب وبالكذب وبما لا يحل

﴿ والعدوان ﴾ أي : العدوان الذي هو نهاية في قصد الشرّ بالإفراط في مجاوزة الحدود ﴿ ومعصيت الرسول ﴾ أي : مخالفة النبيّ الذي جاء إليهم من الملك الأعلى وهو كامل في الرسالة لكونه مرسلاً إلى جميع الخلق وفي كل الأزمان فلا نبيّ بعده فهو لذلك مستحق غاية الإكرام .

فائدة : رسمت معصية في الموضعين بالتاء المجرورة ، وإذا وقف عليها فأبو عمرو وابن كثير والكسائي بالهاء في الوقف ، والكسائي بالإمالة في الوقف على أصله ووقف الباقون بالتاء على الرسم واتفقوا في الوصل على التاء

﴿ وإذا جاؤوك ﴾ أي : يا أشرف الخلق ﴿ حيوك ﴾ أي : واجهوك بما يعدونه تحية ﴿ بما لم يحيك به الله ﴾ أي : الملك الأعلى الذي لا أمر لأحد معه "وذلك أنّ اليهود كانوا يدخلون على النبيّ صلى الله عليه وسلم ويقولون السام عليك ، والسام الموت وهم يوهمون أنهم يقولون السلام عليك وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يرد عليهم فيقول : وعليكم فقالت السيدة عائشة : السام عليكم ولعنة الله وغضبه عليكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلاً يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش ، فقالت : أولم تسمع ما قالوا يا

رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لم تسمعي ما قلت ، رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيّ" وقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك : "إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : عليك ما قلت" فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم" بالواو فقال بعض العلماء : إنّ الواو العاطفة تقتضي التشريك فيلزم منه أن ندخل معهم فيما دعوا به علينا من الموت أو من سآمة ديننا وهو الملال يقال سئم يسأم سآمة وسأماً ، وقال بعضهم : الواو زائدة كما زيدت في قول الشاعر :

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى

أي : لما أجزنا انتحى فزاد الواو وقال : آخرون هي للاستئناف ، كأنه قيل : والسام عليكم ، وقال آخرون : هي على بابها من العطف ولا يضرّنا ذلك لأنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا كما تقدّم في قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة .

تنبيه : اختلف العلماء في ردّ السلام على أهل الذمة فقال ابن عباس والشعبي وقتادة : هو واجب لظاهر الأمر بذلك ، وقال مالك : ليس بواجب فإن رددت فقل وعليك ، وعندنا يجب أن يقول له وعليك لما مرّ في الحديث ، وقال بعضهم : يقول في الردّ علاك السلام أي : ارتفع عنك ، وقال بعض المالكية : يقال في الردّ السلام عليك بكسر السين يعني الحجارة

ولما كانوا يخفون ذلك جهدهم ويظنون بإملاء الله تعالى لهم أنه صلى الله عليه وسلم لا يطلع عليه وإن اطلع عليه لم يقدر أن ينتقم منهم عبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ ويقولون في أنفسهم ﴾ من غير أن يطلع عليه أحد ﴿ لولا ﴾ أي: هلا ولم لا ﴿ يعذبنا الله ﴾ أي: الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿ بما نقول ﴾ أي: لو كان نبيناً لعذبنا الله بما نقول وقيل: قالوا إنه يردّ علينا ويقول: وعليكم السام فلو كان نبياً لاستجيب له فينا ومتنا وهذا موضع تعجب منهم فإنهم كانوا أهل الكتاب وكانوا يعلمون أنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يغضبون فلا يعاجلون من يغضبهم بالعذاب ﴿ حسبهم ﴾ أي: كافيهم في الانتقام ﴿ جهنم ﴾ أي: الطبقة التي تلقاهم بالتجهم والعبوسة والفظاظة فإن حصل لهم في الدنيا عذاب كان زيادة على الكفاية فاستعجالهم بالعذاب محض رعونة ﴿ يصلونها ﴾ أي: يقاسون عذابها دائماً، فإنا قد أعددناها لهم ﴿ فبئس المصير ﴾ أي: مصيرهم.

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي: ادعوا أنهم أوجدوا هذه الحقيقة ﴿ إذا تناجيتم ﴾ أي: اطلع كل منكم الكلام من نفسه فرفعه وكشفه لصاحبه سرّاً ﴿ فلا تتناجوا ﴾ أي: توجدوا هذه الحقيقة ﴿ بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول ﴾ أي: الكامل في الرسالة كفعل المنافقين واليهود، وقال مقاتل: أراد تعالى بقوله: ﴿ آمنوا ﴾ المنافقين آمنوا بلسانهم، وقال عطاء: يريد الذين آمنوا بزعمهم، وقيل: يا أيها الذين آمنوا بموسى ﴿ وتناجوا بالبرّ

والتقوى ﴾ أي : الطاعة والعفاف عما نهى الله تعالى عنه ﴿ واتقوا الله ﴾ أي : اقصدوا قصداً يتبعه العمل بأن تجعلوا بينكم وبين سخط الملك الأعظم وقاية ﴿ الذي إليه ﴾ خاصة ﴿ تحشرون ﴾ أي : تجمعون بأيسر أمر وأسهله بقهر وكره وهو يوم القيامة ، فيتجلى فيه سبحانه للحكم بين الخلق والإنصاف بينهم بالعدل ومحاسبتهم على النقير والقطمير ، لا تخفى عليه خافية ولا تقي منه واقية .

(212/753)

﴿ إنما النجوى ﴾ أي : المعهود وهي المنهي عنها ﴿ من الشيطان ﴾ أي : مبتدئة وممتدّة من المحترق بطرده عن رحمة الله تعالى ، فإنه الحامل عليها بتزيينها ففاعلها تابع لأعدى أعدائه مخالف لأعظم أوليائه ﴿ ليحزن ﴾ أي : الشيطان ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي : ليوهمهم أنها لسبب شيء وقع مما يؤذيهم ، والحزن همّ غليظ وتوجع يدق ، يقال : حزنه وأحزنه بمعنى ، قال في القاموس : أو أحزنه جعله حزيناً .

وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي من أحزنه ، والباقون بفتح الياء وضم الزاي من حزن ، والقراءة الأولى أشد في المعنى على ما في القاموس

﴿ وليس ﴾ أي : الشيطان أو ما حمل عليه من التناجي ﴿ بضارهم ﴾ أي : الذين آمنوا

﴿ شيأ ﴾ من الضرر وإن قلّ ﴿ إلا بأذن الله ﴾ أي : بمشيئة الملك المحيط علماً وقدرة .

فإن قيل : كيف لا يضرّهم ذلك ولا يحزنهم إلا بإذن الله ؟

أجيب : بأنهم كانوا يوهمون المؤمنين في نجواهم وتفاخرهم أنّ غزاتهم غلبوا وأنّ أقاربهم قتلوا فقال تعالى : ﴿ لا يضرّهم الشيطان ﴾ والحزن بذلك الموهم إلا بأذن الله تعالى أي : بمشيئته وهو أن يقضي الموت على أقاربهم والغلبة على الغزاة ﴿ وعلى الله ﴾ أي : الملك الذي لا كفء له لا على أحد غيره ﴿ فيتوكل المؤمنون ﴾ أي : الراسخون في الإيمان في جميع أمورهم ، فإنه القادر وحده على إصلاحها وإفسادها فلا يحزنوا من أحد أن يكيدهم بسرّه ولا بجهره فإنهم توكلوا عليه وفوّضوا أمورهم إليه ، وخص الراسخين لإمكان ذلك منهم في العادة ، وأمّا أصحاب البدايات فلا يكون ذلك منهم إلا خرق عادة ، روى ابن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بأذنه فإنّ ذلك يحزنه" وعن عبد الله بن مسعود أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى يختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه" فبين في هذا الحديث غاية المنع وهو أن يجد الثالث من يتحدّث معه كما فعل ابن

عمر وذلك أنه كان يتحدث مع رجل فجاء آخر يريد أن يناجيه فلم يناجه حتى دعا رابعاً فقال له وللأول تأخرا وناجى الرجل الطالب للمناجاة ، أخرجه في الموطأ ونبه على العلة بقوله : من أجل أن يحزنه أي : يقع في نفسه ما يحزن لأجله وعلى هذا يستوي في ذلك كل الأعداد فلا يتناجى أربعة دون واحد ولا عشرة ولا ألف مثلاً ، لوجود ذلك المعنى في حقه بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأوقع فيكون بالمنع أولى ، وإنما خص الثلاثة بالذكر ، لأنه أوّل عدد يتأتى ذلك فيه .

(214/753)

قال القرطبي : وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال وذهب إليه ابن عمر ومالك والجمهور وسواء أكان التناجي في واجب أو مندوب أو مباح فإنّ الحزن ثابت به ، وقد ذهب بعض الناس إلى أنّ ذلك كان في أوّل الإسلام لأنّ ذلك كان حال المنافقين فيتناجى المنافقون دون المؤمنين فلما فشا الإسلام سقط ذلك ، وقال بعضهم : ذلك خاص بالسفر وفي المواضع التي لا يأمن الرجل فيها صاحبه فأمّا الحضر وبين العمارة فلا ؛ لأنه يجد من يغيثه بخلاف السفر فإنه مظنة الاغتيال وعدم الغوث

ولما نهى المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض والتنافر أمرهم الآن بما يصير سبباً لزيادة المحبة

والمودّة بقوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي: الذين اتصفوا بهذا الوصف ﴿ إذا قيل لكم ﴾ أي: من أيّ قائل كان فإنّ الخير يرغب فيه لذاته ﴿ تفسحوا ﴾ أي: توسعوا أي: كلفوا أنفسكم في اتساع المواضع ﴿ في المجلس ﴾ أي: الجلوس أو مكانه لأجل من يأتي فلا يجد مجلساً يجلس فيه، قال قتادة ومجاهد: "كانوا يتنافسون في مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض"، وقال ابن عباس: المراد بذلك مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب، قال الحسن وزيد بن أبي حبيب "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الأول فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة في القتال والشهادة فنزلت". فيكون كقوله تعالى: ﴿ مقاعد للقتال ﴾ (آل عمران:)

(215/753)

وقال مقاتل "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم في الصفة وكان في المكان ضيق وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين، والأنصار فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجلس، فقاموا قبل النبيّ صلى الله عليه وسلم على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحملهم على القيام وشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه

وسلم فقال لمن حوله من غير أهل بدر : قم يا فلان بعدد القائمين من أهل بدر فشق ذلك على من قام ، وعرف النبيّ صلى الله عليه وسلم الكراهة في وجوههم فقال المنافقون : والله ما عدل على هؤلاء أنّ قوماً أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ" فنزلت الآية يوم الجمعة

وروي عن ابن عباس قال : "نزلت الآية في ثابت بن قيس بن شماس وذلك أنه دخل المسجد وقد أخذ القوم مجالسهم وكان يريد القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم للوقر أي : الصمم الذي كان في أذنيه فوسعوا له حتى قرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ضايقه بعضهم وجرى بينه وبينهم كلام فنزلت" وقد تقدّمت قصته في سورة الحجرات .

وقرأ عاصم : بفتح الجيم ، ألف بعدها جمعاً لأنّ لكل جالس مجلساً أي : فليفسح كل واحد في مجلسه والباقون بسكون الجيم ولا ألف إفرادا ، قال البغوي : لأنّ المراد منه مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم

وقال القرطبي : الصحيح في الآية أنها عامة في مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير وللأجر سواء أكان مجلس حرب أو ذكر أو مجلس يوم الجمعة ، وإنّ كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه قال صلى الله عليه وسلم "من سبق إلى ما لم يسبق إليه فهو أحق به ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق من موضعه" فيكون المراد بالمجلس الجنس ويؤيده

قراءة الجمع ﴿ فافسحوا ﴾ أي : وسعوا فيه عن سعة صدر ﴿ يفسح الله ﴾ أي : الذي له الأمر كله ﴿ لكم ﴾ في كل ما تكرهون ضيقه من الدارين .

(216/753)

وقال الرازي : هذا يطلق فيما يطلب الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة قال : ولا ينبغي للعاقل أن يقيد الآية بالتفسح في المجلس بل المراد منه إيصال الخير إلى المسلم وإدخال السرور في قلبه .

وإذا قيل : أي من أيّ قائل كان كما مضى إذا كان يريد الإصلاح والخير ﴿ انشزوا ﴾ أي : ارتفعوا وانهضوا إلى الموضع الذي تؤمرون به أو يقتضيه الحال للتوسعة أو غيرها من الأوامر كالصلاة والجهاد ﴿ فانشزوا ﴾ أي : فارتفعوا وانهضوا ﴿ يرفع الله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال ﴿ الذين آمنوا ﴾ وإن كانوا غير علماء ﴿ منكم ﴾ أي : أيها المأمورون بالتفسح السامعون للأوامر المبادرون إليها بطاعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيامهم في مجلسهم وتوسعهم لإخوانهم ﴿ والذين أوتوا العلم درجات ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على الذين آمنوا فهو من عطف الخاص على العام فإنّ الذين أوتوا العلم بعض المؤمنين ، ويجوز أن يكون والذين أوتوا العلم من عطف الصفات أي : تكون الصفتان لذات

واحدة كأنه قيل : يرفع الله المؤمنين العلماء ودرجات مفعول ثان ، وقال ابن عباس : تمّ الكلام عند قوله تعالى : ﴿ منكم ﴾ وينتصب الذين أوتوا بفعل مضمر أي : ويخص الذين أوتوا العلم درجات أو ويرفع درجات .

قال المفسرون : في هذه الآية أنّ الله تعالى رفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم ، قال ابن مسعود مدح الله تعالى العلماء في هذه الآية ، والمعنى : أنّ الله تعالى يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات في دينهم إذا فعلوا بما أمروا به وقال تعالى : ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ (الزمر :)

وقال تعالى : ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ (طه :)

وقال تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (فاطر :)

والآيات في ذلك كثيرة معلومة

وأمّا الأحاديث فكثيرة مشهورة منها من "يرد الله به خيراً يفقهه في الدين" وروي أنّ عمر رضى الله عنه "كان يقدّم عبد الله بن عباس على الصحابة رضي الله تعالى عنهم فكلموه في ذلك فدعاهم ودعاه فسألهم عن تفسير ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فسكتوا فقال

ابن عباس : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله إياه فقال عمر ما أعلم منها إلا ما تعلم" .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال : "لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله ما لا فسلط على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها" والمراد بالحسد : الغبطة : وهي أن تتمنى مثله ومنها أنه صلى الله عليه وسلم "قال لعليّ كرّم الله وجهه : لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم" ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من جاءه أجله وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام لم يفضله النبيون إلا بدرجة واحدة" ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قال : "بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة" .

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم قال فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب . وفي رواية كفضلي على أدناكم" .

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم قال : إنّ الله أوحى إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام أني عليم أحب كل عليم" .

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم قال : "يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء" فأعظم بمنزلة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومنها : "أنه صلى الله عليه وسلم مرّ بمجلسين في مسجده أحد المجلسين يدعون الله تعالى ويرغبون إليه ، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا المجلسين على خير وأحدهما أفضل من صاحبه ، أما هؤلاء فيدعون لله عز وجل ويرغبون إليه ، وأما هؤلاء فيتعملون الفقه ويعلمونه الجاهل فهؤلاء أفضل ، وإنما بعثت معلماً ثم جلس فيهم" والأحاديث في ذلك كثيرة جدّاً .

وأمّا أقوال السلف فلا تحصر ، فمنها ما قاله ابن عباس : أن سليمان عليه السلام خير بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطي المال والملك معه ، وما قاله بعض الحكماء : ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم وأي شيء فات من أدرك العلم .

وما قاله الأحنف : كاد العلماء يكونون أرباباً ، وكل عز لم يؤكد بعلم فإلى ذل ما يصير .

وما قاله الزبيري : العلم ذكر فلا يحبه إلا ذكورة الرجال .

وما قاله أبو مسلم الخولاني : مثل العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء إذا برزت للناس اهتدوا بها وإذا خفيت عنهم تحيروا .

وما قاله معاذ : تعلم العلم فإنّ تعلمه لك حسنة ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ،

والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة .

وما قاله علي : العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق .

وما قاله ابن عمر : مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة .

وما قاله الشافعي من أن : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة وقال : ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم ، وقال : من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم فإنه يحتاج إليه في كل منهما .

(219/753)

وقد ذكرت في أوّل شرح المنهاج من الأحاديث ومن أقوال السلف ما يسرّ الناظر الراغب في الخير وفيما ذكرته هنا كفاية لأولي الأبصار ﴿ والله ﴾ أي : والحال أنّ المحيط بكل شيء علماً وقدرة ﴿ بما تعملون ﴾ أي : حال الأمر وغيره ﴿ خبير ﴾ أي : عالم بظاهره وباطنه فإن كان العلم مزيناً بالعمل بامتثال الأوامر واجتناب النواهي وتصفية الباطن كانت الرفعة على حسبه ، وإن كان على غير ذلك فكذلك .

واختلف في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي : ادعوا أنهم أوجدوا هذه

الحقيقة أغنياء كانوا أو فقراء ﴿ إذا ناجيتم الرسول ﴾ أي : أردتم مناجاة الذي لا أكمل منه في الرسالة الآية ، فقال ابن عباس : "إنّ المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية فكف كثير من الناس" .

وقال الحسن : "أنّ قوماً من المسلمين كانوا يستخلون بالنبيّ صلى الله عليه وسلم يناجونه ، فظنّ بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى فشق عليهم ذلك فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن استخلائه" .

(220/753)

وقال زيد بن أسلم "إنّ المنافقين واليهود كانوا يناجون النبيّ صلى الله عليه وسلم ويقولون : إنه أذن يسمع كل ما قيل له ، وكان لا يمنع أحداً من مناجاته فكان ذلك يشق على المسلمين لأنّ الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم يناجون أنّ جموعاً اجتمعت للقتال فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول ﴾ " أي : أردتم مناجاته ﴿ فقدّموا ﴾ أي : بسبب هذه الإرادة وقوله تعالى : ﴿ بين يدي نجواكم ﴾ استعارة ممن له يدان والمعنى : قبل نجواكم التي هي سرّكم الذي تريدون أن ترفعوه ﴿ صدقة ﴾ لقول عمر من أفضل ما أوتيت العرب الشعر يقدّمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم ويستنزل به اللئيم يريد قبل حاجته ،

والصدقة تكون لكم برهاناً على إخلاصكم كما ورد أنّ الصدقة برهان فهي مصدّقة لكم في دعوى الإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وبكل ما جاء به عن الله تعالى .

تنبيه : ظاهر الآية يدل على أنّ تقديم الصدقة كان واجباً لأنّ الأمر للوجوب ويؤكد ذلك قوله تعالى بعده : ﴿ فإنّ لم تجدوا فإنّ الله غفور رحيم ﴾ وقيل : كان مندوباً لقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي : التصدّق ﴿ خير لكم وأطهر ﴾ أي : لأنفسكم من الريبة وحب المال هذا إنما يستعمل في التطوّع لا في الواجب ولأنه لو كان واجباً لما أزيل وجوبه والكلام متصل به وهو قوله تعالى : ﴿ فإن لم تجدوا ﴾ الآية .

وأجيب عن الأوّل : بأنّ المندوب كما يوصف بأنه خير وأطهر فكذلك أيضاً يوصف بهما الواجب .

وعن الثاني : بأنه لا يلزم من اتصال الآيتين في التلاوة كونهما متصلتين في القول كما قيل في الآية الدالة على وجوب الاعتداد أربعة أشهر وعشراً أنها ناسخة للاعتداد بحول وإن كان الناسخ متقدّماً في التلاوة .

(221/753)

وعن علي أنه قال : "لما نزلت دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما تقول في دينار ؟ قلت : لا يطيقونه ، قال : كم ؟ قلت : حبة أو شعيرة قال إنك لزهيد فلما رأوا ذلك اشتدّ عليهم فارتدعوا ، أما الفقير فلعسرته وأما الغنيّ فلشحته" واختلف في مقدار تأخر الناسخ عن المنسوخ في هذه الآية ، فقال الكلبي : ما بقي ذلك التكليف إلا ساعة من نهار ثم نسخ وقال مقاتل وابن حبان : بقي ذلك التكليف عشرة أيام ثم نسخ لما روي عن عليّ أنه قال إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي كان لي دينار فصرفته فكنت إذا ناجيته تصدّقت بدرهم . وفي رواية عنه فاشتريت به عشرة دراهم وكلما ناجيت النبيّ صلى الله عليه وسلم قدمت بين يدي نجواي درهماً ثم نسخت فلم يعمل بها أحد .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم نهوا عن المناجاة حتى يتصدّقوا فلم يناج أحد إلا علي تصدّق بدينار ، وعدم عمل غيره لا يقدح فيه لاحتمال أن يكون لم يجد عند المناجاة شيئاً أو أن لا يكون احتاج إلى المناجاة ثم نزلت الرخصة .

وعن ابن عمر رضى الله عنه كان لعليّ ثلاث لو كان لي واحدة منهنّ كانت أحب إليّ من حمر النعم تزويجه فاطمة وإعطاؤه الراية يوم خيبر وآية النجوى .

واختلف في الناسخ لذلك فقيل : هي منسوخة بالزكاة وأكثر المفسرين أنها منسوخة بالآية التي بعدها وهي ﴿ أأشفقتم ﴾ كما سيأتي وكان عليّ يقول : وخفف عن هذه الأمة

﴿ فإن لم تجدوا ﴾ أي : ما تقدّمونه فإن الله أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ غفور رحيم ﴾ أي : له صفتا الستر للمساوي والإكرام بإظهار المحاسن على الدوام فهو يعفو ويرحم تارة يقدّم العقاب للعاصي وتارة بالتوسعة للضيق بأن ينسخ ما يشق إلى ما يخف .

(222/753)

وقوله تعالى : ﴿ أأشفقتم ﴾ أي : خفتم العيلة لما يعدكم به الشيطان من الفقر خوفاً كاد أن يفطر قلوبكم ﴿ أن تقدّموا ﴾ أي : بإعطاء الفقراء وهم إخوانكم ﴿ بين يدي نجواكم ﴾ أي : النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ صدقات ﴾ وجمع ؛ لأنه أكثر توبيخاً من حيث إنه يدل على أنّ النجوى تكرّر استفهام معناه التقرير وهو الناسخ عند الأكثر كما مرّ .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام : بتسهيل الثانية بخلاف عن هشام ، وأدخل بينهما الفاء قالون وأبو عمرو وهشام ، والباقون بتحقيقهما ولا إدخال والأولى محققة بلا خلاف ﴿ فإذ ﴾ أي : فحين ﴿ لم تفعلوا ﴾ أي : ما أمرتكم به من الصدقة للنجوى بسبب هذا الإشفاق ﴿ وتاب الله ﴾ أي : الملك الأعلى ﴿ عليكم ﴾ أي : رجع بكم عنها بأن نسخها عنكم تخفيفاً عليكم ﴿ فأقيموا ﴾ أي : بسبب العفو عنكم شكراً أي : على هذا الكرم والحلم ﴿ الصلاة ﴾ التي هي طهرة لأرواحكم وصلة لكم بربكم ﴿ وآتوا

الزكاة ﴾ التي هي براءة لأبدانكم وتطهير ونماء لأموالكم وصلة لكم بإخوانكم ، ولا تفرّطوا في شيء من ذلك فتهملوه فالصلاة نور يهدي إلى المقاصد الدنيوية والأخروية ويعين على نوائب الدارين ، والصدقة برهان على صحة القصد في الصلاة .

ثم عمم بعد أن خصص أشرف العبادات البدنية وأعلى المناسك المالية بقوله تعالى :

﴿ وأطيعوا الله ﴾ أي : الذي له الكمال له ﴿ ورسوله ﴾ أي : الذي عظمته من عظمته في سائر ما يأمرانكم به ، فإنه تعالى ما أمركم لأجل إكرام رسولكم صلى الله عليه وسلم إلا بالحنيفية السمحة ﴿ والله ﴾ أي : الذي أحاط بكل شيء علماً وقدرة ﴿ خبير بما تعملون ﴾ أي : يعلم بواطنكم كما يعلم ظواهركم لا تخفى عليه خافية .

(223/753)

﴿ ألم تر ﴾ أي : تنظر يا أشرف الخلق ﴿ إلى الذين تولوا ﴾ أي : تكلفوا بغاية جهدهم وهم المنافقون أي جعلوا أولياءهم الذين يتولون لهم أمورهم ﴿ قوماً ﴾ وهم اليهود ابتغوا عندهم العزة اغتراراً بما يظهر لهم منهم من القوة ﴿ غضب الله ﴾ أي : الملك الأعلى الذي لا ندّ له ﴿ عليهم ﴾ أي : المتولى والمتولى لهم ﴿ ما هم ﴾ أي : المنافقون ﴿ منكم ﴾ أي : المؤمنين ﴿ ولا منهم ﴾ أي : اليهود بل هم مذبذبون وزاد في الشناعة عليهم بأقبح الأشياء

بقوله تعالى : ﴿ ويحلفون ﴾ أي : المنافقون يجدّدون الحلف على الاستمرار ودل بأداة الاستعلاء على أنهم في غاية الجراءة على استمرارهم على الإيمان الكاذبة بأنّ التقدير مجترئين ﴿ على الكذب ﴾ في دعوى الإسلام وغير ذلك مما يقعون فيه من عظائم الآثام فإذا عوتبوا عليه بادروا إلى الإيمان ﴿ وهم يعلمون ﴾ أنهم كاذبون متعمدون .

روي "أنّ عبد الله بن نبتل كان يجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يرفع حديثه إلى اليهود فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجرة من حجره إذ قال لأصحابه : يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان ، فدخل ابن نبتل وكان أزرق العينين أسمر قصيراً خفيف اللحية ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم علام تشتمني أنت وأصحابك فحلف بالله ما فعل فقال النبي صلى الله عليه وسلم فعلت فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فنزلت" .

﴿ أعد الله ﴾ أي : الذي له العظمة الباهرة فلا كفء له ﴿ لهم عذاباً ﴾ أي : أمراً قاطعاً لكل عذوبة ﴿ شديداً ﴾ أي : لا طاقة لهم به ثم علل عذابهم بما دلّ على أنه واقع في أتم مواقعه بقوله تعالى مؤكداً تقبيحاً على من كان يستحسن فعالهم ﴿ إنهم ساء ﴾ أي : بلغ الغاية بما يسوء ودل على أنّ ذلك لهم كالجبلة بقوله تعالى : ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ أي : يجدّدون عمله مستمرّين عليه لا ينفكون عنه ، قال الزمخشري : أو هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة

﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ أي : الكاذبة التي لا تهون على من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ﴿ جنة ﴾ وقاية وسترة من كل ما يفضحهم من النفاق كائناً ما كان ﴿ فصدّوا ﴾ أي : كان قبول ذلك منهم وتأخير عقابهم سبباً لإيقاعهم الصدّ ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي : شرع الملك الأعلى الذي هو طريق إلى رضوانه الذي هو سبب الفوز العظيم فإنهم كانوا يثبطون من لقوا عن الدخول في الإسلام ويوهنون أمره ويحقرونه ، ومن رآهم قد خلصوا من المكاره بأيمانهم الخائنة ودرّت عليهم الأرزاق استدراجاً ، وحصلت لهم الرفعة عند الناس بما يرضونه من أقوالهم المؤكدة بالإيمان ، غرّه ذلك فاتبع سنتهم في أقوالهم وأفعالهم ونسج على منوالهم غروراً بظاهر أمرهم معرضاً عما توعدهم الله تعالى عليه من جزاء خداعهم وأمرهم وأجرى الأمر على أسلوب التهكم باللام التي تكون في المحبوب فقال تعالى :

﴿ فلهم ﴾ أي : فتسبب عن صدّهم إنه كان لهم ﴿ عذاب مهين ﴾ جزاء بما طلبوا بذلك الصدّ إعزاز أنفسهم وإهانة أهل الإسلام

﴿ لن تغنى ﴾ أي : بوجه من الوجوه ﴿ عنهم أموالهم ﴾ أي : في الدنيا ولا في الآخرة بالافتداء ولا بغيره ﴿ ولا أولادهم ﴾ أي : بالنصرة والمدافعة ﴿ من الله ﴾ أي : أغناه

مبتدأ من الملك الأعلى ﴿ شيئًا ﴾ ولو قل جداً فمهما أراد بهم سبحانه كان ونفذ ومضى لا يدفعه شيء تكذيباً لمن قال منهم : لئن كان يوم القيامة لنكوننّ أسعد فيه منكم كما نحن الآن ولننجونّ بأنفسنا وأموالنا وأولادنا ﴿ أولئك ﴾ أي : البعداء من كل خير ﴿ أصحاب النار هم ﴾ أي : خاصة ﴿ فيها ﴾ أي : خاصة ﴿ خالدون ﴾ أي : دائمون لازمون إلى غير نهاية

(225/753)

وقوله تعالى : ﴿ يوم ﴾ منصوب باذكر أي : واذكر يوم ﴿ يبعثهم الله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال ﴿ جميعاً ﴾ فلا يترك أحداً منهم ولا من غيرهم إلا أعاده إلى ما كان قبل موته ﴿ فيحلفون ﴾ أي : فيتسبب عن ظهور القدرة التامّة لهم ومعاينة ما كانوا يكذبون به أنهم يحلفون ﴿ له ﴾ أي : لله في الآخرة أنهم مسلمون فيقولون : والله ربنا ما كنا مشركين ونحو ذلك ﴿ كما يحلفون لكم ﴾ في الدنيا أنهم مثلكم ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : يحلفون لله تعالى يوم القيامة كذباً كما حلفوا لأوليائه في الدنيا وهو قولهم والله ربنا ما كنا مشركين . ﴿ ويحسبون ﴾ أي : في القيامة بأيمانهم الكاذبة ﴿ أنهم على شيء ﴾ أي : يحصل لهم به نفع بإنكارهم وحلفهم ، وقيل : يحسبون في الدنيا أنهم على شيء ، لأنهم في

الآخرة يعلمون الحق باضطرار والأول أظهر والمعنى : أنهم لشدّة توغلهم في النفاق ظنوا يوم القيامة أنهم يمكنهم ترويج كذبهم بالأيمان الكاذبة على علام الغيوب .

وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ (الأنعام :)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ينادي مناد يوم القيامة أين خصماء الله تعالى فتقوم القدرية مسودّة وجوههم مزرقة أعينهم مائل شقهم يسيل لعابهم فيقولون والله ما عبدنا من دونك شمساً ولا قمراً ولا صنماً ولا اتخذنا من دونك إلهاً" قال ابن عباس رضى الله عنهما : صدقوا والله أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون ثم تلا : ﴿ ويحسبون أنهم على شيء ﴾ " وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة : بفتح السين ، والباقون بكسرها ﴿ ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ المحكوم بكذبهم في حسبانهم هم والله القدرية ثلاثاً .

(226/753)

﴿ استحوذ ﴾ أي : استولى ﴿ عليهم الشيطان ﴾ مع أنه طريد ومحترق ووصل منهم إلى ما يريده وملكهم ملكاً لم يبق لهم معه اختيار فصاروا رعيته وصار هو محيطاً بهم من كل جهة غالباً عليهم ظاهراً وباطناً من قولهم حذت الأبل وحذذتها إذا استوليت عليها ،

والحوذ أيضاً : السوق السريع ومنه الأحوذي الخفيف في الشيء لحذقه ، واستحوذ مما جاء على الأصل وهو ثبوت الواو دون قلبها ألفاً ﴿ فأنساهم ﴾ أي : فتسبب عن استحواذه عليهم أن أنساهم ﴿ ذكر الله ﴾ أي : الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا ﴿ أولئك ﴾ أي : البعداء البغضاء ﴿ حزب الشيطان ﴾ أي : أتباعه وجنوده وطائفته وأصحابه ﴿ ألا إنّ حزب الشيطان ﴾ أي : الطريد المحترق ﴿ هم الخاسرون ﴾ أي : العريقون في هذا الوصف ؛ لأنهم لم يظفروا بغير الطرد والاحتراق .

﴿ إن الذين يحادون الله ﴾ أي : يفعلون مع الملك الأعظم الذي لا كفؤ له ، فعل من ينازع آخر في الأرض فيغلب على طائفة ليجعل لها حداً لا يتعداه خصمه ﴿ ورسوله ﴾ أي : الذي عظمته من عظمته ﴿ أولئك ﴾ أي : البعداء البغضاء ﴿ في الأذلين ﴾ أي : في جملة من هو أذل خلق الله تعالى .

واختلف في معنى قوله عز وجلّ ﴿ كتب الله ﴾ أي : الملك الذي لا كفؤ له فقال أكثر المفسرين أي : قضى الله عز وجلّ ﴿ لأغلبن ﴾ وقال قتادة : كتب في اللوح المحفوظ ، وقال الفراء : كتب بمعنى قال وقوله تعالى : ﴿ أنا ﴾ تأكيد ﴿ ورسُلي ﴾ أي : من بعث منهم بالحرب ومن بعث منهم بالحجة فإذا انضم إلى الغلبة بالحجة الغلبة بالحرب كان أغلب وأقوى .

وقال مقاتل : قال المؤمنون لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهنّ رجونا أن

يظهرنا الله تعالى على فارس والروم ، فقال عبد الله بن أبي ابن سلول : الروم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها والله أنهم لأكثر عدداً وأشدّ بطشاً من أن تظنوا فيهم فنزل ﴿ لأغلبن أنا ورسلي ﴾ .

(227/753)

ونظيره قوله تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون وإنّ جندنا لهم الغالبون ﴾ (الصافات : .)

وقرأ نافع وابن عامر : بفتح الياء والباقون بالسكون ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له الأمر كله ﴿ قويّ ﴾ أي : على نصر أوليائه ﴿ عزيز ﴾ أي : لا يغلب عليه في مراده .

ثم نهى تعالى عن موالاة أعداء الله تعالى بقوله سبحانه ﴿ لا تجد ﴾ أي : بعد هذا البيان ﴿ قوماً ﴾ أي : ناساً لهم قوة على ما يريدون ﴿ يؤمنون ﴾ أي : يجددون الإيمان ويديمونه ﴿ بالله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال ﴿ واليوم الآخر ﴾ الذي هو موضع الجزاء لكل عامل بكل ما عمل الذي هو محط الحكمة ﴿ يوادّون ﴾ أي : يحصل منهم ودّ لا ظاهراً ولا باطناً ﴿ من حادّ الله ﴾ أي : عادى بالمناصبة في حدود الملك الأعلى ﴿ ورسوله ﴾ فإن من حادّه فقد حادّ الذي أرسله بل لا تجدهم إلا يحادّونهم لا أنهم يوادّونهم .

وزاد ذلك تأكيداً بقوله تعالى : ﴿ ولو كانوا آباؤهم ﴾ أي : الذين أوجب الله تعالى إلا بناء طاعتهم في المعروف ، وذلك كما فعل أبو عبيدة بن الجراح حيث قتل أباه عبد الله بن الجرّاح يوم أحد ﴿ أو أبناءهم ﴾ أي : الذين جبلوا على محبتهم ورحمتهم ، كما فعل أبو بكر "فإنه دعا ابنه يوم بدر إلى المبارزة وقال : دعني يا رسول الله أكن في الرعلة الأولى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري" ﴿ أو إخوانهم ﴾ أي : الذين هم أعضادهم كما فعل مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد وخزف سعد بن أبي وقاص غير مرّة فراغ منه روغان الثعلب فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عنه وقال : أتريد أن تقتل نفسك .

(228/753)

وقتل محمد بن سلمة الأنصاري أخاه من الرضاع كعب بن الأشرف اليهودي رأس بني النضير ﴿ أو عشيرتهم ﴾ أي : الذين هم أنصارهم وأمدادهم كما قتل عمر خاله العاصي وهشام بن المغيرة يوم بدر ، وعلي وحمزة وعبيدة بن الحارث قتلوا يوم بدر بني عمهم عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة .

وعن الثوري : أنّ السلف كانوا يرون أنّ الآية نزلت فيمن يصحب السلطان ا . ه . ومدار

ذلك على أنّ الإنسان يقطع رجاء من غير الله تعالى ، وإن لم يكن كذلك لم يكن مخلصاً في إيمانه .

تنبيه : قدّم الآباء أوّلاً لأنهم تجب طاعتهم على أبنائهم ، ثم ثنى بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب وهم حياتها ، ثم ثلث بالأخوان لأنهم هم الناصرون بمنزلة العضد من الذراع . قال الشاعر:

*أخاك أخاك إن من لا أخا له

** كساع إلى الهيجا بغير سلاح

*وإن ابن عمّ المرء فاعلم جناحه

** وهل ينهض البازي بغير جناح

ثم ربع بالعشيرة لأنّ بها يستغاث وعليها يعتمد ، والمعنى : أنّ الميل إلى هؤلاء أعظم أنواع المحبة ومع هذا فيجب أن يكون هذا الميل مطروحاً بسبب الدين .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجرّاح لما قتل أباه ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه لما قتل خاله العاصي ابن هشام يوم بدر روي أنها نزلت في أبي بكر ، وذلك أنّ أبا قحافة سب النبي صلى الله عليه وسلم فصكه صكةً سقطت منها أسنانه ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك ، فقال : أو فعلت ، قال : نعم

، قال : لا تعد إليه ، فقال : والذي بعثك بالحق نبياً لو كان السيف مني قريباً لقتلته ، فهؤلاء لم يوادّوا أقاربهم .

(229/753)

قال القرطبي : استدل مالك بهذه الآية على معاداة القدرية وترك مجالستهم ، قال القرطبي : وفي معنى أهل القدر جميع أهل الظلم . وعن عبد العزيز بن أبي دواد : أنه لقي المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلا الآية . وقال صلى الله عليه وسلم "اللهمّ لا تجعل لفاجر عندي نعمة ، فإني وجدت فيما أوحيت إليّ ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ الآية ﴿ أولئك ﴾ أي : العالو الهمة ﴿ كتب ﴾ أي : أثبت قاله الربيع بن أنس رضى الله عنه ، وقيل : خلق ، وقيل : جعل كقوله تعالى : ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ (آل عمران :) أي : اجعلنا ، وقوله تعالى : ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ (الأعراف :)

وقيل : ﴿ كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ (طه :)

بما وفقهم فيه وشرح له صدرهم ، أي : على قلوبهم كقوله تعالى : ﴿ في جذوع النخل ﴾ وخص القلوب بالذكر لأنها موضع الإيمان . قال البيضاوي : وهو دليل على خروج العمل من مفهوم الإيمان ، فإنّ جزاء الثابت في القلب يكون ثابتاً فيه ، وأعمال الجوارح لا تثبت

فيه . ﴿ وأيدهم ﴾ أي : وقوّاهم وشدّدهم وشرّفهم ﴿ بروح ﴾ أي : نور شريف جدّاً يفهمون به ما أودع في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من نور العلم والعمل ﴿ منه ﴾ أي : من الله تعالى أحياهم به فلا إنفكاك لذلك عنهم في وقت من الأوقات ، فأثمر لهم استقامة المناهج ظاهراً وباطناً ، فعملوا الأعمال الصالحة فكانوا للدنيا كالسراج ، فلا تجد شيئاً أدخل في الإخلاص من موالاة أولياء الله تعالى ، ومعاداة أعدائه لا بل هو عين الإخلاص ، ومن جنح إلى منحرف عن دينه ، أو داهن مبتدعاً في عقيدته نزع الله تعالى نور التوحيد من قلبه .

(230/753)

قال الزمخشري : ويجوز أن يكون الضمير للإيمان ، أي : بروح من الإيمان على أنه في نفسه روح لحياة القلوب به وقال ابن عباس رضى الله عنهما : نصرهم على عدوّهم ، وسمى تلك النصرة روحاً ، لأنّ بها يحيا أمرهم . وقال الربيع بن أنس رضى الله عنه : بالقرآن وحججه ، وقال ابن جريج : بنور وبرهان وهدى ، وقيل : برحمة ، وقيل : أيدهم بجبريل عليه السلام ﴿ ويدخلهم جنات ﴾ أي : بساتين تستر داخلها من كثرة أشجارها .

وأخبر عن ريها بقوله تعالى : ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي قصورها ﴿ الأنهار ﴾ فهي

بذلك كثيرة الرياض والأشجار وقال تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ لأنّ ذلك لا يلذ إلا بالدوام ، وقال تعالى : ﴿ رضى الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ عنهم ﴾ لأنّ ذلك لا يتم إلا برضا مالكها الذي له الملك كله ﴿ ورضوا عنه ﴾ أي : لأنه أعطاهم فوق ما يؤملون ﴿ أولئك ﴾ أي : الذين هم في الدرجات العلى من العظمة لكونهم قصروا ودّهم على الله تعالى ، علماً منهم بأنه ليس الضرّ والنفع إلا بيده ﴿ حزب الله ﴾ أي : جند الملك الذي أحاط بجميع صفات الكمال ﴿ ألا إنّ حزب الله ﴾ أي : جند الملك الأعلى ، وهم هؤلاء الموصوفون ومن والاهم ﴿ هم المفلحون ﴾ أي : الذين حازوا الظفر بكل ما يؤملون في الدارين ، وقد علم من الرضا من الجانبين والحزبية والإفلاح عدم الإنفكاك عن السعادة فأغنى ذلك عن تقييد الخلود بالتأييد .

فائدة : هذه السورة نصف القرآن عدداً ، وليس فيها آية إلا وفيها ذكر الجلالة الكريمة مرة أو مرتين أو ثلاثاً . وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "أنّ من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله تعالى يوم القيامة حديث موضوع . والله تعالى أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 7 صـ 331.357 ﴾

وقال القاسمي :

سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ؛ لقد جاءت المجادلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تكلمه ، وأنا في ناحية البيت ، ما أسمع ما تقول ! فأنزل الله عز وجل : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ﴾ إلى آخر الآية ، ورواه البخاري معلقاً . وفي رواية لابن أبي حاتم عن عائشة أنها قالت : تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء ، إني أسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى عليّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي تقول : يا رسول الله ! أكل شباب ، ونثرت له بطني ، حتى إذا كبرت سني ، وانقطع ولدي ، ظاهر مني ! اللهم إني أشكو إليك . قالت : فما برحت ، حتى نزل جبريل بهذه الآية ﴿ قَدْ سَمِعَ ﴾ إلخ . قال ابن كثير : ويقال فيها : خولة بنت مالك بن ثعلبة ، وقد تصغر فيقال : خويلة . ولا منافاة بين هذه الأقوال ، فالأمر فيها قريب . وفي " العناية " . المراد من قوله ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ﴾ إلخ قَبِل قولها وأجابه ، كما في : سمع الله لمن حمده ، مجازاً بعلاقة السببية أو كناية . انتهى .

وقوله :

﴿ وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي : تشتكي المجادلة ما لديها من الهمّ بظِهار زوجها منها ، إلى الله ، وتسأله الفرَج .

ومعنى ﴿ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ ترجيعكما الكلام في هذه النازلة . وذلك أن الظهار كان طلاق الرجل امرأته في الجاهلية ، فإذا تكلم به لم يرجع إلى امرأته أبداً . وقد طمعت المشتكية أن يكون غير قاطع علقة النكاح . والنبي صلى الله عليه وسلم لم يبتّ لها في الأمر ، حتى ينزل الوحي الذي يردّ التنازع إليه . ثم أنزل تعالى فيه قوله :

(232/753)

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم ﴾ يعني قول الرجل لإمراته إذا غضب عليها : أنت عليّ كظهر أمي ، يعني : في حرمة الركوب .

﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ أي : ما نساؤهم اللاتي ظاهروا منهن بأمهاتهم ، أي : يصرن بهذا القول كأمهاتهم في التحريم الأبدي .

قال المهايمّي : ما هن أمهاتهم بالحقيقة ، ولا في حكمهن بالمجاز ، إذ لا يقتضي المجاز أن يكون في حكم الحقيقة ، إلا بقلب الحقائق ، لكنها لا تنقلب .

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ أي : فلا يشبه بهن في الحرمة الأزواج ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ ﴾ أي : قولاً تنكره العقلاء ، وتتجافاه الكرماء .

﴿ وَزُورًا ﴾ أي : باطلاً لا حقيقة له ؛ لأنه يتضمن إلحاقها بالأمّ المنافي لمقتضى الزوجية

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أي : لذنوب عباده ، إذا تابوا منها وأنابوا ، فلا يعاقبهم عليها بعد التوبة .

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [3 - 4]

(233/753)

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ أي : يرجعون إلى لفظ الظهار ثانية ، فالقول على حقيقته ، أو يعزمون على غشيانهن ووطئهن رغبة في تحليلهن ، بعد تحريمهن ، فالقول بمعنى المقول فيه ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ

فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ

﴾ [4] روى الإمام أحمد عن يوسف بن عبد الله بن سلام ، عن خويلة بنت ثعلبة قالت : فيّ والله ! وفي أوس بن صامت أنزل الله صدر سورة المجادلة قالت : كنت عنده ، وكان شيخاً كبيراً ، قد ساء خلقه وضجر ، فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء ، فغضب فقال : أنت عليّ كظهر أمي ، قالت : ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ثم دخل عليّ ، فإذا هو يريدني على نفسي ، قالت : قلت : والذي نفس خويلة بيده ! لا تخلص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكم . قالت : فواثبني ، فامتنعت منه ، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عني . قال : ثم خرجت إلى بعض جاراتي ، فاستعرت منها ثيابها ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : < يا خويلة ! ابن عمك شيخ كبير ، فاتقي الله فيه > . قالت : فوالله ! ما برحت حتى نزل فيّ القرآن ، فتغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يتغشاه ، ثم سرّي عنه ، فقال لي : < يا خويلة ! قد أنزل الله فيك وفي صاحبك . . . > ثم قرأ عليّ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي

زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قالت : فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : < مُريه فليعتق رقبة > . قالت : فقلت : يا رسول الله ! ما عنده ما يعتق ! قال : < فليصم شهرين متتابعين > . قال : فقلت : والله ! إنه لشيخ كبير ، ما به من صيام . قال : < فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر > . قالت : فقلت : والله ! يا رسول الله ما ذاك عنده . قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < فإنا سنعينه بفرق من تمر > . قالت : فقلت : يا رسول الله ! وأنا سأعينه بفرق آخر . قال : < قد أصبت وأحسن ، فاذهبي فتصدقي به عنه ، ثم استوصي بابن عمك خيراً > . قالت : ففعلت . ورواه أبو داود : وعنده خولة بنت ثعلبة ، ولا منافاة كما تقدم فإن العرب كثيراً ما تصغّر الأعلام . وروى ابن جرير عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية : أنت عليّ كظهر أمي ، حرمت في الإسلام . فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس ، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها : خويلة بنت ثعلبة ، فظاهر منها ، فأسقط في يديه ، وقال : ما أراك إلا قد حرمت عليّ ، وقالت له مثل ذلك . قال : فانطلقي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه ، فأخبرته فقال : < يا خويلة ! ما أمرنا في أمرك بشيء > ، فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : < يا خويلة ! أبشري > . قالت : خيراً .

قال : فقرأ عليها

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ قالت : وأي رقبة لنا ؟ والله ! ما نجد رقبة غيري ؟ قال :

< ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ > قالت : والله ! لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصره . قال :

(235/753)

< ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ > قالت : من أين ؟ ما هي إلا أكلة إلى مثلها ! قال : فرعاه بشطر وسق ثلاثين صاعاً ، والوسق ستون صاعاً ، فقال : < ليطعم ستين مسكيناً وليراجعك > . قال ابن كثير : إسناده جيدّ قوي ، وسياق غريب ، وقد روي عن أبي العالية نحو هذا .

تنبيهات :

قال السيوطي في " الإكليل " : في هذه الآية حكم الظهار ، وأنه من الكبائر ، وأنه خاص بالزوجات ، دون الأجنبيات ، وأن فيه بالعَود كفارة ، وأنه يحرم الوطء قبلها ، وأنها مرتبة : العتق ، ثم صوم شهرين متتابعين ، ثم إطعام ستين مسكيناً ، واستدّل ، مالك بقوله :

﴿ مِنكُمْ ﴾ على أن الكافر لا يدخل في الحكم ، وبقوله :

﴿ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ على صحته من الزوجات والسراري ، لشمول النساء لهنّ .

واستدّل ابن جرير وداود وفرّقه بقوله :

﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ على أن العود الموجب للكفارة ، أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرر .

واستدّل بإطلاق الرقبة في كفارة الظهار عتق الكافرة .

واستدّل بظاهر الآية من لم ير الظهار إلا في التشبيه بظهر الأم خاصّة دون سائر الأعضاء ، ودون الاقتصار على قوله : كأمي ، وبالأم خاصة دون الجدّات وسائر المحارم من النسب أو الرضاع أو المصاهرة والأب والابن ونحو ذلك . ومن قال لا حكم لظهار الزوجة من زوجها ، لأنه تعالى خص الظهار بالرجل . ومن قال بصحة ظهار العبد لعموم ﴿ الَّذِينَ ﴾ له . ومن قال بإباحة الاستمتاعات بناء على عدم دخولها في لفظ المماسة . ومن قال يجوز الوطء ونحو ذلك قبل الإطعام إذا كان يكفر به ، لأنه لم يذكر فيه ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾

وفي الآية ردّ على من أوجب الكفارة بمجرد لفظ الظهار ، و لم يعتبر العود . ووجه ما قاله أن جعل العود فعله في الإسلام بعد تحريمه .

وفيه رد على من اكتفى بإطعام مسكين يوم واحد ، ستين يوماً . انتهى .

وقوله تعالى ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي : ذلك البيان أو التعليم للأحكام لتصدّقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه ، والانتهاء عن قول الزور الجاهلي .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الجاحدون لفرائضه وحدوده التي بيّنها . فالكفر على حقيقته ، أو المتعدّون لها ، وعنوان الكفر تغليظاً لزجرهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [5]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي : في مخالفة حدوده وفرائضه . وأصله من المحادّة ، بمعنى المعاداة ؛ لأن كلاًّ من المتعادين في حدّ غير حد الآخر .

﴿ كُبِتُوا ﴾ أي : أخزوا ﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني كفار الأمم الماضية .

﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ قال ابن جرير : أي : دلالات مفصلات ، وعلامات محكمات ، تدلّ على حقائق حدود الله ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ يعني منكري تلك الآيات وجاحديها .

تنبيه :

فسّر بعضهم ﴿ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بمعنى يضعون أو يختارون حدوداً غير حدودهما .

قال محشّيه : ففيه وعيد عظيم للملوك وأمراء السوء ، الذين وضعوا أموراً خلاف ما حدّه الشرع ، وسموها قانوناً .

وقال : وقد صنّف العارف بالله تعالى الشيخ بهاء الدين ، قدّس الله روحه ، رسالة في كفر من يقول : يعمل بالقانون والشرع ، إذا قابل بينهما ، وقد قال الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : 3] ، وقد وصل الدين إلى مرتبة من الكمال لا تقبل التكميل . وإذا جاء نهر الله ، بطل نهر معقل . انتهى كلامه .

(237/753)

ولا يخفى أن إطلاق الكفر لمجرد ذلك من غير تفصيل ، فيه نظر ؛ لأنه من تنطع الغالين من الفقهاء الذين زيّف أقوالهم في التكفير كثير من العلماء النحارير ، فإن التكفير ليس بالأمر اليسير . والحق في ذلك أن القانون الذي يهدم نصوص الشرع التي لا تحتمل التأويل ويبطلها وينسخها ، فإنه كفر وضلال ولا يقول به ، ولا يعول عليه ، إلا المارقون الجاحدون وأما غير المنصوص عليه – أعني ما لم يكن قاطعاً في بابه ، من آية محكمة ، أو خبر متواتر ، أو إجماع

من الفروع النظرية ، والمسائل الاجتهادية المدونة – فمخالفتها إلى قانون عادل لا يعدّ ضلالاً ولا كفراً ؛ لأنه ليس من مخالفة الشرع في شيء إذ الشرع ما شرعه الله ورسوله ، وأحكم الأمر فيه ، وبين بياناً رفع كل لبس ، لا ما تخالف فيه الفقهاء ، وكان مأخذه من الاجتهاد ، وإعمال الرأي ، فإن ذلك لا عصمة فيه من الخطأ ، مهما بلغ رائيه من المكانة إذ لا عصمة إلا في نص الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكثيراً ما تتشابه فروع الفقهاء بمواد القانون ، ولذا ألف بعض المتأخرين كتاباً في مطابقة المواد النظامية للفروع الفقهية ، وذلك لأن مورد الجميع واحد ، وهو الرأي والاجتهاد ورعاية المصلحة .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب في هذا المعنى سماه " السياسة الشرعية " وكذا لتلميذه الإمام ابن القيم ، وهو أوسع . ولنجم الدين الطوفي أيضاً رسالة في المصالح المرسلة ، جمعناها من شرحه للأربعين النووية . وقد أرجع العز بن عبد السلام فروع الفقه في قواعده إلى قاعدتين : اعتبار المصالح ودرء المفاسد .

قال القاضي زكريا : وبحث بعضهم رجوع الجميع إلى جلب المصالح .

وقال الشاطبيّ في " الموافقات " : إن الشارع قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدنيوية ، وبأن تكون مصالح على الإطلاق ، فلا بد أن يكون وضعها على ذلك الوجه أبدياً وكلياً وعامّاً في جميع أنواع التكليف والمكلفين من جميع الأحوال .

وقال نجم الدين الطوفي : إن قول النبي صلى الله عليه وسلم : < لا ضرر ولا ضرار > يقتضي رعاية المصالح إثباتاً ونفياً ، والمفاسد نفياً ، إذ الضرر هو المفسدة ، فإذا نفاها الشرع لزم إثبات النفع الذي هو المصلحة ، لأنهما نقيضان لا واسطة بينهما ، ثم إن أقوى الأدلة النص والإجماع ، وهما إما أن يوافقا رعاية المصلحة ، أو يخالفاها ، فإن وافقاها ، فبها ونعمت ، ولا تنازع ؛ إذ قد اتفقت الأدلة الثلاثة على الحكم ، وهي النص والإجماع ، ورعاية المصلحة المستفادة من قوله عليه السلام : < لا ضرر ولا ضرار > ، وإن خالفاها وجب تقديم رعاية المصلحة عليهما بطريق التخصيص والبيان لهما ، لا بطريق الافتئات عليهما والتعطيل لهما ، كما تُقدم السنة على القرآن ، بطريق البيان ، انتهى . وتتمة كلامه جديرة بالمراجعة ، هي وتعليقاتنا عليها ، فابحث ولا تكن أسير التقليد ، بل ممن ألقى السمع وهو شهيد .

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [6]

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ ﴾ أي : أحاط الله به علماً ، ولم يذهب عنه شيء ﴿ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي : رقيب ، يعلمه ولا يغيب عنه . و ﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب بـ : اذكر مضمراً . وتقدمة الإخبار بسعة علمه سبحانه ،

تمهيدٌ لما بعده من النهي عن النجوى بالإثم ، تحذيراً وتنفيراً . وقد أكد ذلك بتفصيل علمه عناية بالمنهيّ عنه ، والمحذر منه ، في قوله تعالى :

(239/753)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ النجوى مصدر ، معناها التحدث سراً ، مأخوذة من النجوة ، وهي ما ارتفع من الأرض ، لأن السر يصان عن الغير ، كأن رفع من حضيض الظهور إلى أوج الخفاء ، على التشبيه .

قال الشهاب : وأقرب منه قول الراغب ، لأن المتسارّين يخلوان بنجوة من الأرض . أو هو من النجاة وتخصيص العددين ، إما لخصوص الواقعة ، فكان قوم من المنافقين ، على هذا العدد اجتمعوا مغايظة للمؤمنين ، أو لأن التناجي للمشاورة ، وأقله ثلاثة ، لأن التشاور لا بد له من اثنين يكونان كالمتنازعين ، وثالث يتوسط بينهما . ومناسبة ضم الخمسة للثلاثة ، كون الخمسة أول مراتب ما فوقها في الوترية ، فذكرا ليشار بهما للأقل والأكثر . على أنه عمم الحكم بعد ذلك بقوله :

﴿ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ ﴾ أي : كالاثنين ﴿ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ أي : كالستة وما فوقها ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ أي : يعلم ما يكون بينهم في أي : مكان حلّوا ، لأن علمه بالأشياء ليس لقرب مكانيّ حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة . روى ابن جرير عن الضحاك في الآية قال : هو فوق العرش ، وعلمه معهم أينما كانوا .

وقال ابن كثير : حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى . ولا شك في إرادة ذلك .

قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم .

تنبيه :

استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الله تعالى في كل مكان ، فرد عليهم الإمام ابن حزم في " الفِصل " بأن قول الله تعالى يجب حمله على ظاهره ، ما لم يمنع من حمله على ظاهره نص آخر ، أو إجماع ، أو ضرورة حس . وقد علمنا أن كل ما كان في مكان ، فإنه شاغل لذلك المكان ومالئ له ، ومتشكل بشكل المكان ، أو المكان متشكل بشكله ، ولا بد من أحد الأمرين ضرورة ، وعلمنا أن ما كان في مكان ، فإنه متناه بتناهي مكانه ، وهو ذو جهات

ست أو خمس متناهية في مكانه ، وهذه كلها صفات الجسم . فلما صح ما ذكر فيها ، منا أن قوله تعالى :

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : 16] ، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ [الواقعة : 85] . وقوله تعالى ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ إنما هو التدبير لذلك ، والإحاطة به فقط ضرورة ، لانتفاء ما عدا ذلك . وأيضاً فإن قولهم : في كل مكان خطأ ، لأنه يلزم ، بموجب هذا القول ، أن يملأ الأماكن كلها ، وأن يكون ما في الأماكن فيه ، تعالى الله عن ذلك ، وهذا محال . فإن قالوا : هو فيها ، بخلاف كون المتمكن في المكان . قيل لهم : هذا لا يعقل ، ولا يقوم عليه دليل . انتهى .

وقد تقدم في قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ كلام في المعية لابن تيمية ، فارجع إليه في سورة الحديد .

(241/753)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ﴾

قال مجاهد : هم اليهود .

﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ أي : بما هو إثم

وتعدّ على المؤمنين ، وتواصٍ بمخالفة النبي صلى الله عليه وسلم . قال أبو السعود : وذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجهين إليه ، لزيادة تشنيعهم ، واستعظام معصيتهم .

﴿ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ أي : من قولهم : (السام عليك) ، أو مما نسخه الإسلام من تحايا الجاهلية ، فإن الله تعالى يقول :

﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات : 181] .

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ أي : من التناجي المذموم ، أو من التحريف في التحية ، استهزاء وسخرية . أي : هلاّ يعجل عقوبتنا بذلك ؟ لو كان محمد رسوله ، قال تعالى :

﴿ حَسْبُهُمْ ﴾ أي : يكفي قائلي ذلك في تعذيبهم ﴿ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

ثم نهى تعالى المؤمنين وحذّرهم أن يجترموا في النجوى ما اجترمه أولئك بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ ﴾ أي : بطاعة الله ، وما يقربكم منه ، و ﴿ التَّقْوَى ﴾ أي : اجتناب ما يؤثم ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي : فيجزيكم بما اكتسبتم مما أحصاه عليكم .

ثم شجع تعالى المؤمنين في قلة المبالاة بمناجاة أعدائهم ، وأنها لا تضرهم ما داموا مثابرين

على وصاياه ، متكلين عليه ، بقوله ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ أي : النجوى التي ذمها ، فاللام للعهد ، أي : المزين لهذه النجوى بالشر ، والحامل عليها الشيطان .

(242/753)

﴿ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ ﴾ أي : الشيطان ، أو التناجي المذكور ﴿ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي : بمشيئته ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي : بالمضي في سبيله ، والاستقامة على أمره ، وانتظار النصر على أثره .

لطيفة :

قال القاشانيّ : إنما نهوا عن النجوى لأن التناجي اتصال واتحاد بين اثنين في أمر يختص بهما ، لا يشاركهما فيه ثالث . وللنفوس عند الاجتماع والاتصال تعاضد وتظاهر ، يتقوى ويتأيد بعضها بالبعض فيما هو سبب الاجتماع لخاصية الهيئة الاجتماعية التي لا توجد في الأفراد ، فإذا كانت شريرة يتناجون في الشر ، ويزاد فيهم الشر ، ويقوى فيهم المعنى الذي يتناجون به بالاتصال والاجتماع ، ولهذا ورد بعد النهي قوله :

﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ ﴾ الذي هو رذيلة القوى البهيمية ﴿ وَالْعُدْوَانِ ﴾ الذي هو رذيلة القوى الغضبية ﴿ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ التي هي رذيلة القوة النطقية ، بالجهل وغلبة

الشيطنة ، ألا ترى كيف نهى المؤمنين بعد هذه الآية عن التناجي بهذه الرذائل المذكورة ، وأمرهم بالتناجي بالخيرات ، ليتقووا بالهيئة الاجتماعية ، ويزدادوا فيها فقال : ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ ﴾ أي : الفضائل التي هي أضداد تلك الرذائل ، من الصالحات والحسنات المخصوصة بكل واحدة من القوى الثلاث ، ﴿ وَالتَّقْوَى ﴾ أي : الاجتناب : عن أجناس الرذائل المذكورة ، انتهى .

قال ابن كثير : وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي ، حيث يكون في ذلك تأذّ على مؤمن . روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه < انفرد بإخراجه مسلم .

(243/753)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ تعليم منه تعالى للمؤمنين بالإحسان في أدب المجالس ، وذلك بأن يفسح المرء لأخيه ويتنحى توسعة له .

قال الشهاب : وارتباطه بما قبله ظاهر ؛ لأنه لما نهى عن التناجي والسرار ، علم منه الجلوس مع الملأ ، فذكر آدابه ، ورتب على امتثالهم فسحة لهم فيما يريدون التفسح ، من

المكان والرزق والصدر .

قال ابن كثير : وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، كما جاء في الحديث الصحيح : < من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة . ومن يسّر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه > . ولهذا أشباه كثيرة .

قال قتادة : نزلت هذه الآية في مجالس الذكر ، وذلك أنهم إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضَنّوا بمجالسهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض .

﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا ﴾ أي : انهضوا للتوسعة ، أو ارتفعوا في المجالس ، أو انهضوا عن مجلس الرسول ، إذا أمرتهم بالنهوض عنه ، ولا تملوه بالارتكاز فيه ، ﴿ فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ أي : يرفع المؤمنين بامتثال أوامره ، وأوامر رسوله ، والعالمين بها ، الجارين على موجبها بمقتضى علمهم ، درجات دنيوية وأخروية .

قال الناصر : لما علم أن أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم ، خصهم بالذكر عند الجزاء ، ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة في المجلس ، تواضعاً لله تعالى . انتهى .

وهذا - كما قاله الشهاب - من مغيبات القرآن ؛ لما ظهر من هؤلاء في سائر الأعصار من التنافس في رفعة المجالس ، ومحبة التصدير .

وفي كلام الزمخشريّ ما يشير إلى أنه من عطف الخاص على العام ، تعظيماً له ، بعَدّه كأنه جنس آخر ، كما في : ﴿ وَمَلَآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ ﴾ [البقرة : 98] . ولذا أعاد الموصول في النظم ، والمراد بالعلم علم ما لا بد منه من العقائد الحقة ، والأعمال الصالحة .

تنبيهات :

الأول : في " الإكليل " : في الآية استحباب في مجالس العلم والذكر ، وكل مجلس طاعة .

الثاني : يفهم من الأمر بالتفسح النهي عن إقامة شخص ليجلس أحد مكانه . فعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا > رواه الإمام أحمد والشيخان .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : < لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن افسحوا يفسح الله لكم > رواه الإمام أحمد . وفي رواية بلفظ : < لا يقوم الرجل للرجل من مجلسه ، لكن افسحوا يفسح الله لكم > تفرد به الإمام أحمد .

قال ابن كثير : وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء ، على أقوال : فمنهم من رخص بذلك محتجاً بحديث : < قوموا إلى سيدكم > .

ومنهم من منع ذلك محتجاً بحديث : < من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار > .

ومنهم من فصّل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم في محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبي صلى الله عليه وسلم حاكماً في بني قريظة ، فلما رآه مقبلاً قال للمسلمين : < قوموا إلى سيدكم > . وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه – والله اعلم – فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم ، وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان إذا جاء لا يقومون له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . انتهى .

(245/753)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ، في فتوى له في ذلك : لم يكن من عادة السلف على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، أن يعتادوا القيام ، كما يفعله كثير من الناس ، بل قد قال أنس بن مالك رضي الله عنه : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . ولكن ربما قاموا للقادم من مغيبه تلقياً له ، كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم < أنه قام لعكرمة > ، وقال للأنصار لما قدم سعد بن معاذ : < قوموا إلى سيدكم > ، وكان سعد متمرضاً بالمدينة ، وكان قد قدم إلى بني قريظة شرقي المدينة . والذي ينبغي للناس الله ، عتادوا

إتباع السلف على ما كانوا عليه على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنهم خير القرون ، وخير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدى محمد ، فلا يعدل أحد عن هدي خير الخلق ، وهدي خير القرون ، إلى ما هو دونه . وينبغي للمطاع أن يقرر ذلك مع أصحابه ، بحيث إذا رأوه لم يقوموا له ولا يقوم لهم ، إلا في اللقاء المعتاد . فأما القيام لمن يقدم من سفر ونحو ذلك ، تلقياً له ، فحسن . وإذا كان من عادة الناس إكرام الجائي بالقيام ، ولو ترك ذلك لاعتقد أن ذلك بخس في حقه أو قصد لخفضه ، ولم يعلم العادة الموافقة للسنة ، فالأصلح أن يقام له ؛ لأن ذلك إصلاح لذات البين ، وإزالة للتباغض والشحناء ، وأما من عرف عادة القوم الموافقة للسنة ، فليس في ترك ذلك إيذاء له ، وليس هذا القيام هو القيام المذكور في قوله صلى الله عليه وسلم : < من سره أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار > ؛ فإن ذلك أن يقوموا وهو قاعد ، ليس هو أن يقوموا لمجيئه القيام ، ولهذا فرقوا بيقعود . قال : قمت إليه ، وقمت له . والقائم للقادم ساواه في القيام ، بخلاف القيام للقاعد وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما صلى بهم قاعداً في مرضه ، وصلّوا قياماً أمرهم

بالقعود . وقال : < لا تعظموني كما يعظم الأعاجم بعضها بعضاً > ، فقعودهم عن القيام في الصلاة وهو قاعد ؛ لئلا يشبهوا الأعاجم الذين يقومون لعظمائهم وهو قعود . وجماع ذلك أن الذي يصلح ، إتباع عادة السلف وأخلاقهم ، والاجتهاد بحسب الإمكان . فمن لم يعتد ذلك ، أولم يعرف أنه العادة ، وكان في ترك معاملته بما اعتاده الناس من الاحترام مفسدة راجحة ، فإنه يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما ، كما يجب فعل أعظم الصلاحين بتفويت أدناهما . انتهى كلام شيخ الإسلام ، رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً .

الثالث : قال ابن كثير : روي عن ابن عباس والحسن البصري وغيرهما ، أنهم قالوا في قوله تعالى ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا ﴾ : يعني في مجالس الحرب . قالوا : ومعنى قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا ﴾ أي : انهضوا للقتال .

وقال قتادة :

﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا ﴾ أي : دعيتم إلى خير فأجيبوا .

وقال مقاتل : إذا دعيتم إلى الصلاة فارتفعوا بها .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كانوا إذا كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم في بيته فأرادوا الانصراف ، أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجاً من عنده ، فربما يشق ذلك عليه ، عليه السلام ، وقد تكون له الحاجة . فأمروا أنهم إذا أمروا بالانصراف أن

ينصرفوا ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ﴾ [النور : 28] انتهى .

ولا تنافي بين هذه الأقوال ، لأن لذلك ، نها تفسير للفظ العام بعض أفراده . وما يصدق عليه إشارة على تناوله لذلك ، لا أن أحدهما هو المراد دون غيره ، فلذلك ما لا يتوهم . وقد كثر مثل ذلك في تفاسير السلف لكثير من الآي ، وكله مما لا اختلاف فيه كما بيّناه مراراً .

(247/753)

الرابع : في " الإكليل " قال قوم معنى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ يرفع الله المؤمنين منكم العلماء درجات على غيرهم ، فلذلك أمر بالتفسح من أجلهم ، ففيه دليل على رفع العلماء في المجالس ، والتفسح لهم عن المجالس الرفيعة . انتهى .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ أي : تصدقوا قبل مناجاته ، أي : مسارته في بعض شأنكم .

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : التقديم .

﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي : لأنفسكم ، لما فيه من مضاعفة الأجر والثواب . والقيام بحق الإخاء ، بالعود على ذوي المسكنة بالمواساة والإغناء .

﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ أي : لأنفسكم من رذيلة البخل والشح ، ومن حب المال وإيثاره الذي قد يكون من شعار المنافقين ، وكأن الأمر بالتصديق المذكور نزل ليتميز المؤمن من المنافق ، فإن المؤمن تسخو نفسه بالإيمان كيفما كان ، والثاني يغص به ، ولو في أضرّ الأوقات . ومعظم أوامر السورة هو التصدق ، حثاً للباخلين ، وسوقاً للمؤمنين ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا ﴾ أي : ما تتصدقون به أمام مناجاتكم الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : لمن لم يجده ، إذ لم يحرجه ولم يضيّق عليه ، رحمة منه .

﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [13]

﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ أي : أخِفتم ، من تقديم الصدقات ، الفاقة والفقر ؟ توبيخ بأن مثله لا ينبغي أن يشفق منه ، للزوم الخلف والإنفاق ، لزوم الظل للشاخص بوعد الله الصدق .

(248/753)

﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ أي : ما ندبتم إليه من تقديم الصدقة ، وشقّ عليكم ، ﴿ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بأن رخص لكم أن لا تفعلوا ، رفعاً للحرج حسبما أشفقتم ، ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي : فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات ، فإن ذلك يكسبكم ملكة الخير والفضيلة ، ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : فيجزيكم بحسبه .

تنبيه :

في " الإكليل " : قوله تعالى :

﴿ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾ الآية منسوخة بالتي بعدها ، وفيه دليل على جواز النسخ بلا بدل ، ووقوعه ، خلافاً لمن أبى ذلك . انتهى .

والظاهر أن مستند شهرة النسخ ما رواه ابن جرير عن مجاهد قال : قال عليّ رضي الله عنه : إن في كتاب الله عز وجل لآية ما عمل بها أحد قبلي ، ولا يعمل بها أحد بعدي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ ﴾ إلخ قال : فرضت ، ثم نسخت .

وعنه أيضاً قال : نهوا عن مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يتصدقوا ، فلم يناجه إلا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، قدم ديناراً فتصدق به ، ثم أنزلت الرخصة فيه .

وعن قتادة أنها منسوخة ، ما كانت إلا ساعة من نهار .

وعنه أيضاً قال : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه بالمسألة فوعظهم الله بهذه الآية ، وكان الرجل تكون له الحاجة إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدّم بين يديه صدقة ، فاشتد ذلك عليهم ، فأنزل الله الرخصة

بعد ذلك : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وعن الحسن وعكرمة قالا :

﴿ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾ الآية ، نسختها التي بعدها ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ ﴾ . الآية .

(249/753)

هذه الآثار وأمثالها هي مستند مدعي النسخ ، وقوفاً مع ظاهرها . وقد أسلفنا في مقدمة التفسير ، ومواضع أخرى ، أن النسخ في كلام السلف أعم منه باصطلاح الخلف ، كما أن المراد من سبب النزول أعم مما يتبادر إليه الفهم . ومنه قول قتادة هنا : فأنزل الله الرخصة بعد ذلك ، فإن مراده إبانة أن الأمر ليس بعزيمة في الآية الثانية ، لا أن نزولها كان متراخياً عن الأولى ، فإن ذلك مستحيل على رونق نظمها الكريم . والأصل في الآي المقررة لحكم ما ، هو اتصال جملها ، وانتظام عقدها ، إذ به يكمل سحر بلاغتها ، وبديع وتمام فقهها . والذين ذهبوا إلى عدم وقوع النسخ في التنزيل ، لهم في الآية وجوه :

أحدها : قول أبي مسلم : إن المنافقين كانوا يمتنعون من بذل الصدقات ، وأن قوماً من المنافقين تركوا النفاق ، وآمنوا ظاهراً وباطناً إيماناً حقيقياً ، فأراد الله تعالى أن يميزهم عن المنافقين ، فأمر بتقديم الصدقة على النجوى ، ليتميز هؤلاء الذين آمنوا إيماناً حقيقياً عمن

بقي على نفاقه الأصليّ . وإذا كان هذا التكليف لأجل هذه المصلحة المقدرة بذلك الوقت ، لا جرم بقدر هذا التكليف بذلك الوقت .

قال الرازيّ : وحاصل قول أبي مسلم أن ذلك التكليف كان مقدراً بغاية مخصوصة ، فوجب انتهاؤه عند الانتهاء إلى الغاية المخصوصة ، فلا يكون هذا نسخاً وهذا الكلام حسن ما به بأس . انتهى .

ثانيها : قول بعضهم : إن شبهة مدعي النسخ ذهابهم إلى أن الأمر بتقديم الصدقة للوجوب ، وتأكد ذلك بقوله بعده :

﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقوله :

﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ فإن ذلك لا يقال إلا فيما بفقده يزول وجوبه .

والجواب : أن لا قاطع في كون الأمر للوجوب ، بل الظاهر أنه للندب : ويدل عليه أمور :

الأول : أنه تعالى قال :

﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ وهذا إنما يستعمل في التطوع لا في الفرض .

والثاني : أنه لو كان ذلك واجباً لما أزيل وجوبه بكلام متصل به ، وهو ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا ﴾ إلى آخر الآية .

والثالث : أن قوله :

﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ إلخ معناه : إن لم تفعلوا ما ندبتم إليه من تقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول ، والحال أن الله قد رجع إليكم بالتخفيف والتسهيل فيما شرعه لكم ، فلم يعاملكم كما كان يعامل الأمم السابقة ولم يعنتكم بشيء مما أوجبه عليكم ، فلذا ندبكم إلى هذا الأمر ، ولم يجعله عليكم فرضاً ، كما هي سنته في معاملتكم بالرأفة والرحمة ، فأقيموا الصلاة . . . إلخ . فقوله : ﴿ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ قد ورد هنا بمعنى الرجوع إلى التخفيف والتسهيل على هذه الأمة ، والعدول عن معاملتها كسابقيها ، لا بمعنى التجاوز عن السيئات وغفران الذنوب . وقد ورد بذلك المعنى أيضاً في آية أخرى في سورة المزمل ، في قوله تعالى ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المزمل : 20] ، أي : رجع إليكم بالتخفيف ، ورفع عنكم ما يشق عليكم . وليس معناه في هاتين الآيتين العفو عن الذنوب ، إذ لا ذنب هنا صدر منهم . هذا ملخص ما حققه من ذهب على امتناع النسخ . والحق لا تخفى قرته وسكون النفس إليه . وبالله التوفيق .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [14]

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ يعني المنافقين الذين كانوا يتولون اليهود ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، كما بينته آية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ [الحشر: 11] الآية.

(251/753)

﴿ مَا هُم مِّنكُمْ ﴾ أي: من أهل دينكم وملتكم، معشر المسلمين ﴿ وَلاَ مِنْهُمْ ﴾ أي: من اليهود كقوله تعالى:

﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء ﴾ [النساء: 143]، ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ ﴾ قال ابن جرير: وذلك قولهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم: نشهد أنك رسول الله، وهم كاذبون غير مصدقين به.

﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: المحلوف عليه كذب بحت.

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [15 - 16]

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ أي: وقاية وعصمة لأنفسهم.

﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : فحالوا بأيمانهم عن حكم الله في أمثالهم ، وهو القتل ، إراحة للمؤمنين من فسادهم . أو فصدّوا الناس في خلال أمنهم وسلامتهم عن الإيمان وثبطوهم عنه ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي : مذل لهم في الآخرة .

﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ * اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [17 - 19]

﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ أي : من عذابه شيئاً ما ، كما كانوا يفتدون بذلك في الدنيا ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ أي : في الدنيا كاذبين مبطلين ، إشارة إلى مرونهم على النفاق ، ورسوخهم فيه ، حتى لدى من لا تخفى عليه خافية .

﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ أي : من النفع أو من الحق ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ أي : فيما يحلفون عليه في الدارين .

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي: استولى عليهم حتى صار الكذب والفساد ملكة لهم ﴿ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ أي: بتسويل اللذات الحسية، والشهوات البدنية لهم، وتزيين الدنيا وزبرجها في أعينهم ﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ أي: أتباعه في الفساد والإفساد ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي: للسعادة في الدارين.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴾ [20]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴾ أي: في أهل الذلة، لأن الغلبة لله ولرسوله، كما قال:

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [21]

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ أي: حزبَ الشيطان المحادّين ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي: قويّ على إهلاك من حادّه ورسله، عزيز فلا يغلب في قضاءه.

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ

أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [22]

﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي : شاقهما وخالف أمرهما . أي : لا تجد قوماً جامعين بين الإيمان بالله واليوم الآخر ، وبين موادّة أعداء الله ورسوله . والمراد بنفي الوجدان نفي الموادّة ، على معنى أنه لا ينبغي أن يتحقق ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال ، مبالغة في النهي عنه ، والزجر عن ملابسته ، والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم ، والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم ، وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ ﴾ أي : آباء الموادّين والضمير في ﴿ كَانُوا ﴾ لمن حاد الله ورسوله . والجمع باعتبار معنى مَنْ كما أن الإفراد فيما قبله ، باعتبار لفظهما .

(254/753)

﴿ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ أي : فإن قضية الإيمان هجر المحادين ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ إشارة إلى الذين لا يوادّونهم ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ أي : أثبته فيها ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أي : بنور وعلم ولطف حيّت به قلوبهم في الدنيا . وأشار إلى ما لهم في الآخرة ، بقوله : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ

كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : الناجحون والفائزون بسعادة الدارين .

تنبيهات :

الأول : من أشباه هذه الآية قوله تعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : 28] الآية . وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : 24] .

الثاني : قال ابن كثير : قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر . وفي أبي

بكر الصديق همّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ، وفي مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن عمير ، وفي عمر قتل قريباً له من عشيرته يومئذ أيضاً ، وفي حمزة وعليّ وعبيدة بن الحارث ، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتيبة يومئذ . انتهى .

وقد بينا مراراً ، أن المراد بسبب النزول في مثل ذلك ، صدق الآية على هؤلاء ، وما أتوا به من التصلب في دين الله ، في مقابلة المفسدين ، ولو كانوا من أقرب الأقربين .

قال ابن كثير : ومن هذه القبيل حين استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين في أسارى بدر ، فأشار الصديق بأن يفادوا ، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ، ولعل الله تعالى أن يهديهم . وقال عمر : لا أرى ما رأى يا رسول الله ! هل تمكنني من فلان – قريب لعمر – فأقتله ، وتمكن علياً من عقيل ، وتمكن فلاناً من فلان ، ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا موادة للمشركين .

الثالث : قال ابن كثير : في قوله تعالى ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ سر بديع وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى ، عوضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العميم .

الرابع : يفهم من قوله تعالى : ﴿ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وقوله في آية أخرى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [الممتحنة : 1] ، أن المراد بهم المحاربون لله ولرسوله ، الصادّون عن سبيله ، المجاهرون بالعداوة والبغضاء . وهم الذين أخبر عنهم قبلُ بأنهم يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول . فتشمل الآية المشركين وأهل الكتاب المحاربين والمحادّين لنا ، أي : الذين على حدّ منا ، ومجانبة لشؤوننا ، تحقيقاً لمخالفتنا ، وترصداً للإيقاع بنا . وأما أهل الذمة الذين بين أظهرنا ، ممن رضي بأداء الجزية لنا وسالمنا ، واستكان لأحكامنا وقضائنا ، فأولئك لا تشملهم الآية ؛ لأنهم ليسوا بمحادّين لنا بالمعنى الذي ذكرناه ، ولذا كان لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، وجاز التزوج منهم ومشاركتهم ، والاتجار معهم ، وعيادة مرضاهم . فقد < عاد النبي صلى الله عليه وسلم يهودياً ، وعرض عليه الإسلام فأسلم > كما رواه البخاري .

وعلى الإمام حفظهم والمنع من أذاهم ، واستنقاذ أسراهم ، لأنه جرت عليهم أحكام الإسلام ، وتأبد عهدهم ، فلزمه ذلك ، كما لزم المسلمين ، كما في " الإقناع " و " شرحه " .

وقال ابن القيم في " إغاثة اللهفان " في الرد على المتنطعين الذين لا تطيب نفوسهم بكثير من الرخص المشروعة : ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم < كان يجيب من دعاه ، فيأكل طعامه > ، و < أضافه يهوديّ بخبز وشعير وإهالة سنخة > . وكان المسلمون يأكلون من أطعمة أهل الكتاب . وشرط عمر رضي الله عنه ضيافة من مر بهم مِنْ المسلمين وقال : أطعموهم مما تأكلون . وقد أحل الله عز وجل ذلك في كتابه . ولما قدم عمر رضي الله عنه الشام صنع له أهل الكتاب طعاماً فدعوه فقال : أين هو ؟ قالوا في الكنيسة ، فكره دخولها ، وقال لعليّ رضي الله عنه : اذهب بالناس . فذهب عليٌّ بالمسلمين ، فدخلوا ، وجعل عليّ رضي الله عنه ينظر إلى الصورة . وقال : ما على أمير المؤمنين ، لو دخل وأكل ! انتهى .

والأصل في هذا قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة : 8 - 9] ، قال السيد ابن المرتضى اليمانيّ في " إيثار الحق " : عن الإمام المهديّ محمد بن مطهر عليه السلام ، أن الموالاة المحرمة بالإجماع ، هي أن تحب الكافر لكفره ، والعاصي لمعصيته ، لا لسبب آخر ، من جلب نفع أو دفع ضرر ، أو

خصلة خير فيه . وسيأتي في أول سورة الممتحنة زيادة على هذا إن شاء الله تعالى ، وبالله التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 16 صـ 72.51 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة المجادلة

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1) ﴾

كان الرجل في الجاهلية يغضب لأمر من امرأته فيقول:أنت علي كظهر أمي . فتحرم عليه , ولا تطلق منه . وتبقى هكذا , لا هي حل له فتقوم بينهما الصلات الزوجية ; ولا هي مطلقة منه فتجد لها طريقا آخر . وكان هذا طرفا من العنت الذي تلاقيه المرأة في الجاهلية .

فلما كان الإسلام وقعت هذه الحادثة التي تشير إليها هذه الآيات , ولم يكن قد شرع حكم للظهار . قال الإمام أحمد :حدثنا سعد بن إبراهيم ويعقوب , قالا :حدثنا أبي , حدثنا محمد بن إسحاق , حدثني معمر ابن عبد الله بن حنظلة , عن يوسف بن عبد الله بن سلام , عن خويلة بنت ثعلبة . قالت:في والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة . قالت: كنت عنده , وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه , قالت:فدخل علي يوما فراجعته بشيء فغضب , فقال:أنت علي كظهر أمي . قالت:ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة , ثم دخل علي , فإذا هو يريدني عن نفسي , قالت:قلت: كلا والذي نفس خويلة بيده , لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . قالت:فواثبني , فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف , فألقيته عني . قالت:ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابا , ثم خرجت حتى جئت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فجلست بين يديه , فذكرت له ما لقيت منه , وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت:فجعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول:" يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه " قالت:فوالله ما برحت حتى نزل في قرآن ; فتغشى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما كان يتغشاه , ثم سري عنه , فقال لي:" يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنا " . . ثم قرأ علي -:(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله , والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) . . إلى قوله

تعالى: (وللكافرين عذاب أليم) . قالت: فقال لي رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " مريه فليعتق رقبة" . قالت: فقلت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق . قال: " فليصم شهرين متتابعين" . قالت: فقلت: والله إنه لشيخ ما له من صيام . قال: " فليطعم ستين مسكينا وسقا من تمر" . قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده . قالت: فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " فإنا سنعينه بعرق

من تمر" . قالت: فقلت يا رسول الله وأنا سأعينه بعرق آخر . قال: " قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه, ثم استوصي بابن عمك خيرا" . قالت: ففعلت . فهذا هو الشأن الذي سمع الله ما دار فيه من حوار بين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمرأة التي جاءت تجادله فيه . وهذا هو الشأن الذي أنزل الله فيه حكمه من فوق سبع سماوات, ليعطي هذه المرأة حقها, ويريح بالها وبال زوجها, ويرسم للمسلمين الطريق في مثل هذه المشكلة العائلية اليومية!

وهذا هو الشأن الذي تفتتح به سورة من سور القرآن: كتاب الله الخالد, الذي تتجاوب جنبات الوجود بكل كلمة من كلماته, وهي تتنزل من الملأ الأعلى . . تفتتح بمثل هذا

الإعلان: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها . . .) فإذا الله حاضر هذا الشأن الفردي لامرأة من عامة المسلمين , لا يشغله عن سماعه تدبيره لملكوت السماوات والأرض ; ولا يشغله عن الحكم فيه شأن من شؤون السماوات والأرض !

وإنه لأمر . . إنه لأمر أن يقع مثل هذا الحادث العجيب ; وأن تشعر جماعة من الناس أن الله هكذا معها , حاضر شؤونها , جليلها وصغيرها , معني بمشكلاتها اليومية , مستجيب لأزماتها العادية . . وهو الله . . الكبير المتعال , العظيم الجليل , القهار المتكبر , الذي له ملك السماوات والأرض وهو الغني الحميد .

تقول عائشة - رضي الله عنها -: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في جانب البيت , ما أسمع ما تقول . فأنزل الله عز وجل: قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله . . . الآية .

وفي رواية خولة - أو خويلة للتصغير والتدليل - للحادث , وتصرفها هي فيه , وذهابها إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومجادلتها له , ونزول القرآن بالحكم . . في هذا كله صورة من حياة تلك الجماعة الفريدة في تلك الفترة العجيبة . وشعورها بتلك الصلة

المباشرة، وانتظارها التوجيه من السماء في كل شأن من شؤونها واستجابة السماء لهذا الانتظار، الذي يجعل الجماعة كلها – عيال الله – هو يرعاها وهي تتطلع إليه تطلع الطفل الصغير لأبيه وراعيه!

وننظر في رواية الحادث في النص القرآني، فنجد عناصر التأثير والإيحاء والتربية والتوجيه تسير جنبا إلى جنب مع الحكم وتتخلله وتعقب عليه، كما هو أسلوب القرآن الفريد:

(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله، والله يسمع تحاوركما، إن الله سميع بصير).. وهو مطلع ذو إيقاع عجيب.. إنكما لم تكونا وحدكما.. لقد كان الله معكما. وكان يسمع لكما. لقد سمع قول المرأة. سمعها تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله. وعلم القصة كلها. وهو يعلم تحاوركما وما كان فيه.. إن الله سميع بصير. يسمع ويرى. هذا شأنه وهذه صورة منه في الحادث الذي كان الله ثالثكما فيه..

وكلها إيقاعات ولمسات تهز القلوب..

ثم يقرر أصل القضية، وحقيقة الوضع فيها:

(الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم. إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم. وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا، وإن الله لعفو غفور)..

فهو علاج للقضية من أساسها. إن هذا الظهار قائم على غير أصل. فالزوجة ليست أما حتى تكون محرمة كالأم. فالأم هي التي ولدت. ولا يمكن أن تستحيل الزوجة أما بكلمة

تقال . إنها كلمة منكرة ينكرها الواقع . وكلمة مزورة ينكرها الحق . والأمور في الحياة يجب أن تقوم على الحق والواقع , في وضوح وتحديد , فلا تختلط ذلك الاختلاط , ولا تضطرب هذا الاضطراب . . (وإن الله لعفو غفور) فيما سلف من هذه الأمور .

(262/753)

وبعد تقرير أصل القضية على هذا النحو المحدد الواضح يجيء الحكم القضائي في الموضوع . (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا . ذلكم توعظون به , والله بما تعملون خبير) . .

وقد جعل الله العتق في كفارات متنوعة , وسيلة من وسائل التحرير للرقاب التي أوقعها نظام الحروب في الرق إلى أجل , ينتهي بوسائل شتى هذه واحدة منها . وهناك أقوال كثيرة في معنى: (ثم يعودون لما قالوا) . . نختار منها أنهم يعودون إلى الوطء الذي حرموه على أنفسهم بالظهار . فهذا أقرب ما يناسب السياق . فتحرير رقبة من قبل العودة إلى حله . ثم التعقيب: (ذلكم توعظون به) . . فالكفارة مذكر وواعظ بعدم العودة إلى الظهار الذي لا يقوم على حق ولا معروف (والله بما تعملون خبير) . . خبير بحقيقته , وخبير بوقوعه , وخبير بنيتكم فيه .

فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (4) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (5)

وهذا التعقيب يجيء قبل إتمام الحكم لإيقاظ القلوب , وتربية النفوس , وتنبيهها إلى قيام الله على الأمر بخبرته وعلمه بظاهره وخافيه . ثم يتابع بيان الحكم فيه:

(فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا . فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا) . . .

ثم التعقيب للبيان والتوجيه:

(263/753)

(ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله) . . . وهم مؤمنون . . ولكن هذا البيان , وهذه الكفارات وما فيها من ربط أحوالهم بأمر الله وقضائه . . ذلك مما يحقق الإيمان , ويربط به الحياة ; ويجعل له سلطانا بارزا في واقع الحياة . (وتلك حدود الله) . . أقامها ليقف الناس عندها لا يتعدونها . وهو يغضب على من لا يرعاها ولا يتحرج دونها : (وللكافرين عذاب أليم) .

. بتعديهم وتحديهم وعدم إيمانهم وعدم وقوفهم عند حدود الله كالمؤمنين . .

الدرس الثاني: 5 – 6 هلاك وكبت وخسارة الذين يحادون الله ورسوله

وتلك العبارة الأخيرة: (وللكافرين عذاب أليم) . . تناسب ختام الآية السابقة, وهي في الوقت ذاته قنطرة تربط بينها وبين الآية اللاحقة التي تتحدث عمن يحادون الله ورسوله . على طريقة القرآن في الانتقال من حديث لحديث في تسلسل عجيب:

(إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم, وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين . يوم يبعثهم الله جميعا, فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه, والله على كل شيء شهيد) . .

إن المقطع الأول في السورة كان صورة من صور الرعاية والعناية بالجماعة المسلمة . وهذا المقطع الثاني صورة من صور الحرب والنكاية للفريق الآخر . فريق الذين يحادون الله ورسوله, أي الذين يأخذون لهم موقفا عند الحد الآخر في مواجهة الله ورسوله ! وذكر المحادة بمناسبة ذكره قبلها لحدود الله . فهؤلاء لا يقفون عند حد الله ورسوله, بل عند الحد الآخر المواجه ! وهو تمثيل للمتخاصمين المتنازعين, لتفظيع عملهم وتقبيح موقفهم . وساء موقف مخلوق يتحدى فيه خالقه ورازقه, ويقف في تبجح عند الحد المواجه لحده !

هؤلاء المحادون المشاقون المتبجحون: (كبتوا كما كبت الذين من قبلهم) . . والأرجح أن هذا دعاء عليهم . والدعاء من الله - سبحانه - حكم . فهو المريد وهو الفعال لما يريد . والكبت القهر والذل . والذين من قبلهم إما أن يكونوا هم الغابرين من الأقوام الذين أخذهم الله بنكاله وإما أن يكونوا الذين قهرهم المسلمون في بعض المواقع التي تقدمت نزول هذه الآية , كما حدث في غزوة بدر مثلا .

(وقد أنزلنا آيات بينات) . .

تفصل هذه العبارة بين مصير الذين يحادون الله ورسوله في الدنيا ومصيرهم في الآخرة . . لتقرير أن هذا المصير وذاك تكفلت ببيانه هذه الآيات . وكذلك لتقرير أنهم يلاقون هذه المصائر لا عن جهل ولا عن غموض في الحقيقة , فقد وضحت لهم وعلموها بهذه الآيات البينات .

ثم يعرض مصيرهم في الآخرة مع التعقيب الموحي الموقظ المربي للنفوس:

(وللكافرين عذاب مهين . يوم يبعثهم الله جميعا , فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه . والله على كل شيء شهيد) . .

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا

خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)

والمهانة جزاء التبجح . وهي مهانة يوم يبعثهم الله جميعا . مهانة على رؤوس الجموع . وهو عذاب يقوم على حق وبيان لما عملوا . إن كانوا هم قد نسوه فإن الله أحصاه بعلمه الذي لا يند عنه شيء , ولا يغيب عنه خاف: (والله على كل شيء شهيد) . .

وتلتقي صورة الرعاية والعناية , بصورة الحرب والنكاية , في علم الله واطلاعه , وشهوده وحضوره . فهو شاهد حاضر للعون والرعاية ; وهو شاهد حاضر للحرب والنكاية . فليطمئن بحضوره وشهوده المؤمنون . وليحذر من حضوره وشهوده الكافرون !

الدرس الثالث:7 علم الله الشامل لكل ما يحدث في الكون

ويستطرد السياق من تقرير حقيقة: (والله على كل شيء شهيد) . . إلى رسم صورة حية من هذا الشهود , تمس أوتار القلوب:

ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض , ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم , ولا خمسة إلا هو سادسهم , ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم , أينما كانوا , ثم ينبئهم بما

عملوا يوم القيامة , إن الله بكل شيء عليم . .

تبدأ الآية بتقرير علم الله الشامل لما في السماوات وما في الأرض على إطلاقه , فتدع القلب يرود آفاق السماوات وأرجاء الأرض مع علم الله المحيط بكل شيء في هذا المدى الوسيع المتطاول . من صغير وكبير , وخاف وظاهر , ومعلوم ومجهول . .

ثم تتدرج من هذه الآفاق وتلك الأرجاء , وتزحف وتقرب حتى تلمس ذوات المخاطبين وتمس قلوبهم بصورة من ذلك العلم الإلهي تهز القلوب:

ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم , ولا خمسة إلا هو سادسهم , ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا . .

وهي حقيقة في ذاتها , ولكنها تخرج في صورة لفظية عميقة التأثير . صورة تترك القلوب وجلة ترتعش مرة , وتأنس مرة , وهي مأخوذة بمحضر الله الجليل المأنوس . وحيثما اختلى ثلاثة تلفتوا ليشعروا بالله رابعهم . وحيثما اجتمع خمسة تلفتوا ليشعروا بالله سادسهم . وحيثما كان اثنان يتناجيان فالله هناك ! وحيثما كانوا أكثر فالله هناك ! إنها حالة لا يثبت لها قلب ; ولا يقوى على مواجهتها إلا وهو يرتعش ويهتز . . . وهو محضر مأنوس نعم . . ولكنه كذلك جليل رهيب . محضر الله: هو معهم أينما كانوا . .

(ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة) . .

وهذه لمسة أخرى ترجف وتزلزل . . إن مجرد حضور الله وسماعه أمر هائل . فكيف إذا كان لهذا الحضور والسماع ما بعده من حساب وعقاب ؟ وكيف إذا كان ما يسره المتناجون وينعزلون به ليخفوه , سيعرض على الأشهاد يوم القيامة وينبئهم الله به في الملأ الأعلى في ذلك اليوم المشهود ؟ !

وتنتهي الآية بصورة عامة كما بدأت:

إن الله بكل شيء عليم .

وهكذا تستقر حقيقة العلم الإلهي في القلوب , بهذه الأساليب المنوعة في عرضها في الآية الواحدة . الأساليب التي تعمق هذه الحقيقة في القلب البشري , وهي تدخل بها عليه من شتى المسالك والدروب !

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8)

الدرس الرابع: 8 ذم المنافقين لتناجيهم بالباطل ذلك التقرير العميق لحقيقة حضور الله وشهوده في تلك الصورة المؤثرة المرهوبة تمهد لتهديد المنافقين , الذين كانوا يتناجون فيما بينهم بالمؤامرات ضد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وضد الجماعة المسلمة بالمدينة .

مع التعجيب من موقفهم المريب:

ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه , ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول , وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله , ويقولون في أنفسهم:لولا يعذبنا الله بما نقول ! حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير .

(267/753)

والآية توحي بأن خطة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع المنافقين في أول الأمر كانت هي النصح لهم بالاستقامة والإخلاص , ونهيهم عن الدسائس والمؤامرات التي يدبرونها بالاتفاق مع اليهود في المدنية وبوحيهم . وأنهم بعد هذا كانوا يلجون في خطتهم اللئيمة , وفي دسائسهم الخفية , وفي التدبير السيء للجماعة المسلمة , وفي اختيار الطرق والوسائل التي يعصون بها أوامر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويفسدون عليه أمره وأمر المسلمين المخلصين .

كما أنها توحي بأن بعضهم كان يلتوي في صيغة التحية فيحورها إلى معنى سيء خفي:

وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله . كأن يقولوا - كما كان اليهود يقولون - السام عليكم . وهم يوهمون أنهم يقولون:السلام عليكم . بمعنى الموت لكم أو بمعنى تسامون في دينكم !

أو أية صيغة أخرى ظاهرها بريء وباطنها لئيم ! وهم يقولون في أنفسهم: لو كان نبيا حقا لعاقبنا الله على قولنا هذا . أي في تحيتهم, أو في مجالسهم التي يتناجون فيها ويدبرون الدسائس والمؤامرات .

وظاهر من سياق السورة من مطلعها أن الله قد أخبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما كانوا يقولونه في أنفسهم, وبمجالسهم ومؤامراتهم . فقد سبق في السورة إعلان أن الله قد سمع للمرأة المجادلة; وأنه ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم . . الخ . مما يوحي بأنه أطلع رسوله على مؤامرات أولئك المنافقين وهو حاضر مجالسهم ! وبما يقولونه كذلك في أنفسهم .

ثم رد عليهم بقوله تعالى:

(حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) .

وكشف هذه المؤامرات الخفية, وإفشاء نجواهم التي عادوا إليها بعدما نهوا عنها, وكذلك فضح ما كانوا يقولونه في أنفسهم: (لولا يعذبنا الله بما نقول) . . هذا كله هو تصديق وتطبيق لحقيقة علم الله بما في السماوات وما في الأرض, وحضوره لكل نجوى, وشهوده لكل اجتماع . وهو يوقع في نفوس المنافقين أن أمرهم مفضوح, كما يوحي للمؤمنين بالاطمئنان والوثوق .

الدرس الخامس 9 – 10 النهي عن النجوى المحرمة وإباحة النجوى الطيبة وتحصين من وساوس الشيطان

وهنا يلتفت إلى الذين آمنوا , يخاطبهم بهذا النداء : يا أيها الذين آمنوا لينهاهم عن التناجي بما يتناجى به المنافقون من الإثم والعدوان ومعصية الرسول , ويذكرهم تقوى الله , ويبين لهم أن النجوى على هذا النحو هي من إيحاء الشيطان ليحزن الذين آمنوا , فليست تليق بالمؤمنين:

(يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول , وتناجوا بالبر والتقوى , واتقوا الله الذي إليه تحشرون . إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله , وعلى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10)

الله فليتوكل المؤمنون) . .

ويبدو أن بعض المسلمين ممن لم تنطبع نفوسهم بعد بحاسة التنظيم الإسلامي , كانوا يتجمعون عندما تحزب الأمور , ليتناجوا فيما بينهم ويتشاوروا بعيدا عن قيادتهم . الأمر

الذي لا تقره طبيعة الجماعة الإسلامية , وروح التنظيم الإسلامي , التي تقتضي عرض كل رأي وكل فكرة وكل اقتراح على القيادة ابتداء , وعدم التجمعات الجانبية في الجماعة .

كما يبدو أن بعض هذه التجمعات كان يدور فيها ما قد يؤدي إلى البلبلة , وما يؤذي الجماعة المسلمة - ولو لم يكن قصد الإيذاء قائما في نفوس المتناجين - ولكن مجرد إثارتهم للمسائل الجارية وإبداء الآراء فيها على غير علم , قد يؤدي إلى الإيذاء , وإلى عدم الطاعة .

(269/753)

وهنا يناديهم الله بصفتهم التي تربطهم به , وتجعل للنداء وقعه وتأثيره: يا أيها الذين آمنوا . . لينهاهم عن التناجي - إذا تناجوا - بالإثم والعدوان ومعصية الرسول . ويبين لهم ما يليق بهم من الموضوعات التي يتناجى بها المؤمنون: (وتناجوا بالبر والتقوى) . . لتدبير وسائلهما وتحقيق مدلولهما . والبر:الخير عامة . والتقوى:اليقظة والرقابة لله سبحانه , وهي لا توحي إلا بالخير . ويذكرهم بمخافة الله الذي يحشرون إليه , فيحاسبهم بما كسبوا . وهو شاهده ومحصيه . مهما ستروه وأخفوه .

قال الإمام أحمد :حدثنا بهز وعفان , قالا:أخبرنا همام , عن قتادة , عن صفوان بن محرز ,

قال: كنت آخذا بيد ابن عمر, إذ عرض له رجل, فقال: كيف سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: " إن الله يدني المؤمن, فيضع عليه كنفه, ويستره من الناس, ويقرره بذنوبه, ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه, ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم, ألا لعنة الله على الظالمين ".

ثم ينفرهم من التناجي والمسارة والتدسس بالقول في خفية عن الجماعة المسلمة, التي هم منها, ومصلحتهم مصلحتها, وينبغي ألا يشعروا بالانفصال عنها في شأن من الشئون. فيقول لهم: إن رؤية المسلمين للوسوسة والهمس والانعزال بالحديث تبث في قلوبهم الحزن والتوجس, وتخلق جوا من عدم الثقة; وأن الشيطان يغري المتناجين ليحزنوا نفوس إخوانهم ويدخلوا إليها الوساوس والهموم. ويطمئن المؤمنين بأن الشيطان لن يبلغ فيهم ما يريد:

(إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا, وليس بضارهم شيئا - إلا بإذن الله - وعلى الله فليتوكل المؤمنون).

فالمؤمنون لا يتوكلون إلا على الله . فليس وراء ذلك توكل , وليس من دون الله من يتوكل عليه المؤمنون !

وقد وردت الأحاديث النبوية الكريمة بالنهي عن التناجي في الحالات التي توقع الريبة وتزعزع الثقة وتبعث التوجس:

جاء في الصحيحين من حديث الأعمش - بإسناده - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال:قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه " .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (13)

وهو أدب رفيع, كما أنه تحفظ حكيم لإبعاد كل الريب والشكوك . فأما حيث تكون هناك مصلحة في كتمان سر, أو ستر عورة, في شأن عام أو خاص, فلا مانع من التشاور في سر وتكتم . وهذا يكون عادة بين القادة المسئولين عن الجماعة . ولا يجوز أن يكون تجمعا جانبيا بعيدا عن علم الجماعة . فهذا هو الذي نهى عنه القرآن ونهى عنه الرسول . وهذا هو الذي يفتت الجماعة أو يوقع في صفوفها الشك وفقدان الثقة . وهذا هو الذي يدبره الشيطان ليحزن الذين آمنوا . ووعد الله قاطع في أن الشيطان لن يبلغ بهذه الوسيلة ما يريد في الجماعة المؤمنة, لأن الله حارسها وكالئها ; وهو شاهد حاضر في كل مناجاة, وعالم بما يدور فيها من كيد ودس وتآمر . ولن يضر الشيطان المؤمنين . (إلا بإذن الله) . وهو استثناء تحفظي لتقرير طلاقة المشيئة في كل موطن من مواطن الوعد والجزم, لتبقى المشيئة حرة وراء الوعد والجزم . .

(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . فهو الحارس الحامي, وهو القوي العزيز, وهو العليم الخبير . وهو الشاهد الحاضر الذي لا يغيب . ولا يكون في الكون إلا ما يريد . وقد وعد بحراسة المؤمنين . فأي طمأنينة بعد هذا وأي يقين ?

الدرس السادس: 11 توجيه المسلمين إلى آداب المجالس

ثم يأخذ الذين آمنوا بأدب آخر من آداب الجماعة:

(يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم: تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم . وإذا قيل: انشزوا فانشزوا , يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . والله بما تعملون خبير) . .

ويظهر من بعض الروايات التي حكت سبب نزول الآية أن لها علاقة واقعية بالمنافقين , مما يجعل بينها وبين الآيات قبلها أكثر من ارتباط واحد في السياق .

قال قتادة: نزلت هذه الآية في مجالس الذكر , وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلا ضنوا بمجالسهم عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض .

وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية يوم الجمعة . وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يومئذ في الصفة , وفي المكان ضيق . وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار . فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالوا: السلام عليكم أيها النبي ورحمة الله وبركاته , فرد النبي (صلى الله عليه وسلم) عليهم . ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون

أن يوسع لهم . فعرف النبي (صلى الله عليه وسلم) ما يحملهم على القيام , فلم يفسح لهم . فشق ذلك على النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر :قم يا فلان . وأنت يا فلان . فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر . فشق ذلك على من أقيم من مجلسه , وعرف النبي (صلى الله عليه وسلم) الكراهة في وجوههم . فقال المنافقون:ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ? والله ما رأيناه قد عدل على هؤلاء ! إن قوما أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم , فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه . . فبلغنا أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال:" رحم الله رجلا يفسح لأخيه " . . فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا , فيفسح القوم لإخوانهم . ونزلت هذه الآية يوم الجمعة .

وإذا صحت هذه الرواية فإنها لا تتنافى مع الأحاديث الأخرى التي تنهى عن أن يقيم الرجل الرجل من مكانه ليجلس فيه . كما جاء في الصحيحين:" لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه , ولكن تفسحوا وتوسعوا " . .وما ورد كذلك من ضرورة استقرار القادم حيث انتهى به المجلس . فلا يتخطى رقاب الناس ليأخذ مكانا في الصدر !

فالآية تحض على الإفساح للقادم ليجلس , كما تحض على إطاعة الأمر إذا قيل لجالس أن يرفع فيرفع . وهذا الأمر يجيء من القائد المسئول عن تنظيم الجماعة . لا من القادم .

والغرض هو إيجاد الفسحة في النفس قبل إيجاد الفسحة في المكان . ومتى رحب القلب اتسع وتسامح , واستقبل الجالس إخوانه بالحب والسماحة , فأفسح لهم في المكان عن رضى وارتياح . فأما إذا رأى القائد أن هناك اعتبارا من الاعتبارات يقتضي إخلاء المكان فالطاعة يجب أن ترعى عن طواعية نفس ورضى خاطر وطمأنينة بال . مع بقاء القواعد الكلية مرعية كذلك , من عدم تخطي الرقاب أو إقامة الرجل للرجل ليأخذ مكانه . وإنما هي السماحة والنظام يقررهما الإسلام . والأدب الواجب في كل حال .

وعلى طريقة القرآن في استجاشة الشعور عند كل تكليف , فإنه يعد المفسحين في المجالس بفسحة من الله لهم وسعة: (فافسحوا يفسح الله لكم) . ويعد الناشزين الذين يرفعون من المكان ويخلونه عن طاعة لأمر الرسول برفعة في المقام: (وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) . وذلك جزاء تواضعهم وقيامهم عند تلقي الأمر بالقيام .

وقد كانت المناسبة مناسبة قرب من الرسول (صلى الله عليه وسلم) لتلقي العلم في مجلسه . فالآية تعلمهم:أن الإيمان الذي يدفع إلى فسحة الصدر وطاعة الأمر , والعلم الذي يهذب القلب فيتسع ويطيع ; يؤديان إلى الرفعة عند الله درجات . وفي هذا مقابل لرفعة المكان الذي تطوعوا بتركه ورفعوا عنه لاعتبار رآه الرسول (صلى الله عليه وسلم) (والله

بما تعملون خبير) . . فهو يجزي به عن علم ومعرفة بحقيقة ما تعملون , وبما وراءه من شعور مكنون .

وهكذا يتولى القرآن تربية النفوس وتهذيبها , وتعليمها الفسحة والسماحة والطاعة بأسلوب التشويق والاستجاشة . فالدين ليس بالتكاليف الحرفية , ولكنه تحول في الشعور , وحساسية في الضمير . .

الدرس السابع:12 - 13 دفع الصدقة عند مناجاة الرسول ثم نسخ ذلك

كذلك يعلمهم القرآن أدبا آخر في علاقتهم برسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيبدو أنه كان هناك تزاحم على الخلوة برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليحدثه كل فرد في شأن يخصه ; ويأخذ فيه توجيهه ورأيه ; أو ليستمتع بالانفراد به مع عدم التقدير لمهام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الجماعية ; وعدم الشعور بقيمة وقته , وبجدية الخلوة به , وأنها لا تكون إلا لأمر ذي بال . فشاء الله أن يشعرهم بهذه المعاني بتقرير ضريبة للجماعة من مال الذي يريد أن يخلو برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويقتطع من وقته الذي هو من حق الجماعة . في صورة صدقة يقدمها قبل أن يطلب المناجاة والخلوة:

{يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة . ذلك خير لكم وأطهر . فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم} . .

وقد عمل بهذه الآية الإمام علي - كرم الله وجهه - فكان معه - كما روي عنه - دينار فصرفه دراهم . وكان كلما أراد خلوة برسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأمر تصدق بدرهم ! ولكن الأمر شق على المسلمين . وعلم الله ذلك منهم . وكان الأمر قد أدى غايته , وأشعرهم بقيمة الخلوة التي يطلبونها . فخفف الله عنهم ونزلت الآية التالية برفع هذا التكليف ; وتوجيههم إلى العبادات والطاعات المصلحة للقلوب:

(275/753)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (15) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (16) لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (18) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ

هُمُ الْخَاسِرُونَ (19)

(أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ? فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله . والله خبير بما تعملون) . .

وفي هاتين الآيتين والروايات التي ذكرت أسباب نزولهما نجد لونا من ألوان الجهود التربوية لإعداد هذه الجماعة المسلمة في الصغير والكبير من شئون الشعور والسلوك .

الدرس الثامن: 14 - 19 ذم المنافقين لموالاتهم اليهود ومتابعتهم الشيطان

ثم يعود السياق إلى المنافقين الذين يتولون اليهود , فيصور بعض أحوالهم ومواقفهم , ويتوعدهم بافتضاح أمرهم , وسوء مصيرهم , وانتصار الدعوة الإسلامية وأصحابها على الرغم من كل تدبيراتهم:

(276/753)

ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ? ما هم منكم ولا منهم , ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . أعد الله لهم عذابا شديدا , إنهم ساء ما كانوا يعملون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله , فلهم عذاب مهين . لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون

لكم ويحسبون أنهم على شيء . ألا إنهم هم الكاذبون . إستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله , أولئك حزب الشيطان , ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . .

وهذه الحملة القوية على المنافقين الذين يتولون قوما غضب الله عليهم - وهم اليهود - تدل على أنهم كانوا يمعنون في الكيد للمسلمين , ويتآمرون مع ألد أعدائهم عليهم ; كما تدل على أن سلطة الإسلام كانت قد عظمت , بحيث يخافها المنافقون , فيضطرون - عندما يواجههم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنون بما يكشفه الله من تدبيراتهم ومؤامراتهم - إلى الحلف بالكذب لإنكار ما ينسب إليهم من مؤامرات وأقوال ; وهم يعلمون أنهم كاذبون في هذه الأيمان . إنما هم يتقون بأيمانهم ما يتوقعونه من مؤاخذتهم بما ينكشف من دسائسهم: اتخذوا أيمانهم جنة أي وقاية . وبذلك يستمرون في دسائسهم للصد عن سبيل الله !

والله يتوعدهم مرات في خلال هذه الآيات: (أعد الله لهم عذابا شديدا . إنهم ساء ما كانوا يعملون) . . (فلهم عذاب مهين) . . (لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . .

ويصور مشهدهم يوم القيامة في وضع مزر مهين , وهم يحلفون لله كما كانوا يحلفون للناس: (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم) . . مما يشير إلى أن النفاق قد تأصل في كيانهم , حتى ليصاحبهم إلى يوم القيامة . وفي حضرة الله ذي الجلال . الذي يعلم خفايا

القلوب وذوات الصدور ! (ويحسبون أنهم على شيء) . . وهم على هواء لا يستندون إلى شيء . أي شيء !

(277/753)

ويدمغهم بالكذب الأصيل الثابت: (ألا إنهم هم الكاذبون) . .

ثم يكشف عن علة حالهم هذه . فقد استولى عليهم الشيطان كلية (فأنساهم ذكر الله) .

. والقلب الذي ينسى ذكر الله يفسد ويتمحض للشر: (أولئك حزب الشيطان) . .

الخالص للشيطان الذي يقف تحت لوائه , ويعمل باسمه , وينفذ غاياته . وهو الشر الخالص الذي ينتهي إلى الخسران الخالص: (ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) . .

وهي حملة شديدة عنيفة تناسب الشر والأذى والفتنة التي يدبرونها للمسلمين مع أعدائهم الماكرين . وتطمئن قلوب المسلمين . والله - سبحانه وتعالى - يتولى عنهم الحملة على أعدائهم المستورين !

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ (20) كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21)

الدرس التاسع:20 - 21 الله الغالب وأعداؤه أذلون ولما كان أولئك المنافقون يأوون إلى

اليهود شعورا منهم بأنهم قوة تخشى وترجى . ويطلبون عندهم العون والمشورة . فإن الله ييأسهم منهم , ويقرر أنه كتب على أعدائه الذلة والهزيمة , وكتب لنفسه ولرسوله الغلبة والتمكين:

(إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسلي . إن الله قوي عزيز) . . وهذا وعد الله الصادق الذي كان والذي لا بد أن يكون على الرغم مما قد يبدو أحيانا من الظاهر الذي يخالف هذا الوعد الصادق .

فالذي وقع بالفعل أن الإيمان والتوحيد قد غلبا على الكفر والشرك . واستقرت العقيدة في الله في هذه الأرض ; ودانت لها البشرية بعد كل ما وقف في طريقها من عقبات الشرك والوثنية , وبعد الصراع الطويل مع الكفر والشرك والإلحاد . وإذا كانت هناك فترات عاد فيها الإلحاد أو الشرك إلى الظهور في بعض بقاع الأرض - كما يقع الآن في الدول الملحدة والوثنية - فإن العقيدة في الله ظلت هي المسيطرة بصفة عامة . فضلا على أن فترات الإلحاد والوثنية إلى زوال مؤكد , لأنها غير صالحة للبقاء . والبشرية تهتدي في كل يوم إلى أدلة جديدة تهدي إلى الاعتقاد في الله والتمكين لعقيدة الإيمان والتوحيد .

والمؤمن يتعامل مع وعد الله على أنه الحقيقة الواقعة . فإذا كان الواقع الصغير في جيل محدود أو في رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة , فهذا الواقع هو الباطل الزائل . الذي يوجد فترة في الأرض لحكمة خاصة . لعلها استجاشة الإيمان وإهاجته لتحقيق وعد الله في وقته المرسوم .

وحين ينظر الإنسان اليوم إلى الحرب الهائلة التي شنها أعداء الإيمان على أهل الإيمان في صورها المتنوعة , من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد في عهود متطاولة , بلغ في بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قتلوا وشردوا وعذبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية . ثم بقي الإيمان في قلوب المؤمنين , يحميهم من الانهيار , ويحمي شعوبهم كلها من ضياع شخصيتها وذوبانها في الأمم الهاجمة عليها , ومن خضوعها للطغيان الغاشم إلا ريثما تنقض عليه وتحطمه . . حين ينظر الإنسان إلى هذا الواقع في المدى المتطاول يجد مصداق قول الله تعالى . يجده في هذا الواقع ذاته بدون حاجة إلى الانتظار الطويل ! !

وعلى أية حال فلا يخالج المؤمن شك في أن وعد الله هو الحقيقة الكائنة التي لا بد أن تظهر في الوجود , وأن الذين يحادون الله ورسوله هم الأذلون , وأن الله ورسله هم الغالبون . وأن هذا هو الكائن والذي لا بد أن يكون . ولتكن الظواهر غير هذا ما تكون !

الدرس العاشر:22 الثناء على حزب الله في ولائهم لله وبراءتهم من أعدائه

وفي النهاية تجيء القاعدة الثابتة التي يقف عليها المؤمنون , أو الميزان الدقيق للإيمان في النفوس:(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله , ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه , ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . رضي الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون) . .

إنها المفاضلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان , والانحياز النهائي للصف المتميز , والتجرد من كل عائق وكل جاذب , والارتباط في العروة الواحدة بالحبل الواحد .

(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) . .

فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه , وما يجمع إنسان في قلب واحد ودين:ودا لله ورسوله وودا لأعداء الله ورسوله ! فإما إيمان أو لا إيمان . أما هما معا فلا يجتمعان .

لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)

(ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) . .

(280/753)

فروابط الدم والقرابة هذه تنقطع عند حد الإيمان . إنها يمكن أن ترعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللوائين:لواء الله ولواء الشيطان . والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا تكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان . فأما إذا كانت المحادة والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التي لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد . ولقد قتل أبو عبيدة أباه في يوم بدر . وهم الصديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن . وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير . وقتل عمر وحمزة وعلي وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم . متجردين من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة . وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم في ميزان الله .

(أولئك كتب في قلوبهم الإيمان) . .

فهو مثبت في قلوبهم بيد الله مكتوب في صدورهم بيمين الرحمن . فلا زوال له ولا اندثار ,

ولا انطماس فيه ولا غموض !

(وأيدهم بروح منه) . .

وما يمكن أن يعزموا هذه العزمة إلا بروح من الله . وما يمكن أن تشرق قلوبهم بهذا النور إلا بهذا الروح الذي يمدهم بالقوة والإشراق , ويصلهم بمصدر القوة والإشراق .

(ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) . .

جزاء ما تجردوا في الأرض من كل رابطة وآصرة ; ونفضوا عن قلوبهم كل عرض من أعراضها الفانية .

(رضي الله عنهم ورضوا عنه) . .

وهذه صورة وضيئة راضية مطمئنة , ترسم حالة المؤمنين هؤلاء , في مقام عال رفيع . وفي جو راض وديع . . ربهم راض عنهم وهم راضون عن ربهم . انقطعوا عن كل شيء ووصلوا أنفسهم به ; فتقبلهم في كنفه , وأفسح لهم في جنابه , وأشعرهم برضاه . فرضوا . رضيت نفوسهم هذا القرب وأنست به واطمأنت إليه . .

(أولئك حزب الله) . .

فهم جماعته . المتجمعة تحت لوائه . المتحركة بقيادته . المهتدية بهديه . المحققة لمنهجه . الفاعلة في الأرض ما قدره وقضاه . فهي قدر من قدر الله .

(ألا إن حزب الله هم المفلحون) .

ومن يفلح إذن إذا لم يفلح أنصار الله المختارون ؟

وهكذا تنقسم البشرية إلى حزبين اثنين: حزب الله وحزب الشيطان . وإلى رايتين اثنتين: راية الحق وراية الباطل . فإما أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق , وإما أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل . . وهما صفان متميزان لا يختلطان ولا يتميعان ! !

لا نسب ولا صهر , ولا أهل ولا قرابة , ولا وطن ولا جنس , ولا عصبية ولا قومية . . أنما هي العقيدة , والعقيدة وحدها . فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة في الله . تختلف ألوانهم وتختلف أوطانهم , وتختلف عشائرهم وتختلف أسرهم , ولكنهم يلتقون في الرابطة التي تؤلف حزب الله , فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة . ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل , فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة . لا من أرض , ولا من جنس , ولا من وطن ولا من لون , ولا من عشيرة ولا من نسب ولا من صهر . . لقد أنبتت الوشيجة الأولى التي تقوم عليها هذه الوشائج فأنبتت هذه الوشائج جميعا . .

ومع إيحاء هذه الآية بأنه كان هناك في الجماعة المسلمة من تشده أواصر الدم والقرابة

وجواذب المصلحة والصداقة , مما تعالجه هذه الآية في النفوس , وهي تضع ميزان الإيمان بهذا الحسم الجازم , والمفاضلة القاطعة . . إلا أنها في الوقت ذاته ترسم صورة لطائفة كانت قائمة كذلك في الجماعة المسلمة , ممن تجردوا وخلصوا ووصلوا إلى ذلك المقام .

وهذه الصورة هي أنسب ختام للسورة التي بدأت بتصوير رعاية الله وعنايته بهذه الأمة في واقعة المرأة الفقيرة التي سمع الله لها وهي تجادل رسوله (صلى الله عليه وسلم) في شأنها وشأن زوجها !

فالانقطاع لله الذي يرعى هذه الأمة مثل هذه الرعاية هو الاستجابة الطبيعية . والمفاضلة بين حزب الله وحزب الشيطان هي الأمر الذي لا ينبغي غيره للأمة التي اختارها الله للدور الكوني الذي كلفها إياه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3505 . 3516 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ الذين يُظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِّن نِّسَآئِهِمْ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه موضحاً في سورة الأحزاب في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَّا جَعَلَ الله لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ [الأحزاب : 4] وبينا هناك كلام أهل العلم ، وأدلتهم ومناقشتها في مسائل الظهار ، ومسائل أحكام الكفارة بالعتق ، والصيام ، والإطعام ، وأوجه القراءة في الآية .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض مَا يَكُونُ مِن نجوى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله مَعَ الذين اتقوا والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : 128] ، وذكرنا هناك معنى المعية الخاصة ، والمعية العامة ، والآيات القرآنية الدالة على كل واحدة منهما .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نُهُواْ عَنِ النجوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بالإثم والعدوان ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه مع بيان الفرق بين النجوة بالخير ، والنجوى بالإثم والعدوان في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى ﴿ لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ

مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء : 114] .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين تَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ الله عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ ﴾

قال بعض أهل العلم : معنى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين تَوَلَّوْا ﴾ : ألم ينته علمك إلى الذين تولوا .

(284/753)

وقد قدمنا الرد على من قال : إن لفظة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ لا تعدى إلا بحرف الجر الذي هو إلى ، ولا تتعدى بنفسها إلى المفعول ، وبينا أن ذلك وإن كان هو الذي في القرآن في جميع المواضع فإن تعديتها إلى المفعول بنفسها صحيحة .

ومن شواهد ذلك قول امرئ القيس :

ألم ترياني كلما جئت طارقاً . . . وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

والمراد إنكار الله على المنافقين توليهم القوم الذين غضب الله عليهم ، وهم اليهود والكفار ، وهذا الإنكار يدل على شدة منع ذلك التولي ، وقد صرح الله بالنهي عن ذلك في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ [الممتحنة : 13] .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون المنافقين ليسوا من المؤمنين ، ولا من القوم الذين تولوهم وهم الذين غضب الله عليهم من اليهود ، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله

تعالى : ﴿ إِنَّ المنافقين يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء : 142] - إلى قوله - ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلك لا إلى هؤلاء وَلا إِلَى هؤلاء ﴾ [النساء : 143] .

اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (16)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن المنافقين اتخذوا أيمانهم جنة والأيمان جمع يمين ، وهي الحلف ، والجنة هي الترس الذي يتقي به المقاتل وقع السلاح ، والمعنى أنهم جعلوا الإيمان الكاذبة ، وهي حلفهم للمسلمين أنهم معهم وأنهم مخلصون في باطن الأمر ، ترساً لهم يتقون به الشر الذي ينزل بهم لو صرحوا بكفرهم ، وقوله تعالى ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الظاهر أنه من صد المتعدية ، وأن المفعول محذوف أي فصدوا غيرهم ممن أطاعهم لأن صدودهم في أنفسهم دل عليه قوله ﴿ اتخذوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ والحمل على التأسيس أولى من الحمل على التأكيد ، كما أوضحناه مراراً .

(285/753)

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة وهما كون المنافقين يحلفون الأيمان الكاذبة لتكون لهم جنة ، وأنهم يصدون غيرهم عن سبيل الله جاءا موضحين في آيات أخر من كتاب الله ، أما أيمانهم الكاذبة فقد بينها الله جل وعلا في آيات كثيرة ، كقوله تعالى في

هذه السورة ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [المجادلة : 14] ، وقوله تعالى ﴿ يَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] الآية ، وقوله تعالى ﴿ سَيَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ إِذَا انقلبتم إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ [التوبة : 95] الآية . وقوله تعالى ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بالله لَوِ استطعنا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ والله يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة : 42] وقوله تعالى ﴿ اتخذوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون : 2] .

وأما صدهم من أطاعهم عن سبيل الله فقد بينه الله في آيات من كتابه كقوله تعالى ﴿ قَدْ يَعْلَمُ الله المعوقين مِنكُمْ والقائلين لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ [الأحزاب : 18] ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كالذين كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأرض أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِنْدَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ﴾ [آل عمران : 156] ، وقوله تعالى : ﴿ الذين قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾ [آل عمران : 168] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ [النساء : 72] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ، أي لأجل نفاقهم ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار ﴾ [النساء : 145] الآية .

قوله تعالى : ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِّنَ الله شَيْئاً ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ [الكهف : 35] – إلى قوله – ﴿ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [الكهف : 36] .

قوله تعالى : ﴿ استحوذ عَلَيْهِمُ الشيطان فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ الله ﴾ .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من إسناد إنساء ذكر الله إلى الشيطان ، ذكره تعالى في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى مَعَ القوم الظالمين ﴾ [الأنعام : 68] ، وقوله تعالى ﴿ فَأَنسَاهُ الشيطان ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف : 42] ، وقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ [الكهف : 63] .

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20)

ذكر جل علا في هذه الآية الكريمة أن الذين يحادون الله ورسوله داخلون في جملة الأذلين ، لا يوجد أحد أذل منهم وقوله : ﴿ يُحَآدُّونَ الله وَرَسُولَه ﴾ أي يعادون ويخالفون ويشاقون ، وأصله مخالفة حدود الله التي حدها .

وقوله : ﴿ فِي الأذلين ﴾ أي الذين هم أعظم الناس ذلاً . والذل : الصغار والهوان والحقارة .

(287/753)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الذين يحادون الله ورسوله هم أذل خلق الله ، بينه جل وعلا في غير هذا الموضع ، وذلك بذكره أنوع عقوبتهم المفضية إلى الذل والخزي والهوان ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يعلموا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ الله وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذلك الخزي العظيم ﴾ [التوبة : 63] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُحَآدُّونَ الله وَرَسُولَهُ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [المجادلة : 5] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ الله عَلَيْهِمُ الجلاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدنيا وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابُ النار ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ الله وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ الله فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ [الحشر : 3 - 4] وقوله تعالى ﴿ فاضربوا فَوْقَ الأعناق واضربوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (*) ذلك بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ الله وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ذلكم فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النار ﴾ [الأنفال : 12 - 14] إلى غير ذلك من الآيات .

كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21)

قد دلت هذه الآية الكريمة على أن رسل الله غالبون لكل من غالبهم ، والغلبة نوعان : غلبة بالحجة والبيان ، وهي ثابتة لجميع الرسل ، وغلبة بالسيف والسنان ، وهي ثابتة لمن أمر بالقتال منهم دون من لم يؤمر به .

(288/753)

وقد دلت هذه الآية الكريمة ، وأمثالها من الآية كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171 - 173] أنه لن يقتل نبي في جهاد قط ، لأن المقتول ليس بغالب ، لأن القتل قسم مقابل للغلبة ، كما بينه تعالى في قوله : ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ ﴾ [النساء : 74] الآية . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر : 51] الآية . وقد نفى عن المنصور كونه مغلوباً نفياً باتاً في قوله تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ الله فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران : 160] .

وبهذا تعلم أن الرسل الذين جاء في القرآن أنهم قتلوا كقوله تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُكُمْ استكبرتم فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : 87] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بالبينات وبالذي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ﴾ [آل عمران :

183] ليسوا مقتولين في جهاد ، وأن نائب الفاعل في قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ [آل عمران : 146] ، على قراءة قتل بالبناء للمفعول ، هو ربيون لا ضمير النبي .

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح بالآيات القرآنية في سورة آل عمران في الكلام على قوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ [آل عمران : 146] وذكرنا بعضه في الصافات في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين ﴾ [الصافات : 171] .

قوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ .

(289/753)

وردت هذه الآية الكريمة بلفظ الخبر ، والمراد بها الإنشاء ، وهذا النهي البليد ، والزجر العظيم مولاة أعداء الله ، وإيراد الإنشاء بلفظ الخبر أقوى وأوكد ، من إيراده الإنشاء ، كما هو معلوم في محله ، ومعنى قوله ﴿ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ الله وَرَسُولَه ﴾ : أي يحبون ويوالون أعداء الله ورسوله .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي والزجر العظيم عن مولاة أعداء الله جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالذين مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآؤاْ مِّنْكُمْ وِمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء أَبَداً حتى تُؤْمِنُواْ بالله وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة : 4] . وقوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : 29] وقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين ﴾ [المائدة : 54] . وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة : 123] الآية . وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 73] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَوْ كانوا آبَآءَهُم ﴾ زعم بعضهم أنها نزلت في أبي عبيدة بن الجراح قائلاً : إنه قتل أباه كافراً يوم بدر أو يوم أُحد ، وقيل : نزلت في ابن عبد الله بن عبد الله بن أُبي المنافق المشهور ، وزعم من قال : إن عبد الله استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في قتل أبيه عبد الله بن أبي فنهاه ، وقيل : نزلت في أبي بكر ، وزعم من قال إن أباه أبا قحافة سب النبي صلى الله عليه وسلم قبل إسلامه فضربه ابنه أبو بكر حتى سقط .

وقوله: ﴿ أو أبناءهم ﴾، زعم بعضهم أنها نزلت في أبي بكر حين طلب مبارزة ابنة عبد الرحمن يوم بدر.

وقوله: ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ زعم بعضهم أنها نزلت في مصعب بن عمير قالوا: قتل أخاه عبيد بن عمير. وقال بعضهم: مر بأخيه يوم بدر يأسره رجل من المسلمين، فقال: شدد عليه الأسر، علم أن أمه ملية وستفديه.

وقوله: ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ قال بعضهم: نزلت في عبيدة بن الحارث بن المطلب، وحمزة بن عبد المطلب، ولعي بن أبي طالب رضي الله عنهم، لما قتلوا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، في المبارزة يوم بدر، وهم بنو عمهم، لأنهم أولاد ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. وعبد شمس أخوها سم كما لا يخفى، وقوله تعالى: ﴿ أولئك كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان ﴾ [المجادلة: 22] أي ثبته في قلوبهم بتوفيقه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تثبيت الإيمان في قلوبهم جاء موضحاً في قوله تعالى: ﴿ ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الأيمان وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكفر والفسوق والعصيان أولئك هُمُ الراشدون فَضْلاً مِّنَ الله وَنِعْمَةً ﴾ [الحجرات: 7 – 8]. انتهى انتهى. اهـ

﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(291/753)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

مِنْ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُك فِي زَوْجِهَا ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ رَوَى سُفْيَانُ عَنْ خَالِدٍ عَنْ أَبِي قلابة قَالَ : "كَانَ طَلَاقُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْإِيلَاءَ وَالظِّهَارَ ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ جَعَلَ اللَّهُ فِي الظِّهَارِ مَا جَعَلَ فِيهِ ، وَجَعَلَ فِي الْإِيلَاءِ مَا جَعَلَ فِيهِ .

" وَقَالَ عِكْرِمَةُ : "كَانَتْ النِّسَاءُ تُحَرَّمُ بِالظِّهَارِ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُك فِي زَوْجِهَا ﴾ الْآيَةَ " .

(292/753)

وَأَمَّا الْمُجَادَلَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي الْمَرْأَةِ ، فَإِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ : " فِي امْرَأَةٍ يُقَالُ لَهَا خُوَيْلَةُ " وَقَالَ عِكْرِمَةُ : بِنْتُ ثَعْلَبَةَ وَزَوْجُهَا أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ ، قَالَتْ إِنَّ زَوْجَهَا جَعَلَهَا عَلَيْهِ كَظَهْرِ أُمِّهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَا أُرَاكِ إِلَّا قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ ﴾ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ يَغْسِلُ رَأْسَهُ ، فَقَالَتْ : انْظُرْ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَالَ : ﴿ مَا أُرَاكِ إِلَّا قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ ﴾ فَأَعَادَتْ ذَلِكَ مِرَارًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : " حَرَّمَهَا ثُمَّ يُرِيدُ أَنْ يَعُودَ لَهَا فَيَطَأَهَا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ مَا أُرَاكِ إِلَّا قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ تَحْرِيمَ الطَّلَاقِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ حُكْمُ الظِّهَارِ ، وَمُحْتَمَلٌ أَنْ يُرِيدَ بِهِ تَحْرِيمَ الظِّهَارِ ؛ وَالْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ تَحْرِيمَ الطَّلَاقِ لِأَنَّ حُكْمَ

الظِّهَارِ مَأْخُوذٌ مِنْ الْآيَةِ وَالْآيَةُ نَزَلَتْ بَعْدَ هَذَا الْقَوْلِ ، فَثَبَتَ أَنَّ مُرَادَهُ تَحْرِيمُ الطَّلَاقِ وَرَفْعُ النِّكَاحِ ؛ وَهَذَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْحُكْمُ قَدْ كَانَ ثَابِتًا فِي الشَّرِيعَةِ قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ الظِّهَارِ ، وَإِنْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ حُكْمِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ .

فَإِنْ قِيلَ : إنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ حَكَمَ فِيهَا بِالطَّلَاقِ بِقَوْلِهِ : ﴿ مَا أُرَاكِ إلَّا قَدْ حَرُمْتِ ﴾ فَكَيْفَ حَكَمَ فِيهَا بِعَيْنِهَا بِالظِّهَارِ بَعْدَ حُكْمِهِ بِالطَّلَاقِ بِذَلِكَ الْقَوْلِ بِعَيْنِهِ فِي شَخْصٍ بِعَيْنِهِ ؟ وَإِنَّمَا النَّسْخُ يُوجِبُ الْحُكْمَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِخِلَافِ الْأَوَّلِ فِي الْمَاضِي قِيلَ لَهُ : لَمْ يَحْكُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالطَّلَاقِ ، وَإِنَّمَا عَلَّقَ الْقَوْلَ فِيهِ فَقَالَ : ﴿ مَا أُرَاكِ إلَّا قَدْ حَرُمْتِ ﴾ فَلَمْ يَقْطَعْ بِالتَّحْرِيمِ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ - تَعَالَى - قَدْ أَعْلَمَهُ قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّهُ سَيَنْسَخُ هَذَا الْحُكْمَ وَيَنْقُلُهُ مِنْ الطَّلَاقِ إلَى تَحْرِيمِ الظِّهَارِ الْآنَ ، ﴿ فَجَوَّزَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ الْآيَةَ فَلَمْ يُثْبِتْ الْحُكْمَ فِيهِ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ الْآيَةُ حَكَمَ فِيهَا بِمُوجِبِهَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنْ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ ، يَعْنِي - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - فِي تَشْبِيهِهَا بِظَهْرِ الْأُمِّ ، لِأَنَّ الِاسْتِمْتَاعَ بِالْأُمِّ مُحَرَّمٌ تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا ، وَهِيَ لَا تَحْرُمُ عَلَيْهِ بِهَذَا الْقَوْلِ

تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا ، فَكَانَ ذَلِكَ مُنْكَرًا مِنْ الْقَوْلِ وَزُورًا ، وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ وَذَلِكَ خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الظِّهَارَ مَخْصُوصٌ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ دُونَ أَهْلِ الذِّمَّةِ فَإِنْ قِيلَ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ وَلَمْ يُخَصِّصْ الْمَذْكُورِينَ فِي الثَّانِيَةِ قِيلَ لَهُ : الْمَذْكُورُونَ فِي الْآيَةِ

الثَّانِيَةِ هُمْ الْمَذْكُورُونَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ خَاصًّا فِي الْمُسْلِمِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ فَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ ، فَرَوَى مَعْمَرٌ عَنْ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ قَالَ : " الْوَطْءُ ، فَإِذَا حَنِثَ فَعَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ " وَهَذَا تَأْوِيلٌ مُخَالِفٌ لِلْآيَةِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ وَقَدْ رَوَى سُفْيَانُ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ طَاوُسٍ قَالَ : " إذَا تَكَلَّمَ بِالظِّهَارِ لَزِمَهُ " وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : " أَنَّهُ إذَا قَالَ أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي لَمْ تَحِلَّ لَهُ حَتَّى يُكَفِّرَ " وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ وَقَتَادَةَ : " إذَا أَرَادَ جِمَاعَهَا لَمْ يَقْرَبْهَا حَتَّى يُكَفِّرَ " .

وَقَدْ اخْتَلَفَ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ فِي مَعْنَى الْعَوْدِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ : " الظِّهَارُ يُوجِبُ تَحْرِيمًا لَا يَرْفَعُهُ إلَّا الْكَفَّارَةُ " وَمَعْنَى الْعَوْدِ عِنْدَهُمْ اسْتِبَاحَةُ وَطْئِهَا فَلَا يَفْعَلُهُ إلَّا بِكَفَّارَةٍ يُقَدِّمُهَا .

وَذَكَرَ بِشْرُ بْنُ الْوَلِيدِ عَنْ أَبِي يُوسُفَ : " لَوْ وَطِئَهَا ثُمَّ مَاتَتْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ كَفَّارَةٌ " وَقَالَ الثَّوْرِيُّ : " إذَا ظَاهَرَ مِنْهَا لَمْ تَحِلَّ لَهُ إلَّا بَعْدَ الْكَفَّارَةِ ، وَإِنْ طَلَّقَهَا ثُمَّ تَزَوَّجَهَا لَمْ يَطَأْهَا حَتَّى يُكَفِّرَ " ، وَهَذَا مُوَافِقٌ لِقَوْلِ أَصْحَابِنَا ، وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ : " إذَا أَجْمَعَ بَعْدَ الظِّهَارِ عَلَى إمْسَاكِهَا ، وَإِصَابَتِهَا فَقَدْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ ، فَإِنْ طَلَّقَهَا بَعْدَ الظِّهَارِ وَلَمْ يُجْمِعْ عَلَى إمْسَاكِهَا ، وَإِصَابَتِهَا فَلَا كَفَّارَةَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ تَزَوَّجَهَا بَعْدَ ذَلِكَ لَمْ يَمَسَّهَا حَتَّى يُكَفِّرَ كَفَّارَةَ الظِّهَارِ " .

وَذَكَرَ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْهُ أَنَّهُ إذَا ظَاهَرَ مِنْهَا ثُمَّ وَطِئَهَا ثُمَّ مَاتَتْ فَلَا بُدَّ مِنْ الْكَفَّارَةِ ؛ لِأَنَّهُ وَطِئَ بَعْدَ الظِّهَارِ وَقَالَ أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ : " إذَا أَجْمَعَ بَعْدَ الظِّهَارِ

عَلَى إمْسَاكِهَا ، وَإِصَابَتِهَا وَطَلَبَ الْكَفَّارَةَ فَمَاتَتْ امْرَأَتُهُ فَعَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ " وَقَالَ الْحَسَنُ : " إذَا أَجْمَعَ رَأْيُ الْمُظَاهِرِ عَلَى أَنْ يُجَامِعَ امْرَأَتَهُ فَقَدْ لَزِمَتْهُ الْكَفَّارَةُ ، وَإِنْ أَرَادَ تَرْكَهَا بَعْدَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْعَوْدَ هُوَ الْإِجْمَاعُ عَلَى مُجَامَعَتِهَا " .

وَقَالَ عُثْمَانُ الْبَتِّيُّ فِيمَنْ ظَاهَرَ مِنْ امْرَأَتِهِ ثُمَّ طَلَّقَهَا قَبْلَ أَنْ يَطَأَهَا قَالَ : " أَرَى عَلَيْهِ الْكَفَّارَةَ رَاجَعَهَا أَوْ لَمْ يُرَاجِعْهَا ، وَإِنْ مَاتَتْ لَمْ يَصِلْ إلَى مِيرَاثِهَا حَتَّى يُكَفِّرَ " .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : " إنْ أَمْكَنَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا بَعْدَ الظِّهَارِ فَلَمْ يُطَلِّقْ فَقَدْ وَجَبَتْ الْكَفَّارَةُ مَاتَتْ أَوْ عَاشَتْ " .

وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ مَنْ لَا يُعَدُّ خِلَافًا أَنَّ الْعَوْدَ أَنْ يُعِيدَ الْقَوْلَ مَرَّتَيْنِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : رَوَتْ عَائِشَةُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ أَنَّ آيَةَ الظِّهَارِ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ خَوْلَةَ حِينَ ظَاهَرَ مِنْهَا زَوْجُهَا أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ ﴿ فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعِتْقِ رَقَبَةٍ فَقَالَ : لَا أَجِدُ ، فَقَالَ : صُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ قَالَ : لَوْ لَمْ آكُلْ فِي الْيَوْمِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ كَادَ أَنْ يَغْشَى عَلَى بَصَرِي ، فَأَمَرَهُ بِالْإِطْعَامِ ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ مَنْ اعْتَبَرَ الْعَزْمَ عَلَى إمْسَاكِهَا وَوَطْئِهَا ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَبُطْلَانِ قَوْلِ مَنْ اعْتَبَرَ إرَادَةَ الْجِمَاعِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ ، وَبُطْلَانِ قَوْلِ مَنْ اعْتَبَرَ الطَّلَاقَ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ هَلْ طَلَّقْتَهَا ، وَبُطْلَانِ قَوْلِ مَنْ اعْتَبَرَ إعَادَةَ الْقَوْلِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ هَلْ أَعَدْتَ الْقَوْلَ مَرَّتَيْنِ ؛ فَثَبَتَ قَوْلُ أَصْحَابِنَا وَهُوَ أَنَّ لَفْظَ الظِّهَارِ يُوجِبُ تَحْرِيمًا تَرْفَعُهُ الْكَفَّارَةُ .

وَمَعْنَى قَوْله تَعَالَى - : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ .

أَحدُهُمَا : ذِكْرُ الْحَالِ الَّذِي خرجَ عَلَيْهِ الْخِطَابُ ، وَهُوَ أَنَّهُ قَدْ كَانَ مِنْ عَادَتِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الظِّهَارُ فَقَالَ : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ قَبْلَ هَذِهِ الْحَالِ ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ وَالْمَعْنَى : وَيَعُودُونَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَى ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ - تَعَالَى - : ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ ﴾ وَمَعْنَاهُ : وَاللَّهُ شَهِيدٌ ، فَيَكُونُ نَفْسُ الْقَوْلِ عَوْدًا إِلَى الْعَادَةِ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ .

وَالْمَعْنَى : حَتَّى صَارَ كَذَلِكَ ، وَكَمَا قَالَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ : هَذِي الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ شِيبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالًا مَعْنَاهُ : صَارَا كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمَا فِي الثَّدْيِ لَمْ يَكُونَا كَذَلِكَ وَكَمَا قَالَ لَبِيدٌ : وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ وَيَحُورُ يَرْجِعُ ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ هَهُنَا يَصِيرُ رَمَادًا .

كَذَلِكَ : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ أَنَّهُمْ يَصِيرُونَ إِلَى حَالِ الظِّهَارِ الَّذِي كَانَ يَكُونُ مِثْلُهُ مِنْهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ .

وَالْوَجْهُ الْآخَرُ : أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ فِي الظِّهَارِ إِيجَابُ تَحْرِيمِ الْوَطْءِ مُوَقَّتًا بِالْكَفَّارَةِ ، فَإِذَا كَانَ الظِّهَارُ مَخْصُوصًا بِتَحْرِيمِ الْوَطْءِ دُونَ غَيْرِهِ وَلَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي رَفْعِ النِّكَاحِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْعَوْدُ هُوَ الْعَوْدَ إِلَى اسْتِبَاحَةِ مَا حَرَّمَهُ بِالظِّهَارِ ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ : يَعُودُونَ لِلْمَقُولِ فِيهِ ، كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ ﴾ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَائِدٌ فِي الْمَوْهُوبِ ، وَكَقَوْلِنَا : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَجَاؤُنَا ، أَيْ مَنْ رَجَوْنَا ؛ وَقَالَ - تَعَالَى - : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ يَعْنِي : الْمُوقَنَ بِهِ وَقَالَ الشَّاعِرُ : أَخْبِرْ مَنْ لَاقَيْتَ أَنْ قَدْ وَفَيْتُمْ وَلَوْ شِئْتَ قَالَ الْمُنَبِّئُونَ أَسَاءُوا ، وَإِنِّي لَرَاجِيكُمْ عَلَى بُطْءِ سَعْيِكُمْ كَمَا فِي بُطُونِ الْحَامِلَاتِ رَجَاءُ يَعْنِي مَرْجُوًّا وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ

لِمَا قَالُوا ﴾ مَعْنَاهُ : لِمَا حَرَّمُوا ، فَيَسْتَبِيحُونَهُ فَعَلَيْهِمُ الْكَفَّارَةُ قَبْلَ الِاسْتِبَاحَةِ وَيَبْطُلُ قَوْلُ مَنِ اعْتَبَرَ الْبَقَاءَ عَلَى النِّكَاحِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الظِّهَارَ لَا يُوجِبُ تَحْرِيمَ الْعَقْدِ وَالْإِمْسَاكِ فَيَكُونُ الْعَوْدُ إِمْسَاكَهَا عَلَى النِّكَاحِ ؛ لِأَنَّ الْعَوْدَ لَا مَحَالَةَ قَدِ اقْتَضَى عَوْدًا إِلَى حُكْمٍ مَعْنًى قَدْ تَقَدَّمَ إِيجَابُهُ ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلْإِمْسَاكِ عَلَى النِّكَاحِ فِيهِ تَأْثِيرٌ .

وَالثَّانِي: أَنَّهُ قَالَ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ وَ"ثُمَّ" يَقْتَضِي التَّرَاخِي، وَمَنْ جَعَلَ الْعَوْدَ الْبَقَاءَ عَلَى النِّكَاحِ فَقَدْ جَعَلَهُ عَائِدًا عَقِيبَ الْقَوْلِ بِلَا تَرَاخٍ، وَذَلِكَ خِلَافُ مُقْتَضَى الْآيَةِ.

وَأَمَّا مَنْ جَعَلَ الْعَوْدَ الْعَزِيمَةَ عَلَى الْوَطْءِ فَلَا مَعْنَى لِقَوْلِهِ أَيْضًا؛ لِأَنَّ مُوجَبَ الْقَوْلِ هُوَ تَحْرِيمُ الْوَطْءِ لَا تَحْرِيمُ الْعَزِيمَةِ، وَالْعَزِيمَةُ عَلَى الْمَحْظُورِ، وَإِنْ كَانَتْ مَحْظُورَةً فَإِنَّمَا تَعَلَّقَ حُكْمُهَا بِالْوَطْءِ، فَالْعَزِيمَةُ عَلَى الِانْفِرَادِ لَا حُكْمَ لَهَا، وَأَيْضًا لَا حَظَّ لِلْعَزِيمَةِ فِي سَائِرِ الْأُصُولِ وَلَا تَتَعَلَّقُ بِهَا الْأَحْكَامُ، أَلَا تَرَى أَنَّ سَائِرَ الْعُقُودِ، وَالتَّحْرِيمَ لَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَزِيمَةِ فَلَا اعْتِبَارَ بِهَا؟

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفَا لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا بِهِ أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ﴾ فَإِنْ قِيلَ: هَلَّا كَانَ الْعَوْدُ إِعَادَةَ الْقَوْلِ مَرَّتَيْنِ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ عِبَارَةً عَنْهُ كَمَا قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ وَمَعْنَاهُ لَفَعَلُوا مِثْلَ مَا نُهُوا عَنْهُ.

قِيلَ لَهُ: هَذَا خَطَأٌ مِنْ وَجْهَيْنِ.

أَحَدُهُمَا: أَنَّ إِجْمَاعَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ جَمِيعًا قَدْ انْعَقَدَ بِأَنَّ هَذَا لَيْسَ بِمُرَادٍ، فَقَائِلُهُ خَارِجٌ عَنْ نِطَاقِ الْإِجْمَاعِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ يَجْعَلُ قَوْلَهُ: ﴿ثُمَّ يَعُودُنَّ لِمَا قَالُوا﴾

تَكْرَارًا لِلْقَوْلِ وَاللَّفْظِ مَرَّتَيْنِ ، وَاَللَّهُ - تَعَالَى - لَمْ يَقُلْ ثُمَّ يُكَرِّرُونَ الْقَوْلَ مَرَّتَيْنِ ، فَفِيهِ إثْبَاتُ مَعْنًى لَا يَقْتَضِيهِ اللَّفْظُ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عِبَارَةً عَنْهُ .

وَإِنْ حَمَلْته عَلَى أَنَّهُ عَائِدٌ لِمِثْلِ الْقَوْلِ فَفِيهِ إضْمَارٌ لِمِثْلِ ذَلِكَ الْقَوْلِ وَذَلِكَ لَا يَجُوزُ إلَّا بِدَلَالَةٍ ، فَالْقَائِلُ بِذَلِكَ خَارِجٌ عَنْ الْإِجْمَاعِ وَمُخَالِفٌ لِحُكْمِ الْآيَةِ وَمُقْتَضَاهَا فَإِنْ قِيلَ : وَأَنْتَ إذَا حَمَلْتَهُ عَلَى تَحْرِيمِ الْوَطْءِ وَأَنَّ تَقْدِيمَ الْكَفَّارَةِ لِاسْتِبَاحَةِ الْوَطْءِ فَقَدْ زُلْتَ عَنْ الظَّاهِرِ قِيلَ لَهُ : إذَا كَانَ الظِّهَارُ قَدْ أَوْجَبَ تَحْرِيمَ الْوَطْءِ فَاَلَّذِي يَسْتَبِيحُهُ مِنْهُ هُوَ الَّذِي حَرَّمَهُ بِالْقَوْلِ ، فَجَازَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَوْدًا لِمَا قَالَ ؛ إذْ هُوَ مُسْتَبِيحٌ لِذَلِكَ الْوَطْءِ الَّذِي حَرَّمَهُ بِعَيْنِهِ وَكَانَ عَوْدًا لِمَا قَالَ مِنْ إيجَابِ التَّحْرِيمِ .

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَنَّ الْوَطْءَ إذَا كَانَ مُسْتَحَقًّا بِعَقْدِ النِّكَاحِ ، وَحُكْمُ الْوَطْءِ الثَّانِي كَالْأَوَّلِ فِي أَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ بِسَبَبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ حَرَّمَهُ بِالظِّهَارِ ، جَازَ أَنْ يَكُونَ الْإِقْدَامُ عَلَى اسْتِبَاحَتِهِ عَوْدًا لِمَا حَرَّمَ فَكَانَ هَذَا الْمَعْنَى مُطَابِقًا لِلَّفْظِ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنْ كَانَتْ الِاسْتِبَاحَةُ هِيَ الْمُوجِبَةَ لِلْكَفَّارَةِ فَلَيْسَ يَخْلُو ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْعَزِيمَةَ عَلَى الِاسْتِبَاحَةِ وَعَلَى الْإِقْدَامِ عَلَى الْوَطْءِ أَوْ إيقَاعِ الْوَطْءِ ، فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ الْأَوَّلَ فَهَذَا يُلْزِمُك إيجَابَ الْكَفَّارَةِ بِنَفْسِ الْعَزِيمَةِ قَبْلَ الْوَطْءِ كَمَا قَالَ مَالِكٌ وَالْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ .

وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ إيقَاعَ الْوَطْءِ فَوَاجِبٌ أَنْ لَا تَلْزَمَهُ الْكَفَّارَةُ إلَّا بَعْدَ الْوَطْءِ ، وَهَذَا خِلَافُ الْآيَةِ ، وَلَيْسَ هُوَ قَوْلَك أَيْضًا .

قِيلَ لَهُ : الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ هُوَ مَا قَدْ بَيَّنَّا مِنْ الْإِقْدَامِ عَلَى اسْتِبَاحَةِ الْوَطْءِ ، فَقِيلَ لَهُ : إذَا أَرَدْت الْوَطْءَ وَعُدْت لِاسْتِبَاحَةِ مَا حَرَّمْته فَلَا تَطَأْ حَتَّى تُكَفِّرَ ، لَا أَنَّ الْكَفَّارَةَ وَاجِبَةٌ وَلَكِنَّهَا شَرْطٌ فِي رَفْعِ التَّحْرِيمِ ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : { فَإِذَا قَرَأْت الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاَللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } يَعْنِي فَقَدِّمْ الِاسْتِعَاذَةَ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ ، وَقَوْلِهِ : { إذَا قُمْتُمْ إلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا } وَالْمَعْنَى : إذَا أَرَدْتُمْ الْقِيَامَ وَأَنْتُمْ مُحْدِثُونَ فَقَدِّمُوا الْغَسْلَ .

وَقَوْلِهِ : { إذَا نَاجَيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً } .

وَكَقَوْلِهِ : { إذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ } ، وَالْمَعْنَى : إذَا أَرَدْتُمْ ذَلِكَ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ ثَبَتَ بِمَا قَدَّمْنَا أَنَّ الظِّهَارَ لَا يُوجِبُ كَفَّارَةً ، وَإِنَّمَا يُوجِبُ تَحْرِيمَ الْوَطْءِ ، وَلَا يَرْتَفِعُ إلَّا بِالْكَفَّارَةِ ، فَإِذَا لَمْ يُرِدْ وَطْأَهَا فَلَا كَفَّارَةَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ مَاتَتْ أَوْ عَاشَتْ فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ ؛ إذْ كَانَ حُكْمُ الظِّهَارِ إيجَابَ التَّحْرِيمِ فَقَطْ مُوَقَّتًا بِأَدَاءِ الْكَفَّارَةِ ، وَأَنَّهُ مَتَى لَمْ يُكَفِّرْ فَالْوَطْءُ مَحْظُورٌ عَلَيْهِ فَإِنْ وَطِئَ سَقَطَ الظِّهَارُ وَالْكَفَّارَةُ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ عَلَّقَ حُكْمَ الظِّهَارِ وَمَا أَوْجَبَ بِهِ مِنْ الْكَفَّارَةِ بِأَدَائِهَا قَبْلَ الْوَطْءِ لِقَوْلِهِ : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ ، فَمَتَى وَقَعَ الْمَسِيسُ فَقَدْ فَاتَ الشَّرْطُ فَلَا تَجِبُ الْكَفَّارَةُ بِالْآيَةِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ فَرْضٍ مَحْصُورٍ بِوَقْتٍ أَوْ مُعَلَّقٍ عَلَى شَرْطٍ فَإِنَّهُ مَتَى فَاتَ الْوَقْتُ وَعُدِمَ الشَّرْطُ لَمْ يَجِبْ بِاللَّفْظِ الْأَوَّلِ وَاحْتِيجَ إلَى دَلَالَةٍ أُخْرَى فِي إيجَابِ مِثْلِهِ فِي الْوَقْتِ الثَّانِي .

فَهَذَا حُكْمُ الظِّهَارِ إذَا وَقَعَ الْمَسِيسُ قَبْلَ التَّكْفِيرِ ، إلَّا أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَجُلًا ظَاهَرَ مِنْ امْرَأَتِهِ فَوَطِئَهَا قَبْلَ التَّكْفِيرِ ثُمَّ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ : ﴿ اسْتَغْفِرْ اللَّهَ وَلَا تَعُدْ حَتَّى تُكَفِّرَ ﴾ فَصَارَ التَّحْرِيمُ الَّذِي بَعْدَ الْوَطْءِ وَاجِبًا

بِالسُّنَّةِ ، وَقَدْ اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِيمَنْ وَطِئَ مَا الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ الْكَفَّارَةِ بَعْدَهُ ، فَقَالَ الْحَسَنُ وَجَابِرُ بْنُ زَيْدٍ وَإِبْرَاهِيمُ وَابْنُ الْمُسَيِّبِ : "لَيْسَ عَلَيْهِ إلَّا كَفَّارَةٌ وَاحِدَةٌ" ، وَكَذَلِكَ

قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَطَاوُسٍ وَابْنِ سِيرِينَ فِي آخَرِينَ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَقَبِيصَةَ بْنِ ذُؤَيْبٍ وَالزُّهْرِيِّ وَقَتَادَةَ " عَلَيْهِ كَفَّارَتَانِ " .

قَالَ : وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ظَاهَرْتُ مِنْ امْرَأَتِي فَجَامَعْتُهَا قَبْلَ أَنْ أُكَفِّرَ ؟ فَقَالَ : ﴿ اسْتَغْفِرْ اللَّهَ وَلَا تَعُدْ حَتَّى تُكَفِّرَ ﴾ فَلَمْ يُوجِبْ عَلَيْهِ كَفَّارَتَيْنِ بَعْدَ الْوَطْءِ .

وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي تَوْقِيتِ الظِّهَارِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَالثَّوْرِيُّ وَالشَّافِعِيُّ : " إذَا قَالَ أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي الْيَوْمَ بَطَلَ الظِّهَارُ بِمُضِيِّ الْيَوْمِ " ، وَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى وَمَالِكٌ وَالْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ : " هُوَ مُظَاهِرٌ أَبَدًا " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : تَحْرِيمُ الظِّهَارِ لَا يَقَعُ إلَّا مُوَقَّتًا بِأَدَاءِ الْكَفَّارَةِ ، فَإِذَا وَقَّتَهُ الْمُظَاهِرُ وَجَبَ تَوْقِيتُهُ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِمَّا لَا يَتَوَقَّتُ لَمَا انْحَلَّ ذَلِكَ التَّحْرِيمُ بِالتَّكْفِيرِ كَالطَّلَاقِ ، فَأَشْبَهَ الظِّهَارُ الْيَمِينَ الَّتِي يُحِلُّهَا الْحِنْثُ ، فَوَجَبَ تَوْقِيتُهُ كَمَا يَتَوَقَّتُ الْيَمِينُ وَلَيْسَ كَالطَّلَاقِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُحِلُّهُ شَيْءٌ .

فَإِنْ قِيلَ : تَحْرِيمُ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ يَقَعُ مُوَقَّتًا بِالزَّوْجِ الثَّانِي وَلَا يَتَوَقَّتُ بِتَوْقِيتِ الزَّوْجِ إذَا قَالَ أَنْتِ طَالِقٌ الْيَوْمَ قِيلَ لَهُ : إنَّ الطَّلَاقَ لَا يَتَوَقَّتُ بِالزَّوْجِ الثَّانِي ، وَإِنَّمَا يَسْتَفِيدُ الزَّوْجُ الْأَوَّلُ بِالزَّوْجِ

الثَّانِي إِذَا تَزَوَّجَهَا بَعْدَ ثَلَاثِ تَطْلِيقَاتٍ مُسْتَقْبَلَاتٍ وَالثَّلَاثُ الْأُوَلُ وَاقِعَةٌ عَلَى مَا كَانَتْ .

وَإِنَّمَا اسْتَفَادَ طَلَاقًا غَيْرَهَا ، فَلَيْسَ فِي الطَّلَاقِ تَوْقِيتٌ بِحَالٍ ، وَالظِّهَارُ مُوَقَّتٌ لَا مَحَالَةَ بِالتَّكْفِيرِ فَجَازَ تَوْقِيتُهُ بِالشَّرْطِ ، وَاخْتَلَفُوا فِي

الظِّهَارِ هَلْ يَدْخُلُ عَلَيْهِ إِيلَاءٌ ؟ فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَالْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ وَالثَّوْرِيُّ فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ وَالْأَوْزَاعِيّ " لَا يَدْخُلُ الْإِيلَاءُ عَلَى الْمُظَاهِرِ ، وَإِنْ طَالَ تَرْكُهُ إِيَّاهَا " وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ " لَا يَدْخُلُ عَلَى حُرٍّ إِيلَاءٌ فِي ظِهَارٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُضَارًّا لَا يُرِيدُ أَنْ يَفِيءَ مِنْ ظِهَارِهِ .

وَأَمَّا الْعَبْدُ فَلَا يَدْخُلُ عَلَى ظِهَارِهِ إِيلَاءٌ " .

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْهُ " يَدْخُلُ الْإِيلَاءُ عَلَى الظِّهَارِ إِذَا كَانَ مُضَارًّا لَا يُرِيدُ أَنْ يَفِيءَ مِنْ ظِهَارِهِ .

" وَأَمَّا الْعَبْدُ فَلَا يَدْخُلُ عَلَى ظِهَارِهِ إِيلَاءٌ .

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْهُ " يَدْخُلُ الْإِيلَاءُ عَلَى الظِّهَارِ إِذَا كَانَ مُضَارًّا وَمِمَّا يُعْلَمُ بِهِ ضِرَارُهُ أَنْ يَقْدِرَ عَلَى الْكَفَّارَةِ فَلَا يُكَفِّرُ فَإِنَّهُ إِذَا عُلِمَ ذَلِكَ وُقِفَ مِثْلَ الْمُولِي فَإِمَّا كَفَّرَ ، وَإِمَّا طَلُقَتْ عَلَيْهِ امْرَأَتُهُ " .

وَرُوِيَ عَنْ الثَّوْرِيِّ أَنَّ الْإِيلَاءَ يَدْخُلُ عَلَى الظِّهَارِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ لَيْسَ الظِّهَارُ كِنَايَةً عَنْ الطَّلَاقِ وَلَا صَرِيحًا فَلَا يَجُوزُ إثْبَاتُ الطَّلَاقِ بِهِ إلَّا بِتَوْقِيفٍ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ أَدْخَلَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ ﴾ وَمَنْ أَدْخَلَ الْإِيلَاءَ عَلَى الْمُظَاهِرِ فَقَدْ أَدْخَلَ عَلَيْهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ وَأَيْضًا نَصَّ اللَّهُ عَلَى حُكْمِ الْمُولِي بِالْفَيْءِ أَوْ عَزِيمَةِ الطَّلَاقِ.

وَنَصَّ عَلَى حُكْمِ الْمُظَاهِرِ بِإِيجَابِ كَفَّارَةٍ قَبْلَ الْمَسِيسِ فَحُكْمُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ فَغَيْرُ جَائِزٍ حَمْلُ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ ؛ إذْ مِنْ حُكْمِ الْمَنْصُوصَاتِ أَنْ لَا يُقَاسَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُجْرًى عَلَى بَابِهِ ، وَمَحْمُولٌ عَلَى مَعْنَاهُ دُونَ غَيْرِهِ ، وَأَيْضًا فَإِنَّ مَعْنَى الْإِيلَاءِ وُقُوعُ الْحِنْثِ وَوُجُوبُ الْكَفَّارَةِ بِالْوَطْءِ فِي الْمُدَّةِ وَلَا تَتَعَلَّقُ كَفَّارَةُ الظِّهَارِ بِالْوَطْءِ فَلَيْسَ هُوَ إذًا فِي مَعْنَى الْإِيلَاءِ وَلَا فِي

حُكْمِهِ ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْمُولَى سَوَاءٌ قَصَدَ الضِّرَارَ أَوْ لَمْ يَقْصِدْ لَا يَخْتَلِفُ حُكْمُهُ وَقَدْ اتَّفَقْنَا أَنَّهُ مَتَى لَمْ يَقْصِدْ الضِّرَارَ بِالظِّهَارِ لَمْ يَلْزَمْهُ حُكْمُ الْإِيلَاءِ بِمُضِيِّ الْمُدَّةِ فَوَجَبَ أَنْ لَا يَلْزَمَهُ ، وَإِنْ قَصَدَ الضِّرَارَ فَإِنْ قِيلَ لَمْ يُعْتَبَرْ ذَلِكَ فِي الْإِيلَاءِ ؛ لِأَنَّ نَفْسَ الْإِيلَاءِ يُنْبِئُ عَنْ قَصْدِ الضِّرَارِ ؛ إذْ هُوَ حَلِفٌ عَلَى الِامْتِنَاعِ مِنْ الْوَطْءِ فِي الْمُدَّةِ.

قِيلَ لَهُ : الظِّهَارُ قَصْدٌ إلَى الضِّرَارِ مِنْ حَيْثُ حَرَّمَ وَطْأَهَا إلَّا بِكَفَّارَةٍ يُقَدِّمُهَا عَلَيْهِ فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا فِيمَا يَقْتَضِيَانِهِ مِنْ الْمُضَارَّةِ ، وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَفُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ فِي الظِّهَارِ مِنْ الْأَمَةِ فَرَوَى عَبْدُ الْكَرِيمِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ " مَنْ شَاءَ بَاهَلْتُهُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَمَةٍ ظِهَارٌ " وَهَذَا قَوْلُ إبْرَاهِيمَ وَالشَّعْبِيِّ وَابْنِ الْمُسَيِّبِ وَهُوَ قَوْلُ أَصْحَابِنَا وَالشَّافِعِيِّ .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ جُبَيْرٍ وَالنَّخَعِيِّ وَعَطَاءٍ وَطَاوُسٍ وَسُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ قَالُوا : " هُوَ ظِهَارٌ " ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَالثَّوْرِيِّ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَاللَّيْثِ وَالْحَسَنِ بْنِ صَالِحٍ ، وَقَالُوا : " يَكُونُ مُظَاهِرًا مِنْ أَمَتِهِ كَمَا هُوَ مِنْ زَوْجَتِهِ " .

وَقَالَ الْحَسَنُ : " إنْ كَانَ يَطَأُهَا فَهُوَ مُظَاهِرٌ ، وَإِنْ كَانَ لَا يَطَأُهَا فَلَيْسَ بِظِهَارٍ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ وَهَذَا اللَّفْظُ يَنْصَرِفُ مِنْ الظِّهَارِ إلَى الْحَرَائِرِ دُونَ الْإِمَاءِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ فَكَانَ الْمَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ الْحَرَائِرَ ، لَوْلَا ذَلِكَ لَمَا صَحَّ عَطْفُ قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ لَا يُعْطَفُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَقَالَ - تَعَالَى - : ﴿ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ﴾ ، فَكَانَ عَلَى الزَّوْجَاتِ دُونَ مِلْكِ الْيَمِينِ فَلَمَّا

كَانَ حُكْمُ الظِّهَارِ مَأْخُوذًا مِنْ الْآيَةِ ، وَكَانَ مُقْتَضَاهَا مَقْصُورًا عَلَى الزَّوْجَاتِ دُونَ مِلْكِ الْيَمِينِ ، لَمْ يَجُزْ إيجَابُهُ فِي مِلْكِ الْيَمِينِ ، إذْ لَا مَدْخَلَ لِلْقِيَاسِ فِي إثْبَاتِ ظِهَارٍ فِي غَيْرِ مَا وَرَدَ فِيهِ وَوَجْهٌ آخَرُ ، وَهُوَ مَا بَيَّنَّا فِيمَا سَلَفَ أَنَّهُمْ قَدْ كَانُوا يُطَلِّقُونَ بِلَفْظِ الظِّهَارِ ، فَأَبْدَلَ اللَّهُ – تَعَالَى – بِهِ تَحْرِيمًا تَرْفَعُهُ الْكَفَّارَةُ ، فَلَمَّا لَمْ يَصِحَّ طَلَاقُ الْأَمَةِ لَمْ يَصِحَّ الظِّهَارُ مِنْهَا .

وَوَجْهٌ آخَرُ ، وَهُوَ : أَنَّ الظِّهَارَ يُوجِبُ تَحْرِيمًا مِنْ جِهَةِ الْقَوْلِ يُوجِبُ الْكَفَّارَةَ ، وَالْأَمَةُ لَا يَصِحُّ تَحْرِيمُهَا مِنْ جِهَةِ الْقَوْلِ ، فَأَشْبَهَ سَائِرَ الْمَمْلُوكَاتِ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ مَتَى حَرَّمَهَا بِالْقَوْلِ لَمْ تَحْرُمْ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ طَعَامًا أَوْ شَرَابًا لَمْ يَحْرُمْ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا يَلْزَمُهُ إذَا أَكَلَ أَوْ شَرِبَ كَفَّارَةُ يَمِينٍ ؟ فَكَذَلِكَ مِلْكُ الْيَمِينِ وَجَبَ أَنْ لَا يَصِحَّ الظِّهَارُ مِنْهَا ؛ إذْ لَا يَصِحُّ تَحْرِيمُهَا مِنْ جِهَةِ الْقَوْلِ .

فِي الظِّهَارِ بِغَيْرِ الْأُمِّ وَاخْتَلَفُوا فِيمَنْ قَالَ لِامْرَأَتِهِ أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُخْتِي أَوْ ذَاتِ مَحْرَمٍ مِنْهُ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا : " هُوَ مُظَاهِرٌ ، وَإِنْ قَالَ كَظَهْرِ فُلَانَةَ وَلَيْسَتْ بِمَحْرَمٍ مِنْهُ لَمْ يَكُنْ مُظَاهِرًا " ، وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَالْحَسَنِ بْنِ صَالِحٍ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَقَالَ مَالِكٌ وَعُثْمَانُ الْبَتِّيُّ : " يَصِحُّ الظِّهَارُ بِالْمُحَرَّمِ وَالْأَجْنَبِيَّةِ " وَلِلشَّافِعِيِّ قَوْلَانِ .

أَحَدُهُمَا : أَنَّ الظِّهَارَ لَا يَصِحُّ إلَّا بِالْأُمِّ .

وَالْآخَرُ : أَنَّهُ يَصِحُّ بِذَوَاتِ الْمَحَارِمِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمَّا صَحَّ الظِّهَارُ بِالْأُمِّ وَكَانَتْ ذَوَاتُ الْمَحَارِمِ كَالْأُمِّ فِي التَّحْرِيمِ وَجَبَ أَنْ يَصِحَّ الظِّهَارُ بِهِنَّ إذْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُنَّ فِي جِهَةِ التَّحْرِيمِ .

أَلَا تَرَى أَنَّ الظِّهَارَ بِالْأُمِّ مِنْ الرَّضَاعَةِ صَحِيحٌ مَعَ عَدَمِ النَّسَبِ لِوُجُودِ التَّحْرِيمِ فَكَذَلِكَ سَائِرُ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ .

وَرُوِيَ نَحْوُ قَوْلِ أَصْحَابِنَا عَنْ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ وَالْحَسَنِ وَإِبْرَاهِيمَ وَعَطَاءٍ وَقَالَ الشَّعْبِيُّ " إنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - لَمْ يَنْسَ أَنْ يَذْكُرَ الْبَنَاتِ وَالْأَخَوَاتِ وَالْعَمَّاتِ إنَّمَا الظِّهَارُ مِنْ الْأُمِّ " وَأَيْضًا لَمَّا قَالَ - تَعَالَى - ﴿ وَاَلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ اقْتَضَى ظَاهِرُهُ الظِّهَارَ بِكُلِّ ذَاتِ مَحْرَمٍ ؛ إذْ لَمْ يُخَصِّصْ الْأُمَّ دُونَ غَيْرِهَا وَمَنْ قَصَرَهُ عَلَى الْأُمِّ فَقَدْ خَصَّ بِلَا دَلِيلٍ فَإِنْ قِيلَ لَمَّا قَالَ - تَعَالَى - ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إنْ أُمَّهَاتُهُمْ إلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ الظِّهَارَ بِالْأُمِّ قِيلَ لَهُ إنَّمَا ذَكَرَ الْأُمَّهَاتِ ؛ لِأَنَّهُنَّ مِمَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِنَّ حَدُّ الْآيَةِ وَذَلِكَ لَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿ وَاَلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ عُمُومًا فِي سَائِرِ مَنْ أَوْقَعَ التَّشْبِيهَ بِظَهْرِهَا مِنْ سَائِرِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ وَأَيْضًا فَإِنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ الظِّهَارِ مِنْ سَائِرِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ نَبَّهَ عَلَى

الْمَعْنَى الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَلْزَمَهُ حُكْمَ الظِّهَارِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنْ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَلْزَمَهُمْ هَذَا الْحُكْمَ ؛ لِأَنَّهُنَّ لَسْنَ بِأُمَّهَاتِهِمْ ، وَأَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا مُنْكَرٌ مِنْ الْقَوْلِ وَزُورٌ فَاقْتَضَى ذَلِكَ إيجَابَ هَذَا الْحُكْمِ فِي الظِّهَارِ بِسَائِرِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ ؛ لِأَنَّهُ إذْ ظَاهَرَ بِأَجْنَبِيَّةٍ فَلَيْسَتْ هِيَ أُخْتَهُ وَلَا ذَاتَ مَحْرَمٍ مِنْهُ ، وَهَذَا الْقَوْلُ مُنْكَرٌ مِنْ الْقَوْلِ وَزُورٌ ؛ لِأَنَّهُ يَمْلِكُ بُضْعَ امْرَأَتِهِ وَهِيَ مُبَاحَةٌ لَهُ وَذَوَاتُ الْمَحَارِمِ مُحَرَّمَاتٌ عَلَيْهِ تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا فَإِنْ قِيلَ يَلْزَمُك عَلَى هَذَا إيجَابُ الظِّهَارِ بِالْأَجْنَبِيَّةِ ؛ لِعُمُومِ الْآيَةِ وَلِدَلَالَةِ فَحْوَاهَا عَلَى جَوَازِ الظِّهَارِ بِسَائِرِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ ، إذْ لَمْ تُفَرِّقْ الْآيَةُ بَيْنَ شَيْءٍ مِنْهُنَّ ؛ وَلِأَنَّ تَشْبِيهَهَا بِالْأَجْنَبِيَّةِ مُنْكَرٌ مِنْ الْقَوْلِ وَزُورٌ قِيلَ لَهُ لَا يَجِبُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْأَجْنَبِيَّةَ لَمَّا كَانَتْ قَدْ تَحِلُّ لَهُ بِحَالٍ لَمْ يَكُنْ قَوْلُهُ أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ الْأَجْنَبِيَّةِ مُفِيدًا لِلتَّحْرِيمِ فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ ؛ لِجَوَازِ أَنْ يَمْلِكَ بُضْعَ الْأَجْنَبِيَّةِ فَتَكُونَ مِثْلَهَا وَفِي حُكْمِهَا .

وَأَيْضًا لَا خِلَافَ أَنَّ التَّحْرِيمَ بِالْأَمْتِعَةِ وَسَائِرِ الْأَمْوَالِ لَا يَصِحُّ بِأَنْ يَقُولَ أَنْتِ عَلَيَّ كَمَتَاعِ فُلَانٍ أَوْ كَمَالِ فُلَانٍ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يَمْلِكُهُ بِحَالٍ فَيَسْتَبِيحُهُ .

وَاخْتَلَفُوا فِي الظِّهَارِ بِغَيْرِ الظَّهْرِ فَقَالَ أَصْحَابُنَا " إذَا قَالَ أَنْتِ عَلَيَّ كَيَدِ أُمِّي أَوْ كَرَأْسِهَا أَوْ ذَكَرَ شَيْئًا يَحِلُّ لَهُ النَّظَرُ إلَيْهِ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ مُظَاهِرًا ، وَإِنْ قَالَ كَبَطْنِهَا أَوْ كَفَخِذِهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ كَانَ مُظَاهِرًا ؛ لِأَنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ النَّظَرُ إلَيْهِ كَالظَّهْرِ " .

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ " قِيَاسُ قَوْلِ مَالِكٍ أَنْ يَكُونَ مُظَاهِرًا بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ الْأُمِّ " وَقَالَ الثَّوْرِيُّ وَالشَّافِعِيُّ " إذَا قَالَ أَنْتِ عَلَيَّ كَرَأْسِ أُمِّي أَوْ كَيَدِهَا فَهُوَ مُظَاهِرٌ ؛ لِأَنَّ التَّلَذُّذَ بِذَلِكَ مِنْهَا مُحَرَّمٌ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ نَصَّ اللَّهُ - تَعَالَى - عَلَى حُكْمِ الظِّهَارِ ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ : " أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي " وَالظَّهْرُ مِمَّا لَا يَسْتَبِيحُ النَّظَرَ إلَيْهِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ سَائِرُ مَا لَا يَسْتَبِيحُ النَّظَرَ إلَيْهِ فِي حُكْمِهِ ، وَمَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَسْتَبِيحَ النَّظَرَ إلَيْهِ فَلَيْسَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى تَحْرِيمِ الزَّوْجَةِ بِتَشْبِيهِهَا بِهِ ؛ إذْ لَيْسَ تَحْرِيمُهَا مِنْ الْأُمِّ مُطْلَقًا ، فَوَجَبَ أَنْ لَا يَصِحَّ الظِّهَارُ بِهِ ؛ إذْ كَانَ الظِّهَارُ يُوجِبُ تَحْرِيمًا ، وَأَيْضًا لَمَّا جَازَ لَهُ اسْتِبَاحَةُ النَّظَرِ إلَى هَذِهِ الْأَعْضَاءِ أَشْبَهَ سَائِرَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَجُوزُ أَنْ يَسْتَبِيحَ النَّظَرَ إلَيْهَا مِثْلَ الْأَمْوَالِ وَالْأَمْلَاكِ .

وَاخْتَلَفُوا فِيمَا يُحَرِّمُهُ الظِّهَارُ، فَقَالَ الْحَسَنُ: "لِلْمُظَاهِرِ أَنْ يُجَامِعَ فِيمَا دُونَ الْفَرْجِ" وَقَالَ عَطَاءٌ: "يَجُوزُ أَنْ يُقَبِّلَ أَوْ يُبَاشِرَ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ " وَقَالَ الزُّهْرِيُّ وَقَتَادَةُ: " ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ الْوُقُوعُ نَفْسُهُ" وَقَالَ أَصْحَابُنَا: "لَا يَقْرَبُ الْمُظَاهِرُ وَلَا يَلْمِسُ وَلَا يُقَبِّلُ وَلَا يَنْظُرُ إلَى فَرْجِهَا لِشَهْوَةٍ حَتَّى يُكَفِّرَ".

وَقَالَ مَالِكٌ مِثْلَ ذَلِكَ، وَقَالَ: "لَا يَنْظُرُ إلَى شَعْرِهَا وَلَا صَدْرِهَا حَتَّى يُكَفِّرَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَدْعُوهُ إلَى خَيْرٍ".

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: "يَأْتِيهَا فِيمَا دُونَ الْفَرْجِ، وَإِنَّمَا نُهِيَ عَنْ الْجِمَاعِ".

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: "يَحِلُّ لَهُ فَوْقَ الْإِزَارِ كَالْحَائِضِ" وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: "يُمْنَعُ الْقُبْلَةَ وَالتَّلَذُّذَ احْتِيَاطًا".

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَمَّا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ كَانَ ذَلِكَ عُمُومًا فِي حَظْرِ جَمِيعِ ضُرُوبِ الْمَسِيسِ مِنْ لَمْسٍ بِيَدٍ أَوْ غَيْرِهَا، وَأَيْضًا لَمَّا قَالَ: ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ فَأَلْزَمَهُ حُكْمَ التَّحْرِيمِ لِتَشْبِيهِهِ بِظَهْرِهَا، وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ التَّحْرِيمُ عَامًّا فِي الْمُبَاشَرَةِ وَالْجِمَاعِ كَمَا أَنَّ مُبَاشَرَةَ ظَهْرِ الْأُمِّ وَمَسَّهُ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ.

وَأَيضًا حدّثَنَا مُحَمّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حدّثَنَا أَبو دَاوُد قَالَ : حدّثَنَا زِيَادُ بْنُ أَيُّوبَ قَالَ : حدّثَنَا إسْمَاعِيلُ قَالَ : حدّثَنَا الْحَكَمُ بْنُ أَبَانَ عَنْ عِكْرِمَةَ : ﴿ أَنّ رَجُلًا ظَاهَرَ مِنْ امْرَأَتِهِ ثُمّ وَاقَعَهَا قَبْلَ أَنْ يُكَفّرَ ، فَأَتَى النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَأَخْبَرَهُ ، قَالَ : فَاعْتَزِلْهَا حَتّى تُكَفّرَ ؛ ﴾ وَرَوَاهُ مَعْمَرٌ عَنْ الْحَكَمِ بْنِ أَبَانَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ عَنْ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ نَحْوَهُ ، وَقَالَ : "لَا تَقْرَبْهَا حَتّى تُكَفّرَ" ، وَذَلِكَ يَمْنَعُ الْمَسِيسَ وَالْقُبْلَةَ .

فِي ظِهَارِ الْمَرْأَةِ مِنْ زَوْجِهَا قَالَ أَصْحَابُنَا : "لَا يَصِحّ ظِهَارُ الْمَرْأَةِ مِنْ زَوْجِهَا" ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَالثّوْرِيّ وَاللّيْثِ وَالشّافِعِيّ وَذَكَرَ الطحاوي عَنْ ابْنِ أَبِي عِمْرَانَ عَنْ عَلِيّ بْنِ صَالِحٍ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ زِيَادٍ أَنّهَا إذَا قَالَتْ لِزَوْجِهَا أَنْتَ عَلَيّ كَظَهْرِ أُمّي أَوْ كَظَهْرِ أَخِي كَانَتْ مُظَاهِرَةً مِنْ زَوْجِهَا ، قَالَ عَلِيٌّ : فَسَأَلْتُ مُحَمّدَ بْنَ الْحَسَنِ فَقَالَ : لَيْسَ عَلَيْهَا شَيْءٌ ، فَأَتَيْتُ أَبَا يُوسُفَ فَذَكَرْتُ لَهُ قَوْلَيْهِمَا فَقَالَ : هَذَانِ شَيْخَا الْفِقْهِ أَخْطَآ ، هُوَ تَحْرِيمٌ ، عَلَيْهَا كَفّارَةُ يَمِينٍ كَقَوْلِهَا أَنْتَ عَلَيّ حَرَامٌ .

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيّ "هِيَ يَمِينٌ تُكَفّرُهَا" وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ : "تُعْتِقُ رَقَبَةً وَتُكَفّرُ بِكَفّارَةِ الظّهَارِ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ وَكَفّرَتْ يَمِينًا رَجَوْنَا أَنْ يُجْزِيَهَا" .

وروى مُغيرةُ عَنْ إبْراهِيمَ قَالَ: خَطَبَ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَائِشَةَ بنْتِ طَلْحَةَ فقَالَتْ: هُوَ عَلَيْهَا كَظَهْرِ أَبِيهَا إنْ تزوَّجْته، فلمّا وَلِيَ الْإِمارَةَ أَرْسَلَ إلَيْهَا، فَأَرْسَلَتْ تسْأَلُ وَالْفُقَهَاءُ يَوْمئذٍ بالْمَدِينَةِ كَثِيرٌ، فأَفْتَوها أَنْ تُعْتِقَ رَقَبَةً وتَزَوَّجَهَا؛ وقَالَ إبْراهِيمُ: لوْ كانتْ عِنْدهُ يعْنِي عِنْدَ زَوْجِهَا يوْمَ قَالَتْ ذَلِكَ مَا كانَ عَلَيْهَا عِتْقُ رقَبَةٍ، ولَكِنَّهَا كانتْ تمْلِكُ نفْسَهَا حِينَ قَالَتْ مَا قَالَتْ وروِيَ عَنْ الْأَوْزاعِيِّ أَنَّهَا إذا قالَتْ: "إنْ تزَوَّجْته فهُوَ عَلَيَّ كَظَهْرِ أَبِي" كَانَتْ مُظاهِرةً، ولَوْ قَالَتْ وهِيَ تَحْتَ زَوْجٍ كانَ عَلَيْهَا كَفَّارةُ يَمِينٍ.

قَالَ أَبُو بكْرٍ: لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهَا كَفَّارَةُ يمينٍ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ لَا تَلْزَمُهُ بذلِكَ كَفَّارَةُ يمِينٍ، وَهُوَ الْأَصْلُ، فَكَيْفَ يَلْزَمُهَا ذَلِكَ كَمَا أَنَّ قوْلَ الرَّجُلِ: "أَنْتِ طَالِقٌ" لَا يكُونُ غيْرَ طَالِقٍ، كَذَلِكَ ظِهَارُهَا لَا يلْزَمُهَا بِهِ شَيْءٌ.

وَلَا يَصِحُّ مِنْهَا ظِهَارٌ بهَذَا الْقَوْلِ؛ لِأَنَّ

الظِّهَارَ يُوجِبُ تَحْرِيمًا بالْقَوْلِ وَهِيَ لَا تَمْلِكُ ذَلِكَ كَمَا لَا تَمْلِكُ الطَّلَاقَ؛ إذْ كانَ مَوْضُوعًا لِتَحْرِيمٍ يَقَعُ بالْقَوْلِ.

وَاخْتَلَفُوا فِيمَنْ قَالَ أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أَبِي ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَالْأَوْزَاعِيّ وَالشَّافِعِيُّ : " لَيْسَ بِشَيْءٍ " ، وَقَالَ مَالِكٌ : " هُوَ مُظَاهِرٌ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : إنَّمَا حَكَمَ اللَّهُ - تَعَالَى - بِالظِّهَارِ فِيمَنْ شَبَّهَهَا بِظَهْرِ الْأُمِّ وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهَا مِنْ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ الَّتِي لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَسْتَبِيحَ النَّظَرَ إلَى ظَهْرِهَا بِحَالٍ ، وَهُوَ يَجُوزُ لَهُ النَّظَرُ إلَى ظَهْرِ أَبِيهِ وَالْأَبُ وَالْأَجْنَبِيُّ فِي ذَلِكَ سَوَاءٌ ، وَلَوْ قَالَ : " أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ الْأَجْنَبِيِّ " لَمْ يَكُنْ شَيْئًا ، فَكَذَلِكَ ظَهْرُ الْأَبِ .

وَاخْتَلَفُوا فِيمَنْ ظَاهَرَ مِرَارًا ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَالشَّافِعِيُّ : " عَلَيْهِ لِكُلِّ ظِهَارٍ كَفَّارَةٌ إلَّا أَنْ يَكُونَ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ وَأَرَادَ التَّكْرَارَ فَتَكُونَ عَلَيْهِ كَفَّارَةٌ وَاحِدَةٌ " وَقَالَ مَالِكٌ : " مَنْ ظَاهَرَ مِنْ امْرَأَتِهِ فِي مَجَالِسَ مُتَفَرِّقَةٍ فَلَيْسَ عَلَيْهِ إلَّا كَفَّارَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَإِنْ ظَاهَرَ ثُمَّ كَفَّرَ ثُمَّ ظَاهَرَ فَعَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ أَيْضًا " .

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : " عَلَيْهِ كَفَّارَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَإِنْ كَانَ فِي مَقَاعِدَ شَتَّى " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْأَصْلُ أَنَّ الظِّهَارَ لَمَّا كَانَ سَبَبًا لِتَحْرِيمٍ تَرْفَعُهُ الْكَفَّارَةُ أَنْ تَجِبَ بِكُلِّ ظِهَارٍ كَفَّارَةٌ ، إلَّا أَنَّهُمْ قَالُوا إذَا أَرَادَ التَّكْرَارَ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ فَعَلَيْهِ كَفَّارَةٌ وَاحِدَةٌ ؛ لِاحْتِمَالِ اللَّفْظِ لِمَا أَرَادَ مِنْ التَّكْرَارِ فَإِنْ قِيلَ : قَوْلُهُ : ﴿ وَاَلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ يَقْتَضِي إيجَابَ كَفَّارَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَإِنْ

ظَاهَرَ مِرَارًا ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ لَا يَخْتَصُّ بِالْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ دُونَ الْمِرَارِ الْكَثِيرَةِ قِيلَ لَهُ : لَمَّا كَانَتْ الْكَفَّارَةُ فِي رَفْعِ التَّحْرِيمِ مُتَعَلِّقَةً بِحُرْمَةِ اللَّفْظِ أَشْبَهَ الْيَمِينَ ، فَمَتَى حَلَفَ مِرَارًا لَزِمَتْهُ لِكُلِّ يَمِينٍ كَفَّارَةٌ إذَا حَنِثَ ، وَلَمْ يَكُنْ قَوْلُهُ ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ ﴾ مُوجِبًا لِلِاقْتِصَارِ بِالْأَيْمَانِ الْكَثِيرَةِ عَلَى كَفَّارَةٍ وَاحِدَةٍ .

(316/753)

وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُظَاهِرِ هَلْ يُجْبَرُ عَلَى التَّكْفِيرِ ؟ فَقَالَ أَصْحَابُنَا : " لَا يَنْبَغِي لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَدَعَهُ يَقْرَبُهَا حَتَّى يُكَفِّرَ " وَذَكَرَ الطَّحَاوِيُّ عَنْ عَبَّادِ بْنِ الْعَوَّامِ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ حُسَيْنٍ قَالَ : سَأَلْت الْحَسَنَ وَابْنَ سِيرِينَ عَنْ رَجُلٍ ظَاهَرَ مِنْ امْرَأَتِهِ فَلَمْ يُكَفِّرْ تَهَاوُنًا ، قَالَ : تَسْتَعْدِي عَلَيْهِ ؛ قَالَ : وَسَأَلْت أَبَا حَنِيفَةَ ، فَقَالَ : تَسْتَعْدِي عَلَيْهِ وَقَالَ مَالِكٌ : " عَلَيْهَا أَنْ تَمْنَعَهُ نَفْسَهَا وَيَحُولُ الْإِمَامُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا " وَقَوْلُ الشَّافِعِيِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَحْكُمُ عَلَيْهِ بِالتَّكْفِيرِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَالَ أَصْحَابُنَا : " يُجْبَرُ عَلَى جِمَاعِ الْمَرْأَةِ فَإِنْ أَبَى ضَرَبْتُهُ رَوَاهُ هِشَامٌ ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يُجْبَرُ عَلَى التَّكْفِيرِ لِيُوَفِّيَهَا حَقَّهَا مِنْ الْجِمَاعِ .

(317/753)

وَاخْتَلَفُوا فِي الرَّقَبَةِ الْكَافِرَةِ عَنْ الظِّهَارِ ، فَقَالَ عَطَاءٌ وَمُجَاهِدٌ وَإِبْرَاهِيمُ ، وَإِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ الْحَسَنِ : "يُجْزِي الْكَافِرَ" ، وَهُوَ قَوْلُ أَصْحَابِنَا وَالثَّوْرِيِّ وَالْحَسَنِ بْنِ صَالِحٍ ، وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ : "أَنَّهُ لَا يُجْزِي فِي شَيْءٍ مِنْ الْكَفَّارَاتِ إلَّا الرَّقَبَةُ الْمُؤْمِنَةُ" ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : ظَاهِرُ قَوْلِهِ : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ يَقْتَضِي جَوَازَ الْكَافِرَةِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمُظَاهِرِ : "أَعْتِقْ رَقَبَةً" وَلَمْ يَشْتَرِطْ الْإِيمَانَ ، وَلَا يَجُوزُ قِيَاسُهَا عَلَى كَفَّارَةِ الْقَتْلِ لِامْتِنَاعِ جَوَازِ قِيَاسِ الْمَنْصُوصِ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ ؛ وَلِأَنَّ فِيهِ إيجَابَ زِيَادَةٍ فِي النَّصِّ وَذَلِكَ عِنْدَنَا يُوجِبُ النَّسْخَ .

وَاخْتَلَفُوا فِي جَوَازِ الصَّوْمِ مَعَ وُجُودِ رَقَبَةٍ لِلْخِدْمَةِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا : "إذَا كَانَتْ عِنْدَهُ رَقَبَةٌ لِلْخِدْمَةِ وَلَا شَيْءَ لَهُ غَيْرُهَا أَوْ كَانَ عِنْدَهُ دَرَاهِمُ ثَمَنُ رَقَبَةٍ لَيْسَ لَهُ غَيْرُهَا لَمْ يُجْزِهِ الصَّوْمُ" ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَالثَّوْرِيِّ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَقَالَ اللَّيْثُ وَالشَّافِعِيُّ : "مَنْ لَهُ خَادِمٌ لَا يَمْلِكُ غَيْرَهُ فَلَهُ أَنْ يَصُومَ" ، قَالَ اللَّهُ : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ .

فَأَوْجَبَ الرَّقَبَةَ بَدِيًّا عَلَى وَاجِدِهَا وَنَقَلَهُ إلَى الصَّوْمِ عِنْدَ عَدَمِهَا ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا وَاجِدًا لَهَا لَمْ يُجْزِهِ غَيْرُهُ فَإِنْ قِيلَ : هُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ مَعَهُ مَاءٌ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ الْعَطَشَ فَيَجُوزُ لَهُ التَّيَمُّمُ قِيلَ لَهُ : لِأَنَّهُ مَأْمُورٌ فِي هَذِهِ الْحَالِ بِاسْتِبْقَاءِ الْمَاءِ وَهُوَ مَحْظُورٌ عَلَيْهِ اسْتِعْمَالُهُ ، وَلَيْسَ بِمَحْظُورٍ عَلَيْهِ عِنْدَ الْجَمِيعِ عِتْقُ هَذِهِ الرَّقَبَةِ ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ وَاجِدٌ .

وَاخْتَلَفُوا فِي عِتْقِ أُمِّ الْوَلَدِ وَالْمُدَبَّرِ وَالْمُكَاتَبِ وَنَحْوِهِمْ فِي الْكَفَّارَةِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا : " لَا يَجُوزُ عِتْقُ أُمِّ الْوَلَدِ وَالْمُدَبَّرِ وَالْمُكَاتَبِ إذَا كَانَ قَدْ أَدَّى شَيْئًا عَنْ الْكِتَابَةِ ، وَلَا الْمُدَبَّرُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَدَّى شَيْئًا أَجْزَأَهُ ، وَإِنْ اشْتَرَى أَبَاهُ يَنْوِي بِهِ عَنْ كَفَّارَتِهِ جَازَ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ ذِي رَحِمٍ مَحْرَمٍ ، وَلَوْ قَالَ : كُلُّ عَبْدٍ أَشْتَرِيهِ فَهُوَ حُرٌّ ، ثُمَّ اشْتَرَى عَبْدًا يَنْوِيهِ عَنْ كَفَّارَتِهِ وَلَمْ يُجْزِهِ " وَقَالَ زُفَرُ : " لَا يُجْزِي الْمُكَاتَبُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَدَّى شَيْئًا " .

وَقَالَ مَالِكٌ : " لَا يُجْزِي الْمُكَاتَبُ وَلَا الْمُدَبَّرُ وَلَا أُمُّ الْوَلَدِ وَلَا مُعْتَقٌ إلَى سِنِينَ عَنْ الْكَفَّارَةِ وَلَا الْوَلَدُ وَالْوَالِدُ " .

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : " لَا يُجْزِي الْمُكَاتَبُ وَلَا الْمُدَبَّرُ وَلَا أُمُّ الْوَلَدِ " وَقَالَ عُثْمَانُ الْبَتِّيُّ : " يُجْزِي الْمُدَبَّرُ وَأُمُّ الْوَلَدِ فِي كَفَّارَةِ الظِّهَارِ وَالْيَمِينِ " .

وقَالَ اللَّيْثُ : "يُجْزِي أَنْ يشْتَرِيَ أَبَاهُ فَيُعْتِقَهُ بِالْكَفَّارَةِ الَّتِي عَلَيْهِ " وقَالَ الشَّافِعِيُّ : " لَا يُجْزِي مَنْ إذَا اشْتَرَاهُ عَتَقَ عَلَيْهِ ، "يُجْزِي الْمُدَبَّرُ ولَا يُجْزِي الْمُكَاتَبُ ، وإِنْ لَمْ يُؤَدِّ شَيْئًا ، ويُجْزِي الْمُعْتَقُ إلَى سِنِينَ ولَا تُجْزِي أُمُّ الْوَلَدِ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَمَّا أُمُّ الْوَلَدِ والْمُدَبَّرُ فَإِنَّهُمَا لَا يَجْزِيَانِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُمَا قَدْ اسْتَحَقَّا الْعِتْقَ مِنْ غَيْرِ جِهَةِ الْكَفَّارَةِ .

أَلَا تَرَى أَنَّ مَا ثَبَتَ لَهُمَا مِنْ حَقِّ الْعَتَاقِ يَمْنَعُ بَيْعَهُمَا ولَا يَصِحُّ فَسْخُ ذَلِكَ عَنْهُمَا ؟ فَمَتَى أَعْتَقَهُمَا فَإِنَّمَا عَجَّلَ عِتْقًا مُسْتَحَقًّا ، ولَيْسَ كَذَلِكَ مَنْ قَالَ لَهُ الْمَوْلَى : " أَنْتَ حُرٌّ بَعْدَ شَهْرٍ أَوْ سَنَةٍ " ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ لَهُ حَقٌّ بِهَذَا الْقَوْلِ يَمْنَعُ بَيْعَهُ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَبِيعَهُ ؟ وأَمَّا الْمُكَاتَبُ فَإِنَّهُ ، وإِنْ لَمْ يَجُزْ بَيْعُهُ فَإِنَّ الْكِتَابَةَ يَلْحَقُهَا

(320/753)

الْفَسْخُ ، وإِنَّمَا لَا يَجُوزُ بَيْعُهُ كَمَا لَا يَجُوزُ بَيْعُ الْآبِقِ والْعَبْدِ الْمَرْهُونِ والْمُسْتَأْجَرِ فَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ جَوَازَ عِتْقِهِ عَنْ الْكَفَّارَةِ ، فَإِذَا أُعْتِقَ الْمُكَاتَبُ قَبْلَ أَنْ يُؤَدِّيَ شَيْئًا فَقَدْ أَسْقَطَ الْمَالَ فَصَارَ كَمَنْ أَعْتَقَ عَبْدًا غَيْرَ مُكَاتَبٍ ، وإِنْ كَانَ قَدْ أَدَّى شَيْئًا لَمْ يَجُزْ مِنْ قِبَلِ أَنَّ الْأَدَاءَ لَا يَنْفَسِخُ بِعِتْقِهِ فَقَدْ حَصَلَ لَهُ عَنْ عِتْقِهِ بَدَلٌ فَلَا يُجْزِي عَنْ الْكَفَّارَةِ ، وأَمَّا إذَا اشْتَرَى أَبَاهُ فَإِنَّهُ يُجْزِي إذَا نَوَى ؛ لِأَنَّ قَبُولَهُ لِلشِّرَى بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ أَنْتَ حُرٌّ ؛ والدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ: ﴿ لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدَهُ إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ، ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَعْنَاهُ: يُعْتِقُهُ بِشِرَائِهِ إِيَّاهُ، فَجَعَلَ شِرَاءَهُ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ: "أَنْتَ حُرٌّ" فَأَجْزَأَ، بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَالَ لِعَبْدِهِ: أَنْتَ حُرٌّ.

وَاخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِ الطَّعَامِ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَالثَّوْرِيُّ: "لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صَاعِ بُرٍّ أَوْ صَاعُ تَمْرٍ أَوْ شَعِيرٍ" وَقَالَ مَالِكٌ مُدٌّ بِمُدِّ هِشَامٍ، وَهُوَ مُدَّانِ إِلَّا ثُلُثًا بِمُدِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَلِكَ مِنْ الْحِنْطَةِ، وَأَمَّا الشَّعِيرُ فَإِنْ كَانَ طَعَامَ أَهْلِ بَلَدِهِ فَهُوَ مِثْلُ الْحِنْطَةِ وَكَذَلِكَ التَّمْرُ، وَإِنْ لَمْ يَكُونَا طَعَامَ أَهْلِ الْبَلَدِ أَطْعَمَهُمْ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَسَطًا مِنْ شِبَعِ الشَّعِيرِ وَالتَّمْرِ".

(321/753)

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: "لِكُلِّ مِسْكِينٍ مُدٌّ مِنْ طَعَامِ بَلَدِهِ الَّذِي يَقْتَاتُ حِنْطَةً أَوْ شَعِيرٌ أَوْ أُرْزٌ أَوْ تَمْرٌ أَوْ أَقِطٌ، وَذَلِكَ بِمُدِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا يُعْتَبَرُ مُدٌّ أُحْدِثَ بَعْدَهُ".

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ: حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَمُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْأَنْبَارِيُّ قَالَا: حَدَّثَنَا ابْنُ إِدْرِيسَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ صَخْرٍ قَالَ: كُنْتُ امْرَأً أُصِيبُ مِنَ النِّسَاءِ،

وَذَكَرَ قِصَّةَ ظِهَارِهِ مِنْ امْرَأَتِهِ وَأَنَّهُ جَامَعَ امْرَأَتَهُ وَسَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : ﴿ حَرِّرْ رَقَبَةً ، فَقُلْت : وَاَلَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ مَا أَمْلِكُ رَقَبَةً غَيْرَهَا وَضَرَبْتُ صَفْحَةَ رَقَبَتِي ، قَالَ : فَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ، قَالَ : وَهَلْ أَصَبْتُ الَّذِي أَصَبْتُ إلَّا مِنْ الصِّيَامِ ؟ قَالَ فَأَطْعِمْ وَسْقًا مِنْ تَمْرٍ بَيْنَ سِتِّينَ مِسْكِينًا ، قُلْت : وَاَلَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ نَبِيًّا لَقَدْ بِتْنَا وَحْشَيْنِ وَمَا لَنَا طَعَامٌ قَالَ : فَانْطَلِقْ إلَى صَاحِبِ صَدَقَةِ بَنِي زُرَيْقٍ فَلْيَدْفَعْهَا إلَيْك فَأَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا وَسْقًا مِنْ تَمْرٍ وَكُلْ أَنْتَ وَعِيَالُك بَقِيَّتَهَا ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ : رَوَى إسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي حَرْمَلَةَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ : أَنَّ خَوْلَةَ

بِنْتَ مَالِكِ بْنِ ثَعْلَبَةَ ظَاهَرَ مِنْهَا زَوْجُهَا أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مُرِيهِ فَلْيَذْهَبْ إلَى فُلَانٍ فَإِنَّ عِنْدَهُ شَطْرَ وَسْقٍ فَلْيَأْخُذْهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ ثُمَّ يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ .

وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إدْرِيسَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إسْحَاقَ عَنْ مَعْمَرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْظَلَةَ عَنْ يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ عَنْ خَوْلَةَ : ﴿ أَنَّ زَوْجَهَا ظَاهَرَ مِنْهَا فَذَكَرَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِخَمْسَةَ عَشَرَ صَاعًا عَلَى سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ قِيلَ لَهُ : قَدْ

رَوَيْنَا حَدِيثَ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ وَأَنَّهُ أَمَرَهُ بِأَنْ يُطْعِمَ وَسْقًا مِنْ تَمْرٍ سِتِّينَ مِسْكِينًا ، وَهَذَا أَوْلَى ؛ لِأَنَّهُ زَائِدٌ عَلَى خَبَرِكَ وَأَيْضًا فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعَانَهُ بِهَذَا الْقَدْرِ ، وَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ جَمِيعُ الْكَفَّارَةِ ، وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ إِسْرَائِيلَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ زَوْجَ خَوْلَةَ ظَاهَرَ مِنْهَا وَذَكَرَ الْحَدِيثَ ، فَأَعَانَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسَةَ عَشَرَ صَاعًا ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَعَانَهُ بِبَعْضِ الْكَفَّارَةِ .

(323/753)

وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ أَيْضًا فِي حَدِيثِ يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَوَاهُ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ مَعْمَرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ قَالَ : حَدَّثَتْنِي خَوْلَةُ بِنْتُ مَالِكِ بْنِ ثَعْلَبَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَعَانَ زَوْجَهَا حِينَ ظَاهَرَ مِنْهَا بِعِذْقٍ مِنْ تَمْرٍ وَأَعَانَتْهُ هِيَ بِعِذْقٍ آخَرَ ، وَذَلِكَ سِتُّونَ صَاعًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : تَصَدَّقْ بِهِ . ﴾

اخْتَلَفُوا فِي الْمُظَاهِرِ يُجَامِعُ قَبْلَ أَنْ يُطْعِمَ ؟ فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَمَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ : لَا يُجَامِعُ حَتَّى يُطْعِمَ إذَا كَانَ فَرْضُهُ الطَّعَامَ " وَرَوَى زَيْدُ بْنُ أَبِي الزَّرْقَاءِ عَنْ الثَّوْرِيِّ : " أَنَّهُ إذَا أَرَادَ أَنْ

يطَأَهَا قبْل أَنْ يطعم لَم يكنْ آثِمًا " .

وروى المُعافى والْأَشْجعيُّ عنْ الثَّوْرِيّ : " أَنَّه لا يقْربُها حتَّى يطْعم " ، ﴿ قَال النّبيُّ صلَّى اللَّه عليْه وسلَّم للْمظاهِر بعْدما ذكر عجْزه عنْ الصّيام : ثُمّ لا يقْربُها حتّى يُكفّر ﴾ وأَيْضًا لمَّا اتَّفق الْجميعُ على أَنَّ الْجماع محْظُورٌ عليْه قبْل عِتْق الرَّقَبة وجب بقاءُ حظْرِه إذا عجز ؛ إذْ جائِزٌ أَنْ يجد الرَّقبة قبْل الْإِطْعامِ فيكُون الْوطْءُ واقِعًا قبْل الْعِتْق .

كَيْف يُحيِّي أَهْل الْكِتَاب قال اللَّهُ – تعَالى – : ﴿ وإِذا جاءُوك حيَّوْك بما لَمْ يُحيّك بِهِ اللَّهُ ﴾ .

(324/753)

روى سعِيدٌ عنْ قتَادة عنْ أَنسٍ : أَنَّ رسُول اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْه وسلَّم بيْنما هُو جالِسٌ مع أَصْحابِه ؛ إذْ أَتى عليْهم يهُودِيٌّ ، فسلَّم عليْهم فردُّوا عليْه ، قال رسُولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْه وسلَّم : ﴿ هلْ تدْرُون ما قال ؟ قالوا سلَّم يا نبيَّ اللَّهِ قال : قال سامٌ عليْكُمْ أَيْ تسْأَمُون دِينكُمْ وقال نبيُّ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْه وسلَّم : إذا سلَّم عليْكُمْ أَحدٌ مِنْ أَهْل الْكِتاب فقُولُوا عليْك أَيْ عليْك ما قُلْت ﴾ وحدَّثنا عبْدُ الْباقِي بْنُ قانِعٍ قال : حدَّثنا إسْحاقُ بْنُ الْحُسيْنِ قال : حدَّثنا أَبُو حُذيْفة قال : حدَّثنا سُفْيانُ عنْ سُهيْلٍ عنْ أَبِيهِ عنْ أَبِي هُريْرة قال : قال

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إذَا لَقِيتُمْ الْمُشْرِكِينَ فِي الطَّرِيقِ فَلَا تَبْدَءُوهُمْ بِالسَّلَامِ وَاضْطَرُّوهُمْ إلَى أَضْيَقِهِ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ رُوِيَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ بِقَوْلِهِمْ السَّامُ أَنَّكُمْ تَسْأَمُونَ دِينَكُمْ ، وَرُوِيَ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ بِهِ الْمَوْتَ ؛ لِأَنَّ السَّامَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْمَوْتِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : ذَكَرَ هِشَامٌ عَنْ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ قَالَ : " نَرَى أَنْ نَرُدَّ عَلَى الْمُشْرِكِ السَّلَامَ وَلَا نَرَى أَنْ نَبْدَأَ " .

(325/753)

وَقَالَ مُحَمَّدٌ : " وَهُوَ قَوْلُ الْعَامَّةِ مِنْ فُقَهَائِنَا " وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ الْمُثَنَّى قَالَ : حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ مَرْزُوقٍ قَالَ : حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ إبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ : صَحِبْنَا عَبْدَ اللَّهِ فِي سَفَرٍ وَمَعَنَا أُنَاسٌ مِنْ الدَّهَاقِينِ ، قَالَ : فَأَخَذُوا طَرِيقًا غَيْرَ طَرِيقِنَا ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ، فَقُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ : أَلَيْسَ هَذَا تَكْرَهُ ؟ قَالَ : إنَّهُ حَقُّ الصُّحْبَةِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : ظَاهِرُهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بَدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ ؛ لِأَنَّ الرَّدَّ لَا يُكْرَهُ عِنْدَ أَحَدٍ ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ فَقُولُوا وَعَلَيْكُمْ ﴾ قَالَ

أَبو بَكْرٍ : وَإِنَّمَا كَرِهَ الِابْتِدَاءَ ؛ لِأَنَّ السَّلَامَ مِنْ تَحِيَّةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَكَرِهَ أَنْ نَبْدَأَ بِهِ الْكَافِرَ ؛ إِذْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا ، وَلَا يُكْرَهُ الرَّدُّ عَلَى وَجْهِ الْمُكَافَأَةِ .

قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى – : ﴿ ، وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ الْمُثَنَّى قَالَ : حَدَّثَنَا عُثْمَانُ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ قَالَ : حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ الْأَعْمَشُ قَالَ : قُلْتُ لِإِبْرَاهِيمَ : أَخْتَلِفُ إِلَى طَبِيبٍ نَصْرَانِيٍّ أُسَلِّمُ عَلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، إِذَا كَانَتْ لَكَ إِلَيْهِ حَاجَةٌ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ .

(326/753)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى – : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : "كَانُوا يَتَنَافَسُونَ فِي مَجْلِسِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقِيلَ لَهُمْ تَفَسَّحُوا " وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " هُوَ مَجْلِسُ الْقِتَالِ " .

قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ ، وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا ﴾ قَالَ : " إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى خَيْرٍ " وَقِيلَ : انْشُزُوا أَيْ ارْتَفِعُوا فِي الْمَجْلِسِ ؛ وَلِهَذَا ذَكَرَ أَهْلَ الْعِلْمِ ؛ لِأَنَّهُمْ أَحَقُّ بِالرِّفْعَةِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ كَانَ يَرْفَعُ مَجْلِسَ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى غَيْرِهِمْ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ فَضْلَهُمْ وَمَنْزِلَتَهُمْ عِنْدَهُ ، وَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يُفْعَلَ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ – تَعَالَى – :

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ .

وَكَذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لِيَلِيَنِي مِنْكُمْ أُولُوا الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ﴾ فَرَتَّبَ أُولِي الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى فِي أَعْلَى الْمَرَاتِبِ ؛ إذْ جَعَلَهُمْ فِي الْمَرْتَبَةِ الَّتِي تَلِي النُّبُوَّةَ .

(327/753)

وَقَوْله تَعَالَى - : ﴿ إذَا نَاجَيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ رَوَى لَيْثٌ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : قَالَ عَلِيٌّ : " إنَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَآيَةً مَا عَمِلَ بِهَا أَحَدٌ قَبْلِي وَلَا يَعْمَلُ بِهَا أَحَدٌ بَعْدِي ، كَانَ عِنْدِي دِينَارٌ فَصَرَفْته فَكُنْتُ إذَا نَاجَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَصَدَّقْتُ بِدِرْهَمٍ ، ثُمَّ نُسِخَتْ " .

وَرَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " إنَّ الْمُسْلِمِينَ أَكْثَرُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسَائِلَ حَتَّى شَقُّوا عَلَيْهِ ، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْ نَبِيِّهِ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ إذَا نَاجَيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ كَفَّ كَثِيرٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَنْ الْمَسْأَلَةِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ الْآيَةَ .

فَوَسَّعَ لَهُمْ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى أَحْكَامٍ ثَلَاثَةٍ .

أَحَدُهَا : تَقْدِيمُ الصَّدَقَةِ أَمَامَ مُنَاجَاتِهِمْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ يَجِدُ .

وَالثَّانِي : الرُّخْصَةُ فِي الْمُنَاجَاةِ لِمَنْ لَا يَجِدُ الصَّدَقَةَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَسْأَلَةَ كَانَتْ مُبَاحَةً لِمَنْ لَمْ يَجِدْ الصَّدَقَةَ .

وَالثَّالِثُ : وُجُوبُ الصَّدَقَةِ أَمَامَ الْمَسْأَلَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ .

(328/753)

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إذَا نَاجَيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ الْآيَةَ ، قَالَ عَلِيٌّ : " مَا عَمِلَ بِهَا أَحَدٌ غَيْرِي حَتَّى نُسِخَتْ وَمَا كَانَتْ إلَّا سَاعَةً " .

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْمُحَادَّةُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي حَدٍّ وَحَيِّزٍ غَيْرِ حَدِّ صَاحِبِهِ وَحَيِّزِهِ ، فَظَاهِرُهُ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَهْلَ الْحَرْبِ ؛ لِأَنَّهُمْ فِي حَدٍّ غَيْرِ حَدِّنَا ، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى

كَرَاهَةِ مُنَاكَحَةِ أَهْلِ الْحَرْبِ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ لِأَنَّ الْمُنَاكَحَةَ تُوجِبُ الْمَوَدَّةَ، قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً.

آخِرُ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(329/753)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله:

سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ

[فِيهَا سِتُّ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إلَى اللَّهِ وَاَللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إنْ أُمَّهَاتُهُمْ إلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنْ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ وَاَلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاَللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فِيهَا تِسْعٌ وَعِشْرُونَ مَسْأَلَةً: الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي

سَماعِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا قَوْلًا أَوْ غَيْرَهُ ، لَا يَخْتَصُّ بِسَمَاعِ الْأَصْوَاتِ ، بَلْ كُلُّ مَوْجُودٍ يَسْمَعُهُ وَيَرَاهُ وَيَعْلَمُهُ ، وَيَعْلَمُ الْمَعْدُومَ بِأَبْدَعِ بَيَانٍ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ وَالْأُصُولِ ، وَكَذَلِكَ أَوْضَحْنَا أَنَّهُ يَجُوزُ تَعَلُّقُ سَمْعِنَا بِكُلِّ مَوْجُودٍ ، وَكَذَلِكَ رُؤْيَتُنَا ، وَلَكِنَّ الْبَارِي تَعَالَى أَجْرَى الْعَادَةَ بِتَعَلُّقِ رُؤْيَتِنَا بِالْأَلْوَانِ ، وَسَمْعِنَا بِالْأَصْوَاتِ ؛ وَلِلَّهِ الْحِكْمَةُ فِيمَا خَصَّ وَالْقُدْرَةُ فِيمَا عَمَّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تُجَادِلُك فِي زَوْجِهَا ﴾ : وَكَذَلِكَ تَقَدَّمَ بَيَانُ الْمُجَادَلَةِ وَحَقِيقَتِهَا وَجَوَازِهَا فِي طَلَبِ قَصْدِ الْحَقِّ وَإِظْهَارِهِ ، وَأَمْرِ اللَّهِ بِهَا ، وَنَسْخِهِ وَتَخْصِيصِهِ لَهَا وَتَعْمِيمِهِ .

(330/753)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِي تَعْيِينِ هَذِهِ الْمُجَادِلَةِ : وَفِيهِ رِوَايَاتٌ كَثِيرَةٌ : قِيلَ هِيَ خَوْلَةُ امْرَأَةُ أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ .

وَقِيلَ هِيَ خَوْلَةُ بِنْتُ دُلَيْجٍ .

وَقِيلَ : بِنْتُ الصَّامِتِ .

وَأُمُّهَا مُعَاذَةُ ؛ كَانَتْ أَمَةً لِابْنِ أُبَيٍّ .

وَفِيهَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ الْآيَةَ .

وَقِيل : خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ ، وَهِيَ أَشْبَهُهَا ؛ لِمَا رُوِيَ أَنَّ خَوْلَةَ بِنْتَ ثَعْلَبَةَ جَاءَتْ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَهِيَ عَجُوزَةٌ كَبِيرَةٌ ، وَالنَّاسُ مَعَهُ ، وَهُوَ عَلَى حِمَارٍ قَال : فَجَنَحَ إِلَيْهَا ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَنْكِبِهَا ، وَتَنَحَّى النَّاسُ عَنْهَا ، فَنَاجَاهَا طَوِيلًا ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ فَقَالُوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، حَبَسْتَ رِجَالَاتِ قُرَيْشٍ عَلَى هَذِهِ الْعَجُوزِ .

قَالَ : أَتَدْرُونَ مَنْ هِيَ ؟ هَذِهِ خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ ، سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَهَا مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ ؛ فَوَاللَّهِ لَوْ قَامَتْ هَكَذَا إِلَى اللَّيْلِ لَقُمْتُ مَعَهَا إِلَى أَنْ تَحْضُرَ صَلَاةٌ ، وَأَنْطَلِقَ لِأُصَلِّيَ ثُمَّ أَرْجِعَ إِلَيْهَا .

وَقَالَتْ عَائِشَةُ : تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ ، وَهِيَ تَقُول : يَا رَسُول اللَّهِ .

وَفِي تَرَاجِمِ الْبُخَارِيِّ ، وَعَنْ تَمِيمِ بْنِ سَلَمَةَ ، وَعَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ ؛ ﴿ قُلْتُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ ، فَأَنْزَل اللَّهُ عَزَّ وَجَل عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْل الَّتِي تُجَادِلُكَ ﴾ ﴾ .

وَنصُّهُ عَلَى الِاخْتِصَارِ مَا رُوِيَ أَنَّهُ ﴿ لَمَّا ظَاهَرَ أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ مِنْ امْرَأَتِهِ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ قَالَتْ لَهُ :

وَاللَّهِ مَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ أَثِمْتَ فِي شَأْنِي ، لَبِسْتَ جِدَّتِي ، وَأَفْنَيْتَ شَبَابِي ، وَأَكَلْتَ مَالِي ، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي ، وَرَقَّ عَظْمِي ، وَاحْتَجْتُ إِلَيْكَ فَارَقْتَنِي .

قَالَ : مَا أُكْرِهَنِي لِذَلِكَ ، اذْهَبِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَانْظُرِي هَلْ تَجِدِينَ عِنْدَهُ شَيْئًا فِي أَمْرِكِ ؟ فَأَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ ، فَلَمْ تَبْرَحْ حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَعْتِقْ رَقَبَةً .

قَالَ : لَا أَجِدُ ذَلِكَ .

قَالَ : صُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ .

قَالَ : لَا أَسْتَطِيعُ ذَلِكَ ؛ أَنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ .

قَالَ : أَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا .

قَالَ : لَا أَجِدُ .

فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَعِيرًا ، وَقَالَ : خُذْ هَذَا فَأَطْعِمْهُ ﴾ .

وَرُوِيَ أَيْضًا ﴿ أَنَّ سَعِيدًا أَتَى أَبَا سَلَمَةَ بْنَ صَخْرٍ أَحَدَ بَنِي بَيَاضَةَ ، كَانَ رَجُلًا مِيطا فَلَمَّا جَاءَ شَهْرُ رَمَضَانَ جَعَلَ امْرَأَتَهُ عَلَيْهِ كَأُمِّهِ ، فَرَآهَا ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي بَرِيقِ الْقَمَرِ ، وَرَأَى بَرِيق

خَلْخَالِهَا وَسَاقِهَا فَأَعْجَبَتْهُ فَأَتَاهَا ، وَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ

فَقَالَ لَهُ : أَتَيْتَ بِهَذَا يَا أَبَا سَلَمَةَ ثَلَاثًا ؟ فَأَمَرَ النَّبِيُّ أَنْ يُعْتِقَ رَقَبَةً .

قَالَ : مَا أَمْلِكُ غَيْرَ رَقَبَتِي هَذِهِ .

(332/753)

فَأَمَرَهُ بِالْإِطْعَامِ .

قَالَ : إِنَّمَا هِيَ وَجْبَةٌ .

قَالَ : صُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ .

قَالَ : مَا مِنْ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ الصِّيَامِ .

قَالَ : فَأَتَى النَّاسُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقِنَاعٍ فِيهِ تَمْرٌ .

فَقَالَ لَهُ : خُذْ هَذَا ، فَتَصَدَّقْ بِهِ وَأَطْعِمْهُ عِيَالَكَ ﴾ .

[وَقِيلَ هَذَا صَخْرُ بْنُ] سَلَمَةُ بْنُ صَخْرِ بْنُ سُلَيْمَانَ الَّذِي أَعْطَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِجَنَّ يَوْمَ أُحُدٍ .

وَقَالَ : وَجْهِي أَحَقُّ بِالْكَلْمِ مِنْ وَجْهِك ،

وَارْتُثَّ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ الْقَتْلَى ، وَبِهِ رَمَقٌ ، وَقَدْ كُلِمَ كُلُومًا كَثِيرَةً ، فَمَسَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُومَهُ ، وَاسْتَشْفَى لَهُ فَبَرِئَ ، وَفِيهِ نَزَلَتْ آيَةُ الظِّهَارِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَشْتَكِي إلَى اللَّهِ ﴾ : رُوِيَ ﴿ أَنَّ خَوْلَةَ بِنْتَ دُلَيْجٍ ظَاهَرَ مِنْهَا زَوْجُهَا ، فَأَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَتْهُ كَذَلِكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَدْ حَرُمْت عَلَيْهِ ، فَرَفَعَتْ رَأْسَهَا إلَى السَّمَاءِ فَقَالَتْ : إلَى اللَّهِ أَشْكُو حَاجَتِي إلَيْهِ .

ثُمَّ عَادَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : حَرُمْت عَلَيْهِ .

فَقَالَتْ : إلَى اللَّهِ أَشْكُو حَاجَتِي إلَيْهِ ، وَعَائِشَةُ تَغْسِلُ شِقَّ رَأْسِهِ الْأَيْمَنَ ، ثُمَّ تَحَوَّلَتْ إلَى الشِّقِّ الْآخَرِ ، وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ ، فَذَهَبَتْ أَنْ تُعِيدَ ، فَقَالَ : يَا عَائِشَةُ ، اُسْكُتِي ، فَإِنَّهُ نَزَلَ الْوَحْيُ .

(333/753)

فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِزَوْجِهَا : أَعْتِقْ رَقَبَةً .

قَالَ : لَا أَجِدُ .

قَالَ : صُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ .

قَالَ : إنْ لَمْ آكُلْ فِي الْيَوْمِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ خِفْت أَنْ يَعْشُوَ بَصَرِي .

قَالَ: فَأَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا .

قَالَ: فَأَعِنِّي ، فَأَعَانَهُ بِشَيْءٍ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ ﴾ حَقِيقَتُهُ تَشْبِيهُ ظَهْرٍ [بِظَهْرٍ ، وَالْمُوجِبُ لِلْحُكْمِ مِنْهُ تَشْبِيهُ ظَهْرٍ] مُحَلَّلٍ بِظَهْرٍ مُحَرَّمٍ ، وَيَتَفَرَّعُ عَلَيْهِ فُرُوعٌ كَثِيرَةٌ ، أُصُولُهَا سَبْعَةٌ : الْفَرْعُ الْأَوَّلُ : إذَا شَبَّهَ جُمْلَةَ أَهْلِهِ بِظَهْرِ أُمِّهِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ : أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي .

الْفَرْعُ الثَّانِي : إذَا شَبَّهَ جُمْلَةَ أَهْلِهِ بِعُضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ أُمِّهِ كَانَ ظِهَارًا ، خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ فِي قَوْلِهِ : إنْ شَبَّهَهَا بِعُضْوٍ يَحِلُّ النَّظَرُ إلَيْهِ لَمْ يَكُنْ ظِهَارًا ، وَهَذَا لَا يَصِحُّ ؛ لِأَنَّ النَّظَرَ إلَيْهِ عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِمْتَاعِ لَا يَحِلُّ لَهُ ، وَفِيهِ رَفْعُ التَّشْبِيهِ ، وَإِيَّاهُ قَصَدَ الْمُظَاهِرُ ، وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ فِي قَوْلِهِ : إنَّهُ لَا يَكُونُ ظِهَارًا إلَّا فِي الظَّهْرِ وَحْدَهُ ؛ وَهَذَا فَاسِدٌ ؛ لِأَنَّ كُلَّ عُضْوٍ مِنْهَا مُحَرَّمٌ ، فَكَانَ التَّشْبِيهُ بِهِ ظِهَارًا كَالظَّهْرِ ، وَلِأَنَّ الْمُظَاهِرَ إنَّمَا يَقْصِدُ تَشْبِيهَ الْمُحَلَّلِ بِالْمُحَرَّمِ ؛ فَلَزِمَ عَلَى الْمَعْنَى .

الْفَرْعُ الثَّالِثُ إذَا شَبَّهَ عُضْوًا مِنْ امْرَأَتِهِ بِظَهْرِ أُمِّهِ: قَالَ الشَّافِعِيُّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ: لَا يَكُونُ ظِهَارًا، وَهَذَا ضَعِيفٌ مِنْهُ، لِأَنَّهُ قَدْ وَافَقَنَا عَلَى أَنَّهُ يَصِحُّ إضَافَةُ الطَّلَاقِ إلَيْهِ، خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ؛ فَصَحَّ إضَافَةُ الظِّهَارِ إلَيْهِ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ.

الْفَرْعُ الرَّابِعُ إذَا قَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَأُمِّي، أَوْ مِثْلُ أُمِّي، فَإِنْ نَوَى ظِهَارًا كَانَ ظِهَارًا، وَإِنْ نَوَى طَلَاقًا كَانَ طَلَاقًا، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ نِيَّةٌ كَانَ ظِهَارًا.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ: إنْ لَمْ يَنْوِ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ.

وَدَلِيلُنَا أَنَّهُ أَطْلَقَ تَشْبِيهَ امْرَأَتِهِ بِأُمِّهِ، فَكَانَ ظِهَارًا؛ أَصْلُهُ إذَا ذَكَرَ الظَّهْرَ، وَهَذَا قَوِيٌّ؛ إذْ مَعْنَى اللَّفْظِ فِيهِ مَوْجُودٌ، وَاللَّفْظُ بِمَعْنَاهُ، وَلَمْ يَلْزَمْ حُكْمُ الظَّهْرِ لِلَفْظِهِ، وَإِنَّمَا لَزِمَ لِمَعْنَاهُ وَهُوَ التَّحْرِيمُ.

الْفَرْعُ الْخَامِسُ إذَا قَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ حَرَامٌ كَظَهْرِ أُمِّي كَانَ ظِهَارًا؛ وَلَمْ يَكُنْ طَلَاقًا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: أَنْتِ حَرَامٌ يَحْتَمِلُ التَّحْرِيمَ بِالطَّلَاقِ وَهِيَ مُطَلَّقَةٌ، وَيَحْتَمِلُ التَّحْرِيمَ بِالظِّهَارِ، فَلَمَّا صَرَّحَ بِهِ كَانَ تَفْسِيرًا لِأَحَدِ الِاحْتِمَالَيْنِ فَقَضَى بِهِ فِيهِ.

الْفَرْعُ السَّادِسُ إنْ شَبَّهَ امْرَأَتَهُ بِأَجْنَبِيَّةٍ فَإِنْ ذَكَرَ الظَّهْرَ كَانَ ظِهَارًا حَمْلًا عَلَى الْأَوَّلِ، وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ الظَّهْرَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ عُلَمَاؤُنَا، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يَكُونُ ظِهَارًا، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يَكُونُ طَلَاقًا.

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ : لَا يَكُونُ شَيْئًا ؛ وَهَذَا فَاسِدٌ ؛ لِأَنَّهُ شَبَّهَ مُحَلَّلًا مِنْ الْمَرْأَةِ بِمُحَرَّمٍ ، فَكَانَ مُقَيَّدًا بِحُكْمِهِ كَالظَّهْرِ .

وَالْأَسْمَاءُ بِمَعَانِيهَا عِنْدَنَا ، وَعِنْدَهُمْ بِأَلْفَاظِهَا ، وَهَذَا نَقْضٌ لِلْأَصْلِ مِنْهُمْ .

الْفَرْعُ السَّابِعُ إذَا قَالَ : أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُخْتِي كَانَ مُظَاهِرًا .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا يَكُونُ لَهُ حُكْمٌ ، وَهَذِهِ أَشْكَلُ مِنْ الَّتِي قَبْلَهَا .

وَدَلِيلُنَا أَنَّهُ شَبَّهَ امْرَأَتَهُ بِظَهْرٍ مُحَرَّمٍ عَلَيْهِ مُؤَبَّدٍ كَالْأُمِّ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ قَوْلُهُ : ﴿ مِنْكُمْ ﴾ .

يَعْنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ ؛ وَذَلِكَ يَقْتَضِي خُرُوجَ الذِّمِّيِّ مِنْ الْخِطَابِ .

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا اسْتِدْلَالٌ بِدَلِيلِ الْخِطَابِ .

قُلْنَا : هُوَ اسْتِدْلَالٌ بِالِاشْتِقَاقِ .

وَالْمَعْنَى فَإِنَّ أَنْكِحَةَ الْكُفَّارِ فَاسِدَةٌ مُسْتَحِقَّةُ الْفَسْخِ ، فَلَا يَتَعَلَّقُ بِهَا حُكْمُ طَلَاقٍ وَلَا ظِهَارٍ ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ .

وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : يَصِحُّ ظِهَارُ الذِّمِّيِّ ؛ وَهِيَ مَسْأَلَةُ خِلَافٍ عُظْمَى .

وَقَدْ مَدَدْنَا إطْنَابَ الْقَوْلِ فِيهَا فِي مَسْأَلَةِ الْخِلَافِ .

وَلُبَابُهُ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ أَنَّ الْكُفَّارَ مُخَاطَبُونَ بِفُرُوعِ الشَّرِيعَةِ عِنْدَنَا ، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ بِغَيْرِ خِلَافٍ ؛ وَإِذَا خُوطِبُوا فَإِنَّ أَنْكِحَتَهُمْ فَاسِدَةٌ لِإِخْلَالِهِمْ بِشُرُوطِهَا مِنْ وَلِيٍّ وَأَهْلٍ وَصَدَاقٍ وَوَصْفِ صَدَاقٍ ، فَقَدْ يَعْقِدُونَ بِغَيْرِ صَدَاقٍ ، وَيَعْقِدُونَ [بِغَيْرِ مَالٍ كَخَمْرٍ أَوْ خِنْزِيرٍ ، وَيَعْقِدُونَ فِي الْعِدَّةِ وَيَعْقِدُونَ] نِكَاحَ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَإِذَا خَلَتْ الْأَنْكِحَةُ عَنْ شُرُوطِ الصِّحَّةِ فَهِيَ فَاسِدَةٌ ، وَلَا ظِهَارَ فِي النِّكَاحِ الْفَاسِدِ بِحَالٍ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ وَهَذَا الدَّلِيلُ بِعَيْنِهِ يَقْتَضِي صِحَّةَ ظِهَارِ الْعَبْدِ خِلَافًا لِمَنْ مَنَعَهُ ، لِأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛ وَأَحْكَامُ النِّكَاحِ فِي حَقِّهِ ثَابِتَةٌ ، وَإِنْ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ الْعِتْقُ وَالْإِطْعَامُ فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الصِّيَامِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ قَالَ مَالِكٌ : لَيْسَ عَلَى النِّسَاءِ تَظَاهُرٌ ، إنَّمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : وَاَللَّاتِي يُظَاهِرْنَ مِنْكُنَّ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ ، وَإِنَّمَا الظِّهَارُ عَلَى الرِّجَالِ .

قَالَ الْقَاضِي : هَكَذَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ ، وَسَالِمٍ ، وَيَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ ، وَرَبِيعَةَ ، وَأَبِي الزِّنَادِ ؛ وَهُوَ صَحِيحٌ مَعْنًى ؛ لِأَنَّ الْحَلَّ وَالْعَقْدَ وَالتَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ فِي النِّكَاحِ بِيَدِ الرِّجَالِ ،

لَيْسَ بِيَدِ الْمَرْأَةِ مِنْهُ شَيْءٌ .

وَهَذَا إجْمَاعٌ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ يَلْزَمُ الظِّهَارُ فِي كُلِّ أَمَةٍ يَصِحُّ وَطْؤُهَا .

(337/753)

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ : لَا يَلْزَمُ ، وَهِيَ مَسْأَلَةٌ عَسِيرَةٌ جِدًّا عَلَيْنَا ؛ لِأَنَّ مَالِكًا يَقُولُ : إذَا قَالَ لِأَمَتِهِ : أَنْتِ عَلَيَّ حَرَامٌ لَمْ يَلْزَمْ ، فَكَيْفَ يُبْطِلُ صَرِيحُ التَّحْرِيمِ ، وَيُصَحِّحُ كِنَايَتَهُ ، وَلَكِنْ تَدْخُلُ الْأَمَةُ فِي عُمُومِ : ﴿ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ بِهِ مِنْ مُحَلَّلَاتِكُمْ .

وَالْمَعْنَى فِيهِ أَنَّهُ لَفْظٌ يَتَعَلَّقُ بِالْبُضْعِ دُونَ رَفْعِ الْعَقْدِ فَيَصِحُّ فِي الْأَمَةِ ، أَصْلُهُ الْحَلِفُ بِاَللَّهِ .

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ مَنْ بِهِ لَمَمٌ ، وَانْتَظَمَتْ لَهُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ الْكَلِمُ إذَا ظَاهَرَ لَزِمَ ظِهَارُهُ ، لِمَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ ﴿ أَنَّ خَوْلَةَ بِنْتَ ثَعْلَبَةَ وَكَانَ زَوْجُهَا أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ وَكَانَ بِهِ لَمَمٌ فَدَاخَلَهُ بَعْضُ لَمَمِهِ ، فَظَاهَرَ مِنْ امْرَأَتِهِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ مَنْ غَضِبَ فَظَاهَرَ مِنْ امْرَأَتِهِ أَوْ طَلَّقَ لَمْ يُسْقِطْ غَضَبُهُ حُكْمَهُ .

وَفِي بَعْضِ طُرُقِ هَذَا الْحَدِيثِ قَالَ يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ : حَدَّثَتْنِي خَوْلَةُ امْرَأَةُ أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ قَالَتْ : كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ ، فَقَالَ : أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي .

ثُمَّ خَرَجَ إِلَى نَادِي قَوْمِهِ .

فَقَوْلُهَا : كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ دَلِيلٌ عَلَى مُنَازَعَةٍ أَحْرَجَتْهُ ، فَظَاهَرَ مِنْهَا .

وَالْغَضَبُ لَغْوٌ لَا يَرْفَعُ حُكْمًا ، وَلَا يُغَيِّرُ شَرْعًا .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ وَكَذَلِكَ السَّكْرَانُ يَلْزَمُهُ حُكْمُ الظِّهَارِ وَالطَّلَاقِ فِي حَالِ سُكْرِهِ إذَا عَقَلَ قَوْلَهُ ، وَنَظَمَ كَلَامَهُ .

(338/753)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ فِيمَا أَوْرَدْنَاهُ مِنْ هَذَا الْخَبَرِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَكَمَ فِي الظِّهَارِ بِالْفِرَاقِ ، وَهُوَ الْحُكْمُ بِالتَّحْرِيمِ بِالطَّلَاقِ ، حَتَّى نَسَخَ اللَّهُ ذَلِكَ بِالْكَفَّارَةِ .

وَهَذَا نَسْخٌ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ ، فِي حَقِّ شَخْصٍ وَاحِدٍ ، فِي زَمَانَيْنِ ؛ وَذَلِكَ جَائِزٌ عَقْلًا ، وَاقِعٌ شَرْعًا .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ النَّسْخِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ الظِّهَارُ يُحَرِّمُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الِاسْتِمْتَاعِ ، خِلَافًا لِلشَّافِعِيِّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ : " أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي " يَقْتَضِي تَحْرِيمَ كُلِّ اسْتِمْتَاعٍ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ ، وَإِنَّمَا حَرَّمَ

الْوَطْءُ بِالتَّشْبِيهِ بِالْمُحَرَّمَةِ ، وَهَذَا يَقْتَضِي تَحْرِيمَ كُلِّ الِاسْتِمْتَاعِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ قَالَ الشَّافِعِيُّ : إذَا ظَاهَرَ مِنْ الْأَجْنَبِيَّةِ بِشَرْطِ الزَّوَاجِ لَمْ يَكُنْ ظِهَارًا ، وَعِنْدَنَا يَكُونُ ظِهَارًا ، كَمَا لَوْ طَلَّقَهَا كَذَلِكَ لَلَزِمَهُ الطَّلَاقُ [إذَا تَزَوَّجَهَا] ؛ لِأَنَّهَا مِنْ نِسَائِهِ حِينَ شَرَطَ نِكَاحَهَا .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ وَفِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ إذَا ظَاهَرَ مِنْ أَرْبَعِ نِسْوَةٍ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لَزِمَتْهُ كَفَّارَةٌ وَاحِدَةٌ .

(339/753)

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : يَلْزَمُهُ أَرْبَعُ كَفَّارَاتٍ ؛ وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ لَفْظَ الْجَمْعِ إنَّمَا وَقَعَ فِي عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّمَا الْمُعَوَّلُ عَلَى الْمَعْنَى ، وَهُوَ أَنَّهُ لَفْظٌ يَتَعَلَّقُ بِالْفَرْجِ يُوجِبُ الْكَفَّارَةَ لِوَجْهٍ ، فَكَانَتْ وَاحِدَةً .

وَإِنْ عَلَّقَهُ بِعَدَدٍ ، أَصْلُهُ الْإِيلَاءُ ، وَمَا أَقْرَبُ مَا بَيْنَهُمَا ، وَقَدْ حَقَّقْنَاهُ فِي الْإِنْصَافِ ، وَبَيَّنَّا أَنَّ الْمُوجَبَ لَا يَتَعَدَّدُ بِتَعَدُّدِ الْمَحَلِّ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ قَوْله تَعَالَى : { وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنْ الْقَوْلِ وَزُورًا } [فَسَمَّاهُ مُنْكَرًا مِنْ الْقَوْلِ وَزُورًا] ، ثُمَّ رَتَّبَ عَلَيْهِ حُكْمَهُ [مِنْ الْكَفَّارَةِ وَالتَّحْرِيمِ ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ

الطَّلَاقَ الْمُحَرَّمَ وَهُوَ فِي حَالِ الْحَيْضِ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ حُكْمُهُ] إذَا وَقَعَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ قَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ : وَهُوَ حَرْفٌ مُشْكِلٌ ؛ وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مُلْجِئَةِ الْمُتَفَقِّهِينَ إلَى مَعْرِفَةِ غَوَامِضِ النَّحْوِيِّينَ .

وَمَحْصُولُ الْأَقْوَالِ سَبْعَةٌ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ الْعَزْمُ عَلَى الْوَطْءِ ؛ وَهُوَ مَشْهُورُ قَوْلِ الْعِرَاقِيِّينَ .

الثَّانِي : أَنَّهُ الْعَزْمُ عَلَى الْإِمْسَاكِ .

الثَّالِثُ : الْعَزْمُ عَلَيْهِمَا ؛ وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ فِي مُوَطَّئِهِ .

الرَّابِعُ : أَنَّهُ الْوَطْءُ نَفْسُهُ .

الْخَامِسُ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : هُوَ أَنْ يُمْسِكَهَا زَوْجَةً بَعْدَ الظِّهَارِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى الطَّلَاقِ .

السَّادِسُ : أَنَّهُ لَا يَسْتَبِيحُ وَطْأَهَا إلَّا بِكَفَّارَةٍ .

السَّابِعُ : هُوَ تَكْرِيرُ الظِّهَارِ بِلَفْظِهِ ، وَيُسْنَدُ إلَى بُكَيْرِ بْنِ الْأَشَجِّ .

فَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ الْعَوْدُ إلَى لَفْظِ الظِّهَارِ فَهُوَ بَاطِلٌ قَطْعًا ، وَلَا يَصِحُّ عَنْ بُكَيْرٍ ، وَإِنَّمَا يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ جَهَالَةِ دَاوُد وَأَشْيَاعِهِ .

وَقَدْ رُوِيَتْ قِصَصُ الْمُتَظَاهِرِينَ ، وَلَيْسَ فِي ذِكْرِ الْكَفَّارَةِ عَلَيْهِمْ ذِكْرٌ لِعَوْدِ الْقَوْلِ مِنْهُمْ .

وَأَيضًا فَإِنَّ الْمعْنى يَنْقُضُهُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تعَالَى وَصَفَهُ بِأَنَّهُ مُنْكَرٌ مِنْ الْقَوْلِ وَزُورٌ ، فَكَيْفَ يُقَالُ لَهُ إذَا أَعَدْتَ الْقَوْلَ الْمُحَرَّمَ وَالسَّبَبَ الْمَحْظُورَ وَجَبَتْ عَلَيْكَ الْكَفَّارَةُ ، وَهَذَا لَا يُعْقَلُ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ كُلَّ سَبَبٍ يُوجِبُ الْكَفَّارَةَ لَا تُشْتَرَطُ فِيهِ الْإِعَادَةُ مِنْ قَتْلٍ وَوَطْءٍ فِي صَوْمٍ وَنَحْوِهِ .

وَأَمَّا قَوْلُ الشَّافِعِيِّ بِأَنَّهُ تَرْكُ الطَّلَاقِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ فَيَنْقُضُهُ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ أُمَّهَاتٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ قَالَ ﴿ ثُمَّ ﴾ وَهَذَا بِظَاهِرِهِ يَقْتَضِي التَّرَاخِيَ .

الثَّانِي : أَنَّ قَوْلَهُ ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ ﴾ يَقْتَضِي وُجُودَ فِعْلٍ مِنْ جِهَتِهِ ، وَمُرُورُ الزَّمَانِ لَيْسَ بِفِعْلٍ مِنْهُ .

الثَّالِثُ : أَنَّ الطَّلَاقَ الرَّجْعِيَّ لَا يُنَافِي الْبَقَاءَ عَلَى الْمِلْكِ ، فَلَمْ يُسْقِطْ حُكْمَ الظِّهَارِ كَالْإِيلَاءِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَإِذَا رَآهَا كَالْأُمِّ لَمْ يُمْسِكْهَا ؛ إذْ لَا يَصِحُّ إمْسَاكُ الْأُمِّ بِالنِّكَاحِ .

وَهَذَا عُمْدَةُ أَهْلِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ .

قُلْنَا : إذَا عَزَمَ عَلَى خِلَافِ مَا قَالَ ، وَرَآهَا خِلَافَ الْأُمِّ كَفَّرَ ، وَعَادَ إلَى أَهْلِهِ .

وَتَحْقِيقُ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ الْعَزْمَ قَوْلٌ نَفْسِيٌّ ، وَهَذَا رَجُلٌ قَالَ قَوْلًا يَقْتَضِي التَّحْلِيلَ ، وَهُوَ النِّكَاحُ ، وَقَالَ قَوْلًا يَقْتَضِي التَّحْرِيمَ وَهُوَ الظِّهَارُ ، ثُمَّ عَادَ لِمَا قَالَ ، وَهُوَ قَوْلُ التَّحْلِيلِ ؛ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ ابْتِدَاءَ عَقْدٍ ؛ لِأَنَّ الْعَقْدَ بَاقٍ ، فَلَمْ يَبْقَ إلَّا أَنَّهُ قَوْلُ عَزْمٍ يُخَالِفُ مَا اعْتَقَدَهُ ، وَقَالَهُ فِي نَفْسِهِ مِنْ الظِّهَارِ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي .

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَفَّرَ ، وَعَادَ إلَى أَهْلِهِ لِقَوْلِهِ : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ ، وَهَذَا تَفْسِيرٌ بَالِغٌ فِي فَنِّهِ .

فَإِنْ قِيلَ : الْعَزْمُ عَلَى الْفِعْلِ مُحَرَّمٌ ، فَلَا أَثَرَ لَهُ فِي مُوَافَقَةِ الْمُحَرَّمِ .

قُلْنَا : هَذَا لَا مَعْنَى لَهُ ؛ لِأَنَّهُ إنَّمَا يَعْزِمُ عَلَى مَا يَجُوزُ لَهُ بِمُحَلَّلٍ ، وَهُوَ الْكَفَّارَةُ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَطَأَ حَتَّى يُكَفِّرَ ، فَإِنْ وَطِئَ قَبْلَ الْكَفَّارَةِ لَمْ تَتَعَدَّدْ عَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : عَلَيْهِ كَفَّارَتَانِ .

قُلْنَا : أَمَّا الْكَفَّارَةُ الْوَاحِدَةُ فَقُرْآنِيَّةٌ سُنِّيَّةٌ .

وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَقَوْلٌ بِغَيْرِ دَلِيلٍ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ الْإِنْصَافِ ، عَلَى أَنَّ جَمَاعَةً رَوَوْا مِنْهُمْ النَّسَائِيّ وَاللَّفْظُ لَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ قَدْ ظَاهَرَ مِنْ امْرَأَتِهِ ، فَوَقَعَ عَلَيْهَا ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إنِّي قَدْ ظَاهَرْت مِنْ امْرَأَتِي ، فَوَقَعْت عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ أُكَفِّرَ .

قَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ، قَالَ: رَأَيْتُ خَلْخَالَهَا فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ.

فَقَالَ: لَا تَقْرَبْهَا حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ ﴾.

الْمَسْأَلَةُ الْمُوفِيَةُ عِشْرِينَ إذَا طَلَّقَهَا ثَلَاثًا بَعْدَ الظِّهَارِ، ثُمَّ عَادَتْ إلَيْهِ بِنِكَاحٍ جَدِيدٍ لَمْ يَطَأْ حَتَّى يُكَفِّرَ، خِلَافًا لِلشَّافِعِيِّ، وَبَنَاهَا عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي مَسْأَلَةِ الْعَوْدِ.

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ، فَلَا مَعْنَى لِإِعَادَتِهِ.

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ إذَا ظَاهَرَ مُوَقَّتًا بِزَمَانٍ.

قَالَ مَالِكٌ: يَلْزَمُهُ مُؤَبَّدًا.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: يَلْغُو؛ وَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الظِّهَارِ عُمُومٌ فِي الْمُؤَقَّتِ وَالْمُؤَبَّدِ.

وَإِذَا وَقَعَ التَّحْرِيمُ بِالظِّهَارِ لَمْ يَرْفَعْهُ مُرُورُ الزَّمَانِ، وَإِنَّمَا تَرْفَعُهُ الْكَفَّارَةُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ رَافِعَةً لَهُ.

وَقَدْ وَافَقَنَا عَلَى أَنَّهُ لَوْ طَلَّقَ زَمَانًا مُؤَقَّتًا لَزِمَهُ الطَّلَاقُ عَامًّا، وَلَا انْفِصَالَ لَهُ عَنْهُ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي ذِكْرِ الرَّقَبَةِ ، وَأَنَّهَا السَّلِيمَةُ مِنْ الْعُيُوبِ ، وَفِي أَنَّهَا الْمُؤْمِنَةُ لَيْسَتْ الْكَافِرَةَ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ وَأَنَّهَا مَنْ لَا شَائِبَةَ لِلْحُرِّيَّةِ فِيهَا ، كَالْمُكَاتَبَةِ وَأُمِّ الْوَلَدِ ، خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ فِي الْجَمِيعِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ وَقَدْ أَجْمَعْنَا عَلَى أَنَّ أُمَّ الْوَلَدِ لَا تُجْزِي ، فَالْمُكَاتَبَةُ مِثْلُهَا ؛ لِأَنَّ [عَقْدَ] الْحُرِّيَّةِ قَدْ ثَبَتَ لَهَا ، وَهِيَ مِنْ السَّيِّدِ فِي حُكْمِ الْأَجْنَبِيَّةِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَرَجَّحْنَا أَنَّ الْمُكَاتَبَةَ أَشْبَهُ بِأُمِّ الْوَلَدِ مِنْهَا بِالْأَمَةِ ، وَكَذَلِكَ بَيَّنَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ اعْتِبَارِ عَدَدِ الْمَسَاكِينِ ، خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ اخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا هَلْ الْمُعْتَبَرُ فِي الْكَفَّارَةِ حَالُ الْوُجُوبِ أَوْ حَالُ الْأَدَاءِ ؟ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ : يُعْتَبَرُ حَالُ الْأَدَاءِ فِي أَحَدِ قَوْلَيْنِ .

وَقَالَهُ مَالِكٌ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ أَيْضًا .

وَالثَّانِي الِاعْتِبَارُ بِحَالِ الْوُجُوبِ .

وَالْأَوَّلُ أَشْهَرُ ؛ وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ .

وَظَاهِرُ قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ [فِيهِ] يَرْتَبِطُ الْوُجُوبُ بِالْعَوْدِ، وَفِيهِ يَرْتَبِطُ كَيْفَمَا كَانَتْ حَالَةُ الِارْتِبَاطِ، بَيْدَ أَنَّهُ لِلْمَسْأَلَةِ حَرْفٌ جَرَى فِي أَلْسِنَةِ عُلَمَائِنَا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، وَهُوَ مَقْصُودُ الْمَسْأَلَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُعْتَبَرَ فِي الْكَفَّارَةِ صِفَةُ الْعِبَادَةِ أَوْ صِفَةُ الْعُقُوبَةِ.

وَالشَّافِعِيُّ اعْتَبَرَ صِفَةَ الْعُقُوبَةِ؛ وَنَحْنُ اعْتَبَرْنَا صِفَةَ الْقُرْبَةِ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ؛ فَإِذَا كَانَ الْمُعْتَبَرُ صِفَةَ الْقُرْبَةِ فَالْقُرَبُ إنَّمَا يُعْتَبَرُ فِي حَالِ الْإِجْزَاءِ خَاصَّةً بِحَالِ الْأَدَاءِ كَالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ، وَالَّذِي يُعْتَبَرُ فِيهِ حَالَةُ الْوُجُوبِ هِيَ الْحُدُودُ.

فَإِنْ قِيلَ: إذَا وَجَبَتْ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ قَائِمًا، ثُمَّ عَجَزَ فَقَعَدَ فِيهَا فَهَذَا مِنْ الْمُغَايِرِ لِلْقُرْبَةِ فِي الْهَيْئَاتِ، بِخِلَافِ الْعِتْقِ وَالصَّوْمِ فَإِنَّهُمَا جِنْسَانِ، وَعَلَيْهِ عَوَّلَ أَبُو الْمَعَالِي.

قُلْنَا: إنْ كَانَ الْعِتْقُ وَالصَّوْمُ جِنْسَيْنِ فَإِنَّ الْقِيَامَ وَالْقُعُودَ ضِدَّانِ، فَالْخُرُوجُ مِنْ جِنْسٍ إلَى جِنْسٍ أَقْرَبُ مِنْ الْعُدُولِ مِنْ ضِدٍّ إلَى ضِدٍّ.

فَإِنْ قِيلَ: الطَّهَارَةُ لَيْسَتْ مَقْصُودَةً لِنَفْسِهَا، وَإِنَّمَا تُرَادُ لِلصَّلَاةِ؛ فَاعْتُبِرَ حَالُ فِعْلِ الصَّلَاةِ فِيهَا.

قُلْنَا: وَكَذَلِكَ الْكَفَّارَةُ لَيْسَتْ مَقْصُودَةً لِنَفْسِهَا، وَإِنَّمَا تُرَادُ لِحِلِّ الْمَسِيسِ؛ فَإِذَا احْتِيجَ إلَى الْمَسِيسِ اُعْتُبِرَتْ الْحَالَةُ الْمَذْكُورَةُ فِيهَا.

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ قَدْ بَيَّنَّا فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ أَنَّ الْمُعْتَبَرَ الْوَسَطُ مِنْ الْإِطْعَامِ ، وَهُوَ مُدٌّ بِمُدِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَقَالَ مَالِكٌ فِي رِوَايَةِ ابْنِ الْقَاسِمِ وَابْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ : مُدٌّ بِمُدِّ هِشَامٍ ، وَهُوَ الشِّبَعُ هَاهُنَا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَطْلَقَ الطَّعَامَ وَلَمْ يَذْكُرْ الْوَسَطَ .

وَقَالَ فِي رِوَايَةِ أَشْهَبَ : مُدَّانِ بِمُدِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قِيلَ لَهُ : أَلَمْ تَكُنْ قُلْت : مُدُّ هِشَامٍ ، قَالَ : بَلَى ، وَمُدَّانِ بِمُدِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبُّ إلَيَّ .

وَكَذَلِكَ قَالَ عَنْهُ ابْنُ الْقَاسِمِ أَيْضًا .

وَمُدُّ هِشَامٍ هُوَ مُدَّانِ غَيْرُ ثُلُثٍ بِمُدِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قَالَ أَشْهَبُ : قُلْت لَهُ : أَيَخْتَلِفُ الشِّبَعُ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

الشِّبَعُ عِنْدَنَا مُدٌّ بِمُدِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالشِّبَعُ عِنْدَكُمْ أَكْثَرُ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا لَنَا بِالْبَرَكَةِ دُونَكُمْ ، وَأَنْتُمْ تَأْكُلُونَ أَكْثَرَ مِمَّا نَأْكُلُ نَحْنُ ، وَهَذَا بَيِّنٌ جِدًّا .

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَقَعَ الْكَلَامُ هَاهُنَا كَمَا تَرَوْنَ فِي مُدِّ هِشَامٍ، وَدِدْتُ أَنْ يُهَشِّمَ الزَّمَانُ ذِكْرَهُ، وَيَمْحُوَ مِنْ الْكُتُبِ رَسْمَهُ؛ فَإِنَّ الْمَدِينَةَ الَّتِي نَزَلَ الْوَحْيُ بِهَا، وَاسْتَقَرَّ بِهَا الرَّسُولُ، وَوَقَعَ عِنْدَهُمْ الظِّهَارُ وَقِيلَ لَهُمْ فِيهِ: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ فَهِمُوهُ وَعَرَفُوا الْمُرَادَ بِهِ، وَأَنَّهُ الشِّبَعُ، وَقَدْرُهُ مَعْرُوفٌ عِنْدَهُمْ مُتَقَدِّرٌ لَدَيْهِمْ، فَقَدْ كَانُوا يَجُوعُونَ لِحَاجَةٍ وَيَشْبَعُونَ بِسُنَّةٍ لَا بِشَهْوَةٍ [وَمَجَاعَةٍ]، وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ الشِّبَعِ فِي الْأَخْبَارِ كَثِيرًا، وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى هَذِهِ فِي الْأَنْوَارِ، وَاسْتَمَرَّتْ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ أَيَّامَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، حَتَّى نَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِ هِشَامٍ، فَرَأَى مُدَّ

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُشْبِعُهُ، وَلَا مِثْلَهُ مِنْ حَاشِيَةٍ وَنُظَرَائِهِ، فَسَوَّلَ لَهُ أَنْ يَتَّخِذَ مُدًّا يَكُونُ فِيهِ شِبَعُهُ، فَجَعَلَهُ رِطْلَيْنِ، وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَيْهِ، فَإِذَا ابْتَلَّ عَادَ نَحْوَ ثَلَاثَةِ أَرْطَالٍ، فَغَيَّرَ السُّنَّةَ، وَأَذْهَبَ مَحَلَّ الْبَرَكَةِ.

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ دَعَا رَبَّهُ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ بِالْبَرَكَةِ لَهُمْ فِي مُدِّهِمْ وَصَاعِهِمْ: مِثْلَ مَا بَارَكَ لِإِبْرَاهِيمَ بِمَكَّةَ.

فَكَانَتْ الْبَرَكَةُ تَجْرِي بِدَعْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مُدِّهِ ، فَسَعَى الشَّيْطَانُ فِي تَغْيِيرِ هَذِهِ السُّنَّةِ وَإِذْهَابِ الْبَرَكَةِ ، فَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ فِي ذَلِكَ إلَّا هِشَامٌ ، فَكَانَ مِنْ حَقِّ الْعُلَمَاءِ أَنْ يُلْغُوا ذِكْرَهُ ، وَيَمْحُوا رَسْمَهُ ، وَإِذَا لَمْ يُغَيِّرُوا أَمْرَهُ ، وَأَمَّا أَنْ يُحِيلُوا عَلَى ذِكْرِهِ فِي الْأَحْكَامِ ، وَيَجْعَلُوهُ تَفْسِيرًا لِمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُفَسَّرًا عِنْدَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ نَزَلَ عَلَيْهِمْ فَخَطْبٌ جَسِيمٌ ؛ وَلِذَلِكَ كَانَتْ رِوَايَةُ أَشْهَبَ فِي ذِكْرِ مُدَّيْنِ بِمُدِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كَفَّارَةِ الظِّهَارِ أَحَبَّ إلَيْنَا مِنْ الرِّوَايَةِ بِأَنَّهَا بِمُدِّ هِشَامٍ .

أَلَا تَرَى كَيْفَ نَبَّهَ مَالِكٌ عَلَى هَذَا الْعِلْمِ بِقَوْلِهِ [لِأَشْهَبَ] : الشِّبَعُ عِنْدَنَا بِمُدِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالشِّبَعُ عِنْدَكُمْ أَكْثَرُ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا لَنَا بِالْبَرَكَةِ ، وَبِهَذَا أَقُولُ ؛ فَإِنَّ الْعِبَادَاتِ إذَا أُدِّيَتْ بِالسُّنَّةِ ، فَإِنْ كَانَتْ فِي الْبَدَنِ كَانَ أَسْرَعَ لِلْقَبُولِ ، وَإِنْ كَانَتْ فِي الْمَالِ كَانَ قَلِيلُهَا أَثْقَلَ فِي الْمِيزَانِ ، وَأَبْرَكَ فِي يَدِ الْآخِذِ ، وَأَطْيَبَ فِي شِدْقِهِ ، وَأَقَلَّ آفَةً فِي بَطْنِهِ ، وَأَكْثَرَ إقَامَةً لِصُلْبِهِ ، وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ قَوْلُهُ : ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ يَقْتَضِي أَنَّ الْوَطْءَ لِلزَّوْجَةِ فِي لَيْلِ صَوْمِ الظِّهَارِ يُبْطِلُ الْكَفَّارَةَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ شَرَطَ فِي كَفَّارَةِ

الظِّهَارِ فِعْلَهَا قَبْلَ التَّمَاسِّ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : إنَّمَا يَكُونُ شَرْطُ الْمَسِيسِ فِي الْوَطْءِ بِالنَّهَارِ دُونَ اللَّيْلِ .

قَالَ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ الصَّوْمَ قَبْلَ التَّمَاسِّ ، فَإِذَا وَطِئَ فِيهِ فَقَدْ [تَعَذَّرَ كَوْنُهُ قَبْلَهُ ، فَإِذَا أَتَمَّهَا كَانَ بَعْضُ الْكَفَّارَةِ قَبْلَهُ ، وَإِذَا اسْتَأْنَفَهَا] كَانَ الْوَطْءُ قَبْلَ جَمِيعِهَا ، وَامْتِثَالُ الْأَمْرِ فِي بَعْضِهَا أَوْلَى مِنْ تَرْكِهِ فِي جَمِيعِهَا .

قُلْنَا : هَذَا كَلَامُ مَنْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ الْفِقْهِ ؛ فَإِنَّ الْوَطْءَ الْوَاقِعَ فِي خِلَالِ الصَّوْمِ لَيْسَ بِالْمَحَلِّ الْمَأْذُونِ فِيهِ بِالْكَفَّارَةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ وَطْءُ تَعَدٍّ ، فَلَا بُدَّ مِنْ الِامْتِثَالِ لِلْأَمْرِ بِصَوْمٍ لَا يَكُونُ فِي أَثْنَائِهِ وَطْءٌ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ مِنْ غَرِيبِ الْأَمْرِ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ قَالَ : الْحَجْرُ عَلَى الْحُرِّ بَاطِلٌ ، وَاحْتَجَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ ، وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ السَّفِيهِ وَالرَّشِيدِ .

وَهَذَا فِقْهٌ ضَعِيفٌ لَا يُنَاسِبُ قَدْرَهُ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ ، وَقَدْ كَانَ الْقَضَاءُ بِالْحَجْرِ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاشِيًا ، وَالنَّظَرُ يَقْتَضِيهِ .

وَمَنْ كَانَ عَلَيْهِ حَجْرٌ لِصِغَرٍ أَوْ لِوِلَايَةٍ ، وَبَلَغَ سَفِيهًا قَدْ نُهِيَ عَنْ دَفْعِ الْمَالِ إلَيْهِ فَكَيْفَ يَنْفُذُ فِعْلُهُ فِيهِ ؟ وَالْخَاصُّ يُقْضِي عَلَى الْعَامِّ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَوْضِعِهِ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنْ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوك حَيَّوْك بِمَا لَمْ يُحَيِّك بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

لَا خِلَافَ بَيْنَ النَّقَلَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمْ الْيَهُودُ ، كَانُوا يَأْتُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُونَ : السَّامُ عَلَيْك ؛ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ السَّلَامَ ظَاهِرًا ، وَهُمْ يَعْنُونَ الْمَوْتَ بَاطِنًا ، فَيَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : عَلَيْكُمْ [فِي رِوَايَةٍ] ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : وَعَلَيْكُمْ بِالْوَاوِ ، وَهِيَ مُشْكِلَةٌ .

وَكَانُوا يَقُولُونَ : لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا مَا أَمْهَلَنَا اللَّهُ بِسَبِّهِ وَالِاسْتِخْفَافِ بِهِ ؛ وَجَهِلُوا أَنَّ الْبَارِئَ تَعَالَى حَلِيمٌ لَا يُعَاجِلُ مَنْ سَبَّهُ ، فَكَيْفَ مَنْ سَبَّ نَبِيَّهُ .

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى الْأَذَى مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ، يَدَّعُونَ لَهُ الصَّاحِبَةَ وَالْوَلَدَ ، وَهُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ ﴾ .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا كَشْفًا لِسَرَائِرِهِمْ ، وَفَضْحًا لِبَوَاطِنِهِمْ ، وَمُعْجِزَةً لِرَسُولِهِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا شَرْحَ هَذَا فِي مُخْتَصَرِ النَّيِّرَيْنِ .

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ ﴿ أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : السَّامُ عَلَيْكُمْ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَتَدْرُونَ مَا قَالَ هَذَا ؟ قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

قَالَ : قَالَ كَذَا ؛ رُدُّوهُ عَلَيَّ ، فَرَدُّوهُ .

قَالَ : قُلْت : السَّامُ عَلَيْكُمْ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ .

فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ : إذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا : عَلَيْك مَا قُلْت ﴾ .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى

: ﴿ وَإِذَا جَاءُوك حَيَّوْك بِمَا لَمْ يُحَيِّك بِهِ اللَّهُ ﴾ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحْ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَاَلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاَللَّهُ بِمَا تَعْلَمُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي تَفْسِيرِ الْمَجْلِسِ : فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ مَجْلِسُ

النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ .

وَكَانَ قَوْمٌ إِذَا أَخَذُوا فِيهِ مَقَاعِدَهُمْ شَحُّوا عَلَى الدَّاخِلِ أَنْ يَفْسَحُوا لَهُ .

وَلَقَدْ أَخْبَرَنَا الْقَاضِي أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْكَرَامِيِّ بِهَا أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُمَرَ ، أَخْبَرَنَا ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بُكَيْرٍ الْغَلَّابِيُّ ، حَدَّثَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ بَكَّارٍ الضَّبِّيُّ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُثَنَّى الْأَنْصَارِيُّ عَنْ عَمِّهِ ثُمَامَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَسٍ [عَنْ أَنَسٍ] قَالَ : ﴿ بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ ، وَقَدْ أَطَافَ بِهِ أَصْحَابُهُ إِذْ أَقْبَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَوَقَفَ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ نَظَرَ مَجْلِسًا يُشْبِهُهُ ؛ فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ أَيُّهُمْ يُوَسِّعُ لَهُ ؛ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ جَالِسًا عَلَى يَمِينِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَزَحْزَحَ لَهُ عَنْ مَجْلِسِهِ ، وَقَالَ : هَا هُنَا يَا أَبَا الْحَسَنِ ، فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ أَبِي بَكْرٍ .

قَالَ : فَرَأَيْنَا السُّرُورَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ ، فَقَالَ : يَا أَبَا بَكْرٍ ؛ إِنَّمَا يَعْرِفُ الْفَضْلَ لِأَهْلِ الْفَضْلِ ذَوُو الْفَضْلِ ﴾ .

الثَّانِي : أَنَّهُ الْمَسْجِدُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ .

الثَّالِثُ: أَنَّهُ مَجْلِسُ الذِّكْرِ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ مَوْقِفُ الصَّفِّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الْقِتَالِ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْجَمِيعَ مُرَادٌ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ مُحْتَمِلٌ لَهُ، وَالتَّفَسُّحُ وَاجِبٌ فِيهِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ: ﴿ انْشُزُوا فَانْشُزُوا ﴾: فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ كَانُوا إذَا جَلَسُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسِهِ أَطَالُوا، يَرْغَبُ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ آخِرَ عَهْدِهِ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَهُمْ اللَّهُ أَنْ يَرْتَفِعُوا.

الثَّانِي: أَنَّهُ الْأَمْرُ بِالِارْتِفَاعِ إلَى الْقِتَالِ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ مَوْضِعُ الصَّلَاةِ؛ قَالَهُ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ الْخَيْرُ كُلُّهُ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ.

وَهُوَ الصَّحِيحُ، كَمَا بَيَّنَّاهُ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ الْفُسْحَةُ كُلُّ فَرَاغٍ بَيْنَ مَلَأَيْنِ.

وَالنَّشْزُ: مَا ارْتَفَعَ مِنْ الْأَرْضِ.

ذَكَرَ الْأَوَّلَ بِلَفْظِهِ وَحَقِيقَتِهِ، وَضَرَبَ الْمَثَلَ لِلثَّانِي فِي الِارْتِفَاعِ؛ فَصَارَ مَجَازًا فِي اللَّفْظِ

حَقِيقَةً فِي الْمَعْنَى .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ كَيْفِيَّةُ التَّفَسُّحِ فِي الْمَجَالِسِ مُشْكِلَةٌ ، وَتَفَاصِيلُهَا كَثِيرَةٌ : الْأَوَّلُ مَجْلِسُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُفْسَحُ فِيهِ بِالْهِجْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالسِّنِّ .

الثَّانِي مَجْلِسُ الْجُمُعَاتِ يُتَقَدَّمُ فِيهِ بِالْبُكُورِ إلَّا مَا يَلِي الْإِمَامَ ، فَإِنَّهُ لِذَوِي الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى .

الثَّالِثُ : مَجْلِسُ الذِّكْرِ يَجْلِسُ فِيهِ كُلُّ أَحَدٍ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ .

الرَّابِعُ مَجْلِسُ الْحَرْبِ يَتَقَدَّمُ فِيهِ ذَوُو النَّجْدَةِ وَالْمِرَاسِ مِنْ النَّاسِ .

الْخَامِسُ مَجْلِسُ الرَّأْيِ وَالْمُشَاوَرَةِ يَتَقَدَّمُ فِيهِ مَنْ لَهُ بَصَرٌ بِالشُّورَى ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِي مَجْلِسِ الذِّكْرِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ يَتَضَمَّنُهُ قَوْلُهُ : { يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَاَلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } فَيَرْتَفِعُ الْمَرْءُ بِإِيمَانِهِ أَوَّلًا ، ثُمَّ بِعِلْمِهِ ثَانِيًا .

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يُقَدِّمُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ عَلَى الصَّحَابَةِ ، فَكَلَّمُوهُ فِي ذَلِكَ ، فَدَعَاهُمْ وَدَعَاهُ ، وَسَأَلَهُمْ عَنْ تَفْسِيرِ { إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } فَسَكَتُوا ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ اللَّهُ إيَّاهُ .

فَقَالَ عُمَرُ : مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إلَّا مَا تَعْلَمُ .

وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ: إِنَّ الْآيَةَ فِي مَجْلِسِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَجَالِسِنَا هَذِهِ، وَإِنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَجْلِسٍ، رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ الْقَاسِمِ.

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى عَنْهُ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الصَّحَابَةَ ﴿ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا الْعَالِمَ وَالطَّالِبَ لِلْحَقِّ.

وَالْعُمُومُ أَوْقَعُ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَأَوْلَى بِمَعْنَى الْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

(354/753)

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ: الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَلْقَمَةَ الْأَنْمَارِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: ﴿ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دِينَارٌ؛ قُلْت: لَا يُطِيقُونَهُ.

قَالَ: نِصْفُ دِينَارٍ.

قُلْت: لَا يُطِيقُونَهُ.

قَالَ: فَكَمْ؟ قُلْت: شَعِيرَةٌ.

قَالَ إِنَّكَ لَزَهِيدٌ .

فَنَزَلَتْ : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ قَالَ : فَبِي خَفَّفَ اللَّهُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴾ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَسْأَلَتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ أُصُولِيَّتَيْنِ : الْأُولَى نَسْخُ الْعِبَادَةِ قَبْلَ فِعْلِهَا .

الثَّانِيَةُ النَّظَرُ فِي الْمُقَدَّرَاتِ بِالْقِيَاسِ ، خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ .

وَمَعْنَى قَوْلِهِ : شَعِيرَةٌ .

يُرِيدُ وَزْنَ شَعِيرَةٍ [مِنْ ذَهَبٍ] .

وَقَدْ رُوِيَ [عَنْ] مُجَاهِدٍ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ تَصَدَّقَ فِي ذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، تَصَدَّقَ بِدِينَارٍ ، وَنَاجَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرُوِيَ [أَنَّهُ تَصَدَّقَ] بِخَاتَمٍ ، وَهَذَا كُلُّهُ لَا يَصِحُّ .

وَقَدْ سَرَدَ الْمَسْأَلَةَ كَمَا يَجِبُ أَسْلَمُ فِي رِوَايَةِ زَيْدٍ ابْنِهِ عَنْهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَالَ : وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَمْنَعُ أَحَدًا مُنَاجَاتَهُ .

يُرِيدُ لَا يَسْأَلُهُ حَاجَةً إِلَّا نَاجَاهُ بِهَا مِنْ شَرِيفٍ أَوْ دَنِيءٍ ؛ فَكَانَ أَحَدُهُمْ يَأْتِيهِ فَيُنَاجِيهِ ، كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ أَوْ لَمْ تَكُنْ ، وَكَانَتْ الْأَرْضُ كُلُّهَا حَرْبًا عَلَى الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ يَأْتِي أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ حَوْلَهُ .

فَيَقُولُ لَهُ : أَتَدْرُونَ لِمَ نَاجَى فُلَانٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ إِنَّمَا نَاجَاهُ ؛ لِأَنَّ جُمُوعًا [كَثِيرَةً] مِنْ بَنِي فُلَانٍ وَفُلَانٍ قَدْ خَرَجُوا لِيُقَاتِلُوكُمْ .

قَالَ : فَيُحْزِنُ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ .

وَقَالَ الْمُنَافِقُونَ : إِنَّمَا مُحَمَّدٌ أُذُنٌ سَمَّاعَةٌ يَسْمَعُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ يُنَاجِيهِ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾ .

وَقَالَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فَلَمْ يَنْتَهُوا عَنْ الْمُنَاجَاةِ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ لِيَنْتَهِيَ أَهْلُ الْبَاطِلِ عَنْ مُنَاجَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَعَرَفَ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ لَا يُقَدِّمُونَ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاهُمْ صَدَقَةً ؛ فَانْتَهَى أَهْلُ الْبَاطِلِ عَنْ النَّجْوَى ، وَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ الْحَوَائِجِ وَالْمُؤْمِنِينَ ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا : لَا نُطِيقُهُ ، فَخَفَّفَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَنَسَخَهَا آيَةُ : ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ .

وَهَذَا الْخَبَرُ مِنْ زَيْدٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَحْكَامَ لَا تَتَرَتَّبُ بِحَسَبِ الْمَصَالِحِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ [ثُمَّ نَسَخَهُ مَعَ كَوْنِهِ خَيْرًا وَأَطْهَرَ] .

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ عَظِيمٌ فِي الْتِزَامِ الْمَصَالِحِ ؛ لَكِنَّ رَاوِيَ الْحَدِيثِ عَنْ زَيْدٍ ابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَقَدْ ضَعَّفَهُ الْعُلَمَاءُ .

وَالْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ نَصٌّ مُتَوَاتِرٌ فِي الرَّدِّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الْآيَةُ الْخَامِسَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ؛ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ أَبُوهُ الْجَرَّاحُ يَتَصَدَّى لِأَبِي عُبَيْدَةَ ، فَجَعَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَحِيدُ عَنْهُ ، فَلَمَّا أَكْثَرَ قَصَدَ إلَيْهِ أَبُو عُبَيْدَةَ فَقَتَلَهُ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى حِينَ قَتَلَ أَبَاهُ : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ : لَا تُجَالِسْ الْقَدَرِيَّةَ وَعَادِهِمْ فِي اللَّهِ لِقَوْلِ الْآيَةِ :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ .

قَالَ الْقَاضِي : قَدْ بَيَّنَّا فِيمَا سَلَفَ مِنْ كَلَامِنَا فِي هَذِهِ الْأَحْكَامِ بَدَائِعَ اسْتِنْبَاطِ مَالِكٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَدْ كَانَ حَفِيًّا بِأَهْلِ التَّوْحِيدِ غَرِيًّا بِالْمُبْتَدِعَةِ يَأْخُذُ عَلَيْهِمْ جَانِبَ الْحُجَّةِ مِنْ الْقُرْآنِ ، وَمِنْ أَجْلِهِ أَخْذُهُ لَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ؛ فَإِنَّ الْقَدَرِيَّةَ تَدَّعِي أَنَّهَا تَخْلُقُ كَمَا يَخْلُقُ اللَّهُ ، وَأَنَّهَا تَأْتِي بِمَا يَكْرَهُ اللَّهُ وَلَا يُرِيدُهُ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى رَدِّ ذَلِكَ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ مَجُوسِيًّا نَاظَرَ قَدَرِيًّا ، فَقَالَ الْقَدَرِيُّ لِلْمَجُوسِيِّ : مَالَكَ لَا تُؤْمِنُ ؟ فَقَالَ لَهُ الْمَجُوسِيُّ : لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَآمَنْت .

قَالَ لَهُ الْقَدَرِيُّ : قَدْ شَاءَ اللَّهُ ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ يَصُدُّك .

قَالَ لَهُ الْمَجُوسِيُّ : فَدَعْنِي مَعَ أَقْوَاهُمَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة المجادلة

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1)

قوله : ﴿ قَدْ سَمِعَ ﴾ : " قد " هنا للتوقُّع . قال الزمخشري : " لأنه عليه السلام والمجادِلَةَ كانا يتوقعان أن يَسمعَ الله مجادلتَها وشكواها ، ويُنَزِّلَ في ذلك ما يُفَرِّجُ عنها . وإظهارُ الدالِ عند السينِ قراءةُ الجماعة إلاَّ أبا عمروٍ والأخوين . ويُنْقَلُ عن الكسائي أنه قال : " مَنْ بَيَّنَ الدالَ عند السين فلسانُه أعجميٌّ وليس بعربي " وهذا غيرُ مُعَرَّجٍ عليه . و " في زَوْجِها " أي في شأنِه من ظِهاره إياها .

قوله : ﴿ وتشتكي إِلَى الله ﴾ يجوزُ فيه وجهان ، أظهرُهما : أنها عطفٌ على " تُجادِلُك " فهي صلةٌ أيضاً . والثاني : أَنَّها في موضعِ نصبٍ على الحالِ أي : تجادِلُك شاكيةً حالَها إلى اللَّهِ ، وكذا الجملةُ مِنْ قوله : ﴿ والله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمآ ﴾ والحاليةُ فيما أُبْعَدُ . /

الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (2)

قوله : ﴿ الذين يُظَاهِرُونَ ﴾ : قد تقدَّم الخلافُ في "يُظاهِرون" في سورةِ الأحزاب وكذا في "اللائي" فأَغْنَى عن إعادتِه هنا وأُبي هنا "يَتَظاهَرُون" وعنه أيضاً "يَتَظَهَّرُوْن" . وفي "الذين" وجهان ، أحدهما : أنه مبتدأٌ ، وخبرُه قولُه : ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ . والثاني : أنَّه منصوبٌ ب "بصير" على مذهبِ سيبويهِ في جوازِ إعمالِ فَعيل ، قاله مكي ، يعني أنَّ سيبويه يُعْمل فعيلاً من أمثلةِ المبالغةِ ، وهو مذهبٌ مَطْعونٌ فيه على سيبويهِ ؛ لأنه استدلَّ على إعمالِه بقولِ الشاعر :

4238 حتى شآها كَليلٌ مَوْهِناً عَمِلٌ . . . باتَتْ طِراباً وباتَ الليلَ لم يَنَمِ

ورُدَّ عليه : بأنَّ "مَوْهِناً" ظرفُ زمانٍ ، والظروفُ تعمل فيها روائحُ الأفعالِ . وللكلامِ في المسألةِ موضعٌ هو أليقُ به مِنْ هنا ولكنَّ المعنى يَأْبى ما قاله مكيٌّ .

وقرأ العامَّةُ "أمَّهاتِهم" بالنصب على اللغة الحجازية الفصحى كقولِه : ﴿ مَا هذا بَشَراً ﴾ [يوسف : 31] وعاصم في روايةٍ بالرفع على اللغةِ التميميةِ ، وإنْ كانَتْ هي القياسَ لعدمِ اختصاصِ الحرفِ . وقرأ عبدُ الله "بأمَّهاتهم" بزيادة الباءِ ، وهي تحتمل اللغتَيْن . وقال الزمخشري : "وزيادةُ الباء في لغة مَنْ ينصِبُ" . قلت : هذا هو مذهبُ أبي علي ، يرى أنَّ

الباءَ لا تُزاد إلاَّ إذا كانَتْ " ما " عاملةً فلا تُزاد في التميمية ولا في الحجازيةِ إذا مَنَعَ مِنْ عملها مانعٌ نحو : " ما إنْ زيدٌ بقائمٍ " . وهذا مردودٌ بقولِ الفرزدق وهو تميمي :

4239 لَعَمْرُكَ ما مَعْنٌ بتارِكِ حقِّه . . . ولا مُنْسِىءٌ مَعْنٌ ولا مُتَيَسِّرُ

وبقول الآخر :

4240 لَعَمْرُكَ ما إنْ أبو مالكٍ . . . بواهٍ ولا بضعيفٍ قواهْ

فزادها مع " ما " الواقع بعدها " إنْ " .

(360/753)

قوله : { مُنكَراً مِّنَ القول وَزُوراً } نعتان لمصدر محذوف أي : قولاً منكراً ، وزوراً أي : كذباً وبُهْتاناً قاله مكي وفيه نظرٌ ؛ إذ يصيرُ التقدير : ليقولون قولاً منكراً من القول ، فيصير قولُه " من القول " لا فائدةَ فيه . والأَوْلَى أَنْ يُقال : نعتان لمفعول محذوفٍ لفهم المعنى أي : ليقولونَ شيئاً مُنْكراً من القول لتفيدَ الصفة غيرَ ما أفاده الموصوفُ .

وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3)

قوله : { والذين يُظَاهِرُونَ } : مبتدأٌ . وقولُه : " فتحريرُ رقبةٍ " مبتدأٌ ، وخبرُه مقدرٌ أي

: فعليهم . أو فاعلٌ بفعلٍ مقدرٍ أي : فيلزَمُهم تحريرُ ، أو خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : فالواجبُ عليهم تحريرُ . وعلى التقادير الثلاثةِ فالجملةُ خبرُ المبتدأ ، ودخلَتِ الفاءُ لِما تضمَّنه المبتدأُ مِنْ معنى الشرط .

(361/753)

قوله : ﴿ لِمَا قَالُواْ ﴾ في هذه اللامِ أوجهٌ ، أحدُها : أنَّها متعلقةٌ ب " يعودون " . وفيه معانٍ ، أحدُها : والذين مِنْ عادتِهم أنهم كانوا يقولون هذا القولَ في الجاهليةِ ، ثم يعودُون لمثِله في الإِسلام . الثاني : ثم يتداركون ما قالوا ؛ لأن المتدارِكَ للأمرِ عائدٌ إليه ومنه : " عادَ غيثٌ على ما أفسَد " أي : تداركه بالإِصلاح والمعنى : أنَّ تدارُكَ هذا القولِ وتلافيَه ، بأَنْ يكفِّر حتى ترجعَ حالُهما كما كانت قبل الظِّهار . الثالث : أَنْ يُرادَ بما قالوا ما حَرَّموه على أنفسِهم بلفظِ الظِّهار ، تنزيلاً للقول منزلةَ المقولِ فيه نحو ما ذُكِر في قولِه تعالى : ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ [مريم : 80] والمعنى : ثم يريدون العَوْدَ للتَّماسِّ ، قال ذلك الزمخشريُّ . قلت : وهذا الثالثُ هو معنى ما رُوِي عن مالك والحسن والزهري : ثم يعودون للوَطْء أي : يعودون لِما قالوا إنهم لا يعودون إليه ، فإذا ظاهَرَ ثم وَطِئ لَزِمَتْه الكفارةُ عند هؤلاء .

الرابع : " لما قالوا " أي : يقولونه ثانياً فلو قال : " أنتِ عليّ كظهر أمّي " مرةً واحدةً كفَّارةٌ ؛

لأنه لم يَعُدْ لِما قال . وهذا منقولٌ عن بُكَيْرِ بنِ عبد الله الأشجِّ وأبي حنيفةَ وأبي العالية والفراء في آخرين ، وهو مذهبُ الفقهاءِ الظاهريين . الخامس : أن المعنى : أَنْ يَعْزِمَ على إمساكِها فلا يُطَلِّقَها بعد الظِّهار ، حتى يمضيَ زمنٌ يمكنُ أَنْ يطلِّقَها فيه ، فهذا هو العوْدَ لِما قال ، وهو مذهبُ الشافعيِّ ومالك وأبي حنيفةَ أيضاً . وقال : / العَوْدُ هنا ليس تكريرَ القولِ ، بل بمعنى العَزْمِ على الوَطْءِ .

(362/753)

وقال مكي : " اللامُ متعلقةٌ ب " يعودون " أي : يعودون لوَطْءِ المقولِ فيه الظهارُ ، وهُنَّ الأزواجُ ، ف " ما " والفعلُ مصدرٌ أي : لمقولِهم ، والمصدرُ في موضعِ المفعول به نحو : " هذا دِرْهَمٌ ضَرْبُ الأمير " أي : مَضْرُوبُه ، فيصير معنى " لقولهم " للمقولِ فيه الظِّهارُ أي : " لوَطْئِه " . قلت : وهذا معنى قولِ الزمخشريِّ في الوجه الثالث الذي تقدَّمَ تقريرُه عن الحسنِ والزهري ومالك ، إلاَّ أنَّ مكيّاً قيَّد ذلك بكونِ " ما " مصدريةً حتى يقعَ المصدرُ المؤولُ موضعَ اسمِ مفعول .

وفيه نظرٌ ؛ إذ يجوز ذلك ، وإنْ كانت " ما " غيرَ مصدرية ، لكونِها بمعنى الذي أو نكرةً موصوفةً ، بل جَعْلُها غيرَ مصدريةٍ أَوْلَى ؛ لأن المصدرَ المؤولَ فرعُ المصدرِ الصريح ، إذ

الصريحُ أصلٌ للمؤول به ووَضْعُ المصدرِ موضعَ اسمِ المفعولِ خلافُ الأصلِ ، فيلزمُ الخروجُ عن الأصل بشيئين : بالمصدرِ المؤولِ .

ثم وقوعِه موقعَ اسمِ المفعول ، والمحفوظُ من لسانِهم إنما هو وَضْعُ المصدرِ الصريح موضعَ المفعولِ لا المصدرِ المؤولِ فاعرِفْه . لا يُقال : إنَّ جَعْلَها غيرَ مصدريةٍ يُحْوِجُ إلى تقديرِ حذفِ مضافٍ ليصِحَّ المعنى به أي : يعودون لوَطْءِ التي ظاهَرَ منها ، أو امرأةٍ ظاهَرَ منها ، أو يعودون لإِمساكِها ، والأصلُ عدمُ الحذفِ ؛ لأن هذا مشتركُ الإِلزامِ لنا ولكم ، فإنكم تقولون أيضاً : لا بُدَّ مِنْ تقديرِ مضافٍ أي : يعودون لوَطْءِ أو لإِمساكِ المقولِ فيه الظِّهارُ . ويدل على جوازِ كَوْنِ " ما " في هذا الوجهِ غيرَ مصدريةٍ ما أشار إليه أبو البقاء ، فإنه قال : " يتعلَّقُ ب " يعودون " بمعنى : يعودون للمقول فيه . هذا إنْ جَعَلْتَ " ما " مصدريةً ، ويجوز أَنْ تجعلَها بمعنى الذي ونكرةً موصوفةً " .

(363/753)

الثاني : أنَّ اللامَ تتعلَّقُ ب " تحرير " . وفي الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ . والتقدير : والذين يُظاهرون مِنْ نسائِهم فعليهم تحريرُ رقبةٍ ؛ لِما نَطقوا به من الظِّهار ثم يعودُون للوَطْءِ بعد ذلك . وهذا ما نقله مكيٌّ وغيرُه عن أبي الحسن الأخفش . قال الشيخ : " وليس بشيءٍ لأنه

يُفْسِدُ نَظْمَ الآية " . وفيه نظرٌ . لا نُسَلِّم فسادَ النظمِ مع دلالةِ المعنى على التقديمِ والتأخير ، ولكنْ نُسَلِّم أنَّ ادعاءَ التقديمِ والتأخيرِ لا حاجةَ إليه ؛ لأنه خلافُ الأصل .

الثالث : أن اللامَ بمعنى " إلى " . الرابع : أنها بمعنى " في " نَقَلهما أبو البقاء ، وهما ضعيفان جداً ، ومع ذلك فهي متعلِّقَةٌ ب " يَعُودون " . الخامس : أنها متعلِّقةٌ ب " يقولون " . قال مكي : " وقال قتادةُ : ثم يعودون لِما قالوا من التحريمِ فيُحِلُّونه ، فاللامُ على هذا تتعلَّقُ ب " يقولون " . قلتُ : ولا أدري ما هذا الذي قاله مكي ، وكيف فُهِم تعلُّقُها ب " يقولون " على تفسيرِ قتادةَ ، بل تفسيرُ قتادةَ نصٌّ في تعلُّقِها ب " يَعودون " ، وليس لتعلُّقِها ب " يقولون " وجهٌ .

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (4)

قوله : ﴿ فَصِيَامُ ﴾ و " فإطعامُ " كقوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ ﴾ في ثلاثة الأوجهِ المتقدمةِ . و " مِنْ قبلِ " متعلِّقٌ بالفعل أو الاستقرارِ المتقدِّمِ أي : فيلزَمُه تحريرُ أو صيام ، أو فعليه كذا مِنْ قبلِ تماسِّهما . والضميرُ في " يتماسَّا " للمُظاهِرِ والمُظاهَرِ منها لدلالةِ ما تقدَّم عليهما .

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6)

قوله : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه منصوبٌ ب " عذابٌ مُهينٌ " . الثاني : أنه منصوبٌ بفعلٍ مقدرٍ . فقدَّره أبو البقاء " يُهانون أو يُعَذَّبون " ، أو استقرَّ لهم ذلك يومَ يَبْعَثهم " وقدَّره الزمخشري ب اذكُرْ قال : " تعظيماً لليوم " . الثالث : أنه منصوبٌ ب " لهم " ، قاله الزمخشري . أي : بالاستقرار الذي تَضَمَّنَه لوقوعِه خبراً . الرابع : أنه منصوبٌ ب " أَحْصاه " قاله أبو البقاء . وفيه قلقٌ ؛ لأنَّ الضميرَ في " أَحْصاه " يعود على ما عَمِلوا .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)

قوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ﴾ : " يكونُ " تامةٌ و " من نَجْوى " فاعلُها . و " مِنْ " مزيدةٌ فيه . ونجوى في الأصل مصدرٌ فيجوز أَنْ يكونَ باقياً على أصلِه ، ويكون مضافاً لفاعِله ، أي : ما يوجدُ مِنْ تناجي ثلاثةٍ . ويجوز أَنْ يكونَ على حَذْفِ مضافٍ أي : مِنْ ذوي نَجْوى . ويجوز أَنْ يكونَ أُطلق على الأشخاص المتناجين مبالغةً ، فعلى هذَيْن الوجهَيْن ينخفض " ثلاثة " على أحدِ وجهَين : إمَّا البدلِ مِنْ ذوي المحذوفة ، وإمَّا الوصفِ لها على التقدير الثاني ، وإمَّا البدلِ أو الصفةِ ل " نَجْوَى " على التقدير الثالث .

وقرأ ابن أبي عبلة " ثلاثةً " و " خمسةً " نصباً على الحال . وفي صاحبها وجهان ، أحدهما : أنه محذوفٌ مع رافعِه ، تقديرُه : يتناجَوْن ثلاثةً ، وحُذف لدلالةِ " نجوى " عليه . والثاني : أنه الضمير المستكِنُّ / في " نجوى " إذا جعَلْناها بمعنى المتناجِين ، قاله الزمخشريُّ . قال مكي : " ويجوز في الكلام رَفْعُ " ثلاثة " على البدل مِنْ موضع " نَجْوى " ، لأنَّ موضعَها رفعٌ و " مِنْ " زائدةٌ ، ولو نصَبْتَ " ثلاثة " على الحال من الضمير المرفوع إذا جعَلْتَ " نجوى " بمعنى المتناجين جاز في الكَلام " . قلت : أمَّا الرفعُ فلم يُقْرأْ به فيما عَلِمْتُ ، وهو جائزٌ في غير القرآن كما قال . وأمَّا النصبُ فقد عَرَفْتَ مَنْ قرأ به فكأنَّه لم يَطَّلِعْ عليه .

قوله : ﴿ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ " إلاَّ هو خامسُهم " ﴿ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ ﴾ كلُّ هذه الجملِ بعد " إلاَّ " في موضعِ نصبٍ على الحالِ أي : ما يوجَدُ شَيْءٌ من هذه الأشياءِ إلاَّ في حالٍ مِنْ هذه الأحوالِ ، فالاستثناءُ مفرَّغٌ من الأحوال العامة .

وقرأ أبو جعفر : " ما تكونُ " بتاءِ التأنيث لتأنيث النجوى . قال أبو الفضل : إلاَّ أنَّ الأكثرَ في هذا البابِ التذكيرُ على ما في العامة ؛ لأنه مُسْنَدٌ إلى " مِنْ نجوى " ، وهو اسمُ جنسٍ مذكرٌ .

قوله : ﴿ وَلَاأَكْثَرَ ﴾ العامَّةُ على الجرِّ عطفاً على لفظ " نجوى " . وقرأ الحسن والأعمش وابن أبي إسحاق وأبو حيوة ويعقوبُ " ولا أكثرُ " بالرفع . وفيه وجهان ، أحدُهما : أنه معطوفٌ على موضع " نَجْوى " لأنه مرفوعٌ ، و " مِنْ " مزيدةٌ فيه . فإن كان مصدراً كان على حَذْفِ مضافٍ كما تقدَّم أي : مِنْ ذوي نجوى ، وإن كان بمعنى المتناجين فلا حاجةَ إلى ذلك . والثاني : أن يكونَ " أَدْنى " مبتدأ ، و ﴿ إِلَّا هُوَمَعَهُمْ ﴾ خبرُه ، فيكون " ولا أكثرُ " عطفاً على المبتدأ ، وحينئذ يكون " ولا أَدْنَى " من باب عطفِ الجملِ لا المفرداتِ . وقرأ الحسن ويعقوب أيضاً ومجاهد والخليل " ولا أكبرُ " بالباء الموحدة والرفع على ما تقدَّم . وزيد بن علي " يُنْبِهِمْ " مِنْ أَنْبأ ؛ إلاَّ أنه حذف الهمزةَ وكسرَ الهاءَ ، وقُرِىء كذلك ، إلاَّ أنَّه بإثباتِ الهمزةِ وضمِّ الهاءِ . والعامَّةُ بالتشديد مِنْ نَبَّأ .

أَلَمْ تَرَإِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8)

قوله: ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ ﴾ : قرأ حمزة "يَنْتَجُوْنَ" من الانتجاء من النجوى. والباقون "يتناجَوْن" من التناجي مِن النجوى أيضاً. قال أبو علي: "والافتعال والتفاعُل يجريان مَجْرىً واحداً، ومِنْ ثَمَّ صَحَّحوا: ازدَوَجُوا واعْتَوَرَوا لَمَّا كانا في معنى: تزاوَجُوا وتعاوَنوا. وجاء ﴿ حتى إذا اداركوا ﴾ و ﴿ ادركوا ﴾ [الأعراف: 38] قلت: ويؤيِّد قراءةَ العامة الإِجماعُ على "تناجَيْتُمْ" و "فلا تَتَناجوا"، و "وتناجَوْا"، فهذه مِن التفاعُل لا غيرُ، إلا ما روي عن عبد الله أنه قرأ "إذا انْتَجَيْتُم فلا تَنْتَجُوا" ونقل الشيخُ عن الكوفيين والأعمش "فلا تَنْتَجُوا" كقراءةِ عبدِ الله. وأصل تَنْتَجُون: تَنْتَجِيُوْن". ويَتَناجَوْن يتناجَيُون فاسْتُثْقِلَتِ الضمةُ على الياء فحُذِفَت، فالتقى ساكنان فحذفت الياءُ لالتقائِهما. أو نقول: تحرَّكَ حرفُ العلةِ وانفتح ما قبله فَقُلِبَ ألفاً، فالتقى ساكنان فحذِف أوَّلُهما وبقيت الفتحةُ دالةً على الألف.

[وقرأ] أبو حيوة "بالعِدْوان" بكسرِ العين.

إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10)

وقد تقدَّم قراءتا "ليحزنَ" بالضم والفتح في آل عمران. وقُرِىء بفتح الياءِ والزاي على أنه مسندٌ إلى الموصول بعده فيكونُ فاعلاً.

وقوله: ﴿ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ اسمُ "ليس" ضميراً عائداً على الشيطان،

وأَنْ يكونَ عائداً على الحزنِ المفهومِ مِنْ " ليحزنَ " قاله الزمخشري . والأولُ أَوْلَى للتصريحِ بما يعود عليه . [وقرأ] الضحاك " ومعصيات " جمعاً .

قوله : { لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا } [المجادلة : 8] هذه الجملةُ التحضيضيةُ في موضع نصبٍ بالقول .

(368/753)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11)

وقرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو بكرٍ بخلافٍ عنه بضم شين " انشُزوا " في الحرفَيْن ، والباقون بكسرِها ، وهما لغتان بمعنىً واحد . يُقال : نَشَزَ أي ارتفع يَنْشِز ويَنْشُزُ كعَرَش يَعْرِش ويَعْرُش ، وعَكَفَ يَعْكِف ويَعْكُف . وقد تقدَّم الكلامُ على هذه المادة في البقرة .

قوله : { فِي المجالس } قرأ عاصم " المجالس " جمعاً اعتبارا بأنَّ لكلِّ واحدٍ منهم مجلساً . والباقون بالإِفراد ، إذ المرادُ مجلسُ الرسولِ صلى الله عليه وسلم ، وهو أحسنُ مِنْ كونِه واحداً أُريد به الجمعُ . وقُرِىء " في المجلَس " بفتح اللام وهو المصدرُ أي : تَفَسَّحوا في جلوسِكم ولا تتضايَقوا . وقرأ الحسن وداود بن أبي هند وعيسى وقتادة " تَفاسَحُوا "

والفُسْحَةُ : السَّعَةُ . وفَسَح له أي : وسَّعَ له .

قوله : ﴿ والذين أُوتُوا ﴾ يجوز أَنْ يكونَ معطوفاً على " الذين آمنوا " فهو مِنْ عطفِ الخاصّ على العامِّ ؛ لأن الذين أُوْتوا العلمَ بعضُ المؤمنين منهم . ويجوزُ أَنْ يكونَ " والذين أُوْتُوا " مِنْ عطفِ الصفاتِ أي : تكونُ الصفاتُ لذاتٍ واحدةٍ ، كأنه قيل : يرفعُ اللهُ المؤمنين العلماءَ . و " دَرَجاتٍ " مفعولٌ ثانٍ ، وقد تقدَّم الكلامُ على نحوِ ذلك في الأنعام . وقال ابنُ عباس : تَمَّ الكلامُ عند قولِه " منكم " وينتصِبُ " الذين أُوْتُوا " بفعلٍ مضمرٍ أي : ويَخُصُّ الذين أوتوا اللمَ بدرجات/ ، أو ويرْفعُهم درجاتٍ .

(369/753)

أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (13)

قوله : ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ ﴾ في " إذْ " هذه ثلاثة أقوالٍ ، أحدها : أنها على بابها من المُضِيِّ . والمعنى : أنكم تركتم ذلك فيما مضى فتداركوه بإقامةِ الصلاةِ ، قاله أبو البقاء . الثاني : أنَّها بمعنى " إذا " كقولِه : ﴿ إِذِ الأغلال ﴾ [غافر : 71] وقد تقدَّم الكلامُ فيه . الثالث : أنها بمعنى " إنْ " الشرطيةِ وهو قريبٌ مِمَّا قبلَه ، إلاَّ أنَّ الفرقَ بين " إنْ " و " إذا " معروفٌ

. ورُوي عن أبي عمرو " خَبيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ " بالياءِ مِنْ تحتُ . والمشهورُ عنه بتاءِ الخطاب كالجماعة .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14)

(370/753)

قوله : ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ ﴾ : يجوزُ في هذه الجملةِ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنها مستأنفةٌ لا موضعَ لها من الإِعراب . أخبر عنهم بأنهم ليسوا من المؤمنين الخُلَّصِ . ولا من الكافرين الخلَّصِ ، بل كقولِه : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلك لاَ إلى هؤلاء وَلاَ إِلَى هؤلاء ﴾ [النساء : 143] . فالضميرُ في " ما هم " عائدٌ على الذين تَوَلَّوا ، وهم المنافقون . وفي " منهم " عائدٌ على اليهود أي : الكافرين الخُلَّص . والثاني : أنها حالٌ مِنْ فاعل " تَوَلَّوا " والمعنى : على ما تقدَّم أيضاً . والثالث : أنها صفةٌ ثانيةٌ ل " قوماً " ، فعلى هذا يكون الضميرُ في " ما هم " عائداً على " قوماً " ، وهم اليهودُ . والضميرُ في " منهم " عائدٌ على الذين تَوَلَّوا يعني : اليهودُ ليسوا منكم أيها المؤمنون ، ولا من المنافقين ، ومع ذلك تولاَّهم المنافقون ، قاله ابن عطية . إلاَّ أنَّ فيه تنافُرَ الضمائرِ ؛ فإن الضميرَ في " ويَحْلِفون " عائدٌ على الذين تَوَلَّوْا ،

فعلى الوجهين الأوَّلَيْن تتحد الضمائرُ لعَوْدِها على الذين تولَّوا ، وعلى الثالث تختلفُ كما عَرَفْتَ تحقيقَه .

قوله : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ جملةٌ حاليةٌ أي : يعلمون أنه كذِبٌ فيمينُهم يمينٌ غموسٌ لا عُذْرَ لهم فيها .

اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (16) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (17)

قوله : ﴿ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ : مفعولان ل " اتَّخذوا " . وقرأ العامَّةُ " أَيمانهم " بفتحِ الهمزة جمع يمين . والحسن بكسرِها مصدراً . وقوله : ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ ﴾ قد تقدَّمَ في آل عمران .

(371/753)

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (19)

قوله : ﴿ استحوذ ﴾ : جاءَ به على الأصلِ ، وهو فصيحٌ استعمالاً ، وإنْ شَذَّ قياساً .

وقد أَخْرجه عمرُ رضيَ اللَّهُ عنه على القياس فقرأ " استحاذ " كاستقام ، وتقدَّمَتْ هذه

المادةُ في سورةِ النساءِ عند قولِه : ﴿ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ ﴾ [النساء : 141] .

كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21)

قوله : ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ "كَتَبَ" جرى مَجْرى القَسَم فأُجيب بما يُجاب به . وقال أبو البقاء : " وقيل : هي جوابُ "كَتَبَ" لأنَّه بمعنى قال " . وهذا ليس بشيءٍ لأنَّ " قال " لا يَقْتَضِي جواباً فصوابُه ما قَدَّمْتُه . ويجوزُ أَنْ يكون "لأَغْلِبَنَّ" جوابَ قسمٍ مقدرٍ ، وليس بظاهر .

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)

قوله : ﴿ يُوَآدُّونَ ﴾ : هو المفعولُ الثاني ل "تَجِدُ" ويجُوز أَنْ تكونَ المتعديةَ لواحدٍ بمعنى صادَفَ ولقي ، فيكون "يوادُّون" . حالاً أو صفةً ل" قوماً " . والواوُ في " ولو كانوا " حاليةٌ وتقدم تحريرُه غيرَ مرة . وقدَّم أولاً الآباءَ لأنهم تجبُ طاعتُهم على أبناءِهم ، ثم ثَنَّى بالأبناءِ لأنهم أَعْلَقُ بالقلوب وهم حبَّاتُها :

4241 فإنما أَوْلادُنا بيْنَا . . . أكبادُنا تَمْشِي على الأرضِ

الأبياتُ المشهورة في الحماسةِ ، ثَلَّثَ بالإخوان لأنهم هم الناصرُون بمنزلة العَضُدِ من الذّراع . قال :

4242 أخاك أخاك إنَّ مَنْ لا أخا له . . . كساعٍ إلى الهَيْجا بغيرِ سلاحِ

وإنّ ابن عمِّ المَرْءِ فاعْلَمْ جناحُه . . . وهل ينهضُ البازي بغير جَناح ؟

ثم ربَّع بالعشيرةِ ، لأنَّها يسْتغاثُ ، وعليها يُعْتمد . قال :

4243 لا يَسْألون أخاهم حين يَنْدُبُهم . . . في النائباتِ على ما قال بُرْهانا

وقرأ أبو رجاء " عشيراتِهم " بالجمع ، كما قرأها أبو بكر في التوبة كذلك . وقرأ العامَّةُ " كَتَبَ " مبنياً للفاعل وهو اللَّهُ تعالى ، " الإيمانَ " نصباً وأبو حيوةَ وعاصمٌ في رواية المفضل " كُتِبَ " مبنياً للمفعول ، " الإيمانُ " رفعٌ به . والضميرُ في " منه " للَّهِ تعالى . وقيل : يعودُ على الإيمان ؛ لأنه رُوحٌ يَحْيا به المؤمنون في الدارَيْن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 276.261 ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى:

(بصيرة فى كتب)

قوله تعالى: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ يعنى القرآن سمّى كتاباً لما جُمع فيه من القصص والأَمر والنّهى والأَمثال والشرائع والمواعظ، أَو لأَنه جُمع فيه مقاصد الكتب المنزلة على سائر الأَنبياء.

وكلُّ شىء جمعت بعضه إِلى بعض فقد كتبته.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أَى أَنزل الله فى كتابه أَنكم لابثون إِلى يوم القيامة.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أَى حُكْم.

وقال القتبىّ فى قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أَى يحكمون، يقولون نحن نفعل بك كذا وكذا، ونطردك ونقتلك، وتكون العاقبة لنا عليك.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَائِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ أَى ثبَّت.

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ أَى فرض وأَوجب.

وقوله تعالى: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ مصدر أُريد به الفعل، أَى كتب الله عليكم، وهذا قول حذَّاق النحويين.

وقال الكوفيُّون : هو منصوب على الإِغراءِ بعليكم ، وهو بعيد ؛ لأَنَّ مَا انتصب على الإِغراءِ لا يتقدّم على ما قام مقام الفعل وهو (عليكم) ، ولو كان النَّص : عليكم كتاب الله لكان النَّصب على الإِغراءِ أَحسن من المصدر .

واكتتبتُ الكتابَ : كَتَبْتُهُ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ .

ويقال : اكتتب فلان فلاناً : إِذا سأَله أَن يكتُب له كتاباً فى حاجة ، وعليه فَسَّر بعضهم : ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ أَى استكتبها .

ابن الأَعرابىّ : سمعت أَعرابيًّا [يقول] : اكتتبت فم السِقاءِ فلم يَستكتب لى ، أَى لم يَسْتَوْكِ لجفائه وغِلظه .

وكاتبت العبد (فهو يكاتب) .

والمكاتَب : العبد يكاتَب على نفسه بثمنه ، فإِذا سعى فأَدّاه عَتَق .

وأَصلها من الكتابة ، يراد بها الشرط الذى يُكتب بينهما .

/ابن الأَعرابىّ : الكاتب عندهم : العالم ، وبه فسَّر قوله تعالى : ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ .

والكِتاب: القَدَر، قال النّابغة الجعدىّ:

*يا ابنة عمّى كتاب الله أخرجنى * عنكم فهل أَمنعنَّ اللهَ ما فعلا*

قال بعض المفسّرين: ورد الكتاب فى القرآن لمعان: -

1- بمعنى اللَّوح المحفوظ: (كِتابٌ سَبَقَ)، ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾، ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾.

2- بمعنى التوارة: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

3- بمعنى الإِنجيل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾.

4- بمعنى كتاب سليمان إِلى بلقيس: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾.

5- بمعنى القرآن المجيد: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾، ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾، ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وله نظائر.

6- كتاب الرّحمة والمغفرة: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

7- بمعنى الكتابة المعروفة: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

8- بمعنى تاريخ أَرباب السّعادة: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾.

9- بمعنى تاريخ أَرباب الشقاوة: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾.

10- بمعنى الرِزّق المعلوم فى العمر والمدّة : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ .

11- بمعنى فريضة الطّاعة : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ .

(375/753)

12- ديوان الأَعمال والأَفعال المعروض على المطيع والعاصى ، يوم تشيب فيه النواصى : ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ ﴾ ، ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ ﴾ .

والكتاب فى الأَصل : اسم للصّحيفة مع المكتوب فيها .

ويعبَّر عمّا ذكرنا من الإِثبات والتقدير والإِيجاب والفرض بالكتابة ، ووجه ذلك أَنَّ الشىء يراد ، ثم يقال ، ثم يكتب .

والإِرادة مبدأ ، والكتابة منتهًى ، ثم يعبَّر عن المبدإ بالمنتهى إِذا قُصد تأكيده .

قال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ .

وقوله : ﴿ وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أَى فى حكمه .

وقوله : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا ﴾ ، أَى أَوحينا وفرضنا .

قال : ويعبَّر بالكتابة عن القضاء المُمْضَى وما يصير فى حكم الممضى ، وحُمل على هذا قوله : ﴿ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ إشارة إلى أَن ذلك مثبت له ومجازًى به .

وقوله : ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ، أَى اجعلنا فى زمرتهم إشارة إلى قوله : ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ أَى قدّره وقضاه ؛ وذكر (لَنَا) ولم يقل : علينا / تنبيهاً أَنَّ كل ما يصيبنا نعدّه نعمة لَنَا ، ولا نعدُّه نقمة علينا .

وقوله : ﴿ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، قيل معناه : وهبها الله لكم ، ثمَّ حرَّمها عليكم بامتناعكم من دخولها وقبولها ، وقيل : كتب لكم بشرط أَن تدخلوها وقرئ : (عليكم) أَو أَوجبها عليكم .

(376/753)

وإِنما قال (لكم) تنبيهاً أَنَّ دخولهم إِيّاها يعود عليهم بنفع عاجل وآجل ؛ فيكون ذلك لهم لا عليهم ، و .

﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أَى فى علمه وحكمه ، وقوله : ﴿ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ

اللَّهِ ﴾ ، أى فى حكمه .

ويعبَّر بالكِتاب عن الحُجَّة الثابتة من جهة

الله ، نحو قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ ،

وقوله : ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ إشارة إلى العلم والتحقيق والاعتقاد .

وقوله : ﴿ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ إشارة فى تحرِّى النِّكاح إلى لطيفة ، وهى أَنَّ الله تعالى جعل لنا شهوة النكاح لِيُتحرَّى به طلب النَّسل الذى يكون سبباً لبقاءِ نوع الإنسان إلى غاية قدَّرها ، فيجب للإنسان أَن يتحرَّى بالنكاح ما جعل الله على حسب مقتضَى العقل والدِّيانة ، ومَن تحرَّى بالنكاح حفظ النسل وحظَّ النفس على الوجه المشروع فقد انتهى إلى ما كتب الله له ، وإلى هذا أَشار من قال : عنى بـ (ما كتب الله لكم) الولدَ .

ويعبَّر بالكتابة عن الإيجاد ، وعن الإزالة والإفناءِ بالمحو ، قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ نبَّه أَن لكلِّ وقت إيجاداً ، فهو يوجد ما تقتضى الحكمة إيجاده ، ويزيل ما تقتضى الحكمة إزالته .

ودلَّ قوله : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ على نحو ما دلَّ عليه قوله : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ ، فالكتاب الأَول كتبوه بأَيديهم المذكورُ بقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ

بِأَيْدِيهِمْ﴾ ، والثانى التوراة ، والثالث لجنس كتب الله تعالى كلّها ، أى ما هو من شىءٍ من كتب الله تعالى وكلامه .

(377/753)

وقوله : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ﴾ ، قيل : هما عبارتان عن التوارة سمّيت كتاباً باعتبار ما ثبت فيها من الأحكام ، وفرقاناً باعتبار ما فيها من الفرق بين الحقِّ والباطل .

وقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ تنبيه أنَّهم يختلقونه ويفتعلونه .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ هذا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَراد بالكتاب هاهنا ما تقدّم من كُتُب الله دون القرآن ؛ أَلَا ترى أَنه جعل القرآن مصدّقا له .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ ، منهم من قال : هو القرآن ، ومنهم من قال : هو وغيره من الحُجج والعلم والعقل .

وقوله : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ ، قيل : أُريد علم الكتاب ، [وقيل] علم من العلوم الَّتى آتاها الله سليمان فى كتابه المخصوص به ، وبه سُخِّر له كلّ شىءٍ .

وقوله : ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ أى بالكتب المنزلة ، فوضع المفرد موضع الجمع ، إِمَّا لكونه جنساً ، كقولك : كثر الدرهم بأَيدى الناس ، وإِمَّا لكونه فى الأَصل مصدراً ، والله أَعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 329.334 ﴾

(378/753)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة المجادلة

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة من عرفها بذل الروح في طلبها ، وإن لم يحظ بوصولها ، كلمة من طلبها اكتفى بالطلب من قبولها .

كلمة جبارة لا تنظر إلى كل أحد ، كلمة قهارة لا يوجد من دونها ملتحد .

كلمة منها بلاء الأحباب – لكن بها شفاء الأحباب .

قولهِ جلّ ذكره : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللَّهِ ﴾ .

لَمَّا صَدَقَت في شكواها إلى الله وأَيِسَتْ من استكشاف ضُرِّها من غير الله – أنزل الله في

شأنها : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ﴾ .

تَضَرَّعَتْ إلى الله ، ورَفَعَتْ قِصَّتَها إلى الله ، ونَشَرت غُصَّتَها بين يدي الله – فنَظَرَ إليها الله ، وقال : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ﴾ .

ويقال : صارت فرجةً ورخصةً للمسلمين إلى القيامة في مسألة الظِّهار ، وليعلم العالِمون أنَّ أحداً لا يخسر عَلَى الله .

وفي الخبر : أنها قالت : " يا رسول الله ، إنَّ أوساً تزوَّجني شابَّةً غنيةً ذات أهلٍ ، ومالٍ كثير ، فلما كبرت سِنِّي ، وذَهَبَ مالي ، وتَفَرَّقَ أهلي جعلني عليه كظَهْرِ أُمِّه ، وقد نَدِم وندِمت ، وإنَّ لي منه صبيةً صِغاراً إن ضَمَمْتُهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتُهم إليّ جاعوا " .

فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم – في رواية – : " ما أُمِرْتُ بشيءٍ في شأنك " .

وفي رواية أخرى انه قال لها : " بِنْتِ عنه " (أي حرمت عليه) .

فترددت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، وشكت . . إلى أن أنزل الله حُكْمَ الظِّهار .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّلائِى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ .

قَوْلُ الذين يقولون لنسائهم - جرياً على عادة أهل الشِرْكِ - أنتِ عليّ كظهر أمي . . هذا شيءٌ لم يَحْكُمْ الله به ؛ ولا هذا الكلامُ في نَفْسِه صِدْق ، ولم يثبت فيه شَرْعٌ ، وإنما هو زورٌ مَحْضٌ وكَذِبٌ صِرْفٌ .

فَعلِمَ الكافةُ أُن الحقائق بالتلبيسِ لا تتغيّر ؛ والسَّبَبُ إذا لم يكن صحيحاً فبالمعاودةِ لا يثبت ؛ فالمرأةُ لمَّا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قولَه " بِنْتِ عنه " - كان واجباً عليها السكونُ والصبرُ ؛ ولكنَّ الضرورةَ أنطقتها وحَمَلْتها على المعاودة ، وحصلت من ذلك مسألة : وهي أن كثيراً من الأشياء يحكم فيها ظاهرُ العلمِ بشيء ؛ ثم تُغَيِّر الضرورة ذلك الحُكْمَ لصاحبها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

الظِّهار - وإن لم يكن له في الحقيقة أصل ، ولا بتصحيحه نطق او دلالة شرع ، فإنه بعد ما رُفِعَ أمرُه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ولوّح بشيء ما ، وقال فيه حُكمه ، لم يُخلِ الله ذلك من بيانٍ ساق به شَرعه ؛ فقضى فيه بما انتظم جوانب الأمر كلّه .

فارتفاعُ الأمر حتى وصوله إلى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، والتحاكُم لديه حَمَّل المتعدِّي عناء فعلته ، وأعاد للمرأة حقَّها ، وكان سَبيلاً لتحديد المسألة برُمَّتها . . .

وهكذا فإنّ كلَّ صعبٍ إلى زوال . . . وكلُّ ليلة – وإنْ طالَتْ – فإلى إسفار .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

الذين يخالفون أمر الله ويتركون طاعةَ رسولِ الله أُذِلُّوا وخُذِلوا ، كما أُذِلَّ الذين من قَبْلهم من الكفَّار والعُصاة .

(380/753)

وقد أجرى اللَّهُ سُنَّتَه بالانتقام من أهل الإجرام ؛ فَمَنْ ضيَّعَ للرسولِ سُنَّةً ، وأحْدَثَ في دينه بدعة انخرط في هذا السلك ، ووقع في هذا الذُّلِّ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

يقال : إذا حُوسِبَ أحدٌ في القيامة على عمله تصور له ما فعله وتذكَّره ، حتى كأنه قائمٌ في تلك الحاله عن بساط الزَّلَّةِ ، فيقع عليه من الخجل والنَّدمِ ما يَنْسى في جَنْبه كُلَّ عقوبة .

فسبيلُ المسلم ألا يحومَ حول مخالفة أمر مولاه ، فإنْ جرَى المقدورُ ووقَعَ في هجنة التقصير فلتكن زلَّتُه على بال ، وليتضرع إلى الله بحُسْن الابتهال .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

مَعِيَّةُ الحقِّ - سبحانه - وإن كانت على العموم بالعلم والرواية ، وعلى الخصوص بالفضل والنصرة - فلهذا الخطاب في قلوب أهل المعرفة أثرٌ عظيمٌ ، ولهم إلى أنْ ينتهيَ الأمرُ بهم إلى التولُّه فالولَهِ فالهيمان في غمار سماع هذا عيش راغد .

ويقال : أصحابُ الكهف - وإن جلَّتْ رتبتُهم واختصت من بين الناس مرتبتهم - فالحقُّ سبحانه يقول : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف : 22] ولمَّا انتهى إلى هذه الآية قال : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة ﴾ فشتَّان بين مَنْ رابِعُهُ كَلْبُه وبين من رابِعُه ربُّه ! !

(381/753)

ويقال : أهلُ التوحيد ، وأصحابُ العقول من أهل الأصول يقولون : اللَّهُ واحدٌ لا من طريق العدد ، والحقُّ يقول : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ ويقال حيثما كنتَ فأنا معك ؛ إن كنت في المسجد فأنا معك ، وإن كنت في المصطبة فأنا معك ، إن طَلَبَ العلماء

التأويلَ وشوّشوا قلوبَ أُولي المواجيد فلا بأس – فأنا معهم.

إن حضرْتَ المسجد فأنا معك بإسباغ النعمة ولكن وَعْداً، وإن أتيتَ المصطبة فأنا معك بالرحمة وإسبال ستر المغفرة ولكن نَقْداً:

هَبْكَ تباعَدْتَ وخالَفْتَني . . . تقدِرُ أن تخرجَ عن لُطْفي

قوله جلّ ذكره: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ آذَوْا قلوبَ المسلمين بما كانوا يتناجون به فيما بينهم، ولم تكن في تناجيهم فائدةٌ إلا قصدهم بذلك شَغْلَ قلوبِ المؤمنين، ولم ينتهوا عنه لمَّا نُهُوا عنه، وأصرُّوا على ذلك ولم يَنْزَجروا، فتوَعَّدهم اللَّهُ على ذلك، وتكون عقوبتُهم بأن تتغامز الملائكة في باب فيما بينهم، وحين يشهدون ذلك تترَجَّمُ ظنونُهم، ويتعذَّبون بتَقَسُّم قلوبهم، ثم لا ينكشف الحالُ لهم إلاَّ بما يزدهم حزناً على حزنٍ، وأسفاً على أسف.

قوله جلّ ذكره: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

إنما قَبُحَ ذلك منهم وعَظُمَ الخطرُ لأنه تضمَّنَ إفسادَ ذات البَيْن، وخيرُ الأمور ما عاد بإصلاح ذات البَيْن، وبعكسه إذا كان الأمر بضدّه.

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

النجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا . وإذا كانت المشاهدةُ غالبةً ، والقلوبُ حاضرةً ، والتوكلُ صحيحاً ؛ والنظرُ من موضعه صائباً فلا تأثيرَ لمثل هذه الحالات ، وإنما هذا للضعفاء .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى الْمَجَالِسِ فَافْسَحُواْ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ فَانشُزُواْ ﴾ .

لكمال رحمته بهم وتمام رأفته عليهم ، علَّمَهم مراعاة حُسنِ الأدب بينهم فيما كان من أمور العادة دون أحكام العبادة في التفسُّح في المجالس والنظام في حال الزّحمة والكثرة . . .

وأعْزِزْ بأقومٍ أمرَهم بدقائق الأشياء بعد قيامهم بأصول الدين وتحقُّقِهم بأركانه ! .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12)

لمَّا كان الإذنُ في النجوى مقروناً ببذْلِ المال امتنعوا وتركوا ، وبذلك ظَهَرت جواهر الأخلاق ونقاوةُ الرجال - ولقد قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ [محمد : 37] .

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (15) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (16)

مَنْ وافقَ مغضوباً عليه أشْرَكَ نَفْسَه في استحقاقِ غضبِ مَنْ هو الغضبان؛ فَمَنْ تَوَلَّى مغضوباً عليه مِنْ قِبَلِ الله استوجبَ غَضَبَ الله وكفى بذلك هواناً وخسراناً .

(383/753)

﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ اتَّخَذُواْ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

هذا وصفٌ للمنافقين .

﴿ اتَّخَذُواْ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ أي وقايةً وستراً؛ ومَنْ استتر بجُنَّةِ طاعته لتَسْلَمَ له دنياه فإنَّ سهامَ التقدير من وراءه تكشفه من حيث لا يشعر . . فلا دِينُه يبقى، ولا دنياه تَسْلَم، ولقد قال تعالى: ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ [آل عمران: 10] .

قوله جلّ ذكره: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَىْءٍ أَلآَ إِنَّهُمْ هُمُ الكَاذِبُونَ ﴾ .

عقوبتُهم الكبرى ظَنُّهم أنَّ ما عَمِلوا مع الخَلْقِ يتمشّى أيضاً في مُعَامَلةِ الحقِّ، فَفَرْطُ الأجنبية

وغايةُ الجهلِ أكَبَّتهم على مناخرهم في وَهْدَةِ نَدَمِهم .

قوله جل ذكره : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

إذا استحوذ الشيطانُ على عَبْدٍ أَنْساه ذِكْرَ الله .

والنَّفْسُ إذا استولَتْ على إنسانٍ انسَتْهُ الله .

ولقد خَسِرَ حزبُ الشيطان ، وأخْسَرُ منه مَنْ أعان نَفْسَه – التي هي أعدى عدوِّه ، إلاَّ بأن يسعى في قَهْرِها لعلَّه ينجو مِنْ شرِّها .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِى الأَذَلِّينَ ﴾ .

مَنْ أرَمَتْهُ شِقْوَته لم تُنعِشْهُ قُوَّتُه ، ومَنْ قَصَمَه التقديرُ لم يَعْصِمه التدبير . ومَنْ استهانَ بالدِّين انخرط في سِلْكِ الأذلِّين .

(384/753)

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

الذي ليس له إلا التدبير . . . كيف تكون له مقومة مع التقدير ؟

قوله جل ذكره : ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

﴾ .

مَنْ جَنَحَ إلى منحرفٍ عن دينه ، أو داهَنَ مُبْتَدِعاً في عهده نزَعَ اللَّهُ نورَ التوحيدِ من قلبه فهو في خيانته جائرٌ على عقيدته ، وسيذوق قريباً وَبَالَ أمره .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ .

خلق الله الإيمان في قلوب أوليائه وأثبته ، ويقال : جعل قلوبهم مُطَرَّزَةً باسمه . وأعْزِز بِحُلَّةٍ لأسرار قومٍ طرازُها اسمُ " الله " ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 555.548 ﴾

(385/753)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ

قَوْله تَعَالَى ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ خَصَّ سُبْحَانَهُ رَفْعَهُ بِالْأَقْدَارِ وَالدَّرَجَاتِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ وَهُمْ الَّذِينَ اسْتَشْهَدَ بِهِمْ فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ هُمْ الَّذِينَ يَرَوْنَ مَا أُنْزِلَ إلَى الرَّسُولِ هُوَ الْحَقَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إلَيْك

مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ تَعَلُّمَ الْحُجَّةِ وَالْقِيَامَ بِهَا يَرْفَعُ دَرَجَاتِ مَنْ يَرْفَعُهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ : بِالْعِلْمِ . فَرَفْعُ الدَّرَجَاتِ وَالْأَقْدَارِ عَلَى قَدْرِ مُعَامَلَةِ الْقُلُوبِ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ فَكَمْ مِمَّنْ يَخْتِمُ الْقُرْآنَ فِي الْيَوْمِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ وَآخَرُ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ وَآخَرُ لَا يُفْطِرُ وَغَيْرُهُمْ أَقَلُّ عِبَادَةً

(386/753)

مِنْهُمْ وَأَرْفَعُ قَدْرًا فِي قُلُوبِ الْأُمَّةِ فَهَذَا كُرْزُ بْنُ وَبَرَةَ وَكَهْمَس وَابْنُ طَارِقٍ يَخْتِمُونَ الْقُرْآنَ فِي الشَّهْرِ تِسْعِينَ مَرَّةً وَحَالُ ابْنِ الْمُسَيِّبِ وَابْنِ سِيرِينَ وَالْحَسَنِ وَغَيْرِهِمْ فِي الْقُلُوبِ أَرْفَعُ . وَكَذَلِكَ تَرَى كَثِيرًا مِمَّنْ لَبِسَ الصُّوفَ وَيَهْجُرُ الشَّهَوَاتِ وَيَتَقَشَّفُ وَغَيْرُهُ مِمَّنْ لَا يُدَانِيهِ فِي ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ أَعْظَمُ فِي الْقُلُوبِ وَأَحْلَى عِنْدَ النُّفُوسِ وَمَا ذَاكَ إلَّا لِقُوَّةِ الْمُعَامَلَةِ الْبَاطِنَةِ وَصَفَائِهَا وَخُلُوصِهَا مِنْ شَهَوَاتِ النُّفُوسِ وَأَكْدَارِ الْبَشَرِيَّةِ وَطَهَارَتِهَا مِنْ الْقُلُوبِ الَّتِي تُكَدِّرُ مُعَامَلَةَ أُولَئِكَ وَإِنَّمَا نَالُوا ذَلِكَ بِقُوَّةِ يَقِينِهِمْ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَكَمَالِ تَصْدِيقِهِ فِي قُلُوبِهِمْ وَوُدِّهِ وَمَحَبَّتِهِ وَأَنْ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ أَرْفَعَ دَرَجَاتِ الْقُلُوبِ فَرَحُهَا التَّامُّ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَابْتِهَاجُهَا وَسُرُورُهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْكَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ

فَلْيَفْرَحُوا ﴾ الْآيَةَ . فَفَضْلُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ الْقُرْآنُ وَالْإِيمَانُ مَنْ فَرِحَ بِهِ فَقَدْ فَرِحَ بِأَعْظَمِ مَفْرُوحٍ بِهِ وَمَنْ فَرِحَ بِغَيْرِهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَوَضَعَ الْفَرَحَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ . فَإِذَا اسْتَقَرَّ فِي الْقَلْبِ وَتَمَكَّنَ فِيهِ الْعِلْمُ بِكِفَايَتِهِ لِعَبْدِهِ وَرَحْمَتِهِ لَهُ وَحِلْمِهِ عِنْدَهُ وَبِرِّهِ بِهِ وَإِحْسَانِهِ إلَيْهِ عَلَى الدَّوَامِ أَوْجَبَ لَهُ

(387/753)

الْفَرَحَ وَالسُّرُورَ أَعْظَمَ مِنْ فَرَحِ كُلِّ مُحِبٍّ بِكُلِّ مَحْبُوبٍ سِوَاهُ . فَلَا يَزَالُ مُتَرَقِّيًا فِي دَرَجَاتِ الْعُلُوِّ وَالِارْتِفَاعِ بِحَسَبِ رُقِيِّهِ فِي هَذِهِ الْمَعَارِفِ . هَذَا فِي " بَابِ مَعْرِفَةِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ " وَأَمَّا فِي " بَابِ فَهْمِ الْقُرْآنِ " فَهُوَ دَائِمُ التَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ وَالتَّدَبُّرِ لِأَلْفَاظِهِ وَاسْتِغْنَائِهِ بِمَعَانِي الْقُرْآنِ وَحِكَمِهِ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ وَإِذَا سَمِعَ شَيْئًا مِنْ كَلَامِ النَّاسِ وَعُلُومِهِمْ عَرَضَهُ عَلَى الْقُرْآنِ فَإِنْ شَهِدَ لَهُ بِالتَّزْكِيَةِ قَبِلَهُ وَإِلَّا رَدَّهُ وَإِنْ لَمْ يَشْهَدْ لَهُ بِقَبُولِ وَلَا رَدٍّ وَقَفَهُ وَهِمَّتُهُ عَاكِفَةٌ عَلَى مُرَادِ رَبِّهِ مِنْ كَلَامِهِ . وَلَا يَجْعَلُ هِمَّتَهُ فِيمَا حُجِبَ بِهِ أَكْثَرُ النَّاسِ مِنْ الْعُلُومِ عَنْ حَقَائِقِ الْقُرْآنِ إمَّا بِالْوَسْوَسَةِ فِي خُرُوجِ حُرُوفِهِ وَتَرْقِيقِهَا وَتَفْخِيمِهَا وَإِمَالَتِهَا وَالنُّطْقِ بِالْمَدِّ الطَّوِيلِ وَالْقَصِيرِ وَالْمُتَوَسِّطِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . فَإِنَّ هَذَا حَائِلٌ لِلْقُلُوبِ قَاطِعٌ لَهَا عَنْ فَهْمِ مُرَادِ الرَّبِّ مِنْ كَلَامِهِ وَكَذَلِكَ شَغْلُ النُّطْقِ بِـ ﴿ أَأَنْذَرْتَهُمْ ﴾ وَضَمِّ الْمِيمِ مِنْ (عَلَيْهِمْ

ووَصْلُهَا بِالْوَاوِ وَكَسْرُ الْهَاءِ أَوْ ضَمُّهَا وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ مُرَاعَاةُ النَّغَمِ وَتَحْسِينُ الصَّوْتِ . وَكَذَلِكَ تَتَبُّعُ وُجُوهِ الْإِعْرَابِ وَاسْتِخْرَاجُ التَّأْوِيلَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ الَّتِي هِيَ بِالْأَلْغَازِ وَالْأَحَاجِيِّ أَشْبَهُ مِنْهَا بِالْبَيَانِ .

(388/753)

وَكَذَلِكَ صَرْفُ الذِّهْنِ إلَى حِكَايَةِ أَقْوَالِ النَّاسِ وَنَتَائِجِ أَفْكَارِهِمْ . وَكَذَلِكَ تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ عَلَى قَوْلِ مَنْ قَلَّدَ دِينَهُ أَوْ مَذْهَبَهُ فَهُوَ يَتَعَسَّفُ بِكُلِّ طَرِيقٍ حَتَّى يَجْعَلَ الْقُرْآنَ تَبَعًا لِمَذْهَبِهِ وَتَقْوِيَةً لِقَوْلِ إمَامِهِ وَكُلٌّ مَحْجُوبُونَ بِمَا لَدَيْهِمْ عَنْ فَهْمِ مُرَادِ اللَّهِ مِنْ كَلَامِهِ فِي كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرِهِ . وَكَذَلِكَ يَظُنُّ مَنْ لَمْ يُقَدِّرْ الْقُرْآنَ حَقَّ قَدْرِهِ أَنَّهُ غَيْرُ كَافٍ فِي مَعْرِفَةِ التَّوْحِيدِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَمَا يَجِبُ لِلَّهِ وَيُنَزَّهُ عَنْهُ ؛ بَلْ الْكَافِي فِي ذَلِكَ عُقُولُ الْحَيَارَى والمتهوكين الَّذِينَ كُلٌّ مِنْهُمْ قَدْ خَالَفَ صَرِيحَ الْقُرْآنِ مُخَالَفَةً ظَاهِرَةً . وَهَؤُلَاءِ أَغْلَظُ النَّاسِ حِجَابًا عَنْ فَهْمِ كِتَابِ اللَّهِ تعَالَى وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 16صـ 48. 51 ﴾

(389/753)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1)

الإعراب :

(قد) حرف تحقيق (في زوجها) متعلّق بـ (تجادلك) بحذف مضاف أي في شأن زوجها

(إلى اللّه) متعلّق بـ (تشتكي) . .

جملة : " قد سمع اللّه . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " تجادلك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " تشتكي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تجادلك . . " 1 " .

وجملة : " اللّه يسمع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الابتدائيّة .

وجملة : " يسمع . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " إنّ اللّه سميع . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

(1) يجوز أن تكون خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي ، والجملة الاسميّة حال .

(390/753)

الصرف :

(تحاور) ، مصدر قياسيّ للخماسيّ تحاور ، وزنه تفاعل بفتح التاء وضمّ العين . .

الفوائد

- حكم الظهار . .

عن عائشة قالت : الحمد للّه الذي وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة خولة بنت ثعلبة إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) وكلمته في جانب البيت ، وما أسمع ما تقول ، فأنزل اللّه عز وجل قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .

وكان زوجها أوس بن الصامت ، قد طلب وقاعها ، فأبت عليه ، فقال لها : أنت عليّ كظهر أمي . فجاءت تجادل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) في زوجها . أما حكم من ظاهر فتجب عليه الكفارة . والآية تدل على إيجاب الكفارة قبل المماسة ، فإن جامع قبل أن يكفّر لم يجب عليه إلا كفارة واحدة ، وهو قول أكثر أهل العلم ، كمالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وسفيان أما كفارة الظهار فإنها مرتبة ، فيجب عليه عتق رقبة مؤمنة ،

فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن أفطر يوما متعمدا، أو نسي النية، يجب عليه استئناف الشهرين فإن جامع ليلا أثناء الصوم عصى بذلك، لكن لا يجب عليه استئناف الشهرين فإن عجز عن الصوم، لمرض، أو كبر، أو فرط شهوة لا تمكنه من الصبر على الجماع، يجب عليه إطعام ستين مسكينا، كل مسكين مد من غالب قوت البلد من حنطة أو شعير أو أرز أو ذرة أو تمر. ولو دفع الستين صاعا لمسكين واحد لم يجزئ ذلك عند الشافعي لظاهر الآية، وأجاز ذلك أبو حنيفة رضي اللّه عنهما، وإذا كان عنده رقبة يحتاج إليها للخدمة، أو معه ثمن الرقبة لكنه محتاج إليه للنفقة عدل إلى الصوم، واللّه أعلم.

[سورة المجادلة (58) : الآيات 2 الى 4]

الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (2) وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (4)

الإعراب:

(منكم) متعلّق بحال من فاعل يظاهرون (من نسائهم) متعلّق ب (يظاهرون)، (ما) نافية عاملة عمل ليس (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر (اللائي) موصول في محلّ رفع خبر المبتدأ (أمّهاتهم)، (الواو) عاطفة (اللام) للتوكيد (منكرا) مفعول به منصوب (من القول) متعلّق بنعت ل (منكرا)، (الواو) عاطفة (اللام) للتوكيد . .

جملة: «الذين يظاهرون . . .» لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: «يظاهرون . . .» لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: «ما هنّ أمّهاتهم . . .» في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين).

وجملة: «إن أمّهاتهم إلّا اللائي . . .» لا محلّ لها استئناف بيانيّ- أو تعليليّة- وجملة: «ولدنهم . . .» لا محلّ لها صلة الموصول (اللائي).

وجملة: «إنّهم ليقولون . . .» لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: «يقولون . . .» في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: «إنّ اللّه لعفوّ . . .» لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّهم ليقولون.

3- (الواو) عاطفة وكذلك (ثمّ)، (ما) حرف مصدريّ «1»، (الفاء) زائدة في الخبر لمشابهة المبتدأ للشرط (تحرير) مبتدأ مؤخّر مرفوع، والخبر محذوف تقديره عليهم (من قبل) متعلّق ب (تحرير) (أن) حرف مصدريّ ونصب . .

والمصدر المؤوّل (ما قالوا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق ب (يعودون).

والمصدر المؤوّل (أن يتماسّا . .) في محلّ جرّ مضاف إليه.

(ذلكم) اسم إشارة في محلّ رفع مبتدأ، والإشارة إلى الحكم المذكور، و(الواو) في (توعظون) نائب الفاعل (به) متعلّق ب (توعظون) بتضمينه معنى تزجرون (ما) حرف مصدريّ «2» . .

وجملة: «الذين يظاهرون . . .» لا محلّ لها معطوفة على جملة الذين يظاهرون الأولى.

وجملة: «يظاهرون . . .» لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: «يعودون . . .» لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: «قالوا . . .» لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

وجملة: « (عليهم) تحرير . . .» في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين).

وجملة: «يتماسّا . . .» لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: «ذلكم توعظون به» لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة : «توعظون به» في محلّ رفع خبر المبتدأ (ذلكم) .

وجملة : «اللّه . . . خبير» لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : «تعملون . . . » لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الثاني .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف ، والجملة بعده صلة .

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف .

(393/753)

4- (الفاء) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (لم) للنفي فقط «1» ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (صيام) مبتدأ مؤخّر ، والخبر محذوف تقديره عليه (من قبل أن يتماسّا) مثل الأولى وتعليق الظرف ب (صيام) ، (الفاء) عاطفة (من لم يستطع) مثل من لم يجد (فإطعام) مثل فصيام (مسكينا) تمييز منصوب ، والإشارة في (ذلك) إلى البيان والتعليم ، وهو مبتدأ «2» خبره محذوف تقديره واقع (اللام) للتعليل (تؤمنوا) مضارع منصوب بأن مضمرة .

والمصدر المؤوّل (أن تؤمنوا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بالخبر المحذوف «3» .

(باللّه) متعلّق ب (تؤمنوا) ، (الواو) عاطفة في الموضعين ، والإشارة في (تلك) إلى الأحكام

المذكورة (للكافرين) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (عذاب) . .

وجملة: «من لم يجد . . .» لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: «لم يجد . . .» في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) «4».

وجملة: « (عليه) صيام . . .» في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: «يتماسّا . . .» لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: «من لم يستطع . . .» لا محلّ لها معطوفة على جملة من لم يجد.

وجملة: «لم يستطع . . .» في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) الثاني «5»

---

(1) هو عند أكثر المعربين الجازم للفعل بعده، ولكن آثرنا الإعراب أعلاه لتظلّ دلالة الكلام على الاستقبال.

(2) أو هو مفعول به لفعل محذوف تقديره فعلنا ذلك.

(3) أو متعلّق بالفعل المحذوف.

(4) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا.

(5) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا.

وجملة : « (عليه) إطعام . . . » في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : «ذلك (واقع) . . . » لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : «تؤمنوا . . . » لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : «تلك حدود . . . » لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة الأخيرة .

وجملة : «للكافرين عذاب . . . » لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة الأخيرة .

الصرف :

(4) متتابعين : مثنّى متتابع ، اسم فاعل من الخماسيّ تتابع ، وزنه متفاعل بضمّ الميم وكسر العين .

(ستين) ، اسم للعدد ، وهو من ألفاظ العقود ، وزنه فعلين ، وجاءت عينه ولامه من حرف واحد .

البلاغة

السلب والإيجاب : في قوله تعالى الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ .

وهذا الفن هو نفي الشيء من جهة وإيجابه من جهة أخرى ، أو أمر بشيء من جهة ونهي عنه من جهة ثانية .

وهنا في هذه الآية الكريمة نفي لصيرورة المرأة أمّا بالظهار ، وإثبات الأمومة للتي ولدت

الولد .

[سورة المجادلة (58) : الآيات 5 الى 6]

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (5) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6)

(395/753)

الإعراب :

(الواو) في (كبتوا) نائب الفاعل (ما) حرف مصدريّ (من قبلهم) متعلّق بمحذوف صلة الذين . .

والمصدر المؤوّل (ما كبت . .) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق . .

(الواو) حاليّة (قد) حرف تحقيق (للكافرين عذاب) مرّ إعرابها «1» .

جملة : «إنّ الذين . . .» لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : «يحادّون . . .» لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : «كبتوا . . .» في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة: «كبت... » لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

وجملة: «أنزلنا... » في محلّ نصب حال.

وجملة: «للكافرين عذاب... » لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

6- (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق ب (مهين) «2»، (جميعا) حال من الضمير الغائب في (يبعثهم) «3»، (الفاء) عاطفة (ما) حرف مصدريّ «4»، (على كلّ) متعلّق بالخبر (شهيد).

والمصدر المؤوّل (ما عملوا..) في محلّ جرّ بالباء متعلّق ب (ينبّئهم).

وجملة: «يبعثهم... » في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: «ينبّئهم... » في محلّ جرّ معطوفة على جملة يبعثهم.

وجملة: «عملوا... » لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

---

(1) في الآية السابقة (4).

(2) أو متعلّق بالاستقرار الذي تعلّق به (للكافرين). [.....]

(3) أو توكيد للضمير منصوب.

(4) أو اسم موصول في محلّ جرّ، والعائد محذوف.

وجملة : «أحصاه اللّه . . .» لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : «نسوه . . .» لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة «1» .

وجملة : «اللّه . . . شهيد» لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

[سورة المجادلة (58) : آية 7]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة ما وكذلك (في الأرض) .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه يعلم . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ترى .

(ما) نافية (يكون) مضارع تامّ (نجوى) مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل يكون (إلّا) للحصر في المواضع الثلاثة (لا) زائدة لتأكيد النفي في المواضع الثلاثة الآتية (خمسة) معطوف على نجوى تبعه في الجرّ لفظا «2» ، وكذلك (أدنى وأكثر) ، (من ذلك) متعلّق ب (أدنى) ، (معهم) ظرف منصوب متعلّق بخبر المبتدأ (هو) (أينما) ظرف مكان مجرّد من الشرط متعلّق بالاستقرار الذي تعلّق به معهم (كانوا) فعل ماض تام وفاعله (ثمّ) حرف عطف

(ما) حرف مصدريّ «3» .

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من الضمير في أحصاه بتقدير قد .

(2) أو معطوف على العدد ثلاثة . . ويجوز في (أدنى) أن يكون مبتدأ خبره جملة هو معهم ، والعطف من عطف الجمل . .

(3) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف .

والمصدر المؤوّل (ما عملوا . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق ب (ينبّئهم) .

(يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق ب (ينبّئهم) ، (بكلّ) متعلّق بالخبر (عليم) .

جملة : «تر . . . » لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : «يعلم . . . » في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : «ما يكون . . . » لا محلّ لها استئنافيّة لتقرير مضمون ما سبق .

وجملة : «هو رابعهم . . . » في محلّ نصب حال .

وجملة : «هو سادسهم . . . » في محلّ نصب حال .

وجملة : «هو معهم . . . » في محلّ نصب حال .

وجملة: «كانوا ...» في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: «ينبّئهم ...» لا محلّ لها معطوفة على جملة ما يكون.

وجملة: «عملوا ...» لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

وجملة: «إنّ اللّه ... عليم» لا محلّ لها تعليليّة.

البلاغة

تخصيص الثلاثة والخمسة: في قوله تعالى ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ.

الداعي إلى تخصيص الثلاثة والخمسة أنه سبحانه قصد أن يذكر ما جرى عليه العادة من أعداد أهل النجوى والمخولين للشورى والمنتدبون لذلك ليسوا بكل أحد، وإنما هم طائفة مجتباة من أولي النهى والأحلام، ورهط من أهل الرأي والتجارب، وأول عددهم الاثنان فصاعدا إلى خمسة إلى ستة إلى ما اقتضته الحال. ألا ترى إلى عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه كيف ترك الأمر شورى بين ستة ولم يتجاوز بها إلى سابع، فذكر عز وعلا الثلاثة والخمسة وقال «وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ» فدلّ على الاثنين والأربعة وقال «وَلا أَكْثَرَ» فدلّ على ما يلي هذا العدد ويقاربه.

[سورة المجادلة (58) : آية 8]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8)

الإعراب:

(إلى الذين) متعلّق ب (ترى) بمعنى تنظر، والواو في (نهوا) نائب الفاعل، (عن النجوى) متعلّق ب (نهوا)، (لما) متعلّق ب (يعودون)، (عنه) متعلّق ب (نهوا)، (الواو) عاطفة في المواضع الخمسة (بالإثم) متعلّق ب (يتناجون)، (حيّوك) ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، و(الواو) فاعل، و(الكاف) مفعول به (بما) متعلّق ب (حيّوك)، (به) متعلّق ب (يحيّك)، (في أنفسهم) حال من فاعل يقولون أي مسرّين (لولا) حرف تحضيض (ما) حرف مصدريّ «1»، (الفاء) استئنافيّة، والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره هي أي جهنّم.

جملة: «تر...» لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: «نهوا...» لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: «يعودون...» لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة : «نهوا (الثانية)» لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : «يتناجون . . .» لا محلّ لها معطوفة على جملة يعودون .

وجملة : «جاؤوك . . .» في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : «حيّوك . . .» لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : «لم يحيّك به اللّه . . .» لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جر ، والعائد محذوف .

وجملة : «يقولون . . .» لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : «يعذّبنا اللّه . . .» في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : «نقول . . .» لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

والمصدر المؤوّل (ما نقول . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق ب (يعذّبنا) .

وجملة : «حسبهم جهنّم» لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : «يصلونها . . .» في محلّ نصب حال «1» .

وجملة : «بئس المصير» لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف:

(نهوا)، فيه إعلال بالتسكين، وإعلال بالحذف، أصله نهيوا بكسر الهاء وضم الياء، ثمّ سكّنت الياء لثقل الضمّة ونقلت الحركة إلى الهاء قبلها - إعلال بالتسكين - ثمّ حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة فأصبح نهوا، وزنه فعوا.

(معصية)، مصدر سماعيّ للثلاثيّ عصى يعصي، وزنه مفعلة بفتح الميم وكسر العين، وقد رسمت التاء في المصحف مفتوحة، وقد يكون اللفظ مصدرا ميميّا..

(حيّوك)، فيه إعلال بالحذف، وذلك لالتقاء الساكنين، وفتح ما قبل الواو دلالة على الألف المحذوفة وزنه فعّوك، بفتح الفاء والعين المشدّدة.

(يحيّك)، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم، وزنه يفعّك..

الفوائد:

- مكر اليهود..

عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: دخل رهط من اليهود على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) فقالوا: السّام عليك. قالت عائشة: ففهمتها، فقلت: عليكم السام واللعنة. قالت: فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم): مهلا يا عائشة، إن اللّه يحبّ الرفق في الأمر كله،

---

(1) أو اعتراضيّة إذا عطفت جملة (بئس المصير) على جملة (حسبهم جهنّم).

فقلت يا رسول اللّه ألم تسمع ما قالوا؟ قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) قد قلت : عليكم.

وللبخاري أن اليهود أتوا النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) فقالوا : السّام عليك ، فقال : وعليكم. فقالت عائشة : السام عليكم ولعنكم اللّه وغضب عليكم. فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) : يا عائشة عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش. قالت : أو لم تسمع ما قالوا : قال : أولم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم ، فيستجاب لي فيهم ، ولا يستجاب لهم فيّ.

ومعنى السام : الموت. قال الخطابي : عامة المحدثين يروون : إذا سلم عليك أهل الكتاب فإنما يقولون : السام عليكم ، فقولوا : وعليكم.

[سورة المجادلة (58) : الآيات 9 الى 10]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9) إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10)

الإعراب :

(أيها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الذين) بدل من أيّ في محلّ نصب- أو عطف بيان- (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) ناهية جازمة (بالإثم) متعلّق ب (تتناجوا) ، (بالبرّ) متعلّق ب (تناجوا) ، (إليه) متعلّق ب (تحشرون) و(الواو) فيه نائب الفاعل.

جملة : «النداء . . .» لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : «امنوا . . .» لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : «تناجيتم . . .» في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة : «لا تتناجوا . . .» لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة : «تناجوا . . .» لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط.

وجملة : «اتّقوا . . .» لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط.

وجملة : «تحشرون . . .» لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

10- (إنّما) كافّة ومكفوفة (من الشيطان) متعلّق بخبر المبتدأ (النجوى) ، (اللام) للتعليل

(يحزن) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (الذين) موصول في محلّ رفع فاعل «1» ، (الواو) حاليّة (ضارّهم) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ليس ، واسم ليس ضمير يعود على الشيطان (شيئا) مفعول مطلق نائب عن المصدر أي شيئا من الضرر (إلّا) للاستثناء (بإذن) متعلّق بنعت للمستثنى المحذوف أي إلّا ضررا حاصلا بإذن اللّه . .

والمصدر المؤوّل (أن يحزن . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بمحذوف خبر ثان للنجوى .

(الواو) عاطفة (على اللّه) متعلّق ب (يتوكّل) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر» ، (اللام) لام الأمر (يتوكّل) مضارع مجزوم ، وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين . .

وجملة : «النجوى من الشيطان . . .» لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : «يحزن . . .» لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : «آمنوا . . .» لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : «ليس بضارّهم . . .» في محلّ نصب حال .

وجملة : «يتوكّل المؤمنون» في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن اتّكل

---

(1) أو في محلّ نصب مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر يعود على الشيطان . . وحزنه يحزنه باب نصر وأحزنه جعله حزينا . .

(2) انظر إعراب التركيب في الآية (122) والآية (160) من سورة آل عمران ، والآية (11) من سورة المائدة .

الناس على غير اللّه فليتوكّل المؤمنون على اللّه . . وجملة الشرط والجواب معطوفة على جملة جواب النداء من الشرط إذا وفعله .

الصرف :

(9) تتناجوا : فيه إعلال بالحذف لالتقاء الألف الساكنة لام الفعل مع واو الجماعة ، وزنه تتفاعوا (تناجوا) ، فيه إعلال بالحذف مثل تتناجوا وعلى قياسه .

[سورة المجادلة (58) : آية 11]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11)

الإعراب :

(يأيّها الذين آمنوا) مرّ إعرابها " 1 " ، (لكم) متعلّق ب (قيل) ، (في المجالس) متعلّق ب (تفسحوا) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط في الموضعين (يفسح) مضارع مجزوم جواب الأمر ، وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (لكم) الثاني متعلّق ب (يفسح) ، (يرفع) مثل يفسح

(منكم) متعلّق بحال من فاعل آمنوا (العلم) مفعول به ثان منصوب " 2 " (درجات) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو من نوع الصفة له أي رفعا ذا درجات " 3 " ، (ما) حرف مصدريّ " 4 " .

وجملة : " قيل . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) مفردات وجملا في الآية (9) من السورة .

(2) الواو نائب الفاعل هو المفعول الأول .

(3) أو حال بحذف مضاف أي ذوي درجات .

(4) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف ، والجملة صلة .

وجملة : " تفسّحوا . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 1 " .

وجملة : " افسحوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يفسح اللّه . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " قيل (الثانية) " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " انشزوا . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 2 " .

وجملة: " يرفع اللّه . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

وجملة: " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " أوتوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) (الثاني) .

وجملة: " اللّه . . . خبير " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " تعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

الصرف:

(المجالس) ، جمع المجلس ، اسم مكان من (جلس) باب ضرب ، وزنه مفعل بفتح الميم وكسر العين .

البلاغة

التعميم والتخصيص: في قوله تعالى يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ .

في هذه الآية الكريمة تعميم ثم تخصيص ، وذلك أن الجزاء برفع الدرجات هاهنا مناسب للعمل ، لأن المأمور به تفسيح المجلس كيلا يتنافسوا في القرب من المكان الرفيع حوله (صلّى اللّه عليه وسلّم) فيتضايقوا ، فلما كان الممتثل لذلك يخفض نفسه عما يتنافس فيه من الرفعة ، امتثالا وتواضعا ، جوزي على تواضعه برفع الدرجات ، كقوله " من

(1 ، 2) هي في الأصل مقول القول . [. . . . .]

تواضع للّه رفعه اللّه " ، ثم لما علم أن أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم ، خصهم بالذكر عند الجزاء ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة في المجلس ، تواضعا للّه تعالى .

الفوائد

- فضل العلم . .

قال الحسن : قرأ ابن مسعود هذه الآية وقال : أيها الناس افهموا هذه الآية ، ولترغبكم في العلم ، فإن اللّه تعالى يقول : يرفع المؤمن العالم فوق المؤمن الذي ليس بعالم درجات . وقيل : إن العالم يحصل له بعلمه ، من المنزلة والرفعة ، ما لا يحصل لغيره .

عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء ، وهو بدمشق ، فقال : ما أقدمك يا أخي ؟ قال : حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) قال :

ما جئت لحاجة غيره. قال: لا. قال: أما قدمت في تجارة؟ قال: لا، قال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث. قال: نعم، قال: فإني سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) يقول: من سلك طريقا يبتغي فيه علما سلك اللّه به طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة تضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء. وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما.

ورّثوا العلم، من أخذه فقد أخذ بحظ وافر. أخرجه الترمذي.

[سورة المجادلة (58): الآيات 12 إلى 13]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (13)

الإعراب:

(يأيها الذين آمنوا) مرّ إعرابها مفردات وجملا " 1 "، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (بين) ظرف منصوب متعلّق ب (قدّموا)، والإشارة في (ذلك) إلى تقديم الصدقة (لكم) متعلّق ب (خير)، (الفاء) عاطفة (لم) للنفي فقط، (الفاء) تعليليّة - أو رابطة -.

وجملة : " ناجيتم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قدّموا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " ذلك خير . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لم تجدوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء الشرط وفعله وجوابه .

وجملة : " إنّ اللّه غفور . . . " لا محلّ لها تعليل لجواب إن المحذوف أي إن لم تجدوا فلا بأس عليكم فإنّ اللّه غفور . . .

13 - (الهمزة) للاستفهام التقريريّ (أن) حرف مصدريّ ونصب (بين) مثل الأول (الفاء) استئنافيّة (إذ) ظرف تضمّن معنى الشرط " 2 " متعلّق بمضمون الجواب (لم) للنفي والقلب والجزم " 3 " ، (الواو) اعتراضيّة - أو حاليّة - (عليكم) متعلّق بـ (تاب) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (ما) حرف مصدريّ " 4 " .

والمصدر المؤوّل (أن تقدّموا . .) في محلّ جرّ بـ (من) محذوفة متعلّق بـ (أشفقتم) .

(والمصدر المؤوّل (ما تعملون . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بالخبر (خبير) .

---

(1) في الآية (9) من السورة .

(2) قد يكون للمضيّ ، وقد يكون للمستقبل ، أو بمعنى إن .

(3) أو للنفي والجزم فقط .

(4) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف ، والجملة صلة .

(406/753)

وجملة : " أشفقتم . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز جواب النداء .

وجملة : " تقدّموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " لم تفعلوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تاب اللّه . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة بين الشرط والجواب " 1 " .

وجملة : " أقيموا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " آتوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أقيموا .

وجملة : " أطيعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أقيموا .

وجملة : " اللّه خبير . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أشفقتم " 2 " .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

البلاغة

الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً .

أي فتصدقوا قبلها ، وأصل التركيب يستعمل فيمن له يدان ، ويمكن أن تكون الاستعارة مكنية ، بتشبيه النجوى بالإنسان .

الفوائد :

- صدقة النجوى . .

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل تفعلوا .

(2) أو استئنافيّة في حيّز جواب النداء .

(407/753)

قال ابن عباس : إن الناس سألوا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) وأكثروا حتى شق عليه ، فأراد اللّه تعالى أن يخفف على نبيّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) ، ويثبطهم عن ذلك ، فأمرهم أن يقدموا صدقة على مناجاة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) ، وقال مجاهد : نهوا عن المناجاة حتى يتصدقوا ، فلم يناجه إلا علي بن أبي طالب ، رضي اللّه عنه ، تصدق بدينار وناجاه . ثم نزلت الرخصة ، فكان علي يقول : آية في كتاب اللّه ، لم يعمل بها أحد قبلي ، ولا يعمل بها أحد بعدي ، وهي آية المناجاة .

[سورة المجادلة (58) : الآيات 14 إلى 19]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (15) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (16) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ (18) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ (19)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام التعجّبيّ (إلى الذين) متعلّق بـ (تر) بمعنى تنظر (تولّوا) ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين.. و(الواو) فاعل (عليهم) متعلّق بـ (غضب) ، (ما) نافية عاملة عمل ليس (منكم) متعلّق بخبر ما " 1 " ، (لا) زائدة لتأكيد النفي (منهم) متعلّق بما تعلّق به (منكم) فهو معطوف عليه (على الكذب) متعلّق بـ (يحلفون) ، (الواو) حاليّة..

جملة: " لم تر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " تولّوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

---

(1) أو هو خبر المبتدأ هم.

(409/753)

وجملة: " غضب اللّه . . . " في محلّ نصب نعت لـ (قوما).

وجملة: " ما هم منكم . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في (تولّوا) " 1 ".

وجملة: " يحلفون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تولّوا . .

وجملة: " هم يعلمون . . . " في محلّ نصب حال.

وجملة: " يعلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم).

15 - (لهم) متعلّق بـ (أعدّ)، (ما) موصول في محلّ رفع فاعل لفعل ساء المتصرّف، والعائد محذوف . .

وجملة: " أعدّ اللّه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " إنّهم ساء ما كانوا " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: " ساء ما كانوا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "كانوا يعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "يعملون" في محلّ نصب خبر كانوا.

16 - (الفاء) عاطفة (عن سبيل) متعلّق بـ (صدّوا)، (الفاء) عاطفة (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (عذاب).

وجملة: "اتّخذوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "صدّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اتّخذوا.

وجملة: "لهم عذاب" لا محلّ لها معطوفة على جملة اتّخذوا مسبّبة عما سبق.

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة فلا محلّ لها . .

---

17 - (عنهم) متعلّق بـ (تغني)، (لا) زائدة لتأكيد النفي (من اللّه) متعلّق بـ (تغني) بحذف مضاف أي من عذابه (شيئا) مفعول مطلق نائب عن المصدر أي إغناء ما (فيها) متعلّق بـ (خالدون) . .

وجملة: "لن تغني . . . أموالهم" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أولئك أصحاب النار . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة : " هم فيها خالدون " في محلّ نصب حال من أصحاب والعامل فيها الإشارة – أو من النار – .

18 – (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تغني) " 1 " ، (جميعا) حال منصوبة من الضمير في (يبعثهم) " 2 " ، (الفاء) عاطفة (له) متعلّق بـ (يحلفون) ، (ما) حرف مصدريّ (لكم) متعلّق بـ (يحلفون) الثانيّ . .

والمصدر المؤوّل (ما يحلفون) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق أي حلفا كحلفهم لكم .

(الواو) حاليّة (على شيء) متعلّق بمحذوف خبر أنّ (ألا) للتنبيه (هم) ضمير فصل " 3 " . .

والمصدر المؤوّل (أنّهم على شيء) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يحسبون . .

وجملة : " يبعثهم اللّه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يحلفون له " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يبعثهم .

وجملة : " يحلفون لكم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يحسبون . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " إنّهم . . . الكاذبون " لا محلّ لها استئنافيّة .

19 – (عليهم) متعلّق بـ (استحوذ) ، (الفاء) عاطفة (ألا إنّ . . . هم الخاسرون) مثل ألا

إنّهم هم الكاذبون.

---

(1) أو هو مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر.

(2) أو توكيد معنوي لضمير الغائب في (يبعثهم).

(3) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره الكاذبون.. والجملة الاسميّة خبر إنّ.

وجملة: "استحوذ عليهم الشيطان" لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "أنساهم..." لا محلّ لها معطوفة على جملة استحوذ.

وجملة: "أولئك حزب الشيطان..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "إنّ حزب... الخاسرون" لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(16) جنّة: اسم بمعنى الستر وزنه فعلة بضمّ فسكون، وعينه ولامه من حرف واحد.

الفوائد

- (كما)..

تقع (كما) بعد الجمل كثيرا، صفة في المعنى، فتكون نعتا لمصدر أو حالا، ويحتملها قوله

تعالى في الآية التي نحن بصددها : فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وقوله تعالى يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ فإن قدرته نعتا لمصدر ، فهو إما معمول لنعيده أي (نعيد أول خلق إعادة) ، أو لنطوي أي نفعل هذا الفعل العظيم كفعلنا هذا الفعل وإن قدرته حالا ، فصاحب الحال مفعول نعيده ، أي نعيده مماثلا للذي بدأنا .

وينطبق هذا الحكم أيضا على كلمة "كذلك" .

[سورة المجادلة (58) : آية 20]

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20)

الإعراب :

(في الأذلّين) متعلّق بخبر المبتدأ (أولئك) . .

جملة : " إنّ الذين يحادّون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يحادّون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أولئك في الأذلّين " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(الأذلّين) ، جمع الأذلّ ، اسم تفضيل من الثلاثيّ ذلّ ، وزنه أفعل ، وقد جاء جمعا لأنه محلّى بأل .

[سورة المجادلة (58) : آية 21]

كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21)

الإعراب :

(412/753)

(اللام) لام القسم (أنا) ضمير منفصل في محلّ رفع توكيد للضمير المستتر فاعل أغلبنّ (الواو) عاطفة (رسلي) معطوف على الضمير المستتر فاعل أغلبنّ، مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء، و(الياء) مضاف إليه.

جملة : "كتب اللّه ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : "أغلبنّ ... " لا محلّ لها جواب القسم المتمثّل بفعل كتب ...

وجملة : "إنّ اللّه قويّ" لا محلّ لها تعليليّة.

[سورة المجادلة (58) : آية 22]

لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ

أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)

الإعراب:

(لا) نافية (بالّله) متعلّق بـ (يؤمنون) ، (الواو) حاليّة (لو) حرف شرط غير جازم (أو) حرف عطف في المواضع الثلاثة (في قلوبهم) متعلّق بـ (كتب) بتضمينه معنى أثبت (بروح متعلّق بـ (أيّدهم) ، (منه) متعلّق بنعت لروح (الواو) عاطفة (من تحتها) متعلّق بـ (تجري) " 1 " بحذف مضاف أي من

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من الأنهار.

تحت أشجارها (خالدين) حال من ضمير الغائب في (يدخلهم) " 1 " ، (عنهم) متعلّق بـ (رضي) ، و(عنه) متعلّق بـ (رضوا) ، (أولئك حزب . . . هم المفلحون) مرّ إعراب نظيرها " 2 " . .

جملة: " لا تجد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يؤمنون بالّله . . . " في محلّ نصب نعت لـ (قوما) .

وجملة: " يوادّون . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل تجد " 3 " .

وجملة: " حادّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة: "كانوا آباؤهم . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة: " أولئك كتب . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة: "كتب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

وجملة: " أيّدهم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كتب .

وجملة: " يدخلهم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كتب .

وجملة: " تجري . . . الأنهار " في محلّ نصب نعت لجنّات .

وجملة: " رضي اللّه عنهم " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (أولئك) " 4 " .

وجملة: " رضوا عنه " في محلّ رفع معطوفة على جملة رضي اللّه .

وجملة: " أولئك حزب . . . " لا محلّ لها استئناف مقرّر لمضمون ما سبق .

وجملة: " إنّ حزب اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف:

(روح) ، اسم بمعنى النور أو الهدى أو البرهان أو الرحمة أو النصر أو جبريل عليه السّلام ، وزنه فعل بضمّ فسكون .

---

(1) أو حال من جنّات .

(2) في الآية (19) من هذه السورة . [. . . . .]

(3) إذا كان بمعنى تعلم . . أو في محلّ نصب حال من مفعول تجد إذا كان بمعنى تلقى ، كما يصحّ أن يكون نعتا آخر لـ (قوما) .

(4) أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(414/753)

البلاغة

الترتيب الرائع : في قوله تعالى وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ .

حيث قدّم الآباء ، لأنه يجب على أبنائهم طاعتهم ومصاحبتهم في الدنيا بالمعروف وثنّى بالأبناء ، لأنهم أعلق بهم ، لكونهم أكبادهم وثلّث بالإخوان ، لأنهم الناصرون لهم :

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وختم بالعشيرة لأن الاعتماد عليهم والتناصر بهم بعد الاخوان غالبا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 28 صـ 165.189 ﴾

(415/753)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(58) سورة المجادلة

مدينة وآياتها ثنتان وعشرون

[سورة المجادلة (58) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1) الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (2) وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (4)

اللغة:

(

يَظْهَرُونَ) مضارع ظاهر وقرىء يظهرون بتشديد الظاء والهاء، ويتظاهرون مضارع تظاهر ويتظهرون مضارع تظهر والمراد به كله الظهار وهو قول الرجل لزوجته أنت عليّ

كظهر أمي يريد في التحريم كأنه إشارة إلى الركوب إذ عرفه في ظهور الحيوان والمعنى أنه لا يعلوها كما لا يعلو أمه ، وفي القاموس : " والظهار قوله لامرأته أنت عليّ كظهر أمي وقد ظاهر منها وتظهّر وظهّر " وسيأتي المزيد من بحث هذه المادة في باب الفوائد .

الإعراب :

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ) قد حرف تحقيق وسمع الله فعل ماض وفاعل وأدغم الكسائي الدال في السين ، وقول مفعول به والتي اسم موصول في محل جر بالإضافة وجملة تجادلك لا محل لها لأنها صلة الموصول وتجادلك فعل مضارع والفاعل مستتر يعود إلى المرأة المذكورة ، وسيأتي حديثها في باب الفوائد ، والكاف مفعول به- ولهذا سمّيت السورة المجادلة بكسر الدال على أنها اسم فاعل وقيل بفتحها وكسرها كما في حاشية الشهاب على البيضاوي والكسر أرجح على كل حال لأنه أنسب بالسياق- وفي زوجها متعلقان بتجادلك ولا بدّ من حذف مضاف أي في شأن زوجها وتشتكي عطف على تجادلك ويجوز أن تكون الواو حالية والجملة في موضع نصب على الحال وإلى الله متعلقان بتشتكي (وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) الواو حالية

واللّه مبتدأ وجملة يسمع خبر والفاعل مستتر يعود على اللّه وتحاوركما مفعول به والحوار في الكلام معروف وفي المصباح: " وحاورته راجعته الكلام وتحاورا وأحار الرجل الجواب

بالألف ردّه وما أحاره: ما ردّه " وإن واسمها وخبراها والجملة تعليلية لما قبلها (الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ) كلام مستأنف مسوق للشروع في بيان أحكام المظاهر، والذين مبتدأ وجملة يظاهرون صلة لا محل لها ومنكم حال أي حال كونهم منكم أيها العرب ولا يخفى ما في هذه الحال من التهجين لعاداتهم والتوبيخ لهم، ومن نسائهم متعلقان بيظاهرون أي يحرمون نساءهم على أنفسهم كتحريم اللّه عليهم ظهور أمهاتهم وما نافية حجازية وهنّ اسمها وأمهاتهم خبرها ونصب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم والجملة خبر المبتدأ الذي هو الموصول (إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ) إن نافية وأمهاتهم مبتدأ وإلا أداة حصر واللائي اسم موصول في محل رفع خبر وجملة ولدنهم صلة وولدنهم فعل وفاعل ومفعول به (وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً) الواو عاطفة وانهم إن واسمها واللام المزحلقة ويقولون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة خبر أنهم ومنكرا صفة لمصدر محذوف أي قولا منكرا وزورا عطف على منكرا (وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ

غَفُورٌ) الواو عاطفة وإن واسمها واللام المزحلقة وعفوّ خبر أول وغفور خبر ثان (وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا) كلام مستأنف مسوق لتفصيل حكم الظهار بعد بيان كونه منكرا ولك أن تعطف الكلام على ما تقدم لينتظم الحكم انتظاما أوليا ، والذين مبتدأ وجملة يظاهرون صلة ومن نسائهم متعلقان بيظاهرون وثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ويعودون عطف على يظاهرون ولما اللام حرف جر وما مصدرية والمصدر المؤول في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بيعودون أي يعودون لقولهم ولك أن تجعل ما موصولة والجملة صلتها والعائد محذوف

أي لما قالوه ، والفاء رابطة لما في الموصول من معنى الشرط وتحرير رقبة مبتدأ خبره محذوف أي عليه تحرير رقبة والجملة خبر الذين ومن قبل متعلق

بمحذوف حال وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة (ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) ذلكم مبتدأ والإشارة إلى الحكم المذكور وجملة توعظون خبر فإن الغرامات زواجر عن اقتراف الجنايات والله مبتدأ وبما متعلق بخبير وجملة تعملون صلة وخبير خبر الله (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا) الفاء عاطفة ومن

اسم موصول مبتدأ ولم حرف نفي وقلب وجزم ويجد فعل مضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر تقديره هو ، فصيام الفاء رابطة وصيام مبتدأ وشهرين مضاف إليه ومتتابعين صفة والخبر محذوف أي عليه والجملة خبر من ، ومن قبل أن يتماسّا تقدم إعرابها (فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا) تقدم إعرابها ومسكينا تمييز (ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) ذلك مبتدأ والإشارة إلى ما سلف من البيان والتعليم ، ولتؤمنوا لام التعليل ومدخولها خبر ذلك ويجوز أن تعرب اسم الإشارة نصبا بمضمر أي فعلنا ذلك لتؤمنوا وبالله متعلقان بتؤمنوا ورسوله عطف على الله (وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) الواو عاطفة وتلك مبتدأ وحدود الله خبر والواو عاطفة وللكافرين خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وأليم نعت لعذاب .

البلاغة :

في آية الظهار فن عجيب من فنون البلاغة وهو السلب والإيجاب وقد تقدمت الإشارة إليه وأنه بناء الكلام على نفي الشيء من جهته وإيجابه من جهة أخرى أو أمر بشيء من جهة ونهي عنه من جهة ثانية وفي قوله " الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هنّ أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم " نفي لصيرورة المرأة أما بالظهار وإثبات الأمومة للتي ولدت الولد .

الفوائد :

قال في الكشاف : " قالت عائشة رضي اللّه عنها : الحمد للّه الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد كلّمت المجادلة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في جانب البيت وأنا عنده لا أسمع وقد سمع لها ، وعن عمر أنه كان إذا دخلت عليه أكرمها وقال : قد سمع اللّه لها " أما المرأة فهي خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت ابن عمّها رآها تصلّي وكانت قسيمة حسنة الجسم فلما سلّمت طلب وقاعها فأبت فغضب وكان به لمم فقال : أنت عليّ كظهر أمي فأتت رسول اللّه وشكت إليه أمرها ، وروي أنها قالت له إن لي صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا فقال : ما عندي في أمرك شيء ، وروي أيضا أنه قال لها : ما أراك إلا قد حرّمت عليه ولم أؤمر في شأنك بشيء فقالت : أشكو إلى اللّه فاقتي ووجدي فنزلت هذه الآيات . وأحكام الظهار ومذاهب الأئمة فيه مبسوطة في كتب الفقه فارجع إليها إن شئت .

[سورة المجادلة (58) : الآيات 5 إلى 7]

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (5) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا

يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)

اللغة :

(420/753)

(يُحادُّونَ) يعادون ويشاقون ، وعبارة الزجّاج : المحادة أن تكون في حدّ يخالف حدّ صاحبك ، فتكون المحادة كناية عن المعاداة لكونها لازمة للمعاداة . وفي معاجم اللغة " حاده : عاداه وغاضبه " .

(كُبِتُوا) أخذوا وأهلكوا وقيل ذلوا وفي المصباح : "كبت اللّه العدو كبتا من باب ضرب أهانه وأذلّه وكبته لوجهه صرعه " .

الإعراب :

)

إِنَّ الَّذِينَ يُحادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) كلام مستأنف مسوق لزفّ البشرى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم والمؤمنين بكبت أعدائهم وإذلالهم وفصم عراهم وشقّ عصاهم . وإن واسمها وجملة يحادون صلة واللّه مفعول به ورسوله عطف

على اللّه وجملة كبتوا خبر إن وكما نعت لمصدر محذوف وجملة كبت لا محل لها لأنها صلة الموصول الحرفي والذين نائب فاعل ومن قبلهم متعلقان بمحذوف صلة الذين (وَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ) الواو حالية وقد حرف تحقيق وأنزلنا فعل وفاعل وآيات مفعول به وبيّنات صفة لآيات وللكافرين خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر ومهين نعت (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ) يجوز أن يتعلق الظرف بمهين وقيل عامله عذاب وقيل عامله الاستقرار الذي تعلق به الخبر وهو للكافرين وقيل منصوب بإضمار اذكر ، وجملة يبعثهم في محل جر بإضافة الظرف إليها واللّه فاعل يبعثهم وجميعا حال ، فينبئهم

عطف على يبعثهم وبما عملوا في موضع المفعول الثاني وجملة عملوا صلة الموصول وجملة أحصاه اللّه استئنافية والواو حالية وجملة نسوه في محل نصب على الحال من مفعول أحصى بإضمار قد أو بدونها (وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) اللّه مبتدأ وعلى كل شيء متعلقان بشهيد وشهيد خبر اللّه (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه

حذف حرف العلة وأن واسمها وجملة يعلم خبرها وقد سدّت مسدّ مفعولي تر وما مفعول يعلم وفي السموات متعلقان بمحذوف صلة الموصول وما في الأرض عطف على ما في السموات (ما يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ لى الحال فالاستثناء مفرغ من أعمّ الأحوال ، ولا خمسة إلا هو سادسهم عطف على ما تقدم (وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) الواو عاطفة ولا نافية وأدنى عطف على لفظ نجوى وقرىء بالرفع عطفا على محلها وقيل على الابتداء ، ومن ذلك متعلق بأدنى ، ولا أكثر عطف على ولا أدنى وإلا أداة حصر وهو مبتدأ ومعهم ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر والجملة حالية على قراءة النصب أو العطف على المحل وخبر للمبتدأ على قراءة الرفع وأينما ظرف مكان متعلق بالاستقرار الذي تعلق به معهم أي مصاحب لهم بعلمه في أي مكان استقروا فيه وكانوا فعل وفاعل فهي كان التامة والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها لأن " ما " زيدت فيه ، ويجوز أن تكون ما مصدرية فتكون الجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول الحرفي (ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ثم

حرف عطف للترتيب وينبئهم فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على اللّه وبما في موضع المفعول الثاني وجملة عملوا لا محل لها ويوم القيامة متعلق بينبئهم وإن واسمها وخبرها .

البلاغة :

في قوله تعالى " ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم " فن الانفصال وقد تقدمت الإشارة إليه ونعيده هنا لإتمام الفائدة فنقول : هو فنّ فحواه أن يقول المتكلم كلاما يتوجه عليه فيه دخل فلا يقتصر عليه حتى يأتي بما ينفصل به عن ذلك إما ظاهرا أو باطنا يظهره التأويل ، فإن هذه الآية الكريمة يتوجه على ظاهرها عدد من الأسئلة منها :

1- لم ألغي فيها الابتداء بالإثنين وهي أول رتبة بين المتناجيين ؟

2- لم انتقل من الثلاثة إلى الخمسة وعدل عن الترتيب في الانتقال من الثلاثة إلى الأربعة ؟

3- لم لم يتجاوز الخمسة كما تجاوز الثلاثة ؟

4- لم لم يقل من نجوى ثلاثة ويقف عند ذلك ويستغني بقوله بعدها " ولا أدنى من ذلك ولا أكثر " فيتناول الأدنى من الاثنين والأكثر من الأربعة إلى ما لا نهاية له من الأعداد ؟

5- لم عدل عن الأوجز إلى الأطول مع توفية الأوجز بالمعنى المراد ؟ وقبل أن نبيّن الانفصال عن ذلك لا بدّ من ذكر لمحة تاريخية ينجلي بها الرين وقد اختلف في سبب نزولها فقيل : اجتمع المشركون جماعات على هذين العددين ثلاثة ثلاثة

وخمسة خمسة يتناجون في رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وهم يظنّون أن ذلك يخفى عنه فنزلت ليعلم اللّه نبيّه بحالهم .

وقيل : إنه اجتمع ثلاثة نفر من قريش وهم ربيعة وحبيب ابنا عمرو وصفوان بن أمية يوما كانوا يتحدثون فقال أحدهم : أترى اللّه يعلم ما نقول ؟ فقال الآخر : يعلم بعضا ولا يعلم بعضا وقال الثالث : إن كان يعلم بعضا فهو يعلم الكل فنزلت ، وقد صحّح أهل التفسير هذه الرواية الثانية .

(423/753)

و قال الزمخشري في الجواب عن بعض ما تقدم من الاعتراض على ظاهر الآية بعد نقل سبب النزول الذي ذكرناه أن البارئ عزّ وجلّ قصد وهو أعلم أن يذكر ما جرت به العادة من أعداد أهل النجوى وأهل الشورى والمندبون لذلك ليسوا كل الناس وإنما هم طائفة مجتباة من أهل النهي والأحلام ورهط من أولي التجارب والرأي وأول عددهم الاثنان فصاعدا إلى الستة على ما تقتضيه الحال ويحكم به الاستصواب ، ألا ترى أن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه ترك الشورى في ستة ولم يتجاوز بها إلى سابع ، هذا نص كلام الزمخشري حكيته بلفظه ، لم أغادر منه شيئا ، ولم تتبدل فيه لفظة بلفظة ، وأما ما حكاه من الرواية الأولى فلا

إشكال فيه ولا دخل عليه وأما الرواية الثانية التي وقع التصحيح فيها وهي مرويّة عن ابن عباس رضي اللّه عنه فيتوجه عليها الإشكال . وأما قول الزمخشري : إن الكلام جاء على عادة العرب في أهل النجوى وأهل الشورى لأن عدد هاتين الطائفتين لا يتجاوز الستة ، وأما استشهاده بقضية عمر وجعله الشورى في ستة وتأكيده ذلك بقوله :

ألا تراه لم يتجاوز بها معنى الشورى إلى سابع فما أدري من أين له ذلك ؟ وكيف تصحّ دعواه في أن عادة العرب إنما يكون أهل النجوى وأهل الشورى على هذين العددين دون سائر الأعداد ، وقد جاء القرآن

العزيز بخلاف ذلك قال اللّه تعالى في الإخبار عن أولاد يعقوب : " فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا " وكانوا عشرة فسمى سبحانه محاورتهم تناجيا ، وقال عزّ وجلّ حكاية عن ملأ فرعون وأسروا النجوى " إن هذان لساحران " وكانوا لا يحصون كثرة وقال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة " ومناجوا الرسول يحتمل أن يكونوا هم الاثنين فصاعدا إلى منتهى عدد الأمة ، فإن الخطاب لكافة المؤمنين والمناجون لم يحصر سبحانه عددهم في كمية معينة ، وقال سبحانه : " فلا تتناجوا بالإثم

والعدوان ومعصية الرسول " غير حاصر ذلك في عدد مضبوط وقال سبحانه : " وأمرهم شورى بينهم " لغير عدد معين ، وبعض هذه الآيات وإن نزلت في واقعة مخصوصة فقد أنزل اللّه معناها بلفظ العموم لتتناول كل الأمة فالحكم فيها عام ، وأما قضية عمر رضي اللّه عنه فمن المعلوم أنه لم يجعل الأمر شورى في تلك الستة مراعاة لهذا العدد وإنما راعى من يصلح للأمر فإن الستة الذين جعل الأمر فيهم هم أعيان الصحابة وأفضل من بقي بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وبعد الشيخين وأنه لا يجوز أن يخرج هذا الأمر عنهم ولا يتجاوزهم إلى غيرهم ولو كان الصلحاء لهذا الأمر أكثر من هذا العدد أو أقل لجعل الأمر فيهم ولم يقل نقصوا عن هذه العدّة أم زادوا عليها والذي يصلح أن يكون جوابا ينفصل به عن الإشكال المقرر في أول الكلام أن يقال : الذين صح نزول الآية فيهم هم الثلاثة الذين سمّاهم ابن عباس رضي اللّه عنهما ولما كان هذا العدد أعني الثلاثة هو المقصود بالآية ذكر مقدما فيها على العدد الأخير ليعلم أئمتهم به فإن المتكلم إذا كانت له عناية بشيء قدّم ذكره في كلامه على غيره في مثل هذه المعاني ، ثم ذكر الأدنى والأكثر ليرفع الاحتمال الذي قدّمناه وإذا كانت هذه هي الواقعة التي نزلت الآية بسببها سقط السؤال الأول الذي

قيل فيه : لم لم يذكر أول رتب المتناجين واستغنى بذكر الأدنى بعد ذكر الثلاثة ليتناول الاثنين أو الأكثر لتناول ما فوق الثلاثة .

والجواب عن قوله ما الفائدة في ذكر الخمسة بعد ذكر الثلاثة وقوله تعالى : " ولا أكثر " يغني عنها وعن غيرها إلى ما لا يتناهى أنه سبحانه أراد أن يعرّفنا كيفية التنقل في هذه الأعداد صاعدا من الثلاثة إلى الخمسة ليعلم أن الإشارة إلى جميع رتب الأعداد وأن كيفية التنقل في البقية ككيفية في الخمسة فإن قيل : فلم كان هذا التعريف بالأربعة التي ألفيت وكان ذكرها أولى لأن الانتقال من الثلاثة إلى الأربعة أصحّ من الانتقال من الثلاثة إلى الخمسة فإن مجيء العدد على ترتيب أصح من مجيئه على غير ترتيب وكان يحصل الغرض من تعريف كيفية الانتقال بذلك ؟ قلت : منع من ذلك أمران : أحدهما الخشية من مجيء نظم الكلام معيبا لثقله على النطق والسمع لبشاعة تكرار لفظ التربيع بغير حاجز تباعد أحد اللفظين عن الآخر فإنه لو قيل " إلا هو رابعهم " ولا أربعة ، لثقل الكلام لمجاورة لفظتين فيهما أربعة أحرف من حروف الحلق وهما العينان والهاءان وقد عاب الآمدي على أبي تمام مثل هذا في قوله :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي وإذا ما لمته لمته وحدي

وسمّاه معاظلة وهي أفظع العيوب التي نفاها عمر بن الخطاب عن شعر زهير حين وضعه وإن كان غير الآمدي قد عدّ المعاظلة غير هذا ، والأمر الثاني الذي منع من ذكر الأربعة

فرار ناظم الكلام البليغ من تكرار المعاني والألفاظ بغير فائدة ولو انتقل إلى الأربعة لتكرار الحكم فإن الحكم عليها قد جرى في الخمسة ، فإن الخمسة أربعة وزيادة فالأربعة داخلة فيها ، فما جرى عليها من الأحكام جرى على الأربعة ، وللفرار أيضا من ذكر الشفع والعدول عنه إلى ذكر الوتر من المزايا التي

يستوجب بها الذكر دون الشفع ما ليس لغيره وفي هذا الجواب الذي جاء عن السؤال الثاني جواب عن السؤال الثالث ، وأما الجواب عن السؤال الرابع وهو قوله : لم لم ينتقل من الخمسة إلى السبعة كما انتقل من الثلاثة إلى الخمسة وينتهي إلى ذلك الحد ولا يهمل هذا العدد المختص بخصائص أودعها اللّه تعالى فيه من أجلها جاء وفقه عدد السموات والأرض وأيام الدهر وأقاليم الأرض وأشياء لا يتّسع المكان لذكرها فنقول : كان المراد تعريف كيفية الانتقال وقد حصل ذلك بذكر الخمسة فإعادته في عدد آخر إطالة لا فائدة فيها قد استغني عنها بما قبلها ، ولو روعي للسبعة ما لها من الخصائص لوجب أن يراعى للتسعة ما لها من الخصائص أيضا وليس المراد من الآية التنبيه على خصائص الأعداد إنما المراد ما ذكرناه وإلا متى اعتبرت خصائص الأعداد وجدت الخمسة مختصّة بما لم يختصّ بها غيرها من

العدد ، فمن خصائصها التي انفردت بها أنها أول عدد جمع ثلاثة أوتار الواحد والثلاثة والخمسة ومنها أن عدد أوتارها وتر وهذا ليس لغيرها من جميع أعداد مرتبة الآحاد ولا ما بني على أصلها وتفرّع منه فإن الثلاثة إنما جمعت وترين وعدد أوتارها شفع كذلك ، والسبعة فإن جمعت أربعة أوتار فعدد أوتارها شفع وهي مركبة بالنسبة إلى الخمسة لأنها خمسة وزيادة والخمسة بسيطة بالنسبة إليها والبسيط أصل المركب والتسعة وإن جمعت أكثر من السبعة وجاء عدد أوتارها وترا فهي مركبة بالنسبة إلى السبعة التي هي مركبة بالنسبة إلى الخمسة فالخمسة بالنسبة إليها أصل الأصل ولما كانت بهذه المثابة كان ذكرها أولى من ذكر السبعة ووجب الإتيان به لينبّه على ما لها من الشرف والفضل دون غيرها ويجب الوقوف عندها ويقتصر في تعريف الانتقال عليها ، وبذلك يتحقق أن مجيء نظم الآية على ما جاء عليه أبلغ مما توهمه مورد السؤال ومفرد الإشكال .

وقال الكرخي : " وخصّ الثلاثة والخمسة بالذكر لأن قوما من

المنافقين تخلّفوا للتناجي وكانوا بعدّة العدد المذكور مغايظة للمؤمنين فنزلت الآية بصفة حالهم وتعريفا بهم ، أو لأن العدد المفرد أشرف من الزوج لأن اللّه تعالى وتر يحب الوتر

فخصّ العددان المذكوران بالذكر تنبيها على أنه لا بدّ من رعاية الأمور الإلهية في جميع الأمور ثم بعد ذكرهما زيد عليهما ما يعمّ غيرهما من المتناجين " .

وللخازن عبارة لطيفة نوردها فيما يلي استيفاء للبحث قال : " فإن قلت : لم خصّ الثلاثة والخمسة ؟ قلت : لأن أقل ما يكفي في المشاورة ثلاثة حتى يتم الغرض فيكون الاثنان كالمتنازعين في النفي والإثبات والثالث كالمتوسط الحاكم بينهما فحينئذ تحمد المشاورة ويتم الغرض وكذا كل جمع يجتمع للمشاورة لا بدّ من واحد يكون حكما بينهم مقبول القول ، وقيل إن العدد الفرد أشرف من الزوج فلهذا خصّ اللّه تعالى الثلاثة والخمسة " .

[سورة المجادلة (58) : الآيات 8 إلى 10]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9) إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10)

الإعراب :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ) كلام مستأنف مسوق لبيان نمط آخر من تناجيهم وتغامزهم فيما بينهم وهم اليهود والمنافقون كلما رأوا المؤمنين يريدون بذلك إثارتهم وإذكاء حفيظتهم وطالما نهاهم النبي صلّى اللّه عليه وسلم عن ذلك بيد أنهم لا يكادون ينتهون حتى يعودوا لمثل فعلهم. والهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاعل مستتر تقديره أنت وإلى الذين متعلقان بتر وجملة نهوا لا محل لأنها صلة الموصول ونهوا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل وعن النجوى متعلقان بنهوا، ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ويعودون فعل مضارع مرفوع، وعدل عن صيغة الماضي المناسبة للعطف لسر لطيف وهو استحضار صورة العود وتجدده وتجسيده، ولما متعلقان بيعودون وجملة نهوا صلة وعنه متعلقان بنهوا (وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ) الواو عاطفة ويتناجون فعل مضارع معطوف على يعودون، وفي صيغة المضارع ما تقدم آنفا من تجسيد واستحضار وتجدد، وبالإثم متعلقان بيتناجون والعدوان عطف على الإثم ومعصية الرسول عطف أيضا (وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ) الواو عاطفة وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن وجملة جاءوك في محل جر بإضافة الظرف إليها والواو فاعل والكاف مفعول به وجملة حيّوك لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم وبما متعلقان

بحيّوك أي خاطبوك ولم حرف نفي وقلب وجزم ويحيك فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والكاف مفعول به

و اللّه فاعل أي بما لم يشرّعه اللّه ويأذن به ، وفي المصباح : " وحيّاه تحية أصله الدعاء بالحياة ومنه التحيات للّه أي البقاء وقيل الملك ثم كثر حتى استعمل في مطلق الدعاء ثم استعمله الشرع في دعاء مخصوص وهو سلام عليك " (وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ) الواو عاطفة أو حالية ويقولون فعل مضارع والواو فاعل وفي أنفسهم حال ولولا حرف تحضيض أي هلّا ويعذبنا اللّه فعل مضارع ومفعول به مقدّم وفاعل مؤخر وبما متعلقان بيعذبنا وما مصدرية أي بقولنا ويجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف أي بالذي نقوله والجملة مقول القول (حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ) حسبهم مبتدأ وجهنم خبر وجملة يصلونها حال والفاء الفصيحة وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم والمصير فاعل والمخصوص بالذم محذوف أي هي (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ) إذا ظرف لما يستقبل من الزمن متضمن معنى الشرط وجملة تناجيتم في محل جر بإضافة الظرف إليها والفاء رابطة لجواب إذا ولا ناهية وتتناجوا فعل

مضارع مجزوم بلا والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وبالإثم متعلقان بتتناجوا والعدوان عطف على قوله بالإثم ومعصية الرسول عطف أيضا (وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) الواو عاطفة وتناجوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وبالبرّ متعلقان بتناجوا والتقوى عطف على البرّ، واتقوا اللّه فعل أمر وفاعل ومفعول به والذي صفة للّه وإليه متعلقان بتحشرون وتحشرون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة لا محل لأنها صلة الموصول (إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا) إنما كافّة ومكفوفة والنجوى

مبتدأ ومن الشيطان خبر واللام لام التعليل ويحزن فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام واللام ومجرورها خبر ثان، ويقال حزنه وأحزنه بمعنى، والذين مفعول به وجملة آمنوا لا محل لها

لأنها صلة وقيل إن الموصول فاعل يحزن (وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) الواو حالية وليس فعل ماض ناقص واسمها مستتر تقديره هو والباء حرف جر زائد وضارّهم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ليس وشيئا مفعول مطلق أي شيئا من الضرر وإلا أداة

حصر وبإذن اللّه متعلقان بضارّهم (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) الواو عاطفة وعلى اللّه متعلقان بيتوكل.

[سورة المجادلة (58) : الآيات 11 إلى 13]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (13)

اللغة:

(تَفَسَّحُوا) توسعوا ولا تتضايقوا وفي الأساس: "افسحوا لأخيكم في المجلس وتفسحوا له وأما لك في هذا المكان منفسح".

(انْشُزُوا) انهضوا للتوسعة على المقبلين وفيه الأساس: "علوت

نشزا من الأرض ونشزا وأنشازا ، ونشز الشيء ارتفع ونشز عن مكانه ارتفع ونهض وإذا قيل انشزوا فانشزوا وأنشزه رفعه من مكانه " وللنون مع الشين فاء وعينا خاصة عجيبة وهي الدلالة على السرعة والارتفاع يقال :

أنشأ اللّه الخلق فنشئوا وأنشأ قصيدة وشعرا وعمارة وأنشأ يفعل كذا ومن أين نشأت وأنشأت أي نهضت ، ونشب العظم في الحلق والصيد في الحبالة ومخالب الجارح في الأخيذة وتنشب وأنشب فيه مخالبه ورماه بنشابة وتراموا بالنّشّاب والنشاشيب وفي جميع ذلك يبدو معنى السرعة واضحا ونشب الشر والحرب بينهم نشوبا ولم ينشب أن قال بمعنى ما لبث ، ونشج الباكي نشيجا وهو الغصص بالبكاء وارتفاعه وتردده في الصدر ، وأنشدني شعرا إنشادا حسنا لأن المنشد يرفع بالمنشد صوته ، ونشر الثواب والكتاب ونشّر الثياب والكتب وصحف منشّرة وملاء منشّر ونشر اللّه الموتى نشرا وله نشر طيب وهو ما انتشر وارتفع من رائحته قال المرقش يصف نساء :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكفّ عنم

ونشّ اللحم في المقلاة نشيئا والخمر تنش إذا أخذت تغلي ، ورجل نشيط طيب النفس للعمل مسرع فيه ، ونشع الصبي الدواء وأنشعه أوجره فانتشعه والإسراع ملحوظ فيه وإنه لمنشوع بأكل اللحم إذا كان مشغوفا به ، ونشف الماء بنفسه أسرع في النضوب ، ونشق الظبي في الحبالة نشب فيها وقد مرّ معنى ذلك واستنشقت الريح وتنشقتها قال المتلمس :

فلو أن محموما بخيبر مدنفا تنشّق رياها لأقلع صالبه

ونشل اللحم من القدر بالمنشل والمنشال وهو حديدة في رأسها

عقّافة، ونشّم اللحم أسرع إليه الفساد وأروح قال علقمة:

وقد أصاحب فتيانا طعامهم خضر المزاد ولحم فيه تنشيم

أي يطعمون الماء المطحلب واللحم المروح، غلّب فقال طعامهم، ونشّموا في الشر ودقوا

بينهم عطر منشم قال زهير:

تداركتما عبسا وذبيان بعد ما تفانوا ودقّوا بينهم عطر منشم

ورجل نشوان أسرعت النشوة إليه وامرأة نشوى وقوم نشاوى ونشيت منه رائحة طيبة

واستنشيت وهذا من عجائب ما تتميز به اللغات.

الإعراب:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ) إذا ظرف

لما يستقبل من الزمن متضمن معنى الشرط وجملة قيل في محل جر بإضافة الظرف إليها

ولكم متعلقان بقيل وتفسحوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وجملة تفسحوا

مقول القول وفي المجالس متعلقان بتفسحوا والفاء رابطة لجواب الشرط غير الجازم والجملة لا محل لها وافسحوا فعل أمر والواو فاعل ويفسح فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الأمر الواقع جوابا للشرط والله فاعل ولكم متعلقان بيفسح والمراد بالمجالس مجالس رسول الله صلّى الله عليه وسلم وقرىء بالإفراد أي في المجلس وقيل هو المجلس من مجالس القتال ومراكز الغزاة وقيل هو مطلق في كل ما يبتغيه الناس للمنفعة وفي كل مجلس أو ناد وهو الأولى والأقرب لأسلوب القرآن الكريم في تعليم الأدب الرفيع (وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ) الواو عاطفة، وإذا قيل انشزوا فانشزوا: تقدم إعراب نظيرها، ويرفع فعل مضارع مجزوم لأنه جواب

الطلب والله فاعل والذين مفعول به وجملة آمنوا صلة والذين معطوف على الذين الأولى أو هو منصوب بفعل مضمر تقديره ويخصّ الذين أوتوا العلم وجملة أوتوا صلة وأوتوا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والعلم مفعول به ثان ومنكم حال ودرجات ظرف أو منصوب بنزع الخافض (وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) الواو استئنافية والله مبتدأ وبما تعملون متعلقان بخبير وخبير خبر إن (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ

صَدَقَةً) إذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة ناجيتم في محل جر بإضافة الظرف إليها وناجيتم فعل وفاعل والرسول مفعول به والفاء رابطة وقدّموا فعل أمر والواو فاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وبين ظرف متعلق بقدّموا ويدي مضاف إليه وعلامة جرّه الياء ونجواكم مضاف ليدي وصدقة مفعول به لقدموا وسيأتي مزيد بحث في باب البلاغة حول هذه الآية (ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ) ذلك مبتدأ والإشارة إلى تقديم الصدقة على المناجاة وخير خبر ولكم متعلقان بخير وأطهر عطف على خير (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) الفاء عاطفة وإن شرطية ولم حرف نفي وقلب وجزم وتجدوا فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون وهو فعل الشرط والفاء رابطة لجواب محذوف أي فلا تثريب عليكم وجملة إن اللّه غفور رحيم تعليل لرفع الحرج والتثريب (أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ) الهمزة للاستفهام التقريري وأشفقتم فعل وفاعل أي أخفتم وأن وما في حيّزها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض أي من أن تقدموا والجار والمجرور متعلقان بأشفقتم وقيل مفعول من أجله ومفعول تقدموا هو صدقات ومفعول أشفقتم محذوف (فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ

آتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) الفاء استئنافية وإذ فيها أقوال : 1- أنها ظرف لما مضى من الزمن والمعنى أنكم تركتم ذلك فيما مضى فتداركوه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاء . 2- أنها ظرف بمعنى إذا كقوله تعالى : " إذ الأغلال في أعناقهم " وقد تقدم القول فيها مبسوطا فارجع إليها إن شئت . 3- أنها بمعنى إن الشرطية .

ولم حرف نفي وقلب وجزم وتفعلوا فعل مضارع مجزوم بلم ، وتاب الواو حالية أو استئنافية أو اعتراضية والجملة معترضة بين الشرط وجوابه وتاب اللّه فعل وفاعل وعليكم متعلقان بتاب والفاء رابطة وأقيموا الصلاة فعل أمر وفاعل ومفعول به وآتوا الزكاة عطف على فأقيموا الصلاة وكذلك قوله وأطيعوا اللّه ورسوله (وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ) ابتداء وخبر وجملة تعملون صلة ما والجار والمجرور متعلقان بخبير .

البلاغة :

1- في قوله تعالى " يرفع اللّه الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " تعميم ثم تخصيص وتفصيل ذلك أن الجزاء برفع الدرجات هنا مناسبة للعمل لأن المأمور به تفسيح المجالس كيلا يتنافسوا في القرب من المكان الرفيع حوله صلّى اللّه عليه وسلم فيتضايقوا وذلك لا يليق بآداب المجلس التي من أولها تفادي إزعاج المجالسين وترنيق صفوهم ، واجتناب ما يكدّر صفاءهم وينغص بالهم ، ولما كان المتمثّل لذلك الأمر يخفض نفسه عمّا يتنافس فيه من الرفعة امتثالا وتواضعا جوزي على تواضعه برفع الدرجات ، ثم لما علم أن

أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم خصّهم بالذكر عند الجزاء ليسهّل عليهم ترك ما لهم من الرفعة في المجلس تواضعا للّه تعالى ، وفي هذا التخصيص إلماع إلى فضل العلم ، وحسبنا أن نورد حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه وهو أنه كان إذا تلا هذه الآية قال :

يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم ، وعنه صلّى اللّه عليه

(435/753)

وسلم : " بين العالم والعابد مائة درجة ما بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة " وعنه عليه الصلاة والسلام " يشفع يوم القيامة ثلاثة :

الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء " فأعظم بمرتبة بين النبوّة والشهادة ، وعن الأحنف : كاد العلماء يكونون أربابا وكل عزّ لم يوطد بعلم فإلى ذلك ما يصير .

وما دمنا بصدد العلم ودرجته السامية فلا بدّ من الإشارة إلى نكتة بليغة وهي أنه قرن حين خصّ العلماء برفع الدرجات لما جمعوا بين العلم والعمل فإن العلم مع سموّ درجته وأنافة مرتبته يقتضي العمل المقرون به .

2- وفي قوله " بين يدي نجواكم " استعارة ممّن له يدان وقد تقدم تحقيق هذه الاستعارة في آية

الحجرات فجدّد بها عهدا .

[سورة المجادلة (58) : الآيات 14 إلى 17]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (15) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (16) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (17)

الإعراب :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) كلام مستأنف

مسوق للتعجب من حال المنافقين الذين كانوا يتخذون اليهود أولياء يناصحونهم ويفشون إليهم بأسرار المؤمنين وقال السدي : بلغنا أنها نزلت في عبد اللّه بن نفيل من المنافقين ، والهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاعل مستتر تقديره أنت وإلى الذين متعلقان بتر وجملة تولوا صلة لا محل لها والواو فاعل وقوما مفعول به وجملة غضب اللّه عليهم نعت لقوما (ما هُمْ

مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ) الجملة مستأنفة أو صفة ثانية لقوما أو حال من فاعل تولوا وما نافية حجازية وهم اسمها ومنكم خبرها ، ولا الواو حرف عطف ولا نافية ومنهم عطف على منكم (وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) الواو عاطفة ويحلفون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والجملة معطوفة على تولوا فهي داخلة في حيّز الصلة وعلى الكذب حال والواو حالية وهم مبتدأ وجملة يعلمون خبرهم والجملة حال (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) فعل وفاعل ومفعول به وإن واسمها وخبرها (اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) الجملة مستأنفة أو صفة ثالثة لقوما أو حال واتخذوا فعل ماض والواو فاعل وأيمانهم مفعول به أول وجنة مفعول به ثان لاتخذوا أي سترا ووقاية لأنفسهم وأموالهم ، فصدّوا الفاء عاطفة وصدّوا فعل ماض وفاعل وعن سبيل اللّه متعلقان بصدّوا (فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ) الفاء عاطفة ولهم خبر مقدّم وعذاب مبتدأ مؤخر ومهين نعت لعذاب أي ذو إهانة (لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً) لن حرف نفي ونصب واستقبال وتغني فعل مضارع منصوب بلن وعنهم متعلقان بتغني وأموالهم فاعل ولا أولادهم عطف على أموالهم ومن اللّه متعلقان بتغني على حذف مضاف أي من عذاب اللّه ، وشيئا

مفعول مطلق أي قليلا من الإغناء (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

أولئك مبتدأ وأصحاب النار خبره وهم مبتدأ وفيها متعلقان بخالدون وخالدون خبرهم .

البلاغة :

ذكر علماء البلاغة في حدّ الصدق والكذب أقوالا أربعة :

1- أن الصدق مطابقة حكم الخبر للواقع والكذب عدم مطابقته له ولو كان الاعتقاد بخلاف ذلك في الحالين .

2- وهو للنظام من كبار المعتزلة : أن الصدق المطابقة لاعتقاد المخبر ولو خطأ والكذب عدم مطابقته للاعتقاد ولو صوابا وما الاعتقاد معه على هذا القول داخل في الكذب لا واسطة .

3- وهو للجاحظ أحد شيوخ المعتزلة أيضا : أن الصدق المطابقة للخارج مع اعتقاد المخبر المطابقة والكذب عدم المطابقة للواقع مع اعتقاد عدمها وما عدا ذلك ليس بصدق ولا كذب أي واسطة بينهما ، وهو أربع صور : المطابق ولا اعتقاد لشيء والمطابق مع اعتقاد عدم المطابقة وغير المطابق مع اعتقاد المطابقة وغيره ولا اعتقاد .

4- وهو للراغب ، وهو مثل قول الجاحظ غير أنه وصف الصور الأربع بالصدق والكذب باعتبارين فالصدق باعتبار المطابقة للخارج أو للاعتقاد والكذب من حيث انتفاء

المطابقة للخارج أو للاعتقاد .

هذا واستدل النظام بقوله تعالى : " إن المنافقين لكاذبون " أي في قولهم : " إنك لرسول الله " لعدم مطابقته لاعتقادهم وردّ استدلاله بأن المراد لكاذبون في الشهادة أي في ادّعائهم مواطأة القلب للسان لتضمن قولهم : إنك إلخ . . . شهادتنا من صميم القلب وهذا كذب .

(438/753)

واستدلّ الجاحظ بقوله تعالى : " افترى على الله كذبا أم به جنة " لأن الإخبار حال الجنة غير الكذب لأنه قسيمه وغير الصدق لأنهم يعتقدون عدم صدقه فثبتت الواسطة ورد بأن المعنى أم لم يفتر فعبّر عن عدم الافتراء بالجنة من جهة أن المجنون لا افتراء له لأن الافتراء الكذب عن عمد فهذا حصر للخبر الكاذب بزعمهم في نوعيه أي الكذب عن عمد ولا عن عمد .

[سورة المجادلة (58) : الآيات 18 إلى 22]

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ (18) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ (19) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ

(20) كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21) لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)

اللغة:

(اسْتَحْوَذَ) استولى وغلب من حاذ الحمار العانة أي جمعها وساقها غالبا لها ومنه كان أحوذيا نسيج وحده، وهو أحد ما جاء على الأصل نحو استصوب واستنوق يعني على خلاف القياس فإن القياس استحاذ بقلب الواو ألفا كاستعاذ واستقام ولكن استحوذها هنا أجود.

(يُحادُّونَ) يخالفون.

الإعراب:

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ) يوم منصوب بفعل محذوف تقديره اذكر والجملة مستأنفة وجملة يبعثهم في محل جر بإضافة الظرف إليها والله فاعل يبعثهم وجميعا حال والفاء عاطفة ويحلفون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وله متعلقان بيحلفون وكما نعت لمصدر محذوف وجملة يحلفون لا محل لها لأنها صلة الموصول الحرفي ولكم متعلقان بيحلفون (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ) الواو حالية وجملة يحسبون حال من الواو في يحلفون له أي والحال أنهم يحسبون في الآخرة أن حلفهم فيها يجديهم من عذابها ، وأن وما بعدها في تأويل مصدر سدّت مسدّ مفعولي يحسبون وعلى شيء خبر أنهم وألا أداة استفتاح وتنبيه وإن واسمها وهم ضمير متصل أو مبتدأ والكاذبون خبر إنهم على الأول وخبرهم على الثاني والجملة خبر إنهم (اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ) كلام مستأنف مسوق لبيان استيلاء الشيطان عليهم حتى جعلهم أتباعه ورعيته ، وعليهم متعلقان باستحوذ والشيطان فاعله ، فأنساهم عطف على استحوذ والهاء مفعول به أول وذكر الله مفعول به ثان (أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ) أولئك

مبتدأ وحزب الشيطان خبر وألا أداة استفتاح وتنبيه وإن واسمها وهم ضمير فصل أو مبتدأ والخاسرون خبر على الحالين كما تقدم (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ) إن واسمها وجملة يحادون صلة والّله مفعول به ورسوله عطف على الّله وأولئك مبتدأ وفي الأذلين خبر أولئك والجملة خبر إن (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) كتب الّله فعل وفاعل وقد تضمن فعل كتب معنى القسم واللام جواب له وأغلبنّ فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وأنا تأكيد لفاعل أغلبنّ المستتر ورسلي عطف على الضمير وإن واسمها وخبراها والجمل لا محل لها (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) قال الزمخشري: "من باب التخييل خيّل أن من الممتنع المحال أن تجد قوما مؤمنين يوالون المشركين والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون ذلك وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملابسته والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم" ولا نافية وتجد فعل مضارع مرفوع والفاعل مستتر تقديره أنت وقوما مفعول به أول وجملة يؤمنون بالّله واليوم الآخر نعت لقوما وجملة يوادّون مفعول ثان لتجد إن كان بمعنى تعلم وإن كان بمعنى تصادف فالجملة حال أو صفة ثانية لقوما ويوادّون فعل وفاعل ومن مفعول به وجملة حاد الّله صلة لا محل لها وحاد الّله فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به ورسوله عطف على الّله (وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) الواو حالية ولو شرطية وكان واسمها

وآباءهم خبرها وما بعده عطف عليه وسيأتي سر الترتيب في باب البلاغة (أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ

(441/753)

الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) أولئك مبتدأ وجملة كتب خبر وفي قلوبهم متعلقان بكتب والإيمان مفعول به وأيدهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به وبروح متعلقان بأيدهم ومنه صفة لروح

(وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا)

الواو عاطفة ويدخلهم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وجنات مفعول به ثان على السعة وجملة تجري من تحتها الأنهار نعت لجنات وخالدين حال وفيها متعلقان بخالدين

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) رضي فعل ماض والله فاعل وعنهم متعلقان برضي ورضوا عنه عطف على ما تقدم . وأولئك مبتدأ وحزب الله خبر وألا أداة استفتاح وتنبيه وإن واسمها وهم ضمير فصل أو مبتدأ والمفلحون خبر وقد تقدم أمثال هذا كثيرا .

البلاغة :

في قوله " ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم " روعي ترتيب عجيب فقد

بدأ أولا بالآباء لأنهم أدعى إلى الاهتمام بهم لوجوب إخلاص الطاعة لهم ومع ذلك نهاهم عن موادّتهم قال تعالى :

" وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا "

وثنى بالأبناء لأنهم أعلق بحبات القلوب ، ثم ثلث بالإخوان لأنهم هم المثابة عند الحاجة والناصر عند نشوب الأزمات كما قيل :

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساع إلى الهيجا بغير سلاح

ثم ربع بالعشيرة لأنها المستغاث في الشدائد وهي الموئل والمفزع في النوائب وهم المسرعون إلى النجدة قال :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

(442/753)

والمقصود في الآية أبا عبيدة لأنه قتل أباه يوم أحد ، وأبا بكر لأنه دعا ابنه للبراز يوم بدر فأمره رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بالقعود ، ومصعب بن عمير لأنه قتل أخاه أبا عزيز يوم أحد ، وعليّا وغيره ممّن قتلوا عشائرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 31.5﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والخمسون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والخمسون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الحشر)

(4/754)

(سورة الحشر)

(5/754)

" فصل في مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الحشر

مقصودها بيان ما دل عليه آخر المجادلة من التنزه عن شوائب النقص بإثبات القدرة الشاملة بدليل شهودي على أنه يغلب هو ورسله ، ومن حاده في الأذلين ، لأنه قوي عزيز ، المستلزمة للعلم التام المستلزم الحكمة البالغة المستلزمة للحشر المظهر لفلاح المفلح وخسار

الخاسر على زجه الثبات الكاشف أتم كشف لجميع صفات الكمال ، وأدل ما فيها على ذلكط تأمل قصة بني النضير المعلم بأول الحشر المؤذن بالحشر الحقيقي بالقدرة عليه بعد إطباق الولي والعدو على ظن أنه لا يكون ، فلذا سميت الحشر وبني النضير لأنه سبحانه وتعالى حشرهم بقدرته من المدينة الشريفة إلى خيبر والشام والحيرة ثم حشرهم وغيرهم من اليهود الحشر الثاني من خيبر إلى الشام الذي هو آية الحشر الأعظم إلى أرض الحشر لقهر هذا النبي الكريم أهل الكتاب المدعين لأنهم أفضل الناس وأنهم مؤيدون بما لهم من الدين الذي أصله قويم بما لوحت إليه الحديد كما قهر أهل الأوثان الذين هم عالمون بأنهم بدلوا الدين الصحيح فثبتت بظهور دينه على كل دين على حد سواء كما وعد به سبحانه صدقه في كل ما جاء به بعد التوحيد - الإيمان بالبعث الآخر لأنه محط الحكمة وموضع إظهار النقمة والرحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 7 صـ 509﴾

(6/754)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . سبح . . . الحشر)

السّورة مدنيّة بالاتِّفاق.

آياتها أَربع وعشرون.

كلماتها أَربعمائة وخمس وأَربعون.

حروفها أَلف وتسعمائة وثلاث عشرة.

فواصل آياتها (مَن برّ) على الباءِ آيتان: العقاب فى موضعين.

سمّيت سورة الحشر؛ لقوله: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾.

معظم مقصود السّورة: الخبر عن جلاءِ بنى النَّضير، وقَسْم الغنائم، وتفصيل حال المهاجرين والأَنصار، والشكاية من المنافقين فى واقعة قُرَيظة، وذكر بَرْصِيصاء العابد، والنّظر إِلى العواقب، وتأْثير نزول القرآن، وذكر أَسماءِ الحقّ تعالى وصفاته، وبيان أَنَّ جملة الخلائق فى تسبيحه وتقديسه فى قوله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ إِلى آخر السّورة.

ليس فيها منسوخ.

المتشابهات

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ﴾ وبعده: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ﴾ بغير واو؛ لأَنَّ الأَوّل معطوف على قوله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ﴾ والثّانى استئناف ليس له به تعلّق.

وقول من قال: إِنَّه بدل من الأَوّل مزيّف عند أَكثر المفسّرين.

قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وبعده: ﴿قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لأَنَّ الأَوّل متّصل بقوله:

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ﴾ لأَنَّهم يرون الظَّاهر ، ولا يفقهون على ما استتر عليهم ، والفقه معرفة ظاهر الشيء وغامضه بسرعة فِطنة ، فنَفَى عنهم ذلك .

والثانى متَّصل بقوله : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ أَى لو عَقَلوا لاجتمعوا على الحقِّ ، ولم يتفرّقوا .

فضل السّورة

فيه أَحاديث منكَرة ، منها حديث أُبىّ : مَن قرأَ سورة الحشر لم يبق جنَّة ، ولا نار ، ولا عَرْش ، ولا كُرْسىّ ، ولا حجاب ، ولا السّموات السّبع ، والأَرضون السّبع ، والهوامّ ، والرِّيح ، والطَّير ، والشجر ، والدّواب ، والجبال والشمس ، والقمر ، والملائكة - إِلاَّ صَلَّوْا عليه .

(7/754)

فإِن مات مِن يومه أَو ليلته مات شهيداً ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها قال الله عز وجلّ له يوم القيامة : عبدى استظِلّ بظلّ عرشى ، وكُلْ من من ثمار جنّتى [حتى] أَفرغ إِليك . فإِذا فرغ الله عزّ وجلّ من حساب الخلائق وَجّهه إِلى الجنَّة ، فيتعجّب منه أَهل الموقف .

وله بكل آية قرأها مثل ثواب إسحاق وإبراهيم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 458.459﴾

(8/754)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة:

سورة الحشر

435 - مسألة:

قوله تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) قدم الغيب على الشهادة؟

جوابه:

لأن علم الغيب أمدح، لأن الغيب عنا أكثر من المشاهدة، ولأنه تعالى يعلمه قبل أن يكون. انتهى انتهى. ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 354.355﴾

(9/754)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الحشر

اشتهرت تسمية هذه السورة (سورةَ الحشر) . وبهذا الاسم دعاها النبي (صلى الله عليه وسلم)

روى الترمذي عن معقل بن يسار (قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر) الحديث ، أي الآيات التي أولها) هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ((الحشر : 22) إلى آخر السورة .

وفي (صحيح البخاري) عن سعيد بن جُبَير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر قال : (قل بني النضير) ، أي سورة بني النضير فابن جُبَير سماها باسمها المشهور . وابن عباس يسميها سورة بني النضير . ولعله لم يبلغه تسمية النبي (صلى الله عليه وسلم) إياها (سورة الحشر) لأن ظاهر كلامه أنه يرى تسميتها (سورة بني النضير) لقوله لابن جُبَير (قل بني النضير) .

وتأول ابن حَجر كلام ابن عباس على أنه كره تسميتها ب (الحشر) لئلا يُظن أن المراد بالحشر يوم القيامة . وهذا تأول بعيد . وأحسن من هذا أن ابن عباس أراد أن لها اسمين ،

وأن الأمر في قوله : قُل ، للتخيير .

فأما وجه تسميتها (الحشر) فلوقوعِ لفظ) الحشر ((الحشر : 2) فيها . ولكونها ذكر

(10/754)

فيها حشر بني النضير من ديارهم أي من قريتهم المسماة الزهرة قريباً من المدينة . فخرجوا إلى بلاد الشام إلى أريحا وأذرعات ، وبعضُ بيوتهم خرجوا إلى خيبر ، وبعض بيوتهم خرجوا إلى الحِيرة .

وأما وجه تسميتها (سورة بني النضير) فلأن قصة بني النضير ذُكرت فيها .

وهي مدنية بالاتفاق . وهي الثامنة والتسعون في عداد نزول السور عند جابر بن زيد . نزلت بعد سورة البيّنة وقبل سورة النصر .

وكان نزولها عقب إخراج بني النضير من بلادهم سنة أربع من الهجرة . وعدد آيها أربع وعشرون باتفاق العادّين .

أغراض هذه السورة

وقع الاتفاق على أنها نزلت في شأن بني النضير ولم يعينوا ما هو الغرض الذي نزلت فيه .

ويظهر أن المقصد منها حكم أمْوال بني النضير بعد الانتصار عليهم ، كما سنبينه في تفسير الآية الأولى منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 28 صـ 62.63 ﴾

(11/754)

وقال الشيخ سيد قطب :

مقدمة لسورة الحشر

نزلت هذه السورة في حادث بني النضير - حي من أحياء اليهود - في السنة الرابعة من الهجرة . تصف كيف وقع ? ولماذا وقع ? وما كان في أعقابه من تنظيمات في الجماعة الإسلامية . . ترويها بطريقة القرآن الخاصة , وتعقب على الأحداث والتنظيمات بطريقة القرآن كذلك في تربية تلك الجماعة تربية حية بالأحداث والتوجيهات والتعقيبات .

وقبل أن نستعرض النصوص القرآنية في السورة , نعرض شيئًا مما ذكرته الروايات عن ذلك الحادث الذي نزلت السورة بشأنه ; لنرى ميزة العرض القرآني , وبعد آماده وراء الأحداث التي تتنزل بشأنها النصوص , فتفي بمقتضيات الأحداث , وتمتد وراءها وحولها في مجالات أوسع وأشمل من مقتضيات تلك الأحداث المحدودة بالزمان والمكان .

(12/754)

كانت وقعة بني النضير في أوائل السنة الرابعة من الهجرة بعد غزوة أحد وقبل غزوة الأحزاب . ومما يذكر عنها أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذهب مع عشرة من كبار أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلي - رضي الله عنهم - إلى محلة بني النضير , يطلب منهم المشاركة في أداء دية قتيلين بحكم ما كان بينه وبينهم من عهد في أول مقدمه على المدينة . فاستقبله يهود بني النضير بالبشر والترحاب ووعدوا بأداء ما عليهم , بينما كانوا يدبرون أمرا لاغتيال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومن معه . وكان (صلى الله عليه وسلم) جالسا إلى جدار من بيوتهم . فقال بعضهم لبعض: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه . فمن رجل منكم يعلو هذا البيت , فيلقي عليه صخرة , فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب . فقال: أنا لذلك . فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال . فألهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما يبيت اليهود من غدر . فقام كأنما ليقضي أمرا . فلما غاب استبطأه من معه , فخرجوا من المحلة يسألون عنه , فعلموا أنه دخل المدينة .

وأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالتهيؤ لحرب بني النضير لظهور الخيانة منهم , ونقض عهد الأمان الذي بينه وبينهم . وكان قد سبق هذا إقذاع كعب بن الأشرف - من بني النضير - في هجاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتأليبه الأعداء عليه . وما

قيل من أن كعبا ورهطا من بني النضير اتصلوا بكفار قريش اتصال تآمر وتحالف وكيد ضد النبي (صلى الله عليه وسلم) مع قيام ذلك العهد بينهم وبينه . مما جعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يأذن لمحمد بن مسلمة في قتل كعب بن الأشرف . فقتله .

(13/754)

فلما كان التبييت للغدر برسول الله في محلة بني النضير لم يبق مفر من نبذ عهدهم إليهم .

وفق القاعدة الإسلامية:(وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) . فتجهز رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحاصر محلة بني النضير , وأمهلهم ثلاثة أيام - وقيل عشرة - ليفارقوا جواره ويجلوا عن المحلة على أن يأخذوا أموالهم , ويقيموا وكلاء عنهم على بساتينهم ومزارعهم . ولكن المنافقين في المدينة - وعلى رأسهم عبدالله بن أبي بن سلول رأس النفاق - أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض والمقاومة , وقالوا لهم:أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم . وإن قوتلتم قاتلنا معكم , وإن أخرجتم خرجنا معكم .

وفي هذا يقول الله تعالى:(ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب:لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا , وإن قوتلتم لننصرنكم

والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم , ولئن قوتلوا لا ينصرونهم , ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله , ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . . .) .

فتحصن اليهود في الحصون ; فأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقطع نخيلهم والتحريق فيها . فنادوه:أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه:فما بال قطع النخيل وتحريقها ? وفي الرد عليهم نزل قوله تعالى:(ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين) . .

ولما بلغ الحصار ستا وعشرين ليلة , يئس اليهود من صدق وعد المنافقين لهم , وقذف الله في قلوبهم الرعب , فسألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يجليهم ويكف عن دمائهم , كما سبق جلاء بني قينقاع - وقد ذكرنا سببه وظروفه في تفسير سورة الأحزاب في الجزء الحادي والعشرين - على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم

(14/754)

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ

الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (2) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (3) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (4)

إلا السلاح . فأجابهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل . فكان الرجل منهم يهدم بيته عن خشبة بابه فيحمله على ظهر بعيره ; أو يخربه حتى لا يقع في أيدي المسلمين ; وكان المسلمون قد هدموا وخربوا بعض الجدران التي اتخذت حصونا في أيام الحصار .

وفي هذا يقول الله في هذه السورة: (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله , فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا , وقذف في قلوبهم الرعب , يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين , فاعتبروا يا أولي الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) . .

وكان منهم من سار إلى خيبر , ومنهم من سار إلى الشام . وكان من أشرافهم ممن سار إلى خيبر سلام بن أبي الحقيق , وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق , وحي بن أخطب , ممن ورد ذكرهم بعد ذلك في تأليب المشركين على المسلمين في غزوة الأحزاب ووقعة بني قريظة "في سورة الأحزاب" وكان لبعضهم كذلك ذكر في فتح خيبر "في سورة الفتح" .

وكانت أموال بني النضير فيئًا خالصا لله وللرسول ; لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا جمال . فقسمها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على المهاجرين خاصة دون الأنصار عدا رجلين من الأنصار فقيرين هما سهل بن حنيف , وأبو دجانة سماك بن خرشة . وذلك أن المهاجرين لم يكن لهم مال بعد الذي تركوه في مكة وتجردوا منه كله لعقيدتهم . وكان الأنصار قد أنزلوهم دورهم وشاركوهم مالهم في أريحية عالية , وأخوة صادقة , وإيثار عجيب . فلما واتت هذه الفرصة سارع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لإقامة الأوضاع الطبيعية في المجتمع الإسلامي , كي يكون للفقراء مال خاص , وكي لا يكون المال متداولا في الأغنياء وحدهم . ولم يعط من الأنصار إلا الفقيرين اللذين يستحقان لفقرهما .

.

وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم - والراجح أنهم من المنافقين - فقال تعالى: (وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب , ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير) . .

وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) للأنصار : " إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة . وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم , ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة " فقالت الأنصار : بل نقسم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها .

(16/754)

وفي هذا نزل قوله تعالى : للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا , وينصرون الله ورسوله , أولئك هم الصادقون . والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا , ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

فهذا هو الحادث الذي نزلت فيه هذه السورة , وتعلقت به نصوصها , بما في ذلك خاتمة السورة التي يتوجه فيها الخطاب للذين آمنوا ممن شهدوا هذا الحادث وممن يعرفونه بعد ذلك . على طريقة القرآن في تربية النفوس بالأحداث وبالتعقيب عليها , وربطها بالحقائق الكلية الكبيرة . . ثم الإيقاع الأخير في السورة بذكر صفات الله الذي يدعو الذين آمنوا ويخاطبهم بهذا القرآن . وهي صفات ذات فاعلية وأثر في هذا الكون ; وعلى أساس تصور حقيقتها

يقوم الإيمان الواعي المدرك البصير .

وتبدأ السورة وتختتم بتسبيح الله الذي له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم .

فيتناسق البدء والختام مع موضوع السورة , ومع دعوة المؤمنين للتقوى والخشوع والتفكر في تدبير الله الحكيم .

والآن نسير مع النصوص القرآنية لنرى كيف تصور الأحداث , وكيف تربي النفوس بهذه الأحداث . . انتهى انتهى . اهـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3518. 3521﴾

(17/754)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الحشر

مدنية وآياتها أربع وعشرون آية

بين يدي السورة

* سورة الحشر مدنية وهي تعنى بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية ، والمحور الرئيسي الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن (غزوة بنى النضير) وهم اليهود الذين نقضوا العهد مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) فأجلاهم عن المدينة المنورة ،

ولهذا كان ابن عباس يسمي هذه السورة (سورة بنى النضير) وفي هذه السورة الحديث عن المنافقين، الذين تحالفوا مع اليهود، وبإيجاز هي سورة " الغزوات والجهاد " والفيء والغنائم، وأخبار اليهود.

* ابتدأت السورة الكريمة بتنزيه الله وتمجيده، فالكون كله بما فيه من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد، شاهد بوحدانية الله، وقدرته وجلاله، ناطق بعظمته وسلطانه [سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم] الآيات.

* ثم ذكرت السورة بعض آثار قدرته، ومظاهر عزته، بإجلاء اليهود من ديارهم وأوطانهم، مع ما كانوا فيه من الحصون والقلاع، وقد كانوا يعتقدون أنهم في عزة ومنعة، لا يستطيع أحد عليهم، فجاءهم بأس الله وعذابه من حيث لم يكن في حسابهم [هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . .] الآيات.

* ثم تناولت السورة موضوع الفيء والغنيمة، فبينت شروطه وأحكامه، ووضحت الحكمة من تخصيص الفيء بالفقراء، لئلا يستأثر به الأغنياء، وليكون هناك بعض التعادل بين طبقات المجتمع، بما فيه خير الفريقين، وبما يحقق المصلحة العامة [ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين . .] الآيات.

* وتناولت السورة أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالثناء العاطر ، فنوهت بفضائل المهاجرين ، ومآثر الأنصار ، فالمهاجرون هجروا الديار والأوطان حبا في الله ، والأنصار نصروا دين الله ، وآثروا إخوانهم - المهاجرين - بالأموال والديار على أنفسهم ، مع فقرهم وحاجتهم [للفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا . .] الآيات .

* وفي مقابلة ذكر المهاجرين والأنصار ، ذكرت السورة المنافقين الأشرار ، الذين تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام ، وضربت لهم أسوأ الأمثال ، فمثلتهم بالشيطان الذي يغري الإنسان بالكفر والضلال ، ثم يتخلى عنه ويخذله ، وهكذا كان شأن المنافقين مع إخوانهم اليهود [ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم . .] الآيات .

* ووعظت السورة المؤمنين بتذكر ذلك اليوم الرهيب ، الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب ، ولا يفيد فيه جاه ولا مال ، وبينت الفارق الهائل بين أهل الجنة وأهل النار ، ومصير السعداء ومصير الأشقياء في دار العدل والجزاء [يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد . .] الآيات .

* وختمت السورة بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا وبتنزيهه عن صفات النقص [

هو الله الذي لا إله إلا هو . .] الآيات إلى نهاية السورة الكريمة ، وهكذا يتناسق البدء مع الختام ، في أبدع تناسق ووئام ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 346 . 347 ﴾

(19/754)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الحشر

الذين كفروا : هم بنو النّضير (بزنة أمير) قبيلة عظيمة من اليهود كبنى قريظة ، والحشر : إخراج جمع من مكان إلى آخر ، ولأول الحشر : أي فى أول حشرهم ،

أي جمعهم وإخراجهم من جزيرة العرب ونفيهم إلى بلاد الشام ، وآخر حشر : إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام ، والحصون : واحدها حصن وهو القصر الشاهق والقلعة المشيدة ، مانعتهم حصونهم من اللّه : أي مانعتهم من بأسه وعقابه ، فأتاهم اللّه : أي جاءهم عذابه ، من حيث لم يحتسبوا : أي من حيث لم يخطر لهم ببال ، وقذف الشيء : رميه بقوة ، والمراد هنا إثباته وركزه فى قلوبهم ، والرعب : الخوف الذي يملأ الصدر

يخربون : أي يهدمون ، فاعتبروا : أي فاتعظوا ، والاعتبار : النظر فى حقائق الأشياء وجهات دلالتها ، ليعرف بالنظر فيها شىء آخر من جنسها ، وأجليت القوم عن منازلهم : أي أخرجتهم منها ، وجلوا : خرجوا ، وقد فرقوا بين الإجلاء والإخراج من وجهين : أن الأول لا يكون إلا لجماعة ، والثاني : يكون لواحد ولجماعة ، وأن الأول ما كان مع الأهل والولد والثاني يكون مع بقائهما ، واللينة : النخلة ما لم تكن عجوة .

قال المبرد : يقال فاء يفيء إذا رجع ، وأفاءه اللّه إليه : أي رده وصيره إليه ، والفيء شرعا : ما أخذ من أموال الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كأموال بنى النضير ، ويقال وجف الفرس والبعير يجف وجفا ووجيفا : إذا أسرع ، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير السريع والركاب : ما يركب من الإبل ، واحدتها راحلة ، ولا واحد لها من لفظها ، والعرب لا تطلق لفظ الراكب إلا على راكب البعير ، ويسمون راكب الفرس فارسا ، يسلط رسله : أي على أعدائه من غير قتال ولا مصاولة بل بإلقاء الرعب فى القلوب ، فيكون الفيء للرسول يصرفه فى مصارفه التي ستعلمها بعد ، من أهل القرى : أي من أهل البلدان التي تفتح هكذا بلا قتال ، ولذي القربى :

أي بنى هاشم وبنى المطلب ، قال المبرد : الدّولة (بالضم) الشيء الذي يتداوله القوم بينهم يكون كذا مرة وكذا أخرى ، والدّولة (بالفتح) انتقال حال سارّة من قوم إلى قوم ، أي فالأولى اسم لما يتداول من المال ، والثانية اسم لما ينتقل من الحال ، آتاكم : أي أعطاكم ، وما نهاكم عنه . أي ما منعكم عن فعله .

التبوّء : النزول فى المكان ، ومنه المباءة للمنزل ، والمراد من الدار المدينة ، والمراد بالحاجة الحسد والغيظ ، وأوتوا : أي أعطى المهاجرون دون الأنصار ، ويؤثرون : أي يقدمون ويفضلون ، والخصاصة : الحاجة من خصاص البيت وهو ما يبقى بين عيدانه من الفرج وكذا كل خرق فى منخل أو باب أو سحاب أو برقع ، والشح : اللؤم وهو أن تكون النفس كزّة حريصة على المنع ، قال شاعرهم :

يمارس نفسا بين جنبيه كزّة إذا همّ بالمعروف قالت له مهلا

قال الراغب : البخل : المنع ، والشح : الحال النفسية التي تقتضى ذلك ، وغلّا أي حسدا وبغضا .

نافقوا : أي أظهروا غير ما أضمروا ، وبالغوا فى إخفاء عقائدهم ، والإخوان : الأصدقاء واحدهم أخ ، والأخ من النسب جمعه إخوة ، لننصرنكم : أي لنعاونكم ، ليولنّ الأدبار : أي ليفرّن هاربين ، أشد رهبة فى صدورهم من اللّه : أي إنهم يخافونكم فى صدورهم أشد من خوفهم للّه ، لا يفقهون : أي لا يعلمون عظمته تعالى حتى يخشوه حق

خشيته ، جميعا : أي مجتمعين ، محصنة : أي بالدروب والخنادق وغيرها ، جدر : أي حيطان واحدها جدار ، بأسهم : أي حربهم ، وشتى : أي متفرقة ، واحدها شتيت ، وبال أمرهم : أي سوء عاقبتهم ، من قولهم : كلأ وبيل : أي وخيم سيىء العاقبة .

ما قدمت : أي أىّ شىء قدمت ، وغد : هو يوم القيامة سمى بذلك لقربه ، فكل آت قريب كما قال : وإن غدا لناظره قريب . نسوا اللّه : أي نسوا حقه فتركوا أوامره ، ولم ينتهوا عن نواهيه ، فأنساهم أنفسهم : أي أنساهم حظوظ أنفسهم فلم يقدموا لها خيرا ينفعها .

(21/754)

خاشعا : أي منقادا متذللا ، متصدعا : أي متشققا ، خشية اللّه : أي خوفه وشديد عقابه ، الغيب : ما غاب عن الحسّ من العوالم التي لا نراها ، والشهادة : ما حضر من الأجرام المادية التي نشاهدها ، القدوس : أي المنزه عن النقص ، السلام : أي الذي سلم الخلق من ظلمه ، إذ جعلهم على نظم كفيلة برقيهم ، المؤمن : أي واهب الأمن فكل مخلوق يعيش فى أمن فالطائر فى جوّه ، والحية فى وكرها ، والسمك فى البحر تعيش كذلك ، ولا يعيش قوم على الأرض ما لم يكن هناك حراس يحرسون قراهم وإلا هلكوا ، العزيز : أي الغالب على أمره ، الجبار : أي الذي جبر خلقه على ما أراد وقسرهم عليه ، المتكبر : أي

البليغ الكبرياء والعظمة، سبحان الله عما يشركون: أي تنزه ربنا عما يصفه به المشركون، الخالق: أي المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة، والبارئ: أي المبرز لها على صفحة الوجود بحسب السنن التي وضعها والغرض الذي خلقت له، المصوّر: أي الموجد للأشياء على صورها ومختلف أشكالها كما أراد، الأسماء الحسنى: أي الأسماء الدالة على محاسن المعاني التي تظهر فى مظاهر هذا الوجود، فنظم هذه الحياة وبدائع ما فيها دليل على كمال صفاته، وكمال الصفة يرشد إلى كمال الموصوف. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 28 صـ 31. 56 ﴾. باختصار.

(22/754)

وقال الفراء:

سورة (الحشر)

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُواْ يا أُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ... ﴾.

هؤلاء بنو النضير: كانوا قد عاقدوا رسول الله صلى الله عليه عَلَى ألا يكونوا مع ، ولا عليه ، فلما نُكب المسلمون يوم أُحد غدروا ، وركب حُيّى بن أخطب إلى أبى سفيان وأصحابه من أهل مكة ، فتعاقدوا على النبى صلى الله عليه ، وأتاه الوحى بذلك ، فقال للمسلمين: أُمرت بقتل حيى ، فانتدب له طائفة من المسلمين فقتلوه ، وغدا عليهم النبى صلى الله عليه ، فتحصنوا فى دورهم ، وجعلوا ينقبون الدار إلى التى هى أحصن منها ، ويرمون النبى صلى الله عليه بالحجارة التى يخرجون منها ، وجعل المسلمون يهدمون دورهم ليتسع موضع القتال ، فذلك قوله [عز وجل]: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ واجتمع القراء على (يُخْرِبون) إلا عبد الرحمن السلمى ، فإنه قرأ (يخرّبون) ، كأنّ يَخرّبون: يهدّمون ، ويُخْرِبون. بالتخفيف: يخرجون منها يتركونها ، ألا ترى أنهم كانوا ينقبون الدار فيعطلونها ؟ فهذا معنى: (يُخْرِبون) والذين قالوا (يخرّبون) ذهبوا إلى التهديم الذى كان المسلمون يفعلونه ، وكل صواب . والاجتماع من قراءة القراء أحب إلىّ .

[وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ . . .﴾ :

يا أولى العقول ، ويقال: يا أولى الأبصار: يا من عاين ذلك بعينه] .

وقوله: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ . . .﴾ .

[هم] أول من أجلى عن جزيرة العرب ، وهى الحجاز .

﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَاسِقِينَ ﴾

وقوله: ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ . . . ﴾ .

حدثنا الفراء قال: حدثنى حِبّان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: أمر النبى صلى الله عليه بقطع النخل كله ذلك اليوم ، يعنى: يوم بنى النضير إلاّ العجوة . قال ابن عباس: فكل شىء من النخل سوى العجوة ، هو اللين .

قال الفراء: واحدته: لِينة ، وفى قراءة عبدالله: "ما قطعتم من لينةٍ ولا تركتم قُوَّماً على أصوله إلا بإذن الله" ، يقول: إلا بأمر الله .

وقوله: ﴿ أُصوله . . . ﴾ .

ذهب إلى الجمع فى اللين كله ، ومن قال: أُصُولها ـ ذهب إلى تأنيث النخل ؛ لأنه يذكر ويؤنث .

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ . . . ﴾ .

كان النبى صلى الله عليه قد أحرز غنيمة بنى النَّضِير وقُريظة وفَدَك ، فقال له الرؤساء:

خذ صفيَّك من هذه، وأفردنا بالربع، فجاء التفسير: إن هذه قُرًى لم يقاتلوا عليها بخيل، ولم يسيروا إليها على الإبل؛ إنما مشيتم إليها على أرجلكم، وكان بينها وبين المدينة ميلان، فجعلها النبى صلى الله عليه لقوم من المهاجرين، كانوا محتاجين وشهدوا بدراً.

﴿ مَّآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

(24/754)

ثم قال: ﴿ مَّآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى . . . ﴾ .

هذه الثلاث، فهو لله وللرسول خالص.

ثم قال: ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى . . . ﴾ .

لقرابة رسول الله صلى الله عليه ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ . يتامى المسلمين عامة، وفيها يتامى بنى عبد المطلب ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ مساكين المسلمين ليس فيها مساكين بنى عبد المطلب.

ثم قال: كَىْ لاَ يَكُونَ ذلك الفَىء دُولة بين الأغنياء - الرؤساء - يُعمل به كما كان يعمل فى الجاهلية، ونزل فى الرؤساء: ﴿ وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ . . . ﴾

فرضُوا . والدُّولة: قرأها الناس برفع الدال إلا السُّلَمىّ ـ فيما أعلم ـ فإنه قرأ: دَولة: بالفتح ، وليس هذا للدَّولة بموضع إنما الدُّولة فى الجيشين يَهزم هذا هذا ، ثم يُهزَم الهازم ، فتقول: قد رجعت الدولة على هؤلاء ، كأنها المرة ، وَالدُّولة فى المِلْك والسنن التى تغيَّر وتبدّل على الدهر ، فتلك الدُّولة .

وقد قرأ بعض العرب: (دولةٌ) ، وأكثرهم نصبها وبعضهم: يكون ، وبعضهم: تكون .

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ . . . ﴾ .

(25/754)

يعنى: الأنصار ، يحبون من هاجر إليهم لما أُعطىَ المهاجرون ما قسم لهم النبى صلى الله عليه من فىء بنى النضير لم يأمن على غيرهم أن يحسدهم إذا لم يقسمْ لهم . فقال النبى صلى الله عليه للأنصار : إن شئتم قسمتم لهم من دوركم وأموالكم ، وقسمت لكم كما قسمت لهم ، وإما أن يكون لهم القِسم ، ولكم دياركم وأموالكم ، فقالوا : لا ، بل تقسم لهم

من ديارنا وأموالنا ولا نشاركهم فى القَسم ، فأنزل الله جل وعز هذه الآيات ثناء على الأنصار ، فقال: ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ . . . ﴾ يعنى المهاجرين: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ . . . ﴾ الآية.

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

وفى قراءة عبد الله ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ . . . ﴾ يعنى المهاجرين: يقولون ربّنا اغفِرْ لنا ولإخواننا الذين تبوءوا الإيمان من قبل ، وألِّف بين قلوبنا ، ولا تجعل فيها غَمَرا للذين آمنوا .

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ . . . ﴾ .

يقول: أنتم يا معشر المسلمين أهيب فى صدورهم [يعنى بنى النضير] من عذاب الله عندهم ، وذلك أن بنى النضير كانوا ذوى بأس ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب من المسلمين ، ونزل فى ذلك: ﴿ تَحْسَبُهُمْ ﴾ يعنى: بنى النضير جيمعاً ، وقلوبهم مختلفة ، وهى فى

قراءة عبد الله: وقلوبهم أشت ، أى: أشد اختلافاً .

وقوله: ﴿ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ . . . ﴾ .

(26/754)

قرأ ابن عباس: جدار ، وسائر القراء: جدر على الجمع .

﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَآءُ الظَّالِمِينَ ﴾

وقوله: ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ . . . ﴾ .

وهى فى قراءة عبد الله: فكان عاقبتهما أنهما خالدان فى النار ، وفى [/ب] قراءتنا ﴿ خَالِدَيْنِ فِيهَا ﴾ نصب ، ولا أشتهى الرفع ، وإن كان يجوز ؛ وذلك أن الصفة قد عادت على النار مرتين ، والمعنى للخلود ، فإذا رأيت الفعل بين صفتين قد عادت إحداهما على موضع الأخرى نصبت الفعل ، فهذا من ذلك ، ومثله فى الكلام قولك: مررت برجل على بابه متحملا به ، ومثله قول الشاعر:

والزعفرانُ على ترائبُها * شرِقاً به اللباتُ والنحْرُ

لأن الترائب هى اللبات ها هنا ، فعادت الصفة باسمها الذى وقعت عليه أولا ، فإذا اختلفت الصفتان: جاز الرفع والنصب على حسن . من ذلك قولك: عبد الله فى الدار

راغبٌ فيك. ألا ترى أن (فى) التى فى الدار مخالفة (لفى) التى تكون فى الرغبة؛ والحجة ما يعرف به النصب من الرفع، ألا ترى الصفة الآخرة تتقدم قبل الأولى، إلاّ أنك تقول: هذا أخوك فى يده درهم قابضا عليه، فلو قلت: هذا أخوك قابضاً عليه فى يده درهم لم يجز. وأنت تقول: هذا رجل فى يده درهم قائمٌ إلى زيد. ألا ترى أنك تقول: هذا رجل قائم إلى زيد فى يده درهم، فهذا يدل على المنصوب إذا امتنع تقديم الآخر، ويدل على الرفع إذا سهل تقديم الآخر.

﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾

وقوله: ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ... ﴾.

وفى قراءة عبد الله: ولا أصحاب النار، ولا صلةٌ إذا كان فى أول الكلام جحد، ووصل بلا من آخره. وأنشد فى بعض بنى كلاب.

إرادة ألاّ يجمع الله بيننا * ولا بينها أخرى الليالى الغوابر

معناه: إرادة ألا يجمع الله بيننا وبينها، فوصل بلا. انتهى انتهى. اهـ ﴿ معانى القرآن / للفراء جـ 3 صـ 143.147 ﴾

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الحشر

(هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب) [2] يهود بني النضير ، أجلاهم النبي عليه السلام من الحجاز إلى أذرعات ، وهي أعلى الشام/بعدما حاصرهم [ثلاثة] وعشرين يوماً . (لأول الحشر) [2] الخلق يحشرون أول حشرهم بأرذعات من الشام . (يخربون بيوتهم بأيديهم) [2]

لما يئسوا من المقام ، شعثوا منازلهم . وعن الضحاك: أن المؤمنين يخربون حصونهم ، وهم يخربون بيوتهم ليسدوا بها الخراب من الحصون . (لعذبهم في الدنيا) [3] بالسبي والقتل كما فعل ببني قريظة . (من لينة) [5] نخلة أيها كانت . وقيل: إنها العجوة منها خاصة . وقيل: إنها الفسيل للينها .

وقال الأخفش: [هو] من اللون لا من اللين ، فكان أصلها : "لونة" ، فقلبت ياء لانكسار ما قبلها . وهذا قول صحيح عجيب ، متناول لجميع ألوان النخل ، مأخوذ لفظه من معناه ، أي: من تلون ينعه من أول ما يبدو إلى أن يدرك ، ألا ترى إليها في أول حالها [بيضاء] كأنها صدف مليء دراً نضد بعضه إلى بعض ، ثم تصير غبراء ، ثم خضراء كأنها قطع زبرجد خلق منها النشؤ ، ثم حمراء كأنها قطع يواقيت رص بعضها ببعض ، ثم صفراء كأنها شذر عقيان ، وكذلك إذا بلغ

الإرطاب [نصفها] سميت مجزعة، لاختلاف لونيها، كأنها الجزع الظفاري. قال امرؤ القيس في تشبيه العيون إذا كانت ذوات ألوان: 1265- كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب. (أو جفتم عليه) [6] وجف الفرس وجيفاً، وأوجفته، وهو الإسراع في السير.

(28/754)

نزلت في مال بني النضير، أي: الفيء الذي يكون من غير قتال، يكون للرسول يضعه حيث وضعه أصلح، فوضعه صلى الله عليه في المهاجرين. (كي لا يكون دولة) [7] الدولة -بالفتح- في الحرب، والدولة -[بالضم]- في غيرها مما يتداوله الناس من متاع الدنيا. /وقال أبو عبيدة: الدولة بالفتح في الأيام [و] بالضم في الأموال. (والذين تبوءو الدار والإيمان من قبلهم) [9]. هم الأنصار من أهل المدينة، آمنوا بالنبي عليه السلام قبل مصيره إليهم. (ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا) [9] أي: لا يجدون حسداً على إيثار المهاجرين بمال بني النضير. (ومن يوق شح نفسه) [9]

قال النبي عليه السلام: "وقي الشح من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة".

(تحسبهم [جميعاً] وقلوبهم شتى) [14] أي: اجتمعوا على عدوانكم ومع ذلك اختلفت

قلوبهم ، لاختلاف أديانهم ، وفي هذا اللفظ [قال] الشاعر : 1259- إلى الله أشكو نية

شقت العصا هي اليوم شتى [وهي] [أمس] جميع

(كمثل الذين من قبلهم) [15] أهل بدر . (نسوا الله) [19] تركوا أداء حقه . (فأنساهم

أنفسهم) [19] بحرمان حظوظهم . -أو بالعذاب الذي مني به [أن يذكر] بعضهم بعضاً .

-أو بخذلانهم حتى تركوا طاعته . (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً) [21]

أي: لو أنزلنا [ه] على جبل -والجبل مما يتصدع إشفاقاً وخشية- لتصدع مع [صلابته

وقوته] ، فكيف بكم مع ضعفكم وقلتكم . وقد أوضح هذا التأويل قوله: (وتلك الأمثال

نضربها) ، وله نظائر من كلام العرب مثل قول الشاعر : 1267- ولو أن ما بي بالحصى

قلق الحصى وبالريح لم يسمع لهن هبوب . وقول آخر :

(29/754)

1268- سلمى أحبك حباً لو تضمنه سلمى سميك ذاك الشاهق الراسي . وقول

هدبة: 1269- أصبت بما لو أن سلمى أصابها [لسهل] من أركانها ما توعرا .

(القدوس) [22] الطاهر المنزه عن أن يكون له ولد ، أو يكون في حكمه وفعله ما ليس

بعدل . (السلام) [22] ذو السلام [على] عباده ، أو السلام: الباقي . والسلامة/: البقاء

، والصفة منها للعبد: السالم، ولله: السلام. (المؤمن) [22]

المصدق، أي: يصدق الموحدين له على توحيدهم إياه. وقيل: إنه المؤمن عذابه من لا يستحقه. (المهيمن) [22] سبق ذكره. (العزيز) [22] هو الممتنع المنتقم. (الجبار) [22] العالي العظيم الذي يذل من دونه. والسحوق العالية [من] النخيل يسمى جباراً.

قال سويد: 1270- على كل جبار كأن فروعها طلين بقار أو بجماة ماتح 1271-

فليست بسنهاء ولا رجبية ولكن عرايا في السنين [الجوائح]

(المتكبر) [22] المستحق لصفات الكبر والتعظيم.

[تمت سورة الحشر]. انتهى انتهى. ا هـ ﴿باهر البرهان صـ 1484. 1494﴾

(30/754)

وقال الأخفش:

سورة (الحشر)

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾

قال ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ ﴾ يقول: "فجاءَهُم اللهُ" اي: جاءَهُم أمرُه، وقال بعضهم ﴿ فآتاهُم اللهُ ﴾ أي: آتاهُم العذابَ، لأنك تقول: "أَتاهُ" و"آتاهُ" كما تقول: "ذَهَبَ" و"أَذْهَبَتْهُ".

﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾

وقال ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ ﴾ وهي من "اللَّوْنِ" في الجماعة وواحدته "لِينَة" وهو ضرب من النخل ولكن لما انكسر ما قبلها انقلبت الى الياء.

﴿ وَمَآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

وقال ﴿ مَآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ لأنك تقول: "فَاءَ عَلَيَّ كذا وكذا" و"أَفَاءَهُ اللهُ" كما تقول: "جَاءَ" و"أَجَاءَهُ اللهُ" وهو مثل "ذَهَبَ" و"أَذْهَبْتُهُ".

﴿ مَّآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

وقال ﴿ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً ﴾ و"الدُّوْلَةُ" في هذا المعنى ان يكون ذلك المال مرة لهذا ومرة لهذا وتقول: "كَانَتْ لَنَا عَلَيْهِم الدَوْلَة" . واما انتصابها فعلى "كَيْلاَ يكونَ الفَيْءُ دُوْلَةً" و"كيلا تكون دُوْلَةً" أي: "لا تكون الغنيمة دُولَةً" [و] يزعمون أنَّ "الدَوْلَة" ايضا في المال لُغَةٌ لِلْعَرَب، ولا تكاد تعرف "الدَوْلَةُ في المال" .

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

وقال ﴿ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً [175 ب] مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ أي: مِمّا أُعْطُوا .

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لاَ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾

وقال ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ﴾ فرفع الاخر لأنه معتمد لليمين لأن هذه اللام التي في أول الكلام انما تكون لليمين كقول الشاعر: [من الطويل وهو الشاهد السبعون بعد المئتين]:

لَئِنْ عادَلي عبدُ العَزيز بمِثْلِهَا * وَأَمكَنَني مِنْها إذاً لا أُقيلُها

﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَآءُ الظَّالِمِينَ ﴾

وقال ﴿ أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ فنصب الخالدِيْن على الحال و ﴿ فِي النَّارِ ﴾ خبر. ولو كان في الكلام "إِنَّهما في النارِ" كانَ الرفعُ في ﴿ خالدِيْن ﴾ جائزا. وليس قولهم: إذا جِئْتَ بـ"فِيها" مرتين فهو نصب "بشيء". إِنّما "فيها" توكيد جئت بها أو لم تجيء بها فهو سواء. الا ترى ان العرب كثيرا ما تجعله حالا إذا كان فيها التوكيد وما أشبهه. وهو في القرآن منصوب في غير مكان. قال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 538. 540 ﴾

(33/754)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة الحشر

مدنية كلها

2 - هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا، مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ، مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ.

قال عكرمة: «من شك في ان المحشر هاهنا (يعني: الشام)، فليقرأ:

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ .

(قال) : وقال لهم النبي – صلّى اللّه عليه وسلم – يومئذ : اخرجوا فقالوا : إلى أين ؟

فقال : إلى ارض الحشر» .

وقال ابن عباس – في رواية أبي صالح – : «يريد انهم أول من حشر وأخرج من دياره» .

وهو : الجلاء . يقال : جلوا من ارضهم وأجليتهم وجلوتهم أيضا .

5 – (اللينة) : الدّقلة . ويقال للدّقل الألوان : ما لم يكن عجوة او برنّيا . واحدتها :

«لونة» . [فقيل : لينة ، بالياء] . وذهبت الواو لكسرة اللام .

6 – [وَما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ] ، فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ . . . من «الإيجاف» . يقال :

وجف الفرس والبعير وأوجفته . ومثله «الإيضاح» ، وهو : الإسراع .

(34/754)

وأراد : أن الذي أفاء اللّه على رسوله – من هذا الفيء خاصة – لم يكن عن غزو ولا

أوجفتم عليه خيلا ولا ركابا .

7 – كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً . . . من «التداول» ، أي يتداوله الأغنياء بينهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 394 . 395 ﴾

وقال الغزنوى:

سورة الحشر

2 هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا: يهود بني النّضير، أجلاهم النّبيّ - عليه السّلام - من الحجاز إلى أذرعات «1» من الشّام بعد ما حاصرهم ثلاثا وعشرين يوما «2».

لِأَوَّلِ الْحَشْرِ اجلوا إلى الشّام وهو أول حشر، ثم يحشر الخلق إلى الشّام أيضا «3».

[97/ ب] وقال النبيّ «4» صلى اللّه عليه وسلم: «هو أول/ الحشر ونحن على الأثر».

---

(1) أذرعات: بفتح الهمزة، وسكون الذال، وكسر الراء: موضع في أطراف الشام بالقرب من عمّان.

معجم البلدان: 1/ 130، والروض المعطار: 19.

(2) عن تفسير الماوردي: 4/ 206.

وانظر خبر بني النضير في السيرة لابن هشام: 2/ 190، وتفسير الطبري: (28/ 27، 28)، وأسباب النزول للواحدي: (479، 480)، وتفسير ابن كثير: 8/ 83،

وفتح الباري:

(7/ 384 - 388) .

(3) ورد هذا المعنى في أثر أورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 89 ، وعزا إخراجه إلى البزار ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في «البعث» عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما قال : «من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذا الآية : هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ قال لهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يومئذ : أخرجوا ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى أرض المحشر» اه - .

وانظر تفسير البغوي : 4/ 314 ، وتفسير ابن كثير : 8/ 81 .

(4) أخرجه الطبري في تفسيره : 28/ 29 عن الحسن مرفوعا بلفظ : «امضوا فهذا أول الحشر ، وإنا على الأثر» .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 89 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الحسن ورفعه .

و«الحشر» : الجمع «1» .

يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ : المؤمنون يخربون حصونهم «2» ، وهم «يخرّبون» بيوتهم ليسدّوا بها

خراب الحصون.

3 لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا : بالسّبي والقتل كما فعل ببني قريظة «3» .

5 مِنْ لِينَةٍ : اللّينة ما خلا العجوة من النّخل»

. وقيل «5» : هي الفسيل للينها .

وقال الأخفش «6» : هو من اللّون لا من اللّين ، وكانت لونة فقلبت ياء لانكسار ما قبلها كالريح ، واختلاف الألوان فيها ظاهر لأنها أوّل حالها بيضاء كصدف ملئ درّا منضّدا ثم غبراء ثم خضراء كأنها قطع زبرجد خلق فيها الماء ، ثم حمراء [كيواقيت] «7» رصّ بعضها ببعض ، ثم صفراء كأنها شذر عقيان «8» ، وكذلك إذا بلغ الأرطاب نصفها سمّيت «مجزّعة» لاختلاف لونيها كأنها الجزع الظفاريّ «9» .

---

(1) في «ج» : الجمع بكرة.

وانظر تفسير القرطبي : 18/ 2 ، واللسان : 4/ 190 (حشر) .

(2) في «ج» بيوتهم .

(3) ينظر هذا المعنى في تفسير الطبري : 28/ 31 ، وتفسير الماوردي : 4/ 208 ، وتفسير البغوي :

4/ 315 ، وزاد المسير : 8/ 206 .

(4) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 144 ، وأخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (28/

32 ، 33) عن ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة .

وانظر غريب القرآن لليزيدي : 373 ، وتفسير القرطبي : 18/ 9 .

(5) ذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 209 دون عزو ، وكذا القرطبي في تفسيره : 18/ 9.

(6) في معاني القرآن له : 2/ 706 ، ونص كلامه : وهي من اللّون في الجماعة ، وواحدته «لينة» ، وهو ضرب من النخل ، ولكن لما انكسر ما قبلها انقلبت إلى الياء» .

وأورد الطبري في تفسيره : 28/ 34 قول الأخفش ، ثم قال : «وكان بعضهم ينكر هذا القول ويقول : لو كان كما قال لجمعوه : «اللوان» لا «الليان» . . . » . [. . . . .]

(7) في الأصل : «كياقوت» ، والمثبت في النص عن «ك» .

(8) العقيان : الذهب .

(9) الجزع : بفتح الجيم وسكون الزاي : الخرز اليماني ، الواحدة جزعة .

النهاية : 1/ 269 .

و«الظفاري» منسوب إلى «ظفار» موضع باليمن قرب صنعاء .

معجم البلدان : 4/ 60 .

أَوْجَفْتُمْ وجف الفرس وجيفا : أسرع «1» ، وأوجفته .

نزلت في مال بني النّضير ، أي : الفيء الذي يكون من غير «2» قتال للرسول صلى اللّه عليه وسلم يضعه حيث وضعه أصلح ، فوضعه في المهاجرين ، وأما القرى والنّخيل فكان يوزع «3» لقوت أهله وكانت [صدقاته] «4» منها ، ومن أموال مخيريق «5» سبعة حوائط «6» أحدها [مشربة] «7» أمّ إبراهيم مارية ، وكان عليه السّلام يصير إليها هناك .

7 كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً : الدّولة في الحرب ، وبالضّم «8» فيما يتداوله الناس من متاع الدنيا «9» .

---

(1) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 460 ، ومعاني الزجاج : 5/ 145 ، وتفسير القرطبي :

18/ 10 ، واللسان : 9/ 352 (وجف) .

(2) تفسير الطبري : 28/ 35 .

(3) في «ك» : «يزرع» .

(4) هو مخيريق النّضري الإسرائيلي ، استشهد يوم أحد .

السيرة لابن هشام : (2/ 88 ، 89) ، والإصابة : (6/ 57 ، 58) .

(5) في الأصل «صداق مارية منها» ، والمثبت في النص عن «ج» ، «ك» .

(6) جمع «حائط» ، وهو البستان .

(7) في الأصل «مشرفة» ، وفي «ك» «مشرقة» ، والمثبت في النص هو الصواب .

ينظر الروض الأنف للسهيلي : 3/ 180 ، وتخريج الدلالات السمعية : 564 .

قال السهيلي : وإنما سميت مشربة أم إبراهيم ، لأنها كانت تسكنها . والمشربة : بفتح الميم

وضم الراء : الغرفة ، وفتح الراء لغة فيها .

اللسان : 1/ 491 (شرب) .

(8) هذه قراءة أبي جعفر من القراء العشرة .

ينظر النشر لابن الجزري : 3/ 221 ، وإتحاف فضلاء البشر : 2/ . 530

(9) ينظر المفردات للراغب : 174 ، وتفسير القرطبي : 18/ 16 ، والبحر المحيط :

8/ 245 ، واللسان : 11/ 252 (دول) .

(38/754)

---

9 وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ : المدينة دار الهجرة «1» .

وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي : تمكنوا في الإيمان واستقرّ في قلوبهم وجمعوه إلى سكنى الدار وهم

الأنصار بالمدينة.

وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا أي: حسدا على إيثار المهاجرين بمال بني النّضير «2».

وأصل الخصاصة «3»: الخلل والفرجة «4»، وخصاص الأصابع الفرج التي بينها.

وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ قال عليه السّلام «5»: «وقى الشّحّ من أدى الزكاة وقرى الضّيف، وأعطى في النائبة».

10 وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ أي: من بعد انقطاع الهجرة وإيمان الأنصار «6».

14 تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى اجتمعوا على عداوتكم ومع ذلك اختلفت قلوبهم لاختلاف/ أديانهم. [98/ أ]

---

(1) تفسير الطبري: 28/ 41، وتفسير البغوي: 4/ 319، وتفسير القرطبي: 18/ 20.

(2) ينظر تفسير الطبري: 28/ 41، وتفسير الماوردي: 4/ 212، وزاد المسير: 8/ 212، وتفسير ابن كثير: 8/ 96. [.....]

(3) من قوله تعالى: وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ [آية: 9].

(4) تفسير الطبري: 28/ 42، والمفردات للراغب: 149، والكشاف: 4/ 84، واللسان:

25/7 (خصص) .

(5) أخرجه الطبري في تفسيره : 28/ 44 عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه مرفوعا .

وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير : 4/ 188 (حديث رقم 4096) عن خالد بن زيد الأنصاري مرفوعا .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : (8/ 109 ، 110) ، وزاد نسبته إلى ابن مردويه عن أنس مرفوعا .

(6) تفسير البغوي : 4/ 320 ، وزاد المسير : 8/ 216 ، وتفسير الفخر الرازي : 29/ 289 ، وتفسير القرطبي : 18/ 31 .

(39/754)

---

15 كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ : أهل بدر «1» .

19 نَسُوا اللَّهَ : تركوا أداء حقّه .

فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ : بحرمان حظوظهم «2» . أو بخذلانهم حتى تركوا طاعته .

21 لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ أي : أنزلناه على جبل ، والجبل ممّا يتصدّع خشية لتصدّع مع صلابته فكيف وقد أوضح هذا التأويل بقوله : وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها .

23 الْقُدُّوسُ: الطاهر المنزّه عن أن يكون له ولد «3» ، أو يكون في حكمه ما ليس بعدل.

والسّلام: ذو السّلام على عباده. أو الباقي، والسلامة: البقاء، والصفة منها للعبد: السّالم ولله السّلام «4».

الْمُؤْمِنُ: المصدق وعده. أو المؤمن من عذابه من أطاعه «5».

---

(1) من المشركين، كما في تفسير الطبري: 28/ 48 عن مجاهد.

وقيل: هم يهود بن قينقاع، أخرجه الطبري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

قال الطبري- رحمه الله-: «وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: إن الله عزّ وجلّ مثّل هؤلاء الكفار من أهل الكتاب مما هو مذيقهم من نكاله بالذين من قبلهم من مكذبي رسوله صلى الله عليه وسلم، الذين أهلكهم بسخطه، وأمر بني قينقاع ووقعة بدر كانا قبل جلاء بني النضير، وكل أولئك قد ذاقوا وبال أمرهم، ولم يخصص الله عزّ وجلّ منهم بعضا في تمثيل هؤلاء بهم دون بعض، وكل ذائق وبال أمره، فمن قربت مدته منهم قبلهم، فهم ممثلون بهم فيما عنوا به من المثل».

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 28/ 52 عن سفيان.

وذكره البغوي في تفسيره: 4/ 326، وابن الجوزي في زاد المسير: 8/ 224، وأبو حيان في البحر المحيط: 8/ 251.

(3) زاد المسير : 8/ 225 عن الخطابي .

(4) ذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 219 .

(5) ينظر تفسير الماوردي : 4/ 219 ، وزاد المسير : 8/ 225 .

(40/754)

و «المهيمن» مفيعل منه ، وقيل : الشهيد على خلقه بما يفعلون .

الْعَزِيزُ : الممتنع المنتقم .

الْجَبَّارُ العالي العظيم الذي يذل له من دونه الْمُتَكَبِّرُ : المستحق لصفات الكبر والتعظيم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 808.813 ﴾

(41/754)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الحشر

عدد 15 - 101 - 59

نزلت بالمدينة بعد سورة البينة .

وهي أربع وعشرون آية وأربعمائة وخمس وأربعون كلمة والف وتسعمئة وثلاثة عشر حرفا .

وقد بينا السّور المبدوءة بما

بدئت به أول سورة الأعلى في ج 1 ، ويوجد سورة التغابن مختومة بما ختمت به ولا يوجد مثلها في عدد الآي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (1) في مبدعاته فيها القاهر والغالب لكل من فيهما وبينهما وعليهما وفوقهما وتحتها .

وقد بينا معنى التسبيح وأقسامه أول سورة الحديد المارة فراجعها وما ترشدك إليه "هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ" ذكرنا في المقدمة في بحث النّزول أن نزول الآيات والسّور قد يتقدم على سببه وقد يقارنه وقد يتأخر عنه حسبما تقتضيه الإرادة الرّبانية .

وهذه السّورة في القسم الثالث ، لأنها تمثلت في بني النّضير الّذين رئيسهم كعب بن الأشرف الذي كان عاهد حضرة الرّسول ونقض عهده ، لهذا نعتهم اللّه بالكفر مع أنهم من أهل الكتاب الّذين لا يطلق عليهم لفظ الكفر وكان عاهدهم الرّسول في المدينة على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه ، فلما غزا رسول اللّه بدرا على الصّورة المبينة في الآية 15 من سورة الأنفال المارة وظهر فيها على المشركين قالوا واللّه هذا هو النّبي الأمي الذي نجد نعته في التوراة الذي لا تردّ له راية ، فلما تلتها غزوة أحد المشار إليها في الآية 139 من آل عمران المارة أيضا ارتابوا وأظهروا العداء وأول جناية فعلوها هي حينما جاءهم الرّسول يستعينهم في دية الرّجلين اللّذين قتلهما عمرو بن أمية الضّمري في منصرفه من بئر معونة ، المارة قصّتهم في الآية 169 من آل عمران أيضا ، هموا بطرح حجر عليه من الحصن ليقتلوه ، فعصمه اللّه تعالى كما سيأتي بيان هذه الحادثة في الآية 10 من سورة المائدة الآتية ، ثم نقضوا العهد علانية وتحالفوا مع المشركين على مناوأة الرّسول ، وبعد غزوة حمراء الأسد وغزوة بدر الأخرى المشار إليها في الآيتين 172 و173 من آل عمران أيضا حرض رسول اللّه على قتل رئيسهم كعب بن الأشرف ، فقتله محمد بن مسلمة على الصّورة المارة في الآية 186 منها أيضا ، فراجعها لتقف على كيفية اغتياله وكيف احتمال عليه الّذين قتلوه ، وما قالت زوجته عند خروجه إليهم وما رد به عليها .

وخلاصة هذه القصة التي وعدنا بذكرها في الآية 27 من سورة

الأنفال المارة هي أن حضرة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم بعد قتل رئيسهم كعب في بضعة أشهر في شهر ربيع الأوّل السّنة الرّابعة من الهجرة الشّريفة غزاهم بأصحابه الكرام فوجدهم لم يزالوا ينوجون على رئيسهم ، فأمرهم بالخروج من قريتهم المسماة الزهرة ، فقالوا له الموت أقرب ، وكان المنافقون عبد اللّه بن سلول وأصحابه دسّوا لهم بأن لا يخرجوا وتعهدوا لهم بالمعونة والنّصرة على قتال محمد وأصحابه وانهم لا يخذلونهم أبدا فحصّنوا أزقة المدينة ، وأجمعوا على الغدر برسول اللّه ، وتنادوا في الحرب فيما بينهم ، وقالوا لحضرة الرّسول ، أخرج علينا في ثلاثين من أصحابك وليلقاك ثلاثون حبرا منا ، فإن آمنوا بك آمنا ، فخرج الفريقان إلى براز في الأرض ، وإنما وافقهم رسول اللّه على هذا ، وهو إنما جاء عامدا لقتالهم حرصا على دخولهم في الإيمان ، فلما خرجوا قال اليهود بعضهم لبعض كيف نخلص إليه وكلّ أصحابه يحب الموت دونه ؟ فاتفقوا على أن يخرج الرّسول في ثلاثة من أصحابه فقط ويقابله ثلاثة من أحبارهم ، لأن التفاهم لا يحصل بين ستين رجلا ، فخرج إليهم صلّى اللّه عليه وسلم في ثلاثة من أصحابه ولم يدر ما دبروه إليه من الكيد ، ولم يخبره ربه بشيء ، فتقدم أحبار اليهود مدججين بالسلاح ليفتكوا به ، فأخبرت امرأة منهم أخاها

المسلم بما دبّروه له من الكيد والمكر ، فأقبل مسرعا وأدرك الرّسول قبل أن يتصل باليهود وأخبره الخبر ، فرجع صلّى اللّه عليه وسلم وعرفوا ذلك ، فرجعوا أيضا ولم يكلموه ، إذ علموا أنه اطلع على مكرهم قالوا فلما كان الغد صبحهم رسول اللّه بالكتائب وألقى اللّه في قلوبهم الرّعب ، فلم يخرجوا إليه فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة وهم ينتظرون نصرة المنافقين الّذين وعدوهم بالمعونة ولما أيسوا منهم طلبوا الصّلح من رسول اللّه ، فأبى إلّا أن يخرجوا من ديارهم على ما يأمرهم به ، فقبلوا ، فأمرهم بالجلاء على أن لهم ما أقلت إبلهم من أموالهم عدا

(44/754)

السّلاح ، فخرجوا وهاجروا إلى أذرعات من أرض الشّام وأريحا من أرض فلسطين ، (والجلاء هو الخروج بالأهل من الوطن إلى مكان آخر عنوة) وتركوا ديارهم وعقارهم وسائر أموالهم غنيمة للمسلمين ، أما آل أبي الحقيق وآل حيي بن أخطب منهم فإنهم لحقوا بخيبر ، ولحقت طائفة منهم بالحيرة ، وأنزل اللّه هذه السّورة بعد الواقعة بسنتين يعدد فيها نعمه على عبده ، ويذكره

بأن إخراجهم

كان "لِأَوَّلِ الْحَشْرِ" والحشر إخراج جمع من مكان وسوقه إلى غيره ، وهم أول من أخرج من جزيرة العرب المحاطة من القبلة والشرق والغرب ببحري الحبشة وفارس ، ومن الشّمال بنهري دجلة والفرات ، وفي قوله تعالى (لِأَوَّلِ الْحَشْرِ) إشارة إلى أنهم يحشرون ثانيا ، وقد كان ذلك في زمن خلافة عمر رضي اللّه عنه ، لأنه أجلى بقايا اليهود من خيبر إلى الشّام ، وذلك لما بلغه قول صلّى اللّه عليه وسلم لا يبقين دينان في جزيرة العرب ، وإشارة أخرى إلى أن الحشر يوم القيامة بأرض الشّام ، وأن أريحا وأذرعات اللّتين هاجر إليهما اليهود من أول الأرض المتاخمة إلى أراضي الشّام وهو كذلك ، قال ابن عباس من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية ، ولأن الرسول لما قال لهم اخرجوا قالوا إلى أين ؟ قال إلى أرض المحشر . وبنو النّضير هؤلاء وبنو قريظة الّذين تقدمت قصتهم في الآية 26 من سورة الأحزاب من أولاد الكاهن ابن هرون عليه السّلام ، وسبب نزولهم وبني قينقاع في أرض الحجاز هو أن بني إسرائيل كانت تغير عليهم العماليق المتوطنون في يثرب والجحفة ، فوجه إليهم موسى عليه السّلام جيشا من أبناء هؤلاء اليهود فأهلكوهم عن آخرهم ، إلا ابن ملك لهم ، كان غلاما حسنا فرقوا له واستوطنوا مكانهم وتناسلوا فكثروا ، وبعد سيل العرم جاء الأوس والخزرج من اليمن إلى يثرب ونزلوا بجوارهم وبقوا جميعا إلى أن جاء الإسلام .

(45/754)

قال تعالى يا أيها المؤمنون "ما ظَنَنْتُمْ" أولا "أَنْ يَخرُجُوا" هؤلاء اليهود من مدينتهم لشدة تحصّنهم فيها وتهالككم عليها لما لهم فيها من الأموال وقدم السّكنى "وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ" بأس "اللَّهِ" فلم يفكروا بالخروج من وطنهم "فَأَتاهُمُ اللَّهُ" هذه الجملة من آيات الصّفات التي أشرنا إليها أول آل عمران أي حل بهم بلاؤه وألقى في قلوبهم الخوف وتحقق الإهلاك والدّمار من قبل الرّسول وأصحابه "مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا" ولم يخطر ببالهم أن رئيسهم يقتله أخوه لأمه، وأن محمدا يحيط بهم ويقسرهم على الخروج، وقد هددهم بالقتل إن لم يخرجوا "وَ" أن الله "قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ" حتى صاروا بحالة "يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ" لئلا يسكنها أحد من بعدهم "وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ" تخرّب بيوتهم أيضا ليدخلوها

(46/754)

عنوة ويزيلوا تحصينها لتزداد النّكاية بهم "فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ" (2) كيف فعل اللّه بأعدائه فهو فعل عظيم يؤخذ منه عبرة جليلة وعظة خطيرة، وقدمنا في الآية 13 من آل عمران المارة أن هذه الآية مصدر أخذ القياس في الأحكام الذي بيناه في الآية 35 من

سورة الإسراء ج 1 "وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ" الذي هو أهون عليهم من القتل ورضائهم به "لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا" بأعظم منه وهو الأسر والسّبي والقتل كما فعل في بنى قريظة الّذين حكموا سعدا فيهم ، راجع قصتهم المذكورة في الآية 27 من آل عمران المارة تطلع على ما عد خيانة على سفير رسول اللّه وهذا عذابهم في الدّنيا "وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ" (3) على ما فعلوه بالدنيا "ذلِكَ" الذي كتب عليهم "بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ" بنقضهم العهد وإرادتهم الغدر بحضرة الرّسول "وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ" (4) إذا عاقب قال تعالى "ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ" نخلة كريمة بسبب دخولكم على أولئك الكفرة "أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ" قطعها وتركها لأنكم لا تقدرون أن تتحركوا بحركة إلّا بعلمه وإرادته "وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ" (5) المذكورين لأنهم خرجوا عن طاعة الرّسول والقطع الذي وقع كان أثناء الحصار .

وسبب نزول الآية هو أن منهم من نهى عن قطع النّخيل تأثما ، ومنهم من أمر به تشفيا لما حاكوه من الكيد بحق الرّسول ، ولذلك فإن الأصحاب المجاهدين منهم من امتنع ، ومنهم من دوام لإغاظة المحصورين وإلجائهم إلى التسليم ، فأنزل اللّه هذه الآية بتصديق نهي الناهي وتحليل قطع القاطع من الإثم .

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال حرق رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم نخل بني النّضير وقطع أشجار البويرة وهي اسم موقع لهم فنزل (ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ) الآية ، وفيها قال حسان بن ثابت :

وهان على سراة بني لوي حريق بالبويرة مستطير

وهذا واللّه أعلم قبل إسلامه وإلّا لمدحهم على ذلك ، لأن في هذا البيت معنى التأنيب وعدم الرّضى بالفعل .

الحكم الشّرعي يجوز هدم حصون الكفار وديارهم وحرقها وتدميرها وقطع أشجارهم وفعل كلّ ما يغيظهم لحملهم على التسليم وإذلالهم وإهانتهم وكسر شوكتهم .

قال تعالى "وَما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ" يكون خاصة لحضرة الرّسول يضعه حيث شاء ، لأن الذي يقسم على الجيش هو الذي يحصل بالمقاتلة أو المشقة ، وهذا ليس كذلك ، لأن قريتهم على ميلين من المدينة ، وقد جاؤا مشيا على الأقدام ولم يتجشموا من جرائهم تعبا ولا نصبا .

قال تعالى مبينا ما هو المراد من صدر الآية وموضحا كيفية تقسيم الغنائم واختصاصها بقوله جل قوله "فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ" الوجيف سرعة السّير أي فما أجريتم على اغتنامه "مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ" حتى تستحقوا منه شيئا ، وذلك ان بني النّضير لما أجلوا وتركوا رباعهم وضياعهم وخيلهم ، طلب بعض المسلمين الّذين كانوا مع حضرة الرّسول قسمتها بينهم كما فعل بغنائم خيبر ، فأنزل اللّه هذه الآية يعلمهم فيها أن ليس لهم بشيء منها من حق لأنهم لم يتجشموا من أجلها متاعب ولم يقطعوا فيها مشقة ، ولذلك خصصها لحضرة رسوله ، أما الذي يكون بشيء من ذلك فحكم تقسيمه ما أوضحناه في الآية 10 من سورة الأنفال ، وهكذا كلّ مدينة يسلم أهلها بلا قتال على شيء أو بدون شيء ، والتي تدخل صلحا في حوزة المسلمين فإن ما يحصل منها في الفيء يكون للامام يضعه في بيت مال المسلمين وينفقه بعد في حوائجهم ومصالحهم وعلى الطّرق والثغور وفي السّلاح وغيره مما يراه نافعا وعلى المذكورين في الآية الآتية "وَلكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ" فيأخذهم بالرعب دون قتال وسوق جيش يناله مشقة بالوصول إليهم كهؤلاء "وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (6) يأخذ أناسا بقتال وأناسا بغيره ، ومع هذا فإن حضرة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم قسمه بين المهاجرين والأنصار كما رواه البخاري عن عن مالك ابن أوس الفهري ، وقد أشار اللّه إلى هذا بقوله "ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ" لأن مجيئها بلا أداة العطف دليل على أنها بيان للآية قبلها وهي

إيضاح من اللّه للرسول فيما يضع بما أفاء الله عليه خاصة ، وأمره له بان يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم ، وقد بينا الفرق بين الفيء والغنيمة هناك فراجعه ، وقد أمر اللّه تعالى رسوله بذلك "كَيْ لا يَكُونَ" الفيء

(49/754)

الذي حقه أن يعطى للفقراء بلغة يعيشون بها "دُولَةً" بضم الدّال وهي يتداوله ويتداوره النّاس بينهم في الملك بالكسر وبفتح الدّال ما يتدابره النّاس في الملك بضم الميم في النّصرة والجاه ، وقيل قسمته تقسيم وتنداول "بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ" فيكاثر به بعضهم بعضا ويغمطون حق الفقراء ، وهكذا ، فلا يجوز للسلاطين والملوك والأمراء أن يختصوا بمثل ذلك لأنفسهم بل ينبغي أن يتركوه لمنافع المسلمين كالسلاح وعمارة الجسور ومحافظة الثغور وإصلاح الطّرق وآلات الحرب ولوازم المجاهدين والإنفاق على المرضى والعجزة والأرامل والأيتام وتعليم الفقراء والمساكين وما شابه ذلك .

مطلب أمر الرّسول أمر اللّه وبيان قسمة الفيء والغنيمة وذم البخل والشّح وعمل أبي طلحة رضي اللّه عنه وحب الأصحاب حب الرّسول :

قال تعالى "وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ" أيها المؤمنون سواء كان من الفيء أو الغنيمة ، ولا

تطلبوا زيادة منه ، ولا تسألوه لم أعطى ولم منع "وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا" من الغلول وغيره ، وامتثلوا أمره .

وهذه الآية عامة في كلّ ما يأمر به حضرة الرّسول وينهى عنه ، لأنه لا يقول إلّا حقا ولا ينطق إلّا صدقا ولا يتكلم عن هوى "وَاتَّقُوا اللَّهَ" من أن تتهاونوا بأمره ونهيه كله لأنكم مأمورون بطاعته ، قال تعالى (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) الآية 58 من سورة النّساء المارة فطاعة اللّه طاعة رسوله وبالعكس "إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ" (7) على من يخالف أمر رسوله في قول أو فعل أو عمل ، ولذلك ختم اللّه هذه الآية في هذه الجملة المهددة للمخالف الموعدة له بسوء العاقبة .

(50/754)

روى البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن مسعود أنه قال لعن اللّه الواشمات والمستوشمات (أي الطّالبات الوشم) وهو غرز الإبرة بجسم الإنسان وحشوه بالكحل أو شيء من الصّبغ فيصير أسود أو أزرق والمتنمّصات (اللائي ينتفن الشّعر من الوجه وغيره) والمتفلجات (اللائي يتكلفن تفريج ما بين ثناياهن بضاعة) للحسن المغيرات لخلق اللّه ، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب ، وكانت تقرأ القرآن ، فأتته فقالت ما حديث بلغني عنك

أنك قلت كذا وكذا وذكرته ؟ فقال عبد اللّه ومالي لا ألعن من

لعن رسول اللّه وهو في كتاب الله ، فقالت المرأة لقد قرأت الوحي (المصحف) فما وجدته ،

فقال إن كنت قرأته لقد وجدته ، فإن اللّه عز وجل قال (وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما

نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) يعلمها في هذه الآية أن ما يقوله حضرة الرسول واجب اتباعه مثل الذي

يقوله اللّه في كتابه .

وما رويا عن عائشة قالت قال صلّى اللّه عليه وسلم من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه

فهو رد .

وفي رواية : من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد .

وما رواه أبو داود والترمذي عن أبي رافع أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال لا ألفين

أحدكم متكئا على أريكته يأتيه أمر ما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدري ، ما وجدناه

في كتاب الله اتبعناه يؤيد هذا ويؤكده .

(51/754)

إذا فلا محل للقول فيما قاله حضرة الرّسول بأنه ليس في كتاب اللّه ، ولذلك لا تفيد به بل هو

من كتاب اللّه ، لأن كلّ ما أخبر به رسول اللّه هو من اللّه ، وفي كتاب اللّه ، وبأمر اللّه ، وعليه

فإن من يتعدى لمثل هذا القول هو معاند زنديق لا يؤمن بكتاب الّله ولا يصدق رسوله ، لأنه لو آمن لما تجرأ على مثل هذا ، ثم ذكر الّله تعالى أصحاب الحقوق في الفيء بقوله "لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ" قسرا من قبل كفار قريش لأنهم يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" لإعلاء كلمته ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم لمرضاة الّله لا لأمر آخر "أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ" (8) في هجرتهم المخلصون بإيمانهم المستحقون للفيء أكثر من غيرهم .

روى مسلم عن عبد الّله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الّله صلّى الّله عليه وسلم يقول إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنّة بأربعين خريفا "وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ" اتخذوا المدينة مسكنا لهم ومأوى للمهاجرين من أهل مكة قبل قدوم النّبي صلّى الّله عليه وسلم "وَالْإِيمَانَ" لزموه وأخلصوا لّله به على حد قوله علفتها تبنا وماء باردا .

وذلك لأنهم آثروه على الكفر "مِنْ قَبْلِهِمْ" وقيل المهاجرين وهم الأنصار الّذين آمنوا بمحمد قبل هجرته إليهم ، وهم الّذين "يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ" من إخوانهم المسلمين المهاجرين حيث شاطروهم بأموالهم ومنازلهم وتخلوا لهم عن بعض نسائهم زواجا لهم ، وذلك أن منهم من كان عنده نساء متعددات ولم يكن

عندهم بنات فصار يطلق من قضى نهمته منها ثم يزوجها أخاه المهاجر ، وهذا مما لا بأس به شرعا "وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً" أي حزازة أو غيظا أو حسدا "مِمَّا أُوتُوا" من الفيء دونهم لأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لما أعطى المهاجرين أموال بني النّضير ولم يعط منها إلّا ثلاثة من الأنصار ، هم أبو حارثة سماك بن خراشة وسهيل بن حيف والحارث بن الصّمة ، لم يغتاظوا وبقيت نفوسهم طيبة بذلك ولم يقولوا لم يعطنا مثل المهاجرين وكنا معه سواء "وَيُؤْثِرُونَ" أولئك الممدوحون أي

يفضلون المهاجرين "عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ" أي حاجة وفقر ، قال ابن عباس قال صلّى اللّه عليه وسلم يوم النّضير للانصار إن شئتم قسمتم المهاجرين من أموالكم وديارکم وتشاركونهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم أموالكم ودياركم ولم نقسم لكم شيئا من الغنيمة ، فقالوا بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها ، فأنزل اللّه هذه الآية .

ومما جاء في الأخوة الصّادقة المخلصة ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قالت الأنصار للنبي صلّى اللّه عليه وسلم اقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين النّخيل ، قال لا ، فقالوا تكفونا المئونة ونشرككم في التمر ، قالوا سمعنا وأطعنا .

وما روى البخاري عن أنس ابن مالك قال دعا رسول اللّه الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين ،

فقالوا لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها ، فقال اما لا فاجروا حتى تلقوني على الحوض فإنه سيصيبكم أثرة بعدي (الأثرة بفتح الهمزة والثاء) أي يستأثر عليكم في أمور الدنيا ويفضل غيركم عليكم بسبب فساد الزمان ، إذ يوسد الأمر إلى غير اهله ، ويسود القوم أرذلهم .

(53/754)

وقيل نزلت هذه الآية في أبي طلحة لما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، قال جاء رجل إلى النّبي صلّى اللّه عليه وسلم فقال إني مجهود (أي شديد الجوع) فأرسل إلى بعض نسائه فقالت والذي بعثك بالحق ما عندي إلّا الماء ، ثم أقبل على الأخرى فقالت مثل ذلك ، وقلن كلهن مثل ذلك ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم من يضيفه يرحمه اللّه ؟ فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة فقال أنا يا رسول اللّه ، فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته هل عندك شيء ؟ قالت لا إلّا قوت صبياني ، قال فعلليهم بشيء ونوميهم ، فإذا دخل ضيفنا فأريه أنا نأكل فإذا أهوى بيده فقومي إلى السراج فاطفئيه ففعلت فقعدوا وأكل الضّيف وباتا طاوين ، فلما أصبح غدا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال عليه الصّلاة والسّلام لقد عجب اللّه أو ضحك من فلان

وفلانة وفي رواية : وأنزل اللّه هذه الآية .

وقدمنا ما يتعلق بالأخوة الصّادقة وفوائدها في الآية 67 من سورة الزخرف ج 2

فراجعها .

قال تعالى "وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ" ويخالف هواها ويميل إلى كرم النّفس يفوز بخيري الدّنيا

والآخرة ، ولذلك قال تعالى "فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (9) والشّح اللّؤم وهو أن تكون النفس

كزة حريصة على المنع ، وقيل في ذلك :

يمارس نفسا بين جنبيه كزة إذا همّ بالمعروف قالت له مهلا

والكزّة القبيحة ، والكزازة اليبس والانقباض ، ويقال للبخيل كزّ اليدين .

والبخل شدة الحرص لخوف الفقر وعدم اليقين بخلف اللّه عليه لتغلب تسويلات الشّيطان

عليه .

قال تعالى : (الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ ، وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا)

الآية 269 من البقرة المارة .

ولا يزال البخيل يبخل حتى يحمله بخله على الحرص ، حتى أنه ليبخل على نفسه بما في

أيدي الغير ، لأن من معاني البخل مطلق المنع .

روى مسلم عن جابر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال اتقوا الظّلم فإن الظّلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشّح فإن الشّح أهلك من كان قبلكم وحملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم ، وأخرج أبو داود عن أبي هريرة أنه صلّى اللّه عليه وسلم قال شرّ ما في الرّجل شح هالع (الهلع شدة الجزع على ما يفوت) وجبن خالع أي (يخلع الفؤاد لشدة الفزع) .

وأخرج النّسائي عنه قال قال صلّى اللّه عليه وسلم لا يجتمع غبار في سبيل اللّه ودخان جهنم في جوف عبد أبدا ، ولا يجتمع الشّح والإيمان في قلب عبد أبدا .

وأشرنا إلى ما يتعلق لهذا آخر سورة محمد عليه السّلام فراجعه ، قال تعالى "وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ" أن الفيء المار ذكره يكون أولا للمهاجرين ، ثم للأنصار ، ثم للّذين يأتون من بعدهم وهم التابعون إلى يوم القيامة ، لأن هذا الفيء يكون بيد من يتولى أمر المسلمين فينفقه عليهم ، وهؤلاء المستحقون ذلك هم الّذين "يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ"

(10) فعلينا معاشر المؤمنين أن ندعو لمن قبلنا ومن بعدنا أسوة بهؤلاء الصالحين الّذين وصفهم اللّه بالآية السّابقة ، فالّذين لا يتصفون بتلك الصّفات لا يستحقون شيئا من الفيء والغنيمة ، وليس لهم حق أي نصيب وحظ في فيء المسلمين ، لأن المسلم يجب أن يكون

مؤمنا وأن يدعو للمؤمنين ممن سبق زمنه بالمغفرة ، وأن لا يكون في قلبه غيظ على أحد منهم ، يدل على هذا ما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل جبل أحد ذهبا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه .

(55/754)

وروى مسلم عن عروة بن الزبير قال قالت عائشة يا ابن اختي أمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول اللّه فسبوهم وأخرج الترمذي عن عبد اللّه بن معقل قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول ، اللّه اللّه في أصحابي ، لا تتّخذوهم غرضا بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى اللّه ، ومن آذى اللّه فيوشك أن يأخذه فيطرحه في جهنم .

قال تعالى (وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) الآية 103 من سورة هود في ج 2 فعلى العاقل أن لا يذكر أصحاب الرّسول إلّا بخير ، ولا ينتقدهم ، ولا يقبح رأيهم ، ولا يعيبهم بشيء أبدا .

وقال جابر قيل لعائشة إن أناسا يتناولون أصحاب رسول اللّه حتى أبا بكر وعمر ، فقالت

وما تعجبون من هذا ؟ انقطع عنهم العمل وأحب اللّه أن لا ينقطع عنهم الأجر .

أي أن اللّه تعالى يثيبهم بسبب غيبتهم ، وقد يأخذ من حسنات مغتابيهم فيضعها إليهم ، ويأخذ من سيئاتهم فيطرحها على المغتابين وهم لا سيئات لهم إلّا أنه قد يقع منهم مما هو خلاف الأولى فيحسب عليهم سيئة بالنسبة لمقامهم الرّفيع .

وقال مالك بن أنس من انتقص أحدا من أصحاب رسول اللّه أو كان في قلبه غل عليهم فليس له حق في فيء المسلمين ، ثم تلا هذه الآية .

وسمع ابن عباس رجلا ينال من أصحاب رسول الله فقال له من المهاجرين الأولين أنت ؟ قال لا ، قال فمن الأنصار أنت ؟ قال لا ، قال فأنا أشهد بأنك لست من التابعين لهم بإحسان .

وقال مالك بن مغول وفي نسخة بن مفعول ، قال قال الشّعبي يا مالك تفاضلت اليهود والنّصارى على الرّافضة بخصلة ، سئلت اليهود من

(56/754)

خير أهل ملتكم قالوا أصحاب موسى ، وسئلت النّصارى من خير أهل ملتكم قالوا حواري عيسى ، وسئلت الرّافضة من شر أهل ملتكم فقالوا أصحاب محمد صلّى اللّه

عليه وسلم، أمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم والسّيف مسلول عليهم إلى يوم القيامة لا تقوم لهم راية ولا يثبت لهم قدم ولا تجتمع لهم كلمة، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها اللّه بسفك دمائهم وتفريق شملهم وادحاض حجتهم، أعاذنا اللّه من الأهواء المضلّة.

قال تعالى "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا" فدسّوا على بني النّضير وتعهدوا لهم بالمعونة والنّصرة على الرّسول وأصحابه كما مر أول السّورة "يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً" بخذلانكم وعدم القتال معكم ولنكونن معكم "أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ" (11) في وعدهم هذا وعهدهم لهم.

ثم أقسم جل قسمه على عدم قيامهم بذلك فقال "لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ" على الفرض والتقدير "لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ" عنهم منهزمين إلى الوراء "ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ" (12) البتة لأن الخذلان مقدر عليهم "لَأَنْتُمْ" أيها المؤمنون "أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ" أي أن بني النّضير يخافونكم أكثر من خوفهم من الله لقلة يقينهم "ذلِكَ" إيقاع الرّعب منكم في قلوبهم دون ربكم "بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ" (13) عظمة اللّه ولو علموها لخافوا اللّه أكثر منكم.

واعلموا أنهم "لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً" أي اليهود والمنافقون "إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ" لشدة جبنهم وخوفهم منكم ، فلا يبرزون إلى ميدان القتال ولا يقدرون على مقابلتكم فيه ولكنهم إذا قاتلوا بعضهم يكون "بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ" لسوء طويتهم وشدة حقدهم بعضهم على بعض ولكن إذا قاتلوكم جبنوا وألقي في قلوبهم الرّعب منكم لما أوقع اللّه في قلوبهم من هيبتكم "تَحْسَبُهُمْ" أيها الرّائي عند ما تراهم "جَمِيعاً" متحدين مؤتلفين كلا بل هم متفرقون متنافرون "وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى" متفرقة يبغضون بعضهم ويتحاسدون على القليل والكثير ، وهذه الواو للمحال أي والحال على خلاف

ما ترونهم وتظنون بهم "ذلِكَ" اجتماعهم في الأجسام وتفرقهم في القلوب وشدة بأسهم على بعضهم "بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ" (14) أوامر اللّه ونواهيه فيبهتون ويتحيرون ولو عقلوا لما كان هذا شأنهم ، مثلهم يا سيد الرّسل "كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" أهل مكة ومن حذا حذوهم "قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ" في حادثة بدر وهذا عذابهم في الدّنيا "وَلَهُمْ" في الآخرة "عَذابٌ أَلِيمٌ" (15) لا تقواه قواهم ومثل المنافقين الّذين وعدوهم بالمعونة وتعهدوا لهم بالنصرة ثم خذلوهم "كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ" (16) من عاقبة الكفر الوخيمة ولهذا "فَكانَ عاقِبَتَهُما" أي الشّيطان المغوي للانسان والإنسان التّابع لإغوائه "أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ"

(17) أنفسهم باتباع أهوائهم وشياطينهم ، وبئس الجزاء .

مطلب قصة برصيصا الرّاهب وكفره وجريج الرّاهب وبراءته ، وتسبب العلماء لإهانة أنفسهم :

(58/754)

هذا والمراد بهذا الإنسان على ما رواه عطاء وغيره عن ابن عباس قال كان راهب في الفترة اسمه برصيصا ، عبد الله في صومعته سبعين سنه لم يعص اللّه طرفة عين فجمع إبليس مردته وقال لهم أيكم يكفيني أمره ؟ فقال الأبيض وهو صاحب الأنبياء أنا أكفيكه فذهب إليه وناداه فلم يجبه لانشغاله في صلاته ، فقام الملعون يصلي أيضا ، فلما انفتل برصيصا من صلاته رأى رجلا على هيئة الرّهبان يصلي فلام نفسه وقال له إنك ناديتني وأنا مشغول بصلاتي فما حاجتك ؟ قال جئت أتأدب بأدبك وأتعبد معك فتدعو لي وأدعو لك ، قال له إني لفي شغل عنك ، وأقبل على صلاته وأقبل الخبيث على الصّلاة أيضا وبقي أربعين يوما معه لم يلتفت إليه ، ثم قال له برصيصا ما حاجتك معي ؟ قال تجعلني معك في صومعتك فجعله لما رأى من عبادته وأقام معه سنة لا ينظر إليه إلّا في كلّ أربعين يوما مرّة ، ثم أعجب برصيصا حاله فقال الأبيض لبرصيصا كان بلغنا عنك غير

الذي رأيت منك ، وإن لي صاحبا هو أشد اجتهادا منك ، وإني منطلق إليه ، وسأعلمك كلمات يشفي اللّه بهن السّقيم ،

(59/754)

فعله وتركه ، وقد عرف الخبيث أنه لا يمكن إغواؤه إلّا من قبل النّساء لأنهن من أوثق الخدع لصيد الأتقياء ، ثم ذهب فتعرض لرجل وقال لأهله إن به جنونا انطلقوا به إلى برصيصا ، فأخذوه إليه فدعا إليه بتلك الكلمات فبرىء من ساعته ، وصار الخبيث يتعرض للناس ويرشد أهليهم لمراجعة برصيصا حتى تعرض لبنت الملك وقال لأهلها لا يبرئها إلّا برصيصا ، اذهبوا بها إليه واتركوها عنده ، فإذا عوفيت فردوها ، فأخذوها إليه فبرئت ، فأرادوا إبقاءها عنده لئلا يعود إليها الجنون ، فلم يفعل ، فجاءهم الخبيث وقال لهم ابنوا لها صومعة بجانب صومعته وضعوها فيها وقولوا له هذه أمانتك واجعلوها تشرف عليه حتى إذا عاد عليها ما بها دعا لها فتبرا ، ففعلوا وتركوها فصار كلما انفتل في صومعته رآها فوقع في قلبه حبّها لما هي عليه من الجمال ، فوجد الخبيث فرصة وصار يتعرض لها الفينة بعد الفينة وبرصيصا يدعو لها فتبرأ ، ثم وسوس له أن يواقعها ويتوب ، فلم يزل به حتى واقعها ، فحبلت فقال له الشّيطان ويحك انفضحت اقتلها وتب ، وقل لأهلها ذهب

بها شيطانها ، ففعل ودفنها ورجع إلى صلاته ، فجاء إخوتها فسألوه عنها فقال لهم ذلك ،

فرجعوا فجاءهم الشّيطان بالمنام وأخبرهم بالقضية فلم يكترثوا ، فوالى عليهم مجيئه ،

فانطلقوا فرأوا الأمر كما رأوا ، فأنزلوا برصيصا من صومعته مكتفا وهدموا صومعته

وعلقوه فجاء الخبيث وقال أنا الذي علّمتك الكلمات اسجد لي وأخلصك ، فسجد له

بطرفه فقال له كفرت بربك إني بريء منك ، إني لست مستحقا للسجود ، إني أخاف اللّه

من أن أشرك أحدا في عبادته .

قالوا ومنذ ذلك اليوم طمع أهل الفسق بالرهبان والأحبار ورموهم بالبهتان حتى كان من

أمر جريج الرّاهب ما كان فبرأه اللّه تعالى .

(60/754)

وخلاصة قصته أن أمه نادته وهو في صلاته فلم يرد عليها ، فجاءته من الغد ونادته فلم يرد

عليها فقالت اللّهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات ، وكانت بنو إسرائيل تعجب من

عبادته فقالت لهم الباغية إن شئتم فتنته لكم ، قالوا نعم ، وهذا من جملة حسدهم ،

قاتلهم اللّه ، فبدل أن يعملوا عمله ويتبركوا بأمثاله أرادوا ردّه عن هداه ليس إلّا حسدا

أخزاهم اللّه ، فذهبت تلك المومسة ومكنت من نفسها راعيا فحملت منه ، فلما ولدت

قالت هو من جريج ، فأنزلوه من صومعته وهدموها وصاروا يضربونه ويعنفونه ويقولون له زنيت ! وأرادوا رجمه ، فقال لهم أمهلوني أصلي وافعلوا بي ما شئتم فأمهلوه ، فصلى وانفتل إلى الغلام ، فقال له من أبوك ؟ قال الرّاعى ، فأقبلوا عليه يعتذرون منه ويستسمحونه وأعادوا له صومعته كما كانت .

ولهذا حتى الآن والنّاس يسيئون الظّنّ بعلمائهم والحق معهم ، لأن العلماء الآن لا يتورعون عن مخالطة الفسقة من ولاة الأمور وغيرهم ، بل صاروا يتنافسون بصحبتهم ، وأمثال هؤلاء لا يتسمّون علماء حقيقة لأن العالم من يخشى اللّه فلا ينافق ولا يداهن ، ولهذا فإنه قد يقع من أناس متصفين بهيئة العلماء ما لم يقع من أفسق الفاسقين ، فيكثر القول في العلماء العاملين تبعا للضالين من غير تفريق .

فلو أن أهل العلم صانوه صانهم من رمي أمثال هؤلاء ولو عظموه فلم يبذلوا أنفسهم لأهل الدنيا لعظمهم في أعينهم ، ولكنهم لم يفعلوا ففعل بهم ما أهانهم ، فلا حول ولا قوة إلّا باللّه ، راجع الآية 23 من سورة ابراهيم المارة في ج 2 ، والآية 50 من سورة الأنفال المارة فيما يتعلق بكيد الشّيطان مع البشر والآية 29 من سورة يوسف في ج 2 فيما يتعلق بمن نطق بالمهد .

روى أبو هريرة عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلم قال لم يتكلم في المهد إلّا ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج والرّضيع الذي قالت له أمه اللّهم اجعله مثل هذا .

تريد رجلا أعجبها هيئته فترك ثديها وقال اللّهم لا تجعلني مثله .

في حديث طويل أخرجه مسلم بتمامه والبخاري مفرقا ولم بعد شاهد يوسف في هذا الحديث لاختلاف العلماء فيه كما بيناه في الآية المذكورة من سورته بصورة مفصلة فراجعها .

قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ" في أداء ما أوجبه عليكم والتجافي عما نهاكم عنه قبل حلول يوم القيامة لأن الدّنيا يوم وغدها الآخرة فتزودوا من الأعمال الصالحة إليه فينبغي للعاقل أن ينظر ما يقدم لغده من أيام الدّنيا إن كان خيرا زاد منه ، وإن كان غير ذلك أقلع عنه ، لأن الدّنيا مزرعة الآخرة وإن كل إنسان يحصد ما يزرعه من حلال وحرام فينال خيره وشره ، لا يعزب عن علم اللّه منه شيء "إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ" (18) في هذه الدّنيا سرا وعلانية وما تدخرونه لآخرتكم "وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ" فلم يذكروه في

الرخاء والسّرّاء "فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ" ولم يوفقهم لعمل الخير ولم ينظر إليهم حال الشّدة والضّراء ، قال صلّى اللّه عليه وسلم تعرّفوا إلى اللّه بالرخاء يعرفكم بالشدة "أُولئِكَ"

الناسون ربهم "هُمُ الْفاسِقُونَ" (19) الخارجون عن طاعته "لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ" الغافلون عن اللّه الجاحدون رسله وكتبه واليوم الآخر "وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ" المصدقون بذلك كله المديمون ذكر اللّه "أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ" (20) برضاء اللّه ونعيم الآخرة والشّرف برؤية ربهم وأصحاب النّار الخاسرون الدّنيا والآخرة المحرومون من نعيم الجنّة المعذبون فيها

(62/754)

"لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ" وجعلنا فيه التمييز كما جعلناه فيكم أيها النّاس "لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ" فيجدر بكم أيها المؤمنون أن تخشعوا وتخضعوا لتلاوته وأوامره.

راجع الآية 142 من الأعراف وانظر كيف دك الجبل بمجرد تجلي اللّه تعالى عليه مع أنه لا يعقل ولكن اللّه تعالى يضع فيه العقل إذا شاء حتى انه إذا أنزل عليه كلامه خشع وتصدع وهذا مثل ضربه اللّه لكم أيها النّاس لتعتبروا لأنكم أنتم الّذين يجدر بكم أن يصدر منكم ذلك "وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" (21) فيها فيعتبرون ويتعظون، تشير هذه إلى قساوة قلوب النّاس وفيها تهديد لهم، قال تعالى (فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

الآية 12 من سورة الزمرج 2 وبعد أن بين اللّه عظمة كتابه ذكر بعض عظمة أسمائه فقال تعالى "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ" (22) الذي أنزل عليكم كتابه رحمة بكم وأرسل إليكم رسله نعمة لكم فقدروا رحمته واشكروا نعمته ليتفضل عليكم بجنته واعلم أن الغيب كلّ ما غاب عن الخلق فكل ما لا يعملونه هو عالم به كالمشاهد له لا فرق عنده بين الغائب والحاضر إذ لا يعزب عن علمه شيء ولا غيب عليه والغيب بالنسبة لنا ، أما هو جل شأنه فالغيب والشّهادة عنده سواء "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ" المتصرف بالأمور خفيها وجليها "الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ" الطاهر المنزه عن سمات خلقه المبرأ من كلّ عيب ونقص في الماضي والحال والمستقبل "السَّلامُ" الذي لا يطرأ عليه شيء مما يطرأ على خلقه من الحوادث سابقا وآنا ولاحقا وهو اسم مبالغة المسالم "الْمُؤْمِنُ" خلقه

المؤمنين من عذابه وغير المؤمنين من ظلمه "الْمُهَيْمِنُ" الرقيب الشّهيد القائم على خلقه وعلى هذه المعاني جاء قوله :

ألا إن خير النّاس بعد نبيه مهيمنه التالية في العرف والنّكر

ويأتي بمعنى الحافظ العلي وبمعنى الآخر قال العباس يمدح رسول اللّه في أبيات منها :

حتى احتوى بينك المهيمن من حنذف علياء زانها النّطق

واحتوى هنا بمعنى جمع والمهيمن العلي والحنذف وصف امرأة الياس بن مضر ليلى بنت حلوان بن عمران والحنذفة الهرولة والمشي بتبختر وليس مرادا هنا وقال بعضهم لا يعلم معناه إلّا اللّه وأنشد :

جل المهيمن عن صفات عبيده ولقد تعالى عن عقول أولي النّهى

راموا بزعمهم صفات مليكهم والوصف يعجز عن مليك لا يرى

(64/754)

"الْعَزِيزُ" الذي لا يغلبه غالب ولا يفلت منه هارب الواجب الطّاعة فيما يأمر وينهي النّادر الذي لا مثيل له القوي الذي لا يجارى "الْجَبَّارُ" العظيم الشّأن في القدرة والسّلطان والقهر الذي لا يدانى ولا يحجزه عن إرادته حاجز "الْمُتَكَبِّرُ" البليغ في كبريائه الذي لا يحيط به شيء وهذه والتي قبلها صفتان ممدوحتان في الخالق مذمومتان في المخلوق "سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ" (23) به من خلقه من لا يستحق شيئا من هذه الصّفات الجليلة ولا يقدر على خلق شيء من مخلوقاته ولا على حفظ نفسه من العاهات تنزه عن الشّريك والمثيل والنّدّ والشّبيه "هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ" للوجد الأعيان من العدم إبداعا واختراعا وإنشاء

"الْمُصَوِّرُ" خلقه في الأرحام والبيض والأكمام والطّين وغيرها ومكونها بما هي عليه كما شاء الذي جعل لكل منها ميزة على الآخر على كثرتها واختلافها فسبحانه من إله قادر متكبر "لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى " الكريمة الشّريفة الدّالة على معان كثيرة راجع الآية 8 من سورة طه ج 1 تجدها كلها هناك مع ما يخطر ببالك عنها وإن له تعالى أسماء غيرها لا تعد ولا تحصى حيث يشتق له من كلّ ما يقع في ملكه اسم "يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" من كلّ نام وجامد بلسان القال والحال "وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (24) في أفعاله وأقواله وآثاره وقد ختمت

هذه السّورة بالمعنى الذي بدئت به وهو من بديع النّظم ويوجد سورة التغابن مختومة بما ختمت به فقط والله أعلم.

وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿بيان المعاني حـ 6 صـ 88.105﴾

(65/754)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة:

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الحشر

مدنية الحكيم تام لأول الحشر كاف وكذا إن يخرجوا ومن الله لم يحتسبوا صالح الرعب كاف الأبصار حسن في الدنيا كاف وكذا عذاب النار ورسوله حسن العقاب تام وكذا الفاسقين من يشاء كاف قدير تام منكم حسن فأنتهوا كاف العقاب تام الصادقون صالح لأنه رأس آية خصاصة تام وكذا المفلحون للذين آمنوا كاف رحيم تام لننصركم كاف وكذا الكاذبون لا ينصرونهم صالح لا ينصرون كاف وكذا من الله لا يفقهون حسن أو من وراء جدار كاف وكذا شديد وشتى ولا يعقلون وأمرهم واليم ورب العالمين وخالدين فيها الظالمين تام واتقوا الله كاف بما تعملون حسن أنفسهم كاف الفاسقون تام وكذا أصحاب الجنة والفائزون من خشية الله كاف يتفكرون تام وكذا الرحيم المتكبر حسن يشركون تام وكذا الحسنى وآخر السورة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(66/754)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني:

سورة الحشر

مدنية عشرون وأربع آيات اتفاقاً ليس فيها اختلاف وكلمها أربعمائة وخمس وأربعون كلمة

وحروفها ألف وتسعمائة وثلاث وسبعون حرفاً

وما في الأرض (حسن)

الحكيم (تام)

لأول الحشر (حسن) ومثله أن يخرجوا وكذا من الله

لم يحتسبوا (تام) عند نافع على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل حالاً

وأيدي المؤمنين (جائز)

أولي الأبصار (تام) عند الأخفش

في الدنيا (حسن)

عذاب النار (أحسن) مما قبله

ورسوله (حسن) للابتداء بالشرط

العقاب (تام)

على أصولها ليس بوقف لأنَّ جواب ما الشرطية قوله فبإذن الله وما منصوبة بقطعتم ومن

لينة بيان لما

الفاسقين (تام) ولا ركاب الأولى وصله

من يشاء (كاف)

قدير (تام) وقيل ليس بتام لأنَّه إنَّما أتى بالواو في الأولى دون الثانية لأنَّ ما أفاء الله على

رسوله من أهل القرى هذه الجملة بيان للجملة الأولى فهي غير أجنبية عنها فعلى هذا لا يتم الوقف على قدير قاله الكواشي ولا وقف من قوله ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى إلى قوله بين الأغنياء منكم على أن الآية الأولى خاصة في بني النضير وحكمها مخالف ولم يحبس من هذه رسول الله لنفسه شيئاً بل أمضاها لغيره وهذه الآية عامة ورسموا كي لا هنا كلمتين كي كلمة ولا كلمة

فخذوه (جائز)

فانتهوا (حسن)

واتقوا الله (أحسن) مما قبله

العقاب (تام) وينبغي هنا سكتة لطيفة ولا يوصل بما بعده خشية توهم أنَّ شدة العقاب للفقراء وليس كذلك بل قوله للفقراء خبر مبتدأ محذوف أي والفيء المذكور للفقراء أو بتقدير فعل أي ما ذكرناه من الفيء يصرف للفقراء وإن جعل قوله للفقراء بدلاً من قوله ولذي القربى كما قال الزمخشري لا يوقف من قوله وما آتاكم الرسول فخذوه إلى قوله وينصرون الله ورسوله فلا يوقف على فخذوه ولا على فانتهوا ولا على واتقوا الله ولا على العقاب لأنَّه لا

يفصل بين البدل والمبدل منه بالوقف وإن جعل قوله للفقراء المهاجرين والآيات الثلاث بعده متصلاً بعضها ببعض لم يوقف على ما بينها إلاَّ على سبيل التسمح لأَنَّه قال في حق المهاجرين للفقراء المهاجرين وفي حق الأنصار والذين تبوَّؤا الدار والإيمان وقال في التابعين والذين جاؤا من بعدهم

ورسوله (حسن)

الصادقون (كاف) على استئناف ما بعده مرفوع بالابتداء والخبر يحبون وجائزان عطف على ما قبله مما أوتوا ليس بوقف لأنَّ ما بعده عطف على ما قبله

خصاصة (تام) للابتداء بالشرط ومثله المفلحون إن جعل ما بعده مبتدأ و خبره يقولون وإن جعل والذين جاؤا معطوفاً على المهاجرين ويقولون حال أخبر الله عنهم بأنهم لإيمانهم ومحبة أسلافهم ندبوا بالدعاء للأولين والثناء عليهم فما بعد يقولون إلى قوله للذين آمنوا من مقولهم فلا يوقف على شيء قبله

للذين آمنوا (كاف) ويجوز لوقف على ربنا ولا يجمع بينهما

رحيم (تام)

أبداً (جائز)

لننصركم (كاف) ومثله لكاذبون

لا يخرجون معهم (جائز) ومثله لا ينصرونهم وكذا الأدبار

لا ينصرون (تام)

من الله (حسن)

لا يفقهون (كاف) وكذا جدار

ومثله شديد و قلوبهم شتى ولا يعقلون وقوف كافية والشرط في الأخيران جعل كمثل خبر مبتدأ محذوف أي مثلهم كمثل ويعقلون جائزان جعل ما بعد الكاف متعلقاً بيعقلون

من قبلهم قريباً (جائز) ومثله وبال أمرهم

أليم (كاف) إن جعل كمثل معه مبتدأ محذوف أي مثلهم كمثل الشيطان

(68/754)

اكفر (حسن) ومثله منك

رب العالمين (كاف)

خالدين فيها (حسن)

الظالمين (تام) ورسموا جزاؤا بواو وألف كما ترى

ما قدمت لغد (كاف) أصله غدو إلاّ أنَّ القرآن جاء بحذف الواو وحذفت لامه اعتباطاً وجعل الأعراب على عينه أو يقال تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً ثم

حذفت لالتقاء الساكنين وهما الألف والتنوين فصار غد

واتقوا الله (أكفى) مما قبله

بما تعملون (تام)

أنفسهم (كاف)

الفاسقون (تام) ومثله أصحاب الجنة الأول وكذا الفائزون

من خشية الله (كاف)

يتفكرون (تام)

إلاَّ هو (جائز) لأن عالم يصلح بدلاً من الضمير المرفوع أو خبر ضمير آخر محذوف أي هو

عالم

والشهادة (كاف) وكذا الرحيم ومثله المتكبر

يشركون (تام) والوقف على المصور بكسر الواو وضم الراء وهو خبر (جائز) وقرأ علي بن

أبي طالب المصور بفتح الواو والراء كأنَّه قال الذي برأ المصور وعلى هذه القراءة يحرم

الوقف على المصور بل يتعين الوصل ليظهر النصب في الراء وإلاَّ توهم كونه تعالى مصوراً

وذلك محال وترك ما يوهم واجب وهو من القطع كأنَّه قيل أمدح المصور كقولهم الحمد لله

أهل الحمد بنصب أهل أو هو منصوب بالبارئ أي برأ المصور يعني آدم وبنيه والعامة على

كسر الواو ورفع الراء لأنَّه صفة أو خبر

له الأسماء الحسنى (حسن) ومثله والأرض

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى ص ﴾

(69/754)

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة ابن جنى :

سورة الحشر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "كَيْ لا تكُونَ دُولَةً 1" ، بالتاء مرفوعة الدال والهاء - أبو جعفر يزيد .

قال أبو الفتح : منهم من لا يفصل بين الدولة والدولة ، ومنهم من يفصل فيقول : الدولة في الملك ، والدولة في الملك . "وتكون" هنا هي التامة ، ولا خبر لها ، أي : كي لا تقع دولة أو تحدث دولة بين الأغنياء . وإن شئت كانت 2 صفة لـ"دولة" ، وإن شئت كانت متعلقة بنفس "دولة" ، تداول بين الأغنياء ، وإن شئت علقتها بنفس "تكون" أي : لا تحدث بين الأغنياء منكم ، وإن شئت جعلتها "كان" الناقصة ، وجعلت "بين" خبرها .

والأول الوجه ، ومعناه : كي لا تقع دولة فيه أو عليه ، يعنى على المفاء من عند الله .

ومن ذلك قراءة أبي رجاء وأبي حية : "جُدْر3" ، بضم الجيم ، وتسكين الدال .

قال أبو الفتح : هذه مخففة من جدر ، جمع جدار . وأما من قرأ : "مِنْ وَرَاءِ جِدَار"

فيحتمل أمرين :

أحدهما أن يكون واحد وقع موقع الجماعة ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا4 ﴾ ، أي

: أطفالا .

وفيه وجه آخر لطيفن وفيه الصنعة ، وهو أن يكون "جدار" تكسير جدار أيضا ، فتكون

ألف [158و] جدار في الواحد ، كألف كتاب وحساب ، وفي الجماعة كألف ظراف

وكرام .

---

1 سورة الحشر : 7 .

2 أي "بين الأغنياء" وقد تكون "بين" سقطت قبل "إن" .

3 سورة الحشر : 14 .

4 سورة غافر : 167 ، وفي الأصل : ويخرجكم ، وهو تحريف .

ومثله مما كسر من من فعال على فعال قولهم : ناقة هجان 1 ونوق هجان ، ودرع دلاص 2 وأدرع دلاص . ويدل على أن هجانا ليس لفظا واحد يقع على الواحد فما فوقه كجنب وبابه – قولهم : هجانان ، وهذا واضح .

وإنما جاز تكسير فعال على فعال من حيث كانت فعال أخت فعيل . ألا ترى كل واحد منهما ثلاثيا وقيل لامه حرف لين ؟ فكما كسر فعيل على فعال كشريف وشراف ، وكريم وكرام – كذلك أيضا جاز تكسير فعال على فعال ، وكما أن ألف جدار في الواحد ليست ألف جدار في الجمع – فكذلك كسرة الجيم فيه غير كسرته فيه ، وفتحة الدال فيه غير فتحته فيه ، كما أن كسرة الشين في شراف غير فتحتها في شريف ، وكما أن فتحة الدال في جدار غير كسرة الراء من شريف .

فهذا الخلاف لفظا هو الذي سوغ اعتقاد المتفقين لفظا مختلفين تقديرا ومعنى .

وهذا غور من العربية بطين ، وله نظائر كثيرة ، وفيه صنعة لطيفة, وقد أفردنا له بابا في كتابنا الخصائص فيما اتفق لفظه واختلف معناه من الحروف والحركات والسكون 3 ،

ومثله سواء قول الله "تعالى" : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا 4 ﴾ ، يكون "إمام" مع إمام ، على ما شرحناه في جدار . وذهب أبو الحسن إلى أنه جمع آم ، كقائم وقيام .

ومن ذلك قال ابن مجاهد وأبو حاتم عن يعقوب ، قال : سمعت أعرابيا يكنى أبا الدينار عند الكسائي يقرأ : "الْقَدُّوس" ، بفتح القاف .

قال أبو الفتح : فعول في الصفة قليل ، وذكر سيبويه في الصفة السبوح ، والقدوس ، وحكى

---

1 ناقة هجان : بيضاء .

2 درع دلاص : ملساء لينة .

3 الخصائص : 2 : 93 – 103 ، وعنوان الموضوع هناك : باب في اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين في الحروف والحركات والسكنات .

4 سورة الفرقان : 74 .

5 سورة الحشر : 23 .

في الصفة أيضا السبوح ، والقدوس ، بالضم ، وإثبات الفعول الاسم كشبوط1 ، وسمور2 ، وتنور ، وسفود3 ، وهبود4 ، – لجبل باليمامة ، – وعبود .

ومن ذلك قرأ الأعمش : "وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِمْرًا5" .

قال أبو الفتح : هو راجع بالمعنى إلى أنه من قولهم : منديل الغمر ؛ – لأنه الدنس وفساد المعتقد ، وكلام العرب لطيف المذهب ، وكريم المضطرب لكن بقى من يشبهه6 ، وينجلى بنظره أغماؤه7 وأشبه8 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 315. 317﴾

1 الشبوط : سمك دقيق الذنب ، عريض الوسط ، لين المس ، صغير الرأس ، والواحدة بهاء .

2 السمور : دابة يتخذ من جلدها فراء ثمينة .

3 السفود : حديدة يشوى بها .

4 هبود أيضا : ماء ، وفرس لعمرو بن الجعيد .

5 سورة الحشر : 10 .

6 يشبه : يجلو محاسنه ، ويكشف عن مزاياه . ومن قولهم : شبه الخمار والشعر لونها : زادا في حسنها ، وأظهرا جمالها .

7 أغماؤه : أغشيته ، جمع غمى ، كهوى . من قولهم : في السماء غمى ، إذا غم عليهم الهلال .

8 أشبه : اختلاط وجوهه ، وتشابك مذاهبه . من قولهم أشب الشجر – كفرح – : التف .

وقال العلامة الدمياطي :

سورة الحشر

مدنية وآيها أربعة وعشرون مشبه الفاصلة خمسة ( ) لم يحتسبوا ( ) وأيدي المؤمنين ( ) ولا ركاب ( ) أحدا أبدا ( ) بينهم شديد ( )

القراآت أمال ( ) فآتاهم الله (حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وهو مقصور وفاقا لأنه بمعنى المجيء وقرأ في قلوبهم الرعب بكسر الهاء والميم أبو عمرو ويعقوب وضمها حمزة والكسائي وخلف وكسر الهاء وضم الميم والباقون ومثله ( ) لإخوانهم الذين ( ) وكذا وعليهم الجلاء إلا أن يعقوب كحمزة فيها وضم عين الرعب ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب ومر بالبقرة

واختلف (يخربون) الآية 2 فأبو عمرو بفتح الخاء وتشديد الراء وافقه الحسن واليزيدي والباقون بسكون الخاء وتخفيف الراء وهما بمعنى عداه وأبو عمرو بالتضعيف وغيره بالهمزة لكن حكي عن أبي عمرو أنه قال إن خرب بالتشديد هدم وأفسد وأخرب ترك الموضع خرابا وذهب عنه

وقرأ (بيوتهم) الآية 2 بكسر الباء قالون وابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف وعن الحسن الجلاء بلا مد ولا همز

واختلف في ( ) يكون دولة (الآية 7 فأبو جعفر وهشام من أكثر طرق الحلواني عنه تكون

بتاء التأنيث دولة بالرفع على أن كان تامة وهي طريق ابن عبدان عن الحلواني وروى الجمال وغيره التذكير مع رفع دولة لكون الفاعل مجازي التأنيث ولم يختلف عن الحلواني في رفع دولة وروى الداجوني عن أصحابه عن هشام التذكير مع النصب وبه قرأ الباقون على أن كان ناقصة واسمها ضمير الفيء ودولة خبرها ولا يجوز النصب مع التأنيث وإن توهمه بعض شراح الشاطبية من ظاهر كلام الشاطبي رحمه الله لانتفاء صحته رواية ومعنى كما نبه عليه في النشر قال الجعبري وإنما امتنع التأنيث مع النصب لأن الفاعل مذكر فلا يجوز تأنيث فعله قال أبو عمرو والدولة بالضم ما ينتقل من النعم من قوم إلى آخرين وبالفتح الظفر والاستيلاء في الحرب

(73/754)

وأمال (أتاكم ونهاكم) حمزة والكسائي وخلف وقللهما الأزرق بخلفه ومر للأزرق طرق خمسة في أتاكم

وقرأ (ورضوانا) الآية 8 بضم الراء أبو بكر وقرأ رؤف بالقصر بلا واو أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف

وأمال ( ) قرى محصنة ( ) وقفا أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه وحمزة والكسائي وخلف وقلله

الأزرق

واختلف في (جدر) الآية 14 فابن كثير وأبو عمرو ﴿ جدار ﴾ بكسر الجيم وفتح الدال وألف بعدها على التوحيد وافقهما اليزيدي وابن محيصن بخلفه وعنه فتح الجيم وسكون الدال بلا الألف لغة فيه وعن الحسن ضم الجيم وسكون الدال مع حذف الألف والباقون بضم الجيم والدال على الجمع وأماله أبو عمرو

وقرأ (تحسبهم) الآية 16 بكسر السين نافع وابن كثير وابو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف عن نفسه ومر بالبقرة وأمال شتى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وأبو عمرو كذلك

وقرأ (بريء) الآية 16 بالإبدال والإدغام أبو جعفر ووقف عليه حمزة وهشام بخلفه كذلك ويجوز فيه الروم والإشمام وفتح ياء الإضافة من إني أخاف نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وعن الحسن عاقبتهما بالرفع اسما لكان وأن وما في حيزها خبر والجمهور عكسوا وهو الراجح كما مر وعن المطوعي خالدان بالألف رفعا خبر أن والظرف لغو ونقل القرآن ابن كثير ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على ذلك جزؤا ونحومما رسم بواو بعد الزاي وألف باثني عشر وجها مرت مبنية في بعض النظائر منها أنبؤا ما كانوا أول الأنعام

وأمال (البارىء) الدوري عن الكسائي والباقون بالفتح وعن ابن محيصن بخلفه بياء مضمومة بدل الهمزة وعنه أيضا المصور بفتح الراء على القطع أي أمدح وعن الحسن فتح

الواو والراء مفعولا بالبارئ أي خالق الشيء المصور أمام آدم أو هو وبنوه قال السمين وعليها يحرم الوقف على المصور بل يحب الوصل ليظهر النصب في الراء لئلا يتوهم منه في الوقف ما لا يجوز

(74/754)

المرسوم اتفقوا على كتابة وذلك جزؤا الظالمين بواو بعد الزاي وألف ياءات الإضافة واحدة ( ) إني أخاف ( ) الآية 16 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر ص ﴾

(75/754)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الحشر "

" وهو " بيوتهم ، بأيديهم ، فاعتبروا عليهم الجلاء ، عليه ، من خيل ، ورضوانا ، إليهم ويؤثرون ، رءوف لا يخفى كله .

" قلوبهم الرعب " سبق حكم الهاء والميم مرارا . وضم عين الرعب الشامي والكسائي

وأبو جعفر ويعقوب وأسكنها غيرهم .

" يخربون " قرأ أبو عمرو بفتح الخاء وتشديد الراء وغيره بإسكان الخاء وتخفيف الراء .

"كي لا يكون دولة " قرأ أبو جعفر وهشام بخلف عنه يكون بتاء التأنيث ودولة برفع التاء والوجه الثاني لهشام التذكير في يكون مع رفع دولة أيضا فيكون له في يكون التأنيث والتذكير وفي دولة الرفع فقط والباقون بياء التذكير في يكون ونصب التاء في دولة . ولا يجوز في قراءة ما تأنيث يكون مع نصب دولة .

" آتاكم " أوجه ورش الأربعة لا تخفى .

" تبوءوا " لورش حال الوقف ثلاثة البدل ولحمزة عند الوقف كذلك تسهيل الهمزة بين بين وحذفها فيصير النطق بواو ساكنة بعد الواو المفتوحة المشددة .

" رحيم " آخر الربع .

الممال

النار معا وديارهم معا والأبصار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، فأنساهم فأتاهم واليتامى وآتاكم ونهاكم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . الدنيا والقربى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، القرى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش . جاءوا لحمزة وخلف وابن ذكوان .

المدغم

" الصغير " اغفر لنا للبصري بخلف عن الدوري .

" الكبير " أولئك كتب ، حزب الله هم . وقذف في

" لا يخرجون " اتفقوا على قراءته بفتح الياء وضم الراء .

" جدر " قرأ المكي والبصري بكسر الجيم وفتح الدال وألف بعدها على الإفراد والباقون بضم الجيم والدال على الجمع .

" بأسهم " تحسبهم . القرآن ، من خشية . المتكبر . المصور . البارئ ، وهو ، كله جلي .

" برئ " فيه لحمزة وهشام وقفا الإدغام مع السكون المحض والإشمام والروم .

" إني أخاف " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" جزاؤا " رسمت الهمزة على واو على الصحيح ففيه لحمزة وهشام وقفا اثنا عشر وجها ذكرت مرارا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 323 . 325 ﴾

(76/754)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الحشر

قوله تعالى ﴿ يخربون بيوتهم ﴾ يقرأ بإسكان الخاء والتخفيف وبفتحها والتشديد فالحجة لمن خفف انه اراد يرحلون ويخلونها تقول العرب اخربنا المنزل اذا هم ارتحلوا عنه وان كان صحيحا والحجة لمن شدد انه اراد يهدمونها وينقضونها تقول العرب خربنا المنزل اذا هم هدموه وان كانوا فيه مقيمين

قوله تعالى ﴿ أو من وراء جدر ﴾ يقرأ بكسر الجيم واثبات الالف بين الدال والراء على التوحيد وبضم الجيم والدال وحذف الالف على الجمع ومعناه من وراء حائط وقد ذكرت علل التوحيد والجمع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 344 ﴾

(77/754)

وقال ابن زنجلة :

59 – سورة الحشر

يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصر 2

قرأ أبو عمرو يخربون بالتشديد أي يهدمون وحجته قوله بيوتهم بأيديهم وأيدي المومنين فذكر البيوت والأيدي للتكثير وتردد الفعل كما قال وغلقت الأبواب وقد أجمعوا على التشديد في هذا الحرف

وقرأ الباقون يخربون بالتخفيف وفيها وجهان أحدهما أن يكون الأحزاب يعني به الترك تقول أخربت المكان إذا خرجت عنه وتركته فمعنى يخربون أي يتركون بيوتهم والوجه الآخر أن يراد معنى الهدم فيجرى ذلك مجرى أوفيت ووفيت وأكرمت وكرمت وأذكرته وذكرته وكذلك خربت وأخربت والأصل أن تقول خرب المنزل وأخربه صاحبه وخربه أيضا لا يقتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر 14

قرأ ابن كثير وأبو عمرو من وراء جدار بالألف وقرأ الباقون جدر وهو جمع جدار مثل حمار وحمر وكتاب وكتب وحجتهم أنه أتى عقيب قوله إلا في قرى محصنة فأخرجوا القرى بلفظ الجمع ثم عطفوا بقوله أو من وراء جدر فكان الجمع أشبه بلفظ ما تقدمه من التوحيد ليأتلف الكلام على نظم واحد ومن قرأ جدار فهو واحد يؤدي عن معنى الجمع . انتهى

انتهى . اهـ ﴿حجة القراءات صـ 706.705 ﴾

(78/754)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الحشر 59

مدنية ولا نظير لها في عددها

وكلمها أربع مئة وخمس وأربعون كلمة

وحروفها ألف وتسع مئة وثلاثة عشر حرفا

وهي عشرون وأربع آيات في جميع العدد ليس فيها اختلاف

وفيها مما يشبه الفواصل وليس بها ثلاثة مواضع (﴿ وأيدي المؤمنين ﴾ من خيل ولا ركاب

) (﴿ بينهم شديد ﴾) ورؤوس الآي

الحكيم

1 الأبصار

2 النار

3 العقاب

4 الفاسقين

5 قدير

6 العقاب

7 الصادقون

8 المفلحون

9 رحيم

10 لكاذبون

11 لا ينصرون

12 لا يفقهون

13 لا يعقلون

14 أليم

15 العالمين

16 الظالمين

17 تعملون

18 الفاسقون

19 الفائزون

20 يتفكرون

21 الرحيم

22 يشركون

23 الحكيم

24 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 243 ﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (مانعتهم) هو خبر أن ، و (حصونهم) مرفوع به ، وقيل هو خبر مقدم .

قوله تعالى (يخربون) يجوز أن يكون حالا ، وأن يكون تفسيرا للرعب ، فلا يكون له موضع .

واللينة عينها واو ، لانها من اللون قلبت لسكونها وانكسار ما قبلها .

قوله تعالى (من خيل) من زائدة .

والدولة بالضم في المال ، وبالفتح في النصرة ، وقيل هما لغتان .

قوله تعالى (للفقراء) قيل هو بدل من قوله تعالى " لذى القربى " وما بعده ، وقيل التقدير: اعجبوا ، و (يبتغون) حال (والذين تبوءوا) قيل هو معطوف على المهاجرين ، فيحبون على هذا حال ، وقيل هو مبتدأ ، ويحبون الخبر .

قوله تعالى (والإيمان) قيل المعنى: وأخلصوا الإيمان وقيل التقدير: ودار الإيمان ، وقيل

المعنى: تبوءوا الإيمان: أي جعلوه ملجأ لهم.

قوله تعالى (حاجة) أي مس حاجة.

قوله تعالى (لا ينصرونهم) لما كان الشرط ماضيا جاز ترك جزم الجواب والجدار واحد في معنى الجمع، وقد قرئ "من وراء جدر" وجدور على الجمع.

قوله تعالى (كمثل) أي مثلهم كمثل، و (قريبا) أي استقروا من قبلهم زمنا قريبا، أو ذاقوا وبال أمرهم قريبا: أي عن قريب.

قوله تعالى (فكان عاقبتهما) يقرأ بالنصب على الخبر، و (أنهما في النار) الاسم، ويقرأ بالعكس، و (خالدين) حال، وحسن لما كرر اللفظ، ويقرأ "خالدان" على أنه خبر أن.

قوله تعالى (المصور) بكسر الواو ورفع الراء على أنه صفة، وبفتحها على أنه مفعول البارئ عزوجل، وبالجر على التشبيه بالحسن الوجه على الإضافة، والله أعلم. انتهى ا. هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 ص ﴾

(80/754)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة الحشر

[سورة الحشر (59) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1)

"سَبَّحَ" ماض "لِلَّهِ" متعلقان به "ما" فاعل "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "وَما فِي الْأَرْضِ" معطوف على ما قبله والجملة ابتدائية لا محل لها "وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" مبتدأ وخبراه والجملة حالية.

[سورة الحشر (59) : آية 2]

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ (2)

"هُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها ، "أَخْرَجَ" ماض وفاعله مستتر "الَّذِينَ" مفعوله والجملة صلة "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "مِنْ أَهْلِ" متعلقان بمحذوف حال "الْكِتابِ" مضاف إليه "مِنْ دِيارِهِمْ" متعلقان بأخرج "لِأَوَّلِ" متعلقان

بأخرج أيضا "الْحَشْرِ" مضاف إليه "ما" نافية "ظَنَنْتُمْ" ماض وفاعله "أَنْ يَخْرُجُوا" مضارع منصوب بأن والواو فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل سد مسد مفعولي ظننتم وجملة ظننتم استئنافية لا محل لها ، "وَظَنُّوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "أَنَّهُمْ" أن واسمها "مانِعَتُهُمْ" خبرها "حُصُونُهُمْ" فاعل مانعتهم والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي ظنوا . "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بمانعتهم "فَأَتاهُمُ اللَّهُ" ماض ومفعوله ولفظ الجلالة فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "مِنْ" حرف جر "حَيْثُ" ظرف مبني على الضم في محل جر والجار والمجرور متعلقان بأتاهم ، "لَمْ يَحْتَسِبُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله والجملة في محل جر بالإضافة "وَقَذَفَ" معطوف على فأتاهم "فِي قُلُوبِهِمُ" متعلقان بالفعل "الرُّعْبَ" مفعول به ، "يُخْرِبُونَ" مضارع وفاعله "بُيُوتَهُمْ" مفعوله "بِأَيْدِيهِمْ" متعلقان بالفعل "وَأَيْدِي" معطوف على أيديهم "الْمُؤْمِنِينَ" مضاف إليه والجملة استئنافية لا محل لها . "فَاعْتَبِرُوا" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله والجملة جواب الشرط المقدر لا محل لها "يا أُولِي" منادى مضاف "الْأَبْصارِ" مضاف إليه .

[سورة الحشر (59) : آية 3]

وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ (3)

"وَلَوْلا" الواو حرف استئناف ولولا حرف شرط غير جازم "أَنْ كَتَبَ اللَّهُ" أن مصدرية وماض وفاعله "عَلَيْهِمُ" متعلقان بالفعل "الْجَلاءَ" مفعول به ، والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل رفع مبتدأ خبره محذوف ، "لَعَذَّبَهُمْ" اللام واقعة في جواب لولا وعذبهم ماض ومفعوله والفاعل مستتر "فِي الدُّنْيا" متعلقان بالفعل والجملة جواب الشرط لا محل لها ، والواو حرف استئناف "لَهُمْ" خبر مقدم "فِي الْآخِرَةِ" متعلقان بمحذوف خبر ثان "عَذابُ" مبتدأ مؤخر "النَّارِ" مضاف إليه والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الحشر (59) : آية 4]

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (4)

"ذلِكَ" مبتدأ "بِأَنَّهُمْ" الباء حرف جر وأن واسمها "شَاقُّوا اللَّهَ" ماض وفاعله والجملة الفعلية خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها ولفظ الجلالة مفعول به "وَرَسُولَهُ" معطوف على الله "وَمَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "يُشَاقِّ اللَّهَ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والفاعل مستتر ولفظ الجلالة مفعول به "فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ" الفاء رابطة وإن واسمها وخبرها "الْعِقابِ" مضاف إليه وجملتا الشرط والجواب خبر من وجملة إن في محل جزم جواب الشرط .

[سورة الحشر (59) : آية 5]

ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ (5)

(83/754)

"ما" اسم شرط جازم مفعول به مقدم "قَطَعْتُمْ" ماض وفاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "مِنْ لِينَةٍ" متعلقان بمحذوف حال "أَوْ" حرف عطف "تَرَكْتُمُوها" ماض وفاعله ومفعوله الأول "قائِمَةً" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها "عَلى أُصُولِها" متعلقان بقائمة "فَبِإِذْنِ اللَّهِ" الفاء رابطة وبإذن متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف أي فقطعها بإذن الله والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط ولفظ الجلالة مضاف إليه.

"وَلِيُخْزِيَ" الواو عاطفة على مقدر مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر "الْفاسِقِينَ" مفعول به والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف مقدر.

[سورة الحشر (59) : آية 6]

وَما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ وَلكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6)

"وَما" الواو استئنافية وما اسم موصول مبتدأ "أَفاءَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة ما "عَلى رَسُولِهِ" متعلقان بالفعل "مِنْهُمْ" حال "فَما" الفاء واقعة في جواب الموصول "ما" نافية "أَوْجَفْتُمْ" ماض وفاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها ، "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "مِنْ خَيْلٍ" مجرور لفظا بمن الزائدة منصوب محلا مفعول به "وَلا رِكابٍ" معطوف على خيل ، "وَلكِنَّ اللَّهَ" الواو حالية لكن واسمها "يُسَلِّطُ رُسُلَهُ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية خبر لكن والجملة الاسمية حال ، "عَلى مَنْ" متعلقان بالفعل "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَاللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "عَلى كُلِّ" متعلقان بقدير "شَيْءٍ" مضاف إليه "قَدِيرٌ" خبر والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الحشر (59) : آية 7]

(84/754)

ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (7)

"ما" اسم موصول مبتدأ "أَفاءَ اللَّهُ" ماض وفاعله والجملة صلة ما "عَلى رَسُولِهِ" متعلقان

بالفعل "مِنْ أَهْلِ" متعلقان بمحذوف حال "الْقُرى" مضاف إليه "فَلِلَّهِ" الفاء واقعة في جواب اسم الموصول ولله متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف والجملة الاسمية خبر ما وجملة ما أفاء . . بدل من سابقتها "وَلِلرَّسُولِ" معطوف على ما قبله و"لِذِي الْقُرْبى ، وَالْيَتامى ، وَالْمَساكِينِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ" الكلام معطوف على ما قبله ، "كَيْ لا يَكُونَ" لا نافية ومضارع ناقص منصوب بكي واسمه مستتر "دُولَةً" خبر يكون "بَيْنَ" ظرف مكان "الْأَغْنِياءِ" مضاف إليه "مِنْكُمْ" متعلقان بمحذوف حال . "وَما" اسم شرط جازم مفعول به ثان مقدم "آتاكُمُ" ماض ومفعوله الأول "الرَّسُولُ" فاعل "فَخُذُوهُ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا" معطوف والإعراب واحد . "وَاتَّقُوا اللَّهَ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها ، "إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ" إن واسمها وخبرها "الْعِقابِ" مضاف إليه والجملة تعليل .

[سورة الحشر (59) : آية 8]

لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8)

"لِلْفُقَراءِ" بدل من قوله: لذي القربى "الْمُهاجِرِينَ" صفة للفقراء "الَّذِينَ" صفة ثانية "أُخْرِجُوا" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة صلة "مِنْ دِيارِهِمْ" متعلقان بالفعل "وَأَمْوالِهِمْ" معطوف على ديارهم "يَبْتَغُونَ" مضارع وفاعله والجملة حال "فَضْلًا" مفعول به "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بالفعل "وَرِضْواناً" معطوف على فضلا "وَيَنْصُرُونَ" مضارع وفاعله "اللَّهِ" لفظ الجلالة مفعوله "وَرَسُولَهُ" معطوف على الله والجملة معطوفة على ما قبلها، "أُولئِكَ" مبتدأ "هُمُ" ضمير فصل "الصَّادِقُونَ" خبر والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها.

[سورة الحشر (59) : آية 9]

وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)

"وَالَّذِينَ" حرف عطف ومبتدأ "تَبَوَّؤُا الدَّارَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة "وَالْإِيمانَ" مفعول به لفعل محذوف والجملة المقدرة معطوفة على تبؤوا "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بمحذوف حال "يُحِبُّونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر الذين وجملة الذين.. معطوفة على ما قبلها، "مَنْ" مفعول به "هاجَرَ" ماض وفاعله مستتر والجملة صلة "إِلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "وَلا يَجِدُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة

معطوفة على ما قبلها "فِي صُدُورِهِمْ" متعلقان بالفعل "حاجَةً" مفعول به "مِمَّا" متعلقان بمحذوف صفة حاجة "أُوتُوا" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة صلة،

(86/754)

"وَيُؤْثِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "عَلى أَنْفُسِهِمْ" متعلقان بالفعل والواو حالية "لَوْ" وصلية "كانَ" ماض ناقص "بِهِمْ" خبر مقدم "خَصاصَةٌ" اسم كان المؤخر والجملة حال. "وَمَنْ" شرطية مبتدأ "يُوقَ" مضارع مبني للمجهول مجزوم بحذف حرف العلة لأنه فعل الشرط ونائب الفاعل مستتر "شُحَّ نَفْسِهِ" مفعول به ثان مضاف إلى نفسه والجملة استئنافية لا محل لها.

"فَأُولئِكَ" الفاء رابطة "أولئك" مبتدأ "هُمُ" ضمير فصل "الْمُفْلِحُونَ" خبر والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من.

[سورة الحشر (59) : آية 10]

وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (10)

"وَالَّذِينَ جاؤُ" مبتدأ وماض وفاعله والجملة صلة الذين "مِنْ بَعْدِهِمْ" متعلقان بالفعل

"يَقُولُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر الذين وجملة الذين . . معطوفة على ما قبلها . "رَبَّنَا" منادى مضاف "اغْفِرْ" فعل دعاء فاعله مستتر والجملة مقول القول "لَنا" متعلقان بالفعل "وَلِإِخْوانِنَا" معطوف على لنا "الَّذِينَ" صفة إخواننا "سَبَقُونا" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة "بِالْإِيمانِ" متعلقان بالفعل ، "وَلا تَجْعَلْ" مضارع مجزوم بلا الناهية "فِي قُلُوبِنا" متعلقان بالفعل "غِلًّا" مفعول به "لِلَّذِينَ" متعلقان بغلا "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة وجملة لا تجعل . . معطوفة على ما قبلها ، "رَبَّنَا" منادى مضاف "إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ" إن واسمها وخبراها والجملة الاسمية تعليل للدعاء .

[سورة الحشر (59) : آية 11]

(87/754)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (11)

"أَلَمْ" الهمزة حرف استفهام "تَرَ" مضارع مجزوم بلم فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها ، "إِلَى الَّذِينَ" متعلقان بالفعل "نافَقُوا" ماض وفاعله والجملة صلة ، "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "لِإِخْوانِهِمُ" متعلقان بيقولون

"الَّذِينَ" صفة إخوانهم "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "مِنْ أَهْلِ" حال "الْكِتَابِ" مضاف إليه "لَئِنْ" اللام موطئة للقسم وإن شرطية "أُخْرِجْتُمْ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة ابتدائية لا محل لها "لَنَخْرُجَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ونون التوكيد حرف لا محل له من الإعراب والجملة جواب القسم لا محل لها "مَعَكُمْ" ظرف مكان ، "وَلا نُطِيعُ" لا نافية ومضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها ، "فِيكُمْ" متعلقان بالفعل "أَحَداً" مفعول به "أَبَداً" ظرف زمان ، "وَإِنْ" شرطية "قُوتِلْتُمْ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل "لَنَنْصُرَنَّكُمْ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وجواب الشرط محذوف لدلالة

القسم عليه والجملة جواب القسم لا محل لها ، "وَاللَّهُ" الواو حرف استئناف ولفظ الجلالة مبتدأ "يَشْهَدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ" إن واسمها واللام المزحلقة وكاذبون خبرها والجملة في محل نصب مفعول به .

[سورة الحشر (59) : آية 12]

لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (12)

"لَئِنْ" سبق إعرابها "أُخْرِجُوا" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل "لا يَخْرُجُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة جواب القسم لا محل لها وجملة أخرجوا ابتدائية لا محل لها "مَعَهُمْ" ظرف مكان "وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ" سبق إعرابها "وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ" سبق إعرابه أيضا ، "لَيُوَلُّنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو المحذوفة نائب فاعل "الْأَدْبارَ" مفعول به والجملة جواب القسم لا محل لها . "ثُمَّ" حرف عطف "لا يُنْصَرُونَ" لا نافية ومضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الحشر (59) : آية 13]

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (13)

"لَأَنْتُمْ أَشَدُّ" اللام لام الابتداء ومبتدأ وخبره "رَهْبَةً" تمييز والجملة استئنافية لا محل لها "فِي صُدُورِهِمْ" متعلقان برهبة "مِنَ اللَّهِ" متعلقان برهبة أيضا "ذلِكَ" مبتدأ "بِأَنَّهُمْ" الباء حرف جر وأن واسمها "قَوْمٌ" خبرها والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ وجملة ذلك . . استئنافية لا محل لها "لا يَفْقَهُونَ" لا

نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة قوم.

[سورة الحشر (59) : آية 14]

لاَ يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ (14)

(89/754)

"لاَ يُقاتِلُونَكُمْ" لا نافية ومضارع وفاعله ومفعوله والجملة استئنافية لا محل لها "جَمِيعاً" حال. "إِلَّا" حرف حصر "فِي قُرىً" متعلقان بالفعل "مُحَصَّنَةٍ" صفة قرى، "أَوْ" حرف عطف "مِنْ وَراءِ" معطوفان على ما قبلهما "جُدُرٍ" مضاف إليه "بَأْسُهُمْ" مبتدأ "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان "شَدِيدٌ" خبر "تَحْسَبُهُمْ" مضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر "جَمِيعاً" مفعول به ثان والجملة استئنافية لا محل لها، "وَ" الواو حالية "قُلُوبُهُمْ شَتَّى" مبتدأ وخبره والجملة حال "ذلِكَ" مبتدأ "بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ" سبق إعراب نظيره.

[سورة الحشر (59) : آية 15]

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (15)

"كَمَثَلِ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف "الَّذِينَ" مضاف إليه "مِنْ

قَبْلِهِمْ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "قَرِيباً" ظرف زمان "ذَاقُوا وَبالَ" ماض وفاعله ومفعوله "أَمْرِهِمْ" مضاف إليه والجملة حال. "وَلَهُمْ" خبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر "أَلِيمٌ" صفة عذاب والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الحشر (59) : آية 16]

كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (16)

(90/754)

"كَمَثَلِ" سبق إعرابها "الشَّيْطانِ" مضاف إليه "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمان "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "لِلْإِنْسانِ" متعلقان بالفعل "اكْفُرْ" أمر فاعله مستتر والجملة مقول القول "فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف ولما ظرفية حينية "كَفَرَ" ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "قالَ" ماض فاعله مستتر وجملة قال جواب لما لا محل لها . "إِنِّي" إن واسمها "بَرِيءٌ" خبرها "مِنْكَ" متعلقان ببريء والجملة مقول القول "إِنِّي" إن واسمها "أَخافُ" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر إن "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "رَبَّ" بدل من الله "الْعالَمِينَ" مضاف إليه .

[سورة الحشر (59) : آية 17]

فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (17)

"فَكانَ" الفاء حرف استئناف وماض ناقص "عاقِبَتَهُما" خبر كان المقدم "أَنَّهُما" أن واسمها "فِي النَّارِ" خبرها والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها في محل رفع اسم كان المؤخر "خالِدَيْنِ" حال "فِيها" متعلقان بخالدين "وَذلِكَ جَزاءُ" مبتدأ وخبره "الظَّالِمِينَ" مضاف إليه والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الحشر (59) : آية 18]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (18)

(91/754)

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" سبق إعرابها "اتَّقُوا اللَّهَ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة ابتدائية لا محل لها ، "وَلْتَنْظُرْ" مضارع مجزوم بلام الأمر والجملة معطوفة على ما قبلها "نَفْسٌ" فاعل "ما" مفعول به "قَدَّمَتْ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة ما "لِغَدٍ" متعلقان بالفعل ، "وَاتَّقُوا اللَّهَ" معطوفة على ما قبلها ، "إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ" إن واسمها وخبرها والجملة تعليل "بِما"

متعلقان بخبير "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة .

[سورة الحشر (59) : آية 19]

وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (19)

"وَلا تَكُونُوا" الواو حرف عطف ومضارع ناقص مجزوم بلا الناهية والواو اسمه "كَالَّذِينَ" خبره "نَسُوا اللَّهَ" ماض وفاعله ولفظ الجلالة مفعوله والجملة صلة "فَأَنْساهُمْ" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر "أَنْفُسَهُمْ" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها ، "أُولئِكَ" مبتدأ "هُمُ" ضمير فصل "الْفاسِقُونَ" خبر والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة الحشر (59) : آية 20]

لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ (20)

"لا" نافية "يَسْتَوِي أَصْحابُ" مضارع وفاعله "النَّارِ" مضاف إليه والجملة استئنافية لا محل لها .

"وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ" معطوف على أصحاب النار . "أَصْحابُ" مبتدأ "الْجَنَّةِ" مضاف إليه "هُمُ" ضمير فصل "الْفائِزُونَ" خبر والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الحشر (59) : آية 21]

لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)

"لَوْ" شرطية غير جازمة "أَنْزَلْنا" ماض وفاعله "هذا" اسم الإشارة مفعوله "الْقُرْآنَ" بدل من اسم الإشارة والجملة ابتدائية لا محل لها "عَلى جَبَلٍ" متعلقان بالفعل "لَرَأَيْتَهُ" اللام رابطة وماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب الشرط لا محل لها "خاشِعاً" حال منصوبة "مُتَصَدِّعاً" حال ثانية "مِنْ خَشْيَةِ" متعلقان بخاشعا "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه.

"وَتِلْكَ" اسم الإشارة مبتدأ "الْأَمْثالُ" بدل "نَضْرِبُها" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر "لِلنَّاسِ" متعلقان بالفعل والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها.

"لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها "يَتَفَكَّرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر لعل والجملة الاسمية تعليل.

[سورة الحشر (59) : آية 22]

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (22)

"هُوَ اللَّهُ" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "الَّذِي" صفة لفظ الجلالة "لا" نافية للجنس "إِلهَ" اسمها مبني على الفتح في محل نصب وخبرها محذوف "إِلَّا" حرف حصر "هُوَ" بدل من الضمير المستتر في الخبر المحذوف والجملة الاسمية صلة "عالِمُ" خبر ثان

"الْغَيْبِ" مضاف إليه "وَالشَّهادَةِ" معطوف على الغيب "هُوَ" مبتدأ "الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ" خبران والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الحشر (59) : آية 23]

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23)

(93/754)

"هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ" : سبق إعرابها . "الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ ، السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ" أخبار للفظ الجلالة . "سُبْحانَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه "عَمَّا" متعلقان بسبحان "يُشْرِكُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة.

[سورة الحشر (59) : آية 24]

هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)

"هُوَ" مبتدأ "اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ" أخبار للمبتدأ ، "لَهُ" خبر مقدم "الْأَسْماءُ" مبتدأ

مؤخر "الْحُسْنى " صفة والجملة الاسمية خبر رابع للمبتدأ "يُسَبِّحُ" مضارع "لَهُ" متعلقان بالفعل "ما" فاعل والجملة الفعلية استئنافية لا محل لها "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" مبتدأ وخبران والجملة حال. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 324. 330﴾

(94/754)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَةُ الْحَشْرِ

ذكر فِيهَا سَبْعَة أَحَادِيث

1318 - الحَدِيث الأول رُوِيَ أَن بني النَّضِير صَالحُوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَلا يكونُوا عَلَيْهِ وَلَا لَهُ فَلَمَّا ظَهَرُوا يَوْم بدر قَالُوا هُوَ النَّبِي الَّذِي نَعته فِي التَّوْرَاة لَا ترد لَهُ رَايَة فَلَمَّا هزم الْمُسلمُونَ يَوْم أحد ارْتَابُوا وَنَكَثُوا فَخرج كَعْب بن الْأَشْرَف فِي أَرْبَعِينَ رَاكِبًا إِلَى مَكَّة فحَالَفُوا عَلَيْهِ قُرَيْشًا عِنْد الْكَعْبَة فَأمر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَمَّد بن مسلمة الْأنْصَارِيّ فَقتل كَعْبًا غيلَة وَكَانَ أَخَاهُ من الرضَاعَة ثمَّ صبحهمْ بِالْكَتَائِبِ وَهُوَ عَلَى

حمَار مَخْطُوم بليفٍ فَقَال لَهُم اخْرُجُوا من الْمَدِينَة فَقَالُوا الْمَوْت أحب إِلَيْنَا من ذَلِك فتَنَادَوْا بِالْحَرْبِ وَقيل اسْتمْهلُوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشرَة أَيَّام ليتجهَّزُوا لِلْخُرُوجِ فَدس عبد الله بن أبي الْمُنَافِق إِلَيْهِم لَا تخْرجُوا من الْحصن فَإِن قَاتلوكُمْ فَنحْن مَعكُمْ لَا نخذلكم وَإِن خَرجْتُمْ لنخرجنَّ مَعكُمْ فدرَّبُوا على الْأَزِقَّة وحصَّنُوها فحاصرهم إِحْدَى وَعشْرين لَيْلَة فَلَمَّا قذف الله فِي قُلُوبهم الرعب وأيسوا من نصر الْمُنَافِقين طلبُوا الصُّلْح فَأبى عَلَيْهِم إِلَّا الْجلاء على أَن يحمل كل ثَلَاث أَبْيَات على بعير مَا شاؤوا من مَتَاعهمْ فجلَوْا إِلَى الشَّام إِلَى أريحا وأذرعات إِلَّا آل بَيْتَيْنِ مِنْهُم آل أبي الْحقيق وَآل حييّ بن أَخطب فَإِنَّهُم لَحِقُوا بِخَيْبَر وَلَحِقت طَائِفَة بِالْحيرَةِ

قلت غَرِيب

(95/754)

وَهُوَ فِي تَفْسِير الثَّعْلَبِيّ هَكَذَا من غير سَنَد

1319 - الحَدِيث الثَّانِي رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِين أَمر أَن يقطع نخلهمْ وَيحرق قَالُوا يَا مُحَمَّد قد كنت تنْهى عَن الْفساد فِي الأَرْض فَمَا بَال قطع النّخل وتحريقها وَكَانَ فِي أنفس الْمُؤمنِينَ شَيْء من ذَلِك فَنزلت يَعْنِي قَوْله مَا قطعْتُمْ من لينَة أَو

تَرَكْتُمُوهَا الْآيَة

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي مراسيله عَن عبد الله بن أبي بكر أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَتَى بنى النَّضِير فتحصنوا فَقطع رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم النّخل وحرق فَنَادوا حِين رأوا النّخل تقطع وتحرق يَا مُحَمَّد قد كنت تنْهى عَن الْفساد فَمَا بَال قطع النّخل وحرقه وَكَانَ من أنفس الْمُؤمنِينَ من ذَلِك شَيْء فَأنْزل الله مَا قطعْتُمْ من لينة الْآيَة انْتَهَى

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره ثَنَا ابْن حميد ثَنَا سَلمَة بن الْفضل حَدثنِي مُحَمَّد ابْن إِسْحَاق ثَنَا يزِيد بن رُومَان قَالَ لما نزل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بني النَّضِير تحصنوا مِنْهُ فِي الْحُصُون فَأمر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِقطع النّخل والتحريق فِيهَا بالنَّار فَنَادوهُ يَا مُحَمَّد قد كنت تنْهى إِلَى آخِره

وَذكره ابْن هِشَام فِي سيرته فِي غَزْوَة بني النَّضِير من قَول ابْن إِسْحَاق

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث مُحَمَّد بن إِسْحَاق ثني مُحَمَّد بن السَّائِب الْكَلْبِيّ ثني أَبُو صَالح عَن ابْن عَبَّاس فَذكره

وروَاهُ الْوَاقِدِيّ فِي كتاب الْمَغَازِي وَثني يحْيى بن عبد الْعَزِيز قَالَ أرسل النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سعد بن عبَادَة فَضرب قُبَّته إِلَى أَن قَالَ وَأمر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِالنَّخْلِ

فَقطعت وحرقت قَالَ فَأرْسل حييّ بن أَخطب إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَا مُحَمَّد إِنَّك كنت تنْهى عَن الْفساد إِلَى آخِره

1320 - الحَدِيث الثَّالِث رُوِيَ أَن رجلَيْنِ كَانَا يقْطَعَانِ أَحدهمَا الْعَجْوَة وَالْآخر اللَّوْن فَسَأَلَهُمَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ أَحدهمَا إِنَّمَا تركتهَا لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَقَالَ الآخر إِنَّمَا قطعتهمَا غيظا للْكفَّار

قلت غَرِيب وروى الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ أَنا عبد الرَّحْمَن بن الْحسن القَاضِي أَنا إِبْرَاهِيم بن الْحُسَيْن ثَنَا آدم ثَنَا وَرْقَاء عَن ابْن أبي نجيح عَن مُجَاهِد فِي قَوْله تَعَالَى مَا قطعْتُمْ من لينَة يَعْنِي من نَخْلَة قَالَ نهى بعض الْمُهَاجِرين بَعْضًا عَن قطع النّخل وَقَالَ إِنَّمَا هِيَ من مَغَانِم الْمُسلمين وَقَالَ الَّذين قطعُوا بل هُوَ غيظ لِلْعَدو فَنزل الْقُرْآن بِتَصْدِيق من نهى عَن قطعه وتحليل من قطعه من الْإِثْم فَقَالَ إِنَّمَا قطعه وتركه بِإِذن الله عز وَجل انْتهى

وروى الْوَاقِدِيّ فِي كتاب الْمَغَازِي ثني يَحْيَى بن عبد الْعَزِيز فَذكر الْقِصَّة وَفِيه فَأمر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنّخل فَقطعت وحرقت واسْتعْمل على قطعهَا رجلَيْنِ من أَصْحَابه أَبَا لَيْلَى الْمَازِني وَعبد الله بن سَلام وَكَانَ أَبُو لَيْلَى يقطع الْعَجْوَة وَكَانَ عبد الله بن سَلام يقطع اللَّوْن فَقيل لَهما فِي ذَلِك فَقَالَ أَبُو لَيْلَى كَانَت الْعَجْوَة احرق لَهُم وَقَالَ عبد الله بن سَلام قد عرفت أَن الله سيغنمه أَمْوَالهم وَكَانَت الْعَجْوَة خير أَمْوَالهم فَأنْزل الله تَعَالَى رضَا بِمَا صنعا مَا قطعْتُمْ من لينَة الْآيَة

1321 - الحَدِيث الرَّابِع قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْإِفَاضَة من عَرَفَات (لَيْسَ الْبر فِي إيجَاف الْخَيل وَلَا إيضَاع الْإِبِل عَلَى هينتكم)

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سنَنه فِي كتاب الْحَج من حَدِيث الْأَعْمَش عَن الحكم عَن مقسم عَن ابْن عَبَّاس قَالَ أَفَاضَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عَرَفَة وَعَلِيهِ السكينَة ورديفه أُسَامَه فَقَالَ (يأَيهَا النَّاس عَلَيْكُم بِالسّكِينَةِ فَإِن الْبر لَيْسَ بإيجَاف الْخَيل وَالْإِبِل) قَالَ فَمَا رَأَيْتهَا بعد رَافِعَة يديهَا عَادِية حَتَّى أَتَى جمعا

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ

انْتَهى

وَرَوَاهُ أَحْمد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم

(98/754)

وَأخرج البُخَارِيّ فِي عَن ابْن عَبَّاس أَنه دفع مَعَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم َ من عَرَفَة فَسمع النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم َ وَرَاءه زجرا شَدِيدا وضربا لِلْإِبِلِ فَأَشَارَ بِسَوْطِهِ إِلَيْهِم وَقَالَ (يأَيها النَّاس عَلَيْكُم بِالسَّكِينَةِ فَإِن الْبر لَيْسَ بِالْإِيضَاعِ)

انْتَهى

1322 - قَوْله عَن ابْن مَسْعُود أَنه لَقِي رجلا محرما وَعَلِيهِ ثِيَاب فَقَالَ لَهُ انْزِعْ عَنْك هَذَا فَقَالَ لَهُ الرجل اقْرَأ عَليّ فِي هَذَا آيَة من كتاب الله تَعَالَى قَالَ نعم فَقَرَأَ علية (وَمَا آتَاكُم الرَّسُول فَخُذُوهُ) الْآيَة

قلت رَوَاهُ الإِمَام الْحَافِظ أَبُو عمر بن عبد الْبر فِي كتاب الْعلم أخبرنَا مُحَمَّد ابْن خَلِيفَة ثَنَا مُحَمَّد بن الْحُسَيْن الْبَغْدَادِيّ بِمَكَّة ثَنَا أَبُو الْعَبَّاس أَحْمد بن سهل الْأُشْنَانِي ثَنَا الْحُسَيْن بن عَليّ بن الْأسود ثَنَا يحيى بن آدم ثَنَا قُطْبَة بن عبد الْعَزِيز وَأَبُو بكر بن عَيَّاش عَن أبي إِسْحَاق عَن عبد الرَّحْمَن بن يزِيد قَالَ لَقِي عبد الله بن مَسْعُود رجلا محرما وَعَلِيهِ ثِيَاب فَقَالَ لَهُ انْزِعْ

عَنْك هَذَا فَقَالَ لَهُ الرجل أَتَقْرَأُ عَلّي بِهَذَا آيَة من كتاب الله تَعَالَى قَالَ نعم وَمَا آتَاكُم الرَّسُول فَخُذُوهُ الْآيَة

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من طَرِيق ابْن أبي شيبَة ثَنَا مُعَاوِيَة بن هِشَام ثَنَا سُفْيَان الثَّوْريّ عَن الْأَعْمَش عَن إِبْرَاهِيم عَن عبد الرَّحْمَن بن يزِيد بِهِ سندا ومتنا

(99/754)

1323 - الحَدِيث الْخَامِس رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قسم أَمْوَال بني النَّضِير عَلَى الْمُهَاجِرين وَلم يُعْط الْأَنْصَار إِلَّا ثَلَاثَة نفر مُحْتَاجين أَبَا دُجَانَة سماك بن خَرَشَة وَسَهل ابْن حنيف والْحَارث بن الصمَّة وَقَالَ لَهُم (إِن شِئْتُم قسمت للمهاجرين من أَمْوَالكُم وداركم وَشَارَكْتُمُوهُمْ فِي هَذِه الْغَنِيمَة وَإِن شِئْتُم كَانَت لكم دِيَاركُمْ وَأَمْوَالكُمْ وَلم يقسم لكم شَيْء من الْغَنِيمَة) فَقَالَت الْأَنْصَار بل يقسم لَهُم من دِيَارنَا وَأَمْوَالنَا وَنُؤْثِرهُمْ بِالْقِسْمَةِ وَلَا نشاركهم فِيهَا فَنزلت

(100/754)

قلت رواهُ الْواقِديّ فِي كتاب الْمغَازِي ثني معمر عَن الزُّهْرِيّ عَن خارِجَة ابْن زيد عَن أم الْعَلَاء قَالَت لما غنم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بني النَّضِير قَالَ لِثَابت بن قيس بن شماس ادْع لي الْأَنْصَار كلهَا فَدَعَا الْأَوْس والخزرج فَتكلم وَحمد الله ثمَّ ذكر الْأَنْصَار وَمَا صَنَعُوا مَعَ الْمُهَاجِرين وَإِنْزَالهمْ إيَّاهُم فِي مَنَازِلهمْ وأثرهم عَلَى أنفسهم ثمَّ قَالَ (إِن أَحْبَبْتُم قسمت بَيْنكُم وَبَين الْمُهَاجِرين مِمَّا أَفَاء الله عَلّي من بني النَّضِير وَيكون الْمُهَاجِرُونَ عَلَى مَا هم عَلَيْهِ من السُّكْنَى فِي مَسَاكِنكُمْ وَأَمْوَالكُمْ وَإِن أَحْبَبْتُم أَعطيتهم وَخَرجُوا من دُوركُمْ) فَقَالَ سعد بن عبَادَة وَسعد بن معَاذ يَا رَسُول الله بل نقسمهُ للمهاجرين وَيكُونُونَ فِي دُورنَا كَمَا كَانُوا وَنَادَتْ الْأَنْصَار رَضِينَا يَا رَسُول الله فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَار وَأَبْنَاء الْأَنْصَار) فقسم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَفَاء الله عَلَيْهِ فَأعْطَى الْمُهَاجِرين وَلم يُعْط أحدا من الْأَنْصَار إِلَّا رجلَيْنِ كَانَا مُحْتَاجين سهل بن حنيف وَأَبا دُجَانَة وَنفل سعد بن معَاذ بِسيف ابْن أبي الْحقيق وَكَانَ لَهُ ذكر عِنْدهم

انْتَهَى

وروى أَبُو دَاوُد فِي سنَنه فِي كتاب الْجِهَاد من طَرِيق عبد الرَّزَّاق أَنا معمر عَن الزُّهْرِيّ عَن عبد الرَّحْمَن بن كَعْب بن مَالك عَن رجل من أَصْحَاب النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن كفار

قُرَيْش كتبُوا إِلَى ابْن أبي وَمن كَانَ مَعَه يعبد الْأَوْثَان من الْأَوْس والخزرج فَذكره قصَّة بني النَّضِير وَفِي آخِره وَكَانَت نخل بني النَّضِير لرَسُول الله

(101/754)

صلى الله عَلَيْهِ وَسلم خَاصَّة أعطَاهُ الله إِيَّاهَا وخصه بهَا فَقَالَ مَا أَفَاء الله على رَسُوله مِنْهُم فَمَا أَوجَفْتُمْ عَلَيْهِ من خيل يَقُول بِغَيْر قتال فَأعْطى النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أَكْثَرهَا للمهاجرين قسمهَا بَينهم وَقسم مِنْهَا لِرجلَيْنِ من الْأَنْصَار وَلم يقسم لغَيْرِهِمَا من الْأَنْصَار مُخْتَصر

وَفِي سيرة ابْن هِشَام فِي غَزْوَة بني النَّضِير عَن ابْن إِسْحَاق ثني عبد الله ابْن أبي بكر أَن رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم قسم أَمْوَال بني النَّضِير على الْمُهَاجِرين الْأَوَّلين دون الْأَنْصَار إِلَّا أَن سهل بن حنيف وَأَبا دُجَانَة سماك بن خَرشَة ذكرا فقرا فَأَعْطَاهُمَا رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم

وَمن طَرِيق ابْن إِسْحَاق رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره سندا ومتنا

وَذكر الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره لفظ الْمُصَنّف بحروفه عَن ابْن عَبَّاس من غير سَنَد

وَفِي الرَّوْض الْأنف لِلسُّهيْلي ابْن إِسْحَاق يَقُول أعطي أَبَا دُجَانَة وَسَهل ابْن حنيف وَغير ابْن

إِسْحَاق يَقُول أعْطى ثَلَاثَة وَذكر فيهم الْحَارِث بن الصمَّة

1324 - الحَدِيث السَّادِس عَن أبي هُرَيْرَة سَأَلت حَبِيبِي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن اسْم الله الْأَعْظَم قَالَ (عَلَيْك بآخر سُورَة الْحَشْر فَأكْثر قِرَاءَته) فَأَعَدْت عَلَيْهِ فَأَعَادَ عَلّي فَأَعَدْت عَلَيْهِ فَأَعَادَ عَلّي

(102/754)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أَنا أَبُو عُثْمَان بن أبي بكر الْحِيرِي ثَنَا أَبُو الْحُسَيْن مُحَمَّد ابْن الْحَجَّاجِي ثَنَا عبد الله بن أبان بن شَدَّاد أَن إِسْمَاعِيل بن مُحَمَّد الْحِبرِي حَدثهمْ قَالَ ثَنَا عَلّي بن زُرَيْق ثَنَا هِشَام عَن زيد بن أسلم عَن عَطاء بن يسَار عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ سَأَلت حَبِيبِي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَرَوَى الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط أَنا أَبُو سعد عبد الرَّحْمَن بن الْحسن الْحَافِظ أَنا عَلّي بن عمر بن مهْدي ثَنَا مُحَمَّد بن عَلّي بن حَمْزَة بن صَالح الْأَنْطَاكِي ثَنَا أَحْمد بن نجدة ثَنَا أَبُو الْمُغيرَة عبد القدوس بن الْحجَّاج ثَنَا يَحْيَى بن ثَعْلَبَة ثني الحكم بن عتيبة عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اسْم الله الْأَعْظَم فِي سِتّ آيَات من سُورَة الْحَشْر)

انْتَهَى

1325 - الحَدِيث السَّابِع عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ سُورَة الْحَشْر غفر الله لَهُ مَا تقدم من ذَنبه وَمَا تَأَخّر)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أَنا الْحُسَيْن بن مُحَمَّد بن فَنْجَوَيْهِ الدينَوَرِي ثَنَا ابْن حمدَان ثَنَا أبي ثَنَا مُحَمَّد بن يُونُس الْكُدَيْمِي ثَنَا عَمْرو بن عَاصِم ثَنَا أَبُو الْأَشْهب عَن يزِيد بن أبان عَن أنس بن مَالك قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ آخر سُورَة الْحَشْر) إِلَى آخِره وَأما ابْن مرْدَوَيْه فَلم يروه أصلا وَلَا الواحدي فِي الْوَسِيط. انتهى انتهى. ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار جـ 3 صـ 437. 443﴾

(103/754)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي:

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الحشر

قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ)، الآية/ 2.

وعنى به جلاء بني النضير من اليهود ، فمنهم من خرج إلى خيبر ، ومنهم من خرج إلى الشام .

ومصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير سبي لا تجوز الآن ، وإنما جاز في أول الإسلام ثم نسخ ، والآن فلا بد من قتالهم أو سبيهم أو ضرب الجزية عليهم «1» .

قوله تعالى : (ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها) ، الآية/ 5 .

قال مجاهد : كل نخلة لينة .

وقيل : اللينة كرام النخيل .

وقيل : إنه نهى بعض المهاجرين عن القطع ، وقال : إنما هي مغانم للمسلمين ، فنزل القرآن بتصديق من نهى وتحليل من قطعها عن الإثم ،

---

(1) انظر تفسير الطبري ، والفخر ، والدر المنثور للسيوطي ، وأسباب النزول للواحدي .

وهو يدل على أن كل مجتهد مصيب ، وإن كان الاجتهاد يبعد في مثله مع وجود الرسول عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم .

ولا شك أنّ النبي عليه الصلاة والسلام رأى ذلك فسكت ، فيؤخذ الحكم من تقريره فقط ،

ويجوز لنا إحراق زرعهم إذا لم يمكنا نقله ، والمواشي تذبح وتحرق على هذا الوجه «1» .

قوله تعالى : ﴿وَما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ﴾ ، الآية/ 6.

كانت لرسول اللّه عليه الصلاة والسلام خاصة ، وكان ينفق على أهله نفقة سنة ، وما بقي يجعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل اللّه ، ولم يكن لأحد فيه حق إلا لمن جعله النبي عليه الصلاة والسلام .

ولما ذكر ما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، ذكر ما أوجف عليه المسلمون «2» .

فقال تعالى : ﴿ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ ، الآية/ 7 .

وذلك يمنع تنزيها للغانمين ، ثم نسخ ذلك بقوله : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ «3» .

ولما فتح عمر العراق ، سأل قوم من الصحابة قسمتها بينهم ، فقال :

إن قسمتها بينهم بقي آخر الناس لا شيء لهم ، واحتج عليهم بهذه الآية

---

(1) أحكام القرآن للجصاص ج 5 ، وابن عربي ج 4 .

(2) انظر تفسير القرطبي سورة الحشر .

(3) سورة الأنفال آية 41

إلى قوله : (وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ) «1» ، الآية/ 10 ، وشاور عليا في ذلك ، فأشار عليه بترك القسمة ، وأن يقر أهلها عليها ، وأن يضع الخراج عليها ، ففعل ، فقال أصحاب أبي حنيفة : فالآية غير منسوخة إذا ، فإنها غير مضمومة إلى آية الغنيمة في الأراضي المفتتحة ، فإن رأى قسمتها أصلح وأعود على المسلمين فعل ، ثم قال : وتقدير الآيتين : واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن للّه خمسه في الأموال سوى الأرضين ، وفي الأرضين إذا اختار الإمام ذلك .

والذي ذكروه بعيد جدا ، فإن قوله : (وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ) ، ليس لهم حقا في الغنيمة ، وأن غير من شهد الوقعة يستحق ، والعجب أن الذين هم في الحياة لا يستحقون إذا لم يشهدوا الوقعة ، فكيف يستحق من جاء بعدهم ، فدل أن معنى الآية ظاهرها وهو قوله : (وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ) ، الآية/ 10 ، وهو ندب الآخرين إلى الثناء على الأولين ، فدل أن الحق ما قاله الشافعي ، إن ما كان غنموه من الأراضي وغيرها فخمسها لأهله وأربعة أخماسها للغانمين ، فمن طابت نفسه عن حقه فللإمام أن يجعلها وقفا عليهم ، ومن لم تطب نفسه فهو أحق بما له ، وعمر رضي

اللّه عنه استطاب نفوس الغانمين واشتراها منهم «2» .

قوله تعالى : (وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ

---

(1) انظر تفسير الطبري ، وابن كثير ، والدر المنثور للسيوطي .

(2) راجع تفسير القرطبي تفسير سورة الحشر . [.....]

(106/754)

خَصاصَةٌ) . الآية/ 9 «1» .

والخصاصة الحاجة ، فأثنى اللّه تعالى عليهم بإيثارهم المهاجرين على أنفسهم فيما ينفقون عليهم ، وإن كانوا هم محتاجين إليه ، ووردت أخبار صحيحة في النهي عن التصدق بجميع ما يملكه الإنسان ، ولكن إنما كره ذلك في حق من لا يوثق منه بالصبر على الفقر ، وخاف أن يتعرض للمسألة إذا فقد ما ينفقه ، ألا ترى أنه قال : يأتيني أحدكم بجميع ما يملكه فيتصدق به ثم يقعد يتكفف وجوه الناس ، فإنما كره الإيثار لمن كانت هذه صفته ، فأما الأنصار الذين أثنى اللّه عليهم فلم يكونوا على هذه الصفة ، بل كانوا كما قال تعالى : (وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ) «2» .

فكان الإيثار منهم أفضل من الإمساك ، والإمساك لمن لا يصبر ويتعرض للمسألة أولى من

الإيثار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 405 . 408 ﴾

---

(1) والمؤلف لم يراع هنا ترتيب الآيات كما جاء في السورة ، وتركنا ذلك على ما هو عليه للأمانة واكتفينا بهذا التنبيه .

(2) سورة البقرة آية 177 .

(107/754)

وقال السايس :

من سورة الحشر

قال اللّه تعالى : وَما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ وَلكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (7)

أفاء : قال المبرّد : يقال : فاء إذا رجع ، ومنه قوله تعالى في الإيلاء : فَإِنْ فاؤُ [البقرة : 226] ، وأفاءه اللّه ردّه ، وقال الأزهري «1» : الفيء ما ردّه اللّه على أهل دينه من

أموال من خالف أهل دينه بلا قتال : إمّا بأن يجلوا عن أوطانهم ويخلوها للمسلمين ، أو يصالحوا على جزية يؤدونها من رؤوس أموالهم ، أو مال غير الجزية يفتدون به من سفك دمائهم ، كما فعله بنو النضير حين صالحوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، على أنّ لكل ثلاثة منهم حمل بعير مما شاؤوا ، سوى السلاح ، ويتركون الباقي ، فهذا المال الذي تركوه هو الفيء ، وهو ما أفاء اللّه على المسلمين ، أي رده من الكفار إلى المسلمين .

ولابن العربي في تسمية أيلولة هذه الأموال فيئا معنى لطيف لا بأس أن نطلعك عليه ، قال رحمه اللّه : ما أَفاءَ يريد ما ردّ ، وحقيقة ذلك ، أنّ الأموال في الأرض للمؤمنين حقا ، ولعله يشير بذلك إلى معنى قوله تعالى : أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ [الأنبياء : 105] فيستولي عليها الكفار مع ذنوبهم عدلا ، فإذا رحم اللّه المؤمنين ردّها عليهم من أيدي الكفار رجعت في طريقها ذلك ، فكان ذلك فيئا .

والضمير في (منهم) للذين كفروا من أهل الكتاب المذكورين في أول السورة :

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ وهم يهود بني النضير فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ يقال : وجف الفرس والبعير : يجف وجفا ووجيفا ، أسرع في السير ، وأوجفه صاحبه : حمله على السير السريع ، والضمير في (عليه) يرجع إلى ما في قوله : ما أَفاءَ اللَّهُ والركاب : ما يركب ، وهو اسم جمع ، وقد خصّ في لسان العرب

(1) محمد بن أحمد ، إمام في اللغة ، توفي (370 ه) ، من مصنفاته تهذيب اللغة ، انظر الأعلام للزركلي (5/ 311) .

(108/754)

بما كان من الإبل خاصة ، لا يكادون يطلقون اسم الراكب إلّا على راكب البعير ، وإن كانت التسمية للاشتقاق من الركوب ، ويوجد هذا المعنى في غير راكب البعير ، لكنّ العرب كثيرا ما يقصرون اللفظ على بعض ما يوجد فيه مبدأ الاشتقاق .

وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ المعنى : أنّ هذه الأموال وإن كانت فيئا فإنّ اللّه جعلها لرسوله خاصّة ، لأن رجوعها له لم يكن من طريق قتالكم لهم ، بل كان عن طريق إلقاء الرعب في قلوبهم ، ولم يتكلف الناس فيه سفرا ، ولا تجشّموا رحلة ، ولا أنفقوا مالا ، وما كان من عمل الناس في حصارهم فهو عمل يسير لا يعتد به في جانب إلقاء الرعب فيهم ، ومن أجل ذلك كان الفيء للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم .

ولعلك من هذا استشعرت أنّ في الآية محذوفا دلّ عليه الكلام ، وهو خبر (ما) في قوله : وَما أَفاءَ اللَّهُ تقديره فلا شيء لكم فيه ، دلّ عليه قوله : فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يظهركم على أعدائكم من غير حاجة إلى حرب هذا هو تفسير هذه الآية .

وقد جاء الكلام فيما يؤخذ من الأعداء في ثلاثة مواضع من القرآن :

الأول : في قوله تعالى في سورة الأنفال : وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ [الأنفال : 41].

والموضع الثاني : هو الآية الأولى التي معنا : وَما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ الآية.

والموضع الثالث : هو الآية التي بعدها : ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ.

وقد نقلنا لك من الآيات ما يفهم منه أنّ الآيات تبدو متخالفة الحكم ، فآية الأنفال تقول : وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ فأسندت الغنم لهم ، ثم قالت : فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ إلخ فدلّ ذلك على أنّ الغنيمة توزّع أخماسا ، على حسب ما فهمته في الفقه ، وما عرفته في تفسير الآية في الأنفال.

والآية التي معنا تقول : وَما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ ومعنى هذا على ما علمت : أن ما ردّه اللّه على رسوله من أموال الكفار لا شيء لكم فيه ، لأنّكم لم توجفوا عليه ، وإنما هو للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم خاصة ، يصرفه كيف

شاء .

والآية الثالثة خالفت هذه الآية ، فلم تقل منهم ، بل قالت : مِنْ أَهْلِ الْقُرى ووزّعت الفيء كتوزيع الغنيمة ، مع فرق واحد هو أنّ آية الأنفال وزعت فيها الغنيمة وقيل فيها : فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وآية الحشر جعلت الفيء بين الذين ذكروا في الأنفال ، ولم يشر فيها إلى الخمس .

(109/754)

ولقد كان ما بدا من خلاف بين الآيات مثار الخلاف بين العلماء في مدلول الآيات ، فمنهم من يرجع آية الحشر الثانية إلى آية الأنفال ، ويجعل آية الحشر الأولى منسوخة ، ومنهم من يقول : الآيات الثلاث لثلاثة معان متباينة :

فآية الأنفال في الأموال تؤخذ عنوة .

وآية الحشر الأولى [6] فيما يتركه الكفار فرارا ويأخذه المسلمون بعدهم من غير قتال .

وآية الحشر الثانية [7] فيما يؤخذ صلحا من جزية وخراج ، وما شابه ذلك .

والأحكام في الآيات مختلفة بحسب ذلك ، فما يكون غنيمة يقسّم بين الغانمين ، وما يؤخذ فرارا فهو للرسول ، يأكل منه ، ويصرفه بعد ذلك في مصالح المسلمين ، وما يؤخذ صلحا فهو

لمن ذكر اللّه في آية الحشر الثانية ، وسنزيدك بعض الإيضاح فنقول :

إنّ من العلماء من جعل الغنيمة غير الفيء ، وقال : الغنيمة : ما أخذه المسلمون من أموال الكفار في الحرب ، والفيء : ما أخذ من غير حرب ، وجعل آية الأنفال في الغنيمة ، وقال : إن آية الحشر الأولى في الكفار من أهل الكتاب من بني النضير ، لم يتكلّف المسلمون عناء في مقاتلتهم ، ولم يكن للمسلمين يومئذ خيل ولا ركاب ، ولم يقطعوا إليها مسافات كثيرة ، إذ لم يكن بينها وبين المدينة سوى ميلين ، ولم يركب إلا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وكان راكبا جملا ، فلما كانت المقاتلة قليلة ، ولم يكن للمسلمين فيها خيل ولا ركاب ، جعل ما أخذ من الكفار كلّه للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، يعول منه أهله ، وينفق الباقي في مصالح المسلمين ، ثم جعل الآية الثانية من الحشر بيانا لما أفاء اللّه على المسلمين من أموال سائر الكفار ، ويجعل الآية الثانية كأنّها جواب سؤال نشأ من الآية الأولى كأنّه قيل : قد علمنا حكم الفيء من بني النضير ، فما حكم الفيء من غيرهم ، فقال : ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى ولذلك ترى العطف .

وقد نقل الآلوسي الفرق بين الغنيمة والفيء عن بعض الشافعية ، وقال : إن الحنفية قالوا بالتفرقة أيضا ، ونقولها عن «المغرب» وغيره من كتب اللغة ، قالوا : الغنيمة : ما نيل من الكفار عنوة والحرب قائمة . وحكمها أن تخمّس ، وباقيها للغانمين خاصة .

والفيء : ما نيل منهم بعد وضع الحرب أوزارها ، وصيرورة الدار دار الإسلام ، وحكمه

أن يكون لكافة المسلمين، ولا يخمّس بل يصرف جميعه في مصالح المسلمين.

ونقل هذا الحكم الإمام ابن حجر عمّن عدا الإمام الشافعي من الأئمة الأربعة:

وقال: إن الشافعي خمّس الفيء قياسا على الغنيمة التي ثبت التخميس فيها بالنص.

بجامع أنّ كلّا منهما مال الكفار، استولى عليه المسلمون، واختلاف سبب الاستيلاء بالقتال وغيره لا تأثير له.

وقد روي عن عمر رضي اللّه عنه أنه صنع بأرض العراق ما حكمت به الآية،

(110/754)

وكان بعض الصحابة قد طلب إليه قسمته بين المسلمين كالغنيمة، فاحتجّ عليهم بالآية، ووافقه علي وعثمان وطلحة والزبير، بل إنّ المخالفين أيضا رجعوا إليه بعد ما حكّم الآية.

والذي يعنينا هنا هو اختلاف العلماء في الفيء يخمّس أو لا يخمّس؟ أما توزيع الخمس فليس لنا به تعلق، لأنه ليس في الآية، ولأنّه تقدّم خلاف العلماء فيه في سورة الأنفال [28] فارجع إليه إن شئت، ولنأخذ في تفسير الآية الثانية.

قال اللّه تعالى: ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ.

قد ذكر اللّه تعالى أنّ ما ردّه على رسوله من أهل القرى هو لمن ذكرهم في النظم الكريم ، وهم ستة ، وقد اختلف العلماء – الذين قالوا بالقسمة أخماسا ، أربعة أخماس للغانمين ، وخمس لمن ذكر اللّه تعالى في قسمة هذا الخمس بين الذين ذكروا – فقال جماعة : يقسّم خمسة أسهم للخمسة الذين ذكرهم اللّه ، وهم الرسول ، وذو القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل وأما اللّه سبحانه وتعالى فإنّما كان ذكره معهم افتتاح كلام تيمّنا بذكره ، وإلا فهو مالك السموات والأرض .

وذهب بعضهم إلى أنّ الخمس ستة أسهم ، منها سهم اللّه يصرف إلى حاجة بيته ، وهو الكعبة ، إن كانت قريبة ، وإلا فإلى مسجد كلّ بلدة ثبت فيها الخمس ، ويقول الجمهور : إنّ جعل السهام ستة خلاف المعهود عن السلف في تفسير ذلك .

وأما سهم الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم فقد كان له في حياته ، ينفق منه على نفسه وعياله ، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين .

ثم اختلف العلماء في هذا السهم بعد وفاته صلّى اللّه عليه وسلّم ، فذهب الحنفية إلى سقوطه ، وقالوا في تعليل ذلك : إنّ الخلفاء الراشدين ذهبوا فيه هذا المذهب ، ولو كانوا يعلمون انتقاله للخلفاء ما أسقطوه ، ثم إنّه جعل للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو مشتق من الرسالة ، وذلك مؤذن بأنّ الرسالة علة في هذا الجعل . وقد انتهت الرسالة ، فينتهي ما نيط بها من الحكم .

ونقل عن الشافعي رضي اللّه عنه : أنّه يصرف للخليفة ، لأنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم كان يستحقه لإمامته لا لرسالته ، ولكنّ الأكثر من الشافعية على أنّ السهم باق ، ولكنه يصرف في مصالح المسلمين العامة ، وهذا معنى

قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «مالي مما أفاء اللّه عليكم إلّا الخمس ، والخمس مردود عليكم» «1» .

وأما سهم ذي القربى فهو لذي قرباه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهم معروفون في الفقه ، وقد مرّ

(1) انظر ما رواه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (3/ 186) .

(111/754)

الخلاف فيهم في سورة الأنفال ، فلا نعيده ، وكذا بيان اليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، فارجع إليه إن شئت .

هذا وممّن قال بأن الفيء كلّه للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم في حياته الإمام الغزالي رضي اللّه عنه ، وممن ذهب إلى أنّ الفيء يصرف مصرف الغنيمة الإمام الزمخشري «1» رضي اللّه عنه ، فقد جعل آية الحشر الثانية بيانا للآية الأولى ، مستدلا بترك العطف على ما مرّ .

وذهب أيضا إلى أنّ المراد بأهل القرى ، هو المراد بالضمير في بني النضير في مِنْهُمْ وهم بنو النضير .

وذهب المحقق ابن عطية إلى أنّ الآية الأولى في بني النضير خاصة . وإلى أنّ الفيء فيها للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم خاصة ، وأما الآية الثانية فالمراد من أهل القرى فيها غير بني النضير ، وهم أهل الصفراء وينبع ووادي القرى وما هنالك من قرى العرب التي تسمّى قرى عرينة ، والحكم في أموال هؤلاء هو ما قال اللّه : إنها فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى .

كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ الدولة بضم الدال وفتحها ما يدول ويدور للإنسان من الغنى والغلبة ، وفرّق بعضهم بين مضموم الدال ومفتوحها ، فقالوا : إنّها بضم الدال ما يدول للإنسان من المال ، وبفتحها ما يكون له من النصر .

وقال بعضهم : هي بالضم اسم لما يتداول ، وبالفتح مصدر بمعنى التداول ، وقال بعضهم : بل هما لفظان لمعنى واحد .

والجملة بعد هذا تعليل لتقسيم الفيء ، والضمير في يكون للفيء . والمعنى . أنا قسمنا الفيء هذا التقسيم كي لا يختص به الأغنياء ، أو كي لا يكون دولة وغلبة جاهلية بينكم ، كما كان الأغنياء منهم يستأثرون بالغنيمة ، وكانوا يعتزّون به .

وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ .

ذهب بعض المفسرين إلى أنّ معنى (آتاكم) أعطاكم من الفيء ، وأنّ ما نهاكم أي عن أخذه

، فانتهوا عن أخذه ، وكأنّه يستعين على ذلك بالمقام .

وذهب بعضهم إلى أنّها في كلّ ما أمر الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم به ونهى عنه ، وفي جملة ذلك الفيء استدلالا بما في الآية من ألفاظ العموم ، ولأنّه قال بعدها : وَاتَّقُوا اللَّهَ حيث يتناول كل ما يجب فيه التقوى .

والآية بعد هذا توجب امتثال أوامر الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ونواهيه أيضا ، واللّه أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير آيات الأحكام / للسايس صـ 751. 755 ﴾

---

(1) انظر تفسير الكشاف للزمخشري (4/ 502) .

(112/754)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الحشر» (59)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ «1»» (3) جلوا من أرض إلى أرض جلاء وأجليتهم أنا . .

«ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ» (5) أي من نخلة وهى ألوان النخل ما لم تكن العجوة أو البرنىّ ، إلّا أن

الواو ذهبت لكسرة اللام «2» قال ذو الرّمّة :

فوق لينة

«3» [645] .

«فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ» (6) الإيجاف وجيف الفرس وأوجفته أنا ، الخيل هى الخيل والرّكاب هى الإبل والإيجاف الإيضاع فإذا لم يغزوا فلم يوجفوا عليها . .

«كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ» (7) مضمومة ومفتوحة . .

«أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها» (17) نصبهما على تمام الكلام الأول فاستغنى .

«مهيمن» (23) ومبيقر ومبيطر ومسيطر هذه الأربعة الأحرف صفات ، لها أفعال ووجدنا من الأسماء ما لا ندرى لعلها مصغّرة مديبر اسم واد ، ومجيمر ومبيقر . انتهى انتهى . اه ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 256 ﴾

---

(1) . - 3 «الجلاء . . . أخرجته» الذي ورد فى الفروق : رواه ابن حجر عن ابى عبيدة (فتح البارى 8/ 483) .

(2) . - 4 - 5 «نخلة . . . اللام» : بعضه فى البخاري نقله ابن حجر برمته (فتح البارى 8/ 482) عن أبى عبيدة وهو إلى «أو البرني» فى الطبري (28/ 22) ، رواه عن قائل لعله أبو عبيدة .

(3) . - 645 : قطعة بيت قد مر تمامه وهو :

طراق الخوافي مشرف فوق لينة ندى ليله فى ريشه يترقرق

هذا رواية الطبري والقرطبي (18/ 9) . وفى رواية ديوانه «ولينة ريعة» .

(113/754)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة القنوجى :

سورة الحشر

وهي مدنيّة .

قال القرطبي «1» : في قول الجميع .

[الآية الأولى]

ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ (5) .

ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ (5) قال مجاهد : إن بعض المهاجرين وقعوا في قطع النخل ، فنهاهم بعضهم وقالوا : إنما هي مغانم للمسلمين . وقال الذين قطعوا : بل هو غيظ للعدو ، فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطع النخيل وتحليل من قطعه من الإثم .

واختلف المفسرون في تفسير اللينة؟

فقال الزهري ومالك وسعيد بن جبير وعكرمة والخليل: إنها النخل كله إلا العجوة.

وقال الثوري: هي كرام النخل.

وقال أبو عبيدة: إنها جميع ألوان التمر سوى العجوة والبرني.

وقال جعفر بن محمد: إنها العجوة خاصة. وقيل: هي ضرب من النخل.

(2/ 65، 67)، كفاية الأخيار للحصني (413، 418)، جامع الأمهات لابن الحاجب (308، 313)، مغني المحتاج للشربيني (3/ 352، 358)، شرح الزركشي لمختصر الخرقي (5/ 478، 485)، الروض المربع للبهوتي (2/ 310، 312).

(1) تفسير القرطبي (17/ 269)، ابن كثير (4/ 318)، الطبري (28/ 2)، النكت (4/ 198)، زاد المسير (8/ 180)، اللباب (206)، الدر المنثور (6/ 179).

وقال الأصمعي : هي الدقل ، وأصل اللينة لونة فقلبت الواو الساكنة ياء لانكسار ما قبلها ، وجمع اللينة لين ، وقيل : ليان .

وقد استدل بالآية على أن حصون الكفار وديارهم لا بأس بأن تهدم وتحرق وترمى بالمجانيق ، وكذلك قطع أشجارهم ونحوها .

وكذا استدل بها على جواز الاجتهاد ، وعلى تصويب المجتهدين ، والبحث مستوفى في كتب الأصول .

[الآية الثانية] وَما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ وَلكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) .

وَما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ : أي ما رده عليه من أموال الكفار ، والضمير عائد إلى بني النضير .

فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ يقال : وجف البعير يجف وجفا : وهو سرعة السير ، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير السريع .

والركاب : ما يركب من الإبل خاصة .

والمعنى لم تركبوا لتحصيله خيلا ولا إبلا ولا تجشمتم لها مشقة ولا لقيتم به حربا ، وإنما كانت من المدينة على ميلين ، فجعلها اللّه سبحانه لرسوله صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وبارك وسلم خاصة ، فإنه افتتحها صلحا وأخذ أموالها ، وقد كان يسأله المسلمون أن يقسم لهم

فنزلت الآية .

وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ : من أعدائه ، وفي هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم دون أصحابه ، لكونهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب ، بل مشوا إليها مشيا ولم يقاسوا فيها شيئًا من شدائد الحروب .

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) ، يسلط من يشاء على من أراد ، ويعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (23) [الأنبياء : 23] .

(115/754)

[الآية الثالثة] ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (7) :

ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ : هذا بيان لمصارف الفيء بعد بيان أنه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم خاصة ، والتكرير لقصد التقرير والتأكيد .

ووضع مِنْ أَهْلِ الْقُرى ، موضع قوله : مِنْهُمْ للإشعار بأن هذا الحكم لا يختص ببني النضير وحدهم ، بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم صلحا ،

ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب.

والمراد بالقرى بنو النضير وقريظة وفدك وخيبر.

وقد تكلم أهل العلم في هذه الآية والتي قبلها: هل معناهما متفق أو مختلف؟

فقيل: معناهما متفق كما ذكرنا، وقيل: مختلف. وفي ذلك كلام لأهل العلم طويل.

قال ابن العربي: لا إشكال في أنها ثلاثة معان في ثلاث آيات:

أما الآية الأولى وهي قوله: وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فهي خاصة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، خالصة له وهي أموال بني النضير وما كان مثلها.

وأما الآية الثانية وهي: ما أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فهذا كلام مبتدأ غير الأول المستحق غير الأول، وإن اشتركت هي والأولى في أن كل واحدة منهما تضمنت شيئا أفاءه اللّه على رسوله، واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال، واقتضت آية الأنفال وهي الآية الثالثة أنه حاصل بقتال، [وعريت] «1» الآية الثانية وهي: ما أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى عن ذكر حصوله بقتال أو بغير قتال، فنشأ الخلاف من هاهنا:

فطائفة قالت: هي ملحقة بالأولى وهي مال الصلح.

---

(1) وقع في «المطبوعة» (وأعربت) وهو خطأ واضح، والتصويب من فتح القدير (5/ 98).

وطائفة قالت : هي ملحقة بالثالثة وهي آية الأنفال ، والذين قالوا إنها ملحقة باية الأنفال اختلفوا هل هي منسوخة ؟ أو محكمة ؟ هذا أصل كلامه .

وقال مالك : إن الآية الأولى من هذه السورة خاصة برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ، والآية الثانية هي في بني قريظة ، يعني أن معناها يعود إلى آية الأنفال .

ومذهب الشافعي أن سبيل خمس الفيء سبيل خمس الغنيمة ، وأن أربعة أخماسه كانت للنبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وهي بعده لمصالح المسلمين .

فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ : المراد بقوله : فَلِلَّهِ أنه يحكم فيه بما يشاء ، وللرسول ويكون ملكا له ، ولذي القربى ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، لأنهم قد منعوا من الصدقة فجعل لهم حقا في الفيء ، قيل : تكون القسمة في هذا المال على أن تكون أربعة أخماسه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وخمسه يقسم أخماسا للرسول خمس ولكل صنف من الأصناف الأربعة المذكورة خمس . وقيل : يقسم أسداسا ، السادس سهم اللّه سبحانه ، ويصرف إلى وجوه القرب ، كعمارة المساجد ونحو ذلك .

كَيْ لا يَكُونَ : أي الفيء .

دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ دون الفقراء .

والدولة : اسم للشيء يتداوله القوم بينهم يكون لهذا مرة ولهذا مرة .

قال مقاتل : المعنى أنه يغلب الأغنياء الفقراء فيقسمونه بينهم ثم لما بين لهم سبحانه مصارف هذا المال أمرهم بالاقتداء برسوله صلّى اللّه عليه وآله وسلّم فقال :

وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ : أي ما أعطاكم من مال الغنيمة .

فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ : أي عن أخذه .

فَانْتَهُوا عنه ولا تأخذوه .

قال الحسن والسدي : ما أعطاكم من مال الفيء فاقبلوه ، وما منعكم منه فلا تطلبوه .

وقال ابن جريج : ما أتاكم من طاعتي فافعلوا وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه .

(117/754)

والحق أن هذه الآية عامة في كل شيء يأتي به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم من أمر أو نهي أو قول أو فعل ، وإن كان السبب خاصا فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وكل شيء أتانا به من الشرع فقد أعطانا إياه وأوصله إلينا ، وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها «1» .

ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم بأخذه الرسول وترك ما نهاهم عنه أمرهم بتقواه وخوفهم شدة عقوبته فقال : وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ فهو معاقب لمن لم يأخذ ما آتاه الرسول ولم يترك ما نهاه عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نيل المرام صـ 435. 439 ﴾

---

(1) انظر : الأحكام لابن العربي (4/ 1760) ، والناسخ والمنسوخ (2/ 884) ، زاد المسير (8/ 209) ، المجاز لأبي عبيدة (2/ 256) ، الطبري (28/ 24) ، النكت (4/ 210) ، القرطبي (18/ 10) ، الفراء (3/ 144) ، والروضة الندية للمصنف (2/ 342) ، فتح القدير (5/ 98) .

(118/754)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الحشر»

[سورة الحشر (59) : آية 9]

وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ

هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)

قوله تعالى: وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ [9] الآية. وهذه استعارة لأن تبوّؤ الدار هو استيطانها والتمكن فيها، ولا يصحّ حمل ذلك على حقيقته فى الإيمان. فلا بدّ إذن من حمله على المجاز والاتساع.

فيكون المعنى أنهم استقروا فى الإيمان كاستقرارهم فى الأوطان. وهذا من صميم البلاغة، ولباب الفصاحة. وقد زاد اللفظ المستعار هاهنا معنى الكلام رونقا. ألا ترى كم بين قولنا: استقرّوا فى الإيمان، وبين قولنا: تبوّءوا الإيمان.

وأنا أقول أبدا إن الألفاظ خدم للمعانى، لأنها تعمل فى تحسين معارضها، وتنميق مطالعها.

[سورة الحشر (59): آية 21]

لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)

وقوله سبحانه: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ [21] وهذا القول على سبيل المجاز. والمعنى أن الجبل لو كان مما يعى القرآن ويعرف البيان، لخشع فى «1» سماعه، ولتصدّع من عظم شأنه، على غلظ أجرامه، وخشونة أكنافه. فالإنسان أحق بذلك منه، إذ كان واعيا لقوارعه، وعالما بصوادعه. انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 330 ﴾

---

(1) كذا بالأصل . ولعلها «من» .

(119/754)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الحشر

(120/754)

"سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم" تسبيح الله هنا قبل طرد اليهود من ديارهم يشبه تحميده فى سورة الأنعام بعدما استأصل الظلمة وطهر الأرض منهم "فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين" . إن خلو الأرض من الطغاة نعمة جليلة ، وقدرة كل إنسان على الاستمتاع بحقوقه خير عظيم . وما أجمل أن يصبح المرء آمنا فى سربه معافى فى بدنه لا يتسلط عليه ظالم ولا يحيف عليه متكبر . لقد ظل اليهود

فى يثرب وحولها ينتمون إلى التوراة ، . فما شرفوا الوحى ، ولا نشروا العدل ، ولا ناصروا التوحيد ، ولا حذروا من اليوم الآخر . فلما جاء الإسلام وشرع يهدى عبيد الأصنام إلى الله ، ضاقوا به ونالوا من نبيه وأتقنوا صناعة الحرب وحولوا مواطنهم إلى حصون ، وظنوا أنه لن يقدر عليهم أحد "ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين . .

"كان من الممكن أن يبقوا لكنهم بغتة فكروا فى قتل الرسول وهو بينهم آمن مسترسل ، فلما شعر بغدرهم ترك المكان عائدا إلى المدينة ، ثم قرر إجلاءهم "ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب" . وهكذا عادوا من حيث جاءوا .

والسورة تفيد أن هذا أول الحشر ، كأن هناك حشرا آخر ينتظر القوم فى الغد القريب أو البعيد ! ونحن ننتظره معهم ، فإن اليهود ـ فى غفلة من المسلمين ـ أقاموا لأنفسهم دولة ، فماذا صنعوا بدولتهم ؟ هل ذكروا الله بخير ؟ هل جعلوا الحضارة الحديثة تؤمن باليوم الآخر ؟ إنهم انتهزوا عجز المسلمين وتفريطهم ، فزادوا الطين بلة واتفقوا مع أوروبا وأمريكا على دحر تراث السماء وعبادة العجل الذهبى . وعندما يثوب المسلمون إلى رشدهم ويصطلحون مع ربهم ، فسيرثون الدولة ويرجع بنو إسرائيل إلى الأراضى التى جاءوا منها .

وقد منح النبى عليه الصلاة والسلام أرض بنى النضير هدية إلى فقراء

المهاجرين ، وبذلك أعاد التوازن إلى المجتمع الإسلامى فى المدينة ! فإن المهاجرين

صودرت

أموالهم وبيوتهم فى مكة ، وتحملوا هذه المحنة فى ذات الله . ومع أن الأنصار واسوهم وفتحوا لهم قلوبهم ودورهم ، إلا أن الحل الأمثل فى توريث المهاجرين ما ترك اليهود . والتعليل المذكور فى السورة "كي لا يكون دولة بين الأغنياء" . ثم شرح حال أولئك المهاجرين ، فقال" للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون" . وبذلك رسا المجتمع على قواعد عادلة وشرع يؤدى رسالته . وفى عصرنا هذا كما فى عصر النبوة عرب منافقون لا يرون حرجا فى أن يعيشوا مع اليهود ويقاسموهم حياة خشنة أو ناعمة . والواقع أن الفريقين لا دين لهم . فالدين عند اليهود ليس نقاء قلب وزكاة سيرة وسماحة يد . إنه أثرة طافحة وصلف غريب . والعرب المنافقون لا يصدقون أن الله اختار جنسهم لرفع المستوى الروحى والعقلى للناس ، إنهم طلاب حياة وحسب ! ! فلا عجب إذا ألف أحدهم الآخر وأيده " ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون" . وعلاقة اليهود بالآخرة واهية . والأسفار الأولى للعهد القديم ـ التوراة ـ لا

تتحدث عن ثواب وعقاب وجنة أو نار ، إنها تاريخ جاف لشعب غليظ الرقبة . وهذا الفكر المادى صبغ الحضارة الحديثة ، وأغرى الجماهير بعبادة اليوم الحاضر ونسيان ما وراءه . ولم تستطع النصرانية بعدما تخلت عن سيرة المسيح أن تقاوم هذا العوج. فأصاب العالم كله ضر شديد . ولذلك جاءت هذه السورة تدفع الناس دفعا إلى معرفة الله وإيثار ما عنده وقربت الآخرة حتى جعلتها الغد المحقق ! " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم

أولئك هم الفاسقون " . إن معركة هائلة سوف تدور بين العرب واليهود ، ولن يعدم اليهود نصراء لهم من جماهير الأوروبيين الذين يحقدون على الإسلام ولا يعرفون لا عيسى ولا محمدا . . والسؤال الذى لابد من الإجابة عنه: متى يدخل المسلمون فى الإسلام ؟ متى يصطبغون بروح الإسلام ويعيشون فى ظل أحكامه ؟ متى يمشون تحت علم القرآن ؟ إن نبيهم قاد أمته من المسجد ، ورفع مستواها العلمى والخلقى من صفوفه المتراصة وراءه . فلما اتصلوا بالمشارق والمغارب نقلوا الجماهير من الأرض إلى السماء

"لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون" . لقد ختمت سورة بنى النضير بنحو عشرين اسما من أسماء الله الحسنى . . تشرح طبيعة العلاقة بالله الواحد . وتعلى هذه العلاقة كى تحيط بالنشاط الإنسانى كله . إن العالم فى ظل الديانات القاصرة لا تحكمه إلا غرائز السوء ، وهو يكافح من أجل مستوى رفيع للمعيشة هنا . . أما هناك عند الله ، وبعد لقائه ، فلا فكر ولا استعداد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 449 . 451 ﴾

(123/754)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والخمسون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/755)

الجزء الخامس والخمسون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من (سورة الحشر)

وحتى الآية ﴿ 10 ﴾ من السورة

(4/755)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/755)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الحشر

آخر سورة المجادلة نزل فيمن قتل أقرباؤه من الصحابة يوم بدر وأول الحشر نازل في غزوة بني النضير، وهي عقبها ، وذلك نوع من المناسبة والربط وفي آخر تلك: {كتب الله لأغلبن أنا ورسُلي} وفي أول هذه: {فأتاهم اللهُ مِن حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب} وفي آخر تلك ذكر من حاد الله ورسوله ، وفي أول هذه ذكر من شاق الله ورسوله . انتهى انتهى . اهـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 136.137﴾

(6/755)

قوله تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (2) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ

عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (3) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الملك الأعظم الذي لا راد لأمره فلا خلف لعباده (الرحمن) الذي عمت نعمته إيجاده فلا محيص عن معاده (الرحيم) الذي خص أهل وداده بالتوفيق لما يرضيه عنهم فيوجب لهم الفوز بإسعاده .

لما ختمت المجادلة بأنه معز أهل طاعته ، ومذل أهل معصيته ومحادته ، علله بتنزهه عن النقائص تأيداً للوعد بنصرهم فقال : ﴿ سبح ﴾ أي أوقع التنزيه الأعظم عن كل شائبة نقص ﴿ لله ﴾ الذي أحاط بجميع صفات الكمال .

ولما كان الكفار من جميع بني آدم قد عبد بعضهم الشمس وبعضهم القمر وبعضهم غيرهما من الكواكب ، وكانت الكواكب مبثوثة في السماوات كلها لا تخص سماء بعينها وكذا الملائكة ، جمع دلالة على أن الكل عبيد فقال : ﴿ ما في السماوات ﴾ أي كلها .

ولما كان الكلام في النهي عن موادة الذي يحادون الله ، وكان ذلك لمن دون الخلص ، أكد بإعادة النافي لاحتياجهم للتأكيد فقال : ﴿ وما ﴾ ولما كان جميع ما عبدوه ما أشركوا به من الأرضيات من شجر وصنم وبقر وغيرها لا يعد والأرض التي هم عليها ، أفرد فقال : ﴿ في الأرض ﴾ .

ولما شمل هذا جميع العالم ، أشار إلى أن عظمته لا تنتهي فقال : ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه وحده ﴿ العزيز ﴾ الذي يغلب كل شيء ولا يمتنع عليه شيء ﴿ الحكيم ﴾ الذي نفذ علمه في الظواهر والبواطن وأحاط بكل شيء فأتقن ما أراد ، فكل ما خلقه جعله على وحدانيته دليلاً ، وإلى بيان ما له من العزة والحكمة سبيلاً .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لا خفاء باتصال أيها بما تأخر من آي سورة المجادلة ، ألا ترى أن قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ إنما يراد به يهود فذكر سبحانه سوء سريرتهم وعظيم جرأتهم ثم قال في آخر السورة ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ فحصل من هذا كله تنفير المؤمنين عنهم وإعلامهم بأن بغضهم من الإيمان وودهم من النفاق لقبيح ما انطووا عليه وشنيع ما ارتكبوه

، فلما أشارت هذه الآي إلى ما ذكر أتبعت بالإعلام في أول سورة الحشر بما عجل لهم من هوانهم وإخراجهم من ديارهم وأموالهم وتمكين المسلمين منهم ، جرياً على ما تقدم الإيماء إليه سوء مرتكبهم ، والتحمت الآي باتحاد المعنى وتناسبه ، وتناسج الكلام ، وافتتحت السورة بالتنزيه لبنائها على ما أشار إليه غضبه تعالى عليهم إذ لا يكون إلا على أعظم جريمة وأسوأ مرتكب وهو اعتداؤهم وعصيانهم المفصل في مواضع من الكتاب وقد قال تعالى فيهم بعد ذكر غضبه عليهم ﴿ أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل ﴾ [المائدة : 60] وقال تعالى : ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ [المائدة : 78] فبين تعالى أن لعنته إياهم إنما ترتبت على عصيانهم واعتدائهم ، وقد فصل اعتداءهم أيضاً في مواضع ، فلما كان الغضب مشيراً إلى ما ذكر من عظيم الشرك ، أتبعه سبحانه وتعالى تنزيه نفسه جل وتعالى فقال : ﴿ سبح لله ما في السماوات وما في الأرض ﴾ وإنما يرد مثله من التنزيه أثر جريمة تقع من العباد وعظيمة يرتكبونها وتأمل ذلك حيث وقع ، ثم عاد الكلام إلى الإخبار بما فعل تعالى بأهل الكتاب مما يتصل بما تقدم ، ثم تناسجت الآي - انتهى .

ولما نزه نفسه الأقدس دل على ذلك التنزه على العزة والحكمة بدليل شهودي من أنه أنفذ ما كتب من أنه يغلب هو ورسله ومن أنه كبت الذين حادوه وخيب ظن الذين نافقوا ، فتولوا اليهود من أهل الكتاب ليعتزوا بهم ، فأذل اليهود وطردهم من مهبط الوحي وأخزى المنافقين الذين جعلوهم محط اعتمادهم وموضع ولايتهم ووادهم ، فقال : ﴿ هو ﴾ أي وحده من غير إيجاف خيل ولا ركاب ﴿ الذي أخرج ﴾ على وجه القهر ﴿ الذين كفروا ﴾ أي ستروا ما في كتبهم من الشواهد التي تشهد لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه النبي الخاتم وما في فطرهم الأولى من أن اتباع الحق أحق ، وقبح عليهم كفرهم بقوله موضع ﴿ من بني النضير ﴾ أو ﴿ اليهود ﴾ مثلاً : ﴿ من أهل الكتاب ﴾ أي الذي أنزله الله على رسوله موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم ، وفي التعبير ب ﴿ كفروا ﴾ إشعار بأنهم الذين أزالوا بالتبديل أو الإخفاء ما قدروا عليه مما بقي من التوراة دالاًّ على نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(10/755)

ولما كان الوطن عديل الروح لأنه للبدن كالبدن للروح ، فكان الخروج منه في غاية العسر ، دل على مزيد قهرهم به بأن قال : ﴿ من ديارهم ﴾ ولما كان منهم من جلا من المدينة

الشريفة إلى خيبر ، وهم آل أبي الحقيق وآل حيي بن أخطب ولحق سائرهم بأريحا من أرض الشام أرض المحشر ، ولحق بعضهم بالحيرة ، لوح إلى فتح خيبر وحشرهم منها حشراً ثانياً بقوله معللاً أو موقتاً : ﴿ لأول ﴾ أي لأجل أول أو عند أول ﴿ الحشر ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أن كل بلد حشروا إليه سيفتح ، ويزلزلون منه زلزلة أخرى ، لا تزال مصائبهم بأهل الإسلام قائمة حتى يكون الحشر الأعظم بالقيامة ، والحشر : الجمع من مكان والسوق إلى غيره بكره ، وسمي أولاً لأنهم أول من أجلي من اليهود من جزيرة العرب ، والحشر الثاني لهم من خيبر على زمن عمر ـ رضى الله عنه ـ ، وعند ابن إسحاق أن إجلاءهم في مرجع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أحد وفتح قريظة في مرجعه من الأحزاب وبينهما سنتان ، قال لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " اخرجوا قالوا : إلى أين ، قال : إلى أرض المحشر " ، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : من شك أن المحشر بأرض الشام فليقرأ هذه الآية . انتهى ، وهذا الحشر يدل على المحشر الأعظم وبينه على قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " بعثت أنا والساعة كهاتين " .

ولما كان قد أخبر أن حشرهم لم يكن بسبب غير محض قدرته ، استأنف شرح ذلك بقوله : ﴿ ما ظننتم ﴾ أي أيها المؤمنون ﴿ أن يخرجوا ﴾ أي يوقعوا الخروج من شيء أورثتموه منهم لما كان لكم من الضعف ولهم من القوة لكثرتهم وشدة بأسهم وشكيمتهم وقرب بني قريظة منهم فكانوا بصدد مظاهرتهم ، وأهل خيبر أيضاً غير بعيدين عنهم وكلهم أهل ملتهم

، والمنافقون من أنصارهم وأسرتهم ، فخابت ظنونهم في جميع ذلك وفالت أراؤهم وسلط

عليهم المؤمنون على قلتهم وضعفهم ، وإذا أراد الله نصر عبد استأسد أرنبه وإذا أراد قهر

عدو استنوق أسده .

(11/755)

ولما كانت الحصون تمنع إلى إتيان الأمداد قال : ﴿ وظنوا أنهم ﴾ ودل على قوة ظنهم وثباته

بالجملة الاسمية فقال : ﴿ مانعتهم حصونهم ﴾ أي ثابت لها المنع ولهم الامتناع ، قالوا : وفي

تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم ، وفي جعل

ضميرهم اسم (إن) وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عز ومنعة

لا مطمع معها في معازّتهم ، ودل على ضعف عقولهم بأن عبر عن جنده باسمه وباسمه

الأعظم فقال : ﴿ من الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا عز إلا له وأنتم جنده ، لا تقاتلون إلا

فيه وبه ، بأسكم من بأسه ، فقد اجتمع الظنان على شيء واحد .

ولما كان إسناد ما للمضاف إلى المضاف إليه شائعاً في لسان العرب وكثيراً جداً لأنه لا

يلتبس على من له إلمام بكلامهم ، وبليغاً جداً لما له من العظمة ، قال : ﴿ فآتاهم الله ﴾ أي

جاءهم الملك الأعظم الذي يحتملون مجيئه بما صور لهم من حقارة أنفسهم التي اضطرتهم

إلى الجلاء ﴿ من حيث لم يحتسبوا ﴾ أي من الجهة التي لم يحملوا أنفسهم على حسبها وهي خذلان المنافقين لهم رعباً كرعبهم واستضعافاً كاستضعاف أنفسهم عن مقاومة جند الله بعد أن كان الشيطان زين لهم غير ذلك ، وملأ قلوبهم من الأطماع الفارغة حتى قطعوا بما مناهم وقربه لهم وأغواهم .

ولما كان التقدير : فأوهنهم الله بذلك ، عطف عليه قوله : ﴿ وقذف ﴾ أي أنزل إنزالاً كأنه قذفه بحجارة ، فثبت وارتكز ﴿ في قلوبهم الرعب ﴾ أي الخوف الذي سكنها فرضّها وملأها وعبر منها إلى جميع قواهم فاجتثها من أصلها ، ثم بين حالهم عند ذلك أو فسر قذف الرعب بقوله : ﴿ يخربون بيوتهم ﴾ أي يبالغون - على قراءة أبي عمرو بالتشديد - في إخرابها ، أي إفسادها ، فإن الخربة الفساد ، وقراءة غيره يفهم الفعل المطلق الذي لا ينافي المقيد ﴿ بأيديهم ﴾ ضعفاً منهم - بما أشار إليه جمع القلة ، ويأساً من قوتهم ليأخذوا ما استحسنوا من آلاتها ، فكان الرجل منهم لما تحملوا للرحيل يهدم بيته عن نجاف بابه وما استحسن من خشبه فيضعه على ظهر بعيره فيأخذه وينقب الجدار ويهدم السقف حسداً للمسلمين أن يسكنوها بعدهم لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرهم أن يخلوا له

عن البلد ولهم ما حملت إبلهم .

ولما كان السبب في تخريب الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م لبيوتهم ما أحرقوهم به من المكر والغدر كانوا كأنهم أمروهم بذلك ، فنابوا عنهم فيه ، فقال أيضاً بجمع القلة للدلالة على أن الفعل له سبحانه وحده : ﴿ وأيدي المؤمنين ﴾ أي الراسخين في الإيمان استيلاء وغلبة عليهم وقد كان المؤمنون يخربون ما ضيق عليهم المجال منها لأجل القتال ، وقدم تخريبهم لأنه أعجب .

ولما كان في غاية الغرابة أن يفعل الإنسان في نفسه كما يفعل فيه عدوه ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فاعتبروا ﴾ أي احملوا أنفسكم بالإمعان في التأمل في عظيم قدرة الله تعالى على أن تعبروا من ظواهر العلم في هذه القضية بما دبر الله في إخراجهم إلى بواطن الحكمة بأن لا تعدوا لكم ناصراً نم الخلق ولا تعتمدوا على غير الله ، فإن الاعتبار – كما قال القشيري – أحد قوانين الشرع ، ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره – انتهى .

وقد احتج بالآية مثبتو القياس فإنه مجاوزة من الأصل إلى الفرع ، والمجاوزة اعتبار ، وهو مأمور به في هذه الآية فهو واجب .

ولما كان الاعتبار عظيم النفع ، لا يحصل إلا للكمل ، زاده تعظيماً بقوله تعالى : ﴿ يا أولي الأبصار ﴾ بالنظر بأبصاركم وبصائركم في غريب هذا الصنع لتحققوا به ما وعدكم على لسان رسوله. صلى الله عليه وسلم. من إظهار دينه وإعزاز نبيه ولا تعتمدوا على غير الله كما اعتمد هؤلاء على المنافقين ، فإن من اعتمد على مخلوق أسلمه ذلك إلى صغاره ومذلته ، ولا تلموا بغدر كما أرادوا أن يغدروا برسول الله. صلى الله عليه وسلم. فيطرحوا عليه وهو قاعد بفناء دار من دورهم رحى من السطح ليقتلوه بها - زعموا ، ولا تفعلوا شيئاً من قبيح أفعالهم لئلا يحصل لكم مثل نكالهم كما أحكمه قوله. صلى الله عليه وسلم. " لتتبعن سنن من كان قبلكم " الحديث ، وذلك الغدر منهم بعد أن حرضوا قريشاً على غزوة أحد ودلوهم على بعض العورات ، وقال البغوي : إن كعب بن الأشرف أتى قريشاً بعد أحد في أربعين راكباً فحالفهم على النبي. صلى الله عليه وسلم. فنزل جبريل عليه السلام عليه يخبره بذلك ، وقال : إنه لما قصدهم عليه السلام أرسلوا إليه أن يخرج في ثلاثين ويخرج منهم ثلاثون ليسمعوا منه ، فإن آمنوا به آمن الكل ، فأجابهم فأرسلوا أن الجمع كثير فاخرج في ثلاثة ليخرج ثلاثة منا ، فأرسلت امرأة منهم إلى أخيها وكان مسلماً أنهم اشتملوا على الخناجر يريدون الفتك برسول الله. صلى الله عليه وسلم. فكف. صلى الله عليه وسلم. عن ذلك ، وكل ما ذكر من أسباب قصتهم كما ترى دائر على المكر بل هو عين المكر .

ولما دل هذا على غاية الوهن منهم فكان موضع التعجب من الكف عن قتلهم ، بين أن السبب في ذلك أمره الباهر وعزه القاهر حثاً على ما ختم به الآية السابقة من الاعتبار والتدبر والاستبصار فقال : ﴿ ولولا أن كتب الله ﴾ أي فرض فرضاً حتماً الملك الذي له الأمر كله ، ودل على أنه كتب إذلالاً وإخزاء بقوله : ﴿ عليهم ﴾ أي بخصوصهم فيما كتب على بني إسرائيل في الأزل كما كتب على بني قينقاع ﴿ الجلاء ﴾ أي الخروج من ديارهم والجولان في الأرض ، فأما معظمهم فأجلاهم بخت نصر من بلاد الشام إلى العراق ، وأما هؤلاء فحماهم الله بمهاجر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ذلك الجلاء وجعله على يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فأجلاهم فذهب بعضهم إلى خيبر وبعضهم إلى الشام مرة بعد مرة ﴿ لعذبهم في الدنيا ﴾ أي بالسيف كما سيفعل بأحوالهم من بني قريظة الذين كتب عليهم العذاب دون الجلاء من قتل المقاتلة وسبي الذرية ، فإنه تعالى قد قضى قضاء حتماً أنه يطهر المدينة بلد الوحي منهم .

ولما كان التقدير : ولكنه كتب عليهم ذلك فهو عذابهم الآن في الدنيا لا محالة وإن اجتمع أهل الأرض على نصرهم ، عطف عليه قوله على طريق التهكم بالتعبير بأداة النفع : ﴿ ولهم ﴾

أي على كل حال أجلوا أو تركوا ﴿ في الآخرة ﴾ التي هي دار البقاء ﴿ عذاب النار ﴾ وهو العذاب الأكبر.

ولما أخبر بما نالهم في الدنيا وينالهم في الآخرة، علله بقوله: ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الذي فعله بهم من الجلاء ومقدماته في الدنيا ويفعله بهم في الآخرة ﴿ بأنهم ﴾ ولما كانوا قد ضموا فى هذه القضية إلى ما كانوا عليه من الكفر الظاهر كفراً باطناً بما أرادوا من إلقاء الرحى وغيره من الأذى مكراً منهم، أدغم في قوله: ﴿ شاقوا الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الإحاطة التامة، فكانوا في شق غير شقه بأن صاروا في شق الأعداء المحاربين بعد ما كانوا في شق الموادعين.

(15/755)

ولما جارى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إخفاءهم لما أرادوا أن يفعلوا به بالإخفاء لخلاصه منهم بأن رجع إلى المدينة الشريفة وترك أصحابه ـ رضى الله عنه ـم عندهم قال: ﴿ ورسوله ﴾ الذي إجلاله من إجلاله.

ولما أخبر بفعله وسببه، عطف عليه تأكيداً لمضمونه وإفاده لأنه يفعل في غيرهم ممن كان على أمرهم أعظم من فعلهم فقال: ﴿ ومن يشاق الله ﴾ أي يوقع في الباطن مشاقة الملك

الأعلى الذي لا كفوء له في الحال أو الماضي أو الاستقبال سواء أبطن معها مشاقة أخرى أو لا ، وترك الإدغام على حاله لأنهم ما أظهروا معاداة وإنما كان ما فعلوا مكراً ومسا ترة ، وذلك أخف من المجاهرة ، وأظهر في الأنفال لقوة أمر المجاهرين كما مضى ، ولم يعد ذكر الرسول تفخيماً له بإفهام أن مشاقته مشاقة لله من غير مثنوية أصلاً ، وإشارة إلى أنهم بالغوا في إخفاء مشاقتهم ، فلم يظهر عليها غير الله ، فلم يحصل منهم في ذلك مفاعلة بينهم وبين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه لم يمكر بهم ، وإنما جاهرهم حين أعلمه الله بمكرهم بخلاف ما تقدم في الأنفال ، فإن المقام اقتضى هناك الذكر لأنهم مكروا به كما قال تعالى

﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ [الأنفال : 30] الآية وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخفى أمر هجرته وأعمل الحيلة في الخلاص من مكرهم على حسب ما أمره الله به فحصلت المفاعلة في تحيز كل من الفريقين إلى شق غير شق الآخرة خفية ﴿ فإن الله ﴾ أي المحيط بجميع العظمة يشدد عقابه له لأنه ﴿ شديد العقاب ﴾ وذلك كما فعل ببني قريظة بعد هذا حيث نقضوا عهدهم وأظهروا المشاقة في غزوة الأحزاب وكما فعل أهل خيبر ، وكانوا يماكرون ويساترون في الأولى عند فتحها وفي الثانية عند إجلائهم منها ، فقد سوى بين المساترين والمجاهرين في العذاب وهو للمجاهرين أشد عذاباً كما هو واضح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 509 . 515 ﴾

(16/755)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ يخربون ﴾ بالتشديد : أبوعمرو . والباقون : بالتخفيف من الإخراب ﴿ تكون ﴾ بالتاء الفوقانية ﴿ دولة ﴾ بالرفع على "كان" التامة : يزيد . والآخرون : على التذكير والنصب ﴿ جدار ﴾ بالألف على التوحيد : ابن كثير وأبو عمرو . والآخرون : بضمتين من غير ألف . ﴿ إني أخاف ﴾ بالفتح : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو . و ﴿ الباري ﴾ بالإمالة : قتيبة ونصير وأبو عمرو طريق ابن عبدوس .

(17/755)

الوقوف ﴿ وما في الأرض ﴾ ط ﴿ الحكيم ﴾ ه ﴿ الحشر ﴾ ط ﴿ الأبصار ﴾ ط ﴿ في الدنيا ﴾ ط ﴿ النار ﴾ طه ﴿ ورسوله ﴾ ج بناء على أن الشرط من جملة المذكور ﴿ العقاب ﴾ ه ﴿ الفاسقين ﴾ ه ﴿ من يشاء ﴾ ط ﴿ قدير ﴾ ه ﴿

السبيل ﴾ ه ﴿ منكم ﴾ ط ﴿ فانتهوا ﴾ ج لابتداء من بعد جزاء الشرط مع اتفاق النظم ﴿ واتقوا الله ﴾ ط ﴿ العقاب ﴾ ه لئلا يوهم أن قوله ﴿ للفقراء ﴾ يتعلق ب ﴿ شديد ﴾ ﴿ ورسوله ﴾ ط ﴿ الصادقون ﴾ ه ج بناء على أن ما بعده مستأنف أو معطوف ويجيء وجه كل منهما في التفسير . ﴿ خصاصة ﴾ قف قيل : وقفة والأحسن الوصل لأن الاعتراض مؤكد لما قبله ﴿ المفلحون ﴾ ه لمثل المذكور ﴿ رحيم ﴾ ه ﴿ أبداً ﴾ لا لأن ما بعده من تمام القول ﴿ لننصركم ﴾ ط ﴿ لكاذبون ﴾ ه ﴿ معهم ﴾ ج ﴿ لا ينصرونهم ﴾ ط للعطف فيهما مع الابتداء بالقسم ﴿ لا ينصرون ﴾ ه ﴿ من الله ﴾ ط ﴿ لا يفقهون ﴾ ه ﴿ جدر ﴾ ط ﴿ شديد ﴾ ه ﴿ لا يعقلون ﴾ ه ج لتعلق الكاف ب ﴿ لا يعقلون ﴾ أو بمحذوف أو مثلهم كمثل ﴿ أمرهم ﴾ ط لاختلاف الجملتين ﴿ أليم ﴾ ه ج لما قلنا ﴿ اكفر ﴾ ط ﴿ العالمين ﴾ ه ﴿ فيها ﴾ ط ﴿ الظالمين ﴾ ه ﴿ لغد ﴾ ج لاعتراض خصوص بين العمومين أي لم يتق الله كل واحد منكم فلتنظر لغدها نفس واحد منكم ﴿ واتقوا الله ﴾ ه ﴿ تعلمون ﴾ ه ﴿ أنفسهم ﴾ ط ﴿ الفاسقون ﴾ ه ﴿ الجنة ﴾ الأولى ط ﴿ الفائزون ﴾ ه ﴿ من خشية الله ﴾ ط ﴿ يتفكرون ﴾ ه ﴿ إلا هو ﴾ ج لاحتمال كون ما بعده خبر مبتدأ محذوف ﴿ والشهادة ﴾ ج لاحتمال كون الضمير بدلاً من عالم أو مبتدأ ﴿ الرحيم ﴾ ه ﴿ إلا هو ﴾

ط لما قلنا ﴿ المتكبر ﴾ ط ﴿ يشركون ﴾ ه ﴿ الحسنى ﴾ ط ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ الحكيم ﴾ ه. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 280. 281 ﴾

(18/755)

فصل

قال الفخر :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾

صالح بنو النضير رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه ولا له ، فلما ظهر يوم بدر قالوا : هو النبي المنعوت في التوراة بالنصر ، فلما هزم المسلمون يوم أحد تابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة وحالفوا أبا سفيان عند الكعبة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الأنصاري ، فقتل كعباً غيلة ، وكان أخاه من الرضاعة ، ثم صحبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف ، فقال لهم : أخرجوا من المدينة ، فقالوا : الموت أحب إلينا من ذلك فتنادوا بالحرب ، وقيل : استمهلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، فبعث إليهم عبد الله بن أبي وقال : لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لا

نخذلكم ، ولئن خرجتم لنخرجن معكم ، فحصنوا الأزقة فحاصرهم إحدى وعشرون ليلة ، فلما قذف الله في قلوبهم الرعب ، وآيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح ، فأبى إلا الجلاء ، على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من متاعهم ، فجلوا إلى الشام إلى أريحاء وأزرعات إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق ، وآل حيي بن أخطب ، فإنهم لحقوا بخيبر ، ولحقت طائفة بالحيرة .

وههنا سؤالات .

السؤال الأول : ما معنى هذه اللام في قوله : ﴿ لأَوَّلِ الحشر ﴾ الجواب : إنها هي اللام في قولك : جئت لوقت كذا ، والمعنى : أخرج الذين كفروا عند أول الحشر .

(19/755)

السؤال الثاني : ما معنى أول الحشر ؟ الجواب : أن الحشر هو إخراج الجمع من مكان إلى مكان ، وإما أنه لم سمي هذا الحشر بأول الحشر فبيانه من وجوه : أحدها : وهو قول ابن عباس والأكثرين إن هذا أول حشر أهل الكتاب ، أي أول مرة حشروا وأخرجوا من جزيرة العرب لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك ، لأنهم كانوا أهل منعة وعز وثانيها : أنه تعالى جعل إخراجهم من المدينة حشراً ، وجعله أول الحشر من حيث يحشر الناس للساعة إلى ناحية

الشام ، ثم تدركهم الساعة هناك وثالثها : أن هذا أول حشرهم ، وأما آخر حشرهم فهو إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام ورابعها : معناه أخرجهم من ديارهم لأول ما يحشرهم لقتالهم ، لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله وخامسها : قال قتادة هذا أول الحشر ، والحشر الثاني نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، وذكروا أن تلك النار ترى بالليل ولا ترى بالنهار .

قوله تعالى : ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ﴾ .

قال ابن عباس : إن المسلمين ظنوا أنهم لعزتهم وقوتهم لا يحتاجون إلى أن يخرجوا من ديارهم ، وإنما ذكر الله تعالى ذلك تعظيماً لهذه النعمة ، فإن النعمة إذا وردت على المرء والظن بخلافه تكون أعظم ، فالمسلمون ما ظنوا أنهم يصلون إلى مرادهم في خروج هؤلاء اليهود ، فيتخلصون من ضرر مكايدهم ، فلما تيسر لهم ذلك كان توقع هذه النعمة أعظم .

قوله تعالى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ .

قالوا كانت حصونهم منيعة فظنوا أنها تمنعهم من رسول الله ، وفي الآية تشريف عظيم لرسول الله ، فإنها تدل على أن معاملتهم مع رسول الله هي بعينها نفس المعاملة مع الله ، فإن

قيل : ما الفرق بين قولك : ظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم وبين النظم الذي جاء عليه ، قلنا : في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم ، وفي تصيير ضميرهم إسماً ، وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالون بأحد يطمع في منازعتهم ، وهذه المعاني لا تحصل في قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم .

قوله تعالى : ﴿ فأتاهم الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في الآية وجهان الأول : أن يكون الضمير في قوله : ﴿ فأتاهم ﴾ عائد إلى اليهود ، أي فأتاهم عذاب الله وأخذهم من حيث لم يحتسبوا والثاني : أن يكون عائداً إلى المؤمنين أي فأتاهم نصر الله وتقويته من حيث لم يحتسبوا ، ومعنى : لم يحتسبوا ، أي لم يظنوا ولم يخطر ببالهم ، وذلك بسبب أمرين أحدهما : قتل رئيسهم كعب بن الأشرف على يد أخيه غيلة ، وذلك مما أضعف قوتهم ، وفتت عضدهم ، وقل من شوكتهم والثاني : بما قذف في قلوبهم من الرعب .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ فأتاهم الله ﴾ لا يمكن إجراؤه على ظاهره باتفاق جمهور العقلاء ، فدل على أن باب التأويل مفتوح ، وأن صرف الآيات عن ظواهرها بمقتضى الدلائل العقلية جائز .

المسألة الثالثة :

قال صاحب الكشاف : قرىء ﴿ فأتاهم الله ﴾ أي فآتاهم الهلاك ، واعلم أن هذه القراءة لا تدفع ما بيناه من وجوه التأويل ، لأن هذه القراءة لا تدفع القراءة الأولى ، فإنها ثابتة بالتواتر ، ومتى كانت ثابتة بالتواتر لا يمكن دفعها ، بل لا بد فيها من التأويل .

(21/755)

قوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب ﴾ قال أهل اللغة : الرعب ، الخوف الذي يستوعب الصدر ، أي يملؤه ، وقذفه إثباته فيه ، وفيه قالوا في صفة الأسد : مقذف ، كأنما قذف باللحم قذفاً لاكتنازه وتداخل أجزائه ، واعلم أن هذه الآية تدل على قولنا من أن الأمور كلها لله ، وذلك لأن الآية دلت على أن وقوع ذلك الرعب في قلوبهم كان من الله ودلت على أن ذلك الرعب صار سبباً في إقدامهم على بعض الأفعال ، وبالجملة فالفعل لا يحصل إلا عند حصول داعية متأكدة في القلب ، وحصول تلك الداعية لا يكون إلا من الله ، فكانت الأفعال بأسرها مسندة إلى الله بهذا الطريق .

قوله تعالى : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المؤمنين ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال أبو علي : قرأ أبو عمرو وحده : ﴿يُخْرِبُونَ﴾ مشددة ، وقرأ الباقون : ﴿يُخْرِبُونَ﴾ خفيفة ، وكان أبو عمرو يقول : الإخراب أن يترك الشيء خراباً والتخريب الهدم ، وبنو النضير خربوا وما أخربوا قال المبرد : ولا أعلم لهذا وجهاً ، ويخربون هو الأصل خرب المنزل ، فإنما هو تكثير ، لأنه ذكر بيوتاً تصلح للقليل والكثير ، وزعم سيبويه أنهما يتعاقبان في الكلام ، فيجري كل واحد مجرى الآخر ، نحو فرحته وأفرحته ، وحسنه الله وأحسنه ، وقال الأعمش :

وأخربت من أرض قوم دياراً . . وقال الفراء : ﴿يُخْرِبُونَ﴾ بالتشديد يهدمون ، وبالتخفيف يخربون منها ويتركونها .

المسألة الثانية :

(22/755)

ذكر المفسرون في بيان أنهم كيف كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين وجوهاً أحدها : أنهم لما أيقنوا بالجلاء ، حسدوا المسلمين أن يسكنوا مساكنهم ومنازلهم ، فجعلوا يخربونها من داخل ، والمسلمون من خارج وثانيها : قال مقاتل : إن المنافقين دسوا إليهم أن لا يخرجوا ، ودربوا على الأزقة وحصنوها ، فنقضوا بيوتهم وجعلوها كالحصون

على أبواب الأزقة ، وكان المسلمون يخربون سائر الجوانب وثالثها : أن المسلمين إذا ظهروا على درب من دروبهم خربوه ، وكان اليهود يتأخرون إلى ما وراء بيوتهم ، وينقبونها من أدبارها ورابعها : أن المسلمين كانوا يخربون ظواهر البلد ، واليهود لما أيقنوا بالجلاء ، وكانوا ينظرون إلى الخشبة في منازلهم مما يستحسنونه أو الباب فيهدمون بيوتهم ، وينزعونها ويحملونها على الإبل ، فإن قيل : ما معنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين ؟ قلنا قال الزجاج : لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوه إياهم .

قوله تعالى : ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ .

اعلم أنا قد تمسكنا بهذه الآية في كتاب "المحصول من أصول الفقه" على أن القياس حجة فلا نذكره ههنا ، إلا أنه لا بد ههنا من بيان الوجه الذي أمر الله فيه بالاعتبار ، وفيه احتمالات أحدها : أنهم اعتمدوا على حصونهم ، وعلى قوتهم وشوكتهم ، فأباد الله شوكتهم وأزال قوتهم ، ثم قال : ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ ولا تعتمدوا على شيء غير الله ، فليس للزاهد أن يعتمد على زهده ، فإن زهده لا يكون أكثر من زهد بلعام ، وليس للعالم أن يعتمد على علمه ، أنظر إلى ابن الراوندي مع كثرة ممارسته كيف صار ، بل لا اعتماد لأحد في شيء إلا على فضل الله ورحمته وثانيها : قال القاضي : المراد أن يعرف الإنسان عاقبة الغدر والكفر والطعن في النبوة ، فإن أولئك اليهود وقعوا بشؤم الغدر ، والكفر في البلاء والجلاء ، والمؤمنين أيضاً يعتبرون به فيعدلون عن المعاصي .

فإن قيل : هذا الاعتبار إنما يصح لو قلنا : إنهم غدروا وكفروا فعذبوا ، وكان السبب في ذلك العذاب هو الكفر والغدر ، إلا أن هذا القول فاسد طرداً وعكساً أما الطرد فلأنه رب شخص غدر وكفر ، وما عذب في الدنيا وأما العكس فلأن أمثال هذه المحن ، بل أشد منها وقعت للرسول عليه السلام ولأصحابه ، ولم يدل ذلك على سوء أديانهم وأفعالهم ، وإذا فسدت هذه العلة فقد بطل هذا الاعتبار ، وأيضاً فالحكم الثالث في الأصل هو أنهم : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى المؤمنين ﴾ وإذا عللنا ذلك بالكفر والغدر يلزم في كل من غدر وكفر أن يخرب بيته بيده وبأيدي المسلمين ، ومعلوم أن هذا لا يصلح ، فعلمنا أن هذا الاعتبار غير صحيح والجواب : أن الحكم الثابت في الأصل له ثلاث مراتب أولها : كونه تخريباً للبيت بأيديهم وأيدي المؤمنين وثانيها : وهو أعم من الأول ، كونه عذاباً في الدنيا وثالثها : وهو أعم من الثاني ، كونه مطلق العذاب ، والغدر والكفر إنما يناسبان العذاب من حيث هو عذاب ، فأما خصوص كونه تخريباً أو قتلاً في الدنيا أو في الآخرة فذاك عديم الأثر ، فيرجع حاصل القياس إلى أن الذين غدروا وكفروا وكذبوا عذبوا من غير اعتبار أن ذلك العذاب كان في الدنيا أو في الآخرة ، والغدر والكفر يناسبان العذاب ، فعلمنا أن الكفر

والغدر هما السببان في العذاب ، فأينما حصلا حصل العذاب من غير بيان أن ذلك العذاب في الدنيا أو في الآخرة ، ومتى قررنا القياس والاعتبار على هذا الوجه زالت المطاعن والنقوض وتم القياس على الوجه الصحيح .

المسألة الثانية :

(24/755)

الاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شيء إلى شيء ، ولهذا سميت العبرة عبرة لأنها تنتقل من العين إلى الخد ، وسمي المعبر معبراً لأن به تحصل المجاوزة ، وسمي العلم المخصوص بالتعبير ، لأن صاحبه ينتقل من المتخيل إلى المعقول ، وسميت الألفاظ عبارات ، لأنها تنقل المعاني من لسان القائل إلى عقل المستمع ، ويقال : السعيد من اعتبر بغيره ، لأنه ينتقل عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه ، ولهذا قال المفسرون : الاعتبار هو النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها ، وفي قوله : ﴿ يا أولي الأبصار ﴾ وجهان الأول : قال ابن عباس : يريد يا أهل اللب والعقل والبصائر والثاني : قال الفراء : ﴿ يا أولي الأبصار ﴾ يا من عاين تلك الواقعة المذكورة .

وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (3)

معنى الجلاء في اللغة ، الخروج من الوطن والتحول عنه ، فإن قيل : أن ﴿ لَوْلَا ﴾ تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره فيلزم من ثبوت الجلاء عدم التعذيب في الدنيا ، لكن الجلاء نوع من أنواع التعذيب ، فإذاً يلزم من ثبوت الجلاء عدمه وهو محال ، قلنا معناه : ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا بالقتل كما فعل بإخوانهم بني قريظة ، وأما قوله : ﴿ وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابُ النار ﴾ فهو كلام مبتدأ وغير معطوف على ما قبله ، إذ لو كان معطوفاً على ما قبله لزم أن لا يوجد لما بينا ، أن (لولا) تقتضي انتفاء الجزاء لحصول الشرط .

أما قوله تعالى : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ شَاقُّواْ الله وَرَسُولَهُ ﴾ فهو يقتضي أن علة ذلك التخريب هو مشاقة الله ورسوله ، فإن قيل : لو كانت المشاقة علة لهذا التخريب لوجب أن يقال : أينما حصلت هذه المشاقة حصل التخريب ، ومعلوم أنه ليس كذلك ، قلنا : هذا أحد ما يدل على أن تخصيص العلة المنصوصة لا يقدح في صحتها .

ثم قال : ﴿ وَمَن يُشَاقِّ الله فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ والمقصود منه الزجر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 242.246 ﴾

(25/755)

وقال القرطبى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

تقدم .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الحشر ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن دِيَارِهِمْ ﴾ قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : قل سورة النَّضِير ؛ وهم رهط من اليهود من ذُرّية هارون عليه السلام ، نزلوا المدينة في فِتن بني إسرائيل انتظاراً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكان من أمرهم ما نصّ الله عليه .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ لأَوَّلِ الحشر ﴾ الحشرُ الجمعُ ؛ وهو على أربعة أوجه : حشران في الدنيا وحشران في الآخرة ؛ أما الذي في الدنيا فقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الحشر ﴾ قال الزهريّ : كانوا من سبطٍ لم يصبهم جلاء ، (وكان الله عز وجلّ قد كتب عليهم الجلاء ؛ فلولا ذلك لعذبهم في الدنيا) وكان أول حشرْ حُشِروا في الدنيا إلى الشام .

قال ابن عباس وعكرمة : من شك أن المحشر في الشام فليقرأ هذه الآية : وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : " "اخرجوا" قالوا إلى أين ؟ قال : "إلى أرض المحشر" " قال قتادة :

هذا أوّل المحشر .

قال ابن عباس : هم أول من حشر من أهل الكتاب وأُخرج من دياره .

وقيل : إنهم أخرجوا إلى خَيْبر ، وأن معنى ﴿ لأَوَّلِ الحشر ﴾ إخراجهم من حصونهم إلى خيبر ، وآخره إخراج عمر رضي اللّه عنه إياهم من خَيْبر إلى نجد وأذرِعات .

وقيل تيماء وأريحاء ، وذلك بكفرهم ونقض عهدهم .

وأما الحشر الثاني : فحشرهم قرب القيامة .

قال قتادة : تأتي نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، تَبِيت معهم حيث باتوا ، وتَقِيل معهم حيث قالوا ، وتأكل منهم من تخلّف .

(26/755)

وهذا ثابت في الصحيح ، وقد ذكرناه في (كتاب التذكرة) .

ونحوه روى ابن وهب عن مالك قال : قلت لمالك هو جلاؤهم من ديارهم ؟ فقال لي : الحشر يوم القيامة حشر اليهود .

قال : وأجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود إلى خيبر حين سئلوا عن المال فكتموه ؛ فاستحلهم بذلك .

قال ابن العربيّ : للحشر أوّل ووسط وآخر ؛ فالأول إجلاء بني النضير ، والأوسط إجلاء خيبر ، والآخر حشر يوم القيامة .

وعن الحسن : هم بنو قُرَيظة .

وخالفه بقية المفسرين وقالوا : بنو قُرَيظة ما حُشروا ولكنهم قتلوا .

حكاه الثعلبي .

الثالثة : قال الكيا الطبريّ : ومصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير شيء لا يجوز الآن ، وإنما كان ذلك في أوّل الإسلام ثم نُسخ .

والآن فلا بدّ من قتالهم أو سَبْيهم أو ضرب الجِزية عليهم .

قوله تعالى : ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ﴾ (يريد لعظم أمر اليهود ومنعتهم وقوّتهم في صدور المسلمين ، واجتماع كلمتهم) .

﴿ وظنوا أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم ﴾ قيل : هي الوَطيح والنَّطاة والسُّلالم والكَتيبة .

﴿ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي من أمره .

وكانوا أهل حَلْقة أي سلاح كثير وحصون منيعة ؛ فلم يمنعهم شيء منها .

﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أي أمره وعذابه .

﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ أي لم يظنوا .

وقيل : من حيث لم يعلموا .

وقيل : ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ بقتل كعب بن الأشرف ؛ قاله ابن جُريج والسُّدّي وأبو صالح.

قوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب ﴾ بقتل سيدهم كعب بن الأشرف ؛ وكان الذي قتله هو محمد بن مَسْلمة ، وأبو نائلة سِلْكان بن سلامة بن وَقْش وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة وعبّاد بن بِشر بن وَقْش ، والحارث بن أوْس بن معاذ ، وأبو عَبْس بن جبر.

وخبره مشهور في السيرة.

(27/755)

وفي الصحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "نُصِرتُ بالرُّعب بين يدَيْ مسيرةِ شهر" فكيف لا يُنصر به مسيرة ميل من المدينة إلى محلة بني النضير.

وهذه خصِّيصَى لمحمد صلى الله عليه وسلم دون غيره.

قوله تعالى : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ ﴾ قراءة العامة بالتخفيف من أخرب ؛ أي يهدمون.

وقرأ السُّلمِي والحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية وقتادة وأبو عمرو "يخرِّبون" بالتشديد من التخريب.

قال أبو عمرو : إنما اخترت التشديد لأن الإخراب تركُ الشيء خراباً بغير ساكن ، وبنو النَّضير لم يتركوها خراباً وإنما خرّبوها بالهدم ؛ يؤيده قوله تعالى : ﴿ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المؤمنين ﴾ .

وقال آخرون : التخريب والإخراب بمعنى واحد ، والتشديد بمعنى التكثير .

وحكى سيبويه : أن معنى فعّلت وأفعلت يتعاقبان ؛ نحو أخربته وخرّبته وأفرحته وفرّحته .

واختار أبو عبيد وأبو حاتم الأولى .

قال قتادة والضحاك : كان المؤمنون يخرّبون من خارج ليدخلوا ، واليهود يُخرّبون من داخل ليبنُوا به ما خُرِّب من حِصْنهم .

فروي أنهم صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يكونوا عليه ولا له ؛ فلما ظهر يومَ بَدْر قالوا : هو النبيّ الذي نُعِت في التوراة ، فلا تُردّ له راية .

فلما هُزِم المسلمون يوم أُحُد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة ، فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة ، فأمر عليه السلام محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كَعْباً غِيلةً ثم صبّحهم بالكتائب ؛ فقال لهم : اخرجوا من المدينة .

فقالوا : الموت أحبّ إلينا من ذلك ؛ فتنادَوا بالحرب .

وقيل : استمهلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، فدسّ إليهم

عبدُ الله ابن أُبَيّ المنافق وأصحابه لا تخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم ، ولئن أُخرِجتم لنخرجنّ معكم .

(28/755)

فدُرِّبُوا على الأزقة وحصّنوها إحدى وعشرين ليلةً ، فلما قذف الله في قلوبهم الرُّعب وأيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح ؛ فأبى عليهم إلا الجلاء ؛ على ما يأتي بيانه .

وقال الزهري وابن زيد وعروة بن الزبير : لما صالحهم النبيّ صلى الله عليه وسلم على أن لهم ما أقلّت الإبل ؛ كانوا يستحسنون الخشبة والعمود فيهدمون بيوتهم ويحملون ذلك على إبلهم ويخرِّب المؤمنون باقيها .

وعن ابن زيد أيضاً : كانوا يخرّبونها لئلا يسكنها المسلمون بعدهم .

وقال ابن عباس : كانوا كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم هدموها ليتسع موضع القتال ، وهم ينقبون دورهم من أدبارها إلى التي بعدها ليتحصّنوا فيها ، ويرموا بالتي أخرجوا منها المسلمين .

وقيل : ليسدّوا بها أزِقّتهم .

وقال عكرمة ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ في إخراب دواخلها وما فيها لئلا يأخذه المسلمون .

وب "أيدي المؤْمنين" في إخراب ظاهرها ليصلُوا بذلك إليهم .

قال عكرمة : كانت منازلهم مزخرفة فحسدوا المسلمين أن يسكنوها " فخربوها من داخل وخربها المسلمون من خارج .

وقيل : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ ﴾ بنقض المواعدة ﴿ وَأَيْدِي المؤمنين ﴾ بالمقاتلة ؛ قاله الزهري أيضاً .

وقال أبو عمرو بن العلاء ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ في تركهم لها .

وب ﴿ وَأَيْدِي المؤمنين ﴾ في إجلائهم عنها .

قال ابن العربيّ : التناول للإفساد إذا كان باليد كان حقيقة ، وإذا كان بنقض العهد كان مجازاً ؛ إلا أنّ قول الزهري في المجاز أمْثل من قول أبي عمرو بن العلاء .

قوله تعالى : ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ أي اتعظوا يا أصحاب العقول والألباب وقيل : يا من عاين ذلك ببصره ؛ فهو جمع للبصر .

ومن جملة الاعتبار هنا أنهم اعتصموا بالحصون من الله فأنزلهم الله منها .

ومن وجوهه : أنه سلط عليهم من كان ينصرهم .

ومن وجوهه أيضاً : أنهم هدموا أموالهم بأيديهم .

ومن لم يعتبر بغيره اعتبر في نفسه .

وفي الأمثال الصحيحة : "السَّعيد من وُعِظ بغيره" .

(29/755)

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الجلاء ﴾

أي لولا أنه قضى أنه سَيُجْليهم عن دارهم ، وأنهم يبقون مدة فيؤمن بعضهم ويولد لهم من يؤمن .

﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدنيا ﴾ أي بالقتل والسَّبي كما فعل ببني قُريظة .

والجلاء مفارقة الوطن ؛ يقال : جَلاَ بنفسه جلاءً ، وأجلاه غيره إجلاءً .

والفرق بين الجلاء والإخراج وإن كان معناهما في الإبعاد واحداً من وجهين : أحدهما أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد .

الثاني أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج يكون لواحد ولجماعة ؛ قاله الماورديّ .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي ذلك الجلاء ﴿ بِأَنَّهُمْ شَاقُّواْ الله ﴾ أي عادَوه وخالفوا أمره .

﴿ وَمَن يُشَاقِّ الله ﴾ قرأ طلحة بن مُصَرِّف ومحمد بن السَّمَيْقَع "ومن يشاقق الله" بإظهار التضعيف كالتي في "الأنفال" وأدغم الباقون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(30/755)

وقال الآلوسى :

﴿ سَبَّحَ للَّهِ مَا فِى السماوات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحشر : 6]

وتقدم الكلام على نظير هذه الجملة في صدر سورة الحديد ، وكرر الموصول ههنا لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كل من الفريقين بالتسبيح ، وقوله تعالى :

﴿ هُوَ الذى أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن ديارهم ﴾ بيان لبعض آثار عزته تعالى وأحكام حكمته عز وجل إثر وصفه تعالى بالعزة القاهرة والحكمة الباهرة على الإطلاق ، والمراد بالذين كفروا بنو النضير بوزن الأمير وهم قبيلة عظيمة من يهود خيبر كبني قريظة ، ويقال للحيين : الكاهنان لأنهما من ولد الكاهن بن هارون كما في "البحر" ، ويقال : إنهم نزلوا قريباً من المدينة في فئة من بني إسرائيل انتظاراً لخروج الرسول صلى الله عليه وسلم فكان من أمرهم ما قصه الله تعالى .

(31/755)

وقيل : إن موسى عليه السلام كان قد أرسلهم إلى قتل العماليق ، وقال لهم : لا تستحيوا منهم أحداً فذهبوا ولم يفعلوا وعصوا موسى عليه السلام فلما رجعوا إلى الشام وجدوه قد مات عليه السلام فقال لهم بنو إسرائيل : أنتم عصاة الله تعالى والله لا دخلتم علينا بلادنا فانصرفوا إلى الحجاز إلى أن كان ما كان ، وروي عن الحسن أنهم بنو قريظة وهو وهم كما لا يخفى ، والجار الأول : متعلق بمحذوف أي كائنين من أهل الكتاب ، والثاني : متعلق بأخرج وصحت إضافة الديار إليهم لأنهم كانوا نزلوا برية لا عمران فيها فبنوا فيها وسكنوا ، وضمير ﴿ هُوَ ﴾ راجع إليه تعالى بعنوان العزة والحكمة إما بناءاً على كمال ظهور اتصافه تعالى بهما مع مساعدة تامة من المقام ، أو على جعلن مستعاراً لاسم الإشارة كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وأبصاركم وَخَتَمَ على قُلُوبِكُمْ مَّنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ [الأنعام : 46] أي بذلك فكأنه قيل : ذلك المنعوت بالعزة والحكمة الذي أخرج الخ ، ففيه إشعار بأن في الإخراج حكمة باهرة ، وقوله تعالى : ﴿ لِأَوَّلِ الحشر ﴾ متعلق بأخرج واللام لام التوقيت كالتي في قولهم : كتبته لعشر خلون ، ومآلها إلى معنى في الظرفية ، ولذا قالوا هنا أي في أول الحشر لكنهم لم يقولوا : إنها بمعنى في إشارة إلى أنها لم تخرج عن أصل معناها وأنها للاختصاص لأن ما وقع في وقت اختص به دون غيره من الأوقات ، وقيل : إنها للتعليل وليس بذاك ، ومعنى أول الحشر أن هذا أول حشرهم إلى الشام أي أول ما حشروا وأخرجوا ، ونبه بالأولية على أنهم لم يصبهم جلاء قبل ولم يجلهم

بختنصر حين أجلى اليهود بناءاً على أنهم لم يكونوا معهم إذ ذاك وإن نقلهم من بلاد الشام إلى أرض العرب كان باختيارهم، أو لم يصبهم ذلك في الإسلام، أو على أنهم أول محشورين من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام، ولا نظر في ذلك إلى مقابلة الأول

(32/755)

بالآخر، وبعضهم يعتبرها فمعنى أول الحشر أن هذا أول حشرهم وآخر حشرهم إجلاء عمر رضي الله تعالى عنه إياهم من خيبر إلى الشام، وقيل: آخر حشرهم حشرهم يوم القيامة لأن المحشر يكون بالشام.

وعن عكرمة من شك أن المحشر ههنا يعني الشام فليقرأ هذه الآية، وكأنه أخذ ذلك من أن المعنى لأول حشرهم إلى الشام فيكون لهم آخر حشر إليه أيضاً ليتم التقابل، وهو يوم القيامة من القبور، ولا يخفى أنه ضعيف الدلالة؛ وفي "البحر" عن عكرمة.

والزهري أنهما قالا: المعنى الأول موضع الحشر وهو الشام، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم: "اخرجوا قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر" ولا يخفى ضعف هذا المعنى أيضاً، وقيل: آخر حشرهم أن ناراً تخرج قبل الساعة فتحشرهم كسائر الناس من المشرق إلى المغرب، وعن الحسن أنه أريد حشر القيامة أي هذا أوله والقيام من القبور

آخره ، وهو كما ترى ، وقيل : المعنى أخرجهم من ديارهم لأول جمع حشره النبي صلى الله عليه وسلم أو حشره الله عز وجل لقتالهم لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن قبل قصد قتالهم ، وفيه من المناسبة لوصف العزة ما لا يخفى ، ولذا قيل : إنه الظاهر ؛ وتعقب بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن جمع المسلمين لقتالهم في هذه المرة أيضاً ولذا ركب عليه الصلاة والسلام حماراً مخطوماً بليف لعدم المبالاة بهم وفيه نظر ، وقيل : لأول جمعهم للمقاتلة مع المسلمين لأنهم لم يجتمعوا لها قبل ، والحشر إخراج جمع سواء كان من الناس لحرب أو لا ، نعم يشترط فيه كون المحشور جمعاً من ذوي الأرواح لا غير ، ومشروعية الإجلاء كانت في ابتداء الإسلام ، وأما الآن فقد نسخت ، ولا يجوز إلا القتل .

أو السبي .

أو ضرب الجزية ﴿ مَا ظَنَنتُمْ ﴾ أيها المسلمو ﴿ أَن يَخْرُجُواْ ﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم ووثاقة حصونهم وكثرة عددهم وعدتهم .

(33/755)

﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ ﴾ أي ظنوا أن حصونهم مانعتهم أو تمنعهم من بأس الله تعالى فحصونهم مبتدأ ، ﴿ ومانعتهم ﴾ خبر مقدم ، والجملة خبر ﴿ إن ﴾

وكان الظاهر لمقابلة ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ﴾ وظنوا أن لا يخرجوا والعدول إلى ما في "النظم الجليل" للإشعار بتفاوت الظنين ، وأن ظنهم قارب اليقين فناسب أن يؤتى بما يدل على فرط وثوقهم بما هم فيه فجيء بمانعتهم .

وحصونهم مقدماً فيه الخبر على المبتدأ ؛ ومدار الدلالة التقديم لما فيه من الاختصاص فكأنه لا حصن أمنع من حصونهم ، وبما يدل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معهما بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم ، فجيء بضمير هم وصير اسماً لأن وأخبر عنه بالجملة لما في ذلك من التقوّى على ما في "الكشف" .

وشرح الطيبي ، وفي كون ذلك من باب التقوّى بحث ، ومنع بعضهم جواز الإعراب السابق بناءاً على أن تقديم الخبر المشتق على المبتدأ المحتمل للفاعلية لا يجوز كتقديم الخبر إذا كان فعلاً ، وصحح الجواز في المشتق دون الفعل ، نعم اختار صاحب الفرائد أن يكون ﴿ حُصُونُهُم ﴾ فاعلاً لمانعتهم لاعتماده على المبتدأ .

وجوز كون ﴿ مَّانِعَتُهُمْ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ حُصُونُهُم ﴾ ، وتعقب بأن فيه الإخبار عن النكرة بالمعرفة إن كانت إضافة مانعة لفظية ، وعدم كون المعنى على ذلك إن كانت معنوية بأن قصد استمرار المنع فتأمل ، وكانت ﴿ حُصُونُهُم ﴾ على ما قيل : أربعة الكتيبة .

والوطيح .

والسلالم .

والنطاة، وزاد بعضهم الوخدة وبعضهم شقا، والذي في "القاموس" أنه موضع بخيبر أو واد به ﴿ فاتاهم الله ﴾ أي أمره سبحانه، وقدره عز وجل المتاح لهم ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ ولم يخطر ببالهم؛ وهو على ما روي عن السدي.

وأبي صالح.

(34/755)

وابن جريج قتل رئيسهم كعب بن الأشرف فإنه مما أضعف قوتهم وقلّ شوكتهم وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة، وقيل: ضمير ﴿ ءاتاهم ﴾ و ﴿ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ للمؤمنين أي فأتاهم نصر الله من حيث لم يحتسبوا، وفيه تفكيك الضمائر.

وقرىء فآتاهم الله، وهو حينئذ متعدّ لمفعولين.

ثانيهما محذوف أي فآتاهم الله العذاب أو النصر ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرعب ﴾ أي الخوف الشديد من رعبت الحوض إذا ملأته لأنه يتصور فيه أنه ملأ القلب، وأصل القذف الرمي بقوة أو من بعيد، والمراد به هنا للعرف إثبات ذلك وركزه في قلوبهم.

﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ليسدوا بما نقضوا منها من الخشب والحجارة أفواه الأزقة، ولئلا تبقى صالحة لسكنى المسلمين بعد جلائهم ولينقلوا بعض آلاتها المرغوب فيها مما يقبل

النقل كالخشب والعمد والأبواب ﴿ وَأَيدِى المؤمنين ﴾ حيث كانوا يخربونها من خارج ليدخلوها عليهم وليزيلوا تحصنهم بها وليتسع مجال القتال ولتزداد نكايتهم ، ولما كان تخريب أيدي المؤمنين بسبب أمر أولئك اليهود كان التحريب بأيدي المؤمنين كأنه صادر عنهم ، وبهذا الاعتبار عطفت ﴿ أَيدِىَ المؤمنين ﴾ على أيديهم وجعلت آلة لتخريبهم مع أن الآلة هي أيديهم أنفسهم فيخربون على هذا إما من الجمع بين الحقيقة والمجاز أو من عموم المجاز ، والجملة إما في محل نصب على الحالية من ضمير ﴿ قُلُوبِهِمْ ﴾ أو لا محل لها من الإعراب ، وهي إما مستأنفة جواب عن سؤال تقديره فما حالهم بعد الرعب ؟ أو معه .

أو تفسير للرعب بادعاء الاتحاد لأن ما فعلوه يدل على رعبهم إذ لولاه ما خربوها .

وقرأ قتادة .

والجحدري .

ومجاهد .

وأبو حيوة .

وعيسى .

وأبو عمرو ﴿ يُخَرِّبُونَ ﴾ بالتشديد وهو للتكثير في الفعل أو في المفعول ، وجوز أن يكون في الفاعل ، وقال أبو عمرو بن العلاء : خرب بمعنى هدم وأفسد ، وأخرب ترك الموضع خراباً وذهب عنه ، فالإخراب يكون أثر التخريب ، وقيل : هما بمعنى عدى خرب اللازم بالتضعيف تارة .

وبالهمزة أخرى ﴿ فاعتبروا ياأولى الأبصار ﴾ فاتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة على وجه لا تكاد تهتدي إليه الأفكار ، واتقوا مباشرة ما أداهم إليه من الكفر والمعاصي ، واعبروا من حالهم في غدرهم واعتمادهم على غير الله تعالى الصائرة سبباً لتخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم ومفارقة أوطانهم مكرهين إلى حال أنفسكم فلا تعولوا على تعاضد الأسباب وتعتمدوا على غيره عز وجل بل توكلوا عليه سبحانه .

(36/755)

واشتهر الاستدلال بالآية على مشروعية العمل بالقياس الشرعي ، قالوا : إنه تعالى أمر فيها بالاعتبار وهو العبور والانتقال من الشيء إلى غيره ، وذلك متحقق في القياس إذا فيه نقل الحكم من الأصل إلى الفرع ، ولذا قال ابن عباس في الأسنان : اعتبر حكمها بالأصابع في أن ديتها متساوية ، والأصل في الإطلاق الحقيقة وإذ ثبت الأمر وهو ظاهر في الطلب الغير

الخارج عن اقتضاء الوجوب أو الندب ثبتت مشروعية العمل بالقياس ، واعترض بعد تسليم ظهور الأمر في الطلب بأنا لا نسلم أن الاعتبار ما ذكر بل هو عبارة عن الاتعاظ لأنه المتبادر حيث أطلق ، ويقتضيه في الآية ترتيبه بالفاء على ما قبله كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لَعِبْرَةً لأوْلِى الأبصار ﴾ [آل عمران : 13] ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأنعام لَعِبْرَةً ﴾ [النحل : 66] ولأن القائس في الفرع إذا قدم على المعاصي ولم يتفكر في أمر آخرته يقال : إنه غير معتبر ، ولو كان القياس هو الاعتبار لم يصح هذا السلب سلمان لكن ليس في الآية صيغة عموم تقتضي العمل بكل قياس بل هي مطلقة فيكفي في العمل بها العمل بالقياس العقلي سلمنا لكن العام مخصص بالاتفاق إذ قلتم : إنه إذا قال لوكيله : أعتق غانما لسواده لا يجوز تعديه ذلك إلى سالم ، وإن كان أسود ، وهو بعد التخصيص لا يبقى حجة فيما عدا محل التخصيص سلمنا غير أن الخطاب مع الموجودين وقته فيختص بهم ، وأجيب بأنه لو كان الاعتبار بمعنى الاتعاض حيث أطلق لما حسن قولهم : اعتبر فاتعظ لما يلزم فيه حينئذ من ترتب الشيء على نفسه وترتيبه في الآية على ما قبله لا يمنع كونه بمعنى الانتقال المذكور لأنه متحقق في الاتعاظ إذ المتعظ بغيره منتقل من العلم بحال ذلك الغير إلى العلم بحال نفسه فكان مأموراً به من جهة ما فيه من الانتقال وهو القياس .

والآيتان على ذلك ولا يصح غير معتبر في القائس العاصي نظراً إلى كونه قائساً ، وإنما صح ذلك نظراً إلى أمر الآخرة ، وأطلق النفي نظراً إلى أنه أعظم المقاصد وقد أخل به ، والآية إن دلت على العموم فذاك وإن دلت على الإطلاق وجب الحمل على القياس الشرعي لأن الغالب من الشارع مخاطبتنا بالأمور الشرعية دون غيرها ، وقد برهن على أن العام بعد التخصيص حجة ، وشمول حكم خطاب الموجودين لغيرهم إلى يوم القيامة قد انعقد الإجماع عليه ، ولا يضر الخلاف في شمول اللفظ وعدمه على أنه إن عم أو لم يعم هو حجة على الخصوم في بعض محل النزاع ، ويلزم من ذلك الحكم في الباقي ضرورة أنه لا يقول بالفرق .

هذا وقال الخفاجي في وجه الاستدلال : قالوا : إنا أمرنا في هذه الآية بالاعتبار وهو ردّ الشيء إلى نظيره بأن يحكم عليه بحكمه ، وهذا يشمل الاتعاظ والقياس العقلي والشرعي ، وسوق الآية للاتعاظ فتدل عليه عبارة وعلى القياس إشارة ، وتمام الكلام على ذلك في الكتب الأصولية .

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلجلاء ﴾

أي الإخراج أو الخروج عن أوطانهم على ذلك الوجه الفظيع ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدنيا ﴾ بالقتل كأهل بدر وغيرهم أو كما فعل سبحانه ببني قريظة في سنة خمس إذ الحكمة تقتضيه لو لم

يكتب الجلاء عليهم ، وجاء أجليت القوم عن منازلهم أي أخرجتهم عنها وأبرزتهم ، وجلوا عنها خرجوا وبرزوا ، ويقال أيضاً : جلاهم ؛ وفرق بعضهم بين الجلاء والاخراج بأن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد .

وقال الماوردي : الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج قد يكون لواحد ولجماعة ، ويقال فيه : الجلأ مهموزاً من غير ألف كالنبأ ، وبذلك قرأ الحسن بن صالح .

وأخوه علي بن صالح .

(38/755)

وطلحة ، وأن مصدرية لا مخففة واسمها ضمير شأن كما توهمه عبارة الكشاف ، وقد صرح بذلك الرضى ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِى الآخرة عَذَابُ النار ﴾ استئناف غير متعلق بجواب ﴿ لَوْلاَ ﴾ أي أنهم إن نجوا من عذاب الدنيا وهو القتل لأمر أشق عليهم وهو الجلاء لم ينجوا من عذاب الآخرة ؛ فليس تمتعهم أياماً قلائل بالحياة وتهوين أمر الجلاء على أنفسهم بنافع ، وفيه إشارة إلى أن القتل أشدّ من الجلاء لا لذاته بل لأنهم يصلون عنده إلى عذاب النار ، وإنما أوثر الجلاء لأنه أشق عندهم وأنهم غير معتقدين لما أمامهم من عذاب النار أو معتقدون ولكن لا يبالون به بالة ولم تجعل حالية لاحتياجها للتأويل لعدم المقارنة .

﴿ ذلك ﴾ أي ما نزل بهم وما سينزل ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ شَاقُّواْ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وفعلوا ما فعلوا من القبائح ﴿ وَمَن يُشَاقِّ اللهَ ﴾ وقرأ طلحة يشاقق بالفك كما في الأنفال ، والاقتصادر على ذكر مشاقته عز وجل لتضمنها مشاقته عليه الصلاة والسلام ، وفيه من تهويل أمرها ما فيه ، وليوافق قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العقاب ﴾ وهذه الجملة إما نفس الجزاء ، وقد حذف منه العائد إلى من عند من يلتزمه أي شديد العقاب له أو تعليل للجزاء المحذوف أي يعاقبه الله فإن الله شديد العقاب ، وأياً مّا كان فالشرطية تكملة لما قبلها وتقرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهاني كأنه قيل : ذلك الذي نزل وسينزل بهم من العقاب بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكل من يشاق الله تعالى كائناً من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد فإذاً لهم عقاب شديد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(39/755)

وقال ابن عاشور :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

افتتاح السورة بالإخبار عن تسبيح ما في السماوات والأرض لله تعالى تذكيرٌ للمؤمنين

بتسبيحهم لله تسبيح شكر على ما أنالهم من فتح بلاد بني النضير فكأنه قال سبحوا لله كما سَبح له ما في السماوات والأرض .

وتعريض بأولئك الذين نزلت السورة فيهم بأنهم أصابهم ما أصابهم لتكبرهم عن تسبيح الله حق تسبيحه بتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم إذ أعرضوا عن النظر في دلائل رسالته أو كابروا في معرفتها .

والقول في لفظ هذه الآية كالقول في نظيرها في أول سورة الحديد (1) ، إلا أن التي في أول سورة الحديد فيها : ﴿ ما في السماوات والأرض وها هنا قال : ما في السموات وما في الأرض ﴾ لأن فاتحة سورة الحديد تضمنت الاستدلال على عظمة الله تعالى وصفاته وانفراده بخلق السماوات والأرض فكان دليل ذلك هو مجموع ما احتوت عليه السماوات والأرض من أصناف الموجودات فجمع ذلك كله في اسم واحد هو ﴿ ما ﴾ الموصولة التي صلتها قوله : ﴿ في السماوات والأرض .

وأما فاتحة سورة الحشر فقد سيقت للتذكير بمنة الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضية وهي خذلان بني النضير فناسب فيها أن يخص أهل الأرض باسم موصول خاص بهم ، وهي ما ﴾ الموصولة الثانية التي صلتها ﴿ في الأرض ﴾ ، وعلى هذا المنوال جاءت فواتح سور الصف والجمعة والتغابن كما سيأتي في مواضعها .

وأوثر الأخبار عن ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ بفعل المضي لأن المخبر

عنه تسبيح شكر عن نعمة مضت قبل نزول السورة وهي نعمة إخراج أهل النضير .

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ

(40/755)

يجوز أن تجعل جملة ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا ﴾ إلى آخرها استئنافاً ابتدائياً لقصد إجراء هذا التمجيد على اسم الجلالة لما يتضمنه من باهر تقديره ، ولِمَا يؤذن به ذلك من التعريض بوجوب شكره على ذلك الإِخراج العجيب .

ويجوز أن تجعل علة لما تضمنه الخبر عن تسبيح ما في السماوات وما في الأرض من التذكير للمؤمنين والتعريض بأهل الكتاب والمنافقين الذين هم فريقان مما في الأرض فإن القصة التي تضمنتها فاتحة السورة من أهل أحوالهما .

ويجوز أن تجعل مبينة لجملة ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ [الحشر : 1] لأن هذا التسخير العظيم من آثار عزّه وحكمته .

وعلى كل الوجوه فهو تذكير بنعمة الله على المسلمين وإيماء إلى أن يشكروا الله على ذلك وتمهيد للمقصود من السورة وهو قسمة أموال بني النضير .

وتعريف جزأي الجملة بالضمير والموصول يفيد قصر صفة إخراج الذين كفروا من ديارهم

عليه تعالى وهو قصر ادعائي لعدم الاعتداد بسعي المؤمنين في ذلك الإِخراج ومعالجتهم بعض أسبابه كتخريب ديار بني النضير.

ولذلك فَجملة ﴿ ما ظننتم أن يخرجوا ﴾ تتنزل منزلة التعليل لجملة القصر.

وجملة ﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم ﴾ عطف على العلة، أي وهم ظنوا أن المسلمين لا يغلبونهم.

وإنما لم يقل: وظنوا أن لا يُخرَجوا.

مع أن الكلام على خروجهم، من قوله تعالى: ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا ﴾ فعدل عنه إلى ﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم ﴾ أي مانعتهم من إخراجهم استغناء عن ذكر المظنون بذكر علة الظن.

والتقدير: وظنوا أن لا يخرجوا لأنهم تمنعهم حصونهم، أي ظنوا ظناً قوياً معتمدين على حصونهم.

والمراد بـ ﴿ الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ بنو النضير (بوزن أمير) وهم قبيلة من اليهود استوطنوا بلاد العرب هم وبنو عمهم قُريظة، ويهودُ خَيبر، وكلهم من ذرية هَارون عليْه

السلام وكان يقال لبني النضير وبني قريظة : الكاهنان لأن كل فريق منهما من ذرية هارون وهو كاهن الملة الإسرائيلية ، والكهانة : حفظ أمور الديانة بيده ويد أعقابه .

وقصة استيطانهم بلاد العرب أن موسى عليه السلام كان أرسل طائفة من أسلافهم لقتال العماليق المجاورين للشام وأرض العرب فقصَّروا في قتالهم وتوفي موسى قريباً من ذلك .

فلما علموا بوفاة موسى رجعوا على أعقابهم إلى ديار إسرائيل في أريحَا فقال لهم قومهم : أنتم عصيتم أمر موسى فلا تدخلوا بلادنا ، فخرجوا إلى جزيرة العرب وأقاموا لأنفسهم قُرى حول يثرب (المدينة) وبنوا لأنفسهم حصُوناً وقرية سَموها الزَّهرة .

وكانت حصونهم خمسة سيأتي ذكر أسمائها في آخر تفسير الآية ، وصاروا أهل زرع وأموال .

وكان فيهم أهل الثراء مثل السموأل بن عَادِيا ، وكَعب بن الأشرف ، وابن أبي الحُقَيق ، وكان بينهم وبين الأوس والخزرج حِلف ومعاملة ، فكان من بطون أولئك اليهود بنو النضير وقريظة وخيبر .

ووسموا بـ ﴿ الذين كفروا ﴾ لأنهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم تسجيلاً عليهم بهذا الوصف الذميم وقد وُصفوا بـ ﴿ الذين كفروا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما

جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ [البقرة : 89] إلى قوله : ﴿ عذاب مهين ﴾ في سورة [البقرة : 90] .

(42/755)

وعليه فحرف من ﴾ في قوله : ﴿ من أهل الكتاب ﴾ بيانية لأن المراد بأهل الكتاب هنا خصوص اليهود أي الذين كفروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهم أهل الكتاب وأراد بهم اليهود ، فوصفوا بـ ﴿ من أهل الكتاب ﴾ لئلا يظن أن المراد بـ ﴿ الذين كفروا ﴾ المشركون بمكة أو بقية المشركين بالمدينة فيُظنّ أن الكلام وعيد .

وتفصيل القصة التي أشارت إليها الآية على ما ذكره جمهور أهل التفسير .

أن بني النضير لما هاجر المسلمون إلى المدينة جاؤوا فصالحوا النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه ولا له ، ويقال : إن مصالحتهم كانت عقبَ وقعة بَدر لمَّا غلَب المسلمون المشركين لأنهم توسّموا أنه لا تهزم لهم راية ، فلما غُلب المسلمون يوم أُحد نكثوا عهدهم وراموا مصالحة المشركين بمكة ، إذ كانوا قد قعدوا عن نصرتهم يوم بدر (كدأب اليهود في موالاة القوي) فخرج كعب بن الأشرف وهو سيد بني النضير في أربعين راكباً إلى مكة فحَالفوا المشركين عند الكعبة على أن يكونوا عوناً لهم على مقاتلة المسلمين ، فلما

أُوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك أمرَ محمدَ بن مسلمة أن يقتل كعب بن الأشرف فقتله غيلة في حصنه في قصة مذكورة في كتب السنة والسير .

وذكر ابن إسحاق سبباً آخر وهو أنه لما انقضت وقعة بئر معونة في صفر سنة أربع كان عَمرو بن أمية الضَّمْري أسيراً عند المشركين فأطلقه عامر بن الطفيل .

(43/755)

فلما كان راجعاً إلى المدينة أقبل رجلان من بني عامر وكان لقومهما عقد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلا مع عمرو بن أمية ، فلما ناما عدا عليهما فقتلهما وهو يحسب أنه يثأر بهما من بني عامر الذين قتلوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ببئر معونة ، ولما قدم عمرو بن أمية أخبر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بما فعل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " لقد قتلت قتيلين ولأدِيَنَّهُمَا " ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين إذ كان بين بني النضير وبين بني عامر حِلف ، وأضمر بنو النضير الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأطلعه الله عليه فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بالتهيّؤ لحربهم .

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بالسيْر إليهم في ربيع الأول سنة أربع من الهجرة

فسار إليهم هو والمسلمون وأمرهم بأن يَخرجوا من قريتهم فامتنعوا وتنادوا إلى الحرب ودسّ إليهم عبد الله بنُ أُبيّ ابنُ سلول أن لا يخرجوا من قريتهم وقال : إنْ قاتلَكم المسلمون فنحن معكم ولننصرُنَّكم وإن أخرجتم لَنَخرُجَنّ معكم فدَرِّبُوا على الأزقة (أي سُدُّوا منافذ بعضها لبعض ليكون كلّ درب منها صالحاً للمدافعة) وحصِّنوها ، ووعدهم أن معه ألفين من قومه وغيرهم ، وأن معهم قريظة وحلفاءهم من غطفان من العرب فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم وانتظروا عبد الله بن أُبيّ ابن سلول وقريظة وغطفان أن يقدموا إليهم ليردوا عنهم جيش المسلمين فلما رأوا أنهم لم ينجدوهم قذف الله في قلوبهم الرعب فطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم الصلح فأبى إلا الجلاء عن ديارهم وتشارطوا على أن يخرجوا ويَحمل كلّ ثلاثة أبيات منهم حِمْل بعير مما شاؤوا من متاعهم ، فجعلوا يخرّبون بيوتهم ليحملوا معهم ما ينتفعون به من الخشب والأبواب .

(44/755)

فخرجوا فمنهم من لحق بخيبر ، وقليل منهم لحقوا ببلاد الشام في مدن (أريحا) وأذرعات من أرض الشام وخرج قليل منهم إلى الحِيرة .

واللام في قوله : ﴿ لأول الحشر ﴾ لام التوقيت وهي التي تدخل على أول الزمان المجعول

ظرفاً لعملٍ مثل قوله تعالى : ﴿ يقول يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ [الفجر : 24] أي من وقت حياتي .

وقولهم : كتب ليوم كذا .

وهي بمعنى (عند) .

فالمعنى أنه أخرجهم عند مبدأ الحشر المقدر لهم ، وهذا إيماء إلى أن الله قَدر أن يخرجوا من جميع ديارهم في بلاد العرب .

وهذا التقدير أمر به النبي صلى الله عليه وسلم كما سيأتي .

فالتعريف في ﴿ الحشر ﴾ تعريف العهد .

والحشر : جمع ناس في مكان قال تعالى : ﴿ وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحّار عليم ﴾ [الشعراء : 36 - 37] .

والمراد به هنا : حشر يهود جزيرة العرب إلى أرض غيرها ، أي جمْعهم للخروج ، وهو بهذا المعنى يرادف الجلاء إذا كان الجلاء لجماعة عظيمة تُجمع من متفرق ديار البلاد .

وليس المراد به : حشر يوم القيامة إذ لا مناسبة له هنا ولا يلائم ذكر لفظ "أول" لأن أول كل شيء إنما يكون متحد النوع مع ما أضيف هو إليه .

وعن الحسن : أنه حمل الآية على حشر القيامة وركّبوا على ذلك أوهاماً في أن حشر القيامة يكون بأرض الشام وقد سبق أن ابن عباس احترز من هذا حين سمى هذه السورة

"سورة بني النضير" وفي جعل هذا الإِخراج وقتاً لأوّل الحشر إيذان بأن حشرهم يتعاقب حتى يكمل إخراج جميع اليهود وذلك ما أوصى به النبي صلى الله عليه وسلم قُبيل وفاته إذ قال:

"لا يبقى دينان في جزيرة العرب" وقد أنفذه عمر بن الخطاب حين أجلى اليهود من جميع بلاد العرب.

وقيل: وُصف الحشر بالأول لأنه أول جلاء أصاب بني النضير، فإن اليهود أُجْلُوا من فلسطين مرتين مرة في زمن (بختنصر) ومرة في زمن (طيطس) سلطان الروم وسَلِم بنو النضير ومن معهم من الجلاء لأنهم كانوا في بلاد العرب.

(45/755)

فكان أول جلاء أصابهم جلاء بني النضير.

﴿ يَخْرُجُواْ وظنوا أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ﴾.

أي كان ظن المسلمين وظن أهل الكتاب متواردين على تعذر إخراج بني النضير من قريتهم بسبب حصانة حصونهم.

وكان اليهود يتخذون حصوناً يأوون إليها عندما يغزوهم العدوّ مثل حصون خيبر.

وكانت لبني النضير ستة حصون أسماؤها : الكُتيبة (بضم الكاف وفتح المثناة الفوقية) والوَطِيح (بفتح الواو وكسر الطاء) والسُّلاَلم (بضم السين) والنَّطَاةُ (بفتح النون وفتح الطاء بعدها ألف وبهاء تأنيث آخرَه) والوَخْدَة (بفتح الواو وسكون الخاء المعجمة ودال مهملة) وشَقّ (بفتح الشين المعجمة وتشديد القاف) .

ونظم جملة ﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم ﴾ على هذا النظم دون أن يقال : وظَنُّوا أن حصونهم مانعتُهم ليكون الابتداء بضميرهم لأنه سيعقبه إسناد ﴿ مانعتهم ﴾ إليه فيكون الابتداء بضميرهم مشيراً إلى اغترارهم بأنفسهم أنهم في عزة ومَنَعة ، وأن مَنَعة حصونهم هي من شؤون عزتهم .

وفي تقديم ﴿ مانعتهم ﴾ وهو وصف على ﴿ حصونهم ﴾ وهو اسم والاسم بحسب الظاهر أولى بأن يجعل في مرتبة المبتدأ ويجعل الوصف خبراً عنه ، فعدل عن ذلك إشارة إلى أهمية منَعة الحصون عند ظنهم فهي بمحل التقديم في استحضار ظنهم ، ولا عبرة بجواز جعل حصونهم فاعلاً باسم الفاعل وهو ﴿ مانعتهم ﴾ بناء على أنه معتمد على مسند إليه لأن محامل الكلام البليغ تجري على وجوه التصرف في دقائق المعاني فيصير الجائز مرجوحاً .

قال المرزوقي في شرح (باب النسب) قول الشاعر وهو منسوب إلى ذي الرمة في غير ديوان الحماسة:

فإن لم يكن إلا مُعَرَّج ساعة . . .

قليلاً فإني نافع لي قليلها

يجوز أن يكون (قليلها) مبتدأ و (نافع) خبر مقدم عليه أي لقصد الاهتمام .

والجملة في موضع خبر (إنّ) والتقدير : إني قليلها نافع لي .

(46/755)

﴿ الله فأتاهم الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرعب يُخْرِبُونَ بيوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى المؤمنين فاعتبروا ياأولى ﴾ .

تفريع على مجموع جملتي ﴿ ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ﴾ اللتين هما تعليل للقصر في قوله تعالى : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ .

وتركيب (أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) تمثيل ، مُثِّل شأنُ الله حين يسّر أسباب استسلامهم بعد أن صمموا على الدفاع وكانوا أهل عِدة وعُدة ولم يطل حصارهم بحال من أخذ حذره من عدوّه وأحكم حراسته من جهاته فأتاه عدوه من جهة لم يكن قد أقام حراسة فيها .

وهذا يشبه التمثيل الذي في قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه

الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده ﴾ [النور : 39] .

والاحتساب : مبالغة في الحسبان ، أي الظنّ أي من مكان لم يظنوه لأنهم قصروا استعدادهم على التحصّن والمنَعة ولم يعلموا أن قوة الله فوق قوتهم .

والقذف : الرمي باليد بقوة .

واستعير للحصول العاجل ، أي حصل الرعب في قلوبهم دفعة دون سابق تأمل ولا حصول سبب للرعب ولذلك لم يؤت بفعل القذف في آية [آل عمران : 151] ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾

والمعنى : وجعل الله الرعب في قلوبهم فأسرعوا بالاستسلام .

وقَذْفُ الرعب في قلوبهم هو من أحوال إتيان الله إياهم من حيث لم يحتسبوا فتخصيصه بالذكر للتعجيب من صنع الله ، وعطفُه على أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا عطف خاص على عام للاهتمام .

والرعب ﴾ : شدة الخوف والفزع .

وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم " نصرت بالرعب " ، أي برعب أعداء الدين .

وجملة ﴿ يخربون بيوتهم ﴾ حال من الضمير المضاف إليه ﴿ قلوبهم ﴾ لأن المضاف جزء من المضاف إليه فلا يمنع مجيء الحال منه .

والمقصود التعجيب من اختلال أمورهم فإنهم وإن خربوا بيوتهم باختيارهم لكن داعي التخريب قهري.

(47/755)

والإخراب والتخريب: إسقاط البناء ونقضه.

والخراب: تهدم البناء.

وقرأ الجمهور ﴿ يخربون ﴾ بسكون الخاء وتخفيف الراء المكسورة مضارع: أَخرب.

وقرأه أبو عمرو وحْده بفتح الخاء وتشديد الراء المكسورة مضارع: خَرَّب.

وهما بمعنى واحد.

قال سيبويه: إن أفعلت وفَعّلت يتعاقبان نحْو أخربته وخَرّبته، وأفرحته وفرّحته.

يريد في أصل المعنى.

وقد تقدم ما ذكر من الفرق بين: أَنزل ونَزّل في المقدمة الأولى من مقدمات هذا التفسير.

وأشارت الآية إلى ما كان من تخريب بني النضير بيوتهم ليأخذوا منها ما يصلح من أخشاب وأبواب مما يحملونه معهم ليبنوا به منازلهم في مهاجرهم، وما كان من تخريب المؤمنين بقية تلك البيوت كلما حلّوا بقعة تركها بنو النضير.

وقوله : ﴿ بأيديهم ﴾ هو تخريبهم البيوت بأيديهم ، حقيقةٌ في الفعل وفي ما تعلق به ، وأما تخريبهم بيوتهم بأيدي المؤمنين فهو مجاز عقلي في إسناد التخريب الذي خربه المؤمنون إلى بني النضير باعتبار أنهم سبَّبوا تخريب المؤمنين لما تركه بنو النضير.

فعطف ﴿ أيدي المؤمنين ﴾ على ﴿ بأيديهم ﴾ بحيث يصير متعلّقاً بفعل ﴿ يخربون ﴾ استعمال دقيق لأن تخريب المؤمنين ديار بني النضير لمّا وجدوها خاوية تخريب حقيقي يتعلق المجرور به حقيقة.

فالمعنى : ويسببون خراب بيوتهم بأيدي المؤمنين فوقع إسناد فعل ﴿ يخربون ﴾ على الحقيقة ووقع تعلق وتعليق ﴿ وأيدي المؤمنين ﴾ به على اعتبار المجاز العقلي ، فالمجاز في التعليق الثاني.

وأما معنى التخريب فهو حقيقي بالنسبة لكلا المتعلقين فإن المعنى الحقيقي فيهما هو العبرة التي نبه عليها قوله تعالى : ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ ، أي اعتبروا بأن كان تخريب بيوتهم بفعلهم وكانت آلات التخريب من آلاتهم وآلات عدوهم.

والاعتبار : النظر في دلالة الأشياء على لوازمها وعواقبها وأسبابها.

وهو افتعال من العبرة ، وهي الموعظة.

وقول "القاموس" : هي العجب قصور.

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ في سورة [يوسف : 111] .

والخطاب في قوله : يا أولي الأبصار ﴾ موجّه إلى غير معين .

ونودي أولو الأبصار بهذه الصلة ليشير إلى أن العبرة بحال بني النضير واضحة مكشوفة لكل ذي بَصر مما شاهد ذلك ، ولكل ذي بصر يرى مواقع ديارهم بعدهم ، فتكون له عبرة قدرة الله على إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال .

وفي انتصار الحق على الباطل وانتصار أهل اليقين على المذبذبين .

وقد احتج بهذه الآية بعض علماء الأصول لإثبات حجّيّة القياس بناء على أنه من الاعتبار .

﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجلاء لَعَذَّبَهُمْ فِى الدنيا ﴾ .

جملة معترضة ناشئة عن جملة ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ [الحشر : 2] .

فالواو اعتراضية ، أي أخرجهم الله من قريتهم عقاباً لهم على كفرهم وتكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم كما قال : ﴿ ذلك بأنهم شاقّوا الله ورسوله ﴾ [الحشر : 4] ولو لم يعاقبهم الله بالجلاء لعاقبهم بالقتل والأسر لأنهم استحقّوا العقاب .

فلو لم يقذف في قلوبهم الرعب حتى استسلموا لعاقبهم بجوع الحصار وفتح ديارهم عنوة فعذبوا قتلاً وأسراً .

والمراد بالتعذيب : الألم المحسوس بالأبدان بالقتل والجرح والأسر والإهانة وإلاّ فإن الإخراج من الديار نكبة ومصيبة لكنها لا تدرك بالحس وإنما تدرك بالوجدان .

و ﴿ لولا ﴾ حرف امتناع لوجود ، تفيد امتناع جوابها لأجل وجود شرطها ، أي وجود تقدير الله جلاءهم سبب لانتفاء تعذيب الله إياهم في الدنيا بعذاب آخر .

وإنما قدر الله لهم الجلاء دون التعذيب في الدنيا لمصلحة اقتضتها حكمته ، وهي أن يأخذ المسلمون أرضهم وديارهم وحوائطهم دون إتلاف من نفوس المسلمين مما لا يخلو منه القتال لأن الله أراد استبقاء قوة المسلمين لما يستقبل من الفتوح ، فليس تقدير الجلاء لهم لقصد اللطف بهم وكرامتهم وإن كانوا قد آثروه على الحرب .

(49/755)

ومعنى ﴿ كتب الله عليهم ﴾ قَدّر لهم تقديراً كالكتابة في تحقق مضمونه وكان مظهر هذا التقدير الإلهي ما تلاحق بهم من النكبات من جلاء النضير ثم فتح قريظة ثم فتح خيبر .

والجلاء : الخروج من الوطن بنية عدم العود ، قال زهير :

فإن الحق مقطعه ثلاث

يمين أو نفار أو جَلاء . . .

وأعلم أن ﴿ أنْ ﴾ الواقعة بعد ﴿ لولا ﴾ هنا مصدرية لأن ﴿ أَنْ ﴾ الساكنة النون إذا لم تقع بعد فعل عِلم يقين أو ظن ولا بعد ما فيه معنى القول ، فهي مصدرية وليست مخففة من الثقيلة .

﴿ الدنيا وَلَهُمْ فِى الاخرة عَذَابُ ﴾ .

عطف على جملة ﴿ ولولا أن كتب الله عليهم ﴾ الآية ، أو على جملة ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا ﴾ [الحشر : 2] ، وليس عطفاً على جواب ﴿ لولا ﴾ فإن عذاب النار حاقّ عليهم وليس منتفياً .

والمقصود الاحتراس من توهم أنَّ الجلاء بَدل من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (4)

الإشارة إلى جميع ما ذكر من إخراج الذين كفروا من ديارهم ، وقذف الرعب في قلوبهم ، وتخريب بيوتهم ، وإعداد العذاب لهم في الآخرة .

والباء للسببية وهي جَارَّة للمصدر المنسبك من (أنَّ) وجملتها .

والمشاقَّة : المخاصمة والعداوة قال تعالى : ﴿ ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم ﴾ [النحل : 27] وقد تقدم نظيره في أول الأنفال .

والمشاقّة كالمحادّة مشتقة من الاسم.

وهو الشِقّ، كما اشتقت المحادّة من الحدّ، كما تقدم في أول سورة المجادلة.

وتقدم في سورة النساء (35) ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما ﴾

وقد كان بنو النضير ناصبوا المسلمين العِداء بعد أن سكنوا المدينة وأَضْرَوْا المنافقين وعاهدوا مشركي أهل مكة كما علمت آنفاً.

وجملة ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ تذييل، أي شديد العقاب لكل من يشاقه من هؤلاء وغيرهم.

(50/755)

وعطف اسم الرسول صلى الله عليه وسلم على اسم الجلالة في الجملة الأولى لقصر تعظيم شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ليعلموا أن طاعته طاعة لله لأنه إنما يدعو إلى ما أمره الله بتبليغه ولم يعطف اسم الرسول صلى الله عليه وسلم في الجملة الثانية استغناء بما علم من الجملة الأولى.

وأدغم القافان في ﴿ يشاق ﴾ لأن الإِدغام والإِظهار في مثله جائزان في العربية.

وقرىء بهما في قوله تعالى: ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه ﴾ في سورة البقرة (217).

والفكّ لغة الحجاز ، والإِدغام لغة بقية العرب .

وجملة فإن الله شديد العقاب ﴾ دليل جواب ﴿ من ﴾ الشرطية إذ التقدير : ومن يشاقِق الله فالله معاقبهم إنه شديد العقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(51/755)

فصل

قال القرطبى :

باب الحشر ومعناه الجمع

وهو على أربعة أوجه : حشران في الدنيا وحشران في الآخرة .

أما الذي في الدنيا فقوله تعالى هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر قال الزهري : كانوا من سبط لم يصيبهم جلاء ، وكان الله عز وجل قد كتب عليهم الجلاء فلولا ذلك لعذبهم في الدنيا ، وكان أول حشر حشروا في الدنيا إلى الشام . قال ابن عباس : من شك أن الحشر في الشام فليقرأ هذه الآية وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : أخرجوا قالوا أي أين ؟ قال : إلى أرض المحشر قال قتادة : هذا أول الحشر .

الثاني : ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وتحشر بقيتهم النار تبيت معهم حيث يأتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسي معهم حيث أمسوا أخرجه البخاري أيضاً .

وقال قتادة : الحشر الثاني نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، وتأكل منهم من تخلف . قال القاضي عياض : هذا الحشر في الدنيا قبل قيام الساعة وهو آخر أشراطها كما ذكره مسلم بعد هذا في آيات الساعة . قال فيه : وآخر ذلك في نار تخرج من قعر عدن تزجر الناس ، وفي رواية تطرد الناس إلى محشرهم ، وفي حديث آخر : لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجار ويدل على أنها قبل يوم القيامة . قوله : فتقيل معهم حيث قالوا ، وتمسي معهم حيث أمسوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا . وقال وفي بعض الروايات في غير مسلم فإذا سمعتم به فاخرجوا إلى الشام كأنه أمر بسبقها إليه قبل إزعاجها لهم .

قال المؤلف رحمه الله : وذكر الحليمي في منهاج الدين له من حديث ابن عباس وذكر أن ذلك في الآخرة فقال : يحمتل قوله عليه السلام : تحشر الناس على ثلاث طرائق إشارة إلى الأبرار والمخلطين والكفار ،

فالأبرار هم الراغبون إلى الله تعالى فيما أعد لهم من ثوابه ، والراهبون هم الذين بين الخوف والرجاء ، فأما الأبرار فإنهم يؤتون بالنجائب كما في الحديث على ما يأتي في هذا الباب ، وأما المخلطون فهم الذين أرادوا في هذا الحديث ، وقيل : إنهم يحملون على الأبعرة ، وأما الفجار الذين تحشرهم النار فإن الله تعالى يبعث إليهم ملائكة فتقيض لهم ناراً تسوقهم ولم يرد في هذا الحديث إلا ذكر البعير ، فأما أن ذلك من إبل الجنة أو من الإبل التي تحيا وتحشر يوم القيامة ، فهذا لم يأت بيانه . والأشبه ألا يكون من نجائب الجنة لأن من خرج من جملة الأبرار فكان مع ذلك من جملة المؤمنين ، فإنهم بين الخوف والرجاء أن من هؤلاء من يغفر الله تعالى ذنوبه فيدخل الجنة ، ومنهم من يعاقبه بالنار ، ثم يخرجه منها ويدخله الجنة . وإذا كانوا كذلك لم يلق أن يردوا موقف الحساب على نجائب الجنة ، ثم ينزل الله بعضهم إلى النار لأن من أكرمه الله بالجنة لم يهنه بعد ذلك بالنار . قال : وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : [يحشر الناس] الحديث وفي آخره أما أنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك ، فهذا إن ثبت مرفوعاً فالركبان هم المتقون السابقون الذين يغفر الله ذنوبهم عند الحساب ولا يعذبهم إلا أن المتقين يكونون على نجائب الجنة والآخرون على دواب سوى دواب الجنة ، والصنف الثاني الذين يعذبهم الله بذنوبهم ثم يخرجهم من النار إلى الجنة وهؤلاء يكونون مشاة على أقدامهم ، وقد يحتمل على هذا أن يمشوا وقتاً ثم يركبوا أو

يكونوا ركبانا فإذا قاربوا المحشر نزلوا فمشوا ليتفق الحديثان ، والصنف الثالث المشاة على وجوههم هم الكفار ، وقد يحتمل أن يكونوا ثلاثة أصناف : صنف مسلمون وهم ركبان ، وصنفان من الكفار أحدهما العتاة وأعلام الكفر ، فهؤلاء يحشرون على وجوههم والآخرون الأتباع فهم يمشون على أقدامهم .

قال المؤلف رحمه الله : وإلى هذا

(53/755)

القول ذهب أبو حامد في كتاب كشف علم الآخرة في قوله عليه السلام كيف تحشر الناس يا رسول الله ؟ قال : اثنان على بعير وخمسة على بعير وعشرة على بعير ومعنى هذا الحديث والله أعلم أن قوماً يأتلفون في الإسلام برحمة الله يخلق الله لهم من أعمالهم بعيراً يركبون عليه ، وهذا من ضعف العمل لكونهم يشتركون فيه كقوم خرجوا في سفر بعيد وليس مع واحد ، منهم ما يشترى به مطية توصله فاشترك في ثمنها رجلان أو ثلاثة فابتاعوا مطية يتعقبون عليها في الطريق ، ويبلغ بعير مع عشرة فاعمل هداك الله عملاً يكون لك به بعير خالص من الشركة ، واعلم أن ذلك هو المتجر الرابح فالمتقون وافدون كما قال الجليل : يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً .

وفي غريب الرواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوماً لأصحابه : كان رجل من بني إسرائيل كثيراً ما يفعل الخير حتى إنه ليحشر فيكم قالوا له : وما كان يصنع قال : ورث من أبيه مالاً كثيراً فاشترى بستاناً فحبسه للمساكين وقال هذا بستاني عند الله تعالى وفرق دانانير عديدة في الضعفاء وقال بهذا أشترى جارية من الله تعالى وعبيداً وأعتق رقاباً كثيرة وقال هؤلاء خدمي عند الله تعالى ، والتفت ذات يوم لرجل ضرير البصر فرآه تارة يمشي وتارة يكبو ، فابتاع له مطية يسير عليها وقال هذه مطيتي عند الله تعالى أركبها والذي نفس محمد بيده لكأني أنظر إليه وقد جيء بها إليه مسرجة ملجمة يركبها تسير به إلى الموقف .

قال المؤلف رحمه الله : ما ذكره القاضي عياض من أن ذلك في الدنيا أظهر والله أعلم لما في الحديث نفسه من ذكر السماء والمبيت والصباح والقائلة ، وذلك ليس في الآخرة . وقد احتج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفاً مشاة وصنفاً ركباناً وصنفاً على وجوههم قيل يا رسول الله : كيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إن

الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم أما أنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك قال : هذا حديث حسن فقوله يتقون بوجوههم كل حدب وشوك يدل على أنه في الدنيا إذ ليس في الآخرة ذلك على ما يأتي من صفة أرض المحشر ، والله أعلم .

وخرج النسائي عن أبي ذر قال : إن الصادق المصدوق حدثني أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج فوجاً راكبين طاعمين كاسين ، وفوجاً تسحبهم الملائكة على وجوههم ، ويحشر الناس فوجاً يمشون ويسعون يلقى الله الآفه على الظهر فلا تبقى حتى إن الرجل لتكون له الحديقة يعطيها بذات القتب لا يقدر عليها .

وذكر عمر بن شيبة في كتاب المدينة على ساكنها السلام ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : آخر من يحشر رجلان رجل من جهينة وآخر من مزينة فيقولان أين الناس فيأتيان المدينة فلا يريان إلا الثعلب ، فينزل إليهما ملكان فيسحبانهما على وجوههما حتى يلحقاهما بالناس . وهذا كله مما يدل على أن ذلك في الدنيا كما قال القاضي عياض ، وأما الآخرة ، فالناس أيضاً مختلفو الحال على ما ذكروه ، وسنذكر من ذلك ما فيه كفاية في الباب بعد هذا .

والحشر الثالث : حشرهم إلى الموقف على ما يأتي بيانه في الباب بعد هذا إن شاء الله .

قال الله تعالى وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً .

والرابع : حشرهم إلى الجنة والنار . قال الله تعالى : يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً أي

ركباناً على النجب ، وقيل : على الأعمال كما تقدم . وقد وردت أخبار منها ما رواه النعمان سعد عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً قال : أما إنهم ما يحشرون على أقدامهم ولا يساقون سوقاً ولكنهم يؤتون بنوق من نوق الجنة لم تنظر الخلائق إلى مثلها رحالها الذهب ، وأزمتها الزبرجد فيقعدون عليها حتى يقرعوا باب الجنة ، وسمي المتقون وفداً لأنهم يسبقون الناس إلى حيث يدعون إليه فهم لا يتباطئون ،

(55/755)

لكنهم يجدون ويسرعون والملائكة تتلقاهم بالبشارات . قال الله تعالى وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون فيزيدهم ذلك إسراعاً وحق للمتقين أن يسبقوا لسبقهم في الدنيا بالطاعات ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً أي عطاشاً . وقال ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً وقال : ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً وقال : الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً .

مسلم عن أنس أن رجلاً قال يا رسول الله : الذين يحشرون على وجوههم أيحشر الكافر على وجهه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس الذي أمشاه على الرجلين قادراً

أن يمشيه على وجهه يوم القيامة قال قتادة حين بلغه : بلى وعزة ربنا . أخرجه البخاري أيضاً :

فصل : قال أبو حامد : وذكر هذا الفصل وفي طبع الآدمي إنكار ما لم يأنس وبه ولم يشاهده ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشي على بطنها لأنكر المشي من غير رجل ، والمشي بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك ، فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفتها قياس الدنيا فإنك لو لم تشاهد عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكاراً لها ، فاحضر رحمك الله في قلبك صورتك ، وأنت قد وقفت عارياً ذليلاً مدحوراً متحيراً مبهوتاً منتظراً لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاء .

باب بيان الحشر إلى الموقف كيف هو وفي أرض المحشر

وذكر الصخرة . وقوله تعالى واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب الآية .

أبو نعيم قال ، حدثنا أبي قال ، حدثنا إسحاق قال ، حدثنا محمد قال ، قال حدثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا المنذر النعمان أنه سمع وهب بن منبه يقول : قال الله تعالى لصخرة بيت المقدس : لأضعن عليك عرشي ولأحشرن عليك خلقي وليأتينك يومئذ داود راكباً وقال

بعض العلماء في قوله تعالى : واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب قال : إنه ملك قائم على صخرة بيت المقدس فينادي : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، ويا عظاماً نخرة ، ويا أكفاناً فانية ، ويا قلوبا خلوية ، ويا أبداناً فاسدة ، ويا عيوناً سائلة قوموا لعرض رب العالمين . قال قتادة : المنادي هو صاحب الصور ينادي من الصخرة من بيت المقدس . قال كعب : وهي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً . وقيل : باثني عشر ميلاً ذكره القشيري ، والأول ذكره المارودي ، وقيل : إن المنادي جبريل والله أعلم . قال عكرمة : ينادي منادي الرحمن فكأنما ينادي في آذانهم يوم يسمعون الصحية بالحق يريد النفخ في الصور ذلك يوم الخروج * إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير * يوم تشقق الأرض عنهم سراعا إلى المنادي صاحب الصور إلى بيت المقدس أرض المحشر ذلك حشر علينا يسير أي هين سهل .

فإن قيل : فإذا كانت الصيحة للخروج فكيف يسمعونها وهم أموات ؟

قيل له : إن نفخة الإحياء تمتد وتطول ، فتكون أوائلها للإحياء وما بعدها للإزعاج من القبور فلا يسمعون ما يكون للإحياء ويسمعون ما يكون للإزعاج ، ويحتمل أن تتطاول تلك النفخة والناس يحيون منها أولاً فأولاً ، وكلما حيي واحد سمع ما يحيى به من بعده إلى أن يتكامل الجميع للخروج ، وقد تقدم أن الأرواح في الصور ، فإذا نفخ فيه النفخة الثانية ذهب

كل روح إلى جسده ، فإذا هم من الأجداث أي القبور إلى ربهم ينسلون و

هذا يبين لك ما ذكرنا وبالله توفيقنا .

(57/755)

وقال محمد بن كعب القرظي : يحشر الناس يوم القيامة في ظلمة ، وتطوي السماء وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادي مناد فيتبع الناس الصوت يومئذ ، فذلك قول الله عز وجل يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له الآية . وقال الله عز وجل إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت * وإذا البحار فجرت فجر عذبها في ملحها وملحها في عذبها في تفسير قتادة وإذا القبور بعثرت أي أخرج ما فيها من الأموات ، وقال تعالى إذا السماء انشقت * وأذنت لربها أي سمعت وأطاعت وحقت أي وحق لها أن تفعل وإذا الأرض مدت تمد مد الأديم وهذا إذا بدلت بأرض بيضاء كأنها فضة لم تعمل عليها خطيئة قط ، وألقت ما فيها من الأموات فصاروا على ظهرها .

مسلم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفرا كقرصة النقي ليس فيه علم لأحد .

وخرج أبو بكر أحمد بن علي الخطيب ، عن عبد الله بن مسعود : [يحشر الناس يوم القيامة

أجوع ما كانوا قط ، وأظمأ ما كانوا قط ، وأعرى ما كانوا قط ، وأنصب ما كانوا فمن أطعم الله أطعمه ، ومن سقا لله سقاه ، ومن كسا لله كساه ، ومن عمل لله كفاه ، ومن نصر الله أراحه الله في ذلك اليوم .

وروي من حديث معاذ بن جبل قال : قلت يا رسول الله أرأيت قول الله يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا معاذ بن جبل لقد سألت عن أمر عظيم ثم أرسل عينيه بالبكاء الدموع ، ثم قال : تحشر عشرة أصناف من أمتى أشتاتاً قد ميزهم الله تعالى من جماعات المسلمين وبدل صورهم ، فمنهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منسكين أرجلهم أعلاهم ووجوههم يسحبون عليها ، وبعضهم عمي يترددون ، وبعضهم صم بكم لا يعلقون ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم لعاباً تقدرهم أهل الجمع

، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلبون على جذوع النار ، وبعضهم أشد نتناً من الجيف ، وبعضهم يلبسون جلابيب سابغة من القطران ، فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس يعني النمام ، وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت

والحرام والمكس ، وأما المنكسون رؤوسهم ووجوههم فأكلة الربا ، والعمي من يجوز في الحكم ، والصم البكم الذي يعجبون بأعمالهم ، والذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين يخالف قولهم فعلهم والمقطعة أيديهم وأرجلهم الذين يؤذون الجيران ، والمصلبون على جذوع النار السعاة بالناس إلى السلطان ، والذين هم أشد نتناً من الجيف الذي يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله تعالى من أموالهم ، والذين يلبسون الجلابيب فأهل الكبر والفخر والخيلاء .

وقال أبو حامد في كتاب كشف علم الآخرة : ومن الناس من يحشر بفتنته الدنيوية ، فقوم مفتونون بالعود معتكفون عليه دهرهم فعند قيام أحدهم من قبره يأخذ بيمينه فيطرحه من يده ويقول سحقاً لك شغلتني عن ذكر الله فيعود إليه ، يقول : أنا صاحبك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ، وكذلك يبعث السكران سكران ، والزامر زامراً ، وكل واحد على الحال الذي صده عن سبيل الله . قال : ومثل الحديث الذي روي في الصحيح أن شارب الخمر يحشر والكوز معلق في عنقه والقدح بيده وهو أنتن من كل جيفة على الأرض يلعنه كل من يمر به من الخلق . وقال أيضاً في الكتاب : فإذا استوى كل أحد قاعداً على قبره فمنهم العريان ومنهم المكسو والأسود والأبيض ، ومنهم من يكون له نور كالمصباح الضعيف ، ومنهم من يكون كالشمس لا يزال كل واحد منهم مطرقاً برأسه ألف عام حتى تقوم من الغرب نار لها دوي تساق فيدهش لها رؤوس الخليقة إنساً وجناً وطيراً ووحشاً ،

فيأتي كل واحد من المخاطبين عمله ويقول له : قم فانهض إلى المحشر ، فمن كان له حينئذ عمل جيد شخص له عمله

(59/755)

بغلاً ، ومنهم من يشخص عمله حماراً ، ومنهم من يشخص له كبشاً تارة يحمله وتارة يلقيه ويجعل لكل واحد منهم نور شعاعي بين يديه وعن يمينه ومثله يسرس بين يديه في الظلمات وهو قوله تعالى يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم وليس عن شمائلهم نور بل ظلمة حالكة لا يستطيع البصر نفاذها يحار فيها الكفار ويتردد المرتابون ، والمؤمن ينظر إلى قوة حلكتها وشدة حندسها ويحمد الله تعالى على ما أعطاه من النور المهتدي به في تلك الشدة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، لأن الله تعالى يكشف للعبد المؤمن المنعم عن أحوال المعذب الشقي ليستبين له سبيل الفائدة ، كما فعل بأهل الجنة وأهل النار حيث يقول فاطلع فرآه في سواء الجحيم ، وكما قال سبحانه وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين لأن أربعاً لا يعرف قدرها إلا أربع : لا يعرف قدر الحياة إلا الموتى ، ولا يعرف قدر الأغنياء إلا الفقراء ، ولا يعرف قدر الصحة إلا أهل البلاء والسقم ، ولا يعرف قدر الشباب إلا الشيوخ . وفي نسخة : ولا يعرف قدر النعيم إلا أهل الجحيم ، ومن

الناس من يبقى على قدميه وعلى طرف بنانه ونوره يطفأ تارة ويشتعل أخرى ، وإنما هم عند البعث على قدر إيمانهم وأعمالهم ، وقد مضى في باب يبعث كل عبد على ما مات عليه ما فيه كفاية ، والحمد لله .

باب الجمع بين آيات وردت في الكتاب في الحشر ظاهرها التعارض

(60/755)

منها قوله تعالى ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم وقال تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً وفي آية ثالثة إنهم يقولون يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا وهذا كلام وهو مضاد للبكم والتعارف تخاطب وهو مضاد للصم والبكم معاً ، وقال الله تعالى فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين والسؤال لا يكون إلا بالاسماع وإلا لناطق يتسع للجواب وقال نحشر المجرمين يومئذ زرقاً وقال ، فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون وقال يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون والنسلان والاسراع مخالفان للحشر على الوجوه .

والجواب : لمن سأل عن هذا الباب أن يقال له إن الناس إذا أحيوا وبعثوا من قبورهم ، فليست حالهم حالة واحدة ولا موقفهم ولا مقامهم واحداً ، ولكن لهم مواقف وأحوال

واختلفت الأخبار عنهم لاختلاف مواقفهم وأحوالهم وجملة ذلك أنها خمسة أحوال : حال البعث من القبور ، والثانية حال السوق إلى مواضع الحساب والثالثة حال المحاسبة ، والرابعة حال السوق إذا دار الجزاء ، والخامسة حال مقامهم في الدار التي يستقرون فيها .

فأما حال البعث من القبور : فإن الكفار يكونون كاملي الحواس والجوارح لقول الله تعالى يتعارفون بينهم وقوله يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً وقوله فإذا هم قيام ينظرون وقوله : قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين إلى قوله ترجعون .

والحالة الثانية : حال السوق إلى موضع الحساب وهم أيضاً في هذه الحال بحواس تامة لقوله عز وجل احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم إنهم مسؤولون ومعنى فاهدوهم أي دلوهم ولا دلالة لأعمى أصم ولا سؤال لأبكم ، فثبت بهذا أنهم يكونون بأبصار وأسماع وألسنة ناطقة .

والحالة الثالثة : وهي

حالة المحاسبة وهم يكونون فيها أيضاً كاملي الحواس ليسمعوا ما يقال لهم ويقرأوا كتبهم الناطقة بأعمالهم وتشهد عليهم جوارحهم بسيئاتهم ، فيسمعونها وقد أخبر الله تعالى

أنهم يقولون مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأنهم يقولون لجلودهم لم شهدتم علينا وليشاهدوا أحوال القيامة وما كانوا مكذبين في الدنيا به من شدتها وتصرف الأحوال بالناس فيها .

وأما الحالة الرابعة : وهي السوق إلى جهنم فإنهم يسلبون فيها أسماعهم وأبصارهم وألسنتهم لقوله تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم ويحتمل أن يكون قوله تعالى يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام إشارة إلى ما يشعرون به من سلب الأبصار والأسماع والمنطق .

والحالة الخامسة ، حال الإقامة في النار . وهذه الحالة تنقسم إلى بدو ومآل . فبدوها أنهم إذا قطعوا المسافة التي بين موقف الحساب وشفير جهنم عمياً وبكماً وصماً إذلالاً لهم تمييزاً عن غيرهم ، ثم ردت الحواس إليهم ليشاهدوا النار ، وما أعد الله لهم فيها من العذاب ويعاينوا ملائكة العذاب وكل ما كانوا به مكذبين ، فيستقرون في النار ناطقين سامعين مبصرين ولهذا قال الله تعالى وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقال لو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين وقال كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم إلى قوله وقالت أولاهم لأخراهم وقال كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء وأخبر تعالى أنهم ينادون

أهل الجنة فيقولون أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله وأن أهل الجنة ينادونهم أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم وأنهم يقولون يا مالك

(62/755)

ليقض علينا ربك فيقول لهم إنكم ماكثون وأنهم يقولون لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب فيقولون لهم أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال . وأما العقبى والمال فإنهم إذا قالوا : أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون فقال الله تعالى اخسؤوا فيها ولا تكلمون وكتب عليهم الخلود بالمثل الذي يضرب لهم وهو أن يؤتى بكبش أملح ويسمى المكوت ، ثم يذبح على الصراط بين الجنة والنار وينادوا يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت سلبوا في ذلك الوقت أسماعهم ، وقد يجوز أن يسلبوا الأبصار والكلام ، لكن سلب السمع يقين ، لأن الله تعالى يقول : لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون فإذا سلبوا الأسماع صاروا إلى الزفير والشهيق ، ويحتمل أن تكون الحكمة في سلب الأسماع من قبل أنهم سمعوا نداء الرب سبحانه على ألسنة رسله فلم يجيبوه بل جحدوه ، وكذبوا به بعد قيام الحجة عليهم بصحته ، فلما كانت حجة الله عليهم في الدنيا الاستماع عاقبهم على كفرهم في الأخرى

بسلب الأسماع يبين ذلك أنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبنيك حجاب وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وإن قوم نوح عليه السلام كانوا يستغشون ثيابهم تسترا منه لئلا يروه ولا يسمعوا كلامه وقد أخبر الله تعالى عن الكفار في وقت نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مثله فقال : ألا أنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم وإن سلبت أبصارهم فلأنهم أبصروا الغير فلم يعتبروا والنطق فلأنهم أوتوه فكفروا فهذا وجه الجمع بين الآيات على ما قاله علماؤنا ، والله أعلم .

باب ما جاء في حشر الناس إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً وفي أول من يكسى منهم وفي أول ما يتكلم من الإنسان

مسلم عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ألا وإن أول الناس يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ألا وإنه يؤتى برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك . فأقول كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم إلى قوله

العزيز الحكيم قال فيقال إنهم لم يزالوا مدبرين مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم .

أخرجه البخاري والترمذي ، عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ذكره قال : وأشار بيده إلى الشام فقال : ههنا إلى ههنا تحشرون ركباناً ومشاة وتجرون على وجوهكم يوم القيامة أفواهكم الفدام توفون سبعين أمة أنتم خيرها على الله وأكرمهم على الله ، وإن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه وفي رواية أخرى ذكرها ابن أبي شيبة وإن أول ما يتكلم من الإنسان فخذه وكفه .

فصل : قوله [غرلاً] أي غير مختونين النقي الحواري وهو الدرمك من الدقيق ، والعفر بياض ليس بخالص يضرب إلى الحمرة قليلاً ، والفدام مصفاة الكوز والابريق . قاله الليث . قال أبو عبيدة : يعني أنهم منعوا الكلام حتى تتكلم أفخاذهم ، فشبه ذلك بالفدام الذي يجعل على الإبريق وقوله أول من يكسى إبراهيم فضيلة عظيمة لإبراهيم وخصوص له كما خص موسى عليه السلام بأن النبي صلى الله عليه وسلم يجده معلقاً بساق العرش مع أن النبي صلى الله عليه وسلم أول من تنشق عنه الأرض ، ولا يلزم من هذا أن يكون أفضل منه مطلقاً ، بل هو أفضل من وافى القيامة على ما يأتي بيانه في أحاديث الشفاعة والمقام المحمود إن شاء الله تعالى .

قال شيخنا

أبو العباس أحمد بن عمر في كتاب المفهم له : ويجوز أن يراد بالناس من عداه من الناس فلم يدخل تحت خطاب نفسه . والله أعلم .

(64/755)

قلت : هذا حسن لو لا ما جاء منصوصاً خلافه ، فقد روى ابن المبارك في رقائقه : أخبرنا سفيان ، عن عمر بن قيس ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث ، عن علي رضي الله عنه قال : أول من يكسى خليل الله إبراهيم قبطيتين ، ثم يكسى محمد صلى الله عليه وسلم حلة حبرة عن يمين العرش . ذكره البيهقي أيضاً .

وروى عباد بن كثير ، عن أبي الزبير ، عن جابر رضي الله عنه قال : إن المؤذنين والملبين يخرجون يوم القيامة من قبورهم يؤذن المؤذن ويلبي الملبي ، وأول من يكسى من حلل الجنة إبراهيم خليل الله ، ثم محمد صلى الله عليه وسلم ثم النبيون والرسل عليهم السلام ، ثم يكسى المؤذنون وتتلاقهم الملائكة على نجائب من نور أحمر أزمتها من زمرد أخضر رحالها من الذهب ، ويشيعهم من قبورهم سبعون ألف ملك إلى المحشر . ذكره الحليمي في كتاب منهاج الدين له .

وذكر أبو نعيم الحافظ من حديث الأسود وعلقمة وأبي وائل ، عن عبد الله بن مسعود

رضي الله عنه قال : جاء ابنا مليكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم الحديث وفيه : فيكون أول من يكسى إبراهيم عليه السلام يقول اكسوا خليلي فيؤتى بربطتين بيضاوين فيلبسهما ثم يقعد مستقبل العرش ، ثم أوتي بكسوتي فألبسها فأقوم عن يمينه قياماً لا يقومه أحد غيري يغبطني فيه الأولون والآخرون وذكر الحديث .

وخرج البيهقي بإسناده في كتاب الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم تحشرون حفاة عراة ، وأول من يكسى من الجنة إبراهيم عليه السلام يكسى حلة من الجنة ويؤتى بكرسي فيطرح عن يمين العرش ، ويؤتى بي فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر ، ثم أوتي بكرسي فيطرح لي على ساق العرش وهذا نص بأن إبراهيم أول من يكسى ، ثم نبينا بإخباره

صلى الله عليه وسلم فطوبى ثم طوبى لمن كسي في ذلك الوقت من ثياب الجنة ، فإنه من لبسه فقد لبس جبة تقيه مكاره الحشر وعرقه وحر الشمس وغير ذلك من أهواله .

فصل : وتكلم العلماء في حكمة تقديم إبراهيم عليه السلام بالكسوة فروي أنه لم يكن في الأولين والآخرين لله عز وجل عبد أخوف من إبراهيم عليه السلام ، فتعجل له كسوته أماناً

له ليطمئن قلبه ، ويحتمل أن يكون ذلك لما جاء به الحديث من أنه أول من أمر بلبس السراويل إذا صلى مبالغة في التستر ، وحفظاً لفرجه من أن يماس مصلاه ففعل ما أمر به فيجزى بذلك أن يكون أول من يستر يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس كما يفعل بمن يراد قتله ، وكان ما أصابه من ذلك في ذات الله عز وجل فلما صبر واحتسب وتوكل على الله تعال دفع الله عنه شر النار في الدنيا والآخرة ، وجزاه بذلك العرى أن جعله أول من يدفع عنه العرى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ، وهذا أحسنها ، والله أعلم .

وإذا بدئ في الكسوة بإبراهيم وثنى بمحمد صلى الله عليه وسلم أوتي محمد بحلة لا يقوم لها البشر لينجبر التأخير بنفاسة الكسوة ، فيكون كأنه كسي مع إبراهيم عليهما السلام قاله الحليمي . وقوله تجدون على أفواهكم الفدام ، الفدام : مصفاة الكوز والإبريق قاله الليث . قال أبو عبيد يعني أنهم منعوا الكلام حتى تتكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالفدام الذي يجعل على الإبريق . قال سفيان : وفدامهم أن يؤخذ على ألسنتهم وهذا مثل .

باب منه وبيان قوله تعالى : لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه

مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً . قلت يا رسول الله : الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض .

الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : تحشرون حفاة عراة غرلاً فقالت امرأة : أيبصر بعضنا أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : يا فلانة لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه قال حديث حسن صحيح .

(66/755)

فصل : قلت : هذا الباب والذي قبله يدل على أن الناس يحشرون حفاة عراة غرلاً أي غير مختونين كما بدأنا أول خلق نعيده . قال العلماء : يحشر العبد غداً وله من الأعضاء ما كان له يوم ولد ، فمن قطع منه عشو يرد في القيامة عليه حتى الختان .

وقد عارض هذا الباب ما روى أبو داود في سننه ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه لما حضرته الوفاة دعا بثياب جدد فلبسها وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الميت يبعث في ثيابه التي دفن فيها . قال ابو عمر بن عبد البر : وقد احتج بهذا الحديث من قال : إن الموتى يبعثون جملة على هيئاتهم . وحمله الأكثر من العلماء على الشهيد الذي أمر أن يزمل في ثيابه ويدفن فيها ولا يغسل عنه دمه ولا يغير عليه شيء من حاله بدليل حديث ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما . قالوا : ويحتمل أن يكون أبو سعيد سمع الحديث في الشهيد فتأوله على العموم ، والله أعلم .

قلت : ومما يدل على قول الجماعة مما يواقف حديث عائشة وابن عباس قوله الحق : ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وقوله : كما بدأكم تعودون ولأن الملابس في الدنيا أموال ولا مال في الآخرة زالت الأملاك بالموت وبقيت الأموال في الدنيا وكل نفس يومئذ ، فإنما يقيها المكاره ما وجب لها بحسن عملها أو رحمة ميتدأة من

الله عليها . فأما الملابس فلا غنى فيها يومئذ إلا ما كان من لباس الجنة على ما تقدم في الباب قبل .

وذهب أبو حامد في كتاب كشف علوم الآخرة إلى حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بالغوا في أكفان موتاكم فإن أمتي تحشر بأكفانها وسائر الأمم عراة ورواه أبو سفيان مسنداً .

(67/755)

قال المؤلف رحمه الله : وهذا الحديث لم أقف عليه . والله أعلم بصحته ، وإن صح فيكون معناه فإن أمتي الشهداء تحشر بأكفانها حتى لا تتناقض الأخبار والله أعلم . ولا يعارض هذا الباب ما تقدم أول الكتاب من أن الموتى يتزاورون في قبورهم بأكفانهم ، فإن ذلك يكون في البرزخ ، فإذا قاموا من قبورهم خرجوا عراة ما عدا الشهداء ، والله أعلم .

باب

ذكر أبو بكر أحمد بن علي حديث ثابت عن عبد الله بن إبراهيم بن أبي عمرو الغفاري قال : حدثنا مالك بن أنس ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحشر يوم القيامة بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حتى أقف بين الحرمين فيأتي أهل المدينة ومكة غريب من حديث مالك تفرد به عبد الله بن إبراهيم عنه ، ويقال لم يروه غير عبد العزيز بن عبد الله الهاشمي البغدادي عن الغفاري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التذكرة في أحوال الموتى صـ 225. 240 ﴾

(68/755)

قوله تعالى ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (5) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما دل سبحانه على عزته وحكمته بما فعل ببني النضير الذين يقولون إنهم أشجع الناس وأشدهم شكيمة بما لهم من الأصالة والاصطفاء على العالمين ، مع التأييد بالكتاب والحكمة ، وختم بأن من شاق رسوله فقد شاقه ، ومن شاقه فقد شدد عقابه ، أتبعه بيان ما عاقبهم به من قطع الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م بأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنخلهم الذي هو أعز عليهم من أبكارهم وهم ينظرون إليه لا يغنون شيئاً ولا منعة لديهم فقال :

﴿ ما ﴾ وهي شرطية وأتبعها بشرطها الناصب لها فقال : ﴿ قطعتم ﴾ أي كل ما قطعتموه ، وبين ما في " ما " من الإبهام بقوله معبراً عن النخل ، بما يفيد نوعه وأنه هان عليهم القطع ولان : ﴿ من لينة ﴾ وهي ضرب من النخل ، قال ابن إسحاق : هو ما خالف العجوة من النخل ، وقال ابن هشام : اللينة من الألوان ، وهي ما لم يكن برنية ولا عجوة من النخل فيما حدثني أبو عبيدة – انتهى .

وقال صاحب القاموس اللون : الدقل من النخل ، وهي جماعة واحدتها لونه ولينة ، قال المهدوي : وروي عن ابن عباس -رضى الله عنهما - أيضاً أنها لون من النخل ، وقال البغوي : ورواية زاذان عن ابن عباس -رضى الله عنه- قال : كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقطع نخلهم إلا العجوة .

وأهل المدينة يسمون ما خلا العجوة من التمر الألوان واحدها لون ولينة ، وقال عطية والحسن ومجاهد وابن زيد وعمرو بن ميمون : اللينة : النخلة ، اسمان بمعنى واحد ، وجمعها لين وليان ، وقال سفيان الثوري : اللينة ما تمرها لون وهو نوع من التمر شديد الصفرة يشف عن نواة فيرى من خارج ، قال البغوي : يغيب فيها الضرس ، وكان من أجود تمرهم وأعجبها إليهم ، وكانت النخلة الواحدة ثمنها ثمن وصيف أحب إليهم من وصيف ، فلما رأوهم يقطعونها شق عليهم وقالوا للمؤمنين : إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون ، دعوا هذه النخلة ، فإنما هي لمن غلب عليها ، وقال الرازي في اللوامع واختلاف الألوان فيها ظاهر لأنها أول حالها بيضاء كصدف مليء درّاً منضداً ، ثم غبراء ثم خضراء كأنها قطع زبرجد خلق فيها الماء ثم حمراء كأنها ياقوت رص بعضه ببعض ثم صفراء كأنها شذو عقيان ، ولذلك إذا بلغ الإرطاب نصفها سميت مجزعة لاختلاف ألوانها الجزع الظفاري .

ولما كان ما فسر بمؤنث هو اللينة ، أعاد الضمير مؤنثاً فقال : ﴿أو تركتموها﴾ ولما كان الترك يصدق ببقائها مغروسة أو مقطوعة قال : ﴿قائمة﴾ ولما كان المراد نخيلاً كثيرة

لإرادة الجنس قال : ﴿ على أصولها ﴾ بجمع الكثرة ﴿ فبإذن الله ﴾ أي فقطعها بتمكين الملك الأعظم ورضاه ، قال القشيري : وفي هذا دليل على أن الشريعة غير معللة وإذا جاء الأمر الشرعي بطل طلب التعليل وسكتت الألسنة عن التقاضي ب "لِمَ" وحضور الاعتراض والاستقباح بالبال خروج عن حد العرفان .

(70/755)

ولما فطم عن طلب العلل خطاباً للكمل ، طيب قلوب من دونهم بعلة معطوفة على ما تقديره : فليس ذلك بفساد ولكنه صلاح أذن لكم فيه ليشفي به صدور المؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ، فقال واضعاً موضع ضميرهم ظاهراً يدل على ما أوجب خزيهم : ﴿ وليخزي الفاسقين ﴾ الذين هم أصلاء في المروق من دائرة الحق بأن يذلهم ويفضحهم ببيان كذبهم في دعواهم العز والشجاعة والتأييد من الله لأنهم على الدين الحق وأنه لا يتطرق إليه نسخ ، وروى أبو يعلى عن جابر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : رخص لهم في قطع النخل ثم شدد عليهم فأتوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يا رسول الله ! علينا إثم فيما قطعنا أو علينا فيما تركنا ، فأنزل الله الآية – انتهى وكان ناس من المؤمنين مالوا إلى الكف عن القطع لما سموه اليهود فساداً وطائفة أشاروا بالاستمرار على القطع لأنه يغيظهم

، فصوب سبحانه في الآية من أمر بالكف وحلل من أشاروا بالاستمرار بالقطع من الإثم ، فدلت الآية على جواز إفساد أموال أهل الحرب على أي حال كان مثمراً كان أو لا بالتحريق والتغريق والهدم وغيره لإخزائهم بذلك .

(71/755)

ولما كانت الغنائم التي تقسم بين الجيش إنما هي ما قاتلوا عليه ، وأما ما أتى منها بغير قتال فهو فيء يأخذه الإمام فيقسمه خمسة أخماس ، ثم يقسم خمساً منها خمسة أقسام ، أحدها وهو كان للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكون بعده لمصالح المسلمين ، والأقسام الأربعة الأخرى من هذا الخمس لمن ذكر في الآية بعدها ، والأربعة الأخماس الكائنة من أصل القسمة وهي التي كانت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنها حصلت بكفايته وإرعابه للعدو ، تفرق بين المرتزقة من جميع النواحي ، فكانت الأموال كلها لله إنعاماً على من يعبده بما شرعه على ألسنه رسله عليهم الصلاة والسلام ، كانت أموال الكفار في أيديهم غصباً غصبوه من أوليائه ، فخص سبحانه رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأموال بني النضير يضعها حيث يشاء لأنها فيء فقال : ﴿ وما أفاء الله ﴾ أي رد الملك الذي له الأمر كله رداً سهلاً بعد أن كان فيما يظهر في غاية العسر والصعوبة ﴿ على رسوله ﴾ فصيره في يده بعد

أن كان خروجه عنها بوضع أيدي الكفار عليه ظلماً وعدواناً كما دل عليه التعبير بالفيء الذي هو عود الظل إلى الناحية التي كان ابتدأ منها ﴿ منهم ﴾ أي رداً مبتدئاً من الفاسقين ، فبين أن هذا فيء لا غنيمة ، ويدخل في الفيء أموال من مات منهم عن غير وارث وكذا الجزية ، وأما الغنيمة فهي ما كان بقتال وإيجاف خيل وركاب .

(72/755)

ولما كان الحرب إنما هو كر وفر في إسراع وخفة ورشاقة بمخاتلة الفرسان ومراوغة الشجعان ومغاورة أهل الضرب والطعان ، قال معللاً لكونه فيئاً : ﴿ فما أوجفتم ﴾ أي أسرعتم ، وقال ابن إسحاق : حركتم واتبعتم في السير - انتهى ، وذلك الإيجاف للغلبة ﴿ عليه ﴾ وأعرق في النفي بالجار فقال : ﴿ من خيل ﴾ وأكد بإعادة النافي لظن من ظن أنه غنيمة لإحاطتهم بهم فقال : ﴿ ولا ركاب ﴾ أي إبل ، غلب ذلك عليها ثم بين المركوبات ، ولا قطعتم من أجله مسافة ، فلم تحصل لكم كبير مشقة في حوز أموالهم لأن قريتهم كانت في حكم المدينة الشريفة ليس بينها وبين ما يلي منها مسافة بل هي ملاصقة لإحدى قرى الأنصار التي المدينة اسم لها كلها ، وهي قرية بني عمرو بن عوف في قباء بينهما وبين القرية التي كان رسول الله نازلاً بها نحو ميلين ، فمشى الكل مشياً ولم يركب إلا رسول الله صلى

الله عليه وسلم. ولم يقاتلوا بها قتالاً بعد ، فلذلك جعلها الله فيئاً ولم يجعلها غنيمة ، فهي تقسم قسمة الفيء ، لا قسمة الغنيمة ، فخمسها لأهل خمس الغنيمة وهم الأصناف الخمسة المذكورون في الآية التي بعدها ، وما فضل فهو الأربعة الأخماس له. صلى الله عليه وسلم. مضمومة إلى ما حازه من خمس الخمس .

(73/755)

ولما كان معنى هذا : فما كان التسليط بكم ، استدرك بقوله : ﴿ ولكن الله ﴾ أي الذي له العز كله فلا كفوء له ﴿ يسلط رسله ﴾ أي له هذه السنة في كل زمن ﴿ على من يشاء ﴾ بجعل ما آتاهم سبحانه من الهيبة رعباً في قلوب أعدائه ، فهو الذي سلط رسوله. صلى الله عليه وسلم. على هؤلاء بأن ألقى في روعه الشريف أن يذهب إليهم فيسألهم الإعانة في دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري. رضى الله عنه. خطأ ، فلما جلس رسول الله. صلى الله عليه وسلم. إلى جانب بيت من بيوتهم ، وكانوا موادعين له. صلى الله عليه وسلم. نقضوا عهدهم خفية مكراً منهم بعد أن رحبوا به ووعدوه الإعانة وأمروا أحدهم أن يرمي عليه من فوق السطح صخرة لتقتله ، فأعلمه الله بهذا فذهب وترك أصحابه هناك حتى لحقوا به ، وهذا بعد ما كان حيي فعل من قدومه مكة وندبه لقريش إلى حرب

النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعاقدته لهم على أن يكون معهم عليه عليه الصلاة والسلام ، وإعلام الله بذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأرسل إليهم بعد ما أصبح أنكم قد ختنتم الله ورسوله ، فأردتم أن تفعلوا كذا ، وأن الأرض لله ورسوله ، فاخرجوا منها وقد أجلتكم عشراً ، فمكثوا على ذلك أياماً يتجهزون ودس إليهم ابن أبي ومن معه من المنافقين أنهم معهم في الشدة والرخاء لا يسلمونهم ، وقال ابن أبي : معي ألفان من قومي وغيرهم ثم العرب يدخلون حصنكم فيموتون من عند آخرهم ، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان فطمع حيي بن أخطب في ذلك فأرسل إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك ، فقصدهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المؤمنين يحمل رايته علي بن أبي طالب ـ رضى الله عنه ـ فصلى العصر بفنائهم بعد أن استعمل على المدينة ابن أم مكتوم ـ رضى الله عنه ـ وأقام عليهم ست ليال وهم متحصنون ، فقطع من نخلهم وحرق فنادوه أن قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بالك تقطع النخل ، وتربصوا نصر ابن أبي

ومن معه على ما قالوا فلم يفوا لهم ، فألقى الله الرعب في قلوبهم فأرسلوا بالإجابة ، فقال : لا إلا أن يكون لي سلاحكم وما لم تقدروا على حمله على إبلكم من أموالكم ، فتوقفوا ثم

أجابوا فحملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل إلا الحلقة، وذهبوا على ستمائة بعير، وأظهروا الحلي والحلل وأبدى نساؤهم زينتهن فلحق بعضهم بخيبر وبعضهم بالشام وخلوا الأموال والحلقة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يسلم منهم إلا رجلان يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاها فجعل الله أموال من لم يسلم منهم فيئاً لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة به يضعها حيث يشاء كما روي ذلك في الصحيح عن عمر ـ رضى الله عنه ـ في قصة مخاصمة علي والعباس ـ رضى الله عنهما ـ، وفيه أنه من خصائصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه قال: إن الله قد خص رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذا الفيء بشيء لم يعطه أحداً غيره، ثم قرأ ﴿ ما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قدير ﴾ فكانت خالصة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والله ما احتازها دونكم ولا استأثر بها عليكم قد أعطاكموها وبثها فيكم حتى بقي منها هذا المال – يعني الذي وقع خصامهما فيه، فكان ينفق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أهله نفقة سنتهم من هذا المال ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل ما لله، وفي الصحيح أيضاً عن مالك بن أوس بن الحدثان عن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة ينفق على أهله منها نفقة سنة ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله – انتهى، وقد قسم رسول الله ـ

صلى الله عليه وسلم ـ أموالهم بعد ما تركه لنفسه بين المهاجرين ، لم يعط الأنصار منه شيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة شديدة : أبو دجانة

سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة ـ رضى الله عنه ـ م ، وكان لسيف ابن أبي الحقيق عندهم ذكر فنفله سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ وقال الأصبهاني : إن الفيء كان يقسم على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على خمسة وعشرين سهماً أربعة أخماسها وهي عشرون سهماً لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفعل بها ما يشاء ويحكم فيها ما أراد ، والخمس الباقي على ما يقسم عليه خمس الغنيمة – يعني على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذوي القربى ومن بعدهم ، هكذا كان عمله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صفاياه ، فلما توفي كانت إلى إمام المسلمين وكذا جميع ما ترك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه قال :

" لا نورث ، ما تركناه صدقة " .

فولي ذلك أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ ثم عمر ـ رضى الله عنه ـ ، فكانا يفعلان فيها ما فعله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وقال الأصبهاني ـ رضى الله عنه ـ أيضاً عن مالك بن

أوس بن الحدثان ـ رضى الله عنه ـ: قرأ عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ﴿ إنما الصدقات للفقراء ﴾ [التوبة : 60] حتى بلغ ﴿ عليم حكيم ﴾ ثم قال : هذه لهؤلاء ثم قرأ ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ﴾

[الأنفال : 41] ثم قال هذه لهؤلاء ، ثم قرأ ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ [الحشر : 7] حتى بلغ ﴿ الفقراء المهاجرين والذين تبوءوا الدار والإيمان والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ [الحشر : 7] ثم قال : استوعبت هذه المسلمين عامة فليس أحد إلا له فيها حق ، ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعي نصيبه منه لم يعرف جبينه فيه – انتهى .

(76/755)

وقال ابن عطية : ما أخذ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبني النضير ومن فدك فهو خاص بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وليس على حكم الغنيمة التي يوجف عليها ويقاتل فيها ، ومذهب الشافعي ـ رضى الله عنه ـ أن هذه الأموال التي هي فيء كبقية الفيء يقسم على خمسة أسهم : خمس منها للأصناف المذكورة أولها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأربعة أخماسها له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحده ، وأجاب الشافعي عن قول عمر ـ رضى الله عنه ـ ، " فكانت هذه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة " بأنه عام أريد به الخاص

، ومعناه ، فكان ما بقي منها في يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد إعطاء الخمس لأربابه خاصاً به ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لا يشك أحد في خصوصيته به ، ثم إنه مع ذلك ما احتازه دونهم بل كان يفعل ما ذكر في الحديث من الإيثار ، قال الشافعي ـ رضى الله عنه ـ : لأنا لا نشك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعطى الأصناف المذكورين في الآية منها حقهم وقد عهدنا أن حق هؤلاء الأصناف من مال المشركين الخمس كما هو صريح في سورة الأنفال ، واستفيد من قول عمر ـ رضى الله عنه ـ " إنها كانت للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ " أنه كان له ما كان يشترك فيه المسلمون من الخمس من الغنيمة التي حصلت بما حصل للكفار من الرعب منهم ، والذي كان يشترك فيه المسلمون بعد الخمس هو أربعة الأخماس والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قام مقام المسلمين فيه إذ هم لم يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب ، وإنما حصل ذلك بالرعب الذي ألقاه الله لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قلوب المشركين ، فكانت الأربعة الأخماس تختص ممن كان السبب في حصول الجميع كما في الغنيمة ، فعلى هذا الفيء الغنيمة لا يختلفان في أن الأربعة الأخماس تختص لمن كان السبب في حصول الجميع وأن خمس المالين يكون للأصناف المذكورة ، والذي كان له ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الفيء من الأربعة الأخماس يكون بعد موته ـ

صلى الله عليه وسلم ـ للمقاتلة لأنه حصل بالرعب الحاصل للكفار منهم كأربعة أخماس الغنيمة التي حصلت بقتالهم .

ولما كانت قدرته سبحانه عامة بالتسليط وغيره ، أظهر ولم يضمر فقال : ﴿ والله ﴾ أي الملك الذي له الكمال كله ﴿ على كل شيء ﴾ أي أي شيء يصح أن تتعلق المشيئة به وهو كل ممكن من التسليط وغيره ﴿ قدير ﴾ أي بالغ القدرة إلى أقصى الغايات ، والآية تدل على أن إيجاف الخيل والركاب وقصد العدو إلى الأماكن الشاسعة له وقع كبير في النفوس ورعب عظيم .

ولما نزع سبحانه أموالهم من أيدي الجيش ، بين مصرف غيرها مما كان مثلها بأن فتح له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغير قتال فقال مستأنفاً جواباً لمن كأنه قال : هل يعم هذا الحكم كل فيء يكون بعد بني النضير : ﴿ ما أفاء الله ﴾ أي الذي اختص بالعزة والحكمة والقدرة ﴿ على رسوله ﴾ ولما كان سبحانه محيط العلم بأنه يسلط على أهل وادي القرى وغيرهم أعظم من هذا التسليط ، قال ليكون علماً من أعلام النبوة : ﴿ من أهل القرى ﴾ أي قرية بني النضير وغيرها من وادي القرى والصفراء وينبع وما هنالك من قرى العرب التي تسمى قرى عربية ﴿ فالله ﴾ أي الملك الأعلى الذي الأمر كله بيده ﴿ وللرسول ﴾ لأنه أعظم خلقه ، فرتبته تلي رتبته ، وهذان يتراءى أنهما قسمان وليس كذلك ، هما قسم واحد ،

ولكنه ذكر سبحانه نفسه المقدس تبركاً ، فإن كل أمر لا يبدأ به فهو أجذم ، وتعظيماً لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إعلاماً بأنه لا هوى له أصلاً في شيء من الدنيا ، وإنما رضاه رضا مولاه ، خلقه القرآن الذي هو صفة الله فهو مظهره ومجلاه ، وسهمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصرف بعده لمصالح المسلمين كالسلاح والثغور والعلماء والقضاة والأئمة .

(78/755)

ولما أبان هذا الكلام لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الفضل والعظمة ما لا يدخل تحت الوصف ، أتبعه تعظيماً آخر بتعظيم أقاربه لأجله ، ولذلك أعاد العامل فقال :

﴿ ولذي القربى ﴾ أي منه لأن رتبتهم من بعد رتبته وهم بنو هاشم وبنو المطلب رهط إمامنا الشافعي ـ رضى الله عنه ـ سواء فيه غنيهم وفقيرهم ، لأن أخذهم لذلك بالقرابة لا بالحاجة كما هو مذهب الإمام الشافعي ـ رضى الله عنه ـ .

ولما ذكر أهل الشرف ، أتبعه أهل الضعف جبراً لوهنهم فقال مقدماً أضعفهم :

﴿ واليتامى ﴾ أي الذين هم أحق الناس بالعطف لأن مبنى الدين على التخلق بأخلاق الله التي من أجلّها تقوية الضعيف وجبر الكسير ﴿ والمساكين ﴾ فإنهم في الضعف على أثرهم ودخل فيهم الفقراء فإنه إذا انفرد لفظ الفقير أو المساكين دخل كل منهما في الآخر ،

وإنما يفرق إذا جمع بينهما ، وكذا الفيء والغنيمة إذا أفردا جاز أن يدخل كل في الآخر ، وإذا جمعا فالفيء ما حصل بغير قتال وإيجاف خيل وركاب ، والغنيمة ما حصل بذلك ﴿ وابن السبيل ﴾ وهم الغرباء لانقطاعهم عن أوطانهم وعشائرهم ، وقسمة الفيء على هذه الأصناف كما مضى أن يقسم خمسة أقسام : خمس منها لرسول الله . صلى الله عليه وسلم . ومن ذكر معه من المخلوقين وذكر الله فيهم للتبرك ، لأن الأصناف المذكورة هي التي يعبر عنها باسمه سبحانه ، والأربعة الأخماس خاصة له . صلى الله عليه وسلم . ينفق منها نفقة سنة وما فضل عنه أنفقه في مصالح المسلمين السلاح والكراع ونحوه ، وما كان له . صلى الله عليه وسلم . في حياته فهو للمصالح بعد وفاته ، كما كان يفعل بعد ما يفضل عن حاجته ، قال الشافعي . رضي الله عنه . في الأم : وما أخذ من مشرك بوجه من الوجوه غير ضيافة من مر بهم من المسلمين فهو على وجهين لا يخرج منهما ، كلاهما مبين في كتاب الله تعالى وعلى سنة رسوله . صلى الله عليه وسلم . وفي فعله فأحدهما الغنيمة ، قال الله تعالى في سورة الأنفال :

﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ﴾ [الأنفال : 41] والوجه الثاني الفيء ، وهو مقسوم في كتاب الله في سورة الحشر ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ – إلى قوله – ﴿ رؤف رحيم ﴾ فهذان المالان اللذان خولهما الله من جعلهما له من أهل دينه ، وهذه أموال يقوم بها الولاة لا يسعهم تركها .

(80/755)

فالغنيمة والفيء تجتمعان في أن فيهما معاً الخمس من جميعهما لمن سماه الله تعالى ، ومن سماه الله تعالى في الآيتين معاً سواء مجتمعين غير مفترقين ، ثم يفترق الحكم في الأربعة الأخماس بما بين الله عز وجل على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم- وفي فعله فإنه قسم أربعة أخماس الغنيمة ، والغنيمة هي الموجف عليها بالخيل والركاب لمن حضر من غني وفقير ، والفيء وهو ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- في قرى عرينة التي أفاءها الله عليها أن أربعة أخماسها لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- خاصة دون المسلمين يضعه رسوله الله -صلى الله عليه وسلم- حيث أراه الله عز وجل ، ثم ذكر حديث عمر -رضى الله عنه- من رواية مالك بن أوس بن الحدثان -رضى الله عنه- في خصام علي والعباس -رضى الله عنهما- ، قال الشافعي : فأموال بني النضير

التي أفاء الله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- التي ذكر عمر -رضى الله عنه- فيها ما بقي منها في يد النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد الخمس وبعد أشياء فرقها النبي -صلى الله عليه وسلم- منها بين رجال من المهاجرين لم يعط منها أنصاريا إلا رجلين ذكرا فقراً وهذا مبين في موضعه ، وفي هذا الحديث دلالة على أن عمر -رضى الله عنه- إنما حكى أن أبا بكر -رضى الله عنه- وهو أمضيا ما بقي من هذه الأموال التي كانت بيد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على وجه ما رأيا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعمل به فيها ، وأنهما لم يكن لهما مما لم يوجف عليه المسلمون من الفيء ما كان لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنهما إنما كانا فيه أسوة للمسلمين ، وذلك سيرتهما وسيرة من بعدهما ، والأمر الذي لم يختلف فيه أحد من أهل العلم عندنا علمته ولم يزل يحفظ من قولهم أنه ليس لأحد ما كان لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- من صفي الغنيمة ولا من أربعة أخماس ما لم يوجف عليه منها ، وقد

مضى من كان ينفق عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أزواجه وغيرهن إن كان معهن ، فلم أعلم أحداً من أهل العلم قال لورثتهم تلك النفقة التي كانت لهم ، ولا خلاف أن

تجعل تلك النفقات حيث كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يجعل فضول غلات تلك الأموال فيما فيه صلاح الإسلام وأهله ، قال الشافعي : والجزية من الفيء وسبيلها سبيل جميع ما أخذه مما أوجف من مال مشرك أن يخمس فيكون لمن سمى الله عز وجل الخمس وأربعة أخماسه على ما سأبينه إن شاء الله تعالى ، وكذلك كل ما أخذ من مشرك من مال غير إيجاف ، وذلك مثل ما أخذ منه إذا اختلف في بلاد المسلمين ومثل ما أخذ منه إذا مات ولا وارث له ، وغير ذلك ما أخذ من ماله ، وقد كان في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيء من غير قرى عرينة ، وذلك مثل جزية أهل البحرين وهجر وغير ذلك فكان له أربعة أخماسها يمضيها حيث أراد الله عز وجل وأوفى خمسه من جعله الله له - انتهى .

ولما حكم سبحانه هذا الحكم في الفيء المخالف لما كانوا عليه في الجاهلية من اختصاص الأغنياء به ، بين علته المظهرة لعظمته سبحانه وحسن تدبيره ورحمته فقال معلقاً بما علق به الجار : ﴿كي لا يكون﴾ أي الفيء الذي سيره الله سبحانه بقوته وما خص به نبيه -صلى الله عليه وسلم- من قذف الرعب في قلوب أعدائه ومن حقه أن يعطاه الفقراء ﴿دولة﴾ أي شيئاً يتناوله أهل الغنى والشرف على وجه القهر والغلبة إثرة جاهلية - هذا على قراءة الجماعة ، وقرأ أبو جعفر وهشام عن ابن عامر بالتأنيث من ﴿كان﴾ التامة و ﴿دولة﴾ بالرفع على أنها فاعل ﴿بين الأغنياء منكم﴾ يتداولونه بينهم فإنهم كانوا يقولون : من عزيز ، ومنه قال الحسن : اتخذوا عباد الله خولاً ومال الله دولاً - يريد من

غلب منهم أخذه واستأثر به ، وقيل : الضم اسم للمتداول كالغرفة اسم لما يغترف ، والفتح التداول .

(82/755)

ولما كان التقدير : فافعلوا ما أمرتكم من قسمته لمن أمرت به ، عطف عليه قوله :

﴿ وما ﴾ أي وكل شيء ﴿ آتاكم ﴾ أي أحضر إليكم وأمكنكم منه ﴿ الرسول ﴾ أي الكامل في الرسلية من هذا وغيره ﴿ فخذوه ﴾ أي فتقبلوه تقبل من حازه ﴿ وما نهاكم عنه ﴾ من جميع الأشياء ﴿ فانتهوا ﴾ لأنه لا ينطق عن الهوى ولا يقول ولا يفعل إلا ما أمره به الله ربه ، فمن قبل ذلك هانت عليه الأمور كما ورد (القرآن صعب مستصعب على من تركه ميسر على من طلبه وتبعه) روي أن الآية نزلت في ناس من الأنصار قالوا : لنا من هذه القرى سهمنا .

ولما كان الكف عما ألفته النفوس صعباً ، ولا سيما ما كان مع كونه تمتعاً بمال على وجه الرئاسة ، رهب من المخالفة فيه بقوله : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي اجعلوا لكم بطاعة رسول الله .صلى الله عليه وسلم. وقاية من عذاب الملك الأعظم المحيط علماً وقدرة ، وعلل ذلك بقوله ، معظماً له بإعادة الجلالة مؤكداً لأن فعل المخالف فعل المنكر : ﴿ إن الله ﴾ أي

الذي له وحده الجلال والإكرام على الإطلاق ﴿ شديد العقاب ﴾ أي العذاب الواقع بعد الذنب ، ومن زعم أن شيئاً مما في هذه السورة نسخ بشيء مما في سورة الأنفال فقد أخطأ ، لأن الأنفال نزلت في بدر وهي قبل هذه بمدة . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 523.515 ﴾

(83/755)

فصل

قال الفخر :

﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ مّن لّينَةٍ ﴾ بيان لِ ﴿ مَا قَطَعْتُمْ ﴾ ، ومحل ﴿ مَا ﴾ نصب بقطعتم ، كأنه قال : أي شيء قطعتم ، وأنث الضمير الراجع إلى ما في قوله : ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا ﴾ لأنه في معنى اللينة .

المسألة الثانية :

قال أبو عبيدة : اللينة النخلة ما لم تكن عجوة أو برنية ، وأصل لينة لونة ، فذهبت الواو لكسرة اللام ، وجمعها ألوان ، وهي النخل كله سوى البرني والعجوة ، وقال بعضهم : اللينة النخلة الكريمة ، كأنهم اشتقوها من اللين وجمعها لين ، فإن قيل : لم خصت اللينة بالقطع ؟ قلنا : إن كانت من الألوان فليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية ، وإن كانت من كرام النخل فليكون غيظ اليهود أشد .

المسألة الثالثة :

قال صاحب الكشاف : قرىء (قوماً على أصلها) ، وفيه وجهان أحدهما : أنه جمع أصل كرهن ورهن ، واكتفى فيه بالضمة عن الواو ، وقرىء (قائماً على أصوله) ، ذهاباً إلى لفظ ما ، وقوله : ﴿ فَبِإِذْنِ الله ﴾ أي قطعها بإذن الله وبأمره ﴿ وَلِيُخْزِىَ الفاسقين ﴾ أي ولأجل إخزاء الفاسقين ، أي اليهود أذن الله في قطعها .

المسألة الرابعة :

روي أنه عليه الصلاة والسلام حين أمر أن يقطع نخلهم ويحرق ، قالوا : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ وكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيء ، فنزلت هذه الآية ، والمعنى أن الله إنما أذن في ذلك حتى يزداد غيظ الكفار ، وتتضاعف حسرتهم بسبب نفاذ حكم أعدائهم في أعز أموالهم .

المسألة الخامسة :

احتج العلماء بهذه الآية على أن حصون الكفرة وديارهم لا بأس أن تهدم وتحرق وتغرق وترمى بالمجانيق ، وكذلك أشجارهم لا بأس بقلعها مثمرة كانت أو غير مثمرة ، وعن ابن مسعود قطعوا منها ما كان موضعاً للقتال .

المسألة السادسة :

روي أن رجلين كانا يقطعان أحدهما العجوة ، والآخر اللون ، فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال هذا : تركتها لرسول الله ، وقال هذا : قطعتها غيظاً للكفار ، فاستدلوا به على جواز الاجتهاد ، وعلى جوازه بحضرة الرسول .

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6)

قال المبرد : يقال فاء يفيء إذا رجع ، وأفاءه الله إذا رده ، وقال الأزهري : الفيء ما رده الله على أهل دينه ، من أموال من خالف أهل دينه بلا قتال ، إما بأن يجلوا عن أوطانهم ويخلوها للمسلمين ، أو يصالحوا على جزية يؤدونها عن رؤوسهم ، أو مال غير الجزية يفتدون به من سفك دمائهم ، كما فعله بنو النضير حين صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن

لكل ثلاثة منهم حمل بعير مما شاءوا سوى السلاح ، ويتركوا الباقي ، فهذا المال هو الفيء ، وهو ما أفاء الله على المسلمين ، أي رده من الكفار إلى المسلمين ، وقوله : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي من يهود بني النضير ، قوله : ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ ﴾ يقال : وجف الفرس والبعير يجف وجفاً ووجيفاً ، وهو سرعة السير ، وأوجفه صاحبه ، إذا حمله على السير السريع ، وقوله : ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أي على ما أفاء الله ، وقوله : ﴿ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ ﴾ الركاب ما يركب من الإبل ، واحدتها راحلة ، ولا واحد لها من لفظها ، والعرب لا يطلقون لفظ الراكب إلا على راكب البعير ، ويسمون راكب الفرس فارساً ، ومعنى الآية أن الصحابة طلبوا من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقسم الفيء بينهم كما قسم الغنيمة بينهم ، فذكر الله الفرق بين الأمرين ، وهو أن الغنيمة ما أتعبتم أنفسكم في تحصيلها وأوجفتم عليها الخيل والركاب بخلاف الفيء فإنكم ما تحملتم في تحصيله تعباً ، فكان الأمر فيه مفوضاً إلى الرسول يضعه حيث يشاء .

(85/755)

ثم ههنا سؤال : وهو أن أموال بني النضير أخذت بعد القتال لأنهم حوصروا أياماً ، وقاتلوا وقتلوا ثم صالحوا على الجلاء فوجب أن تكون تلك الأموال من جملة الغنيمة لا من جملة

الفيء ، ولأجل هذا السؤال ذكر المفسرون ههنا وجهين الأول : أن هذه الآية ما نزلت في قرى بني النضير لأنهم أوجفوا عليهم بالخيل والركاب وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون بل هو في فدك ، وذلك لأن أهل فدك انجلوا عنه فصارت تلك القرى والأموال في يد الرسول عليه السلام من غير حرب فكان عليه الصلاة والسلام يأخذ من غلة فدك نفقته ونفقة من يعوله ، ويجعل الباقي في السلاح والكراع ، فلما مات ادعت فاطمة عليها السلام أنه كان ينحلها فدكا ، فقال أبو بكر : أنت أعز الناس علي فقراً ، وأحبهم إلي غنى ، لكني لا أعرف صحة قولك ، ولا يجوز أن أحكم بذلك ، فشهد لها أم أيمن ومولى للرسول عليه السلام ، فطلب منها أبو بكر الشاهد الذي يجوز قبول شهادته في الشرع فلم يكن ، فأجرى أبو بكر ذلك على ما كان يجريه الرسول صلى الله عليه وسلم ينفق منه على من كان ينفق عليه الرسول ، ويجعل ما يبقى في السلاح والكراع ، وكذلك عمر جعله في يد علي ليجريه على هذا المجرى ، ورد ذلك في آخر عهد عمر إلى عمر ، وقال : إن بنا غنى وبالمسلمين حاجة إليه ، وكان عثمان رضي الله عنه يجريه كذلك ، ثم صار إلى علي فكان يجريه هذا المجرى فالأئمة الأربعة اتفقوا على ذلك والقول الثاني : أن هذه الآية نزلت في بني النضير وقراهم ، وليس للمسلمين يومئذ كثير خيل ولا ركاب ، ولم يقطعوا إليها مسافة كثيرة ، وإنما كانوا على ميلين من المدينة فمشوا إليها مشياً ، ولم يركب إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان راكب جمل ، فلما كانت المقاتلة قليلة والخيل والركب غير حاصل ،

أجراه الله تعالى مجرى ما لم يحصل فيه المقاتلة أصلاً فخص رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك الأموال ، ثم روى أنه قسمها بين المهاجرين ولم

(86/755)

يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة وهم أبو دجانة وسهل بن حنيف والحرث بن الصمة .

ثم إنه تعالى ذكر حكم الفيء فقال :

مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى

قال صاحب الكشاف : لم يدخل العاطف على هذه الجملة لأنها بيان للأولى فهي منها وغير أجنبية عنها ، واعلم أنهم أجمعوا على أن المراد من قوله : ﴿ وَلِذِي القربى ﴾ بنو هاشم وبنو المطلب .

قال الواحدي : كان الفيء في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم مقسوماً على خمسة أسهم أربعة منها لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة وكان الخمس الباقي يقسم على خمسة أسهم ، سهم منها لرسول الله أيضاً ، والأسهم الأربعة لذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وأما بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام فللشافعي فيما كان

من الفيء لرسول الله قولان أحدهما : أنه للمجاهدين المرصدين للقتال في الثغور لأنهم قاموا مقام رسول الله في رباط الثغور والقول الثاني : أنه يصرف إلى مصالح المسلمين من سد الثغور وحفر الأنهار وبناء القناطر ، يبدأ بالأهم فالأهم ، هذا في الأربعة أخماس التي كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما السهم الذي كان له من خمس الفيء فإنه لمصالح المسلمين بلا خلاف ، وقوله تعالى : ﴿ كَى لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

(87/755)

قال المبرد : الدولة اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم يكون كذا مرة وكذا مرة ، والدولة بالفتح انتقال حال سارة إلى قوم عن قوم ، فالدولة بالضم اسم ما يتداول ، وبالفتح مصدر من هذا ، ويستعمل في الحالة السارة التي تحدث للإنسان ، فيقال : هذه دولة فلان أي تداوله ، فالدولة اسم لما يتداول من المال ، والدولة اسم لما ينتقل من الحال ، ومعنى الآية كي لا يكون الفيء الذي حقه أن يعطى للفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها واقعاً في يد الأغنياء ودولة لهم .

المسألة الثانية :

قرئ : (دولة) و (دولة) بفتح الدال وضمها ، وقرأ أبو جعفر : (دولة) مرفوعة الدال والهاء ، قال أبو الفتح : ﴿ يَكُونَ ﴾ ههنا هي التامة كقوله : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ ﴾ [البقرة : 280] يعني كي لا يقع دولة جاهلية ، ثم قال : ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فانتهوا ﴾ يعني ما أعطاكم الرسول من الفيء فخذوه فهو لكم حلال وما نهاكم عن أخذه فانتهوا ﴿ واتقوا الله ﴾ في أمر الفيء ﴿ أَنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ على ما نهاكم عنه الرسول ، والأجود أن تكون هذه الآية عامة في كل ما آتى رسول الله ونهى عنه وأمر الفيء داخل في عمومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 249.246 ﴾

(88/755)

وقال القرطبى :

﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (5) ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ "ما" في محل نصب ب "قَطَعْتُمْ" ؛ كأنه قال : أي شيء قطعتم .

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل على حصون بني النضير وهي البُوَيْرة حين نقضوا العهد بمعونة قريش عليه يوم أُحُد ، أمر بقطع نخيلهم وإحراقها .

واختلفوا في عدد ذلك ؛ فقال قتادة والضحاك : إنهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ست نخلات .

وقال محمد بن إسحاق : إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة .

وكان ذلك عن إقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بأمره ؛ إمّا لإضعافهم بها وإما لسعة المكان بقطعها .

فشقّ ذلك عليهم فقالوا وهم يهود أهل الكتاب : يا محمد ، ألست تزعم أنك نبيّ تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر ؟ وهل وجدت فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد في الأرض ! ؟ فشقّ ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم .

ووجد المؤمنون في أنفسهم حتى اختلفوا ؛ فقال بعضهم : لا تقطعوا مما أفاء الله علينا .

وقال بعضهم : اقطعوا لنغيظهم بذلك .

فنزلت الآية بتصديق من نهى عن القطع وتحليل من قطع من الإثم ، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله .

وقال شاعرهم سماك اليهودي في ذلك :

أَلَسْنا ورِثنا الكتاب الحكيم . . .

على عهد موسى ولم نَصْدِفِ

وأنتم رِعاءٌ لِشاءٍ عجاف . . .

بسَهْلِ تِهامة والأَخْيَف

تَرَوْن الرعاية مجداً لكم . . .

لدى كلّ دهرٍ لكم مُجْحف

فيأيها الشاهدون أنتهُوا . . .

عن الظلم والمنطق المُؤْنف

لعل الليالي وصَرفَ الدُّهور . . .

يُدِلْنَ من العادل المنصف

بقَتْلِ النَّضِير وإجلائها . . .

وعَقْرِ النخيل ولم تُقْطفِ

فأجابه حسان بن ثابت :

تفاقد مَعْشَرٌ نصرُوا قريشاً . . .

وليس لهم ببلدتهم نَصيرُ

هُمُوا أوتوا الكتاب فضيّعوه . . .

وهم عُمْيٌ عن التوراة بُورُ

(89/755)

كفرتم بالقُرآن وقد أبيتم . . .

بتصديق الذي قال النذير

وهان على سَراة بني لُؤَيٍّ . . .

حريقٌ بالبُوَيْرةِ مستطير

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

أدام الله ذلك من صنيع . . .

وحرَّق في نواحيها السَّعِيرُ

ستعلم أيُّنا منها بنُزْهٍ . . .

وتعلم أي أرْضَيْنا تَصير

فلو كان النخيل بها رِكاباً . . .

لقالوا لا مُقام لكم فسِيرُوا

الثانية : كان خروج النبي صلى الله عليه وسلم في ربيع الأوّل أوّل السنة الرابعة من الهجرة ، وتحصَّنوا منه في الحصون ، وأمر بقطع النخل وإحراقها ، وحينئذ نزل تحريم الخمر .

ودسّ عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول ومن معه من المنافقين إلى بني النضير : إنا معكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ؛ فاغترُّوا بذلك .

فلما جاءت الحقيقة خذلوهم وأسلموهم وألقوا بأيديهم ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكف عن دمائهم ويُجْلِيهم ؛ على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح ، فاحتملوا كذلك إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام .

وكان ممن سار منهم إلى خَيْبَر أكابرهم ؛ كحُيَيّ بن أَخْطَب ، وسَلاّم بن أبي الحُقَيْق ، وكنانة بن الربيع .

فدانت لهم خَيبر .

الثالثة : ثبت في صحيح مسلم وغيره عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع نخل بني النَّضير وحرّق .

ولها يقول حسان :

وهان على سَرَاة بني لُؤَيٍّ . . .

حريقٌ بالبُوَيْرة مستطير

وفي ذلك نزلت : "مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ" الآية .

واختلف الناس في تخريب دار العدوّ وتحريقها وقطع ثمارها على قولين : الأول أن ذلك جائز ؛ قاله في المدوّنة .

الثاني إن علم المسلمون أن ذلك لهم لم يفعلوا ، وإن يئسوا فعلوا ؛ قاله مالك في الواضحة .

وعليه يناظر أصحاب الشافعي ، ابن العربي : والصحيح الأوّل .

وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نخل بني النَّضير له ؛ ولكنه قَطع وحَرّق ليكون ذلك نكاية لهم ووَهْنًا فيهم حتى يخرجوا عنها .

(90/755)

وإتلافُ بعض المال لصلاح باقيه مصلحة جائزة شرعاً ، مقصودة عقلا .

الرابعة قال الماوردي : إن في هذه الآية دليلاً على أن كلّ مجتهد مصيب .

وقاله الكِيَا الطَّبَرِىّ قال : وإن كان الاجتهاد يبعد في مثله مع وجود النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ، ولا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ذلك وسكت ؛ فتلَقَّوا الحكم من تقريره فقط .

قال ابن العربيّ : وهذا باطل : لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معهم ، ولا اجتهاد مع حضور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما يدل على اجتهاد النبي صلى الله عليه

وسلم فيما لم ينزل عليه : أخذاً بعموم الأذِيّة للكفار ، ودخولاً في الإذن للكل بما يقضي عليهم بالاجتياح والبوار : وذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِيُخْزِيَ الفاسقين ﴾ .

الخامسة اختلف في اللِّينة ما هي ؛ على أقوال عشرة : الأوّل النخل كله إلا العَجْوة ؛ قاله الزهري ومالك وسعيد بن جُبير وعِكْرمة والخليل .

وعن ابن عباس ومجاهد والحسن : أنها النخل كله ، ولم يستثنوا عَجْوة ولا غيرها .

وعن ابن عباس أيضاً : أنها لون من النخل .

وعن الثوري : أنها كرام النخل .

وعن أبي عبيدة : أنها جميع ألوان التمر سوى العجوة والبَرْني .

وقال جعفر بن محمد : إنها العجوة خاصّةً .

وذكر أن العتيق والعجوة كانتا مع نوح عليه السلام في السفينة .

والعتيق : الفحل .

وكانت العجوة أصل الإناث كلها فلذلك شق على اليهود قطعها ؛ حكاه الماورديّ .

وقيل : هي ضرب من النخل يقال لتمره : اللَّون ، تمره أجود التمر ، وهو شديد الصفرة ، يُرَى نواه من خارجه ويغيب فيه الضِّرس ؛ النخلة منها أحبّ إليهم من وَصِيف .

وقيل : هي النخلة القريبة من الأرض .

وأنشد الأخفش :

قد شجاني الحمام حين تَغَنَّى . . .

بفراق الأحباب من فوق لِينَهْ

وقيل : إن اللِّينة الفَسِيلة ؛ لأنها ألين من النخلة .

ومنه قول الشاعر :

غَرَسُوا لِينها بمجرى مَعِين . . .

ثم حَفّوا النخل بالآجام

(91/755)

وقيل : إن اللينة الأشجار كُلّها للينها بالحياة ؛ قال ذو الرمّة :

طِراقُ الخَوَافي واقعٌ فوق لِينة . . .

نَدَى ليله في ريشه يترقرق

والقول العاشر أنها الدقَل ؛ قاله الأصمعي .

قال : وأهل المدينة يقولون لا تنتفخ الموائد حتى توجد الألوان ؛ يعنون الدَّقَل .

قال ابن العربيّ : والصحيح ما قاله الزهريّ ومالك لوجهين : أحدهما أنهما أعرف ببلدهما

وأشجارهما .

الثاني أن الاشتقاق يَعْضُده ، وأهل اللُّغة يصححونه ؛ فإن اللينة وزنها لُونة ، واعتّلت على أصولهم فآلت إلى لِينة فهي لون ، فإذا دخلت الهاء كُسر أولها ؛ كَبْرك الصدر (بفتح الباء) وبِرْكه (بكسرها) لأجل الهاء .

وقيل لينة أصلها لِوْنة فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .

وجمع اللينة لِين .

وقيل : لِيان ؛ قال امرؤ القيس يصف عنق فرسه :

وسالفة كسَحُوقِ اللّيا . . .

نِ أضْرَمَ فيها الغَويُّ السُّعُرْ

وقال الأخفش : إنما سميت لينة اشتقاقاً من اللَّون لا من اللين .

المهدوِيّ : واختلف في اشتقاقها ؛ فقيل : هي من اللون وأصلها لونة .

وقيل : أصلها لِينة من لان يلين .

وقرأ عبد الله "ما قطعتم مِن لينةٍ ولا تركتم قوماء على أصولها" أي قائمة على سوقها .

وقرأ الأعمش "ما قطعتم مِن لينةٍ أو تركتموها قُوّمًا على أصوِلها" المعنى لم تقطعوها .

وقرئ "قَوْماء على أُصُلِها" .

وفيه وجهان : أحدهما أنه جمع أصلٍ ؛ كَرَهْن ورُهُن .

والثاني اكْتُفِي فيه بالضمة عن الواو .

وقرئ "قائماً على أصوله" ذهاباً إلى لفظ "ما" .

﴿ فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي بأمره ﴿ وَلِيُخْزِيَ الفاسقين ﴾ أي ليذلّ اليهود الكفار به وبنبيّه وكتبه.

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾

(هذه الآية والتي بعدها إلى قوله ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ فيها عشر مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ اللهُ ﴾ يعني ما ردّه الله تعالى ﴿ على رَسُولِهِ ﴾ من أموال بني النَّضِير.

(92/755)

﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أَوْضَعْتم عليه.

والإيجاف : الإيضاع في السير وهو الإسراع ؛ يقال : وَجَفَ الفرسُ إذا أسرع ، وأوجفته أنا أي حركته وأتعبته ؛ ومنه قول تميم بن مقبل :

مَذاويد بالبيض الحديثِ صِقالُها . . .

عن الركب أحياناً إذا الركب أَوْجَفُوا

والركاب الإبل ، واحدها راحلة.

يقول : لم تقطعوا إليها شُقّة ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقة ؛ وإنما كانت من المدينة على مِيلَيْن ؛ قاله الفرّاء .

فمشَوْا إليها مَشْياً ولم يركبوا خيلاً ولا إبلاً ؛ إلا النبيّ صلى الله عليه وسلم فإنه ركب جملاً وقيل حماراً مخطوماً بليف ، فافتتحها صلحاً وأجلاهم وأخذ أموالهم .

فسأل المسلمون النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يَقسم لهم فنزلت : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ الآية .

فجعل أموال بني النَّضير للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصّةً يضعها حيث شاء ؛ فقسمها النبيّ صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين .

قال الواقديّ : ورواه ابن وهب عن مالك ؛ ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر محتاجين ؛ منهم أبو دُجَانة سِمَاك بن خَرَشة ، وسهل بن حُنيف ، والحارث بن الصِّمّة .

وقيل إنما أعطى رجلين ، سهلاً وأبا دُجَانة .

ويقال : أعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحُقَيق ، وكان سيفاً له ذِكْرٌ عندهم .

ولم يُسلم من بني النَّضير إلا رجلان : سفيان بن عمير ، وسعد بن وهب ؛ أسلما على أموالهما فأحرزاها .

وفي صحيح مسلم " عن عمر قال : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، وكانت للنبيّ صلى الله عليه وسلم خاصّةً ، فكان

ينفق على أهله نفقة سنة ، وما بقى يجعله في الكُرَاع والسلاح عُدَّةً في سبيل الله تعالى .

وقال العباس لعمر رضي الله عنهما : اقض بيني وبين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن يعني عليا رضي الله عنه فيما أفاء الله على رسوله من أموال بني النضير .

(93/755)

فقال عمر : أتعلمان أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لانُورَث ما تركناه صدقة" قالا نعم .

قال عمر : إن الله عز وجل كان خص رسوله صلى الله عليه وسلم بخاصة ولم يُخَصِّص بها أحداً غيره .

قال : ﴿ مَّآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأغنيآء مِنكُمْ وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا واتقوا الله إِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ (ما أدري هل قرأ الآية التي قبلها أم لا) فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بينكم أموال بني النَّضير ، فوالله ما استأثرها عليكم ولا أخذها دونكم حتى بقي هذا المال ؛ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ منه نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقي أُسْوَةَ المال . . .

"

الحديث بطوله، خرّجه مسلم.

وقيل: لما ترك بنو النَّضير ديارهم وأموالهم طلب المسلمون أن يكون لهم فيها حظ كالغنائم ؛ فبيّن الله تعالى أنها فَيْءٌ وكان قد جرى ثَمّ بعضُ القتال؛ لأنهم حوصِروا أياماً وقاتلوا وقتلوا، ثم صالحوا على الجلاء، ولم يكن قتال على التحقيق؛ بل جرى مبادىء القتال وجرى الحصار، وخص الله تلك الأموال برسوله صلى الله عليه وسلم.

وقال مجاهد: أعلمهم الله تعالى وذكَّرهم أنه إنما نصر رسوله صلى الله عليه وسلم ونصرهم بغير كُرَاع ولا عُدّة.

﴿ ولكنّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ على مَن يَشَآءُ ﴾ أي من أعدائه.

وفي هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصّةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم دون أصحابه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ قال ابن عباس: هي قُرَيْظَة والنَّضير، وهما بالمدينة وفدَك، وهى على ثلاثة أيام من المدينة وخَيْبَر.

وقُرَى عُرَينة ويَنْبُع جعلها الله لرسوله.

وبَيّن أن في ذلك المال الذي خصه بالرسول عليه السلام سُهْماناً لغير الرسول نظراً منه لعباده .

وقد تكلم العلماء في هذه الآية والتي قبلها ، هل معناهما واحد أو مختلف ، والآية التي في الأنفال ؛ فقال قوم من العلماء : إن قوله تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ منسوخ بما في سورة الأنفال من كون الخُمس لمن سمي له ، والأخماس الأربعة لمن قاتل .

وكان في أوّل الإسلام تُقسم الغنيمة على هذه الأصناف ولايكون لمن قاتل عليها شيء .

وهذا قول يزيد بن رومان وقتادة وغيرهما .

ونحوه عن مالك .

وقال قوم : إنما غنم بصلح من غير إيجاف خيل ولا رِكاب ؛ فيكون لمن سمّى الله تعالى فيه فَيْئاً والأُولى للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، إذا أخذ منه حاجته كان الباقي في مصالح المسلمين .

وقال معمر : الأُولى للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

والثانية هي الجزية والخراج للأصناف المذكورة فيه .

والثالثة الغنيمة في سورة الأنفال للغانمين .

وقال قوم منهم الشافعيّ : إن معنى الآيتين واحد ؛ أي ما حصل من أموال الكفار بغير قتال

قسم على خمسة أسهم ؛ أربعة منها للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

وكان الخمس الباقي على خمسة أسهم : سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً ،

وسهم لذوي القربى وهم بنو هاشم وبنو المطلب لأنهم مُنِعوا الصدقة فجعل لهم حق في الْفَيْء .

وسهم لليتامى .

وسهم للمساكين .

وسهم لابن السبيل .

وأما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالذي كان من الْفَيْء لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف عند الشافعيّ في قول إلى المجاهدين المترصِّدين للقتال في الثغور ؛ لأنهم القائمون مقام الرسول عليه الصلاة والسلام .

وفي قول آخر له : يصرف إلى مصالح المسلمين من سدّ الثغور وحفر الأنهار وبناء القناطر ؛ يقدم الأهم فالأهم ، وهذا في أربعة أخماس الفيء .

فأما السهم الذي كان له من خمس الفيء والغنيمة فهو لمصالح المسلمين بعد موته صلى الله عليه وسلم بلا خلاف .

كما قال عليه الصلاة والسلام : " ليس لي من غنائمكم إلا الخمس والخمس مردود فيكم " وقد مضى القول فيه في سورة "الأنفال" .

وكذلك ما خلفه من المال غير موروث ، بل هو صدقة يصرف عنه إلى مصالح المسلمين ؛ كما قال عليه السلام : " إنا لا نورث ما تركناه صدقة " وقيل : كان مال الفيء لنبيّه صلى الله عليه وسلم ؛ لقوله تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ ﴾ فأضافه إليه ؛ غير أنه كان لا يتأثّل مالاً ، إنما كان يأخذ بقدر حاجة عياله ويصرف الباقي في مصالح المسلمين .

قال القاضي أبو بكر بن العربيّ : لا إشكال أنها ثلاثة معان في ثلاث آيات ؛ أما الآية الأولى فهي قوله : ﴿ هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الحشر ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ يعني من أهل الكتاب معطوفاً عليهم. ﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ ﴾ يريد كما بيّنا ؛ فلا حق لكم فيه ، ولذلك قال عمر : إنها كانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعني بني النضير وما كان مثلها .

فهذه آية واحدة ومعنىً متّحد .

الآية الثانية قوله تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ وهذا كلام مبتدأ غير الأول لمستحق غير الأول .

(96/755)

وسمى الآية الثالثة آية الغنيمة ، ولاشك في أنه معنىً آخر باستحقاق ثان لمستحق آخر ، بَيْدَ أن الآية الأولى والثانية ، اشتركتا في أن كل واحدة منهما تضمنت شيئاً أفاءه الله على رسوله ، واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال ، واقتضت آية الأنفال أنه حاصل بقتال ، وعرِيت الآية الثالثة وهي قوله تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ عن ذكر حصوله بقتال أو بغير قتال ؛ فنشأ الخلاف من ها هنا ، فمن طائفة قالت : هي ملحقة بالأولى ، وهو مال الصلح كله ونحوه .

ومن طائفة قالت : هي ملحقة بالثانية وهي آية الأنفال .

والذين قالوا إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا ؛ هل هي منسوخة كما تقدّم أو محكمة ؟

وإلحاقها بشهادة الله بالتي قبلها أوْلى ؛ لأن فيه تجديد فائدة ومعنى .

ومعلوم أن حمل الحرف من الآية فضلاً عن الآية على فائدة متجدّدة أوْلى من حمله على فائدة معادة .

وروى ابن وهب عن مالك في قوله تعالى : ﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ بني النضير ، لم يكن فيها خمس ولم يُوجف عليها بخيل ولا ركاب .

كانت صافية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقَسمها بين المهاجرين وثلاثة من الأنصار ؛ حسب ما تقدم .

وقوله : ﴿ مَّآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ هي قُريظة ، وكانت قُريظة والخندق في يوم واحد .

قال ابن العربي : قول مالك إن الآية الثانية في بني قُريظة ، إشارة إلى أن معناها يعود إلى آية الأنفال ، ويلحقها النسخ .

وهذا أقوى من القول بالإحكام .

ونحن لا نختار إلا ما قسمنا وبيّنا أن الآية الثانية لها معنى مجدّد حسب ما دلّلنا عليه .

والله أعلم .

قلت ما اختاره حسَن .

وقد قيل إن سورة "الحشر" نزلت بعد الأنفال ، فمن المحال أن ينسخ المتقدّمُ المتأخر .

وقال ابن أبي نجيح : المال ثلاثة : مَغْنم ، أوْ فيْءُ ، أو صدقة ، وليس منه درهم إلا وقد بيّن الله موضعه .

وهذا أشبه .

الثالثة الأموال التي للأئمة والوُلاة فيها مَدْخلٌ ثلاثة أضْرُب : ما أخذ من المسلمين على طريق التطهير لهم ؛ كالصدقات والزكوات .

والثاني الغنائم ؛ وهو ما يحصل في أيدي المسلمين من أموال الكافرين بالحرب والقهر والغلبة .

والثالث الفيء ، وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عفواً صفوا من غير قتال ولا إيجاف ؛ كالصلح والجزية والخراج والعشور المأخوذة من تجار الكفار .

ومثله أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم ، أو يموت أحد منهم في دار الإسلام ولا وارث له .

فأما الصدقة فمصرفها الفقراء والمساكين والعاملين عليها ؛ حسب ما ذكره الله تعالى ، وقد مضى في "براءة" .

وأما الغنائم فكانت في صدر الإسلام للنبيّ صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ما شاء ؛ كما قال في سورة "الأنفال" : ﴿ قُلِ الأنفال للّهِ والرسول ﴾ ، ثم نسخ بقوله تعالى : ﴿ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنفال : 41] الآية .

وقد مضى في الأنفال بيانه .

فأما الفَيء فقسمته وقسمة الخمس سواء .

والأمر عند مالك فيهما إلى الإمام ، فإن رأى حبسهما لنوازل تنزل بالمسلمين فَعَل ، وإن رأى قسمتهما أو قسمة أحدهما قَسَمه كلَّه بين الناس ، وسوّى فيه بين عربيّهم ومَوْلاهم .

ويبدأ بالفقراء من رجال ونساء حتى يَغْنوا ، ويعطوْا ذَوُو القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفيء سهمهم على ما يراه الإمام ، وليس له حدّ معلوم .

واختلف في إعطاء الغنيّ منهم ؛ فأكثر الناس على إعطائه لأنه حقٌّ لهم .

وقال مالك : لا يعطى منه غير فقرائهم ، لأنه جُعل لهم عِوضاً من الصدقة .

وقال الشافعي : أيما حصل من أموال الكفار من غير قتال كان يقسم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على خمسة وعشرين سهما : عشرون للنبيّ صلى الله عليه وسلم يفعل فيها ما يشاء .

والخُمس يقسم على ما يقسم عليه خُمس الغنيمة .

(98/755)

قال أبو جعفر أحمد بن الداوُديّ : وهذا قول ما سبقه به أحد علمناه ، بل كان ذلك خالصاً له ، كما ثبت في الصحيح عن عمر مبيّناً للآية .

ولو كان هذا لكان قوله : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب : 50] يدل على أنه يجوز الموهوبة لغيره ، وأن قوله : ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأعراف : 32] يجوز أن يشركهم فيها غيرهم .

وقد مضى قول الشافعي مستوعباً في ذلك والحمد لله .

ومذهب الشافعي رضي الله عنه : أن سبيل خمس الْفَيء سبيل خمس الغنيمة ، وأن أربعة أخماسه كانت للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهي بعده لمصالح المسلمين .

وله قول آخر : أنها بعده للمرصدين أنفسهم للقتال بعده خاصة ؛ كما تقدم .

الرابعة : قال علماؤنا : ويُقسم كل مال في البلد الذي جُبِيَ فيه ، ولا ينقل عن ذلك البلد الذي جُبِيَ فيه حتى يَغنوا ، ثم ينقل إلى الأقرب من غيرهم ، إلا أن ينزل بغير البلد الذي جُبِيَ فيه فاقةٌ شديدة ، فينتقل ذلك إلى أهل الفاقة حيث كانوا ، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أعوام الرّمادة ، وكانت خمسة أعوام أو ستة .

وقد قيل عامين .

وقيل : عامٌ فيه اشتد الطاعون مع الجوع .

وإن لم يكن ما وصفنا ورأى الإمام إيقاف الفيء أوقفه لنوائب المسلمين ، ويعطى منه المنفوس ويبدأ بمن أبوه فقير .

والفيء حلال للأغنياء .

ويسوّى بين الناس فيه إلا أنه يؤثر أهل الحاجة والفاقة .

والتفضيل فيه إنما يكون على قدر الحاجة .

ويعطى منه الغرماء ما يؤدون به ديونهم .

ويعطى منه الجائزة والصلة إن كان ذلك أهلاً ويرزق القضاة والحكام ومن فيه منفعة للمسلمين .

وأولاهم بتوفر الحظ منهم أعظمهم للمسلمين نفعاً .

ومن أخذ من الفَيء شيئاً في الديوان كان عليه أن يغزو إذا غزى .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً ﴾ قراءة العامة "يَكُونُ" بالياء .

"دُولَةً" بالنصب ، أي كي لا يكون الفيء دولة .

(99/755)

وقرأ أبو جعفر والأعرج وهشام عن ابن عامر وأبو حيوة "تكون" بتاء "دُولَةٌ" بالرفع ، أي كي لا تقع دُولة .

فكان تامة .

و"دُولَةٌ" رفع على اسم كان ولا خبر له .

ويجوز أن تكون ناقصة وخبرها ﴿ بَيْنَ الأغنيآءِ مِنكُمْ ﴾ وإذا كانت تامة فقوله : ﴿ بَيْنَ الأغنيآءِ مِنكُمْ ﴾ متعلق ب "دُولة" على معنى تداول بين الأغنياء منكم .

ويجوز أن يكون ﴿ بَيْنَ الأغنيآءِ مِنكُمْ ﴾ وصفاً ل "دُولة" .

وقراءة العامة "دُولة" بضم الدال .

وقرأها السُّلَمِي وأبو حيوة بالنصب .

قال عيسى بن عمرو ويونس والأصمعيّ : هما لغتان بمعنىً واحد .

وقال أبو عمرو بن العلاء : الدَّولة (بالفتح) الظفر في الحرب وغيره ، وهي المصدر .

وبالضم اسم الشيء الذي يتداول من الأموال .

وكذا قال أبو عبيدة : الدُّولة اسم الشيء الذي يُتداول .

والدَّولة الفعل .

ومعنى الآية : فعلنا ذلك في هذا الفيء ، كي لا تقسمه الرؤساء والأغنياء والأقوياء بينهم دون الفقراء والضعفاء ، لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنِموا أخذ الرئيس رُبْعها لنفسه ، وهو المِرْباع .

ثم يصطفي منها أيضاً بعد المِرْباع ما شاء ؛ وفيها قال شاعرهم :

لك المِرباع منها والصفايا . . .

يقول : كي لا يعمل فيه كما كان يعمل في الجاهلية .

فجعل الله هذا لرسوله صلى الله عليه وسلم ؛ يقسمه في المواضع التي أمر بها ليس فيها خمس ، فإذا جاء خمس وقع بين المسلمين جميعاً .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ أي ما أعطاكم من مال الغنيمة فخذوه ، وما نهاكم عنه من الأخذ والغلول فانتهوا ؛ قاله الحسن وغيره .

السدّي : ما أعطاكم من مال الفيء فاقبلوه ، وما منعكم منه فلا تطلبوه .

وقال ابن جُريج : ما آتاكم من طاعتي فافعلوه ، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه .

الماوردي : وقيل إنه محمول على العموم في جميع أوامره ونواهيه ؛ لا يأمر إلا بصلاح ولا ينهى إلا عن فساد .

(100/755)

قلت : هذا هو معنى القول الذي قبله .

فهي ثلاثة أقوال .

السابعة : قال المهدوي : قوله تعالى : ﴿ وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ هذا يوجب أن كل ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم أمرٌ من الله تعالى .

والآية وإن كانت في الغنائم فجميع أوامره صلى الله عليه وسلم ونواهيه دخل فيها .

وقال الحكم بن عُمير وكانت له صحبة : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن هذا القرآن صَعبٌ مُسْتَصْعَبٌ عسير على من تركه يسير على من اتبعه وطلبه .

وحديثي صعب مستصعب وهو الحكم فمن استمسك بحديثي وحفظه نجا مع القرآن .

ومن تهاون بالقرآن وحديثي خسر الدنيا والآخرة .

وأُمرتم أن تأخذوا بقولي وتكتنفوا أمري وتتبعوا سنتي فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن ومن استهزأ بقولي فقد استهزأ بالقرآن قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ "

الثامنة : قال عبد الرحمن بن زيد : لقي ابن مسعود رجلاً مُحْرِماً وعليه ثيابه فقال له : انزع عنك هذا .

فقال الرجل : أتقرأ عليّ بهذا آيةً من كتاب الله تعالى ؟ قال : نعم ، ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ .

وقال عبد الله بن محمد بن هارون الفِريابي : سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول : سلوني عما شئتم أخبركم من كتاب الله تعالى وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم ؛ قال فقلت له : ما تقول أصلحك الله في المحرم يقتل الزُّنْبُور ؟ قال فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ وحدثنا سُفيان بن عُيَيْنَة

عن عبد الملك بن عُمير عن رِبْعِيّ ابن حِراش عن حُذيفة بن اليَمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقتدوا باللَذيْن من بعدي أبي بكر وعمر "

(101/755)

حدثنا سفيان ابن عُيينة عن مِسْعر بن كِدَام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أمر بقتل الزُّنْبُور .

قال علماؤنا : وهذا جواب في نهاية الحسن ، أفتى بجواز قتل الزنبور في الإحرام ، وبيّن أنه يَقتدي فيه بعمر ، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر بالاقتداء به ، وأن الله سبحانه أمر بقبول ما يقوله النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فجواز قتله مستنبَط من الكتاب والسنة .

وقد مضى هذا المعنى من قول عكرمة حين سئل عن أمهات الأولاد فقال : هن أحرار في سورة "النساء" عند قوله تعالى : ﴿ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول وَأُوْلِي الأمر مِنْكُمْ ﴾ [النساء : 59] .

وفي صحيح مسلم وغيره عن علقمة " عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لعن الله الواشِماتِ والمُسْتَوْشِماتِ والمُتَنَمّصاتِ والمُتَفَلّجاتِ للحُسْن المُغَيّرَات خلق الله" " فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب ؛ فجاءت فقالت : بلغني أنك

لعنت كَيْتَ وكيتا فقال : ومالِي لا ألعنُ مَن لعن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب اللها فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول .

فقال : لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيها أما قرأت ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ ! قالت : بلى .

قال : فإنه قد نهى عنه .

.

الحديث .

وقد مضى القول فيه في "النساء" مستوفى .

(102/755)

التاسعة قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ ﴾ وإن جاء بلفظ الإيتاء وهو المناولة فإن معناه الأمر ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ فقابله بالنهي ، ولا يقابل النهي إلا بالأمر ؛ والدليل على فهم ذلك ما ذكرناه قبلُ مع : قوله عليه الصلاة السلام : " إذا أمرتكم بأمْرٍ فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه " وقال الكلبي : إنها نزلت في رؤساء المسلمين ، قالوا فيما ظهر عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من أموال

المشركين : يا رسول الله ، خذ صَفِيّك والرُّبع ، ودعنا والباقي ؛ فهكذا كنا نفعل في الجاهلية .

وأنشدوه :

لك المِرْباع منها والصَّفَايَا . . .

وحُكْمُكَ والنَّشِيطة والفُضُولُ

فأنزل الله تعالى هذه الآية .

العاشرة : قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي عذاب الله ، إنه شديد لمن عصاه .

وقيل : اتقوا الله في أوامره ونواهيه فلا تضيّعوها .

﴿ إِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ لمن خالف ما أمره به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(103/755)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

وتقدم الكلام في تسبيح الجمادات التي يشملها العموم المدلول عليه بما ، ﴿ من أهل الكتاب

﴾ : هم قريظة ، وكانت قبيلة عظيمة توازن في القدر والمنزلة بني النضير ، ويقال لهما الكاهنان ، لأنهما من ولد الكاهن بن هارون ، نزلوا قريباً من المدينة في فتن بني إسرائيل ، انتظاراً لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، فكان من أمرهم ما قصه الله تعالى في كتابه .

﴿ من ديارهم ﴾ : يتعلق بأخرج ، و﴿ من أهل الكتاب ﴾ يتعلق بمحذوف ، أي كائنين من أهل الكتاب .

وصحت الإضافة إليهم لأنهم كانوا ببرية لا عمران فيها ، فبنوا فيها وأنشأوا .

واللام في ﴿ لأول الحشر ﴾ تتعلق بأخرج ، وهي لام التوقيت ، كقوله : ﴿ لدلوك الشمس ﴾ والمعنى : عند أول الحشر ، والحشر : الجمع للتوجيه إلى ناحية مّا .

والجمهور : إلى أن هؤلاء الذين أخرجوا هم بنو النضير .

وقال الحسن : هم بنو قريظة ؛ ورد هذا بأن بني قريظة ما حشروا ولا أجلوا وإنما قتلوا ، وهذا الحشر هو بالنسبة لإخراج بني النضير .

وقيل الحشر هو حشر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الكتائب لقتالهم ، وهو أول حشر منه لهم ، وأول قتال قاتلهم .

وأول يقتضي ثانياً ، فقيل : الأول حشرهم للجلاء ، والثاني حشر عمر لأهل خيبر وجلاؤهم .

وقد أخبر عليه الصلاة والسلام بجلاء أهل خيبر بقوله (صلى الله عليه وسلم) : " لا يبقين

دينان في جزيرة " وقال الحسن : أراد حشر القيامة ، أي هذا أوله ، والقيام من القبور آخره .

وقال عكرمة والزهري : المعنى : الأول موضع الحشر ، وهو الشام .

(104/755)

وفي الحديث ، أنه عليه الصلاة والسلام قال لبني النضير : " اخرجوا ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى أرض المحشر " وقيل : الثاني نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وهذا الجلاء كان في ابتداء الإسلام ، وأما الآن فقد نسخ ، فلا بد من القتل والسبي أو ضرب الجزية .

﴿ ما ظننتم أن يخرجوا ﴾ ، لعظم أمرهم ومنعتهم وقوتهم ووثاقة حصونهم وكثرة عددهم وعددهم .

﴿ وظنوا أنهم ﴾ تمنعهم حصونهم من حرب الله وبأسه .

ولما كان ظن المؤمنين منفياً هنا ، أجري مجرى نفي الرجاء والطمع ، فتسلط على أن الناصبة للفعل ، كما يتسلط الرجاء والطمع .

ولما كان ظن اليهود قوياً جداً يكاد أن يلحق بالعلم تسلط على أن المشددة ، وهي التي يصحبها غالباً فعل التحقيق ، كعلمت وتحققت وأيقنت ، وحصونهم الوصم والميضاة

والسلاليم والكثيبة .

وقال الزمخشري : فإن قلت : أي فرق بين قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم ، وبين النظم الذي جاء عليه ؟ قلت : في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم ، وفي تصيير ضميرهم اسماً لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في انفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم ، وليس ذلك في قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم .

انتهى ، يعني أن حصونهم هو المبتدأ ، ومانعتهم الخبر ، ولا يتعين هذا ، بل الراجح أن يكون حصونهم فاعلة بمانعتهم ، لأن في توجيهه تقديماً وتأخيراً ، وفي إجازة مثله من نحو : قائم زيد ، على الابتداء ، والخبر خلاف ؛ ومذهب أهل الكوفة منعه .

﴿ فأتاهم الله ﴾ : أي بأسه ، ﴿ من حيث لم يحتسبوا ﴾ : أي لم يكن في حسابهم ، وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف ، قاله السدي وأبو صالح وابن جريج ، وذلك مما أضعف قوتهم .

﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ ، فسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة حتى نزلوا على حكم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴾ ، قال قتادة : خرب المؤمنون من خارج ليدخلوا ، وخربوا هم من داخل ونحوه .

قال الضحاك والزجاج وغيرهما : كانوا كلما خرب المسلمون من حصونهم ، هدموا هم من البيوت ، خربوا الحصن .

وقال الزهري وغيره : كانوا ، لما أبيح لهم ما تستقل به الإبل ، لا يدعون خشبة حسنة ولا سارية إلا قلعوها وخربوا البيوت عنها ، فيكون قوله : ﴿ وأيدي المؤمنين ﴾ إسناد التخريب إليها من حيث كان المؤمنون محاصرتهم إياهم داعية إلى ذلك .

وقيل : شحوا على بقائها سليمة ، فخربوها إفساداً .

وقرأ قتادة والجحدري ومجاهد وأبو حيوة وعيسى وأبو عمر : ويخربون مشدّداً ؛ وباقي السبعة مخففاً ، والقراءتان بمعنى واحد عدى خرب اللازم بالتضعيف وبالهمزة .

وقال صاحب الكامل في القراءات ؛ التشديد الاختيار على التكثير .

وقال أبو عمرو بن العلاء : خرب بمعنى هدم وأفسد ، وأخرب : ترك الموضع خراباً وذهب عنه .

﴿ فاعتبروا ﴾ : تفطنوا لما دبر الله من إخراجهم بتسليط المؤمنين عليهم من غير قتال .

وقيل : وعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المسلمين أن يورثهم الله أرضهم وأموالهم

بغير قتال ، فقال : فكان كما قال ؛ ﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ﴾ : أي لولا أنه تعالى قضى أنه سيجليهم من ديارهم ويبقون مدة يؤمن بعضهم ويولد لبعضهم من يؤمن ، لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي ، كما فعل بإخوانهم بني قريظة .

وكان بنو النضير من الجيش الذين عصوا موسى في كونهم لم يقتلوا الغلام ابن ملك العماليق ، تركوه لجماله وعقله .

وقال موسى عليه السلام : لا تستحيوا منهم أحداً .

فلما رجعوا إلى الشام ، وجدوا موسى عليه السلام قد مات .

فقال لهم بنو إسرائيل : أنتم عصاة ، والله لا دخلتم علينا بلادنا ، فانصرفوا إلى الحجاز ، فكانوا فيه ، فلم يجر عليهم الجلاء الذي أجلاه بخت نصر على أهل الشام .

وكان الله قد كتب على بني إسرائيل جلاء ، فنالهم هذا الجلاء على يد محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالسيف والقتل ، كأهل بدر وغيرهم .

ويقال : جلا القوم عن منازلهم وأجلاهم غيرهم .

قيل : والفرق بين الجلاء والإخراج : أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون

مع بقاء الأهل والولد .

وقال الماوردي : الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج قد يكون لواحد وجماعة .

وقرأ الجمهور : الجلاء ممدوداً ؛ والحسن بن صالح وأخوه علي بن صالح : مقصوراً ؛ وطلحة : مهموزاً من غير ألف كالنبأ .

﴿ ولهم في الآخرة عذاب النار ﴾ : أي إن نجوا من عذاب الدنيا ، لم ينجوا في الآخرة .

وقرأ طلحة : ومن يشاقق بالإظهار ، كالمتفق عليه في الأنفال ؛ والجمهور ؛ بالإدغام .

كان بعض الصحابة قد شرع في بعض نخل بني النضير يقطع ويحرق ، وذلك في صدر الحرب ، فقالوا : ما هذا الإفساد يا محمد وأنت تنهى عن الإفساد ؟ فكفوا عن ذلك ، ونزل : ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ الآية رداً على بني النضير ، وإخباراً أن ذلك بتسويغ الله وتمكينه ليخربكم به ويذلكم .

واللينة والنخلة اسمان بمعنى واحد ، قاله الحسن ومجاهد وابن زيد وعمرو بن ميمون .

وقال الشاعر :

كأن قيودي فوقها عش طائر . . .

على لينة سوقاً يهفو حيونها

وقال آخر :

طراق الحوامي واقع فوق لينة . . .

يدي ليلة في ولشه يترقرق

وقال ابن عباس وجماعة من أهل اللغة : هي النخلة ما لم تكن عجوة .

وقال الثوري : الكريمة من النخل .

وقال أبو عبيدة وسفيان : ما تمرها لون ، وهو نوع من التمر يقال له اللون .

قال سفيان : هو شديد الصفرة يشف عن نواه فيرى من خارج.

وقال أيضاً أبو عبيدة : اللين : ألوان النخل المختلطة التي ليس فيها عجوة ولا برني .

وقال جعفر بن محمد : هي العجوة ، وقيل : هي السيلان ، وأنشد فيه :

غرسوا لينة بمجرى معين . . .

ثم حف النخيل بالآجام

وقيل : هي أغصان الأشجار للينها ، فعلى هذا لا يكون أصل الياء الواو .

وقيل : هي النخلة القصيرة .

وقال الأصمعي : هي الدقل ، وما شرطية منصوبة بقطعتم ، ومن لينة تبيين لإبهام ما ،

وجواب الشرط ﴿ فبإذن الله ﴾ : أي فقطعها أو تركها بإذن الله .

وقرأ الجمهور : ﴿ قائمة ﴾ ، أنث قائمة ، والضمير في ﴿ تركتموها ﴾ على معنى ما .

وقرأ عبد الله والأعمش وزيد بن علي : قوماً على وزن فعل ، كضرب جمع قائم .

وقرئ : قائماً اسم فاعل ، فذكر على لفظ ما ، وأنث في على أصولها .

وقرئ : أصلها بغير واو .

ولما جلا بنو النضير عن أوطانهم وتركوا رباعهم وأموالهم ، طلب المسلمون تخميسها كغنائم بدر ، فنزلت : ﴿ ما أفاء الله على رسوله ﴾ : بين أن أموالهم فيء ، لم يوجف عليها خيل ولا ركاب ولا قطعت مسافة ، إنما كانوا ميلين من المدينة مشوا مشياً ، ولم يركب إلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

قال عمر بن الخطاب : كانت أموال بني النضير لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) خاصة ، ينفق منها على أهله نفقة سنته ، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله تعالى .

وقال الضحاك : كانت له عليه الصلاة والسلام ، فآثر بها المهاجرين وقسمها عليهم ، ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا أبا دجانة وسهل بن حنيف والحرث بن الصمة ، أعطاهم لفقرهم .

وما في قوله : ﴿ وما أفاء الله على رسوله ﴾ شرطية أو موصولة ، وأفاء بمعنى : يفيء ، ولا يكون ماضياً في اللفظ والمعنى ، ولذلك صلة ما الموصولة إذا كانت الباء في خبرها ،

لأنها إذ ذاك شبهت باسم الشرط.

فإن كانت الآية نزلت قبل جلائهم، كانت مخبرة بغيب، فوقع كما أخبرت؛ وإن كانت نزلت بعد حصول أموالهم للرسول (صلى الله عليه وسلم)، كان ذلك بياناً لما يستقبل، وحكم الماضي المتقدم حكمه.

(108/755)

ومن في: ﴿ من خيل ﴾ زائدة في المفعول يدل عليه الاستغراق، والركاب: الإبل، سلط الله رسوله عليهم وعلى ما في أيديهم، كما كان يسلط رسله على من يشاء من أعدائهم.

وقال بعض العلماء: كل ما وقع على الأئمة مما لم يوجف عليه فهو لهم خاصة.

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾، قال الزمخشري: لم يدخل العاطف على هذه الجملة، لأنها بيان للأولى، فهي منها غير أجنبية عنها.

بين لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما يصنع بما أفاء الله عليه، وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوم على الأقسام الخمسة. انتهى.

وقال ابن عطية: أهل القرى المذكورون في هذه الآية هم أهل الصفراء وينبع ووادي القرى وما هنالك من قرى العرب التي تسمى قرى عرينة، وحكمها مخالف لبني النضير، ولم

يحبس من هذه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لنفسه شيئاً ، بل أمضاها لغيره ، وذلك أنها في ذلك الوقت فتحت . انتهى .

وقيل : إن الآية الأولى خاصة في بني النضير ، وهذه الآية عامة .

وقرأ الجمهور : ﴿ كي لا يكون ﴾ بالياء ؛ وعبد الله وأبو جعفر وهشام : بالتاء .

والجمهور : ﴿ دولة ﴾ بضم الدال ونصب التاء ؛ وأبو جعفر وأبو حيوة وهشام : بضمها ؛ وعلي والسلمي : بفتحها .

قال عيسى بن عمر : هما بمعنى واحد .

وقال الكسائي وحذاق البصرة : الفتح في الملك بضم الميم لأنها الفعلة في الدهر ، والضم في الملك بكسر الميم .

والضمير في تكون بالتأنيث عائد على معنى ما ، إذ المراد به الأموال والمغانم ، وذلك الضمير هو اسم ﴿ يكون ﴾ .

وكذلك من قرأ بالياء ، أعاد الضمير على لفظ ما ، أي يكون الفيء ، وانتصب دولة على الخبر .

ومن رفع دولة فتكون تامة ، ودولة فاعل ، وكيلا يكون تعليل لقوله : ﴿ فلله وللرسول ﴾ ، أي فالفيء وحكمه لله وللرسول ، يقسمه على ما أمره الله تعالى ، كي لا يكون الفيء الذي حقه أن يعطى للفقراء بلغة يعيشون بها متداولاً بين الأغنياء يتكاثرون به ، أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم ، كما كان رؤساؤهم يستأثرون بالغنائم ويقولون : من عز بزّ ، والمعنى : كي لا يكون أخذه غلبة وأثرة جاهلية .

وروي أن قوماً من الأنصار تكلموا في هذه القرى المفتتحة وقالوا : لنا منها سهمنا ، فنزل : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

وعن الكلبي : أن رؤوساً من المسلمين قالوا له : يا رسول الله ، خذ صفيك والربع ودعنا والباقي ، فهكذا كنا نفعل في الجاهلية ، فنزل : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ﴾ الآية ، وهذا عام يدخل فيه قسمة ما أفاء الله والغنائم وغيرها ؛ حتى أنه قد استدل بهذا العموم على تحريم الخمر ، وحكم الواشمة والمستوشمة ، وتحريم المخيط للمحرم .

ومن غريب الحكايات في الاستنباط : أن الشافعي ، رحمه الله تعالى ، قال : سلوني عما شئتم أخبركم به من كتاب الله تعالى وسنة النبي (صلى الله عليه وسلم) .

فقال له عبد الله بن محمد بن هارون : ما تقول في المحرم يقتل الزنبور ؟ فقال : قال الله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

وحدثنا سفيان بن عيينة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن ربعي بن خراش ، عن حذيفة بن

اليمان، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر" وحدثنا سفيان بن عيينة، عن مسعر بن كدام، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب، أنه أمر بقتل الزنبور. انتهى.

ويعني في الإحرام.

يبن أنه يقتدي بعمر، وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمر بالاقتداء به، وأن الله تعالى أمر بقبول ما يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم). انتهى انتهى. اهـ ﴿البحر المحيط حـ 8 صـ﴾

(110/755)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة:

﴿ سَبَّحَ للَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾

مرَّ ما فيه من الكلامِ في صدرِ سورةِ الحديدِ وقد كُررَ الموصولُ ههنا لزيادةِ التقريرِ والتنبيهِ على استقلالِ كلَ من الفريقينِ بالتسبيحِ. روي أنه عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة صالحَ بني النضيرِ وهُم رهطٌ من اليهودِ من ذريةِ هارون عليه الصلاة والسلام نزلوا المدينةَ في فتنِ بني إسرائيلَ انتظاراً لبعثِه عليه الصلاة والسلام وعاهدَهُم أنْ لا يكونُوا لهُ ولا عليهِ فلما

ظهرَ عليه الصلاةُ والسلامُ يومَ بدرٍ قالُوا هو النبيُّ الذي نعتُه في التوراةِ لا تردُّ له رايةٌ فلما كان يومُ أحدٍ ما كان ارتابُوا ونكثُوا فخرجَ كعبُ بن الأشرفِ في الأربعينَ راكباً إلى مكةَ فخالفُوا قريشاً عند الكعبةِ على قتالِه عليه الصلاةُ والسلامُ فأمرَ عليه الصلاةُ والسلامُ محمدَ بنَ مَسْلَمَةَ الأنصاريَّ فقتلَ كعباً غِيلةً وكان أخاهُ من الرضاعَةِ ثم صبّحهم بالكتائبِ فقال لهم: اخرُجوا من المدينةِ فاستمهلُوه عليه الصّلاةُ والسّلامُ عشرةَ أيامٍ ليتجهزُوا للخروجِ فدسَّ عبدُ اللَّهِ بنُ أُبي المنافقُ وأصحابُه إليهم لا تخرجوا من الحصنِ فإن قاتلوكم فنحنُ معكم لا نخذلُكم ولئن خرجتم لنخرجَنَّ معكم فدربوا على الأزقَّةِ وحصّنُوها فحاصرهُم النبيّ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ إحدى وعشرينَ ليلةً فلما قذفَ اللهُ في قلوبهم الرعبَ وأيسُوا من نصرِ المنافقينَ طلبُوا الصلح فأبى عليهم إلا الجلاءَ على أن يَحمِلَ كلُّ ثلاثةٍ أبياتٍ على بعيرٍ ما شاءُوا من متاعِهم فجلوا إلى الشامِ إلى أريحا وأذرعاتٍ إلا أهلَ بيتينِ منهم آلُ أبي الحقيقِ وآلُ حُيي بنِ أخطبَ فإنَّهم لحقُوا بخيبرَ ولحقتْ طائفةٌ منهم بالحيرةِ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى * السموات ﴾ إلى قولِه: ﴿ واللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. ﴾

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن ديارهم ﴾ بيانٌ لبعضِ آثارِ عزته تعالى وأحكامِ حكمتِه إثرَ وصفِه تعالى بالعزة القاهرة والحكمةِ الباهرة على الإطلاقِ . والضميرُ راجعٌ إليه تعالى بذلك العنوانِ إما بناءً على كمالِ ظهورِ اتصافه تعالى بهما مع مساعدةٍ تامةٍ من المقامِ أو على جعلِه مُستعاراً لاسمِ الإشارةِ كما في قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ وأبصاركم وَخَتَمَ على قُلُوبِكُمْ مَّنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ أي بذلك وعليهِ قول رُؤْبَةَ بنْ العجاجِ :

كأنَّه في الجلدِ تَوْليعُ البَهَقْ . . . كما هُو المشهورُ كأنه قيلَ : ذلك المنعوتُ بالعزةِ والحكمةِ الذي أخرجَ الخ ففيهِ إشعارٌ بأن في الإخراجِ حكمةً باهرةً وقوله تعالَى : ﴿ لأَوَّلِ الحشر ﴾ أيْ في أولِ حشرِهم إلى الشام وكانوا سبطٍ لم يصبهم جلاءٌ قط وهم أولُ من أخرجَ من جزيرةِ العربِ إلى الشامِ أو هذا أولُ حشرِهم وآخرُ حشرِهم إجلاءُ عمرَ رضي الله عنه أيَّاهم من خيبرَ إلى الشامِ وقيلَ : آخر حشرِم حشرُ يومِ القيامةِ لأنَّ المحشرَ يكونُ بالشامِ .

﴿ مَا ظَنَنتُمْ ﴾ أيها المسلمون ﴿ أَن يَخْرُجُواْ ﴾ من ديارِهم بهذا الذلِ والهوانِ لشدةِ بأسِهم وقوةِ منعتِهم ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ الله ﴾ أيْ ظنوا أنَّ حصونهم

تمنعُهم أو مانعتُهم من بأس الله تعالى . وتغييرُ النظم بتقديم الخبر وإسنادُ الجملةِ إلى ضميرِهم للدلالةِ على كمالِ وثوقِهم بحصانةِ حصونِهم واعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزةٍ ومنعةٍ لا يُبَالى معها بأحدٍ يتعرضُ لهم أو يطمعُ في مُعازّتهم ، ويجوزُ أن يكونَ مانعتُهم خبراً لأنَّ وحصونُهم مرتفعاً على الفاعليةِ ﴿ فاتاهم الله ﴾ أي أمرُ الله تعالى وقدرُه المقدورُ لهم ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ ولم يخطرْ ببالِهم وهو قتلُ رئيسهم كعب بنِ الأشرفِ فإنه مما أضعفَ قوتَهم وفلَّ شوكَتهم وسلب قلوبَهم الأمنَ والطمأنينة . وقيل : الضميرُ في أتاهُم ولم يحتسبوا للمؤمنينَ فأتاهم نصرُ الله وقُرِىءَ فآتاهُم أي فآتاهُم الله العذابَ أو النصرَ ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرعب ﴾ أيْ أثبتَ فيها الخوفَ الذي يرعبُها أي يملؤُها ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ليسدُّوا بما نقضُوا منها من الخشبِ والحجارةِ أفواهَ الأزقةِ ولئلا يبقى بعد جلائهم مساكنُ للمسلمينَ ولينقلُوا معهم بعضَ آلاتِها المرغوبِ فيها مما يقبلُ النقلَ ﴿ وَأَيْدِى المؤمنين ﴾ حيثُ كانوا يخربونَها إزالةً لمتحصَّنِهم ومتمنَّعِهم وتوسيعاً لمجالِ القتالِ ونكايةً لهمْ وإسنادُ هذا إليهم لما أنهمُ السببُ فيه فكأنَّهم كلَّفوهم إيَّاه وأمرُوهم به . قيلَ : الجملةُ حالٌ أو تفسيرٌ للرعبِ وقُرِىءَ يخرِّبونَ بالتشديدِ للتكثيرِ وقيلَ : الإخرابُ التعطيلُ أو تركُ الشيءِ خراباً والتخريبُ النقضُ والهدمُ ﴿ فاعتبروا ياأولى الأبصار ﴾ فاتعظُوا بما جرى عليهمْ من الأمورِ الهائلةِ على وجهٍ لا يكادُ تهتدي إليه الأفكارُ واتَّقوا مباشرةَ ما أدَّاهُم إليه من الكفرِ

(113/755)

والمعاصي ، أو انْتَقَلُوا من حالِ الفريقينِ إلى حالِ أنفسِكم فلا تُعوّلوا على تعاضُدِ الأسبابِ بل توكَّلُوا على اللهِ عزَّ وجلَّ وقدِ استدلَّ به على حجيةِ القياسِ كما فُصِّلَ في موقِعِه .

(114/755)

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ ﴾ أي الخروجَ عن أوطانِهم على ذلك الوجهِ الفظيعِ ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ بالقتلِ والسَّبي كما فعلَ ببني قريظة ﴿ وَلَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ استئنافٌ غيرُ متعلقٍ بجوابِ لولا جيءَ به لبيانِ أنَّهم إنْ نجوا من عذابِ الدُّنيا بكتابةِ الجلاءِ لا نجاةَ لهم منْ عذابِ الآخرةِ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما حاقَ بهم وما سيحيقُ ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسببِ أنهم ﴿ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وفعلُوا ما فعلُوا مما حُكِي عنهُم من القبائحِ ﴿ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ ﴾ وقُرِىءَ يشاققِ اللهَ كما في الأنفالِ والاقتصارُ على ذكرِ مشاقَّتِه تعالى لتضمُّنِها لمشاقَّتِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ وليوافقَ قولَه تعالى ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ وهو إمَّا نفسُ الجزاءِ قد حُذِفَ منه العائدُ إلى عندِ منْ يلتزمُهُ أي شديدُ العقابِ له أو تعليلٌ

للجزاءِ المحذوفِ أي يعاقبُهُ اللهُ فإنَّ اللهَ شديدُ العقابِ وأيّاً مَا كانَ فالشرطيةُ تكملةٌ لما قبلها وتقريرٌ لمضمونِهِ وتحقيقٌ للسببيةِ بالطريقِ البرهانيِّ كأنه قيلَ ذلكَ الذي حاقَ بهم من العقابِ العاجلِ والآجلِ بسببِ مشاقّتِهم للهِ تعالى ورسولِهِ ، وكلُّ من يشاقَّ اللهَ كائناً مَنْ كانَ فلهُ بسببِ ذلكَ عقابٌ شديدٌ فإذنْ لهم عقابٌ شديدٌ ﴿ مَا قَطَعْتُم مّن لّينَةٍ ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ قطعتُمْ من نخلةٍ وهي فِعْلَةٌ من اللَّوْنِ وياؤُهَا مقلوبةٌ من واوٍ لكسرةِ مَا قَبْلها كَدِيمةٍ وتجمعُ على ألوانٍ وقيلَ من اللينِ وتجمعُ على لِينٍ وهيَ النخلةُ الكريمةُ ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا ﴾ الضميرُ لمَا وتأنيثُهُ لتفسيرِهِ باللينةِ كما في قولِهِ تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ ﴿ قَائِمَةً على أُصُولِهَا ﴾ كما كانتْ منْ غيرِ أنْ تتعرضُوا لها بشيءٍ مَا . وقُرِىءَ عَلَى أُصُلِهَا إما على الاكتفاءِ من الواوِ

(115/755)

بالضمِّ أو على أنه جمعُ كُرُهُنٍ ، وقُرِىءَ قائماً على أصولِهِ ذهاباً إلى لفظِ مَا ﴿ فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾ فذاكَ أي قطعُهَا وتركُهَا بأمرِ اللهِ تعالى : ﴿ وَلِيُخْزِىَ الفاسقين ﴾ أي وليذلَّ اليهودَ ويغيظَهُمْ أَذِنَ في قطعِهَا وتركِهَا لأنهُم إذا رأَوا المؤمنينَ يتحكمونَ في أموالِهِمْ كيفَ أحبُّوا ويتصرفونَ فيها حسبما شاؤوا من القطعِ والتركِ يزدادونَ غيظاً ويتضاعفونَ حسرةً

واستُدِلَّ بهِ على جوازِ هدمِ ديارِ الكفرةِ وقطعِ أشجارِهِم وإحراقِ زروعِهِم زيادةً لغيظِهِم. وتخصيصُ اللينةِ بالقطعِ إنْ كانت من الألوانِ لاستبقاءِ العجوةِ والبَرْنيةِ اللتينِ هما كرامُ النخيلِ وإن كانتْ هي الكرامَ ليكونَ غيظُهُم أشدَّ.

(116/755)

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللهُ على رَسُولِهِ ﴾ شروعٌ في بيانِ حالِ ما أُخِذَ من أموالِهِم بعدَ بيانِ ما حلَّ بأنفسِهِم من العذابِ العاجلِ والآجلِ وما فُعِلَ بديارِهِم ونخيلِهِم من التخريبِ والقطعِ. أي ما أعادَهُ إليهِ من مالِهِم وفيه إشعارٌ بأنه كان حقيقياً بأن يكونَ له عليهِ الصلاةُ والسلامُ وإنما وقعَ في أيديهم بغيرِ حقٍ فرجعه الله تعالى إلى مستحقِّهِ لأنه تعالى خلقَ الناسَ لعبادَتِهِ وخلقَ ما خلقَ ليتوسَّلوا به إلى طاعتِهِ فهو جديرٌ بأنْ يكونَ للمطيعينَ ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي منْ بني النَّضيرِ ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي فما أجريتُم على تحصيلِهِ وتغنُّمِهِ. من الوجيفِ وهو سرعةُ السيرِ ﴿ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ هي ما يركبُ من الإبلِ خاصَّةً كما أن الراكبَ عندهم راكبُها لا غيرُ، وأما راكبُ الفرسِ فإنما يسمُّونه فارساً، ولا واحدَ لها من لفظِهَا وإنما الواحدةُ منها راحلةٌ والمعنى ما قطعتُم لها شُقَّةً بعيدةً ولا لقيتُم مشقةً شديدةً ولا قتالاً شديداً وذلك لأنه كانتْ قُراهم على ميلينِ من المدينةِ فمشَوا إليها مشياً

وما كان فيهم راكبٌ إلا النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فافتتحهَا صُلحاً من غيرِ أن يجريَ بينهم مسايفةٌ كأَنَّهُ قيلَ وما أفاءَ اللهُ على رسولِهِ منهم فما حصلتُموه بكدِّ اليمينِ وعرقِ الجبينِ ﴿ ولكنَ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ على مَن يَشاء ﴾ أي سُنَّتُهُ تعالَى جاريةٌ على أنْ يسلطَهُم على مَنْ يشاءُ من أعدائِهم تسليطاً خاصّاً وقد سلَّطَ النبيَّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ على هؤلاءِ تسليطاً غيرَ مُعتادٍ من غيرِ أنْ تقتحموا مضايقَ الخُطُوبِ وتُقَاسُوا شدائِدَ الحروبِ فلا حقَّ لكِمْ في أموالِهم ﴿ واللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيفعلُ ما يشاءُ كما يشاءُ تارةً على الوجوهِ المعهودةِ وأُخْرى على غيرِهَا . وقولهُ تعالى :

(117/755)

﴿ مَّا أَفَاءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ بيانٌ لمصارفِ الفيءِ بعدَ بيانِ إفاءتِهِ عليهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ من غيرِ أن يكونَ للمقاتلةِ فيه حقٌّ وإعادةُ عينِ العبارةِ الأُولى لزيادةِ التقريرِ ، ووضعُ أهلِ القُرى موضعَ ضميرِهِم للإشعارِ بشمولِ مَا لعقاراتِهِم أيضاً ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ اخْتُلِفَ في قسمةِ الفيءِ فقيلَ يُسدَّسُ لظاهرِ الآيةِ ويصرفُ سهمُ اللهِ إلى عمارةِ الكعبةِ وسائرِ المساجدِ ، وقيلَ يُخَمَّسُ لأنَّ ذكرَ اللهِ للتعظيمِ ويصرفُ الآنَ سهمُ الرسولِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إلى الإمامِ على قولٍ ،

وإلى العساكرِ والثغورِ على قولٍ، وإلى مصالحِ المسلمينَ على قولٍ. وقبلَ يُخَمَّسُ خمسةً كالغنيمةِ فإنه عليهِ الصلاةُ والسلامُ كان يُقسّمُ الخمسَ كذلكَ ويصرفُ الأخماسَ الأربعةَ كما يشاءُ والآنَ على الخلافِ المذكورِ ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ ﴾ أي الفيءُ الذي حقُّه أن يكونَ للفقراءِ يعيشونَ به ﴿ دُولَةً ﴾ بضمِّ الدالِ، وقُرِئَ بفتحِها وهيَ ما يدولُ للإنسانِ أيْ يدورُ من الغِنى والجدِّ والغلبةِ.

(118/755)

وقيلَ الدَّولة بالفتحِ من المُلكِ بالضمِّ وبالضمِّ من المِلكِ بكسرِهَا، أو بالضَّمِّ في المالِ وبالفتحِ في النصرةِ. أي كيلا يكونَ جدّاً ﴿ بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ يتكاثرونَ به أو كيلا يكونَ دولةً جاهليةً بينكُمْ؛ فإنَّ الرؤساءَ منهُم كانُوا يستأثرونَ بالغنيمةِ ويقولونَ مَنْ عَزَّ بَزَّ. وقيلَ الدُّولةُ بالضمِّ ما يُتداولُ كالغُرفةِ اسمُ مَا يُغترفُ فالمَعنى كيلا يكونَ الفيْءُ شيئاً يتداولُهُ الأغنياءُ ويتعاورُونَهُ فلا يصيبُ الفقراءَ. والدَّولةُ بالفتحِ بمعنى التداولِ فالمعنَى كيلا يكونَ ذَا تداولٍ بينَهُم أو كيلا يكونَ إمساكُهُ تداولاً بينَهُم لا يخرجونَهُ إلى الفقراءِ. وقُرِئَ دولةٌ بالرفعِ على أنَّ كانَ تامةٌ، أيْ كيلا يقعَ دولةٌ على ما فُصِّلَ منَ المعانِي ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول ﴾ أي ما أعطاكُمُوه من الفيءِ أو منَ الأمرِ ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ فإنه حقُّكم أو فتمسكُوا به فإنه

واجبٌ عليكم ﴿ وَمَا نهاكم عَنْهُ ﴾ عن أخذِهِ أو عنْ تعاطيهِ ﴿ فانتهوا ﴾ عنْهُ ﴿ واتقوا الله ﴾ في مخالفَتِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ﴿ أَنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ فيعاقبُ مَنْ يخالفُ أمرَهُ ونهيَهُ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(119/755)

وقال الآلوسى :

﴿ مَا قَطَعْتُمْ مّن لّينَةٍ ﴾

هي النخلة مطلقاً على ما قال الحسن.

ومجاهد .

وابن زيد .

وعمرو بن ميمون.

والراغب وهي فعلة من اللون وياؤها مقلوبة من واو لكسر ما قبلها كديمة ، وتجمع على ألوان ، وقال ابن عباس.

وجماعة من أهل اللغة : هي النخلة ما لم تكن عجوة ، وقال أبو عبيدة.

وسفيان : ما تمرها لون وهو نوع من التمر ، قال سفيان : شديد الصفرة يشف عن نواه فيرى

من خارج ، وقال أبو عبيدة أيضاً : هي ألوان النخل المختلطة التي ليس فيها عجوة ولا برنى

، وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه : هي العجوة ، وقال الأصمعي : هي الدقل ،

وقيل : هي النخلة القصيرة ، وقال الثوري : الكريمة من النخل كأنهم اشتقوها من اللين

فتجمع على لين ، وجاء جمعها ليانا كما في قول أمرىء القيس

: وسالفة كسحوق الليا . . .

ن أضرم فيه القويّ السعر

وقيل : هي أغصان الأشجار للينها ، وهو قول شاذ ، وأنشدوا على كونها بمعنى النخلة

سواء كانت من اللون أو من اللين قول ذي الرمة

: كأن قنودي فوقها عش طائر . . .

على لينة سوقاء تهفو جنوبها

ويمكن أن يقال : أراد باللينة النخلة الكريمة لأنه يصف الناقة بالعراقة في الكرم فينبغي أن

يرمز في المشبه به إلى ذلك المعنى ، و﴿ مَا ﴾ شرطية منصوبة بقطعتم و﴿ مِّن لِّينَةٍ ﴾

بيان لها ، وأنث الضمير في قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا ﴾ أي

أبقيتموها كما كانت ولم تتعرضوا لها بشيء مّا ، وجواب الشرط قوله سبحانه : ﴿ فَبِإِذْنِ

اللَّهِ ﴾ أي فذلك أي قطعها أو تركها بأمر الله تعالى الواصل إليكم بواسطة رسوله صلى الله

عليه وسلم أو بإرادته سبحانه ومشيئته عز وجل ، وقرأ عبد الله .

والأعمش .

وزيد بن علي قوماً على وزن فعل كضرب جمع قائم ، وقرىء قائماً اسم فاعل مفذكر على لفظ ما ، وأبقى أصولها على التأنيث ، وقرىء أصلها بضمتين ، وأصله ﴿ أُصُولِهَا ﴾ فحذفت الواو اكتفاءاً بالضمة أو هو كرهن بضمتين من غير حذف وتخفيف .

﴿ وَلِيُخْزِيَ الفاسقين ﴾ متعلق بمقدر على أنه علة له وذلك المقدر عطف على مقدر آخر أي ليعز المؤمنين وليخزي الفاسقين أي ليذلهم أذن عز وجل في القطع والترك ، وجوز فيه أن يكون معطوفاً على قوله تعالى : ﴿ بِإِذْنِ الله ﴾ وتعطف العلة على السبب فلا حاجة إلى التقدير فيه ، والمراد بالفاسقين أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب ، ووضع الظاهر موضع المضمر إشعاراً بعلة الحكم ، واعتبار القطع والترك في المعلل هو الظاهر وإخزاؤهم بقطع اللينة لحسرتهم على ذهابها بأيدي أعدائهم المسلمين وبتركها لحسرتهم على بقائها في أيدي أولئك الأعداء كذا في الانتصاف .

قال بعضهم : وهاتان الحسرتان تتحققان كيفما كانت المقطوعة والمتروكة لأن النخل مطلقاً مما يعز على أصحابه فلا تكاد تسمح أنفسهم بتصرف أعدائهم فيه حسبما شاؤوا وعزته على صاحبه الغارس له أعظم من عزته على صاحبه غير الغارس له ، وقد سمعت بعض الغارسين يقول : السعفة عندي كأصبع من أصابع يدي ، وتحقق الحسرة على الذهاب إن كانت المقطوعة النخلة الكريمة أظهر ، وكذا تحققها على البقاء في أيدي أعدائهم المسلمين إن كانت هي المتروكة ، والذي تدل عليه بعض الآثار أن بعض الصحابة كان يقطع الكريمة وبعضهم يقطع غيرها وأقرهما النبي صلى الله عليه وسلم لما أفصح الأول بأن غرضه إغاظة الكفار ، والثاني بأنه استبقاء الكريمة للمسلمين ، وكان ذلك أو نزول المسلمين على أولئك الكفرة ومحاصرتهم لهم ، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام أمر في صدر الحرب بقطع نخيلهم فقالوا : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها ؟! فنزلت الآية ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ الخ ، ولم يتعرض فيها للتحريق لأنه في معنى القطع فاكتفى به عنه ، وأما التعرض للترك مع أنه ليس بفساد عندهم أيضاً فلتقرير عدم كون القطع فساداً لنظمه في سلك ما ليس بفساد إيذاناً بتساويهما في ذلك .

واستدل بالآية على جواز هدم ديار الكفرة وقطع أشجارهم وإحراق زروعهم زيادة لغيظهم ، وحاصل ما ذكره الفقهاء في المسألة أنه إن علم بقاء ذلك في أيدي الكفرة

فالتخريب والتحريق أولى ، وإلا فالإبقاء أولى ما لم يتضمن ذلك مصلحة ، وقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾

(122/755)

شروع في بيان حال ما أخذ من أموالهم بعد بيان ما حل بأنفسهم من العذاب العاجل والآجل وما فعل بديارهم ونخيلهم من التخريب والقطع أي ما أعاده الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم من أولئك الكفرة وهم بنو النضير و ﴿ مَا ﴾ موصولة مبتدأ ، والجملة بعدها صلة ، والعائد محذوف كما أشرنا إليه ، والجملة المقترنة بالفاء بعد خبر ، ويجوز كونها شرطية ، والجملة بعد جواب ، والمراد بما أفاء سبحانه عليه صلى الله عليه وسلم منهم أموالهم التي بقيت بعد جلائهم ، والمراد بإعادتها عليه عليه الصلاة والسلام تحويلها إليه ، وهو إن لم يقتض سبق حصولها له صلى الله عليه وسلم نظير ما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف : 88] ظاهر وإن اقتضى سبق الحصول كان فيما ذكر مجازاً ، وفيه إشعار بأنها كانت حرية بأن تكون له صلى الله عليه وسلم وإنما وقعت في أيديهم بغير حق فأرجعها الله تعالى إلى مستحقها ، وكذا شأن جميع أموال الكفرة التي تكون فيئًا للمؤمنين لأن الله عز وجل خلق الناس لعبادته وخلق ما خلق من الأموال

ليتوسلوا به إلى طاعته فهو جدير بأن يكون للمطيعين ، ولذا قيل للغنيمة التي لا تلحق فيها مشقة : فيء مع أنه من فاء الظل إذا رجع ، ونقل الراغب عن بعضهم أنه سمي بذلك تشبيها بالفيء الذي هو الظل تنبيهاً على أن أشرف أعراض الدنيا يجري مجرى ظل زائل ، و ﴿ أَفَاء ﴾ على ما في البحر بمعنى المضارع أما إذا كانت ﴿ مَا ﴾ شرطية فظاهر ، وأما إذا كانت موصولة فلأنها إذا كانت الفاء في خبرها تكون مشبهة باسم الشرط فإن كانت الآية نازلة قبل جلائهم كانت مخبرة بغيب ، وإن كانت نزلت بعد جلائهم وحصول أموالهم في يد الرسول صلى الله عليه وسلم كانت بياناً لما يستقبل ، وحكم الماضي حكمه ، والذي يدل عليه الأخبار أنها نزلت بعد ، روي أن بني النضير لما أجلوا عن أوطانهم وتركوا رباعهم وأموالهم طلب المسلمون تخميسها كغنائم بدر فنزل ﴿

مَّا أَفَاء الله على رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ الخ فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ، فقد أخرج البخاري .

ومسلم .

وأبو داود .

والترمذي .

والنسائي .

وغيرهم عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله تعالى .

وقال الضحاك : كانت له صلى الله عليه وسلم خاصة فآثر بها المهاجرين وقسمها عليهم ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا أبا دجانة سماك بن خرشة .

وسهل بن حنيف .

والحرث بن الصمة أعطاهم لفقرهم ، وذكر نحوه ابن هشام إلا أنه ذكر الأولين ولم يذكر الحرث ، وكذا لم يذكره ابن سيد الناس ، وذكر أنه أعطى سعد بن معاذ سيفاً لابن أبي الحقيق كان له ذكر عندهم ، ومعني ﴿ مَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ ما أجريتم على تحصيله من الوجيف وهو سرعة السير ، وأنشد عليه أبو حيان قول نصيب

: ألا ربّ ركب قد قطعت وجيفهم . . .

إليك ولولا أنت لم توجف الركب

وقال ابن هشام : ﴿ أَوْجَفْتُمْ ﴾ حركتم وأتعبتم في السير ، وأنشد قول تميم بن مقبل

: مذ أويد بالبيض الحديث صقالها . . .

عن الركب أحياناً إذا الركب أوجفوا

والمآل واحد ، و ﴿ مِنْ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ مِنْ خَيْلٍ ﴾ زائدة في المفعول للتنصيص

على الاستغراق كونه قيل فما أوجفتم عليه فرداً من أفراد الخيل أصلا ﴿ وَلَا رِكَابٍ ﴾

ولا ما يركب من الإبل غلب فيه كما غلب الراكب على راكبه فلا يقال في الأكثر الفصيح :

راكب لمن كان على فرس .

أو حمار ونحوه بل يقال : فارس ونحوه ، وإن كان ذلك عاماً لغيره وضعا .

وإنما لم يعملوا الخيل ولا الركاب بل مشوا إلى حصون بن النضير رجالا إلا رسول الله صلى

الله عليه وسلم فإنه كان على حمار .

(124/755)

أو على جمل كما تقدم لأنها قريبة على نحو ميلين من المدينة فهي قريبة جداً منها ، وكان

المراد إن ما حصل لم يحصل بمشقة عليكم وقتال يعتدّ به منكم ، ولهذا لم يعط صلى الله

عليه وسلم الأنصار إلا من سمعت ، وأما إعطاؤه المهاجرين فلعله لكونهم غرباء فنزلت

غربتهم منزلة السفر والجهاد ، ولما أشير إلى نفي كون حصول ذلك بعملهم أشير إلى علة

حصوله بقوله عز وجل : ﴿ ولكن الله يُسَلّطُ رُسُلَهُ على مَن يَشَاء ﴾ أي ولكن سنته عز وجل جارية على أن يسلط رسله على من يشاء من أعدائهم تسليطاً خاصاً ، وقد سلط رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم على هؤلاء تسليطاً غير معتاد من غير أن تقتحموا مضايق الخطوب وتقاسوا شدائد الحروب فلا حق لكم في أموالهم ، ويكون أمرها مفوضاً إليه صلى الله عليه وسلم ﴿ والله على كُلّ شَيْء قَدِيرٌ ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء تارة على الوجوه المعهودة ، وأخرى على غيرها ، وقيل : الآية في فدك لأن بني النضير حوصروا وقوتلوا دون أهل فدك وهو خلاف ما صحت به الأخبار ، والواقع من القتال شيء لا يعتد به .

﴿ مَّا أَفَاء الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ بيان لحكم ما أفاءه الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم من قرى الكفار على العموم بعد بيان حكم ما أفاءه من بني النضير كما رواه القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج عن محمد بن إسحاق الزخري عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، ويشعر به كلامه رضي الله تعالى عنه في حديث طويل فيه مرافعة علي كرم الله تعالى وجهه .

والعباس في أمر فدك أخرجه البخاري .

ومسلم .

وأبو داود .

والترمذي .

والنسائي .

(125/755)

وغيرهم فالجملة جواب سؤال مقدر ناشىء مما فهم من الكلام السابق فكأن قائلاً يقول : قد علمنا حكم ما أفاء الله تعالى من بني النضير فما حكم ما أفاء عز وجل من غيرهم ؟ فقيل : ﴿ مَّا أَفَاءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ الخ ، ولذا لم يعطف على ما تقدم ، ولم يذكر في الآية قيد الإيجاف ولا عدمه ، والذي يفهم من كتب بعض الشافعية أن تضمنته حكم الفيء لا الغنيمة ولا الأعم ، وفرقوا بينهما قالوا : الفيء ما حصل من الكفار بلا قتال وإيجاف خيل وركاب كجزية وعشر تجارة ، وما صولحوا عليه من غير نحو قتال وما جلوا عنه خوفاً قبل تقابل الجيشين أما بعده فغنيمة ، وما لمرتد قتل أو مات على ردته ، وذمي .

أو معاهد .

أو مستأمن مات بلا وارث مستغرق ، والغنيمة ما حصل من كفار أصليين حربيين بقتال ، وفي حكمه تقابل الجيشين أو إيجاف منا لا من ذميين فإنه لهم ولا يخمس وحكمها مشهور .

وصرح غير واحد من أصحابنا بالفرق أيضاً نقلاً عن المغرب وغيره فقالوا : الغنيمة ما نيل من الكفار عنوة والحرب قائمة وحكمها أن تخمس ، وباقيها للغانمين خاصة ، والفيء ما نيل منهم بعد وضع الحرب أوزارها وصيرورة الدار دار إسلام ، وحكمه أن يكون لكافة المسلمين ولا يخمس أي يصرف جميعه لمصالحهم ؛ ونقل هذا الحكم ابن حجر عمن عدا الشافعي رضي الله تعالى عنه من الأئمة الثلاثة ، والتخميس عنه استدلالاً بالقياس على الغنيمة المخمسة بالنص بجامع أن كلا راجع إلينا من الكفار ، واختلاف السبب بالقتال وعدمه لا يؤثر ، والذي نطقت به الأخبار الصحيحة أن عمر رضي الله تعالى عنه صنع في سواد العراق ما تضمنته الآية ، واعتبرها عامة للمسلمين محتجاً بها على الزبير .

وبلال .

وسلمان الفارسي .

وغيرهم حيث طلبوا منه قسمته على الغانمين بعقاره وعلوجه ، ووافقه على ما أراد

علي .

وعثمان .

وطلحة .

والأكثرون بل المخالفون أيضاً بعد أن قال خاطباً : اللهم اكفني بلالا وأصحابه مع أن

المشهور في كتب المغازي أن السواد فتح عنوة ، وهو يقتضي كونه غنيمة فيقسم بين الغانمين

، ولذا قال بعض الشافعية : إن عمر رضي الله تعالى عنه استطاب قلوب الغانمين حتى

تركوا حقهم فاسترد السواد على أهله بخراج يؤدونه في كل سنة فليراجع وليحقق ، وما

جعله الله تعالى من ذلك لمن تضمنه قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ إلى ﴿ ابن السبيل

﴾ هو خمس الفيء على ما نص عليه بعض الشافعية ، ويقسم هذا الخمس خمسة أسهم :

لمن ذكر الله عز وجل وسهمه سبحانه وسهم رسوله واحد ، وذكره تعالى كما روي عن ابن

عباس .

والحسن بن محمد بن الحنفية افتتاح كلام للتيمن والتبرك فإن لله ما في السماوات وما في

الأرض ، وفيه تعظيم لشأن الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقال أبو العالية : سهم الله تعالى ثابت يصرف إلى بناء بيته وهو الكعبة المشرفة إن كانت

قريبة وإلا فإلى مسجد كل بلدة ثبت فيها الخمس ، ويلزمه أن السهام كانت ستة وهو

خلاف المعروف عن السلف في تفسير ذلك ؛ وسهم الرسول صلى الله عليه وسلم قد كان

له في حياته بالإجماع وهو خمس الخمس وكان ينفق منه على نفسه وعياله ويدخر منه

مؤونة سنة أي لبعض زوجات ويصرف الباقي في مصالح المسلمين ، وسقط عندنا بعد

وفاته عليه الصلاة والسلام قالوا : لأن عمل الخلفاء الراشدين على ذلك وهم أمناء الله تعالى على دينه ولأن الحكم معلق بوصف مشتق وهو الرسول فيكون مبدأ الاشتقاق وهو الرسالة علة ولم توجد في أحد بعده ، وهذا كما سقط الصفى .

(127/755)

ونقل عن الشافعي أنه يصرف للخليفة بعده لأنه عليه الصلاة والسلام كان يستحقه لإمامته دون رسالته ليكون ذلك أبعد عن توهم الأجر على الإبلاغ ، والأكثرون من الشافعية أن ما كان له صلى الله عليه وسلم من خمس الخمس يصرف لمصالح المسلمين كالثغور ، وقضاة البلاد والعلماء المشتغلين بعلوم الشرع وآلاتها ولو مبتدئين ، والأئمة والمؤذنين ولو أغنياء ، وسائر من يشتغل عن نحو كسبه بمصالح المسلمين لعموم نفعهم ، وألحق بهم العاجزون عن الكسب والعطاء إلى رأي الإمام معتبراً سعة المال وضيقه ، ويقدم الأهم فالأهم وجوباً ، وأهمها سد الثغور ، ورد سهمه صلى الله عليه وسلم بعد وفاته للمسلمين الدال عليه قوله عليه الصلاة والسلام في الخبر الصحيح : " مالي مما أفاء الله تعالى عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم " صادق بصرفه لمصالح المسلمين كما أنه صادق بضمه إلى السهام الباقية فيقسم معها على سائر الأصناف ، ولا يسلم ظهوره في هذا دون ذاك ، وسهم لذي

القربى .

وسهم لليتامى .

وسهم للمساكين .

وسهم لابن السبيل فهذه خمسة أسهم الخمس ، والمراد بذي القربى قرابته صلى الله عليه وسلم ، والمراد بهم بنو هاشم .

وبنو المطلب لأنه صلى الله عليه وسلم وضع السهم فيهم دون بني أخيهما شقيقهما عبد شمس ، ومن ذريته عثمان .

وأخيهما لأبيهما نوفل مجيباً عن ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : " نحن وبنو المطلب شيء واحد " وشبك بين أصابعه رواه البخاري أي لم يفارقوا بني هاشم في نصرته صلى الله عليه وسلم جاهلية ولا إسلاماً ، وكأنه لمزيد تعصبهم وتوافقهم حتى كأنهم على قلب رجل واحد قيل : لذي القربى دون لذوي بالجمع .

قال الشافعي : يشترك في هذا الشهم الغني والفقير لإطلاق الآية ولإعطائه صلى الله عليه وسلم العباس وكان غنياً ، بل قيل : كان له عشرون عبداً يتجرون له ، والنساء لأن فاطمة .

وصفية عمة أبيها رضي الله تعالى عنهما كانا يأخذان منه ، ويفضل الذكر كالارث بجامع أنه استحقاق بقرابة الأب فله مثل حظي الأنثى ، ويستوي فيه العالم والصغير وضدهما ، ولو أعرضوا عنه لم يسقط كالإرث ، ويثبت كون الرجل هاشمياً أو مطلبياً بالبينة ، وذكر جمع أنه لا بد معها من الاستفاضة ، ويقول الشافعي قال أحمد ، وعند مالك الأمر مفوض إلى الإمام إن شاء قسم بينهم وإن شاء أعطى بعضهم دون بعض وإن شاء أعطى غيرهم إن كان أمره أهم من أمرهم .

وقال المزني .

والثوري : يستوي الذكر والأنثى ويدفع للقاضي والداني ممن له قرابة ، والغني والفقير سواء لإطلاق النص ، ولأن الحكم المعلق بوصف مشتق معلل بمبدأ الاشتقاق ، وعندنا ذو القربى مخصوص ببني هاشم .

وبني المطلب للحديث إلا أنهم ليس لهم سهم مستقل ولا يعطون مطلقاً ، وإنما يعطي مسكينهم ويتيمهم وابن سبيلهم لاندراجه في ﴿ اليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ لكن يقدمون على غيرهم من هذه الأصناف لأن الخلفاء الثلاثة لم يخرجوا لهم سهماً مخصوصاً ، وإنما قسموا الخمس ثلاثة أسهم : سهم لليتامى .

وسهم للمساكين .

وسهم لابن السبيل ، وعلي كرم الله تعالى وجهه في خلافته لم يخالفهم في ذلك مع مخالفته لهم في مسائل ، ويحمل على الرجوع إلى رأيهم إن صح عنه أنه كان يقول : سهم ذوي القربى على ما حكى عن الشافعي ، وفائدة ذكره على القول بأن استحقاقهم لوصف آخر غير القرابة كالفقر دفع توهم أن الفقير منهم مثلاً لا يستحق شيئاً لأنه من قبيل الصدقة ولا تحل لهم ، ومن تتبع الأخبار وجد فيها اختلافاً كثيراً ؛ ومنها ما يدل على أن الخلفاء كانوا يسهمونهم مطلقاً ، وهو رأي علماء أهل البيت ، واختار بعض أصحابنا أن المذكور في الآية مصارف الخمس على معنى أن كلا يجوز أن يصرف له لا المستحقين فيجوز الاقتصار عندنا على صنف واحد كأن يعطي تمام الخمس لابن السبيل وحده مثلاً .

(129/755)

والكلام مستوفى في "شروح الهداية" والمراد باليتامى الفقراء منهم قال الشافعية : اليتيم هو صغير لا أب له وإن كان له جد ، ويشترط إسلامه وفقره ، أو مسكنته على المشهور أن لفظ اليتيم يشعر بالحاجة ، وفائدة ذكرهم مع شمول المساكين لهم عدم حرمانهم لتوهم أنهم لا يصلحون للجهاد وإفرادهم بخمس كامل ويدخل فيهم ولد الزنا ، والمنفي لا اللقيط على الأوجه لأنا لم نتحقق فقد أبيه على أنه غنى بنفقته في بيت المال ، ولا بد في ثبوت اليتيم

والإسلام والفقر هنا من البينة ، ويكفي في المسكين .

وابن السبيل قولهما ولو بلا يمين .

وإن اتهما ، نعم يظهر في مدعى تلف مال له عرف أو عيال أنه يكلف بينة انتهى ، واشتراط الفقر في اليتيم مصرح به عندنا في أكثر الكتب وليراجع الباقي .

هذا والأربعة الأخماس الباقية مصرفها على ما قال صاحب الكشف وهو شافعي بعد أن اختار جعل ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ بدلا من ﴿ القربى واليتامى ﴾ وما عطف عليه من تضمنه قوله تعالى : ﴿ والذين ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ والذين ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ [الحشر : 9 - 10] على معنى أن له عليه الصلاة والسلام أن يعم الناس بها حسب اختياره ، وقال : إنها للمقاتلين الآن على الأصح ، وفي تحفة ابن حجر أنها على الأظهر للمرتزقة وقضاتهم وأئمتهم ومؤذنيهم وعمالهم ما لم يوجد تبرع ، والمرتزقة الأجناد الموصودون في الديوان للجهاد لحصول النصرة بهم بعده صلى الله عليه وسلم ، وصرح في التحفة بأن الأكثرين على أن هذه الأخماس الأربعة كانت له عليه الصلاة والسلام مع خمس الخمس ، فجملة ما كان يأخذه صلى الله عليه وسلم من الفيء أحد وعشرون سهماً من خمسة وعشرين ، وكان على ما قال الروياني : يصرف العشرين التي له عليه الصلاة والسلام يعني الأربعة الأخماس للمصالح وجوباً في قول وندبا في آخر ، وقال الغزالي : كان الفيب كله له صلى الله عليه وسلم في حياته ، وإنما خمس بعد وفاته .

وقال الماوردي : كان له صلى الله عليه وسلم في أول حياته ثم نسخ في آخرها ، وقال الزمخشري : إن قوله تعالى : ﴿ مَّا أَفَاءَ اللهُ ﴾ الخ بيان للجملة الأولى يعني قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ [الحشر : 6] ولذا لم يدخل العاطف عليها بين فيها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصنع بما أفاء الله تعالى عليه وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوماً على الأقسام الخمسة ، وظاهره أن الجملة استئناف بياني ، والسؤال عن مصارف ما أفاء الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم من بني النضير الذي أفادت الجملة الأولى أن أمره مفوض إليه صلى الله عليه وسلم لا يلزم أن يقسم قسمة الغنائم التي قوتل عليها قتالاً معتداً به ، وأخذت عنوة وقهراً كما طلب الغزاة لتكون أربعة أخماسها لهم وأن ما يوضع موضع الخمس من الغنائم هو الكل لا أن خمسه كذلك والباقي وهو أربعة أخماسه لمن تضمنه قوله تعالى :

﴿ والذين ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ والذين ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ [الحشر : 10] على ما سمعت سابقاً ، وأن المراد بأهل القرى هو المراد بالضمير في ﴿ مِنْهُمْ ﴾ [الحشر : 6] أعني بني النضير ، وعدل عن الضمير إلى ذلك على ما في الإرشاد إشعاراً بشمول ما في ﴿

مَّا أَفَاء اللّه ﴾ لعقاراتهم أيضاً ، واعترض صاحب الكشف ما يشعر به الظاهر من أن الآية دالة على أمره صلى الله عليه وسلم بأن يضع الجميع حيث يضع الخمس من الغنائم ، ووجه الآية بما أيد به مذهبه ، ودقق الكلام في ذلك فليراجع وليتدبر .

(131/755)

وقال ابن عطية ﴿ أَهْلَ القرى ﴾ المذكورون في الآية هم أهل الصفراء وينبع ووادي القرى ، وما هنالك من قرى العرب التي تسمى قرى عرينة وحكمها مخالف لحكم أموال بني النضير فإن تلك كلها له صلى الله عليه وسلم خاصة ، وهذه قسمها كغيرها ، وقيل : المراد بما أفاء الله على رسوله خيبر ، وكان نصفها لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ونصفها الآخر للمسلمين فكان الذي لله سبحانه ورسوله عليه الصلاة والسلام من ذلك الكتيبة .

والوطيح .

وسلالم .

ووخدة ، وكان الذي للمسلمين الشق ، وكان ثلاثة عشر سهماً ، ونطاة وكانت خمسة أسهم ، ولم يقسم عليه الصلاة والسلام من خيبر لأحد من المسلمين إلا لمن شهد الحديبية ،

ولم يأذن صلى الله عليه وسلم لأحد تخلف عنه عند مخرجه إلى الحديبية أن يشهد معه خيبر إلا جابر بن عبد الله ابن عمرو الأنصاري ، وروي هذا عن ابن عباس ، وخص بعضهم ما أفاء الله تعالى بالجزية والخراج .

وعن الزهري أنه قال : بلغني أنه ذلك ، وأنت قد سمعت أن عمر رضي الله تعالى عنه إنما احتج بهذه الآية على إبقاء سواد العراق بأيادي أهله ، وضرب الخراج والجزية عليهم رداً على من طلب قسمته على الغزاة بعلوجه لكن ليس ذلك إلا لأن وصول نفع ما أفاء الله تعالى إلى عامة المسلمين كان بما ذكر دون القسمة فافهم .

وفي إعادة اللام في الرسول .

وذي القربى مع العاطف ما لا يخفى من الاعتناء ، وفيه على ما قيل : تأييد ما لمن يذهب إلى عدم سقوط سهيهما ، ووجه إفراد ذي القربى قد ذكرناه غير بعيد ولما كان أبناء السبيل بمنزلة الأقارب قيل : ﴿ وابن السبيل ﴾ بالأفراد كما قيل : ﴿ وَلِذِى القربى ﴾ وعلى ذلك قوله

: أيا جارتا إنا غريبان ههنا . . .

وكل غريب للغريب نسيب

﴿ كَى لاَيَكُونَ ﴾ تعليل للتقسيم ، وضمير ﴿ يَكُونَ ﴾ لما أفاء الله تعالى أي كي لا يكون

الفيء ﴿ دُولَةً ﴾ هي بالضم، وكذا بالفتح ما يدول أي ما يدور للإنسان من الغناء والجد والغلبة، وقال الكسائي.

(132/755)

وحذاق البصرة: الدولة بالفتح في الملك بالضم، والدولة بالضم في الملك بالكسر، أو بالضم في المال.

وبالفتح في النصرة قيل: وفي الجاه، وقيل: هي بالضم ما يتداول كالغرفة اسم ما يغترف.

وبالفتح مصدر بمعنى التداول، والراغب.

وعيسى بن عمر.

وكثير أنهما بمعنى واحد، وجمهور القراء قرأوا بضم الدال والنصب، وبالياء التحتية في يكون على أن اسم ﴿ يَكُونَ ﴾ الضمير، و﴿ دُولَةً ﴾ الخبر أي كي لا يكون الفيء جدّاً ﴿ بَيْنَ الاغنياء مِنكُمْ ﴾ أي بينهم خاصة يتكاثرون به، أو كي ﴿ لاَ يَكُونَ دُولَةً ﴾ وغلبة جاهلية بينكم فإن الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ويقولون من عزيز، وقيل: المعنى كي لا يكون شيئاً يتداوله الأغنياء خاصة بينهم ويتعاورونه فلا يصيب أحداً من الفقراء.

وقرأ عبد الله تكون بالتاء الفوقية على أن الضمير على ما باعتبار المعنى إذ المراد بها الأموال ، وقرأ أبو جعفر .

وهشام كذلك ؛ ورفع ﴿ دُولَةً ﴾ بضم الدال على أن كان تامة ، و﴿ دُولَةً ﴾ فاعل أي كي لا يقع دولة ، وقرأ عليه .

(133/755)

والسلمي كذلك أيضاً ، ونصب ﴿ دُولَةً ﴾ بفتح الدال على أن كان ناقصاً اسمها ما سمعت ، و﴿ دُولَةً ﴾ خبرها ، ويقدر مضاف على القول بأنها مصدر إن لم يتجوز فيه ، ولم يقصد المبالغة أي كي لا تكون ذات تداول بين الأغنياء لا يخرجونها إلى الفقراء ، وظاهر التعليل بما ذكر اعتبار الفقر فيمن ذكر وعدم اتصافه تعالى به ضروري مع أن ذكره سبحانه كان للتيمن عند الأكثرين لا لأن له عز وجل سهماً ، وكذا يجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يسمى فقيراً ، وما اشتهر من قوله عليه الصلاة والسلام : " الفقر فخري " لا أصل له ، وكيف يتوهم مثله والدنيا كلها لا تساوي عند الله تعالى جناح بعوضة ، وهو صلى الله عليه وسلم أحب خلقه إليه سبحانه حتى قال بعض العارفين : لا يقال له صلى الله عليه وسلم زاهد لأنه التارك للدنيا وهو عليه الصلاة والسلام لا يتوجه إليها فضلاً عن

طلبها اللازم للترك ، وقيل : إن الخبر لو صح يكون المراد بالفقر فيه الانقطاع عن السوي بالمرة إلى الله عز وجل وهو غير الفقر الذي الكلام فيه واعتباره فيمن بعد لا محذور فيه حتى أنه ربما يكون دليلاً على القول بأنه لا يعطي أغنياء ذوي القربى ، وإنما يعطي فقراؤهم ، وإذا حمل الكلام على ما حملناه عليه كفى في التعليل أن يكون فيمن يدفع إليه شيء من الفيء فقر ، ولا يلزم أن كل من يدفع إليه شيء منه فقيراً ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول ﴾ أي ما أعطاكم من الفيء ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ لأنه حقكم الذي أحله الله تعالى لكم ﴿ وَمَا نهاكم عَنْهُ ﴾ أي عن أخذه منه ﴿ فانتهوا ﴾ عنه ﴿ واتقوا الله ﴾ في مخالفته عليه الصلاة والسلام ﴿ أَنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ فيعاقب من يخالفه صلى الله عليه وسلم ، وحمل الآية على خصوص الفيء مروي عن الحسن وكان لذلك لقرينة المقام ، وفي "الكشاف" الأجود أن تكون عامة في كل ما أمر به صلى الله عليه وسلم ونهى عنه ، وأمر الفيء داخل في العموم ، وذلك لعموم لفظ ﴿ مَا ﴾ على أن الواو

لا تصح عاطفة فهي اعتراض على سبيل التذييل ، ولذلك عقب بقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ تعميماً فيتناول كل ما يجب أن يتقي ؛ ويدخل ما سيق له الكلام دخولاً أولياً

كدخوله في العموم الأول ، وروى ذلك عن ابن جريج .

وأخرج الشيخان .

وأبو داود .

والترمذي .

وغيرهم عن ابن مسعود أنه قال : " لُعِنَ الله تَعَالَى الرياح بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ أءلاه مَّعَ الله تَعَالَى " فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب وكانت تقرأ القرآن : فأتته فقالت : بلغني أنك لعنت كيت وكيت ، فقال : ما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله عز وجل ، فقالت : لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته ، قال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه ، أما قرأت قوله تعالى : ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فانتهوا ﴾ ؟ قالت : بلى ، قال : فإنه صلى الله عليه وسلم قد نهى عنه ، وعن الشافعي أنه قال : سلوني عما شئتم أخبركم به من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقال عبد الله بن محمد بن هرون : ما تقول في المحرم يقتل الزنبور ؟ فقال : قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فانتهوا واتقوا ﴾ .

وحدثنا سفيان بن عينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن خراش عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعم "

وحدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب أنه أمر بقتل الزنبور ، وهذا من غريب الاستدلال ، وفيه على علاته ككلام ابن مسعود حمل ما في الآية على العموم ، وعن ابن عباس ما يدل على ذلك أيضاً ، قيل : والمعنى حينئذ ما آتاكم الرسول من الأمر فتمسكوا به وما نهاكم عن تعاطيه فانتهوا عنه ، والأمر جوز أن يكون واحد الأمور وأن يكون واحد الأوامر لمقابلة نهاكم له ، قيل : والأول أقرب لأنه لا يقال : أعطاه الأمر بمعنى أمره إلا بتكلف كما لا يخفى ، واستنبط من الآية أن وجوب الترك يتوقف على تحقق النهي ولا يكفي فيه عدم الأمر فما لم يتعرض له أمراً ولا نهياً لا يجب تركه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(136/755)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ سَبَّحَ للَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾

قد تقدّم تفسير هذا في سورة الحديد .

﴿ هُوَ الذى أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن ديارهم لأَوَّلِ الحشر ﴾ هم بنو النضير ، وهم .

رهط من اليهود من ذرية هارون ، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل انتظاراً منهم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فغدروا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم بعد أن عاهدوه ، وصاروا عليه مع المشركين ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رضوا بالجلاء .

قال الكلبي : كانوا أوّل من أجلي من أهل الذمّة من جزيرة العرب ، ثم أجلي آخرهم في زمن عمر بن الخطاب ، فكان جلاؤهم أوّل حشر من المدينة ، وآخر حشر إجلاء عمر لهم .

وقيل : إن أوّل الحشر إخراجهم من حصونهم إلى خيبر ، وآخر الحشر إخراجهم من خيبر إلى الشام ، وقيل : آخر الحشر هو حشر جميع الناس إلى أرض المحشر ، وهي الشام .

قال عكرمة : من شك أن المحشر يوم القيامة في الشام ، فليقرأ هذه الآية ، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لهم : " اخرجوا " ، قالوا : إلى أين؟ قال : " إلى أرض المحشر " قال ابن العربي : الحشر أوّل وأوسط وآخر ، فالأوّل إجلاء بني النضير ، والأوسط إجلاء أهل خيبر ، والآخر يوم القيامة .

وقد أجمع المفسرون على أن هؤلاء المذكورين في الآية هم بنو النضير ، ولم يخالف في ذلك إلاّ الحسن البصري فقال : هم بنو قريظة ، وهو غلط ، فإن بني قريظة ما حشروا ، بل قتلوا بحكم سعد بن معاذ لما رضوا بحكمه ، فحكم عليهم بأن تقتل مقاتلهم ، وتسبي ذراريهم ،

وتغنم أموالهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : "لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة" واللام في ﴿ لأوّل الحشر ﴾ متعلقة ب ﴿ أخرج ﴾ ، وهي لام التوقيت كقوله : ﴿ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ [الإسراء : 78] .

(137/755)

﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ﴾ هذا خطاب للمسلمين ، أي : ما ظننتم أيها المسلمون أن بني النضير يخرجون من ديارهم ؛ لعزتهم ، ومنعتهم ، وذلك أنهم كانوا أهل حصون مانعة ، وعقار ، ونخيل واسعة ، وأهل عدد وعدّة ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مّنَ الله ﴾ أي : وظنّ بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من بأس الله ، وقوله : ﴿ مَّانِعَتُهُمْ ﴾ خبر مقدّم ، و ﴿ حصونهم ﴾ مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر ﴿ أنهم ﴾ ، ويجوز أن يكون ﴿ مانعتهم ﴾ خبر ﴿ أنهم ﴾ ، و ﴿ حصونهم ﴾ فاعل ﴿ مانعتهم ﴾ ، ورجح الثاني أبو حيان ، والأوّل أولى ﴿ فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ أي : أتاهم أمر الله من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم أمره من تلك الجهة ، وهو أنه سبحانه أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بقتالهم وإجلائهم وكانوا لا يظنون ذلك ، وقيل : هو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف ، قاله ابن جريج ، والسديّ ، وأبو صالح ، فإنّ قتله أضعف شوكتهم .

وقيل : إن الضمير في ﴿ أتاهم ﴾ ، و ﴿ لم يحتسبوا ﴾ للمؤمنين ، أي : فأتاهم نصر الله من حيث لم يحتسبوا ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرعب ﴾ فإن قذف الرعب كان في قلوب بني النضير ، لا في قلوب المسلمين .

قال أهل اللغة : الرعب : الخوف الذي يرعب الصدر ، أي : يملؤه ، وقذفه : إثباته فيه .

وقيل : كان قذف الرعب في قلوبهم بقتل سيدهم كعب بن الأشرف ، والأولى عدم تقييده بذلك ، وتفسيره به ، بل المراد بالرعب الذي قذفه الله في قلوبهم هو الذي ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم : " نصرت بالرعب مسيرة شهر " ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى المؤمنين ﴾ وذلك أنهم لما أيقنوا بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم ، فجعلوا يخربونها من داخل ، والمسلمون من خارج .

قال قتادة والضحاك : كان المؤمنون يخربون من خارج ، ليدخلوا ، واليهود من داخل ليبنوا به ما خرب من حصنهم .

قال الزجاج : معنى تخريبها بأيدي المؤمنين : أنهم عرضوها لذلك .

قرأ الجمهور : ﴿ يخربون ﴾ بالتخفيف ، وقرأ الحسن ، والسلمي ، ونصر بن عاصم ، وأبو

العالية ، وأبو عمرو بالتشديد .

قال أبو عمرو : إنما اخترت القراءة بالتشديد ، لأن الإخراب ترك الشيء خراباً ، وإنما خربوها بالهدم .

وليس ما قاله بمسلم ، فإن التخريب والإخراب عند أهل اللغة بمعنى واحد .

قال سيبويه : إن معنى فعلت وأفعلت يتعاقبان نحو أخربته وخربته ، وأفرحته وفرحته .

واختار القراءة الأولى أبو عبيد ، وأبو حاتم .

قال الزهري ، وابن زيد ، وعروة بن الزبير : لما صالحهم النبيّ صلى الله عليه وسلم على أن لهم ما أقلت الإبل ، كانوا يستحسنون الخشبة ، أو العمود ، فيهدمون بيوتهم ، ويحملون ذلك على إبلهم ، ويخرب المؤمنون باقيها .

وقال الزهري أيضاً : ﴿ يخربون بيوتهم ﴾ بنقض المعاهدة ، و ﴿ أيدي المؤمنين ﴾ بالمقاتلة ، وقال أبو عمرو : بأيديهم في تركهم لها ، وب ﴿ أيدي المؤمنين ﴾ في إجلائهم عنها ، والجملة إما مستأنفة لبيان ما فعلوه ، أو في محل نصب على الحال ﴿ فاعتبروا ياأولى الأبصار ﴾ أي : اتعظوا وتدبروا ، وانظروا فيما نزل بهم يا أهل العقول والبصائر .

قال الواحدي : ومعنى الاعتبار : النظر في الأمور ليعرف بها شيء آخر من جنسها .

﴿ وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ الله عَلَيْهِمُ الجلاء لَعَذَّبَهُمْ فِى الدنيا ﴾ أي : لولا أن كتب الله عليهم الخروج من أوطانهم على ذلك الوجه ، وقضى به عليهم لعذبهم بالقتل والسبي في الدنيا ،

كما فعل ببني قريظة.

والجلاء: مفارقة الوطن، يقال: جلا بنفسه جلاء، وأجلاه غيره إجلاءً.

والفرق بين الجلاء والإخراج، وإن كان معناهما في الإبعاد واحداً من جهتين: إحداهما: أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد.

الثاني: أن الجلاء لا يكون إلاّ لجماعة، والإخراج يكون لجماعة ولواحد، كذا قال الماوردي.

﴿ وَلَهُمْ فِى الآخرة عَذَابُ النار ﴾ هذه الجملة مستأنفة غير متعلقة بجواب لولا متضمنة لبيان ما يحصل لهم في الآخرة من العذاب، وإن نجوا من عذاب الدنيا، والإشارة بقوله: ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم ذكره من الجلاء في الدنيا، والعذاب في الآخرة ﴿ بِأَنَّهُمْ شَاقُّواْ الله وَرَسُولَهُ ﴾ أي: بسبب المشاقة منهم لله ولرسوله بعدم الطاعة، والميل مع الكفار، ونقض العهد ﴿ وَمَن يُشَاقِّ الله فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ اقتصر هاهنا على مشاقة الله؛ لأن مشاقته مشاقة لرسوله.

قرأ الجمهور: ﴿ يشاق ﴾ بالإدغام، وقرأ طلحة بن مصرف، ومحمد بن السميفع: (

يشاقق) بالفك .

﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾ قال مجاهد : إن بعض المهاجرين وقعوا في قطع النخل ، فنهاهم بعضهم ، وقالوا : إنما هي مغانم للمسلمين ، وقال الذين قطعوا : بل هو غيظ للعدوّ ؛ فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطع النخل ، وتحليل من قطعه من الإثم فقال : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ ﴾ قال قتادة ، والضحاك : إنهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ست نخلات .

وقال محمد بن إسحاق : إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة ، فقال بنو النضير ، وهم أهل كتاب : يا محمد ألست تزعم أنك نبيّ تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخل ، وحرق الشجر ؟ ، وهل وجدت ، فيما أنزل عليك إباحة الفساد في الأرض ، فشقّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجد المسلمون في أنفسهم ، فنزلت الآية ، ومعنى الآية : أيّ شيء قطعتم من ذلك أو تركتم فبإذن الله ، والضمير في ﴿ تركتموها ﴾ عائد إلى "ما" لتفسيرها باللينة ، وكذا في قوله : ﴿ قَائِمَةً على أُصُولِهَا ﴾ ، ومعنى ﴿ على أُصُولِهَا ﴾ : أنها باقية على ما هي عليه .

واختلف المفسرون في تفسير اللينة ، فقال الزهري ، ومالك ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، والخليل : إنها النخل كله إلاّ العجوة .

وقال مجاهد : إنها النخل كله ، ولم يستثن عجوة ولا غيرها .

وقال الثوري : هي كرام النخل .

وقال أبو عبيدة : إنها جميع أنواع التمر سوى العجوة والبرني .

وقال جعفر بن محمد : إنها العجوة خاصة ، وقيل : هي ضرب من النخل ، يقال لتمره : اللون ، تمره أجود التمر .

وقال الأصمعي : هي الدقل .

وأصل اللينة .

لونة ، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، وجمع اللينة لين ، وقيل : ليان .

وقرأ ابن مسعود (ما قطعتم من لينة ولا تركتم قوماً على أصولها) أي : قائمة على سوقها ، وقرىء : (على أصلها) ، وقرىء : (قائماً على أصوله) ﴿ وَلِيُخْزِىَ الفاسقين ﴾ أي : ليذلّ الخارجين عن الطاعة ، وهم اليهود ، ويغيظهم في قطعها وتركها ، لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون في أموالهم كيف شاءوا من القطع والترك ازدادوا غيظاً .

قال الزجاج : ﴿ وليخزي الفاسقين ﴾ بأن يريهم أموالهم يتحكم فيها المؤمنون كيف أحبوا من قطع وترك ، والتقدير : وليخزي الفاسقين أذن في ذلك ، يدل على المحذوف قوله : ﴿ فَبِإِذْنِ الله ﴾ ، وقد استدلّ بهذه الآية على جواز الاجتهاد ، وعلى تصويب المجتهدين ،

والبحث مستوفى في كتب الأصول .

﴿ وَمَا أَفَاء الله على رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ أي : ما ردّه عليه من أموال الكفار ، يقال : فاء يفيء ، إذا رجع ، والضمير في ﴿ منهم ﴾ عائد إلى بني النضير ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يقال : وجف الفرس والبعير يجف وجفاً ، وهو سرعة السير ، وأوجفه صاحبه : إذا حمله على السير السريع ، ومنه قول تميم بن مقبل :

مذ أويد بالبيض الحديد صقالها . . . عن الركب أحياناً إذا الركب أوجفوا

وقال نصيب :

ألا رُبّ ركب قد قطعت وجيفهم . . . إليك ولولا أنت لم يوجف الركب

(141/755)

و"ما" في ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ ﴾ نافية ، والفاء جواب الشرط إن كانت "ما" في قوله : ﴿ مَّا أَفَاء الله ﴾ شرطية ، وإن موصولة ، فالفاء زائدة ، "ومن" في قوله : ﴿ مِنْ خَيْلٍ ﴾ زائدة للتأكيد ، والركاب .

ما يركب من الإبل خاصة ، والمعنى : أن ما ردّ الله على رسوله من أموال بني النضير لم تركبوا لتحصيله خيلاً ، ولا إبلاً ، ولا تجشمتم لها شقة ، ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقة ،

وإنما كانت من المدينة على ميلين ، فجعل الله سبحانه أموال بني النضير لرسوله صلى الله عليه وسلم ، خاصة لهذا السبب ، فإنه افتتحها صلحاً ، وأخذ أموالها ، وقد كان سأله المسلمون أن يقسم لهم ، فنزلت الآية : ﴿ ولكن الله يُسَلّطُ رُسُلَهُ على مَن يَشَاء ﴾ من أعدائه ، وفي هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، دون أصحابه لكونهم لم يوجفوا عليها بخيل ، ولا ركاب ، بل مشوا إليها مشياً ، ولم يقاسوا فيها شيئًا من شدائد الحروب ، ﴿ والله على كُلّ شَيْء قَدِيرٌ ﴾ يسلط من يشاء على من أراد ، ويعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 23] .

﴿ مَّا أَفَاء الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ هذا بيان لمصارف الفيء بعد بيان أنه لرسول الله خاصة ، والتكرير لقصد التقرير والتأكيد ، ووضع ﴿ أهل القرى ﴾ موضع قوله : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي : من بني النضير للإشعار بأن هذا الحكم لا يختصّ ببني النضير وحدهم ، بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم صلحاً ، ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب .

قيل : والمراد بالقرى : بنو النضير ، وقريظة ، وفدك ، وخيبر .

وقد تكلم أهل العلم في هذه الآية والتي قبلها ، هل معناهما متفق ، أو مختلف ؟ فقيل :

معناهما متفق كما ذكرنا ، وقيل : مختلف وفي ذلك كلام لأهل العلم طويل .

قال ابن العربي : لا إشكال أنها ثلاثة معانٍ في ثلاث آيات .

(142/755)

أما الآية الأولى ، وهي قوله : ﴿ وَمَا أَفَاء الله على رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ فهي خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة له ، وهي أموال بني النضير وما كان مثلها .

وأما الآية الثانية ، وهي قوله : ﴿ مَّا أَفَاء الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ فهذا كلام مبتدأ غير الأوّل بمستحق غير الأول ، وإن اشتركت هي والأولى في أن كل واحدة منهما تضمنت شيئاً أفاءه الله على رسوله ، واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال ، واقتضت آية الأنفال ، وهي الآية الثالثة أنه حاصل بقتال ، وعريت الآية الثانية ، وهي قوله : ﴿ مَّا أَفَاء الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ عن ذكر حصوله بقتال ، أو بغير قتال ، فنشأ الخلاف من ها هنا ؛ فطائفة قالت : هي ملحقة بالأولى ، وهي مال الصلح ، وطائفة قالت : هي ملحقة بالثالثة ، وهي آية الأنفال .

والذين قالوا : إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا هل هي منسوخة ، أو محكمة ؟ هذا معنى حاصل كلامه .

وقال مالك : إن الآية الأولى من هذه السورة خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآية الثانية : هي في بني قريظة ، ويعني : أن معناها يعود إلى آية الأنفال .

ومذهب الشافعي أن سبيل خمس الفيء سبيل خمس الغنيمة ، وأنّ أربعة أخماسه كانت للنبيّ صلى الله عليه وسلم وهي بعده لمصالح المسلمين ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ المراد بقوله : ﴿ لِلَّهِ ﴾ أنه ﴿ يحكم فيه بما يشاء ﴾ ﴿ وَلِلرَّسُولِ ﴾ يكون ملكاً له ﴿ وَلِذِى القربى ﴾ وهم بنو هاشم ، وبنو المطلب ، لأنهم قد منعوا من الصدقة ، فجعل لهم حقاً في الفيء .

قيل : تكون القسمة في هذا المال على أن يكون أربعة أخماسه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخمسه يقسم أخماساً .

للرّسول خمس ، ولكل صنف من الأصناف الأربعة المذكورة خمس ، وقيل : يقسم أسداساً .

(143/755)

السادس : سهم الله سبحانه ، ويصرف إلى وجوه القرب ، كعمارة المساجد ، ونحو ذلك ﴿ كيلاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأغنياء مِنكُمْ ﴾ أي : كيلا يكون الفيء دولة بين الأغنياء دون

الفقراء ، والدولة : اسم للشيء يتداوله القوم بينهم ، يكون لهذا مرّة ولهذا مرّة .

قال مقاتل : المعنى : أنه يغلب الأغنياء الفقراء ، فيقسمونه بينهم .

قرأ الجمهور : ﴿ يكون ﴾ بالتحتية ﴿ دولة ﴾ بالنصب أي : كيلا يكون الفيء دولة .

وقرأ أبو جعفر ، والأعرج ، وهشام ، وأبو حيان : (تكون) بالفوقية " دولة " بالرفع ، أي : كيلا تقع ، أو توجد دولة ، وكان تامة .

وقرأ الجمهور : " دولة " بضم الدال .

وقرأ أبو حيوة ، والسلمي بفتحها .

قال عيسى بن عمر ، ويونس ، والأصمعي : هما لغتان بمعنى واحد .

وقال أبو عمرو بن العلاء : الدولة بالفتح الذي يتداول من الأموال ، وبالضم الفعل ، وكذا قال أبو عبيدة .

ثم لما بيّن لهم سبحانه مصارف هذا المال أمرهم بالاقتداء برسوله صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فانتهوا ﴾ أي : ما أعطاكم من مال الغنيمة فخذوه ، وما نهاكم عن أخذه فانتهوا عنه ، ولا تأخذوه .

قال الحسن ، والسديّ : ما أعطاكم من مال الفيء فاقبلوه ، وما منعكم منه فلا تطلبوه .

وقال ابن جريج : ما آتاكم من طاعتي فافعلوا ، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه .

والحقّ أن هذه الآية عامة في كل شيء يأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر أو

نهي ، أو قول أو فعل ، وإن كان السبب خاصاً ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وكل شيء أتانا به من الشرع ، فقد أعطانا إياه ، وأوصله إلينا ، وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها .

ثم لما أمرهم بأخذ ما أمرهم به الرّسول ، وترك ما نهاهم عنه أمرهم بتقواه ، وخوفهم شدّة عقوبته ، فقال : ﴿ واتقوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ فهو معاقب من لم يأخذه ما آتاه الرّسول ، ولم يترك ما نهاه عنه .

(144/755)

وقد أخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت : كانت غزوة بني النضير ، – وهم طائفة من اليهود – على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكان منزلهم ، ونخلهم في ناحية المدينة ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة ، والأموال إلاّ الحلقة ، يعني : السلاح ، فأنزل الله فيهم ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ لأَوَّلِ الحشر مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ﴾ فقاتلهم النبيّ حتى صالحهم على الإجلاء ، وجلاهم إلى الشام ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا ، وكان الله قد كتب عليهم ذلك ، ولولا ذلك

لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي ، وأما قوله : ﴿ لأوّلِ الحشر ﴾ فكان إجلاؤهم ذلك أوّل حشر في الدنيا إلى الشام .

وأخرج البزار ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقيّ في البعث عن ابن عباس قال : من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية : ﴿ هُوَ الذى أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن ديارهم لأوّلِ الحشر ﴾ قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذٍ : " اخرجوا " ، قالوا : " إلى أين ؟ قال : إلى أرض المحشر " .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقيّ في الدلائل ، وابن عساكر عن ابن عباس قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ ، فأعطوه ما أراد منهم ، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم ، وأن يسيروا إلى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء .

وفي البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرق نخل بني النضير ، وقطع وهي البويرة ، ولها يقول حسان :

لهان على سراة بني لؤيّ . . . حريق بالبويرة مستطير

فأنزل الله : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الفاسقين ﴾ .

وأخرج الترمذي وحسنه ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : اللينة : النخلة ﴿ وَلِيُخْزِيَ الفاسقين ﴾ قال : استنزلوهم من حصونهم ، وأمروا بقطع النخل ، فحكّ في صدورهم ، فقال المسلمون : قد قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً ، فلنسألنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لنا فيما قطعنا من أجر ، وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ الآية ، وفي الباب أحاديث ، والكلام في صلح بني النضير مبسوط في كتب السير .

وأخرج البخاريّ ، ومسلم ، وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله ، ومما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدّة في سبيل الله .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ ﴾ فجعل ما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكم فيه ما أراد ، ولم يكن يومئذٍ خيل ولا ركاب يوجف بها .

قال : والإيجاف أن يوضعوا السير ، وهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان من ذلك

خيبر ، وفدك ، وقرى عرينة .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعمد لينبع ، فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاحتواها كلها ، فقال ناس : هلا قسمها الله ، فأنزل الله عذره فقال : ﴿ مَّا أَفَاء الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ الآية .

(146/755)

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال : كان ما أفاء الله على رسوله من خيبر نصف لله ورسوله ، والنصف الآخر للمسلمين ، فكان الذي لله ورسوله من ذلك الكثيبة ، والوطيح ، وسلالم ، ووحدوه ، وكان الذي للمسلمين الشقّ : ثلاثة عشر سهماً ، ونطاة خمسة أسهم ، ولم يقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر لأحد من المسلمين إلاّ لمن شهد الحديبية ، ولم يأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد من المسلمين تخلف عنه عند مخرجه إلى الحديبية أن يشهد معه خيبر إلاّ جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاريّ .

وأخرج أبو داود ، وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم صفايا في النضير ، وخيبر ، وفدك ، فأما بنو النضير فكانت حبساً لنوائبه ، وأما فدك فكانت لابن السبيل ، وأما خيبر فجزأها ثلاثة أجزاء : قسم منها جزءين بين

المسلمين ، وحبس جزءاً لنفسه ولنفقة أهله ، فما فضل عن نفقة أهله ردّها على فقراء المهاجرين .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن سعد ، وابن أبي شيبة ، وابن زنجويه في الأموال ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال : ما على وجه الأرض مسلم إلاّ وله في هذا الفيء حقّ إلاّ ما ملكت أيمانكم .

وأخرج البخاريّ ، ومسلم ، وغيرهما عن ابن مسعود قال : " لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والمتنمصات والمتفلجات للحسن ، المغيرات لخلق الله " ، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها : أمّ يعقوب ، فجاءت ابن مسعود ، فقالت : بلغني أنك لعنت كيت وكيت ، قال : وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في كتاب الله ؟ قالت : لقد قرأت ما بين الدّفتين ، فما وجدت فيه شيئًا من هذا ، قال : لئن كنت قرأته لقد وجدته ، أما قرأت ﴿ ومَا آتاكم الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فانتهوا ﴾ قالت : بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 194 . 200 ﴾

(147/755)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

استئناف ابتدائي أفضى به إلى المقصد من السورة عن أحكام أموال بني النضير وإشارة الآية إلى ما حدث في حصار بني النضير وذلك أنهم قبل أن يستسلموا اعتصموا بحصونهم فحاصرهم المسلمون وكانت حوائطهم خارج قريتهم وكانت الحوائط تسمى البُويرة (بضم الباء الموحدة وفتح الواو وهي تصغير بؤر بهمزة مضمومة بعد الباء فخففت واواً) عمد بعض المسلمين إلى قطع بعض نخيل النضير قيل بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم وقيل بدون أمره ولكنه لم يغيره عليهم .

فقيل كان ذلك ليوسعوا مكاناً لمُعسكرهم ، وقيل لتخويف بني النضير ونكايتهم ، وأمسك بعض الجيش عن قطع النخيل وقالوا : لا تقطعوا مما أفاء الله علينا .

وقد ذكر أن النخلات التي قطعت ست نخلات أو نخلتان .

فقالت اليهود : يا محمد ألست تزعم أنك نبي تريد الصلاح أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر ، وهل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد في الأرض فأنزل الله هذه الآية .

والمعنى : أن ما قطعوا من النخل أريد به مصلحة إلجاء العدوّ إلى الاستسلام وإلقاء الرعب في قلوبهم وإذلالِهم بأن يروا أكرم أموالهم عرضة للإتلاف بأيدي المسلمين ، وأن ما أبقي لم يقطع في بقائه مصلحة لأنه آيل إلى المسلمين فيما أفاء الله عليهم فكان في كلا القطع والإِبقاء

مصلحة فتعارض المصلحتان فكان حكم الله تخيير المسلمين.

والتصرف في وجوه المصالح يكون تابعاً لاختلاف الأحوال، فجعل الله القطع والإبقاء كليهما بإذنه، أي مرضياً عنده، فأطلق الإذن على الرضى على سبيل الكناية، أو أطلق إذن الله على إذن رسوله صلى الله عليه وسلم إن ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن بذلك ابتداء، ثم أمر بالكف عنه.

وكلام الأيمة غير واضح في إذن النبي صلى الله عليه وسلم فيه ابتداء وأظهر أقوالهم قول مجاهد: إن القطع والامتناع منه كان اختلافاً بين المسلمين، وأن الآية نزلت بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم.

وفي ذلك قال حسان بن ثابت يتورك على المشركين بمكة إذ غلب المسلمون بني النضير أحلافهم ويتورك على بني النضير إذ لم ينصرهم أحلافهم المشركون من قريش:

تفاقد معشر نصرُوا قريشاً

وليس لهم ببلدتهم نصير...

وهان على سَراة بني لُؤيّ

حريقٌ بالبُوَيْرة مستطيرُ . . .

يريد سراة أهل مكة وكلهم من بني لؤيّ بن غالب بن فهر ، وفهر هو قريش أي لم ينقذوا أحلافهم لهوانهم عليهم .

وأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو يومئذٍ مشرك:

أدام الله ذلك من صنيع . . .

وحَرَّق في نواحيها السعير

ستعلم أيُّنا منها بنزْه . . .

وتعلم أيَّ أرضينا تضير

يريد أن التحريق وقع بنواحي مدينتكم فلا يضير إلا أرضكم ولا يضير أرضنا ، فقوله : أدام الله ذلك من صنيع ، تهكم .

ومن هذه الآية أخذ المحققون من الفقهاء أن تحريق دار العدوّ وتخريبها وقطع ثمارها جائز إذا دعت إليه المصلحة المتعينة وهو قول مالك .

وإتلافُ بعض المال لإنقاذ باقيه مصلحة وقوله : ﴿ من لينة ﴾ بيان لما في قوله : ﴿ ما قطعتم ﴾ .

واللِّينة : النخلة ذات الثمر الطيِّب تُطلق اسم اللينة على كل نخلة غيرِ العجوةِ والبرنيِّ في قول جمهور أهل المدينة وأيمة اللغة .

وتمر اللِّينة يسمى اللَّوْن .

وإيثار ﴿ لينة ﴾ على نخلة لأنه أخف ولذلك لم يرد لفظ نخلة مفرداً في القرآن ، وإنما ورد النخل اسم جمع .

قال أهل اللغة : ياء لينة أصلها واوٌ انقلبت ياء لوقوعها إثر كسرة ولم يذكروا سبب كسر أوله ويقال : لِونة وهو ظاهر .

(149/755)

وفي كتب السيرة يذكر أن بعض نخل بني النضير أحرقه المسلمون وقد تضمن ذلك شعر حسان ولم يذكر القرآن الحرق فلعل خبر الحرق مما أُرجف به فتناقله بعض الرواة ، وجرى عليه شعر حسّان وشعر أبي سفيان بن الحارث ، أو أن النخلات التي قطعت أحرقها الجيش للطبخ أو للدفء .

وجيء بالحال في قوله : ﴿ قائمة على أصولها ﴾ لتصوير هيئتها وحسنها .

وفيه إيماء إلى أن ترك القطع أولى .

وضمير ﴿ أصولها ﴾ عائد إلى ﴿ ما ﴾ الموصولة في قوله تعالى : ﴿ ما قطعتم ﴾ لأن مدلول ﴿ ما ﴾ هنا جمع وليس عائداً إلى ﴿ لينة ﴾ لأن اللّينة ليس لها عدة أصول بل

لكل ليّنة أصل واحد .

وتعلق ﴿ على أصولها ﴾ بـ ﴿ قائمة ﴾ .

والمقصود : زيادة تصوير حسنها .

والأصول : القواعد .

والمراد هنا : سوق النخل قال تعالى : ﴿ أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴾ [إبراهيم : 24] .

ووصفها بأنها ﴿ قائمة على أصولها ﴾ هو بتقدير : قائمة فروعها على أصولها لظهور أن أصل النخلة بعضها .

والفاء من قوله : ﴿ فبإذن الله ﴾ مزيدة في خبر المبتدأ لأنه اسم موصول ، واسم الموصول يعامل معاملة الشرط كثيراً إذا ضُمن معنى التسبب ، وقد قرئ بالفاء وبدونها قوله تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم ﴾ في سورة [الشورى : 30] .

وعطف وليخزي الفاسقين ﴾ من عطف العلة على السبب وهو ﴿ فبإذن الله ﴾ لأن السبب في معنى العلة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ﴾ الآية في [آل عمران : 166] .

والمعنى : فقطعُ ما قطعتم من النخل وترك ما تركتم لأن الله أذن للمسلمين به لصلاح لهم فيه ، وليخزي الفاسقين ﴾ ، أي ليهين بني النضير فيروا كرائم أموالهم بعضها مخضود وبعضها

بأيدي أعدائهم .

فذلك عزة للمؤمنين وخزي للكافرين والمراد بـ ﴿ الفاسقين ﴾ هنا : يهود النضير .

(150/755)

وعُدل عن الإتيان بضميرهم كما أتي بضمائرهم من قبل ومن بعد إلى التعبير عنهم بوصف ﴿ الفاسقين ﴾ لأن الوصف المشتق يؤذن بسبب ما اشتق منه في ثبوت الحكم ، أي ليجزيهم لأجل الفسق .

والفسق : الكفر .

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6)

يجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ [الحشر : 5] الآية فتكون امتناناً وتكملة لمصارف أموال بني النضير .

ويجوز أن تكون عطفاً على مجموع ما تقدم عطفَ القصة على القصة والغرض على الغرض للانتقال إلى التعريف بمصير أموال بني النضير لئلا يختلف رجال المسلمين في قسمته .

ولبيان أن ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم في قسمة أموال بني النضير هو عدلٌ إن

كانت الآية نزلت بعد القسمة وَمَا صَدَقُ ﴿ ما أفاء الله ﴾ هو ما تركوه من الأرض والنخل والنقض والحطب.

والفَيء معروف في اصطلاح الغزاة، ففعل أفاء أعطَى الفيء، فالفيء في الحروب والغارات ما يظفر به الجيْشُ من متاع عدوّهم وهو أعم من الغنيمة ولم يتحقق أئمة اللغة في أصل اشتقاقه فيكون الفيء بقتال ويكون بدون قتال، وأما الغنيمة فهي ما أخذ بقتال.

وضمير ﴿ منهم ﴾ عائد إلى ﴿ الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ [الحشر : 2] الواقع في أول السورة وهم بنو النضير.

وقيل: أريد به الكفار، وأنه نزَّل في فيء فدك فهذا بعيد ومخالف للآثار.

وقوله: ﴿ فما أوجفتم عليه ﴾ خبر عن (ما) الموصولة قرن بالفاء لأن الموصول كالشرط لتضمنه معنى التسبب كما تقدم آنفاً في قوله: ﴿ فبإذن الله ﴾ [الحشر : 5].

وهو بصريحه امتنان على المسلمين بأن الله ساق لهم أموال بني النضير دون قتال، مثل قوله تعالى: ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ [الأحزاب : 25]، ويفيد مع ذلك كناية بأن يقصد بالإِخبار عنه بأنهم لم يُوجفوا عليه لازمُ الخبر وهو أنه ليس لهم سبب حقَ فيه.

والمعنى : فما هو من حقّكم ، أو لا تسألوا قسمته لأنكم لم تنالوه بقتالكم ولكن الله أعطاه رسوله صلى الله عليه وسلم نعمة منه بلا مشقة ولا نصَب .

والإِيجاف : نوع من سَير الخيل .

وهو سَير سريع بإِيقاع وأريد به الركض للإِغارة لأنه يكون سريعاً .

والركابُ : اسم جمع للإِبل التي تُركَبُ .

والمعنى : ما أغرتم عليه بخيل ولا إبل .

وحرف (على) في قوله تعالى : ﴿ فما أوجفتم عليه ﴾ للتعليل ، وليس لتعدية ﴿ أوجفتم ﴾ لأن معنى الإِيجاف لا يتعدى إلى الفيء بحرف الجر ، أو متعلقٌ بمحذوف هو مصدر ﴿ أوجفتم ﴾ ، أي إيجافاً لأجله .

و﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ من خيل ﴾ زائدة داخلة على النكرة في سياق النفي ومدخول ﴿ مِن ﴾ في معنى المفعول به ل ﴿ أوجفتم ﴾ أي ما سقتم خيلاً ولا ركاباً .

وقوله : ﴿ ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ﴾ استدراك على النفي الذي في قوله تعالى : ﴿ فما أوجفتم عليه ﴾ لرفع توهم أنه لا حقّ فيه لأحد .

والمراد : أن الله سلط عليه رسوله صلى الله عليه وسلم فالرسول أحق به .

وهذا التركيب يفيد قصراً معنوياً كأنه قيل : فما سلطكم الله عليهم ولكن سلط عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم

وفي قوله تعالى : ﴿ ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ﴾ إيجاز حذف لأن التقدير : ولكن الله سلط عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم والله يسلط رُسله على من يشاء وكان هذا بمنزلة التذييل لعمومه وهو دال على المقدر .

وعموم ﴿ من يشاء ﴾ لشمول أنه يسلط رسله على مقاتلين ويسلطهم على غير المقاتلين .

(152/755)

والمعنى : وما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم إنما هو بتسليط الله رسوله صلى الله عليه وسلم عليهم ، وإلقاء الرعب في قلوبهم والله يسلط رسله على من يشاء .

فأغنى التذييل عن المحذوف ، أي فلا حقّ لكم فيه فيكون من مال الله يتصرّف فيه رسوله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمور من بعده .

فتكون الآية تبييناً لما وقع في قسمة فيء بني النضير .

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقسمه على جميع الغُزاة ولكن قسمه على المهاجرين سواء كانوا مِمَّن غزوا معهُ أم لم يغزوا إذ لم يكن للمهاجرين أموالٌ .

فأراد أن يكفيهم ويكفي الأنصار ما مَنحوه المهاجرين من النخيل .

ولم يعط منه الأنصار إلا ثلاثة لشدة حاجتهم وهم أبو دَجانة (سِماك بن خزينة) ، وسَهلُ

بن حنيف ، والحارث بن الصِّمَّة .

وأعطى سعد بنَ معاذ سيفَ أبي الحُقيق ، وكل ذلك تصرّف باجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الله جعل تلك الأموال له .

فإن كانت الآية نزلت بعد أن قسمت أموال النضير كانت بياناً بأن ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم حقٌّ ، أمره الله به ، أو جعله إليه ، وإن كانت نزلت قبل القسمة ، إذ روي أن سبب نزولها أن الجيش سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تخميس أموال بني النضير مثل غنائم بدر فنزلت هذه الآية ، كانت الآية تشريعاً لاستحقاق هذه الأموال .

قال أبو بكر ابن العربي : "لا خلاف بين العلماء أن الآية الأولى خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي هذه الآية الأولى من الآيتين المذكورتين في هذه السورة خاصة بأموال بني النضير ، وعلى أنها خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يضعها حيث يشاء .

وبذلك قال عمر بن الخطاب بمحضر عثمان ، وعبد الرحمان بن عوف ، والزبير ، وسعد ، وهو قول مالك فيما روى عنه ابن القاسم وابن وهب .

قال : كانت أموال بني النضير صافية لرسول الله صلى الله عليه وسلم واتفقوا على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخمسها .

واختُلف في القياس عليها كل مال لم يوجف عليه .

قال ابن عطية : قال بعض العلماء وكذلك كل ما فتح الله على الأيمة مما لم يوجف عليه فهو لهم خاصة اه .

وسيأتي تفسير ذلك في الآية بعدها .

مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ

جمهور العلماء جعلوا هذه الآية ابتداء كلام ، أي على الاستئناف الابتدائي ، وأنها قصد منها حكم غير الحكم الذي تضمنته الآية التي قبلها .

ومن هؤلاء مالك وهو قول الحنفية فجعلوا مضمون الآية التي قبلها أموالَ بني النضير خاصة ، وجعلوا الآية الثانية هذه إخباراً عن حكم الأَفيَاء التي حصلت عند فتح قرىً أخرى بعد غزوة بني النضير .

مثل قريظة سنة خمس ، وفَدكٍ سنة سبع ، ونحوهما فعيّنته هذه الآية للأصناف المذكورة فيها ، ولا حق في ذلك لأهل الجيش أيضاً وهذا الذي يجري على وفاق كلام عمر بن الخطاب في قضائه بين العباس وعلي فيما بأيديهما من أموال بني النضير على احتمال فيه ، وهو الذي يقتضيه تغيير أسلوب التعْبير بقوله هنا : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل

القرى ﴾ بعد أن قال في التي قبلها ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ [الحشر : 6] فإن ضمير ﴿ منهم ﴾ راجع ل ﴿ الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ [الحشر : 2] وهم بنو النضير لا محالة .

وعلى هذا القول يجوز أن تكون هذه الآية نزلت عقب الآية الأولى ، ويجوز أن تكون نزلت بعد مدة فإن فتح القُرى وقع بعد فتح النضير بنحو سنتين .

(154/755)

ومن العلماء من جعل هذه الآية كلمة وبياناً للآية التي قبلها ، أي بياناً للإجمال الواقع في قوله تعالى : ﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ﴾ الآية [الحشر : 6] ، لأن الآية التي قبلها اقتصرت على الإِعلام بأن أهل الجيْش لا حقّ لهم فيه ، ولم تبين مستحقَّه وأشعر قولُه ﴿ ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ﴾ [الحشر : 6] أنه مَال للّه تعالى يضعه حيث شاء على يد رسوله صلى الله عليه وسلم فقد بيّن الله له مستحقّيه من غير أهل الجيش .

فموقع هذه الآية من التي قبلها موقع عطف البيان .

ولذلك فصلت .

وممن قال بهذا الشافعيّ وعليه جرى تفسير صاحب "الكشاف" .

ومقتضى هذا أن تكون أموال بني النضير مما يُخَمّس ولم يرو أحد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمّسها بل ثبت ضدُّه ، وعلى هذا يكون حكم أموال بني النضير حكماً خاصاً ، أو تكون هذه الآية ناسخة للآية التي قبلها إن كانت نزلت بعدها بمدة .

قال ابن الفرس : آية ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ .

وهذه الآية من المشكلات إذا نُظرت مع الآية التي قبلها ومع آية الغنيمة من سورة الأنفال .

ولا خلاف في أن قوله تعالى : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم الآية ﴾ [الحشر : 6] إنما نزلت فيما صار لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أموال الكفار بغير إيجاف ، وبذلك فسّرها عُمر ولم يخالفه أحد .

وأما آية الأنفال فلا خلاف أنها نزلت فيما صار من أموال الكفار بإيجاف ، وأما الآية الثانية من الحشر فاختلف أهل العلم فيها فمنهم من أضافها إلى التي قبلها ، ومنهم من أضافها إلى آية الأنفال وأنهما نزلتا بحكمين مختلفين في الغنيمة الموجف عليها ، وأن آية الأنفال نسخت آية الحشر .

ومنهم من قال : إنها نزلت في معنى ثالث غير المعنيين المذكورين في الآيتين : واختلف الذاهبون إلى هذا : فقيل نزلت في خراج الأرض والجزية دون بقية الأموال ، وقيل نزلت في حكم الأرض خاصة دون سائر أموال الكفار (فتكون تخصيصاً لآية الأنفال) وإلى هذا ذهب مالك .

والآية عند أهل هذه المقالة غير منسوخة .

ومنهم من ذهب إلى تخيير الإمام أ هـ .

والتعريف في قوله تعالى : ﴿ من أهل القرى ﴾ تعريف العهد وهي قرى معروفة عُدّت منها : قريظة ، وفَدَك ، وقرى عُرينة ، واليُنْبُع ، ووادي القُرى ، والصفراء ، فتحت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم واختلف الناس في فتحها أكان عنوة أو صلحاً أو فَيئاً .

والأكثر على أن فَدَك كانت مثل النضير .

ولا يختص جعله للرسول بخصوص ذات الرسول صلى الله عليه وسلم بل مثله فيه أئمة المسلمين .

وتقييد الفيء بفيء القرى جَرى على الغالب لأن الغالب أن لا تفتح إلا القرى لأن أهلها يحاصَرون فيستسلمون ويعطُون بأيديهم إذا اشتد عليهم الحصار ، فأما النازلون بالبوادي فلا يُغلبون إلا بعد إيجاف وقتال فليس لقيد ﴿ من أهل القرى ﴾ مفهوم عندنا ، وقد اختلف الفقهاء في حكم الفيء الذي يحصل للمسلمين بدون إيجاف .

فمذهب مالك أنه لا يخمَّس وإنما تخمس الغنائم وهي ما غنمه المسلمون بإيجاف وقتال .

وذهب أبو حنيفة إلى التفصيل بين الأموال غير الأرضين وبين الأرضين .

فأما غير الأرضين فهو مخمّس ، وأما الأرضون فالخيار فيها للإمام بما يراه أصلح إن شاء قسّمها وخمس أهلها فهم أرقاء ، وإن شاء تركها على ملك أهلها وجعل خراجاً عليها وعلى أنفسهم .

وذهب الشافعي إلى أن جميع أموال الحرب مخمّسة وحمل حكم هاته الآية على حكم آية سورة الأنفال بالتخصيص أو بالنسخ .

وذهب أبو حنيفة إلى التفصيل بين الأموال غير الأرضين وبين الأرضين .

(156/755)

فأما غير الأرضين فهو مخمّس ، وأما الأرضون فالتفويض فيها للإمام بما يراه أصلح إن شاء قسّمها وخمس أهلها فهم أرقاء ، وإن شاء أقرّ أهلها بها وجعل خراجاً عليها وعلى أنفسهم .

وهذه الآية اقتضت أن صنفاً مما أفاء الله على المسلمين لم يجعل الله فيه نصيباً للغزاة وبذلك تحصل معارضة بين مقتضاها وبين قصر آية الأنفال التي لم تجعل لمن ذكروا في هذه الآية إلا

الخمس ، فقال جمع من العلماء : إن آية الأنفال نسخت حكم هذه الآية .

وقال جمع : هذه الآية نسخت آيةَ الأنفال .

وقال قتادة : كانت الغنائم في صدر الإسلام لهؤلاء الأصناف الخمسة ثم نسخ ذلك بآية الأنفال ، وبذلك قال زيد بن رومان : قال القرطبي ونحوه عن مالك اهـ .

على أن سورة الأنفال سابقة في النزول على سورة الحشر لأن الأنفال نزلت في غنائم بدر وسورة الحشر نزلت بعدها بسنتين .

إلا أن يقول قائل : إن آية الأنفال نزلت بعد آية الحشر تجديداً لما شرعه الله من التخميس في غنائم بدر ، أي فتكون آية الحشر ناسخة لما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في قسمة مغانم بدر ، ثم نسخت آية الأنفال آية الحشر .

فيكون إلحاقها بسورة الأنفال بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم وقال القرطبي : قيل إن سورة الحشر نزلت بعد الأنفال ، واتفقوا على أن تخميس الغنائم هو الذي استقر عليه العمل ، أي بفعل النبي صلى الله عليه وسلم وبالإجماع .

وليس يبعد عندي أن تكون القرى التي عنتها آية الحشر فتحت بحالة مترددة بين مجرد الفيء وبين الغنيمة ، فشُرع لها حكم خاص بها ، وإذ قد كانت حالتها غير منضبطة تعذر أن نقيس عليها ونُسخ حكمها واستقرّ الأمر على انحصار الفتوح في حالتين : حالة الفيء المجرد وما ليس مجردَ فيء .

وسقط حكم آية الحشر بالنسخ أو بالإِجماع .

والإِجماع على مخالفة حكم النص يعتبر ناسخاً لأنه يتضمن ناسخاً .

(157/755)

وعن معمر أنه قال : بلغني أن هذه الآية أي آية ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ نزلت في أرض الخراج والجزْية .

ومن العلماء من حملها على أرض الكفار إذا أخذت عنوة مثل سواد العراق دون ما كان من أموالهم غير أرض .

كل ذلك من الحيرة في الجمع بين هذه الآية وآية سورة الأنفال مع أنها متقدمة على هذه مع ما روي عن عمر في قضية حكمه بين العباس وعلي ، ومع ما فعله عُمر في سواد العراق ، وقد عرفت موقع كل .

وستعرف وجه ما فعله عمر في سواد العراق عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ [الحشر : 10] .

ومن العلماء من جعل محمل هذه الآية على الغنائم كلها بناء على تفسيرهم الفيء بما يرادف الغنيمة .

وزعموا أنها منسوخة بآية الأنفال .

وتقدم ما هو المراد من ذكر اسم الله تعالى في عداد من لهم المغانم والفيءُ والأصناف المذكورة في هذه الآية تقدم بيانها في سورة الأنفال .

و ﴿ كي لا يكون دولة ﴾ الخ تعليل لما اقتضاه لام التمليك من جعله ملكاً لأصناف كثيرة الأفراد ، أي جعلناه مقسوماً على هؤلاء لأجل أن لا يكون الفيء دُولة بين الأغنياء من المسلمين ، أي لئلا يتداوله الأغنياء ولا ينال أهلَ الحاجة نصيب منه .

والمقصود من ذلك .

إبطال ما كان معتاداً في العرب قبل الإِسلام من استئثار قائد الجيش بأمور من المغانم وهي : المرباع ، والصفايا ، وما صالح عليه عدوّه دون قتال ، والنشيطة ، والفضول .

قال عبد الله بن عَنمة الضبّيّ يخاطب بِسطام بن قَيس سيد بني شيبان وقائدَهم في أيامهم:

لك المِرباع منها والصفايا . . .
وحُكْمك والنشيطةَ والفُضُول

فالمرباع : ربُع المغانم كان يستأثر به قائد الجيش .

والصفايا : النفيس من المغانم الذي لا نظير له فتتعذر قسمته ، كان يستأثر به قائد الجيش ، وأما حُكمه فهو ما أعطاه العدوُّ من المال إذا نزلوا على حكم أمير الجيش .

والنشيطة : ما يصيبه الجيش في طريقه من مال عدوّهم قبل أن يصلوا إلى موضع القتال .

والفُضُول : ما يبْقى بعد قسمة المغانم مما لا يقبل القسمة على رؤوس الغُزاة مثل بعيرٍ وفرس . وقد أبطل الإِسلام ذلك كله فجعل الفيء مصروفاً إلى ستة مصارف راجعة فوائدها إلى عموم المسلمين لسدّ حاجاتهم العامة والخاصة ، فإن ما هو لله وللرسول صلى الله عليه وسلم إنما يجعله الله لما يأمر به رسوله صلى الله عليه وسلم وجعل الخمس من المغانم كذلك لتلك المصارف .

وقد بدا من هذا التعليل أن من مقاصد الشريعة أن يكون المال دُولة بين الأمة الإِسلامية على نظام محكم في انتقاله من كل مال لم يسبق عليه ملك لأحد مثل المَوات ، والفيء ، واللقطات ، والركاز ، أو كان جزءاً معيناً مثل : الزكاة ، والكفارات ، وتخميس المغانم ، والخراج ، والمواريث ، وعقود المعاملات التي بين جانبي مال وعمل مثل : القراض والمغارسة ، والمساقاة ، وفي الأموال التي يظفر بها الظافر بدون عمل وسعي مثل : الفيء والرّكاز ، وما ألقاه البحر ، وقد بينت ذلك في الكتاب الذي سميتُه "مقاصد الشريعة الإِسلامية" .

والدُولة بضم الدال : ما يتداوله المتداولون .

والتداول : التعاقب في التصرف في شيء .

وخصها الاستعمال بتداول الأموال .

والدَولة بفتح الدال : النوبة في الغلبة والملك .

ولذلك أجمع القراء المشهورون على قراءتها في هذه الآية بضم الدال .

وقرأ الجمهور ﴿ كي لا يكون دولة ﴾ بنصب ﴿ دولةً ﴾ على أنه خبر ﴿ يكون ﴾ .

واسم ﴿ يكون ﴾ ضمير عائد إلى ما أفاء الله ، وقرأه هشام عن ابن عامر ، وأبو جعفر برفع ﴿ دولةٌ ﴾ على أنَّ ﴿ يكون ﴾ تامة و ﴿ دولةٌ ﴾ فاعله .

وقرأ الجمهور ﴿ يكون ﴾ بتحتية في أوله .

وقرأه أبو جعفر ﴿ تكونَ ﴾ بمثناة فوقية جرياً على تأنيث فاعله .

واختلف الرواة عن هشام فبعضهم روى عنه موافقة (أبي جعفر) في تاء ﴿ تكون ﴾ وبعضهم روى عنه موافقة الجمهور في الياء .

والخطاب في قوله تعالى : ﴿ بين الأغنياء منكم ﴾ للمسلمين لأنهم الذين خوطبوا في ابتداء السورة بقوله : ﴿ ما ظننتم أن يخرجوا ﴾ [الحشر : 2] ثم قوله : ﴿ ما قطعتم من لينة

﴾ [الحشر : 5] وما بعده .

وجعله ابن عطية خطاباً للأنصار لأن المهاجرين لم يكن لهم في ذلك الوقت غنى .

والمراد بـ ﴿ الأغنياء ﴾ الذين هم مظنة الغنى ، وهم الغُزاة لأنهم أغنياء بالمغانم والأنفال .

﴿ مِنكُمْ وَمَآ ءاتاكم الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فانتهوا واتقوا الله إِنَّ الله شَدِيدُ ﴾ .

اعتراض ذّيل به حكم فَيْء بني النضير إذ هو أمر بالأخذ بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ومما جاءت به هذه الآيات في شأن فيْء النضير ، والواو اعتراضية ، والقصد من هذا التذييل إزالة ما في نفوس بعض الجيش من حزازة حرمانهم مما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من أرض النضير .

والإِيتاء مستعار لتبليغ الأمر إليهم ، جعل تشريعه وتبليغه كإيتاء شيء بأيديهم كما قال تعالى : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ [البقرة : 63 و93] واستعير الأخذ أيضاً لقبول الأمر والرضى به والعمل .

وقرينة ذلك مقابلته بقوله تعالى : ﴿ وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وهو تتميم لنوعي التشريع .

وهذه الآية جامعة للأمر باتباع ما يصدر من النبي صلى الله عليه وسلم من قول وفعل فيندرج فيها جميع أدلة السنة .

وفي "الصحيحين" عن ابن مسعود : أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لعن الله

الواشمات والمستوشمات " .

الحديث .

فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها : أم يعقوب فجاءته فقالت : بلغني أنك لعنت كيت وكيت فقال لها : وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله ؟

فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول .

فقال : لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه ، أما قرأتِ : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

وعطف على هذا الأمر تحذير من المخالفة فأمرهم بتقوى الله فيما أمر به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وعطف الأمر بالتقوى على الأمر بالأخذ بالأوامر وترك المنهيات يدل على أن التقوى هي امتثال الأمر واجتناب النهي .

والمعنى : واتقوا عقاب الله لأن الله شديد العقاب ، أي لمن خالف أمره واقتحم نهيه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت : كانت غزوة بني النضير وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكان منزلهم ونخلهم في ناحية المدينة ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة يعني السلاح فأنزل الله فيهم ﴿ سبح لله ما في السماوات وما في الأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا ﴾ فقاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى صالحهم على الجلاء وأجلاهم إلى الشام ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا ، وكان الله قد كتب ذلك عليهم ، ولولا ذلك لعذبهم الله في الدنيا بالقتل والسبي ، وأما قوله : ﴿ لأول الحشر ﴾ فكان جلاؤهم ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام .

وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي عن عروة مرسلاً قال البيهقي : وهو المحفوظ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال : " لم أجلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير قال : " هذا أوّل الحشر وأنا على الأثر " " .

وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث " عن ابن عباس قال : من شك أن المحشر بالشام فليقرا هذه الآية ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ﴾ قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : اخرجوا ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى أرض المحشر " .

وأخرج أحمد في الزهد عن قيس قال : قال جرير لقومه فيما يعظهم : والله إني لوددت أني لم أكن بنيت فيها لبنة ما أنتم إلا كالنعامة استترت ، وإن أرضكم هذه خراب يسراها ثم يتبعها يمناها ، وإن المحشر ههنا ، وأشار إلى الشام .

(162/755)

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ لأول الحشر ﴾ قال : فتح الله على نبيه في أول حشر حشر عليهم في أول ما قاتلهم ، وفي قوله : ﴿ ما ظننتم ﴾ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يخرجوا من حصونهم أبداً .

(163/755)

وأخرج البيهقي في الدلائل عن عروة قال : " أمر الله رسوله بإجلاء بني النضير ، وإخراجهم من ديارهم ، وقد كان النفاق كثيراً بالمدينة فقالوا : أين تخرجنا ؟ قال : أخرجكم إلى المحشر ، فلما سمع المنافقون ما يراد بإخوانهم وأوليائهم من أهل الكتاب أرسلوا إليهم فقالوا : إنا معكم محيانا ومماتنا ، إن قوتلتم فلكم علينا النصر ، وإن أخرجتم لا نتخلف عنكم ، ومناهم الشيطان الظهور فنادوا النبي صلى الله عليه وسلم : إنا والله لا نخرج ، ولئن قاتلتنا لنقاتلنك ، فمضى النبي صلى الله عليه وسلم فيهم لأمر الله وأمر أصحابه ، فأخذوا السلاح ثم مضى إليهم ، وتحصنت اليهود في دورهم وحصونهم ، فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أزقتهم أمر بالأدنى من دورهم أن يهدم ، وبالنخل أن يحرق ويقطع ، وكفّ الله أيديهم وأيدي المنافقين فلم ينصروهم وألقى الله في قلوب الفريقين الرعب ، ثم جعلت اليهود كلما خلص رسول الله صلى الله عليه وسلم من هدم ما يلي مدينتهم ألقى الله في قلوبهم الرعب فهدموا الدور التي هم فيها من أدبارها ولم يستطيعوا أن يخرجوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما كادوا أن يبلغوا آخر دورهم وهم ينتظرون المنافقين وما كانوا منوهم ، فلما يئسوا مما عندهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان عرض عليهم قبل ذلك ، فقاضاهم على أن يجليهم ولهم أن يتحملوا بما استقلت به الإبل ، من الذي كان لهم إلا ما كان من حلقة السلاح ، فذهبوا كل مذهب ، وكانوا قد عيروا المسلمين حين

هدموا الدور وقطعوا النخل ، فقالوا : ما ذنب شجرة وأنتم تزعمون أنكم مصلحون ، فأنزل الله ﴿ سبح لله ما في السماوات وما في الأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ وليخزي الفاسقين ﴾ ثم جعلها نفلاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يجعل منها سهماً لأحد غيره ، فقال : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ إلى قوله : ﴿ قدير ﴾ فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن أراه الله من

المهاجرين الأوّلين " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طريق العوفي عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ فأعطوه ما أراد منهم فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم ، وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء .

وأخرج البغوي في معجمه عن محمد بن مسلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه إلى بني النضير ، وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاثاً .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن

جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرق نخل بني النضير ، والجلاء ، إخراجهم من أرضهم إلى أرض أخرى .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرق نخل بني النضير وقطع وهي البويرة ولها يقول حسان بن ثابت :

فهان على سراة بني لؤيّ . . . حريق بالبويرة مستطير

فأنزل الله ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾ .

وأخرج الترمذي وحسنه والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قول الله : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها ﴾ قال : اللينة النخلة ﴿ وليخزي الفاسقين ﴾ قال : استنزلوهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل ، فحاك في صدورهم فقال المسلمون : قد قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً فلنسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لنا فيما قطعنا من أجر وهل علينا فيما تركنا من وزر ، فأنزل الله ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ الآية .

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن جابر قال : رخص لهم في قطع النخل ، ثم شدد عليهم

فقالوا : يا رسول الله علينا إثم فيما قطعنا أو فيما تركنا من وزر ، فأنزل الله ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ الآية .

(165/755)

وأخرج ابن إسحق عن يزيد بن رومان قال : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني النضير تحصنوا منه في الحصون فأمر بقطع النخل والتحريق فيها فنادوه يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ فنزلت ﴿ ما قطعتم من لينة . . . . ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال : نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل ، وقالوا : إنما هي من مغانم المسلمين ، وقال الذين قطعوا : بل هي غيظ للعدوّ فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الإِثم ، فقال : إنما قطعه وتركه بإذن الله .

(166/755)

وأخرج ابن إسحق وابن مردويه عن ابن عباس أن سورة الحشر نزلت في النضير ، وذكر الله فيها الذي أصابهم من النعمة وتسليط رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم حتى عمل بهم الذي عمل بإذنه ، وذكر المنافقين الذين كانوا يراسلونهم ويعدونهم النصر فقال : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر ﴾ إلى قوله : ﴿ وأيدي المؤمنين ﴾ من هدمهم بيوتهم من تحت الأبواب ثم ذكر قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم النخل وقول اليهود له يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد فما بال قطع النخل ؟ فقال : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾ يخبرهم أنها نعمة منه ، ثم ذكر مغانم بني النضير فقال : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ إلى قوله : ﴿ قدير ﴾ أعلمهم أنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم يضعها حيث يشاء ، ثم ذكر مغانم المسلمين مما يوجف عليه الخيل والركاب ويفتح بالحرب فقال : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ فذا مما يوجف عليه الخيل والركاب ، ثم ذكر المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول ومالكاً وداعساً ومن كان على مثل رأيهم فقال : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإِخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أُخْرِجْتُمْ لنخرجن معكم ﴾ إلى ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ﴾ يعني بني قينقاع الذين أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب

من ديارهم لأول الحشر ﴾ قبل الشام وهم بنو النضير حي من اليهود أجلاهم نبي الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى خيبر مرجعه من أحد .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ﴾ قال : النضير إلى قوله : ﴿ وليخزي الفاسقين ﴾ قال : ذلك ما بين ذلك كله .

(167/755)

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : من شك أن المحشر إلى بيت القدس فليقرأ هذه الآية ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ﴾ فقد حشر الناس مرة وذلك حين ظهر النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة أجلى اليهود .

(168/755)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن كفار قريش

كتبوا إلى عبد الله بن أبيّ بن سلول ومن كان يعبد الأوثان معه من الأوس والخزرج، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر يقولون: إنكم قد آويتم صاحبنا وإنكم أكثر أهل المدينة عدداً، وإنا نقسم بالله لنقاتلنه أو لنخرجنه ولنستعدين عليكم العرب، ثم لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم وأبناءكم. ، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبيّ ومن معه من عبدة الأوثان تراسلوا واجتمعوا وأجمعوا لقتال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه. فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم لقيهم في جماعة من أصحابه، فقال: لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم. فلما سمعوا ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم تفرقوا فبلغ ذلك كفار قريش، وكانت وقعة بدر بعد ذلك فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء، وهي الخلاخيل. فلما بلغ كتابهم اليهود اجتمعت بنو النضير بالغدر وأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن اخرج إلينا في ثلاثين من أصحابك وليخرج إليك منا ثلاثون حبراً حتى نلتقي بمكان نصف بيننا وبينك، ويسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا. فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثين من أصحابه وخرج إليه ثلاثون حبراً من اليهود حتى إذا برزوا في براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من

أصحابه كلهم يحب أن يموت قبله؟ فأرسلوا : كيف نفهم ونحن ستون رجلاً؟ أخرج في ثلاثة من أصحابك ونخرج إليك في ثلاثة من علمائنا فيسمعوا منك ، فإن

آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثة من أصحابه وخرج ثلاثة من اليهود واشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار ، فأخبرته خبر ما أراد بنو النضر من الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبي صلى الله عليه وسلم فسارّه بخبرهم قبل أن يصل إليهم ، فرجع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتائب فحصرهم فقال لهم : إنكم والله لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدونني عليه ، فأبوا أن يعطوه عهداً ، فقاتلهم يومه ذلك هو والمسلمون ، ثم غدا الغد على بني قريظة بالكتائب وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه فانصرف عنهم إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإِبل إلا الحلقة ، والحلقة السلاح ، فجلت بنو النضير ، واحتملوا ما أقلت الإِبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها ، وكانوا يخربون

بيوتهم فيهدمونها فيحتملون ما وافقهم من خشبها ، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام ، وكان بنو النضير من سبط من أسباط بني إسرائيل لم يصبهم جلاء منذ كتب الله الجلاء على بني إسرائيل ، فلذلك أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلولا ما كتب الله عليهم من الجلاء لعذبهم في الدنيا كما عذبت بنو قريظة ، فأنزل الله ﴿ سبح لله ما في السماوات وما في الأرض ﴾ حتى بلغ ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ فكان نخيل بني النضير لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ، فأعطاه الله إياها وخصّه بها ، فقال : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ يقول : بغير قتال فأعطى النبي صلى الله عليه وسلم أكثرها المهاجرين ، وقسمها بينهم ، وقسم منها لرجلين من الأنصار كانا ذوي حاجة لم يقسم لأحد من الأنصار

غيرهما ، وبقي منها صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي في أيدي بني فاطمة .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك أن قريظة والنضير قبيلتين من اليهود كانوا حلفاء لقبيلتين من الأنصار ، الأوس والخزرج في الجاهلية ، " فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأسلمت الأنصار وأبت اليهود أن يسلموا سار المسلمون إلى بني النضير وهم في حصونهم ، فجعل المسلمون يهدمون ما يليهم من حصونهم ويهدم الآخرون ما يليهم سقط أن يقع عليهم حتى أفضوا إليهم فنزلت ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ﴾ إلى قوله : ﴿ شديد العقاب ﴾ فلما أفضوا إليهم نزلوا على عهد بينهم وبين نبي الله صلى الله عليه وسلم على أن يجلوهم وأهليهم ويأخذوا أموالهم وأرضهم ، فأجلوا ونزلوا خيبر ، وكان المسلمون يقطعون النخل ، فحدثني رجال من أهل المدينة أنها نخل أصفر كهيئة الدقل تدعى اللينة . ، فاستنكر ذلك المشركون ، فأنزل الله عذر المسلمين ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾ فأما قول الله ﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ قال : لم يسيروا إليهم على خيل ولا ركاب إنما كانوا في ناحية المدينة ، وبقيت قريظة بعدهم عاماً أو عامين على عهد بينهم وبين نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فلما جاء المشركون يوم الأحزاب أرسل المشركون إليهم أن اخرجوا معنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسلت إليهم اليهود أن ارسلوا إلينا بخمسين من رهنكم ، فجاء نعيم بن مسعود الأشجعي إلى المسلمين فحدثهم ، وكان نعيم يأمن في المسلمين والمشركين ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قد أرسلوا إلى

المشكرين يسألونهم خمسين من رهنهم ليخرجوا معهم فأبوا أن يبعثوا إليهم بالرهن فصاروا حرباً للمسلمين والمشركين فبعث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ وخوات بن جبير ، فلما أتياهم قال عظيمهم كعب بن الأشرف : إنه قد كان لي جناحان فقطعتم أحدهما فإما أن تردوا عليّ جناحي ، وإما أن أتخذ عليكم جناحاً ،

(172/755)

فقال خوات بن جبير : إني لأهم أن أطعنه بحربتي . فقال له سعد : إذن يسبق القوم ويأخذون ، فمنعه فرجعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحدثاه بالذي كان من أمرهما وأذن الله فيهم ، ورجع الأحزاب ووضع النبي صلى الله عليه وسلم سلاحه فأتاه جبريل ، فقال : والذي أنزل عليك الكتاب ما نزلت عن ظهرها منذ نزل بك المشركون حتى هزمهم الله ، فسر فإن الله قد أذن لك في قريظة فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه فقال لهم : يا إخوة القردة والخنازير ، فقالوا : يا أبا القاسم ما كنت فحاشاً فنزلوا على حكم سعد بن معاذ وكان من القبيلة الذين هم حلفاؤهم فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتقسم غنائمهم وأموالهم ويذكرون أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : حكم بحكم الله فضرب أعناقهم وقسم غنائمهم وأموالهم " .

وأخرج عبد بن حميد عن يحيى بن سعيد قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير في حاجة فهموا به فأطلعه الله على ذلك فندب الناس إليهم فصالحهم على أن لهم الصفراء والبيضاء وما أقلت الإبل ، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم النخل والأرض والحلقة قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين ، ولم يعط أحداً من الأنصار منها شيئاً إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة .

(173/755)

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غدا يوماً إلى النضير ليسألهم كيف الدية فيهم ، فلما لم يروا مع رسول الله كثير أحد أبرموا بينهم على أن يقتلوه ويأخذوا أصحابه أسارى ليذهبوا بهم إلى مكة ويبيعوهم من قريش . فبينما هم على ذلك إذ جاء من اليهود من المدينة فلما رأى أصحابه يأتمرون بأمر النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : نريد أن نقتل محمداً ونأخذ أصحابه ، فقال لهم : وأين محمد ؟ قالوا : هذا محمد قريب . فقال لهم صاحبهم : والله لقد تركت محمداً داخل المدينة فأسقط بأيديهم وقالوا : قد أخبر أنه انقطع ما بيننا وبينه من العهد ، فانطلق منهم ستون حبراً ومنهم حيي بن أخطب والعاصي بن وائل حتى دخلوا على كعب ، وقالوا : يا

كعب أنت سيد قومك ومدحهم احكم بيننا وبين محمد ، فقال لهم كعب : أخبروني ما عندكم قالوا : نعتق الرقاب ونذبح الكوماء ، وإن محمداً انبتر من الأهل والمال فشرفهم كعب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانقلبوا فأنزل الله ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ [النساء : 51] إلى ﴿ فلن تجد له نصيراً ﴾ [المائدة : 11] ونزل عليه لما أرادوا أن يقتلوه ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ﴾ الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من يكفيني كعباً ؟ " فقال ناس من أصحابه فيهم محمد بن مسلمة : نحن نكفيك يا رسول الله ونستحل منك شيئاً فجاؤوه فقالوا : يا كعب إن محمداً كلفنا الصدقة فبعنا شيئاً . قال عكرمة : فهذا الذين استحلوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم كعب : أرهنوني أولادكم فقالوا : إن ذاك عار فينا غداً تبيح أن يقولوا عبد وسق ووسقين وثلاثة ، قال كعب : فاللامة . قال عكرمة : وهي السلاح ، فأصلحوا أمرهم على ذلك فقالوا : موعد ما بيننا وبينك القابلة ، حتى إذا كانت القابلة راحوا إليه

ورسول الله صلى الله عليه وسلم في المصلى يدعو لهم بالظفر ، فلما جاؤوا نادوه يا كعب ، وكان عروساً فأجابهم ، فقالت امرأته : وهي بنت عمير أين تنزل قد أشم الساعة ريح الدم ، فهبط وعليه ملحفة مورسة ، وله ناصية ، فلما نزل إليهم قال القوم : ما أطيب ريحك ففرح بذلك فقام إليه محمد بن مسلمة فقال قائل المسلمين : أشمونا من ريحه ، فوضع يده على ثوب كعب وقال : شموا فشموا ، وهو يظن أنهم يعجبون بريحه ، ففرح بذلك ، فقال محمد بن مسلمة : بقيت أنا أيضاً ، فمضى إليه فأخذ بناصيته ثم قال : اجلدوا عنقه ، فجلدوا عنقه ، ثم إن رسول الله غدا إلى النضير ، فقالوا : ذرنا نبك سيدنا ، قال : لا ، قالوا فحزة على حزة . قال : نعم حزة على حزة . فلما رأوا ذلك جعلوا يأخذون من بطون بيوتهم الشيء لينجوا به والمؤمنون يخربون بيوتهم من خارج ليدخلوا عليهم ، فلولا أن كتب الله عليهم الجلاء ، قال عكرمة : والجلاء يجلون منهم ليقتلهم بأيديهم . وقال عكرمة : إن ناساً من المسلمين لما دخلوا على بني النضير أخذوا يقطعون النخل ، فقال بعضهم لبعض : وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ، وقال قائل من المسلمين : لا يقطعون وادياً ولا ينالون من عدوّ نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح فأنزل الله ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ وهي النخلة ﴿ أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾ قال : ما قطعتم فبإذني وما تركتم فبإذني ".

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي

المؤمنين ﴾ قال : كان المسلمون يخربون ما يليهم من ظاهرها ليدخلوا عليهم ، ويخربها اليهود من داخلها .

(175/755)

وأخرج البيهقي في الدلائل عن مقاتل بن حيان في قول الله عز وجل : ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴾ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتلهم ، فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال ، وكانت اليهود إذا غلبوا على درب أو دار نقبوها من أدبارها ثم حصنوها ودربوها فيقول الله عز وجل : ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ وقوله : ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ إلى قوله : ﴿ وليخزي الفاسقين ﴾ يعني باللينة النخل ، وهي أعجب إلى اليهود من الوصف ، يقال لثمرها اللون ، فقالت اليهود عند قطع النبي صلى الله عليه وسلم نخلهم وعقر شجرهم : يا محمد زعمت أنك تريد الإصلاح ، أفمن الإصلاح عقر الشجر وقطع النخل والفساد ؟ فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ووجد المسلمون من قولهم في أنفسهم من قطعهم النخل خشية أن يكون فساداً ، فقال بعضهم لبعض : لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا ، فقال الذين يقطعونها : نغيظهم بقطعها ، فأنزل الله ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ يعني النخل فبإذن الله وما تركتم قائمة

على أصولها فبإذن الله فطابت نفس النبي صلى الله عليه وسلم وأنفس المؤمنين ﴿ وليخزي الفاسقين ﴾ يعني يهود أهل النضير . وكان قطع النخل وعقر الشجر خزياً لهم .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهري في قوله : ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم ﴾ قال : ما صالحوا النبي صلى الله عليه وسلم كانوا لا يعجبهم خشبة إلا أخذوها فكان ذلك تخريبها .

(176/755)

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ يخربون بيوتهم ﴾ من داخل الدار لا يقدرون على قليل ولا كثير ينفعهم إلا خربوه وأفسدوه لئلا يدعوا شيئاً ينفعهم إذا رحلوا ، وفي قوله : ﴿ وأيدي المؤمنين ﴾ ويخرب المؤمنون ديارهم من خارجها كيما يخلصوا إليهم ، وفي قوله : ﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ﴾ قال : لسلط عليهم فضربت أعناقهم وسبيت ذراريهم ، ولكن سبق في كتابه الجلاء لهم ثم أجلوا إلى أذرعات وأريحا .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴾ قال : كانت بيوتهم مزخرفة فحسدوا المسلمين أن يسكنوها ، وكانوا يخربونها من داخل ، والمسلمون من خارج .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد .

وأخرج الفريابي وابن المنذر وابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن ابن عباس ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ قال : هي النخلة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن عطية وعكرمة ومجاهد وعمرو ابن ميمون مثله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ من لينة ﴾ قال : نوع من النخل .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : اللينة ما دون العجوة من النخل .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الزهري قال : اللينة ألوان النخل كلها إلا العجوة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ قال : نخلة أو شجرة

وأخرج عبد بن حميد عن الأعمش أنه قرأ " ما قطعتم من لينة أو تركتموها قواماً على أصولها " .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن شهاب قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحرق بعض أموال بني النضير فقال قائل :

فهان على سراة بني لؤيّ . . . حريق بالبويرة مستطير

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: قطع المسلمون يومئذ النخل، وأمسك أناس كراهية أن يكون فساداً فقالت اليهود: الله أذن لكم في الفساد؟ فقال الله: ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ قال: واللينة ما خلا العجوة من النخل إلى قوله: ﴿ وليخزي الفاسقين ﴾ قال: لتغيظوهم ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ قال: ما قطعتم إليها وادياً ولا سيرتم إليها دابة ولا بعيراً إنما كانت حوائط لبني النضير أطعمها الله رسوله صلى الله عليه وسلم.

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم بين قريش والمهاجرين، النضير فأنزل الله ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ قال: ما هي العجوة والفنيق والنخيل، وكانا مع نوح في السفينة، وهما أصل التمر، ولم يعط رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار أحداً إلا رجلين أبا دجانة وسهل بن حنيف.

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن الأوزاعي قال: "أتى النبي صلى الله عليه وسلم يهودي فسأله عن المشيئة قال: المشيئة لله، قال: فإني أشاء أن أقوم، قال: قد شاء الله أن تقوم، قال: فإني أشاء أن أقعد، قال: فقد شاء الله أن تقعد، قال: فإني أشاء أن أقطع هذه النخلة، قال: فقد شاء الله أن تقطعها، قال: فإني أشاء أن أتركها، قال: فقد شاء الله أن تتركها، قال: فأتاه جبريل عليه السلام فقال: قد لقنت حجتك كما لقنها

إبراهيم عليه السلام ، قال : ونزل القرآن ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾ " .

(178/755)

وأخرج عبد الرزاق والبيهقي وابن المنذر عن الزهري في قوله : ﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ قال : صالح النبي صلى الله عليه وسلم أهل فدك وقرى سماها وهو محاصر قوماً آخرين ، فأرسلوا بالصلح فأفاءها الله عليهم من غير قتال ، ولم يوجفوا عليه خيلاً ولا ركاباً فقال الله : ﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ يقول : بغير قتال . وقد كانت أموال بني النضير للنبي صلى الله عليه وسلم خالصاً لم يفتتحوها عنوة إنما فتحوها على صلح ، فقسمها النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا رجلين كانت بهما حاجة أبو دجانة وسهل بن حنيف .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة فكان ينفق على أهله منها نفقة سنتهم ، ثم يجعل ما بقي في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ قال: يذكرهم ربهم أنه نصرهم وكفاهم بغير كراع ولا عدة في قريظة وخيبر.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ قال: أمر الله رسوله بالسير إلى قريظة والنضير، وليس للمؤمنين يومئذ كثير خيل ولا ركاب، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكم فيه ما أراد، ولم يكن يومئذ خيل ولا ركاب يوجف بها. قال: والايجاف أن يوضعوا السير وهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان من ذلك خيبر وفدك وقرى عربية، وأمر الله رسوله أن يعد لينبع، فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتواها كلها، فقال أناس: هلا قسمها فأنزل الله عذره فقال: ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ﴾ إلى قوله: ﴿ شديد العقاب ﴾.

(179/755)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله: ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ قال: من قريظة جعله الله لمهاجرة قريش خصوا به.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهري في قوله: ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل

القرى ﴾ قال : بلغني أنها الجزية والخراج.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان ما أفاء الله على رسوله من خيبر نصف لله ورسوله ، والنصف الآخر للمسلمين فكان الذي لله ورسوله من ذلك الكتيبة والوطيخ وسلالة ووجدة ، وكان الذي للمسلمين الشق والشق ثلاثة عشر سهماً ونطاه خمسة أسهم ، ولم يقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر لأحد من المسلمين إلا لمن شهد الحديبية ، ولم يأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد تخلف عنه عند مخرجه الحديبية أن يشهد معه خيبر إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حزام الأنصاري .

وأخرج أبو داود وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم صفايا بني النضير وخيبر وفدك ، فأما بنو النضير فكانت حبساً لنوائبه ، وأما فدك فكانت لابن السبيل ، وأما خيبر فجزأها ثلاثة أجزاء فقسم منها جزأين بين المسلمين ، وحبس جزءاً لنفسه ولنفقة أهله ، فما فضل عن نفقة أهله رده على فقراء المهاجرين .

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن الأعمش قال : ليس بين مصحف عبد الله وزيد بن ثابت خلاف في حلال وحرام إلا في حرفين في سورة الأنفال ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [الأنفال : 41] وفي سورة الحشر ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمهاجرين في سبيل الله ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ قال : كان الفيء بين هؤلاء ، فنسختها الآية التي : في الأنفال فقال ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [الأنفال : 41] فنسخت هذه الآية ما كان قبلها في سورة الحشر فجعل الخمس لمن كان له الفيء وصار ما بقي من الغنيمة لسائر الناس لمن قاتل عليها .

وأخرج أبو عبيد في كتاب الأموال وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأبو عوانة وابن حبان وابن مردويه عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : بعث إليّ عمر بن الخطاب في الهاجرة ، فجئته فدخلت عليه فإذا هو جالس على سرير ليس بينه وبين رمل السرير فراش ، متكىء على وسادة من آدم ، فقال : يا مالك إنه قدم علينا أهل أبيات من قومك ، وإني قد أمرت فيهم برضخ فخذه فأقسمه بينهم ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنهم قومي وأنا أكره أن أدخل بهذا عليهم فمر به غيري فإني لأراجعه في ذلك إذ جاءه يرفا غلامه فقال : هذا عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير وعبد الرحمن بن عوف ،

فأذن لهم فدخلوا ، ثم جاءه يرفا فقال : هذا علي وعباس قال : ائذن لهما في الدخول فدخلا ، فقال عباس : ألا تعديني على هذا فقال القوم : يا أمير المؤمنين اقض بين هذين وأرح كل واحد منهما من صاحبه ، فإن في ذلك راحة لك ولهما .

(181/755)

فجلس عمر ثم قال : اتئدوا . وحسر عن ذراعيه ثم قال : أنشدكم بالله أيها الرهط هل سمعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " انا لا نورث ما تركنا صدقة إن الأنبياء لا تورث " فقال القوم : نعم قد سمعنا ذاك . ثم أقبل على علي وعباس فقال : أنشدكما بالله هل سمعتما رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذاك ؟ قالا : نعم ، فقال عمر : ألا أحدثكم عن هذا الأمر ، إن الله خص نبيه من هذا الفيء بشيء لم يعطه غيره يريد أموال بني النضير كانت نفلاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لأحد فيها حق معه ، فوالله ما احتواها دونكم ولا استأثر بها عليكم ، لقد قسمها فيكم حتى كان منها هذا المال ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخر منه قوت أهله لسنتهم ، ويجعل ما بقي في سبيل المال حتى توفى الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقام أبو بكر ، فقال : أنا وليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعمل بما كان يعمل وأسير بسيرته في حياته ، فكان يدخر من هذا المال قنية

أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم لسنتهم ، ويجعل ما بقي في سبل المال كما كان يصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوليها أبو بكر حياته حتى توفي أبو بكر ، قلت : أنا ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم وولي أبي بكر أعمل بما كانا يعملان به في هذا المال فقبضتها ، فلما أقبلتما عليّ وأدبرتما وبدا لي أن أدفعها إليكما أخذت عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به فيها وأبو بكر وأنا ، حتى دفعتها إليكما أنشدكم الله أيها الرهط هل دفعتها إليهما بذلك؟ قالوا : اللهم نعم ، ثم أقبل عليهما فقال : أنشدكما بالله هل دفعتها إليكما بذلك؟ قالا : نعم ، قال : فقضاء غير ذلك تلتمسان مني ، فلا والله لا أقضي فيها قضاء غير ذلك حتى تقوم الساعة ، فإن كنتما عجزتما عنها فأدياها إليّ ثم قال عمر : إن الله قال : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا

ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى ﴾ إلى آخر الآية ﴿ واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ ثم قال :

والله ما أعطاها هؤلاء وحدهم حتى قال : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ ثم والله ما جعلها لهؤلاء وحدهم حتى قال : ﴿ والذين تبوّءو الدار والإيمان ﴾ إلى ﴿ المفلحون ﴾ ثم والله ما أعطاها لهؤلاء وحدهم حتى قال : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ﴾ إلى قوله : ﴿ رحيم ﴾ فقسمها هذا القسم على هؤلاء الذين ذكر .

قال عمر : لئن بقيت ليأتين الرويعي بصنعاء حقه ودمه في وجهه .

وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيدة وابن زنجويه معاً في الأموال وعبد بن حميد وأبو داود وفي ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : قرأ عمر بن الخطاب ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ حتى بلغ ﴿ عليم حكيم ﴾ ثم قال : هذه لهؤلاء ثم قرأ ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ حتى بلغ ﴿ للفقراء المهاجرين ﴾ إلى آخر الآية فقال : هذه للمهاجرين ، ثم تلا ﴿ والذين تبوّءو الدار والإيمان من قبلهم ﴾ إلى آخر الآية فقال : هذه للأنصار ، ثم قرأ ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ إلى آخر الآية ثم قال : استوعبت هذه المسلمين عامة وليس أحد إلا له في هذا المال حق ، ألا ما تملكون من وصيتكم ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعي وهو يسير حمره نصيبه منها لم يعرق فيه جبينه .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن مردويه والبيهقي عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : اجتمعوا لهذا المال فأنظروا لمن ترونه ، ثم قال لهم : إني أمرتكم أن تجتمعوا لهذا المال فتنظروا لمن ترونه ، وإني قرأت آيات من كتاب الله فكفتني ، سمعت الله يقول : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ﴾ إلى قوله : ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ والله ما هو لهؤلاء وحدهم ﴿ والذين تبوّءُو الدار والإيمان ﴾ إلى قوله : ﴿ المفلحون ﴾ والله ما هو لهؤلاء وحدهم ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ﴾ إلى قوله : ﴿ رحيم ﴾ والله ما أحد من المسلمين إلا له حق في هذا المال أعطي منه أو منع عنه حتى راع بعدن .

وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن أبي شيبة وابن زنجويه في الأموال وعبد بن حميد وابن المنذر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ما على وجه الأرض مسلم إلا وله في هذا المال حق إلا ما ملكت أيمانكم .

وأخرج عبد بن حميد والبيهقي في سننه عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال : قسم عمر ذات يوم قسماً من المال ، فجعلوا يثنون عليه ، فقال : ما أحمقكم لو كان لي ما

أعطيتكم منه درهماً .

وأخرج أبو داود في ناسخه عن ابن أبي نجيح رضي الله عنه قال : المال ثلاثة : مغنم ، أو فيء ، أو صدقة . فليس منه درهم إلا بيّن الله موضعه .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يوشك أن يملأ الله أيديكم من العجم ثم يجعلهم أسداً لا يفرون فيقتلون مقاتلتكم ويأكلون فيئكم " .

وأخرج ابن سعد عن السائب بن يزيد سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : والذي لا إله إلا هو ثلاثاً ما من الناس أحد إلا له حق في هذا المال أعطيه أو منعه ، وما أحد أحق به من أحد إلى عبد مملوك ، وما أنا فيه إلا كأحدكم ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالرجل وبلاؤه في الإِسلام ، والرجل وقدمه في الإِسلام ، والرجل وغناه في الإِسلام ، والرجل وحاجته في الإِسلام ، والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه .

وأخرج ابن سعد عن الحسن رضي الله عنه قال : كتب عمر إلى حذيفة أن أعط الناس

أعطيتهم وأرزاقهم ، فكتب إليه إنا قد فعلنا وبقي شيء كثير ، فكتب إليه عمر : إن فيأهم الذي أفاء الله عليهم ، ليس هو لعمر ولا لآل عمر اقسمه بينهم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال : وجدت المال قسم بين هذه الثلاثة الأصناف : المهاجرين والأنصار والذين جاؤوا من بعدهم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن رضي الله عنه مثل ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ﴾ الآية .

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ قال : كان يؤتيهم الغنائم وينهاهم عن الغلول .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ﴾ قال : من الفيء ﴿ وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ قال : من الفيء

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي اله عنه ﴿ وما آتاكم الرسول ﴾ من طاعتي وأمري ﴿ فخذوه وما نهاكم عنه ﴾ من معصيتي فانتهوا .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والنسائي وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ألم يقل الله ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ قالوا : بلى ، قال : ألم يقل الله : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ [الأحزاب : 36] الآية قال : فإني أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه سمع ابن عمر وابن عباس يشهدان على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن المنذر وابن مردويه عن علقمة رضي الله عنه قال : قال عبد الله بن مسعود : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن ، المغيرات لخلق الله . فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب ، فجاءت إليه فقالت : إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت ، قال : وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في كتاب الله . قالت : لقد قرأت ما بين الدفتين فما وجدت فيه شيئاً من هذا قال : لئن كنت قرأته لقد وجدته أما قرأت ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه

وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ قالت : بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه والله أعلم . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 105.88 ﴾

(186/755)

قوله تعالى ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نزع سبحانه أموال الفيء وما كانت عليه في الجاهلية ، وبين مصرف الفيء من القرى ، وتهدد في المخالفة في ذلك لصعوبته على النفوس ، فكان ذلك جديراً بالتقبل بعد أن أفهم أن أموال بني النضير لمن سلطه عليهم وهو رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان من المعلوم من

حاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الإيثار على نفسه والقناعة بما دون الكفاف ، بين المصرف فيها بعد كفايته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن بيان ذلك هو المقصود الأعظم لكونه حاصلاً حاضراً ، الموطأ له بأموال أهل القرى ، فقال مبدلاً من ﴿ لله وللرسول ﴾ وما عطف عليهما لأن من أعطى المهاجرين لهجرتهم وتجردهم من أموالهم وديارهم فإنما أعطاهم لوجه الله ووجه رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا يكون بدلاً من ﴿ ذي القربى ﴾ لئلا يختص بفقيرهم ، أو يكون جواباً لمن كأنه قال : قد سمعنا وأطعنا فلمن يكون ما سلط الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أموالهم ؟ فقيل له : ﴿ للفقراء ﴾ أي الذي كان الإنسان منهم يعصب الحجر على بطنه من الجوع ويتخذ الحفرة في الشتاء لتقيه البرد ، ما له دثار غيرها بعد أن كان له من الأموال ما يسعه ويفضل منه ما يصل به غيره ، وإنما وصفهم بالفقر لأنهم كانوا عند نزولها كذلك ، ثم خصص بالوصف فقال : ﴿ المهاجرين ﴾ ولما كانت الهجرة قد تطلق على من هجر أهل الكفر من غير مفارقة الوطن فقال : ﴿ الذين أخرجوا ﴾ وبناه للمفعول لأن المنكئ الإخراج ، لا كونه من مخرج معين ﴿ من ديارهم ﴾ ولما كان الإخراج هنا مضمناً معنى المنع ، واختير التعبير به إشارة إلى أن المال السترة للإنسان لأنه ظرف له ، قال : ﴿ وأموالهم ﴾ .

ولما كان غلب الدنيا من النقائص ، بين أنه إذا كان من الله لم يكن كذلك ، وأنه لا يكون قادحاً

في الإخلاص ، وأن أمر بني النضير إنما يسر تحقيقاً لرجائهم فقال : ﴿ يبتغون ﴾ أي أخرجوا حال كونهم يطلبون على وجه الاجتهاد .

(187/755)

ويين أنه لا يجب عليه شيء لأحد بقوله تعالى : ﴿ فضلاً من الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له لأنه المختص بجميع صفات الكمال من الدنيا والدين والآخرة فيغنيهم بفضله عمن سواه ﴿ ورضواناً ﴾ يوفقهم لما يرضيه عنهم ولا يجعل رغبتهم في العوض منه قادحاً في الإخلاص فيوصلهم إلى دار كرامته .

ولما وصفهم بتعليق بواطنهم به سبحانه وقطعها بالرضا بالإخراج عمن أو عما سواه ، وصفهم ببذل ظواهرهم له فقال : ﴿ وينصرون ﴾ أي على سبيل التجديد في كل وقت والاستمرار ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعظم المجيد ﴿ ورسوله ﴾ الذي عظمته من عظمته بأنفسهم وأموالهم ليضمحل حزب الشيطان .

ولما بان ما له بهم سبحانه من العناية ترقب السامع من مدحهم ما يليق بهذا الإحبار .

فقال مستأنفاً ما هو كالعلة لتخصيصهم : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الرتبة في الأخلاق الفاضلة ﴿ هم ﴾ أي خاصة لا غيرهم ﴿ الصادقون ﴾ العريقون في هذا الوصف لأن مهاجرتهم

لما ذكر وتركهم لما وصف دل على كمال صدقهم فيما ادعوه من الإيمان بالله ورسوله.

صلى الله عليه وسلم. حيث نابذوا من عاداهما وهو القريب الصافي نسباً وداراً وأولوا أولياءهما من كانوا وإن بعدت دارهم وشط مزارهم، وهذا يدل على أن مبنى الدين على إقامة البينات بالثبات عن الابتلاءات على أن العون قد يأتي على قدر البلاء لأن الله تعالى قد خص المهاجرين مما أذن فيه من أموال بني النضير.

(188/755)

ولما مدح المهاجرين وأعطاهم فطابت نفوس الأنصار بذلك وكانوا في كل حال معه. صلى الله عليه وسلم. كالميت بين يدي الغاسل، مهما شاء فعل، ومهما أراد منهم صار إليه ووصل، أتبعه مدحهم جبراً لهم وشكراً لصنيعهم فقال عاطفاً على مجموع القصة:

﴿والذين تبوؤ﴾ أي جعلوا بغاية جهدهم ﴿الدار﴾ الكاملة في الدور وهي التي أعدها الله في الأزل للهجرة وهيأها للنصرة وجعلها دائرة على جميع البلدان محيطة بها غالبة عليها محل إقامتهم وملابستهم وصحبتهم وملازمتهم لكونها أهلاً لأن يعود إليها من خرج منها فلا يهجرها أصلاً، فهي محل مناه وليست موضعاً يهاجر منه لبركتها أو خيرها.

ولما كان المراد الإبلاغ في مدحهم، قال مضمناً "تبوؤا" معنى لازم: ﴿والإيمان﴾ أي

ولابسوه وصحبوه وخصوه بالصحبة ولزموه لزوماً هو كلزوم المنزل الذي لا غنى لنازله عنه ، ويجوز أن يكون الإيمان وصفاً للدار بإعادة العاطف للإشارة إلى التمكن في كل من الوصفين فيكون كأنه قيل : تبوؤا المدينة التي هي الدار وهي الإيمان لأنها محل تمكن الإيمان وانتشاره وظهوره في سائر البلدان فلشدة ملابستها له سميت به ، ويجوز أن يكون المعنى : ومحل الإيمان إشارة إلى أنهم ما أقاموا بها لأجل أن أموالهم بها بل محبة في الإيمان علماً منهم بأنه لا يتم بدره ، ويكمل شرفه وقدره ، وتنشر أعلامه ويقوى ذكره إلا بها ، ولولا ذلك لهجروها وهاجروا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أي مكان حله ، فهو مدح لهم بأنه متصفون بالهجرة بالقوة مع اتصافهم بالنصرة بالفعل .

(189/755)

ولما كان انفرادهم بإقامة الإيمان في الدار المذكورة قبل قدوم المهاجرين عليهم مدحاً تاماً ، قال مادحاً لهم بذلك دالاً بإثبات الجارّ على أنهم لم يستغرقوا زمان القبل من حين إرسال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأمرين : ﴿ من قبلهم ﴾ أي قبل هجرة المهاجرين لأن وصفهم بالهجرة لم يكن إلا بعد إيجادها فالأنصار جمعوا التمكن في الإيمان إلى التمكن في الدار من قبل أن يجمع المهاجرون بينهما بالهجرة .

ولما ابتدأ ذكرهم هذا الابتداء الجليل، أخبر عنهم بقوله: ﴿يحبون﴾ أي على سبيل التجديد والاستمرار، وقيل العطف على المهاجرين، وهذه حال فيكون هذا حكماً بالمشاركة ﴿من هاجر﴾ وزادهم محبة فيهم وعطفاً عليهم بقوله: ﴿إليهم﴾ لأن القصد إلى الإنسان يوجب حقه عليه لأنه لولا كمال محبته له ما خصه بالقصد إليه، والدليل الشهودي على ما أخبر الله عنهم به من المحبة أنهم شاطروا المهاجرين في أموالهم وعرضوا عليهم أن يشاطروهم نساءهم على شدة غيرتهم، فأبى المهاجرون المشاطرة في النساء وقبلوا منهم الأموال.

ولما أخبرهم بالمحبة ورغبهم في إدامتها، عطف على هذا الخبر ما هو من ثمراته فقال: ﴿ولا يجدون﴾ أي أصلاً ﴿في صدورهم﴾ التي هي مساكن قلوبهم فتصدر منها أوامر القلوب فضلاً عن أن تنطق ألسنتهم.

ولما كان المراد نفي الطلب منهم لما خص به المهاجري، وكان الحامل على طلب ذلك الحاجة، وكان كل أحد يكره أن ينسب إلى الحاجة وإن أخبر بها عن نفسه في وقت ما لغرض قال: ﴿حاجة﴾ موقعاً اسم السبب على المسبب ﴿مما أوتوا﴾ أي المهاجرون من الفيء وغيره من أموال بني النضير وغيرهم من أي مؤت كان فكيف إذا كان المؤتي هو الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وإذا لم يجدوا حاجة تدعوهم إلى الطلب فلأن لا

يجدوا حسداً ولا غيظاً من باب الأولى ، فهذه الآية من أعظم حاث على حسن الإخاء محذر من الحسد والاستياء .

(190/755)

ولما أخبر عن تخليهم عن الرذائل أتبعه الإخبار بتحليهم بالفضائل فقال : ﴿ ويؤثرون ﴾ عظم ذلك بقصر الفعل فصار المعنى : يوقعون الأثرة وهي اختيار الأشياء الحسنة لغيرهم تخصيصاً لهم بها لا على أحبائهم مثلاً بل ﴿ على أنفسهم ﴾ فيبذلون لغيرهم ﴿ كائناً ﴾ من كان ما في أيديهم ، وذكر النفس دليل على أنهم في غاية النزاهة من الرذائل لأن النفس إذا ظهرت كان القلب أطهر ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ ولو كان ﴾ أي كوناً هو في غاية المكنة ﴿ بهم ﴾ أي خاصة لا بالمؤثر ﴿ خصاصة ﴾ أي فقر وخلل في الأحوال وحاجة شديدة تحيط بهم من كل جانب ، من خصائص البناء وهي فرجه .

ولما كان التقدير : فمن كان كذلك فهو من الصادقين : عطف عليه قوله : ﴿ ومن ﴾ ولما كان المقصود النزاهة عن الرذيلة من أي جهة كانت ، وكان علاج الرذائل صعباً جداً ، لا يطيقه الإنسان إلا بمعونة من الله شديدة ، بنى للمفعول قوله : ﴿ يوق شح نفسه ﴾ أي يحصل بينه وبين أخلاقه الذميمة المشار إليها بالنفس ، وقاية تحول بينه وبينها ، فلا يكون

مانعاً لما عنده ، حريصاً على ما عند غيره حسداً ، قال ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ : الشح أن تطمح عين الرجل فيما ليس له ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " اتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم " .

ولما كان النظر إلى التطهير من سفساف الأخلاق عظيماً ، سبب عنه إفهاماً لأنه لا يحصل ما سببه عنه بدونه قوله ﴿ فأولئك ﴾ : أي العالو المنزلة ﴿ هم ﴾ أي خاصة لا غيرهم ﴿ المفلحون ﴾ أي الكاملون في الفوز بكل مراد ، قال القشيري : وتجرد القلب من الأعراض والأملاك صفة السادة والأكابر ، ومن أسرته الأخطار وبقي في شح نفسه فهو في مصارفة معاملته ومطالبة الناس في استيفاء حظه ، فليس له من مذاقات هذه الطريقة شيء .

وشرح الآية أن الأنصار كانوا لما قدم عليهم المهاجرون قسموا دورهم وأموالهم بينهم وبينهم ، فلما أفاء الله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أموال بني النضير خطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكر ما صنعوا بالمهاجرين من إنزالهم إياهم وأثرتهم على أنفسهم ، ثم قال " إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليّ من بني النضير " ، وكان

المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم ، فقال السعدان ـ رضى الله عنهما ـ : بل يقسم بين المهاجرين خاصة ويكونون في دورنا كما كانوا ، وقالت الأنصار : رضينا وسلمنا ، وفي رواية أنهم قالوا : اقسم فيها هذه خاصة واقسم لهم من أموالنا ما شئت ، فنزلت ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ﴾ ـ الآية ، وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار ، وقال أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ : جزاكم الله خيراً يا معشر الأنصار " ، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال العنزي :

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت . . .

بنا نعلنا في الواطئين فزلت

أبوا أن يملونا ولو أنا أمنا . . .

تلاقي الذي يلقون منا لملت

فهم لعمري الحقيقون باسم إخوان الصفاء ، وخلان المروءة والوفاء ، والكرامة والاصطفاء ، و ـ رضى الله عنه ـ م وعن تابعيهم من الكرام الخلفاء والسادة والحنفاء .

ولما أثنى الله سبحانه وتعالى على المهاجرين والأنصار ـ رضى الله عنه ـ م بما هم أهله ، التابعين لهم بإحسان ما يوجب لهم الثناء فقال عاطفاً على المهاجرين فيقتضي التشريك معهم ، أو على أصل القصة من عطف الجمل : ﴿ والذين جاؤوا ﴾ أي من أي طائفة كانوا ، ولما كان المراد المجيء ولو في زمن يسير ، أثبت الجار فقال : ﴿ من بعدهم ﴾ أي بعد المهاجرين والأنصار وهم من آمن بعد انقطاع الهجرة بالفتح وبعد إيمان الأنصار الذين أسلموا بعد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى يوم القيامة ، ثم ذكر الخبر أو الحال على نحو ما مضى في الذي قبله فقال تعالى : ﴿ يقولون ﴾ أي على سبيل التجديد والاستمرار تصديقاً لإيمانهم بدعائهم لمن سنه لهم : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا بإيجاد من مهد الدين قبلنا . ولما كان الإنسان وإن اجتهد موضعاً للنقصان قال ملقناً لنا : ﴿ اغفر ﴾ أي أوقع الستر على النقائص أعيانها وآثارها ﴿ لنا ﴾ ولما بدؤوا بأنفسهم ، ثنوا بمن كان السبب في إيمانهم فقالوا : ﴿ ولإخواننا ﴾ أي في الدين فإنه أعظم أخوة ، وبينوا العلة بقولهم : ﴿ الذين سبقونا بالإيمان ﴾ ولما لقنهم سبحانه حسن الخلافة لمن مهد لهم ما هم فيه ، أتبعه تلقين ما يعاشرون به أعضادهم الذين هم معهم على وجه يعم من قبلهم ، فقال معلماً بأن الأمر كله بيده حثاً على الالتجاء إليه من أخطار النفس التي هي أعدى الأعداء : ﴿ ولا تجعل ﴾ وأفهم قوله : ﴿ في قلوبنا ﴾ أن رذائل النفس قل أن تنفك وأنها إن كانت مع

صحة القلب أوشك أن لا تؤثر ﴿ غلاًّ ﴾ أي ضغناً وحسداً وحقداً وهو حرارة وغليان يوجب الانتقام ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي أقروا بالإيمان وإن كانوا في أدنى درجاته .

(193/755)

ولما كان هذا دعاء جامعاً للخير ، لقنهم ما يجيبهم في لزومه والتخلق به مع ما فيه من التملق للإله والتعريض له بقوة الرجاء فقال : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا بتعليم ما لمن نكن نعلم ، وأكدوا إعلاماً بأنهم يعتقدون ما يقولونه وإن ظهر من أفعالهم ما يقدح في اعتقادهم ولو في بعض الأوقات فقالوا : ﴿ إنك رؤوف ﴾ أي راحم أشد الرحمة لمن كانت له بك وصلة بفعل من أفعال الخير ﴿ رحيم ﴾ مكرم غاية الإكرام لمن أردته ولو لم يكن له وصلة ، فأنت جدير بأن تجيبنا لأنا بين أن يكون لنا وصلة فنكون من أهل الرأفة ، أو لا فنكون من أهل الرحمة ، فقد أفادت هذه الآية أن من كان في قلبه غل على أحد من الصحابة . رضى الله عنهم . فليس ممن عنى الله بهذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 524 . 528 ﴾

(194/755)

فصل

قال الفخر :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ ﴾

اعلم أن هذا بدل من قوله : ﴿ وَلِذِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [الحشر : 7] كأنه قيل : أعني بأولئك الأربعة هؤلاء الفقراء والمهاجرين الذين من صفتهم كذا وكذا ، ثم إنه تعالى وصفهم بأمور : أولها : أنهم فقراء وثانيها : أنهم مهاجرون وثالثها : أنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم يعني أن كفار مكة أحوجوهم إلى الخروج فهم الذين أخرجوهم ورابعها : أنهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، والمراد بالفضل ثواب الجنة وبالرضوان قوله : ﴿ ورضوان مّنَ الله أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : 72] وخامسها : قوله : ﴿ وَيَنصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ أي بأنفسهم وأموالهم وسادسها : قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصادقون ﴾ يعني أنهم لما هجروا لذات الدنيا وتحملوا شدائدها لأجل الدين ظهر صدقهم في دينهم ، وتمسك بعض العلماء بهذه الآية على إمامة أبي بكر رضي الله عنه ، فقال : هؤلاء الفقراء من المهاجرين والأنصار كانوا يقولون لأبي بكر يا خليفة رسول الله ، والله يشهد على كونهم صادقين ، فوجب أن يكونوا صادقين في قولهم يا خليفة رسول الله ، ومتى كان الأمر كذلك وجب الجزم بصحة إمامته .

ثم إنه تعالى ذكر الأنصار وأثنى عليهم حين طابت أنفسهم عن الفيء إذ للمهاجرين دونهم فقال :

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا

(195/755)

والمراد من الدار المدينة وهي دار الهجرة تبوأها الأنصار قبل المهاجرين وتقدير الآية : والذين تبوءوا المدينة والإيمان من قبلهم فإن قيل : في الآية سؤالان أحدهما : أنه لا يقال : تبوأ الإيمان والثاني : بتقدير أن يقال : ذلك لكن الأنصار ما تبوءوا الإيمان قبل المهاجرين والجواب عن الأول من وجوه أحدها : تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان كقوله :

ولقد رأيتك في الوغى . . متقلداً سيفاً ورمحاً

وثانيها : جعلوا الإيمان مستقراً ووطناً لهم لتمكنهم منه واستقامتهم عليه ، كما أنهم لما سألوا سلمان عن نسبه فقال : أنا ابن الإسلام وثالثها : أنه سمى المدينة بالإيمان ، لأن فيها ظهر الإيمان وقوي والجواب : عن السؤال الثاني من وجهين الأول : أن الكلام على التقديم والتأخير ، والتقدير : والذين تبوءوا الدار من قبلهم والإيمان والثاني : أنه على تقدير حذف

المضاف والتقدير: تبوءوا الدار والإيمان من قبل هجرتهم، ثم قال: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ وقال الحسن: أي حسداً وحرارة وغيظاً مما أوتي المهاجرون من دونهم، وأطلق لفظ الحاجة على الحسد والغيظ والحرارة، لأن هذه الأشياء لا تنفك عن الحاجة، فأطلق اسم اللام على الملزوم على سبيل الكناية، ثم قال: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ يقال: آثره بكذا إذا خصه به، ومفعول الإيثار محذوف، والتقدير: ويؤثرونهم بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم.

(196/755)

عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأنصار: "إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم وقسمت لكم من الغنيمة كما قسمت لهم وإن شئتم كان لهم الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم" فقالوا: لا بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ولا نشاركهم في الغنيمة" فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ فبين أن هذا الإيثار ليس عن غنى عن المال، ولكنه عن حاجة وخصاصة وهي الفقر، وأصلها من الخصاص وهي الفرج، وكل خرق في منخل أو باب أو سحاب أو برقع فهي خصاص، الواحد خصاصة، وذكر المفسرون أنواعاً من إيثار الأنصار للضيف بالطعام وتعللهم عنه حتى

يشبع الضيف ، ثم ذكروا أن الآية نزلت في ذلك الإيثار ، والصحيح أنها نزلت بسبب إيثارهم المهاجرين بالفيء ، ثم لا يمتنع أن يدخل فيها سائر الإيثارات ، ثم قال : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هُمُ المفلحون ﴾ الشح بالضم والكسر ، وقد قرىء بهما .

واعلم أن الفرق بين الشح والبخل هو أن البخل نفس المنع ، والشح هو الحالة النفسانية التي تقتضي ذلك المنع ، فلما كان الشح من صفات النفس ، لا جرم قال تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ الظافرون بما أرادوا ، قال ابن زيد : من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عن أخذه ولم يمنع شيئاً أمره الله بإعطائه فقد وقي شح نفسه .

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (10)

(197/755)

اعلم أن قوله : ﴿ والذين جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ عطف أيضاً على المهاجرين وهم الذين هاجروا من بعد ، وقيل : التابعون بإحسان وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة ، وذكر تعالى أنهم يدعون لأنفسهم ولمن سبقهم بالإيمان ، وهو قوله : ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفر لَنَا ولإخواننا الذين سَبَقُونَا بالإيمان وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لّلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ أي

غشاً وحسداً وبغضاً .

واعلم أن هذه الآيات قد استوعبت جميع المؤمنين لأنهم إما المهاجرون أو الأنصار أو الذين جاءوا من بعدهم ، وبين أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين وهم المهاجرون والأنصار بالدعاء والرحمة فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء كان خارجاً من جملة أقسام المؤمنين بحسب نص هذه الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 249 . 251 ﴾

(198/755)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

(199/755)

قد تقدم القول في تسبيح الجمادات التي يتناولها عموم ما في السماوات والأرض وأن أهل العلم اختلفوا في ذلك . فقال قوم : ذلك على الحقيقة ، وقال آخرون : ذلك مجاز أي آثار

الصنعة فيها والإيجاد لها كالتسبيح وداعية إلى التسبيح ممن له أن يسبح ، قال مكي ﴿ سبح ﴾ معناه : صلى وسجد فهذا كله بمعنى الخضوع والطوع ، و ﴿ العزيز الحكيم ﴾ صفتان مناسبتان لما يأتي بعد من قصة العدو الذي أخرجهم من ديارهم ، و ﴿ الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ هم بنو النضير ، وكانت قبيلة عظيمة من بني إسرائيل موازية في القدر والمنزلة لبني قريظة ، وكان يقال للقبيلتين الكاهنان ، لأنهما من ولد الكاهن بن هارون ، وكانت أرضهم وحصونهم قريبة من المدينة ، ولهم نخل وأموال عظيمة ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحد خرج إلى بني النضير فحاصرهم وأجلاهم على أن يحملوا من أموالهم ما أقلته إبلهم حاشى الحلقة وهي جميع السلاح ، فخرجوا إلى بلاد مختلفة فذلك قوله تعالى : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لأول الحشر ﴾ اختلف الناس في معنى ذلك بعد اتفاقهم على أن ﴿ الحشر ﴾ : الجمع والتوجيه إلى ناحية ما . فقال الحسن بن أبي الحسن وغيره : أراد حشر القيامة أي هذا أوله ، والقيام من القبور آخره ، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : " امضوا هذا أول الحشر وإنا على الأثر " . وقال عكرمة والزهري وغيرهما : المعنى ﴿ لأول ﴾ موضع ﴿ الحشر ﴾ وهو الشام ، وذلك أن أكثر بني النضير جاءت إلى الشام ، وقد روي أن حشر القيامة هو إلى بلد الشام وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبني النضير " اخرجوا " ، قالوا : إلى أين ؟ قال : " إلى أرض المحشر " ، وقال قوم

في كتاب المهدوي : المراد ﴿ الحشر ﴾ في الدنيا الذي هو الجلاء والإخراج ، فهذا الذي فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني النضير أوله ، والذي فعل عمر بن الخطاب بأهل خيبر آخره

(200/755)

، وأخبرت الآية بمغيب وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بجلاء أهل خيبر ، ويحتمل أن يكون آخر الحشر في قول النبي عليه السلام في مرضه : " لا يبقين دينان في جزيرة العرب " ، فإن ذلك يتضمن إجلاء بقاياهم قال الخليل في ما حكى الزجاج : سميت جزيرة لأنه أحاط بها بحر الحبشة وبحر فارس ودجلة والفرات ، وفي هذه الإحاطة نظر . وقوله تعالى : ﴿ ما ظننتم أن يخرجوا ﴾ معناه : لمنعتهم وكثرة عددهم ، فلم تكن آمالكم وظنونكم تنتهي إلى أنهم يخرجون ويدعون أموالهم لكم ، وبحسب ذلك من المنعة والعدد والتحصن ظنوا هم أن لن يقدر عليهم وقوله تعالى : ﴿ من الله ﴾ يريد : من جند الله حزب الله وقوله تعالى : ﴿ فأتاهم الله ﴾ عبارة عن إظهاره تعالى المسلمين عليهم وإلقائهم في حيز الهزم والذل .

(201/755)

وقرأ الجمهور : " الرعْب " بسكون العين ، وقرأ أبو جعفر وشيبة ، بضم العين ، واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى : ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴾ ، فقال الضحاك والزجاج وغيره : كلما هدم المسلمون من حصنهم في القتال هدموا هم من البيوت وخربوا الحصون دأباً فهذا معنى تخريبهم . وقال الزهراوي وغيره كانوا لما أبيح لهم ما تستقل به الإبل لا يدعون خشبة حسنة ولا نجافاً ولا سارية إلا قلعوه وخربوا البيوت عنه ، وقوله تعالى : ﴿ وأيدي المؤمنين ﴾ من حيث فعلهم ، وكفرهم داعية إلى تخريب المؤمنين بيوتهم ، فكأنهم قد خربوها هم بأيدي المؤمنين . وقال جماعة من المفسرين : إنهم لما أزمعوا الجلاء شحوا على ترك البيوت سليمة للمؤمنين فهدموا وخربوا لمعنى الإفساد على من يأتي . قال قتادة : خرب المؤمنون من خارج ليدخلوا وخربوهم من داخل . وقرأ جمهور القراء : " يخْرِبون " بسكون الخاء وتخفيف الراء . وقرأ أبو عمرو وحده والحسن بخلاف عنه وقتادة وعيسى بفتح الخاء وشد الراء . فقال فريق من العلماء اللغويين القراءتان بمعنى واحد وقال أبو عمرو بن العلاء : خرب ، معناه : هدم وأفسد وأخرب معناه ترك الموضع خراباً وذهب عنه ، ثم نبه تعالى المؤمنين وغيرهم ممن له أن ينظر على نصرة رسوله وصنعه له فيمن حاده وناوأه بقوله تعالى : ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ أي العيون والأفهام .

وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (3)

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه كتب على بني إسرائيل جلاء ، وكانت بنو النضير ممن حل بالحجاز بعد موت موسى عليه السلام بيسير ، لأنهم كانوا من الجيش الذي رجع وقد عصوا في أن لم يقتلوا الغلام ابن ملك العماليق لجماله وعقله ، وقد كان موسى عليه السلام قال لهم لا تستحيوا أحداً ، فلما رجع ذلك الجيش إلى بني إسرائيل بالشام وجدوا موسى ميتاً ، وقال لهم بنو إسرائيل أنتم عصاة والله لا دخلتم علينا بلادنا ، فقال أهل ذلك الجيش عند ذلك ليس لنا أحب من البلاد التي غلبنا أهلها ، فانصرفوا إلى الحجاز ، فكانوا فيه فلم يجر عليهم الجلاء الذي أجراه بختنصر على أهل الشام ، وقد كان الله تعالى كتب في الأزل على بني إسرائيل جلاء فنالهم هذا ﴿ الجلاء ﴾ على يدي محمد صلى الله عليه وسلم ، ولولا ذلك ﴿ لعذبهم ﴾ الله ﴿ في الدنيا ﴾ بالسيف والقتل كأهل بدر وغيرهم . ويقال : جلا الرجل وأجلاه غيره ، وقد يقال : أجلى الرجل نفسه بمعنى جلا ، والمشاقة كون الإنسان في شق ومخالفه في شق ، وقوله : ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ سببها أن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وضعوا أيديهم في نخل بني النضير يقطعون ويحرقون ، فقال بنو النضير : ما هذا الإفساد يا محمد وأنت تنهى عن الفساد فكف عن ذلك بعض

الصحابة وذلك في صدر الحرب معهم ، فنزلت الآية معلمة أن جميع ما جرى من قطع أو إمساك ﴿ فبإذن الله ﴾ ، وردت الآية على قول بني النضير ، إن محمداً ينهى عن الفساد وها هو ذا يفسد فأعلم الله تعالى أن ذلك بإذنه ﴿ ليخزي به الفاسقين ﴾ من بني النضير ، واختلف الناس في اللينة ، فقال الحسن ومجاهد وابن زيد وعمرو بن ميمون : اللينة النخلة اسمان بمعنى واحد وجمعها لين وليان ، قال الشاعر [امرؤ القيس] : [المتقارب]

وسالفة كسحوق الليان . . . أضرم فيها الغوي السعر

وقال الآخر [ذو الرمة] :

طراق الخوافي واقع فوق لينة . . . ندى ليله في ريشه يترقرق

وقال ابن عباس وجماعة من اللغويين : اللينة من النخل ما لم يكن عجوة . وقال سفيان بن سعيد الثوري : اللينة الكريمة من النخل ، وقال أبو عبيدة فيما روي عنه وسفيان : اللينة : ما تمرها لون وهو نوع من التمر ، يقال له اللون ، قال سفيان ، هو شديد الصفرة يشف عن نواة من التمر فيرى من خارج وأصلها لونة فأبدلت لموافقة الكسرة ، وقال أيضاً أبو عبيدة اللين : ألوان النخل المختلطة التي ليس فيها عجوة ولا برني . وقرأ ابن مسعود والأعمش : "

أو تركتموها قوماء على أصولها " ، وقوله تعالى : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ الآية . إعلام إنما أخذ لبني النضير ومن فدك فهو خاص للنبي صلى الله عليه وسلم وليس على حكم الغنيمة التي يوجف عليها ويقاتل فيها بل على حكم خمس الغنائم ، وذلك أن بني النضير لم يوجف عليها ، ولا قوتلت كبير قتال ، فأخذ منها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قوت عياله وقسم سائرها في المهاجرين ، ولم يعط منها الأنصار شيئاً ، غير أن أبا دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف شكيا عظيمة فأعطاهما ، هذا قول جماعة من العلماء ، وفي ذلك قول عمر بن الخطاب : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله عليه مما لم يوجف عليه المسلمون ب ﴿ خيل ولا ركاب ﴾ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق منها على أهله نفقة سنة وما بقي منها جعله في السلاح والكراع عدة في سبيل الله .

قال بعض العلماء : وكذلك كل ما فتح على الأئمة مما لم يوجف عليه فهو لهم خاصة

والوجيف : دون التضريب ، يقال وجف الفرس وأوجفه الراكب والإيجاف : سرعة السير والاجتهاد فيه .

مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ

﴿ أهل القرى ﴾ المذكورون في هذه الآية هم أهل الصفراء والينبوع ووادي القرى ، وما هنالك من قرى العرب التي تسمى قرى عربية ، وحكمها مخالف لبني النضير ، ولم يحبس من هذه رسول الله صلى الله عليه سولم لنفسه شيئاً بل أمضاها لغيره ، وذلك أنها في ذلك الوقت فتحت ، واختلف الناس في صفة فتحها فقيل : عن لها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعث بعثاً إلى كل مكان فطاع وأعطاه أهله فكان مما لم يوجف عليه ، وكان حكمه حكم خمس الغنائم ، وليس في الآية نسخ على هذا التأويل ، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ذلك للمهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً . وقال قتادة وزيد بن رومان : كانت هذه القرى قد أوجف عليها ، ولكن هذا حكم ما يوجف عليه ، ثم نسخ الله تعالى هذا الحكم بآية الأنفال فجعل فيها الخمس لهذه الأصناف وبقيت الأربعة الأخماس للمقاتلة ، وآية هذه السورة لم يكن فيها للمقاتلة شيء ، وهذا القول يضعف ، لأن آية الأنفال نزلت إثر بدر وقبل بني النضير وقبل أمر هذه القرى بسنة ونيف . و﴿ القربى ﴾ في هذه الآية قرابة النبي صلى الله عليه وسلم منعوا الصدقة وعوضوا من الفيء .

وقوله تعالى : ﴿ كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ مخاطبة للأنصار لأنه لم يكن في المهاجرين في ذلك الوقت غني ، وقرأ جمهور الناس "يكون" بالياء ، وقرأ أبو جعفر وابن مسعود وهشام عن ابن عامر : بالتاء وهي كان التامة . وقرأ جمهور الناس : "دُولةً" بضم الدال ونصب الهاء . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : "دَولةً" بفتح الدال ونصب الهاء . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وهشام عن ابن عامر : "دُولةٌ" بضم الدال والهاء . وقال عيسى بن عمر هما بمعنى واحد . وقال الكسائي وحذاق النظرة الفتح في المُلك : بضم الميم لأنها الفعلة في الدهر والضم في المِلك بكسر الميم . والمعنى أنها كالعواري فيتداول ذلك المال الأغنياء بتصرفاتهم ويبقى المساكين بلا شيء ولا حظ في شيء من هذه الأموال ليتيم غني ولا لابن سبيل حاضر المال ، وقد مضى القول في الغنائم في سورة الأنفال ، وروي : أن قوماً من الأنصار تكلموا في هذه القرى المفتتحة وقالوا : لنا منها سهمنا فنزل قوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ﴾ الآية ، مؤدباً في ذلك وزاجراً ثم اطرد بعد معنى الآية في أوامر النبي صلى الله عليه وسلم ونواهيه حتى قال قوم إن الخمر محرمة في كتاب الله بهذه الآية ، وانتزع منها ابن مسعود : لعنة الواشمة والمستوشمة الحديث . ورای محرماً في ثيابه المخيطة . فقال له : اطرح هذا عنك ، فقال له الرجل : أتقرأ علي بذلك آية من كتاب الله تعالى فقال ابن مسعود : نعم ، وتلا هذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ للفقراء المهاجرين ﴾ بيان لقوله : ﴿ والمساكين وابن السبيل ﴾ فكرر لام الجر لما كانت الأولى مجرورة باللام ليبين أن

البدل إنما هو منها ، ثم وصفهم تعالى بالصفة التي تقتضي فقرهم وتوجب الإشفاق عليهم وهي إخراجهم من ديارهم وأموالهم ، وجميع المهاجرين إما أخرجهم الكفار وإما أحوال الكفار وظهورهم ، وفرض الهجرة في ذلك الوقت ، ووصفهم بالفقر وإن كان لهم بعض أحوال وهي حال للفقر في اللغة ،

(206/755)

وقد مضى بيان هذا في سورة الكهف .

وقوله ﴿ يبتغون ﴾ في موضع الحال ، و" الفضل والرضوان " يراد به الآخرة والجنة ، و" نصر الله " تعالى هو نصر شرعه ونبيه ، و﴿ الصادقون ﴾ في هذه الآية يجمع صدق اللسان وصدق الأفعال ، لأن أفعالهم في أمر هجرتهم إنما كانت وفق أقوالهم .

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ

(207/755)

﴿ الذين تبوءوا ﴾ هم الأنصار ، والضمير في ﴿ قبلهم ﴾ للمهاجرين ، و﴿ الدار ﴾ هي المدينة ، والمعنى : تبوءوا الدار مع الإيمان معاً ، وبهذا الاقتران يصح معنى قوله : ﴿ من قبلهم ﴾ فتأمله ، ﴿ والإيمان ﴾ لا يتبوأ لأنه ليس مكاناً ولكن هذا من بليغ الكلام ويتخرج على وجوه كلها جميل حسن . وأثنى الله تعالى في هذه الآية على الأنصار بأنهم ﴿ يحبون ﴾ المهاجرين ، وبأنهم ﴿ يؤثرون على أنفسهم ﴾ وبأنهم قد وقوا شح أنفسهم لأن مقتضى قوله : ﴿ ومن يوق شح نفسه ﴾ الآية . أن هؤلاء الممدوحين قد وقوا الشح ، والحاجة : الحسد في هذا الموضع ، قاله الحسن وتعم بعد جميع الوجوه التي هي بخلاف ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في إعطاء المهاجرين أموال بني النضير والقرى ، و﴿ أوتوا ﴾ معناه : أعطوا ، والضمير المرفوع بأن لم يسم فاعله هو للمهاجرين ، وقوله تعالى : ﴿ ويؤثرون ﴾ الآية ، صفة للأنصار . وقد روي من غير ما طريق ، أنها نزلت بسبب رجل من الأنصار ، قال أبو المتوكل : هو ثابت بن قيس ، وقال أبي هريرة في كتاب مكي : كنية هذا الرجل أبو طلحة ، وخلط المهدوي في ذكر هذا الرجل ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : والله ما عندنا إلا قوت الصبية ، فقال : نومي صبيتك وأطفئي السراج وقدمي ما عندك للضيف ونوهمه نحن أنا نأكل ، ففعلا ذلك فلما غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " عجب الله من فعلكما البارحة " ، ونزلت الآية في ذلك ، والإيثار على النفس أكرم خلق ، وقال حذيفة العدوي : طلبت يوم اليرموك ابن عم لي في الجرحى

ومعي شيء من ماء ، فوجدته ، فقلت : أسقيك ؟ فأشار أن نعم ، فإذا رجل يصيح آه ، فأشار ابن عمي أن انطلق إليه فجئته فإذا هو هشام بن العاصي ، فقلت : اشرب فإذا آخر يقول : آه ، فأشار هشام أن انطلق إليه ، فجئته ، فإذا به قد فاضت نفسه ، فرجعت إلى هشام ، فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات ، فعجبت من إيثارهم رحمهم الله

(208/755)

وقال أبو زيد البسطامي : قدم علينا شاب من بلخ حاجاً فقال : ما حد الزهد عندكم ؟ فقلت : إذا وجدنا أكلنا وإذا فقدنا صبرنا ، فقال : هكذا عندنا كلاب بلخ ، فقلت له : فما هو عندكم ، فقال : إذا فقدنا صبرنا وإذا وجدنا آثرنا وروي : أن سبب هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قسم هذه القرى في المهاجرين قال للأنصار : " إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وتركتم لهم هذه " فقالوا : بل نقسم لهم من أموالنا ونترك لهم هذه الغنيمة ، فنزلت هذه الآية . والخصاصة : الفاقة والحاجة ، وهو مأخوذ من خصائص البيت وهو ما يبقى بين عيدانه من الفرج والفتوح فكأن حال الفقير هي كذلك يتخللها النقص والاحتياج ، و "

شح النفس " هو كثرة منعها وضبطها على المال والرغبة فيه وامتداد الأمل هذا جماع شح النفس وهو داعية كل خلق سوء ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" من أدى الزكاة المفروضة وقرى الضيف وأعطى في النائبة فقد برئ من الشح " ،

واختلف الناس بعد هذا الذي قلنا ، فذهب الجمهور والعارفون بالكلام إلى هذا وعلى هذا التأويل ، كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يطوف ويقول : اللهم قني شح نفسي ، لا يزيد على ذلك ، فقيل له في ذلك فقال إذا وقيته لم أفعل سوءاً .

قال القاضي أبو محمد : " شح النفس " فقر لا يذهبه غنى المال بل يزيده وينصب به ، وقال ابن زيد وابن جبير وجماعة : من لم يأخذ شيئاً نهاه الله تعالى عنه ولم يمنع الزكاة المفروضة فقد برئ من شح النفس . وقال ابن مسعود رحمه الله " شح النفس " : هو أكل مال الغير بالباطل ، وأما منع الإنسان ماله فهو بخل وهو قبيح ، ولكنه ليس بالشح . وقرأ عبد الله بن عمر : " شِح " بكسر السين ، ويوقى وزنه : يفعل من وقى يقي مثل وزن يزن . وقرأ أبو حيوة : " يوَقّ " بفتح الواو وشد القاف و ﴿ المفلحون ﴾ : الفائزون ببغيتهم .

واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ فقال الفراء : أراد الفرقة الثالثة من الصحابة وهي من آمن أو كبر في آخر مدة النبي صلى الله عليه وسلم . وقال جمهور العلماء : أراد من يجيء من التابعين وغيرهم إلى يوم القيامة ، فوصف الله تعالى القول الذي ينبغي أن يلتزمه كل من لم يكن من الصدر الأول وإعراب ﴿ الذين ﴾ رفع عطفاً على ﴿ هم ﴾ أو على ﴿ الذين ﴾ أو رفع بالابتداء . وقوله تعالى : ﴿ يقولون ﴾ حال فيها الفائدة والمراد : والذين جاؤوا قائلون كذا أو يكون يقولون صفة ، ولهذه الآية قال مالك وغيره : إنه من كان له في أحد من الصحابة قول سوء أو بغض فلا حظ له في الغنيمة أدباً له ، وجاء عراقيون إلى علي بن الحسين فسبوا أبا بكر وعمر وعثمان فقال لهم : أمن المهاجرين الأولين أنتم ؟ فقالوا : لا ، أفمن ﴿ الذين تبوءوا الدار والإيمان ﴾ ؟ قالوا : لا ، قال فقد تبرأتم من هذين الفريقين ، وأنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ الآية . قوموا فعل الله بكم وفعل ، وقال الحسن أدركت ثلاثمائة من الصحابة منهم سبعون بدرياً كلهم يحدثني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه . فالجماعة أن لا تسبوا الصحابة ولا تماروا في دين الله ولا تكفروا أحداً من أهل التوحيد بذنب " . والغل : الحقد والاعتقاد الرديء ، وقرأ الأعمش : " في قلوبنا غمراً للذين " والغمر : الحقد ، وقد تقدم الاختلاف في قراءة ﴿ رؤوف ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾

أي الفَيءُ والغنائم ﴿ لِلفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ .

وقيل : ﴿ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأغنيآء ﴾ ولكن يكون "لِلْفُقَرَاءِ" .

وقيل : هو بيان لقوله : وَلِذِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ" فلما ذُكروا بأصنافهم قيل المال لهؤلاء ، لأنهم فقراء ومهاجرين وقد أُخرجوا من ديارهم ؛ فهم أحق الناس به .

وقيل : ﴿ ولكن الله يُسَلِّطُ رُسُلَهُ على مَن يَشَآءُ ﴾ للفقراء المهاجرين لكيلا يكون المال دولة للأغنياء من بني الدنيا .

وقيل : والله شديد العقاب للمهاجرين ؛ أي شديد العقاب للكفار بسبب الفقراء المهاجرين ومن أجلهم .

ودخل في هؤلاء الفقراء المتقدم ذكرهم في قوله تعالى : ﴿ وَلِذِي القربى واليتامى ﴾ .

وقيل : هو عطف على ما مضى ، ولم يأت بواو العطف كقولك : هذا المال لزيد لِبَكْر لفلان

لفلان.

والمهاجرون هنا: من هاجر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم حُبّاً فيه ونُصْرَةً له.

قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهلين والأوطان حبّاً لله ولرسوله، حتى إن الرجل منهم كان يَعْصِب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحَفِيرة في الشتاء ما له دِثار غيرها.

وقال عبد الرحمن بن أبزَى وسعيد ابن جُبَير: كان ناس من المهاجرين لأحدهم العبد والزوجة والدار والناقة يحجّ عليها ويغزو، فنسبهم الله إلى الفقراء وجعل لهم سهماً في الزكاة.

ومعنى ﴿ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ ﴾ أي أخرجهم كفار مكة؛ أي أحوَجُوهم إلى الخروج؛ وكانوا مائة رجل.

﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ يطلبون.

﴿ فَضْلاً مِّنَ اللهِ ﴾ أي غنيمة في الدنيا ﴿ وَرِضْوَاناً ﴾ في الآخرة؛ أي مرضاة ربهم.

﴿ وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في الجهاد في سبيل الله.

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصادقون ﴾ في فعلهم ذلك.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب بالجابية فقال : من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أُبَيّ بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ؛ فإن الله تعالى جعلني له خازناً وقاسماً .

ألاَ وإني بادٍ بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم فمعطيهن ، ثم المهاجرين الأولين ؛ أنا وأصحابي .

أُخرجنا من مكة من ديارنا وأموالنا .

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى قوله تعالى : ﴿ والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان مِن قَبْلِهِمْ ﴾ لا خلاف أن الذين تبوّءوا الدار هم الأنصار الذين استوطنوا المدينة قبل المهاجرين إليها .

"وَالْإِيمَانَ" نصب بفعل غير تبوّأ ؛ لأن التبوّء إنما يكون في الأماكن .

و ﴿ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ "مِنْ" صلة تبوّأ والمعنى : والذين تبوّءوا الدار من قبل المهاجرين

واعتقدوا الإيمان وأخلصوه لإن الإيمان ليس بمكان يتبوأ ، كقوله تعالى : ﴿ فأجمعوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ [يونس : 71] أي وادعوا شركاءهم ؛ ذكره أبو عليّ والزمخشريّ وغيرهما .

ويكون من باب قوله : عَلَفْتُهَا تبناً وماءً بارداً .

ويجوز حمله على حذف المضاف كأنه قال : تبوّءوا الدار ومواضع الإيمان .

ويجوز حمله على ما دل عليه تبوّأ ؛ كأنه قال : لزموا الدار ولزموا الإيمان فلم يفارقوهما .

ويجوز أن يكون تبوّأ الإيمان على طريق المثل ؛ كما تقول : تبوّأ من بني فلان الصميم .

والتبوُّء : التمكن والاستقرار .

وليس يريد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين ، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم إليهم .

الثانية : واختلف أيضاً هل هذه الآية مقطوعة مما قبلها أو معطوفة ؛ فتأوّل قوم أنها معطوفة على قوله : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ وأن الآيات التي في الحشر كلها معطوفة بعضها على بعض .

ولو تأملوا ذلك وأنصفوا لوجدوه على خلاف ما ذهبوا إليه ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الحشر مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ﴾ إلى قوله ﴿ الفاسقين ﴾ فأخبر عن بني النضير وبني قَيْنُقاع .

ثم قال : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ ولكن الله يُسَلِّطُ رُسُلَهُ على مَن يَشَآءُ ﴾ فأخبر أن ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لم يُوجف عليه حين خلّوه .

وما تقدم فيهم من القتال وقطع شجرهم فقد كانوا رجعوا عنه وانقطع ذلك الأمر .

ثم قال : ﴿ مَّآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ وهذا كلام غير معطوف على الأول .

وكذا ﴿ والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان ﴾ ابتداء كلام في مدح الأنصار والثناء عليهم ؛ فإنهم سلّموا ذلك الفيء للمهاجرين ؛ وكأنه قال : الفيء للفقراء المهاجرين ، والانصار يحبون لهم لم يحسدوهم على ما صفا لهم من الفيء .

وكذا .

﴿ والذين جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ ابتداء كلام ؛ والخبر ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفر لَنَا ﴾ .

وقال إسماعيل ابن إسحاق : إن قوله ﴿ والذين تَبَوَّءُوا الدار ﴾ ﴿ والذين جَآءُوا ﴾

معطوف على ما قبل ، وأنهم شركاء في الفيء ؛ أي هذا المال للمهاجرين والذين تبوّءوا الدار .

(213/755)

وقال مالك بن أوس : قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية ﴿ إِنَّمَا الصدقات لِلْفُقَرَآءِ ﴾ [التوبة : 60] فقال : هذه لهؤلاء .

ثم قرأ ﴿ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾

[الأنفال : 41] فقال : هذه لهؤلاء .

ثم قرأ ﴿ وَمَآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ ﴾ حتى بلغ ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ ، ﴿ والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان ﴾ ﴿ والذين جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعي وهو بِسَرْوِ حمير نصيبه منها لم يَعْرَق فيها جبينه .

وقيل : إنه دعا المهاجرين والأنصار واستشارهم فيما فتح الله عليه من ذلك ، وقال لهم : تثبتوا الأمر وتدبروه ثم اغدوا عليّ .

ففكر في ليلته فتبين له أن هذه الآيات في ذلك أنزلت .

فلما غدَوْا عليه قال : قد مررت البارحة بالآيات التي في سورة "الحشر" وتلا ﴿ مَّآ أَفَآءَ

الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ إلى قوله ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ فلما بلغ قوله : ﴿ أولئك هُمُ الصادقون ﴾ قال : ما هي لهؤلاء فقط .

وتلا قوله : ﴿ والذين جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ إلى قوله ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ثم قال : ما بقي أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل في ذلك .

والله أعلم .

الثالثة : روى مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر قال : لولا من يأتي من آخر الناس ما فُتحت قريةٌ إلا قسمتها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خَيبر .

وفي الروايات المستفيضة من الطرق الكثيرة : أن عمر أبقى سواد العراق ومصر وما ظهر عليه من الغنائم ؛ لتكون من أعطيات المقاتلة وأرزاق الحِشْوة والذّراري ، وأن الزبير وبلالاً وغير واحد من الصحابة أرادوه على قسم ما فتح عليهم ؛ فكره ذلك منهم واختلف فيما فعل من ذلك ؛ فقيل : إنه استطاب أنفس أهل الجيش ؛ فمن رضي له بترك حظه بغير ثمن لُيبقيه للمسلمين قلة .

ومن أبى أعطاه ثمن حظه .

فمن قال : إنما أبقى الأرض بعد استطابة أنفس القوم جعل فعله كفعل النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه قسم خَيبر ، لأن اشتراءه إياها وترك من ترك عن طيب نفسه بمنزلة قسمها .

وقيل : إنه أبقاها بغير شيء أعطاه أهل الجيوش .

وقيل : إنه تأول في ذلك قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ على ما تقدم .

والله أعلم .

الرابعة : واختلف العلماء في قسمة العقار ؛ فقال مالك : للإمام أن يوقفها لمصالح المسلمين.

وقال أبو حنيفة الإمام مخير بين أن يقسمها أو يجعلها وقفاً لمصالح المسلمين وقال الشافعيّ : ليس للإمام حبسها عنهم بغير رضاهم ، بل يقسمها عليهم كسائر الأموال .

فمن طاب نفساً عن حقه للإمام أن يجعله وقْفاً عليهم فله .

ومن لم تَطِب نفسُه فهو أحق بماله .

وعمر رضي الله عنه استطاب نفوس الغانمين واشتراها منهم .

قلت : وعلى هذا يكون قوله : ﴿ والذين جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ مقطوعاً مما قبله ، وأنهم نُدبوا بالدعاء للأولين والثناء عليهم .

الخامسة : قال ابن وهب : سمعت مالكاً يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق فقال : إن المدينة تُبُوِّئت بالإيمان والهجرة ، وإن غيرها من القُرى افتتحت بالسيف ؛ ثم قرأ ﴿

والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ الآية.

وقد مضى الكلام في هذا، وفي فضل الصلاة في المسجدين: المسجد الحرام ومسجد المدينة؛ فلا معنى للإعادة.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ يعني لا يحسدون المهاجرين على ما خصوا به من مال الفيء وغيره؛ كذلك قال الناس.

وفيه تقدير حذف مضافين؛ المعنى مَسَّ حاجةٍ من فَقد ما أوتوا.

وكل ما يجد الإنسان في صدره مما يحتاج إلى إزالته فهو حاجة.

وكان المهاجرون في دور الأنصار: فلما غَنم عليه الصلاة والسلام أموال بني النضير، دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين في إنزالهم إياهم في منازلهم، وإشراكهم في أموالهم.

ثم قال: " "إن أحببتم قسمت ما أفاء الله عليّ من بني النضير بينكم وبينهم، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم".

فقال سعد بن عُبادة وسعد بن معاذ : بل نقسمه بين المهاجرين ، ويكونون في دورنا كما كانوا .

ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار" " وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين ولم يعط الأنصار شيئاً إلا الثلاثة الذين ذكرناهم .

ويحتمل أن يريد به ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ إذا كان قليلاً (بل) يقنعون به ويرضون عنه .

وقد كانوا على هذه الحالة حين حياة النبي صلى الله عليه وسلم دُنْيَا ، ثم كانوا عليه بعد موته صلى الله عليه وسلم بحكم الدنيا .

وقد أنذرهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال : " سترون بعدي أَثَرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض "

السابعة : قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ في الترمذي عن أبي هريرة : أن رجلاً بات به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه ؛ فقال لامرأته : نَوّمي الصِّبية وأطفئي السراج وقَرّبي للضيف ما عندك ؛ فنزلت هذه الآية ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ قال : هذا حديث حسن صحيح .

خرجه مسلم أيضاً .

" وخرّج عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني مجهود .

فأرسل إلى بعض نسائه فقالت : والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء .

ثم أرسل إلى الأخرى فقالت مثل ذلك ؛ حتى قلن كلُّهن مثل ذلك : لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء .

فقال : من يُضيف هذا الليلة رحمه الله .

؟ فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله .

فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته : هل عندك شيء ؟ قالت : لا ، إلا قوت صبياني .

قال : فعلِّليهم بشيء فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل ؛ فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئيه .

قال : فقعدوا وأكل الضيف .

فلما أصبح غدا على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "قد عجِبَ الله عز وجل من صنيعكما بضيفكما الليلة" "

وفي رواية عن أبي هريرة قال : " جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضيفه فلم يكن عنده ما يضيفه .

فقال : "ألا رجل يضيف هذا رحمه الله ؟" فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة .

فانطلق به إلى رحله " .

.

؛ وساق الحديث بنحو الذي قبله ، وذكر فيه نزول الآية .

وذكر المهدويّ عن أبي هريرة أن هذا نزل في ثابت بن قيس ورجل من الأنصار نزل به ثابت يقال له أبو المتوكل ، فلم يكن عند أبي المتوكل إلا قوته وقوت صبيانه ؛ فقال لامرأته : أطفئي السراج ونوّمي الصبية ؛ وقَدّم ما كان عنده إلى ضيفه .

وكذا ذكر النحاس قال : قال أبو هريرة : نزل برجل من الأنصار يقال له أبو المتوكل ثابت بن قيس ضيفاً ، ولم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه ؛ فقال لامرأته : أطفئي السراج ونوّمي الصبية ؛ فنزلت ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ إلى قوله ﴿ فأولئك هُمُ المفلحون ﴾ .

وقيل : إن فاعل ذلك أبو طلحة .

وذكر القشيري أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم : وقال ابن عمر : أهدي لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى

هذا منّا ؛ فبعثه إليهم ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها سبعة أبيات ، حتى رجعت إلى أولئك ؛ فنزلت ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ ﴾ .

(217/755)

ذكره الثعلبيّ عن أنس قال : أَهْدِيَ لرجل من الصحابة رأس شاة وكان مجهوداً فوجّه به إلى جار له ، فتداولته سبعة أنفس في سبعة أبيات ، ثم عاد إلى الأول ؛ فنزلت : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية .

وقال ابن عباس : " قال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار يوم بني النضير : "إن شئتم قسمت للمهاجرين من دياركم وأموالكم وشاركتموهم في هذه الغنيمة وان شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم من الغنيمة شيئاً" فقالت الأنصار : بل نقسم لإخواننا من ديارنا وأموالنا ونؤثرهم بالغنيمة ؛ فنزلت ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ ﴾ " الآية .

والأول أصح .

وفي الصحيحين عن أنس : أن الرجل كان يجعل للنبيّ صلى الله عليه وسلم النخلات من أرضه حتى فُتحت عليه قريظة والنضير ، فجعل بعد ذلك يرد عليه ما كان أعطاه .

لفظ مسلم .

وقال الزهري عن أنس بن مالك : لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء ، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار ، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام ويكفونهم العمل والمؤونة ؛ وكانت أمّ أنس بن مالك تُدعى أم سُلَيم ، وكانت أم عبد الله بن أبي طلحة ، كان أخا لأنس لأمه ؛ وكانت أعطت أم أنس رسول الله صلى الله عليه وسلم عِذاقاً لها ؛ فأعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أيمن مولاته ، أم اسامة بن زيد .

قال ابن شهاب : فأخبرني أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة ، رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم .

قال : فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمي عِذاقها ، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أيمن مكانهن من حائطه .

خرجّه مسلم أيضاً .

الثامنة الإيثار : هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنياوية ، ورغبة في الحظوظ الدينية .

وذلك ينشأ عن قوة اليقين ، وتوكيد المحبة ، والصبر على المشقة .

يقال : آثرته بكذا ؛ أي خصصته به وفضّلته .

ومفعول الإيثار محذوف ؛ أي يؤثرونهم على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم ، لا عن غنى بل مع احتياجهم إليها ؛ حسب ما تقدم بيانه .

وفي موطأ مالك : "أنه بلغه عن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أن مسكيناً سألها وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف ؛ فقالت لمولاة لها : أعطيه إياه ؛ فقالت : ليس لك ما تفطرين عليه ؟ فقالت : أعطيه إياه .

قالت : ففعلت .

قالت : فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يُهدى لنا : شاةً وكفنها .

فدعتني عائشة فقالت : كلي من هذا ، فهذا خير من قرصك .

قال علماؤنا : هذا من المال الرابح ، والفعل الزاكي عند الله تعالى يعجّل منه ما يشاء ، ولا ينقص ذلك مما يدخر عنه .

ومن ترك شيئاً لله لم يجد فَقْدَه .

وعائشة رضي الله عنها في فعلها هذا من الذين أثنى الله عليهم بأنهم يؤثرون على أنفسهم مع ما هم فيه من الخصاصة ، وأن من فعل ذلك فقد وقى شُحّ نفسه وأفلح فلاحاً لا خسارة بعده .

ومعنى (شاة وكَفَنَها) فإن العرب أو بعض العرب أو بعض وجوههم كان هذا من طعامهم ، يأتون إلى الشاة أو الخروف إذا سلخوه غَطّوه كله بعجين البُرِّ وكفنوه به ثم علقوه في التنور ، فلا يخرج من ودكه شيء إلا في ذلك الكفن ؛ وذلك من طيب الطعام عندهم .

وروى النسائي عن نافع أن ابن عمر اشتكى واشتهى عنباً ، فاشترى له عنقود بدرهم ، فجاء مسكين فسأل ؛ فقال : أعطوه إياه ؛ فخالف إنسان فاشتراه بدرهم ، ثم جاء به إلى ابن عمر ، فجاء المسكين فسأل ؛ فقال : أعطوه إياه ؛ ثم خالف إنسان فاشتراه بدرهم ، ثم جاء به إليه ؛ فأراد السائل أن يرجع فمنع .

ولو علم ابن عمر أنه ذلك العنقود ما ذاقه ؛ لأن ما خرج لله لا يعود فيه .

وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا محمد بن مطرّف قال : حدثنا أبو حازم عن عبد الرحمن بن سعيد بن يربوع عن مالك الدار : أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أخذ أربعمائة دينار ، فجعلها في صرة ثم قال للغلام : اذهب بها إلى أبي عُبيدة بن الجرّاح ، ثم تَلَكَّأ ساعة في البيت حتى تنظر ماذا يصنع بها .

فذهب بها الغلام إليه فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك ؛ فقال :

وَصَلَه الله ورَحمه ، ثم قال : تعالي يا جارية ، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان ؛ حتى أنفذها .

فرجع الغلام إلى عمر ، فأخبره فوجده قد أعدّ مثلها لمعاذ بن جبل ؛ وقال : اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل ؛ وتَلَكَأ في البيت ساعة حتى تنظر ماذا يصنع ، فذهب بها إليه فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك ، فقال : رحمه الله ووَصَله ، وقال : يا جارية ، اذهبي إلى بيت فلان بكذا وبيت فلان بكذا ، فاطلعت امرأة معاذ فقالت : ونحن ! والله مساكين فأعطنا .

ولم يبق في الخرقة إلا ديناران قد جاء بهما إليها .

فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فسُرّ بذلك عمر وقال : إنهم إخوة ! بعضهم من بعض .

ونحوه عن عائشة رضي الله عنها في إعطاء معاوية إياها ، وكان عشرة آلاف وكان المُنْكَدِر دخل عليها .

فإن قيل : وردت أخبار صحيحة في النهي عن التصدق بجميع ما يملكه المرء ، قيل له : إنما كره ذلك في حق من لا يوثق منه الصبر على الفقر ، وخاف أن يتعرض للمسألة إذا فقد ما ينفقه .

فأما الأنصار الذين أثنى الله عليهم بالإيثار على أنفسهم ، فلم يكونوا بهذه الصفة ، بل كانوا كما قال الله تعالى : ﴿ والصابرين فِي البأساء والضراء وَحِينَ البأس ﴾ [البقرة : 177

.]

وكان الإيثار فيهم أفضل من الإمساك.

والإمساك لمن لا يصبر.

ويتعرض للمسألة أولى من الإيثار.

(220/755)

وروي أنّ رجلاً " جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بمثل البيضة من الذهب فقال: هذه صدقة، فرماه بها وقال: "يأتي أحدكم بجميع ما يملكه فيتصدّق به ثم يقعد يتكفف الناس" " والله أعلم.

التاسعة: والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال وإن عاد إلى النفس.

ومن الأمثال السائرة:

والجُودُ بالنَّفْس أقصَى غاية الجُودِ . . .

ومن عبارات الصوفية الرشيقة في حدّ المحبة: أنها الإيثار، ألا ترى أن امرأة العزيز لمّا تناهت في حُبّها ليوسف عليه السلام، آثرته على نفسها فقالت: أنا راودته عن نفسه.

وأفضل الجود بالنفس الجودُ على حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففي الصحيح:

أن أبا طَلْحة ترَسّ على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يتطلّع ليرى القوم .

فيقول له أبو طلحة : لا تُشرِف يا رسول الله ! لا يصيبونك ! نَحْرِي دون نحرك ! ووَقى بيده رسول الله صلى الله عليه وسلم فشُلّت .

وقال حُذيفة العدوِيّ : انطلقت يوم اليَرْمُوك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من الماء وأنا أقول : إن كان به رَمَقٌ سقيته ، فإذا أنا به ، فقلت له : أسقيك ، فأشار برأسه أنْ نَعم ، فإذا أنا برجل يقول : آه ! آه ! فأشار إليّ ابن عمي أن انطلق إليه ، فإذا هو هشام بن العاص فقلت : أسقيك ؟ فأشار أن نعم .

فسمع آخر يقول : آه ! آه ! فأشار هشام أن انطلق إليه فجئته فإذا هو قد مات .

فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات .

فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو مات .

وقال أبو يزيد البِسْطَامِيّ : ما غَلَبَني أحدٌ ما غلبني شابٌّ من أهل بَلْخ ! قدِم علينا حاجاً فقال لي : يا أبا يزيد ، ما حَدُّ الزهد عندكم ؟ فقلت : إنْ وَجَدْنا أكلنا . وإن فقدنا صبرنا .

فقال : هكذا كلاب بَلْخ عندنا .

فقلت : وما حَدّ الزهد عندكم ؟ قال : إن فقدنا شكرنا ، وإن وجدنا آثرنا .

وسُئل ذو النُّون المصري: ما حَدُّ الزاهد المنشرح صدره؟ قال ثلاث: تفريق المجموع، وترك طلب المفقود، والإيثار عند القوت.

وحكي عن أبي الحسن الأنطاكي: أنه اجتمع عنده نيّف وثلاثون رجلاً بقرية من قُرَى الرَّيّ، ومعهم أرغفة معدودة لا تُشبع جميعهم، فكسروا الرغفان وأطفئوا السراج وجلسوا للطعام؛ فلما رُفع فإذا الطعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئًا؛ إيثارًا لصاحبه على نفسه.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ الخصاصة: الحاجة التي تختلّ بها الحال.

وأصلها من الاختصاص وهو انفراد بالأمر.

فالخصاصة الإنفراد بالحاجة؛ أي ولو كان بهم فاقة وحاجة.

ومنه قول الشاعر:

أمّا الربيع إذا تكون خصاصةٌ . . .

عاش السقيم به وأثْرَى المُقْتِرُ

الحادية عشرة قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هُمُ المفلحون ﴾ الشُّحّ والبُخْلُ

سواء ؛ يقال : رجل شحيح بَيِّن الشُّحّ والشّح والشّحاحة .

قال عمرو بن كلثوم :

ترى اللَّحِزَ الشّحيحَ إذا أُمِرّتْ . . .

عليه لِمالِه فيها مُهينا

وجعل بعض أهل اللغة الشُّحّ أشدّ من البخل .

وفي الصحاح : الشّحُّ البخلُ مع حِرص ؛ تقول : شَحِحت (بالكسر) تَشَحّ .

وشَحَحْتَ أيضاً تَشُحّ وتَشِحّ .

ورجل شحيح ، وقومٌ شِحاح وأشِحّة .

والمراد بالآية : الشّحُّ بالزكاة وما ليس بفرض من صلة ذوي الأرحام والضيافة ، وما شاكل ذلك .

فليس بشحيح ولا بخيل من أنفق في ذلك وإن أمسك عن نفسه .

ومن وَسّع على نفسه ولم ينفق فيما ذكرناه من الزكوات والطاعات فلم يُوقَ شُحَّ نفسه .

وروى الأَسْوَدُ عن ابن مسعود أن رجلا أتاه فقال له : إني أخاف أن أكون قد هلكت ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : سمعت الله عز وجل يقول : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هُمُ المفلحون ﴾ وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أُخرج من يدي شيئاً .

فقال ابن مسعود : ليس ذلك بالشُّح الذي ذكره الله تعالى في القرآن ، إنما الشّح الذي ذكره الله تعالى في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً ، ولكنّ ذلك البخل ، وبئس الشّيء البخل .

ففرّق رضي الله عنه بين الشح والبخل .

وقال طاوس : البخل أن يبخل الإنسان بما في يده ، والشّح أن يَشِح بما في أيدي الناس ، يحب أن يكون له ما في أيديهم بالحِلّ والحرام ، لا يقنع .

ابن جبير : الشح منع الزكاة وادّخار الحرام .

ابن عُيَيْنَة : الشح الظلم .

الليث : ترك الفرائض وانتهاك المحارم .

ابن عباس : من اتبع هواه ولم يقبل بالإيمان فذلك الشحيح .

ابن زيد : من لم يأخذ شيئاً (لشيء) نهاه الله عنه ، ولم يَدْعُه الشح (على أن يمنع شيئاً من شيء) أمره الله به ، فقد وقاه الله شح نفسه .

وقال أنس : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " بَرِىء من الشّح من أدّى الزكاة وقَرَى الضيف وأعطى في النائبة " وعنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يدعو " اللهم إني أعوذ بك من شُحّ نفسي وإسرافها ووساوسها " وقال أبو الهَيّاج الأسدي : رأيت رجلا في الطّواف يدعو : اللهم قِني شُحَّ نفسي .

لا يزيد على ذلك شيئاً ، فقلت له ؟ فقال : إذا وقيت شُحّ نفسي لم أسرق ولم أزْنِ ولم أفعل .

فإذا الرجل عبد الرحمن بن عَوْف .

قلت : يدل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم : " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشّح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سَفَكوا دماءهم واستحلُّوا محارمهم " وقد بيناه في آخر "آل عمران" .

وقال كِسرى لأصحابه : أي شيء أضرّ بابن آدم ؟ قالوا : الفقر .

فقال كِسرى : الشح أضرّ من الفقر ؛ لأن الفقير إذا وجد شبع ، والشحيح إذا وجد لم يشبع أبداً .

(223/755)

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (10)

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ والذين جاءُوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ يعني التابعين ومن دخل في الإسلام إلى يوم القيامة .

قال ابن أبي ليلى : الناس على ثلاثة منازل : المهاجرون ، والذين تبوّءوا الدار والإيمان ، والذين جاءوا من بعدهم .

فاجْهَدْ ألاّ تخرج من هذه المنازل .

وقال بعضهم : كن شَمْساً ، فإن لم تستطع فكن قَمَراً ، فإن لم تستطع فكن كَوْكباً مضيئاً ، فإن لم تستطع فكن كوكباً صغيراً ، ومن جهة النور لا تنقطع .

ومعنى هذا : كن مهاجرياً .

فإن قلت : لا أجد ، فكن أنصارياً .

فإن لم تجد فاعمل كأعمالهم ، فإن لم تستطع فأحبهم واستغفر لهم كما أمرك الله .

وروى مصعب بن سعد قال : الناس على ثلاثة منازل ، فمضت منزلتان وبقيت منزلة ؛ فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت .

وعن جعفر بن محمد بن علي عن ابيه عن جدّه عليّ بن الحسين رضي الله عنه ، أنه جاءه رجل فقال له : يا بن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما تقول في عثمان ؟ فقال له : يا أخي أنت من قوم قال الله فيهم : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ الآية .

قال لا ! قال : فوالله لئن لم تكن من أهل الآية فأنت من قوم قال الله فيهم : ﴿ والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان ﴾ الآية .

قال لا ! قال : فوالله لئن لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجن من الإسلام ا وهي قوله تعالى

﴿ والذين جاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يقولون ربَّنا اغفر لَنَا وَلِإخْوَانِنَا الذين سَبَقُونَا بالإيمان ﴾ الآية.

(224/755)

وقد قيل: إن محمد بن علي بن الحسين، رضي الله عنهم، روى عن أبيه: أن نفراً من أهل العراق جاءوا إليه، فسبّوا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ثم عثمان رضي الله عنه فأكثروا؛ فقال لهم: أمِنَ المهاجرين الأوّلين أنتم؟ قالوا لا.

فقال: أفمن الذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم؟ فقالوا لا.

فقال: قد تبرأتم من هذين الفريقين! أنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عز وجل: ﴿ والذين جاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يقولون ربَّنا اغفر لَنَا وَلِإخْوَانِنَا الذين سَبَقُونَا بالإيمان وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ قوموا، فعل الله بكم وفعل!! ذكره النحاس.

الثانية: هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة؛ لأنه جعل لمن بعدهم حظاً في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، وأن مَن سبّهم أو واحداً منهم أو اعتقد فيه شرّاً إنه لا حق له في الفيء؛ روي ذلك عن مالك وغيره.

قال مالك : من كان يُبْغِض أحداً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، أو كان في قلبه عليهم غِلٌّ ، فليس له حق في فَيْءِ المسلمين ؛ ثم قرأ ﴿ والذين جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ الآية .

الثالثة : هذه الآية تدل على أن الصحيح من أقوال العلماء قسمة المنقول ، وإبقاء العقار والأرض شملا بين المسلمين أجمعين ؛ كما فعل عمر رضي الله عنه ؛ إلا أن يجتهد الوالي فينفذ أمراً فيمضي عمله فيه لاختلاف الناس عليه وأن هذه الآية قاضية بذلك ؛ لأن الله تعالى أخبر عن الْفَيء وجعله لثلاث طوائف : المهاجرين والأنصار وهم معلومون ﴿ والذين جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفر لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الذين سَبَقُونَا بالإيمان ﴾ . فهي عامة في جميع التابعين والآتين بعدهم إلى يوم الدين .

(225/755)

وفي الحديث الصحيح : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج إلى المقبرة فقال : "السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ودِدْت أن رأيت إخواننا" قالوا : يا رسول الله ، ألسنا بإخوانك ؟ فقال "بل أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ وأنا فَرَطُهم على الحَوْض" " فبيّن صلى الله عليه وسلم أن إخوانهم كل من يأتي بعدهم ؛ لا كما قال السُّدّي والكَلْبي : إنهم الذين هاجروا بعد ذلك .

وعن الحسن أيضاً ﴿ والذين جاءُوا من بعدهم ﴾ من قصد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد انقطاع الهجرة .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ ﴾ نصب في موضع الحال ؛ أي قائلين ﴿ ربّنا اغفر لنا ولإخوانِنَا الذين سَبَقُونَا بالإيمان ﴾ فيه وجهان : أحدهما أُمِروا أن يستغفروا لمن سبق هذه الأمة من مؤمني أهل الكتاب .

قالت عائشة رضي الله عنها : فأُمِروا أن يستغفروا لهم فسبُّوهم .

الثاني أمروا أن يستغفروا للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

قال ابن عباس : أمر الله تعالى بالاستغفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يعلم أنهم سيُفتنون .

وقالت عائشة : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد فسببتموهم .

سمعت نبيّكم صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أوّلَها "

وقال ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا رأيتم الذين يسبُّون أصحابي فقولوا لعن الله أَشرَّكم " وقال العوّام بن حَوْشَب : أدركت صدر هذه الأمة يقولون : اذكروا محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تألف عليهم القلوب ، ولا تذاكروا ما شَجَر بينهم فتُجسِّروا الناس عليهم .

وقال الشعبيّ : تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة ، سئلت اليهود : مَن خير

أهل مِلّتكم ؟ فقالوا : أصحاب موسى .

وسئلت النصارى : من خير أهل مِلّتكم ؟ فقالوا : أصحاب عيسى .

(226/755)

وسئلت الرافضة من شر أهل مِلتكم ؟ فقالوا : أصحاب محمد ، أُمِروا بالاستغفار لهم فسبُّوهم ، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة ، لا تقوم لهم راية ، ولا تثبت لهم قدم ، ولا تجتمع لهم كلمة ، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم وإدحاض حجتهم .

أعاذنا الله وإياكم من الأهواء المضلة .

﴿ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي حِقْداً وحسداً ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(227/755)

وقال أبو السعود :

﴿ لِلْفُقَرَاء المهاجرين ﴾

بدلٌ من لذِي القُربى وما عُطفَ عليهِ فإنَّ الرسولَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لا يسمَّى فقيراً . ومَن أعطَى الأغنياءَ ذوي القُربى خصَّ الإبدالَ بما بعدَهُ وأما تخصيصُ اعتبارِ الفقرِ بفيءِ بني النضيرِ فتعسفٌ ظاهرٌ ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِم وأموالِهِم ﴾ حيثُ اضطرهُم كفارُ مكةَ وأحوجُوهُم إلى الخروجِ وكانُوا مائةَ رجلٍ فخرجُوا منها ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ﴾ من الديارِ والأموالِ . وقيِّدَ ذلكَ ثانياً بما يوجبُ تفخيمَ شأنِهم ويؤكدُهُ ﴿ وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ عطفٌ على يبتغونَ فهيَ حالٌ مقدرةٌ أي ناوينَ لنصرةِ اللهِ تعالى ورسولِهِ ، أو مقارنةٌ فإنَّ خروجَهُم من بينِ الكفارِ مراغمينَ لهم مهاجرينَ إلى المدينةِ نصرةٌ وأيُّ نصرةٍ ﴿ أولئك ﴾ الموصوفونَ بما فُصِّلَ من الصفاتِ الحميدةِ ﴿ هُمُ الصادقون ﴾ الراسخونَ في الصدقِ حيثُ ظهرَ ذلكَ بما فعلُوا ظهوراً بيناً ﴿ والذين تَبَوَّءوا الدار والإيمان ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لمدحِ الأنصارِ بخصالٍ حميدةٍ من جُملَتِها محبَّتُهُم للمهاجرينَ ورضاهُم باختصاصِ الفيءِ بهم أحسنَ رِضا وأكملَهُ . ومعنى تبوئِهم الدارَ أنهم اتخذوا المدينةَ والإيمانَ مَبَاءةً وتمكَّنوا فيهما أشدَّ تمكنٍ ، على تنزيلِ الحالِ منزلةَ المكانِ . وقيلَ ضُمِّنَ التبوؤُ معنى اللزومِ . وقيل تبوؤُوا الدارَ وأخلصُوا الإيمانَ كقولِ مَنْ قالَ :

عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بارِداً . . . وقيلَ المَعْنى تبوؤُا دارَ الهجرة ودارَ الإيمانِ ، فحُذِفَ المضافُ منَ الثاني ، والمضافِ إليهِ منَ الأولِ ، وعوّضَ منه اللامُ . وقيلَ سَمَّى المدينةَ بالإيمانِ لكونِهَا مظهرَهُ ومنشأهُ ﴿ مِن قَبْلِهِمُ ﴾ أيْ من قبلِ هجرةِ المهاجرينَ على المعانِي الأُوَلِ ، ومن قبلِ تبوؤِ المهاجرينَ على الأخيرينِ . ويجوزُ أنْ يُجعلَ اتخاذُ الإيمانِ مباءةً ولزومُهُ وإخلاصُهُ على المعَانِي الأُوَلِ عبارةً عن إقامةِ كافَّةِ حُقوقِهِ التي من جُمْلَتِهَا إظهارُ عامّةِ شعائرِهِ وأحكامِهِ ، ولا ريبَ في تقدمِ الأنصارِ في ذلك على المهاجرينَ لظهورِ عجزِهِم عن إظهارِ بعضِهَا لا عَنْ إخلاصِهِ قلباً واعتقاداً إذْ لا يُتصور تقدُّمهم عليهِمْ في ذلكَ .

(229/755)

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ خبرٌ للموصولِ أي يحبونَهُم من حيثُ مهاجرَتُهُم إليهم لمحبتِهِم الإيمانَ ﴿ وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ ﴾ أي في نفوسِهِم ﴿ حَاجَةً ﴾ أي شيئاً محتاجاً إليه يقالُ خُذْ منْهُ حاجتَكَ أي ما تحتاجُ إليهِ ، وقيلَ إثرَ حاجةٍ كالطلبِ والحزازةِ والحسدِ والغيظِ ﴿ مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ أي ما أُوتِيَ المهاجرونَ منَ الفيءِ وغيرِهِ ﴿ وَيُؤْثِرُونَ ﴾ أي يقدمونَ المهاجرينَ ﴿ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ في كلِّ شيءٍ من أسبابِ المعاشِ حتى إنَّ من كانَ عندهُ امرأتانِ كانَ ينزلُ عن إحداهُمَا ويزوجها واحداً منهم ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

أيْ حاجةٌ وخَلَّةٌ . وأصلُهَا خَصَاصُ البيتِ وهي فُرجَهُ والجملةُ في حيزِ الحالِ ، وقدْ عرفتَ وجهَهُ مرارا . وكان النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قسَّمَ أموالَ بني النضيرِ على المهاجرين ولمْ يُعطِ الأنصارَ إلا ثلاثةَ نفرٍ محتاجينَ أبا دُجَانَةَ سماكَ بنَ خَرَشَةَ وسهلَ بنَ حُنيفٍ والحارثَ بنَ الصِّمَّةِ ، وقالَ لهم إنْ شئْتُمْ قسمتُم للمهاجرينَ من أموالِكم ودياركم وشاركتُمُوهُم في هذهِ الغنيمةِ وإن شئْتُم كانتْ لكم ديارُكُم وأموالُكُم ، ولمْ يُقسم لكم شيءٌ من الغنيمةِ فقالَ الأنصارُ بلْ نقسمُ لهم من أموالِنَا وديارِنَا ونؤثرهُم بالغنيمةِ ولا نشاركُهُم فيهَا فنزلتْ وهذا صريحٌ في أنَّ قولَهُ تعالَى والذينَ تبوؤُا الخ مستأنفٌ غيرُ معطوفٍ على الفقراءِ أو المهاجرينَ نعم يجوزُ عطفُهُ على أولئكَ فإنَّ ذلكَ إنما يستدْعِي شركةَ الأنصارِ للمهاجرينَ في الصدقِ دونَ الفيءِ فيكونُ قولُهُ تعالى يحبونَ وما عُطفَ عليهِ استئنافاً مقرراً لصدقِهم أو حالاً من ضميرِ تبوؤُا ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ الشُّحُ بالضمِّ والكسرِ وقدْ قُرِىءَ بهِ أيضاً : اللؤمُ .

(230/755)

وإضافتُهُ إلى النفسِ لأنَّه غريزةٌ فيها مقتضيةٌ للحرصِ على المنعِ الذي هو البخلُ أي ومن يُوقَ بتوفيقِ اللهِ تعالى شُحَّهَا حتى يخالفَهَا فيما يغلبُ عليها من حُبِّ المالِ وبغضِ الإنفاقِ ﴿

فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى مَنْ باعتبارِ معناها العامِّ المنتظمِ للمذكورينَ انتظاماً أولياً ﴿ هُمُ المفلحون ﴾ الفائزون بكلِّ مطلوبٍ الناجونَ عن كلِّ مكروهٍ . والجملةُ اعتراضٌ واردٌ لمدحِ الأنصارِ والثناءِ عليهم وقُرِىءَ يُوَقَّ بالتشديدِ .

﴿ والذين جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾

هم الذينَ هاجرُوا بعد ما قَوِيَ الإسلامُ أو التابعونَ بإحسانٍ وهم المؤمنونَ بعد الفريقينِ إلى يومِ القيامةِ ولذلك قيل إنَ الآيَةَ قد استوعبتْ جميعَ المؤمنينَ ، وأياً ما كان فالموصولُ مبتدأٌ خبرُهُ ﴿ يَقُولُونَ ﴾ الخ والجملةُ مسوقةٌ لمدحِهم بمحبَّتِهم لمنْ تقدمَهُم من المؤمنينَ ومراعاتِهم لحقوقِ الأخوةِ في الدينِ والسبقِ بالإيمانِ كما أنَّ ما عُطفتْ عليه من الجملةِ السابقةِ لمدحِ الأنصارِ ، أيْ يدعونَ لهم ﴿ رَبَّنَا اغفر لَنَا ولإخواننا ﴾ أيْ في الدينِ الذي هو أعزُّ وأشرفُ عندهُم من النسبِ ﴿ الذين سَبَقُونَا بالإيمان ﴾ وصفوهُم بذلكَ اعترافاً بفضلِهم ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ ﴾ وقُرِىءَ غِمْراً وهُمَا الحقدُ ﴿ لّلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ على الإطلاقِ ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي مُبالغٌ في الرأفةِ والرحمةِ ، فحقيقٌ بأنْ تجيبَ دُعاءَنَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ لِلْفُقَرَاء المهاجرين ﴾

قال الزمخشري : بدل من قوله تعالى : ﴿ ذَا القربى ﴾ [الحشر : 7] والمعطوف عليه ، والذي منع الإبدال من ﴿ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ وما بعد وإن كان المعنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عز وجل أخرج رسوله عليه الصلاة والسلام من الفقراء في قوله سبحانه : ﴿ وَيَنصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ وأنه يترفع برسول الله عليه الصلاة والسلام عن التسمية بالفقير ، وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عز وجل ، وهذا كما لا يجوز أن يوصف سبحانه بعلامة لأجل التأنيث لفظاً لأن فيه سوء أدب انتهى .

وعنى أنه بدل كل من كل لاعتبار المبدل منه مجموع ما ذكر ، قال الإمام : فكأنه قيل : أعني بأولئك الأربعة هؤلاء الفقراء والمهاجرين ، وما ذكر من الإبدال من ﴿ ذَا القربى ﴾ وما بعده مبني على قول الحنفية إنه لا يعطي الغني من ذوي القربى وإنما يعطي الفقير ، ومن يرى كالشافعي أنه يعطي غنيهم كما يعطي فقيرهم خص الإبدال باليتامى وما بعده ، وقيل : يجوز ذلك أيضاً إلا أنه يقول بتخصيص اعتبار الفقير بفيء بني النضير فإنه عليه الصلاة والسلام لم يعط غنياً شيئاً منه ، والآية نازلة فيه وفيه تعسف ظاهر .

وفي "الكشف" أن ﴿ لِلْفُقَرَاء ﴾ ليس للقيد بل بياناً للواقع من حال المهاجرين وإثباتاً لمزيد اختصاصهم كأنه قيل : لله وللرسول وللمهاجرين ، وقال ابن عطية : ﴿ لِلْفُقَرَاء ﴾ الخ

بيان لقوله تعالى : ﴿ اليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [الحشر : 7] وكررت لام الجر لما كان ما تقدم مجروراً بها لتبيين أن البدل هو منها ، وقيل : اللام متعلقة بما دل عليه قوله تعالى : ﴿ كَى لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الاغنياء مِنكُمْ ﴾ [الحشر : 7] كأنه قيل : ولكن يكون للفقراء المهاجرين .

(232/755)

وسيأتي إن شاء الله تعالى ما خطر لنا في ذلك من الاحتمال بناءاً على ما يفهم من ظاهر كلام عمر بن الخطاب بمحضر جمع من الأصحاب ﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن ديارهم وأموالهم ﴾ حيث اضطرهم كفار مكة وأحوجوهم إلى الخروج فخرجوا منها ، وهذا وصف باعتبار الغالب ، وقيل : كان هؤلاء مائة رجل ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مّنَ الله وَرِضْوَاناً ﴾ أي طالبين منه تعالى رزقاً في الدنيا ومرضاة في الآخرة ، وصفوا أولاً بما يدل على استحقاقهم للفيء من الإخراج من الديار والأموال ، وقيد ذلك ثانياً بما يوجب تفخيم شأنهم ويؤكده مما يدل على توكلهم التام ورضاهم بما قدره المليك العلام ﴿ وَيَنصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ عطف على ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ فهي حال مقدرة أي ناوين لنصرة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أو مقارنة فإن خروجهم من بين الكفار مراغمين لهم مهاجرين إلى المدينة نصرة

وأي نصرة ﴿ أولئك ﴾ الموصون بما ذكر من الصفات الجليلة ﴿ هُمُ الصادقون ﴾ أي الكاملون في الصدق في دعواهم الإيمان حيث فعلوا ما يدل أقوى دلالة عليه مع إخراجهم من أوطانهم وأموالهم لأجله لا غيرهم ممن آمن في مكة ولم يخرج من داره وماله ، ولم يثبت منه نحو ما ثبت منهم لتحولين منه مع المشركين فالحصر إضافي ووجه بغير ذلك ، وحمل بعضهم الكلام على العموم لحذف متعلق الصدق وتمسك به لذلك فيه الاستدلال على صحة إمامة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه لأن هؤلاء المهاجرين كانوا يدعونه بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله تعالى قد شهد بصدقهم فلا بد أن تكون إمامته رضي الله تعالى عنه صحيحة ثابتة في نفس الأمر وهو تمسك ضعيف مستغنية عن مثله دعوى صحة خلافة الصديق رضي الله تعالى عنه بإجماع الصحابة ، ومنهم علي كرم الله تعالى وجهه ، ونسبة التقية إليه بالموافقة لا يوافق الشيعة عليها متق كدعوى الإكراه بل مستغنية بغير ذلك أيضاً .

(233/755)

﴿ والذين تَبَوَّءوا الدار والإيمان ﴾ الأكثرون على أنه معطوف على المهاجرين ، والمراد بهم الأنصار ؛ والتبوّؤ النزول في المكان ، ومنه المباءة للمنزل ؛ ونسبته إلى الدار والمراد بها

المدينة ظاهر ، وأما نسبته إلى الايمان فباعتبار جعله مستقراً ومتوطناً على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية ، والتعريف في الدار للتنويه كأنها الدار التي تستحق أن تسمى داراً وهي التي أعدها الله تعالى لهم ليكون تبوّؤهم إياها مدحاً لهم .

وقال غير واحد : الكلام من باب

علفتها تبناً وماءًا بارداً . . .

أي تبوأوا الدار وأخلصوا الايمان ، وقيل : التبوؤ مجاز مرسل عن اللزوم وهو لازم معناه فكأنه قيل : لزموا الدار والايمان ، وقيل : في توجيه ذلك أن أل في الدار للعهد ، والمراد دار الهجرة وهي تغني غناء الإضافة وفي ﴿ والإيمان ﴾ حذف مضاف أي ودار الايمان فكأنه قيل : تبوأوا دار الهجرة ودار الايمان على أن المراد بالدارين المدنية ، والعطف كما في قولك : رأيت الغيث والليث وأنت تريد زيداً ، ولا يخفى ما فيه من التكلف والتعسف ، وقيل : إن الايمان مجاز عن المدينة سمي محل ظهور الشيء باسمه مبالغة وهو كما ترى ، وقيل : الواو للمعية والمراد تبوأوا الدار مع إيمانهم أي تبوأوها مؤمنين ، وهو أيضاً ليس بشيء ، وأحسن الأوجه ما ذكرناه أولاً ، وذكر بعضهم أن الدار علم بالغلبة على المدينة كالمدينة ، وأنه أحد أسماء لها منها طيبة .

وطابة .

ويشرب.

وجابرة إلى غير ذلك.

(234/755)

وأخرج الزبير بن بكار عن زيد بن أسلم حديثاً مرفوعاً يدل على ذلك ﴿ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي من قبل المهاجرين، والجار متعلق بتبوأوا، والكلام بتقدير مضاف أي من قبل هجرتهم فنهاية ما يلزم سبق الإيمان الأنصار على هجرة المهاجرين، ولا يلزم منه سبق إيمانهم على إيمانهم ليقال: إن الأمر بالعكس، وجوز أن لا يقدر مضاف، ويقال: ليس المراد سبق الأنصار لهم في أصل الإيمان بل سبقهم إياهم في التمكن فيه لأنهم لم ينازعوا فهي لما أظهروه. وقيل: الكلام على التقديم والتأخير، والتقدير تبوأوا الدار من قبلهم والإيمان فيفيد سبقهم إياهم في تبوىء الدار فقط وهو خلاف الظاهر على أن مثله لا يقبل ما لم يتضمن نكتة سرية وهي غير ظاهرة ههنا؛ وقيل: لا حاجة إلى شيء مما ذكر، وقصارى ما تدل الآية عليه تقدم مجموع تبوىء الأنصاري وإيمانهم على تبوىء المهاجرين وإيمانهم، ويكفي في تقديم المجموع تقدم بعض أجزائه وهو ههنا تبوؤ الدار، وتعقب بمنع الكفاية ولو سلمت لصح أن يقال: بتقدم تبوىء المهاجرين وإيمانهم على تبوىء الأنصار وإيمانهم لتقدم إيمان المهاجرين ﴾

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ في موضع الحال من الموصول ، وقيل : استئناف ، والكلام قيل : كناية عن مواساتهم المهاجرين وعدم الاستثقال والتبرم منهم إذا احتاجوا إليهم ، وقيل : على ظاهره أي يحبون المهاجرين إليهم من حيث مهاجرته إليهم لحبهم الايمان ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ ﴾ أي ولا يعلمون في أنفسهم .

﴿ حَاجَةً ﴾ أي طلب محتاج إليه ﴿ مِّمَّا أُوتُواْ ﴾ أي مما أعطى المهاجرون من الفيء وغيره ، وحاصله أن نفوسهم لم تتبع ما أعطى المهاجرون ولم تطمح إلى شيء منه تحتاج إليه ، فالوجدان إدراك علمي وكونه في الصدر من باب المجاز ، والحاجة بمعنى المحتاج إليه ، وهو استعمال شائع يقال : خذ منه حاجتك وأعطاه من ماله حاجته ، و ﴿ مِنْ ﴾ تبعيضية ، وجوز كونها بيانية والكلام على حذف مضاف وهو طلب ، وفيه فائدة جليلة كأنهم لم يتصوروا ذلك ولا مرّ في خاطرهم أن ذلك محتاج إليه حتى تطمح إليه النفس .

ويجوز أن كيون المعنى لا يجدون في أنفسهم ما يحمل عليه الحاجة كالحزازة والغيظ والحسد والغبطة لأجل ما أعطى المهاجرون على أن الحاجة مجاز عما يتسبب عنها ، وقيل : على أنها كناية عما ذكر لأنه لا ينفك عن الحاجة فأطلق اسم اللازم على الملزوم ، وما تقدم أولى

، وقول بعضهم : أي أثر حاجة تقدير معنى لا إعراب ، و﴿ مِنْ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ مِّمَّا أُوتُوا ﴾ تعليلية ﴿ وَيُؤْثِرُونَ ﴾ أي يقدمون المهاجرين ﴿ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ في كل شيء من الطيبات حتى أن من كان عنده امرأتان كان ينزل عن إحداهما ويزوجها واحداً منهم ، ويجوز أن لا يعتبر مفعول يؤثرون خصوص المهاجرين ، أخرج البخاري .

ومسلم .

والترمذي .

والنسائي .

(236/755)

وغيرهم عن أبي هريرة قال : أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أصابني الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال عليه الصلاة والسلام : " ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله ؟ فقام رجل من الأنصار وفي رواية فقال أبو طلحة : أنا يا رسول الله فذهب به إلى أهله فقال لامرأته : أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية قال : إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فاطفئي السراج ونطوي الليلة لضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعلت ثم

غدا الضيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة وأنزل الله تعالى فيهما ﴿ وَيُؤْثِرُونَ ﴾ "الخ .

وأخرج الحاكم وصححه .

وابن مردويه .

والبيهقي في "الشعب" عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ، قال : أهدي لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا فبعث به إليه فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداوله أهل سبعة أبيات حتى رجع إلى الأول فنزلت ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ أي حاجة من خصاص البيت وهو ما يبقي بين عيدانه من الفرج والفتوح ، والجملة في موضع الحال ، وقد تقدم وجه ذلك مراراً ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ الشح اللؤم وهو أن تكون النفس كزة حريصة على المنع كما قال :

يمارس نفساً بين جنبيه كزة . . .

إذا هم بالمعروف قالت له مهلاً

وأضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها ، وأما البخل فهو المنع نفسه ، وقال الراغب : الشح بخل مع حرص ؛ وذلك فيما كان عادة ، وأخرج ابن المنذر عن الحسن أنه قال : البخل أن يبخل الإنسان بما في يده ، والشح أن يشح على ما في أيدي الناس ، وأخرج عبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن أبي شيبة .

وابن أبي حاتم .

والبيهقي في "الشعب" .

والحاكم وصححه .

(237/755)

وجماعة عن ابن مسعود أن رجلاً قال له : إني أخاف أن يكون قد هلكت قال : وما ذاك ؟ قال : إني سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ الآية وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج مني شيء فقال له ابن مسعود : ليس ذاك بالشح ولكنه البخل ولا خير في البخل ، وإن الشح الذي ذكره الله تالى أن تأكل مال أخيك ظلماً ، وأخرج ابن المنذر .

وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال : ليس الشح أن يمنع الرجل ما له ولكنه البخل إنما الشح أن تطمح عين الرجل إلى ما ليس له ، ولم أر لأحد من اللغويين شيئاً من هذه التفاسير للشح ، ولعل المراد أنه البخل المتناهي بحيث يبخل المتصف به بمال غيره أي لا يودّ جود الغير به وتنقبض نفسه منه ويسعى في أن لا يكون ، أو بحيث يبلغ به الحرص

إلى أن يأكل مال أخيه ظلماً أو تطمح عينه إلى ما ليس له ولا تسمح نفسه بأن يكون لغيره فتأمل .

وقرأ أبو حيوة .

وابن أبي عبلة ﴿ وَمَن يُوقَ ﴾ بشدّ القاف ، وقرأ ابن عمر .

وابن أبي عبلة ﴿ شُحَّ ﴾ بكسر الشين ، وجاء في لغة الفتح أيضاً ، ومعنى الكل واحد ، ومعنى الآية ومن يوق بتوفيق الله تعالى ومعونته شح نفسه حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الانفاق ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مكروه ، والجملة الشرطية تذييل حسن ومدح للأنصار بما هو غاية لتناوله إياهم تناولاً أولياً ، وفي الإفراد أولاً والجمع ثانياً رعاية للفظ من ومعناها وإيماء إلى قلة المتصفين بذلك في الواقع عدداً وكثرتهم معنى :

والناس ألف منهم كواحد . . .

وواحد كالألف إن أمر عنا

ويفهم من الآية ذم الشح جداً ، وقد وردت أخبار كثيرة بذمه ، أخرج الحكيم الترمذي .

وأبو يعلى .

وابن مردويه عن أنس مرفوعاً

" ما محق الإسلام محق الشح شيء قط " وأخرج ابن أبي شيبة .

والنسائي .

والبيهقي في "الشعب" .

(238/755)

والحاكم وصححه عن أبي هريرة مرفوعاً " لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان نار جهنم في جوف عبد أبداً ولا يجتمع الايمان والشح في قلب عبد أبداً " .

وأخرج أبو داود .

والترمذي وقال غريب والبخاري في الأدب .

وغيرهم عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً " خصلتان لا يجتمعان في جوف مسلم البخل وسوء الخلق " وأخرج ابن أبي الدنيا .

وابن عدي .

والحاكم .

والخطيب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلق الله تعالى جنة عدن وغرس أشجارها بيده ثم قال لها : انطقي فقالت : قد أفلح المؤمنون فقال الله عز وجل : وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿

وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ " .

وأخرج أحمد .

والبخاري في "الأدب" .

ومسلم .

والبيهقي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح قد أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم " إلى غير ذلك من الأخبار ، لكن ينبغي أن يعلم أن تقوى الشح لا تتوقف على أن يكون الرجل جواداً بكل شيء ، فقد أخرج عبد بن حميد .

وأبو يعلى .

والطبراني .

والضياء عن مجمع بن يحيى مرفوعاً " بريء من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأدى في النائبة " .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ما يقرب منه ، وكذا ابن جرير .

والبيهقي عن أنس ، وأخرج ابن المنذر عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : من أدى زكاة ماله فقد وقى شح نفسه ، وقوله تعالى :

﴿ والذين جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾

عطف عند الأكثرين أيضاً على ﴿ المهاجرين ﴾ [الحشر : 8] ، والمراد بهؤلاء قيل : الذين هاجروا حين قوي الإسلام ، فالمجيء حسي وهو مجيئهم إلى المدينة ، وضمير ﴿ مّن بَعْدِهِمْ ﴾ للمهاجرين الأولين ، وقيل : هم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ، فالمجيء إما إلى الوجود أو إلى الإيمان وضمير ﴿ مّن بَعْدِهِمْ ﴾ للفريقين المهاجرين والأنصار ، وهذا هو الذي يدل عليه كلام عمر رضي الله تعالى عنه وكلام كثير من السلف كالصريح فيه ، فالآية قد استوعبت جميع المؤمنين ، وجملة قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ ﴾ الخ حالية ، وقيل : استئناف .

﴿ رَبَّنَا اغفر لَنَا وَلإِخوانِنَا ﴾ أي في الدين الذي هو أعز وأشرف عندهم من النسب ﴿ الذين سَبَقُونَا بالإيمان ﴾ وصفوهم بذلك اعترافاً بفضلهم ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ ﴾ أي حقداً ، وقرىء غمراً ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ على الإطلاق ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي مبالغ في الرأفة والرحمة ، فحقيق بأن تجيب دعاءنا ، وفي الآية حث على الدعاء للصحابة وتصفية القلوب من بغض أحد منهم ، وأخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر .

وجماعة عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسبوهم ثم قرأت هذه الآية ﴿ والذين جَاءوا ﴾ الخ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع رجلاً وهو يتناول بعض المهاجرين فدعاه فقرأ عليه ﴿ لِلْفُقَرَاء المهاجرين ﴾ [الحشر : 8] الآية ، ثم قال : هؤلاء المهاجرون أفمنهم أنت ؟ قال : لا ، ثم قرأ عليه ﴿ والذين تَبَوَّءوا الدار والإيمان ﴾ [الحشر : 9] الآية ، ثم قال : هؤلاء الأنصار أفمنهم أنت ؟ قال : لا .

ثم قرأ عليه ﴿ والذين جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ الآية ، ثم قال : أفمن هؤلاء أنت ؟ قال : أرجو قال : لا والله ليس من هؤلاء من سب هؤلاء .

(240/755)

وفي رواية أن ابن عمر رضي الله تعالى عنه بلغه أن رجلاً نال من عثمان رضي الله تعالى عنه فدعاه فقرأ عليه الآيات وقال له ما قال ، وقال الإمام مالك : من كان له في أحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم قول سيء أو بغض فلاحظ له في الفيء أخذاً من هذه الآية ، وفيها ما يدل على ذم الغل لأحد من المؤمنين ، وفي حديث أخرجه الحكيم الترمذي .

والنسائي عن أنس رضي الله تعالى عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : في أيام ثلاثة

يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلع فيها رجل من الأنصار فبات معه عبد الله بن عمرو بن العاص ثلاث ليال مستكشفاً حاله فلم ير له كثير عمل فأخبره الخبر فقال له : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي غلا لأحد من المسلمين ولا أحسده على خير أعطاه الله تعالى إياه فقال له عبد الله : هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق وفي رواية أنه قال : لو كانت الدنيا لي فأخذت مني لم أحزن عليها ولو أعطيته لم أفرح بها وأبيت وليس في قلبي غل على أحد فقال عبد الله : لكني أقوم الليل وأصوم النهار ولو وهبت لي شاة لفرحت بها ولو ذهبت لحزنت عليها والله لقد فضلك الله تعالى علينا فضلاً بيناً "

هذا وذهب بعضهم إلى أن قوله تعالى : ﴿ والذين تبوأوا ﴾ [الحشر : 9] الخ مبتدأ ، وجملة ﴿ هؤلاء يُحِبُّونَ ﴾ الخ خبره ، والكلام استئناف مسوق لمدح الأنصار ، وجوز كون ذلك معطوفاً على ﴿ أولئك ﴾ فيفيد شركة الأنصار للمهاجرين في الصدق ، وجملة ﴿ يُحِبُّونَ ﴾ الخ إما استئناف مقرر لصدقهم أو حال من ضمير ﴿ تبوأوا ﴾ وإلى أن قوله تعالى : ﴿ المفلحون والذين جاءوا ﴾ الخ مبتدأ ؛ وجملة ﴿ يَقُولُونَ ﴾ الخ خبره ، والجملة معطوفة على الجملة السابقة مسوقة لمدح هؤلاء بمحبتهم من تقدمهم من المؤمنين ومراعاتهم لحقوق الأخوة في الدين والسبق بالإيمان كما أن ما عطفت عليه من الجملة السابقة لمدح الأنصار .

واستدل لعدم عطف ﴿ الذين تبوأوا ﴾ [الحشر : 9] على ﴿ لِلْفُقَرَاءِ المهاجرين ﴾ [الحشر : 8] بما روى أن النبي عليه الصلاة والسلام قسم أموال بني النضير على المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة كما تقدم ، وقال عليه الصلاة والسلام لهم : " إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم من هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة فقالوا : بل نقسم لهم أي للمهاجرين من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها " فنزلت الآية ﴿ والذين تَبَوَّءوا الدار والإيمان ﴾ إلى آخره ، وبعض القائلين بالعطف يقولون : إن قوله تعالى : ﴿ والذين ﴾ الخ بيان لحكم الأخماس الأربعة على معنى أن له عليه الصلاة والسلام أن يعم الناس بها حسن اختياره وأن الأنصار مصرف من المصارف ، ولكن قد اختار صلى الله عليه وسلم أن يكون إعطاؤهم بالشرط الذي ذكره عليه الصلاة والسلام لهم ، وهم اختاروا ما اختاروا إيثاراً منهم ، وذلك لا يخرجهم عن كونهم مصرفاً بل في قوله تعالى : ﴿ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ ﴾ [الحشر : 9] رمز إليه على أن في الأخبار ما هو أصح وأصرح في الدلالة على عطفهم على ما تقدم ، وأنهم يعطون من الفيء ، وكذا عطف الذين جاءوا من بعدهم فقد أخرج البخاري .

ومسلم .

وأبو داود .

والترمذي .

والنسائي .

وابن حبان .

وغيرهم عن مالك بن أوس بن الحدثان في حديث طويل أن عمر رضي الله تعالى عنه قال

أي في قضاء بين علي كرم الله تعالى وجهه .

وعمه العباس رضي الله تعالى عنه في فدك ، وقد كان عمر دفعها إليهما وأخذ عليهما

عهد الله تعالى على أن يعملا فيها بما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يعمل به فيها

فتنازعا إن الله تعالى قال :

(242/755)

﴿ مَّا أَفَاء الله على رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ ولكن الله يُسَلّطُ رُسُلَهُ على مَن يَشَاء والله على كُلّ شَىْء ﴾ [الحشر : 6] فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ، ثم قال سبحانه : ﴿ مَّا أَفَاء الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى القربى ﴾ [الحشر : 7] إلى آخر الآية ، ثم والله ما أعطاها هؤلاء

وحدهم حتى قال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاء المهاجرين الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن ديارهم وأموالهم يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ الله ورضوانا وَيَنصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصادقون ﴾ [الحشر : 8] ، ثم والله ما جعلها لهؤلاء وحدهم حتى قال سبحانه : ﴿ والذين جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفر لَنَا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ فقسمها هذا القسم على هؤلاء الذين ذكر ، ولئن بقيت ليأتين الرويعي بصنعاء حقه ودمه في وجهه ، وظاهر هذا الخبر يقتضي أن للمهاجرين سهماً غير السهام السابقة ، فلا يكون ﴿ لِلْفُقَرَاء ﴾ بدل من لذي القربى وما بعده ولا مما بعده دونه ، وكذا ظاهر ما في مصحف عبد الله .

(243/755)

وزيد بن ثابت كما أخرج ابن الأنباري في المصاحف عن الأعمش ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فالله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمهاجرين في سبيل الله على أن الإبدال يقتضي ظاهراً كون اليتامى مهاجرين أخرجوا من ديارهم وأموالهم إلى آخر الصفات ، وفي صدق ذلك عليهم بعد ، وكذا يقتضي كون ابن السبيل كذلك ، وفيه نوع بعد أيضاً كما لا يخفى فلعله اعتبر تعلقه بفعل محذوف والجملة استئناف بياني ، وذلك أنهم كانوا يعلمون أن الخمس يصرف لمن تضمنه قوله تعال : ﴿ فالله وَلِلرَّسُولِ

وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [الحشر : 7] فلما ذكر ذلك انقدح في أذهانهم أن المذكورين مصرف الخمس ولم يعلموا مصرف الأخماس الأربعة الباقية فكأنهم قالوا : فلمن تكون الأخماس الأربعة الباقية .

أو فلمن يكون الباقي ؟ فقيل : تكون الأخماس الأربعة الباقية أو يكون الباقي ﴿ لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ ﴾ إلى آخره ولم أر من تعرض لذلك فتأمل ، والله تعالى الهادي إلى أحسن المسالك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(244/755)

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ لِلْفُقَرَاء ﴾

قيل : هو بدل من ﴿ لذى القربى ﴾ وما عطف عليه ، ولا يصح أن يكون بدلاً من الرسول ، وما بعده لئلا يستلزم وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر ، وقيل التقدير : ﴿ كَىْ لاَ يَكُونَ دُولَةً ﴾ ولكن يكون للفقراء ، وقيل : التقدير : اعجبوا للفقراء ، وقيل : التقدير : والله شديد العقاب للفقراء أي : شديد العقاب للكفار بسبب الفقراء ، وقيل : هو عطف على ما مضى بتقدير الواو ، كما تقول : المال لزيد لعمرو لبكر ، والمراد ب ﴿

المهاجرين ﴾ : الذين هاجروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رغبة في الدين ونصرة له .

قال قتادة : هؤلاء المهاجرون هم الذين تركوا الديار ، والأموال ، والأهلين ، ومعنى ﴿ أُخْرِجُواْ مِن ديارهم ﴾ : أن كفار مكة أخرجوهم منها ، واضطروهم إلى الخروج ، وكانوا مائة رجل ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مّنَ الله وَرِضْوَاناً ﴾ أي : يطلبون منه أن يتفضل عليهم بالرزق في الدنيا ، وبالرضوان في الآخرة ﴿ وَيَنصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ بالجهاد للكفار ، وهذه الجملة معطوفة على ﴿ يبتغون ﴾ ، ومحل الجملتين النصب على الحال ، الأولى مقارنة ، والثانية مقدّرة ، أي : ناوين لذلك ، ويجوز أن تكون حالاً مقارنة ؛ لأن خروجهم على تلك الصفة نصرة لله ورسوله ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إليهم من حيث اتصافهم بتلك الصفات ، وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ هُمُ الصادقون ﴾ أي : الكاملون في الصدق الراسخون فيه .

(245/755)

ثم لما فرغ من مدح المهاجرين مدح الأنصار فقال : ﴿ والذين تَبَوَّءوا الدار والإيمان مِن قَبْلِهِمْ ﴾ المراد بالدار : المدينة ، وهي دار الهجرة ، ومعنى تبوّئهم الدار والإيمان : أنهم اتخذوها

مباءة ، أي : تمكنوا منهما تمكناً شديداً ، والتبوّأ في الأصل إنما يكون للمكان ، ولكنه جعل الإيمان مثله لتمكنهم فيه تنزيلاً للحال منزلة المحل ، وقيل : إن الإيمان منصوب بفعل غير الفعل المذكور ، والتقدير : واعتقدوا الإيمان ، أو وأخلصوا الإيمان كذا قال أبو علي الفارسي .

ويجوز أن يكون على حذف مضاف ، أي : تبوءوا الدار وموضع الإيمان ، ويجوز أن يكون تبوّءوا مضمناً لمعنى لزموا ، والتقدير : لزموا الدار والإيمان ، ومعنى ﴿ مِن قَبْلِهِم ﴾ : من قبل هجرة المهاجرين ، فلا بدّ من تقدير مضاف ، لأن الأنصار إنما آمنوا بعد إيمان المهاجرين ، والموصول مبتدأ ، وخبره : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ وذلك لأنهم أحسنوا إلى المهاجرين ، وأشركوهم في أموالهم ومساكنهم ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ أي : لا يجد الأنصار في صدورهم حسداً ، وغيظاً ، وحزازة ﴿ مِّمَّا أُوتُوا۟ ﴾ أي : مما أوتي المهاجرون دونهم من الفيء ، بل طابت أنفسهم بذلك .

وفي الكلام مضاف محذوف ، أي : لا يجدون في صدورهم مسّ حاجة ، أو أثر حاجة ، وكلّ ما يجده الإنسان في صدره مما يحتاج إليه فهو حاجة .

وكان المهاجرون في دور الأنصار فلما غنم النبيّ صلى الله عليه وسلم بني النضير دعا الأنصار ، وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين من إنزالهم إياهم في منازلهم ، وإشراكهم في أموالهم ، ثم قال :

" إن أحببتم قسمت ما أفاء الله عليّ من بني النضير بينكم وبين المهاجرين – وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم ، والمشاركة لكم في أموالكم – وإن أحببتم أعطيتهم ذلك ، وخرجوا من دياركم " ، فرضوا بقسمة ذلك في المهاجرين ، وطابت أنفسهم ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ الإيثار : تقديم الغير على النفس في حظوظ الدنيا رغبة في حظوظ الآخرة ، يقال : آثرته بكذا ، أي : خصصته به ، والمعنى : ويقدّمون المهاجرين على أنفسهم في حظوظ الدنيا ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ أي : حاجة وفقر ، والخصاصة مأخوذة من خصاص البيت ، وهي الفرج التي تكون فيه ، وجملة : ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ في محل نصب على الحال ، وقيل : إن الخصاصة مأخوذة من الاختصاص ، وهو الانفراد بالأمر ، فالخصاصة الانفراد بالحاجة ، ومنه قول الشاعر :

إن الربيع إذا يكون خصاصة . . . عاش السقيم به وأثرى المقتر

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ يوق ﴾ بسكون الواو ، وتخفيف القاف من الوقاية ، وقرأ ابن أبي عبلة ، وأبو حيوة بفتح الواو ، وتشديد القاف .

وقرأ الجمهور : ﴿ شحّ نفسه ﴾ بضم الشين .

وقرأ ابن عمر ، وابن أبي عبلة بكسرها .

والشحّ : البخل مع حرص ، كذا في الصحاح ، وقيل : الشحّ أشدّ من البخل .

قال مقاتل : شحّ نفسه : حرص نفسه .

قال سعيد بن جبير : شحّ النفس هو أخذ الحرام ، ومنع الزكاة .

قال ابن زيد : من لم يأخذ شيئًا نهاه الله عنه ، ولم يمنع شيئًا أمره الله بأدائه ، فقد وقى شحّ نفسه .

قال طاووس : البخل أن يبخل الإنسان بما في يده ، والشحّ أن يشحّ بما في أيدي الناس ، يحبّ أن يكون له ما في أيديهم بالحلال والحرام لا يقنع .

وقال ابن عيينة : الشحّ : الظلم .

وقال الليث : ترك الفرائض وانتهاك المحارم .

والظاهر من الآية أن الفلاح مترتب على عدم شحّ النفس بشيء من الأشياء التي يقبح الشحّ بها شرعاً من زكاة ، أو صدقة ، أو صلة رحم ، أو نحو ذلك ، كما تفيده إضافة الشحّ إلى

النفس ، والإشارة بقوله : ﴿ فَأُوْلَٰئِكَ ﴾ إلى "من" باعتبار معناها ، وهو مبتدأ ، وخبره ﴿ هُمُ المفلحون ﴾ والفلاح الفوز والظفر بكل مطلوب .

ثم لما فرغ سبحانه من الثناء على المهاجرين والأنصار ، ذكر ما ينبغي أن يقوله من جاء بعدهم ، فقال : ﴿ والذين جاءوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة ، وقيل : هم الذين هاجروا بعد ما قوي الإسلام ، والظاهر شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة المتأخر إسلامهم في عصر النبوّة ، ومن تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوّة إلى يوم القيامة ؛ لأنه يصدق على الكلّ أنهم جاءوا بعد المهاجرين الأوّلين والأنصار ، والموصول مبتدأ ، وخبره ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفر لَنَا ولإخواننا الذين سَبَقُونَا بالإيمان ﴾ ويجوز أن يكون الموصول معطوفاً على قوله : ﴿ والذين تَبَوَّءوا الدار والإيمان ﴾ ، فيكون ﴿ يقولون ﴾ في محل نصب على الحال ، أو مستأنف لا محل له ، والمراد بالأخوّة هنا : أخوة الدّين ، أمرهم الله أن يستغفروا لأنفسهم ، ولمن تقدّمهم من المهاجرين والأنصار ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ أي : غشاً وبغضاً وحسداً .

أمرهم الله سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من الله سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغلّ للذين آمنوا على الإطلاق ، فيدخل في ذلك الصحابة دخولاً أوّلياً لكونهم أشرف المؤمنين ، ولكون السياق فيهم ، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم ، ويطلب رضوان الله لهم ، فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية ، فإن وجد في قلبه غلاً لهم ، فقد أصابه نزغ من الشيطان ، وحلّ به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه ، وخير أمة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وانفتح له باب من الخذلان يفد به على نار جهنم إن لم يتدارك نفسه باللجأ إلى الله سبحانه ، والاستغاثة به ، بأن ينزع عن قلبه ما طرقه من الغلّ لخير القرون ، وأشرف هذه الأمة ، فإن جاوز ما يجده من الغلّ إلى شتم أحد منهم ، فقد انقاد للشيطان بزمام ، ووقع في غضب الله وسخطه ، وهذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلي بمعلم من الرافضة ، أو صاحب من أعداء خير الأمة الذين تلاعب بهم الشيطان ، وزين لهم الأكاذيب المختلفة ، والأقاصيص المفتراة ، والخرافات الموضوعة ، وصرفهم عن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وعن سنة رسول الله ، المنقولة إلينا بروايات الأئمة الأكابر في كل عصر من العصور ، فاشتروا الضلالة بالهدى ، واستبدلوا الخسران العظيم بالربح الوافر ، ومازال الشيطان الرجيم ينقلهم من منزلة إلى منزلة ، ومن رتبة إلى رتبة حتى صاروا أعداء كتاب الله وسنة رسوله ، وخير أمته وصالحي عباده وسائر المؤمنين ، وأهملوا فرائض الله وهجروا شعائر الدين ، وسعوا في كيد الإسلام وأهله

كل السعي ، ورموا الدين وأهله بكلّ حجر ومدر ، والله من ورائهم محيط .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : كثير الرأفة والرحمة بليغهما لمن يستحق ذلك من عبادك .

(249/755)

وقد أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب أنه قال : أوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأوّلين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار الذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن أبي هريرة قال : أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه ، فلم يجد عندهنّ شيئاً فقال : " ألا رجل يضيف هذه الليلة رحمه الله "

، فقال رجل من الأنصار ، وفي رواية ، فقال أبو طلحة الأنصاري : أنا يا رسول الله ، فذهب به إلى أهله ، فقال لامرأته : أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدّخريه شيئاً ، قالت : والله ما عندي إلاّ قوت الصبية ، قال : فإذا أراد الصبية العشاء ، فنوّميهم وتعالي فأطفئي السراج ، ونطوي بطوننا الليلة لضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففعلت ،

ثم غدا الضيف على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة ، وأنزل فيهما ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ " .

وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر قال : أهدي إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا ، فبعث به إليه ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأوّل ، فنزلت فيهم : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

(250/755)

وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود أن رجلاً قال : إني أخاف أن أكون قد هلكت ، قال : وما ذاك ؟ قال : إني سمعت الله يقول : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج مني شيء ، فقال له ابن مسعود : ليس ذاك بالشحّ ، ولكنه البخل ، ولا خير في البخل ، وإن الشحّ الذي ذكره الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً .

وأخرج ابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عمر في الآية قال : ليس الشحّ أن يمنع الرجل ماله ، ولكنه البخل ، وإنه لشرّ ، إنما الشحّ أن تطمح عين الرجل إلى ما ليس له .

وأخرج ابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب قال : من أدّى زكاة ماله ، فقد وقى شحّ نفسه .

وأخرج الحكيم الترمذي ، وأبو يعلى ، وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله : " ما محق الإسلام محق الشحّ شيء قط " وأخرج أحمد ، والبخاري في الأدب ، ومسلم ، والبيهقي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله قال : " اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشحّ ، فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم " وقد وردت أحاديث كثيرة في ذمّ الشحّ .

وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال : الناس على ثلاث منازل ، قد مضت منزلتان ، وبقيت منزلة ، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت ، ثم قرأ : ﴿ والذين جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في المصاحف ، وابن مردويه عن عائشة قالت : أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبيّ ، فسبوهم ، ثم قرأت هذه الآية : ﴿ والذين جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنه سمع رجلاً ، وهو يتناول بعض المهاجرين فقرأ عليه ﴿ لِلفُقَرَاء المهاجرين ﴾ الآية ، ثم قال : هؤلاء المهاجرون ، أفمنهم أنت ؟ قال : لا ، ثم قرأ عليه ﴿ والذين تَبَوَّءوا الدار والإيمان ﴾ الآية .

ثم قال : هؤلاء الأنصار ، أفأنت منهم ؟ قال : لا ، ثم قرأ عليه ﴿ والذين جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ الآية ، ثم قال : أفمن هؤلاء أنت ؟ قال : أرجو ، قال : ليس من هؤلاء من سبّ هؤلاء .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 200 . 203 ﴾

(252/755)

وقال ابن عاشور :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾

بدل مما يصلح أن يكون بدلاً منه من أسماء الأصناف المتقدمة التي دخلت عليها اللام مباشرة وعطفاً قوله : ﴿ ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [الحشر : 7] بدل بعض من كل .

وأول فائدة في هذا البدل التنبيه على أن ما أفاء الله على المسلمين من أهل القرى المعْنية في الآية لا يجري قسمه على ما جرى عليه قسم أموال بني النضير التي اقتُصر في قسمها على المهاجرين وثلاثة من الأنصار ورابع منهم ، فكأنه قيل : ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيلِ للفقراء منهم لا مطلقاً ، يدخل في ذلك المهاجرون والأنصار والذين آمنوا بعدهم .

وأعيد اللام مع البدل لربطه بالمبدل منه لانفصال ما بينهما بطول الكلام من تعليل وتذييل وتحذير .

ولإِفادة التأكيد .

وكثيراً ما يقترن البدل بمثل العامل في المبدل منه على وجه التأكيد اللفظي ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ﴾ في سورة [العقود : 114] .

فبقي احتمال أن يكون قيداً ﴿ لذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [الحشر : 7] ، فيتعين أن يكون قوله : ﴿ للفقراء ﴾ إلى آخره مسوقاً لتقييد استحقاق هؤلاء الأصناف وشأن القيود الواردة بعد مفردات أن ترجع إلى جميع ما قبلها ، فيقتضي هذا أن يُشترط الفقر في كل صنف من هذه الأصناف الأربعة ، لأن مطلقها قد قُيِّد بقيد عَقب إطلاق ، والكلام بأواخره فليس يجري هنا الاختلاف في حمل المطلق على المقيد ، ولا تجري الصور الأربع في حمل المطلق على المقيد من اتحاد حكمهما وجنسهما .

ولذلك قال مالك وأبو حنيفة: لا يعطى ذوو القربى إلا إذا كانوا فقراء لأنه عوض لهم عما حرموه من الزكاة.

(253/755)

وقال الشافعي وكثير من الفقهاء: يشترط الفقر فيما عدا ذوي القربى لأنه حق لهم لأجل القرابة للنبيء صلى الله عليه وسلم قال إمام الحرمين: أغلظ الشافعي الرد على مذهب أبي حنيفة بأن الله علق الاستحقاق بالقرابة ولم يشترط الحاجة، فاشتراطُها وعدمُ اعتبار القرابة يضارّه ويحَادّه.

قلت: هذا محل النزاع فإن الله ذكر وصف اليتامى ووصف ابن السبيل ولم يشترط الحاجة.

واعتذر إمام الحرمين للحنفية بأن الصدقات لما حُرمت على ذوي القربى كانت فائدة ذكرهم في خمس الفيْء والمغانم أنه لا يمتنع صرفه إليهم امتناعَ صرف الصدقات، ثم قال: لا تغترَّ بالاعتذار فإن الآية نص على ثبوت الاستحقاق تشريفاً لهم فمن علّله بالحاجة فوَّت هذا المعنى أ هـ.

وعند التأمل تجد أن هذا الرد مدخول، والبحث فيه يطول.

ومحله مسائل الفقه والأصول .

ومن العلماء والمفسرين من جعل جملة ﴿ للفقراء المهاجرين ﴾ ابتدائية على حذف المبتدأ .

والتقدير : ما أفاء الله على رسوله للمهاجرين الفقراء إلى آخر ما عطف عليه فتكون هذه مصارف أخرى للفيء ، ومنهم من جعلها معطوفة بحذف حرف العطف على طريقة التعداد كأنه قيل : فلله وللرسول ، إلى آخره ، ثم قيل : ﴿ للفقراء المهاجرين ﴾ .

فعلى هذين القولين ينتفي كونها قيداً للجملة التي قبلها ، وتنفتح طرائق أخرى في حمل المطلق على المقيد ، والاختلاف في شروط الحمل ، وهي طرائق واضحة للمتأمل ، وعلى الوجه الأول يكون المعوّل .

ووُصِف المهاجرون بالذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم تنبيهاً على أن إعطاءهم مراعىً جبر مَا نكبوا به من ضياع الأموال والديار ، ومراعىً فيه إخلاصهم الإيمان وأنهم مكرّرُون نصرَ دين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فذيل بقوله : ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ .

واسم الإِشارة لتعظيم شأنهم وللتنبيه على أن استحقاقهم وصف الصادقين لأجل ما سبق اسمَ الإِشارة مِن الصفات وهي أنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم وابتغاؤهم فضلاً من الله ورضواناً ونصرهم الله ورسوله فإن الأعمال الخالصة فيما عملت لأجله يَشهد للإِخلاص فيها ما يلحق عاملها من مشاقّ وأذى وإضرار، فيستطيع أن يخلص منها لو ترك ما عمله لأجلها أو قصر فيه.

وجملة ﴿ هم الصادقون ﴾ مفيدة القصر لأجل ضمير الفصل وهو قصر ادعائي للمبالغة في وصفهم بالصدق الكامل كأنَّ صدق غيرهم ليس صدقاً في جانب صدقهم.

وموقع قوله: ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ كموقع قوله: ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ في سورة [البقرة: 5].

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ

الأظهر أن ﴿ الذين ﴾ عطف على ﴿ المهاجرين ﴾ [الحشر: 8] أي والذين تبوّؤا الدار.

والذين تبوّؤا الدار هم الأنصار.

والدّار تطلق على البلاد، وأصلُها مَوضع القبيلة من الأرض.

وأطلقت على القرية قال تعالى في ذكر ثمود ﴿ فأصبحوا في دَارهم جاثمين ﴾ [الأعراف: 78]، أي في مدينتهم وهي حجر ثمود.

والتعريف هنا للعهد لأن المراد بالدار : يثرب ، والمعنى الذين هم أصحاب الدار .

هذا توطئة لقوله : ﴿ يحبون من هاجر إليهم ﴾ .

والتبوُّء : اتخاذ المباءة وهي البُقعة التي يَبوء إليها صاحبها ، أي يرجع إليها بعد انتشاره في أعماله .

وفي موقع قوله : ﴿ والإيمان ﴾ غموض إذ لا يصح أن يكون مفعولاً لفعل تبوَّءوا ، فتأوله المفسرون على وجهين : أحدهما أن يجعل الكلام استعارة مكنية بتشبيه الإيمان بالمَنْزل وجعْل إثبات التَّبَوُّءِ تخييلاً فيكون فعل تبوأوا مستعملاً في حقيقته ومجازه .

وجمهور المفسرين جعلوا المعطوف عاملاً مقدراً يدلّ عليه الكلام ، تقديره : وأخلصوا الإيمان على نحو قول الراجز الذي لا يعرف :

علفتها تبناً وماءً بارداً

وقول عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

يا ليت زوجَكِ قد غدا

متقلداً سيفاً ورمحاً . . .

أي ومُمسكاً رمحاً وهو الذي درج عليه في "الكشاف" .

وقيل الواو للمعية .

و ﴿ الإِيمانَ ﴾ مفعول معه .

وعندي أن هذا أحسن الوجوه ، وإن قلّ قائلوه .

والجمهور يجعلون النصب على المفعول معه سماعياً فهو عندهم قليل الاستعمال فتجنبوا تخريج آيات القرآن عليه حتى ادعى ابن هشام في "مُغني اللبيب" أنه غير واقع في القرآن بيقين .

وتأول قوله تعالى : ﴿ فأَجمِعُوا أمركم وشركاءكم ﴾ [يونس : 71] ، ذلك لأن جمهور البصريين يشترطون أن يكون العامل في المفعول معه هو العاملَ في الاسم الذي صاحَبَه ولا يرون واو المعية ناصبة المفعول معه خلافاً للكوفيين والأخفش فإن الواو عندهم بمعنى (مع) .

وقال عبد القاهر : منصوب بالواو .

والحق عدم التزام أن يكون المفعول معه معمولاً للفعل ، ألا ترى صحة قول القائل : استوى الماء والخشبةَ .

وقولهم : سرْتُ والنيلَ ، وهو يفيد الثناء عليهم بأن دار الهجرة دارُهم آووا إليها المهاجرين لأنها دار مؤمنين لا يماثلها يومئذٍ غيرها .

وبذلك يتضح أن متعلق ﴿ من قبلهم ﴾ فعل ﴿ تبوؤا ﴾ بمفرده ، وأن المجرور المتعلق به قيدٌ فِيه دون ما ذكر بعد الواو لأن الواو ليست واو عطف فلذلك لا تكون قائمة مقام الفعل السابق لأن واو المعية في معنى ظرف فلا يعلق بها مجرور .

وفي ذكر الدار (وهي المدينة) مع ذكر الإِيمان إيماء إلى فضيلة المدينة بحيث جعل تبوّءهم المدينة قرين الثناء عليهم بالإِيمان ولعل هذا هو الذي عناه مالك رحمه الله فيما رواه عنه ابن وهب قال : سمعت مالكاً يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق .

فقال : إن المدينة تبوّئت بالإِيمان والهجرة وإن غيرها من القرى افتتحت بالسيف ثم قرأ : ﴿ والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ﴾ الآية .

(256/755)

وجملة ﴿ يحبون من هاجر إليهم ﴾ حال من الذين تَبَوَّؤُوا الدار ، وهذا ثناء عليهم بما تقرر في نفوسهم من أخوة الإِسلام إذ أحبوا المهاجرين ، وشأن القبائل أن يتحرجوا من الذين يهاجرون إلى ديارهم لمضايقتهم .

ومن آثار هذه المحبة ما ثبت في "الصحيح" من خبر سعد بن الربيع مع عبد الرحمان بن عوف إذ عرض سعد عليه أن يقاسمه ماله وأن ينزل له عن إحدى زوجتيه ، وقد أسكنوا

المهاجرين معهم في بيوتهم ومنحوهم من نخيلهم ، وحسبك الأخوة التي آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار .

وقوله : ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ أريد بالوجدان الإدراك العقلي ، وكنى بانتفاء وجدان الحاجة عن انتفاء وجودها لأنها لو كانت موجودة لأدركوها في نفوسهم وهذا من باب قول الشاعر :

ولا ترى الضبّ بها ينجحر

والحاجة في الأصل : اسم مَصدرِ الحَوْج وهو الاحتياج ، أي الافتقار إلى شيء ، وتطلق على الأمر المحتاج إليه من إطلاق المصدر على اسم المفعول ، وهي هنا مجاز في المأْرب والمرادِ ، وإطلاق الحاجة إلى المأرب مجاز مشهور ساوى الحقيقة كقوله تعالى : ﴿ ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ [غافر : 80] ، أي لتبلغوا في السفر عليها المأْرب الذي تسافرون لأجله ، وكقوله تعالى : ﴿ إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ﴾ [يوسف : 68] أي مأربا مُهمّا وقول النابغة :

أيامَ تخبرني نُعْمٌ وأَخْبِرُها

ما أكْتُم الناسَ من حاجِي وإسراري . . .

وعليه فتكون (مِن) في قوله : ﴿ مما أوتوا ﴾ ابتدائية ، أي مأرباً أو رغبة ناشئة من فَيْء أُعْطِيهُ المهاجرون .

والصدور مراد بها النفوس جمع الصدر وهو الباطن الذي فيه الحواس الباطنة وذلك كإطلاق القلب على ذلك.

و(ما أوتوا) هو فيء بني النضير.

وضمير ﴿ صدورهم ﴾ عائد إلى ﴿ الذين تَبَوَّؤُا الدار ﴾، وضمير ﴿ أوتوا ﴾ عائد إلى ﴿ من هاجر إليهم ﴾، لأن من هاجر جماعة من المهاجرين فروعي في ضمير معنى (مَنْ) بدون لفظها.

(257/755)

وهذان الضميران وإن كانا ضميري غيبة وكانا مقترَين فالسامع يرد كل ضمير إلى معاده بحسب السياق مثل (ما) في قوله تعالى: ﴿ وعمروها أكثر مما عمروها ﴾ في سورة [الروم: 9].

وقول عباس بن مرداس يذكر انتصار المسلمين مع قومه بني سُليم على هَوازن:

عُدنا ولولا نحنُ أحدَق جمعهم

بالمسلمين وأحرزوا ما جمَّعوا

(أي أحرز جيش هوازن ما جمّعه جيش المسلمين).

والمعنى: أنهم لا يخامر نفوسهم تشوف إلى أخذ شيء مما أوتيه المهاجرون من فيْء بني النضير.

ويجوز وجه آخر بأن يحمل لفظ حاجة على استعماله الحقيقي اسم مصدر الاحتياج فإن الحاجة بهذا المعنى يصح وقوعها في الصدور لأنها من الوجدانيات والانفعالات.

ومعنى نفي وجدان الاحتياج في صدورهم أنهم لفرط حبهم للمهاجرين صاروا لا يخامر نفوسهم أنهم مفتقرون إلى شيء مما يُؤتاه المهاجرون، أي فهم أغنياء عما يؤتاه المهاجرون فلا تستشرف نفوسهم إلى شيء مما يؤتاه المهاجرون بَلْهَ أن يتطلبوه.

وتكون (مِن) في قوله تعالى: ﴿مما أوتوا﴾ للتعليل، أي حاجة لأجل ما أوتيه المهاجرون، أو ابتدائية، أي حاجة ناشئة عما أوتيه المهاجرون فيفيد انتفاء وجدان الحاجة في نفوسهم وانتفاء أسباب ذلك الوجدان ومناشِئه المعتادة في الناس تبعاً للمنافسة والغبطة، وقد دل انتفاء أسباب الحاجة على متعلق حاجة المحذوف إذ التقدير: ولا يجدون في نفوسهم حاجة لشيء أوتيه المهاجرون.

والإيثار: ترجيح شيء على غيره بمكرمة أو منفعة.

والمعنى: يُؤثرونَ على أنفسهم في ذلك اختياراً منهم وهذا أعلى درجة مما أفاده قوله: ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ فلذلك عقب به ولم يُذكر مفعول ﴿يُؤثرونَ﴾ لدلالة قوله: ﴿مما أوتوا﴾ عليه.

ومن إيثارهم المهاجرين ما روي في "الصحيح" أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الأنصار ليقطع لهم قطائع بنخل البحرين فقالوا : لا إلا أن تقطع لإِخواننا من المهاجرين مثلها .

(258/755)

وإما إيثار الواحد منهم على غيره منهم فما رواه البخاري عن أبي هريرة قال : "أتى رجل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أصابني الجهد .

فأرسل في نسائه فلم يجد عندهنّ شيئاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم ألاَ رجل يُضيف هذا الليلةَ رحمه الله ، فقام رجل من الأنصار (هو أبو طلحة) فقال : أنا يا رسول الله ،

فذهب إلى أهله فقال لامرأته : هذا ضيف رسول الله لا تدَّخريه شيئاً ، فقالت : والله ما عندي إلا قُوتُ الصِبية .

قال : فإذا أراد الصبية العَشاء فنوِّميهم وتعالَي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة .

فإذا دخل الضيف فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج تُري أنكِ تصلحينه فأطفئيه وأَرِيه أنَّا نأكل .

فقعدوا وأكل الضيف .

وذكرت قصص من هذا القبيل في التفاسير ، قيل : نزلت هذه الآية في قصة أبي طلحة وقيل

غير ذلك .

وجملة ﴿ ولو كان بهم خصاصة ﴾ في موضع الحال .

و﴿ لو ﴾ وصلية وهي التي تدل على مجرد تعليق جوابها بشرط يفيد حالة لا يُظنّ حصول الجواب عند حصولها .

والتقدير : لو كان بهم خصاصة لآثروا على أنفسهم فيُعلم أن إيثارهم في الأحوال التي دون ذلك بالأحرى دون إفادة الامتناع .

وقد بينا ذلك عند قوله تعالى : ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ في سورة [آل عمران : 91] .

والخصاصة : شدة الاحتياج .

وتذكير فعل كان ﴾ لأجل كون تأنيث الخصاصة ليس حقيقياً ، ولأنه فُصل بين ﴿ كان ﴾ واسمها بالمجرور .

والباء للملابسة .

وجملة ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ تذييل ، والواو اعتراضية ، فإن التذييل من قبيل الاعتراض في آخر الكلام على الرأي الصحيح .

وتذييل الكلام بذكر فضل من يوقون شح أنفسهم بعد قوله : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ يشير إلى أن إيثارهم على أنفسهم حتى في حالة الخصاصة هو

سلامة من شح الأنفس فكأنه قيل لسلامتهم من شح الأنفس ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

(259/755)

والشح بضم الشين وكسرها : غريزة في النفس بمَنْع ما هو لها ، وهو قريب من معنى البخل .

وقال الطيبي : الفرق بين الشح والبخل عسير جداً وقد أشار في "الكشاف" إلى الفرق بينهما بما يقتضي أن البخل أثر الشح وهو أن يمنع أحد ما يراد منه بَذْلُه وقد قال تعالى : ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ [النساء : 128] أي جعل الشح حاضراً معها لا يفارقها ، وأضيف في هذه الآية إلى النفس لذلك فهو غريزة لا تسلم منها نفس .

وفي الحديث في بيان أفضل الصدقة "أن تصّدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمُل الغِنى" ولكن النفوس تتفاوت في هذا المقدار فإذا غلب عليها بمنع المعروف والخير فذلك مذموم ويتفاوت ذمه بتفاوت ما يمنعه .

قال وقد أحسن وصفه من قال ، لم أقف على قائله :

يمارس نفساً بين جَنْبَيْه كزَّةً

إذا هَمَّ بالمعروف قالت له مهلاً . . .

فمن وقي شح نفسه ، أي وُقي من أن يكون الشح المذموم خُلقاً له ، لأنه إذا وُقي هذا الخُلقَ سلِم من كل مواقع ذمه .

فإن وقي من بعضه كان له من الفلاح بمقدار ما وُقيه .

واسم الإِشارة لتعظيم هذا الصنف من الناس .

وصيغة القصر المؤداة بضمير الفصل للمبالغة لكثرة الفلاح الذي يترتب على وقاية شح النفس حتى كأن جنس المفلح مقصور على ذلك المُوقَى .

ومن المفسرين من جعل ﴿ والذين تبوؤا الدار ﴾ ابتداء كلام للثناء على الأنصار بمناسبة الثناء على المهاجرين وهؤلاء لم يجعلوا للأنصار حظاً في ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى وقصروا قوله : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ [الحشر : 7] على قرى خاصة هي : قريظة .

وفَدَك ، وخيبر .

والنفع ، وعُرينة ، ووادي القُرى ، ورووا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أفاء الله عليه فيئَها قال للأنصار : " إن شئتم قاسمتم المهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم

في هذه الغنيمة ، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وتركتم لهم هذا " ؟ فقالوا : بل نقسم لهم من أموالنا ونترك لهم هذه الغنيمة ، فنزلت آيةُ ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ الآية [الحشر : 7] .

ومنهم من قصر هذه الآية على فَيء بني النضير وكل ذلك خروج عن مهيع انتظام آي هذه السورة بعضها مع بعض وتفكيك لنظم الكلام وتناسبه مع وهن الأخبار التي رووها في ذلك فلا ينبغي التعويل عليه .

وعلى هذا التفسير يكون عطف ﴿ والذين تبوؤا الدار ﴾ عطفَ جملةٍ على جملة ، واسم الموصول مبتدأ وجملة ﴿ يحبون من هاجر إليهم ﴾ خبراً عن المبتدأ .

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (10)

عطف على ﴿ والذين تبوؤا الدار ﴾ [الحشر : 9] على التفسيرين المتقدمين ؛ فأما على رأي من جعلوا ﴿ والذين تبوءوا الدار ﴾ [الحشر : 9] معطوفاً على ﴿ للفقراء المهاجرين ﴾ [الحشر : 8] جعلوا ﴿ الذين جاؤوا من بعدهم ﴾ فريقاً من أهل القُرى ، وهو غير المهاجرين والأنصار بل هو من جاء إلى الإِسلام بعد المهاجرين والأنصار ، فضمير ﴿ من بعدهم ﴾ عائد إلى مجموع الفريقين .

والمجيء مستعمل للطروِ والمصير إلى حالة تماثل حالهم ، وهي حالة الإِسلام ، فكأنهم أتوا

إلى مكان لإِقامتهم، وهذا فريق ثالث وهؤلاء هم الذين ذُكروا في قوله تعالى بعدَ ذكر المهاجرين والأنصار ﴿ والذين اتَّبعوهم بإحسان ﴾ [التوبة: 100] أي اتبعوهم في الإِيمان.

(261/755)

وإنما صيغ ﴿ جاءوا ﴾ بصيغة الماضي تغليباً لأن من العرب وغيرهم من أسلموا بعد الهجرة مثل غِفارة، ومُزينة، وأسلم، ومثل عبد الله بن سَلاَم، وسلمان الفارسي، فكأنه قيل: الذين جاؤوا ويجيئون، بدلالة لحن الخطاب.

والمقصود من هذا: زيادة دفع إيهام أن يختص المهاجرون بما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من أهل القرى كما اختصهم النبي صلى الله عليه وسلم بفيْء بني النضير.

وقد شملت هذه الآية كل من يوجد من المسلمين أبد الدهر، وعلى هذا جرى فهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

روى البخاري من طريق مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال عمر: لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلا قسمتها بين أهلها (أي الفاتحين) كما قسم النبي صلى الله عليه وسلم خيبر.

وذكر القرطبي : أن عمر دعا المهاجرين والأنصار واستشارهم فيما فتح الله عليه وقال لهم : تثبتوا الأمر وتدبروه ثم اغدوا عليَّ فلما غدَوا عليه قال : قد مررت بالآيات التي في سورة الحشر وتلا ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ إلى قوله : ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ (7، 8) .

قال : ما هي لهؤلاء فقط وتلا قوله : والذين جاءوا من بعدهم ﴾ إلى قوله : ﴿ رؤوف رحيم ﴾ ثم قال : ما بقي أحد من أهل الإِسلام إلا وقد دخل في ذلك أ هـ .

وهذا ظاهر في الفيء ، وأما ما فُتح عنوة فمسألة أخرى ولعمر بن الخطاب في عدم قسمته سوادَ العراق بين الجيش الفاتحين له عمل آخر ، وهو ليس من غرضنا .

ومحله كتب الفقه والحديث .

والفريق من المفسرين الذين جعلوا قوله تعالى : ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان ﴾ [الحشر : 9] كلاماً مستأنفاً ، وجعل ﴿ يحبون من هاجر إليهم ﴾ [الحشر : 9] خبراً عن اسم الموصول ، جعلوا قوله : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ كذلك مستأنفاً .

ومن الذين جعلوا قوله : ﴿ والذين تبوءوا ﴾ [الحشر : 9] معطوفاً على ﴿ للفقراء المهاجرين ﴾ [الحشر : 8] من جعل قوله : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ مستأنفاً .

ونسبه ابن الفرس في "أحكام القرآن" إلى الشافعي .

ورأى أن الفيء إذا كان أرضاً فهو إلى تخيير الإِمام وليس يتعين صرفه للأصناف المذكورة في فيء بني النضير .

وجملة ﴿ يقولون ربنا اغفر لنا ﴾ على التفسير المختار في موضع الحال من ﴿ الذين جاؤوا من بعدهم ﴾ .

والغلّ بكسر الغين : الحسد والبغض ، أي سألوا الله أن يطَهر نفوسهم من الغلّ والحسد للمؤمنين السابقين على ما أعطُوه من فضيلة صحبة النبي صلى الله عليه وسلم وما فُضّل به بعضهم من الهجرة وبعضهم من النصرة ، فبيّن الله للذين جاؤا من بعدهم ما يكسبهم فضيلة ليست للمهاجرين والأنصار ، وهي فضيلة الدعاء لهم بالمغفرة وانطواء ضمائرهم على محبتهم وانتفاء البغض لهم .

والمراد أنهم يضمرون ما يدعون الله به لهم في نفوسهم ويرضوا أنفسهم عليه .

وقد دلت الآية على أن حقاً على المسلمين أن يَذكروا سلفهم بخير ، وأن حقاً عليهم محبة المهاجرين والأنصار وتعظيمهم ، قال مالك : من كان يبغض أحداً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أو كان قلبه عليه غل فليس له حق في فيْء المسلمين ، ثم قرأ ﴿ والذين

جاءوا من بعدهم ﴾ الآية.

فلعله أخذ بمفهوم الحال من قوله تعالى: ﴿ يقولون ربنا اغفر لنا ﴾ الآية، فإن المقصد من الثناء عليهم بذلك أن يضمروا مضمونه في نفوسهم فإذا أضمروا خلافه وأعلنوا بما ينافي ذلك فقد تخلف فيهم هذا الوصف، فإن الفيء عطية أعطاها الله تلك الأصناف ولم يكتسبوها بحق قتال، فاشترط الله عليهم في استحقاقها أن يكونوا محبين لسلفهم غير حاسدين لهم.

وهو يعني إلا ما كان من شنآن بين شخصين لأسباب عادية أو شرعية مثل ما كان بين العباس وعليّ حين تحاكما إلى عمر، فقال العباس: اقض بيني وبين هذا الظالم الخائن الغادر.

ومثل إقامة عمر حدّ القذف على أبي بَكرة.

وأما ما جرى بين عائشة وعليّ من النزاع والقتال وبين عليّ ومعاوية من القتال فإنما كان انتصاراً للحق في كلا رأيي الجانبين وليس ذلك لغلّ أو تنقص، فهو كضرب القاضي أحداً تأديباً له فوجب إمساك غيرهم من التحَزب لهم بعدهم فإنه وإن ساغ ذلك لآحادِهم

لتكافىء درجاتهم أو تقاربها .

والظنِّ بهم زوال الحزازات من قلوبهم بانقضاء تلك الحوادث ، لا يسوغ ذلك للأذناب من بعدهم الذين ليسوا منهم في عير ولا نفير ، وإنما هي مسحَة من حمية الجاهلية نَخرت عضد الأمة المحمدية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(264/755)

فصل فى منزلة الإيثار

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الإيثار قال الله تعالى

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : 9] فالإيثار ضد الشح فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه والشحيح : حريص على ما ليس بيده فإذا حصل بيده شيء شح عليه وبخل بإخراجه فالبخل ثمرة الشح والشح يأمر بالبخل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا فالبخيل : من أجاب داعي الشح والمؤثر : من أجاب داعي الجود كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو

السخاء وهو أفضل من سخاء البذل قال عبد الله بن المبارك: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل

(265/755)

وهذا المنزل: هو منزل الجود والسخاء والإحسان وسمي بمنزل الإيثار لأنه أعلى مراتبه فإن المراتب ثلاثة إحداها: أن لا ينقصه البذل ولا يصعب عليه فهو منزلة السخاء الثانية: أن يعطي الأكثر ويبقي له شيئا أو يبقى مثل ما أعطى فهو الجود الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه وهي مرتبة الإيثار وعكسها الأثرة وهو استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار رضي الله عنهم: إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض والأنصار: هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: 9] فوصفهم بأعلى مراتب السخاء وكان ذلك فيهم معروفا وكان قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما من الأجواد المعروفين حتى إنه مرض مرة فاستبطأ إخوانه في العيادة فسأل عنهم فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين فقال: أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة ثم أمر مناديا ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل فما أمسى حتى كسرت

عتبة بابه لكثرة من عاده وقالوا له يوما: هل رأيت أسخى منك قال: نعم نزلنا بالبادية على امرأة فحضر زوجها فقالت: إنه نزل بك ضيفان فجاء بناقة فنحرها وقال: شأنكم فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها فقلنا: ما أكلنا من التي نحرت البارحة إلا اليسير فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت فبقينا عنده يومين أو ثلاثة والسماء تمطر وهو يفعل ذلك فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه ومضينا فلما طلع النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا: قفوا أيها الركب اللئام أعطيتموني ثمن قراي ثم إنه لحقنا وقال: لتأخذنه أو لأطاعننكم برمحي فأخذناه وانصرف

(266/755)

فتأمل سر التقدير حيث قدر الحكيم الخبير سبحانه استئثار الناس على الأنصار بالدنيا وهم أهل الإيثار ليجازيهم على إيثارهم إخوانهم في الدنيا على نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن على الناس فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك مع كونك من أهل الإيثار فاعلم أنه لخير يراد بك والله سبحانه وتعالى أعلم فصل والجود عشر مراتب أحدها: الجود بالنفس وهو أعلى مراتبه كما قال الشاعر:

يجود بالنفس إذ ضن البخيل بها . . . والجود بالنفس أقصى غاية

الجود الثانية: الجود بالرياسة وهو ثاني مراتب الجود فيحمل الجواد جوده على امتهان رياسته والجود بها والإيثار في قضاء حاجات الملتمس

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته وإجمام نفسه فيجود بها تعبا وكدا في مصلحة غيره ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامره كما قيل: متيم بالندى لو قال سائله % هب لي جميع كرى عينيك لم ينم الرابعة: الجود بالعلم وبذله وهو من أعلى مراتب الجود والجود به أفضل من الجود بالمال لأن العلم أشرف من المال والناس في الجود به على مراتب متفاوتة وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ: أن لا ينفع به بخيلا أبدا ومن الجود به: أن تبذله لمن يسألك عنه بل تطرحه عليه طرحا ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيت له جوابها

جوابا شافيا لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا نعم أو لا مقتصرا عليها ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في ذلك أمرا عجيبا: كان إذا سئل عن مسألة حكمية ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة

إذا قدر ومأخذ الخلاف وترجيح القول الراجح وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم: أعظم من فرحه بمسألته وهذه فتاويه رحمه الله بين الناس فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر على مسألة السائل بل يذكر له نظائرها ومتعلقها ومأخذها بحيث يشفيه ويكفيه وقد سأل الصحابة رضي الله عنهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المتوضىء بماء البحر فقال: هو الطهور ماؤه الحل ميتته فأجابهم عن سؤالهم وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر فقال: أينقص الرطب إذا جف قالوا: نعم قال: فلا إذن ولم يكن يخفى عليه نقصان الرطب بجفافه ولكن نبههم على علة الحكم وهذا كثير جدا في أجوبته مثل قوله: إن بعت من أخيك ثمرة فأصابتها جائحة فلا يحل لك أن تأخذ من مال أخيك شيئًا بم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق وفي لفظ: أرأيت إن منع الله الثمرة: بم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامه بالثمن وهي منع الله الثمرة التي ليس للمشتري فيها صنع وكان خصومه يعني شيخ الإسلام ابن تيمية يعيبونه بذلك ويقولون:

سأله السائل عن طريق مصر مثلا فيذكر له معها طريق مكة والمدينة وخراسان والعراق والهند وأي حاجة بالسائل إلى ذلك ولعمر الله ليس ذلك بعيب وإنما العيب: الجهل والكبر

وهذا موضع المثل المشهور:

لقبوه بحامض وهو خل . . . مثل من لم يصل إلى العنقود

(268/755)

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه وذلك زكاة الجاه المطالب بها العبد كما أن التعليم وبذل العلم زكاته

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه كما قال: يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين اثنين: صدقة ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعه: صدقة والكلمة الطيبة: صدقة وبكل خطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة: "صدقة ويميط الأذى عن الطريق": صدقة متفق عليه

السابعة: الجود بالعرض كجود أبي ضمضم من الصحابة رضى الله عنهم كان إذا أصبح قال: اللهم إنه لا مال لي أتصدق به على الناس وقد تصدقت عليهم بعرضي فمن شتمني أو قذفني: فهو في حل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم وفي هذا الجود من سلامة الصدر وراحة القلب والتخلص من معاداة الخلق ما فيه

الثامنة: الجود بالصبر والاحتمال والإغضاء وهذه مرتبة شريفة من مراتبه وهي أنفع

لصاحبها من الجود بالمال وأعز له وأنصر وأملك لنفسه وأشرف لها ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة وهذا جود الفتوة قال تعالى: ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ

فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ [المائدة: 45] وفي هذا الجود قال تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى: 40] فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقام العدل وأذن فيه ومقام الفضل وندب إليه ومقام الظلم وحرمه

(269/755)

التاسعة: الجود بالخلق والبشر والبسطة وهو فوق الجود بالصبر والاحتمال والعفو وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم وهو أثقل ما يوضع في الميزان قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه" وفي هذا الجود من المنافع والمسار وأنواع المصالح ما فيه والعبد لا يمكنه أن يسع الناس بماله ويمكنه أن يسعهم بخلقه واحتماله

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم فلا يلتفت إليه ولا يستشرف له بقلبه ولا

يتعرض له بحاله ولا لسانه وهذا الذي قال عبد الله ابن المبارك: إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به على الناس فجد عليهم بزهدك في أموالهم وما في أيديهم تفضل عليهم وتزاحمهم في الجود وتنفرد عنهم بالراحة ولكل مرتبة من مراتب الجود مزيد وتأثير خاص في القلب والحال والله سبحانه قد ضمن المزيد للجواد والإتلاف للممسك والله المستعان

فصل قال صاحب المنازل رحمه الله: الإيثار: تخصيص واختيار والأثرة: تحسن طوعا وتصح كرها فرق الشيخ بين الإيثار و الأثرة وجعل الإيثار اختيارا و الأثرة منقسمة إلى اختيارية واضطرارية وبالفرق بينهما يعلم معنى كلامه

فإن الإيثار هو البذل وتخصيصك لمن تؤثره على نفسك وهذا لا يكون إلا اختيارا وأما الأثرة فهي استئثار صاحب الشيء به عليك وحوزه لنفسه دونك فهذه لا يحمد عليها المستأثر عليه إلا إذا كانت طوعا مثل أن يقدر على منازعته ومجاذبته فلا يفعل ويدعه وأثرته طوعا فهذا حسن وإن لم يقدر على ذلك كانت أثرة كره ويعني بالصحة: الوجود أي توجد كرها ولكن إنما تحسن إذا كانت طوعا من المستأثر عليه فحقيقة الإيثار بذل

صاحبه وإعطاؤه و الأثرة استبداله هو بالمؤثر به فيتركه وما استبدل به: إما طوعا وإما كرها فكأنك آثرته باستئثاره حيث خليت بينه وبينه ولم تنازعه قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله فالسمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره: لهم معه ومع الأئمة بعده والأثرة: عدم منازعة الأمر مع الأئمة بعده خاصة فإنه لم يستأثر عليهم

فصل قال: وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: أن تؤثر الخلق

على نفسك فيما لا يحرم عليك دينا ولا يقطع عليك طريقا ولا يفسد عليك وقتا يعني: أن تقدمهم على نفسك في مصالحهم مثل أن تطعمهم وتجوع وتكسوهم وتعرى وتسقيهم وتظمأ بحيث لا يؤدي ذلك إلى ارتكاب إتلاف لا يجوز في الدين ومثل أن تؤثرهم بمالك وتقعد كلا مضطرا

مستشرفا للناس أو سائلا وكذلك إيثارهم بكل ما يحرمه على المؤثر دينه فإنه سفه وعجز يذم المؤثر به عند الله وعند الناس وأما قوله: ولا يقطع عليك طريقا أي لا يقطع عليك طريق

الطلب والمسير إلى الله تعالى مثل أن تؤثر جليسك على ذكرك وتوجهك وجمعيتك على الله فتكون قد آثرته على الله وآثرت بنصيبك من الله ما لا يستحق الإيثار فيكون مثلك كمثل مسافر سائر على الطريق لقيه رجل فاستوقفه وأخذ يحدثه ويلهيه حتى فاته الرفاق وهذا حال أكثر الخلق مع الصادق السائر إلى الله تعالى فإيثارهم عليه عين الغبن وما أكثر المؤثرين على الله تعالى غيره وما أقل المؤثرين الله على غيره وكذلك الإيثار بما يفسد على المؤثر وقته قبيح أيضا مثل أن يؤثر بوقته ويفرق قلبه في طلب خلفه أو يؤثر بأمر قد جمع قلبه وهمه على الله فيفرق قلبه عليه بعد جمعيته ويشتت خاطره فهذا أيضا إيثار غير محمود وكذلك الإيثار باشتغال القلب والفكر في مهماتهم ومصالحهم التي لا تتعين عليك على الفكر النافع واشتغال القلب بالله ونظائر ذلك لا تخفى بل ذلك حال الخلق والغالب عليهم وكل سبب يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله: فلا تؤثر به أحدا فإن آثرت به فإنما تؤثر الشيطان على الله وأنت لا تعلم وتأمل أحوال أكثر الخلق في إيثارهم على الله من يضرهم إيثارهم له ولا ينفعهم وأي جهالة وسفه فوق هذا ومن هذا تكلم الفقهاء في الإيثار بالقرب وقالوا: إنه مكروه أو حرام كمن يؤثر بالصف الأول غيره ويتأخر هو أو يؤثره بقربه من الإمام يوم الجمعة أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة أو يؤثره بعلم يحرمه نفسه ويرفعه عليه فيفوز به دونه

وتكلموا في إيثار عائشة رضي الله عنها لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بدفنه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجرتها وأجابوا عنه بأن الميت ينقطع عمله بموته وبقربه فلا يتصور في حقه الإيثار بالقرب بعد الموت إذ لا تقرب في حق الميت وإنما هذا إيثار بمسكن شريف فاضل لمن هو أولى به منها فالإيثار به قربة إلى الله عز وجل للمؤثر والله أعلم

فصل قال: ولا يستطاع إلا بثلاثة أشياء: بتعظيم الحقوق ومقت الشح

والرغبة في مكارم الأخلاق ذكر ما يعين على الإيثار فيبعث عليه وهو ثلاثة أشياء تعظيم الحقوق فإن من عظمت الحقوق عنده قام بواجبها ورعاها حق رعايتها واستعظم إضاعتها وعلم أنه إن لم يبلغ درجة الإيثار لم يؤدها كما ينبغي فيجعل إيثاره احتياطا لأدائها الثاني: مقت الشح فإنه إذا مقته وأبغضه التزم الإيثار فإنه يرى أنه لا خلاص له من هذا المقت البغيض إلا بالإيثار الثالث: الرغبة في مكارم الأخلاق وبحسب رغبته فيها: يكون إيثاره لأن الإيثار أفضل درجات مكارم الأخلاق

فصل قال: الدرجة الثانية: إيثار رضى الله على رضى غيره وإن عظمت

فيه المحن وثقلت فيه المؤن وضعف عنه الطول والبدن إيثار رضى الله عز وجل على غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته ولو أغضب الخلق وهي درجة الأنبياء وأعلاها للرسل عليهم صلوات الله وسلامه وأعلاها لأولى العزم منهم وأعلاها لنبينا وعليهم

فإنه قاوم العالم كله وتجرد للدعوة إلى الله واحتمل عداوة البعيد والقريب في الله تعالى وآثر رضى الله على رضى الخلق من كل وجه ولم يأخذه في إيثار رضاه لومة لائم بل كان همه وعزمه وسعيه كله مقصورا على إيثار مرضاة الله وتبليغ رسالاته وإعلاء كلماته وجهاد أعدائه حتى ظهر دين الله على كل دين وقامت حجته على العالمين وتمت نعمته على المؤمنين فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه فلم ينل أحد من درجة هذا الإيثار ما نال صلوات الله وسلامه عليه وأما قوله: وإن عظمت فيه المحن وثقلت فيه المؤن فإن المحنة تعظم فيه أولا ليتأخر من ليس من أهله فإذا احتملها وتقدم انقلبت تلك المحن منحا وصارت تلك المؤن عونا وهذا معروف بالتجربة الخاصة والعامة فإنه ما آثر عبد مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق وتحمل ثقل ذلك ومؤنته وصبر على محنته: إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة ومعونة بقدر ما تحمل من مرضاته فانقلبت مخاوفه أمانا ومظان عطبه نجاة وتعبه راحة ومؤنته معونة وبليته نعمة ومحنته منحة وسخطه رضى فيا خيبة المتخلفين ويا ذلة المتهيبين هذا وقد جرت سنة الله التي لا تبديل لها أن من آثر مرضاة الخلق على مرضاته: أن يسخط

عليه من آثر رضاه ويخذله من جهته ويجعل محنته على يديه فيعود حامده ذاما ومن آثر مرضاته ساخطا فلا على مقصوده منهم حصل ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل وهذا أعجز الخلق وأحمقهم هذا مع أن رضى الخلق: لا مقدور ولا مأمور ولا مأثور فهو مستحيل بل لا بد من سخطهم عليك فلأن يسخطوا عليك وتفوز برضى الله عنك أحب إليك وأنفع لك من أن يسخوا عليك والله عنك غير راض فإذا كان سخطهم لابد منه على التقديرين فآثر سخطهم الذي ينال به رضي الله فإن هم رضوا

عنك بعد هذا وإلا فأهون شيء رضى من لا ينفعك رضاه ولا يضرك سخطه في دينك ولا في إيمانك ولا في آخرتك فإن ضرك في أمر يسير في الدنيا فمضرة سخط الله أعظم وأعظم وخاصة العقل: احتمال أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما فوازن بعقلك ثم انظر أي الأمرين وأيهما خير فآثره وأيهما شر فابعد عنه فهذا برهان قطعي ضروري في إيثار رضي الله على رضى الخلق هذا مع أنه إذا آثر رضى الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه قال بعض السلف: لمصانعة وجه واحد أيسر عليك من مصانعة وجوه كثيرة إنك إذا صانعت ذلك

الوجه الواحد كفاك الوجوه كلها وقال الشافعي رضي الله عنه: رضى الناس غاية لا تدرك فعليك بما فيه صلاح نفسك فالزمه ومعلوم: أنه لا صلاح للنفس إلا بإيثار رضى ربها ومولاها على غيره ولقد أحسن أبو فراس في هذا المعنى إلا أنه أساء كل الإساءة في قوله إذ يقوله لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعا ولا ضرا:

فليتك تحلو والحياة مريرة . . . وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر . . . وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين . . . وكل الذي فوق التراب تراب

ثم ذكر الشيخ رحمه الله ما يستطاع به هذا الإيثار العظيم الشأن فقال: ويستطاع هذا بثلاثة أشياء: بطيب العود وحسن الإسلام وقوة الصبر من المعلوم: أن المؤثر لرضى الله متصد لمعاداة الخلق وأذاهم وسعيهم في إتلافه ولابد هذه سنة الله في خلقه وإلا فما ذنب الأنبياء والرسل والذين يأمرون بالقسط من الناس والقائمين بدين الله الذابين عن كتابه وسنة رسوله عندهم

فمن آثر رضى الله فلابد أن يعاديه رذالة العالم وسقطهم وغرثاهم وجهالهم وأهل البدع والفجور منهم وأهل الرياسات الباطلة وكل من يخالف هديه هديه فما يقدم على معاداة هؤلاء إلا طالب الرجوع إلى الله عامل على سماع خطاب: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 27-28] ومن إسلامه صلب كامل لا تزعزعه الرجال ولا تقلقله الجبال ومن عقد عزيمة صبره محكم لا تحله المحن والشدائد والمخاوف

قلت: وملاك ذلك أمران: الزهد في الحياة والثناء فما ضعف من ضعف وتأخر من تأخر إلا بحبه للحياة والبقاء وثناء الناس عليه ونفرته من ذمهم له فإذا زهد في هذين الشيئين تأخرت عنه العوارض كلها وانغمس حينئذ في العساكر وملاك هذين الشيئين بشيئين: صحة اليقين وقوة المحبة وملاك هذين بشيئين أيضا: بصدق اللجإ والطلب والتصدي للأسباب الموصلة إليهما فإلى ههنا تنتهي معرفة الخلق وقدرتهم والتوفيق بعد بيد من أزمة الأمور كلها بيده ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ [الإنسان: 30-31]

فصل قال: الدرجة الثالثة: إيثار إيثار الله فإن الخوض في الإيثار

دعوى في الملك ثم ترك شهود رؤيتك إيثار الله ثم غيبتك عن الترك يعني بإيثار إيثار الله: أن تنسب إيثارك إلى الله دون نفسك وأنه هو الذي تفرد بالإيثار لا أنت فكأنك سلمت الإيثار

إليه فإذا آثرت غيرك بشيء فإن الذي آثره هو الحق لا أنت فهو المؤثر حقيقة إذ هو المعطي حقيقة

(276/755)

ثم بين الشيخ السبب الذي يصح به نسبة الإيثار إلى الله وترك نسبته إلى نفسك فقال: فإن الخوض في الإيثار: دعوى في الملك فإذا ادعى العبد: أنه مؤثر فقد ادعى ملك ما آثر به غيره والملك في الحقيقة: إنما هو لله الذي له كل شيء فإذا خرج العبد عن دعوى الملك فقد آثر إيثار الله وهو إعطاؤه على إيثار نفسه وشهد أن الله وحده هو المؤثر بملكه وأما من لا ملك له: فأي إيثار له وقوله: ثم ترك شهود رؤيتك إيثار الله يعني أنك إذا آثرت إيثار الله بتسليمك معنى الإيثار إليه: بقيت عليك من نفسك بقية أخرى لابد من الخروج عنها وهي أن تعرض عن شهودك رؤيتك أنك آثرت الحق بإيثارك وأنك نسبت الإيثار إليه لا إليك فإن في شهودك ذلك ورؤيتك له: دعوى أخرى هي أعظم من دعوى الملك وهي أنك ادعيت أن لك شيئا آثرت به الله وقدمته على نفسك فيه بعد أن كان لك وهذه الدعوى أصعب من الأولى فإنها تتضمن ما تضمنته الأولى من الملك وتزيد عليها برؤية الإيثار به فالأول: مدع للملك مؤثر به وهذا مدع للملك ومدع للإيثار به فإذن يجب عليه ترك شهود رؤيته لهذا الإيثار فلا يعتقد

أنه آثر الله بهذا الإيثار بل الله هو الذي استأثر به دونك فإن الأثرة واجبة له بإيجابه إياها بنفسه لا بإيجاب العبد إياها له قوله: ثم غيبتك عن الترك يريد: أنك إذا نزلت هذا الشهود وهذه الرؤية: بقيت عليك بقية أخرى وهي رؤيتك لهذا الترك المتضمنة لدعوى ملكك للترك وهي دعوى كاذبة إذ ليس للعبد شيء من الأمر ولا بيده فعل ولا ترك وإنما الأمر كله لله وقد تبين في الكشف والشهود والعلم والمعرفة: أن العبد ليس له شيء أصلا والعبد لا يملك حقيقة إنما المالك بالحقيقة سيده فالأثرة والإيثار والاستئثار كلها

لله ومنه وإليه سواء اختار العبد ذلك وعلمه أو جهله أم لم يختره فالأثرة واقعة كره العبد أم رضي فإنها استئثار المالك الحق بملكه تعالى وقد فهمت من هذا قوله: فإن الأثرة تحسن طوعا وتصح كرها والله سبحانه وتعالى أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مدارج السالكين جـ 2 صـ 291. 304 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّة الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والخمسون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السادس والخمسون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 11 ﴾ من (سورة الحشر)

وحتى الآية ﴿ 21 ﴾ من السورة

(4/756)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (12) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (13) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما دل على أن هذا الثناء للصادقين في الإيمان بإقامة السنة بالهجرة والإيثار والاجتهاد في الدعاء لمن تبين الإيمان فسهل به طريق الأمان ، فأخرج ذلك المنافقين وأفهم أنهم لا يفعلون

ذلك لأنهم لا رسوخ لهم في الإيمان الحامل على ذلك ، دل على نفاقهم الموجب لكذبهم بقوله متمماً للقصة مخاطباً لأعلى الخلق إشارة إلى أنه لا يطلع على نفاقهم لما لهم فيه من دقة المكر حق الاطلاع غيره. صلى الله عليه وسلم. معجباً من حالهم في عدم رسوخهم مع ما يرون من المعجزات والآيات البينات ويرون من حال المؤمنين من إسباغ الرحمة عليهم بتسهيل الأمور والنصرة على الجبابرة والإعراض عن الدنيا مع الإقبال على الآخرة والاجتهاد في الدين الذي هو وحده داع إلى الإيمان ومرقق للقلوب ومبين للحقائق غاية البيان : ﴿ ألم تر ﴾ أي تعلم علماً هو في قوة الجزم به كالمشاهد يا أعلى الخلق ، وبين بعدهم عن جنابه العالي ومنصبه الشريف الغالي بأداة الانتهاء فقال تعالى : ﴿ إلى الذين نافقوا ﴾ أي أظهروا غير ما أضمروا ، أظهروا الخير وبالغوا في إخفاء عقائدهم بالشر مبالغة من ساجل غيره ، وهم عبد الله بن أبي وأصحابه ، قالوا : والنفاق لفظ إسلامي لم تكن العرب تعرفه قبله ، وهو استعارة من فعل الضب في نافقائه وقاصعائه ، وصور حالهم بقوله : ﴿ يقولون لإخوانهم ﴾ أي من الموالاة بالضلالة.

(5/756)

ولما جمعهم في الكفر وإن افترقوا في المساترة والمجاهرة ، وصف المجاهرين بنوع مساترة توجب النفرة منهم وتقضي بهلاك من صادقهم فقال : ﴿ الذي كفروا ﴾ أي غطوا أنوار المعارف التي دلتهم على الحق ، وعينهم بما أبلغ في ذمهم من حيث إنهم ضلوا على علم فقال : ﴿ من أهل الكتاب ﴾ وهم بنو النضير هؤلاء ، وبكتهم بكذبهم فيما أكدوا الموعد به لأنه في حيز ما ينكر من جهة أنهم لا يقدرون على المجاهرة بكفرهم فكيف بالمبارزة بالخلاف لقومهم الأنصار والنبي . صلى الله عليه وسلم . فيهم في قولهم : ﴿ لئن أخرجتم ﴾ أي من مخرج ما من بلدهم الذي في المدينة الشريفة فخرجتم من غير أن تقاتلوا ﴿ لنخرجن معكم ﴾ فكان ما قضي به على إخوانهم من الإخراج فألاً وكل بمنطقهم .

ولما كان من المعلوم أن للمنافقين أقارب من أكابر المؤمنين ، وكان من المعلوم – أنهم يقومون عليهم في منعهم من القيام معهم نصيحة لهم وإحساناً إليهم ، وكان تجويز بني النضير موهناً لذلك ، قالوا مؤكدين للكون معهم : ﴿ ولا نطيع فيكم ﴾ أي في خذلانكم ، والمعنى أنه لو فرض أنه صار أحد في القرب منكم مثل قرب المظروف من الظرف ما أطعناه في التقصير فيما يسركم ﴿ أحداً ﴾ أي يسألنا خذلانكم من الرسول والمؤمنين ، وأكدوا بقولهم : ﴿ أبداً ﴾ أي ما دمنا نعيش ، وبمثل هذا العزم استحق الكافر الخلود الأبدي في العذاب .

ولما قدموا في معونتهم ما كان فألاً قاضياً عليهم ، أتبعوه قولهم : ﴿ وإن قوتلتم ﴾ أي من أي مقاتل كان فقاتلتم ولم تخرجوا ﴿ لننصرنكم ﴾ فالآية من الاحتباك : ذكر الإخراج أولاً

دليلاً على ضده ثانياً ، والقتال ثانياً دليلاً على حذف ضده أولاً ، ومعنى الآية أن النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى بني النضير : " اخرجوا من بلدي ولا تساكنوني ، قد هممتم بالغدر بن وقد أجلتكم عشراً ، فمن رئي بعد لك منكم ضربت عنقه " فأرسل إليهم ابن أبي بما تقدم .

(6/756)

ولما كان قولهم هذا كلاماً يقضي عليه سامعه بالصدق من حيث كونه مؤكداً مع كونه مبتدأ من غير سؤال فيه ، بين حاله سبحانه بقوله : ﴿ والله ﴾ أي يقولون ذلك والحال أن المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ يشهد ﴾ بما يعلم من بواطنهم في عالم الغيب .

ولما كان بعض من يسمع قولهم هذا ينكر أن لا يطابقه الواقع ، وكان إخلافهم فيه متحققاً في علم الله ، أطلق عليه ما لا يطلق إلا على ما كشف الواقع عن أنه غير مطابق ، فقال تشجيعاً للمؤمنين على قتالهم مؤكداً ﴿ إنهم ﴾ أي المنافقون ﴿ لكاذبون ﴾ وهذا من أعظم دلائل النبوة لأنه إخبار بمغيب بعيدة عن العادة بشهادة ما ظننتم أن يخرجوا فحققه الله عن قريب .

ولما كان الكذب في قولهم هذا كونه إخباراً بما لا يكون ، شرحه بقوله مؤكداً بأعظم من

تأكيدهم : ﴿ لئن أخرجوا ﴾ أي بنو النضير من أي مخرج كان ﴿ لا يخرجون ﴾ أي المنافقون ﴿ معهم ﴾ أي حمية لهم لأسباب يعلمها الله ﴿ ولئن قوتلوا ﴾ أي اليهود من أي مقاتل كان فكيف بأشجع الخلق وأعلمهم. صلى الله عليه وسلم. ﴿ لا ينصرونهم ﴾ أي المنافقون ولقد صدق الله وكذبوا في الأمرين معاً : القتال والإخراج ، لا نصروهم ولا خرجوا معهم ، فكان ذلك من أعلام النبوة ، وعلم به من كان شاكاً فضلاً عن الموقنين ، صدق الكلام على ما لم يكن ولا ليكون لو كان كيف كان يكون بصدق الكلام على ما لم يكن ويكون كيف يكون إذا كان في قوله تعالى : ﴿ ولئن نصروهم ﴾ أي المنافقون في وقت من الأوقات ﴿ ليولن ﴾ أي المنافقون ومن ينصرونه ، وحقرهم بقوله : ﴿ الأدبار ﴾ ولما كان من عادة العرب الكر بعد الفر ، بين أنهم لا كرة لهم بعد هذه الفرة وإن طال المدى فقال : ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ أي لا يتجدد لفريقيهم ولا لواحد منهما نصرة في وقت من الأوقات ، وقد صدق سبحانه لم يزل المنافقون واليهود في الذل ولا يزالون .

(7/756)

ولما كان ربما قيل : إن تركهم لنصرهم إنما هو لخوف الله أو غير ذلك مما يحسن وقعه ، علل بما ينفي ذلك ويظهر أن محط نظرهم المحسوسات كالبهائم فقال مؤكداً له لأجل أن أهل النفاق

ينكرون ذلك وكذا من قرب حاله منهم : ﴿ لأنتم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أشد رهبة ﴾ أي من جهة الرهبة وهو تمييز محول عن المبتدأ أي لرهبتكم الكائنة فيهم أشد وأعظم ﴿ في صدورهم ﴾ أي اليهود ومن ينصرهم مما أفاض إليها من قلوبهم ﴿ من الله ﴾ أي من رهبتهم التي يظهرونها لكم منه وإن ذكروه بكل صفة من صفاته فرهبتهم منكم بسبب لإظهارهم أنه يرهبون الله رياء لكم .

ولما كان هذا مما يتعجب منه المؤمن علله بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر الغريب وهو خوفهم الثابت اللازم من مخلوق مثلهم ضعيف يزينهم له وعدم خوفهم من الخالق على ما له من العظمة وذاته ولكونه غنياً عنهم ﴿ بأنهم قوم ﴾ أي على ما لهم من القوة ﴿ لا يفقهون ﴾ أي لا يتجدد لهم بسبب كفرهم واعتمادهم على مكرهم في وقت من الأوقات فهم يشرح صدورهم ليدركوا به أن الله هو الذي ينبغي إن يخشى لا غيره ، بل هم كالحيوانات لا نظر لهم إلى الغيب إنما هم مع المحسوسات ، والفقه هو العلم بمفهوم الكلام ظاهره الجلي وغامضه الخفي بسرعة فطنة وجودة قريحة .

ولما أخبر برهبتهم دل عليها بقوله : ﴿ لا يقاتلونكم ﴾ أي كل من الفريقين اليهود والمنافقين أو أحدهما .

ولما كان الشيء قد يطلق ويراد بعضه ، حقق الأمر بقوله : ﴿ جميعاً ﴾ أي قتالاً يقصدونه مجاهرة وهم مجتمعون كلهم في وقت من الأوقات ومكان من الأماكن ﴿ إلا في قرى

محصنة ﴾ أي ممنعة بحفظ الدروب وهي السكك الواسعة بالأبواب والخنادق ونحوها ﴿ أو من وراء جدر ﴾ أي محيط بهم سواء كان بقرية أو غيرها لشدة خوفهم، وقد أخرج بهذا ما حصل من بعضهم عن ضرورة كاليسير، ومن كان ينزل من أهل خيبر من الحصن يبارز ونحو ذلك، فإنه لم يكن عن اجتماع، أو يكون هذا خاصاً ببني النضير في هذه الكرة.

(8/756)

ولما كان ربما ظن أن هذا عن عجز منهم لازم لهم دفعه بقوه إعلاماً بأنه إنما هو من معجزات هذا الدين: ﴿ بأسهم ﴾ أي قوتهم ما فيهم من الصفات التي يتأثر عنها العذاب ﴿ بينهم شديد ﴾ أي إذا أداروا رأياً أو حارب بعضهم بعضاً فجرأ المؤمنين عليهم بأن ما ينظرونه من شدتهم وشجاعتهم إذا حاربوا المشركين لا ينكر عند محاربة المؤمنين كرامة أكرم الله بها المؤمنين تتضمن علماً من أعلام النبوة تقوية لإيمانهم وإعلاء لشأنهم.

ولما كانت علة الشدة الاجتماع، شرح حالتي الشدة والرهبة بقوله مخاطباً للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إشارة إلى شدة ما يظهرون من ألف بعضهم لبعض: ﴿ تحسبهم ﴾ أي اليهود والمنافقين يا أعلى الخلق ويا أيها الناظر من كان ذلك التعاطف الظاهر ﴿ جميعاً ﴾ لما هم

فيه من اجتماع الدفاع وعن ذلك نشأت الشدة ﴿ وقلوبهم شتى ﴾ أي مفترقة أشد افتراق ، وعن ذلك نشأت الرهبة ، وموجب هذا الشتات اختلاف الأهواء التي لا جامع لها من نظام العقل كالبهائم وإن اجتمعوا في عداوة أهل الحق كاجتماع البهائم في الهرب من الذئب ، قال القشيري : اجتماع النفوس مع تنافر القلوب واختلافها أصل كل فساد وموجب كل تخاذل ، ومقتض لتجاسر العدو ، واتفاق القلوب والاشتراك في الهمة والتساوي في القصد يوجب كل ظفر وكل سعادة .

ولما كان السبب الأعظم في الافتراق ضعف العقل ، قال معللاً : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر الغريب من الافتراق بعد الاتفاق الذي يخيل الاجتماع ﴿ بأنهم قوم ﴾ أي مع شدتهم ﴿ لا يعقلون ﴾ فلا دين لهم يجمعهم لعلمهم أنهم على الباطل فهم أسرى الأهوية ، والأهوية في غاية الاختلاف ، فالعقل مدار الاجتماع كما كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أن الهوى مدار الاختلاف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 528 . 532 ﴾

(9/756)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾

قال المقاتلان : يعني عبد الله بن أبي ، وعبد الله بن نبتل ، ورفاعة بن زيد ، كانوا من الأنصار ، ولكنهم نافقوا يقولون لإخوانهم ، وهذه الأخوة تحتمل وجوهاً أحدها : الأخوة في الكفر لأن اليهود والمنافقين كانوا مشتركين في عموم الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وثانيها : الأخوة بسبب المصادقة والموالاة والمعاونة وثالثها : الأخوة بسبب ما بينهما من المشاركة في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم قالوا لليهود : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ من المدينة ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ ﴾ أي في خذلانكم ﴿ أَحَداً أَبَداً ﴾ ووعدوهم النصر أيضاً بقولهم : ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ ثم إنه تعالى شهد على كونهم كاذبين في هذا القول فقال : ﴿ واللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

ولما شهد على كذبهم على سبيل الإجمال أتبعه بالتفصيل فقال :

لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (12)

واعلم أنه تعالى عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها ، فعلم الموجودات في الأزمنة الثلاثة ، والمعدومات في الأزمنة الثلاثة ، وعلم في كل واحد من هذه الوجوه الستة ، أنه لو كان على خلاف ما وقع كيف كان يكون على ذلك التقدير ، فههنا أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لئن أخرجوا فهؤلاء المنافقون لا يخرجون معهم ، وقد كان الأمر كذلك ، لأن بني النضير لما أخرجوا لم يخرج معهم المنافقين ، وقوتلوا أيضاً فما نصروهم ، فأما قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ فتقديره كما يقول المعترض الطاعن في كلام الغير : لا نسلم أن الأمر كما تقول ، ولئن سلمنا أن الأمر كما تقول ، لكنه لا يفيد لك فائدة ، فكذا ههنا ذكر تعالى أنهم لا ينصرونهم ، وبتقدير أن ينصروا إلا أنهم لا بد وأن يتركوا تلك النصرة وينهزموا ، ويتركوا أولئك المنصورين في أيدي الأعداء ، ونظير هذه الآية قوله : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ ، فأما قوله : ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ ففيه وجهان : الأول : أنه راجع إلى المنافقين يعني لينهزمن المنافقون : ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ بعد ذلك أي يهلكهم الله ، ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم والثاني : لينهزمن اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين .

ثم ذكر تعالى أن خوف المنافقين من المؤمنين أشد من خوفهم من الله تعالى فقال :

لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (13)

أي لا يعلمون عظمة الله حتى يخشوه حق خشيته .

لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (14)

(11/756)

ثم قال تعالى : ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ ﴾ يريد أن هؤلاء اليهود والمنافقين لا يقدرون على مقاتلتكم مجتمعين إلا إذا كانوا في قرى محصنة بالخنادق والدروب أو من وراء جدر ، وذلك بسبب أن الله ألقى في قلوبهم الرعب ، وأن تأييد الله ونصرته معكم ، وقرىء ﴿ جُدُرٍ ﴾ بالتخفيف وجدار وجدر وجدر وهما الجدار .

ثم قال تعالى : ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شتى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾ وفيه ثلاثة أوجه أحدها : يعني أن البأس الشديد الذي يوصفون به إنما يكون إذا كان بعضهم مع بعض ، فأما إذا قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة ، لأن الشجاع يجبن والعز يذل عند محاربة الله ورسوله وثانيها : قال مجاهد : المعنى أنهم إذا اجتمعوا يقولون : لنفعلن كذا وكذا ، فهم يهددون المؤمنين ببأس شديد من وراء الحيطان والحصون ، ثم

يحترزون عن الخروج للقتال فبأسهم فيما بينهم شديد ، لا فيما بينهم وبين المؤمنين وثالثها :

قال ابن عباس : معناه بعضهم عدو للبعض ، والدليل على صحة هذا التأويل قوله تعالى :

﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شتى ﴾ يعني تحسبهم في صورتهم مجتمعين على الألفة والمحبة

، أما قلوبهم فشتى ، لأن كل أحد منهم على مذهب آخر ، وبينهم عداوة شديدة ، وهذا

تشجيع للمؤمنين على قتالهم ، وقوله : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾ فيه وجهان : الأول :

أن ذلك بسبب أنهم قوم لا يعقلون ما فيه الحظ لهم والثاني : لا يعقلون أن تشتيت القلوب مما

يوهن قواهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 251.252 ﴾

(12/756)

وقال القرطبى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾

تعجُّبٌ من اغترار اليهود بما وعدهم المنافقون من النصر مع علمهم بأنهم لا يعتقدون ديناً

ولا كتاباً .

ومن جملة المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سَلُول ، وعبد الله بن نَبْتَل ، ورفاعة بن زيد .

وقيل : رافعة بن تابوت ، وأَوْس بن قَيْظِيّ ، كانوا من الأنصار ولكنهم نافقوا ، وقالوا ليهود

قُريظة والنَّضير .

﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ .

وقيل : هو من قول بني النَّضير لقُرَيْظة .

وقوله : ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً ﴾ يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ لا نطيعه في قتالكم .

وفي هذا دليل على صحة نُبُوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم من جهة علم الغيب ؛ لأنهم أخرجوا فلم يخرجوا ، وقوتلوا فلم ينصروهم ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي في قولهم وفعلهم .

قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدبار ﴾ أي منهزمين .

﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ قيل : معنى ﴿ لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ طائعين .

﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ مكرهين ﴿ لَيُوَلُّنَّ الأَدبار ﴾ .

وقيل : معنى ﴿ لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ لا يدومون على نصرهم .

هذا على أن الضميرين متفقان .

وقيل : إنهما مختلفان ؛ والمعنى لئن أخرج اليهود لا يخرج معهم المنافقون ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم .

﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ أي ولئن نصر اليهود المنافقين ﴿ لَيُوَلُّنَّ الأدبار ﴾ .

وقيل : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ﴾ أي علم الله منهم أنهم لا يخرجون إن أخرجوا .

﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ ﴾ أي علم الله منهم ذلك .

(13/756)

ثم قال : ﴿ لَيُوَلُّنَّ الأدبار ﴾ فأخبر عما قد أخبر أنه لا يكون كيف كان يكون لو كان ؟

وهو كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 28] .

وقيل : معنى ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ أي ولئن شئنا أن ينصروهم زيّنا ذلك لهم .

﴿ لَيُوَلُّنَّ الأدبار ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لأَنتُمْ ﴾ يا معشر المسلمين ﴿ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ أي خوفاً وخشية ﴿ فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللهِ ﴾ يعني صدور بني النَّضير .

وقيل : في صدور المنافقين .

ويحتمل أن يرجع إلى الفريقين ؛ أي يخافون منكم أكثر مما يخافون من ربهم ذلك الخوف .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ أي لا يفقهون قدر عظمة الله وقدرته .

قوله تعالى: ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً ﴾ يعني اليهود ﴿ إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ أي بالحيطان والدُّور؛ يظنون أنها تمنعهم منكم.

﴿ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾ أي من خلف حيطان يستترون بها لجُبْنهم ورَهْبَتِهم.

وقراءة العامة "جُدُرٍ" على الجمع، وهو اختيار أبي عبيدة وأبي حاتم؛ لأنها نظير قوله تعالى: ﴿ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ وذلك جمع.

وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن كثير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو "جِدَارٍ" على التوحيد؛ لأن التوحيد يؤدى عن الجمع.

وروي عن بعض المكّيين "جَدْر" (بفتح الجيم وإسكان الدال)؛ وهي لغة في الجدار.

ويجوز أن يكون معناه من وراء نخيلهم وشجرهم؛ يقال: أجْدَرَ النخل إذا طلعت رؤوسه في أوّل الربيع.

والجِدْر: نبتٌ واحدته جِدْرة.

وقُرِىء "جُدْر" (بضم الجيم وإسكان الدال) جمع الجدار.

ويجوز أن تكون الألف في الواحد كألف كِتاب، وفي الجمع كألف ظِراف.

ومثله ناقة هِجَانٌ ونُوقٌ هجان؛ لأنك تقول في التثنية: هجانان؛ فصار لفظ الواحد والجمع مشتبهين في اللفظ مختلفين في المعنى؛ قاله ابن جِنيّ.

قوله تعالى: ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ يعني عداوة بعضهم لبعض.

وقال مجاهد : ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أي بالكلام والوعيد لنفعلن كذا .

وقال السدّي : المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد .

وقيل : ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أي إذا لم يلقَوْا عدوّاً نسبوا أنفسهم إلى الشدة والبأس ، ولكن إذا لَقُوا العدوّ انهزموا .

﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ يعني اليهود والمنافقين ؛ قاله مجاهد .

وعنه أيضاً يعني المنافقين .

الثورِيّ : هم المشركون وأهل الكتاب .

وقال قتادة : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً ﴾ أي مجتمعين على أمر ورأي .

﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ متفرّقة .

فأهل الباطل مختلفة آراؤهم ، مختلفة شهادتهم ، مختلفة أهواؤهم ؛ وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق .

وعن مجاهد أيضاً : أراد أن دين المنافقين مخالف لدين اليهود ؛ وهذا ليقوّي أنفس المؤمنين عليهم .

وقال الشاعر :

إلى الله أشكو نِيّة شَقّت العَصَا . . .

هي اليوم شَتَّى وهي أمس جُمَّعُ

وفي قراءة ابن مسعود "وقلوبهم أشَتّ" يعني أشدّ تشتيتاً ؛ أي أشدّ اختلافاً .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ أي ذلك التشتيت والكفر بأنهم لا عقل لهم يعقلون به أمر الله . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(15/756)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾

﴿ للفقراء ﴾ ، قال الزمخشري : بدل من قوله : ﴿ ولذي القربى ﴾ ، والمعطوف عليه والذي منع الإبدال من ﴿ لله وللرسول ﴾ ، والمعطوف عليهما ، وإن كان المعنى لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، أن الله عز وجل أخرج رسوله من الفقراء في قوله : ﴿ وينصرون الله ورسوله ﴾ ، وأنه يترفع برسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن التسمية

بالفقير ، وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عز وعلا .

انتهى .

وإنما جعله الزمخشري بدلاً من قوله : ﴿ ولذي القربى ﴾ ، لأنه مذهب أبي حنيفة ، والمعنى إنما يستحق ذو القربى الفقير .

فالفقر شرط فيه على مذهب أبي حنيفة ، ففسره الزمخشري على مذهبه .

وأما الشافعي ، فيرى أن سبب الاستحقاق هو القرابة ، فيأخذ ذو القربى الغني لقرابته .

وقال ابن عطية : ﴿ للفقراء المهاجرين ﴾ بيان لقوله : ﴿ والمساكين وابن السبيل ﴾ ، وكررت لام الجر لما كانت الأولى مجرورة باللام ، ليبين بين الأغنياء منكم ، أي ولكن يكون للفقراء . انتهى .

ثم وصف تعالى المهاجرين بما يقتضي فقرهم ويوجب الإشفاق عليهم .

﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ : أي في إيمانهم وجهادهم قولاً وفعلاً .

والظاهر أن قوله : ﴿ والذين تبوؤا ﴾ معطوف على المهاجرين ، وهم الأنصار ، فيكون قد وقع بينهم الاشتراك فيما يقسم من الأموال .

وقيل : هو مستأنف مرفوع بالابتداء ، والخبر ﴿ يحبون ﴾ .

أثنى الله تعالى بهذه الخصال الجليلة ، كما أثنى على المهاجرين بقوله : ﴿ يبتغون فضلاً ﴾ الخ ، والإيمان معطوف على الدار ، وهي المدينة ، والإيمان ليس مكاناً فيتبوأ .

فقيل : هو من عطف الجمل ، أي واعتقدوا الإيمان وأخلصوا فيه ، قاله أبو عليّ ، فيكون كقوله :

علفتها تبناً وماء بارداً . . .

(16/756)

أو يكون ضمن ﴿ تبوؤا ﴾ معنى لزموا ، واللزوم قدر مشترك في الدار والإيمان ، فيصح العطف .

أو لما كان الإيمان قد شملهم ، صار كالمكان الذي يقيمون فيه ، لكن يكون ذلك جمعاً بين الحقيقة والمجاز .

قال الزمخشري : أو أراد دار الهجرة ودار الإيمان ، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه ، وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه ؛ أو سمى المدينة ، لأنها دار الهجرة ومكان ظهور الإيمان بالإيمان .

وقال ابن عطية : والمعنى تبوؤا الدار مع الإيمان معاً ، وبهذا الاقتران يصح معنى قوله : ﴿ من قبلهم ﴾ فتأمله . انتهى .

ومعنى ﴿ من قبلهم ﴾ : من قبل هجرتهم ، ﴿ حاجة ﴾ : أي حسداً ، ﴿ مما أوتوا

﴾ : أي مما أعطي المهاجرون ، ونعم الحاجة ما فعله الرسول (صلى الله عليه وسلم) في إعطاء المهاجرين من أموال بني النضير والقرى .

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ﴾ : من ذلك قصة الأنصاري مع ضيف الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، حيث لم يكن لهم إلا ما يأكل الصبية ، فأوهمهم أنه يأكل حتى أكل الضيف ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : " عجب الله من فعلكما البارحة " ، فالآية مشيرة إلى ذلك .

وروي غير ذلك في إيثارهم .

والخصاصة : الفاقة ، مأخوذة من خصاص البيت ، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفرج : والفتوح ، فكأن حال الفقير هي كذلك ، يتخللها النقص والاحتياج .

وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة : شح بكسر الشين .

والجمهور : بإسكان الواو وتخفيف القاف وضم الشين ، والشح : اللؤم ، وهو كزازة النفس على ما عندها ، والحرص على المنع .

قال الشاعر :

يمارس نفساً بين جنبيه كزة . . .

إذا همّ بالمعروف قالت له مهلاً

وأضيف الشح إلى النفس لأنه غريزة فيها .

وقال تعالى : ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ وفي الحديث : " من أدّى الزكاة المفروضة وقرى الضيف وأعطى في النائبة فقد برىء من الشح " ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ : الظاهر أنه معطوف على ما قبله من المعطوف على المهاجرين .

(17/756)

فقال الفراء : هم الفرقة الثالثة من الصحابة ، وهو من آمن أو كفر في آخر مدّة النبي (صلى الله عليه وسلم) .

وقال الجمهور : أراد من يجيء من التابعين ، فعلى القول الأول : يكون معنى ﴿ من بعدهم ﴾ : أي من بعد المهاجرين والأنصار السابقين بالإيمان ، وهؤلاء تأخر إيمانهم ، أو سبق إيمانه وتأخرت وفاته حتى انقرض معظم المهاجرين والأنصار .

وعلى القول الثاني : يكون معنى ﴿ من بعدهم ﴾ : أي من بعد ممات المهاجرين ، مهاجريهم وأنصارهم .

وإذا كان ﴿ والذين ﴾ معطوفاً على المجرور قبله ، فالظاهر أنهم مشاركو من تقدّم في حكم الفيء .

وقال مالك بن أوس : قرأ عمر ﴿ إنما الصدقات للفقراء ﴾ الآية ، فقال : هذه لهؤلاء ، ثم

قرأ : ﴿ واعلموا أنما غنمتم ﴾ فقال : وهذه لهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿ ما أفاء الله على رسوله ﴾ حتى بلغ ﴿ للفقراء المهاجرين ﴾ إلى ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ .

ثم قال : لئن عشت لنؤتين الراعي ، وهو يسير نصيبه منها .

وعنه أيضاً : أنه استشار المهاجرين والأنصار فيما فتح الله عليه من ذلك في كلام كثير آخره أنه تلا : ﴿ ما أفاء الله على رسوله ﴾ الآية ، فلما بلغ ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ قال : هي لهؤلاء فقط ، وتلا : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ الآية ، إلى قوله : ﴿ رءوف رحيم ﴾ ؛ ثم قال : ما بقي أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل في ذلك .

وقال عمر رضي الله تعالى عنه : لولا من يأتي من آخر الناس ما فتحت قرية إلا قسمتها ، كما قسم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خيبر .

وقيل : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ مقطوع مما قبله ، معطوف عطف الجمل ، لا عطف المفردات ؛ فإعرابه : ﴿ والذين ﴾ مبتدأ ، ندبوا بالدعاء للأولين ، والثناء عليهم ، وهم من يجيء بعد الصحابة إلى يوم القيامة ، والخبر ﴿ يقولون ﴾ ، أخبر تعالى عنهم بأنهم لإيمانهم ومحبة أسلافهم ﴿ يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا ﴾ ، وعلى القول الأول يكون ﴿ يقولون ﴾ استئناف إخبار ، قيل : أو حال .

﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا ﴾ الآية : نزلت في عبد الله بن أبيّ ، ورفاعة بن التابوت ، وقوم من منافقي الأنصار ، كانوا بعثوا إلى بني النضير بما تضمنته الجمل المحكية بقوله : ﴿ يقولون ﴾ ، واللام في ﴿ لإخوانهم ﴾ للتبليغ ، والإخوة بينهم إخوة الكفر وموالاتهم ، ﴿ ولا نطيع فيكم ﴾ : أي في قتالكم ، ﴿ أحداً ﴾ : من الرسول والمؤمنين ؛ أو ﴿ لا نطيع فيكم ﴾ : أي في خذلانكم وإخلاف ما وعدناكم من النصرة ، و ﴿ لننصرنكم ﴾ : جواب قسم محذوف قبل أن الشرطية ، وجواب أن محذوف ، والكثير في كلام العرب إثبات اللام المؤذنة بالقسم قبل أداة الشرط ، ومن حذفها قوله :

﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين ﴾ التقدير : ولئن لم ينتهوا لكاذبون ، أي في مواعيدهم لليهود ، وفي ذلك دليل على صحة النبوة لأنه إخبار بالغيب ، ولذلك لم يخرجوا حين أخرج بنو النضير ، بل أقاموا في ديارهم ، وهذا إذا كان قوله : ﴿ لإخوانهم ﴾ أنهم بنو النضير .

وقيل : هم يهود المدينة ، والضمائر على هذين القولين .

وقيل : فيها اختلاف ، أي لئن أخرج اليهود لا يخرج المنافقون ، ولئن قوتل اليهود لا ينصرهم المنافقون ، ولئن نصر اليهود المنافقين ليولي اليهود الأدبار ، وكأن صاحب هذا القول نظر إلى قوله : ﴿ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴾ ، فقد أخبر أنهم لا ينصرونهم ، فكيف يأتي ﴿

ولئن نصروهم ﴾ ؟ فأخرجه في حيز الإمكان ، وقد أخبر أنهم لا ينصرونهم ، فلا يمكن نصرهم إياهم بعد إخباره تعالى أنه لا يقع .

وإذا كانت الضمائر متفقة ، فقال الزمخشري : معناه ولئن نصروهم على الفرض ، والتقدير كقوله : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ وكما يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون .

وقال ابن عطية : معناه : ولئن خالفوا ذلك فإنهم ينهزمون . انتهى .

والظاهر أن الضمير في ﴿ ليولن الأدبار ﴾ ، وفي ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ عائد على المفروض أنهم ينصرونهم ، أي ولئن نصرهم المنافقون ليولن المنافقون الأدبار ، ثم لا ينصر المنافقون .

وقيل : الضمير في التولي عائد على اليهود ، وكذا في ﴿ لا ينصرون ﴾ .

قال ابن عطية : وجاءت الأفعال غير مجزومة في قوله : ﴿ لا يخرجون ﴾ و﴿ لا ينصرون ﴾ لأنها راجعة على حكم القسم ، لا على حكم الشرط ، وفي هذا نظر . انتهى .

وأي نظر في هذا ؟ وهذا جاء على القاعدة المتفق عليها من أنه إذا تقدم القسم على الشرط كان الجواب للقسم وحذف جواب الشرط ، وكان فعله بصيغة المضي ، أو مجزوماً

بلم ، وله شرط ، وهو أن لا يتقدمه طالب خبر .

واللام في ﴿ لئن ﴾ مؤذنة بقسم محذوف قبله ، فالجواب له .

وقد أجاز الفراء أن يجاب الشرط ، وأن تقدم القسم ، ورده عليه البصريون .

ثم خاطب المؤمنين بأن هؤلاء يخافونكم أشد خيفة من الله تعالى ، لأنهم يتوقعون عاجل شركم ، ولعدم إيمانهم لا يتوقعون أجل عذاب الله ، وذلك لقلة فهمهم ، ورهبة : مصدر رهب المبني للمفعول ، كأنه قيل : أشد مرهوبية ، فالرهبة واقعة منهم لا من المخاطبين ، والمخاطبون مرهوبون ، وهذا كما قال :

فلهو أخوف عندي إذ أكلمه . . .

وقيل إنك مأسور ومقتول

من ضيغم بثراء الأرض مخدره . . .

ببطن عثر غيل دونه غيل

فالمخبر عنه مخوف لا خائف ، والضمير في ﴿ صدورهم ﴾ .

قيل : لليهود ، وقيل : للمنافقين ، وقيل : للفريقين .

وجعل المصدر مقراً للرهبة دليل على تمكنها منهم بحيث صارت الصدور مقراً لها ،

والمعنى : رهبتهم منكم أشد من رهبتهم من الله عز وجل .

﴿ لا يقاتلونكم ﴾ : أي بنو النضير وجميع اليهود .

وقيل : اليهود والمنافقون ﴿ جميعاً ﴾ : أي مجتمعين متساندين يعضد بعضهم بعضاً ، ﴿ إلا في قرى محصنة ﴾ : لا في الصحراء لخوفهم منكم ، وتحصينها بالدروب والخنادق ، أو من وراء جدار يتسترون به من أن تصيبوهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ جدر ﴾ بضمتين ، جمع جدار ؛ وأبو رجاء والحسن وابن وثاب : بإسكان الدال تخفيفاً ، ورويت عن ابن كثير وعاصم والأعمش .

وقرأ أبو عمرو وابن كثير وكثير من المكيين : جدار بالألف وكسر الجيم .

(20/756)

وقرأ كثير من المكيين ، وهارون عن ابن كثير : جدر بفتح الجيم وسكون الدال .

قال صاحب اللوامح : وهو واخذ بلغة اليمن .

وقال ابن عطية : ومعناه أصل بنيان كالسور ونحوه .

قال : ويحتمل أن يكون من جدر النخل ، أي من وراء نخلهم ، إذ هي مما يتقى به عند المصافة .

﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ : أي إذا اقتتلوا بعضهم مع بعض .

كان بأسهم شديداً ؛ أما إذا قاتلوكم ، فلا يبقى لهم بأس ، لأن من حارب أولياء الله خذل .

﴿ تحسبهم جميعاً ﴾ : أي مجتمعين ، ذوي ألفة واتحاد .

﴿ وقلوبهم شتى ﴾ : أي وأهواؤهم متفرقة ، وكذا حال المخذولين ، لا تستقر أهواؤهم على شيء واحد ، وموجب ذلك الشتات هو انتفاء عقولهم ، فهم كالبهائم لا تتفق على حالة .

وقرأ الجمهور : ﴿ شتى ﴾ بألف التأنيث ؛ ومبشر بن عبيد : منوناً ، جعلها ألف الإلحاق ؛ وعبد الله : وقلوبهم أشت : أي أشد تفرقاً ، ومن كلام العرب : شتى تؤوب الحلبة .

قال الشاعر :

إلى الله أشكوا فتية شقت العصا . . .

هي اليوم شتى وهي أمس جميع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(21/756)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نافقوا ﴾

حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة وتعجيب منها بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين على اختلاف طبقاتهم .

والخطاب لرسول الله عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب ، والآية كما

أخرج ابن إسحق .

وابن المنذر .

وأبو نعيم عن ابن عباس نزلت في رهط من بني عوف منهم عبد الله بن أبي سلول .

ووديعة بن مالك .

وسويد .

وداعس بعثوا إلى بني النضير بما تضمنته الجمل المحكية بقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ ﴾ الخ .

وقال السدي : أسلم ناس من بني قريظة .

والنضير وكان فيهم منافقون فبعثوا إلى بني النضير ما قص الله تعالى ، والمعول عليه الأول ،

وقوله سبحانه : ﴿ يَقُولُونَ ﴾ استئناف لبيان المتعجب منه ، وصيغة المضارع للدلالة

على استمرار قولهم ، أو لاستحضار صورته ، واللام في قوله عز وجل :

﴿ لِإِخْوَانِهِمُ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾ للتبليغ ؛ والمراد بإخوتهم الأخوة في الدين

واعتقاد الكفرة أو الصداقة ، وكثر جمع الأخ مراداً به ما ذكر على إخوان ، ومراداً به الأخوة

في النسب على إخوة ، وقل خلاف ذلك ، واللام في قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ موطئة للقسم ؛ وقوله سبحانه : ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ جواب القسم أي والله لئن أخرجتم من دياركم قسراً لنخرجن من ديارنا معكم البتة ونذهبن في صحبتكم أينما ذهبتم ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ ﴾ في شأنكم ﴿ أَحَدًا ﴾ يمنعنا من الخروج معكم وهو لدفع أن يكونوا وعدوهم الخروج بشرط أن يمنعوا منه ﴿ أَبَدًا ﴾ وإن طال الزمان ، وقيل : لا نطيع في قتالكم أو خذلانكم ، قال في "الإرشاد" : وليس بذاك لأن تقدير القتال مترقب بعد ، ولأن وعدهم لهم على ذلك التقدير ليس مجرد عدم طاعتهم لمن يدعوهم إلى قتالهم بل نصرتهم عليه كما ينطق به قوله تعالى : ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ أي لنعاوننكم على عدوكم على أن دعوتهم إلى خذلان اليهود مما لا يمكن صدوره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حتى يدعوا عدم طاعتهم فيها ضرورة أنها لو كانت لكانت عند استعدادهم لنصرتهم وإظهار كفرهم ، ولا ريب في أن ما يفعله عليه الصلاة والسلام عند ذلك قتلهم لا دعوتهم إلى ترك نصرتهم ، وأما الخروج معهم فليس بهذه المرتبة من إظهار الكفر لجواز أن يدّعوا أن خروجهم معهم لما بينهم من الصداقة الدنيوية لا للموافقة في الدين ، ونوقش في ذلك ، وجواب ﴿ إن ﴾ محذوف ، و ﴿ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ جواب قسم محذوف قبل ﴿ إن ﴾ الشرطية ، وكذا يقال فيما بعد على ما هو القاعدة المشهورة فيما إذا تقدم القسم على الشرط ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في مواعيدهم المؤكدة بالأيمان ، وقوله تعالى :

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ﴾ إلى آخره تكذيب لهم في كل واحد من أقوالهم على التفصيل بعد تكذيبهم في الكل على الإجمال ﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ ﴾ وكان الأمر كذلك ، والإخبار عن خلفهم في الميعاد قيل : من الإخبار بالغيب وهو من أدلة النبوة وأحد وجوه الإعجاز ، وهذا مبني على أن السورة نزلت قبل وقعة بني النضير ، وكلام أهل الحديث .

والسير على ما قيل : يدل على خلافه .

وقال بعض الأجلة : إن قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ [الحشر : 11] الخ من باب الإخبار بالغيب بناءاً على ما روي أن عبد الله بن أبيّ دس إليهم لا يخرجوا فأطلع الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام على ما دسه ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ على سبيل الفرض والتقدير ﴿ لَيُوَلُّنَّ ﴾ أي المنافقون ﴿ الادبار ﴾ فراراً ﴿ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ بعد ذلك أي يهلكهم الله تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم ، أو ﴿ لَيُوَلُّنَّ ﴾ أي اليهود المفروضة نصرة المنافقين إياهم ولينهزمن ، ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين ، وقيل : الضمير المرفوع في ﴿ نَّصَرُوهُمْ ﴾ لليهود ، والمنصوب للمنافقين أي ولئن نصر اليهود المنافقين ليولي اليهود الأدبار

وليس بشيء ، وكأنه دعا قائله إليه دفع ما يتوهم من المنافاة بين ﴿ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ على الوجه السابق ، وقد أشرنا إلى دفع ذلك من غير حاجة إلى هذا التوجيه الذي لا يخفى حاله .

(24/756)

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ أي أشدّ مرهوبية على أن ﴿ رَهْبَةً ﴾ مصدر من المبني للمفعول لأن المخاطبين وهم المؤمنون مرهوب منهم لا راهبون ﴿ فِى صُدُورِهِمْ مّنَ اللهِ ﴾ أي رهبتهم منكم في السر أشد مما يظهرونه لكم من رهبة الله عز وجل وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من الله عز وجل ، ويجوز أن يراد أنهم يخافونكم في صدورهم أشد من خوفهم من الله تعالى ولشدة البأس والتشجع ما كانوا يظهرون ذلك ، قيل : إن ﴿ فِى صُدُورِهِمْ ﴾ على الوجه الأول مبالغة وتصوير على نحو رأيته بعيني ﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر من كونكم أشد رهبة في صدورهم من الله تعالى ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ شيئاً حتى يعلموا عظمة الله عز وجل فيخشوه حق خشيته سبحانه وتعالى ، والمراد بهؤلاء اليهود ، وقيل : المنافقون ؛ وقيل : الفريقان .

﴿ لا يقاتلونكم ﴾ أي اليهود والمنافقون ، وقيل : اليهود يعني لا يقدرون على قتالكم ﴿

جَمِيعاً ﴾ أي مجتمعين متفقين في موطن من المواطن ﴿ إِلاَّ فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ بالدروب والخنادق ونحوها ﴿ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ ﴾ يتسترون بها دون أن يصحروا لكم ويبارزوكم لقذف الله تعالى الرعب في قلوبهم ومزيد رهبتهم منكم .

وقرأ أبو رجاء .

والحسن .

وابن وثاب ﴿ جُدُرٍ ﴾ بإسكان الدال تخفيفاً ، ورويت عن ابن كثير .

وعاصم .

والأعمش ، وقرأ أبو عمرو .

وابن كثير في الرواية المشهورة .

وكثير من المكيين جدار بكسر الجيم وألف بعد الدال وهي مفرد الجدر ، والقصد فيه إلى الجنس ، أو المراد به السور الجامع للجدر والحيطان .

وقرأ جمع من المكيين .

وهارون عن ابن كثير ﴿ جُدُرٍ ﴾ بفتح الجيم وسكون الدال، قال صاحب اللوامح: وهو الجدار بلغة اليمن، وقال ابن عطية: معناه أصل بنيان كسور وغيره، ثم قال: ويحتمل أن يكون من جدر النخل أي من وراء نخلهم إذ هي مما يتقى به عند المصافة ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ استئناف سيق لبيان أن ما ذكر من رهبتهم ليس لضعفهم وجبنهم في أنفسهم فإن بأسهم إذا اقتتلوا شديد وإنما ضعفهم وجبنهم بالنسبة إليكم بما قذف الله تعالى في قلوبهم من الرعب ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً ﴾ أي مجتمعين ذوي ألفة واتحاد ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ جمع شتيت أي متفرقة لا ألفة بينها يعني أن بينهم إحناً وعدوات فلا يتعاضدون حق التعاضد ولا يرمون عن قوس واحدة، وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم.

وقرأ مبشر بن عبيد ﴿ شتى ﴾ بالتنوين جعل الألف ألف الإلحاق، وعبد الله وقلوبهم أشت أي أكثر أو أشد تفرقاً ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي ما ذكر من تشتت قلوبهم بسبب أنهم ﴿ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ شيئاً حتى يعلموا طرق الألفة وأسباب الاتفاق، وقيل: ﴿ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أن تشتت القلوب مما يوهن قواهم المركوزة فيهم بحسب الخلقة ويعين على تدميرهم واضمحلالهم وليس بذاك. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾

أعقب ذكر ما حلّ ببني النضير وما اتصل به من بيان أسبابه ، ثم بيانِ مصارف فيْئهم وفَيْء ما يُفتح من القرى بعد ذلك ، بذكر أحوال المنافقين مع بني النضير وتغريرهم بالوعود الكاذبة ليعلم المسلمون أن النفاق سجية في أولئك لا يتخلون عنه ولو في جانب قوم هم الذين يودُّون أن يظهروا على المسلمين .

والجملة استئناف ابتدائي والاستفهام مستعمل في التعجيب من حال المنافقين فبني على نفي العلم بحالهم كناية عن التحريض على إيقاع هذا العلم كأنه يقول : تأمّل الذين نافقوا في حال مقالتهم لإخوانهم ولا تترك النظر في ذلك فإنه حال عجيب ، وقد تقدم تفصيل معنى : ﴿ ألم تر ﴾ إلى كذا عند قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم ﴾ في سورة [البقرة : 243] .

وجملة يقولون ﴾ في موضع المفعول الثاني .

والتقدير : ألم ترَهم قائلين .

وجيء بالفعل المضارع لقصد تكرر ذلك منهم ، أي يقولون ذلك مؤكّدينه ومكرِّرينه لا على سبيل البداء أو الخاطر المعدول عنه .

و﴿ الذين نافقوا ﴾ المخبر عنهم هنا هم فريق من بني عوف من الخزرج من المنافقين سمي منهم عبد الله بنُ أُبيّ ابنُ سلول، وعبد الله بن نبتَل، ورفاعة بن زيد، ورافعة بن تابوت، وأوس بن قيظي، ووديعة بن أبي قوتل، أو ابن قوقل، وسويد (لم يُنسب) وداعس (لم ينسب)، بَعثوا إلى بني النضير حين حاصر جيش المسلمين بني النضير يقولون لهم: اثبتوا في معاقلكم فإنَّا معكم.

والمراد بإخوانهم بنو النضير وإنما وصفهم بالإِخوة لهم لأنهم كانوا متّحدين في الكفر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وليست هذه أخوة النسب فإن بني النضير من اليهود، والمنافقين الذين بَعثوا إليهم من بني عوف من عرب المدينة وأصلهم من الأزد.

(27/756)

وفي وصف إخوانهم بـ﴿ الذين كفروا ﴾ إيماء إلى أن جانب الأخوة بينهم هو الكفر إلا أن كفر المنافقين كفرُ الشرك وكفر إخوانهم كفر أهل الكتاب وهو الكفر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم

ولام ﴿ لئن أخرجتم ﴾ موطئة للقسم، أي قالوا لهم كلاماً مؤكداً بالقسم.

وإنما وعدوهم بالخروج معهم ليطمئنُّوا لنصرتهم فهو كناية عن النصر وإلاَّ فإنهم لا يرضون

أن يفارقوا بلادهم .

وجملة ﴿ ولا نطيع فيكم أحداً ﴾ معطوفة على جملة ﴿ لئن أخرجتم ﴾ فهي من المقول لا من المقسَم عليه ، وقد أُعريت عن المؤكد لأن بني النضير يعلمون أن المنافقين لا يطيعون الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين فكان المنافقون في غنية عن تحقيق هذا الخبر .

ومعنى ﴿ فيكم ﴾ في شأنكم ، ويعرف هذا بقرينة المقام ، أي في ضركم إذ لا يخطر بالبال أنهم لا يطيعُون من يَدعوهم إلى موالاة إخوانهم ، ويقدر المضاف في مثل هذا بما يناسب المقام .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، ﴾ [المائدة : 52] أي في الموالاة لهم .

ومعنى ﴿ لننصرنكم ﴾ لنعيننكم في القتال .

والنصر يطلق على الإِعانة على المعادي .

وقد أعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأنهم كاذبون في ذلك بعد ما أعلمه بما أقسموا عليه تطميناً لخاطره لأن الآية نزلت بعد إجْلاء بني النضير وقبل غزو قريظة لئلا يتوجس الرسول صلى الله عليه وسلم خِيفة من بأس المنافقين ، وسمى الله الخبر شهادة لأنه خبر عن يقين بمنزلة الشهادة التي لا يتجازف المخبر في شأنها .

لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا

يُنْصَرُونَ (12)

بيان لجملة ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ [الحشر : 11] .

واللام موطئة للقسم وهذا تأكيد من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أنهم لن يضرّوه شيئاً لكيلا يعبأ بما بلغه من مقالتهم .

(28/756)

وضمير ﴿ أخرجوا ﴾ و ﴿ قوتلوا ﴾ عائدان إلى ﴿ الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ [الحشر : 11] ، أي الذين لم يخرجوا ولما يقاتلوا وهم قريظة وخيبر ، أما بنو النضير فقد أُخْرِجُوا قبل نزول هذه السورة فهم غير معنيين بهذا الخبر المستقبل .

والمعنى : لئن أخرج بقية اليهود في المستقبل لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا في المستقبل لا ينصرونهم .

وقد سلك في هذا البيان طريق الإِطناب .

فإن قوله : ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ [الحشر : 11] جمع ما في هاتين الجملتين فجاء بيانه بطريقة الإِطناب لزيادة تقرير كذبهم .

﴿ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الادبار ثُمَّ لاَ ﴾ .

ارتقاء في تكذيبهم على ما وعدوا به إخوانهم، والواو واو الحال وليست واو العطف.

وفعل نصروهم إرادة وقوع الفعل بقرينة قوله: ﴿ ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ فيكون إطلاق الفعل على إرادته مثل قوله تعالى: ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم الآية ﴾ [المائدة: 6] وقوله: ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ [النحل: 98].

وقوله تعالى: ﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ﴾ [البقرة: 226]، أي يريدون العود إلى ما امتنعوا منه بالإِيلاء.

والمعنى: أنه لو فرض أنهم أرادوا نصرهم فإن أمثالهم لا يترقب منهم الثبات في الوغَى فلو أرادوا نصرهم وتجهّزوا معهم لفرّوا عند الكريهة وهذا كقوله تعالى: ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم ﴾ [التوبة: 47].

ويجوز أن يكون أطلق النصر على الإِعانة بالرجال والعتاد وهو من معاني النصر.

و﴿ ثمّ ﴾ في قوله: ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ للتراخي الرتبي كما هو شأنها في عطف الجمل فإن انتفاء النصر أعظم رتبة في تأييس أهل الكتاب من الانتفاع بإعانة المنافقين فهو أقوى من انهزام المنافقين إذا جاؤوا لإِعانة أهل الكتاب في القتال.

والنصر هنا بمعنى: الغلب.

وضمير ﴿ لا ينصرون ﴾ عائد إلى الذين كفروا من أهل الكتاب إذ الكلام جارٍ على وعد المنافقين بنصر أهل الكتاب .

والمقصود تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين وتأمينهم من بأس أعدائهم .

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (13)

لما كان المقصود من ذكر وهن المنافقين في القتال تشديد نفس النبي صلى الله عليه وسلم وأنفُسسِ المؤمنين حتى لا يرهبوهم ولا يخشوا مساندتهم لأهل حرب المسلمين أحلاف المنافقين قريظة وخيبر أعقب ذلك بإعلام المؤمنين بأن المنافقين وأحلافهم يخشون المسلمين خشية شديدة وُصفت شدتها بأنها أشد من خشيتهم الله تعالى ، فإن خشية جميع الخلق من الله أعظم خشية فإذا بلغت الخشية في قلب أحد أن تكون أعظم من خشية الله فذلك منتهى الخشية .

والمقصود تشديد نفوس المسلمين ليعلموا أن عدوّهم مُرهَب منهم ، وذلك مما يزيد المسلمين إقداماً في محاربتهم إذ ليس سياق الكلام للتسجيل على المنافقين واليهود قلة رهبتهم لله بل إعلام المسلمين بأنهم أرهب لهم من كل أعظم الرهبات .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين .

والصدور مراد بها : النفوس والضمائر لأن محل أجهزتها في الصدور .

والرَّهبة: مصدر رهب، أي خاف.

وقوله: ﴿ في صدورهم ﴾ ل ﴿ رهبة ﴾ فهي رهبة أولئك.

وضمير ﴿ صدورهم ﴾ عائد إلى ﴿ الذين نافقوا ﴾ [الحشر: 11] و ﴿ الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ [الحشر: 11] إذ ليس اسم أحد الفريقين أولى بعود الضمير إليه مع صلاحية الضمير لكليهما، ولأن المقصودِين بالقتال هم يهود قريظة وخيبر وأما المنافقون فكانوا أعواناً لهم.

وإسناد ﴿ أشَدّ ﴾ إلى ضمير المسلمين المخاطبين إسناد سببيّ كأنه قيل: لرهبتكم في صدورهم أشد من رهبة فيها.

(30/756)

فالرهبة في معنى المصدر المضاف إلى مفعوله، وكل مصدر لفعل متعدّ يحتمل أن يضاف إلى فاعله أو إلى مفعوله، ولذلك فسره الزمخشري بأشد مرهوبية.

و ﴿ من الله ﴾ هو المفضل عليه، وهو على حذف مضاف، أي من رهبة الله، أي من رهبتهم الله كما قال النابغة:

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتي...

على وَعِلٍ في ذي المطارة عاقل

أي على مخافة وَعل .

وهذا تركيب غريب النسج بديعه .

والمألوف في أداء مثل هذا المعنى أن يقال : لَرهبتهم منكم في صدورهم أشد من رهبتهم من الله ، فحُوّل عن هذا النسج إلى النسج الذي حبك عليه في الآية ، ليتأتّى الابتداء بضمير المسلمين اهتماماً به وليكون متعلّق الرهبة ذوات المسلمين لتوقع بطشهم وليأتي التمييز المحول عن الفاعل لما فيه من خصوصية الإِجمال مع التفصيل كما تقرر في خصوصية قوله تعالى : ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ [مريم : 4] دون : واشتعل شيبُ رأسي .

وليتأتى حذف المضاف في تركيب ﴿ من الله ﴾ ، إذ التقدير : من رهبة الله لأن حذفه لا يحسن إلا إذا كان موقعه متصلاً بلفظ ﴿ رهبة ﴾ ، إذ لا يحسن أن يقال : لرهبتهم أشد من الله .

وانظر ما تقدم عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشدّ خشية ﴾ في سورة [النساء : 77] .

فاليهود والمنافقون من شأنهم أن يخشوا الله .

أما اليهود فلأنهم أهل دين فَهُم يخافون الله ويحذرون عقاب الدنيا وعقاب الآخرة .

وأما المنافقون فهم مشركون وهم يعترفون بأن الله تعالى هو الإله الأعظم ، وأنه أولى

الموجودات بأن يخشى لأنه ربّ الجميع وهم لا يثبتون البعث والجزاءَ فخشيتهم الله قاصرة على خشية عذاب الدنيا من خسف وقحط واستئصال ونحو ذلك وليس وراء ذلك خشية.

وهذا بشارة للنبيء والمسلمين بأن الله أوقع الرعب منهم في نفوس عدوّهم كما قال النبي: نُصِرت بالرعب مسيرة شهر.

(31/756)

ووجه وصف الرهبة بأنها في صدورهم الإِشارة إلى أنها رهبة جدُّ خفيّة، أي أنهم يتظاهرون بالاستعداد لحرب المسلمين ويتطاولون بالشجاعة ليرهبهم المسلمون وما هم بتلك المثابة فأطلع الله رسوله على دخيلتهم فليس قوله: في صدورهم ﴾ وصفاً كاشفاً.

وإذ قد حصلت البشارة من الخبر عن الرعب الذي في قلوبهم ثُني عنان الكلام إلى مذمّة هؤلاء الأعداء من جراء كونهم أخوفَ للناس منهم لله تعالى بأن ذلك من قلة فقه نفوسهم، ولو فقهوا لكانوا أخوف لله منهم للناس فنظروا فيما يخلصهم من عقاب التفريط في النظر في دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فعلموا صدقهُ فنجَوا من عواقب كفرهم به في الدنيا والآخرة فكانت رهبتهم من المسلمين هذه الرهبة مصيبة عليهم وفائدة للمسلمين.

فالجملة معترضة بين البيان ومبيّنه.

والإِشارة بذلك إلى المذكور من قوله: ﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ﴾

واجتلاب اسم الإِشارة ليتميز الأمر المحكوم عليه أتم تمييز لغرابته.

والباء للسببية والمجرور خبر عن اسم الإِشارة، أي سبب ذلك المذكور وهو انتفاء فقاهتهم.

وإقحام لفظ ﴿ قوم ﴾ لما يؤذن به من أن عدم فقه أنفسهم أمر عرفوا به جميعاً وصار من مقومات قوَميتهم لا يخلو عنه أحد منهم، وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار إلى قوله: ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة [البقرة: 164].

والفقه: فهم المعاني الخفية، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿ فَمالِ هؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ في سورة [النساء: 78]، وقوله: ﴿ انظر كيف نصرّف الآيات لعلّهم يفقهون ﴾ في سورة [الأنعام: 65]، ذلك أنهم تبِعوا دواعي الخوف المشاهد وذهلوا عن الخوف المغيب عن أبصارهم، وهو خوف الله فكان ذلك من قلة فهمهم للخفيّات.

﴿ لاَ يقاتلونكم جَمِيعاً إِلاَّ فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾.

هذه الجملة بدل اشتمال من جملة ﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ﴾ [الحشر : 13] ، لأن شدة الرهبة من المسلمين تشتمل على شدة التحصّن لقتالهم إياهم ، أي لا يقدرون على قتالكم إلاّ في هاته الأحوال والضمير المرفوع في ﴿ يقاتلونكم ﴾ عائد إلى ﴿ الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ [الحشر : 11] .

وقوله : ﴿ جميعاً ﴾ يجوز أن يكون بمعنى كلهم كقوله تعالى : ﴿ إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾ [المائدة : 48] فيكون للشمول ، أي كلهم لا يقاتلونكم اليهود والمنافقون إلا في قرى محصنّة الخ .

ويجوز أن يكون بمعنى مجتمعين ، أي لا يقاتلونكم جيوشاً كشأن جيوش المتحالفين فإن ذلك قتال من لا يقبعون في قُراهم فيكون النفي منصّباً إلى هذا القيد ، أي لا يجتمعون على قتالكم اجتماع الجيوش ، أي لا يهاجمونكم ولكن يقاتلون قتال دفاع في قراهم .

واستثناء ﴿ إلا في قرى ﴾ على الوجه الأول في ﴿ جميعاً ﴾ استثناء حقيقي من عموم الأحوال ، أي لا يقاتلونكم كلهم في حال من الأحوال إلا في حال الكون في قرى محصّنة الخ .

وهو على الوجه الثاني في ﴿ جميعاً ﴾ استثناء منقطع لأن القتال في القرى ووراء الجدر ليس من أحوال قتال الجيوش المتساندين .

وعلى كلا الاحتمالين فالكلام يفيد أنهم لا يقاتلون إلا متفرقين كل فريق في قريتهم ، وإلا

خائفين متَتَرّسِينَ .

والمعنى : لا يهاجمونكم ، وإن هاجمتموهم لا يبرزون إليكم ولكنهم يدافعونكم في قرى محصنة أو يقاتلونكم من وراء جُدر ، أي في الحصون والمعاقل ومن وراء الأسوار ، وهذا كناية عن مصيرهم إلى الهزيمة إذ ما حورب قوم في عُقر دارهم إلا ذلُّوا كما قال عَلِيّ رضي الله عنه : وهذا إطلاع لهم على تطمين للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ودخائل الأعداء .

و"الجُدُر" بضمتين في قراءة الجمهور جمع جدار .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ﴿ جِدار ﴾ على الإفراد ، والمراد الجنس تساوي الجمع .

و ﴿ محصنة ﴾ ممنوعة ممن يريد أخذها بأسوار أو خنادق .

(33/756)

و ﴿ قُرىً ﴾ بالقصر جمع قرية ، ووزنه وقصره على غير قياس لأن ما كان على زنة فَعْلَة معتل اللام مثل قرية يجمع على فِعال بكسر الفاء ممدوداً مثل : ركوة وركاء ، وشكوة وشِكاء .

ولم يسمع القصر إلا في كَوة بفتح الكاف لغة وكوى ، وقَرية وقُرى ولذلك قال الفراء : قُرىً

شاذ ، يريد خارج عن القياس .

﴿ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شتى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ ﴾ .

استئناف بياني لأن الإخبار عن أهل الكتاب وأنصارهم بأنهم لا يقاتلون المسلمين إلا في قرى محصنة المفيد أنهم لا يتفقون على جيش واحد متساندين فيه مما يثير في نفس السامع أن يسأل عن موجب ذلك مع أنهم متفقون على عداوة المسلمين .

فيجاب بأن بينهم بأساً شديداً وتدابراً ، فهم لا يتفقون .

وافتتحت الجملة بـ ﴿ بأسهم ﴾ للاهتمام بالإخبار عنه بأنه ﴿ بينهم ﴾ ، أي متسلط من بعضهم على بعض وليس بأسهم على المسلمين ، وفي تهكم .

ومعنى ﴿ بينهم ﴾ أن مجال البأس في محيطهم فما في بأسهم من إضرار فهو منعكس إليهم ، وهذا التركيب نظير قوله تعالى : ﴿ رحماء بينهم ﴾ [الفتح : 29] .

وجملة ﴿ تحسبهم جميعاً ﴾ إلى آخرها استئناف عن جملة ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ .

لأنه قد يسأل السائل : كيف ذلك ونحن نراهم متفقين ؟ فأجيب بأن ظاهر حالهم حال اجتماع واتحاد وهم في بواطنهم مختلفون فآراؤهم غير متفقة إلا إلفة بينهم لأن بينهم إحَناً وعداوات فلا يتعاضدون .

والخطاب لغير معيّن لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يحسب ذلك .

وهذا تشجيع للمسلمين على قتالهم والاستخفاف بجماعتهم .

وفي الآية تربية للمسلمين ليحذروا من التخالف والتدابر ويعلموا أن الأمة لا تكون ذات بأس على أعدائها إلا إذا كانت متفقة الضمائر يرون رأياً متماثلاً في أصول مصالحهما المشتركة، وإن اختلفت في خصوصياتها التي لا تنقض أصول مصالحها، ولا تفرِّق جامعتها، وأنه لا يكفي في الاتحاد توافق الأقوال ولا التوافق على الأغراض إلا أن تكون الضمائر خالصة من الإِحن والعداوات.

والقلوب: العقول والأفكار، وإطلاق القلب على العقل كثير في اللغة.

وشتَّى: جمع شتيت بمعنى مفارق بوزن فَعْلَى مثل قتيل وقَتلى، شبهت العقول المختلفة مقاصدها بالجماعات المتفرقين في جهات في أنها لا تتلاقى في مكان واحد، والمعنى: أنهم لا يتفقون على حرب المسلمين.

وقوله: ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من أن بأسهم بينهم ومن تشتت قلوبهم أي ذلك مسبب على عدم عقلهم إذ انساقوا إلى إرضاء خواطر الأحقاد والتشفي بين أفرادهم وأهملوا النظر في عواقب الأمور واتباع المصالح فأضاعوا مصالح قومهم.

ولذلك أقحم لفظ القوم في قوله ﴿ بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ إيماء إلى أن ذلك من آثار ضعف

عقولهم حتى صارت عقولهم كالمعدومة فالمراد : أنهم لا يعقلون المعقل الصحيح .

وأوثر هنا ﴿ لا يعقلون ﴾ .

وفي الآية التي قبلها ﴿ لا يفقهون ﴾ [الحشر : 13] لأن معرفة مآل التشتت في الرأي

وصرف البأس إلى المشارك في المصلحة من الوَهن والفتّ في ساعد الأمة معرفة "مشهورة"

بين العقلاء .

قال أحد بني نبهان يخاطب قومه إذ أزمعوا على حرب بعضهم :

وأن الحزامة أن تصرفوا

لحَي سِوانا صدورَ الأسل . . .

فإهما لهم سلوك ذلك جعلهم سواء مع من لا عقول لهم فكانت هذه الحالة شقوة لهم

حصلت منها سعادة للمسلمين .

وقد تقدم غير مرة أن إسناد الحكم إلى عنوان قوم يؤذن بأن ذلك الحكم كالجبلّة المقومة

للقومية وقد ذكرته آنفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (15) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (17) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الإخبار بعدم عقلهم دعوى دل عليها بأمر مشاهد فقال : ﴿ كمثل ﴾ أي قصتهم في عدم فقههم بل عقلهم الذي نشأ عنه إخراجهم هذا وما سببه من مكرهم وغدرهم واعتمادهم على ابن أبيّ ومن معه من المنافقين كمثل قصة ﴿ الذين من قبلهم ﴾ ولما كان إدخال الجار مع دلالته على عدم استغراق زمان القبل يدل على قرب الزمن ، صرح به فقال : ﴿ قريباً ﴾ وهم كما قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ بنو قينقاع من أهل دينهم اليهود أظهروا بأساً شديداً عند ما قصدهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ غزوة بدر فوعظهم وحذرهم بأس الله فقالوا : لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم ، وأما والله لو قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس ، ثم مكروا بامرأة من المسلمين فأرادوها على كشف وجهها فأبت فعقدوا طرف ثوبها من تحت خمارها ، فما قامت انكشفت سوأتها فصاحت فغار لها شخص من الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م ، فقتل اليهودي الذي عقد ثوبها فقتلوه ، فانتقض عهدهم ، فأنزل النبي ـ صلى الله عليه وسلم

ـ بساحتهم جنود الله فأذلهم الله ونزلوا من حصنهم على حكمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد كانوا حلفاء ابن أبيّ ، ولم يغن عنهم شيئاً غير أنه سأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أن لا يقتلهم وألح عليه حتى كف عن قتلهم فذهبوا عن المدينة الشريفة بأنفسهم من غير حشر لهم بالإلزام بالجلاء .

(36/756)

ولما كان كأنه قيل : ما كان خبرهم ؟ قال : ﴿ ذاقوا وبال ﴾ أي وخامة وسوء عاقبة ﴿ أمرهم ﴾ في الدنيا وهو كفرهم وعداوتهم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحزبه الذين هم حزب الله ، وسماه أمراً لأنه مما ائتمروا فيه ﴿ ولهم ﴾ أي في الآخرة ﴿ عذاب أليم ﴾ أي شديد الإيلام ، ولما شبه سبحانه أمرهم في طاعتهم لابن أبي ومن معه وهم البعداء المحترقون بسبب إبعاد المؤمنين لهم بإبعاد الله واحتراق أكبادهم لذلك مع ما أعد لهم في الآخرة بأمر بني قينقاع ، شبه قصة الكل بقصة الشيطان ومن أطاعه من الإنس والجن ، فقال مبيناً لمعنى ما حط عليه آخر الكلام : ﴿ كمثل ﴾ أي مثل الكل الواعدين بالنصر والمغترين بوعدهم مع علمهم بأن الله كتب في الذكر ﴿ لأغلبن أنا ورسلي ﴾ [المجادلة : 21] في إخلافهم الوعد وإسلامهم إياهم عند ما حق الأمر يشبه مثل

﴿ الشيطان ﴾ أي البعيد من كل خير لبعده من الله المحترق بعذابه ، والشيطان هنا مثل المنافقين ﴿ إذا قال للإنسان ﴾ أي كل من فيه نوس واضطراب وهو هنا مثل اليهود : ﴿ اكفر ﴾ أي بالله بما زين له ووسوس إليه من اتباع الشهوات القائم مقام الأمر .

(37/756)

ولما كان الإنسان بما يساعد تزيين الشيطان عليه من شهواته وحُظوظه وأخلاقه يطيع أمره غالباً قال : ﴿ فلما كفر ﴾ أي أوجد الكفر على أي وجه كان ، ودلت الفاء على إسراعه في متابعة تزيينه ﴿ قال ﴾ أي الشيطان الذي هو هنا عبارة عن المنافقين مؤكداً لما لمن تعلق بمن أكد له الوعد بشيء من صادق الاعتماد عليه والتكذيب بأنه يخذله : ﴿ إني بريء منك ﴾ أي ليس بيني وبينك علاقة في شيء أصلاً ظناً منه أن هذه البراءة تنفعه شيئاً مما استوجبه المأمور بقبوله لأمره ، وذلك كناية عن أنه فعل معه من الإعراض عنه والتمادي في كل ما يدل على إهماله من أكد البراءة منه ، وذلك كما فعل المنافقون باليهود جرؤوهم على أمر ينهى وهو الإقامة في بلدهم ، فلما نصبوا الحرب طمعاً في نصرهم فعل المنافقون بتباطؤهم عنهم فعل المتبرئ منهم فكان ذلك أشد عليهم مما لم يطمعوهم في نصرهم لأن هذا بمنزله انهزامهم عنهم من الصف الموجب لانهزامهم لا محالة ، ثم علل البراءة بقوله : ﴿ إني

أخاف الله ﴾ أي الملك الذي لا أمر لأحد معه فلا تطاق صولته ، ثم شرح ذلك بقوله :

﴿ رب العالمين ﴾ أي الذي أوجدهم من العدم ورباهم بما يدل على جميع الأسماء الحسنى والصفات العلى ، فلا يغني أحد من خلقه عن أحد شيئاً إلا بإذنه وهو لا يغفر أصلاً لمن يقدح ربوبيته ولا سيما إن نسبها إلى غيره ، وكان هذا كمثل ما يجد الإنسان بعد الوقوع في المعصية من الندم والحيرة ، فإذا وجد ذلك وهم بالتوبة زين له المعصية وصعب عليه أمر التوبة وعسره وجرأه على المعصية بعينها أو على ما هو أكبر منها ، ولا يزال كذلك حتى يتعذر عليه الرجوع فيتحقق هلاكه وهلاك من أوقعه ، فلذلك سبب عنه قوله :

﴿ فكان ﴾ ولما كان تقديم الشيء على محله موجباً لروعة تنبه الإنسان للتفتيش عن السبب والتشويق إلى المؤخر قال : ﴿ عاقبتهما ﴾ مقدماً لخبر "كان" ﴿ أنهما ﴾ أي الغار والمغرور ﴿ في النار ﴾ حال كونهما ﴿ خالدين فيها ﴾ لأنهما ظلما ظلماً لا فلاح معه .

(38/756)

ولما كان ذلك قد يحمل على أنه في الإنسان بعينه ، قال معلقاً بالوصف ، تعميماً وزجراً عنه : ﴿ وذلك ﴾ أي العذاب الأكبر ﴿ جزاء الظالمين ﴾ أي كل من وضع العبادة في غير محلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 532.534 ﴾

(39/756)

فصل

قال الفخر :

﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا ﴾

أي مثلهم كمثل أهل بدر في زمان قريب فإن قيل : بم انتصب ﴿ قَرِيبًا ﴾ ، قلنا : بمثل ، والتقدير كوجود مثل أهل بدر .

﴿ قَرِيباً ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله من قولهم : كلأ وبيل أي وخيم سيىء العاقبة يعني ذاقوا عذاب القتل في الدنيا ﴿ وَلَهُمْ فِى الآخرة عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلاً فقال :

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ

الْعَالَمِينَ (16)

أي مثل المنافقين الذين غروا بني النضير بقولهم : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ [الحشر : 11] ثم خذلوهم وما وفوا بعهدهم : ﴿ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ للإنسان اكفر ﴾ ثم تبرأ منه في العاقبة ، والمراد إما عموم دعوة الشيطان إلى الكفر ، وإما إغواء الشيطان قريشاً يوم بدر بقوله : ﴿ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليوم مِنَ الناس وَإِنّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنّي بَرِيء مّنْكُمْ ﴾ [الأنفال : 48] .

ثم قال :

فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (17)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال مقاتل : فكان عاقبة المنافقين واليهود مثل عاقبة الشيطان والإنسان حيث صارا إلى النار .

المسألة الثانية :

قال صاحب الكشاف : قرأ ابن مسعود (خالدان فيها) ، على أنه خبران ، و (في النار) لغو ، وعلى القراءة المشهورة الخبر هو الظرف ﴿ وخالدين فيها ﴾ حال ، وقرىء : ﴿ عاقبتهما ﴾ بالرفع ، ثم قال : ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظالمين ﴾ أي المشركين ، لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 252 . 253 ﴾

(40/756)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾

هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبي ابن سلول ورفاعة بن التابوت ، وقوم من منافقي الأنصار كانوا بعثوا إلى بني النضير وقالوا لهم ، أثبتوا في معاقلكم فإنا معكم حيثما تقلبت حالكم ، وإنما أرادوا بذلك أن تقوى نفوسهم عسى أن يثبتوا حتى لا يقدر محمد عليهم فيتم لهم مرادهم وكانوا كذبة فيما قالوا من ذلك ، ولذلك لم يخرجوا حين أخرج بني النضير بل قعدوا في ديارهم .

وقوله عز وجل : ﴿ لئن نصروهم ﴾ معناه : ولئن حاولوا ذلك فإنهم ينهزمون ، ثم لا ينصر الله تعالى منهم أحداً ، وجاءت الأفعال غير مجزومة في قوله : ﴿ لا يخرجون ﴾ و : ﴿ لا ينصرونهم ﴾ لأنها راجعة على حكم القسم لا على حكم الشرط ، وفي هذا نظر ، ثم خاطب تعالى أمة محمد مخبراً أن اليهود والمنافقين أشد خوفاً من المؤمنين منهم من الله تعالى

، لأنهم يتوقعون عاجل الشر من المؤمنين، لا يؤمنون بآجل العذاب من الله تعالى وذلك لقلة فهمهم بالأمور وفقهم بالحق.

لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ

(41/756)

الضمير في قوله تعالى: ﴿ لا يقاتلونكم ﴾ لبني النضير وجميع اليهود، وهذا قول جماعة المفسرين، ويحتمل أن يريد بذلك: اليهود والمنافقين، لأن دخول المنافقين في قوله تعالى: ﴿ بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ متمكن بين. ومعنى الآية: ﴿ لا يقاتلونكم ﴾ في جيش مفحص، والقرى المدن. قال الفراء هذا جمع شاذ. قال الزجاج: ما في القرآن فليس بشاذ وهو مثل ضيعة وضيع. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وكثير من المكيين "جدار" على معنى الجنس. وقرأ كثير من المكيين وهارون عن ابن كثير: "جَدْر" بفتح الجيم وسكون الدال ومعناه أصل بنيان كالسور ونحوه، وقرأ الباقون من القراء "جُدُر" بضم الجيم والدال وهو جمع جدار، وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة "جُدْر" بضم الجيم وسكون الدال وهو تخفيف في جمع جدار، ويحتمل أن يكون من جدر النخل أي من وراء نخلهم إذ هي مما يتقى به عند المضايقة، وقوله تعالى: ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ أي في

عائلتهم وأحبتهم ، وفي قراءة عبد الله بن مسعود " تحسبهم جميعاً وفي قلوبهم أشتات " ، وهذه حال الجماعات المتخاذلة وهي المغلوبة أبداً فيما يحاول ، واللفظة مأخوذة من الشتات وهو التفرق ونحوه ، وقوله تعالى : ﴿ كمثل الذين من قبلهم ﴾ معناه مثلهم ﴿ كمثل ﴾ ، و﴿ الذين من قبلهم ﴾ ، قال ابن عباس : هم بنو قينقاع ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أجلاهم عن المدينة قبل بني النضير وكانوا مثالاً لهم ، وقال قتادة ومجاهد : ﴿ الذين من قبلهم ﴾ أهل بدر الكفار فإنهم قبلهم ومثل لهم في أن غلبوا وقهروا ، وقال بعض المتأولين : الضمير في قوله ﴿ قبلهم ﴾ للمنافقين ، و﴿ الذين من قبلهم ﴾ هم منافقو الأمم المتقدمة وذلك أنهم غلبوا ونالتهم الذلة على وجه الدهر فهم مثل لهؤلاء ، ولكن قوله ﴿ قريباً ﴾ إما أن يكون في زمن موسى وإلا فالتأويل المذكور يضعف ، إلا أن تجعل ﴿ قريباً ﴾ ظرفاً للذوق ، فيكون التقدير ﴿ ذاقوا وبال أمرهم ﴾ ﴿ قريباً ﴾

(42/756)

﴿ من عصيانهم وبحدثانه ، ولا يكون المعنى أن المثل قريب في الزمن من الممثل له ، وعلى كل تأويل ف ﴿ قريباً ﴾ ظرف أو نعت لظرف والوبال : الشدة والمكروه وعاقبة السوء ، و" العذاب الأليم " : هو في الآخرة ، وقوله تعالى : ﴿ كمثل الشيطان ﴾ معناه مثل هاتين

الفرقتين من المنافقين وبني النضير ﴿ كمثل الشيطان ﴾ والإنسان ، فالمنافقون مثلهم الشيطان وبنو النضير مثلهم الإنسان ، وذهب مجاهد وجمهور من المتأولين إلى أن ﴿ الشيطان ﴾ و" الإنسان " في هذه الآية أسماء جنس لأن العرف أن يعمل هذا شياطين بناس كما يغوي الشيطان الإنسان ثم يفر منه بعد أن يورطه ، كذلك أغوى المنافقون بني النضير وحرضوهم على الثبوت ووعدوهم النصر ، فلما نشب بنو النضير وكشفوا عن وجوههم تركهم المنافقون في أسوأ حال ، وذهب قوم من رواة القصص أن هذا شيطان مخصوص مع عابد من العباد مخصوص ، وذكر الزجاج أن اسمه برصيص ، قالوا إنه استودع امرأة وقيل سيقت إليه ليشفيها بدعائه من الجنون فسول له الشيطان الوقوع عليها فحملت ، فخشي الفضيحة ، فسول له قتلها ودفنها ، ففعل ثم شهره ، فلما استخرجت المرأة وحمل العابد شر حمل وهو قد قال : إنها قد ماتت فقمت عليها ودفنتها ، فلما وجدت مقتولة علموا كذبه فتعرض له الشيطان فقال له : اكفر واسجد لي وأنجيك ، ففعل وتركه عند ذلك .

وقال ﴿ إني بريء منك ﴾ ، وهذا كله حديث ضعيف ، والتأويل الأول هو وجه الكلام وقول الشيطان : ﴿ إني أخاف الله ﴾ ، رياء من قوله وليست على ذلك عقيدته ، ولا يعرف الله حق معرفته ولا يحجزه خوفه عن سوء يوقع فيه ابن آدم من أول إلا آخر ، وقوله تعالى : ﴿ فكان عاقبتهما ﴾ الآية ، يحتمل الضمير أن يعود على المخصوصين المذكورين ، ويحتمل أن يعود على اسمي الجنس أي هذا هو عاقبة كل شيطان وإنسان يكون أمرهما هكذا ، وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد : " عاقبتُهما " بالرفع ، وقرأ جمهور الناس : " عاقبتَهما " بالنصب وموضع أن يخالف إعراب المعاقبة في القراءتين إن شاء الله تعالى ، وقرأ الأعمش وابن مسعود : " خالدان " بالرفع على أنه خبر " أن " ، والظرف ملغى ، ويلحق هذه الآية من الاعتراض إلغاء الظرف مرتين قاله الفراء ، وذلك جائز عند سيبويه على التأكيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(44/756)

وقال القرطبى :

﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ﴾

قال ابن عباس : يعني به قَيْنُقاع ؛ أمكن الله منهم قبل بني النَّضير .

وقال قتادة : يعني بني النَّضِير ؛ أمكن الله منهم قبل قُرَيظة .

مجاهد : يعني كفار قريش يوم بدر .

وقيل : هو عامّ في كل من انتقم منه على كفره قبل بني النَّضِير من نوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

ومعنى ﴿ وَبَالَ ﴾ جزاء كفرهم .

ومن قال : هم بنو قُرَيظة ، جعل ﴿ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ نزولهم على حكم سعد بن معاذ ؛ فحكم فيهم بقتل المقاتلة وسَبْيِ الذرّية .

وهو قول الضحاك .

ومن قال المراد بنو النَّضير قال : ﴿ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ الجلاء والنفي .

وكان بين النّضير وقُريظة سنتان .

وكانت وقعة بدر قبل غزوة بني النّضير بستة أشهر ؛ فلذلك قال : "قريباً" وقد قال قوم : غزوة بني النَّضير بعد وقعة أحد .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ لِلإنسان اكفر ﴾

هذا ضرب مثل للمنافقين واليهود في تخاذلهم وعدم الوفاء في نُصْرتهم .

وحَذَف حرف العطف ، ولم يقل : كمثل الشيطان ؛ لأن حذف حرف العطف كثير ؛ كما

تقول : أنت عاقل ، أنت كريم ، أنت عالم .

وقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : أن الإنسان الذي قال له الشيطان اكفر ، راهبٌ تُركت عنده امرأة أصابها لَمَمٌ ليَدْعُوَ لها ، فزيّن له الشيطان فوطئها فحملت ، ثم قتلها خوفاً أن يفتضح ، فدل الشيطان قومها على موضعها ، فجاءوا فاستنزلوا الراهب ليقتلوه ، فجاء الشيطان فوعده أنه إن سجد له أنجاه منهم ، فسجد له فتبرأ منه فأسلمه .

ذكره القاضي إسماعيل وعليّ بن المدِيني عن سفيان بن عُيَيْنة عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر عن عُبيد بن رفاعة الزُّرَقِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وذكر خبره مطولاً ابنُ عباس ووهب بن مُنَبّه .

ولفظهما مختلف .

(45/756)

قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الشيطان ﴾ : كان راهب في الفَتْرة يقال له : برصيصا ؛ قد تعبّد في صَومعته سبعين سنة ، لم يعص الله فيها طَرْفة عين ، حتى أعيا إبليس ؛ فجمع إبليس مردة الشياطين فقال : ألا أجد منكم من يكفيني أمر برصيصا ؟ فقال الأبيض ، وهو صاحب الأنبياء ، وهو الذي قصد النبيّ صلى الله عليه وسلم في

صورة جبريل ليوسوس إليه على وجه الوحي ، فجاء جبريل فدخل بينهما ، ثم دفعه بيده حتى وقع بأقصى الهند ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ ﴾ [التكوير : 20] فقال : أنا أكْفِيكَه ؛ فانطلق فتزّيا بزِيّ الرهبان ، وحلق وسط رأسه حتى أتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه ؛ وكان لا ينفتل من صلاته إلا في كل عشرة أيام يوماً ، ولا يُفطر إلا في كل عشرة أيام ؛ وكان يواصل العشرة الأيام والعشرين والأكثر ؛ فلما رأى الأبيض أنه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صَوْمعته ؛ فلما انفتل برصيصا من صلاته ، رأى الأبيض قائماً يصلّي في هيئة الرهبان ؛ فندم حين لم يجبه ، فقال : ما حاجتك ؟ فقال : أن أكون معك ، فأتأدّب بأدبك ، وأقتبس من عملك ، ونجتمع على العبادة ؛ فقال : إني في شغل عنك ؛ ثم أقبل على صلاته ؛ وأقبل الأبيض أيضاً على الصلاة ؛ فلما رأى برصيصا شدّة اجتهاده وعبادته قال له : ما حاجتك ؟ فقال : أن تأذن لي فأرتفع إليك .

فأذن له فأقام الأبيض معه حَوْلاً لا يفطر إلا في كل أربعين يوماً يوماً واحداً ، ولا ينفتل من صلاته إلا في كل أربعين يوماً ، وربما مدّ إلى الثمانين ؛ فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت إليه نفسه .

ثم قال الأبيض : عندي دعوات يَشْفِي الله بها السقيم والمبتلى والمجنون ؛ فعلّمه إياها .

ثم جاء إلى إبليس فقال : قد والله أهلكت الرجل .

ثم تعرّض لرجل فخنقه ، ثم قال لأهله وقد تصوّر في صورة الآدميين : إن بصاحبكم جنوناً أفأطِبّه ؟ قالوا نعم .

(46/756)

فقال : لا أقوى على جنِّيَتْه ، ولكن اذهبوا به إلى برصيصا ، فإن عنده اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دُعي به أجاب ؛ فجاءوه فدعا بتلك الدعوات ، فذهب عنه الشيطان .

ثم جعل الأبيض يفعل بالناس ذلك ويرشدهم إلى برصيصا فيعافَوْن .

فانطلق إلى جارية من بنات الملوك بين ثلاثة إخوة ، وكان أبوهم ملكاً فمات واستخلف أخاه ، وكان عمها ملكاً في بني إسرائيل فعذبها وخنقها .

ثم جاء إليهم في صورة رجل متطبب ليعالجها فقال : إن شيطانها مارد لا يطاق ، ولكن اذهبوا بها إلى برصيصا فدعوها عنده ، فإذا جاء شيطانها دعا لها فبرئت ؛ فقالوا : لا يجيبنا إلى هذا ؛ قال : فابْنوا صومعةً في جانب صومعته ثم ضعوها فيها ، وقولوا : هي أمانة عندك فاحتسب فيها .

فسألوه ذلك فأبى ، فبنَوْا صومعة ووضعوا فيها الجارية ؛ فلما انفتل من صلاته عاين الجارية

وما بها من الجمال فَأَسْقِط في يده ، فجاءها الشيطان فخنقها فانفتل من صلاته ودعا لها

فذهب عنها الشيطان ، ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها .

وكان يكشف عنها ويتعرض بها لبرصيصا ، ثم جاءه الشيطان فقال : ويحك ! واقِعْها ،

فما تجد مثلها ثم تتوب بعد ذلك .

فلم يزل به حتى واقعها فحملت وظهر حملها .

فقال له الشيطان : ويحك ! قد افتضحت .

فهل لك أن تقتلها ثم تتوب فلا تفتضح ، فإن جاءوك وسألوك فقل جاءها شيطانها فذهب

بها .

فقتلها برصيصا ودفنها ليلاً ؛ فأخذ الشيطان طَرف ثوبها حتى بقي خارجاً من التراب ؛

ورجع برصيصاً إلى صلاته .

ثم جاء الشيطان إلى إخوتها في المنام فقال : إن برصيصا فعل بأختكم كذا وكذا ، وقتلها

ودفنها في جبل كذا وكذا ؛ فاستعظموا ذلك وقالوا لبرصيصا : ما فعلت أختنا ؟ فقال :

ذهب بها شيطانها ؛ فصدقوه وانصرفوا .

ثم جاءهم الشيطان في المنام وقال : إنها مدفونة في موضع كذا وكذا ، وإن طرف ردائها خارج من التراب ؛ فانطلقوا فوجدوها ، فهدموا صومعته وأنزلوه وخنقوه ، وحملوه إلى الملك فأقرّ على نفسه فأمر بقتله .

فلما صُلب قال الشيطان : أتعرفني ؟ قال لا والله ! قال : أنا صاحبك الذي علمتك الدعوات ، أما اتقيت الله أما استحيت وأنت أعبد بني إسرائيل ! ثم لم يكفِك صنيعك حتى فضحت نفسك ، وأقررت عليها وفضحت أشباهك من الناس ! فإن متّ على هذه الحالة لم يفلح أحد من نظرائك بعدك .

فقال : كيف أصنع ؟ قال : تطيعني في خصلة واحدة وأنجيك منهم وآخذ بأعينهم .

قال : وما ذاك ؟ قال تسجد لي سجدة واحدة ؛ فقال : أنا أفعل ؛ فسجد له من دون الله .

فقال : يا برصيصا ، هذا أردت منك ؛ كان عاقبة أمرك أن كفرت بربك ، إني بريء منك ، إني أخاف الله رب العالمين .

وقال وهب بن مُنَبّه : إن عابداً كان في بني إسرائيل ، وكان من أعبد أهل زمانه ، وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت ، وكانت بكراً ، ليست لهم أخت غيرها ، فخرج البعث على ثلاثتهم ؛ فلم يدروا عند من يخلّفون أختهم ، ولا عند من يأمنون عليها ، ولا عند من يضعونها .

قال فاجتمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بني إسرائيل ، وكان ثقةً في أنفسهم ، فأتوه

فسألوه أن يخلفوها عنده ، فتكون في كنفه وجواره إلى أن يقفلوا من غَزاتهم ، فأبى ذلك عليهم وتعوّذ بالله منهم ومن أختهم .

قال فلم يزالوا به حتى أطعمهم فقال : أنزلوها في بيت حِذاء صَوْمعتي ، فأنزلوها في ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها ، فمكثت في جوار ذلك العابد زماناً ، ينزل إليها الطعام من صومعته ، فيضعه عند باب الصومعة ، ثم يغلق بابه ويصعد في صومعته ، ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام .

قال : فتلطّف له الشيطان فلم يزل يرغّبه في الخير ، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً ، ويخوّفه أن يراها أحد فيعلقها .

(48/756)

قال : فلبث بذلك زماناً ، ثم جاءه إبليس فرغّبه في الخير والأجر ، وقال له : لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظم لأجرك ؛ قال : فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها فوضعه في بيتها ، قال : فلبث بذلك زماناً ثم جاءه إبليس فرغّبه في الخير وحَضّه عليه ، وقال : لو كنت تكلّمها وتحدّثها فتأنس بحديثك ، فإنها قد استوحشت وحشةً شديدة .

قال : فلم يزل به حتى حدّثها زماناً يطلع عليها من فوق صومعته .

قال : ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال : لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدّثها وتقعد على باب بيتها فتحدّثك كان آنس لها .

فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدّثها ، وتخرج الجارية من بيتها ، فلبثا زماناً يتحدثان ، ثم جاءه إبليس فرغّبه في الخير والثواب فيما يصنع بها ، وقال : لو خرجت من باب صومعتك فجلست قريباً من باب بيتها كان آنس لها .

فلم يزل به حتى فعل .

قال : فلبثا زماناً ، ثم جاءه إبليس فرغّبه في الخير وفيما له من حسن الثواب فيما يصنع بها ، وقال له : لو دنوت من باب بيتها فحدّثتها ولم تخرج من بيتها ، ففعل .

فكان ينزل من صومعته فيقعد على باب بيتها فيحدثها .

فلبثَا بذلك حيناً ثم جاءه إبليس فقال : لو دخلت البيت ، معها تحدثها ولم تتركها تُبرز وجهها لأحد كان أحسن بك .

فلم يزل به حتى دخل البيت ، فجعل يحدثها نهاره كله ، فإذا أمسى صعد في صومعته .

قال : ثم أتاه إبليس بعد ذلك ، فلم يزل يزّينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقَبّلها .

فلم يزل به إبليس يحسّنها في عينه ويسوّل له حتى وقع عليها فأحبلها ، فولدت له غلاماً .

فجاءه إبليس فقال له : أرأيت أن جاء إخوة هذه الجارية وقد وَلدتْ منك ! كيف تصنع !

لا آمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك ! فاعمِد إلى ابنها فاذبحه وادفنه ، فإنها ستكتم عليك مخافة إخوانها أن يطلعوا على ما صنعت بها ، ففعل .

(49/756)

فقال له : أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلتَ ابنها ! خذها فاذبحها وادفنها مع ابنها .

فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحَفِيرة مع ابنها ، وأطبق عليها صخرة عظيمة ، وسوّى عليها التراب ، وصعد في صومعته يتعبّد فيها ؛ فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ؛ حتى قفل إخوتها من الغزو ، فجاءوه فسألوه عنها فنعاها لهم وترحّم عليها ، وبكى لهم وقال : كانت خيرَ أَمَة ، وهذا قبرها فانظروا إليه .

فأتى إخوتها القبر فبكَوْا على قبرها وترحّموا عليها ، وأقاموا على قبرها أياماً ثم انصرفوا إلى أهاليهم .

فلما جَنّ عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم ، أتاهم الشيطان في صورة رجل مسافر ، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم ؛ فأخبره بقول العابد وموتها وترحُّمه عليها ، وكيف أراهم موضع قبرها ؛ فكذّبه الشيطان وقال : لم يَصْدُقكم أمر أختكم ، إنه قد أحبل أختكم

وولدت منه غلاماً فذبحه وذبحها معه فزعاً منكم ، وألقاها في حفيرة احتفرها خلف الباب الذي كانت فيه عن يمين من دخله .

فانطلقوا فادخلوا البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله فإنكم ستجدونهما هنالك جميعاً كما أخبرتكم .

قال : وأتى الأوسط في منامه وقال له مثل ذلك .

ثم أتى أصغرهم فقال له مثل ذلك .

فلما استيقظ القوم استيقظوا متعجبين لما رأى كل واحد منهم .

فأقبل بعضهم على بعض ، يقول كل واحد منهم : لقد رأيت عجباً ، فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى .

قال أكبرهم : هذا حُلم ليس بشيء ، فامضوا بنا ودَعُوا هذا .

قال أصغرهم : لا أمضي حتى آتي ذلك المكان فأنظر فيه .

قال : فانطلقوا جميعاً حتى دخلوا البيت الذي كانت فيه أختهم ، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم ، فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين في الحفيرة كما قيل لهم ، فسألوا العابد فصدّق قول إبليس فيما صنع بهما .

فاستعدَوا عليه ملكهم ، فأنزِل من صومعته فقدّموه لِيُصْلَب ، فلما أوقفوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له : قد علمت أني صاحبك الذي فتنتك في المرأة حتى أحبلتها وذبحتها وذبحتَ ابنها ، فإن أنت أطعتني اليوم وكفرت بالله الذي خلقك خلّصتك مما أنت فيه .

قال : فكفر العابد بالله ؛ فلما كفر خلّى عنه الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه .

قال : ففيه نزلت هذه الآية ﴿ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكفر فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بريءٌ مِّنكَ إني أَخَافُ الله رَبَّ العالمين ﴾ إلى قوله ﴿ جَزَآءُ الظالمين ﴾

قال ابن عباس : فضرب الله هذا مثلاً للمنافقين مع اليهود .

وذلك أن الله تعالى أمر نبيّه عليه السلام أن يُجْلي بني النَّضِير من المدينة ، فَدَسّ إليهم المنافقون ألا تخرجوا من دياركم ، فإن قاتلوكم كنا معكم ، وإن أخرجوكم كنا معكم ، فحاربوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فخذلهم المنافقون ، وتبّرءوا منهم كما تبرأ الشيطان من بَرْصيصَا العابد .

فكان الرهبان بعد ذلك لا يمشون إلا بالتَقِيّة والكتمان .

وطمع أهل الفسوق والفجور في الأحبار فرموهم بالبهتان والقبيح ، حتى كان أمر جُرَيج الراهب ، وبرّأه الله فانبسطت بعده الرهبان وظهروا للناس .

وقيل : المعنى مثَلُ المنافقين في غدرهم لبني النَّضِير كمثل إبليس إذ قال لكفار قريش : ﴿ لاَ

غَالِبَ لَكُمُ اليومَ مِنَ الناس وَإِنِّي جارٌ لَّكُمْ ﴾ [الأنفال: 48] الآية.

وقال مجاهد: المراد بالإنسان ها هنا جميع الناس في غرور الشيطان إياهم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكفر ﴾ أي أغواه حتى قال: إني كافر.

وليس قول الشيطان: ﴿ إني أَخَافُ اللهَ رَبَّ العالمين ﴾ حقيقة، إنما هو على وجه التبرؤ

من الإنسان، فهو تأكيد لقوله تعالى: ﴿ إِنِّي بريء مِّنكَ ﴾ وفتح الياء من "إني" نافع وابن

كثير وأبو عمرو.

وأسكن الباقون.

(51/756)

﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ ﴾ أي عاقبة الشيطان وذلك الإنسان ﴿ أَنَّهُمَا فِي النار خَالِدِينَ فِيهَا

﴾ نصب على الحال.

والتثنية ظاهرة فيمن جعل الآية مخصوصة في الراهب والشيطان.

ومن جعلها في الجنس فالمعنى: وكان عاقبة الفريقين أو الصنفين.

ونصب "عَاقِبَتَهُمَا" على أنه خبر كان.

والإسم ﴿ أَنَّهُمَا فِي النار ﴾ وقرأ الحسن "فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا" بالرفع على الضد من ذلك.

وقرأ الأعمش "خَالِدَانِ فِيهَا" بالرفع وذلك خلاف المرسوم.

ورفعه على أنه خبر "أنّ" والظرف ملغى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى جـ 18 صـ ﴾

(52/756)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نافقوا ﴾

حكايةٌ لِمَا جرَى بينَ الكفرةِ والمنافقينَ من الأقوالِ الكاذبةِ والأحوالِ الفاسدةِ، وتعجيبٌ منها بعد حكايةِ محاسنِ أحوالِ المؤمنينَ وأقوالِهم على اختلافِ طبقاتِهمْ. والخطابُ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم، أو لكلِّ أحدٍ ممن له حظٌّ من الخطابِ. وقولِه تعالى: ﴿ يَقُولُونَ ﴾ الخ استئنافٌ لبيانِ المتعجَّبِ منهُ. وصيغةُ المضارعِ للدلالةِ على استمرارِ قولِهم أو لاستحضارِ صورتِه. واللامُ في قولِه تعالى: ﴿ لإِخْوَانِهِمُ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾ للتبليغِ. والمرادُ بأخوّتِهم إما توافقُهم في الكفرِ أو صداقتُهم وموالاتُهمْ. واللامُ في قولِه تعالى:

(53/756)

﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ أي من ديارِكُم قَسْراً واللام موطئةٌ للقسمِ. وقولُهُ تعالى: ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ جوابُ القسمِ، أيْ واللهِ لئِنْ أُخْرِجتُم لنخرجنَّ معكم ألبتةَ ونذهبنَّ في صُحْبَتكم أينما ذهبتُم ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ ﴾ أيْ في شأنِكُمْ ﴿ أَحَدًا ﴾ يمنعنا منَ الخروجِ معكُم ﴿ أَبَدًا ﴾ وإنْ طالَ الزمانُ، وقيلَ لا نطيعُ في قتالِكُم أو خذلانِكم وليسَ بذاكَ لأن تقديرَ القتالِ مترقبٌ بعد ولأن وعدَهُم لهم على ذلك التقديرِ ليسَ مجردَ عدمِ طاعتِهِم لمن يدعُوهُم إلى قتالِهِم بل نصرتَهُم عليهِ كما ينطقُ به قولُهُ تعالى: ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ أي لنعاونَنَّكُم على عدوِّكم على أن دعوتَهُم إلى خذلانِ اليهودِ مما لا يمكنُ صدورُهُ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم والمسلمينَ حتى يدَّعوا عدمَ طاعتِهم فيها ضرورةَ أنَّها لو كانَتْ لكانَتْ عند استعدادِهِم لنصرتِهم وإظهارِ كفرِهِم ولا ريبَ في أنَّ ما يفعله عليه الصلاةُ والسلامُ عند ذلكَ قتلُهُم لا دعوتَهُم إلى تركِ نصرتِهم، وأما الخروجُ معهم فليسَ بهذه المرتبةِ من إظهارِ الكفرِ لجوازِ أن يدَّعوا أن خروجَهُم معهم لما بينَهُم من الصداقةِ الدنيويةِ لا للموافقةِ في الدينِ ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في مواعيدِهِم المؤكدةِ بالأيمانِ الفاجرةِ.

وقولُهُ تعالى:

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ﴾ الخ تكذيبٌ لهم في كلِّ واحدٍ من أقوالِهم على التفصيلِ بعدَ تكذيبِهِم في الكلِّ على الإجمالِ ﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ وكانَ الأمرُ

كذلك فإنَّ ابْنَ أُبيّ وأصحابَهُ أرسلُوا إلى بَنِي النضيرِ ذلكَ سراً ثم أخلفُوهُم وفيه حجةٌ بينةٌ لصحةِ النبوةِ وإعجازِ القرآنِ .

(54/756)

﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ على الفرضِ والتقديرِ ﴿ لَيُوَلُّنَّ الأدبار ﴾ فراراً ﴿ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ أي المنافقونَ بعد ذلكَ ، أي يهلكهم اللهُ ولا ينفعُهم نفاقُهم لظهورِ كفرِهِم أو ليَهْزُمَنَّ اليهودُ ثم لا ينفعُهُم نصرةُ المنافقينَ .

﴿ لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ أي أشدُّ مرهوبيةً على أنها مصدرٌ من المبنيّ للمفعولِ ﴿ فِى صُدُورِهِمْ مّنَ الله ﴾ أي رهبتُهُم منكُم في السرِّ أشدُّ مما يظهرونَهُ لكم من رهبةِ اللهِ فإنهم كانُوا يدّعونَ عندَهُم رهبةً عظيمةً من اللهِ تعالى ﴿ ذلك ﴾ أي ما ذُكِرَ من كونِ رهبتِهِم منكُم أشدَّ من رهبةِ اللهِ ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسببِ أنَّهُم ﴿ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ أي شيْئاً حتى يعلمُوا عظمةَ اللهِ تعالى فيخشوه حقَّ خشيتِهِ .

(55/756)

﴿ لاَ يقاتلونكم ﴾ أي اليهودَ والمنافقونَ بمعنى لا يقدرونَ على قتالِكُم ﴿ جَمِيعاً ﴾ أي مجتمعينَ متفقينَ في موطنٍ من المواطنِ ﴿ إِلاَّ فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ بالدروبِ والخنادقِ ﴿ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ ﴾ دونَ أنْ يصحرُوا لكُم ويبارزوكُم لفرطِ رهبتِهم وقُرِىءَ جُدْرٍ بالتخفيفِ وقُرِىءَ جدارٍ وبإمالةِ فتحةِ الدالِ وجَدْرٍ وجدرٍ وهما الجدارُ ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ استئنافٌ سيقَ لبيانِ أن ما ذكرَ من رهبتِهم ليسَ لضعفِهم وجبنِهم في أنفسِهم فإنَّ بأسَهُم بالنسبةِ إلى أقرانِهم شديدٌ وإنما ضعفُهُم وجبنُهُم بالنسبةِ إليكُم بما قذفَ اللهُ تعالَى قلوبَهم من الرعبِ ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً ﴾ مجتمعينَ متفقينَ ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شتى ﴾ متفرقةٌ لا ألفةَ بينَها ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي ما ذُكِرَ من تشتتِ قلوبِهم بسببِ أنَّهم ﴿ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾ أي لا يعقلونَ شيئاً حتَّى يعرفُوا الحقَّ ويتبعُوه وتطمئنَ به قلوبُهم وتتحدَ كلمتُهُم ويرمُوا عن قوسٍ واحدةٍ فيقعونَ في تيهِ الضلالِ وتشتتِ قلوبِهم حسبَ تشتتِ طرقِهِ وتفرقِ فنونِهِ ، وأمَّا ما قِيلَ مِنْ أنَّ المعنى لا يعقلونَ أنَّ تشتتَ القلوبِ مما يُوهِنُ قُواهُم فبمعزلٍ منَ السدادِ . وقولُهُ تعالَى :

﴿ كَمَثَلِ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ تقديرُهُ مثلُهم أيْ مثلُ المذكورينَ من اليهودِ والمنافقينَ كمثلِ أهلِ بدرٍ أو بني قَينُقَاعٍ على ما قيلَ من أنهم أُخرجُوا قبلَ بني النضيرِ ﴿ قَرِيبًا ﴾ في زمانٍ قريبٍ، وانتصابُهُ بمثلَ، إذِ التقديرُ كوقوعِ مثلِ الخ ﴿ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي سوءَ عاقبةِ كُفرِهِم في الدُّنيا ﴿ وَلَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لا يُقَادرُ قَدْرُهُ والمَعْنَى أنَّ حالَ هؤلاءِ كحالِ أولئكَ في الدُّنيا والآخرةِ لكنْ لا على أنَّ حالَ كُلِّهم كحالِهِم بلْ حالُ بعضِهِم الذينَ هم اليهودُ كذلكَ وأما حالُ المنافقينَ فهي ما نطقَ به.

(57/756)

قولُه تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الشيطان ﴾ فإنَّه خبرٌ ثانٍ للمبتدأ المقدرِ مبينٌ لحالِهم متضمنٌ لحالٍ أُخْرَى لليهودِ وهي اغترارُهم بمقالةِ المنافقينَ أولاً وخيبتُهُم آخِراً وقد أُجْمِلَ في النظمِ الكريمِ، حيثُ أُسنِدَ كلٌّ من الخبرينِ إلى المقدرِ المضافِ إلى ضميرِ الفريقينِ منْ غيرِ تعيينِ ما أُسْنِدَ إليهِ بخصوصِهِ ثقةً بأنَّ السامعَ يردُّ كلاً من المثلينِ إلى ما يماثلُه كأنَّهُ قيلَ مثلُ اليهودِ في حلولِ العذابِ بهم كمثلِ الذينَ منْ قبلِهم الخ. ومثلُ المنافقينَ في إغرائِهم إيَّاهُم على القتالِ حسبما نُقِلَ عنهُم كمثلِ الشيطانِ ﴿ إِذْ قَالَ للإنسان اكفر ﴾ أيْ أغراهُ على الكفرِ إغراءَ الآمرِ المأمورَ على المأمورِ به ﴿ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنّى بَرِىء مّنكَ ﴾ وقُرِىءَ أنا بريءٌ منكَ. إنْ أريدَ

بالإنسانِ الجنسُ فهذا التبرؤُ من الشيطانِ يكونُ يومَ القيامةِ كما ينبىءُ عنْهُ قولُه تعالى ﴿ إِنّي أَخَافُ الله رَبَّ العالمين ﴾ وإنْ أُريدَ بِه أبو جهلٍ ، فقولُه تعالى : ﴿ اكفر ﴾ عبارةٌ عنْ قولِ إبليس يومَ بدرٍ ﴿ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليوم مِنَ الناس وَإِنّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ وتبرؤه قولُه يومئذٍ ﴿ إِنّي بَرِىء مّنْكُمْ إِنّي أرى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنّي أَخَافُ الله ﴾ الآيةَ ﴿ فَكَانَ عاقبتهما ﴾ بالنصبِ على أنَّهُ خبرُ كانَ واسمُهَا ﴿ أَنَّهُمَا فِى النار ﴾ وقرىءَ بالعكسِ وقد مرَّ أنه أوضحُ ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ وقُرِىءَ خالدانِ فيها عَلى أنه خبرُ أنَّ وفي النارِ لغوٌ ﴿ وَذَلِكَ جَزَاء الظالمين ﴾ أي الخلودُ في النارِ جزاءُ الظالمينَ على الإطلاقِ دونَ هؤلاءِ خاصّةً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(58/756)

وقال الآلوسى :

﴿ كَمَثَلِ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾

خبر مبتدأ محذوف تقديره مثلهم أي مثل المذكورين من اليهود بني النضير ، أو منهم ومن المنافقين كمثل أهل بدر كما قال مجاهد أو كبني قنيقاع كما قال ابن عباس وهم شعب من اليهود الذين كانوا حوالي المدينة غزاهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم السبت على رأس

عشرين شهراً من الهجرة في شوال قبل غزوة بني النضير حيث كانت في ربيع سنة أربع وأجلاهم عليه الصلاة والسلام إلى أذرعات على ما فصل في كتب السير.

وقيل: أي مثل هؤلاء المنافقين كمثل منافقي الأمم الماضية ﴿ قَرِيبًا ﴾ ظرف لقوله تعالى: ﴿ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي ذاقوا سوء عاقبة كفرهم في زمن قريب من عصيانهم أي لم تتأخر عقوبتهم وعوقبوا في الدنيا إثر عصيانهم.

وقيل: انتصاب ﴿ قَرِيبًا ﴾ بمثل إذ التقدير كوقوع مثل الذين، وتعقب بأن الظاهر أنه أريد أن في الكلام مضافاً هو العامل حقيقة في الظرف إلا أنه لما حذف عمل المضاف إليه فيه لقيامه مقامه، ولا يخفى أن المعنى ليس عليه لأن المراد تشبيه المثل بالمثل أي الصفة الغريبة لهؤلاء بالصفة الغريبة للذين من قبلهم دون تشبيه المثل بوقوع المثل، وأجيب بأن الإضافة من إضافة الصفة إلى موصوفها فيرجع التشبيه إلى تشبيه المثل بالمثل فكأنه قيل: مثلهم كمثل الذين من قبلهم الواقع قريباً، وفيه أن ذلك التقدير ركيك وما ذكر لا يدفع الركاكة، والقول بتقدير مضاف في جانب المبتدأ أيضاً أي وقوع مثلهم كوقوع مثل الذين من قبلهم قريباً فيكون قد شبه وقوع المثل بوقوع المثل تعسف لا ينبغي أن يرتكب في الفصيح.

وقيل : إن العامل فيه التشبيه أي يشبونهم في زمن قريب ، وقيل : متعلق الكاف لأنه يدل على الوقوع ، وكلا القولين كما ترى ، ولا يبعد تعلقه بما تعلقت به الصلة أعني من قبلهم أي الذين كانوا من قبلهم في زمن قريب فيفيد أن قبليتهم قبلية قريبة ، ويلزم من ذلك قرب ما فعل بهم وهو المثل ، ويكون هذا مطمح النظر في الإفادة ويتضمن تعييرهم بأنهم كانت لهم في أهل بدر ؛ أو بني قينقاع أسوة فبعد لم ينطمس آثار ما وقع بهم وهو كذلك على تقدير الوقوع ونحوه ، وجملة ﴿ ذَاقُواْ ﴾ مفسرة للمثل لا محل لها من الإعراب ، ويتعين تعلق ﴿ قَرِيبًا ﴾ بما بعد على تقدير أن يراد بمن قبل منافقو الأمم الماضية فتدبر ﴿ وَلَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لا يقادر قدره ، والجملة قيل : عطف على الجملة السابقة وإن اختلفتا فعلية واسمية ، وقيل : حال مقدرة من ضمير ﴿ ذَاقُواْ ﴾ وأياً مّا كان فهو داخل في حيز المثل ، وقيل : عطف على جملة مثلهم كمثل الذين من قبلهم ولا يخفى بعده ، وقوله تعالى :

(60/756)

﴿ كَمَثَلِ الشيطان ﴾ جعله غير واحد خبر مبتدأ محذوف أيضاً أي مثلهم كمثل الشيطان على أن ضمير مثلهم ههنا للمنافقين وفيما تقدم لبني النضير ، وقال بعضهم : ضمير مثلهم المقدر في الموضعين للفريقين ، وجعله بعض المحققين خبراً ثانياً للمبتدأ

المحذوف في قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الذين ﴾ [الحشر: 15] على أن الضمير هناك للفريقين إلا أن المثل الأول: يخص بني النضير، والثاني: يخص المنافقين، وأسند كل من الخبرين إلى ذلك المقدر المضاف إلى ضميرهما من غير تعيين ما أسند إليه بخصوصه ثقة بأن السامع يرد كلاًّ إلى ما يليق به وبما ثله كأنه قيل: مثل أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب في حلول العذاب بهم كمثل الذين من قبلهم ومثل المنافقين في إغرائهم إياهم على القتال حسبما نقل عنهم كمثل الشيطان ﴿ إِذْ قَالَ للإنسان اكفر ﴾ أي أغراه على الكفر إغراء الآمر للمأمور به فهو تمثيل واستعارة ﴿ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنّى بَرِىء مّنكَ إِنّى أَخَافُ الله رَبَّ العالمين ﴾ تبرأ منه مخافة أن يشاركه في العذاب ولم ينفعه ذلك كما قال سبحانه:

﴿ فَكَانَ عاقبتهما أَنَّهُمَا فِى النار خالدين فِيهَا ﴾ أبد الآبدين ﴿ وَذَلِكَ ﴾ أي الخلود في النار ﴿ مِنَ الظالمين ﴾ على الإطلاق دون المذكورين خاصة، والجمهور على أن المراد بالشيطان والإنسان الجنس فيكون التبري يوم القيامة وهو الأوفق بظاهر قوله: ﴿ إِنّى أَخَافُ ﴾ [الحشر: 16] الخ.

وذهب بعضهم إلى أن المراد بالشيطان إبليس ، وبالإنسان أبو جهل عليهما اللعنة قال له يوم بدر : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما وقعوا فيما وقعوا قال : ﴿ إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله ﴾ [الأنفال : 48] الآية ، وفي الآية عليه مع ما تقدم عن مجاهد لطيفة ؛ وذلك أنه لما شبه أولاً حال إخوان المنافقين من أهل الكتاب بحال أهل بدر شبه هنا حال المنافقين بحال الشيطان في قصة أهل بدر ، ومعنى ﴿ اكفر ﴾ على تخصيص الإنسان بأبي جهل دم على الكفر عند بعضد وقال الخفاجي : لا حاجة لتأويله بذلك لأنه تمثيل .

وأخرج أحمد في الزهد .

والبخاري في تاريخه .

والبيهقي في "الشعب" .

والحاكم وصححه .

وغيرهم عن علي كرم الله تعالى وجهه أن رجلاً كان يتعبد في صومعته وأن امرأة كانت لها إخوة فعرض لها شيء فأتوه بها فزينت له نفسه فوقع عليها فحملت فجاءه الشيطان فقال : اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت فقتلها ودفنها فجاءوه فأخذوه فذهبوا به فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال : أنا الذي زينت لك فاسجد لي سجدة أنجيك فسجد له أي ثم تبرأ منه وقال له ما قال ، فذلك قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ للإنسان اكفر

﴾ [الحشر : 16] الآية ، وهذا الرجل هو برصيصا الراهب ، وقد رويت قصته على وجه أكثر تفصيلاً مما ذكر وهي مشهورة في القصص ، وفي "البحر" إن قول الشيطان : ﴿ إِنِّى أَخَافُ اللهَ ﴾ [الحشر : 16] كان رياءاً وهو لا يمنعه الخوف عن سوء يوقع فيه ابن آدم ؛ وقرىء أنا بريء ، وقرأ الحسن .

وعمرو بن عبيد .

وسليم بن أرقم فكان عاقبتهما بالرفع على أنه اسم كان ، وأنهما الخ في تأويل مصدر خبرها على عكس قراءة الجمهور .

وقرأ عبد الله .

وزيد بن علي .

والأعمش .

(62/756)

وابن أبي عبلة خالدان بالألف على أنه خبر إن ، ﴿ وَفِى النار ﴾ متعلق به ، وقدم للاختصاص ، وفيها تأكيد له وإعادة بضميره ، وجوز أن يكون في النار خبر إن ، وخالدان

خبر ثانياً وهو في قراءة الجمهور حال من الضمير في الجار والمجرور . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(63/756)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ﴾

خبر مبتدأ محذوف دلّ عليه هذا الخبر ، فالتقدير : مثلهم كمثل الذين من قبلهم قريباً ، أي حال أهل الكتاب الموعود بنصر المنافقين كحال الذين مِن قبلهم قريباً .

والمراد : أن حالهم المركبة من التظاهر بالبأس مع إضمار الخوف من المسلمين ، ومن التفرق بينهم وبين إخوانهم من أهل الكتاب ، ومن خذلان المنافقين إياهم عند الحاجة ، ومن أنهم لا يقاتلون المسلمين إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر ، كَحال الذين كانوا من قبلهم في زمن قريب وهم بنو النضير فإنهم أظهروا الاستعداد للحرب وأَبوا الجلاء ، فلم يحاربوا إلا في قريتهم إذ حصنوها وقبعوا فيها حتى أعياهم الحصار فاضطُرّوا إلى الجلاء ولم ينفعهم المنافقون ولا إخوانهم من أهل الكتاب .

وعن مجاهد أن ﴿ الذين من قبلهم ﴾ المشركون يوم بدر .

و﴿ مِنْ ﴾ زائدة لتأكيد ارتباط الظرف بعامله.

وانتصب ﴿ قريباً ﴾ على الظرفية متعلقاً بالكون المضمر في قوله: ﴿ كمثل ﴾، أي كحالِ كائن قريب، أو انتصب على الحال من ﴿ الذين ﴾ أي القوم القريب منهم، كقوله: ﴿ وما قوم لوط منكم بِبَعيد ﴾ [هود: 89].

والوبال أصله: وخامة المرعى المستلذ به للماشية يقال: كلأ وبيل، إذا كان مَرعى خَضِراً "حلواً" تهشّ إليه الإِبل فيحبطها ويمرضها أو يقتلها، فشبهوا في إقدامهم على حرب المسلمين مع الجهل بعاقبة تلك الحرب بإبل ترامت على مرعى وبِيل فهلكت وأُثبت الذوق على طريقة المكنية وتخييلها، فكان ذكر ﴿ ذاقوا ﴾ مع ﴿ وبال ﴾ إشارة إلى هذه الاستعارة.

و﴿ أمرهم ﴾ شأْنُهم وما دبّروه وحسبوا له حسابه وذلك أنهم أوقعوا أنفسهم في الجلاء وترك الديار وما فيها، أي ذاقوا سوء أعمالهم في الدنيا.

(64/756)

وضمير ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ عائد إلى ﴿ الذين من قبلهم ﴾ أي زيادة على ما ذاقوه من عذاب الدنيا بالجلاء وما فيه من مشقة على الأنفس والأجساد لهم عذاب أليم في

الآخرة على الكفر .

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16)

هذا مثل آخر لمُمَثَّل آخر ، وليس مثلاً منضمًّا إلى المثل الذي قبله لأنه لو كان ذلك لكان معطوفاً عليه بالواو ، أو بـ (أو) كقوله تعالى ﴿ أو كصيّب من السماء ﴾ [البقرة : 19] .

والوجه : أن هذا المثل متصل بقوله : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ [الحشر : 15] كما يفصح عنه قوله في آخره : ﴿ فكان عاقبتهما أنهما في النار ﴾ الآية ، أي مثلهم في تسبيبهم لأنفسهم عذاب الآخرة كمثل الشيطان إذ يوسوس للإنسان بأن يكفر ثم يتركه ويتبرأ منه فلا ينتفع أحدهما بصاحبه ويقعان معاً في النار .

فجملة ﴿ كمثل الشيطان ﴾ حال من ضمير ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ [الحشر : 15] أي في الآخرة .

والتعريف في ﴿ الشيطان ﴾ تعريف الجنس وكذلك تعريف "الإنسان" .

والمراد به الإنسان الكافر .

ولم تُرد في الآخرة حادثة معيَّنة من وسوسة الشيطان لإنسان معيَّن في الدنيا ، وكيف يكون ذلك والله تعالى يقول : ﴿ فلمّا كفَرَ قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾ ،

وهل يتكلم الشيطان مع الناس في الدنيا فإن ظاهرة قوله : ﴿ قال إني بريء منك ﴾ أنه يقوله للإنسان ، وإما احتمال أن يقوله في نفسه فهو احتمال بعيد .

فالحق : أن قول الشيطان هذا هو ما في آية ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ في سورة [إبراهيم : 22] .

(65/756)

وقد حكى ابن عباس وغيرهما من السلف في هذه الآية قصة راهب بحكاية مختلفة جعلت كأنها المراد من الإنسان في هذه الآية .

ذكرها ابن جرير والقرطبي وضعَّف ابن عطية أسانيدها فلئن كانوا ذكروا القصة فإنما أرادوا أنها تصلح مثالاً لما يقع من الشيطان للإنسان كما مال إليه ابن كثير .

فالمعنى : إذ قال للإنسان في الدنيا : اكفر ، فلما كفر ووافى القيامة على الكفر قال الشيطان يوم القيامة : إني بريء منك ﴾ ، أي قال كل شيطان لقرينه من الإنس : ﴿ إنّي بريء منك ﴾ طمعاً في أن يكون ذلك منجيه من العذاب .

ففي الآية إيجاز حذف حُذف فيها معطوفات مقدرة بعد شرط (لَمَّا) هي داخلة في الشرط إذ التقدير : فلما كفر واستمر على الكفر وجاء يوم الحشر واعتذر بأن الشيطان أضله قال الشيطان : ﴿ إني بريء منك ﴾ الخ .

وهذه المقدرات مأخوذة من آيات أخرى مثل آية سورة إبراهيم وآية سورة [ق : 27] .

﴿ قال قرينه ربّنا ما أطغيته ﴾ الآية .

وظاهر أن هذه المحاجة لا تقع إلا في يوم الجزاء وبعد موت الكافر على الكفر دون من أسلموا .

وقول : فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ﴾ من تمام المثل .

أي كان عاقبة الممثل بهما خسرانهما معاً .

وكذلك تكون عاقبة الفريقين الممثلين أنهما خائبان فيما دبّرا وكادا للمسلمين .

وجملة ﴿ وذلك جزاء الظالمين ﴾ تذييل ، والإشارة إلى ما يدل عليه ﴿ فكان عاقبتهما أنهما في النار ﴾ من معنى ، فكانت عاقبتهما سوأى والعاقبة السّوأى جزاء جميع الظّالمين المعتدين على الله والمسلمين ، فكما كانت عاقبة الكافر وشيطانه عاقبة سوء كذلك تكون عاقبة الممثلين بهما وقد اشتركا في ظلم أهل الخير والهدى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20) لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أبلغ سبحانه في المواعظ في هذه السورة قولاً وفعلاً ، وكانت الإيقاعات المذكورة فيها مسببة عن الخيانات ممن كان له عهد فنقضه ، أو ممن كان أظهر الإيمان فأبان فعله كذبه ، قال سبحانه وتعالى استنتاجاً عن ذلك وعظاً للمؤمنين لأن الوعظ بعد المصائب أوقع في النفس وأعظم في ترقيق القلب وتحذيره مما يوجب العقوبة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ منادياً لهم نداء البعد معبراً بأدنى أسنان الإيمان لأنه عقب ذكر من أقر بلسانه فقط ﴿ اتقوا الله ﴾ أي اجعلوا لكم وقاية تقيكم سخط الملك الأعظم الذي لا أمر لأحد معه ولا بد أن يستعرض عبيده ، فاحذروا عقوبته بسبب التقصير فيما حده لكم من أمر أو نهي ﴿ ولتنظر نفس ﴾ أي كل نفس تنظر إلى نفاستها وتريد العلو على أقرانها ، ولعله وحدها للإشارة مع إفادة

التعميم إلى قلة الممثل لهذا الأمر جداً ﴿ ما قدمت ﴾ أي من الزاد الذي يكون به صلاح المنزل الذي من لم يسع في إصلاحه لم يكن له راحة ، هل يرضي الملك ما قدمته فينجيها أو يغضبه فيرديها .

ولما كان الأجل مبهم الوقت ، فكان لقاء الله في كل يوم بل كل لحظة للعاقل مترقباً لكونه ممكناً مع كونه على الإطلاق محققاً لا يجهله أحد ، قال مشيراً بتنكيره وإبهامه إلى تهويله وإعظامه : ﴿ لغد ﴾ أي لأجل العرض بعد الموت أو في يوم القيامة الذي هو في غاية القرب لأن هذه الدنيا كلها يوم واحد يجيء فيه ناس ويذهب آخرون ، والموت أو الآخرة غده ، لا بد من كل منهما ، وكل ما لا بد منه فهو في غاية القرب لا سيما إن كان باقياً غير منقض ، وكل من نظر لغده أحسن مراعاة يومه ، وتنوينه للتعظيم من جهات لا تحصى .

ولما أمر بتقواه سبحانه خوفاً من سطواته أمر بتقواه لأجل مراقبته حياء من جلالته وهيبته تأكيداً للأمر لأن مدار النجاة على التقوى لأن مكايد الشيطان دقيقة ، فمن لم يبالغ في محاسبة نفسه وتفقد ما يمكن أن يكون من الخلل في أعماله أوشك أن يحبط الشيطان أعماله فقال تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي الجامع لجميع صفات الكمال أي اتقوه حياء منه ،

فالتقوى الأولى لإيجاد صور الأعمال ، وهذه لتصفيتها وتزكية أرواحها ، ولذلك علل بقوله مرغباً مرهباً : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى ﴿ خبير ﴾ أي عظيم الاطلاع على ظواهركم وبواطنكم والإحاطة ﴿ بما تعملون ﴾ فلا تعملون عملاً إلا كان بمرأى منه ومسمع فاستحيوا منه ، وكرر الاسم الأعظم كراهية أن يظن تقييد التقوى بحيثية من الحيثيات تعظيماً لهذا المقام إعلاماً بأن شؤونه لا تنحصر وأن إحاطته لا تخص مقاماً دون مقام ولا شأناً سوى شأن .

(68/756)

ولما هز إلى تقواه تارة بالخوف وأخرى بالحياء تأكيداً لها ، وعلل ذلك بما له شعبة من التحذير ، وكان الإنسان لما له من النسيان أحوج إلى التحذير ، قال مؤكداً لشعبته وإيضاحاً لأن التقوى الثانية لمحاسبة النفس في تصفية العمل : ﴿ ولا تكونوا ﴾ أيها المحتاجون إلى التحذير وهم الذي آمنوا ﴿ كالذين نسوا الله ﴾ أي أعرضوا عن أوامره ونواهيه وتركوها ترك الناسين لمن برزت عنه مع ما له من صفات الجلال والإكرام لما استغواهم به من أمره الشيطان حتى أبعدهم جداً عن العمران ﴿ فأنساهم ﴾ أي فتسبب عن ذلك أن أنساهم بما له من الإحاطة بالظواهر والبواطن ﴿ أنفسهم ﴾ فلم يقدموا لها ما ينفعها وإن قدموا

شيئاً كان مشوباً بالمفسدات من الرياء والعجب ، فكانوا مما قال فيه .

سبحانه وتعالى ﴿ وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية ﴾ [الغاشية : 2 - 3 - 4 - 5] لأنهم لم يدعوا باباً من أبواب الفسق فإن رأس الفسق الجهل بالله ، ورأس العلم ومفتاح الحكمة معرفة النفس ، فأعرف الناس بنفسه أعرفهم بربه " من عرف نفسه فقد عرف ربه " .

ولما كانت ثمرة ذلك أنهم أضاعوها - أي التقوى - فهلكوا قال : ﴿ أولئك ﴾ أي البعيدون من كل خير ﴿ هم ﴾ أي خاصة دون غيرهم ﴿ الفاسقون ﴾ أي العريقون في المروق من دائرة الدين .

(69/756)

ولما تم الدليل على أن حزب الله هم المفلحون لما أيدهم به في هذه الحياة الدنيا من النصر والشدة على الأعداء واللين والمعاضدة للأولياء وسائر الأفعال الموصلة إلى جنة المأوى ، وصرح في آخر الدليل بخسران حزب الشيطان فعلم أن لهم مع هذا الهوان عذاب النيران ، وكان المغرور بعد هذا بالدنيا الغافل عن الآخرة لأجل شهوات فانية وحظوظ زائلة عاملاً عمل من يعتقد أنه لا فرق بين الشقي بالنار والسعيد بالجنة لتجشمه التجرع لمرارات

الأعمال المشتملة عليها ، أشج ذلك قوله منزلاً لهم منزلة الجازم بذلك أو الغافل عنه تنبيهاً لهم على غلطهم وإيقاظاً من غفلتهم : ﴿ لا يستوي ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ أصحاب النار ﴾ التي هي محل الشقاء الأعظم ﴿ وأصحاب الجنة ﴾ التي هي دار النعيم الأكبر لا في الدنيا ولا في الآخرة وهي من أدلة أنه لا يقتل مسلم بكافر .

ولما كان نفي الاستواء غير معلم في حد ذاته بالأعلى من الأمرين ، كان هذا السياق معلماً بما حفه من القرائن بعلو أهل الجنة ، صرح به في قوله : ﴿ أصحاب الجنة هم ﴾ أي خاصة ﴿ الفائزون ﴾ المدركون لكل محبوب الناجون من كل مكروه ، وأصحاب النار هم الهالكون في الدارين كما وقع في هذه الغزوة لفريقي المؤمنين وبني النضير ومن والاهم من المنافقين ، فشتان ما بينهما .

(70/756)

ولما كان قد مر في هذه السورة فضلاً عما تقدمها من حكمة هذا القرآن وإعجازه تارة بمطابقته لما نزل بسببه مطابقة تجلو عنه كل إشكال ، وتارة بما يشاهد من صدقه فيما أخبر بإتيانه من الأفعال ، وأخرى بما يتحدى به من الأقوال ، ومرة بنظم كل جملة مع ما تقدمها على ما لم يكن لبشر مثله في الأحوال إلى غير ذلك من أمور لا يحصرها المقال ، ترتب

على ذلك قوله مبيناً أن سبب افتراق الفريقين في العقبى افتراقهم في هذا القرآن في الأولى تمثيلاً للقلوب في قسوتها أو لينها عند سماع القرآن وتخيلاً توبيخاً للقاسي ومدحاً للعاطف اللين لافتاً القول إلى أسلوب العظمة لاقتضاء الحال لها : ﴿ لو أنزلنا ﴾ بعظمتنا التي أبانها هذا الإنزال ﴿ هذا القرآن ﴾ أي الجامع لجميع العلوم ، الفارق بين كل ملتبس - المبين لجميع الحكم ﴿ على جبل ﴾ أي أي جبل كان ﴿ لرأيته ﴾ مع صلابته وفوته يا أشرف الخلق إن لم يتأهل غيرك لمثل تلك الرؤية ﴿ خاشعاً ﴾ أي مطمئناً مخبتاً على صلابته متذللاً باكياً ﴿ متصدعاً ﴾ أي متشققاً غاية التشقق كما تصدع الطور لتجلينا له بما دون ذلك من العظمة التي جلونا كلامنا الشريف لموسى عليه السلام في ملابسها ﴿ من خشية الله ﴾ أي من الخوف العظيم من له الكمال كله حذراً من أن لا يكون مؤدياً ما افترض عليه من تعظيم القرآن عند سماعه فما لابن لآدم وقد آتاه الله من العقل ما لم يؤت الجبل يستخف بحقه ، ويعرض عما فيه من العبر ، وفي الآية مدح للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ثباته لما لا تثبت له الجبال ، وذم للمعرضين بكونهم أقسى من الجبال .

(71/756)

ولما كان التقدير تبكيتاً وتوبيخاً لمن لم يرق للقرآن ﴿ أفلم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ﴾ [الحديد : 16] فإنا قد فصلنا لهم الحلال والحرام والأمر والنهي وأوضحنا الحكم ودللنا على المتشابه وقصصنا الأقاصيص بعد جعلهم عقلاء ناطقين ، فتلك أقاصيص الماضين لعلهم يعتبرون عطف عليه قوله : ﴿ وتلك الأمثال ﴾ أي التي لا يضاد فيها شيء ﴿ نضربها للناس ﴾ أي الذي يحتاجونها وهم من فيهم تذبذب واضطراب ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ أي لتكون حالهم عند من ينظرهم حال من يرجى تفكره في تلك الأمثال فينفعه ذلك إذا أراد التفكر إلى التذكر فرأى تنبيه الرسول .صلى الله عليه وسلم .له أن كل ما في القرآن من شيء فيه مشاهد منه متطابق له كتاب الخلق وكتاب الأمر فتخلى عن الشهوات البهيمية فنجا من الحظوظ النفسية فتحلى بالملابس الروحانية فصار بالمجاهدات والمنازلات إلى الصفات الملكية فكان أهلاً للمقامات القدسية في الجنان العلية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 534.537 ﴾

(72/756)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾

ثم إنه تعالى رجع إلى موعظة المؤمنين فقال : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ اتقوا الله وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ .

الغد : يوم القيامة سماه باليوم الذي يلي يومك تقريباً له ، ثم ذكر النفس والغد على سبيل التنكير.

أما الفائدة في تنكير النفس فاستقلال الأنفس التي تنظر فيما قدمت للآخرة كأنه قال : فلتنظر نفس واحدة في ذلك ، وأما تنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره كأنه قيل : الغد لا يعرف كنهه لعظمه .

ثم قال : ﴿ واتقوا الله إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ كرر الأمر بالتقوى تأكيداً أو يحمل الأول : على أداء الواجبات والثاني : على ترك المعاصي .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كالذين نَسُواْ الله فأنساهم أَنفُسَهُمْ ﴾ وفيه وجهان : الأول : قال المقاتلان : نسوا حق الله فجعلهم ناسين حق أنفسهم حتى لم يسعوا لها بما ينفعهم عنده الثاني : ﴿ فأنساهم أَنفُسَهُمْ ﴾ أي أراهم يوم القيامة من الأهوال ما نسوا فيه أنفسهم ، كقوله : ﴿ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ ﴾ [إبراهيم : 43] ﴿ وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى ﴾ [الحج : 2] .

ثم قال : ﴿ أولئك هُمُ الفاسقون ﴾ والمقصود منه الذم ، واعلم أنه تعالى لما أرشد المؤمنين

إلى ما هو مصلحتهم يوم القيامة بقوله : ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر : 18]

وهدد الكافرين بقوله : ﴿ كالذين نَسُواْ الله فأنساهم أَنفُسَهُمْ ﴾ بين الفرق بين الفريقين فقال :

لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20)

واعلم أن التفاوت بين هذين الفريقين معلوم بالضرورة ، فذكر هذا الفرق في مثل هذا الموضع يكون الغرض منه التنبيه على عظم ذلك الفرق ، وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(73/756)

المعتزلة احتجوا على أن صاحب الكبيرة لا يدخل الجنة ، لأن الآية دلت على أن أصحاب النار وأصحاب الجنة لا يستويان ، فلو دخل صاحب الكبيرة في الجنة لكان أصحاب النار وأصحاب الجنة يستويان ، وهو غير جائز ، وجوابه معلوم .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالذمي ، وقد بينا وجهه في الخلافيات .

ثم إنه تعالى لما شرح هذه البيانات عظم أمر القرآن فقال :

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرءان على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خاشعا مُّتَصَدّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ والمعنى أنه لو جعل في الجبل عقل كما جعل فيكم ، ثم أنزل عليه القرآن لخشع وخضع وتشقق من خشية الله .

ثم قال : ﴿ وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي الغرض من ذكر هذا الكلام التنبيه على قساوة قلوب هؤلاء الكفار ، وغلظ طباعهم ، ونظيره قوله : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مّن بَعْدِ ذلك فَهِيَ كالحجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة : 74] . انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 253 . 254 ﴾

(74/756)

وقال ابن عطية :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾

هذه آية وعظ وتذكير وتقريب للآخرة ، وتحذير ممن لا تخفى عليه خافية .

(75/756)

وقرأ جمهور الناس : " ولْتنظرْ " بسكون اللام وجزم الراء على الأمر ، وقرا يحيى بن الحارث وأبو حيوة وفرقة كذلك بالأمر إلا أنها كسرت اللام على أصل لام الأمر ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن فيما روي عنه : " ولتنظرَ " بنصب الراء على لام كي كأنه قال وأمرنا بالتقوى لتنظروا ، كأنه قال : ﴿ اتقوا الله ﴾ ولتكن تقواكم "لتنظرَ" ، وقوله تعالى : ﴿ لغد ﴾ يريد يوم القيامة ، قال قتادة : قرب الله القيامة حتى جعلها غداً ، وذلك أنها آتية لا محالة وكل آت قريب ، ويحتمل أن يريد بقوله ﴿ لغد ﴾ : ليوم الموت ، لأنه لكل إنسان كغده ومعنى الآية : ما قدمت من الأعمال ، فإذا نظرها الإنسان تزيد من الصالحات ، وكف عن السيئات ، وقال مجاهد وابن زيد : الأمس : الدنيا ، وغد : الآخرة ، وقرأ الجمهور : " ولا تكونوا " بالتاء من فوق على مخاطبة جميع الذين آمنوا ، وقرأ أبو حيوة "يكونوا " بالياء من تحت كناية عن النفس التي هي اسم الجنس ، و﴿ الذين نسوا الله ﴾ هم الكفار ، والمعنى : تركوا الله وغفلوا عنه ، حتى كانوا كالناسين ، وعبر عما حفهم به من الضلالة ب ﴿ فأنساهم أنفسهم ﴾ سمى عقوبتهم باسم ذنبهم بوجه ما ، وهذا أيضاً هو الجزاء على الذنب بالذنب تكسبوهم نسيان جهة الله فعاقبهم الله تعالى بأن جعلهم ينسون أنفسهم ، قال سفيان : المعنى حظ أنفسهم ، ويعطي لفظ هذه الآية ، أن من عرف نفسه ولم ينسها عرف ربه تعالى ، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : اعرف نفسك تعرف ربك ، وروي عنه أنه قال أيضاً : من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه . وقرأ ابن مسعود : " ولا أصحاب

الجنة " بزيادة لا . وقوله تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن ﴾ الآية ، موعظة للإنسان أو ذم لأخلاقه في غفلته وإعراضه عن داعي الله تعالى ، وذلك أن القرآن نزل عليهم وفهموه وأعرضوا عنه ، وهو لو نزل على جبل وفهم الجبل منه ما فهم الإنسان لخشع واستكان وتصدع خشية لله تعالى ، وإذا كان الجبل على عظمه وقوته

(76/756)

يفعل هذا فما عسى أن يحتاج ابن آدم يفعل ؟ لكنه يعرض ويصد على حقارته وضعفه ، وضرب الله تعالى هذا المثل ليتفكر فيه العاقل ويخشع ويلين قلبه ، وقرأ طلحة بن مصرف " مصدعاً " على إدغام التاء في الصاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(77/756)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله ﴾

في أوامره ونواهيه ، وأداء فرائضه واجتناب معاصيه .

﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ يعني يوم القيامة .

والعرب تكني عن المستقبل بالغد .

وقيل : ذِكْر الغَدِ تنبيهاً على أن الساعة قريبة ؛ كما قال الشاعر :

وإن غداً للناظرين قريب . . .

وقال الحسن وقتادة : قرّب الساعة حتى جعلها كغَدٍ .

ولا شك أن كل آتٍ قريبٌ ؛ والموت لا محالة آتٍ .

ومعنى "ما قَدَّمت" يعني من خير أو شر .

﴿ واتقوا الله ﴾ أعاد هذا تكريراً ، كقولك : اعجل اعجل ، اِرْمِ اِرْمِ .

وقيل التقوى الأولى التوبة فيما مضى من الذنوب ، والثانية اتقاء المعاصي في المستقبل .

﴿ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قال سعيد بن جبير : أي بما يكون منكم .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كالذين نَسُواْ الله ﴾

أي تركوا أمره ﴿ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أن يعملوا لها خيراً ؛ قاله ابن حبان .

وقيل : نسوا حق الله فانساهم حق أنفسهم ؛ قاله سفيان .

وقيل : ﴿ نَسُواْ الله ﴾ بترك شكره وتعظيمه .

﴿ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالعذاب أن يذكر بعضهم بعضاً ؛ حكاه ابن عيسى .

وقال سهل بن عبد الله: ﴿ نَسُوا اللهَ ﴾ عند الذنوب ﴿ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ عند التوبة.

ونسب تعالى الفعل إلى نفسه في "أَنسَاهُمْ" إذ كان ذلك بسبب أمره ونهيه الذي تركوه.

وقيل: معناه وجدهم تاركين أمره ونهيه؛ كقولك: أحمدت الرجل إذا وجدته محموداً.

وقيل: ﴿ نَسُوا اللهَ ﴾ في الرخاء ﴿ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ في الشدائد.

﴿ أولئك هُمُ الفاسقون ﴾ قال ابن جبير: العاصون.

وقال ابن زيد: الكاذبون.

وأصل الفسق الخروج؛ أي الذين خرجوا عن طاعة الله.

قوله تعالى: ﴿ لاَ يستوي أَصْحَابُ النار وَأَصْحَابُ الجنة ﴾

أي في الفضل والرتبة ﴿ أَصْحَابُ الجنة هُمُ الفائزون ﴾ أي المقربون المكرمون.

وقيل: الناجون من النار.

(78/756)

وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في "المائدة" عند قوله تعالى: ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الخبيث والطيب ﴾ [المائدة: 100].

وفي سورة "السجدة" عند قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة: 18].

وفي سورة "ص" ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِي الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ [ص: 28] فلا معنى للإعادة، والحمد الله.

قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هذا القرآن على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً ﴾

حث على تأمّل مواعظ القرآن، وبيّن أنه لا عذر في ترك التدبُّر؛ فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبالُ مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعةً متصدّعةً؛ أي متشقّقةً من خشية الله.

والخاشع: الذليل.

والمتصدع: المتشقق.

وقيل: "خَاشِعاً" لله بما كلّفه من طاعته.

﴿ مُّتَصَدِّعاً ﴾ من خشية الله أن يعصيه فيعاقبه.

وقيل: هو على وجه المثل للكفار.

قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ أي إنه لو أنزل هذا القرآن على جبل لخشع لوعده وتصدّع لوعيده؛ وأنتم أيها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده، ولا ترهبون من وعيده! وقيل: الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أي لو انزلنا هذا القرآن يا محمد على

جبل لما ثبت ، وتصدع من نزوله عليه ؛ وقد أنزلناه عليك وثبّتناك له ؛ فيكون ذلك امتنانا عليه أن ثبّته لما لا تثبت له الجبال .

وقيل : إنه خطاب للأمة ، وأن الله تعالى لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدعت من خشية الله .

والانسان أقل قوة وأكثر ثباتا ؛ فهو يقوم بحقه إن أطاع ، ويقدر على ردّه إن عصى ؛ لأنه موعود بالثواب ، ومزجور بالعقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(79/756)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله ﴾

في كل ما تأتون وتذرون ﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ أي أيّ شيء قدمت من الأعمال ليوم القيامة عبر عنه بذلك لدنوه دنو الغد من أمسه ، أو لأن الدنيا كيوم والآخرة غده يكون فيها أحوال غير الأحوال السابقة ، وتنكيره لتفخيمه وتهويله كأنه قيل : ﴿ لغد ﴾ لا يعرف كنهه لغاية عظمه ، وأما تنكير ﴿ نفس ﴾ فلاستقلال الأنفس النواظر كأنه قيل : ولتنظر نفس واحدة في ذلك ، وفيه حث عظيم على النظر وتعيير بالترك وبأن الغفلة

قد عمت الكل فلا أحد خلص منها ، ومنه ظهر كما في "الكشف" أن جعله من قبيل قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير : 14] غير مطابق للمقام أي فهو كما في الحديث "الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة" لأن الأمر بالنظر وإن عم لكن المؤتمر الناظر أقل من القليل ، والمقصود بالتقليل هو هذا لأن المأمور لا ينظر إليه ما لم يأتمر ، وجوز ابن عطية أن يراد بغد يوم الموت ، وليس بذاك ، وقرأ أبو حيوة .

(80/756)

ويحيى بن الحرث ولتنظر بكسر اللام ، وروي ذلك عن حفص عن عاصم ، وقرأ الحسن بكسرها وفتح الراء جعلها لام كي ، وكان المعنى ولكي تنظر نفس ما قدمت لغد أمرنا بالتقوى ﴿ واتقوا الله ﴾ تكرير للتأكيد ، أو الأول في أداء الواجبات كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل وهذا في ترك المحارم كما يؤذن به الوعيد بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي من المعاصي ، وهذا الوجه الثاني أرجح لفضل التأسيس على التأكيد ، وفي ورود الأمرين مطلقين من الفخامة ما لا يخفى ، وقيل : إن التقوى شاملة لترك ما يؤثم ولا وجه وجيه للتوزيع والمقام مقام الاهتمام بأمرها ، فالتأكيد أولى وأقوى ، وفيه منع ظاهر ، وكيف لا والمتبادر مما قدمت أعمال الخير كذا قيل ، ولعل من يقول بالتأكيد يقول : إن قوله

سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ ﴾ الخ يتضمن الوعد والوعيد ويعمم ما قدمت أيضاً ، ولعلك مع هذا تميل للتأسيس .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالذين نَسُوا الله ﴾ أي نسوا حقوقه تعالى شأنه ، وما قدروا الله حق قدره ولم يراعوا مواجب أمره سبحانه ونواهيه عز وجل حق رعايتها ﴿ فأنساهم ﴾ الله تعالى بسبب ذلك ﴿ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي جعلهم سبحانه ناسين لها حتى لم يسعوا بما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلصها ، أو أراهم جل جلاله يوم القيامة من الأهوال ما أنساهم أنفسهم أي أراهم أمراً هائلاً وعذاباً أليماً ، ونسيان النفس حقيقة قيل : مما لا يكون لأن العلم بها حضوري ، وفيه نظر وإن نص عليه ابن سينا وأشياعه ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الفاسقون ﴾ الكاملون في الفسوق . وقرأ أبو حيوة ولا يكونوا بياء الغيبة على سبيل الالتفات ، وقال ابن عطية : كناية عن نفس المراد بها الجنس .

﴿ لَا يَسْتَوِى أصحاب النار ﴾ الذين نسوا الله تعالى فاستحقوا الخلود في النار ﴿ وأصحاب الجنة ﴾ الذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود في الجنة ، ولعل تقديم أصحاب النار في الذكر للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذي ينبىء عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من

جهة مقابليهم فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصاناً وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص ؛ وعليه قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الاعمى والبصير أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظلمات والنور ﴾ [الرعد : 16] إلى غير ذلك .

(82/756)

ولعل تقديم الفاضل في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 9] لأن صفته ملكة لصفة المفضول والإعدام مسبوقة بملكاتها ، والمراد بعدم الاستواء عدم الاستواء في الأحوال الأخروية كما ينبىء عنه التعبير عن الفريقين بصاحبية النار وصاحبية الجنة ، وكذا قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة هُمُ الفائزون ﴾ فإنه استئناف مبين لكيفية عدم الاستواء بينهما أي هم الفائزون في الآخرة بكل مطلوب الناجون عن كل مكروه ، والآية تنبيه للناس وإيذان بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وتهالكهم على إيثار العاجلة واتباع الشهوات الزائلة كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار والبون العظيم بين أصحابهما وأن الفوز مع أصحاب الجنة فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه ، وهذا كما تقول لمن عق أباه : هو أبوك تجعله بمنزلة من لا يعرفه فتنبهه على

حق الأبوة الذي يقتضي البر والتعطف ، ومما ذكر يعلم ضعف استدلال أصحاب الشافعي رضي الله تعالى عنه بالآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر ، وأن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالقهر ، وانتصر لهم بأن لهم أن يقولوا : لما حث سبحانه على التقوى فعلاً وتركاً وزجر عز وجل عن الغفلة التي تضادها غاية المضادة بذكر غايتها أعني نسيان الله تعالى ترشيحاً للتقريع أردفه سبحانه بأن أصحاب التقوى وأصحاب هذه الغفلة لا يستوون في شيء مّا ، وعبر عنهم بأصحاب الجنة وأصحاب النار زيادة تصوير وتبيين ، فالمقام يقتضي التباين في حكمي الدارين وإن كان المقصود بالقصد الأول تباينهم في الدار التي هي المدار ، وأنت تعلم أن بيان اقتضاء المقام ذلك في مقابلة قول أصحاب أبي حنيفة .

(83/756)

إن المقام يقتضي التخصيص وإلا فالشافعية يقولون : إن العموم مدلول نفي المساوات لغة لأن النفي داخل على مسمى المساواة فلا بد من انتفائها من جميع الوجوه إذ لو وجدت من وجه لما كان مسماها منتفياً هو خلاف مقتضى اللفظ ، وقول الحنفية : إن الاستواء مطلقاً أعم من الاستواء من كل وجه ومن وجه دون وجه ، والنفي إنما دخل على الاستواء الأعم فلا يكون مشعراً بأحد القسمين الخاصين .

وحاصله أن الأعم لا يشعر بالأخص فيه إن ذلك في الإثبات مسلم وفي النفي ممنوع ، ألا ترى أن من قال : ما رأيت حيواناً وكان قد رأى إنساناً مثلاً عد كاذباً ؟ وتمام ذلك في كتب الأصول ، والإنصاف أن كون المراد هنا نفي الاستواء في الأمور الأخروية ظاهر جداً فلا ينبغي الاستدلال بها على ما ذكر .

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هذا القرءان ﴾ العظيم الشأن المنطوي على فنون القوارع ﴿ على جَبَلٍ ﴾ من الجبال أو جبل عظيم ﴿ لَّرَأَيْتَهُ ﴾ مع كونه علماً في القسوة وعدم التأثر مما يصادمه ﴿ خاشعا مُّتَصَدّعاً مّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ أي متشققاً منها .

وقرأ أبو طلحة مصدعاً بإدغام التاء في الصاد ، وهذا تمثيل وتخييل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر ، والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر ما فيه من القوارع وهو الذي لو أنزل على جبل وقد ركب فيه العقل لخشع وتصدع ، ويشير إلى كونه تمثيلاً قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الامثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإن الإشارة فيه إلى قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا ﴾ الخ وإلى أمثاله ، فالكلام بتقدير وقوع تلك ، أو المراد تلك وأشباهها والأمثال في الأغلب تمثيلات متخيلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(84/756)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر الطبقات الثلاث من المؤمنين ، ذكر ما جرى بين المنافقين واليهود من المقاولة ؛ لتعجيب المؤمنين من حالهم ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نافقوا ﴾ والخطاب لرسول الله ، أو لكل من يصلح له ، والذين نافقوا هم : عبد الله بن أبيّ ، وأصحابه ، وجملة ﴿ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾ مستأنفة ؛ لبيان المتعجب منه ، والتعبير بالمضارع ؛ لاستحضار الصورة ، أو للدلالة على الاستمرار ، وجعلهم إخواناً لهم لكون الكفر قد جمعهم ، وإن اختلف نوع كفرهم ، فهم إخوان في الكفر ، واللام في ﴿ لإخوانهم ﴾ هي لام التبليغ ، وقيل : هو من قول بني النضير لبني قريظة ، والأوّل أولى ؛ لأن بني النضير ، وبني قريظة هم يهود ، والمنافقون غيرهم ، واللام في قوله : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ هي الموطئة للقسم ، أي : والله لئن أخرجتم من دياركم ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ هذا جواب القسم ، أي : لنخرجن من ديارنا في صحبتكم ﴿ وَلاَ نُطِيعُ فيكُمْ ﴾ أي : في شأنكم ، ومن أجلكم ﴿ أَحَدًا ﴾ ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم ، وإن طال الزمان ، وهو معنى قوله : ﴿ أَبدًا ﴾ .

ثم لما وعدوهم بالخروج معهم ، وعدوهم بالنصرة لهم ، فقالوا : ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ لا ينصرونهم ﴾ على عدوّكم .

ثم كذبهم سبحانه فقال : ﴿ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنصرة لهم .

(85/756)

ثم لما أجمل كذبهم فيما وعدوا به فصّل ما كذبوا فيه فقال : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا ﴾ وقد كان الأمر كذلك ، فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أخرج من اليهود ، وهم بنو النضير ومن معهم ، ولم ينصروا من قوتل من اليهود ، وهم بنو قريظة وأهل خيبر ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ أي : لو قدِّر وجود نصرهم إياهم ؛ لأن ما نفاه الله لا يجوز وجوده . قال الزجاج : معناه : لو قصدوا نصر اليهود ﴿ لَيُوَلُّنَّ الادبار ﴾ منهزمين ﴿ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ يعني : اليهود لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصرهم ، وهم المنافقون ، وقيل : يعني لا يصير المنافقون منصورين بعد ذلك ، بل يذلهم الله ، ولا ينفعهم نفاقهم ، وقيل معنى الآية : لا ينصرونهم طائعين ، ولئن نصروهم مكرهين ليولنّ الأدبار ، وقيل : معنى ﴿ لاَ يَنصُرُونَهُمْ ﴾ لا يدومون على نصرهم ، والأوّل أولى ، ويكون من باب قوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لعادوا لِمَا

نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: 28].

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: لأنتم يا معاشر المسلمين أشدّ خوفاً وخشية في صدور المنافقين، أو صدور اليهود، أو صدور الجميع من الله، أي: من رهبة الله، والرهبة هنا بمعنى: المرهوبية؛ لأنها مصدر من المبني للمفعول، وانتصابها على التمييز ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ أي: ما ذكر من الرهبة الموصوفة بسبب عدم فقههم لشيء من الأشياء، ولو كان لهم فقه لعلموا أن الله سبحانه هو الذي سلطكم عليهم، فهو أحقّ بالرهبة منه دونكم.

ثم أخبر سبحانه بمزيد فشلهم، وضعف نكايتهم فقال: ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً ﴾ يعني: لا يبرز اليهود والمنافقون مجتمعين لقتالكم ولا يقدرون على ذلك ﴿ إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ بالدروب والدور ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ أي: من خلف الحيطان التي يستترون بها لجبنهم ورهبتهم.

(86/756)

قرأ الجمهور: ﴿ جدر ﴾ بالجمع، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن، وابن كثير، وأبو عمرو: ﴿ جدار ﴾ بالإفراد.

واختار القراءة الأولى أبو عبيد ، وأبو حاتم ؛ لأنها موافقة لقوله : ﴿ قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ .

وقرأ بعض المكيين : ﴿ جدر ﴾ بفتح الجيم ، وإسكان الدال ، وهي لغة في الجدار ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أي : بعضهم غليظ فظ على بعض ، وقلوبهم مختلفة ، ونياتهم متباينة .

قال السديّ : المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد .

وقال مجاهد : ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ بالكلام والوعيد ليفعلن كذا ، والمعنى : أنهم إذا انفردوا نسبوا أنفسهم إلى الشدّة والبأس ، وإذا لاقوا عدوّاً ذلوا وخضعوا ، وانهزموا ، وقيل : المعنى أن بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد ، وإنما ضعفهم بالنسبة إليكم لما قذف الله في قلوبهم من الرعب ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شتى ﴾ فإنه يدلّ على أن اجتماعهم إنما هو في الظاهر مع تخالف قلوبهم في الباطن ، وهذا التخالف هو البأس الذي بينهم الموصوف بالشدّة ، ومعنى ﴿ شتى ﴾ : متفرقة ، قال مجاهد : يعني اليهود والمنافقين تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى .

وروي عنه أيضاً أنه قال : المراد : المنافقون .

وقال الثوري : هم المشركون ، وأهل الكتاب .

قال قتادة : ﴿ تحسبهم جميعاً ﴾ ، أي : مجتمعين على أمر ورأي ، ﴿ وقلوبهم شتى ﴾ متفرقة ، فأهل الباطل مختلفة آراؤهم مختلفة شهادتهم ، مختلفة أهواؤهم ، وهم مجتمعون في

عداوة أهل الحقّ .

وقرأ ابن مسعود : (وقلوبهم أشت) أي : أشد اختلافاً ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾ أي : ذلك الاختلاف والتشتت بسبب أنهم قوم لا يعقلون شيئًا ، ولو عقلوا ؛ لعرفوا الحقّ واتبعوه .

(87/756)

﴿ كَمَثَلِ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : مثلهم كمثل الذين من قبلهم ، والمعنى : أن مثل المنافقين واليهود كمثل الذين من قبلهم من كفار المشركين ﴿ قَرِيبًا ﴾ يعني : في زمان قريب ، وانتصاب ﴿ قريباً ﴾ على الظرفية أي : يشبهونهم في زمن قريب ، وقيل : العامل فيه ﴿ ذاقوا ﴾ ، أي : ذاقوا في زمن قريب ، ومعنى ﴿ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي : سوء عاقبة كفرهم في الدنيا بقتلهم يوم بدر ، وكان ذلك قبل غزوة بني النضير بستة أشهر ، قاله مجاهد ، وغيره ، وقيل : المراد بنو النضير حيث أمكن الله منهم ، قاله قتادة .

وقيل : قتل بني قريظة ، قاله الضحاك .

وقيل : هو عامّ في كل من انتقم الله منه بسبب كفره ، والأوّل أولى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : في الآخرة .

ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلاً آخر فقال: ﴿ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ للإنسان اكفر ﴾ أي: مثلهم في تخاذلهم وعدم تناصرهم، فهو إما خبر مبتدأ محذوف، أو خبر آخر للمبتدأ المقدّر قبل قوله: ﴿ كَمَثَلِ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ على تقدير حذف حرف العطف، كما تقول: أنت عاقل، أنت عالم، أنت كريم.

وقيل: المثل الأوّل خاص باليهود، والثاني خاص بالمنافقين، وقيل: المثل الثاني بيان للمثل الأوّل، ثم بيّن سبحانه وجه الشبه فقال: ﴿ إِذْ قَالَ للإنسان اكفر ﴾ أي: أغراه بالكفر، وزينه له، وحمله عليه، والمراد بالإنسان هنا: جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان، وقيل: هو عابد كان في بني إسرائيل حمله الشيطان على الكفر، فأطاعه ﴿ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنّى بَرِىء مّنكَ ﴾ أي: فلما كفر الإنسان مطاوعة للشيطان، وقبولاً لتزيينه قال الشيطان: إني بريء منك، وهذا يكون منه يوم القيامة، وجملة: ﴿ إِنّى أَخَافُ الله رَبَّ العالمين ﴾ تعليل لبراءته من الإنسان بعد كفره، وقيل: المراد بالإنسان هنا: أبو جهل، والأوّل أولى.

قال مجاهد: المراد بالإنسان هنا: جميع الناس في غرور الشيطان إياهم، قيل: وليس قول الشيطان: ﴿ إِنّى أَخَافُ الله ﴾ على حقيقته، إنما هو على وجه التبرّي من الإنسان،

فهو تأكيد لقوله : ﴿ إِنّى بَرِىء مّنكَ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ إني ﴾ بإسكان الياء .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو بفتحها ﴿ فَكَانَ عاقبتهما أَنَّهُمَا فِى النار ﴾ قرأ الجمهور ﴿ عاقبتهما ﴾ بالنصب على أنه خبر كان ، واسمها ﴿ أنهما في النار ﴾ .

وقرأ الحسن ، وعمرو بن عبيد بالرفع على أنها اسم كان ، والخبر ما بعده ؛ والمعنى : فكان عاقبة الشيطان ، وذلك الإنسان الذي كفر أنهما صائران إلى النار ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ خالدين ﴾ بالنصب على الحال ، وقرأ ابن مسعود ، والأعمش ، وزيد بن عليّ ، وابن أبي عبلة : ﴿ خالدان ﴾ على أنه خبر "أنّ" ، والظرف متعلق به ﴿ وَذَلِكَ جَزَاء الظالمين ﴾ أي : الخلود في النار جزاء الظالمين ، ويدخل هؤلاء فيهم دخولاً أوّلياً .

(89/756)

ثم رجع سبحانه إلى خطاب المؤمنين بالموعظة الحسنة فقال : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ اتقوا الله ﴾ أي : اتقوا عقابه بفعل ما أمركم به ، وترك ما نهاكم عنه ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أي : لتنظر أيّ شيء قدّمت من الأعمال ليوم القيامة ، والعرب تكني عن المستقبل بالغد ، وقيل : ذكر الغد تنبيهاً على قرب الساعة ﴿ واتقوا الله ﴾ كرّر الأمر بالتقوى للتأكيد ﴿ إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ، فهو مجازيكم

بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ ﴾ أي: تركوا أمره، أو ما قدّروه حق قدره، أو لم يخافوه، أو جميع ذلك ﴿ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي: جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له، فلم يشتغلوا بالأعمال التي تنجيهم من العذاب، ولم يكفوا عن المعاصي التي توقعهم فيه، ففي الكلام مضاف محذوف، أي: أنساهم حظوظ أنفسهم.

قال سفيان: نسوا حقّ الله، فأنساهم حق أنفسهم، وقيل: نسوا الله في الرخاء، فأنساهم أنفسهم في الشدائد ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي: الكاملون في الخروج عن طاعة الله.

﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ في الفضل، والرتبة، والمراد الفريقان على العموم، فيدخل في فريق أهل النار من نسي الله منهم دخولاً أوّلياً، ويدخل في فريق أهل الجنة الذين اتقوا دخولاً أوّلياً؛ لأن السياق فيهم، وقد تقدّم الكلام في معنى مثل هذه الآية في سورة المائدة، وفي سورة السجدة، وفي سورة ص.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن أصحاب الجنة بعد نفي التساوي بينهم، وبين أهل النار فقال: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ أي: الظافرون بكلّ مطلوب الناجون من كلّ مكروه.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نافقوا ﴾ قال : عبد الله بن أبيّ بن سلول ، ورفاعة بن تابوت ، وعبد الله بن نبتل ، وأوس بن قيظي ، وإخوانهم بنو النضير .

وأخرج ابن إسحاق ، وابن المنذر ، وأبو نعيم في الدلائل عنه أن رهطاً من بني عوف بن الحارث منهم عبد الله بن أبيّ بن سلول ، ووديعة بن مالك ، وسويد وداعس ، بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا ، وتمنعوا ، فإننا لا نسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ، ويكفّ عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل إلاّ الحلقة ، ففعل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته ، فيضعه على ظهر بعير ، فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في قوله : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شتى ﴾ قال : هم المشركون .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن راهويه ، وأحمد في الزهد ، وعبد بن حميد ، والبخاري في تاريخه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن عليّ بن أبي طالب أن رجلاً كان يتعبد في صومعة ، وأن امرأة كان لها إخوة ، فعرض لها

شيء ، فأتوه بها فزينت له نفسه فوقع عليها ، فحملت ، فجاءه الشيطان ، فقال : اقتلها ، فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت ، فقتلها ، ودفنها ، فجاءوه ، فأخذوه ، فذهبوا به ، فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال : إني أنا الذي زينت لك ، فاسجد لي سجدة أنجيك ، فسجد له ، فذلك قوله : ﴿ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ لِلإنسان اكفر ﴾ الآية .

قلت : وهذا لا يدلّ على أن هذا الإنسان هو المقصود بالآية ، بل يدلّ على أنه من جملة من تصدق عليه .

وقد أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس بأطول من هذا ، وليس فيه ما يدلّ على أنه المقصود بالآية .

(91/756)

وأخرجه بنحوه ابن جرير عن ابن مسعود .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ كَمَثَلِ الشيطان ﴾ قال : ضرب الله مثل الكفار والمنافقين الذين كانوا على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 204 . 206 ﴾

(92/756)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾

انتقال من الامتنان على المسلمين بما يسرّ الله من فتح قرية بني النضير بدون قتال ، وما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم منهم ، ووصف ما جرى من خيبتهم وخيبة أملهم في نصرة المنافقين ، ومن الإِيذان بأن عاقبة أهل القرى الباقية كعاقبة أسلافهم .

وكذلك موقف أنصارهم معهم ، إلى الأمر بتقوى الله شكراً له على ما منح وما وعد من صادق الوعد فإن الشكر جزاء العبد عن نعمة ربه إذ لا يستطيع جزاء غير ذلك فأقبل على خطاب الذين آمنوا بالأمر بتقوى الله .

ولما كان ما تضمنته السورة من تأييد الله إياهم وفَيض نعمه عليهم كان من منافع الدنيا ، أعقبه بتذكيرهم بالإِعداد للآخرة بقوله : ﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ ﴾ أي لتتأمل كل نفس فيما قدمته للآخرة .

وجملة ﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ ﴾ ، عطف أمر على أمر آخر .

وهي معترضة بين جملة ﴿ اتقوا الله ﴾ وجملة ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ .

وذِكر ﴿ نفس ﴾ إظهار في مقام الإِضمار لأن مقتضى الظاهر : وانظروا ما قدمتم ، فعُدل عن الإِظهار لقصد العموم أي لتنظروا وتنظر كل نفس .

وتنكير ﴿ نفس ﴾ يفيد العموم في سياق الأمر ، أي لتنظر كل نفس ، فإن الأمر والدعاء ونحوهما كالشرط تكون النكرة في سياقها مثل ما هي في سياق النفي كقوله تعالى ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره ﴾ [التوبة : 6] وكقول الحريري:

يا أهلَ ذا المَغْنَى وُقيتم ضرّا . . .

(أي كل ضر) .

وإنما لم يعرّف بلام التعريف تنصيصاً على العموم لئلا يتوهم نفسٌ معهودة

وأطلق "غد" على الزمن المستقبل مجازاً لتقريب الزمن المستقبل من البعيد لملازمة اقتراب الزمن لمفهوم الغَد ، لأن الغد هو اليوم الموالي لليوم الذي فيه المتكلم فهو أقرب أزمنة المستقبل كما قال قرّاد بن أجدع:

فإن يَكُ صدْرُ هذا اليوم ولّى . . .

فإن غداً لناظره قريب

(93/756)

وهذا المجاز شائع في كلام العرب في لفظ (غد) وأخواته قال زهير:

وأعْلَمُ عِلم اليومِ والأمسسِ قبلَه . . .

ولكنني عن علم ما في غدٍ عَمِ

يريد باليوم الزمن الحاضر ، وبالأمس الزمن الماضي ، وبالغد الزمن المستقبل .

وتنكير "غد" للتعظيم والتهويل ، أي لغدٍ لا يعرف كنهه .

واللام في قوله : ﴿ لغدٍ ﴾ لام العلة ، أي ما قدمته لأجل يوم القيامة ، أي لأجل الانتفاع به .

والتقديم : مستعار للعمل الذي يُعمل لتحصيل فائدته في زمن آت شبه قصد الانتفاع به في المستقبل بتقديم من يَحلّ في المنزل قبل ورود السائرين إليه من جيش أو سَفر ليهيّئ لهم ما يصلح أمرهم ، ومنه مقدمة الجيش وتقديم الرائد قبل القافلة .

قال تعالى : ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ [البقرة : 110] ويقال في ضده : أَخّرَ ، إذا ترك عمل شيء قال تعالى : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ [الأنفطار : 5] .

وإعادة ﴿ واتقوا الله ﴾ ليبنَى عليه ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ فيحصل الربط بين التعليل والمعلل إذ وقع بينهما فصل ﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ ﴾ .

وإنما أعيد بطريق العطف لزيادة التأكيد فإن التوكيد اللفظي يؤتى به تارة معطوفاً كقوله تعالى : ﴿ أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ﴾ [القيامة : 34 ، 35] وقوله : ﴿ كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ﴾ [التكاثر : 4 3] .

وقول عدي بن زيد : "وألفَى قولها كذباً ومَيناً" .

وذلك أن في العطف إيهام أن يكون التوكيد يجعل كالتأسيس لزيادة الاهتمام بالمؤكد .

فجملة ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ تعليل للحث على تقوى الله وموقع ﴿ إنَّ ﴾ فيها موقع التعليل .

(94/756)

ويجوز أن يكون ﴿ اتقوا الله ﴾ المذكور أولاً مراداً به التقوى بمعنى الخوف من الله وهي الباعثة على العمل ولذلك أردف بقوله : ﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ ﴾ ويكون ﴿ اتقوا الله ﴾ المذكور ثانياً مراداً به الدوام على التقوى الأولى ، أي ودوموا على التقوى على حد قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ [النساء : 136] ولذلك أردف بقوله : ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي بمقدار اجتهادكم في التقوى ، وأردف بقوله : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ [الحشر : 19] أي أهملوا التقوى بعد أن تقلّدوها كما سيأتي أنهم المنافقون فإنهم تقلّدوا الإِسلام وأضاعوه قال تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ [التوبة : 67] .

وفي قوله : ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ إظهار اسم الجلالة في مقام الإِضمار ، فتكون الجملة مستقلة بدلالتها أتمّ استقلال فتجري مجرى الأمثال ولتربية المهابة في نفس

المخاطبين.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19)

بعد أن أمر المؤمنين بتقوى الله وإعداد العُدة للآخرة أعقبه بهذا النهي تحذيراً عن الإِعراض عن الدين والتغافل عن التقوى، وذلك يفضي إلى الفسوق.

وجيء في النهي بنهيهم عن حالة قوم تحققت فيهم هذه الصلة ليكون النهي عن إضاعة التقوى مصوراً في صورة محسوسة هي صورة قوم تحققت فيهم تلك الصلة وهم الذين أعرضوا عن التقوى.

وهذا الإِعراض مراتب قد تنتهي إلى الكفر الذي تلبس به اليهود وإلى النفاق الذي تلبس به فريق ممن أظهروا الإِسلام في أول سنيّ الهجرة، وظاهر الموصول أنه لطائفة معهودة فيحتمل أن يُراد ب"الذين نسوا الله" المنافقين لأنهم كانوا مشركين ولم يهتدوا للتوحيد بهدي الإِسلام فعبر عن النفاق بنسيان الله لأنه جهل بصفات الله من التوحيد والكمال.

(95/756)

وعبّر عنهم بالفاسقين قوله تعالى: ﴿ نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ في سورة [براءة: 67]، فتكون هذه الآية ناظرة إلى تلك.

ويحتمل أن يكون المراد بهم اليهود لأنهم أضاعوا دينهم ولم يقبلوا رسالة عيسى عليه السلام وكفروا بمحمد .

فالمعنى : نسوا دين الله وميثاقه الذي واثقهم به ، قال تعالى : ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ﴾ [البقرة : 40 - 41] .

وقد أطلق نسيانهم على الترك والإعراض عن عمد أي فنسوا دلائل توحيد الله ودلائلَ صفاته ودلائلَ صدق رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم كتابه فالكلام بتقدير حذف مضاف أو مضافين .

ومعنى "أنساهم أنفسهم" أن الله لم يخلق في مداركهم التفطن لفهم الهدي الإِسلامي فيعملوا بما ينجيهم من عذاب الآخرة ولما فيه صَلاحهم في الدنيا ، إذ خذلهم بذبذبة آرائهم فأصبح اليهود في قبضة المسلمين يخرجونهم من ديارهم ، وأصبح المنافقون ملموزين بين اليهود بالغدر ونقض العهد وبين المسلمين بالاحتقار واللعن .

وأشعر فاء التسبب بأن إِنسَاء الله إياهم أنفسهم مسبب على نسيانهم دين الله ، أي لمَّا أعرضوا عن الهدى بكسبهم وإرادتهم عاقبهم الله بأن خلق فيهم نسيان أنفسهم .

وإظهار اسم الجلالة في قوله تعالى : ﴿ كالذين نسوا الله ﴾ دون أن يقال : نسُوهُ لاستفظاع هذا النسيان فعلق باسم الله الذي خلقهم وأرشدهم .

والقصر المستفاد من ضمير الفصل في قوله : ﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ قصر ادعائي

للمبالغة في وصفهم بشدة الفسق حتى كأنّ فسق غيرهم ليس بفسق في جانب فسقهم.

واسم الإِشارة للتشهير بهم بهذا الوصف.

والفسق: الخروج من المكان الموضوع للشيء فهو صفة ذم غالباً لأنه مفارقة للمكان اللائق بالشيء، ومنه قيل: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها، فالفاسقون هم الآتون بفواحش السيئات ومساوىء الأعمال وأعظمها الإِشراك.

(96/756)

وجملة ﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانيّاً لبيان الإِبهام الذي أفاده قوله: ﴿ فأنساهم أنفسهم ﴾ كأن السامع سأل: ماذا كان أثر إنساء الله إياهم أنفسهم؟ فأجيب بأنهم بلغوا بسبب ذلك منتهى الفسق في الأعمال السيئة حتى حقّ عليهم أن يقال: إنه لا فسق بعد فسقهم.

لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20)

تذييل لجملة ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ ﴾ [الحشر: 18] الخ.

لأنّه جامع لخلاصة عاقبة الحالين: حال التقوى والاستعداد للآخرة، وحال نسيان ذلك

وإهماله ، ولكلا الفريقين عاقبة عمله .

ويشمل الفريقين وأمثالهم .

والجملة أيضاً فذلكة لما قبلها من حال المتقين والذين نَسُوا الله ونُسُّوا أنفسهم لأن ذكر مثل هذا الكلام بعد ذكر أحوال المتحدَّث عنه يكون في الغالب للتعريض بذلك المتحدَّث عنه كقولك عندما ترى أحداً يؤذي الناس : "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده" ، فمعنى الآية كناية عن كون المؤمنين هم أصحاب الجنة ، وكون الذين نَسُوا الله هم أهل النار فتضمنت الآية وعداً للمتقين ووعيداً للفاسقين .

والمراد من نفي الاستواء في مثل هذا الكناية عن البون بين الشيئين .

وتعيين المفضل من الشيئين موكول إلى فهم السامع من قرينة المقام كما في قول السموأل :

فليس سواءً عالم وجهول

وقول أبي حزام غالب بن الحارث العكلي :

وأعلم أن تسليماً وتركاً

للامتشابهان ولا سواء . . .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ليسوا سواء ﴾ بعد قوله : ﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ﴾ [آل عمران : 110] الآية .

وقَبل قوله : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ [آل عمران : 113] .

وقد يردف بما يدل على جهة التفضيل كما في قوله تعالى : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا ﴾ [الحديد : 10] .

(97/756)

وقوله هنا ﴿ أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين ﴾ الآية (95) في سورة النساء .

وأما من ذهب من علماء الأصول إلى تعميم نحو لا يستوون من قوله تعالى : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ [السجدة : 18] فاستدلُّوا به على أن الفاسق لا يلي ولاية النكاح ، وهو استدلال الشافعية فليس ذلك بمرضي ، وقد أباه الحنفية ووافقهم تاج الدين السبكي في غير "جمع الجوامع" .

والقصر المستفاد من ضمير الفصل في قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ قصر ادعائي لأن فوزهم أبدِيّ فاعتبر فوز غيرهم ببعض أمور الدنيا كالعدم .

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ

لما حذّر المسلمين من الوقوع في مهواة نسيان الله التي وقع فيها الفاسقون ، وتوعد الذين نَسُوا الله بالنار ، وبيّن حالهم بأن الشيطان سوّل لهم الكفر .

وكان القرآن دالاً على مسالك الخير ومحذّراً من مسالك الشر ، وما وقع الفاسقون في الهلكة إلا من جراء إهمالهم التدبر فيه ، وذلك من نسيانهم الله تعالى انتقل الكلام إلى التنويه بالقرآن وهديه البيّن الذي لا يصرف الناسَ عنه إلا أهواؤهم ومكابرتهم ، وكان إعراضهم عنه أصل استمرار ضلالهم وشركهم ، ضَرب لهم هذا المثل تعجيباً من تصلبهم في الضلال .

وفي هذا الانتقال إيذان بانتهاء السورة لأنه انتقال بعد طول الكلام في غرضِ فَتح قُرى اليهود وما ينال المنافقين من جرّائه من خسران في الدنيا والآخرة .

و ﴿ هذا القرآن ﴾ إشارة إلى المقدار الذي نَزل منه ، وهو ما عرفوه وتلَوه وسمعوا تلاوته .

وفائدة الإتيان باسم إشارة القريب التعريض لهم بأن القرآن غير بعيد عنهم .

وأنه في متناولهم ولا كلفة عليهم في تدبره ولكنهم قصدوا الإعراض عنه .

وهذا مثَلٌ ساقه الله تعالى كما دلّ عليه قوله : ﴿ وتلك الأمثال ﴾ الخ .

(98/756)

وقد ضرب هذا مثلاً لقسوة الذين نَسُوا الله وانتفاء تأثرهم بقوارع القرآن .

والمراد بالجبل : حقيقته ، لأن الكلام فرض وتقدير كما هو مقتضى ﴿ لَو ﴾ أن تجيء في

الشروط المفروضة .

فالجبل : مثال لأشد الأشياء صلابة وقلة تأثر بما يقرعه .

وإنزال القرآن مستعار للخطاب به .

عبر عنه بالإنزال على طريقة التبعية تشبيهاً لشرف الشيء بعلوّ المكان ، ولإبلاغه للغير بإنزال الشيء من علوّ .

والمعنى : لو كان المخاطب بالقرآن جَبلاً ، وكان الجبل يفهم الخطاب لتأثر بخطاب القرآن تأثراً ناشئاً من خشية لله خشية تؤثرها فيه معاني القرآن .

والمعنى : لو كان الجبل في موضع هؤلاء الذين نسُوا الله وأعرضوا عن فهم القرآن ولم يتّعظوا بمواعظه لاتّعظ الجبل وتصدّع صخرهُ وتربه من شدة تأثره بخشية الله .

وضرَب التصدع مثلاً لشدة الانفعال والتأثر لأن منتهى تأثر الأجسام الصلبة أن تنْشَقّ وتتصدع إذ لا يحصل ذلك لها بسهولة .

والخشوع : التطأطؤ والركوع ، أي لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض .

والتصدع : التشقق ، أي لتزلزل وتشقق من خوفه الله تعالى .

والخطاب في ﴿ لرأيته ﴾ لغير معيّن فيعمّ كل من يسمع هذا الكلام والرؤية بصرية ، وهي منفية لوقوعها جواباً لحرف ﴿ لو ﴾ الامتناعية .

والمعنى : لو كان كذلك لرأيت الجبل في حالة الخشوع والتصدع .

وجملة ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾ تذييل لأن ما قبلها سيق مساق المثل فذُيّل بأن الأمثال التي يضربها الله في كلامه مثلَ المثل أراد منها أن يتفكروا فإن لم يتفكروا بها فقد سُجّل عليهم عنادُهم ومكابرتهم ، فالإِشارة بتلك إلى مجموع ما مرّ على أسماعهم من الأمثال الكثيرة ، وتقديرُ الكلام : ضربنا هذا مثلاً ، ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾ .

(99/756)

وضرب المثل سَوقه ، أطلق عليه الضرب بمعنى الوضع كما يقال : ضرب بيتاً ، وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ﴾ ما في سورة [البقرة : 26] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(100/756)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا

﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا ﴾ الآية قال : هؤلاء المهاجرون تركوا الديار والأموال والأهلين والعشائر ، وخرجوا حباً لله ولرسوله ، واختاروا الإِسلام على ما كان فيه من شدة ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع وإن كان الرجل ليتخذ الحفر في الشتاء ما له دثار غيرها .

قوله تعالى : ﴿ والذين تبوّءُو الدار والإِيمان ﴾ .

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ والذين تبوءُو الدار والإِيمان ﴾ إلى آخر الآية ، قال : هم هذا الحي من الأنصار أسلموا في ديارهم ، وابتنوا المساجد قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين ، وأحسن الله عليهم الثناء في ذلك وهاتان الطائفتان الأولتان من هذه الآية أخذتا بفضلهما ومضتا على مهلهما ، وأثبت الله حظهما في هذا الفيء ، ثم ذكر الطائفة الثالثة ، فقال : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإِخواننا ﴾ إلى آخر الآية . قال : إنما أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يؤمروا بسبهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ والذين تبوّءُو الدار والإِيمان من قبلهم ﴾ قال : الأنصار نعت سخاوة أنفسهم عندما رأى من ذلك وإيثارهم إياهم ولم يصب الأنصار

من ذلك الفيء شيء .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن يزيد بن الأصم "أن الأنصار قالوا : يا رسول الله أقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض نصفين ، قال : "لا ولكن يكفونكم المؤنة وتقاسمونهم الثمرة ، والأرض أرضكم" قالوا : رضينا فأنزل الله ﴿ والذين تبوّءُو الدار والإِيمان من قبلهم ﴾ إلى آخر الآية .

أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن قال : فضل المهاجرين على الأنصار فلم يجدوا في صدورهم حاجة قال : الحسد .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري وابن مردويه عن عمر أنه قال : أوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار الذين تبوّءُو الدار والإِيمان من قبل أن يهاجر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقبل من محسنهم ، ويعفو عن مسيئهم .

وأخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "للمدينة عشرة أسماء هي المدينة وهي طيبة وطابة ومسكينة وجابرة

ومجبورة وتبدد ويشرب والدار " .

قوله تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ .

أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر والحاكم وابن مردويه البيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

" أتى رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال : " ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله تعالى " فقال رجل من الأنصار ، وفي رواية فقال أبو طلحة الأنصاري : أنا يا رسول الله ، فذهب به إلى أهله فقال لامرأته : اكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدخرين شيئاً .

قالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية . قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، وتعالي ، فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة لضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعلت ثم غدا الضيف على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : " لقد عجب الله من فلان وفلانة وأنزل الله فيهما ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ " " .

وأخرج مسدد في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب قري الضيف وابن المنذر عن أبي المتوكل الناجي رضي الله عنه " أن رجلاً من المسلمين مكث صائماً ثلاثة أيام ، يمسي فلا يجد ما يفطر فيصبح صائماً حتى فطن له رجل من الأنصار يقال له ثابت بن قيس رضي الله عنه ، فقال لأهله : إني ساجيء الليلة بضيف لي فإذا وضعتم طعامكم فليقم بعضكم إلى السراج كأنه يصلحه فليطفئه ثم اضربوا بأيدكم إلى الطعام كأنكم تأكلون فلا تأكلوا حتى يشبع ضيفنا ، فلما أمسى ذهب به فوضعوا طعامهم فقامت امرأته إلى السراج كأنها تصلحه فأطفأته ، ثم جعلوا يضربون أيديهم في الطعام كأنهم يأكلون ولا يأكلون حتى شبع ضيفهم ، وإنما كان طعامهم ذلك خبزة هي قوتهم ، فلما أصبح ثابت غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يا ثابت لقد عجب الله البارحة منكم ومن ضيفكم " فنزلت فيه هذه الآية ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنه قال : أهدي لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا فبعث به إليهم ، فلم يزل يبعث به واحداً إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول فنزلت ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولو كان بهم خصاصة ﴾ قال

: فاقة .

قوله تعالى : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

(103/756)

أخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً قال له : إني أخاف أن أكون قد هلكت ، قال : وما ذاك ؟ قال : إني سمعت الله يقول : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج مني شيء ، فقال له ابن مسعود رضي الله عنه : ليس ذاك بالشح ، ولكنه البخل ، ولا خير في البخل ، وإن الشح الذي ذكره الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنه في قوله : ﴿ ومن يوق شح نفسه ﴾ قال : ليس الشحيح أن يمنع الرجل ماله ، ولكنه البخل وإنه لشر إنما الشح أن تطمح عين الرجل إلى ما ليس له .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه قال : النظر إلى المرأة ، لا يملكها من الشح .

وأخرج ابن المنذر عن طاووس رضي الله عنه قال : البخل أن يبخل الإِنسان بما في يديه ، والشح أن يشح على ما في أيدي الناس .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن عساكر عن عبد الرحمن بن عوف أنه كان يطوف بالبيت يقول : اللهم قني شح نفسي لا يزيد على ذلك فقيل له فقال : إذا وقيت شح نفسي لا أسرق ولا أزني ولم أفعل شيئاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ ومن يوق شح نفسه ﴾ قال : إدخال الحرام ومنع الزكاة .

وأخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال : من أدى زكاة ماله فقد وقي شح نفسه .

وأخرج الخرائطي في مساوىء الأخلاق عن ابن عمرو قال : الشح أشد من البخل لأن الشحيح يشح على ما في يديه فيحبسه ويشح على ما في أيدي الناس حتى يأخذه ، وإن البخيل إنما يبخل على ما في يديه .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب ذم البخل عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلق الله جنة عدن ثم قال لها : انطقي ، فقالت : ﴿ قد أفلح المؤمنون

﴾ [المؤمنون : 1] فقال الله : " وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ثلاث من كن فيه فقد بريء من الشح ، من أدى زكاة ماله ، وقرى الضيف ، وأعطى في النوائب " .

وأخرج الحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما محق الإِسلام محق الشح شيء قط " وأخرج ابن مردويه عن أبي زرعة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان الفقر في قلبه فلا يغنيه ما أكثر له في الدنيا وإنما يضر نفسه شحها " .

وأخرج عبد بن حميد عن مجمع بن يحيى بن جارية قال : حدثني عمي خالد بن يزيد بن جارية رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بريء من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأدى في النائبة " .

وأخرج ابن أبي شيبة والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإِيمان في قلب عبد أبداً " .

وأخرج الترمذي والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " خصلتان لا يجتمعان في جوف مسلم البخل وسوء الظن " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " شر ما في رجل شح هالع وجبن خالع " .

(105/756)

وأخرج أحمد والبخاري في الأدب ومسلم والبيهقي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم " .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إياكم والشح والبخل ، فإنه دعا من قبلكم إلى أن يقطعوا أرحامهم فقطعوها ، ودعاهم إلى أن يستحلوا محارمهم فاستحلوها ، ودعاهم إلى أن يسفكوا دماءهم فسفكوها " .

وأخرج الترمذي والبيهقي عن أنس رضي الله عنه " أن رجلاً توفي فقالوا : ابشر بالجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أولا تدرون فلعله قد تكلم بما لا يعنيه أو بخل بما لا ينفعه " " .

وأخرج البيهقي من وجه آخر عن أنس رضي الله عنه قال : " أصيب رجل يوم أحد

فجاءت امرأة فقالت : يا بني لتهنك الشهادة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه " " .

وأخرج البيهقي عن ابن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلقان يحبهما الله وخلقان يبغضهما الله . فأما اللذان يحبها الله فالسخاء والسماحة ، وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل ، فإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله على قضاء حوائج الناس " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بريء من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأدى في النائبة " .

وأخرج البيهقي وضعفه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يذهب السخاء على الله ، السخي قريب من الله ، فإذا لقيه يوم القيامة أخذ بيده فأقله عثرته " .

(106/756)

وأخرج البيهقي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاح أوّل هذه الأمة بالزهد والتقوى وهلاك آخرها بالبخل

والفجور " .

وأخرج البيهقي وضعفه عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " السخيّ قريب من الله قريب من الجنة بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار ، والجاهل السخي أحب إلى الله من العابد البخيل " .

وأخرج البيهقي عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار ، ولَجَاهل سخيٌّ أحب إلى الله من عابد بخيل " .

وأخرج ابن عدي في الكامل والبيهقي وضعفه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار ، ولفاجر سخيّ أحبّ إلى الله من عابد بخيل ، وأي داء أدوأ من البخل " .

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا بني سلمة من سيدكم اليوم ؟ قالوا : الجد بن قيس ولكنا نبخله ، قال : وأي داء أدوأ من البخل ؟ ولكن سيدكم عمرو بن الجموح " .

وأخرج البيهقي عن جابر رضي الله عنه قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

: "يا بني سلمة من سيدكم؟ قالوا : الجد بن قيس وإنا لنبخله . قال : وأي داء أدوأ من البخل بل سيدكم الخير الأبيض عمرو بن الجموح" قال : وكان على أضيافهم في الجاهلية قال : وكان يولم على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تزوّج.

(107/756)

وأخرج البيهقي من طريق الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا : الجد بن قيس . قال : وبم تسوّدونه؟ قالوا : بأنه أكثرنا مالاً وإنا على ذلك لنزنه بالبخل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأي داء أدوأ من البخل ، ليس ذاك سيدكم . قالوا : فمن سيدنا يا رسول الله؟ قال : سيدكم البراء بن معرور" قال البيهقي مرسل .

وأخرج الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من سيدكم يا بني عبيد ؟ قالوا : الجد بن قيس على أن فيه بخلاً ، قال : وأي داء أدوأ من البخل؟ بل سيدكم وابن سيدكم بشر بن البراء بن معرور" .

وأخرج البيهقي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيء الملكة ، وأول من يقرع باب

الجنة المملوكون وإذا أحسنوا فيما بينهم وبين الله وبين مواليهم " .

وأخرج البيهقي عن أبي سهل الواسطي رفع الحديث قال : " إن الله اصطنع هذا الدين لنفسه وإنما صلاح هذا الدين بالسخاء وحسن الخلق فاكرموه بهما " .

وأخرج البيهقي من طرق وضعفه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال لي جبريل : قال الله تعالى : إن هذا الدين ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه " .

وأخرج البيهقي وضعفه عن عبد الله بن جراد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا ابتغيتم المعروف فابتغوه في حسان الوجوه ، فوالله لا يلج النار إلا بخيل ، ولا يلج الجنة شحيح ، إن السخاء شجرة في الجنة تسمى السخاء ، وإن الشح شجرة في النار تسمى الشح " .

(108/756)

وأخرج البيهقي وضعفه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدليات في الدنيا من أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنة ، والبخل شجرة من شجر النار أغصانها متدليات

في الدنيا من أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى النار " .

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " السخاء شجرة في الجنة فمن كان سخياً أخذ بغصن منها ، فلم يتركه الغصن حتى يدخله الجنة ، والشح شجرة في النار فمن كان شحيحاً أخذ بغصن منها فلم يتركه الغصن حتى يدخله النار " .

وأخرج البيهقي وضعفه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "كنت قاعدا مع النبي صلى الله عليه وسلم فجاء ثلاثة عشر رجلاً عليهم ثياب السفر فسلموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قالوا : من السيد من الرجال يا رسول الله قال : ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم . قالوا : ما في أمتك سيد ؟ قال : بلى ، رجل أعطي مالاً حلالاً ورزق سماحة فأدنى الفقير فقلت شكايته في الناس " .

وأخرج البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة قال : " ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما فجعل كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه ، حتى تغشى أنامله وتعفو أثره ، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع " .

وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عن عبد الله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال : " قدم خالد بن الوليد من ناحية أرض الروم على النبي صلى الله عليه وسلم بأسرى ، فعرض عليهم الإسلام فأبوا ، فأمر أن تضرب أعناقهم ، حتى إذا جاء إلى آخرهم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا خالد كف عن الرجل " قال : يا رسول الله ما كان في القوم أشد عليّ منه . قال : " هذا جبريل يخبرني عن الله أنه كان سخيّاً في قومه فكف عنه " وأسلم الرومي " .

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (10)

أخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ قال : الذين أسلموا فعنوا أيضاً عبد الله بن نبتل وأوس بن قيظي .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال : الناس على ثلاثة منازل قد مضت منزلتان وبقيت منزلة ، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت ، ثم قرأ ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ﴾ الآية ، ثم قال : هؤلاء المهاجرون وهذه منزلة وقد مضت ثم قرأ ﴿ والذين تبوّءُو الدار والإيمان من قبلهم ﴾ الآية ثم قال : هؤلاء الأنصار وهذه منزلة وقد مضت ، ثم قرأ ﴿ والذين جاؤوا

من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ فقد مضت هاتان المنزلتان وبقيت هذه المنزلة فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ الآية قال : أمروا بالاستغفار لهم ، وقد علم ما أحدثوا .

(110/756)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسبوهم ثم قرأت هذه الآية ﴿ والذين جاؤوا يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنه سمع رجلاً وهو يتناول بعض المهاجرين ، فقرأ عليه ﴿ للفقراء المهاجرين ﴾ الآية ، ثم قال : هؤلاء المهاجرون فمنهم أنت ؟ قال : لا ثم قرأ عليه ﴿ والذين تبوّءُو الدار والإيمان ﴾ الآية ، ثم قال : هؤلاء الأنصار أفأنت منهم ؟ قال : لا . ثم قرأ عليه ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ الآية ، ثم قال : أفمن هؤلاء أنت ؟ قال : أرجو . قال : لا ليس من هؤلاء من يسب هؤلاء .

وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عمر أنه بلغه أن رجلاً نال من عثمان ، فدعاه فأقعده بين يديه ، فقرأ عليه ﴿ للفقراء المهاجرين ﴾ الآية قال : من هؤلاء أنت ؟ قال : لا . ثم قرأ ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ الآية ، قال : من هؤلاء أنت ؟ قال : أرجو أن أكون منهم . قال : لا والله ما يكون منهم من يتناولهم وكان في قلبه الغل عليهم .

وأخرج عبد بن حميد عن الأعمش أنه قرأ ﴿ ربنا لا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ﴾ .

(111/756)

وأخرج الحكيم الترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه قال : " بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يطلع الآن رجل من أهل الجنة فأطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته ماء من وضوئه ، معلق نعليه في يده الشمال ، فلما كان من الغد ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فاطلع ذلك الرجل على مثل مرتبته الأولى ، فلما كان من الغد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، فأطلع ذلك الرجل ، فلما قام الرجل أتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تحل يميني فعلت . قال : نعم ، قال أنس : فكان عبد الله بن عمرو يحدث أنه بات معه ليلة فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه

كان إذا تقلب على فراشه ذكر الله وكبر ، حتى يقوم لصلاة الفجر فيسبغ الوضوء غير أني لا أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الليالي الثلاث وكدت احتقر عمله قلت : يا عبد الله إنه لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لك ثلاث مرات في ثلاث مجالس يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، فأطلعت أنت تلك المرات الثلاث ، فأردت أن آوي إليك فأنظر ما عملك ، فإذا ما هو إلا ما رأيت فانصرفت عنه فلما وليت دعاني فقال : ما هو إلاّ ما قد رأيت غير أني لا أجد في نفسي غلاً لأحد من المسلمين ، ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه ، فقال له عبد الله بن عمرو : هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق " .

(112/756)

وأخرج الحكيم الترمذي عن عبد العزيز بن أبي رواد قال : " بلغنا أن رجلاً صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرف قال النبي صلى الله عليه وسلم : هذا الرجل من أهل الجنة . قال عبد الله بن عمرو : فأتيته فقلت : يا عماه الضيافة ، قال نعم ، فإذا له خيمة وشاة ونخل ، فلما أمسى خرج من خيمته فاحتلب العنز واجتنى لي رطباً ثم وضعه ، فأكلت معه فبات نائماً وبت قائماً ، وأصبح مفطراً ، وأصبحت صائماً ، ففعل ذلك ثلاث

ليال ، فقلت له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيك : إنك من أهل الجنة فأخبرني ما عملك ؟ فائت الذي أخبرك حتى يخبرك بعملي فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ائته فمره أن يخبرك فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تخبرني . قال : أما الآن فنعم فقال : لو كانت الدنيا لي فأخذت مني لم أحزن عليها ، ولو أعطيتها لم أفرح بها وأبيت وليس في قلبي غل على أحد قال عبد الله : لكني والله أقوم الليل وأصوم النهار ولو وهبت لي شاة لفرحت بها ، ولو ذهبت لحزنت عليها ، والله لقد فضلك الله علينا فضلاً بيناً " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا ﴾ قال عبد الله بن أبيّ بن سلول ورفاعة بن تابوت وعبد الله بن نبتل وأوس بن قيظي وإخوانهم بنو النضير .

وأخرج ابن إسحق وابن المنذر وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس أن رهطاً من بني عوف بن الحارث منهم عبد الله بن أبيّ بن سلول ووديعة بن مالك وسويد وداعس بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لا نسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا وقذف الله الرعب في قلوبهم ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ، ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ، ففعل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : قد أسلم ناس من أهل قريظة والنضير ، وكان فيهم منافقون ، وكانوا يقولون لأهل النضير : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، فنزلت فيهم هذه الآية ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا ﴾ قال : عبد الله بن أبيّ بن سلول ورفاعة بن تابوت وعبد الله بن نبتل وأوس بن قيظي ﴿ يقولون لإخوانهم ﴾ قال : النضير ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ قال : بالكلام ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ قال : المنافقون يخالف دينهم دين النضير ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ﴾ قال : كفار قريش يوم بدر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ قال : كذلك أهل الباطل مختلفة شهادتهم ، مختلفة أهواؤهم ، مختلفة أعمالهم ، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ﴾ قال : هم بنو النضير .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ قال : هم

المشركون.

وأخرج الديلمي عن علي قال: المؤمنون بعضهم لبعض نصحاء وادّون وإن افترقت منازلهم ، والفجرة بعضهم لبعض غششة خونة وإن اجتمعت أبدانهم.

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ﴾ قال: هم كفار قريش يوم بدر.

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ﴾ قال: هم بنو النضير.

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (15)

(114/756)

أخرج عبد الرزاق وابن راهويه وأحمد في الزهد وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب أن رجلاً كان يتعبد في صومعة ، وأن امرأة كان لها إخوة فعرض لها شيء ، فأتوه بها ، فزينت له نفسه فوقع عليها ، فجاءه الشيطان فقال: اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت ، فقتلها ودفنها ، فجاؤوه فأخذوه ، فذهبوا به ، فبينما هم يمشون إذ جاءه

الشيطان فقال : إني أنا الذي زينت لك فاسجد لي سجدة أنجيك ، فسجد له ، فذلك قوله : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإِنسان اكفر ﴾ الآية .

(115/756)

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ كمثل الشيطان ﴾ الآية ، قال : كان راهب من بين إسرائيل يعبد الله فيحسن عبادته ، وكان يؤتي من كل أرض فيسأل عن الفقه ، وكان عالماً ، وإن ثلاثة إخوة لهم أخت حسناء من أحسن الناس ، وإنهم أرادوا أن يسافروا ، وكبر عليهم أن يدعوها ضائعة ، فعمدوا إلى الراهب ، فقالوا : إنا نريد السفر ، وإنا لا نجد أحد أوثق في أنفسنا ولا آمن عندنا منك ، فإن رأيت جعلنا أختنا عندك ، فإنها شديدة الوجع ، فإن ماتت ، فقم عليها ، وإن عاشت فأصلح إليها حتى ترجع ، فقال : أكفيكم إن شاء الله ، فقام عليها فداواها حتى برئت وعاد إليها حسنها ، وإنه اطلع إليها فوجدها متصنعة ، ولم يزل به الشيطان حتى وقع عليها فحملت ، ثم ندمه الشيطان فزين له قتلها وقال : إن لم تفعل افتضحت وعرف أمرك ، فلم يكن لك معذره ، فلم يزل به حتى قتلها ، فلما قدم إخوتها سألوه ما فعلت ؟ قال : ماتت ، فدفنتها . قالوا : أحسنت . فجعلوا يرون في المنام ويخبرون أن الراهب قتلها وأنها تحت شجرة كذا

وكذا ، وأنهم عمدوا إلى الشجرة فوجدها قد قتلت ، فعمدوا إليه فأخذوه فقال الشيطان : أنا الذي زينت لك الزنا وزينت لك قتلها ، فهل لك أن تطيعني وأنجيك؟ قال : نعم ، قال : قال فاسجد لي سجدة واحدة فسجد له ثم قتل فذلك قول الله : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإِنسان اكفر ﴾ الآية .

(116/756)

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في هذه الآية قال : كانت امرأة ترعى الغنم وكان لها أربعة إخوة ، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب فنزل الراهب ففجر بها ، فأتاه الشيطان فقال : اقتلها ثم ادفنها ، فإنك رجل مصدق يسمع قولك ، فقتلها ثم دفنها ، فأتى الشيطان إخوتها في المنام ، فقال لهم : إن الراهب فجر بأختكم ، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا ، فلم أصبح قال رجل منهم : لقد رأيت البارحة كذا وكذا فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت كذلك فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت كذلك قالوا : فوالله ما هذا إلا لشيء ، فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه ، ثم انطلقوا به ، فلقيه الشيطان فقال : إني أنا الذي أوقعتك في هذا ، ولن ينجيك منه غيري فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه ، فسجد له فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأُخِذَ فقُتِل .

وأخرج ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن عبيد بن رفاعة الدارمي يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال : كان راهب في بني إسرائيل ، فأخذ الشيطان جارية فخنقها فألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب ، فأتي بها الراهب ، فأبى أن يقبلها ، فلم يزالوا به حتى قبلها ، فكانت عنده ، فأتاه الشيطان فوسوس له وزين له ، فلم يزل به حتى وقع عليها ، فلما حملت وسوس له الشيطان فقال : الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها ، فإن أتوك ، فقل : ماتت ، فقتلها ودفنها فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم ، وألقى في قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها ، فأتاه أهلها فسألوه فقال : ماتت ، فأخذوه فأتاه الشيطان فقال : أنا الذي ألقيت في قلوب أهلها ، وأنا الذي أوقعتك في هذا فأطعني تنج واسجد لي سجدتين فسجد له سجدتين فهو الذي قال الله ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإِنسان اكفر ﴾ الآية .

(117/756)

وأخرج ابن المنذر والخرائطي في اعتلال القلوب من طريق عدي بن ثابت عن ابن عباس في الآية قال : كان راهب في بني إسرائيل متعبداً زماناً حتى كان يؤتى بالمجانين فيقرأ عليهم ويعودهم حتى يبرؤوا فأتى بامرأة في شرف قد عرض لها الجنون ، فجاء إخوتها إليه

ليعوذها ، فلم يزل به الشيطان يزين له حتى وقع عليها فحملت ، فلما عظم بطنها لم يزل الشيطان يزين له حتى قتلها ودفنها في مكان ، فجاء الشيطان في صورة رجل إلى بعض إخوتها فأخبره ، فجعل الرجل يقول لأخيه : والله لقد أتاني آت فأخبرني بكذا وكذا حتى أفضى به بعضهم إلى بعض حتى رفعوه إلى ملكهم ، فسار الملك والناس حتى استنزله فأقر واعترف فأمر به الملك فصلب ، فأتاه الشيطان وهو على خشبته فقال : أنا الذي زينت لك ، هذا وألقيتك فيه ، فهل أنت مطيعي فيما آمرك به وأخلصك ؟ قال : نعم . قال : فاسجد لي سجدة واحدة ، فسجد له وكفر ، فقتل في تلك الحال .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن طاووس قال : كان رجل من بني إسرائيل عابداً وكان ربما داوى المجانين وكانت امرأة جميلة أخذها الجنون فجيء بها إليه فتركت عنده ، فأعجبته ، فوقع عليها ، فحملت ، فجاءه الشيطان ، فقال : إن علم بهذا افتضحت فاقتلها وادفنها في بيتك ، فقتلها فجاء أهلها بعد زمان يسألونه عنها ، فقال : ماتت ، فلم يتهموه لصلاحه فيهم ورضاه ، فجاءهم الشيطان فقال : إنها لم تمت ولكنه وقع عليها فحملت فقتلها ودفنها في بيته في مكان كذا وكذا ، فجاء أهلها فقالوا : ما نتهمك ، ولكن أخبرنا أين دفنتها ومن كان معك ففتشوا بيته فوجدوها حيث دفنها ، فأخذ فسجن ، فجاءه الشيطان فقال : إن كنت تريد أن أخرجك مما أنت فيه فاكفر بالله ، فأطاع الشيطان وكفر ، فأخذ وقتل فتبرأ منه الشيطان حينئذ .

قال طاوس: فما أعلم إلا أن هذه الآية أنزلت فيه ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ الآية.

(118/756)

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في الآية قال: ضرب الله مثل الكفار والمنافقين الذين كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾.

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ قال: عامة الناس.

وأخرج عبد بن حميد عن الأعمش أنه كان يقرأ "فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدان فيها" والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ الآية.

(119/756)

أخرج ابن أبي شيبة ومسلم والنسائي وابن ماجة وابن مردويه عن جرير قال : "كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه قوم مجتابي النمار متقلدي السيوف عليهم أزر ولا شيء غيرها ، عامتهم من مضر ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم الذي بهم من الجهد والعري والجوع تغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قام فدخل بيته ، ثم راح إلى المسجد ، فصلى الظهر ثم صعد منبره ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : "أما بعد ذلكم فإن الله أنزل في كتابه ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ، لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ تصدقوا قبل أن لا تصدقوا ، تصدقوا قبل أن يحال بينكم وبين الصدقة ، تصدق امرؤ من ديناره تصدق امرؤ من درهمه ، تصدق امرؤ من بره ، من شعيره ، من تمره ، لا يحقرن شيء من الصدقة ولو بشق التمرة " فقام رجل من الأنصار بصرة في كفه فناولها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو على منبره فعرف السرور في وجهه ، فقال : من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن سنة سيئة فعمل بها كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً " فقام الناس فتفرقوا فمن ذي دينار ، ومن ذي درهم ، ومن ذي طعام ، ومن ذي ، ومن ذي فاجتمع فقسمه بينهم " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ ما قدمت لغد ﴾ قال : يوم القيامة .

(120/756)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن نعيم بن محمد الرحبي قال : كان من خطبة أبي بكر الصديق : واعلموا أنكم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه فإن استطعتم أن ينقضي الأجل وأنتم على حذر فافعلوا ، ولن تستطيعوا ذلك إلا بإذن الله ، وإن قوماً جعلوا أجلهم لغيرهم فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم ، فقال : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ أين من كنتم تعرفون من إخوانكم ؟ قد انتهت عنهم أعمالهم ووردوا على ما قدموا . أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآكام هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه ، ولا يطفأ نوره استضيئوا منه اليوم ليوم الظلمة ، واستنصحوا كتابه وتبيانه ، فإن الله قد أثنى على قوم فقال : ﴿ كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ [الأنبياء : 90] لا خير في قول لا يبتغي به وجه الله ، ولا خر في مال لا ينفق في سبيل الله ،

ولا خير فيمن يغلب غضبه حلمه ، ولا خير في رجل يخاف في الله لومة لائم . انتهى ا . هـ ﴿الدر المنثور حـ 8 صـ 105. 120﴾

(121/756)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الخشع)

والخشوع والاختشاع : الخضوع .

وقيل : قريب من الخضوع .

وقيل : الخضوع فى البدن والخشوع فى الصوت والبصر .

والخشوع : السّكون والتذلُّل والضراعة والسّكوت .

وقيل : أَكثر ما يستعمل فيما يوجد فى الجوارح ، والضَّراعة أَكثر ما يُستعمل فيما يوجد فى القلب .

ورُوى : إِذا ضَرَع القلبُ خشع الجوارح .

وقوله تعالى : ﴿ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ كناية عنها وتنبيها على تزعُزعها .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ أى خائفين منّا .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ أى المتواضعين .

وقوله ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ أى ذليلة .

وقوله : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ و ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ ﴾ أى مُطْرِقة فى نظرها .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ قال ابن مسعود : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلاّ أربع سنين .

وقال ابن عباس : إن الله استبطأ قلوبَ المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاثَ عشرة من نزول القرآن .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ ﴾ أى سكنتْ وذلت وخضعت .

ورأى النبىُّ صلّى الله عليه وسلّم رجلاً يَعْبَثُ بلحيته فى الصّلاة فقال : "لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه" وكان بعض الصّحابة يقول : أعوذ بالله من خشوع النّفاق فقيل : ما خشوع النفاق ؟ فقال : أن يرى البدن خاشعاً والقلب غير خاشعٍ .

وقال حذيفة : أوّل ما تفقدون من دينكم الخشوعُ ، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعاً .

وقال سهل : مَنْ خشع قلبه لم يقرُبْ منه الشيطان .

قال عبد الله بن المعمار :

*رقة فى الجَنَان فيها حياءٌ * فيهما هَيْبَةٌ وذاك خشوعُ*

(122/756)

---

*ليس حال ولا مقام وإِنْ فا *ضَتْ عليه من العيونِ دموع*

وقيل : الخشوع الاستسلام للحُكْمين ، أَعنى الحكم الدّينىّ الشَّرعىّ فيكون معناه عدم معارضته برأى أو غيره ، والحُكْم القَدَرِىّ وهو عدم تلقّيه بالتسخُّط والكراهة والاعتراض ؛ والاتّضاعُ أعنى اتّضاع القلب والجوارح وانكسارَها لنظر الرّبِّ إليها واطّلاعِه على تفاصيل ما فى القلب والجوارح.

فخوف العبد فى هذا المقام يوجب خشوع القلب لا محالة.

وكلَّما كان أَشدّ استحضاراً له كان أَشدّ خشوعاً .

وإِنَّما يفارق القلبَ الخشوعُ إِذا غفل عن اطِّلاع الله تعالى ونظره إليه .

ومّما يورث الخُشوع ترقُّبُ آفات النفس والعمل ، ورؤية فضل كلّ ذى فضل عليك ، وتنسّم العناءِ ، يعنى انتظار ظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبها ؛ فإِنَّه يجعل القلب خاشعاً لا محالة لمطالعة عيوب نفسه وأَعمالها ونقائِصها : من العجْب والكِبْر والرّياء وضعف

الصّدق وقلّة اليقين وتشتت النيّة وعدم إيقاع العمل على الوجه الّذى ترضاه لربّك وغير ذلك من عيوب النّفس .

وأمّا رؤية فضل كلّ ذى فضل عليك فهو أن تراعى حقوق النّاس فتؤدّيها ولا ترى أنّ ما فعلوه معك من حقوقك عليهم فلا تعاوضهم عليها فإنّ ذلك من رعونات النّفس وحماقاتها ، ولا تطالبهم بحقوق نفسك فالعارف لا يرى له على أحد حقّاً ، ولا يشهد له على غيره فضلاً .

فلذلك لا يعاقِب ولا يطالب ولا يضارب .

(بصيرة فى الخشية)

وهى خوف يشوبه تعظيم .

وأكثر [ما يكون] ذلك عن علم بما يُخْشَى منه ، ولذلك خُصّ العلماءُ بها فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وقوله ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾ اى ليستشعروا خوفاً عن معرفة .

وقولُه ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ أى لا تقتلوهم معتقدين لمخافة أن يلحقهم إملاق .

وقوله : ﴿ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ﴾ اى لمن خاف خوفاً اقتضاه معرفته بذلك عن نفسه .

وقال تعالى : ﴿ فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ .

ومدح الله تعالى أهله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ وعند الإمام أحمد فى مسنده ، وفى جامع الترمذى "عن عائشة رضى الله عنها قالت قلت : يا رسول الله ، الذين يؤتون ما آتَوْا وقُلُوبُهمْ وَجِلَةٌ ، أَهو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر ؟ قال : لا يا ابنة الصّدّيق ، ولكنه الرّجل يصلّى ويصوم ويتصدّق ويخاف ألاَّ يُقبل منه" .

قال الحسن رحمه الله : عملوا لله بالطّاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن تُرَدّ عليهم .

إِنّ المؤمن جمع إيماناً وخشية ، والمنافق جمع إِساءَة وأَمْناً .

والخشية والخوف والوجَل والرّهبة أَلفاظ متقاربة غير مترادفة .

فالخوف : تَوَقُّع العقوبة على مجارى الأَنفاس ، قاله جنَيد .

وقيل : اضطراب القلب وحركته من تذكُّر المَخُوف .

وقيل : الخوف هَرَب القلب من حلول المكروه عند استشعاره .

والخشية أَخصّ من الخوف ؛ فإِنّ الخشية للعلماءِ بالله تعالى كما تقدّم .

فهي خوف مقرون بمعرفة .

قال النبيّ صلَّى الله عليه وسلم "إنِّي أتقاكم لله وأشدُّكم له خشية" فالخوف حركة ،

والخشية انجماع وانقباض وسكون ، فإنَّ الَّذي يرى العدوّ والسّيل ونحو ذلك له حالتان :

إحداهما حركة الهرب منه ، وهي حالة الخوف ، والثانية سكونه وقراره في مكان لا يصل

إليه وهي الخَشْية ، ومنه الخَشُّ : الشئ [الأَخشن] والمضاعف والمعتل أخوان ؛ كتقضّى

البازي وتقضّض .

(124/756)

وأمّا الرّهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه ، وهي ضدّ الرَّغبة الَّتي هي سَفَر القلب

في طلب المرغوب فيه .

وبين الرّهب والهَرَب تناسب في اللفظ والمعنى يجمعهما الاشتقاق الأَوسط الَّذي هو عَقْد

تقاليب الكلمة على معنى جامع .

وأمّا الوَجَل فرَجَفَانُ القلب وانصداعُه لذكر مَنْ يُخَاف سُلطانُه وعقوبته أو لرؤيته .

وأمّا الهيبة فخوفٌ مقارنٌ للتعظيم والإجلال .

وأكثر ما يكون مع المحبة والإجلال .

فالخوف لعامّة المؤمنين ، والخشية للعلماءِ العارفين ، والهيبةُ للمحبّين ، والوَجَل للمقرَّبين .

وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخشية ، كما قال النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم "إنِى لأَعلمكم بالله وأَشدّكم له خشية" وقال : "لو تعلمون ما أَعلم لضحكتم قليلاً ولَبَكَيْتُم كثيراً ، ولَمَا تلذذَّتم بالنّساءِ على الفُرُش ، ولخرجتم إِلى الصّعدات تجأَرون إلى الله تعالى"

فصاحب الخوف يلتجئ إِلى الهَرَب والإمساك ، وصاحب الخشية إِلى الاعتصام بالعلم ، ومَثَلهما كَمَثَل مَن لا علم له بالطِّب ومثل الطَّبيب الحاذق .

فالأَوّل يلتجئ إِلى الحِمْية والهرب ، والطَّبيب يلتجئ إِلى معرفته بالأَدْوية والأَدواءِ .

وكلّ واحد إِذا خفته هَرَبت منه ، إِلا الله ، فإِنك إِذا خفته هربت إِليه .

فالخائف هاربٌ من ربّه إِلى ربه . انتهى انتهى . اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 541 ـ 546.﴾

(125/756)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

الكتاب : الحَاوِى فِى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وِيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِى تَفْسِيرِ كَلَامِ المَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والخمسون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/757)

الجزء السابع والخمسون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 22 ﴾ من (سورة الحشر)

وحتى الآية ﴿ 24 ﴾ آخر السورة

(4/757)

قوله تعالى ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أعلى سبحانه أولياءه بأن فتح السورة بالإيمان بالغيب وهو العزيز الحكيم بعد التنزيه عن نقائص التعطيل وكل شائبة نقص وينزل لعباده في أسباب الصفات والأفعال إلى أن أوصلهم إلى محسوس الأمثال فتأهلوا للفناء في ذاته وما على صفاته الموجبة لخشيته ، رقاهم إلى التفكر في تفصيل ما افتتح به ، فقال عادلاً عن أسلوب العظمة إلى أعظم منها بإسبال حجب العزة على منهاج الحكمة : ﴿ هو ﴾ أي الذي وجوده من ذاته فلا عدم له أصلاً بوجه من الوجوه ، فلا يستحق الوصف ب " هو " غيره لأنه الموجود دائماً أزلاً وأبداً ، فهو حاضر في كل ضمير غائب بعظمته عن كل حس ، فلذلك يتصدع الجبل من خشيته .

ولما عبر بأخص أسمائه، أخبر عنه لطفاً بنا وتنزلاً لنا بأشهرها الذي هو مسمّي الأسماء كلها فقال: ﴿الله﴾ أي المعبود الذي لا ينبغي العبادة إلا له، الذي بطن بما لم تحط ولا تحيط به العقول من نعوت الكبرياء والعظمة والإكرام، فظهر بأفعاله التي لا تضاهى بوجه غاية الظهور، فتميز غاية التميز، فلم يلحقه شرك أصلاً في أمة من الأمم ولا نسمة من النسم، قال الحرالي في شرح الأسماء: وهو لوه القلوب والعقول أي محارها الذي لا تدركه، فلزم الخلق من توحيد اسم الإله ما حصل لهم من توحيد اسم الله من الأحدية الإحاطية - انتهى - فلذلك كان وصفه ﴿الذي لا إله إلا هو﴾ فإنه لا مجانس له ولا يليق ولا يصبح ولا يتصور أن يكافئه أو يدانيه شيء والإله أول اسم الله فلذلك - لا يكون أحداً مسلماً إلا بتوحيده فتوحيده فرض وهو أساس كل فريضة، وتوحيد سائر الأسماء نقل وهو أساس كل نافلة، فمن وحد في الكل فقد كمل دينه وتمت النعمة عليه وإلا كان من الذين آمنوا، فإن كان ذلك منه قولاً عصم من نار الأحكام على الأبدان في الدنيا، وإن كان علماً تخلص من نار الهلع على النفوس في الدنيا، وهو الجزع عند مس الشر، والمنع والبخل عند مس الخير، ولن يشهد التوحيد في هذه الكلمة التي مضمونها توحيد اسم الإله إحساناً إلا بعد إحصاء جميع الأسماء علماً، قال الحرالي: والإله: التعبد وهو التذلل، فمن توهم حاجته بشيء وتوهم أن عنده قوام حاجته تذلل فكان تذلله له تألهاً، وكل من عبد ما أحاط عينه

فقد خذل عقله عن تصحيح معنى الإله الذي يجب أن يكون غيباً ، فكان تصحيح معنى الإله أنه غيب قائم مستحق للعبادة والتذلل لأجل قيامه والاستغناء به .

ولما أخبر بتفرده ، دل عليه بآية استحقاقه لذلك ، فقال مقدماً لما هو متقدم في الوجود :

﴿ عالم الغيب ﴾ أي الذي غاب عن علم جميع خلقه .

(6/757)

ولما كنا ربما ظن أن وصفه بالغيب أمر نسبي سمي غيباً بالنسبة لناس دون ناس ، دل بذكر الضد على أن المراد كل ما غاب وكل ما شهد فقال تعالى : ﴿ والشهادة ﴾ أي الذي وجد فكان بحيث يحسه ويطلع عليه بعض خلقه .

ولما تعالى في صفات العظمة ونعوت الجلال والكبر فبطن غاية البطون ، أخذ رحمة العبادة بالتنزيل لهم بالتعرف إليهم بعواطف الرحمة فقال بانياً الكلام على الضمير إعلاماً بأن المحدث عنه أولاً هو بعينه المحدث عنه ثانياً : ﴿ هو الرحمن ﴾ أي العام الرحمة ، قال الحرالي رحمه الله تعالى : والرحمة إجراء الخلق على ما يوافق حسبهم ويلائم خلقهم وخلقهم ومقصد أفئدتهم ، فإذا اختص ذلك بالبعض كان رحيمية ، وإذا استغرق كان رحمانية ، ولاستغراق معنى اسم الرحمن لم يكن لإتمام في معنى استغراقه - يعني باسم الله .

ولما كانت الرحيمية خاصة بما ترضاه الإلهية قال تعالى : ﴿ الرحيم ﴾ أي ذو الرحمة العامة المسعدة في الظاهر والرحمة الخاصة المسعدة في الباطن ، قال الحرالي : الرحمة من الرحيم اختصاص من شملته الرحمانية بمزية ما أوثر به من الرحمة في مقابلة من آل أمره إلى نعمه ليجمع مقتضى الاسمين بين عموم الرحمانية واختصاص الرحيمية : ولما أظهر على الخلق خصوص الإيثار ، أجرى عليهم اسم الرحيم كرحمة الخلق أبناءهم .

ولما كان حق اسم الرحيم إثبات رحمة غير مجذوذة ولم يكن ذلك للخلق لم يكن بالحقيقة الرحيم إلا الله الذي إذا اختص بالرحمة لم يحدها ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ [البقرة : 256] " إن الله لا ينزع العلم انتزاعاً بعد أن أعطاكموه " ﴿ وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ [هود : 108] فلذلك لا رحيم بالحقيقة إلا الله تحقيق علم كما أنه لا رحمان إلا الله بادي معنى .

(7/757)

ولما كان الملك كمال استيلاء على الخلق يقصرهم به ملكهم على بعض مستطاعهم ويدينهم – أي يجيزهم – على حسب دينهم أي ما وضع لهم من عادة قصره لهم وحكمه عليهم

وبحسب إحصائه عليهم دقيق أعمالهم وإحاطته بخفي أحوالهم والاطلاع على سرائرهم بتحقيق استيفاء الجزاء فيتحقق بذلك كمال الملك ، فكان لذلك لا تتحقق حقيقة الملك فيمن هو دون العلم بالسر وأخفى ، والمحصي الحسيب لمثاقيل الدر ، الخبير بخبأ الكون ، فكان لا ملك في الحقيقة إلا الله ، ولكنه تعالى لما كان قد أولى الخلق من رفعه بعضهم فوق بعض ما أجرى عليهم اسم الملك فتنة لهم فضل بسبب ذلك قوم ادعوا الملك الحقيقي ، فغلط من أراد الله من الخلق فيهم فضلوا بهم ، أعاد التهليل مع اسمه الملك كما ابتدأ مع اسمه الإله أول أسماء الله ، ولذلك أيضاً قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حديث أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ الذي رواه الشيخان وأبو داود والترمذى في حديث الذي يسمى ملك الملوك في رواية المسلم :

" لا ملك إلا الله " ، فقال مصرحاً بما في باطن اسمي الرحمة من القهر والجبر على النسق الأول في البناء على الضمير تأكيداً لتعين المحدث عنه وتوحيده : ﴿ هو الله ﴾ أي الذي لا يقدر على تعميم الرحمة لمن أراد وتخصيصها بمن شاء ﴿ الذي لا إله ﴾ أي معبود بحق ﴿ إلا هو الملك ﴾ فلا ملك في الحقيقة إلا هو لأنه لا يحتاج إلى شيء ، فإنه مهما أراد كان .

ولما كان الملك أصل ما لحق الخلق من الآفات لأنه رأس الشرف الذي هو باب الترف الملازم لمخالفة كتاب الله أما في الأعمال فيكون فتنة ، وأما في الرأي فيكون علواً وكبراً وكفراً ، فإن أمر الله في آدم على ما هو نبوة ثم ينزل فيصير خلافة ثم ينتهي نزوله فيكون ملكاً ثم تتداعى الأحداث ، فلمكان تداعي الملك لموجبات الذم قال عقب صفات الملك : ﴿ القدوس ﴾ مصرحاً بما لزم عن تمام ملكه من أنه بليغ في النزاهة عن كل وصم يدركه حسن أو يتصوره خيال أو يسبق إليه وهم أو يختلج به ضمير ، فإن القدس طهر لا يقبل التغير ولا يلحقه رجس فلا يزال على وصف الحمد بثبات القدس ، ولمكان ما حوّل سبحانه الخلق من حال طهر لا يظهر فيه تغير بما دونه أجرى عليهم اسم القدس كروح القدس المؤيد للشارع ينفث في روعة المؤيد لشاعره في مكافحته عنه ، ولأجل قصر تخلي الخالق بالملك في قليل متاع الدنيا رغب النبي العبد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه ، واختار العبودية الدائمة بدوام العزة لسيده ، فوضح بذلك علم أن لا قدوس إلا الله حقيقة معنى وتصحيح إحاطة .

ولما كان سبحانه لتمام ملكه وعلو ملكه وكمال قدسه لا يتصور أن يلحقه نقص في ذات ولا صفة ولا فعل ، فلا يقبح منه إهلاك على حال من الأحوال ولا مس بضر في الدنيا والآخرة

في وقت من الأوقات لأنه سبحانه ، لعلمه بالظواهر والبواطن على حد سواء ، يصنع الأمور في أحكم مواضعها بما لا يدركه غيره أصلاً أو لا يدركه حق إدراكه فاحتيج إلى ما يؤمن من ذلك ، وكان السلام حد ما بين الألفة والفرقة وحد ما بين الرحمة والسطوة وهو أدنى منال الجاهل من عباد الرحمان ، ومنال المعتدي من المقتدر ، وكان سلام المسلم للجاهل مداراة لئلا يزيد في جهله عليه ، أو ارتقاباً لاستقبال مكنة ، وكان الله لا يعبأ بالخلق ولا يحتاج لارتقاب مكنة لأنه لا يعجزه شيء فلم يتحقق السلام بكل معنى من وجود السلامة له وإفاضتها على غيره تماماً إلا منه إعفاء من معاجلة استحقاق السطوة وحفيظة لحرمة اختصاص الرحمة ، أتبع ذلك مؤمناً للعاصي من المعاجلة وللمطيع من سوء المعاملة قوله : ﴿ السلام ﴾ لأنه حد ما بينهما ظاهراً ، ولذلك أردفه بما يتعلق بالباطن لتحصل إحاطة السلامة ظاهراً وباطناً فقال : ﴿ المؤمن ﴾ لأن الأمن حد ما بين المحبة والكره فيمن لا وسيلة له للحب وهو أدنى ما يقبله ذو الحق ممن يستحق منه الحب ، ولذلك لم يقبل الحق ممن كان ظاهر الوسيلة للحب - إلا بالحب فلم يثبت إيمان المؤمن بمجرد الإيمان حباً له بل إيثاراً لمحبته على كل حب ومساواة لأخيه المؤمن فيما يحب لنفسه ، وأدناه الأمنة في الغيب من الغيبة والعيب إلى غاية الأمان من بوائق الغشم والظلم من الجار المستحق حفظ جاره في غيبه ، فالإحلال بالإيمان لكونه الأمنة في الغيب نفاق ، والإخلال بالإسلام لكونه السلم في المواجهة إجرام ، فبأدنى إخلال في جانب الحق أو الخلق ينثلم الإسلام

والإيمان ، وذلك كله إنما هو في الحقيقة من الله تعالى فهو الذي يعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه ومنع أسباب المخاوف فلا أمن في

الوجود ولا أمان إلا وهو مستفاد من جهته .

ولما كان الاطلاع على بيّن ما ذكر ليتحقق معنى السلم والأمن ، وعلى كل من تلك الحدود خفياً جداً يفتقر إلى مزيد علم ، قال : ﴿ المهيمن ﴾ فإن الهيمنة شهادة خبرة وإحاطة وإبصار لكلية ظاهر الأمر وباطنه بحيث لا يخفى منه خافية هوية ولا بادية ظاهر ، ولإحاطة معناه لا يكاد يقع له في الخلق مسوغ إطلاق إلا مسامحة لأن الخلق لا يشهدون إلا الظواهر ولا يشهدون من الباطن ، ولذلك انعجم معناه على كثير من فصحاء العرب ، فمفهوم معناه موجب توحيده فواضح إذ لا مهيمن بمعنى أنه شهيد على الوجه المشروح مع الأمانة المأمونة والحفظ والرعاية فيكون قائماً على كل شيء بكل ما له من رزق وعمل وأجل إلا هو ، ولذلك كان القرآن الذي هو صفته سبحانه وتعالى مهيمناً على جميع الكتب التي قبله مصدقاً لما يستحق التصديق منها مكذباً لما يستحق التكذيب ، فمن كان به أمهر كان بذلك أعلم .

ولما كان تمام الخبرة ملزوماً لتمام القدرة ، صرح بها اللازم فقال : ﴿ العزيز ﴾ والعزة غلبة لا يجد معها المغلوب وجه مدافعة وجه مدافعة ولا انفلات ولا إعجاز ، فالعزيز الذي صعب على طالبه إدراكه مع افتقار كل شيء إليه في كل لحظة ، الشديد في انتقامه الذي لا معجز له في إنفاذ حكمه ، ولذلك ينظم كثير بآيات إمضاء الأحكام متصلاً بالحكمة والعلم إنباء عن العدل ، قال الغزالي : وهو الذي يقل وجود مثله وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه .

(11/757)

ولما كان المغلوب على الشيء فيؤخذ من يده قد لا ينقاد باطناً فلا يباشر ما غلب عليه للغالب وقد لا يكون العز ظاهراً لكل أحد ، أردفه بقوله : ﴿ الجبار ﴾ وهو العظيم الذي يفوت المقاوم مناله ، فهو على هذا من أسماء الذات ويصلح أمور من يريد من الخلق ويقهرهم على ما يريد ، فهم أحقر من أن يعصوه طرفة عين بغير إرادته ، والجبر : طول يلجيء الأدنى لما يريد منه الأعلى ويغيب من الأعلى ما يحاول مناله منه الأدنى مع الظهور التام الذي تدور مادته عليه ، فالجبار لا يخرج شيء من قبضته ، وتقصر الأيدي عن حمى عز حصرته ، ولا ينال منه إلا ما نوّل ، وهو أبعد شيء عن أوصاف الخلق لمنال الذباب منهم منا شاء وعجزهم عنه ، ولما فيه من الإلجاء كان هو الاسم الذي يجلي ء النار لقصرها على مراده

منها من الحسب الذي جبلها على ضده من الاستزادة فلا تزال تقول ما جبلت عليه : هل من مزيد ، حتى يضع الجبار فيها قدمه أي يهينها فإن القدم موضع الإهانة ، وهذه الإهانة - هي من مبدأ ظهور غلبة الرحمة للغضب ، فله الملك ظهوراً بالأيدي الظاهرة من الإنسان وما دونه ، وله الملكوت بطوناً بالأيدي الباطنة من الملك وما دونه ، ولو الجبروت اختصاصاً من وراء كل ملك وملكوت .

(12/757)

ولما كان الإلجاء قد يكون بنوع ملاطفة ، أتبعه قوله : ﴿ المتكبر ﴾ ليعم الإلجاء الظاهر والباطن فالكبرياء جملة تأدي أمر الله وظاهر خلقه الذي يجد الخلق صغرهم من دونه وكبره عليهم وامتناعه عما لا يريد من مرادهم ، لأن الكل حقيرون بالإضافة إلى جلاله وعز جبروته وعظمته وكماله ، ولسواء الخلق في عام حضرة القدرة شملهم الصغر فلم يصح منهم كبر ، ولا شرع لهم تكبر ، فلم يكن للخلق منهم حقيقة حظ ولا لبس حق ، فاختص بهذا الاسم لاستيلائه على الظواهر بإظهار ما لهم من الكبر لعدم الحاجة إلى شيء وبإلجاء غيره إلى الاحتياج إليه والإيقاع بجبابرتهم وإذلالهم وغير ذلك من الأمور المزعجة المرهبة من غير مبالاة بشيء كما اختص بالجبار لاستيلائه على البواطن .

ولما تقرر بما ذكر من مظاهر عظمته استيلاؤه على الظواهر والبواطن باللطف والعنف ، أنتج ذلك تعاليه عن شوب نقص لا سيما بالشرك فقال سبحانه : ﴿ سبحان الله ﴾ أي تنزه الملك الأعلى الذي اختص بجميع صفات الكمال تنزهاً لا تدرك العقول منه أكثر من أنه علا عن أوصاف الخلق فلا يدانيه شيء من نقص ﴿ عما يشركون ﴾ أي من هذه المخلوقات من الأصنام وغيرهما مما في الأرض أو في السماء من كبير وصغير .

وجليل وحقير .

ولما تم دليل الوحدانية بما حل من التفهيم بالتدني إلى الملك ثم بالتعلي إلى التكبر فأنتج هذه الخاتمة ، ابتدأ سبحانه دليلاً آخر هو في غاية التنزل والوضوح ، فقال مفتتحاً بما افتتح به الأول من الترتيب في المراتب الثلاث ، غيب الغيب ثم الغيب ثم الظهور على مراتبه ، إعلاماً بأنه لا براح عن الإيمان بالغيب ، ومن برح عنه هلك ﴿ وهو ﴾ أي الذي لا شيء يستحق أن يطلق عليه هذا الضمير غيره لأن وجوده من ذاته ولا شيء غيره إلا وهو ممكن فهو أهل لأن لا يكون فلا يكون له ظهور ليكون له بطون .

ولما ابتدأ بهذا الغيب المحض الذي هو أظهر الأشياء ، أخبر عنه بأشهر الأسماء الذي لم يقع فيه شركة بوجه فقال : ﴿ الله ﴾ أي الذي ليس له سمي فلا كفوء له فهو المعهود بالحق فلا شريك له بوجه .

(14/757)

ولما بدأ سبحانه بهذا الدليل الجامع بين الغيب والظهور ، ثنى بتنزيل متضمن للعلم والقدرة فهو في غاية الظهور فقال : ﴿ الخالق ﴾ أي الذي لا خالق على الحقيقة إلا هو لأن الخلق فرض حد وقدر في مطلق منه لم يكن فيه بعد حد ولا قدر كالحاذي يخلق أي يقدر في الجلد حداً وقدراً لنعل ونحوه وهو سابق للفري والبري ونحو " سبق العلم العمل " فالخالق في الحقيقة هو الذي كل شيء عنده بمقدار ، الذي يقول ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق ﴾ [الزمر : 6] ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ [الحجر : 21] ومن ناشئة القدر الفرق والترتيب ، ومن ناشئة الفرق والترتيب الإحياء والإماتة ، ومن معاد الفرق والإحياء والإماتة على أول أمره الجمع والرب ، فلا يملك الخلق والفرق إلا من يملك الجمع والرب ، وقد أوتي الحق ملكة ما في الفرق والشتات ، ولم يملكوا جمع ما فرقوا ولا ألف ما شتتوا كالقاطع عضواً لا يقدر على لأمه ، والهادم بناء لا يقدر

على رمه على حده ، والكاسر شيئاً لا يقدر على وصله ، فلأن الخلق لا يحيطون بتقدير ما يسرعون في قدره ولا يقدرون بعد الفرق والفري على رمه ووصله كان المحيط التقدير في الشيء من جميع جهاته وجملة حدوده ، القادر على جمع ما فرق الذي كما بدء أول خلق يعيده هو أحسن الخالقين ، وتلايح تحت هذا اللبس في إطلاق اسم الخالق على الخالق الحق ذي الحول والقوة والقدرة والإحاطة والإبداء والإعادة ، وعلى الخالق من الخلق المقدر بغير إحاطة علم ولا تأصيل حول ولا قدرة ، ولا إتمام إبداء لاحظ من إعادة أنه لا خالق إلا الله كما أنه لا معيد لما بدأ إلا الله ، وأن ليس إطلاق هذا الاسم على الخلق مبدأ فتنته التي يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء ، وتحقيق أفراد الخلق لله فيما ظهر على أيدي أهل الملك والملكوت وإحاطة جبروته بما ظهر وما بطن من أعمالهم وصنائعهم ، هو أول مجمع من مجامع التوحيد ، وهو أساس لإيمان أمة محمد .

(15/757)

صلى الله عليه وسلم . حيث فرض عليهم في الفاتحة ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فهم خير أمة أخرجت للناس حيث أخلصوا الدين لله ، ولموقع الشرك فيه كان القدرية مجوس هذه الأمة .

ولما كان الخالق الحق هو من أتقن التقدير والبريء وإن كان أغلب الخلق لقصورهم لا يفهمون منه إلا مطلق التقدير كما قال شاعرهم :

ولأنت تفري ما خلقت . . .

وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

أردفه تنبيهاً على ذلك وتصريحاً وتأكيداً قوله : ﴿ البارئ ﴾ أي الذي يدقق بما وقع به التقدير ويقطعه ويصلحه لقبول الصورة على أتم حال ، فإن كان من المحيط العلم كان تمام التهيؤ للصورة على كمال المشيئة فيها ، وإن كان ممن لا يحيط علماً طرأ له في البرء من النقص عن التمام ما لا يمكن معه حصول المقصود في الصورة ، ولا يكاد يقع الإحسان للخلق في مصوراتهم إلا وفاقاً لا يعلمون كنهه ولا يثقون بحصوله .

(16/757)

ولما كان من يهيئ الأمور للتصوير قد لا يتقنه قال : ﴿ المصور ﴾ فإن التصوير إتمام تفصيل الخلق الظاهر وإكمال تخطيطه وإحكام أعضائه وهو حد ما انتهى إليه الخلق في الظهور ، وليس وراء ظهور الصور كون إلا لطائف تطويرها في إسنان كمالها بعد بعثها بإحيائها بما لها من الروح المقوم لها سواء كان حيوانياً أو غيره إلى غاية كما لها الذي يعطيه المصور لها

إفضالاً ومزيداً ويظهره إبداعاً ، ويتضح الفرق جداً بين الأسماء الثلاثة بالبناء فإنه يحتاج أولاً إلى مقدر يقدر ما لا بد منه من الحجر واللبن والخشب والحديد ومساحة الأرض وعدد الأبنية وطولها وعرضها ، وهذا يتولاه المهندس فيرسمه وهو الخلق ثم يحتاج إلى حجار ينحت الحجارة ويهيئها لتصلح لمواضعها التي تكون فيها من الأبواب وأوساط الجدر وأطرافها وزواياها غير ذلك ، وكذا الخشاب والحداد في الخشب والحديد وهو البرئ ثم يأخذ الكل البناء فيضعها مواضعها إلى أن تقوم صورتها التي رسمها المهندس أولاً وقدرها ، ولا تقوم الصورة بالحق إلا إذا كانت محكمة بحسب الطاقة كما أن البناء يضع الحجارة أولاً ثم يجعل الخشب فوقها لا بالاتفاق بل بالحكمة ، ولو قلب ذلك لم تثبت الصورة ولم يكن لها الاسم إلا على أقل وجوه الضعف فكل من كان أحكم كان تصويره أعظم ، ولذلك لا مصور في الحقيقة إلا الله الخالق البارئ المصور سبحانه ، قال الرازي في اللوامع : والتصوير موجود في كل أجزاء العالم وإن صغر حتى في الذرة والنملة بل في كل عضو من أعضاء النملة ، بل الكلام يطول في طبقات العين وعددها وهيئاتها وشكلها ومقاديرها وألوانها ، ووجه الحكمة فيها ، فمن لم يعرف صورتها لم يعرف مصورها إلا بالاسم المجمل ، وهكذا القول في كل صورة لكل حيوان ونبات بل لكل جزء من نبات وحيوان .

ولما علم من هذا أنه لا بد أن يكون المصور بالغ الحكمة ، أردفه بقوله تعالى : ﴿ له ﴾ أي خاصة لا لغيره ﴿ الأسماء الحسنى ﴾ أي من الحكيم وغيره ممن لا يتم التصوير إلا به ولا تدركونه أنتم حق إدراكه .

ولما أخبر سبحانه أول السورة أن الكائنات أوجدت تسبيحه خضوعاً لعزته وحكمته ، ودل على ذلك بما تقدم إلى أن أسمعه الآذان الواعية بالأسماء الحسنى ، دل على دوام اتصافه بذلك من يحتاج لما له من النقص من الخلق إلى التذكير فعبر بالمضارع فقال : ﴿ يسبح ﴾ أي يكرر التنزيه الأعظم من كل شائبة نقص على سبيل التجدد والاستمرار ﴿ له ﴾ أي على وجه التخصيص بما أفهمه قصر المتعدي وتعديته باللام ﴿ ما في السماوات ﴾ ولما كان هذا المنزه الذي استجلى التنزيه من الأسماء الحسنى قد أشرقت أنفاسه ولطفت أقطاره وأغراسه حتى صار علوياً فرأى الأرض عالية كالسماء لما شاركتها به في الدلالة على تمام كماله لجعلها معها لأنه لا يحتاج إلى تأكيد كالشيء الواحد بإسقاط " ما " وألصقها بها إلاحة إلى ذلك فقال : ﴿ والأرض ﴾ فمن تأمل الوجود مجملاً ومفصلاً ، علم تسبيح ذلك كله بنعوت الكمال وأوصاف الجلال والجمال ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه وحده ﴿ العزيز ﴾ أي الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ولا يوجد له مثل ، ويعز الوصول إليه ويشتد الحاجة إليه .

ولما كان من يكون بهذه الصفة لا يتم أمره وثبت كل ما يريده إلا إن كان على قانون الحكمة قال : ﴿ الحكيم ﴾ من الحكمة وهي إتقان الحكم وإنهاؤها إلى جد لا يمكن نقضهن والحكم قال الحرالي : المنع عما يترامى إليه المحكوم إيالة عليه وحمله على ما يمتنع منه نظراً له ، ففي ظاهره الجهد وفي باطنه الرفق ، وفي عاجله الكره ، وفي آجله الرضى والروح ، فموقعه في الأبدان المداواة " تداووا عباد الله فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء " ، وموقعه في الأديان التزام الأحكام والصبر والمصابرة على مجاهدة الأعمال وجهاد الأعداء ظاهراً من عدو الدين والبغي وباطناً من عدو النفس (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك) ومن بعض الأهل والولد عدو ، والشيطان عدو يجري من ابن آدم مجرى الدم ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ [فاطر : 6] فالحمل على جميع أنواع الصبر والمصابرة ظاهراً بالإيالة العالية هو الحكم والعلم بالأمر الذي لأجله وجب الحكم من قوام أمر عاجلته وحسن العقبى في آجلته من الحكمة ، فالحكم مباح التعليم للناس عامة بل واجب أن يتعلم كل امرئ من الأحكام ما يخصه ، وأن ينتدب طائفة لعلم ما يعم جميع الناس ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ﴾ [التوبة : 122] والحكمة التي

هي العلم بما لأجله وجب الحكم من مشروطه التعليم بالتزكية ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ [الجمعة : 2] فما يعلمهم الحكمة إلا بعد التزكية فمن تزكى فهو من أهلها ومن يترك فليس من أهلها ، فالحكمة تحلي مرارة جهد العمل بالأحكام فييسر بها ما يعسر دونها ، والحكم ضيق الأمر للنفس كما أن السجن ضيق الخلق للبدن ، والحكمة تود محمل ضيق الحكم لأنها تخرج وتؤول إلى سعة الواسع ، ولا يتم الحكم وتستوي الحكمة إلا بحسب سعة العلم .

(19/757)

ولما لم يكن للخلق من العلم إلا بقدر ما يهبهم الله لم يكن لهم من الحكمة إلا مقدار ما يورثهم ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ [لقمان : 12] ولما كان إنما العلم عند الله كان إنما الحكمة حكمة الله وإنما الحكم حكم الله ، فهو الحكيم الذي لا حكيم إلا هو - انتهى .

وقد علم سر اتباع الأسماء الشريفة من غير عطف ، وذاك أنه لما ابتدأ ب " هو " وأخبر عنه بالاسم العلم الأعظم المفرد المصون الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى ، أتبعه تلك الأوصاف العلى من غير عطف إعلاماً بأنه لا شيء منها يؤدي جميع معناه بالمفهوم

المتعارف عند أهل اللغة ، ولذلك جمع بعدها الأسماء إشارة إلى أنه لا يجمع معناه إلا جميع الأوصاف المنزلة في كتبه والمأخوذة عن أوليائه التي استأثر بها في غيبه وليس شيء مما ذكر ههنا مضاداً في المعنى الظاهري للآخر كالأول والآخر حتى يظن لأجله نقص في المعنى بسبب ترك العطف ، وأما ترتيبها هكذا فلأن كل اسم منها كما مضى شارح لما خفي من الذي قبله ومبين للازمه ، وموضع لما ألاح أنه من مضمونه ، وقد انعطف على افتتاحها وختامها وعانق ابتداؤها تمامها ، ووفى مطلعها مقطعها ، وزاد وبلغ الغاية من الإرشاد إلى سبيل الرشاد ، فسبحان من أنزله برحمته رحمة للعباد ، وهادياً إلى الصواب والسداد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 537.546 ﴾

(20/757)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه لما وصف القرآن بالعظم ، ومعلوم أن عظم الصفة تابع لعظم الموصوف ، أتبع ذلك بشرح عظمة الله فقال :

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22)

وقيل : السر والعلانية وقيل : الدنيا والآخرة .

اعلم أنه تعالى قدم الغيب على الشهادة في اللفظ وفيه سر عقلي ، أما المفسرون فذكروا أقوالاً في الغيب والشهادة ، فقيل : الغيب المعدوم ، والشهادة الموجود ما غاب عن العباد وما شاهدوه .

ثم قال : ﴿ هُوَ اللهُ الذي لاَ إله إِلاَّ هُوَ الملك ﴾ وكل ذلك قد تقدم تفسيره .

ثم قال : ﴿ القدوس ﴾ قرىء : بالضم والفتح ، وهو البليغ في النزاهة في الذات والصفات ، والأفعال والأحكام والأسماء ، وقد شرحناه في أول سورة الحديد ، ومضى شيء منه في تفسير قوله : ﴿ وَنُقَدّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : 30] وقال الحسن : إنه الذي كثرت بركاته .

وقوله : ﴿ السلام ﴾ فيه وجهان الأول : أنه بمعنى السلامة ومنه دار السلام ، وسلام عليكم وصف به مبالغة في كونه سليماً من النقائص كما يقال : رجاء ، وغياث ، وعدل فإن قيل فعلى هذا التفسير لا يبقى بين القدوس ، وبين السلام فرق ، والتكرار خلاف الأصل ، قلنا : كونه قدوساً ، إشارة إلى براءته عن جميع العيوب في الماضي والحاضر ، كونه : سليماً ، إشارة إلى أنه لا يطرأ عليه شيء من العيوب في الزمان المستقبل فإن الذي يطرأ عليه شيء من العيوب ، فإنه تزول سلامته ولا يبقى سليماً الثاني : أنه سلام بمعنى كونه موجباً للسلامة .

وقوله : ﴿ المؤمن ﴾ فيه وجهان الأول : أنه الذي آمن أولياءه عذابه ، يقال : آمنه يؤمنه فهو مؤمن والثاني : أنه المصدق ، إما على معنى أنه يصدق أنبياءه بإظهار المعجزة لهم ، أو لأجل أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم يشهدون لسائر الأنبياء ، كما قال : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة : 143] ثم إن الله يصدقهم في تلك الشهادة ، وقرىء بفتح الميم ، يعني المؤمن به على حذف الجار كما حذف في قوله : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] .

وقوله : ﴿ المهيمن ﴾ قالوا : معناه الشاهد الذي لا يغيب عنه شيء .

ثم في أصله قولان ، قال الخليل وأبو عبيدة : هيمن يهيمن فهو مهيمن إذا كان رقيب على الشيء ، وقال آخرون : مهيمن أصله مؤيمن ، من آمن يؤمن ، فيكون بمعنى المؤمن ، وقد تقدم استقصاؤه عند قوله : ﴿ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : 48] وقال ابن الأنباري : المهيمن القائم على خلقه برزقه وأنشد :

ألا إن خير الناس بعد نبيه . . مهيمنه التاليه في العرف والنكر

قال معناه : القائم على الناس بعده .

وما ﴿ العزيز ﴾ فهو إما الذي لا يوجد له نظير ، وإما الغالب القاهر .

وأما ﴿ الجبار ﴾ ففيه وجوه أحدها : أنه فعال من جبر إذا أغنى الفقير ، وأصلح

الكسير .

قال الأزهري : وهو لعمري جابر كل كسير وفقير ، وهو جابر دينه الذي ارتضاه ، قال العجاج :

قد جبر الدين الإله فجبر . . والثاني : أن يكون الجبار من جبره على كذا إذا أكرهه على ما أراده ، قال السدي : إنه الذي يقهر الناس ويجبرهم على ما أراده ، قال الأزهري : هي لغة تميم ، وكثير من الحجازيين يقولونها ، وكان الشافعي يقول : جبره السلطان على كذا بغير ألف .

(22/757)

وجعل الفراء الجبار بهذا معنى من أجبره ، وهي اللغة المعروفة في الإكراه ، فقال : لم أسمع فعالاً من أفعل إلا في حرفين ، وهما جبار من أجبر ، ودراك من أدرك ، وعلى هذا القول الجبار هو القهار الثالث : قال ابن الأنباري : الجبار في صفة الله الذي لا ينال ، ومنه قيل للنخلة التي فاتت يد المتناول : جبارة الرابع : قال ابن عباس : الجبار ، هو الملك العظيم ، قال الواحدي : هذا الذي ذكرناه من معاني الجبار في صفة الله ، وللجبار معان في صفة الخلق أحدها : المسلط كقوله :

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ [ق : 45] ، والثاني : العظيم الجسم كقوله : ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ ﴾ [المائدة : 22] والثالث : المتمرد عن عبادة الله ، كقوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً ﴾ [مريم : 32] ، والرابع : القتال كقوله : ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : 130] وقوله : ﴿ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأرض ﴾ [القصص : 19] .

أما قوله : ﴿ المتكبر ﴾ ففيه وجوه أحدها : قال ابن عباس : الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله وثانيها : قال قتادة : المتعظم عن كل سوء وثالثها : قال الزجاج : الذي تعظم عن ظلم العباد ورابعها : قال ابن الأنباري : المتكبرة ذو الكبرياء ، والكبرياء عند العرب : الملك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا الكبرياء فِي الأرض ﴾ [يونس : 78] ، واعلم أن المتكبر في حق الخلق اسم ذم ، لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر ، وذلك نقص في حق الخلق ، لأنه ليس له كبر ولا علو ، بل ليس معه إلا الحقارة والذلة والمسكنة ، فإذا أظهر العلو كان كاذباً ، فكان ذلك مذموماً في حقه أما الحق سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء ، فإذا أظهره فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعلوه ، فكان ذلك في غاية المدح في حقه سبحانه ولهذا السبب لما ذكر هذا الاسم :

قال : ﴿ سبحان الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ كأنه قيل : إن المخلوقين قد يتكبرون ويدعون مشاركة الله في هذا الوصف لكنه سبحانه منزه عن التكبر الذي هو حاصل للخلق لأنهم ناقصون بحسب ذواتهم ، فادعاؤهم الكبر يكون ضم نقصان الكذب إلى النقصان الذاتي ، أما الحق سبحانه فله العلو والعزة ، فإذا أظهره كان ذلك ضم كمال إلى كمال ، فسبحان الله عما يشركون في إثبات صفة المتكبرية للخلق .

ثم قال : ﴿ هُوَ الله الخالق ﴾ والخلق هو التقدير معناه أنه يقدر أفعاله على وجوه مخصوصة ، فالخالقية راجعة إلى صفة الإرادة .

ثم قال : ﴿ البارىء ﴾ وهو بمنزلة قولنا : صانع وموجد إلا أنه يفيد اختراع الأجسام ، ولذلك يقال في الخلق : برية ولا يقال في الأعراض التي هي كاللون والطعم .

وأما ﴿ المصور ﴾ فمعناه أنه يخلق صور الخلق على ما يريد ، وقدم ذكر الخالق على البارىء ، لأن ترجيح الإرادة مقدم على تأثير القدرة وقدم البارىء على المصور ، لأن إيجاد الذوات مقدم على إيجاد الصفات .

ثم قال تعالى : ﴿ لَهُ الأسماء الحسنى ﴾ وقد فسرناه في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ الأسماء الحسنى ﴾ [الأعراف : 180] .

أما قوله : ﴿ يُسَبّحُ لَهُ مَا فِي السموات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ فقد مر تفسيره في

أول سورة الحديد والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ،

والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلم تسليما كثيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 254 . 256 ﴾

(24/757)

وقال ابن عطية :

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾

لما قال تعالى : ﴿ من خشية الله ﴾ [الحشر : 21] جاء بالأوصاف التي توجب لمخلوقاته هذه الخشية ، و﴿ الغيب ﴾ ما غاب عن المخلوقين ، و﴿ الشهادة ﴾ ما شاهدوه . وقال حرب المكي ﴿ الغيب ﴾ : الآخرة ﴿ والشهادة ﴾ : الدنيا . وقرأ جمهور الناس : " القُدوس " بضم القاف ، وهو فعول من تقدس إذا تطهر ، وحظيرة القدس الجنة ، لأنها طاهرة ، ومنه روح القدس ، ومنه الأرض المقدسة بيت المقدس ، وروي عن أبي ذر أنه قرأ : " القَدوس " بفتح القاف وهي لغة ، و﴿ السلام ﴾ معناه : الذي سلم من جوره ، وهذا اسم على حذف مضاف أي ذو ﴿ السلام ﴾ ، لأن الإيمان به وتوحيده وأفعاله هي لمن آمن سلام كلها ، و﴿ المؤمن ﴾ اسم فاعل من آمن بمعنى أمن . قال أحمد

بن يحيى ثعلب معناه : المصدق للمؤمنين في أنهم آمنوا . قال النحاس : أو في شهادتهم على الناس في القيامة . وقال ناس من المتأولين معناه : المصدق نفسه في أقواله الأزلية : لا إله غيره و﴿ المهيمن ﴾ معناه : الأمين والحفيظ . قاله ابن عباس وقال مؤرج : ﴿ المهيمن ﴾ : الشاهد بلغة قريش ، وهذا بناء لم يجئ منه في الصفات إلا مهيمن ومسيطر ومبيقر ومبيطر ، جاء منه في الأسماء مجيمر : وهو اسم واد ومدير . و: ﴿ العزيز ﴾ الذي لا يغلب والقاهر الذي لا يقهر يقال عزيز إذا غلب برفع العين في المستقبل . قال الله تعالى : ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ [ص : 23] أي غلبني ، وفي المثل من عز بزّ أي من غلب سلب ، و﴿ الجبار ﴾ هو الذي لا يدانيه شيء ولا يلحق رتبه ، ومنه نخلة جبارة إذا لم تلحق وأنشد الزهراوي : [الطويل]

أطافت به جيلان عند قطاعه . . . وردت إليه الماء حتى تجبرا

و ﴿ المتكبر ﴾ معناه الذي له التكبر حقاً ، ثم نزه الله تعالى نفسه عن إشراك الكفار به الأصنام التي ليس لها شيء من هذه الصفات ، و: ﴿ البارئ ﴾ بمعنى ﴿ الخالق ﴾ ، برأ الله الخلق أي أوجدهم ، و: ﴿ المصور ﴾ هو الذي يوجد الصور ، وقرأ علي بن أبي

طالب : " المصوَّرَ " بنصب الواو والراء على إعمال ﴿ البارئ ﴾ به ، وهي حسنة يراد بها الجنس في الصور ، وقال قوم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه إنه قرأ : " المصوَّرِ " بفتح الواو وكسر الراء على قولهم الحسن الوجه وقوله تعالى : ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ أي ذات الحسن في معانيها القائمة بذاته لا إله إلا هو ، وهذه الأسماء هي التي حصرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : " إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة " ، وقد ذكرها الترمذي وغيره مسندة ، واختلف في بعضها ولم يصح فيها شيء إلا إحصاؤها دون تعين ، وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(26/757)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللهُ الذي لاَ إله إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغيب والشهادة ﴾

قال ابن عباس : عالم السر والعلانية .

وقيل : ما كان وما يكون .

وقال سهل : عالم بالآخرة والدنيا .

وقيل: ﴿ الغيب ﴾ ما لم يعلم العباد ولا عاينوه.

﴿ والشهادة ﴾ ما علموا وشاهدوا.

﴿ هُوَ الرحمن الرحيم ﴾ تقدّم.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ الله الذي لاَ إله إلاَّ هُوَ الملك القدوس ﴾

أي المنزّه عن كل نقص، والطاهر عن كل عيب.

والقَدَس (بالتحريك): السَّطْل بلغة أهل الحجاز؛ لأنه يتطهر به.

ومنه القادوس لواحد الأواني التي يستخرج بها الماء من البئر بالسانِية.

وكان سِيبويه يقول: قَدُّوس وسَبُّوح؛ بفتح أوّلهما.

وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائيّ أعرابياً فصيحاً يُكْنَى أبا الدينار يقرأ "القَدّوس" بفتح القاف.

قال ثعلب: كل اسم على فَعُّول فهو مفتوح الأوّل؛ مثل سَفُّود وكَلُّوب وتَنّور وسَمُّور وشَبُّوط، إلا السُّبّوح والقُدوس فإن الضم فيهما أكثر؛ وقد يفتحان.

وكذلك الذُّرّوح (بالضم) وقد يفتح.

﴿ السلام ﴾ أي ذو السلامة من النقائص.

وقال ابن العربيّ: اتفق العلماء رحمة الله عليهم على أن معنى قولنا في الله "السَّلاَمُ": النسبة، تقديره ذو السلامة.

ثم اختلفوا في ترجمة النسبة على ثلاثة أقوال : الأوّل معناه الذي سلِم من كل عيب وبَرِىء من كل نقص .

الثاني معناه ذو السلام ؛ أي المسلم على عباده في الجنة ؛ كما قال : ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 58] .

الثالث أن معناه الذي سلم الخلقُ من ظلمه .

قلت : وهذا قول الخطابي ؛ وعليه والذي قبله يكون صفة فعل .

وعلى أنه البريء من العيوب والنقائص يكون صفة ذات .

وقيل : السلام معناه المسلِّم لعباده .

﴿ المؤمن ﴾ أي المصدّق لرسله بإظهار معجزاته عليهم ، ومصدق المؤمنين ما وعدهم به من الثواب ، ومصدق الكافرين ما أوعدهم من العقاب .

(27/757)

وقيل : المؤمن الذي يؤمِّن أولياءه من عذابه ، ويؤمن عباده من ظلمه ؛ يقال : آمنه من الأمان الذي هو ضدّ الخوف ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 4] فهو مؤمن ؛ قال النابغة :

والمؤمِن العائذاتِ الطيرَ يَمْسَحُها . . .

رُكْبانُ مَكّةَ بين الغِيلِ والسَّنَدِ

وقال مجاهد : المؤمن الذي وَحّد نفسه بقوله : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلهِ إلاَّ هُوَ ﴾ [آل عمران : 18] .

وقال ابن عباس : إذا كان يوم القيامة أخرج أهل التوحيد من النار .

وأوّل من يخرج من وافق اسمه اسم نبيّ ، حتى إذا لم يبق فيها من يوافق اسمه اسم نبيّ قال الله تعالى لباقيهم : أنتم المسلمون وأنا السلام ، وأنتم المؤمنون وأنا المؤمن ، فيخرجهم من النار ببركة هذين الإسمين .

﴿ المهيمن العزيز ﴾ تقدّم الكلام في المهيمن في "المائدة" وفي "العزيز" في غير موضع ، ﴿ الجبار ﴾ قال ابن عباس : هو العظيم .

وجبروت الله عظمته .

وهو على هذا القول صفة ذات ؛ من قولهم : نخلة جبّارة .

قال امرؤ القيس :

سوامق جبَّار أثيث فروعهُ . . .

وعالين قنواناً من البُسْر أحمرا

يعني النخلة التي فاتت اليَدَ .

فكان هذا الاسم يدل على عظمة الله وتقديسه عن أن تناله النقائص وصفات الحدث .

وقيل : هو من الجَبْر وهو الإصلاح ، يقال : جبرت العظم فجبَر ، إذا أصلحته بعد الكسر ، فهو فعال من جبر إذا أصلح الكسير وأغنى الفقير .

وقال الفراء : هو من أجبره على الأمر أي قهره .

قال : ولم أسمع فعّالاً من أفعل إلا في جبار ودرّاك من أدرك .

وقيل : الجبار الذي لا تطاق سطوته .

﴿ المتكبر ﴾ الذي تكبر بربوبيّته فلا شيء مثله .

وقيل : المتكبر عن كل سوء ، المتعظم عما لا يليق به من صفات الحدث والذم .

وأصل الكبر والكبرياء الامتناع وقلة الانقياد .

وقال حميد بن ثور :

عَفَت مثل ما يعفو الفَصيل فأصبحت . . .

بها كبرياء الصعب وهي ذلول

والكبرياء في صفات الله مدح ، وفي صفات المخلوقين ذم .

(28/757)

وفي الصحيح عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : " الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما قصمته ثم قذفته في النار " وقيل : المتكبر معناه العالي .

وقيل : معناه الكبير لأنه أجلّ من أن يتكلف كبراً .

وقد يقال : تظلّم بمعنى ظلم ، وتشتّم بمعنى شتم ، واستقر بمعنى قرّ .

كذلك المتكبر بمعنى الكبير .

وليس كما يوصف به المخلوق إذا وصف بتفعل إذا نسب إلى ما لم يكن منه .

ثم نَزَّه نفسه فقال : ﴿ سُبْحَانَ اللهِ ﴾ أي تنزيهاً لجلالته وعظمته ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

الْحَكِيمُ (24)

قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللهُ الخالق البارىء المصور ﴾

﴿ الخالق ﴾ هنا المقدر .

و ﴿ البارىء ﴾ المنشىء المخترع .

و ﴿ المصور ﴾ مصوّر الصور ومركبها على هيئات مختلفة .

فالتصوير مرتب على الخلق والبراية وتابع لهما .

ومعنى التصوير التخطيط والتشكيل .

وخلق الله الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خِلَق : جعله عَلَقَةً ، ثم مُضْغَةً ، ثم جعله صورة

وهو التشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يعرف بها ويتميز عن غيره بسمتها .

فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقال النابغة :

الخالق البارىء المصوّر في ال . . .

أرحامِ ماءً حتى يصير دماً

وقد جعل بعض الناس الخلق بمعنى التصوير ، وليس كذلك ، وإنما التصوير آخرا والتقدير أوّلاً والبراية بينهما .

ومنه قوله الحق : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير ﴾ [المائدة : 110] .

وقال زُهير :

ولأنت تَفْرى ما خَلَقْتَ وبع . . .

ضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْري

يقول : تُقَدِّر ما تُقدِّر ثم تفرِيه ، أي تُمضيه على وَفْق تقديرك ، وغيرك يقدر ما لا يتم له ولا يقع فيه مراده ، إما لقصوره في تصوّر تقديره أو لعجزه عن تمام مراده .

وقد أتينا على هذا كله في "الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" والحمد لله .

وعن حاطب ابن أبي بَلْتَعَة أنه قرأ "البارىء المصوّرَ" بفتح الواو ونصب الراء ، أي الذي يبرأ المصوَّر ، أي يميز ما يصوّره بتفاوت الهيئات .

ذكره الزّمَخْشَرِيّ .

﴿ لَهُ الأسمآء الحسنى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السماوات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ تقدّم الكلام فيه .

" وعن أبي هريرة قال : سألت خليل أبا القاسم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الأعظم فقال : "يا أبا هريرة عليك بآخر سورة الحشر فأكثر قراءتها "فأعدت عليه فأعاد عليّ ، فأعدت عليه فأعاد عليّ " وقال جابر بن زيد : إن اسم الله الأعظم هو الله لمكان هذه الآية .

وعن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر " وعن أبي أُمامة قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من قرأ خواتم سورة الحشر في ليل أو نهار فقبضه الله في تلك الليلة أو ذلك اليوم فقد أوجب الله له الجنة " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (15) ﴾

﴿ كمثل ﴾ : خبر مبتدأ محذوف ، أي مثلهم ، أي بني النضير ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ﴾ : وهم بنو قينقاع ، أجلاهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) من المدينة قبل بني النضير فكانوا مثلاً لهم ، قاله ابن عباس ؛ أو أهل بدر الكفار ، فإنه عليه الصلاة والسلام قتلهم ، فهم مثلهم في أن غلبوا وقهروا .

وقيل : الضمير في ﴿ من قبلهم ﴾ للمنافقين ، و﴿ الذين من قبلهم ﴾ : منافقو الأمم الماضية ، غلبوا ودلوا على وجه الدهر ، فهؤلاء مثلهم .

ويبعد هذا التأويل لفظة ﴿ قريباً ﴾ أن جعلته متعلقاً بما قبله ، وقريباً ظرف زمان وإن جعلته معمولاً لذاقوا ، أي ذاقوا وبال أمرهم قريباً من عصيانهم ، أي لم تتأخر عقوبتهم في الدنيا ، كما لم تتأخر عقوبة هؤلاء .

﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ في الآخرة .

﴿ كمثل الشيطان ﴾ : لما مثلهم بمن قبلهم ، ذكر مثلهم مع المنافقين ، فالمنافقون كالشيطان ، وبنو النضير كالإنسان ، والجمهور : على أن الشيطان والإنسان اسما جنس يورطه في المعصية ثم يفر منه .

كذلك أغوى المنافقون بني النضير ، وحرضوهم على الثبات ، ووعدوهم النصر .

فلما نشب بنو النضير ، خذلهم المنافقون وتركوهم في أسوأ حال .

وقيل : المراد استغواء الشيطان قريشاً يوم بدر .

وقوله لهم : { لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم } إلى قوله : { إني بريء منكم } وقيل : التمثيل بشيطان مخصوص مع عابد مخصوص استودع امرأة ، فوقع عليها فحملت ، فخشي الفضيحة ، فقتلها ودفنها .

سول له الشيطان ذلك ، ثم شهره ، فاستخرجت فوجدت مقتولة ؛ وكان قال إنها ماتت ودفنتها ، فعلموا بذلك ، فتعرض له الشيطان وقال : اكفر واسجد لي وأنا أنجيك ، ففعل وتركه عند ذلك وقال : أنا بريء منك .

(31/757)

وقول الشيطان : { إني أخاف الله } رياء ، ولا يمنعه الخوف عن سوء يوقع ابن آدم فيه .

وقرأ الجمهور : { عاقبتهما } بنصب التاء ؛ والحسن وعمرو بن عبيد وسليم بن أرقم : برفعهما .

والجمهور : { خالدين } بالياء حالاً ، و { في النار } خبر أن ؛ وعبد الله وزيد بن

علي والأعمش وابن عبلة : بالألف ، فجاز أن يكون خبر أن ، والظرف ملغى وإن كان قد أكد بقوله : ﴿ فيها ﴾ ، وذلك جائز على مذهب سيبويه ، ومنع ذلك أهل الكوفة ، لأنه إذا أكد عندهم لا يلغى .

ويجوز أن يكون في النار خبراً ، لأن ﴿ خالدين ﴾ خبر ثان ، فلا يكون فيه حجة على مذهب سيبويه .

ولما انقضى في هذه السورة ، وصف المنافقون واليهود .

وعظ المؤمنين ، لأن الموعظة بعد ذكر المصيبة لها موقع في النفس لرقة القلوب والحذر مما يوجب العذاب ، وكرر الأمر بالتقوى على سبيل التوكيد ، أو لإختلاف متعلق بالتقوى . فالأولى في أداء الفرائض ، لأنه مقترن بالعمل ؛ والثانية في ترك المعاصي ، لأنه مقترن بالتهديد والوعيد .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولتنظر ﴾ : أمراً ، واللام ساكنة ؛ وأبو حيوة ويحيى بن الحارث : بكسرها .

وروي ذلك عن حفص ، عن عاصم والحسن : بكسرها وفتح الراء ، جعلها لام كي .

ولما كان أمر القيامة كائناً لا محالة، عبر عنه بالغد، وهو اليوم الذي يلي يومك على سبيل التقريب.

وقال الحسن وقتادة: لم يزل يقربه حتى جعله كالغد، ونحوه: كأن لم تغن بالأمس، يريد تقريب الزمان الماضي.

وقيل: عبر عن الآخرة بالغد، كأن الدنيا والآخرة نهاران، يوم وغد.

قال ابن عطية: ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿ لغد ﴾: ليوم الموت، لأنه لكل إنسان كغده.

وقال مجاهد وابن زيد: بالأمس الدنيا وغد الآخرة.

وقال الزمخشري: أما تنكير النفس فاستقلال للأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة، كأنه: قيل لغد لا يعرف كنهه لعظمه. انتهى.

وقرأ الجمهور: ﴿ لا تكونوا ﴾ بتاء الخطاب؛ وأبو حيوة: بياء الغيبة، على سبيل الالتفات.

وقال ابن عطية: كناية عن نفس التي هي اسم الجنس؛ ﴿ كالذين نسوا ﴾: هم الكفار، وتركوا عبادة الله وامتثال ما أمر واجتناب ما نهى، وهذا تنبيه على فرط غفلتهم واتباع شهواتهم؛ ﴿ فأنساهم أنفسهم ﴾، حيث لم يسعوا إليها في الخلاص من العذاب، وهذا من المجازاة على الذنب بالذنب.

عوقبوا على نسيان جهة الله تعالى بأن أنساهم أنفسهم.

قال سفيان : المعنى حظ أنفسهم ، ثم ذكر مباينة الفريقين : أصحاب النار في الجحيم ، وأصحاب الجنة في النعيم ، كما قال : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ وقال تعالى : ﴿ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾ : هذا من باب التخييل والتمثيل ، كما مر في قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات ﴾ ودل على ذلك : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾ والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وعدم تأثره لهذا الذي لو أنزل على الجبل لتخشع وتصدع .

وإذا كان الجبل على عظمه وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع ، فابن آدم كان أولى بذلك ، لكنه على حقارته وضعفه لا يتأثر .

(33/757)

وقرأ طلحة : مصدعاً ، بإدغام التاء في الصاد ؛ وأبو السمال وأبو دينار الأعرابي : القدوس بفتح القاف ؛ والجمهور : بالفك والضم .

وقرأ الجمهور : المؤمن بكسر الميم ، اسم فاعل من آمن بمعنى أمن .

وقال ثعلب : المصدق المؤمنين في أنهم آمنوا .

وقال النحاس : أو في شهادتهم على الناس يوم القيامة .

وقيل : المصدق نفسه في أقواله الأزلية .

وقرأ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين ، وقيل ، أبو جعفر المدني : المؤمن بفتح الميم .

قال أبو حاتم : لا يجوز ذلك ، لأنه لو كان كذلك لكان المؤمن به وكان جائزاً ، لكن المؤمن المطلق بلا حرف جر يكون من كان خائفاً فأومن .

وقال الزمخشري : يعني المؤمن به على حذف حرف الجر ، كما تقول في قوم موسى من قوله :

﴿ واختار موسى قومه ﴾ المختارون .

﴿ المهيمن ﴾ : تقدم شرحه .

﴿ الجبار ﴾ : القهار الذي جبر خلقه على ما أراد .

وقيل : الجبار : الذي لا يدانيه شيء ولا يلحق ، ومنه نخلة جبارة إذا لم تلحق ، وقال امرؤ القيس :

سوابق جبار أتيت فروعه . . .

وعالين قنواناً من البسر أحمرا

وقال ابن عباس : هو العظيم ، وجبروته : عظمته .

وقيل : هو من الجبر ، وهو الإصلاح.

جبرت العظم : أصلحته بعد الكسر .

وقال الفراء : من أجبره على الأمر : قهره ، قال : ولم أسمع فعالاً من أفعل إلا في جبار

ودراك .

انتهى ، وسمع أسار فهو أسار .

﴿ المتكبر ﴾ : المبالغ في الكبرياء والعظمة .

وقيل : المتكبر عن ظلم عباده ، ﴿ الخالق ﴾ : المقدر لما يوجده .

﴿ البارىء ﴾ : المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة ، ﴿ المصور ﴾ : الممثل .

وقرأ عليّ وحاطب بن أبي بلتعة والحسن وابن السميقع : المصور بفتح الواو والراء ، وانتصب مفعولاً بالباري ، وأراد به جنس المصور .

وعن علي ؛ فتح الواو وكسر الراء على إضافة اسم الفاعل إلى المفعول ، نحو : الضارب الغلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(34/757)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ اتقوا الله ﴾

أي في كلِّ ما تأتونَ وما تذرونَ ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ قدمَتْ من الأعمالِ ليومِ القيامةِ عبرَ عنْهُ بذلكَ لدنوِهِ أو لأنَ الدنيا كيومٍ والآخرةُ هي غَدُهُ وتنكيرُهُ

لتفخيمِه وتهويلِه كأنه قيل لغدٍ لا يُعرف كُنهُهُ لغايةِ عظمِه ، وأما تنكيرُ نفسٍ فلاستقلالِ الأنفسِ النواظرِ فيما قدّمن لذلك اليومَ الهائلِ ، كأنه قيل ولتنظرْ نفسٌ واحدةٌ في ذلكَ .

﴿ واتقوا الله ﴾ تكريرٌ للتأكيدِ ، أو الأولُ في أداءِ الواجباتِ كما يُشعرُ به ما بعدَهُ من الأمرِ بالعملِ ، وهذا في تركِ المحارمِ كما يُؤذنُ بِه الوعيدُ بقولِه تعالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي من المعاصِي ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ ﴾ أي نَسُوا حقوقَهُ تعالَى وما قدرُوه حقَّ قدرِه ولم يراعُوا مواجبَ أوامرِه ونواهِيه حقَّ رعايتِهَا ﴿ فأنساهم ﴾ بسببِ ذلكَ ﴿ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي جعلَهُم ناسينَ لها حتَّى لم يسمعُوا ما ينفعُها ولم يفعَلُوا ما يخلّصُهَا أو أراهُم يومَ القيامةِ من الأهوالِ ما أنساهُم أنفسَهُم ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الفاسقون ﴾ الكاملونَ في الفسوقِ .

﴿ لَا يَسْتَوِى أصحاب النار ﴾

(35/757)

الذينَ نسُوا الله تعالَى فاستحقُّوا الخلودَ في النارِ . ﴿ وأصحاب الجنة ﴾ الذينَ اتقَوا الله فاستحقُّوا الخلودَ في الجنة ، ولعلَّ تقديمَ أصحابِ النارِ في الذكرِ للإيذانِ من أولِ الأمرِ بأنَّ القصورَ الذي ينبىءُ عنه عدمُ الاستواءِ من جهتِهم لا من جهةِ مقابِليهم فإن مفهومَ عدمِ

الاستواءِ بين الشيئينِ المتفاوتين زيادةً ونقصاناً وإن جازَ اعتبارُهُ بحسب زيادةُ الزائدِ ، لكنْ المتبادرُ اعتبارُهُ بحسبِ نقصانِ الناقصِ ، وعليهِ قولُهُ تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الأعمى والبصيرِ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظلماتُ والنور ﴾ إلى غيرِ ذكل منَ المواقعِ وأما قولُهُ تعالى ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فلعلَّ تقديمَ الفاضلِ فيهِ لأنَّ صلَتَهُ ملكةٌ لصلةِ المفضولِ والاعدامُ مسبوقةٌ بملكاتِهَا ولاَ دلالةَ في الآيةِ الكريمةِ على أنَّ المسلمَ لا يقتصُّ بالكافرِ وأنَّ الكفارَ لا يملكونَ أموالَ المسلمينَ بالقهرِ لأنَّ المرادَ عدمُ الاستواءِ في الأحوالِ الأخرويةِ كما ينبىءُ عنه التعبيرُ عن الفريقينِ بصاحبيةِ النّارِ وصاحبيةِ الجنّةِ وكذا قولُهُ تعالى : ﴿ أصحاب الجنة هُمُ الفائزون ﴾ فإنَّه استئنافٌ مبينٌ لكيفةِ عدمِ الاستواءِ بينَ الفريقينِ أي هُم الفائزونَ بكلِّ مطلوبٍ الناجونَ عنْ كلِّ مكروهٍ .

(36/757)

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هذا القرءان ﴾ العظيمَ الشأنِ المنطويَ على فنونِ القوارعِ ﴿ على جَبَلٍ ﴾ من الجبالِ ﴿ لَّرَأَيْتَهُ ﴾ مع كونِهِ علماً في القسوةِ وعدمِ التأثرِ مما يصادِمُهُ ﴿ خاشعا مُّتَصَدّعاً مّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ أي متشققاً منها . وقُرِىءَ مُصدّعاً بالإدغامِ وهذا تمثيلٌ وتخييلٌ لعلوِّ شأنِ القرآنِ وقوةِ تأثيرِ ما فيهِ من المواعظِ كما ينطقُ به قولُهُ تعالى : ﴿ وَتِلْكَ

الأمثالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أُريدَ به توبيخَ الإنسانِ على قسوةِ قلبِه وعدم تخشعِهِ عندَ تلاوتِهِ وقلةِ تدبرِه فيه ﴿ هُوَ اللهُ الذى لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ وَحْدَهُ ﴿ عالِمُ الغيبِ والشهادة ﴾ أي ما غابَ عن الحسِّ من الجَوَاهِرِ القُدسيةِ وأحوالِهَا وما حضرَ لهُ من الأجرامِ وأعراضِهَا . وتقديمُ الغيبِ على الشهادةِ لتقدمِهِ في الوجودِ وتعلقِ العلمِ القديمِ به . أو المعدُومِ والموجودُ أو السرُّ والعلانيةُ ﴿ هُوَ الرحمن الرحيم هُوَ اللهُ الذى لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ كُرِّرَ لإبرازِ الاعتناءِ بأمرِ التوحيدِ ﴿ الملكُ القدوس ﴾ البليغُ في النزاهةِ عما يوجبُ نُقْصاناً مَا . وقُرِىءَ بالفتحِ وهي لغةٌ فيه ﴿ السلام ﴾ ذُو السلامةِ من كلِّ نقصٍ وآفةٍ ، مصدرٌ وصفَ بِهِ للمبالغةِ ﴿ المؤمن ﴾ واهبُ الأمنِ . وقُرِىءَ بالفتحِ بمَعْنَى المُؤْمَنُ بِهِ على حذفِ الجارِّ ﴿ المهيمن ﴾ الرقيبُ الحافظُ لكلِّ شيءٍ مُفَيْعِلٌ منْ الأمنِ بقلبِ همزتِهِ هاءً ﴿ العزيز ﴾ الغالبُ ﴿ الجبار ﴾ الذي جبرَ خلقَهُ على ما أرادَ ، أو جبرَ أحوالَهُم ، أي أَصْلَحها ﴿ المتكبر ﴾ الذي تكبرَ عن كلِّ ما يوجبُ حاجةً أو نُقصاناً ، أو البليغُ الكبرياءِ والعظمةِ ﴿ سبحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيهٌ له تعالَى عمَّا يشركُونَهُ به تعالى أو عن إشراكِهِم به تعالى إثرَ تعدادِ صفاتِهِ التي لا يمكنُ أنْ يشاركَهُ تعالَى في شيءٍ منها شيءٌ ما

أصلاً .

﴿ هُوَاللهُ الخالق ﴾

المقدرُ للأشياءِ على مُقتضى حكمتِهِ ﴿ البارئ ﴾ الموجدُ لها بريئاً منَ التفاوتِ ، وقيلَ المميزُ بعضَهَا من بعضٍ بالأشكالِ المختلفةِ ﴿ المصور ﴾ الموجدُ لصورهَا وكيفياتِهَا كما أرادَ ﴿ لَهُ الأَسماء الحسنى ﴾ لدلالتِهَا على المعانِي الحسنةِ ﴿ يُسَبّحُ لَهُ مَا فِى السموات والأرض ﴾ ينطقُ بتنزهِهِ تعالَى عن جميعِ النقائصِ تنزهاً ظاهراً ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ الجامعُ للكمالاتِ كافةً فإنها معَ تكثرِهَا وتشعبها راجعةٌ إلى الكمالِ في القدرةِ والعلمِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(38/757)

وقال الآلوسى :

﴿ هُوَ اللهُ الذى لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾

وحده سبحانه ﴿ عالم الغيب ﴾ وهو ما لم يتعلق به علم مخلوق وإحساسه أصلاً وهو الغيب المطلق ﴿ والشهادة ﴾ وهو ما يشاهده مخلوق .

قال الراغب : الشهود والشهادة الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو بالبصيرة ، وقد يعتبر الحضور مفرداً لكن الشهود بالحضور المجرد أولى والشهادة مع المشاهدة أولى ، وحمل الغيب على المطلق هو المتبادر ، وأل فيه للاستغراق إذ لا قرينة للعهد ، ومقام المدح يقتضيه مع قوله تعالى : ﴿ علام الغيوب ﴾ [المائدة : 109] فيشمل كل غيب واجباً كان أو ممكناً موجوداً أو معدوماً أو ممتنعاً لم يتعلق به علم مخلوق ، ويطلق الغيب على ما لم يتعلق به علم مخلوق معين وهو الغيب المضاف أي الغيب بالنسبة إلى ذلك المخلوق وهو على ما قيل : مراد الفقهاء في قولهم : مدعي علم الغيب كافر ، وهذا قد يكون من عالم الشهادة كما لا يخفى ، وذكر الشهادة مع أنه إذا كان كل غيب معلوماً له تعالى كان كل شهادة معلوماً له سبحانه بالطريق الأولى من باب قوله عز وجل : ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : 49] ، وقيل : الغيب ما لا يقع عليه الحس من المعدوم أو الموجود الذي لا يدرك ، والشهادة ما يقع عليه الإدراك بالحس .

وقال الإمام أبو جعفر رضي الله تعالى عنه : الغيب ما لم يكن والشهادة ما كان ، وقال الحسن : الغيب السر .

والشهادة العلانية ، وقيل : الأول : الدنيا بما فيها .

والثاني : الآخرة بما فيها ، وقيل : الأول : الجواهر المجردة وأحوالها .

والثاني : الأجرام والأجسام وأعراضها ، وفيه أن في ثبوت المجردات خلافاً قوياً ، وأكثر السلف على نفيها ، وتقديم الغيب لأن العلم به كالدليل على العلم بالشهادة ، وقيل : لتقدمه على الشهادة فإن كل شهادة كان غيباً وما برز ما برز إلا من خزائن الغيب ، وصاحب القيل الأخير يقول : إن تقديم الغيب لتقدمه في الوجود وتعلق العلم القديم به ، واستدل بالآية على أنه تعالى عالم بجميع المعلومات ، ووجهه ما أشرنا إليه ، وتتضمن على ما قيل : دليلاً آخر عليه لأنها تدل على أنه لا معبود إلا هو ويلزمه أن يكون سبحانه خالقاً لكل شيء بالاختيار كما هو الواقع في نفس الأمر ، والخلق بالاختيار يستحيل بدون العلم ، ومن هنا قيل : الاستدلال بها على هذا المطلب أولى من الاستدلال بقوله تعالى : ﴿ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 282] ﴿ هُوَ الرحمن الرحيم ﴾ برحمة تليق بذاته سبحانه ، والتأويل وإن ذكره علماء أجلاء من الماتريدية .

والأشاعرة لا يحتاج إليه سلفي كما حقق في التمييز وغيره .

﴿ هُوَ الله الذى لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾

كرر لإبراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد ﴿ الملك ﴾ المتصرف بالأمر والنهي ، أو المالك لجميع الأشياء الذي له التصرف فيها ، أو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء ويستحيل عليه الإذلال ، أو الذي يولي ويعزل ولا يتصور عليه تولية ولا عزل .

أو المنفرد بالعز والسلطان ، أو ذو الملك والملك خلقه ، أو القادر أقوال حكاها الآمدي ، وحكى الأخير عن القاضي أبي بكر ﴿ القدوس ﴾ البليغ في النزاهة عما يوجب نقصاناً ، أو الذي له الكمال في كل وصف اختص به ، أو الذي لا يحدّ ولا يتصور ، وقرأ أبو السمال .

وأبو دينار الأعرابي ﴿ القدوس ﴾ بفتح القاف وهو لغة فيه لكنها نادرة ، فقد قالوا : فعول بالضم كثير ، وأما بالفتح فيأتي في الأسماء كسمور .

وتنور .

(40/757)

وهبود اسم جبل باليمامة ، وأما في الصفات فنادر جداً ، ومنه سبوح بفتح السين ﴿ السلام ﴾ ذو السلامة من كل نقص وآفة مصدر وصف به للمبالغة ، وعن الجبائي هو الذي ترجى منه السلامة ، وقيل : أي الذي يسلم على أوليائه فيسلمون من كل مخوف ﴿ المؤمن ﴾ قيل : المصدق لنفسه ولرسله عليهم السلام فيما بلغوه عنه سبحانه إما بالقول أو بخلق المعجزة ، أو واهب عباده الأمن من الفزع الأكبر أو مؤمنهم منه إما بخلق الطمأنينة في قلوبهم أو بإخبارهم أن لا خوف عليهم ، وقيل : مؤمن الخلق من ظلمه ، وقال ثعلب :

المصدق المؤمنين في أنهم آمنوا ، وقال النحاس : في شهادتهم على الناس يوم القيامة ؛ وقيل : ذو الأمن من الزوال لاستحالته عليه سبحانه ، وقيل : غير ذلك ، وقرأ الإمام أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهم وقيل أبو جعفر المدني ﴿ المؤمَن ﴾ بفتح الميم على الحذف والإيصال كما في قوله تعالى : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] أي المؤمن به .

وقال أبو حاتم : لا يجوز إطلاق ذلك عليه تعالى لإيهامه ما لا يليق به سبحانه إذ المؤمن المطلق من كان خائفاً وآمنه غيره ، وفيه أنه متى كان ذلك قراءة ولو شاذة لا يصح هذا لأن القراءة ليست بالرأي ﴿ المهيمن ﴾ الرقيب الحافظ لكل شيء مفيعل من الأمن بقلب همزته هاءاً ، وإليه ذهب غير واحد ، وتحقيقه كما في "الكشف" أن أيمن على فيعل مبالغة أمن العدو للزيادة في البناء ، وإذا قلت : أمن الراعي الذئب على الغنم مثلاً دل على كمال حفظه ورقبته ، فالله تعالى أمن كل شيء سواه سبحانه على خلقه وملحه لإحاطة علمه وكمال قدرته عز وجل ، ثم استعمل مجرد الدلالة بمعنى الرقيب والحفيظ على الشيء من غير ذكر المفعول بلا واسطة للمبالغة في كمال الحفظ كما قال تعالى :

﴿ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : 48] وجعله من ذاك أولى من جعله من الأمانة نظراً إلى أن الأمين على الشيء حافظ له إذ لا ينبىء عن المبالغة ولا عن شمول العلم والقدرة ، وجعله في الصحاح اسم فاعل من آمنه الخوف على الأصل فأبدلت الهمزة الأصلية ياءاً كراهة اجتماع الهمزتين وقلبت الأولى هاءاً كما في هراق الماء ، وقولهم في ﴿ إياك ﴾ [الفاتحة : 5] : هياك كأنه تعالى بحفظه المخلوقين صيرهم آمنين ، وحرف الاستعلاء كمهيمناً عليه لتضمين معنى الاطلاع ونحوه ، وأنت تعلم أن الاشتقاق على ما سمعت أولاً أدل والخروج عن القياس فيه أقل ، وظاهر كلام الكشف أنه ليس من التصغير في شيء .

وقال المبرد : إنه مصغر ، وخطىء في ذلك فإنه لا يجوز تصغير أسمائه عز وجل ﴿ العزيز ﴾ الغالب .

وقيل : الذي لا مثل له ، وقيل : الذي يعذب من أراد ، وقيل : الذي عليه ثواب العاملين ، وقيل : الذي لا يحط عن منزلته ، وقيل : غير ذلك ﴿ الجبار ﴾ الذي جبر خلقه على ما أراد وقسرهم عليه : ويقال في فعله : أجبر ، وأمثلة المبالغة تصاغ من غير الثلاثي لكن بقلة ، وقيل : إنه من جبره بمعنى أصلحه ، ومنه جبرت العظم فانجبر فهو الذي جبر أحوال خلقه أي أصلحها ، وقيل : هو المنيع الذي لا ينال يقال للنخلة إذا طالت وقصرت عنها الأيدي : جبارة ، وقيل : هو الذي لا ينافس في فعله ولا يطالب بعلة ولا يحجر عليه في مقدوره .

وقال ابن عباس : هو العظيم ، وقيل : غير ذلك ﴿ المتكبر ﴾ البليغ الكبرياء والعظمة لأنه

سبحانه برىء من التكلف الذي تؤذن به الصيغة فيرجع إلى لازمه من أن الفعل الصادر عن تأنق أقوى وأبلغ ، أو الذي تكبر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصاناً ﴿ سبحان الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيه لله تعالى عما يشركون به سبحانه ، أو عن إشراكهم به عز وجل إثر تعداد صفاته تعالى التي لا يمكن أن يشارك سبحانه في شيء منها أصلاً .

(42/757)

﴿ هُوَ اللهُ الخالق ﴾ المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة ، أو مبدع الأشياء من غير أصل ولا احتذاء ، ويفسر الخلق بإيجاد الشيء من الشيء ﴿ البارىء ﴾ الموجد لها بريئة من تفاوت ما تقتضيه بحسب الحكمة والجبلة ، وقيل : المميز بعضها عن بعض بالأشكال المختلفة ﴿ المصور ﴾ الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد .

وقال الراغب : الصورة ما تنتقش بها الأعيان وتتميز بها عن غيرها ، وهي ضربان : محسوسة تدركها العامة والخاصة بل الإنسان وكثير من الحيوانات كصورة الفرس المشاهدة .

ومعقولة تدركها الخاصة دون العامة كالصورة التي اختص الإنسان بها من العقل والروية والمعاني التي خص بها شيء بشيء ، وإلى الصورتين أشار بقوله سبحانه : ﴿ خلقناكم ثُمَّ

صورناكم ﴾ [الأعراف : 11] إلى آيات أخر انتهى فلا تغفل .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وحاطب بن أبي بلتعة .

والحسن .

وابن السميقع ﴿ المصور ﴾ بفتح الواو والنصب على أنه مفعول للبارىء ، وأريد به جنس المصور ، وعن علي كرم الله تعالى وجهه فتح الواو وكسر الراء على إضافة اسم الفاعل إلى المفعول نحو الضارب الغلام ، وفي الخانية إن قراءة ﴿ المصور ﴾ بفتح الواو هنا تفسد الصلاة ؛ ولعله أراد إذا أجراه حينئذٍ على الله سبحانه ، وإلا ففي دعوى الفساد بعد ما سمعت نظر .

(43/757)

﴿ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى ﴾ الدالة على محاسن المعاني ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السماوات والأرض ﴾ من الموجودات بلسان الحال لما تضمنته من الحكم والمصالح التي يضيق عن حصرها نطاق البيان ، أو بلسان المقال الذي أوتيه كل منها حسبما يليق به على ما قاله كثير من العارفين ، وقد تقدم الكلام فيه ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ الجامع للكمالات كافة

فإنها مع تكثرها وتشعبها راجعة إلى كمال القدرة المؤذن به ﴿ العزيز ﴾ بناءاً على تفسيره بالغالب وإلى كمال العلم المؤذن به ﴿ الحكيم ﴾ بناءاً على تفسيره بالفاعل بمقتضى الحكمة ، وفي ذلك إشارة إلى التحلية بعد التخلية كما في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى : 11] فتأمل ولا تغفل .

ولهذه الآيات فضل عظيم كما دلت عليه عدة روايات ، وأخرج الإمام أحمد .

والدارمي .

والترمذي وحسنه .

والطبراني .

وابن الضريس .

والبيهقي في "الشعب" عن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من قال : حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي وإن مات ذلك اليوم مات شهيداً ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة " .

وأخرج الديلمي عن ابن عباس مرفوعاً " اسم الله الأعظم في ست آيات من آخر سورة الحشر " .

وأخرج أبو علي عبد الرحمن بن محمد النيسابوري في فوائده عن محمد بن الحنفية أن البراء

بن عازب قال لعلي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه : أسألك بالله إلا ما خصصتني بأفضل ما خصك به رسول الله عليه الصلاة والسلام مما خصه به جبريل مما بعث به الرحمن عز وجل ، قال : يا براء إذا أردت أن تدعو الله باسمه الأعظم فاقرأ من أول الحديد عشر آيات وآخر الحشر ، ثم قال : يا من هو هكذا وليس شيء هكذا غيره أسألك أن تفعل لي كذا وكذا فوالله يا براء لو دعوت علي لخسف بي .

(44/757)

وأخرج الديلمي عن علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن مسعود رضي الله تعالى عنه مرفوعاً إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال في قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا ﴾ [الحشر : 21] إلى آخر السورة هي رقية الصداع ، وأخرج الخطيب البغدادي في تاريخه قال : أنبأنا أبو عبيد الحافظ أنبأ أبو الطيب محمد بن أحمد يوسف بن جعفر المقري البغدادي يعرف بغلام ابن شنبوذ أنبأ إدريس بن عبد الكريم الحداد قال : قرأت على خلف فلما بلغت هذه الآية ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرءان على جَبَلٍ ﴾ [الحشر : 21] قال : ضع يدك على رأسك فإني قرأت على حمزة فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك فإني قرأت على الأعمش فلما بلغت هذه الآية قال : ضع

يدك على رأسك فإني قرأت على يحيى بن وثاب فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك فإني قرأت على علقمة .

والأسود فلما بلغت هذه الآية قالا ضع يدك على رأسك فإنا قرأنا على عبد الله رضي الله تعالى عنه فلما بلغنا هذه الآية قال ضعا أيديكما على رءوسكما فإني قرأت على النبي صلى الله عليه وسلم فلما بلغت هذه الآية قال لي : " ضع يدك على رأسك فإن جبريل عليه السلام لما نزل بها إلي قال : ضع يدك على رأسك فإنها شفاء من كل داء إلا السام والسام الموت " إلى غير ذلك من الآثار ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(45/757)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة وأهل النار ، وبيّن عدم استوائهم في شيء من الأشياء ذكر تعظيم كتابه الكريم ، وأخبر عن جلالته ، وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب ، وترقّ له الأفئدة ، فقال : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرءان على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خاشعا مُّتَصَدّعاً مّنْ خَشْيَةِ الله

﴾ أي : من شأنه ، وعظمته ، وجودة ألفاظه ، وقوّة مبانيه ، وبلاغته ، واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيته مع كونه في غاية القسوة ، وشدّة الصلابة ، وضخامة الجرم خاشعاً متصدعاً ، أي : متشققاً من خشية الله سبحانه ، حذراً من عقابه ، وخوفاً من أن لا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله ، وهذا تمثيل وتخييل يقتضي علوّ شأن القرآن وقوّة تأثيره في القلوب ، ويدلّ على هذا قوله : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيما يجب عليهم التفكر فيه ؛ ليتعظوا بالمواعظ ، وينزجروا بالزواجر ، وفيه توبيخ ، وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن ، ولا اتعظوا بمواعظه ، ولا انزجروا بزواجره ، والخاشع : الذليل المتواضع .

وقيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، أي : لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت ، ولتصدّع من نزوله عليه ، وقد أنزلناه عليك ، وثبتناك له ، وقوّيناك عليه ، فيكون على هذا من باب الامتنان على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله سبحانه ثبته لما لا تثبت له الجبال الرواسي .

ثم أخبر سبحانه بربوبيته وعظمته، فقال: ﴿ هُوَ اللهُ الذى لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ وفي هذا تقرير للتوحيد ودفع للشرك ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي: عالم ما غاب من الإحساس وما حضر، وقيل: عالم السرّ والعلانية، وقيل: ما كان وما يكون، وقيل: الآخرة والدنيا، وقدّم الغيب على الشهادة لكونه متقدّماً وجوداً ﴿ هُوَ الرحمن الرحيم ﴾ قد تقدّم تفسير هذين الاسمين ﴿ هُوَ اللهُ الذى لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ كرره للتأكيد والتقرير لكون التوحيد حقيقاً بذلك ﴿ الملك القدوس ﴾ أي: الطاهر من كل عيب، المنزّه عن كل نقص، والقدس بالتحريك في لغة أهل الحجاز: السطل؛ لأنه يتطهر به، ومنه القادوس لواحد الأواني التي يستخرج بها الماء.

قرأ الجمهور: ﴿ القدّوس ﴾ بضم القاف.

وقرأ أبو ذرّ، وأبو السماك بفتحها، وكان سيبويه يقول: سبوح قدّوس بفتح أوّلهما، وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائي أعرابياً فصيحاً يقرأ: ﴿ القدّوس ﴾ بفتح القاف.

قال ثعلب: كل اسم على فعول فهو مفتوح الأوّل إلاّ السبوح والقدّوس، فإن الضم فيهما أكثر، وقد يفتحان ﴿ السلام ﴾ أي: الذي سلم من كل نقص وعيب، وقيل: المسلم على عباده في الجنة، كما قال: ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مّن رَّبّ رَّحِيمٍ ﴾ [ياس: 58] وقيل: الذي سلم الخلق من ظلمه، وبه قال الأكثر، وقيل: المسلم لعباده، وهو مصدر وصف به

للمبالغة ﴿ المؤمن ﴾ أي : الذي وهب لعباده الأمن من عذابه ، وقيل : المصدّق لرسله بإظهار المعجزات ، وقيل : المصدّق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب ، والمصدّق للكافرين بما أوعدهم به من العذاب ، يقال : أمنه من الأمن وهو ضدّ الخوف ، ومنه قول النابغة :

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ... ركبان مكة بين الغيل والسند

وقال مجاهد : المؤمن الذي وحد نفسه بقوله : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ هُوَ ﴾ [آل عمران : 18] .

(47/757)

قرأ الجمهور : ﴿ المؤمن ﴾ بكسر الميم ، اسم فاعل من آمن بمعنى : أمن .

وقرأ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بفتحها بمعنى : المؤمن به على الحذف كقوله : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] وقال أبو حاتم : لا تجوز هذه القراءة ؛ لأن معناه : أنه كان خائفاً فأمنه غيره ﴿ المهيمن ﴾ أي : الشهيد على عباده بأعمالهم الرقيب عليهم .

كذا قال مجاهد ، وقتادة ، ومقاتل .

يقال : هيمن يهيمن فهو مهيمن : إذا كان رقيباً على الشيء .

قال الواحدي : وذهب كثير من المفسرين إلى أن أصله مؤيمن من آمن يؤمن ، فيكون بمعنى المؤمن ، والأوّل أولى ، وقد قدّمنا الكلام على المهيمن في سورة المائدة ﴿ العزيز ﴾ الذي لا يوجد له نظير ، وقيل : القاهر ، وقيل : الغالب غير المغلوب ، وقيل : القويّ ﴿ الجبار ﴾ جبروت الله : عظمته ، والعرب تسمي الملك الجبار ، ويجوز أن يكون من جبر : إذا أغنى الفقير وأصلح الكسير ، ويجوز أن يكون من جبره على كذا : إذا أكرهه على ما أراد ، فهو الذي جبر خلقه على ما أراد منهم ، وبه قال السديّ ، ومقاتل ، واختاره الزجاج ، والفراء ، قال : هو من أجبره على الأمر ، أي : قهره .

قال : ولم أسمع فعالاً من أفعل إلاّ في جبار من أجبر ، ودرّاك من أدرك ، وقيل : الجبار : الذي لا تطاق سطوته ﴿ المتكبر ﴾ أي : الذي تكبر عن كل نقص ، وتعظم عما لا يليق به ، وأصل التكبر : الامتناع وعدم الانقياد ، ومنه قول حميد بن ثور :

عفت مثل ما يعفو الفصيل فأصبحت . . . بها كبرياء الصعب وهي ذلول

والكبر في صفات الله مدح ، وفي صفات المخلوقين ذمّ .

قال قتادة : هو الذي تكبر عن كل سوء .

قال ابن الأنباري : المتكبر ذو الكبرياء ، وهو الملك ، ثم نزه سبحانه نفسه عن شرك المشركين ، فقال : ﴿ سبحان الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : عما يشركونه ، أو عن إشراكهم به ﴿ هُوَ الله الخالق ﴾ أي : المقدّر للأشياء على مقتضى إرادته ومشيئته ﴿ البارىء ﴾ أي : المنشىء المخترع للأشياء الموجد لها .

وقيل : المميز لبعضها من بعض ﴿ المصور ﴾ أي : الموجد للصور المركب لها على هيئات مختلفة ، فالتصوير مترتب على الخلق والبراية وتابع لهما ، ومعنى التصوير : التخطيط والتشكيل ، قال النابغة :

الخالق البارىء المصور في ال . . . أرحام ماء حتى يصير دما

وقرأ حاطب بن أبي بلتعة الصحابي : ﴿ المصوّر ﴾ بفتح الواو ونصب الراء على أنه مفعول به للبارىء أي : الذي برأ المصوّر ، أي : ميزه ﴿ لَهُ الأسماء الحسنى ﴾ قد تقدّم بيانها ، والكلام فيها عند تفسير قوله : ﴿ وَللَّهِ الاسماء الحسنى فادعوه بِهَا ﴾ [الأعراف 180] ﴿ يُسَبّحُ لَهُ مَا فِى السموات والأرض ﴾ أي : ينطق بتنزيهه بلسان الحال أو المقال كل ما فيهما ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ أي : الغالب لغيره الذي لا يغالبه مغالب ، الحكيم في كل الأمور التي يقضي بها .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرءان على

جَبَلٍ ﴾ قال : يقول : لو إني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدّع ، وخشع من ثقله ومن خشية الله ، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع .

قال : كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون .

وأخرج الديلمي عن ابن مسعود وعليّ مرفوعاً في قوله : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرءان على جَبَلٍ ﴾ إلى آخر السورة قال : هي رقية الصداع .

رواه الديلمي بإسنادين لا ندري كيف حال رجالهما .

(49/757)

وأخرج الخطيب في تاريخه بإسناده إلى إدريس بن عبد الكريم الحداد قال : قرأت على خلف ، فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك ، فإني قرأت على حمزة ، فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك ، فإني قرأت على الأعمش ، ثم ساق الإسناد مسلسلاً هكذا إلى ابن مسعود فقال : فإني قرأت على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما بلغت هذه الآية قال لي : " ضع يدك على رأسك ، فإن جبريل لما نزل بها قال لي : ضع يدك على رأسك ، فإنها شفاء من كل داء إلاّ السام " ، والسام : الموت .

قال الذهبي : هو باطل .

وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة ، وابن مردويه عن أنس ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رجلاً إذا آوى إلى فراشه أن يقرأ آخر سورة الحشر وقال : " إن متّ متّ شهيداً " وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تعوّذ بالله من الشيطان ثلاث مرات ، ثم قرأ آخر سورة الحشر بعث الله سبعين ملكاً يطردون عنه شياطين الإنس والجنّ إن كان ليلاً حتى يصبح ، وإن كان نهاراً حتى يمسي " وأخرج أحمد ، والدارمي ، والترمذي وحسنه ، والطبراني ، وابن الضريس ، والبيهقي في الشعب عن معقل بن يسار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من قال حين يصبح ثلاث مرّات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي ، وإن مات ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة " قال الترمذي بعد إخراجه : غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه .

وأخرج ابن عديّ ، وابن مردويه ، والخطيب ، والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ خواتيم الحشر في ليل أو نهار ، فمات من يومه أو ليلته أوجب الله له الجنة " وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ قال : السرّ والعلانية .

وفي قوله : ﴿ المؤمن ﴾ قال : المؤمِّن خلقه من أن يظلمهم ، وفي قوله : ﴿ المهيمن ﴾ قال : الشاهد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 206 ـ 209 ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾

هذا مما نزل به القرآن الكريم من ذكر اللّه ، وهو مما لو نزل على جبل لخشع وتصدّع من خشية اللّه . .

فهذه الآية والآيات التي بعدها إلى آخر السورة ، قد خلصصت لذكر بعض أسماء اللّه سبحانه وتعالى ، وصفاته . . لم يذكر مع أسماء اللّه وصفاته غيرهما . .

وهذا يعنى أن القرآن كله ، هو دعوة إلى الله سبحانه ، وإلى تجلى أسمائه وصفاته على عباده . .

فالقرآن الكريم كلام اللّه ، وكلامه ـ سبحانه ـ صفة من صفاته . .

ففى كلمات اللّه تتجلّى صفاته على القلوب المؤمنة ، التي من شأنها أن تخشع لذكر اللّه . .

والتفرد بالألوهية ، هو أول صفة للّه سبحانه ، ولهذا كانت هذه الحقيقة أول ما بدىء به من صفات اللّه تعالى . .

« هُوَ اللَّهُ . . الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ . . عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ » . .

فهذا التفرد هو الذي يجعل الكمال المطلق لصفات اللّه . . فإذا تفرد ـ سبحانه ـ بالألوهية ، تفرد بالكمال المطلق فى كل شىء . . وكان من أول مراتب الكمال بعد التفرد بالألوهية « العلم » الذي يحيط بكل ما فى الوجود من غائب أو حاضر ، وباطن ، أو ظاهر . .

فمن كمال الذات ، كمال العلم الذي تتصف به ، وبهذا العلم الكامل تقوم الربوبية على كل ذرة فى هذا الوجود ، ما ظهر منه ، وما بطن . .

ومن صفات الإله الواحد المتفرد بالألوهية وبالعلم ـ الرحمة ، التي بها وجد

(52/757)

ولهذا جاء قوله تعالى : « لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً » جامعا بين اليهود جميعا ، فى كل زمان ومكان ، على تلك الصفة التي وصفهم اللّه سبحانه بها ، وأنهم لا يقاتلون إلا فى قرى

محصنة أو من وراء جدر . . كذلك كان سلفهم ، وكذلك يكون خلفهم . .

قوله تعالى : « بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ » .إشارة إلى حال اليهود فيما بينهم ، وأنهم أشد الناس شراسة ، وأقساهم قلبا ، وأقدرهم على الفتك ، حيث يقاتل بعضهم بعضا ، ويفتك بعضهم ببعض . . إنهم حينئذ يكونون أشبه بالحيات ينهش بعضها بعضا ، ويفتك بعضها ببعض ، فهى أعلم بمواطن الضعف فى أبناء جنسها ، وهى لهذا أشد جسارة ، وأكثر إقداما من غيرها على هذا نفث السمّ الكامن فيها . .

وقوله تعالى : « تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى » .

. أي تبدو حال هؤلاء اليهود فى ظاهرها ، أنهم جمع واحد ، ويد واحدة . .

هكذا هم فيما يضمهم من مكان . . أما قلوبهم فهى أشتات موزعة ، تذهب فى أودية مختلفة ، كل قلب منها يذهب فى واد غير الذي يذهب فيه صاحبه . .

وهذا يعنى أن كل واحد منهم إنما ينظر إلى نفسه ، ويهتم بسلامتها قبل كل شىء . . لا يعنيه أن يسلم أصحابه أو يعطبوا . . إنهم فى ساعة الخطر أشبه بالغنم يهجم عليها ذئب ، فتتطاير هنا وهناك كما يتطاير الشرر . .

وقوله تعالى : « ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ » .

. أي لا عقل لهم ، ولو عقلوا لعلموا أن السلامة فى اجتماعهم عند الخطر ، وفى لقائهم له كيانا واحدا ، وأن تفرقهم هو الذي يجعل يد الخطر مبسوطة عليهم متمكنة منهم جميعا . .

فهم فى هذا الفرار الذي يطلب به كل واحد منهم السلامة لنفسه ، إنما يردون به موارد الهلكة جميعا . .

(53/757)

المعتقد هو فيصل ما بين الإيمان والكفر . . وإنه لا يضرّ مع الإيمان شىء ، كما لا ينفع مع الكفر شىء ! .

و« الملك » هو المالك المطلق لكل شىء . . لا ينازعه أحد فى ملك شىء من هذا الوجود ، إذ أن أي موجود لا يملك وجود نفسه ، فكيف يكون له مع اللّه ملك فى ملكه الذي هو - أي هذا الموجود - بعض منه ؟

و« القدوس » .

. هو المنزه عن كل نقص ، المبرأ من كل عيب .

و« السلام » .

. هو من سلمت ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، من أي عارض من عوارض النقص . .

و« المؤمن » هو الطاهر الذي لا تعلق به شائبة . . ومنه سمى المؤمن مؤمنا . .

و« المهيمن » هو القائم على الوجود ، المسيطر على كل ذرة فيه . .

و« العزيز » هو المتفرد بالعزة، والسلطان . .

و« الجبار » هو القوىّ، الذي يخضع لجبروته كل جبار .

و« المتكبر » هو المتعالي الذي لا يطاول . .

فهذه ثمان صفات، جاءت متتابعة من غير حرف عطف، لأنها جميعها صفة واحدة، لموصوف واحد . . فكما أن اللّه سبحانه واحد فى ذاته، هو واحد فى صفته، وهى الألوهية . . وليس هذا التعدد فى الصفات إلا من حيث نظرنا نحن إلى الذات، وما ينبغى أن نراه فيها من صفات الكمال . .

فنحن بعقولنا البشرية هذه، لا يمكن أن نعرف الذات الإلهية، ولا أن نخشع لجلالها وسلطانها، إلّا بقدر ما تتمثل لها من صفات الكمال، وإنه

بغير هذه الصفات التي تتمثلها، لا يمكن أن تقوم بيننا وبين الخالق جلّ وعلا علاقة ذات أثر وتأثير فينا . .

« سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أي تنزه اللّه سبحانه، وتعالى عما يشرك به المشركون، بما يعبدون من دونه من معبودات .

قوله تعالى: «هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» . .

ـ «هُوَ اللَّهُ» .

. توكيد بعد توكيد ، لذات اللّه الواحد الذي لا إله إلا هو . .

ـ «الْخالِقُ» .

. أي الذي تفرد بالخلق . . فكل ما فى الوجود مخلوق له . . «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ» (54 : الأعراف) . .

فكل ما فى الوجود مخلوق للّه ، والمخلوق لا يخلق ، وما يبدو من المخلوقين أنه خلق ، وابتكار ، وابتداع. هو عمل فيما خلق اللّه ، بالحلّ والتركيب فى عالم المادة ، وفيما أودع الخالق سبحانه فيها من قوى وما أخضعها له من قوانين . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ» (73 : الحج) . .

ـ «الْبارِئُ» .

. أي الذي خلق ما خلق ابتداء على غير مثال سبق . .

ـ «الْمُصَوِّرُ» .

. أي الذي يبدع فى خلقه ، ويصور كيف يشاء . .

« لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » .

أي أنه سبحانه ، مسمّى بكل اسم حسن ، يليق به ، لأن حسن الاسم من حسن المسمّى ، حيث يسمى الشيء عادة بالاسم الذي يدل على أوضح صفة فيه . . وفى قاموس اللغة فى أي لسان ، تجد تشابها كثيرا بين اللغات المختلفة فى اختيار الأسماء للأشياء التي بين أيدى الناس ، هذا الاختيار الذي يقوم على أن يعطى الاسم دلالة واضحة على أبرز صفة فى هذا الشيء ، من حيث الشكل ، أو اللون ، أو الطعم ، أو الوظيفة التي يقوم بها . . إلى غير هذا مما يميز بين الشيء والشيء . .

ولعل هذا ما يفهم من قوله تعالى : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » بمعنى أن اللّه تعالى أقدر آدم على أن يتعرف على الأشياء ، وأن يجعل لكل شىء مفهوما ، وأن يتخذ من هذا المفهوم اسما يجعله شارة لهذا الشيء يذكره به غائبا ، وحاضرا . .

وهذا هو ما كان من الإنسان ، فإنه لم يدع شيئا يقع تحت حواسه ، إلا استدعاه إليه باسم خاص به ، مهما بلغت هذه الأشياء من الكثرة والتعدد . .

بل إن الإنسان لم يقف عند هذا ، بل وضع لكل جزء من أجزاء الشيء الواحد اسما يدل عليه ، كما نرى ذلك فى الإنسان ، والأسماء التي لا تحصى لأعضائه الظاهرة والباطنة . .

وهكذا صنع الإنسان بأدوات طعامه ، وشرابه ، ولباسه ، ونومه وصيده ، وحربه ، إلى

غير ذلك مما تلده الحياة كل يوم من مواليد فنونه ومخترعاته . .

فإذا تعامل الإنسان ، مع اللّه ـ سبحانه ـ وتعالى ـ بأسماء يدعوه بها ، وجب أن تكون هذه الأسماء دالة على ما للّه سبحانه وتعالى ، من كمال ، وعظمة ، وجلال ، وسلطان قائم على هذا الوجود . . كما يقول سبحانه :

« وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » .

. ففى أسماء اللّه الحسنى التي ندعوه بها

(56/757)

تتجلى لنا صفات الكمال التي له سبحانه . . ولهذ ، فإن أسماء اللّه سبحانه ، هى صفاته . . وقد ذكر القرآن الكريم كثيرا من هذه الأسماء المباركة للّه وصفاته وهى متفرقة فى آيات الكتاب الكريم ، وقد جمعها الحديث الشريف فى تسعة وتسعين اسما . . فيجب علينا أن نقف عندها ، لا نتجاوزها ، ولا نعدل عنها إلى غيرها ، إذ كانت هى أكمل الأسماء ، وأكمل الصفات التي تليق به سبحانه . . فى قاموس اللغة العربية .

(أسماء اللّه الحسنى)

روى البخاري ، ومسلم ، عن أبى هريرة ، عن النبي صلى اللّه عليه قال :

«إن للّه تعالى تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » .

والأسماء الحسنى كما أحصاها العلماء هى : اللّه لا إله إلا هو . . الرحمن . .

الرحيم . . الملك . . القدوس . . السلام . . المؤمن . . المهيمن . . العزيز . . الجبار . . المتكبر . .

الخالق . . البارئ . . المصور . . الغفار . . القهار . . الوهاب . . الرزاق . . الفتاح . . العليم . .

القابض . . الباسط . . الخافض . . الرافع . . المعز . . المذل . . السميع . . البصير . .

الحكم . . العدل . . اللطيف . . الخبير . . الحليم . . العظيم . . الغفور . . الشكور . .

العلى . . الكبير . . الحفيظ . . المقيت . . الحسيب . . الجليل . . الكريم . .

الرقيب . . المجيب . . الواسع . . الحكيم . . الودود . . المجيد . . الباعث . .

الشهيد . . الحق . . الوكيل . . القوى . . المتين . . الولي . . الحميد . . المحصى . .

المبدئ . . المعيد . . المحيي . . المميت . . الحي . . القيوم . . الواجد . . الماجد . .

الواحد . . الصمد . . القادر . . المقتدر . . المقدم . . المؤخر . . الأول . . الآخر

. .

الظاهر . . الباطن . . الوالي . . المتعال . . البر . . التواب . . المنتقم . . العفو . .

(57/757)

الرءوف . . مالك الملك ذو الجلال والإكرام . . المقسط . . الجامع . . الغنى . .

المغني . . المعطى . . المانع . . الضار . . النافع . . النور . . الهادي . . البديع . .

الباقي . .

الوارث . . الرشيد . . الصبور .

قوله تعالى : « يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ » أي أن كل ما فى السموات والأرض من عوالم ، يسبح للّه ، ويحمد له ، ويتعبد لذاته ، كما يقول سبحانه : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » (44 : الإسراء) .

وقوله تعالى : « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . إشارة إلى ما للّه سبحانه وتعالى من عزة يخضع لها كل ما فى هذا الوجود . . « فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً » (10 : فاطر) فإن من كمال الإله الواحد ، المتفرد بالسلطان . أن يخضع لسلطانه كل شىء « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ، وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ » .

. وهذه العزة القاهرة لله ، هى عزة الحكيم الذي يقيم كل شىء بعزته وسلطانه على ميزان الحكمة والعدل والإحسان ، لا على الهوى ، والجور ، والإذلال ، تعالى اللّه عن ذلك علوّا كبيرا . .

هذا ويلاحظ أن الآيات الثلاث التي عرضت هذه الأسماء الكريمة للّه سبحانه وتعالى ، قد جاءت متلاحمة ، من غير أن يصل بعضها ببعض حرف عطف ، أو أن يتوسل إلى وصل بعضها ببعض بعاطف يجمع بينها ، إذ أنها فى حقيقتها اسم واحد ، أو صفة واحدة للإله الواحد . . وكما أنه قد استغنت الآيات فيما بينها عن رابط غير رباط الوحدة التي تجمعها جميعا فى مضمون واحد ، هو وحدة اللّه سبحانه ، وتفرده ذاتا ، وصفة. كذلك استغنت كل آية عن أن يدخل بين مفرداتها عاطف يصل بين أفراد المتآخيه . .

(58/757)

واتل أيها المؤمن الآيات الكريمات :

« هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

وانظر فى وجهها الكريم ، فإنك لا تجد فيها حرف عطف واحدا ، إذ كانت مستغنية بما بينها من تلك الوحدة الجامعة لها جميعا من الكمال والجلال عن أن يدخل عليها ما ليس منها . . إنها نور إلى نور ، وما كان النور أن يحتاج إلى شىء يمزج شعاعاته بعضها بعض ، أو يصل بعضها ببعض . .

فهذه الصفات الكريمة هى صفة واحدة فى تفرقها واجتماعها . . وكل صفة منها تجمع جميع الصفات . . فهى صفة فى صفات ، وصفات فى صفة ، وما هذا التعدد إلا من وجهة نظرنا نحن البشر ، حسب ما يبدو لعقولنا من تجليات اللّه سبحانه وتعالى علينا ، وذلك أشبه ـ من غير تشبيه ـ بما يقع لأبصارنا من الضوء يمر خلال منشور زجاجى ، فتنعكس لأبصارنا عليه ألوان الطيف ، وليس ثمة .

فى الحقيقة ـ إلا هذا الضوء المشع الذي يفيض من عالم النور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن ـ 14 صـ 888.881 ﴾

(59/757)

وقال ابن عاشور :

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾

لما تكرر في هذه السورة ذكر اسم الله وضمائره وصفاته أربعين مرة منها أربع وعشرون بذكر اسم الجلالة وست عشرة مرة بذكر ضميره الظاهر ، أو صفاته العلية .

وكان ما تضمنته السورة دلائل على عظيم قدرة الله وبديع تصرفه وحكمته .

وكان مما حوته السورة الاعتبارُ بعظيم قدرة الله إذْ أيد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ونصرَهم على بني النضير ذلك النصرَ الخارق للعادة ، وذِكر ما حل بالمنافقين أنصارهم وأن ذلك لأنهم شاقُّوا الله ورسوله وقوبل ذلك بالثناء على المؤمنين بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم الذين نصروا الدّين ، ثم الأمر بطاعة الله والاستعداد ليوم الجزاء ، والتحذير من الذين أعرضوا عن كتاب الله ومن سوء عاقبتهم ، وختم ذلك بالتذكير بالقرآن الدال على الخير ، والمعرّف بعظمة الله المقتضية شدة خشيته ، عقب ذلك بذكر طائفة من عظيم صفات الله ذات الآثار العديدة في تصرفاته المناسبة لغرض السورة زيادة في تعريف المؤمنين بعظمته المقتضية للمزيد من خشيته .

وبالصفات الحسنى الموجبة لمحبته ، وزيادةً في إرهاب المعاندين المعرضين من صفات بطشه وجبروته ، ولذلك ذُكر في هذه الآيات الخواتم للسورة من صفاته تعالى ما هو مختلف التعلق والآثار للفريقين حظ مَا يليق به منها .

وفي غضون ذلك كله دلائل على بطلان إشراكهم به أصنامهم .

وسنذكر مراجع هذه الأسماء إلى ما اشتملت عليه السورة فيما يأتي .

فضمير الغيبة الواقع في أول الجملة عائد إلى اسم الجلالة في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ [الحشر : 18] ، و ﴿ هو ﴾ مبتدأ واسم الجلالة خبر عنه و ﴿ الذي ﴾ صفة لاسم الجلالة .

(60/757)

وكان مقتضى الظاهر الاقتصار على الضمير دون ذكر اسم الجلالة لأن المقصود الإِخبار عن الضمير بـ ﴿ الذي لا إله إلا هو ﴾ وبما بعد ذلك من الصفات العلية ، فالجمع بين الضمير وما يساوي معادَة اعتبار بأن اسم الجلالة يجمع صفات الكمال لأن أصله الإِله ومدلول الإِله يقتضي جميع صفات الكمال .

ويجوز أن يجعل الضمير ضمير الشأن ويكون الكلام استئنافاً قُصد منه تعليم المسلمين هذه الصفات ليتَبَصَّرُوا فيها وللردّ على المشركين إشراكهم بصاحب هذه الصفات معه أصنافاً ليس لواحد منها شيء من مثل هذه الصفات ، ولذلك ختمت طائفة منها بجملة ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ [الحشر : 23] ، لتكون ختاماً لهذه السورة الجليلة التي

تضمنت منة عظيمة ، وهي منة الفتح الواقع والفتح الميسّر في المستقبل ، لا جرم أنه حقيق بأن يعرفوا جلائل صفاته التي لتعلقاتها آثار في الأحوال الحاصلة والتي ستحصل من هذه الفتوح وليعلمَ المشركون والكافرون من اليهود أنهم ما تعاقبت هزائمهم إلاّ من جرّاء كفرهم .

ولما كان شأن هذه الصفات عظيماً ناسب أن تفتتح الجملة بضمير الشأن ، فيكون اسم الجلالة مبتدأ و ﴿ الذي لا إله إلا هو ﴾ خبر .

والجملة خبر عن ضمير الشأن فيكون اسم الجلالة مبتدأ و ﴿ الذي لا إله إلا هو ﴾ خبراً والجملة خبراً عن ضمير الشأن .

وابتدىء في هذه الصفات العلية بصفة الوحدانية وهي مدلول ﴿ الذي لا إله إلا هو ﴾ وهي الأصل فيما يتبعها من الصفات .

ولذلك كثر في القرآن ذكرها عقب اسم الجلالة كما في آية الكرسي ، وفاتحة آل عمران .

(61/757)

وثني بصفة ﴿ عالم الغيب ﴾ لأنها الصفة التي تقتضيها صفة الإلهية إذ علم الله هو العلم الواجب وهي تقتضي جميع الصفات إذ لا تتقوّم حقيقة العلم الواجب إلا بالصفات السَّلبية

، وإذْ هو يقتضي الصفات المعنوية ، وإنما ذكر من متعلقات علمه أمور الغيب لأنه الذي فارق به علمُ الله تعالى علمَ غيره ، وذكر معه علم الشهادة للاحتراس توَهُّم أنه يعلم الحقائق العالية الكلية فقط كما ذهب إليه فريق من الفلاسفة الأقدمين ولأن التعريف في ﴿ الغيب والشهادة ﴾ للاستغراق .

أي كل غيب وشهادة ، وذلك مما لا يشاركه فيه غيره .

وهو علم الغيب والشهادة ، أي الغائب عن إحساس الناس والمشاهد لهم .

فالمقصود فيهما بمعنى اسم الفاعل ، أي عالم ما ظهر للناس وما غاب عنهم من كل غائب يتعلق به العلم على ما هو عليه .

والتعريف في ﴿ الغيب والشهادة ﴾ للاستغراق الحقيقي .

وفي ذكر الغيب إيماء إلى ضلال الذين قصَروا أنفسهم على المشاهدات وكفروا بالمغيبات من البعث والجزاء وإرسال الرسل ، أمّا ذكر علم الشهادة فتتميم على أن المشركين يتوهمون الله لا يطلع على ما يخفونه .

قال تعالى : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم إلى قوله : من الخاسرين ﴾ [فصلت : 22 - 23] .

وضمير ﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾ ضمير فصل يفيد قصر الرحمة عليه تعالى لعدم الاعتداد برحمة غيره لقصورها قال تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ [الأعراف :

156].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم " جعل الله الرحمة في مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً .

فمن ذلك الجُزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشيةَ أن تصيبه " وقد تقدم الكلام على ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ في سورة [الفاتحة : 3] .

(62/757)

ووجه تعقيب صفة عموم العلم بصفة الرحمة أن عموم العلم يقتضي أن لا يغيب عن علمه شيء من أحوال خلقه وحاجتهم إليه ، فهو يرحم المحْتاجين إلى رحمته ويُهْمِل المعاندين إلى عقاب الآخرة ، فهو رحمان بهم في الدنيا ، وقد كثر إتباع اسم الجلالة بصفتي الرحمن الرحيم في القرآن كما في الفاتحة .

﴿ هُوَ الله الذى لاَ إله إِلاَّ هُوَ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجَبّارُ المُتَكَبِّرُ ﴾ .

القول في ضمير ﴿ هو ﴾ كالقول في نظيره في الجملة الأولى .

وهذا تكرير للاستئناف لأن المقام مقام تعظيم وهو من مقامات التكرير ، وفيه اهتمام بصفة

الوحدانية .

و﴿ الملك ﴾ : الحاكِم في الناس ، ولا مَلِك على الإطلاق إلّا الله تعالى وأما وصف غيره بالمَلِك فهو بالإضافة إلى طائفة معيَّنة من الناس .

وعُقب وصفا الرحمة بوصف ﴿ الملك ﴾ للإشارة إلى أن رحمته فضل وأنه مطلق التصرف كما وقع في سورة الفاتحة .

و﴿ القدوس ﴾ بضم القاف في الأفصح ، وقد تفتح القاف قال ابن جنّي : فَعُّول في الصفة قليل ، وإنما هو في الأسماء مثل تَنُّور وسَفُّود وعَبُّود .

وذكر سيبويه السَّبُّوح والقَدوس بالفتح ، وقال ثعلب : لم يَرد فَعُّول بضم أوله إلا القُدوس والسُّبوح .

وزاد غيره الذُّرُّوح ، وهو ذُباب أحمر متقطع الحمرة بسواد يشبه الزنبور .

ويسمى في اصطلاح الأطباء ذباب الهند .

وما عداهما مفتوح مثل سَفُّود وكَلُّوب .

وتَنُّور وسَمُّور وشَبُّوط (صنف من الحوت) وكأنه يريد أن سبوح وقدوس صارا اسمين .

وعقب بـ ﴿ القدوس ﴾ وصف ﴿ الملك ﴾ للاحتراس إشارة إلى أنه مُنزه عن نقائص الملوك المعروفة من الغرور ، والاسترسال في الشهوات ونحو ذلك من نقائص النفوس .

و﴿ السلام ﴾ مصدر بمعنى المسالَمَة وُصف الله تعالى به على طريقة الوصف بالمصدر

للمبالغة في الوصف ، أي ذو السلام ، أي السلامة ، وهي أنه تعالى سالَمَ الخلقَ من الظلم والجور .

(63/757)

وفي الحديث " إن الله هو السلام ومنه السّلام " وبهذا ظهر تعقيب وصف ﴿ الملك ﴾ بوصف ﴿ السلام ﴾ فإنه بعد أن عُقب بـ ﴿ القدوس ﴾ للدلالة على نزاهة ذاته ، عُقب بـ ﴿ السلام ﴾ للدلالة على العدل في معاملته الخلق ، وهذا احتراس أيضاً .

و ﴿ المؤمن ﴾ اسم فاعل من آمن الذي همزته للتعدية ، أي جعل غيره آمناً .

فالله هو الذي جعل الأمان في غالب أحوال الموجودات ، إذ خلق نظام المخلوقات بعيداً عن الأخطار والمصائب ، وإنما تَعْرِض للمخلوقات للمصائب بعوارض تتركب من تقارن أو تضاد أو تعارض مصالح ، فيرجَع أقواها ويَدحض أدناها ، وقد تأتي من جرّاء أفعال الناس .

وذكر وصف ﴿ المؤمن ﴾ عقب الأوصاف التي قبله إتمام للاحتراس من توهّم وصفه تعالى بـ ﴿ الملك ﴾ أنه كالملوك المعروفين بالنقائص .

فأفيد أولاً نزاهة ذاته بوصف ﴿ القدوس ﴾ ، ونزاهة تصرفاته المغيَّبة عن الغدر والكَيد

بوصف ﴿ المؤمن ﴾ ، ونزاهة تصرفاته الظاهرة عن الجور والظلم بوصف ﴿ السلام ﴾ .

و﴿ المهيمن ﴾ : الرقيب بلغة قريش ، والحافظ في لغة بقية العرب .

واختلف في اشتقاقه فقيل : مشتق من أَمَنَ الداخل عليه همزة التعدية فصار آمَن وأن وزن الوصففِ مُؤَيْمِن قلبت همزته هاء ، ولعل موجب القلب إرادة نقله من الوصف إلى الاسمية بقطع النظر عن معنى الأمن ، بحيث صار كالاسم الجامد .

وصار معناه : رقب : (ألا ترى أنه لم يبق فيه معنى إلا من الذين في المؤمن لمّا صار اسماً للرقيب والشاهد) ، وهو قلب نادر مثل قلب همزة : أراق إلى الهاء فقالوا : هَراق ، وقد وضعه الجوهري في فصل الهمزة من باب النون ووزنه مفَعْلِل اسم فاعل من آمن مثل مُدحرج ، فتصريفه مُؤَأْمِن بهمزتين بعد الميم الأولى المزيدة ، فأبدلت الهمزة الأولى هاء كما أبدلت همزة آراق فقالوا : هراق .

وقيل : أصله هَيْمن بمعنى : رَقب ، كذا في "لسان العرب" وعليه فالهاء أصلية ووزنه مُفَيْعَل .

وذَكره صاحب "القاموس" في فصل الهاء من باب النون ولم يذكره في فصل الهمزة منه .

وذكره الجوهري في فصل الهمزة وفصل الهاء من باب النون مصرحاً بأن هاءه أصلها همزة .

وعدل الراغب وصاحب "الأساس" عن ذكر .

وذلك يشعر بأنهما يريان هاءه مبدلة من الهمزة وأنه مندرج في معاني الأمن .

وفي "المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى" للغزالي ﴿ المهيمن ﴾ في حق الله : القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ، وإنما قيامه عليهم باطلاعه واستيلائه وحفظه . والإشرافُ ، (أي الذي هو الإطلاع) يرجع إلى العلم ، والاستيلاءُ يرجع إلى كمال القدرة ، والحفظُ يرجع إلى الفعل .

والجامعُ بين هذه المعاني اسمه ﴿ المهيمن ﴾ ولن يجتمع عَلَى ذلك الكمال والإطلاقِ إلا الله تعالى ، ولذلك قيل : إنه من أسماء الله تعالى في الكتب القديمة اه .

وفي هذا التعريف بهذا التفصيل نظر ولعله جرى من حجة الإسلام مجرى الاعتبار بالصفة لا تفسير مدلولها .

وتعقيب ﴿ المؤمن ﴾ بـ ﴿ المهيمن ﴾ لدفع توهم أن تأمينه عن ضعف أو عن مخافة غيره ، فأُعلموا أن تأمينه لحكمته مع أنه رقيب مطلع على أحوال خلقه فتأمينه إياهم رحمة بهم .

و ﴿ العزيز ﴾ الذي لا يُغلب ولا يُذلّه أحد ، ولذلك فسر بالغالب .

و﴿ الجبار ﴾ : القاهر المُكرِه غيره على الانفعال بفعله ، فالله جبار كل مخلوق على الانفعال لما كوّنه عليه لا يستطيع مخلوق اجتياز ما حدّه له في خلقته فلا يستطيع الإِنسان الطيران ولا يستطيع ذوات الأربع المشي على رجلين فقط ، وكذلك هو جبّار للموجودات على قبول ما أراده بها وما تعلقت به قدرته عليها .

وإذا وصف الإِنسان بالجبار كان وصف ذمّ لأنه يشعر بأنه يحمل غيره على هواه ولذلك قال تعالى : ﴿ إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ [القصص : 19] .

فالجبار من أمثلة المبالغة لأنه مشتق من أجبره ، وأمثلة المبالغة تشتق من المزيد بقلة مثل الحكيم بمعنى المحكم .

(65/757)

قال الفراء : لم أسمع فَعَّالاً في أفعَلَ إلا جبّارا ودَرّاكاً .

وكان القياس أن يقال : المجبر والمُدرك ، وقيل : الجبار معناه المصلح من جبر الكَسر ، إذاَ أصلحه ، فاشتقاقه لا ندرة فيه .

و﴿ المتكبر ﴾ : الشديد الكبرياء ، أي العظمة والجلالة .

وأصل صيغة التفعل أن تدل على التكلف لكنها استعملت هنا في لازم التكلف وهو القوة لأن الفعل الصادر عن تأنق وتكلف يكون أتقن .

ويقال : فلان يتظلم على الناس ، أي يكثر ظلمهم .

ووجه ذكر هذه الصفات الثلاث عقب صفة ﴿ المهيمن ﴾ أن جميع ما ذكره آنفاً من الصفات لا يؤذن إلا باطمئنان العباد لعناية ربهم بهم وإصلاح أمورهم وأن صفة ﴿ المهيمن ﴾ تؤذن بأمر مشترك فعقبت بصفة ﴿ العزيز ﴾ ليعلم الناس أن الله غالب لا يعجزه شيء .

وأتبعت بصفة ﴿ الجبار ﴾ الدالة على أنّه مسخر المخلوقات لِإرادته ثم صفة ﴿ المتكبر ﴾ الدالة على أنه ذو الكبرياء يصغر كل شيء دون كبريائه فكانت هذه الصفات في جانب التخويف كما كانت الصفات قبلها في جانب الإِطماع .

﴿ المتكبر سبحان الله عَمَّا ﴾ .

ذيلت هذه الصفات بتنزيه الله تعالى عن أن يكون له شركاء بأن أشرك به المشركون .

فضمير ﴿ يشركون ﴾ عائد إلى معلوم من المقام وهم المشركون الذين لم يزل القرآن يقرعهم بالمواعظ .

﴿ هُوَ الله الخالق البارىء المصور ﴾ .

القول في ضمير ﴿ هو ﴾ المفتتح به وفي تكرير الجملة كالقول في التي سبقتها .

فإن كان ضمير الغيبة ضميرَ شأن فالجملة بعده خبر عنه .

وجملة ﴿ الله الخالق ﴾ تفيد قصراً بطريق تعريف جزأي الجملة هو الخالق لا شركاؤهم .

وهذا إبطال لإلهية ما لا يخلق .

قال تعالى : ﴿ والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ﴾ [النحل : 20] ، وقال : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ [النحل : 17] ، وإن كان عائداً على اسم الجلالة المتقدم فاسم الجلالة بعده خبر عنه و ﴿ الخالق ﴾ صفة .

(66/757)

و ﴿ الخالق ﴾ : اسم فاعل من الخلق ، وأصل الخلق في اللغة إيجاد شيء على صورة مخصوصه .

وقد تقدم عند قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السّلام ﴿ إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ﴾ الآية [49] في سورة آل عمران .

ويطلق الخلق على معنى أخص من إيجاد الصور وهو إيجاد ما لم يكن موجوداً .

كقوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾ [ق : 38] .

وهذا هو المعنى الغالب من إطلاق اسم الله تعالى ﴿ الخالق ﴾ .

قال في "الكشاف" : "المقدر لما يوجده" .

ونقل عنه في بيان مراده بذلك أنه قال : "لما كانت إحداثات الله مقدرة بمقادير الحكمة عبر عن إحداثه بالخلق" ا ه .

يشير إلى أن الخالق في صفة الله بمعنى المحدث الأشياء عن عدم ، وبهذا يكون الخلق أعم من التصوير .

ويكون ذكر ﴿ البارئ ﴾ و ﴿ المصور ﴾ بعد ﴿ الخالق ﴾ تنبيهاً على أحوال خاصة في الخلق .

قال تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ [الأعراف : 11] على أحد التأويلين .

وقال الراغب : الخلق التقدير المستقيم واستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء ا ه .

وقال أبو بكر ابن العربي في "عارضة الأحوذي" على "سنن الترمذي" : ﴿ الخالق ﴾ : المخرج الأشياء من العدم إلى الوجود المقدر لها على صفاتها (فخلط بين المعنيين) ثم قال : فالخالق عام ، والبارئ أخص منه ، والمصور أخص من الأخص وهذا قريب من كلام صاحب "الكشاف" .

وقال الغزالي في "المقصد الأسنى" : الخالق البارئ المصور قد يظن أن هذه الأسماء مترادفة ولا ينبغي أن يكون كذلك بل كل ما يخرج من العدم إلى الوجود يفتقر إلى تقدير أولاً ،

وإلى الإيجاد على وفق التقدير ثانياً ، وإلى التصوير بعد الإِيجاد ثالثاً ، والله خالق من حيث أنه مقدِّر وبارىء من حيث إنه مخترع موجود ، ومصور من حيث إنه مرتبٌ صور المخترعات أحسن ترتيب ا ه.

فجعل المعاني متلازمة وجعل الفرق بينها بالاعتبار ، ولا أحسبه ينطبق على مواقع استعمال هذه الأسماء .

(67/757)

و ﴿ البارىء ﴾ اسم فاعل من بَرَأَ مهموزاً .

قال في "الكشاف" المميز لما يوجده بعضه من بعض بالأشكال المختلفة ا ه.

وهو مغاير لمعنى الخالق بالخصوص .

وفي الحديث

"من شر ما خلق وذرأ وبرأ " ومن كلام علي رضي الله عنه : لا والذي فلق الحبة وبرأ النَّسَمة ، فيكون اسم البريئة غير خاص بالناس في قوله تعالى : ﴿ أولئك هم شر البريئة أولئك هم خير البريئة ﴾ [البينة : 6 ، 7] .

وقال الراغب : البريئة : الخلق .

وقال ابن العربي في "العارضة" : ﴿ البارىء ﴾ : خالق الناس من البرَى (مقصوراً) وهو التراب خاصاً بخلق جنس الإِنسان ، وعليه يكون اسم البريئة خاصاً بالبشر في قوله تعالى : ﴿ أولئك هم شر البريئة أولئك هم خير البريئة .

وفسره ابن عطية بمعنى الخالق .

وكذلك صاحب القاموس ﴾ .

وفسره الغزالي بأنه الموجود المخترع ، وقد علمت أنه غير منطبق فأحسن تفسير له ما في "الكشاف" .

و ﴿ المصور ﴾ : مكوّن الصور لجميع المخلوقات ذوات الصور المرئية .

وإنما ذكرت هذه الصفات متتابعة لأن من مجموعها يحصل تصور الإِبداع الإلهي للإِنسان فابتدىء بالخلق الذي هو الإِيجاد الأصلي ثم بالبرء الذي هو تكوين جسم الإِنسان ثم بالتصّور الذي هو إعطاء الصورة الحسنة ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ﴾ [الانفطار : 7 ، 8] ، ﴿ الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ [آل عمران : 6] .

ووجه ذكرها عقب الصفات المتقدمة ، أي هذه الصفات الثلاث أريد منها الإِشارة إلى تصرفه في البشر بالإِيجاد على كيفيته البديعة ليثير داعية شكرهم على ذلك .

ولذلك عقب بجملة ﴿ يسبح له ما في السموات والأرض ﴾ .

واعلم أن وجه إرجاع هذه الصفات الحُسنى إلى ما يناسبها مما اشتملت عليه السورة ينقسم إلى ثلاثة أقسام ولكنها ذكرت في الآية بحسب تناسب مواقع بعضها عقب بعض من تنظير أو احتراس أو تتميم كما علمته آنفاً .

(68/757)

القسم الأول : يتعلق بما يناسب أحوال المشركين وأحلافِهم اليهود المتألبين على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين بالحرب والكيد والأذى ، وأنصارهم من المنافقين المخادعين للمسلمين .

وإلى هذا القسم تنضوي صفة ﴿ لا إله إلا هو ﴾ [الحشر : 23] وهذه الصفة هي الأصل في التهيؤ للتدبر والنظر في بقية الصفات ، فإن الإِشراك أصل الضلالات ، والمشركون هم الذين يُغرون اليهود ، والمنافقون بين يهود ومشركين تستروا بإظهار الإِسلام ، فالشرك هو الذي صدّ الناس عن الوصول إلى مسالك الهدى ، قال تعالى : ﴿ وما زادوهم غيرَ تتبيب ﴾ [هود : 101] .

وصفة ﴿ عالم الغيب ﴾ [الحشر : 22] فإن من أصول الشرك إنكار الغيب الذي من آثاره إنكار البعث والجزاء ، وعلى الاسترسال في الغي وإعمال السيئات وإنكار الوحي

والرسالة .

وهذا ناظر إلى قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ [الأنفال : 13] الآية .

وكذلك ذكر صفات "المَلِك ، والعزيز ، والجبار ، والمتكبر" ، لأنها تناسب ما أنزله ببني النضير من الرعب والخزي والبطشة .

القسم الثاني : متعلق بما اجْتناه المؤمنون من ثمرة النصر في قصة بني النضير ، وتلك صفات : ﴿ السلام المؤمن ﴾ [الحشر : 23] لقوله : ﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ [الحشر : 6] ، أي لم يتجشم المسلمون للغنى مشقة ولا أذى ولا قتالاً .

وكذلك صفتا

﴿ الرحمان الرحيم ﴾ [الحشر : 22] لمناسبتهما لإِعطاء حظ في الفيء للضعفاء .

القسم الثالث : متعلق بما يشترك فيه الفريقان المذكوران في هذه السورة فيأخذ كل فريق حظه منها ، وهي صفات : "القدوس ، المهيمن ، الخالق ، البارىء ، المصور" .

﴿ المصور لَهُ الاسمآء ﴾ .

تذييل لما عُدّد من صفات الله تعالى ، أي له جميع الأسماء الحسنى التي بعضها الصفات المذكورة آنفاً .

والمراد بالأسماء الصفات، عبر عنها بالأسماء لأنه متصف بها على ألسنة خلقه ولكونها بالغة منتهى حقائقها بالنسبة لوصفه تعالى بها فصارت كالأعلام على ذاته تعالى.

والمقصود: أن له مدلولات الأسماء الحسنى كما في قوله تعالى: ﴿ ثم عرضهم على الملائكة بعد قوله: وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ [البقرة: 31]، أي عرض المسميات على الملائكة.

وقد تقدم قوله تعالى: ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ في سورة [الأعراف: 180].

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السماوات والأرض وَهُوَ العزيز ﴾.

جملة ﴿ يسبح له ﴾ الخ في موضع الحال من ضمير ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ يعني أن اتصافه بالصفات الحسنى يضطر ما في السماوات والأرض من العقلاء على تعظيمه بالتسبيح والتنزيه عن النقائص فكل صنف يبعثه علمه ببعض أسماء الله على أن ينزهه ويسبحه بقصد أو بغير قصد.

فالدُهري أو الطبائعي إذا نوّه بنظام الكائنات وأعجب باتساقها فإنما يسبح في الواقع للفاعل المختار وإن كان هو يدعوه دَهراً أو طبيعة، هذا إذا حمل التسبيح على معناه الحقيقي وهو التنزيه بالقول، فأما إن حمل على ما يشمل المعنيين الحقيقي والمجازي من دلالة

على التنزيه ولو بلسان الحال .

فالمعنى : أن ما ثبت له من صفات الخلق والإِمداد والقهر تدل عليه شواهد المخلوقات وانتظام وجودها .

وجملة ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ عطف على جملة الحال وأوثر ها تان الصفتان لشدة مناسبتهما لنظام الخلق .

وفي هذه الآية رد العجز على الصدر لأن صدر السورة مماثل لآخرها .

روى الترمذي بسند حسن عن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من قال حين يُصبح ثلاثَ مرّات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب ﴾ [الحشر : 22] إلى آخر السورة ، وكَّل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يُمسِيَ ، وإن مات ذلك اليومَ مات شهيداً .

(70/757)

ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة " فهذه فضيلة لهذه الآيات أخروية .

وروى الخطيب البغدادي في "تاريخه" بسنِده إلى إدريس بن عبد الكريم الحداد قال :

قرأت على خلف (راوي حمزة) فلما بلغت هذه الآية ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾ [الحشر : 21] إلى آخر السورة قال : ضع يدك على رأسك فإني قرأت على الأعْمش .

فلما بلغتُ هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك فإني قرأت على يَحيى بن وثاب ، فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك فإني قرأت على علقمة والأسود فلما بلغت هذه الآية قالا : ضع يدك على رأسك فإنّا قرأنا على عبد الله فلما بلغنا هذه الآية قال : ضعا أَيديكما على رؤوسكما ، فإني قرأت على النبي صلى الله عليه وسلم فلما بلغتُ هذه الآية قال لي : ضع يدك على رأسك فإن جبريل لما نزل بها إليّ قال : ضعَ يدك على رأسك فإنها شفاء من كل داء إلا السام .

والسام الموت .

قلت : هذا حديث أغر مسلسل إلى جبريل عليه السلام .

وأخرج الديلمي عن علي وابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في قوله تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن ﴾ [الحشر : 21] إلى آخر السورة : هي رُقية الصداع ، فهذه مزية لهذه الآيات . انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾

أخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾ الآية ، قال : لو أنزلت هذا القرآن على جبل فأمرته بالذي أمرتكم وخوّفته بالذي خوفتكم به إذاً يصدع ويخشع من خشية الله ، فأنتم أحق أن تخشوا وتذلوا وتلين قلوبكم لذكر الله .

وأخرج ابن المنذر عن مالك بن دينار قال : أقسم لكم لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدع قلبه .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن ﴾ الآية قال : يقول : لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع قال : ﴿ كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ﴾ .

وأخرج الديلمي عن ابن مسعود وعليّ مرفوعاً في قوله : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾ إلى آخر السورة ، قال : هي رقية الصداع .

وأخرج الخطيب البغدادي في تاريخه قال : " أنبأنا أبو نعيم الحافظ أبنأنا أبو الطيب محمد بن أحمد بن يوسف بن جعفر المقري البغدادي ، يعرف بغلام ابن شنبوذ ، أبنأنا إدريس بن عبد الكريم الحداد قال : قرأت على خلف فلما بلغت هذه الآية ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾ قال : ضع يدك على رأسك فإني قرأت على سليم فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك فإني قرأت على الأعمش ، فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك ، فإني قرأت على يحيى بن وثاب ، فلما بلغت هذه الآية قال : ضد يدك على رأسك ، فإني قرأت على علقمة والأسود ، فلما بلغت هذه الآية قال : ضع يدك على رأسك ، فإنا قرأنا على عبد الله ، فلما بلغنا هذه الآية قال : ضعا أيديكما على رؤوسكما فإني قرأت على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما بلغت هذه الآية قال لي : " ضع يدك على رأسك فإن جبريل لما نزل بها إليّ قال لي : ضع يدك على رأسك فإنها شفاء من كل داء إلا السأم والسأم الموت " " .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : اسم الله الأعظم هو الله .

وأخرج ابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري أنه كان له مربد للتمر في بيته ، فوجد المربد قد

نقص ، فلما كان الليل أبصره ، فإذا بجس رجل فقال له : من أنت ؟ قال : رجل من الجن ، أردنا هذا البيت فأرملنا من الزاد فأصبنا من تمركم ، ولا ينقصكم الله منه شيئاً ، فقال له أبو أيوب الأنصاري : إن كنت صادقاً فناولني يدك فناوله يده ، فإذا بشعر كذراع الكلب ، فقال له أبو أيوب : ما أصبت من تمرنا فأنت في حل ، ألا تُخبرني بأفضل ما تعوّذ به الإِنس من الجن ؟ قال : هذه الآية آخر سورة الحشر .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ آخر سورة الحشر ثم مات من يومه وليلته كفر عنه كل خطيئة عملها " .

(73/757)

وأخرج ابن السني في عمل يوم وليلة وابن مردويه عن أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رجلاً إذا أوى إلى فراشه أن يقرأ آخر سورة الحشر ، وقال : " إن متَّ متَّ شهيداً " " .

وأخرج أبو علي عبد الرحمن بن محمد النيسابوري في فوائده عن محمد بن الحنفية أن البراء بن عازب قال لعلي بن أبي طالب : سألتك بالله إلا ما خصصتني بأفضل ما خصك به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما خصه به جبريل ، مما بعث به إليه الرحمن ، قال : يا

براء إذا أردت أن تدعو الله باسمه الأعظم فاقرأ من أول الحديد عشر آيات وآخر سورة الحشر ، ثم قل : يا من هو هكذا وليس شيء هكذا غيره أسألك أن تفعل بي كذا وكذا ، فوالله يا براء لو دعوت عليّ لخسف بي .

وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تعوذ بالله من الشيطان ثلاث مرات ثم قرأ آخر سورة لحشر بعث الله إليه سبعين ألف ملك يطردون عنه شياطين الإنس والجن إن كان ليلاً حتى يصبح ، وإن كان نهاراً حتى يمسي " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله إلا أنه قال : " يتعوذ الشيطان عشر مرات " .

وأخرج أحمد والدارمي والترمذي وحسنه وابن الضريس والبيهقي في شعب الإيمان عن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من قال حين يصبح عشر مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي ، وإن مات ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة " .

وأخرج ابن عدي وابن مردويه والخطيب والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ خواتيم الحشر في ليل أو نهار فمات في يومه أو ليلته فقد أوجب له الجنة " .

(74/757)

وأخرج ابن الضريس عن عتيبة قال : حدثنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من قرأ خواتيم الحشر حين يصبح أدرك ما فاته من ليلته وكان محفوظاً إلى أن يمسي ، ومن قرأها حين يمسي أدرك ما فاته من يومه وكان محفوظاً إلى أن يصبح ، وإن مات أوجب .

وأخرج الدارمي وابن الضريس عن الحسن قال : من قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر إذا أصبح فمات من يومه ذلك طبع بطابع الشهداء ، وإن قرأ إذا أمسى فمات من ليلته طبع بطابع الشهداء .

وأخرج الديلمي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اسم الله الأعظم في ستة آيات من آخر سورة الحشر " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ قال : السر والعلانية ، وفي قوله : ﴿ المؤمن ﴾ قال : المؤمن خلقه من أن يظلمهم وفي قوله : ﴿ المهيمن ﴾ قال : الشاهد .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ عالم الغيب ﴾ قال : ما يكون وما هو كائن وفي قوله : ﴿ القدوس ﴾ قال : تقدسه الملائكة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة في قوله : ﴿ القدوس ﴾ قال : المبارك ﴿ السلام المؤمن ﴾ قال : المؤمن من آمن به ﴿ المهيمن ﴾ الشهيد عليه ﴿ العزيز ﴾ في نقمته إذا انتقم ﴿ الجبار ﴾ جبر خلقه على ما يشاء المتكبر عن كل سوء .

وأخرج ابن المنذر عن زيد بن علي قال : إنما سمي نفسه ﴿ المؤمن ﴾ لأنه آمنهم من العذاب .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن محمد بن كعب قال : إنما تسمى ﴿ الجبار ﴾ أنه يجبر الخلق على ما أراده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 121. 123 ﴾

(75/757)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السموات ﴾

يعني : صلى لله ، ويقال : خضع لله ، ويقال : هو التسبيح بعينه ﴿ مَا فِي السموات ﴾ من الملائكة .

﴿ وَمَا فِى الأرض ﴾ يعني : من الخلق .

﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ في ملكه ، ﴿ الحكيم ﴾ في أمره .

ثم قال عز وجل : ﴿ هُوَ الذى أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ ﴾ ، يعني : يهود بني النضير .

﴿ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن ديارهم ﴾ .

وكان بدأ أمر بني النضير ، أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث ثلاثة بعوث ، أحد البعوث مرشد بن أبي مرشد الغنوي ، وأمره على سبعة نفر إلى بعض النواحي ، فساروا حتى جاؤوا بطن الرجيع ، فنزلوا عند شجرة ، فأكلوا من تمر عجوة كانت معهم ، فسقطت نوايات بالأرض ، وكانوا يسيرون بالليل ويكمنون بالنهار ، فكمنوا بالجبل .

فجاءت امرأة من هذيل ترعى الغنم ، فرأت النوايات التي سقطت في الأرض ، فأنكرت صفرهن فعرفت أنها تمر المدينة ، فصاحت في قومها : أتيتم .

فجاؤوا يطلبونها ، فوجدوهم قد كمنوا في الجبل ، فقالوا لهم : انزلوا ولكم الأمان .

فقالوا : لا نعطي بأيدينا .

فقاتلوهم ، فقتلوا كلهم إلا عبد الله بن طارق ، فجرحوه وحسبوا أنه قد مات ، فتركوه فنجا من بينهم .

وبقي أخوهم عاصم بن ثابت بن الأفلح ، ففرغ جعبته ثم جعل يرميهم ويرتجز ، ويقاتلهم حتى فنيت سبله ؛ ثم طاعن بالرمح حتى انكسر الرمح وبقي السيف .

ثم قال : اللهم إني قد حميت دينك أول النهار ، فاحم جسدي في آخره .

وكانوا يجردون من قتل أصحابه ، فلما قتلوا عاصماً ، حمته الدبر وهي الذنابير ، حتى جاء السيل من الليل ، فذهب به الدبر .

(76/757)

وأسروا خبيب بن عدي ورجل آخر اسمه زيد بن الدثنة ، فأما خبيب فذهبوا به إلى مكة ، فاشترته امرأة ومعها أناس من قريش قتل لهم قتيل يوم بدر فلما جيء بخبيب أتي به في الشهر الحرام ، فحبس حتى انسلخ الشهر الحرام ثم خرجوا به من الحرم ليصلبوه ، فقال لهم : اتركوني أصلي ركعتين ، فصلاهما .

ثم قال : لولا خشيت أن يقولوا جزع من الموت ، لازددت .

فقال : اللهم ليس هاهنا أحد أن يبلغ عني رسولك السلام ، فبلغ أنت عني السلام .

ثم التفت إلى وجوههم ، وقال : اللهم أحصهم عدداً وأهلكهم بدناً يعني : متفرقين ، ولا تبقي منهم أحداً .

ثم صلبوه .

وأما صاحبه ، الذي أسر معه ، اشتراه صفوان بن أمية .

وأما البعث الثاني ، فإنه بعث محمد بن سلمة مع أصحابه ، فقتل أصحابه عن نحو طريق العراق ، وارتث هو من وسط القتلى فنجا .

وأما البعث الثالث ، فإن عمرو بن مالك كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن ابعث إليَّ رجالاً يعلموننا القرآن ، ويفقهوننا في الدين ، فهم في ذمتي وجواري .

فبعث النبي صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو الساعدي في أربعة عشر من المهاجرين والأنصار ، فساروا نحو بئر معونة .

فلما ساروا ليلة من المدينة ، بلغهم أن عمرو بن مالك مات ، فكتب المنذر بن عمرو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده ، فأمده صلى الله عليه وسلم بأربعة نفر منهم عمرو بن أمية الضمري ، والحارث بن الصمة ، وسعد بن أبي وقاص ، ورجل آخر ؛ فساروا حتى بلغوا بئر معونة ، وكتبوا إلى ربيعة بن عامر بن مالك : نحن في ذمتك وذمة أبيك ، أفنقدم إليك أم لا ؟ فقال : أنتم في ذمتي وجواري فأقدموا .

فخرج إليهم عامر بن الطفيل ، واستعان برعل وذكوان وعصية فخرجوا إلى المسلمين فقاتلوهم ، فقتلوا كلهم إلا عمرو بن أمية الضمري ، والحارث بن الصمة ، وسعد بن أبي وقاص ، كانوا تخلفوا .

فنزلوا تحت شجرة إذ وقع على الشجرة طير ، فرمى عليهم بعلقة دم ، فعرفوا أن الطير قد شرب الدم ، فقال بعضهم لبعض : قد قتل أصحابنا .

فصعدوا أعلى الجبل ، فنظروا فإذا القوم صرعى ، وقد اعتكفت عليهم الطير ، فقال الحارث بن الصمة : أنا لا أنتهي حتى أبلغ مصارع أصحابي .

فخرج إليهم فقاتل القوم ، فقتل منهم رجلين .

ثم أخذوه فقالوا له : ما تحب أن نصنع بك ؟ فقال لهم : ابلغوا بي مصارع قومي .

فلما بلغ مصارع أصحابه ، أرسلوه فقاتلهم ، فقتل منهم اثنين .

ثم قتل فرجع عمرو بن أمية الضمري ، ورجع معه الرجلان الآخران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج رجلان من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مستأمنين ، قد كساهما وحملهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : من أنتما ؟ قال : كلابيان .

فقتلهما عمرو بن أمية الضمري ، وأخذ سلبهما ، ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر ، فقال : بئس ما صنعت حين قتلتهما .

فلما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبره خبر هذه البعوث الثلاثة في ليلة

واحدة ، صلى الصبح في ذلك اليوم ، وقال في الركعة الثانية : اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، اللهم العن رعلان وذكوان وبني لحيان ، اللهم غفار ، غفر الله لها وسالم سالمها الله ، وعصية عصت الله ورسوله .

فجاء أناس من بني كلاب يلتمسون من رسول الله صلى الله عليه وسلم دية الكلابيين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة ، صالح بني النضير على أن لا يكونوا معه ولا عليه ؛ فاستعان النبي صلى الله عليه وسلم في عقل الكلابيين قبائل الأنصار ؛ فلما بلغ العالية استعان من بني النضير فقال : أعينوني في عقل أصابني ، فقال : هؤلاء حلفائي .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه أبو بكر ، وعمر ، وعلي رضي الله عنهم إلى بني النضير ، فقال حيي بن أخطب : اجلس يا أبا القاسم حتى نطعمك ونعطيك ما سألتنا .

(78/757)

فجلس النبي صلى الله عليه وسلم في صفه ، ومعه أبو بكر ، وعمر ، وعلي رضي الله عنهم فقال حيي بن أخطب لأصحابه : إنما هو في ثلاثة نفر لا ترونه أقرب من الآن ، فاقتلوه لا تروا شراً أبداً .

فنزل جبريل عليه السلام وأخبره ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم كأنه يريد حاجة ، حتى دخل المدينة فجاء إنسان ، فسألوه عنه فقال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم دخل أول البيوت .

فقاموا من هناك ، فقال حيي بن أخطب : عجل أبو القاسم عليه ، فقد أردنا أن نطعمه ونعطيه الذي سأله .

فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، جمع الناس وجاء بالجيش ، واختلفوا في قتل كعب بن الأشرف ، فقال بعضهم لبعض : قد كان قتل قبل ذلك ، وقال بعضهم : قتل في هذا الوقت .

فبعث محمد بن سلمة ، فخرج محمد بن سلمة ، وأبو نائلة ، ورجلان آخران ، فأتوه بالليل ، وقالوا : أتيناك نستقرض منك شيئاً من التمر .

فخرج إليهم فقتلوه ، ورجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم النبي صلى الله عليه وسلم مع الجيش إلى بني النضير ، فقال لهم : اخرجوا منها .

فإذا جاء وقت الجذاذ ، فجذوا ثماركم .

فقالوا : لا نفعل .

فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ، نحن نعطيك الذي سألتنا .

قال : "لاَ ولكن اخْرُجُوا مِنْهَا ، وَلَكُمْ مَا حَمَلَتِ الإِبِلُ إلاّ الحَلَقَةُ" يعني : السلاح ، قالوا :

لا .

فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة ، وأمر بقطع نخيلهم ، ونقب بيوتهم .

فلما رأت اليهود ما يصنعون بهم ، فكلما نقب المسلمون بيت فروا إلى بيت ، آخر ينتظرون المنافقين .

وقد قال المنافقون لهم : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، وإن قوتلتم لننصرنكم .

(79/757)

فلما رأوا أنه لا يأتيهم أحد من المنافقين ولحقهم من الشر ما لحقهم ، قال بعضهم لبعض : ليس لنا مقام بعد النخيل ، فنحن نعطيك يا أبا القاسم على أن تعتق رقابنا إلا الحلقة ونخرج ، فأجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة ، ولهم ما حملت الإبل إلا الحلقة .

فأخذ أموالهم ، فقسمها بين المهاجرين ، ولم يعطها أحداً من الأنصار إلا رجلين كانا محتاجين مثل حاجة المهاجرين ، وهما سهل بن حنيف وسماك بن خرشة أبو دجانة ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَهُوَ الذى أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن ديارهم ﴾ يعني : بني النضير ﴿ لِأَوَّلِ الحشر ﴾ ، يعني : أول الإجلاء من المدينة .

وقال عكرمة : من شك بأن الحشر هو الشام ، فليقرأ هذه الآية ﴿ هُوَ الذى أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن ديارهم لِأَوَّلِ الحشر ﴾ .

فلما قال لهم : اخرجوا من المدينة ، قالوا : إلى أين؟ قال : إلى أرض المحشر .

فقال لهم : إنهم أول من يحشر ، وأخرج من ديارهم .

ثم قال : ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ﴾ ، يعني : ما ظننتم أيها المؤمنين أن يخرجوا من ديارهم .

وذلك إن بني النضير كان لهم عز ومنعة ، وظن الناس أنهم بعزهم ومنعتم لا يخرجون .

﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ ﴾ ، يعني : وحسبوا بني النضير أنهم ﴿ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مّنَ الله ﴾ يعني : أن حصونهم تمنعهم من عذاب الله .

﴿ فاتاهم الله ﴾ ، يعني : أتاهم أمر الله ، ويقال : ﴿ فاتاهم الله ﴾ بما وعد لهم .

﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ ، يعني : لم يظنوا أنه ينزل بهم ، وهو قتل كعب بن الأشرف ، ويقال : خروج النبي صلى الله عليه وسلم مع الجيش إليهم .

﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرعب ﴾ ، يعني : جعل في قلوبهم الخوف .

﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى المؤمنين ﴾ .

وذلك أنهم حصنوا أزقتهم بالدروب ، وكان المسلمون ينقبون بيوتهم ، ويدخلونها ، وكان اليهود ينقبون بيوتهم من الجانب الآخر ويخرجون منها .

ويقال : كان اليهود ينقبون بيوتهم ، ليرموا بها على المسلمين ؛ وكان المسلمون يخربون نواحي بيوتهم ، ليتمكنوا من الحرب .

ويقال : كان اليهود أنفقوا في بيوتهم ، فلما علموا أنهم يخرجون منها ، جعلوا يخربونها كيلا يسكنها المسلمون ؛ وكان المؤمنون يخربونها ، ليدخلوا عليهم .

قرأ أبو عمرو ﴿ يُخْرِبُونَ ﴾ بالتشديد .

والباقون بالتخفيف .

قال بعضهم : هما لغتان : خرب وأخرب .

وروي عن الفراء أنه قال : من قرأ بالتشديد ، فمعناه يهدمون ؛ ومن قرأ بالتخفيف ، فمعناه يعطلون .

ثم قال ﴿ فاعتبروا يا أولى الابصار ﴾ ، يعني : من له البصارة في أمر الله .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الجلاء ﴾ ، يعني : لولا أن قضى الله عليهم الإخراج من جزيرة العرب إلى الشام ، ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدنيا ﴾ ؛ يعني : لعذبهم بالقتل والسبي .

﴿ وَلَهُمْ فِى الآخرة عَذَابُ النار ﴾ ، يعني : ذلك الذي أصابهم من الجلاء في الدنيا والعذاب في الآخرة .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللهَ ﴾ ، يعني : خالفوا الله ورسوله في الدين ، ويقال : عادوا الله ورسوله .

﴿ وَمَن يُشَاقِّ اللهَ ﴾ وأصله من يشاقق الله ، إلا أن إحدى القافين أدغمت في الأخرى وشددت ، يعني : من يخالف الله ورسوله في الدين ، ﴿ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العقاب ﴾ ، يعني : إذا عاقب ، فعقوبته شديدة .

قوله عز وجل : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ ﴾ يعني : من نخلة ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً على أُصُولِهَا ﴾ فلم تقطعوها ، ﴿ فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾ يعني : بأمر الله .

(81/757)

وقال عكرمة : لما دخل المسلمون على بني النضير ، أخذوا يقطعون النخل ، فنهاهم بعضهم ، وتأولوا قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تولى سعى فِى الأرض لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحرث والنسل والله لاَ يُحِبُّ الفساد ﴾ [البقرة : 205] وقال بعضهم : يقطع ويتأول قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ المدينة وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ الاعراب أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ

بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة : 120] ، فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ .

وقال الزهري في قوله : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ اللينة : ألوان النخل كلها إلا العجوة ، وقال الضحاك : اللينة : النخلة الكرمة والشجرة الطيبة المثمرة ، وقال مجاهد : اللينة : الشجرة المثمرة .

وروى ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قال : نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل ، وقالوا : إنما هي مغانم المسلمين .

فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعها ، وبتحليل من قطعها ، وإنما قطعها وتركها بإذن الله تعالى .

وعن ابن عباس أنه قال : أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقطع النخل ، فشق ذلك على بني النضير مشقة شديدة ، فقالوا للمؤمنين : تزعمون أنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون في الأرض ، فدعوها قائمة ؛ فإنما هي لمن غلب ، فنزل : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ واللينة هي النخلة كلها ما خلا العجوة ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا ﴾ وهي العجوة ﴿ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ يعني : القطع والترك بإذن الله .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمر عبد الله بن سلام ، وأبا ليلى المازني بقطع النخل ، فكان أبو ليلى يقطع العجوة ، وكان عبد الله بن سلام يقطع اللون ، فقيل لأبي ليلى : لِمَ تقطع العجوة ؟ قال : لأن فيه كبت العدو .

وقيل لابن سلام : لِمَ تقطع اللون ، قال : لأني أريد أن تبقى العجوة للمسلمين .

فأنزل الله تعالى رضاً بما فعل الفريقان ، فقال الله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾ .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلِيُخْزِيَ الفاسقين ﴾ يعني : وليذل العاصين الناقضين العهد .

ثم قال عز وجل ﴿ وما أفاء الله على رسوله ﴾ يعني ما أعطى الله رسوله من بني النضير وذلك أنهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يقسم أموالهم بين جميع المسلمين كما قسم أموال بدر فلم يفعل النبي صلى الله عليه وسلم وقسم بين فقراء المهاجرين فنزل ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ يعني ما أعطى الله رسوله من أموال بني النضير ﴿ فما أوجفتم ﴾ يعني ما أجريتم ﴿ عليه من خيل ولا ركاب ﴾ يعني لا على خيل ولا على إبل أتيتم بل إنكم ﴿ مشيتم مشيا حتى فتحتموها

ويقال أوجف الفرس والبعير إذا أسرعا يعني لم يكن عن غزوة أوجفتم خيلا ولا ركابا

﴿ ولكن الله يسلط رسله ﴾ يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ على من يشاء ﴾ من بني النضير

والله على كل شيء قدير من النصرة والغنيمة

ثم بين لمن يعطي تلك الغنائم فقال ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ يعني من بني النضير وفدك ويقال بني قريظة والنضير وخيبر

﴿ فلله وللرسول ﴾ يعني لله أن يأمركم فيه بما أحب

وروى عبد الرازق عن معمر عن الزهري قال كانت بنو النضير للنبي صلى الله عليه وسلم خالصا لم يفتحوها عنوة ولكن افتتحوها على صلح فقسمها بين المهاجرين

ثم قال ﴿ ولذي القربى ﴾ يعني قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم

﴿ واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾

وروى مالك بن أنس عن عمر قال كانت للنبي صلى الله عليه وسلم ثلاث صفايا بني النضير وخيبر وفدك

فأما بنو النضير فكانت حبسا لنوائبه وأما فدك فكانت لابن السبيل وأما خيبر فجزأها ثلاثة أجزاء فقسم جزأين بين المسلمين وحبس جزءا للنفقة

فما فضل عن أهله رده إلى فقراء المسلمين

ثم قال ﴿ كي لا يكون ﴾ المال ﴿ دولة ﴾

قرأ أبو جعفر المدني ﴿ دولة ﴾ بالضم وجعله اسم يكون وقراءة العامة بالنصب يعني لكي لا يكون دولة

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ﴿ دولة ﴾ بنصب الدال والباقون بالضم ﴿ دولة ﴾ فمن قرأ بالضم فهو اسم المال الذي يتداول فيكون مرة لهذا ومرة لهذا

وأما النصب فهو النقل والانتقال من حال إلى حال ﴿ بين الأغنياء منكم ﴾ يعني لكيلا يغلب الأغنياء على الفقراء ليقسموه بينهم

ثم قال ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ﴾ يعني ما أعطاكم النبي صلى الله عليه وسلم من الغنيمة فخذوه ويقال وما أمركم الرسول فاعملوا به ﴿ وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ يعني فامتنعوا عنه

﴿ واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ لمن عصاه

ثم ذكر أن الفيء للمهاجرين يعني الغنائم ﴿ للفقراء المهاجرين ﴾ ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ﴾ يعني تركوا أموالهم وديارهم في بلادهم وهاجروا إلى النبي صلى الله

عليه وسلم

ويقال هذا ابتداء ومعناه عليكم بالفقراء المهاجرين يعني اعرفوا حقهم وصلوهم ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم ﴾ يعني أخرجهم أهل مكة من ديارهم وأموالهم

يبتغون فضلا من الله ورضوانا ﴿ يعني يطلبون رزقا في الجنة ورضوان الله تعالى ﴿

وينصرون الله ورسوله ﴾ بالسيف يعني يطيعون الله فيما أمرهم بطاعته

﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ يعني الصادقين في إيمانهم فطابت أنفس الأنصار في ذلك فقالوا هذا كله لهم وأموالنا أيضا لهم

(84/757)

فأثنى الله تعالى على الأنصار فقال عز وجل والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يعني استوطنوا الدار يعني دار المدينة من قبل هجرتهم يعني نزلوا دار الهجرة في المدينة ﴿

والإيمان ﴾ يعني تبوءوا الإيمان أي كانوا مؤمنين من قبل أن هاجر إليهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه

قال الله تعالى ﴿ يحبون من هاجر إليهم ﴾

يعني يحبون من يقدم إليهم من المؤمنين ﴾ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ يعني

لا يكون في قلوبهم حسدا مما أعطوا يعني المهاجرين

ويقال حاجة يعني حزازة وهو الحزن ويقال ﴿ ولا يجدون في صدورهم ﴾ بخلا وكراهة بما أعطوا

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ﴾ في القسمة من الغنيمة يعني تركوها للمهاجرين

﴿ ولو كان بهم خصاصة ﴾ يعني حاجة

وروى وكيع عن فضيل بن عمران عن رجل عن أبي هريرة أن رجلا من الأنصار نزل به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه فقال لامرأته نومي الصبية وأطفئي السراج وقربي إلى الضيف ما عندك فنزل ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾

ويقال إن رجلا من الأنصار أهدي له برأس مشوي فقال لعل جاري أحوج مني فبعث إليه ثم إن جاره بعثه إلى جار آخر فطاف سبعة أبيات ثم عاد إلى الأول فنزل ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾

قال الله تعالى ﴿ ومن يوق شح نفسه ﴾ يعني ومن يمنع بخل نفسه ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ يعني الناجين

وروى وكيع بإسناده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ﴿ بريء من الشح من أدى الزكاة وأقرى الضيف وأعطى في النائبة ﴾

وقد أثنى الله تعالى على المهاجرين وعلى الأنصار ثم أثنى على الذين من بعدهم على

طريقتهم فقال ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ يعني التابعين ويقال يعني الذين هاجروا من بعد الأولين

﴿ يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ يعني أظهروا الإيمان قبلنا يعني المهاجرين والأنصار

(85/757)

﴿ ولا تجعل في قلوبنا غلا ﴾ يعني غشا وحسدا وعداوة ﴿ للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ يعني رحيما بعبادك المؤمنين

وفي الآية دليل أن من ترحم على الصحابة واستغفر لهم ولم يكن في قلبه غل لهم فله حظ في المسلمين وله أجر مثل أجر الصحابة

ومن شتمهم أو لم يترحم عليهم أو كان في قلبه غل لهم ليس له حظ في المسلمين لأنه ذكر للمهاجرين فيه حظ ثم ذكر الأنصار ثم ذكر الذين جاؤوا من بعدهم وقد وصفهم الله بصفة الأولين إذ دعا لهم

وفي الآية دليل أن الواجب على المؤمنين أن يستغفروا لإخوانهم الماضين وفيه وينبغي للمؤمنين أن يستغفروا لآبائهم ولمعلميهم الذين علموهم أمور الدين

ثم نزل في شأن المنافقين فقال ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا ﴾ يعني منافقي المدينة

﴿ يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ يعني بني النضير

﴿ لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ﴾ يعني ولا نطيع محمدا صلى الله عليه وسلم في خذلانكم

﴿ وإن قوتلتم لننصرنكم ﴾ يعني لنعينكم

﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ في مقالتهم وإنما قالوا ذلك بلسانهم في غير حقيقة في قلوبهم

فقال الله تعالى ﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ﴾ يعني لئن أخرج بنو النضير لا يخرج المنافقون معهم

﴿ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴾ يعني لا يمنعونهم على ذلك

﴿ ولئن نصروهم ليولن الأدبار ﴾ يعني ولو أعانوهم لا يثبتون على ذلك ولن ينصروهم ﴿ ليولن الأدبار ﴾ يعني رجعوا منهزمين

﴿ ثم لا ينصرون ﴾ يعني لا يمنعون من الهزيمة

ثم قال عز وجل ﴿ لأنتم أشد رهبة ﴾ يعني أنتم يا معشر المسلمين ﴿ أشد رهبة في صدورهم من الله ﴾ يعني خوفهم منكم أشد من عذاب الله في الآخرة

﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ يعني لا يعقلون أمر الله تعالى

ثم أخبر عن ضعف اليهود في الحرب فقال عز وجل ﴿ لا يقاتلونكم جميعا ﴾ يعني لا

يخرجون إلى الصحراء لقتالكم

(86/757)

﴿ إلا في قرى محصنة ﴾ يعني حصينة أو من رواء جدر يعني يقاتلونكم من وراء الجدار

فحذف الألف وهو جمع الجدار

قرأ ابن كثير وأبو عمرو من وراء جدار بالألف والباقون جدر بحذف الألف وهو جماعة

فمن قرأ ﴿ جدار ﴾ فهو واحد يريد به الجمع

ثم قال ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ يعني قتالهم فيما بينهم إذا اقتتلوا شديد وأما مع المؤمنين

فلا

ثم قال ﴿ تحسبهم جميعا ﴾ يعني تظن أن المنافقين واليهود على أمر واحد وكلمتهم

واحدة

﴿ وقلوبهم شتى ﴾ يعني قلوب اليهود مختلفة ولم يكونوا على كلمة واحدة

﴿ ذلك بأنهم ﴾ يعني ذلك الاختلاف بأنهم ﴿ قوم لا يعقلون ﴾ يعني لا يعقلون أمر الله

تعالى

ثم ضرب لهم مثلا فقال عز وجل ﴿ كمثل الذين من قبلهم ﴾ يعني مثل بني النضير مثل الذين من قبلهم يعني أهل بدر

﴿ قريبا ﴾ يعني كان قتال بدر قبل ذلك بقريب وهو مقدار سنتين أو نحو ذلك

﴿ ذاقوا وبال أمرهم ﴾ يعني عقوبة ذنبهم ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ يعني عذابا شديدا في الآخرة

ثم ضرب لهم مثلا آخر وهو مثل المنافقين مع اليهود حين خذلوهم ولم يعينوهم

﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ﴾ يعني برصيصا الراهب

وروى عدي بن ثابت عن ابن عباس قال كان في بني إسرائيل راهب عبد الله تعالى زمانا من الدهر حتى كان يؤتى بالمجانين فيعودهم ويداويهم فيبرؤون على يديه

وأنه أتى بامرأة قد جنت وكان لها أخوة فأتوه بها فكانت عنده فلم يزل به الشيطان يخوفه ويزين له حتى وقع عليها فحملت

فلما استبان حملها لم يزل به الشيطان يخوفه ويزين له حتى قتلها ودفنها

ثم ذهب الشيطان إلى إخوتها في صورة رجل حتى لقي أحدا من أخوتها فأخبره بالذي فعل الراهب وأنه دفنها في مكان كذا

فبلغ ذلك إلى ملكهم فسار الملك مع الناس فأتوه فاستنزلوه فأقر لهم بالذي فعل فأمر به فصلب

فلما رفع على خشبة تمثل له الشيطان فقال أنا الذي زينت لك هذا وألقيتك فيه فهل لك أن تطيعني فيما أقول لك وأخلصك مما أنت فيه فقال نعم

قال اسجد لي سجدة واحدة

(87/757)

فسجد له فذلك قوله كمثل الشيطان إذا قال للإنسان اكفر يعني اسجد ﴿ فلما كفر ﴾ يعني سجد

قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين قال ذلك على وجه الاستهزاء كذلك المنافقون خذلوا اليهود كما خذل الشطيان الراهب ﴿ فكان عاقبتهما ﴾ يعني عاقبة الشيطان والراهب ﴿ أنهما في النار خالدين فيها ﴾ يعني مقيمين فيها

وكان ابن مسعود يقرأ خالدان فيها وقراءة العامة ﴿ خالدين فيها ﴾ بالنصب وإنما هو نصب على الحال

﴿ وذلك جزاء الظالمين ﴾ يعني الخلود في النار جزاء المنافقين والكافرين

قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ يعني اخشوا الله ويقال أطيعوا الله

﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ يعني ما عملت لغد وأسلفت لغد أي ليوم القيامة ومعناه

تصدقوا واعملوا بالطاعة لتجدوا ثوابه يوم القيامة

ثم قال ﴿ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ من الخير والشر

ثم وعظ المؤمنين بأن لا يتركوا أمره ونهيه كاليهود

ويوحدوه في السر والعلانية ولا يكونوا في المعصية كالمنافقين فقال ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله ﴾ يعني تركوا أمر الله تعالى

﴿ فأنساهم أنفسهم ﴾ يعني خذلهم الله تعالى حتى تركوا حظ أنفسهم أن يقدموا خيرا لها

﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ يعني العاصين ويقال ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله ﴾ أي تركوا ذكر الله وما أمرهم به ﴿ فأنساهم أنفسهم ﴾ يعني فترك ذكرهم بالرحمة والتوفيق ويقال ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله ﴾ يعني تركوا عهد الله ونبذوا كتابه وراء ظهورهم ﴿ فأنساهم أنفسهم ﴾ يعني أنساهم حالهم حتى لم يعملوا لأنفسهم ولم يقدموا لها خيرا ﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ يعني الناقضين للعهد

ثم ذكر مستقر الفريقين فقال ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ يعني لا يستوي في الكرامة والهوان في الدنيا والآخرة لأن أصحاب الجنة في الدنيا موفقون منعمون معصومون وفي الآخرة لهم الثواب والكرامة

وأصحاب النار مخذولون في الدنيا معذبون في الآخرة

ويقال ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ في الآخرة لأن أصحاب الجنة يتقلبون في النعيم وأصحاب النار يتقلبون في النار والهوان

ثم قال ﴿ أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ يعني المستعدون الناجون وأصحاب النار الهالكون

ثم وعظهم ليعتبروا بالقرآن فقال عز وجل ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾ يعني القرآن الذي فيه وعده ووعيده لو أنزل على جبل ﴿ لرأيته خاشعا ﴾ يعني خاضعا ﴿ متصدعا من خشية الله ﴾ يعني خاضعا متصدعا ويقال ويرق من خوف عذاب الله فكيف لا يرق هذا الإنسان ويخشع ويقال هذا على وجه المثل يعني لو كان الجبل له تميز لتصدع من الخشية من خشية الله ثم قال ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾ أي نبينها للناس ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ أي لكي يتعظوا في أمثال الله يعني فيعتبرون ولا يعصون الله تعالى

ثم قال ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو ﴾ يعني لا خالق ولا رازق غيره

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ يعني عالم السر والعلانية ويقال الغيب ما غاب عن العباد

والشهادة ما شاهدوه وعاينوه ويقال ﴿ عالم ﴾ بما كان وبما يكون ويقال ﴿ عالم ﴾ بأمر الآخرة وبأمر الدنيا

ثم قال ﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾ يعني العاطف على جميع الخلق بالرزق و ﴿ الرحيم ﴾ بالمؤمنين

ثم قال تعالى ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك ﴾ يعني مالك كل شيء وهو الملك الدائم الذي لا يزول ملكه أبدا

ثم قال ﴿ القدوس ﴾ يعني الطاهر عما وصفه الكفار ولهذا سمي بيت المقدس يعني المكان الذي يتطهر فيه من الذنوب

ثم قال ﴿ السلام ﴾ يعني يسلم عباده من ظلمه ويقال سمى نفسه سلاما لسلامته مما يلحق الخلق من العيب والنقص والفناء

ثم قال ﴿ المؤمن ﴾ يعني يؤمن أولياؤه من عذابه ويقال ﴿ المؤمن ﴾ أي يصدق في وعده ووعيده ويقال ﴿ المؤمن ﴾ يعني قابل إيمان المؤمنين

ثم قال ﴿ المهيمن ﴾ يعني الشهيد على عباده بأعمالهم ويقال ﴿ المهيمن ﴾ يعني المويمن فقلبت الواو هاء وهو بمعنى الأمين

ثم قال ﴿ العزيز ﴾ يعني الذي لا يعجزه شيء عما أراد ويقال ﴿ العزيز ﴾ الذي لا يوجد مثله

ثم قال ﴿ الجبار ﴾ يعني القاهر لخلقه على ما أراده ويقال الغالب على خلقه ومعناهما واحد

ثم قال ﴿ المتكبر ﴾ يعني المتعظم على كل شيء ويقال ﴿ المتكبر ﴾ الذي تكبر عن ظلم عباده

ثم قال ﴿ سبحان الله ﴾ يعني تنزيها لله تعالى ﴿ عما يشركون ﴾ يعني عما وصفه الكفار من الشريك والولد ويقال ﴿ سبحان الله ﴾ بمعنى التعجب يعني عجبا عما وصفه الكفار من الشريك

قوله تعالى ﴿ هو الله الخالق ﴾ يعني الخالق الخلق في أرحام النساء ويقال خالق النطف في أصلاب الآباء ﴿ المصور ﴾ للولد في أرحام الأمهات ويقال ﴿ الخالق ﴾ يعني المقدر ﴿ البارئ ﴾ الذي يجعل الروح في الجسد ويقال ﴿ البارئ ﴾ يعني خالق الأشياء ابتداء

ثم قال ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ يعني الصفات العلى ويقال ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ وهي تسعة وتسعون اسما وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن لله تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة

ثم قال ﴿ يسبح له ما في السماوات والأرض ﴾ يعني يخضع له ما في السموات والأرض

يعني جميع الأشياء كقوله وإن من شيء إلا يسبح بحمده الإسراء 44

ثم قال ﴿ وهو العزيز ﴾ يعني العزيز في ملكه ﴿ الحكيم ﴾ في أمره

فإن قال قائل قد قال الله تعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ النجم 32 فما الحكمة في أنه نهى

عباده عن مدح أنفسهم ومدح نفسه قيل له عن هذا السؤال جوابان أحدهما أن العبد وإن

كان فيه خصال الخير فهو ناقص وإن كان ناقصا لا يجوز له أن يمدح نفسه والله سبحانه

وتعالى تام الملك والقدرة فيستوجب به المدح فمدح نفسه ليعلم عباده فيمدحوه

وجواب آخر أن العبد وإن كان فيه خصال الخير فتلك الخصال أفضال من الله تعالى ولم يكن

ذلك بقدرة العبد فلهذا لا يجوز له أن يمدح نفسه

والله سبحانه وتعالى إنما قدرته وملكه له ليس لغيره فيستوجب فيه المدح

(90/757)

ومثال هذا أن الله تعالى نهى عباده أن يمنوا على أحد بالمعروف وقد من الله تعالى على

عباده للمعنى الذي ذكرناه في المدح والله أعلم و صلى الله عليه وسلم على سيدنا محمد

وآله وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 400 . 411 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم * هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الحشر ﴾ الآيات ،

قال المفسرون : نزلت هذه الآيات بأسرها في بني النضير ، وذلك " أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لما دخل المدينة صالحه بنو النضير على ألّا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه ، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ذلك ، فلمّا غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً وظهر على المشركين قالت بنو النضير : والله إنّه للنبيّ الذي وجدنا نعته في التوراة : لا تردّ لهم راية . فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً وهزم المسلمون ارتابوا ونافقوا وأظهروا العداوة لرسول الله (عليه السلام) والمؤمنين ، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكّة ، فأتوا قريشاً فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمّد (عليه السلام) . ثم دخل أبو سفيان في أربعين وكعب في أربعين من اليهود المسجد وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأستار والكعبة ، ثم رجع كعب بن الأشرف وأصحابه إلى المدينة ، فنزل

جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان ، وأمر (عليه السلام) بقتل كعب بن الأشرف فقتله محمّد بن مسلمة الأنصاري ، وكان أخاه من الرضاعة .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اطّلع منهم على خيانة ونقض عهد ، حتى أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر وعليّ (رضي الله عنه) يستعينهم في دية الرجلين المسلمين اللذين قتلهما عمرو بن أُميّة الضمري في منصرفه من بئر معونة حين أغربا إلى بني عامر ، فأجابوه صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، وأجلسوه وهمّوا بالفتك به وطرح حجر عليه من فوق الحصن ، فأخبره الله سبحانه بذلك وعصمه .

(92/757)

وقد مضت هذه القصة وقصة مقتل كعب بن الأشرف ،

فلمّا قتل كعب أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر الناس بالسير إلى بني النضير ، وكانوا بقرية لهم يقال لها : زهرة ، فلمّا سار إليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وجدهم ينوحون على كعب ، وكان سيّدهم ، فقالوا : يا محمّد ، واعية على إثر واعية ، وباكية على إثر باكية ؟ قال : "نعم" . قالوا : ذرنا نبكي بشجونا ثم ائتمرنا أمرك . فقال النبيّ

صلى الله عليه وسلم " اخرجوا من المدينة " .

قالوا : الموت أقرب إلينا من ذلك .

فتنادوا بالحرب وأذنوا بالقتال ، ودسّ المنافقون : عبد الله بن أُبّي وأصحابه إليهم ألّا تخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنكم ، ولئن أُخرجتم لنخرجنّ معكم فدربوا على الأزقة وحصونها . ثم أجمعوا الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلوا إليه : اخرج في ثلاثين رجلا من أصحابك ، وليخرج منا ثلاثون رجلا حتى نلتقي بمكان نَصَف بيننا وبينكم ، فيسمعوا منك ، فإن صدّقوك وآمنوا بك آمنّا كلّنا .

فخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم في ثلاثين من أصحابه وخرج إليه ثلاثون حبراً من اليهود ، حتى إذا كانوا في بَراز من الأرض قال بعض اليهود لبعض : كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلا من أصحابه كلّهم يحبّ أن يموت قبله ؟ فأرسلوا إليه : كيف نفهم ونحن ستون رجلا ، اخرج في ثلاثة من أصحابك ، ونخرج لك ثلاثة من علمائنا فيسمعوا منك ، فإن آمنوا بك آمنّا كلّنا وصدّقناك .

فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثة من أصحابه ، وخرج ثلاثة من اليهود ، واشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار فأخبرته بما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله (عليه السلام) ، فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبي صلى الله عليه وسلم فسارّه بخبرهم قبل أن يصل النبيّ صلى الله عليه وسلم فرجع النبيّ صلى الله عليه وسلم (عليه السلام) .

فلمّا كان الغد عدا عليهم بالكتائب فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة ، فلمّا قذف الله سبحانه في قلوبهم الرعب ، وأيسوا من نصر المنافقين سألوا نبي الله (عليه السلام) الصلح فأبى عليهم (إلاّ) أن يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به النبيّ صلى الله عليه وسلم فقبلوا ذلك ، وصالحهم على الإجلاء ، وعلى أنّ لهم ما أقلّت الإبل من أموالهم إلاّ الحلقة وهي السلاح ، وعلى أن يخلوا له ديارهم وعقارهم وسائر أموالهم " .

وقال ابن عباس : صالحهم على أن يحمل كل أهل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤوا من متاعهم ، وللنبي صلى الله عليه وسلم ما بقي .

وقال الضحاك : أعطى كلّ ثلاثة نفر بعيراً وسقاءً ، ففعلوا ذلك وخرجوا من المدينة إلى الشام إلى أذرعات وأريحا إلاّ أهل بيتين منهم : آل أبي الحقيق وآل حيي بن أخطب ، فإنّهم لحقوا بخيبر ، ولحقت طائفة منهم بالحيرة ، فذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الذي أَخْرَجَ

الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾ يعني بني النضير ﴿ مِن دِيَارِهِمْ ﴾ التي كانت بيثرب.

قال ابن إسحاق: "كان إجلاء بني النضير مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من أُحد وكان فتح قريظة عند مرجعه من الأحزاب وبينهما سنتان.

﴿ لأَوَّلِ الحشر ﴾ قال الزهري: كانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما مضى، وكان الله سبحانه قد كتب عليهم الجلاء، ولولا ذلك لعذّبهم في الدنيا وكانوا أول حشر في الدنيا حشروا إلى الشام.

(94/757)

قال ابن عباس: من شكّ أنّ المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية؛ وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم (عليه السلام) قال لهم يومئذ: اخرجوا". قالوا: إلى أين؟ فقال: "إلى أرض المحشر"

، فأنزل الله سبحانه ﴿ لأَوَّلِ الحشر ﴾.

وقال الكلبي: إنّما قال: ﴿ لأَوَّلِ الحشر ﴾؛ لأنّهم أوّل من حشروا من أهل الكتاب ونفوا من الحجاز.

وقال مرّة الهمداني: كان هذا أوّل الحشر من المدينة، والحشر الثاني من خيبر وجميع

جزيرة العرب إلى أذرعات وأريحا من الشام في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلى بدنه.

وقال قتادة: كان هذا أوّل الحشر، والحشر الثاني نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، وتأكل منهم من تخلّف.

قال يمان بن رباب: إنّما قال: ﴿ لِأَوَّلِ الحشر ﴾؛ لأنّ الله سبحانه فتح على نبيّه (عليه السلام) في أول ما قاتلهم.

﴿ مَا ظَنَنتُمْ ﴾ أيّها المؤمنون ﴿ أَن يَخْرُجُواْ ﴾ من المدينة ﴿ وظنوا أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ الله ﴾ حيث درّبوها وحصّنوها ﴿ فَأَتَاهُمُ الله ﴾ أي أمر الله وعدله ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب ﴾ بقتل سيّدهم كعب بن الأشرف.

﴿ يُخْرِبُونَ ﴾ قراءة العامّة بالتخفيف، من الإخراب، أي يهدمون، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي والحسن البصري وأبو عمرو بن العلاء بالتشديد، من التخريب،

وقال أبو عمرو: إنّما اخترت التشديد؛ لأنّ الإخراب ترك الشيء خراباً بغير ساكن، وأنّ بني النضير لم يتركوا منازلهم فيرتحلوا عنها ولكنّهم خرّبوها بالنقض والهدم.

وقال الآخرون : التخريب والإخراب بمعنى واحد . قال الزهري : ذلك أنّهم لمّا صالحهم النبيّ صلى الله عليه وسلم على أنّ لهم ما أقلّت الإبل ، كانوا ينظرون إلى الخشبة في منازلهم ممّا يستحسنونه ، أو العمود أو الباب فيهدمون بيوتهم وينزعونها منها ويحملونها على إبلهم ويخرّب المؤمنون باقيها .

وقال ابن زيد : كانوا يقتلعون العمد وينقضون السقوف وينقبون الجدران ويقلعون الخشب حتى الأوتاد يخربونها لئلاّ يسكنها المؤمنون ، حسداً منهم وبغضاً .

وقال الضحاك : جعل المسلمون كلّما هدموا شيئاً من حصونهم جعلوا هم ينقضون بيوتهم بأيديهم ويخربونها ثم يبغون ما خرب المسلمون .

وقال ابن عباس : كلّما ظهر المسلمون على دار من دورهم هدموها ليتّسع لهم المقاتل ، وجعل أعداء الله ينقبون دورهم من أدبارهم فيخرجون إلى التي بعدها يتحصنّون فيها ويكسرون ما يليهم منها ، ويرمون بالتي خرجوا منها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال قتادة : كان المسلمون يخربون ما يليهم من ظاهرها ، ويخربها اليهود من داخلها فذلك قوله سبحانه ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المؤمنين ﴾ .

﴿ فاعتبروا ﴾ : فاتّعظوا ﴿ ياأولي الأبصار ﴾ يا ذوي العقول .

﴿ وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ الله عَلَيْهِمُ الجلاء ﴾ : الخروج عن الوطن ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدنيا ﴾ بالقتل

والسبي كما فعل ببني قريظة ﴿ وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابُ النار * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ الله وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَآقِّ الله ﴾ وقرأ طلحة بن مصرف : (ومن يشاقق الله) (كالتي في الأنفال) ﴿ فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ .

(96/757)

﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ ﴾ الآية ، وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل ببني النضير وتحصّنوا في حصونهم أمر بقطع نخيلهم وإحراقها ، فجزع أعداء الله عند ذلك وقالوا : يا محمّد ، زعمت أنّك تريد الصلاح ، أفمن الصلاح عقر الشجر وقطع النخيل ؟ فهل وجدت فيما زعمت أنّه أنزل عليك الفساد في الأرض ؟ فشقّ ذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم ووجد المسلمون في أنفسهم من قولهم ، وخشوا أن يكون ذلك فساداً ، واختلف المسلمون في ذلك ، فقال بعضهم : لا تقطعوا ؛ فإنّه ممّا أفاء الله علينا ، وقال بعضهم : بل نغيظهم بقطعها ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الإثم ، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله سبحانه .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن محمّد بن الحسن قال : حدّثنا محمّد بن يحيى وعبد الرحمن بن بشر وأبو الأزهر وحمدان وعلي قالوا : حدّثنا عبد الرزاق قال :

أخبرنا ابن جريج قال : أخبرني موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر أنّ النبي (عليه السلام) قطع نخل بني النضير وحرقه ، ولها يقول حسان :

وهان على سراة بني لؤي . . . حريق بالبويرة مستطير

أخبرنا أبو عبد الله محمّد بن عبد الله وأبو محمّد إسحاق بن إبراهيم وأبو علي الحسن بن محمّد وأبو القاسم الحسن بن محمّد قالوا : حدّثنا أبو العباس الأصمّ قال : أخبرنا الربيع قال : أخبرنا الشافعي ، عن مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر ، أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر بإحراق نخل بني النضير ، فقال فيه حسان بن ثابت :

وهان على سراة بني لؤي . . . حريق بالبويرة مستطير

وفي ذلك نزل قوله سبحانه : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ . اختلفوا فيها فقال قوم : هي ما دون العجوة من النخل ، فالنخل كله لينة ما خلا العجوة ، وهو قول عكرمة ويزيد بن رويان وقتادة .

(97/757)

ورواية باذان عن ابن عباس قال : وكان النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقطع نخلهم إلاّ العجوة ، وأهل المدينة يسمّون ما خلا العجوة من التمر : الألوان ، واحدها لون ولينة ،

وأصلها لونة فقلبت الواو بالكسرة ما قبلها .

وقال الزهري : اللينة ألوان النخل كلّها إلاّ العجوة والبرنيّة ، وقال مجاهد وعطية وابن زيد : هي النخل كلّه من غير استثناء .

العوفي عن ابن عباس : هي لون من النخل .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن عبد الله المزني قال : حدّثنا الحضرمي قال : حدّثنا جعفر بن محمّد قال : حدّثنا عبد الله بن مبارك ، عن عثمان بن عطإ ، عن أبيه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ قال : النخلة والشجرة .

قال سفيان : هي كرام النخل .

وقال مقاتل : هي ضرب من النخل يقال لثمرتها : اللون ، وهو شديد الصفرة ترى نواهُ من خارج يغيب فيه الضرس . وكان من أجود تمرهم وأعجبها إليهم ، وكانت النخلة الواحدة منها ثمن وصيف ، وأحبّ إليهم من وصيف ، فلما رأوا ذلك الضرب يقطع شقّ عليهم مشقّة شديدة ، وقالوا للمؤمنين : تزعمون أنّكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون وتخربون وتقطعون الشجر ، دعوا هذا النخل ، فإنّما هي لمن غلب عليها .

وقيل : هي النخلة القريبة من الأرض .

وأنشد الأخفش :

قد شجاني الحمامُ حين تغنّى . . . بفراق الأحباب من فوق لينهْ

والعرب تسمّي ألوان النخل كلّها لينة ،

قال ذو الرمّة :

كأنّ قتودي فوقها عش طائر . . . على لينة فرواء تهفو جنوبها

وقال أيضاً :

طراق الخوافي واقعاً فوق لينة . . . لدى ليلة في ريشه يترقرق

وجمع اللينة لين ، وقيل : ليان ،

قال امرؤ القيس يصف عنق فرس .

وسالفة كسحوق الليا . . . ن أضرم فيها الغوي السعر

(98/757)

﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً على أُصُولِهَا ﴾ : سوقها فلم تقطعوها ولم تحرقوها ، وقرأ عبد الله : (ما قطعتم من لينة ولا تركتم قوماً على أُصولها إلاّ بإذن الله) . وقرأ الأعمش : (ما قطعتم من لينة أو تركتم قوّما على أصولها) .

﴿ فَبِإِذْنِ الله وَلِيُخْزِيَ الفاسقين ﴾ أي وليذلّ اليهود ، ويحزنهم ويغيظهم .

﴿ وَمَآ أَفَآءَ الله ﴾ : ردّ الله ﴿ على رَسُولِهِ ﴾ ورجع إليه ، ومنه فيء الظل ﴿ مِنْهُمْ ﴾

من بني النضير من الأموال ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ ﴾ : أوضعتم ﴿ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ وهي الإبل ، يقول : لم يقطعوا إليها شقة ، ولم ينالوا فيها مشقّة ولم يكلّفوا مؤونة ولم يلقوا حرباً وإنّما كانت بالمدينة فمشوا إليها مشياً ، ولم يركبوا خيلا ولا إبلا إلاّ النبي صلى الله عليه وسلم فإنّه ركب جملا فافتتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم صلحاً وأجلاهم عنها وأحرز أموالهم ، فسأل المؤمنون النبيّ صلى الله عليه وسلم القسمة ، فأنزل الله سبحانه ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ .

﴿ ولكن اللهُ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ على مَن يَشَاءُ واللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فجعل أموال بني النضير لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصّة يضعها حيث يشاء ، فقسمها رسول الله (عليه السلام) بين المهاجرين ولم يعطِ الأنصار منها شيئاً إلاّ ثلاثة نفر كانت بهم حاجة وهم أبو دجانة سماك بن خرشة ، وسهل بن حنيف ، والحرث بن الصمة ، ولم يسلم من بني النضير إلاّ رجلان : أحدهما سفيان بن عمير بن وهب ، والثاني سعيد بن وهب وسلما على أموالهما فأحرزاها .

(99/757)

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا حامد بن محمّد قال : أخبرنا بشر بن موسى قال : حدّثنا الحميد قال : حدّثنا سفيان قال : حدّثنا عمرو بن دينار ومعمر بن راشد ، عن ابن شهاب الزهري أنّه سمع مالك بن أوس بن الحدثان البصري يقول : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : إنّ أموال بني النضير كانت مما أفاء الله على رسوله ممّا لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصاً ، فكان رسول الله (عليه السلام) ينفق على أهله منه نفقة سنة ، وما بقي جعله في الكراع والسلاح عدّة في سبيل الله .

أخبرنا محمّد بن عبد الله بن حمدون قال : أخبرنا أحمد بن محمّد بن الحسن قال : حدّثنا محمّد ابن يحيى قال : حدّثنا محمّد بن يوسف قال : حدّثنا ابن عيينة ، عن معمر ، عن الزهري قال : وأُخبرت عن محمّد بن جرير قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا عبد الأعلى قال : حدّثنا أبو ثور ، عن معمر ، عن الزهري ، عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : أرسل إليّ عمر بن الخطاب فدخلت عليه ، فقال : إنّه قد حضر أهل ثبات من قومك ، وأنّا قد أمرنا لهم برضخ فاقسمه بينهم . فقلت : يا أمير المؤمنين ، مر بذلك غيري . قال : اقبضه أيّها المرء .

فبينا أنا كذلك إذ جاء مولاه يرفأ فقال : عبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان وسعد يستأذنون . فقال : ايذن لهم .

ثم مكث ساعة ، ثم جاء فقال : هذا علي والعباس يستأذنان .

فقال : ايذن لهما . فلمّا دخل العباس قال : يا أمير المؤمنين ، اقضِ بيني وبين هذا الغادر الفاجر الخائن . وهما حينئذ يختصمان فيما أفاء الله عزّوجل على رسوله من أموال بني النضير . فقال القوم : اقضِ بينهما يا أمير المؤمنين وأرح كلّ واحد منهما من صاحبه ، فقد طالت خصومتهما . فقال : أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماوات والأرض ، أتعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا نورّث ، ما تركناه صدقة " .

(100/757)

قالوا : قد قال ذلك . ثم قال لهما : أتعلمان أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك ؟

قالا : نعم . قال : فسأخبركم بهذا الفيء ، إنّ الله سبحانه خصّ نبيّه (عليه السلام) بشيء لم يعطِ غيره فقال : عزّ من قائل : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ ﴾ فكانت هذه لرسول الله (عليه السلام) خاصّة ، فوالله ما اختارها دونكم ولا استأثرها دونكم ، ولقد قسّمها عليكم حتى بقي منها هذا المال ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق على أهله منها سنتهم ثم يجعل ما بقي في مال الله ، عزّوجل .

﴿ مَّآ أَفَآءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ يعني من أموال الكفار أهل القرى .

قال ابن عباس : هي قريظة والنضير وهما بالمدينة ، وفدك وهي من المدينة على ثلاثة أميال ، وخيبر ، وقرى عرينة ، وينبع جعلها الله تعالى لرسوله يحكم فيها ما أراد فاحتواها كلّها . فقال ناس : هلاّ قسّمها ؟ فأنزل الله سبحانه هذه الآية ﴿ مَّآ أَفَآءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ .

﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القربى ﴾ قرابة النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهم بنو هاشم وبنو المطلب .

واختلف الفقهاء في وجه استحقاقهم سهمهم من مال الفيء والغنيمة .

فقال قوم : إنّهم يستحقّون ذلك بالقرابة ولا تعتبر فيهم الحاجة وعدم الحاجة ، وإليه ذهب الشافعي وأصحابه .

وقال آخرون : إنّهم يستحقون ذلك بالحاجة لا القرابة ، وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه ، فإذا قسم ذلك بينهم فضل الذكور على الإناث كالحكم في الميراث ، فيكون للذكر سهمان ، وللأنثى سهم .

وقال محمّد بن الحسن : سوّي بينهم ، ولا يفضل الذكران على الإناث .

ذكر حكم هاتين الآيتين

اختلف العلماء فيه ، فقال بعضهم : أراد بقوله : ﴿ مَّآ أَفَآءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ : الغنائم التي يأخذها المسلمون من أموال الكافرين عنوة وقهراً ، وكانت الغنائم في بدء الإسلام لهؤلاء الذين سمّاهم الله سبحانه في سورة الحشر ، دون الغانمين والموجفين عليها ، ثم نسخ ذلك بقوله في سورة الأنفال : ﴿ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنفال : 41] الآية .

وهذا قول يزيد بن رويان وقتادة .

وقال بعضهم : الآية الأُولى بيان حكم أموال بني النضير خاصّة لقوله سبحانه : ﴿ مَّآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ ، والآية الثانية بيان حكم سائر الأموال التي أُصيبت بغير قتال ، ولم يوجَف عليها بالخيل والجمال .

وقال الآخرون : هما واحد ، والآية الثانية بيان قسمة المال الذي ذكر الله سبحانه في الآية الأُولى .

واعلم أنّ جملة الأموال التي للأئمّة والولاة فيها مدخل على ثلاثة أوجه :

أحدها : ما أخذ من المسلمين على طريق التطهير لهم كالصدقات .

والثاني : الغنائم وهي ما يحصل في أيدي المسلمين من أموال الكافرين بالحرب والعهد .

والثالث : الفيء وهو ما رجع الى النبيّ صلى الله عليه وسلم من أموال الكافرين عفواً صفواً

من غير قتال ولا إيجاف خيل وركاب مثل مال الصلح والجزية والخراج والعشور التي تؤخذ من تجّار الكفّار إذا دخلوا دار الإسلام، ومثل أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم أو يموت منهم في دار الإسلام أحد، ولا يكون له وارث.

وأمّا الصدقات، فمصرفها ما ذكر الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الصدقاتِ لِلْفُقَرَآءِ . . . ﴾ [التوبة: 60] الآية وقد مضى البيان عن أهل السهمين.

(102/757)

وأمّا الغنائم فإنّها كانت في بدء الإسلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع بها ما يشاء، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ قُلِ الأنفال لِلَّهِ والرسول ﴾ [الأنفال: 1] ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنفال: 41] الآية: فجعل أربعة أخماسها للغانمين تقسّم بينهم.

فأما ما كان من النقود والعروض والأمتعة والثياب والدواب والكراع فإنّه يقسّم بينهم، ولا يحبس منهم.

وأمّا العقار، فاختلف الفقهاء فيه، فقال مالك (رحمه الله): للإمام أن يحبس الأراضي عنهم ويجعلها وقفاً على مصالح المسلمين.

وقال أبو حنيفة : الإمام مخيّر بين أن يقسّمها بينهم وبين أن يحبسها عنهم ويجعلها وقفاً على مصالح المسلمين .

وقال الشافعي رضي الله عنه : ليس للإمام حبسها عنهم بغير رضاهم ، وحكمها حكم سائر الأموال . وهو الاختيار ؛ لأنّ الله سبحانه أخرج الخمس منها بعد ما أضاف الجميع إليهم بقوله : ﴿ غَنِمْتُمْ ﴾ [الأنفال : 41] فدلّ أنّ الباقي لهم وحقّهم . وأما الخمس الباقي فيقسّم على خمسة أسهم : سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسهم لذوي القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لأبناء السبيل .

وأمّا الفيء فإنّه كان يقسّم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة وعشرين سهماً : أربعة أخماسها ، وهي عشرون سهماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل بها ما شاء ويحكم فيها ما أراد ، والخمس الباقي يقسّم على ما يقسم عليه خمس الغنيمة .

وأما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اختلف الفقهاء في الأربعة الأخماس التي كانت له صلى الله عليه وسلم من الفيء .

فقال قوم : إنّها تصرف الى المجاهدين المتصدّين للقتال في الثغور ، وهو أحد قولي الشافعي رضي الله عنه .

وقال آخرون : تصرف إلى مصالح المسلمين ؛ من سد الثغور وحفر الآبار وبناء القناطر ونحوها بدءاً بالأهّم فالأهمّ ، وهو القول الآخر للشافعي رضي الله عنه .

وأمّا السهم الذي كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من خمس الفيء وخمس الغنيمة فإنّه يصرف بعده الى مصالح المسلمين بلا خلاف، كما قال صلى الله عليه وسلم "الخمس مردود فيكم".

وهكذا ما خلّفه من مال غير موروث عنه، بل هو صدقة تصرف عنه إلى مصالح المسلمين كما قال صلى الله عليه وسلم "إنّا لا نورّث، ما تركناه صدقة".

فكانت صفايا رسول الله صلى الله عليه وسلم من مال الفيء الذي خصّه الله سبحانه بها له، ينفق منها على أهله نفقة سنة، فما فضل جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله كما ذكر. فلمّا توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وليها أبو بكر رضي الله عنه فجعل يفعل بها ما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وليها عمر رضي الله عنه على ما ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، فلما استخلف عثمان ولّاها عليّ بن أبي طالب على سبيل التولية وجعله القسيم فيها، يليها على ما وليها رسول الله (عليه السلام) وصاحباه، وبالله التوفيق.

أخبرنا عقيل أن أبا الفرج أخبرهم عن أبي جعفر الطبري قال: حدّثنا ابن عبد الأعلى قال

: حدّثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن أيوب ، عن عكرمة بن خالد ، عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : قرأ عمر رضي الله عنه . ﴿ إِنَّمَا الصدقات لِلْفُقَرَآءِ . . . ﴾ [التوبة : 60] حتى بلغ ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : 60] ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ ﴿ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ [الأنفال : 41] الآية ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ ﴿ مَّآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ حتى بلغ ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ . . . والذين تَبَوَّءُوا . . . والذين جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ ، ثم قال : استوعبت هذه المسلمين عامّة ، فليس أحد إلاّ له فيها حقّ . ثم قال : لئن عشت ليأتينّ الراعي وهو يسير حمره نصيبه منها لم يعرق فيها جبينه .

(104/757)

﴿ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً ﴾ قراءة العامة ﴿ يَكُونَ ﴾ بالياء ﴿ دُولَةً ﴾ بالنصب على معنى كي لا يكون الفيء دولة . وقرأ أبو جعفر بالتاء والرفع ، أي كي لا تكون الغنيمة أو الأموال ، ورفع ﴿ دُولَةً ﴾ فاعلال (كان) ، وجعل الكينونة بمعنى الوقوع ، وحينئذ لا خبر له . والقرّاء كلهم على ضمّ الدال من ال ﴿ دُولَةً ﴾ إلاّ أبا عبد الرحمن السلمي فإنّه فتح دالها .

قال عيسى بن عمر : الحالتان بمعنى واحد . وفرّق الآخرون بينهما ، فقالوا : الدولة بالفتح الظفر والغلبة في الحرب وغيرها وهي مصدر ، والدُولة بالضمّ اسم الشيء الذي يتداوله الناس بينهم مثل العارية ، ومعنى الآية : كي لا يكون الفيء دولة بين الرؤساء والأقوياء والأغنياء فيغلبوا عليه الفقراء والضعفاء ؛ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا غنيمة أخذ الرئيس ربعها لنفسه وهو المرباع ، ثم يصطفي منها أيضاً يعني المرباع ما شاء ، وفيه يقول شاعرهم :

لك المرباع منها والصفايا . . . وحكمك والنشيطة والفضول

فجعل الله سبحانه أمر الرسول (عليه السلام) بقسمته في المواضع التي أمر بها ليس فيها خمس ، فإذا خمس رفع عن المسلمين جميعاً .

﴿ وَمَا آتَاكُمُ ﴾ : أعطاكم ﴿ الرسول ﴾ من الفيء والغنيمة ﴿ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ من الغلول وغيره ﴿ فانتهوا ﴾ .

قال الحسن في هذه الآية : يؤتيهم الغنائم ويمنعهم الغلول .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا أبو حذيفة أحمد بن محمّد بن عليّ قال : حدّثنا أبو محمّد عبيد بن أحمد بن عبيد الصفّار الحمصي قال : حدّثنا عطية بن بقيّة بن الوليد قال : حدّثنا عيسى ابن أبي عيسى قال : حدّثنا موسى بن أبي حبيب قال : سمعت الحكم بن عمير الثمالي وكانت له صحبة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنّ هذا القرآن صعب مستصعب عسير على من تركه ، يسير لمن تبعه وطلبه . وحديثي صعب مستصعب وهو الحكم ، فمن استمسك بحديثي وحفظه نجا مع القرآن . ومن تهاون بالقرآن وبحديثي خسر الدنيا والآخرة . وأمرتم أن تأخذوا بقولي وتكتنفوا أمري وتتبعوا سنتي ، فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن ، ومن استهزأ بقولي فقد استهزأ بالقرآن . قال الله سبحانه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ " .

وأخبرنا الحسين قال : حدّثنا ابن شنبة قال : حدّثنا الفريابي وعبيد الله بن أحمد الكناني قالا : حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدّثنا معاوية بن هشام قال : حدّثنا سفيان الثوري ، عن الأشتر ، عن إبراهيم ، عن عبد الرحمن بن يزيد قال : لقي عبد الله بن مسعود رجلاً محرماً وعليه ثيابه ، فقال : انزع عنك . فقال الرجل : اتقرأ عليّ بهذا آية من كتاب الله ؟ قال : نعم ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ .

﴿ واتقوا الله إِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ .

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ يعني كي لا يكون ما أفاء الله على رسوله دولة بين الاغنياء منكم ، ولكن يكون للفقراء ﴿ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أولئك هُمُ الصادقون ﴾ في إيمانهم . قال قتادة : هؤلاء المهاجرون الذي تركوا الديار والأموال والأهلين والعشائر وخرجوا حباً لله ولرسوله ، واختاروا الإسلام على ما كانت فيهم من شديدة ، حتى ذكر لنا أنّ الرجل يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع ، وكان الرجل يتّخذ الحفرة في الشتاء ماله دثار غيرها . وروى جعفر بن المغيرة ، عن سعيد بن جبير وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزي قالا : كان أناس من المهاجرين لأحدهم الدار والزوجة والعبد والناقة يحجّ عليها ويغزو فنسبهم الله أنّهم فقراء ، وجعل لهم سهماً في الزكاة .

﴿ والذين تَبَوَّءُوا ﴾ : توطّنوا ﴿ الدار ﴾ أي اتّخذوا المدينة دار الإيمان والهجرة ، وهم الأنصار أسلموا في ديارهم وبنوا المساجد قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين فأخر الله عليهم البناء . ونظم الآية : ﴿ والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي من قبل قدوم المهاجرين عليهم وقد آمنوا ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ حزازة وغيظاً وحسداً ﴿ مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ أي ممّا أعطوا المهاجرين من الفيء . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ، ولم يعط

الأنصار منها شيئاً إلاّ ثلاثة نفر كما ذكرناهم، فطابت أنفس الأنصار بذلك. ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ إخوانهم من المهاجرين بأموالهم وديارهم ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ : فاقة وحاجة إلى ما هو يزول؛ وذلك أنّهم قاسموهم ديارهم وأموالهم.

(107/757)

وأخبرنا أبو محمّد الحسن بن أحمد بن محمّد السيستاني قال: حدّثنا أبو العبّاس محمّد بن إبراهيم الثقفي قال: أخبرنا محمود بن خداش وسمعته يقول: ما أخذت شيئاً أشتري قط قال: حدّثنا محمّد بن الحسن السيستاني قال: حدّثنا الفضيل بن غزوان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد أصابه الجهد فقال: يا رسول الله، إني جائع فأطعمني. فبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم (عليه السلام) إلى أزواجه: "هل عندكنّ شيء؟". فكلّهنّ قلن: والذي بعثك بالحقّ نبيّاً ما عندنا إلاّ الماء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما عند رسول الله ما يطعمك هذه الليلة". ثم قال: "من يضف هذا هذه الليلة يرحمه الله".

فقام رجل من الأنصار قال: أنا يا رسول الله. فأتى به منزله، فقال لأهله: هذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكرميه ولا تدّخري عنه شيئاً. فقالت: ما عندنا إلاّ

قوت الصبية . قال : قومي فعلّليهم عن قوتهم حتى يناموا ولا يطعموا شيئاً ، ثم أسرجي فأبرزي ، فاذا أخذ الضيف ليأكل قومي كأنّك تصلحين السراج فأطفئيه وتعالي نمضغ ألسنتنا لضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يشبع ضيف رسول الله . قال : فقامت إلى الصبية فعللتهم حتى ناموا عن قوتهم ولم يطعموا شيئاً ، ثم قامت فأبرزت وأسرجت فلمّا أخذ الضيف ليأكل قامت كأنّها تصلح السراج فأطفأته ، وجعلا يمضغان ألسنتهما لضيف رسول الله (عليه السلام) فظنّ الضيف أنّهما يأكلان معه ، حتى شبع ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم وباتا طاويين . فلمّا أصبحا غدوا إلى رسول الله (عليه السلام) ، فلمّا نظر إليهما تبسّم ثم قال : "لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة" فأنزل الله سبحانه : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ الآية .

(108/757)

قال أنس بن مالك : أُهدي لبعض الصحابة رأس شاة مشوي وكان مجهوداً ، فوجّهه إلى جار له فتناوله تسعة أنفس ثم عاد إلى الأوّل ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

ويحكى عن أبي الحسن الأنطاكي أنّه اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلا بقرية بقرب الري

ولهم أرغفة معدودة لم تسع جميعهم ونشروا الرغفان وأطفؤوا السراج وجلسوا للطعام ، فلمّا رفع فإذا الطعام بحاله لم يأكل واحد منهم إيثاراً لصاحبه .

ويحكى عن حذيفة العدوي قال : انطلقت يوم اليرموك لطلب ابن عم لي ومعي شيء من ماء وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته ومسحت وجهه ، فإذا أنا به ، قلت : أسقيك ؟ فأشار أي نعم ، فإذا رجل يقول : آه ، فأشار ابن عمي أن انطلق به إليه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسقيك ؟ فسمع به آخر قال : آه ، فأشار هشام أن انطلق به إليه ، فجئته فإذا هو قد مات ، ثم رجعت الى هشام فإذا هو قد مات ، ثم رجعت الى ابن عمي فإذا قد مات رحمه الله .

سمعت أبا القاسم الحسن بن محمّد النيسابوري قول : سمعت أبا عبد الله محمّد بن عبيد الله الجرجاني يقول : سمعت الحسن بن علوية الدامغاني يحكي عن أبي يزيد البسطامي قال : ما غلبني أحد مثل ما غلبني شاب من أهل بلخ قدم علينا حاجّاً ، فقال لي : يا أبا يزيد ، ما حدّ الزهد عندكم ؟ قلت : إذا وجدنا أكلنا وإذا فقدنا صبرنا . فقال هكذا عندنا كلاب بلخ . فقلت : ماحدّ الزهد عندكم ؟ فقال : إذا فقدنا صبرنا ، وإذا وجدنا آثرنا .

وسمعت أبا القاسم الحبيبي يقول : سمعت أبا محمّد أحمد بن محمّد بن إبراهيم البلاذري يقول : سمعت بكر بن عبد الرحمن يقول : سئل ذو النون المصري عن علامة الزاهد المشروح صدره فقال : ثلاث : تفريق المجموع ، وترك طلب المفقود ، والإيثار عند القوت .

قال ابن عباس : " قال رسول الله (صلى الله عليه سلم) يوم النضير للأنصار : " إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة " .

فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالقسمة ولا نشاركهم فيها " فأنزل الله سبحانه : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هُمُ المفلحون ﴾ والشح في كلام العرب : البخل ومنع الفضل ، يقال : فلان شحيح من الشُّح والشِّحّ والشحّة والشحاحة ، قال عمرو بن كلثوم :

ترى اللحز الشحيح إذا أمرّت . . . عليه لماله فيها مهينا

وفرّق العلماء من السلف بينهما .

فأخبرني الحسن بن محمّد قال : حدّثنا موسى بن محمّد بن علي قال : حدّثنا إدريس بن عبد الكريم الحدّاد قال : حدّثنا عاصم بن علي بن عاصم ، وأخبرنا عبد الخالق قال : حدّثنا ابن حبيب قال : حدّثنا ابن شاكر قال : حدّثنا عاصم بن علي قال : حدّثنا المعادي ، عن جامع بن شداد ، عن أبي الشعثاء قال :

قال رجل لعبد الله بن مسعود : يا أبا عبد الرحمن ، إني أخاف أن أكون قد هلكت . قال : وما ذاك ؟ قال : سمعت الله سبحانه يقول : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يديّ شيء . فقال : ليس ذاك الشحّ الذي ذكر الله سبحانه في القرآن ، ولكن الشحّ أن تأكل مال أخيك ظلماً ، ولكن ذلك البخل ، وبئس الشيء البخل .

الوالبي علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ قال : يقول : هوى نفسه يتبع هواه فلم يقبل الإيمان .

وقال ابن زيد : من لم يأخذ شيئاً لشيء نهاه الله سبحانه ولم يدعه الشحّ الى أن يمنع شيئاً من شيء أمره الله تعالى به فقد وقاه شحّ نفسه .

وقال طاووس : البخل أن يبخل الإنسان بما في يديه ، والشحّ أن يبخل بما في أيدي الناس .

(110/757)

وأخبرني أبي قال : أخبرنا محمّد بن أحمد بن عبد الله النحوي قال : أخبرنا محمّد بن حمدون ابن خالد قال : حدّثنا محمّد بن عبد الوهاب بن أبي تمام العسقلاني قال : حدّثنا سليمان ابن بنت شراحيل قال : حدّثنا إسماعيل بن عبّاس قال : حدّثنا عمارة بن عديّة الأنصاري ، عن عمّه عمر بن جارية ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم " برئ من الشحّ من أدّى الزكاة، وقرى الضيف وأعطى في النائبة " .

أخبرني أبو عبد الله الحافظ قال : أخبرنا أبو حذيفة أحمد بن محمّد بن عليّ بن عبد الله ابن محمّد الطائي قال : حدّثنا عبد الله بن زيد قال : حدّثنا إبراهيم بن العلاء قال : حدّثنا إسماعيل بن عباس عن هشام بن الغاد عن أبان عن أنس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو : " اللهم إنيّ أعوذ بك من شحّ نفسي وإسرافها ووسواسها " .

وأخبرنا أبو عبد الله قال : حدّثنا هارون بن محمّد بن هارون قال : أخبرنا عبد الله بن محمّد بن سنان قال : حدّثنا عبد الله بن مسلمة القعنبي قال : حدّثنا داود بن قيس الفرّاء ، عن عبد الله بن مقسم ، عن جابر بن عبد الله ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اتقوا الشحّ ؛ فانّ الشحّ أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم " .

وروى سعيد بن جبير ، عن أبي الهياج الأسدي قال : كنت أطوف بالبيت ، فرأيت رجلا يقول : اللهم قني شحّ نفسي . لا يزيد على ذلك . فقلت له فيه ، فقال : إنّي اذا وقيت شحّ نفسي لم أسرق ، ولم أزن ، ولم أفعل . وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف .

ويحكى أنّ كسرى قال لاصحابه : أي شيء أضرّ با بن آدم ؟ قالوا : الفقر . فقال كسرى : الشحّ أضرّ من الفقر ؛ لأنّ الفقير اذا وجد اتّسع ، والشحيح لا يتسع أبداً .

﴿ والذين جاءُوا من بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفر لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الذين سَبَقُونَا بالإيمان وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قال ابن أبي ليلى : الناس على ثلاثة منازل : الفقراء المهاجرون ، والذين تبوّأوا الدار والإيمان ، والذين جاءوا من بعدهم ، فاجهد ألاّ تكون خارجاً من هذه المنازل .

أخبرني الحسن قال : حدّثنا علي بن إبراهيم الموصلي قال : حدّثنا محمّد بن مخلد الدوري قال : حدّثنا محمّد بن إسماعيل الحساني قال : حدّثني أبو يحيى الحماني ، عن الحسن بن عمارة ، عن الحكم بن عيينة ، عن مقسم ، عن ابن عباس قال : أمر الله سبحانه بالاستغفار لأصحاب محمّد صلى الله عليه وسلم وهو يعلم أنهم سيفتنون .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : حدّثنا أحمد بن عبد الله قال : حدّثنا محمّد بن عبد الله ابن سليمان قال : حدّثنا ابن نمير قال : حدّثنا أبي ، عن إسماعيل بن إبراهيم ، عن عبد الملك بن عمير ، عن مسروق ، عن عائشة رضي الله عنه قالت : أُمرتم بالاستغفار لأصحاب محمّد صلى الله عليه وسلم فسببتموهم ، سمعت نبيّكم صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تذهب هذه الأُمّة حتى يلعن آخرها أوّلها " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عبد الله بن يوسف قال : حدّثنا الحسن بن علي الطوسي قال : حدّثنا محمّد بن المؤمّل بن الصباح البصري قال : حدّثنا النصر بن حماد

العتكي قال : حدّثنا سيف ابن عمر الأسدي قال : حدّثنا عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا رأيتم الذين يسبّون أصحابي فقولوا : لعن الله شركم " .

(112/757)

وأخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا الفضل بن الفضل الكندي قال : حدّثنا ابن النعمان قال : حدّثنا هارون بن سليمان قال : حدّثنا عبد الله يعني ابن داود قال : حدّثنا كثير بن مروان الشامي ، عن عبد الله بن يزيد الدمشقي قال : أتيت الحسن فذكر كلاماً إلاّ أنّه قال : أدركت ثلاثمائة من أصحاب محمّد صلى الله عليه وسلم منهم سبعون بدرياً كلّهم يحدّثونني أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه " .

فالجماعة ألاّ تسبّوا الصحابة ، ولا تماروا في دين الله ، ولا تكفّروا أحداً من أهل التوحيد بذنب قال عبد الله بن زيد : فلقيت أبا أمامة وأبا الدرداء وواثلة وأنس بن مالك ، وكلّهم يحدّثونني بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل حديث الجماعة .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حبيش قال : حدّثنا أبو الفضل صالح بن الأصبغ

التنوخي قال: حدّثنا أبو الفضل الربيع بن محمّد بن عيسى الكندي قال: حدّثنا سعيد بن منصور قال: حدّثنا شهاب بن حراش، عن عمّه العوّام بن حوشب، قال: أدركت من أدركت من صدر هذه الأمّة وهم يقولون: اذكروا محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تأتلف عليهم القلوب ولا تذكروا ما شجر بينهم فتحرشوا الناس عليهم.

(113/757)

وسمعت عبد الله بن حامد يقول: سمعت محمّد بن محمّد بن الحسن قال: سمعت أبا عبد الله محمّد بن القاسم الجمحي المكّي قال: سمعت محمّد بن سعدان المروزي قال: سمعت أحمد بن إسماعيل المروزي، عن عبد الرحمن بن مالك بن مغول، عن أبيه قال: قال عامر بن شراحيل الشعبي: يا مالك، تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: من خير أهل ملّتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى. وسئلت النصارى من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: حواريّو عيسى. وسئلت الرافضة: من شرّ أهل ملّتكم فقالوا: أصحاب محمّد، أُمروا بالاستغفار إليهم فسبوّهم؛ فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة، لا تقوم لهم راية ولا تثبت لهم قدم، ولا تجمع لهم كلمة، كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم وتفريق شملهم، وإدحَاض حجّتهم، أعاذنا الله وإياكم من الأهواء

المضلّة .

وأخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمّد المعدل قال : حدّثنا أبو عبد الله محمد بن يونس المقري قال : حدّثنا أحمد بن محمّد بن سالم قال : حدّثنا سوار بن عبد الله القاضي قال : حدّثنا أبي قال : قال مالك بن أنس : من ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان في قلبه عليهم غلّ ، فليس له حق في فيء المسلمين ، ثم تلا ﴿ مَّآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ حتى أتى على هذه الآية ، ثم قرأ ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ حتى أتى على هذه الآية ، ثم قال : ﴿ والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان ﴾ حتى أتى على هذه الآية ثم قال : ﴿ والذين جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فمن ينتقصهم أو كان في قلبه عليهم غلّ فليس له من الفيء حقّ .

(114/757)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نَافَقُواْ ﴾ ، أي أظهروا خلاف ما أضمروا ، وهو مأخوذ من (نافقاء اليربوع) وهي أخذ جحرته ، إذا أُخذ عليه جحر أخذ من جحر آخر ، فيقال عند ذلك : نفق ونافق ، فشبه فعل المنافق بفعل اليربوع ؛ لأنه يدخل من باب ويخرج من باب ، فكذلك المنافق يدخل في الإسلام باللفظ ويخرج منه بالعقد . والنفاق لفظ إسلامي لم يكن يعرفه

العرب قبل الإسلام .

﴿ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾ وهم بنو قريظة والنضير ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ من دياركم ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فيكُمْ أَحَداً ﴾ سألنا خذلانكم وخلافكم ﴿ أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُواْ لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأدبار ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ * لأَنتُمْ ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ الله ﴾ يقول : يرهبونكم أشدّ من رهبتهم من الله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ * لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ يعني اليهود ﴿ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ ، ولا يبرزون لكم بالقتال ﴿ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾ .

قرأ ابن عباس ومجاهد وابن كثير وابو عمرو : (جدار) بالألف على الواحد .

وروي عن بعض أهل مكّة : (جَدْر) بفتح الجيم وجزم الدال وهي لغة في الجدار .

وقرأ يحيى بن وثاب (جُدْر) ، بضم الجيم وسكون الدال .

وقرأ الباقون بضمّهما .

﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ يعني : بعضهم فظّ على بعض وبعضهم عدوّ لبعض ، وعداوتهم بعضهم بعضاً شديدة .

وقيل : بأسهم فيما بينهم من وراء الحيطان والحصون شديدة ، فإذا خرجوا لكم فهم أجبن خلق الله سبحانه .

﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شتى ﴾ متفرقة مختلفة . قال قتادة : أهل الباطل مختلفة أهواؤهم ، مختلفة شهاداتهم مختلفة أعمالهم وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق ، وقال مجاهد : أراد أن دين المنافقين يخالف دين اليهود ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني مثل هؤلاء كمثل الذين من قبلهم وهم مشركو مكة . ﴿ قَرِيباً ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ يوم بدر قاله مجاهد ، وقال ابن عباس : كمثل الذين من قبلهم يعني بني قينقاع . وقيل : مثل قريظة كمثل بني النضير وكان بينهما سَنتان ، فربما ذاقوا وبال أمرهم الجلاء والنفي . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ثم ضرب مثلا للمنافقين واليهود في تخاذلهم فقال عزّ من قائل : ﴿ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكفر ﴾ الآية .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا الباقرحي قال : حدّثنا الحسن بن علوُية قال : حدّثنا إسماعيل بن عيسى قال : حدّثنا إسحاق بن بشر قال : حدّثنا مقاتل عن عطاء عن ابن عباس وعبد الرحمن بن يزيد عن أبيه عن ابن عباس في قوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بريء مِّنكَ ﴾ الآية قال : كان راهب في الفترة يُقال له بَرصيصَا وكان قد تعبّد في صومعة لهُ

سبعين سنة لم يعص الله فيها طرفة عين وأن إبليس أعياه في أمره الحيل ، فلم يستطيع له شيء فجمع ذات يوم مردة الشياطين فقال : ألا أحدٌ منكم يكفيني أمر بَرصيصا ، فقال له الأبيض ، وهو صاحب الأنبياء وهو الذي يتصدى للنبي صلى الله عليه وسلم وجاءه في صورة جبرائيل ليوسوسُ إليه على وجهِ الوحي فجاءه جبرائيل حتى دخل بينهما فدفعه بيده دفعة هينةً فوقع من دفعة جبرائيل إلى أقصى أرض الهند ، فذلك قوله سبحانه : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : 20] .

(116/757)

فقال الأبيض لإبليس : أنا أكفيك فانطلق فتزّين بزينة الرهبان وحلق وسط رأسِهِ ثم مضى حتى أتى صومعة بَرصيصا فناداه فلم يجبه برصيصا وكان لا ينفتل عن صلاته إلاّ في كل عشرة أيام ولا يفطر إلاّ في عشرة أيام مرّة ، فكان يواصل الأيام العشرة والعشرين والأكثر ، فلما رأى الأبيض أنّه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صومعتِهِ فلما أنفتر برصيصا اطّلع من صومعته ورأى الأبيض قائماً مُنتصباً يُصلّي في هيئة حسنة من هيئة الرهبان فلما رأى ذلك من حاله ندم في نفسه حين لها عنه فلم يجبه ، فقال له : إنّك ناديتني وكنت مُشتغلا عنك فحاجتك ؟ قال : حاجتي أني أحببت أن أكون معك فأتأدبك وأقتبس من علمك

ونجتمع على العبادة فتدعو لي وأدعو لك قال : برصيصا : إني لفي شغل عنك فإن كنت مؤمناً فإن الله سبحانه سيجعل لك فيما أدعو للمؤمنين والمؤمنات نصيباً إن استجاب لي ، ثم أقبل على صلاته وترك الأبيض ، وأقبل الأبيض يُصلي فلم يلتفت إليه برصيصا أربعين يوماً بعدها ، فلمّا انفتل رآه قائماً يصلي ، فلمّا رآى برصيصا شدّة اجتهاده وكثرة تضرّعه وابتهاله الى الله سبحانه كلّمه وقال له : حاجتك ؟

(117/757)

قال : حاجتي أن تأذن لي فارتفع إليك ، فأذن له فارتفع إليه في صومعته فأقام الأبيض معه حولا يتعبد لا يفطر إلاّ في كل أربعين يوماً ولا ينفتل عن صلاته إلاّ في كل أربعين يوماً مرّة وربّما مدَّ الى الثمانين ، فلما رأى برصيصا أجتهاده تقاطرت إليه نفسه فأعجبه شأن الأبيض ، فلما حال الحول قال الأبيض لبرصيصا : إني منطلق فأنّ لي صاحباً غيرك ظننت أنك أشدّ اجتهاداً ممّا أرى ، وكان يبلغنا عنك غير الذي رأيت ، قال : فدخل على برصيصا من ذلك أمر شديد وكره مفارقته للّذي رأى من شدّة اجتهاده ، فلما ودّعه قال له الأبيض : إنّ عندي دعوات أعلّمكها أياك تدعو بهن فهي خير مما أنت فيه ، يشفي الله بها السقيم ، ويعافي بها المبتلى والمجنون ، قال برصيصا : إني أكره هذه المنزلة ، لأن لي في نفسي شغلا

وإني أخاف إنْ علم بهذا الناس شغلوني عن العبادة ، فلم يزل به الأبيض حتى علّمه ، ثم انطلق حتى أتى أبليس فقال له : قد والله أهلكتُ الرجل ، قال : فانطلق الأبيض فتعرّض لرجل فخنقه ثم جاءه في صورة رجل متطبّب فقال لأهله : إنَّ بصاحبكم جنوناً فأعالجه ؟ قالوا : نعم ، فقال لهم : إني لا أقوى على جنّيَته ولكن سأرشدكم الى من يدعو الله عزّ وجلّ فيعافى ، فقالوا له : دلّنا ، فانطلقوا الى برصيصا فإنَّ عنده أسم الله الذي إذا دعى به أجاب ، قال : فانطلقوا إليه فسألوه ذلك فدعا بتلك الكلمات فذهب عنهُ الشيطان ، وكان يفعل الأبيض بالناس مثل ، من مكانك قال : وما هي ؟ قال : تسجد لي ، قال : أفعل ، فسجد له ، فقال : يا برصيصا هذا الذي أردت منك صارت عاقبة أمرك الى أن كفرت بربّك فلما كفر قال : ﴿ إني أَخَافُ اللهَ رَبَّ العالمين ﴾ يقول الله سبحانه : ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ ﴾ يعني الشيطان وذلك الإنسان ﴿ أَنَّهُمَا فِي النار خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَآءُ الظالمين ﴾ .

(118/757)

قال ابن عباس : فضرب الله هذا المثل ليهود بني النضير والمنافقين من أهل المدينة ، وذلك أن الله سبحانه أمر نبيّه (عليه السلام) أن يخلي بني النضير عن المدينة ، فدسّ المنافقون

إليهم ، فقالوا : لا تجيبوا محمداً الى ما دعاكم ولا تخرجوا من دياركم فإن قاتلكم كنا معكم وإن أخرجكم خرجنا معكم . قال : فأطاعوهم فدربوا على حصونهم وتحصّنوا في ديارهم رجاء نصر المنافقين حتى جاءهم النبي صلى الله عليه وسلم فناصبوه الحرب يرجون نصر المنافقين فخذلوهم وتبرّؤوا منهم كما تبرّأ الشيطان من برصيصا وخذله.

قال ابن عباس : فكانت الرهبان بعد ذلك في بني إسرائيل لا يمشون إلاّ بالتقية والكتمان وطمع اهل الفجور والفسق في الاحبار فرموهم بالبهتان والقبيح ، حتى كان أمر جريج الراهب ، فلمّا برّأ الله جريجاً الراهب مما رموه به فانبسطت بعدها الرهبان وظهروا للناس .

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله ﴾ باداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ واتقوا الله إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كالذين نَسُواْ الله ﴾ أي نسوا حق الله وتركوا أمره ﴿ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ يعني حظ أنفسهم أن يقدّموا لها خيراً ﴿ أولئك هُمُ الفاسقون * لاَ يستوي أَصْحَابُ النار وَأَصْحَابُ الجنة أَصْحَابُ الجنة هُمُ الفآئزون * لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرآن على جَبَلٍ ﴾ وركّبنا فيه العقل ﴿ لَّرَأَيْتَهُ ﴾ في صلابته ورزانته ﴿ خَاشِعاً ﴾ ذليلا خاضعاً ﴿ مُّتَصَدِّعاً ﴾ يعني متشققاً ﴿ مِّنْ خَشْيَةِ الله وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * هُوَ الله الذي لاَ إله إِلاَّ هُوَ

﴿ عَالِمُ الغيب ﴾ وهو ما غاب عن العباد مما لم يعاينوه ولم يعلموه ﴿ والشهادة ﴾ وهي ما علموه وشاهدوه ، وقال الحسن : يعني السرّ والعلانية .

﴿ هُوَ الرحمن الرحيم * هُوَ الله الذي لاَ إله إِلاَّ هُوَ الملك ﴾ وهو ذو الملك وقيل : القادر على اختراع الأعيان ﴿ القدوس ﴾ الظاهر من كل عيب المنزه عما لا يليق به .

قال قتادة : المبارك ، وقال ابن كيسان : الممجّد وهو بالسريانية قديشا .

﴿ السلام المؤمن ﴾ قال بعضهم : المصدّق لرسله باظهار معجزاته عليهم ، ومصدّق للمؤمنين ما وعدهم من الثواب وقابل إيمانهم ، ومصدق للكافرين ما أوعدهم من العقاب .

قال ابن عباس ومقاتل : هو الذي آمن الناس من ظلمه وآمن من آمن به من عذابه من الإيمان الذي هو هذا التخويف كما قال : ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 4] .

وقال النابغة :

والمؤمن العائذات الطير يمسحها . . . ركبان مكة بين الغيل والسند

وقال ابن زيد : هو الذي يصدّق المؤمنين إذا وحّدُوه ، وقال الحسين بن الفضل : هو الداعي الى الإيمان والآمر به والموجب لأهله اسمه . القرظي : هو المجير كما قال : ﴿ وَهُوَ يُجْيرُ

وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون : 88] . ﴿ المهيمن ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : الشهيد . ضحاك : الأمين . ابن زيد : المصدّق . ابن كيسان : هو اسم من أسماء الله في الكتب ، الله أعلم بتأويله . عطا : المأمون على خلقه . الخليل : هو الرقيب . يمان : هو المطّلع . سعيد بن المسيب : القاضي . المبرد : [المهيمن في معنى مؤيمن إلاّ أن الهاء بدل من الهمزة] .

قال أبو عبيدة : هي خمسة أحرف في كلام العرب على هذا الوزن : المهيمن والمسيطر والمبيطر والمنيقر وهو الذاهب في الأرض ، والمخيمر اسم جبل .

﴿ العزيز الجبار ﴾ قال ابن عباس : هو العظيم ، وجبروت الله عظمته ، وهو على هذا القول صفة ذات ، وقيل : هو من الجبر وهو الإصلاح ، يقال : جبرت العظم إذا أصلحته بعد كسر ، وجبرت الأمر ، والجبر وجبرته فجبر تكون لازماً ومتعدياً قال العجاج :

قد جبر الدين الإله فجبر . . . ونظيره في كلام العرب : دلع لسانه فدلع ، وفغر فاه ففغر ، وعمّر الدار فعمرت ، وقال السدي : هو الذي يقهر الناس ويجبرهم على ما اراد .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عبد الله بن يوسف ، قال : حدّثنا عبد الله بن محمد بن

عبد العزيز البغوي ، قال : حدّثنا محمد بن بكار بن الريان . قال حدّثنا أبو معشر عن محمد بن كعب قال : إنما يسمّى الجبار ، لأنَّه جبر الخلق على ما أراد والخلق أرق شأناً من أن يعصوا (له أمراً) بل طرفة عين إلاّ بما أراد ، وسُئل بعض الحكماء عن معنى الجبّار فقال : هو القهّار الذي إذا أراد أمراً فعله وحكم فيه بما يريد لا يحجزه عنه حاجز ولا يفكّر فيمن دُونه . إن آدم أجتبي من غير طاعة وإن أبليس لعن على كثرة الطاعة ، وقيل : هو الذي لا تناله الأيدي ، من قول العرب : نخلة جبّارة ، إذا طالت وفاتت الأيدي قال الشاعر :

سوامق جبار أثيث فروعه . . . وعالين قنواناً من البسر أحمرا

﴿ المتكبر ﴾ عن كل سوء ، المتعظّم عمّا لا يليق به ، وأصل الكبر والكبرياء : الأمتناع وقلة الإنقياد ، قال حميد بن ثور : عفت مثل ما يعفو الفصيل فأصبحت بها كبرياء الصعب وهي ذلول ﴿ الخالق ﴾ المقدّر المقلّب للشي بالتدبير الى غيره كما قال :

﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ [الزمر : 6] وقال : ﴿ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ [نوح : 14] المنشيء للأعيان من العدم الى الوجود ﴿ المصور ﴾ الممثل للمخلوقات والعلامات المميّزة والهيئات المتفرّقة حتى يتميّز بها بعضها من بعض يقال : هذه صورة الأمر أي مثاله ، فأولا يكون خلقاً ثم (نطفة ثمّ علقة) ثم تصويراً إذا انتهى وكمل ، والله أعلم .

﴿ لَهُ الأسمآء الحسنى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السماوات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ .

أخبرنا أحمد بن محمد بن يعقوب الفقيه بالقصر قال : أخبرنا إسماعيل بن محمد بن إسماعيل ببغداد قال : حدّثنا الحسن بن عرفة قال : حدّثنا محمد بن صالح الواسطي عن سليمان ابن محمد عن عمر بن نافع عن أبيه قال : قال عبد الله بن عمر : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً على هذا المنبر يعني منبر رسول صلى الله عليه وسلم وهو يحكي عن ربّه سبحانه فقال : " إنَّ الله تعالى إذا كان يوم القيامة جمع السموات والأرضين السبع في قبضته تبارك وتعالى ثم قال هكذا وشدّ قبضته ثم بسطها ثم يقولُ : أنا الله أنا الرحمن أنا الرحيم أنا الملك أنا القدّوس أنا السلام أنا المؤمن أنا المهيمن أنا العزيز أنا الجبّار أنا المتكبّر أنا الذي بدأت الدنيا ولم تك شيئاً ، أنا الذي أعدتها أين الملوك أين الجبابرة " .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن وهب قال : حدّثنا محمد بن يونس الكريمي قال : حدّثنا عمرو بن عاصم قال حدثنا أبو الأشهب عن يزيد بن آبان عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قرأ آخر سورة الحشر غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبة قال : حدّثنا ابن وهب قال : حدثنا أحمد بن

أبي سريج وأحمد بن منصور الرمادي قالا : حدّثنا أبو أحمد الزبيدي قال : حدّثنا خالد بن سليمان قال : حدّثني نافع عن أبي نافع عن معقل بن يسار أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وكّل الله به سبعين ألف ملك يُصلّون عليه حتى يمسي ، فأن مات في ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قال حين يمسي كان بتلك المنزلة " .

(122/757)

وأخبرني محمد بن القاسم قال : حدّثنا عبد الله بن محمد قال : حدّثنا السماح قال : حدّثنا أحمد بن الفرح قال : حدّثنا أبو عثمان يعني المؤذن قال : حدّثنا محمد بن زياد قال : سمعت أبا أمامة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قرأ خواتيم الحشر من ليل أو نهار فقبض في ذلك اليوم أو الليلة فقد أوجب الجنة " .

وأخبرني ابن القاسم قال حدّثنا ابن بختيار قال : حد ثنا مكي بن عيدان قال : حدّثنا إبراهيم ابن عبد الله قال : حدّثنا عمرو بن عاصم قال : حدّثنا أبو الأشهب قال : حدّثنا يزيد الرقاسي عن أنس أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ آخر سورة الحشر : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل الى آخرها فمات من ليلته مات شهيداً " .

وأخبرني أبو عثمان بن أبي بكر الحبري قال : حدثنا أبو الحسين محمد بن محمد الحجاجي قال : أخبرنا عبد الله بن أبان بن شداد أن إسماعيل بن محمد الحبريني حدّثهم قال : حدثنا علي بن زريق قال : حدثنا هشام عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار " عن أبي هريرة قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الأعظم فقال : " عليك بأخر سورة الحشر فأكثر قراءتها ، فاعدت عليه فعاد عليّ ، فأعدت عليه فعاد عليّ " " . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿الكشف والبيان حـ 9 صـ 266 . 289﴾

(123/757)

وقال الزمخشرى :

سورة الحشر

مدنية ، وهي أربع وعشرون آية [نزلت بعد البينة] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحشر (59) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ

حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ (2)

صالح بنو النضير رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه ولا له ، فلما ظهر يوم بدر قالوا : هو النبي الذي نعته في التوراة لا ترد له راية ، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبا إلى مكة فحالفوا عليه قريشا عند الكعبة فأمر عليه السلام محمد بن مسلمة الأنصارى فقتل كعبا غيلة وكان أخاه من الرضاعة ، ثم صبحهم بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف فقال لهم : اخرجوا من المدينة ، فقالوا : الموت أحب إلينا من ذاك ، فتنادوا بالحرب «1» . وقيل : استمهلوا رسول اللّه عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، فدس عبد اللّه بن أبى المنافق وأصحابه إليهم : لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم ، ولئن خرجتم لنخرجنّ معكم ، فدربوا على الأزقة «2» وحصنوها فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة ، فلما قذف اللّه الرعب في قلوبهم وأيسوا من نصر المنافقين : طلبوا الصلح ، فأبى عليهم إلا الجلاء ، على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من متاعهم فجلوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات ، إلا أهل بيتين منهم : آل

---

(1) . لم أجد له إسنادا ، بل ذكره الثعلبي هكذا بغير سند .

(2) . قوله «فدربوا على الأزقة «أى ضيقوا أفواهها بالخشب والحجارة كما يؤخذ مما سيأتى في تخريبهم بيوتهم بأيديهم . وفي الصحاح «الدرب» : المضيق في الجبل . (ع)

(124/757)

أبى الحقيق وآل حيي بن أخطب ، فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة . اللام في لِأَوَّلِ الْحَشْرِ تتعلق بأخرج ، وهي اللام في قوله تعالى يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي «1» وقولك : جئته لوقت كذا . والمعنى : أخرج الذين كفروا عند أوّل الحشر . ومعنى أوّل الحشر : أن هذا أوّل حشرهم إلى الشأم ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط ، وهم أوّل من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام . أو هذا أوّل حشرهم ، وآخر حشرهم : إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام .

وقيل : آخر حشرهم حشر يوم القيامة ، لأنّ المحشر يكون بالشام . وعن عكرمة : من شك أنّ المحشر هاهنا - يعنى الشام - فليقرأ هذه الآية . وقيل : معناه أخرجهم من ديارهم لأوّل ما حشر لقتالهم لأنه أوّل قتال قاتلهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا لشدة بأسهم ومنعتهم ، ووثاقة حصونهم ، وكثرة عددهم وعدتهم ، وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم من بأس اللّه فَأَتاهُمُ أمر اللّه مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا من حيث لم يظنوا ولم

يخطر ببالهم : وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرّة على يد أخيه ، وذلك مما أضعف قوتهم وفل من شوكتهم ، وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة بما قذف فيها من الرعب ، وألهمهم أن يوافقوا المؤمنين في تخريب بيوتهم ويعينوا على أنفسهم ، وثبط المنافقين الذين كانوا يتولونهم عن مظاهرتهم . وهذا كله لم يكن في حسبانهم . ومنه أتاهم الهلاك . فإن قلت : أى فرق بين قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو ما نعتهم ، وبين النظم الذي جاء عليه؟ قلت : في تقديم الخبر على المبتدإ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم ، وفي تصيير ضميرهم اسما لأن وإسناد الجملة إليه :

دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم «2» ، وليس ذلك في قولك : وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم . وقرئ : فما تاهم اللّه ، أى :

فما تاهم الهلاك . والرعب : الخوف الذي يرعب الصدر ، أى يملؤه ، وقذفه : إثباته وركزه .

ومنه قالوا في صفة الأسد : مقذف ، كأنما قذف باللحم قذفا لاكتنازه وتداخل أجزائه .

وقرئ :

يخرّبون ويخربون ، مثقلا ومخففا . والتخريب والإخراب : الإفساد بالنقض والهدم .

والخربة :

الفساد ، كانوا يخربون بواطنها والمسلمون ظواهرها : لما أراد اللّه من استئصال شأفتهم «3» وأن لا يبقى لهم بالمدينة دار ولا منهم ديار ، والذي دعاهم إلى التخريب : حاجتهم إلى الخشب والحجارة

---

(1) . قال محمود : «اللام في قوله لِأَوَّلِ الْحَشْرِ كاللام في قوله قَدَّمْتُ لِحَياتِي قال أحمد : كأنه يريد أنها اللام التي تصحب التاريخ ، كقوله : كتبت لعام كذا ولشهر كذا .

(2) . قوله «أو يطمع في معازتهم» أى مغالبتهم ، كما في الصحاح. (ع)

(3) . قوله «من استئصال شأفتهم» في الصحاح «الشأفة» : قرحة تخرج من أسفل القدم فتكوى فتذهب ، يقال في المثل : استأصل اللّه شأفته ، أى : أذهبه اللّه كما أذهب تلك القرحة بالكي اه. (ع) [. . . . .]

(125/757)

ليسدّوا بها أفواه الأزقة. وأن لا يتحسروا بعد جلائهم على بقائها مساكن للمسلمين ، وأن ينقلوا معهم ما كان في أبنيتهم من جيد الخشب والساج المليح. وأما المؤمنون فداعيهم إزالة متحصنهم ومتمنعهم ، وأن يتسع لهم مجال الحرب. فإن قلت : ما معنى تخريبهم لها بأيدى المؤمنين؟ قلت :

لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوهم إياه فَاعْتَبِرُوا بما دبر اللّه ويسر من أمر إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال. وقيل: وعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المسلمين أن يورثهم اللّه أرضهم وأموالهم بغير قتال، فكان كما قال.

[سورة الحشر (59) : الآيات 3 إلى 4]

وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ (3) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (4)

يعنى: أنّ اللّه قد عزم على تطهير أرض المدينة منهم وإراحة المسلمين من جوارهم وتوريثهم أموالهم، فلولا أنه كتب عليهم الجلاء واقتضته حكمته ودعاه إلى اختياره أنه أشق عليهم من الموت لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا بالقتل كما فعل بإخوانهم بنى قريظة وَلَهُمْ سواء أجلوا أو قتلوا عَذابُ النَّارِ يعنى: إن نجوا من عذاب الدنيا لم ينجوا من عذاب الآخرة.

[سورة الحشر (59) : آية 5]

ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ (5)

مِنْ لِينَةٍ بيان لما قطعتم. ومحل ما نصب بقطعتم، كأنه قال: أى شيء قطعتم، وأنث الضمير الراجع إلى ما في قوله أَوْ تَرَكْتُمُوها لأنه في معنى اللينة. واللينة: النخلة من الألوان، ضروب النخل ما خلا العجوة «1» والبرنية، وهما أجود النخيل، وياؤها عن واو، قلبت لكسرة ما قبلها، كالديمة. وقيل: «اللينة» النخلة الكريمة، كأنهم اشتقوا من اللين.

قال ذو الرمّة :

---

(1) . ذكر الزمخشري فيه تفسيرين أحدهما أنه النخل ما عدا العجوة والبرني وهما خير النخل . . . الخ . قال أحمد :

والظاهر أن الاذن عام في القطع والترك ، لأنه جواب الشرط المضمر لهما جميعا ويكون التعليل باجزاء الفاسقين لهما جيعا ، وأن القطع يحسرهم على ذهابها والترك يحسرهم على بقائها للمسلمين ينتفعون بها ، فهم في حسرتين من الأمرين جميعا .

(126/757)

كأنّ قتودى فوقها عشّ طائر على لينة سوقاء تهفو جنوبها «1»

وجمعها لين . وقرئ : قوّما ، على أصلها . وفيه وجهان : أنه جمع أصل كرهن ورهن . أو اكتفى فيه بالضمة عن الواو . وقرئ : قائما على أصوله ذهابا إلى لفظ ما فَبِإِذْنِ اللَّهِ فقطعها بإذن اللّه وأمره وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ ولبذل اليهود ويغيظهم إذن في قطعها ، وذلك أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين أمر أن تقطع نخلهم وتحرق قالوا : يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض ، فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ فكان في نفس المؤمنين من ذلك شيء «2» . فنزلت ، يعنى : أنّ اللّه أذن لهم في قطعها ليزيد كم غيظا ويضاعف لكم

حسرة إذا رأيتموهم يتحكمون في أموالكم كيف أحبوا ويتصرفون فيها ما شاءوا . واتفق العلماء أنّ حصون الكفرة وديارهم لا بأس بأن تهدم وتحرق وتغرق وترمى بالمجانيق ، وكذلك أشجارهم لا بأس بقلعها مثمرة كانت أو غير مثمرة . وعن ابن مسعود : قطعوا منها ما كان موضعا للقتال . فإن قلت : لم خصت اللينة بالقطع ؟ قلت : إن كانت من الألوان فليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية ، وإن كانت من كرام النخل فليكون غيظ اليهود أشد وأشق .

وروى أن رجلين كانا يقطعان : أحدهما العجوة ، والآخر اللون ، فسألهما رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال هذا : تركتها لرسول اللّه ، وقال هذا : قطعتها غيظا للكفار «3» . وقد استدل به على جواز الاجتهاد ، وعلى جوازه بحضرة الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، لأنهما بالاجتهاد فعلا ذلك ،

---

(1) . لذي الرمة يصف ناقته : والقتود عبدان الرحل بلا أذاته . تتخذ من القتاد وهو شجر صلب ذو شوك .

واللينة : النخلة . والسوقاء : طويلة الساق . وهفا الريح والبصير يهفو : عدا بسرعة والجنوب : نوع من الريح ، والضمير للينة : شبه عيدان الرجل فوق الناقة بعش الطائر فوق النخلة ، ويلزم من ذلك تشبيه الناقة بالنخلة في الطول والنجابة . وهو المقصود ، فلو قيل : إن استعمال التشبيه الأول في الثاني من باب المجاز ، أو إرادة الثاني من الأول من باب

الكناية لم يكن بعيدا . وفي ذلك إشارة لتشبيه بالطائر في الحذر والتيقظ . وفي قوله «تهفو جنوبها» دلالة على سرعة سير الناقة ، واختراقها للرياح كسرعة سير الريح على النخلة ، فهي مخترقة له ، كأنها سائرة فيه بسرعة .

(2) . أخرجه ابن إسحاق في المغازي والطبري من طريقه : حدثنا يزيد بن رومان فذكره . وذكره ابن هشام عن ابن إسحاق من غير ذكر شيخه : ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس .

وذكر الواقدي في المغازي «أن الذي أرسل إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم هو حيي بن أخطب» وروى أبو داود في المراسيل من طريق عبد اللّه بن أبى بكر بن عمرو بن حزم نحوه مختصرا .

(3) . لم أجده بهذا السياق لكن للبخاري في الواقدي ، واستعمل على قطع النخل وحرقها رجلين من أصحابه :

أبا ليلى المازني وعبد اللّه بن سلام فكان أبو ليلى يقطع العجوة وكان الآخر يقطع اللون . فقيل لهما في ذلك . فقال أبو ليلى : كانت العجوة أحرق لهم وقال ابن سلام : قد عرف أن اللّه سيغنمهم أموالهم ، وكانت العجوة خير أموالهم فأنزل اللّه الآية . وروى البيهقي في الدلائل من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد قال «نهى بعض المهاجرين بعضا عن قطع النخل وقالوا : إنما هو من مغانم المسلمين . وقال الذين قطعوا : بل هو غيظ للعدو . فنزل القرآن .

واحتج به من يقول : كل مجتهد مصيب .

[سورة الحشر (59) : الآيات 6 إلى 7]

وَما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ وَلكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (7)

أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ جعله له فيئا خاصة . والإيجاف من الوجيف . وهو السير السريع . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في الإفاضة من عرفات «ليس البرّ بإيجاف الخيل ولا إيضاع الإبل «1» على هينتكم» «2» ومعنى فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ فما أوجفتم على تحصيله وتغنمه خيلا ولا ركابا ، ولا تعبتم في القتال عليه ، وإنما مشيتم إليه على أرجلكم . والمعنى : أنّ ما خوّل اللّه رسوله من أموال بنى النضير شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة ، ولكن سلطه اللّه عليهم وعلى ما في أيديهم كما كان يسلط رسله على أعدائهم ، فالأمر فيه مفوّض إليه يضعه حيث يشاء ، يعنى :

أنه لا يقسم قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوة وقهرا ، وذلك أنهم طلبوا القسمة فنزلت .

لم يدخل العاطف على هذه الجملة : لأنها بيان للأولى ، فهي منها غير أجنبية عنها . بين لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما يصنع بما أفاء اللّه عليه ، وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوما على الأقسام الخمسة . والدولة والدولة - بالفتح والضم - وقد قرئ بهما ما يدول للإنسان ، أى يدور من الجد . يقال : دالت له الدولة . وأديل لفلان . ومعنى قوله تعالى : كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ كيلا يكون الفيء الذي حقه أن يعطى الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها جدا بين الأغنياء يتكاثرون به . أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم . ومعنى الدولة الجاهلية :

أن الرؤساء منهم كانوا يستأخرون بالغنيمة لأنهم أهل الرياسة والدولة والغلبة ، وكانوا يقولون من عزّ بزّ . والمعنى : كيلا يكون أخذه غلبة وأثرة جاهلية . ومنه قول الحس : اتخذوا عباد اللّه

---

(1) . قوله «ولا إيضاع الإبل» في الصحاح : وضع البعير وغيره . أى : أسرع في سيره وأوضعه راكبه اه أى : جعله مسرعا في سيره . (ع)

(2) . أخرجه أبو داود وأحمد وإسحاق والبزار والحاكم من رواية مقسم عن ابن عباس نحوه والبخاري من وجه آخر عن ابن عباس بعضه .

خولا ، ومال اللّه دولا ، يريد : من غلب منهم أخذه واستأثر به . وقيل : «الدولة» ما يتداول ، كالغرفة : اسم ما يغترف ، يعنى : كيلا يكون الفيء شيئا يتداوله الأغنياء بينهم ويتعاورونه ، فلا يصيب الفقراء . والدولة - بالفتح - : بمعنى التداول ، أى : كيلا يكون ذا تداول بينهم .

أو كيلا يكون إمساكه تداولا بينهم لا يخرجونه إلى الفقراء . وقرئ دولة بالرفع على «كان» التامة كقوله تعالى : وإن كان ذو عسرة ، يعنى كيلا يقع دولة جاهلية ولينقطع أثرها أو كيلا يكون تداول له بينهم . أو كيلا يكون شيء متعاور بينهم غير مخرج إلى الفقراء وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ من قسمة غنيمة أو فيء فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عن أخذه منها فَانْتَهُوا عنه ولا تتبعه أنفسكم وَاتَّقُوا اللَّهَ أن تخالفوه وتتهاونوا بأوامره ونواهيه إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ لمن خالف رسوله ، والأجود أن يكون عاما في كل ما أتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ونهى عنه ، وأمر الفيء داخل في عمومه .

وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه : أنه لقى رجلا محرما وعليه ثيابه فقال له : انزع عنك هذا «1» فقال الرجل : اقرأ علىّ في هذا آية من كتاب اللّه . قال : نعم ، فقرأها عليه .

[سورة الحشر (59) : آية 8]

لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8)

لِلْفُقَراءِ بدل من قوله لِذِي الْقُرْبى والمعطوف عليه «2» والذي منع الإبدال من: لله

---

(1) . أخرجه ابن أبى شيبة حدثنا معاوية بن هشام حدثنا الثوري عن الأعمش عن إبراهيم عن عبد الرحمن ابن يزيد عن ابن مسعود به، وأخرجه ابن عبد البر في العلم من طريق يحيى بن آدم عن عطية وأبى بكر بن عباس عن ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن زيد قال «لقى عبد الله بن مسعود» فذكره.

(2) . قال محمود: «هو بدل من قوله لذي القربى وما بعده والذي منع الابدال من لله وللرسول ... الخ» قال أحمد: مذهب أبى حنيفة أن استحقاق ذوى القربى أسهمهم من الفيء موقوف على الفقراء حتى لا يستحقه أغنياؤهم، وقد أغلظ الشافعي رضى الله عنه فيما نقله عنه إمام الحرمين الرد على هذا المذهب بأن الله تعالى علق الاستحقاق بالقرابة ولم يشترط الحاجة، وعدم اعتبار القرابة مضادة ومحادة، واعتذر إمام الحرمين لأبى حنيفة بأن الصدقات لما حرمت عليهم كان فائدة ذكرهم في خمس الفيء والغنيمة أنه لا يمنع صرف ذلك إليهم امتناع صرف الصدقات، ثم أتبع هذا العذر بأن قال: لا ينبغي أن يعبر به، فان صيغة الآية ناصة على تعين الاستحقاق لهم تشريفا لهم وتنبيها على عظم

أقدارهم ، فمن حمل ذلك على جواز الصرف إليهم مع معارضة هذا الجواز بجواز حرمانهم فقد عطل فحوى الآية ، ثم استعظم الامام وقع ذلك عليهم لأنهم يذهبون إلى اشتراط الايمان في رقبة الظهار زيادة على النص ، فيأتون في إثبات ذلك بالقياس لأنه يستنتج ، وليس من شأنه الثبوت بالقياس . قال : فكذلك يلزمهم أن يعتقدوا أن اشتراط الفقر في القرابة واشتراط الحاجة لقرب ما ذكروه بغرض القرب ، فأما وإن أصلهم المخصوصون من نسب الرسول عليه الصلاة والسلام والثابتون من شجرته كالعجمة ، فلا يبقى مع هذا لمذهبهم وجه انتهى كلام الامام وإنما أوردته ليعلم أن معارضته لأبى حنيفة على أن اشتراط الحاجة عند أبى حنيفة مستند إلى قياس أو نحوه من الأسباب الخارجة من الآية . فلذلك ألزمه أن يكون زيادة على النص ، فأما وقد تلقى أبو حنيفة اعتبار الحاجة من تقييد هذا البدل المذكور في الآية ، فإنما يسلك معه في واد غير هذا فيقول هو بدل من المساكين لا غيره .

وتقريره أنه سبحانه أراد أن يصف المساكين بصفات تؤكد استحقاقهم ويحمل الأغنياء على إيثارهم وأن لا يجدوا في صدورهم حاجة مما أوتوا ، فلما قصد ذلك وقد فصل بين ذكرهم وبين ما يقصد من ذكر صفاتهم بقوله كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ إلى قوله شَدِيدُ الْعِقابِ طرى ذكرهم ليكون توطئة للصفات المتتالية بعده ، فذكر بصفة أخرى مناسبة الصفة الأولى مبدلة منها وهي الفقر ، لتشهد التطرية على فائدة الجمع لهم بين صفتي المسكنة والفقر ثم تليت صفاتهم على أثر ذلك وهي إخراجهم من ديارهم وأموالهم

مهاجرين ، وابتغاؤهم الفضل والرضوان من اللّه ، ونصرهم للّه ورسوله ، وصدقهم في نياتهم ، إلى آخر ذلك ، فهذا هو الذي يرشد إليه السباق مؤيدا بالأصل فان ذوى القربى ذكروا بصفة الإطلاق : فالأصل بقاؤهم على ذلك حتى يتحقق أنهم مرادون بالتقييد .

وما ذكرناه من صرف ذلك إلى المساكين يكفى في إقامة وزن الكلام ، فيبقى ذوو القربى على أصل الإطلاق ، وتلك قاعدة لا يسع الحنفية مدافعتها ، فإنهم يرون الاستثناء المتعقب للجمل يختص بالجملة الأخيرة ، لأن عوده إليها يقيم وزن الكلام ويبقى ما تقدمهن على الأصل ، ولا فرق بين التعقيب بالاستثناء والبدل وكل ما سوى هذا ، مع أنه لو جعل بدلا من ذوى القربى مع ما بعده : لم يكن إبداله من ذوى القربى إلا بدل بعض من كل ، فان ذوى القربى منقسمون إلى فقراء وأغنياء ولم يكن إبداله من المساكين إلا بدلا للشيء من الشيء ، وهما لعين واحدة ، فيلزم أن يكون هذا البدل محسوسا بالنوعين المذكورين في حالة واحدة ، وذلك متعذر لما بين النوعين من الاختلاف وللتباين ، وكل منهما يتقاضى ما يأباه الآخر ، فهذا القدر كاف إن شاء اللّه تعالى ، وعليه أعرب الزجاج الآية فجعله بدلا من المساكين خاصة ، واللّه تعالى الموفق للصواب .

وللرسول والمعطوف عليهما ، وإن كان المعنى لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن اللّه عزّ وجل أخرج رسوله من الفقراء في قوله وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وأنه يترفع برسول اللّه عن التسمية بالفقير ، وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم اللّه عزّ وجل أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ في إيمانهم وجهادهم .

[سورة الحشر (59) : آية 9]

وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)

وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا معطوف على المهاجرين ، وهم الأنصار . فإن قلت : ما معنى عطف الإيمان على الدار ، ولا يقال : تبوّؤا الإيمان ؟ قلت : معناه تبوّؤا الدار وأخلصوا الإيمان ، كقوله :

علفتها تبنا وماء باردا

أو : وجعلوا الإيمان مستقرا ومتوطنا لهم لتمكنهم منه واستقامتهم عليه ، كما جعلوا المدينة كذلك . أو : أراد دار الهجرة ودار الإيمان ، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه ، وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه . أو سمى المدينة لأنها دار الهجرة

ومكان ظهور الإيمان بالإيمان مِنْ قَبْلِهِمْ من قبل المهاجرين ، لأنهم سبقوهم في تبوّئ دار الهجرة والإيمان . وقيل : من قبل هجرتهم وَلا يَجِدُونَ ولا يعلمون في أنفسهم حاجَةً مِمَّا أُوتُوا أى طلب محتاج إليه مما أوتى المهاجرون من الفيء وغيره ، والمحتاج إليه يسمى حاجة ، يقال : خذ منه حاجتك ، وأعطاه من ماله حاجته ، يعنى : أنّ نفوسهم لم تتبع ما أعطوا ولم تطمح إلى شيء منه يحتاج إليه وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ أى خلة ، وأصلها : خصاص البيت ، وهي فروجه ، والجملة في موضع الحال ، أى : مفروضة خصاصتهم ، وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قسم أموال بنى النضير على المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر محتاجين : أبا دجانة سماك بن خرشة ، وسهل بن حنيف ، والحرث بن الصمة «1» . وقال لهم : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة ، فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها ، فنزلت . الشح - بالضم والكسر ، وقد قرئ بهما - : اللؤم ، وأن تكون نفس الرجل كزة حريصة على المنع ، كما قال :

يمارس نفسا بين جنبيه كزّة إذا همّ بالمعروف قالت له مهلا «2»

وقد أضيف إلى النفس ، لأنه غريزة فيها . وأما البخل فهو المنع نفسه . ومنه قوله تعالى

وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ. وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ومن غلب ما أمرته به منه وخالف هواها بمعونة اللّه وتوفيقه فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الظافرون بما أرادوا. وقرئ: ومن يوقّ

[سورة الحشر (59) : آية 10]

وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (10)

---

(1) . ذكره الثعلبي هكذا بغير سند. وروى الواقدي عن معمر عن الزهري عن خارجة بن زيد عن أم العلاء قالت «لما غنم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بنى النضير قال لثابت بن قيس بن شماس: ادع لي الأنصار كلهم.

فقال: إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين. وإن أحببتم أعطينهم وخرجوا من دوركم، فقال السعدان: بل تقسمه المهاجرين ويكونون في دورنا. فرضيت الأنصار. فأعطى المهاجرين ولم يعط الأنصار، إلا رجلين محتاجين سهل ابن حنيف وأبا دجانة ونقل سيف بن أبى الحقيق سعد بن معاذ. وكان له ذكر عندهم. وعند أبى داود من رواية عبد الرزاق عن معمر طرف منه وأبهم اسم الأنصاريين. وعند ابن إسحاق في المغازي: حدثني عبد اللّه بن أبى بكر أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قسم أموال بنى النضير على المهاجرين الأولين دون الأنصار، إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة ذكرا فقرا فأعطاهما».

(2) . يصف رجلا بالبخل ، وأنه يعالج نفسه التي بين جنبيه ، كزة - بالفتح - : شحيحة منقبضة عن فعل الخير إذا غلبها ، وأراد المعروف دعته ثانيا إلى البخل وحجبته عن البذل ، فكأنها قالت له : أمهل فيطاوعها . ومهلا :

مصدر حذف فعله وجوبا . وقولها : ذلك ، استعارة تصريحية لوسوستها بالبخل .

(131/757)

وَالَّذِينَ جاؤُا مِنْ بَعْدِهِمْ عطف أيضا على المهاجرين : وهم الذين هاجروا من بعد .

وقيل : التابعون بإحسان غِلًّا وقرئ : غمرا ، وهما الحقد .

[سورة الحشر (59) : الآيات 11 إلى 12]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (12)

لِإِخْوانِهِمُ الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر ، ولأنهم كانوا يوالونهم ويواخونهم ، وكانوا معهم على المؤمنين في السر وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ في قتالكم أحدا من رسول اللّه والمسلمين إن حملنا

عليه. أو في خذلانكم وإخلاف ما وعدناكم من النصرة لَكاذِبُونَ أى في مواعيدهم لليهود.

وفيه دليل على صحة النبوّة: لأنه إخبار بالغيوب. فإن قلت: كيف قيل وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم؟ قلت: معناه: ولئن نصروهم على الفرض والتقدير، كقوله تعالى لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وكما يعلم ما يكون، فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون.

والمعنى: ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزمن المنافقون ثم لا ينصرون بعد ذلك، أى: يهلكهم اللّه تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم. أو لينهزمن اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين.

[سورة الحشر (59): الآيات 13 إلى 17]

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (13) لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (14) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (15) كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (16) فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (17)

رَهْبَةً مصدر رهب المبنى للمفعول ، كأنه قيل : أشد مرهوبية . وقوله فِي صُدُورِهِمْ دلالة على نفاقهم ، يعنى أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف اللّه وأنتم أهيب في صدورهم من اللّه . فإن قلت : كأنهم كانوا يرهبون من اللّه حتى تكون رهبتهم منهم أشدّ . قلت : معناه أن رهبتهم في السر منكم أشدّ من رهبتهم من اللّه التي يظهرونها لكم - وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من اللّه - ويجوز أن يريد أنّ اليهود يخافونكم في صدورهم أشدّ من خوفهم من اللّه ، لأنهم كانوا قوما أولى بأس ونجدة ، فكانوا يتشجعون لهم مع إضمار الخيفة في صدورهم لا يَفْقَهُونَ لا يعلمون اللّه وعظمته حتى يخشوه حق خشيته لا يُقاتِلُونَكُمْ لا يقدرون على مقاتلتكم جَمِيعاً مجتمعين متساندين ، يعنى اليهود والمنافقين إِلَّا كائنين فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ بالخنادق والدروب أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ دون أن يصحروا لكم «1» ويبارزوكم ، لقذف اللّه الرعب في قلوبهم ، وأن تأييد اللّه تعالى ونصره معكم . وقرئ : جدر ، بالتخفيف .

وجدار . وجدر وجدر ، وهما : الجدار بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ يعنى أنّ البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدّة ، لأنّ الشجاع يجبن والعزيز يذل عند محاربة اللّه ورسوله تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً مجتمعين ذوى ألفة واتحاد وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى متفرقة لا ألفة بينها ، يعنى . أنّ بينهم إحنا وعداوات ، فلا

يتعاضدون حق التعاضد ، ولا يرمون عن قوس واحدة . وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ أن تشتت القلوب مما يوهن قواهم ويعين على أرواحهم «2» كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى مثلهم كمثل أهل بدر في زمان قريب . فإن قلت : بم انتصب قَرِيباً ؟ قلت :

بمثل ، على : كوجود مثل أهل بدر قريبا ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . من قولهم كلأ وبيل : وخيم سيئ العاقبة ، يعنى ذاقوا عذاب القتل في الدنيا وَلَهُمْ في الآخرة عذاب النار . مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال ووعدهم إياهم النصر ، ثم متاركتهم لهم وإخلافهم كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إذا استغوى الإنسان «3» بكيده ثم تبرأ منه في العاقبة ، والمراد استغواؤه قريشا يوم بدر ، وقوله لهم : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ، إلى قوله : إنى بريء منكم . وقرأ ابن مسعود : خالدان فيها ، على أنه خبر أنّ ، وفِي النَّارِ لغو ، وعلى القراءة المشهورة : الظرف مستقر ، وخالدين فيها : حال . وقرئ :

أنا بريء . وعاقبتهما بالرفع .

---

(1) . قوله «دون أن يصحروا لكم» في الصحاح «أصحر الرجل» : خرج إلى الصحراء اه . (ع)

(2) . قوله «ويعين على أرواحهم» كذا عبارة النسفي أيضا . (ع)

(3) . قوله «إذا استغوى الإنسان» لعله : إذ ، كعبارة النسفي . (ع)

(133/757)

[سورة الحشر (59) : الآيات 18 إلى 19]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (18) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (19)

كرر الأمر بالتقوى تأكيدا : واتقوا اللّه في أداء الواجبات لأنه قرن بما هو عمل ، واتقوا اللّه في ترك المعاصي لأنه قرن بما يجرى مجرى الوعيد . والغد : يوم القيامة ، سماه باليوم الذي يلي يومك تقريبا له «1» وعن الحسن : لم يزل يقربه حتى جعله كالغد . ونحوه قوله تعالى كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ يريد : تقريب الزمان الماضي . وقيل : عبر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهاران : يوم وغد . فإن قلت : ما معنى تنكير النفس والغد ؟ قلت : أما تنكير النفس فاستقلالا للأنفس النواظر فيما قمن للآخرة ، كأنه قال فلتنظر نفس واحدة في ذلك .

وأما تنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره ، كأنه قيل : لغد لا يعرف كنهه لعظمه . وعن مالك بن

دينار :

مكتوب على باب الجنة : وجدنا ما عملنا ، ربحنا ما قدّمنا . خسرنا ما خلفنا نَسُوا اللَّهَ نسوا حقه ، فجعلهم ناسين حق أنفسهم بالخذلان «2» ، حتى لم يسعوا لها بما ينفعهم عنده . أو فأراهم يوم القيامة من الأهوال ما نسوا فيه أنفسهم ، كقوله تعالى لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ .

[سورة الحشر (59) : آية 20]

لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ (20)

هذا تنبيه للناس وإيذان لهم بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وتهالكهم على إيثار العاجلة واتباع الشهوات : كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار والبون العظيم بين أصحابهما ، وأن الفوز مع أصحاب الجنة ، فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه ، كما تقول لمن يعق أباه :

هو أبوك ، تجعله بمنزلة من لا يعرفه ، فتنبهه بذلك على حق الأبوّة الذي يقتضى البر والتعطف .

---

(1) . قال محمود : «سمى يوم القيامة غدا تقريبا له . . . الخ» قال أحمد : وقد قيل في قوله تعالى عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ كقوله يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً حتى قيل : إنه من عكس الكلام الذي يقصد به الافراط فيما يعكس عنه ، كقوله رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ

كَفَرُوا فمعنى رب هاهنا هو معنى كم ، وأبلغ منه قول القائل :

قد أترك القرن مصفرا أنامله

إلا أن الزمخشري فر من هذا المعنى ، لأن الواقع قلة النفوس الناظرة في أمر المعاد ، فنزله على معنى يطابق الواقع ، ويمكن أن يلاحظ الأمر فيسوغ حمله على التكثير النفوس المأمورات بالنظر في المعاد ، وأنه ما من نفس إلا ومن حقها أن تمتثل هذا الأمر ، وهو نظر حسن ، فان الفعل المسند إلى النفس هاهنا ليس وقوع النظر حتى يستقل ، وإنما هو طلب النظر وهو عام التعلق بكل نفس . والانصاف : أن ما ذكره الزمخشري أمكن وأحسن ، واللّه الموفق .

[. . . . . .]

(2) . قال محمود : «جعلهم ناسين بالخذلان» قال أحمد : بل خلق فيهم النسيان .

(134/757)

وقد استدل أصحاب الشافعي رضى اللّه عنه بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر ، وأن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالقهر .

[سورة الحشر (59) : الآيات 21 إلى 22]

لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها

لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (22)

هذا تمثيل وتخييل «1» ، كما مرّ في قوله تعالى إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ وقد دل عليه قوله وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره. وقرئ: مصدّعا على الإدغام وَتِلْكَ الْأَمْثالُ إشارة إلى هذا المثل وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل.

[سورة الحشر (59) : الآيات 23 إلى 24]

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)

الْغَيْبِ المعدوم وَالشَّهادَةِ الموجود المدرك كأنه يشاهده. وقيل: ما غاب عن العباد وما شاهدوه. وقيل: السر والعلانية. وقيل: الدنيا والآخرة الْقُدُّوسُ بالضم والفتح - وقد قرئ بهما - البليغ في النزاهة عما يستقبح. ونظيره: السبوح، وفي تسبيح الملائكة: سبوح قدوس رب الملائكة والروح. والسَّلامُ بمعنى السلامة. ومنه دارُ السَّلامِ وسَلامٌ عَلَيْكُمْ وصف به مبالغة في وصف كونه سليما من النقائص. أو في إعطائه السلامة والمؤمن واهب الأمن. وقرئ بفتح الميم بمعنى المؤمن به على حذف الجار، كما تقول في قوم

موسى من قوله تعالى وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ المختارون بلفظ صفة السبعين. والْمُهَيْمِنُ الرقيب على كل شيء، الحافظ له، مفيعل من الأمن، إلا أن همزته قلبت هاء. والْجَبَّارُ القاهر الذي جبر خلقه على ما أراد، أى أجبره، والْمُتَكَبِّرُ البليغ الكبرياء والعظمة. وقيل: المتكبر عن ظلم عباده. والْخالِقُ المقدر لما يوجده والْبارِئُ المميز بعضه من بعض بالأشكال

---

(1). قال محمود: «هذا تخييل وتمثيل كما تقدم الخ» قال أحمد: وهذا مما تقدم إنكارى عليه فيه، أفلا كان يتأدب بأدب الآية: حيث سمى اللّه هذا مثلا ولم يقل: وتلك الخيالات نضربها للناس، ألهمنا اللّه حسن الأدب معه واللّه الموفق.

(135/757)

المختلفة. والْمُصَوِّرُ الممثل. وعن حاطب بن أبى بلتعة أنه قرأ: البارئ المصوّر، بفتح الواو ونصب الراء، أى: الذي يبرأ المصوّر أى: يميز ما يصوّره بتفاوت الهيئات. وقرأ ابن مسعود:

وما في الأرض.

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه: سألت حبيبي صلى اللّه عليه وسلم عن اسم اللّه الأعظم

فقال :

«عليك بآخر الحشر فأكثر قراءته» «1» فأعدت عليه فأعاد عليّ ، فأعدت عليه فأعاد عليّ . عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الحشر غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 498.510 ﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي من رواية على بن رزيق عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عنه .

وفي الواحدي من حديث ابن عباس رفعه «اسم اللّه الأعظم في ست آيات من آخر سورة الحشر .

(2) . أخرجه الثعلبي من رواية يزيد بن أبان عن أنس بهذا .

(136/757)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾

يعني يهود بني النضير .

﴿ من ديارهم ﴾ يعني من منازلهم .

﴿ لأول الحشر ﴾ أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه من أُحد إلى أذرعات الشام ، وأعطى كل ثلاثة بعيراً يحملون عليه ما استقل إلا السلاح ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد عاهدهم حين هاجر إلى المدينة أن لا يقاتلوا معه ولا عليه ، فكفوا يوم بدر لظهور المسلمين ، وأعانوا المشركين يوم أحد حين رأوا ظهورهم على المسلمين ، فقتل رئيسهم كعب بن الأشرف ، قتله محمد بن مسلمة غيلة . ثم سار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاصرهم ثلاثاً وعشرين ليلة محارباً حتى أجلاهم عن المدينة .

في قوله : ﴿ لأول الحشر ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : لأنهم أول من أجلاه النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود ، قاله ابن حبان .

الثاني : لأنه اول حشرهم ، لأنهم يحشرون بعدها إلى أرض المحشر في القيامة ، قاله الحسن . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما أجلى بني النضير قال لهم " امضوا فهذا أول الحشر وأنا على الأثر . "

الثالث : أنه أول حشرهم لما ذكره قتادة أنه يأتي عليهم بعد ذلك من مشرق الشمس نار تحشرهم إلى مغربها تبيت معهم إذ باتوا [وتقيل معهم حيث قالوا] وتأكل منهم من تخلف .

﴿ ما ظننتم أن يخرجوا ﴾ يعني من ديارهم لقوتهم وامتناعهم .

﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ﴾ أي من أمر الله .

﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لم يحتسبوا بأمر الله .

الثاني : قاله ابن جبير والسدي : من حيث لم يحتسبوا بقتل ابن الأشرف .

﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لخوفهم من رسول الله .

الثاني : بقتل كعب بن الأشرف .

﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : بأيديهم بنقض الموادعة ، وأيدي المؤمنين بالمقاتلة ، قاله الزهري .

الثاني : بأيديهم في تركها ، وأيدي المؤمنين في إجلائهم عنها ، قاله أبو عمرو ابن العلاء .

الثالث : بأيديهم في إخراب دواخلها وما فيها لئلا يأخذها المسلمون ، وبأيدي المؤمنين في إخراب ظواهرها ليصلوا بذلك إليهم .

قال عكرمة : كانت منازلهم مزخرفة فحسدوا المسلمين أن يسكنوها فخربوها من داخل ، وخربها المسلمون من خارج .

الرابع: معناه: أنهم كانوا كلما هدم المسلمون عليهم من حصونهم شيئاً نقضوا من بيوتهم ما يبنون به من حصونهم، قاله الضحاك.

الخامس: أن تخريبهم بيوتهم أنهم لما صولحوا على حمل ما أقلته إبلهم جعلوا ينقضون ما أعجبهم من بيوتهم حتى الأوتار ليحملوها على إبلهم، قاله عروة بن الزبير، وابن زيد.

وفي قوله: ﴿ يخربون ﴾ قراءتان: بالتخفيف، وبالتشديد، وفيهما وجهان:

أحدهما: أن معناهما واحد وليس بينهما فرق.

الثاني: أن معناهما مختلف.

وفي الفرق بينهما وجهان:

أحدهما: أن من قرأ بالتشديد أراد إخرابها بأفعالهم، ومن قرأ بالتخفيف أراد إخرابها بفعل غيرهم قاله أبو عمرو.

الثاني: أن من قرأ بالتشديد أراد إخرابها بهدمهم لها. وبالتخفيف أراد فراغها بخروجهم عنها، قاله الفراء.

ولمن تعمق بغوامض المعاني في تأويل ذلك وجهان:

أحدهما: يخربون بيوتهم أي يبطلون أعمالهم بأيديهم، يعني باتباع البدع، وأيدي المؤمنين في مخالفتهم.

﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء ﴾ فيه وجهان:

أحدهما : يعني بالجلاء الفناء ﴿ لعذبهم في الدنيا ﴾ بالسبي .

والثاني : يعني بالجلاء الإخراج عن منازلهم ﴿ لعذبهم في الدنيا ﴾ يعني بالقتل ، قاله عروة .

والفرق بين الجلاء والإخراج - وإن كان معناهما في الإبعاد واحد - من وجهين :

أحدهما : أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد .

الثاني : أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج يكون لجماعة ولواحد .

(138/757)

﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل على حصون بني النضير وهي البويرة حين نقضوا العهد بمعونة قريش عليه يوم أحد قطع المسلمون من نخلهم وأحرقوا ست نخلات ، وحكى محمد بن إسحاق أنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة ، وكان ذلك عن إقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بأمره ، إما لإضعافهم بها أو لسعة المكان بقطعها ، فشق ذلك عليهم فقالوا وهم يهود أهل كتاب : يا محمد ألست تزعم أنك نبي تريد الإصلاح ؟ أفمن الصلاح حرق الشجر وقطع النخل ؟ وقال شاعرهم سماك اليهودي :

ألسنا ورثنا كتاب الحكيم . . . على عهد موسى ولم نصدف

وانتم رعاء لشاء عجاف . . . بسهل تهامة والأخيف

ترون الرعاية مجداً لكم . . . لدي كل دهر لكم مجحف

فيا أيها الشاهدون انتهوا . . . عن الظلم والمنطق المؤنف

لعل الليالي وصرف الدهور . . . يدلن عن العادل المنصف

بقتل النضير وإجلائها . . . وعقر النخيل ولم تقطف

فأجابه حسان بن ثابت رضي الله عنه :

هم أوتوا الكتاب فضيعوه . . . وهم عمي عن التوارة بور

كفرتم بالقرآن وقد أتيتم . . . بتصديق الذي قال النذير

وهان على سراة بني لؤي . . . حريق بالبويرة مستطير

ثم إن المسلمين جل في صدورهم ما فعلوه ، فقال بعضهم : هذا فساد ، وقال آخرون منهم عمر بن الخطاب : هذا مما يجزي الله به أعداءه وينصر أولياءه فقالوا يا رسول الله هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم حتى أنزل الله تعالى : ﴿ وما قطعتم من لينة ﴾ الآية . وفيه دليل على أن كل مجتهد مصيب .

وفي اللينة خمسة أقاويل :

أحدها : النخلة من أي الأصناف كانت ، قاله ابن حبان .

الثاني : أنها كرام النخل ، قاله سفيان .

الثالث : أنها العجوة خاصة ، قاله جعفر بن محمد وذكر أن العتيق والعجوة كانا مع نوح في السفينة ، والعتيق الفحل ، وكانت العجوة أصل الإناث كلها ولذلك شق على اليهود قطعها .

(139/757)

الرابع : أن اللينة الفسيلة لأنها ألين من النخلة ، ومنه قول الشاعر :

غرسوا لينها بمجرى معين . . . ثم حفوا النخيل بالآجام

الخامس : أن اللينة جميع الأشجار للينها بالحياة ، ومنه قول ذي الرمة :

طراق الخوافي واقع فوق لينة . . . ندى ليلة في ريشه يترقرق

قال الأخفش : سميت لينة اشتقاقاً من اللون لا من اللين .

﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ يعني ما رده اللَّه على رسوله من أموال بني النضير .

﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ والإيجاف الإيضاع في السير وهو الإسراع ، والركاب : الإبل ، وفيهما يقول نصيب :

ألا رب ركب قد قطعت وجيفهم . . . إليك ولولا أنت لم توجف الركب

﴿ ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ﴾ ذلك أن مال الفيء هو المأخوذ من المشركين بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب ، فجعل الله لرسوله أن يضعه حيث يشاء لأنه واصل بتسليط الرسول عليهم لا بمحاربتهم وقهرهم . فجعل الله ذلك طعمة لرسوله خالصاً دون الناس ، فقسمه في المهاجرين إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة فإنهما ذكرا فقراً فأعطاهما .

﴿ كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ يقال دولة بالضم وبالفتح وقرىء بهما ، وفيهما قولان :

أحدهما : أنهما واحد ، قاله يونس ، والأصمعي .

الثاني : أن بينهما فرقاً ، وفيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه بالفتح الظفر في الحرب ، وبالضم الغنى عن فقر ، قاله أبو عمرو ابن العلاء .

الثاني : أنه بالفتح في الأيام ، وبالضم في الأموال ، قاله عبيدة .

الثالث : أن بالفتح ما كان كالمستقر ، وبالضم ما كان كالمستعار ، حكاه ابن كامل .

الرابع : أنه بالفتح الطعن في الحرب ، وبالضم أيام الملك وأيام السنين التي تتغير ، قاله الفراء ، قال حسان :

ولقد نلتم ونلنا منكم . . . وكذاك الحرب أحياناً دول

﴿ وما ءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يعني ما أعطاكم من مال الفيء فاقبلوه ، وما منعكم منه فلا تطلبوه ، قاله السدي .

الثاني : ما آتاكم الله من مال الغنيمة فخذوه ، وما نهاكم عنه من الغلو فلا تفعلوه ، قاله الحسن .

الثالث : وما آتاكم من طاعتي فافعلوه ، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه ، قاله ابن جريج .

الرابع : أنه محمول على العموم في جميع أوامره ونواهيه لأنه لا يأمر إلا بصلاح ولا ينهى إلا عن فساد .

وحكى الكلبي أنها نزلت في رؤساء المسلمين قالوا فيما ظهر عليه رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم من أموال المشركين ، يا رسول الله صفيك والربع ودعنا والباقي فهكذا كنا نفعل في الجاهلية وأنشدوه :

لك المرباع منها والصفايا . . . وحكمك والنشيطة والفضول .

فأنزل الله هذه الآية .

﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ﴾ يعني بالمهاجرين من هاجر عن وطنه من المسليمن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار هجرته وهي المدينة خوفاً من أذى قومه ورغبة في نصرة نبيّه فهم المقدمون في الإسلام على جميع أهله .

﴿ يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ يعني فضلاً من عطاء الله في الدنيا ، ورضواناً من ثوابه في الآخرة .

ويحتمل وجهاً ثانياً : أن الفضل الكفاية ، والرضوان القناعة .

وروى علي بن رباح اللخمي أن عمر بن الخطاب خطب بالجابية فقال : من أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقة فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني فإن الله تعالى جعلني خازناً وقاسماً ، إني بادىء بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم فمعطيهن ، ثم بالمهاجرين الأولين أنا وأصحابي أخرجنا من مكة من ديارنا وأموالنا .

قال قتادة : لأنهم اختاروا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على ما كانت من شدة ، حتى ذكر لنا أن الرجل كان يعصب على بطنه الحجر ليقيم صلبه من الجوع ، وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ما له دثار غيرها .

﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ﴾ ويكون على التقديم والتأخير ومعناه تبوءوا الدار من قبلهم والإيمان .

الثاني : أن الكلام على ظاهره ومعناه أنهم تبوءوا الدار والإيمان قبل الهجرة إليهم يعني بقبولهم ومواساتهم بأموالهم ومساكنهم .

﴿ يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : غيرة وحسداً على ما قدموا به من تفضيل وتقريب ، وهو محتمل .

الثاني : يعني حسداً على ما خصوا به من مال الفيء وغيره فلا يحسدونهم عليه ، قاله الحسن .

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ يعني يفضلونهم ويقدمونهم على أنفسهم ولو كان بهم فاقة وحاجة ، ومنه قول الشاعر :

أما الربيع إذا تكون خصاصة . . . عاش السقيم به وأثرى المقتر

وفي إيثارهم وجهان :

أحدهما : أنهم آثروا على أنفسهم بما حصل من فيىء وغنيمة حتى قسمت في المهاجرين دونهم ، قاله مجاهد ، وابن حيان .

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قسم على المهاجرين ما أفاء الله من النضير ونفل من

قريظة على أن يرد المهاجرون على الأنصار ما كانوا أعطوهم من أموالهم فقالت الأنصار بل نقيم لهم من أموالنا ونؤثرهم بالفيء ، فأنزل الله هذه الآية .

الثاني : أنهم آثروا المهاجرين بأموالهم وواسوهم بها .

روى ابن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : " إن إخوانكم تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم " فقالوا : أموالنا بينهم قطائع ، فقال : " أو غير ذلك " ؟ فقالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ فقال :

" هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم التمر " يعني مما صار إليهم من نخيل بني النضير ، قالوا نعم يا رسول الله .

﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ فيه ثمانية أقاويل :

أحدها : أن هذا الشح هو أن يشح بما في أيدي الناس يحب أن يكون له ولا يقنع ، قاله ابن جريج وطاووس .

الثاني : أنه منع الزكاة ، قاله ابن جبير .

الثالث : يعني هوى نفسه ، قاله ابن عباس .

الرابع : أنه اكتساب الحرام ، روى الأسود عن ابن مسعود أن رجلاً أتاه فقال : إني أخاف أن أكون قد هلكت ، قال وما ذاك ؟ قال سمعت الله عز وجل يقول :

﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ وأنا رجل شحيح لا أكاد أخرج من يدي شيئاً فقال ابن مسعود : ليس ذلك بالشح الذي ذكره الله تعالى في القرآن ، إنما الشح الذي ذكره الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً ولكن ذلك البخل ، وبئس الشيء البخل .

الخامس : أنه الإمساك عن النفقة ، قاله عطاء .

السادس : أنه الظلم ، قاله ابن عيينة .

السابع : أنه أراد العمل بمعاصي الله ، قاله الحسن .

الثامن : أنه أراد ترك الفرائض وانتهاك المحارم ، قاله الليث .

وفي الشح والبخل قولان :

أحدهما : أن معناهما واحد .

الثاني : أنهما يفترقان وفي الفرق بينهما وجهان :

أحدهما : أن الشح أخذ المال بغير حق ، والبخل أن يمنع من المال المستحق ، قاله ابن مسعود .

الثاني : أن الشح بما في يدي غيره ، والبخل بما في يديه ، قاله طاووس .

﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم الذين هاجروا بعد ذلك ، قاله السدي والكلبي .

الثاني : أنهم التابعون الذين جاءوا بعد الصحابة ثم من بعدهم إلى قيام الدنيا هم الذين جاءوا من بعدهم ، قاله مقاتل .

وروى مصعب بن سعد قال : الناس على ثلاثة منازل ، فمضت منزلتان وبقيت الثالثة : فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت .

وفي قولهم : ﴿ اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ وجهان :

أحدهما : أنهم أمروا أن يستغفروا لمن سبق من هذه الأمة ومن مؤمني أهل الكتاب . قالت عائشة : فأمروا أن يستغفروا لهم فسبّوهم .

الثاني : أنهم أمروا أن يستغفروا للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

﴿ ولا تجعل في قلوبنا غلاًّ للذين ءامنوا ﴾ الآية . في الغل وجهان :

أحدهما : الغش ، قاله مقاتل .

الثاني : العداوة ، قاله الأعمش .

﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد ، قاله السدي .

الثاني : أنه وعيد هم للمسلمين لنفعلن كذا وكذا ، قاله مجاهد .

﴿ تحسبهم جيمعاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنهم اليهود .

الثاني : أنهم المنافقون واليهود ، قاله مجاهد .

﴿ وقلوبهم شتى ﴾ يعني مختلفة متفرقة ، قال الشاعر :

إلى الله أشكو نية شقت العصا . . . هي اليوم شتى وهي بالأمس جمع

وفي قراءة ابن مسعود " وَقُلُوبُهُمْ أَشَتُّ " بمعنى أشد تشتيتاً ، أي أشد اختلافاً .

وفي اختلاف قلوبهم وجهان :

أحدهما : لأنهم على باطل ، والباطل مختلف ، والحق متفق .

الثاني : أنهم على نفاق ، والنفاق اختلاف .

وقوله تعالى : ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ﴾ الآية . فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنهم كفار قريش يوم بدر ، قاله مجاهد .

الثاني : أنهم قتلى بدر ، قاله السدي ، ومقاتل .

الثالث : أنهم بنو النضير الذين أجلوا من الحجاز إلى الشام ، قاله قتادة .

الرابع : أنهم بنو قريظة ، كان قبلهم إجلاء بني النضير .

﴿ ذاقوا وبال أمرهم ﴾ بأن نزلوا على حكم سعد [بن معاذ] فحكم فيهم بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم ، قاله الضحاك . وفيه وجهان :

أحدهما : في تجارتهم .

الثاني : في نزول العذاب بهم .

﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه مثل ضربه الله الكافر في طاعته للشيطان ، وهو عام في الناس كلهم ، قاله مجاهد .

الثاني : أنها خاصة في سبب خاص صار به المثل عاماً ، وذلك ما رواه عطية العوفي عن ابن عباس أن راهباً كان في بني إسرائيل يعبد الله فيحسن عبادته ، وكان يؤتى من كل أرض يسأل عن الفقه وكان عالماً ، وأن ثلاثة إخوة كانت لهم أخت من أحسن النساء مريضة ، وأنهم أرادوا سفراً فكبر عليهم أن يذروها ضائعة ، فجعلوا يأتمرون فيما يفعلون ، فقال أحدهم : ألا أدلكم على من تتركونها عنده ؟ فقال له من ؟ فقال : راهب بني إسرائيل ، وإن مات قام عليها ، وإن عاشت حفظها حتى ترجعوا إليه ، فعمدوا إليه وقالوا : إنا نريد

السفر وإنا لا نجد أحداً أوثق في أنفسنا منك ولا آمن علينا غيرك ، فاجعل أختنا عندك فإنها ضائعة مريضة ، فإن ماتت فقم عليها ، وإن عاشت فاحفظها حتى نرجع ، فقال : أكفيكم إن شاء الله ، وإنهم انطلقوا ، فقام عليها وداواها حتى برئت فلم يزل به الشيطان يزين له حتى وقع عليها وحبلت ، ثم تقدم منه الشيطان فزين له قتلها وقال : إن لم تفعل افتضحت ، فقتلها .

فلما عاد إخوتها سألوه عنها فقال : ماتت فدفنتها ، قالوا أحسنت ، فجعلوا يرون في المنام أن الراهب قتلها وأنها تحت شجرة كذا ، فعمدوا إلى الشجرة فوجدوها قد قتلت ، فأخذوه ، فقال له الشيطان : أنا الذي زينت لك قتلها بعد الزنى فهل لك أن أنجيك وتطيعني ؟ قال : نعم ، قال فاسجد لي سجدة واحدة ، فسجد ثم قتل ، فذلك قوله تعالى : ﴿ كمثل الشيطان ﴾ فكذا المنافقون وبنو النضير مصيرهم إلى النار .

﴿ يأيها الذين ءامنوا اتقوا الله ﴾ روى معن أو عون ابن مسعود أن رجلاً أتاه فقال : اعهد لي ، فقال : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يأيها الين ءامنوا ﴾ فأرعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه .

وفي هذه التقوى وجهان :

أحدهما : اجتناب المنافقين .

الثاني : هو اتقاء الشبهات .

﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ قال ابن زيد : ما قدمت من خير أو شر .

(145/757)

﴿ لغد ﴾ يعني يوم القيامة والأمس : الدنيا . قال قتادة : إن ربكم قدم الساعة حتى جعلها لغد .

﴿ واتقوا الله ﴾ في هذه التقوى وجهان :

أحدهما : أنها تأكيد للأولى .

والثاني : أن المقصود بها مختلف وفيه وجهان :

أحدهما : أن الأولى التوبة مما مضى من الذنوب ، والثانية اتقاء المعاصي في المستقبل .

الثاني : أن الأولى فيما تقدم لغد ، الثانية فيما يكون منكم .

﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الله خبير بعملكم .

الثاني : خبير بكم عليم بما يكون منكم ، وهو معنى قول سعيد بن جبير .

﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : نسوا الله أي تركوا أمر الله ، فأنساهم أنفسهم أن يعملوا لها خيراً ، قاله ابن حبان .

الثاني : نسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم ، قاله سفيان .

الثالث : نسوا الله بترك شكره وتعظيمه فأنساهم أنفسهم بالعذاب أن يذكر بعضهم بعضاً ، حكاه ابن عيسى .

الرابع : نسوا الله عند الذنوب فأنساهم أنفسهم عند التوبة ، قاله سهل .

ويحتمل خامساً : نسوا الله في الرخاء فأنساهم أنفسهم في الشدائد .

﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : العاصون : قاله ابن جبير .

الثاني : الكاذبون ، قاله ابن زيد .

﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لا يستوون في أحوالهم ، لأن أهل الجنة في نعيم ، وأهل النار في عذاب .

الثاني : لا يستوون عند الله ، لأن أهل الجنة من أوليائه ، وأهل النار من أعدائه .

﴿ أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : المقربون المكرمون .

الثاني : الناجون من النار ، قاله ابن حبان .

﴿ لو أنزلنا هذا القرءآن على جبل ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم إننا لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لما ثبت له بل انصدع من نزوله عليه ، وقد أنزلناه عليك وثبتناك له ، فيكون ذلك امتناناً عليه أن ثبته لما لا تثبت له الجبال .

(146/757)

الثاني : أنه خطاب للأمة ، وأن الله لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدعت من خشية الله ، والإنسان أقل قوة وأكثر ثباتاً ، فهو يقوم بحقه إن أطاع ، ويقدر على رده إن عصى ، لأنه موعود بالثواب ومزجور بالعقاب .

وفيه قول ثالث : إن الله تعالى ضربه مثلاً للكفار أنه إذا نزل هذا القرآن على جبل خشع لوعده وتصدع لوعيده ، وأنتم أيها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده ولا ترهبون من وعيده .

﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو ﴾ كان جابر بن زيد يرى أن اسم الله الأعظم هو الله ، لمكان هذه الآية .

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : عالم السر والعلانية ، قاله ابن عباس .

الثاني : عالم ما كان وما يكون .

الثالث : عالم ما يدرك وما لا يدرك من الحياة والموت والأجل والرزق .

الرابع : عالم بالآخرة والدنيا ، قاله سهل .

﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس ﴾ في ﴿ القدوس ﴾ أربعة أوجه :

أحدها : أنه المبارك ، قاله قتادة ، ومنه قول رؤبة :

دعوت رب العزة القدوسا . . . دعاء من لا يقرع الناقوسا

الثاني : أنه الطاهر ، قاله وهب ، ومنه قول الراجز :

قد علم القدوس مولى القدوس . . . . الثالث : أنه اسم مشتق من تقديس الملائكة ، قاله ابن جريج ، وقد روي أن من تسبيح الملائكة سبوح قدوس رب الملائكة والروح .

الرابع : معناه المنزه عن القبائح لاشتقاقه من تقديس الملائكة بالتسبيح فصار معناهما واحد .

وأما ﴿ السلام ﴾ فهو من أسمائه تعالى كالقدوس ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنه مأخوذ من سلامته وبقائه ، فإذا وصف المخلوق بمثله قيل سالم وهو في صفة الله سلام ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت :

سلامك ربنا في كل فجر . . . بريئاً ما تعنتك الذموم

الثاني : أنه مأخوذ من سلامة عباده من ظلمه ، قاله ابن عباس .

[وفي ﴿ المؤمن ﴾ ثلاثة أوجه : أحدها : الذي يؤمن أولياءه من عذابه] الثاني : أنه مصدق خلقه في وعده ، وهو معنى قول ابن زيد .

الثالث : أنه الداعي إلى الإيمان ، قاله ابن بحر .

وأما ﴿ المهيمن ﴾ فهو من أسمائه أيضاً ، وفيه خمسة أوجه :

أحدها : معناه الشاهد على خلقه بأعمالهم ، وعلى نفسه بثوابهم ، قاله قتادة ، والمفضل ، وأنشد قول الشاعر :

شهيد عليَّ الله أني أحبها . . . كفى شاهداً رب العباد المهيمن

والثاني : معناه الأمين ، قاله الضحاك .

الثالث : المصدق ، قاله ابن زيد .

الرابع : أنه الحافظ ، حكاه ابن كامل ، وروي أن عمر بن الخطاب قال : إني داع فهيمنوا ، أي قولوا آمين حفظنا الدعاء ، لما يرجى من الإجابة .

الخامس : الرحيم ، حكاه ابن تغلب واستشهد بقول أمية بن أبي الصلت :

مليك على عرش السمآء مهيمن . . . لعزته تعنو الوجوه وتسجد

﴿ العزيز ﴾ هو القاهر ، وفيه وجهان :

أحدهما : العزيز في امتناعه .

الثاني : في انتقامه .

﴿ الجبار ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : معناه العالي العظيم الشأن في القدرة والسلطان .

الثاني : الذي جبر خلقه على ما شاء ، قاله أبو هريرة ، والحسن ، وقتادة .

الثالث : أنه الذي يجبر فاقة عباده ، قاله واصل بن عطاء .

الرابع : أنه الذي يذل له من دونه .

﴿ المتكبر ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : المتكبر عن السيئات ، قاله قتادة .

الثاني : المستحق لصفات الكبر ، والتعظيم ، والتكبر في صفات الله مدح ، وفي صفات المخلوقين ذم .

الثالث : المتكبر عن ظلم عباده .

﴿ هو الله الخالق ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه المحدِث للأشياء على إرادته .

الثاني : أنه المقدر لها بحكمته .

﴿ الْبَارِئُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : المميز للخلق ، ومنه قوله : برئت منه ، إذا تميزت منه .

الثاني : المنشئ للخلق ، ومنه قول الشاعر :

براك الله حين براه غيثاً . . . ويجري منك أنهارا عذاباً

﴿ المصور ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لتصوير الخلق على مشيئته .

(148/757)

الثاني : لتصوير كل جنس على صورته . فيكون على الوجه الأول محمولاً على ابتداء الخلق بتصوير كل خلق على ما شاء من الصور . وعلى الوجه الثاني يكون محمولاً على ما استقر من صور الخلق ، فيحدث خلق كل جنس على صورته وفيه على كلا الوجهين دليل على قدرته .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أن يكون لنقله خلق الإنسان وكل حيوان من صورة إلى صورة ، فيكون نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى أن يصير شيخاً هرماً ، كما قال النابغة :

الخالق البارئ المصور في ال . . . أرحام ماء حتى يصير دماً

﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن جميع أسمائه حسنى لاشتقاقه من صفاته الحسنى .

الثاني : أن له الأمثال العليا ، قاله الكلبي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 515.498 ﴾

(149/757)

وقال ابن الجوزى :

سورة الحشر

قوله تعالى : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾

يعني : يهود بني النضير ﴿ من ديارهم ﴾ أي : من منازلهم ﴿ لأول الحشر ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنهم أول من حُشر وأُخرج من داره ، قاله ابن عباس .

وقال ابن السائب : هم أول من نفي من أهل الكتاب .

والثاني : أن هذا كان أول حشرهم ، والحشر الثاني : إلى أرض المحشر يوم القيامة ، قاله

الحسن .

قال عكرمة : من شك أن المحشر إلى الشام فليقرأ هذه الآية ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم يومئذ : اخرجوا ، فقالوا : إلى أين ؟ قال إلى أرض المحشر .

والثالث : أن هذا كان أول حشرهم .

والحشر الثاني : نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب قاله قتادة .

والرابع : أن هذا كان أول حشرهم من المدينة ، والحشر الثاني : من خيبر ، وجميع جزيرة العرب إلى أذرعات ، وأريحا من أرض الشام في أيام عمر بن الخطاب ، قاله مرة الهمْداني .

قوله تعالى : ﴿ ما ظننتم ﴾ يخاطب المؤمنين ﴿ أن يخرجوا ﴾ من ديارهم لعزِّهم ، ومَنَعَتِهم ، وحُصُونهم ﴿ وظَنُّوا ﴾ يعني : بني النضير أن حصونهم تمنعهم من سلطان الله ﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ وذلك أنَّه أمر نبيَّه بقتالهم وإِجلائهم ، ولم يكونوا يظنون أن ذلك يكون ، ولا يحسبونه ﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ لخوفهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : لقتل سيدهم كعب بن الأشرف ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴾ قرأ أبو عمرو "يُخَرِّبون" بالتشديد .

وقرأ الباقون "يَخْرِبُون" .

وهل بينهما فرق ، أم لا ؟ فيه قولان .

أحدهما : أن المشددة معناها : النقض والهدم .

والمخففة معناها : يخرجون منها ويتركونها خراباً معطَّلة ، حكاه ابن جرير ، روي عن أبي عمرو أنه قال : إنما اخترت التشديد ، لأن بني النضير نقضوا منازلهم ، ولم يرتحلوا عنها وهي معمورة .

والثاني : أن القراءتين بمعنى واحد .

(150/757)

والتخريب والإخراب لغتان بمعنى ، حكاه ابن جرير عن أهل اللغة .

وللمفسرين فيما فعلوا بمنازلهم أربعة أقوال .

أحدها : أنه كان المسلمون كلما ظهروا على دارٍ من دُورهم هدموها ليتسع لهم مكان القتال ، وكانوا هم ينقبون دورهم ، فيخرجون إلى ما يليها ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه كان المسلمون كلما هدموا شيئاً من حصونهم نقضوا ما يبنون به الذي خربه المسلمون ، قاله الضحاك .

والثالث : أنهم كانوا ينظرون إلى الخشبة في منازلهم ، أو العمود ، أو الباب ، فيستحسنونه ، فيهدمون البيوت ، وينزعون ذلك منها ، ويحملونه معهم ، ويخرب المؤمنون باقيها ، قاله الزهري .

والرابع : أنهم كانوا يخربونها لئلا يسكنها المؤمنون ، حسداً منهم ، وبغياً ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ الاعتبار : النظر في الأمور ، ليعرف بها شيء آخر من جنسها ، و"الأبصار" العقول .

والمعنى : تدبَّروا ما نزل بهم ﴿ ولولا أن كتب الله ﴾ أي : قضى ﴿ عليهم الجلاء ﴾ وهو خروجهم من أوطانهم .

وذكر الماوردي بين الإخراج والجلاء فرقين .

أحدهما : أن الجلاء : ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج : قد يكون مع بقاء الأهل والولد .

والثاني : أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة .

والإخراج : قد يكون لواحد ولجماعة .

والمعنى : لولا أن الله قضى عليهم بالخروج ﴿ لعذَّبهم في الدنيا ﴾ بالقتل والسبي ، كما فعل بقريظة ﴿ ولهم في الآخرة ﴾ مع ما حلَّ بهم في الدنيا ﴿ عذابُ النَّار ، ذلك ﴾ الذي أصابهم ﴿ بأنهم شاقُّوا الله ﴾ وقد سبق بيان الآية [الأنفال 13] و [محمد 32] .

قال القاضي أبو يعلى : فقد دلت هذه الآية على جواز مصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير سبي ولا استرقاق ، ولا جزية ، ولا دخول في ذمة ، وهذا حكم منسوخ إذا

كان في المسلمين قوة على قتالهم ، لأن الله تعالى أمر بقتال الكفار حتى يسلموا ، أو يُؤدُّوا الجزية .

(151/757)

وإنما يجوز هذا الحكم إذا عجز المسلمون عن مقاومتهم فلم يقدروا على إدخالهم في الإسلام أو الذمة ، فيجوز لهم حينئذ مصالحتهم على الجلاء من بلادهم .

وفي هذه القصة دلالة على جواز مصالحتهم على مجهول من المال ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم صالحهم على أرضهم ، وعلى الحلقة ، وترك لهم ما أقلَّت الإبل ، وذلك مجهول .

قوله تعالى : ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ سبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرق نخل بني النضير ، وقطع ، فنزلت هذه الآية ، أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر .

وذكر المفسرون أنه لما نزلت ببني النضير تحصَّنوا في حصونهم ، فأمر بقطع نخيلهم ، وإحراقها ، فجزعوا ، وقالوا : يا محمد زعمتَ أنك تريد الصلاح ، أفمن الصلاح عقر الشجر ، وقطع النخل ؟ وهل وجدت فيما أُنزل عليك الفساد في الأرض ؟ فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجد المسلمون في أنفسهم من قولهم .

واختلف المسلمون، فقال بعضهم: لا تقطعوا، فإنه مما أفاء الله علينا.

وقال بعضهم: بل نغيظهم بقطعها، فنزلت هذه الآية بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله تعالى.

وفي المراد "باللينة" ستة أقوال.

أحدها: أنه النخل كلُّه ما خلا العجوة، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

وبه قال عكرمة، وقتادة، والفراء.

والثاني: أنه النخل والشجر، رواه عطاء عن ابن عباس.

والثالث: أنها ألوان النخل كلّها إلا العجوة، والبرنية، قاله الزهري، وأبو عبيدة، وابن قتيبة.

وقال الزجاج: أهل المدينة يسمون جميع النخيل: الألوان، ما خلا البرني، والعجوة.

وأصل "لينة" لِوْنة، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها.

والرابع: أنها النخل كلُّه، قاله مجاهد، وعطية، وابن زيد.

قال ابن جرير.

معنى الآية: ما قطعتم من ألوان النخيل.

والخامس: أنها كرام النخل، قاله سفيان.

والسادس: أنها ضرب من النخل يقال لتمرها: اللون، وهي شديدة الصُّفْرة، ترى نواه من خارج، وكان أعجب ثمرهم إليهم، قاله مقاتل.

وفي عدد ما قطع المسلمون ثلاثة أقوال.

أحدها: أنهم قطعوا وأحرقوا ست نخلات، قاله الضحاك.

والثاني: أحرقوا نخلة، وقطعوا نخلة، قاله ابن إسحاق.

والثالث: قطعوا أربع نخلات، قاله مقاتل.

قوله تعالى ﴿ فبإذن الله ﴾ قال يزيد بن رومان ومقاتل: بأمر الله.

قوله تعالى: ﴿ وليخزي الفاسقين ﴾ يعني اليهود.

وخزيهم: أن يُرِيَهم أموالهم يتحكَّم فيها المؤمنون كيف أحبُّوا.

والمعنى: وليخزي الفاسقين، أذن في ذلك، ودل على المحذوف قوله: ﴿ فبإذن الله ﴾.

قوله تعالى ﴿ وما أفاء الله على رسوله ﴾ أي ما ردَّ عليهم ﴿ منهم ﴾ يعني: من بني النضير ﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ قال أبو عبيدة: الإيجاف: الإيضاع، والركاب: الإبل.

قال ابن قتيبة: يقال وجف الفرس والبعير، وأوجفته ومثله: الإيضاع، وهو الإسراع في السير.

وقال الزجاج: معنى الآية: أنه لا شيء لكم في هذا، إنما هو لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة.

قال المفسرون: طلب المسلمون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخمِّسَ أموال بني النضير لما أُجْلُوا، فنزلت هذه الآية تبين أنها فيىء لم تحصل لهم بمحاربتهم، وإنما هو بتسليط رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو له خاصة، يفعل فيه ما يشاء، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار منه شيئاً، إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة، وهم: أبو دُجَانة، وسهل بن حُنيف، والحارث بن الصِّمَّة.

ثم ذكر حكم الفيىء فقال تعالى: ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ أي: من أموال كفار أهل القرى ﴿ فلله ﴾ أي: يأمركم فيه بما أحب، ﴿ ولرسوله ﴾ بتحليل الله إياه.

وقد ذكرنا "ذوي القربى واليتامى" في [الأنفال: 41] وذكرنا هناك الفرق بين الفيىء والغنيمة.

فصل

واختلف العلماء في حكم هذه الآية ، فذهب قوم : أن المراد بالفيىء ها هنا : الغنيمة التي يأخذها المسلمون من أموال الكافرين عنوة ، وكانت في بدوِّ الإسلام للذين سمَّاهم الله ها هنا دون الغالبين الموجفين عليها ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى في [الأنفال : 41] ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء . . .

﴾ الآية ، هذا قول قتادة ، ويزيد بن رومان .

وذهب قوم إلى أن هذا الفيىء : ما أخذ من أموال المشركين ما لم يوجف بخيل ولا ركاب ، كالصلح ، والجزية ، والعشور ، ومال من مات منهم في دار الإسلام ولا وارث له ، فهذا كان يقسم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة أخماس ، فأربعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل بها ما يشاء ، والخمس الباقي للمذكورين في هذه الآية .

واختلف العلماء فيما يصنع بسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته على ما بيَّنَّا في [الأنفال : 41] فعلى هذا تكون هذه الآية مثبتة لحكم الفيىء والتي في [الأنفال : 41] مثبتة لحكم الغنيمة ، فلا يتوجه النسخ .

قوله تعالى : ﴿ كي لا يكون ﴾ يعني : الفيىء ﴿ دُولة ﴾ وهو اسم للشيء يتداوله القوم .

والمعنى لئلا يتداوله الأغنياء بينهم فيغلبوا الفقراء عليه .

قال الزجاج : الدُّولة : اسم الشيء يتداول .

والدَّولة، بالفتح: الفعل والانتقال من حال إلى حال ﴿ وما آتاكم الرسول ﴾ من الفيىء ﴿ فخذوه وما نهاكم ﴾ عن أخذه ﴿ فانتهوا ﴾ وهذا نزل في أمر الفيىء، وهو عام في كل ما أمر به، ونهى عنه.

قال الزجاج ثم بين مَن المساكين الذي لهم الحق، فقال تعالى: ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم ﴾ قال المفسرون: يعني بهم المهاجرين ﴿ يبتغون فضلاً من الله ﴾ أي: رزقاً يأتيهم ﴿ ورضواناً ﴾ رضى ربهم حين خرجوا إلى دار الهجرة ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ في إيمانهم.

(154/757)

ثم مدح الأنصار حين طابت أنفسهم عن الفيىء، فقال تعالى: ﴿ والذين تبوَّؤا الدار ﴾ يعني: دار الهجرة، وهي المدينة ﴿ والإيمان من قبلهم ﴾ فيها تقديم وتأخير، تقديره: والذين تبوَّؤُوا الدار من قبلهم، أي: من قبل المهاجرين، والإيمان عطف على "الدار" في الظاهر، لا في المعنى، لأن "الإيمان" ليس بمكان يُتَبَوَّأُ، وإنما تقديره: وآثروا الإيمان، وإِسلام المهاجرين قبل الأنصار، وسكنى الأنصار المدينة قبل المهاجرين.

وقيل: الكلام على ظاهره، والمعنى: تبوَّؤوا الدار والإيمان قبل الهجرة ﴿ يحبُّون من

هاجر إليهم ﴾ وذلك أنهم شاركوهم في منازلهم، وأموالهم ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة ﴾ أي: حسداً وغيظاً مما أوتي المهاجرون.

وفيما أوتوه قولان:

أحدهما: مال الفيء، قاله الحسن.

وقد ذكرنا آنفاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قسم أموال بني النضير بين المهاجرين، ولم يعط من الأنصار غير ثلاثة نفر.

والثاني: الفضل والتقدُّم، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ﴾ بأموالهم ومنازلهم ﴿ ولو كان بهم خصاصة ﴾ أي فقر وحاجة، فبين الله عز وجل أن إيثارهم لم يكن عن غنى.

وفي سبب نزول هذا الكلام قولان:

أحدهما: "أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أصابه الجهد، فقال: يا رسول الله: إِني جائع فأطعمني، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أزواجه: هل عندكنَّ شيء؟ فكلُّهن قلن: والذي بعثك بالحق ما عندنا إِلا الماء، فقال: ما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يطعمكَ هذه الليلة.

ثم قال : "من يضيف هذا هذه الليلة يرحمه الله ؟" فقام رجل فقال : أنا يا رسول الله ، فأتى به منزله ، فقال لأهله : هذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأكرميه ولا تدَّخري عنه شيئاً ، فقالت : ما عندنا إلا قوت الصبية ، فقال : قومي فعلِّليهم عن قوتهم حتى يناموا ولا يطعموا شيئاً ، ثم أصبحي سراجِك ، فإذا أخذ الضيف ليأكل ، فقومي كأنك تصلحين السراج ، فأطفئيه ، وتعالَيْ نمضغ ألسنتنا لأجل ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يشبع ، ففعلت ذلك ، وظن الضيف أنهما يأكلان معه ، فشبع هو ، وباتا طاويَين ، فلما أصبحا غَدَوَا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نظر اليهما تبسَّم ، ثم قال : ضحك الله الليلة ، أو عجب من فَعالكما " ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . . .

﴾ الآية .

أخرجه البخاري ومسلم في "الصحيحين" من حديث أبي هريرة وفي بعض الألفاظ عن أبي هريرة : أن الضيف كان من أهل الصُّفَّة ، والمضيف كان من الأنصار ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

"لقد عجب من فعالكما أهلُ السماء " .

والثاني : أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أُهْدِيَ له رأسُ شاةٍ ، فقال

: إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا ، فبعث به إليه ، فلم يزل يبعث به واحد إلى واحد حتى تداولها سبعة أهل أبيات ، حتى رجعت إلى أولئك ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عمر .

وروي نحو هذه القصة عن أنس بن مالك قال : أُهدي لبعض الصحابة رأسُ شاةٍ مشويّ ، وكان مجهوداً ، فوجّه به إلى جارٍ له فتناوله تسعة أُنفس ، ثم عاد إلى الأول ، فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ ومن يوق شح نفسه ﴾ وقرأ ابن السميفع ، وأبو رجاء ، "ومن يُوَقَّ" بتشديد القاف .

قال المفسرون : هو أن لا يأخذ شيئاً مما نهاه الله عنه ، ولا يمنع شيئاً أمره الله بأدائه .

والمعنى : أن الأنصار ممن وُقِيَ شُحَّ نفسه حين طابت أنفسهم بترك الفيىء للمهاجرين .

فصل

(156/757)

وقد اختلف العلماء في الشح والبخل ، هل بينهما ، فرق ، أم لا ؟ فقال ابن جرير : الشُّحُّ في كلام العرب : هو منع الفضل من المال .

وقال أبو سليمان الخطابي : الشح أبلغ في المنع من البخل ، وإنما الشُّحُّ بمنزلة الجنس ، والبخل بمنزلة النوع ، وأكثر ما يقال في البخل : إنما هو في أفراد الأمور وخواص الأشياء ، والشح عام ، فهو كالوصف اللازم للإنسان من قِبَل الطَّبع والجِبِلَّة .

وحكى الخطابي عن بعضهم أنه قال : البخل : أن يَضِنَّ بماله ، والشح : أن يبخل بماله ومعروفه .

وقد روى أبو الشعثاء أن رجلا أتى ابن مسعود فقال : إني أخاف أن أكون قد هلكت ، قال : وما ذاك ؟ قال : أسمع الله يقول : "ومن يوق شح نفسه" وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يديَّ شيء ، فقال : ليس ذلك بالشح الذي ذكره الله في القرآن ، الشُّحُّ : أن تأكل مال أخيك ظلماً ، إنما ذلك البخل ، وبئس الشيء البخل وروى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بريء من الشُّحِّ من أدّى الزكاة ، وقَرَى الضيف ، وأعطى في النائبة " .

قوله تعالى : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ يعني التابعين إلى يوم القيامة .

قال الزجاج : والمعنى : ما أفاء الله على رسوله فلله وللرسول ولهؤلاء المسلمين ، وللذين يجيئون من بعدهم إلى يوم القيامة ما أقاموا على محبة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودليل هذا قوله تعالى : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ أي : الذين جاؤوا في حال قولهم : ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا ﴾ فمن ترحَّم على أصحاب رسول الله صلى الله

عليه وسلم ولم يكن في قلبه غِلٌّ لهم ، فله حَظٌّ من فيىء المسلمين ، ومن شتمهم ولم يترحَّم عليهم ، وكان في قلبه غِلٌّ لهم ، فما جعل الله له حقاً في شيء من فيىء المسلمين بنص الكتاب .

(157/757)

وكذلك روي عن مالك بن أنس رضي الله عنه أنه قال : من تنقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو كان في قلبه عليهم غِلٌّ ، فليس له حق في فيىء المسلمين ، ثم تلا هذه الآيات .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا ﴾ يعني : عبد الله بن أُبيٍّ وأصحابه ﴿ يقولون لإخوانهم ﴾ في الدِّين ، لأنهم كفَّار مثلهم ، وهم اليهود ﴿ لئن أُخرجتم ﴾ من المدينة ﴿ لنخرجنَّ معكم ولا نطيع فيكم ﴾ أي : في خذلانكم ﴿ أحداً أبداً ﴾ فكذَّبهم الله تعالى في ذلك بقوله : ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ ثم ذكر أنهم يُخلفونهم ما وعدوهم من الخروج والنصر بالآية التي تلي هذه ، فكان الأمر على ما ذكره الله تعالى ، لأنهم أُخرجوا فلم يخرج معهم المنافقون ، وقُوتلوا فلم ينصروهم ، ومعنى ﴿ ولئن نصروهم ﴾ لئن قُدِّر وجودُ نصرهم ، لأن الله نفى نصرهم ، فلا يجوز وجوده .

وقوله تعالى: ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ يعني: بني النضير.

قوله تعالى: ﴿ لأنتم أشد ﴾ يعني: المؤمنين أشد ﴿ رهبة في صدورهم ﴾ وفيهم قولان.

أحدهما: أنهم المنافقون، قاله مقاتل.

والثاني بنو النضير، قاله الفراء.

قوله تعالى: ﴿ لا يقاتلونكم جميعاً ﴾ فيهم قولان.

أحدهما: أنهم اليهود، قاله الأكثرون.

والثاني: اليهود والمنافقون، قاله ابو سليمان الدمشقي.

والمعنى: أنهم لا يبرزون لحربكم، إنما يقاتلون مُتَحَصِّنين ﴿ في قرىً محصنة أو من وراء جُدُر، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبان "جدار" بألف.

وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، "جُدُر" بضم الجيم والدَّال.

وقرأ أبو بكر الصِّدِّيق، وابن أبي عبلة، "جَدَر" بفتح الجيم والدال جميعاً، وقرأ عمر بن الخطاب، ومعاوية، وعاصم الجحدري، "جَدْر" بفتح الجيم وسكون الدال.

وقرأ علي بن أبي طالب ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وعكرمة ، والحسن ، وابن سيرين ، وابن يعمر ، "جُدْر" بضم الجيم وإِسكان الدال ﴿ بأسُهم بينهم شديدٌ ﴾ فيما وراء الحصون شديد ، وإذا خرجوا إِليكم فهم أجبن خلق الله .

قوله تعالى : ﴿ تحسبهم جميعاً ﴾ فيهم قولان .

أحدهما : أنهم اليهود والمنافقون ، قاله مقاتل .

والثاني : بنو النضير ، قاله الفراء .

قوله تعالى : ﴿ وقلوبهم شتى ﴾ قال الزجاج : أي : هم مختلفون لا تستوي قلوبهم ، ولا يتعاونون بنيّات مجتمعة ، لأن الله تعالى ناصر حزبه ، وخاذل أعدائه .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ يعني : ذلك الاختلاف ﴿ بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ ما فيه الحظُّ لهم .

ثم ضرب لليهود مثلاً ، فقال تعالى : ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ﴾ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : بنو قينقاع ، وكانوا وادعوا رسول الله ، ثم غدروا ، فحصروهم ، ثم نزلوا ، على حكمه ، أن له أموالهم ، ولهم النساء والذُّرِّية .

فالمعنى : مثل بني النضير فيما فعل بهم كبني قينقاع فيما فعل بهم .

والثاني : أنهم كفار قريش يوم بدر ، قاله مجاهد .

والمعنى : مَثَلُ هؤلاء اليهود كمثلِ المشركين الذين كانوا من قبلهم قريباً ، وذلك لقرب غزاة بني

النضير من غزاة بدر .

والثالث : أنهم بنو قريظة ، فالمعنى : مَثَلُ بني النضير كبني قريظة ﴿ ذاقوا وبال أمرهم ﴾ بأن قُتلت مقاتلتهم ، وسُبِيَتْ ذراريهم ، وهؤلاء أُجلوا عن ديارهم ، فذاقوا وبال أمرهم ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ في الآخرة .

ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلاً فقال تعالى : ﴿ كمثل الشيطان ﴾ .

والمعنى : مثل المنافقين في غرورهم بني النضير ، وقولهم لئن أُخرجتم لنخرجنَّ معكم ، ولئن قوتلتم لننصرنكم ، كمثل الشيطان ﴿ إذ قال للإنسان اكفر ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : أنه مَثَلٌ ضربه الله تعالى للكافر في طاعة الشيطان ، وهو عام في جميع الناس ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه مَثَلٌ ضربه الله لشخص معين ، وعلى هذا جمهور المفسرين ، وهذا شرح قصته .

ذكر أهل التفسير أن عابداً من بني إسرائيل كان يقال له برصيصا تعبَّد في صومعةٍ له أربعين سنة لا يقدر عليه الشيطان ، فجمع إبليس يوماً مردة الشياطين ، فقال : ألا أحدٌ منكم يكفيني برصيصا ؟ فقال الأبيض : وهو صاحب الأنبياء : أنا أكفيكه ، فانطلق على صفة الرهبان ، وأتى صومعته ، فناداه فلم يجبه وكان لا ينفتل عن صلاته ، إلا في كل عشرة أيام ، ولا يفطر إلا في كل عشرة أيام ، فلما رأى أنه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صومعته ، فلما انفتل برصيصا ، اطَّلع فرآه منتصباً يصلي على هيئة حسنة ، فناداه ما حاجتك ؟ فقال : إني أحببت أن أكون معك ، أقتبس من عملك ، وأتأدَّب بأدبك ، ونجتمع على العبادة ، فقال برصيصا : إني لفي شغل عنك ، ثم أقبل على صلاته ، وأقبل الأبيض يصلي ، فلم يُقْبِل إليه برصيصا أربعين يوماً ، ثم انفتل ، فرآه يصلي ، فلما رأى شدة اجتهاده ، قال : ما حاجتك ؟ فأعاد عليه القول ، فأذن له ، فصعِد إليه ، فأقام معه حولاً لا يفطر إلا كل أربعين يوماً ، ولا ينفتل من صلاته إلا في كل أربعين يوماً ، وربما زاد على ذلك ، فلما رأى برصيصا اجتهاده ، أعجبه شأنه وتقاصرت إليه نفسه ، فلما حال الحول قال الأبيض لبرصيصا : إني منطلق عنك ، فإن لي صاحباً غيرك ظننت أنك أشد اجتهاداً مما أرى ، وكان يبلغنا عنك غير الذي أرى ، فاشتد ذلك على برصيصا ، وكره مفارقته ، فلما ودَّعه قال له الأبيض : إن عندي دَعَوَاتٍ أعلمكها ، يشفي الله بها السقيم ، ويعافي بها المبتلي ،

فقال برصيصا : إِني أكره هذه المنزلة ، لأن لي في نفسي شغلاً ، فأخاف أن يعلم الناس بهذا ، فيشغلوني عن العبادة ، فلم يزل به حتى علمه إياها ، ثم انطلق إلى إِبليس فقال : قد والله أهلكتُ الرجل فانطلق الأبيض ، فتعرّض لرجل فخنقه ، ثم جاءه في صورة رجل متطبِّب ، فقال لأهله : إن بصاحبكم جنوناً فأعالجه؟ قالوا : نعم فقال لهم : إِني لا أقوى على جنّيِّه ، ولكن سأرشدكم

(161/757)

إِلى من يدعو له فيعافى ، فقالوا له : دُلنَّا ، قال : انطلقوا إِلى برصيصا العابد ، فإن عنده اسم الله الأعظم ، فانطلقوا إليه ، فدعا بتلك الكلمات ، فذهب عنهم الشيطان ، وكان الأبيض يفعل بالناس ذلك ، ثم يرشدهم إلى برصيصا ، فيُعافَوْن ، فلما طال ذلك عليه انطلق إلى جارية من بنات ملوك بني إسرائيل ، لها ثلاثة إخوة ، فخنقها ، ثم جاء إليهم في صورة متطبِّب ، فقال أعالجها ؟ قالوا : نعم .

فقال إِن الذي عرض لها مارد لا يطاق ، ولكن سأرشدكم إلى رجل تَدعونها عنده ، فإذا جاء شيطانها دعا لها ، قالوا ، ومن هو؟ قال برصيصا ، قالوا : فكيف لنا أن يقبلها منّا ، وهو أعظم شأناً من ذلك؟ ! قال : إن قبلها ، وإلا فضعوها في صومعته ، وقولوا له : هي

أمانة عندك ، فانطلقوا اليه ، فأبى عليهم ، فوضعوها عنده .

وفي بعض الروايات أنه قال : ضعوها في ذلك الغار ، وهو غار إلى جنب صومعته ، فوضعوها ، فجاء الشيطان فقال له : انزل إِليها فامسحها بيدك تعافى ، وتنصرف إلى أهلها ، فنزل ، فلما دنا إلى باب الغار دخل الشيطان فيها ، فإذا هي تركض ، فسقطت عنها ثيابها ، فنظر العابد إلى شيء لم ير مثله حسناً وجمالاً ، فلم يتمالك أن وقع عليها ، وضرب على أذنه ، فجعل يختلف اليها إلى أن حملت ، فقال له الشيطان : ويحك يا برصيصا قد افتُضحت ، فهل لك أن تقتل هذه وتتوب ؟ ! فأن سألوك عنها فقل : جاء شيطانها ، فذهب بها ، فلم يزل بها حتى قتلها ، ودفنها ، ثم رجع إلى صومعته ، فأقبل على صلاته إِذ جاء إخوتها يسألون عنها ، فقالوا : يا برصيصا ! ما فعلت أختنا ؟ قال : جاء شيطانها فذهب بها ، ولم أطقه ، فصدَّقوه ، وانصرفوا .

وفي بعض الروايات أنه قال : دعوت لها ، فعافاها الله ، ورجعتْ اليكم ، فتفرَّقوا ينظرون لها أثراً ، فلما أمسَوْا جاء الشيطان إلى كبيرهم في منامه ، فقال : ويحك : إِن برصيصا فعل بأختك كذا وكذا .

وإنه دفنها في موضع كذا من جبل كذا ، فقال : هذا حلم ، وبرصيصا خير من ذلك ، فتتابع عليه ثلاث ليال ، ولا يكترث ، فانطلق إلى الأوسط كذلك ، ثم إلى الأصغر مثل ذلك ، فقال الأصغر لإخوته : لقد رأيت كذا وكذا ، فقال الأوسط : وأنا والله ، فقال الأكبر : وأنا والله ، فأتوا برصيصا ، فسألوه عنها .

فقال : قد أعلمتكم بحالها ، فكأنكم اتّهمتموني ، قالوا : لا والله ، واستحيَوْا ، وانصرفوا ، فجاءهم الشيطان فقال : ويحكم إنها لمدفونة في موضع كذا وكذا ، وإن إزارها لخارج من التراب ، فانطلقوا ، فحفروا عنها ، فرأوها ، فقالوا : يا عدوّ الله لم قتلتها ؟ اهبط .

فهدموا صومعته ، ثم أوثقوه ، وجعلوا في عنقه حبلاً ، ثم قادوه إلى الملك فأقرّ على نفسه ، وذلك أن الشطيان عرض له ، فقال : تقتلها ثم تكابر ، فاعترف ، فأمر الملك بقَتْلِه وصَلْبِه ، فعرض له الأبيض ، فقال : أتعرفني ؟ قال : لا ، قال : أنا صاحبك الذي علّمتك الدعوات ، ويحك ما اتّقيت الله في أمانة خنت أهلها ، أما استحيَيْتَ من الله ؟ ! ألم يكفك ذلك حتى أقررت ففضحت نفسك وأشباهك بين الناس ؟ ! فإن مِتَّ على هذه الحالة لم تفلح ، ولا أحدٌ من نظرائك ، قال : فكيف أصنع ؟ قال : تطيعني في خصلة حتى أُنجيك ، وآخذ بأعينهم ، وأُخرجك من مكانك ، قال : ما هي ؟ قال : تسجد لي ، فسجد له ، فقال : هذا الذي أردت منك صارت عاقبة أمرك أن كفرت ﴿ إني بريء منك ﴾ ثم قتل .

فضرب الله هذا المثل لليهود حين غَرّهم المنافقون ، ثم أسلموهم .

قوله تعالى: ﴿ إني أخاف الله ﴾ ونصب ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو ياء "إنيَ" وأسكنها الباقون.

وقد بيّنا المعنى في [الأنفال: 48] ﴿ فكان عاقبتهما ﴾ يعني: الشيطان وذلك الكافر.

(163/757)

قوله تعالى: ﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ أي: لينظر أحدكم أيّ شيء قَدَّم؟ أعملاً صالحاً يُنجيه؟ أم سيئاً يُوبِقُه؟ ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله ﴾ أي: تركوا أمره ﴿ فأنساهم أنفسهم ﴾ أي: أنساهم حظوظ أنفسهم، فلم يعملوا بالطاعة، ولم يقدِّموا خيراً.

قال ابن عباس: يريد قريظة، والنضير، وبني قينقاع.

قوله تعالى: ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾ أخبر الله بهذا عن تعظيم شأن القرآن، وأنه لو جعل في جبل -على قساوته وصلابته- تمييزاً، كما جعل في بني آدم، ثم أنزل عليه القرآن لتشقّق من خشية الله، وخوفاً أن لا يؤدِّيَ حق الله في تعظيم القرآن.

و"الخاشع": المتطأطىء الخاضع، و"المتصدِّع": المتشقِّق.

وهذا توبيخ لمن لا يحترم القرآن ، ولا يؤِّثر في قلبه مع الفهم والعقل ، ويَدُلُّك على هذا المثل قوله تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾ ثم أخبر بعظمته وربوبيته ، فقال تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو ﴾ قال الزجاج : قوله تعالى : ﴿ هو الله ﴾ ردٌّ على قوله تعالى : في أول السورة : ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

فأما هذه الأسماء ، فقد سبق ذكر "الله" ، و"الرحمن" ، و"الرحيم" في (الفاتحة) وذكرنا معنى "عالم الغيب والشهادة" في [الأنعام : 73] .

و"الملك" في سورة [المؤمنين : 116] .

فأما "القدوس" فقرأ أبو الأشهب ، وأبو نهيك ، ومعاذ القارىء بفتح القاف .

قال أبو سليمان الخطابي : "القدوس" : الطاهر من العيوب ، المنزَّه عن الأنداد والأولاد .

"والقدس" : الطهارة .

ومنه سمي : بيت المقدس ، ومعناه : المكان الذي يُتَطَهَّرُ فيه من الذنوب ، وقيل للجنة : حظيرة القدس ، لطهارتها من آفات الدنيا .

والقدس : السطل الذي يتطهر فيه ، ولم يأت من الأسماء على فُعُّول بضم الفاء الا "قُدُّوس" ، و"سُبُّوح" وقد يقال أيضاً : قَدُّوس ، وسَبُّوح ، بالفتح فيهما ، وهو القياس في الأسماء ، كقولهم سَفُّود ، وكَلُّوب .

فأما "السلام" فقال ابن قتيبة : سمى نفسه سلاماً ، لسلامته مما يلحق الخلق من العيب والنقص والفناء .

وقال الخطابي : معناه : ذو السلام .

والسلام في صفة الله سبحانه : هو الذي سَلِمَ من كل عيب ، وبرىء من كل آفة ونقص يلحق المخلوقين .

قال : وقد قيل : هو الذي سَلِمَ الخلقُ من ظلمه .

فأما "المؤمن" ، ففيه ستة أقوال .

أحدها : أنه الذي أَمِنَ الناسُ ظلمَهُ ، وأَمِنَ مَنْ آمَنَ به عذابَهُ ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : أنه المجير ، قاله القرظي .

والثالث : الذي يصدّق المؤمنين إذا وحّدوه ، قاله ابن زيد .

والرابع : أنه الذي وَحّد نفسه ، لقوله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ [آل عمران : 18] ذكره الزجاج.

والخامس : أنه الذي يُصدِّق عباده وعده ، قاله ابن قتيبة .

والسادس: أنه يصدِّق ظنون عباده المؤمنين، ولا يُخيِّب آمالَهم، كقول النبي عليه الصلاة والسلام فيما يحكيه عن ربه عز وجل: ﴿ أنا عند ظن عبدي بي ﴾ حكاه الخطابي.

فأما "المهيمن" ففيه أربعة أقوال.

أحدها: أنه الشهيد، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والكسائي.

قال الخطابي: ومنه قوله تعالى ﴿ ومهيمناً عليه ﴾ [المائدة: 48]، فالله الشاهد على خلقه بما يكون منهم من قول أو فعل.

والثاني: أنه الأمين، قاله الضحاك، قال الخطابي: وأصله: مؤيمن، فقلبت الهمزة هاءً، لأن الهاء أَخَفُّ عليهم من الهمزة.

ولم يأت مُفَيْعِلٌ في غير التصغير، إلا في ثلاثة أحرف "مسيطر" و"مُبيطر" و"مهيمن" وقد ذكرنا في سورة [الطور: 37] عن أبي عبيدة، أنها خمسة أحرف:

والثالث: المصدِّق فيما أخبر، قاله ابن زيد.

والرابع: أنه الرقيب على الشيء، والحافظ له، قاله الخليل.

قال الخطابي: وقال بعض أهل اللغة.

الهيمنة : القيام على الشيء ، والرعاية له ، وأنشد :

أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ نَبِيِّهِ . . .

مُهَيْمِنُهُ التَّالِيهِ فِي الْعُرْفِ وَالنُّكْرِ

يريد القائم على الناس بعده بالرِّعاية لهم .

وقد زدنا هذا شرحاً في [المائدة : 48] وبيَّنَّا معنى : "العزيز" في [البقرة : 129] .

فأما "الجبار" ، ففيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه العظيم ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه الذي يقهر الناس ويجبرهم على ما يريد ، قاله القرظي والسدي .

وقال قتادة : جبر خلقه على ما شاء .

وحكى الخطابي : أنه الذي جبر الخلق على ما أراد من أمره ونهيه .

يقال : جبره السلطان ، وأجبره .

والثالث : أنه الذي جبر مفاقر الخلق ، وكفاهم أسباب المعاش والرزق .

والرابع : أنه العالي فوق خلقه ، من قولهم : تجبر النبات : إِذا طال وعلا ، ذكر القولين الخطابي .

فأما "المتكبر" ففيه خمسة أقوال :

أحدها : أنه الذي تكبَّر عن كل سوءٍ ، قاله قتادة .

والثاني : أنه الذي تكبَّر عن ظلم عباده ، قاله الزجاج.

والثالث : أنه ذو الكبرياء ، وهو الملك ، قاله ابن الأنباري .

والرابع : أنه المتعالي عن صفات الخلق .

والخامس : أنه الذي يتكبَّر على عتاة خلقه ، إذا نازعوه العظمة ، فقصمهم ، ذكرهما الخطابي .

قال : والتاء في "المتكبر" ﴿ تاء ﴾ التفرُّد والتخصُّص ، لأن التعاطي ، والتكلّف ، والكبر لا يليق بأحد من المخلوقين ، وإنما سمة العبد الخضوع والتذلل .

وقيل : إن المتكبر من الكبرياء الذي هو عظمة الله ، لا من الكبر الذي هو مذموم في الخلق .

وأما "الخالق" ، فقال الخطابي : هو المتبدىء للخلق المخترع لهم على غير مثال سبق ، فأما في نعوت الآدميين ، فمعنى الخلق : كقول زهير :

وَلأَنتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبَعْ . . .

ضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثم لا يَفْري

يقول : إذا قدرت شيئاً قطعته ، وغيرك يقدر ما لا يقطعه ، أي : يتمنَّى ما لا يبلغه ، و ﴿ الباريء ﴾ الخالق .

يقال : بَرَأَ الله الخلق ، يَبْرَؤُهُمْ .

"والمصوِّر" : الذي أنشأ خلقه على صُوَرٍ مختلفةٍ ليتعارفوا بها .

ومعنى التصوير : التخطيط ، والتشكيل .

وقرأ الحسن ، وأبو الجوزاء ، وأبو عمران ، وابن السميفع ، "الباريء المصور" بفتح الواو والراء جميعاً ، يعني : آدم عليه السلام .

وما بعد هذا قد تقدم بيانه [الأعراف : 180 ، والإسراء : 110] إلى آخر السورة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسيرحـ 8 صـ 201 . 229 ﴾

(167/757)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ﴾

قال المفسرون : نزلت هذه السورة في بني النضير وهم طائفة من اليهود وذلك أن النبي (

صلى الله عليه وسلم) لما دخل المدينة صالحه بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه فقبل ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلما غزا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بدراً وظهر على المشركين قال بنو النضير والله إنه النبي الأمي الذي نجد نعته في التوراة لا ترد له راية فلما غزا أحداً وهزم المسلمون ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وللمؤمنين ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكة فأتوا قريشاً فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد (صلى الله عليه وسلم) ودخل أبو سفيان في أربعين من قريش وكعب بن الأشرف في أربعين من اليهود المسجد الحرام وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين أستار الكعبة ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة فنزل جبريل فأخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان وأمره بقتل كعب بن الأشرف فقتله محمد بن مسلمة غيلة " وقد تقدمت القصة في سورة آل عمران وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) قد اطلع منهم على خيانة حين أتاهم يستعينهم في دية الرجلين المسلمين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري في منصرفه من بئر معونة فهموا بطرح حجر على النبي (صلى الله عليه وسلم) من الحصن فعصمه الله منهم وأخبره بذلك وقد تقدمت القصة في سورة المائدة .

فلما قتل كعب بن الأشرف أصبح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأمر الناس بالمسير إلى بني النضير وكانوا بقرية يقال لها زهرة فلما سار إليها النبي (صلى الله عليه وسلم) وجدهم ينوحون على كعب بن الأشرف فقالوا يا محمد واعية على أثر واعية وباكية على أثر باكية قال نعم فقالوا ذرنا نبك شجونا ثم ائتمر أمرك فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) اخرجوا من المدينة فقالوا الموت أقرب إلينا من ذلك ثم تنادوا بالحرب وأذنوا بالقتال ودس المنافقون عبد الله بن أبي وأصحابه إليهم أن لا تخرجوا من الحصين فإن قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنكم ولئن أخرجتم لنخرجن معكم فدربوا على الأزقة وحصنوها ثم إنهم أجمعوا على الغدر برسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأرسلوا إليه أن اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حتى نلتقي بمكان نصف بيننا وبينك فيسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا فخرج النبي (صلى الله عليه وسلم) في ثلاثين من أصحابه وخرج إليه ثلاثون حبراً من اليهود حتى كانوا في براز من الأرض فقال بعض اليهود لبعض كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه كلهم يحب الموت قبله ولكن أرسلوا إليه كيف نفهم ونحن ستون اخرج في ثلاثة من أصحابك ويخرج إليك كثلاثة من علمائنا فيسمعون منك فإن آمنوا بك آمنا بك وصدقناك ، فخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ثلاثة من أصحابه وخرج ثلاثة من اليهود معهم الخناجر

وأرادوا الفتك برسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار فأخبرته بما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبي (صلى الله عليه وسلم) فساره بخبرهم قبل أن يصل إليهم فرجع النبي (صلى الله عليه وسلم) فلما كان من الغد صبحهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالكتائب فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة فقذف

الله في قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر المنافقين فسألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الصلح فأبى عليهم إلا أن يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به فقبلوا ذلك فصالحهم على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من أموالهم إلا الحلقة وهي السلاح وعلى أن يخلوا لهم ديارهم وعقارهم وسائر أموالهم .

﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ يعني بني النضير ﴿ من ديارهم ﴾ يعني التي كانت بالمدينة .

قال ابن إسحاق كان إجلاء بني النضير مرجع النبي (صلى الله عليه وسلم) من أحد ، وفتح قريظة مرجعه من الأحزاب وبينهما سنتان ﴿ لأول الحشر ﴾ قال الزهري كانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما مضى وكان الله قد كتب عليهم الجلاء ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا قال ابن عباس من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية فكان هذا أول حشر إلى الشام قال النبي (صلى الله عليه وسلم) أخرجوا قالوا إلى أين ؟ قال إلى أرض المحشر ثم يحشر الخلق يوم القيامة إلى الشام وقيل إنما قال لأول الحشر لأنهم كانوا أول من أجلي من أهل الكتاب من جزيرة العرب ثم أجلي آخرهم عمر بن الخطاب وقيل كان هذا أول الحشر من المدينة والحشر الثاني من خيبر وجميع جزيرة العرب إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام في أيام عمر ، وقيل كان هذا أول الحشر والحشر الثاني نار تحشرهم يوم القيامة من المشرق إلى المغرب تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا ﴿ ما ظننتم ﴾ يعني أيها المؤمنين ﴿ أن يخرجوا ﴾ أي من المدينة لعزتهم ومنعتهم وذلك أنهم كانوا أهل حصون وعقار ونخل كثير ﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ﴾ أي وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من سلطان الله ﴿ فأتاهم الله ﴾ أي أتاهم أمر الله وعذابه ﴿ من حيث لم يحتسبوا ﴾ وهو أن الله أمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) بقتالهم وإجلائهم وكانوا لا يظنون ذلك ، ﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ أي الخوف الشديد بقتل سيدهم كعب بن

الأشرف ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴾ قال الزهري وذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لما صالحهم على أن لهم ما أقلت الإبل كانوا ينظرون إلى الخشب في منازلهم فيهدمونها وينزعون ما استحسنوه منها فيحملونه على إبلهم ويخرب المؤمنون باقيها وقيل كانوا يقلعون العمد وينقضون السقوف وينقبون الجدران لئلا يسكنها المؤمنون حسداً منهم وبغضاً وقيل كان المسلمون يخربون ما يليهم من ظاهرها ويخربها اليهود من داخلها وقال ابن

عباس كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم هدموها لتتسع لهم المقاتل وجعل أعداء الله ينقبون دورهم من أدبارها فيخرجون إلى التي بعدها فيتحصنون فيها ويكسرون ما يليهم ويرمون بالتي خرجوا منها أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ﴿ فاعتبروا ﴾ يعني فاتعظوا وانظروا ما نزل بهم ﴿ يا أولي الأبصار ﴾ يعني يا ذوي العقول والبصائر .

﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء ﴾ يعني الخروج من الوطن ﴿ لعذبهم في الدنيا ﴾ يعني بالقتل والسبي كما فعل ببني قريظة ﴿ ولهم في الآخرة عذاب النار ذلك ﴾ أي الذي لحقهم

ونزل بهم ﴿ بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ أي خالفوا الله ورسوله ﴿ ومن يشاقِّ الله فإن الله شديد العقاب ﴾ قوله تعالى : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾ الآية وذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لما نزل ببني النضير وتحصنوا بحصونهم أمر بقطع نخيلهم وأحرقها فجزع أعداء الله عند ذلك وقالوا يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح أفمن الصلاح عقر الشجر وقطع النخل وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض فوجد المسلمون في أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فساداً .

واختلفوا في ذلك فقال بعضهم لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا وقال بعضهم بل نغيظهم بقطعه فأنزل الله هذه الآية بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الإثم وأن ذلك كان بإذن الله تعالى (ق) عن ابن عمر قال : حرق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نخل بني النضير وقطع وهي البويرة فنزل ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾ البويرة اسم موضع لبني النضير وفي ذلك يقول حسان بن ثابت :

وهان على سراة بني لؤيّ . . .

حريق بالبويرة مستطير

قال ابن عباس النخل كلها لينة ما خلا العجوة وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقطع نخلهم إلا العجوة ، وأهل المدينة يسمون ما خلا العجوة من التمر الألوان وقيل النخل كلها لينة إلا العجوة والبرنية وقيل اللينة النخل كلها من غير استئناف وقال ابن عباس في رواية أخرى عنه هي لون من النخل وقيل كرام النخل وقيل هي ضرب من النخل يقال لتمرها اللون وهو شديد الصفرة ويرى نواه من خارج يغيب فيه الضرس وكان من أجود تمرهم وأعجبه إليهم وكانت النخلة الواحدة ثمنها ثمن وصيف وأحب إليهم من وصيف فلما رأوهم يقطعونها شق عليهم ذلك وقالوا للمؤمنين إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون دعوا هذا النخل قائماً هو لمن غلب عليه فأخبر الله أن قطعها كان بإذنه ، ﴿ وليخزي الفاسقين ﴾ يعني اليهود والمعنى ولأجل إخزاء اليهود أذن الله في قطعها احتج العلماء بهذه الآية على أن حصون الكفار وديارهم لا بأس أن تهدم وتحرق وترمى بالمجانيق وكذلك قطع أشجارهم ونحوها .

قوله : ﴿ وما أفاء الله على رسوله ﴾ أي ما رد الله على رسوله ﴿ منهم ﴾ أي من يهود بني النضير ﴿ فما أوجفتم عليه ﴾ يعني أوضعتم وهو سرعة السير ﴿ من خيل ولا ركاب ﴾ يعني الإبل التي تحمل القوم وذلك أن بني النضير لما تركوا رباعهم وضياعهم طلب المسلمون من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يقسمها بينهم كما فعل بغنائم خيبر فبين الله تعالى في هذه الآية أنها لم يوجف المسلمون عليها خيلاً ولا ركاباً ولم يقطعوا إليها شقة ولا نالوا مشقة وإنما كانوا يعني بني النضير على ميلين من المدينة فمشوا إليها مشياً ولم يركب إلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان على جمل ، ﴿ ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ﴾ من أعدائه ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ أي فهي له خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة وهم أبو دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة (ق) عن مالك بن أوس النضري أن عمر دعاه إذ جاءه حاجبه يرفأ فقال هل لك يا أمير المؤمنين في عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد يستأذنون ؟ قال نعم فأدخلهم فلبث قليلاً ثم جاء يرفأ فقال هل لك في عباس وعلي يستأذنان ؟ قال نعم فأذن لهما فلما دخلا قال العباس يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا فقال القوم أجل يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرح أحدهما من الآخر قال مالك بن أوس يخيل إليّ أنهم قد كانوا قدموهم لذلك فقال عمر اتئدوا أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون

أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " لا نورث ما تركنا صدقة " يريد بذلك نفسه قالوا نعم ثم أقبل عمر على العباس وعلي وقال أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض أتعلمان أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " لا نورث ما تركنا صدقة " قالا نعم قال عمر إن الله خص رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بخاصة

لم يخصص بها أحداً غيره فقال ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ الآية قال فقسم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بينكم أموال بني النضير فوالله ما استأثرها عليكم ولا أخذها دونكم فقد أعطاكموها وقسمها فيكم حتى بقي هذا المال وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يأخذ منه نفقة سنة ثم ما بقي يجعله مجعل مال الله فعمل بذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حياته ثم أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض أتعلمون ذلك ؟ قالوا نعم قال ثم نشد عباساً وعلياً بمثل ما نشد القوم أتعلمان ذلك ؟ قالا نعم قال فلما توفي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال أبو بكر أنا ولي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقبضه أبو بكر فعمل فيه بما عمل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنتم حينئذ وأقبل على علي وعباس وقال تذاكران أن أبا

بكر عمل فيه كما تقولان والله يعلم إنه لصادق راشد تابع للحق ثم توفى الله أبا بكر فقلت أنا ولي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأبي بكر فقبضته سنتين من إمارتي أعمل فيهما بما عمل فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأبو بكر والله يعلم إني فيه لصادق بار راشد تابع للحق ثم جئتماني كلاكما وكلمتكما واحدة وأمركما جميع فقلت لكما إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال

قوله تعالى : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ يعني من أموال كفار أهل القرى قال ابن عباس هي قريظة والنضير وفدك وخيبر وقرى عرينة ﴿ فلله وللرسول ولذي القربى ﴾ يعني بني هاشم وبني المطلب ﴿ واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ قد تقدم تفسيره في سورة الأنفال في حكم الغنيمة وقسمتها وأما حكم الفيء فإنه لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) مدة حياته يضعه حيث يشاء فكان ينفق على أهله منه نفقة سنتهم ويجعل ما بقي مجعل مال الله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله .

واختلف العلماء في مصرف الفيء بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال قوم هو للأئمة بعده وللشافعي فيه قولان أحدهما أنه للمقاتلة والثاني هو لمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من المصالح.

(176/757)

واختلفوا في تخميس مال الفيء فذهب قوم إلى أنه يخمس فخمس لأهل خمس الغنيمة وأربعة للمقاتلة أو للمصالح وذهب الأكثرون إلى أنه لا يخمس بل مصرف جميعه واحد ولجميع المسلمين فيه حق قرأ عمر بن الخطاب "ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى حتى بلغ للفقراء المهاجرين إلى قوله والذين جاؤوا من بعدهم" ثم قال هذه استوعبت المسلمين عامة قال وما على وجه الأرض مسلم إلا وله في هذا الفيء حق إلا ما ملكت أيمانكم ﴿ كيلا يكون ﴾ الفيء ﴿ دولة ﴾ والدولة اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم ﴿ بين الأغنياء منكم ﴾ يعني بين الرؤساء والأقوياء فيغلبوا عليه الفقراء والضعفاء وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا غنيمة أخذ الرئيس ربعها لنفسه وهو المرباع ثم يصطفي بعده ما شاء فجعله الله لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقسمه فيما أمره به ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ﴾ أي من مال الفيء والغنيمة ﴿ وما نهاكم عنه ﴾ أي من

الغلول وغيره ﴿ فانتهوا ﴾ وهذا نازل في أموال الفيء وهو عام في كل ما أمر به النبي (صلى الله عليه وسلم) أو نهي عنه من قول أو عمل من واجب أو مندوب أو مستحب أو نهى عن محرم فيدخل فيه الفيء وغيره (ق) عن عبد الله بن مسعود أنه قال "لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب وكانت تقرأ القرآن فأتته فقالت ما حديث بلغني عنك أنك قلت كذا وكذا وذكرته فقال عبد الله وما لي لا ألعن من لعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو في كتاب الله تعالى فقالت المرأة لقد قرأت لوحي المصحف فما وجدته فقال إن كنت قرأته لقد وجدته قال الله : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ الوشم هو غرز العضو من الإنسان بالإبرة ثم يحشى بكحل والمستوشمة هي التي تطلب أن يفعل بها ذلك والنامصة هي التي تنتف الشعر من الوجه والمتفلجة هي التي تتكلف تفريج ما بين ثناياها

بصناعة وقيل هي التي تتفلج في مشيتها فكل ذلك منهي عنه (ق) عن عائشة ا قالت قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ﴾ يعني ألجأهم كفار مكة إلى الخروج ﴿ يبتغون فضلاً من الله ﴾ أي رزقاً وقيل ثواباً من الله ﴿ ورضواناً ﴾ أي أخرجوا من ديارهم طلباً لرضا الله : ﴿ وينصرون الله ورسوله ﴾ أي بأنفسهم وأموالهم والمراد بنصر الله نصر دينه وإعلاء كلمته ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ أي في إيمانهم قال قتادة المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والعشائر وخرجوا حباً لله ولرسوله واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدة حتى ذكر لنا أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ما له دثار غيرها (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً " وعن أبي سعيد قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أبشروا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك خمسمائة سنة " أخرجه أبو داود .

قوله : ﴿ والذين تبوءو الدار والإيمان ﴾ يعني الأنصار توطنوا الدار وهي المدينة واتخذوها سكناً ﴿ من قبلهم ﴾ يعني أنهم أسلموا في ديارهم وآثروا الإيمان وابتنوا

المساجد قبل قدوم النبي (صلى الله عليه وسلم) بسنتين والمعنى والذين تبوءوا الدار من قبل المهاجرين وقد آمنوا لأن الإيمان ليس بمكان يتبوأ ﴿ يحبون من هاجر إليهم ﴾ وذلك أنهم أنزلوا المهاجرين في منازلهم وأشركوهم في أموالهم ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة ﴾ أي حزازة وغيظاً وحسداً ﴿ مما أوتوا ﴾ أي أعطي المهاجرين من الفيء دونهم وذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة فطابت أنفس الأنصار بذلك ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ﴾ أي ويؤثر الأنصار المهاجرين بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم ﴿ ولو كان بهم خصاصة ﴾ أي فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون به (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال " جاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال إني مجهود فأرسل إلى بعض نسائه فقالت والذي بعثك بالحق ما عندي إلا الماء ثم أرسل به إلى أخرى فقالت مثل ذلك وقلن كلهن مثل ذلك فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من يضيفه يرحمه الله فقام رجل من الأنصار يقال له أبو طلحة فقال أنا يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته هل عندك شيء ؟ قالت لا إلا قوت صبياني قال فعلليهم بشيء ونوميهم فإذا دخل ضيفنا فأريه أنا نأكل فإذا هوى بيده ليأكل فقومي إلى السراج كي تصلحيه فأطفئيه ففعلت فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين فلما أصبح غدا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لقد عجب الله أو

ضحك الله من فلان وفلانة " زاد في رواية " فأنزل الله ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ " .

(179/757)

(ق) عن أبي هريرة قال " قالت الأنصار للنبي (صلى الله عليه وسلم) أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل قال لا فقالوا تكفونا ونشرككم في الثمر قالوا سمعنا وأطعنا " (خ) عن أنس بن مالك قال " دعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين فقالوا لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها فقال أما لا فاصبروا حتى تلقوني على الحوض فإنه سيصيبكم أثرة بعدي " وفي رواية " ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض " الأثرة بفتح الهمزة والثاء والراء وضبطه بعضهم بضم الهمزة وإسكان الثاء والأول أشهر ومعناه الاستئثار وهو أن يستأثر عليكم بأمور الدنيا ويفضل غيركم عليكم ولا يجعل لكم في الأمر نصيب وقيل هو من آثر إذا أعطى أراد يستأثر عليكم بأمور الدنيا ويفضل غيركم عليكم ولا يجعل لكم في الأمر نصيب وقيل هو من آثر إذا أعطى أراد يستأثر عليكم غيركم فيفضل في نصيبه من الفيء والاستئثار الانفراد بالشيء وقيل الأثرة الشدة

والأول أظهر وعن ابن عباس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم النضير للأنصار

قوله تعالى : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ يعني من بعد المهاجرين والأنصار وهم التابعون لهم إلى يوم القيامة ﴿ يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ أخبر أنهم يدعون لأنفسهم بالمغفرة ولإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان ﴿ ولا تجعل في قلوبنا غلاًّ ﴾ أي غشاً وحسداً وبغضاً ﴿ للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ فكل من كان في قلبه غل أو بغض لأحد من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولم يترحم على جميعهم فإنه ليس ممن عناه الله بهذه الآية لأن الله تعالى رتب المؤمنين على ثلاث منازل المهاجرين ثم من بعدهم التابعون الموصوفون بما ذكر فمن لم يكن من التابعين بهذه الصفة كان خارجاً من أقسام المؤمنين وليس له في المسلمين نصيب وقال ابن أبي ليلى الناس على ثلاثة منازل الفقراء المهاجرون والذين تبوءوا الدار والإيمان والذين جاؤوا من بعدهم فاجتهد أن لا تكون خارجاً من هذه الثلاث منازل (ق) عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد

أحدهم ولا نصيفه " (م) عن عروة بن الزبير قال قالت عائشة " يا ابن أختي أمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسبوهم " عن عبد الله بن مغفل قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فبغضبي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه " أخرجه الترمذي وقال مالك بن أنس : من انتقص أحداً من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أو كان في قلبه غل عليهم فليس له حق في فيء المسلمين ثم تلا هذه الآية ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ -إلى- ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ -إلى- ﴿ رؤوف رحيم ﴾ وقال مالك بن مغول قال الشعبي يا مالك تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة

(181/757)

بخصلة سئلت اليهود من خير أهل ملتكم؟ قالوا أصحاب موسى وسئلت النصارى من خير أهل ملتكم؟ قال حواري عيسى وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم؟ فقالوا أصحاب محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم والسيف مسلول عليهم إلى يوم القيامة لا تقوم لهم راية ولا يثبت لهم قدم ولا تجمع لهم كلمة

كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم وتفريق شملهم وإدحاض حجتهم أعاذنا الله وإياكم من الأهواء المضلة .

وروي عن جابر قال قيل لعائشة إن ناساً يتناولون أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى أبا بكر وعمر فقالت وما تعجبون من هذا انقطع عنهم العمل فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر .

وروي أن ابن عباس سمع رجلاً ينال من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال له : من أمن المهاجرين الأولين أنت ؟ قال لا قال أفمن الأنصار أنت ؟ قال لا قال فأنا أشهد بأنك لست من التابعين لهم بإحسان .

﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا ﴾ يعني أظهروا خلاف ما أضمروا وهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول وأصحابه ﴿ يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ يعني اليهود من بني قريظة وبني النضير وإنما جعل المنافقين إخوانهم لأنهم كفار مثلهم ﴿ لئن أخرجتم ﴾ أي من المدينة ﴿ لنخرجن معكم ﴾ أي منها ﴿ ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ﴾ يعني إن سألنا أحد خلافكم وخذلانكم فلا نطيعه فيكم ﴿ وإن قوتلتم لننصرنكم ﴾ أي لنعيننكم ولنقاتلن معكم ﴾ ﴿ والله يشهد إنهم ﴾ يعني المنافقين ﴿ لكاذبون ﴾ أي فيما قالوا ووعدوا ثم أخبر الله عن حال المنافقين فقال تعالى : ﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴾ وكان الأمر كذلك فإنهم أخرجوا ولم يخرج المنافقون معهم وقوتلوا

فلم ينصروهم ﴿ ولئن نصروهم ليولن الأدبار ﴾ يعني لو قدروا نصرهم أو لو قصدوا نصر اليهود لولوا الأدبار منهزمين ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ يعني بني النضير لا يصيرون منصورين إذا انهزم ناصروهم.

(182/757)

﴿ لأنتم ﴾ يعني يا معشر المسلمين ﴿ أشد رهبة في صدورهم من الله ﴾ أصل الرهبة والرهب الخوف الشديد مع حزن واضطراب والمعنى أنهم يرهبون ويخافون منكم أشد من رهبتهم من الله ﴿ ذلك ﴾ أي الخوف منكم ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ يعني عظمة الله تعالى: ﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة ﴾ أي لا يبرزون لقتالكم إنما يقاتلونكم متحصنين بالقرى والجدران وهو قوله تعالى: ﴿ أو من وراء جدار ﴾ وقرىء جدر ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ أي بعضهم فظ على بعض أو عداوة بعضهم بعضاً شديدة وقيل بأسهم فيما بينهم من وراء الحيطان والحصون شديد فإذا خرجوا إليكم فهم أجبن خلق الله ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ أي متفرقة مختلفة قال قتادة أهل الباطل مختلفة أهواؤهم مختلفة أعمالهم مختلفة شهاداتهم وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق وقيل أراد أن دين المنافقين وآراءهم يخالف دين اليهود وآراءهم ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ ثم

ضرب لليهود مثلاً فقال تعالى : ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ﴾ يعني مشركي مكة ﴿ ذاقوا وبال أمرهم ﴾ يعني القتل ببدر وكان ذلك قبل غزوة بني النضير وقال ابن عباس " كمثل الذين من قبلهم " يعني بني قينقاع وقيل مثل قريظة كمثل بني النضير وكان بينهما سنتان ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي في الآخرة ثم ضرب مثلاً آخر للمنافقين واليهود جميعاً في تخاذلهم وتخلى بعضهم عن بعض فقال تعالى ﴿ كمثل الشيطان ﴾ أي مثل المنافقين مع بني النضير وخذلانهم إياهم كمثل الشيطان ﴿ إذ قال للإنسان اكفر ﴾ وذلك ما روي عن عطاء وغيره عن ابن عباس قال كان راهب في الفترة يقال له برصيصا تعبد في صومعة له سبعين سنة لم يعص الله فيها طرفة عين وأن إبليس أعياه في أمره الحيل فجمع ذات يوم مردة الشياطين وقال ألا أحد منكم يكفيني أمر برصيصا ؟ فقال الأبيض وهو صاحب الأنبياء وهو الذي تصدى للنبي (صلى الله عليه وسلم) وجاء في صورة جبريل ليوسوس إليه على وجه الوحي فلحقه جبريل عليه السلام

فدفعه إلى أقصى أرض الهند لإبليس أنا أكفيك أمره فانطلق فتزين بزينة الرهبان وحلق وسط رأسه وأتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه وكان لا ينفتل عن صلاته إلا في كل

عشرة أيام ولا يفطر إلا في كل عشرة أيام مرة فلما رأى الأبيض أنه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل الصومعة فلما انفتل برصيصا من صلاته اطلع من صومعته فرأى الأبيض قائماً يصلي في هيئة حسنة على هيئة الرهبان فلما رأى ذلك من حاله ندم في نفسه أي لام نفسه حين لم يجبه فقال له إنك ناديتني وكنت مشتغلاً عنك فما حاجتك قال الأبيض حاجتي أني جئت لأكون معك فأتأدب بأدبك وأقتبس من عملك ونجتمع على العبادة فتدعو لي وأدعو لك قال برصيصا إني لفي شغل عنك فإن كنت مؤمناً فإن الله سيجعل لك فيما للمؤمنين نصيباً إن استجاب لي ثم أقبل على صلاته وترك الأبيض وأقبل الأبيض يصلي فلم يلتفت إليه برصيصا أربعين يوماً فلما انفتل بعدها رآه قائماً يصلي فلما رأى برصيصا شدة اجتهاد الأبيض قال له ما حاجتك ؟ قال حاجتي أن تأذن لي فأرتفع إليك فأذن له فارتفع إليه في صومعته فأقام حولاً يتعبد لا يفطر إلا في كل أربعين يوماً مرة ولا ينفتل عن صلاته إلا كذلك وربما مد إلى الثمانين فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت إليه نفسه وأعجبه شأن الأبيض فلما حال الحول قال الأبيض لبرصيصا إني منطلق فإن لي صاحباً غيرك ظننت أنك أشد اجتهاداً مما رأيت وكان يبلغنا عنك غير الذي رأيت فدخل من ذلك على برصيصا أمر شديد وكره مفارقته لما رأى من كثرة اجتهاد ولما ودعه الأبيض قال له إن عندي دعوات أعلمكها تدعو بهن فهو خير لك مما أنت فيه يشفي الله بها السقم ويعافي بها المبتلى والمجنون قال برصيصا أنا أكره هذه المنزلة لأن لي في نفسي شغلاً وإني أخاف إن علم الناس شغلوني

عن العبادة فلم يزل به الأبيض حتى علمه ثم انطلق حتى أتى إبليس فقال قد والله أهلكت الرجل فانطلق الأبيض فتعرض لرجل فخنقه ثم جاء في صورة رجل متطبب فقال لأهله

(184/757)

إن بصاحبكم جنوناً أفأعالجه ؟ قالوا نعم فعالجه فلم يفد فقال لهم إني لا أقوى على جنته ولكن سأرشدكم إلى من يدعو الله فيعافيه انطلقوا إلى برصيصا فإن عنده الاسم الذي إذا دعا به أجيب قال انطلقوا إليه فسألوه ذلك فدعا بتلك الكلمات فذهب عنه الشيطان فكان الأبيض يفعل ذلك بالناس ويرشدهم إلى برصيصا فيدعو لهم فيعافون فانطلق الأبيض فتعرض لجارية من بنات ملوك بني إسرائيل ولها ثلاثة إخوة وكان أبوهم هو الملك فلما مات استخلف أخاه فكان عم تلك الجارية ملك بني إسرائيل فخنقها وعذبها ، ثم جاء إليهم كما كان يأتي الناس في صورة متطبب فقال لهم أعالجها ؟ قالوا نعم فقال إن الذي عرض لها مارد لا يطاق ولكن سارشدكم إلى من تثقون به تدعونها عنده فإذا جاء شيطانها دعا لها فإذا علمتم أنها قد عوفيت تردونها صحيحة قالوا ومن هو ؟ قال برصيصا قالوا وكيف لنا أن يجيبنا إلى هذا وهو أعظم شأناً من ذلك قال فانطلقوا فابنوا صومعة إلى جنب صومعته حتى تشرف عليه فإن قبلها وإلا فضعوها في صومعتها وقولوا

له هذه أمانة عندك فاحتسب أمانتك قال فانطلقوا فسألوه ذلك فأبى عليهم فبنوا صومعة على ما أمرهم الأبيض ثم انطلقوا فوضعوا الجارية في صومعتها وقالوا يا برصيصا هذه أختنا أمانة عندك فاحتسب فيها ثم انصرفوا فلما انفتل برصيصا عن صلاته حتى عاين الجارية وما هي عليه من الجمال فوقعت في قلبه ودخل عليه أمر عظيم فجاءها الشيطان فخنقها فدعا برصيصا بتلك الدعوات فذهب الشيطان عنها ثم أقبل برصيصا على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها فكانت تكشف عن نفسها وتتعرض لبرصيصا فجاءه الشيطان وقال له ويحك واقعها فلم تجد مثلها وستتوب بعد ذلك فتدرك ما تريد من الأمر فلم يزل به حتى واقعها فلم يزل كذلك يأتيها حتى حملت وظهر حملها فقال له الشيطان ويحك يا برصيصا قد افتضحت فهل لك أن تقتلها وتتوب ؟ فإن سألوك فقل ذهب بها شيطانها فلم أقف عليه فقتلها ثم انطلق بها فدفنها إلى جانب الجبل فجاء

الشيطان وهو يدفنها بالليل فأخذ بطرف إزارها فبقي خارجاً من التراب ثم رجع برصيصا إلى صومعته وأقبل على صلاته إذ جاء إخوتها يتعاهدون أختهم وكانوا يجيئون في بعض الأيام يسألون عنها ويوصونه بها فقالوا يا برصيصا ما فعلت أختنا قال قد جاء

شيطانها فذهب بها ولم أطقه فصدقوه وانصرفوا فلما أمسوا وهم مكروبون جاء الشيطان إلى أكبرهم في منامه فقال ويحك إن برصيصا فعل فعل بأختك كذا وكذا وإنه دفنها في موضع كذا وكذا فقال هذا حلم وهو من الشيطان إن برصيصا خير من ذلك فتتابع عليه ثلاث ليال فلم يكترث به فانطلق الشيطان إلى أوسطهم فقال الأوسط مثل ما قال الأكبر ولم يخبر به أحداً فانطلق إلى أصغرهم بمثل ذلك قال الأصغر لأخويه والله لقد رأيت كذا وكذا فقال الأوسط أنا والله قد رأيت مثله فقال الأكبر أنا والله قد رأيت مثله فانطلقوا إلى برصيصا فقالوا يا برصيصا ما فعلت أختنا فقال أليس قد أعلمتكم بحالها فكأنكم قد اتهمتموني فقالوا لا والله لا نتهمك واستحيوا منه وانصرفوا فجاءهم الشيطان فقال ويحكم إنها لمدفونة في موضع كذا وكذا وإن طرف إزارها خرج من التراب فانطلقوا فرأوا أختهم على ما رأوه في النوم فمشوا في مواليهم وغلمانهم معهم الفؤوس والمساحي فهدموا صومعة برصيصا وأنزلوه منها وكتفوه ثم انطلقوا به للملك فأقر على نفسه وذلك أن الشيطان أتاه فوسوس له فقال له تقتلها ثم تكابر يجتمع عليك أمران قتل ومكابرة اعترف فلما اعترف أمر الملك بقتله وصلبه على خشبة فلما صلب أتاه الأبيض فقال يا برصيصا أتعرفني ؟ قال لا فقال أنا صاحبك الذي علمتك الدعوات وكنت إذا دعوت بهن يستجاب لك ويحك ما اتقيت الله في أمانتك خنت أهلها وإنك زعمت أنك أعبد بني إسرائيل أما استحيت فلم يزل يعيره ويعنفه حتى قال في آخر ذلك ألم يكفك ما صنعت حتى أقررت

على نفسك وفضحت أشباهك من الناس وفضحت نفسك فإن مت على هذه الحالة لن تفلح أبداً ولن يفلح أحد من نظرائك قال فكيف أصنع ؟

(186/757)

قال تطيعني في خصلة واحدة حتى أخلصك مما أنت فيه فآخذ بأعينهم وأخرجك من مكانك قال وما هي ؟ قال تسجد لي قال ما أستطيع أفعل قال بطرفك افعل فسجد له برصيصا فقال يا برصيصا هذا الذي أردت منك صارت عاقبة أمرك إلى أن كفرت بربك ، ﴿ فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾

(187/757)

﴿ فكان عاقبتهما ﴾ يعني الشيطان وذلك الإنسان ﴿ أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾ قال ابن عباس ضرب الله هذا المثل ليهود بني النضير والمنافقين من أهل المدينة وذلك أن الله تعالى أمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) بإجلاء بني النضير فدس المنافقون إلى اليهود وقالوا لا تجيبوا محمداً إلى ما دعاكم ولا تخرجوا من دياركم فإن قاتلكم

فإنا معكم وإن أخرجكم خرجنا معكم فأجابوهم ودربوا على حصونهم وتحصنوا في ديارهم رجاء نصر المنافقين فخذلوهم وتبرؤوا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصا وخذله فكان عاقبة الفريقين النار قال ابن عباس فكان الرهبان بعد ذلك لا يمشون في بني إسرائيل إلا بالتقية والكتمان وطمع أهل الفسق والفجور في الأحبار ورموهم بالبهتان والقبيح حتى كان من أمر جريج الراهب ما كان فلما برأه الله مما رموه به من الزنا انبسطت الرهبان بعده وظهروا للناس وكانت قصة جريج على ما روي عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم وصاحب جريج وصاحب يوسف وكان جريج رجلاً صالحاً عابداً فاتخذ صومعة فكان فيها فأتته أمه وهو يصلي فيها فقالت يا جريج فقال يا رب أمي وصلاتي فأقبل على صلاته فانصرفت فلما كان من الغد أتته فقالت يا جريج فقال يا رب أمي وصلاتي فأقبل على صلاته فانصرفت فلما كان من الغد أتته فقالت يا جريج فقال يا رب أمي وصلاتي فأقبل على صلاته فقالت اللهم لا تمته حتى ينظر في وجوه المومسات فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها معهم ، فقالت إن شئتم لأفتننه لكم قال فتعرضت له فلم يلتفت إليها فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت فلما ولدت قالت هو من جريج فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه

فقال ما شأنكم فقالوا زنيت بهذه البغيّ فولدت منك فقال أين الصبي فجاؤوا فقال دعوني حتى أصلي فصلى ؟ فلما انصرف

(188/757)

أتى الصبي فطعن في بطنه وقال يا غلام من أبوك قال فلان الراعي قال فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا له نبني لك صومعتك من ذهب قال أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا .

وبينا صبي يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة ذو شارة حسنة فقالت أمه اللهم اجعل ابني مثل هذا فترك الثدي وأقبل عليه فنظر إليه فقال اللهم لا تجعلني مثل هذا ثم أقبل على ثديه فجعل يرضع قال فكأني أنظر إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فيه فجعل يمصها قال ومر بجارية وهم يضربونها ويقولون زنيت وسرقت وهي تقول حسبي الله ونعم الوكيل فقالت أمه اللهم لا تجعل ابني مثلها فترك الرضاع ونظر إليها فقالت اللهم اجعلني مثلها فهنالك تراجعا الحديث ، فقالت مر رجل حسن الهيئة فقالت اللهم اجعل إبني مثله فقلت اللهم لا تجعلني مثله ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زنيت وسرقت فقلت اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلت اللهم

اجعلني مثلها فقال إن ذلك الرجل كان جباراً فقلت اللهم لا تجعلني مثله وإن هذه يقولون لها زنيت ولم تزن وسرقت ولم تسرق فقلت اللهم اجعلني مثلها "

(189/757)

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ أي لينظر أحدكم إلى شيء قدم لنفسه من الأعمال عملاً صالحاً ينجيه أم سيئاً يوبقه والمراد بالغد يوم القيامة وقربه على الناس كان يوم القيامة يأتي غداً وكل ما هو آت فهو قريب ، ﴿ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ قيل كرر الأمر بالتقوى تأكيداً وقيل معنى الأول اتقوا الله في أداء الواجبات ومعنى الثاني واتقوا الله فلا تأتوا المنهيات ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله ﴾ أي تركوا أمر الله ﴿ فأنساهم أنفسهم ﴾ أي أنساهم حظوظ أنفسهم حتى لم يقدموا لها خيراً ينفعها وعنده ﴿ أولئك هم الفاسقون لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ لما أرشد المؤمنين إلى ما يصلحهم بقوله " ولتنظر نفس ما قدمت لغد هدد الكافرين بقوله نسوا الله فأنساهم أنفسهم بين الفرق بين الفريقين بقوله لا يستوي أصحاب النار يعني الذين هم في العذاب الدائم وأصحاب الجنة يعني الذين هم في النعيم المقيم ثم أتبعه بقوله أصحاب الجنة هم الفائزون ومعلوم أن من جعل له النعيم المقيم فقد فاز

فوزاً عظيماً .

قوله تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾ قيل معناه أنه لو جعل في الجبل تمييزاً وعقلاً كما جعل فيكم وأنزل عليه القرآن لخشع أي تطأطأ وخضع وتشقق وتصدع من خشية الله والمعنى أن الجبل مع صلابته ورزانته مشقق من خشية الله ، وحذر من أن لا يؤدي حق الله تعالى في تعظيم القرآن والكافر مستخف بحقه معرض عما فيه من العبر والأحكام كأنه لم يسمعها .

وصفه بقساوة القلب فهو غافل عما يتضمنه القرآن من المواعظ والأمثال والوعيد وتمييز الحق من الباطل والواجب مما لا يجب بأحسن بيان وأوضح برهان ومن وقف على هذا وفهمه أوجب له الخشوع والخشية وهذا تمثيل لأن الجبل لا يتصور منه الخشوع والخشية إلا أن يخلق الله تعالى له تمييزاً وعقلاً يدل على أنه تمثيل .

قوله تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ أي الغرض من هذا التمثيل التنبيه على فساد قلوب هؤلاء الكفار وقساوتها وغلظ طباعهم .

ولما وصف القرآن بالعظم أتبعه بوصف عظمته فقال تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو

عالم الغيب والشهادة ﴾ يعني أنه تعالى أعلم بما غاب عن العباد مما لم يعاينوه ولم يعلموه وعلم ما شاهدوه وما علموه وقيل استوى في علمه تعالى السر والعلانية والموجود والمعدوم وقيل علم حال الدنيا والآخرة ﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾ اسمان مشتقان اشتقاقهما من الرحمة وهما صفتان لله تعالى ومعناهما ذو الرحمة ورحمة الله إرادته الخير والنعمة والإحسان إلى خلقه وقيل إن الرحمن أشد مبالغة من الرحيم ولهذا قيل هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة لأن إحسانه تعالى في الدنيا يعم المؤمن والكافر وفي الآخرة يختص إحسانه وإنعامه بالمؤمنين ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك ﴾ أي المتصرف بالأمر والنهي في جميع خلقه المالك لهم فهم تحت ملكه وقهره وإرادته ﴿ القدوس ﴾ أي الطاهر عن كل عيب المنزه عما لا يليق به وقيل هو الذي كثرت بركته ﴿ السلام ﴾ أي الذي سلم من النقائص وكل آفة تلحق الخلق .

فإن قلت على هذا التفسير لا يبقى بين القدوس والسلام فرق فيكون كالتكرار وذلك لا يليق بفصاحة القرآن .

قلت الفرق بينهما أن القدوس إشارة إلى براءته عن جميع العيوب والنقائص في الماضي والحاضر والسلام إشارة إلى أنه لا يطرأ عليه شيء من العيوب والنقائص في المستقبل فإن الذي يطرأ عليه شيء من ذلك تزول سلامته ولا يبقى سليماً وقيل السلام أي سلم خلقه ممن ظلمه ، ﴿ المؤمن ﴾ قال ابن عباس هو الذي أمن الناس من ظلمه وأمن من آمن به من عذابه وقيل هو المصدق لرسله بإظهار المعجزات لهم والمصدق للمؤمنين بما وعدهم من الثواب وبما أوعد الكافرين من العذاب ﴿ المهيمن ﴾ قال ابن عباس أي الشهيد على عباده بأعمالهم الذي لا يغيب عنه شيء وقيل هو القائم على خلقه برزقه وأنشد في معناه :

ألا إن خير الناس بعد نبيه . . .

مهيمنه التاليه في العرب والنكر

أي القائم على الناس بعده وقيل هو الرقيب الحافظ ، وقيل هو المصدق وقيل هو القاضي وقيل هو بمعنى الأمين والمؤتمن وقيل بمعنى العلي ومنه قول العباس يمدح النبي (صلى الله عليه وسلم) في أبيات منها :

حتى احتوى بينك المهيمن من . . .

خندف علياً زانها النطق

وقيل : المهيمن اسم من أسماء الله تعالى هو أعلم بتأويله وأنشدوا في معناه :

جل المهيمن عن صفات عبيده . . .

ولقد تعالى عن عقول أولي النهى

راموا بزعمهم صفات مليكهم . . .

والوصف يعجز عن مليك لا يرى

(192/757)

﴿ العزيز ﴾ أي الذي لا يوجد له نظير وقيل الغالب القاهر ﴿ الجبار ﴾ قال ابن عباس الجبار هو العظيم وجبروت الله عظمته فعلى هذا هو صفة ذات وقيل هو من الجبر يعني الذي يغني الفقير ويجبر الكسير فعلى هذا هو صفة فعل وهو سبحانه وتعالى كذلك يجبر كل كسير ويغني كل فقير وقيل هو الذي يجبر الخلق ويقهرهم على ما أراد : وسئل بعضهم عن معنى الجبار فقال هو القهار الذي إذا أراد أمراً فعله لا يحجزه عنه حاجز وقيل الجبار هو الذي لا ينال ولا يداني والجبار في صفة الله تعالى صفة مدح وفي صفة الناس ذم وكذلك ﴿ المتكبر ﴾ في صفة الناس صفة ذم لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر وذلك نقص في حقه لأنه ليس له كبر ولا علو بل له الحقارة والذلة فإذا أظهر الكبر كان كذاباً في فعله فكان مذموماً في حق الناس وأما المتكبر في صفة الله تعالى فهو صفة مدح لأن له جميع

صفات العلو والعظمة ولهذا قال في آخر الآية ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ كأنه قيل إن بعض الخلق يتكبر فيكون ذلك نقصاً في حقه أما الله تعالى فله العلو والعظمة والعزة والكبرياء فإن أظهر ذلك كان ضم كمال إلى كمال قال ابن عباس المتكبر هو الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله وقيل هو الذي تكبر عن كل سوء وقيل هو المتعظم عما لا يليق بجماله وجلاله وقيل هو المتكبر عن ظلم عباده وقيل الكبر والكبرياء الامتناع ، وقيل هو ذو الكبرياء وهو الملك سبحان الله عما يشركون أي من ادعاء الكبر لأنفسهم .

(193/757)

﴿ هو الله الخالق ﴾ أي المقدر لما يوجده فهو سبحانه وتعالى قدر أفعاله على وجوه مخصوصة فهو راجع إلى الإرادة ، وقيل المقدر لقلب الشيء بالتدبير إلى غيره ﴿ البارئ ﴾ أي المخترع المنشئ للأعيان من العدم إلى الوجود ﴿ المصور ﴾ أي الذي يخلق صورة الخلق على ما يريده وقيل معناه الممثل للمخلوقات بالعلامات التي يتميز بعضها عن بعض وقيل الخالق المبدئ للخلق المخترع له على غير مثال سبق البارئ المنشئ لما يريد بخلقه فيظهره من العدم إلى الوجود المصور لما خلقه وأنشأه على صور مختلفة وأشكال متباينة وقيل معنى التصوير التخطيط والتشكيل فأولاً يكون خلقاً ثم برءاً ثم تصويراً وإنما

قدم الخالق على البارىء لأن تأثير الإرادة مقدم على تأثير القدرة وقدم البارىء على المصور لأن إيجاد الذات مقدم على إيجاد الصفات ﴿ له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ عن معقل بن يسار أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ الثلاث الآيات من آخر سورة الحشر وكل به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي فإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً ومن قالها حين يمسي كان كذلك " أخرجه الترمذي وقال حديث غريب والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 55 .

73 ﴾

(194/757)

وقال النسفى :

سورة الحشر

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السماوات وَمَا فِى الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾

رُوي أن هذه السورة نزلت بأسرها في بني النضير ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة صالح بنو النضير رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه

ولا له ، فلما ظهر يوم بدر قالوا : هو النبي الذي نعته في التوراة ، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة فحالف أبا سفيان عند الكعبة فأمر صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعباً غيلة ، ثم خرج صلى الله عليه وسلم مع الجيش إليهم فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة وأمر بقطع نخيلهم ، فلما قذف الله الرعب في قلوبهم طلبوا الصلح فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من متاعهم ، فجلوا إلى الشام إلى أريحاء وأذرعات .

﴿ هُوَ الذى أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾ يعني يهود بني النضير ﴿ مِن ديارهم ﴾ بالمدينة .

واللام في ﴿ لأَوَّلِ الحشر ﴾ تتعلق ب ﴿ أَخْرَجَ ﴾ وهي اللام في قوله تعالى ﴿ ياليتنى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ [الفجر : 24] وقولك جئته لوقت كذا .

أي أخرج الذين كفروا عند أول الحشر .

ومعنى أول الحشر أن هذا أول حشرهم إلى الشأم وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط ، وهم أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشأم ، أو هذا أول حشرهم ، وآخر حشرهم إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام ، أو آخر حشرهم حشر يوم القيامة .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : من شك أن المحشر بالشأم فليقرأ هذه الآية ، فهم الحشر الأول وسائر الناس الحشر الثاني .

وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما خرجوا " امضوا فإنكم أول الحشر ونحن على الأثر " قتادة : إذا كان آخر الزمان جاءت نار من قبل المشرق فحشرت الناس إلى أرض الشام وبها تقوم عليهم القيامة .

(195/757)

وقيل : معناه أخرجهم من ديارهم لأول ما حشر لقتالهم لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم ووثاقة حصونهم وكثرة عددهم وعدتهم ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي ظنوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله .

والفرق بين هذا التركيب وبين النظم الذي جاء عليه أن في تقديم الخبر على المبتدأ دليلاً على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم ، وفي تصيير ضميرهم اسماً ل"أن" وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في مغازاتهم ، وليس ذلك في قولك "وظنوا أن حصونهم تمنعهم" .

﴿ فأتاهم الله ﴾ أي أمر الله وعقابه وفي الشواذ "فآتاهم الله" أي فآتاهم الهلاك ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ من حيث لم يظنوا ولم يخطر ببالهم وهو قتل رئيسهم كعب بن

الأشرف غرة على يد أخيه رضاعاً .

﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرعب ﴾ الخوف ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى المؤمنين ﴾ ﴿ يُخْرِبُونَ ﴾ أبو عمرو .

والتخريب والإخراب الإفساد بالنقض والهدم ، والخَرْبة الفساد وكانوا يخرّبون بواطنها والمسلمون ظواهرها لما أراد الله من استئصال شأفتهم وأن لا تبقى لهم بالمدينة دار ولا منهم ديّار ، والذي دعاهم إلى التخريب حاجتهم إلى الخشب والحجارة ليسدوا بها أفواه الأزقة ، وأن لا يتحسروا بعد جلائهم على بقائها مساكن للمسلمين ، وأن ينقلوا معهم ما كان في أبنيتهم من جيد الخشب والساج .

وأما المؤمنون فداعيهم إلى التخريب إزالة متحصنهم وأن يتسع لهم مجال الحرب .

(196/757)

ومعنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين أنهم لما عرضوهم بنكث العهد لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوهم إياه ﴿ فاعتبروا ياأولى الأبصار ﴾ أي فتأملوا فيما نزل بهؤلاء والسبب الذي استحقوا به ذلك فاحذروا أن تفعلوا مثل فعلهم فتعاقبوا بمثل عقوبتهم ، وهذا دليل على جواز القياس ﴿ وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ الله عَلَيْهِمُ الجلاء ﴾ الخروج من الوطن مع

الأهل والولد ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدنيا ﴾ بالقتل والسبي كما فعل ببني قريظة ﴿ وَلَهُمْ ﴾ سواء أجلوا أو قتلوا ﴿ فِى الآخرة عَذَابُ النار ﴾ الذي لا أشد منه ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي إنما أصابهم ذلك بسبب أنهم ﴿ شَاقُّواْ الله ﴾ خالفوه ﴿ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ الله ﴾ ورسوله ﴿ فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ .

﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ ﴾ هو بيان ل ﴿ مَا قَطَعْتُمْ ﴾ ومحل "ما" نصب ب ﴿ قَطَعْتُمْ ﴾ كأنه قيل : أي شيء قطعتم وأنث الضمير الراجع إلى ما في قوله ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا ﴾ لأنه في معنى اللينة ، واللينة : النخلة من الألوان وياؤها عن واو قلبت لكسرة ما قبلها .

(197/757)

وقيل : اللينة النخلة الكريمة كأنهم اشتقوها من اللين ﴿ قَائِمَةً على أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ الله ﴾ فقطعها وتركها بإذن الله ﴿ وَلِيُخْزِىَ الفاسقين ﴾ وليذل اليهود ويغيظهم أذن في قطعها ﴿ وَمَا أَفَاء الله على رَسُولِهِ ﴾ جعله فيئاً له خاصة ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من بني النضير ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ ﴾ فلم يكن ذلك بإيجاف خيل أو ركاب منكم على ذلك والركاب الإبل ، والمعنى فما أوجفتم على تحصيله وتغنيمه خيلاً ولا ركاباً ولا تعبتم في القتال عليه ، وإنما مشيتم إليه على أرجلكم لأنه على ميلين من المدينة ، وكان صلى الله

عليه وسلم على حمار فحسب ﴿ ولكن الله يُسَلِّط رُسُلَهُ على مَن يَشَاء ﴾ يعني أن ما

خوّل الله رسوله من أموال بني النضير شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة ، ولكن سلطه الله

عليهم وعلى ما في أيديهم كما كان يسلط رسله على أعدائهم ، فالأمر فيه مفوض إليه يضعه

حيث يشاء ولا يقسمه قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوة وقهراً فقسمها بين

المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة منهم لفقرهم ﴿ والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مَّا أَفَاء الله

على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى فَلِلَّهِ ولِلرَّسُولِ وَلِذِى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾

وإنما لم يدخل العاطف على هذه الجملة لأنها بيان للأولى فهي منها غير أجنبية عنها ، بين

لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصنع بما أفاء الله عليه وأمره أن يضعه حيث يضع

الخمس من الغنائم مقسوماً على الأقسام الخمسة ، وزيف هذا القول بعض المفسرين وقال :

الآية الأولى نزلت في أموال بني النضير وقد جعلها الله لرسوله خاصة ، وهذه الآية في غنائم

كل قرية تؤخذ بقوة الغزاة ، وفي الآية بيان مصرف خمسها فهي مبتدأة ﴿ كَى لاَ يَكُونَ دُولَةً

﴾ ﴿ تَكُونُ دُولَةً ﴾ يزيد على "كان" التامة والدولة والدولة ما يدول للإنسان أي يدور

من الجد .

(198/757)

ومعنى قوله ﴿ لَا يَكُونَ دُولَةً ﴾ ﴿ بَيْنَ الأغنياء مِنكُمْ ﴾ كيلا يكون الفيء الذي حقه أن يعطي الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها جداً بين الأغنياء يتكاثرون به ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول ﴾ أي أعطاكم من قسمة غنيمة أو فيء ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ فاقبلوه ﴿ وَمَا نهاكم عَنْهُ ﴾ عن أخذه منها ﴿ فانتهوا ﴾ عنه ولا تطلبوه ﴿ واتقوا الله ﴾ أن تخالفوه وتتهاونوا بأوامره ونواهيه ﴿ أَنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ لمن خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والأجود أن يكون عاماً في كل ما آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عنه وأمر الفيء داخل في عمومه.

﴿ لِلْفُقَرَاء ﴾ بدل من قوله ﴿ وَلِذِى القربى ﴾ والمعطوف عليه، والذي منع الإبدال من ﴿ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ وإن كان المعنى لرسول الله إن الله عز وجل أخرج رسوله من الفقراء في قوله ﴿ وَيَنصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ وأنه يترفع برسول الله عن التسمية بالفقير، وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عز وجل ﴿ المهاجرين الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن ديارهم وأموالهم ﴾ بمكة، وفيه دليل على أن الكفار يملكون بالاستيلاء أموال المسلمين لأن الله تعالى سمى المهاجرين فقراء مع أنه كانت لهم ديار وأموال ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ حال ﴿ فَضْلاً مّنَ الله وَرِضْوَاناً ﴾ أي يطلبون الجنة ورضوان الله ﴿ وينصرون الله ورسوله ﴾ أي ينصرون دين الله ويعينون رسوله ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصادقون ﴾ في إيمانهم

وجهادهم ﴿ والذين ﴾ معطوف على المهاجرين وهم الأنصار ﴿ تَبَوَّءوا الدار ﴾ توطنوا المدينة ﴿ والإيمان ﴾ وأخلصوا الإيمان كقوله :

علفتها تبناً وماء بارداً . . .

أو وجعلوا الإيمان مستقراً ومتوطناً لهم لتمكنهم واستقامتهم عليه كما جعلوا المدينة كذلك ، أو أراد دار الهجرة ودار الإيمان فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه .

(199/757)

﴿ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من قبل المهاجرين لأنهم سبقوهم في تبوء دار الهجرة والإيمان .

وقيل : من قبل هجرتهم ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ حتى شاطروهم أموالهم وأنزلوهم منازلهم ، ونزل من كانت له امرأتان عن إحديهما حتى تزوج بها رجل من المهاجرين .

﴿ وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ ولا يعلمون في أنفسهم طلب محتاج إليه مما أوتي المهاجرون من الفيء وغيره والمحتاج إليه يسمي حاجة يعني أن نفوسهم لم تتبع ما أعطوا ولم تطمح إلى شيء منه تحتاج إليه .

وقيل : حاجة حسداً مما أعطي المهاجرون من الفيء حيث خصهم النبي صلى الله عليه

وسلم به .

وقيل : لا يجدون في صدورهم مس حاجة من فقد ما أوتوا فحذف المضافان ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ فقر وأصلها خصاص البيت وهي فروجه ، والجملة في موضع الحال أي مفروضة خصاصتهم .

روي أنه نزل برجل منهم ضيف فنوّم الصبية وقرّب الطعام وأطفأ المصباح ليشبع ضيفه ولا يأكل هو .

وعن أنس : أهدى لبعضهم رأس مشوي وهو مجهود فوجهه إلى جاره فتداولته تسعة أنفس حتى عاد إلى الأول .

أبو زيد قال لي شاب من أهل بلخ : ما الزهد عندكم ؟ قلت : إذا وجدنا أكلنا وإذا فقدنا صبرنا .

فقال : هكذا عندنا كلاب بلخ بل إذا فقدنا صبرنا وإذا وجدنا آثرنا ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ الظافرون بما أرادوا .

الشح اللؤم وأن تكون نفس الرجل كزة حريصة على المنع ، وأما البخل فهو المنع نفسه .

وقيل : الشح أكل مال أخيك ظلماً ، والبخل منع مالك .

وعن كسرى : الشح أضر من الفقر لأن الفقير يتسع إذا وجد بخلاف الشحيح .

﴿ والذين جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ عطف أيضاً على ﴿ المهاجرين ﴾ وهم الذين هاجروا

من بعده .

وقيل : التابعون بإحسان .

وقيل : من بعدهم إلى يوم القيامة .

(200/757)

قال عمر رضي الله عنه : دخل في هذا الفيء كل من هو مولود إلى يوم القيامة في الإسلام ، فجعل الواو للعطف فيهما .

وقرىء ﴿ لِلَّذِينَ ﴾ فيهما ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفر لَنَا ولإخواننا الذين سَبَقُونَا بالإيمان ﴾ قيل : هم المهاجرون والأنصار .

عن عائشة رضي الله عنها : أمروا بأن يستغفروا لهم فسبوهم ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ ﴾ حقداً ﴿ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ يعني الصحابة ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقيل لسعيد بن المسيب : ما تقول في عثمان وطلحة والزبير؟ قال : أقول ما قولنيه الله وتلى هذه الآية .

ثم عجب نبيه بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نافقوا ﴾ أي ألم تر يا محمد إلى عبد الله بن أبيّ وأشياعه ﴿ يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾ يعني بني النضير والمراد إخوة الكفر ﴿ لَئِنْ

أُخْرِجْتُمْ ﴾ من دياركم ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ رُوِيَ أن ابن أبيّ وأصحابه دسوا إلى بني النضير حين حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم : لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم ولئن أخرجتم لنخرجن معكم ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ ﴾ في قتالكم ﴿ أَحَداً أَبَداً ﴾ من رسول الله والمسلمين إن حملنا عليه أو في خذلانكم وإخلاف ما وعدناكم من النصرة ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في مواعيدهم لليهود ، وفيه دليل على صحة النبوة لأنه إخبار بالغيب .

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ إنما قال ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم على الفرض والتقدير كقوله ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] وكما يعلم ما يكون فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون .

(201/757)

والمعنى ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزمن المنافقون ثم لا ينصرون بعد ذلك أي يهلكهم الله ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم ، أو لينهزمن اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ أي أشد مرهوبية .

مصدر رهب المبني للمفعول.

وقوله ﴿ فِى صُدُورِهِمْ ﴾ دلالة على نفاقهم يعني أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله وأنتم أهيب في صدورهم ﴿ مِّنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ لا يعلمون الله وعظمته حتى يخشوه حق خشيته ﴿ لَا يقاتلونكم ﴾ لا يقدرون على مقاتلتكم ﴿ جَمِيعاً ﴾ مجتمعين يعني اليهود والمنافقين ﴿ إِلا ﴾ كائنين ﴿ فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ بالخنادق والدروب ﴿ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ ﴾ ﴿ جدار ﴾ مكي وأبو عمرو ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ يعني أن البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة لأن الشجاع يجبن عند محاربة الله ورسوله ﴿ تَحْسَبُهُمْ ﴾ أي اليهود والمنافقين ﴿ جَمِيعاً ﴾ مجتمعين ذوي ألفة واتحاد ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شتى ﴾ متفرقة لا ألفة بينها يعني أن بينهم إحناً وعداوات فلا يتعاضدون حق التعاضد ، وهذا تحسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم ﴿ ذلك ﴾ التفرق ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ أن تشتت القلوب مما يوهن قواهم ويعين على أرواحهم.

﴿ كَمَثَلِ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي مثلهم كمثل أهل بدر فحذف المبتدأ ﴿ قَرِيبًا ﴾ أي استقروا من قبلهم زمناً قريباً ﴿ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم من قولهم كلأ وبيل وخيم سيء العاقبة يعني ذاقوا عذاب القتل في الدنيا ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي ولهم مع ذلك في الآخرة عذاب النار ﴿ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ للإنسان اكفر فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنّى بَرِىءٌ مّنكَ إِنّى أَخَافُ الله رَبَّ العالمين ﴾ أي مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال ووعدهم إياهم النصر ، ثم متاركتهم لهم وإخلافهم كمثل الشيطان إذا استغوى الإنسان بكيده ثم تبرأ منه في العاقبة .

وقيل : المراد استغواؤه قريشاً يوم بدر وقوله لهم ﴿ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليوم مِنَ الناس وَإِنّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنّي بَرِىءٌ مّنْكُمْ ﴾ [الأنفال : 48] ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا ﴾ عاقبة الإنسان الكافر والشيطان ﴿ أَنَّهُمَا فِى النار خالدين فِيهَا ﴾ ﴿ عاقبتهما ﴾ خبر "كان" مقدم و"أن" مع اسمها وخبرها أي في النار في موضع الرفع على الاسم و ﴿ خالدين ﴾ حال ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظالمين يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ اتقوا الله ﴾ في أوامره فلا تخالفوها ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ ﴾ نكر النفس تقليلاً للأنفس النواظر فيما قدّمن للآخرة ﴿ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ يعني يوم القيامة سماه باليوم الذي يلي يومك تقريباً له أو عبر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد .

وتنكيره لتعظيم أمره أي لغد لا يعرف كنهه لعظمه .

وعن مالك بن دينار : مكتوب على باب الجنة وجدنا ما عملنا ربحنا ما قدما خسرنا ما خلفنا .

(203/757)

﴿ واتقوا الله ﴾ كرر الأمر بالتقوى تأكيداً أو اتقوا الله في أداء الواجبات لأنه قرن بما هو عمل ، واتقوا الله في ترك المعاصي لأنه قرن بما يجري مجرى الوعيد وهو ﴿ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وفيه تحريض على المراقبة لأن من علم وقت فعله أن الله مطلع على ما يرتكب من الذنوب يمتنع عنه ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كالذين نَسُوا ْ الله ﴾ تركوا ذكر الله عز وجل وما أمرهم به ﴿ فأنساهم أَنفُسَهُمْ ﴾ فتركهم من ذكره بالرحمة والتوفيق ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الفاسقون ﴾ الخارجون عن طاعة الله .

﴿ لاَ يَسْتَوِى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هُمُ الفائزون ﴾ هذا تنبيه للناس وإيذان بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وتهالكهم على إيثار العاجلة واتباع الشهوات كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار ، والبون العظيم بين أصحابهما وأن الفوز العظيم مع أصحاب الجنة والعذاب الأليم مع أصحاب النار ، فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه كما تقول لمن يعق أباه "هو أبوك" تجعله بمنزلة من لا يعرفه فتنبهه بذلك على

حق الأبوّة الذي يقتضي البر والتعطف .

وقد استدلت الشافعية بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر ، وأن الكافر لا يملك مال المسلم بالاستيلاء ، وقد أجبنا عن مثل هذا في أصول الفقه والكافي .

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرءان على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خاشعا مُّتَصَدّعاً مّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ أي من شأن القرآن وعظمته أنه لو جعل في الجبل تمييز وأنزل عليه القرآن لخشع أي لخضع وتطأطأ وتصدع أي تشقق من خشية الله ، وجائز أن يكون هذا تمثيلاً كما في قوله ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة ﴾ [الأحزاب : 72] ويدل عليه قوله ﴿ وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وهي إشارة إلى هذا المثل وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل ، والمراد توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره .

(204/757)

ثم رد على من أشرك وشبهه بخلقه فقال ﴿ هُوَ الله الذى لاَ إله إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغيب والشهادة ﴾ أي السر والعلانية أو الدنيا والآخرة أو المعدوم والموجود ﴿ هُوَ الرحمن الرحيم هُوَ الذى لاَ إله إِلاَّ هُوَ الملك ﴾ الذي لا يزول ملكه ﴿ القدوس ﴾ المنزه عن القبائح وفي

تسبيح الملائكة: سبوح قدوس رب الملائكة والروح ﴿ السلام ﴾ الذي سلم الخلق من ظلمه عن الزجاج ﴿ المؤمن ﴾ واهب الأمن.

وعن الزجاج: الذي آمن الخلق من ظلمه أو المؤمن من عذابه من أطاعه ﴿ المهيمن ﴾ الرقيب على كل شيء الحافظ له مفيعل من الأمن إلا أن همزته قلبت هاء ﴿ العزيز ﴾ الغالب غير المغلوب ﴿ الجبار ﴾ العالي العظيم الذي يذل له من دونه أو العظيم الشأن في القدرة والسلطان أو القهار ذو الجبروت ﴿ المتكبر ﴾ البليغ الكبرياء والعظمة ﴿ سبحان الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ نزه ذاته عما يصفه به المشركون ﴿ هُوَ الله الخالق ﴾ المقدر لما يوجده ﴿ البارىء ﴾ الموجد ﴿ المصور ﴾ في الأرحام ﴿ لَهُ الأسماء الحسنى ﴾ الدالة على الصفات العلا ﴿ يُسَبّحُ لَهُ مَا فِى السماوات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ ختم السورة بما بدأ به.

عن أبي هريرة رضي الله عنه سألت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاسم الأعظم: فقال " عليك بآخر الحشر فأكثر قراءته " فأعدت عليه فأعاد عليّ فأعدت عليه فأعاد عليّ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 238 . 245 ﴾

(205/757)

وقال ابن جزي :

سورة الحشر

﴿ هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ ﴾

يعني بني النضير ﴿ لأَوَّلِ الحشر ﴾ في معناه أربعة أقوال : أحدها أنه حشر القيامة أي خروجهم من حصونهم أول الحشر والقيام من القبور آخره . وروي في هذا المعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : امضوا هذا أول الحشر ، وأنا على الأثر . الثاني : أن المعنى لأول موضع الحشر هو الشام ، وذلك أن أكثر بني النضير خرجوا إلى الشام ، وقد جاء في الأثر أن حشر القيامة إلى أرض الشام ، وروي في هذا المعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبني النضير : اخرجوا . قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى أرض المحشر الثالث أن المراد الحشر في الدنيا الذي هو الجلاء والإخراج ، فأخرجهم من حصونهم أول الحشر ، وإخراج أهل خيبر آخره ، الرابع أن معناه إخراجهم من ديارهم لأول ما حشر لقتالهم ؛ لأنه أول قتال قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وقال الزمخشري : اللام في قوله لأول بمعنى عند كقولك جئت لوقت كذا ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ﴾ يعني لكثرة عدتهم ومنعة حصونهم ﴿ فَأَتَاهُمُ الله ﴾ عبارة عن أخذ الله لهم ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المؤمنين ﴾ أما إخراب المؤمنين فهو هدم أسوار الحصون ليدخلوها ، وأسند ذلك إلى الكفار في قوله : ﴿ يُخْرِبُونَ ﴾ لأنه كان بسبب كفرهم وغدرهم ، وأما إخراب الكفار لبيوتهم فلثلاثة

مقاصد : أحدها حاجتهم إلى الخشب والحجارة ليسدوا بها أفواه الأزقة ويحصنوا ما خرَّبه المسلمون من الأسوار ، والثاني ليحملوا معهم ما أعجبهم من الخشب والسواري وغير ذلك . الثالث أن لا تبقى مساكنهم مبنية للمسلمين فهدموها شحاً عليهم ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ استدل الذين أثبوا القياس في الفقه بهذه الآية ، واستدلالهم بها ضعيف خارج عن معناها .

(206/757)

﴿ وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجلاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدنيا ﴾ الجلاء هو الخروج عن الوطن ، فالمعنى لولا أن كتب الله على بني النضير خروجهم عن أوطانهم لعذبهم في الدنيا بالسيف كما فعل بإخوانهم بني قريظة ، ولهم مع ذلك عذاب النار ﴿ شَآقُّواْ ﴾ ذكر في الأنفال . ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ ﴾ اللينة هي النخلة وقيل : هي الكريمة من النخل ، وقيل : النخلة التي ليست بعجوة ، وقيل : ألوان النخل المختلط ، وسبب الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل على حصون بني النضير قطع المسلمون بعض نخلهم ، وأحرقوه فقال بنو النضير : ما هذا إلا فساد يا محمد وأنت تنهى عن الفساد ، فنزلت الآية مُعْلمة أن كل ما جرى من قطع أو إمساك فإن الله إذن للمسلمين في ذلك ﴿ وَلِيُخْزِيَ الفاسقين ﴾ يعني بني

النضير ، واستدل بعض الفقهاء بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب ، فإن الله قد صوب فعل من قطع النخل ومن تركها ، واختلف العلماء في قطع شجر المشركين وتخريب بلادهم ؛ فأجازه الجمهور لهذه الآية ، ولإقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم على تحريق نخل بني النضير ، وكرهه قوم لوصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه الجيش الذي وجهه إلى الشام أن لا يقطعوا شجراً مثمراً .

(207/757)

﴿ وَمَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ معنى أفاء الله : جعله فيئاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوجفتم من الوجيف وهو سرعة السير ، والركاب هي الإبل ، والمعنى أن ما أعطى الله رسوله من أموال بني النضير لم يمش المسلمون إليه بخيل ولا إبل ولا تعبوا فيه ولا حصلوه بقتال ، ولكن حصل بتسليط رسوله صلى الله عليه وسلم على بني النضير ، فأعلم الله من هذه الآية أن ما أخذه من بني النضير وما أخذه من فدك : فهو فيء خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم يفعل فيه ما يشاء ، لأنه لم يوجف عليها ، ولا قوتلت كبير قتال . فهما بخلاف الغنيمة التي تؤخذ بالقتال فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه من أموال بني النضير قوت عياله ، وقسم سائرها في المهاجرين

، ولم يعط الأنصار منها شيئاً ، غير أن أبا دُحانة وسهلَ بن حنيف شكْوا فاقة فأعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم منها سهماً ، هذا قول جماعة ، وقال عمر بن الخطاب : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق منها على أهله نفقة سنة وما بقي جعله في السلاح والكراع عدة في سبيل الله .

وقال قوم من العلماء : وكذلك كل ما فتح الأئمة مما لم يوجف عليه فهو لهم خاصة يأخذون منه حاجتهم ويصرفون باقيه في مصالح المسلمين .

(208/757)

﴿ مَّآ أَفَآءَ اللّه على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ الآية ، اضطراب الناس في تفسير هذه الآية وحكمها اضطراباً عظيماً فإن ظاهرها أن الأموال التي تؤخذ للكفار تكون لله وللرسول ومن ذكر بعد ذلك ولا يخرج منها خمس ، ولا تقسم على من حضر الوقيعة ، وذلك يعارض ما رود في الأنفال من إخراج الخمس ، وقسمة سائر الغنيمة على من حضر الوقيعة ، فقال بعضهم : إن هذه الآية منسوخة بآية الأنفال ، وهذا خطأ لأن آية الأنفال نزلت قبل هذه بمدة . وقال بعضهم : إن آية الأنفال في الأموال التي تغنم ما عدا الأرض ، وأن هذه الآية في أرض الكفار . قالوا : ولذلك لم يقسم عمر بن الخطاب رضي الله

عنه أرض مصر والعراق بل تركها لمصالح المسلمين ، وهذا التخيصص لا دليل عليه . وقيل غير ذلك ، والصحيح أنه لا تعارض بين هذه الآية وبين آية الأنفال ، فإن آية الأنفال في حكم الغنيمة التي تؤخذ بالقتال وإيجاف الخيل والركاب ، فهذا يخرج منه الخمس ويقسم باقيه على الغانمين ، وأما هذه الآية ففي حكم الفيء وهو ما يؤخذ من أموال من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب ، وإذا كان كذلك فكل واحدة من الآيتين في معنى غير معنى الآخرى ، ولها حكم غير حكم الأخرى فلا تعارض بينهما ولا نسخ ، وانظر كيف ذكر هنا لفظ الفيء وفي الأنفال لفظ الغنيمة وهو قول الجمهور وبه قال مالك وجميع أصحابه وهو أظهر الأقوال .

وأما فعل عمر في أرض مصر والعراق ، فالصحيح أنه فعل ذلك لمصلحة المسلمين بعد استطابة نفوس الغانمين بقوله تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ يريد بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كما كانت أموال بني النضير ، ولكنه حذف هذا لقوله في الآية قبل هذا : فما أوجفتم عليه من خيل ، ولا ركاب ، فاستغنى بذكر ذلك أولاً عن ذكره ثانياً ، ولذلك لم تدخل الواو العاطفة في هذه الجملة لأنها من تمام الأولى فهي غير أجنبية منها

فإنه بيّن في الآية الأولى حكم أموال بني النضير، وبين في هذه الآية حكم ما كان مثلها من أموال غيرهم على العموم، ويصرف الفيء فيما يصرف فيه خمس الغنائم؛ لأن الله سوّى بينهما في قوله: ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾، وقد ذكرنا ذلك في الأنفال فأغنى عن إعادته، وقد ذكرنا في الأنفال معنى قوله: لله وللرسول وما بعد ذلك ﴿ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأغنياء ﴾ أي كيلا يكون الفيء الذي أفاء الله على رسوله من أهل القرى دولة ينتفع به الأغنياء دون الفقراء، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم أموال بني النضير على المهاجرين فإنهم كانوا حنيئذ فقراء، ولم يعط الأنصار منها شيئاً، فإنهم كانوا أغنياء فقال بعض الأنصار: لنا سهمنا من هذا الفيء فأنزل الله هذه الآية، والدولة بالضم والفتح ما يدول الإنسان أي يدور عليه من الخير، ويحتمل أن يكون من المداولة، أي كي لا يتداول ذلك المال الأغنياء بينهم ويبقى الفقراء بلا شيء.

﴿ وَمَا آتاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ نزلت بسبب الفيء المذكور: أي ما أتاكم الرسول من الفيء فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، فكأنها أمر للمهاجرين بأخذ

الفيء ونهي للأنصار عنه ، ولفظ الآية مع ذلك عام في أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو نواهيه ، ولذلك استدل بها عبد الله بن مسعود على المنع من لبس المحرم المخيط ولعن الواشمة والواصلة في القرآن لورود ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ هذا بدل من قوله : ﴿ وَلِذِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ ليبين بذلك أن المراد المهاجرين ، ووصفهم بأنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم ؛ لأنهم هاجروا من مكة وتركوا فيها أموالهم وديارهم .

﴿ والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان مِن قَبْلِهِمْ ﴾ هم الأنصار والدار هي المدينة لأنها كانت بلدهم ، والضمير في قبلهم للمهاجرين .

فإن قيل : كيف قال تبوؤا الدار والإيمان وإنما تتبوّأ الدار . أي تسكن ولا يتبوأ الإيمان ؟ فالجواب من وجهين : الأول أن معناه تبوؤا الدار وأخلصوا الإيمان فهو كقولك : فعلفتها تبناً وماء بارداً ، تقديره : علفتها تبناً وسقيتها ماء بارداً ، الثاني أن المعنى أنهم جعلوا الإيمان كأنه موطن لهم لتمكنهم فيه ، كما جعلوا المدينة كذلك .

فإن قيل : قوله من قبلهم ، يقتضي أن الأنصار سبقوا المهاجرين بنزول المدينة وبالإيمان ، فأما سبقهم لهم بنزول المدينة فلا شك فيه لأنها كانت بلدهم ، وأما سبقهم لهم بالإيمان فمشكل ، لأن أكثر المهاجرين أسلم قبل الأنصار ؟

فالجواب من وجهين : أحدهما أنه أراد بقوله من قبلهم من قبل هجرتهم ، والآخر أنه أراد تبوؤا الدار مع الإيمان معاً . أي جمعوا بين الحالتين قبل المهاجرين ، لأن المهاجرين إنما سبقوهم بالإيمان لا بتبوئ الدار فيكون الإيمان على هذا مفعولاً معه ، وهذا الوجه أحسن ، لأنه جواب عن هذا السؤال ، وعن السؤال الأول ، فإنه إذا كان الإيمان مفعولاً معه لم يلزم السؤال الأول ، إذ لا يلزم إلا إذا كان الإيمان معطوفاً على الدار .

(212/757)

﴿ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ قيل : إن الحاجة هنا بمعنى الحسد ، ويحتمل أن تكون بمعنى الاحتجاج على أصلها ، والضمير في يجدون للأنصار ، وفي أوتوا المهاجرين ، والمعنى : أن الأنصار تطيب نفوسهم بما يعطاه المهاجرون من الفيء وغيره ، ولا يجدون في صدورهم شيئاً بسبب ذلك ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي يؤثرون غيرهم بالمال على أنفسهم ولو كانوا في غاية الاحتياج ، والخصاصة هي الفاقة ، وروي أن سبب هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قسم هذه القرى على المهاجرين دون الأنصار قال للأنصار : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم ، وشاركتموهم في

هذه الغنيمة . وإن شئتم أمسكتم أموالكم وتركتم لهم هذه فقالوا : بل نقسم لهم من أموالنا ونترك لهم هذه الغنيمة وروُي أيضاً " أن سببها أن رجلاً من الأنصار أضاف رجلاً من المهاجرين فذهب الأنصاري بالضيف إلى منزله فقالت له امرأته : والله ما عندنا إلا قوت الصبيان . فقال لها : نوّمي صبيانك وأطفئي السراج ، وقدمي ما عندك للضيف ، ونوهمه نحن أنا نأكل ولا نأكل ، ففعلا ذلك ، فلما غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : عجب الله من فعلكما البارحة ونزلت الآية " ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ شحّ النفس : هو البخل والطمع وفي هذا إشارة إلى أن الأنصار وقاهم الله شح أنفسهم فمدحهم الله بذلك ، وبأنهم يؤثرون على أنفسهم وبأنهم لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتي المهاجرون وأنهم يحبون المهاجرين .

(213/757)

﴿ والذين جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ هذا معطوف على المهاجرين والأنصار المذكورين قبل ، فالمعنى أن الفيء للمهاجرين والأنصار ولهؤلاء الذين جاؤوا من بعدهم ، ويعني بهم الفرقة الثالثة من الصحابة وهم ما عدا المهاجرين والأنصار كالذين أسلموا يوم الفتح . وقيل : يعني من جاء بعد الصحابة وهم التابعون ومن تبعهم إلى يوم القيامة ، وعلى هذا حملها مالك

فقال : إن من قال في أحد الصحابة قول سوء فلا حظ له في الغنيمة والفيء ، لأن الله وصف الذين جاؤوا بعد الصحابة بأنهم : يقولون ربنا اغفر لنا ولأخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، فمن قال ضدّ ذلك فقد خرج عن الذين وصفهم الله .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نَافَقُواْ ﴾ الآية : نزلت في عبد الله بن أبيّ بن سلول وقوم من المنافقين بعثوا إلى بني النضير ، وقالوا لهم : اثبتوا في حصونكم فإنا معكم كيف ما تقلبت حالكم ﴿ وَلاَ نُطِيعُ فيكُمْ أَحَداً أَبَداً ﴾ أي لا نسمع فيكم قول قائل ، ولا نطيع من يأمرنا بخذلانكم ، ثم كذبهم الله في هذه المواعيد التي وعدوا بها .

فإن قيل : كيف قال لئن نصروهم ليولنّ الأدبار بعد قوله : ﴿ لاَ يَنصُرُونَ ﴾ ؟

فالجواب : أن المعنى على الفرض والتقدير أي لو فرضنا أن ينصروهم لولوا الأدبار .

﴿ لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ الله ﴾ الرهبة هي الخوف ، والمعنى أن المنافقين واليهود يخافون الناس أكثر مما يخافون الله .

﴿ لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾ أي لا يقدرون على قتالكم مجتمعين إلا وهم في قرى محصنة ؛ بالأسوار والخنادق أو من وراء الحيطان دون أن يخرجوا إليكم ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ يعني عداوة بعضهم لبعض ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شتى ﴾ أي تظن أنهم مجتمعون بالألفة والمودة وقلوبهم متفرقة بالمخالفة والشحناء .

﴿ كَمَثَلِ الذين مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ﴾ أي هؤلاء اليهود كمثل الذين من قبلهم يعني يهد بني قينقاع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أجلاهم عن المدينة قبل بني النضير ، فكانوا أمثالهم . وقيل : يعني أهل بدر الكفار ، فإنهم قبلهم ومثلاً لهم في أن غلبوا وقهروا . والأول أرجح : لأن قوله : ﴿ قَرِيباً ﴾ يقتضي أنهم كانوا قبلهم بمدة يسيرة ، وذلك أوقع على بني قينقاع ، وأيضاً فإن تمثيل بني النضير ببني القينقاع أليق لأنهم يهود مثلهم ، وأخرجوا من ديارهم كما فعل بهم وذلك هو المراد بقوله : ﴿ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ وقريباً ظرف الزمان .

﴿ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكفر ﴾ مثّل الله المنافقين الذين أغووا يهود بني النضير ثم خذلوهم بعد ذلك بالشيطان فإنه يغوي ابن آدم ثم يتبرأ منه ، والمراد بالشيطان والإنسان هنا الجنس ، وقيل : أراد الشيطان الذي أغوى قريشاً يوم بدر وقال لهم : ﴿ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ [الأنفال : 48] ، ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي النار ﴾ الضميران يعودان على الشيطان والإنسان ، وفي ذلك تمثيل للمنافقين واليهود .

﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ هذا أمر بأن تنظر كل نفس ما قدمت من أعمالها ليوم القيامة ، ومعنى ذلك محاسبة النفس لتكف عن السيئات وتزيد من الحسنات ، وإنما عبّر

عن يوم القيامة بغد تقريباً له ، لأن كل ما هو آت قريب ، فإن قيل : لم كرر الأمر بالتقوى ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما أنه تأكيد ، والآخر وهو الأحسن أنه أمر أولاً بالتقوى استعداداً ليوم القيامة ، ثم أمر به ثانياً لأن الله خبير بما يعملون ، فلما اختلف الموجبات كرره مع كل واحد منهما ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كالذين نَسُواْ الله ﴾ يعني الكفار ، والنسيان هنا يحتمل أن يكون بمعنى الترك أو الغفلة ، أي نسوا حقّ الله فأنساهم حقوق أنفسهم والنظر لها .

(215/757)

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هذا القرآن على جَبَلٍ ﴾ الآية : توبيخ لابن آدم على قسوة قلبه ، وقلة خشوعه عند تلاوة القرآن فإنه أذا كان الجبل يخشع ويتصدع لو سمع القرآن فما ظنك بابن آدم .

﴿ عَالِمُ الغيب والشهادة ﴾ أي يعلم ما غاب عن المخلوقين وما شاهدوه ، وقيل : الغيب الآخرة والشهادة الدنيا ، والعموم أحسن .

﴿ القدوس ﴾ مشتق من التقديس ، وهو التنزه عن صفات المخلوقين ، وعن كل نقص وعيب ، وصيغة فعول للمبالغة كالسبوح ﴿ السلام ﴾ في معناه قولان : أحدهما الذي سلَّم عباده من الجور ، والآخر السليم من النقائص ، وأصله مصدر بمعنى السلامة ،

وصف به مبالغة أو على حذف مضاف تقديره ذو السلام ﴿ المؤمن ﴾ فيه قولان : أحدهما أنه من الأمن الذي أمّن عباده ، والآخر أنه من الإيمان أي المصدق لعباده في إيمانهم ، أو في شهادتهم على الناس يوم القيامة ، أو المصدق نفسه في أقواله ﴿ المهيمن ﴾ في معناه ثلاثة أقوال : الرقيب والشاهد والأمين ، قال الزمخشري : أصله مؤيمن بالهمزة ثم أبدلت هاء ﴿ الجبار ﴾ في معناه قولان : أحدهما أنه من الإجبار بمعنى القهر ، والآخر أنه من الجبر أن يجبر عباده برحمته ، والأول أظهر ﴿ المتكبر ﴾ أي الذي له التكبر حقاً ﴿ البارىء ﴾ أي الخالق يقال : أبرأ الله الخلق أي خلقهم ولكن البارىء والفاطر يراد بهما الذي برأ الخلق واخترعه ﴿ المصور ﴾ أي خالق الصور ﴿ لَهُ الأسمآء الحسنى ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لله تسعة وتسعين إسماً من أحصاها دخل الجنة .

قال المؤلف : قرأت القرآن على الأستاذ الصالح أبي عبد الله بن الكماد فلما بلغت إلى آخر سورة الحشر قال لي : ضع يدك على رأسك . فقالت له : ولم ذلك ؟ قال : لأني قرأت على القاضي أبي علي بن أبي الأحوص فلما انتهيت إلى خاتمة الحشر قال لي : ضع يدك على رأسك ، وأسند الحديث إلى عبد الله بن مسعود قال : قرأت على النبي صلى الله عليه

وسلم فلما انتهيت إلى خاتمة الحشر قال لي : ضع يدك على رأسك . قلت : ولم ذاك يا رسول الله فداك أبي وأمي ؟ قال : أقرأني جبريل القرآن فلما انتهيت إلى خاتمة الحشر ، قال لي : ضع يدك على رأسك يا محمد ، قلت : ولم ذاك ؟ قال : إن الله تبارك وتعالى افتتح القرآن فضرب فيه فلما انتهى إلى خاتمة سورة الحشر أمر الملائكة أن تضع أيديها على رؤوسها . فقالت : يا ربنا ولم ذاك ؟ قال : إنه شفاء من كل داء إلا السام ، والسام الموت .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 4 صـ 106 .112﴾

(217/757)

وقال البيضاوى :

سورة الحشر

مدنية وآيها أربع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ للَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ روي " أنه عليه السلام لما قدم المدينة صالح بني النضير على أن لا يكونوا له ولا عليه ، فلما ظهر يوم بدر قالوا : إنه النبي المنعوت في التوراة بالنصرة ، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا وخرج كعب بن

الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة وحالفوا أبا سفيان ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أخا كعب من الرضاعة فقتله غيلة ، ثم صبحهم بالكتائب وحاصرهم حتى صالحوا على الجلاء فجلا أكثرهم إلى الشام ولحقت طائفة بخيبر والحيرة" فأنزل الله تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

(218/757)

﴿ هُوَ الذى أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن ديارهم لأَوَّلِ الحشر ﴾ أي في أول حشرهم من جزيرة العرب إذ لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك ، أو في أول حشرهم للقتال أو الجلاء إلى الشام ، وآخر حشرهم إجلاء عمر رضي الله تعالى عنه إياهم من خيبر إليه ، أو في أول حشر الناس إلى الشام وآخر حشرهم أنهم يحشرون إليه عند قيام الساعة فيدركهم هناك ، أو أن ناراً تخرج من المشرق فتحشرهم إلى المغرب . والحشر إخراج جمع من مكان إلى آخر . ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم . ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مّنَ الله ﴾ أي أن حصونهم تمنعهم من بأس الله وتغيير النظم ، وتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بحصانتها واعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة بسببها ، ويجوز أن تكون ﴿ حُصُونُهُم ﴾ فاعلاً ل ﴿ مَّانِعَتُهُمْ ﴾ . ﴿

فأتاهم الله ﴾ أي عذابه وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء، وقيل الضمير ل ﴿ المؤمنين ﴾ أي فأتاهم نصر الله، وقرىء ﴿ فآتاهم الله ﴾ أي العذاب أو النصر. ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ لقوة وثوقهم. ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرعب ﴾ وأثبت فيها الخوف الذي يرعبها أي يملؤها. ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ضناً بها على المسلمين وإخراجاً لما استحسنوا من آلاتها. ﴿ وَأَيْدِى المؤمنين ﴾ فإنهم أيضاً كانوا يخربون ظواهرها نكاية وتوسيعاً لمجال القتال. وعطفها على "أيديهم" من حيث أن تخريب المؤمنين مسبب عن نقضهم فكأنهم استعملوهم فيه، والجملة حال أو تفسير ل ﴿ الرعب ﴾. وقرأ أبو عمرو "يُخْرِبُونَ" بالتشديد وهو أبلغ لما فيه من التكثير. وقيل الإِخراب التعطيل أو ترك الشيء خراباً والتخريب الهدم. ﴿ فاعتبروا ياأولى الأبصار ﴾ فاتعظوا بحالهم فلا تغدروا ولا تعتمدوا على غير الله، واستدل به على أن القياس حجة من حيث أنه أمر بالمجاوزة من حال إلى

حال وحملها عليها في حكم لما بينهما من المشاركة المقتضية له على ما قررناه في الكتب الأصولية.

﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ ﴾ الخروج من أوطانهم . ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا ﴾ بالقتل والسبي كما فعل ببني قريظة . ﴿ وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ استئناف معناه أنهم إن نجوا من عذاب الدنيا لم ينجوا من عذاب الآخرة .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ الإشارة إلى ما ذكر مما حاق بهم وما كانوا بصدده وما هو معد لهم أو إلى الأخير .

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ أي شيء قطعتم من نخلة فعلة من اللون ويجمع على ألوان ، وقيل من اللين ومعناها النخلة الكريمة وجمعها أليان . ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا ﴾ الضمير لما وتأنيثه لأنه مفسر باللينة . ﴿ قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا ﴾ وقرىء "أصلها" اكتفاء بالضمة عن الواو أو على أنه كرهن . ﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فبأمره . ﴿ وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ ﴾ علة لمحذوف أي وفعلتم أو وأذن لكم في القطع ليجزيهم على فسقهم بما غاظهم منه . " روي أنه عليه الصلاة والسلام لما أمر بقطع نخيلهم قالوا : قد كنت يا محمد تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها فنزلت " واستدل به على جواز هدم ديار الكفار وقطع أشجارهم زيادة لغيظهم .

﴿ وَمَا أَفَاء اللهُ على رَسُولِهِ ﴾ وما أعاده عليه بمعنى صيره له أورده عليه ، فإنه كان حقيقاً بأن يكون له لأنه تعالى خلق الناس لعبادته وخلق ما خلق لهم ليتوسلوا به إلى طاعته فهو جدير بأن يكون للمطيعين . ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من بني النضير أو من الكفرة . ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ فما أجريتم على تحصيله من الوجيف وهو سرعة السير . ﴿ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ ﴾ ما يركب من الإبل غلب فيه كما غلب الراكب على راكبه ، وذلك إن كان المراد فيءُ بني النضير ، فلأن قراهم كانت على ميلين من المدينة فمشوا إليها رجالاً غير رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه ركب جملاً أو حماراً ، ولم يجر مزيد قتال ولذلك لم يعط الأنصار منه شيئاً إلا ثلاثة كانت بهم حاجة . ﴿ ولكن اللهُ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ على مَن يَشَاءُ ﴾ بقذف الرعب في قلوبهم . ﴿ والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيفعل ما يريد تارة بالوسائط الظاهرة وتارة بغيرها .

(221/757)

﴿ مَّا أَفَاءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ بيان للأول ولذلك لم يعطف عليه . ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ اختلف في قسم الفيء ، فقيل يسدس لظاهر الآية ويصرف سهم الله في عمارة الكعبة وسائر المساجد ، وقيل يخمس لأن

ذكر الله للتعظيم ويصرف الآن سهم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الإمام على قول وإلى العساكر والثغور على قول وإلى مصالح المسلمين على قول . وقيل يخمس خمسه كالغنيمة فإنه عليه الصلاة والسلام كان يقسم الخمس كذلك ويصرف الأخماس الأربعة كما يشاء والآن على الخلاف المذكور . ﴿ كَيْلاَ يَكُونَ ﴾ أي الفيء الذي حقه أن يكون للفقراء . وقرأ هشام في رواية بالتاء . ﴿ دُولَةً بَيْنَ الأغنياء مِنكُمْ ﴾ الدولة ما يتداوله الأغنياء ويدور بينهم كما كان في الجاهلية ، وقرىء ﴿ دُولَةً ﴾ بمعنى كيلا يكون الفيء ذا تداول بينهم أو أخذه غلبة تكون بينهم ، وقرأ هشام "دُولَةً" بالرفع على كان التامة أي كيلا يقع دولة جاهلية . ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول ﴾ وما أعطاكم من الفيء أو من الأمر . ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ لأنه حلال لكم ، أو فتمسكوا به لأنه واجب الطاعة . ﴿ وَمَا نهاكم عَنْهُ ﴾ عن أخذه منه ، أو عن إتيانه . ﴿ فانتهوا ﴾ عنه . ﴿ واتقوا الله ﴾ في مخالفة رسوله . ﴿ إِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ لمن خالفه .

﴿ لِلْفُقَرَاء المهاجرين ﴾ بدل من ﴿ ذَا القربى ﴾ و ﴿ مَا ﴾ عطف عليه فإن ﴿ الرسول ﴾ لا يسمى فقيراً ، ومن أعطى أغنياء ذوي القربى خصص الإبدال بما بعده ، والفيء بفيء بني النضير . ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن ديارهم وأموالهم ﴾ فإن كفار مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم . ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مّنَ الله وَرِضْوَاناً ﴾ حال مقيدة

لإخراجهم بما يوجب تفخيم شأنهم . ﴿ وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بأنفسهم وأموالهم .
﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصادقون ﴾ في إيمانهم .

(222/757)

﴿ والذين تَبَوَّءوا الدار والإيمان ﴾ عطف على المهاجرين ، والمراد بهم الأنصار الذين ظهر صدقهم فإنهم لزموا المدينة والإيمان وتمكنوا فيهما ، وقيل المعنى تبوءوا دار الهجرة ودار الإيمان فحذف المضاف من الثاني والمضاف إليه من الأول وعوض عنه اللام ، أو تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان كقوله :

عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِداً . . . وقيل سمى المدينة بالإيمان لأنها مظهره ومصيره . ﴿ مِن قَبْلِهِمُ ﴾ من قبل هجرة المهاجرين . وقيل تقدير الكلام والذين تبوءوا الدار من قبلهم والإيمان . ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ ولا يثقل عليهم . ﴿ وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ ﴾ في أنفسهم . ﴿ حَاجَةً ﴾ ما تحمل عليه الحاجة كالطلب والحزازة والحسد والغيظ . ﴿ مّمَّا أُوتُواْ ﴾ مما أعطي المهاجرون من الفيء وغيره . ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ ﴾ ويقدمون المهاجرين على أنفسهم حتى إن كان عنده امرأتان نزل عن واحدة وزوجها من أحدهم . ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ حاجة من خصاص البناء وهي فرجه . ﴿ وَمَن

يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق . ﴿ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ الفائزون بالثناء العاجل والثواب الآجل .

﴿ والذين جَاؤُوا مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ هم الذين هاجروا حين قوي الإسلام ، أو التابعون بإحسان وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ولذلك قيل : إن الآية قد استوعبت جميع المؤمنين . ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفر لَنَا ولإخواننا الذين سَبَقُونَا بالإيمان ﴾ أي لإخواننا في الدين . ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ حقداً لهم . ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فحقيق بأن تجيب دعاءنا .

(223/757)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نافقوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾ يريد الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر أو الصداقة والموالاة . ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ من دياركم . ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فيكُمْ ﴾ في قتالكم أو خذلانكم . ﴿ أَحَداً أَبَداً ﴾ أي من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين . ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ لنعاونكم . ﴿ والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك كما قال :

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لاَ يَنصُرُونَهُمْ ﴾ وكان كذلك فإن ابن أبي

وأصحابه راسلوا بني النضير بذلك ثم أخلفوهم ، وفيه دليل على صحة النبوة وإعجاز القرآن. ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ على الفرض والتقدير. ﴿ لَيُوَلُّنَّ الأدبار ﴾ انهزاماً. ﴿ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ بعد بل يخذلهم الله ولا ينفعهم نصرة المنافقين ، أو نفاقهم إذ ضمير الفعلين يحتمل أن يكون لليهود وأن يكون للمنافقين.

﴿ لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ أي أشد مرهوبية مصدر للفعل المبني للمفعول. ﴿ فِى صُدُورِهِمْ ﴾ فإنهم كانوا يضمرون مخافتهم من المؤمنين. ﴿ مِنَ الله ﴾ على ما يظهرونه نفاقاً فإن استبطان رهبتكم سبب لإظهار مرهبة الله. ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ لا يعلمون عظمة الله حتى يخشوه حق خشيته ويعلموا أنه الحقيق بأن يخشى.

(224/757)

﴿ لاَ يقاتلونكم ﴾ اليهود والمنافقون. ﴿ جَمِيعاً ﴾ مجتمعين متفقين. ﴿ إِلاَّ فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ بالدروب والخنادق. ﴿ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ ﴾ لفرط رهبتهم ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "جدار" وأمال أبو عمرو فتحة الدال. ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أي وليس ذلك لضعفهم وجبنهم فإنه يشتد بأسهم إذا حارب بعضهم بعضاً ، بل لقذف الله الرعب في قلوبهم ولأن الشجاع يجبن والعزيز يذل إذا حارب الله ورسوله. ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً ﴾

مجتمعين متفقين . ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ متفرقة لافتراق عقائدهم واختلاف مقاصدهم .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾ ما فيه صلاحهم وإن تشتت القلوب يوهن قواهم .

﴿ كَمَثَلِ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي مثل اليهود كمثل أهل بدر ، أو بني قينقاع إن صح أنهم أخرجوا قبل النضير ، أو المهلكين من الأمم الماضية . ﴿ قَرِيبًا ﴾ في زمان قريب وانتصابه بمثل إذ التقدير كوجود مثل . ﴿ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ سوء عاقبة كفرهم في الدنيا . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة .

﴿ كَمَثَلِ الشيطان ﴾ أي مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال كمثل الشيطان . ﴿ إِذْ قَالَ للإنسان اكفر ﴾ أغراه على الكفر إغراء الآمر المأمور . ﴿ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنّى بَرِىء مّنكَ إِنّى أَخَافُ الله رَبَّ العالمين ﴾ تبرأ منه مخافة أن يشاركه في العذاب ولم ينفعه ذلك كما قال .

﴿ فَكَانَ عاقبتهما أَنَّهُمَا فِى النار خالدين فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظالمين ﴾ والمراد من الإنسان الجنس . قيل أبو جهل قال له إبليس يوم بدر ﴿ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليوم مِنَ الناس وَإِنّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ الآية . وقيل راهب حمله على الفجور والارتداد وقرىء ﴿ عاقبتهما ﴾ و"خالدان" على أنه خبر إن و ﴿ فِى النار ﴾ لغو .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ اتقوا الله وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ليوم القيامة سماه به لدنوه أو لأن الدنيا كيوم والآخرة كغده ، وتنكيره للتعظيم وأما تنكير النفس فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة كأنه قال : فلتنظر نفس واحدة في ذلك . ﴿ واتقوا الله ﴾ تكرير للتأكيد ، أو الأول في أداء الواجبات لأنه مقرون بالعمل والثاني في ترك المحارم لاقترانه بقوله : ﴿ إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وهو كالوعيد على المعاصي .

﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كالذين نَسُواْ الله ﴾ نسوا حقه . ﴿ فأنساهم أَنفُسَهُمْ ﴾ فجعلهم ناسين لها حتى لم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلصها ، أو أراهم يوم القيامة من الهول ما أنساهم أنفسهم . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الفاسقون ﴾ الكاملون في الفسوق .

﴿ لاَ يَسْتَوِى أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ الذين استكملوا نفوسهم فاستأهلوا الجنة والذين استمهنوها فاستحقوا النار ، واحتج به أصحابنا على أن المسلم لا يقتل بالكافر . ﴿ أصحاب الجنة هُمُ الفائزون ﴾ بالنعيم المقيم .

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرءان على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خاشعا مُّتَصَدّعاً مّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ تمثيل وتخييل كما مر في قوله : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة ﴾ ولذلك عقبه بقوله : ﴿ وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإن الإِشارة إليه وإلى أمثاله . والمراد توبيخ الإِنسان على عدم تخشعه عند تلاوة القرآن لقساوة قلبه وقلة تدبره ، والتصدع التشقق . وقرىء

"مصدعاً" على الإدغام.

﴿ هُوَ اللهُ الذى لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغيب والشهادة ﴾ ما غاب عن الحس من الجواهر القدسية وأحوالها، وما حضر له من الأجرام وأعراضها، وتقديم ﴿ الغيب ﴾ لتقدمه في الوجود وتعلق العلم القديم به، أو المعدوم والموجود، أو السر والعلانية. وقيل الدنيا والآخرة. ﴿ هُوَ الرحمن الرحيم ﴾.

(226/757)

﴿ هُوَ اللهُ الذى لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ الملك القدوس ﴾

البالغ في النزاهة عما يوجب نقصاناً. وقرىء بالفتح وهو لغة فيه. ﴿ السلام ﴾ ذو السلامة من كل نقص وآفة، مصدر وصف به للمبالغة. ﴿ المؤمن ﴾ واهب الأمن، وقرىء بالفتح بمعنى المؤمن به على حذف الجار. ﴿ المهيمن ﴾ الرقيب الحافظ لكل شيء مفيعل من الأمن قلبت همزته هاء. ﴿ العزيز الجبار ﴾ الذي جبر خلقه على ما أراده، أو جبر حالهم بمعنى أصلحه. ﴿ المتكبر ﴾ الذي تكبر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصاناً. ﴿ سبحان الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ إذ لا يشركه في شيء من ذلك.

﴿ هُوَ اللهُ الخالق ﴾ المقدر للأشياء على مقتضى حكمته. ﴿ البَارِيءُ ﴾ الموجد لها

بريئاً من التفاوت . ﴿ المصور ﴾ الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد . (ومن أراد الإطناب في شرح هذه الأسماء وأخواتها فعليه بكتابي المسمى بمنتهى المنى) . ﴿ لَهُ الأسماء الحسنى ﴾ لأنها دالة على محاسن المعاني . ﴿ يُسَبّحُ لَهُ مَا فِى السموات والأرض ﴾ لتنزهه عن النقائص كلها . ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ الجامع للكمالات بأسرها فإنها راجعة إلى الكمال في القدرة والعلم .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 316.324 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(227/757)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

التفسير : قال المفسرون : صالح بنو النضر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه ولا له ، فلما غلب الكفار يوم بدر قالوا : هو النبي الذي نعته في التوراة لا ترد له رأيه ، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين

راكبين إلى مكة فعاهدوا قريشاً عند الكعبة ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعباً غيلة وكان اخا كعب من الرضاعة ثم صبحهم بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف فقال لهم : اخرجوا من المدينة فقالوا : الموت أحب إلينا من ذاك .

(228/757)

فتنادوا بالحرب . وقيل : استمهلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أيام ليتجهزوا للخروج فأرسل إليهم عبد الله بن أبيّ المنافق وأصحابه لا تخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولئن خرجتم لنخرجن معكم فدرّبوا على الأزقة وحصنوها ، فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة . فلما قذف الله الرعب في قلوبهم وأيسوا من نصرة المنافقين طلبوا الصلح فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤا من متاعهم ، فذهبوا إلى اريحاء وأذرعات من الشأم إلا أهل بيتين منهم ابن أبي الحقيق وحُيَيّ بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة . واللام في قوله ﴿ لأول الحشر ﴾ بمعنى الوقت كقولك " جئت ليوم كذا " . وهم أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام . فمعنى الحشر إخراج الجميع من مكان ، ومعنى الأولية أنه لم يصبهم قبل ذلك مثل هذا الذل لأنهم كانوا أهل منعة هذا قول ابن عباس والأكثرين . وقيل :

هذا أول حشرهم ، وآخره حيث يحشر الناس للساعة إلى ناحية الشام كما جاء في الحديث " نار تخرج من المشرق وتسوق الناس إلى المغرب " قاله قتادة . وقيل : آخر حشرهم إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام . وقيل : معناه لأول ما حشر بقتالهم لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال في الكشاف : الفرق بين النظم الذي جاء عليه وبين قول القائل " وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم " هو أن في تقديم الخبر على المبتدأ دليلاً على فرط وثوقهم بحصانتها ، وفي نصب ضميرهم اسماً لأن إسناد الجملة إليه دليل على أنهم اعتقدوا عزة أنفسهم ومنعتها بحيث لا يمكن لأحد أن يتعرض لهم . قلت : حاصل كلامه رضي الله عنه الحصر . ومعنى إتيان الله إتيان أمره وهو النصر إن عاد إلى اليهود وهذا أظهر ليناسب قوله تعالى ﴿ في قلوبهم ﴾ ولاستعمال القرآن نظيره في مواضع أخر في معرض التهديد ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله ﴾ [البقرة : 210] ﴿ هل ينظرون

إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك ﴾ [الأنعام : 158] ومعنى ﴿ لم يحتسبوا ﴾ أنه لم يخطر ببالهم قتل كعب غيلة على يد أخيه . وقذف الرعب في قلوبهم وهذا من خواص

نبينا صلى الله عليه وسلم كما مر في آل عمران ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ [آل عمران : 151] وفي لفظ القذف زيادة تأكيد ولهذا قالوا في صفة الأسد " مقذف " فكأنما قذف باللحم قذفاً لاكتنازه وتداخل أجزائه . قال الفراء ﴿ يخربون ﴾ بالتشديد يهدمون ، وبالتخفيف يخرجون منها ويتركونها . وكان أبو عمرو ويقول : الإخراب أن يترك الشيء خراباً ، والتخريب الهدم ، وبنو النضير خربوا وما أخربوا . وزعم سيبويه أنهما يتعاقبان في بعض الأحكام نحو " فرحته " و " أفرحته " و " حسنة الله " و " أحسنه " .

(230/757)

قال المفسرون : إنهم لما أيقنوا بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم فجعلوا يخربونها من داخل والمسلمون من خارج . قلت : ويحتمل أن يكون بعض التخريب لسدّ أفواه الأزقة بالخشب والحجارة أو لنقل ما أرادوا حمله من جيد الخشب والساج . وأما المؤمنون فداعيهم إلى ذلك إزالة تحصنهم أو أن يتسع لهم في الحرب مجال ، ومعنى تخريبهم بأيدي المؤمنين أنهم كانوا السبب فيه وأنهم عرضوا المؤمنين لذلك . ثم أمر أهل الابصار الباطنة بالاعتبار وهو العبور والمجاوزة من شيء إلى شيء ، ومنه العبرة لأنها تنتقل من

العين إلى الخد ، والتعبير لأن صاحبه ينتقل من المتخيل إلى المعقول ، والعبارة لأنها تنقل المعاني من لسان القائل إلى فهم المستمع ، والسعيد من اعتبر بغيره لأنه ينتقل عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه ، أو القائس يعبر عن المقيس عليه إلى المقيس . ومعنى الاعتبار في الآية أنهم اعتمدوا على حصونهم وعدّتهم فأمر الله تعالى أرباب العقول بأن ينظروا في حالهم ولا يعتمدوا على شيء غير الله ، أو المراد أن يعرف الإنسان عاقبة الكفر والغدر والطعن في النبوّة فإن أولئك اليهود وقعوا بشؤم الغدر والكفر في البلاء والجلاء . واعترض بأن رب شخص وكفر وما عذب في الدنيا ، ورب ممتحن مبتلى هو نبي أو ولي . وأجيب بأن حاصل القياس والاعتبار يرجع إلى أن الغادر الكافر معذب أعم من أن يكون بالتخريب أو بالقتل أو في الدنيا أو في الآخرة والعكس لا يلزم . وقيل : معنى الاعتبار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدهم أن يورثهم أرضهم وأموالهم بغير قتال فكان كما وقع فدل على صحة نبوّته . والجلاء أن لم يبق لهم بالمدينة دار ولا فيها منهم ديار وهذا عندهم أشدّ من الموت فلهذا قال ﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ﴾ بالقتل ﴿ ولهم في الآخرة ﴾ بعدما عاينوا في الدنيا ﴿ عذاب النار ذلك ﴾ التخريب أو الجلاء أو العذاب بسبب مخالفتهم وعصيانهم الله ورسوله . قالت

الفقهاء : فيه دليل على أن تخصيص العلة المنصوصة لا يقدح في صحتها فليس أينما حصلت هذه المشاقة حصل التخريب . يروى أنه صلى الله عليه وسلم حين أمر أن يقطع نخلهم ويحرق قالوا : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ فكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيء فأنزل الله تعالى ﴿ ما قطعتم ﴾ محله نصب و ﴿ من لينة ﴾ بيان له كأنه قيل : أي شيء قطعتم من لينة وهي النخلة من الألوان ما خلا العجوة والبرنية وهما أجود النخل . وياؤها واو في الأصل كالديمة . وقيل : هي النخلة الكريمة من اللين فتكون الياء أصلية ، فبين الله تعالى أن ذلك جائز غيظاً لقلوب الكفرة .

واحتج الفقهاء بها على جواز هدم حصون الكفار وقلع أشجارهم . وعن ابن مسعود : قطعوا منها ما كان موضعاً للقتال . وروي أن رجلين كان يقطع أحدهما العجوة والآخر يترك فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذا : تركتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هذا : قطعتها غيظاً للكفار . وقد يستدل بهذا على جواز الاجتهاد ولو بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أن كل مجتهد مصيب .

قوله ﴿ وما أفاء الله ﴾ أدخل العاطف ههنا دون الأخرى لأن تلك بيان لهذه فهي غير أجنبية عنها والأولى معطوفة على ما قبلها . ومعنى أفاء جعله فيئاً من فاء إذا رجع وذلك لرجوعه من ملك الكفار إلى ملك المسلمين . والإيجاف من الوجيف وهو السير السريع . وقوله ﴿ عليه ﴾ أي على ما أفاء . والركاب ما يركب من الإبل واحدتها راحلة ولا واحد لها من لفظها ، وقلما تطلق العرب الراكب إلا على راكب البعير ، بين الله سبحانه الفرق بين الغنيمة والفيء حين طلب الصحابة أن يقسم أموال أولئك اليهود بينهم اعترض بعضهم بأن أموال بني النضير أخذت بعد القتال لأنهم حوصروا أياماً وقاتلوا وقتلوا ثم صالحوا على الجلاء فوجب أن تكون تلك الأموال من الغنيمة لا من الفيء . وأجاب المفسرون من وجهين : الأول أنها لم تنزل في بني النضير وإنما نزلت في فدك ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق على نفسه وعلى عياله من غلة فدك ويجعل الباقي في السلاح والكراع . الثاني تسليم أنها نزلت فيهم ولكن لم يكن للمسلمين يومئذ كثير خيل ولا ركاب ، ولم يقطعوا إليها مسافة كثيرة ، وإنما كانوا على ميلين من المدينة فمشوا على أرجلهم ولم يركب إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان راكب جمل ، فلما كان المعاملة قليلة ولم يكن خيل ولا ركاب أجراه الله مجرى ما لم يكن قتال ثمة . ثم روي أنه قسمها بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة وهو أبو دجانة وسهل بن حنيف

والحرث بن أبرهة قال الواحدي: كان الفيء مقسوماً في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة أسهم: أربعة منها لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة وكذا خمس الباقي، والسهم الأربعة من هذا الباقي لذي القربى ولد بني هاشم والمطلب، واليتامى والمساكين وابن السبيل. وأما بعد الرسول فللشافعي فيه قولان: أحدهما أنه للمجاهدين المترصدين للقتال في الثغور لأنهم قاموا مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم

في رباط الثغور. والثاني أنه يصرف إلى مصالح المسلمين من سد الثغور وحفر الأنهار وبناء القناطر الأهم فالأهم. هذا في الأربعة الأخماس التي كانت له، وأما السهم الذي كان له من خمس الفيء فإنه لمصالح المسلمين بلا خلاف وقد مر سائر ما يتعلق بقسمة الغنائم في سورة الأنفال.

ثم بين الغرض من قسمة الفيء على الوجه المذكور فقال ﴿ كيلا يكون دولة ﴾ قال المبرد : هي اسم للشيء الذي يتداوله الناس بينهم يكون لهذا مرة ولهذا مرة كالغرفة اسم لما يغرف . والدولة بالفتح انتقال حال سارة إلى قوم عن قوم . قال جار الله : هي بالضم ما يدول للانسان أي يدور من الجد يقال دالت الدولة . فعلى قول المبرد معناه كيلا يكون الفيء شيئاً يتداوله الأغنياء بينهم ويتعاورونه فلا يصيب الفقراء ، وعلى قول جار الله : كيلا يكون الفيء الذي حقه أن يعطى الفقراء جداً بين الأغنياء يتكاثرون به ، أو لكيلا يكون الفيء دولة جاهلية كان الرؤساء منهم يستأثرون بالغنائم لأنهم أهل الرياسة والجد والغلبة وكانوا يقولون من عزبز ومنه قول الحسن " اتخذوا عباد الله خولاً ومال الله دولاً " يريد من غلب منهم أخذه واستأثر به . ومن قرأ على " كان " التامة فالمعنى كيلا يقع شيء متعاوراً بينهم غير مخرج إلى الفقراء ، أو كيلا تقع دولة جاهلية أي ينقطع أثرها . قوله ﴿ وما آتاكم ﴾ الآية . قيل : يختص بأنه يقسم الغنائم وأن على المؤمنين أن يرضوا بما يعطيهم الرسول صلى الله عليه وسلم منها ، والأولى عند المحققين العموم . قوله ﴿ للفقراء ﴾ بدل من قوله ﴿ ولذي القربى ﴾ إلى آخر الأصناف الأربعة . ولا يجوز أيضاً أن يكون ابتدال البدل من قوله ﴿ فلله ﴾ لأنه يخل بتعظيم قولهم ﴿ وللرسول ﴾ لأنه تعالى أخرجه عن الفقراء بقوله ﴿ وينصرون الله ورسوله ﴾ ولترفع منصبه عن التسمية بالفقير . ولئن صح أنه صلى الله عليه وسلم قال " الفقر فخري " فذاك معنى آخر وهو غنى القلب وانقطاع

التعلق عما سوى الله وجعل الهموم هماً واحداً وهو الافتقار بالكلية إلى الله . إستدل بعض العلماء بقوله ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ على إمامة أبي بكر لأن هؤلاء المهاجرين كانوا يقولون له يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلو لم تكن خلافته حقه لزم كذبهم وهو خلاف الآية . وقال في الكشاف : أراد صدقهم في

إيمانهم وجهادهم . قوله ﴿ والذين تبوّؤا الدار ﴾ معطوف على المهاجرين وكذا قوله ﴿ والذين جاءوا ﴾ وذلك عند من يجعل الغنائم حلاًّ للمهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان أو التابعين لهم إلى يوم القيامة وعلى هذا يكون قوله ﴿ يحبون ﴾ و ﴿ يقولون ﴾ حالين أي الغنائم لهم محبين قائلين . ومن جعل المراد بيان غنائم بني النضير وقف على ﴿ هم الصادقون ﴾ و ﴿ المفلحون ﴾ وجعل الفعلين خبرين . وعلى هذا يكون الآيتان ثناء على الأنصار على الإيثار ، وللتابعين على الدعاء . قال مقاتل : أثنى على الأنصار حين طابت أنفسهم عن الفيء إذ جعل للمهاجرين دونهم . وههنا سؤالان أحدهما : أنه لا يقال تبوؤا الإيمان .

الثاني بتقدير التسليم أن الأنصار ما تبوؤا الإيمان قبل المهاجرين . والجواب من الأول أن المراد تبوؤا الدار وأخلصوا الإيمان كقوله :

(236/757)

" علفتها تبناً وماء بارداً " . . . أو هو مجاز من تمكنهم واستقامتهم على الإيمان كأنهم جعلوه مستقراً لهم كالمدينة أو هو مجاز بالنقصان . والمعنى تبوّؤا دار الهجرة ودار الإيمان فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه وحذف المضاف من الثاني ، أو سمى المدينة بالإيمان لأنها مكان ظهور الإيمان وهذا يؤل بالحقيقة إلى الوجه الذي تقدمه . وعن الثاني أن المراد من قبل هجرتهم أو هو من تمام تبوء الدار ، ولا شك أن الأنصار سبقوهم في ذلك وإن لم يسبقوهم في الإيمان ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة ﴾ أي حسداً وغيظاً مما أوتى المهاجرون من الفيء وغيره . وإطلاق لفظ الحاجة على الحسد والغيظ والحزازة من إطلاق اسم اللازم على الملزوم لأن هذه الأشياء لا تنفك عن الحاجة . وقال جار الله : المحتاج إليه يسمى حاجة يعني أن نفوسهم لم تتبع ما أعطوا ولم تطح إلى شيء منه يحتاج إليه ﴿ ولو كان بهم خصاصة ﴾ أي خلة فهي من خصاص البيت أي فرجه ، وكل خرق في منخل أو باب أو سحاب أو برقع فهي خصاص الواحد خصاصة . وفعول ﴿ يؤثرون ﴾

محذوف أي يؤثرونهم ويخصونهم بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم . عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم وقسمت لكم من الفيء كما قسمت لهم ، وإن شئتم كان لهم القسم ولكم دياركم وأموالكم . فقالوا : لا بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا نؤثرهم بالقسمة ولا نشاركهم فيها فنزلت . والشح المنع الذاتي الذي تقتضيه الحالة النفسانية ولهذا أضيف إلى النفس ، والبخل المنع المطلق من غير اعتبار صيرورته غريزة وملكة . قال ابن زيد : من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عن أخذه ولم يمنع شيئاً أمره الله بإعطائه فقد وقي شح نفسه . وذكر المفسرون أنواعاً من إيثار الأنصار الضيف بالطعام وتعللهم عنه حتى شبع الضيف . والظاهر أنها نزلت في الفيء كما مر ويدخل فيه غيره . قوله ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ أي هاجروا بعد المهاجرين

الأوّلين . وقيل : هم التابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين ، فتشمل الآيات الثلاث جميع المؤمنين . ثم عجب من أحوال أهل النفاق من أهل المدينة كعبد الله بن أبيّ وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن زيد ، كانوا في الظاهر من الأنصار ولكنهم يوالون اليهود في السر فصاروا

إخوانهم في الكفر وقالوا له ملا نطيع في قتالكم أو خذلانكم أحداً . ثم شهد إجمالاً عليهم بأنهم كاذبون ، ثم فصل ذلك قائلاً ﴿ لئن أخرجوا ﴾ إلى قوله ﴿ ولئن نصروهم ﴾ وهذا على سبيل الفرض لأنه تعالى كما يعلم ما يكون فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون .

والمعنى لو فرض نصر المنافقين اليهود ليهزمن المنافقون ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ بعد ذلك أي لا يمنعهم من عذاب الله مانع لظهور كفرهم . وقيل : ليهزمن اليهود ثم لا تنفعهم نصرة المنافقين . وعلى هذا يكون " ثم " لترتيب الأخبار كقوله ﴿ ثم اهتدى ﴾ [طه : 82] ثم بيّن الحكمة في الغزو فقال ﴿ لأنتم أشد رهبة ﴾ قال في الكشاف : أي مرهوبية هي مصدر رهب المبني للمفعول . وقوله ﴿ في صدورهم ﴾ دلالة على نفاقهم يعني أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله خوفاً شديداً ورهبتهم في السر منكم أشد من ذلك لأنهم لا يفقهون عظمة الله فلا يخشونه حق خشيته . وجوز أن يكون المراد أن اليهود يخافونكم في صدورهم أشد من خوفهم من الله وكانوا يتشجعون للمسلمين مع إضمار الخيفة في صدورهم . قلت : الأظهر أن المراد أنتم فيه أكثر مكانة من مواعظ الله أو لثمرة جهادكم معهم أوفر من ثمرة ترهبهم بعقاب الله ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ من سر التكاليف وتبعة الكفر والنفاق في الآخرة فلا يرتدعون إلا خوفاً من العقوبة العاجلة . ومن هذا أخذ عمر فقال : ما يزع السلطان أي منع أكثر مما يزع القرآن . وقال الشاعر :

السيف أصدق إنباء من الكتب . . . وقيل : العبد لا يردعه إلا العصا . ثم شجع المسلمين بقوله ﴿ لا يقاتلونكم ﴾ أي لا يقدرون على قتالكم مجتمعين ﴿ إلا في قرى محصنة ﴾ غاية التحصين ﴿ أو من وراء جدر ﴾ لا مبارزين مكشوفين في الأراضي المستوية ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ لا بينكم لأنكم منصورون بنصرة الله مؤيدون بتأييده ، أو لأنهم يحسبون في أنفسهم وفيما بينهم أموراً يعلم الله أنها لا تقع في الخارج على وفق حسبانهم وعن ابن عباس : معناه بعضهم لبعض عدوّ يؤيده قوله ﴿ تحسبهم جميعاً ﴾ مجتمعين ذوي تآلف ومحبة ﴿ وقلوبهم شتى ﴾ متفرقة وهو فعلى من الشت . وإنما قال ههنا ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ وفي الأوّل ﴿ لا يفقهون ﴾ لأن الفقه معرفة ظاهر الشيء وغامضه فنفي عنهم ذلك كما قلنا ، وأراد ههنا أنهم لو عقلوا لاجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا فتشتتهم دليل عدم عقلهم لأن العقل يحكم بأن الاجتماع معين على المطلوب والتفرق يوهن القوى ولا سيما إذا كانوا مبطلين . ثم شبه حالهم بحال من قتلوا قبلهم ببدر في زمان قريب . قال جار الله : انتصب ﴿ قريباً ﴾ بمحذوف أي كوجود مثل أهل بدر قريباً . قلت : لا يبعد أن يتعلق بصلة الذين . ثم ضرب مثلاً آخر لإغراء المنافقين اليهود

على القتال ووعدهم إياهم النصر ، والمراد إما عموم دعوة الشيطان للإنسان إلى الكفر وإما خصوص إغراء إبليس قريشاً يوم بدر كما مر في الأنفال في قوله سبحانه ﴿ وإذ زين لهم الشيطان ﴾ [الأنفال : 48] إلى قوله ﴿ إني بريء منكم ﴾ [الأنفال : 48] قال مقاتل : وكان عاقبة اليهود والمنافقين مثل عاقبة الشيطان والإنسان حتى صار إلى النار .

(239/757)

قال جار الله : كرر الأمر بالتقوى تأكيداً أو لأن الأول في أداء الواجبات لأنه قرن بما هو عمل والثاني في ترك المعاصي لأنه قرن بما يجري مجرى الوعيد . وسمى القيامة بالغد تقريباً لمجيئها . عن الحسن : لم يزل بقربه حتى جعله كالغد . وقيل : جعل مجموع زمان الدنيا كنهار عند الآخرة . قال أهل المعاني : تنكير ﴿ نفس ﴾ للتقليل كما مر في الوقوف وتنكير ﴿ غد ﴾ للتعظيم والتهويل . قال مقاتل : ونسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم حتى لم يشعروا لها بما ينفعها ، أو فأراهم يوم القيامة من الأحوال ما نسوا فيه أنفسهم . قلت : يجوز أن يراد نسوا ذكر الله فأورثهم القسوة وفساد الاستعداد بالكلية . وحين نهى المؤمنين عن كونهم مثل الناسين الغافلين ذكرهم بأنه لا استواء بين الفريقين ففيه شبه قرع العصا كأنهم غفلوا عن هذا الواضح البين كما تقول لمن يعصي أباه " هو أبوك " . استدل أصحاب

الشافعي بالآية على أن المسلم لا يقتل بالذمي وإلا استويا ، وأن الكافر لا يملك مال المسلم بالقهر وإلا استويا . واحتج بعض المعتزلة بها على أن صاحب الكبيرة لو دخل الجنة وهو من أهل النار لزم خلاف الآية . والجواب ظاهر لأنه على تقدير إمكان العفو لا يحكم أنه من أهل النار . ثم عظم أمر القرآن الذي يعلم منه هذا البيان . قال الكشاف : هو مثل وتخييل بدليل قوله ﴿ وتلك الأمثال ﴾ يعني هذا وغيره من أمثال التنزيل . وقال غيره : المعنى إشارة إلى قوله ﴿ كمثل الذين ﴾ ﴿ كمثل الشيطان ﴾ ولما وصف القرآن بما وصف عظم شأنه بوجه آخر وهو التنبيه على أوصاف منزله ، وقد سبق شرح أكثر هذه الأسماء في هذا الكتاب ولا سيما في البسملة . والقدّوس مبالغة القدس وهو التبليغ في الطهارة والبراءة عما يشين هذا بالنسبة إلى زمان الماضي والحال . والسلام إشارة إلى كونه سالماً عن الآفات والعاهات والنقائص في زمان الاستقبال ، ويجوز أن يراد أنه المعطي للسلامة . المؤمن الواهب الأمن والمصدق لأنبيائه بالمعجزات . وقد

مر معنى المهيمن وأصل اشتقاقه في المائدة في قوله ﴿ ومهيمناً عليه ﴾ [الآية : 48] وأن معناه الرقيب الحافظ لكل شيء . ولمكان تعداد هذه الأوصاف كرر قوله ﴿ يسبح له ﴾

إلى آخر السورة . فمن عزته كان منزهاً عن النقائص أهلاً للتسبيح ، ومن حكمته أمر المكلفين في السموات والأرضين بأن يسبحوا له ليربحوا لا ليربح هو عليهم وهو تعالى أعلم بمراده وبالله التوفيق للخير وإليه المآب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 288.281 ﴾

(241/757)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الحشر

مدنية

في قول الجميع ، وهي أربع وعشرون آية وأربعمائةوخمس وأربعون كلمة ، وألف وتسعمائة وثلاثة عشر حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الملك الأعظم الذي لا خلف لميعاده ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمت نعمة إيجاده ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أهل ودّه بالتوفيق فهم أهل السعادة .

ولما ختمت المجادلة بأنه يعز أهل طاعته ويذل أهل معصيته تنزه عن النقائص تأيداً للوعد بنصرهم فقال تعالى:

﴿ سبح ﴾ أي : أوقع التنزيه الأعظم عن كل شائبة نقص ﴿ لله ﴾ الذي أحاط بجميع صفات الكمال ﴿ ما في السموات ﴾ أي : كلها ﴿ وما في الأرض ﴾ أي : كذلك ، وقيل : أن اللام مزيدة ، أي : نزهة وأتى بما تغليباً للأكثر ، وجمع السماء لأنها أجناس .

قيل : بعضها من فضة وبعضها من غير ذلك ، وأفراد الأرض لأنها جنس واحد ﴿ وهو ﴾ أي : والحال أنه وحده ﴿ العزيز ﴾ الذي يغلب كل شيء ، ولا يمتنع عليه شيء ﴿ الحكيم ﴾ الذي نفذ علمه في الظواهر والبواطن ، وأحاط بكل شيء فأتقن ما أراد ، فكل ما خلقه جعله على وحدانيته دليلاً ، وإلى بيان ماله من العزة والحكمة سبيلاً .

وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء ، والباقون بضمها ، قال المفسرون : نزلت هذه السورة في بني النضير ، وذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل المدينة صالحه بنو النضير على أن لا يكونوا عليه ولا له ، فلما غزا بدراً وظهر على المشركين قالوا : هو النبيّ الذي نعته في التوراة لا تردّ له راية ، فلما غزا أحد وهزم المسلمون ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم

وركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكة ، فأتوا قريشاً فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل أبو سفيان في أربعين وكعب في أربعين من اليهود المسجد ، وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين أستار الكعبة ، ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة فنزل جبريل عليه السلام ، وأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بما عاقد عليه كعب وأبو سفيان ، فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتل كعب بن الأشرف فقتله محمد بن مسلمة ، فلما قتل كعب بن الأشرف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر الناس بالمسير إلى بني النضير ، وكانوا بقرية يقال لها : زهرة فلما سار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدهم ينوحون على كعب ، وقالوا : يا محمد واعية على أثر واعية ، وباكية على أثر باكية ، قال : نعم ، قالوا : ذرنا نبكي شجونا ثم ائتمر أمرك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم اخرجوا من المدينة ، فقالوا : الموت أقرب إلينا من ذلك ، ثم تنادوا بالحرب وآذنوا بالقتال ، ودس المنافقون عبد الله بن أبيّ وأصحابه إليهم أن لا تخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنكم ، ولئن خرجتم لنخرجنّ معكم ، فدربوا على الأزقة وحصنوها ، ثم إنهم اجمعوا الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلوا إليه أن اخرج في ثلاثين رجلاً من أصحابك ، ويخرج منا ثلاثون حتى نلتقي بمكان نصف بيننا وبينك فيسمعون منك ، فإن صدّقوك وآمنوا بك آمنا كلنا . فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثين من أصحابه ، وخرج إليه ثلاثون حبراً من

اليهود حتى إذا كانوا في براز من الأرض ، قال بعض اليهود لبعض : كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون من رجال أصحابه كلهم يحب الموت قبله ، ولكن أرسلوا إليه كيف نفهم ونحن ستون رجلاً اخرج في ثلاثة من أصحابك ونخرج إليك في ثلاثة من علمائنا فيسمعون منك ، فإن آمنوا بك آمنا كلنا بك وصدقناك .

(243/757)

فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثة من أصحابه ، واشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها ، وهو رجل مسلم من الأنصار فأخبرته بما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبي صلى الله عليه وسلم فسارّه بخبرهم . فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتائب فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة ، فقذف الله في قلوبهم الرعب ، وأيسوا من نصر المنافقين فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح ، فأبى عليهم إلا أن يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به النبيّ صلى الله عليه وسلم فقبلوا ذلك فصالحهم على الجلاء وعلى أنّ لهم ما أقلت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ، وهي السلاح ، وعلى أن يخلوا لهم ديارهم وعقارهم وسائر أموالهم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : على أن يحمل كل أهل بيت على بعير ما شاء من متاعهم ، وللنبيّ صلى الله عليه وسلم ما بقي .

وقال الضحاك : على كل ثلاثة نفر بعيرا ووسقاً من طعام . ففعلوا ذلك وخرجوا من المدينة إلى الشام إلى أذرعات وأريحاء إلا أهل بيتين من آل بني الحقيق ، وآل حيي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ، ولحقت طائفة بالحيرة .

(244/757)

فذلك قوله تعالى : ﴿ هو ﴾ أي : وحده من غير إيجاف خيل ولا ركاب ﴿ الذي أخرج ﴾ أي : على وجه القهر ﴿ الذي كفروا ﴾ أي : ستروا ما في كتبهم من الشواهد لمحمد صلى الله عليه وسلم بأنه النبيّ الخاتم ، وما في فطرتهم الأولى من اتباع الحق ﴿ من أهل الكتاب ﴾ أي : الذي أنزله الله تعالى على رسوله موسى صلى الله عليه وسلم وهم بنو النضير . وفي التعبير بكفروا إشعار بأنهم الذي أزالوا بالتبديل والإخفاء ما قدروا عليه مما بقي من التوراة ﴿ من ديارهم ﴾ أي : مساكنهم بالمدينة عقوبة لهم ، لأنّ الوطن عديل الروح لأنه للبدن كالبدن للروح فكان الخروج منه في غاية العسر . قال ابن اسحق : كان إجلاء بني النضير مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من أحد ، وفتح قريظة عند مرجعه من

الأحزاب وبينهما سنتان ﴿لأول الحشر﴾ هو حشرهم إلى الشام.

وآخره أن جلاهم عمر في خلافته إلى خيبر. قال سمرة الهمداني: كان أوّل الحشر من المدينة، والحشر الثاني من خيبر وجميع جزيرة العرب إلى أذرعات وأريحا من الشام في أيام عمر وقال القرطبي: الحشر الجمع، وهو على أربعة أضرب: حشران في الدنيا وحشران في الآخرة، أما الذي في الدنيا فقوله تعالى: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾ كانوا من سبط لم يصبهم جلاء، وكان الله تعالى قد كتب عليهم الجلاء فلولا ذلك لعذبهم في الدنيا، وكان أوّل حشر في الدنيا إلى الشام، قال ابن عباس وعكرمة رضي الله عنهم: من شك أنّ المحشر في الشام فليقرأ هذه الآية، وأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: "اخرجوا قالوا إلى أين، قال: إلى أرض الحشر" قال قتادة: هذا أول الحشر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو أول من حشر من أهل الكتاب وأخرج من داره.

وأما الحشر الثاني: فحشرهم قرب القيامة، قال قتادة: تأتي نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا وتأكل من تخلف منهم، وهذا

ثابت في الصحيح . وذكروا أنّ تلك النار ترى بالليل ولا ترى بالنهار .

وقال ابن العربي : للحشر أوّل ووسط وآخر ، فالأوّل : جلاء بني النضير ، والأوسط : جلاء خيبر ، والآخر : حشر يوم القيامة . وعن الحسن : هم بنو قريظة وخالفه بقية المفسرين ، وقالوا : بنو قريظة ما حشروا ولكنهم قتلوا حكاه الثعلبي ﴿ ما ظننتم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أن يخرجوا ﴾ أي : يوقعوا الخروج من شيء أورثتموه منهم لما كان لكم من الضعف ولهم من القوة لكثرتهم وشدّة بأسهم وقرب بني قريظة منهم وأهل خيبر أيضاً غير بعيدين عنهم ، وكلهم أهل ملتهم والمنافقون من أنصارهم فخابت ظنونهم في جميع ذلك ﴿ وظنوا أنهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ما نعتهم حصونهم ﴾ فيه وجهان:

أحدهما : أن تكون حصونهم مبتدأ ، وما نعتهم خبر مقدّماً ، والجملة خبر أنهم .

الثاني : أن تكون مانعتهم خبر أنهم ، وحصونهم فاعل به نحو إنّ زيداً قائم أبوه ، وإنّ عمراً قائمة جاريته . وجعله أبو حيان أولى لأنّ في نحو قائم زيد على أن يكون خبراً مقدّماً ومبتدأ مؤخراً خلافاً ، والكوفيون يمنعونه فمحل الوفاق أولى .

وقال الزمخشري : فإن قلت : أي فرق بين قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو ما نعتهم ، وبين النظم الذي جاء عليه . قلت : في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم ، وفي تصيير ضميرهم اسماً لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة ، لا يبالي معها بأحد يتعرّض لهم أو يطمع في معازتهم ، وليس ذلك في قولك : وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم ا .ه . وهذا الذي ذكره إنما يتأتى على الإعراب الأوّل ، وقد تقدّم أنه مرجوح ودل على ضعف عقولهم بأن عبر عن جنده باسمه الأعظم بقوله تعالى : ﴿ من الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي لا عز إلا له ﴿ فأتاهم الله ﴾ أي : جاءهم الملك الأعظم الذي لا يحتملون مجيئه ﴿ من حيث لم يحتسبوا ﴾ بما صوّر لهم من حقارة أنفسهم على حبسها ، وهي خذلان المنافقين رعباً كرعبهم . وقرأ حمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بفتحها ﴿ وقذف ﴾ أي : أنزل إنزالاً كأنه قذف بحجارة فثبت ﴿ في قلوبهم الرعب ﴾ أي : الخوف الذي سكنها بعد أن كان الشيطان زين لهم غير ذلك ، وملأ قلوبهم من الأطماع الفارغة . وقرأ في قلوبهم الرعب ، وعليهم الجلاء ، ولأخوانهم الذين حمزة والكسائي في الوصل بضم الهاء والميم ، وأبو عمر وبكسرهما ، والباقون بكسر الهاء وضم الميم ، وحرّك العين بالضم ابن عامر والكسائي ، والباقون بالكسون

ثم بين تعالى حالهم عند ذلك وفسر قذف الرعب بقوله تعالى : ﴿ يخربون بيوتهم ﴾ أي : لينقلوا ما استحسنوه منها من خشب وغيره . وقرأ أبو عمرو بفتح الخاء وتشديد الراء ، والباقون بسكون الخاء وتخفيف الراء وهما بمعنى ، لأنّ خرب عدّاه أبو عمرو بالتضعيف ، وهم بالهمزة . وعن أبي عمرو أنه فرق بمعنى آخر فقال : خرّب بالتشديد هدم ، وأفسد وأخرب بالهمزة ترك الموضع خراباً وذهب عنه ، وهو قول الفرّاء . قال المبرد : ولا أعلم لهذا وجهاً ، وزعم سيبويه أنهما متعاقبان في بعض الكلام فيجري كل واحد مجرى الآخر ، نحو : فرحته وأفرحته .

وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بيوتهم بضم الباء الموحدة ، والباقون بكسرها ﴿ بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴾ قال الزهري : وذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لما صالحهم على أنّ لهم ما أقلت الأبل ، كانوا ينظرون إلى الخشبة في منازلهم فيهدمونها ، وينزعون ما استحسنوه منها فيحملونه على إبلهم ، ويخرّب المؤمنون باقيها . وقال قتادة والضحاك : كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا ، واليهود من داخل ليبنوا ما خرّب من حصنهم . وقال مقاتل : إنّ المنافقين أرسلوا إليهم أن لا تخرجوا ودربوا عليهم الأزقة ، وكان المسلمون سائر الجوانب .

فإن قيل : ما معنى تخريبها لهم بأيدي المؤمنين ؟

أجيب : بأنهم لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوهم إياه .

وقال أبو عمرو بن العلاء : بأيديهم في تركهم لها ، وبأيدي المؤمنين في إجلائهم عنها

ولما كان في غاية الغرابة أن يعمل الإنسان في نفسه كما يفعل فيه عدوّه تسبب عن ذلك قوله ﴿ فاعتبروا ﴾ أي : احملوا أنفسكم بالإمعان في التأمّل في عظيم قدرة الله تعالى ، والاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شيء إلى شيء ، ولهذا سميت العبرة عبرة لأنها تنتقل من العين إلى الخدّ . وسمي علم التعبير لأنّ صاحبه ينتقل من التخيل إلى المعقول ، وسميت الألفاظ عبارات ؛ لأنها تنقل المعاني عن لسان القائل إلى عقل المستمع ويقال : السعيد من اعتبر بغيره لأنه ينتقل عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه ، ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره . ولهذا قال القشيري : الاعتبار هو النظر في حقائق الأشياء وجهات دلالاتها ليعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها

ثم بين أنّ الاعتبار لا يحصل إلا للكمل بقوله تعالى : ﴿ يا أولي الأبصار ﴾ بالنظر بإبصارهم وبصائرهم في غريب هذا الصنع ، لتحققوا به ما وعدكم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من إظهار دينه وإعزاز نبيه ، ولا تعتمدوا على غير الله تعالى كما اعتمد هؤلاء

على المنافقين، فإنّ من اعتمد على مخلوق أسلمه ذلك إلى صغاره ومذلته.

﴿ ولولا أن كتب الله ﴾ أي: فرض فرضاً حتماً الملك الذي له الأمر كله ﴿ عليهم الجلاء ﴾ أي: الخروج من ديارهم والجولان في الأرض. فأمّا معظمهم فأجلاهم بختنصر من بلاد الشام إلى العراق، وأمّا هؤلاء فحماهم الله تعالى بمهاجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك الجلاء، وجعله على يده صلى الله عليه وسلم فأجلاهم، فذهب بعضهم إلى خيبر، وبعضهم إلى الشام مرة بعد مرة

(249/757)

تنبيه: قال الماوردي: الجلاء أخص من الخروج، لأنه لا يقال إلا للجماعة، والإخراج يكون للجماعة والواحد. وقال غيره: الفرق بينهما أنّ الجلاء ما كان مع الأهل والولد، بخلاف الإخراج فإنه لا يستلزم ذلك ﴿ لعذبهم ﴾ أي: بالقتل والسبي ﴿ في الدينا ﴾ كما فعل بقريظة من اليهود ﴿ ولهم ﴾ أي: على كل حال أجلوا أو تركوا ﴿ في الآخرة ﴾ التي هي دار البقاء ﴿ عذاب النار ﴾ وهو العذاب الأكبر.

﴿ ذلك ﴾ أي: الأمر العظيم الذي فعله بهم من الجلاء ومقدماته في الدنيا، ويفعله بهم في الآخرة ﴿ بأنهم شاقوا الله ﴾ أي: الملك الأعلى الذي له الإحاطة التامّة فكانوا في شق

غير شقه، بأن صاروا في شق الأعداء المحاربين بعدما كانوا الموادعين ﴿ و ﴾ شاقوا ﴿ رسوله ﴾ أي: الذي إجلاله من إجلاله ﴿ ومن يشاق الله ﴾ أي: يوقع في الباطن مشاقة الملك الأعلى الذي لا كفؤ له في الماضي والحال والاستقبال ﴿ فإن الله ﴾ أي: المحيط بجميع العظمة ﴿ شديد العقاب ﴾ وذلك كما فعل بأهل خيبر.

وقوله تعالى:

﴿ ما ﴾ شرطية في موضع نصب بقوله تعالى: ﴿ قطعتم ﴾ وقوله تعالى: ﴿ من لينة ﴾ بيان له. واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿ من لينة ﴾ فأكثر المفسرين على أنها هي النخلة مطلقاً، كأنهم اشتقوها من اللين. قال ذو الرمة:

*كأن قتودي فوقها عش طائر ** على لينة سوقاء تهفو جنوبها *

وقال الزهري: هي النخلة ما لم تكن عجوة ولا برنية، وقال جعفر بن محمد: هي العجوة خاصة، وذكر أن العتيق والعجوة كانتا مع نوح عليه الصلاة والسلام في السفينة، والعتيق: الفحل وكانت العجوة أصل الإناث كلها فلذلك شق على اليهود قطعها حكاه الماوردي.

وقال سفيان: هي ضرب من النخل يقال لثمرها اللون، وهو شديد الصفرة يرى نواه من خارجه، ويغيب فيه الضرس النخلة منها أحب إليهم من وصيف.

وقيل : هي النخلة الكريمة ، أي : القريبة من الأرض . وقيل : هي الفسيلة ، أي : بالفاء وهي صغار النخل لأنها ألين من النخلة . وقيل : هي الأشجار كلها للينها بالحياة . وقال الأصمعي : هي الدقل . قال ابن العربي : والصحيح ما قاله الأزهري ومالك ، وجمع اللينة لين ؛ لأنه من باب اسم الجنس كتمرة وتمر ، وقد تكسر على ليان وهو شاذ لأن تكسر ما يفرق بتاء التأنيث شاذ كرطبة ورطب وأرطاب والضمير في قوله تعالى : ﴿ أو تركتموها قائمة ﴾ عائد على معنى ما .

ولما كان الترك يصدق ببقائها مغروسة أو مقطوعة قال تعالى : ﴿ على أصولها فبأذن الله ﴾ أي : فقطعها بتمكين الملك الأعظم ، روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل ببني النضير وتحصنوا بحصونهم أمر بقطع نخيلهم وإحراقها ، فجزع أعداء الله تعالى عند ذلك وقالوا : يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح ، أفمن الصلاح عقر الشجر وقطع النخل ، وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض ، فوجد المسلمون في أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فساداً ، واختلفوا في ذلك فقال بعضهم لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا ، وقال بعضهم : بل نغيظهم بقطعه فأنزل الله تعالى هذه الآية بتصديق من نهى عن قطعه ، وتحليل من قطعه من الأثم ، وإن ذلك كان بإذن الله وعن ابن عمر قال : "حرق رسول الله صلى الله عليه وسلم نخل بني النضير وقطع" واللام في قوله تعالى :

﴿ وليخزي الفاسقين ﴾ متعلقة بمحذوف ، أي : وأذن في قطعها ليخزي اليهود في اعتراضهم بأن قطع الشجر المثمر فساد ، وليسر المؤمنين ويعزهم ، وليخزي الفاسقين .

فإن قيل : لم خصت اللينة بالقطع ؟

أجيب : بأنه إن كانت من الألوان فليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية ، وإن كانت من كرام النخل فليكون غيظ اليهود أشدّ .

(251/757)

واحتجوا بهذه الآية على أنّ حصون الكفرة وديارهم يجوز هدمها وتحريقها وتغريقها ، وأن ترمى بالمناجيق ، وكذا أشجارهم . وعن ابن مسعود : أنهم قطعوا منها ما كان موضعاً للقتال ، وروي : أنّ رجلين كانا يقطعان أحدهما العجوة والآخر اللون فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هذا تركتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هذا قطعتها غيظاً للكفار . وقد استدل به على جواز الاجتهاد ، وعلى جوازه بحضور النبي صلى الله عليه وسلم لأنهما بالاجتهاد فعلا ذلك ، واحتج به من يقول : كل مجتهد مصيب . وقال الكيا الطبري : وإن كان الاجتهاد يبعد في مثله مع وجود النبيّ صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ، ولا شك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ذلك وسكت

، فتلقوا الحكم من تقريره فقط . قال ابن العربي : وهذا باطل لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معهم ، ولا اجتهاد مع حضوره صلى الله عليه وسلم وإنما يدل على اجتهاد النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما لم ينزل عليه أخذاً بعموم الأدلة للكفار ودخولاً للأذن في الكل بما يقضي عليهم بالبوار ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وليخزي الفاسقين ﴾

﴿ وما أفاء الله ﴾ أي : ردّ الملك الذي له الأمر كله ردّاً سهلاً بعد أن كان في غاية العسر والصعوبة ﴿ على رسوله ﴾ فصيره في يده بعد أن كان خروجه عنها بوضع أيدي الكفرة عليه ظلماً وعدواناً ، كما دل عليه التعبير بالفيء الذي هو عود الظلّ إلى الناحية التي كان ابتدأ منها ﴿ منهم ﴾ أي : ردّاً مبتدأً من الفاسقين فبين تعالى أن هذا فيء لا غنيمة ، ويدخل في الفيء أموال من مات منهم بلا وارث ، وكذا الفاضل عن وارث له غير حائز ، وكذا الجزية وعشر تجارتهم ، وما جلوا أي : تفرقوا عنه ولو لغير خوف كضرّ أصابهم .

(252/757)

وأمّا الغنيمة فهي ما حصل لنا من الحربيين مما هو لهم بإيجاف حتى ما حصل بسرقة أو التقاط ، وكذا ما انهزموا عنه عند التقاء الصفين ولو قبل شهر السلاح ، أو أهداه الكافر لنا والحرب قائمة . ولم تحل الغنائم لأحد قبل الإسلام بل كانت الأنبياء إذا غنموا مالاً جمعوه

فتأتي نار من السماء فتأخذه ، ثم أحلت لنبينا صلى الله عليه وسلم وكانت في صدر الإسلام له خاصة ، لأنه كالمقاتلين كلهم نصرة وشجاعة بل أعظم ، ثم نسخ ذلك واستقرّ الأمر على ما هو في سورة الأنفال في قوله تعالى : ﴿ واعلموا إنما غنمتم من شيء ﴾ (الأنفال :)

الآية وأما الفيء فهو مذكور هنا بقوله تعالى : ﴿ فما أوجفتم ﴾ أي : أسرعتم يا مسلمين ﴿ عليه ﴾ ومن في قوله تعالى : ﴿ من خيل ﴾ مزيدة ، أي : خيلاً ، وأكد بإعادة النافي دفعاً لظن من ظنّ أنه غنيمة لأحاطتهم به بقوله تعالى : ﴿ ولا ركاب ﴾ والركاب الإبل غلب ذلك عليها من بين المركوبات ، واحدها راكبة ولا واحد لها من لفظها .

وقال الرازي : العرب لا يطلقون لفظ الراكب إلا على راكب البعير ، ويسمون راكب الفرس فارساً ، والمعنى : لم تقطعوا إليها شقة ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقة ، فإنها كانت من المدينة على ميلين ، قاله الفرّاء فمشوا إليها مشياً ، ولم يركبوا إليها خيلاً ولا إبلاً إلا النبي صلى الله عليه وسلم ركب جملاً ، وقيل : حماراً مخطوماً بليف فافتتحها صلحاً .

قال الرازي : إنّ الصحابة طلبوا من النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقسم الفيء بينهم كما قسم الغنيمة بينهم ، فذكر الله تعالى الفرق بين الأمرين ، وأنّ الغنيمة هي التي تعبتم أنفسكم في تحصيلها ، وأمّا الفيء فلم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فكان الأمر مفوّضاً فيه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يضعه حيث يشاء

(253/757)

﴿ ولكن الله ﴾ أي : الذي له العز كله فلا كفؤ له ﴿ يسلط رسله ﴾ أي : له هذه السنة في كل زمن ﴿ على من يشاء ﴾ يجعل ما آتاهم سبحانه من الهيبة رعباً في قلوب أعدائه ﴿ والله ﴾ أي : الملك الذي له الكمال كله ﴿ على كل شيء ﴾ يصح أن تتعلق المشيئة به ، وهو كل ممكن من التسليط وغيره ﴿ قدير ﴾ أي : بالغ القدرة إلى أقصى الغايات فلا حق لكم فيه ، ويختص به النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن ذكر معه في الآية الثانية من الأصناف الأربعة ، على ما كان عليه القسمة من أنّ لكل منهم خمس الخمس وله صلى الله عليه وسلم الباقي يفعل فيه ما يشاء

(254/757)

ثم بين تعالى مصرف الفيء بقوله تعالى : ﴿ ما أفاء الله ﴾ أي : الذي اختص بالعزة والقدرة والحكمة ﴿ على رسوله من أهل القرى ﴾ أي : قرية بني النضير وغيرها من وادي القرى والصفراء وينبع ، وما هنالك من قرى العرب التي تسمى قرى عربية ، فيخمس ذلك خمسة

أخماس وإن لم يكن في الآية تخميس ، فإنه مذكور في آية الغنيمة فحمل المطلق على المقيد ، وكان صلى الله عليه وسلم يقسم له أربعة أخماسه وخمس خمسة ، ولكل من الأربعة المذكورين معه خمس خمس وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وورش بين اللفظين ، والباقون بالفتح فقوله تعالى : ﴿ فلله ﴾ أي : الملك الأعلى الذي كله بيده ذلك للتبرّك ، فإنّ كل أمر لا يبدأ فيه به فهو أجذم ﴿ وللرسول ﴾ أي : الذي عظمته من عظمته تعالى ، وقد تقدم ما كان له صلى الله عليه وسلم وأمّا بعده صلى الله عليه وسلم فيصرف ما كان له من خمس الخمس لمصالح المسلمين ، وسد ثغور ، وقضاة ، وعلماء بعلوم تتعلق بمصالح المسلمين كتفسير وقراءة ، والمراد بالقضاة غير قضاة العسكر أمّا قضاته وهم الذين يحكمون لأهل الفيء في مغزاهم فيرزقون من الأخماس الأربعة لا من خمس الخمس ، يقدّم وجوباً الأهمّ فالأهمّ . وأمّا الأربعة المذكورة معه صلى الله عليه وسلم فأولها المذكور في قوله تعالى : ﴿ ولذي القربى ﴾ أي : منه ، وهم مؤمنو بني هاشم وبني المطلب لاقتصاره صلى الله عليه وسلم في القسم عليهم مع سؤال غيرهم من بني عميهم نوفل وعبد شمس له ، ولقوله صلى الله عليه وسلم "أما بنو هاشم وبنو المطلب فشيء واحد ، وشبك بين أصابعه" فيعطون ولو أغنياء لأنه صلى الله عليه وسلم أعطى العباس وكان غنياً ، ويفضل الذكر على الأنثى كالإرث فله سهمان ولها سهم ، لأنه عطية من الله تعالى يستحق بقرابة الأب كالإرث سواء الكبير والصغير ، والعبرة بالانتساب إلى الآباء فلا يعطى أولاد البنات

من بني هاشم والمطلب شيئاً لأنه صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير وعثمان مع أن أم كل منهما كانت

(255/757)

هاشمية.

وقرأ حمزة والكسائي بالإمالة محضة، وورش بالفتح وبين اللفظين، وأبو عمرو بين بين، والباقون بالفتح، وخالفهم أبو عمرو في واليتامى. ثانيها: المذكور في قوله تعالى: ﴿ واليتامى ﴾ أي: الفقراء منا لأن لفظ اليتيم يشعر بالحاجة لأنه مال أو نحوه أخذ من الكفار فاختص كسهم المصالح، واليتيم صغير ولو أنثى لخبر "لا يتم بعد احتلام" رواه أبو داود وحسنه النووي وإن ضعفه غيره لا أب له، وإن كان له أمّ. وحد اليتيم في البهائم من فقد أمّه، وفي الطير من فقد أباه وأمّه، ومن فقد أمّه فقط من الآدميين يقال له: منقطع. ثالثها: المذكور في قوله تعالى: ﴿ والمساكين ﴾ الصادقين بالفقراء، وهم أهل الحاجة منا وتقدّم تعريفهما في سورة الأنفال، وكذا تعريف الرابع المذكور في قوله تعالى: ﴿ ابن السبيل ﴾ أي: الطريق الفقير منا ذكوراً كانوا أو إناثاً، ولو اجتمع في واحد من هذا الأصناف يتم ومسكنة أعطي باليتم فقط، لأنه وصف لازم والمسكنة زائلة، وللإمام

التسوية والتفضيل بحسب الحاجة ويعم الإمام ولو بنائبه الأصناف الأربعة الأخيرة بالأعطاء وجوباً لعموم الآية فلا يخص الحاضر بموضع حصول الفيء ، ولا من في كل ناحية منهم بالحاصل فيها نعم لو كان الحاصل لا يسد مسدّاً بالتعميم قدم الأحوج فالأحوج ، ولا يعمّ للضرورة .

(256/757)

ومن فقد من الأربعة صرف نصيبه للباقين منهم ، وأمّا الأخماس الأربعة فهي للمرتزقة ، وهم المرصدون للجهاد بتعيين الإمام لهم بعمل الأولين به بخلاف المتطوّعة فلا يعطون من الفيء بل من الزكاة عكس المرتزقة ، ويشرك المرتزقة قضاتهم كما مرّ وأئمتهم ومؤذنوهم وعمالهم ، ويجب على الإمام أن يعطي كل من المرتزقة بقدر حاجة ممونه من نفسه ، وغيرها كزوجاته ليتفرّغ للجهاد ويراعي في الحاجة الزمان والمكان والرخص والغلاء ، وعادة الشخص مروأة وضدّها ويزادان زادت حاجته بزيادة ولد ، أو حدوث زوجة فأكثر ومن لا عبد له يعطى من العبيد ما يحتاجه للقتال معه ، أو لخدمته إن كان ممن يخدم ، ويعطي مؤنته .

ومن يقاتل فارساً ولا فرس له يعطي من الخيل ما يحتاجه للقتال ، ويعطى مؤنته بخلاف

الزوجات يعطى لهنّ مطلقاً لانحصارهن في أربع ، ثم ما يدفعه إليه لزوجته وولده الملك فيه لهما حاصل من الفيء .

وقيل : يملكه هو ويصير إليهما من جهته ، فإن مات أعطى الإمام أصوله وزوجاته وبناته إلى أن يستغنوا ، ويسنّ أن يضع الإمام ديواناً وهو الدفتر الذي يثبت فيه أسماء المرتزقة وأوّل من وضعه عمر رضي الله عنه وأن ينصب لكل جمع عريفاً ، وأن يقدّم في اسم وإعطاء قريشاً لشرفهم بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ولخبر قدّموا قريشاً ، وأن يقدم منهم بني هاشم وبني المطلب فبني عبد شمس فبني عبد العزى فسائر بطون العرب الأقرب فالأقرب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فسائر العرب فالعجم ، ولا يثبت في الديوان من لا يصلح ، ومن مرض فكصحيح وإن لم يرج برؤه ، ويمحى اسم كل من لم يرج ، وما فضل عنهم وزع عليهم بقدر مؤنتهم وللإمام صرف بعضه في ثغور وسلاح وخيل ونحوها ، وله وقف عقار فيء أو بيعه وقسم غلته أو ثمنه كقسم المنقول أربعة أخماسه للمرتزقة وخمسة للمصالح ، وله أيضاً : قسمه كالمنقول لكن خمس الخمس الذي للمصالح لا سبيل إلى قسمته .

ولما حكم سبحانه هذا الحكم في الفيء المخالف لما كانوا عليه في الجاهلية من اختصاص الأغنياء به بين علته المظهرة لعظمته بقوله تعالى : ﴿ كي لا يكون ﴾ أي : الفيء الذي يسره الله تعالى بقوّته من قذف الرعب في قلوب أعدائه ، ومن حقه أن يعطاه الفقراء ﴿ دولة ﴾ أي : متداولاً ﴿ بين الأغنياء منكم ﴾ أي : يتداوله الأغنياء ويدور بينهم كما كان في الجاهلية ، فإنهم كانوا يقولون : من عزيز ، ومنه قول الحسن : اتخذوا عباد الله خولاً ، ومال الله دولاً ، يريد : من غلب منهم أخذه واستأثر به . وقرأ هشام بخلاف عنه تكون بالتأنيث دولة بالرفع ، والباقون بالتذكير والنصب ، فأمّا الرفع فعلى أن كان تامّة ، وأمّا التأنيث والتذكير فواضحان ؛ لأنه تأنيث مجازي ، وأما النصب فعلى إنها الناقصة واسمها ضمير عائد على الفيء . والتذكير واجب لتذكير المرفوع ، ودولة خبرها ، وقيل : دولة عائد على ما اعتباراً بلفظها ، وكي لا هنا مقطوعة في الرسم

﴿ وما آتاكم الرسول ﴾ أي : وكل شيء أحضره لكم الكامل في الرسالة من الغنيمة ، أو مال الفيء أو غيره ﴿ فخذوه ﴾ أي : فاقبلوه لأنه حلال لكم ، وتمسكوا به فإنه واجب الطاعة ﴿ وما نهاكم عنه ﴾ أي : من جميع الأشياء ﴿ فانتهوا ﴾ لأنه لا ينطق عن الهوى ، ولا يقول ولا يفعل إلا ما أمر ربه عز وجل .

تنبيه : هذه الآية تدل على أنّ كل ما أمر به النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر من الله تعالى لأنّ الآية ، وإن كانت في الغنائم فجميع أوامره صلى الله عليه وسلم ونواهيه داخل فيها . قال عبد الرحمن بن زيد : لقي ابن مسعود رجلاً محرماً وعليه ثيابه ، فقال : انزع عنك هذا ، فقال الرجل : تقرأ عليّ بهذا آية من كتاب الله تعالى ، قال : نعم ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وقال عبد الله بن محمد بن هارون الفريابي : سمعت الشافعي رضى الله عنه يقول : سلوني عما شئتم أخبركم من كتاب الله تعالى ، وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم قال : فقلت له : أصلحك الله ما تقول في المحرم يقتل الزنبور ، قال : فقال : بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن خراش عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر" حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام عن قيس بن أسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب : أنه أمر بقتل الزنبور . وهذا الجواب في غاية الحسن أفتى بقتل الزنبور في الإحرام ، وبين أنه يقتدى فيه بعمر ، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر بالاقتداء به ، وأنّ الله تعالى أمر بقبول ما يقوله صلى الله عليه وسلم فجواز قتله من الكتاب والسنة .

وسئل عكرمة عن أمّهات الأولاد هل هنّ أحرار ؟ فقال : في سورة النساء في قوله تعالى :

﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ (النساء :)

(259/757)

وفي صحيح مسلم وغيره عن علقمة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله تعالى" فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها : أم يعقوب فجاءت فقالت : بلغني أنك لعنت كيت وكيت ، فقال وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله تعالى فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول فقال : لئن كنت قرأتيه فقد وجدتيه أما قرأت ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ قالت : بلى ، قال : فإنه قد نهى عنه الحديث .

فائدة : الوشم : هو غرز العضو من الإنسان بالإبرة ، ثم يحشى بالكحل . والمستوشمة ، هي التي تطلب أن يفعل بها ذلك ، والنامصة : هي التي تنتف الشعر من الوجه ، والمتفلجة : هي التي تتكلف تفريج ما بين ثناياها بصناعة ، وقيل : تتفلج في مشيها في كل شيء منهي عنه . وقرأ حمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وورش بالفتح وبين اللفظين ، والباقون بالفتح

والهمزة ممدودة بلا خلاف لأنها بمعنى الإعطاء ﴿ واتقوا الله ﴾ أي : واجعلوا لكم بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاية من عذاب الملك الأعظم المحيط علماً وقدرة ، وعلل ذلك بقوله تعالى : ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له الجلال والإكرام على الإطلاق ﴿ شديد العقاب ﴾ أي : العذاب الواقع بعد الذنب . قال البقاعي ومن زعم أن شيئاً مما في هذه السورة نسخ بشيء مما في سورة الأنفال فقد أخطأ ، لأنّ الأنفال نزلت في بدر ، وهي قبل هذه بمدّة .

(260/757)

وقوله تعالى : ﴿ للفقراء ﴾ أي : الذين كان الإنسان منهم يعصب الحجر على بطنه من الجوع ويتخذ الحفرة في الشتاء لتقيه البرد وماله دثار غيرها بدل من لذي القربى ، وما عطف عليه قاله الزمخشري . والذي منع الإبدال من لله وللرّسول والمعطوف عليهما وإن كان المعنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنّ الله تعالى أخرج رسوله صلى الله عليه وسلم من الفقراء في قوله تعالى : ﴿ وينصرون الله ورسوله ﴾ ولأنه تعالى يترفع برسوله صلى الله عليه وسلم عن تسميته بالفقير ، وقال غيره : إنه خبر لمبتدأ محذوف ، أي : ولكن الفيء للفقراء .

وقيل تقديره : ولكن يكون للفقراء ، وقيل تقديره : أعجبوا للفقراء ، واقتصر على هذا التقدير الجلال المحلى . وإنما جعله الزمخشري بدلاً من لذي القربى لأنه حنفي ، والحنفية يشترطون الفقر في إعطاء ذوي القربى من الفيء ، ولذا قال البيضاوي : ومن أعطى أغنياء ذوي القربى ، أي : كالشافعي خصص الإبدال بما بعده ، أو الفيء بفيء بني النضيرا .ه . أوانهم كانوا عند نزول الآية كذلك ، ثم خصص بالوصف بقوله تعالى : ﴿ المهاجرين ﴾ وقيد ذلك بقوله تعالى : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم ﴾ لأنّ الهجرة قد تطلق على من هجر أهل الكفر من غيره مفارقة الوطن وقوله تعالى : ﴿ وأموالهم ﴾ إشارة إلى أنّ المال لما كان يستره الإنسان كان كأنه ظرف له

(261/757)

ولما كان طلب الدنيا من النقائص بين أنه إذا كان من الله لم يكن كذلك ، وأنه لا يكون فادحاً في الإخلاص فقال تعالى : ﴿ يبتغون ﴾ أي : اخرجوا حال كونهم يطلبون على وجه الاجتهاد ، وبين أنه لا يجب عليه سبحانه لأحد شيء بقوله تعالى : ﴿ فضلاً من الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي لا كفء له ، لأنه المختص بجميع صفات الكمال فيغنيهم بفضله عمن سواه ﴿ ورضوانا ﴾ بأن يوفقهم لما يرضيه عنهم ، ولا يجعل رغبتهم في العوض منه فادحاً

في الإخلاص فيوصلهم إلى دار كرامته وقرأ شعبة بضم الراء ، والباقون بكسرها

﴿ وينصرون ﴾ أي : على سبيل التجديد والاستمرار ﴿ الله ﴾ أي : دين الملك الأعظم

﴿ ورسوله ﴾ الذي عظمته من عظمته بأنفسهم وأموالهم ليضمحل حزب الشيطان

﴿ أولئك ﴾ أي : العالو الرتبة في الأخلاق الفاضلة ﴿ هم الصادقون ﴾ أي : العريقون في هذا الوصف ، لأنّ مهاجرتهم لما ذكر وتركهم لما وصف دل على كمال صدقهم فيما ادعوه من الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم حيث نابدوا من عاداهما ، ووالوا أولياءهما وإن بعدت دارهم وشط مزارهم

ثم اتبع ذكر المهاجرين بذكر الأنصار الذين كانوا في كل حال معه صلى الله عليه وسلم كالميت بين يدي الغاسل مهما شاء فعل ومهما أراد منهم صاروا إليه بقوله تعالى:

﴿ والذين تبوّؤا ﴾ أي : جعلوا بغاية جهدهم ﴿ الدار ﴾ أي : الكاملة في الدور التي جعلها الله تعالى في الأزل للهجرة ، وهيأها للنصرة وجعلها محل إقامتهم . وفي قوله تعالى :

﴿ والإيمان ﴾ أوجه:

أحدها : أنه ضمن تبوّؤا معنى لزموا فيصح عطف الإيمان عليه ؛ إذ الإيمان لا يتبوأ .

ثانيها : أنه منصوب بمقدر ، أي : واعتقدوا ، أو وألفوا ، أو وأحبوا ، أو وأخلصوا كقول القائل : علفتها تبناً وماء بارداً . وقول الآخر : ومقلداً سيفاً ورمحاً .

ثالثها : أنه يتجوّز في الإيمان فيجعل لاختلاطه بهم وثباتهم عليه كالمكان المحيط بهم ،

فكأنهم نزلوه وعلى هذا فيكون جمع بين الحقيقة والمجاز في كلمة واحدة، وفيه خلاف مشهور.

رابعها: أن يكون الأصل دار الهجرة ودار الإيمان، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه، وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه.

خامسها: أن يكون سمى المدينة به، لأنها دار الهجرة ومكان ظهور الإيمان، قال: هذين الوجهين الزمخشري، وليس فيه إلا قيام أل مقام المضاف إليه وهو محل خلاف، وهو أن أل هل تقوم مقام الضمير المضاف إليه فالكوفيون يجوّزونه كقوله تعالى: ﴿ فإنّ الجنة هي المأوى ﴾ (النازعات:)

أي: مأواه، والبصريون يمنعونه ويقولون الضمير محذوف، أي: المأوى له. وأما كونها عوضاً عن المضاف إليه، فقال ابن عادل: لا نعرف فيه خلافاً.

سادسها: أنه منصوب على المفعول معه، أي: مع الإيمان. قال وهب: سمعت مالكاً يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق فقال: إنّ المدينة تبوّئت بالإيمان والهجرة، وإنّ غيرها من القرى افتتحت بالسيف، ثم قرأ ﴿ والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم ﴾ أي

: وهم الأنصار ﴿ يحبون ﴾ أي : على سبيل التجديد والاستمرار ﴿ من هاجر ﴾ وزادهم محبة فيهم بقوله تعالى : ﴿ إليهم ﴾ لأنّ القصد إلى الإنسان يوجب حقه عليه ، لأنه لولا كمال محبته له ما خصه بالقصد إليه ﴿ ولا يجدون في صدورهم ﴾ أي : التي هي مساكن قلوبهم فضلاً عن أن تنطق ألسنتهم ﴿ حاجة ﴾ قال الحسن : حسداً وحزازة وغيظاً ﴿ مما أوتوا ﴾ أي : آتى النبيّ المهاجرين من أموال بني النضير وغيرهم ، وأطلق لفظ الحاجة على الحسد والغيظ والحزازة لأنّ هذه الأشياء لا تنفك عن الحاجة ، فأطلق اسم اللازم على الملزوم على سبيل الكناية .

فعلى هذا يكون الضمير الأوّل للجائين بعد المهاجرين ، وفي أوتوا للمهاجرين .

(263/757)

وقيل : إنّ الحاجة هنا على بابها من الاحتياج إلا أنها واقعة موقع المحتاج إليه ، والمعنى : ولا يجدون طلب محتاج إليه مما أوتي المهاجرون من الفيء وغيره ، والمحتاج إليه يسمى حاجة ، تقول : خذ منه حاجته ، وأعطاه من ماله حاجته قاله الزمخشري : والضميران على ما تقدم ، وقال أبو البقاء : مس حاجة ، أي : أنه حذف المضاف للعلم به ، وعلى هذا فالضميران للذين تبوؤا الدار والإيمان . قال القرطبي : كان المهاجرون في دور الأنصار فلما

غنم صلى الله عليه وسلم أموال بني النضير دعا الأنصال وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين في إنزالهم إياهم منازلهم وإشراكهم في الأموال ، ثم قال صلى الله عليه وسلم "إن أحببتم قسمت ما أفاء الله عليّ من بني النضير بينكم وبينهم وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم" فقال سعد بن عبادة ، وسعد ابن معاذ : بل تقسمه بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا ، ونادت الأنصار رضينا وسلمنا يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين ، ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر محتاجين ، أبا دجانة سماك بن خرشة ، وسهل بن حنيف ، والحارث بن الصمة .

ولما أخبر تعالى عن تخليهم عن الرذائل أتبعه الأخبار بتحليهم بالفضائل فقال عز من قائل : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ﴾ فيبذلون لغيرهم كائناً من كان ما في أيديهم ، فإنّ الإيثار تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية رغبة في الحظوظ الأخروية ، وذلك ينشأ عن قوّة اليقين ، وتوكيد المحبة ، والصبر على المشقة ، وذكر النفس دليل على أنهم في غاية النزاهة عن الرذائل فإنّ النفس إذا طهرت كان القلب أطهر وأكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ ولو كان ﴾ أي كونا هو في غاية المكنة ﴿ بهم ﴾ أي خاصة لا بالمؤثر ﴿ خصاصة ﴾ أي : فقر وحاجة إلى ما يؤثرون به .

روي عن أبي هريرة أن رجلاً بات به ضيف ، ولم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه ، فقال لامرأته : نومي الصبية وأطفىء السراج وقربي للضيف ما عندك ، فنزلت هذه الآية .

وعنه أيضاً قال : "جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إني مجهود فأرسل إلى بعض نسائه ، فقالت : والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يضيف هذا الليلة رحمه الله فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله فانطلق به إلى رحله فقال : لامرأته هل عندك شيء ؛ قالت : لا إلا قوت صبياني ، قال : فعلليهم بشيء فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج" وذكر نحو الحديث الأول .

وفي رواية فقام رجل من الأنصار يقال له : أبو طلحة فانطلق به إلى رحله . وذكر المهدوي أنها نزلت في ثابت بن قيس ورجل من الأنصار يقال له : أبو المتوكل ، ولم يكن عنده إلا قوته .

وذكر القشيري قال : أهدي لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال : إنّ أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا فبعثها إليهم ، فلم يزل يبعث بها واحد إلى آخر حتى تناولها سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول فنزلت الآية .

وذكر القرطبي عن أنس قال : أهدي لرجل من الصحابة رأس شاة ، وكان مجهوداً فوجه بها

إلى جار له فتداولها سبعة أنفس في سبعة أبيات ، ثم عادت إلى الأوّل فنزلت .

فإن قيل : قد صح في الخبر النهي عن التصدق بجميع ما يملكه المرء أجيب : بأن محل النهي فيمن لا يوثق منه بالصبر على الفقر ، وخاف أن يتعرّض للمسألة إذا فقد ما ينفقه ، فأما الأنصار الذين أثنى الله تعالى عليهم بالإيثار على أنفسهم فكانوا كما قال تعالى :

﴿ والصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس ﴾ (البقرة :)

(265/757)

فكان الإيثار فيهم أفضل من الإمساك ، والإمساك لمن لا يصبر ويتعرض للمسألة أولى من الإيثار . كما روي "أنّ رجلاً جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بمثل البيضة من الذهب ، فقال : هذه صدقة فرماه بها ، وقال : يأتي أحدكم بجميع ما يملكه فيتصدق به ثم يقعد فيتكفف الناس" والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال وإن عاد إلى النفس . ومن الأمثال : والجود بالنفس أعلى غاية الجود ، وأفضل من الجود بالنفس الجود على حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم ففي الصحيح أن أبا طلحة ترس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يتطلع ليرى القوم فيقول له أبو طلحة : لا تشرف يا رسول الله لا يصيبونك نحري دون نحرك" ، ووقى بيده رسول الله صلى الله عليه

وسلم فشلت . وقال حذيفة الدوري انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي فإذا برجل يقول : آه ، آه . فأشار إليّ ابن عمي أن انطلق إليه فإذا هو هشام بن العاصي فقلت أسقيك فأشار أن نعم فسمع آخر يقول آه آه فأشار هشام أن انطلق عليه فجئت إليه ، فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات .

وقال أبو يزيد البسطامي : ما غلبني أحد ما غلبني شاب من أهل بلخ قدم إلينا حاجاً ، فقال لي : يا أبا يزيد ما حد الزهد عندكم ، فقلت : إذا وجدنا أكلنا ، وإذا فقدنا صبرنا ، فقال : هكذا كلاب بلخ فقلت : وما حد الزهد عندكم ، فقال : إذا فقدنا شكرنا وإذا وجدنا آثرنا .

(266/757)

وسأل ذو النون ما حد الزهد قال : ثلاث : تفريق المجموع ، وترك تطلب المفقود ، والإيثار عند القوت . وحكي عن أبي الحسن الأنطاكي أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلاً بقرية من قرى الري ، وبينهم أرغفة معدودة لا تشبع جميعهم ، فكسروا الرغفان وأطفؤوا السراج وجلسوا للطعام ، فلما فرغوا فإذا الطعام بحاله لم يأكل أحد منهم شيئاً إيثاراً لصاحبه على نفسه ﴿ ومن يوق شح نفسه ﴾ أي : يحعل بينه وبين أخلاقه الذميمة المشار إليها بالنفس

وقاية تحول بينه وبينها ، فلا يكون مانعاً لما عنده حريصاً على ما عند غيره حسداً . قال ابن عمر الشح : أن تطمح عين الرجل فيما ليس له ، قال صلى الله عليه وسلم "اتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم" . وقال القرطبي : الشح والبخل سواء ، وجعل بعض أهل اللغة الشح أشد من البخل . وفي الصحاح : الشح البخل مع حرص ، والمراد بالشح في الآية الشح بالزكاة ، وما ليس بفرض من صلة ذوي الأرحام والضيافة وما شاكل ذلك وليس بشحيح ولا بخيل من أنفق في ذلك ، وإن أمسك عن نفسه ، ومن وسع على نفسه ولم ينفق فيما ذكر من الزكاة والطاعات فلم يوق شح نفسه .

روى الأموي عن ابن مسعود : أنّ رجلاً أتاه فقال : إني أخاف أن أكون قد هلكت ، قال : وما ذاك قال سمعت الله يقول : ومن يوق شح نفسه ، وأنا رجل شحيح لا أكاد أخرج من يدي شيئاً ، فقال ابن مسعود : ليس ذلك الذي ذكر الله تعالى ، إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً ، ولكن ذلك البخل وبئس الشيء البخل ، ففرق بين الشح والبخل . وقال طاوس : البخل أن يبخل الإنسان بما في يده ، والشح أن يشح بما في أيدي الناس ، يحب أن

يكون له ما في أيديهم بالحل والحرام فلا يقنع ، وقال بعضهم : ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ، إنما الشح أن تطمح عين الرجل فيما ليس له . وقال ابن جبير : الشح منع الزكاة ، وادخار الحرام وقال ابن عيينة : الشح الظلم . وقال الليث : ترك الفرائض ، وانتهاك المحارم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : من اتبع هواه ولم يقبل الإيمان ، فذلك الشحيح وقال ابن زيد : من لم يأخذ شيئاً نهاه الله تعالى عنه ، ولم يمنع شيئاً أمره الله تعالى بإعطائه فقد وقاه الله تعالى شح نفسه .

(268/757)

وعن أنس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "بريء من الشح من أدى الزكاة ، وأقرى الضيف ، وأعطى في النائبة" وعنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم "كان يدعو اللهم إني أعوذ بك من شح نفسي وإسرافها وسوأتها" وقال ابن الهياج الأسدي : رأيت رجلاً في الطواف يدعو اللهم قني شح نفسي لا يزيد على ذلك ، فقلت له : فقال : إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ، ولم أزن ، ولم أقتل فإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف . قال القرطبي : ونزل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم "اتقوا الظلم فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإنّ الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماؤهم واستحلوا محارهم" وعن أبي

هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يجتمع غبار في سبيل الله ، ودخان جهنم في جوف عبد أبداً" وقال كسرى لأصحابه : أي شيء أضرّ بابن آدم ؟ قالوا : الفقر ، فقال : الشح أضر من الفقر لأنّ الفقير إذا وجد شبع ، والشحيح إذا وجد لم يشبع أبداً

﴿ فأولئك ﴾ أي : العالو المنزلة ﴿ هم المفلحون ﴾ أي : الكاملون في الفوز بكل مراد ، قال القشيري : ومجرد القلب من الأعراض والأملاك صفة السادة والأكابر من أسرته الأخطار

(269/757)

ولما أثنى سبحانه وتعالى على المهاجرين والأنصار بما هم عليه وأهله أتبعهم ذكر التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين فقال تعالى : ﴿ والذين جاؤوا ﴾ أي : من أي طائفة كانوا ﴿ من بعدهم ﴾ أي بعد المهاجرين والأنصار ، وهم من آمن بعد انقطاع الهجرة بالفتح ، وبعد إيمان الأنصار الذين أسلموا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة ﴿ يقولون ﴾ على سبيل التجديد والاستمرار تصديقاً لإيمانهم بدعائهم ﴿ ربنا ﴾ أي : أيها المحسن إلينا بإيجاد من مهد الدين قبلنا ﴿ اغفر لنا ﴾ أي : أوقع ستر النقائص آثارها وأعيانها ﴿ ولأخواننا ﴾ أي : في الدين فإنهم أعظم أخوة ، وبينوا العلة بقولهم ﴿ الذين سبقونا

بالإيمان ﴾ قال ابن أبي ليلى الناس على ثلاثة منازل : المهاجرين ، والذين تبوؤا الدار والإيمان ، والذي جاؤوا من بعدهم فاجتهد أن لا تخرج من هذه المنازل . وقال بعضهم : كن مهاجراً ، فإن قلت : لا أجد فكن أنصارياً ، فإن لم تجد فاعمل بأعمالهم ، فإن لم تستطع فأحبهم واستغفر لهم كما أمر الله تعالى .

(270/757)

وقال مصعب بن سعد : الناس على ثلاث منازل فمضت منزلتان وبقيت منزلة ، فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت . وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه جاءه رجل فقال له : يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقول في عثمان فقال له يا أخي أنت من قوم قال الله تعالى فيهم : ﴿ للفقراء المهاجرين ﴾ الآية ، قال : لا ، قال : فأنت من قوم قال الله تعالى فيهم : ﴿ والذين تبوؤا الدار والإيمان ﴾ الآية ، قال : لا ، قال : فوالله إن لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجنّ من الإسلام ، وهي قوله تعالى : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ الآية وروي أنّ نفراً من أهل العراق جاؤوا إلى محمد بن علي بن الحسين فسبوا أبا بكر وعمر وعثمان فأكثروا ، فقال لهم : أمن المهاجرين الأولين أنتم ، فقالوا : لا فقال : من الذين تبؤوا الدار والإيمان ، قالوا : لا قال : فقد تبرأتم من هذين الفريقين

، أنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله تعالى : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ قوموا فعل الله بكم وفعل .

تنبيه : هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، لأنه جعل لمن بعدهم حظاً في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم ، ومن أبغضهم أو واحداً منهم ، أو اعتقد فيهم شراً أنه لا حق له في الفيء .

قال مالك : من كان يبغض أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كان في قلبه لهم غل فليس له حق في فيء المسلمين ، ثم قرأ ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ الآية ، وهي عامة في جميع التابعين الآتين بعدهم إلى يوم القيامة . يروى أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج إلى المقبرة فقال : "السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت لو رأيت إخواننا ، فقالوا : يا رسول الله ألسنا إخوانك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد وأنا فرطهم على الحوض" فبين صلى الله عليه وسلم أن أخوانه كان من أتى بعدهم كما قال السدي والكلبي : إنهم الذي هاجروا بعد ذلك ، وعن الحسن أيضاً : أنّ الذين جاؤوا من بعدهم من قصد إلى النبيّ

صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد انقطاع الهجرة ، وإنما بدؤوا في الدعاء بأنفسهم لقوله صلى الله عليه وسلم "ابدأ بنفسك" وقال الشعبي : تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة ، سألت اليهود من خير أهل ملتكم فقالوا : أصحاب موسى ، وسألت الأنصار من خير أهل ملتكم فقالوا : أصحاب عيسى ، وسألت الرافضة من شر أهل ملتكم فقالوا : أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم . وعن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا تذهب هذه الأمّة حتى يلعن آخرها أوّلها" أعاذنا الله تعالى ومحبينا من الأهواء المضلة ﴿ ولا تجعل في قلوبنا غلاً ﴾ أي : ضغناً وحسداً وحقداً ، وهو حرارة وغليان يوجب الانتقام ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي : أقروا بالإيمان وإن كانوا في أدنى درجاته وقيدوا بالقلب لأنّ رذائل النفس قل أن تنفك ، وأنها إن كانت مع صحة القلب أو شك أن لا تؤثر ﴿ ربنا ﴾ أي : أيها المحسن إلينا بتعليم ما لم نكن نعلم ، وأكدوا إعلاماً بأنهم يعتقدون ما يقولون بقولهم : ﴿ إنك رؤوف ﴾ أي : راحم أشد الرحمة لمن كانت له بك وصلة بفعل من أفعال الخير ﴿ رحيم ﴾ مكرم غاية الإكرام لمن

أردت ، ولو لم يكن

له وصلة فأنت جدير بأن تجيبنا لأنا بين أن تكون لنا وصلة فنكون من أهل الرأفة ، أو لا

فنكون من أهل الرحمة .

فقد أفادت هذه الآية أن من كان في قلبه غلّ على أحد من الصحابة فليس ممن عنى الله

تعالى بهذه الآية . وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي بكسر الهمزة ، والباقون بمدها

ولما ذكر حال المؤمنين اتبعهم بذكر حال المنافقين فقال تعالى : ﴿ ألم تر ﴾ أي : تعلم علماً

هو في غاية الجزم كالمشاهدة يا أعلى الخلق ، وبين بعدهم عن جنابه العالي ومنصبه

الشريف العالي بأداة الانتهاء فقال تعالى : ﴿ إلى الذين نافقوا ﴾ أي : أظهروا غيرما

أضمروا وبالغوا في إخفاء عقائدهم ، وهم عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه ، قالوا :

والنفاق لفظ إسلامي لم تكن العرب تعرفه قبله ، وهو استعارة من الضب في نافقائه

وقاصعائه وصور حالهم بقوله تعالى : ﴿ يقولون لأخوانهم الذين كفروا ﴾ أي : غطوا أنوار

المعارف التي دلتهم على الحق ﴿ من أهل الكتاب ﴾ وهم اليهود من بني قريظة والنضير .

والأخوان هم الأخوة ، وهي هنا تحتمل وجوهاً :

أحدها : الأخوة في الآخرة لأنّ اليهود والمنافقين اشتركوا في عموم الكفر بمحمد صلى الله

عليه وسلم

وثانيها : الأخوة بسبب المصادقة والموالاة والمعاونة .

وثالثها : الأخوة بسبب اشتراكهم في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا لليهود :

﴿ لئن أخرجتم ﴾ أي : من مخرجّ ما من المدينة ﴿ لنخرجن معكم ﴾ أي : منها ﴿ ولا نطيع فيكم ﴾ أي في خذلانكم ﴿ أحداً ﴾ أي يريد خذلانكم من الرسول والمؤمنين .

وأكدوا بقولهم : ﴿ أبداً ﴾ أي : ما دمنا نعيش ، وبمثل هذا العزم يستحق الكافر الخلود الأبدي في العذاب ﴿ وإن قوتلتم ﴾ أي : من أي مقاتل كان يقاتلكم ولم تخرجوا ﴿ لننصرنكم ﴾ أي : لنعيننكم ولنقاتلنّ معكم .

(273/757)

ولما كان قولهم هذا كلاماً يقضي عليه سامعه بالصدق من حيث كونه مؤكداً مع كونه مبتدأ من غير سؤال فيه بين حاله سبحانه بقوله تعالى : ﴿ والله ﴾ أي : يقولون ذلك والحال أنّ المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ يشهد إنهم ﴾ أي : المنافقين ﴿ لكاذبون ﴾ أي : فيما قالوا ووعدوا ، وهذا من أعظم دلائل النبوّة لأنه إخبار بغيب بعيد عن العادة .

ثم أخبر تعالى عن حال المنافقين بقوله تعالى : ﴿ لئن أخرجوا ﴾ أي : بنو النضير من أي مخرج كان ﴿ لا يخرجون ﴾ أي : المنافقون ﴿ معهم ﴾ أي : حمية لهم لأسباب يعلمها الله تعالى : ﴿ ولئن قوتلوا ﴾ أي : اليهود من أيّ مقاتل كان ، فيكف بأشجع الخلق وأعلمهم

صلى الله عليه وسلم ﴿ لا ينصرونهم ﴾ أي : المنافقون .

ولقد صدق الله تعالى وكذبوا في الأمرين معاً القتال والإخراج لا نصروهم ولا خرجوا معهم فكان ذلك من أعلام النبوة ، وعلم به من كان شاكاً فضلاً عن الموفقين ﴿ ولئن نصروهم ﴾ أي : المنافقون في وقت من الأوقات ﴿ ليولنّ ﴾ أي : المنافقون ومن ينصرونه . وحقرهم بقوله تعالى : ﴿ الأدبار ﴾ أي : ولقد قدر وجود نصرهم لولوا الأدبار منهزمين ﴿ ثم لا ينصرون ﴾ أي : يتجدّد لفريقيهم ، ولا لواحد منهما نصرة في وقت من الأوقات . ولم يزل المنافقون واليهود في الذل .

﴿ لأنتم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أشد رهبة ﴾ أي : خوفاً ﴿ في صدورهم ﴾ أي : اليهود ومن ينصرهم ﴿ من الله ﴾ أي : لتأخير عذابه ، وأصل الرهبة والرهب : الخوف الشديد مع حزن واضطراب ، والمعنى : أنهم يرهبونكم ويخافون منكم أشد الخوف ، وأشد من رهبتهم من الله لما مرّ . ﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر الغريب وهو خوفهم الثابت اللازم من مخلوق مثلهم ضعيف لرؤيتهم له ، وعدم خوفهم من الخالق على ماله من العظمة في ذاته ، ولكونه غنياً عنهم ﴿ بأنهم قوم ﴾ أي : على ما لهم من القوة ﴿ لا يفقهون ﴾ أي : لا يتجدّد لهم

بسبب كفرهم واعتمادهم على مكرهم في وقت من الأوقات ، فهم يشرح صدورهم ليدركوا به أنّ الله تعالى هو الذي ينبغي أن يخشى لا غيره ، بل هم كالأنعام لا نظر لهم إلى الغيب إنما هم مع المحسوسات . والفقه هو العلم بمفهوم الكلام ظاهره الجلي وغامضه الخفي بسرعة فطنة وجودة قريحة .

﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَالِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِّنكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِى النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَالِكَ جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَتَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَائِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

﴿ لا يقاتلونكم ﴾ أي : اليهود والمنافقون ﴿ جميعاً ﴾ أي : قتالاً تقصدونه مجاهرة وهم مجتمعون كلهم في وقت من الأوقات ومكان من الأماكن ﴿ إلا في قرى محصنة ﴾ أي : ممتنعة بحفظ الدروب ، وهي السكك الواسعة بالأبواب والخنادق ونحوها ﴿ أو من وراء

جدر ﴾ أي : محيط بهم سواء كان بقرية أم بغيرها لشدّة خوفهم ، وقد أخرج هذا ما حصل من بعضهم عن ضرورة كالأسير ، ومن كان ينزل من أهل خيبر من الحصن يبارز ونحو ذلك فإنه لم يكن عن اجتماع أو يكون هذا خاصاً ببني النضير في هذه الكرة . وقرأ ابن كثير وأبو عمر وبكسر الجيم وفتح الدال وألف بعدها وأمال الألف أبو عمرو ، والباقون بضم الجيم والدال ﴿ بأسهم ﴾ أي : حربهم ﴿ بينهم شديد ﴾ أي : بعضهم فظ على بعض وعداوة بعضهم بعضاً شديدة . وقيل : بأسهم بينهم من وراء الحيطان والحصون شديد ، فإذا خرجوا إليكم فهم أجبن خلق الله تعالى : ﴿ تحسبهم ﴾ أي : اليهود والمنافقين يا أعلى الخلق ، أو يا أيها الناظر وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي بكسر السين ، والباقون بفتحها ﴿ جميعاً ﴾ لما هم فيه من اجتماع الأشباح ﴿ وقلوبهم شتى ﴾ أي : متفرقة أشدّ افتراقاً ، وموجب هذا الشتات اختلاف الأهواء التي لا جامع لها من نظام العقل كالبهائم ، وإن اجتمعوا في عداوة أهل الحق كاجتماع البهائم في الهرب من الذئب .

قال القشيري : اجتماع النفوس مع تنافر القلوب واختلافها أصل كل فساد ، وموجب كل تخاذل ، ومقتض لتجاسر العدو واتفاق القلوب ، والاشتراك في الهمة ، والتساوي في القصد موجب كل ظفر ، وكل سعادة . وقرأ شتى الحسن وحمزة والكسائي بالإمالة محصنة ، وورش بالفتح وبين اللفظين وأبو عمرو بين بين ، والباقون بالفتح ، وهي على وزن

فعلى ﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر الغريب من الافتراق بعد الاتفاق الذي يحيل الاجتماع ﴿ بأنهم قوم ﴾ أي : مع شدتهم ﴿ لا يعقلون ﴾ فلا دين لهم مثلهم في ترك الإيمان .

(276/757)

﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ﴾ أي : بزمن قريب ، وهم كما قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : بنو قينقاع من أهل دينهم اليهود أظهروا بأساً شديداً عندما قصدهم النبيّ صلى الله عليه وسلم في أثر غزوة بدر ، فوعظهم وحذرهم بأس الله تعالى فقالوا : لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم أما والله لو قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس ، ثم مكروا بامرأة من المسلمين فراودوها عن كشف وجهها فأبت ، فعقدوا طرف ثوبها من تحت خمارها فلما قامت انكشف سوقها فصاحت ، فغار لها شخص من الصحابة فقتل اليهودي الذي عقد ثوبها ، فقتلوه فانتقض عهدهم فأنزل الله النبيّ صلى الله عليه وسلم بساحتهم فأذلهم الله تعالى ، ونزلوا من حصنهم على حكمه صلى الله عليه وسلم وقد كانوا حلفاء ابن أبي ، ولم يغن عنهم شيئاً غير أنه سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم في أن لا يقتلهم وألح عليه حتى كف عن قتلهم ، فذهبوا عن المدينة الشريفة بأنفسهم من غير حشر لهم بالإلزام بالجلاء . ﴿ ذاقوا وبال أمرهم ﴾ أي : عقوبته في الدنيا

من القتل وغيره ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي : مؤلم في الآخرة

مثلهم أيضاً في سماعهم من المنافقين وتخلفهم عنهم ﴿ كمثل الشيطان ﴾ أي : البعيد من كل خير لبعده من الله تعالى المحترق بعذابه ، والشيطان هنا مثل المنافقين ﴿ إذ قال للإنسان ﴾ وهو هنا مثل اليهود ﴿ اكفر ﴾ أي : بالله بما زين له ووسوس إليه من اتباعه الشهوات القائم مقام الأمر

﴿ فلما كفر ﴾ أي : أوجد الإنسان الكفر على أيّ وجه . ودلت الفاء على إسراعه في متابعة تزيينه . ﴿ قال ﴾ أي : الشيطان الذي هو هنا عبارة عن المنافقين ﴿ إني بريء منك ﴾ أي : ليس بيني وبينك علاقة في شيء أصلاً ظناً منه أنّ هذه البراءة تنفعه شيئاً مما استوجبه المأمور بقبوله لآمره ، وذلك مثل ضربه الله تعالى للمنافقين واليهود في انخذالهم وعدم الوفاء في نصرتهم .

وحذف حرف العطف ولم يقل وكمثل الشيطان لأنّ حذف العطف كثير . كقولك : أنت عاقل ، أنت كريم ، أنت عالم ، وقوله ﴿ كمثل الشيطان ﴾ كالبيان لقوله تعالى : ﴿ كمثل الذين من قبلهم ﴾ روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "أنّ الإنسان الذي قال له الشيطان

: راهب نزلت عنده امرأة أصابها لمم ليدعو لها ، فزين له الشيطان فوطئها فحملت ، ثم قتلها خوفاً من أن يفتضح فدل الشيطان قومها على موضعها ، فجاؤوا فاستنزلوا الراهب ليقتلوه فجاءه الشيطان ، فوعده إن سجد له أنجاه منهم فسجد له فتبرأ منه" وروى عطاء وغيره عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : كان راهب يقال له : برصيصا تعبد في صومعة له سبعين سنة لم يعص الله تعالى فيها طرفة عين ، وإن إبليس أعياه في أمره الحيل فجمع ذات يوم مردة الشياطين ، فقال : ألا أجد فيكم من يكفيني برصيصا فقال له : الأبيض وهو صاحب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهو الذي تصدى للنبيّ صلى الله عليه وسلم وجاءه في صورة جبريل عليه السلام ليوسوس إليه على وجه الوحي ، فدفعه جبريل عليه السلام إلى أقصى أرض الهند ، فقال الأبيض لإبليس : أنا أكفيك أمره فانطلق فتزيا بزيّ الرهبان ، وحلق وسط رأسه ، وأتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه ، وكان لا ينفتل عن صلاته إلا في كل عشرة أيام مرّة ولا يفطر في كل عشرة أيام إلا مرة فلما رآه الأبيض أنه لا يجيبه أقبل على العباد في أصل صومعته فلما انفتل برصيصا اطلع من صومعته فرأى الأبيض قائماً يصلي في هيئة حسنة من هيئة الرهبان فلما رأى ذلك من حاله ندم على نفسه حين لم يجبه ، فقال له : إنك حين ناديتني كنت مشتغلاً عنك فما حاجتك ؟ قال : حاجتي أني أحببت أن أكون معك فأتأدب بأدبك ، وأقتبس من علمك ، ونجتمع على العبادة ، وتدعو لي ، وأدعو لك فقال برصيصا : إني لفي شغل عنك ، فإن كنت مؤمناً فإن

الله سيجعل لك فيما أدعو للمؤمنين نصيباً إن استجاب الله لي ، ثم أقبل على صلاته وترك

الأبيض ، فأقبل الأبيض يصلي فلم يلتفت

إليه برصيصا

أربعين يوماً ، فلما التفت بعدها رآه قائماً يصلي فلما رأى برصيصا شدة اجتهاد الأبيض ،

قال له : ما حاجتك ؟ قال : حاجتي أن تأذن لي أن أرتفع إليك فأذن له فارتفع إليه في

صومعته فأقام حولاً يتعبد فلا يفطر إلا في كل أربعين يوماً مرة ، ولا ينفتل من صلاته إلا كذلك

وربما مد إلى الثمانين فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت إليه نفسه وأعجبه شأن الأبيض

فلما حال الحول قال الأبيض برصيصا إن لي صاحباً غيرك ظننت أنك أشد اجتهاداً

مما رأيت ، وكان بلغنا عنك أنك غير الذي رأيت فدخل من ذلك على برصيصا أمر شديد

، وكره مفارقته للذي رآه من شدة اجتهاده فلما ودعه الأبيض قال له : إن عندي دعوات

أعلمكها تدعو بهن فهن خير مما أنت فيه ، يشفي الله تعالى بها المريض ، ويعافي بها المبتلى والمجنون ، قال برصيصا : أني أكره هذه المنزلة لأن في نفسي شغلاً ، وإني أخاف إن علم به الناس يشغلوني عن عبادة ربي عز وجل ، فلم يزل به الأبيض حتى علمه ثم انطلق حتى أتى إبليس فقال : والله قد أهلكت الرجل . فانطلق الأبيض فتعرض لرجل فجننه ، ثم جاءه في صورة رجل مطبب ، فقال لأهله : إن بصاحبكم جنوناً أفأعالجه ؟ قالوا : نعم ، فقال : إني لا أقوى على جنيته ، ولكن سأرشدكم إلى من يدعو الله تعالى فيعافيه . انطلقوا إلى برصيصا فإن عنده الاسم الذي إذا دعا به أجيب ، فانطلقوا به إليه فسألوه فدعا بتلك الكلمات فذهب عنه الشيطان ، فكان الأبيض يفعل ذلك بالناس ويرشدهم إلى برصيصا فيدعو لهم فيعافون . فانطلق الأبيض فتعرض لجارية من بنات ملوك بني إسرائيل ، وكان لها ثلاثة أخوة ، وكان أبوهم هو الملك فلما مات استخلف أخاه فكان عمها ملك بني إسرائيل قصد لها وخنقها ، ثم جاء إليهم في صورة رجل مطبب فقال أفأعالجها ؟ قالوا : نعم ، قال : إن الذي عرض لها مارد لا يطاق ولكن سأرشدكم إلى رجل تثقون به تدعونها عنده ، إذا جاءها شيطانها دعا لها حتى تعلموا أنها قد عوفيت فتردونها صحيحة ، قالوا : ومن هو ؟ قال : برصيصاً ، قالوا : كيف لنا أن يجيبنا إلى هذا وهو أعظم شأناً من ذلك ، قال : ابنوا صومعة إلى جنب صومعته ، ولتكن لزيق صومعته حتى يشرف عليها فإن قبلها وإلا فتضعونها في صومعتها ، ثم قولوا له : هي أمانة عندك فاحتسب أمانتك . فانطلقوا إليه

فسألوه ذلك فأبى ، فبنوا صومعة على ما أمرهم به الأبيض ، ووضعوا الجارية في صومعتها ، وقالوا : يا برصيصا هذه أختنا أمانة عندك فاحتسب فيها ، ثم انصرفوا فلما انفتل برصيصا من صلاته عاين الجارية ،

(280/757)

وما هي عليه من

(281/757)

الجمال فوقعت في قلبه ، ودخل عليه أمر عظيم فجاءها الشيطان فخنقها فكانت تكشف عن نفسها وتتعرض لبرصيصا ، فجاء الشيطان وقال : ويحك واقعها فلم تجد مثلها وستتوب بعد ذلك ، ويتم لك ما تريد من الأمر فلم يزل به حتى واقعها فلم يزل على ذلك يأتيها حتى حملت وظهر حملها ، فقال له الشيطان : ويحك يا برصيصا قد افتضحت فهل لك أن تقتلها وتتوب ، فإن سألوك فقل ذهب بها شيطانها ولم أقو عليه ، فدخل فقتلها ثم انطلق بها فدفنها إلى جانب الجبل ، فجاء الشيطان وهو يدفنها ليلاً فأخذ بطرف إزارها

فبقي خارجاً من التراب ، ثم رجع برصيصا إلى صومعته وأقبل على صلاته ؛ إذ جاء أخوتها يتعهدون أختهم ، وكانوا يجيئون في بعض الأيام يسألون عنها ويوصونه بها ، فلما لم يجدوها قالوا : يا برصيصا ما فعلت أختنا ؟ قال : قد جاء شيطانها فذهب بها ولم أطقه ، فصدقوه وانصرفوا فلما أمسوا مكروبين جاء الشيطان إلى أكبرهم في منامه فقال : ويحك إن برصيصا فعل بأختك كذا وكذا ، وإنه دفنها في موضع كذا وكذا ، فقال الأخ : هذا حلم وهو من عمل الشيطان ، برصيصا خير من ذلك فتابع عليه ثلاث ليال ، فلم يكترث فانطلق إلى الأوسط بمثل ذلك ، فقال الأوسط له ما قال الأكبر ولم يخبر به أحداً ، فانطلق إلى أصغرهم بمثل ذلك ، فقال الأصغر لأخويه : والله لقد رأيت كذا وكذا ، فقال الأوسط : أنا والله رأيت مثله ، وقال الأكبر : أنا والله رأيت مثله . فانطلقوا إلى برصيصا وقالوا له : ما فعلت بأختنا ؟ فقال : أليس قد أعلمتكم بحالها فكأنكم قد اتهمتموني ، فقالوا : والله لا نتهمك واستحيوا منه وانصرفوا ، فجاءهم الشيطان ، وقال : ويحكم إنها مدفونة في موضع كذا وكذا ، وإن طرف إزارها خارج من التراب . فانطلقوا فرأوا أختهم على ما رأوا في النوم فذهبوا إليه ومعهم غلمانهم ومواليهم بالفؤوس والمساحي فهدموا صومعة برصيصا ، وأنزلوه منها وكتفوه ثم أتوا به إلى الملك فأقرّ على نفسه ، وذلك أنّ الشيطان أتاه فقال : تقتلها ، ثم تكابر

فيجتمع

عليك أمران

قتل ومكابرة اعترف . فلما اعترف أمر الملك بقتله وصلبه على خشبة ، فلما صلب أتاه الأبيض فقال : يا برصيصاً تعرفني ، قال : لا ، قال : أنا صاحبك الذي علمتك الدعوات فاستجيب لك ويحك أما اتقيت الله تعالى في الأمانة خنت أهلها ، وإنك زعمت أنك أعبد بني إسرائيل ، أما استحيت فلم يزل يعيره ، ثم قال : ألم يكفك ما صنعت حتى أقررت على نفسك وفضحت نفسك وأشباهك من الناس ، فإن مت على هذه الحالة فلم يفلح أحد من نظائرك ، قال : فكيف أصنع ؟ قال : تطيعني في خصلة واحدة حتى أنجيك مما أنت فيه ، فأخذ بأعينهم وأخرجك من مكانك ، قال : وما هي ؟ قال : تسجد لي ، قال : أفعل فسجد له فقال : يا برصيصا هذا الذي أردت منك صارت عاقبة أمرك إلى أن كفرت بربك إني بريء منك" .

﴿

إني أخاف الله ﴾ أي : الملك الذي لا أمر لأحد معه . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء ، والباقون بسكونها ﴿ رب العالمين ﴾ أي : الذي أوجدهم من العدم ورباهم بما يدل على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا ، فلا يغني أحد من خلقه عن أحد شيأ إلا

بإذنه .

﴿ فكان ﴾ أي : فتسبب عن قوله ذلك أنه كان ﴿ عاقبتهما ﴾ أي : الغار والمغرور ﴿ أنهما في النار ﴾ حال كونهما ﴿ خالدين فيها ﴾ لأنهما ظلما ظلماً لا فلاح معه ﴿ وذلك ﴾ أي : العذاب الأكبر ﴿ جزاء الظالمين ﴾ أي : كل من وضع العبادة في غير موضعها ، أو هم الكافرون لقوله تعالى : ﴿ إنّ الشرك لظلم عظيم ﴾ (لقمان :)

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : ضرب الله تعالى هذا المثل ليهود بني النضير ، والمنافقين من أهل المدينة فدس المنافقون إليهم ، وقالوا : لا تجيبوا محمداً إلى ما دعاكم إليه ، ولا تخرجوا من دياركم فإن قاتلكم فإنا معكم فأجابوهم ، وإن أخرجوكم خرجنا معكم فأجابوهم فدربوا على حصونهم وتحصنوا في ديارهم رجاء نصر المنافقين فناصبوهم الحرب فخذلوهم وتبرؤوا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصا ، وخذله فكان عاقبة الفريقين في النار .

(283/757)

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : وكانت الرهبان بعد ذلك في بني إسرائيل لا يمشون إلا بالتقية والكتمان ، وطمع أهل الفسوق في الأحبار ، ورموهم بالبهتان حتى كان أمر

جريج الراهب ، فلما برأه الله تعالى مما رموه به انبسطت بعده الرهبان ، وظهروا للناس

وكانت قصة جريج ما روي عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى ابن مريم ، وصاحب جريج ، وكان جريج رجلاً عابداً فاتخذ صومعة فكان فيها ، فأتت أمه وهو يصلي فقالت : يا جريج ، فقال رب أمي وصلاتي وأقبل على صلاته فانصرفت ، فلما كان من الغد أتته ، فقال : مثل مقالته الأولى فقالت اللهم لا تمته حتى ينظر في وجوه المومسات . فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته ، وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها ، فقالت : إن شئتم لأفتننه لكم ، قال : فتعرضت له فلم يلتفت إليها فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته ، فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت ، فلما ولدت قالت : هو من جريج فأتوه فاستنزلوه ، وهدموا صومعته ، وجعلوا يضربونه فقال : ما شأنكم ؟ فقالوا : زنيت بهذه البغي فحلمت منك ، فقال : أين الصبيّ فجاؤوا به ، فقال : دعوه حتى أصلي فلما انصرف من صلاته أتى الصبيّ وطعن في بطنه ، وقال : يا غلام من أبوك ، فقال : فلان الراعي ، قال : فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به ، وقالوا : نبني لك صومعتك من ذهب ، قال : لا أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا . والثالث : كلم أمه وهي ترضعه في قصة مشهورة" .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي : أقروا بالإيمان باللسان ﴿ اتقوا الله ﴾ أي : اجعلوا لكم وقاية تقيكم سخط الملك الأعظم باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، واحذروا عقوبته بسبب التقصير فيما حدّه لكم من أمر أو نهي ﴿ ولتنظر نفس ما قدّمت لغد ﴾ أي : في يوم القيامة لأنّ هذه الدنيا كلها كيوم واحد يجيء فيه ناس ويذهب آخرون ، والموت والآخرة لا بدّ من كل منهما ، وكل ما لا بدّ منه فهو في غاية القرب ، والعرب تكني عن المستقبل بالغد .

وقيل : ذكر الغد تنبيهاً على أنّ الساعة قريبة كقول القائل : وإنّ غداً لناظره قريب . وقال الحسن وقتادة : قرب الساعة حتى جعلها كغد ، لأنّ كل آت قريب ، والموت لا محالة آت . ومعنى ﴿ ما قدمت ﴾ أي : من خير أو شر ، ونكر النفس لاستقلال الأنفس التي تنظر فيما قدمت للآخرة ، كأنه قال : ولتنظر نفس واحدة في ذلك ، ونكر الغد لتعظيمه وإبهام أمره كأنه قال : الغد لا تعرف كميته لعظمته . وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي : الجامع لجميع صفات الكمال تأكيد .

وقيل : كرّر لتغاير متعلق التقويين فمتعلق الأولى أداء الفرائض لاقترانه بالعمل ، والثانية ترك المعاصي لاقترانه بالتهديد والوعيد ، قال معناه الزمخشري ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا ﴿ خبير ﴾ أي عظيم الاطلاع على ظواهركم وبواطنكم والإحاطة ﴿ بما تعملون ﴾ فلا تعملون عملاً إلا كان بمرأى من ومسمع فاستحيوا منه .

﴿ ولا تكونوا ﴾ أيها المحتاجون إلى التحذير وهم الذين آمنوا ﴿ كالذين نسوا الله ﴾ أي: أعرضوا عن أوامر ونواهي الملك الأعظم، وتركوها ترك الناسين لمن برزت عنه مع ماله من صفات الجلال والإكرام ﴿ فأنساهم ﴾ أي: فتسبب عن ذلك أن أنساهم بما له من الإحاطة بالظواهر والبواطن ﴿ أنفسهم ﴾ أي: فلم يقدموا لها ما ينفعها، وإن قدموا شيئاً كان مشوباً بالمفسدات من الرياء والعجب فكانوا ممن قال فيه تعالى: ﴿ وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة ﴾ (الغاشية، الآيتان: ـ)

الآية لأنهم لم يدعوا باباً من أبواب الفسق، فإنّ رأس الفسق الجهل بالله، ورأس العلم ومفتاح الحكمة معرفة النفس فأعرف الناس بنفسه أعرفهم بربه ﴿ أولئك ﴾ أي: البعداء من كل خير ﴿ هم الفاسقون ﴾ أي: العريقون في المروق من دائرة الدين.

﴿ لا يستوي ﴾ أي: بوجه من الوجوه ﴿ أصحاب النار ﴾ أي: التي هي محل الشقاء الأعظم ﴿ وأصحاب الجنة ﴾ أي: التي هي دار النعيم الأكبر لا في الدنيا ولا في الآخرة، واستدل بهذه الآية على أنّ المسلم لا يقتل بالكافر ﴿ أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ أي: الناجون من كل مكروه المدركون لكل محبوب، وأصحاب النار هم الهالكون في الدارين كما

وقع في هذه الغزوة لفريقي المؤمنين وبني النضير ومن والاهم من المنافقين فشتان ما بينهما .

﴿ لو أنزلنا ﴾ أي : بعظمتنا التي أبانها هذا الإنزال ﴿ هذا القرآن ﴾ أي : الجامع لجميع العلوم الفارق بين كل ملتبس المبين لجميع الحكم ﴿ على جبل ﴾ أي جبل كان ، أو جبل فيه تمييز كالإنسان ﴿ لرأيته ﴾ يا أشرف الخلق وإن لم يتأهل غيرك لتلك الرؤية ﴿ خاشعاً ﴾ أي : متذللاً باكياً ﴿ متصدّعاً ﴾ أي : متشققاً غاية التشقق ﴿ من خشية الله ﴾ أي : من الخوف العظيم ممن له الكمال كله ، وفي هذا حث على تأمّل مواعظ القرآن وتدبر آياته ﴿ وتلك الأمثال ﴾ أي : التي لا يضاهيها شيء ﴿ نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ فيؤمنون .

والمعنى : أنا لو أنزلنا هذا القرآن على الجبل لخشع لوعده ، وتصدع لوعيده ، وأنتم أيها المشهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده ولا ترهبون من وعيده ، والغرض من هذا الكلام التنبيه على قساوة قلوب هؤلاء الكفار وغلظ طباعهم ، ونظيره ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ (البقرة :)

وقيل الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم أي : لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت وتصدّع من نزوله عليه ، وقد أنزلناه عليك وثبتناك له فيكون ذلك امتناناً عليه أن ثبته لما لم تثبت له الجبال .

وقيل : إنه خطاب للأمة ، والمعنى : لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدّعت من خشية الله تعالى ، والإنسان أقل قوة وأكثر ثباتاً فهو يقوم بحقه إن أطاع ، ويقدر على ردّه إن عصى لأنه موعود بالثواب ومزجور بالعقاب .

ولما وصف تعالى القرآن بالعظم ، ومعلوم أن عظم الصفة تابع لعظم الموصوف أتبع ذلك بوصف عظمته تعالى ، فقال عز من قائل : ﴿ هو ﴾ أي : الذي وجوده من ذاته فلا عدم له بوجه من الوجوه ، فلا شيء يستحق الوصف بهو غيره لأنه الموجود دائماً أزلاً وأبداً فهو حاضر في كل ضمير غائب بعظمته عن كل حس ، فلذلك تصدّع الجبل من خشيته ولما عبر عنه بأخص أسمائه أخبر عنه لطفاً بنا وتنزلاً لنا بأشهرها الذي هو مسمى الأسماء كلها بقوله تعالى : ﴿ الله ﴾ أي : المعبود الذي لا ينبغي العبادة والألوهية الإله ﴿ الذي لا إله إلا هو ﴾ فإنه لا مجالس له ، ولا يليق ولا يصح ولا يتصوّر أن يكافئه ، أو يدانيه شيء والإله أول اسم لله تعالى فلذلك لا يكون أحد مسلماً إلا بتوحيده ، فتوحيده فرض وهو أساس كل فريضة ﴿ عالم الغيب ﴾ أي : الذي غاب عن جميع خلقه ﴿ والشهادة ﴾ أي : الذي وجد فكان يحسه ويطلع عليه بعض خلقه . وقال ابن عباس : معناه عالم السرّ والعلانية ، وقيل : ما كان وما يكون . وقال سهل : عالم بالآخرة والدنيا ، وقيل : استوى في علمه السرّ والعلانية والموجود والمعدوم . وقوله تعالى : ﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾ معناه ذو

الرحمة ، ورحمة الله تعالى إرادته الخير والنعمة والإحسان إلى خلقه . وقيل : إنّ رحمن أشدّ مبالغة من رحيم ، ولهذا قيل : هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة لأنه تعالى بإحسانه في الدنيا يعم المؤمن والكافر ، وفي الآخرة يختص إنعامه وإحسانه بالمؤمنين .

(287/757)

﴿ هو الله ﴾ أي : الذي لا يقدر على تعميم الرحمة لمن أراد وتخصيصها بمن شاء إلا هو ﴿ الذي لا إله ﴾ أي : لا معبود بحق ﴿ إلا هو الملك ﴾ أي : فلا ملك في الحقيقة إلا هو لأنه لا يحتاج إلى شيء ، لأنه مهما أراد كان فهو متصرّف بالأمر والنهي في جميع خلقه ، فهم تحت ملكه وقهره وإرادته ﴿ القدوس ﴾ أي : البليغ في النزاهة عن كل وصم يدركه حس ، أو يتصوّره خيال ، أو يسبق إليه وهم ، أو يختلج إليه ضمير .

ونظيره : السبوح وفي تسبيح الملائكة سبوح قدوس رب الملائكة والروح ﴿ السلام ﴾ أي : الذي سلم من النقائص وكل آفة تلحق الخلق ، فهو بمعنى السلامة ومنه دار السلام وسلام عليكم وصف به مبالغة في وصف كونه سليماً من النقائص ، أو في إعطائه السلامة ﴿ المؤمن ﴾ قال ابن عباس : هو الذي أمن الناس من ظلمه ، وأمن من آمن به عذابه . وقيل : هو المصدّق لرسله بإظهار المعجزات لهم ، والمصدّق للمؤمنين بما وعدهم من

الثواب وبما أوعد الكافرين من العذاب . وقال مجاهد : المؤمن الذي وحد نفسه لقوله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ (آل عمران :)

قال ابن عباس : إذا كان يوم القيامة أخرج أهل التوحيد من النار ، وأوّل من يخرج من وافق اسمه اسم نبي حتى إذا لم يبق فيها من وافق اسمه اسم نبي قال الله تعالى لباقيهم : أنتم المسلمون وأنا السلام وأنتم المؤمنون وأنا المؤمن ، فيخرجهم من النار ببركة هذين الاسمين ﴿ المهيمن ﴾ قال ابن عباس أي الشهيد على عباده بأعمالهم الذي لا يغيب عنه شيء ، وقيل : هو القائم على خلقه بقدرته ، وقيل : هو الرقيب الحافظ لكل شيء مفيعل من الأمن قلبت همزته هاء ﴿ العزيز ﴾ أي : الذي لا يوجد له نظير ، وقيل : هو الغالب القاهر ﴿ الجبار ﴾ الذي جبر خلقه على ما أراده ، أو جبر حالهم بمعنى أصلحه ، والجبار في صفة الله صفة مدح ، وفي صفة الناس صفة ذم وكذا قوله تعالى : ﴿ المتكبر ﴾ أي : الذي تكبر على كل ما يوجب حاجة أو نقصاً ، وهو في حقه تعالى صفة مدح لأنه له جميع صفات العلوّ والعظمة ، وفي صفة الناس صفة ذم لأنّ المتكبر هو الذي يظهر من نفسه التكبر ، وذلك نقص في حقه لأنه ليس له كبر ولا علوّ بل له الحقارة والذلة ، فإذا أظهر الكبر كان كذاباً في

فعله ﴿ سبحان الله ﴾ أي : تنزه الملك الأعلى الذي اختص بجميع صفات الكمال تنزهاً لا تدرك العقول منه أكثر من أنه علا عن أوصاف الخلق فلا يدانيه شيء من نقص تعالى : ﴿ عما يشركون ﴾ أي : من هذه المخلوقات من الأصنام وغيرها مما في الأرض ، أو في السماء من صغير وكبير وجليل وحقير .

﴿ هو ﴾ أي : الذي لا شيء يستحق أن يطلق عليه هذا الضمير غيره لأنّ وجوده من ذاته ، ولا شيء غيره إلا وهو ممكن ولما ابتدأ بهذا الغيب المحض الذي هو أظهر الأشياء أخبر عنه بأشهر الأشياء الذي لم يقع فيه شركة بوجه . فقال تعالى : ﴿ الله ﴾ أي : الذي ليس له سميّ فلا كفء له فهو المعبود بالحق فلا شريك له بوجه ﴿ الخالق ﴾ أي : المقدر للأشياء على مقتضى حكمته ﴿ البارئ ﴾ أي : المخترع المنشئ للأشياء من العدم إلى الوجود بريا ً من التفاوت وقوله تعالى : ﴿ المصور ﴾ أي : الذي يخلق صور الأشياء على ما يريد بكسر الواو ورفع الراء إما صفة ، وإمّا خبر واحترزت بهذا الضبط عن قراءة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والحسن فإنهما قرأا بفتح الواو ونصب الراء ، وهي قراءة شاذة وإنما تعرّضت لها لأبين وجهها ، وهو أن تخرّج هذه القراءة على أن يكون المصور منصوباً بالبارئ

، والمصوّر هو الإنسان إمّا آدم وإما هو وبنوه وعلى هذه القراءة يحرم الوقف على المصوّر بل يجب الوصل ليظهر النصب في الراء ، وإلا فقد يتوهم منه في الوقف ما لا يجوز ﴿ له ﴾ أي : خاصة ﴿ الأسماء الحسنى ﴾ التسعة والتسعون الوارد فيها الحديث ، وقد ذكرتها في سورة الإسراء . والحسنى تأنيث الأحسن ﴿ يسبح ﴾ أي : يكرّر التنزيه الأعظم عن كل شيء من شوائب النقص على سبيل التجدّد والاستمرار ﴿ له ﴾ أي : على وجه التخصيص ﴿ ما في السموات ﴾ أي السموات وما فيها ﴿ والأرض ﴾ وما فيها ﴿ وهو ﴾ أي : والحال أنه وحده ﴿ العزيز ﴾ أي : الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ﴿ الحكيم ﴾ أي : الجامع الكمالات بأسرها فإنها راجعة إلى الكمال في القدرة والعلم .

وعن معقل بن يسار أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ الثلاث آيات من سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي ، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قاله حين يمسي كان كذلك" .

أخرجه الترمذي ، وقال : حسن غريب . وعن أبي هريرة أنه قال : "سألت خليلي أبا القاسم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الأعظم فقال : عليك بآخر سورة الحشر فأكثر قراءتها فأعدت عليه فأعاد علي" وقال جابر بن زيد : إنّ اسم الله الأعظم هو الله لمكان هذه الآية . وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال "من قرأ سورة الحشر غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 7 صـ 358.389 ﴾

(291/757)

وقال القاسمى :

سورة الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

تقدم القول في تأويل نظيره ، ثم أشار إلى بيان بعض آثار عزته تعالى ، وإحكام حكمته ، إثر وصفه بالعزة القاهرة ، والحكمة الباهرة على الإطلاق بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعني بني النضير من اليهود ﴿ مِّن دِيَارِهِمْ ﴾ أي : من مساكنهم

التي جاوروا بها المسلمين حول المدينة، لطفاً بهم ﴿ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ أي: لأول الجمع لقتالهم. يعني أخرجهم تعالى بقهره لأول ما حشر لغزوهم. والتوقيت به إشارة إلى شدة الأخذ الرباني لهم، وقوة البطش والانتقام، بقذف الرعب في قلوبهم، حتى اضطروا لأول الهجوم عليهم، إلى الجلاء والفرار، كما يأتي.

﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ﴾ أي: لشدة بأسهم ومنعتهم، فصار آية لكم، لأنه من آثار سنته تعالى في إذلال المفسدين وقهرهم ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي: من بأسه ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أي: عذابه، وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ أي: لم يظنوا ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ أي: أنزله إنزالاً شديداً فيها، لدلالة مادة القذف عليه، كأنه مقذوف الحجارة.

قال القاشاني: أي: نظر بنظر القهر إليهم فتأثروا به، لاستحقاقهم لذلك، ومخالفة الحبيب ومشاقته ومضادته، ولوجود الشك في قلوبهم، وكونهم على غير بصيرة من أمرهم، وبينة من ربهم، إذ لو كانوا أهل يقين ما وقع الرعب في قلوبهم، ولعرفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور اليقين، وآمنوا به فلم يخالفوه.

﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أي : كيف حل بالمفسدين ما حل ونزل بهم ما نزل ، لتعلموا صدق الله في وعده ووعيده .

﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء ﴾ أي : الخروج من أوطانهم ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴾ أي : بالقتل والسبي ، كما فعل بإخوانهم بني قريظة .

﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ ﴾ أي : الجلاء والعذاب ﴿ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ﴾ أي : خالفوا ﴿ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي : فيما نهاهم عنه من الفساد ، ونقض الميثاق .

﴿ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي : له في الدنيا والآخرة .

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ أي : نخلة من نخيلهم إغاظة لهم ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي : أمره ورضاه ؛ لأن ذلك ليس للبعث والإصرار ، بل لتأييد قوة الحق ، وتصلّب أهله ، وإرهاب المبطلين وإذلالهم ، كما قال تعالى ﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي : لما فيه من إهانة العدوّ ، وإضعافه ونكايته .

تنبيه :

ذكر علماء الأخبار وأئمة السير ، أن سبب الأمر بجلاء بني النضير هو نقضهم العهد . قال الإمام ابن القيم : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، صار الكفار معه ثلاثة أقسام : قسم صالحهم ووادعهم على أن لا يحاربوه ، ولا يظاهروا عليه ، ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم على كفرهم ، آمنون على دمائهم وأموالهم . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة ، وقسم

تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه .

ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن . ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم . ومنهم من دخل معه في الظاهر ، ومع عدوه في الباطن ، ليأمن الفريقين ، وهؤلاء هم المنافقون .

فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمر به ربُّه – تبارك وتعالى – فصالح يهود المدينة ، وكتب بينهم كتاب أمن ، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة : بني قينقاع ، وبني النضير ، وبني قريظة .

فكانت بنو قينقاع أول من نقض ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد ، وحاصرهم صلى الله علبه وسلم ، ثم أمرهم أن يخرجوا من المدينة ، ولا يحاربوه بها . ثم نقض العهد بنو النضير ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إليهم يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم ، فتآمروا على قتله صلى الله عليه وسلم ، وأن يعلو رجل فيلقي صخرة عليه ، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم ، وصعد ليلقي

عليه صخرة ، ونزل الوحي على رسول الله صلوات الله عليه بما أراد القوم < فقام ورجع بمن معه من أصحابه على المدينة ، وأمر بالتهيؤ لحربهم > . ثم سار بالناس حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليال ، فتحصنوا منه في الحصون < فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل وتحريقها > ، ثم قذف الله في قلوبهم الرعب ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُجْليهم ، ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحْلقة ، ففعل . فاحتملوا من أموالهم ما استقلّت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه ، فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، وخلوا الأموال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت له خاصة يضعها حيث شاء ، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المهاجرين الأولين دون الأنصار ، إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة ذكرا فقراً ، فأعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يُسلم من بني النضير إلا رجلان : يامين بن عمير بن كعب ، وأبو سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني بعض آل يامين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليامين : <ألم تر ما لقيت من ابن عمك ، وما هم به من شأني> ؟ فجعل يامين ابن عمير لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون . ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها ، يذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمته ، وما سلط عليهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما عمل به فيهم . انتهى .

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ أي : أعاد عليه من أموال بني النضير ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ أي : فما أجريتم على تحصيله خيلاً ولا ركاباً ، ولا تعقبتم في القتال عليه ، وإنما مشيتم إليه على أرجلكم . والإيجاف من الوجيف ، وهو سرعة السير ، والركاب : ما يركب من الإبل ، غلب فيه كما غلب الراكب على راكبه .

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : من أهل الفساد والإفساد ليقوم الناس بالقسط .

﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قال الزمخشريّ : المعنى أن ما خول الله رسوله من أموال بني النضير ، شيء لم يحصلوه بالقتال والغلبة ، ولكن سلطه الله عليهم ، وعلى ما في أيديهم ، كما كان يسلط رسله على أعدائهم . فالأمر فيه مفوض إليه ، يضعه حيث يشاء ، يعني أنه لا يقسم قسمة الغنائم التي قوتل عليها ، وأخذت عنوة وقهراً ؛ وذلك أنهم طلبوا القسمة فنزلت :

﴿ مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ أي : من الأموال محاربيها ، وهو بيان للأول ، ولذا لم يعطف عليه ، ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ ﴾ أي : الفيء الذي حقه أن يكون لمن ذكر ﴿ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ ﴾ أي : يتداولونه وحدهم دون من هم أحق به . أو دولة جاهلية ، إذ كان من عوائدهم استئثار الرؤساء والأغنياء بالغنائم دون الفقراء ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ ﴾ أي : من قسمة غنيمة أو فيء ﴿ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أي : عن أخذه منها ﴿ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي : لمن خالفه إلى ما نهى عنه .

تنبيهات :

الأول : قال السيوطي في " الإكليل " : استدل بالآية على أن الفيء ما أخذ من الكفار بلا قتال ، وإيجاف خيل وركاب ، ومنه ما جلوا عنه خوفاً . و الغنيمة ما أخذ منهم بقتال ، كما تقدم في قوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنفال : 41] ، خلافاً لمن زعم أنهما بمعنى واحد ، أو فرق بينهما بغير ذلك . انتهى .

وكأن الذي زعم أنهما بمعنى واحد رأى أن مجمل هذه الآية بيّنه آية الأنفال ، حتى زعم

قتادة أن هذه منسوخة بتلك . قال – فيما رواه عنه ابن جرير – : كان الفيء في هؤلاء ثم نسخ ذلك سورة الأنفال فقال :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ وجعل الخمس لمن كان له الفيء في سورة الحشر . وكانت الغنيمة تقسم خمسة أخماس : فأربعة لله وللرسول ، وخمس لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته ، وخمس لليتامى ، وخمس للمساكين ، وخمس لابن السبيل .

والمسألة مبسوطة في مطولات الفروع .

(296/757)

الثاني : قال الزمخشري : الأجود أن يكون قوله تعالى :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ الآية ، عامّاً في كل ما آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عنه . وأمر الفيء داخل في عمومه .

وفي " الإكليل " : فيه وجوب امتثال أوامره ونواهيه صلى الله عليه وسلم .

قال العلماء : وكل ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم ، يصح أن يقال : إنه في القرآن ، أخذاً من هذه الآية . انتهى .

وهذا الأخير من غلوّ الأثريين ، والإغراق في الاستنباط .

ثم بين تعالى من أصناف من تقدم ، الأحق بالعناية والرعاية ، بقوله :

﴿ لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ أي : من مواطنهم ومألوفاتهم ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي : من العلوم والفضائل الخلقية ﴿ وَرِضْوَاناً ﴾ أي : منه وهو أعظم ما يرغب فيه ﴿ وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي : يبذل النفوس لقوة اليقين ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ قال القاشاني : أي : في الإيمان اليقيني لتصديق أعمالهم دعواهم ، إذ علامة وجدان اليقين ظهور أثره على الجوارح ، بحيث لا تمكن حركاتها إلا على مقتضى شاهدهم من العلم .

ثم أشار إلى أن إيثار هؤلاء بالعطاء مما تطيب به نفوس إخوانهم الأنصار ، لحرصهم ، رضي الله عنهم ، على الإيثار دون الاستئثار ، بقوله :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ﴾ أي : دار الهجرة ، أي : توطنوها ﴿ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : من قبل مجيء المهاجرين إليهم . وعطف ﴿ الإِيمَانَ ﴾ قيل : بتقدير عامل . أي : وأخلصوا الإيمان . وقيل : استعمل التبوء في لازم معناه ، وهو اللزوم والتمكّن . والمعنى : لزموا الدار والإيمان . وجوّز أيضاً تنزيل الإيمان منزلة المكان الذي يتمكن فيه ، على أنه استعارة بالكناية ، ويثبت له التبوء على طريق التخييل .

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : لوجود الجنسية في الصفاء ، والموافقة في الدين والإخاء . قال الشهاب : المراد بمحبتهم المهاجرين هنا ، مواساتهم ، وعدم الاستثقال والتبرم منهم ، إذا احتاجوا إليهم ، فالمحبة كناية عما ذكر ، كما قيل :

~ يا أخي واللَّبيب إن خانَ دهرٌ يستبين العدوّ ممن يحبُّ

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ ﴾ أي : في أنفسهم ﴿ حَاجَةً ﴾ أي : طلباً أو حسداً ﴿ مِّمَّا أُوتُوا ﴾ أي : مما أوتي المهاجرون من الفيء وغيره ، لسلامة قلوبهم ، وطهارتها عن دواعي الحرض .

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ أي : حاجة وفاقة .

قال القاشانيّ : لتجردهم وتوجههم إلى جناب القدس ، وترفعهم عن مواد الرجس ، وكون الفضيلة لهم أمراً ذاتياً ، باقتضاء الفطرة ، وفرط محبة الإخوان بالحقيقة ، والأعوان في الطريقة . فتقديمهم أصحابهم على أنفسهم ، لمكان الفتوّة ، وكمال المروّة ، ولقوة التوحيد ، والاحتراز عن حظ النفس .

تنبيه :

في " الإكليل " : في الآية مدح الإيثار في حظوظ النفس والدنيا . انتهى .

وقال ابن كثير : هذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ [الْإِنْسَانْ : 8] ، وقوله :

(298/757)

﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ [البقرة : 177] ، فإن هؤلاء تصدقوا ، وهم يحبون ما تصدقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ، ولا ضرورة به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه ، ومن هذا المقام تَصَدق الصديق رضي الله عنه بجميع ماله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : < ما أبقيت لأهلك > ؟ فقال رضي الله عنه : أبقيت لهم الله ورسوله ! وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك ، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل ، أحوج ما يكون إلى الماء ، فردّه الآخر إلى الثالث ، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ، ولم يشربه أحد منهم ، رضي الله عنهم وأرضاهم .

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ أي : فيخالفها فيما يغلب عليها من حب المال ، وبغض الإنفاق ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : الفائزون بالسعادتين . وفي إضافة الشحّ إلى النفس إشارة لما قاله القاشانيّ من أن النفس مأوى كل شر ووصف رديء ، وموطن كل رجس

وخُلق دنيء . والشح من غرائزها المعجونة في طينتها ، لملازمتها الجهة السفلية ، ومحبتها الحظوظ الجزئية ، فلا ينتفي منها إلا عند انتفائها . ولكن المعصوم من تلك الآفات والشرور من عصمه الله .

قال ابن جرير : الشح في كلام العرب البُخل ، ومنع الفضل من المال . والعلماء يرون أن الشح في هذا الموضوع إنما هو أكل أموال الناس بغير حق ، ثم روى أن رجلاً أتى ابن مسعود فقال : يا أبا عبد الرحمن ! إني أخشى أن تكون أصابتني هذه الآية القرآن : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ، وأنا رجل شحيح ، لا يكاد يخرج من يديّ شيء ! قال : ليس ذاك بالشح الذي ذكر الله في القرآن ، إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً ، ذلك البخل ، وبئس الشيء البخل . انتهى .

والظاهر أنه عنى بالعلماء بذلك الأثر ؛ لأنه لم يفسر إلا بالمأثور . ولعل ابن مسعود فسر الآية بذلك ، لدلالة سياقها عليه ، إذ القصد تزهيد الأنصار في أن تطمح أنفسهم لما جعل للمهاجرين دونهم . أو هو يرى الفرق بين الشح والبخل بما ذكره . وعلى كل فلا يتعين تأويل الآية بما ذكره بل هي مما تحتمله . وعن ابن زيد في الآية قال : من وُقِيَ شح نفسه فلم يأخذ

من الحرام شيئاً ولم يقربه ، ولم يدعه الشح أن يحبس من الحلال شيئاً ، فهو من المفلحين .

وروى ابن جرير عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < بريء من الشح من أدى الزكاة ، وقرى الضيف ، وأعطى في النائبة < .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش ، وإياكم والشح فإنه أهلك من قبلكم : أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا < .

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : < لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً < .

﴿ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعني بالذين جاؤوا من بعدهم ، الذين هاجروا حين قوي الإسلام من بعد الذين هاجروا مُخْرَجين من ديارهم ، فالمراد مجيئهم إلى المدينة بعد مدة . والمجيء حسي . وقيل : هم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ؛ فالمجيء إما إلى الوجود ، أو إلى الإيمان . ونظير هذه الآية ، آية براءة :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [التوبة: 100] .

قال الشهاب: والمراد بدعاء اللاحق للسابق، والخلف للسلف، أنهم متبعون لهم، أو هو تعليم لهم بأن يدعوا لمن قبلهم، ويذكروهم بالخير .

تنبيه:

جعل الزمخشري قوله: ﴿ والَّذِينَ ﴾ عطفاً على ﴿ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ كالموصول قبله في قوله:

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا ﴾ إلخ. فيكون قوله: ﴿ يُحِبُّونَ ﴾ وقوله: ﴿ يَقُولُونَ ﴾ حالين.

وجوز السمين: وجها ثانيا، وهو كون الموصول فيهما مبتدأ، وما بعده خبره. وعندي أن هذا هو الوجه، ما قبله تكلف، وأن الموصولين مستأنفان لمدح إيمان الأنصار والتابعين لهم بتلك الأخلاق الفاضلة، والخصال الكاملة. وما حمل الزمخشريّ ومن تابعه على الاقتصار على الوجه الأول إلا لتشمل أصناف من يستحق الفيء من فقراء كلّ، كأنه قيل:

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا ﴾ إلخ، ﴿ و ﴾ للفقراء ﴿ الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا ﴾ إلخ، وللفقراء الذين جاؤوا من بعدهم . . . إلخ، مع أن سياق الآيات المذكورة، ورعاية وقت نزولها، والمهاجرون في جهد، والأنصار في سعة ورغد - يقضي بأن المقصود منها للفيء ، هو فقراء المهاجرين خاصة وأن الذين تبوؤوا الدار في غنى عنه وعدم تشوف إليه، لشدة محبتهم لإخوانهم، بل رغبتهم في إيثارهم . ثم بين تعالى حال من يجيء بعدهم بأنه يثني على من سبقه، ويدعوا له ابتهاجاً بما أتوا، واغتباطاً بما عملوا، لأنهم بين مهاجر عن أهله وأمواله، محبة في الله ورسوله، وبين محب لمن هاجر، مكرم له، بل مؤثر إياه، مما أشفّ عن قوة الإيمان، والإخلاص في تدعيم روابط الإيقان، هذا هو الظاهر من نظم الآيات الكريمة، وذوق سوقها . وأما فقراء الصنفين الآخرين، فإنهم يستحقون من الفيء قياساً على الصنف الأول، لاشتراكهم في الفقر، إلا أنه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يشكُ أحد من الأنصار في تلك الواقعة فقراً، إلا سهلاً وأبا دجانة - كما تقدم - فأعطاهما صلى الله عليه وسلم . وأما في غيرها من الوقائع التي كثرت فيها المغانم، فقد كان حظهم منها ما هو معروف ومبين في آيات أخر، فإن التنزيل الكريم بيّن مقاسم الأموال لذويها في عدة آيات .

روى ابن جرير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ ﴾ [التوبة : 60] . حتى بلغ ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ثم قال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال : 41] الآية . ثم قال : هذه الآية لهؤلاء . ثم قرأ : ﴿ مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ [الحشر : 7] . حتى بلغ ﴿ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ [الحشر : 10] . ثم قال : استوعبت هذه الآية المسلمين عامة ، فليس أحد إلا له فيها حق . ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعي ، وهو بسرّ حمره ، نصيبه ، لم يعرق فيها جبينه .

﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ [11] ﴾

﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعني بني النضير المتقدم ذكرهم . وأخوّتهم معهم أخوّة دين واعتقاد ، أو أخوّة صداقة وموالاة لأنهم كانوا معهم سراً على المؤمنين ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ أي : من دياركم ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ ﴾ أي : في خذلانكم ﴿ أَحَداً أَبَداً ﴾ أي : من الرسول صلوات الله عليه ، والمؤمنين ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ أي : لنعاوننكم .

قال ابن جرير : ذكر أن الذين نافقوا عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، ووُديعة ومالك ابنا نوفل ، وسويد ، وداعس . بعثوا إلى بني النضير حين نزل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للحرب أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم ، وإنا معكم ، [إن] قوتلتم قاتلنا وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا لذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم ، إلا الحلقة ، كما تقدم ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك . كما قال :

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ [12]

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ﴾ أي : منهزمين ، ﴿ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ أي : بنوعٍ ما من أنواع النصر . والضمير للمنافقين أو اليهود .

﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [13]

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ أي : هم يرهبونكم أشد من رهبتهم من الله ، لاحتجابهم بالخلق عن الحق ، بسبب جهلهم بالله ، وعدم معرفتهم له ، إذ لو عرفوا لشعروا بعظمته وقدرته وعلمه ، ولم يستخْفوا بمعاصيه ، ويستَخِفوا بأوامره ، والضمير للمنافقين أو اليهود .

﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [14]

(304/757)

﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ أي : اليهود وإخوانهم ﴿ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ أي : بالحصون ، فلا يبرزون إلى البراز ﴿ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ ﴾ أي : من خلف حيطان ، لفرط رهبتهم منكم ، ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ قال الزمخشريّ : يعني أن البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة ، لأن الشجاع يجبن ، والعزيز يذلّ ، عند محاربة الله ورسوله . انتهى .

﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ أي : تظنهم مجتمعين لاتفاقهم في الظاهر ، والحال أن قلوبهم متفرقة ، لاختلاف مقاصدها ، وتجاذب دواعيها ، وتفرقها عن الحق بالباطل .

﴿ ذَلِكَ ﴾ قال المهايميّ : أي : الاجتماع في الظاهر ، مع افتراق البواطن ، ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾ أي : أنه يوجب جبنهم المفضي إلى الهلاك الكليّ . انتهى .

وفي هذه الآيات الثلاث تشجيع للمؤمنين على منازلتهم ، والحمل عليهم ، وتبشير لهم بأنهم المنصورون الغالبون .

﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [15]

﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : مثل هؤلاء اليهود من بني النضير ، فيما نزل بهم من العقوبة ، كمثل من نالهم جزاء بغيهم من قبلهم ، وهم كفار قريش في وقعة بدر ، أو بنو قينقاع . قال ابن كثير : والثاني أشبه بالصواب ، فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أجلاهم قبل هذا . انتهى .

(305/757)

قال قتادة : إن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد ، وكان من أمرهم أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها عن كشف وجهها ، فأبت . فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها ،

فضحكوا بها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهودياً ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع < فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه ، فأمرهم أن يخرجوا من المدينة ، ولا يجاوروه بها > ، فخرجوا إلى الشام . والتفصيل في السير .

وقال ابن جرير : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال : إن الله عز وجل مثل هؤلاء الكفار من أهل الكتاب ، مما هو مذيقهم من نكاله ، بالذين من قبلهم من مكذبي رسوله صلى الله عليه وسلم الذين أهلكهم بسخطه ، وأمر بني قينقاع ، ووقعة بدر ، كانا قبل جلاء بني النضير ، وكل أولئك قد ذاقوا وبال أمره ، ولم يخصص الله عز وجل منهم بعضاً في تمثيل هؤلاء بهم دون بعض . وكل ذائق وبال أمره ، فمن قربت مدته منهم قبلهم ، فهم ممثلون بهم فيما عنوا به من المثل . انتهى .

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ [16 – 17]

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي : مثل المنافقين في إغراء بني الضير على القتال ، ووعدهم النجدة أو الخروج معهم ، ومثل انخداع بني النضير بوعد أولئك الكاذب ، كمثل الشيطان ﴿ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ ﴾ أي : إذ غر إنساناً ووعده على اتباعه وكفره بالله ، النصرة عند الحاجة إليه ﴿ فَلَمَّا كَفَرَ ﴾ أي : بالله ، واتبعه وأطاعه ﴿ قَالَ ﴾ أي : مخافة أن يشركه في عذابه ، مسلماً له وخاذلاً ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ ﴾ أي : فلا أعينك ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : في نصرتك فلم ينفعه التبرؤ ، كما لم ينفع الأول وعده الإعانة ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ ﴾ أي : في حق الله تعالى ، وحق العباد . أي : وهكذا جزاء اليهود من بني النضير و المنافقين الذين وعدوهم النصرة . وكل كافر بالله ظالم لنفسه على كفره به إنهم في النار مخلدون .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [18]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ ﴾ أي : بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه .

قال المهايميّ : يعني أن مقتضى إيمانكم أن لا تأمنوا مكر الله ، فاتقوه أن يسلط عليكم الشيطان ليغويكم بالكفر ، ثم يتبرأ منكم .

﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أي : لما بعد الموت من الصالحات ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : فيجازيكم بحسبها .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [19]

(307/757)

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ قال ابن جرير : أي : لا تكونوا كالذين تركوا أداء حق الله الذي أوجبه عليهم ، فأنساهم حظوظ أنفسهم من الخيرات .

وقال القاشانيّ :

﴿ نَسُوا اللَّهَ ﴾ أي : بالاحتجاب بالشهوات الجسمانية ، والاشتغال باللذات النفسانية ﴿ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ حتى حسبوها البدن وتركيبه ومزاجه ، فذهلوا عن الجوهرة القدسية ، والفطرية النورية .

وقال ابن القيم في " دار السعادة " : تأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً ، وهو أن من نسي ربه ، أنساه ذاته ونفسه ، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه ، بل نسي ما به صلاحه وفلاحه ، في معاشه ومعاده ، فصار معطلاً ومهملاً ، بمنزلة الأنعام السائبة ، بل وربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه ، لبقائها على هداها الذي أعطاها إياه خالقها ، وأما هذا فخرج عن فطرته التي خلق عليها ، فنسي ربه ، فأنساه نفسه وصفاتها ، وما تكتمل به ، وتزكو به

، وتسعد به في معاشها ومعادها ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ [الكهف : 28] .

فغفل عن ذكر ربه ، فانفرط عليه أمره وقلبه ، فلا التفات له إلى مصالحه وكماله ، وما تزكو به نفسه وقلبه ، بل هو مشتت القلب مضيعه ، مفرط الأمر ، حيران لا يهتدي سبيلاً ، فالعلم بالله أصل كل علم ، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ، ومصالح دنياه وآخرته . والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها ، وما تزكو به وتفلح به ؛ فالعلم به سعادة العبد ، والجهل به أصل شقاوته . انتهى .

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي : الذين خرجوا عن الدين القيّم الذي هو فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وخانوا وغدروا ، ونبذوا عهد الله وراء ظهورهم فخسروا .

(308/757)

﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [20]

﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ وهم الناسون الغادرون ﴿ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ وهم المؤمنون المتقون الموفون بعهدهم .

﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ أي : بالنعيم المقيم .

تنبيهان :

الأول : قال الزمخشري : استدل أصحاب الشافعي رضي الله عنه بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر . انتهى

وردّ الاستدلال بذلك أحد أئمة الشافعية ، وهو برهان الدين في " تفضيل السلف على الخلف " بما مثاله :

احتج بهذه الآية بعض الشافعية في مسألة قتل المسلم بالذمي ، وهذا في غاية الضعف ، لأن أحدا لم يسوّ بينهما ، وإيجاب القصاص ليس بتسوية ، لأنه ما من متباينين في وجوه ، إلا وقد استويا في وجه أو وجوه ؛ فلا يكون إيجاب القود استواء كما لا يكون إيجاب الدية والكفارة استواء . فهذا الكلام من ضعف نظره في مورد الانتزاع من شواهد الفرقان . انتهى

الثاني : قال أبو السعود : لعل تقديم أصحاب النار في الذكر للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذي ينبئ عنه عدم الاستواء ، من جهتهم ، لا من جهة مقابليهم ؛ فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانا ، وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد ، لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص ، وعليه قوله تعالى :

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ [الرعد : 16] ، إلى غير ذلك من المواقع ، وأما قوله تعالى :

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 9] ، فلعل تقديم الفاضل فيه ، لأن صلته ملكة لصلة المفضول والأعدام مسبوقة بملكاتها . انتهى

(309/757)

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [21]

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ أي : الجامع للمواعظ ، الموجب للنظر والتقوى بكل حال ، ﴿ عَلَى جَبَلٍ ﴾ قال المهايمي : أي : بتفهيمه له ، وتكليفه بما فيه ، بعد إعطاء القوى المدركة والمحركة ، ﴿ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً ﴾ أي : متذللا لعظمة الله ﴿ مُّتَصَدِّعاً ﴾ أي : متشققا ﴿ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ أي : مع عظم مقداره ، وغاية صلابته ، وتناهي قساوته . قال القاشاني : أي : قلوبهم أقسى من الحجر في عدم التأثر والقبول ، إذ الكلام الإلهي بلغ من التأثير ما لا إمكان للزيادة وراءه ، حتى لو فرض إنزاله على جبل لتأثر منه بالخشوع والانصداع ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ أي : وتلك الأمور ، وإن كانت وهمية ، مفروضة ، فلا بدّ من اعتبارها وضربها للناس الذين نسوا صغر مقدارهم فتكبروا ، ولينهم فقست قلوبهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : ليعلموا أنه أولى بذلك الخشوع والتصدع

.

قال الزمخشري: الآية تمثيل كما مرّ في قوله:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ [الأحزاب: 72] وقد دل عليه قوله: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ والغرض توبيخ الْإِنْسَانُ على قسوة قلبه، وقلة تخشعه، عند تدبر القرآن، وتدبر قوارعه وزواجره.

ثم أشار تعالى إلى أنه كيف يترك الخشوع لذات الله وأسمائه، مع أنه:

(310/757)

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [22 - 24]

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي: المعبود الذي لا تنبغ العبادة والإلوهية إلا له ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي: ما غاب عن الحس وشوهد ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ أي: المنعم بالنعم العامة والخاصة. ومن كان مطلعاً على الأسرار يجب أن يخشع له ويخشى

منه ، لاسيما من حيث كونه منعماً ؛ إذ حق المنعم أن يخشع له ، ويخشى أن تسلب نعمه .

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ ﴾ أي : الغني المطلق ، الذي يحتاج إليه كل شيء ، المدبر للكل في ترتيب نظام لا أكمل منه ﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ أي : المنزه عما لا يليق بجلاله ، تنزها بليغاً ﴿ السَّلَامَ ﴾ أي : الذي يسلم خلقه من ظلمه أو المبرأ عن النقائص كالعجز ﴿ الْمُؤْمِنِ ﴾ أي : لأهل اليقين بإنزال السكينة ، ومن فزع الآخرة ﴿ الْمُهَيْمِنُ ﴾ أي : الرقيب على كل شيء باطلاعه واستيلائه وحفظه ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أي : القوي الذي يغلِب ولا يُغلب ﴿ الْجَبَّارُ ﴾ أي : الذي تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار في كل أحد ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، والذي لا يخرج أحد عن قبضته ، قاله الغزالي في "المقصد الأسنى"

.

وقال الإمام ابن القيم في " الكافية الشافية " :

~وكذلك الْجَبَّارُ من أوصافه والجبر في أوصافه قِسمانِ

~جبرُ الضعيف وكل قلب قد غدا ذا كسرة فالجبرُ منه داني

~والثانِ جبر القهر بالعز الذي لا ينبغي لسواه من إنسان

~وله مسمًّى ثالث وهو العلوّ فليس يدنو منه من إنسان

~من قولهم جبَّارة للنخلة ال عليا التي فاتَتْ بكل بَنَانِ

﴿ الْمُتَكَبِّرِ ﴾ أي : الذي يرى الكل حقيراً بالإضافة إلى ذاته ، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه ، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : من الأوثان والشفعاء .

﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ ﴾ أي : المقدّر للأشياء على مقتضى حكمته ﴿ الْبَارِئُ ﴾ أي : الموجد لها بعد العدم ﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ أي : الكائنات كما شاء .

﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ أي : الدالة على محاسن المعاني ، وأحاسن الممادح .

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي : في تدبيره خلقه . وصرفهم فيما فيه صلاحهم وسعادتهم .

تنبيهات :

الأول : قال السيد ابن المرتضى في " إيثار الحق " : مقام معرفة كمال الرب الكريم ، وما يجب له من نعوته وأسمائه الحسنى ، من تمام التوحيد الذي لا بد منه ؛ لأن كمال الذات بأسمائه الحسنى ، ونعوتها الشريفة ، ولا كمال لذات لا نعت لها ولا اسم ، ولذلك عُدَّ مذهب الملاحدة في مدح الرب بنفيها ، من أعظم مكايدهم للإسلام ، فإنهم عكسوا

المعلوم عقلاً وسمعاً فذموا الأمر المحمود ، ومدحوا الأمر المذموم ، القائم مقام النفي ، والجحد المحض ، وضادّوا كتاب الله ونصوصه الساطعة ، قال الله جل جلاله : ﴿ وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ ﴾ [الأعراف : 180] . وقال سبحانه وتعالى :

(312/757)

﴿ قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء : 110] . فما كان منها منصوصاً في كتاب الله وجب الإيمان به على الجميع ، والإنكار على من جحده ، أو زعم أن ظاهر اسم ذمّ لله سبحانه . وما كان في الحديث وجب الإيمان به على من عرف صحته . وما نزل عن هذه المرتبة ، أو كان مختلفاً في صحته ، لم يصح استعماله ، فإن الله أجل من أن يسمى باسم لم يتحقق أنه تسمَّى به .

ثم قال : وعادة بعض المحدثين أن يوردوا جميع ما ورد في الحديث المشهور في تعدادها ، مع الاختلاف الشهير في صحته . وحسبك أن البخاري ومسلماً تركا تخريجه مع رواية أوله . واتفاقهما على ذلك يشعر بقوة العلة فيه . ولكن الأكثرين اعتمدوا ذلك تعرضاً لفضل الله العظيم في وعده من أحصاها بالجنة ، كما اتفق على صحته . وليس يستيقن إحصاؤها

بذلك إلا لو يكن لله سبحانه اسم غير تلك الأسماء ، فأما إذا كانت أسماؤه سبحانه أكثر من أن تحصى ، بطل اليقين بذلك ، وكان الأحسن الاقتصار على ما في كتاب الله ، وما اتفق على صحته بعد ذلك ، وهو النادر ، وقد ثبت أن أسماء الله تعالى أكثر من ذلك المروي بالضرورة والنص .

ثم أطال رحمه الله في ذلك وأطاب . فليرجع إليه النَّهِمُ بالتحقيقات .

الثاني : قال الغزاليّ في " المقصد الأسنى " – وهو من أنفس ما ألف في معاني الأسماء الحسنى – : هل الصفات والأسامي المطلقة على الله تعالى تقف على التوقيف ، أو تجوز بطريق العقل ؟ والذي مال إليه القاضي أبو بكر الباقلاني أن ذلك جائز ، إلا ما منع منه الشرع ، أو أشعر بما يستحيل معناه على الله تعالى . فأما ما لا مانع فيه فإنه جائز . والذي ذهب إليه الشيخ أبو الحسن الأشعري ، رحمة الله عليه ، أن ذلك موقوف على التوقيف ، فلا يجوز أن يطلق في حق الله تعالى ، إلا إذا أذن فيه .

والمختار عندنا أن نفصل ونقول : كل ما يرجع إلى الاسم ، فذلك موقوف على الإذن ، وما يرجع إلى الوصف ، فذلك لا يقف على الإذن ، بل الصادق منه مباح دون الكاذب . ثم

جوّد رحمه الله البيان بما لا غاية بعده .

الثالث : قال السيد المرتضى في " إيثار الحق " : قد تكلم على معانيها جماعة من أهل العلم والتفسير ، وأكثرها واضح . والعصمة فيها عدم التشبيه ، واعتقاد أن المراد بها أكمل معانيها الكمال الذي لا يحيط بحقيقته إلا الله تعالى .

ثم قال : ولا بد من الإشارة هنا إلى أمر جمليّ ، وهو أصل عظيم ، وذلك تفسير الحسنى جملة : فاعلم أنها جمع الأحسن لا جمع الحسن ، وتحت هذا سر نفيس : وذلك أن الحسن من صفات الألفاظ ، ومن صفات المعاني ، فكل لفظ له معنيان : حسن وأحسن ، فالمراد الأحسن منهما حتى يصح جمعه حُسْنَى ، ولا يفسر بالحسن منهما إلا الأحسن بهذا الوجه . ثم بيّن مثال ذلك فانظره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 74 . 91 ﴾

(314/757)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الحشر

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

بهذه الحقيقة التي وقعت وكانت في الوجود . حقيقة تسبيح كل شيء في السماوات وكل

شيء في الأرض لله , واتجاهها إليه بالتنزيه والتمجيد . . تفتتح السورة التي تقص قصة إخراج الله للذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم , وإعطائها للمؤمنين به المسبحين بحمده الممجدين لأسمائه الحسنى . . (وهو العزيز الحكيم) . . القوي القادر على نصر أوليائه وسحق أعدائه . . الحكيم في تدبيره وتقديره .

الدرس الثاني:2 - 4 الدعوة للإعتبار مما حدث لبني النضير

ثم يقص نبأ الحادث الذي نزلت فيه السورة:

هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . ما ظننتم أن يخرجوا , وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ; فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا , وقذف في قلوبهم الرعب , يخربون بيتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين , فاعتبروا يا أولي الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا , ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله , ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب .

ومن هذه الآيات نعلم أن الله هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . والله هو فاعل كل شيء . ولكن صيغة التعبير تقرر هذه الحقيقة في صورة مباشرة , توقع في الحس أن الله تولى هذا الإخراج من غير ستار لقدرته من فعل البشر ! وساق المخرجين للأرض التي منها يحشرون , فلم تعد لهم عودة إلى الأرض التي أخرجوا منها .

ويؤكد فعل الله المباشر في إخراجهم وسوقهم بالفقرة التالية في الآية:

(ما ظننتم أن يخرجوا , وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) . .

فلا أنتم كنتم تتوقعون خروجهم ولا هم كانوا يسلمون في تصور وقوعه ! فقد كانوا من القوة والمنعة في حصونهم بحيث لا تتوقعون أنتم أن تخرجوهم منها كما أخرجوا . وبحيث غرتهم هذه المنعة حتى نسوا قوة الله التي لا تردها الحصون !

(فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا . وقذف في قلوبهم الرعب) .

أتاهم من داخل أنفسهم ! لا من داخل حصونهم ! أتاهم من قلوبهم فقذف فيها الرعب , ففتحوا حصونهم بأيديهم ! وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم , ولا يحكمون قلوبهم , ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم ! فضلا على أن يمتنعوا عليه ببنيانهم وحصونهم . وقد كانوا يحسبون حساب كل شيء إلا أن يأتيهم الهجوم من داخل كيانهم . فهم لم يحتسبوا هذه الجهة التي أتاهم الله منها . وهكذا حين يشاء الله أمرا . يأتي له من حيث يعلم ومن حيث يقدر , وهو يعلم كل شيء , وهو على كل شيء قدير . فلا حاجة إذن إلى سبب ولا إلى وسيلة , مما يعرفه الناس ويقدرونه . فالسبب حاضر دائما والوسيلة مهيأة

. والسبب والنتيجة من صنعه , والوسيلةو الغاية من خلقه ; ولن يمتنع عليه سبب ولا نتيجة , ولن يعز عليه وسيلة ولا غاية . . . وهو العزيز الحكيم . .

ولقد تحصن الذين كفروا من أهل الكتاب بحصونهم فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب . ولقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم فسلطهم الله على هذه الدور والبيوت يخربونها بأيديهم , ويمكنون المؤمنين من إخرابها :

(يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين) . .

وبهذا تتم حكاية ما وقع للذين كفروا من أهل الكتاب , في تلك الصورة الموحية , وهذه الحركة المصورة . . والله - سبحانه - يأتيهم من وراء الحصون فتسقط بفعلهم هم ; ثم يزيدون فيخربونها بأيديهم وأيدي المؤمنين .

هنا يجيء أول تعقيب في ظل هذه الصورة , وعلى إيقاع هذه الحركة:

(فاعتبروا يا أولي الأبصار) . .

وهو هتاف يجيء في مكانه وفي أوانه . والقلوب متهيئة للعظة متفتحة للاعتبار .

والآية التالية تقرر أن إرادة الله في النكاية بهم ما كانت لتعفيهم بأية حالة من نكال يصيبهم في الدنيا غير ما ينتظرهم في الآخرة:

(ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا , ولهم في الآخرة عذاب النار) . .

فهو أمر مقرر أن ينالهم النكال من الله . بهذه الصورة التي وقعت أو بصورة أخرى . ولولا أن اختار الله جلاءهم لعذبهم عذابا آخر . غير عذاب النار الذي ينتظرهم هناك . فقد استحقوا عذاب الله في صورة من صوره على كل حال !

(ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله . ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) . .

والمشاقة أن يأخذوا لهم شقا غير شق الله , وجانبا غير جانبه . وقد جعل الله جانبه هو جانب رسوله حين وصف علة استحقاقهم للعذاب في صدر الآية . فاكتفى في عجزها بمشاقة الله وحده فهي تشمل مشاقة الرسول وتتضمنها . ثم ليقف المشاقون في ناحية أمام الله - سبحانه - وهو موقف فيه تبجح قبيح , حين يقف المخاليق في وجه الخالق يشاقونه ! وموقف كذلك رعيب , وهذه المخاليق الضئيلة الهزيلة تتعرض لغضب الله وعقابه . وهو شديد العقاب .

وهكذا تستقر في القلوب حقيقة مصائر المشاقين لله في كل أرض وفي كل وقت . من خلال مصير الذين كفروا من أهل الكتاب , وما استحقوا به هذا العقاب .

ولا يفوتنا أن نلحظ تسمية القرآن ليهود بني النضير بأنهم (الذين كفروا من أهل

الكتاب) وتكرار هذه الصفة في السورة . فهي حقيقة لأنهم كفروا بدين الله في صورته العليا التي جاء بها محمد (صلى الله عليه وسلم) وقد كان اليهود ينتظرونها ويتوقعونها . وذكر هذه الصفة في الوقت نفسه يحمل بيانا بسبب التنكيل بهم ; كما أنه يعبئ شعور المسلمين تجاههم تعبئة روحية تطمئن لها قلوبهم فيما فعلوا معهم , وفيما حل بهم من نكال وعذاب على أيديهم . فذكر هذه الحقيقة هنا مقصود ملحوظ !

الدرس الثالث:5 إباحة الحرب الإقتصادية ضد العدو

(317/757)

ثم يطمئن المؤمنين على صواب ما أوقعوه بهؤلاء الذين كفروا وشاقوا الله ورسوله من تقطيع نخيلهم وتحريقه ,

مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (5)

أو تركه كذلك قائما , وبيان حكم الله فيه . وقد دخل نفوس بعض المسلمين شيء من هذا:

(ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله , وليخزي الفاسقين) . .

واللينة الجيدة من النخل , أو نوع جيد منه معروف للعرب إذ ذاك . وقد قطع المسلمون

بعض نخل اليهود , وأبقوا بعضه . فتحرجت صدورهم من الفعل ومن الترك . وكانوا منهيين قبل هذا الحادث وبعده عن مثل هذا الاتجاه في التخريب والتحريق . فاحتاج هذا الاستثناء إلى بيان خاص , يطمئن القلوب . فجاءهم هذا البيان يربط الفعل والترك بإذن الله . فهو الذي تولى بيده هذه الموقعة ; وأراد فيها ما أراد , وأنفذ فيها ما قدره , وكان كل ما وقع من هذا بإذنه . أراد به أن يخزي الفاسقين . وقطع النخيل يخزيهم بالحسرة على قطعه ; وتركه يخزيهم بالحسرة على فوته . وإرادة الله وراء هذا وذاك على السواء .

بذلك تستقر قلوب المؤمنين المتحرجة , وتشفى صدورهم مما حاك فيها , وتطمئن إلى أن الله هو الذي أراد وهو الذي فعل . والله فعال لما يريد . وما كانوا هم إلا أداة لإنفاذ ما يريد .

الدرس الرابع:6 - 10 توزيع الفيء وثلاث فئات للمجتمع الإسلامي المهاجرون والأنصار والخلف

فأما المقطع الثاني في السورة فيقرر حكم الفيء الذي أفاءه الله على رسوله في هذه الوقعة وفيما يماثلها , مما لم يتكلف فيه المسلمون غزوا ولا قتالا . . أي الوقائع التي تولتها يد الله جهرة ومباشرة وبدون ستار من الخلق كهذه الوقعة:

وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب . ولكن الله يسلط رسله على من يشاء , والله على كل شيء قدير . ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم . وما آتاكم الرسول فخذوه . وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله , إن الله شديد العقاب . للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم , يبتغون فضلا من الله ورضوانا , وينصرون الله ورسوله , أولئك هم الصادقون . والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم , ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا , ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . والذين جاءوا من بعدهم يقولون: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان , ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم . .

وهذه الآيات التي تبين حكم الله في هذا الفيء وأمثاله , تحوي في الوقت ذاته وصفا لأحوال الجماعة المسلمة في حينها ; كما تقرر طبيعة الأمة المسلمة على توالي العصور ,

وخصائصها المميزة التي تترابط بها وتتماسك على مدار الزمان , لا ينفصل فيها جيل عن جيل , ولا قوم عن قوم , ولا نفس عن نفس , في الزمن المتطاول بين أجيالها المتعاقبة في جميع بقاع الأرض . وهي حقيقة ضخمة كبيرة ينبغي الوقوف أمامها طويلا في تدبر عميق . .

(وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب , ولكن الله يسلط رسله على من يشاء , والله على كل شيء قدير) .

(319/757)

والإيجاف:الركض والإسراع . والركاب:الجمال . والآية تذكر المسلمين أن هذا الفيء الذي خلفه وراءهم بنو النضير لم يركضوا هم عليه خيلا , ولم يسرعوا إليه ركبا , فحكمه ليس حكم الغنيمة التي أعطاهم الله أربعة أخماسها , واستبقى خمسها فقط لله والرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل , كما حكم الله في غنائم بدر الكبرى . إنما حكم هذا الفيء أنه كله لله والرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . والرسول (صلى الله عليه وسلم) هو الذي يتصرف فيه كله في هذه الوجوه . وذو القربى المذكورون

وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6)

في الآيتين هم قرابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن كانت الصدقات لا تحل لهم , فليس لهم في الزكاة نصيب , وأن كان النبي لا يورث فليس لذوي قرابته من ماله شيء .

وفيهم الفقراء الذين لا مورد لهم . فجعل لهم من خمس الغنائم نصيبا , كما جعل لهم من هذا الفيء وأمثاله نصيبا . فأما بقية الطوائف والمصارف فأمرها معروف . والرسول (صلى الله عليه وسلم) هو المتصرف فيها .

هذا هو حكم الفيء تبينه الآيات . ولكنها لا تقتصر على الحكم وعلته القريبة . إنما تفتح القلوب على حقيقة أخرى كبيرة: (ولكن الله يسلط رسله على من يشاء) . . فهو قدر الله . وهم طرف من هذا القدر يسلطه على من يشاء . (والله على كل شيء قدير) . .

(320/757)

بهذا يتصل شأن الرسل بقدر الله المباشر ; ويتحدد مكانهم في دولاب القدر الدوار . ويتبين أنهم - ولو أنهم بشر - متصلون بإرادة الله ومشيئته اتصالا خاصا , يجعل لهم دورا معينا في تحقيق قدر الله في الأرض , بإذن الله وتقديره . فما يتحركون بهواهم , وما يأخذون أو يدعون لحسابهم . وما يغزون أو يقعدون , وما يخاصمون أو يصالحون , إلا لتحقيق جانب من قدر الله في الأرض منوط بهم وبتصرفاتهم وتحركاتهم في هذه الأرض . والله هو الفاعل من وراء ذلك كله . وهو على كل شيء قدير . .

(ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين

وابن السبيل . . كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم . وما آتاكم الرسول فخذوه . وما نهاكم عنه فانتهوا . واتقوا الله إن الله شديد العقاب) . .

وتبين هذه الآية الحكم الذي أسلفنا تفصيلا . ثم تعلل هذه القسمة فتضع قاعدة كبرى من قواعد التنظيم الإقتصادي والإجتماعي في المجتمع الإسلامي: (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) . . كما تضع قاعدة كبرى في التشريع الدستوري للمجتمع الإسلامي: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) . . ولو أن هاتين القاعدتين جاءتا بمناسبة هذا الفيء وتوزيعه , إلا أنهما تتجاوزان هذا الحادث الواقع إلى آماد كثيرة في أسس النظام الاجتماعي الإسلامي .

والقاعدة الأولى , قاعدة التنظيم الاقتصادي , تمثل جانبا كبيرا من أسس النظرية الاقتصادية في الإسلام . فالملكية الفردية معترف بها في هذا النظرية . ولكنها محددة بهذه القاعدة . قاعدة ألا يكون المال دولة بين الأغنياء , ممنوعا من التداول بين الفقراء . فكل وضع ينتهي إلى أن يكون المال دولة بين الإغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الإسلامية كما يخالف هدفا من أهداف التنظيم الاجتماعي كله . وجميع الارتباطات والمعاملات في المجتمع الإسلامي يجب أن تنظم بحيث لا تخلق مثل هذا الوضع أو تبقي عليه إن وجد .

ولقد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هذه القاعدة . ففرض الزكاة . وجعل حصيلتها في العام اثنين ونصفا في المئة من أصل رؤوس الأموال النقدية , وعشرة أو خمسة في المئة من جميع الحاصلات . وما يعادل ذلك في الأنعام . وجعل الحصيلة في الركاز وهو كنوز الأرض مثلها في المال النقدي . وهي نسب كبيرة . ثم جعل أربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين فقراء وأغنياء بينما جعل الفيء كله للفقراء . وجعل نظامه المختار في إيجار الأرض هو المزارعة – أي المشاركة في المحصول الناتج بين صاحب الأرض وزارعها .

وجعل للإمام

مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (7)

الحق في أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء . وأن يوظف في أموال الأغنياء عند خلو بيت المال . وحرم الاحتكار . وحظر الربا . وهما الوسيلتان الرئيسيتان لجعل المال دولة بين الأغنياء .

وعلى الجملة أقام نظامه الاقتصادي كله بحيث يحقق تلك القاعدة الكبرى التي تعد قيدا أصيلا على حق الملكية الفردية بجانب القيود الأخرى .

ومن ثم فالنظام الإسلامي نظام يبيح الملكية الفردية , ولكنه ليس هو النظام الرأسمالي , كما أن النظام الرأسمالي ليس منقولا عنه , فما يقوم النظام الرأسمالي إطلاقا بدون ربا وبدون احتكار , إنما هو نظام خاص من لدن حكيم خبير . نشأ وحده . وسار وحده , وبقي حتى اليوم وحده . نظاما فريدا متوازن الجوانب , متعادل الحقوق والواجبات , متناسقا تناسق الكون كله . مذ كان صدوره عن خالق الكون . والكون متناسق موزون !

(322/757)

فأما القاعدة الثانية - قاعدة تلقي الشريعة من مصدر واحد : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) . . فهي كذلك تمثل النظرية الدستورية الإسلامية . فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) قرآنا أو سنة . والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول . فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان , لأنه فقد السند الأول الذي يستمد منه السلطان . . وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية , بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات , بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ما تشاء , وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان . فمصدر السلطات في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول (صلى

الله عليه وسلم) والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها - والإمام نائب عن الأمة في هذا - وفي هذا تنحصر حقوق الأمة . فليس لها أن تخالف عما آتاها الرسول في أي تشريع .

فأما حين لا توجد نصوص فيما جاء به الرسول بخصوص أمر يعرض للأمة فسبيلها أن تشرع له بما لا يخالف أصلا من أصول ما جاء به الرسول . وهذا لا ينقض تلك النظرية , إنما هو فرع عنها . فالمرجع في أي تشريع هو أن يتبع ما جاء به الرسول إن كان هناك نص . وألا يخالف أصلا من أصوله فيما لا نص فيه . وتنحصر سلطة الأمة - والإمام النائب عنها - في هذه الحدود . وهو نظام فريد لا يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية . وهو نظام يربط التشريع للناس بناموس الكون كله . وينسق بين ناموس الكون الذي وضعه الله له والقانون الذي يحكم البشر وهو من الله . كي لا يصطدم قانون البشر بناموس الكون , فيشقى الإنسان أو يتحطم أو تذهب جهوده أدراج الرياح !

وتربط الآية هاتين القاعدتين في قلوب المؤمنين بمصدرهما الأول . . وهو الله . .

فتدعوهم إلى التقوى وتخوفهم عقاب الله: (واتقوا الله إن الله شديد العقاب) . . وهذا هو

الضمان الأكبر الذي لا احتيال عليه , ولا هروب منه . فقد علم المؤمنون أن الله مطلع على السرائر , خبير بالأعمال , وإليه المرجع والمآب . وعلموا أنه شديد العقاب . وعلموا أنهم مكلفون ألا يكون المال دولة بينهم , وأن يأخذوا ما آتاهم الرسول عن رضى وطاعة , وأن ينتهوا عما نهاهم عنه في غير ترخص ولا تساهل وأمامهم يوم عصيب . .

ولقد كان توزيع ذلك الفيء - فيء بني النضير - على المهاجرين وحدهم عدا رجلين من الأنصار إجراء خاصا بهذا الفيء , تحقيقا لقاعدة: (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) . . فأما الحكم العام , فهو أن

لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8) وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)

يكون للفقراء عامة . من المهاجرين ومن الأنصار وممن يأتي بعدهم من الأجيال . وهذا ما تضمنته الآيات التالية في السياق .

ولكن القرآن لا يذكر الأحكام جافة مجردة , إنما يوردها في جو حي يتجاوب فيه الأحياء . ومن ثم أحاط كل طائفة من هذه الطوائف الثلاث بصفاتها الواقعية الحية التي تصور طبيعتها وحقيقتها ; وتقرر الحكم حيا يتعامل مع هؤلاء الأحياء :

(للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا , وينصرون الله ورسوله , أولئك هم الصادقون) . .

(324/757)

وهي صورة صادقة تبرز فيها أهم الملامح المميزة للمهاجرين . . أخرجوا إخراجا من ديارهم وأموالهم . أكرههم على الخروج الأذى والاضطهاد والتنكر من قرابتهم وعشيرتهم في مكة . لا لذنب إلا أن يقولوا ربنا الله . . . وقد خرجوا تاركين ديارهم وأموالهم (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) اعتمادهم على الله في فضله ورضوانه . لا ملجأ لهم سواه , ولا جناب لهم إلا حماه . . وهم مع أنهم مطاردون قليلون (ينصرون الله ورسوله) . . بقلوبهم وسيوفهم في أحرج الساعات وأضيق الأوقات . (أولئك هم الصادقون) . . الذين قالوا كلمة الإيمان بألسنتهم , وصدقوها بعملهم . وكانوا صادقين مع الله في أنهم اختاروه . وصادقين مع رسوله في أنهم اتبعوه . وصادقين مع الحق في أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض ويراها الناس !

والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم , يحبون من هاجر إليهم , ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا , ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه

فأولئك هم المفلحون . .

وهذه كذلك صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار . هذه المجموعة التي تفردت بصفات , وبلغت إلى آفاق , لولا أنها وقعت بالفعل , لحسبها الناس أحلاما طائرة ورؤى مجنحة ومثلا عليا قد صاغها خيال محلق . .

والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم . . أي دار الهجرة . يثرب مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد تبوأها الأنصار قبل المهاجرين . كما تبوأوا فيها الإيمان . وكأنه منزل لهم ودار . وهو تعبير ذو ظلال . وهو أقرب ما يصور موقف الأنصار من الإيمان . لقد كان دارهم ونزلهم ووطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم , وتسكن إليه أرواحهم , ويثوبون إليه ويطمئنون له , كما يثوب المرء ويطمئن إلى الدار .

(يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا) . . ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثا جماعيا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين . بهذا الحب الكريم . وبهذا البذل السخي . وبهذه المشاركة الرضية . وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء . حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة . لأن عدد الراغبين في

الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين ! (ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا) . . مما يناله المهاجرون من مقام مفضل في بعض المواضع , ومن مال يختصون به كهذا الفيء , فلا يجدون في أنفسهم شيئا من هذا . ولا يقول:حسدا ولا ضيقا . إنما يقول:(شيئا) . مما يلقي ظلال النظافة الكاملة لصدورهم والبراءة المطلقة لقلوبهم , فلا تجد شيئا أصلا .

(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . . والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا . وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيرا . وكانوا كذلك في كل مرة وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديما وحديثا .

وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (10)

(ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . . فهذا الشح . شح النفس . هو المعوق عن كل خير . لأن الخير بذل في صورة من الصور . بذل في المال . وبذل في العاطفة . وبذل في الجهد . وبذل في الحياة عند الاقتضاء . وما يمكن أن يصنع الخير شحيح يهم دائما أن يأخذ ولا يهم مرة أن يعطي . ومن يوق شح نفسه , فقد وقي هذا المعوق عن الخير , فانطلق إليه معطيا باذلا كريما . وهذا هو الفلاح في حقيقة معناه .

والذين جاءوا من بعدهم , يقولون:ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان , ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم . .

(326/757)

وهذه الصورة الثالثة النظيفة الرضية الواعية . وهي تبرز أهم ملامح التابعين . كما تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق في جميع الأوطان والأزمان .

هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار - ولم يكونوا قد جاءوا بعد عند نزول الآية في المدينة , إنما كانوا قد جاءوا في علم الله وفي الحقيقة القائمة في هذا العلم المطلق من حدود الزمان والمكان - سمة نفوسهم أنها تتوجه إلى ربها في طلب المغفرة , لا لذاتها ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان ; وفي طلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا على وجه الإطلاق , ممن يربطهم معهم رباط الإيمان . مع الشعور برأفة الله , ورحمته , ودعائه بهذه الرحمة , وتلك الرأفة: (ربنا إنك رؤوف رحيم) . .

وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيئة في هذا الوجود . تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بآخرها , وآخرها بأولها , في تضامن وتكافل وتواد وتعاطف . وشعور بوشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان

والمكان والجنس والنسب ؛ وتتفرد وحدها في القلوب , تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة , فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة , كما يذكر أخاه الحي , أو أشد , في إعزاز وكرامة وحب . ويحسب السلف حساب الخلف . ويمضي الخلف على آثار السلف . صفا واحدا وكتيبة واحدة على مدار الزمان واختلاف الأوطان , تحت راية الله تغذ السير صعدا إلى الأفق الكريم , متطلعة إلى ربها الواحد الرؤوف الرحيم .

إنها صورة باهرة , تمثل حقيقة قائمة ؛ كما تمثل أرفع وأكرم مثال للبشرية يتصوره قلب كريم . صورة تبدو كرامتها ووضاءتها على أتمها حين تقرن مثلا إلى صورة الحقد الذميم والهدم اللئيم التي تمثلها وتبشر بها الشيوعية في إنجيل كارل ماركس . صورة الحقد الذي ينغل في الصدور , وينخر في الضمير , على الطبقات , وعلى أجيال البشرية السابقة , وعلى أممها الحاضرة التي لا تعتنق الحقد الطبقي الذميم . وعلى الإيمان والمؤمنين من كل أمة وكل دين ! صورتان لا التقاء بينهما في لمحة ولا سمة , ولا لمسة ولا ظل . صورة ترفع البشرية إلى أعلى مراقيها ؛ وصورة تهبط بها إلى أدنى دركاتها . صورة تمثل الأجيال من وراء الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة والنسب متضامنة مترابطة متكافلة متوادة متعارفة

صاعدة في طريقها إلى الله , بريئة الصدور من الغل , طاهرة القلوب من الحقد , وصورة تمثل البشرية أعداء متناحرين يلقي بعضهم بعضا بالحقد والدخل والدغل والغش والخداع والالتواء . حتى وهم في المعبد يقيمون الصلاة . فالصلاة ليست سوى أحبولة , والدين كله ليس إلا فخا ينصبه رأس المال للكادحين !

(ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان , ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم) . .

أَلَمْ تر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (12) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (13)

(328/757)

هذه هي قافلة الإيمان . وهذا هو دعاء الإيمان . وإنها لقافلة كريمة . وإنه لدعاء كريم .

الدرس الخامس: 11 - 17 الولاء بين المنافقين واليهود وإغواء الشيطان لاتباعه

وحين ينتهي السياق من رسم هذه الصورة الوضيئة , ورفعها على الأفق في إطار النور .

يعود إلى الحادث الذي نزلت فيه السورة , ليرسم صورة لفريق آخر ممن اشتركوا فيها . فريق المنافقين:

ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب:لئن أخرجتم لنخرجن معكم , ولا نطيع فيكم أحدا أبدا , وإن قوتلتم لننصرنكم , والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم , ولئن قوتلوا لا ينصرونهم , ولئن نصروهم ليولن الأدبار , ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله , ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر , بأسهم بينهم شديد , تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى , ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم , ولهم عذاب أليم . كمثل الشيطان إذ قال للإنسان:اكفر . فلما كفر قال:إني بريء منك , إني أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها , وذلك جزاء الظالمين ..

وهي حكاية لما قاله المنافقون ليهود بني النضير , ثم لم يفوا به , وخذلوهم فيه , حتى أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب . ولكن في كل جملة قرآنية لفتة تقرر حقيقة , وتمس قلبا , وتبعث انفعالا , وتقر مقوما من مقومات التربية والمعرفة والإيمان العميق .

وأول لفتة هي تقرير القرابة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب: (ألم تر إلى الذين

نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب) . فأهل الكتاب هؤلاء كفروا .

والمنافقون إخوانهم ولو أنهم يلبسون رداء الإسلام !

ثم هذا التوكيد الشديد في وعد المنافقين لإخوانهم: (لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا , وإن قوتلتم لننصرنكم) . .

والله الخبير بحقيقتهم يقرر غير ما يقررون , ويؤكد غير ما يؤكدون: (والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم , ولئن قوتلوا لا ينصرونهم , ولئن نصروهم ليولن الأدبار . ثم لا ينصرون) . .

وكان ما شهد به الله . وكذب ما أعلنوه لإخوانهم وقرروه !

ثم يقرر حقيقة قائمة في نفوس المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب:(لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله . ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) .

فهم يرهبون المؤمنين أشد مما يرهبون الله . ولو خافوا الله ما خافوا أحدا من عباده . فإنما هو خوف واحد ورهبة واحدة . ولا يجتمع في قلب خوف من الله وخوف من شيء سواه . فالعزة لله جميعا , وكل قوى الكون خاضعة لأمره , (ما من دابة إلا هو آخذ

بناصيتها) فمم يخاف إذن ذلك الذي يخاف الله ؟ ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة

يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله . . (ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) . .

وهكذا يكشف عن حقيقة القوم الواقعة . ويقرر في الوقت ذاته تلك الحقيقة المجردة .

ويمضي يقرر حالة قائمة في نفوس المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب , تنشأ من

حقيقتهم السابقة , ورهبتهم للمؤمنين أشد من رهبتهم لله .

(لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر . بأسهم بينهم شديد . تحسبهم

جميعا وقلوبهم

لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ

جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (14) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ

أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (15)

شتى . ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) . .

(330/757)

وما تزال الأيام تكشف حقيقة الإعجاز في "تشخيص" حالة المنافقين وأهل الكتاب حيثما

التقى المؤمنون بهم في أي زمان وفي أي مكان . بشكل واضح للعيان . ولقد شهدت

الاشتباكات الأخيرة في الأرض المقدسة بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصداق هذا الخبر بصورة عجيبة . فما كانوا يقاتلونهم إلا في المستعمرات المحصنة في أرض فلسطين . فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولوا الأدبار كالجرذان . حتى لكأن هذه الآية نزلت فيهم ابتداء . وسبحان العليم الخبير !

وتبقى الملامح النفسية الأخرى (بأسهم بينهم شديد) . . (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) على خلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم، وتجمعهم آصرة الإيمان من وراء فواصل الزمان والمكان، والجنس والوطن والعشيرة . . (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) . . والمظاهر قد تخدع فنرى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم، ونرى عصبيتهم بعضهم لبعض، كما نرى تجمع المنافقين أحيانا في معسكر واحد . ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك في حقيقتهم؛ إنما هو مظهر خارجي خادع . وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخداع . فيبدو من ورائه صدق الخبر في دنيا الواقع المنظور، وينكشف الحال عن نزاع في داخل المعسكر الواحد، قائم على اختلاف المصالح وتفرق الأهواء، وتصادم الاتجاهات . وما صدق المؤمنون مرة، وتجمعت قلوبهم على الله حقا إلا وانكشف المعسكر الآخر أمامهم عن هذه الاختلافات وهذا التضارب وهذا الرياء الذي لا يمثل حقيقة الحال . وما صبر المؤمنون وثبتوا إلا وشهدوا مظهر التماسك بين أهل

الباطل يتفسخ وينهار , وينكشف عن الخلاف الحاد والشقاق والكيد والدس في القلوب الشتيتة المتفرقة !

(331/757)

إنما ينال المنافقون والذين كفروا من أهل الكتاب . . من المسلمين . . عندما تتفرق قلوب المسلمين , فلا يعودون يمثلون حقيقة المؤمنين التي عرضتها الآية في المقطع السابق في هذه السورة . فأما في غير هذه الحالة فالمنافقون أضعف وأعجز , وهم والذين كفروا من أهل الكتاب متفرقو الأهواء والمصالح والقلوب (بأسهم بينهم شديد) . . (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) . .

والقرآن يقر هذه الحقيقة في قلوب المؤمنين , ليهون فيها من شأن أعدائهم ; ويرفع منها هيبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم . فهو إيحاء قائم على حقيقة ; وتعبئة روحية ترتكن إلى حق ثابت . ومتى أخذ المسلمون قرآنهم مأخذ الجد هان عليهم أمر عدوهم وعدو الله , وتجمعت قلوبهم في الصف الواحد , فلم تقف لهم قوة في الحياة .

والمؤمنون بالله ينبغي لهم أن يدركوا حقيقة حالهم وحال أعدائهم . فهذا نصف المعركة .

والقرآن يطلعهم على هذه الحقيقة في سياق وصفه لحادث وقع , وفي سياق التعقيب عليه ,

وشرح ما وراءه من حقائق ودلائل , شرحا يفيد منه الذين شهدوا ذلك الحادث بعينه , ويتدبره كل من جاء بعدهم , وأراد أن يعرف الحقيقة من العالم بالحقيقة !

ولم يكن حادث بني النضير هو الأول من نوعه , فقد سبقه حادث بني قينقاع الذي تشير إليه الآية بعد ذلك غالبا :

(كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم) . .

ووقعة بني قينقاع كانت بعد غزوة بدر وقبل غزوة أحد . وكان بينهم وبين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عهد . فلما انتصر المسلمون على المشركين في بدر كره اليهود ذلك , وحقدوا على المسلمين أن ينالوا هذا الانتصار

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ (17)

العظيم , وخافوا أن يؤثر هذا على موقفهم في المدينة فيضعف من مركزهم بقدر ما يقوي من مركز المسلمين . وبلغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما يتهامسون به وما يفكرون فيه من الشر , فذكرهم العهد وحذرهم مغبة هذ الاتجاه . فردوا ردا غليظا مغيظا فيه تهديد

. قالوا: يا محمد . إنك لترى أنا قومك ! لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس !

ثم أخذوا يتحرشون بالمسلمين ; وذكرت الروايات من هذا أن امرأة من العرب قدمت ببضاعة لها فباعتها بسوق بني قينقاع , وجلست إلى صائغ بها , فجعلوا يريدونها على كشف وجهها , فأبت , فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها , فلما قامت انكشفت سوأتها , فضحكوا بها , فصاحت . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله . وشدت يهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين . فغضب المسلمون , فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع .

وحاصرهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى نزلوا على حكمه . فقام رأس المنافقين عبدالله بن أبي ابن سلول يجادل رسول الله عنهم , باسم ما كان بينهم وبين الخزرج من عهد ! ولكن الحقيقة كانت هي هذه الصلة بين المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ! فرضي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في النهاية أن يجلوا عن المدينة , وأن يأخذوا معهم أموالهم ومتاعهم - إلا السلاح - ورحلوا إلى الشام .

فهذه هي الواقعة التي يشير إليها القرآن ويقيس عليها حال بني النضير وحقيقتهم . . وحال المنافقين مع هؤلاء وهؤلاء !

ويضرب للمنافقين الذين أغروا إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بالمقاومة , فانتهوا بهم

إلى تلك النهاية البائسة . يضرب لهم مثلا بحال دائمة . حال الشيطان مع الإنسان , الذي يستجيب لإغرائه فينتهي وإياه إلى شر مصير:

(333/757)

(كمثل الشيطان إذ قال للإنسان:اكفر . فلما كفر قال:إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها , وذلك جزاء الظالمين) . .

وصورة الشيطان هنا ودوره مع من يستجيب له من بني الإنسان , تتفقان مع طبيعته ومهمته . فأعجب العجب أن يستمع إليه الإنسان . وحاله هو هذا الحال !

وهي حقيقة دائمة ينتقل السياق القرآني إليها من تلك الواقعة العارضة . فيربط بين الحادث المفرد والحقيقة الكلية , في مجال حي من الواقع ; ولا ينعزل بالحقائق المجردة في الذهن . فالحقائق المجردة الباردة لا تؤثر في المشاعر , ولا تستجيش القلوب للاستجابة . وهذا فرق ما بين منهج القرآن في خطاب القلوب , ومنهج الفلاسفة والدارسين والباحثين !

وبهذا المثل الموحي تنتهي قصة بني النضير . وقد ضمت في ثناياها وفي أعقابها هذا الحشد من الصور والحقائق والتوجيهات . واتصلت أحداثها المحلية الواقعة بالحقائق الكبرى المجردة الدائمة . وكانت رحلة في عالم الواقع وفي عالم الضمير , تمتد إلى أبعد من

حدود الحادث ذاته , وتفترق روايتها في كتاب الله عن روايتها في كتب البشر بمقدار ما بين صنع الله وصنع البشر من فوارق لا تقاس ! !

الدرس السادس: 18 - 20 الدعوة إلى التقوى والتحذير من النسيان وعدم استواء أصحاب النار وأصحاب الجنة

وعند هذا الحد من رواية الحادث والتعقيب عليه وربطه بالحقائق البعيدة المدى يتجه الخطاب في السورة إلى المؤمنين , يهتف بهم باسم الإيمان , ويناديهم بالصفة التي تربطهم بصاحب الخطاب , وتيسر عليهم الاستجابة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20)

لتوجيهه وتكليفه . يتجه إليهم ليدعوهم إلى التقوى . والنظر فيما أعدوه للآخرة , واليقظة الدائمة , والحذر من نسيان الله كالذين نسوه من قبل , ممن رأوا مصير فريق منهم , وممن كتب عليهم أنهم من أصحاب النار :

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله , ولتنظر نفس ما قدمت لغد , واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون , ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم , أولئك هم الفاسقون . لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة . أصحاب الجنة هم الفائزون) . .

والتقوى حالة في القلب يشير إليها اللفظ بظلاله , ولكن العبارة لا تبلغ تصوير حقيقتها . حالة تجعل القلب يقظا حساسا شاعرا بالله في كل حالة . خائفا متحرجا مستحييا أن يطلع عليه الله في حالة يكرهها . وعين الله على كل قلب في كل لحظة . فمتى يأمن أن لا يراه ?!

(ولتنظر نفس ما قدمت لغد) . .

وهو تعبير كذلك ذو ظلال وإيحاءات أوسع من ألفاظه . . ومجرد خطوره على القلب يفتح أمامه صفحة أعماله بل صفحة حياته , ويمد ببصره في سطورها كلها يتأملها وينظر رصيد حسابه بمفرداته وتفصيلاته . لينظر ماذا قدم لغده في هذه الصفحة . . وهذا التأمل كفيل بأن يوقظه إلى مواضع ضعف ومواضع نقص ومواضع تقصير , مهما يكن قد أسلف من خير وبذل من جهد . فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلا , ونصيبه من البر ضئيلا ? إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبدا , ولا يكف عن النظر والتقليب !

ولا تنتهي الآية التي تثير كل هذه المشاعر حتى تلح على القلوب المؤمنة بمزيد من الإيقاع:

(واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) . .

فتزيد هذه القلوب حساسية ورهبة واستحياء . . والله خبير بما يعملون . .

وبمناسبة ما تدعوهم إليه هذه الآية من يقظة وتذكر يحذرهم في الآية التالية . من أن يكونوا (كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) . . وهي حالة عجيبة . ولكنها حقيقة . . فالذي ينسى الله يهيم في هذه الحياة بلا رابطة تشده إلى أفق أعلى , وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه عن السائمة التي ترعى . وفي هذا نسيان لإنسانيته . وهذه الحقيقة تضاف إليها أو تنشأ عنها حقيقة أخرى , وهي نسيان هذا المخلوق لنفسه فلا يدخر لها زادا للحياة الطويلة الباقية , ولا ينظر فيما قدم لها في الغداة من رصيد .

(أولئك هم الفاسقون) . . المنحرفون الخارجون .

وفي الآية التالية يقرر أن هؤلاء هم أصحاب النار , ويشير للمؤمنين ليسلكوا طريقا غير طريقهم وهم أصحاب الجنة . وطريق أصحاب الجنة غير طريق أصحاب النار:

(لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة . أصحاب الجنة هم الفائزون) . .

لا يستويان طبيعة وحالا , ولا طريقا ولا سلوكا , ولا وجهة ولا مصيرا . فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان أبدا في طريق . ولا يلتقيان أبدا في سمة . ولا يلتقيان أبدا في خطة . ولا يلتقيان أبدا في سياسة . ولا يلتقيان أبدا في صف واحد في دنيا ولا آخرة . .

(أصحاب الجنة هم الفائزون) . . يثبت مصيرهم ويدع مصير أصحاب النار مسكوتا عنه . معروفا . وكأنه ضائع لا يعنى به التعبير !

لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)

الدرس السابع: 21 أثر القرآن على النفوس

(336/757)

ثم يجيء الإيقاع الذي يتخلل القلب ويهزه ; وهو يعرض أثر القرآن في الصخر الجامد لو تنزل عليه: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

وهي صورة تمثل حقيقة . فإن لهذا القرآن لثقلا وسلطانا وأثرا مزلزلا لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته . ولقد وجد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ما وجد , عندما سمع قارئا يقرأ: والطور , وكتاب مسطور , في رق منشور , والبيت المعمور , والسقف المرفوع , والبحر المسجور , إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع . . . فارتكن إلى الجدار . ثم عاد إلى بيته يعوده الناس شهرا مما ألم به !

واللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني متفتحا لتلقي شيء من حقيقة القرآن يهتز فيها اهتزازا ويرتجف ارتجافا . ويقع فيه من التغيرات والتحولات ما يمثله في عالم المادة فعل المغنطيس والكهرباء بالأجسام . أو أشد .

والله خالق الجبال ومنزل القرآن يقول: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) . . والذين أحسوا شيئا من مس القرآن في كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة تذوقا لا يعبر عنه إلا هذا النص القرآني المشع الموحي .

(وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) . .

وهي خليقة بأن توقظ القلوب للتأمل والتفكير . .

الدرس الثامن:22 - 24 مجموعة من أسماء الله الحسنى وتسبيح الكون له

وأخيرا تجيء تلك التسبيحة المديدة بأسماء الله الحسنى ; وكأنما هي أثر من آثار القرآن في كيان الوجود كله , ينطلق بها لسانه وتتجاوب بها أرجاؤه ; وهذه الأسماء واضحة الآثار في صميم هذا الوجود وفي حركته وظواهره , فهو إذ يسبح بها يشهد كذلك بآثارها :

(هو الله الذي لا إله إلا هو , عالم الغيب والشهادة , هو الرحمن الرحيم) .

(هو الله الذي لا إله إلا هو , الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر . سبحان الله عما يشركون) .

(هو الله الخالق البارئ المصور , له الأسماء الحسنى , يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) .

إنها تسبيحة مديدة بهذه الصفات المجيدة . ذات ثلاثة مقاطع . يبدأ كل مقطع منها بصفة التوحيد: (هو الله الذي لا إله إلا هو) . . أو (هو الله) . .

ولكل اسم من هذه الأسماء الحسنى أثر في هذا الكون ملحوظ , وأثر في حياة البشر ملموس . فهي توحي إلى القلب بفاعلية هذه الأسماء والصفات . فاعلية ذات أثر وعلاقة بالناس والأحياء . وليست هي صفات سلبية أو منعزلة عن كيان هذا الوجود , وأحواله وظواهره المصاحبة لوجوده .

(هو الله الذي لا إله إلا هو) . . فتتقرر في الضمير وحدانية الاعتقاد , ووحدانية العبادة , ووحدانية الاتجاه , ووحدانية الفاعلية من مبدأ الخلق إلى منتهاه . ويقوم على هذه الوحدانية منهج كامل في التفكير والشعور والسلوك , وارتباطات الناس بالكون وبسائر الأحياء . وارتباطات الناس بعضهم ببعض على أساس وحدانية الإله .

(عالم الغيب والشهادة) . . فيستقر في الضمير الشعور بعلم الله للظاهر والمستور . ومن ثم تستيقظ مراقبة هذا الضمير لله في السر والعلانية ; ويعمل الإنسان كل ما يعمل بشعور المراقب من الله المراقب لله , الذي لا يعيش وحده , ولو كان في خلوة أو مناجاة ! ويتكيف

سلوكه بهذا الشعور الذي لا يغفل بعده قلب ولا ينام !

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23)

(338/757)

(هو الرحمن الرحيم) فيستقر في الضمير شعور الطمأنينة لرحمة الله والاسترواح . ويتعادل الخوف والرجاء , والفزع والطمأنينة . فالله في تصور المؤمن لا يطارد عباده ولكن يراقبهم . ولا يريد الشر بهم بل يحب الهدى , ولا يتركهم بلا عون وهم يصارعون الشرور والأهواء .

(هو الله الذي لا إله إلا هو) . . يعيدها في أول التسبيحة التالية , لأنها القاعدة التي تقوم عليها سائر الصفات . .

(الملك) . . فيستقر في الضمير أن لا ملك إلا الله الذي لا إله إلا هو . وإذا توحدت الملكية لم يبق للمملوكين إلا سيد واحد يتوجهون إليه , ولا يخدمون غيره . فالرجل لا يخدم سيدين في وقت واحد (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) . .

(القدوس) وهو اسم يشع القداسة المطلقة والطهارة المطلقة . ويلقي في ضمير المؤمن هذا الإشعاع الطهور , فينظف قلبه هو ويطهره , ليصبح صالحا لتلقي فيوض الملك القدوس , والتسبيح له والتقديس .

(السلام) . . وهو اسم كذلك يشيع السلام والأمن والطمأنينة في جنبات الوجود , وفي قلب المؤمن تجاه ربه . فهو آمن في جواره , سالم في كنفه . وحيال هذا الوجود وأهله من الأحياء والأشياء . ويؤوب القلب من هذا الاسم بالسلام والراحة والاطمئنان . وقد هدأت شرته وسكن بلباله وجنح إلى الموادعة والسلام .

(المؤمن) واهب الأمن وواهب الإيمان . ولفظ هذا الاسم يشعر القلب بقيمة الإيمان , حيث يلتقي فيه بالله , ويتصف منه بإحدى صفات الله . ويرتفع إذن إلى الملأ الأعلى بصفة الإيمان .

(المهيمن) . . وهذا بدء صفحة أخرى في تصور صفة الله - سبحانه - إذ كانت الصفات السابقة: (القدوس السلام المؤمن) صفات تتعلق مجردة بذات الله . فأما هذه فتتعلق بذات الله فاعلة في الكون والناس . توحي بالسلطان والرقابة .

وكذلك: (العزيز . الجبار . المتكبر) . . فهي صفات توحي بالقهر والغلبة والجبروت والاستعلاء . فلا عزيز إلا هو . ولا جبار إلا هو . ولا متكبر إلا هو . وما يشاركه أحد في صفاته هذه . وما يتصف بها سواه . فهو المتفرد بها بلا شريك .

ومن ثم يجيء ختام الآية: (سبحان الله عما يشركون) . .

ثم يبدأ المقطع الأخير في التسبيحة المديدة .

(هو الله) . . فهي الألوهية الواحدة . وليس غيره بإله .

(الخالق) . . (البارئ) . . والخلق: التصميم والتقدير . والبرء: التنفيذ والإخراج, فهما صفتان متصلتان والفارق بينهما لطيف دقيق . .

(المصور) . وهي كذلك صفة مرتبطة بالصفتين قبلها . ومعناها إعطاء الملامح المتميزة والسمات التي تمنح لكل شيء شخصيته الخاصة .

وتوالي هذه الصفات المترابطة اللطيفة الفروق, يستجيش القلب لمتابعة عملية الخلق والإنشاء والإيجاد والإخراج مرحلة مرحلة - حسب التصور الإنساني - فأما في عالم الحقيقة فليست هناك مراحل ولا خطوات . وما نعرفه عن مدلول هذه الصفات ليس هو حقيقتها المطلقة فهذه لا يعرفها إلا الله . إنما نحن ندرك شيئا من آثارها هو الذي نعرفها به في حدود طاقاتنا الصغيرة !

(له الأسماء الحسنى) . . الحسنى في ذاتها . بلا حاجة إلى استحسان من الخلق ولا

توقف على استحسانهم .

هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)

والحسنى التي توحي بالحسن للقلوب وتفيضه عليها . وهي الأسماء التي يتدبرها المؤمن ليصوغ نفسه وفق إيحائها واتجاهها , إذ يعلم أن الله يحب له أن يتصف بها . وأن يتدرج في مراقيه وهو يتطلع إليها .

وخاتمة هذه التسبيحة المديدة بهذه الأسماء الحسنى , والسبحة البعيدة مع مدلولاتها الموحية وفي فيوضها العجيبة , هي مشهد التسبيح لله يشيع في جنبات الوجود , وينبعث من كل موجود :

(340/757)

يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم . .

وهو مشهد يتوقعه القلب بعد ذكر تلك الأسماء ; ويشارك فيه مع الأشياء والأحياء . .

كما يتلاقى فيه المطلع والختام . في تناسق والتئام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3534.3521 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

تقدم للشيخ رحمه الله كلام على معنى التسبيح عند قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ والطير وكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : 79] .

وقال رحمه الله : التسبيح في اللغة الإبعاد عن السوء ، وفي اصطلاح الشرع تنزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله ، وساق رحمه الله النصوص في تسبيح المخلوقات جميعها .

وقال في آخر المبحث : والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ مؤكد لقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ والطير ﴾ والموجب لهذا التأكيد أن تسخير الجبال وتسبيحها أمر عجب خارق للعادة ، مظنة لأن يكذب به الكفرة الجهلة [من الجزء الرابع وذكر عند أول سورة الحديد زيادة لذلك] .

وفي مذكرة الدراسة مما أملاه رحمه الله في فصل الدراسة على أول سورة الجمعة : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ [الجمعة : 1]

قال : التسبيح التنزيه ، وما التي لغير العقلاء ، لتغلب غير العقلاء لكثرتهم ، وكان يمكن الأكتفاء بالإحالة على ما ذكره رحمه الله تعالى ، إلا أن الحاجة الآن تدعو إلى مزيد بيان بقدر المستطاع ، لتعلق المبحث بأمر بالغ الأهمية ، ونحن اليوم في عصر تغلب عليه العلمانية والمادية ، فنورد ما أمكن أملاً في زيادة الإيضاح .

إن أصل التسبح من مادة سبح ، والسباحة والتسبيح مشتركان في أصل المادة ، فبينهما اشتراك في أصل المعنى ، والسباحة في الماء ينجو بها صاحبها من الغرق ، وكذلك المسبح لله والمنزه له ينجو من الشرك ويحيا بالذكر والتمجيد لله تعالى .

وقد جاء الفعل هنا بصيغة الماضي : سبح لله كما جاء في أول سورة الحديد .

(342/757)

قال أبو حيان عندها : لما أمر الله تعالى الخلق بالتسبيح في آخر سورة الواقعة ، يعني في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ [الواقعة : 95 - 96] جاء في أول السورة التي تليها مباشرة بالفعل الماضي ، ليدل على أن التسبيح المأمور به قد فعله : والتزم به كل ما في السماوات والأرض اه .

ومعلوم أن الفعل قد جاء أيضاً بصيغة المضارع كما في آخر هذه السورة : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا

فِي السماوات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ [الحشر : 24] ، وفي أول سورة الجمعة : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ [الجمعة : 1] ، وفي أول سورة التغابن : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض لَهُ الملك وَلَهُ الحمد وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن : 1] ، وهذه الصيغة تدل على الدوام والاستمرار .

بل جاء الفعل بصيغة الأمر : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] ، ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ [الواقعة : 74] . وجاءت المادة بالمصدر : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [الإسراء : 1] ، ﴿ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم : 17] ، ليدل ذلك كله بدوام واستمرار التسبيح لله تعالى من جميع خلقه ، كما سبح سبحانه نفسه ، وسبحته ملائكته ورسله ، على ما سيأتي إن شاء الله تعالى بيانه .

وما في قوله تعالى : ﴿ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ من صيغ العموم ، وأصل استعماله لغير العقلاء ، وقد تستعمل للعاقل إذا نزل غير العاقل ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي اليتامى فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء ﴾ [النساء : 3] ، ومجيؤها هنا لغير العاقل تغليباً له لكثرته كما تقدم ، فتكون شاملة للعاقل من باب أولى .

ومما يلفت النظر أن التسبيح الذي في معرض العموم كله في القرآن مسند إلى " ما " دون " من " إلا في مع واحد ، هو قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء : 44] ، وهذا شاهد على شمول " ما " وعمومها المتقدم ذكرها ، لأنه سبحانه أسند التسبيح أولاً إلى السماوات السبع والأرض صراحة بذواتهن ، وهن من غير العقلاء بما في كل منهن من أفلاك وكواكب وبروج ، أو جبال ووهاد وفجاج ، ثم عطف على غير العقلاء بصيغة " من " الخاصة بالعقلاء فقال : ﴿ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ ، وإن كان " من " ، قد تستعمل لغير العقلاء إذا نزلن منزلة العقلاء كما في قول الشاعر :

أسرب القطا هل من يعير جناحه ؟ . . . لعلي إلى من قد هويت أطير

وبهذا شمل إسناد التسبيح لكل شيء في نطاق السماوات والأرض ، عاقل وغير عاقل .

وقد أكد هذا الشمول بصريح قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] ، وكلمة " شيء " أعم العمومات ، كما في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : 62] ، فشملت السماوات والأرض والملائكة والإنس والجن والطير والحيوان والنبات والشجر والمدر ، وكل مخلوق لله تعالى .

وقد جاء في القرآن الكريم ، والسنة المطهرة إثبات التسبيح من كل ذلك كل على حدة .

أولاً : تسبيح الله تعالى نفسه : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [الإسراء : 1] ، ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الحمد فِي السماوات والأرض وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم : 17 - 18] ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ الله رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : 22] ثانياً : تسبحي الملائكة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً قالوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدمآء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : 30] وقوله : ﴿ وَتَرَى الملائكة حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [الزمر : 75] . و ﴿ يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : 20] .

ثالثاً : تسبيح الرعد : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ ﴾ [الرعد : 13] .

رابعاً : تسبيح السماوات السبع والأرض ، ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض ﴾ [الإسراء : 44] .

خامساً : تسبيح الجبال : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعشي والإشراق ﴾ [ص : 18] .

سادساً : تسبيح الطير : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ والطير ﴾ [الأنبياء : 79] .

سابعاً : تسبيح الإنسان : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ الساجدين ﴾ [الحجر : 98] ، ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ [الواقعة : 74] ، ﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ مِنَ المحراب فأوحى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [مريم : 11] .

فهذا إسناد التسبيح صراحة لكل هذه العوالم مفصلة ومبينة واضحة .

(345/757)

وجاء مثل التسبيح ، ونظيره وهو السجود مسنداً لعوالم أخرى وهي بقية ما في هذا الكون من أجناس وأصناف في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ [الحج : 18] .

ويلاحظ هنا أنه تعالى أسند السجود أولاً لمن في السماوات ومن في الأرض و " من " هي للعقلاء ، أي الملائكة والإنس والجن ، ثم عطف على العقلاء غير العقلاء بأسمائهن من الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، فهذا شمول لم يبق كائن من الكائنات

ولا ذرة في فلاة إلا شمله .

وبعد بيان هذا الشمول والعموم ، يأتي مبحث العام الباقي على عمومه ، والعام المخصوص ، وهل عموم " ما " هنا باق على عمومه أم دخله تخصيص ؟

قال جماعة من العلماء منهم ابن عباس ، إن العموم باق على عمومه ، وإن لفظ التسبيح محمول على حقيقته في التنزيه والتحميد .

وقال قوم : إن العموم باق على عمومه لم يدخله خصوص ، ولكن التسبيح يختلف ، ولكل تسبيح بحسبه ، فمن العقلاء بالذكر والتحميد والتمجيد كالإنسان والملائكة والجن ، ومن غير العاقل سواء الحيوان والطير والنبات والجماد ، فيكون بالدلالة بأن يشهد على نفسه ، ويدل على أن الله تعالى خالق قادر .

وقال قوم : قد دخله التخصيص .

ونقل القرطبي عن عكرمة ، قال : الشجرة تسبح والأسطوان لا يسبح . وقال يزيد الرقاشي للحسن وهما في طعام وقد قدم الخوان : أيسبح هذا الخوان يا أبا سعيد ؟ فقال : قد كان يسبح مرة . ويريد أن التسبيح من الحي أو النامي سواء الحيوان أو النبات وما عداه فلا .

وقال القرطبي : ويستدل لهذا القول من السنة بما ثبت عن أبي عباس رضي الله عنهما من وضع الجريد الأخضر على القبرن وقوله صلى الله عليه وسلم فيه : " لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا " أي بسبب تسبيحهما ، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما اه .

ولاصحيح من هذا كله الأول الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وهو الذي يشهد له القرآن الكريم لعدة أمور :

أولاً : لصريح قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] .

ثانياً : أن الحامل لهم على القول بتسبيح الدلالة ، هو تحكيم الحس والعقل ، حينما لم يشاهدوا ذلك ولم تتصوره العقول ، ولكن الله تعالى نفى تحكيم العقل الحسي هنا ، وخطر على العقل بقوله تعالى : ﴿ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] .

ثالثاً : قوله تعالى في حق نبي الله داود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ [الأنبياء : 79] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [ص : 18] ، فلو كان تسبيحها معه تسبيح دلالة كما يقولون ، لما كان لداود عليه السلام خصوصية على غيره .

رابعاً : أخبر الله تعالى أن لهذه العوالم كلها إدراكاً تاماً كإدراك الإنسان أو أشد منه ، قال تعالى عن السماوات والأرض والجبال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] ، فأثبت تعالى لهذه العوالم إدراكاً وإشفاقاً من تحمل الأمانة ، بينما سجل على الإنسان ظلماً وجهالة في تحمله إياها ، ولم يكن هذا العرض مجرد تسخير ، ولا هذا الإباء مجرد سلبية ، بل عن إدراك تام ، كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] ، فهما طائعين لله ، وهما يأبين أن يحملن الأمانة إشفاقاً منها .

وفي أواخر هذه السورة الكريمة سورة الحشر ، وقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرآن على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [الحشر : 21] ومثله قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّن بَعْدِ ذلك فَهِيَ كالحجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المآء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [البقرة : 74] وهذا هو عين الإدراك أشد من إدراك الإنسان .

وفي الحديث : ﴿ لا يسمع صوت المؤذن من حجر ولا مدر ولا شجر إلا شهد له يوم القيامة

﴿ فبم سيشهد إن لم يك مدركاً الأذان والمؤذن .

وعن إدراك الطير ، قال تعالى عن الهدهد يخاطب نبي الله سليمان : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدتُّ امرأة تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : 22 – 24] .

ففي هذا السياق عشر قضايا يدركها الهدهد ويفصح عنها لنبي الله سليمان .

الأولى : إدراكه أنه أحاط بما لم يكن في علم سليمان .

الثانية : معرفته لسبإ بعينها دون غيرها ن ومجيؤه منها بنبأ يقين لا شك فيه .

الثالثة : معرفته لتولية المرأة عليهم مع إنكاره ذلك عليهم .

الرابعة : إدراكه ما أوتيته سبأ من متاع الدنيا من كل شيء .

الخامسة : أن لها عرشاً عظيماً .

السادسة : إدراكه ما هم عليه من السجود للشمس من دون الله .

السابعة : إدراكه أن هذا شرك بالله تعالى .

الثامنة : أن هذا من تزيين الشيطان لهم أعمالهم .

التاسعة : أن هذا ضلال عن السبيل القويم .

العاشرة : أنهم لا يهتدون .

وقد اقتنع سليمان بإدراك الهدهد لهذا كله فقال له : ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ﴾ [النمل : 27] .

وسلمه رسالة ، وبعثه سفيراً إلى بلقيس وقومها : ﴿ اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل : 28] وكانت سفارة موفقة جاءت بهم مسلمين في قوله تعالى عنها : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [النمل : 44] .

وكذلك ما جاء عن النملة في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَآ أَتَوْا على وَادِي النمل قَالَتْ نَمْلَةٌ يا أيها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : 18] فقد أدركت مجيء الجيش ، وأنه لسليمان وجنوده وأدركت كثرتهم ، وأن عليها وعلى النمل أن يتجنبوا الطريق . ويدخلوا مساكنهم ، وهذا الإدراك منها جعل سليمان عليه السلام يتبسم ضاحكاً من قولها . وأن لها قولاً علمه سليمان عليه السلام .

فقد جاء في اسنة إثبات إدراك الحيوانات للمغيبات فضلاً عن المشاهدات ، كام في حديث الموطأ في فصل يوم الجمعة : " وإن فيه خلق آدم ، وفيه أسكن الجنة " إلى قوله صلى الله عليه وسلم " وفيه تقوم الساعة ، وما من دابة في الأرض إلى وهي تصيح بأذنها من فجر يوم

الجمعة حتى طلوع الشمس إشفاقاً من الساعة إلا الجن والإنس " ، فهذا إدراك وإشفاق من الحيوان ، وإيمان بالمغيب ، وهو قيام الساعة وإشفاق من الساعة أشد من الإنسان .

وقصة الجمل الذي ندّ على أهله وخضع له صلى الله عليه وسلم حتى قال الصديق : لكأنه يعلم إنك رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : " نعم إنه ما بين لابتيها إلا وهو يعلم أني رسول الله "

فهذا كله يثبت إدراكاً للحيوان بالمحسوس وبالغيب إدراكاً لا يقل عن إدراك الإنسان ، فما المانع من إثبات تسبيحها حقيقة على ما يعلمه الله تعالى منها ؟ وقد جاء النص صريحاً في التسبح المثبت لها في أنه تسبيح تحميد لا مطلق دلالة كما في قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ ﴾ [الرعد : 13] ، وقرنه مع تسبيح الملائكة ، ﴿ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ [الرعد : 13] وهذا نص في محل النزاع ، وإثبات لنوع التسبيح المطلوب .

خامساً : لقد شهد المسلمون منطق الجماد بالتسبيح وسمعوه بالتحميد حساً كتسبيح الحصا في كفه صلى الله عليه وسلم ، وكحنيي الجذع للنبي صلى الله عليه وسلم حتى سمعه كل من في المسجد ، وما أخبر به صلى الله عليه وسلم : " إني لأعلم حجراً في مكة

ما مررت عليه إلا وسلم علي " ، وما ثبت بفرد يثبت لبقية أفراد جنسه ، كما هو معلوم في قاعدة الواحد بالجنس والواحد بالنوع.

ومن هذا القبيل في أعظم من ذلك ما رواه البخاري في كتاب المناقب عن أنس رضي الله عنه أن النَّبي صلى الله عليه وسلم صعد أُحداً وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال : " أثبت أُحد فإن عليك نبياً وصديقاً وشهيدين "

وفي موطأ مالك : لما رجع صلى الله عليه وسلم من سفر طلع عليهم أُحد فقال " هذا جبل يحبنا ونحبه "

فهذا جبل من كبار جبال المدينة يرتجف لصعود النَّبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان ، فيخاطبه صلى الله عليه وسلم خطاب العاقل المدرك : " أثبت أُحد فإن عليك نبياً وصديقاً وشهيدين " ، فيعرف النَّبي ويعرف الصديق والشهيد فيثبت ، فبأي قانون كان ارتجافه ؟ وبأي معقول كان خطابه ؟ وبأي معنى كان ثبوته ؟ ثم ها هو يثبت له صلى الله عليه وسلم المحبة المتبادرة بقوله : يحبنا ونحبه.

وإذا ناقشنا أقوال القائلين بتخصيص هذا العموم من إثبات التسبيح للجمادات ونحوها ، لما وجدنا لهم وجهة نظر إلا أن الحس لم يشهد شيئاً من ذلك ، وقد أوردنا الأمثلة على إثبات ذلك لسائر الأجناس ، وتقدم تنبيه الشيخ على تأكيد ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : 79] رداً على استبعاده .

ومن الأدلة القرآنية في هذا المقام ، ما جاء في سياق قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] ، جاء بعدها قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ [الإسراء : 45] وهذا نص يكذب المستدلين باحس . لأن الله تعالى أخبر بأنه جعل بين الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك الحالة ، وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً يحجبه عنهم ، وهذا الحجاب مستور عن أعينهم فلا يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه محجوب عنهم ، ولا يرون الحجاب لأنه مستور ، وهذا هو الصحيح في هذه الآية .

وقد قال فيها بعض البلاغيين . إن مستوراً هنا بمعنى ساتراً ويقال لهم : إن جعل مستوراً بمعنى ساتر تكرار لمعنى حجاب ، لأن قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ

بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ [الإسراء : 45] هو بمعنى ساتر ، أي يستره عن الذين لا يؤمنون بالآخرة وليس في ذلك زيادة معنى ، ولا كبير معجزة ، ولكن الإعجاز في كون الحجاب مستوراً عن أعينهم ، وفي هذا تحقيق وجود المعنيين ، وهما حجبه صلى الله عليه وسلم عنهم ، وستر الحجاب عن أعينهم ، وهذا أبلغ في حفظه صلى الله عليه وسلم منهم ، لأنه لو كان الحجاب مرئياً أي ساتراً فقط مع كونه مرئياً لربما اقتحموه عليه ، وأقوى في الإعجاز ، لأنه لو كان الحجاب مرئياً لكان كاحتجاب غيره من سائر الناس . ولكن حقيقة الإعجاز فيه هو كونه مستوراً عن أعينهم ، وهذا ما رجحه ابن جرير .

وقد جاءت قصة امرأة أبي لهب مفصلة هذا الذي ذكرناه كما ساقها ابن كثير قال : لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة تبت يدا أبي لهب وتب إلى قوله : ﴿ وامرأته حَمَّالَةَ الحطب فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد : 4 - 5] جاءت امرأة أبي لهب وفي يدها فهر ، ولها ولولة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس مع أبي بكر رضي الله عنه عند الكعبة فقال له : إني أخاف عليك أن تؤذيك ، فقال صلى الله عليه وسلم : ﴿ إن الله تعالى عاصمني منها ﴾ ، وتلا قرآناً ، فجاءت ووقفت على أبي بكر وقالت : إن صاحبك هجاني . قال : لا ورب هذه البنية إنه ليس بشاعر ولا هاج ، فقالت : إنك مصدق وانصرفت . أي ولم تره وهو جالس مع أبي بكر رضي الله عنه .

فهل يقال بعدم وجود الحجاب لأنه مستور لم يشاهد ، أم أننا نثبته كما أخبر تعالى وهو القادر على كل شيء ؟ وعليه وبعد إثباته نقول : ما الفرق بين إثبات حقيقة قوله تعالى هنا : ﴿ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ [الإسراء : 45] ، وقوله تعالى : ﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] ؟ ففي كلا المقامين إثبات أمر لا ندركه بالحس ، فالتسبح لا نفقهه ، الحجاب لا نبصره .

وقد أوردنا هذه النماذج ، ولو مع بعض التكرار ، لما يوجد من تأثر البعث بدعوى الماديين أو العلمانيين ، الذين لا يثبتون إلا المحسوس ، لتعطي القرائ زيادة إيضاح ، ويعلم أن المؤمن بإيمانه يقف على علم ما لم يعلمه غيره ، ويتسع أفقه إلى ما وراء المحسوس ، ويعلم أن وراء حدود المادة عوالم يقصر العقل عن معالمها ، ولكن المؤمن يثبتها .

وقد رسم لنا النّبي صلى الله عليه وسلم الطريق الصحيح في مثل هذات المقام من إثبات وإيمان ، كما في صحيح البخاري أن النّبي صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح ، ثم أقبل على الناس فقال : " بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها " فقالت : إنا لم نخلق لهذا ، وإنما خلقنا للحرث ، فقال الناس سبحان الله بقرة تتكلم ؟ فقال : " فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثَمَّ " ، وبينما رجل في غنمه ، إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة . فطلب حتى كأنه استنقذها منه ، فقال له الذئب : هذا : استنقذتها مني ، فمن لها يوم

السبع يوم لا راعي لها غيري فقال الناس : سبحان الله ذئب يتكلم ، قال " فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر ، وما هما ثم "

(353/757)

ففي هذا النص الصريح نطق البقرة ونطق الذئب بكلام معقول من خصائص العقلاء على غير العادة ، مما استعجب له الناس وسبحوا الله إعظاماً لما سمعوا ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يدفع هذا الاستعجاب بإعلان إيمانه وتصديقه ، ويضم معه أبا بكر وعمر ، وإن كانا غائبين عن المجلس ، لعلمه منهما أنهما لا ينكران ما ثبت بالسند الصحيح لمجرد استبعاده عقلاً .

وهنا يقال لمنكري التسبيح حقيقة وما المانع من ذلك ؟ أهو متعلق القدرة أم استعباد العقل لعدم الإدراك الحسي ؟

فأما الأول . فممنوع ، لأن الله تعالى على كل شيء قدير . وقد أخرج لقوم صالح ناقة عشراء من جوف الصخرة الصماء ، وأنطق الحصا في كفه صلى الله عليه وسلم .

وأما الثاني : فلا سبي إليه حتى ينتظر إدراكه وتحكيم العقل فيهن فإن الله تعالى قال : ﴿ ولكن لَّا تفقهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] .

فلم يبق إلا الإيمان أشبه ما يكون بالمغيبات . وإيمان تصديق وإثبات لا تكييف وإدراك وخالق الكائنات أعلم بحالها وبما خلقها عليه .

فيجب أن نؤمن بتسبيح كل ما في السماوات والأض ، وإن كان مستغرباً عقلاً ، ولكن أخبر به خاقه سبحانه ، وشاهدنا المثال مسموعاً من بعض أفراده .

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (2)

﴿ هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن دِيَارِهِمْ ﴾ .

أجمع المفسرون أنها في بني النضير ، لا قولاً للحسن أنها في بني قريظة ، ورد هذا القول بأن بني قريظة لم يخرجوا ولم يجلوا ولكن قتلوا .

وقد سميت هذه السورة بسورة بني النضير ، حكاه القرطبي عن ابن عباس .

قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس سورة الحشر قال : قل سورة النضير ، وهم رهط من اليهود من ذرية هارون عليه السلام نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل ، انتظاراً لمحمد صلى

الله عليه وسلم .

واتفق المفسرون على أن بني النضير كانوا قد صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه ولا له ، فلام ظهر يوم بدر قالوا : هو النَّبي الذي نعته في التوراة ، لا ترد له راية ، فلما هزم المسلمون يوم أُحد ارتابوا ونكثوا . فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة ، فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة ، فأخبر جبريل الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ، فأمر بقتل كعب ، فقتله محمد بن مسلمة غيلة ، وكان أخاه من الرضاعة . وكان النَّبي صلى الله عليه وسلم قد اطلع منهم على خيانة ، حين أتاهم في دية المسلمين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري منصرفه من بئر معونة ، فهموا بطرح الحجر عليه صلى الله عليه وسلم ، فعصمه الله تعالى .

ولما قتل كعب ، أمر صلى الله عليه وسلم بالمسيرة إليهم ، وطالبهم بالخروج من المدينة ، فاستمهلوه عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، ولكن أرسل إليهم عبد الله بن أبي سراً : لا تخرجوا من الحصن ، ووعدهم بنصرهم بألفي مقاتل من قومه ، ومساعدة بني قريظة وحلفائهم من غطفان ، أو الخروج معهم ، فدربوا أنفسهم ، وامتنعوا بالتحصينات الداخلية . فحاصرهم صلى الله عليه وسلم إحدى وعشرين ليلة .

وقيل : أجمعوا على الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : اخرج في ثلاثين من أصحابك ، ويخرج إليك ثلاثون منا ليسمعوا منك ، فإن صدقوا آمناً كلنا ، ففعل . فقالوا : كيف نفهم . ونحن ستون ؟ أخرج في ثلاثة ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا ، ففعلوا فاشتملوا على الخناجر ، وأرادوا الفتك فأرسلت امرأة منهم ناصحة إلى أخيها ، وكان مسلماً فأخبرته بما أرادوا ، فأسرع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فساره بخبرهم قبل أن يصل صلى الله عليه وسلم إليهم ، فلما كان من الغد غدا عليهم بالكتائب فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة ، فقذف الله في قلوبهم الرعب ، وأيسوا من نصر المنافقين الذي وعدهم به ابن أبي ، فطلبوا الصلح فأبى عليهم صلى الله عليه سولم إلا الجلاء ، على أن يحمل كل أهل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من المتاع إلا الحلقة ، فكانوا يحملون كل ما استطاعوا ولو أبواب المنازل ، يخربون بيوتهم ويحملون ما وقد أوردنا مجمل هذه القصة في سبب نزول هذه السورة لأن عليها تدور معاني هذه السورة كلها ، وكما قال الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله في رسالة أصول التفسير : إن معرفة السبب تعين على معرفة التفسير (وليعلم المسلمون مدى ما جبل عليه اليهود من غدر وما سلكوا من أساليب المراوغة فما أشبه الليلة بالبارحة) .

والذي من منهج الشيخ رحمه الله في الأضواء قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ ﴾ حيث أسند إخراجهم إلى الله تعالى مع وجود حصار المسلمين إياهم.

(356/757)

وقد تقدم للشيخ رحمه الله نظيره عند قوله تعالى: ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً ﴾ [الأحزاب: 25]، قال رحمه الله تعالى عندها: ذكر جل وعلا أنه ﴿ رد الذين كفروا بغيظهم ﴾ الآية، ولم يبين السبب الذي ردهم به. ولكنه جل وعلا بين ذلك بقوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [الأحزاب: 9] اهـ.

وهنا أيضاً في هذه الآية أسند إخراجهم إليه تعالى مع حصار المسلمين إياهم، وقد بين تعالى السبب الحقيقي لإخراجهم في قوله تعالى: ﴿ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ [الحشر: 2]، وهذا من أهم أسباب إخراجهم، لأنهم في موقف القوة وراء الحصون، لم يتوقع المؤمنون خروجهم، وظنوا هم أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقد كان هذا الإخراج من الله إياهم بوعد سابق من الله لرسوله في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: 137].

وبهذا الإخراج تحقق كفاية الله لرسوله صلى الله عليه وسلم منهم ، فقد كفاها إياهم بإخراجهم من ديارهم ، فكان إخراجهم حقاً من الله تعالى : وبوعد مسبق من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد أكد هذا بقوله تعالى مخاطباً للمسلمين في خصوصهم : ﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ولكن الله يُسَلِّطُ رُسُلَهُ على مَن يَشَآءُ والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحشر : 6] وتسليط الرسول صلى الله عليه وسلم هو بما بين صلى الله عليه وسلم في قوله : " نصرت بالرعب مسيرة شهر " وهو ما يتمشى مع قوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب ﴾ [الحشر : 2] .

(357/757)

وجملة هذا السياق هنا يتفق مع السياق في سورة الأحزاب عن بني قريظة سواء بسواء ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ الذين ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الكتاب مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ [الأحزاب : 26 - 27] وعليه ظهرت حقيقة إسناد إخراجهم لله تعالى ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب . كما أنه هو تعالى الذي رد الذين كفروا

بغيظهم لم ينالوا خيراً . بما أرسل عليهم من الرياح والجنود ، وهو الذي كفى المؤمنين القتال .

وهو تعالى الذي أنزل بني قريظة من صياصيهم . وورث المؤمنين ديارهم وأموالهم ، وكان الله على كل شيء قديراً .

ورشح لهذا كله التذييل في آخر الآية . يطلب الاعتبار والاتعاظ بما فعل الله بهم : ﴿ فاعتبروا ياأولي الأبصار ﴾ [الحشر : 2] أي بإخراج الذين كفروا من حصونهم وديارهم ومواطن قوتهم ، ما ظننتم أن يخرجوا لضعف اقتداركم ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم لقوتها ومنعتها ، ولكن أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب . فلم يستطيعوا البقاء . وكانت حقيقة إخراجهم من ديارهم هي من الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ لأَوَّلِ الحشر ﴾ .

اختلف في معنى الحشر في هذه الآية ، وبناء عليه اختلف في معنى الأول .

فقيل : المراد بالحشر أرض المحشر ، وهي الشام .

وقيل المراد بالحشر : الجمع .

واستدل القائلون بالأول بآثار منها : ما رواه ابن كثير عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : من شك في أن أرض المحشر ها هنا يعني الشام فليقرأ هذه الآية : ﴿ هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن دِيَارِهِمْ ﴾ ، وما رواه أبو حيان في البحر عن عكرمة أيضاً والزهري ، وساق قوله صلى الله عليه وسلم أنه قال لبني النضير : " أخرجوا " ، قالوا : إلى أين ؟ قال : " إلى أرض المحشر " وعلى هذا تكون الأولية هنا مكانية ، أي لأول مكان من أرض المحشر . وهي أرض الشام ، وأوائله خيبر وأذرعات .

وقيل : إن الحشر على معناه اللغوي وهو الجمع . قال أبو حيان في البحر المحيط . الحشر الجمع للتوجه إلى ناحة ما ، ومن هذا المعنى . قيل : الحشر هو حشد الرسول صلى الله عليه وسلم الكتائب لقتالهم . وهو أول حشر منه لهم وأول قتال قاتلهم . وعليه فتكون الأولية زمانية وتقتضي حشراً بعده . فقيل : هو حشر عمر إياهم بخيبر . وقيل : نار تسوق الناس من المشرق إلى المغرب ، وهو حديث في الصحيح . وقيل : البعث .

إلا أن هذه المعاني أعم من محل الخلاف لأن النار المذكورة والبعث ليستا خاصتين باليهود ، ولا ببني النضير خاصة ومما أشا إليه الشيخ رحمه الله أن من أنواع البيان الاستدلال على أحد المعاني بكونه هو الغالب في القرآن ، ومثل له في المقدمة بقوله تعالى : ﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي ﴾ [المجادلة : 21] ، فقد قال بعض العلماء : بأن المراد بهذه الغلبة . الغلبة

بالحجة والبيان ، والغالب في القرآن استعمال الغلبة بالسيف والسنان ، وذلك دليل واضح على دخول تلك الغلبة في الآية ، لأن خير ما يبين به القرآن القرآن .

(359/757)

وهنا في هذه الآية ، فإن غلبة استعمال القرآن بل عموم استعماله في الحشر إنما هو للجمع ، ثم بين المراد بالحشر لأي شيء منها قوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجن والإنس والطير ﴾ [النمل : 17] ، وقوله : ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ﴾ [الأنعام : 111] ، وقوله عن نبي الله داود : ﴿ والطير مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : 19] ، وقوله تعالى عن فرعون : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى ﴾ [طه : 59] ، وقوله تعالى : ﴿ قالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي المدآئن حَاشِرِينَ ﴾ [الأعراف : 111] . وقوله : ﴿ فَحَشَرَ فنادى ﴾ [النازعات : 23] فكلها بمعنى الجمع .

وإذا استعمل بمعنى يوم القيامة فإنه يأتي مقروناً بما يدل عليه ، وهو جميع استعمالات القرآن لهذا ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الأرض بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ [الكهف : 47] وذلك في يوم القيامة لبروز الأرض . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ [مريم :

85] ، وذلك في يوم القيامة لتقييده باليوم . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمِئِذٍ زُرْقاً ﴾ [طه : 102] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ [التكوير : 5] وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ الله إِلَى النار فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [فصلت : 19] . إلى غير ذلك مما هو مقيد بما يعين المراد بالحشر ، وهو يوم القيامة .

(360/757)

فإذا ألق كان لمجرد الجمع كما في الأمثلة المتقدمة ، وعليه فيكون المراد بقوله تعالى : ﴿ لأَوَّلِ الحشر ﴾ ، أن الراجح فيه لأول الجمع ، وتكون الأولية زمانية وفعلاً ، فقد كان أول جمع لليهود ، وقد أعقبه جمع آخر لإخوانهم بني قريظة بعد عام واحد ، وأعقبه جمع آخر في خيبر ، وقد قدمنا ربط إخراج بني النضير من ديارهم بإنزال بني قريظة من صياصيهم ، وهكذا ربط جمع هؤلاء بأولئك إلا أن هؤلاء أجلوا وأخرجوا ، وأولئك قتلوا واسترقوا .

تنبيه

وكون الحشر بمعنى الجمع لا يتنافى مع كون خروجهم كان إلى أوائل الشام ، لأن الغرض الأول جمعهم للخروج من المدينة ، ثم يتوجهون بعد ذلك إلى الشام أو إلى غيرها .

وقد استدل بعض العلماء على أن توجههم كان إلى الشام من قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين

أُوتوا الكتاب آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا على أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السبت وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾ [النساء : 47] ، لأن السياق في أهل الكتاب ، والتعريض بأصحاب السب ألصق بهم .

فقال بعض المفسرين : الوجوه هنا هي سكناهم بالمدينة ، وطمسها تغير معالمها ، وردهم على أدبارهم . أي إلى بلاد الشام التي جاءوا منها اولاً حينما خرجوا من الشام إلى المدينة ، انتظراً لمحمد صلى الله عليهوسلم . حكاه أبو حيان وحسنه الزمخشري .

قوله تعالى : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ .

أتى : تأتي لعدة معان ، منها بمعنى المجيء ، ومنها بمعنى الإنذار ، ومنها بمعنى المداهمة .

وقد توهم الرازي أنها من باب الصفات ، فقال : المسألة الثانية قوله : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللهُ ﴾ ، لا يمكنهم إجراؤه على ظاهره باتفاق جمهور العقلاء ، فدل على أن باب التأويل مفتوح ، وإن صرف الآيات عن ظواهرها بمقتضى الدلائل العقلية جائز اه .

(361/757)

وهذا منه على مبدئه في تأويل آيات الصفات ، ويكفي لرده أنه مبني على متقضى الدلائل العقلية ، ومعلوم أن العقل لا مدخل له في باب صفات الله تعالى ، لأنها فوق مستويات العقول

: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] ولا يحيطون به علماً سبحانه وتعالى .

أما معنى الآية ، فإن سياق القرآن يدل على أن مثل هذا السياق ليس من باب الصفات كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ القواعد ﴾ [النحل : 26] ، أي هدمه واقتلعه من قواعده ، ونظيره : ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً ﴾ [يونس : 24] . وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد : 41] وقوله ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ [الأنبياء : 44] .

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في العدوى : أني قلت أتيت أي دهيت ، وتغير عليك حسك فتوهمت ما ليس بصحيح صحيحاً .

ويقال : أُتي فلان بضم الهمزة وكسر التاء إذا أظل عليه العدو ، ومنه قولهم : " من مأمنه يؤتى الحذر " . فيكون قوله تعالى : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ أخذهم ودهاهم وباغتهم من حيث لم يحتسبوا من قتل كعب بن الأشرف وحصارهم ، وقذف الرعب في قلوبهم .

وهناك موقف آخر في سورة البقرة يؤيد ما ذكرناه هنا ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحق فاعفوا واصفحوا حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : 109] . فقوله تعالى : ﴿ فاعفوا واصفحوا حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ ﴾ وهو في سياق اهل الكتاب ، وهم بذاتهم الذين قال فيهم : ﴿ فَأَتَاهُمُ الله ﴾ فيكون ، فأتاهم الله هنا هو إتيان أمره تعالى الموعود في بادئ الأمر عند الأمر بالعفو والصفح .

وقد أورد الشيخ رحمه الله عند قوله تعالى : ﴿ فاعفوا واصفحوا حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ ﴾ أن هذه الآية في أهل الكتاب كما هو واضح من السياق ، وقال : والأمر في قوله : ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ ، قال بعض العلماء : هو واحد الأوامر ، وقال بعضهم : هو واحد الأمر .

فعلى القول الأول بأنه الأمر الذي هو ضد النهي ، فإن الأمر المذكور ، هو المصرح به في قوله : ﴿ قَاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله وَلاَ باليوم الآخر وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحق مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب حتى يُعْطُواْ الجزية عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : 29] .

وعلى القول بأن واحد الأمور ، فهو ما صرح الله به في الآيات الدالة على ما أوقع باليهود من القتل والتشريد كقوله : ﴿ فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ الله عَلَيْهِمُ

الجلاء لَعَذَّبَهُمْ ﴾ [الحشر : 2 – 3] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات ، والآية غير منسوخة على التحقيق . اه [من الجزء الأول من الأضواء] .

فقد نص رحمه الله على أن آية : ﴿ فاعفوا واصفحوا حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ ﴾ مرتبطة بآية : ﴿ فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ هذه كما قدمنا : أن هذا هو الأمر الموعود به ، وقد أتاهم به من حيث لم يحتسبوا ، ويشهد لهذا كله القراءة الثانية فآتاهم بالمد : بمعنى أعطاهم وأنزل بهم ، ويكون الفعل متعدياً والمفعول محذوف دل عليه قوله ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ أي أنزل بهم عقوبة وذلة ومهانة جاءتهم من حيث لم يحتسبوا والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب ﴾ .

منطوقه أن الرعب سبب من أسباب هزيمة اليود ، ومفهوم المخالفة يدل على أن العكس بالعكس ، أي أن الطمأنينة وهي ضد الرعب ، سبب من أسباب النصر ، وهو ضد الهزيمة .

وقد جاء ذلك المفهوم مصرحاً به في آيات من كتاب الله تعالى ، منها قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ

رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [الفتح : 18] ، ومنها قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة : 25 – 26] ، فقد ولوا مدبرين بالهزيمة ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً من الملائكة فكان النّصر لهم ، وهزيمة أعدائهم المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي بالقتل والسبي في ذلك اليوم .

(364/757)

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : 40] .

وهذا الموقف ية من آيات الله ، اثنان أعزلان يتحديان قريشاً بكاملها ، بعددها وعددها ،

فيخرجان تحت ظلال السيوف ، ويدخلان الغار في سدقة الليل ، ويأتي الطلب على فم الغار بقلوب حانقة ، وسيوف مصلته ، فوآذان مرهفة حتى يقول الصديق رضي الله عنه : والله يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت نعليه لأبصرنا ، فيقول صلى الله عليه وسلم وهو في غاية الطمأنينة ، ومنتهى السكينة " ما بالك باثنين الله ثالثهما "

ومنها ، وفي أخطر المواقف في الإسلام ، في غزورة بدر ، حيثما التقى الحق بالباطل وجهاً لوجه ، جاءت قوى الشر في خيلائها وبطرها وأشرها ، وأمامها جند الله في تواضعهم وإيمانهم وضراعتهم إلى الله ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فاستجاب لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الملائكة مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ الله إِلاَّ بشرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النصر إِلاَّ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النعاس أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السمآء مَآءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشيطان وَلِيَرْبِطَ على قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأقدام ﴾ [الأنفال : 9 - 11].

(365/757)

كما جعل الله الإمداد بالملائكة إلا لتطمئن به قلوبهم ، وما غشاهم النعاس إلا أمنةً منه ، وتم كل ذلك بما ربط على قلوبهم ، فقاموا بقلتهم قوى الشر على كثرتهم ، وتم النصر من عند

الله بمدد من الله ، كما ربط على قلوب أهل الكهف :

﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعوا من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا ﴾ [الكهف : 14] .

هذه آثار الطمأنينة والسكينة والربط على القلوب المدلول عليه بمفهوم المخالفة من قوله تعالى : ﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴾ [الحشر : 2] ، وقد جمع الله تعالى الأمرين المنطوق والمفهوم في قوله تعالى : ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ [الأنفال : 12] فنص على الطمأنينة بالتثبيت في قوله : ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ ، ونص على الرعب في قوله : ﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ فكانت الطمأنينة تثبيتاً للمؤمنين ، والرعب زلزلة للكافرين .

وقد جاء في الحديث أن جبريل عليه السلام . لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتوجه إلى بني قريظة ، قال : " إني متقدمكم لأزلزل بهم الأقدام " ، ومما يدل على أسباب هذه الطمأنينة في هذه المواقف قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ [الأنفال : 45 - 46] .

فذكر الله تعالى أربعة أسباب للطمأنينة .

الأولى : الثبات ، وقد دل عليها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذين يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف : 4] .

والثانية : ذكر الله كثيرا ، وقد دل عليها قوله تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [الرعد : 28] .

والثالثة : طاعة الله ورسوله ، ويدل لها قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا القتال رَأَيتَ الذين فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المغشي عَلَيْهِ مِنَ الموت فأولى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ [محمد : 20 - 21] .

والرابعة : عدم التنازع والاعتصام والألفة ، ويدل عليها قوله تعالى : ﴿ واعتصموا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران : 103] .

ومن ذكر أباب الهزيمة من رعب القلوب ، وأسباب النصر في السكينة والطمأنينة ، تعلم مدى تأثير الدعايات في الآونة الأخيرة . وما سمي بالحرب الباردة من كلام وإرجاف مما ينبغي الحذر منه أشد الحذر ، وقد حذر الله تعالى منه في قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ الله المعوقين مِنكُمْ والقائلين لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ البأس إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الأحزاب : 18]

: وقد حذر تعالى من السماع لهؤلاء في قوله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفتنة وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ والله عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ [التوبة : 47] .

ولما اشتد الأمر على المسلمين في غزوة الأحزاب ، وبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أن اليهود نقضوا عهدهم ، أرسل إليهم صلى الله عليه وسلم من يستطلع خبرهم ، وأوصاهم إن هم رأوا غدراً ألا يصرحوا بذلك ، وأن يلحنوا له لحناً حفاظاً على طمأنينة المسلمين ، وإبعاداً للإرجاف في صفوفهم .

كما بين تعالى أثر الدعاية الحسنة في قوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ﴾ [الأنفال : 60] وقد كان بالفعل لخروج جيش أسامة بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وعند تربص الأعراب – كان له الأثر الكبير في إحباط نوايا المتربصين بالمسلمين ، وقالوا : ما أنفذوا هذا البعث إلا وعندهم الجيوش الكافية والقوة اللازمة .

وما أجراه الله في غزوة بدر من هذا القبيل أكبر دليل عملي ، إذ يقلل كل فريق في أعين الآخرين . كما قال تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأمر ولكن الله سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بذاتِ الصدور وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التقيتم فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾ [الأنفال : 43 – 44] وهذا كله مما ينبغي الاستفادة منه اليوم على العدو في قضية الإسلام والمسلمين .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (4)

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ .

الشماقة العضيان ، ومنه شق العصا ، والمخالفة .

وهذا يدل على ان الله تعالى أوقع ما أوقعه ببني النضير من إخراجهم من ديارهم وتخريب بيوتهم ، بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله ، وأن المشاقة المذكورة هي علة العقوبة الحاصلة بهم ، ولا شك أن مشاقة الله ورسوله من أعظم أسباب الهلاك .

وفي الآية مبحث أصولي مبني على أن المشاقة قد وقعت من غير اليهود ، فلم تقع بهم تلك العقوبة كما وقع من المشركين المنصوص عليها في قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الذين آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُوا الرعب فاضربوا فَوْقَ الأعناق واضربوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال : 12] ، وهذا في بدر قطعاً ، ثم قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا الله وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ الله فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ [الحشر : 4] ، ولما قدر صلى الله عليه وسلم على أهل مكة لم يوقع بهم ما أوقع باليهود من قتل ، بل قال : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " فوجد الوصف الذي هو المشاقة الذي هو علة الحكم ، ولم يوجد الحكم الذي هو الإخراج من الديار وتخريب البيوت .

قال الفخر الرازي : فإن قيل : لو كانت المشاقة علة لهذا التخريب لوجب أن يقال : أينما حصلت هذه المشاقة حصل التخريب ، ومعلوم أنه ليس كذلك : قلنا : هذا أحد ما يدل على أن تخصيص العلة المنصوصة لا يقدح في صحتها اه .

وقد بحث الشيخ رحمه الله هذه المسألة في آداب البحث والمناظرة ، وفي مذكرة الأصول في مبحث النقض ، وعنون له في آداب البحث بقوله : تخلف الحكم ليس بنقض سواء لوجود مانع أو تخلف شرط .

ومثل لتخلف الحكم بوجود مانع بقتل الوالد ولده عمداً ، مع عدم قتله قصاصاً به ، لأن علة

القصاص موجودة ، وهي القتل العمد ، والحكم وهو القصاص متخلف . ومثل لتخلف الشرط بسرقة أقل من نصاب أو من غير الحرز .

(369/757)

ثم قال : النوع الثالث : تخلف حكمها عنها لا لسبب من الأسباب التي ذكرنا ، ومثل له بعضهم بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجلاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدنيا وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابُ النار ﴾ [الحشر : 3] قالوا : فهذه العلة ، التيهي مشاقة الله ورسوله ، قد توجد في قوم يشاقون الله ورسوله مع تخلف حكمها عنها ، وهذه الآية الكريمة تؤيد قول من قال : إن النقض في فن الأصول تخصيص للعلة مطلقاً ، لا نقص لها ، وعزاه في مراقي السعود للأكثرين في قوله في مبحث القوادح في الدليل في الأصول :

منها وجود الوصف دون الحكم . . . سماه بالنقض وعاة العلم

والأكثرون عندهم لا يقدح . . . بل هو تخصيص وذا مصحح

إلى قوله :

ولست فيما استنبطت بضائر . . . إن جاء لفقد شرط أو لمانع

وقد أطلعني بعض الإخوان على شرح لفضيلة الشيخ ، رحمه الله ، على مراقي السعود في

أوائله على قول المؤلف:

ذو فترة بالفرع لا يراع. . . وتكلم على حكم أهل الفترة، ثم على تخصيص بعض الآيات، ومن ثم إلى تخصيص العلة.

وجاء في هذا المخطوط ما نصه: ورجح الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الحشر أن تخصيص العلة كتخصيص النص مطلقاً، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الجلاء ﴾ [الحشر: 3] الآية، وقد فعل ذلك غير بني النضير، فمل يفعل لهم مثل ما فعل لهم والله أعلم اه.

إلا أني طلبت هذا الترجيح في ابن كثير عند الآية، فلم أقف عليه فليتأمل، ولعله في غير التفسير.

أما ما ذكره رحمه الله تعالى عن بعض في آداب البحث والمناظرة، وهو أنه: قد يتخلف الحكم عن العلة، لا لشيء من الأسباب التي ذكرنا، فالذي يظهر لي – والله تعالى أعلم – أن تخلف الحكم عن العلة في غير اليهود، وإنما هو لتخلف جزء منها، وأن العلة مركبة، أي هي في اليهود مشاقة وزيادة، تلك الزيادة لم توجد في غير اليهود، فوقع الفرق، وذلك أن

مشاقة غير اليهود كانت لجهلهم وشكهم ، كما أشار تعالى لذلك عنهم بقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 78 - 79] إلى آخر السورة ، فهم في حاجة إلى زيادة بيان ، وكذلك في قوله في أول سورة ص : ﴿ وعجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الكافرون هذا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الآلهة إلها وَاحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَنِ امشوا واصبروا على آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بهذا فِي الملة الآخرة إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فَي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ﴾ [ص : 4 - 8] .

(371/757)

فهم في عجب ودهشة واستبعاد أن ينزل عليه صلى الله عليه وسلم الذكر من بينهم ، وهم في شك من أمرهم ، فهم في حاجة إلى إزالة الشك والتثبت من الأمر ، ولذا لما زال عنهم شكهم وتبينوا من أمرهم ، وراحوا يدخلون في دين الله أفواجاً ، بينما كان كفر اليهود جحود بعد معرفة ، فكانوا يعرفونه صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ﴿ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 146] ، وقد سمي لهم فيما أنزل كما قال عيسى عليه السلام : ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ ﴾ [الصف : 6]

فلم ينفعهم بيان ، ولكنه السحد والجحود كما بين تعالى أمرهم بقوله عنهم : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحق ﴾ [البقرة : 109] وقوله : ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ [آل عمران : 69] ، وقوله : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ الله ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

[البقرة : 75] ، وقوله ﴿ ياأهل الكتاب لِمَ تَلْبِسُونَ الحق بالباطل وَتَكْتُمُونَ الحق وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : 71] .

(372/757)

فقد كانوا جبهة تضليل للناس ، وتحريف للكتاب . وتلبيس للحق بالباطل . كل ذلك عن قصد وعلم ، بدافع الحسد ومناصبة العداء وخصم هذا حاله فلا دواء له ، لأن المدلس لا يؤمن جانبه ، والمضلل لا يصدق ، والحاسد لا يشفيه إلا زوال النعمة عن المحسود ، ومن جانب ى خر فقد قطع الله الطمع عن إيمانهم ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ الله ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 75] كما أيأس من إيامنهم بعد إقرارهم على أنفسهم بتغلف قلوبهم عن سماع الحق ورؤية النور : ﴿

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 88] .

وكل هذه الصفات لم تكن موجودة في كل من شاق الله ورسوله من غير اليهود ، وقد صرح تعالى بأنهم استحقوا هذا الحكم للأسباب التي اختصوا بها دون غيرهم في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة : 84 - 85] .

(373/757)

فكل ذلك من نقض الميثاق ، والغدر في الصلح ، وسفك الدماء ، والتظاهر بالإثم والعدوان ، والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه ، كان خاصاً باليهود ، فكانت العلة مركبة من المشاقة . ومن هذه الصفات التي اختصوا بها ، وكان الحكم صريحاً هنا بقوله عنهم : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة : 85] وكان خزيهم في الدنيا : هو ما وقع بهم من

إخراج وتخريب وتقتيل .

وإن من كانت هذه حاله كما تقدم ، لم يكن لهم الاستئصال الكلي بإخراجهم أو تقتيلهم ،

فلم يعد يصلح فيهم استصلاح ولا يتوقع منهم صلاح ، وكفي شاهداً على ذلك أن بني قريظة

لم يتعظوا ، ولم يستفيدوا ولم يعتبروا كما أمرهم الله : ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ [الحشر : 2] .

ما اتعظ بنو قريظة بما وقع بإخوانهم بني النضير ، فلجؤوا بعد عام واحد إلى ما وقع فيه بنو النضير من غدر وخيانة ، فكان اختصاص اليهود بالحكم لتلك العلة المشتركة ، لأنهم – وإن شاركهم غيرهم في المشاقة – فلم يشاركهم غيرهم في الجانب الآخر مما قدمنا من دوافع المشاقة .

وللدوافع تأثير في الحكم ، كما في قصة آدم وإبليس . فقد اشترك آدم وإبليس في عموم علة العصيان ، إذ نهي آدم عن قربان الشجرة ، وأمر إبليس بالسجود لآدم مع الملائكة ، فأكل آدم مما نُهِي عنه ، وامتنع إبليس عما أمر به فاشتركا في العصيان كما قال تعالى عن آدم :

﴿ وعصى ءادمُ ربَّهُ فغوى ﴾ [طه : 121] ، وقال عن إبليس : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف : 12] ، ولكن السبب كان مختلفاً ، فآدم نسي ووقع تحت وسوسة الشيطان فخدع بقسم إبليس بالله تعالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين ﴾ [الأعراف : 21] ، وكانت معصية عن إغواء ووسوسة ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشيطان عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة : 36] .

أما إبليس ، فكان عصيانه عن سبق إصرار ، وعن حسد واستكبار كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسجدوا لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى واستكبر وَكَانَ مِنَ الكافرين ﴾ [البقرة : 34] ، ولما خاطبه الله تعالى بقوله : ﴿ قَالَ ياإبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ [ص : 75] قال في إصراره وحسده وتكبره : ﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص : 76] فاختلفت الدوافع ، وكان لدى إبليس ما ليس لدى آدم في سبب العصيان وبالتالي اختلفت النتائج ، فكانت النتيجة مختلفة تماماً . أما آدم فحين عاتبه على أكله من الشجرة في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشجرة وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ الشيطآن لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : 22] رجعا حالاً واعترفا بذنبهما قائلين : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ [الأعراف : 23] وكانت العقوبة لهما قوله

تعالى : ﴿ قَالَ اهبطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ ﴾ [الأعراف : 24] .

(375/757)

فكان هبوط آدم مؤقتاً ولحقه قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا اهبطوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 38] ، فأدركته هداية الله ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى : ﴿ فتلقى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التواب الرحيم ﴾ [البقرة : 37] .

أما نتيجة إبليس فلما عاتبه تعالى في معصيته في قوله تعالى : ﴿ قَالَ ياإبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ [ص : 75] كان جوابه استعلاء ، وتعاظماً ، على النقيض مما كان في جواب آدم إذ قال : ﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص : 76] ، فكان جوابه كذلك عكس ما كان جواباً على آدم ﴿ قَالَ فاخرج مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعنتي إلى يَوْمِ الدين ﴾ [ص : 77 - 78] .

ولقد قالوا : إن الذي جر على إبليس هذا كله هو الحسد ، حسد آدم على ما أكرمه الله به

فاحتقره وتكبر عليه، فوقع في العصيان، وكانت نتيجته الطرد.

وهكذا اليهود: إن داءهم الدفين هو الحسد والعجب بالنفس، فجرهم إلى الكفر، ووقعوا في الخيانة، وكانت النتيجة القتل والطرد.

وقد بين الشيخ – رحمه الله – أن مشاقة اليهود هذه هي من الإفساد في الأرض الذي نهاهم الله عنه، وعاقبهم عليه مرتين، وتهددهم إن هم عادوا للثالثة عاد للانتقام منهم، وها هم قد عادوا، وشاقوا الله ورسوله، فسلط عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين.

قال رحمه الله في سورة الإسراء عند قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء: 8]، لما بين تعالى أن بين إسرائيل قضي إليهم في الكتاب أنهم يفسدون في الأرض مرتين – وبين نتائج هاتين المرتين – بين تعالى أيضاً: أنهم إن عادوا للإفساد في المرة الثالثة، فإنه جل وعلا يعود للانتقام منهم بتسليط أعدائهم عليهم، وذلك في قوله: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾، ولم يبين هنا هل عادوا للإفساد في المرة الثالثة أم لا؟

ولكنه أشار في آيات أخر إلى أنهم عادوا للإفساد بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكتم صفاته ، ونقض عهوده ومظاهرة عدوه عليه ، غلى غير ذلك من أفعالهم القبيحة ، فعاد الله جل وعلا للانتقام منهم تصديقاً لقوله : ﴿ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ فسلط عليهم نبيه صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وجرى على بني قريظة وبني النضير وبني قيقناع وخَيبر ، ما جرى من القتل والسلب والإجلاء ، وضرب الجزية على من بقي منهم ، وضرب الذلة والمسكنة .

ومن الآيات الدالة على أنهم عادوا للإفساد قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكافرين بِئْسَمَا اشتروا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآءُو بِغَضَبٍ على غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [البقرة : 89 – 90] وقوله : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ [البقرة : 100] وقوله : ﴿ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ على خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ [المائدة : 13] ونحو ذلك من الآيات .

ومن الآيات الدالة على أنه تعالى عاد إلى الانتقام منهم قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الحشر مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وظنوا أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ الله فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المؤمنين فاعتبروا ياأولي الأبصار وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ الله عَلَيْهِمُ الجلاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدنيا وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابُ النار ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ الله وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ الله فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ [الحشر : 2 - 4] وقوله : ﴿ وَأَنزَلَ الذين ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الكتاب مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ [الأحزاب : 26 - 27] الآية اه منه .

فهذا منه رحمه الله بيان ودليل إلى مغايرة المشاقة الواقعة من اليهود للمشاقة الواقعة من غيرهم ، فكان تخلف الحكم عمن شاقوا الله ورسوله من غير اليهود لتخلف بعض العلة في الحكم كما قدمنا . والله تعالى أعلم .

مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (5)

اللينة هنا ، قيل اسم عام للنخل ، وهذا اختيار ابن جرير .

وقيل : نوع خاص منه ، وهو ما عدا البرني والعجوة فقط :

ونقل ابن جرير عن بعض أهل البصرة يقول : اللينة من اللون ، وقال : وإنما سميت لينة ، لأنها فعلة من فعل وهو اللون ، وهو ضرب من النخل : ولكن لما انكسر ما قبلها انقلبت إلى يا إلخ

وهذا الأخير قريب مما عليه أهل المدينة اليوم : حيث يطلقون كلمة " لونة " على ما لا يعرفون له اسماً خاصاً ، ولعل كلمة – لونة – محرفة عن كلمة لينة ، ويوجد عند أهل المدينة من أنواع النخيل ما يقرب من سبعين نوعاً .

وقيل : إن اللينة كل شجرة لليونتها بالحياة .

وقد نزلت هذه الآية في تقطيع وتحريق بعض النخيل لبني النضير عند حصارهم وقطع من البستان المعروف بالبويرة ، كما روى ابن كثير عن صاحبي الصحيحين ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرق نخل بني النضير وقطع ، وهي البويرة ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾ [الحشر : 5] الآية .

وقال حسان رضي الله عنه :

وهَان عَلَى سراة بَنِي لؤي . . . حريق بالبويرة مستطير

والبويرة معروفة اليوم ، وهو بستان يقع في الجنوب الغربي من مسجد قباء .

وقيل في سبب نزولها : إن اليهود قالوا : يا محمد إنك نهي عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله الآية .

وقيل : إن المسلمين نهى بعضهم بعضاً عن قطع النخيل ، وقالوا إنما هو مغانم المسلمين ، فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه ، وتحليل من قطع من الإثم ، وأن قطع ما قطع وترك ما ترك ﴿ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الفاسقين ﴾ .

وعلى هذه الأقوال ، قال ابن كثيرة وغيره : إن قوله تعالى : ﴿ فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي الإذن القدري والمشيئة الإلهية ، أي كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التقى الجمعان فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾ [آل عمران : 166] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ [آل عمران : 152] .

(379/757)

والذي يظهر – والله تعالى أعلم . أن الإذن المذكور في الآية ، هو إذن شرعي ، وهو ما يؤخذ من عموم الإذن في قوله تعال : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج : 39] ، لأن الإذن بالقتال إذن بكل ما ستطلبه بناء على قاعدة الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به .

والحصار نوع من القتال ، ولعل من مصلحة الحصار قطع بعض النخيل لتمام الرؤية ، أو لإحكام الحصار ، أو لإذلال وإرهاب العدو في حصاره وشعاره بعجزه عن حماية أمواله

وممتلكاته، وقد يكون فيه إثارة له ليندفع في حمية للدفاع عن ممتلكاته وأمواله، فينكشف عن حصونه ويسهل القضاء عليه، إلى غير ذلك من الأغراض الحربية، والتي أار الله تعالى إليها في قوله: ﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي بعجزهم وإذلالهم وحسرتهم، وهم يرون نخيلهم يقطع ويحرق فلا يملكون له دفعاً.

وعلى كل فالذي أذن بالقتال وهو سفك الدماء وإزهاق الأنفس وما يترتب عليه من سبي وغنائم لا يمنع في مثل قطع النخيل إن لزم الأمر، ويمكن أن يقال إن ما أذن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبإذن الله أذن.

وبهذا يمكن أن يقال: إذا حاصر المسلمون عدواً، ورأوا ان من مصلحتهم أو من مذلة العدو إتلاف منشآته وأمواله، فلا مانع من ذلك. والله تعالى أعلم.

وغاية ما فيه، أنه إتلاف بعض المال للتغلب على العدو وأخذ جميع ماله، وهذا له نظير في الشرع، كعمل الخضر في سفينة المساكين لما خرقها، أي أعابها بإتلاف بعضها ليستخلصها من اغتصاب الملك إياها، وقال ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف: 82].

وقد جاء اعتراض المشركين على المسلمين في قتالهم في الأشهر الحرم ، كم اعترض اليهود على المسلمين في قطع النخيل ، وذلك في قوله تعال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ الله وَكُفْرٌ بِهِ والمسجد الحرام وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ الله والفتنة أَكْبَرُ مِنَ القتل ﴾ [البقرة : 2317] .

فقد تعاظم المشركون قتل المسلمين لبعض المشركين في وقعة نخلة ، ولم يتحققوا دخول الشهر الحرام ، واتهموهم باعتداء على حرمة الأشهر الحرم ، فأجابهم الله تعالى بموجب ما قالوا بأن القتال في الشهر الحرام كبير ، ولكن ما ارتكبه المشركون من صد عن سبيل الله وكفر بالله ، وصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه – وهم المسلمون – أكبر عند اله ، والفتنة عن الدين وأكبر من القتل ، أي الذي استنكروه من المسلمين .

وهكذا هنا ، لئن تعاظم اليهود على المسلمين قطع بعض النخيل ، وعابوا على المسلمين إيقاع الفساد بإتلاف بعض المال ، فيكف بهم بغدرهم وخيانتهم نقضهم العهود ، وتمالئهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وقد سجل هذا المعنى كعب بن مالك يذكر إجلاء بني النضير وقتل ابن الأشرف :

لقد خزيت بغدرتها الحبور . . . كذالك الدهر ذو صرف يدور

وذلك أنهم كفروا برب . . . عظيم أمره أمر كبير وقد أوتوا معاً فهماً وعلماً

وجاءهم من الله النذير . . . إلى أن قال :

فلما أشربوا غدراً وكفراً . . . وجذبهم عن الحق الثغور

أرى الله النَّبي برأي صدق . . . وكان الله يحكم لا يجور

فأيده وسلطه عليهم . . . وكان نصيره نعم النصير

فقد أشار إلى أن خزي بني النضير بسبب غدرهم وكفرهم بربهم ، فكان الإذن في قطع النخيل هو إذن شرعي ، ويمكن أن يقال عنه ، هو عمل تشريعي إذا ما دعت الحاجة ، لمثل ما دعت الحاجة هنا إليه . والعلم عند الله تعالى .

(381/757)

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6)

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ ﴾ .

الضمير في منهم هنا عائد على بني النضير .

والفيء : الغنيمة بدون قتال ، وقد جعله تعالى هنا على رسوله خاصة .

وقال : ﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ ولكن الله يُسَلِّطُ رُسُلَهُ على مَن يَشَآءُ ﴾

أي لما كان إخراج اليهود مرده إلى الله تعالى بما قذف في قلوبهم الرعب ، وبما سلط عليهم

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان هذا الفيء لرسول الله صلى الله عليه وسلم يشاركه فيه غيره .

وقد جاء مصداق ذلك عن عمر رضي الله عنه الذي ساقه الشيخ تغمده الله برحمته عند آخر كلامه على مباحث الأنفال عند قوله : المسألة التاسعة : اعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يأخذ نفقة سنته من فيء بني النضير لا من المغانم ، وساق حديث أنس بن أوس المتفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في قصة مطالبة علي والعباس ميراثهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه قال لهما : إن الله كان خص رسوله صلى الله عليه وسلم في هذا بشيء لم يعطه أحداً غيره ، فقال عز وجلك ﴿ وَمَآ أَفَآءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ قَدِيرٌ ﴾ [الحشر : 6] ، فكانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ما احتازها دونكم ولا استأثر بها عليكم ، لقد أعطاكموه وبثها فيكم ، حتى بقي منها هذا المال ، فكان النَّبي صلى الله عليه وسلم ينفق على أهله من هذا المال نفقة سنته ، ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل ما لله إلخ اه .

وكانت هذه خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن جاء بعدها ما هو أعم ثم ذلك في قوله تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ﴾ [الحشر : 7] - أي عموماً - ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [الحشر : 7] .

وهذه الآية لعمومها مصدراً ومصرفاً ، فقد اشتملت على أحكام ومباحث عديدة ، وقد تقدم لفضيلة الشيخ - تغمده الله برحمته - الكلام على كل ما فيها عند أول سورة الأنفال على قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال ﴾ [الأنفال : 1] ، فاستوفى واستقصى وفصل وبين مصادر ومصارف الفيء والغنيمة والنفل . وما فتح من البلاد صلحاً أو عنوة ، ومسائل عديدة مما لا مزيد عليه ، ولا غنى عنه والحمد لله تعالى .

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8)

في هذه الآية الكريمة وصف شامل للمهاجرين في دوافع الهجرة : أنهم ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ الله ﴾ ، وغايتها : وهي ﴿ وَيَنصُرُونَ الله وَرَسُولَه ﴾ ، والحكم لهم بأنهم ﴿ أولئك هُمُ الصادقون ﴾ .

ومنطوق هذه الأوصاف يدل بمفهومه أنه خاص بالمهاجرين ، مع أنه جاءت نصوص أخرى تدل على مشاركة الأنصار لهم فيه : منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ

وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله والذين آوَواْ ونصروا أولئك بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال : 72] ، وقوله تعالى بعدها : ﴿ والذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ الله والذين آوَواْ ونصروا أولئك هُمُ المؤمنون حَقّاً ﴾ [الأنفال : 74] .

(383/757)

فذكر المهاجرين بالجهاد بالمال والنفس ، وذكر معهم الأنصار بالإيواء والنصر ، ووصف الفريقين معاً بولاية بعضهم لبعض ، وأثبت لهم معاً حقيقة الإيمان ﴿ أولئك هُمُ المؤمنون حَقّاً ﴾ [الأنفال : 4] ، أي الصادقون في إيمانهم فاستوى الأنصار مع المهاجرين في عامل النصرة وفي صدق الإيمان .

وفي قوله تعالى : ﴿ والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : 9] وصف شامل للأنصار ، تبوءوا الدار : أي المدينة ، والإيمان من قبلهم : أي ببيعة العقبة الأولى والثانية من قبل مجيء المهاجرين ، بل ومن قبل إيمان بعض المهاجرين يحبون من هاجر إليهم ويستقبلونه بصدور رحبة ، ويؤثرون غيرهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، لأنهم هاجروا إليهم .

وظاهر النصوص تدل بمفهومها أن غيرهم لم يشاركهم في هذه الصفات ، ولكن في الآية الأولى ما يدل لمشاركة المهاجرين الأنصار في هذا الوصف الكريم ، وهو الإيثار على النفس ، لأن حقيقة الإيثار على النفس هو بذل المار للغير عند حاجته مقدماً غيره على نفسه ، وهذا المعنى بالذات سبق أن كان من المهاجرين أنفسهم المنصوص عليه في قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ [الحشر : 8] فكانت لهم ديار ، وكانت عندهم أموال وأخرجوا منها كلها ، فلئن كان الأنصار واسوا إخوانهم المهاجرين ببعض أموالهم ، وقاسموهم ممتلكاتهم ، فإن المهاجرين لم ينزلوا عن بعض أموالهم فحسبن بل تركوها كلها . أموالهم وديارهم وأولادهم وأهلهم ، فصاروا فقراء بعد إخراجهم من ديارهم وأموالهم . ومن يخرج من كل ماله وداره ويترك أهله وأولاده ، لا يكون أقل تضحية من آثر غيره ببعض ماله ، وهو مستقر في أهله وديارهن فكأن الله عوضهم بهذا الفيء عما فات عنهم .

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله : أنه صلى الله عليه وسلم قال للأنصار ما يشعر بهذا المعنى ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : " إن إخوانكم قد تركوا الأموا والأولاد وخرجوا إليكم

فقالوا يا رسول الله : أموالنا بيننا قطائع " الحديث .

أي أن الأنصار عرفوا ذلك للمهاجرين ، وعليه أيضاً ، فقد استوى المهاجرون مع الأنصار في هذا الوصف المثالي الكريم ، وكان خلقاً لكثيرين منهم بعد الهجرة كما فعل الصديق رضي الله عنه حين تصدق بكل ماله فقال له ، رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ما أبقيت لأهلك " ؟ فقال رضي الله عنه : أبقيت لهم الله ورسوله . وكذلك عائشة الصديقة رضي الله عنها . حينما كانت صائمة وليس عندها سوى قرص من الشعير وجاء سائل فقالت لبريرة : ادفعي إليه ما عندك ، فقالت : لها : ليس إلا ما ستفطرين عليه ، فقالت لها : ادفعيه إليه ، ولعلها أحوج إيله الآن ، أو كما قالت .

ولما جاء المغرب أهدى إليهم رجل شاة بقرامها – وقرامها هو ما كانت العرب تفعله إذا أرادوا شواء شاة طلوها من الخارج بالعجين حفظاً لها من رماد الجمر – فقالت لبريرة : كلي ، هذا خير من قرصك .

وكما فعل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه تصدق بالعير وما تحمله من تجارة حين قدمت ، والرسول صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة فخرج الناس إليها .

فعلى هذا ، كان مجتمع المدينة في عهده صلى الله عليه وسلم مجتمعاص متكافلاً بعضهم أولياء بعض ، وقد نوَّه صلى الله عليه وسلم في صة غنائم حنين بفضل كلا الفريقين في قوله صلى الله عليه وسلم : "لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار"

ومن بعده عمر رضي الله عنه قال : وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم. وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوأوا الدار والإيمان ، من قبل أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم .

ثم كان هذا خلق المهاجرين والأنصار جميعاً ، كما وقع في وقعة اليرموك ، قال حذيفة العدوي : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ، ومعي شيء من الماء وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته ، فإذا أنا به فقلت له : أسقيك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فإذا أنا برجل يقول : آه آه ، فأشار إلي ابن عمي أن أنطلق إليه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت أسقيك ؟ فأشار أن نعم ، فسمع آخر يقول آه آه. فأشار هشام أن أنطلق إليه فجئته ، فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام ، فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات .

وكان منهج الخواص من بعدهم ، كما نقل القرطبي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال : ما غلبني أحد ما غلبني شاب من أهل بلخ ، قدم علينا حاجاً فقال لي : ما حد الزهد عندكم ؟ فقلت : إن وجدنا أكلنا ، وإن فقدنا صبرنا ، فقال : هكذا كلاب بلخ عندنا . فقلت : وما حد الزهد عندكم ؟ قال : إن فقدنا شكرنا وإن وجدنا آثرنا .

وفي قوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : 9] . الإيثار على النفس : تقديم الغير عليها مع الحاجة ، والخصاصة : التي تختل بها الحال ، وأصلها من الاختصاص ، وهو الانفراد في الأمر .

فالخصاصة الأنفراد بالحاجة أي ولو كان بهم فاقة وحاجة . ومنه قول الشاعر :

أما الربيع إذا تكون خصاصة . . . عاش السقيم به وأثرى المقتر

وهل يصح الإيثار من كل إنسان ول كان ذا عيال أو تلزمه نفقة غيره أم لا ؟ وما علاقته مع قوله ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو ﴾ [البقرة : 213] ؟

والجواب على هذا كله في كلام الشيخ رحمه الله على قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [البقرة : 3] في أول سورة البقرة .

قال رحمه الله : قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، عبر في هذه الآية الكريمة بمن التبعيضية الدالة على أنه ينفق لوجه الله بعض ماله لا كله ، ولم يبين هنا القدر الَّذي ينبغي إنفاقه ، والذي ينبغي إمساكه ، ولكنه بين في مواضع أخرى أن القدر الذي ينبغي إنفاقه هو الزائد على الحاجة ، وسد الخلَّة التي لا بد منها ، وذلك كقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ

قُلِ العفو ﴾ ، والمراد بالعفو الزائد على قدر الحاجة التي لا بد منها على أصح التفسيرات ، وهو مذهب الجمهور ومنه قوله تعالى : ﴿ حتى عَفَوْا ﴾ [الأعراف : 196] أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم .

وقال بعض العلماء : العفو نقيض الجهد ، وهو أن ينفق ما لا يبلغ إنفاقه منه الجهد واستفراغ الوسع .

ومنه قول الشاعر :

خذي العفو مني تستديمي مودتي . . . ولا تنطقي في سورتي حين أغضب

(387/757)

وهذا القول راجع إلى ما ذكرنا ، وبقية الأقوال ضعيفة ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ [الإسراء : 29] فنهاه عن البخل بقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ ، ونهاه عن الإسراف بقوله : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ ، فيتعين الوسط بين الأمرين ، كما بينه بقوله : ﴿ والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان : 67] .

فيجب على المنفق أن يفرق بين الجود والتبذير وبين البخل والإقتار ، فالجود غير التبذير ،

والاقتصاد غير البخل فالمنع في محل الإعطاء مذموم ، وقد نهى الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء : 29] ، والإعطاء في محل المنع مذموم أيضاً ، وقد نهى الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ [الإسراء : 29] .

وقد قال الشاعر :

لا تمدحن ابن عباد وإن هطلت يداه كالمزن حتى تخجل الديما . . . فإنها خطرات من وساوسه

يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرما . . . وقد بين تعالى في مواضع أخرى ، أن الإنفاق المحمود لا يكون كذلك إلا إذا كان مصرفه الذي صرف منه مما يرضي الله كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ والأقربين ﴾ [البقرة : 215] الآية ، وصرح في أن الإنفاق فيما لا يرضي الله حسرة على صاحبه في قوله : ﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ [الأنفال : 36] .

وقد قال الشاعر :

إن الصنيعة لا تعد صنيعة . . . حتى يصاب بها طريق المصنع

فإن قيل : هذا الذي قررتم يقتضي أن الإنفاق المحمود هو إنفاق ما زاد عن الحاجة الضرورية ، مع أن الله تعالى أثنى على قوم بالإنفاق وهم في حاجة إلى ما أنفقوا ، وذلك في قوله :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: 9].

فالظاهر في الجواب والله تعالى أعلم: هو ما ذكره بعض العلماء من أن لكل مقام مقالاً، ففي بعض الأحوال يكون الإيثار ممنوعاً، وذلك كما إذا كانت على المنفق واجبة كنفقة الزوجات ونحوها، فتبرع بالإنفاق في غير واجب، وترك الفرض لقوله صلى الله عليه وسلم: "وابدأ بمن تعول"، وكأن يكون لا صبر عنده عن سؤال الناس فينفق ماله، ويرجع إلى الناس يسألهم مالهم، فلا يجوز له ذلك؟ والإيثار فيما إذا كان لم يضيع نفقة واجبة، وكان واثقاً من نفسه بالصبر والتعفف وعدم السؤال.

وأما على القول بأن قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: 3] يعني به الزكاة، فالأمر واضح، والعلم عند الله تعالى. انتهى منه.

والواقع أن للإنفاق في القرآن مراتب ثلاثة:

الأولى: الإنفاق من بعض المال بصفة عامة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

الثانية : الإنفاق مما يحبه الإنسان ويحرص عليه ، كما في قوله تعالى ﴿ وَآتَى المالَ على حُبِّهِ ﴾ [البقرة : 177] ، وهذا أخص من الأول ، وقوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعامَ على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ [الإنسان : 8] الآية .

الثالثة : الإنفاق مع الإيثار على النفس كهذه الآية ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : 9] فهي أخص من الخاص الأول .

(389/757)

وتعتبر المرتبة الأولى هي الحد الأدنى في الواجب ، حتى قيل : إن المراد بها الزكاة . وهي تشمل النافلة ، وتصدق على أدنى شيء ولو شق تمرة ، وتدخل في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7] وتعتبر المرتبة الثالثة هي الحد الأقصى ، لأنها إيثار للغير على خاصة النفس ، والمرتبة الثانية هي الوسطى بينهما ، وهي الحد الوسط بين الاكتفاء بأقل الواجب ، وبين الإيثار على النفس وهي ميزان التوسط لعامة الناس ، كما بينه تعالى بقوله : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ [الإسراء : 29] . وكما امتجح الله تعالى قوماً بالاعتدال في قوله : ﴿ والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان : 67] .

وهذا هو عين تطبيق قاعدة الفسلفة الأخلاقية القائلة : " الفضيلة وسط بين طرفين " أي طرفي الإفراط والتفريط . فالشجاعة مثلاً وسط بين التهور والجبن ، والكرم وسط بين التبذير والتقتير .

والغنفاق جوانب متعددة ، وأحكام متفاوتة ، قد بين الشيخ رحمه الله جانباً من الأحكام ، وقد بين القرآن الجوانب الأخرى ، وتنحصر في الآتي : نوع ما يقع منه الإنفاق ، الجهة المنفق عليها ، موقف المنفق ، وصورة الإنفاق .

أما ما يقع منه الإنفاق : قد بينه تعالى أولاً من كسب حلال لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأرض وَلاَ تَيَمَّمُواْ الخبيث مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ واعلموا أَنَّ الله غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة : 267] .

وقوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : 92] .

أما الجهة المنفق عليها : فكما في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ الله بِهِ عَلِيمٌ ﴾

[البقرة : 215] فبدأ بالوالدين براً لهما ، وثنّى بالأقربين .

وقال صلى الله عليه وسلم : " الصدقة على القريب صدقة وصلة ، وعلى البعيد صدقة " ثم اليتامى وهذا واجب إنساني وتكافل اجتماعي ، لأن يتيم اليوم منفق الغد ، وولد الأبوين اليوم قد يكون يتيماً غداً ، أي أن من أحسن إلى اليتيم اليوم قد يترك أيتاماً ، فيحسن عليهم ذلك اليتيم الذي أحسنت إليه بالأمس ، والمساكين وابن السبيل أمور عامة .

وجاء بالقاعدة العامة التي يحاسب الله تعالى عليها ويجازي صاحبها ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ ﴾ [البقرة : 215] – أي مطلقاً – ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 215] ، وكفى في ذلك علمه تعالى .

أما موقف المنفق وصورة الإنفاق : فإن هذا هو سر النفقة في الإسلام ، وفلسفة الإنفاق كلها تظهر في هذا الجانب ، مما تميز به الإسلام دون غيره من جميع الأديان أو النظم .

لأنه يركز على الحفاظ على شعور وإحساس المسكين ، بحيث لا يشعره بجرح المسكنة ، ولا ذلة الفاقة كما في قوله تعالى : ﴿ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلاَ أَذَى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 262] .

ثم فاضل بين الكلمة الطيبة والصدقة المؤذية في قوله تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى والله غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 263] يعطي ولا يمن بالعطاء .

وأفهم المنفقين أن المنّ والأذى يبطل الصدقة ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بالمن والأذى ﴾ [البقرة : 264] لما فيه من جرح شعور المسكين .

وقد حثَّ على إخفائها إمعاناً في الحفاظ على شعوره وإحساسه ﴿ إِن تُبْدُواْ الصدقات فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ [البقرة : 271] – أي مع الآداب السابقة – ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفقرآء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 271] أي لكم أنتم في حفظ ثوابها .

وقد جعل صلى الله عليه وسلم من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله " رجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه " ، وكما قال تعالى :

﴿ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بالليل والنهار سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 274] .

ومن خصائص الإسلام في هذا الباب أنه كما أدب الأغنياء في طريقة الإنفاق ، فقد أدب الفقراء في طريقة الأخذ . وذلك في قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الذين أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ الله لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأرض يَحْسَبُهُمُ الجاهل أَغْنِيَآءَ مِنَ التعفف تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ الناس إِلْحَافاً ﴾ [البقرة : 273] .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19)

في هذه الآية الكريمة حث على تقوى الله في الجملة ، واقترنت بالحث على النظر والتأمل فيما قدمت كل نفس لغد ، وتكرر الأمر فيها بتقوى الله ، مما يدل على شدة الاهتمام والعناية بتقوى الله على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله ، سواء كان التكرار للتأكيد أم كان للتأسيس ، وسيأتي بيانه إن شاء الله .

أما الاهتمام بالحث على التقوى ، فقد دلت له عدة آيات من كتاب الله تعالى ، ولو قيل : إن الغاية من رسالة الإسلام كلها ، بل ومن جميع الأديان هو تحصيل التقوى لما كان بعيداً ، وذلك للآتي :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : 21] ومعلوم أنه تعالى ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته ، فتكون التقوى بمضمون هاتين الآيتين . هي الغاية من خلق الثقلين الإنس والجن . وقد جاء النص مفصلاً في حق كل أمة على حدة ، منها في قوم نوح عليه السلام وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : 105 - 108] وفي قوم عاد قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ

أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : 123 – 126] وفي قوم لوط : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسلين إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : 160 – 163] ، وفي قوم شعيب ، وفي قوم شعيب ، قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيكة المرسلين إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : 176 – 179] .

(393/757)

فكل نبي يدعو قومه إلى التقوى كما قدمنا ، ثم جاء القرآن كله دعوة إلى التقوى وهداية للمتقين ، كما في مطلع القرآن الكريم : ﴿ الم ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 1 – 2] ، وبين نوع هذه الهداية المتضمنة لمعنى التقوى بقوله تعالى : ﴿ الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب وَيُقِيمُونَ الصلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ والذين يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وبالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ أولئك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [البقرة : 3 – 5] .

وقد بين الشيخ – رحمة الله تعالى عليه – معنى التقوى عند قوله تعالى : ﴿ ولكن البر مَنِ اتقى ﴾ [البقرة : 189] .

قال : لم يبين هنا من المتقي ، وقد بينه تعالى في قوله : ﴿ ولكن البر مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتَى المال على حُبِّهِ ذَوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وَفِي الرقاب وأَقَامَ الصلاة وآتَى الزكاة والموفون بعَهْدِهِمْ إذَا عَاهَدُواْ والصابرين فِي البأسآء والضراء وَحِينَ البأس أولئك الذين صَدَقُوا وأولئك هُمُ المتقون ﴾ [البقرة : 177] .

وقد بينت آيات عديدة آثار التقوى في العاجل والآجل .

منها في العاجل قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ [الطلاق : 4] ، وقوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : 2 – 3] ، وقوله : ﴿ واتقوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله ﴾ [البقرة : 282] ، وقوله ﴿ إِنَّ الله مَعَ الذين اتقوا والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : 128] .

(394/757)

أما في الآجل وفي الآخرة ، فإنها تصحب صاحبها ابتداء إلى أبوا بالجنة كما في قوله تعالى :

﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا ربَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ [الزمر : 73] ، فإذا ما دخلوها آخت

بينهم وجددت روابطهم فيما بينهم وآنستهم من كل خوف ، كما في قوله تعالى ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا المتقين ﴾ [الزخرف : 67] ، ﴿ ياعباد لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ الذين آمَنُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ادخلوا الجنة أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ [الزخرف : 68 – 70] إلى قوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف : 73] إلى أن تنتهي بهم إلى أعلى عليين ، وتحلهم مقعد صدق ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِ ﴾ [القمر : 54 – 55] .

فتبين بهذا كله منزلة التقوى من التشريع الإسلامي وفي كل شريعة سماوية ، وأنها هنا في معرض الحث عليها وتكرارها ، وقد جعلها الشاعر الساعادة كل السعادة كما في قوله ، وهو لجرير :

ولست أرى السعادة جمع مال . . . ولكن التقي هو السعيد

فتقوى الله خير الزاد ذخرا . . . وعند الله للأتقى مزيد

والتقوى دائماً هي الدافع على كل خير، الرادع عن كل شر، روى ابن كثير في تفسيره عن الإمام أحمد في مجيء قوم من مضر، مجتابي الثمار والعباءة. حفاة عراة متقلدي السيوف. فيتمعّر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل ثم خرج، فأمر بالأينادي للصلاة، فصلّى ثم خطب الناس وقرأ قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [النساء: 1] إلى آخر الآية، وقرأ الآية التي في سورة الحشر: ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر: 18] الآية، تصدق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع بره حتى قال: ولو بشق تمرة، قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت ثم تتابع الناس إلى قوله: حتى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل وجهه كأنه مذهبة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ﴾ الحديث.

فكانت التقوى دافعاً على سنّ سنَّة حسنة تهلل لها وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أنها تحول دون الشر، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلْيُمْلِلِ الذي عَلَيْهِ الحق وَلْيَتَّقِ الله رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً ﴾ [البقرة: 282]، وقوله:

﴿ فَلْيُؤَدِّ الذي اؤتمن أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ الله رَبَّهُ ﴾ [البقرة: 283] فإن التقوى مانعة من بخس الحق ومن ضياع الأمانة، وكقوله عن مريم في طهرها وعفتها لما أتاها جبريل وتمثل لها بشراً

سوياً : ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرحمن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [مريم : 18] .

وكما في حديث النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار ، ومنهم الرجل مع ابنه عمه لما قالت له : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فقام عنها وترك لها المال .

(396/757)

وهكذا في تصرفات العبد كما في قوله تعالى : ﴿ ذلك وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾ [الحج : 32] .

والخطاب في قوله تعالى : ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ ﴾ [الحشر : 18] ، لكل نفس كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ توفى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 281] ، وقوله : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ [آل عمران : 25] .

فالنداء أولاً بالتقوى لخصوص المؤمنين ، والأمر بالنظر لعموم كل نفس ، لأن المنتفع بالتقوى خصوص للمؤمنين كما أوضحه الشيخ – رحمه الله عليه – في أول سورة البقرة ، والنظر مطلوب من كل نفس فالخصوص للإشفاق ، والعموم للتحذير .

ويدل للأول قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ بالمؤمنين رَحِيماً ﴾ [الأحزاب : 43] .

ويدل للثاني قوله : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سواء

تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : 30] . وما في قوله تعالى : ﴿ مَّا قَدَّمَتْ ﴾ [الحشر : 18] عامة في الخير والشر ، وفي القليل والكثير .

ويدل للأول قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾ [آل عمران : 30] .

ويدل للثاني قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7 – 8] ، والحديث " اتقوا النار ولو بشق تمرة "

وغداً تطلق على المستقبل المقابل للماضي ، كما قال الشاعر :

واعلم علم اليوم والأمس قبله . . . ولكنني عن علم ما في غد عم

(397/757)

وعليه أكثر استعمالاتها في القرآن ، كقوله تعالى عن إخوة يوسف : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ [يوسف : 12] ، وقوله تعالى ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف : 23 – 24] .

وتطلق على يوم القيامة كما هنا في هذه الآية لدلالة القرآن على ذلك ، من ذلك قوله تعالى في

نفس المعنى : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الكافر ياليتني كُنتُ تُرَاباً ﴾ [النبأ : 40] .

والقرائن في الآية منها : اكتنافها بالحث على تقوى الله قبله وبعده .

ومنها : التذييل بالتحذير في قوله : ﴿ إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي بالمقاصد في الأعمال وبالظواهر والبواطن ، ولأن يوم القيامة هو موضع النسيان ، فاحتاج التنبيه عليه .

ويكون التعبير عن يوم القيامة بغد لقرب مجيئه وتحقق وقوعه كقوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [القمر : 1] ، وقوله : ﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النحل : 77] .

ومن ناحية أخرى ، فإن الغد لكل إنسان بمعنى يوم القيامة يتحقق بيوم موته ، لأنه يعاين ما قدم قدم يوم موته ، وقد نكر لفظ نفس وغد هنا ، فقيل في الأول لقلة من الناظرين ، وفي الثاني لعظم أمره وشدة هوله .

وهنا قد تكرر الأمر بتقوى الله كما أسلفنا مرتين ، فقيل للتأكيد ، قاله ابن كثير ، وقيل للتأسيس ، قاله الزمخشري وغيره .

فعلى أنه للتأكيد ظاهر وعلى التأسيس يكون الأول لفعل المأمور والثاني لترك المحظور ، مستدلي بمجيء موجب الفعل أولاً ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ ﴾ ، ومجيء موجب التحذير ثانياً ﴿ إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

وهذا وإن كان له وجه ، ويشهد للتأكيد قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : 102] وإن كانت نسخت بقوله : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ [التغابن : 16] فيدل لمفهومه قوله : ﴿ وَآخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ﴾ [التوبة : 102] أي بترك بعض المأمور ، وفعل بعض المحظور .

وعليه فلا تحقق التقوى إلا بمراعاة الجانبين ، ولكن مادة التقوى وهي اتخاذ الوقاية مما يوجب عذاب الله تشمل شرعاً الأمرين معاً لقوله تعالى في عموم اتخاذ الوقاية ﴿ قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ [التحريم : 6] .

فكان أحد الأمرين بالتقوى يكفي لذلك ويشمله ، ويكون الأمر بالتقوى لمعنى جديد ، وفي الآية ما يرشد إليه ، وهو قوله تعالى ﴿ مَّا قَدَّمَتْ ﴾ ، لأن " ما " عامة كما قدمنا وصيغة قدمت على الماضي يكون الأمر بتقوى الله أولاً بالنسبة لما مضى وسبق من عمل تقدم بالفعل ، ويكون النظر بمعنى المحاسبة والتأمل على معنى الحديث : " حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا " فقد ذكره ابن كثير .

فإذا ما نظر في الماضي وحاسب نفسه ، وعلم ما مكان من تقصير أو وقوع في محظور ،

جاء الأمر الثاني بتقوى الله لما يستقبل من عمل جديد ومراقبة الله تعالى عليه ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد : 10] ، فلا يكون هناك تكرار ، ولا يكون توزيع ، بل بحسب مدلول عموم " ما " وصيغة الماضي " قدمت " والنظر للمحاسبة .

تنبيه

(399/757)

مجيء " قدمت " بصيغة الماضي حث على الإسراع في العمل ، وعدم التأخير ، لأنه لم يملك إلا ما قدم في الماضي ، والمستقبل ليس بيده ، ولا يدري ما يكون فيه ، ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾ [لقمان : 34] وكما في وقوله : " حجوا قبل ألا تحجوا " ، وقوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران : 133] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كالذين نَسُواْ الله فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أولئك هُمُ الفاسقون ﴾ [الحشر : 19] .

بعد الحث على توقى الله وعلى الاجتهاد في تقديم العمل الصالح ليوم غد جاء التحذير في هذه الآية من النسيان والترك وألا يكون كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، ولم يبين هنا من هم الذين حذر من أن يكونوا مثلهم في هذه النسيان ، وما هو النسيان والإنساء المذكوران هنا .

وقد نص القرآن على أن الذين نسوا الله هم المنافقون في قوله تعالى في سورة التوبة :

﴿ المنافقون والمنافقات بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بالمنكر وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعروف وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ الله فَنَسِيَهُمْ إِنَّ المنافقين هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : 67] وهذا عين الوصف الذي وصفبوا به في سورة الحشر . وقوله تعالى : ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ أي أنساهم أنفسهم ، لأن الله تعالى لا ينسى ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾ [طه : 52] ، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ [مريم : 64] .

وقد جاء أيضاً : وصف كل من اليهود والنصارى والمشركين بالنسيان في الجملة ، ففي اليهود يقول تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظَّا مِّمَّا ذُكِرُواْ بِهِ ﴾ [المائدة 13] .

(400/757)

وفي النصارى يقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الذين قالوا إِنَّا نصارى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِرُواْ بِهِ ﴾ [المائدة : 14] .

وفي المشركين يقول تعالى : ﴿ الذين اتخذوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا فاليوم نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هذا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف : 51] ،

فيكون التحذير منصباً أصالة على المنافقين وشاملاً معهم كل تلك الطوائف لاشتراكهم جميعاً في أصل النسيان .

أما النسيان هنا ، فهو بمعنى الترك ، وقد نص عليه الشيخ – رحمة الله تعالى عليه – عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ [طه : 115] فذكر وجهين ، وقال : العرب تطلق النسيان وتريد به الترك ولو عمداً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ كذلك أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وكذلك اليوم تنسى ﴾ [طه : 126] .

فالمراد من هذه الآية الترك قصداً .

وكقوله : ﴿ فاليوم ننساهُمْ كما نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الاعراف : 51] .

وقوله : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هاذا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ [السجدة : 14] .

وقوله : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كالذين نَسُوا الله فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : 19] الآية .

انتهى .

أما النسيان الذي هو ضد الذكر ، وهو الترك عن قصد ، فليس داخلاً هنا ، لأن هذه الأمة قد أعفيت من المؤاخذة عليه ، كما في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : 286] . الآية .

وفي الحديث أن الله تعالى قال : " قد فعلت قد فعلت " أي عند ما تلاها صلى الله عليه

وسلم.

وجاء في السنة "إن الله قد تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"

وقد بين الشيخ – رحمة الله تعالى عليه – هذا النوع في دفع إيهام الاضطراب على الجواب عن الإشكال الموجود في نسيان آدم، هل كان عن قصد أو عن غير قصد، وإذا كان عن غير قصد، فكيف يؤاخذ ؟. وبين خصائص هذه الأمة في هذا الباب رحمة الله تعالى عليه، فليرجع إليه.

وإذا تبين المراد بالتحذير من مشابهتهم في النسيان، وتبين معنى النسيان، فكيف أنساهم الله أنفسهم ؟ وهذه مقتطفات من أقوال المفسرين في هذا المقام لزيادة البيان:

قال ابن كثير رحمه الله: لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العمل الصالح، فإن الجزاء من جنس العمل.

وقال القرطبي: نسوا الله أي تركوا أمره، فأنساهم أنفسهم أن يعملوا لها خيراً.

وقال أبو حيان: الذين نسوا الله هم الكفار تركوا عبادة الله، وامتثال ما أمر واجتناب ما نهى فأنساهم أنفسهم حيث لم يسعوا إليها في الخلاص من العذاب، وهذا من المجازات على

الذنب بالذنب . إلخ .

وقال ابن جرير : تركوا أداء حق الله الذي أوجبه عليهم ، وهذا من باب الجزاء من جنس العمل .

أما الزمخشري والفخر الرازي ، فقد أدخلا في هذا المعنى مبحثاً كلامياً حيث قالا في معنى ﴿ نَسُواْ اللَّهَ ﴾ [الحشر : 19] كما قال الجمهور ، أما في معنى ﴿ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : 19] فذكرا وجهين . الأول : كالجمهور ، والثاني : بمعنى ، أراهم يوم القيامة من الأهوال ما نسوا فيه أنفسهم كقوله تعالى : ﴿ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم : 43] ، وقوله : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى ﴾ [الحج : 2] اه .

وهذا الوجه الثاني لا يسلم لهما ، لأن ما ذهبا إليه عام في جميع الخلائق يوم القيامة ، وليس خاصاً بما نسي الله كما قال تعالى في نفس الآية التي استدلا بها ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ﴾ ، فهو عام في جميع الناس .

وقوله: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج: 2]. والذهول أخو النسيان، وهو هنا عام في كل مرضعة ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ [الحج: 2] وهو أيضاً عام، وذلك من شدة الهول يوم القيامة، ولعل الحامل لهما على إيراد هذا الوجه مع بيان ضعفه، هو فرارهم من نسبة الإنساء إلى الله، وفيه شبهة العتزال كما لا يخفى. ولوجود إسناد الإنساء إلى لاشيطان في بعض المواضع كما في قصة صاحب موسى: ﴿ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ [الكهف: 63]، وكما في قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى مَعَ القوم الظالمين ﴾ [الأنعام: 68]، وقوله: عن صاحب يوسف: ﴿ فَأَنسَاهُ الشيطان ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف: 42].

ولكن الصحيح عند علماء السلف أن حقيقة النسيان والإنساء والتذكير كحقيقة أي معنى من المعاني، وأنها كلها من الله ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ الله ﴾ [النساء: 78]، ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ الله لَنَا ﴾ [التوبة: 51] فما نسب إلى الشيطان فهو بتسليط من الله كما في قوله تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرء وَزَوْجِهِ ﴾ [البقرة: 102]، ثم قال: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله ﴾ [البقرة: 102] فيكون إسناد الإنساء إلى الشيطان من باب قول الخليل عليه السلام ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: 80] تأدباً في الخطاب مع الله تعالى، ولكن هذا المقام مقام إخبار من الله عما أوقعه بهؤلاء الذين نسوا ما أمرهم به فأنساهم، فأوقع عليهم النسيان لأنفسم

مجازاة لهم على أعمالهم ، فكان نسبته إلى الله وبإخبار من الله عين الحق وهو أقوى من أسلوب المقابلة : نسوا الله فنسيهم .

تنبيهان

(403/757)

الأول : جاء في مثل هذا السياق سواء بسواء قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ اليوم نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ [الجاثية : 34] .

وقوله : ﴿ ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هاذآ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾

[السجدة : 14] .

وقوله : ﴿ نَسُواْ الله فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : 67] ، وفي هذا نسبة النسيان إلى الله تعالى فوقع الإشكال مع قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ [مريم : 64] وقوله : ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾ [طه : 52] .

وقد أجاب الشيخ – رحمة الله عليه – عن ذلك في دفع إيهام الاضطراب ، بأن النسيان المثبت بمعنى الترك كما تقدم ، والمنفي عنه تعالى : هو الذي بمعنى السهو ، لأنه محال على الله تعالى .

التنبيه الثاني

مما نص عليه الشيخ – رحمة الله تعالى عليه – في مقدمة الأضواء ، أن من أنواع البيان أن يوجد في الآية اختلاف للعلماء وتوجد فيها قرينة دالة على المعنى المراد ، وهو موجود هنا في هذه المسألة وهو قوله تعالى : ﴿ اليوم نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ [الجاثية : 34] وهذا القول يكون يوم القيامة ، وقد عبر عن النسيان بصيغة المضارع وهي للحال أو الاستقبال ، ولا يكون النسيان المخبر عنه في الحال إلا عن قصد وإرادة ، وكذلك لا يخبر عن نسيان سيكون في المستقبل إلا عن قصد وإرادة ، وهذا في النسيان بمعنى الترك عن قصد ، أما الذي بمعنى السهو فيكون بدون قصد ولا إرادة ، فلا يصح التعبير عنه بصيغة المضارع ولا الإخبار بإيقاعه عليهم في المستقبل ، فصح أن كل نسيان نسب إلى الله فهو بمعنى الترك ، وكان قوله تعالى : ﴿ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : 19] مفسراً ومبيناً لمعنى ﴿ اليوم نَنسَاكُمْ ﴾ [الجاثية : 34] ولقوله ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [السجدة : 14] والعلم عند الله تعالى .

(404/757)

لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20)

دلت هذه الآية الكريمة على عدم استواء الفريقين: أصحاب النار وأصحاب الجنة. وهذا أمر معلوم بداهة، ولكن جاء التنبيه عليه لشدة غفلة الناس عنه، ولظهور أعمال منهم تغاير هذه القضية البديهية، كمن يسيء إلى أبيه فتقول له: إنه أبوك، قاله بعض المفسرين. وهذا في أسلوب البيان يراد به لازم الخبر. أي يلزم من ذلك التنبيه أن يعملوا ما يبعدهم عن النار ويجعلهم من أصحاب الجنة، لينالوا الفوز

وهذا البيان قد جاءت نظائره عديدة في القرآن كقوله تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِي الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ [ص: 28] وكقوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة: 18] أيفي الحكم عند الله، ولا في الواقع في الحياة أو في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات أَن نَّجْعَلَهُمْ كالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: 21] وهنا كذلك ﴿ لاَ يستوي أَصْحَابُ النار وَأَصْحَابُ الجنة ﴾ [الحشر: 20] في المرتبة والمنزلة والمصير.

قال أبو حيان: هذا بيان مقابلة الفريقين أصحاب النار في الجحيم، وأصحاب الجنة في النعيم، والآية عند جمهور المفسرين في بيان المقارنة بين الفريقين، وهو ظاهر السياق بدليل ما فيها من قوله: ﴿ أَصْحَابُ الجنة هُمُ الفآئزون ﴾، فهذا حكم على أحد الفريقين

بالفوز ، ومفهومه الحكم على الفريق الثاني بالهلاك والخسران ، ويشهد له أيضاً ما قبلها ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ ﴾ [الحشر : 19] أي من هذا الفريق فأنساهم أنفسهم ، فصاروا أصحاب النار على ما سيأتي بيانه إن شاء الله .

(405/757)

وهنا احتمال آخر ، وهو لا يستوي أصحاب النار في النار ولا أصحاب الجنة في الجنة ، فيما هم فيه من منازل متفاوتة كما أشار إليه أبو حيان عند قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الحسنة وَلَا السيئة ﴾ [فصلت : 34] ، ولكن عدم وجود اللام هنا يجعله أضعف احتمالاً ، وإلا لقال : لا يستوي أصحاب النار ، ولا أصحاب الجنة ، وهذا المعنى ، وإن كان واقعاً لتفاوت درجات أهل الجنة في الجنة ، ومنازل أهل النار في النار ، إلا أن احتماله هنا غير وارد ، لأن ىخر الآية حكم على مجموع أحد الفريقين ، وهم أصحاب الجنة أي في مجموعهم كأنه في مثابة القول : النار والجنة لا يستويان ، فأصحابهما كذلك .

وقد نبه أبو السعود على تقديم أصحاب النار ، في الذكر على أصحاب الجنة بأنه ليبين لأول وهلة أن النقص جاء من جهتهم كما في قوله : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظلمات والنور ﴾ [الرعد : 16] اه .

وبيان ذلك أن الفرق بين المتفاوتين في الزيادة والنقص ، يمكن اعتبار التفاوت بالنسبة إلى النقص في الناقص ، ويمكن اعتباره بالنسبة إلى الزيادة في الزائد .

فقدم الجانب الناقص ليبين أن التفاوت الذي حصل بينهما ، إنما هو بسبب النقص الذي جاء منهام لا بسبب الزيادة في الفريق الثاني : والنتيجة في ذلك عدم إمكان جانب النقص الاحتجاج على جانب الزيادة ، وفيه زيادة تأنيب لجانب النقص ، وفي الآية إجمال أصحاب النار وأصحاب الجنة .

ومعلوم أن كلمة أصحاب تدل على الاختصاص ، فكأنه قال : أهل النار وأهل الجنة المختصون بهما .

وقد دل القرآن أن أصحاب النار هم الكفار كما قال تعالى ﴿ والذين كَفَروا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : 39] .

(406/757)

والخلود لا خروج معه كما في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله ﴾ [البقرة : 165] إلى قوله ﴿ وَقَالَ الذين اتبعوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ الله أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النار ﴾ [البقرة

: 166 – 167] وكقوله في سورة الهمزة ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الحطمة وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحطمة نَارُ الله الموقدة التي تَطَّلِعُ عَلَى الأفئدة إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ [الهمزة : 3 – 8] أي : مغلقة عليهم .

أما أصحاب الجنة فهم المؤمنون كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ أولئك أَصْحَابُ الجنة خَالِدِينَ فِيهَا جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف : 13 – 14] وقد جمع القسمين في قوله تعالى ﴿ بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خطيائته فأولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أولئك أَصْحَابُ الجنة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : 81 – 82] .

كما جاء مثل هذا السياق كاملاً متطابقاً فيفسر بعضه بعضاً كما قدمنا ، وذلك في سورة التوبة قال تعالى ﴿ لْمُنَافِقُونَ والمنافقات بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بالمنكر وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعروف وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ الله فَنَسِيَهُمْ إِنَّ المنافقين هُمُ الْفَاسِقُونَ وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ والمنافقات والكفار نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ الله وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة : 67 – 68] .

فهذه أقسام الكفر والنفاق ، وأخص أصحاب النار والاختصاص من الخلود فيها ولعنهم وهي حسبهم ، وهم الذين نسوا الله فنسيهم ، وهم عين من ذكر في هذه السورة سورة الحشر ، ثم جاء مقابلة تماماً في نفس السياق في قوله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَيُقِيمُونَ الصلاة وَيُؤْتُونَ الزكاة وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ أولئك سَيَرْحَمُهُمُ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ الله أَكْبَرُ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ [التوبة : 71 - 72] .

وهذه أيضاً أخص صفات أهل الجنة ، من الرحمة والرضوان ، والخلود ، والإقامة الدائمة في جنات عدن ، إذ العدن الإقامة الدائمة ، ومنها المعدن لدوام إقامته في مكانه ، ورضوان من الله أكبر .

ثم يأتي الخاتم في المقامين متحداً ، وهو الحكم بالفوز لأصحاب الجنة ، ففي آية التوبة ﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ [بالتوبة : 72] وفي آية الحشر ﴿ أَصْحَابُ الجنة هُمُ الفائزون ﴾ ، وبهذا علم من هم أصحاب النار ، ومن هم أصحاب الجنة .

وتبين ارتباط هذه المقابلة بين هذين الفريقين ، وبين ما قبلهم ممن سنوا فأنساهم أنفسهم ، ومن اتقوا الله وقدموا لغدهم ، وبهذا يعلم أن عصاة المسلمين غير داخلين هنا في أصحاب النار ، لما قدمنا من أن أصحاب النار هم المختصون بها ممن كفروا بالله وكذبوا بآياته ،

وكما يشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ [مريم : 71 – 72] ، والظالمون هنا هم المشركون في ظلمهم أنفسهم .

(408/757)

وبهذا يرد على المعتزلة أخذهم من هذه الآية عدم دخول أصحاب الكبيرة الجَنَّة على أنهم في زعمهم لو دخلوها لا ستووا مع أصحاب الجنة .

وهذا باطل كما قدمنا ، ومن ناحية أخرى يرد بها عليهمن وهي أن يقال : إذا خلد العصاة في النار على زعمكم مع ما كان منهم من إيمان بالله وعمل صالح فماذا يكون الفرق بنهم وبين الكفار والمشركين ، وتقدم قوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين ﴾ [ص : 28] .

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى عليه ، مسألة بقاء العصاءة وخروجهم من النار وخلود الكفار فيها بحثاً واسعاً في دفع إيهام الاضطراب في سورة الأنعام فليرجع إليه .

وقد استدل الشافعي رحمه الله ، بهذه الآية أن المسلم لا يقتل بالذمي ولا بكافر لأنهما لا يستويان ، وأن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالهقر . ذكره الزمخشري .

وهذا وإن كان حقاً إلا أن أخذه من هذه الآية فيه نظر ، لأنها في معرض المقارنة للنهاية يوم القيامة .

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا ﴾ يدل على أنه لم ينزله ، وأنه ذكر على سبيل المثال ليتفكر الناس في أمره كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ [الرعد : 31] الآية .

قال الشيخ رحمة الله تعالى عليه ، عندها : جواب لو محذوف .

قال بعض العلماء : تقديره لكان هذا القرآن إلخ اه .

وقال ابن كثير : يقول تعالى : معظماً لأمر القرآن ومبيناً علو قدره ، وأه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد ، ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هذا القرآن ﴾ الآية .

فإن كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل .

فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتهم عن الله أمره وقد تدبرتم كتابه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وقد وجد لبعض الناس شيئاً من ذلك عن سماع آيات من القرآن ، من ذلك ما رواه ابن كثير في سورة الطور عن عمر رضي الله عنه قال : خرج عمر رضي الله عنه يعس بالمدينة ذات ليلة فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائماً يصلي فوقف يستمع قراءته فقرأ والطور حتى بلغ إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع . قال : قسم ورب الكعبة حق ، فنزل عن حماره واستند إلى حائط فمكث ملياً ثم رجع إلى منزله فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه .

وذكر القرطبي : قال جبير بن مطعم قدمت المدينة لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر فوافيته يقرأ في صلاة المغرب والطور إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور : 7 – 8] ، فكأنما صدع قلبي فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب . وذكر في خبر مالك بن

دينار أنه سمعها فجعل يضطرب حتى غشي عليه اه .

وقد نقل السيوطي في الإتقان خبر مالك بن دينار بتمامه في فصل إعجاز القرآن .

(410/757)

وقال : قد مات جماعة عند سماع آيات منه أفردوا بالتصنيف ، وقد ينشأ هنا سؤال كيف يكون هذا تأثير القرآن لو أنزل على الجبال ولم تتأثر به القلوب ، وقد أجاب القرآن عن ذلك في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذلك فَهِيَ كَالحِجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة : 74] ، وكذلك أصموا آذانهم ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا على قلوبهمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الكهف : 57] أي : بسبب الإعراض وعدم التدبر والنسيان ، ولذا قال تعالى عنهم : ﴿ ﴾ [محمد : 24]

فهذه أسباب عدم تأثر الكفار بالقرآن كما قال الشاعر :

يكن للمرء عين صحيحة . . . ا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

ه بمفهوم المخالفة أن المؤمنين تخشع قلوبهم وتلين جولدهم ، كما نص تعالى عليه بقوله تعالى :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ذَلِكَ هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [الزمر : 23]

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا ﴾ يدل على أنه لم ينزله على جبل ولم يتصدع منه .

وقد جاء في القرآن ما يدل عليه : لو أنزله ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب : 72] .

وهذا نص صريح لان الجبال أشفقت من حمل الأمانة وهي أمانة التكليف بمقتضى خطاب الله تعالى إياها .

فإذا كانت الجبال أشفقت لمجرد العرض عليها فكيف بها لو أنزل عليها وكلفت به .

ومنها : أن الله تعالى لما تجلى للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً .

والقرآن كلام الله وصفة من صفاته ، فهو شاهد وإن لم يكن نصاً .

(411/757)

ومنها النص على أن بعض الجبال التي هي الحجارة ليهبط من خشية الله لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المآء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [البقرة : 74] .

وقد جاء في السنة إثبات ما يشبه لك في جبل أُحد ، حينما صعد عليه النّبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان رضي الله عنهما فارتجف بهم ، فقال صلى الله

عليه وسلم : " أثبت أحد فإن عليك نبي وصديق شهيدان "

وسواء كان ارتجافه إشفاقاً أو إجلالاً فدل هذا كله على أنه تعالى : وإن لم ينزل القرآن على جبل أنه لو أنزله عليه لرأيته كما قال تعالى : ﴿ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ .

وبهذا أيضاً يتضح أن جواب لو في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ [الرعد : 31] لكان هذا القرآن أرجح من تقديرهم لكفرتم بالرحمن ، لأن موضوع تسيير الجبال وخشوعها وتصديعها واحد ، وهو الذي قدمه الشيخ رحمة الله تعالى عليه هناك ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

الأمثال : جمع مثل ، وهو مأخوذ من المثل ، وأصل المثل الانتصاب ، والممثل بوزن اسم المفعول المصور على مثال غيره .

قال الراغب الأصفهاني ، يقال : مثل الشيء إذا انتصب وتصور ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " من أحب أن يمثل له الرجال فليتبوأ مقعده من النار " والتمثال : الشيء المصور ، وتمثل كذا تصور قال تعالى : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ [مريم : 17] .

والمثل : عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره ، نحو قولهم : الصيف ضيعت اللبن ، فإن هذا القول يشبه قولك : أهملت وقت الإمكان أمرك ، وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال فقال :

﴿ وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر : 21] .

وفي آية أخرى : ﴿ وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العالمون ﴾ [العنكبوت : 43] .

والمثال يقال على وجهين :

أحدهما : بمعنى المثل نحو مشبه ومشبه به ، قال بعضهم : وقد يعبر بهما عن وصف الشيء ، نحو قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون ﴾ الرعد : 35] .

والثاني : عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أي معنى كان ، وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة .

وذلك ان الند يقال فيما يشارك ف الجوهر فقط .

والشبه يقال فيما يشارك في الكيفية فقط .

والمساوي يقال فيما يشارك في الكمية فقط .

والشكل يقال فيما يشارك في القدر والمساحة فقط ، والمثل عام في جميع ذلك .

ولهذا لما أراد الله تعالى نفي التشبيه من كل وجه خصه بالذكر فقال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ

﴾ [الشورى : 11] . إلخ اه .

فقوله في تعريف المثل . إنه عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر ، بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره .

فإنهم اتفقوا على أن القول لا يتغير بل يحكى على ما قيل أولاً كقولهم : الصيف ضيعت اللبن بكسر التاء خطاباً للمؤنثة .

فلو قيل لرجل أهمل وقت الإمكان ثم راح يطلبه بعد فواته ، لقلت له : الصيف ضيعت اللبن بكسر التاء على الحكاية .

وهذا مما يسمى الاستعارة التمثيلية من أبلغ الأساليب ، وأكثر ما في القرآن من أمثلة إنما هو من قبيل التشبيه التمثيلي ، وهو تشبيه صورة بصورة ، وهو من أوضح أساليب البيان .

(413/757)

وقد ساق الشيخ رحمة الله تعالى عليه ، عدداً منها في الجزء الرابع عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا القرآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف : 54] ، ومن أهم أغراض هذا النوع من التشبيه هو بيان صورة بصورة وجعل الخفي جلياً ، والمعنوي محسوساً كقوله تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحق والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ

يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ [الرعد : 14].

فلو نظرت إلى مثل هذا الشخص على هذه الحالة ، وفي تلك الصورة بكل أجزائها ، وهو باسط يده مفرجة الأصابع إلى ماء بعيد عنه ، وهو فاغر فاه ليشرب ، لقلت وأي جدوى تعود عليه ، ومتى يذوق الماء وهو على تلك الحالة ، إنه يموت عطشاً ولا يذوق منه قطرة .

وكذلك حال من يدعو غير الله مع ما يدعوهم من دونه لا يحصل على طائل كقوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 41] فأي غناء لإنسان في بيت العنكبوت .

وكذلك أي غناء في ولاية غير الله فكذلك الحال هنا ، أريد بالأمثال صور يصور لانتزاع الحكم من السامع بعد أن تصبح الصورة محسوسة ملموسة ، وانظر قوله تعالى :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة : 187] وكيف غطى وأخفى في هذا الأسلوب ما يستحي منه وأبرزه بلباسه في التشبيه بما يتقي به ، ومدى مطابقة معنى اللباس لحاجة كل من الزوجين للآخر ، وتلك في قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأمثال ﴾ عائدة إلى الأمثلة المتقدمة قريباً في عمل المنافقين مع اليهود ونتائج أعمالهم ، وهكذا كل موالاة بين غير المسلمين وكل معاداة وانصراف عما جاء به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

وكذلك في بيان مدى فعالية القرآن وتأثيره ، لو أنزل على الجبال لخشعت وتصدعت ، مما يستوجب التفكير فيه والأتعاظ به ، ثم مثال الفريقين في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : 19] ، ونتيجة ذلك في الآخرة من عدم استواء الفريقين ، فأصحاب نار وأصحاب جنة .

ولكأن الأمثال هنا والتنبيه عليها إشارة إلى أن أولئك بنسيانهم لله وإنسائه إياهم أنفسهم ، صاروا بهذا النسيان أشد قساوة من الجبال ، بل إن الجبال أسرع تأثراً بالقرآن منهم لو كانوا يتفكرون .

وقد قال أبو السعود : إنه أراد توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وعدم تخشعه عند تلاوته وقلة تدبره فيه اه .

وهكذا بهذه الأمثلة ينتزع الحكم من السامع على أولئك المعرضين الغافلين بأن قلوبهم قاسية كالجبال أو أشد قسوة كما قدمنا ، بخلاف المؤمنين تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ

مَن يَشَآءُ ﴾ [الزمر : 23] .

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)

جاءت في هذه الآيات الثلاث : ذكر كلمة التوحيد مرتين ، كما ذكر فيها أيضاً تسبيح الله مرتين وذكر معهما العديد من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ، كفانت بذلك مشتملة على ثلاث قضايا أهم قضايا الأديان كلها مع جميع الأمم ورسلهم ، لأن دعوة الرسل كلها في توحيد الله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته وتنزيهه ، والرد على مفتريات الأمم على الله تعالى :

فاليهود قالوا : عزير ابن الله .

والنصارى قالوا المسيح ابن الله .

والمشركون قالوا : ﴿ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ [مريم : 88] ، ﴿ وَجَعَلُوا الملائكة الذين

هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً ﴾ [الزخرف : 19] ، وقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها وَاحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : 5] .

فكلهم ادعى الشريك مع الله ، وقالوا : ثالث ثلاثة وغير ذلك .

وكذلك في قضية التنزيه ، فاليهود قالوا : ﴿ إِنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران : 181] ، وقالوا : ﴿ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [المائدة : 64] .

والمشركون قالوا : ﴿ وَمَا الرحمن أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾ [الفرقان : 60] ، ونسبوا الله مالا يرضاه أحدهم لنفسه ، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، في الوقت الذي إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم .

(416/757)

وهذا كما تراه أعظم افتراء على الله تعالى ، وقد سجله عليهم القرآن في قوله تعالى ﴿ وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً ﴾ [الكهف : 4 - 5] وكما قال تعالى : ﴿ أَلاَ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ الله وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الصافات : 151 - 152] ، وقال مبيناً جرم مقالتهم ، ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض

وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ [مريم : 88 - 92] .

فكانت تلك الآيات الثلاث علاجاً في الجملة لتلك القضايا الثلاث ، توحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وتنزيه الله سبحانه وتعالى مع إقامة الأدلة عليها .

وقد اجتمعت معاً لأنه لا يتم أحداه إلا بالآخرين ، ليتم الكمال لله تعالى .

قال أبو السعود : إن الكمالات كلها مع كثرتها وتشعبها راجعة إلى الكمال في القدرة والعلم اه .

وهذا كله متوفر في هذا السياق ، وقد بدأ بكلمة التويحد ، لأنها الأصل ، لأن من آمن بالله وحده آمن بكل ما جاء عن الله ، وآمن بالله على ما هو له أهل ، ونزهه عما ليس له بأهل قال تعالى : ﴿ هُوَ الله الذي لاَ إله إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغيب والشهادة هُوَ ﴾ [الحشر : 22] ثم أعقبه بالدليل على إفراده تعالى بالوهية بما لا يشاركه غيره فيه بقوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الغيب والشهادة ﴾ [الحشر : 22] .

وهذا الدليل نص عليه على أنه دليل لوحدانية الله تعالى في مواضع أخرى منها قوله تعالى ﴿ إِنَّمَآ إلهكم الله الذي لا إله إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾

[طه : 98] ووسع كل شيء هنا تساوى عالم الغيب والشهادة، ومنها قوله تعالى ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الذي يُخْرِجُ الخبء فِي السماوات والأرض وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ الله لَا إله إِلَّا هُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ [النمل : 25 – 26]. وقوله تعالى ﴿ الله لَا إله إِلَّا هُوَ الحي القيوم لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : 255] إلى قوله ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : 255].

وهذا قطعاً لا يشاركه فيه غيره، كما قال تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : 59] فكان من حقه على خلقه أن يعبدوه وحده لا إله إلا هو، وجاء بدليل ثان، وهو قوله تعالى ﴿ هُوَ الرحمن الرحيم ﴾ وقد نص عليه صراحة أيضاً كدليل على الوحدانية في قوله تعالى ﴿ وإلهكم إله وَاحِدٌ لَّا إله إِلَّا هُوَ الرحمن الرحيم ﴾ [البقرة : 163] فهو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة.

من رحمته التي اختص بها في الدنيا قوله : ﴿ وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ [الشورى : 28] وقوله : ﴿ فانظر إلى آثَارِ رَحْمَةِ الله كَيْفَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [الروم : 50] أي : بإنزاله الغيب وإنبات النبات مما لا يقدر عليه إلا هو فكان حقه على خلقه أن يعبدوه وحده لا إله إلا هو.

وقد جمع الدليلين العلم والرحمة معاً في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ﴾ [غافر : 7] .

(418/757)

ثم جاءت كلمة التوحيد مرة أخرى ، ﴿ هُوَ اللهُ الذي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ ، وجاء بعدها من الصفات الجامعة قوله : ﴿ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ ، وهذا الدليل على وحدانيته تعالى نص عليه في موضع آخر صريحاً في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الناس إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض لا إله إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [الأعراف : 58] فالذي له ملك السماوات والأرض هو الملك الحق الكامل الملك ، وهو الذي يملك التصرف في ملكه كما يشاء بالإحياء والإماتة وحده ، كما قال تعالى ﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الذي خَلَقَ الموت والحياة ﴾ [الملك : 1 - 2] وهو القدوس السلام المؤمن المهيمن على ملكه كما في قوله أيضاً ﴿ اللهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ الحي القيوم لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السماوات والأرض وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العلي العظيم ﴾ [البقرة :

255] فالقيوم هو المهيمن والقائم بكل نفس ، العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، ثم جاء بالدليل الأعظم في قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللهُ الخالق البارئ المصور ﴾ فهو وحده المتفرد بالخلق والإيجاد ، والإبداع والتصوير ، وقد نص على هذا الدليل في أكثر من موضع كما في قوله تعالى :

﴿ خَلَقَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان : 10] ثم قال : ﴿ هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ بَلِ الظالمون فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان : 11].

ومعلوماً ، ها لم تخلق شيئاً كما قال تعالى موبخاً لهم : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف : 191].

وبين أنهما لا يستويان في قوله : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 17] ، ثم بين نهاية ضعفها وعجزها في قوله تعالى : ﴿ واتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً

﴾ [الفرقان: 3] وهذا غاية العجز. كما ضرب لذلك المثل بقوله: ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجتمعوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ [الحج: 73] فهم حقاً لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولو بقدر الذبابة؟ وهكذا ترى صفة الخلق المتصف بها سبحانه وتعالى أعظم دليل على وحدانية الله تعالى، وهي متضمنة صفة التصوير والعلم لأن لكل مخلوق صورة تخصه؟ ولا يكون ذلك إلا عن علم بالغيب والشهادة، كما تقدم.

(420/757)

وهكذا أيضاً كان هذا الدليل أقوى الأدلة على البعث، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: 77 – 79] إلى آخر السورة.

وكذلك في قوله تعالى صريحاً في ذلك ونصاً عليه: ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأرحام مَا نَشَآءُ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لتبلغوا أَشُدَّكُمْ

وَمِنكُمْ مَّن يتوفى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5] ثم قال تعالى : ﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق وَأَنَّهُ يُحْيِي الموتى وَأَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الساعة آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِي القبور ﴾ [الحج : 6 - 7] .

ثم بين تعالى أن جاحد هذا الدليل إنما هو مكابر جاهل ، ضال مضل ، وذلك في قوله بعده مباشرة : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله لَهُ فِي الدنيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القيامة عَذَابَ الحريق ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلعَبِيدِ ﴾ [الحج : 8 - 10] .

(421/757)

ومن هنا كان أول نداء في المصحف يوجه إلى الناس جميعاً بعبادة الله كان لاستحقاقه عبادته وحده ، لأنه متصف بصفة الخلق كما قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الناس اعبدوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً والسماء بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 21 - 22] . أي لأنهم ليسوا له بأنداد فيما اتصف به سبحانه فلا

تشركوهم مع الله في عبادته.

فكانت هذه الصفات لله تعالى في آخر هذا السورة حقاً أدلة على إثبات وحدانية الله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته، وأنه المستحق لأن يعبد وحده لا إله إلا هو.

والواجب على الخلق تنزيهه عما لا يليق بجلاله سبحانه وتعالى عما يشركون، يسبح له ما في السموات والأرض، لأنها من مخلوقاته وهو العزيز الحكيم، وقوله تعالى ﴿ لَهُ الأَسْمَآءُ الحسنى ﴾ لم يبين هنا المراد من أنه سبحانه له الأسماء الحسنى، وقد بين في سورة الأعراف المراد بذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَآءُ الحسنى فادعوه بِهَا ﴾ [الأعراف: 180].

قال القرطبي: سمى الله سبحانه أسماءه بالحسنى، لأنها حسنة في الأسماع والقلوب، فإنها تدل على توحيده وكرمه وجوده وإفضاله، ومجيء، قوله تعالى: ﴿ لَهُ الأَسْمَآءُ الحسنى ﴾ بعد تعداد أربعة عشر اسماً من أسمائه سبحانه يدل على أن له أكثر من ذلك، ولم يأت حصرها ولا عدها في آية من كتاب الله.

وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: "إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر"

وسرد ابن كثير عدد المائة مع اختلاف في الروايات.

وذكر عند آية الأعراف أنها ليست محصورة في هذا العدد لحديث ابن مسعود في مسند أحمد أنه صلى الله عليه وسلم قال : " ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثر به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي ، إلا أذهب الله حزنه وهمه " الحديث اه .

ومحل الشاهد منه ظاهر في أن لله أسماء أنزلها في كتبه وأسماء خص بها بعض خلقه كما خص الخضر بعلم من لدنه ، وأسماء استأثر بها في علم الغيب عنده ، كما يدل حديث الشفاعة : " فيلهمني ربي بمحامد لم أكن أعرفها من قبل " ، والواقع أنه لا تعارض بين الحديثين .

لأن الأول : يتعلق بعدد معين ، وبما يترتب عليها من الجزاء .

والحديث الثاني : يتعلق ببيان أقسام أسمائه تعالى ، من حث العلم بها وتعليمها وما أنزل منها وقد ذكر هذا الجمع ابن حجر في الفتح في كتاب الدعوات عند باب : لله مائة اسم غير واحد .

وقد حاول بعض العلماء استخراج المائة اسم من القرآن فزادوا ونقصوا لاعتبارات مختلفة

، وقد أطال في الفتح بحث هذا الموضوع في أربع عشرة صحيفة مما لا غنى عنه ولا يمكن نقله ، ولا يصلح تلخيصه .

وقد ذكر من أفردها بالتأليف .

كما أن القرطبي ذكر أنه ألف فيها ، وأساس البحث يدور على نقطتين :

الأولى : تعيين المائة اسم المرادة

والثانية : معنى أحصاها ، وفي رواية حفظها .

(423/757)

وقد حضرت مجلساً للشيخ رحمة الله تعالى عليه في بيته مع الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز وسأله عن الصحيح في ذلك ، فكان حاصل ما ذكر في ذلك المجلس أن التعيين لم يأت فيه نص صحيح ، وأن الإحصاء أو الحفظ لا ينبغي حمله على مجرد الحفظ للألفاظ غيباً ، ولكن يحمل على أحصى معانيها وحفظها من التحريف فيها والتبديل والتعطيل ، وحاول التخلق بحسن صفاتها كالحلم والعفو والرأفة والرحمة والكرم ، ونحو ذلك ، والحذر من مثل الجبار والقهار ، ومراقبة مثل : الحسيب الرقيب ، وكذلك التعرض لمثل التواب والغفور بالتوبة وطلب المغفرة ، والهادي والرزاق بطلب الهداية والرزق ونحو ذلك .

ونقل القرطبي عن ابن العربي عند قوله تعالى : ﴿ فادعوه بِهَا ﴾ [الأعراف : 180] أي اطلبوا منه بأسمائه ، فيطلب بكل اسم ما يليق به تقول : يا رحمن ارحَمني ، يا رزّاق ارزقني : يا هادي اهدني ، يا توّاب تب علي ، وهكذا رتب دعاءك تكن من المخلصين اه .

مسألة

يؤخذ من كلام ابن العربي هذا ما يقوله الفقهاء في ذكر اسم الله عند الذبح أن يقتصر على قوله : بسم الله ولا يقول الرحمن الرَّحيم ، لأن اسم الرحمن الرَّحيم يقتضي الرَّحمة ، وهي لا يتناسب معها الذبح ورسول الروح .

ويؤيد هذا ما ذكره ابن قدامة أنه ثبت عنه صلى الله عليه وسلم إنه كان إذا ذبح قال : " بسم الله والله أكبر " أي أكبر وأقدرك عليها ، وهو أكبر منك عليك منها .

فإذا فقه الإنسان أسماء الله الحسنى على هذا النحو ، كان حقاً قد أحصاها وحفظها في استعمالها في معانيها ، فكان حقاً من أهل الجنة ، والعلم عند الله تعالى .

(424/757)

ولقد استوقفني طويلاً مجيء هذه الآيات في نهاية هذه السورة تذييلاً لها وختاماً وبأسلوب الإجمال والتفصيل لقضايا التوحيد ، وإقامة الدليل ، وإلزام أهل الإلحاد والتعطيل ، فمكثت

طويلاً أتطلب ربطها بما قبلها ، فلم أجد في كل ما عثرت عليه من التفسير اكثر من شرح المفردات ، وإيراد بعض التنبيهات مما لا ينفذ إلى أعماق الموضوع ، ولا يشفي عليلاً في مجتمعاتنا الحديثة ، أو يذهب شبه المدنية المادية ، فرجعت إلى السورة بكاملها أتأمل موضوعها فإذا بها تبدأ أولاً بتسبيح العوالم كلها لله العزيز الحكيم ، وهذا أمر فوق مستوى الأدراك الإنساني ، ثم تسوق أعظم حدث تشهده المدينة بعد الهجرة من إخراج اليهود ، ولم يكن مظنوناً إخراجهم ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا فكانوا موضع العبرة والموعظة .

ثم تأتي الموقف فريقين متقابلين ، فريق المؤمنين والكافرين .

يتمثل الفريق الاول في المهاجرين والأنصار وما كانوا عليه من أخوة ومودة ورحمة وعطاء وإيثار على النفس .

ويتمثل افريق الآخر في المنافقين واليهود ، وما كان بينهم من مواعدة وإغراء وتحريض ، ثم تخل عنهم وخذلان لهم .

فكان في ذلك تصوير لحزبين متقابلين متناقضين حزب الرحمن ، وحزب الشيطان ، وهي صورة المجتمع في المدينة آنذاك .

ثم تأتي إلى مقارنة أخرى بين نتائج هذين الحزبين ومنها هما وعدم استوائهما ، وفي ذلك تقرير

المصير : ﴿ لاَ يستوي أَصْحَابُ النار وَأَصْحَابُ الجنة أَصْحَابُ الجنة هُمُ الفآئزون ﴾ [الحشر : 20] .

(425/757)

وهذه أخطر قضية في كل أمة أي تقرير مصيرها ، ثم بيان حقيقة تأثير القرآن وفعاليته في المخلوقات ، ولو كانت جبلاً أشم أو حجراً أصم لو أنزل عليه لرأيته خاشعاً متصدعاً من خية الله ، فإذا بها قد اشتملت على موضوع الخلق والخالق والأمة اولرسالة والبدء والنهاية وصراع الحق مع الباطل ، والكفر والإيمان والنفوس في الشح والإحسان ، وكلها مواقف عملية ومناهج واقعية وأمثلة بيانية ﴿ وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر : 21] .

فإذا ما توجه الفكر في هذا العرض ، وتنقل من موقف إلى موقف ، وتأمل صنع الله وقدرته وآياته ، نطق بتسبيحه ، وعلم أنه سبحانه هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، علم ما سيكون عليه العالم قبل وجوده ، فأوجده على مقتضى علمه به ، وسيره على النحو الذي أوجده عليه ، علم خذلان المنافقين لليهود قبل أن يحرضهم ، فكان كما علم سبحانه وحذر من مشابهتهم ، وعلم أنه لو أنزل القرآن على جبل ماذا يكون حاله ، فحص

العباد بالأخذ به ، ولعلمه هذا بالغيب والشهادة ، كان حقاً هو الله وحده .

ثم مرة أخرى : ﴿ هُوَ اللهُ الذي لاَ إله إلاَّ هُوَ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ [الحشر : 23] ، برهان آخر في صورة متعددة ، وبراهين متنوعة على وحدانيته سبحانه الملك القدّوس ، الملك المهيمن على ملكه القدّوس المسلم من كل نقص ، المسيطر على ما في ملكه كله لا يعزب عنه مثقال ذرة . كما قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك : 1] .

وهنا وقفة لتأمل اجتماع تلك الصفات معاً عالم الغيب والشهادة ، والملك القدوس والسلام المهيمن ، فنجدها مترابطة متلازمة لأن العالم إذا لم يملك التصرف ولم يهيمن على شيء فلا فعالية لعلمه والملك الذي لا يعلم ولم يتقدس عن النقص لا هيمنة له على ملكه .

(426/757)

فإذا اجتمع كل ذلك وتلك الصفات : العلم والملك والتقديس والهيمنة ، حصل الكمال والجلال ، ولا يكون ذلك إلا لله وحده العزيز الجبار المتكبر ، ولا يشركه احد في شيء من ذلك سبحانه وتعالى عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى .

وهنا ، في نهاية هذا السياق يقف المؤمن وقفة إجلال وتعظيم لله .

فالخالق هو المقدر قبل الإيجاد .

والبارئ الموجد من العدم على مقتضى الخلق والتقدير ، وليس كل من قدر شيئًا أوجده إلا الله .

والمصور المشكل لكل موجود على الصورة التي أوجده عليها ، ولم يفرد كل فرد من موجوداته على صورة تختص به إلا الله سبحانه وتعالى ، كما هو موجود في خلق الله للإنسان والحيوان والنبات كل في صورة تخصه .

ووبالرجوع مرة أخرى إلى أول السياق ، فإن الخلق والتقدير لا بد أن يكون بموجب العلم سواء كان في الحاضر المشاهد أو للمستقبل الغائب ، وهذا لا يكون إلا لله وحده عالم الغيب والشهادة ، فكان تقديره بموجب علمه والملك القدوس القادر على التصرف في ملكه يوجد ما يقدره .

والمهيمن : يسير ما يوجد على مقتضى ما يقدره .

والذي قدر فهدى ، العزيز الذي لا يقهر الجبال الذي يقهر كل شيء لغرادته ، وتقديره ، ويخضعه ليهمنته .

المتكبر الذي لا يتطاول لكبريائه مخلوق ، وأكبر من أن يشاركه غيره في صفاته ، تكبر عن أن يماثله غيره أو يشاركه أحد فيما اختص به سبحان الله عما يشركون .

وفي نهاية السياق إقامة البرهان الملزم وانتزاع الاعتراف والتسليم ، ﴿ هُوَ اللهُ الخالق البارئ المصور ﴾ [الحشر : 24] وهو أعظم دليل كما تقدم ، وهو كما قال : دليل الإلزام ، لأن الخلق لا بد لهم من خالق ، وهذه قضية منطقية مسلمة ، وهي أن كل موجود لا بد له من موجد ، وقد ألزمهم في قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ [الطور : 35] ، وهذا بالسبر ، والتقسيم أن يقال : إما خلقوا من غير شيء خلقهم أي من العدم ، ومعلوم أن العدم لا يخلق شيئاً لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، والعدم ليس أمراً وجودياً حتى يمكن له أن يوجد موجوداً .

أم هم الخالقون ؟

وهم أيضاً يعلمون من أنفسهم أنهم لم يخلقوا أنفسهم ، فيبقى المخلوق لا بد له من خالق ، وهو الله تعالى : الخالق البارئ .

ولو قيل من جانب المنكر : إن ما نشاهده من وجود الموجود كالإنسان والحيوان والنبات يتوقف وجوده على أسباب نشاهدها ، كالأوين للحيوان وكالحرث والسقي للنبات إلخ ، فجاء قوله تعالى : ﴿ المصور ﴾ ، فهل الأبوان يملكان تصوير الجنين من جنس الذّكورة أو الأنوثة أو من جنس اللّون والطّول والقصر والشبه ؟

الجواب : لا وكلا ، بل ذلك لله وحده ، هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ، كما قال

تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذكور أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

[الشورى : 49 - 50] .

(428/757)

وكذلك في النبات ، توضع الحبة وتسقى بالماء ، فالتربة واحدة ، والماء واحد ، فمن الذي يصور شكل النبات هذا نجم على وجه الأرض ، وذاك نبت على ساق ، وهذا كرم على عرش ، وذاك نخل باسقات ، فإذا طلعت الثمرة في أول طورها فمن الذي يصورها في شكلها ، من استدارتها أو استطالتها أو غير ذلك ، وإذا تطورت إلى النضج فمن الذي صورها في لونها الأحمر أو الأصفر أو الأسود أو الأخضر أو الأبيض ؟ هل هي التربة أو الماء أو هما معاً ، لا وكلا . إنه هو الله الخالق البارئ المصور ، سبحانه له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض طوعاً وكرهاً .

وها ن عود على بدء يختم السورة بما بدأت به مع بيان موجباته واستحقاقه ، وآيات وحدانيته ، سبحانه لا إله إلا هو العزيز الحكيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(429/757)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الْحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ : " أَوَّلُ الْحَشْرِ جَلَاءُ بَنِي النَّضِيرِ مِنْ الْيَهُودِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ إلَى خَيْبَرَ وَمِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ إلَى الشَّامِ " وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : ﴿ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى صَالَحَهُمْ عَلَى الْجَلَاءِ فَأَجْلَاهُمْ إلَى الشَّامِ ، وَعَلَى أَنَّ لَهُمْ مَا أَقَلَّتْ الْإِبِلُ مِنْ شَيْءٍ إلَّا الْحَلْقَةَ ، وَالْحَلْقَةُ السِّلَاحُ .

(430/757)

﴿ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ انْتَظَمَ ذَلِكَ مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا مُصَالَحَةُ أَهْلِ الْحَرْبِ عَلَى الْجَلَاءِ عَنْ دِيَارِهِمْ مِنْ غَيْرِ سَبْيٍ وَلَا اسْتِرْقَاقٍ وَلَا دُخُولٍ فِي الذِّمَّةِ وَلَا أَخْذِ جِزْيَةٍ ، وَهَذَا الْحُكْمُ مَنْسُوخٌ عِنْدَنَا إذَا كَانَ بِالْمُسْلِمِينَ قُوَّةٌ عَلَى قِتَالِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ ؛ أَوْ أَدَاءِ الْجِزْيَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَ بِقِتَالِ الْكُفَّارِ حَتَّى يُسْلِمُوا أَوْ يُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ ، قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى – : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ ؛ فَغَيْرُ جَائِزٍ إذَا كَانَ بِالْمُسْلِمِينَ قُوَّةٌ عَلَى قِتَالِهِمْ ، وَإِدْخَالِهِمْ فِي الذِّمَّةِ أَوْ فِي الْإِسْلَامِ أَنْ يُجْلُوهُمْ ، وَلَكِنَّهُ لَوْ عَجَزَ الْمُسْلِمُونَ عَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ فِي إدْخَالِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ أَوْ الذِّمَّةِ جَازَ لَهُمْ مُصَالَحَتُهُمْ عَلَى الْجَلَاءِ عَنْ بِلَادِهِمْ وَالْمَعْنَى الثَّانِي : جَوَازُ مُصَالَحَةِ أَهْلِ الْحَرْبِ عَلَى مَجْهُولٍ مِنْ الْمَالِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَالَحَهُمْ عَلَى أَرَاضِيهِمْ وَعَلَى الْحَلْقَةِ وَتَرَكَ لَهُمْ مَا أَقَلَّتْ الْإِبِلُ ، وَذَلِكَ مَجْهُولٌ وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ فِيهِ أَمْرٌ بِالِاعْتِبَارِ وَالْقِيَاسُ فِي أَحْكَامِ الْحَوَادِثِ ضَرْبٌ مِنْ الِاعْتِبَارِ ، فَوَجَبَ اسْتِعْمَالُهُ بِظَاهِرِ الْآيَةِ .

وقَوْله تَعَالَى - : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاس وقَتَادَةُ : "كُلُّ نَخْلَةٍ لِينَةٌ سِوَى الْعَجْوَةِ" وقَالَ مُجَاهِدٌ وَعَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ : "كُلُّ نَخْلَةٍ لِينَةٌ" ، وقِيلَ : "اللِّينَةُ كِرَامُ النَّخْلِ" وروَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ : مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةِ النَّخْلَةِ ، نَهَى بَعْضُ الْمُهَاجِرِينَ عَنْ قَطْعِ النَّخْلِ وقَالَ : إنَّمَا هِيَ مَغَانِمُ الْمُسْلِمِينَ ، فَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِتَصْدِيقِ مَنْ نَهَى وَبِتَحْلِيلِ مَنْ قَطَعَهَا مِنْ الْإِثْمِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : صَوَّبَ اللَّهُ الَّذِينَ قَطَعُوا وَالَّذِينَ أَبَوْا وكَانُوا فَعَلُوا ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الِاجْتِهَادِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ : ﴿ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ : أَغِرْ عَلَى أُبْنَى صَبَاحًا وَحَرِّقْ ﴾ .

وَرَوَى قَتَادَةُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : "لَمَّا قَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ أَهْلَ الرِّدَّةِ قَتَلَ وَسَبَى وَحَرَّقَ" وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ قَالَ : ﴿ لَمَّا تَحَصَّنَ بَنُو النَّضِيرِ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَطْعِ نَخْلِهِ وَتَحْرِيقِهِ ، فَقَالُوا : يَا أَبَا الْقَاسِمِ مَا كُنْت تَرْضَى بِالْفَسَادِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ ﴾ الْآيَةَ ﴾ .

وروى عُثْمَانُ بْنُ عطَاءٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : " لَمَّا وَجَّهَ أَبو بكْرٍ الْجَيْشَ إِلَى الشَّامِ كَانَ فِيمَا أَوْصَاهُمْ بِهِ وَلَا تُقْطَعُ شَجَرَةٌ مُثْمِرَةٌ " قَالَ أَبو بكْرٍ : تَأَوَّلَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَيُغْنِمُهُمْ إِيَّاهَا وَتَصِيرُ لِلْمُسْلِمِينَ إِذَا غَزَوْا أَرْضَ الْحَرْبِ ، وَأَرَادُوا الْخُرُوجَ فَإِنَّ الْأَوْلَى أَنْ يُحَرِّقُوا شَجَرَهُمْ وَزُرُوعَهُمْ وَدِيَارَهُمْ .

وَكَذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا فِي مَوَاشِيهِمْ : " إِذَا لَمْ يُمْكِنْهُمْ إِخْرَاجُهَا ذُبِحَتْ ثُمَّ أُحْرِقَتْ " .

وَأَمَّا مَا رَجَوْا أَنْ يَصِيرَ فَيْئًا لِلْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُمْ إِنْ

تَرَكُوهُ لِيَصِيرَ لِلْمُسْلِمِينَ جَازَ ، وَإِنْ أَحْرَقُوهُ غَيْظًا لِلْمُشْرِكِينَ جَازَ ، اسْتِدْلَالًا بِالْآيَةِ وَبِمَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى - : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ ﴾ .

الْآيَةَ الْفَيْءُ الرُّجُوعُ ، وَمِنْهُ الْفَيْءُ فِي الْإِيلَاءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ فَاءُوا ﴾ ، وَأَفَاءَهُ عَلَيْهِ إِذَا رَدَّهُ عَلَيْهِ وَالْفَيْءُ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْضِعِ مَا صَارَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الشِّرْكِ ، فَالْغَنِيمَةُ فَيْءٌ وَالْجِزْيَةُ فَيْءٌ وَالْخَرَاجُ فَيْءٌ ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ مِمَّا مَلَّكَهُ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الشِّرْكِ .

وَالْغَنِيمَةُ ، وَإِنْ كَانَتْ فَيْئًا فَإِنَّهَا تَخْتَصُّ بِمَعْنًى لَا يُشَارِكُهَا فِيهِ سَائِرُ وُجُوهِ الْفَيْءِ ؛ لِأَنَّهَا مَا أُخِذَ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الْحَرْبِ عَنْوَةً بِالْقِتَالِ ، فَمِنْهَا مَا يَجْرِي فِيهِ سِهَامُ الْغَانِمِينَ بَعْدَ إِخْرَاجِ الْخُمُسِ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - .

وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الْحَدَثَانِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ : ﴿ كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ فَيْئًا مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِمَّا لَمْ يُوجِفْ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً ، وَكَانَ يُنْفِقُ مِنْهَا عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَةٍ وَمَا بَقِيَ جَعَلَهُ فِي الْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَهَذَا مِنْ الْفَيْءِ الَّذِي جُعِلَ الْأَمْرُ فِيهِ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيهِ حَقٌّ إلَّا مَنْ جَعَلَهُ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنْفِقُ مِنْهَا عَلَى أَهْلِهِ وَيَجْعَلُ الْبَاقِيَ فِي الْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ ؛ وَذَلِكَ لِمَا بَيَّنَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ، وَهُوَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُوجِفُوا عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، وَلَمْ يَأْخُذُوهُ عَنْوَةً ، وَإِنَّمَا أَخَذُوهُ صُلْحًا ، وَكَذَلِكَ كَانَ حُكْمُ فَدَكٍ وَقُرَى عُرَيْنَةَ فِيمَا ذَكَرَهُ الزُّهْرِيُّ وَقَدْ كَانَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْغَنِيمَةِ

الصَّفِيُّ وَهُوَ مَا كَانَ يَصْطَفِيهِ مِنْ جُمْلَةِ الْغَنِيمَةِ قَبْلَ أَنْ يُقْسَمَ الْمَالُ .

وَكَانَ لَهُ أَيْضًا سَهْمٌ مِنْ الْخُمُسِ ، فَكَانَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْفَيْءِ هَذِهِ الْحُقُوقُ يَصْرِفُهَا فِي نَفَقَةِ عِيَالِهِ وَالْبَاقِي فِي نَوَائِبِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيهَا حَقٌّ إلَّا مَنْ يَخْتَارُ هُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُعْطِيَهُ وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَالٍ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الشِّرْكِ لَمْ يَغْلِبْ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ عَنْوَةً ، وَإِنَّمَا أُخِذَ صُلْحًا أَنَّهُ لَا يُوضَعُ فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَيُصْرَفُ عَلَى الْوُجُوهِ الَّتِي يُصْرَفُ فِيهَا الْخَرَاجُ وَالْجِزْيَةُ ؛ لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ مَا صَارَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ حِينَ لَمْ يُوجِفْ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ .

وَقَوْله تَعَالَى - : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ الْآيَةَ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : بَيَّنَ اللَّهُ حُكْمَ مَا لَمْ يُوجِفْ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ الْفَيْءِ فَجَعَلَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَا قَدَّمْنَا مِنْ بَيَانِهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ حُكْمَ الْفَيْءِ الَّذِي أَوْجَفَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ فَجَعَلَهُ لِهَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ ، وَهُمْ الْأَصْنَافُ الْخَمْسُ الْمَذْكُورُونَ فِي غَيْرِهَا ، وَظَاهِرُهُ يَقْتَضِي أَنْ لَا يَكُونَ لِلْغَانِمِينَ شَيْءٌ مِنْهُ إلَّا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : " كَانَتْ الْغَنَائِمُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ لِهَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ ثُمَّ نُسِخَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ .

" قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمَّا فَتَحَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْعِرَاقَ سَأَلَهُ قَوْمٌ مِنْ الصَّحَابَةِ قِسْمَتَهُ بَيْنَ الْغَانِمِينَ ، مِنْهُمْ الزُّبَيْرُ وَبِلَالٌ وَغَيْرُهُمَا ، فَقَالَ : إنْ قَسَمْتهَا بَيْنَهُمْ بَقِيَ آخِرُ النَّاسِ لَا شَيْءَ لَهُمْ ؛ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَاَلَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ، وَشَاوَرَ عَلِيًّا وَجَمَاعَةً مِنْ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ ، فَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِتَرْكِ الْقِسْمَةِ ، وَأَنْ يُقِرَّ أَهْلَهَا عَلَيْهَا وَيَضَعَ عَلَيْهَا الْخَرَاجَ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ ، وَوَافَقَتْهُ الْجَمَاعَةُ عِنْدَ احْتِجَاجِهِ بِالْآيَةِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ وَأَنَّهَا مَضْمُومَةٌ إلَى آيَةِ الْغَنِيمَةِ فِي الْأَرْضِينَ الْمُفْتَتَحَةِ ، فَإِنْ رَأَى قِسْمَتَهَا أَصْلَحَ لِلْمُسْلِمِينَ وَأَرَدَّ عَلَيْهِمْ قَسَمَ ، وَإِنْ رَأَى إقْرَارَ أَهْلِهَا عَلَيْهَا ، وَأَخْذَ الْخَرَاجِ مِنْهُمْ فِيهَا فَعَلَ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْآيَةُ ثَابِتَةَ الْحُكْمِ فِي جَوَازِ أَخْذِ الْخَرَاجِ مِنْهَا حَتَّى يَسْتَوِيَ الْآخَرُ وَالْأَوَّلُ فِيهَا لَذَكَرُوهُ لَهُ وَأَخْبَرُوهُ بِنَسْخِهَا ، فَلَمَّا لَمْ يُحَاجُّوهُ بِالنَّسْخِ دَلَّ عَلَى ثُبُوتِ حُكْمِهَا

عِنْدَهُمْ وَصِحَّةِ دَلَالَتِهَا لَدَيْهِمْ عَلَى مَا اسْتَدَلَّ بِهِ عَلَيْهِ ، فَيَكُونُ تَقْدِيرُ الْآيَتَيْنِ بِمَجْمُوعِهِمَا : وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ فِي الْأَمْوَالِ سِوَى الْأَرْضِينَ وَفِي الْأَرْضِينَ إذَا

اخْتَارَ الْإِمَامُ ذَلِكَ ، وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ الْأَرْضِينَ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إنْ اخْتَارَ تَرْكَهَا عَلَى مِلْكِ أَهْلِهَا ، وَيَكُونُ ذِكْرُ الرَّسُولِ هَهُنَا لِتَفْوِيضِ الْأَمْرِ عَلَيْهِ فِي صَرْفِهِ إلَى مَنْ رَأَى ؛ فَاسْتَدَلَّ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ وَقَالَ : لَوْ قَسَمْتُهَا بَيْنَهُمْ لَصَارَتْ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لِمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ شَيْءٌ ، وَقَدْ جَعَلَ لَهُمْ فِيهَا الْحَقَّ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ فَلَمَّا اسْتَقَرَّ عِنْدَهُ حُكْمُ دَلَالَةِ الْآيَةِ وَمُوَافَقَةُ كُلِّ الصَّحَابَةِ عَلَى إقْرَارِ أَهْلِهَا عَلَيْهَا وَوَضْعِ الْخَرَاجِ بَعَثَ عُثْمَانَ بْنَ حُنَيْفٍ وَحُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ فَمَسَحَا الْأَرْضِينَ وَوَضَعَا الْخَرَاجَ عَلَى الْأَوْضَاعِ الْمَعْلُومَةِ وَوَضَعَا الْجِزْيَةَ عَلَى الرِّقَابِ وَجَعَلَاهُمْ ثَلَاثَ طَبَقَاتٍ : اثْنَيْ عَشَرَ وَأَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ وَثَمَانِيَةً وَأَرْبَعِينَ ، ثُمَّ لَمْ يَتَعَقَّبْ فِعْلَهُ هَذَا أَحَدٌ مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ الْأَئِمَّةِ بِالْفَسْخِ فَصَارَ ذَلِكَ اتِّفَاقًا .

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي أَحْكَامِ الْأَرْضِينَ الْمُفْتَتَحَةِ عَنْوَةً ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَالثَّوْرِيُّ : " إذَا افْتَتَحَهَا الْإِمَامُ عَنْوَةً فَهُوَ بِالْخِيَارِ إنْ شَاءَ قَسَمَهَا وَأَهْلَهَا وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْغَانِمِينَ بَعْدَ إخْرَاجِ الْخُمُسِ ، وَإِنْ شَاءَ أَقَرَّ أَهْلَهَا عَلَيْهَا وَجَعَلَ عَلَيْهَا وَعَلَيْهِمْ الْخَرَاجَ وَيَكُونُ مِلْكًا لَهُمْ وَيَجُوزُ

بَيْعُهُمْ وَشِرَاؤُهُمْ لَهَا " وَقَالَ مَالِكٌ : " مَا بَاعَ أَهْلُ الصُّلْحِ مِنْ أَرْضِهِمْ فَهُوَ جَائِزٌ وَمَا افْتَتَحَ عَنْوَةً فَإِنَّهُ لَا يَشْتَرِي مِنْهُمْ أَحَدٌ ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الصُّلْحِ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ كَانَ أَحَقَّ بِأَرْضِهِ وَمَالِهِ ، وَأَمَّا أَهْلُ الْعَنْوَةِ الَّذِينَ أُخِذُوا عَنْوَةً فَمَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ أَحْرَزَ لَهُ إِسْلَامُهُ نَفْسَهُ وَأَرْضَهُ لِلْمُسْلِمِينَ ؛ لِأَنَّ بِلَادَهُمْ قَدْ صَارَتْ فَيْئًا لِلْمُسْلِمِينَ " وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : " مَا كَانَ عَنْوَةً فَخُمُسُهَا لِأَهْلِهِ وَأَرْبَعَةُ أَخْمَاسِهَا لِلْغَانِمِيْنِ ، فَمَنْ طَابَ نَفْسًا عَنْ حَقِّهِ لِلْإِمَامِ أَنْ يَجْعَلَهَا وَقْفًا عَلَيْهِمْ ، وَمَنْ لَمْ يَطِبْ نَفْسًا فَهُوَ أَحَقُّ بِمَالِهِ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَا تَخْلُو الْأَرْضُ الْمُفْتَتَحَةُ عَنْوَةً مِنْ أَنْ تَكُونَ لِلْغَانِمِيْنَ لَا يَجُوزُ لِلْإِمَامِ صَرْفُهَا عَنْهُمْ بِحَالٍ إِلَّا بِطِيبَةٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، أَوْ أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ مُخَيَّرًا بَيْنَ إِقْرَارِ أَهْلِهَا عَلَى أَمْلَاكِهِمْ فِيهَا وَوَضْعِ الْخَرَاجِ عَلَيْهَا وَعَلَى رِقَابِ أَهْلِهَا عَلَى مَا فَعَلَهُ عُمَرُ فِي أَرْضِ السَّوَادِ ، فَلَمَّا اتَّفَقَ الْجَمِيعُ مِنْ الصَّحَابَةِ عَلَى تَصْوِيبِ عُمَرَ فِيمَا فَعَلَهُ فِي أَرْضِ

السَّوَادِ بَعْدَ خِلَافٍ مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَيْهِ عَلَى إِسْقَاطِ حَقِّ الْغَانِمِينَ عَنْ رِقَابِهَا دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْغَانِمِينَ لَا يَسْتَحِقُّونَ مِلْكَ الْأَرَضِينَ ، وَلَا رِقَابَ أَهْلِهَا إِلَّا بِأَنْ يَخْتَارَ الْإِمَامُ ذَلِكَ لَهُمْ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ مِلْكًا لَهُمْ لَمَا عَدَلَ عَنْهُمْ بِهَا إِلَى غَيْرِهِمْ وَلَنَازَعُوهُ فِي احْتِجَاجِهِ بِالْآيَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ، فَلَمَّا

سَلَّمَ لَهُ الْجَمِيعُ رَأْيَهُ عِنْدَ احْتِجَاجِهِ بِالْآيَةِ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْغَانِمِينَ لَا يَسْتَحِقُّونَ مِلْكَ الْأَرْضِينَ إِلَّا بِاخْتِيَارِ الْإِمَامِ ذَلِكَ لَهُمْ .

(439/757)

وَأَيْضًا لَا يَخْتَلِفُونَ أَنَّ لِلْإِمَامِ أَنْ يَقْتُلَ الْأَسْرَى مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا يَسْتَبْقِيَهُمْ ، وَلَوْ كَانَ مِلْكُ الْغَانِمِينَ قَدْ ثَبَتَ فِيهِمْ لَمَا كَانَ لَهُ إِتْلَافُهُ عَلَيْهِمْ كَمَا لَا يُتْلِفُ عَلَيْهِمْ سَائِرَ أَمْوَالِهِمْ ، فَلَمَّا كَانَ لَهُ أَنْ يَقْتُلَ الْأَسْرَى وَلَهُ أَنْ يَسْتَبْقِيَهُمْ فَيَقْسِمَهُمْ بَيْنَهُمْ ثَبَتَ أَنَّ الْمِلْكَ لَا يَحْصُلُ لِلْغَانِمِينَ بِإِحْرَازِ الْغَنِيمَةِ فِي الرِّقَابِ وَالْأَرْضِينَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَهَا الْإِمَامُ لَهُمْ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا مَا رَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ بُشَيْرِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ قَالَ : ﴿ قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ نِصْفَيْنِ نِصْفًا لِنَوَائِبِهِ وَحَاجَتِهِ وَنِصْفًا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، قَسَمَهَا بَيْنَهُمْ عَلَى ثَمَانِيَةَ عَشَرَ سَهْمًا ؛ ﴾ فَلَوْ كَانَ الْجَمِيعُ مِلْكًا لِلْغَانِمِينَ لَمَا جَعَلَ نِصْفَهُ لِنَوَائِبِهِ وَحَاجَتِهِ وَقَدْ فَتَحَهَا عَنْوَةً ؛ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَحَ مَكَّةَ عَنْوَةً وَمَنَّ عَلَى أَهْلِهَا فَأَقَرَّهُمْ عَلَى أَمْلَاكِهِمْ فَقَدْ حَصَلَ بِدَلَالَةِ الْآيَةِ ، وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ وَالسُّنَّةِ تَخْيِيرُ الْإِمَامِ فِي قِسْمَةِ الْأَرْضِينَ أَوْ تَرْكِهَا مِلْكًا لِأَهْلِهَا ، وَوَضْعِ الْخَرَاجِ عَلَيْهَا .

(440/757)

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنَعَتْ الْعِرَاقُ قَفِيزَهَا وَدِرْهَمَهَا ، وَمَنَعَتْ الشَّامُ مُدَّهَا وَدِينَارَهَا ، وَمَنَعَتْ مِصْرُ أَرْدَبَّهَا وَدِينَارَهَا ، وَعُدْتُمْ كَمَا بَدَأْتُمْ ﴾ شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ لَحْمُ أَبِي هُرَيْرَةَ وَدَمُهُ

(441/757)

فَأَخْبَرَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَنْ مَنْعِ النَّاسِ لِهَذِهِ الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ لِلَّهِ - تَعَالَى - فِي الْأَرْضِينَ وَأَنَّهُمْ يَعُودُونَ إلَى حَالِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَنْعِهَا ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِ عُمَرَ فِي السَّوَادِ وَأَنَّ مَا وَضَعَهُ هُوَ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ - تَعَالَى - الَّتِي يَجِبُ أَدَاؤُهَا فَإِنْ قِيلَ : لَيْسَ فِيمَا ذَكَرْت مِنْ فِعْلِ عُمَرَ فِي السَّوَادِ إجْمَاعٌ ؛ لِأَنَّ حَبِيبَ بْنَ أَبِي ثَابِتٍ وَغَيْرَهُ قَدْ رَوَوْا عَنْ ثَعْلَبَةَ بْنِ يَزِيدَ الْحِمَّانِيِّ قَالَ : دَخَلْنَا عَلَى عَلِيٍّ بِالرَّحْبَةِ فَقَالَ : لَوْلَا أَنْ يَضْرِبَ بَعْضُكُمْ وُجُوهَ بَعْضٍ لَقَسَمْت السَّوَادَ بَيْنَكُمْ قِيلَ لَهُ الصَّحِيحُ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ أَشَارَ عَلَى عُمَرَ بِتَرْكِ قِسْمَةِ السَّوَادِ ، وَإِقْرَارِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَصِحَّ عَنْ عَلِيٍّ مَا ذَكَرْت ؛ لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو مَنْ خَاطَبَهُمْ عَلِيٌّ بِذَلِكَ مِنْ أَنْ يَكُونُوا هُمْ الَّذِينَ فَتَحُوا السَّوَادَ فَاسْتَحَقُّوا مِلْكَهُ وَقِسْمَتَهُ بَيْنَهُمْ مِنْ غَيْرِ خِيَارٍ لِلْإِمَامِ فِيهِ ، أَوْ أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُونَ بِهِ غَيْرَ الَّذِينَ فَتَحُوهُ ، أَوْ خَاطَبَ بِهِ

الْجَيْشَ وَهُمْ أَخْلَاطٌ مِنْهُمْ مَنْ شَهِدَ فَتْحَ السَّوَادِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَشْهَدْهُ ؛ وَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ لِمَنْ لَمْ يَشْهَدْ فَتْحَهُ ؛ لِأَنَّ أَحَدًا لَا يَقُولُ إنَّ الْغَنِيمَةَ تُصْرَفُ إلَى غَيْرِ الْغَانِمِينَ وَيَخْرُجُ مِنْهَا الْغَانِمُونَ ، وَأَنْ يَكُونُوا أَخْلَاطًا فِيهِمْ مَنْ شَهِدَ الْفَتْحَ وَاسْتَحَقَّ الْغَنِيمَةَ وَفِيهِمْ مَنْ لَمْ يَشْهَدْهُ ، وَهَذَا مِثْلُ الْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّ

مَنْ لَمْ يَشْهَدْ الْفَتْحَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُسْهَمَ لَهُ وَتُقْسَمُ الْغَنِيمَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الَّذِينَ شَهِدُوهُ أَوْ أَنْ يَكُونَ خَاطَبَ بِهِ مَنْ شَهِدَ الْفَتْحَ دُونَ غَيْرِهِ ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ وَكَانُوا هُمْ الْمُسْتَحِقِّينَ لَهُ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ غَيْرِ خِيَارٍ لِلْإِمَامِ فِيهِ فَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَجْعَلَ حَقَّهُمْ لِغَيْرِهِمْ ؛ لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يَضْرِبُ وُجُوهَ بَعْضٍ .

؛ إذْ كَانَ أَتْقَى لِلَّهِ مِنْ أَنْ يَتْرُكَ حَقًّا يَجِبُ عَلَيْهِ الْقِيَامُ بِهِ إلَى غَيْرِهِ ؛ لِمَا وَصَفْت وَعَلَى أَنَّهُ لَمْ يُخَصِّصْ بِهَذَا الْخِطَابِ الَّذِينَ فَتَحُوهُ دُونَ غَيْرِهِمْ ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى فَسَادِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ ، وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ بَعْدَ ثُبُوتِ هَذَا الْأَصْلِ الَّذِي ذَكَرْنَا وَصِحَّةِ الرِّوَايَةِ عَنْ عُمَرَ فِي كَافَّةِ الصَّحَابَةِ عَلَى تَرْكِ قِسْمَةِ السَّوَادِ ، وَإِقْرَارِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ ، فَقَالَ قَائِلُونَ : " أَقَرَّهُمْ عَلَى أَمْلَاكِهِمْ وَتَرَكَ أَمْوَالَهُمْ فِي أَيْدِيهِمْ وَلَمْ يَسْتَرِقَّهُمْ " ، وَهُوَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ مَذْهَبِ أَصْحَابِنَا وَقَالَ

آخَرُونَ: "إنَّمَا أَقَرَّهُمْ عَلَى أَرْضِهِمْ عَلَى أَنَّهُمْ وَأَرْضَهُمْ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَأَنَّهُمْ غَيْرُ مُلَّاكٍ لَهَا" وَقَالَ آخَرُونَ: "أَقَرَّهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ وَالْأَرْضُونَ مَوْقُوفَةٌ عَلَى مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ".

(443/757)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَلَمْ يَخْتَلِفُوا أَنَّ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ كَانَ حُرًّا وَأَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَرِقَّهُ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّ دِهْقَانًا أَسْلَمَ عَلَى عَهْدِهِ فَقَالَ لَهُ: "إنْ أَقَمْت فِي أَرْضِك رَفَعْنَا الْجِزْيَةَ عَنْ رَأْسِك وَأَخَذْنَاهَا مِنْ أَرْضِك، وَإِنْ تَحَوَّلْت عَنْهَا فَنَحْنُ أَحَقُّ بِهَا"،.

(444/757)

وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي دِهْقَانَةِ نَهْرِ الْمُلْكِ حِينَ أَسْلَمَتْ; فَلَوْ كَانُوا عَبِيدًا لَمَا زَالَ عَنْهُمْ الرِّقُّ بِالْإِسْلَامِ فَإِنْ قِيلَ فَقَدْ قَالَا: إنْ تَحَوَّلْت عَنْهَا فَنَحْنُ أَحَقُّ بِهَا قِيلَ لَهُ: إنَّمَا أَرَادَا بِذَلِكَ أَنَّك إنْ عَجَزْت عَنْ عِمَارَتِهَا عَمَّرْنَاهَا نَحْنُ وَزَرَعْنَاهَا لِئَلَّا تَبْطُلَ الْحُقُوقُ الَّتِي قَدْ وَجَبَتْ لِلْمُسْلِمِينَ فِي رِقَابِهَا وَهُوَ الْخَرَاجُ; وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ الْإِمَامُ عِنْدَنَا بِأَرَاضِي الْعَاجِزِينَ عَنْ عِمَارَتِهَا وَلَمَّا ثَبَتَ بِمَا وَصَفْنَا أَنَّ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ فَهُوَ حُرٌّ، ثَبَتَ أَنَّ

أَرَاضِيهِمْ عَلَى أَمْلَاكِهِمْ كَمَا كَانَتْ رِقَابُهُمْ مُبَقَّاةً عَلَى أَصْلِ الْحُرِّيَّةِ ، وَمِنْ حَيْثُ جَازَ لِلْإِمَامِ عِنْدَ مُخَالِفِينَا أَنْ يَقْطَعَ حَقَّ الْغَانِمِينَ عَنْ رِقَابِهَا وَيَجْعَلَهَا مَوْقُوفَةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِصَرْفِ خَرَاجِهَا إلَيْهِمْ جَازَ إقْرَارُهَا عَلَى أَمْلَاكِ أَهْلِهَا وَيُصْرَفُ خَرَاجُهَا إلَى الْمُسْلِمِينَ ؛ إذْ لَا حَقَّ لِلْمُسْلِمِينَ فِي نَفْيِ مِلْكِ مُلَّاكِهَا عَنْهَا بَعْدَ أَنْ لَا يَحْصُلَ لِلْمُسْلِمِينَ مِلْكُهَا ، وَإِنَّمَا حَقُّهُمْ فِي الْحَالَيْنِ فِي خَرَاجِهَا لَا فِي رِقَابِهَا بِأَنْ يَتَمَلَّكُوهَا وَذَكَرَ يَحْيَى بْنُ آدَمَ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ صَالِحٍ قَالَ : سَمِعْنَا أَنَّ الْغَنِيمَةَ مَا غَلَبَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَأْخُذُوهُ عَنْوَةً بِالْقِتَالِ وَأَنَّ الْفَيْءَ مَا صُولِحُوا عَلَيْهِ " ؛ قَالَ الْحَسَنُ : " فَأَمَّا سَوَادُنَا هَذَا فَإِنَّا سَمِعْنَا أَنَّهُ كَانَ فِي أَيْدِي النَّبْطِ ، فَظَهَرَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ فَارِسٍ ، فَكَانُوا

يُؤَدُّونَ إلَيْهِمْ

الْخَرَاجَ ، فَلَمَّا ظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَهْلِ فَارِسٍ تَرَكُوا السَّوَادَ ، وَمَنْ لَمْ يُقَاتِلْهُمْ مِنْ الدَّهَاقِينِ عَلَى حَالِهِمْ وَوَضَعُوا الْجِزْيَةَ عَلَى رُءُوسِ الرِّجَالِ وَمَسَحُوا مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ الْأَرْضِينَ ، وَوَضَعُوا عَلَيْهِمْ الْخَرَاجَ ، وَقَبَضُوا عَلَى كُلِّ أَرْضٍ لَيْسَتْ فِي يَدِ أَحَدٍ فَكَانَتْ صَوَافِيَ لِلْإِمَامِ

" .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : كَأَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ النَّبَطَ لَمَّا كَانُوا أَحْرَارًا فِي مَمْلَكَةِ أَهْلِ فَارِسَ فَكَانَتْ أَمْلَاكُهُمْ ثَابِتَةً فِي أَرَاضِيهِمْ ، ثُمَّ ظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَهْلِ فَارِسَ وَهُمُ الَّذِينَ قَاتَلُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يُقَاتِلْهُمُ النَّبَطُ كَانَتْ أَرَاضِيهِمْ وَرِقَابُهُمْ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي أَيَّامِ الْفُرْسِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُقَاتِلُوا الْمُسْلِمِينَ ، فَكَانَتْ أَرْضُوهُمْ وَرِقَابُهُمْ فِي مَعْنَى مَا صُولِحَ عَلَيْهِ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَمْلِكُونَ أَرَاضِيَهُمْ وَرِقَابَهُمْ لَوْ قَاتَلُوهُمْ .

وَهَذَا وَجْهٌ كَانَ يَحْتَمِلُهُ الْحَالُ لَوْلَا أَنَّ مُحَاجَّةَ عُمَرَ لِأَصْحَابِهِ الَّذِينَ سَأَلُوهُ قِسْمَةَ السَّوَادِ كَانَتْ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ ، وَإِنَّمَا احْتَجَّ بِدَلَالَةِ الْكِتَابِ دُونَ مَا ذَكَرَهُ الْحَسَنُ فَإِنْ قِيلَ : إِنَّمَا دَفَعَ عُمَرُ السَّوَادَ إِلَى أَهْلِهِ بِطِيبَةٍ مِنْ نُفُوسِ الْغَانِمِينَ عَلَى وَجْهِ الْإِجَارَةِ ، وَالْأُجْرَةُ تُسَمَّى خَرَاجًا ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ الْخَرَاجُ بِالضَّمَانِ ﴾ وَمُرَادُهُ أُجْرَةُ الْعَبْدِ الْمُشْتَرَى إِذَا رُدَّ بِالْعَيْبِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذَا غَلَطٌ مِنْ وُجُوهٍ .

أَحَدُهَا : أَنَّ عُمَرَ لَمْ يَسْتَطِبْ نُفُوسَ الْقَوْمِ فِي وَضْعِ الْخَرَاجِ وَتَرْكِ الْقِسْمَةِ ، وَإِنَّمَا شَاوَرَ الصَّحَابَةَ وَحَاجَّ مَنْ طَلَبَ الْقِسْمَةَ بِمَا أَوْضَحَ بِهِ قَوْلَهُ ، وَلَوْ كَانَ قَدْ اسْتَطَابَ نُفُوسَهُمْ لَنُقِلَ كَمَا نُقِلَ مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنْ الْمُرَاجَعَةِ وَالْمُحَاجَّةِ ، فَإِنْ قِيلَ : قَدْ نُقِلَ ذَلِكَ ، وَذَكَرَ مَا رَوَاهُ

إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي

حَازِمٍ قَالَ : كُنَّا رُبُعَ النَّاسِ فَأَعْطَانَا عُمَرُ رُبُعَ السَّوَادِ فَأَخَذْنَاهُ ثَلَثَ سِنِينَ .

ثُمَّ وَفَدَ جَرِيرٌ إلَى عُمَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ عُمَرُ : وَاَللَّهِ لَوْلَا أَنِّي قَاسِمٌ مَسْئُولٌ لَكُنْتُمْ عَلَى مَا قُسِمَ لَكُمْ ، فَأَرَى أَنْ تَرُدُّوهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَفَعَلَ ، فَأَجَازَهُ عُمَرُ بِثَمَانِينَ دِينَارًا ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إنَّ قَوْمِي صَالَحُوكَ عَلَى أَمْرٍ وَلَسْتُ أَرْضَى حَتَّى تَمْلَأَ كَفِّي ذَهَبًا وَتَحْمِلَنِي عَلَى جَمَلٍ ذَلُولٍ وَتُعْطِيَنِي قَطِيفَةً حَمْرَاءَ ، قَالَ : فَفَعَلَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَيْسَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مَلَّكَهُمْ رِقَابَ الْأَرَضِينَ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ أَعْطَاهُمْ رُبُعَ الْخَرَاجِ ثُمَّ رَأَى بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَقْتَصِرَ بِهِمْ عَلَى أُعْطِيَّاتِهِمْ دُونَ الْخَرَاجِ ؛ لِيَكُونُوا أُسْوَةً لِسَائِرِ النَّاسِ .

وَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ بِاسْتِطَابَةٍ مِنْهُ لِنُفُوسِهِمْ وَقَدْ أَخْبَرَ عُمَرُ أَنَّهُ رَأَى رَدَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَظْهَرَ أَنَّهُ لَا يَسَعُهُ غَيْرُهُ لَمَّا كَانَ عِنْدَهُ أَنَّهُ الْأَصْلَحُ لِلْمُسْلِمِينَ .

(447/757)

وَأَمَّا أَمْرُ الْمَرْأَةِ فَإِنَّهُ أَعْطَاهَا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ جَائِزًا لَهُ أَنْ يَفْعَلَهُ مِنْ غَيْرِ أَخْذِ مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ السَّوَادِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : " إنَّ الْخَرَاجَ أُجْرَةٌ " فَفَاسِدٌ مِنْ وُجُوهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ لَا خِلَافَ أَنَّ الْإِجَارَاتِ لَا تَجُوزُ إلَّا عَلَى مُدَّةٍ مَعْلُومَةٍ إذَا وَقَعَتْ عَلَى الْمُدَّةِ ، وَأَيْضًا فَإِنَّ

أَهْلَهَا لَمْ يَخْلُوا مِنْ أَنْ يَكُونُوا عَبِيدًا أَوْ أَحْرَارًا ، فَإِنْ كَانُوا عَبِيدًا فَإِنَّ إجَارَةَ الْمَوْلَى مِنْ عَبْدِهِ لَا تَجُوزُ ، وَإِنْ كَانُوا أَحْرَارًا فَكَيْفَ جَازَ أَنْ تُتْرَكَ رِقَابُهُمْ عَلَى أَصْلِ الْحُرِّيَّةِ وَلَا تُتْرَكَ أَرَاضِيهِمْ عَلَى أَمْلَاكِهِمْ ، وَأَيْضًا لَوْ كَانُوا عَبِيدًا لَمْ يَجُزْ أَخْذُ الْجِزْيَةِ مِنْ رِقَابِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ لَا خِلَافَ أَنَّ الْعَبِيدَ لَا جِزْيَةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَيْضًا لَا خِلَافَ أَنَّ إجَارَةَ النَّخْلِ

وَالشَّجَرِ غَيْرُ جَائِزَةٍ ، وَقَدْ أَخَذَ عُمَرُ الْخَرَاجَ مِنْ النَّخْلِ وَالشَّجَرِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِأُجْرَةٍ .

(448/757)

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي شِرَى أَرْضِ الْخَرَاجِ وَاسْتِئْجَارِهَا ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا : " لَا بَأْسَ بِذَلِكَ " ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَوْزَاعِيِّ وَقَالَ مَالِكٌ : " أَكْرَهُ اسْتِئْجَارَ أَرْضِ الْخَرَاجِ " وَكَرِهَ شَرِيكٌ شِرَى أَرْضِ الْخَرَاجِ وَقَالَ : لَا تَجْعَلْ فِي عُنُقِك صَغَارًا وَذَكَرَ الطَّحَاوِيُّ عَنْ ابْنِ أَبِي عِمْرَانَ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بَكَّارٍ قَالَ : سَأَلَ رَجُلٌ الْمُعَافَى بْنَ عِمْرَانَ عَنْ الزَّرْعِ فِي أَرْضِ الْخَرَاجِ ، فَنَهَاهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ : فَإِنَّك تَزْرَعُ أَنْتَ فِيهَا فَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي لَيْسَ فِي الشَّرِّ قُدْوَةٌ ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : " لَا بَأْسَ بِأَنْ يَكْتَرِيَ الْمُسْلِمُ أَرْضَ خَرَاجٍ كَمَا يَكْتَرِي دَوَابَّهُمْ " قَالَ : وَالْحَدِيثُ الَّذِي جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يُؤَدِّيَ الْخَرَاجَ وَلَا لِمُشْرِكٍ أَنْ يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ إنَّمَا هُوَ خَرَاجُ الْجِزْيَةِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ اشْتَرَى أَرْضَ خَرَاجٍ ، وَرُوِيَ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فَتَرْغَبُوا فِي الدُّنْيَا ﴾ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : وبراذان مَا براذان وَبِالْمَدِينَةِ مَا بِالْمَدِينَةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ ضَيْعَةٌ براذان وَرَاذَانُ مِنْ أَرْضِ الْخَرَاجِ .

وَرُوِيَ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ ابْنَيْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ اشْتَرَوْا مِنْ أَرْضِ السَّوَادِ ؛ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ .

أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا أَمْلَاكٌ لِأَهْلِهَا .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ غَيْرُ مَكْرُوهٍ لِلْمُسْلِمِ شِرَاهَا .

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَعُمَرَ فِيمَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْخَرَاجِ : " أَنَّهُ إنْ أَقَامَ عَلَى أَرْضِهِ أُخِذَ مِنْهُ الْخَرَاجُ " .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَرِهَ شِرَى أَرْضِ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، وَقَالَ : " لَا تَجْعَلْ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي عُنُقِ هَذَا الْكَافِرِ فِي عُنُقِك " ؛ وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَقَالَ : " لَا تَجْعَلْ فِي عُنُقِك الصَّغَارَ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَخَرَاجُ الْأَرْضِ لَيْسَ بِصَغَارٍ ؛ لِأَنَّهُ لَا نَعْلَمُ خِلَافًا بَيْنَ السَّلَفِ أَنَّ

الذِّمِّيِّ إذا كَانَتْ لَهُ أَرْضُ خَرَاجٍ فأَسْلَمَ أَنَّهُ يُؤْخَذُ الْخَرَاجُ مِنْ أَرْضِهِ وَيَسْقُطُ عَنْ رَأْسِهِ ، فَلَوْ كَانَ صَغَارًا لَسَقَطَ بِالْإِسْلَامِ .

وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنَعَتْ الْعِرَاقُ قَفِيزَهَا وَدِرْهَمَهَا ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاجِبٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ عَمَّا يَمْنَعُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ ﴿ : وَعُدْتُمْ كَمَا بَدَأْتُمْ ﴾ ؟ وَالصَّغَارُ لَا يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَى الْكُفَّارِ لِلْمُسْلِمِينَ .

(450/757)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى - : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إلَيْهِمْ ﴾ ، يَعْنِي - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - : أَنَّ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، يَعْنِي الْأَنْصَارَ ، وَقَدْ كَانَ إسْلَامُ الْمُهَاجِرِينَ قَبْلَ إسْلَامِ الْأَنْصَارِ ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِ هِجْرَةِ الْمُهَاجِرِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى - : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ .

قَالَ الْحَسَنُ : يَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يَحْسُدُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى فَضْلٍ آتَاهُمْ اللَّهُ - تَعَالَى - وَقِيلَ : لَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ضِيقًا لِمَا يُنْفِقُونَهُ عَلَيْهِمْ .

وقَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ، الْخَصَاصَةُ الْحَاجَةُ ؛ فَأَثْنَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِإِيثَارِهِمْ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِيمَا يُنْفِقُونَهُ عَلَيْهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا هُمْ مُحْتَاجِينَ إلَيْهِ فَإِنْ قِيلَ : رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ : مَعِي دِينَارٌ فَقَالَ : ﴿ أَنْفِقْهُ عَلَى نَفْسِك فَقَالَ : مَعِي دِينَارٌ آخَرُ فَقَالَ : أَنْفِقْهُ عَلَى عِيَالِك فَقَالَ : مَعِي دِينَارٌ آخَرُ قَالَ : تَصَدَّقْ بِهِ ﴾ ، وَأَنَّ رَجُلًا جَاءَ بِبَيْضَةٍ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ تَصَدَّقْ بِهَذِهِ فَإِنِّي مَا أَمْلِكُ غَيْرَهَا فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَهُ مِنْ الشِّقِّ الْآخَرِ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ، إلَى أَنْ أَعَادَ الْقَوْلَ ، فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَمَاهُ بِهَا فَلَوْ أَصَابَتْهُ لَعَقَرَتْهُ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَأْتِينِي أَحَدُكُمْ بِجَمِيعِ مَا يَمْلِكُ فَيَتَصَدَّقُ بِهِ ثُمَّ يَقْعُدُ يَتَكَفَّفُ النَّاسَ إنَّمَا الصَّدَقَةُ عَنْ ظَهْرِ غِنًى ﴾ ، وَأَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ وَالرَّجُلُ بِحَالٍ بَذَاذَةٍ ، فَحَثَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّدَقَةِ ، فَطَرَحَ قَوْمٌ ثِيَابًا أَوْ دَرَاهِمَ ، فَأَعْطَاهُ ثَوْبَيْنِ ، ثُمَّ حَثَّهُمْ عَلَى الصَّدَقَةِ ، فَطَرَحَ الرَّجُلُ أَحَدَ ثَوْبَيْهِ ، فَأَنْكَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَفِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ كَرَاهَةُ الْإِيثَارِ عَلَى النَّفْسِ وَالْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى النَّفْسِ ثُمَّ الصَّدَقَةُ بِالْفَضْلِ قِيلَ لَهُ : إِنَّمَا كَرِهَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَثِقْ مِنْهُ بِالصَّبْرِ عَلَى الْفَقْرِ وَخَشِيَ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِلْمَسْأَلَةِ إِذَا فَقَدَ مَا يُنْفِقُهُ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَأْتِينِي أَحَدُهُمْ بِجَمِيعِ مَا يَمْلِكُ فَيَتَصَدَّقُ بِهِ ثُمَّ يَقْعُدُ يَتَكَفَّفُ النَّاسَ ﴾ ؟ فَإِنَّمَا كَرِهَ الْإِيثَارَ

لِمَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ ، فَأَمَّا الْأَنْصَارُ الَّذِينَ أَثْنَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالْإِيثَارِ عَلَى النَّفْسِ فَلَمْ يَكُونُوا بِهَذِهِ الصِّفَةِ بَلْ كَانُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ ، فَكَانَ الْإِيثَارُ مِنْهُمْ أَفْضَلَ مِنْ الْإِمْسَاكِ ، وَالْإِمْسَاكُ مِمَّنْ لَا يَصْبِرُ وَيَتَعَرَّضُ لِلْمَسْأَلَةِ أَوْلَى مِنْ الْإِيثَارِ .

وَقَدْ رَوَى مُحَارِبُ بْنُ دِثَارٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : أُهْدِيَ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسُ شَاةٍ ، فَقَالَ : إنَّ فُلَانًا وَعِيَالَهُ أَحْوَجُ إلَى هَذَا مِنَّا فَبَعَثَ بِهِ إلَيْهِ ، فَلَمْ يَزَلْ يَبْعَثُ بِهِ وَاحِدٌ إلَى آخَرَ حَتَّى تَدَاوَلَهَا تِسْعَةُ أَهْلِ أَبْيَاتٍ حَتَّى رَجَعَتْ إلَى الْأَوَّلِ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ الْآيَةَ .

وَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ جَامِعِ بْنِ شَدَّادٍ عَنْ الْأَسْوَدِ بْنِ هِلَالٍ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إلَى عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَدْ خِفْتُ أَنْ تُصِيبَنِي هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ ، فَوَاللَّهِ مَا أَقْدِرُ عَلَى أَنْ أُعْطِيَ شَيْئًا أُطِيقُ مَنْعَهُ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : هَذَا الْبُخْلُ وَبِئْسَ الشَّيْءُ الْبُخْلُ ، وَلَكِنَّ الشُّحَّ أَنْ تَأْخُذَ مَالَ أَخِيك بِغَيْرِ حَقٍّ وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ قَالَ ادِّخَارُ الْحَرَامِ وَمَنْعُ الزَّكَاةِ " .

آخِرُ سُورَةِ الْحَشْرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص جـ 3 صـ ﴾

(454/757)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْحَشْرِ

[فِيهَا إحْدَى عَشْرَةَ آيَةً]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ

يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : قُلْت لِابْنِ عَبَّاسٍ : سُورَةُ الْحَشْرِ ؟ قَالَ : قُلْ سُورَةُ النَّضِيرِ ، وَهُمْ رَهْطٌ مِنْ الْيَهُودِ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَزَلُوا الْمَدِينَةَ فِي فِتَنِ بَنِي إسْرَائِيلَ انْتِظَارًا لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا قَصَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : جَلَاءُ الْيَهُودِ .

الثَّانِي : إلَى الشَّامِ ؛ لِأَنَّهَا أَرْضُ الْمَحْشَرِ ؛ قَالَهُ عُرْوَةُ ، وَالْحَسَنُ .

الثَّالِثُ : قَالَ قَتَادَةُ : أَوَّلُ الْحَشْرِ نَارٌ تَسُوقُ النَّاسَ إلَى الْمَغَارِبِ ، وَتَأْكُلُ مَنْ خَلَّفَ [فِي الدُّنْيَا] .

وَنَحْوُهُ رَوَى وَهْبٌ عَنْ مَالِكٍ قَالَ : قُلْت لِمَالِكٍ : هُوَ جَلَاؤُهُمْ عَنْ دَارِهِمْ ؟ فَقَالَ لِي : الْحَشْرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَشْرُ الْيَهُودِ ؛ قَالَ : وَإِجْلَاءُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْيَهُودَ إلَى خَيْبَرَ حِينَ سُئِلُوا عَنْ ذَلِكَ الْمَالِ فَكَتَمُوهُ فَاسْتَحَلَّهُمْ بِذَلِكَ .

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : لِلْحَشْرِ أَوَّلٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ ؛ فَالْأَوَّلُ إجْلَاءُ بَنِي النَّضِيرِ ، وَالْأَوْسَطُ إجْلَاءُ خَيْبَرَ ، وَالْآخِرُ حَشْرُ الْقِيَامَةِ الَّذِي ذَكَرَهُ مَالِكٌ وَأَشَارَ إلَى أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ فِي وَقْتِهَا : قَالَ الزُّهْرِيُّ عَنْ عُرْوَةَ : كَانَتْ بَعْدَ بَدْرٍ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ .

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَالْوَاقِدِيُّ : كَانَتْ بَعْدَ أُحُدٍ ، وَبَعْدَ بِئْرِ مَعُونَةَ ، وَكَانَتْ عَلَى يَدَيْ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ ، وَاخْتَارَ الْبُخَارِيُّ أَنَّهَا قَبْلَ أُحُدٍ .

وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ : وَثِقُوا بِحُصُونِهِمْ ، وَلَمْ يَثِقُوا بِاَللَّهِ لِكُفْرِهِمْ ، فَيَسَّرَ اللَّهُ مَنَعَتَهُمْ ، وَأَبَاحَ حَوْزَتَهُمْ .

وَالْحِصْنُ هُوَ الْعُدَّةُ وَالْعِصْمَةُ .

(456/757)

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعَرَبِ : وَلَقَدْ عَلِمْت عَلَى تَوَقِّي الرَّدَى أَنَّ الْحُصُونَ الْخَيْلُ لَا مُدُنُ الْقُرَى يَخْرُجْنَ مِنْ خَلَلِ الْقَتَامِ عَوَابِسًا كَأَنَامِلِ الْمَقْرُورِ أَقْعَى فَاصْطَلَى وَلَقَدْ أَحْسَنَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي إصَابَةِ الْمَعْنَى ، فَقَالَ : وَإِنْ بَاشَرَ الْأَصْحَابُ فَالْبِيضُ وَالْقَنَا قِرَاهُ وَأَحْوَاضُ

الْمَنَايَا مَنَاهِلُهُ وَإِنْ يَبْنِ حِيطَانًا عَلَيْهِ فَإِنَّمَا أُولَئِكَ عِقَالَاتُهُ لَا مَعَاقِلُهُ وَإِلَّا فَأَعْلِمْهُ بِأَنَّك سَاخِطٌ وَدَعْهُ فَإِنَّ الْخَوْفَ لَا شَكَّ قَاتِلُهُ

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ ﴾ : ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : نُصِرْت بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، فَكَيْفَ لَا يُنْصَرُ بِهِ مَسِيرَةَ مِيلٍ مِنْ الْمَدِينَةِ إلَى مَحَلَّةِ بَنِي النَّضِيرِ .

وَهَذِهِ خَصِيصَةٌ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُونَ غَيْرِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : فِيهِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : يُخْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ بِنَقْضِ الْمُوَادَعَةِ ، وَبِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُقَاتَلَةِ ؛ قَالَهُ الزُّهْرِيُّ .

الثَّانِي : بِأَيْدِيهِمْ فِي تَرْكِهِمْ لَهَا ، وَبِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فِي إجْلَائِهِمْ عَنْهَا ؛ قَالَهُ أَبُو عَمْرِو بْنُ الْعَلَاءِ .

الثَّالِثُ بِأَيْدِيهِمْ دَاخِلَهَا ، وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ خَارِجَهَا ؛ قَالَهُ عِكْرِمَةُ .

الرَّابِعُ كَانَ الْمُسْلِمُونَ إذَا هَدَمُوا بَيْتًا مِنْ خَارِجِ الْحِصْنِ هَدَمُوا بُيُوتَهُمْ يَرْمُونَهُمْ مِنْهَا .

الْخَامِسُ كَانُوا يَحْمِلُونَ مَا يُعْجِبُهُمْ فَذَلِكَ خَرَابُ أَيْدِيهِمْ .

وَتَحْقِيقُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ : أَنَّ التَّنَاوُلَ لِلْإِفْسَادِ إذَا كَانَ بِالْيَدِ كَانَ حَقِيقَةً ، وَإِنْ كَانَ بِنَقْضِ الْعَهْدِ كَانَ مَجَازًا ، إلَّا أَنَّ قَوْلَ الزُّهْرِيِّ فِي الْمَجَازِ أَمْثَلُ مِنْ قَوْلِ أَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ مَنْ قَرَأَهَا بِالتَّشْدِيدِ أَرَادَ هَدْمَهَا ، وَمَنْ قَرَأَهَا بِالتَّخْفِيفِ أَرَادَ جَلَاءَهُمْ عَنْهَا ؛ وَهَذِهِ دَعْوَى لَا يُعَضِّدُهَا لُغَةٌ وَلَا حَقِيقَةٌ ، وَالتَّضْعِيفُ بَدِيلُ الْهَمْزَةِ فِي الْأَفْعَالِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ : وَهِيَ كَلِمَةٌ أُصُولِيَّةٌ قَدْ بَيَّنَّاهَا فِي مَوْضِعِهَا ، وَمِنْ وُجُوهِ الِاعْتِبَارِ أَنَّهُمْ اعْتَصَمُوا بِالْحُصُونِ دُونَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَأَنْزَلَهُمْ اللَّهُ مِنْهَا ، وَمِنْ وُجُوهِهِ أَنَّهُ سَلَّطَ عَلَيْهِمْ مَنْ كَانَ يَرْحَمُهُمْ ، وَمِنْ وُجُوهِهِ أَنَّهُمْ هَدَمُوا أَمْوَالَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ .

وَمَنْ لَمْ يَعْتَبِرْ بِغَيْرِهِ اعْتَبَرَ بِنَفْسِهِ ، وَمِنْ الْأَمْثَالِ الصَّحِيحَةِ : السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَةٌ وَاحِدَةٌ .

يَعْنِي نَقَضُوا الْعَهْدَ .

وَتَحْقِيقُهُ أَنَّهُمْ صَارُوا فِي شِقٍّ ، أَيْ جِهَةٍ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُخْرَى ، وَذِكْرُ اللَّهِ مَعَ رَسُولِهِ تَشْرِيفٌ لَهُ ، وَكَانَ نَقْضُهُمُ الْعَهْدَ لِخَبَرٍ ؛ رَوَاهُ جَمَاعَةٌ ، مِنْهُمُ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ ، قَالَ : « جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّضِيرَ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةٍ ، فَقَعَدَ فِي ظِلِّ جِدَارٍ ، فَأَرَادُوا أَنْ يُلْقُوا عَلَيْهِ رَحًى ، فَأَخْبَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ ، فَقَامَ وَانْصَرَفَ ؛ وَبِذَلِكَ اسْتَحَلَّهُمْ وَأَجْلَاهُمْ إِلَى خَيْبَرَ ، وَصَفِيَّةُ مِنْهُمْ سَبَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَيْبَرَ .

قَالَ : فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَجْلَاهُمْ عَلَى أَنَّ لَهُمْ مَا حَمَلَتِ الْإِبِلُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، وَالصَّفْرَاءِ ، وَالْبَيْضَاءِ ، وَالْحَلْقَةِ ، وَالدَّنَانِ ، وَمَسْكِ الْجَمَلِ » .

فَالصَّفْرَاءُ وَالْبَيْضَاءُ : الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ .

وَالْحَلْقَةُ : السِّلَاحُ .

وَالدَّنَانُ : الْفَخَّارُ .

وَمَسْكُ الْجَمَلِ : جُلُودٌ يُسْتَقَى فِيهَا الْمَاءُ بِشَعْرِهَا .

« فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَجَعَ إِلَيْهِمْ : يَا أَخَابِثَ خَلْقِ اللَّهِ ، يَا إِخْوَةَ الْخَنَازِيرِ وَالْقِرَدَةِ » .

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : قَالَ مَالِكٌ : فَقَالُوا : مَهْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، فَمَا كُنْتَ فَحَّاشًا .

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ إِضْمَارَ الْخِيَانَةِ نَقْضٌ لِلْعَهْدِ ؛ لِأَنَّهُ انْعَقَدَ قَوْلًا [فَيَنْتَقِضُ قَوْلًا] ، وَالْعَقْدُ إِذَا ارْتَبَطَ بِالْقَوْلِ انْتَقَضَ بِالْقَوْلِ وَبِالْفِعْلِ ، وَإِذَا ارْتَبَطَ بِالْفِعْلِ لَمْ يَنْتَقِضْ إِلَّا بِالْفِعْلِ ، كَالنِّكَاحِ يَرْتَبِطُ بِالْقَوْلِ وَيَنْحَلُّ بِالْقَوْلِ ، وَهُوَ الطَّلَاقُ ، وَبِالْفِعْلِ ، وَهُوَ الرَّضَاعُ .

وَعِتْقُ الْمِدْيَانِ يَنْعَقِدُ

بِالْقَوْلِ ، وَيُنْقِضُهُ الْحَاكِمُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ سِوَاهُ ، وَالِاسْتِيلَادُ لَا يُنْقِضُهُ الْقَوْلُ ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ كَيْفِيَّةَ نَقْضِ الْعَهْدِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَإِذَا تَحَقَّقَ نَقْضُ الْعَهْدِ فَلِمَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ اُخْرُجُوا مِنْ بِلَادِي ؟ وَلِمَ لَمْ يَأْخُذْهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ ؟ قُلْنَا : قَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا مَا خَانَهُ ، وَإِنَّمَا تَحَقَّقَ بِخَبَرِ اللَّهِ عَنْهُ .

قُلْنَا : الْخَوْفُ هَا هُنَا الْوُقُوعُ ، وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ الْخَوْفِ مَوْجُودٌ مِنْ كُلِّ عَاقِدٍ .

وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُ عَلِمَ ذَلِكَ وَحْدَهُ ، فَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ أَمْرًا مَشْهُورًا ، وَسَاقَهُ اللَّهُ إِلَى مَا كَتَبَ مِنْ الْجَلَاءِ .

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

(460/757)

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرَقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ ، وَقَطَعَ ؛ وَهِيَ الْبُوَيْرَةُ ﴾ ، وَلَهَا يَقُولُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ : لَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ ﴾ الْآيَةَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ اخْتَلَفَتْ النَّاسُ فِي تَخْرِيبِ دَارِ الْعَدُوِّ وَحَرْقِهَا وَقَطْعِ ثِمَارِهَا عَلَى قَوْلَيْنِ :

الْأَوَّلُ : أَنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ ؛ قَالَهُ فِي الْمُدَوَّنَةِ .

الثَّانِي : إنْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ ذَلِكَ لَهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا ، وَإِنْ يَيْأَسُوا فَعَلُوا ؛ قَالَهُ مَالِكٌ فِي الْوَاضِحَةِ ، وَعَلَيْهِ تَنَاظُرُ الشَّافِعِيَّةِ ، وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ .

وَقَدْ عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ لَهُ ، وَلَكِنَّهُ قَطَعَ وَحَرَقَ لِيَكُونَ ذَلِكَ نِكَايَةً لَهُمْ وَوَهْنًا فِيهِمْ ، حَتَّى يَخْرُجُوا عَنْهَا ، فَإِتْلَافُ بَعْضِ الْمَالِ لِصَلَاحِ بَاقِيهِ مَصْلَحَةٌ جَائِزَةٌ شَرْعًا مَقْصُودَةٌ عَقْلًا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي النَّوْعِ الَّذِي قُطِعَ ، وَهُوَ اللِّينَةُ ، عَلَى سَبْعَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ النَّخْلُ كُلُّهُ ، وَإِلَّا الْعَجْوَةَ ؛ قَالَهُ الزُّهْرِيُّ ، وَمَالِكٌ ، وَعِكْرِمَةُ ، وَالْخَلِيلُ .

الثَّانِي : أَنَّهُ النَّخْلُ كُلُّهُ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ كَرَائِمُ النَّخْلِ ؛ قَالَهُ ابْنُ شَعْبَانَ .

الرَّابِعُ أَنَّهُ الْعَجْوَةُ خَاصَّةً ؛ قَالَهُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ .

(461/757)

الْخَامِسُ أَنَّهَا النَّخْلُ الصِّغَارُ ، وَهِيَ أَفْضَلُهَا .

السَّادِسُ أَنَّهَا الْأَشْجَارُ كُلُّهَا .

السَّابِعُ أَنَّهَا الدَّقَلُ ؛ قَالَهُ الْأَصْمَعِيُّ .

قَالَ : وَأَهْلُ الْمَدِينَةِ يَقُولُونَ : لَا تَنْتَحِي الْمَوَائِدَ حَتَّى نَجِدَ الْأَلْوَانَ يَعْنُونَ الدَّقَلَ .

وَالصَّحِيحُ مَا قَالَهُ الزُّهْرِيُّ وَمَالِكٌ لِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمَا أَعْرَفُ بِبَلَدِهِمَا وَثِمَارِهَا وَأَشْجَارِهَا .

الثَّانِي أَنَّ الِاشْتِقَاقَ يَعْضُدُهُ ، وَأَهْلُ اللُّغَةِ يُصَحِّحُونَهُ ، قَالُوا : اللِّينَةُ وَزْنُهَا لِوْنَةٌ ، وَاعْتَلَّتْ عَلَى أَصْلِهِمْ .

[فَآلَتْ إِلَى لَيْنَةٍ] ، فَهُوَ لَوْنٌ ، فَإِذَا دَخَلَتْ الْهَاءُ كُسِرَ أَوَّلُهَا ؛ كَبَرْكِ الصَّدْرِ بِفَتْحِ الْبَاءِ ، وَبِرْكِهِ بِكَسْرِهَا لِأَجْلِ الْهَاءِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ مَتَى كَانَ الْقَطْعُ ؛ فَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّهَا نَخْلُ بَنِي النَّضِيرِ ، وَرَوَاهُ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهَا نَخْلُ بَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي قُرَيْظَةَ ، وَهَذَا إنَّمَا يَصِحُّ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ عَلَى أَنَّ الْإِذْنَ وَالْجَوَازَ فِي بَنِي النَّضِيرِ [تَضَمَّنَ بَنِي قُرَيْظَةَ ؛ إذْ لَا خِلَافَ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ] قَبْلَ قُرَيْظَةَ بِمُدَّةٍ كَبِيرَةٍ .

(462/757)

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ تَأَسَّفَتْ الْيَهُودُ عَلَى النَّخْلِ الْمَقْطُوعَةِ ، وَقَالُوا : يَنْهَى مُحَمَّدٌ عَنْ الْفَسَادِ وَيَفْعَلُهُ ، وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ يَقْطَعُ ، وَبَعْضُهُمْ لَا يَقْطَعُ ، فَصَوَّبَ اللَّهُ الْفَرِيقَيْنِ ، وَخَلَّصَ الطَّائِفَتَيْنِ فَظَنَّ عِنْدَ ذَلِكَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ يُخَرَّجُ مِنْ ذَلِكَ وَهَذَا بَاطِلٌ ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مَعَهُمْ ، وَلَا اجْتِهَادَ مَعَ حُضُورِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى اجْتِهَادِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ أَخْذًا بِعُمُومِ الْإِذَايَةِ لِلْكُفَّارِ ، وَدُخُولًا فِي الْإِذْنِ لِلْكُلِّ بِمَا يَقْضِي عَلَيْهِمْ بِالِاجْتِيَاحِ وَالْبَوَارِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

الْآيَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاَللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ ﴾ : يُرِيدُ مَا رَدَّ اللَّهُ .

وَحَقِيقَةُ ذَلِكَ أَنَّ الْأَمْوَالَ فِي الْأَرْضِ لِلْمُؤْمِنِينَ حَقًّا ، فَيَسْتَوْلِي عَلَيْهَا الْكُفَّارُ مِنْ اللَّهِ بِالذُّنُوبِ عَدْلًا ، فَإِذَا رَحِمَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَرَدَّهَا عَلَيْهِمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ رَجَعَتْ فِي طَرِيقِهَا ذَلِكَ ، فَكَانَ ذَلِكَ فَيْئًا .

(463/757)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ : الْإِيجَافُ : ضَرْبٌ مِنْ السَّيْرِ .

وَالرِّكَابُ : اسْمٌ لِلْإِبِلِ خَاصَّةً عُرْفًا لُغَوِيًّا ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مُشْتَقًّا مِنْ الرُّكُوبِ ، وَيَشْتَرِكُ غَيْرُهَا مَعَهَا فِيهَا ، وَلَكِنْ لِلْعُرْفِ احْتِكَامٌ فِي اخْتِصَاصِ بَعْضِ الْمُشْرِكَاتِ بِالِاسْمِ الْمُشْتَرِكِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ : الْمَعْنَى أَنَّ هَذِهِ الْأَمْوَالَ وَإِنْ كَانَتْ فَيْئًا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّهَا لِرَسُولِهِ ؛ لِأَنَّ رُجُوعَهَا كَانَ بِرُعْبٍ أُلْقِيَ فِي

قُلُوبِهِمْ ، دُونَ عَمَلٍ مِنْ النَّاسِ ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَتَكَلَّفُوا سَفَرًا ، وَلَا تَجَشَّمُوا رِحْلَةً ، وَلَا صَارُوا عَنْ حَالَةٍ إِلَى غَيْرِهَا ، وَلَا أَنْفَقُوا مَالًا ، فَأَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّ ذَلِكَ مُوجِبٌ لِاخْتِصَاصِ رَسُولِهِ بِذَلِكَ الْفَيْءِ ، وَأَفَادَ الْبَيَانُ بِأَنَّ ذَلِكَ الْعَمَلَ الْيَسِيرَ مِنْ النَّاسِ فِي مُحَاصَرَتِهِمْ لَغْوٌ لَا يَقَعُ الِاعْتِدَادُ بِهِ فِي اسْتِحْقَاقِ سَهْمٍ ، فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَخْصُوصًا بِهَا .

(464/757)

رَوَى ابْنُ شِهَابٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الْحَدَثَانِ النَّصْرِيِّ ﴿ أَنَّ عَلِيًّا وَالْعَبَّاسَ لَمَّا طَلَبَا عُمَرَ بِمَا كَانَ فِي يَدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْمَالِ ، وَذَلِكَ بِحَضْرَةِ عُثْمَانَ ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، وَالزُّبَيْرِ ، وَسَعْدٍ ، قَالَ لَهُمْ عُمَرُ : أُحَدِّثُكُمْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ خَصَّ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ بِسَهْمٍ لَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا غَيْرَهُ ، وَقَرَأَ : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاَللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فَكَانَتْ هَذِهِ خَالِصَةً لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ اللَّهَ اخْتَارَهَا ، وَاَللَّهِ مَا احْتَازَهَا دُونَكُمْ وَلَا اسْتَأْثَرَ بِهَا عَلَيْكُمْ .

وَذَكَرَ بَاقِيَ الْحَدِيثِ ؛ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنْفِقُهَا ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ خَصَّهُ بِهَا ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ أَعْطَاهَا الْمُهَاجِرِينَ خَاصَّةً، وَمِنْ الْأَنْصَارِ لِأَبِي دُجَانَةَ سِمَاكِ بْنِ خَرَشَةَ، وَسَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ [وَالْحَارِثِ بْنِ الصِّمَّةِ] لِحَاجَةٍ كَانَتْ بِهِمْ، وَفِي آثَارٍ كَثِيرَةٍ بَيَّنَّاهَا فِي شَرْحِ الصَّحِيحَيْنِ.

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ تَمَامُ الْكَلَامِ: فَلَا حَقَّ لَكُمْ فِيهِ وَلَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ، وَحُذِفَتْ اخْتِصَارًا لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ.

(465/757)

الْآيَةُ السَّادِسَةُ قَوْله تَعَالَى: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ: الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى لَا خِلَافَ أَنَّ الْآيَةَ الْأُولَى لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً، وَهَذِهِ الْآيَةُ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهَا عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ أَنَّهَا هَذِهِ الْقُرَى الَّتِي قُوتِلَتْ، فَأَفَاءَ اللَّهُ بِمَالِهَا؛ فَهِيَ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ؛ قَالَهُ عِكْرِمَةُ وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ.

الثَّانِي هُوَ مَا غَنِمْتُمْ بِصُلْحٍ مِنْ غَيْرِ إيجَافِ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، فَيَكُونُ لِمَنْ سَمَّى اللَّهُ فِيهِ،

وَالْأُولَى لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً، إذَا أَخَذَ مِنْهُ حَاجَتَهُ كَانَ الْبَاقِي فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ.

الثَّالِثُ: قَالَ مَعْمَرٌ: الْأُولَى لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالثَّانِيَةُ فِي الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ لِلْأَصْنَافِ الْمَذْكُورَةِ فِيهِ، وَالثَّالِثَةُ الْغَنِيمَةُ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ لِلْغَانِمِينَ.

(466/757)

الرَّابِعُ رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ وَابْنُ وَهْبٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ هِيَ النَّضِيرُ، لَمْ يَكُنْ فِيهَا خُمُسٌ، وَلَمْ يُوجَفْ عَلَيْهَا بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، كَانَتْ صَافِيَةً لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَسَمَهَا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَثَلَاثَةٍ مِنْ الْأَنْصَارِ: أَبِي دُجَانَةَ سِمَاكِ بْنِ خَرَشَةَ، وَسَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، وَالْحَارِثِ بْنِ الصِّمَّةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ هِيَ قُرَيْظَةُ وَكَانَتْ قُرَيْظَةُ وَالْخَنْدَقُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ

هَذَا لُبَابُ الْأَقْوَالِ الْوَارِدَةِ؛ وَتَحْقِيقُهَا أَنَّهُ لَا خِلَافَ أَنَّ السُّورَةَ سُورَةُ النَّضِيرِ، وَأَنَّ الْآيَاتِ الْوَارِدَةَ فِيهَا آيَاتُ بَنِي النَّضِيرِ وَإِنْ كَانَ قَدْ دَخَلَ فِيهَا بِالْعُمُومِ مَنْ قَالَ بِقَوْلِهِمْ وَفَعَلَ فِعْلَهُمْ،

وَفِيهَا آيَتَانِ : الْآيَةُ الْأُولَى قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ .

وَالثَّانِيَةُ قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ .

وَفِي الْأَنْفَالِ آيَةٌ ثَالِثَةٌ ، وَهِيَ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ : هَلْ هِيَ ثَلَاثَةُ مَعَانٍ أَوْ مَعْنَيَانِ ؟ وَلَا إشْكَالَ فِي أَنَّهَا ثَلَاثَةُ مَعَانٍ فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ : أَمَّا الْآيَةُ الْأُولَى فَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ .

(467/757)

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ يَعْنِي مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَعْطُوفًا عَلَيْهِ ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يُرِيدُ كَمَا بَيَّنَّا فَلَا حَقَّ لَكُمْ فِيهِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ عُمَرُ : إنَّهَا كَانَتْ خَالِصَةً لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْنِي بَنِي النَّضِيرِ ، وَمَا كَانَ مِثْلَهَا ، فَهَذِهِ آيَةٌ وَاحِدَةٌ وَمَعْنًى مُتَّحِدٌ .

الْآيَةُ السَّادِسَةُ قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ .

وَهَذَا كَلَامٌ مُبْتَدَأٌ غَيْرُ الْأَوَّلِ لِمُسْتَحِقٍّ غَيْرِ الْأَوَّلِ ، وَسَمَّى الْآيَةَ الثَّالِثَةَ آيَةَ الْغَنِيمَةِ ، وَلَا شَكَّ

فِي أَنَّهُ مَعْنًى آخَرُ بِاسْتِحْقَاقٍ ثَانٍ لِمُسْتَحِقٍّ آخَرَ، بَيْدَ أَنَّ الْآيَةَ الْأُولَى وَالثَّانِيَةَ اشْتَرَكَتَا فِي أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَضَمَّنَتْ شَيْئًا أَفَاءَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَاقْتَضَتْ الْآيَةُ الْأُولَى أَنَّهُ حَاصِلٌ بِغَيْرِ قِتَالٍ، وَاقْتَضَتْ آيَةُ الْأَنْفَالِ أَنَّهُ حَاصِلٌ بِقِتَالٍ، وَعُرِّيَتْ الْآيَةُ الثَّالِثَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ عَنْ ذِكْرِ حُصُولِهِ لِقِتَالٍ أَوْ لِغَيْرِ قِتَالٍ؛ فَنَشَأَ الْخِلَافُ مِنْ هَاهُنَا، فَمِنْ طَائِفَةٍ قَالَتْ: هِيَ مُلْحَقَةٌ بِالْأُولَى، وَهُوَ مَالُ الصُّلْحِ كُلُّهُ وَنَحْوُهُ.

وَمِنْ طَائِفَةٍ قَالَتْ: هِيَ مُلْحَقَةٌ بِالثَّانِيَةِ؛ وَهِيَ آيَةُ الْأَنْفَالِ.

(468/757)

وَالَّذِينَ قَالُوا: إنَّهَا مُلْحَقَةٌ بِآيَةِ الْأَنْفَالِ اخْتَلَفُوا: هَلْ هِيَ مَنْسُوخَةٌ كَمَا تَقَدَّمَ أَوْ مُحْكَمَةٌ؟

وَإِلْحَاقُهَا بِشَهَادَةِ اللَّهِ بِالْأُولَى أَوْلَى؛ لِأَنَّ فِيهِ تَجْدِيدَ فَائِدَةٍ وَمَعْنًى.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ حَمْلَ الْحَرْبِ عَلَى فَائِدَةٍ مُجَدَّدَةٍ أَوْلَى مِنْ حَمْلِهِ عَلَى فَائِدَةٍ مُعَادَةٍ.

وَهَذَا الْقَوْلُ يُنَظِّمُ لَك شَتَاتَ الرَّأْيِ، وَيُحْكِمُ الْمَعْنَى مِنْ كُلِّ وَجْهٍ؛ وَإِذَا انْتَهَى الْكَلَامُ إلَى هَذَا الْقَدْرِ فَيَقُولُ مَالِكٌ: إنَّ الْآيَةَ الثَّانِيَةَ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ إشَارَةً إلَى أَنَّ مَعْنَاهَا يَعُودُ إلَى آيَةِ الْأَنْفَالِ وَيَلْحَقُهَا النَّسْخُ، وَهُوَ أَقْوَى مِنْ الْقَوْلِ بِالْإِحْكَامِ، وَنَحْنُ لَا نَخْتَارُ إلَّا مَا قَسَّمْنَا وَبَيَّنَّا أَنَّ الْآيَةَ الثَّانِيَةَ لَهَا مَعْنًى مُجَدَّدٌ حَسْبَمَا دَلَّلْنَا عَلَيْهِ.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الْآيَةُ السَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ: الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي الْمَعْنَى؛ وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: مَعْنَاهَا مَا أَعْطَاكُمْ مِنْ الْفَيْءِ، وَمَا مَنَعَكُمْ مِنْهُ فَلَا تَطْلُبُوهُ.

الثَّانِي: مَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ مِنْ مَالِ الْغَنِيمَةِ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ مِنْ الْغُلُولِ فَلَا تَأْتُوهُ.

الثَّالِثُ: مَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ طَاعَتِي فَافْعَلُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَتِي فَاجْتَنِبُوهُ.

وَهَذَا أَصَحُّ الْأَقْوَالِ؛ لِأَنَّهُ لِعُمُومِهِ تَنَاوَلَ الْكُلَّ، وَهُوَ صَحِيحٌ فِيهِ مُرَادٌ بِهِ.

(469/757)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ وَقَعَ الْقَوْلُ هَاهُنَا مُطْلَقًا بِذَلِكَ، وَقَيَّدَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: إذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ.

وَقَدْ بَيَّنَّا تَحْقِيقَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ إذَا أَمَرَ النَّبِيُّ بِأَمْرٍ كَانَ شَرْعًا، وَإِذَا نَهَى عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ شَرْعًا وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ ﴾ .

وَقَالَ فِي حَدِيثِ الْعَسِيفِ الَّذِي افْتَدَى مِنْ الْجَلْدِ بِمِائَةِ شَاةٍ وَوَلِيدَةٍ: ﴿ أَمَّا غَنَمُك فَرَدٌّ

عَلَيْك وَجَلْدُ ابْنِك مِائَةً وَتَغْرِيبُهُ عَامًا ﴾ .

وَتَرَدَّدَتْ هَاهُنَا مَسْأَلَةٌ عُظْمَى بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ؛ وَهِيَ مَا إذَا اجْتَمَعَ فِي عَقْدٍ أَمْرٌ وَنَهْيٌ وَازْدَحَمَ عَلَيْهِ صَحِيحٌ وَفَاسِدٌ ؛ فَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ : لَا يَجُوزُ ، وَيُفْسَخُ بِكُلِّ حَالٍ .

وَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : ذَلِكَ يَخْتَلِفُ ؛ أَمَّا فِي الْبَيْعِ فَلَا يَجُوزُ إجْمَاعًا ، وَأَمَّا فِي النِّكَاحِ فَلَا ، وَاخْتَلَفُوا فِيهِ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْفِقْهِ .

وَأَمَّا فِي الْأَحْبَاسِ وَالْهِبَاتِ فَيَحْتَمِلُ كَثِيرًا مِنْ الْجَهَالَةِ وَالْأَخْطَارِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا فِيهَا ، حَتَّى قَالَ أَصْبَغُ : إنَّ مَا لَا يَجُوزُ إذَا دَخَلَ فِي الصُّلْحِ مَعَ مَا يَجُوزُ مَضَى الْكُلُّ .

وَقَالَ ابْنُ الْمَاجِشُونِ : يَمْضِي إنْ طَالَ .

وَقَالَ سَائِرُ عُلَمَائِنَا : لَا يَجُوزُ شَيْءٌ مِنْهُ ، وَهُوَ كَالْبَيْعِ .

وَأَمَّا إنْ وَقَعَ النَّهْيُ فِي الْبَيْعِ فَقَالَ كَثِيرٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ : يُفْسَخُ أَبَدًا .

وَقَالَ مَالِكٌ : يُفْسَخُ مَا لَمْ يَفُتْ ، فِي تَفْصِيلٍ طَوِيلٍ بَيَانُهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ تَأْصِيلًا ، وَفِي فُرُوعِ مَسَائِلِ الْفِقْهِ تَفْصِيلًا بَنَيْنَاهُ عَلَى تَعَارُضِ الْأَدِلَّةِ فِي الْحَظْرِ وَالْإِبَاحَةِ ، وَالْمَعْنَى وَالرَّدِّ .

وَالصَّحِيحُ عِنْدَنَا فَسْخُ الْفَاسِدِ أَبَدًا حَيْثُمَا وَقَعَ ، وَكَيْفَمَا وُجِدَ ، فَاتَ أَوْ لَمْ يَفُتْ ، لِقَوْلِهِ

عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ ﴾.

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ وَإِنْ جَاءَ بِلَفْظِ الْإِيتَاءِ وَهِيَ الْمُنَاوَلَةُ فَإِنَّ مَعْنَاهُ الْأَمْرُ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ فَقَابَلَهُ بِالنَّهْيِ، وَلَا يُقَابِلُ النَّهْيَ إِلَّا الْأَمْرُ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى فَهْمِ ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ، وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُغَيِّرَاتِ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾.

فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ، فَجَاءَتْ فَقَالَتْ: إنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّك لَعَنْت كَيْتَ وَكَيْتَ؟ فَقَالَ: وَمَالِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَقَالَتْ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ.

قَالَ: لَئِنْ كُنْت قَرَأْته لَقَدْ وَجَدْته؛ أَمَا قَرَأْت: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾.

قَالَتْ: بَلَى.

قَالَ : فَإِنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .

الْآيَةُ الثَّامِنَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَاَلَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

فِيهَا سَبْعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَالَ الْخَلْقُ بِأَجْمَعِهِمْ : يُرِيدُ بِذَلِكَ الْأَنْصَارَ الَّذِينَ آوَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ طُرِدَ ، وَنَصَرُوهُ حِينَ خُذِلَ ، فَلَا مِثْلَ لَهُمْ وَلَا لِأَجْرِهِمْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : سَمِعْت مَالِكًا وَهُوَ يَذْكُرُ فَضْلَ الْمَدِينَةِ عَلَى غَيْرِهَا مِنْ الْآفَاقِ فَقَالَ : إنَّ الْمَدِينَةَ تُبُوِّئَتْ بِالْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ ، وَإِنَّ غَيْرَهَا مِنْ الْقُرَى افْتُتِحَتْ بِالسَّيْفِ ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ : ﴿ وَاَلَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إلَيْهِمْ ﴾ الْآيَةَ .

وَقَدْ بَيَّنَّا فَضْلَ الْمَدِينَةِ عَلَى كُلِّ بُقْعَةٍ فِي كِتَابِ الْإِنْصَافِ ، وَلَا مَعْنَى لِإِعَادَتِهِ ، بَيْدَ أَنَّ الْقَارِئَ رُبَّمَا تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِنُكْتَةٍ كَافِيَةٍ فِي ذَلِكَ مُغْنِيَةٍ عَنْ التَّطْوِيلِ ، فَيُقَالُ لَهُ : إنْ أَرَدْت الْوُقُوفَ عَلَى الْحَقِيقَةِ فِي ذَلِكَ فَاتْلُ مَنَاقِبَ مَكَّةَ إلَى آخِرِهَا ، فَإِذَا اسْتَوْفَيْتهَا قُلْ : إنَّ النَّبِيَّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي الصَّحِيحِ : ﴿ اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ ، وَأَنَا أُحَرِّمُ الْمَدِينَةَ بِمِثْلِ مَا حَرَّمَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ ، وَمِثْلِهِ مَعَهُ ﴾ ؛ فَقَدْ جَعَلَ حُرْمَةَ الْمَدِينَةِ ضِعْفَيْ حُرْمَةِ مَكَّةَ .

وَقَالَ عُمَرُ فِي وَصِيَّتِهِ : أُوصِي الْخَلِيفَةَ بِالْمُهَاجِرِينَ وَبِالْأَنْصَارِ الْأَوَّلِينَ أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ . وَأُوصِي الْخَلِيفَةَ بِالْأَنْصَارِ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُهَاجِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ يَعْنِي لَا يَحْسُدُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى مَا خُصُّوا بِهِ مِنْ مَالِ الْفَيْءِ وَغَيْرِهِ كَذَا قَالَ النَّاسُ .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ : وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا إذَا كَانَ قَلِيلًا ؛ بَلْ يَقْنَعُونَ بِهِ ، وَيَرْضَوْنَ عَنْهُ .

(473/757)

وَقَدْ كَانُوا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ حِينَ حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُنْيَا ، ثُمَّ كَانُوا عَلَيْهِ بَعْدَ مَوْتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَقَدْ أَنْذَرَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] وَقَالَ : ﴿ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً ، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ : فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِ أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ نَزَلَ بِهِ ضَيْفٌ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ إلَّا قُوتُهُ وَقُوتُ صِبْيَانِهِ ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ : نَوِّمِي الصِّبْيَةَ ، وَأَطْفِئِي السِّرَاجَ ، وَقَرِّبِي لِلضَّيْفِ مَا عِنْدَك ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

مُخْتَصَرٌ ، وَتَمَامُهُ مَا رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ ؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : ﴿ أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَصَابَنِي الْجَهْدُ ؛ فَأَرْسَلَ إلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَذَهَبَ إلَى أَهْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ : ضَيْفُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لَا تَدَّخِرِي عَنْهُ شَيْئًا .

فَقَالَتْ : وَاَللَّهِ مَا عِنْدِي سِوَى قُوتِ الصِّبْيَةِ .

قَالَ : فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ الْعَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ وَتَعَالَيْ فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ ، فَفَعَلَتْ ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ أَوْ ضَحِكَ اللَّهُ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةَ ، وَأَنْزَلَ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

﴾ .

وَرُوِيَ ﴿ أَنَّ النَّضِيرَ لَمَّا افْتُتِحَتْ أَرْسَلَ إِلَى ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ فَقَالَ : جِئْنِي بِقَوْمِك .

قَالَ : الْخَزْرَجُ .

قَالَ : الْأَنْصَارُ ، فَدَعَاهُمْ وَقَدْ كَانُوا وَاسَوْا الْمُهَاجِرِينَ بِدِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، فَقَالَ لَهُمْ : إنْ شِئْتُمْ أَشْرَكْتُكُمْ فِيهَا مَعَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَإِنْ شِئْتُمْ خَصَصْتُهُمْ بِهَا ، وَكَانَتْ لَكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَدِيَارُكُمْ ؛ فَقَالَ لَهُ السَّعْدَانِ : بَلْ نَخُصُّهُمْ بِهَا وَيَبْقَوْنَ عَلَى مُوَاسَاتِنَا لَهُمْ ؛ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ ﴾ .

الْأَوَّلُ أَصَحُّ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ : ﴿ كَانَ الرَّجُلُ يَجْعَلُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّخَلَاتِ حَتَّى افْتَتَحَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرَ ، فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ الْإِيثَارُ بِالنَّفْسِ فَوْقَ الْإِيثَارِ بِالْمَالِ ، وَإِنْ عَادَ إلَى النَّفْسِ وَمِنْ الْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ : وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ وَمِنْ عِبَارَاتِ الصُّوفِيَّةِ فِي حَدِّ الْمَحَبَّةِ : إنَّهَا الْإِيثَارُ ، أَلَا تَرَى أَنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ لَمَا تَنَاهَتْ فِي حُبِّهَا لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ آثَرَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا بِالتَّبْرِئَةِ ، فَقَالَتْ : ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ .

وَأَفْضَلُ الْجُودُ بِالنَّفْسِ الْجُودُ عَلَى حِمَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَفِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ تَرَّسَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَطَلَّعُ فَيَرَى الْقَوْمَ ، فَيَقُولُ لَهُ أَبُو طَلْحَةَ : لَا تُشْرِفْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَا يُصِيبُونَكَ ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ .

وَوَقَى بِيَدِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشُلَّتْ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ الْإِيثَارُ هُوَ تَقْدِيمُ الْغَيْرِ عَلَى النَّفْسِ فِي حُظُوظِهَا الدُّنْيَوِيَّةِ رَغْبَةً فِي الْحُظُوظِ الدِّينِيَّةِ ، وَذَلِكَ يَنْشَأُ عَنْ قُوَّةِ النَّفْسِ ، وَوَكِيدِ الْمَحَبَّةِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَشَقَّةِ ؛ وَذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْمُؤْثِرِينَ ؛ كَمَا رُوِيَ فِي الْآثَارِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبِلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ مَالَهُ وَمِنْ عُمَرَ نِصْفَ مَالِهِ ، وَرَدَّ أَبَا لُبَابَةَ وَكَعْبًا إلَى الثُّلُثِ ، لِقُصُورِهِمَا عَنْ دَرَجَتَيْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ؛ إذْ لَا خَيْرَ لَهُ فِي أَنْ يَتَصَدَّقَ ثُمَّ يَنْدَمَ ، فَيُحْبِطُ أَجْرَهُ نَدَمُهُ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الشُّحِّ وَالْبُخْلِ عَلَى قَوْلَيْنِ : فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّهُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : لَهُمَا مَعْنَيَانِ : فَالْبُخْلُ مَنْعُ الْوَاجِبِ ؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ ، فَإِذَا أَرَادَ الْبَخِيلُ أَنْ يَتَصَدَّقَ لَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا فَيُوَسِّعُهَا فَلَا تَتَّسِعُ ﴾ .

وَالشُّحُّ : مَنْعُ الَّذِي لَمْ يَجِدْ ؛ بِدَلِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ ؛ فَذَكَرَ اللَّهُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ ذَهَابِ الشُّحِّ ؛ وَهَذَا لَا يَلْزَمُ ؛ فَإِنَّ كُلَّ حَرْفٍ يُفَسَّرُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ أَوْ مَعْنًى يُعَبَّرُ عَنْهُ بِحَرْفَيْنِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ يُوضَعُ مَوْضِعَ صَاحِبِهِ جَمْعًا أَوْ فَرْقًا ، وَذَلِكَ كَثِيرٌ فِي اللُّغَةِ ، وَلَمْ يَقُمْ هَاهُنَا دَلِيلٌ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا .

الْآيَةُ التَّاسِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إنَّك رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي تَعْيِينِ هَؤُلَاءِ .

وَفِي ذَلِكَ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ أَهْلُ الْإِسْلَامِ غَيْرُ ذَيْنِ مِنْ سَائِرِ الْقَبَائِلِ وَالْأُمَمِ وَمِنْ الصَّحَابَةِ .

الثَّانِي : أَنَّهُمْ التَّابِعُونَ بَعْدَ قَرْنِ الصَّحَابَةِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وَهُوَ اخْتِيَارُ جَمَاعَةٍ ، مِنْهُمْ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ رَوَاهُ عَنْهُ سَوَّارُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَأَشْهَبُ وَغَيْرُهُمَا ؛ قَالُوا : قَالَ مَالِكٌ : مَنْ سَبَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا حَقَّ لَهُ فِي الْفَيْءِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي تَحْقِيقِ الْقَوْلِ : هَذِهِ نَازِلَةٌ اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ فِيهَا قَدِيمًا ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا افْتَتَحَ الْفُتُوحَ عَلَى عُمَرَ اجْتَمَعَ إلَيْهِ مَنْ شَهِدَ الْوَقْعَةَ وَاسْتَحَقَّ بِكِتَابِ اللَّهِ الْغَنِيمَةَ ، فَسَأَلُوهُ الْقِسْمَةَ ، فَامْتَنَعَ عُمَرُ مِنْهَا ، فَأَلَحُّوا عَلَيْهِ ، حَتَّى دَعَا عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ . فَمَا حَالَ الْحَوْلُ إلَّا وَقَدْ مَاتُوا .

وَقَالَ عُمَرُ : لَوْلَا أَنْ أَتْرُكَ آخِرَ النَّاسِ بَبَّانًا مَا تَرَكْت قَرْيَةً افْتُتِحَتْ إلَّا قَسَمْتهَا بَيْنَ أَهْلِهَا .

وَرَأَى الشَّافِعِيُّ الْقِسْمَةَ كَمَا قَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ ، وَرَأَى مَالِكٌ أَقْوَالًا أَمْثَلُهَا أَنْ يَجْتَهِدَ الْوَالِي فِيهَا .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ ، وَأَوْضَحْنَا أَنَّ الصَّحِيحَ قِسْمَةُ الْمَنْقُولِ وَإِبْقَاءُ الْعَقَارِ وَالْأَرْضِ سَهْلًا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ ، إلَّا أَنْ يَجْتَهِدَ الْوَالِي فَيُنْفِذَ أَمْرًا ، فَيَمْضِي عَمَلُهُ فِيهِ لِاخْتِلَافِ النَّاسِ عَلَيْهِ .

وَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ قَاضِيَةٌ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنْ الْفَيْءِ ، وَجَعَلَهُ لِثَلَاثِ طَوَائِفَ : الْمُهَاجِرِينَ ، وَالْأَنْصَارِ وَهُمْ مَعْلُومُونَ ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ فَهِيَ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ التَّابِعِينَ وَالْآتِينَ بَعْدَهُمْ إلَى يَوْمِ الدِّينِ ، وَلَا وَجْهَ لِتَخْصِيصِهَا بِبَعْضِ مُقْتَضَيَاتِهَا .

وَفِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ إلَى الْمَقْبَرَةِ وَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّا إنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ وَدِدْت أَنِّي رَأَيْت إخْوَانَنَا .

فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَلَسْنَا بِإِخْوَانِك ، فَقَالَ : بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي ، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ ﴾ .

فَبَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ

إخْوَانَهُمْ كُلُّ مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ .

وَهَذَا تَفْسِيرٌ صَحِيحٌ ظَاهِرٌ فِي الْمُرَادِ لَا غُبَارَ عَلَيْهِ .

الْآيَةُ الْعَاشِرَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي الْمُرَادِ بِهَا ، فَقِيلَ : إنَّهُمْ الْيَهُودُ ، وَقِيلَ : هُمْ الْمُنَافِقُونَ ؛ وَهُوَ الْأَصَحُّ لِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ الْآيَاتِ مُبْتَدَأَةٌ بِذِكْرِهِمْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وَعَدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ الْيَهُودَ بِالنَّصْرِ ، وَضَمِنَ لَهُمْ أَنَّ بَقَاءَهُ بِبَقَائِهِمْ وَخُرُوجَهُ بِخُرُوجِهِمْ ، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ وَلَا وَفَّى بِهِ ، بَلْ أَسْلَمَهُمْ وَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ ، فَكَانَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اُكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ فَغَرَّ أَوَّلًا ، وَكَذَبَ آخِرًا .

الثَّانِي : أَنَّ الْيَهُودَ وَالْمُنَافِقِينَ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ وَاحِدَةً عَلَى مُعَادَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ تَكُنْ لِإِحْدَاهُمَا فِئَةٌ تُخَالِفُ الْأُخْرَى فِي ذَلِكَ .

وَالشَّتَّى : هِيَ الْمُتَفَرِّقَةُ قَالَ الشَّاعِرُ : إلَى اللَّهِ أَشْكُو نِيَّةً شَقَّتْ الْعَصَا هِيَ الْيَوْمَ شَتَّى وَهِيَ بِالْأَمْسِ جُمَّعُ

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ تَعَلَّقَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ فِي مَنْعِ صَلَاةِ الْمُفْتَرِضِ خَلْفَ الْمُتَنَفِّلِ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ؛ لِأَنَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى صُورَةِ التَّكْبِيرِ وَالْأَفْعَالِ ، وَهُمْ

مُخْتَلِفُونَ فِي النِّيَّةِ .

وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ [ذَلِكَ] فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ، فَيَشْمَلُهُ هَذَا اللَّفْظُ ، وَيَنَالُهُ هَذَا الظَّاهِرُ .

(480/757)

وَهَذَا كَانَ يَكُونُ حَسَنًا ، بَيْدَ أَنَّهُ يَقْطَعُ بِهِ اتِّفَاقُ الْأُمَّةِ عَلَى جَوَازِ صَلَاةِ الْمُتَنَفِّلِ خَلْفَ الْمُفْتَرِضِ ، وَالصُّورَةُ فِي اخْتِلَافِ النِّيَّةِ وَاتِّفَاقِ الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ فِيهِمَا وَاحِدٌ ، فَإِذَا خَرَجَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ عَنْ عُمُومِ الْآيَةِ تَبَيَّنَ أَنَّهَا مَخْصُوصَةٌ فِي الطَّاعَاتِ ، وَأَنَّهَا مَحْمُولَةٌ عَلَى مَا كَانَ مِنْ اخْتِلَافِ الْمُنَافِقِينَ فِي الْإِذَايَةِ لِلدِّينِ وَمُعَادَاةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

الْآيَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ قَوْله تَعَالَى : { لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ } .

تَعَلَّقَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا بِظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي نَفْيِ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ فِي الْقِصَاصِ لِأَجْلِ عُمُومِ نَفْيِ الْمُسَاوَاةِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ السَّجْدَةِ ، وَحَقَّقْنَا فِي أُصُولِ الْفِقْهِ اخْتِلَافَ الْعُلَمَاءِ فِي التَّعَلُّقِ بِمِثْلِ هَذَا الْعُمُومِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ مَخْرَجَ التَّعْمِيمِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ مَا عَقَبَ الْآيَةَ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ : { أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ } يَعْنِي

وَأَصْحَابُ النَّارِ هُمْ الْهَالِكُونَ ؛ فَفِي هَذَا الْقَدْرِ انْتَفَتْ التَّسْوِيَةُ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : خُصُوصُ آخِرِهَا لَا يَمْنَعُ مِنْ عُمُومِ أَوَّلِهَا ، وَذَلِكَ مُحَقَّقٌ هُنَالِكَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(481/757)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الحشر

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ

قوله : ﴿ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾ : " مِنْ " يجوزُ أَنْ تكونَ للبيانِ ، فتتعلَّق بمحذوفٍ ، أي : أعني من أهل الكتاب . والثاني : أنها حالٌ من " الذين كفروا " .

قوله : ﴿ مِن دِيَارِهِمْ ﴾ متعلق ب " أَخْرَجَ " ومعناها ابتداءُ الغايةِ . وصَحَّتْ إضافةُ الديارِ إليهم لأنهم أنْشَؤُوها .

قوله : ﴿ لأَوَّلِ الحشر ﴾ هذه/ اللامُ تتعلقُ ب " أَخْرَجَ " وهي لامُ التوقيتِ كقولِه : ﴿ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ [الإسراء : 78] ، أي : عند أول الحشر . قال الزمخشري : " وهي

اللامُ في قولِه تعالى: ﴿ ياليتني قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر: 24] وقولِك "جئتُ لوقْتِ كذا". قلت: سيأتي الكلامُ على هذه اللامِ في الفجرِ، إنْ شاءَ الله تعالى.

قوله: ﴿ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم ﴾ فيه وجهان، أحدهما: أَنْ يكونَ "حصونُهم" مبتدأً، و"مانِعَتُهم" خبرٌ مقدمٌ. والجملةُ خبر "أنهم" لا يُقال: لِمَ لا يُقال: "مانِعَتُهم" مبتدأٌ؛ لأنه معرفةٌ و"حصونُهم" خبرُه. ولا حاجةَ لتقديمٍ ولا تأخيرٍ؛ لأنَّ القصدَ الإِخبارُ عن الحصون، ولأنَّ الإِضافةَ غيرُ مَحْضَةٍ، فهي نكرةٌ. والثاني: أَنْ يكونَ "مانِعَتُهم" خبرَ "أنهم" و"حصونُهم" فاعلٌ به. نحو: إنَّ زيداً قائمٌ أبوه، وإنَّ عَمْراً قائمةٌ جاريتُه. وجعله الشيخ أَوْلى؛ لأنَّ في نحو: قائمٌ زيد على أَنْ يكونَ خبراً مقدماً ومبتدأً مؤخراً خلافاً والكوفيون يمنعونَه فمحلُّ الوِفاقِ أَوْلى.

(482/757)

وقال الزمخشري: "فإنْ قلتَ: أيُّ فَرْقٍ بين قولِك "وظنُّوا أنَّ حصونَهم تمنعُهم، أو مانِعَتُهم، وبين النظمِ الذي جاء عليه؟ قلت: [في] تقديمِ الخبرِ على المبتدأ دليلٌ على فَرْطِ وُثوقِهم بحَصانتِها ومَنْعِها إياهم، وفي تصييرِ ضميرِهم اسماً لـ"أنَّ" وإسنادِ الجملةِ إليه دليلٌ على اعتقادِهم في أنفسِهم أنَّهم في عِزَّةٍ ومَنَعَةٍ لا يُبالى معها بأحد يَتَعَرَّضُ لهم، وليس ذلك في قولك

" حُصُونهم تَمْنعهم " انتهى . وهذا الذي ذكره إنما يَتأَتّى على الإِعرابِ الأولِ ، وقد تقدَّم أنه مَرْجوحٌ ، وتَسَلَّطَ الظنُّ هنا على " أنّ َ" المشددةِ ، والقاعدةُ أنه لا يعمل فيها ولا في المخففةِ منها إلاَّ فعلُ عِلْمٍ ويقينٍ ، إجراءً له مُجْرى اليقين لشدَّته وقوتِه وأنَّه بمنزلِة العلم .

قوله : { يُخْرِبُونَ } يجوزُ أَنْ يكونَ مستأنفاً للإِخبار به ، وأن يكونَ حالاً مِنْ ضميرِ " قلوبِهم " وليس بذاك . وقرأ أبو عمرو " يُخَرِّبون " بالتشديد وباقيهم بالتخفيفِ وهما بمعنى واحدٍ ؛ لأن خرَّبَ عدَّاه أبو عمروٍ بالتضعيف ، وهم بالهمزة . وعن أبي عمروٍ أنه فرَّق بمعنىً آخرَ فقال : " خرَّب بالتشديد : هدَم وأفْسد ، وأَخْرَبَ بالهمزة : ترَكَ الموضعَ خراباً وذهَب عنه . واختار الهذليُّ قراءةَ أبي عمروٍ لأجل التكثير . ويجوزُ أَنْ يكونَ " يُخْرِبون " تفسيراً للرعب فلا مَحَلَّ له أيضاً .

وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (3)

(483/757)

قوله : { الجلاء } : العامَّةُ على مَدّةٍ وهو الإِخراجُ ، أَجْلَيْتُ القومَ إجلاءً ، وجلا هو جلاءً . وقال الماوردي : " الجَلاءُ أخصُّ من الخروجِ ؛ لأنه لا يُقال إلاَّ لجماعةٍ ، والإِخراجُ يكون للجماعةِ والواحد " وقال غيرُه : الفرقُ بينهما أنَّ الجلاءَ ما كان مع الأهلِ والولدِ

بخلاف الإِخراجِ فإنه لا يَسْتلزِمُ ذلك .

وقرأ الحسن وعلي ابنا صالح " الجَلا " بألفٍ فقط . وطلحة مهموزاً من غيرِ ألفٍ كالنبأ .

وقرأ طلحة " ومَنْ يُشاقِقْ " بالفكّ كالمتفق عليه في الأنفال .

مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (5)

قوله : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ ﴾ : " ما " شرطيةٌ في موضع نصب ب " قَطَعْتم " و " مِنْ لينةٍ " بيانٌ له و " فبإذنِ الله " جزاء الشرطِ . ولا بُدَّ مِنْ حذفٍ ، أي : فقَطْعُها بإذنِ الله ، فيكون " بإذنِ الله " الخبرَ لذلك المبتدأ . واللينة فيها خلافٌ كثير ، قيل : هي النخلةُ مطلقاً ، وأُنْشِد :

4244 كأن قُتودي فوقها عُشُّ طائرٍ . . . على لِيْنَةٍ سَوْقاءَ تَهْفوا جُنوبها

وقال آخر :

4245 طِراقُ الخوافي واقعٌ فوقَ لِينة . . . نَدَى لَيْلِهِ في ريشه يَتَرَقْرَقُ

وقيل : هي النخلة ما لم تكن عجوةً . وقيل : ما لم تكن عَجْوةً ولا بَرْنِيَّة . وقيل : هي النخلةُ الكريمة . وقيل : ما تَمْرُها لَوْنٌ ، وهو نوعٌ من التمر ، قال سفيان : هو شديدُ الصُّفْرة يَشِفُّ عن نواةٍ . وقيل : هي العَجْوة . وقيل : هي الفُسْلان وأنشد :

4246 غَرَسوا لينةً بمَجرى مَعِينِ . . . ثم حُفَّ النخيلُ بالآجامِ

وقال آخر :

4247 قد جَفاني الأَحْبابُ حين تَغَنَّوا . . . بفراقِ الأحبابِ مِنْ فوقِ لِيْنَهْ

وقيل : هي أغصان الشجر للينِها .

(484/757)

وفي عين "لِينة" قولان ، أحدهما : أنها واوٌ لأنه من اللون ، وإنما قُلِبَتْ ياءً لسكونِها وانكسارِ ما قبلَها كدِيْمة وقيمة . الثاني : أنها ياءٌ لأنها من اللِّين . وجَمْعُ اللِّينةِ لِيْن لأنه من بابِ اسم الجنس كتَمْرة وتَمْر . وقد كُسِّر على "لِيان" وهو شاذٌّ ؛ لأنَّ تكسيرَ ما يُفَرَّق بتاءِ التأنيث شاذٌّ كرُطَبَة ورُطَب وأَرْطاب . وأُنْشِد :

4248 وسالفةٌ كسَحُوْقِ اللِّيا . . . نِ أَضْرَمَ فيه الغَوِيُّ السُّعُرْ

/ والضميرُ في "تَرَكْتموها" عائدٌ على معنى "ما" وقرأ عبدُ الله والأعمش وزيدُ بن علي "قُوَّماً" على وزنِ ضُرَّب ؛ جمعَ "قائم" مراعاةً لمعنى "ما" فإنه جمعٌ . وقُرِىءَ "قائماً" مفرداً مذكراً . وقُرِىء "أُصُلِها" بغيرِ واو . وفيه وجهان ، أحدهما : أنه جمعُ "أَصْلٍ" ، نحو : رَهْن ورُهُن . والثاني : أن يكونَ حَذَفَ الواوَ استثقالاً لها .

قوله : { وَلِيُخْزِيَ } اللامُ متعلقةٌ بمحذوفٍ ، أي : ولِيُخْزِيَ أَذِنَ في قَطْعِها ، أو لِيُسِرَّ المؤمنين ويُعِزَّهم ولِيُخْزِيَ .

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6)

قوله : ﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ ﴾ : الفاءُ جوابُ الشرطِ ، أو زائدةٌ ، على أنها موصولةٌ مُضمَّنَةٌ معنى الشرط . و " ما " نافيةٌ . والإِيجافُ : حَمْلُ البعيرِ على السيرِ السريع يقال : وَجَفَ البعيرِ يَجِفُ وَجْفاً ووَجِيْفاً ووَجَفاناً . وأَوْجَفْتُه أنا إيجافاً . قال العَجَّاج :

4249 ناجٍ طواه الأَيْنُ مِمَّا وَجَفا . . . وقال نُصَيب :

4250 ألا رُبَّ رَكْبٍ قد قَطَعْتُ وجيفَهم . . . إليك ولولا أنت لم تُوجِفِ الرَّكْبُ

قوله : ﴿ مِنْ خَيْلٍ ﴾ " مِنْ " زائدةٌ ، أي : خَيْلاً . والرِّكاب : الإِبلُ .

(485/757)

مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (7)

قوله : ﴿ مَّآ أَفَآءَ اللهُ ﴾ : قال الزمخشري : " لم يُدْخِلِ العاطفَ على هذه الجلمةِ لأنها بيانٌ للأولى ، فهي منها غيرُ أجنبيةٍ " .

قوله : ﴿ يَكُونَ دُولَةً ﴾ قرأ هشام " تكون " بالتاء والياء " دُوْلةٌ " بالرفع فقط ، والباقون بالياء مِنْ تحتُ ونصب دُوْلَةً . فأمَّا الرفعُ فعلى أنَّ "كان " التامَّةُ . وأمَّا التذكيرُ والتأنيثُ فواضحان لأنه تأنيثٌ مجازيٌّ . وأمَّا النصبُ فعلى أنها الناقصة . واسمُها ضميرٌ عائدٌ على الفَيْءِ ، والتذكيرُ واجبٌ لتذكيرِ المرفوع . و " دُولة " خبرها . وقيل : عائد على " ما " اعتباراً بلفظِها . وقرأ العامَّةُ " دُوْلة " بضم الدال . وعلي بن أبي طالب والسُّلميُّ بفتحِها . فقيل : هما بمعنىً وهما ما يَدُول للإِنسان ، أي : يدور من الجِدِّ والعَناء والغَلَبة . وقال الحُذَّاقُ من البصريين والكسائيُّ : الدَّوْلة بالفتح : من المُلْك بضم الميم ، وبالضم من المِلْكِ بكسرِها ، أو بالضمِّ في المال ، وبالفتح في النُّصْرة وهذا يَرُدُّه القراءةُ المرويَّةُ عن علي والسلمي ؛ فإنَّ النصرةَ غيرُ مرادةٍ هنا قطعاً . و "كيلا " علةٌ لقولِه : " فللَّهِ وللرسول " ، أي : استقرارُه لكذا لهذه العلَّةِ .

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8)

قوله: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ﴾: فيه ثلاثةُ أوجهٍ، أحدُها: أنه بدلٌ مِنْ "لذي القُرْبى" قاله أبو البقاء والزمخشري. قال أبو البقاء: "قيل هو بدلٌ مِنْ "لذي القُربى" وما بعده" وقال الزمخشري: "بدلٌ مِنْ قوله "ولذي القربى" وما عُطِف عليه. والذي مَنَعَ الإِبدالَ مِنْ "لله وللرسول" والمعطوفِ عليهما وإنْ كان المعنى لرسولِ الله أن اللّهَ عزَّ وجلَّ أخرجَ رسوله من الفقراءِ في قولِه: ﴿ وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وأنه تعالى يترفَّعُ برسوله عن تسميته بالفقير، وأنَّ الإِبدالَ على ظاهرِ اللفظ من خلافِ الواجب في تعظيمِ الله عزَّ وجلَّ" يعني لو قيل: بأنَّه بَدَلٌ مِنْ "لله" وما بعدَه لَزِمَ فيه ما ذُكِرَ: مِنْ أنَّ البدلَ على ظاهرِ اللفظِ يكونُ من الجلالةِ فيُقال: "للفقراء" بدلٌ مِنْ "لله" ومِنْ "رسولِه" وهو قبيحٌ لفظاً، وإن كان المعنى على خلافِ هذا الظاهرِ، كما قال: إن معناه لرسولِ الله، وإنما ذُكر اللهُ عزَّ وجلَّ تفخيماً، وإلاَّ فاللهُ تعالى غنيٌّ عن الفَيْءِ وغيره، وإنما جعله بدلاً مِنْ "لذي القُرْبى" لأنه حنفيٌّ، والحنفية يشترطون الفقرَ في إعطاءِ ذوي القربى مِنَ الفَيْءِ.

الثاني: أنه بيانٌ لقولِه ﴿ والمساكين وابن السبيل ﴾ وكُرِّرتُ لامُ الجر لَمَّا كانت الأُولى مجرورةً باللام؛ لِيُبَيِّنَ أنَّ البدلَ إنما هو منها، قاله ابنُ عطية، وهي عبارةٌ قَلِقَةٌ جداً.

الثالث: أن "للفقراء" خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، أي: ولكنَّ الفَيْءَ للفقراء. وقيل: تقديرُه: ولكن يكونُ "للفقراء". وقيل: تقديرُه: اعجَبوا للفقراء.

قوله : ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ حالاً . في صاحِبها قولان ، أحدهما : للفقراء .

والثاني : واو " أُخْرِجوا " قالهما مكي .

(487/757)

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)

قوله : ﴿ والذين تَبَوَّءُوا ﴾ : يجوزُ فيه وجهان ، أحدهما : أنه عطفٌ على الفقراء ، فيكونُ مجرورا ، ويكونُ من عَطْفِ المفرداتِ ، ويكون " يُحبُّون " حالاً . والثاني : أَنْ يكونَ مبتدأ ، خبرُه " يُحِبُّون " ، ويكون حينئذٍ مِنْ عطفِ الجُمل .

(488/757)

قوله : ﴿ والإيمان ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه ضُمِّنَ " تَبَوَّؤوا " معنى لِزموا ، فيَصِحُّ عَطْفُ الإِيمان عليه ؛ إذ الإِيمانُ لا يُتَبَوَّأ . والثاني : أنه منصوبٌ بمقدرٍ ، أي : واعتقدوا ، أو

وأَلفوا ، أو وأحبُّوا . الثالث : أن يُتَجوَّز في الإيمان فيُجْعَل لاختلاطِه بهم وثباتِهم عليه كالمكانِ المُحيطِ بهم ، فكأنَّهم نَزَلوه ، وعلى هذا فيكونُ جَمْعَ بين الحقيقةِ والمجازِ في كلمةٍ واحدةٍ ، وفيه خلافٌ مشهورٌ . الرابع : أَنْ يكونَ الأصلُ : / دارَ الهجرة ودارَ الإيمان ، فأقامَ لامَ التعريفِ في الدار مُقامَ المضافِ إليه ، وحَذَفَ المضافَ مِنْ دار الإيمان ، ووَضَعَ المضافَ إليه مَقامه . الخامسُ . أَنْ يكونَ سَمَّى المدينةَ لأنَّها دارُ الهجرة ومكانُ ظهورِ الإيمان بالإيمان ، قال هذين الوجهَيْنِ الزمخشريُّ ، وليس فيه إلاَّ قيامُ أل مَقامَ المضافِ إليه ، وهو مَحَلُّ نَظَر ، وإنما يُعْرَفُ الخلافُ : هل تقوم أل مَقامَ الضميرِ المضاف إليه ؟ الكوفيون يُجيزونه كقولِه تعالى : ﴿ فَإِنَّ الجنةَ هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 39] ، أي : مَأْواه ، والبصريون يمنعونه ويقولون : الضميرُ محذوفٌ ، أي : المَأْوى له وقد تقدَّمَ تحريرُ هذا . أمَّا كونُها عِوَضاً من المضاف إليه فلا نَعْرِفُ فيه خلافاً .

السادس : أَنَّه منصوبٌ على المفعولِ معه ، أي : مع الإيمان معاً ، قاله ابن عطية ، وقال : " وبهذا الاقترانِ يَصِحُّ معنى قولِه " مِنْ قبلهم " فتأمَّلْه " قلت : وقد شَرَطوا في المفعول معه أنَّه يجوز عَطْفُه على ما قبلَه حتى جعَلوا قولَه ﴿ فأجمعوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ مِنْ بابِ إضمار الفعل لأنَّه لا يُقال : أجمعتُ شركائي إنما يقال جَمَعْتُ ، وقد تقدَّم القولُ في ذلك ولله الحمد مشبعاً .

قوله : ﴿ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّ الحاجةَ هنا على بابِها من الاحتياج ، إلاَّ أنها واقعةٌ مَوْقعَ المحتاجِ إليه ، والمعنَى : ولا يجدون طَلَبَ محتاجٍ إليه ممَّا أُوْتي المهاجرون من الفيء وغيرِه ، والمُحتاجُ إليه يُسَمَّى حاجةً تقول : خُذْ منه حاجتَك ، وأعطاه مِنْ مالِه حاجتَه ، قاله الزمشخري . فعلى هذا يكون الضميرُ الأول للجائين مِنْ بعدِ المهاجرين ، وفي " أُوْتوا " للمهاجرين . والثاني : أنَّ الحاجةَ هنا مِنْ الحَسَدِ ، قاله بعضُهم ، والضميران على ما تقدَّم قبل . وقال أبو البقاء : مَسَّ حاجةٍ ، أي : إنه حُذِف المضافُ للعلم به ، وعلى هذا فالضميران للذين تبوَّؤوا الدارَ والإِيمان .

قوله : ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ ﴾ واوُ الحال وقد تقدَّم الكلامُ عليها .

والخَصاصَةُ : الحاجةُ ، وأصلُها مِنْ خَصاصِ البيت ، وهي فُروجهُ ، وحالُ الفقير يتخلَّلُها النَّقْصُ ، فاسْتُعير لها ذلك .

قوله : ﴿ وَمَن يُوقَ ﴾ العامَّةُ على سكون الواو وتخفيفِ القافِ مِنْ الوِقاية . وابنُ أبي عبلة وأبو حيوة بفتحِ الواو وشدِّ القافِ . والعامَّةُ بضمِّ الشينِ مِنْ " شُحَّ " وابنُ أبي عبلة وابنُ عمر بكسرها .

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (10)

قوله : ﴿ والذين جآءُوا ﴾ : يحتمل الوجهَيْن المتقدمَيْن في " الذين " قبلَه ، فإن كان معطوفاً على المهاجرين ف " يقولون " حال كَ " يُحِبُّون " أو مستأنف ، وإنْ كان مبتدأً ف " يقولون " خبرُه .

(490/757)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11)

قوله : ﴿ لإِخْوَانِهِمُ ﴾ : اللامُ هنا للتبليغ فقط بخلافِ قوله : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ فإنَّها تحتمل ذلك وتحتمل العلة ، وقوله : ﴿ وَلاَ نُطِيعُ فيكُمْ ﴾ ، أي : في قتالِكم ، أو في خِذْلانكم .

وقوله : ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ أُجيب القسمُ المقدرُ لأنَّ قبل " إنْ " لاماً موطِّئة حُذِفَتْ للعِلْم بمكانِها ، فإنَّ الأكثرَ الإِتيانُ بها . ومثلُه قولُه : ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ﴾ [المائدة : 73] وقد تقدَّم .

لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (12)

قوله : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لاَ يَخْرُجُونَ ﴾ : إلى آخره أُجيب القسمُ لسَبْقِه ، ولذلك رُفِعَتِ الأفعالُ ولم تُجْزَمْ ، وحُذِفَ جوابُ الشرطِ لدلالةِ جوابِ القسمِ عليه ، ولذلك كان فِعلُ الشرطِ ماضياً . وقال أبو البقاء : " قوله : " لاَ يَنْصُرُوْنَهم " لَمَّا كان الشرطُ ماضياً تُرِكَ جَزْمُ الجوابِ " انتهى . وهو غَلَطٌ ؛ لأنَّ " لا يَنْصرونهم " ليس جواباً للشرطِ ، بل هو جوابٌ للقسم ، وجواب الشرطِ محذوفٌ كما تقدَّمَ تقريرُه ، وكأنه توهَّم أنه من بابِ قوله :

4251 وإن أتاه خليلٌ يومَ مَسْأَلةٍ . . . يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ

(491/757)

وقد سبق أبا البقاء ابنُ عيطة إلى ما يُوْهِم شيئاً من ذلك ، ولكنه صرَّح بأنه جوابُ القسم ، وقال : " جاءت الأفعالُ غيرَ مجزومةٍ في " لا يَخْرجون " ولا " يَنْصُرون " لأنها راجعةٌ على حكمِ القسم لا على حكمِ الشرط . وفي هذا نظرٌ " وقوله : " وفي هذا نظر " مُوْهِمٌ أنه جاء على خلافِ ما يقتضيه القياسُ ، وليس كذلك ، بل جاء على ما يَقْتضيه القياسُ . وفي هذه الضمائرِ قولان ، أحدهما : أنها كلَّها للمنافقين . والثاني : أنها مختلفةٌ ، بعضُها لهؤلاء وبعضُها لهؤلاء .

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (13)

قوله: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾: " رهبةً " مصدرٌ مِنْ رُهِبَ المبنيِّ للمفعولِ، فالرهبةُ واقعةٌ من المنافقين لا مِنْ المخاطبين، كأنه قيل: لأنتم أشدُّ مرهوبيَّةً في صدورهم من الله فالمخاطبون مَهوبون، وهو كقولِ كعبِ بن زهيرٍ رضي الله عنه في مَدْحِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم:

4252 فلَهْوَ أَخْوَفُ عندي إذا أُكَلِّمُهُ ... وقيل: إنك محبوسٌ ومقتولُ

مِنْ ضَيْغَمٍ بثَراءِ الأرضِ مُخْدَرُه ... ببطْنِ عَثَّرَ غِيْلٌ دونَه غِيْلُ

و" رُهْبَةً " تمييز.

لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (14)

قوله: ﴿ جَمِيعاً ﴾: حالٌ و ﴿ إِلاَّ فِي قُرًى ﴾ متعلقٌ ب" يُقاتِلونكم ".

وقوله: ﴿ جُدُرٍ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو " جدار " بالإِفرادِ. وفيه أوجهٌ، أحدُها: أنه أرادَ به السُّوْرَ، والسُّوْرُ الواحد يَعُمُّ الجميعَ من المقاتِلةِ ويَسْتُرهم. والثاني: أنه واحدٌ في معنى الجمع لدلالة السِّياقِ عليه. والثالث: أنّ كلَّ فِرْقةٍ منهم وراءَ جدار، لا أنَّهم كلَّهم

وراءَ جدار . والباقون قَرَؤُوا جُدُر بضمتين/اعتبارا ً بأنّ كلّ فِرْقةٍ وراءَ جدار ، فجُمِعَ لذلك . وقرأ الحسن وأبو رجاء وابن وثاب والأعمش ، ويُرْوى عن ابن كثير وعاصم بضمةٍ وسكونٍ ، وهي تخفيفُ الأُولى . وقرأ ابن كثير أيضا ً في رواية هارونَ عنه ، وهي قراءةُ كثيرٍ من المكيين " جَدْرٍ " بفتحة وسكون فقيل : هي لغةٌ في الجدار . وقال ابن عطية : " معناه أصلُ بنيانٍ كالسُّور ونحوه " قال : " ويُحتمل أَنْ يكونَ مِنْ جَدْرِ النخيل ، أي : أو مِنْ وراءِ نخيلهم . وقُرِىء " جَدَر " بفتحتين حكاها الزمخشريُّ ، وهي لغةٌ في الجدار أيضاً .

قوله : { بَيْنَهُمْ } متعلّقٌ بشديد و " جميعاً " مفعولٌ ثانٍ ، أي : مجتمعين و " قلوبُهم شَتَّى " جملةٌ حاليةٌ أو مستأنفةٌ للإِخبار بذلك . والعامَّةُ على " شتى " بلا تنوينٍ لأنَّها ألفُ تأنيثٍ . ومِنْ كلامهم : " شتى تَؤُوب الحَلَبَةُ " ، أي : متفرِّقين . وقال آخر :

4253 إلى اللهِ أَشْكو فِتْنَةً شَقَّت العِصا . . . هي اليومَ شَتَّى وهْي أَمْسِ جميعُ

وقرأ مبشر بن عبيد " شتىً " منونة ، كأنه جعلها ألفَ الإِلحاق .

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (15)

قوله : ﴿ كَمَثَلِ الذين ﴾ : خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : مثلُهم مثلُ هؤلاء . و " قريباً " فيه وجهان ، أحدهما : أنَّه منصوبٌ بالتشبيه المتقدم ، أي : يُشَبَّهونهم في زمنٍ قريب سيقع لا يتأخر ، ثم بَيَّنَ ذلك بقوله : ﴿ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ . والثاني : أنه منصوبٌ ب " ذاقوا " ، أي : ذاقوه في زمنٍ قريب سيقع ولم يتأخَّرْ . وانتصابُه في وجهَيْه على ظرف الزمان . وقوله : ﴿ كَمَثَلِ الشيطان ﴾ [الحشر : 16] كالبيان لقولِه : ﴿ كَمَثَلِ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ .

فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (17)

قوله : ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ ﴾ : العامَّةُ على نصب " عاقبتَهما " بجَعْلِه خبراً ، والاسمُ " أنَّ " وما في حيِّزها ؛ لأنَّ الاسمَ أَعْرَفُ مِنْ " عاقبتُهما " . وقد تقدَّم تحريرُ هذا في آل عمران والأنعام . وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وابن أرقم برفعِها على جَعْلِها اسماً ، و " أنَّ " وما في حَيِّزها خبراً كقراءةِ ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ [الأنعام : 23] .

قوله : ﴿ خَالِدَينَ ﴾ العامَّةُ على نَصْبه حالاً من الضمير المستكنِّ في الجارِّ لوقوعِه خبراً . وعبد الله وزيد بن علي والأعمش وابن أبي عبلة برفعِه خبراً ، والظرفُ مُلْغَى فيتعلَّق بالخبر ، وعلى هذا فيكون تأكيداً لفظياً للحرفِ وأُعيد معه ضميرُ ما دَلَّ عليه كقولِه : ﴿ فَفِي الجنة خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ [هود : 108] وهذا على مذهب سيبويه فإنه يُجيز إلغاءَ الظرفِ وإنْ أُكِّدَ ، والكوفيون يَمْنعونه وهذا حُجَّةٌ عليهم . وقد يُجيبون : بأنَّا لا نُسَلِّمُ أنَّ

الظرفَ في هذه القراءةِ مُلْغَى، بل نجعله خبراً ل "أنَّ" وخالدان خبرٌ ثانٍ، وهو مُحْتَمِلٌ لما قالوه إلاَّ أنَّ الظاهرَ خلافُه.

(494/757)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18)

قوله: ﴿ وَلْتَنظُرْ ﴾: العامَّةُ على سكونِ لامِ الأمرِ. وأبو حيوة ويحيى بنُ الحارث بكسرِها على الأصل. والحسنُ بكسرِها ونصبِ الفعل، جَعَلَها لامَ كي، ويكونُ المُعَلَّلُ مقدراً، أي: ولْتنظر نفسٌ حَذَّركم وأَعْلمكم. وتنكيرُ النفسِ والغدِ. قال الزمخشري: " أمَّا تَنْكيرُ النفسِ فلاستقلالِ الأنفسِ النواظرِ فيما قَدَّمْنَ للآخرةِ، كأنه قيل: لتنظرْ نفسٌ واحدةٌ. وأمَّا تنكيرُ الغد فلتعظيمِه وإبهامِ أَمْرِه كأنه قيل: لِغدٍ لا يُعْرَفُ كُنْهُهُ لِعِظَمِه ".

وقوله: ﴿ واتقوا الله ﴾ تأكيدٌ: وقيل: كُرِّر لتغايُرِ متعلَّق التَّقْوَيَيْن فمتعلَّقُ الأولى أداءُ الفرائضِ لاقترانِه بالعمل، والثانيةِ تَرْكُ المعاصي لاقترانِه بالتهديد والوعيدِ، قال معناه الزمخشري.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19)

قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا ﴾: العامَّةُ على الخطاب. وأبو حيوة بالغَيْبة على الالتفاتِ.

لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20)

قوله: ﴿ أَصْحَابُ الجنة هُمُ الفآئزون ﴾: كالتفسير لنفي تساويهما. و "هم" يجوزُ أَنْ يكونَ فَصْلاً، وأَنْ يكونَ مبتدأ، فعلى الأول الإخبارُ بمفردٍ، وعلى الثاني بجملةٍ.

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)

قوله: ﴿ خَاشِعاً ﴾: حالٌ؛ لأن الرؤيةَ بَصَرية. وقرأ طلحة "مُصَّدِّعاً" بإدغام التاء في الصاد.

(495/757)

وأبو ذر وأبو السَّمَّال "القَدُّوس" بفتح القاف. وقرأ العامَّةُ "المُؤْمِنُ" بكسر الميم اسمَ فاعل مِنْ آمَن بمعنى أَمَّن. وأبو جعفر محمد بن الحسين وقيل ابن القعقاع: بفتحها. فقال الزمخشري: "بمعنى المُؤْمَنِ به على حَذْفِ حرف الجر، كما تقول في قومَ موسى مِنْ قولِه ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف: 155] المختارون". وقال أبو حاتم: "لا يجوزُ ذلك، أي: هذه القراءة؛ لأنه لو كان كذلك لكان "المؤمَنُ به" وكان جاراً، لكن المؤمَنَ

المطلقَ بلا حرفِ جر / يكون مَنْ كان خائفاً فأُمِّنَ" فقد ردَّ ما قاله الزمخشريُّ .

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23)

قوله : ﴿ الجبار ﴾ : اسْتَدَلَّ به مَنْ يقول : إن أمثلةَ المبالغةِ تأتي من المزيدِ على الثلاثةِ ، فإنه مِنْ أَجْبَرَه على كذا ، أي : قهره . قال الفراء : " ولم أسمع فعَّالاً مِنْ أَفْعَلَ إلاَّ في جَبَّار ودَرَّاك مِنْ أدرك " انتهى . واسْتُدْرِك عليه : أَسْأَر فهو سَأَر . وقيل : هو من الجَبْر وهو الإِصلاحُ . وقيل : مِنْ قولِهم نَخْلَةٌ جَبَّارة ، إذ لم تَنَلْها الجُناةُ . قال امرؤ القيس :

4254 سَوامِقُ جَبَّارٍ أثيثٍ فُروعُه . . . وعالَيْنَ قِنْوانا مِن البُسْرِ أَحْمرا

هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)

قوله : ﴿ المصور ﴾ : العامَّةُ على كسرِ الواوِ ورفعِ الراءِ : إمَّا صفةً ، وإمَّا خبراً . وقرأ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والحسن وابن السَّمَيْفَع وحاطب بن أبي بَلْتَعة بفتح الواو ونصب الراء . وتخريجُها : على أن يكونَ منصوباً بالباري والمُصَوَّر هو الإِنسانُ : إمَّا آدمُ ،

وإمَّا هو وبنوه . وعلى هذه القراءةِ يَحْرُم الوقفُ على " المصوَّر " بل يجب الوصلُ ليظهرَ النصبُ في الراء ، وإلاَّ فقد يُتَوَهَّمُ منه في الوقفِ ما لا يجوزُ . ورُوي عن أمير المؤمنين أيضاً فَتْحُ الواوِ وجَرُّ الراءِ . وهي كالأُولى في المعنى ، إلاَّ أنه أضاف اسمَ الفاعل لمعمولِه تخفيفاً نحو : الضاربُ الرجلِ . والوقف على المصوَّر في هذه القراءةِ أيضاً حرامٌ . وقد نَبَّه عليه بعضُهم . وقال مكي : " ويجوز نصبُه في الكلام ، ولا بُدَّ مِنْ فتح الواوِ ، فتنصبُه بالباري ، أي : هو اللهُ الخالقُ المصوَّر ، يعني آدمَ عليه السلام وبنيه " انتهى . قلت : قد قُرِئ بذلك كما تقدَّم ، وكأنه لم يَطَّلِعْ عليه . وقال أيضاً : " ولا يجوز نصبُه مع كسرِ الواوِ ، ويُرْوى عن علي رضي الله عنه " يعني أنه إذا كُسِرَت الواوُ كان من صفاتِ الله تعالى ، وحينئذٍ لا يَسْتقيم نصبُه عنده ؛ لأنَّ نَصْبَه باسمِ الفاعلِ قبلَه . وقوله : " ويُروى " ، أي : كسرُ الواوِ ونصبُ الراء . وإذا صَحَّ هذا عن أمير المؤمنين فيتخرَّج على أنه من القطع . كأنه قيل : أَمْدَحُ المصوِّر كقولِهم : " الحمدُ للهِ أهلَ الحمد " بنصب أهلَ ، وقراءةِ مَنْ قرأ ﴿ للَّهِ رَبَّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 1] بنصب " ربَّ " قال مكي : " والمصوِّر : مُفَعِّل مِنْ صَوَّرَ يُصَوِّرُ ، ولا يحسُنُ أَنْ يكونَ مِنْ صار يَصير ؛ لأنه يلزمُه منه أَنْ يقال : المُصَيِّر بالياء " ومثلُ هذا من الواضحات ولا يقبله المعنى أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 277 .

﴿ 295 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الحشر

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم عزيز - الكون بجملته في طلبه .

. وهو عزيز

الشموس والأقمار ، والليل والنهار ، وجميع ما خلق الله من الأعيانم .

والآثار متنادية على أنفسها ، نحن عبيده .

. نحن عبيد من لم يزل .

. تزيد من لم يزل .

قوله جل ذكره : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

قدّس الله ونزّهَهُ كُلُّ شيءٍ خَلَقه ؛ فكلُّ ما خَلَقَه جعَلَه على وحدانيته دليلاً ، ولِمَنْ أراد أن يَعْرِفَ إليهتَه طريقاً وسبيلاً .

أتقن كلَّ شيءٍ وذلك دليلُ عِلْمِه وحكمته ، ورتَّبَ كُلَّ شيءٍ ، وذلك شاهِدٌ على مشيئته و (إرادته) .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فلا شبيه يساويه ، ولا شريكِ له في المُلْكِ ينازِعُه ويُضاهيه .

﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الحاكم الذي لا يُوجَدُ في حُكْمِه عَيْبٌ ، ولا يتوجَّه عليه عَتْبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ .

هم أهل النضير ، وكانوا قد عاهدوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم إلاَّ يكونوا عليه ، ثم بعد أُحُد نقضوا العَهْدَ ، وبايعوا أبا سفيان وأهل مكة ، فأخبر اللَّهُ تعالى رسولَه بذلك ، فبعثَ صلوات الله عليه إليهم محمد بن مسلمة ، فأوهم أنه يشكو من الرسول في أخذ الصَّدَقَة .

وكان رئيسهم كعب بن الأشرف فقتله محمد بن مسلمة (غيلةً) ، وغزاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجلاهم عن حصونهم المنيعة وأخرجهم إلى الشام ، وما كان المسلمون يَتَوَقَّعون الظَّفرَ عليهم لكثرتهم ، ولِمَنَعَةِ حصونهم .

وظلُّوا يهدمون دورَهم بأيديهم ينقبون ليخرجوا ، ويقطعون اشجارهم ليسدوا النقب ، فسُمُّوا أولَ الحشر ، لأنهم أول من أُخْرِجَ من جزيرة العرب وحُشِرَ إلى الشام .

قال جل ذكره: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ ﴾ .

كيف نَصَرَ المسلمين - مع قِلَّتهم - عليهم - مع كثرتهم . وكيف لم تمنعهم حصونُهم إذا كانت الدائرةُ عليهم . وإذا أراد اللهُ قَهْرَ عدوٍّ استنوق أَسَدُه .

ومن مواضع العِبْرة في ذلك ما قاله : ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ﴾ بحيث داخلتكم الرِّيبةُ في ذلك لِفَرْطِ قُوَّتهم - فصَانَهُم بذلك عن الإعجاب .

ومن مواضع العبرة في ذلك أيضاً ما قاله : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ فلم يكن كما ظنُّوه - ومَنْ تَقَوَّى بمخلوقٍ أَسْلَمَه ذلك إلى صَغَارِه ومذلّته .

ومن الدلائلة الناطقة ما أُلْقِي في قلوبهم من الخوفِ والرُّعب ، ثم تخريبُهم بيوتهم بأيديهم علامةُ ضَعْفِ أحوالهم ، وبأيدي المؤمنين لقوة أحالهم ، فتمت لهم الغلبةُ عليهم والاستيلاء على ديارهم وإجلاؤهم .

هذا كلُّ لا بُدَّ أن يحصل به الاعتبارُ - والاعتبارُ أحدُ قوانين الشَّرْع .

ومَنْ لم يَعْتَبِرْ بغيره اعتَبَرَ به غيرُه .

ويقال : يُخَرِّبون بيوتهم بأيديهم ، وقولوبهم باتِّباع شهواتِ نفوسِهم ، ودِينهم بما يمزجونه به من البِدَع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ .

لولا أن قضى اللَّهُ عليهم أن يخرجوا لعذَّبهم اللَّهُ بالقتل والاستئصال ، ثم في الآخرة لهم عذابُ النار .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

ذلك بأنهم خالفوا أمرَ الله . والمشاقّة أن يتحول المرء إلى شِقٍّ آخر .

فالعاصي إذا انتقل من المطيعين إلى العاصين فقد شاقَّ الله ، ولِمَنْ شاقَّ الله عذابُ النار .

(499/757)

قوله جل ذكره : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

اللِّينة : كلُّ نوعٍ من النخيل ما عدا العجوة والبَرْنيّ .

لمَّا أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقَطْعِ بعض نخيل بني النضير قالت اليهود : ما فائدة هذا ؟ !

فبقي المسلمون عن الجواب ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليوضِّح أن ذلك بإذن الله . . .

فانقطعَ الكلامُ .

وفي هذا دليلٌ على أن الشريعة غيرُ مُعَلّلةٍ ، وأنّ الأمرَ الشرعيَّ إذا جاء بَطَلَ التعليلُ ،

وسَكَتَتْ الألسنةُ عن المطالبة ب "لِمَ؟" وخُطورُ الاعتراضِ أو الاستقباحِ خروجٌ عن حَدِّ العرفان. والشيوخُ.

قالوا: مَنْ قال لأستاذِه وشيخه: "لِمَ؟" لا يفلح. وكلُّ مريدٍ يكون لأمثالِ هذه الخواطر في قلبه جوَلان لا يجيءُ منه شيءٌ. ومَنْ لم يتجرَّدْ قلبُه من طَلَبِ التعليل، ولم يباشِرْ حُسْنَ الرضا بكلِّ ما يجري واستحسانَ ما يبدوا من الغيب لِسرِّه وقلبه - فليس من الله في شيء.

قوله جل ذكره: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

(500/757)

يريد بذلك أموالَ بني النضير، فقد كانت من جملة الفَيْء لا من الغنيمة؛ فالفيءُ ما صار إلى المسلمين من أموالِ الكفَّارِ من غيرِ قتالٍ ولا إيجافِ خَيْلٍ وركابٍ، وتدخل في جملته أموالُهم إذا ماتوا وصاروا إلى بيت المال. والغنيمة ما كانت بقتالٍ وإيجاف خيلٍ وركابٍ. وقد خَصَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأموال هؤلاء فقراء المهاجرين، وستأثر لنفسه بما شاء، فطابت نفوسُ الأنصارِ بذلك، وشكَرَ اللهُ لهم. ذلك لأن تحرُّرَ القلب من الأعواضِ

والأملاكِ صِفَةُ السادة والأكابر ، ومَنْ أَسَرَتْهُ الأخطارُ وبقي في شُحِّ نَفْسِه فهو في تضييقه وتدنيقه ، وهو في مصادقته ومعاملته ومطالبته مع الناس دائماً يبحث في استيفاء حظوظه - وهذا ليس له من مذاقات هذه الطريقة شيءٌ .

وأهلُ الصفاء لم تَبْقَ عليهم من هذه الأشياء بقيةٌ ، وأمَّا مَنْ بَقِيَ عليه منها شيءٌ فمُتَرَسِّمٌ سُوقِيٌّ . . . لا مُتَحَقِّقٌ صوفيٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

هذا أصل من أصولِ وجوبِ متابعته ، ولزومِ طريقته وسيرته - وفي العِلْم تفصيلُه .

والواجبُ على العبدِ عَرْضُ ما وقع له من الخواطر وما يُكاشَفُ به من الأحوالِ على العلم - فما لا يقبله الكتابُ والسُّنَّة فهو في ضلال . (1)

قوله جل ذكره : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ .

يريد أن هذا الفيء لهؤلاء الفقراء الذين كانوا مقدارَ مائة رجلٍ .

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ ﴾ وهو الرزق ﴿ وَرِضْوَاناً ﴾ بالثواب في الآخرة .

---

(1) نحسب أنه ليس بعد هذا مجال للتخرص بأن الصوفية يجانبون الشريعة أو يقلّلون من قدرها .

فمحصول خواطرهم، ومكاشفاتهم من خلال أحوالهم . . . كل ذلك ينبغي ألا يكون مرفوضا من الشرع. ومحاولة عقد لقاء بين الحقيقة والشريعة عنصر أساسى آخر في مذهب القشيري – رحمه الله.

(501/757)

وينصرون دين الله، ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ : والفقيرُ الصادقُ هو الذي يترك كلَّ سبب وعلاقة، ويفرغ أوقاته لعبادة الله، ولا يعطف بقلبه على شيء سوى الله، ويَقِفُ مع الحقّ راضياً بِجَرَيَانِ حُكْمِه فيه.

قوله جل ذكره: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

نزلت هذه الآية في الأنصار. ﴿ تَبَوَّءُو الدَّارَ ﴾ أي سكنوا المدينة قبل المهاجرين. . ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِم ﴾ من أهل مكة.

﴿ وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ مما خُصِّصَ به المهاجرون من الفيء، ولا يحسدونهم على ذلك، ولا يَعْترضون بقلوبهم على حُكْمِ الله بتخصيص المهاجرين، حتى لو كانت بهم حاجةٌ أو اختلالُ أحوالٍ.

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

قيل نزلت الآية في رجلٍ منهم أُهْدِيَتْ له رأسُ شاةٍ فطاف على سبعة أبيات حتى انتهى إلى الأول .

وقيل نزلت في رجلٍ منهم نزل به ضيفٌ فقرَّبَ منه الطعامَ وأطفأ السراجَ ليُوهِمَ ضيفَه أنه يأكل ، حتى يؤثِرَ به الضيفَ عَلَى نفسه وعَلَى عياله ، فأنزل الله الآية في شأنه .

ويقال : الكريمُ مَنْ بنى الدار لضيفانه وإخوانه (واللئيمُ من بناها لنفسه) .

وقيل : لم يقل اللهُ : ومَنْ يَتَّقِ شحَّ نفسه بل قال : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ .

ويقال : صاحبُ الإيثار يُؤْثِر الشبعانَ على نفسه – وهو جائع .

ويقال : مَنْ ميَّزَ بين شخصٍ وشخصٍ فليس بصاحبِ إيثارٍ حتى يؤثِرَ الجميع دون تمييز .

ويقال : الإيثار أنْ ترَى أنَّ ما بأيدي الناسِ لهم ، وأن ما يحصل في يدك ليس إلا كالوديعة والأمانة عندك تنتظر الإذنَ فيها .

ويقال : مَنْ رَأى لنفسه مِلْكاً فليس من أهل الإيثار .

ويقال : العابدُ يؤثِر بدنياه غيرَه ، والعارفُ يؤثِر بالجنة غيرَه .

وعزيزٌ مَنْ لا يطلبُ مِنَ الحقّ لنفْسِه شيئاً : لا في الدنيا من جاهٍ أو مالٍ ، ولا في الجنّة من الأفضال ، ولا منه أيضاً ذرّةً من الإقبال والوصال وغير ذلك من الأحوال .

وهكذا وصفُ الفقير ؛ يكون بسقوطِ كلّ أرَب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ جَآءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

أي والذين هاجروا من بعدهم ، ثم أجيالُ المؤمنين من بعد هؤلاء إلى يوم القيامة . كلُّهم يَتَرَحَّمون على السلف من المؤمنين الذين سبقوهم ، ويسلكون طريقَ الشفقة على جميع المسلمين ، ويستغفرون لهم ، ويستجيرون من الله أن يجعلَ لأحدٍ من المسلمين في قلوبهم غِلاً أي حِقْداً . ومَنْ لا شفقةَ له على جيمع المسلمين فليس له نصيبٌ من الدِّين .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ .

يريد بهم منافقي المدينة ؛ ظاهروا بني النضير وقريظة ، وعاهَدوهم على الموافقة بكلِّ وَجْهٍ ، فأخبر اللَّهُ – سبحانه – أنهم ليسوا كما قالوا وعاهدوا عليه ، وأخبرَ أنَّهم لا يتناصرون ، وأنَّهم يتخاذلون ، ولئنْ ساعدوهم في بعضِ الحروب فإنهم يتخاذلون إن رأوهم

ينهزمون أمام مَنْ يجاهدونهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .

(503/757)

أخبر – سبحانه – أن المسلمين أشدُّ رهبةً في صدورهم من الله ، وذلك لِقلَّةِ يقينهم ، وإعراضِ قلوبهم عن الله .

قولهجلّ ذكره : ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ .

أخبر أنهم لا يجسرون على مقاتلة المسلمين إلاَّ مُخاتلةً ، أو من وراء جدرانٍ . وإنما يشتدُّ بأسُهم فيما بينهم ، أي إذا حارب بعضهم بعضاً ، فأمَّا معكم . . فلا .

﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ .

اجتماعُ النفوس – مع تنافرُ القلوب واختلافها – أصل كُلَّ فساد ، وموجبُ كُلِّ تخاذل ، ومقتضى تجاسُرِ العدوّ .

واتفاقُ القلوب ؛ والاشتراكُ في الهِمَّةِ ؛ والتساوي في القَصْدِ يُوجبُ كُلَّ ظفرٍ وكلَّ سعادة . . . ولا يكون ذلك للأعداء قطّ ؛ فليس فيهم إلا اختلال كُلِّ حالٍ ، وانتقاضُ كلِّ

شَمْل .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

مَثَلُ بني قُرَيظة كمثل بني النضير ؛ ذاق النضير وبال أمرهم قبل قريضة بسَنَةٍ ؛ وذاق قريظة بعْدَهم وبال أمرهم .

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16)

أي مَثَلُ هؤلاء النافقين مع النضير - في وَعْدِهم بعضهم لبعض بالتناصر ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ ﴾ .

(504/757)

وكذلك أربابُ الفترة وأصحاب الزَّلّة وأصحاب الدعاوى . . هؤلاء كلُّهم في درجة واحدة في هذا الباب - وإن كان بينهم تفاوت - لا تنفع صُحْبَتُهم في الله ؛ قال تعالى : ﴿ الأَخِلآَّءُ يَوْمَئِذ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : 67] وكلُّ أحدٍ - اليومَ - يألفُ شَكْلَه ؛ فصاحبُ الدعوى إلى صاحب الدعوى ، وصاحبُ المعنى إلى صاحب المعنى .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

التقوى الأولى على ذكر العقوبات في الحال والفِكرِ في العمل خَيْرِه وشَرِّه .

والتقوى الثانية تقوى المراقبة والمحاسبة ، ومَنْ لا محاسبة له في أعماله ولا مراقبة له في أحواله . . فعَنْ قريب سيفتضح .

وعلامةُ مَنْ نَظَرَ لغدِه أن يُحْسِنَ مراعاةَ يومِه ؛ ولا يكون كذلك إلاَّ إذا فَكَّرَ فيما عَمِلَه في أمْسِه والناس في هذا على أقسام : مُفكِّرٌ في أمْسِه : ما الذي قُسِمَ له في الأزل ؟ وآخر مفكِّر في غده : ما الذي يلقاه ؟ ؟ وثالثٌ مُسْتَقِلٌّ بوقته فيما يلزمه في هذا الوقت فهو مُصطَلَمٌ عن مشاهده موصولٌ بربِّه ، مُنْدَرِجٌ في مذكوره ؛ لا يتطَّلعُ لماضيه ولا لمستقبله ، فتوقيتُ الوقتِ يشغله عن وقته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَسِقُونَ ﴾

تركوا طاعته فتَرَكَهُم في العذاب ؛ وهو الخذلان حتى لم يتوبوا ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ .

قولهّ جل ذكره : ﴿ لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الفَآئِزُونَ ﴾ .

لا يستوي أهلُ الغفلةِ مع أهل الوصلة .

وأصل كُلِّ آفةٍ نسيانُ الربِّ ، ولولا النسيان لما حَصَلَ العصيان ، والذي نسِيَ أمرَ نَفْسِه فهو الذي لا يجتهد في تحصيل توبته ، ويُسَوِّفُ يُلْزِمَهُ به الوقتُ من طاعته .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَاذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

أي لو كان للجبلِ عقلٌ وصلاحُ فِكْرٍ وسِرٍّ ، وأنزلنا عليه هذا القرآن لَخَضَعَ وخَشَعَ . ويجوز أن يكون على جهة ضرب المثل كما قال : ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ [مريم : 90] ويدل عليه أيضاً قوله .

﴿ وتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ : ليعقلوا ويهتدوا ، أي بذلك أمَرْناهم ، والمقصود بيان قسوة قلوبهم عند سماع القرآن .

ويقال : ليس هذا الخطابُ على وَجْهِ العتابِ معهم ، بل هو سبيل المدح وبيان تخصيصه إيّاهم بالقوة ؛ فقال : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ ﴾ لم يُطِقْ ولَخَشَع - وهؤلاء خَصَصْتُهم بهذه القوة حتى أطاقوا سماع خطابي . (1)

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ الْغَيْبِ ﴾ : ما لا يُعْرَفُ بالضرورة ، ولا يُعْرَف بالقياس من المعلومات . ويقال : هو ما

استأثر الحقّ بعِلْمِه، ولم يجعل لأحدٍ سبيلاً إليه.

﴿ وَالشَّهَادَةِ ﴾ : ما يَعْرِفه الخَلْقُ.

وفي الجملة. لا يَعْزُبُ عن عِلْمِه معلومٌ.

قوله جل ذكره: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ الْمَلِكُ ﴾ : ذو القدرة على الإيجاد.

﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ : المُنَزَّه عن الآفة والنقص.

---

(1) يتصل هذا بموضوع السماع عند الصوفية، وقد عقد السراج له فصلا ممتعا فى «اللمع»، ومن أقواله المتصلة بهذه النقطة التى أثارها القشيري يقول السراج: ألا ترى أحدهم يكون ساكنا فيتحرك ويظهر منه الزفير والشهيق، وقد يكون من هو أقوى منه ساكنا في وجده لا يظهر منه شىء من ذلك (اللمع ص 375) ويجيب الجنيد حين سئل عن سكونه وقلة اضطرابه عند السماع: وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب).

﴿ السَّلَامُ ﴾ : ذو السلامة من النقائص ، والذي يُسَلِّمُ على أوليائه ، والذي سَلِمَ المؤمنون من عذابه .

﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ : الذي يُصدق عَبْدُه في توحيده فيقول له : صَدَقْتَ يا عبدي .

والذي يُصَدِّق نفسه في إخباره أي يعلم أنه صادق .

ويكون بمعنى المصدق لوعده . ويكون بمعنى لمخبر لعباده بأنه يُؤمِّنهم من عقوبته .

﴿ الْمُهَيْمِنُ ﴾ : الشاهد ، وبمعنى الامين ، ويقال مؤيمن (مُفَيْعِل) من الأمن قلبت همزته هاءً وهو من الأمان ، ويقال بمعنى المؤمِن .

﴿ الْعَزِيزُ ﴾ : الغالبُ الذي لا يُغْلَب ، والذي لا مثيل له ، والمستحق لأوصاف الجلال ، وبمعنى : المعِزّ لعباده . والمَنيعَ الذي لا يَقْدِرُ عليه أحد .

﴿ الْجَبَّارُ ﴾ : الذي لا تصل إليه الأيدي . أو بمعنى المُصْلِح لأمورهم من : جَبَرَ الكَسْرَ .

أو بمعنى القادر على تحصيل مراده مِنْ خَلقِه على الوجه الذي يريده من : جَبَرْتُه على الأمر وأجبرته .

﴿ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ : المتقدّس عن الآفات .

هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)

هو المنشىء للأعيان والآثار .

﴿ لَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى ﴾ المُسَمّيات الحِسَان .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ : مضى معناهما ، وقد استقصينا الكلام في معاني هذه الأسماء (في كتابنا المسمَّى : " البيان والأدلة في معاني أسماء الله تعالى ") . انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 556.568 ﴾

(507/757)

فصل جامع فى شرح أسماء الله الحسنى

لحجة الإسلام الغزالى

قال عليه سحائب الرحمة والرضوان ما نصه :

الفصل الأول في شرح معاني أسماء الله التسعة والتسعين

وهي التي اشتملت عليها رواية أبي هريرة رضي الله عنه إذ قال قال رسول إن لله عز و جل تسعة وتسعين اسما مئة إلا واحدا إنه وتر يحب الوتر من أحصاها دخل الجنة

هو الله الذي لا إله هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور

الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور

فأما قوله الله فهو اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية المنعوت بنعوت الربوبية المتفرد بالوجود الحقيقي فإن كل موجود سواه غير مستحق الوجود بذاته وإنما استفاد الوجود منه فهو من حيث ذاته هالك ومن الجهة التي تليه موجود فكل موجود هالك إلا وجهه والأشبه أنه جار في الدلالة على هذا المعنى مجرى أسماء الأعلام وكل ما ذكر في اشتقاقه وتعريفه تعسف وتكلف فائدة

(508/757)

اعلم أن هذا الإسم أعظم أسماء الله عز وجل التسعة والتسعين لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الإلهية كلها حتى لا يشذ منها شيء وسائر الأسماء لا يدل آحادها إلا

على آحاد المعاني من علم أو قدرة أو فعل أو غيره ولأنه أخص الأسماء إذ لا يطلقه أحد على غيره لا حقيقة ولا مجازا وسائر الأسماء قد يسمى به غيره كالقادر والعليم والرحيم وغيره فلهذين الوجهين يشبه أن يكون هذا الاسم أعظم هذه الأسماء دقيقة

معاني سائر الأسماء يتصور أن يتصف العبد بشيء منها حتى ينطلق عليه الإسم كالرحيم والعليم والحليم والصبور والشكور وغيره وإن كان إطلاق الاسم عليه على وجه آخر باين إطلاقه على الله عز وجل وأما معنى هذا الاسم فخاص خصوصا لا يتصور فيه مشاركة لا بالمجاز ولا بالحقيقة ولأجل هذا الخصوص يوصف سائر الأسماء بأنها اسم الله عز وجل ويعرف بالإضافة إليه فيقال الصبور والشكور والملك والجبار من أسماء الله عز وجل ولا يقال الله من أسماء الشكور والصبور لأن ذلك من حيث هو أدل على كنه المعاني الإلهية وأخص بها فكان أشهر وأظهر فاستغني عن التعريف بغيره وعرف غيره بالإضافة إليه

تنبيه

ينبغي أن يكون حظ العبد من هذا الاسم التأله وأعني به أن يكون مستغرق القلب والهمة بالله عز وجل لا يرى غيره ولا يلتفت إلى سواه ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه وكيف لا يكون كذلك وقد فهم من هذا الإسم أنه الموجود الحقيقي الحق وكل ما سواه فان وهالك وباطل إلا به فيرى أولا نفسه أول هالك وباطل كما رآه رسول الله حيث قال أصدق بيت قالته العرب قول لبيد

ألا كل شيء ما خلا الله باطل . . . وكل نعيم لا محالة زائل

الرحمن الرحيم

(509/757)

اسمان مشتقان من الرحمة والرحمة تستدعي مرحوما ولا مرحوم إلا وهو محتاج والذي ينقضي بسببه حاجة المحتاج من غير قصد وإرادة وعناية بالمحتاج لا يسمى رحيما والذي يريد قضاء حاجة المحتاج ولا يقضيها فإن كان قادرا على قضائها لم يسم رحيما إذ لو تمت الإرادة لوفى بها وإن كان عاجزا فقد يسمى رحيما باعتبار ما اعتوره من الرقة ولكنه ناقص وإنما الرحمة التامة إفاضة الخير على المحتاجين وإرادته لهم عناية بهم والرحمة العامة هي التي تتناول المستحق وغير المستحق ورحمة الله عز وجل تامة وعامة أما تمامها فمن حيث أنه أراد قضاء حاجات المحتاجين وقضاها وأما عمومها فمن حيث شمولها المستحق وغير المستحق وعم الدنيا والآخرة وتناول الضرورات والحاجات والمزايا الخارجة عنهما فهو الرحيم المطلق حقا دقيقة

الرحمة لا تخلو عن رقة مؤلمة تعتري الرحيم فتحركه إلى قضاء حاجة المرحوم والرب سبحانه وتعالى منزة عنها فلعلك تظن أن ذلك نقصان في

معنى الرحمة فاعلم أن ذلك كمال وليس بنقصان في معنى الرحمة

أما أنه ليس بنقصان فمن حيث أن كمال الرحمة بكمال ثمرتها ومهما قضيت حاجة المحتاج بكمالها لم يكن للمرحوم حظ في تألم الراحم وتفجعه وإنما تألم الراحم لضعف نفسه ونقصانها ولا يزيد ضعفها في غرض المحتاج شيئا بعد أن قضيت كمال حاجته

وأما أنه كمال في معنى الرحمة فهو أن الرحيم عن رقة وتألم يكاد يقصد بفعله دفع ألم الرقة عن نفسه فيكون قد نظر لنفسه وسعى في غرض نفسه وذلك ينقص عن كمال معنى الرحمة بل كمال الرحمة أن يكون نظره إلى المرحوم لأجل المرحوم لا لأجل الاستراحة من ألم الرقة فائدة الرحمن أخص من الرحيم ولذلك لا يسمى به غير الله عز وجل

والرحيم قد يطلق على غيره فهو من هذا الوجه قريب من اسم الله تعلى الجاري مجرى العلم وإن كان هذا مشتقا من الرحمة قطعا ولذلك جمع الله عز وجل بينهما فقال قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى 17 سورة الإسراء / الآية 110 فيلزم من هذا الوجه ومن حيث منعنا الترادف في الأسماء المحصاة أن يفرق بين معنى الاسمين فبالحري أن يكون المفهوم من الرحمن نوعا من الرحمة هي أبعد من مقدروات العباد وهي ما

يتعلق بالسعادة الأخروية فالرحمن هو العطوف على العباد بالإيجاد أولا وبالهداية إلى الإيمان وأسباب السعادة ثانيا وبالإسعاد في الآخرة ثالثا والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم رابعا

تنبيه

حظ العبد من اسم الرحمن أن يرحم عباد الله الغافلين فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله عز وجل بالوعظ والنصح بطريق اللطف دون العنف وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الإزراء وأن يكون كل معصية تجري في العالم كمصيبة له في نفسه فلا يألو جهدا في إزالتها بقدر وسعه رحمة لذلك العاصي أن يتعرض لسخط الله ويستحق البعد من جواره وحظه من اسم الرحيم أن لا يدع فاقة لمحتاج إلا يسدها بقدر طاقته ولا يترك فقيرا في جواره وبلده إلا ويقوم بتعهده ودفع فقره إما بماله أو جاهه أو السعي في حقه بالشفاعة إلى غيره فإن عجز عن جميع ذلك فيعينه بالدعاء وإظهار الحزن بسبب حاجته رقة عليه وعطفا حتى كأنه مساهم له في ضره وحاجته سؤال وجوابه

لعلك تقول ما معنى كونه تعالى رحيما وكونه أرحم الراحمين والرحيم لا يرى مبتلى ومضرورا ومعذبا ومريضا وهو يقدر على إماطة ما بهم إلا ويبادر إلى إماطته والرب سبحانه وتعالى قادر على كفاية كل بلية ودفع كل فقر وغمة وإماطة كل مرض وإزالة كل

ضرر والدنيا طافحة بالأمراض والمحن والبلايا وهو قادر على إزالة جميعها وتارك عباده ممتحنين بالرزايا والمحن

(511/757)

فجوابك إن الطفل الصغير قد ترق له أمه فتمنعه عن الحجامة والأب العاقل يحمله عليها قهرا والجاهل يظن أن الرحيم هي الأم دون الأب والعاقل يعلم أن إيلام الأب إياه بالحجامة من كمال رحمته وعطفه وتمام شفقته وأن الأم له عدو في صورة صديق فإن الألم القليل إذا كان سببا للذة الكثيرة لم يكن شرا بل كان خيرا

والرحيم يريد الخير للمرحوم لا محالة وليس في الوجود شر إلا وفي ضمنه خير لو رفع ذلك الشر لبطل الخير الذي في ضمنه وحصل ببطلانه شرا أعظم من الشر الذي يتضمنه فاليد المتآكلة قطعها شر في الظاهر وفي ضمنه الخير الجزيل وهو سلامة البدن ولو ترك قطع اليد لحصل هلاك البدن ولكان الشر أعظم وقطع اليد لأجل سلامة البدن شر في ضمنه خير ولكن المراد الأول السابق إلى نظر القاطع السلامة التي هي خير محض ثم لما كان السبيل إليه قطع اليد قصد قطع اليد لأجله فكانت السلامة مطلوبة لذاتها أولا والقطع مطلوبا لغيره ثانيا لا لذاته فهما داخلان تحت الإرادة ولكن أحدهما مراد لذاته والآخر مراد لغيره

والمراد لذاته قبل المراد لغيره ولأجله قال الله عز وجل سبقت رحمتي غضبي فغضبه إرادته للشر والشر بإرادته ورحمته إرادته للخير والخير بإرادته ولكن إذا أراد الخير للخير نفسه وأراد الشر لا لذاته ولكن لما في ضمنه من الخير فالخير مقضي بالذات والشر مقضي بالعرض وكل بقدر وليس في ذلك ما ينافي الرحمة أصلا

فالآن إن خطر لك نوع من الشر لا ترى تحته خيرا أو خطر لك أنه كان تحصيل ذلك الخير ممكنا لا في ضمن الشر فاتهم عقلك القاصر في أحد الخاطرين

أما في قولك إن هذا الشر لا خير تحته فإن هذا مما تقصر العقول عن معرفته ولعلك فيه مثل الصبي الذي يرى الحجامة شرا محضا أو مثل الغبي الذي يرى القتل قصاصا شرا محضا لأنه ينظر إلى خصوص شخص المقتول لأنه في حقه شر محض ويذهل عن الخير العام الحاصل للناس كافة ولا يدري أن التوصل بالشر الخاص إلى الخير العام خير محض لا ينبغي للغير أن يهمله

أو اتهم عقلك في الخاطر الثاني وهو قولك إن تحصيل ذلك لا في ضمن ذلك الشر ممكن فإن هذا أيضا دقيق غامض فليس كل محال وممكن مما يدرك إمكانه واستحالته بالبديهة ولا

بالنظر القريب بل ربما عرف ذلك بنظر غامض دقيق يقصر عنه الأكثرون

فاتهم عقلك في هذين الطرفين ولا تشكن أصلا في أنه أرحم الراحمين وفي أنه سبقت رحمته غضبه ولا تستريبن في أن مريد الشر للشر لا للخير غير مستحق لاسم الرحمة وتحت هذا الغطاء سر منع الشرع عن إفشائه فاقنع بالإيماء ولا تطمع في الإفشاء ولقد نبهت بالرمز والإيماء إن كنت من أهله فتأمل

لقد أسمعت لو ناديت حيا . . . ولكن لا حياة لمن تنادي

هذا حكم الأكثرين وأما أنت أيها الأخ المقصود بالشرح فلا أظنك إلا مستبصرا بسر الله عز وجل في القدر مستغنيا عن هذه التحويمات والتنبيهات

الملك هو الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود ويحتاج إليه كل موجود بل لا يستغني عنه شيء في شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في وجوده ولا في بقائه بل كل شيء فوجوده منه أو مما هو منه فكل شيء سواه هو له مملوك في ذاته وصفاته وهو مستغن عن كل شيء فهذا هو الملك مطلقا تنبيه

العبد لا يتصور أن يكون ملكا مطلقا فإنه لا يستغني عن كل شيء فإنه أبدا فقير إلى الله تعالى وإن استغنى عمن سواه ولا يتصور أن يحتاج إليه كل شيء بل يستغني عنه أكثر الموجودات ولكن لما تصور أن يستغني عن بعض الأشياء ولا يستغني عنه بعض الأشياء كان له شوب من الملك

فالملك من العباد هو الذي لا يملكه إلا الله تعالى بل يستغني عن كل شيء سوى الله عز و جل وهو مع ذلك يملك مملكته بحيث يطيعه فيها جنوده ورعاياه وإنما مملكته الخاصة به قلبه وقالبه وجنده شهوته وغضبه وهواه ورعيته لسانه وعيناه ويداه وسائر أعضائه فإذا ملكها ولم تملكه وأطاعته ولم يطعها فقد نال درجة الملك في عالمه فإن انضم إليه استغناؤه عن كل الناس واحتاج الناس كلهم إليه في حياتهم العاجلة والآجلة فهو الملك في عالم الأرض وتلك رتبة الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين فإنهم استغنوا في الهداية إلى الحياة الآخرة عن كل أحد إلا عن الله عز و جل واحتاج إليهم كل أحد ويليهم في هذا الملك العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وإنما ملكهم بقدر قدرتهم على إرشاد العباد واستغنائهم عن الاسترشاد وبهذه الصفات يقرب العبد من الملائكة في الصفات ويتقرب إلى الله تعالى بها وهذا الملك عطية للعبد من الملك الحق الذي لا مثنوية في ملكه

ولقد صدق بعض العارفين لما قال له بعض الأمراء سلني حاجتك حيث قال أو تقول لي هذا ولي عبدان هما سيداك فقال ومن هما قال الحرص والهوى فقد غلبتهما وغلباك وملكتهما وملكاك وقال بعضهم لبعض الشيوخ أوصني فقال له كن ملكا في الدنيا تكن ملكا في الآخرة

قال وكيف أفعل ذلك فقال ازهد في الدنيا تكن ملكا في الآخرة معناه اقطع حاجتك وشهوتك عن الدنيا فإن الملك في الحرية والاستغناء

القدوس

هو المنزه عن كل وصف يدركه حس أو يتصوره خيال أو يسبق إليه وهم أو يختلج به ضمير أو يقضي به تفكير ولست أقول منزه عن العيوب والنقائص فإن ذكر ذلك يكاد يقرب من ترك الأدب فليس من الأدب أن يقول القائل ملك البلد ليس بحائك ولا حجام فإن نفي الوجود يكاد يوهم إمكان الوجود وفي ذلك الإيهام نقص

بل أقول القدوس هو المنزه عن كل وصف من أوصاف الكمال الذي يظنه أكثر الخلق كمالا في حقه لأن الخلق أولا نظروا إلى أنفسهم وعرفوا صفاتهم وأدركوا انقسامها إلى ما هو كمال ولكنه في حقهم مثل علمهم وقدرتهم وسمعهم وبصرهم وكلامهم وإرادتهم واختيارهم ووضعوا هذه الألفاظ بإزاء هذه المعاني وقالوا إن هذه هي أسماء الكمال وإلى ما هو نقص في حقهم مثل جهلهم وعجزهم وعماهم وصممهم وخرسهم فوضعوا بإزاء هذه المعاني هذه الألفاظ

ثم كان غايتهم في الثناء على الله تعالى ووصفه أن وصفوه بما هو أوصاف كمالهم من علم وقدرة وسمع وبصر وكلام وأن نفوا عنه ما هو أوصاف نقصهم والله سبحانه وتعالى منزه عن أوصاف كمالهم كما أنه منزه عن أوصاف نقصهم بل كل صفة تتصور للخلق فهو منزه ومقدس عنها وعما يشبهها ويماثلها ولولا ورود الرخصة والإذن بإطلاقها لم يجز إطلاق أكثرها وقد فهمت معنى هذا في الفصل الرابع من فصول المقدمات فلا حاجة إلى الإعادة

تنبيه

قدس العبد في أن ينزه إرادته وعلمه أما علمه فينزهه عن المتخيلات والمحسوسات

والموهومات وكل ما يشاركه فيه البهائم من الإدراكات بل يكون تردد نظره وتطواف علمه حول الأمور الأزلية الإلهية المنزهة عن أن تقرب فتدرك بالحس أو تبعد فتغيب عن الحس بل يصير متجردا في نفسه عن المحسوسات

والمتخيلات كلها ويقتني من العلوم ما لو سلب آلة حسه وتخيله بقي ريانا بالعلوم الشريفة الكلية الإلهية المتعلقة بالمعلومات الأزلية الأبدية دون الشخصيات المتغيرة المستحيلة

وأما إرادته فينزهها عن أن تدور حول الحظوظ البشرية التي ترجع إلى لذة الشهوة والغضب ومتعة المطعم والمشرب والمنكح والملبس والملمس والمنظر وما لا يصل إليه من اللذات إلا بواسطة الحس والقلب بل لا يريد إلا الله عز وجل ولا يبقى له حظ إلا فيه ولا يكون له شوق إلا إلى لقائه ولا فرح إلا بالقرب منه ولو عرضت عليه الجنة وما فيها من النعيم لم تلتفت همته إليها ولم يقنع من الدار إلا برب الدار

وعلى الجملة الإدراكات الحسية والخيالية تشارك البهائم فيها فينبغي أن يترقى عنها إلى ما هو من خواص الإنسانية والحظوظ البشرية الشهوانية يزاحم البهائم أيضا فيها فينبغي أن يتنزه عنها فجلالة المريد على قدر جلالة مراده

ومن همته ما يدخل في بطنه فقيمته ما يخرج منه ومن لم يكن له همة سوى الله عز وجل فدرجته على قدر همته ومن رقى علمه عن درجة المتخيلات والمحسوسات وقدس إرادته عن مقتضى الشهوات فقد نزل بحبوحة حظيرة القدس

السلام

هو الذي تسلم ذاته عن العيب وصفاته عن النقص وأفعاله عن الشر حتى إذا كان كذلك لم يكن في الوجود سلامة إلا وكانت معزية إليه صادرة منه وقد فهمت أن أفعاله تعالى سالمة عن الشر أعني الشر المطلق المراد لذاته لا لخير حاصل في ضمنه أعظم منه وليس في الوجود شر بهذه الصفة كما سبق الإيماء إليه إلا لله سبحانه

تنبيه

كل عبد سلم عن الغش والحقد والحسد وإرادة الشر قلبه وسلمت عن الآثام والمحظورات جوارحه وسلم عن الانتكاس والانعكاس صفاته فهو الذي يأتي الله تعالى بقلب سليم وهو السلام من العباد القريب في وصفه من السلام المطلق الحق الذي لا مثنوية في صفته وأعني بالانتكاس في صفاته أن يكون عقله أسير شهوته وغضبه إذ الحق عكسه وهو أن تكون الشهوة والغضب أسير العقل وطوعه فإذا انعكس فقد انتكس ولا سلامة حيث يصير الأمير مأمورا والملك عبدا ولن يوصف بالسلام والإسلام إلا من سلم المسلمون من لسانه ويده فكيف يوصف به من لم يسلم هو من نفسه

المؤمن

هو الذي يعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه وسده طرق المخاوف ولا يتصور أمن وأمان إلا في محل الخوف ولا خوف إلا عند إمكان العدم والنقص والهلاك والمؤمن المطلق هو الذي لا يتصور أمن وأمان إلا ويكون مستفادا من جهته وهو الله سبحانه وتعالى وليس يخفى أن الأعمى يخاف أن يناله هلاك من حيث لا يرى فعينه البصيرة تفيده أمنا منه

والأقطع يخاف آفة لا تندفع إلا باليد فاليد السليمة أمان منها وهكذا جميع الحواس

والأطراف والمؤمن خالقها ومصورها ومقويها

ولو قدرنا إنسانا وحده مطلوبا من جهة أعدائه وهو ملقى في مضيعة لا تتحرك عليه

أعضاؤه لضعفه وإن تحركت فلا سلاح معه وإن كان معه سلاح لم يقاوم أعداءه وحده وإن

كان له جنود لم يأمن أن تنكسر جنوده ولا يجد حصنا يأوي إليه فجاء من عالج ضعفه فقواه

وأمده بجنوده وأسلحته

وبنى حوله حصنا حصينا فقد أفاده أمنا وأمانا فالبحري أن يسمى مؤمنا في حقه

والعبد ضعيف في أصل فطرته وهو عرضة الأمراض والجوع والعطش من باطنه وعرضة

الآفات المحرقة والمغرقة والجارحة والكاسرة من ظاهره ولم يؤمنه من هذه المخاوف إلا

الذي أعد الأدوية نافعة ورافعة لأمراضه والأطعمة مزيلة لجوعه والأشربة مميطة لعطشه

والأعضاء دافعة عن بدنه والحواس جواسيس منذرة بما يقرب من مهلكاته ثم خوفه

الأعظم من هلاك الآخرة ولا يحصنه عنه إلا كلمة التوحيد والله سبحانه وتعالى هاديه إليها

ومرغبه فيها حيث قال لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن عذابي فلا أمن في العالم

إلا وهو مستفاد بأسباب هو متفرد بخلقها والهداية إلى استعمالها فهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى فهو المؤمن المطلق حقا تنبيه حظ العبد من هذا الاسم والوصف أن يأمن الخلق كلهم جانبه بل يرجو كل خائف الاعتضاد به في دفع الهلاك عن نفسه في دينه ودنياه كما قال رسول الله من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليأمن جاره بوائقه وأحق العباد باسم المؤمن من كان سببا لأمن الخلق من عذاب الله بالهداية إلى طريق الله عز وجل والإرشاد إلى سبيل النجاة وهذه حرفة الأنبياء والعلماء

ولذلك قال رسول الله إنكم تتهافتون في النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم خيال وتنبيه لعلك تقول الخوف على الحقيقة من الله تعالى فلا مخوف إلا إياه فهو الذي خوف عباده وهو الذي خلق أسباب الخوف فكيف ينسب إليه الأمن

فجوابك إن الخوف منه والأمن منه وهو خالق سبب الأمن والخوف جميعا وكونه مخوفا لا يمنع كونه مؤمنا كما أن كونه مذلا لم يمنع كونه معزا بل هو المعز والمذل وكونه خافضا لم يمنع كونه رافعا بل هو الخافض الرافع فكذلك هو المؤمن المخوف لكن المؤمن ورد التوقيف به خاصة دون المخوف

المهيمن

معناه في حق الله عز و جل أنه القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم وإنما قيامه عليهم باطلاعه واستيلائه وحفظه وكل مشرف على كنه الأمر مستول عليه حافظ له فهو مهيمن عليه والإشراف يرجع إلى العلم والاستيلاء إلى كمال القدرة والحفظ إلى الفعل فالجامع بين هذه المعاني اسمه المهين ولن يجتمع ذلك على الإطلاق والكمال إلا لله عز و جل ولذلك قيل إنه من أسماء الله تعالى في الكتب القديمة تنبيه

كل عبد راقب قلبه حتى أشرف على أغواره وأسراره واستولى مع ذلك على تقويم أحواله وأوصافه وقام بحفظها على الدوام على مقتضى تقويمه فهو مهيمن بالإضافة إلى قلبه فإن اتسع إشرافه واستيلاؤه حتى قام بحفظ بعض عباد الله عز و جل على نهج السداد بعد اطلاعه على بواطنهم وأسرارهم بطريق التفرس والاستدلال بظواهرهم كان نصيبه من هذا المعنى أوفر وحظه أكثر

العزيز

هو الخطير الذي يقل وجود مثله وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه فما لم يجتمع عليه هذه المعاني الثلاثة لم يطلق عليه اسم العزيز فكم من شيء يقل وجوده ولكن إذا لم يعظم خطره ولم يكثر نفعه لم يسم عزيزا وكم من شئ يعظم خطره ويكثر نفعه ولا يوجد نظيره ولكن إذا لم يصعب الوصول إليه لم يسم عزيزا كالشمس مثلا فإنه لا نظير لها والأرض كذلك

والنفع عظيم في كل واحد منهما والحاجة شديدة إليهما ولكن لا يوصفان بالعزة لأنه لا يصعب الوصول إلى مشاهدتهما فلا بد من اجتماع المعاني الثلاثة

ثم في كل واحد من المعاني الثلاثة كمال ونقصان والكمال في قلة الوجود أن يرجع إلى واحد إذ لا أقل من الواحد ويكون بحيث يستحيل وجود مثله وليس هذا إلا الله تعالى فإن الشمس وإن كانت واحدة في الوجود فليست واحدة في الإمكان فيمكن وجود مثلها في الكمال والنفاسة وشدة الحاجة أن يحتاج إليه كل شيء في كل شيء حتى في وجوده وبقائه وصفاته وليس ذلك على الكمال إلا الله عز وجل والكمال في صعوبة المنال أن يستحيل الوصول إليه على معنى الإحاطة بكنهه وليس ذلك على الكمال إلا الله عز وجل فإنا قد بينا أنه لا يعرف الله إلا الله فهو العزيز المطلق الحق لا يوازيه فيه غيره

تنبيه

العزيز من العباد من يحتاج إليه عباد الله في أهم أمورهم وهي الحياة الأخروية والسعادة الأبدية وذلك مما يقل لا محالة وجوده ويصعب إدراكه وهذه رتبة الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ويشاركهم في العز من ينفرد بالقرب من درجتهم في عصره كالخلفاء وورثتهم من

العلماء وعزة كل واحد منهم بقدر علو رتبته عن سهولة النيل والمشاركة وبقدر عنائه في إرشاد الخلق

الجبار

هو الذي ينفذ مشيئته على سبيل الإجبار في كل واحد ولا تنفذ فيه مشيئة أحد الذي لا يخرج أحد من قبضته وتقصر الأيدي دون حمى حضرته فالجبار المطلق هو الله سبحانه وتعالى فإنه يجبر كل أحد ولا يجبره أحد ولا مثنوية في حقه في الطرفين تنبيه

الجبار من العباد من ارتفع عن الأتباع ونال درجة الاستتباع وتفرد بعلو رتبته بحيث يجبر الخلق بهيئته وصورته على الاقتداء به ومتابعته في سمته وسيرته فيفيد الخلق ولا يستفيد ويؤثر ولا يتأثر ويستتبع ولا يتبع ولا يشاهده أحد إلا ويفنى عن ملاحظة نفسه ويصير متشوقا إليه غير ملتفت إلى ذاته ولا يطمع أحد في استدراجه واستتباعه وإنما حظي بهذا الوصف سيد البشر حيث قال لو كان موسى بن عمران حيا ما وسعه إلا اتباعي وأنا سيد ولد آدم ولا فخر

المتكبر

هو الذي يرى الكل حقيرا بالإضافة إلى ذاته ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد فإن كانت هذه الرؤية صادقة كان التكبر حقا وكان صاحبها متكبرا حقا ولا يتصور ذلك على الإطلاق إلا لله عز وجل وإن كان ذلك التكبر والاستعظام باطلا ولم يكن ما يراه من التفرد بالعظمة كما يراه كان التكبر باطلا ومذموما وكل من رأى العظمة والكبرياء لنفسه على الخصوص دون غيره كانت رؤيته كاذبة ونظره باطلا إلا الله سبحانه وتعالى تنبيه

المتكبر من العباد هو الزاهد العارف ومعنى زهد العارف أن يتنزه عما شغل سره عن الحق ويتكبر على كل شيء سوى الحق سبحانه وتعالى فيكون مستحقرا للدنيا والآخرة جميعا مترفعا عن أن يشغله كلاهما عن الحق تعالى

وزهد غير العارف معاملة ومعاوضة فإنه يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة فيترك الشيء عاجلا طمعا في أضعافه آجلا وإنما هو سلم ومبايعة ومن استعبدته شهوة المطعم والمنكح فهو حقير وإن كان ذلك دائما وإنما المتكبر من يستحقر كل شهوة وحظ يتصور أن يساهمه البهائم فيها والله أعلم

الخالق البارئ المصور

قد يظن أن هذه الأسماء مترادفة وأن الكل يرجع إلى الخلق والاختراع ولا ينبغي أن يكون كذلك بل كل ما يخرج من العدم إلى الوجود فيفتقر إلى تقدير أولا وإلى الإيجاد على وفق

التقدير ثانيا وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثا والله سبحانه وتعالى خالق من حيث أنه مقدر وبارئ من حيث أنه مخترع موجد ومصور من حيث أنه مرتب صور المخترعات أحسن ترتيب

(521/757)

وهذا كالبناء مثلا فإنه يحتاج إلى مقدر يقدر ما لا بد له منه من الخشب واللبن ومساحة الأرض وعدد الأبنية وطولها وعرضها وهذا يتولاه المهندس فيرسمه ويصوره ثم يحتاج إلى بناء يتولى الأعمال التي عندها يحدث أصول الأبنية ثم يحتاج إلى مزين ينقش ظاهره ويزين صورته فيتولاه غير البناء هذه هي العادة في التقدير والبناء والتصوير وليس كذلك في أفعال الله عز وجل بل هو المقدر والموجد والمزين فهو الخالق البارئ المصور

ومثاله الإنسان وهو أحد مخلوقاته وهو محتاج في وجوده أولا إلى أن يقدر ما منه وجوده فإنه جسم مخصوص فلا بد من الجسم أولا حتى يخصص بالصفات كما يحتاج البناء إلى آلات حتى يبني ثم لا يصلح لبنية الإنسان إلا الماء والتراب جميعا إذ التراب وحده يابس محض لا ينثني ولا ينعطف في الحركات والماء وحده رطب محض لا يتماسك ولا ينتصب بل ينبسط فلا بد أن يمتزج الرطب باليابس حتى يعتدل ويعبر عنه بالطين ثم لا بد من حرارة طابخة

حتى يستحكم مزج الماء بالتراب ولا ينفصل فلا يتخلق الإنسان من الطين المحض بل من صلصال كالفخار والفخار هو الطين المعجون بالماء الذي قد عملت فيه النار حتى أحكمت مزاجه ثم يحتاج إلى تقدير الماء والطين بمقدار مخصوص فإنه إن صغر مثلا لم تحصل منه الأفعال الإنسانية بل كان على قدر الذر والنمل فتسفيه الرياح ويهلكه أدنى شيء ولا يحتاج إلى مثل الجبل من الطين فإن ذلك يزيد على قدر الحاجة بل الكافي من غير زيادة ونقصان قدر معلوم يعلمه الله عز وجل

وكل ذلك يرجع إلى التقدير فهو باعتبار تقدير هذه الأمور خالق وباعتبار الإيجاد على وفق التقدير مصور وباعتبار مجرد الإيجاد والإخراج من العدم إلى الوجود بارئ والإيجاد المجرد شئ والإيجاد على وفق التقدير شيء آخر وهذا يحتاج إليه من يبعد رد الخلق إلى مجرد التقدير مع أن له في اللغة

وجها إذ العرب تسمي الحذاء خالقا لتقديره بعض طاقات النعل على بعض ولذلك قال الشاعر

ولأنت تفري ما خلقت وبعض . . . القوم يخلق ثم لا يفري

فأما اسم المصور فهو له من حيث رتب صور الأشياء أحسن ترتيب وصورها أحسن تصوير وهذا من أوصاف الفعل فلا يعلم حقيقته إلا من يعلم صورة العالم على الجملة ثم على التفصيل فإن العالم كله في حكم شخص واحد مركب من أعضاء متعاونة على الغرض المطلوب منه وإنما أعضاؤه وأجزاؤه السموات والكواكب والأرضون وما بينهما من الماء والهواء وغيرهما وقد رتبت أجزاؤه ترتيبا محكما لو غير ذلك الترتيب لبطل النظام فخصص بجهة الفوق ما ينبغي أن يعلو وبجهة السفل ما ينبغي أن يسفل وكما أن البناء يضع الحجارة أسفل الحيطان والخشب فوقها لا بالاتفاق بل بالحكمة والقصد لإرادة الإحكام ولو قلب ذلك فوضع الحجارة فوق الحيطان والخشب أسفلها لانهدم البناء ولم تثبت صورته أصلا

فكذلك ينبغي أن يفهم السبب في علو الكواكب وتسفل الأرض والماء وسائر أنواع الترتيب في الأجزاء العظام من أجزاء العالم ولو ذهبنا نصف أجزاء العالم ونحصيها ثم نذكر الحكمة في تركيبها لطال الكلام وكل من كان أوفر علما بهذا التفصيل كان أكثر إحاطة بمعنى اسم المصور وهذا الترتيب والتصوير موجود في كل جزء من أجزاء العالم وإن صغر حتى في النملة والذرة بل في كل عضو من أعضاء النملة بل الكلام يطول في شرح صورة العين التي هي أصغر عضو في الحيوان ومن لم يعرف طبقات العين وعددها وهيئاتها وشكلها ومقاديرها

وألوانها ووجه الحكمة فيها فلن يعرف صورتها ولم يعرف مصورها

إلا بالاسم المجمل وهكذا القول في كل صورة لكل حيوان ونبات بل لكل جزء من كل حيوان

ونبات تنبيه

(523/757)

حظ العبد من هذا الاسم أن يحصل في نفسه صورة الوجود كله على هيئته وترتيبه حتى يحيط بهيئة العالم وترتيبه كله كأنه ينظر إليها ثم ينزل من الكل إلى التفاصيل فيشرف على صورة الإنسان من حيث بدنه وأعضائه الجسمانية فيعلم أنواعها وعددها وتركيبها والحكمة في خلقها وترتيبها ثم يشرف على صفاتها المعنوية ومعانيها الشريفة التي بها إدراكاته وإرادته وكذلك يعرف صورة الحيوانات وصورة النبات ظاهرا وباطنا بقدر ما في وسعه حتى يحصل نقش الجميع وصورته في قلبه وكل ذلك يرجع إلى معرفة صورة الجسمانيات وهي معرفة مختصرة بالإضافة إلى معرفة ترتيب الروحانيات وفيه يدخل معرفة الملائكة ومعرفة مراتبهم وما وكل إلى كل واحد منهم من التصرف في السموات والكواكب ثم التصرف في القلوب البشرية بالهداية والإرشاد ثم التصرف في الحيوانات بالإلهامات الهادية لها إلى مظنة الحاجات

فهذا حظ العبد من هذا الاسم وهو اكتساب الصورة العلمية المطابقة للصورة الوجودية فإن العلم صورة في النفس مطابقة للمعلوم وعلم الله عز و جل بالصور سبب لوجود الصور في الأعيان والصورة الموجودة في الأعيان سبب لحصول الصور العلمية في قلب الإنسان وبذلك يستفيد العبد العلم بمعنى اسم المصور من أسماء الله سبحانه وتعالى ويصير أيضا باكتساب الصورة في نفسه كأنه مصور وإن كان ذلك على سبيل المجاز فإن تلك الصور العلمية إنما تحدث فيه على التحقيق بخلق الله تعالى واختراعه لا بفعل العبد ولكن العبد يسعى في التعرض لفيضان رحمة الله تعالى عليه فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم 13 سورة الرعد الآية 11 ولذلك قال إن لربكم في أيام دهركم نفحات من رحمته ألا فتعرضوا لها

(524/757)

وأما الخالق البارئ فلا مدخل للعبد أيضا في هذين الاسمين إلا بنوع من المجاز بعيد ووجهه أن الخلق والإيجاد يرجع إلى استعمال القدرة بموجب العلم وقد خلق الله تعالى للعبد علما وقدرة وله سبيل إلى تحصيل مقدوراته على وفق تقديره وعلمه

والأمور الموجودة تنقسم إلى ما لا يرتبط حصولها بقدرة العباد أصلا كالسماء والكواكب

والأرض والحيوان والنبات وغير ذلك وإلى ما لا حصول لها إلا بقدرة العباد وهي التي ترجع إلى أعمال العباد كالصناعات والسياسات والعبادات والمجاهدات فإذا بلغ العبد في مجاهدة نفسه بطريق الرياضة في سياستها وسياسة الخلق مبلغا ينفرد فيها باستنباط أمور لم يسبق إليها ويقدر مع ذلك على فعلها والترغيب فيها كان كالمخترع لما لم يكن له وجود من قبل إذ يقال لواضع الشطرنج إنه الذي وضعه واخترعه حيث وضع ما لم يسبق إليه إلا أن وضع ما لا خير فيه لا يكون من صفات المدح

وكذلك في الرياضات والمجاهدات والسياسات والصناعات التي هي منبع الخيرات صور وترتيبات يتعلمها الناس بعضهم من بعض ويرتقي لا محالة إلى أول مستنبط وواضع فيكون ذلك الواضع كالمخترع لتلك الصورة والخالق المقدر لها حتى يجوز إطلاق الاسم عليه مجازا ومن أسماء الله تعالى ما يكون نقلها إلى العبد مجازا وهو الأكثر ومنها ما يكون في حق العبد حقيقة وفي حق الله تعالى مجازا كالصبور والشكور ولا ينبغي أن تلاحظ المشاركة في الاسم وتذهل عن هذا التفاوت العظيم الذي ذكرناه

الغفار

هو الذي أظهر الجميل وستر القبيح والذنوب من جملة القبائح التي سترها بإسبال الستر عليها في الدنيا والتجاوز عن عقوبتها في الآخرة والغفر هو الستر

وأول ستره على العبد أن جعل مقابح بدنه التي تستقبحها الأعين مستورة في باطنه مغطاة

بجمال ظاهره فكم بين باطن العبد وظاهره في النظافة والقذارة وفي القبح والجمال فانظر ما الذي أظهره وما الذي ستره

(525/757)

وستره الثاني أن جعل مستقر خواطره المذمومة وإرادته القبيحة سر قلبه حتى لا يطلع أحد على سره ولو انكشف للخلق ما يخطر بباله في مجاري وسواسه وما ينطوي عليه ضميره من الغش والخيانة وسوء الظن بالناس لمقتوه بل سعوا في تلف روحه وأهلكوه فانظر كيف ستر عن غيره أسراره وعوراته

وستره الثالث مغفرته ذنوبه التي كان يستحق الافتضاح بها على ملأ الخلق وقد وعد أن يبدل سيئاته حسنات ليستر مقابح ذنوبه بثواب حسناته مهما مات على الإيمان تنبيه حظ العبد من هذا الاسم أن يستر من غيره ما يجب أن يستر منه فقد قال النبي من ستر على مؤمن عورته ستر الله عز و جل عورته يوم القيامة والمغتاب والمتجسس والمكافئ على الإساءة بمعزل عن هذا الوصف

وإنما المتصف به من لا يفشى من خلق الله تعالى إلا أحسن ما فيه ولا ينفك مخلوق عن كمال ونقص وعن قبح وحسن فمن تغافل عن المقابح وذكر المحاسن فهو ذو نصيب من هذا

الوصف كما روي عن عيسى صلوات الله عليه أنه مر مع الحواريين بكلب ميت قد غلب نتنه فقالوا ما أنتن هذه الجيفة فقال عيسى عليه السلام ما أحسن بياض أسنانه تنبيها على أن الذي ينبغي أن يذكر من كل شيء ما هو أحسن

القهار هو الذي يقصم ظهور الجبابرة من أعدائه فيقهرهم بالإماتة والإذلال بل الذي لا موجود إلا وهو مسخر تحت قهره ومقدرته عاجز في قبضته تنبيه

القهار

من العباد من قهر أعداءه وأعدى عدو الإنسان نفسه التي بين جنبيه فهي أعدى له من الشيطان الذي قد حذر عداوته ومهما قهر شهوات نفسه فقد قهر الشيطان إذ الشيطان يستهويه إلى الهلاك بواسطة شهواته

وإحدى حبائك الشيطان النساء ومن فقد شهوة النساء لم يتصور أن ينعقل بهذه الأحبولة فكذلك من قهر هذه الشهوة تحت سطوة الدين وإشارة العقل ومهما قهر شهوات النفس فقد قهر الناس كافة فلم يقدر عليه أحد إذ غاية

أعدائه السعي في إهلاك بدنه وذلك إحياء لروحه فإن من مات عن شهواته في حياته عاش في مماته ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين 3 سورة آل عمران الآية 169 و 170

الوهاب

الهبة هي العطية الخالية عن الأعواض والأغراض فإذا كثرت العطايا بهذه الصفة سمي صاحبها وهابا وجوادا ولن يتصور الجود والهبة حقيقة إلا من الله تعالى فإنه الذي يعطي كل محتاج ما يحتاج إليه لا لعوض ولا لغرض عاجل ولا آجل ومن وهب وله في هبته غرض يناله عاجلا وآجلا من ثناء أو مدح أو مودة أو تخلص من مذمة أو اكتساب شرف وذكر فهو معامل معتاض وليس بوهاب ولا جواد فليس العوض كله عينا يتناول بل كل ما ليس بحاصل ويقصد الواهب حصوله بالهبة فهو عوض ومن وهب وجاد ليشرف أو ليثنى عليه أو لئلا يذم فهو معامل وإنما الجواد الحق هو الذي يفيض منه الفوائد على المستفيد لا لغرض يعود إليه بل الذي يفعل شيئا لو لم يفعل لكان يقبح به فهو بما يفعله متخلص وذلك غرض وعوض تنبيه

لا يتصور من العبد الجود والهبة فإنه ما لم يكن الفعل أولى به من الترك لم يقدم عليه فيكون إقدامه لغرض نفسه ولكن الذي يبذل جميع ما يملكه حتى الروح لوجه الله عز وجل فقط لا للوصول إلى نعيم الجنة أو الحذر من عذاب النار أو لحظ عاجل أو آجل مما يعد من حظوظ

البشرية فهو جدير بأن يسمى وهابا وجوادا ودونه الذي يجود لينال نعيم الجنة ودونه من يجود لينال حسن الأحدوثة وكل من لم يطلب عوضا يتناول سمي جوادا عند من يظن أن لا عوض إلا الأعيان

فإن قلت فالذي يجود بكل ما يملكه خالصا لوجه الله تعالى من غير توقع حظ عاجل أو آجل كيف لا يكون جوادا ولا حظ له أصلا فيه

فنقول حظه هو الله تعالى ورضاؤه ولقاؤه والوصول إليه وذلك هو السعادة التي يكتسبها الإنسان بأفعاله الاختيارية وهو الحظ الذي تستحقر سائر الحظوظ في مقابلته

فإن قلت فما معنى قولهم إن العارف بالله تعالى هو الذي يعبد الله عز وجل خالصا لله لا لحظ وراءه فإن كان لا يخلو فعل العبد عن حظ فما الفرق بين من يعبد الله تعالى لله خالصا وبين من يعبده لحظ من الحظوظ فاعلم أن الحظ عبارة عند الجماهير عن الأغراض أو الأعواض المشهورة عندهم ومن تنزه عنها ولم يبق له مقصد إلا الله تعالى فيقال إنه قد برئ من الحظوظ أي عما يعده الناس حظا وهو كقولهم إن العبد يراعي سيده لا لسيده ولكن لحظ يناله من سيده من نعمة أو إكرام والسيد يراعي عبده لا لعبده ولكن لحظ يناله منه

بخدمته وأما الوالد فإنه يراعي ولده لذاته لا لحظ يناله منه بل لو لم يكن منه حظ أصلا لكان معنيا بمراعاته

ومن طلب شيئا لغيره لا لذاته فكأنه لم يطلبه فإنه ليس غاية طلبه بل غاية طلب غيره كمن يطلب الذهب فإنه لا يطلبه لذاته بل ليتوصل به إلى المطعم والملبس والمطعم والملبس لا يرادان لذاتهما بل للتوصل بهما إلى جلب اللذة ودفع الألم واللذة تراد لذاتها لا لغاية أخرى وراءها وكذا دفع الألم فيكون الذهب واسطة إلى الطعام والطعام واسطة إلى اللذة واللذة هي الغاية وليست واسطة إلى غيرها وكذلك الولد ليس واسطة في حق الوالد بل مطلوبه سلامة الولد لذات الولد لأن عين الولد حظه

فكذلك من يعبد الله عز و جل للجنة فقد جعل الله سبحانه وتعالى واسطة طلبه ولم يجعله غاية مطلبه وعلامة الواسطة أنه لو حصلت الفائدة دونها لم تطلب كما لو حصلت المقاصد دون الذهب لم يكن الذهب محبوبا ولا مطلوبا فالمحبوب بالحقيقة الغاية المطلوبة دون الذهب ولو حصلت الجنة لمن يعبد الله لأجلها دون عبادة الله عز و جل لما عبد الله فمحبوبه ومطلوبه الجنة إذا لا غير وأما من لم يكن له محبوب سوى الله عز و جل ولا مطلوب

سواه بل حظه الابتهاج بلقاء الله تعالى والقرب منه والمرافقة مع الملأ الأعلى المقربين من حضرته فيقال إنه يعبد الله تعالى لله لا على معنى أنه غير طالب للحظ بل على معنى أن الله عز وجل هو حظه وليس يبغي وراءه حظا

ومن لم يؤمن بلذة البهجة بلقاء الله عز وجل ومعرفته والمشاهدة له والقرب منه لم يشتق إليه ومن لم يشتق إليه لم يتصور أن يكون ذلك من حظه فلم يتصور أن يكون ذلك مقصده أصلا فلذلك لا يكون في عبادة الله تعالى إلا كالأجير السوء لا يعمل إلا بأجرة طمع فيها وأكثر الخلق لم يذوقوا هذه اللذة ولم يعرفوها ولا يفهمون لذة النظر إلى وجه الله عز وجل وإنما إيمانهم بذلك من حيث النطق باللسان فأما بواطنهم فإنها مائلة إلى التلذذ بلقاء الحور العين ومصدقة به فقط فافهم من هذا أن البراءة من الحظوظ محال إن كنت تجوز أن يكون الله تعالى أي لقاءه والقرب منه مما يسمى حظا وإن كان الحظ عبارة عما يعرفه الجماهير وتميل إليه قلوبهم فليس هذا حظا وإن كان عبارة عما حصوله أوفى من عدمه في حق العبد فهو حظ

الرزاق

هو الذي خلق الأرزاق والمرتزقة وأوصلها إليهم وخلق لهم أسباب التمتع بها

والرزق رزقان ظاهر وهي الأقوات والأطعمة وذلك للظواهر وهي الأبدان وباطن وهي المعارف والمكاشفات وذلك للقلوب والأسرار وهذا أشرف الرزقين فإن ثمرته حياة الأبد وثمرة الرزق الظاهر قوة الجسد إلى مدة قريبة الأمد والله عز وجل هو المتولي لخلق الرزقين والمتفضل بالإيصال إلى كلا الفريقين ولكنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر تنبيه

غاية حظ العبد من هذا الوصف أمران

أحدهما أن يعرف حقيقة هذا الوصف وأنه لا يستحقه إلا الله عز وجل فلا ينتظر الرزق إلا منه ولا يتوكل فيه إلا عليه كما روي عن حاتم الأصم رحمه الله أنه قال له رجل من أين تأكل فقال من خزانته فقال الرجل أيلقي عليك الرزق من السماء فقال لو لم تكن الأرض له لكان يلقيه من السماء فقال الرجل إنكم تقولون الكلام فقال لأنه لم ينزل من السماء إلا الكلام فقال الرجل إني لا أقوى على مجادلتك فقال لأن الباطل لا يقوى مع الحق

الثاني أن يرزقه علما هاديا ولسانا مرشدا معلما ويدا منفقة متصدقة ويكون سببا لوصول الأرزاق الشريفة إلى القلوب بأقواله وأعماله ووصول الأرزاق إلى الأبدان بأفعاله وأعماله وإذا أحب الله عبدا أكثر حوائج الخلق إليه ومهما كان واسطة بين الله وبين العباد في وصول الأرزاق إليهم فقد نال حظا من هذه الصفة قال رسول الله الخازن الأمين الذي يعطي ما أمر به طيبة به نفسه أحد المتصدقين وأيدي العباد خزائن الله تعالى

فمن جعلت يده خزانة أرزاق الأبدان ولسانه خزانة أرزاق القلوب فقد أكرم بشوب من هذه الصفة

الفتاح

(530/757)

هو الذي ينفتح بعنايته كل منغلق وبهدايته ينكشف كل مشكل فتارة يفتح الممالك لأنبيائه ويخرجها من أيدي أعدائه ويقول إنا فتحنا لك فتحا مبينا 48 سورة الفتح الآية 1 وتارة يرفع الحجاب عن قلوب أوليائه ويفتح لهم الأبواب إلى ملكوت سمائه وجمال كبريائه ويقول ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها 35 سورة فاطر الآية 2 ومن بيده مفاتح الغيب ومفاتيح الرزق فبالحري أن يكون فتاحا تنبيه

ينبغي أن يتعطش العبد إلى أن يصير بحيث ينفتح بلسانه مغاليق المشكلات الإلهية وأن يتيسر بمعرفته ما يتعسر على الخلق من الأمور الدينية والدنيوية ليكون له حظ من اسم الفتاح

العليم

معناه ظاهر وكماله أن يحيط بكل شيء علما ظاهره وباطنه دقيقه وجليله أوله وآخره

عاقبته وفاتحته وهذا من حيث كثرة المعلومات وهي لا نهاية لها ثم يكون العلم في ذاته من حيث الوضوح والكشف على أتم ما يمكن فيه بحيث لا يتصور مشاهدة وكشف أظهر منه ثم لا يكون مستفادا من المعلومات بل تكون المعلومات مستفادة منه

تنبيه

للعبد حظ من وصف العليم لا يكاد يخفى ولكن يفارق علمه علم الله تعالى في الخواص الثلاث

إحداها المعلومات في كثرتها فإن معلومات العبد وإن اتسعت فهي محصورة في قلبه فأنى يناسب ما لا نهاية له

والثانية أن كشفه وإن اتضح فلا يبلغ الغاية التي لا يمكن وراءها بل تكون مشاهدته للأشياء كأنه يراها من وراء ستر رقيق ولا تنكرن درجات الكشف فإن البصيرة الباطنة كالبصر الظاهر وفرق بين ما يتضح في وقت الإسفار وبين ما يتضح ضحوة النهار

والثالثة أن علم الله سبحانه وتعالى بالأشياء غير مستفاد من الأشياء بل الأشياء مستفادة منه وعلم العبد بالأشياء تابع للأشياء وحاصل بها

وإن اعتاص عليك فهم هذا الفرق فانسب علم متعلم الشطرنج إلى علم واضعه فإن علم الواضع هو سبب وجود الشطرنج ووجود الشطرنج هو سبب علم المتعلم وعلم الواضع سابق على الشطرنج وعلم المتعلم مسبوق ومتأخر فكذلك علم الله عز وجل بالأشياء سابق عليها وسبب لها وعلمنا بخلاف ذلك

وشرف العبد بسبب العلم من حيث أنه من صفات الله عز وجل ولكن العلم الأشرف ما معلومه أشرف وأشرف المعلومات هو الله تعالى فلذلك كانت معرفة الله تعالى أفضل المعارف بل معرفة سائر الأشياء أيضا إنما تشرف لأنها معرفة لأفعال الله عز وجل أو معرفة للطريق الذي يقرب العبد من الله عز وجل أو الأمر الذي يسهل به الوصول إلى معرفة الله تعالى والقرب منه وكل معرفة خارجة عن ذلك فليس فيها كثير شرف

القابض والباسط

هو الذي يقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات ويبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة ويقبض الصدقات من الأغنياء ويبسط الأرزاق للضعفاء يبسط الرزق على الأغنياء حتى لا يبقي فاقة ويقبضه عن الفقراء حتى لا يبقي طاقة ويقبض القلوب فيضيقها بما يكشف لها من قلة مبالاته وتعاليه وجلاله ويبسطها بما يتقرب إليها من بره ولطفه وجماله تنبيه

القابض الباسط

من العباد من ألهم بدائع الحكم وأوتي جوامع الكلم فتارة يبسط قلوب العباد بما يذكرهم من

آلاء الله عز وجل ونعمائه وتارة يقبضها بما ينذرهم به من جلال الله وكبريائه وفنون عذابه وبلائه وانتقامه من أعدائه كما فعل رسول الله حيث قبض قلوب الصحابة عن الحرص على العبادة حيث ذكر لهم أن الله عز وجل يقول لآدم عليه الصلاة و السلام يوم القيامة ابعث بعث النار فيقول كم فيقول من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون فانكسرت قلوبهم حتى فتروا عن العبادة فلما أصبح ورآهم على ما هم عليه من القبض والفتور روح قلوبهم وبسطهم فذكر أنهم في سائر الأمم قبلهم كشامة سوداء في مسك ثور أبيض

الخافض الرافع

هو الذي يخفض الكفار بالإشقاء ويرفع المؤمنين بالإسعاد يرفع أولياءه بالتقريب ويخفض أعداءه بالإبعاد ومن رفع مشاهدته عن المحسوسات والمتخيلات وإرادته عن ذميم الشهوات فقد رفعه إلى أفق الملائكة المقربين ومن قصر مشاهدته على المحسوسات وهمته على ما يشارك

فيه البهائم من الشهوات فقد خفضه إلى أسفل السافلين ولا يفعل ذلك إلا الله تعالى فهو الخافض الرافع تنبيه

حظ العبد من ذلك أن يرفع الحق ويخفض الباطل وذلك بأن ينصر المحق ويزجر المبطل

فيعادي أعداء الله ليخفضهم ويوالي أولياء الله ليرفعهم ولذلك قال الله تعالى لبعض أوليائه

أما زهدك في الدنيا فقد استعجلت به راحة نفسك وأما ذكرك إياي فقد تشرفت بي فهل

واليت في وليا وهل عاديت في عدوا

المعز المذل

هو الذي يؤتي الملك من يشاء ويسلبه ممن يشاء والملك الحقيقي إنما هو في الخلاص من ذل

الحاجة وقهر الشهوة ووصمة الجهل فمن رفع الحجاب عن قلبه حتى شاهد جمال حضرته

ورزقه القناعة حتى استغنى بها عن خلقه وأمده بالقوة والتأييد حتى استولى بها على

صفات نفسه فقد أعزه وآتاه الملك عاجلا وسيعزه في الآخرة بالتقريب ويناديه يا أيتها

النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي 89

سورة الفجر الآيات 3027

ومن مد عينه إلى الخلق حتى احتاج إليهم وسلط عليه الحرص حتى لم يقنع بالكفاية

واستدرجه بمكره حتى اغتر بنفسه وبقي في ظلمة الجهل فقد أذله وسلبه الملك وذلك

صنع الله عز وجل كما يشاء حيث يشاء فهو المعز المذل يعز من يشاء ويذل من يشاء وهذا

الذليل هو الذي يخاطب ويقال

له ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله

الغرور فاليوم لا يؤخذ منكم فدية 57 سورة الحديد الآية 14 و 15 وهذا غاية الذل وكل عبد استعمل في تيسير أسباب العز على يده ولسانه فهو ذو حظ من هذا الوصف السميع

(533/757)

هو الذي لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي فيسمع السر والنجوى بل ما هو أدق من ذلك وأخفى ويدرك دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء يسمع حمد الحامدين فيجازيهم ودعاء الداعين فيستجيب لهم ويسمع بغير أصمخة وآذان كما يفعل بغير جارحة ويتكلم بغير لسان وسمعه منزه عن أن يتطرق إليه الحدثان ومهما نزهت السميع عن تغير يعتريه عند حدوث المسموعات وقدسته عن أن يسمع بأذن أو بآلة وأداة علمت أن السمع في حقه عبارة عن صفة ينكشف بها كمال صفات المسموعات ومن لم يدقق نظره فيه وقع بالضرورة في محض التشبيه فخذ منه حذرك ودقق فيه نظرك تنبيه للعبد من حيث الحس حظ في السمع لكنه قاصر فإنه لا يدرك جميع المسموعات بل ما قرب من الأصوات ثم إن إدراكه بجارحة وأداة معرضة للآفات فإن خفي الصوت قصر عن الإدراك وإن بعد لم يدرك وإن عظم الصوت ربما بطل السمع واضمحل

وإنما حظه الديني منه أمران

أحدهما أن يعلم أن الله عز وجل سميع فيحفظ لسانه

والثاني أن يعلم أنه لم يخلق له السمع إلا ليسمع كلام الله عز وجل وكتابه الذي أنزله وحديث رسول الله فيستفيد به الهداية إلى طريق الله عز وجل فلا يستعمل سمعه إلا فيه

البصير

هو الذي يشاهد ويرى حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى وإبصاره أيضا منزه عن أن يكون بحدقة وأجفان ومقدس عن أن يرجع إلى انطباع الصور والألوان في ذاته كما ينطبع في حدقة الإنسان فإن ذلك من التغير والتأثر المقتضي للحدثان وإذا نزه عن ذلك كان البصر في حقه عبارة عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصرات وذلك أوضح وأجلى مما يفهم من إدراك البصر القاصر على ظواهر المرئيات تنبيه

حظ العبد من حيث الحس من وصف البصر ظاهر ولكنه ضعيف قاصر إذ لا يمتد إلى ما بعد ولا يتغلغل إلى باطن ما قرب بل يتناول الظواهر ويقصر عن البواطن والسرائر

وإنما حظه الديني منه أمران

أحدهما أن يعلم أنه خلق له البصر لينظر إلى الآيات وإلى عجائب الملكوت والسموات فلا يكون نظرة إلا عبرة قيل لعيسى عليه السلام هل أحد من الخلق مثلك فقال من كان نظره عبرة وصمته فكرة وكلامه ذكرا فهو مثلي

والثاني أن يعلم أنه بمرأى من الله عز وجل ومسمع فلا يستهين بنظره إليه واطلاعه عليه ومن أخفى عن غير الله ما لا يخفيه عن الله فقد استهان بنظر الله عز وجل والمراقبة إحدى ثمرات الإيمان بهذه الصفة فمن قارف معصية وهو يعلم أن الله عز وجل يراه فما أجسره وما أخسره ومن ظن أن الله تعالى لا يراه فما أظلمه وأكفره

الحكم

وهو الحاكم المحكم والقاضي المسلم الذي لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ومن حكمه في حق العباد أن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى وأن الأبرار لفي نعيم وأن الفجار لفي جحيم ومعنى حكمه للبر والفاجر بالسعادة والشقاوة أنه جعل البر والفجور سببا يسوق صاحبهما إلى السعادة والشقاوة كما جعل الأدوية والسموم أسباب تسوق متناوليها إلى الشقاء والهلاك

وإذا كان معنى الحكمة ترتيب الأسباب وتوجيهها إلى المسببات كان المتصف بها على الإطلاق حكما مطلقا لأنه مسبب كل الأسباب جملتها وتفصيلها

ومن الحكم ينشعب القضاء والقدر فتدبيره أصل وضع الأسباب ليتوجه إلى المسببات

حكمه ونصبه الأسباب الكلية الأصلية الثابتة المستقرة التي لا تزول ولا تحول كالأرض والسموات السبع والكواكب والأفلاك وحركاتها المتناسبة الدائمة التي لا تتغير ولا تنعدم إلى أن يبلغ الكتاب أجله فقضاؤه كما قال تعالى فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها 41 سورة فصلت الآية 12 وتوجيه هذه الأسباب بحركاتها المتناسبة المحدودة المقدرة المحسوبة إلى المسببات الحادثة منها لحظة بعد لحظة قدره فالحكم هو التدبير الأول الكلي والأمر الأزلي الذي هو كلمح البصر والقضاء هو الوضع الكلي للأسباب الكلية الدائمة والقدر هو توجيه الأسباب

الكلية بحركتها المقدرة المحسوبة إلى مسبباتها المعدودة المحدودة بقدر معلوم لا يزيد ولا ينقص ولذلك لا يخرج عن قضائه وقدره شيء

ولا تفهم ذلك إلا بمثال ولعلك شاهدت صندوق الساعات التي بها يتعرف أوقات الصلوات وإن لم تشاهده فجملة ذلك أنه لا بد فيه من آلة على شكل أسطوانة تحوي مقدارا من الماء معلوما وآلة أخرى مجوفة موضوعة فيها فوق الماء وخيط مشدود أحد طرفيه في هذه الآلة المجوفة وطرفه الآخر في أسفل ظرف صغير موضوع فوق الأسطوانة المجوفة وفيه كره وتحته

طاس بحيث لو سقطت الكرة وقعت في الطاس وسمع طنينها ثم يثقب أسفل الآلة الأسطوانية ثقب بقدر معلوم ينزل الماء منه قليلا قليلا فإذا انخفض الماء انخفضت الآلة المجوفة الموضوعة على وجه الماء فامتد الخيط المشدود بها فحرك الظرف الذي فيه الكره تحريكا يقربه من الانتكاس إلى أن ينتكس فتدحرج منه الكرة وتقع في الطاس وتطن وعند انقضاء كل ساعة تقع واحدة

وإنما يتقدر الفصل بين الوقعتين بتقدير خروج الماء وانخفاضه وذلك بتقدير سعة الثقب الذي يخرج منه الماء ويعرف ذلك بطريق الحساب

فيكون نزل الماء بمقدار مقدر معلوم بسبب تقدير سعة الثقب بقدر معلوم

ويكون انخفاض أعلى الماء بذلك المقدار وبه يتقدر انخفاض الآلة المجوفة وانجرار الخيط المشدود بها وتولد الحركة في الظرف الذي فيه الكرة وكل ذلك يتقدر بتقدر سببه لا يزيد ولا ينقص ويمكن أن يجعل وقوع الكرة في الطاس سببا لحركة أخرى وتكون الحركة الأخرى سببا لحركة ثالثة وهكذا إلى درجات كثيرة حتى تتولد منه حركات عجيبة مقدرة بمقادير محدودة

وسببها الأول نزول الماء بقدر معلوم

فإذا تصورت هذه الصورة فاعلم أن واضعها يحتاج إلى ثلاثة أمور

أولها التدبير وهو الحكم بأنه ما الذي ينبغي أن يكون من الآلات والأسباب والحركات حتى يؤدي إلى حصول ما ينبغي أن يحصل وذلك هو الحكم

والثاني إيجاد هذه الآلات التي هي الأصول وهي الآلة الأسطوانية لتحوي الماء والآلة المجوفة لتوضع على وجه الماء والخيط المشدود به والظرف الذي فيه الكرة والطاس الذي يقع فيه الكرة وذلك هو القضاء

والثالث نصب سبب يوجب حركة مقدرة محسوبة محدودة وهو ثقب أسفل الآلة ثقبا مقدر السعة ليحدث بنزول الماء منها حركة في الماء تؤدي إلى حركة وجه الماء بنزوله ثم إلى حركة الآلة المجوفة الموضوعة على وجه الماء ثم إلى حركة الخيط ثم إلى حركة الظرف الذي فيه الكرة ثم إلى حركة الكرة ثم إلى الصدمة بالطاس إذا وقعت فيه ثم إلى الطنين الحاصل منها ثم إلى تنبيه الحاضرين وإسماعهم ثم إلى حركاتهم في الاشتغال بالصلوات والأعمال عند معرفتهم انقضاء الساعة وكل ذلك يكون بقدر معلوم ومقدار مقدر بسبب تقدر جميعها بقدر الحركة الأولى وهي حركة الماء

فإذا فهمت أن هذه الآلات أصول لا بد منها للحركة وأن الحركة لا بد من تقدرها ليتقدر ما

يتولد منها فكذلك فافهم حصول الحوادث المقدرة التي لا يتقدم منها شيء ولا يتأخر إذا جاء أجلها أي حضر سببها وكل ذلك بمقدار معلوم وأن الله بالغ أمره إذ جعل الله لكل شيء قدرا فالسموات والأفلاك والكواكب والأرض والبحر والهواء وهذه الأجسام العظام في العالم كتلك الآلات والسبب المحرك للأفلاك والكواكب والشمس والقمر بحساب معلوم كتلك الثقبة الموجبة لنزول الماء بقدر معلوم وإفضاء حركة الشمس والقمر والكواكب إلى حصول الحوادث في الأرض كإفضاء حركة الماء إلى حصول تلك الحركات المفضية إلى سقوط الكرة المعرفة لانقضاء الساعة

ومثال تداعي حركات السماء إلى تغيرات الأرض هو أن الشمس بحركتها إذا بلغت إلى المشرق واستضاء العالم وتيسر على الناس الإبصار فيتيسر عليهم الانتشار في الأشغال وإذا بلغت المغرب تعذر عليهم ذلك فرجعوا إلى المساكن وإذا قربت من وسط السماء وسمت رؤوس أهل الأقاليم حمي الهواء واشتد القيظ وحصل نضج الفواكه وإذا بعدت حصل الشتاء واشتد البرد وإذا توسطت حصل الاعتدال وظهر الربيع وأنبتت الأرض وظهرت الخضرة وقس بهذه الأمور المشهورات التي تعرفها الغرائب التي لا تعرفها

واختلاف هذه الفصول كلها مقدر بقدر معلوم لأنها منوطة بحركات الشمس والقمر و

الشمس والقمر بحسبان 55 سورة الرحمن / الآية 5 أي حركتهما بحساب معلوم فهذا هو

التقدير ووضع الأسباب الكلية هو القضاء والتدبير الأول الذي هو كلمح البصر هو الحكم

والله تعالى حكم عدل باعتبار هذه الأمور وكما أن حركة الآلة والخيط والكرة ليست

خارجة عن مشيئة واضع الآلة بل ذلك هو الذي أراده بوضع الآلة فكذلك كل ما يحدث في

العالم من الحوادث شرها وخيرها نفعها وضرها غير خارج عن مشيئة الله عز وجل بل

ذلك مراد الله تعالى ولأجله دبر أسبابه وهو المعني بقوله ولذلك خلقهم 11 سورة هود /

الآية 119

وتفهيم الأمور الإلهية بالأمثلة العرفية عسير ولكن المقصود من الأمثلة التنبيه فدع المثال

وتنبه للغرض واحذر من التمثيل والتشبيه تنبيه

قد فهمت من المثال المذكور ما إلى العبد من الحكم والتدبير والقضاء والتقدير وذلك أمر

يسير وإنما الخطير منه ما إليه في تدبير الرياضيات

والمجاهدات وتقدير السياسات التي تفضي إلى مصالح الدين والدنيا وبذلك استخلف الله

عباده في الأرض واستعمرهم فيها لينظر كيف يعملون

وإنما الحظ الديني من مشاهدة هذا الوصف لله تعالى أن يعلم أن الأمر مفروغ منه وليس بالأنف وقد جف القلم بما هو كائن وأن الأسباب قد توجهت إلى مسبباتها وانسياقها إليها في أحيانها وأجالها حتم واجب فكل ما يدخل في الوجود فإنما يدخل بالوجوب فهو واجب أن يوجد وإن لم يكن واجبا لذاته ولكن واجب بالقضاء الأزلي الذي لا مرد له فيعلم أن المقدور كائن وأن الهم فضل فيكون العبد في رزقه مجملا في الطلب مطمئن النفس ساكن الجأش غير مضطرب القلب

فإن قلت فيلزم منه إشكالان

أحدهما أن الهم كيف يكون فضلا وهو أيضا مقدور لأنه قدر له سبب إذا جرى سببه كان حصول الهم واجبا

والثاني أن الأمر إذا كان مفروغا منه ففيم العمل وقد فرغ هو عن سبب السعادة والشقاوة

فالجواب عن الأول أن قولهم المقدور كائن والهم فضل ليس معناه أنه فضل على المقدور خارج عنه بل أنه فضل أي لغو لا فائدة فيه فإنه لا يدفع المقدور ولأن سبب الهم بما يتوقع كونه هو الجهل المحض لأن ذلك إن قدر كونه فالحذر والهم لا يدفعه وهو استعجال نوع من الألم خوفا من وقوع الألم وإن لم يقدر كونه فلا معنى للهم به فبهذين الوجهين كان الهم فضلا

وأما العمل فجوابه قوله اعملوا فكل ميسر لما خلق له

ومعناه أن من قدرت له السعادة قدرت بسبب فيتيسر له أسبابها وهو الطاعة ومن قدرت له الشقاوة والعياذ بالله قدرت بسبب وهو بطالته عن مباشرة أسبابها

وقد يكون سبب بطالته أن يستقر في خاطره إني إن كنت سعيدا فلا أحتاج إلى العمل وإن كنت شقيا فلا ينفعني العمل وهذا جهل فإنه لا يدري أنه إن كان سعيدا فإنما يكون سعيدا لأنه يجري عليه أسباب السعادة من العلم والعمل وإن لم يتيسر له ذلك ولم يجر عليه فهو أمارة شقاوته

ومثاله الذي يتمنى أن يكون فقيها بالغا درجة الإمامة فيقال له اجتهد وتعلم وواظب فيقول إن قضى الله عز وجل لي في الأزل بالإمامة فلا أحتاج إلى الجهد وإن قضى لي بالجهل فلا ينفعني الجهد فيقال له إن سلط عليك هذا الخاطر فهذا يدل على أنه قضى لك بالجهل فإن من قضى له في الأزل بالإمامة فإنما يقضيها بأسبابها فيجري عليه الأسباب ويستعمله بها ويدفع عنه الخواطر التي تدعوه إلى الكسل والبطالة بل الذي لا يجتهد لا ينال درجة الإمامة قطعا والذي يجتهد ويتيسر له أسبابها يصدق رجاؤه في بلوغها إن استقام على جهده إلى آخر أمره ولم يستقبله عائق يقطع عليه الطريق فكذلك ينبغي أن يفهم أن السعادة لا ينالها إلا

من أتى الله بقلب سليم وسلامة القلب صفة تكتسب بالسعي كفقه النفس وصفة الإمامة من غير فرق

نعم العباد في مشاهدة الحكم على درجات فمن ناظر إلى الخاتمة أنه بماذا يختم له ومن ناظر إلى السابقة أنه بما قضى له في الأزل وهو أعلى لأن الخاتمة تبع السابقة ومن تارك للماضي والمستقبل هو ابن وقته فهو ناظر إليه راض بمواقع قدر الله عز و جل وما يظهر منه وهو أعلى مما قبله ومن تارك للحال والماضي والمستقبل مستغرق القلب بالحكم ملازم في الشهود وهذه هي الدرجة العليا

العدل

معناه العادل وهو الذي يصدر منه فعل العدل المضاد للجور والظلم ولن يعرف العادل من لم يعرف عدله ولا يعرف عدله من لم يعرف فعله فمن أراد أن يفهم هذا الوصف فينبغي أن يحيط علما بأفعال الله تعالى من ملكوت السموات إلى منتهى الثرى حتى إذا لم ير في خلق الرحمن من تفاوت ثم رجع البصر فما رأى من فطور ثم رجع مرة أخرى فانقلب إليه البصر خاسئا وهو حسير وقد بهره جمال الحضرة الربوبية وحيره اعتدالها وانتظامها فعند ذلك يعبق بفهمه شيء من معاني عدله تعالى وتقدس

وقد خلق أقسام الموجودات جسمانيها وروحانيها كاملها وناقصها وأعطى كل شيء خلقه وهو بذلك جواد ورتبها في مواضعها اللائقة بها وهو بذلك عدل فمن الأجسام العظام في العالم الأرض والماء والهواء والسموات والكواكب وقد خلقها ورتبها فوضع الأرض في أسفل السافلين وجعل الماء فوقها والهواء فوق الماء والسموات فوق الهواء ولو عكس هذا الترتيب لبطل النظام

ولعل شرح وجه استحقاق هذا الترتيب في العدل والنظام مما يصعب على أكثر الأفهام فلننزل إلى درجة العوام ونقول لينظر الإنسان إلى بدنه فإنه مركب من أعضاء مختلفة كما أن العالم مركب من أجسام مختلفة فأول اختلافه أنه ركبه من العظم واللحم والجلد وجعل العظم عمادا مستبطنا واللحم صوانا له مكتنفا إياه والجلد صوانا للحم فلو عكس هذا الترتيب وأظهر ما أبطن لبطل النظام

وإن خفي عليك هذا فقد خلق للإنسان أعضاء مختلفة مثل اليد والرجل والعين والأنف والأذن فهو بخلق هذه الأعضاء جواد وبوضعها مواضعها الخاصة عدل لأنه وضع العين في أولى المواضع بها من البدن إذ لو خلقها على القفا أو على الرجل أو على اليد أو على قمة الرأس لم يخف ما يتطرق إليه من

النقصان والتعرض للآفات وكذلك علق اليدين من المنكبين ولو علقهما من الرأس أو من

الحقو أو من الركبتين لم يخف ما يتولد منه من الخلل وكذلك وضع جميع الحواس في الرأس فإنها جواسيس لتكون مشرفة على جميع البدن فلو وضعها في الرجل اختل نظامها قطعا وشرح ذلك في كل عضو يطول

وبالجملة فينبغي أن تعلم أنه لم يخلق شيء في موضع إلا لأنه متعين له ولو تيامن عنه أو تياسر أو تسفل أو تعلى لكان ناقصا أو باطلا أو قبيحا أو خارجا عن المتناسب كريها في المنظر وكما أن الأنف خلق على وسط الوجه ولو خلق على الجبهة أو على الخد لتطرق نقصان إلى فوائده

(541/757)

وإذا قوي فهمك على إدراك حكمته فاعلم أن الشمس أيضا لم يخلقها في السماء الرابعة وهي واسطة السموات السبع هزلا بل ما خلقها إلا بالحق وما وضعها إلا موضعها المستحق لها لحصول مقاصده منها إلا أنك ربما تعجز عن درك الحكمة فيه لأنك قليل التفكر في ملكوت السموات والأرض وعجائبها ولو نظرت فيها لرأيت من عجائبها ما تستحقر فيه عجائب بدنك وكيف لا وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس وليتك وفيت بمعرفة عجائب نفسك وتفرغت للتأمل فيها وفيما يكتنفها من الأجسام فتكون ممن

قال الله عز وجل فيهم سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم 41 سورة فصلت الآية 53

ومن أين لك أن تكون ممن قال فيهم وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض 6 سورة الأنعام الآية 75 وأنى تفتح أبواب السماء لمن استغرقه هم الدنيا واستعبده الحرص والهوى

فهذا هو الرمز إلى تفهيم مبدأ الطريق إلى معرفة هذا الاسم الواحد وشرحه يفتقر إلى مجلدات وكذا شرح معنى كل اسم من الأسامي فإن الأسامي المشتقة من الأفعال لا تفهم إلا بعد فهم الأفعال وكل ما في الوجود من أفعال الله تعالى

ومن لم يحط علما بتفاصيلها ولا بجملتها فلا يكون معه منها إلا محض التفسير واللغة ولا مطمع في العلم بتفصيلها فإنه لا نهاية له وأما الجملة فللعبد طريق إلى معرفتها وبقدر اتساع معرفته فيها يكون حظه من معرفة الأسماء وذلك يستغرق العلوم كلها وإنما غاية مثل هذا الكتاب الإيماء إلى مفاتحها ومعاقد جملها فقط تنبيه

حظ العبد من العدل لا يخفى فأول ما عليه من العدل في صفات نفسه وهو أن يجعل الشهوة والغضب أسيرين تحت إشارة العقل والدين ومهما جعل العقل خادما للشهوة والغضب فقد ظلم هذا جملة عدله في نفسه وتفصيله مراعاة حدود الشرع كلها وعدله في كل عضو أن يستعمله على الوجه الذي أذن الشرع فيه وأما عدله في أهله وذويه ثم في رعيته إن كان من أهل الولاية فلا يخفى

وربما يظن أن الظلم هو الإيذاء والعدل هو إيصال النفع إلى الناس وليس كذلك بل لو فتح الملك خزانته المشتملة على الأسلحة والكتب وفنون الأموال ولكن فرق الأموال على الأغنياء ووهب الأسلحة للعلماء وسلم إليهم القلاع ووهب الكتب للأجناد وأهل القتال وسلم إليهم المساجد والمدارس فقد نفع ولكنه قد ظلم وعدل عن العدل إذ وضع كل شيء في غير موضعه اللائق به ولو آذى المرضى بسقي الأدوية والفصد والحجامة وبالإجبار على ذلك وآذى الجناة بالعقوبة قتلا وقطعا وضربا كان عدلا لأنه وضعها في مواضعها

وحظ العبد دينا من مشاهدة هذا الوصف الإيمان بأن الله عز وجل عدل أن لا يعترض عليه في تدبيره وحكمه وسائر أفعاله وافق مراده أو لم

يوافق لأن كل ذلك عدل وهو كما ينبغي وعلى ما ينبغي ولو لم يفعل ما فعله لحصل منه أمر آخر هو أعظم ضررا مما حصل كما أن المريض لو لم يحتجم لتضرر ضررا يزيد على ألم الحجامة وبهذا يكون الله تعالى عدلا والإيمان به يقطع الإنكار والاعتراض ظاهرا وباطنا وتمامه أن لا يسب الدهر ولا ينسب الأشياء إلى الفلك ولا يعترض عليه كما جرت به العادة بل يعلم أن كل ذلك أسباب مسخرة وأنها رتبت ووجهت إلى المسببات أحسن ترتيب

وتوجيه بأقصى وجوه العدل واللطف

اللطيف

(543/757)

إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دق منها وما لطف ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك تم معنى اللطف ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله سبحانه وتعالى فأما إحاطته بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذلك بل الخفي مكشوف في علمه كالجلي من غير فرق وأما رفقه في الأفعال ولطفه فيها فلا يدخل أيضا تحت الحصر إذ لا يعرف اللطف في الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله وعرف دقائق الرفق فيها وبقدر اتساع المعرفة فيها تتسع المعرفة لمعنى اسم اللطيف وشرح ذلك يستدعي تطويلا ثم لا يتصور أن يفي بعشر عشيره مجلدات كثيرة وإنما يمكن التنبيه على بعض جمله

فمن لطفه خلقه الجنين في بطن أمه في ظلمات ثلاث وحفظه فيها وتغذيته بواسطة السرة إلى أن ينفصل فيستقل بالتناول بالفم ثم إلهامه إياه عند الانفصال التقام الثدي وامتصاصه ولو في ظلام الليل من غير تعليم ومشاهدة بل يتفقأ البيضة عن الفرخ وقد ألهمه التقاط الحب في

الحال ثم تأخير خلق السن عن أول الخلقة إلى وقت الحاجة للاستغناء في الاغتذاء باللبن عن السن ثم إنباته السن بعد ذلك عند الحاجة إلى طحن الطعام ثم تقسيم الأسنان إلى عريضة للطحن وإلى أنياب للكسر وإلى ثنايا حادة الأطراف للقطع ثم استعمال اللسان الذي الغرض الأظهر منه النطق في رد الطعام إلى المطحن كالمجرفة ولو ذكر لطفه في تيسير لقمة يتناولها العبد من غير كلفة يتجشمها وقد تعاون على إصلاحها خلق لا يحصى عددهم من مصلح الأرض وزارعها وساقيها وحاصدها ومنقيها وطاحنها وعاجنها وخابزها إلى غير ذلك لكان لا يستوفي شرحه

وعلى الجملة فهو من حيث دبر الأمور حكم ومن حيث أوجدها جواد ومن حيث رتبها مصور ومن حيث وضع كل شيء موضعه عدل ومن حيث لم يترك فيها دقائق وجوه الرفق لطيف ولن يعرف حقيقة هذه الأسماء من لم يعرف حقيقة هذه الأفعال

ومن لطفه بعباده أنه أعطاهم فوق الكفاية وكلفهم دون الطاقة ومن لطفه أنه يسر لهم الوصول إلى سعادة الأبد بسعي خفيف في مدة قصيرة وهي العمر فإنه لا نسبة لها بالإضافة إلى الأبد ومن لطفه إخراج اللبن الصافي من بين الفرث والدم وإخراج الجواهر

النفيسة من الأحجار الصلبة وإخراج العسل من النحل والإبريسم من الدود والدر من الصدف وأعجب من ذلك خلقه من النطفة القذرة مستودعا لمعرفته وحاملا لأمانته ومشاهدا للملكوت سمواته وهذا أيضا لا يمكن إحصاؤه تنبيه

حظ العبد من هذا الوصف الرفق بعباد الله عز وجل والتلطف بهم في الدعوة إلى الله تعالى والهداية إلى سعادة الآخرة من غير إزراء وعنف ومن

غير تعصب وخصام وأحسن وجوه اللطف فيه الجذب إلى قبول الحق بالشمائل والسيرة المرضية والأعمال الصالحة فإنها أوقع وألطف من الألفاظ المزينة

الخبير

هو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة فلا يجري في الملك والملكوت شيء ولا تتحرك ذرة ولا تسكن ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرها وهو بمعنى العليم ولكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة ويسمى صاحبها خبيرا تنبيه

حظ العبد من ذلك أن يكون خبيرا بما يجري في عالمه وعالمه قلبه وبدنه والخفايا التي يتصف القلب بها من الغش والخيانة والتطواف حول العاجلة وإضمار الشر وإظهار الخير والتجمل بإظهار الإخلاص مع الإفلاس عنه لا يعرفها إلا ذو خبرة بالغة قد خبر نفسه ومارسها وعرف مكرها وتلبيسها وخدعها فحاذرها وتشمر لمعاداتها وأخذ الحذر منها فذلك من العباد جدير بأن يسمى خبيرا

الحليم

هو الذي يشاهد معصية العصاة ويرى مخالفة الأمر ثم لا يستفزه غضب ولا يعتريه غيظ ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام مع غاية الاقتدار عجلة وطيش كما قال تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة 16 سورة النحل الآية 61

تنبيه

حظ العبد من وصف الحليم ظاهر فالحلم من محاسن خصال العباد وذلك مستغن عن الشرح والإطناب

العظيم

اعلم أن اسم العظيم في أول الوضع إنما أطلق على الأجسام يقال هذا جسم عظيم وهذا الجسم أعظم من ذلك الجسم إذا كان امتداد مساحته في الطول والعرض والعمق أكثر منه ثم هو ينقسم إلى عظيم يملأ العين ويأخذ منها مأخذا وإلى ما لا يتصور أن يحيط البصر بجميع أطرافه كالأرض والسماء فإن الفيل عظيم ولكن البصر قد يحيط بأطرافه فهو عظيم بالإضافة إلى ما دونه وأما الأرض فلا يتصور أن يحيط البصر بأطرافها وكذا السماء فذلك

هو العظيم المطلق في مدركات البصر

فافهم أن في مدركات البصائر أيضا تفاوتا فمنها ما تحيط العقول بكنه حقيقته ومنها ما تقصر العقول عنه وما تقصر العقول عنه ينقسم إلى ما يتصور أن يحيط به بعض العقول وإن قصر عنه أكثرها وإلى ما لا يتصور أن يحيط العقل أصلا بكنه حقيقته وذلك هو العظيم المطلق الذي جاوز جميع حدود العقول حتى لا تتصور الإحاطة بكنهه وذلك هو الله تعالى وقد سبق بيان ذلك في الفن الأول تنبيه

العظيم من العباد الأنبياء والعلماء الذين إذا عرف العاقل شيئا من صفاتهم امتلأ بالهيبة صدره وصار مستوفى بالهيبة قلبه حتى لا يبقى فيه متسع

فالنبي عظيم في حق أمته والشيخ في حق مريده والأستاذ في حق تلميذه إذ يقصر عقله عن الإحاطة بكنه صفاته فإن ساواه أو جاوزه لم يكن عظيما بالإضافة إليه وكل عظيم يفرض غير الله عز وجل فهو ناقص وليس بعظيم مطلق لأنه إنما يظهر بالإضافة إلى شيء دون شيء سوى عظمة الله تعالى فإنه العظيم المطلق لا بطريق الإضافة

الغفور

بمعنى الغفار ولكنه بشيء ينبئ عن نوع مبالغة لا ينبئ عنها الغفار فإن الغفار مبالغة في المغفرة بالإضافة إلى مغفرة متكررة مرة بعد أخرى فالفعال ينبئ عن كثرة الفعل والفعول ينبئ عن جودته وكماله وشموله فهو غفور بمعنى أنه تام المغفرة والغفران كاملها حتى يبلغ أقصى درجات المغفرة والكلام عليه قد سبق

الشكور

هو الذي يجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعيما في الآخرة غير محدود ومن جازى الحسنة بأضعافها يقال إنه شكر تلك الحسنة ومن أثنى على المحسن أيضا يقال إنه شكر فإن نظرت إلى معنى الزيادة في المجازاة لم يكن الشكور المطلق إلا الله عز وجل لأن زياداته في المجازاة غير محصورة ولا محدودة فإن نعيم الجنة لا آخر له والله سبحانه وتعالى يقول كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية 69 سورة الحاقة الآية 24 وإن نظرت إلى معنى الثناء فثناء كل مثن على فعل غيره والرب عز وجل إذا أثنى على أعمال عباده فقد أثنى على فعل نفسه لأن أعمالهم من خلقه فإن كان الذي أعطى فأثنى شكورا فالذي

أعطى وأثنى على المعطي أحق بأن يكون شكورا وثناء الله تعالى على عباده كقوله والذاكرين الله كثيرا والذاكرات 33 سورة الأحزاب الآية 35 وكقوله نعم العبد إنه أواب 38 سورة ص الآية 30 وما يجري مجراه فكل ذلك عطية منه تنبيه

العبد يتصور أن يكون شاكرا في حق عبد آخر مرة بالثناء عليه بإحسانه إليه وأخرى بمجازاته بأكثر مما صنعه إليه وذلك من الخصال الحميدة قال رسول الله من لم يشكر الناس لم يشكر الله وأما شكره لله عز وجل فلا يكون إلا بنوع من المجاز والتوسع فإنه إن أثنى فثناؤه قاصر لأنه لا يحصي ثناء عليه وإن أطاع فطاعته نعمة أخرى من الله عليه بل عين شكره نعمة أخرى وراء النعمة المشكورة وإنما أحسن وجوه الشكر لنعم الله عز وجل أن لا يستعملها في معاصيه بل في طاعته وذلك أيضا بتوفيق الله وتيسيره في كون العبد شاكرا لربه

وتصور ذلك كلام دقيق ذكرناه في كتاب الشكر من كتاب إحياء علوم الدين فليطلب منه

فإن هذا الكتاب لا يحتمله

العلي

هو الذي لا رتبة فوق رتبته وجميع المراتب منحطة عنه وذلك لأن العلي مشتق من العلو

والعلو مأخوذ من العلو المقابل للسفل وذلك إما في

درجات محسوسة كالدرج والمراقي وجميع الأجسام الموضوعة بعضها فوق بعض وإما في

الرتب المعقولة للموجودات المرتبة نوعا من الترتيب العقلي فكل ما له الفوقية في المكان فله

العلو المكاني وكل ما له الفوقية في الرتبة فله العلو في الرتبة والتدريجات العقلية مفهومة كالتدريجات الحسية ومثال الدرجات العقلية هو التفاوت الذي بين السبب والمسبب والعلة والمعلول والفاعل والقابل والكامل والناقص فإذا قدرت شيئًا فهو سبب لشيء ثان وذلك الثاني سبب لثالث والثالث لرابع إلى عشر درجات مثلا فالعاشر واقع في الرتبة الأخيرة فهو الأسفل الأدنى والأول واقع في الدرجة الأولى من السببية فهو الأعلى ويكون الأول فوق الثاني فوقية بالمعنى لا بالمكان والعلو عبارة عن الفوقية

فإذا فهمت معنى التدريج العقلي فاعلم أن الموجودات لا يمكن قسمتها إلى درجات متفاوتة في العقل إلا ويكون الحق سبحانه وتعالى في الدرجة العليا من درجات أقسامها حتى لا يتصور أن يكون فوقه درجة وذلك هو العلي المطلق وكل ما سواه فيكون عليا بالإضافة إلى ما دونه ويكون دنيا أو سافلا بالإضافة إلى ما فوقه

ومثال قسمة العقل أن الموجودات تنقسم إلى ما هو سبب وإلى ما هو مسبب والسبب فوق المسبب فوقية بالرتبة فالفوقية المطلقة ليست إلا لمسبب الأسباب وكذلك ينقسم الموجود إلى ميت وحي والحي ينقسم إلى ما ليس له إلا الإدراك الحسي وهو البهيمة وإلى ما له مع

الإدراك الحسي الإدراك العقلي والذي له الإدراك العقلي ينقسم إلى ما يعارضه في معلوماته الشهوة والغضب وهو الإنسان وإلى ما يسلم إدراكه عن معارضة المكدرات والذي يسلم ينقسم إلى ما يمكن أن يبتلى به ولكن رزق السلامة كالملائكة وإلى ما يستحيل ذلك في حقه وهو الله سبحانه وتعالى وليس يخفى عليك في هذا

التقسيم والتدريج أن الملك فوق الإنسان والإنسان فوق البهيمة وأن الله عز وجل فوق الكل فهو العلي المطلق فإنه الحي المحيي العالم المطلق الخالق لعلوم العلماء المنزه المقدس عن جميع أنواع النقص فقد وقع الميت في الدرجة السفلى من درجات الكمال ولم يقع في الطرف الآخر إلا الله تعالى فهكذا ينبغي أن تفهم فوقيته وعلوه

فإن هذه الأسامي وضعت أولا بالإضافة إلى إدراك البصر وهو درجة العوام ثم لما تنبه الخواص لإدراك البصائر ووجدوا بينها وبين الأبصار موازنات استعاروا منها الألفاظ المطلقة وفهمها الخواص وأدركوها وأنكرها العوام الذين لم يجاوز إدراكهم عن الحواس التي هي رتبة البهائم فلم يفهموا عظمة إلا بالمساحة ولا علوا إلا بالمكان ولا فوقية إلا به فإذا فهمت هذا فقد فهمت معنى كونه فوق العرش لأن العرش أعظم الأجسام وهو فوق جميع الأجسام والموجود المنزه عن التحديد والتقدر بحدود الأجسام ومقاديرها فوق الأجسام كلها في الرتبة ولكن خص العرش بالذكر لأنه فوق جميع الأجسام فلما كان فوقها كان فوق

جميعها وهو كقول القائل الخليفة فوق السلطان تنبيها به على أنه إذا كان فوقه كان فوق جميع الناس الذين هم دون السلطان

(549/757)

والعجب من الحشوي الذي لا يفهم من فوق إلا المكان ومع ذلك إذا سئل عن شخصين من الأكابر وقيل له كيف يجلسان في الصدر والمحافل فيقول هذا يجلس فوق ذاك وهو يعلم أنه ليس يجلس إلا بجنبه وإنما يكون جالسا فوقه لو جلس على رأسه أو مكان مبني فوق رأسه ولو قيل له كذبت ما جلس فوقه ولا تحته ولكنه جلس بجنبه اشمأزت نفسه من هذا الإنكار وقال إنما أعني به فوقية الرتبة والقرب من الصدر فإن الأقرب إلى الصدر الذي هو المنتهى فوق بالإضافة إلى الأبعد ثم لا يفهم من هذا أن كل ترتيب له

طرفان يجوز أن يطلق على أحد طرفيه اسم الفوق والعلو وعلى الطرف الآخر ما يقابله

تنبيه

العبد لا يتصور أن يكون عليا مطلقا إذ لا ينال درجة إلا ويكون في الوجود ما هو فوقها وهو درجات الأنبياء والملائكة نعم يتصور أن ينال درجة لا يكون في جنس الإنس من يفوقه وهي درجة نبينا محمد ولكنه قاصر بالإضافة إلى العلو المطلق من وجهين أحدهما أنه علو

بالإضافة إلى بعض الموجودات والآخر أنه علو بالإضافة إلى الوجود لا بطريق الوجوب بل يقارنه إمكان وجود إنسان فوقه فالعلي المطلق هو الذي له الفوقية لا بالإضافة وبحسب الوجوب لا بحسب الوجود الذي يقارنه إمكان نقيضه

الكبير

هو ذو الكبرياء والكبرياء عبارة عن كمال الذات وأعني بكمال الذات كمال الوجود وكمال الوجود يرجع إلى شيئين

أحدهما دوامه أزلا وأبدا فكل وجود مقطوع بعدم سابق أو لاحق فهو ناقص ولذلك يقال للإنسان إذا طالت مدة وجوده إنه كبير أي كبير السن طويل مدة البقاء ولا يقال عظيم السن فالكبير يستعمل فيما لا يستعمل فيه العظيم فإن كان ما طال مدة وجوده مع كونه محدود مدة البقاء كبيرا فالدائم الأزلي الأبدي الذي يستحيل عليه العدم أولى أن يكون كبيرا

والثاني أن وجوده هو الوجود الذي يصدر عنه وجود كل موجود فإن كان الذي تم وجوده في نفسه كاملا وكبيرا فالذي حصل منه الوجود لجميع الموجودات أولى أن يكون كاملا وكبيرا تنبيه

الكبير من العباد هو الكامل الذي لا تقتصر عليه صفات كماله بل تسري إلى غيره فلا يجالسه أحد إلا ويفيض عليه شيئا من كماله وكمال العبد في عقله وورعه وعلمه فالكبير من عباده هو العالم التقي المرشد للخلق الصالح لأن يكون قدوة يقتبس من أنواره وعلومه ولذلك قال عيسى عليه السلام من علم وعمل فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء

الحفيظ

هو الحافظ جدا ولن يفهم ذلك إلا بعد فهم معنى الحفظ وهو على وجهين

أحدهما إدامة وجود الموجودات وإبقاؤها ويضاده الإعدام والله تعالى هو الحافظ للسموات والأرض والملائكة والموجودات التي يطول أمد بقائها والتي لا يطول أمد بقائها مثل الحيوانات والنبات وغيرهما

والوجه الثاني وهو أظهر المعنيين أن الحفظ صيانة المتعاديات والمتضادات بعضها عن بعض وأعني بهذا التعادي ما بين الماء والنار فإنهما يتعاديان بطباعهما فإما أن يطفئ الماء النار وإما أن تحيل النار الماء إن غلبت الماء بخارا ثم هواء والتضاد والتعادي ظاهر بين الحرارة والبرودة إذ تقهر إحداهما الأخرى وكذلك بين الرطوبة واليبوسة وسائر الأجسام الأرضية مركبة من هذه الأصول المتعادية إذ لا بد للحيوان من حرارة غريزية لو بطلت لبطلت حياته ولا بد له من رطوبة تكون غذاء لبدنه كالدم وما يجري مجراه ولا بد

من يبوسة بها تتماسك أعضاؤه خصوصا ما صلب منها كالعظام ولا بد من برودة تكسر

سورة الحرارة حتى تعتدل ولا تحرق ولا تحلل الرطوبات الباطنة بسرعة وهذه متعاديات متنازعات

وقد جمع الله عز وجل بين هذه المتضادات المتنازعة في إهاب الإنسان وبدن الحيوانات والنبات وسائر المركبات ولولا حفظه تعالى إياها لتنافرت وتباعدت وبطل امتزاجها واضمحل تركيبها وبطل المعنى الذي صارت مستعدة لقبوله بالتركيب والمزاج وحفظ الله تعالى إياها بتعديل قواها مرة وبإمداد المغلوب منها ثانيا

أما التعديل فهو أن يكون مبلغ قوة البارد مثل مبلغ قوة الحار فإذا اجتمعا لم يغلب أحدهما الآخر بل يتدافعان إذ ليس أحدهما بأن يغلب أولى من أن يغلب فيتقاومان ويبقى قوام المركب بتقاومهما وتعادلهما وهو الذي يعبر عنه باعتدال المزاج

والثاني إمداد المغلوب منهما بما يعيد قوته حتى يقاوم الغالب ومثاله أن الحرارة تفني الرطوبة وتجففها لا محالة فإذا غلبت ضعفت البرودة والرطوبة وغلبت الحرارة واليبوسة ويكون إمداد الضعيف بالجسم البارد الرطب وهو الماء ومعنى العطش هو الحاجة إلى البارد الرطب فخلق الله تعالى البارد الرطب مددا للبرودة والرطوبة إذا غلبتا وخلق الأطعمة

والأدوية وسائر الجواهر المتضادة حتى إذا غلب شيء عورض بضده فانقهر وهذا هو الإمداد وإنما تم ذلك بخلق الأطعمة والأدوية وخلق الآلات المصلحة لها وخلق المعرفة الهادية إلى استعمالها وكل ذلك لحفظ الله عز وجل أبدان الحيوانات والمركبات من المتضادات

وهذه هي الأسباب التي تحفظ الإنسان من الهلاك الداخل وهو متعرض للهلاك من أسباب خارجة كسباع ضارية وأعداء متنازعة فحفظه من ذلك بما خلق له من الجواسيس المنذرة بقرب العدو وهي طلائعه كالعين والأذن وغيرهما ثم خلق له اليد الباطشة والأسلحة الدافعة كالدرع والترس والقاضية كالسيف والسكين ثم ربما يعجز مع ذلك عن الدفع فأمده بآلة الهرب وهي الرجل للحيوان الماشي والجناح للطائر وكذلك شمل حفظه جلت قدرته كل ذرة في ملكوت السموات والأرض حتى الحشيش الذي ينبت في الأرض يحفظ لبابه بالقشر الصلب وطراوته بالرطوبة وما لا يحفظ بمجرد القشر يحفظه بالشوك النابت منه ليندفع به بعض الحيوانات المتلفة له فالشوك سلاح النبات كالقرون والمخالب والأنياب للحيوانات

بل كل قطرة من ماء فمعها ملك حافظ يحفظها عن الهواء المضاد لها فإن الماء إذا جعل في إناء وترك مدة استحال هواء وسلب الهواء المضاد له صفة المائية عنه ولو غمست الإصبع في ماء ورفعتها ونكستها تدلت منها قطرة ماء تبقى منكسة لا تنفصل مع أن من شأنها الهوي إلى أسفل ولكنها لو انفصلت وهي صغيرة استولى الهواء عليها وأحالها ولا تزال تمكث متدلية حتى يجتمع إليها بقية البلل فتكبر القطرة فتستجري على خرق الهواء بسرعة ولا يستولي الهواء على إحالتها وليس ذلك حفظا منها لنفسها عن معرفة بضعفها وقوة ضدها وحاجة استمدادها من بقية البلل وإنما ذلك حفظ من ملك موكل بها بواسطة معنى متمكن من ذاتها وقد ورد في الخبر أنه لا تنزل قطرة من المطر إلا ومعها ملك يحفظها إلى أن تصل إلى مستقرها من الأرض وذلك حق والمشاهدة الباطنة لأرباب البصائر قد دلت عليه وأرشدت إليه فآمنوا بالخبر لا عن تقليد بل عن بصيرة

والكلام أيضا في شرح حفظ الله تعالى السموات والأرض وما بينهما طويل

كما في سائر الأفعال وبه يعرف هذا الاسم لا بمعرفة الاشتقاق في اللغة وتوهم معنى الحفظ على الإجمال تنبيه

الحفيظ من العباد من يحفظ جوارحه وقلبه ويحفظ دينه عن سطوة الغضب وخلابة الشهوة وخداع النفس وغرور الشيطان فإنه على شفا جرف هار وقد اكتنفته هذه المهلكات المفضية إلى البوار

المقيت

معناه خالق الأقوات وموصلها إلى الأبدان وهي الأطعمة وإلى القلوب وهي المعرفة فيكون بمعنى الرزاق إلا أنه أخص منه إذ الرزق يتناول القوت وغير القوت والقوت ما يكتفى به في قوام البدن

(553/757)

وإما أن يكون معناه المستولي على الشيء القادر عليه والاستيلاء يتم بالقدرة والعلم وعليه يدل قوله عز وجل وكان الله على كل شيء مقيتا 4 سورة النساء الآية 85 أي مطلعا قادرا فيكون معناه راجعا إلى القدرة والعلم أما العلم فقد سبق وأما القدرة فستأتي ويكون بهذا المعنى وصفه بالمقيت أتم من وصفه بالقادر وحده وبالعالم وحده لأنه دال على اجتماع المعنيين وبذلك يخرج هذا الاسم عن الترادف

الحسيب

هو الكافي وهو الذي من كان له كان حسبه والله سبحانه

وتعالى حسيب كل أحد وكافيه وهذا وصف لا تتصور حقيقته لغيره فإن الكفاية إنما يحتاج إليها المكفي لوجوده ولدوام وجوده ولكمال وجوده وليس في الوجود شيء هو

وحده كاف لشيء إلا الله عز وجل فإنه وحده كاف لكل شيء لا لبعض الأشياء أي هو وحده كاف ليحصل به وجود الأشياء ويدوم به وجودها ويكمل به وجودها

ولا تظنن أنك إذا احتجت إلى طعام وشراب وأرض وسماء وشمس وغير ذلك فقد احتجت إلى غيره ولم يكن هو حسبك فإنه هو الذي كفاك بخلق الطعام والشراب والأرض والسماء فهو حسبك ولا تظنن أن الطفل الذي يحتاج إلى أم ترضعه وتتعهده فليس الله حسيبه وكافيه بل الله عز وجل حسيبه وكافيه إذ خلق أمه وخلق اللبن في ثديها وخلق له الهداية إلى التقامه وخلق الشفقة والمودة في قلب الأم حتى مكنته من الالتقام ودعته إليه وحملته عليه فالكفاية إنما حصلت بهذه الأسباب والله تعالى وحده هو المتفرد بخلقها لأجله ولو قيل لك إن الأم وحدها كافية للطفل وهي حسبه لصدقت به ولم تقل إنها لا تكفيه لأنه يحتاج إلى اللبن فمن أين تكفيه الأم إذا لم يكن لبن ولكنك تقول نعم يحتاج إلى اللبن ولكن اللبن أيضا من الأم فليس محتاجا إلى غير الأم فاعلم أن اللبن ليس من الأم بل هو والأم من الله سبحانه وتعالى ومن فضله وجوده فهو وحده حسب كل أحد وليس في الوجود شيء وحده هو حسب شيء سواه بل الأشياء يتعلق بعضها ببعض وكلها تتعلق بقدرة الله

سبحانه وتعالى تنبيه

ليس للعبد مدخل في هذا الوصف إلا بنوع من المجاز بعيد وبالإضافة إلى بادئ الرأي وسابق الظن العامي أما كونه مجازا فهو أنه إن كان كافيا لطفله في القيام بتعهده أو لتلميذه في تعليمه حتى لم يفتقر إلى الاستعانة بغيره كان واسطة في الكفاية ولم يكن كافيا لأن الله سبحانه وتعالى هو الكافي إذ لا قوام له بنفسه ولا كفاية له بنفسه فكيف يكون هو كفاية غيره

وأما كونه بالإضافة إلى سابق الظن هو أنه وإن قدر أنه مستقل بالكفاية وليس بواسطة فهو وحده لا يكفي إذ يحتاج إلى محل قابل لفعله وكفايته وهذا أقل الأمور فالقلب الذي هو محل العلم لا بد منه أولا ليكون هو كافيا في التعليم والمعدة التي هي مستقر الطعام لا بد منها لتكون كافية بإيصال الطعام إلى بدنه وهذا مع ما يحتاج إليه من أمور كثيرة لا يحصيها ولا يدخل شيء منها في اختياره فأقل درجات الفعل حاجته إلى فاعل وقابل فالفاعل لا يكفي دون القابل أصلا وإنما صح هذا في حق الله عز وجل لأنه خالق الفعل وخالق المحل القابل وخالق شرائط قبوله وما يكتنفه ولكن بادئ الرأي ربما يسبق إلى الفاعل ولا يخطر بالبال

غيره فيظن أن الفاعل حسبه وحده وليس كذلك

نعم الحظ الذي منه للعبد أن يكون الله وحده حسبه بالإضافة إلى همته وإرادته وهو أنه لا يريد إلا الله عز وجل فلا يريد الجنة ولا يشغل قلبه بالنار ليحذر منها بل يكون مستغرق الهم بالله تعالى وحده وإذا كاشفه بجلاله قال ذلك حسبي فلست أريد غيره ولا أبالي فاتني غيره أم لم يفت

الجليل

هو الموصوف بنعوت الجلال ونعوت الجلال هي العز والملك والتقدس والعلم والغنى والقدرة وغيرها من الصفات التي ذكرناها فالجامع لجميعها هو الجليل المطلق والموصوف ببعضها جلالته بقدر ما نال من هذه النعوت فالجليل المطلق هو الله عز وجل فقط فكأن الكبير يرجع إلى كمال الذات

والجليل إلى كمال الصفات والعظيم يرجع إلى كمال الذات والصفات جميعا منسوبا إلى إدراك البصيرة إذا كان بحيث يستغرق البصيرة ولا تستغرقه البصيرة

ثم صفات الجلال إذا نسبت إلى البصيرة المدركة لها سميت جمالا وسمي المتصف به جميلا واسم الجميل في الأصل وضع للصورة الظاهرة المدركة بالبصر مهما كانت بحيث تلائم البصر وتوافقه ثم نقل إلى الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر حتى يقال سيرة حسنة جميلة ويقال خلق جميل وذلك يدرك بالبصائر لا بالأبصار والصورة الباطنة إذا كانت كاملة متناسبة جامعة جميع كمالاتها اللائقة بها كما ينبغي وعلى ما ينبغي فهي جميلة بالإضافة إلى البصيرة الباطنة المدركة لها وملائمة لها ملاءمة يدرك صاحبها عند مطالعتها من اللذة والبهجة والاهتزاز أكثر مما يدركه الناظر بالبصر الظاهر إلى الصورة الجميلة فالجميل الحق المطلق هو الله سبحانه وتعالى فقط لأن كل ما في العالم من جمال وكمال وبهاء وحسن فهو من أنوار ذاته وآثار صفاته وليس في الوجود موجود له الكمال المطلق الذي لا مثنوية فيه لا وجوبا ولا إمكانا سواه ولذلك يدرك عارفه والناظر إلى جماله من البهجة والسرور واللذة والغبطة ما يستحقر معه نعيم الجنة وجمال الصورة المبصرة بل لا مناسبة بين جمال الصورة الظاهرة وبين جمال المعاني الباطنة المدركة بالبصائر

وهذا المعنى كشفنا عنه الغطاء في كتاب المحبة من كتب إحياء علوم الدين

فإذا ثبت أنه جليل وجميل فكل جميل فهو محبوب ومعشوق عند مدرك جماله فلذلك كان الله عز وجل محبوبا ولكن عند العارفين كما تكون الصورة الجميلة الظاهرة محبوبة ولكن عند المبصرين لا عند العميان

تنبيه

الجليل الجميل من العباد من حسنت صفاته الباطنة التي تستلذها القلوب البصيرة فأما

جمال الظاهر فنازل القدر

الكريم

هو الذي إذا قدر عفا وإذا وعد وفى وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء ولا يبالي كم

أعطى ولمن أعطى وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى وإذا جفي عاتب وما استقصى

ولا يضيع من لاذ به والتجأ ويغنيه عن الوسائل والشفعاء فمن اجتمع له جميع ذلك لا

بالتكلف فهو الكريم المطلق وذلك لله سبحانه وتعالى فقط تنبيه

هذه الخصال قد يتجمل العبد في اكتسابها ولكن في بعض الأمور ومع نوع من التكلف فلذلك

قد يوصف بالكريم ولكنه ناقص بالإضافة إلى الكريم المطلق وكيف لا يوصف به العبد

وقد قال رسول الله لا تقولوا للعنب الكرم فإن الكرم هو الرجل المسلم وقيل إنما وصف

شجرة العنب بالكرم لأنه لطيف الشجرة طيب الثمرة سهل القطاف قريب المتناول سليم

عن الشوك والأسباب المؤذية بخلاف النخل

الرقيب

هو العليم الحفيظ فمن راعى الشيء حتى لم يغفل عنه ولاحظه ملاحظة دائمة لازمة لزوما

لو عرفه الممنوع عنه لما أقدم عليه سمي رقيبا فكأنه

يرجع إلى العلم والحفظ ولكن باعتبار كونه لازما دائما بالإضافة إلى ممنوع عنه محروس عن

المتناول تنبيه

وصف المراقبة للعبد إنما يحمد إذا كانت مراقبته لربه وقلبه وذلك بأن يعلم أن الله تعالى

رقيبه وشاهده في كل حال ويعلم أن نفسه عدو له وأن الشيطان عدو له وأنهما ينتهزان منه

الفرص حتى يحملانه على الغفلة والمخالفة فيأخذ منهما حذره بأن يلاحظ مكانهما

وتلبيسهما ومواضع انبعاثهما حتى يسد عليهما المنافذ والمجاري فهذه مراقبته

المجيب

هو الذي يقال مسألة السائلين بالإسعاف ودعاء الداعين بالإجابة وضرورة المضطرين

بالكفاية بل ينعم قبل النداء ويتفضل قبل الدعاء وليس ذلك إلا لله عز وعلا فإنه يعلم

حاجة المحتاجين قبل سؤالهم وقد علمها في الأزل فدبر أسباب كفاية الحاجات بخلق

الأطعمة والأقوات وتيسير الأسباب والآلات الموصلة إلى جميع المهمات تنبيه

العبد ينبغي أن يكون مجيبا أولا لربه تعالى فيما أمره ونهاه وفيما ندبه إليه ودعاه ثم لعباده فيما أنعم الله عز وجل عليه بالاقتدار عليه وفي إسعاف كل سائل بما يسأله إن قدر عليه وفي لطف الجواب إن عجز عنه قال الله عز وجل وأما السائل فلا تنهر 93 سورة الضحى الآية

10 - وقال رسول الله لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدي إلي ذراع لقبلت وكان حضوره الدعوات وقبوله الهدايا غاية الإكرام والإيجاب منه فكم من خسيس متكبر يترفع عن قبول كل هدية ولا يتبذل في حضور كل دعوة بل يصون جاهه وكبره ولا يبالي بقلب السائل المستدعي وإن تأذى بسببه فلا حظ لمثله في معنى هذا الاسم

الواسع

مشتق من السعة والسعة تضاف مرة إلى العلم إذا اتسع وأحاط بالمعلومات الكثيرة وتضاف أخرى إلى الإحسان وبسط النعم وكيف ما قدر وعلى أي شيء نزل فالواسع المطلق هو الله سبحانه وتعالى لأنه إن نظر إلى علمه فلا ساحل لبحر معلوماته بل تنفد البحار لو كانت مدادا لكلماته وإن نظر إلى إحسانه ونعمه فلا نهاية لمقدوراته وكل سعة وإن عظمت فتنتهي إلى طرف والذي لا ينتهي إلى طرف فهو أحق باسم السعة والله سبحانه وتعالى هو الواسع المطلق لأن كل واسع بالإضافة إلى ما هو أوسع منه ضيق وكل

سعة تنتهي إلى طرف فالزيادة عليه متصورة وما لا نهاية له ولا طرف فلا يتصور عليه زيادة

تنبيه

سعة العبد في معارفه وأخلاقه فإن كثرت علومه فهو واسع بقدر سعة علمه وإن اتسعت أخلاقه حتى لم يضيقها خوف الفقر وغيظ الحسد وغلبة الحرص وسائر الصفات فهو واسع وكل ذلك فهو إلى نهاية وإنما الواسع الحق هو الله تعالى

الحكيم

ذو الحكمة والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم وأجل الأشياء هو الله سبحانه وقد سبق أنه لا يعرف كنه معرفته غيره فهو الحكيم الحق لأنه يعلم أجل الأشياء بأجل العلوم إذ أجل العلوم هو العلم الأزلي الدائم الذي لا يتصور زواله المطابق للمعلوم مطابقة لا يتطرق إليه خفاء ولا شبهة ولا يتصف بذلك إلا علم الله سبحانه وتعالى وقد يقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويحكمها ويتقن صنعتها حكيم وكمال ذلك أيضا ليس إلا لله تعالى فهو الحكيم الحق تنبيه

من عرف جميع الأشياء ولم يعرف الله عز وجل لم يستحق أن يسمى حكيما لأنه لم يعرف

أجل الأشياء وأفضلها والحكمة أجل العلوم وجلالة العلم بقدر جلالة المعلوم ولا أجل من الله عز وجل ومن عرف الله تعالى فهو حكيم وإن كان ضعيف الفطنة في سائر العلوم الرسمية كليل اللسان قاصر البيان فيها إلا أن نسبة حكمة العبد إلى حكمة الله تعالى كنسبة معرفته به إلى معرفته بذاته وشتان بين المعرفتين فشتان بين الحكمتين ولكنه مع بعده عنه فهو أنفس المعارف وأكثرها خيرا ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا

نعم من عرف الله كان كلامه مخالفا لكلام غيره فإنه قلما يتعرض للجزئيات بل يكون كلامه كليا ولا يتعرض لمصالح العاجلة بل يتعرض لما ينفع في العاقبة ولما كان ذلك أظهر عند الناس من أحوال الحكيم من معرفته بالله عز وجل ربما أطلق الناس اسم الحكمة على مثل تلك الكلمات الكلية

ويقال للناطق بها حكيم

وذلك مثل قول سيد البشر صلاة الرحمن وسلامه عليه رأس الحكمة مخافة الله وقوله الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله وقوله عليه الصلاة والسلام ما قل وكفى خيرا مما كثر وألهى وقوله من أصبح معافى في بدنه

آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها وقوله عليه أفضل الصلاة كن ورعا تكن أعبد الناس وكن قنعا تكن أشكر الناس وقوله البلاء موكل بالمنطق وقوله من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه وقوله السعيد من وعظ بغيره وقوله الصمت حكمة وقليل فاعله وقوله القناعة مال لا ينفد وقوله الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله فهذه الكلمات وأمثالها تسمى حكمة وصاحبها يسمى حكيما

الودود

هو الذي يحب الخير لجميع الخلق فيحسن إليهم ويثني عليهم وهو قريب من معنى الرحيم لكن الرحمة إضافة إلى مرحوم والمرحوم هو المحتاج والمضطر وأفعال الرحيم تستدعي مرحوما ضعيفا وأفعال الودود لا تستدعي ذلك بل الإنعام على سبيل الابتداء من نتائج الود وكما أن معنى رحمته سبحانه وتعالى إرادته الخير للمرحوم وكفايته له وهو منزه عن رقة الرحمة فكذلك وده إرادته الكرامة والنعمة وإحسانه وإنعامه وهو منزه عن ميل المودة والرحمة لكن المودة والرحمة لا تراد في حق المرحوم والمودود إلا لثمرتهما وفائدتهما لا للرقة والميل فالفائدة هي لباب الرحمة والمودة وروحهما وذلك هو المتصور في حق الله سبحانه وتعالى دون ما هو مقارن لهما وغير مشروط في الإفادة تنبيه

الودود من عباد الله من يريد لخلق الله كل ما يريده لنفسه وأعلى من ذلك من يؤثرهم على نفسه كمن قال منهم أريد أن أكون جسرا على النار يعبر علي الخلق ولا يتأذون بها وكمال ذلك أن لا يمنعه عن الإيثار والإحسان الغضب والحقد وما ناله من الأذى كما قال رسول الله حيث كسرت رباعيته وأدمي وجهه وضرب اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون فلم يمنعه سوء صنيعهم عن إرادته الخير لهم وكما أمر عليا رضي الله عنه حيث

قال إن أردت أن تسبق المقربين فصل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك

المجيد

هو الشريف ذاته الجميل أفعاله الجزيل عطاؤه ونوله فكأن شرف الذات إذا قارنه حسن الفعال سمي مجدا وهو الماجد أيضا ولكن أحدهما أدل على المبالغة وكأنه يجمع معاني اسم الجليل والوهاب والكريم وقد سبق الكلام فيها

الباعث

هو الذي يحيي الخلق يوم النشور ويبعث من في القبور ويحصل ما في الصدور والبعث هو النشأة الآخرة ومعرفة هذا الاسم موقوفة على معرفة حقيقة البعث وذلك من أغمض المعارف وأكثر الخلق منه على توهمات مجملة وتخيلات مبهمة وغايتهم فيه تخيلهم أن الموت عدم والبعث إيجاد مبتدأ بعد عدم مثل الإيجاد الأول فظنهم أن الموت عدم غلط وظنهم أن

الإيجاد الثاني مثل الإيجاد الأول غلط

فأما ظنهم أن الموت عدم فهو باطل بل القبر إما حفرة من حفر النيران أو روضة من رياض الجنة والميت إما من السعداء وأولئك ليسوا أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله 3 سورة آل عمران الآية 169 و 170 وإما من الأشقياء وهم أيضا أحياء ولذلك ناداهم رسول الله في وقعة بدر وقال إني وجدت ما وعدني ربي

حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ثم لما قيل له كيف تنادي قوما قد جيفوا قال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم لكنهم لا يقدرون أن يجيبوا والمشاهدة الباطنة دلت أرباب البصائر على أن الإنسان خلق للأبد وأنه لا سبيل عليه للعدم نعم تارة يقطع تصرفه عن الجسد فيقال مات وتارة يعاد إليه فيقال أحيي وبعث أي أحيي جسده وكشف ذلك بالحقيقة مما لا يحتمله هذا الكتاب

وأما ظنهم أن البعث ليس إيجادا ثانيا وهو مثل الإيجاد الأول فغير صحيح بل البعث إنشاء آخر لا يناسب الإنشاء الأول أصلا وللإنسان نشآت كثيرة وليست هي نشأتين فقط ولذلك قال تعالى وننشئكم فيما لا تعلمون 56 سورة الواقعة الآية 61 ولذلك قال بعد

خلق المضغة والعلقة وغير ذلك ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين 23 سورة المؤمنين الآية 14 بل النطفة نشأة من التراب والعلقة نشأة من النطفة والمضغة نشأة من العلقة والروح نشأة من المضغة ولشرف نشأة الروح وجلالته وكونه أمرا ربانيا قال عند ذلك ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين 23 سورة المؤمنون الآية 14 وقال تعالى ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي 17 سورة الإسراء الآية 85 ثم خلق الإدراكات الحسية بعد خلق أصل الروح نشأة أخرى ثم خلق التمييز الذي يظهر بعد سبع سنين نشأة أخرى ثم خلق العقل بعد خمس عشرة سنة وما يقاربها نشأة أخرى وكل نشأة طور وقد خلقكم أطوارا 71 سورة نوح الآية 14 ثم ظهور خاصية الولاية لمن رزق تلك الخاصية نشأة أخرى ثم ظهور خاصية النبوة بعد نشأة أخرى وهي

نوع من العبث والله سبحانه وتعالى باعث الرسل كما أنه الباعث يوم النشور

وكما أنه يعسر على ابن المهد فهم حقيقة التمييز قبل حصول التمييز ويعسر على المميز فهم حقيقة العقل وما ينكشف في طوره من العجائب قبل حصول العقل فكذلك يعسر فهم طور الولاية والنبوة في طور العقل فإن الولاية طور كمال وراء نشأة العقل كما أن العقل طور كمال

وراء نشأة التمييز والتمييز طور كمال وراء نشأة الحواس وكما أن من طباع الناس إنكار ما لم يبلغوه ولم ينالوه حتى إن كل واحد ينكر ما لم يشاهده ولم يحصل له ولا يؤمن بما غاب عنه فمن طباعهم إنكار الولاية وعجائبها والنبوة وغرائبها بل من طباعهم إنكار النشأة الثانية والحياة الآخرة لأنهم لم يبلغوها بعد ولو عرض طور العقل وعالمه وما يظهر فيه من العجائب على المميز لأنكره وجحده وأحال وجوده فمن آمن بشيء مما لم يبلغه فقد آمن بالغيب وذلك هو مفتاح السعادات

وكما أن طور العقل وإدراكاته ونشأته بعيد المناسبة عن الإدراكات التي قبله فكذلك النشأة الآخرة بل أبعد فلا ينبغي أن تقاس النشأة الآخرة بالأولى وهذه النشآت هي أطوار ذات واحدة ومراقيها التي تصعد فيها إلى درجات الكمال حتى تقرب من الحضرة التي هي منتهى كل كمال وتكون عند الله عز وجل بين رد وقبول وحجاب ووصول فإن قبل رقي إلى أعلى العليين وإلا رد إلى أسفل السافلين والمقصود أن لا مناسبة بين النشأتين إلا من حيث الاسم ومن لم يعرف النشأة والبعث لم يعرف معنى اسم الباعث وشرح ذلك يطول فلنتجاوزه

تنبيه

حقيقة البعث ترجع إلى إحياء الموتى بإنشائهم نشأة أخرى والجهل هو الموت الأكبر والعلم هو الحياة الأشرف وقد ذكر الله سبحانه وتعالى العلم والجهل في كتابه العزيز وسماهما حياة

وموتا ومن رقى غيره من الجهل إلى المعرفة فقد أنشأه نشأة أخرى وأحياه حياة طيبة فإن كان للعبد مدخل في إفادة الخلق العلم ودعائهم إلى الله تعالى فذلك نوع من الإحياء وهي رتبة الأنبياء ومن يرثهم من العلماء

الشهيد

يرجع معناه إلى العليم مع خصوص إضافة فإن الله عز وجل عالم الغيب والشهادة والغيب عبارة عما بطن والشهادة عما ظهر وهو الذي يشاهد فإذا اعتبر العلم مطلقا فهو العليم وإذا أضيف إلى الغيب والأمور الباطنة فهو الخبير وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد وقد يعتبر مع هذا أن يشهد على الخلق يوم القيامة بما علم وشاهد منهم والكلام في هذا الاسم يقرب من الكلام في العليم والخبير فلا نعيده

الحق

هو في مقابلة الباطل والأشياء قد تستبان بأضدادها وكل ما يخبر عنه فإما باطل مطلقا وإما حق مطلقا وإما حق من وجه باطل من وجه فالممتنع بذاته هو الباطل مطلقا والواجب بذاته هو الحق مطلقا والممكن بذاته الواجب بغيره هو حق من وجه باطل من

وجه فهو من حيث ذاته لا وجود له فهو باطل وهو من جهة غيره مستفيد للوجود فهو من هذا الوجه الذي يلي مفيد الوجود موجود فهو من ذلك الوجه حق ومن جهة نفسه باطل فلذلك قال تعالى كل شيء هالك إلا وجهه 28 سورة

القصص الآية 88 وهو كذلك أزلا وأبدا ليس ذلك في حال دون حال لأن كل شيء سواه أزلا وأبدا من حيث ذاته لا يستحق الوجود ومن جهته يستحق فهو باطل بذاته حق بغيره وعند هذا تعرف أن الحق المطلق هو الموجود الحقيقي بذاته الذي منه يأخذ كل حق حقيقته

وقد يقال أيضا للمعقول الذي صادف به العقل الموجود حتى طابقه إنه حق فهو من حيث ذاته يسمى موجودا ومن حيث إضافته إلى العقل الذي أدركه على ما هو عليه يسمى حقا فإذا أحق الموجودات بأن يكون حقا هو الله تعالى وأحق المعارف بأن تكون حقا هيمعرفة الله عز وجل فإنه حق في نفسه أي مطابق للمعلوم أزلا وأبدا ومطابقته لذاته لا لغيره لا كالعلم بوجود غيره فإنه لا يكون إلا ما دام ذلك الغير موجودا فإذا عدم عاد ذلك الاعتقاد باطلا وذلك الاعتقاد أيضا لا يكون حقا لذات المعتقد لأنه ليس موجودا لذاته بل هو موجود لغيره

وقد يطلق ذلك على الأقوال فيقال قول حق وقول باطل وعلى ذلك فأحق الأقوال قولك لا إله إلا الله لأنه صادق أبدا وأزلا لذاته لا لغيره

فإذا يطلق الحق على الوجود في الأعيان وعلى الوجود في الأذهان وهو المعرفة وعلى الوجود الذي في اللسان وهو النطق فأحق الأشياء بأن يكون حقا هو الذي يكون وجوده ثابتا لذاته أزلا وأبدا ومعرفته حقا أزلا وأبدا والشهادة له حقا أزلا وأبدا وكل ذلك لذات الموجود الحقيقي لا لغيره تنبيه

حظ العبد من هذا الاسم أن يرى نفسه باطلا ولا يرى غير الله عز

وجل حقا والعبد إن كان حقا فليس حقا بنفسه بل هو حق بالله عز وجل فإنه موجود به لا بذاته بل هو بذاته باطل لولا إيجاد الحق له فقد أخطأ من قال أنا الحق إلا بأحد التأويلين أحدهما أن يعني أنه بالحق وهذا التأويل بعيد لأن اللفظ لا ينبىء عنه ولأن ذلك لا يخصه بل كل شيء سوى الحق فهو بالحق

التأويل الثاني أن يكون مستغرقا بالحق حتى لا يكون فيه متسع لغيره وما أخذ كلية الشيء واستغرقه فقد يقال إنه هو كما يقول الشاعر

أنا من أهوى ومن أهوى أنا . . . نحن روحان حللنا بدنا

ويعني به الاستغراق

وأهل التصوف لما كان الغالب عليهم رؤية فناء أنفسهم من حيث ذاتهم كان الجاري على لسانهم من أسماء الله تعالى وفي أكثر الأقوال والأحوال هو الحق لأنهم يلحظون الذات الحقيقية دون ما هو هالك في نفسه

وأهل الكلام لما كانوا أبعد في مقام الاستدلال بالأفعال كان الجاري على لسانهم في الأكثر اسم البارئ الذي هو بمعنى الخالق

وأكثر الخلق يرون كل شيء سواه فيستشهدون عليه بما يرونه وهم المخاطبون بقوله تعالى أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء 7 سورة الأعراف الآية 185

والصديقون لا يرون شيئًا سواه فيستشهدون به عليه وهم المخاطبون بقوله تعالى أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد 41 سورة فصلت الآية 53

الوكيل

هو الموكول إليه الأمور ولكن الموكول إليه ينقسم إلى من يوكل إليه بعض الأمور وذلك ناقص وإلى من يوكل إليه الكل وليس ذلك إلا الله سبحانه وتعالى والموكول إليه ينقسم إلى من

يستحق أن يكون موكولا إليه لا بذاته ولكن بالتفويض والتوكيل وهذا ناقص لأنه فقير إلى التفويض والتولية وإلى من يستحق بذاته أن تكون الأمور موكولة إليه والقلوب متوكلة عليه لا بتولية وتفويض من جهة غيره وذلك هو الوكيل المطلق والوكيل أيضا ينقسم إلى من يفي بما وكل إليه وفاء تاما من غير قصور وإلى من لا يفي بالجميع والوكيل المطلق هو الذي الأمور موكولة إليه وهو ملي بالقيام بها وفي بإتمامها وذلك هو الله تعالى فقط وقد فهمت من هذا مقدار مدخل العبد في معنى هذا الاسم

القوي المتين

القوة تدل على القدرة التامة والمتانة تدل على شدة القوة والله سبحانه وتعالى من حيث إنه بالغ القدرة تامها قوي ومن حيث إنه شديدة القوة متين وذلك يرجع إلى معاني القدرة وسيأتي ذلك

الولي

هو المحب الناصر ومعنى وده ومحبته قد سبق ومعنى نصرته ظاهر فإنه يقمع أعداء الدين وينصر أولياءه قال الله سبحانه وتعالى الله ولي الذين آمنوا وقال تعالى ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم

محمد الآية 11 أي لا ناصر لهم وقال عز وجل كتب الله لأغلبن أنا ورسلي 58 سورة المجادلة الآية 21 تنبيه

الولي من العباد من يحب الله عز وجل ويحب أولياءه وينصره وينصر أولياءه ويعادي أعداءه ومن أعدائه النفس والشيطان فمن خذلهما ونصر أمر الله تعالى ووالى أولياء الله وعادى أعداءه فهو الولي من العباد

الحميد

هو المحمود المثنى عليه والله عز وجل هو الحميد بحمده لنفسه أزلا وبحمد عباده له أبدا ويرجع هذا إلى صفات الجلال والعلو والكمال منسوبا إلى ذكر الذاكرين له فإن الحمد هو ذكر أوصاف الكمال من حيث هو كمال تنبيه

(567/757)

الحميد من العباد من حمدت عقائده وأخلاقه وأعماله وأقواله كلها من غير مثنوية وذاك هو محمد ومن يقرب منه من الأنبياء ومن عداهم من الأولياء والعلماء وكل واحد منهم حميد بقدر ما يحمد من عقائده وأخلاقه وأعماله وأقواله وإذا كان لا يخلو أحد عن مذمة ونقص وإن كثرت محامده فالحميد المطلق هو الله تعالى

المحصي

هو العالم ولكن إذا أضيف العلم إلى المعلومات من حيث يحصي

المعلومات ويعدها ويحيط بها سمي إحصاء والمحصي المطلق هو الذي ينكشف في علمه حد كل معلوم وعدده ومبلغه

والعبد وإن أمكنه أن يحصي بعلمه بعض المعلومات فإنه يعجز عن حصر أكثرها فمدخله في هذا الاسم ضعيف كمدخله في أصل العلم

المبدئ المعيد

معناه الموجد لكن الإيجاد إذا لم يكن مسبوقا بمثله سمي إبداء وإذا كان مسبوقا بمثله سمي إعادة والله سبحانه وتعالى بدأ خلق الناس ثم هو الذي يعيدهم أي يحشرهم والأشياء كلها منه بدأت وإليه تعود وبه بدأت وبه تعود

المحيي المميت

هذا أيضا يرجع إلى الإيجاد ولكن الموجود إذ كان هو الحياة سمي فعله إحياء وإذا كان هو الموت سمي فعله إماتة ولا خالق للموت والحياة إلا الله سبحانه وتعالى فلا مميت ولا محيي إلا الله عز وجل وقد سبقت الإشارة إلى معنى الحياة في اسم الباعث فلا نعيده

الحي

هو الفعال الدراك حتى إن من لا فعل له أصلا ولا إدراك فهو ميت وأقل درجات الإدراك أن يشعر المدرك بنفسه فما لا يشعر بنفسه فهو الجماد والميت فالحي الكامل المطلق هو الذي يندرج جميع المدركات تحت إدراكه وجميع الموجودات تحت فعله حتى لا يشذ عن علمه

مدرك ولا عن فعله مفعول وذلك الله عز و جل فهو الحي المطلق وكل حي سواه فحياته بقدر إدراكه وفعله وكل ذلك محصور في قلة ثم إن الأحياء يتفاوتون فيه فمراتبهم بقدر تفاوتهم كما سبقت الإشارة إليه في مراتب الملائكة والإنس والبهائم

القيوم

(568/757)

اعلم أن الأشياء تنقسم إلى ما يفتقر إلى محل كالأعراض والأوصاف فيقال فيها إنها ليست قائمة بأنفسها وإلى ما يحتاج إلى محل فيقال إنه قائم بنفسه كالجواهر إلا أن الجوهر وإن قام بنفسه مستغنيا عن محل يقوم به فليس مستغنيا عن أمور لا بد منها لوجوده وتكون شرطا في وجوده فلا يكون قائما بنفسه لأنه يحتاج في قوامه إلى وجود غيره وإن لم يحتج إلى محل فإن كان في الوجود موجود يكفي ذاته بذاته ولا قوام له بغيره ولا يشترط في دوام وجوده وجود غيره فهو القائم بنفسه مطلقا فإن كان مع ذلك يقوم به كل موجود حتى لا يتصور للأشياء وجود ولا دوام وجود إلا به فهو القيوم لأن قوامه بذاته وقوام كل شيء به وليس ذلك إلا الله سبحانه وتعالى

ومدخل العبد في هذا الوصف بقدر استغنائه عما سوى الله تعالى

الواجد

هو الذي لا يعوزه شيء وهو في مقابلة الفاقد ولعل من فاته ما لا حاجة به إلى وجوده لا يسمى فاقدا والذي يحضره ما لا تعلق له بذاته ولا بكمال ذاته لا يسمى واجدا بل الواجد من لا يعوزه شيء مما لا بد منه وكل ما لا بد منه في صفات الإلهية وكمالها فهو موجود لله سبحانه وتعالى فهو بهذا

الاعتبار واجد وهو الواجد المطلق ومن عداه إن كان واجدا لشيء من صفات الكمال وأسبابه فهو فاقد لأشياء فلا يكون واجدا إلا بالإضافة

الماجد

بمعنى المجيد كالعالم بمعنى العليم لكن الفعيل أكثر مبالغة وقد سبق معناه

الواحد

هو الذي لا يتجرأ ولا يثنى

أما الذي لا يتجزأ فكالجوهر الواحد الذي لا ينقسم فيقال إنه واحد بمعنى أنه لا جزء له وكذا النقطة لا جزء لها والله تعالى واحد بمعنى أنه يستحيل تقدير الانقسام في ذاته

وأما الذي لا يتثنى فهو الذي لا نظير له كالشمس مثلا فإنها وإن كانت قابلة للانقسام بالوهم متجزئة في ذاتها لأنها من قبيل الأجسام فهي لا نظير لها إلا أنه يمكن أن يكون لها نظير فإن كان في الوجود موجود يتفرد بخصوص وجوده تفردا لا يتصور أن يشاركه غيره فيه أصلا فهو الواحد المطلق أزلا وأبدا

والعبد إنما يكون واحدا إذا لم يكن له في أبناء جنسه نظير في خصلة من خصال الخير وذلك بالإضافة إلى أبناء جنسه وبالإضافة إلى الوقت إذ يمكن أن يظهر في وقت آخر مثله وبالإضافة إلى بعض الخصال دون الجميع فلا وحدة على الإطلاق إلا لله تعالى

الصمد

هو الذي يصمد إليه في الحوائج ويقصد إليه في الرغائب إذ ينتهي إليه منتهى السؤدد ومن جعله الله تعالى مقصد عباده في مهمات دينهم ودنياهم وأجرى على يده ولسانه حوائج خلقه فقد أنعم عليه بحظ من معنى هذا الوصف لكن الصمد المطلق هو الذي يقصد إليه في جميع الحوائج وهو الله سبحانه وتعالى

القادر المقتدر

معناهما ذو القدرة لكن المقتدر أكثر مبالغة والقدرة عبارة عن المعنى الذي به يوجد الشيء متقدرا بتقدير الإرادة والعلم واقعا على وفقهما والقادر هو الذي إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل وليس من شرطه أن يشاء لا محالة فإن الله قادر على إقامة القيامة الآن لأنه لو

شاء أقامها فإن كان لا يقيمها لأنه لم يشأها ولا يشاؤها لما جرى في سابق علمه من تقدير أجلها ووقتها فلذلك لا يقدح في القدرة والقادر المطلق هو الذي يخترع كل موجود اختراعا يتفرد به ويستغني فيه عن معاونة غيره وهو الله تعالى

وأما العبد فله قدرة على الجملة ولكنها ناقصة إذ لا يتناول إلا بعض الممكنات ولا يصلح للاختراع بل الله تعالى هو المخترع لمقدورات العبد بواسطة قدرته مهما هيأ له جميع أسباب الوجود لمقدوره وتحت هذا غور لا يحتمل مثل هذا الكتاب كشفه

المقدم والمؤخر

هو الذي يقرب ويبعد ومن قربه فقد قدمه ومن أبعده فقد أخره وقد قدم أنبياءه وأولياءه بتقريبهم وهدايتهم وأخر أعداءه بإبعادهم وضرب الحجاب بينه وبينهم والملك إذا قرب شخصين مثلا ولكن جعل أحدهما أقرب إلى نفسه يقال قدمه أي جعله قدام غيره والقدام تارة يكون في المكان وتارة يكون في الرتبة وهو مضاف لا محالة إلى متأخر عنه ولا بد فيه من مقصد هو الغاية بالإضافة إليه يتقدم ما يتقدم ويتأخر ما يتأخر والمقصد هو الله سبحانه وتعالى والمقدم عند الله تعالى هو المقرب فقد قدم الملائكة ثم الأنبياء ثم الأولياء ثم

العلماء وكل متأخر فهو مؤخر بالإضافة إلى ما قبله مقدم بالإضافة إلى ما بعده والله سبحانه وتعالى هو المقدم والمؤخر لأنك إذا أحلت تقدمهم وتأخرهم على توفيرهم وتقصيرهم وكمالهم في الصفات ونقصهم فمن الذي حملهم على التوفير بالعلم والعبادة بإثارة دواعيهم ومن الذي حملهم على التقصير بصرف دواعيهم إلى ضد الصراط المستقيم وذلك كله من الله تعالى فهو المقدم والمؤخر والمراد هو التقديم والتأخير في الرتبة وفيه إشارة إلى أنه لم يتقدم من تقدم بعلمه وعمله بل بتقديم الله عز وجل إياه وكذلك المتأخر وقد صرح بذلك قوله تعالى إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون 21 سورة الأنبياء الآية 101 وقوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم 32 سورة السجدة الآية 13 تنبيه

حظ العبد من صفات الأفعال ظاهر فلذلك قد لا نشتغل بإعادته في كل اسم حذرا من التطويل إذ فيما ذكرناه تعريف لطريق الكلام

الأول والآخر

اعلم أن الأول يكون أولا بالإضافة إلى شيء والآخر يكون آخرا بالإضافة إلى شيء وهما متناقضان فلا يتصور أن يكون الشيء الواحد من وجه واحد بالإضافة إلى شيء واحد أولا وآخرا جميعا بل إذا نظرت إلى

ترتيب الوجود ولاحظت سلسلة الموجودات المترتبة فالله تعالى بالإضافة إليها أول إذ الموجودات كلها استفادت الوجود منه وأما هو فموجود بذاته وما استفاد الوجود من غيره ومهما نظرت إلى ترتيب السلوك ولاحظت مراتب منازل السائرين إليه فهو آخر إذ هو آخر ما يرتقي إليه درجات العارفين وكل معرفة تحصل قبل معرفته فهي مرقاة إلى معرفته والمنزل الأقصى هو معرفة الله سبحانه وتعالى فهو آخر بالإضافة إلى السلوك أول بالإضافة إلى الوجود فمنه المبدأ أولا وإليه المرجع والمصير آخرا

الظاهر الباطن

هذان الوصفان أيضا من المضافات فإن الظاهر يكون ظاهرا لشيء وباطنا لشيء ولا يكون من وجه واحد ظاهرا وباطنا بل يكون ظاهرا من وجه بالإضافة إلى إدراك وباطنا من وجه آخر فإن الظهور والبطون إنما يكون بالإضافة إلى الإدراكات والله سبحانه وتعالى باطن إن طلب من إدراك الحواس وخزانة الخيال ظاهر إن طلب من خزانة العقل بطريق الاستدلال فإن قلت أما كونه باطنا بالإضافة إلى إدراك الحواس فظاهر وأما كونه ظاهرا للعقل فغامض إذ الظاهر ما لا يتمارى فيه ولا يختلف الناس في إدراكه وهذا مما قد وقع فيه الريب الكثير للخلق فكيف يكون ظاهرا فاعلم أنه إنما خفي مع ظهوره لشدة ظهوره فظهوره سبب بطونه ونوره هو حجاب نوره وكل ما جاوز حده انعكس على ضده

ولعلك تتعجب من هذا الكلام وتستبعده ولا تفهمه إلا بمثال

فأقول لو نظرت إلى كلمة واحدة كتبها كاتب لاستدللت بها على كون الكاتب عالما قادرا سميعا بصيرا واستفدت منه اليقين بوجود هذه

الصفات بل لو رأيت كلمة مكتوبة لحصل لك يقين قاطع بوجود كاتب لها عالم قادر سميع بصير حي ولم يدل عليه إلا صورة كلمة واحدة وكما تشهد هذه الكلمة شهادة قاطعة بصفات الكاتب فما من ذرة في السموات والأرض من فلك وكوكب وشمس وقمر وحيوان ونبات وصفة وموصوف إلا وهي شاهدة على نفسها بالحاجة إلى مدبر دبرها وقدرها وخصصها بخصوص صفاتها بل لا ينظر الإنسان إلى عضو من أعضاء نفسه وجزء من أجزائه ظاهرا وباطنا بل إلى صفة من صفاته وحالة من حالاته التي تجري عليه قهرا بغير اختياره إلا ويراها ناطقة بالشهادة لخالقها وقاهرها ومدبرها وكذلك كل ما يدركه بجميع حواسه في ذاته وخارجا من ذاته

ولو كانت الأشياء مختلفة في الشهادة يشهد بعضها ولا يشهد بعضها لكان اليقين حاصلا للجميع ولكن لما كثرت الشهادات حتى اتفقت خفيت وغمضت لشدة الظهور ومثاله أن

أظهر الأشياء ما يدرك بالحواس وأظهرها ما يدرك بحاسة البصر وأظهر ما يدرك بحاسة البصر نور الشمس المشرق على الأجسام الذي به يظهر كل شيء فما به يظهر كل شيء كيف لا يكون ظاهرا

وقد أشكل ذلك على خلق كثير حتى قالوا الأشياء الملونة ليس فيها إلا ألوانها فقط من سواد وحمرة فأما أن يكون فيها مع اللون ضوء ونور مقارن للون فلا وهؤلاء إنما نبهوا على قيام النور بالمتلونات بالتفرقة التي يدركونها بين الظل وموضع النور وبين الليل والنهار فإن الشمس لما تصور غيبتها بالليل واحتجابها بالأجسام المظلمة بالنهار انقطع أثرها عن المتلونات فأدركت التفرقة بين المتأثر المستضيء بها وبين المظلم المحجوب عنها فعرف وجود النور بعدم النور إذا أضيف حالة العدم إلى حالة الوجود فأدركت التفرقة مع بقاء الألوان في الحالتين ولو أطبق نور الشمس كل الأجسام الظاهرة لشخص ولم تغب الشمس حتى يدرك التفرقة لتعذر عليه معرفة كون النور

شيئا موجودا زائدا على الألوان مع أنه أظهر الأشياء بل هو الذي به يظهر جميع الأشياء

ولو تصور لله تعالى وتقدس عدم أو غيبة عن بعض الأمور لانهدت السموات والأرض وكل ما انقطع نوره عنه ولأدركت التفرقة بين الحالتين وعلم وجوده قطعا ولكن لما كانت الأشياء كلها متفقة في الشهادة والأحوال كلها مطردة على نسق واحد كان ذلك سببا لخفائه فسبحان من احتجب عن الخلق بنوره وخفي عليهم بشدة ظهوره فهو الظاهر الذي لا أظهر منه وهو الباطن الذي لا أبطن منه تنبيه

لا تتعجبن من هذا في صفات الله تعالى وتقدس فإن المعنى الذي به الإنسان إنسان ظاهر باطن فإنه ظاهر إن استدل عليه بأفعاله المرتبة المحكمة باطن إن طلب من إدراك الحس فإن الحس إنما يتعلق بظاهر بشرته وليس الإنسان إنسانا بالبشرة المرئية منه بل لو تبدلت تلك البشرة بل سائر أجزائه فهو هو والأجزاء متبدلة ولعل أجزاء كل إنسان بعد كبره غير الأجزاء التي كانت فيه عند صغره فإنها تحللت بطول الزمان وتبدلت بأمثالها بطريق الاغتذاء وهويته لم تتبدل فتلك الهوية باطنة عن الحواس ظاهرة للعقل بطريق الاستدلال عليها بآثارها وأفعالها

البر

هو المحسن والبر المطلق هو الذي منه كل مبرة وإحسان والعبد إنما يكون برا بقدر ما يتعاطاه من البر ولا سيما بوالديه وأستاذه وشيوخه

روي أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه رأى رجلا قائما عند ساق

العرش فتعجب من علو مكانه فقال يا رب بم بلغ هذا العبد هذا المحل فقال إنه كان لا يحسد عبدا من عبادي على ما آتيته وكان بارا بوالديه هذا بر العبد فأما تفصيل بر الله تعالى وإحسانه إلى خلقه فيطول شرحه وفي بعض ما ذكرناه ما ينبه عليه

التواب

هو الذي يرجع إلى تيسير أسباب التوبة لعباده مرة بعد أخرى بما يظهر لهم من آياته ويسوق إليهم من تنبيهاته ويطلعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته حتى إذا اطلعوا بتعريفه على غوائل الذنوب استشعروا الخوف بتخويفه فرجعوا إلى التوبة فرجع إليهم فضل الله تعالى بالقبول

تنبيه

من قبل معاذير المجرمين من رعاياه وأصدقائه ومعارفه مرة بعد أخرى فقد تخلق بهذا الخلق وأخذ منه نصيبا

المنتقم

هو الذي يقصم ظهور العتاة وينكل بالجناة ويشدد العقاب على الطغاة وذلك بعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال وهو أشد للانتقام من المعاجلة بالعقوبة فإنه إذا عوجل

بالعقوبة لم يمعن في المعصية فلم يستوجب غاية النكال في العقوبة تنبيه

المحمود من انتقام العبد أن ينتقم من أعداء الله تعالى وأعدى الأعداء

نفسه وحقه أن ينتقم منها مهما قارفت معصية أو أخلت بعبادة كما نقل عن أبي يزيد رحمه

الله أنه قال تكاسلت نفسي علي في بعض الليالي عن بعض الأوراد فعاقبتها بأن منعتها الماء

سنة فهكذا ينبغي أن يسلك سبيل الانتقام

العفو

هو الذي يمحو السيئات ويتجاوز عن المعاصي وهو قريب من الغفور ولكنه أبلغ منه فإن

الغفران ينبئ عن الستر والعفو ينبئ عن المحو والمحو أبلغ من الستر تنبيه

وحظ العبد من ذلك لا يخفى وهو أن يعفو عن كل من ظلمه بل يحسن إليه كما يرى الله تعالى

محسنا في الدنيا إلى العصاة والكفرة غير معاجل لهم بالعقوبة بل ربما يعفو عنهم بأن يتوب

عليهم وإذا تاب عليهم محا سيئاتهم إذ التائب من الذنب كمن لا ذنب له وهذا غاية المحو

للجناية

الرؤوف

ذو الرأفة والرأفة شدة الرحمة فهو بمعنى الرحيم مع المبالغة فيه وقد سبق الكلام عليه

مالك الملك

هو الذي ينفذ مشيئته في مملكته كيف شاء وكما شاء إيجادا وإعداما وإبقاء وإفناء

والملك هاهنا بمعنى المملكة والمالك بمعنى القادر التام

(575/757)

القدرة والموجودات كلها مملكة واحدة وهو مالكها وقادرها وإنما كانت الموجودات كلها مملكة واحدة لأنها مرتبطة بعضها ببعض فإنها وإن كانت كثيرة من وجه فلها وحدة من وجه ومثاله بدن الإنسان فإنه مملكة لحقيقة الإنسان وهي أعضاء كثيرة مختلفة ولكنها كالمتعاونة على تحقيق غرض مدبر واحد فكانت مملكة واحدة فكذلك العالم كله كشخص واحد وأجزاء العالم كأعضائه وهي متعاونة على مقصود واحد وهو إتمام غاية الخير الممكن وجوده على ما اقتضاه الجود الإلهي ولأجل انتظامها على ترتيب متسق وارتباطها برابطة واحدة كانت مملكة واحدة والله تعالى مالكها فقط

ومملكة كل عبد بدنه خاصة فإذا نفذت مشيئته في صفات قلبه وجوارحه فهو مالك مملكة نفسه بقدر ما أعطي من القدرة عليها

ذو الجلال والإكرام

هو الذي لا جلال ولا كمال إلا وهو له ولا كرامة ولا مكرمة إلا وهي صادرة منه فالجلال له

في ذاته والكرامة فائضة منه على خلقه وفنون إكرامه خلقه لا تكاد تنحصر وتتناهى

وعليه دل قوله تعالى ولقد كرمنا بني آدم 17 سورة الإسراء الآية 70

الوالي

هو الذي دبر أمور الخلق ووليها أي تولاها وكان مليا بولايتها وكأن الولاية تشعر بالتدبير

والقدرة والفعل وما لم يجتمع جميع ذلك فيه لم ينطلق اسم الوالي عليه ولا والي للأمور إلا الله

سبحانه وتعالى فإنه المتفرد بتدبيرها أولا والمنفذ للتدبير بالتحقيق ثانيا والقائم عليها

بالإدامة والإبقاء ثالثا

المتعالي

بمعنى العلي مع نوع من المبالغة وقد سبق معناه

المقسط

هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم وكماله في أن يضيف إلى إرضاء المظلوم إرضاء الظالم

وذلك غاية العدل والإنصاف ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى

ومثاله ما روي عن النبي أنه بينما هو جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر رضي الله عنه بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما الذي أضحكك قال رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما يا رب خذ لي مظلمتي من هذا فقال الله عز وجل رد على أخيك مظلمته فقال يا رب لم يبق لي من حسناتي شيء فقال عز وجل للطالب كيف تصنع بأخيك لم يبق من حسناته شيء فقال يا رب فليحمل عني من أوزاري ثم فاضت عينا رسول الله بالبكاء وقال إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال فيقول الله عز وجل للمتظلم ارفع بصرك فانظر في الجنان فقال يا رب أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لأي نبي هذا أو لأي صديق أو لأي شهيد قال الله عز وجل هذا لمن أعطى الثمن قال يا رب ومن يملك ذلك قال أنت تملكه قال بماذا يا رب قال بعفوك عن أخيك قال يا رب قد عفوت عنه قال الله عز وجل خذ بيد أخيك فأدخله الجنة ثم قال اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله تبارك وتعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة فهذا سبيل الانتصاف والإنصاف ولا يقدر على مثله إلا رب الأرباب وأوفر العباد حظا من هذا الاسم من ينتصف أولا من نفسه ثم لغيره من غيره ولا ينتصف لنفسه من غيره

الجامع

هو المؤلف بين المتماثلات والمتباينات والمتضادات

أما جمع الله المتماثلات فكجمعه الخلق الكثير من الإنس على ظهر الأرض وكحشره إياهم

في صعيد القيامة

وأما المتباينات فكجمعه بين السموات والكواكب والهواء والأرض والبحار والحيوانات والنبات والمعادن المختلفة كل ذلك متباين الأشكال والألوان والطعوم والأوصاف وقد جمعها في الأرض وجمع بين الكل في العالم وكذلك جمعه بين العظم والعصب والعرق والعضلة والمخ والبشرة والدم وسائر الأخلاط في بدن الحيوان

وأما المتضادات فكجمعه بين الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة في أمزجة الحيوانات وهي متنافرات متعاديات وذلك أبلغ وجوه الجمع

وتفصيل جمعه لا يعرفه إلا من يعرف تفصيل مجموعاته في الدنيا والآخرة وكل ذلك مما يطول شرحه تنبيه

الجامع من العباد من جمع بين الآداب الظاهرة في الجوارح وبين الحقائق الباطنة في القلوب فمن كملت معرفته وحسنت سيرته فهو الجامع ولذلك قيل الكامل من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه وكان الجمع بين الصبر

والبصيرة متعذر لذلك ترى صبورا على الزهد والورع لا بصيرة له وترى ذا بصيرة لا صبر له

والجامع من جمع بين الصبر والبصيرة والسلام

الغني المغني

الغني هو الذي لا تعلق له بغيره لا في ذاته ولا في صفات ذاته بل يكون منزها عن العلاقة مع الأغيار فمن تتعلق ذاته أو صفات ذاته بأمر خارج من ذاته يتوقف عليه وجوده أو كماله فهو فقير محتاج إلى الكسب ولا يتصور ذلك إلا لله سبحانه وتعالى

والله عز وجل هو المغني أيضا ولكن الذي أغناه لا يتصور أن يصير بإغنائه غنيا مطلقا فإن أقل أموره أنه محتاج إلى المغني فلا يكون غنيا بل يستغني عن غير الله بأن يمده بما يحتاج إليه لا بأن يقطع عنه أصل الحاجة والغني الحقيقي هو الذي لا حاجة له إلى أحد أصلا والذي يحتاج ومعه ما يحتاج فهو غني بالمجاز وهو غاية ما يدخل في الإمكان في حق غير الله سبحانه وتعالى

وأما فقد الحاجة فلا ولكن إذا لم يبق حاجة إلا إلى الله تعالى سمي غنيا ولو لم يبق له أصل الحاجة لما صح قوله تعالى والله الغني وأنتم الفقراء 47 سورة محمد الآية 38 ولولا أنه يتصور أن يستغني عن كل شيء سوى الله عز وجل لما صح لله تعالى وصف المغني

المانع

هو الذي يرد أسباب الهلاك والنقصان في الأديان والأبدان بما يخلقه من الأسباب المعدة للحفظ وقد سبق معنى الحفيظ وكل حفظ فمن ضرورته

منع ودفع فمن فهم معنى الحفيظ فهم معنى المانع والمنع إضافة إلى السبب المهلك والحفظ إضافة إلى المحروس عن الهلاك وهو مقصود المنع وغايته إذ المنع يراد للحفظ والحفظ لا يراد للمنع فكل حافظ مانع وليس كل مانع حافظا إلا إذا كان مانعا مطلقا لجميع أسباب الهلاك والنقص حتى يحصل الحفظ من ضرورته

الضار النافع

هو الذي يصدر منه الخير والشر والنفع والضر وكل ذلك منسوب إلى الله تعالى إما بواسطة الملائكة والإنس والجمادات أو بغير واسطة فلا تظنن أن السم يقتل ويضر بنفسه وأن الطعام يشبع وينفع بنفسه وأن الملك والإنسان والشيطان أو شيئا من المخلوقات من فلك أو كوكب أو غيرهما يقدر على خير أو شر أو نفع أو ضر بنفسه بل كل ذلك أسباب مسخرة لا يصدر منها إلا ما سخرت له

وجملة ذلك بالإضافة إلى القدرة الأزلية كالقلم بالإضافة إلى الكاتب في اعتقاد العامي وكما أن السلطان إذا وقع بكرامة أو عقوبة لم ير ضرر ذلك ولا نفعه من القلم بل من الذي القلم مسخر له فكذلك سائر الوسائط والأسباب وإنما قلنا في اعتقاد العامي لأن الجاهل هو

الذي يرى القلم مسخرا للكاتب والعارف يعلم أنه مسخر في يده لله سبحانه وتعالى وهو الذي الكاتب مسخر له فإنه مهما خلق الكاتب وخلق له القدرة وسلط القدرة وسلط عليه الداعية الجازمة التي لا تردد فيها صدر منه حركة الأصابع والقلم لا محالة شاء أم أبى بل لا يمكنه أن لا يشاء فإذا الكاتب بقلم الإنسان ويده هو الله تعالى وإذا عرفت هذا في الحيوان المختار فهو في الجماد أظهر

النور

(579/757)

هو الظاهر الذي به كل ظهور فإن الظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نورا ومهما قوبل الوجود بالعدم كان الظهور لا محالة للوجود ولا ظلام أظلم من العدم فالبريء عن ظلمة العدم بل عن إمكان العدم المخرج كل الأشياء من ظلمة العدم إلى ظهور الوجود جدير بأن يسمى نورا والوجود نور فائض على الأشياء كلها من نور ذاته فهو نور السموات والأرض وكما أنه لا ذرة من نور الشمس إلا وهي دالة على وجود الشمس المنورة فلا ذرة من موجودات السموات والأرض وما بينهما إلا وهي بجواز وجودها دالة على وجوب وجود موجدها وما ذكرناه في معنى الظاهر يفهمك معنى النور ويغنيك عن التعسفات المذكورة في معناه

الهادي

هو الذي هدى خواص عباده أولا إلى معرفة ذاته حتى استشهدوا بها على الأشياء وهدى عوام عباده إلى مخلوقاته حتى استشهدوا بها على ذاته وهدى كل مخلوق إلى ما لا بد له منه في قضاء حاجاته فهدى الطفل إلى التقام الثدي عند انفصاله والفرخ إلى التقاط الحب وقت خروجه والنحل إلى بناء بيته على شكل التسديس لكونه أوفق الأشكال لبدنه وأحواها وأبعدها عن أن يتخللها فرج ضائعة وشرح ذلك يطول وعنه عبر قوله تعالى الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى 20 سورة طه الآية 50 وقال تعالى والذي قدر فهدى 87 سورة الأعلى الآية 3

والهداة من العباد الأنبياء والعلماء الذين أرشدوا الخلق إلى السعادة الأخروية وهدوهم إلى صراط الله المستقيم بل الله الهادي لهم على ألسنتهم وهم مسخرون تحت قدرته وتدبيره

البديع

هو الذي لا عهد بمثله فإن لم يكن بمثله عهد لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا في كل أمر راجع إليه فهو البديع المطلق وإن كان شيء من ذلك معهودا فليس ببديع مطلق ولا يليق هذا الاسم مطلقا إلا بالله سبحانه وتعالى فإنه ليس له قبل فيكون مثله معهودا قبله وكل موجود بعده فحاصل بإيجاده وهو غير مناسب لموجده فهو بديع أزلا وأبدا

وكل عبد اختص بخاصية في النبوة أو الولاية أو العلم لم يعهد مثلها إما في سائر الأوقات وإما في عصره فهو بديع بالإضافة إلى ما هو منفرد به وفي الوقت الذي هو منفرد فيه

الباقي

هو الموجود الواجب وجوده بذاته ولكنه إذا أضيف في الذهن إلى الاستقبال سمي باقيا وإذا أضيف إلى الماضي سمي قديما والباقي المطلق هو الذي لا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إلى آخر ويعبر عنه بأنه أبدي

والقديم المطلق هو الذي لا ينتهي تمادي وجوده في الماضي إلى أول ويعبر عنه بأنه أزلي

وقولك واجب الوجود بذاته متضمن لجميع ذلك وإنما هذه الأسامي بحسب إضافة هذا الوجود في الذهن إلى الماضي والمستقبل

وإنما يدخل في الماضي والمستقبل المتغيرات لأنهما عبارتان عن الزمان ولا يدخل في الزمان إلا التغير والحركة إذ الحركة إنما تنقسم إلى ماض ومستقبل والمتغير يدخل في الزمان بواسطة التغير فما جل عن التغير والحركة فليس في زمان فليس فيه ماض ومستقبل فلا ينفصل فيه القدم عن البقاء بل الماضي والمستقبل إنما يكون لنا إذ مضى علينا وفينا أمور وستتجدد

أمور ولا بد من أمور تحدث شيئا بعد شيء حتى تنقسم إلى ماض قد انعدم وانقطع وإلى راهن حاضر وإلى ما يتوقع تجدده من بعد فحيث لا تجدد ولا انقضاء فلا زمان وكيف لا والحق سبحانه وتعالى قبل الزمان وحيث خلق الزمان لم يتغير من ذاته شيء وقبل خلق الزمان لم يكن للزمان عليه جريان وبقي بعد خلق الزمان على ما عليه كان ولقد أبعد من قال البقاء صفة زائدة على ذات الباقي وأبعد منه من قال القدم وصف زائد على ذات القديم وناهيك برهانا على فساده ما لزمه من الخبط في بقاء البقاء وبقاء الصفات وقدم القدم وقدم الصفات

الوارث

(581/757)

هو الذي يرجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك وذلك هو الله سبحانه وتعالى إذ هو الباقي بعد فناء الخلق وإليه مرجع كل شيء ومصيره وهو القائل إذ ذاك لمن الملك اليوم 40 سورة غافر الآية 16 وهو المجيب لله الواحد القهار 40 سورة غافر الآية 16 وهذا بحسب ظن الأكثرين إذ يظنون لأنفسهم ملكا وملكا فينكشف لهم ذلك اليوم حقيقة الحال وهذا النداء عبارة عن حقيقة ما ينكشف لهم في ذلك الوقت

فأما أرباب البصائر فإنهم أبدا مشاهدون لمعنى هذا النداء سامعون له من غير صوت ولا حرف موقنون بأن الملك لله الواحد القهار في كل يوم وفي كل ساعة وفي كل لحظة وكذلك كان أزلا وأبدا وهذا إنما يدركه من أدرك حقيقة التوحيد في الفعل وعلم أن المنفرد بالفعل في الملك والملكوت واحد وقد أشرنا إلى ذلك في أول كتاب التوكل من كتاب إحياء علوم الدين فليطلب منه فإن هذا الكتاب لا يحتمله

الرشيد

هو الذي تنساق تدبيراته إلى غاياتها على سنن السداد من غير إشارة مشير وتسديد مسدد وإرشاد مرشد وهو الله سبحانه وتعالى

ورشد كل عبد بقدر هدايته في تدابيره إلى ما يشاكل الصواب من مقاصده ودينه ودنياه

الصبور

هو الذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه بل ينزل الأمور بقدر معلوم ويجريها على سنن محدود لا يؤخرها على آجالها المقدورة لها تأخير متكاسل ولا يقدمها على أوقاتها تقديم مستعجل بل يودع كل شيء في أوانه على الوجه الذي يجب أن يكون وكما ينبغي وكل ذلك من غير مقاساة داع على مضادة الإرادة

وأما صبر العبد فلا يخلو عن مقاساة لأن معنى صبره هو ثبات داعي الدين أو العقل في مقابلة داعي الشهوة أو الغضب فإذا تجاذبه داعيان متضادان فدفع الداعي إلى الإقدام والمبادرة ومال إلى باعث التأخير سمي صبورا إذ جعل باعث العجلة مقهورا وباعث العجلة في حق الله سبحانه معدوم فهو أبعد عن العجلة ممن باعثه موجود ولكنه مقهور فهو أحق بهذا الاسم بعد أن أخرجت عن الاعتبار تناقض البواعث ومصابرتها بطريق المجاهدة. انتهى انتهى. اهـ ﴿المقصد الأسنى صـ 149.60﴾

(583/757)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1)

الإعراب:

(للّه) متعلّق بحال من الموصول فاعل سبّح " 1 " ، (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة الموصول ما (في الأرض) متعلّق بصلة ما الثاني (الواو) حاليّة . .

جملة : " سبّح . . . ما في السموات " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " هو العزيز . . . " في محلّ نصب حال من لفظ الجلالة .

[سورة الحشر (59) : الآيات 2 إلى 4]

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ (2) وَلَوْ لا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ (3) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (4)

---

(1) قيل : اللام زائدة ولفظ الجلالة مفعول سبّح .

الإعراب :

(من أهل) متعلّق بحال من فاعل كفروا (من ديارهم) متعلّق بـ (أخرج) ، (لأوّل) متعلّق بـ

(أخرج) " 1 " (ما) نافية (أن) حرف مصدريّ ونصب (حصونهم) فاعل اسم الفاعل مانعتهم (من اللّه) متعلّق بـ (مانعتهم) بحذف مضاف أي من عذاب اللّه " 2 " ، (الفاء) عاطفة (حيث) ظرف مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أتاهم) ، (في قلوبهم) متعلّق بـ (قذف) ، (بأيديهم) متعلّق بـ (يخربون) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (أولي) منادى مضاف منصوب ، وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر السالم .

جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أخرج . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ما ظننتم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يخرجوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

والمصدر المؤوّل (أن يخرجوا . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ظننتم .

---

(1) اللام تسمّى لام التوقيت أي عند أوّل الحشر . . قال الزمخشريّ : وهي كاللام في قوله تعالى : يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي وقولك جئت لوقت كذا . . والكلام من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف أي هو الذي أخرج الذين كفروا في وقت الحشر الأول .

(2) يجوز أن يكون (حصونهم) مبتدأ مؤخّرا و(مانعتهم) خبرا مقدّما ، والجملة خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّهم مانعتهم . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ظنّوا .

وجملة : " ظنّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما ظننتم .

وجملة : " أتاهم اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ظنّوا .

وجملة : " لم يحتسبوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قذف . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أتاهم اللّه .

وجملة : " يخربون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " اعتبروا . . . " في محلّ جواب شرط مقدّر أي إن كان هذا شأن الكافرين فاعتبروا بحالهم .

وجملة : " يا أولى الأبصار . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

3 - (الواو) استئنافيّة (لولا) حرف شرط غير جازم (أن) حرف مصدريّ (عليهم) متعلّق بـ (كتب) ، (اللام) واقعة في جواب لولا (في الدنيا) متعلّق بـ (عذّبهم) ، (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (عذاب) ، (في الآخرة) حال من عذاب " 2 " .

والمصدر المؤوّل (أن كتب) في محلّ رفع مبتدأ . . والخبر محذوف تقديره موجود .

وجملة: "لولا كتابة الجلاء ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "كتب ... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "عذّبهم ... " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "لهم ... عذاب" لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

---

(1) يجوز أن تكون حالا من ضمير الغائب في (قلوبهم).

(2) أو متعلّق بالاستقرار الذي تعلّق به (لهم).

(3) لم تعطف الجملة على الجواب لأنّ العذاب ممتنع في الدنيا بوجود الجلاء، ولكنّه في الآخرة غير ممتنع، فلو عطفت الجملة على الجواب للزم امتناع العذاب عنهم في الآخرة.

(586/757)

4- الإشارة في قوله (ذلك) إلى الإجلاء في الدنيا والعذاب في الآخرة..

(الواو) استئنافيّة (الفاء) تعليليّة.

والمصدر المؤوّل (أنّهم شاقّوا ...) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (ذلك).

وجملة: "ذلك بأنّهم ... " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "شاقّوا . . . "في محلّ رفع خبر أنّ.

وجملة: "من يشاقّ . . . "لا محلّ لها استئناف مقرّر لمضمون ما سبق.

وجملة: "يشاقّ . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) "1" .

وجملة: "إنّ اللّه شديد . . . "لا محلّ لها تعليل للجواب المقدّر أي: من يشاقّ اللّه يعاقبه فإنّ اللّه شديد العقاب.

الصرف:

(2) مانعتهم: مؤنّث مانع، اسم فاعل من الثلاثيّ منع، وزنه فاعل.

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا.

(حصونهم)، جمع حصن، اسم للمكان المحصّن، وزنه فعل بكسر فسكون، ووزن حصون فعول بضمّتين.

(3) الجلاء: مصدر سماعيّ لفعل جلا الثلاثيّ، وفيه إبدال الواو همزة أصله جلاو، تطرّفت الواو بعد ألف ساكنة قلبت همزة، وزنه فعال بفتح الفاء.

الفوائد:

- إجلاء بني النضير . .

حين قدم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) المدينة ، صالحه بنو النضير ، على ألا يكونوا عليه ولا له . فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبا إلى مكة ، فحالف أبا سفيان عند الكعبة ، فأمر صلّى اللّه عليه وسلّم محمد بن مسلمة الأنصاري

فقتل كعبا غيلة ، ثم خرج النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) مع الجيش إليهم ، فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة ، وأقر بقطع نخيلهم ، فلما قذف اللّه الرعب في قلوبهم ، طلبوا الصلح ، فأبى عليهم إلا الجلاء ، على أن يحمل كل ثلاثة بيوت على بعير ما شاؤوا من متاعهم ، ما عدا السلاح فجلوا إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام . وهذا الجلاء هو أول حشرهم . وأوسط حشرهم إجلاء عمر رضي اللّه عنه لهم من خيبر إلى الشام وآخر حشرهم يوم القيامة .

[سورة الحشر (59) : الآيات 5 إلى 6]

ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ (5) وَما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ وَلكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6)

الإعراب :

(ما) اسم شرط جازم في محلّ نصب مفعول به عامله قطعتم (من لينة) متعلّق بحال من ما " 1 " ، (أو) حرف عطف ، والواو في (تركتموها) زائدة إشباع حركة الميم (قائمة) حال منصوبة من ضمير الغائب المفعول " 2 " (الفاء) رابطة لجواب الشرط (بإذن) متعلّق بخبر لمبتدأ محذوف تقديره فعلكم – أو قطعها – (الواو) عاطفة (اللام) للتعليل (يخزي) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل هو يعود على لفظ الجلالة . .

والمصدر المؤوّل (أن يخزي . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف هو والمعطوف عليه أي : أذن اللّه في قطعها ليسرّ المؤمنين وليخزي الفاسقين .

---

(1) أو هو تمييز ما .

(2) لم يعرب مفعولا ثانيا لانعدام معنى التحويل .

جملة : " قطعتم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تركتموها . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " (فعلكم) بإذن اللّه . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " يخزي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

6 - (الواو) عاطفة (ما أفاء) مثل ما قطعتم (على رسوله) متعلّق بـ (أفاء) ، وكذلك (منهم) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ما) نافية (عليه) متعلّق بـ (أوجفتم) ، (خيل) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (لا) زائدة لتأكيد النفي (ركاب) معطوف على خيل بالواو مجرور لفظا (الواو) عاطفة (على من) متعلّق بـ (يسلّط) ، وفاعل (يشاء) ضمير يعود على لفظ الجلالة (الواو) عاطفة (على كلّ) متعلّق بالخبر (قدير) .

وجملة : " ما أفاء اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما قطعتم .

وجملة : " ما أوجفتم . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترن بالفاء .

وجملة : " لكنّ اللّه يسلّط . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما أفاء اللّه .

وجملة : " يسلّط . . . " في محلّ رفع خبر لكنّ .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة: " اللّه . . . قدير " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستدراك.

الصرف:

(5) لينة: اسم للنخلة وزنه فعلة بكسر فسكون، وقيل إنّ أصل عين الكلمة واو لأنها من اللون، وقلبت ياء لانكسار ما قبلها . . وقيل هي ياء من اللين.

(6) أفاء: فيه إعلال بالقلب قياسه مثل فاء . . انظر الآية (226) من سورة البقرة.

(ركاب)، اسم جمع لا واحد له من لفظه، وهو ما يركب من الإبل، واحدة راحلة، وزنه فعال بالكسر.

[سورة الحشر (59): الآيات 7 إلى 8]

ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (7) لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8)

الإعراب:

(ما أفاء . . . من أهل) مثل ما أفاء . . . منهم " 1 "، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (للّه) متعلّق بخبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (الواو) عاطفة في المواضع السبعة، والأخيرة

استئنافيّة (اليتامى) معطوف على لفظ الجلالة - أو على ذي - وكذلك (المساكين، ابن)

، (كيلا) حرف مصدريّ ونصب، وحرف نفي، واسم (يكون) ضمير يعود على الفيء

(بين) ظرف منصوب متعلّق بنعت لدولة (منكم) متعلّق بحال من الأغنياء (ما آتاكم) مثل

ما قطعتم "

، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ما نهاكم) مثل ما قطعتم "

، (عنه) متعلّق بـ (نهاكم)، (فانتهوا) مثل فخذوه..

جملة: " ما أفاء اللّه... " لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) في الآية السابقة (6) و(ما) مفعول ثان.

(2، 3) في الآية (5) من السورة وما مبتدأ.

وجملة: " (هو) للّه... " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: " يكون دولة... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (كي).

والمصدر المؤوّل (كيلا يكون..) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف هو

اللام متعلّق بفعل محذوف، أي: جعل الفيء كذلك لكي لا يكون...

وجملة: " آتاكم الرسول . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما أفاء الّله .

وجملة: " خذوه . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة: " ما نهاكم عنه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتاكم الرسول .

وجملة: " نهاكم عنه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) " 1 " .

وجملة: " انتهوا . . . " في محلّ جزم جواب الشرط الثاني مقترنة بالفاء .

وجملة: " اتّقوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " إنّ الله شديد . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

8 - (للفقراء) بدل من ذي القربى بإعادة الجارّ " 2 " ، والواو في (أخرجوا) نائب الفاعل (من ديارهم) متعلّق بفعل أخرجوا (من الّله) متعلّق بـ (يبتغون) ، (هم) ضمير فصل للتوكيد " 3 " . .

وجملة: " أخرجوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " يبتغون . . . " في محلّ نصب حال من نائب الفاعل .

وجملة: " ينصرون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يبتغون .

وجملة: " أولئك . . . الصادقون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف:

(7) دولة: اسم بمعنى متداول ، وزنه فعلة بضمّ فسكون .

(نهاكم) ، فيه إعلال بالقلب ، أصل الألف ياء ، تحرّكت بعد فتح قلبت ألفا ، من باب فتح .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا . [. . . . . .]

(2) أو متعلّق بفعل محذوف تقديره اعجبوا . والكلام مستأنف .

(3) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره الصادقون . . والجملة الاسميّة خبر أولئك .

(انتهوا) ، فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف ، أصله انتهيوا بياء قبل الواو ، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت الحركة إلى الهاء - إعلال بالتسكين - التقى سكونان في الواو والياء فحذفت الياء تخلصا من الساكنين . .

وزنه افتعوا .

البلاغة

الفصل : في قوله تعالى ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ .

والفصل : هو ترك عطف جملة على أخرى ، وضدّه الوصل ، وهو عطف بعض الجمل على بعض . حيث أن بين الآية هذه والآية التي قبلها اتحاد تام ، ففصل بين الآيتين . والفصل

يجد ذاته بلاغة ، فقد قيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ فقال :

معرفة الفصل والوصل .

الفوائد

- حكم الفيء :

تقدم الحديث عن حكم الغنيمة في مطلع سورة الأنفال ، وأما حكم الفيء فإنه لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) مدة حياته ، يضعه حيث يشاء . فكان ينفق على أهله منه نفقة سنتهم ، ويجعل ما بقي في الكراع والسلاح ، عدة في سبيل الله . واختلف العلماء في الفيء بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . فقال قوم : هو للأئمة من بعده . وللشافعي فيه قولان : أحدهما انه للمقاتلة ، والثاني : هو لمصالح المسلمين ، يبدأ بالمقاتلة ثم الأهم فالأهم من المصالح ، واختلفوا في تخميس مال الفيء ، فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه لا يخمس ، بل يصرف جميعه في صالح جميع المسلمين . قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى) حتى بلغ (للفقراء المهاجرين) إلى قوله وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ ثم قال : هذه استوعبت المسلمين عامة . قال : وما على وجه الأرض مسلم إلا وله في هذا الفيء حق ، إلا ما ملكت أيمانكم .

[سورة الحشر (59) : الآيات 9 إلى 10]

وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9) وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (10)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من قبلهم) متعلّق بـ (تبوّؤا) " 1 " ، (إليهم) متعلّق بـ (هاجر) ، (لا) نافية (في صدورهم) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (ممّا) متعلّق بنعت لحاجة ، والعائد محذوف ، والواو في (أوتوا) نائب الفاعل (على أنفسهم) متعلّق بـ (يؤثرون) ، (الواو) حاليّة (لو) حرف شرط غير جازم (بهم) متعلّق بخبر كان (الواو) اعتراضيّة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ ، ونائب الفاعل لـ (يوق) ضمير مستتر يعود على من (الفاء) رابطة لجواب الشرط (أولئك هم المفلحون) مثل أولئك هم الصادقون " 2 " .

جملة : " الذين تبوّؤا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تبوّؤا الدار . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " (ألفوا) الإيمان . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

(1) أو متعلق بالفعل المقدّر عامل الإيمان: ألفوا الإيمان، والعطف هنا من عطف الجمل.

(2) في الآية (8) من هذه السورة.

وجملة: "يحبّون... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) " 1 ".

وجملة: " هاجر... " لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: " لا يجدون... " في محلّ رفع معطوفة على جملة يحبّون.

وجملة: " أوتوا... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: " يؤثرون... " في محلّ رفع معطوفة على جملة يحبّون.

وجملة: "كان بهم خصاصة... " في محلّ نصب حال.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي: فإنّهم يؤثرون على أنفسهم.

وجملة: " من يوق... " لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: " يوق... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 ".

وجملة: " أولئك... المفلحون " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

10 - (الواو) عاطفة (الذين جاؤوا . . . يقولون) مثل الذين تبوّؤا . . . يحبّون (من بعدهم) متعلّق بـ (جاؤوا) ، (ربّنا) منادى مضاف منصوب (لنا) متعلّق بـ (اغفر) وكذلك (لإخواننا) ، (بالإيمان) متعلق بـ (سبقونا) ، (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (في قلوبنا) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (للذين) متعلّق بـ (غلّا) "3" . .

وجملة: "الذين جاؤوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الذين تبوءا .

وجملة: "جاؤوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "يقولون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) "4" .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة حالا من فاعل تبوّؤا إذا أعرب (الذين) معطوفا بالواو على الفقراء عطف مفردات .

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(3) أو متعلّق بمحذوف نعت لـ (غلّا) .

(4) يجوز في هذه الجملة أن تكون في محلّ نصب حالا من فاعل جاؤوا إذا عطف (الذين) على (الذين تبوّؤا) . . أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة: " النداء وجوابه . . . " في محلّ نصب مقول القول " 1 " .

وجملة: " اغفر لنا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة: " سبقونا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة: " لا تجعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء " 2 " .

وجملة: " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث .

وجملة: " ربّنا (الثانية) " لا محلّ لها استئناف في حيز القول " 3 " .

وجملة: " إنّك رؤف رحيم " لا محلّ لها جواب النداء الثاني .

الصرف:

---

(1) يجوز أن تكون جملة النداء اعتراضيّة وجملة اغفر لنا مقول القول .

(2) أو في محلّ نصب معطوفة على جملة اغفر لنا .

(3) أو استئنافيّة مؤكّدة لجملة النداء الأولى .

(حاجة) ، انظر الآية (68) من سورة يوسف . . وعنى بالحاجة هنا " الحسد والغيظ

والحزازة ، وهو من إطلاق الملزوم على اللازم على سبيل الكناية لأنّ هذه المعاني لا تنفكّ

عن الحاجة غالبا " من حاشية الجمل .

(خصاصة) ، اسم للحاجة والفقر ، أصلها خصاص البيت وهي فروجه ، ووزن خصاصة فعالة بفتح الفاء .

(يوق) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم حيث حذفت لام الكلمة ، وزنه يفع بضمّ فسكون ففتح . .

البلاغة

فن الإيجاز : في قوله تعالى وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ .

الكلام من باب : علفتها تبنا وماء باردا . أي تبوؤا الدار وأخلصوا الإيمان .

وقيل : التبوّؤ مجاز مرسل عن اللزوم ، وهو لازم معناه ، فكأنه قيل : لزموا الدار والإيمان .

وقيل ، في توجيه ذلك : إن أل في الدار للعهد ، والمراد دار الهجرة ، وهي تغني غناء الإضافة . وفي الإيمان حذف مضاف ، أي ودار الإيمان ، كأنه قيل : تبوؤا دار الهجرة ودار الإيمان على أن المراد بالدارين المدينة ، والعطف كما في قولك " رأيت الغيث والليث " وأنت تريد زيدا .

[سورة الحشر (59) : الآيات 11 إلى 14]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (12) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (13) لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (14)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام التعجّبيّ (إلى الذين) متعلّق بـ (ترى) بمعنى تنظر (لإخوانهم) متعلّق بـ (يقولون)، (من أهل) متعلّق بحال من فاعل كفروا (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (أخرجتم) ماض مبنيّ للمجهول في محلّ جزم فعل الشرط، و(التاء) نائب الفاعل (اللام) لام القسم (معكم) ظرف منصوب متعلّق بـ (نخرجنّ) "1"، (الواو) عاطفة في الموضعين (لا) نافية (فيكم) متعلّق بـ (نطيع) بحذف مضاف أي في إهانتكم - أو خذلانكم - (أبدا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (نطيع) المنفيّ (قوتلتم) مثل

(1) أو متعلّق بحال من فاعل الخروج أي كائنين معكم..

أخرجتم (اللام) لام القسم للقسم الموطّأ باللام المحذوفة من (إن) (الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم المفهوم من فعل الشهادة " 1 " .

جملة : " لم تر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نافقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " إن أخرجتم " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نخرجنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : " لا نطيع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : " إن قوتلتم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة إن أخرجتم .

وجملة : " ننصرنّكم . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : " اللَّه يشهد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة – أو اعتراضيّة – وجملة : " يشهد . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللَّه) .

وجملة : " إنّهم لكاذبون . . . " لا محلّ لها جواب القسم " 2 " .

12 - (لئن أخرجوا) مثل لئن أخرجتم (لا) نافية (معهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (يخرجون) المنفيّ " 3 " ، (لئن قوتلوا لا ينصرونهم) مثل لئن أخرجوا لا يخرجون . . (لئن) مثل الأول (نصروهم) ماض في محلّ جزم فعل الشرط ،

---

(1) أو هي اللام المزحلقة وقد كسرت همزة (إنّ) لوجودها والأصل أن تفتح . . والجملة استئناف بيانيّ ، أو تفسير لفعل الشهادة .

(2) أو استئناف بياني ، أو تفسير لفعل الشهادة . [. . . . .]

(3) أو متعلق بحال من فاعل الخروج أي كائنين معكم .

و(الواو) فاعل ، و(هم) مفعول به (اللام) لام القسم (يولّن) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون ، وقد حذفت لتوالي الأمثال ، و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل ،

و(النون) نون التوكيد (ثمّ) للعطف (لا) نافية، و(الواو) في (ينصرون) نائب الفاعل.

وجملة: "إن أخرجوا . . . " لا محلّ لها تعليل للكذب المتقدّم.

وجملة: "لا يخرجون . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم.

وجملة: "إن قوتلوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن أخرجوا.

وجملة: "لا ينصرونهم . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم.

وجملة: "إن نصروهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن أخرجوا.

وجملة: "يولّنّ الأدبار . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم.

وجملة: "لا ينصرون" لا محلّ لها معطوفة على جملة يولّنّ . . . .

13 - (اللام) لام الابتداء (رهبة) تمييز منصوب (في صدورهم) متعلّق بحال من الضمير في أشدّ، أي مسرّين ذلك (من اللّه) متعلّق بـ (أشدّ)، والإشارة في (ذلك) إلى خوفهم من

المخلوق أكثر من الخالق (بأنهم قوم) مصدر مؤوّل في محلّ جرّ بالباء متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (ذلك) ، (لا) نافية . .

وجملة : " أنتم أشدّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ذلك بأنّهم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " لا يفقهون " في محلّ رفع نعت لقوم .

14 - (لا) نافية (جميعا) حال من فاعل يقاتلون (إلّا) للحصر (في قرى) متعلّق بـ (يقاتلونكم) ، (أو) للعطف (من وراء) متعلّق بـ (يقاتلونكم) فهو معطوف على الجارّ الأول (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بالخبر (شديد) (جميعا)

مفعول به ثان منصوب ، أي مجتمعين (الواو) حاليّة (ذلك . . . لا يعقلون) مثل ذلك . . . لا يفقهون .

وجملة : " لا يقاتلونكم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " بأسهم بينهم شديد " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر .

وجملة : " تحسبهم جميعا " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قلوبهم شتّى " في محلّ نصب حال " 1 " .

وجملة : " ذلك بأنّهم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " لا يعقلون " في محلّ رفع نعت لقوم .

الصرف :

(13) رهبة : مصدر سماعيّ لفعل رهب - في البناء للمجهول - وزنه فعلة بفتح فسكون .

(14) محصّنة : مؤنّث محصّن ، اسم مفعول من الرباعيّ حصّن ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشددة .

الفوائد

- اللام الموطئة . .

---

(1) أو هي مستأنفة للإخبار .

هي اللام الداخلة على أداء شرط للإيذان بأن الجواب بعدها مبني على قسم قبلها ، ومن ثم تسمى اللام المؤذنة ، وتسمى الموطئة أيضا ، لأنها وطأت الجواب للقسم ، أي مهدته له ، كقوله تعالى لَئِنْ أُخْرِجوا لا يَخرُجُونَ معَهُمْ ، وَلَئِنْ قوتِلوا لا يَنْصُرُونَهُمْ ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ . وأكثر ما تدخل على (إن) . وقد تحذف هذه اللام مع كون القسم مقدرا قبل الشرط ، كقوله تعالى وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فهذا لا يكون إلا جوابا للقسم.

[سورة الحشر (59) : الآيات 15 إلى 17]

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (15) كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (16) فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (17)

الإعراب:

(كمثل) خبر لمبتدأ محذوف تقديره مثلهم (من قبلهم) متعلّق بمحذوف صلة الموصول الذين (قريبا) ظرف زمان منصوب متعلّق بالاستقرار الذي هو خبر " 1 "، (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (عذاب)..

جملة: " (مثلهم) كمثل... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " ذاقوا... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " لهم عذاب... " لا محلّ لها معطوفة على جملة ذاقوا.

16 - (كمثل) مثل الأول " 2 "، (إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ نصب متعلّق بالاستقرار الذي هو خبر " 3 " (للإنسان) متعلّق بـ (قال)، (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب قال (منك) متعلّق بـ (بريء)، (ربّ) نعت للفظ الجلالة منصوب..

وجملة: " (مثلهم) كمثل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " قال . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " اكفر . . . " في محلّ نصب مقول القول.

---

(1) أو متعلّق بـ (ذاقوا).

(2) الأول عن اليهود والثاني عن المنافقين.

(3) والمعنى: المنافقون في إغرائهم اليهود يماثلون الشيطان حين قال للإنسان اكفر.

وجملة: "كفر . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " قال (الثانية) " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: " إنّي بريء . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " إنّي أخاف . . . " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: " أخاف . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

17 - (الفاء) استئنافيّة (في النار) متعلّق بخبر أنّ (خالدين) حال من ضمير الاستقرار الذي هو خبر أنّ.

والمصدر المؤوّل (أنّهما في النار ..) في محلّ رفع اسم كان مؤخّر .

(الواو) استئنافيّة ، والإشارة في (ذلك) إلى العذاب ..

وجملة : "كان عاقبتهما ... "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ذلك جزاء " لا محلّ لها تعليليّة .

[سورة الحشر (59) : الآيات 18 إلى 20]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (18) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (19) لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ (20)

الإعراب :

(603/757)

(أيّها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الذين) موصول في محلّ نصب بدل من أيّ - أو عطف بيان - (الواو) عاطفة في الموضعين (اللام) لام الأمر (لغد) متعلّق بـ (قدّمت) ، (ما) حرف

مصدريّ " 1 " .

والمصدر المؤوّل (ما تعملون . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بالخبر (خبير) .

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " اتّقوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " تنظر نفس . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " قدّمت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " اتّقوا . . . (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة اتّقوا (الأولى) .

وجملة : " إنّ اللَّه خبير " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

19 - (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (كالذين) متعلّق بخبر تكونوا (الفاء) عاطفة (هم) ضمير فصل " 2 " . .

وجملة : " لا تكونوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " نسوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أنساهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نسوا .

وجملة : " أولئك . . . الفاسقون " لا محلّ لها تعليليّة .

20 - (لا) نافية (الواو) عاطفة (هم الفائزون) مثل هم الفاسقون .

وجملة: "لا يستوي أصحاب ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ، والعائد محذوف.

(2) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره الفاسقون، والجملة الاسميّة خبر المبتدأ أولئك.

(604/757)

وجملة: "أصحاب الجنّة .. الفائزون" لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة -

الصرف:

(18) غد: اسم لليوم الآتي بعيدا أو قريبا، وقصد به هنا يوم القيامة، فكأنّه لقربه يوم الغد على سبيل الاستعارة، وزنه فع فلامه محذوفة إذ النسبة منه غدويّ وغديّ.

البلاغة

التنكير: في قوله تعالى وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ.

فقد نكّر النفس والغد، أما تنكير النفس فاستقلالا للأنفس النواظر فيما قدّمن للآخرة، كأنه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك، وأما تنكير الغد، فلتعظيمه وإبهام أمره، كأنه قيل: (الغد) لا يعرف كنهه لغاية عظمة.

[سورة الحشر (59): آية 21]

لَوْ أَنزَلْنَا هذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)

الإعراب:

(لو) حرف شرط غير جازم (على جبل) متعلّق بـ (أنزلنا)، (اللام) رابطة للجواب (خاشعا، متصدّعا) حالان منصوبتان من ضمير الغائب في (رأيته)، (من خشية) متعلّق بـ (متصدّعا) و(من) سببيّة (الواو) عاطفة (تلك) اسم إشارة في محلّ رفع مبتدأ "1"، (للناس) متعلّق بـ (نضربها)..

جملة: "أنزلنا..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "رأيته..." لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

---

(1) أو مفعول به لفعل محذوف على الاشتغال يفسّره المذكور بعده.

وجملة: "تلك الأمثال نضربها" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "نضربها..." في محلّ رفع خبر المبتدأ (تلك).

وجملة: "لعلّهم يتفكّرون" لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "يتفكّرون" في محلّ رفع خبر لعلّ.

الصرف:

(متصدّعا)، اسم فاعل من الخماسيّ تصدّع، وزنه متفعّل بضمّ الميم وكسر العين المشدّدة.

[سورة الحشر (59): الآيات 22 إلى 24]

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)

الإعراب:

(الذي) موصول في محلّ رفع نعت للفظ الجلالة " 1 "، (لا) نافية للجنس (إلّا) للاستثناء (هو) بدل من الضمير المستكنّ في الخبر المحذوف (عالم) خبر ثان للمبتدأ (هو) " 2 " ..

جملة : " هو اللَّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا إله إلّا هو . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

---

(1) أو خبر ثان للمبتدأ هو .

(2) أو نعت للفظ الجلالة .

(607/757)

وجملة : " هو الرحمن . . . " لا محلّ لها استئناف مؤكّد لمضمون ما سبق أو للبيان .

23 - (الملك) نعت للفظ الجلالة " 1 " ، وكذلك الصفات التالية " 2 " ، (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف (عمّا) متعلّق بالمصدر (سبحان) ، وعائد الموصول محذوف .

وجملة : " هو اللَّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة مؤكّدة .

وجملة : " لا إله إلّا هو " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثاني .

وجملة : " (نسبّح) سبحان . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " يشركون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

24 - (الخالق) نعت للفظ الجلالة ، وكذلك الصفات التالية " 3 " ، (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (الأسماء) ، (له) الثاني متعلّق بـ (يسبّح) " 4 " ، (في السموات) متعلّق بمحذوف

صلة ما (الواو) حاليّة – أو عاطفة.

وجملة: " هو اللَّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة مؤكّدة.

وجملة: " له الأسماء . . . " في محلّ رفع خبر آخر للمبتدأ هو.

وجملة: " يسبّح له ما في السموات " في محلّ رفع خبر آخر للمبتدأ هو " 5 " وجملة: " هو العزيز . . . " في محلّ نصب حال " 6 " .

الصرف:

(23) القدّوس: صفة مشبّهة من (قدس) بمعنى طهر، وزنه

---

(1) أو خبر للضمير هو.

(2، 3) أو هي أخبار للمبتدأ هو.

(4) أو اللام زائدة والضمير في محلّه الثاني مفعول يسبّح . . أو هو متعلّق بحال من الموصول الفاعل ما.

(5) أو هي استئنافيّة لا محل لها. [. . . . .]

(6) أو هي معطوفة على جملة يسبّح.

فعّول بضمّ الفاء وتشديد العين المضمومة.

(السلام) ، صفة مشبّهة من (سلم) أي ذو السلامة ، وزنه فعال بفتح الفاء.

(24) المصوّر: اسم فاعل من الرباعيّ (صوّر) ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين المشدّدة. انتهى انتهى. اهـ ﴿الجدول حـ 28 صـ 190.212﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(59) سورة الحشر

مدنيّة وآياتها اربع وعشرون

[سورة الحشر (59) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (2) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (3) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (4)

اللغة :

(يَحْتَسِبُوا) يخطر ببالهم ويظنوا .

(الْجَلَاءَ) الخروج من الوطن ، قال الرازي : " الجلاء أخصّ من الخروج لأنه لا يقال إلا للجماعة والإخراج يكون للجماعة والواحد " وفي المختار " الجلاء بالفتح والمد : الأمر الجلي تقول منه جلا الخبر يجلو جلاء وضح والجلاء أيضا الخروج من البلد والإخراج أيضا وقد جلوا عن أوطانهم وجلاهم غيرهم يتعدى ويلزم " وعبارة المصباح :

"

والفاعل من الثلاثي حال مثل قاض والجماعة جالية ومنه قيل لأهل الذمّة الذين أجلاهم عمر رضي اللّه عنه من جزيرة العرب جالية ثم نقلت الجالية إلى الجزية التي أخذت منهم ثم استعملت في كل جزية تؤخذ وإن لم يكن صاحبها جلا عن وطنه فيقال استعمل فلان على الجالية والجمع الجوالي" وفي الأساس: "وجلوا عن بلادهم جلاء وقع عليهم الجلاء وأجليناهم عنها وجلوناهم ويقال للقوم إذا كانوا مقبلين على شيء محدقين به ثم انكشفوا عنه قد أخرجوا عنه وأجلوا عنه".

الإعراب:

(سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) سبّح فعل ماض وللّه متعلقان بسبّح وقيل اللام زائدة وما فاعل وفي السموات متعلقان بمحذوف هو صلة الموصول وما في الأرض عطف على ما في السموات وهو مبتدأ والعزيز خبر أول والحكيم خبر ثان (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ) الجملة مستأنفة أو حالية وهو مبتدأ والذي خبره وجملة أخرج صلة والذين مفعول به وجملة كفروا صلة الذين ومن أهل الكتاب حال من الذين كفروا وهم بنو النضير، ومن ديارهم متعلقان بأخرج ولأول الحشر هذه اللام تتعلق بأخرج وهي لام التوقيت كقوله تعالى لدلوك الشمس أي عند أول الحشر وعبارة الزمخشري: "ولأول الحشر تتعلق بأخرج وهي اللام في قوله تعالى يا ليتني قدّمت لحياتي وقولك جئته لوقت كذا"

)

ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا) ما نافية وظننتم فعل وفاعل وأن حرف مصدري ونصب ويخرجوا فعل مضارع منصوب بأن وأن وما في حيّزها سدّت مسدّ مفعولي ظننتم (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ) الواو عاطفة وظنوا فعل ماض من أفعال القلوب والواو فاعل وأن واسمها وقد سدّت مسدّ مفعولي ظنوا ومانعتهم خبر أنهم وحصونهم فاعل مانعتهم ويجوز أن يكون مانعتهم خبرا مقدما وحصونهم مبتدأ مؤخرا والجملة خبر أنهم ومن اللّه متعلقان بمانعتهم (فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) الفاء للعطف مع التعقيب وأتاهم اللّه فعل ماض ومفعول به مقدّم وفاعل مؤخر أي أتاهم أمره أو عذابه ومن حرف جر وحيث ظرف مكان مبني على الضم في محل جر بمن والجار والمجرور متعلقان بأتاهم ولم حرف نفي وقلب وجزم ويحتسبوا فعل مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها وقذف عطف على فأتاهم وفي قلوبهم متعلقان بقذف والرعب مفعول به والرعب يقرأ بضم العين وسكونها (يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ

بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ) يجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة كأنها تفسير للرعب ، وأن تكون حالية من الضمير في قلوبهم .

(613/757)

ويخربون فعل مضارع وفاعل وبيوتهم مفعول به وبأيديهم متعلقان بيخربون وأيدي عطف على بأيديهم والمؤمنين مضاف إلى أيدي وقرىء يخربون بالتخفيف من أخرب وبالتشديد من خرّب (فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ) الفاء الفصيحة أي إن تدبرتم هذا وعقلتموه فاتعظوا بحالهم ولا تغدروا ، واعتبروا فعل أمر وفاعل ويا حرف نداء وأولي منادى مضاف منصوب بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم والأبصار مضاف إليه (وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا) الواو استئنافية ولولا حرف امتناع لوجود وأن مصدرية وهي وما بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ خبره محذوف تقديره موجود وكتب الله فعل وفاعل وعليهم متعلقان بكتب

والجلاء مفعول به واللام واقعة في جواب لولا وعذبهم فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به وفي الدنيا متعلقان بعذبهم (وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ) الواو استئنافية ولهم خبر مقدّم وفي الآخرة حال وعذاب النار مبتدأ مؤخر يعني إن نجوا من عذاب الدنيا فإن عذاب

الآخرة لهم بالمرصاد ، ولا يجوز أن تكون الواو عاطفة لأن ذلك يؤدي إلى عطف الجملة على عذبهم في الدنيا وذلك يقتضي أن ينجوا من عذاب الآخرة أيضا لأن لولا تقتضي انتفاء الجزاء بحصول الشرط (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) ذلك مبتدأ والإشارة إلى المذكور من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وبأنهم خبر ذلك وأن واسمها وجملة شاقوا خبرها والواو فاعل واللّه مفعول به ورسوله عطف على اللّه (وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) الواو عاطفة ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ويشاق فعل الشرط واللّه مفعول به والجواب محذوف تقديره يعاقب والفاء تعليلية وإن واسمها وخبرها ولك أن تجعل الفاء رابطة والجملة في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر المبتدأ .

الفوائد :

روى التاريخ أن بني النضير وهم رهط من اليهود نزلوا المدينة انتظارا منهم لمحمد صلّى اللّه عليه وسلم فغدروا بالنبي بعد أن عاهدوه وصاروا عليه مع المشركين فحاصرهم رسول اللّه حتى رضوا بالجلاء وكانوا أول من أجلي من أهل الذمّة من جزيرة العرب ثم أجلي آخرهم في زمن عمر بن الخطاب فكان جلاؤهم أول حشر من المدينة وآخر حشر جلاء

عمر لهم ، وقيل أن أول الحشر إخراجهم من حصونهم إلى خيبر وآخر الحشر إخراجهم من خيبر إلى الشام ، قال ابن العربي :

" الحشر أول وأوسط وآخر فالأول : إجلاء بني النضير والأوسط إجلاء أهل خيبر والآخر هو يوم القيامة " .

[سورة الحشر (59) : الآيات 5 إلى 7]

ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ (5) وَما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ وَلكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (7)

اللغة :

(لِينَةٍ) اللينة بالكسر في اللغة مصدر لان والمراد بها هنا النخلة من الألوان وهي ضروب النخل ما خلا العجوة والبرنية وهما أجود النخيل . وياؤها عن واو قلبت لكسرة ما قبلها كالديمة ، وقيل اللينة النخلة الكريمة كأنهم اشتقوها من اللين قال ذو الرمّة :

كأن قتودي مؤتها عش طائر على لينة سوقاء تهفو جنوبها

يصف ناقته ، والقتود عيدان الرحل تتخذ من القتاد وهو شجر صلب ذو شوك واللينة النخلة والسوقاء طويلة الساق والجنوب نوع من الريح والضمير للّينه ، شبّه عيدان الرحل فوق الناقة بعشّ الطائر فوق النخلة . وتجمع اللّينة على لين .

(أَفاءَ) جعله فيئا أي غنيمة .

(أَوْجَفْتُمْ) أسرعتم ، وفي المصباح : " وجف الفرس والبعير وجيفا عدا وأوجفته بالألف أعديته وهو العنق في السير " .

(رِكابٍ) الركاب : الإبل واحدتها راحلة وتجمع على ركب وركائب وركابات وركاب السحاب الرياح والركاب أيضا ما يعلق في السرج فيجعل الراكب رجله فيه وقال الفرّاء : " العرب لا يطلقون لفظ الراكب إلا على راكب البعير ويسمّون راكب الفرس فارسا " .

(

دُولَةً) بضم الدال وقرىء بفتحها لغتان ما يدول للإنسان أي يدور من الجد يقال دالت له الدولة وأديل لفلان .

الإعراب :

(ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ) ما اسم شرط جازم في محل نصب مفعول به مقدّم لقطعتم وقطعتم فعل وفاعل في محل جزم فعل الشرط ومن لينة حال

واو حرف عطف وتركتموها عطف على قطعتم وقائمة مفعول ثان لترك وعلى أصولها متعلقان بقائمة والفاء رابطة لجواب الشرط وبإذن جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف أي فقطعها بإذن اللّه والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط (وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ) الواو عاطفة والمعطوف عليه محذوف تقديره أذن في قطعها ليسرّ المؤمنين ويغرّهم ويخزي المنافقين والفاسقين ويذلّهم واللام لام التعليل ويخزي فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بالمحذوف المقدّر والفاسقين مفعول يخزي (وَما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ) كلام مستأنف مسوق للشروع في بيان حال ما أخذ

من أموالهم وما اسم موصول في محل رفع مبتدأ وجملة أفاء صلة واللّه فاعل وعلى رسوله متعلقان بأفاء ومنهم حال والفاء رابطة لما في الموصول من رائحة الشرط وما نافية وأوجفتم فعل وفاعل وعليه متعلقان بأوجفتم ومن حرف جر زائد وخيل مجرور بمن لفظا منصوب محلا على أنه مفعول أوجفتم ولا ركاب عطف على خيل (وَلكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ) الواو حالية ولكن حرف استدراك ونصب واللّه اسمها وجملة يسلط

خبرها ورسله مفعول به ليسلط وعلى من يشاء متعلقان بيسلط وجملة يشاء صلة من (وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) اللّه مبتدأ وعلى كل شيء متعلقان بقدير وقدير خبر اللّه (ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) كلام مستأنف مسوق لبيان مصارف الفيء، وسيأتي سر الفصل فيه، وما اسم موصول مبتدأ وجملة أفاء صلة واللّه فاعل وعلى رسوله متعلقان بأفاء ومن أهل القرى حال، قال مقاتل: يعني قريظة والنضير وخيبر، والفاء رابطة لما يتضمنه الموصول من معنى الشرط ولله خبر ما وللرسول وما بعده عطف على قوله لله (كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ) كي حرف تعليل وجر بمعنى اللام ولا نافية ويكون فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد كي واسم يكون مستتر يعود على الفيء ودولة خبرها وبين الأغنياء ظرف متعلق بمحذوف صفة لدولة أي يتداولونه بينهم ومعكم حال (وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) الواو عاطفة وما اسم موصول في محل نصب مفعول به لفعل محذوف دلّ عليه خذوه، ويجوز أن تعرب جملة فخذوه خبر، وجملة أتاكم صلة والكاف مفعول به والرسول فاعل والفاء رابطة لما في الموصول من رائحة الشرط وخذوه فعل أمر وفاعل ومفعول به، وما

نهاكم عنه فانتهوا عطف على ما تقدم (وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) واتقوا الّله فعل أمر وفاعل ومفعول وإن واسمها وخبرها .

البلاغة :

في قوله : " ما أفاء اللّه على رسوله " الآية . الفصل وهو ترك عطف جملة على أخرى ، وضدّه الوصل وهو عطف بعض الجمل على بعض وهذا الباب أغمض أبواب المعاني حتى قيل لبعضهم : ما البلاغة ؟

فقال : معرفة الفصل والوصل قال :

الفصل ترك عطف جملة أتت من بعد أخرى عكس وصل قد ثبت

ولكلّ منهما مواضع نلخصها فيما يلي :

مواضع الفصل : يجب الفصل في خمسة مواضع :

1- أن يكون بين الجملتين اتحاد تام بأن تكون الثانية بدلا من الأولى كالآية التي نحن بصددها ، أو بيانا لها نحو " فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد " أو مؤكدة لها نحو " فمهل الكافرين أمهلهم رويدا " ويقال في هذا الموضع إن بين الجملتين كمال الاتصال .

2- أن يكون بين الجملتين تباين تام بأن تختلفا خبرا وإنشاء كقوله :

لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهد يغني عن الخبر

وقول الآخر :

وقال رائدهم أرسوا نزاولها فحتف كل امرئ يجري بمقدار

فلم يعطف نزاولها على أرسوا لأنه خبر لفظا ومعنى ، وأرسوا إنشاء لفظا ومعنى ، والرائد هو الذي يتقدم القوم لطلب الماء والكلأ للنزول عليه ، وقوله أرسوا أي أقيموا بهذا الكلأ الملائم للحرب وهو

مأخوذ من أرسيت السفينة أي حبستها بالمرساة ، وقوله نزاولها أي نحاول أمر الحرب ونعالجها ، وقوله فحتف إلخ تعليل لمحذوف يفيده ما قبله أي ولا يمنعكم من محاولة إقامة الحرب بمباشرة أعمالها خوف من الحتف وهو الموت فكل إلخ . . . هذا وقد اختلف في إعراب جملة نزاولها فقيل لا محل لها لأنها تعليل لما قبلها فهي جواب عن سؤال مقدّر فليس الفصل لكمال الانقطاع بل لشبه كمال الاتصال وقيل حال أي أقيموا في حال مزاولة الحرب فلذلك ليس الفصل لكمال الانقطاع بل لأن الحال لا يعطف على الجملة المقيدة به أو بأن لا يكون بينهما مناسبة في المعنى كقولك عليّ كاتب ، الحمام طائر ، ويقال في هذا الموضع إن

بين الجملتين كمال الانقطاع .

3- كون الجملة الثانية جوابا عن سؤال نشأ من الجملة الأولى كقوله تعالى " وما أبرىء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء " ويقال إن بين الجملتين شبه كمال الاتصال .

4- أنه تسبق جملة بجملتين يصحّ عطفها على إحداهما لوجود المناسبة وفي عطفها على الأخرى فساد فيترك العطف دفعا للوهم كقوله :

وتظنّ سلمى أنني أبغي بها بدلا أراها في الضلال تهيم

فجملة أراها يصحّ عطفها على تظن لكن يمنع من هذا توهم العطف على جملة أبغي بها فتكون الجملة الثالثة من مظنونات سلمى مع أنه ليس مرادا ويقال إن بين الجملتين شبه كمال الانقطاع .

5- أن لا يقصد تشريك الجملتين في الحكم لقيام مانع كقوله تعالى : " وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون اللّه يستهزىء بهم " فجملة اللّه يستهزىء بهم لا يصحّ عطفها على إنّا

معكم لاقتضائه أنه من مقولهم ولا على جملة قالوا لاقتضائه أن استهزاء اللّه بهم مقيد بحال خلوّهم إلى شياطينهم ويقال إن بين الجملتين في هذا الموضع توسطا بين الكمالين .

مواضع الوصل : ويجب الوصل في المواضع التالية :

1- إذا اتفقت الجملتان خبرا أو إنشاء وكان بينهما جهة جامعة أي مناسبة تامة ولم يكن ثمة مانع من العطف كقوله تعالى: "إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجّار لفي جحيم" والجامع بينهما التضاد ونحو "كلوا واشربوا ولا تسرفوا" والجامع بينهما التضاد أيضا وهو وهي وذلك لأن الوهم ينزل التضاد عنده منزلة التضايف عند العقل فكما أن العقل لا يحضره أحد المتضايفين إلا ويحضره الآخر فكذا الوهم لا يحضره أحد المتضادّين إلا ويحضره الآخر.

2- إذا أوهم ترك العطف خلاف المقصود كما إذا قيل لك: هل برىء علي من المرض؟ وقلت: لا وأردت أن تدعو للسائل فلا بدّ من الوصل فتقول لا ورعاك اللّه إذ لو فصلت لتوهم أنه دعاء على المخاطب بعدم الرعاية ولولا هذا الإيهام لوجب الفصل لاختلافهما خبرا وإنشاء.

3- أن يكون للأولى محل من الإعراب كأن تكون خبرا ويقصد تشريك الثانية لها في حكم ذلك الإعراب نحو: زيد قام أبوه وقعد أخوه.

هذا والجوامع ثلاثة: عقلي ووهمي وخيالي، ومعنى كونه عقليا أنه يصل بين الجملتين ويجمعهما عند القوة المفكرة بسبب العقل كالتماثل، فإن العقل إذا توجه إلى المثلين في

الحقيقة وجردهما من العوارض ارتفع التعدد وصارا شيئًا واحدا في تلك الحقيقة فيجتمعان في العطف ولكن المراد بالتماثل هنا أن يكون لهما حقيقة مخصوصة

بوصف زائد ، ومعنى كونه وهميا أن يحتال الوهم في جمعهما عند المفكرة كالتقارب للشبه الذي بين البياض والصفرة فإن الوهم يتوصل به إلى جمعهما وإن كان ذلك التشابه عقليا لأنه يأخذه من العقل ويجمع به ولولا الوهم ما صحّ الجمع لأن العقل ينفي الجمع لإدراك التباين معه والوهم يجعله كالتماثل ، ومعنى كونه خياليا أن يحتال الخيال في الجمع عند المفكرة وهو التقارن بين المتعاطفين في المفكرة وإن كان التقارن عقليا لكن الوهم يأخذه منه فيجمع به ولما كان الجامع الخيالي هو هذا التقارن اختلف باختلاف الناس فربّ إنسان يتقارن عنده صور ولا تصحّ في خلد آخر أصلا .

الفوائد :

روى التاريخ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لما نزل باليهود من بني النضير وقد تحصّنوا بحصونهم أمر بقطع نخيلهم وإحراقها فجزع أعداء اللّه عند ذلك وقالوا : يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح ، أمن الصلاح قطع الشجر وقطع النخيل وهل وجدت فيما زعمت أنه

أنزل عليك الفساد في الأرض؟ فوجد المسلمون في أنفسهم من قولهم شيئًا وخشوا أن يكون ذلك فسادا واختلفوا في ذلك فقال بعضهم لا تقطعوا فإنه مما أفاء اللّه علينا ، وقال بعضهم بل نغيظهم بقطعه فأنزل اللّه " ما قطعتم من لينة " الآية .

[سورة الحشر (59) : الآيات 8 إلى 10]

(621/757)

لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8) وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9) وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (10)

اللغة :

(خَصاصَةٌ) حاجة وخلّة وأصلها خصاص البيت أي فروجه .

(يُؤْثِرُونَ) الإيثار : تقديم الغير على النفس يقال آثرته بكذا أي خصصته به وفضّلته .

(شُحَّ) الشح الحرص على المال ، والفرق بينه وبين البخل أن الشحّ غريزة والبخل المنع نفسه فهو أعمّ لأنه قد يوجد البخل ولا شحّ له ولا ينعكس وفي الصحاح : " والشحّ البخل مع حرص " .

الإعراب :

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ) اختلفت أقوال المعربين في تعليق الجار والمجرور فمن جنح إلى مذهب أبي حنيفة جعله بدلا من قوله لذي القربى والمعطوف عليه ومقتضاه اشتراط الفقر فيه وعلى هذا الإعراب نهج الزمخشري وأبو البقاء ، ومن جنح

إلى مذهب الشافعي علّقه بمحذوف تقديره أعجبوا ومقتضاه عدم اشتراط الفقر وإن الاستحقاق يكون بالقرابة وعلى هذا نهج السيوطي وغيره وعبارة أبي حيان : " وإنما جعله الزمخشري بدلا من قوله ولذي القربى لأنه مذهب أبي حنيفة والمعنى أنه يستحق ذو القربى الفقير فالفقر شرط على مذهب أبي حنيفة ففسّره الزمخشري على مذهبه وأما الشافعي فيرى أن سبب الاستحقاق هو القرابة فيأخذ ذو القربى الغني لقرابته . والسر في

التعجب أن السياق يدلّ عليه والمعنى أعجبوا لهؤلاء المهاجرين حيث تركوا أوطانهم وأموالهم وتكبدوا شظف العيش ومرارة الغربة في حبّ النبي والإسلام .

والمهاجرين نعت للفقراء والذين نعت ثان وجملة أخرجوا صلة وهو فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل ومن ديارهم متعلقان بأخرجوا وأموالهم عطف على ديارهم وساغ التعبير عنه بالخروج منه لأن المال بمثابة الظرف الذي يستر صاحبه فناسب التعبير عنه بالخروج (يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانًا) الجملة حالية أي حال كونهم طالبين منه تعالى فضلا ورضوانا ، وفضلا مفعول به ومن اللّه متعلقان بيبتغون أو بمحذوف نعت لفضلا ورضوانا عطف على فضلا (وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) الجملة معطوفة على جملة يبتغون واللّه مفعول ينصرون ورسوله عطف على اللّه وأولئك مبتدأ وهم ضمير فصل أو مبتدأ والصادقون خبر أولئك أو خبرهم والجملة خبر أولئك (وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ) كلام مستأنف مسوق لمديح الأنصار الذين حدبوا على المهاجرين وأحلّوهم دارهم ، ولك أن تجعله منسوقا على الفقراء فالذين على هذين الوجهين إما مبتدأ وإما معطوف على الفقراء فهو في محل جر وجملة تبوءوا صلة والدار

مفعول به والإيمان مفعول به لفعل محذوف تقديره وأخلصوا على حدّ قوله : علفتها تبنا وماء باردا . ويكون العطف من عطف الجمل لأن الإيمان لا يتخذ منزلا فاختصر الكلام ، وقيل هو على

حذف مضاف والمعنى دار الهجرة ودار الإيمان فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه ، أو منصوب بتبوءوا بعد تضمينه معنى لزموا كأنه قال لزموا الدار ولزموا الإيمان وقيل هو من عطف المفردات على أن يكون التجوّز واقعا في الإيمان على طريق الاستعارة وسيأتي مزيد بحث عنه في باب البلاغة ، ومن قبلهم حال وجملة يحبّون خبر الذين ومن مفعول به وجملة هاجر صلة وإليهم متعلقان بهاجر (وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا) الواو عاطفة ولا نافية ويجدون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وفي صدورهم متعلقان بيجدون وحاجة مفعول به ومما نعت لحاجة وجملة أوتوا صلة لما . (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) عطف على ما تقدم وعلى أنفسهم متعلقان بيؤثرون والواو حالية ولو شرطية وكان فعل ماض ناقص وبهم خبر كان المقدم وخصاصة اسمها المؤخر . قال ابن عمر : أهديت لرجل

من أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلم شاة فقال: أخي فلان أحوج إليها وبعث بها إليه فلم يزل يبعث بها واحد بعد واحد حتى تداولها تسعة أبيات ورجعت إلى الأول فنزلت.

)

(625/757)

وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الواو استئنافية ومن شرطية في محل رفع مبتدأ ويوق فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلّة وهو فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو وشحّ مفعول به ثان والفاء رابطة لجواب الشرط وأولئك مبتدأ وهم ضمير فصل أو مبتدأ ثان والمفلحون خبر أولئك أو خبرهم والجملة خبر أولئك وجملة فأولئك إلخ في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من (وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ) الذين مبتدأ وجملة جاءوا صلة ومن بعدهم متعلقان بجاءوا وجملة يقولون خبر الذين وربنا منادى مضاف واغفر فعل دعاء وفاعله مستتر تقديره أنت والجملة مقول القول

ولإخواننا عطف على لنا، والذين نعت لإخواننا وجملة سبقونا صلة الذين وبالإيمان متعلقان بسبقونا (وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا) الواو عاطفة ولا ناهية وتجعل فعل

مضارع مجزوم بلا وفي قلوبنا في موضع المفعول الثاني لتجعل وغلّا مفعولها الأول وللذين نعت لغلّا أي حقدا . (رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ) ربنا منادى مضاف وإن واسمها ورءوف خبر إن الأول ورحيم خبرها الثاني .

البلاغة :

في قوله " والذين تبوءوا الدار والإيمان " فن الإيجاز ، وقد تقدم بحثه مفصلا ، وهو هنا نوع تختصر فيه بعض الألفاظ ويأتي كله بلفظ الحقيقة ، لكن اختصاره من اختصار ألفاظ المجاز ، وبعضهم يسمّيه اختصار الاتباع ، فإن التقدير كما قدّمنا في باب الإعراب : تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان ، كما قال ذو الرمّة :

لما حططت الرحل عنها واردا علفتها تبنا وماء باردا

أي وسقيتها ، وكقول عبد اللّه بن الزبعرى :

ورأيت زوجك في الوغى متقلدا سيفا ورمحا

أي ومتقلدا رمحا .

الفوائد :

للإعراب في قوله " للفقراء " أثر كبير في توجيه المعتقد ، فمذهب أبي حنيفة رحمه اللّه أن استحقاق ذوي القربى لسهمهم من الفيء موقوف على الفقراء حتى لا يستحقه أغنياؤهم ، وقد أغلظ الشافعي رحمه الله ، فيما نقله عنه إمام الحرمين ، الردّ على هذا المذهب بأن اللّه

تعالى علّق الاستحقاق بالقرابة ولم يشترط الحاجة ، وعدم اعتبار القرابة مضادّة محادّة ، واعتذر إمام الحرمين لأبي حنيفة بأن الصدقات لما حرّمت عليهم كان فائدة ذكرهم في خمس الفيء والغنيمة أنه لا يمنع صرف ذلك إليهم امتناع صرف الصدقات ، ثم أتبع هذا العذر بأن قال :

لا ينبغي أن يعبّر به فإن صيغة الآية ناصّة على الاستحقاق لهم تشريفا لهم وتنبيها على عظم أقدارهم ، فمن حمل ذلك على جواز الصرف إليهم مع معارضة هذا الجواز بجواز حرمانهم فقد عطّل فحوى الآية ، ثم استعظم الإمام وقع ذلك عليهم لأنهم يذهبون إلى اشتراط الإيمان في رقبة الظهار زيادة على النصّ فيأتون في إثبات ذلك بالقياس لأنه يستنتج وليس من شأنه الثبوت بالقياس ، قال فكذلك يلزمهم أن يعتقدوا أن اشتراط الفقر في القرابة واشتراط الحاجة لقرب ما ذكروه بغرض القرب ، فأما وأن أصلهم المخصوصون من نسب الرسول عليه الصلاة والسلام والنابتون من شجرته كالعجمة فلا يبقى مع هذا لمذهبهم وجه .

انتهى كلام الإمام ، وإنما أوردته ليعلم أن معارضته لأبي حنيفة على أن اشتراط الحاجة عند أبي حنيفة مستند إلى قياس أو نحوه من الأسباب الخارجة عن الآية فلذلك ألزمه أن يكون زيادة على النصّ فأما وقد تلقى أبو حنيفة اعتبار الحاجة من تقييد هذا البدل المذكور في الآية فإنما يسلك معه واد غير هذا فيقول هو بدل من المساكين لا غير ، وتقديره أنه سبحانه أراد أن يصف المساكين بصفات تؤكد استحقاقهم وحمد الأغنياء على إيثارهم وأن لا يجدوا في صدورهم حاجة مما أوتوا فلما قصد ذلك وقد فصّل بين ذكرهم وبين ما يقصد من ذكر صفاتهم بقوله :

"كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم " إلى قوله : " شديد العقاب " طرّى ذكرهم ليكون توطئة للصفات المتتالية بعده فذكر بصفة أخرى مناسبة للصفة الأولى مبدلة منها وهي الفقر لتشهد التطرية على فائدة الجمع لهم بين صفتي المسكنة والفقر ثم تليت صفاتهم على أثر ذلك وهي

إخراجهم من ديارهم وأموالهم مهاجرين وابتغاؤهم الفضل والرضوان من اللّه ، فإن ذوي القربى ذكروا بصفة الإطلاق فالأصل بقاؤهم على ذلك حتى يتحقق أنهم مرادون بالتقييد وما ذكرناه من صرف ذلك إلى المساكين يكفي في إقامة وزن الكلام فيبقى ذوو القربى على أصل الإطلاق وتلك قاعدة لا يسع الحنفية مدافعتها فإنهم يرون الاستثناء المتعقب للجمل يختصّ بالجملة الأخيرة لأن عوده إليها يقيم وزن الكلام ويبقى ما تقدمهنّ على الأصل ولا فرق بين التعقيب بالاستثناء والبدل وكل ما سوى هذا مع أنه لو جعل بدلا من ذوي القربى مع ما بعده لم يكن إبداله من ذوي القربى إلا بدل بعض من كل فإن ذوي القربى منقسمون إلى فقراء وأغنياء ولم يكن إبداله من المساكين إلا بدلا للشيء من الشيء وهما لعين واحدة ، فيلزم أن يكون هذا البدل محسوسا بالنوعين المذكورين في حالة واحدة وذلك متعذر لما بين النوعين من الاختلاف والتباين وكلّ منهما يتقاضى ما يأباه الآخر فهذا القدر كان إن شاء اللّه تعالى وعليه أعرب الزجّاج الآية فجعله بدلا من المساكين خاصة واللّه تعالى الموفّق للصواب .

[سورة الحشر (59) : الآيات 11 إلى 17]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (12) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (13) لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (14) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (15)

كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (16) فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (17)

الإعراب:

)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ) كلام مستأنف مسوق لحكاية ما جرى بين المنافقين والكفّار من أقوال كاذبة ومحاورات متهافتة، والهمزة

للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلّة والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت أي تنظر وإلى الذين متعلقان بتر وجملة نافقوا صلة وجملة يقولون مستأنفة لبيان المتعجب منه والتعبير بالمضارع لاستحضار صورة القول وتجدده ولإخوانهم متعلقان بيقولون والذين نعت لإخوانهم وجملة كفروا صلة الذين ومن أهل الكتاب حال (لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً) الجملة مقول قول قولهم واللام موطئة للقسم وإن شرطية وأخرجتم فعل ماض مبني

للمجهول في محل جزم فعل الشرط والتاء نائب فاعل واللام جواب القسم أيضا ونخرجن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم وجواب إن الشرطية محذوف، والكثير في كلام العرب إثبات اللام المؤذنة بالقسم قبل أداة الشرط، ومعكم ظرف متعلق بنخرجنّ والواو حرف عطف ولا نافية ويطع فعل مضارع مرفوع لأنه معطوف على جملة لئن أخرجتم وكذلك قوله وإن قوتلتم فمقول قولهم ثلاث جمل وجاء الفعل مرفوعا هو وما بعده لأنها راجعة على حكم القسم لا على حكم الشرط وفقا للقاعدة المتفق عليها من أنه إذا تقدم القسم على الشرط كان الجواب للقسم، وفيكم

متعلقان بنطيع على حذف مضاف أي في خذلانكم وأحدا مفعول به وأبدا ظرف للنفي متعلق بنطيع أيضا (وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ) الواو عاطفة وإن شرطية حذفت قبلها اللام الموطئة للقسم وقوتلتم فعل ماض مبني للمجهول في محل جزم فعل الشرط واللام جواب القسم وننصرنّكم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وجواب إن محذوف والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم وقد تقدم القول في ذلك (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ) واللّه مبتدأ وجملة يشهد خبر وإن حرف مشبّه بالفعل وكسرت همزتها لوقوع اللام المزحلقة في خبرها والهاء اسمها وكاذبون خبرها (لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ) اللام موطئة للقسم وإن شرطية وأخرجوا فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وهو في محل جزم فعل الشرط وجواب إن محذوف دلّ عليه جواب القسم وهو جملة لا يخرجون ومعهم ظرف متعلق بيخرجون (وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ) عطف على ما تقدم مماثل له في إعرابه (وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ) عطف أيضا وقوله ليولّنّ:

اللام جواب القسم ويولّنّ فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والأدبار

مفعول به وثم حرف عطف ولا نافية وينصرون فعل مضارع معطوف على يولّنّ مرفوع مثله والضمائر عائدة على اليهود أو على المنافقين (لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ) اللام لام الابتداء وأنتم مبتدأ وأشد خبر ورهبة تمييز وهو مصدر رهب المبني للمجهول هنا لأن المخاطبين مرهوب منهم لا راهبون فلا يرد السؤال كيف يستقيم التفضيل بأشدية الرهبة مع أنهم لا يرهبون من اللّه لأنهم لو رهبوا منه لتركوا الكفر والنفاق ، وفي صدورهم نعت لرهبة ومن اللّه متعلقان برهبة (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ) ذلك مبتدأ وبأنهم خبر وأن واسمها وقوم خبرها وجملة لا يفقهون نعت لقوم (لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ) لا نافية ويقاتلونكم فعل مضارع مرفوع وفاعل ومفعول به وجميعا حال أي مجتمعين وإلا أداة حصر وفي قرى متعلقان بيقاتلونكم والضمير يعود لليهود ومحصنة نعت لقرى وأو حرف عطف ومن وراء عطف على في قرى وجدر مضاف إليه وهو جمع جدار وقرىء بالإفراد (بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى) الجملة مستأنفة لبيان حالهم أي أنهم في غاية القوة والشجاعة إذا حارب بعضهم بعضا ولكنهم إذا حاربوكم ضعفوا وجبنوا ، وبأسهم مبتدأ وبينهم ظرف متعلق بشديد وشديد خبر وجملة تحسبهم استئنافية أيضا وتحسبهم فعل مضارع والفاعل مستتر تقديره وأنت والهاء مفعول به أول وجميعا مفعول به ثان والواو حالية وقلوبهم مبتدأ وشتى خبره والجملة حالية (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ) تقدم إعراب نظيرتها قريبا (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ) كمثل خبر لمبتدأ محذوف تقديره مثلهم والذين مضاف إليه ومن قبلهم صلة الذين وقريبا ظرف متعلق بالاستقرار المحذوف الذي تعلق به من قبلهم ولك أن تعلقه بذاقوا وعلقه الزمخشري بمضاف مقدّر في الخبر أي كوجود مثل أهل بدر قريبا أي مثل اليهود من بني النضير فيما وقع لهم من الإجلاء والذل

والمهانة كمثل أهل مكة فيما وقع لهم أيضا يوم بدر من الهزيمة والأسر والقتل وليس قوله ببعيد ، وذاقوا فعل وفاعل ووبال أمرهم مفعول (وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) الواو استئنافية ولهم خبر مقدّم وعذاب مبتدأ مؤخر وعظيم نعت أي في الآخرة (كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ) كمثل خبر لمبتدأ محذوف أي مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال كمثل الشيطان وإذا ظرف لما مضى من الزمن متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر ولك أن تعلقه بمحذوف على أنه حال من مثل الشيطان كأنه بيان له وجملة قال في محل جر بإضافة

الظرف إليها وللإنسان متعلقان بقال وجملة اكفر مقول القول (فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ) الفاء عاطفة على محذوف أي فكفر فلما كفر، ولما ظرفية حينية أو رابطة متضمنة معنى الشرط وجملة كفر في محل جر بإضافة الظرف إليها وجملة قال لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وإن واسمها وبريء خبرها ومنك متعلقان ببريء (إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ) الجملة تعليل كاذب لبراءته منه وإلا فهو لا يخاف الله، وإن واسمها وجملة أخاف الله خبرها ورب العالمين بدل من الله أو نعت له (فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ) الفاء عاطفة وكان فعل ماض ناقص وعاقبتهما خبرها المقدّم أي الغاوي والمغوى، وأن وما في حيّزها هو الخبر وأن واسمها وفي النار خبرها خالدين حال وفيها متعلقان بخالدين والواو استئنافية وذلك مبتدأ والإشارة إلى العذاب وجزاء الظالمين خبر ذلك.

[سورة الحشر (59) : الآيات 18 إلى 24]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ
(18) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (19) لا يَسْتَوِي

أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ (20) لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)

الإعراب:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ) كلام مستأنف مسوق لمخاطبة المؤمنين وإسداء الموعظة لهم، واتقوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والله مفعوله والواو حرف عطف واللام لام الأمر وتنظر فعل مضارع مجزوم بلام الأمر ونفس فاعل وما مفعول تنظر وجملة قدّمت صلة ما والعائد محذوف أي

قدّمته ولغد متعلقان بقدّمت وأطلق الغد على يوم القيامة تقريبا له وسيأتي مزيد بحث عن معنى الغد في باب البلاغة (وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ) كرر الأمر بالتقوى تأكيدا له

، وجملة إن اللّه خبير بما تعملون تعليل للأمر بالتقوى وإن واسمها وخبرها (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ) الواو عاطفة ولا ناهية وتكونوا فعل مضارع ناقص مجزوم بلا والواو واسمها وكالذين خبرها وجملة نسوا اللّه صلة الموصول ، فأنساهم الفاء عاطفة وأنساهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به أول وأنفسهم مفعول به ثان (أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ) أولئك مبتدأ وهم ضمير فصل أو مبتدأ ثان والفاسقون خبر أولئك أو خبرهم والجملة خبر أولئك (لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ) لا نافية ويستوي فعل مضارع مرفوع وأصحاب النار فاعل وأصحاب الجنة عطف على أصحاب النار (أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ) كلام مستأنف مسوق لبيان كيفية عدم الاستواء وأصحاب الجنة مبتدأ وهم ضمير فصل أو مبتدأ ثان والفائزون خبر على كل حال وقد تقدم نظيره تقريبا (لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) كلام مستأنف مسوق للتشبيه ولو شرطية وأنزلنا فعل وفاعل وهذا مفعول به والقرآن بدل وعلى جبل متعلقان بأنزلنا واللام رابطة لجواب لو ورأيته فعل وفاعل ومفعول به وخاشعا مفعول ثان أو حال لأن الرؤية تحتمل القلبية والبصرية ومتصدعا حال ثانية أو نعت لخاشعا ومن خشية اللّه متعلقان بمتصدعا (وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) الواو استئنافية وتلك مبتدأ والأمثال بدل وجملة نضربها خبر وللناس متعلقان بنضربها ولعل واسمها وجملة يتفكرون خبرها (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ

إِلَّا هُوَ) هو مبتدأ والله خبر أول والذي نعت وجملة لا إله إلا هو صلة وقد تقدم إعراب كلمة الشهادة مفصّلا في البقرة فجدّد به عهدا (عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ)

أخبار متعددة لله وقد تقدمت أسماء الله الحسنى (سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) سبحان مفعول مطلق لفعل محذوف وعمّا متعلقان بسبحان وجملة يشركون صلة (هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ) هو مبتدأ وما بعده من الأسماء الحسنى أخبار (لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى) له خبر مقدم والأسماء مبتدأ مؤخر والحسنى نعت والحسنى مؤنث الأحسن الذي هو اسم تفضيل لا مؤنث أحسن المقابل لامرأة حسناء ، وفي القاموس " ولا تقل رجل أحسن في مقابل امرأة حسنا وعكسه غلام أمرد ولا تقل جارية مرداء وإنما يقول هو الأحسن على إرادة أفعل التفضيل وجمعه أحاسن والحسنى بالضم ضد السوءى " (يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) تقدم في أول السورة .

البلاغة :

في قوله " ولتنظر نفس ما قدّمت لغد " تنكير النفس والغد ، أما تنكير النفس فاستقلال

للأنفس النواظر فيما قدّمن للآخرة ، وأما تنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره كأن قيل لغد لا يعرف كنهه لعظمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 32. 55﴾

(638/757)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والخمسون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/758)

الجزء الثامن والخمسون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الممتحنة)

(4/758)

(سورة الممتحنة)

(5/758)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الممتحنة

مقصودها براءة من أقر بالإيمان ممن اتسم بالعدوان دلالة على صحة مدعاه كما أن الكفار تبرؤوا من المؤمنين وكذبوا بما جاءهم من الحق لئلا يكونوا على باطلهم أحرص من المؤمنين على حقهم ، وتسميتها بالممتحنة أوضح شيء فيها وأدله على ذلك لأن الصهر أعظم الوصل وأشرفها بعد الدين ، فإذا نفى ومنع دل على أعظم المقاطعة لدلالته على الامتهان بسبب الكفران الذي هو أقبح العصيان . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 7 صـ 547﴾

(6/758)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى)

السّورة مدنيّة بالاتّفاق .

وآياتها ثلاثة عشر .

وكلماتها ثلاثمائة وأَربعون .

وحروفها أَلف وخمسمائة وعشر .

مجموع فواصل آياتها (لم نردّ) على اللاّم منها آية : السّبيل .

وعلى الدّال آية : الحميد .

ولها ثلاثة أَسماء : سورة الممتحنة ، وسورة الامتحان ، كلاهما بقوله فيها ﴿ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ الثَّالث سورة المَودّة .

لقوله : ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ و ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ و ﴿ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِّنْهُمْ مَّوَدَّةً ﴾ .

معظم مقصود السّورة : النهى عن موالاة الخارجين عن مِلَّة الإِسلام ، والاقتداءُ بالسّلف الصّالح فى طريق الطَّاعة والعبادة ، وانتظار المودّة بعد العداوة ، وامتحان المدّعين بمطالبة الحقيقة ، وأَمر الرّسول بكيفيّة البَيْعة مع أَهل السّتْر والعفَّة ، والتَّجنّب من أَهل الزّيغ والضّلالة ، فى قوله : ﴿ لاَ تَتَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ ثلاث آيات م ﴿ لاَ يَنْهَاكُم ﴾ ن ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُم ﴾ م ﴿ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ ن نقض عهد الكفار ببراءة م ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ ﴾ ن ﴿ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ وبعده : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ الأَوّل حال من

المخاطبين.

وقيل: أتلقون إليهم، والاستفهام مقدّر.

وقيل: خبرُ مبتدأ، أى أنتم تلقون، والثانى بدل من الأوّل على الوجوه المذكورة.

والباءُ زيادة عند الأخفش.

وقيل بسبب أن تودّوا.

وقال الزجّاج: تلقون إليهم أخبار النبىّ - صلّى الله عليه وسلّم - وسِرّه بالمودّة.

(7/758)

قوله: ﴿كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وبعده: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ﴾ أنّث الفعل الأوّل مع الحائل، وذكّر الثّانى، لكثرة الحائل.

وإِنّما كرّر، لأَنّ الأوّل فى القول؛ والثّانى فى الفعل.

وقيل:

الأوّل فى إِبراهيم، والثّانى فى محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

فضل السّورة

فيه من الأحاديث الضعيفة حديث أُبىّ: مَنْ قرأ سورة الممتحنة كان المؤمنون والمؤمنات له

شفيعاً يوم القيامة، وحديث عليّ: يا عليّ مَنْ قرأَها كان له بكلّ مؤمن ومؤمنة من الأَحياءِ والأَموات أَلفا حسنة، ورفع له أَلفا درجة، وله بكلّ آية قرأَها مثل ثُواب مَنْ يموت فى طريق مكَّة. انتهى انتهى. اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 460. 461﴾

(8/758)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة:

سورة الممتحنة

436 – مسألة:

قوله تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ) ثم قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) كرر ذلك مرتين، فما فائدة تكراره؟.

جوابه:

أن الأولى: أريد بها التأسي بهم في البراءة من الكفار، ومن عبادة غير الله تعالى.

وأريد بالثانية: التأسي بهم في الطاعات واجتناب المعاصي لقوله تعالى بعده: (لِمَنْ كَانَ

يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) يريد ثوابه وعقابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني ص 355﴾

(9/758)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الممتحنة

عرفت هذه السورة في كتب التفسير وكتب السنة وفي المصاحف ب (سورة الممتحنة) .

قال القرطبي : والمشهور على الألسنة النطق في كلمة (الممتحِنة) بكسر الحاء وهو الذي جزم به السُّهيلي .

ووجه التسمية أنها جاءت فيها آية امتِحان إيمان النساء اللاتي يأتين من مكة مهاجرات إلى المدينة وهي آية) يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ (إلى قوله : (بعصم الكوافر ((الممتحنة : 10) . فوصف الناس تلك الآية بالممتحِنة لأنها شرعت الامتحان . وأضيفت السورة إلى تلك الآية .

وقال السهيلي : أسند الامتحان إلى السورة مجازاً كما قيل لسورة براءة الفاضحة . يعني أن

ذلك الوصف مجاز عقلي .

ورُوي بفتح الحاء على اسم المفعول قال ابن حجر : وهو المشهور أي المرأة الممتحَنة على أن التعريف تعريف العهد والمعهودُ أول امرأة امتُحنت في إيمانها ، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط امرأةُ عبد الرحمن بن عوف . (كما سميت سورة قد سمع الله (سورة المجادِلة) بكسر الدال) .

ولك أنْ تجعل التعريف تعريف الجنس ، أي النساء الممتحَنة .

قال في (الإِتقان) : وتُسمّى (سورة الامتحان) ، (وسورة المَوَدَّة) ، وعزا ذلك إلى كتاب (جمال القراء) لعلي السخاوي ولم يذكر سنده .

وهذه السورة مدنية بالاتفاق .

واتفق أهل العدد على عدّ آيها ثلاث عشرة آية . وآياتها طوال .

واتفقوا على أن الآية الأولى نزلت في شأن كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين من أهل مكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 28 صـ 129. 130﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

تقديم لسورة الممتحنة

هذه السورة حلقة في سلسلة التربية الإيمانية والتنظيم الاجتماعي والدولة في المجتمع المدني . حلقة من تلك السلسلة الطويلة , أو من ذلك المنهج الإلهي المختار للجماعة المسلمة المختارة , التي ناط بها الله تحقيق منهجه الذي يريده للحياة الإنسانية , في صورة واقعية عملية , كيما يستقر في الأرض نظاما ذا معالم وحدود وشخصية مميزة ; تبلغ إليه البشرية أحيانا , وتقصر عنه أحيانا , ولكنها تبقى معلقة دائما بمحاولة بلوغه ; وتبقى أمامها صورة واقعية منه , تحققت يوما في هذه الأرض .

وقد اقتضى هذا - كما قلنا في أول هذا الجزء - إعدادا طويلا في خطوات ومراحل . وكانت الأحداث التي تقع في محيط هذه الجماعة , أو تتعلق بها , مادة من مواد هذا الإعداد . مادة مقدرة في علم الله , تقوم عليها مادة أخرى هي التفسير والتوضيح والتعقيب والتوجيه .

(12/758)

وفي مضطرب الأحداث , وفي تيار الحياة المتدفق , تمت عملية بناء النفوس المختارة لتحقيق ذلك المنهج الإلهي في الأرض . فلم تكن هناك عزلة إلا العزلة بالتصور الإيماني الجديد , وعدم خلطه بأية رقع غريبة عنه في أثناء التكوين النفسي لهذه الجماعة . وكانت التربية المستمرة متجهة دائما إلى إنشاء هذا التصور الإيمانيا لخاص المميز , المنعزل بحقيقته وطبيعته عن التصورات السائدة في العالم كله يومذاك , وفي الجزيرة العربية بصفة خاصة .

أما الناس الذين ينشأ هذا التصور المتميز في نفوسهم فلم يكونوا بمعزل عن واقع الحياة ومضطرب الأحداث , بل كانوا يصهرون في بوتقة الحوادث يوما بعد يوم , ومرة بعد مرة , ويعاد صهرهم في الأمر الواحد والخلق الواحد مرات كثيرة , وتحت مؤثرات متنوعة ; لأن الله الذي خلق هذه النفوس يعلم أنها ليست كلها مما يتأثر ويستجيب ويتكيف ويستقر على ما تكيف به منذ اللمسة الأولى . وكان يعلم أن رواسب الماضي , وجواذب الميول الطبيعية , والضعف البشري , وملامسات الواقع , وتحكم الإلف والعادة , كلها قد تكون معوقات قوية تغلب عوامل التربية والتوجيه مرة بعد مرة . وتحتاج في مقاومتها إلى التذكير المتكرر , والصهر المتوالي . فكانت الأحداث تتوالى كما هي منسوقة في قدر الله , وتتوالى الموعظة بها . والتحذير على ضوئها , والتوجيه بهديها , مرة بعد مرة .

وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقوم في يقظة دائمة وإلهام بصير , بالتقاط الأحداث والوقائع والمناسبات في كل فرصة , واستخدامها بحكمة بالغة في بناء هذه

النفوس . والوحي والإلهام يؤيدانه ويسددانه (صلى الله عليه وسلم) حتى تصنع تلك الجماعة المختارة على عين الله . بتوفيق الله . على يدي رسول الله .

(13/758)

هذه السورة حلقة في سلسلة ذلك الإعداد الطويل , تستهدف - مع غيرها مما جاء في مثل موضوعها - إقامة عالم رباني خالص في ضمير المسلم . عالم محوره الإيمان بالله وحده , يشد المسلمين إلى هذا المحور وحده , بعروة واحدة لا انفصام لها ; ويبرئ نفوسهم من كل عصبية أخرى . عصبية للقوم أو للجنس أو للأرض أو للعشيرة أو للقرابة . ليجعل في مكانها جميعا عقدة واحدة . هي عقدة الإيمان بالله . والوقوف تحت راية الله . في حزب الله .

إن العالم الذي يريده الإسلام عالم رباني إنساني . رباني بمعنى أنه يستمد كل مقوماته من توجيه الله وحكمه , ويتجه إلى الله بكل شعوره وعمله . وإنساني بمعنى أنه يشمل الجنس الإنساني كله - في رحاب العقيدة - وتذوب فيه فواصل الجنس والوطن واللغة والنسب . وسائر ما يميز إنسانا عن إنسان , عدا عقيدة الإيمان . وهذا هو العالم الرفيع اللائق أن يعيش فيه الإنسان الكريم على الله , المتضمن كيانه نفحة من روح الله .

ودون إقامة هذا العالم تقف عقبات كثيرة - كانت في البيئة العربية وما تزال في العالم كله إلى اليوم - عقبات من التعصب للبيت , والتعصب للعشيرة , والتعصب للقوم , والتعصب للجنس , والتعصب للأرض . كما تقف عقبات أخرى من رغائب النفوس وأهواء القلوب , من الحرص والشح وحب الخير للذات , ومن الكبرياء الذاتية والالتواءات النفسية . . وألوان غيرها كثير من ذوات الصدور !

(14/758)

وكان على الإسلام أن يعالج هذا كله في الجماعة التي يعدها لتحقيق منهج الله في الأرض في صورة عملية واقعة . وكانت هذه الصورة حلقة في سلسلة هذا العلاج الطويل .

وكان بعض المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم في سبيل عقيدتهم , ما تزال نفوسهم مشدودة إلى بعض من خلفوا هنالك من ذرية وأزواج وذوي قربى . وعلى الرغم من كل ما ذاقوا من العنت والأذى في قريش فقد ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة ; وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التي تكلفهم قتال أهليهم وذوي قرابتهم , وتقطع ما بينهم وبينهم من صلات !

وكان الله يريد استصفاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج , وتجريدها

لدينه وعقيدته ومنهجه . وهو - سبحانه - يعلم ثقل الضغط الواقع عليها من الميول الطبيعية ورواسب الجاهلية جميعا - وكان العرب بطبيعتهم أشد الناس احتفالا بعصبية القبيلة والعشيرة والبيت - فكان يأخذهم يوما بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ , بالأحداث وبالتعقيب على الأحداث , ليكون العلاج على مسرح الحوادث وليكون الطرق والحديد ساخن !

وتذكر الروايات حادثا معينا نزل فيه صدر هذه السورة . وقد تكون هذه الروايات صحيحة في سبب النزول المباشر . ولكن مدى النصوص القرآنية دائما أبعد من الحوادث المباشرة .

(15/758)

وقد قيل في هذا الحادث: إن حاطب بن أبي بلتعة كان رجلا من المهاجرين . وكان من أهل بدر أيضا . وكان له بمكة أولاد ومال , ولم يكن من قريش أنفسهم بل كان حليفا لعثمان . فلما عزم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على فتح مكة لما نقض أهلها عهد الحديبية أمر المسلمين بالتجهيز لغزوهم , وقال: " اللهم عم عليهم خبرنا " . . وأخبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جماعة من أصحابه بوجهته , كان منهم حاطب . فعمد حاطب

فكتب كتابا وبعثه مع امرأة مشركة – قيل من مزينة – جاءت المدينة تسترفد – إلى أهل مكة يعلمهم بعزم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على غزوهم, ليتخذ بذلك عندهم يدا . فأطلع الله – تعالى – رسوله على ذلك استجابة لدعائه . وإمضاء لقدره في فتح مكة . فبعث في أثر المرأة, فأخذ الكتاب منها .

(16/758)

وقد روى البخاري في المغازي, ورواه مسلم في صحيحه من حديث حصين بن عبدالرحمن, عن سعد ابن عبيدة عن أبي عبدالرحمن السلمي, عن علي – رضي الله عنه – قال: "بعثني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأبا مرثد والزبير بن العوام – وكلنا فارس – وقال: " انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ, فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين " . فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقلنا: الكتاب? فقالت ما معي كتاب . فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتابا . فقلنا: ما كذب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لتخرجن الكتاب أو لنجردنك . فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها, وهي محتجزة بكساء, فأخرجته . فانطلقنا به إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال عمر: يا رسول الله . قد خان الله ورسوله

والمؤمنين , فدعني فلأضربن عنقه . فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " ما حملك على ما صنعت ؟ " قال حاطب: والله ما بي إلا أن أكون مؤمنا بالله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) أردت أن تكون لي عند القوم يد . يدفع الله بها عن أهلي ومالي , وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله . فقال: " صدق لا تقولوا إلا خيرا " . فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين , فدعني فلأضرب عنقه . فقال: " أليس من أهل بدر ؟ - فقال -: لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو - قد غفرت لكم " فدمعت عينا عمر , وقال: الله ورسوله أعلم . . وزاد البخاري في كتاب المغازي: فأنزل الله السورة: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) . . وفي رواية أخرى أن الذين أرسلوا كانوا هم علي والزبير والمقداد .

(17/758)

ولوقوف قليلا أمام هذا الحادث وما دار بشأنه لا يخرج بنا عن " ظلال القرآن " والتربية به وبالأحداث والتوجيهات والتعقيبات عن طريق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) القائد المربي العظيم . .

وأول ما يقف الإنسان أمامه هو فعلة حاطب , وهو المسلم المهاجر , وهو أحد الذين أطلعهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على سر الحملة . . وفيها ما يكشف عن منحنيات النفس البشرية العجيبة , وتعرض هذه النفس للحظات الضعف البشري مهما بلغ من كمالها وقوتها ; وأن لا عاصم إلا الله من هذه اللحظات فهو الذي يعين عليها .

ثم يقف الإنسان مرة أخرى أمام عظمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو لا يعجل حتى يسأل: " ما حملك على ما صنعت " في سعة صدر وعطف على لحظة الضعف الطارئة في نفس صاحبه , وإدراك ملهم بأن الرجل قد صدق , ومن ثم يكف الصحابة عنه: " صدق لا تقولوا إلا خيرا " . . ليعينه وينهضه من عثرته , فلا يطارده بها ولا يدع أحدا يطارده . بينما نجد الإيمان الجاد الحاسم الجازم في شدة عمر: "إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين . فدعني فلأضرب عنقه" . . فعمر - رضي الله عنه - إنما ينظر إلى العثرة ذاتها فيثور لها حسه الحاسم وإيمانه الجازم . أما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فينظر إليها من خلال إدراكه الواسع الشامل للنفس البشرية على حقيقتها , ومن كل جوانبها , مع العطف الكريم الملهم الذي تنشئه المعرفة الكلية . في موقف المربي الكريم العطوف المتأني الناظر إلى جميع الملابسات والظروف . .

ثم يقف الإنسان أمام كلمات حاطب , وهو في لحظة ضعفه , ولكن تصوره لقدر الله وللأسباب الأرضية هو التصور الإيماني الصحيح . . ذلك حين يقول:"أردت أن تكون لي عند القوم يد . . يدفع الله بها عن أهلي ومالي" . . فالله هو الذي يدفع , وهذه اليد لا تدفع بنفسها , إنما يدفع الله بها . ويؤكد هذا التصور في بقية حديثه وهو يقول:"وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع . . الله . . به عن أهله وماله" فهو الله حاضر في تصوره , وهو الذي يدفع لا العشيرة . إنما العشيرة أداة يدفع الله بها . .

ولعل حس رسول الله الملهم قد راعى هذا التصور الصحيح الحي في قول الرجل , فكان هذا من أسباب قوله (صلى الله عليه وسلم) :" صدق . لا تقولوا إلا خيرا " . .

وأخيرا يقف الإنسان أمام تقدير الله في الحادث ; وهو أن يكون حاطب من القلة التي يعهد إليها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بسر الحملة . وأن تدركه لحظة الضعف البشري وهو من القلة المختارة . ثم يجري قدر الله بكف ضرر هذه اللحظة عن المسلمين . كأنما القصد هو كشفها فقط وعلاجها ! ثم لا يكون من الآخرين الذين لم يعهد إليهم بالسر اعتراض على ما وقع , ولا تنفج بالقول:ها هو ذا أحد من استودعوا السر خانوه , ولو أودعناه نحن ما بحنا به ! فلم يرد من هذا شيء . مما يدل على أدب المسلمين مع قيادتهم , وتواضعهم في الظن بأنفسهم , واعتبارهم بما حدث لأخيهم . . .

والحادث متواتر الرواية . أما نزول هذه الآيات فيه فهو أحد روايات البخاري . ولا نستبعد صحة هذه الرواية ; ولكن مضمون النص القرآني - كما قلنا - أبعد مدى , وأدل على أنه كان يعالج حالة نفسية أوسع من حادث حاطب الذي تواترت به الروايات , بمناسبة وقوع هذا الحادث , على طريقة القرآن .

كان يعالج مشكلة الأواصر القريبة , والعصبيات الصغيرة , وحرص النفوس على مألوفاتها الموروثة ليخرج بها من هذا الضيق المحلي إلى الأفق العالمي الإنساني .

(19/758)

وكان ينشيء في هذه النفوس صورة جديدة , وقيما جديدة , وموازين جديدة , وفكرة جديدة عن الكون والحياة والإنسان , ووظيفة المؤمنين في الأرض , وغاية الوجود الإنساني .

وكان كأنما يجمع هذه النبتات الصغيرة الجديدة في كنف الله ; ليعلمهم الله ويبصرهم بحقيقة وجودهم وغايته , وليفتح أعينهم على ما يحيط بهم من عداوات ومكر وكيد , وليشعرهم أنهم رجاله وحزبه , وأنه يريد بهم أمرا , ويحقق بهم قدرا . ومن ثم فهم يوسمون بسمته ويحملون شارته , ويعرفون بهذه الشارة وتلك السمة بين الأقوام جميعا . في الدنيا والآخرة

. وإذن فليكونوا خالصين له , منقطعين لولايته , متجردين من كل وشيجة غير وشيجته .

في عالم الشعور وعالم السلوك .

والسورة كلها في هذا الاتجاه . حتى الآيات التشريعية التنظيمية الواردة في آخرها عن معاملة المهاجرات المؤمنات , ومبايعة من يدخلن في الإسلام , والفصل بين المؤمنات وأزواجهن من الكفار . وبين المؤمنين وزوجاتهم من الكوافر . . فكلها تنظيمات منبثقة من ذلك التوجيه العام .

ثم ختام السورة كما بدأت بالنهي عن موالاة أعداء الله , ممن غضب عليهم الله , سواء من المشركين أو من اليهود . ليتم التميز والانفراد والمفاصلة من جميع الوشائج والروابط غير رابطة العقيدة وغير وشيجة الإيمان . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3536 ـ 3540 ﴾

(20/758)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الممتحنة

وآياتها ثلاث عشرة آية

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية ، التي تهتم بجانب التشريع ، ومحور السورة يدور حول فكرة (الحب والبغض في الله) الذي هو أوثق عرى الإيمان ، وقد نزل صدر السورة عتابا لحاطب بن أبي بلتعة ، حين كتب كتابا لأهل مكة ، يخبرهم أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد تجهز لغزوهم ، كما ذكر تعإلى حكم موالاة أعداء الله ، وضرب الأمثال في إبراهيم والمؤمنين في تبرؤهم من المشركين ، وبين حكم الذين لم يقاتلوا المسلمين ، وحكم المؤمنات المهاجرات وضرورة امتحانهن ، وغير ذلك من الأحكام التشريعية .

* ابتدأت السورة الكريمة بالتحذير من موالاة أعداء الله ، الذين آذوا المؤمنين حتى اضطروهم إلى الهجرة ، وترك الديار والأوطان [يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء . .] الآيات .

* ثم بينت السورة أن القرابة والنسب والصداقة في هذه الحياة ، لن تنفع الإنسان أبدا يوم القيامة ، حيث لا ينفع الإنسان إلا الإيمان والعمل الصالح [لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة . .] الآيات .

* ثم ضربت المثل في إيمان إبراهيم عليه السلام وأتباعه المؤمنين ، حين تبرءوا من قومهم المشركين ، ليكون ذلك حافزا لكل مؤمن ، على الاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن [قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما

تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا . .] الآيات .

* وتحدثت السورة عن حكم الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم [لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم . .] وحكم الذين قاتلوا المؤمنين وآذوهم [إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين . .] الآيات .

(21/758)

---

* وبينت السورة وجوب امتحان المؤمنات عند الهجرة ، وعدم ردهن إلى الكفار ، إذا ثبت إيمانهن ، وقررت عدم الاعتداد بعصمة الكافر ، ثم بين تعالى حكم الهجرة ، ومبايعة النساء للرسول (صلى الله عليه وسلم) وشروط هذه البيعة [يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن . .] الآيات وقوله : [يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا . .] الآيات .

* وختمت السورة بتحذير المؤمنين من موالاة الكفرة المجرمين أعداء الله [يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الأخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور] وهكذا ختمت السورة بمثل ما بدأت به من التحذير من موالاة أعداء الله ،

ليتناسق الكلام في البدء والختام. انتهى انتهى. اهـ ﴿صفوة التفاسير حـ 3 صـ 359. 360﴾

(22/758)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الممتحنة

تلقون إليهم بالمودة : أي ترسلون إليهم أخبار الرسول بسبب المودة التي بينكم وبينهم ، يخرجون الرسول وإياكم : أي من مكة ، أن تؤمنوا بالله : أي لأجل إيمانكم بالله ، ضل : أي أخطأ ، وسواء السبيل : أي الطريق المستوي وهو طريق الحق ، إن يثقفوكم : أي يظفروا بكم ، وأصل الثقف : الحذق فى إدراك الشيء وفعله ومنه رجل ثقف لقف ، بالسوء : أي بما يسوءكم من القتل والأسر والشتم ، وودّوا لو تكفرون : أي وتمنوا كفركم ، أرحامكم : أي قراباتكم ، يفصل بينكم : أي يفرق بينكم من شدة الهول. الأسوة : (بضم الهمزة وكسرها وبهما قرئ) من يؤتسى به ، كالقدوة لمن يقتدى به والجمع أسى ، برآء واحدهم بريء كظرفاء وظريف : أي متبرئون ومنكرون لما تعملون ، وما

تعبدون : أي الأصنام والكواكب وغيرها ، البغضاء : أي البغض والكراهة ، لا تجعلنا فتنة للذين كفروا : أي لا تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نحتمله ، من قولهم : فتن الفضة : أي أذابها ، يرجو الله : أي يؤمل ثوابه ، واليوم الآخر ، أي مجيئه ، ومن يتولّ : أي ومن يعص النصيحة .

عسى : كلمة تفيد رجاء حصول ما بعدها ، فإذا صدرت من اللّه فما بعدها واجب الوقوع ، أن تبروهم : أي تفعلوا البر والخير لهم ، وتقسطوا إليهم : أي تعدلوا فيهم بالبر والإحسان ، المقسطين : أي العادلين ، وظاهروا : أي ساعدوا ، أن تولوهم : أي أن تكونوا أولياء وأنصارا لهم .

فامتحنوهن : أي فاختبروهن بما يغلب به على ظنكم موافقة قلوبهن لألسنّهن فى الإيمان ، علمتموهن : أي ظننتموهن ، إلى الكفار : أي إلى أزواجهن الكفار أجورهن : أي مهورهن ، وعصم : واحدها عصمة ، وهى ما يعتصم به من عقد وسبب ، والكوافر : واحدتهن كافرة : فعاقبتم : أي فكانت العقبى لكم ، أي الغلبة والنصر لكم ، حتى غنمتم منهم .

يبايعنك : أي يلتزمن لك الطاعة ، ولا يقتلن أولادهن : أي ولا يئدن البنات والمراد بالبهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن : الولد الذي كانت ألصقته بزوجها كذبا ، والافتراء : الكذب ، فى معروف : أي فى أمر برّ وتقوى ، فبايعهن : أي فالتزم لهن ضمان الثواب إذا وفين بهذه الأشياء .

غضب اللّه عليهم : أي طردهم من رحمته ، من الآخرة : أي من ثوابها ونعيمها ، من أصحاب القبور : أي من رجوع موتاهم إليهم ، لأنهم لا يعتقدون ببعث ولا نشور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 28 صـ 60.76 ﴾ . باختصار .

(24/758)

وقال الفراء :

سورة (الممتحنة)

﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ. . . ﴾ .

دخول الباء فى: المودة، وسقوطها سواء ، هذا بمنزلة قولك: أظن أنك قائم ، وأظن بأنك قائم ، وأريد بأن تذهب ، وأريد بأن تقوم. وقد قال الله جلّ وعز:

﴿ ومَنْ يُرِدْ فيه بِإِلْحادٍ بظُلْمٍ ﴾ فأدخل الباء ، والمعنى: ومن يرد فيه إلحادا .

أنشدنى أبو الجراح:

فلمّا رجتْ بالشُّرب هزّلها العصا * شحيحٌ لهُ عند الإزاءِ نهيمُ

(25/758)

معناه: فلما رجت أن تشرب . ونزلت هذه السورة فى حاطب بن أبى بلتعة ، لما أراد رسول الله صلى الله عليه أن يغزو أهل مكة ، قدمت عليه امرأة من موالى بنى المطلب ، فوصلها المسلمون ، فلما أرادت الرجوع أتاها حاطب بن أبى بلتعة ، فقال: إنى معطيك عشرة دنانير ، وكاسيك بردا على أن تبلغى أهل مكة كتابا ، فكتب معها ، ومضت تريد مكة ، فنزل جبريل على النبى صلى الله عليهما بالخبر ، فأرسل عليًّا والزبير فى إثرها ، فقال: إن دفَعَتْ إليكما الكتاب [وإلا فاضربا] [ا/] عنقها فلحقاها ، فقالت: تنحيا عنى ، فإنى أعلم أنكما لن تصدقانى حتى تفتشانى ، قال: فأخَذَت الكتاب ، فجعلته بين قرنين

من قرونها، ففتشاها، فلم يريا شيئًا، فانصرفا راجعين، فقال على للزبير: ماذا صنعنا؟ يخبرنا رسول الله أن معها كتابا ونصدقها؟ فكرّا عليها، فقالا: لتخرِجِنّ كتابك أو لنضربن عنقك، فلما رأت الجد أخرجت الكتاب.

وكان فيه: من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة:

أما بعد، فإن رسول الله صلى الله عليه يريد أن يغزوكم، فخذوا حذركم مع أشياء كتب بها، فدعا رسول الله صلى الله عليه بحاطب، فأقرّ له، وقال: حملنى على ذلك أن أهلى بمكة وليس من أصحابك [أحد] إلا وله بمكة من يذب عن أهله، فأحببت أن أتقرّب إليهم ليحفظونى فى عيالى، ولقد علمت أن لن ينفعهم كتابى، وأن الله بالغ فيهم أمره، فقال عمر بن الخطاب: دعنى فأضرب عنقه، قال: فسكت النبى صلى الله عليه، ثم قال: وما يدريك لعل الله قد نظر إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

قال الفراء: حدثنى بهذا حِبان بإسناده.

وقوله: ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ. . . ﴾. مِن صلة الأولياء، كقولك: لاتتخذنّه رجلا تلقى إليه كلّ ما عندك.

وقوله: ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ. . . ﴾. إن آمنتم ولإن آمنتم، ثم قال عز وجل: ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي. . . ﴾ فلا تتخذونهم أولياء.

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ. . . ﴾ . قرأها يحيى بن وثاب: يُفصِّل بينكم ، قال: وكذلك يقرأ أبو زكريا ، وقرأها عاصم والحسن يَفْصل ، وقرأها أهل المدينة: يُفْصَل .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآؤاْ مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَآءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

وقوله: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ. . . ﴾ . يعنى حاطبا ، "فيهم" فى إبراهيم . يقول: فى فعل إبراهيم ، والذين معه إذا تبروءا من قومهم . يقول: ألا تأسيت يا حاطب بإبراهيم ؛ فتبرأ من أهلك كما برىء إبراهيم ؟ ثم قال: ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ ﴾ أى: قد كانت لكم أسوة فى أفاعيلهم إلاّ فى قول إبراهيم: لأستغفرن ؛ فإنه ليس لكم فيه أسوة .

وقوله: ﴿ إِنَّا بُرَءآؤاْ مِّنْكُمْ. . . ﴾ . إن تركتَ الهمز من برآء أشرت إليه بصدرك ، فقلت: بُراء . وقال الفراء: مدّة ، وإشارة إلى الهمز ، وليس يضبَط إلاّ بالسمع ، [ولم يجرها] . ومن العرب من يقول: إنا بِراءٌ منكم ، فيجرى ، ولو قرئت كذلك كان وجها .

وقوله: ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا . . . ﴾ . أى: فقولوا هذا القول أنتم ، ويقال: إنه من قيل إبراهيم عليه السلام وقومه .

(27/758)

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

وقوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً . . . ﴾ . لا تظهرنّ علينا الكفار فيروا أنهم على حق ، وأنّا على باطل .

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً . . . ﴾ .

يقول: عسى أن ترجع عدواة بينكم إلى المودة ، فتزوج النبى صلى الله عليه أمّ حبيبة بنت أبى سفيان ، فكانت المصاهرة مودة .

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ

الظَّالِمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ . . . ﴾ .

هؤلاء خزاعة كانوا عاقدوا النبى صلى الله عليه ألا [/ب] يقاتلوه، ولا يخرجوه، فأمر النبى صلى الله عليه ببرهم، والوفاء لهم إلى مدة أجلهم، ثم قال:

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُواْ عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ . . . ﴾ أن تنصروهم، يعنى الباقين من أهل مكة.

(28/758)

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ . . . ﴾ .

يعنى: فاستحلفوهن، وذلك أن النبى صلى الله عليه لما صالح أهل مكة بالحديبية فلما ختم الكتاب خرجت إليه سُبَيْعة بنت الحارث الأسلمية مُسْلِمَةً، فجاء زوجها فقال:

ردَّها عليَّ فإن ذلك في الشرط لنا عليك، وهذه طينة الكتابة لم تجفف، فنزلت هذه الآية ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ . . . ﴾ .

فاستحلفها رسول الله صلى الله عليه: ما أخرجكِ إلينا إلا الحرص على الإسلام والرغبة فيه، ولا أخرجك حدث أحدثتِه، ولا بغض لزوجك، فحلفتْ، وأعطى رسول الله صلى الله عليه زوجها مهرها، ونزل التنزيل: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ . . . ﴾ .

من كانت له امرأة بمكة أبت أن تُسلم فقد انقطعت العصمة فيما بينها وبين زوجها، ومن خرج إلى المسلمين من نسائهم مُسْلمةً، فقد انقطعت عصمتها من زوجها الكافر، وللمسلمين أن يتزوجوها بغير عدة.

وقوله: ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا . . . ﴾ .

يقول: اسألوا أهل مكة أن يردوا عليكم مهور النساء اللاتي يخرجن إليهم منكم مرتدات، وليسألوا مهور من خرج إليكم من نسائهم.

وقوله: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا . . . ﴾ .

(29/758)

قرأها يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة مخففة ، وقرأها الحسن: تُمسّكوا ، ومعناه متقارب.

والعرب تقول: أمسكت بك ، ومسكت بك ، وتمسّكت بك .

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ . . . ﴾ أعجزكم . وهى فى قراءة عبدالله: "وإن فاتكم أحد من أزواجكم" ، وأحدٌ يصلح فى موضع .شىء ، وشىء يصلح فى موضع أحد فى الناس ، فإذا كانت شىء فى غير الناس ، لم يصلح أحد فى موضعها .

وقوله: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ . . . ﴾ .

يقول: أعجزكم إن ذهبت امرأة فلحقت بأهل مكة كافرة ، وليس بينكم وبينهم عهد فعاقبتم ، يقول: فغنمتم ، فأعطوا زوجها مهرها من الغنيمة قبل الخمس .

[حدثنا محمد بن الجهم] حدثنا الفراء قال: حدثنى قيس بن الربيع عن الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق أنه قرأ "فعاقبتم" ، وفسرها : فغنمتم ، وقرأها حميد الأعرج: فعقّبتم مشددة ، وهى كقولك: تصعّر ، وتصاعر فى حروف قد أنبأتك بها فى تآخى: فعلت ، وفاعلت .

﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا

يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ. . . ﴾ .

(30/758)

قرأها السُّلَمى وحده: ولا يقتّلن أولادهن ، وذكر أن النبى صلى الله عليه لما افتتح مكة قعد على الصفا وإلى جنبه عمر ، فجاءه النساء يبايعنه ؛ وفيهن بنت عتبة ، فلما قال رسول الله صلى الله عليه: ﴿ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾ يقول: لا تعبدن الأوثان ، ولا تسرقن ، ولا تزنين . قالت هند: وهل تزنى الحرة؟ قال: فضحك عمر ، ثم قال: لا ، لعمرى ، ما تزنى الحرة . قال: فلما قال: لا تقتلن أولادكن ، هذا فيما كان أهل الجاهلية يئدون ، فبويعوا على ألا يفعلوا ، فقالت هند: قد ربيناهم صغارا ، وقتلتموهم كبارا .

وقوله: ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ. . . ﴾ .

كانت المرأة تلتقط المولود ، فتقول لزوجها: هذا ولدى منك . فذلك البهتان المفترى [/ا] .

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾

وقوله: ﴿ لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ. . . ﴾ .

يقول: من نعيم الآخرة وثوابها ، كما يئس الكفار من أهل القبور ، يقول: علموا ألا نعيم لهم فى الدنيا ، وقد ماتوا ودخلوا القبور .

ويقال: كما يئسَ الكفار من أصحابِ القبورِ: من ثواب الآخرة ونعيمها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 147.152 ﴾

(31/758)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الممتحنة

(أسوة حسنة) [4] قدوة. وقيل: عبرة. (وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء) [4] العداوة بالفعال والبغضاء بالقلوب. (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك) [4] أي: [تأسوا] به إلا في استغفاره لأبيه المشرك. (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) [5] أي: لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق. وهذا من دعاء إبراهيم، وإنما تكررت الأسوة بهذا ، [إذ] كان من إبراهيم فعل حسن: وهو التبرؤ من أبيه وقومه الكافرين، وقول حسن، وهو هذا الدعاء.

(عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم) [7] قال الزهري: "نزلت في أبي سفيان ، وكان النبي عليه السلام استعمله على بعض بلاد اليمن ، فلما قبض عليه السلام أقبل فلقي ذا الخمار مرتداً ، فقاتله ، فكان أول من قاتل على الردة ، فتلك المودة بعد المعاداة" . (عن الذين لم يقاتلوكم) [8] خزاعة . و(الذين قاتلوكم) [9]

أهل مكة . (فامتحنوهن) [10] استحلفوهن ما خرجن إلا للإسلام دون [بغض] الأزواج . (فلا ترجعوهن إلى الكفار) [10] حين جاءت سبيعة/السلمية مسلمة بعد الحديبية ، فجاء زوجها مسافر فقال: يا محمد قد شرطت لنا رد النساء ، وطين الكتاب [لم] يجف ، اردد علي امرأتي .

(وءاتوهم ما أنفقوا) [10] أي: ما آتوهن من المهور ، وجب ذلك بسبب الشرط ثم نسخ .

(وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم) [11] أي: غزوتم [بعقب] ما يغزونكم فغنمتم . وله معنيان ، وفيه لغتان: عاقب وعقب ، وأحد المعنيين من المعاقبة ، التي هي: المناوبة .

والثاني ، من الإصابة في العاقبة [سبياً واغتناماً] . (ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن) [12] ما تلتقطه المرأة بيدها من لقيط فتلحقه بالزوج . (وأرجلهن) [12] ما تلحقه به من الزنا .

[تمت سورة الممتحنة] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1495 . 1499 ﴾

(32/758)

وقال الأخفش :

سورة (الممتحنة)

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآؤا مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَآءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

[قال] ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ استثناء خارج من أول الكلام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 541 ﴾

(33/758)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الممتحنة

مدنية كلها

1 - تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ: أي تلقون إليهم المودة.

وكذلك: تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ.

4 - قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ... أي عبرة وائتمام.

إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ... قال قتادة: «ائتسوا بأمر إبراهيم كلّه، إلا في استغفاره لأبيه: فلا تأتسوا به في ذلك، لأنه كان عن موعدة منه له».

10 - وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ أي بحبالهن. واحدتها: «عصمة». أي لا ترغبوا فيهن.

وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ أي سلوا أهل مكة ان يردّوا عليكم مهور النساء: اللّاتي يخرجن إليهم مرتدّات.

وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنْفَقُوا: وليسألوكم مهور من خرج إليكم من نسائهم.

11 - وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ يقول: إن ذهبت امرأة من نسائكم، فلحقت بالمشركين بمكة، فَعَاقَبْتُمْ أي أصبتم [منهم] عقبي أي غنيمة من غزو.

ويقال: «عاقبتم»: غزوتم معاقبين غزوا بعد غزو.

[فآتوا] : فأعطوا المسلمين الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ إلى مكة مِثْلَ ما أَنْفَقُوا - يعني : المهر - من تلك الغنيمة قبل الخمس .

وتقرأ : فعقبتم من «تعقيب الغزو» .

وتقرأ : فأعقبتم .

12 - وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ، [أي لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم] .

وكانت المرأة تلتقط المولود ، فتقول للزوج : هذا ولدي منك .

وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ أي في امر تأمرهن به . وامر رسول اللّه - صلّى اللّه عليه وعلى آله وسلم - كلّه معروف .

13 - . . . كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ أن يبعثوا ، كذلك يئس أولئك من الآخرة ان تكون «1» .

ويقال : «أراد كما يئس الكفار الموتى من الآخرة ، أي يئس المشركون من الآخرة ، كما يئس أسلافهم الكفار المقبورون» .

و«المقبورون» هم : اصحاب القبور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن ص 397.396 ﴾

(1) وهو قول ابن عباس وقتادة والحسن والضحاك.

(35/758)

وقال الغزنوي:

سورة الممتحنة

4 أُسْوَةٌ: قدوة. وقيل «1»: عبرة، تأسّى به وأتسى: اتبع فعله.

وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ: بالفعال وَالْبَغْضاءُ بالقلوب.

إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ أي: تأسّوا به إلّا في استغفاره لأبيه المشرك «2».

5 لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا: لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق «3»، وهذا من دعاء إبراهيم ولهذا تكررت «الأسوة» «4» إذ كان من إبراهيم فعل حسن تبرّؤه من الكافرين وقول حسن هذا الدعاء.

7 عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ في أبي سفيان، وكان استعمله النّبيّ صلى اللّه عليه وسلم

---

(1) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 461، ومكي في تفسير المشكل: 343، ونقله الماوردي في تفسيره: 4/ 22 عن ابن قتيبة.

(2) أخرج الحاكم في المستدرك: 2/ 485، كتاب التفسير، تفسير سورة الممتحنة، عن ابن عباس في هذه الآية قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ قال: في صنع إبراهيم كله إلا في الاستغفار لأبيه لا يستغفر له وهو مشرك.

وأخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 28/ 63 عن قتادة، ومجاهد.

(3) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج: 5/ 157، وذكر نحوه الفراء في معانيه: 3/ 150، والطبري في تفسيره: 28/ 64، والبغوي في تفسيره: 4/ 330.

[.....]

(4) في الآيتين 4، 6 من السورة نفسها.

(36/758)

على بعض اليمن فلما قبض عليه السّلام أقبل فلقى ذا الحمار «1» مرتدا فقاتله فكان أول من قاتل على الردة فتلك المودة بعد المعاداة «2».

8 عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ: خزاعة «3».

9 والَّذِينَ قاتَلُوكُمْ: أهل مكة «4».

10 فَامْتَحِنُوهُنَّ استحلفوهن ما خرجن إلّا للإسلام دون بغض الأزواج.

فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ حين جاءت سبيعة «5» الأسلمّية مسلمة بعد الحديبية فجاء زوجها مسافر «6» فقال: يا محمد قد شرطت لنا ردّ النساء [98/ ب] وطين/ الكتاب لم يجف «7».

---

(1) هو الأسود العنسي المتنبي واسمه: عبهلة بن كعب بن غوث بن صعب بن مالك بن عنس.

كذا نسبه ابن حزم في الجمهرة: 405، ويعرف بذي الحمار من أجل حمار كان له.

ينظر خبر ردته في السيرة لابن هشام: 2/ 599، والطبقات لابن سعد: 5/ 534، وتاريخ الطبري: (3/ 184- 187).

(2) ورد هذا المعنى في أثر أورده الحافظ ابن كثير في تفسيره: 8/ 115، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم عن ابن هشام الزهري.

وانظر تفسير الماوردي: 4/ 222، والدر المنثور: 8/ 130.

(3) ذكره الماوردي في تفسيره: 4/ 223 عن مقاتل، ونقله البغوي في تفسيره: 4/ 331 عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 28/ 67 عن مجاهد.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 8/ 131، وعزا إخراجه إلى ابن المنذر عن مجاهد.

(5) هي سبيعة بنت الحارث الأسلمية، صحابية جليلة.

ترجمتها في الاستيعاب: 4/ 1859، والإصابة: 7/ 692.

(6) هو مسافر المخزومي، وقيل إن زوجها كان صيفي بن الراهب.

ينظر الكشاف: 4/ 92، والكافي الشاف: 168، وتفسير القرطبي: 18/ 61، ومفحمات الأقران: 196.

(7) ذكر الماوردي هذا القول في سبب نزول هذه الآية وقال: «حكاه الكلبي».

(تفسيره: 4/ 224)، ونقله البغوي في تفسيره: 4/ 332 عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأورده الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف: 168، وقال: «هكذا ذكره البغوي عن ابن عباس بغير سند».

وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا أي: من المهور ووجب بالشّرط «1»، ثم نسخ.

11 فَعاقَبْتُمْ: غزوتم بعقب ما يغزونكم فغنمتم «2»، له معنيان وفيه لغتان «3»: عاقب وعقّب وأحد المعنيين من المعاقبة المناوبة، والثاني من الإصابة في العاقبة سبيا واغتناما «4».

12 يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ ما تلقطه المرأة بيدها من لقيط فتلحقه بالزوج «5» .

وَأَرْجُلِهِنَ

ما تلحقه به من الزنا «6» .

---

(1) أي بشرط إرجاع من يفد من الكفار إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وهو أحد شروط صلح الحديبية .

قال الماوردي في تفسيره : 4/ 224 : «فنسخ اللّه ردهن من العقد ومنع منه ، وأبقاه من الرجال على ما كان ، وهذا يدل على أن للنبي صلى اللّه عليه وسلم أن يجتهد برأيه في الأحكام ، ولكن لا يقره اللّه تعالى على خطأ .

وقالت طائفة من أهل العلم : لم يشترط ردهن في العقد لفظا ، وإنما أطلق العقد في رد من أسلم ، فكان ظاهر العموم اشتماله عليهن مع الرجال ، فبين اللّه خروجهن عن العموم ، وفرّق بينهن وبين الرجال لأمرين :

أحدهما : أنهن ذوات فروج يحرمن عليهم .

الثاني : أنهن أرأف قلوبا وأسرع تقلبا منهم» اه- .

(2) عن معاني القرآن للزجاج : 5/ 160 ، وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 462 .

(3) وهما قراءتان ، فَعاقَبْتُمْ وعليها القراء السبعة ، و«عقبتم» بتشديد القاف بغير ألف

وتنسب هذه القراءة إلى علقمة ، والنخعي ، والأعرج ، والحسن ، ومجاهد ، وعكرمة .

ينظر إعراب القرآن للنحاس : 4/ 416 ، وتفسير القرطبي : 18/ 69 ، والبحر المحيط

:

8/ 257 .

(4) ينظر ما سبق في تفسير الطبري : (28/ 75 ، 76) ، ومعاني الزجاج : 5/ 160

، وتفسير الماوردي : 4/ 227 ، والمفردات للراغب : 340 ، واللسان : (1/ 619

(عقب) .

(5) ورد هذا القول في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 28/ 77 عن ابن عباس رضي

اللّه عنهما .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 141 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن

المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس .

(6) ذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 228 . [. . . . .]

13 لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أي: اليهود «1».

قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ ممن مات كافرا وصار إلى القبر. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 816.813 ﴾

---

(1) تفسير الطبري: 28/ 81، ومعاني القرآن للزجاج: 5/ 161، وتفسير الماوردي: 4/ 229، وتفسير البغوي: 4/ 336.

(39/758)

وقال ملا حويش:

تفسير سورة الممتحنة

عدد 5 - 91 و60

نزلت بالمدينة بعد الأحزاب وهي ثلاث عشرة آية وثلاثمائة وأربعون كلمة، وألف وخمسمائة وعشرة أحرف، ويوجد في القرآن عشر سور مبدوءة بيا أيها: هذه والنساء والأحزاب والمائدة والحج والحجرات والطلاق والتحريم والمدّثر والمزمل.

ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به، ولا مثلها في عدد الآي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ"

من دوني دون المؤمنين ، فتغتروا بهم ، وتصيروا "تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ" فتفشون أسراركم إليهم وتعلمونهم بأخبار رسولكم وجيوشكم وتطلعونهم على أموركم ، كيف يليق بكم أن تفعلوا هذا "وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ" على لسان رسولكم ، وهو القرآن المنزل إليكم من ربكم ، ويريدون بكل جهدهم "يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ" من أوطانكم ودياركم لشدة عداوتهم لكم لأنهم أعداء اللّه وأعداء رسوله من أجل "أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ" وترككم ما هم عليه من الذين ليس لسبب آخر فاحذروا أيها المؤمنون من أن توالوهم "إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ" من مقركم مكة وتركتم أموالكم وأتباعكم "جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي" فإن لم يكن خروجكم وجلاؤكم لهذين السببين فشأنكم وإياهم .

(40/758)

واعلموا أني أنا اللّه ربكم غني عنكم وعن الخلق أجمع ، أقول لكم على سبيل التقريع والتعنيف لتذكروا أمركم وتدبروا عاقبته كيف "تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ" وتظهرون لهم المحبة وتبدون لهم النصيحة بقصد الصحبة معهم خفية عن نبيكم "وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ" من ذلك واني مخبر نبيكم بما يقع منكم ، فانتهوا عن هذا ولا تفعلوه أبدا "وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ" بعد هذا النهي فيسر إليهم بشيء من ذلك "فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" (1) وبقي

تائها في عماه لا يهتدي إلى خير.

مطلب الاخبار بالغيب في كتاب حاطب لأهل هكة ونصيحة اللّه للمؤمنين في ذلك:

وسبب نزول هذه الآية هو ما رواه البخاري ومسلم عن علي كرم اللّه وجهه قال بعثني رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (بقرب حمراء الأسد من أرض المدينة) فان بها ظعينة أي المرأة المسافرة سارة مولاة ابي عمرو بن صيفي بن هاشم حليف بني أسد بن عبد العزى معها كتاب فخذوه منها

(41/758)

قال فانطلقنا تتعادى بنا الخيل حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة فقلنا أخرجي الكتاب، فقالت ما معي من كتاب، فقلنا أخرجي الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فإذا فيه من حاطب بن بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول اللّه قالوا وفيه أن محمدا يريدكم فخذوا حذركم، فقال صلّى اللّه عليه وسلم يا حاطب ما هذا؟ فقال يا رسول اللّه لا تعجل علي اني كنت أمرأ ملصقا في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ

فيهم يدا يحمون بها قرابتي ، وما فعلته كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا أرضى بالكفر بعد الإسلام ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم انه صدقكم ، فقال عمر يا رسول اللّه دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم انه شهد بدرا وما يدريك لعل اللّه أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

وهذا من الإخبار بالغيب ودلائل النبوة ومعجزاتها .

وجاء في خبر أنهم لما قالت لهم ما عندي من كتاب رجعوا ، ثم قالوا كيف وقد قال صلّى اللّه عليه وسلم ان معها كتابا وهو لا ينطق عن هوى ؟

فرجعوا إليها وقالوا لها ما قالوا بالحديث من التهديد ، فأخرجته لهم .

(42/758)

والمراد بإلقاء الثياب ما عندها من أشياء ولباس كي يتحروه لا غير ، إذ لا يظن بأصحاب رسول اللّه ما يتصوره الغير من هذا الكلام ، قال تعالى مبيّنا ما نطوي عليه قلوب الكفرة على المؤمنين "إِنْ يَثْقَفُوكُمْ" يظفروا بكم هؤلاء الذين تتقربون إليهم "يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً" ولا يقدرون مودتكم لهم بل يعدونها نفاقا منكم لهم وخوفا منهم لأنهم يتربصون بكم الدوائر وعند سنوح الفرصة ينتقمون منكم "وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ" بالقتل والسلب والسبي

"وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ" من سب وشتم وتحقير وإهانة ونسبة الكذب والخيانة ، لأن العدو إذا عرفكم خنتم قومكم بما تطلعونه عليه من أخباركم لا يأمن لكم ولا يولونكم من أمرهم شيئا ويقولون لكم إن الذي يخون قومه فهو لغيرهم أخون فلا يركن إليكم ولا يأمنكم ، فتبقون محقرين عندهم أذلاء مهانين مهددين بالقتل والسبي إن لم يقتلوكم حالا "وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ" (2) وترجعون إلى دينهم ، وانهم لاسمح اللّه لو ظفروا بكم لقسروكم على الكفر لتكونوا

مثلهم وإذ ذاك "لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ" ولا أقاربكم وأصحابكم الذين يحتجون بهم في الدنيا ، إذ لا فائدة لكم منهم ولا ينفعونكم أبدا "يَوْمَ الْقِيَامَةِ" غدا عند اللّه ولا يقونكم شيئا من عذابه ، فلا يحملنكم وجود أحد عندهم من ذويكم على الرأفة بهم وتخونون رسول اللّه من أجلهم ، فإنهم لن يغنوا عنكم من اللّه شيئا هو الذي "يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ" وبينهم يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وفصيلته التي تؤويه ، وليعلم أن من في الأرض جميعا لا ينجيه من اللّه "وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" (3) لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فإذا أحببتم أيها المؤمنون بما فيكم حاطب المخصوص في هذه الآيات أن تتأسوا بمن قبلكم في أعمال الخير فإنه "قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ" خليل اللّه "وَالَّذِينَ مَعَهُ" من

المؤمنين به "إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ" المشركين "إِنَّا بُرَآَؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" حيث تبين لهم كفرهم وقالوا "كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ" وقاطعوهم في كل شيء فكيف توادونهم وأنتم خير أمة أخرجت للناس ، ألا تعتقدون بأفعال هؤلاء الكرام كلها "إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ" فلا تتأسوا به إذ لا يجوز الاستغفار للمشركين ، لأن هذه الجملة مرتبطة بما قبلها من ذكر ابراهيم عليه السلام وما بينهما اعتراض تدبر ، وإن ابراهيم لم يقل هذا إلا بعد أن وعده بالإيمان ، قال تعالى دفاعا عن خليله (وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ) الآية 105 من سورة التوبة الآتية ، وأنتم قد تبين لكم أن المشركين أعداء اللّه ورسوله واعداء لكم فكيف تواصلونهم وتفشون إليهم

(44/758)

أسراركم ؟ وقد قال ابراهيم لأبيه بعد أن وعده بالاستغفار "وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ" لأنه هو ولي التوفيق وكان ابراهيم وأصحابه يقولون في دعائهم "رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ" (4) في الآخرة الدائمة ويقولون أيضا "رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا" في الدنيا لأنهم يعذبوننا إذا تسلطوا علينا ليصرفونا عن ديننا ، ولهذا فإنا نبرأ إليك منهم يا

ربنا لا تجعل لهم علينا يدا "وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ"

الغالب لكل أحد "الْحَكِيمُ" (5) بما يقع منك على عبادك "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ" أيها المؤمنون

حاطب فمن دونه إلى يومنا هذا ، وما بعد إلى قيام الساعة "فِيهِمْ" أي إبراهيم وأصحابه

"أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ" وقدوة جميلة نافعة "لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ" فيخاف عذابه ويأمل

ثوابه أن يقتدي بهم لا بأفعال الكفار وما يؤدي إلى الكفر بأي قصد كان "وَمَنْ يَتَوَلَّ" عن

نصح الله وارشاد رسله ، ولم ينزجر عن موالاة الكافرين "فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ" عنه وعن غيره

فليفعل ما يشاء وإن مرده إليه وهو يعلم كيف يعاقبه على ذلك ، وهو "الْحَمِيدُ" (6) لفعل

أهل طاعته فيثيبهم ثوابا كريما فلما سمع المؤمنون هذه الآيات اشتدت عداوتهم لأقربائهم

الكفار ووجدوا عليهم وتبرؤوا منهم ، وأراد الله تعالى أن يطمعهم فيهم ، فأنزل "عَسَى اللَّهُ

أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ" من أقاربكم الكفار وغيرهم "مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ"

على إنشاء المودة بينكم "وَاللَّهُ غَفُورٌ" لمن تاب منهم وأصلح "رَحِيمٌ" (7) بعباده كلهم

يحببهم بعضهم

لبعض ، وقد حقق اللّه لهم ذلك وأسلم كثير منهم ، ثم رخص اللّه تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين بقوله عز قوله "لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ" بقصد صدكم عنه أو عدم القيام به والتحلي بشعائره ولا يخاصمونكم من أجله "وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ" قسرا فيجلوكم عنها "أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ" وتعاملوهم بالإحسان والعدل والإنصاف وتصلوهم بالسراء والضراء "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (8) العادلين في ذلك الذين يقابلون المعروف بمثله وأحسن .

روى البخاري ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضي اللّه عنها قالت قدمت عليّ أمي (قتيلة بنت عبد العزى) وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول اللّه وحدتهم فاستفتيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقلت يا رسول اللّه إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها ؟ قال نعم صليها ، زاد في رواية فأنزل اللّه هذه الآية .

أنظر أيها القارئ إلى عظيم إيمان هذه المرأة إذ لم يمل قلبها إلى صلة أمها الكافرة ولا قبولها في بيتها إلا بعد إفتاء الرسول لها بذلك .

وقال ابن عباس نزلت في خزاعة إذ صالحوا حضرة الرسول على أن

لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه ، وقد ذكرنا غير مرة أن لا مشاحة في تعدد أسباب النزول وإن آية واحدة قد تكون لعدة حوادث ، ثم ذكر اللّه الذين لا تجوز صلتهم ولا مقاربتهم وهم في ذلك الزمن أهل مكة .

فقال جل قوله "إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا" اليهود وغيرهم "عَلى إِخْراجِكُمْ" من المدينة واستئصالكم.

(46/758)

إذ جاءت الآية عامة فيدخل فيها كل من يفعل ذلك مع المؤمنين إلى آخر الزمان، فلا يجوز للمؤمن مصافاة من هذا شأنهم فيحرم عليكم أيها المؤمنون "أَنْ تَوَلَّوْهُمْ" أبدا وتفكروا فيما هدد به تعالى من يواليهم بقوله "وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ" منكم "فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (9) أنفسهم الآيسون من رحمتي الآئبون بالندم وسوء العاقبة لأنهم وضعوا ثقتهم في غير محلها فلا يلومون إلا أنفسهم عند حدوث ما يسوءهم منهم.

قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ" اختبروهن لتعلموا هل هن مؤمنات حقا أم لا فإن ظهر لكم أنهن مؤمنات فاقبلوهن ولا تقولوا إنهن باطنا غير مؤمنات "اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ" منكم لأن لكم الظاهر والله عليم بما في الصدور "فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ" بعد الفحص "مُؤْمِناتٍ" بحسب الظاهر ولم تروا ريبة في مجيئهن وإبقائهن بين أظهركم "فَلا تَرْجِعُوهُنَّ" بعد ذلك "إِلَى الْكُفَّارِ" أزواجهن الأول "لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ" لأنهم مشركون "وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ" لأنهن مسلمات، فتقع الفرقة بينهم، راجع الآية 222 من

سورة البقرة المارة "وَآتُوهُمْ" أي أزواجهم الكفار "ما أَنْفَقُوا" عليهن من المهور لأنه حقهم ولم يعطوه إلا لحق الزوجية ، وقد انقطعت بغير إرادة الأزواج ، فيكون بمثابة بدل الخلع "وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ" بعد ذلك "إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ" مهورهن "وَلا تُمْسِكُوا" أيها المؤمنون "بِعِصَمِ الْكَوافِرِ" اللاتي بقين مشركات في دار الحرب أو اللاتي قد ارتددن ولحقن بدار الحرب "وَسْئَلُوا" من يتزوجهن من الكفّار أن يعطوكم "ما أَنْفَقْتُمْ" عليهن من المهر "وَلْيَسْئَلُوا" الكفار أيضا فيطلبوا منكم "ما أَنْفَقُوا" على نسائهم المهاجرات اللاتي تزوجتم بهن من

(47/758)

المهور أيضا "ذلِكُمْ" الأمر الذي أمرتم به بإعادة المهر منكم ومنهم على السواء هو "حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ" بالعدل لأنه رب الكل "وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (10) نزلت هذه الآية بعد صلح الحديبية ، ولذلك أمر اللّه تعالى بالتسوية بين المؤمنين والكافرين رعاية لعهد الصلح الواقع بينهم ولولاه لم يرد لهم الصداق كما منع فيمن جاء من المسلمات قبل المعاهدة ، لأن الوفاء بالعهد واجب قديما ، وقد اشتد وجوبه في الإسلام .

مطلب من جحد عهد الحديبية وما يتعلق بالنسخ ونص المعاهدة وما وقع فيها من

المعجزات :

روى البخاري عن عروة بن الزبير أنه سمع مروان والمسور بن مخرمة يخبران عن أصحاب رسول اللّه قال لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي صلّى اللّه عليه وسلم أن لا يأتيك منا أحد ولو كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه ، وكره المؤمنون ذلك ، وأبى سهيل إلا ذلك ، فكاتبه النبي على ذلك فرد يومئذ أبا جندل على أبيه سهيل بن عمرو ، ولم يأته ، أي رسول اللّه يومئذ أحد من الرجال إلّا ردّه في تلك المدّة وإن كان مسلما ، وجاءت المؤمنات مهاجرات وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول اللّه يومئذ وهي عاتق شابة بأول عمرها وإدراكها ، ويقال للّتي بين الإدراك والتّعنيس أو التي لم تتزوج عاتق أيضا ، فجاء أهلها يسألون النبي صلّى اللّه عليه وسلم أن يرجعها لهم فلم يرجعها حتى أنزل اللّه فيهن هذه الآية ، قال عروة قالت عائشة ان رسول اللّه كان يمتحنهن بهذه الآية (أي الآتية بصيغة المبايعة) ، قال عروة قالت عائشة فمن أقرت بهذه الشروط (المذكورة في الآية) منهن قال لها قد بايعت ، كلاما يكلمها ، واللّه ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة ولا بايعهن إلا بقوله .

قال ابن عباس امتحانهنّ أن يستحلفهن ما خرجت من بغض زوج ولا رغبة من أرض إلى أرض ولا لحدث أحدثته ولا لا لتماسي دينا وما خرجت إلا رغبة في الإسلام وحب اللّه ورسوله ، وهذا هو الصواب في معنى الامتحان ، وما جاء عن عائشة فهو صيغة المبايعة ليس إلا ، وإنما كان كذلك لأن رد النساء المؤمنات لم يدخل في المعاهدة ، وما قيل إن النساء كن داخلات فنسخ اللّه ردهن فهو تعسف عفا اللّه عن أمثال هذا القائل لأنه وأمثاله شديد والرغبة في النسخ ، وقد استقصوا فيه قدرتهم من كل ما تصورته أذهانهم حتى حدا بهم الحال إلى هنا ، وما أرى هذا إلا من باب الجرأة على اللّه لأن من يتورع أو يقارب الورع يبعد عليه هذا الخوض إلى هذا الحد .

هذا وقد امتثل المؤمنون ما أمر اللّه به حتى أن عمر طلق زوجتيه المشركتين القاطنتين في مكة وهما فاطمة بنت أميه بن المغيرة وتزوجها معاوية ، وكلثوم بنت عمرو الخزاعية وتزوجها أبو جهم بن حذافة ، وطلق طلحة زوجته أروى بنت ربيعة وتزوجها بعد في الإسلام خالد بن سعد بن العاص ، وأسلمت زينب بنت رسول اللّه فتركت زوجها أبو العاص بن الربيع على كفره في مكة ولحقت بالمدينة ثم أتى وأسلم فردها إليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم .

ولما أبى المشركون أن يقروا بحكم اللّه ورسوله في ذلك أنزل اللّه جل شأنه "وَإِنْ فاتَكُمْ" أيها المؤمنون "شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ" بأن ذهبن مرتدات ولم يردوا إليكم مهوركم لاهن

ولا أوليائهن ولا الذين تزوجوا بهن بعدكم "فَعاقَبْتُمْ" به المشركين بأن غزوتموهم وغنمتم منهم أموالا وغيرها "فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا" عليهن من هذه الغنيمة وما بقي فاقسموه بينكم كما أمر اللّه "وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ" (11) واعلموا أنكم محاسبون على عملكم إذا خالفتم أمره فاعملوا بحكمه فيكم تفوزوا وتنجحوا .

(49/758)

قالوا إن النساء اللاتي ارتددن ستة ، أم الحكم بنت أبي سفيان تركت زوجها عاصي بن شداد الفهري وفاطمة (1) بنت أمية تركت زوجها عمر بن الخطاب ومروع بنت عقبة تركت زوجها شماس بن عثمان وعبدة بنت عبد العزى تركت زوجها عمرو بن عبد ودّ هند بنت أبي جهل تركت زوجها هشام بن العاص وكلثوم بنت عمرو تركت زوجها عمر بن الخطاب لأنها لما أبت الإسلام وأصرت على الكفر طلقها هي وزوجته الأولى فاطمة كما مرت الإشارة إليها آنفا ، فأعطاهم رسول اللّه مهورهن من الغنيمة ، فلو فرض وقوع معاهدة كهذه بين المسلمين والكافرين فيكون العمل بحق النساء اللاتي يتركن أزواجهن من الطرفين على هذا ، لأن الآية محكمة ولا دليل على نسخها البتة .

وخلاصة القصة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم

---

(1) قوله فاطمة ، تقدم أن اسمها قريبة فلعل في اسمها خلافا ، وذكر الخطيب أولا أن اسمها قريبة وثانيا فاطمة كما هنا والله أعلم اه .

(50/758)

بعد أن وفقه الله في حادثة الأحزاب وفعل ما فعل في بني قريظة وبرد ظهره من الأعداء المجاورين له اشتاق لزيارة البيت الشريف وأمر الناس أن يتجهزوا ففعلوا وخرج بهم من المدينة يوم الاثنين من ذي القعدة سنة ست من الهجرة الشريفة في بضع عشر مئة من أصحابه بقصد الزيارة وساقوا معهم البدن ، فلما وصلوا ذا الخليفة قادوا الهدى وأشعروه وأحرموا بعمرة وبعث عينا (جاسوسا) يخبره عن قريش ، ولما بلغوا غدير الأشطاط قريبا من عسفان أتاه عينه عتبة الخزاعي ، وقال إن قريشا قد بلغها مقدمك ، وقد هاجت وماجت وأجمعت على صدك عن البيت فأمر صلّى الله عليه وسلم بالنزول ، ونزل القوم ، فقال وهو عازم على زيارة الحرم رغم كل مقاومة أشيروا علي أيها الناس ، أتريدون أن أميل أولا على ذراري من انضمّ إلى قريش من الأحابيش وغيرهم يوم الخندق دعا وعاونوهم علينا ، فإن قعدوا قعدوا موتورين وإن نجوا تكن عنقا قطعها الله أو تريدون أن نؤم البيت

أولا لا نريد قتالا ولا حربا فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ فقال أبو بكر يا رسول اللّه إنما جئت عامدا للزيارة فتوجه لقصدك فمن صدنا قاتلناه ، قال امضوا على اسم اللّه .

(51/758)

ثم إن رسول اللّه قال لقومه ان خالد بن الوليد بالتنعيم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين ، فأخذوا قال المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم واللّه ما شعر خالد إلا وهو في قترة أي غبار الجيش ، وهذه معجزة له صلّى اللّه عليه وسلم لأنه أخبرهم به قبل أن يصلوا إليه ، فلما رآهم انطلق ينذر قريشا ، وكان ذلك قصد الرسول ، ولما وصلوا إلى الثنية التي يهبط منها بركت راحلته فقالوا فلأت القصوى أي حرنت ناقة رسول اللّه ، فقال ما فلأت ولكن حبسها حابس الفيل ، ثم زجرها فوثبت وعدل عن الثنية ، ونزل بأقصى الحديبية وهي قرية بينها وبين مكة مرحلة سميت باسم بئر فيها قليل الماء ، فنزلوا ونزح الماء وشكوا العطش ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم إلى ناجية سائق بدنه خذ هذا السهم واغرزه فيها ففعل ففاضت وما زالت تجيش بالري أي الماء حتى صدروا ، وهذه معجزة أخرى ثم قال لأصحابه لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يعظمون فيها حرمات اللّه وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها وأجبتهم إليها وإن كان فيها مشقة .

وفي هذه الجملة تعليم لأمته وإرشاد لها إلى مكارم الأخلاق ولو كانت من أحرج المواقف ،

فلما

رأى بديل بن ورقاء الخزاعي خروج قريش إلى اعداد مياه الحديبية وتصميمهم على صد

محمد وأصحابه وعرف عزم محمد صلّى اللّه عليه وسلم على دخول البيت ، وكانت

خزاعة حليفة لبني هاشم ، جاء بنفر من قومه إلى حضرة الرسول وأخبره خبر قريش وانهم

أخرجوا معهم النياق ذوات اللبن وذوات الحيران بما يدل على عزمهم على طول الإقامة

وقصدهم القتال وإنك غوّرت أي بعدت عن المدينة

(52/758)

ولا سلاح معك ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم إنا لم نأت لقتال وإن قريشا نهكتهم الحرب وقد

جئنا معتمرين ، فإن شاءوا ماددتهم مدة تترك فيها الحرب ، وإلا فإن لم يفعلوا وأصروا على

صدي فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على هذا حتى تنفرد سالفتي (السالفة صفحة العنق

وكنى عنها بالموت) ولينفّذن اللّه أمره .

فرجع بديل إلى قومه وعرض عليهم ما قاله ، فقال عمرو بن مسعود الثقفي قد عرض

عليكم خطة رشد فاقبلوها ، فقالوا له ائته وكلمه ، فجاء عروة وقال يا محمد أرأيت إن

استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أو أوقع المكروه في أصله قبلك ؟ ثم قال له إن المسلمين أصحابك ليسوا من قبيلة واحدة فلا رابطة بينهم ولا يؤمن فرارهم وعظم من قريش ، فقال له أبو بكر رضي اللّه عنه امضض بظر اللات (البظر من المرأة كالقلقة من الرجل) فقال لولا يدك عندي لأجبتك يا أبا بكر ، وكان المغيرة بن شعبة مصلتا سيفه وعليه المغفر واقفا على رأس رسول اللّه ، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول اللّه يتودده بالكف والرجوع حقنا للدماء ضربها بنصل السيف ، ويقول أخر يدك عن لحية رسول اللّه فقال له عروة أغدر ، وإنما قال له هذه الكلمة لأنه صحب قوما في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم أسلم ، فقال له صلّى اللّه عليه وسلم أقبل إسلامك ، أما المال فلست منه في شيء ، وصار عروة يرمق أصحاب رسول اللّه ورجع إلى قومه فقال أي قوم واللّه لقد وفدت على الملوك فما وجدت ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم محمدا أصحاب محمد ، وما هو يملك ، واللّه ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل فيدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم ، وما يحدون النظر إليه تعظيما له ، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، وإني رأيت قومه لا يسلمون بشيء أبدا ، وما أراكم إلا

ستصيبكم قارعة ، فانظروا رأيكم فقال رجل من كنانة دعوني آته فقالوا ائته ، فلما أشرف قال صلّى اللّه عليه وسلم هذا رجل من قوم يعظمون البدن فابعثوها إليه ، فلما رآها واستقبله الناس يلبون وقد بعثت إليه البدن قال سبحان اللّه ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، فرجع إلى أصحابه وقال إن البدن قلدت وأشعرت فلا أرى أن يصدوا عن البيت ، ثم بعثوا رئيس الأحابيش الحليس بن علقمة ، فلما رآه صلّى اللّه عليه وسلم قال هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه فبعثت ، فلما رأى الهدي يسيل بالوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس ، رجع إلى قريش وقال لهم إني رأيت ما لا يحلّ صده ، لأن القوم زائرون معتمرون ليسوا بمقاتلين ولا محاربين ، فقالوا له أنت أعرابي لا علم لك بشيء ، فغضب وقال ما على هذا حالفناكم ، والذي نفسي لنخلّين بين محمد وبين ما جاء به أو لأنفرنّ بالأحابيش ، فقالوا له كف عنا حتى نأخذ لأنفسنا من محمد ما نرضى به .

وأرسلوا إليه مكرز بن حفص ، فلما أشرف قال صلّى اللّه عليه وسلم هذا رجل فاجر ، فلما وصل وصار يكلم محمدا فلم ينته بشيء ، ورجع فلما رأى رسول اللّه اخفاق مساعي

سفراء قريش الخمسة المذكورين ، استدعى عمر بن الخطاب وأمره بالذهاب إلى مكة لاستطلاع خبر أهلها ، فقال يا رسول اللّه ليس بمكة من بني عدي أحد ، وقد علمت قريش عداوتي لها ، وإن عثمان أعزّ بها مني ، فبعث أولا خراشة بن أمية الخزاعي فانبعث عليه عكرمة ابن أبي جهل وعقر ناقته وهمّ بقتله ، فتداركه القوم وأنقذوه وردوه إلى قومه ، وهذا الفرق بين الكفر والإيمان خمسة سفراء من قريش لم يتعرض لهم المسلمون وسفير واحد فعلوا به ذلك ، فدعا صلّى اللّه عليه وسلم عثمان وبعثه إلى أبي سفيان بأن يخبره سبب قدومهم ، وزوده بكتاب شرح فيه ما وقع ، وأمره أن يزور المسلمين بمكة ويغريهم ويصبرهم حتى يأتي فرج اللّه ، فذهب وفعل ما أمره به ، وغاية ما سمحوا له أن يطوف البيت ، وحبسوه عن الرجوع ، وأشيع أنهم قتلوه ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم إن كان حقا فلا نبرح حتى نناجزهم ، ودعا الناس إلى البيعة على مقاتلتهم ، فأجابوه ، وأول من بايعه سنان الأسدي وقال أبايعك على ما في نفسي ، قال

وما في نفسك ؟ قال سنان أضرب بسيفي حتى يظهرك اللّه أو أقتل ، وبايعه الآخرون على مثل هذا ، ومنهم من

بايعه على أن لا يفر وقبل صلّى اللّه عليه وسلم مبايعتهم كلها .

روى البخاري ومسلم عن يزيد بن عبيد قال قلت لسلمة بن الأكوع على أي شيء بايعتم رسول اللّه ؟ قال على الموت وروى مسلم عن معقل بن يسار قال لقد رأيتني يوم الشجرة

(التي وقعت تحتها المبايعة في الحديبية) والنبي صلّى اللّه عليه وسلم يبايع الناس وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه ونحن أربعة عشر مائة ، قال لم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفرّ .

(55/758)

وروى البخاري عن ابن عمر قال إن الناس كانوا مع النبي صلّى اللّه عليه وسلم يوم الحديبية وتفرقوا في ظلال الشجر ، فإذا الناس يحدقون بالنبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال عمر يا عبد اللّه أنظر ما شأن الناس أحدقوا برسول اللّه ؟ فذهب فوجدهم يبايعون ، فبايع ، ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع ، وكان أول من بايع سفيان بن وهب من بني أسد ، وهذا بالنسبة لما رأى فلا تنافي بين القول بأن أول من بايع سنان الأسدي ، ولم يتخلف إلّا جدّ بن قيس من بني سلمة مختفيا بإبط ناقته .

ولما بلغ قريشا خبر هذه المبايعة خفضت من غلوائها وأمرت بإطلاق عثمان ، وأرسلت سهيل ابن عمرو العامري ، وحويطب بن عبد العزى لعقد معاهدة بينهم وبين محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، فلما رآهما ورأى عثمان جاء سالما قال لقومه لقد سهل اللّه لكم من أمركم .

وبعد المداولة معهما تم الصلح على وضع الحرب عشر سنين على الشروط المبينة في نص المعاهدة ، وهي هذه (باسمك اللهم ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب سهيل ابن عمرو العامري ، على أن تخلي قريش بيننا وبين البيت نطوف به من العام المقبل ، وان من جاءنا منهم رددناه ، وإن كان مسلما ، ومن جاء قريشا ممن اتبعنا لا يرد إلينا) وان من دخل في عقد محمد وعهده دخل ، ومن دخل في عقد قريش وعهدها دخل (أي بان يقر كل على ما هو عليه قبل هذه المعاهدة) .

فانتقد المسلمون هذه المعاهدة لا سيما وإن سهيلا لم يرض أن يكتب المعاهدة كاتب النبي أوس بن خولة ، ولا ان يكتب فيها بسم اللّه الرحمن الرحيم لأنهم لا يعرفون هذه الجملة ، ولا يذكر فيها أن محمدا رسول اللّه ، لأنهم لو علموا أنه رسوله ما صدوه ولا حاربوه ، وكان المتفق عليه عليا كرم اللّه وجهه فأبى أن يمحوا اسم رسول اللّه ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم أرنيه ، فأراه فمحاه بيده قائلا أنا رسول اللّه وان كذبتموني ، وهذا يدل دلالة كافية على أنه صلّى اللّه عليه وسلم لم يحسن

القراءة ، وإلا لما قال لعلي أرنيه ، راجع الآية 48 من سورة العنكبوت في ج 2 وإنما وافق صلّى اللّه عليه وسلم على هذه المعاهدة مع ما فيها من الحيف وعدم رضاء أصحابه بها وفاء بقوله لا تدعوني قريش إلى خطة فيها صلة رحم وشيء من حرمات اللّه إلا أجبتهم إليها .

ومن الشروط أن يرجعوا دون زيارة ، وانهم إذا أتوا من العام القابل لا يدخلون البيت إلا بجلباب السلاح والقوس .

هذا ولم يكد يستلم كل فريق نسخة من هذه المعاهدة التي أغاظت أصحاب محمد لأنها أمليت بإرادة سفير قريش الذي أصر على عدم دخولهم البيت لئلا يقال ان محمدا ضغط عليهم ، وإذا أبو جندل بن السفير نفسه جاء يرسف بحديدة ، لأن أباه حبسه بسبب إسلامه ، ولما سمع بمقدم رسول اللّه وأصحابه صار هو ورفقاؤه وضعفاء المسلمين يتدبرون الحيل للهرب من مكة والالتحاق بنبيهم ، فقال سهل هذا أول واحد تردّه ، فقال أبو جندل يعذبوني يا رسول اللّه ، فطلبه منه فلم يفعل ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم له احتسب فإن اللّه جاعل لك ولمن معك فرجا ومخرجا ، لأنا عقدنا الصلح ولا نغدر ، فازداد غضب المسلمين حتى قال عمر واللّه ما شككت مذ أسلمت إلا يومئذ .

ورسول اللّه يثبطهم ويعدهم بحسن العاقبة وهم يتمزقون غيظا مما لحقهم من الحيف في هذه المعاهدة ، ويقولون نحن على الحق فلم نرض الدنية ؟ فقال أبو بكر إن محمدا لن يعصي ربه

وهو ناصره، فاستمسكوا بغرزه فإنه على الحق.

وبعد أن تكفل حويطب بن عبد

العزّى بأبي جندل وأجاره من أبيه وتعهد بأن لا يوقع به أذى، قال يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين وجئت مسلما؟ فتأثر المسلمون من ذلك، وقالوا يا رسول اللّه كيف ترد من جاءنا ولا يردون من جاءهم؟ قال نعم من ذهب منا إليهم فقد أبعده اللّه ومن جاء منهم فسيجعل اللّه له بعد عسر يسرا.

وأمرهم بنحر الهدي والرجوع إلى المدينة.

(57/758)

وقد ذكر اللّه هذه الحادثة في سورة الفتح عند قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ) الآية 10 الآتية وسترى نتيجة هذه المعاهدة وما ينتج عنها وأول خير وقع بسببها كما سيأتي بيانه في الآية 75 من سورة النساء الآتية، ونزلت هذه السورة بعد رجوعهم كما نبيّنه إن شاء اللّه تعالى في الآيتين المذكورتين آنفا.

مطلب مبايعة النساء، وبقاء أثر نياحة الجاهلية حتى الآن في الفرات وغيرها:

قال تعالى "يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا

يَسْرِقْنَ" من بيوتهن ولا بيوت غيرهن شيئا "وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ" وأدا ولا بصورة أخرى "وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ"

بأن يلصقن أولادهن بغير آبائهم افتراء "بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ" أمامهن ، لأن كل ما هو بين يديك فهو أمامك "وَأَرْجُلِهِنَّ" تحتهن ، وذلك أن الولد إذا وضعته أمه يكون ساقطا بين يديها ورجليها ، فإذا قالت ولدي منك وليس منه فقد أتت ببهتان بين يديها ورجليها فضلا عن قولها وهذا زيادة في التحريض لهن على العفاف والصدق "وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ" تأمرهن به "فَبَايِعْهُنَّ" يا سيد الرسل على هذه الشروط "وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ" عما مضى منهن مهما كان "إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ" لما سبق من عباده "رَحِيمٌ 12" بمن اتبع دينه وآمن بنبيه .

روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية وما مسّت يده يد امرأة لا يملكها .

ورويا عن أم عطية قالت بايعنا رسول اللّه فقرأ علينا الآية (أي هذه) ونهانا عن النياحة فقبضت امرأة يدها فقالت فلانة اسعدتني (أي بكت وناحت معها على فقيد لها) أريد أن أجزيها ، فما قال لها النبي صلّى اللّه عليه وسلم شيئا ، فانطلقت ثم رجعت فبايعها .

وهذه العادة التي ذكرتها أم عطيه موجودة حتى الآن في محافظة الفرات ، حتى أن النائحة تقول (يا من تدبني دموع أبكاها اليوم تبكي لي وغدا ابكى لها) وكذلك يوجد كلمات من كلمات الجاهلية مثل (يا عزاه) وغيرها ، وكذلك في أعراب البادية وبعض المدن ، حتى ان الدروز إذا مات رجل معروف ألبسوا ثيابه خشبة وزينوا فرسه وصاروا يندبون عليه ، الرجال والنساء ، فيخمشون وجوههم ويسخمونها ويشقّون ثيابهم ويقصون شعورهم ويصيحون بالويل والثبور ويعددون صفات الميت بما فيه وما ليس فيه ويتقابلون بالسيوف ، حتى ان نساء العراق يسلخن ثيابهن لحد الصّرة حالة الندب ، وهناك عوائد أخرى من بقايا الجاهلية سنأتي على ذكرها في الآية الثانية فما بعدها من سورة النساء إن شاء اللّه ، وقد ألمعنا إلى شيء منها في

الآية 136 من سورة الأنعام فما بعدها ج 2 ، وإنما ذكرنا الضمير لأن الرجال يشتركون معهن عند موت كبير فيهم فيندبون ويثأرون بالسيوف والرماح .

ورويا عن ابن مسعود أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية .

وأخرج أبو داود عن أسيد عن امرأة من المبايعات قالت كان فيما أخذ علينا رسول اللّه من المعروف الذي أخذ علينا أن لا نعصيه فيه أن لا نخمش وجهها ، ولا ندعو ويلا ، ولا نشق جيبا ، ولا ننشر شعرا .

وأخرج النسائي عن أنس أن رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه وسلم أخذ على النساء حين بايعهن أن لا ينحن ، فقلن يا رسول اللّٰه نساء أسعدتنا في الجاهلية فنسعدهن ، فقال رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه وسلم لا إسعاد في الإسلام .

وروى مسلم عن مالك الأشعري قال : قلال رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه وسلم البائحة إذا لم تتب قبل موتها تقوم يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب .

وأخرج أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال : لعن رسول اللّٰه النائحة والمستمعة .

(59/758)

وأخرج الترمذي عن أمية بنت رقية قالت : بايعت رسول اللّٰه في نسوة فقال لنا فيما استطعتنّ واطعتن ، قلنا اللّٰه ورسوله ارحم بنا منّا بأنفسنا ، قلت يا رسول اللّٰه بايعنا (قال سفيان يعني صافحنا) فقال صلّى اللّٰه عليه وسلم إنما قولي لمئة امرأة كقولي لامرأة واحدة .

وهذه الآية نزلت مع سورتها في المدينة .

وما قيل أنها نزلت بمكة بعد الفتح لا صحة له وهو أوهى من بيت العنكبوت ، وما استند إليه صاحب هذا القيل من أن هند زوجة أبي سفيان فيما بايعت رسول اللّٰه مع نساء مكة على الصفا قالت وهي مقنعة لئلا يعرفها حضرة الرسول بسبب ما فعلت بحمزة رضي اللّٰه

عنه في واقعة أحد المارة في الآية 122 من آل عمران ، إنك لتأخذ علينا أمرا ما أخذته

على الرجال وقالت إن البهتان لقبيح وإنك تأمرنا بالرشد ومكارم الأخلاق ، وقالت وما

جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء ، ثم قالت ربيناهم صغارا وقتلتموهم

كبارا حينما قال (وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ) وقالت إن أبا سفيان لشحيح وأنا أحتسب في ماله

قالوا وإن الرسول عرفها فقال إنك لهند قالت نعم فاعف يا رسول اللّه قال قد عفا اللّه عنك

، وما قيل إنه قال لها هند أكالة الكبود ، وإنها قالت له أني وحقود قد لا يصح ، وقد يصح

، والميل لعدم

الصحة أولى ، لأن مثلها كاملة لا تجابه رسول اللّه بمثل هذا الكلام ، كما أن حضرة الرسول

لا يعنف أحدا بعد إسلامه ، فهذا وإن كان واقعا إلا أنه لا يدل على أن هذه الآية نزلت

هناك ، وإنما بايعهن بمقتضى هذه البيعة التي بايع عليها النساء في المدينة لأن اللّه تعالى لم ينزل

بكل حادثة آية ، فيكرر نزول الآيات بتكرار الحوادث بل آية واحدة لحوادث شتى وتطبيقها

على ما يحدث بعد نزولها بتلاوتها من قبل النبي لا يعني أنها نزلت ثانيا وسبق أن بينا في

سورة الفاتحة ج 1 عدم صحة نزول آية أو سورة مرتين ، قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا

تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ" من اليهود وغيرهم "قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ" وحرموا من ثوابها لتكذيبهم محمدا صلّى اللّه عليه وسلم مع علمهم بأنه مرسل من اللّه حقا لهم ولغيرهم "كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ" (13) الذين ماتوا على كفرهم من أن يرجعوا إليهم وأن يبعثوا ثانيا لأنهم ينكرون البعث، وقد ختم اللّه هذه السورة بالمعنى الذي بدأها به تشديدا للكفّ عن موالاة الكافرين والمنافقين لأنها تعود على المسلمين بالضرر، ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت هذه السورة في القرآن كله هذا، واللّه أعلم، واستغفر اللّه، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه وذرياته أجمعين ومن تبعهم إلى يوم الدين آمين. انتهى انتهى. اهـ ﴿بيان المعاني حـ 5 ص 514.499﴾

(61/758)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة:

قال شيخ الإسلام/ زكريا الأنصاري

سورة الممتحنة

مدنية

أولياء صالح بالمودة لم يذكره الأصل وقال غيره تام وفيه نظر وإياكم تام عند الجميع وقيل وقف بيان حسن ولا أحب شيئًا من ذلك لأن ما بعده متعلق به وما أعلنتم تام وقال أبو عمرو كاف سواء السبيل كاف وكذا بالسوء لو تكفرون تام وكذا أولادكم عند أبي حاتم والأولى فيه أنه وقف بيان يفصل بينكم تام هذا إن علق يوم القيامة بيفصل فأن علق بتنفعكم لم يوقف على أولادكم ولا بينكم بل على يوم القيامة وهو صالح ثم على بصير وهو تام من الله من شيء حسن وقال أبو عمرو تام المصير وكذا الحكيم واليوم الآخر حسن الحميد تام مودة صالح رحيم تام إليهم كاف المقسطين حسن إن تولوهم كاف الظالمون تام وكذا فامتحنوهن إلى الكفار حسن يحلون وكذا ما أنفقوا وأجورهن وما أنفقوا ويحكم بينكم حكيم تام ما أنفقوا كاف به مؤمنون تام فبايعهن صالح لهن الله كاف رحيم تام غضب الله عليهم صالح آخر السورة تام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ المقصد ص ﴾

(62/758)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني:

سورة الممتحِنة

بكسر الحاء أي المختبرة مدنية ثلاث عشرة آية اتفاقاً ليس فيها اختلاف وكلمها ثلاثمائة

وثمان وأربعون كلمة وحروفها ألف وخمسمائة وعشرة أحرف

أولياء (تام) عند يحيى بن نصير النحوي على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل تلقون نعت أولياء أو مفعولاً ثانياً لتتخذوا أو حالاً من فاعل تتخذوا أي لا تتخذوا ملقين المودة وكذا إن جعل تلقون تفسير لاتخاذهم أولياء لأنَّ تفسير الشيء لاحق به ومتمم له قال الزمخشري فإن قلت إذا جعلت تلقون صفة لأولياء فقد جرى على غير من هوله فأين الضمير البارز وهو قولك تلقون إليهم أنتم قلت ذاك إنَّما اشترطوه في الأسماء دون الأفعال وتلقون فعل أي واعترض أبو حيان كون تلقون صفة أو حالاً بأنَّهما قيدان وهم قد نهوا عن اتخاذهم أولياء مطلقاً قال تعالى لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء والقيد بالحال والوصف يوهم جواز اتخاذهم أولياء إذا انتفى القيدان قال تلميذه السمين ولا يلزم ما قال لأنَّه معلوم من القواعد الشرعية فلا مفهوم لهما البتة وعلى أن تلقون مستأنف لا وقف من تلقون إلى تسرون إليهم بالمودة لاتصال الكلام بعضه ببعض فلا يوقف على بالمودة الأولى لأنَّ وقد كفروا جملة حالية وذوا الحال الضمير في تلقون أي توادونهم وهذه حالتهم ولا على من الحق ولا على الرسول ولا على إياكم لأنَّه معطوف على الرسول أي يخرجون الرسول ويخرجونكم وأيضاً قوله أن تؤمنوا بالله مفعول يخرجون ومنهم من جعل إن كنتم خرجتم جهاداً شرطاً جوابه ما قبله كأنَّه قال يا أيها الذين آمنوا إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء

تسرون إليهم بالمودة (حسن)

وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم (تام) للابتداء بالشرط

سواء السبيل (كاف) ومثله وألسنتهم بالسوء على استئناف ما بعده

لو تكفرون (تام) ومثله ولا أولادكم إن جعل يوم القيامة ظرفاً للفصل وليس بوقف إن علق بتنفعكم وحينئذ لا يوقف على بينكم بل على يوم القيامة إذ يصير ظرفاً لما قبله فكأنَّه قال لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم في هذا اليوم

بصير (تام) ولا وقف من قوماً قد كانت لكم إلى قوله لأستغفرنَّ لك وذلك إنَّ قوله قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم إلاَّ قوله لأبيه في معنى تأسوا بإبراهيم إلاَّ في قوله لأبيه على أنَّ الاستثناء متصل وهو مستثنى من قوله قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه والمعنى إلاَّ قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك فليس لكم في هذه أسوة لأنَّ استغفار المؤمنين للكافرين كفعل إبراهيم غير جائز أنزل الله في ذلك وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنَّه عدو لله تبرأ منه ومن جعله منقطعاً وقف على قوله وحده قال أبو حيان والظاهر أنَّه مستثنى من مضاف لإبراهيم فالقول ليس مندرجاً تحته

لكنه مندرج تحت مقالات إبراهيم إنظره إن شئت

من شيء (تام) على الوجهين

أنبئنا (حسن)

المصير (تام)

كفروا (حسن) ومثله ربنا

الحكيم (تام) وبعضهم جعل قوله ربنا عليك توكلنا إلى الحكيم متصلاً فلا يوقف على

حسنة لأنَّ قوله لمن كان يرجو الله بدل من ضمير الخطاب وهو لكم بدل بعض من كل

واليوم الآخر (كاف) للابتداء بالشرط الحميد (تام)

مودة (حسن)

قدير (أحسن) مما قبله

رحيم (تام)

أن تبروهم ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله

وتقسطوا إليهم (كاف)

المقسطين (تام)

أن تولوهم (كاف) فإن تولوهم وأن تبروهم بدلان مما قبلهما فلا يوقف على ما قبلهما

الظالمون (تام) ومثله فامتحنوهن

الله أعلم بإيمانهن (أتم) مما قبله قال ابن نصير أكره أن أقف على النون المشددة

إلى الكفار (كاف) ومثله لهن وكذا ما أنفقوا وكذا أجورهن

بعصم الكوافر (جائز)

ما أنفقوا (كاف) ومثله يحكم بينكم

حكيم (تام)

مثل ما أنفقوا (حسن)

(64/758)

مؤمنون (تام) ولا وقف من قوله يا أيها النبي إلى قوله فبايعهن فلا يوقف على شيئًا ولا على

أولادهن ولا على وأرجلهن ولا على معروف لأنَّ جواب إذا قوله فبايعهن

وبايعهن (جائز)

واستغفر لهنَّ الله (كاف)

رحيم (تام)

عليهم (جائز)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى ص ﴾

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة ابن جنى :

سورة الممتحنة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ عيسى الثقفي : "بِرَاء 1" ، بكسر الباء ، وليس بين الراء والألف همزة ، في وزن براع .

قال أبو الفتح : هذا جمع بريء ، وفي تكسره أربعة أوجه : بريء وبراء كظريف وظراف ، وبريء وأبرياء كصديق وأصدقاء ، وبريء وبرآء كشريف وشرفاء ، وبريء وبراء -على فعال- كتؤام2 ، ورباب : جمع شاة ربي : حديثة العهد بالنتاج. وعليه بيت الحارث :

فإنا من حربهم لبراء 3

وقال الفراء : أراد برآء ، فحذف الهمزة التي هي لام تخفيفا ، فأخذ هذا الموضع من أبي الحسن في قوله : إن أشياء أصلها أشيياء ، ومذهبه هذا يوجب ترك صرف براء ؛ لأنها عنده همزة التأنيث .

ومن ذلك قراءة الأعرج : "فَعَقَّبْتُمْ4" [158ظ] .

النخعي والزهري ويحيى بخلاف - : "فعقبتم" ، خفيفة القاف من غير ألف .

---

1 سورة الممتحنة : 4 .

2 التؤأم : جمع توءم .

3 من قول الحارث بن حلزة في معلقته :

أم جنايا بني عتيق فمن يغـدر فانا من حربهم لبراء ؟

أم جنايا ، أي : أم علينا جنايا . ويروى "برآء" مكان "لبراء" . وانظر شرح المعلقات السبع للزوزني : 167 .

4 سورة الممتحنة : 11 .

(66/758)

مسروق : "فَعَقِبْتُهم" ، بكسر القاف بغير ألف .

وقراءة الناس : "فَعَاقَبْتُم" .

قال أبو الفتح : روينا عن قطرب ، قال : "فعاقبتم : "أصبتم عقبا 1 منهن . يقال عاقب الرجل شيئًا : إذا أخذ شيئًا ، وأنشد لطرفة :

فعقبتم بذنوب غير مر 2

جمع مرة، فسروه على أعطيتم وعدتم. وقال في قوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّب3﴾: لم يرجع، كذا قال أحمد بن يحيى.

قال أبو حاتم: قرأ مجاهد: "فأعقبتم"، قال: معنى أعقبتم: صنعتم بهم مثل ما صنعوا بكم.

وحكى عن أبي عوانة4 عن المغيرة: قرأت على إبراهيم: "فعاقبتم"، فأخذها علي: "فعقبتم"، خفيفة.

وحكى عن الأعمش، قال: "عقبتم" "عقبتم"، فقد يجوز أن يكون عقبتم بوزن غنمتم ومعناه جميعا. وروى أيضا بيت طرفة: "فعقبتم"، بكسر القاف. انتهى انتهى. ا هـ

﴿المحتسب حـ 2 صـ 318. 319﴾

---

1 جمع عقبة، وهي النوبة.

2 صدره:

ولقد كنت عليكم عاتبا

والذنوب: الدلو، ويقصد به النصيب من العطاء. وروى "غير مر"، بكسر راء غير، وضم ميم مر. ويريد بالعطاء غير المر: العطاء لا مطل فيه، ولا من معه، والمعنى على هذا أن قومه قابلوا عتبة عليهم بعطاء كريم لا يتبعه من أذى. وهو ملاق في النهاية للمعنى على الضبط الآخر. وانظر الديوان: 87.

3 سورة النمل : 10 ، وسورة القصص : 31 .

4 ممن روى الحروف عن قتادة بن دعامة السدوسي البصري . طبقات ابن الجزري : 2 : 25 .

(67/758)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الممتحنة

مدنية وآيها ثلاث عشرة آية القرآآت مر ضم الهاء من إليهم لحمزة ويعقوب وأمال الكسائي مرضاتي وفتحها الباقون

وقرأ ( ) وأنا أعلم (الآية 1 بالمد نافع وابو جعفر وأدغم دال ( ) فقد ضل ( ) ورش وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف

واختلف في ( ) يفصل بينكم (الآية 3 فنافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر وهشام من طريق الداجوني بضم الياء وسكون الفاء وفتح الصاد مخففا مبنيا للمفعول والنائب ضمير المصدر المفهوم من يفصل أي الفصل أو بينكم لكنه مبني على الفتح لإضافته إلى مبني نحو لقد تقطع بينكم عند من فتح وافقهم ابن محيصن واليزيدي وقرأ ابن عامر إلا الداجوني عن

هشام بضم الياء وفتح الفاء والصاد المشددة مبنيا للمفعول أيضا وقرأ عاصم ويعقوب بفتح الياء وإسكان الفاء وكسر الصاد مخففة مبنيا للفاعل وهو الله تعالى أي يحكم أو يفرق وصلكم وافقهما الحسن وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد المشددة مبنيا للفاعل أيضا أي يفرق بإدخال المؤمن الجنة والكافر النار وافقهم الأعمش

وقرأ (أسوة) لآية 4 معا بضم الهمزة عاصم كما مر بالأحزاب

وقرأ (إبراهيم) الآية 4 الأول وهو قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم بالألف ابن عامر سوى النقاش عن الأخفش عن ابن ذكوان ويوقف لحمزة على براؤا بتسهيل الأولى بين بين على القياس ولا يصح إبدالها واوا في النشر وكذا حذفها وأما الثانية فتبدل ألفا مع المد والقصر والتوسط وتسهل كالواو مع المد والقصر فقط فهي خمسة وتبدل واوا ساكنة للرسم مع المد والقصر والتوسط وله الإشمام مع الثلاث والروم مع القصر فالجملة اثنا عشر وجها وافقه هشام بخلفه مع تحقيق الأولى وأبدل الثانية من

والبغضاء أبدا واوا مفتوحة نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس

وأمال عسى وقفا حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق والدوري عن أبي عمرو بخلفهما وكذا حكم لا ينهيكم إنما ينهيكم خلا الدوري المذكور فبالفتح فيهما وشدد البزي بخلفه التاء في أن تولوهم ووقف يعقوب بخلفه بهاء السكت على نون جمع النسوة المشددة بعد الهاء من فامتحنوهن وجميع ما بعده إلى قوله لهن الله واختلف في ( ) ولا تمسكوا (الآية 10 فأبو عمرو ويعقوب بضم التاء وفتح الميم وتشديد السين من مسك رباعيا مضعفا وافقهما اليزيدي وعن الحسن بفتح التاء والميم وتشديد السين المفتوحة والأصل تتمسكوا حذفت إحدى التاءين والباقون بضم التاء وسكون الميم وتخفيف السين من أمسك كأكرم وقرأ ( ) واسألوا ما أنفقتم (الآية 10 بالنقل ابن كثير والكسائي وخلف عن نفسه وعن الحسن فعقبتم بالقصر وتشديد القاف

وقرأ ﴿ النبيء إذا) ﴾ الآية 12 بهمزة ﴿ النبيء ﴾ مضمومة فيسهل التي بعدها كالياء ويبدلها واوا مكسورة

المرسوم اتفقوا على كتابة صورة الهمزة المضمومة في براؤا واوا وحذف الألف قبلها وزيادة ألف بعدها وأما المفتوحة فصورتها محذوفة كما في النشر وغيره. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الممتحنة "

" إليهم " تسرون ، وأنا أعلم ، يفعله ، لأبيه ، لأستغفرن ، فيهم ، جلي .

" بالسوء " فيه لحمزة وهشام وقفا النقل والإدغام وعلى كل السكون والروم .

" يفصل " قرأ المدنيان والمكي والبصري بضم الياء وإسكان الفاء وفتح الصاد مخففة ، وابن عامر بضم الياء وفتح الفاء والصاد مشددة ، وعاصم ويعقوب بفتح الياء وإسكان الفاء وكسر الصد مخففة والأخوان وخلف بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشددة .

" أسوة معا " قرأ عاصم بضم الهمزة وغيره بكسر ما .

" في إبراهيم " قرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها وغيره بكسر الهاء وياء بعدها .

" برءاؤا " مده متصل لجميع القراء عملا بأقوى السببين وفيه لحمزة وقفا تسهيل الأولى قولا واحدا وله في الثانية اثنا عشر وجها لكونها مرسومة على واو ويوافقه هشام في الثانية فقط .

" والبغضاء أبدا " أبدل الهمزة الثانية واوا محضة المدنيان والمكي والبصري ورويس وحققها غيرهم واتفقوا على تحقيق الأولى .

" قول إبراهيم " اتفقوا على قراءته بكسر الهاء فهشام كغيره .

" الحميد " آخر الربع .

الممال

قربى لدى الوقف وشتى والحسنى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، جدار ، بالإمالة لأبى عمرو وحده لأن ورشا ودورى الكسائي يقرآن بضم الجيم والدال النار معا بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، فأنساهم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، للناس لدوري البصري ، البارئ لدوري الكسائي وحده ، جاءكم لابن ذكوان وخلف وحمزة ، مرضاتى للكسائي وحده ، ولا إمالة في بدا لأنه واوي .

المدغم

" الصغير " فقد ضل لورش والبصري والشامي والأخوين وخلف ، واغفر لنا للبصري بخلف عن الدوري .

" الكبير " الذين نافقوا ، قال للإنسان ، كالذين نسوا ، المصور له ، أعلم بما ، المصير ربنا ، فإن الله هو .

" قدير " إليهم ، إخراجكم ، مهاجرات ، أيديهن ، قوما غضب ، عليهم ، جلي .

" أن تولوهم " شدد البزي التاء وصلا وخففها غيره واتفقوا على تخفيفها ابتداء .

" فامتحنوهن " وقف عليه بهاء السكت يعقوب وكذا على ما بعده مما وقعت فيه نون النسوة بعد هاء الضمير .

" تمسكوا " قرأ البصريان بفتح الميم وتشديد السين وغيرهما بإسكان الميم وتخفيف السين .

" واسألوا " نقل حركة الهمزة إلى السين وحذف الهمزة في الحالين المكي والكسائي وخلف في اختياره وكذا حمزة إن وقف .

" النبي إذا " قرأ نافع بالهمز ويترتب على هذا اجتماع همزتين في كلمتين الأولى مضمومة والثانية مكسورة فيقرأ الأولى بالتحقيق وله في الثانية التسهيل بين بين والإبدال واوا خالصة . انتهى انتهى . اهـ ﴿البدور الزاهرة صـ 325 ـ 326﴾

(71/758)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الممتحنة

قوله تعالى ﴿ يفصل بينكم ﴾ يقرأ بضم الياء وفتح الصاد وبفتح الياء وكسر الصاد وبالتشديد فيهما والتخفيف فالحجة لمن فتح الياء وكسر الصاد وخفف انه اراد يفصل الله بينكم ودليه قوله ﴿ وهو خير الفاصلين ﴾ والحجة لمن قرأه بضم الياء وفتح الصاد والتخفيف انه جعله فعل ما لم يسم فاعله وكذلك القول في التشديد فابنه عليه

قوله تعالى ﴿ ولا تمسكوا ﴾ اجماع القراء على التخفيف الا ما انفرد به ابو عمرو من التشديد وقد ذكر الاحتجاج في ذلك بما يغني عن إعادته. انتهى. ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 344. 345 ﴾

(72/758)

وقال ابن زنجلة :

60 - سورة الممتحنة

لن تنفعكم أرحامكم ولا أولدكم يوم القيمة يفصل بينكم 33

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو يوم القيامة يفصل بينكم برفع الياء وفتح الصاد على ما لم يسم فاعله وحجتهم قوله وهو خير الفاصلين ولم يقل المفصلين وقوله ليوم الفصل ولم يقل ليوم التفصيل

قرأ عاصم يفصل بفتح الياء وكسر الصاد مثل يضرب والمعنى يفصل الله بينكم كما قال إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة

قرأ حمزة والكسائي يفصل بضم الياء وكسر الصاد والتشديد أي يفصل الله بينكم قالوا فلتردد الفعل وكثرة ما يفصل الله بينهم يوم القيامة وقع التشديد لأن التشديد إنما يدخل في الكلام لتردد الفعل

قرأ ابن عامر يفصل بفتح الصاد مع التشديد على ما لم يسم فاعله ولا تمسكوا بعصم الكوافر

10

وقرأ أبو عمرو ولا تمسكوا بالتشديد من قولك مسك يمسك وحجته قوله والذين يمسكون بالكتاب

وقرأ الباقون ولا تمسكوا بالتخفيف من أمسك يمسك وحجتهم قوله فإمساك بمعروف وقوله ولا تمسكوهن ضرارا وقوله أمسك عليك زوجك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 707.706﴾

(73/758)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الممتحنة 60

مدنية ولا نظير لها في عددها

وكلمها ثلاث مئة وثمان وأربعون كلمة

وحروفها ألف وخمس مئة وعشرة أحرف

وهي ثلاث عشرة آية ليس فيها اختلاف ولا فيها مما يشبه الفواصل شيء ورؤوس الآي

السبيل

1 تكفرون

2 بصير

3 المصير

4 الحكيم

5 الحميد

6 رحيم

7 المقسطين

8 الظالمون

9 حكيم

10 مؤمنون

11 رحيم

12 القبور

13 . انتهى انتهى . اهـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 244﴾

(74/758)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الممتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (تلقون) هو حال من ضمير الفاعل في تتخذوا ، ويجوز أن يكون مستأنفا ، والباء في (بالمودة) زائدة ، و (يخرجون) حال من الضمير في كفروا أو مستأنف (وإياكم) معطوف على الرسول ، و (أن تؤمنوا) مفعول له معمول يخرجون ، و (إن كنتم) جوابه محذوف دل عليه لا تتخذوا ، و (جهادا) مصدر في موضع الحال ، أو معمول فعل محذوف دل عليه

الكلام: أي جاهدتم جهادا ، و (تسرون) توكيد لتلقون بتكرير معناه .

قوله تعالى (يوم القيامة) ظرف (ليفصل) أو لقوله لن تنفعكم ، وفي يفصل قراءات ظاهرة الاعراب ، إلا أن من لم يسم الفاعل جعل القائم مقام الفاعل (بينكم) كما ذكرنا في قوله تعالى "لقد تقطع بينكم" .

قوله تعالى (في إبراهيم) فيه أوجه: أحدها هو نعت آخر لأسوة .

والثانى هو متعلق بحسنة تعلق الظرف بالعامل .

والثالث أن يكون حالا من الضمير في حسنة ، والرابع أن يكون خبر كان ، ولكم تبيين ، ولا يجوز أن يتعلق بأسوة لأنها قد وصفت ، و (إذ) ظرف لخبر كان ، ويجوز أن يكون هو خبر كان ، و (برآء) جمع برئ مثل ظريف وظرفاء وبراء بهمزة واحدة مثل رخال ، والهمزة محذوفة ،

وقيل هو جمع برأسه ، وبراء بالكسر مثل طراق ، وبالفتح اسم للمصدر مثل سلام ،

والتقدير: إنا ذوو براء .

قوله تعالى (إلا قول) هو استثناء من غير الجنس ، والمعنى: لا تتأسوا به في الاستغفار للكفار .

قوله تعالى (لمن كان) قد ذكر في الأحزاب .

قوله تعالى (أن تبروهم) هو في موضع جر على البدل من الذين بدل الاشتمال أي عن بر

الذين، وكذلك (أن تولوهم) و (تمسكوا) قد ذكر في الأعراف و (يبايعنك) حال، و (يفترينه) نعت لبهتان، أو حال من ضمير الفاعل في يأتين.

قوله تعالى (من أصحاب القبور) يجوز أن يتعلق بيئس: أي يئسوا من بعث أصحاب القبور، وأن يكون حالا: أي كائنين من أصحاب القبور. انتهى انتهى. اهـ ﴿إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(75/758)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة الممتحنة

[سورة الممتحنة (60): آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (1)

"يا أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة مبني على الضم والها للتنبيه "الَّذِينَ" اسم موصول بدل "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة ، "لا تَتَّخِذُوا" مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله "عَدُوِّي" مفعول به أول "وَعَدُوَّكُمْ" معطوف على عدوي "أَوْلِياءَ" مفعول به ثان والجملة ابتدائية لا محل لها "تُلْقُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "إِلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل والجملة حال "بِالْمَوَدَّةِ" متعلقان بالفعل أيضا .

(76/758)

"وَ" الواو حالية "قَدْ كَفَرُوا" حرف تحقيق وماض وفاعله والجملة حال "بِما" متعلقان بالفعل "جاءَكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "مِنَ الْحَقِّ" حال والجملة صلة .

"يُخْرِجُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "الرَّسُولَ" مفعول به "وَإِيَّاكُمْ" معطوف على الرسول والجملة استئنافية لا محل لها ، "أَنْ تُؤْمِنُوا" مضارع منصوب بأن والواو فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب بنزع الخافض "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "رَبِّكُمْ" بدل من لفظ الجلالة . "أَنْ" شرطية "كُنْتُمْ" ماض ناقص والتاء اسمه "خَرَجْتُمْ" ماض وفاعله والجملة الفعلية خبر كنتم وجملة كنتم . . ابتدائية لا محل لها "جِهاداً" مفعول لأجله ، "فِي سَبِيلِي" متعلقان بجهادا ، "وَابْتِغاءَ" معطوف على جهادا "مَرْضاتِي" مضاف إليه ، "تُسِرُّونَ"

مضارع مرفوع والواو فاعله "إِلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "بِالْمَوَدَّةِ" متعلقان بالفعل أيضا والجملة استئنافية لا محل لها . "وَ" الواو حالية "أَنَا أَعْلَمُ" مبتدأ وخبره والجملة حال "بِما" متعلقان بأعلم "أَخْفَيْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة "وَما أَعْلَنْتُمْ" معطوف على ما أخفيتم "وَمَنْ يَفْعَلْهُ" اسم شرط جازم مبتدأ ومضارع مجزوم والهاء مفعوله والفاعل مستتر "مِنْكُمْ" متعلقان بمحذوف حال "فَقَدْ" الفاء رابطة "قَدْ" حرف تحقيق "ضَلَّ" ماض فاعله مستتر "سَواءَ" مفعول به مضاف إلى السبيل "السَّبِيلِ" مضاف إليه والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من وجملة من . . استئنافية لا محل لها .

[سورة الممتحنة (60) : آية 2]

إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2)

"إِنْ يَثْقَفُوكُمْ" إن شرطية ومضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعله والكاف مفعول به والجملة ابتدائية لا محل لها . "يَكُونُوا" مضارع ناقص مجزوم لأنه جواب الشرط والواو اسمه والجملة جواب الشرط لا محل لها "لَكُمْ" متعلقان بالخبر "أَعْداءً" خبر يكونوا "وَيَبْسُطُوا"

مضارع معطوف على يكونوا "إِلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل "أَيدِيَهُمْ" مفعول به "وَأَلسِنَتَهُمْ" معطوف على أيديهم "بِالسُّوءِ" متعلقان بمحذوف حال "وَوَدُّوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "لَوْ تَكْفُرُونَ" لو مصدرية ومضارع وفاعله والمصدر المؤول من لو وما بعدها مفعول ودوا .

[سورة الممتحنة (60) : آية 3]

لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3)

"لَنْ تَنْفَعَكُمْ" مضارع منصوب بلن ومفعوله "أَرْحامُكُمْ" فاعله "وَلا أَوْلادُكُمْ" معطوف على أرحامكم "يَوْمَ" ظرف زمان "الْقِيامَةِ" مضاف إليه والجملة استئنافية لا محل لها "يَفْصِلُ" مضارع فاعله مستتر "بَيْنَكُمْ" ظرف مكان والجملة استئنافية لا محل لها "وَاللَّهُ" مبتدأ "بِما" متعلقان ببصير "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "بَصِيرٌ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة الممتحنة (60) : آية 4]

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآَؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4)

"قَدْ كَانَتْ" حرف تحقيق وماض ناقص "لَكُمْ" خبر كان المقدم "أُسْوَةٌ" اسمها المؤخر "حَسَنَةٌ" صفة أسوة والجملة استئنافية لا محل لها "فِي إِبْرَاهِيمَ" متعلقان بأسوة "وَالَّذِينَ" معطوف على إبراهيم "مَعَهُ" ظرف مكان "إِذْ" بدل اشتمال من إبراهيم "قَالُوا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "لِقَوْمِهِمْ" متعلقان بالفعل "إِنَّا بُرَآَؤُا" إن واسمها وخبرها والجملة مقول القول "مِنْكُمْ" متعلقان ببرآء .

(79/758)

"وَمِمَّا تَعْبُدُونَ" معطوفان على منكم ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة ، "مِنْ دُونِ" متعلقان بمحذوف حال "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه . "كَفَرْنَا" ماض وفاعله "بِكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة حال "وَبَدَا بَيْنَنَا" ماض وظرف مكان و"بَيْنَكُمُ" معطوف على بيننا "الْعَدَاوَةُ" فاعل "وَالْبَغْضَاءُ" معطوف على العداوة "أَبَدًا" ظرف زمان "حَتَّى"

حرف غاية وجر "تُؤْمِنُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "وَحْدَهُ" حال والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بحتى والجار والمجرور متعلقان ببدا "إِلَّا قَوْلَ" حرف استثناء ومستثنى منصوب "إِبْراهِيمَ" مضاف إليه ، "لِأَبِيهِ" متعلقان بقول "لَأَسْتَغْفِرَنَّ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل مستتر والجملة جواب القسم لا محل لها "لَكَ" متعلقان بالفعل ، والواو حالية "ما" نافية "أَمْلِكُ" مضارع فاعله مستتر والجملة حال "لَكَ" متعلقان بالفعل "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بالفعل أيضا . "مِنْ شَيْءٍ" مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به لأملك "رَبَّنا" منادى مضاف "عَلَيْكَ" متعلقان بتوكلنا وجملة النداء مقول القول "تَوَكَّلْنا" ماض وفاعله والجملة مقول القول "وَإِلَيْكَ" متعلقان بما بعدهما ، "أَنَبْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها ، "وَإِلَيْكَ" خبر مقدم "الْمَصِيرُ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الممتحنة (60) : آية 5]

رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5)

"رَبَّنا" منادى مضاف "لا تَجْعَلْنا" مضارع مجزوم بلا و"نا" مفعول به أول "فِتْنَةً" مفعول به ثان "لِلَّذِينَ" متعلقان بفتنة والجملتان الندائية والفعلية استئنافيتان لا محل لهما ، "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة ، "وَاغْفِرْ" فعل دعاء فاعله مستتر و"لَنا" متعلقان بالفعل "رَبَّنا" توكيد لفظي لما قبله ، "إِنَّكَ" إن واسمها "أَنْتَ" ضمير فصل "الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" خبران والجملة الاسمية تعليل والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها .

[سورة الممتحنة (60) : آية 6]

لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6)

"لَقَدْ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف "قد" حرف تحقيق "كانَ لَكُمْ" كان وجار ومجرور خبرها المقدم "فِيهِمْ" متعلقان بمحذوف خبر ثان "أُسْوَةٌ" اسم كان المؤخر "حَسَنَةٌ" صفة والجملة جواب القسم المقدر لا محل لها . "لِمَنْ" بدل من لكم "كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر "يَرْجُوا اللَّهَ" مضارع ولفظ الجلالة مفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية خبر كان وجملة كان . . صلة "وَالْيَوْمَ" معطوف على الله "الْآخِرَ" صفة "وَمَنْ" اسم شرط مبتدأ "يَتَوَلَّ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والفاعل مستتر "فَإِنَّ اللَّهَ" الفاء رابطة وإن واسمها "هُوَ" ضمير فصل "الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ" خبران والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملة من . . استئنافية لا محل لها وجملتا الشرط والجواب خبر من .

[سورة الممتحنة (60) : آية 7]

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7)

(81/758)

"عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ" عسى واسمها ومضارع منصوب بأن والمصدر المؤول من أن والفعل خبر عسى وجملة عسى استئنافية لا محل لها. "بَيْنَكُمْ" ظرف مكان "وَبَيْنَ" معطوف على بينكم "الَّذِينَ" مضاف إليه، "عادَيْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف حال "مَوَدَّةً" مفعول به "وَاللَّهُ قَدِيرٌ" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها. "وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" مبتدأ وخبران والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة الممتحنة (60) : آية 8]

لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8)

"لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ" لا نافية ومضارع ومفعوله ولفظ الجلالة فاعله والجملة استئنافية لا محل لها "عَنِ الَّذِينَ" متعلقان بالفعل "لَمْ يُقاتِلُوكُمْ" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله والكاف مفعوله والجملة صلة "فِي الدِّينِ" متعلقان بالفعل. "وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ" معطوفة على لم يقاتلوكم

وإعرابها مثلها "مِنْ دِيارِكُمْ" متعلقان بالفعل "أَنْ تَبَرُّوهُمْ" مضارع منصوب بأن والواو فاعله والهاء مفعوله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بدل اشتمال من الذين "وَتُقْسِطُوا" معطوف على ما قبله "إِلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "إِنَّ اللَّهَ" إن واسمها "يُحِبُّ" مضارع فاعله مستتر "الْمُقْسِطِينَ" مفعول به والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليل.

[سورة الممتحنة (60) : آية 9]

إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)

(82/758)

"إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ" إنما كافة ومكفوفة ومضارع ومفعوله ولفظ الجلالة فاعله والجملة لا محل لها. "عَنِ الَّذِينَ" متعلقان بالفعل "قاتَلُوكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله "فِي الدِّينِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة.

"أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ" معطوف على ما قبله "ظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ" معطوف على ما قبله أيضا "أَنْ تَوَلَّوْهُمْ" مضارع منصوب بأن والواو فاعله والهاء مفعوله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بدل اشتمال من الذين. "وَمَنْ" الواو حرف استئناف واسم شرط

مبتدأ "يَتَوَلَّهُمْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والهاء مفعوله "فَأُولئِكَ" الفاء رابطة واسم الإشارة مبتدأ "هُمُ" ضمير فصل "الظَّالِمُونَ" خبر والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من، وجملة من . .

استئنافية لا محل لها .

[سورة الممتحنة (60) : آية 10]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10)

(83/758)

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" سبق إعرابه، "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "جاءَكُمُ" ماض ومفعوله و"الْمُؤْمِناتُ" فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "مُهاجِراتٍ" حال، "فَامْتَحِنُوهُنَّ" الفاء رابطة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والهاء مفعوله والجملة جواب الشرط لا محل لها "اللَّهُ أَعْلَمُ" مبتدأ وخبره "بِإِيمانِهِنَّ" متعلقان بأعلم والجملة

الاسمية اعتراضية لا محل لها ، "فَإِنْ" الفاء حرف عطف "إن" شرطية "عَلِمْتُمُوهُنَّ" ماض وفاعله ومفعول به أول "مُؤْمِنَاتٍ" مفعول به ثان والجملة ابتدائية لا محل لها . "فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ" الفاء رابطة ومضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله والهاء مفعوله "إِلَى الْكُفَّارِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جزم جواب الشرط. "لا" نافية "هُنَّ حِلٌّ" مبتدأ وخبره و"لَهُمْ" متعلقان بحل والجملة الاسمية تعليل لا محل لها ، "وَ" الواو حرف عطف "لا" نافية "هُمْ" مبتدأ "يَحِلُّونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله و"لَهُنَّ" متعلقان بالفعل والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها . "وَ" الواو حرف عطف "آتُوهُمْ" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والهاء مفعوله الأول "ما" مفعوله الثاني والجملة معطوفة على ما قبلها "أَنْفَقُوا" ماض وفاعله والجملة صلة. "وَلَا" الواو حرف استئناف "لا" نافية للجنس "جُنَاحَ" اسمها المبني على الفتح "عَلَيْكُمْ"

(84/758)

متعلقان بالخبر المحذوف "أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ" مضارع منصوب بأن والواو فاعله والهاء مفعوله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بالخبر المحذوف ، "إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ" إذا ظرف زمان وماض وفاعله ومفعوله الأول "أُجُورَهُنَّ"

مفعوله الثاني والجملة في محل جر بالإضافة . "وَلَا تُمْسِكُوا" الواو حرف عطف ومضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله "بِعِصَمِ" متعلقان بالفعل "الْكَوَافِرِ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَسْئَلُوا" الواو حرف عطف وأمر وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "ما" مفعول به "أَنْفَقْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة "وَلْيَسْئَلُوا" حرف عطف ومضارع مجزوم بلام الأمر والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "ما" مفعول به "أَنْفَقُوا" ماض وفاعله والجملة صلة و"ذلِكُمْ حُكْمُ" مبتدأ وخبره "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة استئنافية لا محل لها . "يَحْكُمُ" مضارع فاعله مستتر "بَيْنَكُمْ" ظرف مكان والجملة استئنافية لا محل لها . "وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" مبتدأ وخبران والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الممتحنة (60) : آية 11]

وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11)

"وَ" الواو حرف عطف "إِنْ" شرطية "فاتَكُمْ" ماض ومفعوله "شَيْءٌ" فاعله "مِنْ أَزْواجِكُمْ" متعلقان بالفعل "إِلَى الْكُفَّارِ" متعلقان بالفعل أيضا والجملة معطوفة على ما قبلها ، "فَعاقَبْتُمْ" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها ، "فَآتُوا" الفاء رابطة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة في محل جزم جواب الشرط "الَّذِينَ" مفعول به أول "ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة "مِثْلَ" مفعول به ثان "ما" مضاف إليه "أَنْفَقُوا" ماض وفاعله والجملة صلة ، "وَاتَّقُوا" أمر وفاعله "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "الَّذِي" صفة اللّه "أَنْتُمْ" مبتدأ "بِهِ" متعلقان بمؤمنون "مُؤْمِنُونَ" خبر والجملة صلة لا محل لها .

[سورة الممتحنة (60) : آية 12]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12)

"يا أَيُّهَا" منادى والها للتنبيه "النَّبِيُّ" بدل من المنادى "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "جاءَكَ" ماض ومفعوله "الْمُؤْمِناتُ" فاعله والجملة في محل جر بالإضافة "يُبايِعْنَكَ" مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل والكاف مفعول به والجملة حال "عَلى" حرف جر "أَنْ" حرف ناصب "لا" نافية "يُشْرِكْنَ" مضارع مبني على السكون في محل

نصب بأن والنون فاعل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بعلى والجار والمجرور متعلقان بالفعل "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "شَيْئًا" مفعول مطلق

(86/758)

"وَلا يَسْرِقْنَ، وَلا يَزْنِينَ، وَلا يَقْتُلْنَ" معطوف على ما قبله، "أَوْلادَهُنَّ" مفعول به "وَلا يَأْتِينَ" معطوف على أن يشركن "بِبُهْتَانٍ" متعلقان بالفعل "يَفْتَرِينَهُ" مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل والهاء مفعول به والجملة حال "بَيْنَ" ظرف مكان مضاف إلى أيديهن و"أَرْجُلِهِنَّ" معطوف على أيديهن. "وَلا يَعْصِينَكَ" معطوف على أن لا يشركن "فِي مَعْرُوفٍ" متعلقان بالفعل "فَبَايِعْهُنَّ" الفاء رابطة وأمر ومفعوله والفاعل مستتر والجملة جواب الشرط لا محل لها "وَاسْتَغْفِرْ" أمر فاعله مستتر "لَهُنَّ" متعلقان بالفعل "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها. "إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" إن واسمها وخبراها والجملة تعليل.

[سورة الممتحنة (60) : آية 13]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ (13)

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" سبق إعرابها . "لا تَتَوَلَّوْا" مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله "قَوْماً" مفعول به والجملة استئنافية لا محل لها "غَضِبَ اللَّهُ" ماض وفاعله "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل والجملة صفة قوما ، "قَدْ" حرف تحقيق "يَئِسُوا" ماض وفاعله والجملة حال "مِنَ الْآخِرَةِ" متعلقان بالفعل "كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ" كما متعلقان بصفة مفعول مطلق محذوف وماض وفاعله "مِنْ أَصْحابِ" متعلقان بالفعل "الْقُبُورِ" مضاف إليه . انتهى انتهى . اهـ

﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 331.336﴾

(87/758)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَةُ الممتحنة

ذكر فِيهَا ثَمَانِيَة أَحَادِيث

1326 - الحَدِيث الأول رُوِيَ أَن مولاة لأبي عَمْرو بن صَيْفِي بن هَاشم يُقَال لَهَا سارة أَتَت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ يُجهز للْفَتْح فَقَالَ لَهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أمُسْلِمَة جِئْت) قَالَت لَا قَالَ (أفمهاجرة) قَالَت لَا قَالَ (فَمَا جَاءَ بك)

فَقَالَت كُنْتُم الْأَهْل وَالْمُوَالى وَالْعشيرَة وَقد ذهبت الموَالِي يَعْنِي قتلوا يَوْم بدر فَاحْتَجت حَاجَة شَدِيدَة فَحَث عَلَيْهَا بني عبد الْمطلب فكسوْهَا وحملوهَا وزودوها فَأَتَاهَا حَاطِب ابْن أبي بلتعة وَأَعْطَاهَا عشرَة دَنَانِير وكساهَا بردا واستحملها كتابا إِلَى أهل مَكَّة نسخته من حَاطِب بن أبي بلتعة إِلَى أهل مَكَّة أعلموا أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيد كُمْ فَخُذُوا حذركُمْ فَخرجت سارة وَنزل جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام بالْخبر فَبعث رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عليا وعمَّارًا وَعمر وَطَلْحَة وَالزُّبَيْر والمقداد وَأَبا مرْثَد وَكَانُوا فُرْسَانًا وَقَالَ (انْطَلقُوا حَتَّى تأتوا رَوْضَة خَاخ فَإِن بهَا ظَعِينَة مَعهَا كتاب من حَاطِب بن أبي بلتعة إِلَى أهل مَكَّة فخذوه مِنْهَا وحلوهَا فَإِن أَبَت فَاضْرِبُوا عُنُقهَا) فأدركوهَا فجحدت وَحلفت فهموا بِالرُّجُوعِ فَقَالَ عَليّ مَا كذبنَا وَلَا كذب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسل سَيْفه وَقَالَ أخرجي الْكتاب أَو تضعي رَأسك فَأَخْرَجته من عقاص شعرهَا

(88/758)

وَرُوِيَ أَنه عَلَيْهِ السَّلَام أَمن النَّاس إِلَّا أَرْبَعَة هِيَ أحدهم فاستحضر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاطِبًا وَقَالَ مَا حملك على هَذَا فَقَالَ يَا رَسُول الله مَا كفرت مُنْذُ أسلمت وَلَا غششتك مُنْذُ نصحتك وَلَا أحببتهم مُنْذُ فارقتهم وَلَكِنِّي كنت امْرَءًا مُلْصقًا فِي قُرَيْش

ورُوِيَ عَزِيزًا فيهم أَي غَرِيبا وَلم أكن من أَنفسهَا وكل من مَعَك من الْمُهَاجِرين لَهُم قرَابَات بِمَكَّة يحْمُونَ أَهَالِيهمْ وَأَمْوَالهمْ غَيْرِي فَخَشِيت عَلَى أَهلِي فَأَرَدْت أَن أَتخذ عِنْدهم يدا وَقد علمت أَن الله ينزل عَلَيْهِم بأسه وَأَن كتابي لَا يَنْفَعهُمْ شَيْئا فصدقه وَقبل عذره فَقَالَ عمر يَا رَسُول الله دَعْنِي أضْرب عنق هَذَا الْمُنَافِق فَقَالَ (وَمَا يدْريك يَا عمر لَعَلَّ الله قد اطلع عَلَى أهل بدر فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُم فقد غفرت لكم) فَفَاضَتْ عينا عمر وَقَالَ الله وَرَسُوله أعلم فنزلت

هُوَ كَذَلِك بِتَمَامِهِ فِي تَفْسِير الثَّعْلَبِيّ ثمَّ الْبَغَوِيّ وَكَذَلِكَ فِي أَسبَاب النُّزُول للْوَاحِدِيّ

(89/758)

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ والْحَدِيث رَوَاهُ الْجَمَاعَة إِلَّا ابْن ماجة بِنَقص أَلْفَاظ فَرَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي موضِعين فِي الْجِهَاد وَرَوَاهُ فِي التَّفْسِير وَمُسلم فِي المناقب وَأَبُو دَاوُد فِي الْجِهَاد وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير كلهم من حَدِيث عبيد الله بن أبي رَافع عَن عَلّي رَضِي اللَّهُ عَنْه قَالَ بَعَثَنِي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنا وَالزُّبَيْر والمقداد فَقَالَ (انْطَلقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَة خَاخ فَإِن بهَا ظَعِينَة مَعهَا كتاب فَخُذُوهُ مِنْهَا) فَانْطَلَقْنَا تتعادى بِنَا خَيْلنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَة فَإِذا نَحن بالظَّعِينَة فَقُلْنَا هَلُمِّي الْكتاب قَالَت مَا عِنْدِي من كتاب فَقُلْنَا

لتخرجن الْكتاب أَو لتلقين الثِّيَاب فَأَخْرَجته من عقَاص شعرهَا فأتينا بِهِ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذا فِيهِ من حَاطِب بن أبي بلتعة

(90/758)

إِلَى نَاس من الْمُشْركين يُخبرهُمْ بِبَعْض أَمر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يَا حَاطِب مَا هَذَا قَالَ لَا تجْعَل عَلّي يَا رَسُول الله إِنِّي كنت امْرَءًا مُلْصقًا فِي قُرَيْش وَلم أكن من أنفسهَا وَكَانَ مَعَك من الْمُهَاجِرين بهَا قرَابَات يحْمُونَ بهَا أَهْليهمْ وَأَمْوَالهمْ فَأَحْبَبْت إِذْ فَاتَنِي فيهم ذَلِك أَن أَتَّخِذ مِنْهُم يدا يحْمُونَ بهَا قَرَابَتي وَمَا فعلت ذَلِك كفرا وَلَا ارْتِدَادًا عَن ديني وَلَا رضَا بالْكفْر فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّه قد صdقكُم) فَقَالَ عمر دَعْنِي يَا رَسُول الله أضْرب عنق هَذَا الْمُنَافِق فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّه قد شهد بَدْرًا فَمَا يدْريك لَعَلَّ الله اطلع عَلَى أهل بدر فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُم فقد غفرت لكم) قَالَ وَفِيه أنزل الله يَا أَيهَا الَّذين آمنُوا لَا تَتَّخِذُوا عدوي وَعَدُوكُمْ أَوْلِيَاء السُّورَة انْتَهَى

وَفِي لفظ لِلْبُخَارِيِّ بَعَثَنِي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنا وَأَبا مرْثَد الغنوي وَالزُّبَيْر بن الْعَوام وكلنا فَارس فَقَالَ انْطَلقُوا الحَدِيث ذكره فِي كتاب اسْتِتَابَة الْمُرْتَدين وَرَوَاهُ فِي كتاب

الاسْتِئْذَان وَفِيه فَقَالَ عَلّي مَا كذب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِيه فَقَالَ عمر إِنَّه قد خَان الله وَرَسُوله فدَعْنِي أضْرب عُنُقه فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَلَيْسَ من أهل بدر وَمَا يدْريك لَعَلَّ الله اطلع عَلَى أهل بدر فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُم فقد وَجَبت لكم الْجنَّة) قَالَ فدَمَعَتْ عينا عمر وَقَالَ الله وَرَسُوله أعلم

(91/758)

وَرَوَاهُ البُخَارِيّ فِي كِتَابه الْمُفْرد فِي الْأَدَب وَفِيه فَأَخْرَجته من حجزتهَا

الرِّوَايَتَانِ فِي صَحِيح ابْن حبَان ذكر الأول فِي النَّوْع الثَّانِي من الْقسم الثَّالِث عَن أبي عبد الرَّحْمَن السّلمِيّ عَن عَلّي فَذكره بلَفْظ الصَّحِيحَيْنِ الأول وَفِيه فَأَخْرَجته من حجزتهَا ثمَّ أَعَادَهُ فِي النَّوْع الْحَادِي عشر مِنْهُ فَذكره بِسَنَد الصَّحِيحَيْنِ وَمَتنه إِلَّا أَنه قَالَ بَعَثَنِي أَنا وَالزُّبَيْر وَطَلْحَة والمقداد بن الْأسود

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الْفَضَائِل بلَفْظ الصَّحِيحَيْنِ وَفِي لفظ لأبي دَاوُد قَالَت مَا معي من كتاب فَقَالَ عَلّي وَالَّذِي يحلف بِهِ لأَقْتُلَنك أَو لتخرجي الْكتاب الحَدِيث بطولِه

وَرَوَى الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره وَابْن هِشَام وَرَوَاهُ الْوَاقِدِيّ فِي كتاب الْمَغَازِي ثني الْمُنْذر بن سعيد عَن يزِيد بن رُومَان قَالَ لما أجمع فَذكره بِلَفْظ ابْن هِشَام ثمَّ قَالَ وحَدثني عتبَة بن

جبيرَة عَن الْحصين بن عبد الرَّحْمَن بن عَمْرو بن سعد قَالَ هِيَ سارة وَجعل لَهَا عشرَة دَنَانِير

(92/758)

وَفِي السِّيرَة فِي فتح مَكَّة من حَدِيث مُحَمَّد بن إِسْحَاق ثني مُحَمَّد بن جَعْفَر ابْن الزُّبَيْر عَن عُرْوَة بن الزُّبَيْر وَغَيره من عُلَمَائِنَا قَالُوا لما أجمع رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السّير إِلَى مَكَّة كتب حَاطِب بن أبي بلتعة إِلَى قُرَيْش كتابا يُخْبِرهُمْ فِيهِ بِأَمْره ثمَّ أعطَاهُ امْرَأَة زعم مُحَمَّد بن جَعْفَر أَنَّهَا من مزينة زَاد الْوَاقِدِيّ فِي الْمَغَازِي يُقَال لَهَا كنود وَزعم غَيره أَنَّهَا سارة مولاة لبني عبد الْمطلب وَجعل لَهَا جعلا عَلَى أَن تبلغه قُريْشًا فَجَعَلته فِي رَأسهَا ثمَّ فتلت عَلَيْهِ قُرُونهَا ثمَّ خرجت بِهِ وَأَتَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخَبَر من السَّمَاء بِمَا فعل حَاطِب فَبعث عَلّي بن أبي طَالب وَالزُّبَيْر بن الْعَوام فَقَالَ (أدركا امْرَأَة قد كتب مَعهَا حَاطِب بِكِتَاب إِلَى قُرَيْش يُحَذرهُمْ مَا قد اجْتَمَعنَا عَلَيْهِ من أَمرهم) فَخَرَجَا حَتَّى أدركاها بِالْحُلَيْفَةِ فاستنزلاها فالتمسا رَحلهَا فَلم يجدا شَيْئا فَقَالَ عَلَى وَالله مَا كذب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا كذبنَا لتخْرجن هَذَا الْكتاب أَو ليكشفنك فَلَمَّا رَأَتْ

الْجد قَالَت لَهُ أعرض فَأَعْرض فحلت قُرُون رَأسهَا وَدفعت الْكتاب إِلَيْهِ فَأتى بِهِ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَدَعَا حَاطِبًا الحَدِيث

(93/758)

وروى الطَّبَرِيّ أَيْضا وَابْن أبي حَاتِم فِي تفسيريهما وَأَبُو يعلى فِي مُسْنده من حَدِيث أبي سِنَان سعيد بن سِنَان عَن عَمْرو بن مرّة الْجملِي عَن أبي إِسْحَاق عَن أبي البخْترِي عَن الْحَارِث عَن عَلّي قَالَ لما أَرَادَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَن يَأْتِي مَكَّة أسر إِلَى أنَاس من أَصْحَابه أَنه يُرِيد مَكَّة فيهم حَاطِب بن أبي بلتعة وَأَفْشَى فِي النَّاس أَنه يُرِيد خَيْبَر قَالَ فَكتب حَاطِب بن أبي بلتعة إِلَى أهل مَكَّة أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُرِيدكُمْ فَأخْبر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ فبعثني وَأَبا مرْثَد وَلَيْسَ منا رجل إِلَّا وَعِنْده فرس فَقَالَ ائْتُوا رَوْضَة خَاخ فَإِنَّكُم ستلقون امْرَأَة مَعهَا كتاب فَخُذُوهُ مِنْهَا فَانْطَلَقْنَا حَتَّى رَأينَا الْمَكَان فَقُلْنَا لَهَا هَاتِي الْكتاب فَقَالَت مَا معي كتاب ففتشناها فَلم نجده فَقُلْنَا لَهَا لتخْرجنَّهُ أَو لنجرّدنّكِ قَالَ عَمْرو بن مرّة فَأخْرجته من حجزتها وَقَالَ حبيب بن أبي ثَابت فَأَخْرجته من قبلهَا فَأتوا بِهِ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الحَدِيث

وَقَوله وَرُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَمن النَّاس إِلَّا أَرْبَعَة هِيَ أحدهم

وروَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فِي بَاب فتح مَكَّة أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ ثَنَا أَبُو الْعَبَّاس مُحَمَّد بن يَعْقُوب ثَنَا أَبُو زرْعَة عبد الرَّحْمَن بن عَمْرو الدِّمَشْقِي ثَنَا الْحسن بن بشر الْكُوفِي ثَنَا الحكم بن عبد الْملك عَن قَتَادَة عَن أنس بن مَالك قَالَ أَمن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاس يَوْم فتح مَكَّة إِلَّا أَرْبَعَة من النَّاس عبد الْعُزَّى بن خطل وَمقيس بن صَبَابَة وَعبد الله بن سعد بن أبي سرح وَأم سارة مولاة لقريش وَفِي لفظ سارة مولاة لبَعض بني عبد الْمطلب أَتَت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشكت إِلَيْهِ الْحَاجة فَأَعْطَاهَا شَيْئا ثمَّ أَتَاهَا رجل فَبعث مَعهَا بِكِتَاب إِلَى أهل مَكَّة فَذكر قصَّة حَاطِب

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث الْحسن بن بشر بِهِ سندا ومتنا

وَكَذَلِكَ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط وَقَالَ تفرد بِهِ الْحسن بن بشر

وَذكره ابْن هِشَام فِي السِّيرَة من قَول ابْن إِسْحَاق قَالَ فِيهِ وَسَارة مولاة لبَعض بني عبد الْمطلب وَزَاد خَامِسًا قَالَ وَالْحُوَيْرِث بن نقيذ فَإِنَّهُ لما حمل الْعَبَّاس ابْن عبد الْمطلب بِنْتي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مَكَّة يُرِيد الْمَدِينَة جلس لَهما فرمى بهما الأَرْض

وروَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي سنَنه فِي آخر الْحَج من حَدِيث عمر بن عُثْمَان بن عبد الرَّحْمَن ابْن

سعيد الْمَخْزُومِي عَن أَبِيه عَن جده عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجعل الْحُوَيْرِث عوض سارة ثمَّ رَوَاهُ فِي آخر الْبيُوع من حَدِيث مُصعب بن سعد عَن أَبِيه وَجعل عوضهَا عِكْرِمَة بن أبي جهل

وَبِهَذَا السَّنَد والمتن رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي الْبيُوع وَسكت عَنهُ

(95/758)

وَفِي عُيُون الْأَثر لأبي الْفَتْح الْيَعْمرِي ومَغَازِي الْوَاقِدِيّ وهَبَّار بن الْأسود وقَيْنَتَا ابْن خطل كَانَتَا تغنيان بهجوه عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ

وَأما ابْن خطل فَإِنَّهُ كَانَ مُسلما وَبَعثه النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُصدقا وَمَعَهُ آخر من الْأَنْصَار فعمد ابْن خطل عَلَى الْأنْصَارِيّ وَهُوَ نَائِم فَقتله ثمَّ ارْتَدَّ مُشْركًا فَأمر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْم الْفَتْح بقتْله وَهُوَ مُتَعَلق بِأَسْتَار الْكَعْبَة فَقتله أَبُو بَرزَة الْأَسْلَمِيّ وَقيل سعيد بن حُرَيْث الْمَخْزُومِي وَقيل عمار بن يَاسر وَالْأول أثبت ثمَّ أسْند عَن عبد الرَّحْمَن بن أَبْزَى قَالَ سَمِعت أَبَا بَرزَة يَقُول أَنا أخرجت عبد الله بن خطل من تَحت أَسْتَار الْكَعْبَة فَضربت عُنُقه بَين الرُّكْن وَالْمقَام

وَأما ابْن أبي سرح فَإِنَّهُ أَيْضا كَانَ مِمَّن أسلم وَهَاجَر وَكَانَ يكْتب الْوَحْي للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّم ثمَّ ارْتَدَّ وَلحق بالمشركين فَلَمَّا كَانَ يَوْم الْفَتْح اخْتَبَأَ عِنْد عُثْمَان فَأتى بِهِ وَاسْتَأْمَنَ لَهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَحسن بعد ذَلِك إسْلَامه ولاه عمر ثمَّ عُثْمَان بعده

وَأما عِكْرِمَة فَإِنَّهُ فر إِلَى الْيمن وَلَحِقتهُ امْرَأَته أم حَكِيم بنت الْحَارِث بن هِشَام فَردته فَأسلم وَحسن إسْلَامه

وَأما الْحُوَيْرِث بن نقيذ وَكَانَ يُؤْذِي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِمَكَّة فَقتله عَليّ بن أبي طَالب يَوْم الْفَتْح

(96/758)

وَأما مقيس بن صَبَابَة فَإِنَّهُ أَيْضا كَانَ مُسلما وَلكنه قتل رجلا من الْأَنْصَار بأَخيه هِشَام بن صَبَابَة بعد أَن أَخذ الدِّيَة وَكَانَ الْأنْصَارِيّ قتل أَخَاهُ مُسلما خطأ فِي غَزْوَة ذِي قرد وَهُوَ يرَى أَنه من الْعَدو ثمَّ لحق بِمَكَّة مُرْتَدا فَقتله يَوْم الْفَتْح نميلَة بن عبد الله اللَّيْثِيّ وَهُوَ ابْن عَمه

وَأما هَبَّار بن الْأسود فَهُوَ الَّذِي عرض لِزَيْنَب بنت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حِين بعث بهَا زَوجهَا أَبُو الْعَاصِ إِلَى الْمَدِينَة فَنخس بهَا فَأسْقطت وَأَلْقَتْ مَا فِي بَطنهَا وَأَهْرَقت الدِّمَاء وَلم يزل بهَا مَرضهَا حَتَّى مَاتَت سنة ثَمَان فَقَالَ لَهُم عَلَيْهِ السَّلَام (إِن وجدْتُم هَبَّارًا فَأَحْرقوهُ بالنَّار) ثمَّ قَالَ (اقْتُلُوهُ وَلَا تحرقوهُ) فَلم يُوجد ثمَّ إِنَّه أسلم

بعد الْفَتْح وَحسن إِسْلَامه وَصَحب النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَجعل النَّاس يسبونه فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (من سبك فسبه) فَانْتَهوا عَنهُ

وَأما قَيْنَتَا ابْن خطل فقتلت إِحْدَاهمَا واستؤمن للْأُخْرَى فعاشت مُدَّة ثمَّ مَاتَت فِي حَيَاته عَلَيْهِ السَّلَام

وَأما سارة فاستؤمن لَهَا أَيْضا فأمنها عَلَيْهِ السَّلَام وعاشت إِلَى أَن أوطأها رجل فرسا بِالْأَبْطح فَمَاتَتْ فِي زمن عمر

انْتهى

وَقَالَ السُّهيْلي فِي الرَّوْض الْأنف

وَأما الْقَيْنَتَانِ اللَّتَان أَمر بقتلهما فهما سارة وفرتنا فأسلمت فرتنا وأمنت سارة وعاشت إِلَى زمن عمر

انْتهى

(97/758)

وَقَالَ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي بَاب غَزْوَة الْفَتْح وَأمر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَوْمئِذٍ بقتل سِتَّة نفر وَأَرْبع نسْوَة عِكْرِمَة بن أبي جهل وهبار بن الْأسود وَعبد الله بن أبي سرح

وَمقيس بن ضَبَابَة وَالْحُوَيْرِث بن نقيذ وَهِنْد بنت عتبَة وَسَارة مولاة عَمْرو بن هِشَام وَفَرْتَنَا وَقَرِيبَة فَقتل مِنْهُم ابْن خطل وَمقيس بن ضَبَابَة وَالْحُوَيْرِث بن نقيذ انْتَهَى

وَكَذَلِكَ قَالَه الْوَاقِدِيّ فِي كتاب الْمَغَازِي

1327 - الحَدِيث الثَّانِي رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تزوج أم حَبِيبَة فَلَانَتْ عِنْد ذَلِك عَرِيكَة أبي سُفْيَان وَاسْتَرْخَتْ شَكِيمَته فِي الْعَدَاوَة وَكَانَت أم حَبِيبَة قد أسلمت وَهَاجَرت مَعَ زَوجهَا عبيد الله بن جحش إِلَى الْحَبَشَة فَتَنَصَّرَ وَأَرَادهَا عَلَى النَّصْرَانِيَّة فَأَبت وَصَبَرت عَلَى دينهَا وَمَات زَوجهَا فَبعث رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى النَّجَاشِيّ فخطبها عَلَيْهِ وسَاق عَنهُ إِلَيْهَا مهرهَا أَربع مائَة دِينَار وَبلغ ذَلِك أَبَاهَا فَقَالَ ذَلِك الْفَحْل لَا يُقْدَع أَنفه

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ

وَرَوَى أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ فِي سنَنَيْهِمَا فِي النِّكَاح من حَدِيث عُرْوَة بن الزُّبَيْر عَن أم حَبِيبَة أَنَّهَا كَانَت تَحت عبيد الله بن جحش فَمَاتَ بِأَرْض الْحَبَشَة فَزَوجهَا النَّجَاشِيّ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمْهَرهَا عَنهُ أَرْبَعَة آلَاف دِرْهَم وَبعث بهَا إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ شُرَحْبِيل بن حَسَنَة

انْتَهَى

وروَاهُ أَبو دَاوُد مُرْسلا عَن الزُّهْرِيّ أَن النَّجَاشِيّ زوج أم حَبِيبَة بنت أبي سُفْيَان من رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صدَاق أَرْبَعَة آلَاف دِرْهَم وَكتب بذلك إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقبل

انْتَهَى

وروى الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي النِّكَاح من طَرِيق ابْن الْمُبَارك أَنا معمر عَن الزُّهْرِيّ عَن عُرْوَة عَن أم حَبِيبَة أَنَّهَا كَانَت تَحت عبيد الله بن جحش فَمَاتَ بِأَرْض الْحَبَشَة فَزَوجهَا النَّجَاشِيّ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمهرها عَنهُ أَرْبَعَة آلَاف وَبعث بهَا إِلَيْهِ مَعَ شُرَحْبِيل بن حَسَنَة

انْتَهَى

وَقَالَ صَحِيح على شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ هَكَذَا ورَوَاهُ أَحْمد وَابْن أبي شيبَة فِي مسنديهما كَذَلِك وَزَاد فِيهِ وَلم يُرْسل إِلَيْهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ مُهُور أَزوَاجه أَرْبَعمِائَة دِرْهَم

انْتَهَى

ثمَّ روى فِي فَضَائِل أم حَبِيبَة بِسَنَدِهِ إِلَى الزُّهْرِيّ قَالَ تزوج رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم حَبِيبَة بنت أبي سُفْيَان وَكَانَت قبله تَحت عبيد الله بن جحش الْأَسدي وَكَانَ قد

هَاجر بهَا من مَكَّة إِلَى الْحَبَشَة ثمَّ افْتتن وَتنصر وَمَات نَصْرَانِيا وَأثبت الله الْإِسْلَام لأم حَبِيبَة حَتَّى رجعت إِلَى الْمَدِينَة فخطبَهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَزَوجهَا إِيَّاه عُثْمَان بن عَفَّان قَالَ الزُّهْرِيّ وَزَعَمُوا أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب إِلَى النَّجَاشِيّ فَزَوجهَا إِيَّاه وساق عَنهُ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّة

انْتَهَى

(99/758)

ثمَّ أسْند إِلَى الْوَاقِدِيّ ثني إِسْحَاق بن مُحَمَّد عَن جَعْفَر بن مُحَمَّد بن عَلّي عَن أَبِيه قَالَ بعث رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمْرو بن أُميَّة الضمرِي إِلَى النَّجَاشِيّ يخْطب عَلَيْهِ أم حَبِيبَة بنت أبي سُفْيَان وَكَانَت تَحت عبيد الله بن جحش وَزوجهَا إِيَّاه وَأَصْدقهَا النَّجَاشِيّ من عِنْده عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعمِائَة دِينَار

انْتَهَى

ثمَّ أسْند أَيْضا إِلَى الْوَاقِدِيّ حَدثنِي عبد الله بن جَعْفَر بن عبد الْوَاحِد بن أبي عون قَالَ لما بلغ أَبَا سُفْيَان بن حَرْب نِكَاح النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْنَته قَالَ ذَلِك الْفَحْل لَا يفرع أَنفه هَكَذَا وجدته فِي نُسْخَة مُعْتَمدَة وَهَكَذَا وجدته فِي تَارِيخ ابْن أبي خَيْثَمَة يفرع بِالْفَاءِ

وَالرَّاء وَبَينه فِي الْحَاشِيَة ووجدته فِي عُيُون الْأَثر يقزع ووجدته فِي طَبَقَات ابْن سعد بِالْفَاءِ وَالرَّاء كَمَا فِي تَارِيخ ابْن أبي خَيْثَمَة

(100/758)

ثمَّ أسْند الْحَاكِم إِلَى الْوَاقِدِيّ ثني عبد الله بن عَمْرو بن زُهَيْر عَن إِسْمَاعِيل بن عَمْرو ابْن سعيد بن الْعَاصِ قَالَ قَالَت أم حَبِيبَة لما مَاتَ عبيد الله بن جحش رَأَيْت فِي النّوم كَأَن أبي يَقُول لي يَا أم الْمُؤمنِينَ فَفَزِعت وأولتها أَن رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم يَتَزَوَّجنِي قَالَت فَمَا هُوَ إِلَّا أَن انْقَضتْ عدتي فَمَا شَعرت إِلَّا برَسُول النَّجَاشِيّ جَارِيَة يُقَال لَهَا أَبْرَهَة كَانَت تقوم على ثِيَابه دخلت عَليّ فَقَالَت إِن الْملك يَقُول لَك إِن رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم كتب إِلَيّ أَن أزَوجك مِنْهُ فَقلت بشرك الله بِالْخَيرِ ثمَّ قَامَت فدفعت لَهَا سواري من فضَّة وخواتيم فضَّة كَانَت فِي أَصَابِع رِجْلَيْهَا سُرُورًا بِمَا بشرتها وَأرْسلت إِلَى خَالِد بن سعيد بن الْعَاصِ فَوَكَّلته فَلَمَّا كَانَ الْعشَاء أَمر النَّجَاشِيّ جَعْفَر بن أبي طَالب وَمن هُنَاكَ من الْمُسلمين فَحَضَرُوا فَخَطب النَّجَاشِيّ فَقَالَ الْحَمد لله الْملك القدوس السَّلَام الْمُؤمن الْمُهَيْمِن الْعَزِيز الْجَبَّار بِحَق حَمده وَأشْهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ وَأَن مُحَمَّدًا عَبده وَرَسُوله وَأَنه الَّذِي بشر بِهِ عِيسَى بن مَرْيَم أما بعد فَإِن رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ

وَسَلَّم كَتب إِلَيّ أَن أزوجه أم حَبِيبَة بنت أبي سُفْيَان وَقد أَجَبْته إِلَى مَا دَعَا وَقد أصدقتهَا عَنهُ أَرْبَعمِائَة دِينَار ثمَّ سكب الدَّنَانِير فَتكلم خَالِد بن سعيد فَقَالَ الْحَمد لله أَحْمَده أَسْتَعِينهُ وَأَسْتَنْصِرهُ وَأشْهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَأشْهد أَن مُحَمَّد عَبده وَرَسُوله أرْسلهُ بِالْهُدَى وَدين الْحق

(101/758)

لِيظْهرهُ عَلَى الدّين كُله وَلَو كره الْمُشْركُونَ أما بعد فقد أجبت إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَزَوجته أم حَبِيبَة بنت أبي سُفْيَان فَبَارك الله لرَسُوله ثمَّ قبض الدَّنَانِير ودعا النَّجَاشِيّ بطعَام فَأَكَلُوا ثمَّ تفَرقُوا فَلَمَّا وصل الذَّهَب أم حَبِيبَة أرْسلت مِنْهُ إِلَى أَبْرَهَة خمسين دِينَارا الَّتِي بَشرتهَا فَردَّتهَا وردت جَمِيع مَا أخذت مِنْهَا وَقَالَت قد عزم عَلّي الْملك أَن لَا أرزأك شَيْئا وَقد أسلمت لله وَاتَّبَعت رَسُوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَإِذا وصلت إِلَيْهِ فأقرئيه مني السَّلَام واعلميه أَنِّي قد اتبعت دينه وَقد أَمر الْملك نِسَاءَهُ أَن يبْعَثْنَ إِلَيْك بِكُل مَا عِنْدهن من الْعطر قَالَت فَلَمَّا كَانَ الْغَد جَاءَتْنِي بِعُود وورس وَعَنْبَر وزباد كثير وَكَانَت هِيَ الَّتِي جهزتني فَلَمَّا قدمت عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أخْبرته الْخَبَر وَمَا فعل النَّجَاشِيّ وَمَا فعلت أَبْرَهَة معي وَأَقْرَأته مِنْهَا السَّلَام فَقَالَ (وَعَلَيْهَا السَّلَام

ورَحْمَة الله)

انْتَهى

وَسكت عَن هَذِه الْأَحَادِيث الواقدية كلهَا

(102/758)

ورَوَى ابْن هِشَام فِي أَوَائِل السِّيرَة حَدثنِي زِيَاد بن عبد الله البكائي عَن مُحَمَّد بن إِسْحَاق ثني مُحَمَّد بن عَليّ بن الْحُسَيْن أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بعث فِي أم حَبِيبَة إِلَى النَّجَاشِيّ عَمْرو بن أُميَّة الضمري فَخَطَبَهَا عَلَيْهِ النَّجَاشِيّ فزوجه إِيَّاهَا وأَصْدقهَا عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَرْبَعمِائَة دِينَار فَقَالَ مُحَمَّد بن عَليّ مَا نرى عبد الْملك ابْن مَرْوَان وقف صدَاق النِّسَاء عَلَى أَرْبَعمِائَة دِينَار إِلَّا عَن ذَلِك وَكَانَ الَّذِي أملكهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خَالِد بن سعيد بن الْعَاصِ

انْتَهى

وَقَالَ أَبُو نعيم فِي كتاب دَلَائِل النُّبُوَّة فِي الْبَاب التَّاسِع عشر قَالَ وَبعث النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمْرو بن أُمِّيه الضمرِي إِلَى النَّجَاشِيّ فزوجه أم حَبِيبَة بنت أبي سُفْيَان وأَصْدقهَا عَنهُ من مَاله أَرْبَعمِائَة دِينَار وَبعث بهَا إِلَيْهِ قَالَ وَكَانَ ذَلِك فِي سنة سِتّ من الْهِجْرَة بعد

رُجُوعِ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خَيْبَر قَالَ وَلَا أعلم فِي ذَلِك خلافًا

انْتَهَى كَلَامه

وروى ابْن سعد فِي الطَّبَقَات أخبرنَا مُحَمَّد بن عمر الْوَاقِدِيّ ثني سيف ابْن سُلَيْمَان عَن

ابْن أبي نجيح وثني عبد الله بن مُحَمَّد الجُمَحِي عَن أَبِيه عَن عبد الْعَزِيز بن سابط فَذكر

قصَّة الْمُهَاجرين إِلَى أَرض الْحَبَشَة

الْهِجْرَة الأولى كَانُوا أحد عشر رجلا وَأَرْبع نسْوَة مِنْهُم عُثْمَان بن عَفَّان وَزَوجته رقية بنة

رَسُول الله صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(103/758)

وَالْهِجْرَة الثَّانِيَة كَانُوا ثَلَاثَة وَثَمَانِينَ رجلا وَاحِد وَإِحْدَى عشرَة امْرَأَة فَلَمَّا سمعُوا بهجْرَة النَّبِي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَى الْمَدِينَة رَجَعَ بَعضهم وَبَقِي بَعضهم فَلَمَّا كَانَ شهر ربيع الأول سنة

سبع من الْهِجْرَة أرسل النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَى النَّجَاشِيّ عَمْرو بن أُميَّة الضمري

بِكِتَاب يَدعُوهُ فِيهِ إِلَى الْإِسْلَام فَأسلم وَسَأَلَهُ أَن يُزَوجهُ أم حَبِيبَة وَكَانَت هاجرت مَعَ زَوجهَا

عبيد الله بن جحش وتنصر وَمَات فَزَوجهُ النَّجَاشِيّ إِيَّاهَا وَأصْدقهَا عَنهُ أَرْبَعمِائَة دِينَار

وَولى تَزْوِيجهَا خَالِد بن سعيد بن الْعَاصِ وَسَأَلَهُ أَن يبْعَث إِلَيْهِ بِمن بَقِي من أَصْحَابه فَفعل

وَحملهمْ مَعَ عَمْرو بن أُميَّة حَتَّى قدمُوا الْمَدِينَة فوجدوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد فتح خَيْبَر فكلم عَلَيْهِ السَّلَام الْمُسلمين أَن يُدْخِلُوهُمْ فِي سِهَامهمْ فَفَعَلُوا مُخْتَصر

وَرَوَى ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي النِّكَاح ثَنَا عَبدة عَن مُحَمَّد بن إِسْحَاق عَن أبي جَعْفَر أَن

النَّجَاشِيّ زوج النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم حَبِيبَة عَلَى أَرْبَعمِائَة دِينَار انْتَهَى

وَرَوَى الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط فِي تَرْجَمَة أَحْمد بن النَّضر من حَدِيث أنس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زوجه النَّجَاشِيّ أم حَبِيبَة أصدف عَنهُ من مَاله مِائَتي دِينَار

انْتَهَى

(104/758)

وَرَوَى فِي مُعْجَمه الْكَبِير من حَدِيث عُرْوَة بن الزُّبَيْر أَن عبيد الله بن جحش مَاتَ بِالْحَبَشَةِ نَصْرَانِيّا وَمَعَهُ أم حَبِيبَة بنت أبي سُفْيَان فأنكحها عُثْمَان بن عَفَّان رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أجل أَنَّهَا بنت صفيه بنت أبي الْعَاصِ وصفيه عمَّة عُثْمَان بن عَفَّان

وَأخرج من حَدِيث بَقِيَّة ثَنَا أَبُو بكر بن أبي مَرْيَم عَن عَطِيَّة بن قيس أَن أم حَبِيبَة كَانَت

بِأَرْض الْحَبَشَة وَأَنه عَلَيْهِ السَّلَام تزَوجهَا وَأصْدقهَا عَنهُ النَّجَاشِي أَرْبعمِائَة دِينَار

انْتَهى

وَرَوَى الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره فِي سُورَة النِّسَاء من طَرِيق أبي عبيد ثَنَا أَبُو الْيَمَان عَن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مَرْيَم عَن ضَمرَة بن حبيب أَن أم حَبِيبَة كَانَت

بِأَرْض الْحَبَشَة مَعَ جَعْفَر بن أبي طَالب وَأَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم َ تزَوجهَا فَأَصدق عَنهُ النَّجَاشِيّ أَرْبعمِائَة دِينَار

انْتَهى

وَقَالَ أَبُو الْفَتْح الْيَعْمرِي فِي عُيُون الْأَثر وَقع فِي الصَّحِيح أخرج مُسلم فِي الْفَضَائِل عَن أبي زميل عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لما كَانَ الْمُسلمُونَ لَا ينظرُونَ إِلَى أبي سُفْيَان وَلَا يُقَاعِدُونَهُ فَقَالَ للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم َ يَا نَبِي الله ثَلَاث أعطيتهنّ قَالَ نعم عِنْدِي أحسن الْعَرَب أم حَبِيبَة أزَوّجكهَا قَالَ نعم قَالَ وَمُعَاوِيَة تجْعَلهُ كَاتبا بَين يَديك قَالَ نعم وَتُؤَمّرنِي حَتَّى أقَاتل الْكفَّار كَمَا كنت أقَاتل الْمُسلمين قَالَ نعم قَالَ أَبُو زميل لَوْلَا أَنه طلب ذَلِك من النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم َ مَا أعطَاهُ لِأَنَّهُ لم يكن يسْأَل شَيْئا إِلَّا قَالَ نعم

انْتَهى

قَالَ عبد الْحق فِي الْجمع فِي الصَّحِيحَيْنِ لم يُخرجهُ البُخَارِيّ وَالصَّحِيح أَنه عَلَيْهِ السَّلَام تزَوجهَا قبل إِسْلَام أبي سُفْيَان

انْتَهَى

وَقَول أبي سُفْيَان يَوْم الْفَتْح للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَسأَلك ثَلَاثًا فَذكر مِنْهُنَّ أَن يتَزَوَّج رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أم حَبِيبَة يَعْنِي ابْنَته فَأَجَابَهُ عَلَيْهِ السَّلَام لما سَأَلَ قَالَ وَهَذَا مُخَالف لما اتّفق عَلَيْهِ أَرْبَاب السّير وَالْعلم بالْخبر قَالَ وَأجَاب عَنهُ الْحَافِظ الْمُنْذِرِيّ جَوَابا يتساءل هزلا فَقَالَ يحْتَمل أَن أَبَا سُفْيَان ظن أَنه تجَدّدَتْ لَهُ عَلَيْهَا ولَايَة بِمَا حصل لَهُ من الْإِسْلَام فَأَرَادَ تَجْدِيد العقد يَوْم ذَاك لَا غير

1328 - الحَدِيث الثَّالِث رُوِيَ أَن أَسمَاء بنت أبي بكر الصّديق قدمت عَلَيْهَا أمهَا قتيلة بنت عبد الْعُزَّى وَهِي مُشركَة بهدايا فَلم تقبلهَا وَلم تَأذن لَهَا فِي الدُّخُول فَنزلت يَعْنِي قَوْله تَعَالَى لَا يَنْهَاكُم الله الْآيَة فَأمرهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَن تدْخلهَا وَتقبل مِنْهَا وتكرمها

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك من طَرِيق ابْن الْمُبَارك عَن مُصعب بن ثَابت ابْن عبد الله بن الزُّبَيْر عَن أَبِيه عَن جده قَالَ قدمت قتيلة بنت عبد الْعُزَّى عَلَى ابْنَتهَا أَسمَاء بنت أبي بكر وَكَانَ أَبُو بكر طَلقهَا فِي الْجَاهِلِيَّة فقدمت عَلَى ابْنَتهَا بهدايا صِنَابًا وسمنا وَأَقطًا فَأَبت أَسمَاء أَن تقبلهَا أَو تدْخلهَا منزلهَا حَتَّى أرسلت إِلَى عَائِشَة أَن سَلِي عَن هَذَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَخْبَرته فَأمرهَا أَن تقبل هداياها وتدْخلهَا منزلهَا فَأنْزل الله تَعَالَى لَا يَنْهَاكُم الله عَن الَّذين لم يُقَاتلوكُمْ فِي الدّين الْآيَتَيْنِ

انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَحْمد وَالْبَزَّار وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مسانيدهم وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه والطبري وَابْن مرْدَوَيْه وَابْن أبي حَاتِم فِي تفاسيرهم والواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول

وَحَدِيث أَسمَاء فِي الصَّحِيحَيْنِ من حَدِيث عُرْوَة عَنْهَا بِغَيْر هَذَا اللَّفْظ

1329 - الحَدِيث الرَّابِع كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول للممتحنة (بِاللَّه الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ مَا خرجت من بغض زوج بِاللَّه مَا خرجت رَغْبَة عَن أَرض إِلَى أَرض بِاللَّه مَا خرجت التمَاس دنيا بِاللَّه مَا خرجت إِلَّا حبا لله وَرَسُوله)

قلت رواه الطَّبَرِيّ فِي مُعْجمه وَالْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث قيس بن الرّبيع عَن الْأَغَر بن الصَّباح عَن خَليفَة بن حُصَيْن عَن أبي نصر الْأَسدي قَالَ سُئِلَ ابْن عَبَّاس كَيفَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يمْتَحن النِّسَاء قَالَ كَانَ إِذا أَتَتْهُ امْرَأَة لتسلم حلفهَا بِاللَّه مَا خرجت لِبُغْض زوج بِاللَّه مَا خرجت إِلَّا حبا لِاكْتِسَاب دنيا وَبِاللَّهِ مَا خرجت رَغْبَة عَن أَرض إِلَى أَرض وَبِاللَّهِ مَا خرجت إِلَّا حبا لله وَلِرَسُولِهِ)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه حَدثنَا سَلمَة بن شبيب ثَنَا مُحَمَّد بن يُوسُف الْفِرْيَابِيّ ثَنَا قيس بن الرّبيع بِهِ سندا ومتنا وَهُوَ مَوْجُود فِي نسخ التِّرْمِذِيّ الَّتِي هِيَ من رِوَايَة الصَّدَفِي دون غَيرهَا وَلم يذكرهُ ابْن عَسَاكِر فِي أَطْرَافه وَقَالَ فِيهِ التِّرْمِذِيّ حَدِيث غَرِيب وَقَالَ الْبَزَّار لَا نعلمهُ يرْوَى عَن ابْن عَبَّاس إِلَّا من هَذَا الْوَجْه بِهَذَا الْإِسْنَاد

انْتَهَى

وَرَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه فِي أَوَاخِر الْمَغَازِي من حَدِيث قَتَادَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مُرْسلا

1330 - الحَدِيث الْخَامِس رُوِيَ أَن صلح الْحُدَيْبِيَة كَانَ عَلَى أَن من أَتَاكُم من أهل مَكَّة يرد إِلَيْنَا وَمن أَتَى مِنْكُم مَكَّة لَا يرد إِلَيْكُم وَكَتبُوا بذلك كتابا وختموه فَجَاءَت سبيعة بنت الْحَارِث الأسْلَمِيَّة مسلمة وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحُدَيْبِيَة وَأَقْبل زَوجهَا مُسَافر المَخْزُومِي وَقيل صَيْفِي بن الراهب فَقَالَ يَا مُحَمَّد ارْدُدْ عَلّي امْرَأَتي فَإنَّك قد شرطت علينا أَن ترد علينا من أَتَاك منا وَهَذِه طِينَة الْكتاب لم تَجف فَنزلت بَيَانا لِأَن الشَّرْط إِنَّمَا كَانَ فِي الرِّجَال دون النِّسَاء

وَعَن الضَّحَّاك كَانَ بَين رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَين الْمُشْركين عهد أَلا يَأْتِيك منا امْرَأَة لَيست عَلَى دينك إِلَّا رددتهَا إِلَيْنَا فَإِن دخلت فِي دينك وَلها زوج أَن ترد عَلَى زَوجهَا الَّذِي أنْفق عَلَيْهَا وَلِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَام من الشَّرْط مثل ذَلِك

وَعَن قَتَادَة ثمَّ نسخ هَذَا الحكم وَهَذَا الْعَهْد بِبَرَاءَة فَاسْتَحْلَفَهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَلَفت فَأعْطَى زَوجهَا مَا أنْفق وَتَزَوجهَا عمر

قلت غَرِيب ذكره الْبَغَوِيّ هَكَذَا عَن ابْن عَبَّاس من غير سَنَد

1331 - الحَدِيث السَّادِس رُوِيَ أَن من لحق بالمشركين من نسَاء الْمُؤمنِينَ الْمُهَاجِرين رَاجِعَة عَن

(109/758)

الْإِسْلَام سِتّ نسْوَة أم الحكم بنت أبي سُفْيَان كَانَت تَحت عِيَاض بن شَدَّاد الفِهري وَفَاطِمَة بنت أبي أُمَيَّة كَانَت تَحت عمر بن الْخطاب وَهِي أُخْت أم سَلمَة وَبرْوع بنت عقبَة كَانَت تَحت شماس بن عُثْمَان وَعَبدَة بنت عبد الْعُزَّى ابْن نَضْلَة وَزوجهَا عَمْرو بن عبد ود وَهِنْد بنت أبي جهل كَانَت تَحت هِشَام ابْن الْعَاصِ وَأم كُلْثُوم بنت جَرْوَل كَانَت تَحت عمر بن الْخطاب وَأَعْطَاهُمْ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مهور نِسَائِهِم من الْغَنِيمَة

قلت غَرِيب وَذكره هَكَذَا الثَّعْلَبِيّ ثمَّ الْبَغَوِيّ هَكَذَا عَن ابْن عَبَّاس من غير سَنَد وَلَا راو

(110/758)

1332 - الحَدِيث السَّابِع رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما فرغ يَوْم فتح مَكَّة من بيعَة الرِّجَال أَخذ فِي بيعَة النِّسَاء وَهُوَ عَلَى الصَّفَا وَعمر بن الْخطاب أَسْفَل مِنْهُ يُبَايِعهُنَّ بِإِذْنِهِ ويبلغهن عَنهُ وَهِنْد بنت عتبَة امْرَأَة أبي سُفْيَان مُتَقَنِّعَة مُتَنَكِّرَة خوفًا من رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن يعرفهَا فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أُبَايِعكُنَّ عَلَى أَن لَا

تُشْرِكْنَ بِاللَّه شَيْئا) فَرفعت هِنْد رَأسهَا وَقَالَت وَالله لقد عبدنَا الْأَصْنَام وَإنَّك لتأْخذ علينا أمرا مَا رَأَيْنَاك أَخَذته عَلَى الرِّجَال تبَايع الرِّجَال عَلَى الْإِسْلَام وَالْجهَاد فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ وَلَا يَسْرِقن فَقَالَت إِن أَبَا سُفْيَان رجل شحيح وَإِنِّي أصبت من مَاله هَنَات فَمَا أَدْرِي أَيحل لِّي أم لَا فَقَالَ أَبُو سُفْيَان مَا أصبت من مَالِي فِيمَا مضى وَفِيمَا غبر فَهُوَ لَك حَلَال فَضَحِك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَعرفهَا فَقَالَ لَهَا (وَإنَّك لهِنْد بنت عتبَة) قَالَت نعم فَاعْفُ عَمَّا سلف يَا نَبِي الله عَفا الله عَنْك فَقَالَ وَلَا يَزْنِين فَقَالَت أَو تَزني الْحرَّة وَفِي رِوَايَة مَا زنت مِنْهُنَّ امْرَأَة قطّ فَقَالَ وَلَا يقتلن أَوْلَادهنَّ فَقَالَت ربيّناهُمْ

(111/758)

صغَارًا وقتلتموهُمْ كبارًا فَأَنْتُم وهم أعلم وَكَانَ ابْنهَا حنظله بن أبي سُفْيَان قد قتل يَوْم بدر فَضَحِك عمر حَتَّى اسْتَلْقَى وَتَبَسم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ وَلَا يَأْتِين ببُهْتَان فَقَالَت وَالله إِن الْبُهْتَان لأمر عَظِيم الْقبْح وَمَا تَأْمُرنَا إِلَّا بالرشد وَمَكَارِم الْأَخْلَاق فَقَالَ وَلَا يَعْصِينَك فِي مَعْرُوف فَقَالَت وَالله مَا جلسنا فِي مَجْلِسنَا هَذَا وَفِي أَنْفُسنَا أَن نَعْصِيك فِي شَيْء

وَقيل فِي كَيْفيَّة الْمُبَايعَة أَنه دَعَا بقدح مَاء فغمس يَده فِيهِ ثمَّ غمس أَيْدِيهنَّ

وَقيل صَافَحهُنَّ وَكَانَ عَلَى يَده ثوب قطري

وَقيل كَانَ عمر يُصَافِحهُنَّ عَنهُ

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ

(112/758)

وروى الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره مُخْتَصرا فَقَالَ ثَنَا مُحَمَّد بن سعد ثَنَا أبي عَن عمي ثني أبي عَن أَبِيه عَن ابْن عَبَّاس أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَمر عمر بن الْخطاب فَقَالَ قل لَهُنَّ إِن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُبَايعكُنَّ عَلَى أَن لَا تُشْرِكْنَ بِاللَّه شَيْئا وَكَانَت هِنْد بنة عتبَة بن ربيعَة الَّتِي شقَّتْ بطن حَمْزَة مُتَنَكِّرَة فِي النِّسَاء فَقَالَت إِنِّي إِن أَتكَلّم يعرفنِي فيقتُلنِي فتنكَّرت فرقا من رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَقَالَت كَيفَ تقبل من النِّسَاء مَا لم تقبله من الرِّجَال فَنظر إِلَيْهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَقَالَ لعمر قل لَهُنَّ وَلَا يَسْرقن قَالَت هِنْد وَالله إِنِّي لأُصِبْت من مَال أبي سُفْيَان الهنت مَا أَدْرِي أحل لي أم لَا قَالَ فَضَحِك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَصرف عَنْهَا ثمَّ قَالَ وَلَا يَزْنِين فَقَالَت يَا رَسُول الله وَهل تَزني الْحرَّة قَالَ لَا ثمَّ قَالَ وَلَا يقتلن أَوْلَادهنَّ قَالَت هِنْد أَنْت قتلتهمْ يَوْم بدر فَأَنت وهم أبْصر قَالَ وَلَا يَأْتِين بِبُهْتَان يفترينه بَين أَيْدِيهنَّ وأَرْجُلهنَّ قَالَ وَلَا يعصينك فِي مَعْرُوف قَالَ

مَنعهنَّ أَن ينحن وكَانَ أهل الْجَاهِلِيَّة يُمزِّقنَ الثِّيَاب ويَخْدِشْنَ الْوُجُوه ويَقْطَعْنَ الشُّعُور ويدعونَ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُور

انْتَهى

وَأخرجه ابْن أبي حَاتِم فِي تَفْسِيره عَن مقَاتل بن حيَّان فَذكره كَمَا تقدم وزَاد فَلَمَّا قَالَ وَلَا تقتلن أَوْلَادكُنَّ قَالَت هِنْد ربَّيْنَاهُمْ صغَارًا فقتلْتُمُوهُمْ كبارًا فَضَحِك عمر بن الْخطاب حَتَّى اسْتَلْقَى

(113/758)

قَوْله وَقيل فِي كَيْفيَّة الْمُبَايعَة إِنَّه دَعَا بقدح مَاء إِلَى آخِره

رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث جبارَة بن الْمُغلس ثَنَا عبد الله بن حَكِيم عَن حجاج عَن دَاوُد بن أبي عَاصِم عَن عُرْوَة بن مَسْعُود الثَّقَفِيّ قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عِنْده المَاء فَإِذا بَايع النِّسَاء غمسن أَيْدِيهِنَّ فِيهِ

انْتَهى

وَفِي تَارِيخ أَصْبَهَان فِي بَاب الْحَاء الْمُهْملَة لأبي نعيم عَن صغدي بن سِنَان ثَنَا عُثْمَان بن عبد الْملك عَن شهر بن حَوْشَب عَن أَسمَاء بنت يزِيد بن السكن قَالَت مر رَسُول الله صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى نسْوَة فَسلم عَلَيْهِنَّ فَقُلْنَ يَا رَسُول الله إِنَّا نحب أَن نُبَايعك ونصافحك قَالَ (إِنِّي لَا أُصَافح النِّسَاء) ثمَّ دَعَا بقَعْبٍ مَاء فخَاضَ فِيهِ يَده فَقَالَ (ضعن أَيدِيكُنَّ فِيهِ) وَكَانَت بيعتهن

انْتَهَى

وروى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث أبي مُطِيع الحكم بن عبد الله عَن إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد عَن ابْن عجلَان عَن عَمْرو بن شُعَيْب عَن أَبِيه عَن جده قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذا صَافح النِّسَاء دَعَا بقدح من مَاء فَغمس يَده فِيهِ ثمَّ غمسن أَيدِيهنَّ فِيهِ وَكَانَت هَذِه بيعتهن

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات أخبرنَا مُحَمَّد بن عمر هُوَ الْوَاقِدِيّ ثَنَا أُسَامَة ابْن زيد اللَّيْثِيّ عَن عَمْرو بن شُعَيْب عَن أَبِيه عَن جده فَذكره سَوَاء ببقبق

قَوْله وَقيل صافحهن وعَلى يَده ثوب قطري

رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي مراسيله عَن الشّعبِيّ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِين بَايع النِّسَاء أُتِي ببرد قطري فَوَضعه على يَده وَقَالَ (لَا أُصَافح النِّسَاء)

انْتَهَى

وروَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه وَفِي تَفْسِيره أخبرنَا الثَّوْريّ عَن مَنْصُور عَن إِبْرَاهِيم النَّخعِيّ مُرْسلا قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُصَافح النِّسَاء وعَلى يَده ثوب قطري

وروَى ابْن سعد فِي الطَّبَقَات الْمُرْسلين

قَوْله وَقيل كَانَ عمر يُصَافِحهُنَّ عَنهُ

روَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي الْقسم الثَّانِي عَن إِسْمَاعِيل بن عبد الرَّحْمَن ابْن عَطِيَّة عَن جدته أم عَطِيَّة قَالَت لما قدم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْمَدِينَة أَمر نسَاء الْأَنْصَار فجمعن فِي بَيت ثمَّ أرسل إلَيْهِنَّ عمر فجَاء عمر فَسلم علينا فَقَالَ أَنا رَسُول رَسُول الله إِلَيْكُن فَقُلْنَ مرْحَبًا برَسُول رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ أُبَايعكُنَّ عَلى أَن لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّه شَيْئًا وَلَا يسْرقن إِلَى آخر الْآيَة ثمَّ مد يَده من خَارج الْبَيْت ومَددْنَا أَيدِينَا من دَاخل الْبَيْت فَقَالَ اللَّهُمَّ اشْهَدْ فَبَايعْنَاهُ انْتهى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَزَّار فِي مُسْنده والطبري فِي تَفْسِيره وَابْن مرْدَوَيْه وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده وَالنَّسَائِيّ فِي كتاب الكنى

وَفِي الصَّحِيح مَا يدْفع هَذِه الرِّوَايَات عَن الزُّهْرِيّ عَن عُرْوَة عَن عَائِشَة قَالَت كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُبَايع النِّسَاء بالْكَلَام بِهَذِهِ الْآيَة عَلى أَن لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّه شَيْئًا قَالَت

وَمَا مست يَده يَد امْرَأَة قطّ إِلَّا امْرَأَة يملكهَا

انْتَهى

(115/758)

رَوَاهُ البُخَارِيّ بِهَذَا اللَّفْظ وَرَوَاهُ مُسلم فِي أَوَاخِر الْجِهَاد بلَفْظ وَالله مَا مست يَد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَد امْرَأَة قطّ غير أَنه يُبَايِعهُنَّ بالْكلَام

وَرَوَى التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ فِي السّير وَابْن حبَان وَالْحَاكِم فِي صَحِيحَيْهِمَا وَمَالك فِي الْمُوَطَّأ فِي أول الْجِهَاد مَالك عَن مُحَمَّد بن الْمُنْكَدر بِهِ من حَدِيث مُحَمَّد بن الْمُنْكَدر عَن أُمَيْمَة بنت رقيقَة قَالَت أتيت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نسْوَة نُبَايِعهُ عَلَى الْإِسْلَام فَقلت يَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلُمَّ نُبَايِعك فَقَالَ (إِنِّي لَا أُصَافح النِّسَاء إِنَّمَا قولي لمِائَة امْرَأَة كَقَوْلِي لامْرَأَة وَاحِدَة) وَصَححهُ التِّرْمِذِيّ وَهُوَ فِي لفظ الْحَاكِم وَكَذَلِكَ الطَّبَرِيّ إِنَّمَا قولي لامْرَأَة كَقَوْلِي لمِائَة امْرَأَة وَهُوَ فِي مُسْند أَحْمد باللفظين وَكَذَلِكَ الطَّبَقَات لِابْنِ سعد

وَذكر الْحَازِمِي فِي كتاب النَّاسِخ والمنسوخ حَدِيث الشّعبِيّ بلَفْظ أبي دَاوُد ثمَّ قَالَ وَهَذَا مُرْسل لَا يُقَاوم الْأَحَادِيث الثَّابِتَة ثمَّ ذكر حَدِيث أُمَيْمَة هَذَا ثمَّ قَالَ فَإِن كَانَ ثَابتا فَفِيهِ دَلَائِل

عَلَى النّسخ وَله شَاهد فِي بعض الْأَحَادِيث

انْتَهى

(116/758)

وروى الْوَاقِدِيّ فِي كتاب الْمَغَازِي فِي غَزْوَة الْفَتْح ثني ابْن أبي سُبْرَة عَن مُوسَى بن عقبَة عَن أبي حَبِيبَة مولى الزُّبَيْر عَن عبد الله بن الزبير قَالَ لما كَانَ يَوْم الْفَتْح أسلم عشرَة نسْوَة من قُرَيْش مِنْهُنَّ هِنْد بنت عتبَة وَأم حَكِيم بنت الْحَارِث بن هِشَام امْرَأَة عِكْرِمَة بن أبي جهل فَأَتَيْنَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبايعنه فَقَالَت هِنْد يَا رَسُول الله نصافحك قَالَ (إِنِّي لَا أُصَافح النِّسَاء إِن قولي لمائَة امْرَأَة مثل قولي لامْرَأَة وَاحِدَة) قَالَ الْوَاقِدِيّ وَيُقَال وضع عَلَى يَده ثوبا ثمَّ مَسَحْنَ عَلَى يَده وَيُقَال إِنَّه أُتِي بقدح من مَاء فَوضع يَده فِيهِ ثمَّ جعلهنَّ يضعن أَيْدِيهنَّ فِيهِ قَالَ وَالْأول أثبت عندنَا مُخْتَصر

1333 - الحَدِيث الثَّامِن عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه قَالَ (من قَرَأَ سُورَة الممتحنة كَانَ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَات شُفَعَاء يَوْم الْقِيَامَة)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أخبرنَا أَبُو الْحسن الخبازي الْمُقْرِئ أَنا ابْن حسان أَنا الفرقدي ثَنَا إِسْمَاعِيل بن عَمْرو ثَنَا يُوسُف بن عَطِيَّة ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن

أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ (من قَرَأَ سُورَة الممتحنة) إِلَى آخِره سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بسَنَدِه الْمُتَقَدّم فِي يُونُس. انتهى انتهى. اهـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 447.466﴾

(117/758)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي:

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الممتحنة

قوله تعالى: (لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ)، الآية/ 1.

فيه دلالة على أن خوف الجائحة على المال والولد لا يبيح التقية في دين اللّه تعالى، وأن العذر الذي أبرزه حاطب بن أبي بلتعه لا أثر له «1».

ويحتمل أن يقال إن ذلك لم يكن إكراما، وإنما كان توددا إليهم، لما كان يأمل من نفع من

جهتهم .

قوله تعالى : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ ، الآية/ 8 .

فيه دليل على جواز التصدق على أهل الذمة دون أهل الحرب ، ووجوب النفقة للأب

الكافر الذمي ، وأما الحربي فيجب قتله .

قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ ، الآية/ 10 .

كان الشرط في صلح الحديبية أن يرد على المشركين من هاجر إلى المدينة ، ممن كان مسلما

«2» ، ونزلت سورة الممتحنة عن الصلح فكان من

---

(1) انظر تفسير ابن جرير الطبري ج 28 طبعة الحلبي .

(2) أي من أسلم من أهل مكة بعد الصلح وهاجر الى المدينة .

(118/758)

أسلم من نسائهن تسأل : ما أخرجك ؟ فإن كانت خرجت هربا من زوجها ردت عليه ،

وإن كانت خرجت رغبة في الإسلام أمسكت وردت على زوجها ما أنفق عليها .

وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ ، الآية/ 10 ، أو بظاهر

قولها .

وفيه دليل على ارتفاع النكاح، فإنه تعالى منع ردها إلى زوجها ، وأوجب عليها رد ما أنفق عليها .

وفيه تنبيه على أن المنع من الرد لمكان الإسلام ، فإنه تعالى قال :

(فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ) ، فلم يجعل الفرقة لاختلاف الدارين على ما قاله أبو حنيفة ، وإنما جعل للإسلام .

قوله تعالى : (وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ) ، الآية/ 12 .

قال ابن عباس : لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم .

قوله تعالى : (وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) ، الآية/ 12 .

هو عموم في جميع طاعات الله تعالى ، وقد علم الله تعالى أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بمعروف ، إلا أنه شرط في النهي عن عصيانه إذا أمرهن بالمعروف ، لئلا يترخص أحد في طاعة السلاطين إذا لم تكن طاعة لله تعالى ، إذ شرط في طاعة خير العالمين أن يأمر بالمعروف ، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وكذلك لا يجب طاعة أئمة العلم فيما يتعلق بالأغراض المتأولة ، ولا يسوغ لمسلم اتباعهم .

وقال عليه الصلاة والسلام : «من اتبع مخلوقا في معصية الخالق سلط اللّه عليه ذلك المخلوق» . وفي لفظ آخر : «عاد حامده من الناس ذاما» «1» . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 409 . 411 ﴾

---

(1) أخرجه الامام أحمد في مسنده والطبراني في معجمه الكبير .

(120/758)

وقال السايس :

من سورة الممتحنة

قال اللّه تعالى : لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)

واختلف العلماء في المراد من الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فذهب بعضهم إلى أنهم مؤمنون ، قعدوا عن الهجرة ضعفا منهم عن القيام بها . وقيل : بل هم مؤمنون من مكة ، أقاموا بين الكفرة ،

وتركوا الهجرة مع القدرة، وزاد مجاهد على أن المهاجرين والأنصار كانوا يريدون برّ هؤلاء القاعدين عن الهجرة، ولكنهم تحرّجوا من برهم، لتركهم فرض الهجرة.

وعلى هذين القولين تكون الآية باقية الحكم، وأنّه ليس ما يمنع المسلمين في دار الإسلام من بر إخوانهم المسلمين الذين بقوا في دار الحرب.

وقال بعضهم: إنّ المراد النساء والصبيان من الكفرة، الذين لا يقاتلون، وهو مروي عن عبد اللّه بن الزبير.

وقال الحسن: هم قوم من خزاعة وبني الحرث بن كعب، وكنانة، ومزينة: كانوا صالحوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم على ألا يقاتلوه، ولا يعينوا عليه، وعليه فالآية خاصة بعدم النهي عن برّ من بينه وبين المسلمين عهد، وهي باقية الحكم.

وقد أخرج البخاريّ وأحمد «1»

، وجماعة أنها في أم أسماء بنت أبي بكر، وكانت قد قدمت على بنتها أسماء بهدية، وهي مشركة، وقيل: بل جاءت تطلب صلتها، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها، حتّى أرسلت إلى عائشة رضي اللّه عنها لتسأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عن هذا، فسألته، فأنزل اللّه قوله تعالى: لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ الآية.

قال الآلوسي: والأكثر على أنها في كفرة اتصفوا بما في حيز الصلة، سواء في

---

(1) رواه البخاري في الصحيح (3/ 192) ، 5 - كتاب الهبة ، 29 - باب الهدية حديث رقم (2620) ، وأحمد في المسند (6/ 344) .

(121/758)

ذلك النساء والصبيان والمعاهدون ، ومجيئها بعد آية لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ يقرّب هذا ، فقد بيّن الله تعالى أنّه لا ينهانا عن برّ أحد من الناس ، إلا من قاتلنا ، وظاهر على قتالنا ، وأخرجنا من ديارنا ، وظاهر على إخراجنا . وأما من عدا هؤلاء من الكفار فلم ينهنا عن برهم والإقساط إليهم ، إذ علّة النهي عن البرّ أنّهم آذونا ، فلا يكونون أهلا لبرنا ، فإذا انتفت العلة انتفى النهي .

ومعنى قوله : لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ أنّه لا ينهى المسلمين عن الإحسان إلى من اتصفوا من الكفرة بهذه الصفات المذكورة ، وهي عدم المقاتلة في الدين ، وعدم إخراج المسلمين من ديارهم ، ومعنى الإقساط الإفضاء بالقسط ، وهو العدل ، فمعنى تقسطوا إليهم تفضوا إليهم بالقسط والعدل ، فالإقساط مضمّن معنى الإفضاء ، ولذلك عدّي بإلى إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ العادلين .

وقد استدلّ بالآية بعض العلماء على جواز التصدّق على أهل الذمة دون أهل الحرب على

وجوب النفقة للأب الذمي دون الحربي ، لأنّه يجب قتله والاستدلال على هذا الأخير استدلال عجيب ، إذ كلّ ما في الآية عدم النهي عن البرّ ، وهل عدم النهي عن البرّ يستلزم وجوب البر ، والشهاب الخفاجي قد نقل أنّ هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ [التوبة : 5] وإن كان القول بالنسخ لا يكاد يظهر .

إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ .

أي ليس النهي عن موالاة الأعداء نهيا عن البر بمن لم يقاتلكم ، ولم يخرجكم من دياركم ، إنما ينهاكم اللّه عن أعدائه وأعدائكم ، الذين قاتلوكم من أجل دينكم ، وألجئوكم إلى الخروج من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم ، وأعانوا عليه ، هؤلاء هم الذين نهاكم اللّه وينهاكم أن تتولوهم ، وتلقوا إليهم بالمودة .

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ لأنفسهم بتعريضها للعذاب ، حيث فعلوا ما يوجبه ، وهو اتخاذ الأعداء أولياء وهم ظالمون ، لأنّهم وضعوا الولاية وضع العداوة ، وكأنه لا يستحق وصف الظلم إلّا هؤلاء .

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ

الْكَوافِرِ وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

(10) غير المؤمنين فريقان :

أحدهما : كافر ، عدو لله وللمؤمنين ، لا يألو جهدا في أذاهم ، والإيقاع بهم ما

(122/758)

استطاع إلى ذلك سبيلا ، وهؤلاء قد نهانا اللّه عن برّهم ، وتوليهم ، وموادتهم ، بل أمرنا أن نقعد لهم كل مرصد ، وأن نعدّ لقتالهم ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل .

والفريق الثاني : قوم كافرون ، ولكنهم لم يقاتلونا ، ولم يخرجونا من ديارنا ، ولم يظاهروا ، إما لعهد بيننا وبينهم ، وإما لأنهم قوم ضعاف لا يستطيعون حربا ، ولا قتالا ، ولا إخراجا ، ولا مظاهرة على إخراج ، وهؤلاء قد بيّن اللّه أنه لا ينهانا عن برّهم والإقساط إليهم .

وهناك فريق لا يعلم المؤمنون حالهم على الجزم ، وهم يظهرون الإيمان ، فهؤلاء بيّن اللّه حكمهم في الآيات التي معنا ، فقال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ إلخ نزلت هذه الآية بعد صلح الحديبية ، وقد روي أنّه صلّى اللّه عليه وسلّم أمر عليا رضي اللّه عنه أن يكتب عقد الصلح ، فكتب : باسمك اللهم . هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللّه سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر

سنين، يأمن فيها الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنّ من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه ردّه عليه، ومن جاء قريشا من محمّد لم يردوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنّه لا إسلال ولا إغلال، وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

وقد نفّذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم العهد، فجاءه أبو جندل بن سهيل فرده، ولم يأته أحد من الرجال إلا رده في مدة العهد، وإن كان مسلما.

ثم جاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أمّ «1» كلثوم بنت عقبة بن معيط إحدى المؤمنات الجائيات، فخرج أخواها عمّار والوليد، حتى قدما على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فكلّماه في أمرها ليردها إلى قريش، فنزلت الآية، فلم يردها صلّى اللّه عليه وسلّم.

وقيل: نزلت الآية في امرأة تسمّى سبيعة بنت الحارث الأسلمية، جاءت مؤمنة مهاجرة، وطلبوا ردّها. فنزلت «2» الآية.

وقيل: نزلت في غيرها، ولعل سبب النزول متعدّد، وعلى أي حال فالآية في امرأة أو نساء جئن مهاجرات بعد صلح الحديبية.

وقد منعت الآية إرجاع هؤلاء النسوة إلى الكفار. فقيل: نزلت الآية بيانا لنص العقد، وأنه ما تناول إلّا الرجال، غير أنّ هذا يكون من تخصيص العام بالمتأخر، لأنّ نصّ عقد الصلح كان عاما «من جاء إلى محمد من قريش دون إذن وليه ردّه عليه»

---

(1) انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (7/ 376) ترجمة (7585) .

(2) رواه البخاري في الصحيح (5/ 80) ، 64 - كتاب المغازي ، 36 - باب غزوة الحديبية حديث رقم (4180) .

(123/758)

ومن العلماء من لا يجيز التخصيص بالمتأخر ، فلعلّ هذا القائل يلتزم الذهاب إلى قول الجبّائي ومن وافقه في جواز تخصيص العام بالمخصّص المتأخر ، وقد نسب إلى الزمخشري أنّ هذا ليس من باب التخصيص ، وإنما هو من بيان المجمل ، ذلك أنه يرى أنّ هذه الصيغ لا تفيد العموم من طريق الوضع ، بل هي من باب المطلق ، وتدلّ على العموم بالقرائن . وعلى هذا (فمن) التي في عقد الصلح كانت مجملة ، وجاءت الآية مبينة لها ، وليس هذا من تأخير البيان عن وقت الحاجة ، بل هو تأخيره لوقت الحاجة ، فإنّ الحاجة إليه إنما كانت عند مجيء المؤمنات مهاجرات ، وقد نزلت الآية عنده بيانا للإجمال الذي في العقد .

وقد ذهب جماعة إلى أنّ التعميم في عقد الصلح لم يكن من طريق الوحي ، بل كان اجتهادا منه صلّى اللّه عليه وسلّم أثيب عليه بأجر واحد ، وجاءت هذه الآية بعدم إقراره على هذا الاجتهاد ، ومسألة اجتهاده صلّى اللّه عليه وسلّم في الأحكام مسألة مختلف فيها ،

ومن يجيزها يقول : ما دام أنه يجيء الوحي بعدم التقرير على الخطأ فلا ضير فيها ، وقد جاءت الآية بعدم التقرير على التعميم .

وذهب جماعة إلى أنّ العهد كان بوحي ، وجاءت الآية ناسخة ، ومن لا يجيز نسخ السنة بالكتاب يقول : نسخ العهد بالسنة ، وهي امتناعه صلّى اللّه عليه وسلّم من الرد ، وجاءت الآية مقرّرة لهذا الامتناع .

ومن العلماء من يرى أن العهد كان على غير الصيغة المتقدمة ، وأنه كان يشتمل على نصّ خاص بالنساء ، صورته أن لا تأتيك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا ، فإن دخلت في دينك ولها زوج ردّت على زوجها ما أنفق ، وللنبي صلّى اللّه عليه وسلّم من العهد مثل ذلك ، وعلى هذا فالآية موافقة للعهد مقرّرة له .

وهذا هو الذي عليه المعوّل ، وأما الأقوال قبله فإنّها تنافي روح التشريع الإسلامي من جهة أنّ الوفاء بالعهد واجب ، ولا ينبغي لأحد الطرفين أن يستبدّ بتخصيص نصوصه أو إلغائها دون موافقة الطرف الثاني .

وأنت تعلم أنّ عهد الحديبية ما نسخ إلا بعد أن نقضته قريش ، ونكثوا أيمانهم ، يوضّح ذلك ما جاء في سورة التوبة : وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (12) أَلا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13) [التوبة

: 12 ، 13]. وما دام العهد قد نسخ فنسخه نسخ لما اشتمل عليه من الحكم.

ولنرجع إلى تفسير الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ.

المراد إذا جاءكم النساء اللائي يظهرن الإيمان، وإنما كان هذا هو المراد لأنّ اللّه تعالى يقول: فَامْتَحِنُوهُنَّ ثم قال: فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فدل ذلك على أنّ الغرض من الامتحان علم إيمانهن، وقوله تعالى: مُهاجِراتٍ منصوب على الحالية، وجيء به بعد قوله تعالى: إِذا جاءَكُمُ لبيان العلة في عدم إرجاعهن، إذ هنّ ما هجرن مكة وانتقلن منها إلا حبا في اللّه، وفرارا بدينهن من أذى الكفار، وهنّ الضعيفات اللاتي لا جلد لهنّ على الإيذاء، فإذا قضى نصّ العهد أن يبقي الرجال، فهم يتحمّلون الأذى، أما هؤلاء اللاتي اضطررن إلى الهجرة، فكيف يلزمهنّ البقاء، وهنّ لا يستطعن حماية أنفسهنّ فَامْتَحِنُوهُنَّ فاختبروهن بما ترونه موصلا إلى غلبة الظن بإيمانهنّ.

وقد روي عن ابن عباس في كيفية امتحانهن أنه قال: كانت المرأة إذا جاءت النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم حلّفها عمر رضي اللّه عنه باللّه بأنها ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، وباللّه ما خرجت من بغض زوج، وباللّه ما خرجت التماس دنيا، وباللّه ما خرجت إلا

حبا للّه ورسوله .

وعن ابن عباس أيضا أنّ امتحانهنّ أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أمر عمر بن الخطاب فقال :

قل لهن إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بايعكن على ألا تشركن باللّه شيئا إلخ ما في الآية الآتية ، وسيأتي أنّ آية مبايعة النساء لها سبب غير هذا .

وقوله تعالى : اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ جملة اعتراضية جيء بها لإفادة أنّ الامتحان الغرض منه الوصول إلى غلبة الظن ، وإلا فالحقيقة لا يعلمها على ما هي عليه إلا اللّه وحده سبحانه ، فإنه المطلع على ما في القلوب ، يعلم السرّ وأخفى فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ أي فإن تبيّن بعد الامتحان إيمانهنّ ، وغلب على ظنكم هذا ، فلا ترجعوهنّ إلى أزواجهنّ الكفار ، وإنما أقحمنا لفظ الأزواج أخذا من قوله بعد : لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ فإنّه استئناف قصد منه بيان علّة النهي عن إرجاعهن إلى الكفار ، وجملة لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ أفاد الفرقة ، وتحقيق زوال النكاح الأول على الثبوت والاستقرار ، والجملة الثانية : وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ أفادت أنّ النكاح في المستقبل لا يستأنف للكفار ، وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا أي أعطوا أزواجهنّ مثل ما أنفقوا عليهن من المهر ، وقد قيل : إنّ ذلك واجب ، وقيل : إنّه مندوب ، وقد فعل ذلك في زمن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقد روي أنّ ربيعة الأسلمية لما جاءت تزوجها عمر ، وأعطى زوجها ما أنفق . وقيل : إنّ هذا الحكم غير باق ، لأنّ

ذلك كان في المهاجرات، وقد ذهبت الهجرة

«ولا هجرة بعد الفتح»

على أنك قد سمعت ما روي من أنّ العهد كان فيه نصّ جاءت الآية مقرّرة له، وقد انتهى العهد بما فيه، فلا بقاء لهذا الحكم الآن.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ أي إنه لا تثريب عليكم في نكاحهن

(125/758)

عند إيتاء الأجور، فمتى أعطيت الأجور، فليس شيء وراء ذلك يمنع من الحلّ.

وأنت تعلم أنّ هذا الحكم وإن كان قد بطل العمل به بالنسبة لمن جرى بينه وبين النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عهد الحديبية من قريش، فإنّه لا مانع أن يكون معمولا به في العهود التي تجري بين المسلمين والكفار في مثل تلك الحالة التي كان عليها المسلمون يومئذ. فإذا عاهدناهم على أنّ من جاءتنا مؤمنة من أزواجهم رددنا عليهم ما أنفقوا وجب الوفاء بذلك العهد.

هذا وقد اختلف العلماء في الحربية تخرج إلى المسلمين مسلمة، فقال أبو حنيفة: إذا خرجت الحربية مسلمة، ولها زوج كافر في دار الحرب، وقعت الفرقة بينهما، ولا عدّة عليها. وقال أبو يوسف ومحمد: تقع الفرقة، وعليها العدة. وإن أسلم الزوج بعد ذلك لم

تحل له إلا بنكاح جديد ، وإليه ذهب سفيان الثوري .

وقال مالك والليث بن سعد والأوزاعي والشافعي : إن أسلم الزوج قبل أن تحيض ثلاث حيض فهي امرأته . ولا تحل الفرقة إلا إذا انقضت العدة ، فإذا انقضت فلا سبيل له عليها إن اجتمع معها في الإسلام بعد ذلك ، ولا تحل له إلا بعقد جديد .

والخلاف بين الحنفية وغيرهم إنما هو في الحربيين إذا أسلمت المرأة وخرجت مهاجرة إلى دار الإسلام ، فإنّ الحنفية يقولون في هذه الصورة بالخروج من دار الحرب وهي مسلمة : وقعت الفرقة ، فسبب الفرقة اختلاف الدارين ، والمراد به عندهم أن يكون أحد الزوجين من أهل دار الحرب ، والآخر من أهل دار الإسلام ، ولا اعتبار لمضي العدة وعدمه .

وغيرهم يقول : لا عبرة باختلاف الدار ، فإذا أسلمت المرأة انتظر إسلام زوجها زمن العدة ، سواء أبقيت في دار الحرب أم خرجت وحدها مهاجرة .

وأما إذا كانا ذميين ، فأسلمت المرأة ، فمذهب الحنفية « 1 » أنّه لا تقع الفرقة حتى يعرض عليه الإسلام ، فإن أسلم ، وإلا فرّق بينهما ، وكذلك إذا بقيا في الحرب .

والجماعة يقولون كما قالوا في الصورة الأولى ، أي أنها تنتظر زمن العدة ، فإن جمعها وإياه الإسلام ، في العدة فهي امرأته ، وإلّا حصلت الفرقة .

وقد استدل الحنفية لمذهبهم بقوله تعالى : فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ .

وقالوا في وجه استدلالهم بالآية : إنّ المهاجرة إلى دار الإسلام قد صارت من أهل دار الإسلام ، وزوجها باق على كفره من أهل دار الحرب ، فقد اختلفت داراهما وحكم الله بوقوع الفرقة بينهما بقوله : فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ولو كانت

---

(1) انظر الهداية شرح بداية المبتدي للمرغيناني (1/ 239) .

(126/758)

الزوجية باقية لكان الزوج أولى بها ، وقد قال الله : لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ .

وأيضا قوله تعالى : وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا يدل على ذلك ، لأنه لو كانت الزوجية باقية لما استحق الزوج ردّ المهر ، لأنه لا يستحق البضع وبدله .

قالوا : ويدل عليه أيضا قوله تعالى : وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ لأنه لو كان النكاح باقيا لما جاز لأحد أن يتزوجها .

واستدلوا أيضا بقوله تعالى : وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ لأنّ معناه عندهم لا تمسكوا بها ، ولا تعتدوا بها ، ولا تمنعكم عصمة الكافرين السابقة من التزوج بهنّ .

وقال الحنفية أيضا : اتفق الفقهاء على جواز وطء المسبية بعد الاستبراء ، وإن كان لها زوج في دار الحرب إذا لم يسب زوجها معها ، ولا سبب يجوّز هذا في نظرهم إلا اختلاف

الدارين ، لأنه ليس معنا إلا طروء الملك ، واختلاف الدارين وطروء الملك من حيث هو لا يقتضي فساد النكاح ، بدليل أنّ الأمة التي لها زوج لو بيعت لا تقع الفرقة بينهما ، وكذلك إذا مات السيد عن أمة لها زوج ، لم يكن انتقال الملك إلى الوارث سببا للفرقة .

والجماعة يقولون : إنّ سبب الفرقة هو الإسلام ، لأنها لم تعد صالحة لأن تكون فراشا لكافر ، وهذا المعنى متحقّق ، سواء أبقيت في دار الحرب ، أم خرجت ، والعدة لازمة شرعا في كل ذات زوج ما دامت حرة ، وقد عرفت عدة الحرة في الشرع ، وقد كان موجب الفرقة بينهما من قبل الزوج ، وهو بقاؤه على الكفر ، فإذا أسقط الزوج هذا الموجب في وقت يمكنه فيه التدارك ، فهي امرأته ، لأن المانع من بقاء زوجية قد زال قبل فوات الأوان .

وقد روي عن مجاهد قال : إذا أسلم وهي في العدة فهي امرأته ، وإن لم يسلم فرّق بينهما . وعن عطاء مثل هذا ، وكذلك عن الحسن ، وابن المسيّب . وأيضا قد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ردّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع بالنكاح الأول ، وقد كانت زينب هاجرت إلى المدينة ، وبقي زوجها بمكة مشركا ، ثم ردها عليه بعد إسلامه .

والحنفية ردّوا الاستدلال بهذا الحديث من وجوه ، قالوا : إنّ هذه الرواية فيها أنّه ردها بعد ست سنين ، وذلك لا يعمل به عندكم . وقالوا : إن رواية ابن عباس ومذهبه يخالف مرويّة ، على أنّه قد روي هذا الحديث من طريق آخر جاء فيه أنه ردها عليه بنكاح ثان .

والكلام في هذا الحديث محله كتب الحديث ، والذي يعنينا إنما هو الآية .

يقول الجماعة : إنّ هذه الآية بل الآيات لا دليل فيها ، فإنّ عدم الإرجاع إلى الكفار مبني على مجيء المؤمنات مهاجرات ، فلم جعلتم العلة هي الهجرة وحدها ،

(127/758)

وهي دون الإيمان لا تصلح علة ، إذ إنّها لو صلحت لكان خروج الحربية إلينا بأمان موجبا للفرقة ، وهو لا يوجبها اتفاقا ، وكذلك المسلم إذا دخل دار الحرب بأمان ، أو أسره أهل الحرب لا يبطل نكاح امرأته التي في دار الإسلام .

وجواب الحنفية عن هذا - بأنّ المراد أن يكون من أهل دار الإسلام - جواب لا ينفع ، فإنّه تستر وراء الألفاظ ، وإلّا فأهليتها لدار الإسلام موجودة وهي في دار الحرب إذا أسلمت قبله ، فلما ذا تنتظرونه حتى يعرض عليه الإسلام ، فإن أسلم ، وإلا فرّق بينهما . فالأهلية فوجودة من اللحظة الأولى ، فلو كانت الأهلية هي الموجبة لحصلت الفرقة بالإسلام لمجرده ، وهو ما نقول به ، غاية الأمر أننا نخالفكم في العدة ، أنتم تقولون بعدم وجوبها ، ونحن نقول بوجوبها ، لأننا نرى أن العدة شرعت لتعرف براءة الرحم ، ولحقّ الزوج ، حتى لا يضيع نسب ولده ، فإذا أسلم وامرأته في العدة فهو أحقّ بها ، لأن المانع من بقاء الزوجية قد زال ،

والعدة واجبة على الزوجة غير المسبية ، وهذه زوجة غير مسبية ، فتلزمها العدة .

قال الحنفية في مسألة العدة : إنّ قوله تعالى : وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ظاهر في عدم وجوب العدة ، لأنّه لم يشترط في رفع الجناح في النكاح إلا إيتاء المهر ، ولو كان هناك شيء غير هذا لبينه .

وللجماعة أن يقولوا في هذا الدليل : إنّه متروك الظاهر ، وإلا لا قتضى أن يصحّ النكاح بغير شهود ، وهو لا يصحّ بالاتفاق ، بل هو لا يصح إلا مستوفيا كلّ شرائطه ، فلو كان تحته أختها لا يحل له أن ينكحها مهما دفع من المهر .

نعم قد يقال في هذا : إن اللّه تعالى يقول : وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ والنكاح حقيقة شرعية معروفة الأركان والشرائط ، فالمفروض استيفاؤها ، والآية سيقت لدفع ما كان يظنّ من أنّ للنكاح الأول حرمته ، وأنّه باق ، فنفت الآية هذا الظن ، ورفعت الجناح في النكاح مع استيفاء الشرائط والأركان وانتفاء الموانع .

وأما استدلال الحنفية بقوله تعالى : وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ فتأويله عند الجماعة : ولا تمسكوا بعصم نسائكم المشركات الباقيات في دار الحرب ، وتكون الآية لمنع بقاء نكاحهن ، كما منع ابتداء نكاح المشركات وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ [البقرة : 221] .

ويكون المراد منع المؤمنين من أن يكون بينهم وبين نسائهم الباقيات على الشرك علقة من علق الزوجية أصلا ، وعدم الاعتداد بذلك النكاح ، فهو لا يمنع خامسة ولا نكاح أختها .

وقد يساعد على هذا التأويل قوله تعالى : وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا . فإن معناه : اسألوا الكفار مهور نسائكم ، ولهم من السؤال مثل ذلك ، وعليكم الإجابة .

(128/758)

وأما قياس الحنفية طروء الملك في المسبية على بيع الأمة المزوّجة في أنّ كلا لا يقتضي فساد النكاح ، فهو قياس مع الفارق . فإنّ الذي حصل للمسبية إنما هو استرقاق واستحداث رق بعد حرية ، والذي حصل في الأمة المبيعة إنما هو انتقال ملك من شخص إلى شخص . ذِلكُمْ حُكْمُ اللَّهِ فاتبعوه ، ولا تحيدوا عنه ، وقد روي أنّ الصحابة أدوا إلى المشركين ما أنفقوا من مهور المهاجرات ، وأبى المشركون أن يدفعوا مهور من بقي عندهم من نساء المؤمنين ، فنزل قوله تعالى : وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11) .

والمعنى : إن انفلت منكم شيء من أزواجكم وانحاز إلى جانب الكفار وجاء دوركم ونوبتكم في استيفاء ما أنفقتم من المهور على أزواجكم ، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم من المسلمين مثل ما أنفق هؤلاء الأزواج من مهور المهاجرات اللاتي هاجرن إليكم وتزوجتموهنّ ، ولا تدفعوا إلى أزواجهنّ الكفار ، ويكون ذلك قصاصا .

إباء عن الدفع منكم بإباء عن الدفع منهم .

وقد روي عن الزهري ما يوافق هذا المعنى قال : يعطي من لحقت زوجته بالكفّار من صداق من لحق بالمسلمين من زوجات الكفّار ، وعلى هذا تكون المعاقبة بمعنى العقبى والنوبة ، وعن الزجاج أنّ المعنى : فقاتلتم الكفار وأصبتم منهم الغنائم ، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الغنائم .

وقد روي عن ابن عباس أنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان يعطي الذي ذهبت زوجته من الغنيمة قبل أن تخمّس المهر ، لا ينقص منه شيئا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ فلا يزد أحدكم عن الذي أنفق ، ولا ينقص المعطى منه شيئا ، وذلك شأن المؤمن ، فإيمانه يدفعه إلى أن يخشى اللّه ، ويتقيه في كل أعماله وأحواله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير آيات الأحكام / للسايس صـ 764.756 ﴾

(129/758)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الممتحنة» (60)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ» (1) مجازها: المودة «تسرّون إليهم بالمودّة» (1) مثلها..

«قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ» (4) ثم استثنى.

«إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ»..

«فَامْتَحِنُوهُنَّ» (10) أخبروهن، وخبرته وامتحنته..

«بِعِصَمِ الْكَوافِرِ» (10) العصمة الحبل والسبب..

«وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فعقّبتم» (11) وعاقبتم «1» واحد أي أصبتم عقبى منهن.

---

(1). - 6 «فعقبتم وعاقبتم»: قراءة العامة فعاقبتم وقرأ علقمة والنخعي وحميد الأعرج فعقبتم مشددة وقرأ مجاهد فأعقبتم... وقرأ الزهري فعقبتم خفيفة بغير ألف (القرطبي 18/ 69).

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة القنوجى:

سورة الممتحنة

ثلاث عشرة آية

وهي مدنيّة ، قال القرطبي : في قول الجميع «1» .

[الآيتان : الأولى والثانية]

لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9) .

لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ : بدل من الموصول بدل اشتمال .

وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ : يقال أقسط إلى الرجل إذا عاملته بالعدل .

قال الزجاج : المعنى وتعدلوا فيما بينكم وبينهم من الوفاء بالعهد .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) : أي العادلين . ومعنى الآية أن اللّه سبحانه لا ينهى عن بر أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال ، وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم ، ولا ينهى عن معاملتهم .

قال ابن زيد : كان هذا في أول الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال ثم نسخ .

قال قتادة : نسختها فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ [التوبة : 5] .

وقيل : هذا الحكم كان ثابتا في الصلح بين النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وبين قريش فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم . وقيل : هي خاصة في خلفاء النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ومن بينه وبينه عهد ، قاله الحسن .

---

(1) انظره في «تفسيره» (18/ 49) .

(131/758)

قال الكلبي : هم خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناة .

وقال مجاهد : هي خاصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا . وقيل : هي خاصة بالنساء والصبيان .

وحكى القرطبي «1» عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة .

ثم بيّن سبحانه من لا يحل بره ولا العدل في معاملته ، فقال : إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ : وهم صناديد الكفر من قريش .

وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ : أي عاونوا الذين قاتلوكم وأخرجوكم على ذلك ، وهم سائر أهل مكة ومن دخل معهم في عهدهم .

أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9) : أي الكاملون في الظلم لأنهم تولوا من

يستحق العداوة لكونه عدوا للّه ولرسوله ولكتابه وجعلوهم أولياءهم .

[الآيتان : الثالثة والرابعة] يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10) وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11) .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ : من بين الكفار ، وذلك أن النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم لما صالح قريشا يوم الحديبية على أن يرد عليهم من جاءهم من المسلمين فلما هاجر إليه النساء أبى اللّه أن يرددن إلى المشركين ، وأمر بامتحانهن فقال :

فَامْتَحِنُوهُنَّ : أي فاختبروهن .

وقد اختلف فيما كان يمتحن به ؟ فقيل : كنّ يستحلفن باللّه ما خرجن من بغض

---

(1) انظره في «تفسيره» (18/ 59) . وانظر كذلك الناسخ والمنسوخ لابن العربي (2/ 885) .

زوج ولا رغبة من أرض إلى أرض ولا لالتماس دنيا ، بل حبا لله ولرسوله صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ، ورغبة في دينه فإذا حلفت كذلك أعطى النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها إليه . وقيل : الامتحان هو أن تشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه . وقيل : ما كان الامتحان إلا بأن يتلو عليهن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم الآية ، وهي يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ إلى آخرها .

واختلف أهل العلم هل دخل النساء في عهد الهدنة أم لا ؟ على قولين : فعلى القول بالدخول تكون هذه الآية مخصصة لذلك العهد ، وبه قال الأكثر . وعلى القول بعدمه لا نسخ ولا تخصيص .

اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ : هذه الجملة معترضة لبيان أن حقيقة حالهن لا يعلمها إلا اللّه سبحانه . ولم يتعبدكم بذلك وإنما تعبدكم بامتحانهن حتى يظهر لكم ما يدل على صدق دعواهن في الرغوب في الإسلام .

فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ : أي علمتم ذلك ، بحسب الظاهر بعد الامتحان الذي أمرتم به .

فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ : أي إلى أزواجهن الكافرين .

لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ : تعليل للنهي عن إرجاعهن .

وفيه دليل على أن المؤمنة لا تحل لكافر ، وأن إسلام المرأة يوجب فرقتها من زوجها لا مجرد

هجرتها ، والتكرير لتأكيد الحرمة أو الأول لبيان زوال النكاح القديم ، والثاني لامتناع النكاح الجديد .

وَآتُوهُمْ : أي وأعطوا أزواج هؤلاء اللاتي هاجرن وأسلمن مثل :

ما أَنْفَقُوا : عليهن من المهور . قال الشافعي : إذا طلبها غير الزوج من قراباتها منع منها بلا عوض .

وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ لأنهنّ قد صرن من أهل دينكم .

إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ : أي مهورهن ، وذلك بعد انقضاء عدتهن كما تدل عليه أدلة وجوب العدة .

وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ : قد قرأ الجمهور بالتخفيف من الإمساك . واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله : فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ [البقرة : 231] .

(133/758)

وقرأ الحسن وأبو العالية وأبو عمرو بالتشديد من التمسك «1» .

والعصم : جمع عصمة وهي ما يعتصم به . والمراد هنا عصمة عقد النكاح .

والمعنى أن من كانت له امرأة كافرة فليست له بامرأة لانقطاع عصمتها باختلاف الدين .

قال النخعي : هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر . وكان الكفار يزوجون المسلمين والمسلمون يتزوجون المشركات ، ثم نسخ ذلك لهذه الآية . وهذا خاص بالكوافر المشركات دون الكوافر من أهل الكتاب ، وقيل : عامة في جميع الكوافر ، مخصصة بإخراج الكتابيات منها .

وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أنه إذا أسلم وثنيّ أو كتابيّ لا يفرق بينهما إلا بعد انقضاء العدة .

وقال بعض أهل العلم : يفرق بينهما بمجرد إسلام الزوج ، وهذا إنما هو إن كانت المرأة مدخولا بها ، وأما إذا كانت غير مدخول بها فلا خلاف بين أهل العلم في انقطاع العصمة بينهما بالإسلام ، إذ لا عدة عليها .

وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا : أي اطلبوا مهور نسائكم اللاحقات بالكفار .

قال المفسرون : كان من ذهب من المسلمات مرتدة إلى الكفار من أهل العهد ، يقال للكفار : هاتوا مهرها ، ويقال للمسلمين إذا جاءت امرأة من الكفار إلى المسلمين وأسلمت : ردوا مهرها على زوجها الكافر .

ذلِكُمْ : أي المذكور من إرجاع المهور من الجهتين .

حُكْمُ اللَّهِ ، ورسوله .

يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10) . قال القرطبي «2» : وكان هذا مخصوصا بذلك

الزمان في تلك النازلة خاصة، بإجماع المسلمين.

---

(1) قال الأزهري: «والمعنى: أن المرأة إذا ارتدّت عن الإسلام فزالت عصمة النكاح بينها وبين زوجها المؤمن فلا يتبعها الزّوج بعد انبتاتها عنه (معاني القراءات ص 487، 488) بتحقيقنا - ط - دار الكتب العلمية.

(2) انظره في «تفسيره» (18/ 68).

(134/758)

ولما نزلت الآية المتقدمة قال المسلمون: رضينا بحكم الله، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا، فنزل قوله:

وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ: أي مما دفعتم.

مِنْ أَزْواجِكُمْ أي من مهور نسائكم المسلمات. وقيل: المعنى وإن انفلت منكم أحد من نسائكم.

إِلَى الْكُفَّارِ: فارتدت المسلمة.

فَعاقَبْتُمْ: قال الواحدي، قال المفسرون: أي فغنمتم.

وقال الزجاج: تأويله وكانت العقبى لكم، أي كانت الغنيمة لكم حتى غنمتم.

فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا : من مهر المهاجرة التي تزوجوها ودفعوه إلى الكفار ولا تؤتوه زوجها الكافر.

قال قتادة ومجاهد : إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفيء والغنيمة، وهذه الآية منسوخة قد انقطع حكمها بعد الفتح.

وقال قوم : بل محكمة «1».

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11) : أي احذروا أن تتعرضوا لشيء مما يوجب العقوبة عليكم، فإن الإيمان الذي أنتم متصفون به يوجب على صاحبه ذلك.

[الآية الخامسة] يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12).

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ : أي قاصدات مبايعتك على الإسلام.

---

(1) انظر : الناسخ والمنسوخ لابن العربي (2/ 887)، والأحكام له (4/ 2776)، الطبري (28/ 44، 45)، النكت (4/ 225)، زاد المسير (8/ 241)، القرطبي (18/ 64)، الناسخ والمنسوخ للنحاس (237)، الإيضاح (376) فما بعدهم.

[.....]

وعَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً : من الأشياء كائنا ما كان ، هذا كان يوم فتح مكة ، فإن نساء أهل مكة أتين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم يبايعنه فأمره اللّه أن يأخذ عليهن أن لا يشركن .

وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ : وهو ما كانت تفعله الجاهلية من وأد البنات .

وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ : أي لا يلحقن بأزواجهن ولدا ليس منهم .

قال الفرّاء : كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هذا ولدي منك ، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن ، وذلك أن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها ، وليس المراد هنا أنها نسبت ولدها من الزنا إلى زوجها ، لأن ذلك قد دخل تحت النهي عن الزنا .

وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ : أي في كل أمر هو طاعة للّه .

قال عطاء : في كل بر وتقوى .

وقال المقاتل : عني بالمعروف النهي عن النوح ، وتمزيق الثياب ، وجز الشعر ، وشق الجيب ، وخمش الوجوه ، والدعاء بالويل .

وكذا قال قتادة وسعيد بن المسيب ومحمد بن السائب وزيد بن أسلم ، ومعنى القرآن أوسع مما قالوه ! قيل : ووجه التقييد بالمعروف مع كونه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم لا يأمر إلا به ، للتنبيه على أنه لا تجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق .

فَبايِعْهُنَّ : هذا جواب إذا ، والمعنى إذا بايعنك على هذه الأمور فبايعهن ، ولم يذكر في بيعتهن الصلاة والزكاة والصيام والحج لوضوح كون هذه الأمور ونحوها من أركان الدين وشعائر الإسلام ، إنما خص الأمور المذكورة لكثرة وقوعها من النساء .

وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ : أي اطلب من اللّه المغفرة لهن بعد هذه المبايعة لهن منك .

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) : أي بليغ المغفرة والرحمة لعباده «1» . انتهى . ا هـ

﴿ نيل المرام صـ 440 - 445 ﴾

---

(1) انظر في تفسير هذه الآية : الطبري (28/ 51) ، النكت (4/ 228) ، زاد المسير (8/ 244) ، القرطبي (17/ 71) ، الناسخ والمنسوخ لابن العربي (2/ 888) .

(136/758)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الامتحان»

«1»

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 1 الى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (1) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2)

قوله تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ [1] وهذه استعارة على أحد التأويلين ، وهو أن يكون المعنى : تلقون إليهم بالمودة ليتمسّكوا «2» بها منكم . كما يقول القائل : ألقيت إلى فلان بالحبل ليتعلق به ، وسواء قال : ألقيت بالحبل ، أو ألقيت الحبل . وكذلك لو قال : ألقيت إلى فلان بالمودة ، أو ألقيت إليه المودة .

وكذلك قولهم : رميت إليه بما فى نفسى ، وما فى نفسى ، بمعنى واحد .

وقال الكسائي : تقول العرب : ألقه من يدك وألق به من يدك ، واطرحه من يدك ، واطرح به من يدك ، كلام عربى صحيح . وقد قيل : إن فى الكلام مفعولا محذوفا ، فكأنه تعالى قال :

تلقون إليهم أسرار النبي صلّى اللّه عليه وسلم بالمودة التي بينكم . وهذه الآية نزلت فى قوم من المسلمين ، كانوا يخالّون قوما من المنافقين ، فيتسقّطونهم أسرار النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ، استزلالا لهم ، واستغمارا لعقولهم .

وقوله سبحانه : وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ [2] وهذه استعارة . لأن بسط الألسن على الحقيقة لا يتأّتى كما يتأّتى بسط الأيدى ، وإنما المراد إظهار الكلام السيّء فيهم بعد زمّ الألسن عنهم ، فيكون الكلام كالشىء الذي بسط بعد انطوائه ، وأظهر بعد إخفائه .

وقد يجوز أيضا أن يكون تعالى إنما حمل بسط الألسن على بسط الأيدى ، ليتوافق الكلام ، ويتزاوج النظام ، لأن الأيدى والألسن مشتركة فى المعنى المشار إليه ، فللأيدى الأفعال وللألسن الأقوال . وتلك ضررها بالإيقاع ، وهذه ضررها بالسّماع .

---

(1) هى سورة الممتحنة .

(2) فى الأصل «ليتسمكوا» وهو تحريف من الناسخ .

[سورة الممتحنة (60) : آية 10]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10)

وقوله سبحانه : وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ [10] وقرأ أبو عمرو وحده تُمَسِّكُوا بالتشديد ، وقرأ بقية السبعة تُمْسِكُوا بالتخفيف . وهذه استعارة . والمراد بها : لا تقيموا على نكاح المشركات ، وخلاط الكافرات ، فكنى سبحانه عن العلائق التي بين النساء والأزواج بالعصم ، وهى هاهنا بمعنى الحبال ، لأنها تصل بعضهم ببعض ، وتربط بعضهم إلى بعض . وإنما سميت الحبال عصما ، لأنها تعصم المتعلق بها والمستمسك بقوّتها . وقال الشاعر :

وآخذ من كل حىّ عصم

أي حبالا . وهى بمعنى العهود فى هذا الشعر .

وقال أبو عبيدة : العصمة : الحبل والسّبب . وقال غيره : العصم : العقد . فكأنه تعالى قال : ولا تمسّكوا بعقد الكوافر ، أي بعقود نكاحهن . وأبو حنيفة يستشهد بهذه الآية على أنه لا عدّة فى الحربية إذا خرجت إلى دار الإسلام مسلمة ، وبانت من زوجها بتخليفها له فى

دار الحرب كافرا : ويقول إن فى الاعتداد منه تمسّكا بعصمة الكافر التي وقع النهى عن التمسك بها . ويذهب أن الكوافر هاهنا جمع فرقة كافرة ، كما أن الخوارج جمع فرقة خارجة . ليصحّ حمل الكوافر على الذكور والإناث .

ويكون قوله تعالى : وَلَا تُمْسِكُوا خطابا للنبى صلّى اللّه عليه وسلم والمؤمنين . والمعنى : ولا تأمروا النساء بالاعتداد من الكفار ، فتكونوا كأنكم قد أمرتموهنّ بالتمسك بعصمهم . وقال أبو يوسف «1» ومحمد «2» يجب عليها العدّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 331.332 ﴾

---

(1) أبو يوسف هو يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي ، صاحب الإمام أبى حنيفة النعمان .

تولى القضاء ببغداد فى أيام المهدى والهادي والرشيد وهو أول من لقب بقاضى القضاة فى الإسلام ، وأول من وضع الكتب فى الفقه الحنفي . توفى سنة 182 ه .

(2) محمد هو محمد بن الحسن بن واقد الشيباني ، كان إماما فى الفقه والأصول ، وهو صاحب أبى حنيفة وناشر علمه ومذهبه . تولى القضاء فى زمن الرشيد ، ثم صحبه إلى خراسان فمات فى الري سنة 189 ه . [. . . . .]

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الممتحنة

المؤمن لا يقبل دنية ولا يرضى بهوان ، ويبذل جهده لمدافعة ظالميه ؛ فماذا غلب على أمره أسر المقاومة وانتظر مع اليوم غدا يبلغ فيه مراده ، ويحقق فيه قول الله سبحانه "والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون" . وقد هزم المسلمون أول تاريخهم فى مكة وطردوا من ديارهم شر طردة ، فرفضوا الاستسلام للبغى واشتبكوا مع عدوهم فى حرب مرة وصابروا الليالى حتى تحقق لهم النصر . ومن الناس من يستوعر طريق الكفاح وينتهز الفرصة لقبول الأمر الواقع ولا يرى حرجا فى الاستخذاء أمام عدوه حرصا على سلامته أو سلامة أهله . ولهؤلاء يقول الله تعالى " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق . . . " . إن من السقوط أن تلين لمن يريد قهرك ويحط قدرك ! ويحقر دينك ويحاول فتنتك " إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون" . ويقول أبو الطيب . ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الأجسام والوفاء للعقائد والمبادئ يفرض الولاء لمن يواليها والبراءة ممن يعاديها واعتراض

من يعترضها . كذلك فعل أتباع الأنبياء فى جميع الأعصار . ولذلك يقول الله للمسلمين " قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده . . . " . والمسلمون بذلك لا يشترون الخصومة أو يجنحون إلى التهجم . إنهم يردون العدوان ويعلنون بقاءهم على دينهم إلى آخر رمق . وفى تحديد العلاقة بين المسلمين وأعدائهم فى العقيدة ، يقول الله تعالى : " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما

ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون" . لقد رأينا العبث الشديد بالمواثيق الدولية ، وبحقوق الإنسان ، ورأينا ألوفا مؤلفة من المسلمين يغار عليهم ، فيدعون بيوتهم لمن يسكنها ويعيشون هم فى العراء عشرات السنين ، فهل الرضا بذلك شرف ؟ وهل الغضب لذلك تعصب دينى ؟ إن الله يحب العدل ، فأين العدل فى استضعاف المسلمين على هذا النحو الأثيم ؟ الحق أن استنهاض الهمم عالميا لتغيير هذه الأوضاع عبادة لله ، وإنصاف للبشر ،

واحترام للإنسانية . والدول الكبرى لا تهتم إلا بمصالحها الخاصة ، ولا تكترث بما يصيب الآخرين ! وهذا لا يجوز . . . ومن هنا كان الحب فى الله والبغض فى الله من عناصر الإيمان ، فإذا أحببت جائرا لنفع يعود عليك أو كرهت عادلا لطمع لم يسقه إليك ، فاتهم إيمانك ! إن المشاعر المعتلة دليل إيمان مزيف . وقد ختمت السورة بما بدئت به من ضرورة التعصب للحق وحده والانحراف عن أهل الريبة والفسق " يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور " . وحدث فى معاهدة الحديبية عندما أملى المشركون شروطهم على المسلمين أن فرضوا هذا البند الغريب : من ترك مكة مسلما لم يجز لأهل المدينة أن يستقبلوه مهاجرا معهم . ومن ترك المدينة مرتدا فلأهل مكة أن يؤمنوه ويطمئنوه ! ! وقد قبل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الجاهلية المتكبرة ، وشاء الله أن يكون أهل مكة أول من يكوى بنارها ويسعى لإلغائها . لكن بعض النساء فى مكة شرح الله صدورهن للإسلام فأين يذهبن ؟ لقد نزل الوحى آذنا بقبولهن فى المدينة ، فلا مساغ لتشريدهن فى الأرض " يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار . . " . ونلاحظ أن المسلمين أمروا بتعويض المشركين الذين آمنت نساؤهم ، كما أن هناك نساء لحقن

بأهل مكة مرتدات ، فقال الله تعالى "ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم " . وهذه تنظيمات عادلة تدل على روح الدين ولم يطل بها عهد ،

فسرعان ما فتحت مكة ودكت معاقل الوثنية وبنيت الأسر المسلمة على التوحيد الخالص . على أن الإسلام – كما تقرر فى سورة المائدة أباح الزواج بالمحصنات من الكتابيات ، وأين هن اليوم ؟ إن الحضارة الحديثة قلما تعرف الإحصان ، فقد غاضت فى ربوعها مواريث النبوات الأولى . . . وانتهت سورة الممتحنة بهذا الميثاق : " يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله . . . " . وقد بايع النبى النساء بعد فتح مكة ، وكانت المبايعة شفوية لم يضع يده فى يد واحدة منهن . . . إن الذى يقرأ قصة الحضارة لديورانت يعلم أن الجو الدينى قد يذهب طهره كله بالعلاقة الفوضوية بين الرهبان والنساء ، فمن الخير المباعدة بين أنفاس هؤلاء وأولئك ، ولذلك حدد النبى صلاته بالنساء الأجنبيات تحديدا صارما ، "ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن " . انتهى انتهى . اهـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 452 .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسُلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والخمسون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والخمسون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من (سورة الممتحنة)

وحتى الآية ﴿ 11 ﴾ من السورة

(4/759)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/759)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الممتحنة

أقول: لما كانت سورة الحشر في المعاهدين من أهل الكتاب ، عقبت بهذه ، لاشتمالها على ذكر المعاهدين من المشركين ، لأنها نزلت في صلح الحديبية ولما ذكر في الحشر موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً ، ثم موالاة الذين من أهل الكتاب ، افتتح هذه السورة بنهي المؤمنين عن اتخاذ

الكفار أولياء ، لئلا يشابهوا المنافقين في ذلك ، وكرر ذلك وسطه ، إلى أن ختم به ، فكانت في غاية الاتصال ، ولذلك فصل بها بين الحشر والصف ، مع تآخيهما في الافتتاح ب (سبح) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 137 ﴾

(6/759)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (1) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الكافي من لجأ إليه فمن تولاه أغناه عمن سواه (الرحمن) الذي عم بنعمة الإيجاد

من فلق عن وجوده العدم وبراه وشمل ، برحمته البيان من حاطه بالعقل ورعاه (الرحيم) الذي خص بالتوفيق من أحبه وارتضاه .

(7/759)

ولما كان التأديب عقب الإنعام جديراً بالقبول ، وكان قد أجرى سبحانه سنته الإلهية بذلك ، فأدب عباده المؤمنين عقب سورة الفتح السببي بسورة الحجرات ، وكانت سورة الحشر مذكرة بالنعمة في فتح بني النضير ومعلمة بأنه لا ولي إلا الله ، ولذلك ختمها بصفتي العزة والحكمة بعد أن افتتحها بهما ، وثبت أن من حكمة حشر الخلق ، وأن أولياء الله هم المفلحون ، وأن أعداءه هم الخاسرون ، وكان الحب في الله والبغض في الله أفضل الأعمال وأوثق عرى الإيمان ، ولذلك ذم سبحانه من والى أعداءه وناصرهم ، وسماهم مع التكلم بكلمة الإسلام منافقين ، أنتج ذلك قطعاً وجوب البراءة من أعدائه والإقبال على خدمته وولائه ، فقال معيداً للتأديب عقب سورة الفتح على أهل الكتاب بسورة جامعة تتعلق بالفتح الأعظم والفتح السببي : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ منادياً بأداة العبد وإن كان من نزلت بسببه من أهل القرب ، ومعبراً بالماضي إقامة لمن والى الكفار نوع موالاة في ذلك المحل إلهاباً له وتهييجاً إلى الترفع عنه لئلا يقدح في خصوصيته ويحط من عليّ رتبته مع اللطف به

بالتسمية له بالإيمان حيث شهد سبحانه على من فعل نحو فعله مع بني النضير بالنفاق وأحله محل أهل الشقاق ، فحكم على القلوب في الموضعين فقال هناك : ﴿ الذين نافقوا ﴾ كما قال هنا : ﴿ الذين آمنوا ﴾ .

(8/759)

ولما كان قد تقدم في المجادلة النهي الشديد عن إظهار مطلق الموادة للكفار ، وفي الحشر الزجر العظيم عن إبطان ذلك فتكفلت السورتان بالمنع من مصاحبة ودهم ظاهراً أو باطناً ، بكت هنا من اتصف بالإيمان وقرعه ووبخه على السعي في موادتهم والتكلف لتحصيلها ، فإن ذلك قادح في اعتقاد تفرده سبحانه بالعزة والحكمة ، فعبر لذلك بصيغة الافتعال فقال بعد التبكيت بالنداء بأداة البعد والتعبير بأدنى أسنان الإيمان : ﴿ لا تتخذوا ﴾ وزاد في ذلك المعنى من وجهين : التعبير بما منه العداوة تجرئة عليهم وتنفيراً منهم والتوحيد لما يطلق على الجمع لئلا يظن أن المنهي عنه المجموع بقيد الاجتماع والإشارة إلى أنهم في العداوة على قلب واحد ، فأهل الحق أولى بأن يكونوا كذلك في الولاية فقال : ﴿ عدوي ﴾ أي وأنتم تدعون موالاتي ومن المشهور أن مصادق العدو أدنى مصادقة لا يكون ولياً فكيف بما هو فوق الأدنى وهو فعول من عدى ، وأبلغ في الإيقاظ بقوله : ﴿ وعدوكم ﴾ أي العريق في

عداوتكم ما دمتم على مخالفته في الدين .

ولما وحد لأجل ما تقدم من الإشارة إلى اتحاد الكلمة ، بين أن المراد الجمع فقال : ﴿ أولياء ﴾ ثم استأنف بيان هذا الاتحاد بقوله مشيراً إلى غاية الإسراع والمبادرة إلى ذلك بالتعبير بقوله : ﴿ تلقون ﴾ أي جميع ما هو في حوزتكم مما لا تطمعون فيه إلقاء الشيء الثقيل من علو ﴿ إليهم ﴾ على بعدهم منكم حساً ومعنى ﴿ بالمودة ﴾ أي بسببها .

(9/759)

ولما توقع السامع التصريح بمضادتهم في الوصف الذي ناداهم به بعد التلويح إليه ، ملهياً ومهيجاً إلى عداوتهم بالتذكير بمخالفهم إياه في الاعتقاد المستلزم لاستصغارهم لأنه أشد المخالفة ﴿ وقد ﴾ أي هو الحال أنهم قد ﴿ كفروا ﴾ أي غطوا جميع ما لكم من الأدلة ﴿ بما ﴾ أي بسبب ما ﴿ جاءكم من الحق ﴾ أي الأمر الثابت الكامل في الثبات الذي لا شيء أعظم ثباتاً منه ، ثم استأنف بين كفرهم بما يبعد من مطلق موادتهم فضلاً عن السعي فيها بقوله مذكراً لهم بالحال الماضية زيادة في التنفير منهم ومصوراً لها بما يدل على الإصرار بأنهم ﴿ يخرجون الرسول ﴾ أي الكامل في الرسلية الذي يجب على كل أحد عداوة من عاداه أدنى عداوة ولو كان أقرب الناس فكيف إذا كان عدواً ، وبين أن المخاطب من أول

السورة من المهاجرين وأن إيراده على وجه الجمع للسير والتعميم في النهي بقوله :

﴿ وإياكم ﴾ أي من دياركم من مكة المشرفة .

ولما بين كفرهم ، معبراً بالمضارع إشارة إلى دوام أذاهم لمن آمن المقتضي لخروجه عن وطنه ، علل الإخراج بما يحقق معنى الكفر والجداوة فقال : ﴿ أن ﴾ أي أخرجوكم من أوطانكم لأجل أن ﴿ تؤمنوا ﴾ أي توقعوا حقيقة الإيمان مع التجديد والاستمرار .

(10/759)

ولما كان الإيمان به سبحانه مستحقاً من وجهي الذات والوصف لفت الخطاب من التكلم إلى الغيبة للتنبيه عليهما فقال : ﴿ بالله ﴾ أي الذي اختص بجميع صفات الكمال ، ولما عبر بما أبان أنه مستحق للإيمان لذاته أردفه بما يقتضي وجوب ذلك لإحسانه فقال :

﴿ ربكم ﴾ ولما ألهبهم على مباينتهم لهم بما فعلوا معهم وانقضى ما أريد من التنبيه بسياق الغيبة عاد إلى التكلم لأنه أشد تحبباً وأعظم استعطافاً وأكمل على الرضا فألهبهم بما كان من جانبهم من ذلك الفعل أن لا يضيعوه ، فقال معلماً إن ولايته سبحانه لا تصح إلا بالإيمان ، ولا يثبت الإيمان إلا بدلائله من الأعمال ، ولا تصح الأعمال إلا بالإخلاص ، ولا يكون الإخلاص إلا بمباينه الأعداء : ﴿ إن كنتم ﴾ أي كوناً راسخاً حين أخرجوكم من أوطانكم

لأجل إيمانكم بي ﴿ خرجتم ﴾ أي منها وهي أحب البلاد إليكم ﴿ جهاداً ﴾ أي لأجل الجهاد ﴿ في سبيلي ﴾ أي بسبب إرادتكم تسهيل طريقي التي شرعتها لعبادي أن يسلكوها ﴿ وابتغاء مرضاتي ﴾ أي ولأجل تطلبكم بأعظم الرغبة لرضاي ولكل فعل يكون موضعاً له ، وجواب هذا الشرط محذوف لدلالة ﴿ لا تتخذوا ﴾ عليه .

ولما فرغ من بيان حال العدو وشرط إخلاص الولي ، وكان التقدير : فلا تتخذوهم أولياء ، بنى عليه قوله مبيناً ﴿ تلقون ﴾ إعلاماً بأن الإسرار إلى أحد بما فيه نفعه لا يكون إلا توددا ً: ﴿ تسرون ﴾ أي توجدون إسرار جميع ما يدل على مناصحتهم والتودد إليهم ، وأشار إلى بعدهم عنهم بقوله : ﴿ إليهم ﴾ إبلاغاً في التوبيخ بالإشارة إلى أنهم يتجشمون في ذلك مستقتين إبلاغ الأخبار التي يريد النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو المؤيد بالوحي كتمها عنهم على وجه الإسرار خوف الافتضاح والإبلاغ إلى المكان البعيد ﴿ بالمودة ﴾ أي بسببها أو بسبب الإعلام بأخبار يراد بها أو يلزم منها المودة .

ولما كان المراد بالإسرار الستر على من يكره ذلك ، قال مبكتاً لمن يفعله : ﴿ وأنا ﴾ أي والحال أني ﴿ أعلم ﴾ أي من كل أحد من نفس الفاعل ﴿ بما أخفيتم ﴾ أي من ذلك

﴿ وما أعلنتم ﴾ فأيّ فائدة لإسراركم إن كنتم تعلمون أني عالم به ، وإن كنتم تتوهمون أني لا أعلمه فهي القاصمة .

ولما كان التقدير بما هدى إليه العاطف : فمن فعل منكم فقد ظن أني لا أعلم الغيب أو فعل ما يقتضي ظن ذلك ، عطف عليه قوله : ﴿ ومن يفعله ﴾ أي يوجد الاتخاذ سراً أو علناً أو يوجد الإسرار بالمودة فالإعلان أولى في وقت من الأوقات ماض أو حال أو استقبال .

(12/759)

ولما كان المحب قد يفعل بسبب الإدلال ما يستحق به التبكيت ، فإذا بكت ظن أن ذلك ليس على حقيقته لأن محبته لا يضرها شيء ، وكان قد ستر المعايب بأن أخرج الكلام مخرج العموم ، صرح بأن هذا العتاب مراد به الإحباب فقال : ﴿ منكم ﴾ وحقق الأمر وقربه بقوله : ﴿ فقد ضل ﴾ أي عمي ومال وأخطأ ﴿ سواء السبيل ﴾ أي قويم الطريق الواسع الموسع إلى القصد قويمه وعدله ، وسبب نزول هذه الآية روي من وجوه كثيرة فبعضه في الصحيح عن علي ومنه في الطبراني عن أنس ومنه في التفاسير " أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف أتت المدينة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتجهز لفتح مكة فسألها ما أقدمها ، فقالت : ذهب موالي وقد احتجت حاجة

شديدة ، وكتم الأهل والعشيرة والموالي ، فحث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بني عبد المطلب وبني المطلب فأعطوها وكسوها وحملوها ، فكتب معها حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريدكم فخذوا حذركم ، فأعطاها عشرة دنانير ، فنزل جبريل عليه السلام بالخبر فبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمر وعلياً وعماراً والزبير وطلحة والمقداد وأبا مرثد وكانوا كلهم فرساناً فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين ، فخذوه منها وخلوا سبيلها ، وإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها .

فانطلقوا تعادي بهم خيلهم ، فأدركوها في ذلك المكان فأنكرت وحلفت بالله ، ففتشوها فلم يجدوه فهموا بالرجوع ، فقال علي ـ رضى الله عنه ـ : ما كذبنا ولا كذبنا ، وسل سيفه فقال : أخرجي الكتاب أو لألقين الثياب ولأضربن عنقك ، فقالت : على أن لا تردوني ، ثم أخرجته من عقاصها قد لفت عليه شعرها ، فخلوا سبيلها ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحاطب : هل تعرف الكتاب قال : نعم ، قال : فما حملك على هذا ؟ قال : لا

تعجل يا رسول الله ، والله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششت منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يدفع الله به عن عشيرته ، وكنت غريباً خليفاً فيهم ، وكان أهلي بين ظهرانيهم فأردت أن أتخذ عندهم يداً يدفع الله بها عن أهلي ، وقد علمت أن الله تعالى ينزل بهم بأسه ، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً ، فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : صدق ولا تقولوا له إلا خيراً ، فقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، ففاضت عينا عمر ـ رضى الله عنه ـ وقال : الله ورسوله أعلم ، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم ﴾ "

الآيات .

(14/759)

ولاق الإمام أبو جعفر بن الزبير : افتتحت – يعني هذه السورة – بوصية المؤمنين على ترك موالاة أعدائهم ونهيهم عن ذلك وأمرهم بالتبرؤ منهم ، وهو المعنى الوارد في قوله خاتمة المجادلة ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا

آباءهم أو أبناءهم ﴾ إلى آخر السورة ، وقد حصل منها أن أسنى أحوال أهل الإيمان وأعلى مناصبهم ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ [المجادلة : 22] فوصى عباده في افتتاح الممتحنة بالتنزه عن موالاة الأعداء ووعظهم بقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام والذين معه في تبرئهم من قومهم ومعاداتهم ، والاتصال في هذا بين ، وكأن سورة الحشر وردت مورد الاعتراض المقصود بها تمهيد الكلام وتنبيه السامع على ما به تمام الفائدة لما ذكر أن شأن المؤمنين أنهم لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أقرب الناس إليهم ، اعترض بتنزيهه عن مرتكباتهم ، ثم أتبع ذلك ما عجله لهم من النقمة والنكال ، ثم عاد الأمر إلى النهي عن موالاة الأعداء جملة له ، ثم لما كان أول سورة الممتحنة إنما نزل في حاطب بن أبي بلتعة -رضى الله عنه- وكتابه لكفار قريش بمكة ، والقصة مشهورة وكفار مكة ليسوا من يهود ، وطلبوا المعادة للجميع واحد ، فلهذا فضل بما هو من تمام الإخبار بحال يهود ، وحينئذ عاد الكلام إلى الوصية عن نظائرهم من الكفار المعاندين ، والتحمت السور الثلاث وكثر في سورة الممتحنة تزداد الوصايا والعهود ، وطلب بذلك كله ولهذا المناسبة ذكر فيها الحكم في بيعة النساء وما يشترط عليهن في ذلك ، فمبنى السورة على طلب الوفاء افتتاحاً واختتاماً حسب ما بين في التفسير لينزه المؤمن عن حال من قدم ذكره في سورة الحشر وفي خاتمة سورة المجادلة – انتهى .

ولما كان ما بينه تعالى من إخراجهم لهم موضحاً بعداوتهم وكان طول كفهم عن قصدهم بالأذى من سنة الأحزاب سنة خمس إلى سنة ثمان ربما شكك في أمرها ، وكان سبحانه قد أعز المؤمنين بعد ذلهم وقواهم بعد وهنهم وضعفهم ، وثقفهم بعد جهلهم ، بين ظلال معتقد ذلك بأن كف الكفار إنما هو لعجزهم وأنهم لو حصل لهم ما هو للمسلمين الآن من القوة لبادروا إلى إظهار العداوة مع أن ذلك في نصر الشيطان ، فأولياء الرحمان أولى باتباع ما آتاهم من الإيمان ، فقال مبيناً لبقاء عداوتهم : ﴿ إن يثقفوكم ﴾ أي يجدوكم في وقت من الأوقات ومكان من الأماكن وهم يطمعون في أخذكم بكونهم أقوى منكم أو أعرف بشيء مما يتوصل به إلى الغلبة ، وأشار بأداة الشك إلى أن وجدانهم وهم على صفة الثقافة مما لا تحقق له ، وإنما هو على سبيل الفرض والتقدير ، وأنه إنما علم سبحانه أنه لو كان كيف كان يكون ، مع أنه مما لا يكون ، ونبه على عراقتهم في العداوة بالتعبير بالكون فقال : ﴿ يكونوا لكم ﴾ أي خاصة ﴿ أعداء ﴾ أي يعدون إلى أذاكم كل عدو يمكنهم وإن وادتموهم .

ولما كانت العداوة قد تكون بإغراء الغير ، عرف أنهم لشدة غيظهم لا يقتصرون على ذلك فقال : ﴿ ويبسطوا إليكم ﴾ أي خاصة وإن كان هناك في ذلك الوقت من غيركم من قتل أعز الناس إليهم ﴿ أيديهم ﴾ أي بالضرب إن استطاعوا ﴿ وألسنتهم ﴾ أي بالشتم

مضمومة إلى فعل أيديهم فعل من ضاق صدره بما نجرع من آخر من غيركم من القصص حتى أوجب له غاية السعة ﴿ بالسوء ﴾ أي بكل ما من شأنه أن يسوء .

(16/759)

ولما كان أعدى الأعداء لك من تمنى أن يفوتك أعز الأشياء لديك ، وكان أعز الأشياء عند كل أحد دينه ، قال متمماً للبيان : ﴿ وودوا ﴾ أي وقعت منهم هذه الودادة قبل هذا لأن مصيبة الدين أعظم فهم إليها أسرع لأن دأب العدو والقصد إلى أعظم ضرر يراه لعدوه ، وعبر بما يفهم التمني الذي يكون في المحالات ليكون المعنى أنهم أحبوا ذلك غاية الحب وتمنوه ، وفيه بشرى بأنه من قبيل المحال ﴿ لو تكفرون ﴾ أي يقع منكم الكفر الموجب للهلاك الدائم ، وقدم الأول لأنه أبين في العداوة وإن كان الثاني أنكأ .

ولما كانت عداوتهم معروفة وإنما غطاها محبة القرابات لأن الحب للشيء يعمي ويصم ، فخطأ رأيهم في موالاتهم بما أعلمهم به من حالاتهم ، زهد فيها مما يرجع إلى حال من والوهم لأجلهم بما تورثه من الشقاء الدائم يوم البعث ، فقال مستأنفاً إعلاماً بأنها خطأ على كل حال : ﴿ لن تنفعكم ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ أرحامكم ﴾ أي قراباتكم الحاملة لكم على رحمتهم والعطف عليهم ﴿ ولا أولادكم ﴾ الذين هم أخص أرحامكم إن واليتم

أعداء الله لأجلهم فينبغي أن لا تعدوا قربهم منكم بوجه أصلاً ، ثم علل ذلك بينه بقوله :

﴿ يوم القيامة ﴾ أي القيام الأعظم .

ولما كان النافي للنفع وقوع الفصل لا كونه من فاصل معين قال بانياً للمفعول على قراءة أبي عمرو ونافع وابن كثير وأبي جعفر وابن عامر من أكثر طرقه إلا أن شدد الصاد للمبالغة في الفصل : ﴿ يفصل ﴾ أي يوقع الفصل وهو الفرقة العظيمة بانقطاع جميع الأسباب ﴿ بينكم ﴾ أي أيها الناس فيدخل من شاء من أهل طاعته الجنة ، ومن شاء من أهل معصيته النار ، فلا ينفع أحد أحداً منكم بشيء من الأشياء إلا إن كان قد أتى الله بقلب سليم فيأذن الله في إكرامه بذلك .

(17/759)

ولما كان التقدير إعلاماً بأن الله هو الفاصل وهو الضار النافع بما دلت عليه قراءة الباقين إلا أن حمزة والكسائي بضم الياء وفتح الفاء وكسر الصاد مشددة إشارة إلى عظمة هذا الفصل بخروجه عن المألوف عوداً إلى الاسم الأعظم إشارة إلى عظم الأمر بانتشار الخلائق وأعمالهم : فالله على ذلك قدير ، عطف عليه قوله : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة التامة ﴿ بما تعملون ﴾ أي من كل عمل في كل وقت ﴿ بصير ﴾ فيجازيكم عليه في الدنيا

والآخرة ، وقد مضى غيره مرة أن تقديم الجار في مثل هذا للتنبه على مزيد الاعتناء بعلم ذلك لا على الاختصاص ولا لأجل الفواصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 553.547 ﴾

(18/759)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ يفصل ﴾ ثلاثياً معلوماً : عاصم غير المفضل وسهل ويعقوب ﴿ يفصل ﴾ بالتشديد : حمزة وعلي وخلف . مثله ولكن مجهولاً : ابن ذكوان . الآخرون : ثلاثياً مجهولاً ﴿ في إبراهام ﴾ كنظائره ﴿ أن تولوهم ﴾ بتشديد التاء : البزي وابن فليح ﴿ تمسكوا ﴾ بالتشديد : أبو عمرو وسهل ويعقوب .

الوقوف ﴿ من الحق ﴾ ج لأن ما بعده يحتمل الحال من ضمير ﴿ كفروا ﴾ والاستئناف ﴿ بالله ربكم ﴾ ط ﴿ أعلنتم ﴾ ط ﴿ السبيل ﴾ ه ﴿ تكفرون ﴾ ه ﴿ أولادكم ﴾ ج لاحتمال تعلق الظرف ب ﴿ لن تنفعكم ﴾ أو يفصل ﴿ يوم القيامة ﴾ ج بناء على المذكور ﴿ بينكم ﴾ ط ﴿ بصير ﴾ ه ﴿ والذين معه ﴾ ج لأن الظرف قد يتعلق باذكر

محذوفاً أو أسوة ﴿ من دون الله ﴾ ط لأن ما بعد مستأنف في النظم وإن كان متصلاً في المعنى ﴿ من شيء ﴾ ط ﴿ المصير ﴾ ه ﴿ لنا ربنا ﴾ ه للابتداء بأن مع أن التقدير فإنك ﴿ الحكيم ﴾ ه ﴿ الآخر ﴾ ط ﴿ الحميد ﴾ ه ﴿ مودة ﴾ ط ﴿ قدير ﴾ ه ﴿ رحيم ﴾ ه ﴿ إليهم ﴾ ط ﴿ المقسطين ﴾ ه ﴿ تولوهم ﴾ ج للشرط مع العطف ﴿ الظالمون ﴾ ه ﴿ فامتحنوهنّ ﴾ ط ﴿ بإيمانهنّ ﴾ ط ﴿ الكفار ﴾ ط ﴿ لهنّ ﴾ ط ﴿ ما أنفقوا ﴾ ط ﴿ أجورهنّ ﴾ ط ﴿ ما أنفقوا ﴾ ط ﴿ حكم الله ﴾ ط ﴿ بينكم ﴾ ط ﴿ حكيم ﴾ ه ز ﴿ ما أنفقوا ﴾ ط ﴿ مؤمنون ﴾ ه ﴿ لهنّ الله ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ ه ﴿ القبور ﴾ ه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 290 ﴾

(19/759)

فصل

قال الفخر :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن من جملة ما يتحقق به التعلق بما قبلها هو أنهما يشتركان في بيان حال الرسول صلى الله عليه وسلم مع الحاضرين في زمانه من اليهود والنصارى وغيرهم ، فإن بعضهم أقدموا على الصلح واعترفوا بصدقه ، ومن جملتهم بنو النضير ، فإنهم قالوا : والله إنه النبي الذي وجدنا نعته وصفته في التوراة ، وبعضهم أنكروا ذلك وأقدموا على القتال ، إما على التصريح وإما على الإخفاء ، فإنهم مع أهل الإسلام في الظاهر ، ومع أهل الكفر في الباطن ، وأما تعلق الأول بالآخر فظاهر ، لما أن آخر تلك السورة يشتمل على الصفات الحميدة لحضرة الله تعالى من الوحدانية وغيرها ، وأول هذه السورة مشتمل على حرمة الاختلاط مع من لم يعترف بتلك الصفات .

المسألة الثانية :

أما سبب النزول فقد روي أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ، لما كتب إلى أهل مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز للفتح ويريد أن يغزوكم فخذوا حذركم ، ثم أرسل ذلك الكتاب مع امرأة مولاة لبني هاشم ، يقال لها سارة جاءت إلى النبي صلى الله عليه

وسلم من مكة إلى المدينة ، فقال عليه السلام : " أمسلمة جئت ؟ " قالت : لا ، قال : " أمهاجرة جئت ؟ " قالت : لا ، قال : " فما جاء بك ؟ " قالت : قد ذهب الموالي يوم بدر أي قتلوا في ذلك اليوم فاحتجت حاجة شديدة فحث عليها بني المطلب فكسوها وحملوها وزودوها ، فأتاها حاطب وأعطاها عشرة دنانير وكساها برداً واستحملها ذلك الكتاب إلى أهل مكة ، فخرجت سائرة ، فأطلع الله الرسول عليه السلام على ذلك ، فبعث علياً وعمر وعماراً وطلحة والزبير خلفها وهم فرسان ، فأدركوها وسألوها عن ذلك فأنكرت وحلفت ، فقال علي عليه السلام : والله ما كذبنا ، ولا كذب رسول الله ، وسل سيفه ، فأخرجته من عقاص شعرها ، فجاءوا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرضه على حاطب فاعترف ، وقال : إن لي بمكة أهلاً ومالاً فأردت أن أتقرب منهم ، وقد علمت أن الله تعالى ينزل بأسه عليهم ، فصدقه وقبل عذره ، فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : " ما يدريك يا عمر لعل الله تعالى قد اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، " ففاضت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم فنزلت ، وأما تفسير الآية فالخطاب في : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ قد مر ، وكذلك في الإيمان أنه في نفسه شيء واحد وهو التصديق بالقلب أو أشياء كثيرة وهي الطاعات ، كما ذهب إليه المعتزلة ، وأما قوله تعالى : ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوّى وَعَدُوَّكُمْ ﴾ فاتخذ يتعدى إلى مفعولين ، وهما عدوي وأولياء ، والعدو

فعول من عدا ، كعفو من عفا ، ولكونه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد ، والعداوة ضد

(21/759)

الصداقة ، وهما لا يجتمعان في محل واحد ، في زمان واحد ، من جهة واحدة ، لكنهما يرتفعان في مادة الإمكان ، وعن الزجاج والكرابيسي ﴿ عَدُوّى ﴾ أي عدو ديني ، وقال عليه السلام :

" المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل " وقال عليه السلام لأبي ذر : " يا أبا ذر أي عرا الإيمان أوثق ، " فقال الله ورسوله أعلم ، فقال " الموالاة في الله والحب في الله والبغض في الله " وقوله تعالى : ﴿ تلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ تلْقُونَ ﴾ بماذا يتعلق ، نقول : فيه وجوه الأول : قال صاحب النظم : هو وصف النكرة التي هي أولياء ، قاله الفراء والثاني : قال في الكشاف : يجوز أن يتعلق بلا تتخذوا حالاً من ضميره ، وأولياء صفة له الثالث : قال ويجوز أن يكون استئنافاً ، فلا يكون صلة لأولياء ، والباء في المودة كهي في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بظُلْمٍ ﴾ [الحج : 25

] والمعنى : تلقون إليهم أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وسره بالمودة التي بينكم وبينهم ، ويدل عليه : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ .

المسألة الثانية :

(22/759)

في الآية مباحث الأول : اتخاذ العدو ولياً كيف يمكن ، وقد كانت العداوة منافية للمحبة والمودة ، والمحبة المودة من لوازم ذلك الاتخاذ ، نقول : لا يبعد أن تكون العداوة بالنسبة إلى أمر ، والمحبة والمودة بالنسبة إلى أمر آخر ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أزواجكم وأولادكم عَدُوّاً لَّكُمْ ﴾ [التغابن : 14] والنبي صلى الله عليه وسلم قال : " أولادنا أكبادنا " الثاني : لما قال : ﴿ عَدُوّى ﴾ فلم لم يكتف به حتى قال : ﴿ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ لأن عدو الله إنما هو عدو المؤمنين ؟ نقول : الأمر لازم من هذا التلازم ، وإنما لا يلزم من كونه عدواً للمؤمنين أن يكون عدواً لله ، كما قال : ﴿ إِنَّ مِنْ أزواجكم وأولادكم عَدُوّاً لَّكُمْ ﴾ ، الثالث : لم قال : ﴿ عَدُوّي وَعَدُوَّكُمْ ﴾ ولم يقل بالعكس ؟ فنقول : العداوة بين المؤمن والكافر بسبب محبة الله تعالى ومحبة رسوله ، فتكون محبة العبد من أهل الإيمان لحضرة الله تعالى لعلة ، ومحبة حضرة الله تعالى للعبد لا لعلة ، لما أنه غني على الإطلاق ، فلا حاجة به

إلى الغير أصلاً ، والذي لا لعلة مقدم على الذي لعلة ، ولأن الشيء إذا كان له نسبة إلى الطرفين ، فالطرف الأعلى مقدم على الطرف الأدنى ، الرابع : قال : ﴿ أَوْلِيَاء ﴾ ولم يقل : ولياً ، والعدو والولي بلفظ ، فنقول : كما أن المعرف بحرف التعريف يتناول كل فرد ، فكذلك المعرف بالإضافة الخامس : منهم من قال : الباء زائدة ، وقد مر أن الزيادة في القرآن لا تمكن ، والباء مشتملة على الفائدة ، فلا تكون زائدة في الحقيقة .

ثم قال تعالى : ﴿ وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ .

(23/759)

﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ ﴾ الواو للحال ، أي وحالهم أنهم كفروا : ﴿ بِمَا جَاءكُمْ مّنَ ﴾ الدين ﴿ الحق ﴾ ، وقيل : من القرآن ﴿ يُخْرِجُونَ الرسول وَإِيَّاكُمْ ﴾ يعني من مكة إلى المدينة ﴿ أَن تُؤْمِنُواْ ﴾ أي لأن تؤمنوا ﴿ بالله رَبّكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ ﴾ قال الزجاج : هو شرط جوابه متقدم وهو : لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ، وقوله : ﴿ جِهَاداً فِى سَبِيلِى وابتغاء مَرْضَاتِى ﴾ منصوبان لأنهما مفعولان لهما ، ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾

عن مقاتل بالنصيحة ، ثم ذكر أنه لا يخفى عليه من أحوالهم شيء ، فقال : ﴿ وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ ﴾ من المودة للكفار ﴿ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾ أي أظهرتم ، ولا يبعد أن يكون هذا عاماً في كل ما يخفى ويعلن ، قال بعضهم : هو أعلم بسرائر العبد وخفاياه وظاهره وباطنه ، من أفعاله وأحواله ، وقوله : ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ ﴾ يجوز أن تكون الكناية راجعة إلى الإسرار ، وإلى الإلقاء ، وإلى اتخاذ الكفار أولياء ، لما أن هذه الأفعال مذكورة من قبل ، وقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السبيل ﴾ فيه وجهان : الأول : عن ابن عباس : أنه عدل عن قصد الإيمان في اعتقاده ، وعن مقاتل : قد أخطأ قصد الطريق عن الهدى ، ثم في الآية مباحث : الأول : ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ ﴾ متعلق بلا تتخذوا ، يعني لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي ، ﴿ وتسرون ﴾ استئناف ، معناه : أي طائل لكم في إسراركم وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمي .

(24/759)

الثاني : لقائل أن يقول : ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ ﴾ الآية ، قضية شرطية ، ولو كان كذلك فلا يمكن وجود الشرط ، وهو قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ ﴾ بدون ذلك النهي ، ومن المعلوم أنه يمكن ، فنقول : هذا المجموع شرط لمقتضى ذلك النهي ، لا للنهي بصريح اللفظ ، ولا يمكن

وجود المجموع بدون ذلك لأن ذلك موجود دائماً ، فالفائدة في ابتغاء مرضاتي ظاهرة ، إذ الخروج قد يكون ابتغاء لمرضاة الله وقد لا يكون .

الثالث : قال تعالى : ﴿ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾ ولم يقل : بما أسررتم وما أعلنتم ، مع أنه أليق بما سبق وهو ﴿ تُسِرُّونَ ﴾ ، فنقول فيه من المبالغة ما ليس في ذلك ، فإن الإخفاء أبلغ من الإسرار ، دل عليه قوله : ﴿ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ [طه : 7] أي أخفى من السر .

الرابع : قال : ﴿ بِمَا أَخْفَيْتُمْ ﴾ قدم العلم بالإخفاء على الإعلان ، مع أن ذلك مستلزم لهذا من غير عكس .

فنقول هذا بالنسبة إلى علمنا ، لا بالنسبة إلى علمه تعالى ، إذ هما سيان في علمه كما مر ، ولأن المقصود هو بيان ما هو الأخفى وهو الكفر ، فيكون مقدماً .

الخامس : قال تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ ﴾ ما الفائدة في قوله : ﴿ مّنكُمْ ﴾ ومن المعلوم أن من فعل هذا الفعل ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السبيل ﴾ نقول : إذا كان المراد من ﴿ مّنكُمْ ﴾ من المؤمنين فظاهر ، لأن من يفعل ذلك الفعل لا يلزم أن يكون مؤمناً .

ثم إنه أخبر المؤمنين بعداوة كفار أهل مكة فقال :

إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2)

﴿ يَثْقَفُوكُمْ ﴾ يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ ﴾ في غاية العداوة ، وهو قول ابن عباس ، وقال مقاتل : يظهروا عليكم يصادقوكم ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ بالضرب ﴿ وَأَلْسِنَتَهُمْ ﴾ بالشتم ﴿ وَوَدُّوا ﴾ أن ترجعوا إلى دينهم ، والمعنى أن أعداء الله لا يخلصون المودة لأولياء الله لما بينهم من المباينة ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ ﴾ لما عوتب حاطب على ما فعل اعتذر بأن له أرحاماً ، وهي القرابات ، والأولاد فيما بينهم ، وليس له هناك من يمنع عشيرته ، فأراد أن يتخذ عندهم يداً ليحسنوا إلى من خلفهم بمكة من عشيرته ، فقال : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أولادكم ﴾ الذين توالون الكفار من أجلهم ، وتتقربون إليهم مخافة عليهم ، ثم قال : ﴿ يَوْمَ القيامة يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ وبين أقاربكم وأولادكم فيدخل أهل الإيمان الجنة ، وأهل الكفر النار ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي بما عمل حاطب ، ثم في الآية مباحث :

الأول : ما قاله صاحب الكشاف : ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ﴾ كيف يورد جواب الشرط مضارعاً مثله ، ثم قال : ﴿ وَوَدُّوا ﴾ بلفظ الماضي نقول : الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب فإن فيه نكتة ، كأنه قيل : وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم .

الثاني : ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ ظرف لأي شيء ، قلنا لقوله : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ ﴾ أو يكون ظرفاً

ليفصل وقرأ ابن كثير : ﴿ يُفَصّلُ ﴾ بضم الياء وفتح الصاد ، و ﴿ يفصل ﴾ على البناء للفاعل وهو الله ، و (نفصل) و (نفصل) بالنون .

الثالث : قال تعالى : ﴿ والله بما تَعْملُون بَصِيرٌ ﴾ ولم يقل : خبير ، مع أنه أبلغ في العلم بالشيء ، والجواب : أن الخبير أبلغ في العلم والبصير أظهر منه فيه ، لما أنه يجعل عملهم كالمحسوس بحس البصر ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 260.257 ﴾

(26/759)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾

عَدَّى اِتخذ إلى مفعولين ، وهما ﴿ وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ .

والعَدُوّ فَعُول من عَدَا ، كعَفُوّ من عَفَا .

ولكونه على زِنَة المصدر أوقع على الجماعة إيقاعه على الواحد .

وفي هذه الآية سبع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ﴾ روى الأئمة

واللفظ لمسلم " عن عليّ رضي الله عنه قال : بَعَثَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنا والزُّبير والمِقْداد فقال : "ائتوا رَوْضَة خَاخٍ فإن بها ظَعِينة معها كتاب فخذوه منها" ، فانطلقنا تَعادَى بنا خَيْلُنا ، فإذا نحن بالمرأة ، فقلنا : أخْرِجي الكتاب ، فقالت : ما معي كتاب .

فقلنا : لَتُخْرِجَنّ الكتاب أو لَتُلْقِيَنّ الثياب ، فأخرجته من عِقاصها .

فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه : من حاطب بن أبي بَلْتَعَة . . .

إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا حاطب ما هذا ؟" قال لا تعجل عليّ يا رسول الله ، إني كنت امرأً مُلْصَقاً في قريش قال سفيان : كان حَلِيفاً لهم ، ولم يكن من أنْفُسِها وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يَحْمُون بها أهليهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النَّسَب فيهم أن أتّخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله كفراً ولا ارتداداً عن ديني ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "صَدَق" .

فقال عمر : دَعْني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق .

فقال : "إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد

غفرت لكم" " فأنزل الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لا تتَّخِذُوا عَدُوّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ .

(27/759)

قيل : اسم المرأة سارّة من موالي قريش .

وكان في الكتاب : "أمّا بعدُ ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توّجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسَّيْل ، وأقسم بالله لو لم يَسرْ إليكم إلا وحده لأظفره الله بكم ، وأنجز له مَوْعِدَه فيكم ، فإن الله وِليّه وناصره .

ذكره بعض المفسرين .

وذكر القُشَيرِيّ الثعلبي : أن حاطب بن أبي بَلْتَعَة كان رجلاً من أهل اليمن ، وكان له حِلْف بمكة في بني أسد بن عبد العُزّى رَهْطِ الزبير بن العوام .

وقيل : كان حليفاً للزبير بن العوّام ، فقدمت من مكة سارّة مولاة أبي عمرو بن صَيْفيّ بن هشام بن عبد مناف إلى المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهّز لفتح مكة .

وقيل : كان هذا في زمن الحُدَيْبية ؛ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : " "أمُهاجرة جئت يا سارة" .

فقالت لا .

قال : "أمسلمة جئت" قالت لا .

قال : "فما جاء بك" قالت : كنتم الأهل والموالي والأصل والعشيرة ، وقد ذهب الموالي تعني قُتلوا يوم بدر وقد احتجتُ حاجة شديدةً فقدِمت عليكم لتعطوني وتكسوني ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : "فأين أنتِ عن شباب أهل مكة" وكانت مغنية ، قالت : ما طُلب منّي شيء بعد وقعة بدر .

فحثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب وبني المطلب على إعطائها ؛ فكسَوْها وأعطوها وحمّلوها فخرجت إلى مكة ، وأتاها حاطب فقال : أعطيك عشرة دنانير وبُرُداً على أن تبلِّغي هذا الكتاب إلى أهل مكة .

وكتب في الكتاب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حِذْركم .

فخرجت سارّة ، ونزل جبريل فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك ، فبعث علياً والزبير وأبا مَرْثَد الغَنَوِيّ .

وفي رواية : عليّا والزبير والمِقْداد .

وفي رواية : أرسل عليّاً وعمّار بن ياسر .

وفي رواية: عليّا وعماراً وعمر والزبير وطَلْحة والمقداد وأبا مَرْثَد وكانوا كلهم فرساناً وقال لهم: "انطلقوا حتى تأتوا رَوْضَةَ خاخٍ فإن بها ظعينة ومعها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها وخلُّوا سبيلها فإن لم تدفعه لكم فاضربوا عنقها" فأدركوها في ذلك المكان، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت ما معها كتاب، ففتشوا أمتعتها فلم يجدوا معها كتابا، فهمُّوا بالرجوع فقال عليّ: والله ما كَذَبنا ولا كَذَّبنا! وسَلَّ سيفه وقال: أخرجي الكتاب وإلا والله لأجردنّكِ ولأضرِبَنّ عنقكِ، فلما رأت الجِدّ أخرجته من ذؤابتها وفي رواية من حُجْزَتها فخلّوْا سبيلها ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فأرسل إلى حاطب فقال: "هل تعرف الكتاب؟" قال نعم."

وذكر الحديث بنحو ما تقدم.

ورُوِي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّن جميع الناس يوم الفتح إلا أربعة هي أحدهم.

الثانية: السورة أصلٌ في النَّهيِ عن مولاة الكفار.

وقد مضى ذلك في غير موضع.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ المؤمنون الكافرين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ المؤمنين ﴾ [آل عمران: 28].

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ [آل عمران: 118].

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ اليهود والنصارى أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة : 51] .

ومثله كثير .

وذكر أن حاطباً لما سمع ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ ﴾ غُشِيَ عليه من الفرح بخطاب الإيمان .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ يعني بالظاهر ؛ لأن قلب حاطب كان سليماً ؛ بدليل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لهم : " أمّا صاحبكم فقد صدق " وهذا نصٌّ في سلامة فؤاده وخلوص اعتقاده .

والباء في " بِالْمَوَدَّةِ " زائدة ؛ كما تقول : قرأت السورة وقرأت بالسورة ، ورميت إليه ما في نفسي وبما في نفسي .

(29/759)

ويجوز أن تكون ثابتة على أن مفعول " تُلْقُونَ " محذوف ؛ معناه تلقون إليهم أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب المودّة التي بينكم وبينهم .

وكذلك " تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ " أي بسبب المودة .

وقال الفرّاء : ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ من صلة " أولياء " ودخول الباء في المودّة وخروجها سواء .

ويجوز أن تتعلق ب "لا تَتَّخِذُوا" حالاً من ضميره.

وب "أولياء" صفة له.

ويجوز أن تكون استئنافاً.

ومعنى "تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّة" تخبرونهم بسرائر المسلمين وتنصحون لهم؛ وقاله الزجاج.

الرابعة: مَن كَثُر تطّلعه على عورات المسلمين وينبّه عليهم ويعرّف عدوّهم بأخبارهم لم يكن بذلك كافراً إذا كان فعله لغَرَض دُنْيَوِيّ واعتقاده على ذلك سليم؛ كما فعل حاطب حين قصد بذلك اتخاذ اليَدِ ولم يَنْوِ الرِّدّة عن الدّين.

الخامسة: إذا قلنا لا يكون بذلك كافراً فهل يقتل بذلك حدّاً أم لا؟ اختلف الناس فيه؛

فقال مالك وابن القاسم وأشهب: يجتهد في ذلك الإمام.

وقال عبد الملك: إذا كانت عادته تلك قُتِل، لأنه جاسوس، وقد قال مالك بقتل الجاسوس وهو صحيح لإضراره بالمسلمين وسعيه بالفساد في الأرض.

ولعل ابن الماجِشُون إنما اتخذ التكرار في هذا لأن حاطباً أخذ في أوّل فعله.

والله أعلم.

السادسة: فإن كان الجاسوس كافراً فقال الأوزاعيّ: يكون نقضاً لعهده.

وقال أَصْبَغ: الجاسوس الحربي يقتل، والجاسوس المسلم والذميّ يعاقبان إلا إن تظاهرا على الإسلام فيقتلان.

وقد روي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أتي بَعْينٍ للمشركين اسمه فُرَات بن حيّان ، فأمر به أن يُقتل ؛ فصاح : يا معشر الأنصار ، أُقْتَلُ وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ! فأمر به النبيّ صلى الله عليه وسلم فخلّى سبيله .

(30/759)

ثم قال : "إنّ منكم من أَكِلُه إلى إيمانه منهم فُرَات بن حيَّان" وقوله : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا ْ ﴾ حال ، إمّا من ﴿ لاَ تَتَّخِذُوا ْ ﴾ وإما من ﴿ تُلْقُونَ ﴾ أي لا تتولوهم أو تُوادّوهم ، وهذه حالهم .

وقرأ الجحدري "لما جاءكم" أي كفروا لأجل ما جاءكم من الحق .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُونَ الرسول ﴾ استئناف كلام كالتفسير لكفرهم وَعُتُوّهم ، أو حال من "كَفَرُوا" .

﴿ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا ْ بالله رَبِّكُمْ ﴾ تعليلٌ لـ "يخرِجون" المعنى يخرجون الرسول ويخرجونكم من مكة لأن تؤمنوا بالله ، أي لأجل إيمانكم بالله .

قال ابن عباس : وكان حاطب ممن أخرج مع النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي .

وقيل : في الكلام حذف ، والمعنى إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ، فلا تلقوا إليهم بالمودّة .

وقيل : ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وابتغآءَ مَرْضَاتِي ﴾ شرط وجوابه مقدّم . والمعنى إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي فلا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء .

ونصب "جِهَاداً" و "ابْتِغَاءً" لأنه مفعول له .

وقوله : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ بدل من "تلقون" ومبيّن عنه .

والأفعال تبدل من الأفعال ، كما قال (تعالى) :

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً يُضَاعَفْ لَهُ العذاب ﴾ [الفرقان : 68-69] .

وأنشد سِيبويه :

مَتى تأتِنَا تُلْمِم بنا في ديارنا . . .

تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وناراً تأجُجَا

وقيل : هو على تقدير أنتم تُسِرّون إليهم بالمودّة ، فيكون استئنافاً .

وهذا كلّه معاتبة لحاطب .

وهو يدل على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق إيمانه ،

فإن المعاتبة لا تكون إلا من محِب لحبيبه .

كما قال :

أعاتب ذا المودّة من صديق . . .

إذا ما رابني منه اجتناب

إذا ذهب العِتاب فليس ودٌّ . . .

(31/759)

ويبقى الودّ ما بقي العتاب

ومعنى "بالْمَوَدَّةِ" أي بالنصيحة في الكتاب إليهم .

والباء زائدة كما ذكرنا ، أو ثابتة غير زائدة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ ﴾ أضمرتم ﴿ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾ أظهرتم .

والباء في "بِمَا" زائدة ، يقال : علمت كذا وعلمت بكذا .

وقيل : وأنا أعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون ، فحذف من كل أحد .

كما يقال : فلان أعلم وأفضل من غيره .

وقال ابن عباس : وأنا أعلم بما أخفيتم في صدوركم ، وما أظهرتم بألسنتكم من الإقرار

والتوحيد .

﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ ﴾ أي من يُسرّ إليهم ويكاتبهم منكم ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل ﴾

أي أخطأ قصد الطريق .

قوله تعالى : ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ ﴾

يلقوكم ويصادفوكم ؛ ومنه المثاقفة ؛ أي طلب مصادفة الغِرّة في المسايفة وشبهها .

وقيل : ﴿ يَثْقَفُوكُمْ ﴾ يظفروا بكم ويتمكّنوا منكم ﴿ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً ويبسطوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بالسواء ﴾ أي (أَيديهم) بالضرب والقتل ، وألسنتهم بالشتم .

﴿ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ بمحمد ؛ فلا تناصحوهم فإنهم لا يناصحونكم .

قوله تعالى : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ ﴾

لما اعتذر حاطب بأن له أولاداً وأرحاماً فيما بينهم ، بيّن الربّ عز وجل أن الأهل والأولاد لا ينفعون شيئاً يوم القيامة إن عُصِي من أجل ذلك .

﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ فيدخل المؤمنين الجنة ويدخل الكافرين النار .

وفي "يفصل" قراءات سبع : قرأ عاصم "يَفصِل" بفتح الياء وكسر الصاد مخففاً .

وقرأ حمزة والكسائي مشدّداً إلا أنه على ما لم يسم فاعله .

وقرأ طلحة والنّخَعي بالنون وكسر الصاد مشدّدة .

وروى عن علقمة كذلك بالنون مخففة .

وقرأ قتادة وأبو حَيْوَة "يُفْصِل" بضم الياء وكسر الصاد مخففة من أفصل .

وقرأ الباقون "يُفْصَل" بياء مضمومة وتخفيف الفاء وفتح الصاد على الفعل المجهول ،

واختاره أبو عبيد .

(32/759)

فمن خفّف فلقوله : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الفاصلين ﴾ [الأنعام : 57] وقوله : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل ﴾ [الدخان : 40] .

ومن شدّد فلأن ذلك أبين في الفعل الكثير المكرر المتردّد .

ومن أتى به على ما لم يسم فاعله فلأن الفاعل معروف .

ومن أتى به مُسَمَّى الفاعل ردّ الضمير إلى الله تعالى .

ومن قرأ بالنون فعلى التعظيم .

﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(33/759)

وقال الآلوسي :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُوا لا تتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء ﴾

نزلت في حاطب بن عمرو أبي بلتعة وهو مولى عبد الله بن حميد بن زهير بن أسد بن عبد العزي أخرج الإمام أحمد .

والبخاري .

ومسلم .

وأبو داود .

والترمذي .

والنسائي .

وابن حبان .

وجماعة عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا .

والزبير .

والمقداد فقال : " انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأتوا به بخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا : أخرجي الكتاب قالت : ما معي من كتاب قلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة

يخبرهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي عليه الصلاة والسلام ما هذا يا حاطب ؟! قال : لا تعجل عليّ يا رسول الله إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني فقال عمر رضي الله تعالى عنه : دعني يا رسول الله أضرب عنقه فقال عليه الصلاة والسلام : إنه شهيد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فنزلت ﴿ الحكيم يا أيها الذين ءامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء ﴾ "الخ.

وفي رواية ابن مردويه عن أنس أنه عليه الصلاة والسلام بعث عمر .

(34/759)

وعلياً رضي الله تعالى عنهما في أثر تلك المرأة فلحقاها في الطريق فلم يقدرا على شيء معها فأقبلا راجعين ثم قال أحدهما لصاحبه : والله ما كذبنا ولا كذبنا ارجع بنا إليها فرجعا فسلا سيفيهما وقالا : والله لنذيقنك الموت أو لتدفعن الكتاب فأنكرت ثم قالت : أدفعه إليكما على أن لا تردّاني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلا ذلك فأخرجته

لهما من قرون رأسه ، وفيه على ما في "الدر المنثور" أن المرأة تدعي أم سارة كانت مولاة لقريش ، وفي "الكشاف" يقال لها : سارة مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم ، وفي صحة خبر أنس تردد ، وما تضمنه من رجوع الإمامين رضي الله تعالى عنهما بعيد ، وقيل : إن المبعوثين في أثرها عمر .

وعلي .

وطلحة .

والزبير .

وعمار .

والمقداد .

وأبو مرثد وكانوا فرساناً ، والمعول عليه ما قدمنا ، والذين كانوا له في مكة بنوه وإخوته على ما روى عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن حاطب المذكور ، وفي رواية لأحمد عن جابر أن حاطباً قال : كانت والدتي معهم فيحتمل أنها مع بنيه وإخوته .

وصورة الكتاب على ما في بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل ، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم فإنه منجز له ما وعده ، وفي الخبر السابق على ما قيل : دليل على جواز قتل الجاسوس لتعليله صلى الله عليه وسلم المنع عن قتله بشهوده بدراً وفيه بحث وفي التعبير عن المشركين بالعدو مع

الإضافة إلى ضميره عز وجل تغليظ لأمر اتخاذهم أولياء وإشارة إلى حلول عقاب الله

تعالى بهم ، وفيه رمز إلى معنى قوله

: إذا صافى صديقك من تعادى . . .

فقد عاداك وانقطع الكلام

والعدو فعول من عدا كعفو من عفا ، ولكونه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد ، ونصب ﴿ أَوْلِيَاء ﴾ على أنه مفعول ثان لتتخذوا وقوله تعالى : ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ تفسير للموالاة أو لاتخاذها أو استئناف فلا محل لها من الإعراب ، والباء زائدة في المفعول كما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ [البقرة : 195] وإلقاء المودة مجاز عن إظهارها ، وتفسيره بالإيصال أي توصلون إليهم المودة لا يقطع التجوز .

وقيل : الباء للتعدية لكون المعنى تفضون إليهم بالمودة ، وأفضى يتعدى بالباء كما في الأساس ، وقيل : هي للسببية والإلقاء مجاز عن الإرسال أي ترسلون إليهم أخبار النبي صلى الله عليه وسلم بسبب المودة التي بينكم ، وعن البصريين أن الجار متعلق بالمصدر

الدال عليه الفعل ، وفيه حذف المصدر مع بقاء معموله ، وجوز كون الجملة حالاً من فاعل ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ ﴾ أو صفة لأولياء ولم يقل تلقون إليهم أنتم بناءاً على أنه لا يجب مثل هذا الضمير مع الصفة الجارية على غير من هي له .

أو الحال .

أو الخبر .

أو الصلة سواء في ذلك الاسم والفعل كما في "شرح التسهيل" لابن مالك إذا لم يحصل إلباس نحو زيد هند ضاربها أو يضربها بخلاف زيد عمرو ضاربه أو يضربه فإنه يجب معه هو لمكان الإلباس .

(36/759)

وزعم بعضهم أن الإبراز في الصفات الجارية على غير من هي له إنما يشترط في الاسم دون الفعل كما هنا ومنع ذلك ، وتعقب الوجهان بأنهما يوهمان أنه تجوز الموالاة عند عدم الالقاء فيحتاج إلى القول بأنه لا اعتبار للمفهوم للنهي عن الموالاة مطلقاً في غير هذه الآية ، أو يقال : إن الحال والصفة لازمة ولذا كانت الجملة مفسرة وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَاءكُم مّنَ الحق ﴾ حال من فاعل ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ ﴾ وهي حال مترادفة إن كانت جملة ﴿ تُلْقُونَ

﴾ حالية أيضاً أو من فاعل ﴿ تُلْقُونَ ﴾ وهي متداخلة على تقدير حالتيها ، وجوز كونه حالاً من المعفول وكونه مستأنفاً .

وقرأ الجحدري .

(37/759)

والمعلى عن عاصم لما باللام أي لأجل ما جاءكم بمعنى جعل ما هو سبب للايمان سبب الكفر ﴿ يُخْرِجُونَ الرسول وإياكم ﴾ أي من مكة ﴿ أَن تُؤْمِنُواْ بالله رَبّكُمْ ﴾ أي لايمانكم أو كراهة إيمانكم بالله عز وجل ، والجار متعلق بيخرجون والجملة قيل : حال من فاعل ﴿ كَفَرُواْ ﴾ أو استئناف كالتفسير لكفرهم كأنه قيل : كيف كفروا ؟ وأجيب بأنهم كفروا أشد الكفر بإخراج الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين لايمانهم خاصة لا لغرض آخر ، وهذا أرجح من الوجه الأول لطباقه للمقام وكثرة فوائده ، والمضارع لاستحضار الحال الماضية لما فيها من مزيد الشناعة ، والاستمرار غير مناسب للمعنى ، وفي ﴿ تُؤْمِنُواْ ﴾ قيل : تغليب للمؤمنين ، والالتفات عن ضمير المتكلم بأن يقال : بي إلى ما في النظم الجليل للإشعار بما يوجب الايمان من الألوهية والربوبية ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جهاداً فِى سَبِيلِى وابتغاء مَرْضَاتِى ﴾ متعلق بقوله تعالى : ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ ﴾ الخ كأنه قيل : لا تتولوا أعدائي

إن كنتم أوليائي فجواب الشرط محذوف دل عليه ما تقدم، وجعله الزمخشري حالاً من فاعل ﴿ لَا تَتَّخِذُوا ﴾ ولم يقدر له جواباً أي لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء والحال أنكم خرجتم لأجل الجهاد وطلب مرضاتي، واعترض بأن الشرط لا يقع حالاً بدون جواب في غير إن الوصلية، ولا بد فيها من الواو وأن ترد حيث يكون ضد المذكور أولى كأحسن إلى زيد وإن أساء إليك وما هنا ليس كذلك.

وأجيب بأن ابن جني جوزه، وارتضاه جار الله هنا لأن البلاغة وسوق الكلام يقتضيانه فيقال لمن تحققت صداقته من غير قصد للتعليق والشك: لا تخذلني إن كنت صديقي تهييجاً للحمية، وفيه من الحسن ما فيه فلا يضر إذا خالف المشهور، ونصب المصدرين على ما أشرنا إليه على التعليل، وجوز كونهما حالين أي مجاهدين ومبتغين، والمراد بالخروج إما الخروج للغزو.

وإما الهجرة، فالخطاب للمهاجرين خاصة لأن القصة صدرت منهم كما سمعت في سبب النزول، وقوله تعالى: ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ استئناف بياني كأنهم لما استشعروا العتاب مما تقدم سألوا ما صدر عنا حتى عوتبنا؟ فقيل: ﴿ تُسِرُّونَ ﴾ الخ، وجوز أن

يكون بدلاً من ﴿ تُلۡقُونَ ﴾ بدل كل من كل إن أريد بالإلقاء خفية ، أو بدل بعض إن أريد الأعم لأن منه السر والجهر .

وقال أبو حيان : هو شبيه ببدل الاشتمال ، وجوز ابن عطية كونه خبر مبتدأ محذوف أي أنتم ﴿ تُسِرُّونَ ﴾ والكلام استئناف للإنكار عليهم ، وأنت تعلم أن الاستئناف لذلك حسن لكنه لا يحتاج إلى حذف ، والكلام في الباء هنا على ما يقتضيه ظاهر كلامهم كالباء فيما تقدم ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَا أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَا أَعۡلَنتُمۡ ﴾ في موضع الحال ، و ﴿ أَعۡلَمُ ﴾ أفعل تفضيل ، والمفضل عليه محذوف أي منكم ، وأجاز ابن عطية كونه مضارعاً ، والعلم قد يتعدى بالباء أو هي زائدة ، و ﴿ مَا ﴾ موصولة أو مصدرية ، وذكر ﴿ مَا أَعۡلَنتُمۡ ﴾ مع الاستغناء عنه للإشارة إلى تساوي العلمين في علمه عز وجل ، ولذا قدم ﴿ مَا أَخۡفَيۡتُمۡ ﴾ وفي هذه الحال إشارة إلى أنه لا طائل لهم في إسرار المودة إليهم كأنه قيل : تسرون إليهم بالمودة والحال أني أعلم ما أخفيتم وما أعلنتم ومطلع رسولي على ما تسرون فأي فائدة وجدوى لكم في الإسرار ؟ ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡهُ ﴾ أي الإسرار .

وقال ابن عطية .

وجمع : أي الاتخاذ ﴿ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل ﴾ أي الطريق المستوي والصراط الحق فإضافة ﴿ سَوَآءَ ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف ، ونصبه على المفعول به لضل

وهو يتعدى كأضل، وقيل: لا يتعدى؛ و﴿ سَوَآءَ ﴾ ظرف كقوله

: كما عسل الطريق الثعلب. . .

(39/759)

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ ﴾ أي إن يظفروا بكم، وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء وفعله، ومنه رجل ثقف لقف، وتجوز به عن الظفر والإدراك مطلقاً ﴿ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَاءً ﴾ أي عداوة يترتب عليها ضرر بالفعل بدليل قوله تعالى:

﴿ وَيَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بالسوء ﴾ أي بما يسوءكم من القتل والأسر والشتم فكأنه عطف تفسيري، فوقوع ﴿ يَكُونُواْ ﴾ الخ جواب الشرط بالاعتبار الذي أشرنا إليه وإلا فكونهم أعداء للمخاطبين أمر متحقق قبل الشرط بدليل ما في صدر السورة، ومثله قول بعضهم: أي يظهروا ما في قلوبهم من العداوة ويرتبوا عليها أحكامها، وقيل: المراد بذلك لازم العداوة وثمرتها وهو ظهور عدم نفع التودد فكأنه قيل: إن يثقفوكم يظهر لكم عدم نفع إلقاء المودة إليهم والتودد لهم، وقوله تعالى: ﴿ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ عطف على الجواب وهو مستقبل معنى كما هو شأن الجواب، ويؤول كما أول سابقه بأن يقال على ما في "الكشف" المراد ودادة يترتب عليها القدرة على الرد إلى الكفر، أو يقال على ما قال

البعض المراد إظهار الودادة وإجراء ما تقتضيه ، والتعبير بالماضي وإن كان المعنى على الاستقبال للإشعار بأن ودادتهم كفرهم قبل كل شيء وأنها حاصلة وإن لم يثقفوهم .

(40/759)

وتحقيق ذلك أن الودادة سابقة بالنوع متأخرة باعتبار بعد الأفراد ، فعبر بالماضي نظراً للأول وجعلت جواباً متأخراً نظراً للثاني ، وآثر الخطيب الدمشقي العطف على مجموع الجملة الشرطية كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [الحشر : 12] في السورة قبل ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [يونس : 49] عند جمع قال : لأن ودادتهم أن يرتدوا كفاراً حاصلة وإن لم يظفروا بهم فلا يكون في التقييد بالشرط فائدة ، وإلى ذلك ذهب أبو حيان ، وجوابه يعلم مما ذكرنا ، وقريب منه ما قيل : إن ودادة كفرهم بعد الظفر لما كانت غير ظاهرة لأنهم حينئذ سبى وخدم لا يعتدّ بهم فيجوز أن لا يتمنى كفرهم فيحتاج إلى الإخبار عنه بخلاف الودادة قبل الظفر فيكون للتقييد فائدة لأنها ودادة أخرى متأخرة .

وقال بعض الأفاضل : إن المعطوف على الجزاء في كلام العرب على أنحاء : الأول : أن يكون كل منهما جزاء وعلة نحو إن تأتني آتك وأعطك .

الثاني : أن يكون الجزاء أحدهما وإنما ذكر الآخر لشدة ارتباطه به لكونه مسبباً له مثلاً نحو إذا جاء الأمير استأذنت وخرجت لاستقباله ونحو حبست غريمي لأستوفي حقي وأخليه .

الثالث : أن يكون المقصود جمع أمرين وحينئذ لا ينافي تقدم أحدهما نحو كخرجت مع الحجاج لأرافقهم في الذهاب ولا أرافقهم في الإياب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾

(41/759)

[الفتح : 1 ، 2] الآية ، وما في النظم الجليل هنا قيل : محتمل للأول للاستقبال الودادة من بعض الاعتبارات كما تقدم ، وعبر بالماضي اعتباراً للتقدم الرتبي من حيث أن الرد عند الكفرة أشق المضار لعلمهم أن الدين أعز على المؤمنين من أرواحهم لأنهم باذلون لها دونه ، وأهم شيء عند العدو أن يقصد أهم شيء عند صاحبه ؛ ومحتمل للثالث بأن يكون المراد المجموع بتأويل يريدون لكم مضار الدنيا والآخرة ، قيل : وللثاني أيضاً بأن يكون الجزاء هو يبسطوا وذكرت عدواتهم ووداداتهم الرد لشدة الارتباط لما هناك من السببية والمسببية وهو كما ترى ؛ وجعل الطيبي المجموع مجازاً من إطلاق السبب وإرادة المسبب

وهو مضار الدارين ، وذكر أن الجواب في الحقيقة مقدر أي يريدوا لكم مضار الدنيا والدين ، وما ذكر دليله أقيم مقامه ، وقيل : عبر في الودادة بالماضي لتحققها عند المؤمنين أتم من تحقق ما قبلها ، وحمل عليه كلام لصاحب المفتاح .

وعن بعضهم أن الواو واو الحال لا واو العطف ، والجملة في موضع الحال بتقدير قد أو بدونه ، ولا يخفى أن العطف هو المتبادر ، وكونه على الجزاء أبعد مغزى ، وإخراج الشرط والجزاء على نحو ذلك أكثر من أن يحصى .

(42/759)

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أرحامكم ﴾ دفع لما عسى أن يتخيلوا كونه عذراً نافعاً من أن الداعي للاتخاذ وإلقاء المودّة صيانة الأرحام والأولاد من أذى أولئك ، والرحم في الأصل رحم المرأة ، واشتهر في القرابة حتى صار كالحقيقة فيها ، فإما أن يراد به ذلك أو يجعل مجازاً عن القريب ، أو يعتبر معه مضاف أي ذوو أرحامكم ، ويؤيد التأويل عطف قوله تعالى : ﴿ وَلاَ أولادكم ﴾ أي لن ينفعكم قراباتكم أو أقاربكم ولا أولادكم الذين توالون المشركين لأجلهم وتتقربون إليهم محاماة عليهم ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ بدفع ضر أو جلب نفع ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ استئناف لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد يومئذ أي يفرق الله تعالى بينكم بما يكون من الهول

الموجب لفرار كل منكم من الآخر حسبما نطق به قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ ﴾ [عبس : 34] الآية فلا ينبغي أن يرفض حق الله تعالى وتوالى أعداؤه سبحانه لمن هذا شأنه ، وما أشرنا إليه من تعلق يو القيامة بالفعل قبله هو الظاهر ، وجوز تعلقه بيفصل بعده .

وقرأ حمزة .

والكسائي .

وابن وثاب يفصل بضم الياء وتشديد الصاد مبنياً للفاعل ، وقرأ أبو حيوة .

وابن أبي عبلة كذلك إلا أنهما خففا ، وطلحة .

والنخعي نفصل بالنون مضمومة والتشديد والبناء للفاعل ، وهما أيضاً .

وزيد بن علي بالنون مفتوحة مخففاً مبنياً للفاعل ، وأبو حيوة أيضاً بالنون مضمومة .

وقرأ الأعرج .

وعيسى .

وابن عامر يفصل بالياء والتشديد والبناء للمفعول ، وجمهور القراء كذلك إلا أنهم خففوا ، ونائب الفعل إما ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ وهو مبني على الفتح لإضافته إلى متوغل في البناء كما قيل ، وإما ضمير المصدر المفهوم من الفاعل أي يفصل هو أي الفصل ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

وقال الشوكاني :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾

قال المفسرون : نزلت ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء ﴾ في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى مشركي قريش يخبرهم بمسير النبيّ صلى الله عليه وسلم إليهم ، وسيأتي ذكر القصة آخر البحث إن شاء الله ، وقوله : ﴿ عَدُوّى ﴾ هو المفعول الأوّل ﴿ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ معطوف عليه ، والمفعول الثاني أولياء ، وأضاف سبحانه العدوّ إلى نفسه تعظيماً لجرمهم ، والعدوُّ مصدر يطلق على الواحد ، والاثنين ، والجماعة ، والآية تدلّ على النهي عن موالاة الكفار بوجه من الوجوه ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ أي : توصلون إليهم المودّة على أن الباء زائدة ، أو هي سببية .

والمعنى : تلقون إليهم أخبار النبيّ صلى الله عليه وسلم بسبب المودّة التي بينكم وبينهم .

قال الزجاج : تلقون إليهم أخبار النبيّ صلى الله عليه وسلم وسرّه بالمودّة التي بينكم وبينهم ، والجملة في محل نصب على الحال من ضمير تتخذوا ؛ ويجوز أن تكون مستأنفة ؛ لقصد الإخبار بما تضمنته ، أو لتفسير موالاتهم إياهم ، ويجوز أن تكون في محل نصب صفة لأولياء

، وجملة ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ الحق ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تلقون ، أو من فاعل لا تتخذوا ، ويجوز أن تكون مستأنفة ؛ لبيان حال الكفار .

قرأ الجمهور : ﴿ بما جاءكم ﴾ بالباء الموحدة .

(44/759)

وقرأ الجحدري ، وعاصم في رواية عنه : (لما جاءكم) باللام ، أي : لأجل ما جاءكم من الحق على حذف المكفور به ، أي : كفروا بالله والرسول لأجل ما جاءكم من الحق ، أو على جعل ما هو سبب للإيمان سبباً للكفر توبيخاً لهم ﴿ يُخْرِجُونَ الرسول وإياكم ﴾ الجملة مستأنفة لبيان كفرهم ، أو في محل نصب على الحال ، وقوله : ﴿ أَن تُؤْمِنُوا۟ بالله رَبِّكُمْ ﴾ تعليل للإخراج ، أي : يخرجونكم لأجل إيمانكم ، أو كراهة أن تؤمنوا ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِى سَبِيلِى وابتغاء مَرْضَاتِى ﴾ جواب الشرط محذوف ، أي : إن كنتم كذلك ، فلا تلقوا إليهم بالمودّة ، أو إن كنتم كذلك ، فلا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء ، وانتصاب ﴿ جهاداً ﴾ ﴿ وابتغاء ﴾ على العلة ، أي : إن كنتم خرجتم لأجل الجهاد في سبيلي ؛ ولأجل ابتغاء مرضاتي ، وجملة : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ مستأنفة للتقريع والتوبيخ ، أي : تسرّون إليهم الأخبار بسبب المودّة ، وقيل : هي بدل من قوله : ﴿ تُلْقُونَ

﴾ .

ثم أخبر سبحانه بأنه لا يخفى عليه من أحوالهم شيء ، فقال : ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾ والجملة في محل نصب على الحال ، أي : بما أضمرتم وما أظهرتم ، والباء في ﴿ بما ﴾ زائدة ، يقال : علمت كذا ، وعلمت بكذا ، هذا على أن أعلم مضارع ، وقيل : هو أفعل تفضيل ، أي : أعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السبيل ﴾ أي : من يفعل ذلك الاتخاذ لعدوّي وعدوّكم أولياء ، ويلقي إليهم بالمودّة ، فقد أخطأ طريق الحق والصواب ، وضلّ عن قصد السبيل .

(45/759)

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء ﴾ أي : إن يلقوكم ويصادفوكم يظهروا لكم ما في قلوبهم من العداوة ، ومنه المثاقفة ، وهي طلب مصادفة الغرّة في المسابقة ، وقيل المعنى : إن يظفروا بكم ، ويتمكنوا منكم ، والمعنيان متقاربان ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بالسوء ﴾ أي : يبسطوا إليكم أيديهم بالضرب ونحوه ، وألسنتهم بالشتم ونحوه ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ هذا معطوف على جواب الشرط أو على جملة الشرط والجزاء ، ورجح هذا أبو حيان ، والمعنى : أنهم تمنوا ارتدادهم ، وودّوا رجوعهم إلى الكفر .

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أرحامكم وَلاَ أولادكم ﴾ أي : لا تنفعكم القرابات على عمومها ، ولا الأولاد ، وخصهم بالذكر مع دخولهم في الأرحام لمزيد المحبة لهم ، والحنوّ عليهم ، والمعنى : أن هؤلاء لا ينفعونكم حتى توالوا الكفار لأجلهم ، كما وقع في قصة حاطب بن أبي بلتعة ، بل الذي ينفعكم هو ما أمركم الله به من معاداة الكفار ، وترك موالاتهم ، وجملة : ﴿ يَوْمَ القيامة يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ مستأنفة لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد في ذلك اليوم ومعنى ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ : يفرّق بينكم ، فيدخل أهل طاعته الجنة ، وأهل معصيته النار .

وقيل : المراد بالفصل بينهم أنه يفرّ كلّ منهم من الآخر من شدّة الهول ، كما في قوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ ﴾ الآية [عبس : 34] الآية .

قيل : ويجوز أن يتعلق يوم القيامة بما قبله ، أي : لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة فيوقف عليه .

ويبتدأ بقوله : ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ والأولى أن يتعلق بما بعده ، كما ذكرنا ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم ، فهو مجازيكم على ذلك .

قرأ الجمهور : ﴿ يفصل ﴾ بضم الياء ، وتخفيف الفاء ، وفتح الصاد مبنياً للمفعول ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة .

وقرأ عاصم بفتح الياء ، وكسر الصاد مبنياً للفاعل .

وقرأ حمزة ، والكسائي بضم الياء ، وفتح الفاء ، وكسر الصاد مشدّدة .

وقرأ علقمة بالنون .

وقرأ قتادة ، وأبو حيوة بضم الياء ، وكسر الصاد مخففة .

وقد أخرج البخاريّ ، ومسلم ، وغيرهما عن عليّ بن أبي طالب قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا ، والزبير ، والمقداد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها فأتوني به " ، فخرجنا حتى أتينا الرّوضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا أخرجي الكتاب ، قالت : ما معي من كتاب ، فقلنا : لتخرجنّ الكتاب ، أو لتلقينَّ الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبيّ ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما هذا يا حاطب " ؟ قال : لا تعجل عليّ يا رسول الله ، إني كنت امرأ ملصقاً في قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم ، وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ، ولا ارتداداً عن ديني ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم :

"صدق" ، فقال عمر : دعني أضرب عنقه.

فقال : "إنه شهد بدراً ، وما يدريك لعلّ الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم" ونزلت ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ .

وفي الباب أحاديث مسندة ومرسلة متضمنة لبيان هذه القصة ، وأن هذه الآيات إلى قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إبراهيم ﴾ نازلة في ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 209 . 211 ﴾

(47/759)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾

اتفق المفسرون وثبت في "صحيح الأحاديث" أن هذه الآية نزلت في قضية الكتاب الذي كتب به حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العُزّى من قريش .

وكان حاطب من المهاجرين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أهل بدر .

وحاصل القصة مأخوذة مما في "صحيح الآثار" ومشهور السيرة : أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم كان قد تجهّز قاصداً مكة .

قيل لأجل العمرة عام الحديبية ، وهو الأصح ، وقيل لأجل فتح مكة وهو لا يستقيم ، فقدمتْ أيامئذٍ من مكة إلى المدينة امرأة تسمّى سارة مولاةُ لأبي عَمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف وكانت على دين الشرك فقَالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنتم الأهل والموالي والأصل والعشيرة وقد ذهب الموالي (تعني من قُتل من مواليها يوم بدر) .

وقد اشتدت بي الحاجة فقدمتُ عليكم لتعطوني وتكسوني فحث رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب وبني المطلب على إعطائها ، فكسوها وأعطوها وحملوها ، وجاءها حاطب بن أبي بلتعة فأعطاها كتاباً لتبلغه إلى من كتب إليهم من أهل مكة يخبرهم بعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج إليهم ، وآجرها على إبلاغه فخرجت ، وأوحى الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فبعث عليّاً والزبير والمقدادَ وأبا مرثد الغَنوي ، وكانوا فرساناً .

وقال : انطلقوا حتى تأتوا رَوضة خَاخٍ ، فإنّ بها ظعينة ومعها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها وخلّوا سبيلها .

فخرجوا تتعادى بهم خيلهم حتى بلغوا روضة خاخ فإذا هم بالمرأة .

فقالوا : أخرجي الكتاب ، فقالت : ما معي كتاب ، فقالوا : لتخرجنّ الكتاب أو لَنُلْقِيَنَ الثّياب (يعنون أنهم يجردونها) فأخرجته من عقاصها ، وفي رواية من حُجْزتها .

فأتوا به النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا حاطب ما هذا ؟ قال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله.

فإني كنت امرأ ملصقاً في قريش وكان لمن كان معك من المهاجرين قرابات يحمون بها أهليهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمُون بها قرابتي (يريد أمه وإخوته) ، ولم أفعله كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضىً بالكفر بعد الإسلام.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم صَدَقَ.

فقال عمر: دعني يا رسول الله أضربْ عنق هذا المنافق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "إنه قد شهد بدراً وما يُدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" وقال: لا تقولوا لحاطب إلاّ خيراً فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ الآيات.

والظاهر أن المرأة جاءت متجسسة إذ ورد في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمِّن يوم الفتح أربعةً منهم هذه المرأة لكن هذا يعارضه ما جاء في رواية القصة من قول النبي صلى الله عليه وسلم

" خذوا منها الكتاب وخَلُّوا سبيلها "

وقد وجه الخطاب بالنهي إلى جميع المؤمنين تحذيراً من إتيان مثل فعل حاطب .

والعدوّ : ذو العداوة ، وهو فعول بمعنى فاعل من : عدا يعدو ، مثل عفوّ .

وأصله مصدر على وزن فعول مثل قَبول ونحوه من مصادر قليلة .

ولكونه على زنة المصادر عومل معاملة المصدر فاستوى في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والمثنى والجمع .

قال تعالى : ﴿ فإنهم عدو لي ﴾ [الشعراء : 77] ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فإن كان من قوم عدو لكم ﴾ في سورة [النساء : 92] .

والمعنى : لا تتخذوا أعدائي وأعداءكم أولياء .

والمراد العداوة في الدين فإن المؤمنين لم يبدأوهم بالعداوة وإنما أبدى المشركون عداوة المؤمنين انتصاراً لشركهم فعدُّوا من خرجوا عن الشرك أعداء لهم .

وقد كان مشركو العرب متفاوتين في مناواة المسلمين فإن خزاعة كانوا مشركين وكانوا موالين النبي .

فمعنى إضافة عدوّ إلى ياء التكلم على تقدير : عدوّ ديني ، أو رسولي .

والاتخاذ : افتعال من الأخذ صيغ الافتعال للمبالغة في الأخذ المجازي فأطلق على التلبس والملازمة .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾ في سورة [النساء : 71] .

ولذلك لزمه ذكر حال بعد مفعوله لتدل على تعيين جانب المعاملة من خير أو شر .

فعومل هذا الفعل معاملة صيَّر .

واعتبرت الحال التي بعده بمنزلة المفعول الثاني للزوم ذكرها وهل المفعول الثاني من باب ظن وأخواته إلا حال في المعنى ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ أتتخذ أصناماً إلهة ﴾ في سورة [الأنعام : 74] .

وجملة تلقون إليهم بالمودة ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ لا تتخذوا ﴾ ، أو في موضع الصفة ل ﴿ أولياء ﴾ أو بيان لمعنى اتخاذهم أولياء .

ويجوز أن تكون جملة في موضع الحال من ضمير ﴿ لا تتخذوا ﴾ لأن جعلها حالاً يتوصل منه إلى التعجيب من إلقائهم إليهم بالمودة .

والإِلقاء حقيقته رمي ما في اليد على الأرض .

واستعير لإيقاع الشيء بدون تدبر في موقعه ، أي تصرفون إليهم مودتكم بغير تأمل .

قال تعالى : ﴿ فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ في سورة [النحل : 86] .

والباء في بالمودة ﴾ لتأكيد اتصال الفعل بمفعوله .

وأصل الكلام : تلقون إليهم المودة ، كقوله تعالى : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ [البقرة : 195] وقوله : ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] وذلك تصوير لقوة مودتهم لهم .

وزيد في تصوير هذه الحالة بجملة الحال التي بعدها وهي ﴿ وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾ وهي حال من ضمير ﴿ إليهم ﴾ أو من ﴿ عدوي ﴾ .

"وما جاءكم من الحق" هو القرآن والدين فذكر بطريق الموصولية ليشمل كل ما أتاهم به الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الإِيجاز مع ما في الصلة من الإِيذان بتشنيع كفرهم بأنه كفر بما ليس من شأنه أن يكفر به طلاب الهدي فإن الحق محبوب مرغوب .

وتعدية جاء إلى ضمير المخاطبين وهم الذين آمنوا لأنهم الذين انتفعوا بذلك الحق وتقبلوه فكأنه جاء إليهم لا إلى غيرهم وإلاّ فإنه جاء لدعوة الذين آمنوا والمشركين فقبله الذين آمنوا ونبذه المشركون .

وفيه إيماء إلى أن كفر الكافرين به ناشىء عن حسدهم الذين آمنوا قبلهم .

وفي ذلك أيضاً إلهاب لقلوب المؤمنين ليحذروا من موالاة المشركين .

وجملة ﴿ يخرجون الرسول وإياكم ﴾ حال من ضمير ﴿ كفروا ﴾ ، أي لم يكتفوا بكفرهم بما جاء من الحق فتلبسوا معه بإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم وإخراجكم من بلدكم لأنْ تؤمنوا بالله ربكم ، أي هو اعتداء حملهم عليه أنكم آمنتم بالله ربكم .

وأن ذلك لا عذر لهم فيه لأن إيمانكم لا يضيرهم .

ولذلك أجري على اسم الجلالة وصف ربِّكم على حدّ قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ [الكافرون : 31] ثم قال : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ [الكافرون : 6] .

وحكيت هذه الحالة بصيغة المضارع لتصوير الحالة لأن الجملة لما وقعت حالاً من ضمير ﴿ وقد كفروا ﴾ كان إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في تلك الحالة عملاً فظيعاً ، فأريد استحضار صورة ذلك الإِخراج العظيم فظاعة اعتلالهم له .

والإِخراج أريد به : الحمل على الخروج بإتيان أسباب الخروج من تضييق على المسلمين وأذى لهم .

وأسند الإِخراج إلى ضمير العدوّ كلهم لأن جميعهم كانوا راضين بما يصدر من بعضهم من أذى المسلمين .

وربما أغْرَوا به سفهاءهم ، ولذلك فالإِخراج مجاز في أسبابه ، وإسناده إلى المشركين إسناد حقيقي .

وهذه الصفات بمجموعها لا تنطبق إلا على المشركين من أهل مكة ومجموعها هو علة النهي عن موادتهم .

وجيء بصيغة المضارع في قوله تعالى : ﴿ أن تؤمنوا ﴾ ، لإِفادة استمرار إيمان المؤمنين وفيه إيماء إلى الثناء على المؤمنين بثباتهم على دينهم ، وأنهم لم يصدهم عنه ما سبَّب لهم الخروج من بلادهم .

وقوله : ﴿ إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ﴾ شرط ذُيِّل به النهي من قوله : ﴿ لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ .

وهذا مقام يستعمل في مثله الشرطُ بمنزلة التتميم لما قبله دون قصد تعليق ما قبله بمضمون فعل الشرط ، أي لا يقصد أنه إذا انتفى فعل الشرط انتفى ما عُلق عَليه كما هو الشأن في الشروط بل يقصد تأكيد الكلام الذي قبله بمضمون فعل الشرط فيكون كالتعليل لِما قبله ، وإنما يؤتى به في صورة الشرط مع ثقة المتكلم بحصول مضمون فعل الشرط بحيث لا يُتوقع من

السامع أن يحصل منه غيرُ مضمون فعل الشرط فتكون صيغة الشرط مراداً بها التحذير بطريق المجاز المرسل في المركَّب لأن معنى الشرط يلزمه التردد غالباً .

ولهذا يؤتى بمثل هذا الشرط إذا كان المتكلم واثقاً بحصول مضمونه متحققاً صحة ما يقوله قبل الشرط .

كما ذكر في "الكشاف" في قوله تعالى : ﴿ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا إن كنا أول المؤمنين ﴾ في سورة [الشعراء : 51] ، في قراءة من قرأ إن كنا أول المؤمنين بكسر همزة (إنْ) وهي قراءة شاذة فتكون (إن) شرطية مع أنهم متحققون أنهم أول المؤمنين فطمعوا في مغفرة خطاياهم لتحققهم أنهم أول المؤمنين ، فيكون الشرط في مثله بمنزلة التعليل وتكون أداة الشرط مثل (إذْ) أو لام التعليل .

وقد يَأتِي بمثل هذا الشرط مَن يُظهر وجوب العمل على مقتضى ما حصل من فعل الشرط وأن لا يخالَف مقتضاه كقوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ﴾ [الأنفال : 41] إلى قوله : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا ﴾ [الأنفال : 41] ، أي فإيمانكم ويقينكم مما أنزلنا يوجبان أن ترضوا بصرف الغنيمة للأصناف المعيّنة من عند الله .

ومنه كثير في القرآن إذا تتبعتَ مواقعه .

ويغلب أن يكون فعل الشرط في مثله فعل كون إيذاناً بأن الشرط محقق الحصول .

وما وقع في هذه السورة من هذا القبيل فالمقصود استقرار النهي عن اتخاذ عدوّ الله أولياء وعقب بفرض شرطه موثوق بأن الذين نهوا متلبسون بمضمون فعل الشرط بلا ريب ، فكان ذكر الشرط مما يزيد تأكيد الانكفاف .

ولذلك يجَاء بمثل هذا الشرط في آخر الكلام إذ هو يشبه التتميم والتذييل ، وهذا من دقائق الاستعمال في الكلام البليغ .

قال في "الكشاف" في قوله تعالى : ﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ في سورة [الفرقان : 42] و (لولا) في مثل هذا الكلام جارٍ من حيث المعنى لا من حيث الصنعة مَجرى التقييد للحكم المطلق .

وقال هنا إن كنتم خرجتم ﴾ متعلق بـ ﴿ لا تتخذوا ﴾ وقول النحويين في مثله على أنه شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه .

اه .

يعني أن فرقاً بين كلام النحويين وبين ما اختاره هُو مِنْ جَعْله متعلقاً بـ ﴿ لا تتخذوا ﴾ فإنه جعل جواب الشرط غير منوي .

قلت : فينبغي أن يعد كلامه من فروق استعمال الشروط مثل فروق الخبر وفروق الحال المبوب لكليهما في كتاب "دلائل الإِعجاز" .

وكلام النحاة جرى على غالب أحوال الشروط التي تتأخر عن جوابها نحو : اقبَل شفاعة فلان إنْ شَفَع عندك ، وينبغي أن يتطلب لتقديم ما يدل على الجواب المحذوف إذَا حذف نكتة في غير ما جرى على استعمال الشرط بمنزلة التذييل والتميم .

وأداة الشرط في مثله تشبه ﴿ إنْ ﴾ الوصلية و (لو) الوصلية ، ولذلك قال في "الكشاف" هنا : إن جملة ﴿ إن كنتم خرجتم ﴾ متعلقة بـ ﴿ لا تتخذوا ﴾ يعني تعلقَ الحال بعاملها ، أي والحال حال خُروجكم في سبيل الله وابتغائكم مَرضاتَه بناء على أن شرط ﴿ إن ﴾ .

و(لو) الوصليّتين يعتبر حالاً .

ولا يعكر عليه أن شرطهما يقترن بواو الحال لأن ابن جنّي والزمخشري سوّغا خلوَّ الحال في مثله عن الواو والاستعمال يشهد لهما .

والمعنى : لا يقع منكم اتخاذ عدوي وعدوكم أولياء ومودّتهم ، مع أنهم كفروا بما جاءكم من الحق ، وأخرجوكم لأجل إيمانكم .

إن كنتم خرجتم من بلادكم جهاداً في سبيلي وابتغاءَ مرضاتي ، فكيف تُوالون من أخرجوكم وكان إخراجهم إياكم لأجلي وأنا ربكم .

والمراد بالخروج في قوله : ﴿ إن كنتم خرجتم ﴾ الخروج من مكة مهاجَرة إلى المدينة .

فالخطاب خاص بالمهاجرين على طريقة تخصيص العموم في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ روعي في هذا التخصيص قرينة سبب نزول الآية على حادث حاطب بن أبي بلتعة .

و ﴿ جهاداً ﴾ ، و ﴿ ابتغاءَ مرضاتي ﴾ مصدران منصوبان على المفعول لأجله .

﴿ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بالمودة وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ ﴾ .

يجوز أن تكون الجملة بياناً لجملة ﴿ تلقون إليهم بالمودة ﴾ ، أو بدل اشتمال منها فإن الإسرار إليهم بالمودة مما اشتمل عليه الإِلقاء إليهم بالمودة .

والخبر مستعمل في التوبيخ والتعجيب ، فالتوبيخ مستفاد من إيقاع الخبر عقب النهي المتقدم ، والتعجيب مستفاد من تعقيبه بجملة ﴿ وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾ ، أي كيف تظنون أن إسراركم إليهم يخفى علينا ولا نطلع عليه رسولنا .

والإِسرار : التحدث والإِخبار سراً .

ومفعول ﴿ تسرون ﴾ يجوز أن يكون محذوفاً يدل عليه السياق ، أي تخبرونهم أحوال

المسلمين سراً .

وجيء بصيغة المضارع لتصوير حالة الإِسرار إليه تفظيعاً لها .

والباء في ﴿ بالمودة ﴾ للسببية ، أي تخبرونهم سراً بسبب المودة أي بسبب طلب المودة لهم كما هو في قضية كتاب حاطب .

ويجوز أن يكون ﴿ بالمودة ﴾ في محل المفعول لفعل ﴿ تسرون ﴾ والباءُ زائدةً لتأكيد المفعولية كالباء في قوله تعالى : ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] .

وجملةُ ﴿ وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ تسرون ﴾ أو مُعترضةٌ ، والواو اعتراضية .

وهذا مناط التعجيب من فعل المعرَّض به وهو حَاطب بن أبي بلتعة .

وتقديم الإِخفاء لأنه المناسب لقوله : ﴿ وأنا أعلم ﴾ .

ولموافقته للقصة .

و ﴿ أعلم ﴾ اسم تفضيل والمفضل عليه معلوم من قوله : ﴿ تسرون إليهم ﴾ فالتقدير : أعلم منهم ومنكم بما أخفيتم وما أعلنتم .

والباء متعلقة باسم التفضيل وهي بمعنى المصاحبة .

﴿ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ﴾ .

عطف على جملة النهي في قوله تعالى : ﴿ لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ ، عُطف على النهي التوعدُ على عدم الانتهاء بأن من لم ينته عما نُهي عنه هو ضالّ عن الهُدَى .

وضمير الغيبة في ﴿ يفعله ﴾ عائد إلى الاتخاذ المفهوم من فعل ﴿ لا تتخذوا عدوي ﴾ أي ومن يفعل ذلك بعد هذا النهي والتحذير فهو قد ضلّ عن سواء السبيل .

و﴿ سواء السبيل ﴾ مستعار لأعمال الصلاح والهُدَى لشبهها بالطريق المستوي الذي يَبلُغ من سلكه إلى بغيته ويقع من انحرف عنه في هلكة .

والمراد به هنا ضلّ عن الإسلام وضلّ عن الرشد .

و﴿ مَن ﴾ شرطية الفعل بعدها مستقبل وهو وعيد للذين يفعلون مثل ما فعل حاطب بعد أن بلغهم النهي والتحذير والتوبيخ والتفظيع لعمله .

إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2)

تفيد هذه الجملة معنى التعليل لمفاد قوله تعالى : ﴿ فقد ضل سواء السبيل ﴾ [الممتحنة : 1] باعتبار بعض ما أفادته الجملة ، وهو الضلال عن الرشد ، فإنه قد يخفى ويظنّ أن في تطلب مودّة العدوِّ فائدة ، كما هو حال المنافقين المحكي في قوله تعالى : ﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾ [النساء : 141] ، فقد يُظن أن موالاتهم من الدهاء والحزم رَجاء نفعهم إن دالت لهم الدولة ، فبيّن الله لهم خطأ هذا الظنّ ، وأنهم إن استفادوا من مودتهم إياهم إطلاعاً على قوتهم فتأهبوا لهم وظفِروا بهم لم يكونوا ليرقبوا فيهم إلاًّ ولا ذِمّةً ، وأنهم لو أخذوهم وتمكنوا منهم لكانوا أعداء لهم لأن الذي أضمر العداوة زمناً يعسر أن ينقلب ودوداً ، وذلك لشدة الحنق على ما لَقُوا من المسلمين من إبطال دين الشرك وتحقير أهله وأصنامهم .

وفعل ﴿ يكونوا ﴾ مشعر بأن عداوتهم قديمة وأنها تستمر .

والبسط : مستعار للإِكثار لما شاع من تشبيه الكثير بالواسع والطويل ، وتشبيه ضده وهو القبض بضد ذلك ، فبسط اليد الإِكثار من عملها .

والمراد به هنا : عمل اليد الذي يضرّ مثل الضرب والتقييد والطعن ، وعمل اللسان الذي يؤذي مثل الشتم والتهكم .

ودلّ على ذلك قوله : ﴿ بالسوء ﴾ ، فهو متعلق بـ ﴿ يبسطوا ﴾ الذي مفعوله ﴿ أيديهم وألسنتهم ﴾ .

(56/759)

وجملة ﴿ وودوا لو تكفرون ﴾ حال من ضمير ﴿ يكونوا ﴾ ، والواو واو الحال ، أي وهم قد وَدُّوا مِن الآن أن تكفروا فكيف لو يأسرونكم أَليس أهم شيء عندهم حينئذٍ أن يردُّوكم كفاراً ، فجملة الحال دليل على معطوفٍ مقدّر على جواب الشرط كأنه قيل : إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء إلى آخره ، ويردوكم كفاراً ، وليست جملة ﴿ وودوا لو تكفرون ﴾ معطوفة على جملة الجواب ، لأن مَحبتهم أن يَكفر المسلمون محبة غير مقيدة بالشرط ، ولذلك وقع فعل ﴿ وَدُّوا ﴾ ماضياً ولم يقع مضارعاً مثل الأفعال الثلاثة قبله ﴿ يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا ﴾ ليُعلم أنه ليس معطوفاً على جواب الشرط.

وهذا الوجه أحسن مما في كتاب "الإِيضاح" للقزويني في بحث تقييد المسند بالشرط ، إذّ استظهر أن يكون ﴿ وودوا لو تكفرون ﴾ عطفاً على جملة ﴿ إن يثقفوكم ﴾ .

ونَظّره بجملة ﴿ ثم لا يُنصرون من قوله تعالى : ﴿ وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ في آل عمران (111) .

فإن المعطوف بـ (ثُم) فيها عطفٌ على مجموع الشرط وفعله وجوابه لا على جملة فعل الشرط .

ولو ﴿ هنا مصدرية ففعل ﴿ تكفرون ﴾ مؤول بمصدر ، أي ودُّوا كفركم .

لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3)

تخلص من تبيين سوء عاقبة موالاة أعداء الدّين في الحياة الدنيا ، إلى بيان سوء عاقبة تلك الموالاة في الآخرة ، ومناسبة حسن التخلص قوله : ﴿ وودوا لو تكفرون ﴾ [الممتحنة : 2] الدالّ على معنى : أن ودادتهم كفركم من قبل أن يثقفوكم تنقلب إلى أن يكرهوكم على الكفر حين يثقفونكم ، فلا تنفعكم ذوو أرحامكم مثل الأمهات والإخوة الأشقاء ، وللأمّ ، ولا أولادكم ، ولا تدفع عنكم عذاب الآخرة إن كانوا قد نفعوكم في الدنيا بصلة ذوي الأرحام ونصرة الأولاد .

(57/759)

فجملة ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ﴾ إلى آخرها مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن سؤال مفروض ممن يسمع جملة ﴿ ودُّوا لو تكفرون ﴾ [الممتحنة : 2] ، أي من حق ذلك أن يُسأل عن آثاره لخطر أمرها .

وإذا كان ناشئاً عن كلام جرى مجرى التعليل لجملة ﴿ فقد ضل سواء السبيل ﴾ [الممتحنة : 1] ، فهو أيضاً مفيد تعليلاً ثانياً بحسب المعنى ، ولولا إرادة الاستئناف البياني لجاءت هذه الجملة معطوفة بالواو على التي قبلها ، وزاد ذلك حسناً أن ما صدر من حاطب ابن أبي بلتعة مما عُدّ عليه هو موالاة للعدوّ ، وأنه اعتذر بأنه أراد أن يتخذ عند المشركين يداً يحمون بها قرابته (أي أمه وإخوته) .

ولذلك ابتدىء في نفي النفع بذكر الأرحام لموافقة قصة حاطب لأن الأم ذات رحم والإِخوة أبناؤها هم إخوته من رحمه .

وأما عطف ﴿ ولا أولادكم ﴾ فتتميم لشمول النهي قوماً لهم أبناء في مكة .

والمراد بالأرحام : ذوو الأرحام على حذف مضاف لظهور القرينة .

و ﴿ يوم القيامة ﴾ ظرف يتنازعه كلٌ من فعل ﴿ لن تنفعكم ﴾ ، وفعل ﴿ يفصل بينكم ﴾ .

إذ لا يلزم تقدم العاملين على المعمول المتنازع فيه إذا كان ظرفاً لأن الظروف تتقدم على عواملها وأن أبيت هذا التنازع فقل هو ظرف ﴿ تنفعكم ﴾ واجعل ل ﴿ يفصل بينكم ﴾ ظرفاً محذوفاً دلّ عليه المذكور .

والفصل هنا : التفريق ، وليس المراد به القضاءَ .

والمعنى : يوم القيامة يفرق بينكم وبين ذوي أرحامكم وأولادكم فريق في الجنة وفريق في

السعير ، قال تعالى : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه ﴾ [عبس : 34 37] .

والمعنى : أنهم لا ينفعونكم يوم القيامة فما لكم ترفضون حقّ الله مراعاةً لهم وهم يفرّون منكم يوم اشتداد الهول ، خطّأ رأيهم في موالاة الكفار أولاً بما يرجع إلى حال مَن والوه .

(58/759)

ثم خطّاه ثانياً بما يرجع إلى حال من استعملوا الموالاة لأجلهم ، وهو تقسيم حاصر إشارة إلى أن ما أقدم عليه حاطب مِن أي جهة نظر إليه يكون خطأ وباطلاً .

وقرأ الجمهور ﴿ يفصل بينكم ﴾ ببناء ﴿ يُفصَل ﴾ للمجهول مخففاً .

وقرأه عاصم ويعقوب ﴿ يَفصِل ﴾ بالبناء الفاعل ، وفاعله ضمير عائد إلى الله لعلمه من المقام ، وقرأه حمزة والكسائي وخلف ﴿ يفصِّل ﴾ مشدد الصاد مكسورة مبنياً للفاعل مبالغةً في الفصل ، والفاعل ضمير يعود إلى الله المعلوم من المقام .

وقرأه ابن عامر ﴿ يُفصَّل ﴾ بضم التحتية وتشديد الصاد مفتوحة مبنياً للنائب من فَصَّل المشدّد .

وجملة ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ وعيد ووعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(59/759)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى لقى)

لَقِيَهُ - كرضيه - لِقَاء ولِقَاءَة ولِقيًّا ولِقْيانة - بكسرهنَّ - ولُقِيًّا ولُقْيَاناً ولُقْيَة ولُقًى - بضمّهن - [ولَقَاءَة] مفتوحة : رآه ، كتلقّاه والتقاه .

والاسم التِلقاء - بالكسر - ولا نظير له فى الكلام سوى التبيان .

ويكون اللقاء بحسّ البصر وبالبصيرة ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَباً ﴾ .

وملاقاة الله عزّ وجلّ عبارة عن القيامة ، وعن المصير إليه ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا اللَّهِ ﴾ واللِقاءُ : الملاقاة .

وقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَآ ﴾ أى نسيتم القيامة والبعث

والنشور .

وقوله : ﴿ يَوْمَ التَّلاقِ ﴾ أَي يوم القيامة .

قال بعض المفسّرين : أَسماء يوم القيامة نحو من أَربعمائة اسم ، وتخصصه بهذا الاسم لالتقاءِ مَن تقدّم ومَن تأَخر ، ولالتقاءِ أَهل الأَرض والسماءِ ، وملاقاة كل أَحد عمله الذى قدَّمه .

ولقَّيت فلانا خيرًا : استقبلته به ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ .

[وتلقَّاه] : استقبله ، قال تعالَى : ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ﴾ .

ولقَّاه الشىءَ : أَلقاه إِليه ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ ﴾ ، أَى يُلقى إِلَيْكَ وحياً من الله تعالى ، ومنه قوله : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ .

والإِلقاء : طرحُ الشىء حيث تلقاه ، ثم استعمل فى كل طرحٍ ، قال تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يامُوسَى ﴾ ، وقال : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ .

ويقال : أَلقيت إِليك مودّة وكلاماً وسلاما ، قال تعالى :

﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ .

وتَلَقَّيته منه : تلقَّنته .

ونُهِىَ عن تلقِّى الرّكبان ، أَى استقبالهم .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ عبارة عن الإصغاء إليه .

وقوله : ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ تنبيه على ما دهمهم من التعجّب والدهشة التى جعلتهم فى حكم المضطرّين غير المختارين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 440 . 441 ﴾

(61/759)

قوله تعالى ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أبلغ سبحانه في وعظهم في ذلك ، وكانت عادته التربية بالماضين ، كان موضع توقع ذلك

فقال معبراً بأداة التوقع : ﴿ قد كانت ﴾ أي وجدت وجوداً تاماً ، وكان تأنيث الفعل إشارة إلى الرضا بها ولو كانت على أدنى الوجوه ﴿ لكم ﴾ أي أيها المؤمنون ﴿ أسوة ﴾ أي موضع اقتداء وتأسية وتسنن وتشرع وطريقة مرضية ﴿ حسنة ﴾ يرغب فيها ﴿ في إبراهيم ﴾ أي في قول أبي الأنبياء ﴿ والذين معه ﴾ أي ممن كانوا قبله من الأنبياء ، قال القشيري : وممن آمن به في زمانه كابن أخيه لوط عليهما الصلاة والسلام وهم قدوة أهل الجهاد والهجرة ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ قالوا ﴾ وقد كان من آمن به أقل منكم وأضعف ﴿ لقومهم ﴾ الكفرة ، وقد كانوا أكثر من عدوكم وأقوى وكان لهم فيهم أرحام وقرابات ولهم فيهم رجاء بالقيام والمحاولات .

ولما كان ما ذكر من ضعفهم وقوة قومهم مبعداً لأن يبارزوهم ، أكدوا قولهم فقالوا : ﴿ إنا ﴾ أي من غير وقفة ولا شك ﴿ برءاء ﴾ أي متبرئون تبرئة عظيمة ﴿ منكم ﴾ وإن كنتم أقرب الناس إلينا ولا ناصر لنا منهم غيركم .

ولما تبرؤوا منهم أتبعوه ما هو أعظم عندهم منهم وهو سبب العداوة فقالوا : ﴿ ومما تعبدون ﴾ أي توجدون عبادته في وقت من الأوقات الماضية المفيد التعبير عنها بالمضارع تصوير الحال أو الحاضرة أو الآتية كائناً من كان لا نخاف شيئاً من ذلك لأن إلهنا الذي قاطعنا كل شيء في الانقطاع إليه لا يقاويه شيء ، ولا تقدرون أنتم مع إشراككم به على البراءة منه .

ولما كانوا مشركين قالوا مستثنين ومبينين لسفول كل شيء عن متعالي مرتبة معبودهم :

﴿ من دون الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي هو كاف لكل مسلم .

ولما كانت البراءة على أنحاء كثيرة ، بينوا أنها براءة الدين الجامعة لكل براءة فقالوا :

﴿ كفرنا بكم ﴾ أي أوجدنا الستر لكل ما ينبغي ستره حال كوننا مكذبين بكل ما يكون من جهتكم من دين وغيره الذي يلزم منه الإيمان ، وهو إيقاع الأمان من التكذيب لمن يخبرنا بسبب كل ما يضاده مصدقين بذلك .

(62/759)

ولما كان المؤمن على جبلة مضادة لجبلة الكافر ، عبر بما يفهم أن العداوة كانت موجودة ولكنها كانت مستورة ، فقال دالاً على قوتها بتذكير الفعل : ﴿ وبدا ﴾ أي ظهر ظهوراً عظماً ، وعلى عظمتها بالدلالة بنزع الخافض على أنها شاحنة لجميع البينين فقال :

﴿ بيننا وبينكم ﴾ أي في جمع الحد الفاصل بين كل واحد منا وكل واحد منكم

﴿ العداوة ﴾ وهي المباينة في الأفعال بأن يعدو كل على الآخر ولا يكون ذلك إلا عندما يستخف الغيظ الإنسان لإرادة أن يشفي صدره من شدة ما حصل له من حرارة الخنق .

فالعداوة مما يمتد فيكون مالئة لظرفها ، قال الشيخ سعد الدين التفتازاني في تلويحه على

توضيح صدر الشريعة في أوائله في علاقات المجاز : الفعل المنسوب إلى ظرف الزمان بواسطة تقدير " في " دون ذكره يقتضي كون الظرف معياراً له غير زائد عليه مثل صمت الشهر ، يدل على صوم جميع أيامه بخلاف صمت في الشهر ، فإذا امتد الفعل الظرف ليكون معياراً له فيصح حمل اليوم - في نحو صرت يوم كذا - على حقيقته ، وهو ما يمتد من الطلوع إلى الغروب ، وإذا لم يمتد الفعل - يعني مثل وقوع الطلاق - لم يمتد الظرف ، لأن الممتد لا يكون معياراً لغير الممتد فحينئذ لا يصح حمل اليوم على النهار الممتد بل يجب أن يكون مجازاً عن جزء من الزمان الذي لا يعتبر في الغرف ممتداً ، وهو الآن سواء كان من النهار أو من الليل بدليل قوله تعالى :

﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ [الأنفال : 16] فإن التولي عن الزحف حرام ليلاً كان أو نهاراً ولأن مطلق الآن جزء من الآن اليومي وهو جزء من اليوم ، فيكون مطلق الآن جزءاً من اليوم ، فتحقق العلاقة .

ولما كان ذلك قد يكون لغير البغض بل لتأديب ونحوه قالوا : ﴿ والبغضاء ﴾ أي وهي المباينة بالقلوب بالبغض العظيم .

ولما كان ذلك قد يكون سريع الزوال قالوا : ﴿ أبداً ﴾ ولما كان ذلك مرئياً من صلاح الحال ، وكان قد يكون لحظ نفس بينوا غايته على وجه عرفت به علته بقولهم : ﴿ حتى تؤمنوا ﴾ أي توقعوا الأمان من التكذيب من أمركم بالإيمان وأخبركم عن الرحمان ، حال كونكم مصدقين ومعترفين ﴿ بالله ﴾ أي الملك الذي له الكمال كله .

ولما كانوا يؤمنون به مع الإشراك قالوا : ﴿ وحده ﴾ أي تكونوا مكذبين بكل ما يعبد من دونه .

ولما حث سبحانه المخاطبين على التأسي بقوله إبراهيم ومن معه في الوقت عليهم السلام استثنى منه فقال تأنيساً لمن نزلت القصة بسببه واستعطافاً له وهو حاطب ابن أبي بلتعة ـ رضى الله عنه ـ : ﴿ إلا قول إبراهيم ﴾ أي فلا تأسي لكم به ﴿ لأبيه ﴾ واعداً له قبل أن يبين له أنه ثابت العداوة لله تعالى لكونه مطبوعاً على قلبه ، فلا صلاح له ، يقال : إن أباه وعده أنه يؤمن فاستغفر له ، فلما تبين له ، أنه لا يؤمن تبرأ منه : ﴿ لأستغفرن ﴾ أي لأوجدن طلب الغفران من الله ﴿ لك ﴾ فإن هذا الاستغفار لكافر ، فلا ينبغي لهم أن يتأسوا به فيه مطلقاً غير ناظرين إلى علم أنه مطبوع على قلبه أو في حيز الرجوع .

ولما وعده بالاستغفار ترغيباً له ، رهبه لئلا يترك السعي في النجاة بما معناه أنه ليس في يدي غير الاستغفار ، فقال : ﴿ وما أملك لك ﴾ أي لكونك كافراً ﴿ من الله ﴾ أي لأنه الملك الأعلى المحيط بنعوت الجلال ، وأعرق في النفي بقوله : ﴿ من شيء ﴾ والاستثناء وقع

على هذا القول بقيد الاجتماع ، ولا يلزم منه التعرض للأجزاء ، فلا تكون هذه الجملة على حيالها مستثناة لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما نادى :

" واصباحاه حين أنزل الله سبحانه وتعالى ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ كان يقول لكل من سماه : لا أملك لك من الله شيئاً ، حتى قال في آخر ذلك : يا فاطمة بنت محمد ! سليني من مالي ما شئت لا أغن عنك من الله شيئاً " .

(64/759)

ولما حثهم على التأسي بقول الخلص ، وقدم منه المحافاة لأنها المقصودة ، واستثنى ما لا ينبغي التأسي فيه اعتراضاً به بين أجزاء مقالهم بياناً للاهتمام به للتنفير منه من قوله ، أتم ما يؤيسي فيه فقال مبيناً أنهم ما أقدموا على مجافاتهم بما قال إلا وقد قرروا جميع ما يقولونه ورضوا به دون موادتهم وانقطعوا إلى الله وحده انقطاعاً تاماً يفعل بهم ما يشاء من تسليطهم عليهم أو حمايتهم منهم ، لكنهم سألوا الحماية لا لذاتها ولا لأنفسهم بل لئلا يزيد ذلك أعداءهم ضلالاً ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا بتخليصك لنا من الهلاك باتباعهم ﴿ عليك ﴾ أي لا على غيرك ﴿ توكلنا ﴾ أي فعلنا في جميع أمورنا معك فعل من يحملها على قوى ليكفيه أمرها لأنا نعلم أنك تكفي إذا شئت كل ملم ، وأنه لا يذل من واليت ولا يعز

من عاديت وقد عادينا فيك قوماً عتاة أقوياء ونحن ضعفاء ، ورضينا بكل ما يحصل لنا منهم غير أن عافيتك هي أوسع لنا .

ولما كان الذي ينبغي لكل أحد وإن كان محسناً أن يعد نفسه مقصراً شارداً عن ربه لأنه لعظم جلاله لا يقدر أحد أن يقدره حق قدره ، وأن يعزم على الاجتهاد في العبادة قالوا مخبرين بذلك عادين ذلك العزم رجوعاً : ﴿ وإليك ﴾ أي وحدك لا إلى غيرك ﴿ أنبنا ﴾ أي رجعنا بجميع ظواهرنا وبواطننا .

(65/759)

ولما كان المعنى تعليلاً : فإنه منك المبدأ ، عطف عليه قوله : ﴿ وإليك ﴾ أي وحدك ﴿ المصير ﴾ ولما أخبروا بإسلامهم له سبحانه وعللوه بما اقتضى الإحاطة فاقتضى مجموع ذلك الثناء الأتم ، فلزم منه الطلب ، صرحوا به فقالوا داعين بإسقاط الأداة للدلالة على غاية قربه سبحانه بما له من الإحاطة : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المربي لنا والمحسن إلينا ﴿ لا تجعلنا ﴾ بإضعافنا والتسليط علينا ﴿ فتنة ﴾ أي موضع اختبار ﴿ للذين كفروا ﴾ بأن يعذبونا بعذاب يميلنا عما نحن عليه ويميلهم عما وصلوا إليه بسبب إسلامنا من الزلازل بما يوجب ذلك لهم من اعتقاد لو أنك كنت راضياً بديننا لكنا على الحق وكانوا هم على

الباطل ما أمكنت منا ، فيزيدهم ذلك طغياناً ظناً منهم أنهم على الحق وأنا على الباطل .

ولما كان رأس مال المسلم الأعظم الاعتراف بالتقصير وإن بلغ النهاية في المجاهدة فإن الإله في غاية العظمة والبعد في نهاية الضعف ، فبلوغه ما يحق له سبحانه لا يمكن بوجه قالوا ﴿ واغفر لنا ﴾ أي استر ما عجزنا فيه وامح عينه وأثره .

ولما طلبوا منه الحياطة من جميع الجوانب ، عللوه زيادة في التضرع والخضوع واستجاز المطلوب مكررين صفة الإحسان زيادة في الترقق والاستعطاف بقولهم : ﴿ ربنا ﴾ أي المحسن إلينا ، وأكدوا إعلاماً بشدة رغبتهم بحسن الثناء عليه سبحانه واعترافاً بأنهم قد يفعلون ما فيه شيء من تقصير فيكون من مثل أفعال من لا يعرفه سبحانه فقالوا : ﴿ إنك أنت ﴾ أي وحدك لا غيرك ﴿ العزيز ﴾ الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ﴿ الحكيم ﴾ الذي يضع الأشياء في أوفق محالها فلا يستطاع نقضها ، ومن كان كذلك فهو حقيق بأن يعطى من أمله فوق ما طلب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 553 . 556 ﴾

(66/759)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾

اعلم أن الأسوة ما يؤتسى به مثل القدوة لما يقتدى به ، يقال : هو أسوتك ، أي أنت مثله وهو مثلك ، وجمع الأسوة أسى ، فالأسوة اسم لكل ما يقتدى به ، قال المفسرون أخبر الله تعالى أن إبراهيم وأصحابه تبرءوا من قومهم وعادوهم ، وقالوا لهم : ﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ ﴾ ، وأمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتسوا بهم وبقوله ، قال الفراء : يقول أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم في التبرئة من أهله في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ وهو مشرك وقال مجاهد : نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه فيستغفرون للمشركين ، وقال مجاهد وقتادة : ائتسوا بأمر إبراهيم كله إلا في استغفاره لأبيه ، وقيل : تبرءوا من كفار قومكم فإن لكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه من المؤمنين في البراءة من قومهم ، لا في الاستغفار لأبيه ، وقال ابن قتيبة : يريد أن إبراهيم عاداهم وهجرهم في كل شيء إلا في قوله لأبيه : ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ وقال ابن الأنباري : ليس الأمر على ما ذكره ، بل المعنى قد كانت لكم أسوة في كل شيء فعله ، إلا في قوله لأبيه : ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ هذا من قول إبراهيم لأبيه يقول له : ما أغنى عنك شيئاً ، ولا أدفع عنك

عذاب الله إن أشركت به ، فوعده الاستغفار رجاء الإسلام ، وقال ابن عباس : كان من دعاء إبراهيم وأصحابه : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ الآية ، أي في جميع أمورنا ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ رجعنا بالتوبة عن المعصية إليك إذ المصير ليس إلا إلى حضرتك ، وفي الآية مباحث :

(67/759)

الأول : لقائل أن يقول : ﴿ حتى تُؤْمِنُواْ بالله وَحْدَهُ ﴾ ما الفائدة في قوله : ﴿ وَحْدَهُ ﴾ والإيمان به وبغيره من اللوازم ، كما قال تعالى : ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بالله وملائكته وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [البقرة : 285] فنقول : الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر ، من لوازم الإيمان بالله وحده ، إذ المراد من قوله : ﴿ وَحْدَهُ ﴾ هو وحده في الألوهية ، ولا نشك في أن الإيمان بألوهية غيره ، لا يكون إيماناً بالله ، إذ هو الإشراك في الحقيقة ، والمشرك لا يكون مؤمناً .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم ﴾ استثناء من أي شيء هو ، نقول : من قوله : ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ لما أنه أراد بالأسوة الحسنة قولهم الذي حق عليهم أن يأتسوا به ، ويتخذوه سنة يستنون بها .

الثالث : إن كان قوله : ﴿ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ مستثنى من القول الذي سبق وهو : ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ فما بال قوله : ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ وهو غير حقيق بالاستثناء ، ألا ترى إلى قوله تعالى :

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ [الفتح : 11] نقول : أراد الله تعالى استثناء جملة قوله لأبيه ، والقصد إلى موعد الاستغفار له وما بعده مبني عليه وتابع له ، كأنه قال : أنا استغفر لك ، وما وسعي إلا الاستغفار .

الرابع : إذا قيل : بم اتصل قوله : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ نقول : بما قبل الاستثناء ، وهو من جملة الأسوة الحسنة ، ويجوز أن يكون المعنى هو الأمر بهذا القول تعليماً للمؤمنين وتتميماً لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفرة ، والائتساء بإبراهيم وقومه في البراءة منهم تنبيهاً على الإنابة إلى حضرة الله تعالى ، والاستعاذة به .

(68/759)

الخامس : إذا قيل : ما الفائدة في هذا الترتيب ؟ فنقول : فيه من الفوائد ما لا يحيط به إلا هو ، والظاهر من تلك الجملة أن يقال : التوكل لأجل الإفادة ، وإفادة التوكل مفتقرة إلى التقوى قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق : 2] والتقوى الإنابة ، إذ التقوى

الاحتراز عما لا ينبغي من الأمور ، والإشارة إلى أن المرجع والمصير للخلائق حضرته المقدسة ليس إلا ، فكأنه ذكر الشيء ، وذكر عقيبه ما يكون من اللوازم لإفادة ذلك كما ينبغي ، والقراءة في ﴿ بُرَاء ﴾ على أربعة أوجه : برآء كشركاء ، وبراء كظراف ، وبراء على إبدال الضم من الكسر كرخال ، وبراء على الوصف بالمصدر والبراء والبراءة ، مثل الطماء والطماءة .

قوله : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ﴾ من دعاء إبراهيم .

قال ابن عباس : لا تسلط علينا أعداءنا فيظنوا أنهم على الحق ، وقال مجاهد : لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ذلك ، وقيل : لا تبسط عليهم الرزق دوننا ، فإن ذلك فتنة لهم ، وقيل : قوله ﴿ لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ﴾ ، أي عذاباً أي سبباً يعذب به الكفرة ، وعلى هذا ليست الآية من قول إبراهيم .

وقوله تعالى : ﴿ واغفر لَنَا رَبَّنَا ﴾ الآية ، من جملة ما مر ، فكأنه قيل : لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 260.262 ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء ﴾

نزلتْ في حاطب ابن أبي بَلْتَعة وذلكَ أنَّه لمَّا تجهزَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لغزوةِ الفتحِ كتبَ إلى أهلِ مكةٍ أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يريدكُم فخُذُوا حذْرَكُم وأرسلَهُ مع سارةَ مولاةِ بني المطلبِ فنزل جبريلُ عليهِ السلامُ بالخبرِ فبعثَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم علياً وعماراً وطلحة والزبيرَ والمقدادَ وأبا مرثدٍ وقالَ انطلقُوا حتى تأتُوا روضةَ خاخٍ فإنَّ بها ظعينةً معها كتابُ حاطبٍ إلى أهلِ مكةَ فخذُوه منهَا وخلُّوها فإنْ أبتْ فاضربُوا عنقَهَا فأدركُوهَا ثمةَ فجحدتْ فسلَّ عليٌّ سيفَهُ فأخرجَتْهُ من عقاصِهَا فاستحضَر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حاطباً وقال ما حملكَ على هذا فقالَ يا رسولَ الله ما كفرتُ منذ أسلمتُ ولا غششتكَ منذ نصحتكَ ولكني كنتُ امرءاً ملصَقاً في قريشٍ وليسَ لي فيهم مَنْ يحمي أَهْلِي فأردتُ أن آخذَ عندهُم يداً وقد علمتُ أن كتابيَ لن يُغْنِيَ عنهُم شيئاً فصدَّقَهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقبلَ عذرَهُ ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ أي توصلونَ إليهم المودَّةَ على أنَّ الباءَ زائدةٌ كما في قولِهِ تعالى ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ أو تلقونَ إليهم أخبارَ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بسببِ المودَّةِ التي بينكُم وبينَهُم والجملةُ إما حالٌ مِن فاعلِ لا تتخِذُوا أو صفةٌ لأولياءَ وإبرازُ الضميرِ في الصفاتِ الجاريةِ على غيرِ مَنْ هيَ لهُ إنما يُشترطُ في الإسمِ دونَ الفعلِ أو استئنافٌ ﴿ وَقَدْ

كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُمْ مِّنَ الحق ﴾ حالٌ من فاعلِ تلقونَ وقيل من فاعلِ لا تتخذُوا وقُرِىءَ لِمَا جاءَكُم أي كفرُوا لأجلِ ما جاءكُم بمعنى جعلِ ما هو سببُ الإيمانِ سبباً للكفرِ ﴿ يُخْرِجُونَ الرسول وإياكم ﴾ أي من مكةَ وهو إما حالٌ من فاعلِ كفرُوا أو استئنافٌ مبينٌ لكفرِهم وصيغةُ المضارعِ لاستحضارِ الصُّورَةِ وقولِه تعالى

(70/759)

: ﴿ أَن تُؤْمِنُواْ بالله رَبّكُمْ ﴾ تعليلٌ للإخراجِ وفيهِ تغليبُ المخاطبِ على الغائبِ والتفاتٌ منَ التكلمِ إلى الغَيبةِ للإشعارِ بما يوجبُ الإيمانَ من الأُلوهيةِ والرُّبوبيةِ ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِى سَبِيلِى وابتغاء مَرْضَاتِى ﴾ متعلقٌ بلا تتخذُوا كأنَّه قيلَ لا تتولَّوا أعدائِي إن كُنتُم أوليائِي وقولُه تعالى : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ استئنافٌ واردٌ على نهجِ العتابِ والتوبيخِ أي تُسرونَ إليهم المودَّةَ أو الأخبارَ بسببِ المودَّةِ ﴿ وَأَنَاْ أَعْلَمُ ﴾ أيْ والحالُ أنِّي أعلمُ منكُم ﴿ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾ ومُطْلعٌ رسولِي عَلى ما تسرونَ فأيُّ طائلٍ لكم في الإسرارِ وقيلَ أعلمُ مضارعٌ والباءُ مزيدةٌ وما موصولةٌ أو مصدريةٌ وتقديمُ الإخفاءِ على الإعلانِ قد مرَّ وجهُهُ في قولِه تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ ﴾ أي الاتخاذَ ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السبيل ﴾ فقد أخطأَ الحقَّ والصوابَ .

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ ﴾ أي إنْ يظفرُوا بكُم ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء ﴾ أي يُظهروا ما في قلوبِهم منَ العداوةِ ويرتبُوا عليها أحكامَهَا ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بالسوء ﴾ بمَا يسُوؤكم من القتلِ والأسرِ والشتمِ ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي تمنَّوا ارتدادكُم، وصيغةُ الماضِي للإيذانِ بتحققِ ودادتِهم قبل أن يثقفوهُم أيضاً ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أرحامكم ﴾ قراباتُكم ﴿ وَلاَ أولادكم ﴾ الذين توالونَ المشركينَ لأجلِهم وتتقربُونَ إليهم محاماةً عليهم ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ بجلبِ نفعٍ أو دفعِ ضرَ ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ استئنافٌ لبيانَ عدمِ نفعِ الأرحامِ والأولادِ يومئذٍ أي يفرق الله بينكم بما اعتراكُم من الهولِ الموجبِ لفرارِ كلّ منكُم من الآخرِ حسبما نطَقَ بِه قولُه تعالى ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ ﴾ الآيةَ فما لكُم ترفضونَ حقّ الله تعالى لمراعاةِ حقِ منْ هَذا شأنُه وقُرِىءَ يُفْصَل ويفصّل مبنياً للمفعولِ ويفصِل ويُفصّل مبنياً للفاعلِ وهو الله تعالى ونفصِل ونفصّل بالنون ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكُم بِه ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أيْ خصلةٌ حميدةٌ حقيقةٌ بأنْ يُؤتسَى ويُقْتَدى بهَا وقولُه تعالَى : ﴿ فِى إبراهيم والذين مَعَهُ ﴾ أي منْ أصحابِه المؤمنينَ صفةٌ ثانيةٌ لأسوةٌ أو خبرٌ لكانَ ولكُم للبيانِ أو حالٌ من المستكنّ في حسنةٌ أو صلةٌ لها لا لأسوةٌ عندَ من لا يجوّزُ العملَ بعدَ

الوصفِ ﴿ إِذْ قَالُواْ ﴾ ظرفٌ لخبرِ كَانَ ﴿ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بَرَاء مّنكُمْ ﴾ جمعُ بريءٍ كظريفٍ وظرفاءَ وقُرِىءَ بِراءٌ كظِرافٍ وبُراءٍ كرُخالٍ وبَراءٌ على الوصفِ بالمصدرِ مبالغةً ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ من الأصنامِ ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أي بدينِكُم أو بمعبودِكُم أو بكُم وبهِ فلا نعتدُّ بشأنِكُم

(72/759)

وبآلهتِكُم ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة والبغضاء أَبَداً ﴾ أي هَذا دأبُنَا معكُم لا نتركُهُ ﴿ حتى تُؤْمِنُواْ بالله وَحْدَهُ ﴾ وتتركُوا ما أنتُم عليهِ من الشركِ فتنقلبُ العداوةُ حينئذٍ ولايةً والبغضاءُ محبةً .

(73/759)

﴿ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم لأَبِيهِ لاَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ استثناءٌ من قولِه تعالى أسوةٌ حسنةٌ فإنَّ استغفارَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لأبيهِ الكافرِ وإنْ كانَ جائزاً عقلاً وشرعاً لوقوعِهِ قبل تبينِ أنَّهُ من أصحابِ الجحيمِ كما نطقَ به النصُّ لكنَّهُ ليسَ مما ينبغِي أن يُؤتسى بهِ أصلاً إذا المرادُ

بِهِ ما يجبُ الائتساءُ بِهِ حتماً لورودِ الوعيدِ على الإعراضِ عنه بما سيأتي من قولِه تعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الغنى الحميد ﴾ فاستثناؤه من الأسوةِ إنما يفيدُ عدمَ وجوبِ استدعاءِ الإيمانِ والمغفرةِ للكافرِ المرجوّ إيمانُهُ وذلكَ مما لا يرتابُ فيه عاقلٌ ، وأما عدمُ جوازِهِ فلا دلالةَ للاستثناءِ عليهِ قطعاً هذا وأما تعليلُ عدمِ كونِ استغفارِهِ عليهِ الصلاةُ السلامُ لأبيهِ الكافرِ مما ينبغي أنْ يُؤتسى بِهِ بأنَّه كانَ قبلَ النّهيِ أو لموعدةٍ وعدَها إياهُ فبمعزلٍ منَ السّدادِ بالكليةِ لابتنائه على تناولِ النّهيِ لاستغفارِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ له وإنبائِهِ عن كونِهِ مُؤْتَسَى به لو لمْ يُنْهَ عَنْهُ وكلاهما بيِّنُ البطلانِ لما أنَّ موردَ النّهي هو الاستغفارُ للكافرِ بعد تبين أمرِهِ وقد عرفتَ أن استغفارَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لأبيهِ كانَ قبلَ ذلكَ قطعاً وأنَّ ما يُؤْتَسَى به ما يجبُ الائتساءُ بِهِ لا ما يجوزُ فعلُهُ في الجملة ، وتجويزُ أن يكونَ استغفارُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لهُ بعدَ النّهيِ كما هو المفهومُ من ظاهرِ قولِه أو لموعدةٍ وعدَها إيّاه مما لا مساغَ له وتوجيهُ الاستثناءِ إلى العدةِ بالاستغفارِ لا إلى نفسِ الاستغفارِ بقولِهِ واغفِر لأبي الآيةَ لأنها كَانَتْ هي الحاملةَ لهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلامَ على الاستغفارِ ، وتخصيصُ هذهِ العِدَةَ بالذكر دون ما وقعَ في سورة مريمَ من قوله تعالى :

(74/759)

﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ لورودها على طريق التوكيدِ القسمي ، وأما جعلُ الاستغفارِ دائرًا عليها وترتيبُ التبرؤ على تبين الأمرِ فقد مرَّ تحقيقُهُ في سورةِ التوبةِ وقولِه تعالى : ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ من تمامِ القولِ المُستثنى محلُّه النصبُ على أنَّهُ حالٌ من فاعل لأستغفرنَّ لكَ أي أستغفرُ لكَ وليسَ في طاقتي إلا الاستغفارُ فموردُ الاستثناءِ نفسُ الاستغفارِ لا قيدُهُ الذي هُو في نفسه من خصالِ الخيرِ لكونِه إظهاراً للعجزِ وتفويضاً للأمرِ إلى الله تعالَى . وقولُهُ تعالَى : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المصير ﴾ الخ من تمام ما نُقلَ عن إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ ومنْ معَهُ منَ الأسوةِ الحسنةِ ، وتقديمُ الجارِ والمجرورِ لقصرِ التوكلِ والإنابةِ والمصيرِ على الله تعالَى قالُوهُ بعدَ المُجاهرَةِ وقشرِ العَصَا التجاءً إلى الله تعالَى في جميعِ أمورِهِم لا سيما في مدافعةِ الكفرةِ وكفايةِ شرورِهِم كما ينطقُ به قولُهُ تعالَى : ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بأنْ تسلطَهُم علَيْنَا فيفتنونَا بعذابٍ لا نطيقُهُ ﴿ واغفر لَنَا ﴾ ما فرطَ منا منَ الذنوبِ ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ العزيز ﴾ الغَالِبُ الذي لاَ يَذِلُّ من التجأَ إليهِ ولاَ يخيبُ رجاءُ مَنْ توكَّلَ عليهِ ﴿ الحكيم ﴾ الذي لاَ يفعلُ إلا ما فيهِ حكمةٌ بالغةٌ وتكريرُ النداءِ للمبالغةِ في التضرعِ والجؤارِ . هَذا وأما جعلُ الآيتينِ تلقيناً للمؤمنينَ من جهتِهِ تعالَى وأمراً لهم بأنْ يتوكلُوا عليهِ وينيبُوا إليهِ ويستعيذُوا بهِ من فتنةِ الكفرةِ ويستغفرُوا مما فرطَ منهم تكملةً لما وصَّاهُم بهِ من قطعِ العلائقِ بينهُمْ وبينَ الكفرةِ فلا يساعدُهُ النظمُ الكريمُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

وقال الآلوسي :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إبراهيم والذين مَعَهُ ﴾

تأكيد لأمر الإنكار عليهم والتخطئة في موالاة الكفار بقصة إبراهيم عليه السلام ومن معه ليعلم أن الحب في الله تعالى والبغض فيه سبحانه من أوثق عرا الايمان فلا ينبغي أن يغفل عنهما ، والأسوة بضم الهمزة وكسرها وهما لغتان ، وبالكسر قرأ جميع القراء إلا عاصماً وهي بمعنى الائتساء والاقتداء ، وتطلق على الخصلة التي من حقها أن يؤتسى ويقتدى بها ، وعلى نفس الشخص المؤتسى به ، ففي زيد أسوة من باب التجريد نحو

.

وللضعفاء في الرحمن كاف . . .

وفي البيضة عشرون مناً حديد وكل من ذلك قيل : محتمل في الآية ، ورجح إرادة الخصلة لأن الاستثناء الآتي عليها أظهر ، و﴿ لَكُمْ ﴾ للبيان متعلق بمحذوف كما في سقياً لك ، أو هو متعلق بكان على رأي من يجوز تعلق الظرف بها ، ﴿ وأسوة ﴾ اسمها و﴿ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ ﴾ صفته ، و﴿ فِى إبراهيم ﴾ خبرها ، أو ﴿ لَكُمْ ﴾ هو الخبر ، و﴿ فِى

إبراهيم ﴾ صفة بعد صفة لأسوة أو خبر بعد خبر لكان أو حال من المستكن في ﴿ لَكُمْ ﴾ على ما قيل، أو في ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ ولم يجوز كون صلة ﴿ أُسْوَةٌ ﴾ بناءاً على أنها مصدر، أو اسمه وهو إذا وصف لا يعمل مطلقاً لضعف شبهه بالفعل، قيل: وإذا قلنا: إنها ليست مصدرا ولا اسمه، أو قلنا: إنه يغتفر عمله وإن وصف قبل العمل في الظرف للاتساع فيه جاز ذلك.

والظاهر أن المراد بالذين معه عليه السلام أتباعه المؤمنون لكن قال الطبري.

(76/759)

وجماعة: المراد بهم الأنبياء الذين كانوا قريباً من عصره عليه وعليهم الصلاة والسلام لأنه عليه السلام لم يكن معه وقت مكافحته قومه وبراءته منهم أتباع مؤمنون كافحوهم معه وتبرءوا منهم، فقد روى أنه قال لسارة حين رحل إلى الشام مهاجراً من بلد نمروذ: ما على الأرض من يعبد الله تعالى غيري وغيرك، وأنت تعلم أنه لا يلزم وجود الاتباع المؤمنين في أول وقت المكافحة بل اللازم وجودهم ولو بعد، ولا شك في أنهم وجدوا بعد فليحمل من معه عليهم، ويكون التبري المحكي في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءاؤاْ مّنْكُمْ ﴾ الخ وقت وجودهم، ﴿ وَإِذْ ﴾ قيل: ظرف لخبر ﴿ كَانَ ﴾ والعامل الجار والمجرور أو

المتعلق ، أو لكان نفسها على ما مر ، أو بدل من ﴿ أُسْوَةٌ ﴾ ﴿ وبرآء ﴾ جمع بريء كظريف وظرفاء .

وقرأ الجحدري ﴿ إِنِّنِى بَرَاء ﴾ كظراف جمع ظريف أيضاً ، وقرأ أبو جعفر ﴿ بَرَاء ﴾ بضم الباء كتؤام وظؤار ، وهو اسم جمع الواحد بريء وتوام وظئر ، وقال الزمخشري : إن ذلك على إبدال الضم من الكسر كرخال بضم الراء جمع رخل ، وتعقب بأنه ضم أصلي ، والصيغة من أوزان أسماء الجموع ، وليس ذلك جمع تكسير فتكون الضمة بدلاً من الكسرة ؛ ورويت هذه القراءة عن عيسى ، قال أبو حاتم : زعموا أنه عيسى الهمداني وعنه ﴿ بَرَاء ﴾ على فعال كالذي في قوله تعالى :

﴿ إِنِّنِى بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ في الزخرف ، وهو مصدر على فعال يوصف به المفرد وغيره ، وتأكيد الجملة لمزيد الاعتناء بشأنها ، أو لأن قومهم المشركين مستبعدون ذلك شاكون فيه حيث يحسبون أنفسهم على شيء وكأنهم استشعروا ذلك منهم فقالوا لهم : ﴿ أَنَّا بَرَاء مِّنكُمْ ﴾ .

﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ من الأصنام والكواكب وغيرها ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ بان لقوله سبحانه : ﴿ أَنَّا بَرَاء ﴾ إلى آخره فهو على معنى كفرنا بكم وبما تعبدون من دون الله ، ويكون المراد ﴿ بِكُمْ ﴾ القوم ومعبوديهم بتغليب المخاطبين ، والكفر بذلك مجاز أو كناية عن عدم الاعتداد فكأنه قيل : إنا لا نعتد بشأنكم ولا بشأن آلهتكم وما أنتم عندنا على شيء .

وفي "الكشف" أن الأصل كفرنا بما تعبدون ثم كفرنا بكم وبما تعبدون لأن من كفر بما أتى به الشخص فقد كفر به ، ثم اكتفى بكفرنا بكم لتضمنه الكفر بجميع ما أتوا به وما تلبسوا به لا سيما وقد تقدمه ﴿ أَنَّا بَرَاء ﴾ فسر بأنا لا نعتد الخ تنبيهاً على أنه تهكم بهم فإن ذلك لا يسمى كفراً لغة وعرفاً وإنما هو اسم يقع على أدخل الأشياء في الاستهجان والذم ، وما ذكرناه أقرب ، وهو معنى ما في "الكشاف" دونه ، وأما ما قيل : إن في الكلام معطوفاً على الجار والمجرور محذوفاً أي بكم وبما تعبدون ، وحذف اكتفاءً بدلالة السياق فليس بشيء .

﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة والبغضاء أَبَداً ﴾ أي هذا دأبنا معكم لا نتركه ﴿ حتى تُؤْمِنُواْ بالله وَحْدَهُ ﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك فتنقلب العداوة ولاية والبغضاء محبة ، وفسر الفيروزأبادي ﴿ البغضاء ﴾ بشدة البغض ضد الحب ، وأفاد أن العداوة ضد الصداقة ، وفسر الصداقة بالمحبة ، فالعداوة والبغضاء على هذا متقاربان ، وأفاد

الراغب أن العداوة منافاة الالتئام قلباً ، وقال : البغض نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه وهو ضد الحب ، ثم قال : يقال : بغض الشيء بغضاً وبعضة وبغضاء ، وهو نحو كلام الفيروزأبادي ، والذي يفهم من كلام غير واحد أنه كثيراً ما يعتبر في العداوة التخاذل دون البغضاء فليراجع هذا المطلب .

﴿ إِلَّا قَوْلَ إبراهيم لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ استثناء من قوله تعالى : ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ كما قاله قتادة .

(78/759)

وجماعة وهو على تقدير التجريد أو تفسيراً لأسوة بالاقتداء منقطع بلا ريب ، وأما على تقدير أن يراد بها ما يؤتسى به فقيل : هو متصل ؛ وقيل : منقطع ، وإليه ذهب الأكثر ، وتوجيه الاستثناء إلى العدة بالاستغفار لا إلى نفس الاستغفار المحكى عنه عليه السلام بقوله تعالى :

﴿ واغفر لِأَبِى ﴾ [الشعراء : 86] الآية مع أنه المراد قيل : لأنها كانت هي الحاملة له عليه السلام عليه ، ويعلم من ذلك استثناء نفس الاستغفار بطريق الأولى ، وجعلها بعضهم كناية عن الاستغفار لأن عدة الكريم خصوصاً مثل إبراهيم عليه السلام لا سيما إذا أكدت

بالقسم يلازمها الانجاز وليس بلازم كما لا يخفى ، وكأن هذه العدة غير العدة السابقة في سورة مريم في قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ الآية ولعلها وقعت منه عليه السلام بعد تلك تأكيداً لها وحكيت ههنا على سبيل الاستثناء .

(79/759)

وفي "الإرشاد" تخصيصها بالذكر دون ما وقع في سورة "مريم" لورودها على طريق التوكيد القسمي ، واستثناء ذلك من الأسوة الحسنة قيل : لأن استغفاره عليه السلام لأبيه الكافر بمعنى أن يوفقه الله تعالى للتوبة ويهديه سبحانه للإيمان وإن كان جائزاً عقلاً وشرعاً لوقوعه قبل تبين أنه من أصحاب الجحيم وأنه يموت عل الكفر كما دل عليه ما في سورة التوبة لكنه ليس مما ينبغي أن يؤتسى به أصلاً إذ المراد به ما يجب الائتساء به حتماً لورود الوعيد على الاعراض عنه بقوله تعالى بعد : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الغنى الحميد ﴾ [الممتحنة : 6] فاستثناؤه عما سبق إنما يفيد عدم وجوب استدعاء الايمان والمغفرة للكافر المرجوّ إيمانه ، وذلك مما لا يرتاب فيه عاقل ، وأما عدم جوازه فلا دلالة للاستثناء عليه قطعاً ، وزعم الإمام على ما نقل عنه دلالة الآية على ذلك ، ولا يلزم أن يكون الاستغفار منه عليه السلام معصية لأن كثيراً من خواص الأنبياء عليهم السلام لا يجوز التأسي به لأنه أبيح لهم خاصة

وهو كما ترى إذ هو ظاهر في أن ذلك الاستغفار الذي وقع منه عليه السلام لو فرض واقعاً من غيره لكان معصية وليس كذلك بل هو مباح ممن وقع .

(80/759)

وعن الطيبي ما حاصله : إن إبراهيم عليه السلام لما أجاب قول أبيه : ﴿ لأرْجُمَنَّكَ واهجرني مَلِيّاً ﴾ [مريم : 46] بقوله : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ [مريم : 47] رحمة ورأفة به ، ولم يكن عارفاً بإصراره على الكفر وفى بوعده ، وقال : ﴿ واغفر لِأبى ﴾ [الشعراء : 86] فلما تبين إصراره ترك الدعاء وتبرأ منه ، فظهر أن استغفاره لم يكن منكراً ، وهو في حياته بخلاف ما نحن فيه فإنه فصل عداوتهم وحرصهم على قطع أرحامهم بقوله تعالى : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ ﴾ [الممتحنة : 3] الخ وسلاحهم عن القطيعة بقصة إبراهيم عليه السلام ثم استثنى منها ما ذكر كأنه قيل : لا تجاملوهم ولا تبدوا لهم الرأفة كما فعل إبراهيم لأنه لم يتبين له كما تبين لكم انتهى ، وفيه رمز إلى احتمال أن يكون المستثنى نفس العدة من حيث دلالتها على الرأفة والرحمة ، ومآل ذلك استثناء الرأفة والرحمة ، وعلل بعض الأجلة عدم كون استغفاره عليه السلام لأبيه الكافر مما لا ينبغي أن يؤتسى به بأنه كان قبل النهي أو لموعدة وعدها إياه ؛ وتعقب الثاني بأن الوعد بالمحظور لا يرفع حظره ، والأول بأنه مبني

على تناول النهي لاستغفاره عليه السلام له مع أن النهي إنما ورد في شأن الاستغفار بعد تبين الأمر ، وقد كان استغفاره عليه السلام قبل ، ومنبىء عن كون الاستغفار مؤتسى به لو لم ينه عنه مع أن ما يؤتسى به ما يجب الائتساء به لا ما يجوز فعله في الجملة ، وأجيب بما لا يرفع القال والقيل ؛ فالأولى التعليل بما سبق .

(81/759)

واستظهر أبو حيان أن الاستثناء من مضاف لإبراهيم مقدر في نظم الآية الكريمة أي لقد كان لكم أسوة حسنة في مقالات إبراهيم ومحاوراته لقومه ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم ﴾ الخ ، وجزم باتصال الاستثناء عليه ، وكذا جزم الطيبي باتصاله على قول البغوي أي لكم أسوة حسنة في إبراهيم وأموره إلا في استغفاره لأبيه المشرك ، ولا يخفى أن التقدير خلاف الظاهر ، ومتى ارتكب فالأولى تقدير أمور ، بقي أنه قيل : إن الآية تدل على منع التأسي بإبراهيم عليه السلام في الاستغفار للكافر الحي مع أنه بالمعنى السابق أعني طلب الايمان له لا منع عنه .

وأجيب بأنه إنما منع من التأسي بظاهره وظن أنه جائز مطلقاً كما وقع لبعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وفيه أنه قد تقدم أن دلالة الآية على أن الاستغفار ليس مما يجب

الائتساء به حتماً لا على منعه وحرمته ، ثم إنه ينبغي أن يعلم أن تبين كون أبيه من أصحاب الجحيم الذي كان الاستغفار قبله كان في الدنيا وكذا التبري منه بعده ، وقد تقدم في سورة التوبة قول : بكون ذلك في الآخرة لدلالة ظواهر بعض الأخبار الصحيحة عليه فإنها دالة على أنه عليه السلام يشفع لأبيه يوم القيامة ، وهي استغفار أي استغفار فيه ، ولو كان تبين أنه يموت كافراً في الدنيا لم يكن ليشفع ، ويطلب على أتم وجه المغفرة له ضرورة أنه عليه السلام عالم أن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به ، وإنكار ذلك مما لا يكاد يقدم عليه عاقل ، والذاهبون إلى أن لتبين كان في الدنيا كما عليه سلف الأمة وهو الصحيح الذي أجزم به اليوم أشكلت عليهم تلك الظواهر من حيث دلالتها على الشفاعة التي هي في ذلك اليوم استغفار ، واتهموا وأنجدوا في الجواب عنها ، وقد تقدم جميع ما وجدته لهم فارجع إليهم واختر لنفسك ما يحلو .

(82/759)

ثم إني أقول الذي يغلب على ظني أن الاستغفار الذي كان منه عليه السلام قبل التبين بالمعنى المشهور لا بمعنى التوفيق للايمان ، والآيات التي في سورة التوبة وما ورد في سبب نزولها تؤيد ظواهرها ذلك .

والتزم أن امتناع جواز الاستغفار إنما علم بالوحي لا بالعقل لأنه يجوز أن يغفر الله تعالى للكافر وهو سبحانه الغفور الرحيم، وأنه عليه السلام لم يكن إذا استغفر عالماً بالوحي امتناعه، ومعنى الآية والله تعالى أعلم إن لكم الاقتداء بإبراهيم عليه السلام والذين معه في البراءة من الكفرة لكن استغفاره للكافر ليس لكم الاقتداء به فيه ومآله يجب عليكم البراءة ويحرم عليكم الاستغفار وإبداء الرأفة، فليس لكم الذي اعتبرناه في الاستثناء من باب قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين ءامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ ﴾ [التوبة: 113] الخ، ودلالة ذلك على المنع ظاهرة فتأمل جميع ما قدمناه، ووراءه كلام مبني على قول من قال: ليس لله عز وجل قضاء مبرم، ونقل ذلك عن القطب الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره، وشيد بعض الأجلة أركانه في رسائلة مستقلة بسط فيها الأدلة على ذلك لكنها لا تخلو عن بحث والله تعالى أعلم، وقوله سبحانه: ﴿ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله مِن شَىْء ﴾ من تمام القول المستثنى محله النصب على أنه حال من فاعل ﴿ لاَسْتَغْفِرَنَّ ﴾ ومورد الاستثناء نفس الاستغفار لا قيده فإنه في نفسه من خصال الخير لكونه إظهاراً للعجز وتفويضاً للأمر إلى الله تعالى، فالكلام من قبيل ما رجع فيه النفي للمقيد دون القيد.

وفي "الكشف" أنه وإن كان في نفسه كلاماً مطابقاً للواقع حسناً أن يجعل أسوة إلا أنه شفع بقوله: ﴿ لاَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ تحقيقاً للوعد كأنه قيل: لأستغفرن لك وما في طاقتي إلا هذا

فهو مبذول لا محالة ، وفيه أنه لو ملك أكثر من ذلك لفعل ، وعلى هذا فهو حقيق بالاستثناء ، وقوله عز وجل :

(83/759)

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ إلى آخره جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب متصلة معنى بقصة إبراهيم عليه السلام ومن معه على أنها بيان لحالهم في المجاهدة لأعداء الله عز وجل وقشر العصا ، ثم اللجأ إلى الله تعالى في كفاية شرهم وأن تلك منهم له عز وجل لا لحظ نفسي ، وقيل : اتصالها بما تقدم لفظي على أنها بتقدير قول معطوف على ﴿ قَالُواْ إِنَّا بُرَاء ﴾ أي وقالوا : ربنا الخ ، وجوز أن يكون المعنى قولوا ربنا أمراً منه تعالى للمؤمنين بأن يقولوه ، وتعليماً منه عز وجل لهم وتتميماً لما وصاهم سبحانه به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار والائتساء بإبراهيم عليه السلام وقومه في البراءة منهم وتنبيهاً على الإنابة إلى الله تعالى والاستعاذة به من فتنة أهل الكفر والاستغفار مما فرط منهم وهو كما قيل : وجه حسن لا يأباه النظم الكريم ، وفيه شمة من أسلوب ﴿ انتهوا خَيْراً لَّكُمْ ﴾ [النساء : 171] لأنه سبحانه لما حثهم على الائتساء بمن سمعت في الانتهاء عن الكفر وموالاة أهله ، ثم قال سبحانه ما يدل على اللجأ إليه تعالى يكون في المعنى نهياً عن

الأول وأمراً بالثاني .

وجعل بعضهم القول على هذا الوجه معطوفاً على ﴿ لَا تَتَّخِذُوا ﴾ أي وقولوا ربنا الخ ،

وأياً مّا كان فتقديم الجار والمجرور في المواضع الثلاثة للقصر كأنه قيل : ربنا عليك توكلنا لا

على غيرك وإليك أنبنا لا إلى غيرك وإليك المصير لا إلى غيرك .

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

أي لا تسلطهم علينا فيسبونا ويعذبونا قاله ابن عباس فالفتنة مصدر بمعنى المفتون أي

المعذب من فتن الفضة إذا أذابها فكأنه قيل : ربنا لا تجعلنا معذبين للذين كفروا ، وقال

مجاهد : أي لا تعذبنا بأيديهم ، أو بعذاب من عندك فيظنوا أنهم محقون وأنا مبطلون فيفتنوا

لذلك .

وقال قريباً منه قتادة .

(84/759)

وأبو مجلز ، والأول أرجح ، ولم تعطف هذه الجملة الدعائية على التي قبلها سلوكاً بهما

مسلك الجمل المعدودة ، وكذا الجملة الآتية ، وقيل : إن هذه الجملة بدل مما قبلها ، ورد

بعدم اتحاد المعنيين كلاً وجزءاً ولا مناسبة بينهما سوى الدعاء ﴿ واغفر لَنَا ﴾ ما فرط

منا ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب الذي لا يذل من التجأ إليه ؛ ولا يخيب رجاء من توكل عليه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(85/759)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ ﴾ .

صدر هذه الآية يفيد تأكيداً لمضمون جملة ﴿ إن يثقفوكم ﴾ [الممتحنة : 2] وجملة ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ﴾ [الممتحنة : 3] ، لأنها بما تضمنته من أن الموجه إليهم التوبيخ خالفوا الأسوةَ الحسنة تقوي إثبات الخطأ المستوجب للتوبيخ .

ذلك أنه بعد الفراغ من بيان خطأ من يوالي عدوّ الله بما يجرّ إلى أصحابه من مضارّ في الدنيا وفي الآخرة تحذيراً لهم من ذلك ، انتقل إلى تمثيل الحالة الصالحة بمثال من فعل أهل الإيمان الصادق والاستقامة القويمة وناهيك بها أسوة .

وافتتاح الكلام بكلمتي ﴿ قد كانت ﴾ لتأكيد الخبر ، فإن ﴿ قد ﴾ مع فعل الكون يراد بهما التعريض بالإنكار على المخاطب ولومه في الإعراض عن العمل بما تضمنه الخبر كقول

عُمر لابن عباس يوم طَعَنه غلامُ المغيرة : "قد كنتَ أنتَ وأبوك تُحبان أن يكثر هؤلاء الأعلاجُ بالمدينة" ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك ﴾ [ق : 22] توبيخاً على ما كان منهم في الدنيا من إنكار للبعث ، وقوله تعالى : ﴿ وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ [القلم : 43] وقوله : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ [الأحزاب : 21] .

ويتعلق ﴿ لكم ﴾ بفعل "كان" ، أو هو ظرف مستَقِرّ وقع موقع الحال من ﴿ أسوة حسنة ﴾ .

وإبراهيم عليه السلام مَثَل في اليقين بالله والغضب به ، عَرف ذلك العرب واليهود والنصارى من الأمم ، وشاع بين الأمم المجاورة من الكنعانيين والأَرَاميين ، ولعله بلغ إلى الهند .

وقد قيل : إن اسم (بَرهما) معبودِ البراهمة من الهنود مُحرف عن (اسم إبراهيم) وهو احتمال .

(86/759)

وعُطف ﴿ والذين معه ﴾ ليتم التمثيل لحال المسلمين مع رسولهم صلى الله عليه وسلم بحال إبراهيم عليه السلام والذين معه ، أي أن يكون المسلمون تابعين لرضى رسولهم صلى الله عليه وسلم كما كان الذين مع إبراهيم عليه السلام .

والمراد بـ ﴿ الذين معه ﴾ الذين آمنوا به واتبعوا هديه وهم زوجه سَارَةُ وابن أخيه لوطٌ ولم يكن لإِبراهيم أبناء ، فضمير ﴿ إذ قالوا ﴾ عائد إلى إبراهيم والذين معه فهم ثلاثة .

و ﴿ إذْ ﴾ ظرف زمان بمعنى حينَ ، أي الأسوة فيه وفيهم في ذلك الزمن .

والمراد بالزمن : الأحوال الكائنة فيه ، وهو ما تبينه الجملة المضاف إليها الظرف وهي جملة ﴿ قالوا لقومهم إنا برءآء منكم ﴾ الخ .

والإِسوة بكسر الهمزة وضمها : القُدوة التي يقتدَى بها في فعل ما .

فوصفت في الآية بـ ﴿ حسنة ﴾ وصفاً للمدح لأن كونها حسنة قد علم من سياق ما قبله وما بعده .

وقرأ الجمهور ﴿ إسوة ﴾ بكسر الهمزة ، وقرأه عاصم بضمها .

وتقدمت في قوله تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ في سورة [الأحزاب : 21] .

وحرف في ﴾ مستعار لقوة الملابسة إذ جعل تلبس إبراهيم والذين معه بكونهم أسوة حسنة ، بمنزلة تلبس الظرف بالمظروف في شدة التمكن من الوصف .

ولذلك كان المعنى : قد كانَ لكم إبراهيمُ والذين معه أسوةً في حين قولهم لقومهم .

فليس قوله : ﴿ إسوة حسنة في إبراهيم ﴾ من قبيل التجريد مثل قول أبي خالد العتابي .

وفي الرَّحمان للضعفاء كاف

لأن الأسوة هنا هي قول إبراهيم والذين معه لا أنفسهم .

و﴿ برءآء ﴾ بهمزتين بوزن فُعَلاء جَمْع بريء مثل كَرِيم وكُرماء .

وبريء فعيل بمعنى فاعل من بَرِىء من شيء إذا خَلاَ منه سواءً بعد ملابسته أو بدون ملابسة .

والمراد هنا التبرؤ من مخالطتهم وملابستهم .

.

وعطف عليه ﴿ ومما تعبدون من دون الله ﴾ أي من الأصنام التي تعبدونها من دون الله

والمراد بُرَءآء من عبادتها .

وجملة ﴿ كفرنا بكم ﴾ وما عطف عليها بيان لمعنى جملة ﴿ إنا برءآء ﴾ .

وضمير ﴿ بكم ﴾ عائد إلى مجموع المخاطبين من قومهم مع ما يعبدونه من دون الله ، ويفسَّر الكفرُ بما يناسب المعطوف عليه والمعطوف ، أي كفرنا بجميعكم فكفرهم بالقوم غير كفرهم بما يعبده قومهم .

وعُطف عليه ﴿ وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ﴾ وبدا معناه : ظهر ونشأ ، أي أحدثنا معكم العداوة ظاهرةً لا مواربة فيها ، أي ليست عداوة في القلب خاصة بل هي عداوة واضحة علانية بالقول والقلب .

وهو أقصى ما يستطيعه أمثالهم من درجات تغيير المنكر وهو التغيير باللسان إذ ليسوا بمستطيعين تغيير ما عليه قومهم باليَد لقلتهم وضعفهم بين قومهم .

و﴿ العداوة ﴾ المعاملة بالسوء والاعتداءِ .

و﴿ البغضاء ﴾ : نفرة النفس ، والكراهيةُ وقد تطلق إحداهما في موضع الأخرى إذا افترقتا ، فذِكرهما معاً هنا مقصود به حصول الحالتين في أنفسهم : حالة المعاملة بالعدوان ، وحالة النفرة والكراهية ، أي نُسِيءُ معاملتكم ونُضمر لكم الكراهية حتى تؤمنوا بالله وحده دون إشراك .

والمراد بقولهم هذا لقومهم أنهم قالوه مقال الصادق في قوله ، فالائتساء بهم في ذلك القول والعمل بما يترجم عليه القول مما في النفوس ، فالمؤتَسَى به أنهم كاشفوا قومهم بالمنافرة ، وصرحوا لهم بالبغضاء لأجل كفرهم بالله ولم يصانعوهم ويغضُّوا عن كفرهم لاكتساب

مودتهم كما فعل الموبخ بهذه الآية.

﴿ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبراهيم لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن ﴾ .

(88/759)

الأظهر أن هذه الجملة معترضة بين جمل حكاية مقال إبراهيم والذين معه وجملة ﴿ لقد كان لكم فيهم إسوة حسنة ﴾ [الممتحنة: 6] ، والاستثناء منقطع إذ ليس هذا القول من جنس قولهم: ﴿ إنا برءآء منكم ﴾ الخ، فإن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك رفقٌ بأبيه وهو يغاير التبرُّؤ منه، فكان الاستثناء في معنى الاستدراك عن قوله: ﴿ إذ قالوا لقومهم إنا برءآء منكم ﴾ الشامل لمقالة إبراهيم معهم لاختلاف جنسي القولين.

قال في "الكشاف" في قوله تعالى: ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط ﴾ في سورة [الحجر: 58، 59].

أنه استثناء منقطع من قوم ﴾ لأن القوم موصوفون بالإجرام فاختلف لذلك الجنسان اه.

فجعل اختلاف جنسي المستثنى والمستثنى منه موجباً اعتبار الاستثناء منقطعاً.

وفائدة الاستدراك هنا التعريض بخطأ حاطب ابن أبي بلتعة، أي إن كنتم معتذرين فليكن عذركم في مواصلة أعداء الله بأن تودُّوا لهم مغفرة كفرهم باستدعاء سبب المغفرة وهو أن

يهديهم الله إلى الدين الحق كما قال إبراهيم لأبيه ﴿ لأستغفرن لك ﴾ ، ولا يكون ذلك بمصانعة لا يفهمون منها أنهم منكم بمحلّ المودة والعناية فيزدادوا تعنتاً في كفرهم .

وحكاية قول إبراهيم لأبيه ﴿ وما أملك لك من الله من شيء ﴾ إكمال لجملة ما قاله إبراهيم لأبيه وإن كان المقصود من الاستثناء مجرد وعده بالاستغفار له فبني عليه ما هو من بقية كلامه لما فيه من الدلالة على أن الاستغفار له قد لا يقبله الله .

والواو في ﴿ وما أملك لك من الله من شيء ﴾ يجوز أن تكون للحال أو للعطف .

والمعنى متقارب ، ومعنى الحال أوضح وهو تذييل .

ومعنى الملك في قوله : ﴿ وما أملك ﴾ القدرة ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ قل فمن يملك من الله شيئاً ﴾ في سورة [العقود : 17] .

ومن شيء ﴾ عامّ للمغفرة المسؤولة وغيرها مما يريده الله به .

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ﴾ .

(89/759)

الأظهر أن يكون هذا من كلام إبراهيم وقومه وجملة ﴿ إلا قول إبراهيم ﴾ إلى آخرها معترضة بين أجزاء القول فهو مما أمر المسلمون أن يأتسوا به ، وبه يكون الكلام شديد

الاتصال مع قوله: ﴿ لقد كان لكم فيهم إسوة حسنة ﴾ [الممتحنة : 6] .

ويحتمل أن يكون تعليماً للمؤمنين أن يقولوا هذا الكلام ويستحضروا معانيه ليجري عملهم بمقتضاه فهو على تقدير أمر بقول محذوف والمقصود من القول العمل بالقول فإن الكلام يجدد المعنى في نفس المتكلم به ويذكر السامع من غفلته .

وهذا تتميم لما أوصاهم به من مقاطعة الكفار بعد التحريض على الائتساء بإبراهيم ومن معه .

فعلى المعنى الأول يكون حكاية لما قاله إبراهيم وقومه بما يفيد حاصل معانيه فقد يكون هو معنى ما حكاه الله عن إبراهيم من قوله : ﴿ الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفينِ والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ [الشعراء : 78 82] .

فإن التوكل على الله في أمور الحياة بسؤاله النجاح في ما يصلح أعمال العبد في مساعيه وأعظمه النجاحُ في دينه وما فيه قوام عيشه ثم ما فيه دفع الضرّ .

وقد جمعها قول إبراهيم هناك ﴿ فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ .

وهذا جمعه قوله هنا ﴿ عليك توكلنا ﴾ ﴿ والذي يميتني ثم يحيين ﴾ جمعه قوله : ﴿ وإليك المصير ﴾ فإن المصير مَصيرانِ مصيرُ بعد الحياة ومصير بعد البعث .

وقوله : ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي ﴾ فإن وسيلة الطمع هي التوبة وقد تضمنها قوله : ﴿ وإليك أنبنا ﴾ .

وعلى المعنى الثاني هو تعليم للمؤمنين أن يَصرفوا توجههم إلى الله بإرضائه ولا يلتفتوا إلى ما لا يرضاه وإن حسبوا أنهم ينتفعون به فإن رضى الله مقدم على ما دونه .

والقول في معنى التوكل تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ في سورة [آل عمران : 159] .

والإِنابة : التوبة ، وتقدمت عند قوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ في سورة [هود : 75] ، وعند قوله : ﴿ منيبين إليه ﴾ في سورة [الروم : 31] .

وتقديم المجرور على هذه الأفعال لإِفادة القصر ، وهو قصر بعضه ادعائي وبعضه حقيقي كما تصرف إليه القرينة .

وإعادة النداء بقولهم : ربنا ﴾ إظهار للتضرع مع كل دعوة من الدعوات الثلاث .

﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ واغفر لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ .

الفتنة : اضطراب الحال وفساده ، وهي اسم مصدر فتجيء بمعنى المصدر كقوله تعالى :

﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ [البقرة : 191] وتجيء وصفاً للمفتون والفاتن .

ومعنى جَعلهم فتنة للذين كفروا : جعلهم مفتونين يفتُنهم الذين كفروا ، فيصدق ذلك بأن يتسلط عليهم الذين كفروا فيفتنون كما قال تعالى : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين ﴾ [البروج : 10]الخ .

ويصدق أيضاً بأن تختل أمور دينهم بسبب الذين كفروا ، أي بمحبتهم والتقرب منهم كقوله تعالى حكاية عن دعاء موسى ﴿ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء ﴾ [الأعراف : 155].

وعلى الوجهين فالفتنة من إطلاق المصدر على اسم المفعول .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ في سورة [يونس : 85] .

واللام في للذين كفروا ﴾ على الوجهين للملك ، أي مفتونين مسخرين لهم .

ويجوز عندي أن تكون ﴿ فتنة ﴾ مصدراً بمعنى اسم الفاعل ، أي لا تجعلنا فاتنين ، أي سبب فتنة للذين كفروا ، فيكونَ كناية عن معنى لا تغلِّب الذين كفروا علينا واصرف عنا ما يكون به اختلال أمرنا وسوءِ الأحوال كيلا يكون شيء من ذلك فاتناً الذين كفروا ، أي

مقوياً فتنتهم فيُفْتَتَنُوا في دينهم ، أي يزدادوا كفراً وهو فتنة في الدين ، أي فيظنوا أنا على الباطل وأنهم على الحق ، وقد تطلق الفتنة على ما يفضي إلى غرور في الدين كما في قوله تعالى : ﴿ بل هي فتنة ﴾ في سورة [الزمر : 49] وقوله : ﴿ وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ في سورة [الأنبياء : 111] .

واللام على هذا الوجه لام التبليغ وهذه معان جمّة أفادتها الآية .

كَفَرُواْ واغفر لَنَا ﴾ .

أعقبوا دعواتهم التي تعود إلى إصلاح دينهم في الحياة الدنيا بطلب ما يصلح أمورهم في الحياة الآخرة وما يوجب رضى الله عنهم في الدنيا فإن رضاهُ يفضي إلى عنايته بهم بتسيير أمورهم في الحياتين .

وللإشعار بالمغايرة بين الدعوتين عطفت هذه الواو ولم تعطف التي قبلها .

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ العزيز ﴾ .

تعليل للدعوات كلها فإن التوكل والإنابة والمصير تناسب صفة ﴿ العزيز ﴾ إذ مثله يعامِل بمثل ذلك ، وطلبَ أن لا يجعلهم فتنة باختلاف معانيه يناسب صفة ﴿ الحكيم ﴾ ، وكذلك طلب المغفرة لأنهم لما ابتهلوا إليه أن لا يَجعلهم فتنة الكافرين وأن يغفر لهم رأوا أن حكمته تناسبها إجابة دعائهم لما فيه من صلاحهم وقد جاؤوا سائلينه . انتهى انتهى ا . هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أتم ما حثهم على التأسي فيه بذكر أعظم آبائهم لأن دواعي الإنسان إلى المداراة عما يخاف عليه من أقاربه وآله وجميع أحواله عظيمة جداً إن كان المدارأ عظيماً لا سيما إن كان قد تقدم له صداقة وبه ألفة ، فكان جديراً بعد الوعظ والتأسية أن يبقى عنده بقايا ولا سيما والناس متفاوتون ، منهم من يرده أيسر وعظ ومنهم من يحتاج إلى أكثر من ذلك أعاد التأسية تأكيداً لها على وجه بلغ الذروة من جمال الترغيب وجلال الترهيب ، وليكون فيها أتم دلالة على أن ما بينهما من قول إبراهيم عليه السلام المأمور بالتأسي به من الدعاء وغيره إلا ما استثنى لتشتد الرغبة فيه ، فقال مصدراً بما دل على القسم إشارة إلى أن من فعل غير هذا كان فعله فعل منكر لحسن هذا التأسي ، ولذلك ذكر الفعل الذي أنثه في الأول :

﴿ لقد كان لكم ﴾ أي أيها الذين ادعوا الإيمان ، وقدم الظرف بياناً للاهتمام به فقال :
﴿ فيهم ﴾ أي إبراهيم عليه السلام ومن معه ﴿ أسوة حسنة ﴾ وأبدل من ﴿ لكم ﴾ ما هو الفيصل في الدلالة على الباطل ، فقال مشيراً إلى أن من لم يتأس بهم في هذا لم يكن راجياً لما ذكر : ﴿ لمن كان ﴾ أي جبل على أنه ﴿ يرجوا الله ﴾ أي الملك المحيط بجميع صفات الكمال فهو ذو الجلال الذي يجير ولا يجار عليه ، والإكرام الذي هو جدير بأن يعطى جميع ما يسأله ﴿ واليوم الآخر ﴾ الذي يحاسب على ، النقير والقطمير ، ولا تخفى عليه خافية ، فمن لم يتأس بهم كان تركه للتأسي دليلاً على سوء عقيدته ، فلا يلومن إلا نفسه ، فقد أذن لإمام المسلمين إن عثر عليه في عقوبته ، فإن علم الغيب الذي أعلمناه نبينا . صلى الله عليه وسلم . بأن حاطباً . رضى الله عنه . صحيح العقيدة غير متأهل للعقوبة منقطع بموته . صلى الله عليه وسلم . ولا يبقى إلى ما نصبناه من الشعائر ، وأقمناه من الدلائل .

ولما كان التقدير : فمن أقبل على هذا التأسي لكونه يرجو الله واليوم الآخر فلم يخلد إلى الدنيا ، يتوله الله فإن الله رحيم ودود ، عطف عليه قوله : ﴿ ومن يتول ﴾ أي يوقع الإعراض عن أوامر الله تعالى في وقت من الأوقات مطلقاً لكونه أخلد إلى الدنيا ولم ير اليوم

الآخرة أعرض الله عنه ، وأشار بصيغة التفعل إلى أن ذلك لا يقع إلا بمعالجة الفطرة الأولى ، وأكد لأن فاعل ذلك كالمنكر لمضمون الكلام فقال : ﴿ فإن الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ هو ﴾ أي خاصة ﴿ الغني ﴾ أي عن كل شيء ﴿ الحميد ﴾ أي الذي له الحمد المحيط لإحاطته بأوصاف الكمال في حال الطاعة له والمعصية فإن العاصي عبد لإرادته ، كما أن المطيع عبد لآمره وإرادته ولطفه ، فلا يخرج شيء عن مراده ، وكل شيء خاضع لحكمه ، وقد بينت الآية أدب العشرة لما ألهبت وهيجت على المفارقة للعصاة والتبرء منهم حساً ومعنى ، وإظهار ذلك لهم قولاً وفعلاً ، إلى أن تحصل التوبة ، ومن لم يفعل ذلك كان شريكاً في الفعل فيكون شريكاً في الجزاء كما ورد ، ثم لا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وجليسه ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على ألسنة الأنبياء ، ومن فعل ما أمره الله به كان فعله جديرا بأن يكون سبب الوصله والقرب والمودة ، فالآية من الاحتباك : ذكر الرجاء أولاً دليلاً على ضده ثانياً ، والتولي ثانياً دليلاً على ضده أولاً ، وسره أنه ذكر سبب السعادة ترغيباً وسبب الشقاوة ترهيباً .

(94/759)

ولما أتم وعظهم بما هو الأنفع والأقرب إلى صلاحهم ففعلوا ، وكان ذلك شاقاً لما جبل عليه البشر من حب ذوي الأرحام والعطف عليهم ، فتشوفت النفوس إلى تخفيف بنوع من الأنواع ، أتبعه الترجئة فيما قصده حاطب. رضى الله عنه. بغير الطريق الذي يتوصل به فقال على عادة الملوك في الرمز إلى ما يريدونه فيقنع الموعود به بل يكون ذلك الرمز عنده أعظم من البت من غيرهم لما لهم من العظمة التي تقتضي النزاهة عما يلم بشائبة نقص ، وذلك أعظم في الإيمان بالغيب لأن الوعود لا تزال بين خوف ورجاء جواباً لمن كأنه كان يقول : كيف يكون الخلاص من مثل هذه الواقعة وقد بنيت يا رب هذه الدار على حكمة الأسباب : ﴿ عسى الله ﴾ أي أنتم جديرون بأن تطمعوا في الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ أن يجعل ﴾ بأسباب لا تعلمونها ﴿ بينكم وبين ﴾ أي في جميع الحد الفاصل بين المجموعين أو بين كل شخصين من الجمعين ﴿ الذين عاديتم ﴾ أي بالمخالفة في الدين ﴿ منهم ﴾ أي من هؤلاء الذين عادوكم بما تقدم بأعيانهم من أهل مكة ﴿ مودة ﴾ وقد جعل ذلك عام الفتح تحقيقاً لما رجاه سبحانه ، وأجرى سنته الإلهية بأن من عاديته فيه جعل عاقبة ذلك إلى ولاية عظيمة ، ومن تهاونت في مقاطعته فيه سبحانه أقامه لك ضداً .

ولما كان التقدير : فالله بكم رفيق ، عطف عليه تذكيراً لهم بما له سبحانه من العظمة قوله ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة بالكمال : ﴿ قدير ﴾ أي بالغ القدرة على كل ما يريده فهو يقدر على تقليب القلوب وتيسير العسير ، فلما تم الرجاء لم يبق إلا كدر الذنب فأتبعه تطييباً للقلوب مما نزلت هذه الآيات بسببه قوله : ﴿ والله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ غفور ﴾ أي محاء لأعيان الذنوب وآثارها ﴿ رحيم ﴾ يكرم الخاطئين إذا أراد بالتوبة ثم بالجزاء غاية الإكرام ، قال الرازي في اللوامع : كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ استعمل أبا سفيان ـ رضى الله عنه ـ على بعض اليمن ، فلما قبض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقبل فلقي ذا الحجار مرتداً فقاتله ، فكان أول من قاتل على الردة ، فتلك المودة بعد المعاداة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 557 ـ 558 ﴾

(96/759)

فصل

قال الفخر :

ثم أعاد ذكر الأسوة تأكيداً للكلام ، فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أي في

إبراهيم والذين معه ، وهذا هو الحث عن الائتساء بإبراهيم وقومه ، قال ابن عباس : كانوا يبغضون من خالف الله ويحبون من أحب الله ، وقوله تعالى : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللهَ ﴾ بدل من قوله : ﴿ لَكُمْ ﴾ وبيان أن هذه الأسوة لمن يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة ، ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي يعرض عن الائتساء بهم ويميل إلى مودة الكفار ﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الغنى ﴾ عن مخالفة أعدائه ﴿ الحميد ﴾ إلى أوليائه .

أما قوله : ﴿ عَسَى اللهُ ﴾ فقال مقاتل : لما أمر الله تعالى المؤمنين بعداوة الكفار شددوا في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقاربهم والبراءة منهم فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مِّنْهُم ﴾ أي من كفار مكة ﴿ مَّوَدَّةً ﴾ وذلك بميلهم إلى الإسلام ومخالطتهم مع أهل الإسلام ومناكحتهم إياهم .

(97/759)

وقيل : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة ، فلانت عند ذلك عريكة أبي سفيان ، واسترخت شكيمته في العداوة ، وكانت أم حبيبة قد أسلمت ، وهاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة ، فتنصر وراودها على النصرانية فأبت ، وصبرت على دينها ، ومات زوجها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي

، فخطبها عليه ، وساق عنه إليها أربعمائة دينار ، وبلغ ذلك أباها فقال : ذلك الفحل لا يقدع أنفه ، و ﴿ عَسَى ﴾ وعد من الله تعالى : ﴿ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ يريد نفراً من قريش آمنوا بعد فتح مكة ، منهم أبو سفيان بن حرب ، وأبو سفيان بن الحرث ، والحرث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وحكيم بن حزام ، والله تعالى قادر على تقليب القلوب ، وتغيير الأحوال ، وتسهيل أسباب المودة ، ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ بهم إذا تابوا وأسلموا ، ورجعوا إلى حضرة الله تعالى ، قال بعضهم : لا تهجروا كل الهجر ، فإن الله مطلع على الخفيات والسرائر .

ويروى : أحبب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما .

ومن المباحث في هذه الحكمة هو أن قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ﴾ إذا كان تأويله : لا تسلط علينا أعداءنا مثلاً ، فلم ترك هذا ، وأتى بذلك ؟ فنقول : إذا كان ذلك بحيث يحتمل أن يكون عبارة عن هذا ، فإذا أتى به فكأنه أتى بهذا وذلك ، وفيه من الفوائد ما ليس في الاقتصار على واحد من تلك التأويلات .

الثاني : لقائل أن يقول : ما الفائدة في قوله تعالى : ﴿ واغفر لَنَا رَبَّنَا ﴾ وقد كان الكلام مرتباً إذا قيل : لا تجعلنا فتنة للذين كفروا إنك أنت العزيز الحكيم فنقول : إنهم طلبوا البراءة عن الفتنة ، والبراءة عن الفتنة لا يمكن وجودها بدون المغفرة ، إذ العاصي لو لم يكن مغفوراً كان مقهوراً بقهر العذاب ، وذلك فتنة ، إذ الفتنة عبارة عن كونه مقهوراً ، و ﴿ الحميد ﴾ قد يكون بمعنى الحامد ، وبمعنى المحمود ، فالمحمود أي يستحق الحمد من خلقه بما أنعم عليهم ، والحامد أي يحمد الخلق ، ويشكرهم حيث يجزيهم بالكثير من الثواب عن القليل من الأعمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 262 . 263 ﴾

(99/759)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾

(100/759)

العدو اسم يقع للجمع والمفرد والمراد به هاهنا كفار قريش ، وهذه الآية نزلت بسبب حاطب بن أبي بلتعة ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الخروج إلى مكة عام الحديبية فورى عن ذلك بخيبر ، فشاع في الناس أنه خارج إلى خيبر ، وأخبر هو جماعة من كبار أصحابه بقصده ، منهم حاطب بن أبي بلتعة فكتب حاطب إلى قوم من كفار مكة يخبرهم بقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم فجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث علياً والزبير وثالثاً هو المقداد ، وقيل أبو مرثد ، وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين ، فانطلقوا حتى وجدوا المرأة واسمها سارة مولاة لقوم من قريش ، وقيل بل كانت امرأة من مزينة ولم تكن سارة ، فقالوا لها : أخرجي الكتاب . قالت : ما معي كتاب ، ففتشوا جميع رحلها فما وجدوا شيئاً ، فقال بعضهم : ما معها كتاب ، فقال علي : ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تكذبي والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك . قالت : أعرضوا عني فحلته من قرون رأسها ، وقيل : أخرجته من حجزتها ، فجاؤوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لحاطب : من كتب هذا ؟ فقال : أنا يا رسول الله ولكن لا تعجل علي فوالله ما فعلت ذلك ارتداداً عن ديني ولا رغبة عنه ولكني كنت أمراً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسها فأحببت أن تكون لي عندهم يد يرعوني بها في قرابتي . فقال عمر بن الخطاب : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

صدق حاطب إنه من أهل بدر وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر . فقال : " اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، ولا تقولوا لحاطب إلا خير " ، فنزلت الآية بهذا السبب ، وروي أن حاطباً كتب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوكم في مثل الليل ، والسيل ، وأقسم بالله لو غزاكم وحده لنصر عليكم فكيف وهو في جمع كثير ، و ﴿ تلقون ﴾ في موضع الصفة ل ﴿

(101/759)

أولياء ﴾ ، وألقيت يتعدى بحرف الجر ، وبغير حرف جر ، فدخول الباء وزوالها سواء ، وهذا نظير قوله عز وجل : ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ [طه : 39] وقوله تعالى : ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ [آل عمران : 151] وروى ابن المعلى عن عاصم أنه قرأ : " وقد كفروا لما " بلام . . .

(102/759)

وقوله تعالى : ﴿ يخرجون ﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿ كفروا ﴾ والمعنى : يخرجون الرسول ويخرجونكم ، وهي حال موصوفة ، فلذلك ساق الفعل مستقبلاً والإخراج قد مر ، وتضييق الكفار على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إخراج إذ كان مؤدياً إلى الخروج ، وقوله تعالى : ﴿ إن تؤمنوا ﴾ مفعول من أجله أي اخرجوا لأجل أن آمنتم بربكم ، وقوله تعالى : ﴿ إن كنتم ﴾ شرط جوابه متقدم في معنى ما قبله ، وجاز ذلك لما لم يظهر عمل الشرط ، والتقدير : " إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ، فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء " و ﴿ جهاداً ﴾ نصب على المصدر وكذلك ﴿ ابتغاء ﴾ ، ويجوز أن يكون ذلك مفعولاً من أجله ، و " المرضاة " مصدر كالرضى ، و ﴿ تسرون ﴾ بدل من ﴿ تلقون ﴾ ، ويجوز أن تكون في موضع خبر ابتداء ، كأنه قال أنتم ﴿ تسرون ﴾ ، ويصح أن تكون فعلاً مرسلاً ابتدئ به القول والإلقاء بالمودة معنى ما ، والإسرار بها معنى زائد على الإلقاء ، فيترجح بهذا أن ﴿ تسرون ﴾ فعل ابتدئ به القول أي تفعلون ذلك وأنا أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ أعلم ﴾ يحتمل أن يكون أفعل ، ويحتمل أن يكون فعلاً ، لأنك تقول علمت بكذا فتدخل الباء وقوله تعالى : ﴿ وأنا أعلم ﴾ الآية ، جملة في موضع الحال ، وقرأ أهل المدينة " وأنا " بإشباع الألف في الإدراج ، وقرأ غيرهم " وأنا " بطرح الألف في الإدراج ، والضمير في ﴿ يفعله ﴾ عائد على الاتخاذ المذكور ، ويجوز أن تكون ﴿ سواء ﴾ مفعولاً ب ﴿ ضل ﴾ وذلك على بعد ، وذلك

على تعدي ﴿ ضل ﴾ ، ويجوز أن يكون ظرفاً على غير التعدي لأنه يجيء بالوجهين والأول أحسن في المعنى ، والسواء الوسط وذلك لأنه تتساوى نسبته إلى أطراف الشيء والسبيل هنا شرع الله وطريق دينه .

إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2)

(103/759)

أخبر الله تعالى أن مداراة هؤلاء الكفار غير نافعة في الدنيا وأنها ضارة في الآخرة ليبين فساد رأي مصانعهم فقال تعالى : ﴿ إن يثقفوكم ﴾ أي إن يتمكنوا منكم وتحصلوا في ثقافهم ، ظهرت العداوة وانبسطت أيديهم بضرركم وقتلكم وألسنتهم بسبكم ، وهذا هو السوء ، وأشد من هذا كله أنهم إنما يقنعهم منكم أن تكفروا وهذا هو ودهم ، ثم أخبر تعالى أن هذه الأرحام التي رغبتم في وصلها ليست بنافعة يوم القيامة فالعامل في ﴿ يوم ﴾ قوله ﴿ تنفعكم ﴾ ، وقال بعض النحاة في كتاب الزهراوي ، العامل فيه ﴿ يفصل ﴾ وهو مما بعده لا مما قبله ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والعامة : "يُفْصَل" بضم الياء وسكون الفاء وتخفيف الصاد مفتوحة ، وقرأ ابن عامر والأعرج وعيسى : "يُفَصَّل" بضم

الياء وفتح الفاء وشد الصاد منصوبة ، واختلف على هاتين القراءتين في إعراب قوله : ﴿ بينكم ﴾ فقيل : نصب على الظرفية ، وقيل رفع على ما لم يسم فاعله إلا أن لفظه بقي منصوباً لأنه كذلك كثر استعماله ، وقرأ عاصم والحسن والأعمش : "يَفْصِل" بفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصاد خفيفة ، وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب : "يُفَصِّل" بضم الياء وفتح الفاء وشد الصاد المكسورة ، وإسناد الفعل في هاتين القراءتين إلى الله تعالى ، وقرأ النخعي وطلحة بن مصرف : "نُفَصِّل" بنون العظمة مرفوعة وفتح الفاء وشد الصاد المكسورة ، وقرأ بعض الناس : "نَفْصل" بنون العظمة مفتوحة وسكون الفاء ، وقرأ أبو حيوة ، بضم الياء وسكون الفاء وكسر الصاد خفيفة من : "أفصل" وفي قوله تعالى : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ وعيد وتحذير ، وقرأ جمهور السبعة : "إسوة" بكسر الهمزة ، وقرأ عاصم وحده : "أسوة" بضمها وهما لغتان ، والمعنى : قدوة وإمام ومثال ، و ﴿ إبراهيم ﴾ هو خليل الرحمن ، واختلف الناس في ﴿ الذين معه ﴾ ، فقال قوم من المتأولين أراد من آمن به من الناس ، وقال الطبري وغيره : أراد الأنبياء الذين

كانوا في عصره وقريباً من عصره ، وهذا القول أرجح لأنه لم يُروَ أن إبراهيم كان له أتباع مؤمنون في مكافحته نمروداً ، وفي البخاري أنه قال لسارة حين رحل بها إلى الشام مهاجراً من بلد النمرود : ما على الأرض من يعبد الله غيري وغيرك ، وهذه الأسوى مقيدة في التبري عن الإشراك وهو مطرد في كل ملة ، وفي نبينا عليه السلام أسوة حسنة على الإطلاق لأنها في العقائد وفي أحكام الشرع كلها ، وقرأ جمهور الناس " برءاء " على وزن فعلاء الهمزة الأولى لام الفعل ، وقرأ عيسى الثقفي : " بِراء " ، على وزن فِعال ، بكسر الباء ككريم وكرام ، وقرأ يزيد بن القعقاع : "بُراء " على وزن فُعال ، بضم الفاء كتوام ، وقد رويت عن عيسى قراءة ، قال أبو حاتم : زعموا أنه عيسى الهمداني ويجوز : "بَراء " على المصدر بفتح الباء يوصف به الجمع والإفراد ، وقوله : ﴿ كفرنا بكم ﴾ أي كذبناكم في أقوالكم ولم نؤمن بشيء منها ، ونظير هذا قوله عليه السلام حكاية عن قول الله عز وجل : فهو مؤمن بي كافر بالكوكب ولم تلحق العلامة في : ﴿ بدا ﴾ لأن تأنيث ﴿ العداوة والبغضاء ﴾ غير حقيقي ، ثم استثنى تعالى استغفار إبراهيم لأبيه ، وذكر أنه كان عن موعدة وقد تفسر ذلك في موضعه ، وهذا استثناء ليس من الأول ، والمعنى عند مجاهد وقتادة وعطاء الخراساني وغيرهم : أن الأسوة لكم في هذا الوجه ، لا في هذا الآخر لأنه كان في علة ليست في نازلتكم ، ويحتمل أن يكون استثناء من التبري والقطيعة التي ذكرت

أي لم تبق صلة إلا كذا ، وقوله تعالى : ﴿ ربنا عليك توكلنا ﴾ الآية ، حكاية عن قول إبراهيم والذين معه إنه هكذا كان .

(105/759)

قوله تعالى : ﴿ ربنا لا تجعلنا ﴾ الآية ، حكاية عن إبراهيم ومن معه والمعنى : لا تغلبهم علينا ، فتكون لهم فتنة وسبب ضلالة ، لأنهم يتمسكون بكفرهم ويقولون إنما غلبناهم لأنا على الحق وهم على الباطل ، نحا هذا المنحى قتادة وأبو مجلز ، وقال ابن عباس المعنى : لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن أدياننا فكأنه قال : لا تجعلنا مفتونين فعبر عن ذلك بالمصدر وهذا أرجح الأقوال لأنهم إنما دعوا لأنفسهم ، وعلى منحى قتادة إنما دعوا للكفار . أما أن مقصدهم إنما هو أن يندفع عنهم ظهور الكفار الذي يسببه فتن الكفار فجاء في المعنى تحليق بليغ ، ونحوه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " بئس الميت سعد – ليهود – لأنهم يقولون لو كان محمد نبياً لم يمت صاحبه " ، وقوله تعالى : ﴿ لقد كان لكم ﴾ الآية خطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم وقوله : ﴿ لمن ﴾ بدل من قوله ﴿ لكم ﴾ وكرر حرف الجر ليتحقق البدل وذلك عرف هذه المبدلات ، ومنه قوله تعالى ﴿ للفقراء المهاجرين ﴾ [الحشر : 8] وهو في القرآن كثير وأكثر ما يلزم من الحروف في اللام ، ثم أعلم تعالى

باستغنائه عن العباد وأنه ﴿ الحميد ﴾ في ذاته وأفعاله لا ينقص ذلك كفر كافر ولا نفاق منافق . وروي أن هذه الآيات لما نزلت وأزمع المؤمنون امتثال أمرها وصرم حبال الكفرة وإظهار عداوتهم لحقهم تأسف على قراباتهم وهم من أن لم يؤمنوا ولم يهتدوا حتى يكون بينهم الود والتواصل فنزلت : ﴿ عسى الله ﴾ الآية مؤنسة في ذلك ومرجية أن يقع موقع ذلك بإسلامهم في الفتح وصار الجميع إخواناً ، ومن ذكر أن هذه المودة تزويج النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأنها كانت بعد الفتح ، فقد أخطأ لأن النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها وقت هجرة الحبشة ، وهذه الآيات نزلت سنة ست من الهجرة ، ولا يصح ذلك عن ابن عباس إلا أن يسوقه مثالاً وإن كان متقدماً لهذه الآية ، لأنه استمر بعد الفتح كسائر ما نشأ من المودات ، و﴿ عسى ﴾ من الله واجبة الوقوع إن شاء الله تعالى .

انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(106/759)

وقال القرطبى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾

لما نهى عز وجلّ عن موالاة الكفار ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ، وأن من سيرته التبرُّؤ من

الكفار ؛ أي فاقتدوا به وأْتَمُّوا ؛ إلا في استغفاره لأبيه .

والإسْوَةُ ما يُتَأَسَّى به ، مثل القِدْوة والقُدْوة .

ويقال : هو إسوتك ؛ أي مثلك وأنت مثله .

وقرأ عاصم "أُسْوَة" بضم الهمزة لغتان .

﴿ والذين مَعَهُ ﴾ يعني أصحاب ابراهيم من المؤمنين .

وقال ابن زيد : هم الانبياء ﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ ﴾ الكفار ﴿ إِنَّا بُرَءآؤاْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ أي الأصنام .

وبُرَآء جمع بريء ؛ مثل شريك وشركاء ، وظريف وظرفاء .

وقراءة العامة على وزن فعلاء .

وقرأ عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق "بِرَاء" بكسر الباء على وزن فِعال ؛ مثل قَصير وقِصار ، وطَويل وطِوال ، وظَريف وظِراف .

ويجوز ترك الهمزة حتى تقول : بَراً ؛ وتنوّن .

وقرِىء "بَرَاء" على الوصف بالمصدر .

وقرىء "بُراء" على إبدال الضم من الكسر ؛ كرُخال ورُباب .

والآية نصٌ في الأمر بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام في فعله .

وذلك يصحّح أن شرع مَن قبلنا شَرْعٌ لنا فيما أخبر الله ورسوله .

﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أي بما آمنتم به من الأوثان .

وقيل : أي بأفعالكم وكذبناها وأنكرنا أن تكونوا على حق .

﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء أَبَداً ﴾ أي هذا دأبنا معكم ما دمتم على كفركم ﴿ حتى تُؤْمِنُواْ بالله وَحْدَهُ ﴾ فحينئذ تنقلب المعاداة موالاة ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ فلا تتأسّوْا به في الاستغفار فتستغفرون للمشركين ؛ فإنه كان عن مَوْعِدة منه له ؛ قاله قتادة ومجاهد وغيرهما .

وقيل : معنى الاستثناء أن إبراهيم هجر قومه وباعدهم إلا في الاستغفار لأبيه ، ثم بيّن عذره في سورة "التوبة" .

(107/759)

وفي هذا دلالة على تفضيل نبيّنا عليه الصلاة والسلام على سائر الأنبياء ؛ لأنا حين أُمِرْنَا بالاقتداء به أُمِرْنا أمراً مطلقاً في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] وحين أُمِرنا بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام استثنى بعض أفعاله .

وقيل : هو استثناء منقطع ؛ أي لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك ، إنما جرى لأنه ظنّ

أنه أسلم ، فلما بان له أنه لم يُسلم تبرّأ منه .

وعلى هذا يجوز الاستغفار لمن يُظنّ أنه أسلم ؛ وأنتم لم تجدوا مثل هذا الظن ، فِلم توالوهم .

﴿ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ هذا من قول إبراهيم عليه السلام لأبيه ؛ أي ما أدفع عنك من عذاب الله شيئاً إن أشركت به .

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ هذا من دعاء إبراهيم عليه السلام وأصحابه .

وقيل : علّم المؤمنين أن يقولوا هذا .

أي تبرّءوا من الكفار وتوكّلوا على الله وقولوا : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي اعتمدنا ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ أي رجعنا ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ لك الرجوع في الآخرة ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي لا تظهر عدوّنا علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتتنوا بذلك .

وقيل : لا تسلّطهم علينا فيفتنونا ويعذبونا .

﴿ وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ ﴾ .

أي في إبراهيم ومن معه من الأنبياء والأولياء .

﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أي في التبرّؤ من الكفار .

وقيل : كرّر للتأكيد .

وقيل : نزل الثاني بعد الأول بمدة ؛ وما أكثر المكررات في القرآن على هذا الوجه .

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي عن الإسلام وقبول هذه المواعظ ﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الغني ﴾ أي لم يتعبّدهم لحاجته إليهم.

﴿ الحميد ﴾ في نفسه وصفاته.

(108/759)

ولما نزلت عادى المسلمون أقرباءهم من المشركين؛ فعلم الله شدة وجد المسلمين في ذلك فنزلت: ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ وهذا بأن يُسلم الكافر.

وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة وخالطهم المسلمون؛ كأبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسُهيل بن عمرو، وحكيم بن حِزام.

وقيل: المودّة تزويج النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّ حَبيبة بنت أبي سفيان؛ فلانت عند ذلك عَرِيكة أبي سفيان، واسترخت شكيمته في العداوة.

قال ابن عباس: كانت المودّة بعد الفتح تزويج النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّ حبيبة بنت أبي سفيان؛ وكانت تحت عبد الله بن جَحْش، وكانت هي وزوجها من مهاجرة الحبشة.

فأمّا زوجها فتنصّر وسألها أن تتابعه على دينه فأبت وصبرت على دينها، ومات زوجها

على النصرانية .

فبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي فخطبها ؛ فقال النجاشي لأصحابه : من أولاكم بها ؟ قالوا : خالد بن سعيد بن العاص .

قال فزوِّجْها من نبيّكم .

ففعل ؛ وأمهرها النجاشي من عنده أربعمائة دينار .

وقيل : خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن عَفّان ، فلما زوّجه إياها بعث إلى النجاشي فيها ؛ فساق عنه المهر وبعث بها إليه .

فقال أبو سفيان وهو مشرك لما بلغه تزويج النبيّ صلى الله عليه وسلم ابنته : ذلك الفَحْلُ لا يُقْدَعُ أَنْفُه .

"يقدع" بالدال غير المعجمة ؛ يقال : هذا فحل لا يقدع أنفه ؛ أي لا يضرب أنفه .

وذلك إذا كان كريماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(109/759)

وقال الآلوسى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ ﴾

أي في إبراهيم عليه السلام ومن معه ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الكلام فيه نحو ما تقدم، وقوله تعالى:

﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللهَ واليوم الآخر ﴾ أي ثوابه تعالى أو لقاءه سبحانه ونعيم الآخرة أو أيام الله تعالى واليوم الآخر خصوصاً، والرجاء يحتمل الأمل والخوف صلة لحسنة أو صفة، وجوز كونه بدلاً من ﴿ لَكُمْ ﴾ بناءاً على ما ذهب إليه الأخفش من جواز أن يبدل الظاهر من ضمير المخاطب وكذا من ضمير المتكلم بدل الكل كما يجوز أن يبدل من ضمير الغائب، وأن يبدل من الكل بدل البعض.

وبدل الاشتمال.

وبدل الغلط.

ونقل جواز ذلك الإبدال عن سيبويه أيضاً، والجمهور على منعه وتخصيص الجواز ببدل البعض.

والاشتمال.

والغليط.

وذكر بعض الأجلة أنه لا خلاف في جواز أن يبدل من ضمير المخاطب بدل الكل فيما يفيد إحاطة كما في قوله تعالى: ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾ [المائدة: 114] وجعل ما هنا من ذلك وفيه خفاء، وجملة ﴿ لَقَدْ كَانَ ﴾ الخ قيل: تكرير لما تقدم من

المبالغة في الحث على الائتساء بإبراهيم عليه السلام ومن معه، ولذلك صدرت بالقسم وهو على ما قال الخفاجي: إن لم ينظر لقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُواْ ﴾ [الممتحنة: 4] فإنه قيد مخصص فإن نظر له كان ذلك تعميماً بعد تخصيص، وهو مأخوذ من كلام الطيبي في تحقيق أمر هذا التكرير.

والظاهر أن هذا مقيد بنحو ما تقدم كأنه قيل: لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة إذ قالوا الخ، وفي قوله سبحانه: ﴿ لِّمَن كَانَ ﴾ الخ إشارة إلى أن من كان يرجوا الله تعالى واليوم الآخر لا يترك الاقتداء بهم وإن تركه من مخايل عدم رجاء الله سبحانه واليوم الآخر الذي هو من شأن الكفرة بل مما يؤذن بالكفر كما ينبىء عن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الغنى الحميد ﴾ فإنه مما يوعد بأمثاله الكفرة.

(110/759)

﴿ عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مِّنْهُم ﴾

أي من أقاربكم المشركين ﴿ مَّوَدَّةً ﴾ بأن يوافقوكم في الدين، وعدهم الله تعالى بذلك لما رأى منهم التصلب في الدين والتشدد في معاداة آبائهم وأبنائهم وسائر أقربائهم ومقاطعتهم إياهم بالكلية تطييباً لقولهم، ولقد أنجز الله سبحانه وعده الكريم حين أتاح لهم الفتح

فأسلم قومهم فتم بينهم من التحابّ والتصافي ما تم ، ويدخل في ذلك أبو سفيان وأضرابه من مسلمة الفتح من أقاربهم المشركين .

وأخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر .

وابن عدي .

وابن مردويه .

والبيهقي في الدلائل .

وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : كانت المودة التي جعل الله تعالى بينهم تزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان فصارت أم المؤمنين وصار معاوية خال المؤمنين ، وأنت تعلم أن تزوجها كان وقت هجرة الحبشة ، ونزول هذه الآيات سنة ست من الهجرة فما ذكر لا يكاد يصح بظاهره ، وفي ثبوته عن ابن عباس مقال : ﴿ والله قَدِيرٌ ﴾ مبالغ في القدرة فيقدر سبحانه على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة ﴿ والله غَفُورٌ ﴾ مبالغ في المغفرة فيغفر جل شأنه لما فرط منكم في موالاتهم ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ مبالغ في الرحمة فيرحمكم عز وجل بضم الشمل واستحالة الخيانة ثقة وانقلاب المقت مقة ، وقيل : يغفر سبحانه لمن أسلم من

المشركين ويرحمهم ، والأول أفيد وأنسب بالمقام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(111/759)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ ﴾

تكرير قوله آنفاً ﴿ قد كانت لكم إسوة حسنة في إبراهيم ﴾ [الممتحنة : 4] الخ ، أعيد لتأكيد التحريض والحث على عدم إضاعة الائتساء بهم ، وليبنى عليه قوله لمن كان يرجو الله واليوم الآخر الخ .

وقُرن هذا التأكيد بلام القسم مبالغة في التأكيد .

وإنما لم تتصل بفعل ﴿ كان ﴾ تاء تأنيث مع أن اسمها مؤنث اللفظ لأن تأنيث أسوة غير حقيقي ، ولوقوع الفصل بين الفعل ومرفوعه بالجار والمجرور .

والإِسوة هي التي تقدم ذكرها واختلاف القرّاء في همزتها في قوله : ﴿ قد كانت لكم إسوة حسنة ﴾ .

وقوله : ﴿ لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر ﴾ بدل من ضمير الخطاب في قوله : ﴿ لكم ﴾

وهو شامل لجميع المخاطبين، لأن المخاطبين بضمير ﴿ لكم ﴾ المؤمنون في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ [الممتحنة: 1] فليس ذكر ﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ تخصيصاً لبعض المؤمنين ولكنه ذكر للتذكير بأن الإِيمان بالله واليوم الآخر يقتضي تأسيَهم بالمؤمنين السابقين وهم إبراهيم والذين معه.

وأعيد حرف الجر العامل في المبدل منه لتأكيد أن الإِيمان يستلزم ذلك.

والقصد هو زيادة الحث على الائتساء بإبراهيم ومن معه، وليرتب عليه قوله: ﴿ ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد ﴾، وهذا تحذير من العود لما نُهوا عنه.

ففعل ﴿ يتول ﴾ مضارع تولّى، فيجوز أن يكون ماضيه بمعنى الإِعراض، أي من لا يرجو الله واليوم الآخر ويعرض عن نهي الله فإن الله غنيّ عن امتثاله.

ويجوز عندي أن يكون ماضيه من التولي بمعنى اتخاذ الوَلي، أي من يتخذ عدو الله أولياء فإن الله غنيّ عن ولايته كما في قوله تعالى: ﴿ ومن يتولّهم منكم فإنه منهم ﴾ في سورة [العقود: 51].

وضمير الفصل في قوله : هو الغني ﴾ توكيد للحصر الذي أفاده تعريف الجزأين ، وهو حصر ادعائي لعدم الاعتداد بغنى غيره ولا بحمده ، أي هو الغني عن المتولين لأن النهي عما نهوا عنه إنما هو لفائدتهم لا يفيد الله شيئاً فهو الغني عن كل شيء .

وإتْباع ﴿ الغني ﴾ بوصف ﴿ الحميد ﴾ تتميم ، أي الحميد لمن يمتثل أمره ولا يعرض عنه أو ﴿ الحميد ﴾ لمن لا يتخذ عدوه ولياً على نحو قوله تعالى : ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ [الزمر : 7] .

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً

اعتراض وهو استئناف متصل بما قبله من أول السورة خوطب به المؤمنون تسلية لهم على ما نُهوا عنه من مواصلة أقربائهم ، بأن يرجوا من الله أن يجعل قطيعتهم آيلة إلى مودة بأن يُسلم المشركون من قرابة المؤمنين وقد حقق الله ذلك يوم فتح مكة بإسلام أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام .

قال ابن عباس : كان من هذه المودة تزوج النبي صلى الله عليه وسلم أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان ، تزوجها بعد وفاة زوجها عبدِ الله بن جَحش بأرض الحبشة بعد أن تنصَّر زوجها فلما تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم لانت عريكة أبي سفيان وصرح بفضل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " ذلك الفحل لا يُقْدَع أنفه " (روي بدال بعد القاف يُقال : قَدع أنفَه . إذا ضرَب أنفه بالرّمح) وهذا تمثيل ، كانوا إذا نزا فحل غير كريم على ناقة كريمة دفعوه عنها

بضرب أنفه بالرمح لئلا يكون نَتاجها هَجيناً .

وإذ تقدم أن هذه السورة نزلت عام فتح مكة وكان تزوج النبي صلى الله عليه وسلم أمّ حبيبة في مدة مهاجرتها بالحبشة وتلك قبل فتح مكة كما صرح به ابن عطية وغيره.

يعني فتكون آية ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم ﴾ الخ نزلت قبل نزول أول السورة ثم ألحقت بالسورة.

(113/759)

وإما أن يكون كلام ابن عباس على وجه المثال لحصول المودة مع بعض المشركين، وحصولُ مثل تلك المودة يهيّىء صاحبه إلى الإِسلام واستبعد ابن عطية صحة ما روي عن ابن عباس.

و﴿ عسى ﴾ فعل مقاربة وهو مستعمل هنا في رجاء المسلمين ذلك من الله أو مستعملة في الوعد مجردة عن الرجاء.

قال في "الكشاف": كما يقول المَلك في بعض الحوائج عسى أو لعل فلا تبقى شبهة للمحتاج في تمام ذلك.

وضمير ﴿ منهم ﴾ عائد إلى العدوّ من قوله: ﴿ لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾

[الممتحنة : 1] .

وجملة ﴿ والله قدير ﴾ تذييل .

والمعنى : أنه شديد القدرة على أن يغير الأحوال فيَصيرَ المشركون مؤمنين صادقين وتصيرون أوِدَّاء لهم .

وعطف على التذييل جملة ﴿ والله غفور رحيم ﴾ ، أي يغفر لمن أنابوا إليه ويرحمهم فلا عجب أن يصيروا أودّاء لكم كما تصيرون أوداء لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(114/759)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾

أخرج أحمد والحميدي وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأبو عوانة وابن حبان وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وأبو نعيم معاً في الدلائل " عن عليّ قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد ،

فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فائتوني به ، فخرجنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجي الكتاب . قالت : ما معي كتاب . قلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ، فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما هذا يا حاطب ؟ قال : لا تعجل عليّ يا رسول الله ، إني كنت امرأ ملصقاً من قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم : قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني فقال النبي صلى الله عليه وسلم : صدق ، فقال عمر : دعني يا رسول الله فأضرب عنقه ، فقال إنه شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، ونزلت فيه ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ " .

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر من طريق الحارث عن علي قال : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي مكة أسر إلى ناس من أصحابه أنه يريد الدخول إلى مكة منهم حاطب بن أبي بلتعة ، وأفشى في الناس أنه يريد خيبر ، فكتب حاطب إلى أهل مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعثني أنا ومن معي فقال : ائتوا روضة خاخ فذكر له ما تقدم فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذرر من طريق قتادة وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه في الآية قال : لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم السيرورة من الحديبية إلى مشركي قريش كتب إليها حاطب بن أبي بلتعة يحذرهم ، فأطلع الله نبيه على ذلك ، فوجد الكتاب مع امرأة في قرن من رأسها فقال له : ما حملك على الذي صنعت ؟ قال : أما والله ما ارتبت في أمر الله ، ولا شككت فيه ، ولكنه كان لي بها أهل ومال ، فأردت مصانعة قريش ، وكان حليفاً لهم ، ولم يكن منهم ، فأنزل الله فيه القرآن ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم ﴾ الآية .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم ﴾ الآية ، قال : نزلت في رجل كان مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة من قريش كتب إلى أهله وعشيرته بمكة يخبرهم وينذرهم أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم سائر إليهم ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحيفته فبعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فأتاه بها .

(116/759)

وأخرج أبو يعلى والحاكم وصححه وابن مردويه والضياء في المختارة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : "كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين بكتاب فجيء به إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا حاطب ما دعاك إلى ما صنعت ؟ قال : يا رسول الله كان أهلي فيهم فخشيت أن يصرموا عليهم ، فقلت : أكتب كتاباً لا يضر الله ورسوله ، فقلت : أضرب عنقه يا رسول الله فقد كفر ، فقال : وما يدريك يا ابن الخطاب أن يكون الله أطلع على أهل العصابة من أهل بدر ؟ فقال : "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" " .

(117/759)

وأخرج ابن مردويه من طريق شهاب "عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة ، وحاطب رجل من أهل اليمن كان حليفاً للزبير بن العوام من أصحاب النبي

صلى الله عليه وسلم قد شهد بدراً ، وكان بنوه وإخوته بمكة ، فكتب حاطب وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة إلى كفار قريش بكتاب ينتصح لهم فيه ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً والزبير ، فقال لهما انطلقا حتى تدركا امرأة معها كتاب ، فخذا الكتاب ، فائتياني به ، فانطلقا حتى أدركا المرأة بحليفة بني أحمد ، وهي من المدينة على قريب من اثني عشر ميلاً ، فقالا لها : أعطينا الكتاب الذي معك . قالت : ليس معي كتاب . قالا كذبت قد حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن معك كتاباً ، والله لتعطين الكتاب الذي معك أو لا نترك عليك ثوباً إلا التمسنا فيه . قالت : أو لستم بناس مسلمين ؟ قالا : بلى ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حدثنا أن معك كتاباً حتى إذ ظنت أنهما ملتمسان كل ثوب معها حلت عقاصها ، فأخرجت لهما الكتاب من بين قرون رأسها كانت قد اعتقصت عليه ، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً ، قال : أنت كتبت هذا الكتاب ؟ قال : نعم قال : فما حملك على أن تكتب به ؟ قال حاطب : أما والله ما ارتبت منذ أسلمت في الله عز وجل ، ولكني كنت امرأ غريباً فيكم أيها الحيّ من قريش وكان لي بنون وإخوة بمكة فكتبت إلى كفار قريش بهذا الكتاب لكي أدفع عنهم ، فقال عمر : ائذن لي يا رسول الله أضرب عنقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دعه فإنه قد شهد بدراً ، وإنك لا تدري لعل الله أطلع على أهل

بدر فقال : اعملوا ما شئتم فإني غافر لكم ما عملتم فأنزل الله في ذلك ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ حتى بلغ ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة

حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ " .

أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عروة مرسلاً .

وأخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس يوم الفتح إلا أربعة : عبد الله بن خطل ، ومقيس بن صبابة ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وأم سارة ، فذكر الحديث قال : وأما أم سارة فإنها كانت مولاة لقريش فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشكت إليه الحاجة ، فأعطاها شيئاً ، ثم أتاها رجل ، فبعث معها بكتاب إلى أهل مكة يتقرب بذلك إليها لحفظ عياله ، وكان له بها عيال ، فأخبر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فبعث في أثرها عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، فلقياها في الطريق ، ففتشاها ، فلم يقدرا على شيء معها ، فأقبلا راجعين ، ثم قال أحدهما لصاحبه : والله ما كذبنا ولا كذبنا ارجع بنا إليها ، فرجعا

إليها ، فسلاّ سيفهما ، فقالا : والله لنذيقنك الموت أو لتدفعنّ إلينا الكتاب ، فأنكرت ، ثم قالت : أدفعه إليكما على أن لا تردّاني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبلا ذلك منها فحلت عقاص رأسها ، فأخرجت الكتاب من قرن من قرونها ، فدفعته إليهما ، فرجعا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إليه ، فدعا الرجل فقال : ما هذا الكتاب ؟ فقال : أخبرك يا رسول الله أنه ليس من رجل ممن معك إلا وله بمكة من يحفظ عياله ، فكتبت بهذا الكتاب ليكونوا لي في عيالي ، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ الآية .

(119/759)

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : "كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين كتاباً يذكر فيه مسير النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعث به مع امرأة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبها فأخذ الكتاب منها فجيء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا حاطباً فقال : أنت كتبت هذا الكتاب ؟ قال : نعم يا رسول الله ، أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ، وما كفرت منذ أسلمت ولا شككت منذ استيقنت ، ولكني كنت امرأ لا نسب لي في القوم ، إنما كنت حليفهم ، وفي أيديهم من أهلي ما قد علمت ، فكتبت إليهم

بشيء قد علمت أن لن يغني عنهم من الله شيئاً أراده أن أدرأ به عن أهلي ومالي ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله خلّ عني وعن عدوّ الله هذا المنافق فأضرب عنقه ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم نظراً عرف عمر أنه قد غضب ، ثم قال : " ويحك يا عمر بن الخطاب وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل موطن من مواطن الخير فقال للملائكة : اشهدوا أني قد غفرت لأعبدي هؤلاء فليعملوا ما شاؤوا ؟ " قال عمر : الله ورسوله أعلم . قال : " إنهم أهل بدر فاجتنب أهل بدر إنهم أهل بدر ، فاجتنب أهل بدر إنهم أهل بدر فاجتنب أهل بدر " " .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد " عن جابر أن حاطب بن أبي بلتعة كتب إلى أهل مكة يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد غزوهم ، فدلّ النبي صلى الله عليه وسلم على المرأة التي معها الكتاب ، فأرسل إليها ، فأخذ كتابها من رأسها ، فقال : يا حاطب أفعلت ؟ قال : نعم أما إني لم أفعل غشاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نفاقاً قد علمت أن الله مظهر رسوله ومتم له غير أني كنت غريباً بين ظهرانيهم ، وكانت والدتي فأردت أن أخدمها عندهم ، فقال له عمر : ألا أضرب رأس هذا ؟ قال : أتقتل رجلاً من أهل بدر ، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر وقال : " اعملوا ما شئتم " " .

وأخرج عبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي " عن جابر أن عبداً لحاطب بن أبي بلعتة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشتكي حاطباً فقال : يا رسول الله ليدخلن حاطب النار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كذبت لا يدخلها فإنه قد شهد بدراً والحديبية " " .

وأخرج ابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : اسم الذي أنزلت فيه ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ حاطب بن أبي بلتعة .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : " ذكر لنا أن حاطب بن أبي بلتعة كتب إلى أهل مكة يحذرهم سيرورة رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية ، فأطلع الله نبيه على ذلك ، فقال له نبي الله : ما حملك على الذي صنعت ؟ قال : أما والله ما شككت في أمري ، ولا ارتبت فيه ، ولكن كان لي هناك مال وأهل ، فأردت مصانعة قريش على أهلي ومالي ، وذكر لنا أنه كان حليفاً لقريش ، ولم يكن من أنفسهم ، فأنزل الله القرآن وقال : ﴿ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴾ إلى قوله : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ قال : يقول فلا تأسوا في ذلك فإنها كانت موعدة وعدها إياه ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا يقول : لا تظهرهم علينا ففتنوا بذلك يرون أنهم إنما ظهروا لأنهم أولى بالحق منا " .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ إلى قوله ﴿ بما تعملون بصير ﴾ قال : في مكاتبة حاطب بن أبي بلتعة ومن معه إلى كفار قريش يحذرونهم . وفي قوله ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه ﴾ قال : نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه فيستغفروا للمشركين ، وفي قوله : ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ قال : لا تعذبنا بأيديهم ولا تعذب من عبدك فيقولوا : لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا .

(121/759)

وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس ﴿ لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ إلى قوله : ﴿ بصير ﴾ في مكاتبة حاطب بن أبي بلتعة ومن معه إلى كفار قريش يحذرونهم ، وقوله : ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه ، وقوله : ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك ، فيقولون : لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة ﴾ قال : في صنع إبراهيم كله إلا في الاستغفار لأبيه لا يستغفر له وهو مشرك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ يقول : لا تسلطهم علينا فيفتنونا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 129.124 ﴾

(122/759)

قوله تعالى ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم الوعظ والتأسية وتطبيب النفوس بالترجئة ، وكان وصف الكفار بالإخراج لهم من ديارهم يحتمل أن يكون بالقوة فيعم ، ويحتمل أن يكون بالفعل فيخص أهل مكة أو من باشر الأذى الذي تسبب عنه الخروج منهم ، بين ذلك بقوله مؤذناً بالإشارة إلى الاقتصاد في الولاية والعداوة كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون

بغيضك يوماً ما .

وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما " ﴿ لا ينهاكم الله ﴾ أي الذي اختص بالجلال والإكرام ﴿ عن الذين لم يقاتلوكم ﴾ أي بالفعل ﴿ في الدين ﴾ أي بحيث تكونون مظروفين له ليس شيئاً من أحوالهم خارجاً عنه ، فأخرج ذلك القتال بسبب حق دنيوي لا تعلق له بالدين ، وأخرج من لم يقاتل أصلاً كخزاعة والنساء ، ومن ذلك أهل الذمة بل الإحسان إليهم من محاسن الأخلاق ومعالي الشيم لأنهم جيران .

ولما كان الذين لم يقاتلوا لذلك ربما كانوا قد ساعدوا على الإخراج قال : ﴿ ولم يخرجوكم ﴾ وقيد بقوله : ﴿ من دياركم ﴾ ولما كان قد وسع لهم سبحانه بالتعميم في إزالة النهي خص بقوله مبدلاً من " الدين " : ﴿ أن ﴾ أي لا ينهاكم عن أن ﴿ تبروهم ﴾ بنوع من أنواع البر الظاهرة فإن ذلك غير صريح في قصد المواددة ﴿ وتقسطوا ﴾ أي تعدلوا العدل الذي هو في غاية الاتزان بأن تزيلوا القسط الذي هو الجور ، وبين أن المعنى : موصلين لذلك الإقساط ﴿ إليهم ﴾ إشارة إلى أن فعل الإقساط ﴿ إليهم ﴾ إشارة إلى أن فعل الإقساط ضمن الاتصال ، وإلى أن ذلك لا يضرهم وإن تكفلوا الإرسال إليهم من البعد بما أذن لهم فيه فإن ذلك من الرفق والله يحب الرفق في جميع الأمور ويعطي عليه ما لا يعطي على الخرق ، ثم علل ذلك بقوله مؤكداً دفعاً لظن من يرى أذى الكفار بكل طريق ، ﴿ إن الله ﴾ أي الذي

له الكمال كله ﴿ يحب ﴾ أي يفعل المحب مع ﴿ المقسطين ﴾ أي الذين يزيلون الجور ويوقعون العدل .

(123/759)

ولما علم الحال من هذا وما في أول السورة ، أتبعه التصريح بما أفاده مجموعاً أحسن جمع مصوراً أحسن تصوير فقال تعالى : ﴿ إنما ينهاكم الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة علماً وقدرة ﴿ عن الذين قاتلوكم ﴾ متعمدين لقتالكم كائنين ﴿ في الدين ﴾ ليس شيء من ذلك خارجاً عنه ، لتكون العداوة في الله ﴿ وأخرجوكم من دياركم ﴾ أي بأنفسهم لبغضكم ﴿ وظاهروا ﴾ أي عاونوا غيرهم ﴿ على إخراجكم ﴾ ولما تناول هذا المقصودين صريحاً ، وكان النهي الذي موضعه الأفعال قد علق بأعيانهم تأكيداً له ، عرف بالمقصود بقوله : ﴿ أن ﴾ أي إنما ينهاكم عن المذكورين في أن ﴿ تولوهم ﴾ أي تكلفوا فطركم الأولى أن تفعلوا معهم جميع ما يفعله القريب الحميم الشفيق فتصرحوا بأنهم أولياؤكم وتناصروهم ولو كان ذلك على أدنى الوجوه - بما أشار إليه إسقاط التاء .

ولما كان التقدير : فمن أطاع فأولئك هم المفلحون ، عطف عليه قوله : ﴿ ومن يتولّهم ﴾ أي يكلف نفسه الحمل على غير ما يدعو إليه الفطرة الأولى من المنابذة ، وأطلق ولم يقيد ب

" منكم " ليعم المهاجرين وغيرهم والمؤمنين وغيرهم : ﴿ فأولئك ﴾ أي الذين أبعدوا عن العدل ﴿ هم ﴾ أي خاصة لا غيرهم العريقون في أنهم ﴿ الظالمون ﴾ أي العريقون في إيقاع الأشياء في غير مواضعها كمن يمشي في مأخذ الاشتقاق بسبب هذا التولي . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 559 . 560 ﴾

(124/759)

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى بعدما ذكر من ترك انقطاع المؤمنين بالكلية عن الكفار رخص في صلة الذين لم يقاتلوهم من الكفار فقال :

لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ

اختلفوا في المراد من ﴿ الذين لَمْ يقاتلوكم ﴾ فالأكثرون على أنهم أهل العهد الذين عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك القتال ، والمظاهرة في العداوة ، وهم خزاعة كانوا عاهدوا الرسول على أن لا يقاتلوه ولا يخرجوه ، فأمر الرسول عليه السلام بالبر والوفاء إلى مدة أجلهم ، وهذا قول ابن عباس والمقاتلين والكلبي ، وقال مجاهد : الذين آمنوا بمكة

ولم يهاجروا ، وقيل : هم النساء والصبيان ، وعن عبد الله بن الزبير : أنها نزلت في أسماء بنت أبي بكر قدمت أمها فتيلة عليها وهي مشركة بهدايا ، فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول ، فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم أن تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن إليها ، وعن ابن عباس : أنهم قوم من بني هاشم منهم العباس أخرجوا يوم بدر كرهاً ، وعن الحسن : أن المسلمين استأمروا رسول الله في أقربائهم من المشركين أن يصلوهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقيل الآية في المشركين ، وقال قتادة نسختها آية القتال .

(125/759)

وقوله : ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ بدل من ﴿ الذين لَمْ يقاتلوكم ﴾ وكذلك ﴿ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ بدل من ﴿ الذين قاتلوكم ﴾ والمعنى : لا ينهاكم عن مبرة هؤلاء ، وإنما ينهاكم عن تولي هؤلاء ، وهذا رحمة لهم لشدتهم في العداوة ، وقال أهل التأويل : هذه الآية تدل على جواز البر بين المشركين والمسلمين ، وإن كانت الموالاة منقطعة ، وقوله تعالى : ﴿ وَتُقْسِطُواْ إِلَيْهِمْ ﴾ قال ابن عباس يريد بالصلة وغيرها ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ﴾ يريد أهل البر والتواصل ، وقال مقاتل : أن توفوا لهم بعهدهم وتعدلوا ، ثم ذكر من الذين ينهاهم عن صلتهم فقال : ﴿ إِنَّمَا ينهاكم الله عَنِ الذين قاتلوكم فِى الدين . . .

أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ وفيه لطيفة : وهي أنه يؤكد قوله تعالى : ﴿ لاَّ ينهاكم الله عَنِ الذين لَمْ يقاتلوكم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 263 ﴾

(126/759)

وقال ابن عطية :

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ ﴾

(127/759)

اختلف الناس في هؤلاء الذين لم ينه عنهم أن يبروا من هم . فقال مجاهد : هم المؤمنون من أهل مكة الذين آمنوا ولم يهاجروا وكانوا لذلك في رتبة سوء لتركهم فرض الهجرة وقال آخرون : أراد المؤمنين التاركين للهجرة كانوا من أهل مكة ومن غيرها . وقال الحسن وأبو صالح : أراد خزاعة وبني الحارث بن كعب ، وقبائل منا لعرب كفار إلا أنهم كانوا مظاهرين للنبي صلى الله عليه وسلم محبين فيه وفي ظهوره ، ومنهم كنانة وبنو الحارث بن عبد مناة ومزينة ، وقال قوم : أراد من كفار قريش من لم يقاتل : ولا أخرج ولا أظهر سوءاً ، وعلى

هذين القولين فالآية منسوخة بالقتال ، وقال عبد الله بن الزبير : أراد النساء والصبيان من الكفرة ، وقال إن الآية نزلت بسبب أم أسماء حين استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في برها وصلتها فأذن لها ، وكانت المرأة خالتها فيما روي فسمتها في حديثها أماً ، وقال أبو جعفر بن النحاس والثعلبي : أراد المستضعفين من المؤمنين الذين لم يستطيعوا الهجرة ، وهذا قول ضعيف . وقال مرة الهمداني وعطية العوفي : نزلت في قوم من بني هاشم ، منهم العباس ، قال وقتادة نسختها ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : 5] .

وقوله تعالى : ﴿ أن تبروهم ﴾ بدل ، وهذا هو بدل الاشتمال ، والإقساط : العدل ، و﴿ ظاهروا ﴾ معناه : عاونوا ، و" الذين قاتلوا في الدين وأخرجوا " هم مردة قريش

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ الآية نزلت إثر صلح الحديبية ، وذلك أن الصلح تضمن أن يرد المؤمنون إلى الكفار كل من جاء مسلماً من رجل وامرأة فنقض الله تعالى من ذلك أمر النساء بهذه الآية ، وحكم أن المهاجرة لا ترد إلى الكفار بل تبقى تستبرئ وتتزوج ويعطى زوجها الكافر الصداق الذي أنفق ، وأمر أيضاً المؤمنين بطلب صداق من فرت امرأته من المؤمنين ، وحكم تعالى بهذا في النازلة وسماهم مؤمنات قبل أن يتيقن ذلك إذ هو ظاهر أمرهن ، و﴿ مهاجرات ﴾

نصب على الحال ، ﴿ فامتحنوهن ﴾ معناه : جربوهن واستخبروا حقيقة ما عندهن .

واختلف الناس في هذا الامتحان كيف هو ، فقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وعكرمة : كان بأن تستحلف المرأة أنها ما هاجرت لبغض زوجها ولا لجريرة جرت ولا لسبب من أعراض الدنيا سوى حب الله ورسوله والدار الآخرة . قال ابن عباس : الامتحان أن تطلب بأن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا فعلت ذلك لم ترد ، فقال فريق منهم عائشة أم المؤمنين : الامتحان هو أن تعرض عليها الشروط التي في الآية بعد هذا من ترك الزنا والسرقة والبهتان والعصيان ، فإذا أقرت بذلك فهو امتحان ، وقيل : إن هذه الآية نزلت في أميمة بنت بشر امرأة حسان بن الدحداحة وفي كتاب الثعلبي أنها نزلت في سبيعة بنت الحارث ، وقوله تعالى : ﴿ الله أعلم بإيمانهم ﴾ إشارة إلى الاسترابة ببعضهن وحض على امتحانهن ، وذكر تعالى العلة في أن لا يرد النساء إلى الكفار وهي امتناع الوطء وحرمته ، وقرأ طلحة : "لا هن يحللن لهم" . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ

﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : هذه الآية رُخصة من الله تعالى في صِلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم .

قال ابن زيد : كان هذا في أوّل الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال ثم نسخ .

قال قتادة : نسختها ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5] .

وقيل : كان هذا الحكم لعلة وهو الصلح ، فلما زال الصلح بفتح مكة نُسخ الحكم وبقي الرسم يُتْلَى .

وقيل : هي مخصوصة في حلفاء النبيّ صلى الله عليه وسلم ومَنْ بينه وبينه عهد لم ينقضه ؛ قاله الحسن .

الكلبي : هم خُزَاعة وبنو الحارث بن عبد مناف .

وقاله أبو صالح ، وقال : هم خزاعة .

وقال مجاهد : هي مخصوصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا .

وقيل : يعني به النساء والصبيان لأنهم ممن لا يقاتل ؛ فأذن الله في برِّهم .

حكاه بعض المفسرين .

وقال أكثر أهل التأويل : هي محكمة .

واحتجوا : " بأن أسماء بنت أبي بكر سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم : هل تَصل أُمّها حين قدِمت عليها مشركة؟ قال : "نعم" " خرّجه البخاري ومسلم .

وقيل : إن الآية فيها نزلت .

وروى عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه : أن أبا بكر الصديق طلّق أمرأته قُتيلة في الجاهلية ، وهي أم أسماء بنت أبي بكر ، فقدمت عليهم في المدة التي كانت فيها المهادنة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش ، فأهدت إلى أسماء بنت أبي بكر الصديق قرطاً وأشياء ؛ فكرهت أن تقبل منها حتى أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين ﴾ .

ذكر هذا الخبر الماورِديّ وغيره ، وخرجه أبو داود الطَّيَالسي في مسنده .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ "أن" في موضع خفض على البدل من "الَّذِينَ" ؛ أي لا ينهاكم الله عن أن تبروا الذين لم يقاتلوكم .

(130/759)

وهم خُزاعة ، صالحوا النبيّ صلى الله عليه وسلم على ألا يقاتلوه ولا يُعينوا عليه أحداً ؛ فأمر ببرّهم والوفاء لهم إلى أجلهم ؛ حكاه الفرّاء .

﴿ وتقسطوا إِلَيْهِمْ ﴾ أي تعطوهم قسطاً من أموالكم على وجه الصلة .

وليس يريد به من العدل ؛ فإن العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل ؛ قاله ابن العربي .

الثالثة : قال القاضي أبو بكر في كتاب الأحكام له : "استدل به بعض مَن تُعقد عليه الخناصر على وجوب نفقة الإبن المسلم على أبيه الكافر .

وهذه وهلة عظيمة ، إذ الإذن في الشيء أو ترك النهي عنه لا يدل على وجوبه ، وإنما يعطيك الإباحة خاصّةً .

وقد بيّنا أن إسماعيل بن إسحاق القاضي دخل عليه ذِمّي فأكرمه ، فأخذ عليه الحاضرون في ذلك ؛ فتلا هذه الآية عليهم" .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذين قَاتَلُوكُمْ فِي الدين ﴾

أي جاهدوكم على الدّين ﴿ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ ﴾ وهم عتاة أهل مكة .

﴿ وَظَاهَرُوا ﴾ أي عاونوا على إخراجكم ، وهم مشركوا أهل مكة ﴿ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾

"أَنْ" في موضع جر على البدل على ما تقدم في "أَنْ تَبَرُّوهم" .

﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ ﴾ أي يتخذهم أولياء وأنصاراً وأحباباً ﴿ فأولئك هُمُ الظالمون ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾

ومناسبة هذه السورة لما قبلها : أنه لما ذكر فيما قبلها حالة المنافقين والكفار ، افتتح هذه بالنهي عن موالاة الكفار والتودّد إليهم ، وأضاف في قوله : ﴿ عدوي ﴾ تغليظاً ، لجرمهم وإعلاماً بحلول عقاب الله بهم .

والعدو ينطلق على الواحد وعلى الجمع ، وأولياء مفعول ثان لتتخذوا .

﴿ تلقون ﴾ : بيان لموالاتهم ، فلا موضع له من الإعراب ، أو استئناف إخبار .

وقال الحوفي والزمخشري : حال من الضمير في ﴿ لا تتخذوا ﴾ ، أو صفة لأولياء ، وهذا تقدّمه إليه الفراء ، قال : ﴿ تلقون إليهم بالمودة ﴾ من صلة ﴿ أولياء ﴾ . انتهى .

وعندهم أن النكرة توصل ، وعند البصريين لا توصل بل توصف ، والحال والصفة قيد وهم قد نهوا عن اتخاذهم أولياء مطلقاً ، والتقييد يدل على أنه يجوز أن يتخذوا أولياء إذا لم يكونوا في حال إلقاء المودة ، أو إذا لم يكن الأولياء متصفين بهذا الوصف ، وقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ فدل على أنه لا يقتصر على تلك الحال ولا ذلك الوصف .

والأولياء عبارة عن الإفضاء بالمودة ، ومفعول ﴿ تلقون ﴾ محذوف ، أي تلقون إليهم

أخبار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأسراره.

والباء في ﴿ بالمودة ﴾ للسبب، أي بسبب المودة التي بينهم.

وقال الكوفيون: الباء زائدة، كما قيل: في: ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾: أي أيديكم.

قال الحوفي: وقال البصريون هي متعلقة بالمصدر الذي دل عليه الفعل، وكذلك قوله ﴿ بإلحاد بظلم ﴾ أي إرادته بإلحاد. انتهى.

فعلى هذا يكون ﴿ بالمودة ﴾ متعلقاً بالمصدر، أي إلقاؤهم بالمودّة، وهذا ليس بجيد، لأن فيه حذف المصدر، وهو موصول، وحذف الخبر، إذ إلقاؤهم مبتدأ وبما يتعلق به، ﴿ وقد كفروا ﴾ جملة حالية، وذو الحال الضمير في ﴿ تلقون ﴾: أي توادونهم، وهذه حالهم، وهي الكفر بالله، ولا يناسب الكافر بالله أن يودّ.

وأجاز الزمخشري أن يكون حالاً من فاعل ﴿ لا تتخذوا ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿ بما جاءكم ﴾، والجحدري والمعلى عن عاصم: لما باللام مكان الباء، أي لأجل ما جاءكم.

﴿ يخرجون الرسول ﴾ : استئناف ، كالتفسير لكفرهم ، أو حال من ضمير ﴿ كفروا ﴾ ، ﴿ وإياكم ﴾ : معطوف على الرسول.

وقدّم على إياكم الرسول لشرفه ، ولأنه الأصل للمؤمنين به.

ولو تقدّم الضمير لكان جائزاً في العربية ، خلافاً لمن خص ذلك بالضرورة ، قال : لأنك قادر على أن تأتي به متصلاً ، فلا تفصل إلا في الضرورة ، وهو محجوج بهذه الآية وبقوله تعالى : ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ وإياكم أن اتقوا الله ، وقدّم الموصول هنا على المخاطبين للسبق في الزمان وبغير ذلك من كلام العرب.

و ﴿ أن تؤمنوا ﴾ مفعول من أجله ، أي يخرجون لإيمانكم أو كراهة إيمانكم ، ﴿ إن كنتم خرجتم ﴾ : شرط جوابه محذوف لدلالة ما تقدّم عليه ، وهو قوله : ﴿ لا تتخذوا عدوي ﴾ ، ونصب جهاداً وابتغاء على المصدر في موضع الحال ، أي مجاهدين ومبتغين ، أو على أنه مفعول من أجله.

﴿ تسرون ﴾ : استئناف ، أي تسرون وقد علمتم أني أعلم الإخفاء والإعلان ، وأطلع الرسول (صلى الله عليه وسلم) على ذلك ، فلا طائل في فعلكم هذا.

وقال ابن عطية : ﴿ تسرون ﴾ بدل من ﴿ تلقون ﴾.

انتهى ، وهو شبيه ببدل الاشتمال ، لأن الإلقاء يكون سراً وجهراً ، فهو ينقسم إلى هذين النوعين.

وأجاز أيضاً أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره : أنتم تسرون .

والظاهر أن ﴿ أعلم ﴾ أفعل تفضيل ، ولذلك عداه بالباء .

(133/759)

وأجاز ابن عطية أن يكون مضارعاً عدى بالباء قال : لأنك تقول علمت بكذا .

﴿ وأنا أعلم ﴾ : جملة حالية ، والضمير في ﴿ ومن يفعله منكم ﴾ ، الظاهر أنه إلى أقرب مذكور ، أي ومن يفعل الأسرار .

وقال ابن عطية : يعود على الاتخاذ ، وانتصب سواء على المفعول به على تقدير تعدى ضل ، أو على الظرف على تقدير اللزوم ، والسواء : الوسط .

ولما نهى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء ، وشرح ما به الولاية من الإلقاء بالمودة بينهم ، وذكر ما صنع الكفار بهم أولاً من إخراج الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين ، ذكر صنيعهم آخراً لو قدروا عليه من أنه إن تمكنوا منكم تظهر عداوتهم لكم ، ويبسطوا أيديهم بالقتل والتعذيب ، وألسنتهم بالسب ؛ وودوا لو ارتددتم عن دينكم الذي هو أحب الأشياء إليكم ، وهو سبب إخراجهم إياكم .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف أورد جواب الشرط مضارعاً مثله ، ثم قال ﴿ وودوا

﴾ بلفظ الماضي ؟ قلت : الماضي ، وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب ، فإنه فيه نكتة كأنه قيل : وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم ، يعني أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً . انتهى .

وكأن الزمخشري فهم من قوله : ﴿ وودوا ﴾ أنه معطوف على جواب الشرط ، فجعل ذلك سؤالاً وجواباً .

والذي يظهر أن قوله : ﴿ وودوا ﴾ ليس على جواب الشرط ، لأن ودادتهم كفرهم ليست مترتبة على الظفر بهم والتسلط عليهم ، بل هم وادون كفرهم على كل حال ، سواء أظفروا بهم أم لم يظفروا ، وإنما هو معطوف على جملة الشرط والجزاء ، أخبر تعالى بخبرين : أحدهما اتضاح عداوتهم والبسط إليهم ما ذكر على تقدير الظفر بهم ، والآخر ودادتهم كفرهم ، لا على تقدير الظفر بهم .

(134/759)

ولما كان حاطب قد اعتذر بأن له بمكة قرابة ، فكتب إلى أهلها بما كتب ليرعوه في قرابته ، قال تعالى : ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ﴾ : أي قراباتكم الذين توالون الكفار من أجلهم ، وتتقربون إليهم محاماة عليهم .

ويوم معمول لينفعكم أو ليفصل .

وقرأ الجمهور : ﴿ يفصل ﴾ بالياء مخففاً مبنياً للمفعول .

وقرأ الأعرج وعيسى وابن عامر : كذلك إلا أنه مشدد ، والمرفوع ، إما ﴿ بينكم ﴾ ، وهو مبني على الفتح لإضافته إلى مبني ، وإما ضمير المصدر المفهوم من يفصل ، أي يفصل هو ، أي الفصل .

وقرأ عاصم والحسن والأعمش : يفصل بالياء مخففاً مبنياً للفاعل ؛ وحمزة والكسائي وابن وثاب : مبنياً للفاعل بالياء مضمومة مشدداً ؛ وأبو حيوة وابن أبي عبلة : كذلك إلا أنه بالنون مشدداً ؛ وهما أيضاً وزيد بن علي : بالنون مفتوحة مخففاً مبنياً للفاعل ؛ وأبو حيوة أيضاً : بالنون مضمومة ، فهذا ثماني قراءات .

ولما نهى عن موالاة الكفار ، ذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وأن من سيرته التبرؤ من الكفار ليقتدوا به في ذلك ويتأسوا .

وقرأ الجمهور : إسوة بكسر الهمزة ، وعاصم بضمها ، وهما لغتان .

﴿ والذين معه ﴾ ، قيل : من آمن به .

وقال الطبري وغيره : الأنبياء معاصروه ، أو كانوا قريباً من عصره ، لأنه لم يرو أنه كان له أتباع مؤمنون في مكافحته لهم ولنمروذ .

ألا تراه قال لسارة حين رحل إلى الشام مهاجراً من بلد نمروذ : ما على الأرض من يعبد الله

غيري وغيرك ؟ والتأسي بإبراهيم عليه السلام هو في التبرؤ من الشرك ، وهو في كل ملة وبرسولنا عليه الصلاة والسلام على الإطلاق في العقائد وأحكام الشرع .

وقرأ الجمهور : ﴿ برآء ﴾ جمع بريء ، كظريف وظرفاء ؛ وعيسى : براء جمع بريء أيضاً ، كظريف وظراف ؛ وأبو جعفر : بضم الباء ، كتؤام وظؤار ، وهم اسم جمع الواحد بريء وتوأم وظئر ، ورويت عن عيسى .

(135/759)

قال أبو حاتم : زعموا أن عيسى الهمداني رووا عنه براء على فعال ، كالذي في قوله تعالى : ﴿ إنني برآء مما تعبدون ﴾ في الزخرف ، وهو مصدر على فعال يوصف به المفرد والجمع .

وقال الزمخشري : وبراء على إبدال الضم من الكسر ، كرخال ورباب . انتهى .

فالضمة في ذلك ليست بدلاً من كسرة ، بل هي ضمة أصلية ، وهو قريب من أوزان أسماء الجموع ، وليس جمع تكسير ، فتكون الضمة بدلاً من الكسرة ، إلا قول إبراهيم استثناء من قوله : ﴿ أسوة حسنة ﴾ ، قاله قتادة والزمخشري .

قال مجاهد وقتادة وعطاء الخراساني وغيرهم : المعنى أن الأسوة لكم في هذا الوجه لا في

الوجه الآخر ، لأنه كان لعلمه ليست في نازلتكم .

وقال الزمخشري : فإن قلت : فإن كان قوله : ﴿ لأستغفرن لك ﴾ مستثنى من القول الذي هو ﴿ أسوة حسنة ﴾ ، فما بال قوله : ﴿ فما أملك لك من الله من شيء ﴾ ، وهو غير حقيق بالاستثناء ؟ ألا ترى إلى قوله : ﴿ فمن يملك لكم من الله شيئاً ﴾ ؟ قلت : أراد استثناء جملة قوله لأبيه ، والقصد إلى موعد الاستغفار له وما بعده مبني عليه وتابع له ، كأنه قال : أنا أستغفر لك وما في طاقتي إلا الاستغفار . انتهى .

وقال الزمخشري : أولاً بعد أن ذكر أن الاستثناء هو من قوله : ﴿ أسوة حسنة ﴾ في مقالات قال : لأنه أراد بالأسوة الحسنة ، فهو الذي حق عليهم أن يأتسوا به ويتخذوه سنة يستنون بها . انتهى .

والذين يظهر أنه مستثنى من مضاف لإبراهيم تقديره : أسوة حسنة في مقالات إبراهيم ومحاوراته لقومه إلا قول إبراهيم لأبيه ﴿ لأستغفرن لك ﴾ ، فليس فيه أسوة حسنة ، فيكون على هذا استثناء متصلاً .

وأما أن يكون قول إبراهيم مندرجاً في أسوة حسنة ، لأن معنى الأسوة هو الاقتداء والتأسي ، فالقول ليس مندرجاً تحته ، لكنه مندرج تحت مقالات إبراهيم عليه السلام .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون الاستثناء من التبري والقطيعة التي ذكرت ، لم تبق جملة إلا كذا . انتهى .

وقيل : هو استثناء منقطع المعنى ، لكن قول إبراهيم لأبيه ﴿ لأستغفرن لك ﴾ ، فلا تأسوا به فيه فتستغفروا وتفدوا آباءكم الكفار بالاستغفار .

﴿ ربنا عليك توكلنا ﴾ وما بعده ، الظاهر أنه من تمام قول إبراهيم متصلاً بما قبل الاستثناء ، وهو من جملة ما يتأسى به فيه ، وفصل بينهما بالاستثناء اعتناء بالاستثناء ولقربه من المستثنى منه ، ويجوز أن يكون أمراً من الله للمؤمنين ، أي قولوا ربنا عليك توكلنا ، علمهم بذلك قطع العلائق التي بينهم وبين الكفار .

﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ ، قال ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيسبونا ويعذبوننا .

وقال مجاهد : لا تعذبنا بأيديهم أو بعذاب من عندك ، فيظنوا أنهم محقون وأنا مبطلون ، فيفتنوا لذلك .

وقال قريباً منه قتادة وأبو مجلز ، وقول ابن عباس أرجح لأنه دعاء لأنفسهم ، وعلى قول غيره دعاء للكافرين ، والضمير في فيهم عائد على إبراهيم والذين معه ، وكررت الأسوة تأكيداً ، وأكد ذلك بالقسم أيضاً ، ولمن يرجو بدل من ضمير الخطاب ، بدل بعض من كل .

وروي أنه لما نزلت هذه الآية ، عزم المسلمون على إظهار عداوات أقربائهم الكفار ، ولحقهم هم لكونهم لم يؤمنوا حتى يتوادوا ، فنزل ﴿ عسى الله ﴾ الآية مؤنسة ومرجئة ، فأسلم الجميع عام الفتح وصاروا إخواناً .

ومن ذكر أن هذه المودة هي تزويج النبي (صلى الله عليه وسلم) أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأنها كانت بعد الفتح فقد أخطأ ، لأن تزويجها كان وقت هجرة الحبشة ، وهذه الآيات سنة ست من الهجرة ، ولا يصح ذلك عن ابن عباس إلا أن يسوقه مثالاً ، وإن كان متقدماً لهذه الآية ، لأنه استمر بعد الفتح كسائر ما نشأ من المودات ، قاله ابن عطية .

وعسى من الله تعالى واجبة الوقوع ، ﴿ والله قدير ﴾ على تقليب القلوب وتيسير العسير ، ﴿ والله غفور ﴾ لمن أسلم من المشركين .

﴿ لا ينهاكم الله ﴾ الآية ، قال مجاهد : نزلت في قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا ، فكانوا في رتبة سوء لتركهم فرض الهجرة .

وقيل : في مؤمنين من أهل مكة وغيرها تركوا الهجرة .

وقال الحسن وأبو صالح : في خزاعة وبين الحارث بن كعب وكنانة ومزينة وقبائل من العرب ،

كانوا مظاهرين للرسول محبين فيه وفي ظهوره .

وقيل : فيمن لم يقاتل ، ولا أخرج ولا أظهر سوأ من كفار قريش .

وقال قرة الهمداني وعطية العوفي : في قوم من بني هاشم منهم العباس .

وقال عبد الله بن الزبير : في النساء والصبيان من الكفرة .

وقال النحاس والثعلبي : أراد المستضعفين من المؤمنين الذين لم يستطيعوا الهجرة .

وقيل : قدمت على أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنه أمّها نفيلة بنت عبد العزى ، وهي مشركة ، بهدايا ، فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول ، فنزلت الآية ، فأمرها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن تدخلها منزلها وتقبل منها وتكفيها وتحسن إليها .

قال ابن عطية : وكانت المرأة فيما روي خالتها فسمتها أمّاً ؛ وفي التحرير : أن أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه طلق امرأته نفيلة في الجاهلية ، وهي أم أسماء بنت أبي بكر ، فقدمت في المدة التي فيها الهدنة وأهدت إلى أسماء قرطاً وأشياء ، فكرهت أن تقبل منها ، فنزلت الآية .

و ﴿ أن تبروهم ﴾ ، و ﴿ أن تولوهم ﴾ بدلان مما قبلهما ، بدل اشتمال . انتهى ا . هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ لاَّ ينهاكم الله عَنِ الذين لَمْ يقاتلوكم فِى الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مّن دياركم أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾

أي لا ينهاكم سبحانه وتعالى عن البر بهؤلاء كما يقتضيه كون ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ بدل اشتمال من الموصول ﴿ وَتُقْسِطُواْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي تفضوا إليهم بالقسط أي العدل ، فالفعل مضمن معنى الإفضاء ولذا عدي بإلى ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ﴾ أي العادلين .

أخرج البخاري .

وغيره عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت : أتتني أمي راغبة وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أأصلها ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ لاَّ ينهاكم الله ﴾ الخ ، فقال عليه الصلاة والسلام : " نعم صلي أمك " وفي رواية الإمام أحمد .

وجماعة عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا : صناب .

وأقط .

وسمن وهي مشركة فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلها بيتها حتى أرسلت إلى عائشة رضي الله تعالى عنها أن تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا فسألته فأنزل الله

تعالى : ﴿ لاَّ ينهاكم الله ﴾ الآية فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها .

وقتيلة هذه على ما في التحرير كانت امرأة أبي بكر رضي الله تعالى عنه فطلقها في الجاهلية وهي أم أسماء حقيقة ، وعن ابن عطية أنها خالتها وسمتها أماً مجازاً ، والأول هو المعول عليه ، وقال الحسن .

وأبو صالح : نزلت الآية في خزاعة .

وبني الحرث بن كعب .

وكنانة .

ومزينة .

وقبائل من العرب كانوا صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه ، وقال قرة الهمداني .

وعطية العوفي : نزلت في قوم من بني هاشم منهم العباس .

وعن عبد الله بن الزبير أنها نزلت في النساء والصبيان من الكفرة ، وقال مجاهد : في قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا فكان المهاجرون والأنصار يتحرجون من برهم لتركهم فرض الهجرة

، وقيل : في مؤمنين من أهل مكة وغيرها أقاموا بين الكفرة وتركوا الهجرة أي مع القدرة

عليها وقال النحاس .

والثعلبي : نزلت في المستضعفين من المؤمنين الذين لم يستطيعوا الهجرة ، والأكثرون على أنها

في كفرة اتصفوا بما في حيز الصلة ، وعلى ذلك قال الكيا : فيها دليل على جواز التصدق

على أهل الذمة دون أهل الحرب وعلى وجوب النفقة للأب الذمي دون الحربي لوجوب قتله

، ويخطر لي أني رأيت في الفتاوى الحديثية لابن حجر عليه الرحمة الاستدلال بها على

جواز القيام لأهل الذمة لأنه من البر والإحسان إليهم ولم ننه عنه ، لكن راجعت تلك

الفتاوى عند كتابتي هذا البحث فلم أظفر بذلك ، ومع هذا وجدته نقل في آخر الفتاوى

الكبرى في باب السير عن العز بن عبد السلام أنه لا يفعل القيام لكافر لأنا مأمورون بإهانته

وإظهار صغاره فإن خيف من شره ضرر عظيم جاز لأن التلفظ بكلمة الكفر جائز للإكراه

فهذا أولى ، ولم يتعقبه بشيء ، ثم إن في كون القيام من البر مطلقاً تردداً ، وتخصيص العز

جواز القيام للكافر بما إذا خيف ضرر عظيم مخالف لقول ابن وهبان من الحنفية

: وللميل أو للمال يخدم كافر . . .

وللميل للإسلام لو قام يغفر

ومن الناس من يجعل كل مصلحة دينية كالميل للإسلام لكن بشرط أن لا يقصد القائم تعظيماً

، والله تعالى أعلم ، ونقل الخفاجي عن "الدر المنثور" أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى :

﴿ اقتلوا المشركين ﴾ [التوبة : 5] الآية ، والاستدلال بها على ما سمعت بتقدير عدم النسخ إن تم إنما يتم على بعض الأقوال فيها .

﴿ إِنَّمَا ينهاكم الله عَنِ الذين قاتلوكم فِى الدين وَأَخْرَجُوكُم مّن دياركم وظاهروا على إخراجكم ﴾ كمشركي مكة ، فإن بعضهم سعوا في إخراج المؤمنين .

(140/759)

وبعضهم أعانوا المخرجين ﴿ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ بدل من الموصول بدل اشتمال أيضاً أي إنما ينهاكم سبحانه عن أن تتولوهم ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ لوضعهم الولاية موضع العداوة ؛ أو هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب ، وفي الحصر من المبالغة ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(141/759)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾

لما فرغ سبحانه من النهي عن موالاة المشركين ، والذمّ لمن وقع منه ذلك ضرب لهم إبراهيم مثلاً حين تبرأ من قومه ، فقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أي : خصلة حميدة تقتدون بها ، يقال : لي به أسوة في هذا الأمر ، أي : اقتداء ، فأرشدهم سبحانه إلى الاقتداء به في ذلك إلاّ في استغفاره لأبيه .

قرأ الجمهور : ﴿ إسوة ﴾ بكسر الهمزة : وقرأ عاصم بضمها وهما لغتان ، وأصل الأسوة بالضم والكسر : القدوة ، ويقال : هو أسوتك ، أي : مثلك ، وأنت مثله ، وقوله : ﴿ فِى إبراهيم والذين مَعَهُ ﴾ متعلق بأسوة ، أو بحسنة ، أو هو نعت لأسوة ، أو حال من الضمير المستتر من حسنة ، أو خبر "كان" ، و "لكم" للبيان ، و ﴿ الذين معه ﴾ هم أصحابه المؤمنون .

وقال ابن زيد : هم الأنبياء .

قال الفرّاء : يقول : أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم ، فتتبرأ من أهلك ، كما تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه ، والظرف في قوله : ﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ ﴾ هو خبر كان ، أو متعلق به ، أي : وقت قولهم لقومهم الكفار : ﴿ بَرَآءَ مّنكُمْ ﴾ جمع بريء ، مثل شركاء وشريك ، وظرفاء وظريف .

قرأ الجمهور : ﴿ برآء ﴾ بضم الباء وفتح الراء وألف بين همزتين ، ككرماء في كريم .

وقرأ عيسى بن عمر ، وابن أبي إسحاق بكسر الباء وهمزة واحدة بعد ألف ، ككرام في

جمع كريم .

وقرأ أبو جعفر بضم الباء وهمزة بعد ألف ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ وهي الأصنام ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أي : بما آمنتم به من الأوثان أو بدينكم أو بأفعالكم .

(142/759)

﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة والبغضاء أَبَداً ﴾ أي : هذا دأبنا معكم ما دمتم على كفركم ﴿ حتى تُؤْمِنُواْ بالله وَحْدَهُ ﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك ، فإذا فعلتم ذلك صارت تلك العداوة موالاة ، والبغضاء محبة ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم لِأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ هو استثناء متصل من قوله : ﴿ فِى إبراهيم ﴾ بتقدير مضاف محذوف ؛ ليصح الاستثناء ، أي : قد كانت لكم أسوة حسنة في مقالات إبراهيم إلاّ قوله لأبيه ، أو من أسوة حسنة ، وصح ذلك ؛ لأن القول من جملة الأسوة ، كأنه قيل : قد كانت أسوة حسنة في إبراهيم في جميع أقواله ، وأفعاله إلاّ قوله لأبيه ، أو من التبرّي والقطيعة التي ذكرت ، أي : لم يواصله إلاّ قوله ، ذكر هذا ابن عطية ، أو هو منقطع ، أي : لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، فلا تأتسوا به ، فتستغفرون للمشركين ، فإنه كان عن موعدة وعدها إياه ، أو أن ذلك إنما وقع منه ؛ لأنه ظنّ أنه قد أسلم ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة : 114] وقد

تقدّم تحقيق هذا في سورة براءة ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ هذا من تمام القول المستثنى، يعني: ما أغني عنك، وما أدفع عنك من عذاب الله شيئًا، والجملة في محل نصب على الحال من فاعل لأستغفرنّ، فالاستثناء متوجه إلى الاستغفار لا إلى هذا القيد، فإنه إظهار للعجز، وتفويض للأمر إلى الله، وذلك من خصال الخير ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ هذا من دعاء إبراهيم وأصحابه، ومما فيه أسوة حسنة يقتدى به فيها، وقيل: هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا القول، والتوكل هو تفويض الأمور إلى الله، والإنابة: الرجوع، والمصير: المرجع، وتقديم الجارّ والمجرور لقصر التوكل والإنابة، والمصير على الله.

(143/759)

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال الزجاج: لا تظهرهم علينا، فيظنوا أنهم على حقّ، فيفتنوا بذلك.

وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حقّ ما أصابهم هذا ﴿ واغفر لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ العزيز ﴾ أي: الغالب الذي لا يغالب ﴿ الحكيم ﴾ ذو الحكمة البالغة.

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أي : لقد كان لكم في إبراهيم والذين معه قدوة حسنة ، وكرّر هذا للمبالغة والتأكيد ، وقيل : إن هذا نزل بعد الأوّل بمدّة ﴿ لّمَن كَانَ يَرْجُو الله واليوم الآخر ﴾ بدل من قوله : ﴿ لَكُمْ ﴾ بدل بعض من كلّ ، والمعنى : أن هذه الأسوة إنما تكون لمن يخاف الله ، ويخاف عقاب الآخرة ، أو يطمع في الخير من الله في الدنيا وفي الآخرة ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ الله هُوَ الغنى الحميد ﴾ أي : يعرض عن ذلك ، فإن الله هو الغنيّ عن خلقه الحميد إلى أوليائه .

﴿ عَسَى الله أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ وذلك بأن يسلموا ، فيصيروا من أهل دينكم ، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة وحسن إسلامهم ، ووقعت بينهم وبين من تقدّمهم في الإسلام مودّة ، وجاهدوا ، وفعلوا الأفعال المقرّبة إلى الله . وقيل : المراد بالمودّة هنا : تزويج النبيّ صلى الله عليه وسلم بأمّ حبيبة بنت أبي سفيان . ولا وجه لهذا التخصيص ، وإن كان من جملة ما صار سبباً إلى المودّة ، فإن أبا سفيان بعد ذلك ترك ما كان عليه من العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنها لم تحصل المودّة إلاّ بإسلامه يوم الفتح وما بعده ﴿ والله قَدِيرٌ ﴾ أي : بليغ القدرة كثيرها ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : بليغهما كثيرهما .

ثم لما ذكر سبحانه ما ينبغي للمؤمنين من معاداة الكفار وترك موادّتهم ، فصل القول فيمن يجوز برّه منهم ومن لا يجوز ، فقال : ﴿ لَّا يَنۡهَاكُمُ اللّٰهُ عَنِ الَّذِينَ لَمۡ يُقَاتِلُوكُمۡ فِي الدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمۡ ﴾ أي : لا ينهاكم عن هؤلاء ﴿ أَن تَبَرُّوهُمۡ ﴾ هذا بدل من الموصول بدل اشتمال ، وكذا قوله : ﴿ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ ﴾ يقال : أقسطت إلى الرّجل : إذا عاملته بالعدل .

قال الزجاج : المعنى ، وتعدلوا فيما بينكم وبينهم من الوفاء بالعهد ﴿ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ المقسطين ﴾ أي : العادلين ؛ ومعنى الآية : أن الله سبحانه لا ينهى عن برّ أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال ، وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم ، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل .

قال ابن زيد : كان هذا في أوّل الإسلام عند الموادعة ؛ وترك الأمر بالقتال ، ثم نسخ .

قال قتادة : نسختها ﴿ فاقتلوا المشركين حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ﴾ [التوبة : 5] وقيل : هذا الحكم كان ثابتاً في الصلح بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم .

وقيل : هي خاصة في حلفاء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ومن بينه وبينه عهد ، قاله الحسن .

وقال الكلبي : هم خزاعة ، وبنو الحارث بن عبد مناف .

وقال مجاهد : هي خاصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا ، وقيل : هي خاصة بالنساء والصبيان .

وحكى القرطبي عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة .

(145/759)

ثم بيّن سبحانه من لا يحل برّه ، ولا العدل في معاملته فقال : ﴿ إِنَّمَا ينهاكم الله عَنِ الذين قاتلوكم فِى الدين وَأَخْرَجُوكُم مّن دياركم ﴾ وهم صناديد الكفر من قريش ﴿ وظاهروا على إخراجكم ﴾ أي : عاونوا الذين قاتلوكم على ذلك ، وهم سائر أهل مكة ، ومن دخل معهم في عهدهم ، وقوله : ﴿ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ بدل اشتمال من الموصول ، كما سلف ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ أي : الكاملون في الظلم ؛ لأنهم تولوا من يستحق العداوة لكونه عدوّاً لله ولرسوله ولكتابه ، وجعلوهم أولياء لهم .

وقد أخرج ابن المنذر ، والحاكم وصححه عن ابن عباس ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم لأَبِيهِ ﴾ قال : نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه ، وقوله : ﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ لا تعذبنا بأيديهم ، ولا بعذاب من عندكم ، فيقولون لو كان هؤلاء على الحقّ ما أصابهم هذا .

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ قال: في صنيع إبراهيم كله إلاّ في الاستغفار لأبيه، وهو مشرك.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال: لا تسلطهم علينا، فيفتنونا.

وأخرج ابن مردويه عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: أوّل من قاتل أهل الردّة على إقامة دين الله أبو سفيان بن حرب، وفيه نزلت هذه الآية: ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل، فلقي "ذا الخمار" مرتدّاً، فكان أوّل من قاتل في الردّة، وجاهد عن الدّين.

قال: وهو فيمن قال الله فيه: ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن عديّ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل،

وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح ، عن ابن عباس في الآية قال : كانت المودّة التي جعل بينهم تزويج النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّ حبيبة بنت أبي سفيان ، فصارت أمّ المؤمنين ، فصار معاوية خال المؤمنين .

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن أبا سفيان قال : يا رسول الله ثلاث أعطنيهنّ ، قال : " نعم " ، قال : تؤمرني حتى أقاتل الكفار ، كما كنت أقاتل المسلمين ، قال : " نعم " ، قال : ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك ، قال : " نعم " ، قال : وعندي أحسن العرب وأجمله أمّ حبيبة بنت أبي سفيان أزوّجكها الحديث .

وأخرج الطيالسي ، وأحمد ، والبزار ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والنحاس في ناسخه ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قتيلة بنت عبد العزّى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا : ضباب ، وأقط ، وسمن ، وهي مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها ، أو تدخلها بيتها حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألته ، فأنزل الله ﴿ لاَّ ينهاكم الله عَنِ الذين لَمْ يقاتلوكم فِى الدين ﴾ الآية ، فأمرها أن تقبل هديتها ، وتدخلها بيتها ، وزاد ابن أبي حاتم في المدّة التي كانت بين قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي البخاري وغيره ، عن أسماء بنت أبي بكر قالت : أتتني أمي راغبة ، وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألت النبيّ صلى الله عليه

وسلم : أأصلها ؟ فأنزل الله : ﴿ لاَّ ينهاكم الله ﴾ الآية ، فقال : " نعم صلي أمك " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 212.214 ﴾

(147/759)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾

استئناف هو منطوق لمفهوم الأوصاف التي وُصف بها العدوّ في قوله تعالى : ﴿ وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم ﴾ [الممتحنة : 1] وقوله : ﴿ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴾ [الممتحنة : 2] ، المسوقة مساق التعليل للنهي عن اتخاذ عدوّ الله أولياء ، استثنى الله أقواماً من المشركين غير مضمرين العداوة للمسلمين وكان دينهم شديد المنافرة مع دين الإسلام .

فإن نظرنا إلى وصف العدوّ من قوله : ﴿ لا تتخذوا عدوي وعدوكم ﴾ وحملناه على حالة معاداة من خالفهم في الدين ونظرنا مع ذلك إلى وصف ﴿ يخرجون الرسول وإياكم ﴾ ، كان مضمون قوله : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴾ إلى آخره ، بياناً لمعنى العداوة المجعولة علة للنهي عن الموالاة وكان المعنى أن مناط النهي هو مجموع الصفات

المذكورة لا كل صفة على حيالها .

وإن نظرنا إلى أن وصف العدوّ هو عدوّ الدين ، أي مخالفة في نفسه مع ضميمة وصف ﴿ وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾ ، كان مضمون ﴿ لا ينهاكم الله ﴾ إلى آخره تخصيصاً للنهي بخصوص أعداء الدين الذين لم يقاتلوا المسلمين لأجل الدين ولم يُخرجوا المسلمين من ديارهم .

(148/759)

وأيّاً ما كان فهذه الجملة قد أخرجت من حكم النهي القومَ الذين لم يقاتلوا في الدين ولم يُخرجوا المسلمين من ديارهم ، واتصال هذه الآية بالآيات التّي قبلها يجعل الاعتبارين سواء فدخل في حكم هذه الآية أصناف وهم حلفاءُ النبي صلى الله عليه وسلم مثل خُزاعة ، وبني الحارث بن كعب بن عبد مناةَ بن كنانة ، ومزينة كان هؤلاء كلهم مظاهرين النبي صلى الله عليه وسلم ويحبون ظهوره على قريش ، ومثل النساء والصبيان من المشركين ، وقد جاءت قُتيلة (بالتصغير ويقال لها : قتلة ، مكبراً) بنت عبد العُزى من بني عامر بن لؤي من قريش وهي أم أسماء بنت أبي بكر الصديق إلى المدينة زائرةً ابنتها وقتيلة يومئذٍ مشركة في المدة التي كانت فيها المهادنة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش بعد صلح

الحديبية (وهي المدة التي نزلت فيها هذه السورة) فسألت أسماءُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أتصِل أمها؟ قال: "نعم صِلي أُمّكِ"، وقد قيل: إن هذه الآية نزلت في شأنها.

وقوله: ﴿ أن تبروهم ﴾ بدل اشتمال من ﴿ الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴾ الخ، لأن وجود ضمير الموصول في المبدل وهو الضمير المنصوب في ﴿ أن تبروهم ﴾ يجعل بر المسلمين بهم مما تشتمل عليه أحوالهم.

فدخل في الذين لم يقاتلوا المسلمين في الدين نَفر من بني هاشم منهم العباس بن عبد المطلب، والذينَ شملتهم أحكام هذه الآية كلّهم قد قيل إنهم سبب نزولها وإنما هو شمول وما هو بسبب نزول.

والبرّ: حسن المعاملة والإكرامُ.

وهو يتعدى بحرف الجر، يقال: برّ به، فتعديته هنا بنفسه على نزع الخافض.

والقسط: العدل.

وضمن ﴿ تقسطوا ﴾ معنى تُفضوا فعدّي بـ (إلى) وكان حقه أن يعدَّى باللام.

على أن اللام و (إلى) يتعاقبان كثيراً في الكلام، أي أن تعاملوهم بمثل ما يعاملونكم به من التقرب، فإن معاملة أحد بمثل ما عامل به من العدل.

وجملة و ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ تذييل ، أي يحب كل مقسط فيدخل الذين يقسطون للذين خالفوهم في الدين إذا كانوا مع المخالفة محسنين معاملتهم .

وعن ابن وهب قال : سألت ابن زيد عن قوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله ﴾ الآية قال : نسخها القتال ، قال الطبري : لا معنى لقول من قال : ذلك منسوخ ، لأن بر المؤمن بمن بينه وبينه قرابة من أهل الحرب أو بمن لا قرابة بينه وبينه غير محرم إذا لم يكن في ذلك دلالة على عورة لأهل الإسلام .

اه .

ويؤخذ من هذه الآية جواز معاملة أهل الذمة بالإحسان وجواز الاحتفاء بأعيانهم .

إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ

فذلك لما تقدم وحصْر لحكم الآية المتقدمة .

وهي تؤذن بانتهاء الغرض المسوق له الكلام من أوله .

والقصر المستفاد من جملة ﴿ إنما ينهاكم الله ﴾ إلى آخرها قصر قلب لرد اعتقاد من ظن أو شكّ في جواز صلة المشركين على الإطلاق .

والذين تحققت فيهم هذه الصفات يوم نزول الآية هم مشركو أهل مكة ، و ﴿ أن تولوهم ﴾ بدل اشتمال من ﴿ الذين قاتلوكم ﴾ .

﴿ ومن يتولهم ﴾ شرط ، وجيء في جواب الشرط باسم الإِشارة لتمييز المشار إليهم زيادة في إيضاح الحكم .

والمظاهرة : المعاونة .

وذلك أن أهل مكة فريقان ، منهم من يأتي بالأسباب التي لا يحتمل المسلمون معها البقاء بمكة ، ومنهم من يعين على ذلك ويغري عليه .

والقصر المستفاد من قوله : ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ قصر ادعائي ، أي أن ظلمهم لشدَّته ووقوعه بعد النهي الشديد والتنبيه على الأخطاء والعصيان ظلم لا يغفر لأنه اعتداء على حقوق الله وحقوق المسلمين وعلى حق الظالم نفسه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(150/759)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ .

هذه الآية الكريمة تدل على أن الكافر إذا لم يقاتل المؤمن في الدين ولم يخرجه من داره لا يحرم

بره والإقساط إليه .

وقد جاءت آيات أخر تدل على منع موالاة الكفار وموادتهم مطلقا .

كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ الآية .

والجواب هو أن من يقول بنسخ هذه الآية فلا إشكال فيها على قوله وعلى القول بأنها محكمة فوجه الجمع مفهوم منها لأن الكافر الذي لم ينه عن بره والإقساط إليه مشروط فيه عدم القتال في الدين وعدم إخراج المؤمنين من ديارهم والكافر المنهي عن ذلك فيه هو المقاتل في الدين المخرج للمؤمنين من ديارهم المظاهر للعدو على إخراجهم والعلم عند الله تعالى .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 292 ﴾

(151/759)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ

الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان نزول هذه الآيات الماضية في الفتح الأعظم حين قصد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سنة ثمان المسير بجنود الله إلى مكة المشرفة – شرفها الله تعالى – لدخولها عليهم بالسيف حين نقضوا بقتالهم لخزاعة الذي كانوا قد تحيزوا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكانوا في عقده وعهده في صلح الحديبية الذي كان سنة ست على وضع الحرب بينهم وبين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن دخل في عقده ، وكان من ذلك الصلح أن من جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قريش ومن دخل في صلحهم رده إليهم وإن كان مسلماً ، ومن جاءهم من كان مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يردوه إليه بحيث قام من ذلك وقعد كثير من الصحابة ـ رضى الله عنه ـ من أعظمهم عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حتى سكنه الصديق رضي الله تعالى عنه بما وقر في صدره من الحكم ، ورد إليهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا بصير ـ رضى الله عنه ـ ، وكان رده إليهم للوفاء بالعهد بسبب التصديق لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " أما من جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً "

وقصته في ذلك كله مشهورة ، وكانت " من " من صيغ العموم ، وكانت دلالة العام قطعية في الحكم على الأفراد ظنية - كما قال الشافعي رضي الله تعالى عنه - في الدلالة على الجزئي من تلك الأفراد بخصوصه حيث لا قرينة لأن تلك الصيغ ترد تارة على عمومها وتارة يراد بها بعض الأفراد فتكون من العام الذي أريد به الخصوص ، وتارة يقع فيها التخصيص ، فتكون من العام الذي أريد به الخصوص فطرقها الاحتمال فاحتاج ما دلت عليه من الظاهر إلى قرينة ، وكان دخول النساء تحت لفظ " من " في صلح الحديبية أما عرياً عن القرينة أو أن القرينة القتال الذي وقع الصلح عليه بسببه صارفة عنه ، وكذا قرينة التعبير عنهن ب " ما " دون " من " في كثير من الكتاب العزيز

﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ [النساء : 3] ﴿ أو ما ملكت أيمانكم ﴾ [النساء : 3] ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾ [النساء : 22]

﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ﴾ [النساء : 24] ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ [النساء : 24] ﴿ فما استمتعتم به منهن ﴾ [النساء : 24] ، ﴿ فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ﴾ [النساء : 25] ﴿ إلا على أزواجكم أو ما

ملكت أيمانهم ﴾ [المؤمنون : 6] ، وكان قد ختم سبحانه هذه الآيات التي أدب بها في غزوة الفتح بما أبان به ما لا يخرج عن الصلح في عمرة الحديبية مما هو أقرب إلى الخير من البر والعدل ، ونهى عن تولي الكفار ، فكانت المصاهرة والمناكحة من أعظم التولي ، وصل بذلك ما لا يخرج عنه ولا يحل بالعهد في أن من جاء من الكفار إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - رده إليهم وإن كان مسلماً ، فقال مخاطباً لأدنى أسنان أهل الإيمان الذين يحتاجون إلى التفهيم ، وأما من هو أعلى منهم فهو عالم بذلك مؤتمر به بما آتاه الله من الفهم وأنار به قلبه الشريف من فنون العلم ليكوفوا النبي - صلى الله عليه وسلم - مقدمات البيعة منه لهن : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي أقروا بالإيمان – وهو إيقاع الأمان من التكذيب – لمن يخبرهم ما ينبغي التصديق به بسبب تصديقهم بالله سبحانه وتعالى .

(153/759)

ولما كان في علمه سبحانه وتعالى أنه يأتيهم نساء يهربن بدينهن إلى الله ، بشرهم بذلك بالتعبير بأداة التحقيق فقال : ﴿ إذا ﴾ أي صدقوا ما ادعيتموه من الإيمان بأنه في أي زمان ﴿ جاءكم ﴾ ولما كان لا يهجر داره وعشيرته لا سيما إن كانوا أقارب بسبب كفرهم إلا من رسخ في الإيمان ذكراً كان أو أنثى قال : ﴿ المؤمنات ﴾ أي النساء اللاتي صار وصف

الإيمان لهن صفة راسخة بدلالة الهجرة عليه: ﴿ مهاجرات ﴾ للكفار ولأرضهم ﴿ فامتحنوهن ﴾ أي اختبروهن تأكيداً لما دلت عليه الهجرة من الإيمان بالتحليف بأنهن ما خرجن لحدث أحدثته ولا بغضاً في زوج ولا رغبة في عشير ولا خرجن إلا حباً لله ورسوله ورغبة في دين الإسلام، قال الإمام شهاب الدين ابن النقيب في الهداية من مختصره للكفاية لفقيه المذهب نجم الدين أحمد بن الرفعة في شرح التنبيه: واختلف قول الشافعي رحمه الله تعالى: هل كان النبي -صلى الله عليه وسلم- شرط لقريش في الصلح رد النساء ففي قول: لم يشترطه بل أطلق رد من جاءه فتوهموا تناول النساء، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- عالماً بعدم دخولهن، فأطلق ذلك حذيفة يعني ومن شرعه أن الحرب خدعة، وفي قوله: شملهن الشرط، لكن هل شرطه صريحاً أم دخلن في الإطلاق فيه وجهان أظهرهما الثاني، وهل كان شرطهن جائزاً فيه وجهان: أحدهما نعم ثم نسخ، وهل ناسخه الآية المذكورة أم منع النبي -صلى الله عليه وسلم- من الرد فيه وجهان مبنيان على أنه هل يجوز نسخ السنة بالقرآن وفيه قولان للشافعي رحمه الله تعالى، ومختاره منهما المنع وهو الجديد، وكذا لا يجوز عنده وعند أصحابه نسخ الكتاب بالسنة وإن كانت متواترة - انتهى.

ومعناه أنه لم يقع فإن وقع نسخها بالقرآن كان معه سنة ، وإن وقع نسخه بالسنة كان معها قرآن ، وهو معنى قول ابن السبكي في جمع الجوامع : قال الشافعي - رضى الله عنه - : وحيث وقع بالسنة فمعها قرآن أو بالقرآن فمعه سنة عاضدة تبين توافق الكتاب والسنة .

ولما كان الاختبار ربما دل إيمانهن لا يعلم إلا به ، نفى ذلك بقوله مستأنفاً في جواب من يقول : أليس الله بعالم بذلك ، ومفيداً أن علمكم الذي تصلون إليه بالامتحان ليس بعلم ، وإنما سماه به إيذاناً بأن الظن الغالب في حقكم بالاجتهاد والقياس قائم مقام العلم يخرج من عنده ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ [الإسراء : 36] : ﴿ الله ﴾ المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ أعلم ﴾ أي منكم ومنهن بأنفسهن ﴿ بإيمانهن ﴾ هل هو كائن أو لا على وجه الرسوخ أو لا ، فإنه محيط بما غاب كإحاطته بما شهد ، وإنما وكل الأمر إليكم في ذلك ستراً للناس ولئلا تكون شهادته لأحد بالإيمان والكفران موصلة إلى عين اليقين فيخرج عن مبنى هذه الدار ، قال القشيري : وفي الجملة الامتحان طريق إلى المعرفة ، وجواهر النفس تتبين بالتجربة ، ومن أقدم على شيء من غير تجربة يجني كأس الندم ، قال : ﴿ فإن علمتموهن ﴾ أي العلم المتمكن لكم وهو الظن المؤكد بالأمارات الظاهرة بالحلف وغيره ﴿ مؤمنات ﴾ أي مخلصات في الهجرة لأجل الإيمان ، والتعبير بذلك لإيذان بمزيد الاحتياط .

ولما ذكر هذا الامتحان بين أنه علة لحمايتهن والدفع عنهن فأتبعه مسببه فقال : ﴿ فلا ترجعوهن ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ إلى الكفار ﴾ وإن كانوا أزواجاً ، ومن الدليل على أن هذا ظاهر في المراد وأن القرائن موضحة له أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما أبى أن يرد إليهم من جاءه من النساء لم يعب أحد من الكفار ذلك ، ولا نسب إلى عهده ـ صلى الله عليه وسلم ـ - وحاشاه - خللاً ، ولولا أن ذلك كذلك لملؤوا الأرض تشغيباً كما فعلوا في سرية عبد الله بن جحش ـ رضى الله عنه ـ إلى نخله التي نزل بسببها

(155/759)

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام ﴾ [البقرة : 217] الآيات على أن الأخبار الصحيحة وغيرها ناطقة بأن هذه الآية نزلت في الحديبية قبل أن ينفصل الأمر غاية الانفصال ويستقر ، روى البخاري في المغازي من صحيحه والبغوي من طريقه وهذا لفظه من المروان والمسور بن مخرمة عن أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا : كاتب سهيل بن عمرو فكان ما اشترط على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه لا يأتيك أحد منا وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، فكاتبه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ذلك ، فرد يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهل بن عمرو ، ولم يأته أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً ، وجاءت

المؤمنات مهاجرات ، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو عاتق فجاء أهلها إلى المدينة يسألون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرجعها إليهم فلم يرجعها إليهم كما أنزل الله فيهن ﴿ إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾ وقال البغوي : قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : أقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معتمراً حتى إذا كان بالحديبية صالحه مشركو مكة على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم فجاءت سبيعة بنت الحارث مسلمة بعد الفراغ من الكتاب ، فأقبل زوجها ، وكان كافر ، فقال : يا محمد ! اردد عليّ امرأتي فإنك قد شرطت أن ترد علينا من أتاك منا ، وهذه طينة الكتاب لم تجف ، فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن ﴾ وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : امتحانها أن تستحلف أنها ما هاجرت لبغض زوج ولا عشقاً لرجل من المسلمين ولا رغبة عن أرض ولا لحدث أحدثته ولا التماس الدنيا وما خرجت إلا رغبة في الإسلام وحباً لله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فاستحلفها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك فحلفت فلم يردها وأعطى زوجها ما أنفق عليها ، فزوجها عمر ـ رضى

الله عنه - ، وكان - صلى الله عليه وسلم - يرد من جاءه من الرجال ويحبس من جاءه من النساء بعد الامتحان ، ويعطي أزواجهن مهورهن ، ودعوى النسخ ليست بشيء إلا تؤول بأنه لما كان من العالم الذي أريد به الخصوص أن بعض ما تناوله ظاهر اللفظ من الحكم مرفوع ، وذلك بأن الله لا يأمر بإخلاف الوعد فكيف بنقض العهد .

ولما نهى عن رد المهاجرات إلى المشركين وعبر بالكفار تعميماً ، علل ذلك بقوله مقدماً حكمهن تشريفاً لهن لهجرتهن : ﴿ لا هن ﴾ أي الأزواج ﴿ حل ﴾ أي موضع حل ثابت ﴿ لهم ﴾ أي للكفار باستمتاع ولا غيره .

ولما كان نفي الحل الثابت غير مانع من تجدد حل الرجال لهن ولو على تقدير من التقادير وفرض من الفروض ، قال معيداً لذلك ومؤكداً لقطع العلاقة من كل جانب : ﴿ ولا هم ﴾ أي رجال الكفار ﴿ يحلون ﴾ أي يتجدد في وقت من الأوقات أن يحلوا ﴿ لهن ﴾ أي للمؤمنات حتى لو تصور أن يكون رجالهن نساء وهن ذكوراً ما حلوا لهن بخلاف أهل الكتاب ، كذا تنفك الملازمة في مسألة المظاهرة والإيلاء فيحل للمرأة أن تستمتع به إذا كان نائماً مثلاً ، وأما هو فيحرم عليه ذلك قبل التكفير ، وقال البيضاوي : الأولى لحصول الفرقة ، والثانية للمنع من الاستئناف - انتهى ، فنفت هذه الجملة الفعلية من وجه تجدد الحل للنساء فأفهمت الجملتان عدم الحرج فيما كان قبل ذلك تطييباً لقلوب المؤمنات .

ولما نهى عن الرد وعلله ، أمر بما قدم من الإقساط إليهم فقال : ﴿ وآتوهم ﴾ أي الأزواج

﴿ ما أنفقوا ﴾ أي عليهن من المهور فإن المهر في نظير أصل العشرة ودوامها وقد فوتتها المهاجرة فلا يجمع عليه خسران الزوجية والمالية ، وأما الكسوة والنفقة فإنها لما يتجدد من الزمان .

(157/759)

ولما جزم بتأبيد منعهن عن الكفار ، أباحهن للمسلمين فقال على وجه الرفق واللطف : ﴿ ولا جناح ﴾ أي ميل وحرج ﴿ عليكم ﴾ أيها المشرفون بالخطاب ﴿ أن تنكحوهن ﴾ أي تجددوا زواجكم بهن بعد الاستبراء وإن كان أزواجهن من الكفار لم يطلقوهن لزوال العلق منهم عنهن ولأن الإسلام فرق بينهم فإنه لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً . ولما كان قد أمر برد مهور الكفار ، فكان ربما ظن أنه مغن عن تجديد مهر لهن إذا نكحهن المسلم نفى ذلك بقوله : ﴿ إذا آتيتموهن ﴾ أي لأجل النكاح ﴿ أجورهن ﴾ ولما قطع ما بين الكفار والمسلمات مع الإعراض عن الكفار لعصيانهم قطع ما بين المؤمنين والكافرات مع الإقبال عليهم لطاعتهم رفعاً لشأنهم فقال : ﴿ ولا ﴾ ولما كان إمساك المرأة مع عداوتها لمخالفتها في الدين دليلاً على غاية الرغبة فيها ، دل على ذلك إشارة إلى التوبيخ بالتضعيف في قراءة البصريين فقال : ﴿ تمسكوا ﴾ أي بعدم التصريح في الطلاق ﴿ بعصم الكوافر ﴾

جمع عصمة وهي ما يديم علقة النكاح ﴿ واسألوا ﴾ أي أيها المؤمنون الذين هبت أزواجهم إلى الكفار ﴿ ما أنفقتم ﴾ أي من مهور نسائكم اللاتي اعتصمن عنكم بهم أو فررن إليهم .

ولما أمر برد مهور المؤمنين إلى الكفار وأذن للمؤمنين في المطالبة بمهور أزواجهم ، أذن للكفار في مثل ذلك إيقاعاً للقسط بين عباده مسلمهم وكافرهم معبراً بالأمر مع الغيبة إعراضاً عنهم إعلاماً بشدة كراهته سبحانه للظلم وأنه يستوي فيه الكافر مع عداوته بالمؤمن مع ولايته : ﴿ وليسألوا ﴾ أي الكفار ﴿ ما أنفقوا ﴾ أي من مهور أزواجهم اللاتي أسلمن واعتصمن بكم عنهم ، وهل هذا الحكم باق ، قال قوم : نعم ، وقال عطاء ومجاهد وقتادة : نسخ فلا يعطي الكفار شيئاً ولو شرطنا الإعطاء .

(158/759)

ولما كان هذا حكماً عدلاً لا يفعله مع عدوه ووليه إلا حكيم ، قال مشيراً إلى مدحه ترغيباً فيه بميم الجمع إلى العموم : ﴿ ذلكم ﴾ أي الحكم الذي ذكر في هذه الآيات البعيدة بعلو الرتبة عن كل سفه ﴿ حكم الله ﴾ أي الملك الذي له صفات الكمال ، فلا ينبغي لشائبة نقص أن يلحقه .

ولما كان هذا مما يفرح به ويغنم عند تقدير فواته ، قال مستأنفاً مبشراً بإدامة تجديد أمثاله لهم : ﴿ يحكم ﴾ أي الله أو حكمه على سبيل المبالغة ، ودل على استغراق الحكم لجميع ما يعرض بين العباد وأنه سبحانه لم يهمل شيئاً منه بإعراء الجار من قوله : ﴿ بينكم ﴾ أي في هذا الوقت وفي غيره على هذا المنهاج البديع ، وذلك لأجل الهدنة التي وقعت بين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبينهم ، وأما قبل الحديبية فكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمسك النساء ولا يرد الصداق .

ولما كان التقدير : فالله حكم عدل ، قال : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة التامة ﴿ عليم ﴾ أي بالغ العلم لا يخفى عليه شيء ﴿ حكيم ﴾ أي فهو لتمام علمه يحكم كل أموره غاية الإحكام فلا يستطيع أحد نقض شيء منها .

(159/759)

ولما كان المظنون بالكفار عدم العدل فلا يعطون المؤمنين مهور نسائهم الكافرات ، قال مداوياً لذلك الداء : ﴿ وإن فاتكم ﴾ أي بالانفلات منكم بعد الهجرة أو بإدامة الإقامة في بلاد الحرب ﴿ شيء ﴾ أي قل أو كثر ﴿ من أزواجكم ﴾ أي من أنفسهن أو مهورهن ﴿ إلى ﴾ أي متحيزاً أو واصلاً إلى ﴿ الكفار ﴾ فعجزتم عنه ﴿ فعاقبتم ﴾ أي تمكنتم

من المعاقبة بأن فات الكفار شيء من أزواجهم بالهجرة إليكم أو اغتنمتم من أزواج الكفار فجاءت نوبة ظفركم بأداء المهر إلى إخوانكم طاعة وعدلاً عقب نوبتهم التي اقتطعوا فيها ما أنفقتم عصياناً وظلماً ﴿ فآتوا ﴾ أي فاحضروا وأعطوا من مهر المهاجرة ﴿ الذين ذهبت أزواجهم ﴾ أي منكم إن اختاروا الأخذ ﴿ مثل ما أنفقوا ﴾ على الكافرة الفائتة إلى الكفار مما غنمتم من أموالهم أو بأن تدفعوا إليهم مثل مهر أزواجهم مما كنتم تعطونه لأزواج المهاجرات ، فيكون ذلك جزاء وقصاصاً لما فعل الكفار .

ولما كان التجزي في مثل ذلك عسراً على النفس فإن المهور تتفاوت تارة وتتساوى تارة أخرى وتارة تكون نقوداً وتارة تكون عروضاً إلى غير ذلك من الأحوال مع أن المعامل عدو في الدين فلا يحمل على العدل فيه إلا خالص التقوى قال : ﴿ واتقوا ﴾ أي في الإعطاء والمنع وغير ذلك ﴿ الله ﴾ الذي له صفات الكمال وقد أمركم بالتخلق بصفاته على قدر ما تطيقون ، ثم وصفه بما يؤكد صعوبة الأمر ويحث على العدل فقال ملهباً لهم كل الإلهاب هازاً لهم بالوصف بالرسوخ في الإيمان : ﴿ الذي أنتم به ﴾ أي خاصة ﴿ مؤمنون ﴾ أي متمكنون في رتبة الإيمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 560.566 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾

في نظم هذه الآيات وجه حسن معقول ، وهو أن المعاند لا يخلو من أحد أحوال ثلاثة ، إما أن يستمر عناده ، أو يرجى منه أن يترك العناد ، أو يترك العناد ويستسلم ، وقد بين الله تعالى في هذه الآيات أحوالهم ، وأمر المسلمين أن يعاملوهم في كل حالة على ما يقتضيه الحال .

أما قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إبراهيم والذين مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا برآء منكم ﴾ [الممتحنة : 4] فهو إشارة إلى الحالة الأولى ، ثم قوله : ﴿ عَسَى الله أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ [الممتحنة : 7] إشارة إلى الحالة الثانية ، ثم قوله : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا جَاءكُمُ المؤمنات ﴾ إشارة إلى الحالة الثالثة ، ثم فيه لطيفة وتنبيه وحث على مكارم الأخلاق ، لأنه تعالى ما أمر المؤمنين في مقابلة تلك الأحوال الثلاث بالجزاء إلا بالتي هي أحسن ، وبالكلام إلا بالذي هو أليق .

واعلم أنه تعالى سماهن مؤمنات لصدور ما يقتضي الإيمان وهو كلمة الشهادة منهن ، ولم يظهر منهن ما هو المنافي له ، أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان والامتحان وهو الابتلاء بالحلف ، والحلف لأجل غلبة الظن بإيمانهن ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للممتحنة : " بالله الذي لا إله إلا هو ما خرجت من بغض زوج ، بالله ما خرجت رغبة من أرض إلى أرض ، بالله ما خرجت التماس دنيا ، بالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله " وقوله : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ منكم والله يتولى السرائر : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ ﴾ العلم الذي هو عبارة عن الظن الغالب بالحلف وغيره ، ﴿ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار ﴾ أي تردوهن إلى أزواجهن المشركين ، وقوله تعالى : ﴿ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّا أَنفَقُواْ ﴾ أي أعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور ، وذلك أن الصلح عام الحديبية كان على أن من أتاكم من أهل مكة يرد إليهم ، ومن أتى مكة منكم لم يرد إليكم ، وكتبوا بذلك العهد كتاباً وختموه ، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة والنبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية ، فأقبل زوجها مسافر المخزومي ، وقيل : صيفي بن الراهب ، فقال : يا محمد أردد علي امرأتي فإنك قد شرطت لنا شرطاً أن ترد علينا من أتاك منا ، وهذه طية الكتاب لم تجف ، فنزلت بياناً لأن الشرط إنما كان للرجال دون النساء .

وعن الزهري أنه قال : إنها جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهي عاتق ، فجاء

أهلها يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرجعها إليهم ، وكانت هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعها أخواها عمارة والوليد ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم أخويها وحبسها فقالوا : أرددها علينا ، فقال عليه السلام :

(162/759)

"كان الشرط في الرجال دون النساء " وعن الضحاك : أن العهد كان إن يأتك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا ، وإن دخلت في دينك ولها زوج ردت على زوجها الذي أنفق عليها ، وللنبي صلى الله عليه وسلم من الشرط مثل ذلك ، ثم نسخ هذا الحكم وهذا العهد ، واستحلفها الرسول عليه السلام فحلفت وأعطى زوجها ما أنفق ، ثم تزوجها عمر ، وقوله تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ﴾ أي مهورهن إذ المهر أجر البضع ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكوافر ﴾ والعصمة ما يعتصم به من عهد وغيره ، ولا عصمة بينكم وبينهن ولا علقة النكاح كذلك ، وعن ابن عباس أن اختلاف الدارين يقطع العصمة ، وقيل : لا تقعدوا للكوافر ، وقرىء : ﴿ تمسكوا ﴾ ، بالتخفيف والتشديد ، و ﴿ تمسكوا ﴾ أي ولا تتمسكوا ، وقوله تعالى : ﴿ واسألوا ما أنفقتم ﴾ وهو إذا لحقت امرأة منكم بأهل العهد من الكفار مرتدة فاسألوهم ما أنفقتم من المهر إذا

منعوها ولم يدفعوها إليكم فعليهم أن يغرموا صداقها كما يغرم لهم وهو قوله تعالى :

﴿ وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم ﴾ أي بين المسلمين والكفار وفي الآية مباحث :

الأول : قوله : ﴿ فامتحنوهن ﴾ أمر بمعنى الوجوب أو بمعنى الندب أو بغير هذا وذلك ؟

قال الواحدي : هو بمعنى الاستحباب .

الثاني : ما الفائدة في قوله : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بإيمانهن ﴾ وذلك معلوم من غير شك ؟ نقول : فائدته بيان أن لا سبيل إلى ما تطمئن به النفس من الإحاطة بحقيقة إيمانهن ، فإن ذلك مما استأثر به علام الغيوب .

(163/759)

الثالث : ما الفائدة في قوله : ﴿ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ ويمكن أن يكون في أحد الجانبين دون الآخر ؟ نقول : هذا باعتبار الإيمان من جانبهن ومن جانبهم إذ الإيمان من الجانبين شرط للحل ولأن الذكر من الجانبين مؤكد لارتفاع الحل ، وفيه من الإفادة ما لا يكون في غيره ، فإن قيل : هب أنه كذلك لكن يكفي قوله : ﴿ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار ﴾ لأنه لا يحل أحدهما للآخر فلا حاجة إلى الزيادة عليه والمقصود هذا لا غير ، نقول : التلفظ بهذا اللفظ لا يفيد

ارتفاع الحل من الجانبين بخلاف التلفظ بذلك اللفظ وهذا ظاهر .

البحث الرابع : كيف سمى الظن علماً في قوله : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ ﴾ ؟ نقول : إنه من باب أن الظن الغالب وما يفضي إليه الاجتهاد ، والقياس جار مجرى العلم ، وأن صاحبه غير داخل في قوله : ﴿ ولاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : 36] .

ثم قال تعالى :

وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11)

(164/759)

روى عن الزهري ومسروق أن من حكم الله تعالى أن يسأل المسلمون من الكفار مهر المرأة المسلمة إذا صارت إليهم ، ويسأل الكفار من المسلمين مهر من صارت إلينا من نسائهم مسلمة ، فأقر المسلمون بحكم الله وأبى المشركون فنزلت : ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مّنْ أزواجكم ﴾ أي سبقكم وانفلت منكم ، قال الحسن ومقاتل : نزلت في أم حكيم بنت أبي سفيان ارتدت وتركت زوجها عباس بن تميم القرشي ، ولم ترتد امرأة من غير قريش غيرها ، ثم عادت إلى الإسلام ، وقوله تعالى : ﴿ فعاقبتم ﴾ أي فغنمتم ، على قول ابن عباس

ومسروق ومقاتل ، وقال أبو عبيدة أصبتم منهم عقبى ، وقال المبرد ﴿ فعاقبتم ﴾ أي فعلتم ما فعل بكل يعني ظفرتم ، وهو من قولك : العقبى لفلان ، أي العاقبة ، وتأويل العاقبة الكرة الأخيرة ، ومعنى عاقبتم : غزوتم معاقبين غزواً بعد غزو ، وقيل : كانت العقبى لكم والغلبة ، فأعطوا الأزواج من رأس الغنيمة ما أنفقوا عليهن من المهر ، وهو قوله : ﴿ فَآتُوا الذين ذَهَبَتْ أزواجهم مّثْلَ مَا أَنفَقُواْ ﴾ ، وقرىء : (فأعقبتم) و (فعقبتم) بالتشديد ، و (فعقبتم) بالتخفيف بفتح القاف وكسرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 264 . 266 ﴾

(165/759)

وقال ابن عطية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾

أمر الله تعالى أن يؤتى الكفار مهور نسائهم اللاتي هاجرن مؤمنات ورفع الجناح في أن يتزوجن بصدقات هي أجورهن ، وأمر المسلمين بفراق الكافرات وأن لا يمسكوا بعصمهن ، فقيل : الآيات في عابدات الأوثان ومن لا يجوز نكاحها ، ابتداء ، وقيل : هي عامة نسخ منها نساء أهل الكتاب ، والعصم : جمع عصمة : وهي أسباب الصحبة والبقاء في

الزوجية ، وكذلك العصمة في كل شيء ، السبب الذي يعتصم به ، ويعتمد عليه ، وقرأ جمهور السبعة والناس : " تُمسِكوا " بضم التاء وكسر السين وتخفيفها من أمسك ، وقرأ أبو عمرو وحده وابن جبير ومجاهد والأعرج والحسن بخلاف " ولا تمسّكوا " من مسك ، بالشد في السين ، وقرأ الحسن وابن أبي ليلى وابن عامر في رواية عبد المجيد : " تَمَسَّكوا " بفتح التاء والميم ، وفتح السين وشدها ، وقرأ الحسن : " تَمْسِكوا " بفتح التاء وسكون الميم وكسر السين مخففة .

(166/759)

ورأيت لأبي علي الفارسي أنه قال : سمعت الفقيه أبا الحسن الكرخي يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ ، إنه في الرجال والنساء ، فقلت له : النحويون لا يرون هذا إلا في النساء ، لأن كوافر : جمع كافرة ، فقال وايش يمنع من هذا أليس الناس يقولون : طائفة كافرة ، وفرقة كافرة ، فبهت ، وقلت هذا تأييد ، وأمر تعالى أن يسأل أيضاً الكافرون أن يدفعوا الصدقات التي أعطاها المؤمنون لمن فر من أزواجهم إلى الكفار ، وقرر الحكم بذلك على الجميع ، فروي عن ابن شهاب أن قريشاً قالت : نحن لا نرضى هذا الحكم ولا نلتزمه ولا ندفع لأحد صداقاً فنزلت بسبب ذلك هذه الآية الأخرى : ﴿ وإن

فاتكم ﴾ الآية ، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يدفعوا إلى من فرت زوجته ففاتت بنفسها إلى الكفار صداقه الذي أنفق ، قال ابن عباس في كتاب الثعلبي : خمس نسوة من نساء المهاجرين رجعن عن الإسلام ولحقن بالمشركين : أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد ، وفاطمة بنت أبي أمية أخت أم سلمة ، كانت تحت عمر بن الخطاب ، وعبدة بنت عبد العزى كانت تحت هشام بن العاص ، وأم كلثوم بنت جرول كانت تحت عمر ، فأعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة . واختلف الناس في أي مال يدفع إليه الصداق ، فقال محمد بن شهاب الزهري : يدفع إليه من الصدقات التي كانت تدفع إلى الكفار بسبب من هاجر من أزواجهم ، وأزال الله تعالى دفعها إليهم حين لم يرضوا حكمه حسبما ذكرناه ، وهذا قول صحيح يقتضيه قوله تعالى : ﴿ فعاقبتم ﴾ وسنبين ذلك في تفسير اللفظة إن شاء الله تعالى . وقال مجاهد وقتادة : يدفع إليه من غنائم المغازي ، وقال هؤلاء التعقيب بالغزو والمغنم وتأولوا اللفظة بهذا المعنى ، وقال الزهري أيضاً : يدفع إليه من اي وجوه الفيء أمكن ، والعاقبة في هذه الآية ، ليست بمعنى مجازاة السوء بالسوء لكنها بمعنى فصرتم منهم إلى الحال التي صاروا إليها منكم وذلك بأن يفوت

إليكم شيء من أزواجكم ، وهكذا هو التعقيب على الجمل والدواب أن يركب هذا عقبة ويركب هذا عقبة .

وقرأ ابن مسعود : " وإن فاتكم أحد من أزواجكم " ويقال عاقب الرجل صاحبه في كذا ، أي جاء فعل كل واحد منهما بعقب فعل الآخر ، ومنه قول الشاعر [الكميت] :

وحاردت النكد الجلاد ولم يكن . . . لعقبة قدر المستعيرين معقب

ويقال : " عقّب " بشد القاف ، أي أصاب عقبى ، والتعقيب : غزو إثر غزو ، ويقال " عقَب " بتخفيفها ، ويقال : " عقِب " بكسرها كل ذلك بمعنى : يقرب بعضه من بعض وبجميع ذلك قرئ ، قرأ جمهور الناس : " عاقبتم " وقرأ الأعرج ومجاهد والزهري وعكرمة وحميد : " عقّبتم " بالتشديد في القاف ، وقرأ الأعرج أيضاً وأبو حيوة والزهري أيضاً : " عقَبتم " بفتح القاف خفيفة ، وقرأ النخعي والزهري أيضاً : " عقِبتم " بكسر القاف حكمها ، ثم ندب تعالى إلى التقوى وأوجبها ، وذكر العلة التي بها يجب التقوى وهي الإيمان بالله والتصديق بوحدانيته وصفاته وعقابه وإنعامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِذَا جَاءَكُمُ المؤمنات مُهَاجِرَاتٍ فامتحنوهن ﴾

فيه ست عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِذَا جَاءَكُمُ المؤمنات ﴾ لما أمر المسلمين بترك مولاة المشركين اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين عن بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام ، وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة ؛ فبيّن أحكام مهاجرة النساء .

قال ابن عباس : جرى الصلح مع مشركي قريش عام الْحُدَيْبِية ، على أن من أتاه من أهل مكة ردّه إليهم ، فجاءت سعيدة بنت الحارث الأسلميّة بعدَ الفراغ من الكتاب ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم بالحديبية بعدُ ؛ فأقبل زوجها وكان كافراً وهو صَيْفِيّ بن الراهب . وقيل : مسافر المخزومي فقال : يا محمد ، اردد عليّ امرأتي فإنك شرطت ذلك ! وهذه طِينة الكتاب لم تَجِفّ بعدُ ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقيل : " جاءت أمّ كُلْثُوم بنت عُقْبَة بن أبي مُعَيْط ، فجاء أهلها يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يردّها .

وقيل : هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعها أخواها عِمارة والوليد ، فردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخَوْيها وحبسها ، فقالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ردّها علينا للشرط ، قال صلى الله عليه وسلم : "كان الشرط في الرجال لا في النساء" " فأنزل الله

تعالى هذه الآية .

وعن عروة قال : كان مما اشترط سُهيل بن عمرو على النبيّ صلى الله عليه وسلم يومَ الْحُدَيْبِيّة : ألاّ يأتيك منّا أحد وإن كان على دينك إلا رددتَه إلينا ، حتى أنزل الله تعالى في المؤمنات ما أنزل ؛ يومىء إلى أن الشرط في ردّ النساء نُسخ بذلك .

وقيل : إن التي جاءت أُمَيْمة بنت بشر ، كانت عند ثابت بن الشِّمْراخ ففرّت منه وهو يومئذ كافر ، فتزوّجها سَهْل بن حُنيف فولدت له عبد الله ، قاله زيد بن حبيب .

كذا قال الماورديّ : أميمة بنت بشر كانت عند ثابت بن الشِّمْراخ .

(169/759)

وقال المهدويّ : وروى ابن وهب عن خالد أن هذه الآية نزلت في أُمَيْمَة بنت بشر من بني عمرو بن عوف .

وهي امرأة حسّان بن الدَّحداح ، وتزوّجها بعد هجرتها سَهل بن حُنيف .

وقال مقاتل : إنها سعيدة زوجة صَيْفِي بن الراهب مشرك من أهل مكة .

والأكثر من أهل العلم أنها أم كلثوم بنت عُقبة .

الثانية : واختلف أهل العلم هل دخل النساء في عقد المهادنة لفظاً أو عموماً ؛ فقالت

طائفة منهم : قد كان شرط ردّهن في عقد المهادنة لفظاً صريحاً فنسخ الله ردّهن من العقد ومنع منه ، وبَقّاه في الرجال على ما كان .

وهذا يدل على أن للنبيّ صلى الله عليه وسلم أن يجتهد رأيه في الأحكام ، ولكن لا يقرّه الله على خطأ .

وقالت طائفة من أهل العلم : لم يشترط ردّهن في العقد لفظاً ، وإنما أطلق العقد في ردّ من أسلم ؛ فكان ظاهر العموم اشتماله عليهن مع الرجال .

فبيّن الله تعالى خروجهنّ عن عمومه .

وفرّق بينهنّ وبين الرجال لأمرين : أحدهما أنهنّ ذوات فروج يحرمن عليهم .

الثاني أنهنّ أرقّ قلوباً وأسرع تقلّباً منهم .

فأما المقيمة منهنّ على شركها فمردودة عليهم .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فامتحنوهن ﴾ قيل : إنه كان من أرادت منهنّ إضرار زوجها فقالت : سأهاجر إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فلذلك أمر صلى الله عليه وسلم بامتحانهنّ .

واختلف فيما كان يمتحنهنّ به على ثلاثة أقوال :

الأوّل : قال ابن عباس : كانت الْمِحنَة أن تُستحلف بالله أنها ما خرجت من بغض زوجها ، ولا رغبةً من أرض إلى أرض ، ولا التماس دنيا ، ولا عشقاً لرجل منّا ؛ بل حُبّاً لله

ولرسوله .

فإذا حلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك ، أعطى النبيّ صلى الله عليه وسلم زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردّها ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ .

(170/759)

الثاني : أن المحنة كانت أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ قاله ابن عباس أيضاً .

الثالث : بما بيّنه في السورة بعدُ من قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إِذَا جَآءَكَ المؤمنات ﴾ قالت عائشة رضي الله عنها : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتحن إلا بالآية التي قال الله : ﴿ إِذَا جَآءَكَ المؤمنات يُبَايِعْنَكَ ﴾ رواه مَعْمَر عن الزُّهْرِي عن عائشة .

خرّجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

الرابعة : أكثر العلماء على أن هذا ناسخ لما كان عليه الصلاة والسلام عاهد عليه قريشاً ، مِن أنه يردّ إليهم من جاءه منهم مسلماً ؛ فنُسِخ من ذلك النساء .

وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن .

وقال بعض العلماء : كله منسوخ في الرجال والنساء ، ولا يجوز أن يهادن الإمامُ العدوّ على أن يردّ إليهم من جاءه مسلماً ، لأن إقامة المسلم بأرض الشرك لا تجوز .

وهذا مذهب الكوفيين .

وعقد الصلح على ذلك جائز عند مالك .

وقد احتج الكوفيون لما ذهبوا إليه من ذلك بحديث إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن خالد بن الوليد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى قوم من خَثْعَم فاعتصموا بالسجود فقتلهم ، فوَدَاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصف الدّية ، وقال "أنا بريء من كل مسلم أقام مع مشرك في دار الحرب لا تَراءَى نارُهما " قالوا : فهذا ناسخ لردّ المسلمين إلى المشركين ، إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد برىء ممن أقام معهم في دار الحرب .

ومذهب مالك والشافعي أن هذا الحكم غير منسوخ .

قال الشافعيّ : وليس لأحد هذا العقد إلا الخليفة أو رجل يأمره ، لأنه يَلِي الأموال كلها .

فمن عقد غير الخليفة هذا العقد فهو مردود .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ أي هذا الإمتحان لكم ، والله أعلم بإيمانهن ، لأنه مُتَوَلّي السرائر .

﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ أي بما يظهر من الإيمان .

وقيل : إن علمتموهنّ مؤمنات قبل الامتحان ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ أي لم يحِلّ الله مؤمنة لكافر ، ولا نكاح مؤمن لمشركة .

وهذا أدلّ دليل على أن الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامُها لا هجرتها .

وقال أبو حنيفة : الذي فرّق بينهما هو اختلاف الدارين .

وإليه إشارة في مذهب مالك بل عبارة .

والصحيح الأول ، لأن الله تعالى قال : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ فبيّن أن العلة عدم الحِلّ بالإسلام وليس باختلاف الدار .

والله أعلم .

وقال أبو عمر : لا فرق بين الدارين لا في الكتاب ولا في السنة ولا في القياس ، وإنما المراعاة في ذلك الدينان ، فباختلافهما يقع الحكم وباجتماعهما ، لا بالدار .

والله المستعان .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ وَآتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا ﴾ أمر الله تعالى إذا أُمسِكت المرأة المسلمة أن يُرَدّ على زوجها ما أنفق ، وذلك من الوفاء بالعهد ، لأنه لما مُنع من أهله بحرمة الإسلام ،

أمر برد المال (إليه) حتى لا يقع عليهم خسران من الوجهين : الزوجة والمال .

السابعة : ولا غُرْمَ إلا إذا طالب الزوج الكافر ، فإذا حضر وطالب منعناها وغرمنا .

فإن كانت ماتت قبل حضور الزوج لم نَغرَم المهر إذ لم يتحقق المنع .

وإن كان المسمَّى خمراً أو خنزيراً لم نَغْرَم شيئاً ، لأنه لا قيمة له .

وللشافعيّ في هذه الآية قولان : أحدهما أن هذا منسوخ .

قال الشافعيّ : وإذا جاءتنا المرأة الحرّة من أهل الهُدنَة مسلمة مهاجرة من دار الحرب إلى الإمام في دار السلام أو في دار الحرب ، فمن طلبها مِن وَلِيٍّ سِوَى زوجها مُنع منها بلا عِوَض .

وإذا طلبها زوجها لنفسه أو غيره بوكالته ففيه قولان : أحدهما يعطي العِوض ، والقول ما قال الله عز وجل .

وفيه قول آخر أنه لا يعطي الزوج المشرك الذي جاءت زوجته مسلمة العِوض .

فإن شرط الإمامُ ردّ النساء كان الشرط ورسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يرد النساء كان شرط من شرط ردّ النساء منسوخاً وليس عليه عِوض ، لأن الشرط المنسوخ باطل

ولا عوض للباطل .

الثامنة : أمر الله تعالى بردّ مثل ما أنفقوا إلى الأزواج ، وأن المخاطب بهذا الإمامُ ، ينفذ مما بين يديه من بيت المال الذي لا يتعيّن له مصرف .

وقال مقاتل : يردّ المهر الذي يتزوّجها من المسلمين ، فإن لم يتزوجها من المسلمين أحد فليس لزوجها الكافر شيء .

وقال قتادة : الحكم في ردّ الصداق إنما هو في نساء أهل العهد ؛ فأما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يردّ إليهم الصداق .

والأمر كما قاله .

التاسعة : قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ يعني إذا أسلمن وانقضت عدتهنّ ؛ لما ثبت من تحريم نكاح المشركة والمعتدّة .

فإن أسلمت قبل الدخول ثبت النكاح في الحال ولها التزوّج .

العاشرة : قوله تعالى : ﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أباح نكاحها بشرط المهر ؛ لأن الإسلام فرّق بينها وبين زوجها الكافر .

الحادية عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ قراءة العامة بالتخفيف من الإمساك .

وهو اختيار أبي عبيد ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة : 231] .

وقرأ الحسن وأبو العالية وأبو عمرو "وَلَا تُمَسِّكُوا" مشدّدة من التمسك.

يقال: مَسَّك يمسّك تمسُّكاً؛ بمعنى أمسك يُمسك.

وقرئ "وَلَا تَمَسكوا" بنصب التاء؛ أي لا تتمسكوا.

والعِصَم جمع العِصْمة؛ وهو ما اعتصم به.

والمراد بالعصمة هنا النكاح.

يقول: من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدّ بها، فليست له امرأة، فقد انقطعت عصمتها لاختلاف الدارين.

وعن النَّخَعِيّ: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر؛ وكان الكفار يتزوّجون المسلمات والمسلمون يتزوجون المشركات؛ ثم نسخ ذلك في هذه الآية.

فطلق عمر بن الخطاب حينئذٍ امرأتين له بمكة مشركتين: قُرَيبة بنت أبي أمية فتزوجها معاوية بن أبي سفيان وهما على شركهما بمكة.

وأمّ كُلْثوم بنت عمرو الخُزَاعِيّة أم عبد الله بن المغيرة؛ فتزوجها أبو جَهم بن حُذافة وهما على شركهما.

فلما وَلِيَ عمر قال أبو سفيان لمعاوية : طلّق قُرَيبة لئلا يرى عمر سلَبَه في بيتك ، فأبى معاوية من ذلك .

وكانت عند طلحة بن عبيد الله أرْوَى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ففرق الإسلام بينهما ، ثم تزوجها في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص ، وكانت ممن فرّ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من نساء الكفار ، فحبسها وزوّجها خالداً .

وزوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم زينب ابنته وكانت كافرة من أبي العاص بن الربيع ، ثم أسلمت وأسلم زوجها بعدها .

ذَكر عبد الرزاق عن ابن جُريج عن رجل عن ابن شهاب قال : أسلمت زينب بنت النبيّ صلى الله عليه وسلم وهاجرت بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم في الهجرة الأولى ، وزوجها أبو العاص بن الربيع عبد العُزَّى مشرك بمكة .

الحديث ، وفيه : أنه أسلم بعدها .

وكذلك قال الشعبي .

قال الشَّعْبي : وكانت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة أبي العاص بن الربيع ، فأسلمت ثم لحقت بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى زوجها المدينة فأمّنته فأسلم فردّها عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقال أبو داود عن عكرمة عن ابن عباس : بالنكاح الأول ؛ ولم يحدث شيئاً .

قال محمد بن عمر في حديثه : بعد ست سنين .

وقال الحسن بن عليّ : بعد سنتين .

قال أبو عمر : فإن صح هذا فلا يخلو من وجهين : إما أنها لم تحض حتى أسلم زوجها ، وإما أن الأمر فيها منسوخ بقول الله عز وجل : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ [البقرة : 228] يعني في عدّتهنّ .

وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء أنه عنى به العدة .

وقال ابن شهاب الزهري رحمه الله في قصة زينب هذه : كان قبل أن تنزل الفرائض .

وقال قتادة : كان هذا قبل أن تنزل سورة "براءة" بقطع العهود بينهم وبين المشركين .

والله أعلم .

الثانية عشرة : قوله تعالى : ﴿ بِعِصَمِ الكوافر ﴾ المراد بالكوافر هنا عبدة الأوثان مَن لا يجوز ابتداءً نكاحها ، فهي خاصة بالكوافر من غير أهل الكتاب .

وقيل : هي عامة ، نسخ منها نساء أهل الكتاب .

ولو كان إلى ظاهر الآية لم تحل كافرة بوجه .

وعلى القول الأول إذا أسلم وَثني ّ أو مجوسيّ ولم تُسلم امرأته فرّق بينهما .

وهذا قول بعض أهل العلم .

ومنهم من قال : ينتظر بها تمام العدة .

فمن قال يفرّق بينهما في الوقت ولا ينتظر تمام العدة إذا عرض عليها الإسلام ولم تُسلم مالكُ بن أنس .

وهو قول الحسن وطاوس ومجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة والحَكَم ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكوافر ﴾ .

وقال الزهري : ينتظر بها العدّة .

وهو قول الشافعي وأحمد .

واحتجوا بأن أبا سفيان بن حرب أسلم قبل هند بنت عتبة امرأته ، وكان إسلامه بمرّ الظَّهْران ثم رجع إلى مكة وهند بها كافرة مقيمة على كفرها ، فأخذت بلحيته وقالت : اقتلوا الشيخ الضّال .

ثم أسلمت بعده بأيام ، فاستقرّا على نكاحهما لأن عدتها لم تكن انقضت .

قالوا : ومثله حكيم بن حِزام أسلم قبل امرأته ، ثم أسلمت بعده فكانا على نكاحهما .

قال الشافعي : ولا حجة لمن احتج بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكوافر ﴾ لأن نساء المسلمين محرّمات على الكفار ؛ كما أن المسلمين لا تحل لهم الكوافر والوثنيات ولا

المجوسيات بقول الله عز وجل : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ ثم بيّنت السنة أن مراد الله من قوله هذا أنه لا يحل بعضهم لبعض إلا أن يسلم الباقي منهما في العدة .

وأما الكوفيون وهم سفيان وأبو حنيفة وأصحابه فإنهم قالوا في الكافرين الذّميّين : إذا أسلمت المرأة عُرِض على الزوج الإسلام ، فإن أسلم وإلا فُرّق بينهما .

(175/759)

قالوا : ولو كانا حربيين فهي امرأته حتى تحيض ثلاث حيض إذا كانا جميعاً في دار الحرب أو في دار الإسلام .

وإن كان أحدهما في دار الإسلام والآخر في دار الحرب انقطعت العصمة بينهما فراعوا الدار ؛ وليس بشيء .

وقد تقدم .

الثالثة عشرة : هذا الاختلاف إنما هو في المدخول بها ، فإن كانت غير مدخول بها فلا نعلم اختلافاً في انقطاع العصمة بينهما ؛ إذ لا عِدّة عليها .

كذا يقول مالك في المرأة ترتد وزوجها مسلم : انقطعت العصمة بينهما .

وحجته ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ وهو قول الحسن البصري والحسن بن صالح بن

حَيٌّ.

ومذهب الشافعي وأحمد أنه ينتظر بها تمام العدة.

الرابعة عشرة: فإن كان الزوجان نصرانيين فأسلمت الزوجة ففيها أيضاً اختلاف.

ومذهب مالك وأحمد والشافعي الوقوف إلى تمام العدة.

وهو قول مجاهد.

وكذا الوَثَني تُسلم زوجته، إنه إن أسلم في عدتها فهو أحق بها؛ كما كان صَفْوان بن أمَيّة وعِكْرمة بن أبي جهل أحق بزوجتيهما لما أسلما في عدّتيهما؛ على حديث ابن شهاب. ذكره مالك في الموطأ.

قال ابن شهاب: كان بين إسلام صفوان وبين إسلام زوجته نحو من شهر.

قال ابن شهاب: ولم يبلغنا أن امرأة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجها كافر مقيم بدار الحرب إلا فرقت هجرتها بينه وبينها؛ إلا أن يقدم زوجها مهاجراً قبل أن تنقضي عدتها.

ومن العلماء من قال: ينفسخ النكاح بينهما.

قال يزيد بن علقمة: أسلم جدّي ولم تُسلم جدّتي ففرّق عمر رضي الله عنه بينهما؛ وهو قول طاوس.

وجماعة غيره منهم عطاء والحسن وعكرمة قالوا: لا سبيل عليها إلا بخطبة.

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ﴾ قال المفسرون: كان من ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار: هاتوا مهرها. ويقال للمسلمين إذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة: ردّوا إلى الكفار مهرها.

(176/759)

وكان ذلك نَصَفاً وعدلاً بين الحالتين.

وكان هذا حكم الله مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإجماع الأمة؛ قاله ابن العربيّ.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ﴾ أي ما ذكر في هذه الآية.

﴿ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ تقدم في غير موضع.

وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11)

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ في الخبر: أن المسلمين قالوا: رضينا بما حكم الله؛ وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا فنزلت: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ

أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الكفار فَعَاقَبْتُمْ فَآتُواْ الذين ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُواْ ﴾ .

وروى الزهري عن عُروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : حكم الله عز وجل بينكم فقال جلّ ثناؤه : ﴿ وَاسْأَلُواْ مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُواْ ﴾ فكتب إليهم المسلمون : قد حكم الله عز وجل بيننا بأنه إن جاءتكم امرأة منّا أن توجهّوا إلينا بصداقها ، وإن جاءتنا امرأة منكم وجهنا إليكم بصداقها .

فكتبوا إليهم : أما نحن فلا نعلم لكم عندنا شيئاً ، فإن كان لنا عندكم شيء فوجّهوا به ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الكفار فَعَاقَبْتُمْ فَآتُواْ الذين ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنفَقُواْ ﴾ .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ الله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أي بين المسلمين والكفار من أهل العهد من أهل مكة يردّ بعضهم إلى بعض .

قال الزهريّ : ولولا العهد لأمسك النساء ولم يرد إليهم صداقاً .

وقال قتادة ومجاهد : إنما أمروا أن يُعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الْفَيء والغنيمة .

وقالا : هي فيمن بيننا وبينه عهد وليس بيننا وبينه عهد .

وقالا : ومعنى ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ فاقتصصتم .

﴿ فَآتُواْ الذين ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنفَقُواْ ﴾ يعني الصدقات .

فهي عامة في جميع الكفار .

وقال قتادة أيضاً : وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار الذين بينكم وبينهم عهد ، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا .

ثم نسخ هذا في سورة "براءة" .

وقال الزهريّ : انقطع هذا عام الفتح .

وقال سفيان الثوريّ : لا يعمل به اليوم .

وقال قوم : هو ثابت الحكم الآن أيضاً .

حكاه القشيريّ .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ قراءة العامة ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ وقرأ عَلْقمة والنّخَعِيّ وحُميد الأعرج "فعقّبتم" مشدّدة .

وقرأ مجاهد "فأعقبتم" وقال : صنعتم كما صنعوا بكم .

وقرأ الزهريّ "فعقِبتم" خفيفة بغير ألف .

وقرأ مسروق وشَقيق بن سلمة "فعقبتم" بكسر القاف خفيفة .

وقال : غنمتم .

وكلها لغات بمعنى واحد .

يقال : عاقب وعَقَب وعَقّب وأعقب وتعقّب واعتقب وتعاقب إذا غنم .

وقال القُتَبيّ "فعاقبتم" فغزوتم معاقبين غزواً بعد غَزْو .

وقال ابن بحر : أي فعاقبتم المرتدة بالقتل فلزوجها مهرها من غنائم المسلمين .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فَآتُوا الذين ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾ قال ابن عباس : يقول إن لحقت امرأة مؤمنة بكفار أهل مكة ، وليس بينكم وبينهم عهد ، ولها زوج مسلم قِبلكم فغنمتم ، فأعطوا هذا الزوج المسلم مهره من الغنيمة قبل أن تُخَمّس .

وقال الزهريّ : يُعْطَى من مال الفيء .

وعنه يُعْطى من صداق من لَحِق بنا .

وقيل : أي إن امتنعوا من أن يَغرَمُوا مهر هذه المرأة التي ذهبت إليهم ، فانبذوا العهد إليهم حتى إذا ظفرتم فخذوا ذلك منهم .

قال الأعمش : هي منسوخة .

وقال عطاء : بل حكمها ثابت .

وقد تقدم جميع هذا .

القُشيريّ : والآية نزلت في أمّ الحكم بنت أبي سفيان ، ارتدت وتركت زوجها عِيَاض بن غَنْم القرشي ، ولم ترتدّ امرأة من قريش غيرها ، ثم عادت إلى الإسلام .

وحكى الثعلبي عن ابن عباس : هن ست نسوة رجعن عن الإسلام ولحِقن بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين : أمّ الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن أبي شدّاد الفهري .

وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة أخت أم سلمة ، وكانت تحت عمر ابن الخطاب ، فلما هاجر عمر أَبَتْ وارتدت .

وبَرْوَع بنت عقبة ، كانت تحت شَمّاس بن عثمان .

وعبدة بنت عبد العُزَّى ، كانت تحت هشام بن العاص .

و(أم) كلثوم بنت جَرْوَل تحت عمر بن الخطاب .

وشهبة بنت غَيْلان .

فأعطاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة .

﴿ واتقوا الله ﴾ احذروا أن تتعدّوا ما أمرتم به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(179/759)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ ﴾

أي في إبراهيمَ ومن مَعَهُ ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ تكريرٌ للمبالغةِ في الحثّ على الائتساءِ به عليهِ الصلاةُ والسلامُ ولذلكَ صُدرَ بالقسمِ. وقولُهُ تعالى: ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللهَ واليومَ الأخرَ ﴾ بدلٌ من لكُم فائدَتهُ الإيذانُ بأنَّ منْ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ لا يتركُ الاقتداءَ بهم وأنَّ تركَهُ منْ مخايلِ عدمِ الإيمانِ بهما كما ينبىءُ عنه قولُهُ تعالَى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الغنى الحميد ﴾ فإنَّهُ مما يوعَدُ بأمثالِهِ الكفرةُ.

(180/759)

﴿ عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مِّنْهُم ﴾ أي منْ أقاربكم المشركينَ ﴿ مَّوَدَّةً ﴾ بأنْ يوافقوكُم في الدين وعدهم اللهُ تعالى بذلكَ لِما رأى منهم من التصلبِ في الدينِ والتشددِ للهِ في معاداةِ آبائِهم وأبنائِهم وسائرِ أقربائِهم ومقاطعتِهم إيَّاهُم بالكليةِ تطييباً

لقلوبهم ولقد أنجز وعده الكريم حين أتاح لهم الفتح فأسلم قومهم فتم بينهم من التحابّ والتّصافي ما تمّ ﴿ والله قدير ﴾ أي مبالغ في القدرة فيقدر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودّة ﴿ والله غفور رّحيم ﴾ فيغفر لمن أسلم من المشركين ويرحمهم وقيل غفور لما فرط منكم في موالاتهم من قبل ولما بقي في قلوبكم من ميل الرحم.

﴿ لاَّ ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ﴾ أي لا ينهاكم عن البرّ بهؤلاء فإنّ قوله تعالى: ﴿ أن تبرّوهم ﴾ بدل من الموصول ﴿ وتقسطوا إليهم ﴾ أي تفضلوا إليهم بالقسط أي العدل ﴿ إنّ الله يحبّ المقسطين ﴾ أي العادلين. روي أنّ قتيلة بنت عبد العزّى قدمت مشركة على بنتها أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه بهدايا فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول فنزلت فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن إليها وقيل المراد بهم خزاعة وكانوا صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه ﴿ إنّما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم ﴾ وهم عتاة أهل مكة ﴿ وظاهروا على إخراجكم ﴾ وهم سائر أهلها ﴿ أن تولّوهم ﴾ بدل اشتمال من الموصول أي إنما ينهاكم عن أنْ تتولّوهم ﴿ ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون ﴾ لوضعهم

الولايةَ في موضعِ العداوةِ أو هم الظالمونَ لأنفسِهم بتعريضِها للعذابِ.

﴿ يا أيُّها الذين ءامنُواْ ﴾

(182/759)

بيانٌ لحكمِ من يُظهرُ الإيمانَ بعدَ بيانِ حُكمِ فريقي الكافرينَ ﴿ إذَا جاءكُمُ المؤمناتُ مهاجراتٍ ﴾ من بينِ الكفارِ ﴿ فامتحنوهن ﴾ فاختبروهُنَّ بما يغلبُ على ظنِّكم موافقةَ قلوبِهنَّ للسانِهنَّ في الإيمانِ. يُروى أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كانَ يقولُ للتي يمتحنُهَا بالله الذي لا إله إلا هُوَ ما خرجتِ من بغضِ زوجٍ بالله ما خرجتِ رغبةً عن أرضٍ إلى أرضٍ بالله ما خرجتِ التماسَ دُنيا بالله ما خرجتِ إلا حباً للهِ ورسولِه ﴿ الله أَعْلَمُ بإيمانهن ﴾ لأنَّه المطلعُ على ما في قلوبهنَّ والجملةُ اعتراضٌ ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ ﴾ بعدَ الامتحانِ ﴿ مؤمنات ﴾ علماً يمكنكم تحصيلُه وتبلغُه طاقتُكم بعد اللَّتيا وَالتى من الاستدلالِ بالعلائمِ والدلائلِ والاستشهادِ بالأماراتِ والمخايلِ وهو الظنُّ الغالبُ، وتسميتُه علماً للإيذانِ بأنه جارٍ مجرى العلمِ في وجوبِ العملِ به ﴿ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار ﴾ أي إلى أزواجِهنَّ الكفرةِ لقولِه تعالى: ﴿ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ فإنَّه تعليلٌ للنهي عن رجعهنَّ

إليهم ، والتكريرُ إما لتأكيدِ الحرمةِ أو لأنَّ الأولَ لبيانِ زوالِ النكاحِ الأولِ والثاني لبيانِ امتناعِ النِّكاحِ الجديدِ ﴿ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ﴾ أي وأعطوا أزواجهنَّ مثلَ ما دفعُوا إليهنَّ من المهورِ وذلكَ أنَّ صلحَ الحديبيةِ كانَ على أنَّ من جاءَنا منكم رددناهُ فجاءتْ سُبيعةُ بنتُ الحارثِ الأسلميةُ مسلمةً والنبي عليه الصلاة والسلام بالحديبية فأقبل زوجها مسافرٌ المخزوميُّ وقيلَ صيفيُّ بنُ الراهبِ فقال يا محمدُ ارددْ عليَّ امرأتي فإنكَ قد شرطتَ أن تردَّ علينا من أتاكَ منا فنزلتْ لبيانِ أن الشرطَ إنما كانَ في الرجالِ دُونَ النساءِ فاستحلفَها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فحلفتْ فأعطى زوجَها ما أنفقَ وتزوجَها عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ .

(183/759)

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ فإنَّ إسلامَهُنَّ حالَ بينهنَّ وبينَ أزواجهنَّ الكفارِ ﴿ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ شرطَ إيتاءُ المهرِ في نكاحهنَّ إيذاناً بأنَّ ما أُعطى أزواجُهُنَّ لا يقومُ مقامَ المَهْرِ ﴿ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الكوافر ﴾ جمعُ عصمةٍ وهي ما يُعتصم به من عقدٍ وسببٍ أيْ لا يكُنْ بينكم وبينَ المشركاتِ عصمةٌ ولا عُلقةُ زوجيةٍ قال ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا : من كانتْ له امرأةٌ كافرةٌ بمكةَ فلا يعتدَّنَّ بها من نسائِهِ لأنَّ اختلافَ الدارينِ قطعَ عصمتَها منْهُ وعنِ النخعيِّ رحمه اللهُ هيَ المسلمةُ تلحقُ بدارِ الحربِ فتكفُرُ وعن مجاهدٍ

أمرهُم بطلاقِ الباقياتِ مع الكفارِ ومفارقتِهنَّ ، وقُرِىءَ ولا تُمسّكوا بالتشديد ولا تَمسّكوا بحذف إحدى التاءين من تتمسكوا ﴿ وَسْئَلُواْ مَّآ أَنفَقْتُمْ ﴾ من مهورِ نسائِكم اللاحقاتِ بالكُفَّارِ ﴿ وَلْيَسْئَلُواْ مَا أَنفَقُواْ ﴾ من مهورِ أزواجهنَّ المهاجراتِ ﴿ ذلكم ﴾ الذي ذُكِرَ ﴿ حُكْمُ اللَّهِ ﴾ وقولُه تعالَى ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ كلامٌ مستأنفٌ أو حالٌ من حكمِ اللهِ على حذفِ الضميرِ أي يحكمُه اللهُ أو جعلَ الحكمَ حاكماً على المبالغةِ ﴿ واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يشرعُ ما تقتضيهِ الحكمةُ البالغةُ .

رُوِيَ أنَّه لما نزلتْ الآيةُ أدَّى المؤمنونَ ما أُمروا بِهِ من مهورِ المهاجراتِ إلى أزواجهنَّ المشركينَ وأبى المشركونَ أنْ يؤدُوا شيئاً من مهورِ الكوافرِ إلى أزواجهنَّ المسلمينَ ، فنزلَ قولُه تعالى ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ ﴾ أي سبقكُم وانفلتَ منكُم ﴿ شَىْءٌ مِّنْ أزواجكم إِلَى الكفار ﴾ أي أحدٌ من أزواجِكم وقد قُرِىءَ كذلكَ وإيقاعُ شيءٌ موقعَهُ للتحقيرِ والإشباعِ في التعميمِ أو شيءٌ من مهورِ أزواجِكم ﴿ فعاقبتم ﴾ أي فجاءتْ عقبتُكم أي نوبتُكُم من أداءِ المهرِ شبه ما حكم به على المسلمينَ والكافرينَ من أداءِ مهورِ نساءِ أولئكَ تارةً وأداءِ أولئكَ مهورَ نساءِ هؤلاءِ أُخرى بأمرٍ يتعاقبونَ فيهِ كما يتعاقبُ في الركوبِ وغيرِه ﴿ فَآتُواْ الذين ذَهَبَتْ

أزواجهم مّثْلَ مَا أَنفَقُواْ ﴾ من مهرِ المهاجرةِ التي تزوجتُموها ولا تؤتوهُ زوجَها الكافرَ ، وقيلَ معناهُ إنْ فاتكم فأصبتُم من الكفارِ عُقْبى هيَ الغنيمةُ فآتُوا بدلَ الفائتِ من الغنيمةِ .

وقُرِىءَ فأعقبتُم وفعقَّبتُم بالتشديدِ وفعقِبْتُم بالتخفيفِ وفتحِ القافِ وبكسرِهَا . قيلَ جميعُ منْ لحقَ بالمشركينَ من نساءِ المؤمنينَ المهاجرينَ ستُّ نسوةٍ أمُّ الحكمِ بنتُ أبي سفيانَ وفاطمةُ بنتُ أميةٍ وبَرْوعُ بنتُ عُقْبةٍ وعبدةُ بنتُ عبدِ العُزَّى وهندُ بنتُ أبي جهلٍ وكلثومُ بنتُ جرولٍ ﴿ واتقوا الله الذى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ فإنَ الإيمانَ بهِ تعالى يقتضِي التَّقوى منهُ تعالَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(185/759)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ ﴾

بيان لحكم من يظهر الإيمان بعد بيان حكم فريقي الكافرين ﴿ إِذَا جَاءكُمُ المؤمنات ﴾ أي بحسب الظاهر ﴿ مهاجرات ﴾ من بين الكفار ، وقرىء ﴿ مهاجرات ﴾ بالرفع على البدل من ﴿ المؤمنات ﴾ فكأنه قيل : إذا جاءكم ﴿ مهاجرات ﴾ ﴿ فامتحنوهن ﴾ فاختبروهن بما يغلب.

على ظنكم موافقة قلوبهم لألسنتهن في الإيمان .

أخرج ابن المنذر .

والطبراني في الكبير .

وابن مردويه بسند حسن .

وجماعة عن ابن عباس أنه قال في كيفية امتحانهن : كانت المرأة إذا جاءت النبي صلى الله عليه وسلم حلفها عمر رضي الله تعالى عنه بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض .

وبالله ما خرجت من بغض زوج .

وبالله ما خرجت التماس دنيا .

وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله ، وفي رواية عنه أيضاً كانت محنة النساء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عمر بن الخطاب فقال : قل لهن إن رسول الله عليه الصلاة والسلام بايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً الخ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ ﴾ من كل أحد أو منكم ﴿ بإيمانهن ﴾ فإنه سبحانه هو المطلع على ما في قلوبهن ، والجملة اعتراض ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ ﴾ أي ظننتموهن ظناً قوياً يشبه العلم بعد الامتحان ﴿ مؤمنات ﴾ في نفس الأمر ﴿ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار ﴾ أي إلى أزواجهن الكفرة لقوله تعالى : ﴿ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ فإنه تعليل للنهي عن رجعهن إليهم ، والجملة الأولى : لبيان الفرقة

الثابتة وتحقق زوال النكاح الأول ، والثانية : لبيان امتناع ما يستأنف ويستقبل من النكاح ، ويشعر بذلك التعبير بالاسم في الأولى والفعل في الثانية .

(186/759)

وقال الطيبي في وجه اختلاف التعبيرين : إنه أسندت الصفة المشبهة إلى ضمير المؤمنات في الجملة الأولى إعلاماً بأن هذا الحكم يعني نفي الحل ثابت فيهن لا يجوز فيه الإخلال والتغيير من جانبهن ، وأسند الفعل إلى ضمير الكفار إيذاناً بأن ذلك الحكم مستمر الامتناع في الأزمنة المستقبلة لكنه قابل للتغيير باستبدال الهدى بالضلال ، وجوز أن يكون ذلك تكريراً للتأكيد والمبالغة في الحرمة وقطع العلاقة ، وفيه من أنواع البديع ما سماه بعضهم بالعكس والتبديل كالذي في قوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة : 187] ولعل الأول أولى ، واستدل بالآية على أن الكفار مخاطبون بالفروع كما في الانتصاف ، والقول : بأن المخاطب في حق المؤمنة هي .

وفي حق الكافر الأئمة بمعنى أنهم مخاطبون بأن يمنعوا ذلك الفعل من الوقوع لا يخفى حاله ، وقرأ طلحة لا هن يحللن لهم .

(187/759)

﴿ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ﴾ أي وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور قيل : وجوباً ، وقيل : ندباً ، روى أنه صلى الله عليه وسلم عام الحديبية أمر علياً كرم الله تعالى وجهه أن يكتب بالصلح فكتب : باسمك اللهم هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين تأمن فيه الناس ويكف بعضهم عن بعض على أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليه ، ومن جاء قريشاً من محمد لم يردّوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة ، وأن لا إسلال ولا إغلال ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جندل بن سهيل ولم يأت رسول الله عليه الصلاة والسلام أحد من الرجال إلا رده في مدّة العهد وإن كان مسلماً ، ثم جاء المؤمنات مهاجرات ، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت أول المهاجرات ، فخرج أخواها عمار .

والوليد حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلماه في أمرها ليردها عليه الصلاة والسلام إلى قريش فنزلت الآية فلم يردّها عليه الصلاة والسلام ثم أنكحها صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنه جاءت امرأة تسمى سبيعة بنت الحرث الأسلمية مؤمنة ، وكانت تحت صيفي بن الراهب وهو مشرك من أهل مكة فطلبوا ردها فأنزل الله تعالى الآية ، وروي أنها كانت تحت مسافر المخزومي وأنه أعطى ما أنفق ، وتزوجها عمر رضي الله تعالى عنه ، وفي رواية أنها نزلت في أميمة بنت بشر امرأة من بني عمرو بن عون كانت تحت أبي حسان بن الدحداحة هاجرت مؤمنة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلبوا ردّها فنزلت الآية فلم يردها عليه الصلاة والسلام ، وتزوجها سهيل بن صيف فولدت له عبد الله بن سهيل ، ولعل سبب النزول متعدد وأيًّا مّا كان فالآية على ما قيل : نزلت بياناً لأن الشرط في كتاب المصالحة إنما كان في الرجال دون النساء ، وتراخي المخصص عن العام جائز عند الجبائي ومن وافقه ، ونسب للزمخشري أن ذلك من تأخير بيان المجمل لأنه لا يقول بعموم تلك الألفاظ بل يجعلها مطلقات ، والحمل على العموم والخصوص بحسب المقام ، والحنفية يجوزونه لا يقال : إنه شبه التأخير عن وقت الحاجة وهو غير جائز عند الجميع لأن وقت الحاجة أي العمل بالخطاب كان بعد مجيء المهاجرات وطلب ردهن لا حين جرت المهادنة مع قريش ، وهذا ما ذهب إليه بعض الشافعية أيضاً ،

ومنهم من زعم أن التعميم كان منه صلى الله عليه وسلم عن اجتهاد أثيب عليه بأجر واحد ولم يقر عليه ، ومنهم من وافق جمهور الحنفية على النسخ لا التخصيص ، فمن جوز منهم نسخ السنة بالكتاب قال : نسخ بالآية ، ومن لم يجوز قال : بالسنة أي امتناعه صلى الله عليه وسلم من الرد ووردت الآية مقررة لفعله عليه الصلاة والسلام .

(189/759)

وعن الضحاك كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين عهد أن لا تأتيك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا فإن دخلت في دينك ولها زوج أن ترد على زوجها الذي أنفق عليها ، وللنبي صلى الله عليه وسلم من الشرط مثل ذلك ، وعليه فالآية موافقة لما وقع عليه العهد لكن أخرج أبو داود في ناسخه .

وابن جرير .

(190/759)

وغيرهما عن قتادة أنه نسخ هذا العهد وهذا الحكم يعني إيتاء الأزواج ما أنفقوا براءة ، أما نسخ العهد فلما أمر فيها من النبذ ، وأما نسخ الحكم فلأن الحكم فرع العهد فإذا نسخ نسخ ، والذي عليه معظم الشافعية أن الغرامة لأزواجهن غير ثابتة ، وبين ذلك في "الكشف" على القول بنسخ رد المرأة ، والقول بالتخصيص ، والقول : بأن التعميم كان عن اجتهاد لم يقر عليه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : وأما على قول الضحاك أي السابق فهو مشكل ، ووجهه أنه حكم في مخصوصين فلا يعم غير تلك الوقعة على أنه عز وجل خص الحكم بالمهاجرين ولم يبق بعد الفتح هجرة كما ثبت في الصحيح فلا يبقى الحكم ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ أي في نكاحهن حيث حال إسلامهن بينهن وبين أزواجهن الكفار ﴿ إِذَا ءاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي وقت إيتائكم إياهن مهورهن فإذا لمجرد الظرفية ، ويجوز كونها شرطية وجوابها مقدر بدليل ما قبل ، وعلى التقديرين يفهم اشتراط إيتاء المهور في نفي الجناح في نكاحهن ، وليس المراد بإيتاء الأجور إعطاءها بالفعل بل التزامها والتعهد بها ، وظاهر هذا مع ما تقدم من قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ ﴾ أن هناك إيتاء إلى الأزواج وإيتاء إليهن فلا يقوم ما أوتي إلى الأزواج مقام مهورهن بل لا بد مع ذلك من إصداقهن ، وقيل : لا يخلو إما أن يراد بالأجور ما كان يدفع إليهن ليدفعنه إلى أزواجهن فيشترط في إباحة تزويجهن تقديم أدائه ، وإما أن يراد أن ذلك إذا دفع إليهن على سبيل القرض ثم تزوجن على ذلك لم يكن به بأس ، وإما أن يبين إليهم أن ما أعطي لأزواجهن لا

يقوم مقام المهر ، وهذا ما ذكرناه أولاً من الظاهر وهو الأصح في الحكم ، والوجهان الآخران ضعيفان فقهاً ولفظاً .

واحتج أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه بالآية على أن أحد الزوجين إذا خرج من دار الحرب مسلماً أو بذمة وبقي الآخر حربياً وقعت الفرقة .

(191/759)

ولا يرى العدة على المهاجرة ويبيح نكاحها من غير عدة إلا أن تكون حاملاً ، وهذا للحديث المشهور الذي تجوز بمثله الزيادة على النص

" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقين ماءه زرع غيره " ومذهب الشافعي على ما قيل : إنه لا تقع الفرقة إلا بإسلامها ، وأما بمجرد الخروج فلا فان أسلمت قبل الدخول تنجزت الفرقة وبعد الدخول توقفت إلى انقضاء العدة ، وتعقب الاحتجاج بأن الآية لا تدل على مجموع ما ذكر ، نعم قد احتج بها على عدم العدة في الفرقة بخروج المرأة إلينا من دار الحرب مسلمة ، ووجه بأنه سبحانه نفى الجناح من كل وجه في نكاح المهاجرات بعد إيتاء المهر ، ولم يقيد جل شأنه بمضي العدة فلولا أن الفرقة بمجرد الوصول إلى دار الإسلام لكان الجناح ثابتاً ، ومع هذا فقد قيل : الجواب على أصل الشافعية أن رفع الإطلاق ليس بنسخ ظاهر

لأن عدم التعرض ليس تعرضاً للعدم ، وأما على أصل الحنفية فكسائر الموانع ، وكونها حاملاً بالاتفاق فتأمل ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكوافر ﴾ جمع كافرة ، وجمع فاعلة على فواعل مطرد وهو وصف جماعة الإناث ، وقال الكرخي : ﴿ الكوافر ﴾ يشمل الإناث والذكور ، فقال له الفارسي : النحويون لا يرون هذا إلا في الإناث جمع كافرة ، فقال : أليس يقال : طائفة كافرة وفرقة كافرة ، قال الفارسي : فبهت ، وفيه أنه لا يقال : كافرة في وصف الذكور إلا تابعاً للموصوف ، أو يكون محذوفاً مراداً أما بغير ذلك فلا تجمع فاعلة على فواعل إلا ويكون للمؤنث قاله أبو حيان ، وعصم جمع عصمة وهي ما يعتصم به من عقد وسبب ، والمراد نهي المؤمنين عن أن يكون بينهم وبين الزوجات المشركات الباقية في دار الحرب علقة من علق الزوجية أصلاً حتى لا يمنع إحداهن نكاح خامسة أو نكاح أختها في العدة بناءاً على أنه لا عدة لهن ؛ قال ابن عباس : من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدن بها من نسائه لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه ، وأخرج سعيد بن منصور .

(192/759)

وابن المنذر عن إبراهيم النخعي أنه قال : نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا ﴾ الخ في المرأة من المسلمين تلحق بالمشركين فلا يمسك زوجها بعصمتها قد برىء منها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد .

وسعيد بن جبير نحوه ، وفي رواية أخرى عن مجاهد أنه قال : أمرهم سبحانه بطلاق الباقيات مع الكفار ومفارقتهن ، ويروى أن عمر رضي الله تعالى عنه طلق لذلك امرأته فاطمة أخت أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومي فتزوجها معاوية بن أبي سفيان وامرأته كلثوم بنت جرول الخزاعي فتزوجها أبو جهم بن حذيفة العدوي ، وكذا طلق طلحة زوجته أروى بنت ربيعة ، وتعقب ذلك بأنه بظاهره مخالف لمذهب الحنفية .

والشافعية ، أما عند الحنفية فلأن الفرقة بنفس الوصول إلى دار الإسلام ، وأما عند الشافعية فلأن الطلاق موقوف إن جمعتهما العدة تبين وقوعه من حيث اللفظ ، وإلا فالبينونة بواسطة بقاء المرأة في الكفر ، فظاهر الآية لا يدل على ما في هذه الرواية ، وقرأ أبو عمرو .

ومجاهد بخلاف عنه .

وابن جبير .

والحسن .

والأعرج ﴿ تُمْسِكُواْ ﴾ مضارع مسك مشدداً ، والحسن أيضاً .

وابن أبي ليلى .

وابن عامر في رواية عبد الحميد .

وأبو عمرو في رواية معاذ ﴿ تُمْسِكُوا ﴾ مضارع تمسك محذوف إحدى التاءين ، والأصل تتمسكوا .

(193/759)

وقرأ الحسن أيضاً ﴿ تُمْسِكُوا ﴾ بكسر السين مضارع مسك ثلاثياً ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم ﴾ أي واسألوا الكفار مهور نسائكم اللاحقات بهم ﴿ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنفَقُوا ﴾ أي وليسألكم الكفار مهور نسائهم المهاجرات إليكم ، وظاهره أمر الكفار ، وهو من باب ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة : 123] فهو أمر للمؤمنين بالأداء مجازاً ، وقيل : المراد التسوية ﴿ ذلكم ﴾ الذي ذكر ﴿ حُكْمُ الله ﴾ أي فاتبعوه ، وقوله عز وجل : ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ كلام مستأنف أو حال من ﴿ حُكْمُ ﴾ بحذف الضمير العائد إليه ، وهو مفعول مطلق أي يحكمه الله تعالى بينكم ، أو العائد إليه الضمير المستتر في ﴿ يُحْكِمُ ﴾ بجعل الحكم حاكماً مبالغة كأن الحكم لقوته وظهوره غير محتاج لحاكم آخر ﴿ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يشرع ما تقتضيه الحكمة البالغة ، روي أنه لما تقرر هذا الحكم أدى المؤمنون مما أمروا به من مهور المهاجرات إلى أزواجهن ، وأبى المشركون أن يؤدوا شيئاً من مهور الكوافر إلى

أزواجهن المؤمنين فنزل قوله تعالى :

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ ﴾

(194/759)

أي سبقكم وانفلت منكم ﴿ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ أي أحد من أزواجكم ، وقرىء كذلك ، وإيقاع ﴿ شَىْءٌ ﴾ موقعه لزيادة التعميم وشمول محقر الجنس نصاً ، وفي "الكشف" لك أن تقول : أريد التحقير والتهوين على المسلمين لأن من فات من أزواجهم إلى الكفار يستحق الهون والهوان ، وكانت الفائتات ستاً على ما نقله في "الكشاف" وفصله ، أو إن ﴿ فَاتَكُمْ شَىْءٌ ﴾ من مهور أزواجكم على أن ﴿ شَىْءٌ ﴾ مستعمل في غير العقلاء حقيقة ، و﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية لا بيانية كما في الوجه الأول ﴿ فعاقبتم ﴾ من العقبة لا من العقاب ، وهي في الأصل النوبة في ركوب أحد الرفيقين على دابة لهما والآخر بعده أي فجاءت عقبتكم أي نوبتكم من أداء المهر شبه ما حكم به على المسلمين

والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى ، أو شبه الحكم بالأداء المذكور بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب ، وحاصل المعنى إن لحق أحد من أزواجكم بالكفار أو فاتكم شيء من مهورهن ولزمكم أداء المهر كما لزم

الكفار .

﴿ فَآتُواْ الذين ذَهَبَتْ أزواجهم مِّثْلَ مَا أَنفَقُواْ ﴾ من مهر المهاجرة التي تزوجتموها ولا تؤتوه زوجها الكافر ليكون قصاصاً ، ويعلم مما ذكرنا أن عاقب لا يقتضي المشاركة ، وهذا كما تقول : إبل معاقبة ترعى الحمض تارة وغيره أخرى ولا تريد أنها تعاقب غيرها من الإبل في ذلك ، وحمل الآية على هذا المعنى يوافق ما روي عن الزهري أنه قال : يعطي من لحقت زوجته بالكفار من صداق من لحق بالمسلمين من زوجاتهم .

(195/759)

وعن الزجاج أن معنى ﴿ فعاقبتم ﴾ فغنمتم ، وحقيقته فأصبتم في القتال بعقوبة حتى غنمتم فكأنه قيل : ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أزواجكم إِلَى الكفار ﴾ ولم يؤدوا إليكم مهورهن فغنمتم منهم ﴿ فَآتُواْ الذين ذَهَبَتْ أزواجهم مِّثْلَ مَا أَنفَقُواْ ﴾ من الغنيمة وهذا هو الوجه دون ما سبق ، وقد كان صلى الله عليه وسلم كما روي عن ابن عباس يعطي الذي ذهبت زوجته من الغنيمة قبل أن تخمس المهر ولا ينقص من حقه شيئاً ، وقال ابن جني : روينا عن قطرب أنه قال : ﴿ فعاقبتم ﴾ فأصبتم عقباً منهم يقال : عاقب الرجل شيئاً إذا أخذ شيئاً وهو في المعنى كالوجه قبله .

وقرأ مجاهد .

والزهري.

والأعرج.

وعكرمة.

وحميد .

وأبو حيوة.

والزعفراني فعقبتم بتشديد القاف من عقبه إذا قفاه لأن كل واحد من المتعاقبين يقفى صاحبه ، والزهري.

والأعرج.

وأبو حيوة أيضاً .

والنخعي.

وابن وثاب بخلاف عنه فعقبتم بفتح القاف وتخفيفها ، والزهري.

والنخعي أيضاً بالكسر والتخفيف ، ومجاهد أيضاً فأعقبتم أي دخلتم في العقبة ؛ وفسر الزجاج هذه القراآت الأربعة بأن المعنى فكانت العقبى لكم أي الغلبة والنصر حتى غنمتم لأنها العاقبة التي تستحق أن تسمى عاقبة ﴿ واتقوا الله الذى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ فإن

الإيمان به عز وجل يقتضي التقوى منه سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(196/759)

وقال ابن عاشور :

﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ إِذَا جَآءَكُمُ المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾ .

لا خلاف في أن هذه الآيات إلى آخر السورة نزلت عقب صلح الحديبية وقد علمت أنا رجحنا أن أول السورة نزلت قبل هذه وأن كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين كان عند تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم للحديبية .

ومناسبة ورود هذه الآية بعد ما قبلها ، أي النهي عن موالاة المشركين يتطرق إلى ما بين المسلمين والمشركين من عقود النكاح والمصاهرة فقد يكون المسلم زوجاً لمشركة وتكون المسلمة زوجاً لمشرك فتحدث في ذلك حوادث لا يستغني المسلمون عن معرفة حكم الشريعة في مثلها .

وقد حدث عقب الصلح الذي انعقد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين في الحديبية سنة ستّ مَجيء أبي جندل بن سهيل بن عَمرو يَرسُف في الحديد وكان مسلماً

وكان موثقاً في القيود عند أبيه بمكة فانفلت وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الحديبية وكان من شروط الصلح "أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه" فرده النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ، ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة هاجرتْ أُم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط هاربة من زوجها عَمرو بن العاص ، وجاءت سبيعة الأسلمية مهاجرة هاربة من زوجها صيفي بن الراهب أو مسافر المخزومي ، وجاءت أُميمة بنت بشر هاربة من زوجها ثابت بن الشِّمْراخ وقيل : حسان بن الدحداحة .

وطَلَبهُن أزواجهن فجاء بعضهم إلى المدينة جاء زوج سبيعة الأسلمية يطلب ردها إليه وقال : إن طينة الكتاب الذي بيننا وبينك لم تَجف بعدُ ، فنزلت هذه الآية فأبى النبي صلى الله عليه وسلم أن يردها إليه ولم يرد واحدة إليهم وبقيت بالمدينة فتزوج أمّ كلثوم بنت عقبة زيدُ بن حارثة .

وتزوج سُبيعة عمر رضي الله عنه وتزوج أميمة سهلُ بن حنيف .

(197/759)

وجاءت زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم مسلمة ولحق بها زوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بعد سنين مشركاً ثم أسلم في المدينة فردها النبي صلى الله عليه وسلم إليه .

وقد اختلف : هل كان النهي في شأن المؤمنات المهاجرات أن يرجعوهن إلى الكفار نسخاً لما تضمنته شرط الصلح الذي بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين أو كان الصلح غير مصرح فيه بإرجاع النساء لأن الصيغة صيغة جمع المذكر فاعتبر مجملاً وكان النهيُ الذي في هذه الآية بياناً لذلك المجمل .

وقد قيل : إن الصلح صرح فيه بأن من جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم من غير إذن وليّه من رجل أو امرأة يُرد إلى وليه .

فإذا صحّ ذلك كان صريحاً وكانت الآية ناسخة لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم والذي في سيرة ابن إسحاق من رواية ابن هشام خلي من هذا التصريح ولذلك كان لفظ الصلح محتملاً لإرادة الرجال لأن الضمائر التي اشتمل عليها ضمائر تذكير .

وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للذين سألوه إرجاع النساء المؤمنات وطلبوا تنفيذ شروط الصّلح : إنما الشرط في الرجال لا في النساء فكانت هذه الآية تشريعاً للمسلمين فيما يفعلونه إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات وإيذاناً للمشركين بأن شرطهم غير نص ، وشأن شروط الصلح الصراحة لعظم أمر المصالحات والحقوق المترتبة عليها ، وقد

أذهل الله المشركين عن الاحتياط في شرطهم ليكون ذلك رحمة بالنساء المهاجرات إذ جعل لهن مخرجاً وتأييداً لرسول صلى الله عليه وسلم كما في الآية التي بعدها لقصد أن يشترك من يمكنه الاطّلاع من المؤمنين على صدق إيمان المؤمنات المهاجرات تعاوناً على إظهار الحق، ولأن ما فيها من التكليف يرجع كثير منه إلى أحوال المؤمنين مع نسائهم.

والامتحان: الاختِبار.

والمراد اختبار إيمانهن.

وجملة ﴿ الله أعلم بإيمانهن ﴾ معترضة، أي أن الله يعلم سرائرهنّ ولكن عليكم أن تختبروا ذلك بما تستطيعون من الدلائل.

ولذلك فرع على ما قبل الاعتراض قوله: ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات ﴾ الخ، أي إن حصل لكم العلم بأنهن مؤمنات غير كاذبات في دعواهن.

وهذا الالتحاق هو الذي سُمي المبايعة في قوله في الآية الآتية: ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله ﴾ الآية [الممتحنة: 12].

وفي "صحيح البخاري" عن عائشة: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من

هاجر من المؤمنات بهذه الآية يقول الله : ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ إلى قوله : ﴿ غفور رحيم ﴾ [الممتحنة : 12] وزاد ابن عباس فقال : كانت الممتحنة أن تستحْلف أنها ما خرجت بغضاً لزوجها ، ولا رغبة من أرض إلى أرض ، ولا التماس دنيا ، ولا عشقاً لرجل منّا ، ولا بجريرة جرتها بل حبا لله ولرسوله والدار الآخرة ، فإذا حلفت بالله الذي لا إله إلاّ هو على ذلك أعطى النبي صلى الله عليه وسلم زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر عمر بن الخطاب بتولّي تحليفهن فإذا تبين إيمان المرأة لم يردها النبي صلى الله عليه وسلم إلى دار الكفر كما هو صريح الآية .

﴿ فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ .

وموقع قوله : ﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ موقع البيان والتفصيل للنهي في قوله : ﴿ فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ تحقيقاً لوجوب التفرقة بين المرأة المؤمنة وزوجها الكافر .

وإذ قد كان المخاطب بذلك النهي جميع المؤمنين كما هو مقتضى قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات ﴾ إلى آخره ، تعين أن يقوم بتنفيذه من إليه تنفيذ أُمور المسلمين العامة في كل مكان وكل زمان وهم ولاة الأمور من أمراء وقضاة إذ لا يمكن أن يقوم المسلمون بما خوطبوا به من مثل هذه الأمور العامة إلاّ على هذا الوجه ولكن على كل فرد من المسلمين التزام العمل به في خاصة نفسه والتزام الامتثال لما يقرره ولاة الأمور .

وإذ قد كان محمل لفظ الحل وما تصرف منه في كلام الشارع منصرفاً إلى معنى الإِباحة الشرعية وهي الجواز وضد التحريم .

ومن الواضح أن الكفار لا تتوجه إليهم خِطابات التكليف بأمور الإِسلام إذ هم خارجون عنه فمطالبتهم بالتكاليف الإسلامية لا يتعلّق به مقصد الشريعة ، ولذلك تعدّ المسألة الملقبة في علم الأصول بمسألة : خطاب الكفار بالفروع ، مسألةً لا طائل تحتها ولا ينبغي الاشتغال بها بَله التفريع عليها .

وإذ قد علق حكم نفي حل المرأة الذي هو معنى حرمة دوام عصمتها على ضمير الكفار في قوله تعالى : ﴿ لا هن حل لهم ﴾ .

ولم يكن الكفار صالحين للتكليف بهذا التحريم فقد تعين تأويل هذا التحريم بالنسبة إلى كونه على الكافرين ، وذلك بإرجاع وصف الحل المنفي إلى النساء في كلتا الجملتين وإبداء وجه الإِتيان بالجملتين ووجه التعاكس في ترتيب أجزائهما .

وذلك أن نقول : إن رجوع المرأة المؤمنة إلى الزوج الكافر يقع على صورتين:

إحداهما : أن ترجع المرأة المؤمنة إلى زوجها في بلاد الكفر ، وذلك هو ما ألح الكفار في طلبه

لمّا جاءت بعض المؤمنات مهاجرات .

والثانية : أن ترجع إلى زوجها في بلاد الإِسلام بأن يخلى بينها وبين زوجها الكافر يقيم معها في بلاد الإِسلام إذا جاء يطلبها ومُنع من تسلمها .

وكلتا الصورتين غير حلال للمرأة المسلمة فلا يجيزها ولاة الأمور ، وقد عبر عن الصورة الأولى بجملة ﴿ لا هن حل لهم ﴾ إذ جعل فيها وصف حل خبراً عن ضمير النساء وأدخلت اللام على ضمير الرجال ، وهي لام تعدية الحلّ وأصلها لام الملك فأفاد أن لا يملك الرجال الكفار عصمة أزواجهم المؤمنات وذلك يستلزم أن بقاء النساء المؤمنات في عصمة أزواجهن الكافرين غير حلال ، أي لم يحللهن الإِسلام لهم .

وقدم ﴿ لا هن حل لهم ﴾ لأنه راجع إلى الصورة الأكثر أهمية عند المشركين إذ كانوا يَسألون إرجاع النساء إليهم ويرسلون الوسائط في ذلك بقصد الرد عليهم بهذا .

وجيء في الجملة الأولى بالصفة المشبهة وهي ﴿ حل ﴾ المفيدة لثبوت الوصف إذ كان الرجال الكافرون يظنون أن العصمة التي لهم على أزواجهم المؤمنات مثبتة أنهم حلّ لهم .

وعبّر عن الثانية بجملة ﴿ ولا هم يحلون لهن ﴾ فعُكس الإِخبار بالحل إذ جعل خبراً عن

ضمير الرجال، وعدي الفعل إلى المحَلّل باللام داخلة على ضمير النساء فأفاد أنهم لا يحلّ لهن أزواجهن الكافرون ولو بقي الزوج في بلاد الإِسلام.

ولهذا ذكرت الجملة الثانية ﴿ ولا هم يحلون لهن ﴾ كالتتمة لحكم الجملة الأولى، وجيء في الجملة الثانية بالمسند فعلاً مضارعاً لدلالته على التجدد لإِفادة نفي الطماعية في التحليل ولو بتجدده في الحال بعقد جديد أو اتفاق جديد على البقاء في دار الإِسلام خلافاً لأبي حنيفة إذ قال: إن موجب الفرقة هو اختلاف الدارين لا اختلاف الدين.

ويجوز في الآية وجه آخر وهو أن يكون المراد تأكيد نفي الحال فبعد أن قال: ﴿ لا هن حل لهم ﴾ وهو الأصل كما علمت آنفاً أكد بجملة ﴿ ولا هم يحلون لهن ﴾ أي أن انتفاء الحلّ حاصل من كل جهة كما يقال: لست منك ولست مني.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ في سورة [البقرة: 187] تأكيداً لشدة التلبس والاتصال من كل جهة.

وفي الكلام محسّن العكس من المحسنات البديعية مع تغيير يسير بين حل ﴾ و ﴿ يحلون ﴾ اقتضاه المقام، وإنّما يُوفر حظّ التحسين بمقدار ما يسمح له به مقتضى حال البلاغة.

﴿ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ ﴾.

المراد بـ ﴿ ما أنفقوا ﴾ ما أعْطَوه من المهور، والعدول عن إطلاق اسم المهور والأجور على ما دفعه المشركون لنسائهم اللاء أسلمن من لطائف القرآن لأن أولئك النساء أصبحن

غير زوجات .

فألغي إطلاق اسم المهور على ما يدفع لهم .

وقد سمّى الله بعد ذلك ما يعطيه المسلمون لهن أجوراً بقوله تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن .

(201/759)

والمكلف بإرجاع مهور الأزواج المشركين إليهم هم ولاة أمور المسلمين مما بين أيديهم من أموال المسلمين العامة .

أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ .

وإنما قال تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ﴾ للتنبيه على خصوص قوله : ﴿ إذا آتيتموهن أجورهن ﴾ لئلا يظن أن ما دفع للزوج السابق مسقط استحقاق المرأة المهر ممن يروم تزويجها ومعلوم أن نكاحها بعد استبرائها بثلاثة أقراء .

﴿ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ﴾ .

نهى الله المسلمين عن إبقاء النساء الكوافر في عصمتهم وهن النساء اللاء لم يخرجن مع أزواجهن لكفرهن فلما نزلت هذه الآية طلق المسلمون من كان لهم من أزواج بمكة ، فطلق

عمرُ امرأتين له بقيتا بمكة مشركتين ، وهما : قُرَيبة بنت أبي أمية ، وأمّ كلثوم بنت عمرو الخزاعية .

والمراد بالكوافر : المشركات .

وهنّ موضوع هذه التشريعات لأنها في حالة واقعة فلا تشمل الآية النهي عن بقاء المرأة المسلمة في عصمة زوج مشرك وإنما يُؤخذ حكم ذلك بالقياس .

قال ابن عطية : رأيت لأبي علي الفارسي إنه قال : سمعت الفقيه أبا الحسن الكرخي يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ أنه في الرجال والنسوان ، فقلت له : النحويون لا يرونه إلا في النساء لأن كوافر جمع كافرة ، فقال : وآيش يمنع من هذا ، أليس الناس يقولون : طائفَة كافرة ، وفرقة كافرة ، فبُهتُّ وقلتُ : هذا تأييد أ هـ .

وجواب أبي الحسن الكرخي غير مستقيم لأنه يمنع منه ضمير الذكور في قوله : ﴿ ولا تمسكوا ﴾ فهم الرجال المؤمنون والكوافر نساؤهم .

ومن العجيب قول أبي علي : فبهتُ وقلتُ . . .

الخ .

وقرأ الجمهور ﴿ ولا تمسكوا ﴾ بضم التاء وسكون الميم وكسر السين مخففة .

وقرأ أبو عمرو بضم التاء وفتح الميم وتشديد السين مكسورة مُضارع مَسك بمعنى

أمسك .

﴿ الكوافر وَاسْئَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُواْ مَآ ﴾ .

(202/759)

عطف على قوله : ﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ وهو تتميم لحكمه ، أي كما تعطونهم مهور أزواجهم اللاء فررْنَ منهم مسلماتٍ ، فكذلك إذا فرت إليهم امرأةُ مسلم كافرة ولا قدرة لكم على إرجاعها إليكم تسألون المشركين إرجاعَ مهرها إلى زوجها المسلمِ الذي فرّت منه وهذا إنصاف بين الفريقين ، والأمرُ للإِباحة .

وقوله : ﴿ وليسألوا ما أنفقوا ﴾ تكملة لقوله : ﴿ واسألوا ما أنفقتم ﴾ لإِفادة أن معنى واو العطف هنا على المعية بالقرينة لأن قوله : ﴿ وليسألوا ما أنفقوا ﴾ لو أريد حكمهُ بمفرده لكان مغنياً عنه قوله : ﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ ، فلما كُرر عَقب قوله : ﴿ واسألوا ما أنفقتم ﴾ علمنا أن المراد جمع مضمون الجملتين ، أي إذا أعطوا ما عليهم أعطوهم ما عليكم وإلا فلا .

فالواو مفيدة معنى المعية هنا بالقرينة .

وينبغي أن يحمل عليه ما قاله بعض الحنفية من أن معنى واو العطف المعية .

قال إمام الحرمين في البرهان في معاني الواو : "اشتهر من مذهب الشافعي أنها للترتيب وعند بعض الحنفية أنها للمعية .

وقد زَل الفريقان" أ هـ .

وقد أشار إليه في "مغني اللبيب" ولم يرده .

وقال المازري في "شرح البرهان" : "وأما قولهم : لا تأكل السمك وتشرب اللبن" ، فإن المراد النهي عن تناول السمك وتناول اللبن فيكون الإِعراب مختلفاً فإذا قال : وتشربَ اللبن بفتح الباء كان نهياً عن الجمع ويكون الانتصاب بمعنى تقدير حرف (أَنْ) أ هـ .

وهو يرمي إلى أن هذا المحمل يحتاج إلى قرينة .

فأفاد قوله : ﴿ وليسألوا ما أنفقوا ﴾ أنهم إن أبوا من دفع مهور نساء المسلمين يفرّون إليهم كان ذلك مخوِّلاً للمؤمنين أن لا يعطوهم مهور من فرّوا من أزواجهم إلى المسلمين ، كما يقال في الفقه : خيرتهُ تنفي ضررَه .

﴿ أَنفَقُواْ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ ﴾ .

أي هذا حكم الله ، وهو عدل بين الفريقين إذ ليس لأحد أن يأخذ بأحد جانبيه ويترك الآخر .

قال الزُهري : لولا العهد لأمسك النساء ولم يُردّ إلى أزواجهم صداق .

وجملة ﴿ يحكم بينكم ﴾ يجوز كونها حالاً من اسم الجلالة أو حالاً من ﴿ حكم الله ﴾ مع تقدير ضمير يربط الجملة بصاحب الحال تقديره : يحكمه بينكم ، وأن تكون استئنافاً .

وقوله : ﴿ والله عليم حكيم ﴾ تذييل يشير إلى أن هذا حكم يقتضيه علم الله بحاجات عباده وتقتضيه حكمته إذ أعطى كل ذي حق حقّه .

وقد كانت هذه الأحكام التي في هذه الآيات من التراد في المهور شرعاً في أحوال مخصوصة اقتضاها اختلاط الأمر بين أهل الشرك والمؤمنين وما كان من عهد المهادنة بين المسلمين والمشركين في أوائل أمر الإسلام خاصّاً بذلك الزمان بإجماع أهل العلم ، قاله ابن العربي والقرطبي وأبو بكر الجصاص .

وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا

عطف على جملة ﴿ واسألوا ما أنفقتم ﴾ [الممتحنة : 10] فإنها لما ترتب على نزولها إباء المشركين من أن يردّوا إلى أزواج النساء اللاءِ بقين على الكفر بمكة واللاء فَرَرْنَ من المدينة والتحقْنَ بأهل الكفر بمكة مهورَهم التي كانوا أَعطوها نساءهم ، عقبت بهذه الآية لتشريع ردّ تلك المهور من أموال المسلمين فيما بينهم .

روي أن المسلمين كتبوا إلى المشركين يعلمونهم بما تضمنته هذه الآية من الترادّ بين الفريقين في قوله تعال : ﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ﴾ [الممتحنة : 10] .

فامتنع المشركون من دفع مهور النساء اللاتي ذهبت إليهم فنزل قوله تعالى : ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار ﴾ الآية .

وأصل الفوت : المفارقة والمباعدة ، والتفاوت : المتباعد .

والفوت هنا مستعار لضياع الحق كقول رُويشد بن كثير الطائي أو عَمرو بن معد يكرب :

إن تُذنبوا ثم تأتيني بقيتكم

فمَا عَليّ بذنب منكمُ فَوْت . . .

(204/759)

أي فلا ضياع عليّ بما أذنبتم ، أي فإنا كمن لم يضعْ له حق .

والمعنى : إن فرت بعض أزواجكم ولحقت بالكفار وحصل التعاقب بينكم وبين الكفار فعقَّبتم على أزواج الكفار وعقَّب الكفار على أزواجكم وأبى الكفار من دفع مهور بعض النساء اللاء ذهبن إليهم ، فادفعوا أنتم لمن حرمه الكفار مهر امرأته ، أي ما هو حقه ، واحجزوا ذلك عن الكفار .

وهذا يقتضي أنه إن أعطي جميع المؤمنين مهور مَن فاتهم من نسائهم وبقي للمشركين فضل يرده المسلمون إلى الكفار .

هذا تفسير الزهري في رواية يونس عنه وهو أظهر ما فسرت به الآية .

وعن ابن عباس والجمهور : الذين فاتهم أزواجهم إلى الكفار يعطون مهور نسائهم من مغانم المسلمين .

وهذا يقتضي أن تكون الآية منسوخة بآية سورة [براءة : 7] ﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ﴾

والوجه أن لا يُصار إلى الإِعطاء من الغنائم إلا إذا لم يكن في ذمم المسلمين شيء من مهور نساء المشركين اللاءِ أتيْنَ إلى بلاد الإِسلام وصرن أزواجاً للمسلمين .

والكلام إيجاز حذف شديد دل عليه مجموع الألفاظ وموضع الكلام عقب قوله تعالى : وإن فاتكم شيء من أزواجكم ﴾ .

ولفظ ﴿ شيء ﴾ هنا مراد به : بعض ﴿ من أزواجكم ﴾ بيان ل ﴿ شيء ﴾ ،

وأريد بـ ﴿ شيء ﴾ تحقير الزوجات اللاءِ أَبَيْنَ الإِسلام ، فإن المراد قد فاتت ذاتها عن زوجها فلا انتفاع له بها .

وضمّن فعل ﴿ فاتكم ﴾ معنى الفرار فعدّي بحرف ﴿ إلى ﴾ أي فررن إلى الكفار .

و"عاقبتم" صيغة تفاعل من العُقْبة بضم العين وسكون القاف وهي النوبة ، أي مصير أحد

إلى حال كان فيها غيرُه.

وأصلها في ركوب الرواحل والدوابّ أن يركب أحد عُقْبَة وآخر عَقبة شبه ما حكم به على الفريقين من أداء هؤلاء مهورَ نساء أولئك في بعض الأحوال ومن أداء أولئك مهور نساء هؤلاء في أحوال أخرى مماثلة بمركوب يتعاقبون فيه.

ففعل ﴿ ذهبت ﴾ مجاز مثل فعل ﴿ فاتكم ﴾ في معنى عدم القدرة عليهن.

(205/759)

والخطاب في قوله: ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم ﴾ وفي قوله: ﴿ فآتوا ﴾ خطاب للمؤمنين والذين ذهبت أزواجهم هم أيضاً من المؤمنين.

والمعنى: فليعْط المؤمنون لإخوانهم الذين ذهبت أزواجهم ما يماثل ما كانوا أعطوه من المهور لزوجاتهم.

والذي يتولى الإِعطاء هنا هو كما قررنا في قوله: ﴿ آتوهم ما أنفقوا ﴾ [الممتحنة: 10] أي يُدفع ذلك من أموال المسلمين كالغنائم والأخماس ونحوها كما بينته السنة: أعطى النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب، وعياض بن أبي شداد الفهري، وشماس بن عثمان، وهشام بن العاص، مهور نسائهم اللاحقات بالمشركين من الغنائم.

وأفاد لفظ ﴿ مثل ﴾ أن يكون المهرُ المعطى مساوِياً لما كان أعطاه زوج المرأة من قبلُ لا نقص فيه.

وأشارت الآية إلى نسوة من نساء المهاجرين لم يسلمْن وهن ثمان نساء : أمّ الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد ، وفاطمة بنت أبي أمية ويقال : قُريبة وهي أخت أم سلمة كانت تحت عُمر بن الخطاب ، وأمّ كلثوم بنت جرول كانت تحت عُمَر ، وبَروع (بفتح الباء على الأصح والمحدثون يكسرونها) بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان وشَهبة بنت غيلان وعبدةُ بنتُ عبد العزى كانت تحت هشام بن العاص ، وقيل تحت عَمرو بن عبد وهندُ بنت أبي جهل كانت تحت هشام بن العاص ، وأروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب كانت تحت طلحة بن عبيد الله ، وكان قد هاجر وبقيت زوجه مشركة بمكة فلما نزلت الآية طلقها طلحة بن عبيد الله.

وقد تقدم أن عمر طلق زوجتيه قُريبَة وأمّ جرول ، فلم تكونا ممن لحقن بالمشركين ، وإنما بقيتا بمكة إلى أن طلقهما عمر.

وأحسب أن جميعهن إنما طلقهن أزواجهن عند نزول قوله تعالى : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ [الممتحنة : 10].

والتذييل بقوله : ﴿ واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ﴾ تحريض للمسلمين على الوفاء بما أمرهم الله وأن لا يصدّهم عن الوفاء ببعضه معاملة المشركين لهم بالجور وقلة النصفة ، فأمر بأن يؤدي المسلمون لإِخوانهم مهور النساء اللاء فارقوهن ولم يرض المشركون بإعطائهم مهورهن ولذلك اتبع اسم الجلالة بوصف ﴿ الذي أنتم به مؤمنون ﴾ لأن الإِيمان يبعث على التقوى والمشركون لمّا لم يؤمنوا بما أمر الله انتفى منهم وازع الإِنصاف ، أي فلا تكونوا مثلهم .

والجملة الاسمية في الصلة للدلالة على ثبات إيمانهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(207/759)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى علم)

عَلِمه يَعْلَمه عِلْمًا : عَرَفَهُ حقّ المعرفة .

وعَلم هو فى نفسه .

ورجل عالِم وعَلِيم من عُلَمَاء .

وعلَّمه العِلم وأَعلمه إِيّاه فتعلّمه .

والعَلاَّم والعلاَّمة والعُلاَّم : العالِم جداًّ .

وكذلك التِّعْلِمَة والتِعْلامة .

والعِلم ضربان : إِدراك ذات الشَّئِ ، والثانى الحكم على الشئِ بوجود شئٍ هو موجود له ، أَو نفى شئٍ هو منفىّ عنه .

فالأَوّل هو المتعدّى إِلى مفعول واحد ، قال تعالى : ﴿لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ، والثَّانى : المتعدّى إِلى مفعولين ، نحو قوله : ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ .

وقوله : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَآ﴾ ، إِشارة إِلى أَن عقولهم قد طاشت .

والعلم من وجهٍ ضربان : نظرىّ وعملىّ .

فالنظرىّ : ما إِذا عُلم فقد كمل ، نحو العلم بموجودات العالَم ، والعملىّ : ما لا يتم إِلاَّ بأَن يُعمل ، كالعلم بالعبادات .

ومن وجهٍ آخر ضربان : عَقْلىّ وسمعىّ .

والعلم منزلة / من منازل السّالكين ، إِن لم يصحبه السّالك من أَوّل قَدَم يضعه ، إِلى آخر قدم

ينتهى إِليه يكون سلوكه على غير طريق موصِّل، وهو مقطوع عليه ومسدود عليه سُبُل الهدى والفلاح، وهذا إِجماع من السادة العارفين.

ولم ينه عن العلم إِلاَّ قُطَّاع الطَّريق ونُوَّاب إبليس.

قال سيِّد الطَّائفة وإِمامهم الجُنَيد -رحمه الله-: الطُّرُق كلُّها مسْدودة على الخَلْق إِلاَّ من اقتفَى أَثَر رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

وقال: منْ لَمْ يحفظ القرآنَ ولم يكتب الحديث لا يُقتدَى به فى هذَا الأَمر؛ لأَن عِلمنا مقيّد بالكتاب والسنَّة.

وقال أَبو حفص: من لم يزِن أَفعاله وأَقواله فى كلّ وقت بالكتاب والسنَّة ولم يتَّهم خواطره لا يعدّ فى ديوان الرِّجال.

(208/759)

وقال أَبو سليمان الدّارانى: ربّما يقعُ فى قلبى النُكْتة من نُكَت القوم أَيّاما فلا أَقبل منه إِلاَّ بشاهدين عدلين: الكتاب والسنَّة.

وقال السّرىُّ: التصوّف اسم لثلاثة معان: لا يطفىءُ نورُ معرفته نورَ ورعه.

ولا يتكلَّم فى باطن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات على هتك أَستار محارم الله .

وقال الجنيد : لقد هممت مرة أَن أَسأَل الله تعالى أَن يكفينى مُؤنة النّساءِ ، ثم قلت : كيف يجوز أَن أَسأَل هذا ولم يسأَله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم أَسأَله ، ثمّ إِنَّ اللهَ تعالى كفانى مُؤنة النساءِ حتى لا أُبالى أَستقبلتنى امرأَة أَو حائط .

وقال : لو نظرتم إِلى رجل أُعطى من الكرامات أَن تربَّع فى الهواءِ فلا تغترُّوا به حتىَّ تنظروا كيف تجدونه عند الأَمر والنهى وحفظ الحدود وآداب الشريعة .

وقال النُّورىّ أَبو الحسين : من رأَيتموه يدّعى مع الله حالةً تُخرجه عن حدّ العلم الشرعىّ فلا تقربُوه .

وقال النصرأَبادى : أَفضل التصوف ملازمة الكتاب والسنَّة ، وترك الأَهواء والبِدَع ، وتعظيم كرامات المشايخ ، ورؤْية أَعذار الخَلْق ، والمداومة على الأَوراد ، وترك ارتكاب الرُّخَص والتأْويلات .

والكلمات الَّتى تُروى عن بعضهم فى التزهيد فى العلم فمن أَنفاس الشيطان ، كمن قال : نحن نأْخذ علمنا من الحىّ الَّذى لا يموت ، وأَنتم تأْخذونه من حَىّ يموت .

وقال آخر : العلم حجاب بين القلب وبين الله .

وقال آخر : إِذا رأَيت الصّوفىّ يشتغل بحدّثنا وأَخبرنا فاغسِل يدك منه .

وقال آخر : لنا علم الحروف ولكم علم الورق .

وقيل : لبعضهم : أَلا ترْحل حتى تسمعَ من عبد الرزّاق فقال : ما يصنع بالسمّاع من عبد الرزّاق مَن يسمع من الخلاّق ؟ ! وأَحسن أَحوال قائل مثل هذه أَن يكون جاهلاً يُعذر بجهله ، أَو والها شاطحا مصرفاً بسخطه ، وإِلاّ فلولا عبد الرزّاق وأَمثاله من حفّاظ السنة لما وصل إِلى هذا وأَمثاله شىء من الإِسلام ، ومن فارق الدليل ضلّ عن السّبيل .

ولا دليل إِلى الله والجنَّة إِلاَّ الكتاب والسنة .

والعلم خير من الحال .

الحال محكوم عليه والعلم حاكم ، والعلم هادٍ

والحال تابع .

الحال سيف فإِن لم يصحبه علم فهو مِخْراق لاعب .

الحال مركوب لا يجارَى ، فإِن لم يصحبه علم أَلقى صاحبه فى المتالف والمهالك .

دائرة العلم تسع الدّنيا والآخرة ، ودائرة الحال ربّما تضيق عن صاحبه .

العلم هادٍ والحال الصّحيح مهتدٍ به .

فهو تركة الأَنبياء / وتُراثهم .

، وأَهله عَصَبتهم ووُرّاثهم ، وهو حياة القلب ، ونور البصائر ، وشفاءُ الصّدور ، ورياض العقول ، ولذّة الأَرواح ، وأُنس المستوحِشين ، ودليل المتحيّرين .

وهو الميزان الّذى يوزن به الأَقوال والأَفعال والأَحوال .

وهو الحاكم المفرِّق بين الشّك واليقين ، والغَىّ والرّشاد ، والهُدَى والضلال ، به يعرف الله ويعبد ، ويُذْكر ويوحّد .

وهو الصّاحب فى الغُربة ، والمحدِّث فى الخلوة ، والأَنيس فى الوحشة ، والكاشف عن الشبهة ، والغِنَى الّذِى لا فقر على من ظفر بكنزه ، والكَنَفُ الذى لا ضَيْعة على من أَوَى إِلى حِرْزه .

مذكراته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلبه قُرْبة ، وبذله صدقة ، ومدارسته تُعدل بالصّيام والقيام ، والحاجة إِليه أَعظم من الحاجة إِلى الشّرَاب والطعام ؛ لأَن المرء يحتاج إِليهما مرة أَو مرّتَين فى اليوم ، وحاجته إِلى العِلْم كعدد أَنفاسه ، وطلبه أَفضل من صلاة النافلة ، نصّ عليه الشافعىّ وأَبو حنيفة .

واستشهد اللهُ -عزَّ وجلَّ- أَهلَ العلم على أَجلّ مشهود وهو التوحيد ، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته ، وفى ضمن ذلك تعديلهم فإِنَّه لا يُستشهد بمجروح.

ومن هاهُنا يوجَّه -واللهُ أَعلم- الحديث : "يَحمل هذا العلمَ من كلِّ خَلَف عُدولهُ ، ينفُون عنه تحريف الغالين ، وتأْويل المبطلين" وهو حجة الله فى أَرضه ، ونوره بين عباده ، وقائدهم ودليلهم إِلى جنَّته ، ومُدْنيهم من كرامته .

ويكفى في شرفه أَن فَضْل أَهلِه على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وكفضل سيّد المرسلين على أَدنى الصّحابة منزلة ، وأَنَّ الملائكة تضع لهم أَجنحتها ، وتُظِلُّهم بها ، وأَنَّ

العالِمَ يستغفر له مَن فى السموات ومن فى الأَرض حتىَّ الحيتان فى البحر ، وحتىّ النَّملة فى جُحْرِهَا ، وأَن الله وملائكته يصلُّون على معلِّمِى النَّاس الخير ، وأَمر الله أَعْلَمَ العبادِ وأَكملهم أَن يسأَل الزِّيادة من العلم فقال : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ .

واعلم أَنَّ العلم على ثلاث درجات : أَحدها : ما وقع من عِيانٍ وهو البصر .

والثانى : ما استند إِلى السمع وهو الاستفاضة .

والثالث : ما استند إِلى العلم وهو علم التجربة .

على أَن طُرُق العلم لا تنحصر فيما ذكرناه فإِنَّ سائر الحواسّ توجب العلم ، وكذا ما يدرك

بالباطن وهى الوِجدانيّات ، وكذا ما يدرك بالمخبِر الصّادق ، وإِن كان واحدا ، وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط وإِن لم يكن تجربة .

ثمّ إِنَّ الفرق بينه وبين المعرفة من وجود ثلاثة :

أَحْدها : أَن المعرفة لُبّ العلم ، ونسبة العلم إِلى المعرفة كنسبة الإِيمان إِلى الإِحسان .

وهى علم خاصّ متعلَّقه أَخفى من متعلَّق العلم وأَدَقّ .

والثانى : أَنَّ المعرفة هى العلم الذى يراعيه صاحبه [ويعمل] بموجبه ومقتضاه .

هو علم يتَّصل به الرعاية .

والثالث : أَن المعرفة شاهدة لنفسها وهى بمنزلة الأُمور الوِجدانيّة لا يمكن صاحبُها أَن يشكَّ فيها ، ولا ينتقل عنها .

(211/759)

وكشفُ المعرفة أَتمّ من كشف العلم ، على أَنَّ مقام العلم أَعلى وأَجَلّ ، لما ذكرنا فى بصيرة (عرف) .

ومن أَقسام العلم العلم اللَّدُنىّ .

وهو ما يحصل للعبد بغير واسطة ، بل إِلهام من الله تعالى ، كما حصل للخضر بغير واسطة

موسى ، قال تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ .

وفَرَق / بين الرّحمة والعلم وجعَلهما مِن عنده ومن لدنه إذ لم يكن نَيْلهما على يد بَشَر .

وكان من لدنه أخصّ وأقرب ممّا عنده ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً ﴾ فالسُّلطان النَّصِير الذى من لدنه أَخصّ من الذى من عنده وأَقرب ، وهو نصره الذى أَيده به (والَّذِى من عنده) ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والعلم اللّدنىّ ثمرة العبوديّة والمتابعة والصّدق مع الله والإِخلاص له ، وبذل الجُهد فى تلقِّى العلم من مِشكاة رسوله ومن كتابه وسنَّة رسوله وكمال الانقياد له ، وأَمّا علم مَن أَعرض عن الكتاب والسنَّة ولم يتقيّد بهما فهو من لَدُن النفس والشيطان ، فهو لدنىٌّ لكن مِن لدن مَنْ ؟ وإِنما يُعرف كون العلم لدنّيًا روحانيًّا بموافقته لما جاءَ به الرّسول صلَّى الله عليه وسلَّم عن ربّه عزّ وجلَّ .

فالعلم اللدُنىّ نوعان : لدُنِى رَحْمانىّ ، ولدُنِىّ شيطانىّ وبطناوىّ والمَحَكّ هو الوحى ، ولا وحى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلَّم .

وقول المشايخ : العلم اللدنىّ إِسناده وُجوده ، يعنى أَنّ طريق هذا العلم وجدانه ، كما أَن طريق غيره هو الإِسناد ؛ وإِدراكه عِيانُه ، يعنى أَنّ هذا العلم لا يوجد بالفكر والاستنباط

، وإِنما يوجد عِياناً وشهودا ؛ ونعته حكمُه ، يعنى أَن نعوته لا يوصل إِليها إِلاَّ به فهى قاصرة عنه .

(212/759)

يعنى أَن شاهده منه ودليله وجوده ؛ وإِنّيّته لِمّيّته ، فبرهان الإِنّ فيه هو برهان اللِّمّ ، فهو الدَّليل وهو المدلول ، ولذلك لم يكن بينه وبين الغيب حجاب وبخلاف ما دُونه من العلوم .

والذى يشير إِليه القوم هو نور من جَناب الشهود بمجرد أَقوى الحواسّ وأَحكامها ، وتقرير لصاحبها مقامها .

فيرى الشهود بنوره ، ويفنى ما سواه بظهوره .

وهذا عندهم معنى الحديث الرّبانىّ : "فإِذا أَحببته كنت سمعه الَّذى يسمع به ، وبصره الذى يبصره به ، فبى يسمع ، وبى يبصر" .

والعلم اللَّدنىّ الرّحمانىّ هو ثمرة هذه الموافقة والمحبّة الَّتى أَوجبها التقرّب بالنَّوافل بعد الفرائض .

واللدنىّ الشيطانىّ هو ثمرة الإِعراض عن الوحى بحكم الهوى .

والله

المستعان.

والعَلَم - بالتحريك - ، الأَثر الذى يُعلم به الشىء كعَلَم الطَّرِيق ، وَعَلَم الجيش.

وسمّى الجبل عَلَمًا لذلك.

وقرئ: ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾.

والعالَم: اسم للفلك وما يحويه من الجواهر والأَعراض.

وهو فى الأَصل اسم لما يُعلم به كالخاتم لما يُختم به.

فالعالَم آلة فى الدّلالة على موجدِه وخالِقه ، ولهذا أَحالنا عليه فى معرفة وَحْدَانِيَّتِهِ فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾.

وأَمّا جمعه فلأَن كلّ نوع من هذه الموجودات قد يُسمّى عالمًا.

فيقال: عالَم الإِنسان ، وعالَم النار.

وقد رُوى: إِنّ لله بضعة عشر أَلف عالَم.

وأَما جمعه جمع السّلامة فلكون النّاس فى جملتهم.

وقيل: إِنَّما جُمع به هذا الجمع لأَنه عُنى به أَصناف الخلائق من الملائكة والجنّ والإِنس دون غيرها ، رُوى هذا عن ابن عبّاس رضى الله عنهما.

وقال جعفر بن محمّد الصّادق: عنى به النّاس ، وجعل كلّ واحد منهم عَالَما.

وقال: العالم عالمان: / الكبير وهو الفَلَك بما فيه، والصّغير وهو الإنسان لأَنَّه على هيئة العالَم الكبير، وفيه كلّ ما فيه، وقوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أَى عالَمِى زمانِهم.

وقيل: أَراد فضلاءَ زمانهم الذين يجرى كلّ واحد منهم مجرى عالَم. انتهى انتهى. ا هـ

﴿بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 88.95﴾

(214/759)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاق)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الستون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/760)

الجزء الستون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 12 ﴾ من (سورة الممتحنة)

وحتى الآية ﴿ 13 ﴾ آخر السورة

(4/760)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا

قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (13) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما خاطب سبحانه المؤمنين الذي لهم موضع الذب والحماية والنصرة بما وطن به المؤمنات في دار الهجرة فوقع الامتحان وعرف الإيمان ، أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد الحكم بإيمانهن بمبايعتهن فقال ﴿ يا أيها النبي ﴾ مخاطباً له بالوصف المقتضي للعلم ، ودل على تحقق كون ما يخبر به من مجيئهن بأداة التحقيق علماً من أعلام النبوة فقال : ﴿ إذا جاءك المؤمنات ﴾ جعل إقبالهن عليه -صلى الله عليه وسلم- لا سيما مع الهجرة مصححاً لإطلاق الوصف عليهن ﴿ يبايعنك ﴾ أي كل واحدة منهن تبايع ﴿ على أن لا يشركن ﴾ أي يوقعن الإشراك لأحد من الموجودات في وقت من الأوقات ﴿ بالله ﴾ أي الملك الذي لا كفوء له ﴿ شيئاً ﴾ أي من إشراك على الإطلاق .

ولما كان الشرك بذل حق الملك لمن لا يستحقه ، أتبعه أخذ مال المالك بغير حق لاقتضاء الحال لذلك بتمكن المرأة من اختلاس مال الزوج وعسر تحفظه منها فقال : ﴿ ولا يسرقن ﴾ أي يأخذن مال الغير بغير استحقاق في خفية ، وأتبع ذلك بذل حق الغير لغير أهله فقال : ﴿ ولا يزنين ﴾ أي يمكن أحداً من وطئهن بغير عقد صحيح .

ولما كان الزنى قد يكون سبباً في إيجاد أو إعدام نسمة بغير حقها ، أتبعه إعدام نسمة بغير حقه فقال : ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ أي بالوأد كما تقدم في النحل وساء في ذلك كونه من زنى أو لا .

ولما ذكر إعدام نسمة بغير حق ولا وجه شرعي أتبعه ما يشمل إيجاد نسمة بغير حل ، فقال مقبحاً له على سبيل الكناية عنه بالبهتان وما معه بالتصوير له بلوازمه وآثاره لأن استحضار القبيح وتصوير صورته أزجر عنه فقال : ﴿ ولا يأتين ببهتان ﴾ أي ولد من غير الزوج يبهت من الحاقة به حيرة في نفيه عنه ﴿ يفترينه ﴾ أي يتعمدن كذبه ، وحقق المراد به وصوره بقوله : ﴿ بين أيديهن ﴾ أي بالحمل في البطون ﴿ وأرجلهن ﴾ أي بالوضع من الفروج ولأن عادة الولد مع أنه يسقط بين أيدي أنه ورجليها أنه يمشي أمامها ، وهذا شامل لما كان من شبهة أو لقطة .

ولما حقق هذه الكبائر العظيمة تعظيماً لأمرها لعسر الاحتراز منها ، وأكد النهي عن الزنى مطابقة وإلزاماً لما يجر إليه من الشرور القتل فما دونه ، وغلظ أمر النسب لما يتفرع عليه من إيقاع الشبهات وانتهاك الحرمات ، عم في النهي فقال : ﴿ ولا يعصينك ﴾ أي على حال من

الأحوال ﴿ في معروف ﴾ أي فرد كان منه صغيراً كان أو كبيراً ، وفي ذكره مع العلم بأنه.
صلى الله عليه وسلم. لا يأمر إلا به إشعار بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وقدم المنهيات على المأمورات المستفادة من المعروف لأن التخلي عن الرذائل مقدم على التخلي بالفضائل لأن درء المفاسد أولى من جلب المصالح : ﴿ فبايعهن ﴾ أي التزم لهن بما وعدت على ذلك من إعطاء الثواب لمن وفت منهن في نظير ما ألزمن أنفسهن من الطاعة.

ولما كان الإنسان محل النقصان لا سيما النسوان رجاهن سبحانه بقوله : ﴿ واستغفر ﴾ أي اسأل ﴿ لهن الله ﴾ أي الملك الأعظم ذا الجلال والإكرام في الغفران إن وقع منهن تقصير وهو واقع لأنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره.

(6/760)

ولما كانت عظمته سبحانه مانعة لعظيم الهيبة من سؤاله ما طمع به ، علله بقوله معيداً الاسم الأعظم لئلا يظن بإضماره وتقيده بحيثية الهجرة من النساء ونحو ذلك مؤكداً لما طبع الأدمي عليه من أنه لا يكاد يترك المسيء من عقاب أو عتاب فضلاً عن التفضيل بزيادة الإكرام : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له صفات الجلال والإكرام فلو أن الناس لا يذنبون لجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم لتظهر صفة إكرامه ﴿ غفور ﴾ أي بالغ الستر للذنوب عيناً

وأثراً ﴿ رحيم ﴾ أي بالغ الإكرام بعد الغفران فضلاً منه وإحساناً ، وقد حقق سبحانه ذلك وصدق ، ومن أصدق من الله قيلاً ، " فأقبل النساء للبيعة عامة ثاني يوم الفتح على الصفا بعد فراغه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بيعة الرجال فنزلت هذه الآية وهو على الصفا فقام عمر بن الخطاب رضي الله أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه وهند بنت عتبة متنقبة متنكرة مع النساء خوفاً من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعرفها ، فلما ذكر الشرك قالت : والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال ، وبايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد ، فقال ﴿ ولا يسرقن ﴾ فقالت : إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصيب من ماله هنات فلا أدري أيحل لي أم لا ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غير فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعرفها فقال : وإنك لهند بنت عتبة ، قالت : نعم ، فاعف عني ما سلف عفا الله عنك ، فقال : ﴿ ولا يزنين ﴾ فقال : أو تزني الحرة ، فقال ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ فقالت : ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً وأنتم وهم أعلم ، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر فضحك عمر ـ رضى الله عنه ـ حتى استلقى وتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكر البهتان وهو أن تقذف ولداً على زوجها ليس منه ، قالت هند : والله إن البهتان لقبيح وما تدعونا إلا إلى الرشد ومكارم الأخلاق ، فقال ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾

فقالت : ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء ، وما مست يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يد امرأة لا تحل له ، وكانت أسماء بنت يزيد بن السكن في المبايعات فقالت : يا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابسط يدك نبايعك ، فقال : إني لا أصافح النساء لكن آخذ عليهن "

،

وعن الشعبي " أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه ثم غمسن أيديهن فيه ، وعنه أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقنهن في المبايعة " فيما استطعتن وأطقتن " فقالت : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا " .

ولما ذكر ما أمر به نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المبايعات بعد أن عد الذين آمنوا أصلاً في امتحان المهاجرات فعلم من ذلك أن تولي النساء مع أنه لا ضرر فيهن بقتال ونحوه لا يسوغ إلا بعد العلم بإيمانهن ، وكان الختم بصفتي الغفران والرحمة مما جرأه على محاباة المؤمنين لبعض الكفار من أزواج أو غيرهم لقرابة أو غيرها لعلة يبديها الزوج أو غير لك من الأمور ، كرر سبحانه الأمر بالبراءة من كل عدو ، رداً لآخر السورة على أولها تأكيداً للإعراض عنهم وتنفيراً من توليهم كما أفهمته آية المبايعة وآية الامتحان ، فقال ملذذاً لهم بالإقبال بالخطاب كما فعل أولها بلذيذ العتاب : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ .

ولما كان الميل عن الطريق الأقوام على خلاف ما تأمر به الفطرة الأولى فلا يكون إلا عن معالجتها ، عبر بالتفعل كما عبر به أول السورة بالافتعال فقال : ﴿ لا تتولوا ﴾ أي تعالجوا أنفسكم أن تتولوا ﴿ قوماً ﴾ أي ناساً لهم قوة على ما يحاولونه فغيرهم من باب الأولى ﴿ غضب الله ﴾ أي أوقع الملك الأعلى الغضب ﴿ عليهم ﴾ لإقبالهم على ما أحاط بهم من الخطايا فهو عام في كل من اتصف بذلك يتناول اليهود تناولاً أولياً .

(8/760)

ولما كان السامع لهذا يتوقع بيان سبب الغضب ، قال معللاً ومبيناً أنه لا خير فيهم يرجى وإن ظهر خلاف ذلك : ﴿ قد يئسوا ﴾ أي تحققوا عدم الرجاء ﴿ من الآخرة ﴾ أي من أن ينالهم منها خير ما لإحاطة معاصيهم بهم أو لعدم اعتقادهم لقيامها ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، فيوشك من والاهم يكتب منهم فيحل بهم الغضب ﴿ كما يئس ﴾ من نيل الخير منها ﴿ الكفار ﴾ ولما كان من مات فصار أهلاً للدفن كشف له عن أحوال القيامة فعرف أنه ناج أو هالك ، وكان الموتى أعم من الكفار ، وموتى الكفار أعم ممن يدفن منهم فقال : ﴿ من أصحاب القبور ﴾ فإن الكفار منهم قد علموا يأسهم من حصول الخير منها علماً قطعياً ، ويجوز أن يكون ﴿ من ﴾ ابتدائية فيكون المعنى : كما يئس عباد

الأوثان من لقاء من مات ، فدفن باعتقاد أنه لا اجتماع بينهم أصلاً لأنه لا يمكن بعثه لا إلى الدنيا ولا إلى الآخرة لأنه لا آخرة عندهم أصلاً لا سيما إن كان مدفوناً في قبر ، وعلى هذا يكون الظاهر وضع موضع المضمر للدلالة على أن الذي أيأسهم تغطية الدلائل مع وضوحها لو أنصفوا ، فلا تتولوا من هذه صفته فيكون بينكم وبينه ما بين القريب مع قريبه من تولى كل منهم من الآخر ما يتولاه القريب الصديق لقريبه فإن توليهم ضرر لا نفع فيه فإن من غضب عليه الملك الشهيد لكل حركاته وسكناته لا يفلح هو ولا من تولاه ، وأقل ما في ولايته من الضرر أنها تنقطع المعاونة فيها ، والمشاركة بالموت وإن كان بعد الموت مشاركة ففي العذاب الدائم المستمر الذي لا ينقطع عنهم والخزي اللازم ، وقد علم أن هذا الآخر هو أولها ، وهذا الموصل مفصلها ، فسبحانه من أنزله كتاباً معجزاً حكيماً ، وقرآناً موجزاً جامعاً عظيماً . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 7 صـ 566 . 569﴾

(9/760)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ﴾

(10/760)

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا وعمر أسفل منه يبايع النساء بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبلغهن عنه ، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متقنعة متنكرة خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها ، فقال عليه الصلاة والسلام : "أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً ، " فرفعت هند رأسها وقالت : والله لقد عبدنا الأصنام وإنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال ، تبايع الرجال على الإسلام والجهاد فقط ، فقال عليه الصلاة والسلام : " ولا تسرقن ، " فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هناة فما أدري أتحل لي أم لا ؟ فقال : "أبو سفيان ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها ، فقال لها : وإنك لهند بنت عتبة ، " قالت : نعم فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك ، فقال : " ولا تزنين ، " فقالت : أتزن الحرة ، وفي رواية ما زنت منهن امرأة قط ، فقال : " ولا تقتلن أولادكن ، "

فقالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً ، فأنتم وهم أعلم ، وكان ابنها حنظلة ابن أبي سفيان قد قتل يوم بدر ، فضحك عمر رضي الله عنه حتى استلقى ، وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ولا تأتين ببهتان تفترينه ، " وهو أن تقذف على زوجها ما ليس منه ، فقالت هند : والله إن البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : ولا تعصينني في معروف ، فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصينك في شيء" وقوله : ﴿ وَلَا يَسْرِقْنَ ﴾ يتضمن النهي عن الخيانة في الأموال والنقصان من العبادة ، فإنه يقال : أسرق من السارق من سرق من صلاته : ﴿ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ يحتمل حقيقة الزنا ودواعيه أيضاً على ما قال صلى الله عليه وسلم : " اليدان تزنيان ، والعينان تزنيان ، والرجلان والفرج يصدق ذلك أو

(11/760)

يكذبه " وقوله : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ أراد وأد البنات الذي كان يفعله أهل الجاهلية ثم هو عام في كل نوع من قتل الولد وغيره ، وقوله : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ ﴾ نهى عن النميمة أي لا تنم إحداهن على صاحبها فيورث القطيعة ، ويحتمل أن يكون نهياً عن إلحاق الولد بأزواجهن .

قال ابن عباس : لا تلحق بزوجها ولداً ليس منه ، قال الفراء : كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هذا ولدي منك فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن وذلك أن الولد إذا رضعته الأم سقط بين يديها ورجليها ، وليس المعنى نهيهن عن الزنا ، لأن النهي عن الزنا قد تقدم ، وقوله : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ أي كل أمر وافق طاعة الله ، وقيل : في أمر بر وتقوى ، وقيل في كل أمر فيه رشد ، أي ولا يعصينك في جميع أمرك ، وقال ابن المسيب والكلبي وعبد الرحمن بن زيد : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ أي مما تأمرهن به وتنهاهن عنه ، كالنوح وتمزيق الثياب ، وجز الشعر ونتفه ، وشق الجيب ، وخمش الوجه ، ولا تحدث الرجال إلا إذا كان ذا رحم محرم ، ولا تخلو برجل غير محرم ، ولا تسافر إلا مع ذي رحم محرم ، ومنهم من خص هذا المعروف بالنوح ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

" أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستقاء بالنجوم ، والنياحة " وقال : " النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة عليها سربال من قطران ودرع من جرب " وقال صلى الله عليه وسلم : " ليس منا من ضرب

الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية" وقوله : ﴿ فَبَايِعْهُنَّ ﴾ جواب ﴿ إِذَا ﴾ ، أي إذا بايعنك على هذه الشرائط فبايعهن ، واختلفوا في كيفية المبايعة ، فقالوا : كان يبايعهن وبين يده وأيديهن ثوب ، وقيل : كان يشترط عليهن البيعة وعمر يصافحهن ، قاله الكلبي ، وقيل : بالكلام ، وقيل : دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه ، ثم غمسن أيديهن فيه ، وما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة قط ، وفي الآية مباحث :

البحث الأول : قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءكَ المؤمنات ﴾ ولم يقل : فامتحنوهن ، كما قال في المهاجرات والجواب : من وجهين أحدهما : أن الامتحان حاصل بقوله تعالى : ﴿ على أَن لاَّ يُشْرِكْنَ ﴾ إلى آخره وثانيهما : أن المهاجرات يأتين من دار الحرب فلا اطلاع لهن على الشرائع ، فلا بد من الامتحان ، وأما المؤمنات فهن في دار الإسلام وعلمن الشرائع فلا حاجة إلى الامتحان .

الثاني : ما الفائدة في قوله تعالى : ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ وما وجهه ؟ نقول : من قال المرأة إذا التقطت ولداً ، فإنما التقطت بيدها ، ومشت إلى أخذه برجلها ، فإذا أضافته إلى زواجها فقد أتت ببهتان تفترينه بين يديها ورجليها ، وقيل : يفترينه على أنفسهن ، حيث يقلن : هذا ولدنا وليس كذلك ، إذ الولد ولد الزنا ، وقيل : الولد إذا وضعته أمه سقط بين يديها ورجليها .

الثالث : ما وجه الترتيب في الأشياء المذكورة وتقديم البعض منها على البعض في الآية ؟

نقول: قدم الأقبح على ما هو الأدنى منه في القبح، ثم كذلك إلى آخره، وقيل: قدم من الأشياء المذكورة ما هو الأظهر فيما بينهم.

(13/760)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (13)

قال ابن عباس: يريد حاطب ابن أبي بلتعة يقول: لا تتولوا اليهود والمشركين، وذلك لأن جمعاً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين لحاجتهم إليهم، فنهوا عن ذلك ويئسوا من الآخرة، يعني أن اليهود كذبت محمداً صلى الله عليه وسلم، وهم يعرفون أنه رسول الله وأنهم أفسدوا آخرتهم بتكذيبهم إياه فهم يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور، والتقييد بهذا القيد ظاهر، لأنهم إذا ماتوا على كفرهم كان العلم بخذلانهم وعدم حظهم في الآخرة قطعياً، وهذا هو قول الكلبي وجماعة، يعني الكفار الذين ماتوا يئسوا من الجنة، ومن أن يكون لهم في الآخرة خير، وقال الحسن: يعني الأحياء من الكفار يئسوا من الأموات، وقال أبو إسحق: يئس اليهود الذين عاندوا النبي صلى الله عليه وسلم كما يئس الكفار الذين لا يؤمنون بالبعث من موتاهم.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 266. 268 ﴾

(14/760)

وقال ابن عطية:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾

هذه بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا وهي كانت في المعنى بيعة الرجال قبل فرض القتال، وسماهم ﴿ المؤمنات ﴾ بحسب الظاهر من أمرهن، ورفض الاشتراك هو محض الإيمان، وقتل الأولاد وهو من خوف الفقر، وكانت العرب تفعل ذلك. وقرأ الحسن وأبو عبد الرحمن: "يُقتّلن" بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء المشددة، و" الإتيان بالبهتان"، قال أكثر المفسرين معناه أن تنسب إلى زوجها ولداً ليس هو له واللفظ أعم من هذا التخصيص، فإن الفرية بالقول على أحد من الناس بعضيهة لمن هذا، وإن الكذب فيما ائتمن فيه من الحمل والحيض لفرية بهتان، وبعض أقوى من بعض وذلك أن بعض الناس قال ﴿ بين أيديهن ﴾ يراد به اللسان والفم في الكلام والقبلة ونحوه، " وبين الأرجل" يراد به الفروج وولد الإلحاق ونحوه، والمعروف الذي نهي عن العصيان فيه، قال أنس وابن عباس

، وزيد بن أسلم : هو النوح ، وشق الجيوب ووشم الوجوه ووصل الشعر وغير ذلك من أوامر الشريعة ، فرضها وندبها . ويروى أن جماعة نساء فيهن هند بنت عتبة بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليهن الآي ، فلما قررهن على أن لا يشركن قالت هند : وكيف نطمع أن تقبل منا ما لم تقبله من الرجال ؟ بمعنى أن هذا بين لزومه ، فلما وقف على السرقة ، قالت : والله إني لأصيب الهنة من مال أبي سفيان لا أدري أيحل لي ذلك ، فقال أبو سفيان : ذلك لك حلال فيما مضى وبقي ، وقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كلي وولدك بالمعروف" .

(15/760)

وقدر تكرر هذا المعنى في الحديث الآخر قولها إن أبا سفيان رجل مسيك فلما وقف على الزنا قالت : يا رسول الله وهل تزني الحرة ؟ قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا ما تزني الحرة" ، وذلك أن الزنا في قريش إنما كان في الإماء في أغلب الأمر ، وفيما تعرف مثل هند وإلا فالبغايا قد كن أحراراً ، فلما وقف على قتل الأولاد ، قالت : نحن ربيناهم صغاراً وقتلتهم أنت ببدر كباراً ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما وقف على العصيان بالمعروف ، قالت : ما جلسنا هذا المجلس وفي أنفسنا أن نعصيك ، ويروى

أن جماعة نساء بايعن النبي صلى الله عليه وسلم فقلن : يا رسول الله نبايعك على كذا وكذا الآية ، فلما فرغن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فيما استطعتن وأطقتن" ، فقلن الله ورسوله أرحم بنا منا بأنفسنا .

وقوله تعالى : ﴿ فبايعهن ﴾ امض معهن صفقة الإيمان بأن يعطين ذلك من أنفسهن ويعطين عليه الجنة ، واختلفت هيئات مبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء بعد الإجماع على أنه لم تمس يده يد امرأة أجنبية قط ، فروي عن عائشة وغيرها أنه بايع باللسان قولاً ، وقال :

"إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة" ، وقالت أسماء بنت يزيد : كنت في النسوة المبايعات فقلت : يا رسول الله ابسط يدك نبايعك ، فقال لي عليه السلام : "إني لا أصافح النساء لكن آخذ عليهن ما أخذ الله عليهن" ، وذكر النقاش حديثاً أن النبي صلى الله عليه وسلم مد يده من خارج بيت ومد نساء من الأنصار أيديهن من داخله فبايعهن وما قدمته أثبت ، وروي عن الشعبي أنه لف ثوباً كثيفاً قطرياً على يده وجاء نسوة فلمسن يده كذلك ، وروي عن الكلبي : أنه قدم عمر بن الخطاب فلمس نساء يده وهو خارج من بيت وهن فيه

بحيث لا يراهن ، وذكر النقاش وغيره : أن النبي صلى الله عليه وسلم بايعه النساء على الصفا بمكة وعمر بن الخطاب يصافحهن ، وروي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ورفعه النقاش عن ابن عباس وعن عروة بن مسعود الثقفي : أنه عليه السلام غمس يده في إناء فيه ماء ثم دفعه إلى النساء فغمسن أيديهن فيه . ثم أمره تعالى بالاستغفار لهن ورجاهن في غفرانه ورحمته بقوله : ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قوماً غضب الله عليهم ﴾ قال ابن زيد والحسن ومنذر بن سعيد هم اليهود لأن غضب الله قد صار عرفاً لهم ، وقال ابن عباس : هم في هذه الآية كفار قريش لأن كل كافر فعليه غضب من الله لا يرد بذلك ثبوت الغضب على اليهود .

(17/760)

قال القاضي أبو محمد : ولا سيما في المردة ككفار قريش إذ أعمالهم مغضبة ليست بمجرد ضلال بل فيها شرارات مقصودة ، وفي الكلام في التشبيه الذي في قوله : ﴿ كما يئس ﴾ يتبين الاحتياج إلى هذا الخلاف وذلك أن اليأس من الآخرة إما أن يكون بالتكذيب بها ، وهذا هو يأس كفار مكة ، قال معنى قوله : ﴿ كما يئس الكفار ﴾ كما يئس الكافر من صاحب قبر لأنه إذا مات له حميم قال : هذا آخر العهد به لن يبعث أبداً ، فمعنى الآية : أن

اعتقاد أهل مكة في الآخرة كاعتقاد الكافر في البعث ولقاء موتاه ، وهذا هو تأويل ابن عباس والحسن وقتادة في معنى قوله تعالى : ﴿ كما يئس الكفار ﴾ ، ومن قال إن القوم المشار إليهم هم اليهود ، قال معنى قوله : ﴿ يئس الكفار ﴾ أي كما يئس الكافر من الرحمة إذا مات وكان صاحب قبر ، وذلك أنه يروى أن الكافر إذا كان في قبره عرض عليه مقعده في الجنة أن لو كان مؤمناً ثم يعرض عليه مقعده من النار الذي يصير إليه فهو يائس من رحمة الله مع علمه بها ويقينه ، وهذا تأويل مجاهد وابن جبير وابن زيد في قوله : ﴿ كما يئس الكفار ﴾ فمعنى الآية : أن يأس اليهود من رحمة الله في الآخرة مع علمهم بها كيأس ذلك الكافر في قبره وذلك لأنهم قد رين على قلوبهم وحملهم الحسد على ترك الإيمان وغلب على ظنونهم أنهم معذبون ، وهذه كانت صفة كثير من معاصري النبي صلى الله عليه وسلم ، و﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من أصحاب ﴾ على القول الأول هي لابتداء الغاية ، وفي القول الثاني هي لبيان الجنس والتبعيض يتوجهان فيها وبيان الجنس أظهر .

نجز تفسير سورة الممتحنة والحمد لله على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(18/760)

وقال القرطبي :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾

فيه ثماني مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يُبَايِعْنَكَ ﴾ لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة جاء نساء أهل مكة يبايعنه ، فأمر أن يأخذ عليهن ألاَّ يُشْرِكن .

وفي صحيح مسلم : " عن عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : كان المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يُمْتَحَنَّ بقول الله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إذا جآءك المؤمنات يُبَايِعْنَكَ على أن لاَّ يُشْرِكْنَ بالله شَيْئاً ولا يَسْرِقْنَ ولا يَزْنِينَ ﴾ إلى آخر الآية .

قالت عائشة : فمن أقرّ بهذا من المؤمنات فقد أقرّ بالمحنة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقْررن بذلك من قولهن قال لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "انطلقْنَ فقد بايعتكن" ولا والله ما مَسَّت يدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدَ امرأة قطُّ ، غير أنه بايعهن بالكلام .

قالت عائشة : والله ، ما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على النساء قطُّ إلا بما أمره الله عز وجل ، وما مسّتْ كَفُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كفَّ امرأة قطّ ؛ وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن "قد بايَعْتُكُنّ كلاماً" " وروي أنه عليه الصلاة والسلام بايع النساء وبين

يديه وأيديهن ثوب ، وكان يشترط عليهن .

وقيل : لما فرغ من بيعة الرجال جلس على الصّفَا ومعه عمر أسفل منه ، فجعل يشترط على النساء البَيْعة وعمر يصَافحهن .

ورُوِي أنه كلّف امرأة وقفت على الصّفَا فبايعتهن .

ابن العربي : وذلك ضعيف ، وإنما ينبغي التعويل على ما في الصحيح .

(19/760)

" وقالت أمّ عَطِية : لما قدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جمع نساء الأنصار في بيت ، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب ، فقام على الباب فسلّم فردَدْن عليه السلام ، فقال : أنا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إليكنّ ؛ ألا تشرِكن بالله شيئاً .

فقلن نعم .

فمد يده من خارج البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت ؛ ثم قال : اللّهُمَّ اشهد " وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا بايع النساء دَعَا بقدح من ماء ، فغمس يده فيه ثم أمر النساء فغمسن أيديهن فيه " .

الثانية : رُوِي : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما قال : "على ألاّ يُشْرِكْنَ بالله شيئاً" قالت

هنْد بنت عُتْبة وهي مُنْتَقِبة خوفاً من النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يعرفها لِمَا صنعته بحَمْزَةَ يوم أُحُد : والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيتك أخذته على الرجال وكان بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ولا يَسْرِقن" فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شَحيح وإني أصيب من ماله قُوتَنَا .

فقال أبو سفيان : هو لك حلال .

فضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم وعَرَفها وقال : "أنت هند" ؟ فقالت : عفا الله عما سلف .

ثم قال : "ولا يزنين" فقالت هند : أو تَزْني الحرّة ! ثم قال : "ولا يقتلن أولادهن" أي لا يَئِدْنَ الْمَوْءُدَات ولا يُسقطن الأجِنّة .

فقالت هند : ربّيناهم صِغاراً وقتلتهم كباراً يوم بدر ، فأنتم وهم أبصر "

وروى مقاتل أنها قالت : ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً ، وأنتم وهم أعلم .

فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى .

وكان حنظلة بن أبي سفيان وهو بِكْرُها قُتِل يوم بَدْر .

ثم قال : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ .

قيل : معنى ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ ﴾ ألسنتهنّ بالنَّميمة .

ومعنى بين ﴿ أَرْجُلِهِنَّ ﴾ فروجهن .

وقيل : ما كان بين أيديهن من قُبْلة أو جَسّة ، وبين أرجلهن الجماع .

وقيل : المعنى لا يُلْحِقن برجالهن ولداً من غيرهم .

وهذا قول الجمهور .

وكانت المرأة تلتقط ولداً فتُلْحقه بزوجها وتقول : هذا ولدي منك .

فكان هذا من البهتان والافتراء .

وقيل : ما بين يديها ورجليها كناية عن الولد ؛ لأن بطنها الذي تحمل فيه الولد بين يديها ، وفرجها الذي تلد منه بين رجليها .

وهذا عام في الإتيان بولد وإلحاقه بالزوج وإن سبق النهي عن الزِّنى .

وروي أن هند لما سمعت ذلك قالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ؛ ما تأمر إلا بالأرشد ومكارِم الأخلاق ! .

ثم قال : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ قال قتادة : لا يَنُحْنَ .

ولا تخلُوا امرأة منهنّ إلا بذي مَحْرَم .

وقال سعيد بن المسيّب ومحمد بن السائب وزيد بن أسلم : هو ألاّ يَخْمِشْنَ وجهاً ، ولا

يَشْقُقْنَ جَيْباً ، ولا يَدْعُونَ وَيْلاً ولا يَنْشُرْنَ شعراً ولا يحدّثن الرجال إلا ذا مَحْرَم .

وروت أم عطية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن ذلك في النَّوْح .

وهو قول ابن عباس .

وروى شَهْر بن حَوْشَب : " عن أمّ سلمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ فقال : "هو النَّوْح" .

وقال مصعب بن نوح : أدركت عجوزاً ممن بايع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فحدثتني عنه عليه الصلاة والسلام في قوله ﴿ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ فقال : "النّوح" " وفي صحيح مسلم : " عن أم عطية لما نزلت هذه الآية ﴿ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً ﴾ إلى قوله ﴿ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ قال : "كان منه النياحة" قالت : فقلت يا رسول الله ، إلاّ آل فلان فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية ؛ فلا بُدّ لي من أن أُسْعِدهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إلا آل فلان" " وعنها قالت : أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع البيعة ألاّ نَنُوح ؛ فما وَفَت منا امرأة إلا خمس : أمّ سُليم ، وأمّ العلاء ، وابنة أبي سَبْرة امرأة معاذ أو ابنة أبي سبرة ، وامرأة معاذ .

وقيل : إن المعروف ها هنا الطاعة لله ولرسوله ؛ قاله ميمون بن مِهران .

وقال بكر بن عبد الله المُزَنِيّ : لا يعصِينك في كل أمر فيه رشدهنّ .

الكلبيّ : هو عام في كل معروف أمر الله عز وجل ورسولهُ به .

فروي أن هندا قالت عند ذلك : ما جلسنا في مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء .

الثالثة : ذكر الله عز وجلّ ورسولهُ عليه الصلاة والسلام في صفة البيعة خصالا شتى ؛ صُرِّح فيهنّ بأركان النهي في الدِّين ولم يذكر أركان الأمر .

وهي ستة أيضاً : الشهادة ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والاغتسال من الجنابة .

وذلك لأن النهي دائم في كل الأزمان وكل الأحوال ؛ فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد .

وقيل : إن هذه المناهي كان في النساء كثير من يرتكبها ولا يحجزهنّ عنها شرف النسب ، فَخُصَّت بالذكر لهذا .

ونحوٌ منه .

قوله عليه الصلاة والسلام لِوفْد عبد القيس : " وأنهاكم عن الدُّباء والحَنْتَم والنَّقِير والمُزَفَّت " فنبههم على ترك المعصية في شرب الخمر دون سائر المعاصي ، لأنها كانت شهوتهم وعادتهم ، وإذا ترك المرء شهوته من المعاصي هان عليه ترك سائرها مما لا شهوة له فيها .

الرابعة : لما " قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في البيعة : "ولا يَسْرِقن" قالت هند : يا رسول

الله ، إن أبا سفيان رجل مَسِيك فهل عليّ حرج أن آخذ ما يكفيني وولدي ؟ قال : "لا إلاّ بالمعروف" فخشِيتْ هند أن تقتصر على ما يعطيها فتضيع ، أو تأخذ أكثر من ذلك فتكون سارقة ناكثة للبيعة المذكورة .

(22/760)

فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا" " أي لا حرج عليك فيما أخذت بالمعروف ، يعني من غير استطالة إلى أكثر من الحاجة .

قال ابن العربيّ : وهذا إنما هو فيما لا يَخْزُنه عنها في حجاب ولا يضبط عليه بقُفْل ، فإنه إذا هتكته الزوجة وأخذت منه كانت سارقة تعصى به وتقطع يدها .

الخامسة : قال عُبادة بن الصّامت : أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخذ على النساء : " ألاّ تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا يَعْضَهْ بعضُكم بعضاً ولا تَعصُوا في معروف أمركم به " معنى "يَعْضَه" يسحر .

والعَضْه : السِّحر .

ولهذا قال ابن بحر وغيره في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ ﴾ إنه السحر .

وقال الضحاك : هذا نهي عن البهتان ، أي لا يَعْضَهْن رجلاً ولا امرأة .

﴿ بِبُهْتَانٍ ﴾ أي بسحر.

والله أعلم.

﴿ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ والجمهور على أن معنى "بِبُهْتَانٍ" "بولد يفترينه بين أيديهن" ما أخذته لقيطاً.

﴿ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ ما ولدته من زنى.

وقد تقدّم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ في البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء.

واختلف في معناه على ما ذكرنا.

والصحيح أنه عام في جميع ما يأمر به النبيّ صلى الله عليه وسلم وينهى عنه؛ فيدخل فيه النَّوْح وتخريق الثياب وجزّ الشعر والخَلْوة بغير مَحْرَم إلى غير ذلك.

وهذه كلها كبائر ومن أفعال الجاهلية.

وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعريّ: أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "أربع في أمّتي من أمر الجاهلية" فذكر منها النياحة.

وروى يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذه النوائح يُجعلن يوم القيامة صفّين صفّاً عن اليمين وصفاً عن اليسار ينبحن كما تنبح الكلاب في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يؤمر بهن إلى النار " وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لاتصلي الملائكة على نائحة ولا مُرِنّة " وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع نائحة فأتاها فضربها بالدرّة حتى وقع خِمارها عن رأسها .

فقيل : يا أمير المؤمنين ، المرأة المرأة ! قد وقع خمارها .

فقال : إنها لا حُرمة لها .

أسند جميعه الثعلبي رحمه الله .

أما تخصيص قوله : "فِي مَعْرُوفٍ" مع قوّة قوله : "وَلا يَعْصِينَكَ" ففيه قولان : أحدهما أنه تفسير للمعنى على التأكيد ؛ كما قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احكم بالحق ﴾ [الأنبياء : 112] لأنه لو قال احكم لكفى .

الثاني إنما شرط المعروف في بَيْعة النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى يكون تنبيهاً على أن غيره أولى بذلك وألزم له وأنفى للإشكال .

السابعة : " روى البخاريّ عن عبادة بن الصامت قال : كنا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "أتبايعوني على ألاّ تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا" قرأ آية النساء .

(24/760)

وأكثر لفظ سفيان قرأ في الآية "فمن وَفَى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له منها" " وفي الصحيحين " عن ابن عباس قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان ؛ فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب ؛ فنزل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم فكأني أنظر إليه حين يجلّس الرجال بيده ، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال : ﴿ يا أيها النبي إِذَا جَآءَكَ الْمؤمنات يُبَايِعْنَكَ على أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بالله شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ حتى فرغ من الآية كلها ، ثم قال حين فرغ : "أنتن على ذلك" ؟ فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها : نعم يا رسول الله ؛ لا يَدْري الحسن من هي .

قال : "فتصدّقن" وبسط بلال ثوبه فجعلن يُلقِين الفَتَخ والخواتيم في ثوب بلال " لفظ البخاريّ .

الثامنة : قال المهدَوِيّ : أجمع المسلمون على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهن هذا ؛ والأمر بذلك ندب لا إلزام .

وقال بعض أهل النظر : إذا احتيج إلى المحنة من أجل تباعد الدار كان على إمام المسلمين إقامة المحنة .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني اليهود .

وذلك أنّ ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المؤمنين ويواصلونهم فيصيبون بذلك من ثمارهم فنُهُوا عن ذلك .

﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخرة ﴾ يعني اليهود ؛ قاله ابن زيد .

وقيل : هم المنافقون .

وقال الحسن : هم اليهود والنصارى .

قال ابن مسعود ؛ معناه أنهم تركوا العمل للآخرة وآثروا الدنيا .

وقيل : المعنى يئسوا من ثواب الآخرة ، قاله مجاهد .

ومعنى ﴿ كَمَا يَئِسَ الكفار ﴾ أي الأحياء من الكفار .

﴿ مِنْ أَصْحَابِ القبور ﴾ أن يرجعوا إليهم ؛ قاله الحسن وقتادة .

قال ابن عرفة : وهم الذين قالوا : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدهر ﴾ [الجاثية : 24] .

وقال مجاهد : المعنى كما يئس الكفار الذين في القبور أن يرجعوا إلى الدنيا .

وقيل : إن الله تعالى ختم السورة بما بدأها من ترك موالاة الكفار ؛ وهي خطاب لحاطب بن أبي بَلْتَعَة وغيره .

قال ابن عباس : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَوَلَّوْاْ ﴾ أي لا توالوهم ولا تناصحوهم ؛ رجع تعالى بطَوْله وفضله على حاطب بن أبي بَلْتَعَة .

يريد أن كفار قريش قد يئسوا من خير الآخرة كما يئس الكفار المقبورون من حظ يكون لهم في الآخرة من رحمة الله تعالى .

وقال القاسم بن أبي بَزَّة في قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الآخرة كَمَا يَئِسَ الكفار مِنْ أَصْحَابِ القبور ﴾ قال : من مات من الكفار يئس من الخير .

والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(26/760)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾

كان صلح الحديبية قد تضمن أن من أتى أهل مكة من المسلمين لم يرد إليهم ، ومن أتى المسلمين من أهل مكة رد إليهم ، فجاءت أم كلثوم ، وهي بنت عقبة بن أبي معيط ، وهي أول امرأة هاجرت بعد هجرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في هدنة الحديبية ، فخرج في أثرها أخواها عمارة والوليد ، فقالا : يا محمد أوف لنا بشرطنا ، فقالت : يا رسول الله حال النساء إلى الضعف ، كما قد علمت ، فتردني إلى الكفار يفتنوني عن ديني ولا صبر لي ، فنقض الله العهد في النساء ، وأنزل فيهن الآية ، وحكم بحكم رضوه كلهم .

وقيل : سبب نزولها سبيعة بنت الحارث الأسلمية ، جاءت الحديبية مسلمة ، فأقبل زوجها مسافر المخدومي .

وقيل : صيفي بن الراهب ، فقال : يا محمد اردد علي امرأتي ، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا ، وهذه طينة الكتاب لم تجف ، فنزلت بياناً أن الشرط إنما كان في الرجال دون النساء .

وذكر أبو نعيم الأصبهاني أن سبب نزولها أميمة بنت بشر بن عمرو بن عوف ، امرأة حسان بن الدحداحة ، وسماهن تعالى مؤمنات قبل أن يمتحن ، وذلك لنطقهن بكلمة الشهادة ، ولم يظهر منهن ما ينافي ذلك ، أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان .

وقرىء : مهاجرات بالرفع على البدل من المؤمنات ، وامتحانهن ، قالت عائشة : بآية المبايعة .

وقيل : بأن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وقال ابن عباس : بالحلف إنها ما خرجت إلا حباً لله ورسوله ورغبة في دين الإسلام .

وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة وعكرمة : كانت تستحلف أنها ما هاجرت لبغض في زوجها ، ولا لجريرة جرتها ، ولا لسبب من أغراض الدنيا سوى حب الله ورسوله والدار الآخرة .

(27/760)

﴿ الله أعلم بإيمانهن ﴾ : لأنه تعالى هو المطلع على أسرار القلوب ومخبآت العقائد ، ﴿ فإن علمتموهن ﴾ : أطلق العلم على الظن الغالب بالحلف وظهور الإمارات بالخروج من الوطن ، والحلول في قوم ليسوا من قومها ، وبين انتفاء رجعهن إلى الكفار أزواجهن ، وذلك هو التحريم بين المسلمة والكافر .

وقرأ طلحة : لا هن يحلان لهم ، وانعقد التحريم بهذه الجملة ، وجاء قوله : ﴿ ولا هم يحلون لهن ﴾ على سبيل التأكيد وتشديد الحرمة ، لأنه إذا لم تحل المؤمنة للكافر ، علم أنه

لا حل بينهما البتة .

وقيل : أفاد قوله : ﴿ ولا هم يحلون لهن ﴾ استمرار الحكم بينهم فيما يستقبل ، كما هو في الحال ما داموا على الإشراك وهن على الإيمان .

﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ : أمر أن يعطي الزوج الكافر ما أنفق على زوجته إذا أسلمت ، فلا يجمع عليه خسران الزوجية والمالية .

قال ابن عباس : أعطى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، بعد إمتحانها زوجها الكافر ، ما أنفق عليها ، فتزوجها عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، وكان إذا امتحنهن ، أعطى أزواجهن مهورهن .

وقال قتادة : الحكم في رد الصداق إنما كان في نساء أهل العهد ، فأما من لا عهد بينه وبين المسلمين ، فلا يرد عليه الصداق ، والأمر كما قال قتادة ، ثم نفى الحرج في نكاح المؤمنين اياهن إذا آتوهن مهورهن ، ثم أمر تعالى المؤمنين بفراق نسائهن الكوافر عوابد الأوثان .

وقرأ الجمهور : ﴿ تمسكوا ﴾ مضارع أمسك ، كأكرم ؛ وأبو عمرو ومجاهد : بخلاف عنه ؛ وابن جبير والحسن والأعرج : مضارع مسك مشدّداً ؛ والحسن أيضاً وابن أبي ليلى وابن عامر في رواية عبد الحميد وأبو عمرو في رواية معاذ : تمسكوا بفتح الثلاثة ، مضارع تمسك محذوف الثاني بتمسكوا ؛ والحسن أيضاً : تمسكوا بكسر السين ، مضارع مسك ثلاثياً .

وقال الكرخي : ﴿ الكوافر ﴾ ، يشمل الرجال والنساء ، فقال له أبو علي الفارسي : النحويون لا يرون هذا إلا في النساء ، جمع كافرة ، وقال : أليس يقال : طائفة كافرة وفرقة كافرة؟ قال أبو علي : فبهت فقلت : هذا تأييد . انتهى .

وهذا الكرخي معتزلي فقيه ، وأبو علي معتزلي ، فأعجبه هذا التخريج ، وليس بشيء لأنه لا يقال كافرة في وصف الرجال إلا تابعاً لموصوفها ، أو يكون محذوفاً مراداً ، أما بغير ذلك فلا يجمع فاعلة على فواعل إلا ويكون للمؤنث .

والعصم جمع عصمة ، وهي سبب البقاء في الزوجية .

﴿ واسألوا ما أنفقتم ﴾ : أي واسألوا الكافرين ما أنفقتم على أزواجكم إذا فروا إليهم ، ﴿ وليسألوا ﴾ : أي الكفار ما أنفقوا على أزواجهم إذ فروا إلى المؤمنين .

ولما تقرر هذا الحكم ، قالت قريش ، فيما روي : لا نرضى هذا الحكم ولا نلتزمه ولا ندفع لأحد صداقاً ، فنزلت بسبب ذلك هذه الآية الأخرى : ﴿ وإن فاتكم ﴾ ، فأمر تعالى المؤمنين أن يدفعوا من فرت زوجته من المسلمين ، ففاتت بنفسها إلى الكفار وانقلبت من الإسلام ، ما كان مهرها .

قال الزمخشري : فإن قلت : هل لإيقاع شيء في هذا الموضوع فائدة؟ قلت : نعم ، الفائدة فيه أن لا يغادر شيء من هذا الجنس ، وإن قل وحقر ، غير معوض منه تغليظاً في هذا

الحكم وتشديداً فيه . انتهى .

واللاتي ارتددن من نساء المهاجرين ولحقن بالكفار : أم الحكم بنت أبي سفيان ، زوج عياض بن شداد الفهري ؛ وأخت أم سلمة فاطمة بنت أبي أمية ، زوج عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ؛ وعبدة بنت عبد العزى ، زوج هشام بن العاصي ؛ وأم كلثوم بنت جرول ، زوج عمر أيضاً .

وذكر الزمخشري أنهن ست ، فذكر : أم الحكم ، وفاطمة بنت أبي أمية زوج عمر بن الخطاب ، وعبدة وذكر أن زوجها عمرو بن ود ، وكلثوم ، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان ، وهند بنت أبي جهل كانت تحت هشام بن العاصي ، أعطى أزواجهن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مهورهن من الغنيمة .

(29/760)

وقرأ الجمهور ﴿ فعاقبتم ﴾ بألف ؛ ومجاهد والزهري والأعرج وعكرمة وحميد وأبو حيوة والزعفراني : بشد القاف ؛ والنخعي والأعرج أيضاً وأبو حيوة أيضاً والزهري أيضاً وابن وثاب : بخلاف عنه بخف القاف مفتوحة ؛ ومسروق والنخعي أيضاً والزهري أيضاً : بكسرها ؛ ومجاهد أيضاً : فاعقبتم على وزن افعل ، يقال : عاقب الرجل صاحبه في كذا

، أي جاء فعل كل واحد منهما يعقب فعل الآخر ، ويقال : أعقب ، قال :

وحادرت البلد الحلاد ولم يكن . . .

لعقبة قدر المستعيرين يعقب

وعقب : أصاب عقبى ، والتعقيب : غزو إثر غزو ، وعقب بفتح القاف وكسرها مخففاً .

وقال الزمخشري : فعاقبتم من العقبة ، وهي النوبة .

شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة ، وأولئك مهور نساء هؤلاء أخرى ، بأمر يتعاقبون فيه ، كما يتعاقب في الركوب وغيره ، ومعناه : فجاءت عقبتكم من أداء المهر .

﴿ فآتوا ﴾ من فاتته امرأته إلى الكفار مثل مهرها من مهر المهاجرة ، ولا يؤتوه زوجها الكافر ، وهكذا عن الزهري ، يعطي من صداق من لحق بهم .

ومعنى أعقبتم : دخلتم في العقبة ، وعقبتم من عقبه إذا قفاه ، لأن كل واحد من المتعاقبين يقفي صاحبه ، وكذلك عقبتم بالتخفيف ، يقال : عقبه يعقبه . انتهى .

وقال الزجاج : فعاقبتم : قاضيتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم ، وفسر غيرها من القراءات : لكانت العقبى لكم : أي كانت الغلبة لكم حتى غنمتم والكفار من قوله : ﴿ إلى الكفار ﴾ ، ظاهره العموم في جميع الكفار ، قاله قتادة ومجاهد .

قال قتادة : ثم نسخ هذا الحكم .

وقال ابن عباس : يعطى من الغنيمة قبل أن تخمس .

وقال الزهري : من مال الفيء ؛ وعنه : من صداق من لحق بنا .

وقيل : الكفار مخصوص بأهل العهد .

وقال الزهري : اقتطع هذا يوم الفتح .

وقال الثوري : لا يعمل به اليوم .

وقال مقاتل : كان في عهد الرسول فنسخ .

وقال ابن عطية : هذه الآية كلها قد ارتفع حكمها .

وقال أبو بكر بن العربي القاضي : كان هذا حكم الله مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة بإجماع الأمة .

وقال القشيري : قال قوم هو ثابت الحكم إلى الآن .

﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ : كانت بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفاء ، بعدما فرغ من بيعة الرجال ، وهو على الصفا وعمر أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه ، وما مست يده عليه الصلاة والسلام يد امرأة أجنبية قط .

وقالت أسماء بنت يزيد بن السكن : "كنت في النسوة المبايعات ، فقلت : يا رسول الله ابسط يدك نبايعك ، فقال لي عليه الصلاة والسلام : "إني لا أصافح النساء لكن آخذ عليهن ما أخذ الله عليهن" وكانت هند بنت عتبة في النساء ، فقرأ عليهن الآية .

فلما قررهن على أن لا يشركن بالله شيئاً ، قالت هند : وكيف نطمع أن تقبل منا ما لم تقبله من الرجال ؟ تعني أن هذا بين لزومه .

فلما وقف على السرقة قالت : والله إني لأصيب الهنة من مال أبي سفيان ، لا أدري أيحل لي ذلك ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما عبر فهو لك حلال ، فضحك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعرفها ، فقال لها : "وإنك لهند بنت عتبة" قالت : نعم ، فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك .

فقال : ﴿ ولا يزنين ﴾ ، فقالت : أوتزني الحرة ؟ قال : ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ ، فقالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً ، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر ، فضحك عمر رضي الله تعالى عنه حتى استلقى ، وتبسم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقال : ﴿ ولا يأتين ببهتان ﴾ ، فقالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، ولا يأمر الله إلا بالرشد ومكارم الأخلاق .

فقال : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ ، فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء "

ومعنى قول هند : أو تزني الحرة أنه كان في قريش في الإماء غالباً ، وإلا فالبغايا ذوات الربات قد كن حرائر .

(31/760)

وقرأ عليّ والحسن والسلمي : ولا يقتلن مشدداً ، وقتلهن من أجل الفقر والفاقة ، وكانت العرب تفعل ذلك .

والبهتان ، قال الأكثرون : أن تنسب إلى زوجها ولداً ليس منه ، وكانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هو ولدي منك .

﴿ بين أيديهن وأرجلهن ﴾ : لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين .

وروى الضحاك : البهتان : العضة ، لأنها إذا قذفت المرأة غيرها ، فقد بهتت ما بين يدي المقذوفة ورجليها ، إذ نفت عنها ولداً قد ولدته ، أو ألحقت بها ولداً لم تلده .

وقيل : البهتان : السحر .

وقيل : بين أيديهن ألسنتهن بالنميمة ، وأرجلهن ؛ فروجهن .

وقيل : بين أيديهن قبله أو جسة ، وأرجلهن الجماع .

ومن البهتان الفرية بالقول على أحد من الناس ، والكذب فيما اؤتمنّ عليه من حمل وحيض ، والمعروف الذي نهى عن العصيان فيه ، قال ابن عباس وأنس وزيد بن أسلم : هو النوح وشق الجيوب ووشم الوجوه ووصل الشعر ، وغير ذلك من أوامر الشريعة فرضها وندبها .

وروي أن قوماً من فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم ، فقيل لهم : لا تتولوا قوماً مغضوباً عليهم وعلى أنهم اليهود ، فسرهم الحسن وابن زيد ومنذر بن سعيد ، لأن غضب الله قد صار عرفاً لهم .

وقال ابن عباس : كفار قريش ، لأن كل كافر عليه غضب من الله .

وقيل : اليهود والنصارى .

﴿ قد يئسوا من الآخرة ﴾ ، قال ابن عباس : من خيرها وثوابها .

والظاهر أن من في ﴿ من أصحاب القبور ﴾ لابتداء الغاية ، أي لقاء أصحاب القبور .

فمن الثانية كالأولى من الآخرة .

فالمعنى أنهم لا يلقونهم في دار الدنيا بعد موتهم .

وقال ابن عرفة : هم الذين قالوا : ما يهلكنا إلا الدهر . انتهى .

والكفار على هذا كفار مكة ، لأنهم إذا مات لهم حميم قالوا : هذا آخر العهد به ، لن يبعث أبداً ، وهذا تأويل ابن عباس وقتادة والحسن .

وقيل : من لبيان الجنس ، أي الكفار الذين هم أصحاب القبور ، والمأيوس منه محذوف ، أي كما يئس الكفار المقبورون من رحمة الله ، لأنه إذا كان حياً لم يقبر ، كان يرجى له أن لا ييأس من رحمة الله ، إذ هو متوقع إيمانه ، وهذا تأويل مجاهد وابن جبير وابن زيد .

وقال ابن عطية : وبيان الجنس أظهر . انتهى .

وقد ذكرنا أن الظاهر كون من لابتداء الغاية ، إذ لا يحتاج الكلام إلى تقدير محذوف .

وقرأ ابن أبي الزناد : كما يئس الكافر على الإفراد .

والجمهور : على الجمع .

ولما فتح هذه السورة بالنهي عن اتخاذ الكفار أولياء ، ختمها بمثل ذلك تأكيداً لترك موالاتهم وتنفير المسلمين عن توليهم وإلقاء المودّة إليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(33/760)

وقال أبو السعود :

﴿ يا أَيُّهَا النبى إِذَا جَاءكَ المؤمنات يُبَايِعْنَكَ ﴾

أي مبايعاتٍ لكَ أيْ قاصداتٍ للمبايعةِ نزلتْ يومَ الفتحِ فإنَّه عليهِ الصلاةُ والسلامُ لما فرغَ من بَيعةِ الرجالِ شرعَ في بيعةِ النساءِ ﴿ على أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بالله شَيْئاً ﴾ أي شيئاً من الأشياءِ أو شيئاً من الإشراكِ ﴿ وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أولادهن ﴾ أُريدَ به وأدُ البناتِ وقُرِىءَ ولا يُقَتِّلْنَ بالتشديدِ ﴿ وَلاَ يَأْتِينَ ببهتان يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ كانتِ المرأةُ تلتقطُ المولودَ فتقولُ لزوجِها هُو ولدي منكَ كُنِّيَ عنْهُ بالبهتانِ المُفترى بينَ يديها ورجلَيها لأنَّ بطنَها الذي تحملُهُ فيهِ بينَ يديها ومَخرجُه بينَ رِجْلَيْها .

(34/760)

﴿ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ أي فيما تأمرهنَّ بِهِ من معروفٍ وتنهاهنَّ عنْهُ من منكرٍ ، والتقييدُ بالمعروفِ مع أنَّ الرسولَ صلى الله عليه وسلم لا يأمرُ إلا بهِ التنبيهُ على أنَّه لا يجوزُ طاعةُ مخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ وتخصيصُ الأمورِ المعدودةِ بالذكرِ في حقِّهنَّ لكثرةِ وقوعِها فيمَا بينهنَّ معَ اختصاصِ بعضها بهنَّ ﴿ فَبَايِعْهُنَّ ﴾ أي على ما ذُكرَ وما لمْ يُذكرْ لوضوحِ أمرِه وظهورِ أصالتِه في المبايعةِ من الصلاةِ والزكاةِ وسائرِ أركانَ الدِّينِ وشعائرِ الإسلامِ ، وتقييد مبايعتهنَّ بِما ذُكِرَ من مجيئهنَّ لحثهنَّ على المسارعةِ إليها مع كمالِ الرغبةِ فيهَا من غيرِ دعوةٍ لهنَّ إليها ﴿ واستغفر لَهُنَّ الله ﴾ زيادةٍ على ما في ضمنِ المبايعةِ فإنها عبارةٌ عن

ضمانِ الثوابِ من قبلِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بمقابلةِ الوفاءِ بالأمورِ المذكورةِ من قبلهنَّ ﴿ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي مبالغٌ في المغفرةِ والرحمةِ فيغفرُ لهنَّ ويرحمهنَّ إذا وفَّينَ بما بايعنَ عليهِ. واختلفَ في كيفيةِ مبايعتِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لهن يومئذٍ فرُوِيَ أنَّه عليهِ الصلاةُ والسلامُ لما فرغَ من بَيعةِ الرجالِ جلسَ على الصَّفا ومعه عمرُ رضيَ اللهُ عنْهُ أسفلَ منْهُ فجعلَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يشترطُ عليهن البيعةَ وعمرُ يصافحهنَّ. ورُوِيَ أنَّه كلفَ امرأةٍ وقفتْ على الصَّفا فبايعتهنَّ. وقيلَ دعا بقدحٍ من ماءٍ فغمسَ فيهِ يدَهُ ثم غمسنَ أيديهنَّ. ورُوِيَ أنه عليهِ الصلاةُ والسلامُ بايعهنَّ وبين يديهِ وأيديهنَّ ثوبٌ قطريٌّ، والأظهرُ الأشهرُ ما قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها واللهِ ما أخذَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على النساءِ قطُّ إلا بما أمرَ اللهُ تعالَى وما مستْ كفُّ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم كفَّ امرأةٍ قطَ وكانَ يقولُ إذا أخذَ عليهنَّ قدْ بايعتكنَّ، كلاماً، وكانَ المؤمناتُ إذَا

(35/760)

هاجرنَ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يمتحنهنَّ بقولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ يا أَيُّها النبى إِذَا جَاءكَ المؤمنات ﴾ إلى آخرِ الآيةِ فإذا أقررنَ بذلكَ من قولِهنَّ قالَ لهنَّ انطلقنَ فقد بايعتكُنَّ.

﴿ يا أَيُّها الذين ءامَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قوماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾

هُم عامةُ الكفرةِ ، وقيلَ اليهودُ ، لما رُوِيَ أنَّها نزلتْ في بعضِ فقراءِ المسلمينَ كانُوا يواصلونَ اليهودَ ليصيبُوا من ثمارِهِم .

﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الأخرة ﴾ لكفرِهِم بهَا أو لعلمِهِم بأنَّه لا خلاقَ لَهُمْ فيهَا لعنادِهِم الرسولَ المنعوتَ في التوراةِ المؤيدِ بالآياتِ ﴿ كَمَا يَئِسَ الكفارُ مِنْ أصحابِ القبورِ ﴾ أيْ كَما يئسَ منها الذينَ ماتُوا منهُم لأنَّهم وقفُوا على حقيقةِ الحالِ وشاهدُوا حرمانَهُم من نعيمِهَا المقيمِ وابتلاءَهُم بعذابِهَا الأليمِ والمرادُ وصفهُم بكمالِ اليأسِ منهَا ، وقيلَ المَعْنَى كما يئسُوا من موتاهُم أنْ يُبعثوا ويرجعُوا إلى الدُّنيا أحياءً والإظهارُ في موقعِ الإضمارِ للإشعارِ بعلةِ يأسهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(36/760)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أَيُّهَا النبى إِذَا جَاءكَ المؤمنات يُبَايِعْنَكَ ﴾

أي مبايعات لك أي قاصدات للمبايعة ﴿ على أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بالله شَيْئاً ﴾ أي شيئاً من الأشياء أو شيئاً من الإشراك ﴿ وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أولادهن ﴾ أريد به على

ما قال غير واحد : وأد البنات بالقرينة الخارجية ، وإن كان الأولاد أعم منهن ، وجوز إبقاءه على ظاهره فإن العرب كانت تفعل ذلك من أجل الفقر والفاقة ، وانظر هل يجوز حمل هذا النهي على ما يعم ذلك ، وإسقاط الحمل بعد أن ينفخ فيه الروح ، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه.

والحسن.

والسلمي ﴿ وَلَا يَقَتِّلْنَ ﴾ بالتشديد ﴿ وَلَا يَأْتِينَ ببهتان يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ .

(37/760)

قال الفراء : كانت المرأة في الجاهلية تلتقط المولود فتقول : هذا وليد منك فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن ، وذلك أن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها ، وفي "الكشاف" كني بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين وفرجها الذي تلده به بين الرجلين ، وقيل : كني بذلك عن الولد الدعي لأن اللواتي كن يظهرن البطون لأزواجهن في بدء الحال إنما فعلن ذلك امتناناً عليهم ، وكن يبدين في ثاني الحال عند الطلق حين يضعن الحمل بين أرجلهن أنهن ولدن لهم فنهين عن ذلك الذي هو من شعار الجاهلية المنافي لشعار المسلمات تصويراً لتينك الحالتين

وتهجيناً لما كن يفعلنه، وأياً مّا كان فحمل الآية على ما ذكر هو الذي ذهب إليه الأكثرون، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وقال بعض الأجلة: معناه لا يأتين ببهتان من قبل أنفسهن، واليد والرجل كناية عن الذات لأن معظم الأفعال بهما، ولذا قيل للمعاقب بجناية قولية: هذا ما كسبت يداك، أو معناه لا يأتين ببهتان ينشئنه في ضمائرهن وقلوبهن، والقلب مقره بين الأيدي والأرجل، والكلام على الأول: كناية عن إلقاء البهتان من تلقاء أنفسهن، وعلى الثاني: كناية عن كون البهتان من دخيلة قلوبهن المبنية على الخبث الباطني.

وقال الخطابي: معناه لا يبهتن الناس كفاحاً ومواجهة كما يقال للأمر بحضرتك: إنه بين يديك، ورد بأنهم وإن كنوا عن الحاضر بما ذكر لكن لا يقال فيه: هو بين رجليك، وهو وارد لو ذكرت الأرجل وحدها أما إذا ذكرت مع الأيدي تبعاً فلا، والكلام قيل: كناية عن خرق جلباب الحياء، والمراد النهي عن القذف، ويدخل فيه الكذب والغيبة، وروي عن الضحاك حمل ذلك على القذف، وقيل: بين أيديهن قبلة أو جسة وأرجلهن الجماع، وقيل: بين أيديهن ألسنتهن بالنميمة، وأرجلهن فروجهن بالجماع، وهو وكذا ما قبله كما ترى.

وقيل : البهتان السحر ، وللنساء ميل إليه جداً فنهين عنه وليس بشيء ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ أي فيما تأمرهن به من معروف وتنهاهن عنه من منكر ، والتقييد بالمعروف مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا به للتنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق ، ويرد به على من زعم من الجهلة أن طاعة أولى الأمر لازمة مطلقاً ، وخص بعضهم هذا المعروف بترك النياحة لما أخرج الإمام أحمد .

والترمذي وحسنه .

وابن ماجه .

وغيرهم عن أم سلمة الأنصارية قالت امرأة من هذه النسوة : ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " لا تنحن " الحديث ، ونحوه من الأخبار الظاهرة في تخصيصه بما ذكر كثير ، والحق العموم ، وما ذكر في الأخبار من باب الاقتصار على بعض أفراد العام لنكتة ، ويشهد للعموم قول ابن عباس .

وأنس .

وزيد بن أسلم : هو النوح .

وشق الجيوب .

ووشم الوجوه .

ووصل الشعر .

وغير ذلك من أوامر الشريعة فرضها وندبها ، وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر في حقهنّ لكثرة وقوعها فيما بينهن مع اختصاص بعضها بهن على ما سمعت أولا ﴿ فَبَايِعْهُنَّ ﴾ بضمان الثواب على الوفاء بهذه الأشياء ، وتقييد مبايعتهن بما ذكر من مجيئهن لحثهن على المسارعة إليها مع كما الرغبة فيها من غير دعوة لهن إليها ﴿ واستغفر لَهُنَّ الله ﴾ زيادة على ما في ضمن المبايعة من ضمان الثواب ﴿ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي مبالغ جل شأنه في المغفرة والرحمة فيغفر عز وجل لهن ويرحمهن إذا وفين بما باعن عليه ؛ وهذه الآية نزلت على ما أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل يوم الفتح فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجال على الصفا .

وعمر رضي الله تعالى عنه يبايع النساء تحتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء أنه عليه الصلاة والسلام بايع أيضاً بنفسه الكريمة .

أخرج الإمام أحمد .

والنسائي .

وابن ماجه .

والترمذي وصححه .

وغيرهم عن أميمة بنت رقية قالت : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم لنبايعه فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئاً حتى بلغ ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ فقال : " فيما استطعن وأطقن قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : إني لا أصافح النساء إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة " .

وأخرج سعيد بن منصور .

وابن سعد عن الشعبي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بايع النساء وضع على يده ثوباً ؛ وفي بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم يبايعهن وبين يديه وأيديهن ثوب قطوى ، ومن يثبت ذلك يقول بالمصافحة وقت المبايعة ، والأشهر المعول عليه أن لا مصافحة ، أخرج ابن سعد .

وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بايع النساء دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه ثم يغمس أيديهن فيه ؛ وكأن هذا بدل المصافحة والله تعالى أعلم بصحته .

والمبايعة وقعت غير مرة ووقعت في مكة بعد الفتح وفي المدينة ؛ وممن بايعنه عليه الصلاة والسلام في مكة هند بنت عتبة زوج أبي سفيان ، ففي حديث أسماء بنت يزيد بن السكن كنت في النسوة المبايعات وكانت هند بنت عتبة في النساء فقرأ صلى الله عليه وسلم عليهن الآية فلما قال : ﴿ على أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً ﴾ قالت هند : وكيف نطمع أن يقبل منا ما لم يقبله من الرجال ؟ يعني أن هذا بين لزومه فلما قال ﴿ وَلاَ يَسْرِقْنَ ﴾ قالت : والله إني لأصيب الهنة من مال أبي سفيان لا يدري أيحل لي ذلك ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر هو لك حلال ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها فقال لها : وإنك لهند بنت عتبة ؟ قالت : نعم فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك ، فقال : ولا ﴿ يَزْنِينَ ﴾ فقالت : أو تزني الحرة ؟ تريد أن الزنا في الإماء بناءاً على ما كان في الجاهلية من أن الحرة لا تزني غالباً وإنما يزني في الغالب الإماء ، وإنما قيد بالغالب لما قيل : إن ذوات الرايات كن حرائر ، فقال : ﴿ وَلاَ يَقْتُلْنَ أولادهن ﴾ فقالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً تعني ما كان من أمر ابنها حنظلة بن أبي سفيان فإنه قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رواية أنها قالت : قتلت الآباء وتوصينا بالأولاد ؟! فضحك صلى الله عليه وسلم ، فقال : ﴿ وَلاَ يَأْتِينَ ببهتان ﴾ فقالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ولا يأمر الله تعالى إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : ﴿ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا

وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء وكأن هذا منها دون غيرها من النساء لمكان أم حبيبة رضي الله تعالى عنها من رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنها حديثة عهد بجاهلية، ويروى أن أول من بايع النبي صلى الله عليه وسلم من النساء أم سعد بن معاذ.

(41/760)

وكبشة بنت رافع مع نسوة أخر رضي الله تعالى عنهن.

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَتَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ ﴾

عن الحسن. وابن زيد. ومنذر بن سعيد أنهم اليهود لأنه عز وجل قد عبر عنهم في غير هذه الآية بالمغضوب عليهم، وروي أن قوماً من فقراء المؤمنين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم فنزلت، وقيل: هم اليهود والنصارى، وفي رواية عن ابن عباس أنهم كفار قريش، وقال غير واحد: هم عامة الكفرة؛ وهذه الآية على ما قال الطيبي: متصلة بخاتمة قصة المشركين الذين نهى المؤمنون عن اتخاذهم أولياء بقوله تعالى: ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء ﴾ [الممتحنة: 1] وهي قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ [الممتحنة: 9] وقوله تعالى: ﴿ الظالمون يا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا جَاءكُمُ المؤمنات ﴾ [الممتحنة: 10] الخ مستطرد فإنه لما جرى حديث المعاملة مع الذين لا

يقاتلون المسلمين والذين يقاتلونهم وقد أخرجوهم من ديارهم من الأمر بمبرة أولئك والنهي عن مبرة هؤلاء أتى بحديث المعاملة مع نسائهم ، ولما فرغ من ذلك أوصل الخاتمة بالفاتحة على منوال رد العجز على الصدر من حيث المعنى ، وفي الانتصاف جعل هذه الآية نفسها من باب الاستطراد وهو ظاهر على القول : بأن المراد بالقوم اليهود أو أهل الكتاب مطلقاً ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الآخرة ﴾ استئناف ، والمراد قد يئسوا من خير الآخرة وثوابها لعنادهم الرسول صلى الله عليه وسلم المنعوت فيك تابهم المؤيد بالآيات البينات والمعجزات الباهرات ، وإذا أريد بالقوم الكفرة فيأسهم من الآخرة لكفرهم بها .

﴿ كَمَا يَئِسَ الكفار مِنْ أصحاب القبور ﴾ أي الذين هم أصحاب القبور أي الكفار الموتى على أن ﴿ مِنْ ﴾ بيانية ، والمعنى أن يأس هؤلاء من الآخرة كيأس الكفار الذين ماتوا وسكنوا القبور وتبينوا حرمانهم من نعيمها المقيم ، وقيل : كيأسهم من أن ينالهم خير من هؤلاء الأحياء ، والمراد وصفهم بكمال اليأس من الآخرة ، وكون ﴿ مِنْ ﴾ بيانية مروى عن مجاهد .

وابن جبير .

وابن زيد ، وهو اختيار ابن عطية .

وجماعة ، واختار أبو حيان كونها لابتداء الغاية ، والمعنى أن هؤلاء القوم المغضوب عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئسوا من موتاهم أن يبعثوا ويلقوهم في دار الدنيا ، وهو مروى عن ابن عباس .

والحسن .

وقتادة ، فالمراد بالكفار أولئك القوم ، ووضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلاً لكفرهم وإشعاراً بعلة يأسهم ، وقرأ ابن أبي الزناد .

كما يئس الكافر بالإفراد على أرادة الجنس .

هذا ومن باب الإشارة في بعض الآيات : ما قيل : إن قوله تعالى : ﴿ الحكيم يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء ﴾ [الممتحنة : 1] الخ إشارة للسالك إلى ترك موالاة النفس الامارة وإلقاء المودة إليها فإنها العدو الأكبر كما قيل : أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك ، وهي لا تزال كارهة للحق ومعارضة لرسول العقل نافرة له ولا تنفك عن ذلك حتى تكون مطمئنة راضية مرضية ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

﴿ عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ [الممتحنة : 7] وقوله سبحانه : ﴿ لاَّ ينهاكم الله ﴾ [الممتحنة : 8] الخ إشارة إلى أنه متى أطاعت النفس وأمن جماحها جاز إعطاؤها حظوظها المباحة ، وإليه الإشارة بما روي أن " لنفسك عليك حقاً " وفي قوله سبحانه : ﴿ مُؤْمِنُونَ يا أَيُّهَا النبى إِذَا جَاءكَ المؤمنات يُبَايِعْنَكَ ﴾ [الممتحنة : 12] الخ إشارة إلى مبايعة المرشد المريد الصادق ذا النفس المؤمنة وذلك أن يبايعه على ترك الاختيار وتفويض الأمور إلى الله عز وجل وأن لا يرغب فيما ليس له بأهل ، وأن لا يلج في شهوات النفس ، وأن لا يئد الوارد الإلهامي تحت تراب الطبيعة ، وأن لا يفتري فيزعم أن الخاطر السرى خاطر الروح وخاطر الروح خاطر الحق إلى غير ذلك ، وأن لا يعصى في معروف يفيده معرفة الله عز وجل ، وأن يطلب من الله سبحانه في ضمن المبالغة أن يستر صفاته بصفاته ووجوده بوجوده ، وحاصله أن يطلب له البقاء بعد الفناء وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(44/760)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾

لما ذكر سبحانه حكم فريقي الكافرين في جواز البرّ ، والإقساط للفريق الأوّل دون الفريق الثاني ذكر حكم من يظهر الإيمان ، فقال : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا جَاءكُمُ المؤمنات مهاجرات ﴾ من بين الكفار ، وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما صالح قريشاً يوم الحديبية على أن يردّ عليهم من جاءهم من المسلمين ، فلما هاجر إليه النساء أبى الله أن يرددن إلى المشركين ، وأمر بامتحانهنّ فقال : ﴿ فامتحنوهن ﴾ أي : فاختبروهنّ .

وقد اختلف فيما كان يمتحنّ به ، فقيل : كان يستحلفهن بالله ما خرجن من بغض زوج ، ولا رغبة من أرض إلى أرض ، ولا لالتماس دنيا بل حباً لله ولرسوله ، ورغبة في دينه ، فإذا حلفت كذلك أعطى النبيّ صلى الله عليه وسلم زوجها مهرها ، وما أنفق عليها ، ولم يردّها إليه ، وقيل : الامتحان هو أن تشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً رسول الله ، وقيل : ما كان الامتحان إلاّ بأن يتلو عليهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية ، وهي ﴿ ياأَيُّهَا النبى إِذَا جَاءكَ المؤمنات ﴾ إلى آخرها .

واختلف أهل العلم هل دخل النساء في عهد الهدنة أم لا ؟ على قولين ، فعلى القول بالدخول تكون هذه الآية مخصصة لذلك العهد ، وبه قال الأكثر .

وعلى القول بعدمه لا نسخ ، ولا تخصيص .

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بإيمانهن ﴾ هذه الجملة معترضة لبيان أن حقيقة حالهنّ لا يعلمها إلاّ الله سبحانه ، ولم يتعبدكم بذلك ، وإنما تعبدكم بامتحانهنّ حتى يظهر لكم ما يدلّ على صدق دعواهنّ في الرغوب في الإسلام ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مؤمنات ﴾ أي : علمتم ذلك بحسب الظاهر بعد الامتحان الذي أمرتم به ﴿ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار ﴾ أي : إلى أزواجهنّ الكافرين ، وجملة ﴿ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ تعليل للنهي عن إرجاعهنّ . وفيه دليل على أن المؤمنة لا تحلّ لكافر ، وأن إسلام المرأة يوجب فرقتها من زوجها لا مجرّد هجرتها ، والتكرير لتأكيد الحرمة ، أو الأوّل لبيان زوال النكاح ، والثاني لامتناع النكاح الجديد ﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ أي : وأعطوا أزواج هؤلاء اللاتي هاجرن وأسلمن مثل ما أنفقوا عليهنّ من المهور .

قال الشافعي : وإذا طلبها غير الزوج من قراباتها منع منها بلا عوض .

﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ لأنهنّ قد صرن من أهل دينكم ﴿ إذا آتيتموهنّ أجورهنّ ﴾ أي : مهورهنّ ، وذلك بعد انقضاء عدّتهنّ ، كما تدلّ عليه أدلة وجوب العدة ﴿ وَلاَ تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الكوافر ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ تمسكوا ﴾ بالتخفيف من الإمساك ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، لقوله : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة : 231] ، وقرأ الحسن ، وأبو العالية ، وأبو عمرو بالتشديد من التمسك ، والعصم جمع عصمة ، وهي

ما يعتصم به ، والمراد هنا عصمة عقد النكاح.

والمعنى أن من كانت له امرأة كافرة ، فليست له بامرأة لانقطاع عصمتها باختلاف الدين .

قال النخعي : هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر ، وكان الكفار يزوّجون المسلمين ، والمسلمون يتزوّجون المشركات ، ثم نسخ ذلك بهذه الآية ، وهذا خاص بالكوافر المشركات دون الكوافر من أهل الكتاب .

وقيل : عامة في جميع الكوافر مخصصة بإخراج الكتابيات منها .

(46/760)

وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أنه إذا أسلم وثنيّ أو كتابيّ لا يفرق بينهما إلاّ بعد انقضاء العدّة .

وقال بعض أهل العلم : يفرق بينهما بمجرّد إسلام الزوج ، وهذا إنما هو إذا كانت المرأة مدخولاً بها ، وأما إذا كانت غير مدخول بها ، فلا خلاف بين أهل العلم في انقطاع العصمة بينهما بالإسلام إذ لا عدّة عليها ﴿ واسألوا ما أنفقتم ﴾ أي : اطلبوا مهور نسائكم اللاحقات بالكفار ﴿ وليسألوا ما أنفقوا ﴾ قال المفسرون : كان من ذهب من المسلمات مرتدّة إلى الكفار من أهل العهد ، يقال للكفار : هاتوا مهرها ، ويقال للمسلمين إذا جاءت

امرأة من الكفار إلى المسلمين ، وأسلمت : ردّوا مهرها على زوجها الكافر ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللهِ ﴾ أي : ذلكم المذكور من إرجاع المهور من الجهتين حكم الله ، وقوله : ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ في محل نصب على الحال .

أو مستأنفة ﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : بليغ العلم لا تخفى عليه خافية ، بليغ الحكمة في أقواله وأفعاله ، قال القرطبي : وكان هذا مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإجماع المسلمين ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أزواجكم إِلَى الكفار ﴾ لما نزلت الآية المتقدّمة ، قال المسلمون : رضينا بحكم الله ، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا ، فنزل قوله : ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أزواجكم إِلَى الكفار ﴾ مما دفعتم إليهم من مهور النساء المسلمات ، وقيل المعنى : وإن انفلت منكم أحد من نسائكم إلى الكفار بأن ارتدت المسلمة ﴿ فعاقبتم ﴾ قال الواحدي : قال المفسرون : ﴿ فعاقبتم ﴾ فغنمتم .

قال الزجاج : تأويله ، وكانت العقبى لكم ، أي : كانت الغنيمة لكم حتى غنمتم ﴿ فَآتُواْ الذين ذَهَبَتْ أزواجهم مِّثْلَ مَا أَنفَقُواْ ﴾ من مهر المهاجرة التي تزوّجوها ، ودفعوه إلى الكفار ، ولا تؤتوه زوجها الكافر .

قال قتادة، ومجاهد: إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفيء والغنيمة، وهذه الآية منسوخة قد انقطع حكمها بعد الفتح.

وحاصل معناها: أن ﴿ مِّنْ أزواجكم ﴾ يجوز أن يتعلق بفاتكم، أي: من جهة أزواجكم، ويراد بالشيء: المهر الذي غرمه الزوج، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه صفة لشيء.

ثم يجوز في شيء أن يراد به المهر، ولكن لا بدّ على هذا من مضاف محذوف، أي: من مهر أزواجكم؛ ليتطابق الموصوف وصفته، ويجوز أن يراد بشيء: النساء أي نوع وصنف منهنّ، وهو ظاهر قوله: ﴿ مِّنْ أزواجكم ﴾ وقوله: ﴿ فَآتُواْ الذين ذَهَبَتْ أزواجهم ﴾ والمعنى: أنهم يعطون من ذهبت زوجته إلى المشركين، فكفرت، ولم يردّ عليه المشركون مهرها، كما حكم الله مثل ذلك المهر الذي أنفقه عليها من الغنيمة ﴿ واتقوا الله الذى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ أي: احذروا أن تتعرضوا لشيء مما يوجب العقوبة عليكم، فإن الإيمان الذي أنتم متصفون به يوجب على صاحبه ذلك ﴿ يأَيُّهَا النبى إِذَا جَاءكَ المؤمنات يُبَايِعْنَكَ ﴾ أي: قاصدات لمبايعتك على الإسلام، و ﴿ على أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بالله شَيْئاً ﴾ من الأشياء كائناً ما كان، هذا كان يوم فتح مكة، فإن نساء أهل مكة أتين رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعنه، فأمره الله أن يأخذ عليهنّ ﴿ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ

يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ وهو ما كانت تفعله الجاهلية من وأد البنات ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ أي : لا يلحقن بأزواجهنّ ولداً ليس منهم .

(48/760)

قال الفراء : كانت المرأة تلتقط المولود ، فتقول لزوجها : هذا ولدي منك ، فذلك البهتان المفترى بين أيديهنّ وأرجلهنّ ، وذلك أن الولد إذا وضعته الأمّ سقط بين يديها ورجليها ، وليس المراد هنا أنها تنسب ولدها من الزنا إلى زوجها ، لأن ذلك قد دخل تحت النهي عن الزنا ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ أي : في كل أمر هو طاعة لله .

قال عطاء : في كل برّ وتقوى ، وقال المقاتلان : عنى بالمعروف : النهي عن النوح وتمزيق الثياب ، وجزّ الشعر ، وشقّ الجيب ، وخمش الوجوه ، والدعاء بالويل ، وكذا قال قتادة ، وسعيد بن المسيب ، ومحمد بن السائب ، وزيد بن أسلم ، ومعنى القرآن أوسع مما قالوه .

قيل : ووجه التقييد بالمعروف ، مع كونه صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلاّ به التنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق ﴿ فَبَايِعْهُنَّ ﴾ هذا جواب "إذا" ، والمعنى : إذا بايعنك على هذه الأمور ، فبايعهنّ ، ولم يذكر في بيعتهنّ الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج لوضوح كون هذه الأمور ، ونحوها من أركان الدين ، وشعائر الإسلام ، وإنما خصّ الأمور

المذكورة لكثرة وقوعها من النساء ﴿ واستغفر لَهُنَّ اللَّه ﴾ أي : اطلب من الله المغفرة لهنّ بعد هذه المبايعة لهنّ منك ﴿ إِنَّ اللَّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : بليغ المغفرة والرحمة لعباده .

﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَتَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ اللَّه عَلَيْهِمْ ﴾ هم جميع طوائف الكفر ، وقيل : اليهود خاصة ، وقيل : المنافقون خاصة وقال الحسن : اليهود والنصارى .

(49/760)

والأوّل أولى ؛ لأن جميع طوائف الكفر تتصف بأن الله سبحانه غضب عليها ﴿ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الآخرة ﴾ "من" لابتداء الغاية ، أي : أنهم لا يوقنون بالآخرة ألبتة بسبب كفرهم ﴿ كَمَا يَئِسَ الكفار مِنْ أصحاب القبور ﴾ أي : كيأسهم من بعث موتاهم لاعتقادهم عدم البعث ، وقيل : كما يئس الكفار الذين قد ماتوا منهم من الآخرة ، لأنه قد وقفوا على الحقيقة ، وعلموا أنه لا نصيب لهم في الآخرة ، فتكون "من" على الوجه الأوّل ابتدائية ، وعلى الثاني بيانية ، والأوّل أولى .

وقد أخرج البخاري عن المسور بن مخرمة ، ومروان بن الحكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء مسلمات ، فأنزل الله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا جَاءكُمُ المؤمنات مهاجرات ﴾ حتى بلغ ﴿ وَلاَ تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الكوافر ﴾

فطلق عمر يومئذٍ امرأتين كانتا له في الشرك .

وأخرجه أيضاً من حديثهما بأطول من هذا ، وفيه ، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي عانق ، فجاء أهلها يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجعها إليهم حتى أنزل الله في المؤمنات ما أنزل .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ فامتحنوهن ﴾ قال : كان امتحانهنّ أن يشهدن أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فإذا علموا أن ذلك حقاً منهنّ لم يرجعن إلى الكفار ، وأعطى بعلها في الكفار الذين عقد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم صداقها الذي أصدقها ، وأحلهنّ للمؤمنين إذا آتوهنّ أجورهنّ .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : نزلت سورة الممتحنة بعد ذلك الصلح ، فكان من أسلم من نسائهم ، فسئلت : ما أخرجك ؟ فإن كانت خرجت فراراً من زوجها ، ورغبة عنه ردّت ، وإن كانت خرجت رغبة في الإسلام أمسكت ، وردّ على زوجها مثل ما أنفق .

(50/760)

وأخرج ابن أبي أسامة ، والبزار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الكبير ، وابن مردويه بسندٍ حسن ، كما قال السيوطي عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِذَا

جَاءكُمُ المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾ قال : كان إذا جاءت المرأة النبيّ صلى الله عليه وسلم حلفها عمر بن الخطاب بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، وبالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلاّ حباً لله ورسوله .

وأخرج ابن منيع من طريق الكلبي عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال : أسلم عمر بن الخطاب ، وتأخرت امرأته في المشركين ، فأنزل الله : ﴿ وَلاَ تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الكوافر ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، والترمذي ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿ يأَيُّهَا النبى إِذَا جَاءكَ المؤمنات يُبَايِعْنَكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قد بايعتك كلاماً " ، والله ما مسّت يده يد امرأة قط من المبايعات ، ما بايعهنّ إلاّ بقوله : " قد بايعتك على ذلك "

وأخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وابن سعد ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم في نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئًا حتى بلغ : ﴿ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ فقال : " فيما استطعتن ، وأطقتن " ، فقلنا : الله ، ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله ألا

تصافحنا ؟ قال : " إني لا أصافح النساء ، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة " وفي الباب أحاديث .

(51/760)

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن عبادة بن الصامت قال : كنا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، وقرأ آية النساء ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله ، فهو إلى الله ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له " وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبهتَانٍ يَفْتَرِينَهُ ﴾ قال : كانت الحرة تولد لها الجارية ، فتجعل مكانها غلاماً .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه في الآية .

قال : لا يلحقن بأزواجهنّ غير أولادهم ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ قال : إنما هو شرط شرطه الله للنساء .

وأخرج ابن سعد ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أم سلمة الأنصارية

قالت : قالت امرأة من النسوة ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه ؟ قال : " لا تنحن" ، قلت : يا رسول الله إن بني فلان أسعدوني على عمي ، لا بدّ لي من قضائهن ، فأبى عليّ فعاودته مرارا ، فأذن لي في قضائهنّ ، فلم أنحِ بعد ، ولم يبق من النسوة امرأة إلاّ وقد ناحت غيري .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن أمّ عطية قالت : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ علينا أن لا نشرك بالله شيئًا ، ونهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة منا يدها ، فقالت : يا رسول الله إن فلانة أسعدتني وأنا أريد أن أجزيها ، فلم يقل لها شيئًا .

فذهبت ، ثم رجعت ، فقالت : ما وفت منا امرأة إلاّ أم سليم ، وأمّ العلاء ، وبنت أبي سبرة امرأة معاذ ، أو بنت أبي سبرة ، وامرأة معاذ .

وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن النوح.

(52/760)

وأخرج أبو إسحاق ، وابن المنذر عن ابن عباس قال : كان عبد الله بن عمرو ، وزيد بن الحارث يودّان رجلاً من اليهود ، فأنزل الله : ﴿ يأيُّهَا الذين ءامَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ الآية .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني عن ابن مسعود في قوله : ﴿ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الآخرة ﴾ قال : فلا يؤمنون بها ، ولا يرجونها ، كما يئس الكافر إذا مات ، وعاين ثوابه واطلع عليه .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال : هم الكفار أصحاب القبور الذين يئسوا من الآخرة .

وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : من مات من الذين كفروا ، فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم ، أو يبعثهم الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 215 . 218 ﴾

(53/760)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾

هذه تكملة لامتحان النساء المتقدم ذكره في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾ الآية [الممتحنة : 10] .

وبيان لتفصيل آثاره .

فكأنه يقول : فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهنّ إلى الكفار وبَيِّنُوا لهن شرائع الإِسلام .

وآية الامتحان عقب صلح الحديبية في شأن من هاجرن من مكة إلى المدينة بعد الصلح وهن : أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وسبيعة الأسلمية ، وأميمة بنت بشر ، وزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا صحة للأخبار التي تقول : إن الآية نزلت في فتح مكة ومنشؤها التخليط في الحوادث واشتباه المكرر بالآنف .

روى البخاري ومسلم عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر من المؤمنات بهذه الآية ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ إلى قوله : ﴿ غفور رحيم ﴾ فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله : قد بايعتُكِ .

والمقتضى لهذه البيعة بعد الإِمتحان أنهن دخلن في الإِسلام بعد أن استقرت أحكام الدين في مدة سنين لم يشهدن فيها ما شهده الرجال من اتساع التشريع آناً فآناً ، ولهذا ابتدئت هذه البيعة بالنساء المهاجرات كما يؤذن به قوله : ﴿ إذا جاءك المؤمنات ﴾ ، أي قدمن عليك من مكة فهي على وزان قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ [الممتحنة : 10] .

قال ابن عطية : كانت هذه البيعة ثاني يوم الفتح على جبل الصفا .

وأجرى النبي صلى الله عليه وسلم هذه البيعة على نساء الأنصار أيضاً .

روى البخاري عن أم عطية قالت : بايَعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا ﴿ أن لا يشركن بالله شيئاً ﴾ الحديث .

(54/760)

وفيه عن ابن عباس قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الخطبة فنزل نبي الله فكأني أنظر إليه حين يجلِّس الرجال بيده ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال : ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن ﴾ حتى فرغ من الآية كلها .

ثم قال حين فرغ : أنتُنّ على ذلك فقالت امرأة منهنّ واحدة لم يجبه غيرها : نعم يا رسول الله .

قال : "فتصدقن" .

وأجرى هذه المبايعة على الرجال أيضاً .

ففي "صحيح البخاري" عن عبادة بن الصامت قال : "كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أتبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا ، وقرأ آية النساء (أي النازلة بخطاب النساء في سورة الممتحنة) فمن وفَى منكم فأجره على الله .

ومن أصاب من ذلك شَيَئًا فعوقب به فهو كفارة له .

ومن أصاب منها شيئاً فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له" .

واستمر العمل بهذه المبايعة إلى يوم فتح مكة وقد أسلم أهلها رجالاً ونساء فجلس ثاني يوم الفتح على الصفا يأخذ البيعة من الرجال على ما في هذه الآية ، وجلس عمر بن الخطاب يأخذ البيعة من النساء على ذلك ، وممن بايعته من النساء يومئذٍ هند بنت عتبة زوج أبي سفيان وكبشة بنت رافع .

وجملة ﴿ يبايعنك ﴾ يجوز أن تكون حالاً من ﴿ المؤمنات ﴾ على معنى : يُردن المبايعة وهي المذكورة في هذه الآية .

وجواب ﴿ إذا ﴾ ﴿ فبايعهن ﴾ .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ يبايعنك ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ .

ومعنى ﴿ إذا جاءك المؤمنات ﴾ ، أي الداخلات في جماعة المؤمنين على الجملة والإِجمال ، لا يعلمن أصولَ الإِسلام وبيّنه بقوله : ﴿ يبايعنك ﴾ فهو خبر مراد به الأمر ، أي فليبايعنك وتكون جملة ﴿ فبايعهن ﴾ تفريعاً لجملة ﴿ يبايعنك ﴾ وليبنى عليها قوله : ﴿ واستغفر لهن الله ﴾ .

وقد شملت الآية التخلي عن خصال في الجاهلية وكانت السرقة فيهن أكثر منها في الرجال .

قال الأعرابي لما وَلدت زوجهُ بنتاً : والله ما هي بنعْمَ الولدُ بَزّها بكاء ونَصرُها سرقة .

والمراد بقتل الأولاد أمران : أحدهما الوأد الذي كان يفعله أهل الجاهلية ببناتهم ، وثانيهما إسقاط الأجنة وهو الإجهاض .

وأسند القتل إلى النساء وإن كان بعضه يفعله الرجال لأن النساء كنّ يرضين به أو يَسكتن عليه .

والبهتان : الخبر المكذوب الذي لا شبهة لكاذبه فيه لأنه يبهت من ينقل عنه .

والافتراء : اختلاق الكذب ، أي لا يختلقن أخباراً بأشياء لم تقع .

وقوله : ﴿ بين أيديهن وأرجلهن ﴾ يتعلق بـ ﴿ يأتين ﴾ ، وهذا من الكلام الجامع لمعان كثيرة باختلاف محامله من حقيقة ومجاز وكناية ، فالبهتان حقيقته : الإخبار بالكذب وهو مصدر .

ويطلق المصدر على اسم المفعول كالخلق بمعنى المخلوق .

وحقيقة بين الأيدي والأرجل : أن يكون الكذب حاصلاً في مكان يتوسط الأيدي والأرجل فإن كان البهتان على حقيقته وهو الخبر الكاذب كان افتراؤه بين أيديهن وأرجلهن أنه كَذب مواجهةً في وجه المكذوب عليه كقولها : يا فلانة زنيت مع فلان ، أو سرقتِ حلي فلانة . لتبهتها في ملأٍ من الناس ، أو أنت بنت زنِا ، أو نحو ذلك .

وإن كان البهتان بمعنى المكذوب كان معنى افترائه بين أيديهن وأرجلهن كناية عن ادعاء الحمل بأن تشرب ما ينفخ بطنها فتوهم زوجها أنها حامل ثم تظهر الطلق وتأتي بولد تلتقطه وتنسبه إلى زوجها لئلا يطلقها ، أو لئلا يرثه عصبته ، فهي تعظم بطنها وهو بين يديها ، ثم إذا وصل إبان إظهار الطلق وضعت الطفل بين رجليها وتحدثتْ وتحدث الناس بذلك فهو مبهوت عليه .

فالافتراء هو ادعاؤها ذلك تأكيداً لمعنى البهتان .

وإن كان البهتان مستعاراً للباطل الشبيه بالخبرِ البهتانِ ، كان ﴿ بين أيديهن وأرجلهن ﴾ محتملاً للكناية عن تمكين المرأة نفسها من غير زوجها يقبلها أو يحبسها ، فذلك بين يديها أو يزني بها ، وذلك بين أرجلها .

(56/760)

وفسره أبو مسلم الأصفهاني بالسحر إذ تعالج أموره بيديها ، وهي جالسة تضع أشياء السحر بين رجليها .

ولا يمنع من هذه المحامل أن النبي صلى الله عليه وسلم بايع الرجال بمثلها .

وبعض هذه المحامل لا يتصور في الرجال إذ يؤخذ لكل صنف ما يصلح له منها .

وبعد تخصيص هذه المنهيات بالذكر لخطر شأنها عمم النهي بقوله : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ والمعروف هو ما لا تنكره النفوس .

والمراد هنا المعروف في الدين ، فالتقييد به إما لمجرد الكشف فإن النبي صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا بالمعروف ، وإما لقصد التوسعة عليهن في أمر لا يتعلق بالدين كما فعلتْ بريرة إذْ لم تقبل شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في إرجاعها زوجَها مُغيثاً إذ بانت منه بسبب عتقها وهو رقيق .

وقد روي في "الصحيح" عن أمّ عطية أن النبي صلى الله عليه وسلم نهاهنّ في هذه المبايعة عن النياحة فقبضت امرأةٌ يدها وقالت : أسعدَتْني فلانة أُريد أن أَجزيها .

فما قال لها النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً فانطلقتْ ورجعت فبايَعها .

وإنما هذا مثال لبعض المعروف الذي يأمرهن به النبي صلى الله عليه وسلم تركه فاش فيهن .

وورد في أَخبار أنه نهاهن عن تَبرج الجاهلية وعن أن يُحدثن الرجال الذين ليسوا بمحرم فقال عبد الرحمان بن عوف : يا نبيء الله إن لنا أضيافاً وإنا نغيب ، قال رسول الله : ليس أولئك عنيتُ .

وعن ابن عباس : نهاهنّ عن تمزيق الثياب وخدش الوجوه وتقطيع الشعور والدعاء بالويل والثبور ، أي من شؤون النياحة في الجاهلية .

وروى الطبري بسنده إلى ابن عباس لَمَّا أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم البيعة على النساء كانت هندُ بنتُ عتبةَ زوجُ أبي سفيان جالسة مع النساء متنكرة خوفاً من رسول الله أن يقتصَّ منها على شَقها بطن حمزة وإخراجها كبدَه يوم أُحد .

فلما قال : ﴿ على أن لا يشركن بالله شيئاً ﴾ ، قالت هند : وكيف نطمع أن يَقبل منا شيئاً لم يقبله من الرجال .

فلما قال : ﴿ ولا يسرقن ﴾ .

(57/760)

قالت هند : والله إني لأُصيب من مَالِ أبي سفيان هَنات فما أدري أتحل لي أم لا ؟ فقال : أبو سفيان : ما أصبتِ من شيء فيما مضى وفيما غَبَر فهو لكِ حلال .

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعَرَفها فدعاها فأتته فعاذت به ، وقالت : فاعفُ عما سلف يا نبي ء الله عفا الله عنك .

فقال : ﴿ ولا يَزْنِين ﴾ .

فقالت : أَوَ تزني الحُرّة .

قال : ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ .

فقالت هند : ربيْناهم صغاراً وقتلتهم كباراً فأنتم وهم أعلم .

تريد أن المسلمين قتلوا ابنها حنظلة بن أبي سفيان يوم بدر .

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه ﴾ .

فقالت : والله إن البهتان لأمرٌ قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق .

فقال : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ .

فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيَك في شيء .

فقوله : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ جامع لكل ما يخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر به مما يرجع إلى واجبات الإِسلام .

وفي الحديث عن أم عطية قالت : كان من ذلك : أن لا ننوح .

قالت : فقلت يا رسول الله إلا آل فلان فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية فلا بدّ أن أَسعدهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ آل فلان ، وهذه رخصة خاصة بأم عطية ومن سَمَّتهم .

وفي يوم معيّن .

وقوله : ﴿ فبايعهن ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ تفريع على ﴿ يبايعنك ﴾ ، أي فأقبل منهنّ ما بايعنك عليه لأن البيعة عنده من جانبين ولذلك صيغت لها صيغة المفاعلة .

﴿ واستغفر لهن الله ﴾ ، أي فيما فرط منهنّ في الجاهلية مما خص بالنهي في شروط البيعة وغير ذلك.

ولذلك حذف المفعول الثاني لفعل ﴿ استغفر ﴾ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (13)

(58/760)

بعد أن استقصت السورة إرشاد المسلمين إلى ما يجب في المعاملة مع المشركين ، جاء في خاتمتها الإرشاد إلى المعاملة مع قوم ليسوا دون المشركين في وجوب الحذر منهم وهم اليهود ، فالمراد بهم غير المشركين إذ شُبه يأسهم من الآخرة بيأس الكفار ، فتعين أن هؤلاء غير المشركين لئلا يكون من تشبيه الشيء بنفسه .

وقد نعتهم الله بأنهم قوم غَضب الله عليهم ، وهذه صفة تكرر في القرآن إلحاقها باليهود كما جاء في سورة الفاتحة أنهم المغضوب عليهم .

فتكون هذه الآية مثلَ قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزؤاً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ﴾ في سورة [العقود : 57

.[

ذلك أن يهود خيبر كانوا يومئذٍ بجوار المسلمين من أهل المدينة .

وذكر الواحدي في أسباب النزول ﴿ : أنها نزلت في ناس من فقراء المسلمين يعملون عند اليهود ويواصلونهم ليصيبوا بذلك من ثمارهم ، وربما أخبروا اليهودَ بأحوال المسلمين عن غفلة وقِلة حذر فنبههم الله إلى أن لا يتولوهم .

واليَأس : عدم توقع الشيء فإذا علق بذاتٍ كان دالاً على عدم توقع وجودها .

وإذ قد كان اليهود لا ينكرون الدار الآخرة كان معنى يأسهم من الآخرة محتمِلاً أن يراد به الإِعراضُ عن العمل للآخرة فكأنهم في إهمال الاستعداد لها آيسُون منها ، وهذا في معنى قوله تعالى في شأنهم : ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ في سورة [البقرة : 86] .

وتشبيه إعراضهم هذا بيأس الكفار من أصحاب القبور وجهه شدة الإِعراض وعدم التفكر في الأمر ، شُبه إعراضهم عن العمل لنفع الآخرة بيأس الكفار من حياة الموتى والبعثِ وفيه تشنيع المشبه ، ومِن أصحاب القبور ﴾ على هذا الوجه متعلق بـ ﴿ يئسوا ﴾ .

و﴿ الكفار ﴾ : المشركون .

ويجوز أن يكون ﴿ من أصحاب القبور ﴾ بياناً للكفار، أي الكفار الذين هلكوا ورأوا أن لا حظّ لهم في خير الآخرة فشبه إعراض اليهود عن الآخرة بيأس الكفار من نعيم الآخرة، ووجه الشبه تحقق عدم الانتفاع بالآخرة.

والمعنى كيأس الكفار الأمواتِ، أي يأساً من الآخرة.

والمشبه به معلوم للمسلمين بالاعتقاد فالكلام من تشبيه المحسوس بالمعقول.

وفي استعارة اليأس للإِعراض ضرب من المشاكلة أيضاً.

ويحتمل أن يكون يأسهم من الآخرة أطلق على حرمانهم من نعيم الحياة الآخرة.

فالمعنى: قد أيأسناهم من الآخرة على نحو قوله تعالى: ﴿ والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي ﴾ في سورة [العنكبوت: 23].

ومن المفسرين الأولين من حمل هذه الآية على معنى التأكيد لما في أول السورة من قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ [الممتحنة: 1] فالقوم الذين غَضَبَ الله عليهم هم المشركون فإنهم وُصفوا بالعدوِّ لله والعدوُّ مغضوب عليه ونسب هذا إلى ابن عباس.

وجعل يأسهم من الآخرة هو إنكارهم البعث.

وجعل تشبيه يأسهم من الآخرة بيأس الكفار من أصحاب القبور أن يأس الكفار الأحياء

كيأس الأموات من الكفار ، أي كيأس أسلافهم الذين هم في القبور إذ كانوا في مدة حياتهم آيسين من الآخرة فتكون ﴿ مِن ﴾ بيانية صفة للكفار ، وليست متعلقة بفعل ﴿ يئس ﴾ فليس في لفظ ﴿ الكفار ﴾ إظهار في مقام الإضمار وإلاّ لزم أن يشبه الشيء بنفسه كما قد توهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(60/760)

وقال الشيخ الصابونى فى الآيات السابقة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾

سورة الممتحنة

[1] التزاوج بين المسلمين والمشركين

﴿ مهاجرات ﴾ : أي من دار الكفر ، والهجرة في اللغة : الخروج من أرض إلى أرض ، وفي الشرع : الانتقال من دار الكفر إلى دار الإيمان ، وفي الحديث : "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية" المراد بعد فتح مكة ، حيث أصبحت دار إسلام كالمدينة وانقطعت الهجرة .

قال الأزهري : وأصل الهجرة عند العرب خروج البدوي من باديته إلى المدن ، وسمي

المهاجرون ومهاجرين لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم ابتغاء مرضاة الله ، ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال .

﴿ فامتحنوهن ﴾ : الامتحان في اللغة الاختبار ، والمراد اختبارهن على الإيمان ، بما يغلب على الظن ، أما حقيقة الإيمان فلا يمكن أن تعلم ، لأنه لا يطلع على القلوب إلا علام الغيوب ، فلنا الظاهر والله سبحانه يتولى السرائر ، ويدل عليه قوله : ﴿ الله أعلم بإيمانهن ﴾ .

﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ : يعني أعطوا أزواجهن الكفار مثل ما دفعوا إليهن من المهور .

قال مقاتل : هذا إذا تزوجها مسلم ، فإن لم يتزوجها أحد ، فليس لزوجها الكافر شيء .

وقال قتادة : الحكم في رد الصداق إنما هو في نساء أهل العهد ، فأما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يرد إليه الصداق ، قال القرطبي : والأمر كما قاله .

﴿ أجورهن ﴾ : يعني مهورهن ، وسمي المهر أجرا لأنه في الظاهر أجر البضع ، وأما في الحقيقة فهو بذل وعطية لإظهار خطر المحل وشرفه ، كما تقدم .

﴿ بعصم الكوافر ﴾ : جمع عصمة ، وهي ما يعتصم به من عهد وسبب ، وأصل العصمة : الحبل ، وكل ما أمسك شيئًا فقد عصمه ، والمراد بالعصمة هنا النكاح ، والكوافر : جمع كافرة .

والمعنى : لا تعتدوا بنكاح زوجاتكم الكافرات فقد انقطعت العلاقة بينكم وبينهن .

قال ابن عباس : " من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدن بها ، فليست له امرأة ، فقد انقطعت عصمتها لاختلاف الدارين .

قال الزجاج : إنها إذا كفرت فقد زالت العصمة بينها وبين المؤمن أي قد انبت عقد النكاح .

﴿ واسألوا ما أنفقتم ﴾ : أي إن لحقت امرأة منكم بأهل العهد من الكفار مرتدة ، فاسألوهم ما أنفقتم من المهر على نسائكم اللاحقات بهم .

﴿ وليسألوا ما أنفقوا ﴾ : يعني المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم مؤمنات إذا تزوجن منكم ، فليسأل أزواجهن المهر .

والمعنى : عليكم أن تغرموا لهم الصداق كما يغرمون لكم .

﴿ فاتكم ﴾ : سبقكم وانفلت من أيديكم .

﴿ فعاقبتم ﴾ : قال الزجاج : أي أصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم منهم .

﴿ ببهتان ﴾ : البهتان : الكذب والباطل ، والافتراء الذي يتحير من بطلانه ، ومنه حديث (فقد بهته) أي افتريت عليه ما لم يقله .

والمراد به في الآية : اللقيط .

قال ابن عباس : لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم .

وقال الفراء : كانت المرأة في الجاهلية تلتقط المولود فتقول : هذا ولدي منك ، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن .

وهو قول الجمهور .

﴿ معروف ﴾ : المعروف : ما يستحسنه الشرع ، وترتضيه العقول السليمة وهو ضد المنكر .

﴿ لا تتولوا قوما ﴾ : أي لا تتخذوهم أصدقاء ، وأولياء ، تودوهم من دون المؤمنين ، والمراد بالقوم اليهود ، أو جميع الكفرة .

﴿ يئسوا من الآخرة ﴾ : أي يئسوا من ثواب الآخرة ، واليأس : انقطاع الأمل من الشيء ، وهو ضد الرجاء .

المعنى الإجمالي

يقول الله تعالى ما معناه : يا أيها المؤمنون إذا جاءكم المؤمنات المهاجرات من دار الكفر إلى دار الإيمان ، فرارا بدينهن ، وحبا في الله ورسوله ، فاختبروهن على هذا الإيمان ، لتعلموا هل هن راغبات في الإسلام حقا ؟ أم أنهن هاربات من أزواجهن طمعا في دنيا ، أو حبا لرجل ، فإذا علمتم – أيها المؤمنون – بالدلائل والأمارات أنهن مؤمنات ، فلا يحل لكم ردهن إلى الكفار ، لأن الله تعالى لا يبيح مؤمنة لمشرك ، وعليكم أن تدفعوا لأزواجهن الكفرة ما أنفقوا عليهن من مهر ، ولا حرج عليكم أن تتزوجوا بهن بصداق جديد ، بعد أن تؤدوا لهن حقوقهن كاملة .

من كانت له امرأة كافرة لم تهاجر مع زوجها ، فلا يعتد بهذه الزوجة ، فقد زالت عصمة النكاح بينهما بسبب الكفر ، وانبت عقد النكاح ، لأن الإسلام لا يبيح الزواج بالمشركة ، ومن ارتدت بعد إسلامها ولحقت بدار الكفر ، فعاملوها معاملة المشركة ، فقد زال النكاح وانفصمت الروابط الزوجية بالردة ، وأصبحت غير صالحة لأن تبقى في عصمة المؤمن ، ولكم أن تطالبوهم بما دفعتم من مهور نسائكم اللاحقات بالكفار ، كما يطالبونكم بمهور أزواجهم المهاجرات إليكم .

ذلكم هو حكم الله الذي شرعه لكم ، فلا تحيدوا عنه ولا تعتدوا بغيره ، لأن الله عليم حكيم ، لا يشرع إلا ما تقتضيه الحكمة البالغة .

وإن انفلت منكم – أيها المؤمنون – بعض النساء ، ولم يدفع لكم المشركون ما تستحقونه من

مهورهن ، وأصبتموهم في القتال ، وغنمتم منهم ، فأعطوا الأزواج من رأس الغنيمة ما أنفقوا من المهر قصاصا ، واتقوا الله الذي صدقتم به ، وآمنتم بتشريعه الحكيم العادل .

(63/760)

وأما أنت - يا محمد - فإذا جاءك المؤمنات للبيعة ، فبايعهن على السمع والطاعة ، واشرط عليهن ألا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يئدن أولادهم ، كما كان يفعل أهل الجاهلية ولا يلحقن بأزواجهن لقيطا من غير أولادهم ، ولا يعصينك في طاعة أو معروف ، فإذا وافقن على هذه الشروط فبايعهن على ذلك ، وعلى سائر أحكام الإسلام ، واطلب لهن من الله الرحمة والمغفرة ، إذا وفين بالبيعة ، فإن الله غفور رحيم ، مبالغ في المغفرة والرحمة لمن استقام وتاب وأناب .

سبب النزول

أولا : روي عن ابن عباس أنه قال : إن مشركي مكة صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية ، على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم ، ومن أتى أهل مكة من أصحابه فهو لهم ، وكتبوا بذلك الكتاب وختموه ، فجاءت (سبيعة بنت الحارث الأسلمية) بعد الفراغ من الكتاب ، والنبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية ، فأقبل زوجها - وكان

كافرا – فقال يا محمد : أردد علي امرأتي ، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا ، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد ، فنزلت هذه الآية الكريمة .

أقول : ذكر في هذه الرواية أنها (سبيعة) والمشهور عند المفسرين أنها (أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط) كما نبه عليه القرطبي وابن الجوزي وغيرهما .

ثانيا : وروي أن ناسا من فقراء المسلمين ، كانوا يخبرون اليهود بأخبار المؤمنين ، ويواصلونهم فيصيبون بذلك من ثمارهم وطعامهم فنزلت الآية ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم . . . ﴾ الآية .

وجوه القراءات

أولا : قوله تعالى : ﴿ إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ قرأ الجمهور ﴿ مهاجرات ﴾ بالنصب على الحال ، وقرئ ﴿ مهاجرات ﴾ بالرفع على البدل من المؤمنات ، فكأنه قيل : إذا جاءكم مهاجرات .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ قرأ الجمهور ﴿ تمسكوا ﴾ بضم التاء والتخفيف من الإمساك ، وقرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿ تمسكوا ﴾ بضم التاء

والتشديد من التمسيك ، وقرأ عكرمة والحسن ﴿ تمسكوا ﴾ بفتح التاء والميم والسين المشددة .

ثالثا : قوله تعالى : ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم ﴾ قرأ الجمهور ﴿ فعاقبتم ﴾ وقرأ ابن مسعود والنخعي ﴿ فعقبتم ﴾ بغير ألف وبالتخفيف وقرأ ابن عباس والأعمش ﴿ فعقبتم ﴾ بتشديد القاف .

قال الزجاج : والمعنى في التشديد والتخفيف واحد ، أي كانت العقبى لكم بأن غلبتم ، وقرأ مجاهد ﴿ فأعقبتم ﴾ .

وجوه الإعراب

1- قوله تعالى : ﴿ إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ . مهاجرات : حال منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم .

2- قوله تعالى : ﴿ الله أعلم بإيمانهن ﴾ لفظ الجلالة مبتدأ ، وأفعل التفضيل (أعلم) خبره ، والجملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب .

3- قوله تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن ﴾ أن : في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر أي منصوب بنزع الخافض ، والتقدير : ولا جناح عليكم في أن تنكحوهن .

4- قوله تعالى : ﴿ ولا يأتين ببهتان ﴾ : يفترينه ؛ جملة فعلية وفي موضعها وجهان من

الإعراب : النصب على الحال من المضمر في (يأتين) والجر على الوصف ل (بهتان) .

5- قوله تعالى : ﴿ كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ من أصحاب القبور في موضع نصب لأنه يتعلق ب (يئس) وتقديره : يئسوا من بعث أصحاب القبور ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : ما الفائدة في امتحان المهاجرات مع أنهن مؤمنات ؟

الجواب : أن الامتحان إنما هو لمعرفة سبب الهجرة ، هل كان حبا في الله ورسوله ، أم كان من أجل الدنيا ؟

قال ابن زيد : وإنما أمرنا بامتحانهن ، لأن المرأة إذا غضبت على زوجها بمكة قالت : لألحقن بمحمد .

وقد روي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستحلف المرأة فيقول : " بالله الذي لا إله إلا هو ، ما خرجت من بغض زوج ! بالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ! بالله ما خرجت التماس دنيا ! بالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله ! فإذا حلفت

على ذلك أعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها " .

اللطيفة الثانية : السر في ذكر هذه الجملة الاعتراضية (الله أعلم بإيمانهن) هو بيان أنه يكفي لنا العلم الظاهر ، أما العلم الحقيقي الذي تطمئن به النفس وهو الإحاطة بجلية الأمر ، ومعرفة حقيقة الإيمان فإن ذلك مما استأثر به علام الغيوب ، فنحن لنا الظاهر ، والله يتولى السرائر فسبحانه من إله عليم ، يعلم السر وأخفى ! !

اللطيفة الثالثة : الحكمة في عدم رد المهاجرات هي أن النساء أرق قلوبا ، وأسرع تقلبا ، وأشد فتنة من الرجال ، لأنه لا صبر لهن على تحمل البلاء والأذى في سبيل الله ، فرحم الله ضعفهن ، ومنع من ردهن إلى الكفرة المشركين .

اللطيفة الرابعة : أمر الله تعالى برد المهر على الزوج الكافر إذا أسلمت زوجته ، وذلك من الوفاء بالعهد الذي رعاه الإسلام .

قال القرطبي : وذلك لئلا يقع على الزوج خسران من الوجهين : (الزوجة ، والمال) ، لأنه لما منع من أهله بحرمة الإسلام ، أمر برد المال إليه وذلك من الوفاء بالعهد .

اللطيفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ فيه إشارة إلى أنه لا صلة بين الإيمان والكفر ، فإذا أسلمت الزوجة وزوجها كافر حرمت عليه لعدم التجانس بينهما ، فهي مؤمنة وهو كافر ، وقد قطعت العلاقة بينهما ، وهذا يدل على أن رابطة (العقيدة) أقوى من رابطة (النسب) فتدبره .

اللطيفة السادسة : روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أخذ البيعة على النساء كانت (هند بنت عتبة) في النساء المبايعات وهي زوجة (أبي سفيان) وكانت منتقبة خوفا من أن يعرفها النبي صلى الله عليه وسلم لما صنعته بحمزة يوم أحد . . . فلما قرأ قوله تعالى : ﴿ ولا يسرقن ﴾ قالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح ، وإني أصيب من ماله قوتنا ، فقال أبو سفيان : هو لك حلال ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وعرفها ، وقال أنت هند ؟ فقالت : عفا الله عما سلف ، أعف يا نبي الله عفا الله عنك ! !

فلما قرأ : ﴿ ولا يزنين ﴾ قالت هند : أوتزني الحرة ؟

فلما قرأ : ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ قالت هند : ربيناهم صغارا ، وقتلتموهم كبارا ، فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى . . . وكان حنظلة ولدها قتل يوم بدر .

فلما قرأ : ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ قالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، ولا تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق .

فلما قرأ : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ قالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء ؟ !

اللطيفة السابعة : قال الفراء : كانت المرأة في الجاهلية تلتقط المولود فتقول لزوجها : هذا ولدي منك ، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن .

وقال الزمخشري : "كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها ، عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذبا ، لأن (بطنها) الذي تحمله فيه بين اليدين ، و (فرجها) الذي تلده به بين الرجلين ، وقيل : كنى بذلك عن الولد الدعي (غير الشرعي) فنهين عن ذلك لأنه من شعار الجاهلية ، المنافي لشعار المسلمات " .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل كان عقد الصلح يشمل الرجال والنساء ؟

كان صلح الحديبية الذي تم بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين مشركي قريش ، قد نص على أن من أتى محمدا من قريش رده عليهم ، ومن جاء قريشا من عند محمد لم يردوه عليه ، وقد جاءت (أم كلثوم بنت عقبة) بعد أن كتب عقد الصلح مهاجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء أهلها يطلبونها فقالت يا رسول الله : أنا امرأة ، وحال النساء إلى الضعف ما قد علمت ، فتردني إلى الكفار يفتنوني عن ديني ، ولا صبر لي ؟ ! فقال صلى

الله عليه وسلم لأهلها : كان الشرط في الرجال لا في النساء ، فأنزل الله هذه الآية فامتحنها صلى الله عليه وسلم ولم يردها إليهم .

قال القرطبي : وقد اختلف العلماء هل دخل النساء في عقد المهادنة لفظا ، أو عموما ؟

فقالت طائفة : قد كان شرط ردهن في عقد المهادنة لفظا صريحا ، فنسخ الله ردهن من العقد ، ومنع منه ، وبقاه في الرجال على ما كان .

وقالت طائفة : لم يشترط ردهن في العقد لفظا ، وإنما أطلق العقد في رد من أسلم ، فكان ظاهر العموم اشتماله عليهن من الرجال ، فبين الله تعالى خروجهن عن عمومه ، وفرق بينهن وبين الرجال لأمرين :

أحدهما : أنهن ذوات فروج يحرمن عليهم .

الثاني : أنهن أرق قلوبا ، وأسرع تقلبا منهم ، فأما المقيمة على شركها فمردوده عليهم .

ثم قال : وأكثر العلماء على أن هذا ناسخ لما كان عليه الصلاة والسلام عاهد عليه قريشا ، من أنه يرد إليهم من جاء منهم مسلما ، فنسخ من ذلك النساء ، وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن .

أقول : ذكر الإمام الفخر نقلا عن (الضحاك) أن العهد كان على غير الصيغة المتقدمة ، وأنه كان يشتمل على نص خاص بالنساء صورته كالتالي :

(لا تأتيك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا ، فإن دخلت في دينك ولها زوج رددت على زوجها ما أنفق عليها ، وللنبي صلى الله عليه وسلم من الشرط مثل ذلك) .

(68/760)

وعلى هذا الرأي تكون الآية موافقة للعهد ، مقررة له ، وهذا الذي تطمئن إليه النفس وترتاح ، وما عداه من الأقوال فيحتاج إلى تمحيص وتدقيق ، لأنها تنافي روح التشريع الإسلامي ، من جهة أن الوفاء بالعهد واجب على المسلمين ، ولا ينبغي لأحد الطرفين أن يستبد بتخصيص نصوصه أو إلغائها دون موافقة الطرف الثاني ، فما ذهب إليه الضحاك هو الأولى .

يقول سيد قطب رحمه الله : " ويظهر أن النص لم يكن قاطعا في موضوع النساء ، فنزلت هاتان الآيتان تمنعان رد المهاجرات المؤمنات إلى الكفار ، خشية أن يفتن في دينهن وهن ضعاف ، ونزلت أحكام هذه الحالة الدولية معها ، تنظم التعامل فيها على أعدل قاعدة تتحرى العدل في ذاته ، دون تأثر بسلوك الفريق الآخر ، وما فيها على أعدل قاعدة تتحرى العدل في ذاته ، دون تأثر بسلوك الفريق الآخر ، وما فيها من شطط وجور ، على طريقة الإسلام في كل معاملاته الداخلية والدولية " .

الحكم الثاني : ما هو حكم المشركة إذا خرجت إلينا مسلمة ؟

دل قوله تعالى : ﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ على أن المرأة إذا أسلمت وقعت الفرقة بينها وبين زوجها ، فلا تحل له ، ولا يحل لها .

وقد اختلف الفقهاء هل تحصل الفرقة بالإسلام ، أم باختلاف الدارين ؟ على مذهبين :

أ- مذهب أبي حنيفة : أن الفرقة تقع باختلاف الدارين .

ب- مذهب الجمهور (الشافعية والمالكية والحنابلة) : أن الفرقة تقع بالإسلام وذلك عند انتهاء عدتها ، فإن أسلم الزوج قبل انتهاء عدتها فهي امرأته .

دليل الحنفية :

أ- قوله تعالى : ﴿ فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ فلو كانت الزوجية باقية لكان الزوج أولى بها بأن تكون معه حيث أراد .

ب- قوله تعالى : ﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ قالوا : ولو كانت الزوجية باقية لما استحق الزوج رد المهر ، لأنه لا يجوز أن يستحق البضع وبدله .

ج- قوله تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن ﴾ ولو كان النكاح الأول باقيا لما جاز لأحد أن يتزوج بها .

د- قوله تعالى : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ لأن معناه عندهم : لا تتمسكوا بعصمة الكافرة ، ولا تعتدوا بها ، ولا تمنعكم من التزوج بها .

ه- وقالوا أيضا : لقد اتفق الفقهاء على جواز وطء (المسبية) بعد الاستبراء ، وإن كان لها زوج في دار الحرب ، ولا سبب يبيح هذا إلا اختلاف الدار ، وقد قال صلى الله عليه وسلم في السبايا : "لا توطأ حامل حتى تضع ، ولا حائل حتى تستبرأ بحيضه" .

أدلة الجمهور :

أ- قالوا : إن سبب الفرقة هو الإسلام ، لأنها لم تعد صالحة لأن تكون فراشا لكافر ، ولو كان اختلاف الدار هو سبب الفرقة ، لوجب أن تحصل الفرقة بمجيء المشركة إلينا ودخولها بعهد أمان ولو لم تسلم ، ولم يقل به أحد .

ب- ما روي عن مجاهد أنه قال : "إذا أسلم الكافر وهي في العدة فهي امرأته ، وإن لم يسلم فرق بينهما" .

ج- ما روي عن ابن عباس أنه قال : (رد النبي صلى الله عليه وسلم ابنته زينب على (أبي العاص بن الربيع) بالنكاح الأول ، وقد كانت زينب هاجرت إلى المدينة وبقي زوجها بمكة مشركا ، ثم ردها عليه بعد إسلامه) .

قال القرطبي : "قوله تعالى : ﴿ فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن

﴾ أي لم يحل الله مؤمنة لكافر ، ولا نكاح مؤمن لمشركة .

وهذا أدل دليل على أن الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامها لا هجرتها ، فبين أن العلة عدم الحل بالإسلام ، وليس باختلاف الدار " .

والخلاصة : فإن الحنفية يقولون : إن أحد الزوجين إذا خرج من دار الحرب مسلما وبقي الآخر حربيا فقد وقعت الفرقة بينهما ، ولا يرون العدة على المهاجرة ، ويبيحون نكاحها من غير عدة إلا أن تكون حاملا ، عملا بالآية الكريمة ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن ﴾ حيث لم تلزمها العدة ، وقد بانت من زوجها بمجرد الهجرة .

والجمهور يقولون : لا تقع الفرقة إلا بإسلامها ، وأما بمجرد الخروج فلا ، فإن أسلمت قبل أن يدخل بها زوجها تنجزت الفرقة وبانت منه لأنه لا عدة عليها ، وإن أسلمت بعد الدخول بها توقفت إلى انقضاء العدة ، فإن أسلم قبل انقضاء العدة فهي زوجته ، وإلا بانت منه .

وحجتهم في ذلك : الأدلة التي سبقت وما روي أن (أبا سفيان) أسلم قبل زوجته (هند بنت عتبة) ثم أسلمت بعده بأيام فاستقرا على نكاحهما لأن عدتها لم تكن قد انقضت .

وقد بسطنا لك أدلة الفريقين بإيجاز ، وتتمة البحث بالتفصيل يرجع إليها في كتب الفقه والله

الموفق والهادي .

الحكم الثالث : هل يجوز الزواج بالمشركة الوثنية ؟

دل قوله تعالى : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ على حرمة النكاح بالكافرة المشركة ، لأن معنى الآية : ولا تمسكوا بعصم نسائكم المشركات أي لا تعتدوا بنكاحهن فإنه باطل .

كما دل قوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾ [البقرة : 221] على حرمة نكاح المشركة ، وقد اتفق العلماء على أن هذه الآيات خاصة بالمشركات من غير أهل الكتاب ، لأن الكتابيات يجوز الزواج بهن لقوله تعالى : ﴿ والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم . . . ﴾ [المائدة : 5] الآية .

قال ابن المنذر : ولا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم نكاح الكتابيات .

أقول : أجمع الفقهاء على حرمة الزواج بالمشركة – وهي التي لا تدين بدين سماوي – وعلى جواز النكاح بالنصرانية أو اليهودية من أهل الكتاب للنص السابق ، اللهم إلا ما روي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا سئل عن زواج الرجل بالنصرانية أو اليهودية قال :

" حرم الله المشركات على المؤمنين ، وأعرف شيئًا من الإشراك أعظم من أن تقول المرأة : ربها عيسى ، أو عبد من عباد الله " .

وهذا القول : من عبد الله بن عمر محمول على (الكراهة) لا على (التحريم) ، لأن النص صريح بالحل ، ولعله خشي الفتنة على الرجل في دينه ، أو خشي على الأولاد من التنصر فكرهه لذلك والله أعلم .

الحكم الرابع : كيف كانت بيعة النبي صلى الله عليه وسلم للنساء ؟

بايع النبي صلى الله عليه وسلم النساء بعد أن فتح مكة ، وكانت بيعته لهن بالشرائط المذكورة في هذه الآية : ﴿ يا أَيُّهَا النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئًا .

. . ﴾ .

وقد صح في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصافح في البيعة امرأة ، وإنما بايعهن بالكلام ، ودل ذلك على حرمة مصافحة النساء .

وقد كانت بيعة الرجال أن يضع الرجل يده في يد الرسول صلى الله عليه وسلم ويبايعه على الإسلام والجهاد ، والسمع والطاعة ، وأما النساء فلم يثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه صافح امرأة ، ولا وضع يده في يدها ، إنما كانت البيعة بالكلام فقط ، ويدل عليه ما يلي :

النصوص الشرعية الدالة على حرمة المصافحة

أولا : روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : "كان صلى الله عليه وسلم

يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ، بقول الله تعالى ﴿ يا أَيُّهَا النبي إذا جاءك المؤمنات . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ غفور رحيم ﴾ قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد بايعتك كلاما ، والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة ، ما يبايعهن إلا بقوله : " قد بايعتك على ذلك " .

ثانيا : روي الإمام أحمد عن (أميمة بنت رقيقة) قالت : " أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما في القرآن : أن لا نشرك بالله شيئًا . . . الآية وقال : " فيما استطعتن وأطقتن " قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا .

قلنا يا رسول الله : ألا تصافحنا ؟ قال : " إني لا أصافح النساء ، إنما قول لامرأة واحدة قولي لمائة امرأة " .

(72/760)

ثالثا : وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها بعد أن ذكرت البيعة قالت : " وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقررن بذلك من قولهن ، قال لهن : " انطلقن فقد بايعتكن " ولا والله ما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة قط ، غير أنه بايعهن بالكلام ، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن : " قد بايعتكن كلاما " .

قال الحافظ ابن حجر : قوله : " قد بايعتك كلاما " أي يقول ذلك كلاما فقط ، لا مصافحة باليد ، كما جرت العادة بمصافحة الرجال عند المبايعة .

أقول : الروايات كلها تشير إلى أن البيعة كانت بالكلام ، ولم يثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه صافح النساء في بيعة أو غيرها ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يمتنع عن مصافحة النساء مع أنه المعصوم فإنما هو تعليم للأمة وإرشاد لها لسلوك طريق الاستقامة ، وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الطاهر ، الفاضل ، الشريف ، الذي لا يشك إنسان في نزاهته وطهارته ، وسلامة قلبه ، لا يصافح النساء ، ويكتفي بالكلام في مبايعتهن ، مع أن أمر البيعة أمر عظيم الشأن ، فكيف يباح لغيره من الرجال مصافحة النساء ، مع أن الشهوة فيهم غالبة ؟ والفتنة غير مأمونة ، والشيطان يجري فيهم مجرى الدم ؟ !

وكيف يزعم بعض الناس أن مصافحة النساء غير محرمة في الشريعة الإسلامية ؟ !

﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ [النور : 16] !

الحكم الخامس : ما المراد من قوله تعالى : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ ؟

اختلف العلماء في المراد من الآية الكريمة على ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المراد به النوح على الميت ، قاله ابن عباس ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعا .

والثاني : أن المراد : أن لا يدعون ويلا ، ولا يخدشن وجها ، ولا يقطعن شعرا ، ولا يشققن ثوبا ، قاله زيد بن أسلم .

والثالث : جميع ما يأمرهن به رسول الله صلى الله عليه وسلم من شرائع الإسلام وآدابه وهذا هو الأرجح .

(73/760)

قال العلامة القرطبي : " والصحيح أنه عام في جميع ما يأمر به النبي صلى الله عليه وسلم ، وينهى عنه ، فيدخل فيه النوح ، وتخريق الثياب ، وجز الشعر ، والخلوة بغير محرم ، إلى غير ذلك ، وهذه كلها كبائر ، ومن أفعال الجاهلية ، وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أربع في أمتي من أمر الجاهلية . . . وذكر منها النياحة " .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولا : امتحان المهاجرات المؤمنات للتعرف على سبب الهجرة .

ثانيا : نحن نحكم بالظاهر ، والله جل وعلا يتولى السرائر .

ثالثا : حرمة نكاح المشركات اللواتي لا يؤمن بالله تعالى .

رابعا : إسلام المرأة يقطع الصلة بينها وبين زوجها المشرك وتحرم عليه .

خامسا : البيعة للنساء تكون بالشرائط التي ذكرها القرآن الكريم .

سادسا : الطاعة لأولي الأمر تكون في حدود ما شرع الله تبارك وتعالى .

سابعا : جواز نكاح الكتابيات اللاتي يؤمن بكتاب منزل من عند الله .

خاتمة البحث :

حكمة التشريع

حرمت الشريعة الإسلامية الغراء نكاح المشركات ، وحظرت على المسلم أن يبقي في عصمته امرأة لا تؤمن بالله ، ولا تعتقد بكتاب أو رسول ، وتنكر البعث والنشور ، وذلك لما يترتب على هذا الزواج من مخاطر دينية ، واجتماعية ، وأضرار عظيمة ، تلحق بالزوج والأولاد ، وبالتالي تهدد حياة الأسرة التي هي النواة لبناء المجتمع الأكبر .

وقد قضت السنة الإلهية أن تمتزج الأرواح بالأرواح ، وتتلاءم الأنفس مع الأنفس عند الزواج ، لينعم الزوجان في حياة آمنة سعيدة ، يرفرف عليها الحب ، وتظللها السعادة ، ويخيم عليها التعاون والتفاهم والوئام .

ولما كان هذا الانسجام والتفاهم ، لا يكاد يوجد بين قلبين متنافرين ونفسين مختلفين ، نفس مؤمنة خيرة ، ونفس مشركة فاجرة ، وكان هذا يؤدي بدوره إلى التنافر ، والخصام ، والنزاع ، لذلك حرم الإسلام الزواج بالوثنية المشركة ، وعده زواجا باطلا لا يستقيم مع شريعة الله

.

فالمشركة التي ليس لها دين يزجرها عن الشر ، ويأمرها بالخير ، ويحرم عليها الخيانة ، ويوجب عليها الأمانة ، هذه الزوجة لا يمكن أن يسعد المرء في حياته معها ، ولا تصلح أن تكون (رفيقة الحياة) لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر مع الفارق الكبير بين نفسيهما .

والزوجية حالة امتزاج واندماج واستقرار ، ولا يمكن أن تقوم الحياة بدون هذا الامتزاج ، والإيمان هو قوام الحياة السعيدة الذي لا تقوم مقامه عاطفة أخرى ، فإذا خوى منه قلب لم يستطع قلب مؤمن أن يتجاوب معه ، ولا أن يأنس به ، ولا أن يسكن إليه ويطمئن في جواره ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : " الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف " . انتهى انتهى . اهـ ﴿روائع البيان حـ 2 صـ 549 - 568﴾.

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل فلقي ذا الخمار مرتداً فقاتله ، فكان أول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين . قال ابن شهاب : وهو فيمن أنزل الله فيه ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال : أول من قاتل أهل الردة على إقامة دين الله أبو سفيان بن حرب ، وفيه نزلت هذه الآية ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن عدي وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله : ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ قال : كانت المودة التي جعل الله بينهم تزويج النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فصارت أم المؤمنين ، وصار معاوية خال المؤمنين .

وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين

عاديتم منهم مودة ﴾ قال: نزلت في تزويج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته أم حبيبة فكانت هذه مودة بينه وبينه.

قوله تعالى: ﴿ لا ينهاكم الله ﴾ الآية.

(76/760)

أخرج الطيالسي وأحمد والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في تاريخه والحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال: قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا ضباب وأقط وسمن، وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها، أو تدخلها بيتها، حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته، فأنزل الله ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴾ إلى آخر الآية، فأمرها أن تقبل هديتها، وتدخلها بيتها.

وأخرج البخاري وابن المنذر والنحاس والبيهقي في شعب الإِيمان "عن أسماء بنت أبي بكر قالت: أتتني أمي راغبة وهي مشركة في عهد قريش إذا عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألت النبي صلى الله عليه وسلم أأصلها؟ فأنزل الله ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴾ فقال: نعم صلي أمك".

وأخرج أبو داود في تاريخه وابن المنذر عن قتادة ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴾ نسختها ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : 5] .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴾ قال : أن تستغفروا لهم وتبروهم وتقسطوا إليهم هم الذين آمنوا بمكة ولم يهاجروا .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ﴾ قال : كفار أهل مكة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ

أخرج البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاءه نساء مؤمنات فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ حتى بلغ ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك .

وأخرج البخاري وأبو داود فيه ناسخه والبيهقي في السنن عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة قالا : لما كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم سهيل بن عمرو على قضية المدة يوم الحديبية كان مما اشترط سهيل : أن لا يأتيك منا أحد ، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جندب بن سهيل ، ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة ، وإن كان مسلماً ، ثم جاء المؤمنات مهاجرات وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي عاتق ، فجاء أهلها يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرجعها إليهم حتى أنزل الله في المؤمنات ما أنزل .

وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن عبد الله بن أبي أحمد رضي الله عنه قال : هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن معيط في الهدنة فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلماه في أم كلثوم أن يردها إليهما ، فنقض الله العهد بينه وبين المشركين خاصة في النساء ومنعهن أن يرددن إلى المشركين ، وأنزل الله آية الامتحان .

وأخرج ابن دريد في أماليه : حدثنا أبو الفضل الرياشي عن ابن أبي رجاء عن الواقدي قال : فخرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط بآيات نزلت فيها ، قالت : فكنت أول من هاجر إلى المدينة ، فلما قدمت قدم أخي عليّ فنسخ الله العقد بين النبي صلى الله عليه وسلم

وبين المشركين في شأني ، ونزلت ﴿ فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ ثم أنكحني النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ، فقلت أتزوجني بمولاك ؟ فأنزل الله ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ [الأحزاب : 36] ثم قتل زيد ، فأرسل إلى الزبير : احبسي على نفسك قلت : نعم فنزلت ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ﴾ [البقرة : 235] .

(78/760)

وأخرج ابن سعد عن ابن شهاب رضي الله عنه قال : كان المشركون قد شرطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية أن من جاء من قبلنا ، وإن كان على دينك ، رددته إلينا ، ومن جاءنا من قبلك لم نردده إليك ، فكان يرد إليهم من جاء من قبلهم يدخل في دينه ، فلما جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط مهاجرة جاء أخواها يريدان أن يخرجاها ويرداها إليهم ، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ الآية .

إلى قوله : ﴿ وليسألوا ما أنفقوا ﴾ قال : هو الصداق ، ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم ﴾ الآية ، قال : هي المرأة تسلم فيرد المسلمون صداقها إلى الكفار ، وما طلق

المسلمون من نساء الكفار عندهم فعليهم أن يردوا صداقهن إلى المسلمين ، فإن أمسكوا صداقاً من صداق المسلمين مما فارقوا من نساء الكفار أمسك المسلمون صداق المسلمات اللاتي جئن من قبلهم .

وأخرج ابن إسحق وابن سعد وابن المنذر عن عروة بن الزبير رضي الله عنه أنه سئل عن هذه الآية ، فكتب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان صالح قريشاً يوم الحديبية على أن يرد على قريش من جاء ، فلما هاجر النساء أبى الله أن يرددن إلى المشركين إذا هنَّ امتحنَّ بمحنة الإِسلام فعرفوا أنهن إنما جئن رغبة فيهن وأمر برد صداقهن إليهم إذا حبسن عنهم ، وأنهم يردوا على المسلمين صدقات من حبسوا عنهم من نسائهم ، ثم قال : ﴿ ذلكم حكم الله يحكم بينكم ﴾ فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء ، ورد الرجال ، ولولا الذي حكم الله به من هذا الحكم رد النساء كما رد الرجال ، ولولا الهدنة والعهد أمسك النساء ولم يرد لهنَّ صداقاً .

(79/760)

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾ قال : سلوهن ما جاء بهن ، فإن كان جاء بهن غضب

على أزواجهن أو غيرة أو سخط ولم يؤمن فارجعوهن إلى أزواجهن ، وإن كن مؤمنات بالله فأمسكوهن وآتوهن أجورهن من صدقتهن وانكحوهن إن شئتم وأصدقوهن وفي قوله : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ قال : أمر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بطلاق نسائهن كوافر بمكة قعدن مع الكفار ﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ﴾ قال : ما ذهب من أزواج أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إلى الكفار فليعطهم الكفار صدقاتهم وليمسكوهن ، وما ذهب من أزواج الكفار إلى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كمثل ذلك ، هذا في صلح كان بين قريش وبين محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار ﴾ الذي ليس بينكم وبينهم عهد ﴿ فعاقبتم ﴾ أصبتم مغنماً من قريش أو غيرهم ﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾ صدقاتهم عوضاً .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه قال : خرجت امرأة مهاجرة إلى المدينة فقيل لها : ما أخرجك بغضك لزوجك أم أردت الله ورسوله ؟ قالت : بل الله ورسوله ، فأنزل الله ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ فإن تزوجها رجل من المسلمين فليرد إلى زوجها الأول ما أنفق عليها .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ قال : هذا حكم حكمه الله بين أهل الهدى وأهل الضلالة ﴿ فامتحنوهن ﴾ قال : كانت محنتهن أن يحلفن بالله ما خرجن لنشوز ولا خرجن إلا حبّاً للإسلام ، وحرصاً عليه ، فإذا فعلن ذلك قبل منهن ، وفي قوله : ﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ﴾ قال : كن إذا فررن من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكفار الذين بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فتزوجن بعثوا بمهورهن إلى أزواجهن من المسلمين ، وإذا فررن من المشركين الذين بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فنكحوهن بعثوا بمهورهن إلى أزواجهن من المشركين ، فكان هذا بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبين أصحاب العهد من الكفار ، وفي قوله : ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم ﴾ يقول : إلى كفار قريش ليس بينهم وبين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عهد يأخذونهم به ﴿ فعاقبتم ﴾ وهي الغنيمة إذا غنموا بعد ذلك ثم نسخ هذا الحكم وهذا العهد في براءة فنبذ إلى كل ذي عهد عهده .

وأخرج ابن مردويه " عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾ إلى قوله : ﴿ عليم حكيم ﴾ قال : كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فإذا علموا أن ذلك حق منهن لم يرجعوهن إلى الكفار ، وأعطى بعلها في الكفار الذين عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم صداقه الذي أصدقها ، وأحلهن للمؤمنين إذا آتوهن أجورهن ، ونهى المؤمنين أن يدعوا المهاجرات من أجل نسائهم في الكفار ، وكانت محنة النساء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : قل لهن : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بايعكنّ على أن لا تشركن بالله شيئاً ، وكانت هند بنت عتبة بن ربيعة التي شقت بطن حمزة متنكرة في النساء ، فقالت : إني إن أتكلم يعرفني وإن عرفني قتلني ، وإنما تنكرت فرقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسكت النسوة التي مع هند وأبين أن يتكلمن ، فقالت هند ، وهي متنكرة : كيف يقبل من النساء شيئاً لم يقبله من الرجال ؟ فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لعمر رضي الله عنه : قل لهنّ : ولا يسرقن ، قالت هند : والله إني لأصيب من أبي سفيان الهنة ما أدري أيحلهنّ أم لا ؟ قال أبو سفيان : ما أصبت من شيء مضى أو قد بقي فهو لك حلال ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها ، فدعاها فأتته ، فأخذت بيده فعاذت به ، فقال : أنت هند ؟ فقالت :

عفا الله عما سلف ، فصرف عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي قوله : ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم ﴾ الآية ، يعني إن لحقت امرأة من المهاجرين بالكفار ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطى من الغنيمة مثل ما أنفق " .

(82/760)

وأخرج ابن مردويه عن ابن شهاب رضي الله عنه قال : بلغنا أن الممتحنة أنزلت في المدة التي ماد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم كفار قريش من أجل العهد الذي كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش في المدة ، فكان يرد على كفار قريش ما أنفقوا على نسائهم اللاتي يسلمن ويهاجرن وبعولتهن كفار ، ولو كانوا حرباً ليست بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم مدة عهد لم يردوا إليهم شيئاً مما أنفقوا ، وقد حكم الله للمؤمنين على أهل المدة من الكفار بمثل ذلك الحكم ، قال الله : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم ﴾ فطلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأته بنت أبي أمية بن المغيرة من بني مخزوم فتزوجها معاوية بن أبي سفيان ، وبنت جرول من خزاعة فزوّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي جهم بن حذيفة العدوي ، وجعل ذلك حكماً حكم به بين المؤمنين وبين

المشركين في مدة العهد التي كانت بينهم، فأقر المؤمنون بحكم الله، فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين، فقال الله: ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ﴾ فإذا ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين رد المؤمنون إلى أزواجها النفقة التي أنفق عليها من العقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه إلى المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهن اللاتي آمنّ وهاجرن، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان لهم.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ قال: الرجل تلحق امرأته بدار الحرب فلا يعتد بها من نسائه.

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير رضي الله عنه مثله.

(83/760)

وأخرج عبد بن حميد عن عامر الشعبي رضي الله عنه قال: كانت زينب امرأة ابن مسعود رضي الله عنه من الذين قالوا له: ﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وإن فاتكم شيء من

أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم ﴾ إن امرأة من أهل مكة أتت المسلمين فعوضوا زوجها ، وإن امرأة من المسلمين أتت المشركين فعوضوا زوجها ، وإن امرأة من المسلمين ذهبت إلى من ليس له عهد من المشركين ﴿ فعاقبتم فأصبتم غنيمة فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾ يقول : آتوا زوجها من الغنيمة مثل مهرها .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " خرج سهيل بن عمرو فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله ألسنا على حق ، وهم على باطل ؟ قال : بلى قال : فما بال من أسلم منهم رد إليهم ، ومن أتبعهم منا نرده إليهم ؟ قال : أما من أسلم منهم فعرف الله منه الصدق أنجاه ، ومن رجع منا سلم الله منه ، قال : ونزلت سورة الممتحنة بعد ذلك الصلح ، وكانت من أسلم من نسائهم ، فسئلت : ما أخرجك ؟ فإن كانت خرجت فراراً من زوجها ورغبة عنه ، ردت ، وإن كانت خرجت رغبة في الإِسلام أمسكت ورد على زوجها مثل ما أنفق " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي حبيب رضي الله عنه أنه بلغه أنه نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ الآية ، في امرأة أبي حسان بن الدحداحة ، وهي أميمة بنت بسر امرأة من بني عمرو بن عوف ، وأن سهل بن حنيف تزوجها حين فرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فولدت له عبد الله بن سهل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل رضي الله عنه قال : كان بين رسول الله صلى الله عليه

وسلم وبين أهل مكة عهد شرط في أن يرد النساء فجاءت امرأة تمسى سعيدة ، وكانت تحت صيفي بن الراهب ، وهو مشرك من أهل مكة ، وطلبوا ردها فأنزل الله ﴿ إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ الآية .

(84/760)

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر عن الزهري رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية وهم بالحديبية ، لما جاء النساء أمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن ، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى زوجها ، فأما المؤمنون فأقروا بحكم الله ، وأما المشركون فأبوا أن يقروا ، فأنزل الله ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار ﴾ إلى قوله : ﴿ مثل ما أنفقوا ﴾ فأمر المؤمنون إذا ذهبت امرأة من المسلمين ولها زوج من المسلمين أن يرد إليه المسلمون صداق امرأته مما أمروا أن يردوا على المشركين .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن إبراهيم النخعي رضي الله عنه في قوله : ﴿ إذا جاءكم المؤمنات ﴾ الآية ، قال : كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد ، وكانت المرأة إذا جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم امتحنوها ثم يردون على

زوجها ما أنفق عليها ، فإن لحقت امرأة من المسلمين بالمشركين فغنم المسلمون ردوا على صاحبها ما أنفق عليها .

قال الشعبي : ما رضي المشركون بشيء ما رضوا بهذه الآية ، وقالوا : هذا النصف .

وأخرج ابن أبي أسامة والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾ ولفظ ابن المنذر أنه سئل بم كان النبي صلى الله عليه وسلم يمتحن النساء ؟ قال : كانت المرأة إذا جاءت النبي صلى الله عليه وسلم حلفها عمر رضي الله عنه بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، وبالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه قال : يقال لها ما جاء بك عشق رجل منا ، ولا فرار من زوجك ، ما خرجت إلا حباً لله ورسوله .

وأخرج ابن منيع من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أسلم عمر بن الخطاب وتأخرت امرأته في المشركين فأنزل الله ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر

﴾ .

وأخرج الطبراني وأبو نعيم وابن عساكر عن يزيد بن الأخنس رضي الله عنه أنه لما أسلم أسلم معه جميع أهله إلا امرأة واحدة أبت أن تسلم فأنزل الله ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ فقيل له : قد أنزل الله أنه فرق بينها وبين زوجها إلا أن تسلم ، فضرب لها أجل سنة ، فلما مضت السنة إلا يوماً جلست تنظر الشمس حتى إذا دنت للغروب أسلمت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن طلحة رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ طلقت امرأتي أروى بنت ربيعة ، وطلق عمر قريبة بنت أبي أمية وأم كلثوم بنت جرول الخزاعيه .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن إبراهيم النخعي رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ قال : نزلت في المرأة من المسلمين تلحق بالمشركين فتكفر فلا يمسك زوجها بعصمتها ، قد بريء منها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار ﴾ قال : نزلت في امرأة الحكم بنت أبي سفيان ارتدت فتزوجها رجل ثقفي ، ولم ترتد امرأة من قريش غيرها ، فأسلمت مع ثقيف حين أسلموا .

وأخرج أبو داود في ناسخه وابن المنذر عن ابن جريج ﴿ فامتحنوهن ﴾ الآية قال : سألت عطاء عن هذه الآية تعلمها ؟ قال : لا .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ

(86/760)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ إلى قوله : ﴿ غفور رحيم ﴾ فمن أقرت بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله : قد بايعنك كلاماً ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة ما بايعهن إلا بقوله : قد بايعنك على ذلك " .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن سعد وأحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه " عن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في نساء لنبايعه فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئاً حتى بلغ ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ فقال : فيما استطعتن وأطقتن قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله ألا تصافحنا قال : إني لا أصافح النساء إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة " .

وأخرج أحمد وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله قال : "

جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تبايعه على الإِسلام فقال :

أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئاً ولا تسرقي ولا تزني ولا تقتلي ولدك ، ولا تأتي ببهتان

تفترينه بين يديك ورجليك ، ولا تبرجي تبرج الجاهلية الأولى " .

وأخرج ابن سعد وأحمد وابن مردويه " عن سليمى بنت قيس رضي الله عنها قالت :

جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم أبايعه على الإِسلام في نسوة من الأنصار ، فلما

شرط علينا أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه

بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، ولا تغششن أزواجكم فبايعناه ، ثم انصرفنا

فقلت لامرأة : ارجعي فاسأليه ما غش أزواجنا ؟ فسألته فقال : تأخذ ماله فتحابي غيره

به " .

(87/760)

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه والبخاري ومسلم والنسائي وابن المنذر عن عبادة بن

الصامت قال : " كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : بايعوني على أن لا تشركوا بالله

شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ، وقرأ . " فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك

شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له " " .

وأخرج البخاري ومسلم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع النبي صلى الله عليه وسلم فنزل فأقبل حتى أتى النساء فقال : ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ﴾ حتى فرغ من الآية كلها ، ثم قال حين فرغ : أنتن على ذلك ؟ قالت امرأة : نعم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل رضي الله عنه قال : أنزلت هذه الآية يوم الفتح ، فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجال على الصفا وعمر يبايع النساء تحتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أحمد وابن سعد وأبو داود وأبو يعلى وعبد بن حميد وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن إسمعيل بن عبد الرحمن بن عطية عن جدته أم عطية رضي الله عنها قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جمع نساء الأنصار في بيت فأرسل إليهن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقام على الباب فسلم ، فقال : أنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكن تبايعن على أن لا تشركن بالله شيئاً ولا تسرقن ولا تزنين الآية . قلنا : نعم فمد يده من خارج البيت ، ومددنا أيدينا من داخل البيت . قال إسمعيل : فسألت جدتي عن قوله تعالى : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ قالت : نهانا عن النياحة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وأحمد وابن مردويه " عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم في نسوة فقال : " إني لا أصافحكن ، ولكن آخذ عليكن ما أخذ الله " " .

(88/760)

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد عن الشعبي رضي الله عنه قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع النساء ، ووضع على يده ثوباً ، فلما كان بعد كان يخبر النساء فيقرأ عليهن هذه الآية ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ﴾ فإذا أقررن قال : قد بايعتكن ، حتى جاءت هند امرأة أبي سفيان ، فلما قال : ﴿ ولا يزنين ﴾ قالت : أو تزني الحرة ؟ لقد كنا نستحي من ذلك في الجاهلية فكيف بالإسلام ؟ فقال : ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ قالت : أنت قتلت آباءهم وتوصينا بأبنائهم ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ ولا يسرقن ﴾ فقالت : يا رسول الله إني أصبت من مال أبي سفيان ، فرخص لها " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : قل لهن : إن رسول الله صلى الله

عليه وسلم يبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً ، وكانت هند متنكرة في النساء ، فقال لعمر : قل لها ﴿ ولا يسرقن ﴾ قالت هند : والله إني لأصيب من مال أبي سفيان الهنة ، فقال : ﴿ ولا يزنين ﴾ فقالت : وهل تزني الحرة ؟ فقال : ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ قالت هند : أنت قتلتهم يوم بدر ، قال : ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف ﴾ قال : منعهن أن يَنُحْنَ ، وكان أهل الجاهلية يمزقن الثياب ويخدشن الوجوه ويقطعن الشعور ويدعون بالويل والثبور .

(89/760)

وأخرج الحاكم وصححه عن فاطمة بنت عتبة أن أخاها أبا حذيفة أتى بها وبهند بنت عتبة رسول الله صلى الله عليه وسلم تبايعه ، فقالت : أخذ علينا بشرط فقلت له : يا ابن عم وهل علمت في قومك من هذه الصفات شيئاً قال أبو حذيفة : أيها فبايعيه فإن بهذا يبايع ، وهكذا يشترط ، فقالت هند : لا أبايعك على السرقة فإني أسرق من مال زوجي ، فكفّ النبي صلى الله عليه وسلم يده ، وكفت يدها حتى أرسل إلى أبي سفيان ، فتحلل لها منه ، فقال أبو سفيان : أما الرطب فنعم ، وأما اليابس فلا ، ولا نعمة . قالت : فبايعناه .

وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه ﴾ قال : كانت الحرة يولد لها الجارية فتجعل مكانها غلاماً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق علي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه ﴾ قال : لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ قال : إنما هو شرط شرطه الله للنساء .

وأخرج ابن سعد وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه " عن أم سلمة الأنصارية قالت : قالت امرأة من النسوة ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه ؟ قال : " لا تنحن " قلت يا رسول الله : إن بني فلان أسعدوني على عمي ولا بد لي من قضائهن ، فأبى عليّ ، فعاودته مراراً ، فأذن لي في قضائهن ، فلم أنح بعد ، ولم يبق منا امرأة إلا وقد ناحت غيري " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن منيع وابن سعد وابن مردويه عن أبي المليح قال : " جاءت امرأة من الأنصار تبايع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما شرط عليها أن لا تشركن بالله شيئاً ولا تسرقن ولا تزنين أقرت فلما قال : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ قال : أن لا تنوحي ، فقالت : يا رسول الله إن فلانه أسعدتني أفأسعدها ، ثم لا أعود ؟ فلم يرخص لها " مرسل حسن الإِسناد .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن سعد وابن مردويه بسند جيد عن مصعب بن نوح الأنصاري قال : " أدركت عجوزاً لنا كانت فيمن بايع النبي صلى الله عليه وسلم قالت : أخذ علينا فيما أخذ أن لا تنحن ، وقال : هو المعروف الذي قال الله : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ فقلت يا نبي الله : إن أناساً قد كانوا أسعدوني على مصائب أصابتني ، وإنهم قد أصابتهم مصيبة وأنا أريد أن أسعدهم . قال : انطلقي فكافئيهم ثم إنها أتت فبايعته " .

وأخرج ابن سعد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أسيد بن أبي أسيد البراد عن امرأة من المبايعات قال : كان فيما أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نعصيه فيه من المعروف ، وأن لا نخمش وجهاً ، ولا نشق جيباً ، ولا ندعو ويلاً .

وأخرج ابن أبي حاتم في قوله : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ قال : لا يشققن جيوبهن ، ولا يصككن خدودهن .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن سالم بن أبي الجعد في قوله : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ قال : النوح .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن أبي العالية ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ قال : النوح . قال : فكل شيء وافق لله طاعة فلم يرض لنبيه أن يطاع في معصية الله .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي هاشم الواسطي ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ قال : لا

يدعون ويلاً ولا يشققن جيباً ولا يحلقن رأساً .

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد عن بكر بن عبد الله المزني قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على النساء في البيعة أن لا يشققن جيباً ، ولا يخمشن وجهاً ، ولا يدعون ويلاً ، ولا يقلن هجراً .

(91/760)

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن عائشة بنت قدامة بن مظعون قالت : "كنت مع أمي رائطة بنت سفيان والنبي صلى الله عليه وسلم يبايع النسوة ويقول : " أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن ، ولا تزنين ، ولا تقتلن أولادكن ، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن ، وأرجلكن ، ولا تعصين في معروف " فأطرقن ، قالت : وأنا أسمع أمي وأمي تلقنني تقول : أي بنية قولي : نعم فيما استطعت ، فكنت أقول كما يقلن .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وأحمد وابن مردويه عن أنس قال : " أخذ النبي صلى الله عليه وسلم على النساء حين بايعهن أن لا ينحن ، فقلن : يا رسول الله إن نساء أسعدتنا في الجاهلية أفتسعدهن في الإِسلام ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا إسعاد في الإِسلام ، ولا شطار ، ولا عقر في الإِسلام ، ولا خبب ولا جنب ، ومن انتهب فليس منا " " .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾ قال : كيف يمتحن فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ﴾ الآية .

وأخرج ابن سعد وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بايع النساء دعا بقدح من ماء ، فغمس يده فيه ، ثم يغمس أيديهن ، فكانت هذه بيعته .

(92/760)

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن أم عطية قالت : لما نزلت ﴿ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ إلى قوله : ﴿ ولا يعصينك في معروف فبايعهن ﴾ قالت : كان منه النياحة يا رسول الله إلا آل فلان ، فإنهم كانوا قد أسعدوني في الجاهلية ، فلا بد لي من أن أسعدهم ، قال : لا آل فلان . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن مردويه عن أم عطية قالت : أخذ علينا في البيعة أن لا ننوح ، فما وفى منا إلا خمسة أم سليم وأم العلاء وابن أبي سبرة امرأة أبي معاذ ، أو قال : بنت أبي سبرة ، وامرأة معاذ ، وامرأة أخرى .

وأخرج البخاري ومسلم وابن مردويه عن أم عطية . قالت : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا أن لا تشركن بالله شيئاً ، ونهانا عن النياحة ، فقبضت منا امرأة يدها فقالت يا رسول الله : إن فلانة أسعدتني ، وأنا أريد أن أجزيها ، فلم يقل لها شيئاً ، فذهبت ثم رجعت ، قالت : فما وفت منا امرأة إلا أم سليم وأم العلاء وبنت أبي سبرة امرأة معاذ أو بنت أبي سبرة وامرأة معاذ .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله في قوله : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ قال : اشترط عليهن أن لا ينحن .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : "كان فيما أخذ على النساء من المعروف أن لا ينحن ، فقالت امرأة : لا بد من النوح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن كنتن لا بد فاعلات فلا تخمشن وجهاً ، ولا تخرقن ثوباً ، ولا تحلقن شعراً ، ولا تدعون بالويل ، ولا تقلن هجراً ، ولا تقلن إلا حقاً " " .

وأخرج ابن سعد عن عاصم بن عمرو بن قتادة رضي الله عنه قال : أول من بايع النبي صلى الله عليه وسلم أم سعد بن معاذ كبشة بنت رافع وأم عامر بنت يزيد بن السكن وحواء بنت يزيد بن السكن .

وأخرج ابن أبي شيبة عن يزيد بن أسلم رضي الله عنه ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ قال : لا يشققن جيباً ولا يخمش وجهاً ولا ينشرن شعراً ولا يدعون ويلاً .

وأخرج ابن أبي شيبة عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن النوح.

وأخرج ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنما نهيت عن النوح " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي رضي الله عنه قال : لعنت النائحة والممسكة .

وأخرج ابن مردويه عن أم عفيف قالت : أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بايع النساء أن لا نحدث الرجال إلا محرماً .

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه قال : كان فيما أخذ عليهن أن لا يخلون بالرجال إلا أن يكون محرماً ، وإن الرجل قد تلاطفه المرأة فيمذي في فخذيه .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ قال : أخذ عليهن أن لا ينحن ، ولا يحدثن الرجال ، فقال عبد الرحمن بن عوف : إن لنا أضيافا وأنا نغيب عن نسائنا ، فقال : ليس أولئك عنيت .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن أم عطية رضي الله عنها قالت : كان فيما أخذ عليهن

أن لا يخلون بالرجال إلا أن يكون محرماً ، فإن الرجل قد يلاطف المرأة فيمذي في فخذيه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ قال : فإن المعروف الذي لا يعصي فيه أن لا يخلو الرجل والمرأة وحداناً وأن لا ينحن نوح الجاهلية . قال : فقالت خولة بنت حكيم الأنصارية : يا رسول الله إن فلانة أسعدتني ، وقد مات أخوها ، فأنا أريد أن أجزيها . قال : فاذهبي فاجزيها ثم تعالي فبايعي " .

وأخرجه ابن جرير وابن مردويه عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما موصولاً والله أعلم .

أخرج ابن إسحق وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان عبد الله بن عمر وزيد بن الحارث يوادون رجالاً من يهود فأنزل الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ الآية .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة ﴾ قال : فلا يؤمنون بها ولا يرجونها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 130.144 ﴾

(95/760)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدكم أولياء ﴾

نزلت في حاطب بن أبي بلتعة العبسي ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجهز الجيش للخروج إلى فتح مكة وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج إلى الغزو ورى بغيره يعني يظهر من نفسه أنه يريد الخروج إلى ناحية أخرى وكان الناس لا يعلمون إلى أي ناحية يريد الخروج

فأمر الناس بأن يتجهزوا إلى الخروج للغزو ولم يعلموا إلى أين يخرج إلا الخواص من أصحابه فبينما الناس يتجهزون إذ قدمت امرأة من مكة يقال لها سارة مولاة بني عمر بن الصيف بن هشام بن عبد مناف وكانت امرأة مغنية فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم لماذا جئت

فقالت جئت لتعطيني شيئًا

فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم ما فعلت بعطيا تك من شبا ن قريش فقالت منذ قتلتهم

ببدر لم يصل إلي شيء إلا القليل

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن تعطى شيئًا لترجع

فلما أرادت الخروج أتاها حاطب بن أبي بلتعة فقال لها إني معطيك عشرة دنانير وكساء

على أن تبلغي إلى أهل مكة كتابا

فأجابته إلى ذلك فخرجت إلى مكة فنزل جبريل عليه السلام في أثرها بالخبر فقال النبي

صلى الله عليه وسلم لعلي والزبير والمقداد انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة

معها كتاب فخذوه منها

فخرجوا حتى أتوا الروضة فإذا هي سارة هناك فقالوا لها أخرجي الكتاب

فقالت ما معي كتاب

فألحوا عليها فحلفت أنه ليس معها كتاب فلم يصدقوها حتى نزعت جميع ثيابها فرمت بها

إليهم

فنظروا إلى ثيابها فلم يجدوا فيها الكتاب ونظروا في راحلتها وأمتعتها فلم يجدوا فيها

الكتاب

فقال بعضهم لبعض تعالوا حتى نرجع

فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إن جبريل نزل على النبي صلى الله عليه وسلم

وأخبره بذلك فقول المرأة أصدق أم قول

جبريل فوالله لا أرجع حتى آخذ منها الكتاب ولأحملن رأسها إلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم

وسل السيف ليضرب رأسها فأخرجت الكتاب من عقاصها

فأتوا به النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ الكتاب فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة وأخبرهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم يريد الخروج إليهم وإنه أراد بالكتاب إليهم مودتهم فقام إليه عمر وقال دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما هذا يا حاطب فقال لا تعجل علي يا رسول الله إني كنت ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسهم وكل من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهاليهم فأردت أن أتخذ فيهم يدا يحمون قرابتي وما فعلت هذا كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا أرضى بالكفر بعد الإسلام

وقد علمت أن الله تعالى منجز وعده ما وعد ألا لينصر نبيه صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم دعوه إنه شهد بدرا وما يدريك يا عمر لعل الله تعالى قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم فنزل ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فسماهم مؤمنين ﴿ لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ يعني في العون والنصرة

﴿ تلقون إليهم بالمودة ﴾ يعني تكتبون وتبعثون إليهم بالصحيفة والنصيحة ويقال معناه تخبرونهم كما يخبر الرجل أهل مودته حيث توجهون إليهم بالمودة والنصيحة والكتاب

﴿ وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾ يعني من القرآن والرسول

﴿ يخرجون الرسول وإياكم ﴾ يعني أخرجوكم من مكة

﴿ أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾ يعني لأجل إيمانكم بربكم يعني بوحدانية ربكم

﴿ إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة ﴾ يعني لا تلقون إليهم بالمودة إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي وطلب رضاي

﴿ وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾ يعني ما أسررتم وما أظهرتم من المودة لأهل الكفر وأعلنتم الإقرار بالتوحيد

﴿ ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ يعني من يفعل بعد منكم فقد أخطأ قصد الطريق

ثم قال عز وجل ﴿ إن يثقفوكم ﴾ وهذا إخبار من الله تعالى للمؤمنين بعداوة كفار مكة إياهم لكيلا يميلوا إليهم فقال ﴿ إن يثقفوكم ﴾ يعني أن يظهروا عليكم ويقال إن يأخذوكم ويقال إن يقهروكم ويغلبوكم

﴿ يكونوا لكم أعداء ﴾ يعني يتبين لكم أنهم أعداؤكم فيظهر لكم عداوتهم عند ذلك

﴿ ويبسطوا إليكم أيديهم ﴾ بالقتل والتعذيب ﴿ وألسنتهم بالسوء ﴾ يعني بالشتم

﴿ وودوا لو تكفرون ﴾ يعني تمنوا أن ترجعوا إلى دينهم فإن فعلتم ذلك بسبب قرابتكم

﴿ لن تنفعكم أرحامكم ﴾ يعني قرابتكم ﴿ ولا أولادكم ﴾ الذين كانوا بمكة

﴿ يوم القيامة يفصل بينكم ﴾ يعني يفرق بينكم وبينهم يوم القيامة

قرأ عاصم ﴿ يفصل بينكم ﴾ بنصب الياء وكسر الصاد مع التخفيف يعني يفصل الله بينكم وبينهم يوم القيامة وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿ يفصل بينكم ﴾ بضم الياء ونصب الصاد مع التخفيف على معنى فعل ما لم يسم فاعله والمعنى مثل الأول

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ يفصل بينكم ﴾ بضم الياء وكسر الصاد مع التشديد يعني يفصل الله بينكم والتشديد للتكثير وقرأ ابن عامر ﴿ يفصل بينكم ﴾ بضم الياء ونصب الصاد مع التشديد على معنى فعل ما لم يسم فاعله والتشديد للتكثير

ويقال الفصل هو القضاء يعني يقضي بينكم على هذا

﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ يعني عالم بأعمالكم

قوله عز وجل : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إبراهيم ﴾ يعني : هلا فعلتم كما فعل إبراهيم ، تبرأ من أبيه لأجل كفره ؟ ويقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ يعني : قدوة حسنة وسنة صالحة في إبراهيم فاقتدوا به .

﴿ والذين مَعَهُ ﴾ يعني : من كان مع إبراهيم من المؤمنين .

﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ ﴾ أي : لمن كفر من قومهم : ﴿ أَنَاْ بَرَاء مّنكُمْ ﴾ يعني : من دينكم ،

﴿ وِممَّا تَعْبُدُونَ ﴾ يعني : برآء مما تعبدون ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ من الآلهة .

﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ يعني : تبرأنا منكم .

(98/760)

قرأ عاصم ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ بضم الألف ، والباقون بالكسر ، وهما لغتان إسوة وأُسوة وهما بمعنى الاقتداء .

ثم قال : ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة والبغضاء أَبَداً حتى تُؤْمِنُواْ بالله وَحْدَهُ ﴾ يعني : حتى تصدقوا بالله وحده ، فأعلم الله تعالى أن أصحاب إبراهيم تبرؤوا من قومهم ، وعادوهم ، لأجل كفرهم ، فأمر الله تعالى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتدوا

بهم .

ثم قال : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، يعني : اقتدوا بهم إلا قول إبراهيم ﴿ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ يعني : لأدعون لك أن يهديك الله ويكون على هذا التفسير إلا بمعنى لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك يعني : لأدعون لك أن يهديك الله يعني : إبراهيم تبرأ من قومه ، لكنه يدعو لأبيه بالهدى .

ثم قال : ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ يعني : ما أقدر أن أمنعك من عذاب الله من شيء ، إن لم تؤمن .

ثم علَّمهم ما يقولون ، فقال : قولوا ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ يعني : فوّضنا أمرنا إليك وأمر أهالينا ، ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ يعني : أقبلنا إليك بالطاعة ؛ ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ يعني : المرجع في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، فتقتر علينا الرزق وتبسط عليهم ، فيظنوا أنهم على الحق ونحن على الباطل ؛ ﴿ واغفر لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ وفي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الغفور الرحيم ﴾ .

وقال بعضهم : هذا كله حكاية عن قول إبراهيم أنه دعا ربه بذلك ، ويقال : هذا تعليم لحاطب بن أبي بلتعة هلاّ دعوت بهذا الدعاء ، حتى ينجو أهلك ولا يسلط عليهم

عدوك .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ يعني : في إبراهيم وقومه في الاقتداء .

(99/760)

﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللهَ واليومَ الآخِر ﴾ يعني : لمن يخاف الله ويخاف البعث ؛ ويقال : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو ﴾ ثواب الله وثواب يوم القيامة .

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ يعني : يعرض عن الحق ؛ ويقال : يأبى عن أمر الله تعالى .

﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الغنى الحميد ﴾ يعني : الغني عن عباده الحميد في فعاله .

ثم قال عز وجل : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ ﴾ يعني : لعل الله أن يجعل بينكم ﴿ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم ﴾ ، كفار مكة .

﴿ مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ ؛ وذلك أنه لما أخبرهم عن إبراهيم بعداوته مع أبيه ، فأظهر المسلمون العداوة مع أرحامهم ، فشق ذلك على بعضهم ، فنزل ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ يعني : صلة .

قال مقاتل : فلما أسلم أهل مكة ، خالطوهم وناكحوهم ، فتزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأسلمت وأسلم أبوها .

ويقال: يسلم منهم فيقع بينكم وبينهم مودة بالإسلام؛ وهذا القول أصح، لأنه كان قد تزوج بأم حبيبة قبل ذلك.

﴿ واللهُ قَدِيرٌ ﴾ على المودة؛ ويقال: ﴿ قَدِيرٌ ﴾ بقضائه وهو ظهور النبي صلى الله عليه وسلم على أهل مكة.

﴿ واللهُ غَفُورٌ ﴾ لمن تاب منهم، ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهم بعد التوبة.

ثم رخص في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم، وهم خزاعة وبنو مدلج، فقال عز وجل: ﴿ لَّا ينهاكم اللهُ عَنِ الذين لَمْ يقاتلوكم فِى الدين ﴾ يعني: عن صلة الذين لم يقاتلوكم في الدين، ﴿ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دياركم أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ يعني: أن تصلوهم، ﴿ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ يعني: تعدلوا معهم بوفاء عهدهم.

﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المقسطين ﴾ يعني: العادلين بوفاء العهد، يقال: أقسط الرجل، فهو مقسط إذا عدل.

وقسط يقسط، فهو قاسط إذا جار.

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا ينهاكم الله عَنِ الذين قاتلوكم فِى الدين ﴾ يعني : عن صلة الذين قاتلوكم في الدين ، وهم أهل مكة ، ومن كان في مثل حالهم من أهل الحرب .

﴿ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دياركم وظاهروا على إخراجكم ﴾ يعني : عاونوا على إخراجكم من دياركم .

﴿ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ يعني : أن تناصحوهم .

﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ ﴾ منكم يعني : يناصحهم ويحبهم منكم ، ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ يعني : الكافرون الظالمون لأنفسهم .

قوله عز وجل : ﴿ الظالمون يا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا جَاءكُمُ المؤمنات مهاجرات ﴾ ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم صالح أهل مكة يوم الحديبية ، وكتب بينه وبينهم كتاباً : " إِنَّ مَنْ لَحِقَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِأَهْلِ مَكَّةَ فَهُوَ مِنْهُمْ ، وَمَنْ لَحِقَ مِنْهُمْ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم رَدَّهُ عَلَيْهِمْ " .

فجاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، اسمها سبيعة بنت الحارث الأسلمية ، فجاء زوجها في طلبها ، فقال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : (ارْدُدْهَا فَإِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ شَرْطاً .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إِنَّمَا كَانَ الشَّرْطُ فِي الرِّجَالِ وَلَمْ يَكُنْ فِي النِّسَاءِ " .

فأنزل الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءكُمُ المؤمنات مهاجرات ﴾ نصب على الحال ﴿ فامتحنوهن ﴾ يعني : اختبروهن ، ما أخرجكن من بيوتكن ؟ ﴿ فامتحنوهن ﴾ يعني : اسألوهن ،

ويقال: استخلفوهن ما خرجنا إلا حرصاً على الإسلام، ولم تكن لكراهية الزوج، ولا لغير ذلك ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ يعني: أعلم بسرائرهن.

﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مؤمنات ﴾ يعني: إذا ظهر عندكم إنها خرجت لأجل الإسلام، ولم يكن خروجها لعداوة وقعت بينها وبين زوجها، ﴿ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار ﴾ يعني: لا تردوهن إلى أزواجهن.

(101/760)

﴿ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ يعني: لا تحل مؤمنة لكافر، ﴿ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ يعني: ولا نكاح كافر لمسلمة.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ ﴾ يعني: أعطوا أزواجهن الكفار ما أنفقوا عليهن من المهر.

قال مقاتل: يعني: إن تزوجها أحد من المسلمين، يدفع المهر إلى الزوج؛ فإن لم يتزوجها أحد من المسلمين، فليس لزوجها الكافر شيء.

ثم قال: ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ يعني: لا حرج على المسلمين أن يتزوجوهن.

﴿ اليوم أُحِلَّ لَكُمُ ﴾ يعني : مهورهن ، فرد المهر على الزوج الكافر منسوخ .

وفي الآية دليل أن المرأة إذا خرجت من دار الحرب ، بانت من زوجها .

وفي الآية تأييد لقول أبي حنيفة : أَنَّهُ لاَ عِدَّةَ عَلَيْهَا .

وفي أقوال أبي يوسف ومحمد : عليها العدة .

ثم قال : ﴿ وَلاَ تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الكوافر ﴾ .

قرأ أبو عمرو ﴿ وَلاَ تُمْسِكُواْ ﴾ بالتشديد ، والباقون بالتخفيف .

فمن قرأ بالتخفيف ، فهو من أمسك يمسك ، ومن قرأ بالتشديد فهو من مسك بالشيء يمسكه تمسيكاً ، ومعناهما واحد ، وهو أن المرأة إذا كفرت ، ولحقت بدار الحرب ، فقد زالت العصمة بينهما .

فنهى أن يقبضها من بعد انقطاعها ، وجاز له أن يتزوج أختها أو أربعاً سواها .

وأصل العصمة الحبل ، ومن أمسك بالشيء فقد عصمه .

وقال : معناه لا ترغبوا فيهن ولا تعتدوا فيهن ؛ ويقال : لا تعتد بامرأتك الكافرة ، فإنها ليست لك بامرأة .

وكان للمسلمين نساء في دار الحرب ، فتزوجن هناك .

ثم قال : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ ﴾ يعني : اسألوا من أزواجهن ما أنفقتم عليهن من المهر .

﴿ وَلْيَسْئَلُواْ ﴾ منكم ﴿ مَّا أَنفَقُواْ ﴾ يعني : ما أعطوا من مهر المرأة التي أسلمت .

وهذه الآية نسخت، إلا قوله: ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ ثم قال: ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ﴾ يعني: أمره ونهيه ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ يعني: يقضي بينكم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أزواجكم إِلَى الكفار ﴾ يعني: إذا ارتدت امرأة ولحقت بدار الحرب، فعاقبتم يعني: فغنم من المشركين شيئاً، ﴿ فَآتُوا الذين ذَهَبَتْ أزواجهم ﴾ من الغنيمة ﴿ مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾ من الغنيمة، مثل الذين أعطوا نساءهم من المهر.

وهذه الآية منسوخة بالإجماع.

قرأ إبراهيم النخعي: ﴿ فعاقبتم ﴾ بغير ألف، وعن مجاهد أنه قرأ: ﴿ فعاقبتم ﴾؛ وقراءة العامة ﴿ فعاقبتم ﴾ فذلك كله يرجع إلى معنى واحد يعني: إذا غلبتم العبد واعتصمتم، واصبتموهم في القتال.

﴿ واتقوا الله ﴾ يعني: اخشوا الله فلا تعصوه فيما أمركم.

﴿ الذى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ يعني: مصدقين.

ثم قال : ﴿ مُؤْمِنُونَ يا أَيُّها النبى إِذَا جَاءكَ المؤمنات يُبَايِعْنَكَ ﴾ يعني : النساء إذا أسلمن ، فبايعهن ﴿ على أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بالله شَيْئاً ﴾ ، يعني : لا يعبدن غير الله .

﴿ وَلاَ يَسْرِقْنَ ﴾ ، يعني : لا يأخذن مال أحد بغير حق .

﴿ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أولادهن ﴾ يعني : ولا يقتلن بناتهن ، كما قتلن في الجاهلية ؛ ويقال : لا يشربن دواءً ، فيسقطن حملهن .

ثم اختلفوا في مبايعة النساء ، وقال بعضهم : وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوباً وأخذ في الثوب ، وقال بعضهم : كان يشيرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصافحهن عمر ، وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة ، وفرغ من مبايعة الرجال ، وهو على الصفا ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أسفل منه ، فبايع النساء على أن لا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن .

فقالت هند ، امرأة أبي سفيان : إِنِّي قَدْ أَصَبْتُ مِنْ مَالِ أبي سُفْيَان ، فَلاَ أَدْرِي أَحَلاَلٌ أَمْ لا ؟ فقال أبو سفيان : نَعَمْ مَا أَصَبْتِ فِيمَا مَضَى وَفِيمَا غَبَرَ .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : عَفَا الله عَمّا سَلَفَ .

وفي خبر آخر ، أنها قالت : أرأَيتَ لَوْ لَمْ يُعْطِنِي مَا يَكْفِينِي وَلَوَلَدي ، هَلْ يَحِلُّ لِي أَنْ آخُذَ مِنْ مَالِهِ ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " خُذِي مِنْ مَالِهِ مَا يَكْفِيكِ وَلَوَلَدِكِ بِالمَعْرُوفِ " .

ثم قال : ﴿ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ فلما قال ذلك ، قالت هند : أَوَتَزْنِي الحُرَّةُ ؟ فضحك عمر عند ذلك ، ثم قال : تَعَالَيْ ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَولادهن ﴾ يعني : لا يقتلن بناتهن الصغار ، فقالت هند : ربيناهم صغاراً أفنقتلهم كباراً ؟ فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ ببهتان يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ يعني : لا تجيء بصبي من غير زوجها ، فتقول للزوج : هو منك .

فقالت هند : إنَّ البُهْتَانَ أَفْحَشُ وَمَا تَأْمُرُنَا إِلَّا بِالرُّشْدِ .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ يعني : في طاعة مما أمر الله تعالى ، ويقال : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ يعني : فيما نهيتهن عن النوح وتمزيق الثياب ، أو تخلو مع الأجنبي ، أو نحو ذلك ، فقالت هند : ما جَلَسْنَا هَذَا المَجْلِسَ وَفِي أَنْفُسِنَا أَنْ نَعْصِيكَ فِي شَيْءٍ ثم قال ﴿ فَبَايِعْهُنَّ واستغفر لَهُنَّ الله ﴾ يعني : إذا بايعن على ذلك ، فاسأل الله لهن المغفرة لما كان في الشرك .

﴿ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ غفور لهن ما كان في الشرك رحيم فيما بقي .

قوله تعالى : ﴿ رَّحِيمٌ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قوْماً غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ ، وذلك أن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأمر المسلمين ، يتواصلون إليهم بذلك ، فيصيبون من ثمارهم وطعامهم وشرابهم ، فنهاهم الله تعالى عن ذلك ، فقال : ﴿ رَّحِيمٌ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قوْماً غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : لا تتخذوا الصداقة مع قوم غضب الله عليهم ، ويقال : هَذَا أَيضاً في حاطب بن أبي بلتعة .

ثم قال عز وجل : ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخرة كَمَا يَئِسَ الكفار مِنْ أصحاب القبور ﴾ ؛ قال مقاتل : وذلك أن الكافر إذا وضع في قبره ، أتاه ملك شديد الانتهار ، فيجلسه ، ثم يسأله : من ربك ، وما دينك ، ومن رسولك ؟ فيقول : لا أدري .

فيقول الملك : أبعدك الله ، انظر يا عدو الله إلى منزلك .

فينظر إليه من النار ، فيدعو بالويل والثبور ، فيقول : هذا لك يا عدو الله .

فيفتح له باب إلى الجنة ، فيقول : هذا لمن آمن بالله تعالى ، فلو كنت آمنت بربك نزلت الجنة .

فيكون حسرة عليه ، وينقطع رجاؤه منها .

وعلم أنه أبعد له فيها ، ويئس من خير الجنة ، فذلك قوله تعالى : للكفار أهل الدنيا الأحياء منهم ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخرة ﴾ يعني : من خير الآخرة ، لأنهم كذبوا بالثواب والعقاب ،

وهم آيسون من الجنة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، إذا عرف منازله ؛ ويقال : إن الكفار إذا مات منهم أحد ، يئسوا من رجوعه ، فيقال : قد يئس هؤلاء من الآخرة ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور من رجوعهم ؛ ويقال : ﴿ يَئِسُواْ مِنَ الآخرة ﴾ يعني : هؤلاء الكفار كما يئس الكفار الذين كانوا قبلهم من الآخرة ؛ وهو اليوم من أصحاب القبور ؛ والله أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 412.419 ﴾

(105/760)

وقال الثعلبى :

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾

نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ، وذلك " أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة بعد بدر بسنتين ورسول الله صلى الله عليه وسلم تجهز لفتح مكة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم " أمسلمة جئت ؟ " قالت : لا ، قال : " أمهاجرة جئت ؟ " قالت : لا ، قال : " فما جاء بك ؟ " قالت : كنتم الأصل والعشيرة والموالي وقد ذهبت موالي واحتجت حاجة شديدة

فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني ، فقال لها : " فأين أنت من شباب مكة ؟ " وكانت مغنية نائحة .

قالت : ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر ، فحثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها بني عبد المطلب وبني المطلب فكسوها وحملوها وأعطوها نفقة ، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى فكتب معها الى أهل مكة وأعطاها عشرة دنانير ، هذه رواية باذان عن ابن عباس ، وقال مقاتل بن حيان : أعطاها عشرة دراهم ، قالوا : وكساها برداً على أن يوصل الكتاب الى أهل مكة ، وكتب في الكتاب : (من حاطب بن أبي بلتعة الى أهل مكة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حذركم) فخرجت سارة ونزل جبرائيل فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما فعل ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّا وعمّار وعمر والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مريد وكانوا كلهم فرساناً ، وقال لهم : " أنطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فأن بها ظعينة معها كتاب من حاطب الى المشركين فخذوه منها وخلّوا سبيلها ، وأن لم تدفعه أليكم فاضربوا عنقها " .

قال : فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لها : أين الكتاب ؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب ، فحثوها وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً فهمّوا بالرجوع فقال علي رضي الله عنه والله ما كذبنا ولا كذّبنا وسلّ سيفه وقال : أخرجي الكتاب وإلاّ والله لأجرّدنّك ولأضربنّ عنقك . فلما رأت الجد أخرجت من ذؤابتها قد خبأتها في شعرها ، فخلّوا سبيلها ولم يعترضوا لها ولا لمن معها ورجعوا بالكتاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل رسول صلى الله عليه وسلم الى حاطب فأتاه ، فقال له : " هل تعرف الكتاب ؟ " قال : نعم ، قال : " فما حملك على ماصنعت " ؟

فقال : يا رسول الله والله ما كفرتُ منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته ، وكنت عزيزاً فيهم ، وكان أهلي بين ظهرانيهم ، فخشيت على أهلي فاردتُ أن أتخذ عندهم يداً ، وقد علمت أنَّ الله ينزل بهم بأسه ، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً . فصدّقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعذره ، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ومايدريك ياعمر لعلّ الله قد أطلع على أهل بدر فقال لهم أعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم " " .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن أسحاق قال : حدثنا محمد بن غالب قال

: حدثنا عبد الصمد قال : حدثنا ليث عن أبي الدنير عن جابر " أن عبداً لحاطب جاء يشتكي حاطباً الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ليدخلن حاطب النار ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "كذبت ، لا يدخلها أبداً لأنه شهد بدراً والحديبية " " .

(107/760)

وأنزل الله سبحانه في شأن حاطب ومكاتبته المشركين ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ أي المودة ، والباء صلة ، كقول القائل : أريد أن أذهب ، وأريد بأن أذهب ، قال الله سبحانه ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ ﴾ [الحج : 25] أي إلحاداً بظلم ومنه قول الشاعر :

فلما رجت بالشرب هزّ لها العصا . . . شحيح له عند الازاء نهيم

أي رجت الشرب .

﴿ وَقَدْ ﴾ واو الحال ﴿ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُمْ مِّنَ الحق يُخْرِجُونَ الرسول وَإِيَّاكُمْ ﴾ من مكة ﴿ أَن تُؤْمِنُواْ ﴾ أي لأن آمنتم ﴿ بالله رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ ﴾ في الكلام تقديم وتأخير ، ونظم الآية : لا تتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم إن كنتم خرجتم ﴿ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وابتغآء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بالمودة وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَآ

أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل * إِن يَثْقَفُوكُمْ ﴾ يروكم ويظهروا عليكم ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً ويبسطوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ بالقتل ﴿ وَأَلْسِنَتَهُمْ بالسواء ﴾ بالشتم ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ فلا تناصحوهم فإنّهم لا يناصحوكم ولا يوادونكم .

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ ﴾ يقول لا تدعونكم قرابتكم وأولادكم التي بمكة الى خيانة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وترك مناصحتهم وموالاة أعدائهم ومطاهرتهم فلن ينفعكم ﴿ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ ﴾ التي عصيتم الله سبحانه لأجلهم ﴿ يَوْمَ القيامة يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ فيدخل أهل طاعته والإيمان به الجنة ، ويدخل أهل معصيته والكفر به النار .

(108/760)

واختلف القرّاء في قوله : ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ فقرأ عاصم ويعقوب وأبو حاتم بفتح الياء وكسر الصاد مُخففاً ، وقرأ حمزة والكسائي وَخلف بضمّ الياء وكسر الصاد مُشدداً ، وقرأ ابن عامر والأعرج بضم الياء وفتح الصاد وتشديده ، وقرأ طلحة والنخعي بالنون وكسر الصاد والتشديد ، وقرأ أبو حيوة يفصل من أفصل يفصل ، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الصاد مخففاً من الفصل .

﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا مكّي قال : أخبرنا عبد الله بن هاشم قال : حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي قال : حدّثنا سفيان عن سهيل بن أبي صالح عن عطاء بن يزيد عن تميم الداري أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنَّما الدين النصيحة " ثلاثاً ، قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : " لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " .

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ ﴾ قدوة ﴿ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ خليل الرحمن ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ من أهل الإيمان ﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ ﴾ المشركين ﴿ إِنَّا بُرَءَآؤُاْ مِّنْكُمْ ﴾ جمع بريء ، وقراءة العامة على وزن فعلاء غير مجز ، وقرأ عيسى بن عمر ﴿ بِرَءآؤُاْ ﴾ بكسر الباء ، على وزن فعال مثل قَصير وقِصار وطويل وطوال ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أي جحدنا بكم وأنكرنا دينكم ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء أَبَداً حتى تؤْمِنُواْ بالله وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يعني قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم وأموره إلا في قوله : ﴿ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله مِن شَيْءٍ ﴾ أن عصيته نهوا أن يتأسوا في هذه خاصة بابراهيم فيستغفروا للمشركين ، ثم بيّن عذره في سورة التوبة .

وفي هذه الآية دلالة بيّنة على تفضيل نبيّنا وذلك أنه حين أمر بالأقتداء به أمر على الأطلاق ولم يستثن فقال : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ وحين أمر بالاقتداء بابراهيم إستثنى .

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ [هذا قول] إبراهيم ومن معه من المؤمنين .

(110/760)

﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المصير * رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ واغفر لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ ﴾ يعني في إبراهيم ومن معه من الأنبياء والاولياء ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو الله واليوم الآخر وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ الله هُوَ الغني الحميد ﴾ فلما نزلت هذه الآية عادى المؤمنون أقرباءهم المشركين في الله وأظهروا لهم العداوة والبراءة فعلم سبحانه شدّة وجد المؤمنين بذلك فأنزل الله سبحانه : ﴿ عَسَى الله أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مِّنْهُم ﴾ من مشركي مكّة ﴿ مَّوَدَّةً والله قَدِيرٌ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يفعل الله ذلك بأن أسلم كثير منهم فصاروا لهم أولياء وإخواناً وخالطوهم وناكحوهم وتزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب فلان لهم أبو سفيان وكانت أم حبيبة تحت عبد الله بن جحش بن ذياب ، وكانت هي

وزوجها من مهاجري الحبشة ، فنظر بوجهها وحاولها أن تتابعه فأبت وصبرت على دينها ، ومات زوجها على النصرانية ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشي فيها ليخطبها عليه ، فقال النجاشي لأصحابه : من أولى بها ؟ قالوا : خالد بن سعيد بن العاص ، قال : فزوّجها من نبيّكم ، ففعل ومهرها النجاشي أربعمائة دينار ، وساق أليها مهرها ، ويقال بل خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عثمان بن عفان فلما زوّجه أياها بعث الى النجاشي فيها ، فساق عنه وبعث بها إليه فبلغ ذلك أبا سفيان وهو يومئذ مشرك فقال : ذاك الفحل لا يقرع أنفه .

(111/760)

رخّص الله سبحانه في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم ولم يخرجوهم من جميع الكافرين ، فقال عزّ من قائل : ﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وتقسطوا إِلَيْهِمْ ﴾ تعدلوا فيهم بالإحسان والبر . ﴿ إِنَّ اللهُ يُحِبُّ المقسطين ﴾ واختلف العلماء فيمن نزلت فيهم هذه الآية ، فقال ابن عباس : نزلت في خزاعة منهم هلال بن عُديم وخزيمة ومزلقة بن مالك بن جعشم وبنو مدلج وكانوا صالحوا النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً ، وقال

عبد الله بن الزُبير : نزلت في أسماء بنت أبي بكر وذلك أن أمها قتيلة بنت الغري بن عبد أسعد من بني مالك بن حنبل قدمت عليها المدينة بهدايا ضيابًا وقرطًا وسمنًا وهي مشركة ، فقالت أسماء : لا أقبل منك هدية ولا تدخلين عليّ في بيتي حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت لها عائشة : رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية ، فأمرها رسول الله أن تدخلها منزلها وتقبل هديّتها وتكرمها وتحسن إليها . وقال مرّة الهمداني وعطية العوفي : نزلت في قوم من بني هاشم منهم العباس .

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الذين قَاتَلُوكُمْ فِي الدين وَأَخْرَجُوكُم ﴾ وهم مشركو مكة ﴿ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ الواضعون الولاية في غير موضعها .

(112/760)

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِذَا جَآءَكُمُ المؤمنات مُهَاجِرَاتٍ ﴾ الآية قال ابن عباس : أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمراً حتى إذا كان بالحديبية صالحه مشركو مكّة على من أتاه من أهل مكّة رده عليهم ومن أتى أهل مكة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو لهم ولم يردوه عليه ، وكتبوا بذلك كتاباً وختموا عليه فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية مسلمة بعد الفراغ من الكتاب ، والنبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية فأقبل

زوجها مسافر من بني مخزوم وقال مقاتلان هو صفي بن الراهب في طلبها ، وكان كافراً فقال : يامحمد أردّد علي أمرأتي فأنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منّا وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد ، فأنزل الله سبحانه ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِذَا جَآءَكُمُ المؤمنات مُهَاجِرَاتٍ ﴾ من دار الكفر الى دار الإسلام .

﴿ فامتحنوهن ﴾ قال ابن عباس : إمتحانهن أن يستحلفهن ماخرجت من بغض زوج وما خرجت رغبة عن أرض الى أرض وما خرجت التماس دنياً وما خرجت إلاّ حبّاً لله ورسوله ، فاستحلفها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خرجت بغضاً لزوجها ولا عشقاً لرجل منا وما خرجت إلا رغبة في الإسلام ، فحلفت بالله الذي لا اله الا هو على ذلك ، فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم مهرها وما أنفق عليها ولم يردها عليه ، فتزوّجها عمر ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يردّ من جاء من الرجال ويحبس من جاءه من النساء إذا امتحن ويعطي أزواجهن مهورهن ، فلذلك قوله سبحانه : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم ﴾ يعني أزواجهن الكفار ما انفقوا عليهن من المهر ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن وأن كنّ لهنّ أزواج كفار في دار الكفر ؛ لأنّه فرّق بينهما الإسلام إذا استبرئت أرحامهن .

﴿ وَلَا تُمۡسِكُواْ ﴾ قراءة العامة بالتخفيف من الإمساك ، وتكون الباء صلة مجازه : ولا تمسكوا عصم الكوافر وقرأ الحسن أبو عمرو ويعقوب وأبو حاتم بالتشديد من التمسّك وقال : مسكت بالشيء وتمسّكت به ، والعصم جمع العصمة وهي ما اعتصم به من العقد والمسك ، والكوافر : جمع كافرة . نهى الله المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات ، وأمرهم بفراقهن قال ابن عباس : يقول لا تأخذوا بعقد الكوافر ممن كانت له أمرأة كافرة بمكة فلا يعتدن بها فقد أنقطعت عصمتها منه وليست له بامرأة ، وإن جاءتكم أمرأة مسلمة من أهل مكّة ولها بها زوج كافر فلا تعتدن به فقد أنقطعت عصمته منها .

قال الزهري : فلما نزلت هذه الآية طلّق عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمرأتين كانتا له بمكّة مشركتين قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوّجها بعده معاوية بن أبي سفيان وهما على شركهما بمكة والأخرى أم كلثوم بنت عمر بن حروا الخزاعية أم عبد الله بن عمر ، فتزوجها أبو جهم بن حذافة بن غانم رجل من قومه وهما على شركهما ، وكانت عند طلحة بن عبيد الله بن عثمان ابن عمرو التيمي أروى بنت ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب ففرّق بينهما الإسلام حين نهى القرآن عن التمسك بعصم الكوافر ، وكان طلحة قد هاجر وهي بمكة على دين قومها ثم تزوّجها في الإسلام بعد طلحة خالد بن سعيد بن العاص بن أُمية بن عبد شمس ، فكانت ممن فرّ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نساء الكفار

فحبسهما وزوّجها خالداً ، وأميمة بنت بشر كانت عند ثابت بن الدحداحة ففرّت منه وهو يومئذ كافر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم سهل بن حنيف ، فولدت عبد الله بن سهل .

(114/760)

قال الشعبي : وكانت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إمرأة أبي العاص بن الربيع فأسلمت ولحقت بالنبي صلى الله عليه وسلم في المدينة وأقام العاص مشركاً في مكة ثم أتى المدينة فأمنته زينب ثم أسلم فردّها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَاسْأَلُواْ ﴾ أيُّها المؤمنون الذين ذهبت أزواجكم فلحقن بالمشركين ﴿ مَآ أَنفَقْتُمْ ﴾ عليهن من الصدقات من تزويجهن منهم ﴿ وَلْيَسْأَلُواْ ﴾ بعد المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم مؤمنات إذا تزوجن فيكم من يتزوجها منكم .

﴿ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ من المهر ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ قال الأزهري : ولولا العهد والهدنة الذي كان بينه عليه السلام وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء ولم يردد أليهم صداقاً ، وكذلك يصنع بمن جاء من المسلمات قبل العهد ، فلما نزلت هذه الآية أقرّ المؤمنون بحكم الله سبحانه وأدّوا ما أمروا من نفقات المشركين على نسائهم

وأبى المشركون أن يقرّوا بحكم الله فيما أمر من أداء نفقات المسلمين فأنزل الله سبحانه ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الكفار ﴾ فلحقن بهم مرتدات ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ قراءة العامة بالألف وأختاره أبو عبيدة وأبو حاتم، وقرأ إبراهيم وحميد والأعرج فعقّبتم مشدداً، وقرأ مجاهد فأعقبتم على وزن أفعلتم وقال: صنعتم بهم كما صنعوا بكم، وقرأ الزهري "فعقبتم" خفيفة بغير ألف، وقرأ فعقبتم كسر القاف خفيفة وقال: غنمتم.

وكلها لغات بمعنى واحد يقال: عاقب وعقّب وعَقَب وعَقِب وأعقب ويَعقِب واعتقِب وتعاقب إذا غنم.

ومعنى الآية: فغزوتم وأصبتم من الكفار عقبى وهي الغنيمة وظفرتم وكانت العاقبة لكم، وقال المؤرخ: معناه فحلقتم من بعدهم وصار الأمر اليكم، وقال الفرّاء: عقّب وعاقب مثل تصعر وتصاعر، وقيل: غزوة بعد غزوة.

(115/760)

﴿ فَآتُواْ الذين ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنفَقُواْ ﴾ عليهم من الغنائم التي صارت في أيديكم من أموال الكفار وقيل: فعاقبتم المرتدة أي قتلتموها، وكان جميع من لحق بالمشركين من

نساء المؤمنين المهاجرين راجعة عن الأسلام ست نسوة : أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد الفهري ، وفاطمة بنت أبي آمنة بن المغيرة أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدّت ، ويروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان ، وعبدة بنت عبد العزى بن فضلة وزوجها عمر بن عبدون ، وهند بنت أبي جهل بن هشام وكانت تحت هشام بن العاص بن وائل ، وكلثوم بنت جدّول كانت تحت عمر ابن الخطاب ، وأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة .

﴿ واتقوا الله الذي أَنتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ يا أيها النبي إِذَا جَآءَكَ المؤمنات يُبَايِعْنَكَ ﴾ الآية وذلك يوم فتح مكة " لما فرغ الرسول صلى الله عليه وسلم من بيعة الرجال وهو على الصَفا وعمر بن الخطاب أسفل منه وهو يبايع النساء بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبلغهن عنه وهند بنت عتبة أمرأة أبي سفيان متنقبة مستنكرة مع النساء خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها فقال النبي صلى الله عليه وسلم " أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً " فرفعت هند رأسها وقالت والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال ، وبايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ولا يسرقن " فقالت هند : إن أبي سفيان رجل شحيح وإني أصيب من ماله هنات ولا أدري أتحل لي أم لا ؟

فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غير فهو لك حلال ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها فقال لها : " وإنك لهند بنت عتبة " قالت : نعم ، فأعفُ عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك فقال : " لا يزنين " فقالت هند أوتزني الحرة ؟ فقال : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ فقالت هند : ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً فأنتم وهم أعلم ، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر ، فضحك عمر حتى استلقى وتبسّم النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ ببهتان يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ وهو أن تقذف ولداً على زوجها وليس منه ، فقالت هند : والله إنّ البهتان يقبح وما تأمرنا إلاّ مكارم الأخلاق ، ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ فقالت : ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء ، فأقرّ النسوة بما أخذ عليهن

. " واختلف العلماء في كيفية بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه النساء ، فأخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون قال : أخبرنا مكي قال : حدثنا عبد الرحمن بن بشر قال : حدثنا سفيان وأخبرنا عبد الله ابن حامد قال : أخبرنا محمد بن جعفر قال : حدثنا بشر بن مطر قال : حدثنا سفيان بن عتبة " عن محمد بن المفكر وسمع أميمة بنت رفيقة تقول :

بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة فقال : فيما استطعتن وأطقتن فقلت : رسول الله أرحم بنا من أنفسنا ، قلت : يا رسول الله صافحنا قال : " إني لا أصافح النساء إنما قولي (لامرأة واحدة) كقولي لمائة امرأة " " .

وأخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون قال : حدثنا أحمد بن محمد بن الحسن قال : حدّثنا محمد بن يحيى قال : حدّثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : كان رسول صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية على أن لا يشركن بالله شيئاً قالت : وما مسّ يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد أمرأة قط الايد أمرأة تملكها ، وقال السعري كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع النساء وعلى يده ثوب مطري .

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا بايع النساء دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه ثم غمس أيديهن فيه ، وقال الكلبي : كان رسول صلى الله عليه وسلم يشرط على النساء وعمر رضي الله عنه يصافحهن .

وأختلف المفسرون في معنى المعروف فقال القرظي : المعروف الذي لا يعصينه فيه ، ربيع : كل ما وافق طاعة الله فهو معروف ، فلم يرض الله لنبيّه أن يطاع في معصية الله . بكر بن

عبد الله المدني : لا يعصينك في كل أمر فيه رشدهن ، مجاهد : لا تخلو المرآة بالرجال ، سعيد ابن المسيب ومحمد بن السائب وعبد الرحمن بن زيد : لا تحلقن ولا تسلقن ولا تحرقن ثوباً ولا ينتفن شعراً ولا يخمشن وجهاً ولا ينشرن شعراً ولا يحدثن الرجال إلا ذا محرم ولا تخلو أمرأة برجل غير ذي محرم ولا تسافر أمرأة ثلاثة أيام مع غير ذي محرم ، ابن عباس : لا ينحن .

(118/760)

ودليل هذا التأويل ما أخبرنا الحسين قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن علي الهمداني قال : حدثنا محمد بن علي بن مخلد الفرقدي قال : حدثنا سليمان الشادكوى قال حدّثنا النعمان بن عبد السلام قال حدّثني عمرو بن فروخ قال : حدثنا مصعب بن نوح قال : أدركت عجوزاً ممن بايعت النبي صلى الله عليه وسلم فحدّثني عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعصينك في معروف قال : النوح وأخبرنا الحسن قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن إسحاق قال : أخبرنا أبو بكر بن سلام قال : حدثنا الحسن بن محمد الزعفراني قال : حدّثنا سعدون قال : حدثنا سليمان بن داود قال حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " هذه النوائح يجعلن يوم القيامة

صفّين صفاً عن اليمين وصفاً وعن الشمال وينبحن كما تنبح الكلاب " .

وأخبرنا الحسين قال : حدثنا السني قال : أخبرني إسحاق بن مروان الخطراني قال :

حدثنا الحسن بن عروة قال : حدّثنا علي بن ثابت الحرري قال : حدّثنا حسان بن حميد

عن سلمة بن جعفر عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تخرج

النائحة من قبرها يوم القيامة شعثاء غبراء عليها جلباب من لعنة ودرع من حرب واضعة

يدها على رأسها تقول : واويلاه ، وملك يقول : آمين ، ثم يكون من ذلك حظها النار " .

وأخبرنا الحسن قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن إسحاق قال : أخبرنا أبو يعلي الموصلي قال

: حدثنا هدية بن خالد قال حدثنا أبان بن يزيد قال : حدثنا يحيى بن أبي كثير أن زيداً

حدّثه أنَّ أبا سلمة حدّثه أن أبا مالك الأشعري حدّثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال : " أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن : الفخر في الإحساب والطعن في الأنساب

والإستسقاء بالنجوم والنياحة " .

وقال : " النائحة إذا لم تتب قبل موتها يقام يوم القيامة عليها سربال من قطران ودرع من

حرب " .

وأخبرنا الحسن قال : أخبرنا ابن حمدان قال : حدّثنا عبد الله بن محمد بن سنان قال : حدّثنا عبد الله بن رجاء العداي قال : حدّثنا عمران بن دوار القطان قال : حدّثنا قتادة عن أبي مرانة العجلي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تصلي الملائكة على نائحة ولا مرنة" .

وأخبرنا الحسن قال : حدّثنا أحمد بن إسحاق قال : حدّثني عمر بن حفص المكاري قال : حدّثنا أبو عتبة قال : حدّثنا فقيه قال : "حدّثنا أبو عامر قال : حدّثني عطاء بن أبي رباح أنّه كان عند ابن عمر وهو يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن النائحة والمسمعة والحالقة والسالقة والواشمة والمتوشمة وقال : "ليس للنساء في إتباع الجنائز أجر" " .

وأخبرنا الحسن قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا يوسف بن عبد الله قال حدّثنا موسى ابن إسماعيل قال : حدّثنا حماد عن أبان بن أبي عياش عن الحسين أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع نائحة فأتاها فضربها حتى وقع خمارها عن رأسها ، فقيل : يا أمير المؤمنين المرأة المرأة قد وقع خمارها ، قال : إنها لا حرمة لها .

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَوَلَّوْاْ قوماً غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ ﴾

وهم اليهود وذلك ان ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المسلمين ويتواصلونهم فيصيبون بذلك من ثمارهم ، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك ﴿ قَدْ يَئِسُواْ ﴾ يعني هؤلاء اليهود ﴿ مِنَ الآخرة ﴾ أن يكون لهم فيها ثواب ﴿ كَمَا يَئِسَ الكفار مِنْ

أَصْحَابِ القبور ﴾ أن يرجعوا إليهم أو يبعثوا .

أخبرنا الشيخ أبو علي بن أبي عمرو الخيري الحرشي قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا محمد ابن خلف بن شُعبة قال : حدّثنا محمد بن سائق قال : حدّثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله سبحانه ﴿ كَمَا يَئِسَ الكفار مِنْ أَصْحَابِ القبور ﴾ قال : هم الكفار أصحاب القبور قد يئسوا من الآخرة .

(120/760)

وأخبرنا أبو علي بن أبي عمرو قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا علي بن سعيد بن جبير النسائي قال : حدّثنا أبو النظر قال : حدّثنا شعبة عن الحكم عن مجاهد ﴿ كَمَا يَئِسَ الكفار مِنْ أَصْحَابِ القبور ﴾ قال : الكفار حين دخلوا قبورهم يئسوا من رحمة الله .

وأخبرنا أبو علي قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا أحمد بن يوسف السلمي قال : حدّثنا موسى قال : حدّثنا شبل عن أبي نجيح عن مجاهد في قوله عزّ وجلّ ﴿ يَئِسُواْ مِنَ الآخرة ﴾ بكفرهم كما يئس الكفّار من الموتى في الآخرة حتى يبين لهم أعمالهم .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمّد بن جعفر قال : حدّثنا علي بن حرب قال : حدّثنا وكيع قال : حدّثنا عبد الله بن حبيب عن أبي ثابت قال : سمعت القاسم بن أبي بزة

يقول في قول الله سبحانه ﴿ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الآخرة كَمَا يَئِسَ الكفار مِنْ أَصْحَابِ القبور ﴾ قال : من كان منهم من الكفار ييأس من الخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 290 . 300 ﴾

(121/760)

وقال الزمخشرى :

سورة الممتحنة

مدنية ، وهي ثلاث عشرة آية «1» [نزلت بعد الأحزاب] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (1) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2)

---

(1) . قوله «مدنية وهي ثلاث عشرة آية» لفظ مكية ومدنية ساقط من النسخة المنقول منها ، ولعله من سهو الناسخ . وفي المصاحف وفي كتب التفسير : أنها مدنية ، ولذا وضعناه في هذه النسخة كما ترى ، ثم رأيت في بعض المصاحف أنها مكية ، لكن آياتها وسبب نزولها يفيدان أنها مدنية ، فليحرر . (ع)

(122/760)

روى أن مولاة لأبى عمرو بن صيفي بن هاشم يقال لها سارة أتت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالمدينة وهو يتجهز للفتح ، فقال لها : أمسلمة جئت ؟ قالت : لا . قال : أفمهاجرة جئت ؟ قالت : لا . قال : فما جاء بك ؟ قالت : كنتم الأهل والموالي والعشيرة ، وقد ذهبت الموالي ، تعنى : قتلوا يوم بدر ، فاحتجت حاجة شديدة «1» فحث عليها بنى عبد المطلب فكسوها وحملوها وزوّدوها ، فأتاها حاطب بن أبى بلتعة وأعطاها عشرة دنانير وكساها بردا ، واستحملها كتابا إلى أهل مكة نسخته : من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة ، اعلموا أنّ رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم يريدكم فخذوا حذركم ، فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر ، فبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عليا وعمارا وعمر وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد - وكانوا فرسانا - وقال : انطلقوا حتى تأتوا

روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة ، فخذوه منها وخلوها ، فإن أبت فاضربوا عنقها ، فأدركوها فجحدت وحلفت ، فهموا بالرجوع فقال على رضى اللّه عنه : واللّه ما كذبنا ولا كذب رسول اللّه ، وسل سيفه ، وقال : أخرجى الكتاب أو تضعي رأسك ، فأخرجته من عقاص شعرها . وروى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمّن جميع الناس يوم الفتح إلا أربعة : هي أحدهم «2» ، فاستحضر رسول اللّه حاطبا وقال :

---

(1) . هكذا ذكره الثعلبي والبغوي والواحدي بغير إسناد . وفيه مخالفة شديدة لما في الصحيحين وهو مخرج فيهما من طريق عبد اللّه بن أبى رافع عن على ومن طريق أبى عبد الرحمن السلمي عن على . وفي رواية لابن حبان عن على خرجت أنا والزبير وطلحة والمقداد ، وأخرجه ابن إسحاق في السيرة قال : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا . قال «لما أجمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم السير إلى مكة كتب حاطب ابن أبى بلتعة إلى قريش كتابا يخبرهم فيه بأمره ، ثم أعطاه امرأة زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة . وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشا . فجعلته في رأسها . ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به . وأتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الخبر من السماء بما فعل حاطب» فذكر القصة ، وذكر الواقدي من طريق يزيد بن رومان ، وسماها كنود وذكر أن الجعل كان عشرة دنانير . وروى الطبري وابن أبى حاتم وأبو يعلى من طريق أبى البختري

عن الحرث عن علي قال «لما أراد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يأتي مكة أسر إلى أناس من أصحابه أنه يريد مكة، فيهم حاطب ابن أبي بلتعة: وأفشى في الناس أنه يريد خيبر - فكتب حاطب - فذكره» وفيه فأخرجته من قبلها .

(2) . هكذا رواه البيهقي في الدلائل وابن مردويه من طريق الحاكم بن عبد الملك عن قتادة عن أنس . وسماهم :

عبد العزيز بن حنظل، ومقيس بن صبابة، وعبد اللّه بن سعد بن أبي سرح، وأم سارة مولاة لقريش ولفظه قريب من لفظ الكتاب وفي الدارقطني من طريق عمر بن عثمان بن عبد الرحمن بن سعيد المخزومي عن أبيه عن جده قال «أمن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الناس إلا أربعة وسماهم، إلا أنه قال «الحويرث بن نقيذ وسارة» وذكره ابن إسحاق بغير إسناد فذكر الخمسة، وقال فيه: وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب» ورواه الدارقطني أيضا والحاكم من طريق مصعب بن سعد عن أبيه، وجعل عوض سارة عكرمة بن أبي جهل . وقال الواقدي في المغازي، وتبعه ابن سعد «أمر النبي صلى اللّه عليه وسلم يوم الفتح بقتل ستة نفر وأربع نسوة: عكرمة وهبار بن الأسود، وعبد اللّه بن حنظل وابن أبي سرح، ومصعب بن صبابة . والحويرث بن نفيل، وهند بنت عتبة، وسارة مولاة عمر بن هاشم ومرينا ومرينة «فقتل منهم ابن حنظل ومقيسا والحويرث» .

ما حملك عليه؟ فقال : يا رسول اللّه ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك . ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكنى كنت امرأ ملصقا في قريش . وروى : عزيزا فيهم ، أى : غريبا ، ولم أكن من أنفسها ، وكل من معكم من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيرى ، فخشيت على أهلى ، فأردت أن أتخذ عندهم يدا ، وقد علمت أن اللّه تعالى ينزل عليهم بأسه . وأن كتابي لا يغنى عنهم شيئا ، فصدّقه وقبل عذره ، فقال عمر : دعنى يا رسول اللّه أضرب عنق هذا المنافق فقال : «وما يدريك يا عمر ، لعل اللّه قد اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» ففاضت عينا عمر وقال . اللّه ورسوله أعلم ، فنزلت . عدى «اتخذ» إلى مفعوليه ، وهما عدوى ، أولياء . والعدوّ : فعول ، من عدا ، كعفوّ من عفا ولكونه على زنه المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد . فإن قلت : تُلْقُونَ بم يتعلق؟ قلت : يجوز أن يتعلق بلا تتخذوا حالا من ضميره وبأولياء صفة له . ويجوز أن يكون استئنافا . فإن قلت : إذا جعلته صفة لأولياء وقد جرى على غير من هوله ، فأين الضمير البارز وهو قولك : تلقون إليهم أنتم بالمودّة؟ قلت : ذلك إنما اشترطوه في الأسماء دون الأفعال ، لو قيل : أولياء ملقين إليهم بالمودّة على الوصف . لما كان بد من الضمير البارز ، والإلقاء عبارة عن إيصال المودّة والإفضاء بها إليهم : يقال ألقى إليه خراشى صدره «1» ، وأفضى إليه بقشوره . والباء

في بِالْمَوَدَّةِ إما زائدة مؤكدة للتعدى مثلها في وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وإما ثابتة على أن مفعول تلقون محذوف ، معناه : تلقون إليهم أخبار رسول اللّه بسبب المودّة إلى بينكم وبينهم . وكذلك قوله تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ أى : تفضون إليهم بمودتكم سرا . أو تسرون إليهم إسرار رسول اللّه بسبب المودّة.

فإن قلت : وَقَدْ كَفَرُوا حال مماذا؟ قلت : إما من لا تَتَّخِذُوا وإما من تُلْقُونَ أى : لا تتولوهم أو توادّونهم وهذه حالهم . وَيُخْرِجُونَ استئناف كالتفسير لكفرهم وعتوّهم .

أو حال من كفروا . وأَنْ تُؤْمِنُوا تعليل ليخرجون ، أى يخرجونكم لإيمانكم . وإِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ متعلق بلا تتخذوا ، يعنى : لا تتولوا أعدائى إن كنتم أوليائى . وقول النحويين في مثله : هو شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه . وتُسِرُّونَ استئناف ، ومعناه : أىّ طائل لكم في إسراركم وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمى لا تفاوت بينهما ، وأنا مطلع رسولي على ما تسرون وَمَنْ يَفْعَلْهُ ومن يفعل هذا الإسرار فقد أخطأ طريق الحق والصواب . وقرأ الجحدري : لما جاءكم ، أى : كفروا لأجل ما جاءكم ، بمعنى : أن ما كان يجب

---

(1) . قوله «يقال ألقى اليه خراشى صدره» في الصحاح «الخرشاء» مثل الحرباء : جلد الحية وقشرة البيضة بعد أن يخرج ما قبلها ، ثم يشبه به كل شيء فيه انتفاخ وتعق كالرغوة ، وقد يسمى البلغم خراشاء . يقال : ألقى خراشى صدره ، اه . (ع)

أن يكون سبب إيمانهم جعلوه سببا لكفرهم . إِنْ يَثْقَفُوكُمْ إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً خالصي العداوة ، ولا يكونوا لكم أولياء كما أنتم وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ بالقتال والشتم ، وتمنوا لو ترتدون عن دينكم ، فإذن مودة أمثالهم ومناصحتهم خطأ عظيم منكم ومغالطة لأنفسكم ونحوه قوله تعالى لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا فإن قلت : كيف أورد جواب الشرط مضارعا مثله ثم قال وَوَدُّوا بلفظ الماضي ؟ قلت : الماضي وإن كان يجرى في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب ، فإن فيه نكتة ، كأنه قيل : وودّوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم ، يعنى :

أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعا : من قتل الأنفس ، وتمزيق الأعراض ، وردّكم كفارا ، وردكم كفارا أسبق المضارّ عندهم وأوّلها ، لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم ، لأنكم بذّالون لها دونه ، والعدوّ أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه .

[سورة الممتحنة (60) : آية 3]

لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3)

لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ أى قراباتكم وَلا أَوْلادُكُمْ الذي توالون الكفار من أجلهم وتتقربون إليهم محاماة عليهم، ثم قال يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وبين أقاربكم وأولادكم يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . . . الآية فما لكم ترفضون حق اللّه مراعاة لحق من يفرّ منكم غدا:

خطأ رأيهم في موالاة الكفار بما يرجع إلى حال من والوه أوّلا، ثم بما يرجع إلى حال من اقتضى تلك الموالاة ثانيا، ليريهم أن ما أقدموا عليه من أى جهة نظرت فيه وجدته باطلا.

قرئ: يفصل ويفصّل، على البناء للمفعول. ويفصل ويفصّل، على البناء للفاعل وهو اللّه عزّ وجل. ونفصل ونفصل، بالنون.

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 4 إلى 5]

قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5)

وقرئ. أسوة وإسوة. وهو اسم المؤتسى به ، أى كان فيهم مذهب حسن مرضى بأن يؤتسى به ويتبع أثره ، وهو قولهم لكفار قومهم ما قالوا ، حيث كاشفوهم بالعداوة وقشروا لهم العصا ، وأظهروا البغضاء والمقت ، وصرحوا بأن سبب عداوتهم وبغضائهم ليس إلا كفرهم باللّه ، وما دام هذا السبب قائما كانت العداوة قائمة ، حتى إن أزالوه وآمنوا باللّه وحده انقلبت العداوة موالاة ، والبغضاء محبة ، والمقت مقة «1» ، فأفصحوا عن محض الإخلاص. ومعنى كَفَرْنا بِكُمْ وبما تعبدون من دون اللّه : أنا لا نعتدّ بشأنكم ولا بشأن آلهتكم ، وما أنتم عندنا على شيء.

فإن قلت : مم استثنى قوله إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ؟ قلت : من قوله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لأنه أراد بالأسوة الحسنة : قولهم الذي حق عليهم أن يأتسوا به ويتخذونه سنة يستنون بها. فإن قلت : فإن كان قوله لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مستثنى من القول الذي هو أسوة حسنة ، فما بال قوله وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ وهو غير حقيق بالاستثناء. ألا ترى إلى قوله قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً؟ قلت : أراد استثناء جملة قوله لأبيه ، والقصد إلى موعد الاستغفار له ، وما بعده مبنىّ عليه وتابع له ، كأنه قال : أنا أستغفر لك وما في طاقتي إلا الاستغفار. فإن قلت : بم اتصل قوله رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا؟ قلت : بما قبل الاستثناء ، وهو من جملة الأسوة الحسنة. ويجوز أن يكون المعنى : قولوا ربنا ، أمرا من اللّه تعالى للمؤمنين بأن يقولوه ، وتعليما منه لهم تتميما لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار ، والائتساء بإبراهيم وقومه

في البراءة منهم ، وتنبيها على الإنابة إلى اللّه والاستعاذة به من فتنة أهل الكفر ، والاستغفار مما فرط منهم . وقرئ : برآء كشركاء ، وبراء كظراف . وبراء على إبدال الضم من الكسر ، كرخال ورباب . وبراء «2» على الوصف بالمصدر . والبراء والبراءة كالظماء والظماءة .

[سورة الممتحنة (60) : آية 6]

لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6)

ثم كرّر الحث على الائتساء بإبراهيم وقومه تقريرا وتأكيدا عليهم ، ولذلك جاء به مصدرا بالقسم لأنه الغاية في التأكيد ، وأبدل عن قوله لَكُمْ قوله لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وعقبه بقوله وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ فلم يترك نوعا من التأكيد إلا جاء به .

---

(1) . قوله «والمقت مقة» أى : محبة . (ع)

(2) . قوله «كرخال ورباب» في الصحاح : الرخل - بكسر الخاء - : الأنثى من أولاد الضأن ، والذكر حمل ، والجمع رخال ورخال أيضا بالضم . وفيه أيضا : «الربى» بالضم على فعلى : الشاة التي وضعت حديثا .

وجمعها رباب بالضم . (ع)

[سورة الممتحنة (60) : آية 7]

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7)

ولما نزلت هذه الآيات : تشدّد المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين ومقاطعتهم ، فلما رأى اللّه عز وجل منهم الجدّ والصبر على الوجه الشديد وطول التمني للسبب الذي يبيح لهم الموالاة والمواصلة : رحمهم فوعدهم تيسير ما تمنوه ، فلما يسر فتح مكة أظفرهم اللّه بأمنيتهم ، فأسلم قومهم ، وتمّ بينهم من التحاب والتصافي ما تمّ . وقيل : تزوّج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمّ حبيبة ، فلانت عند ذلك عريكة أبى سفيان واسترخت شكيمته في العداوة ، وكانت أمّ حبيبة قد أسلمت وهاجرت مع زوجها عبد اللّه بن أبى جحش إلى الحبشة ، فتنصر وأرادها على النصرانية ، فأبت وصبرت على دينها ، ومات زوجها ، فبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى النجاشي فخطبها عليه «1» ، وساق عنه إليها مهرها أربعمائة دينار ، وبلغ ذلك أباها فقال : ذلك الفحل لا يقدع أنفه «2» . وعَسَى وعد من اللّه على عادات الملوك حيث يقولون في بعض الحوائج : عسى أو لعل : فلا تبقى شبهة للمحتاج في تمام ذلك . أو قصد به إطماع المؤمنين ، واللّه

قدير على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لمن أسلم من المشركين.

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 8 إلى 9]

لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)

---

(1) . هكذا ذكره الثعلبي بغير سند. ومجموعه مفرق في أحاديث. وروى أبو داود والحاكم من رواية الزهري عن عروة عن أم حبيبة «أنها كانت تحت عبد الله بن جحش فمات بأرض الحبشة. فزوجها النجاشي النبي صلى الله عليه وسلم وأمهرها عنه أربعة آلاف. وبعث بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع شرحبيل بن حسنة» وروى الحاكم عن الزهري قال «تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبى سفيان. وكانت قبله تحت عبد الله بن جحش الأسدى. وكان قد هاجر بها من مكة إلى الحبشة ثم افتتن وتنصر ومات نصرانيا وأثبت الله الإسلام لأم حبيبة حتى رجعت إلى المدينة فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجها إياه عثمان بن عفان» قال الزهري وزعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى النجاشي فزوجها إياه وساق عنه أربعين أوقية» وروى الواقدي في المغازي ومن طريقه الحاكم من رواية جعفر بن محمد عن أبيه قال

«بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عمرو بن أمية إلى النجاشي خطب عليه أم حبيبة ، وأصدقها من عنده أربعمائة دينار» قال الواقدي : حدثني عبد اللّه بن جعفر عن عبد الواحد بن أبى عون قال : لما بلغ أبا سفيان بن حرب نكاح النبي صلى اللّه عليه وسلم ابنته قال : ذاك الفحل لا يقدع أنفه» وقال أبو نعيم في الدلائل «بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي فزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان وأصدقها عنه أربعمائة دينار ، وبعث بها إليه ، وقال : وكان ذلك في سنة ست من الهجرة بعد رجوعه من خيبر ولا أعلم في ذلك خلافا » .

(2) . قوله «ذلك الفحل لا يقدع أنفه» اى لا يضرب أنفه ولا يكف وذلك لكونه كريما . أفاده الصحاح. (ع)

(127/760)

أَنْ تَبَرُّوهُمْ بدل من الذين لم يقاتلوكم . وكذلك أَنْ تَوَلَّوْهُمْ من الذين قاتلوكم : والمعنى : لا ينهاكم عن مبرّه هؤلاء ، وإنما ينهاكم عن تولى هؤلاء . وهذا أيضا رحمة لهم لتشدّدهم وجدّهم في العداوة متقدّمة لرحمته بتيسير إسلام قومهم ، حيث رخص لهم في صلة من لم يجاهر منهم بقتال المؤمنين وإخراجهم من ديارهم . وقيل : أراد بهم خزاعة

وكانوا صالحوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه. وعن مجاهد:

هم الذين آمنوا بمكة ولم يهاجروا. وقيل: هم النساء والصبيان. وقيل قدمت على أسماء بنت أبى بكر أمّها قتيلة بنت عبد العزى وهي مشركة بهدايا فلم تقبلها ولم تأذن لها في الدخول، فنزلت، فأمرها رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم أن تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن إليها «1». وعن قتادة: نسختها آية القتال وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ وتقضوا إليهم بالقسط ولا تظلموهم.

وناهيك بتوصية اللّه المؤمنين أن يستعملوا القسط مع المشركين به ويتحاموا ظلمهم، مترجمة عن حال مسلم يجترئ على ظلم أخيه المسلم.

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 10 إلى 11]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10) وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11)

(1) . أخرجه الحاكم من طريق المبارك عن مصعب بن ثابت عن عبد اللّه بن الزبير عن أبيه عن جده قال «قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبى بكر رضى اللّه عنهما . وكان أبو بكر طلقها» فذكره وساقه أتم .

ومن هذا الوجه أحمد والبزار وأبو داود وأبو يعلى والطبري والطبراني وابن أبى حاتم وغيرهم . وحديث أسماء في الصحيحين عن عروة عنها بغير هذا السياق .

(128/760)

إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ سماهنّ مؤمنات لتصديقهنّ بألسنتهنّ ونطقهنّ بكلمة الشهادة ولم يظهر منهنّ ما ينافي ذلك . أو لأنهنّ مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان فَامْتَحِنُوهُنَّ فابتلوهن بالحلف والنظر في الأمارات ليغلب على ظنونكم صدق إيمانهن ، وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول للممتحنة : «باللّه الذي لا إله إلا هو ما خرجت من بغض زوج ، باللّه ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، باللّه ما خرجت التماس دنيا ، باللّه ما خرجت إلا حبا للّه ولرسوله» «1» اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ منكم لأنكم لا تكسبون فيه علما تطمئن معه نفوسكم ، وإن استحلفتموهن ورزتم أحوالهن ، وعند اللّه حقيقة العلم به فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ العلم الذي تبلغه طاقتكم وهو الظن الغالب بالحلف وظهور الأمارات فَلا

تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ فلا تردّوهن إلى أزواجهن المشركين، لأنه لأحل بين المؤمنة والمشرك «2» وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وأعطوا أزواجهنّ مثل ما دفعوا إليهنّ من المهور، وذلك أن صلح الحديبية كان على أن من

---

(1). أخرجه الطبراني والطبري من رواية الأغر بن الصباح عن خليفة بن حصين عن أبى بهز الأسدى. قال سئل ابن عباس - فذكره أتم سياقا منه. قال البزار لا نعلمه عن ابن عباس إلا من هذا الوجه. ورواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة مرسلا. [.....]

(2). قال محمود: «معناه لأحل بين المؤمنة والمشرك» قال أحمد: هذه الآية مما استدل بها على خطاب الكفار بالفروع لأنه تعالى قال لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ والضمير الأول للمؤمنات، والثاني الكفار، والمراد به يحرمن على الكفار لأن قسيمه متفق على أن المراد به تحريم الكفار على المؤمنات، فيكون كل من القبيلين المؤمنات والكفار مخاطبا بالحرمة، ولما كان المذهب المعزى إلى أصحاب أبى حنيفة أن الكفار غير مخاطبين لك الزمخشري يتفسر الآية ما يوافق ذلك، فحملها على أن المراد نفى الحل بين المؤمنة والكافر على الإجمال، حتى لا يتمحض نسبة الحرمة إلى الكافر، وهذا لا متخلص فيه فان الحل المنفي بين المؤمنة والكافر إلى الحرمة، لا بد وأن يتعلق بفعل أحدهما أو كليهما، إذ هو حكم فان تعلق بفعل كل واحد منهما أعنى التمكين من المرأة والفعل من الرجل: تحقق خطاب الكافر بالحرمة، وتعليقه بفعل المرأة دون فعل الرجل: يأباه نظم الآية، فانه نفى الحل من الجهتين جميعا ولو كان كذلك

، لكفى قوله وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ والتحقيق الممتحن على قواعد الأصول : هو ما نذكره إن شاء اللّه تعالى فنقول : كل من فعلى المؤمنة والكافر ينفى عنه الحل بالتفسير اللائق ، فأما فعل المؤمنة وهو التمكين فلا شك في تعلق الحرمة للشرع . باعتبار أنها مخاطبة بأن لا يحصل في الوجود على وجه لو حصل لكانت متوعدة على حصوله وأما فعل الكافر وهو الوطء مثلا ، فمنفى حله باعتبار أن الشرع قصد إلى أن لا يحصل الوطء ، لما يشتمل عليه من المفسدة ، وللشرع قصد في أن لا تقع المفاسد ، وليس الكافر موردا للخطاب ، ولكن الأئمة مثلا أو من يقوم مقامهم .

مخاطبون بأن يمنعوا الكافر كى لا يقع هذا الفعل المنطوى على المفسدة في نظر الشرع ، فكلا الفعلين إذا من جانب المرأة والرجل غرض في أن لا يقع ، لكن مورد الخطاب المنطوى على السلامة من المفسدة في حق المرأة هي وفي حق الكافر الأئمة مثلا ، ويتفق المختلفون فيه في خطاب الكفار على أن للشرع غرضا في أن لا تحصل المفاسد في الوجود . ألا ترى أن الكافر إذا جهر بالفساد بين المسلمين يتفق على وجوب ردعه عن ذلك ومنعه عنه ، وما ذاك إلا لما فهم عن الشرع من طلب سلامة الوجود عن المفاسد ، ومورد الخطاب يردع الكافر كى لا يجهر بالفساد يعم الأئمة ، واللّه الموفق .

أتاكم من أهل مكة ردّ إليهم ، ومن أتى منكم مكة لم يردّ إليكم ، وكتبوا بذلك كتابا وختموه ، فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية مسلمة والنبي صلى اللّه عليه وسلم بالحديبية ، فأقبل زوجها مسافر المخزومي . وقيل صيفي بن الراهب فقال : يا محمد ، اردد علىّ امرأتى فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا ، وهذه طينة الكتاب لم تجف ، فنزلت بيانا لأن الشرط إنما كان في الرجال دون النساء «1» . وعن الضحاك : كان بين رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وبين المشركين عهد :

أن لا تأتيك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا ، فإن دخلت في دينك ولها زوج أن تردّ على زوجها الذي أنفق عليها ، وللنبي صلى اللّه عليه وسلم من الشرط مثل ذلك .

وعن قتادة : ثم نسخ هذا الحكم وهذا العهد براءة ، فاستحلفها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فحلفت ، فأعطى زوجها ما أنفق وتزوّجها عمر . فإن قلت : كيف سمى الظنّ علما في قوله فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ ؟

قلت : إيذانا بأن الظن الغالب وما يفضى إليه الاجتهاد والقياس جار مجرى العلم ، وأن صاحبه غير داخل في قوله وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فإن قلت : فما فائدة قوله اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ وذلك معلوم لا شبهة فيه ؟ قلت : فائدته بيان أن لا سبيل لكم إلى ما تطمئن به النفس ويثلج به الصدر من الإحاطة بحقيقة إيمانهن ، فإنّ ذلك مما استأثر به علام الغيوب ،

وأن ما يؤدى إليه الامتحان من العلم كاف في ذلك ، وأن تكليفكم لا يعدوه ، ثم نفى عنهم الجناح في تزوّج هؤلاء المهاجرات إذا آتوهنّ أجورهنّ أى مهورهنّ ، لأن المهر أجر البضع ، ولا يخلو إما أن يراد بها ما كان يدفع إليهنّ ليدفعنه إلى أزواجهنّ فيشترط في إباحة تزوجهنّ تقديم أدائه ، وإما أن يراد أن ذلك إذا دفع إليهنّ على سبيل القرض ثم تزوجن على ذلك لم يكن به بأس ، وإما أن يبين لهم أن ما أعطى أزواجهنّ لا يقوم مقام المهر وأنه لا بد من إصداق ، وبه احتج أبو حنيفة على أن أحد الزوجين إذا خرج من دار الحرب مسلما أو بذمة وبقي الآخر حربيا : وقعت الفرقة ، ولا يرى العدة على المهاجرة ويبيح نكاحها إلا أن تكون حاملا وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ والعصمة ما يعتصم به من عقد وسبب ، يعنى : إياكم وإياهنّ ، ولا تكن بينكم وبينهنّ عصمة ولا علقة زوجية . قال ابن عباس : من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدنّ بها من نسائه ، لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه . وعن النخعي : هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر .

وعن مجاهد : أمرهم بطلاق الباقيات مع الكفار ومفارقتهن وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا من مهور نسائهم المهاجرات . وقرئ : ولا تمسكوا بالتخفيف . ولا تمسكوا بالتثقيل . ولا تمسكوا ، أى : ولا تتمسكوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يعنى جميع ما ذكر في هذه الآية يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ كلام مستأنف . أو حال من حكم الله على

(1) . هكذا ذكره البغوي عن ابن عباس بغير سند .

(130/760)

حذف الضمير ، أي : يحكمه اللّه . أو جعل الحكم حاكما على المبالغة . روى أنها لما نزلت هذه الآية أدى المؤمنون ما أمروا به من أداء مهور المهاجرات إلى أزواجهنّ المشركين ، وأبى المشركون أن يؤدوا شيئًا من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين ، فنزل قوله وَإِنْ فاتَكُمْ وإن سبقكم وانفلت منكم شَيْءٌ من أزواجكم : أحد منهن إلى الكفار ، وهو في قراءة ابن مسعود : أحد . فإن قلت : هل لإيقاع شيء في هذا الموقع فائدة ؟ قلت : نعم ، الفائدة فيه : أن لا يغادر شيء من هذا الجنس وإن قل وحقر ، غير معوض منه تغليظا في هذا الحكم وتشديدا فيه فَعاقَبْتُمْ من العقبة وهي التوبة : شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة ، وأولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره . ومعناه : فجاءت عقبتكم من أداء المهر ، فآتوا من فاتته امرأته إلى الكفار مثل مهرها من مهر المهاجرة ، ولا تؤتوه زوجها الكافر ، وهكذا عن الزهري : يعطى من صداق من لحق بهم . وقرئ : فأعقبتم . فعقبتم بالتشديد . فعقبتم بالتخفيف ، بفتح القاف وكسرها ، فمعنى أعقبتم : دخلتم في العقبة ، وعقبتم : من عقبه إذا قفاه ، لأنّ

كل واحد من المتعاقبين يقفى صاحبه ، وكذلك عقبتم بالتخفيف ، يقال : عقبه يعقبه .

وعقبتم نحو تبعتم . وقال الزجاج :

فعاقبتم فأصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم ، والذي ذهبت زوجته كان يعطى من الغنيمة المهر ، وفسر غيرها من القراآت فكانت العقبى لكم ، أى : فكانت الغلبة لكم حتى غنمتم .

وقيل : جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين راجعة عن الإسلام ست نسوة :

أم الحكم بنت أبى سفيان كانت تحت عياض بن شداد الفهري ، وفاطمة بنت أبى أمية كانت تحت عمر بن الخطاب وهي أخت أم سلمة ، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان ، وعبدة بنت عبد العزى بن نصلة وزوجها عمرو بن عبدودّ ، وهند بنت أبى جهل كانت تحت هشام بن العاص . وكلثوم بنت جرول كانت تحت عمر ، فأعطاهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة «1» .

[سورة الممتحنة (60) : آية 12]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12)

(1) . هكذا ذكره الثعلبي ثم البغوي عن ابن عباس بلا إسناد .

وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وقرئ : يقتلن ، بالتشديد ، يريد : وأد البنات وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هو ولدى منك .

كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذبا ، لأنّ بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فيما تأمرهن به من المحسنات وتنهاهنّ عنه من المقبحات . وقيل : كل ما وافق طاعة اللّه فهو معروف . فإن قلت : لو اقتصر على قوله وَلا يَعْصِينَكَ فقد علم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لا يأمر إلا بمعروف ؟ قلت : نبه بذلك على أنّ طاعة المخلوق في معصية الخالق جديرة بغاية التوقي والاجتناب . وروى أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال :

أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا «1» وعمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه ، وهند بنت عتبة امرأة أبى سفيان متقنعة متنكرة خوفا من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يعرفها «2» فقال عليه الصلاة والسلام : «أبايعكن

على أن لا تشركن بالله شيئا فرفعت هند رأسها وقالت : والله لقد عبدنا الأصنام وإنك لتأخذ علينا أمرا ما رأيناك أخذته على الرجال تبايع الرجال على الإسلام والجهاد ، فقال عليه الصلاة والسلام : و«لا يسرقن» «3» فقالت : إنّ أبا سفيان رجل شحيح ، وإنى أصبت من ماله هنات ، فما أدرى ، أتحل لي أم لا . فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها فقال لها : وإنّك لهند بنت عتبة ؟ قالت : نعم فاعف عما سلف يا نبى الله عفا الله عنك ، فقال : «ولا يزنين» ، فقالت : أو تزنى الحرة ؟ وفي رواية : ما زنت منهن امرأة قط ، فقال عليه الصلاة والسلام «ولا يقتلن أولادهن» فقالت : ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا فأنتم وهم أعلم ، وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر ، فضحك عمر حتى استلقى ، وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «ولا يأتين ببهتان» فقالت :

والله إنّ البهتان لأمر قبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : «ولا يعصينك في معروف» فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء . وقيل في كيفية

---

(1) . لم أره بسياقه لكن أخرجه الطبري بمعناه وأخص منه من طريق العوفى عن ابن عباس . وأخرجه ابن أبى حاتم من طريق مقاتل بن حيان . وفيه قول هند : ربيناهم صغارا وقتلتموهم كبارا ، فضحك عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى استلقى .

(2) . قوله «خوفا من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يعرفها» لما صنعت بحمزة، كذا في النسفي، وذلك في غزوة أحد . (ع)

(3) . قوله «فقال عليه السلام ولا يسرقن» في النسفي قبل هذا : فبايع عمر النساء على أن لا يشركن باللّه شيئا . (ع)

(132/760)

المبايعة : دعا بقدح من ماء فغمس فيه يده، ثم غمسن أيديهن «1» . وقيل صافحهن وكان على يده ثوب قطري «2» . وقيل كان عمر يصافحهن عنه «3»

[سورة الممتحنة (60) : آية 13]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ (13)

روى أنّ بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم «4» . فقيل لهم لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً مغضوبا عليهم قَدْ يَئِسُوا من أن يكون لهم حظ في الآخرة لعنادهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وهم يعلمون أنه الرسول المنعوت في التوراة كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء . وقيل مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ بيان للكفار، أى : كما يئس

الكفار الذين قبروا من خير الآخرة، لأنهم تبينوا قبح حالهم وسوء منقلبهم.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة «5». انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 510. 521﴾

---

(1). أخرجه ابن سعد عن الواقدي عن أسامة بن زيد عن عمرو بن شعيب نحوه، وله شاهد في الطبراني عن عروة بن مسعود، وآخر في تاريخ أصبهان لأبى نعيم في حرف الحاء من حديث أسماء بنت يزيد.

(2). رواه أبو داود في المراسيل عن الشعبي «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين بايع النساء أتى ببرد قطري فوضعه على يده. وقال: لا أصافح النساء» وروى عبد الرزاق عن الثوري عن منصور عن إبراهيم النخعي قال «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يصافح النساء على يده ثوب قطري».

(3). أخرجه ابن حبان والطبراني والبزار وأبو يعلى والطبري وغيرهم من حديث أم عطية قالت «لما قدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المدينة أمر نساء الأنصار فجمعهن في بيت ثم أرسل إليهن عمر. فجاء عمر فسلم - فذكر القصة - وفيها: ثم مد يده من خارج البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت.

(4). قال محمود «كان طائفة من ضعفاء المسلمين قد والوا اليهود ليصيبوا من أثمارهم، فنزلت هذه الآية، والمراد بالكفار المشركون... الخ» قال أحمد: قد كان الزمخشري ذكر

في قوله وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ إلى قوله وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا أن آخر الآية استطراد ، وهو فن من فنون البيان مبوب عليه عند أهله ، وآية الممتحنة هذه ممكنة أن تكون من هذا الفن جدا ، فانه ذم اليهود واستطرد ذمهم بذم المشركين على نوع حسن من النسبة ، وهذا لا يمكن أن يوجد للفصحاء في الاستطراد أحسن ولا أمكن منه ، ومما صدروا هذا الفن به قوله :

إذا ما اتقى اللّه الفتى وأطاعه فليس به بأس وإن كان من جرم

وقوله : إن كنت كاذبة التي حدثتني فنجوت منجى الحرث بن هشام

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام

(5) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى اللّه عنه .

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾

سبب نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أرد التوجه إلى مكة أظهر أنه يريد خيبر ،

وكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة أن النبي صلى الله عليه وسلم خارج إليهم وأرسل مع امرأة ذكر أنها سارة مولاة لبني عبد المطلب ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فأنفذ علياً وأبا مرثد ، وقيل عمر بن الخطاب ، وقيل الزبير رضي الله عنهم ، وقال لهما ، اذهبا إلى روضة خاخ فإنكم ستلقون بها امرأة معها كتاب فخذاه وعودا ، فأتيا الموضع فوجداها والكتاب معها ، فأخذاه وعادا ، فإذا هو كتاب حاطب فقال عمر : ائذن لي يا رسول الله أضرب عنقه فقد خان الله ورسوله فقال صلى الله عليه وسلم قد شهد بدراً ، فقالوا : بلى ولكنه قد نكث وظاهر أعداءك عليك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم إني بما تعملون خبير . ففاضت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم [ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاطب] ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا رسول الله كنت امرأ مصلقاً من قريش وكان لي بها مال فكتبت إليهم بذلك ، والله يا رسول الله إني لمؤمن بالله ورسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق حاطب فلا تقولوا له إلآ خيراً . فنزلت هذه الآية والتي بعدها .

وفي قوله تعالى : ﴿ تسرون إليهم بالمودة ﴾ وجهان :

أحدهما : تعلمونهم سراً أن بينكم وبينهم مودة .

الثاني : تعلمونهم سراً بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم بمودة بينكم وبينهم .

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة ﴾ ذكر الكلبي والفراء أنه أراد حاطب بن أبي بلتعة ، وفيها وجهان :

أحدهما : سنة حسنة ، قاله الكلبي .

الثاني : عبرة حسنة ، قاله ابن قتيبة .

﴿ في إبراهيم والذين معه ﴾ من المؤمنين .

﴿ إذ قالوا لقومهم ﴾ يعني من الكفار .

(134/760)

﴿ إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله ﴾ فتبرؤوا منهم فهلا تبرأت أنت يا حاطب من كفار أهل مكة ولم تفعل ما فعلته من مكاتبتهم وإعلامهم .

ثم قال : ﴿ كفرنا بكم ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : كفرنا بما آمنتم به من الأوثان .

الثاني : بأفعالكم وكذبنا بها .

﴿ وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك . . . ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تأسوا بإبراهيم في فعله واقتدوا به إلا في الاستغفار لأبيه فلا تقتدوا به فيه ، قاله قتادة .

الثاني : معناه إلا إبراهيم فإنه استثنى أباه من قومه في الاستغفار له ، حكاه الكلبي .

﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : معناه لا تسلطهم علينا فيفتنونا ، قاله ابن عباس .

الثاني : لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فنصير فتنة لهم فيقولوا لو كانوا على حق ما عذبوا ، قاله مجاهد ، وهذا من دعاء إبراهيم عليه السلام .

﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أهل مكة حين أسلموا عام الفتح فكانت هي المودة التي صارت بينهم وبين المسلمين ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنه إسلام أبي سفيان .

وفي مودته التي صارت منه قولان :

أحدهما : تزويج النبي صلى الله عليه وسلم بأم حبيبة بنت أبي سفيان فكانت هذه مودة بينه وبين أبي سفيان ، قاله مقاتل .

الثاني : أن النبي صلى الله عليه وسلم استعمل أبا سفيان على بعض اليمن فلما قبض رسول الله أقبل فلقي ذا الخمار مرتداً ، فقاتله فكان أول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين

، فكانت هذه المودة ، قاله الزهيري .

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴾ الآية . فيهم أربعة أوجه :

أحدها : أن هذا في أول الأمر عند موادعة المشركين ، ثم نسخ بالقتال ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنهم خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناف كان لهم عهد فأمر الله أن يبروهم بالوفاء ، قاله مقاتل .

(135/760)

الثالث : أنهم النساء والصبيان لأنهم ممن لم يقاتل ، فأذن الله تعالى ببرهم ، حكاه بعض المفسرين .

الرابع : ما رواه عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه أن أبا بكر رضي الله عنه طلق امرأته قتيلة في الجاهلية وهي أم أسماء بنت أبي بكر ، فقدمت عليهم في المدة التي كانت فيها المهادنة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش ، فأهدت إلى أسماء بنت أبي بكر قرطاً وأشياء ، فكرهت أن تقبل منها حتى أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له ، فأنزل الله هذه الآية .

﴿ وتقسطوا إليهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني وتعدلوا فيهم ، قاله ابن حبان فلا تغلوا في مقاربتهم ، ولا تسرفوا في مباعدتهم .

الثاني : معناه أن تعطوهم قسطاً من أموالكم ، حكاه ابن عيسى .

ويحتمل ثالثاً : أنه الإنفاق على من وجبت نفقته منهم ، ولا يكون اختلاف الدين مانعاً من استحقاقها .

﴿ يأيها الذين ءامنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن ﴾ لأنه يعلم بالامتحان ظاهر إيمانهن والله يعلم باطن إيمانهن ، ليكون الحكم عليهن معتبراً بالظاهر وإن كان معتبراً بالظاهر والباطن .

والسبب في نزوله هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم هادن قريشاً عام الحديبية فقالت قريش على أن ترد علينا من جاءك منا ، ونرد عليك من جاءنا منك ، فقال على أن أرد عليكم من جاءنا منكم ولا تردوا علينا من جاءكم منا ممن اختار الكفر على الإيمان ، فقعد الهدنة بينه وبينهم على هذا إلى أن جاءت منهم امرأة مسلمة وجاؤوا في طلبها ، واختلف فيها على أربعة أقاويل :

أحدها : أنها أميمة بنت بشر كانت عند ثابت بن الدحداحة ففرت منه وهو يومئذ كافر ، فتزوجها سهل بن حنيف فولدت له عبد الله ، قاله يزيد بن أبي حبيب .

الثاني : أنها سعيدة زوج صيفي بن الراهب مشرك من أهل مكة ، قاله مقاتل .

الثالث : أنها أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وهذا قول كثير من أهل العلم .

الرابع : أنها سبيعة بنت الحارث الأسلمية جاءت مسلمة بعد فراغ النبي صلى الله عليه وسلم من كتاب الهدنة في الحديبية ، فجاء زوجها واسمه مسافر وهو من قومها في طلبها ، فقال يا محمد شرطت لنا رد النساء ، وطين الكتاب لم يجف ، وهذه امرأتي فارددها عليّ ، حكاه الكلبي .

فلما طلب المشركون رد من أسلم من النساء منع الله من ردهن بعد امتحان إيمانهن بقوله تعالى : ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ واختلف أهل العلم هل دخل النساء في عقد الهدنة لفظاً أو عموماً :

فقالت طائفة منهم قد كان شرط ردهن في عقد الهدنة لفظاً صريحاً ، فنسخ الله ردهن من العقد ومنع منه ، وأبقاه في الرجال على ما كان ، وهذا يدل على أن للنبي صلى الله عليه وسلم أن يجتهد برأيه في الأحكام ولكن لا يقره الله تعالى على خطأ .

وقالت طائفة من أهل العلم : لم يشترط ردهن في العقد لفظاً وإنما أطلق العقد في رد من

أسلم ، فكان ظاهر العموم اشتماله عليهن مع الرجال ، فبين الله خروجهن عن العموم ، وفرق بينهن وبين الرجال لأمرين :

أحدهما : أنهن ذوات فروج يحرمن عليهم .

الثاني : أنهن أرأف قلوباً وأسرع تقلباً منهم .

فأما المقيمة على شركها فمردودة عليهم ، وقد كانت من أرادت منهن إضرار زوجها قالت سأهاجر إلى محمد فلذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامتحانهن .

واختلف فيما كان يمتحنهن به على ثلاثة أقويل :

أحدها : ما رواه ابن عباس أنه كان يمتحنها بأن تحلف بالله أنها ما خرجت من بغض زوجها ولا رغبة من أرض إلى أرض ولا التماس دينا ولا عشقاً لرجل منا ، وما خرجت إلا حباً لله ولرسوله .

والثاني : بأن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قاله عطية العوفي .

الثالث : بما بينه الله في السورة من قوله تعالى : ﴿ يأيها النبي إذا جاءك المؤمنات ﴾ فهذا معنى قوله : ﴿ فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن ﴾ يعني بما في قلوبهن بعد امتحانهن .

﴿ فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هنّ حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ يعني أن المؤمنات محرمات على المشركين من عبدة الأوثان ، والمرتدات محرمات على المسلمين .

ثم قال تعالى : ﴿ وءاتوهم ما أنفقوا ﴾ يعني بما أنفقوا مهور من أسلم منهن إذا سأل ذلك أزواجهن ، وفي دفع ذلك إلى أهلهن من غير أزواجهن قولان :

ثم قال تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن ﴾ يعني المؤمنات اللاتي أسلمن غير أزواج مشركين ، أباح الله نكاحهن للمسلمين إذا انقضت عدتهن أو كن غير مدخول بهن .

﴿ إذا ءاتيتموهن أجورهن ﴾ يعني مهورهن .

﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن العصمة الجمال قاله ابن قتيبة .

الثاني : العقد ، قاله الكلبي .

فإذا أسلم الكافر عن وثنية لم يمسك بعصمتها ولم يقم نكاحها رغبة فيها أو في قومها ، فإن الله قد حرم نكاحها عليه والمقام عليها ما لم تسلم في عدتها .

فروى موسى بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه أنه قال : لما نزلت هذه الآية طلقت أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وطلق عمر بن الخطاب قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها بعده معاوية بن سفيان في الشرك ، وطلق أم كلثوم بنت أبي جرول الخزاعية أم

عبد الله بن عمر فتزوجها بعده خالد ابن سعيد بن العاص في الإسلام .

﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ﴾ يعني أن للمسلم إذا ارتدت زوجته إلى المشركين من ذوي العهد المذكور أن يرجع عليه بمهر زوجته كما ذكرنا وأن للمشرك أن يرجع بمهر زوجته إذا أسلمت فإن لم يكن بيننا وبينهم عهد شرط فيه الرد فلا يرجع .

ولا يجوز لمن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأئمة أن يشرط في عقد الهدنة رد من أسلم لأن الرسول كان على وعد من الله بفتح بلادهم ودخولهم في الإسلام طوعاً وكرهاً فجاز له ما لم يجز لغيره .

﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار ﴾ الآية . والمعنى أن من فاته زوجته بارتدادها إلى أهل العهد المذكور ولم يصل إلى مهرها منهم ثم غنمهم المسلمون ردوا عليه مهرها .

وفي المال الذي يرد منه هذا المهر ثلاثة أقاويل :

أحدها : من أموال غنائمهم لاستحقاقها عليهم ، قاله ابن عباس .

الثاني : من مال الفيء ، قاله الزهري .

الثالث : من صداق من أسلمن منهن عن زوج كافر ، وهو مروي عن الزهري أيضاً . وفي قوله تعالى : ﴿ فعاقبتم ﴾ ثلاثة تأويلات :

أحدها : معناه غنمتم لأخذه من معاقبة الغزو ، قاله مجاهد والضحاك .

الثاني : معناه فأصبتم من عاقبة من قتل أو سبي ، قاله سفيان .

الثالث : عاقبتم المرتدة بالقتل فلزوجها مهرها من غنائم المسلمين ، قاله ابن بحر .

وهذا منسوخ لنسخ الشرط الذي شرطه رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم بالحديبية ، وقال عطاء بل حكمها ثابت .

﴿ يأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ﴾ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة عام الفتح وبايعة الرجال جاءت النساء بعدهم للبيعة فبايعهن .

واختلف في بيعته لهن على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه جلس على الصفا [ومعه عمر أسفل منه] فأمره أن يبايع النساء ، قاله مقاتل .

الثاني : أنه أمر أميمة أخت خديجة خالة فاطمة بنت رسول الله بعد أن بايعته ، أن تبايع النساء عنه ، قاله محمد بن المنكدر عن أميمة .

الثالث : أنه بايعهن بنفسه وعلى يده ثوب قد وضعه على كفه ، قاله عامر الشعبي .

وقيل بل وضع قعباً فيه ماء وغمس فيه يده وأمرهن فغمسن أيديهن ، فكانت هذه بيعة النساء .

فإن قيل فما معنى بيعتهن ولسن من أهل الجهاد فتؤخذ عليهن البيعة كالرجال ؟

قيل : كانت بيعته لهن تعريفاً لهن بما عليهن من حقوق الله تعالى وحقوق أزواجهن لأنهن دخلن في الشرع ولم يعرفن حكمه فبينه لهن ، وكان أول ما أخذه عليهن أن لا يشركن بالله شيئاً توحيداً له ومنعاً لعبادة غيره .

(139/760)

﴿ ولا يسرقن ﴾ فروى أن هند بنت عتبة كانت متنكرة عند أخذ البيعة على النساء خيفة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صنعته بحمزة وأكلها كبده ، فقالت حين سمعته في أخذ البيعة عليهن يقول : ﴿ لا يسرقن ﴾ والله إني لا أصيب من أبي سفيان إلا قوتنا ما أدري أيحل لي أم لا ، فقال أبو سفيان : ما أصبت مما مضى أو قد بقي فهو لك حلال ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها فقال : " أنت هند " ؟ فقالت عفا اللَّه عما سلف .

ثم قال : ﴿ ولا يزنين ﴾ فقالت هند يا رسول الله أو تزني الحرة ؟

ثم قال : ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ لأن العرب كانت تئد البنات ، فقالت هند : أنت قتلتهم يوم بدر ، وأنت وهم أبصر .

وروى مقاتل أنها قالت : ربيناهم صغاراً وقتلتوهم كباراً فأنتم وهم أعلم ، فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى .

﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه السحر ، قاله ابن بحر .

الثاني : المشي بالنميمة والسعي في الفساد .

والثالث : وهو قول الجمهور ألا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن لأن الزوجة كانت تلتقط ولداً وتلحقه بزوجها ولداً ، ومعنى ﴿ يفترينه بين أيديهن ﴾ ما أخذته لقيطاً ، ﴿ وأرجلهن ﴾ ما ولدته من زنى ، وروي أن هنداً لما سمعت ذلك قالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، وما تأمر إلا بالأرشد ومكارم الأخلاق .

ثم قال : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أن المعروف ها هنا الطاعة لله ولرسوله ، قاله ميمون بن مهران .

الثاني : ما رواه شهر بن حوشب عن أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعصينك في معروف قال : هو النوح .

الثالث : أن من المعروف ألا تخمش وجهها ولا تنشر شعرها ولا تشق جيباً ولا تدعو ويلاً

، قاله أسيد بن أبي أسيد .

الرابع : أنه عام في كل معروف أمر الله ورسوله به ، قاله الكلبي .

فروي أن هنداً قالت عند ذلك : ما جلسنا في مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعطيك من شيء وهذا دليل على أن طاعة الولاة إنما تلزم في المعروف المباح دون المنكر المحظور .

﴿ يأيها الذين ءامنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم اليهود ، قاله مقاتل .

الثاني : أنهم اليهود والنصارى ، قاله ابن مسعود .

الثالث : جميع الكفار ، قاله مجاهد .

﴿ قد يئسوا من الأخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس الكفار مِنْ بعث مَنْ في القبور ، قاله ابن عباس .

الثاني : قد يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس أصحاب القبور بعد المعاينة من ثواب الآخرة لأنهم تيقنوا العذاب ، قاله مجاهد .

الثالث : قد يئسوا من البعث والرجعة كما يئس منها من مات منهم وقبر .

الرابع : يئسوا أن يكون لهم في الآخرة خير كما يئسوا أن ينالهم من أصحاب القبور خير .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 516.526 ﴾

(141/760)

وقال ابن الجوزى :

سورة الممتحنة

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾

ذكر أهل التفسير أنها : " نزلت في حاطب بن أبي بَلْتَعَة ، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صَيْفيّ بن هاشم أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من مكة إلى المدينة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهَّزُ لفتح مكة ، فقال لها : "أمسلمةً جئتِ ؟" قالتْ : لا ، قال : "فما جاء بكِ ؟" قالت : أنتم الأهل ، والعشيرة ، والموالي ، وقد احتجت حاجةً شديدة ، فقدِمت إليكم لتعطوني .

قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فأين أنتِ من شباب أهل مكة ؟" وكانت مغنية ، فقالت : ما طُلِبَ مني شيءٌ بعد وقعة بدر ، فحثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب ، فَكَسَوْها ، وحملوها ، وأعطَوها ، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة ، فكتب

معها كتاباً إلى أهل مكة ، وأعطاها عشرة دنانير على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة ، [وكتب في الكتاب : مِن حاطب إلى أهل مكة] إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد كم ، فخذوا حذركم .

فخرجت به سارة ، ونزل جبريل فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فعل حاطب .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً ، وعماراً ، والزبير ، وطلحة ، والمقداد ، وأبا مَرْثَدٍ ، وقال : "انطلقوا حتى تأتوا "روضة خاخ" ، فإن فيها ظعينةً معها كتاب من حاطب إلى المشركين ، فخذوه منها ، وخَلُّوا سبيلها ، فإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها" فخرجوا حتى أدركوها ، فقالوا لها : أين الكتاب ؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب ، ففتشوا متاعها فلم يجدوا شيئاً فهمُّوا بالرجوع .

فقال عليٌّ : والله ما كَذَبْنَا ولا كُذِّبْنَا ، وسلَّ سيفه ، وقل أخرجي الكِتابَ ، وإلا ضربت عنقكِ ، فلما رأت الجِدّ أخرجته من ذؤابتها ، فخلَّوا سبيلها ، ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل إلى حاطب ، فأتاه ، فقال له : "هل تعرف الكتاب ؟"

قال : نعم .

قال : "فما حملك على ما صنعت ؟" فقال : يا رسول الله والله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلاَّ ولَه بمكة من يمنع عشيرته ، وكنت [غريباً] فيهم ، وكان أهلي بين ظهرانَيْهم ، فخشيتُ على أهلي ، فأردت أن أَتَّخِذَ عندهم يداً ، وقد علمتُ أن الله ينزل بهم بأسه ، وكتابي لا يغني عنهم شيئاً ، فصدَّقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وَعذَرَهُ ، ونزلت هذه السورة تنهى حاطباً عما فعل ، وتنهى المؤمنين أن يفعلوا كفعله ، فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وما يدريك يا عمر لعل الله اطَّلع على أهل بدر ، فقالوا : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" " وقد أخرج هذا الحديث في "الصحيحين" مختصراً ، وفيه ذكر علي ، وابن الزبير ، وأبي مَرْثَدٍ فقط .

قوله تعالى : ﴿ تلقون إليهم بالمودة ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : أن الباء زائدة ، والمعنى : تلقون إليهم المودَّة ، ومثله ﴿ ومن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلم ﴾ [الحج : 25] ، هذا قول الفراء ، وأبي عبيدة ، وابن قتيبة ، والجمهور .

والثاني : تلقون إليهم أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وسِرَّه بالمودة التي بينكم وبينه ، قاله الزجاج.

قوله تعالى : ﴿ وقد كفروا ﴾ الواو للحال ، وحالهم أنهم كفروا بما جاءكم من الحق ، وهو

القرآن ﴿ يخرجون الرسول وإِيَّاكم ﴾ من مكة ﴿ أن تؤمنوا بالله ﴾ ﴿ إن كنتم خرجتم ﴾ هذا شرط، جوابه، متقدّم، وفي الكلام تقديم وتأخير.

قال الزجاج: معنى الآية: إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء.

قوله تعالى: ﴿ تُسِرُّون إليهم بالمودَّة ﴾ الباء في "المودّة" حكمها حكم الأولى.

قال المفسرون: والمعنى: تُسِرُّون إليهم النصيحة ﴿ وأنا أعلم بما أخفيتم ﴾ من المودَّة للكفار ﴿ وما أعلنتم ﴾ أي: أظهرتم بألسنتكم.

(143/760)

وقال ابن قتيبة: المعنى: كيف تستسرُّون بمودتكم لهم مني وأنا أعلم بما تضمرون وما تظهرون؟!

قوله تعالى: ﴿ ومن يفعلْه منكم ﴾ يعني: الإسرار والإلقاء إليهم ﴿ فقد ضلَّ سواء السبيل ﴾ أي: أخطأ طريق الهدى.

ثم أخبر بعداوة الكفار فقال تعالى: ﴿ إن يثقفوكم ﴾ أي: يظفروا بكم ﴿ يكونوا لكم أعداءً ﴾ لا موالين ﴿ ويبسطوا إليكم أَيديهم ﴾ بالضرب والقتل ﴿ وألسنتَهم بالسوء

﴿ وهو: الشتم ﴾ ﴿ وودُّوا لو تكفرون ﴾ فترجعون إلى دينهم.

والمعنى: أنه لا ينفعكم التقرُّب إليهم، بنقل أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿ لن تنفعَكم أرحامُكم ﴾ أي: قراباتكم.

والمعنى: ذوو أرحامكم، أراد، لن ينفعَكم الذين عصيتم الله لأجلهم، ﴿ يوم القيامة يفصل بينكم ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: "يُفصَل" برفع الياء وتسكين الفاء، ونصب الصاد.

وقرأ ابن عامر "يُفصَّل بينكم" برفع الياء، والتشديد، وفتح الصاد، وافقه حمزة، والكسائي، وخلف إلا أنهم كسروا الصاد.

وقرأ عاصم، غير المفضل، ويعقوب بفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصاد، وتخفيفها.

وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس، وأبو العالية: "نُفصِّل" بنون مرفوعة، وفتح الفاء، مكسورة الصاد مشددة.

وقرأ أبو رزين، وعكرمة، والضحاك: "نَفصِل" بنون مفتوحة، ساكنة الفاء، مكسورة الصاد خفيفة، أي: نفصل بين المؤمن والكافر وإن كان ولده.

قال القاضي أبو يعلى: في هذه القصة دلالة على أن الخوف على المال والولد لا يبيح التقية في إظهار الكفر، كما يبيح في الخوف على النفس، ويبين ذلك أن الله تعالى فرض الهجرة، ولم يعذرهم في التخلُّف لأجل أموالهم وأولادهم.

وإنما ظن حاطب أن ذلك يجوز له ليدفع به عن ولده ، كما يجوز له أن يدفع عن نفسه بمثل ذلك عند التقيَّة ، وإنما قال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق لأنه ظن أنه فعل ذلك عن غير تأويل .

(144/760)

قوله تعالى : ﴿ قد كانت لكم إسوة حسنة في إبراهيم ﴾ وقرأ عاصم : "أُسوة" بضم الألف ، وهما لغتان ، أي : اقتداءٌ حَسَن به وبمن معه ، وفيهم قولان .

أحدهما : أنهم الأنبياء .

والثاني : المؤمنون ﴿ إذ قالوا لقومهم إنا بُرَءاءُ منكم ﴾ قال الفراء : يقول : أفلا تَأَسَّيْتَ يا حاطب بإبراهيم وقومه فتبرَّأت من أهلك كما تبرؤوا من قومهم ؟ !

قوله تعالى : ﴿ إلا قولَ إبراهيم لأبيه ﴾ قال المفسرون : والمعنى : تأسّوا بإبراهيم إلا في استغفار إبراهيم لأبيه فلا تأسَّوا به في ذلك ، فإنه كان عن موعدة وعدها إياه ، ﴿ وما أملك لك من الله من شيء ﴾ أي : ما أدفع عنك عذاب الله إن أشركت به ، وكان من دعاء إبراهيم وأصحابه ﴿ ربنا عليك توكلنا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ قال الفراء : قولوا أنتم : ربنا عليك توكلنا .

وقد بينا معنى قوله تعالى : ﴿ لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ في "يونس" [آية : 85] .

ثم أعاد الكلام في ذكر الأُسوة فقال تعالى : ﴿ لقد كان لكم فيهم ﴾ أي : في إبراهيم ومن معه ، وذلك أنهم كانوا يبغضون من خالف الله .

وقوله تعالى ﴿ لمن كان يرجوا الله ﴾ بدل من قوله تعالى : ﴿ لكم ﴾ وبيان أن هذه الأسوة ، لمن يخاف الله ، ويخشى عقاب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ ومن يتولَّ ﴾ أي : يعرض عن الإيمان ويوال الكفار ، ﴿ فإن الله هو الغني ﴾ عن خلقه ﴿ الحميد ﴾ إلى أوليائه .

فلما أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار عادَوْا أقرباءهم ، فأنزل الله تعالى ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم ﴾ أي : من كفار مكة ﴿ مودة ﴾ ففعل ذلك ، بأن أسلم كثير منهم يوم الفتح ، وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فانكسر أبو سفيان عن كثير مما كان عليه حتى هداه الله للإسلام ، ﴿ والله قدير ﴾ على جعل المودة ﴿ والله غفور ﴾ لهم ﴿ رحيم ﴾ بهم بعدما أسلموا .

قوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدِّين ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال .

أحدها : أنها في أسماء بنت أبي بكر ، وذلك أن أمها قتيلة بنت عبد العُزىَّ ، قَدِمَت عليها المدينة بهدايا ، فلم تقبل هداياها ، ولم تدخلها منزلها ، فسألت لها عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية ، فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تدخلها منزلها ، وتقبل هديتها ، وتكرمها ، وتحسن إليها ، قاله عبد الله بن الزبير .

والثاني : أنها نزلت في خزاعة وبني مدلج ، وكانوا صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ، ولا يعينوا عليه أحداً ، قاله ابن عباس .

وروي عن الحسن البصري أنها نزلت في خزاعة ، وبني الحارث بن عبد مناف ، وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد ، فداموا على الوفاء به .

والثالث : نزلت في قوم من بني هاشم منهم العباس ، قاله عطية العوفي ومرة .

والرابع : أنها عامة في جميع الكفار ، وهي منسوخة بقوله تعالى ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ﴿ التوبة : 5 ﴾ قاله قتادة .

والخامس : نزلت في النساء والصبيان ، حكاه الزجاج .

قال المفسرون : وهذه الآية رخصة في صلة الذين لم ينصبوا الحرب للمسلمين وجواز برِّهم ، وإن كانت الموالاة منقطعة منهم .

قوله تعالى : ﴿ ولم يخرجوكم من دياركم ﴾ أي : من مكة ﴿ أن تبرُّوهم وتقسطوا إليهم ﴾ أي : تعاملوهم بالعدل فيما بينكم وبينهم .

قوله تعالى : ﴿ وظاهروا على إخراجكم ﴾ أي : عاونوا على ذلك ﴿ أن تولَّوهم ﴾ والمعنى : إنما ينهاكم عن أن تَوَلّوا هؤلاء ، لأن مكاتبتهم بإظهار ما أسرَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم موالاة .

وذكر بعض المفسرين أن معنى الآية والتي قبلها منسوخ بآية السيف .

(146/760)

قال ابن جرير : لا وجه لادِّعاء النسخ ، لأن بِرَّ المؤمنين للمحاربين سواء كانوا قرابة أو غير قرابة ، غير محرم إذا لم يكن في ذلك تقوية لهم على الحرب بكراع أو سلاح ، أو دلالة لهم على عورة أهل الإسلام .

ويدل على ذلك حديث أسماء وأُمِّها الذي سبق .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنَّ ﴾ قال ابن عباس : إن مشركي مكة صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحُديبية على أنَّ من أتاه من أهل مكة ردَّه إليهم .

ومن أتى أهل مكة من أصحابه ، فهو لهم ، وكتبوا بذلك الكتاب ، وختموه ، فجاءت سُبَيْعَة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبي بالحُديبية ، فأقبل زوجها وكان كافراً ، فقال : يا محمد : اردد عليّ امرأتي ، فإنك قد شرطت لنا أن تردّ علينا من أتاك منا ، وهذه طينة الكتاب لم تَجِفَّ بعدُ فنزلت هذه الآية .

وذكر جماعة من العلماء منهم محمد ابن سعد كاتب الواقدي أن هذه الآية نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وهي أول من هاجر من النساء الى المدينة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَقَدِمَتْ المدينة في هدنة الحديبية ، فخرج في أثرها أخواها الوليد وُعمارة ابنا عقبة ، فقالا : يا محمد ، أوف لنا بشرطنا ، وقالت أم كلثوم : يا رسول الله ، أنا امرأة ، وحال النساء إلى الضعف ما قد علمت ، فتردّني إلى الكفار يفتنوني عن ديني ، ولا صبر لي ؟ ! فنقض الله عزّ وجل العهد في النّساء ، وأنزل فيهن المحنة ، وحكم فيهنّ بحكم رضوه كلّهم ، ونزل في أم كلثوم ﴿ فامتحنوهنّ ﴾ فامتحنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وامتحن النساء بعدها ، يقول : والله ما أخرجكنّ الا حبُّ الله ورسولِه ، وما خرجتنّ لزوج ولا مال ؟ فإذا قلن ذلك تركن ، فلم يرددن إلى أهليهن .

وقد اختلف العلماء في المرأة التي كانت سبباً لنزول هذه الآية على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها سبيعة ، وقد ذكرناه عن ابن عباس .

والثاني : أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط ، وقد ذكرناه عن جماعة من أهل العلم ، وهو المشهور .

والثالث : أُميمة بنت بشر من بني عمرو بن عوف ، ذكره أبو نعيم الأصبهاني .

قال الماوردي : وقد اختلف أهل العلم هل دخل ردُّ النساء في عقد الهدنة لفظاً أو عموماً ؟ فقالت طائفة : قد كان شرط ردِّهن في لفظ الهدنة لفظاً صريحاً ؛ فنسخ الله تعالى ردَّهن من العقد ، ومنع منه ، وأبقاه في الرجال على ما كان .

وقالت طائفة : لم يشرط ردُّهن في العقد صريحاً ، وإنما أطلق العقد ، وكان ظاهر العموم اشتماله مع الرجال ، فبين الله عز وجل خروجهنَّ عن عمومه ، وفرق بينهن وبين الرجال لأمرين .

أحدهما : أنهن ذوات فروج تحرم عليهم .

والثاني : أنهن أرقُّ قلوباً ، وأسرع تقلُّباً منهم .

فأما المقيمة على شركها فمردودة عليهم .

وقال القاضي أبو يعلى : وإنما لم يردَّ النساء عليهم ، لأن النسخ جائز بعد التمكين من الفعل ، وإن لم يقع الفعل .

قال المفسرون : والمراد بقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، لأنه هو الذي تولّى امتحانهن ، ويراد به سائر المؤمنين عند غيبته صلى الله عليه وسلم .

قال ابن زيد : وإنما أمرنا بامتحانهن ، لأن المرأة كانت إذا غضبت على زوجها بمكة ، قالت : لألحقنَّ بمحمد .

وفيما كان يمتحنهن به ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان يمتحنهن ب "شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله" ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنه كان يستحلف المرأة بالله : ما خرجتِ من بغض زوج ، ولا رغبةً عن أرضٍ إلى أرض ، ولا التماس دنيا ، وما خرجتِ إلا حباً لله ولرسوله ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أنه كان يمتحنهن بقوله تعالى : ﴿ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ فمن أقرت بهذا الشرط قالت : قد بايعتك ، هذا قول عائشة .

قوله تعالى : ﴿ الله أعلم بإيمانهن ﴾ أي : إن هذا الامتحان لكم ، والله أعلم بهن ، ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات ﴾ وذلك يُعلم بإقرارهن ، فحينئذ لا يحل ردُّهن ﴿ إلى الكفار

﴿ [لأن الله تعالى لم يبح مؤمنة لمشرك ﴾ وآتوهم ﴿ يعني أزواجهن الكفار] ﴾ ما أنفقوا ﴿ يعني : المهر .

قال مقاتل : هذا إذا تزوجها مسلم .

فإن لم يتزوجها أحد ، فليس لزوجها الكافر شيء ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهنَّ ﴾ وهي المهور .

فصل

عندنا إذا هاجرت الحرة بعد دخول زوجها بها ، وقعت الفرقة على انقضاء عدتها .

فإن أسلم الزوج قبل انقضاء عدتها فهي امرأته ، وهذا قول الأوزاعي ، والليث ، ومالك ، والشافعي .

وقال أبو حنيفة : تقع الفرقة باختلاف الدارين .

قوله تعالى ﴿ ولا تُمسِكوا بعصم الكوافر ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، "تُمسِكوا" بضم التاء ، والتخفيف .

وقرأ أبو عمرو ، ويعقوب "تُمسِّكوا" بضم التاء ، وبالتشديد .

وقرأ ابن عباس ، وعكرمة ، والحسن ، وابن يعمر ، وأبو حيوة "تَمسّكوا" بفتح التاء ، والميم ، والسين مشددة .

و"الكوافر" جمع كافرة ، والمعنى : إن الله تعالى نهى المؤمنين عن المقام على نكاح الكوافر ،

وأمرهم بفراقهن .

وقال الزجاج : المعنى : أنها إذا كفرت ، فقد زالت العصمة بينها وبين المؤمن ، أي : قد انبت عَقْدُ النكاح ، وأصل العصمة : الحبل ، وكلُّ ما أمسك شيئاً فقد عصمه .

قوله تعالى ﴿ واسألوا ما أنفقتم ﴾ أي : إن لحقت امرأة منكم بأهل العهد من الكفار مرتدَّة ، فاسألوهم ما أنفقتم من المهر إذا لم يدفعوها إليكم ﴿ وليسألوا ما أنفقوا ﴾ يعني : المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم مؤمنات إذا تزوجن منكم ، فليسأل أزواجهن الكفار من تزوجهن "ما أنفقوا" وهو المهر .

والمعنى : عليكم أن تغرموا لهم الصداق كما يغرمون لكم .

قال أهل السِّيَر : وكانت أم كلثوم حين هاجرت عاتقاً لم يكن لها زوج فيبعث إليه قدر مهرها ، فلما هاجرت تزوجت زيد بن حارثة .

قوله تعالى : ﴿ ذلكم حكم الله ﴾ يعني ما ذكر في هذه الآية .

فصل

وذكر بعضهم في قوله تعالى "ولا تمسكوا بعصم الكوافر" أنه نسخ ذلك في حرائر أهل الكتاب

بقوله تعالى :

﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ﴾ [المائدة : 5] ، وهذا تخصيص لا نسخ .

قوله تعالى : ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم ﴾ قال الزجاج : أي : أصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم .

وقرأ ابن مسعود ، والأزهري ، والنخعي : "فعَقَبتم" بغير ألف ، وبفتح العين والقاف ، وبتخفيفها ، وقرأ ابن عباس ، وعائشة ، وحميد ، والأعمش مثل ذلك ، إلا أن القاف مشددة .

قال الزجاج : المعنى : في التشديد والتخفيف واحد ، فكانت العقبى لكم بأن غلبتم .

وقرأ أُبي بن كعب وعكرمة ، ومجاهد : "فأعقبتم" بهمزة ساكنة العين ، مفتوحة القاف خفيفة .

وقرأ معاذ القارىء ، وأبو عمران الجوني : "فعَقِبتم" بفتح العين ، وكسر القاف وتخفيفها من غير ألف ﴿ فآتُوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾ أي : أعطُوا الأزواج من رأس الغنيمة ما أنفقوا من المهر .

وذكر بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في عياض بن غنم ، كانت زوجته مسلمة ، وهي أم الحكم بنت أبي سفيان ، فارتدَّتْ ، فلحقت بمكة ، فأمر الله المسلمين أن يعطُوا زوجها من الغنيمة بقدر ما ساق إليها من المهر ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : ﴿ براءة من الله ورسوله

﴾ [التوبة : 1] إلى رأس الخمس .

فصل

قال القاضي أبو يعلى : وهذه الأحكام في أداء المهر ، وأخذه من الكفار ، وتعويض الزوج من الغنيمة ، أو من صداق قد وجب ردُّه على أهل الحرب ، منسوخة عند جماعة من أهل العلم .

وقد نص أحمد على هذا .

قلت : وكذا قال مقاتل : كل هؤلاء الآيات نسختها آية السيف .

قوله تعالى : ﴿ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ قال المفسرون : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة جاءته النساء يبايعنه ، فنزلت هذه الآية ، وشرط في مبايعتهن الشرائط المذكورة في الآية فبايَعهن ، وهو على الصفا ، فلما قال : ولا يزنين ، قالت هند : أوَتزني الحرة ؟ فقال : ولا يقتلن أولادهن ، فقالت : ربَّيناهم صغاراً فقتلتموهم كباراً ، فأنتم وهم أعلم .

وقد صح في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصافح في البيعة امرأة ، وإنما بايعهن

بالكلام.

وقد سمَّينا من أحصينا من المبايِعات في كتاب "التلقيح" على حروف المعجم، وهن أربعمائة وسبع وخمسون امرأة، والله الموفق.

قوله تعالى: ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ قال المفسرون: هو الوأد الذي كانت الجاهلية تفعله.

قوله تعالى: ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم، قاله ابن عباس، والجمهور، وذلك أن المرأة كانت تلتقط المولود، فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، فذلك البهتان المفترى.

وإنما قال: "بين أيديهن وأرجلهن" لأن الولد إِذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها.

وقيل: معنى "يفترينه بين أيديهن": يأخذنه لقيطا "وأرجلهن" ما ولدنه من زنى.

والثاني: السحر.

والثالث: المشي بالنميمة، والسعي في الفساد، ذكرهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه النَّوح، قاله ابن عباس، وروي مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم.

والثاني: أنه لا يَدْعين ويلاً، ولا يَخدِشْنَ وجهاً، ولا يَنْشُرنَ شعراً، ولا يَشْقُقْنَ ثوباً، قاله زيد بن أسلم.

والثالث : جميع ما يأمرهن به رسول الله صلى الله عليه وسلم من شرائع الإسلام وآدابه ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

وفي هذه الآية دليل على أن طاعة الولاة إنما تلزم في المباح دون المحظور .

(151/760)

قوله تعالى : ﴿ فبايعهن ﴾ المعنى : إذا بايعنك على هذه الشرائط فبايعهن .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولَّوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ وهم اليهود ، وذلك أن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين ، يتقرَّبون إليهم بذلك ليصيبوا من ثمارهم وطعامهم ، فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ قد يئسوا من الآخرة ﴾ وذلك أن اليهود بتكذيبهم محمداً ، وهم يعرفون صدقه ، قد يئسوا من أن يكون لهم في الآخرة خير ، والمعنى : قد يئسوا من ثواب الآخرة ، هذا قول الجمهور ، وهو الصحيح .

وقال قتادة : قد يئسوا أن يبعثوا ، ﴿ كما يئس الكفار ﴾ فيه قولان .

أحدهما : كما يئس الكفار مِن بعث مَن في القبور ، قاله ابن عباس .

والثاني : كما يئس الكفار الذين ماتوا من ثواب الآخرة ، لأنهم أيقنوا بالعذاب ، قاله مجاهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 230.248 ﴾

(152/760)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ الآية

(153/760)

(ق) عن علي بن أبي طالب قال " بعثني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنا والزبير والمقداد فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، قال فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا أخرجي الكتاب فقالت ما معي من كتاب فقلنا لتخرجي الكتاب أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبي (صلى الله عليه وسلم) فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال رسول الله (

صلى الله عليه وسلم) يا حاطب ما هذا فقال يا رسول الله لا تعجل علي إني كنت امراً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي وما فعلته كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إنه قد صدقكم فقال عمر دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقالوا اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء إلى قوله سواء السبيل ﴾ روضة خاخ موضع بقرب حمراء الأسد من المدينة وقيل إنه موضع قريب من مكة والأول أصح والظعينة المرأة المسافرة سميت بذلك لملازمتها الهودج والعقاص الشعر المضفور قال المفسرون نزلت هذه الآية في حاطب بن أبي بلتعة كما جاء في الحديث " وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف أتت المدينة من مكة ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتجهز لفتح مكة فقال لها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمسلمة جئت ؟ قالت لا قال أمهاجرة جئت ؟ قالت لا قال فما جاء بك ؟ قالت كنتم الأهل والعشيرة والموالي وقد

ذهبت موالي وقد احتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني فقال لها وأين أنت من شباب مكة وكانت مغنية نائحة قالت ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر فحث عليها بني عبد المطلب فأعطوها نفقة وكسوها وحملوها فأتاها حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى فكتب معها إلى أهل مكة وأعطاها عشرة دنانير وكساها برداً على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة وكتب في الكتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يريدكم فخذوا حذركم فخرجت سارة ونزل جبريل عليه السلام فأخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) بما فعل فبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) علياً وعماراً والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مرثد فرساناً فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين فخذوه منها وخلوا سبيلها وإن لم تدفعه لكم فاضربوا عنقها فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالوا لها أين الكتاب ؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب فبحثوا وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً فهموا بالرجوع ، فقال علي والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسل السيف وقال أخرجي الكتاب وإلا لأجردنك ولأضربن عنقك فلما رأت الجد أخرجته من ذوائبها وكانت قد خبأته في شعرها فخلوا سبيلها ولم

يتعرضوا لها ولا لما معها ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأرسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى حاطب فأتاه فقال له هل تعرف الكتاب قال نعم قال فما حملك على ما صنعت؟ فقال والله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته وكنت غريباً منهم وكان أهلي بين ظهرانيهم فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ لي عندهم يداً وقد علمت أن الله تعالى ينزل بهم بأسه وأن كتابي لا

يغني عنهم شيئاً فصدقه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعذره فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وما يدريك يا عمل لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم "

﴿ إن يثقفوكم ﴾ أي يظفروا بكم ويروكم ﴿ يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴾ أي بالضرب والقتل والشتم والسب ﴿ وودوا ﴾ أي تمنوا ﴿ لو تكفرون ﴾ أي ترجعون إلى دينهم كما كفروا والمعنى أن أعداء الله لا يخلصون المودة لأولياء الله ولا يناصحونهم لما بينهم من الخلاف فلا تناصحوهم أنتم ولا توادوهم ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ﴾ أي لا يدعونكم ولا يحملنكم ذوو أرحامكم وقراباتكم وأولادكم الذين بمكة إلى خيانة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين وترك مناصحتهم ونقل أخبارهم وموالاة أعدائهم فإنه لا تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم الذين عصيتم الله لأجلهم ﴿ يوم القيامة يفصل بينكم ﴾ أي يدخل أهل طاعته الجنة وأهل معصيته النار ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ قوله تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم ﴾ يخاطب حاطباً ولامؤمنين ويأمرهم بالاقتداء بإبراهيم ، ﴿ والذين معه ﴾ أي من أهل الإيمان ﴿ إذ قالوا لقومهم ﴾ يعني المشركين ﴿ إنا برآء منكم ﴾ جمع بريء ﴿ ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ﴾ أي جحدناكم وأنكرنا دينكم ﴿ وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ والمعنى أن إبراهيم عليه السلام وأصحابه تبرؤوا من قومهم وعادوهم لكفرهم فأمر حاطباً والمؤمنين أن يتأسوا بهم ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ يعني لكم أن تتأسوا بإبراهيم في جميع أموره إلا في الاستغفار لأبيه المشرك فلا تتأسوا به فإن إبراهيم كان قد قال لأبيه لأستغفرن لك فلما تبين

له إقامته على الكفر تبرأ منه ﴿ وما أملك لك من الله من شيء ﴾ هذا من قول إبراهيم لأبيه يعني ما أغني عنك ولا أدفع عنك عذاب الله إن عصيته وأشركت به وإنما وعده بالاستغفار رجاء إسلامه وكان من دعاء إبراهيم ومن معه من المؤمنين ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ أي لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق ،

(157/760)

وقيل معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم ذلك ﴿ واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

(158/760)

﴿ لقد كان لكم فيهم ﴾ يعني في إبراهيم ومن معه ﴿ أسوة حسنة ﴾ أي اقتداء حسن ﴿ لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر ﴾ أي إن هذه الأسوة لمن يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة ﴿ ومن يتول ﴾ أي يعرض عن الإيمان ويوالي الكفار ﴿ فإن الله هو الغني ﴾ أي

عن خلقه ﴿ الحميد ﴾ أي إلى أهل طاعته وأوليائه فلما أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار عادى المؤمنون أقرباءهم المشركين وأظهروا لهم العداوة والبراءة وعلم الله شدة وجد المؤمنين بذلك فأنزل الله تعالى ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم ﴾ أي من كفار مكة ﴿ مودة ﴾ ففعل الله تعالى ذلك بأن أسلم كثير منهم فصاروا لهم أولياء وإخواناً وخالطوهم وناكحوهم وتزوج النبي (صلى الله عليه وسلم) أم حبيبة بنت أبي سفيان ولان لهم أبو سفيان ﴿ والله قدير ﴾ أي على جعل المودة بينكم ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أي لمن تاب منهم وأسلم ثم رخص في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم فقال تعالى: ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ﴾ أي لا ينهاكم الله عن بر الذين لم يقاتلوكم ﴿ وتقسطوا إليهم ﴾ أي وتعدلوا فيهم بالإحسان إليهم والبر ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ أي العادلين قال ابن عباس نزلت في خزاعة وذلك أنهم صالحوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً فرخص الله في برهم وقال عبد الله بن الزبير نزلت في أمه وهي أسماء بنت أبي بكر وذلك أن أمها قتيلة بنت عبد العزى قدمت عليها المدينة بهدايا ضباباً وأقطاً وسمناً وهي مشركة فقالت أسماء لا أقبل منك هدية ولا تدخلي عليّ بيتاً حتى أستأذن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسألته فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمرها رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) أن تدخلها منزلها وأن تقبل هديتها وتكرمها وتحسن إليها " ، (ق) عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما قالت " قدمت على أمي

وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومدتهم فاستفتيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقلت يا رسول الله إن أمي قدمت عليّ وهي راغبة أفأصلها قال نعم صليها " ، زاد في رواية قال ابن عيينة فأنزل الله فيها ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴾ ثم ذكر الله الذي نهى عن صلتهم وبرهم

﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم ﴾ وهم مشركو مكة ﴿ أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾ الآية (خ) عن عروة بن الزبير أنه سمع مروان والمسور بن مخرمة يخبران عن أصحاب رسول الله (صلى الله

عليه وسلم) ، وقال لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ كان فيما اشترط سهيل بن عمرو عن النبي (صلى الله عليه وسلم) إنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه وكره المؤمنون ذلك وأبي سهيل إلا ذلك فكاتبه النبي (صلى الله عليه وسلم) على ذلك فرد يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو ولم يأته أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً وجاءت المؤمنات مهاجرات وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يومئذ وهي عاتق فجاء أهلها يسألون عنها النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يرجعها إليهم فلم يرجعها حتى أنزل الله فيهن ﴿ إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن – إلى – ولا هم يحلون لهن ﴾ قال عروة فأخبرتني عائشة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يمتحن بهذه الآية ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات ﴾ – إلى قوله ﴿ غفور رحيم ﴾ قال عروة قالت عائشة فمن أقرت بهذا الشرط منهن ؟ قال لها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " قد بايعتك " كلاماً يكلمها والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة ولا بايعهن إلا بقوله وقال ابن عباس " أقبل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) معتمراً حتى إذا كان بالحديبية صالحة مشركو مكة على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم ومن أتى مكة من أصحابه لم يردوه إليه وكتبوا بذلك كتاباً وختموا عليه فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة بعد فراغ الكتاب وأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم وقيل هو صيفي بن

الراهب في طلبها وهو كافر فقال يا محمد اردد علي امرأتي فإنك قد شرطت أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طية الكتاب لم تجف بعد فأنزل الله : يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات أي من دار الكفر إلى دار الإسلام فامتحنوهن قال ابن عباس امتحانها أن تستحلف ما خرجت من بغض زوج ولا رغبة عن أرض إلى أرض ولا لحدث أحدثته ولا التماس دنيا وما خرجت إلا رغبة في الإسلام وحباً لله ولرسوله (صلى الله عليه وسلم) فإذا حلفت على ذلك لم يردها فاستحلف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سبيعة فحلفت فلم يردها وأعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها فتزوجها عمر بن الخطاب قال المفسرون المراد بقوله يا أيها الذين آمنوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأنه هو الذي تولى امتحانهن بنفسه فكان يمسك من جاءه من النساء بعد الامتحان ويعطي أزواجهن مهورهن ويرد من جاء من الرجال .

واختلف العلماء هل دخل رد النساء في عقد الهدنة لفظاً أو عموماً فقيل قد كان شرط ردهن في عقد الهدنة لفظاً صريحاً فنسخ الله تعالى ردهن من العقد ومنع منه وأبقاه في الرجال على ما كان في العقد وقيل لم يشترط ردهن في العقد لفظاً صريحاً وإنما أطلق العهد فكان ظاهره العموم لاشتماله على النساء وعلى الرجال فبين الله تعالى خروجهن من عموم العقد وفرق بينهن وبين الرجال في الحكم ، ﴿ الله أعلم بإيمانهن ﴾ أي هذا الامتحان لكم والله أعلم بإيمانهن ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ إي إذا أقررن بالإيمان فلا تردوهن إلى الكفار لأن الله لم يبح مؤمنة لكافر ﴿ وآتوهم ﴾ يعني أزواجهن ﴿ ما أنفقوا ﴾ أي عليهن من المهر الذي دفعوه إليهن ، ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ﴾ أي مهورهن أباح الله للمسلمين نكاح المهاجرات من دار الحرب إلى دار الإسلام وإن كان لهن أزواج كفار في دار الحرب لأن الإسلام فرق بينهن وبين أزواجهن الكفار ووقفت الفرقة بانقضاء عدتها فإن أسلم الزوج قبل انقضاء عدتها فهي زوجته وبه قال الأوزاعي والليث بن سعد ومالك والشافعي وأحمد وقال أبو حنيفة تقع الفرقة باختلاف الدارين ، ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ جمع عصمة وهي ما اعتصم به من العقد : والسبب نهى الله تعالى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات يقول الله تعالى وإن كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها فقد انقطعت عصمة الزوجية بينهما .

قال الزهري لما نزلت هذه الآية طلق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا بمكة مشركتين قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها معاوية بن أبي سفيان وهما على شركهما بمكة والأخرى أم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية وهي أم ابنه عبيد الله فتزوجها أبو جهم بن حذافة بن غنم وهما على شركهما .

(163/760)

وكانت أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب تحت طلحة بن عبيد الله فهاجر طلحة وبقيت هي على دين قومها ففرق الإسلام بينهما فتزوجها بعده في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص بن أمية قال الشعبي وكانت زينب بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) امرأة أبي العاص بن الربيع أسلمت وهاجرت ولحقت بالنبي (صلى الله عليه وسلم) وأقام أبو العاص بمكة مشركاً ثم أتى المدينة فأسلم فردها عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ واسألوا ﴾ أي أيها المؤمنون ﴿ ما أنفقتم ﴾ يعني إن لحقت امرأة منكم بالمشركين مرتدة فاطلبوا ما أنفقتم من المهر إذا منعوها ممن تزوجها منهم ﴿ وليسألوا ﴾ يعني المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم ﴿ ما أنفقوا ﴾ من المهر إذا منعوها ممن تزوجها منهم ﴿ وليسألوا ﴾ يعني المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم ﴿ ما أنفقوا ﴾ من المهر

ممن تزوجها منكم ﴿ ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم ﴾ قال الزهري ولولا الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبين قريش لأمسك النساء ولم يرد الصداق وكذلك صنع بمن جاء من المسلمات قبل العهد فلما نزلت هذه الآية أقر المؤمنون بحكم الله تعالى وأدوا ما أمروا به من أداء نفقات المشركين على نسائهم وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما أمر من أداء نفقات المسلمين .

(164/760)

﴿ وإن فاتكم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ شيء من أزواجكم إلى الكفار ﴾ أي فلحقن بهم مرتدات ﴿ فعاقبتم ﴾ معناه غزوتم فغنمتم وأصبتم من الكفار عقبي وهي الغنيمة وقيل معناه ظهرتم وكانت العاقبة لكم ﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم ﴾ أي إلى الكفار ﴿ مثل ما أنفقوا ﴾ معناه أعطوا الذين ذهبت أزواجهم منكم إلى الكفار مرتدات مثل ما أنفقوا عليها من الغنائم التي صارت في أيديكم من أموال الكفار قال ابن عباس لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة أم الحكم بنت أبي سفيان وكان تحت عياض بن شداد الفهري وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة أخت أم سلمة وكانت تحت عمر بن الخطاب فلما أراد عمر أن يهاجر بها أبت وارتدت وبروع بنت عقبة وكانت تحت

شماس بن عثمان وعزة بنت عبد العزيز بن نضلة وتزوجها عمرو بن عبد ود وهند بنت أبي جهل بن هشام وكانت تحت هشام بن العاص بن وائل وأم كلثوم وكانت تحت عمر بن الخطاب فكلهن رجعن عن الإسلام فأعطى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أزواجهن مهور نسائهم من الغنيمة واختلف القول في رد مهر من أسلمت من النساء إلى زوجها هل كان واجباً أو مندوباً وأصل هذه المسألة أن الصلح هل كان وقع على رد النساء أم لا فيه قولان أحدهما أنه وقع على رد الرجال والنساء جميعاً لما روي أنه لا يأتيك منا أحد إلا رددته ثم صار الحكم في رد النساء منسوخاً بقوله تعالى ﴿ فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ فعلى هذا كان رد المهر واجباً .

(165/760)

والقول الثاني أن الصلح لم يقع على رد النساء لأنه روي عن علي أنه قال لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته وذلك لأن الرجل لا يخشى عليه من الفتنة في الرد ما يخشى على المرأة من إصابة المشرك إياها وأنه لا يؤمن عليها الردة إذا خوفت وأكرهت عليها لضعف قلبها وقلة هدايتها إلى المخرج من الكفر بإظهار كلمة الكفر مع التورية وإضمار كلمة الإيمان وطمأنينة القلب عليه ولا يخشى ذلك على الرجل لقوته وهدايته إلى التقية

فعلى هذا كان المهر مندوباً .

واختلفوا في أنه هل يجب العمل به اليوم في رد المال إذا شرط في معاقدة الكفار فقال قوم لا يجب وزعموا أن الآية منسوخة وهم عطاء ومجاهد وقتادة قال قوم الآية غير منسوخة ويرد عليهم ما أنفقوا قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ﴾ .

(166/760)

﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ الآية قال المفسرون لما فتح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مكة وفرغ من بيعة الرجال وهو على الصفا أتته النساء يبلغنه وعمر بن الخطاب أسفل منه يبلغهن عنه وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنقبة متنكرة مع النساء خوفاً من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يعرفها فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أبايعهن ﴿ على أن لا يشركن بالله شيئاً ﴾ فرفعت هند رأسها وقالت والله إنك لتأخذ علينا أمراً وما رأيناك أخذته على الرجال وكان قد بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) ﴿ ولا يسرقن ﴾ فقالت هند إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هنات فلا أدري يحل لي أم لا فقال أبو سفيان ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو حلال فضحك النبي (صلى الله

عليه وسلم) وعرفها فقال لها وإنك لهند بنت عتبة قالت نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك فقال ﴿ ولا يزنين ﴾ فقالت هند أو تزني الحرة ؟ فقال ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ فقالت هند ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً فأنتم وهم أعلم وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ فقالت هند والله إن البهتان لقبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ فقالت هند ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء فأقر النسوة بما أخذ عليهم من البيعة قال ابن الجوزي وجملة من أحصى من المبايعات أربعمائة وسبعة وخمسون امرأة ولم يصافح في البيعة امرأة وإنما بايعهن بالكلام ، (ق) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت " كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يبايع النساء بالكلام بهذه الآية على أن لا يشركن بالله شيئاً وما مست يد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يد امرأة لا يملكها " وأما

تفسير

الآية فقوله تعالى : ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ أراد به وأد البنات الذي كان يفعله أهل الجاهلية ثم هو عام في كل نوع من قتل الولد ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن يعني لا تلحق المرأة بزوجها غير ولده وذلك أن المرأة كانت تلتقط المولود فتقول لزوجها هذا ولدي منك فهذا هو البهتان المفتري وليس المراد منه نهيهن عن الزنا لأن النهي عنه قد تقدم ذكره ومعنى بين أيديهن وأرجلهن أن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها ولا يعصينك في معروف أي في كل ما تأمرهن به أو تنهاهن عنه وقيل في كل أمر وافق طاعة الله وكل أمر فيه رشد وقيل هو النهي عن النوح والدعاء بالويل وتمزيق الثياب وحلق الشعر ونتفه وخمش الوجه وأن لا تحدث المرأة الرجال الأجانب ولا تخلو برجل غير ذي محرم ولا تسافر مع غير ذي محرم ، قال ابن عباس في قوله ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ إنما هو شرط شرطه الله على النساء أخرجه البخاري (ق) عن أم عطية قالت " بايعنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقرأ علينا أن لا يشركن بالله شيئاً ونهانا عن النياحة فقبضت امرأة منا يدها فقالت فلانة أسعدتني فأنا أريد أن أجزيها فما قال لها النبي (صلى الله عليه وسلم) شيئاً فانطلقت ثم رجعت فبايعها " .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ يعني من اليهود وذلك أن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المسلمين يتوصلون إليهم بذلك فيصيبون من ثمارهم فنهاهم الله عن ذلك " ﴿ قد يئسوا من الآخرة ﴾ يعني اليهود وذلك أنهم عرفوا محمداً (صلى الله عليه وسلم) وأنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكذبوا به فيئسوا من أن يكون لهم ثواب أو خير في الآخرة ﴿ كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ يعني كما يئس الذين ماتوا على الكفر وصاروا في القبور من أن يكون لهم ثواب في الآخرة وذلك أن الكفار إذا دخلوا قبورهم أيسوا من رحمة الله تعالى وقيل معناه كما يئس الكفار من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم والمعنى : أن اليهود الذين عاينوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولم يؤمنوا به قد يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 83.73 ﴾

(169/760)

وقال النسفى :

سورة الممتحنة

روي أن مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم يقال لها سارة ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يتجهز للفتح فقال لها : أمسلمة جئت ؟ قالت : لا .

قال : أفمهاجرة جئت ؟ قالت : لا .

قال : فما جاء بك ؟ قالت : احتجت حاجة شديدة فحث عليها بني عبد المطلب فكسوها وحملوها وزودوها فأتاها حاطب بن أبي بلتعة وأعطاها عشرة دنانير وكساها برداً واستحملها كتاباً إلى أهل مكة نسخته : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة اعلموا أن رسول الله يريدكم فخذوا حذركم .

فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وعماراً وعمر وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وكانوا فرساناً وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة فخذوه منها وخلوها ، فإن أبت فاضربوا عنقها ، فأدركوها فجحدت وحلفت فهموا بالرجوع فقال علي : والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلّ سيفه وقال : أخرجي الكتاب أو تضعي رأسك ، فأخرجته من عقاص شعرها .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمن جميع الناس يوم الفتح إلا أربعة هي أحدهم ، فاستحضر برسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً وقال : ما حملك عليه ؟ فقال : يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم ،

ولكني كنت أمرأ ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسها ، وكل من معك من المهاجرين لهم

قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيري ، فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ

عندهم يداً وقد علمت أن الله ينزل عليهم بأسه وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً فصدقه

وقبل عذره .

فقال عمر رضي الله عنه : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال صلى الله

عليه وسلم : وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم

فقد غفرت لكم ففاضت عينا عمر رضي الله عنه فنزل .

(170/760)

﴿ يا أيها الذين ءامَنُوا لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء ﴾

عدي "اتخذ" إلى مفعوليه وهما ﴿ عَدُوّى ﴾ و ﴿ أَوْلِيَاء ﴾ والعدوّ فعول من عدا

كعفوّ من عفا ولكنه على زنة المصدر ، أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد ، وفيه دليل

على أن الكبيرة لا تسلب اسم الإيمان ﴿ تلْقُونَ ﴾ حال من الضمير في ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ ﴾

والتقدير لا تتخذوهم أولياء ملقين ﴿ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ أو مستأنف بعد وقف على

التوبيخ .

والإلقاء عبارة عن إيصال المودة والإفضاء بها إليهم.

والباء في ﴿ بالمودة ﴾ زائدة مؤكدة للتعدي كقوله: ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: 195] أو ثابتة على أن مفعول ﴿ تُلْقُونَ ﴾ محذوف معناه تلقون إليهم أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب المودة التي بينكم وبينهم ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا ﴾ حال من ﴿ لَا تَتَّخِذُوا ﴾ أو من ﴿ تُلْقُونَ ﴾ أي لا تتولوهم أو توادونهم وهذه حالهم ﴿ بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الحق ﴾ دين الإسلام والقرآن ﴿ يُخْرِجُونَ الرسول وإياكم ﴾ استئناف كالتفسير لكفرهم وعتوهم أو حال من ﴿ كَفَرُوا ﴾ ﴿ أَنْ تُؤْمِنُوا ﴾ تعليل ل ﴿ يُخْرِجُونَ ﴾ أي يخرجونكم من مكة لإيمانكم ﴿ بالله رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ ﴾ متعلق ب ﴿ لَا تَتَّخِذُوا ﴾ أي لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي.

(171/760)

وقول النحويين في مثله هو شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿ جِهَادًا فِي سَبِيلِي ﴾ مصدر في موضع الحال أي إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي ﴿ وابتغاء مَرْضَاتِي ﴾ ومبتغين مرضاتي ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ أي تفضون إليهم بمودتكم سراً أو تسرون إليهم أسرار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب المودة وهو استئناف ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا

أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾ والمعنى أي طائل لكم في أسراركم وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمي وأنا مطلع رسولي على ما تسرون ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ ﴾ أي هذا الإسرار ﴿ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السبيل ﴾ فقد أخطأ طريق الحق والصواب.

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ ﴾ إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ﴾ خالصي العداوة ولا يكونوا لكم أولياء كما أنتم ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بالسوء ﴾ بالقتل والشتم ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ وتمنوا لو ترتدون عن دينكم فإذاً موادة أمثالهم خطأ عظيم منكم.

والماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع ففيه نكتة كأنه قيل: ودّوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم يعني أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردكم كفاراً أسبق المضار عندهم وأولها لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم، لأنكم بذالون لها دونه، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أهم شيء عند صاحبه.

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أرحامكم ﴾ قراباتكم ﴿ وَلاَ أولادكم ﴾ الذين توالون الكفار من أجلهم وتتقربون إليهم محاماة عليهم ثم قال ﴿ يَوْمَ القيامة يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ وبين أقاربكم وأولادكم ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ ﴾ [عبس: 34] الآية.

فما لكم ترفضون حق الله مراعاة لحق من يفرّ منكم غداً .

﴿ يُفَصّلُ ﴾ : عاصم .

(172/760)

﴿ يَفَصّلُ ﴾ حمزة وعلي والفاعل هو الله عز وجل ﴿ يُفَصّلُ ﴾ ابن ذكوان غيرهم ﴿ يُفَصّلُ ﴾ ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم على أعمالكم .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ ﴾ قدوة في التبري من الأهل ﴿ حَسَنَةٌ فِى إبراهيم ﴾ أي في أقواله ولهذا استثنى منها إلا قول إبراهيم ﴿ والذين مَعَهُ ﴾ من المؤمنين وقيل : كانوا أنبياء ﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءاؤاْ مّنْكُمْ ﴾ جمع بريء كظريف وظرفاء ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة ﴾ بالأفعال ﴿ والبغضاء ﴾ بالقلوب ﴿ أَبَداً حتى تُؤْمِنُواْ بالله وَحْدَهُ ﴾ فحينئذ نترك عداوتكم ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ وذلك لموعدة وعدها إياه أي اقتدوا به في أقواله ولا تأتسوا به في الاستغفار لأبيه الكافر ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله مِن شَىْء ﴾ أي من هداية ومغفرة وتوفيق ، وهذه الجملة لا تليق بالاستثناء ألا ترى إلى قوله :

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مّنَ الله شَيْئاً ﴾ [الفتح : 11] ولكن المراد استثناء جملة قوله

لأبيه والقصد إلى موعد الاستغفار له وما بعده تابع له كأنه قال : أستغفر لك وما في طاقتي إلا الاستغفار ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ متصل بما قبل الاستثناء وهو من جملة الأسوة الحسنة .

وقيل : معناه قولوا ربنا فهو ابتداء أمر من الله للمؤمنين بأن يقولوه ﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ أقبلنا ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ المرجع ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب ﴿ واغفر لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ أي الغالب الحاكم .

(173/760)

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا الله واليوم الآخر ﴾ ثم كرر الحث على الائتساء بإبراهيم عليه السلام وقومه تقريراً وتأكيداً عليهم ، ولذا جاء به مصدراً بالقسم لأنه الغاية في التأكيد ، وأبدل من قوله ﴿ لَكُمْ ﴾ قوله ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا الله ﴾ أي ثوابه أي يخشى الله وعقبه بقوله ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ يعرض عن أمرنا ويوال الكفار ﴿ فَإِنَّ الله هُوَ الغنى ﴾ عن الخلق ﴿ الحميد ﴾ المستحق للحمد فلم يترك نوعاً من التأكيد إلا جاء به ولما أنزلت هذه الآيات وتشدد المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين أطمعهم في تحول الحال إلى خلافة فقال :

﴿ عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مِّنْهُم ﴾ أي من أهل مكة من أقربائكم ﴿ مَّوَدَّةً ﴾ بأن يوفقهم للإيمان ، فلما يسر فتح مكة أظفرهم الله بأمنيتهم فأسلم قومهم وتم بينهم التحاب .

و"عسى" وعد من الله على عادات الملوك حيث يقولون في بعض الحوائج عسى أو لعل فلا تبقى شبهة للمحتاج في تمام ذلك أو أريد به إطماع المؤمنين ﴿ والله قَدِيرٌ ﴾ على تقليب القلوب وتحويل الأحوال وتسهيل أسباب المودة ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن أسلم من المشركين ﴿ لاَّ ينهاكم الله عَنِ الذين لَمْ يقاتلوكم فِى الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دياركم أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ تكرموهم وتحسنوا إليهم قولاً وفعلاً .

(174/760)

ومحل ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ جر على البدل من ﴿ الذين لَمْ يقاتلوكم ﴾ وهو بدل اشتمال والتقدير عن بر الذين ﴿ وَتُقْسِطُواْ إِلَيْهِمْ ﴾ وتقضوا إليهم بالقسط ولا تظلموهم ، وإذا نهى عن الظلم في حق المشرك فكيف في حق المسلم ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المقسطين إِنَّمَا ينهاكم الله عَنِ الذين قاتلوكم فِى الدين وَأَخْرَجُوكُم مِّن دياركم وظاهروا على إخراجكم أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ هو بدل من ﴿ الذين قاتلوكم ﴾ والمعنى لا ينهاكم عن مبرة هؤلاء وإنما ينهاكم عن تولي

هؤلاء ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ ﴾ منكم ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ حيث وضعوا التولي غير موضعه .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ المؤمنات ﴾ سماهن مؤمنات لنطقهن بكلمة الشهادة ، أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان ﴿ مهاجرات ﴾ نصب على الحال ﴿ فامتحنوهن ﴾ فابتلوهن بالنظر في الأمارات ليغلب على ظنونكم صدق إيمانهن .

وعن ابن عباس : امتحانها أن تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﴿ الله أَعْلَمُ بإيمانهن ﴾ منكم فإنكم وإن رزتم أحوالهن لا تعلمون ذلك حقيقة وعند الله حقيقة العلم به ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مؤمنات ﴾ العلم الذي تبلغه طاقتكم وهو الظن الغالب بظهور الأمارات ، وتسمية الظن علماً يؤذن بأن الظن الغالب وما يفضي إليه القياس جارٍ مجرى العلم وصاحبه غير داخل في قوله

﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : 36] ﴿ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار ﴾ فلا تردوهن إلى أزواجهن المشركين .

﴿ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ أي لا حل بين المؤمنة والمشرك لوقوع الفرقة بينهما بخروجها مسلمة ﴿ وَءاتُوهُم مَّا أَنفَقُواْ ﴾ وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور .

نزلت الآية بعد صلح الحديبية وكان الصلح قد وقع على أن يرد على أهل مكة من جاء مؤمناً منهم ، فأنزل الله هذه الآية بياناً لأن ذلك في الرجال لا في النساء لأن المسلمة لا تحل للكافر .

وقيل : نسخت هذه الآية الحكم الأول ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ ثم نفى عنهم الجناح في تزوج هؤلاء المهاجرات ﴿ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي مهورهن لأن المهر أجر البضع وبه احتج أبو حنيفة رضي الله عنه على أن لا عدة على المهاجرة ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا ﴾ ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا ﴾ بصري ﴿ بِعِصَمِ الكوافر ﴾ العصمة ما يعتصم به من عقد وسبب .

والكوافر جمع كافرة وهي التي بقيت في دار الحرب أو لحقت بدار الحرب مرتدة أي لا يكن بينكم وبينهن عصمة ولا علقة زوجية .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدّنّ بها من نسائه لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه ﴿ وَسْئَلُوا مَا أَنفَقْتُم ﴾ من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار ممن تزوجها ﴿ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنفَقُوا ﴾ من مهور نسائهم المهاجرات ممن تزوجها منا ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللهِ ﴾ أي جميع ما ذكر في هذه الآية ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ كلام مستأنف أو حال من حكم الله على حذف الضمير أي يحكمه الله ، أو جعل الحكم حاكماً على المبالغة

وهو منسوخ فلم يبق سؤال المهر لا منا ولا منهم ﴿ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أزواجكم إِلَى الكفار ﴾ وإن انفلت أحد منهن إلى الكفار وهو في قراءة ابن مسعود رضي الله عنه أحد .

﴿ فعاقبتم ﴾ فأصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم عن الزجاج ﴿ فَأْتُواْ الذين ذَهَبَتْ أزواجهم مِّثْلَ مَا أَنفَقُواْ ﴾ فأعطوا المسلمين الذين ارتدت زوجاتهم ولحقن بدار الحرب مهور زوجاتهم من هذه الغنيمة ﴿ واتقوا الله الذى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ وقيل : هذا الحكم منسوخ أيضاً .

(176/760)

﴿ يأَيُّهَا النبى إِذَا جَاءكَ المؤمنات يُبَايِعْنَكَ ﴾ حال ﴿ على أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بالله شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أولادهن ﴾ يريد وأد البنات ﴿ وَلاَ يَأْتِينَ ببهتان يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدي منك ، كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً ، لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين وفرجها الذي تلده به بين الرجلين ﴿ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ طاعة الله ورسوله ﴿ فَبَايِعْهُنَّ واستغفر لَهُنَّ الله ﴾ عما مضى ﴿ إِنَّ الله غَفُورٌ ﴾ بتمحيق ما

سلف ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بتوفيق ما ائتنف .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من فتح مكة من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا وعمر قاعد أسفل منه يبايعهن عنه بأمره ويبلغهن عنه ، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متقنعة متنكرة خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها لما صنعت بحمزة فقال عليه السلام : " أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً " فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئاً فقال عليه السلام : " ولا يسرقن " فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هنات فقال أبو سفيان : ما أصبت فهو لك حلال فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها فقال لها : إنك لهند .

قالت : نعم فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك فقال : " ولا يزنين " فقالت : أو تزني الحرة ؟ فقال : " ولا يقتلن أولادهن " فقالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً فأنتم وهم أعلم ، وكان ابنها حنظلة قد قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ولا يأتين ببهتان " فقالت : والله إن البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق .

فقال : " ولا يعصينك في معروف " فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء وهو يشير إلى أن طاعة الولاة لا تجب في المنكر .

﴿ يٰأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَتَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ ختم السورة بما بدأ به قيل هم المشركون ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الأخرة ﴾ من ثوابها لأنهم ينكرون البعث ﴿ كَمَا يَئِسَ الكفار ﴾ أي كما يئسوا إلا أنه وضع الظاهر موضع الضمير ﴿ مِنْ أَصحاب القبور ﴾ أن يرجعوا إليهم أو كما يئس أسلافهم الذين هم في القبور من الآخرة أي هؤلاء كسلفهم .

وقيل : هم اليهود أي لا تتولوا قوماً مغضوباً عليهم قد يئسوا من أن يكون لهم حظ في الآخرة لعنادهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه الرسول المنعوت في التوراة ، كما يئس الكفار من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء .

وقيل : من أصحاب القبور بيان للكفار أي كما يئس الكفار الذين قبروا من خير الآخرة لأنهم تبينوا قبح حالهم وسوء منقلبهم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 245. 251 ﴾

(178/760)

وقال ابن جزى :

سورة الممتحنة

﴿ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾

العدو يطلق على الواحد والجماعة ، والمراد به هنا كفار قريش ، وهذه الآية نزلت بسبب حاطب بن أبي بلتعة ، وذلك " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الخروج إلى مكة عام الحديبية ، فورّى عن ذلك بخيبر . فشاع في الناس أنه خارج إلى خيبر ، وأخبر هو جماعةً من كبار أصحابه بقصده إلى مكة . منهم حاطب فكتب بذلك حاطب إلى قوم من أهل مكة ، فجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من السماء . فبعث علي بن أبي طالب والزبير والمقداد وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاب إلى المشركين ، فانطلقوا حتى وجدوا المرأة فقالوا لها : أخرجي الكتاب . فقالت : ما معي كتاب ، ففتشقوا جميع رحلها فما وجدوا شيئاً فقال بعضهم : ما معها كتاب . فقال عليّ بن أبي طالب : ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذب الله ، والله لتخرجنَّ الكتاب أو لنجردنك . قالت : أعرضوا عني ، فأخرجته من قرون رأسها وضفائرها وقيل : أخرجته من حجزتها فجاؤوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لحاطب : من كتب هذا ؟ قال : أنا يا رسول الله . ولكن لا تعجل عليّ ، فوالله ما فعلت ذلك ارتداداً عن ديني ، ولا رغبة في الكفر ، ولكني كنت أمرأ ملصقاً في قريش ، ولم أكن من

أنفسها ، فأحببت أن تكون لي عندهم يد يرعونني بها في قرابتي ، فقال عمر بن الخطاب : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق حاطب إنه من أهل بدر ، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعلموا ما شئتم فقد غفرت لكم . لا تقولوا لحاطب إلا خيراً . فنزلت الآية " عتاباً لحاطب وزجراً عن أن يفعل أحد مثل فعله ، وفيها مع ذلك تشريف له ، لأن الله شهد له بالإيمان في قوله يا أيها الذين آمنوا .

﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ عبارة عن إيصال المودّة إليهم ، وألقى يتعدى بحرف جر وبغير حرف جر كقوله ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : 39] وهذه الجملة في موضع الحال من الضمير في قوله : ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ ﴾ أو في موضع الصفة لأولياء أو استئناف ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ ﴾ حال من الضمير في ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ ﴾ أو في تلقون ﴿ يُخْرِجُونَ الرسول وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي يرخجون الرسول ويخرجونكم : يعني إخراجهم من مكة ، فإنهم ضيقوا عليهم وآذوهم حتى خرجوا منها مهارجين إلى المدينة ، ومنهم من خرج إلى ارض الحشبة ﴿ أَن تُؤْمِنُواْ ﴾ مفعول من أجله أي يخرجونكم من أجل إيمانكم ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ

جِهَادًا فِي سَبِيلِي ﴾ جواب هذا الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه وهو : لا تتخذوا ، والتقدير إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء ، وجهاداً مصدر في موضع الحال أو مفعول من أجله وكذلك ابتغاء .

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ ﴾ معناه إن يظفروا بكم ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي تمنوا أن تكفروا فتكونون مثلهم ، قال الزمخشري : وإنما قال : ودّوا بلفظ الماضي بعد أن ذكر جواب الشرط بلفظ المضارع لأنهم أرادوا كفركم قبل كل شيء .

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ ﴾ إشارة إلى ما قصد حاطب من رعي قرابته ﴿ يَوْمَ الْقِيامَة يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون من الفصل بالحكم بينهم أو من الفصل بمعنى التفريق ، أي يفرق بينكم وبين قرابتكم يوم القيامة ، وقيل : إن العامل في يوم القيامة ما قبله وذلك بعيد .

(180/760)

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالذين مَعَهُ ﴾ الأسوة هي الذي يقتدى به ، فأمر الله المسلمين أن يقتدوا بإبراهيم الخليل عليه السلام وبالذين معه في عداوة الكفار والتبري منهم ، ومعنى : والذين معه من آمن به من الناس ، وقيل : الأنبياء الذين كانوا في

عصره وقريباً من عصره ، ورجح ابن عطية هذا القول بما ورد في الحديث " إن إبراهيم عليه السلام قال لزوجته : ما على الأرض مؤمن بالله غيري وغيرك " ﴿ بُرَءآؤْاْ ﴾ جمع بريء ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أي كذبناكم في أقوالكم ، ويحتمل أن يكون عبارة عن إفراد البغض والمقاطعة لهم ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ هذا استثناء من قوله أسوة حسنة ، فالمعنى اقتدروا بهم في عداوتهم للكفار ، ولا تقتدوا بهم في هذا ، لأن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وقيل : الاستثناء من التبري والقطيعة ، والمعنى تبرأ إبراهيم والذين معه من الكفار ، إلا أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ هذا من كلام سيدنا إبراهيم عليه السلام ، والذين معه وهو متصل بما قبل الاستثناء ، فهو من جملة ما أمروا أن يقتدوا به .

﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ في معناه قولان : أحدهما لا تنصروهم علينا فيكون ذلك لهم فتنة وسبب ضلالهم ؛ لأنهم يقولون : غلبناهم فيكون ذلك لهم ، لأنا على الحق وهم على الباطل . والآخر : لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا ، ورجح ابن عطية هذا ، لأنه دعاء لأنفسهم وأما القول الأول فهو دعاء للكفار ، ولكن مقصدهم ليس الدعاء للكفار ، وإنما هو دعاء لأنفسهم بالنصر بحيث لا يفتتن الكفار بذلك .

﴿ عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ لما أمر الله المسلمين بعداوة الكفار ومقاطعتهم فامتثلوا ذلك على ما كان بينهم وبين الكفار من القرابة ، فعلم الله صدقهم فآنسهم بهذه الآية ، ووعدهم بأن يجعل بينهم مودة ، وهذه المودة كملت في فتح مكة فإنه أسلم حينئذ سائر قريش ، وقيل : المودّة تزوّج النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب سيد قريش ، ورد ابن عطية هذا القول بأن تزوج أم حبيبة كان قبل نزول هذه الآية .

﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين ﴾ رخص الله للمسلمين في مبرة من لم يقاتلهم من الكفار ، واختلف فيهم على أربعة أقوال ، الأول أنهم قبائل من العرب منهم خزاعة وبنو الحارث بن كعب ؛ كانوا قد صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يقاتلوا ، ولا يعينوا عليه . الثاني أنهم كانوا من كفار قريش لم يقاتلوا المسلمين ولا أخرجوهم من مكة ، والآية على هذين القولين منسوخة بالقتال . الثالث أنهم النساء والصبيان ، وفي هذا ورد " أن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت : يا رسول الله إن أمي قدمت عليّ وهي مشركة أفأصلها ؟ قال : نعم صلي أمك " الرابع أنه أراد من كان بمكة من المؤمنين الذين لم يهاجروا ، وأما الذين نهى الله عن مودتهم لأنهم قاتلوا المسلمين وظاهروا على إخراجهم فهم كفار قريش .

﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِذَا جَاءكُمُ المؤمنات مُهَاجِرَاتٍ فامتحنوهن ﴾ أي اختبروهن لتعلموا صدق إيمانهن ، وإنما سماهن مؤمنات لظاهر حالهن ، وقد اختلف في هذا الامتحان على ثلاثة أقوال : أحدها أن تستحلف المرأة أنها ما هاجرت لبغضها في زوجها ، ولا لخوف وغير ذلك من أغراض الدنيا سوى حب الله ورسوله والدار الآخرة ، والثاني أن يعرض عليها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، والثالث أن تعرض عليها الشروط المذكورة بعد هذا من ترك الإشراك والسرقة ، وقتل أولادهن وترك الزنا والبهتان ، والعصيان ، فإذا أقرت بذلك فهو امتحانها ، قالته عائشة رضي الله تعالى عنها . ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار ﴾ نزلت هذه الآية أثر صلح الحديبية ، وكان ذلك الصلح قد تضمن أن يردّ المسلمون إلى الكفار كل من جاءهم مسلماً من الرجال والنساء ، فنسخ الله أمر النساء بهذا الآية ، ومنع من ردّ المؤمنة إلى الكفار إذا هاجرت إلى المسلمين ، وكانت المرأة التي هاجرت حينئذ أميمة بنت بشر امرأة حسان بن الدحداحة ، وقل : سبيعة الأسليمة ، ولما هاجرت جاء زوجها فقال يا محمد ردها علينا ، فإن ذلك في الشرط الذي لنا عليك ، فنزلت الآية : فامتحنها رسول الله صلى الله عليه ونسلم فلم

يردها ، وأعطى مهرها لزوجها . وقيل : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، هربت من زوجها إلى المسلمين ، واختلف في الرجال هل حكمهم في ذلك كالنساء فلا تجوز المهادنة على ردّ من أسلم منهم ، أو يجوز حتى الآن ، على قولين : والأظهر الجواز لأنه إنما نسخ ذلك النساء ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ هذا تعليل للمنع من ردّ المرأة إلى الكفار ، وفيه دليل على ارتفاع النكاح بين المشركين والمسلمات .

(183/760)

﴿ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ﴾ يعني أعطوا الكفار ما أعطوا نساءهم من الصدقات إذا هاجرن ، ثم أباح للمسلمين تزوجهن بالصداق ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكوافر ﴾ العصم جمع عصمة أي النكاح ، فأمر الله المسلمين أن يفارقوا نساءهم الكوافر ، يعني المشركات من عبدة الأوثان ، فالآية على هذا محكمة ، وقيل : يعني كل كافرة . فعلى هذا نسخ منها جواز تزوج الكتابيات لقوله : ﴿ والمحصنات مِنَ الذين أُوتُوا الكتاب مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة : 5] وروي أن الآية نزلت في امرأة لعمر بن الخطاب كانت كافرة فطلقها ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ﴾ أي اطلبوا من الكفار ما أنفقتم من الصدقات على أزواجكم ، اللاتي

فررن إلى الكفار وليطلب الكفار منكم ما أنفقوا على أزواجهم ، اللاتي هاجرن إلى المسلمين .

(184/760)

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الكفار فَعَاقَبْتُمْ فَآتُواْ الذين ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ معنى فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار : هروب نساء المسلمين إلى الكفار ، والخطاب في قوله : ﴿ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُواْ الذين ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ ﴾ للمسلمين وقوله : ﴿ عَاقَبْتُمْ ﴾ ليس من العقاب على الذنب ، وإنما هو من العقبى أي أصبتم عقبى ، وهي الغنيمة أو من التعاقب على الشيء ، كما يتعاقب الرجلان على الدابة إذا ركبها هذا مرة وهذا مرة أخرى ، فلما كان بعض نساء المسلمين يهربن إلى الكفار وبعض نساء الكفار يهربن إلى المسلمين جعل ذلك كالتعاقب على النساء ، وسبب الآية أنه لما قال الله : ﴿ وَاسْأَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ [الممتحنة : 10] : قال الكفار : لا نرضى بهذا الحكم ، ولا نعطي صداق من هربت زوجته إلينا من المسلمين ، فأنزل الله هذه الآية الأخرى وأمر الله المسلمين أن يدفعوا الصداق لمن هربت زوجته إلينا من المسلمين إلى الكفار ، ويكون هذا المدفوع من مال الغنائم على قول من قال : إن معنى فعاقبتم غنمتم ،

وقيل : من مال الفيء ، وقيل من الصدقات التي كانت تدفع للكفار إذا فر أزاجهم إلى المسلمين فأنزل الله دفعها إليهم حين لم يرضوا حكمه .

وهذه الأحكام التي تضمنتها هذه الاية ، قد ارتفعت لانها نزلت في قضايا معينة ، وهي مهادنة النبي صلى الله عليه وسلم مع مشركي العرب ثم زالت هذه الأحكام بارتفاع الهدنة فلا تجوز مهادنة المشركين من العرب ، إنما هو في حقهم الإسلام أو السيف ، وإنما تجوز مهادنة أهل الكتاب والمجوس لأن الله قال في المشركين : ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5] ، وقال في أهل الكتاب : ﴿ حتى يُعْطُواْ الجزية ﴾ [التوبة : 29] ، " وقال النبي صلى الله عليه وسلم في المجوس : سُنُّوا سنة أهل الكتاب " .

(185/760)

﴿ يا أَيُّهَا النبي إِذَا جَآءَكَ المؤمنات يُبَايِعْنَكَ ﴾ هذه البيعة بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعهن بالكلام ، ولا تمس يده يد امرأة ، ورد هذا في الحديث الصحيح عن عائشة ﴿ وَلاَ يَأْتِينَ ببهتان ﴾ معناه عند الجمهور أن تنسب المرأة إلى زوجها ولداً ليس له ، واختار ابن عطية أن يكون البهتان هنا على العموم ، بأن ينسب للرجل غير ولده ، أو تفتري على أحد بالقول ، أو تكذب فيما

ائتمنها الله عليه من الحيض والحمل وغير ذلك ، ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ أي لا يعصينك فيما جاءت به الشريعة من الأوامر والنواهي ، ومن ذلك النهي عن النياحة وشق الجيوب ، ووصل الشعر وغير ذلك مما كان نساء الجاهلية يفعلنه ، وورد في الحديث "أن النساء لما بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المبايعة ، فقررهنَّ على أن لا يسرقن قالت هند بنت عتبة وهي امرأة أبي سفيان بن حرب : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح ، فهل عليّ إن أخذت من ماله بغير إذنه ، فقال لها : خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف . فلما قررهن على أن لا يزنين ، قالت هند : يا رسول الله أتزني الحرة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : لا تزني الحرة . يعني في غالب المرأة ، وذلك أن الزنا في قريش إنما كان في الإماء فلما قال : ولا يقتلن أولادهن فقالت : نحن ربيناهم صغاراً وقتلتهم أنت ببدر كباراً ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما وقفهن على أن لا يعصينه في معروف ، قالت : ما جلسنا هذا المجلس وفي أنفسنا أن نعصيك " .

وهذه المبايعة للنساء غير معمول بها اليوم ، لأنه أجمع العلماء على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهن هذا فإما أن تكون منسوخة ولم يذكر الناسخ ، أو يكون ترك هذه الشروط ، لأنها قد تقررت وعلمت من الشرع بالضرورة فلا حاجة إلى اشتراطها .

﴿ لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني اليهود ، وكان بعض فقراء المسلمين يتودّد إليهم ليصيبوا من أموالهم ، وقيل : يعني كفار قريش ، والأول أظهر لأن الغضب قد صار عرفاً لليهود كقوله : ﴿ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِم ﴾ [الفاتحة : 7] ﴿ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الآخرة كَمَا يَئِسَ الكفار مِنْ أَصْحَابِ القبور ﴾ من قال : إن القوم الذين غضب الله عليهم هو اليهود ، فمعنى يئسوا من الآخرة يئسوا من خير الآخرة والسعادة فيها ، ومن قال : إن القوم الذين غضب الله عليهم هم كفار قريش ، فالمعنى يئسوا من وجود الآخرة ، وصحتها لأنهم مكذبون بها تكذيباً جزماً ، وقوله : ﴿ كَمَا يَئِسَ الكفار مِنْ أَصْحَابِ القبور ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما أن يريد كما يئس الكفار المكذبون بالبعث من بعث أصحاب القبور ، فقوله : ﴿ مِنْ أَصْحَابِ ﴾ يتعلق بيئس ، وهو على حذف مضاف ، والآخر أن يكون ﴿ مِنْ أَصْحَابِ القبور ﴾ لبيان الجنس أي كما يئس الذين في القبور من سعادة الآخرة ، لأنهم تيقنوا أنهم يعذبون فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 4 صـ 112.117 ﴾

وقال البيضاوى :

سورة الممتحنة

﴿ مدنية وآيها ثلاث عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءَامَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾

نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ، فإنه لما علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو أهل مكة كتب إليهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حذركم ، " وأرسل كتابه مع سارة مولاة بني المطلب ، فنزل جبريل عليه السلام فأعلم رسول الله ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وعماراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب حاطب إلى أهل مكة ،

فخذوه منها وخلوها فإن أبت فاضربوا عنقها ، فأدركوها ثمة فجحدت فهموا بالرجوع ، فسل علي رضي الله تعالى عنه السيف فأخرجته من عقاصها ، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً وقال : ما حملك عليه ؟ فقال : يا رسول الله ما كفرت منذ

أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولكني كنت امرأ ملصقاً في قريش وليس لي فيهم من يحمي أهلي ، فأردت أن آخذ عندهم يداً وقد علمت أن كتابي لا يغني عنهم شيئاً ، فصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعذره " ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالمودة ﴾ تفضون إليهم المودة بالمكاتبة ، والباء مزيدة أو إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب المودة ، والجملة حال من فاعل ﴿ لَا تَتَّخِذُوا ﴾ أو صفة لأولياء جرت على غير من هي له ، ولا حاجة فيها إلى إبراز الضمير لأنه مشروط في الاسم دون الفعل . ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُمْ مّنَ الحق ﴾ حال من فاعل أحد الفعلين . ﴿ يُخْرِجُونَ الرسول وإياكم ﴾ أي من مكة وهو حال من ﴿ كَفَرُوا ﴾ أو استئناف لبيانه . ﴿ أَن تُؤْمِنُوا بالله رَبّكُمْ ﴾ بأن تؤمنوا به وفيه تغليب المخاطب والالتفات من التكلم إلى الغيبة للدلالة على ما يوجب الإيمان . ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ ﴾ عن أوطانكم . ﴿ جِهَاداً فِى سَبِيلِى وابتغاء مَرْضَاتِى ﴾ علة للخروج وعمدة للتعليق وجواب الشرط محذوف دل عليه ﴿ لَا تَتَّخِذُوا ﴾ . ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ بدل من ﴿ تُلْقُونَ ﴾ أو استئناف معناه : أي طائل

لكم في أسرار المودة أو الإخبار بسبب المودة. ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾ أي منكم. وقيل ﴿ أَعْلَمُ ﴾ مضارع والباء مزيدة و"ما" موصولة أو مصدرية. ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ ﴾ أي من يفعل الاتخاذ. ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السبيل ﴾ أخطأه.

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ ﴾ يظفروا بكم. ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ﴾ ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم.

﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بالسوء ﴾ ما يسوؤكم كالقتل والشتم. ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ وتمنوا ارتدادكم، ومجيء ﴿ وَدُّوا ﴾ وحده بلفظ الماضي للإشعار بأنهم ﴿ وَدُّوا ﴾ قبل كل شيء، وأن ودادتهم حاصلة وإن لم يثقفوكم.

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أرحامكم ﴾ قراباتكم.

﴿ وَلاَ أولادكم ﴾ الذين توالون المشركين لأجلهم. ﴿ يَوْمَ القيامة يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ يفرق بينكم بما عراكم من الهول فيفر بعضكم من بعض فما لكم ترفضون اليوم حق الله لمن يفر منكم غداً، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الصاد والتشديد وفتح الفاء، وقرأ ابن عامر "يُفَصّل" على البناء للمفعول وهو ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾، وقرأ عاصم ﴿ يُفصّل ﴾. ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم عليه.

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ قدوة. اسم لما يؤتسى به. ﴿ فِى إبراهيم والذين مَعَهُ ﴾ صفة ثانية أو خبر كان و﴿ لَكُمْ ﴾ لغو أو حال من المستكن في ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ أو صلة لها لا ل ﴿ أُسْوَةٌ ﴾ لأنها وصفت. ﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ ﴾ ظرف لخبر كان. ﴿ إِنَّا بُرَاءُ مّنكُمْ ﴾ جمع بريء كظريف وظرفاء. ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أي بدينكم أو بمعبودكم، أو بكم وبه فلا نعتد بشأنكم وآلهتكم. ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة والبغضاء أَبَداً حتى تُؤْمِنُواْ بالله وَحْدَهُ ﴾ فتنقلب العداوة والبغضاء ألفة ومحبة.

﴿ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ استثناء من قوله ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ فإن استغفاره إبراهيم عليه السلام لأبيه الكافر ليس مما ينبغي أن يأتسوا به، فإنه كان قبل النهي أو لموعدة وعدها إياه. ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله مِن شَىْء ﴾ من تمام قوله المستثنى ولا يلزم من استثناء المجموع استثناء جميع أجزائه. ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المصير ﴾ متصل بما قبل الاستثناء أو أمر من الله للمؤمنين بأن يقولوه تتميماً لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار.

﴿ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نتحمله. ﴿ واغفر لَنَا ﴾ ما فرطنا ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ ومن كان كذلك كان حقيقاً بأن يجير المتوكل ويجيب الداعي.

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ تكرير لمزيد الحث على التأسي بإبراهيم ولذلك صدر بالقسم وأبدل قوله: ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللهَ واليوم الآخر ﴾ من ﴿ لَكُمْ ﴾ فإنه يدل على أنه لا ينبغي لمؤمن أن يترك التأسي بهم، وإن تركه مؤذن بسوء العقيدة ولذلك عقبه بقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الغنى الحميد ﴾ فإنه جدير بأن يوعد به الكفرة.

﴿ عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ لما نزل ﴿ لَا تَتَّخِذُوا ﴾ عادى المؤمنون أقاربهم المشركين وتبرؤوا عنهم، فوعدهم الله بذلك وأنجز إذ أسلم أكثرهم وصاروا لهم أولياء. ﴿ والله قَدِيرٌ ﴾ على ذلك. ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لما فرط منكم في موالاتهم من قبل ولما بقي في قلوبكم من ميل الرحم.

﴿ لَّا ينهاكم اللهُ عَنِ الذين لَمْ يقاتلوكم فِى الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دياركم ﴾ أي لا ينهاكم عن مبرّة هؤلاء لأن قوله: ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ بدل من ﴿ الذين ﴾. ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ وتفضوا إليهم بالقسط أي العدل. ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المقسطين ﴾ العادلين، روي أن قتيلة بنت عبد العزى قدمت مشركة على بنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا، فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول فنزلت.

﴿ إِنَّمَا ينهاكم اللهُ عَنِ الذين قاتلوكم فِى الدين وَأَخْرَجُوكُم مِّن دياركم وظاهروا على إخراجكم ﴾ كمشركي مكة فإن بعضهم سعوا في إخراج المؤمنين وبعضهم أعانوا

المخرجين. ﴿ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ بدل من ﴿ الذين ﴾ بدل الاشتمال. ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون ﴾ لوضعهم الولاية في غير موضعها.

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا جَاءكُمُ المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾

(192/760)

فاختبروهن بما يغلب على ظنكم موافقة قلوبهم لسانهم في الإيمان. ﴿ الله أَعْلَمُ بإيمانهن ﴾ فإنه المطلع على ما في قلوبهم. ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مؤمنات ﴾ العلم الذي يمكنكم تحصيله وهو الظن الغالب بالحلف وظهور الأمارات، وإنما سماه علماً إيذاناً بأنه كالعلم في وجوب العمل به. ﴿ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار ﴾ أي إلى أزواجهن الكفرة لقوله: ﴿ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ والتكرير للمطابقة والمبالغة، أو الأولى لحصول الفرقة والثانية للمنع عن الاستئناف. ﴿ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُواْ ﴾ ما دفعوا إليهن من المهور، وذلك لأن صلح الحديبية جرى: على أن من جاءنا منكم رددناه. فلما تعذر عليه ردهن لورود النهي عنه لزمه رد مهورهن. " إذ روي أنه عليه الصلاة والسلام كان بعد الحديبية إذ جاءته سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة فأقبل زوجها مسافر المخزومي طالباً لها فنزلت. فاستحلفها رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلفت فأعطى زوجها ما أنفق وتزوجها

عمر رضي الله تعالى عنه "

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ فإن الإسلام حال بينهن وبين أزواجهن الكفار .

﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ شرط إيتاء المهر في نكاحهن إيذاناً بأن ما أعطى أزواجهن لا يقوم مقام المهر . ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكوافر ﴾ بما يعتصم به الكافرات من عقد وسبب جمع عصمة ، والمراد نهي المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات ، وقرأ البصريان "وَلَا تُمَسِّكُوا " بالتشديد . ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ ﴾ من مهور نسائكم اللاحقات بالكفار . ﴿ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ﴾ من مهور أزواجهم المهاجرات . ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ﴾ يعني جميع ما ذكر في الآية . ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ استئناف أو حال من الحكم على حذف الضمير ، أو جعل الحكم حاكماً على المبالغة . ﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يشرع ما تقتضيه حكمته .

(193/760)

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ ﴾ وإن سبقكم وانفلت منكم . ﴿ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ أحد من أزواجكم ، وقد قرىء به وإيقاع ﴿ شَيْءٌ ﴾ موقعه للتحقير والمبالغة في التعميم ، أو ﴿ شَيْءٌ ﴾ من مهورهن . ﴿ إِلَى الكفار فعاقبتم ﴾ فجاءت أي نوبتكم من أداء المهر ،

شبه الحكم بأداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره. ﴿ فَآتُوا الذين ذَهَبَتْ أزواجهم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾ من مهر المهاجرة ولا تؤتوه زوجها الكافر. روي أنه لما نزلت الآية المتقدمة أبى المُشركون أن يؤدوا مهر الكوافر فنزلت. وقيل معناه إن فاتكم فأصبتم من الكفار عقبى وهي الغنيمة ﴿ فَآتُوا ﴾ بدل الفائت من الغنيمة. ﴿ واتقوا الله الذى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ فإن الإيمان به يقتضي التقوى منه.

﴿ يا أيها النبى إِذَا جَاءكَ المؤمنات يُبَايِعْنَكَ على أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بالله شَيْئاً ﴾ نزلت يوم الفتح فإنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء. ﴿ وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أولادهن ﴾ يريد وأد البنات. ﴿ وَلاَ يَأْتِينَ ببهتان يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ في حسنة تأمرهن بها، والتقييد بالمعروف مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا به تنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق. ﴿ فَبَايِعْهُنَّ ﴾ إذا بايعنك بضمان الثواب على الوفاء بهذه الأشياء. ﴿ واستغفر لَهُنَّ الله إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ لاَ تَتَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ ﴾

يعني عامة الكفار أو اليهود . إذ روي أنها نزلت في بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم . ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخرة ﴾ لكفرهم بها أو لعلمهم بأنهم لاحظ لهم فيها لعنادهم الرسول المنعوت في التوراة المؤيد بالآيات . ﴿ كَمَا يَئِسَ الكفار مِنْ أصحاب القبور ﴾ أن يبعثوا أو يثابوا أو ينالهم خير منهم ، وعلى الأول وضع الظاهر فيه موضع المضمر للدلالة على أن الكفر آيسهم .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة " . (1) انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 325 . 331 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾

التفسير : يروى أن مولاة أبي عمرو ابن صيفي بن هاشم يقال لها سارة ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو متجهز لفتح مكة فعرضت حاجتها ، فحث بني المطلب على الإحسان إليها فأتاها حاطب بن أبي بلتعة وأعطاها عشرة دنانير وكساها برداً واستحملها كتاباً إلى أهل مكة هذه نسخته " من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة . اعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حذركم " . فخرجت سارة ونزل جبريل عليه السلام بالخبر ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه وعماراً وعمرو فرساناً آخر وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فإن أبت فاضربوا عنقها . فأدركوها فجحدته وحلفت فهموا بالرجوع فقال علي رضي الله عنه : والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسل سيفه وقال : أخرجي الكتاب أن تضعي رأسك فأخرجته من عقاص شعرها . فقال رسول الله عليه وسلم لحاطب : ما حملك عليه ؟ فقال : يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم ولكني كنت غريباً في قريش وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يداً ، وقد علمت أن الله ينزل عليهم بأسه وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً فصدّقه وقبل عذره فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق .

فقال: وما يدريك يا عمر لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. ففاضت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم وأنزلت السورة. و ﴿ تلقون ﴾ مستأنف أو حال من ضمير ﴿ لا تتخذوا ﴾ أو صفة لأولياء، ولا حاجة إلى الضمير البارز وهو أنتم وإن جرى على غير من هو له لأن ذاك في الأسماء دون الأفعال كما لو قلت مثلاً ملقين أنتم والإلقاء عبارة عن الإيصال التام. والباء في ﴿ بالمودة ﴾ إما زائدة كما في قوله ﴿ ولا تلقوا بأيديكم ﴾ [البقرة: 195] أو للسببية ومفعول ﴿ تلقون ﴾ محذوف معناه تلقون إليهم أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب المودة. و ﴿ أن تؤمنوا ﴾ تعليل ل ﴿ يخرجون ﴾ أي يخرجونكم لإيمانكم. و ﴿ إن كنتم خرجتم ﴾ تأكيد متعلق ب ﴿ لا تتخذوا ﴾ وجوابه مثله. وانتصب ﴿ جهاداً ﴾ و ﴿ ابتغاء ﴾ على العلة أي إن كنتم خرجتم من أوطانكم لأجل جهاد عدوّى ولابتغاء رضواني فلا تتولوا أعدائي. وقوله ﴿ تسرون ﴾ مستأنف والمقصود أنه لا فائدة في الإسرار فإن علام الغيوب لا يخفى عليه شيء. ثم خطأ رأيهم بوجه آخر وهو أنهم إن يظفروا بهم أخلصوا العداوة ويقصدونهم بكل سوء باللسان والسنان. قال علماء المعاني: إنما عطف قوله ﴿ وودّوا

﴾ وهو ماض لفظاً على ما تقدمه وهو مضارع تنبيهاً على أن ودادهم كفرهم أسبق شيء عندهم لعلمهم أن الدين أعز على المؤمنين من الأرواح والأموال وأهم شيء عند العدوّ أن يقصد أعز شيء عند صاحبه . ثم بين خطأ رأيهم بوجه آخر وهو أن المودة إذا لم تكن في الله لم تنفع في القيامة لانفصال كل اتصال يومئذ كما قال ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ﴾ [عبس : 34] الآية . ويجوز أن يكون الفصل بمعنى القضاء والحكم . ثم ذكر أن وجوب البغض في الله وإن كان أخاه أو أباه أسوة في إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه حيث جاهروا قومهم بالعداوة وقشروا لهم العصا وصرحوا بأن سبب العدوة ليس إلا الكفر بالله ، فإذا آمنوا انقلبت العداوة

(197/760)

موالاة والمناوأة مصافاة والمقت محبة . ثم استثنى ﴿ إلا قول إبراهيم ﴾ من قوله أسوة كأنه قال حق عليكم أن تأتسوا بأقواله إلا هذا القول الذي هو الاستغفار لقوله ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ [التوبة : 113] أما قوله ﴿ وما أملك لك من الله من شيء ﴾ فليس بداخل في حكم الاستثناء لأنه قول حق ، وإنما أورده إتماماً لقصة إبراهيم مع أبيه . وقال في الكشاف : هو مبني على الاستغفار وتابع له كأنه قال : أنا

أستغفر لك وما في طاقتي إلا الاستغفار . ثم أكد أمر المؤمنين بأن يقولوا ﴿ ربنا عليك توكلنا ﴾ الآية . ويجوز أن يكون من تتمة قول إبراهيم ومن معه وفيه مزيد توجيه .

ثم أكد أمر الائتساء بقوله ﴿ لقد كان ﴾ فأدخل لام الابتداء وأبدل من قوله ﴿ لكم ﴾ قوله ﴿ لمن كان يرجو ﴾ وختم الآية بنوع من الوعيد . ثم أطمع المؤمنين فيما تمنوا من عداوة أقاربهم بالمودة ﴿ والله قدير ﴾ على تقليب القلوب وتصريف الأحوال ﴿ والله غفور رحيم ﴾ لمن وادهم قبل النهي أو لمن أسلم من المشركين ، فحين يسر الله فتح مكة أسلم كثير منهم ولم يبق بينهم إلا التحاب والتصافي . ولما نزلت هذه الآيات تشدّد المؤمنون في عداوة أقاربهم وعشائرهم فنزل ﴿ لا ينهاكم الله ﴾ وقوله ﴿ أن تبروهم ﴾ بدل من ﴿ الذين لم يقاتلوكم ﴾ وكذا قوله ﴿ أن تولوهم ﴾ من ﴿ الذين قاتلوكم ﴾ والمعنى لا ينهاكم عن مبرة هؤلاء وإنما ينهاكم عن تولي هؤلاء . ومعنى ﴿ تقسطوا إليهم ﴾ تعطوهم مما تملكون من طعام وغيره قسطاً . وعدّي ب " إلى " لتضمنه معنى الإحسان وقال في الكشاف : تقضوا إليهم بالقسط أي العدل ولا تظلموهم . وقيل : أراد بهم خزاعة وكانوا صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه . وعن مجاهد : الذين آمنوا بمكة . وقيل : هم النساء والصبيان . وعن قتادة : نسختها آية القتال .

قال المفسرون : إن صلح الحديبية كان على أن من أتاكم من أهل مكة رد إليهم ومن أتى مكة منهم لم يرد إليكم وكتبوا بذلك كتاباً وختموه . فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية مسلمة والنبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية ، فأقبل زوجها مسافراً المخزومي . وقيل : صيفي بن الراهب فقال : يا محمد اردد إليّ امرأتي فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طية الكتاب لم تجف فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ الآية . فكانت بياناً لأن الشرط إنما كان في الرجال دون النساء . وعن الضحاك : كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين عهد أن تأتيك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا ، فإن دخلت في دينك ولها زوج أن ترد على زوجها الذي أنفق عليها . وللنبي صلى الله عليه وسلم من الشرط مثل ذلك فأتت امرأة فاستحلفها رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى ﴿ فامتحنوهن ﴾ فحلفت فأعطى زوجها ما أنفق وتزوّجها عمر . وفائدة قوله ﴿ الله أعلم بأيمانهنّ ﴾ أنه لا سبيل لكم إلى ما تسكن إليه النفس من اليقين الكامل لأنكم تختبرونهن بالحلف والنظر في سائر الأمارات التي لا تفيد إلا الظن ، وأما الإحاطة بحقيقة إيمانهن فإن ذلك مما تفرد به علام الغيوب ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات ﴾ العلم الذي يليق بحالكم وهو الظن الغالب ﴿ فلا ترجعون إلى ﴾ أزواجهن ﴿ الكفار ﴾ لأنه لا حلّ بين المؤمنة والمشرك وآتوا أزواجهن

﴿ مثل ما أنفقوا ﴾ مثل ما دفعوا إليهن من المهور . ثم نفى عنهم الحرج في تزوّج هؤلاء المهاجرات إذا أعطوهن مهورهن .

(199/760)

قال العلماء : إما أن يريد بهذا الأجر ما كان يدفع إليهن ليدفعنه إلى أزواجهن فيشترط في إباحة تزوّجهن تقديم أدائه ، وإما أن يراد بيان أن ذلك المدفوع لا يقوم مقام المهر وأنه لا بد من إصداق . احتج أبو حنيفة بالآية على أن أحد الزوجين إذا خرج من دار الحرب مسلماً أو بذمة وبقي الآخر حربياً وقعت الفرقة بينهما ولا يرى العدة على المهاجرة ويصح نكاحها إلا أن تكون حاملاً ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ وهو ما يعتصم به من عقد وسبب قال ابن عباس : أراد من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعدّها من نسائه لأن اختلاف الدين قطع عصمتها وحل عقدتها . وعن النخعي : هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر . وقال مجاهد : هذا أمر بطلاق الباقيات مع الكفار ومفارقتهن ﴿ واسئلوا ما أنفقتم ﴾ من مهور أزواجكم الملحقات بالكفار ﴿ وليسئلوا ما أنفقوا ﴾ من مهور نسائهم المهاجرات . أمر المؤمنين بالإيتاء ثم أمر الكافرين بالسؤال وهذه غاية العدل ونهاية الإنصاف . ثم أكد ما ذكر من الأحكام بأنها حكم الله . قال جار الله : ﴿ يحكم بينكم ﴾ كلام مستأنف أو

حال من حكم الله على حذف العائد أي يحكمه الله ، أو جعل الحكم حاكماً على المبالغة . يروى أن بعض المشركين أبوا أن يؤدّوا شيئاً من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين فأنزل الله تعالى ﴿ وإن فاتكم ﴾ أي سبقكم وانفلت منكم ﴿ شيء من أزواجكم ﴾ أحد منهن قال أهل المعاني : فائدة إيقاع شيء في هذا التركيب التغليظ في الحكم والتشديد فيه أي لا ينبغي أن يترك شيء من هذا الجنس وإن قل وحقر غير معوّض عنه . ويجوز أن يراد وإن فاتكم شيء من مهور أزواجكم . ومعنى ﴿ فعاقبتم ﴾ فجاءت عقبتكم من أداء المهر والعقبة النوبة شبه أداء كل طائفة من المسلمين والكافرين المهر إلى صاحبتها بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره ﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم ﴾ إلى الكفار ﴿ مثل ما أنفقوا ﴾ أي مثل مهرها من مهر المهاجرة ولا تؤتوه زوجها الكافر . وقال

الزجاج : معنى ﴿ فعاقبتم ﴾ فأصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم ، فالذي ذهبت زوجته كان يعطي من الغنيمة المهر . قال بعض المفسرين : جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة : أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شدّاد

الفهرى ، وفاطمة بنت أبي أمية كانت تحت عمر بن الخطاب وهي أخت أم سلمة ، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان ، وعبدة بنت عبد العزى بن نصلة وزوجها عمرو بن عبد ودّ ، وهند بنت أبي جهل كانت تحت هشام بن العاص ، وكلثوم بنت جرول كانت تحت عمر . أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة . وفي قوله ﴿ واتقوا الله ﴾ ندب إلى سيرة التقوى ورعاية العدل ولو مع الكفرة .

(201/760)

ثم نبّه نبيه صلى الله عليه وسلم على شرائط المبالغة وهي المعاهدة على كل ما يقع عليه اتفاق كالإسلام والإمارة والإمامة ، والمراد ههنا المعاقدة على الإسلام وإعطاء العهود به وبشرائطه وعدم قتل الأولاد ووأد البنات ، وكانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدي منك فكني عنه بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها لأن بطنها الذي تحمله فيه هو بين اليدين وفرجها الذي تلد به بين الرجلين . وقيل : البهتان في الآية الكذب والتهمة والمشي بالسعاية مختلفة من تلقاء أنفسهنّ . وقيل : قذف المحصنين . قال ابن عباس : في قوله ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ إنما هو شرط شرطه الله تعالى على النساء ، والمعروف كل ما ندب إليه الشرع ونهى عنه من المحسنات والمقبحات . واختلف في كيفية مبايعته إياهنّ

فقيل: دعا بقدح من ماء وغمس يده فيه ثم غمسن أيديهنّ. وقيل: صافحهنّ وكان على يده ثوب. وقيل: كان عمر يصافحهنّ ما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة يملكها إنما كان كلاماً. وعن أميمة بنت رقيقة قالت: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة من الأنصار نبايعه على الإسلام فأخذ علينا بايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهنّ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ ولا يعصينك في معروف. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فيما استطعن وأطقتن. قلنا؛ الله ورسوله أرحم بنا منا بأنفسنا هلمّ نصافحك يا رسول الله. قال: إني لا أصافح النساء إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة. يروى أن بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود طمعاً في ثمارهم فنزلت ﴿ لا تتلوا قوماً ﴾ الآية. وسبب يأسهم من الآخرة تكذيبهم بصحة نبوّة الرسول ثم عنادهم كما يئس الكفار من موتاهم أن يرجعوا أحياء. وقيل: من أصحاب القبور بيان للكفار لأنهم أيسوا من خير الآخرة ومعرفة المعبود الحق فكأنهم أولى. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 290. 294﴾

(202/760)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الممتحنة

مدنية وهي ثلاث عشرة آية وثلاثمائة وثمانوأربعون كلمة وألف وخمسمائة وعشرة أحرف

﴿ بسم الله ﴾ الذي من تولاه أغناه عمن سواه ﴿ الرحمن ﴾ الذي شمل برحمة البيان من حاطه بالعقل ورعاه ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص بالتوفيق من أحبه وارتضاه ونزل في حاطب بن أبي بلتعة .

(203/760)

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّى ﴾ أي : وأنتم تدّعون موالاتي ﴿ وعدوّكم ﴾ أي : العريق في عدواتكم ما دمتم على مخالفته في الدين ﴿ أولياء ﴾ وذلك ما روي "أنّ مولاة لأبي عمرو بن صيفي يقال لها : سارة أتت النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يتجهز للفتح ، فقال لها : أمسلمة جئت ، قالت : لا ، قال : أفمهاجرة جئت ، قالت : لا ، قال : فما جاء بك ، قالت : كنتم الأهل والموالي والعشيرة ، وقد ذهبت الموالي تعني قتلوا يوم بدر فاحتجت حاجة شديدة ، فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني ، فقال صلى الله عليه وسلم فأين أنت عن شباب أهل مكة وكانت مغنية نائحة قالت : ما طلب مني شيء بعد

وقعة بدر ، فحث رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب على إعطائها ، فكسوها وحملوها وزوّدوها فأتاها حاطب بن أبي بلتعة وأعطاها عشرة دنانير وكساها برداً ، واستحملها كتاباً لأهل مكة نسخته : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة ، إعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حذركم ، وقد توجه إليكم بجيش كالليل وأقسم بالله لو لم يسر إليكم إلا وحده لأظفره الله تعالى بكم ، وأنجز له موعده فيكم فالله وليه وناصره فخرجت سارة ، ونزل جبريل عليه السلام بالخبر فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً ، وعماراً ، وعمر ، وطلحة ، والزبير ، والمقداد ، وأبا مرثد ، وكانوا فرساناً ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإنّ بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة فخذوه منها وخلوها ، فإن أبت فاضربوا عنقها . فادركوها فجحدت وحلفت ما معها كتاب ففتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً فهموا بالرجوع ، فقال عليّ : والله ما كذبنا ، ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلّ سيفه ، وقال : أخرجي الكتاب ، وإلا والله لأجردنك ولأضربنّ عنقك ، فلما رأت الجدّ أخرجته من عقاص شعرها فخلوا سبيلها ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمن جميع الناس يوم

الفتح إلا أربعة:

هي أحدهم فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً ، وقال له : هل تعرف هذا الكتاب ، قال : نعم ، قال : فما حملك عليه ، فقال : يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكني كنت أمرأ ملصقاً في قريش ، وروى عزيزاً فيهم أي : غريباً ولم أكن من أنفسها ، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيري ، فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يداً ، وقد علمت أنّ الله تعالى ينزل عليهم بأسه ، وإنّ كتابي لا يغني عنهم شيئاً فصدّقه وقبل عذره ، فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : "وما يدريك يا عمر لعلّ الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، ففاضت عينا عمر" ، وقال : الله ورسوله أعلم . وإضافة العدوّ إلى الله تعالى تغليظاً في خروجهم ، وهذه السورة أصل في النهي عن موالاة الكفار ، وتقدّم نظيره في قوله تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ﴾ (آل عمران :)

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ﴾ (آل عمران :)

روي أنّ حاطباً لما سمع ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ غشي عليه من الفرح بخطاب الإيمان .

ثم إنه تعالى استأنف بيان هذا الاتخاذ بقوله تعالى مشيراً إلى غاية الإسراع والمبادرة إلى ذلك بالتعبير بقوله تعالى : ﴿ تلقون ﴾ أي : جميع ما هو في حوزتكم مما لا تطمعون فيه إلقاء الشيء الثقيل من علو ﴿ إليهم ﴾ على بعدهم منكم حساً ، ومعنى ﴿ بالمودّة ﴾ أي : بسببها قال القرطبي : تلقون إليهم بالمودّة ، يعني : بالظاهر لأنّ قلب حاطب كان سليماً بدليل أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أمّا صاحبكم فقد صدق" هذا نص في إسلامه وسلامة فؤاده وخلوص اعتقاده . وقرأ حمزة بضم الهاء ، والباقون بكسرها . وقوله تعالى : ﴿ وقد كفروا ﴾ أي : غطوا جميع مالكم من الأدلة ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ جاءكم من الحق ﴾ أي : الأمر الثابت الكامل في الثبات الذي لا شيء أعظم ثباتاً منه فيه أوجه:

أحدها : الاستئناف .

ثانيها : الحال من فاعل تتخذوا .

ثالثها : الحال من فاعل تلقون ، أي : لا تتولوهم ولا توادّوهم ، وهذه حالهم . وقوله تعالى : ﴿ يخرجون الرسول ﴾ يجوز أن يكون مستأنفاً ، وأن يكون تفسير الكفرهم فلا محل له على هذين ، وأن يكون حالاً من فاعل كفروا . وقوله تعالى : ﴿ وأياكم ﴾ عطف على

الرسول وقدم عليهم تشريفاً له صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى : ﴿ أن تؤمنوا ﴾ أي : توقعوا حقيقة الإيمان مع التجدّد والاستمرار ﴿ بالله ﴾ أي : الذي اختص بجميع صفات الكمال ﴿ ربكم ﴾ أي : المحسن إليكم تعليل ليخرجون ، والمعنى : يخرجون الرسول ويخرجونكم من مكة لأن تؤمنوا بالله ، أي : لأجل إيمانكم بالله .

(206/760)

قال ابن عباس : وكان حاطب ممن أخرج مع النبي صلى الله عليه وسلم وفي ذلك تغليب المخاطب والإلتفات من التكلم إلى الغيبة للدلالة على ما يوجب الإيمان ﴿ إن كنتم خرجتم ﴾ أي : عن أوطانكم ، وقوله تعالى : ﴿ جهاداً في سبيلي ﴾ أي : بسبب إرادتكم تسهيل طريقي التي شرعتها لعبادي أن يسلكوها ﴿ وابتغاء مرضاتي ﴾ أي : ولأجل تطلبكم أعظم الرغبة لرضاي علة للخروج ، وعمدة للتعليق ، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه لا تتخذوا . وقرأ الكسائي بالإمالة محضة ، والباقون بالفتح . وقوله تعالى : ﴿ تسرون ﴾ أي : توجدون جميع ما يدل على مناصحتكم إياهم والتودّد ﴿ إليهم بالمودّة ﴾ أي : بسببها بدل من تلقون قاله ابن عطية . قال ابن عادل : ويشبه أن يكون بدل اشتمال لأنّ القاء المودّة يكون سرّاً وجهراً ، أو استئناف واقتصر عليه الزمخشري

﴿ وأنا ﴾ أي: والحال أني ﴿ أعلم ﴾ أي: من كل أحد حتى من نفس الفاعل، وقرأ نافع بمدّ الألف بعد النون ﴿ بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾ قال ابن عباس: بما أخفيتم في صدوركم وما أظهرتم بألسنتكم، أي: فأي فائدة لأسراركم إن كنتم تعلمون أني عالم به، وإن كنتم تتوهمون أني لا أعلمه فهي القاصمة ﴿ ومن يفعله ﴾ أي: يوجد أسرار خبر إليهم ويكاتبهم ﴿ منكم ﴾ أي: في وقت من الأوقات ﴿ فقد ضلّ ﴾ أي: عمي ومال وأخطأ ﴿ سواء السبيل ﴾ أي: قويم الطريق الواسع الموصل إلى القصد قويمه وعدله. قال القرطبي: هذا كله معاتبة لحاطب، وهو يدل على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق إيمانه فإنّ المعاتبة لا تكون إلا من محب لحبيب، كما قال القائل:

*إذا ذهب العتاب فليس ودّ ** ويبقى الودّ ما بقي العتاب*

وقرأ قالون وابن كثير وعاصم بإظهار الدال عند الضاد، والباقون بالإدغام.

﴿ إن يثقفوكم ﴾ أي: يظفروا بكم في وقت من الأوقات ومكان من الأماكن ﴿ يكونوا لكم أعداء ﴾ أي: ولا ينفعكم القاء المودّة إليهم ﴿ ويبسطون إليكم ﴾ أي: خاصة، وإن

كان هناك في ذلك الوقت من غير من قتل أعز الناس عليهم ﴿ أيديهم ﴾ أي : بالضرب أن استطاعوا ﴿ وألسنتهم ﴾ أي : بالشتم مضمومة إلى فعل أيديهم فعل من ضاق صدره بما تجرّع من آخر من الغصص حتى أوجب له غاية السفه ﴿ بالسوء ﴾ أي : بكل ما من شأنه أن يسوء ﴿ وودّوا ﴾ أي : تمنوا قبل هذا ﴿ لو تكفرون ﴾ لأنّ مصيبة الدين أعظم فهو إليها أسرع ، لأنّ دأب العدوّ القصد إلى أعظم ضرر يراه لعدوّه ، وعبر بما يفهم التمني الذي يكون في المحالات ليكون المعنى أنهم أحبوا ذلك غاية الحب وتمنوه ، وفيه بشرى بأنه من قبيل المحال ، وقدم الأوّل لأنه أبين في العداوة وإن كان الثاني أنكى .

ولما كانت عداوتهم معروفة ، وإنما غطاها محبة القرابات لأنّ الحب للشيء يعمي ويصم فخطأ رأيهم في موالاتهم بما أعلمهم به من حالهم ، فقال تعالى مستأنفاً إعلاماً بأنها خطأ على كل حال .

(208/760)

﴿ لن تنفعكم ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ أرحامكم ﴾ أي : قراباتكم الحاملة لكم على رحمتكم والعطف عليهم ﴿ ولا أولادكم ﴾ أي : الذين هم أخص أرحامكم إن واليتم أعداء الله تعالى لأجلهم ، فينبغي أن لا تعدّوا قربهم منكم بوجه أصلاً ، ثم علل ذلك وبينه

بقوله تعالى: ﴿ يوم القيامة ﴾ أي: القيام الأعظم ﴿ يفصل ﴾ أي: يوقع الفصل، وهو الفرقة العظيمة بانقطاع جميع الأسباب. وقرأ عاصم بفتح الياء وإسكان الفاء وكسر الصاد مخففة، وقرأ ابن عامر بضم الياء وفتح الفاء وفتح الصاد مشددة، وحمزة والكسائي كذلك إلا أنهما يكسران الصاد، والباقون بضم الياء وسكون الفاء ﴿ بينكم ﴾ أي: أيها الناس فيدخل من يشاء من أهل طاعته الجنة، ومن يشاء من أهل معصيته النار فلا ينفع أحد أحداً منكم بشيء من الأشياء، إلا إن كان قد أتى الله تعالى بقلب سليم فيأذّن الله تعالى في إكرامه بذلك ﴿ والله ﴾ أي: الذي له الإحاطة التامّة ﴿ بما تعملون ﴾ أي: من كل عمل في كل وقت ﴿ بصير ﴾ فيجازيكم عليه في الدنيا والآخرة.

ولما نهى تعالى عن موالاة الكفار ذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وأنّ من سيرته التبري من الكفار بقوله تعالى:

﴿ قد كانت ﴾ أي: وجدت وجوداً تامّاً، وكأنّ تأنيث الفعل إشارة إلى الرضا بها، ولو كانت على أدنى الوجوه ﴿ لكم ﴾ أي: أيها المؤمنون ﴿ أسوة ﴾ أي موضع اقتداء وتأسية في إبراهيم وطريقة مرضية. وقرأ أسوة في الموضعين عاصم بضم الهمزة، والباقون بكسرها ﴿ حسنة ﴾ أي: يرغب فيها ﴿ في إبراهيم ﴾ أي: في قول أبي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ والذين معه ﴾ أي: ممن كان قبله من الأنبياء. قاله القشيري: وممن آمن

به في زمانه كابن أخته لوط عليه الصلاة والسلام ، وهم قدوة أهل الجهاد والهجرة ، وقيل : المراد بمن معه أصحابه من المؤمنين . وقرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها ، والباقون بكسر الهاء وبعدها ياء أي : فاقتدوا به إلا في استغفاره لأبيه .

(209/760)

قال القرطبي : الآية نص في الأمر بالاقتداء بإبراهيم عليه الصلاة والسلام في فعله ، وذلك يدل على أن شرع من قبلنا شرع لنا فيما أخبر الله ورسوله ، وقيل : إنه شرع لنا إذا ورد في شرعنا ما يقرره ، وقيل : ليس بشرع لنا مطلقاً وهو الأصح عندنا ﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ قالوا ﴾ وقد كان من آمن به أقل منكم وأضعف ﴿ لقومهم ﴾ أي : الكفرة وقد كانوا أكثر من عدوّكم وأقوى ، وكان لهم فيهم أرحام وقرابات ، ولهم فيهم رجاء بالقيام والمحاولات ﴿ أنا براء ﴾ أي : متبرؤن تبرئة عظيمة ﴿ منكم ﴾ وإن كنتم أقرب الناس إلينا ، ولا ناصر لنا منهم غيركم ﴿ ومما تعبدون ﴾ أي : توجدون عبادته في وقت من الأوقات ﴿ من دون الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ كفرنا بكم ﴾ أي : جحدناكم وأنكرنا دينكم ﴿ وبدا ﴾ أي : ظهر ظهوراً عظيماً ﴿ بيننا وبينكم العداوة ﴾ وهي المباينة في الأفعال بأن يعدو كل أحد على الآخر ﴿ والبغضاء ﴾ وهي المباينة بالقلوب للبغض

العظيم .

ولما كان ذلك قد يكون سريع الزوال قالوا : ﴿ أبداً ﴾ أي : على الدوام . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو في الوصل بإبدال الهمزة الثانية المفتوحة بعد المضمومة واواً خالصة ، والباقون بتحقيقها وهم على مراتبهم في المدّ ، وإذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفاً مع المدّ والتوسط والقصر ، ولهما أيضاً التسهيل مع المدّ والقصر والروم معهما . ولما كان ذلك مؤيساً من صلاح الحال ، وقد يكون لحظ النفس بينوا غايته بقولهم : ﴿ حتى تؤمنوا بالله ﴾ أي : الملك الذي له الكمال كله ﴿ وحده ﴾ أي : تكونوا مكذبين بكل ما يعبد من دون الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه ﴾ فيه أوجه:

أحدها : إنه استثناء متصل من قوله تعالى في إبراهيم ، ولكن لا بدّ من حذف مضاف ليصح الكلام ، تقديره في مقالات إبراهيم : إلا قوله كيت وكيت .

ثانيها : إنه مستثنى من أسوة حسنة ، واقتصر على ذلك الجلال المحلي ، وجاز ذلك لأنّ القول أيضاً من جملة الأسوة ، لأنّ الأسوة الاقتداء بالشخص في أقواله وأفعاله فكأنه قيل لكم فيه أسوة في جميع أحواله من قول وفعل إلا قوله كذا ، وهو أوضح لأنه غير محوج إلى تقدير

مضاف ، وغير مخرج للاستثناء من الاتصال الذي هو أصله إلى الانقطاع ، ولذلك لم يذكر الزمخشري غيره .

ثالثها : قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون الاستثناء من التبري والقطيعة التي ذكرت ، أي : لم تبق صلة إلا كذا .

رابعها : إنه استثناء منقطع ، أي : لكن قول إبراهيم وهذا بناء من قائله على أنّ القول لم يندرج تحت قوله أسوة ، وهو ممنوع . قال القرطبي : معنى قوله تعالى إلا قول إبراهيم لأبيه ﴿ لأستغفرنّ لك ﴾ أي : فلا تتأسوا به في الاستغفار فتستغفروا للمشركين فإنه كان عن موعدة منه له ، قاله قتادة ومجاهد وغيرهما . وقيل : معنى الاستثناء أن إبراهيم هجر قومه وباعدهم إلا في الاستغفار لأبيه ، ثم بين عذره في سورة التوبة ، وفي هذا دلالة على تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ، لأنا حين أمرنا بالاقتداء به أمرنا أمراً مطلقاً في قوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وحين أمرنا بالاقتداء بإبراهيم استثنى بعض أفعاله ، وهذا إنما جرى لأنه ظنّ أنه أسلم فلما بان أنه لم يسلم تبرّأ منه ، وعلى هذا فيجوز الاستغفار لمن يظنّ أنه أسلم ، وأنتم لم تجدوا مثل هذا الظنّ فلم توالونهم . وقوله ﴿ وما أملك لك من الله ﴾ أي : من عذاب أو ثواب الملك إلا على المحيط بنعوت الجلال ﴿ من شيء ﴾ من تمام قوله المستثنى ، ولا يلزم من استثناء المجموع استثناء جميع أحواله .

وقوله : ﴿ ربنا ﴾ أي : أيها المحسن إلينا ﴿ عليك ﴾ أي : لا على غيرك ﴿ توكلنا ﴾ أي : فوّضنا أمرنا إليك يجوز أن يكون من مقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام والذين معه ، فهو من جملة الأسوة الحسنة ، وفصل بينهما بالاستثناء ويجوز أن يكون منقطعاً عما قبله على إضمار قول ، وهو تعليم من الله تعالى لعباده كأنه قال لهم قولوا ربنا عليك توكلنا

﴿ وإليك ﴾ أي : وحدك ﴿ أنبنا ﴾ أي : رجعنا بجميع ظواهرنا وبواطننا ﴿ وإليك ﴾ أي وحدك ﴿ المصير ﴾ أي : الرجوع في الآخرة .

﴿ ربنا ﴾ أي : أيها المربي لنا والمحسن إلينا ﴿ لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ أي : بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نحتمله ، أو فيظنوا أنهم على حق فيفتتنوا بذلك . وقيل : لا تعذبنا بعذاب من عندك فيقولون لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ذلك . وقيل : لا تسلط عليهم الرزق دوننا ، فإنّ ذلك فتنة لهم ﴿ واغفر لنا ﴾ أي : استر ما وقع منا من الذنوب ، وامح عينه وأثره ﴿ ربنا ﴾ أي : أيها المحسن إلينا وأكدوا إعلاماً بشدّة رغبتهم في حسن الثناء عليه فقالوا : ﴿ إنك أنت ﴾ أي : وحدك لا غيرك ﴿ العزيز ﴾ أي : الذي

يغلب كل شيء ، ولا يغلبه شيء ﴿ الحكيم ﴾ أي : الذي يضع الأشياء في أوفق محالها فلا يستطاع نقضها ، ومن كان كذلك فهو حقيق بأن يعطى من أمله ما طلب .

(212/760)

وقوله تعالى : ﴿ لقد كان لكم ﴾ أي : يا أمّة محمد جواب قسم مقدّر ﴿ فيهم ﴾ أي : إبراهيم ومن معه من الأنبياء والأولياء ﴿ أسوة حسنة ﴾ أي : في التبري من الكفار ، وكرّر للتأكيد . وقيل : نزل الثاني بعد الأول بمدّة . قال القرطبي : وما أكثر المكرّرات في القرآن على هذا الوجه . وقوله تعالى : ﴿ لمن كان يرجوا الله ﴾ أي : الملك المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ واليوم الآخر ﴾ أي : الذي يحاسب فيه على النقير والقطمير بدل من الضمير في لكم بدل بعض من كل ، وفي ذلك بيان أنّ هذه الأسوة لمن يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة ﴿ ومن يتول ﴾ أي : يوقع الأعراض عن أوامر الله تعالى فيوالي الكفار ﴿ فإن الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ هو ﴾ أي : خاصة ﴿ الغنيّ ﴾ أي : عن كل شيء ﴿ الحميد ﴾ أي : الذي له الحمد المحيط لإحاطته بأوصاف الكمال ، فهو حميد في نفسه وصفاته ، أو حميد إلى أوليائه وأهل طاعته .

ولما نزلت الآية الأولى عادى المسلمون أقرباءهم من المشركين ، فعلم الله تعالى شدّة وجد

المسلمين في ذلك فنزل ﴿ عسى الله ﴾ أي : أنتم جديرون بأن تطمعوا في الملك إلا على المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ أن يجعل ﴾ أي : بأسباب لا تعلمونها ﴿ بينكم وبين الذين عاديتم منهم ﴾ أي : كفار مكة ﴿ مودة ﴾ أي : بأن يلهمهم الإيمان فيصيروا لكم أولياء ، وقد جعل ذلك عام الفتح تحقيقاً لما رجاه سبحانه ، لأنّ عسى من الله تعالى وعد ، وهو لا يخلف الميعاد ﴿ والله ﴾ أي الذي له كمال الإحاطة ﴿ قدير ﴾ أي : بالغ القدرة على كل ما يريده ، فهو يقدر على تقليب القلوب وتيسير العسير ﴿ والله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال ﴿ غفور ﴾ أي : محاء لأعيان الذنوب وآثارها ﴿ رحيم ﴾ يكرم الخاطئين إذا أراد بالتوبة ، ثم بالجزاء غاية الإكرام فيغفر لما فرط منكم في موالاتهم من قبل ، وما بقي في قلوبكم من ميل الرحم وقوله تعالى:

﴿ لا ينهاكم الله ﴾ أي : الذي اختص بالجلال والإكرام ﴿ عن الذين لم يقاتلوكم ﴾ أي : بالفعل ﴿ في الدين ﴾ الآية رخصة من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم . قال ابن زيد : هذا كان في أوّل الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال ، ثم نسخ . قال قتادة : نسخها ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ (التوبة :)

وقال ابن عباس : نزلت في خزاعة ، وذلك أنهم صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً ، فرخص الله تعالى في برّهم .

(214/760)

وقال أكثر أهل التأويل : إنها محكمة ، واحتجوا بأنّ أسماء بنت أبي بكر قدمت أمّها وهي مشركة عليها المدينة بهدايا ، فقالت أسماء : لا أقبل منك هدية ، ولا تدخلي علي بيتاً حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تدخل منزلها ، وأن تقبل هديتها وتكرمها وتحسن إليها ، وفي ذلك إشارة إلى الاقتصار في العداوة والولاية ، كما قال صلى الله عليه وسلم "أحبب حبيبك هوناً مّا عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هوناً مّا عسى أن يكون حبيبك يوماً ما" وروى عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه "أنّ أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه طلق امرأته قتيلة في الجاهلية ، وهي أمّ أسماء بنت أبي بكر فقدمت عليهم في المدّة التي كانت فيها المهادنة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش ، فأهدت إلى أسماء بنت أبي بكر قرطاً وأشياء ، فكرهت أن تقبل منها حتى أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فأنزل الله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في

الدين ﴾ . ﴿ ولم يخرجوكم من دياركم أن ﴾ أي : لا ينهاكم عن أن ﴿ تبروهم ﴾ بنوع من أنواع البرّ الظاهرة ، فإنّ ذلك غير صريح في قصد المودّة ﴿ وتقسطوا إليهم ﴾ أي : تعطوهم قسطاً من أموالكم على وجه الصلة قال ابن العربي : وليس يريد به من العدل ، فإنّ العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل وحكي أن القاضي إسماعيل بن إسحاق دخل عليه ذمي فأكرمه فأخذ عليه الحاضرون في ذلك فتلا عليهم هذه الآية ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له الكمال كله ﴿ يحب ﴾ أي : يثيب ﴿ المقسطين ﴾ أي : الذين يزيلون الجور ، ويوقعون العدل .

(215/760)

﴿ إنما ينهاكم الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة الكاملة علماً وقدرة ﴿ عن الذين قاتلوكم ﴾ أي : جاهدوكم متعمدين لقتالكم ﴿ في الدين ﴾ أي : عليه فليس شيء من ذلك خارجاً عنه ﴿ وأخرجوكم من دياركم ﴾ أي بأنفسهم لبغضكم ، وهم عتاة أهل مكة ﴿ وظاهروا ﴾ أي : عاونوا غيرهم ﴿ على إخراجكم ﴾ وهم مشركوا مكة . وقوله تعالى : ﴿ أن تولوهم ﴾ بدل اشتمال من الذين أي : تتخذوهم أولياء . وقرأ البزي بتشديد التاء ، والباقون بالتخفيف .

ولما كان التقدير فمن أطاع فأولئك هم المفلحون عطف عليه قوله تعالى : ﴿ ومن يتولهم ﴾ أي : يكلف نفسه الحمل على غير ما تدعو إليه الفطرة الأولى من المنابزة ، وأطلق ولم يقيد بمنكم ليعم المهاجرين وغيرهم ، والمؤمنين وغيرهم ﴿ فأولئك ﴾ أي : الذين أبعدوا عن العدل ﴿ هم الظالمون ﴾ أي : الغريقون في إيقاع الأشياء في غير مواضعها .

ولما أمر المسلمين بترك موالاة المشركين اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام ، وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة فبين أحكام مهاجرة النساء بقوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي : أقرّوا بالإيمان ﴿ إذا جاءكم المؤمنات ﴾ أي : بأنفسهن ﴿ مهاجرات ﴾ أي : من الكفار بعد الصلح معهم في الحديبية ﴿ فامتحنوهنّ ﴾ أي : بالحلف أنهنّ ما هاجرن إلا رغبة في الإسلام ، لا بغضاً في أزواجهن الكفار ، ولا عشقاً لرجال من المسلمين . كذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلفهنّ .

(216/760)

قيل : إنّ سبب الامتحان أنه كان من أرادت منهنّ إضرار زوجها قالت : سأهاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلذلك أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بامتحانهنّ

﴿ الله ﴾ أي : المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ أعلم ﴾ أي : منكم ومن أنفسهنّ ﴿ بإيمانهنّ ﴾ هل هو كائن ، أم لا على وجه الرسوخ ، أم لا فإنه المحيط بما غاب كإحاطته بما شوهد ، وإنما وكل الأمر إليكم في ذلك ستراً للناس ﴿ فإن علمتموهنّ مؤمنات ﴾ أي : العلم الممكن لكم ، وهو الظنّ المؤكد بالإمارات الظاهرات بالحلف وغيره ﴿ فلا ترجعوهنّ ﴾ أي : بوجه من الوجوه ﴿ إلى الكفار ﴾ وإن كانوا أزواجاً . قال ابن عباس : لما جرى الصلح مع مشركي قريش عام الحديبية على أنّ من أتاه من أهل مكة ردّه إليهم جاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم بالحديبية بعد فأقبل زوجها وكان كافراً وكان صيفي بن الراهب ، وقيل : مسافر المخزومي فقال : يا محمد أردد علي امرأتي فأنت شرطت ذلك ، وهذه طية الكتاب لم تجف بعد فأنزل الله تعالى هذه الآية . وروي "أنّ أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط جاءت للنبي صلى الله عليه وسلم فجاء أهلها يسألونه أن يردّها ، وقيل : هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعها أخواها عمارة والوليد ، فردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخويها وحبسها فقالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم ردّها علينا للشرط ، فقال صلى الله عليه وسلم كان الشرط في الرجال لا في النساء فأنزل الله تعالى هذه الآية" . وعن عروة قال كان مما اشترط سهل بن عمرو على النبيّ صلى الله عليه وسلم في الحديبية أن لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، وخليت بيننا وبينه ، فكره المؤمنون ذلك وأبى سهل

إلا ذلك، فكاتبه النبيّ صلى الله عليه وسلم على ذلك، فردّ يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهل بن عمرو ولم يأته أحد من الرجال إلا ردّه في تلك المدّة، وإن كان مسلماً حتى أنزل الله تعالى في المؤمنات ما أنزل، وهذا

يومي إلى

أنّ الشرط في ردّ النساء نسخ بذلك، وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن. وقال بعض العلماء: كله منسوخ بالقرآن، وقالت طائفة: لم يشترط ردّهنّ في العقد لفظاً، وإنما أطلق العقد في ردّ من أسلم فكان ظاهر العموم اشتماله عليهنّ مع الرجال، فبين الله تعالى خروجهنّ عن عمومه وفرق بينهنّ وبين الرجال لأمرين: أحدهما: أنهنّ ذوات فروج فحرمن عليهنّ، الثاني: أنهنّ أرق قلوباً وأسرع تقلباً منهم، فأما المقيمة منهنّ على شركها فمردودة عليهم ﴿ لا هنّ ﴾ أي: المؤمنات ﴿ حل ﴾ أي: موضع حلّ ثابت ﴿ لهم ﴾ أي: الكفار باستمتاع، ولا غيره. وقوله تعالى: ﴿ ولا هم ﴾ أي: رجال الكفار ﴿ يحلون لهنّ ﴾ أي: المؤمنات تأكيد للأوّل لتلازمهما.

وقال البيضاوي: والتكرير للمطابقة والمبالغة، والأولى لحصول الفرقة، والثانية للمنع عن

الاستئناف .

وقيل : أراد استمرار الحكم بينهم فيما يستقبل كما هو في الحال ما داموا مشركين ، وهنّ مؤمنات . والمعنى : لم يحل الله تعالى مؤمنة لكافر في حال من الأحوال ، وهذا أدل دليل على أنّ الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها الكافر إسلامها لا هجرتها . وقال أبو حنيفة : الذي فرق بينهما هو اختلاف الدارين ، والصحيح كما قال ابن عادل : الأول لأنّ الله تعالى بين العلة ، وهو عدم الحل بالإسلام لا باختلاف الدار .

ولما نهى عن الردّ وعلله أمر بما قدم من الأقساط إليهم فقال تعالى : ﴿ وآتوهم ﴾ أي : أعطوا الأزواج ﴿ ما أنفقوا ﴾ أي : عليهنّ من المهور ، فإنّ المهر في نظير أصل العشرة ودوامها ، وقد فوتتها المهاجرة فلا يجمع عليه خسارتان الزوجية والمالية وأما الكسوة والنفقة فأنهما لما يتجدّد من الزمان .

تنبيه : أمر الله تعالى برد ما أنفقوا إلى الأزواج ، وإنّ المخاطب بهذا الإمام . وهل يجب ذلك أو يندب ؟ ظاهرة الآية الوجوب ، ولكن رجح الندب وعليه الشافعي ، لأنّ البضع ليس بمال فلا يشمله الأمان كما لا يشمل زوجية ، والآية وإن كان ظاهرها الوجوب محتملة

للندب الصادق بعدم الوجوب الموافق للأصل وقال مقاتل : يردّ المهر للذي يتزوّجها من المسلمين ، وليس لزوجها الكافر شيء . وقال قتادة : الحكم في ردّ الصداق إنما هو في نساء أهل الذمّة ، فأما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يرد عليهم الصداق . قال القرطبي : والأمر كما قال ﴿ ولا جناح ﴾ أي : حرج وميل ﴿ عليكم ﴾ يا أيها المشرفون بالخطاب ﴿ أن تنكحوهنّ ﴾ أي : تجدّدوا زواجكم بهنّ بعد الاستبراء ، وإن كان أزواجهنّ من الكفار لم يطلقوهنّ لزوال العلق عنهنّ لأنّ الإسلام فرق بينهم ، قال الله تعالى : ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ (النساء :)

(219/760)

ولما كان قد أمر برد مهور الكفار فكان ربما ظنّ أنه مغن عن تجديد مهر لهنّ إذا نكحهنّ المسلم نفى ذلك بقوله : ﴿ إذا آتيتموهنّ ﴾ أي : لأجل النكاح ﴿ أجورهنّ ﴾ أي : مهورهنّ ، وفي شرط أثناء المهر في نكاحهنّ إيذان بأن ما أعطى أزواجهنّ لا يقوم مقام المهر ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ جمع عصمة ، وهي هنا عقد النكاح ، أي : من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدّ بها فقد انقطعت عصمتها فلا يكن بينكم وبينهنّ عصمة ولا علقة زوجية ، والكوافر جمع كافرة كضوارب في ضاربة . قال النخعي : المراد بالآية هي المرأة

المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر ، وكان الكفار يتزوّجون المسلمات ، والمسلمون يتزوجون المشركات ، ثم نسخ ذلك بهذه الآية فطلق عمر بن الخطاب حينئذ امرأتين له بمكة مشركتين قريبة بنت أبي أمية فتزوجها معاوية بن أبي سفيان ، وهما على شركهما بمكة وأمّ كلثوم بنت عمر والخزاعية أم عبد الله بن المغيرة فتزوجها أبو جهم بن حذافة ، وهما على شركهما بمكة فلما ولي عمر قال أبو سفيان لمعاوية : طلق قريبة فلا يرى عمر سلبه في بيتك فأبى معاوية ، وكانت عند طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ففرق الإسلام بينهما ، ثم تزوجها في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص ، وكانت ممن فرت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من نساء الكفار فحبسها وزوجها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية . وقال الشعبي : كانت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة أبي العاص بن الربيع أسلمت ولحقت بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وأقام أبو العاص بمكة مشركاً ، ثم أتى المدينة وأسلم فردّها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم روى أبو داود عن عكرمة عن ابن عباس بالنكاح الأوّل ، ولم يحدث شيئاً . قال محمد بن عمرو في حديث بعد ست سنين ، وقال الحسن بن علي : بعد سنتين ، قال أبو عمر : فإن صح هذا فلا يخلو من وجهين : إما أنها لم تحض حتى أسلم زوجها ، وإما أنّ الأمر فيها منسوخ بقوله تعالى :

﴿ وبعولتهن أحق

بردّهن في ذلك ﴾ يعني : في عدّتهن ، وهذا مما لا خلاف فيه أنه عنى به العدّة قال الزهري في قصة زينب : هذه كانت قبل أن تنزل الفرائض ، وقال قتادة : كان هذا قبل أن تنزل سورة براءة بقطع العهود بينهم وبين المشركين .

تنبيه : المراد بالكوافر هنا عبدة الأوثان ، ومن لا يجوز ابتداء نكاحها . وقيل : هي عامّة نسخ منها نساء أهل الكتاب ، فعلى الأول : إذا أسلم وثني ، أو مجوسي ولم تسلم امرأته فرق بينهما ، وهو قول بعض أهل العلم منهم مالك والحسن وطاوس وعطاء وعكرمة وقتادة لقوله تعالى : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ وقال بعضهم : ينتظر بها تمام العدّة ، وهو قول الزهري والشافعي وأحمد ، واحتجوا بأن أبا سفيان بن الحارث أسلم قبل هند بنت عتبة امرأته ، وكان إسلامه بمرّ الظهران ، ثم رجع إلى مكة وهند بها كافرة مقيمة على كفرها ، فأخذت بلحيته وقالت : اقتلوا الشيخ الضال ، ثم أسلمت بعده بأيام فاستقرّا على نكاحهما لأنّ عدتها لم تكن انقضت ، قالوا : ومثله حكيم بن حزام أسلم قبل امرأته ، ثم أسلمت بعده فكانا على نكاحهما . قال الشافعي : ولا حجة لمن احتج بقوله تعالى : ﴿ بعصم الكوافر ﴾ لأنّ نساء المؤمنين محرمات على الكفار كما أن المسلمين لا تحل لهم الكوافر الوثنيات ولا المجوسيات لقوله تعالى : ﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ ثم

بينت السنة أن مراد الله تعالى من قوله هذا : أنه لا يحل بعضهم لبعض إلا إن أسلم الثاني منهما في العدّة .

وقال أبو حنيفة وأصحابه في الكافرين الذمّيين : إذا أسلمت المرأة عرض على الزوج الإسلام فإن أسلم ، وإلا فرق بينهما ، قالوا : ولو كانا حربيين فهي امرأته حتى تحيض ثلاث حيض إذا كانا جميعاً في دار الحرب ، أو في دار الإسلام ، وإن كان أحدهما في دار الحرب والآخر في دار الإسلام انقطعت العصمة بينهما ، وقد تقدّم أنّ اعتبار الدار ليس بشيء ، وهذا الخلاف إنما هو في المدخول بها .

فأمّا غير المدخول بها فلا نعلم خلافاً في انقطاع العصمة بينهما إذ لا عدّة عليها ، وكذا يقول مالك في المرأة يرتد زوجها المسلم تنقطع العصمة بينهما لقوله تعالى : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ وهو قول الحسن البصري والحسن بن صالح وقال الشافعي وأحمد : ينتظر بها تمام العدّة ، فإن كان الزوجان نصرانيين فأسلمت الزوجة فذهب مالك والشافعي وأحمد إلى تمام العدّة ، وهو قول مجاهد ، وكذا الوثني تسلم زوجته إن أسلم في عدّتها فهو أحق بها

، كما أن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل أحق بزوجتيهما لما أسلما في عدّتهما لما ذكر مالك في الموطأ .

(222/760)

قال بعض العلماء : كان بين إسلام صفوان وبين إسلام امرأته نحو من شهر ، قال : ولم يبلغنا أنّ امرأة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وزجها كافر مقيم بدار الحرب إلا فرقت هجرتها بينها وبين زوجها ، إلا أن يقدم زوجها مهاجراً قبل أن تنقضي عدتها . وقال بعضهم : ينفسخ النكاح بينهما لما روى يزيد بن علقمة قال : أسلم جدّي ولم تسلم جدّتي ففرق بينهما عمر ، وهو قول طاوس وعطاء والحسن وعكرمة قالوا : لا سبيل له عليها إلا بخطبة ﴿ واسألوا ﴾ أي : أيها المؤمنون الذين ذهبت زوجاتهم إلى الكفار مرتدّات ﴿ ما أنفقتم ﴾ أي : من مهور نسائكم ﴿ وليسألوا ﴾ أي : الكفار ﴿ ما أنفقوا ﴾ أي : من مهور أزواجهم اللائي أسلمن . قال المفسرون : كان من ذهب من المسلمات مرتدّات إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار : هاتوا مهرها ، ويقال للمسلمين : إذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة ردّوا إلى الكفار مهرها ، وكان ذلك نصفاً وعدلاً بين الحالين ﴿ ذلكم ﴾ أي : الحكم الذي ذكر في هذه الآيات البعيدة تعلق الرتبة عن

كل سفيه ﴿ حكم الله ﴾ أي : الملك الذي له صفات الكمال ، فلا تلحقه شائبة نقص ﴿ يحكم ﴾ أي : الله إذ حكمه على سبيل المبالغة ﴿ بينكم ﴾ أي : في هذا الوقت وفي غيره على هذا المنهاج البديع ، وذلك لأجل الهدنة التي كانت وقعت بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبينهم ، وأمّا قبل الحديبية فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يمسك النساء ولا يردّ الصداق ﴿ والله ﴾ أي : الذي له الإحاطة التامّة ﴿ عليم ﴾ أي : بالغ العلم لا يخفى عليه شيء ﴿ حكيم ﴾ أي : فهو لتمام علمه يحكم كل أموره غاية الأحكام ، فلا يستطيع أحد نقض شيء منها .

روي أن المسلمين قالوا : رضينا بما حكم الله تعالى ، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا فنزل قوله تعالى : ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم ﴾ أي : واحدة فأكثر منهن ، أو شيء من مهورهن بالذهاب ﴿ إلى الكفار ﴾ مرتدات ﴿ فعاقبتم ﴾ فغزوتم وغنمتم من أموال الكفار فجاءت نوبة ظفركم بأداء المهر إلى إخوانكم طاعة وعدلاً عقب نوبتهم التي اقتطعوا فيها ما أنفقتم ظلماً ﴿ فآتوا ﴾ أي : فاحضروا وأعطوا من مهر المهاجرة ﴿ الذين ذهبت أزواجهم ﴾ أي : منكم من الغنيمة ﴿ مثل ما أنفقوا ﴾ أي : لفواته عليهم من جهة

الكفار . روى الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت : حكم الله تعالى بينهم فقال جلّ ثناؤه ﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ﴾ فكتب إليهم المسلمون قد حكم الله تعالى بيننا بأنه إن جاءتكم امرأة منا أن توجهوا إلينا صداقها ، وإن جاءتنا امرأة منكم وجهنا إليكم بصداقها ، فكتبوا أما نحن فلا نعلم لكم عندنا شيئاً فإن كان لنا عندكم شيء فوجهوا به فأنزل الله تعالى : ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم ﴾ الآية . وقال ابن عباس : في قوله تعالى : ﴿ ذلكم حكم الله ﴾ أي : بين المسلمين والكفار من أهل العهد من أهل مكة يرد بعضهم على بعض . قال الزهري : ولولا العهد لأمسك النساء ولم يرد عليهم صداقاً ، وقال قتادة ومجاهد : إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفيء والغنيمة ، وقالا : هي فيمن بيننا وبينه عهد ، وقالا : فمعنى ﴿ فعاقبتم ﴾ فاقتصصتم ﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل مثل ما أنفقوا ﴾ أي : من المهور . وقال ابن عباس : معنى الآية إن لحقت امرأة مؤمنة بكفار أهل مكة ، وليس بينكم وبينهم عهد ، ولها زوج مسلم قبلكم فغنمتم فأعطوا هذا الزوج المسلم مهره من الغنيمة قبل أن تخمس . وقال الزهري : يعطي من مال الفيء ، وعنه يعطى من صداق من لحق بها

تنبيه : محصل مذهب الشافعي في هذه الآية : أنّ الهدنة لو عقدت بشرط أن يردوا من جاءهم منا مرتداً صح ، ولزمهم الوفاء به سواء أكان رجلاً أو امرأة ، حرّاً أو رقيقاً ، فإن امتنعوا من ردّه فناقضون للعهد لمخالفتهم الشرط ، أو عقدت على أن لا يردوه جاز ، ولو كان المرتدّ امرأة فلا يلزمهم ردّه لأنه صلى الله عليه وسلم شرط ذلك في مهادنة قريش ، حيث قال لسهل بن عمرو وقد جاء رسولاً منهم "من جاءنا منكم رددناه ، ومن جاءكم منا فسحقاً سحقاً" ومثله ما لو أطلق العقد كما فهم بالأولى ، ويغرمون فيهما مهر المرتدّة.

فإن قيل : لم غرموا مهر المرتدّة ، ولم نغرم نحن مهر المسلمة على ما تقدم من الخلاف ؟

أجيب : بأنهم قد فوتوا عليه الاستتابة الواجبة علينا ، وأيضاً المانع جاء من جهتها ، والزوج غير متمكن منها بخلاف المسلمة الزوج متمكن منها بالإسلام ، وكذا يغرمون قيمة رقيق ارتدّ دون الحرّ ، فإن عاد الرقيق المرتد إلينا بعد أخذنا قيمته رددناها عليهم. بخلاف نظيره في المهر لأنّ الرقيق بدفع القيمة يصير ملكاً لهم ، والنساء لا يصرن زوجات.

فإن قيل : كونه يصير ملكاً لهم مبنى على جواز بيع المرتد للكافر ، والصحيح خلافه.

أجيب : بأنّ هذا ليس مبنياً عليه لأن هذا ليس بيعاً حقيقة فاغتفر ذلك لأجل المصلحة ، وإن شرطنا عدم الرد.

فإن قيل : هل يغرم الإمام لزوج المرتدة ما أنفق من صداقها ، لأنا بعقد الهدنة حلنا بينه وبينها ، ولولاه لقاتلناهم حتى يردوها ؟.

أجيب : بأنّ هذا ينبني على أنّ الإمام هل يغرم لزوج المسلمة المهاجرة ما أنفق ، وقد تقدم الكلام على ذلك .

(225/760)

فائدة : روي عن ابن عباس أنه قال : لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة أم الحكم بنت أبي سفيان ، وكانت تحت شداد بن عياض الفهري ، وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب ، فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدت ، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان ، وعزة بنت عبد العزيز بن نضلة ، وزوجها عمرو بن عبد ود ، وهند بنت أبي جهل بن هشام كانت تحت هشام بن العاص بن وائل ، وأمّ كلثوم بنت جرول كانت تحت عمر بن الخطاب رجعن عن الإسلام ، فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجهنّ مهور نسائهم من الغنيمة .

ولما كان التحرّي في مثل ذلك عسراً فإنّ المهور تتفاوت تارة وتتساوى أخرى قال تعالى : ﴿ واتقوا ﴾ أي : في الإعطاء والمنع وغير ذلك ﴿ الله ﴾ الذي له صفات الكمال ، وقد أمركم بالتخلق بصفاته على قدر ما تطيقون ﴿ الذي أنتم به مؤمنون ﴾ أي : متمكنون في رتبة الإيمان .

ولما خاطب المؤمنين الذين هم موضع الحماية والنصرة للدين أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد الحكم بإيمانهن بمبايعتهن بقوله تعالى:

(226/760)

﴿ يا أيها النبيّ ﴾ مخاطباً له بالوصف المقتضى للعلم ﴿ إذا جاءك المؤمنات ﴾ جعل إقبالهن عليه صلى الله عليه وسلم لا سيما مع الهجرة مصححاً لإطلاق الهجرة عليهن ﴿ يبايعنك على أن لا يشركن ﴾ أي: كل واحدة منهن تبايعك على عدم الإشراك في وقت من الأوقات ﴿ بالله ﴾ أي: الملك الذي لا كفؤ له ﴿ شيئاً ﴾ أي من إشراك على الإطلاق ﴿ ولا يسرقن ﴾ أي: يأخذن مال الغير بغير استحقاق في خفية ﴿ ولا يزنين ﴾ أي: يمكن أحداً من وطئهن بغير عقد صحيح ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ أي: بالوأد كما كان يفعل في الجاهلية من وأد البنات، أي: دفنهن أحياء خوفاً من العار والفقر ﴿ ولا يأتين ببهتان ﴾ أي: بولد ملقوط أو شبهة بأن ﴿ يفترينه ﴾ أي: يتعمدن كذبه بأن ينسبنه للزوج، ووصفه بصفة الولد الحقيقي بقوله تعالى: ﴿ بين أيديهن ﴾ أي: بالحمل في البطون لأنّ بطنها التي تحمل فيها الولد بين يديها ﴿ وأرجلهن ﴾ أي: بالوضع من الفروج لأنّ فرجها الذي تلد منه بين رجليها، أو لأنّ الولد إذا وضعته سقط بين يديها ورجليها.

وقيل : بين أيديهن ألسنتهن بالنميمة ، ومعنى : بين أرجلهن فروجهن . وقيل : ما بين أيديهن من قبلة أو جسة وبين أرجلهن الجماع . وروي أن هند لما سمعت ذلك قالت : والله إنّ البهتان لأمر قبيح ، وما يأمر إلا بالأرشد ومكارم الأخلاق ﴿ ولا يعصينك ﴾ أي : على حال من الأحوال ﴿ في معروف ﴾ وهو ما وافق طاعة الله تعالى كترك النياحة ، وتمزيق الثياب ، وجر الشعر وشق الجيب ، وخمش الوجه ﴿ فبايعهن ﴾ أي : التزم لهن بما وعدن على ذلك من إعطاء الثواب في نظير ما ألزمن أنفسهن من الطاعة ، فبايعهن صلى الله عليه وسلم بالقول ولم يصافح واحدة منهن . قالت عائشة رضى الله عنها "والله ما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على النساء قط إلا بما أمر الله عز وجل ، وما مست كف رسول الله صلى الله عليه وسلم كف امراة قط . وروي أنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية ﴿ أن لا يشركن بالله شيئاً ﴾ إلى آخرها قالت : وما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة إلا امرأة يملكها" وقالت أميمة بنت رقيقة "بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة فقال فيما استطعتن أطعن ، فقلت : لرسول الله صلى الله عليه وسلم ارحم بنا من أنفسنا ، وقلت : يا رسول الله صافحنا ،

فقال إني لا أصافح النساء إنما قولي لامرأة كقولي لمائة امرأة" . وروي "أنه صلى الله عليه وسلم بايع النساء وبين يديه وأيديهن ثوب ، وكان يشترط عليهن" وقالت أم عطية : "لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جمع نساء الأنصار في بيت ، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب فقام على الباب فسلم فرددن عليه السلام فقال : أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكن أن لا تشركن بالله شيئاً الآية ، فقلن نعم ، فمد يده من خارج البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت ، ثم قال : اللهم اشهد" وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم "كان إذا بايع النساء دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه

فغمسن أيديهن

فيه" وروي أنه صلى الله عليه وسلم لما فرغ من بيعة الرجال يوم الفتح لمكة ، وهو على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل منه وهو يبايع النساء بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبلغهن عنه أن لا يشركن بالله شيئاً ، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنقبة متنكرة مع النساء خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها لما صنعت بحمزة يوم أحد ، فقالت : والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيتك أخذته على الرجال ، وكان بايع الرجال

يومئذ على الإسلام والجهاد فقط ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ولا يسرقن ، فقالت هند إن أبا سفيان رجل شحيح ، وإني أصيب من ماله قوتنا فلا أدري أيحل لي أم لا ، فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما مضى وما غير فهو حلال ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها ، فقال لها : "وإنك لهند بنت عتبة" ، قالت : نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك .

(229/760)

وروي أنها قالت : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل مسيك ، فهل عليّ حرج إن أخذت ما يكفيني وولدي ، قال : "لا إلا بالمعروف" فخشيت هند أن تقتصر على ما يعطيها فتضيع و تأخذ أكثر من ذلك فتكون سارقة ناكثة للبيعة المذكورة ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم ذلك أي لا حرج عليك فيما أخذت بالمعروف من غير استطالة إلى أكثر من الحاجة ، ثم قال : ولا يزنين ، فقالت هند : أوتزني الحرة ، فقال : ولا يقتلن أولادهن أي : بالوأد ، ولا يسقطن الأجنة ، فقالت هند : ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً ، وأنت وهم أعلم ، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ فقالت

: والله إن البهتان لأمر قبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا ، وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء قال أكثر المفسرين : معناه لا يلحقن بأزواجهن ولداً من غيرهن ، وكانت المرأة تلتقط ولداً تلحقه بزوجها وتقول : هذا ولدي منك فكان من البهتان والافتراء .

وهذا عام في الإتيان بولد وإلحاقه بالزوج ، وإن سبق النهي عن الزنا .

تنبيه : ذكر تعالى في هذه الآية لرسوله صلى الله عليه وسلم في صفة البيعة خصالاً ستاً صرح فيهن بأركان النهي ، ولم يذكر أركان الأمر وهي ست أيضاً : الشهادة ، والزكاة ، والصلاة ، والصيام ، والحج ، والاغتسال من الجناب ، وذلك لأن النهي دائم في كل زمان ومكان ، وكل الأحوال فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد .

وقيل : إن هذه المناهي كانت في النساء كثيراً من يرتكبها ، ولا يحجزهن عنها شرف النسب فخصت بالذكر لهذا ، ونحو هذا قوله صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس "وأنهاكم عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت" فنبههم على ترك المعصية في شرب الخمر دون سائر المعاصي لأنها كانت شهوتهم وعادتهم ، وإذا ترك المرء شهوته من المعاصي

هان عليه ترك سائرها مما لا شهوة فيها .

ولما كان الإنسان محل النقصان لا سيما النسوان رجاهن سبحانه بقوله تعالى :

﴿ واستغفر ﴾ أي : اسأل ﴿ لهن الله ﴾ أي : الملك الأعظم ذا الجلال والإكرام في الغفران إن وقع منهن تقصير وهو واقع ، لأنه لا يقدر أحد أن يقدر الله تعالى حق قدره ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال ﴿ غفور ﴾ أي : بالغ الستر للذنوب عيناً وأثراً ﴿ رحيم ﴾ أي : بالغ الإكرام بعد الغفران تفضلاً منه وإحساناً .

وروي أن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم فنهاهم الله عن ذلك بقوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا ﴾ أي : لا تعالجوا أنفسكم أن توالوا ﴿ قوماً ﴾ أي : ناساً لهم قوة على ما يحاولونه فغيرهم من باب أولى ﴿ غضب الله ﴾ أي : أوقع الملك الأعلى الغضب ﴿ عليهم ﴾ لإقبالهم على ما أحاط بهم من الخطايا ، فهو عام في كل من اتصف بذلك يتناول اليهود تناولاً أولياً ﴿ قد يئسوا ﴾ أي : تحققوا عدم الرجاء ﴿ من الآخرة ﴾ أي : من ثوابها مع إيقانهم بها لعنادهم النبي صلى الله عليه وسلم مع علمهم أنه الرسول المبعوث في التوراة ﴿ كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ أي من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء .

وقيل : من أصحاب القبور بيان للكفار ، أي : كما يئس الكفار الذين قبروا من خير الآخرة ، إذ تعرض عليهم مقاعدهم من الجنة لو كانوا آمنوا ، وما يصيرون إليه من النار فيتبين لهم قبح حالهم ، وسوء منقلبهم . وما قاله البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 7 صـ 390 . 408 ﴾

(232/760)

وقال القاسمى :

سورة الممتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء ﴾

أي : أنصاراً . نهيٌ لأصحاب النبي صلوات الله عليه ، عن موالاة مشركي مكة المحاربين لله ولرسوله وقتئذ ، لما فيها من الفتنة بالدين وأهله كما يأتي .

﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ أي : صميم المحبة ، والباء زائدة في المفعول ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا

جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾ أي : من الإيمان بالله ورسوله وكتابه ، الذي هو نهاية الهدى ، وغاية السعادة .

ثم أشار إلى أنهم لم يكفهم ذلك حتى آذوا المؤمنين ، بما يقطع العلائق معهم رأساً ، بقوله : ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي : من أرضكم ودياركم ﴿ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ أي : يخرجونكم لإيمانكم بالله ، الجامع للكمالات المقتضية انقياد الناقص له ، لاسيما باعتبار اتصافه بوصف كونه رباكم بالكمالات ، فهي بالحقيقة عداوة مع الله .

قال ابن كثير : هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم ، وعدم موالاتهم ، لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم ، كراهة لما هم عليه من التوحيد ، وإخلاص العبادة لله وحده ؛ ولهذا قال تعالى :

(233/760)

﴿ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ أي : لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين كقوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج : 8] ، وكقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج : 40] ، وقوله تعالى ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ ﴾ أي : هاجرتم ﴿ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي ﴾

أي : للجهاد في طريقي الذي شرعته لكم ، وديني الذي أمرتكم به . والتماس رضائي عنكم الذي لا ثواب فوقه ، والشرط متعلق بـ ﴿ لَا تَتَّخِذُوا ﴾ أي : لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾ أي : من المودة معهم وغيرها ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ ﴾ أي : اتخاذهم أولياء ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي : جار عن السبيل السوي الذي جعله الله هدى ونجاة .

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [2]

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ ﴾ أي : يظفروا بكم ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ﴾ أي : حرباً ، ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ ﴾ أي : بما يسوؤكم كالقتل والشتم ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : بما جاءكم من الحق .

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ ﴾ أي : قراباتكم ﴿ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ أي : بإثابة المؤمنين ، ومعاقبة العاصين .

وقال القاشانيّ : أي : لا نفع لمن اخترتم موالاة العدوّ الحقيقي لأجله ، لأن القيامة مفرقة .

وهذا معنى قوله : ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ أي : يفصل الله بينكم وبين أرحامكم وأولادكم كما قال :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ [عبس : 34 - 36] ، انتهى . وهو تأويل جيد .

لطيفة :

قال السمين : يجوز في ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ وجهان :

أحدهما : أن يتعلق بما قبله ، أي : لن تنفعكم يوم القيامة ، فيوقف عليه ، ويبتدأ بـ ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾

والثاني : أي : يتعلق بما بعده ، أي : يفصل بينكم يوم القيامة ، فيوقف على ﴿ أَوْلَادُكُمْ ﴾ ، ويبتدأ بـ ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي : فيجازيكم عليه .

تنبيهات :

الأول : قال ابن جرير : ذكر أن هذه الآيات ، من أول هذه السورة ، نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة ، وكان كتب إلى قريش بمكة يطلعهم على أمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخفاه عنهم ثم ساق الروايات .

وأما رواية البخاري فعن عليّ رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد ، فقال : < انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها > فذهبنا تَعَادَى بنا خيلنا ، حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجي الكتاب ، فقالت : ما معي من كتاب ! فقلنا : لتخرجنَّ الكتاب ، أو لنلقينَّ الثياب . فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيه :

من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ، يخبرهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : < ما هذا يا حاطب > قال : لا تعجل عليّ يا رسول الله ! إني كنت امرءاً من قريش ، ولوسلم : من أنفسهم ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ، ولا ارتداداً عن ديني . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : < إنه قد صدقكم > فقال عمر : دعني يا رسول الله فأضرب عنقه ! فقال : < إنه شهد بدراً ، وما يدريك ، لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما

شئتم ، فقد غفرت لكم ! >

قال عمرو بن دينار – راوي الحديث – ونزلت فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي ﴾ الآيات .

قال ابن كثير : كان حاطب هذا رجلاً من المهاجرين ، ومن أهل بدر . وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان . فلما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة ، لمَّا نقض أهلها العهد ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بالتجهيز لغزوهم وقال : < اللهم عمِّ عليهم خبرنا > فعمد حاطب هذا ، فكتب كتاباً إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يداً . كما ذكر في الحديث .

الثاني : قال ابن كثير : يعني تعالى بقوله ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء ﴾ المشركين والكفار ، الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين ، الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم ، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء ، كما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة : 51] ، وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : 57] . وقال تعالى ﴿ لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : 28] . ولهذا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عذر حاطب ، لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش ، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد . انتهى .

أي أنه قبل عذره فيما قام في ظنه من كون ذلك ليس بكبيرة ، وإن أخطأ . والمجتهد المخطئ معذور ، وقد تبين خطؤه بصريح النهي عن معاودة مثله الذي لأجله نزلت السورة ، ولذلك قال الإمام إلكيَا الهَراسي : يؤخذ من الآية أن الخوف على المال والولد لا يبيح الفتنة في دين الله ، وهو ظاهر ، وليس هذا من التقية ، لأنها في موضوع آخر . وقد بسط الكلام على الولاء والبراء السيد المرتضى في "إيثار الحق " في المسالة الثامنة . قال بعد أن أورد الآيات والأحاديث : هذا كله في الحب الذي هو في القلب ، والمخالصة لأجل الدين ، وذلك

للمؤمنين المتقين بالإجماع ، وللمسلمين الموحدين ، إذا كان لأجل إسلامهم ، وتوحيدهم عند أهل السنة . وأما المخالفة والمنافعة ، وبذل المعروف ، وكظم الغيظ ، وحسن الخلق ، وإكرام الضيف ، ونحو ذلك ، فيستحب بذله لجميع الخلق ، إلا ما كان يقتضي مفسدة كالذلة ، فلا يبذل للعدو في حال الحرب ، كما أشارت إليه الآية ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ -كما يأتي- وأما التقية ، فتجوز للخائف من الظالمين القادرين . وأما الفرق بين ما يجوز من المنافعة والمداهنة وما لا يجوز من الرياء ، فما كان من بذل المال والمنافع فهو جائز ، وهو المنافعة ، وربما عبروا عنه بالمداهنة والمداراة والمخالقة . وما كان من أمر الدين فهو الرياء الحرام .

ومن كلام الإمام الداعي إلى الله تعالى يحيى بن المحسن عليه السلام في "الرسالة المخرسة ، لأهل المدرسة" : لا يجوز أن تكون الموالاة هي المتابعة فيما يمكن التأويل فيه ؛ لأن كثيراً من أهل البيت عليهم السلام قد عرف بمتابعة الظلمة لوجه يوجب ذلك ، فتولّى الناصر الكثير منهم ، وصلى بهم الجمعة جعفرُ الصادق ، وصلى الحسن السبط على جنائزهم .

وذكر الإمام المهديّ محمد بن المطهّر عليهما السلام أن الموالاة المحرمة بالإجماع ، هي موالاة الكافر لكفره ، والعاصي لمعصيته ، ونحو ذلك .

قال السيد : وهو كلام صحيح ، والحجة على صحة الخلاف فيما عدا ذلك أشياء كثيرة ، منها قوله تعالى في الوالدين المشركين ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ [لقمان : 15] . ومنها قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [الممتحنة : 8] الآيتين ، وفي الحديث أنها نزلت في قتيلة أم أسماء ، بعد آيات التحريم ، رواه أحمد والبزار والواحدي ، وتأخرهما واضح في سياق الآيات ، وقرينة الحال مع هذا الحديث . ولو لم يصح تأخر ذلك ، فالخاص مقدم على العام عند جهل التاريخ عند الجمهور . ورجحه ابن رشد في "نهايته" بالنصوصية على ما هو خاص فيه . ويدل عليه ما ثبت في القرآن والسنة الصحيحة المتفق عليهما من حديث عليّ عليه السلام في قصة حاطب ، على ما ذكره الله تعالى في أول سورة الممتحنة – هذه – وذكره أهل الحديث وأهل التفسير جميعاً ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم عذره بالخوف على أهله في مكة ، والتقية فيما لا يضر في ظنه .

فإن قيل : القرآن دال على أنه قد أذنب لقوله ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ فكيف يقبل ما جاء من قبول عذره ؟ قلت : إنما قبل عذره في بقائه على الإيمان ، وعدم موالاة المشركين لشركهم ، ولذلك خاطبه الله بالإيمان فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ

﴿ والعموم نص في سببه ، فاتفق القرآن والحديث . وأما ذنبه فإنه لا يحل مثل ما فعله لأحد من الجيش إلا بإذن أميرهم ، لقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ ﴾ [النساء : 83] ولأن تحريم مثل ذلك بغير إذن الأمير إجماع ، ومع إذنه يجوز ، فقد أذن في أكثر من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيلة في حفظ المال ، فلو كان مثل ذلك موالاة لم يأذن فيه صلى الله عليه وسلم . فدل على أن ذنب حاطب هو الكتم ، لما فيه من الخيانة ، لا نفس الفعل ، لو تجرد من الكتم والخيانة – والله أعلم – انتهى .

ويضاف إلى الكتم والخيانة ما أفادته الآية من التودّد بذلك إليهم ، والمناصحة لهم ، مما يشفّ عن كون الآتي بذلك متزلزلاً في عقده ، مضطرباً في حقه ، فيصبح عمله حجة على دينه ، ويكون ذلك سبباً لافتتان المشركين المفسدين بصحيح الدين القويم . وهذا هو السر في الحقيقة ، كما بينه آية : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الممتحنة : 5] .

وسيأتي بيانه .

ثم علّم الله تعالى عباده المؤمنين التأسي بإبراهيم عليه السلام في البراءة من المشركين ومصارمتهم ومجانبتهم، وبقوله سبحانه:

(240/760)

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ ﴾ أي: قدوة ﴿ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ أي: أتباعه الذين آمنوا معه، كلوط عليه السلام ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ ﴾ يعني الذين أشركوا بالله وعبدوا الطاغوت ﴿ إِنَّا بُرَاءُ ﴾ جمع بريء، كظريف وظرفاء ﴿ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أي: بدينكم ومعبودكم. قال ابن جرير: أي: أنكرنا ما أنتم عليه من الكفر بالله، وجحدنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله أن تكون حقاً ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ أي: لا صلح بيننا ولا مودة إلى أن تؤمنوا بالله وحده. أي: توحدوه وتفردوه بالعبادة ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ استثناء من قوله ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ قال ابن جرير: أي: قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه في هذه الأمور التي ذكرناها، من مباينة الكفار ومعاداتهم، وترك موالاتهم، إلا في قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك، فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك، لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين أنه عدو لله، فلما تبين له أنه

عدو لله تبرأ منه . يقول تعالى ذكره : فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله ، تبرؤوا من أعداء الله المشركين به ، ولا تتخذوا منهم أولياء ، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء ، حتى يؤمنوا بالله وحده ، ويتبرؤوا عن عبادة ما سواه .

ثم روي عن مجاهد أنه قال في الآية : نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه ، فيستغفروا للمشركين .

(241/760)

﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي : وما أدفع عنك من عقوبة الله شيئاً إن أراد عقابك . والجملة من تمام المستثنى ، إلا أنه لا يلزم من استثناء المجموع استثناء عموم أفراده ، ولذا قال الزمخشريّ : القصد إلى موعد الاستغفار وما بعده مبنيّ عليه ، وتابع له ، كأنه قال : أنا أستغفر لك ، وما في طاقتي إلا الاستغفار .

وقوله تعالى ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ متصل بما قبل الاستثناء ، وهو من جملة الأسوة الحسنة ، أو أمر منه تعالى للمؤمنين بأن يقولوا ذلك ، تتميماً لما وصاهم به من قطع الصلات المضرّة بينهم وبين المحاربين لهم . ومعنى ﴿ إِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ أي : إليك رجعنا بالتوبة مما تكره ، إلى ما تحب وترضى .

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [5]

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ قال مجاهد : أي : لا تعذبنا بأيديهم ، ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا . وكذا قال قتادة ، أي : لا تظهرهم علينا فيفتتنوا بذلك . يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه . انتهى .

(242/760)

ومآل هذا الدعاء هو التعوذ من مثل ما صنع حاطب ، مما يورث افتتان المشركين بالدين إذ يكون ذلك مدعاة لقولهم : لو كان هؤلاء على حق ، وما يوعدون به من الظفر حق ، لما صانعنا مؤمنهم ، فإذن ما هم عليه أماني . فيتزلزل من كان في نفسه الانتظام في سلكهم ، والاستسعاد بحقهم . ففي الآية معنى كبير ، وتأديب عظيم . أي : ربنا لا تجعلنا نهمل من ديننا ما أمرنا به ، أو نتساهل فيما عزم علينا منه ، حتى لا تنحل بذلك قوتنا ، ويتزلزل عمادنا ، ويفتح لعدو الدين الافتتان به ، لأن المؤمنين ما داموا متمسكين بآداب الدين ، محافظين عليها ، قائمين بها حق القيام ، فإن النصر قائدهم والظفر رائدهم ، ولذا أصبح المسلمون في القرون الأخيرة بحالهم حجة على دينهم أمام عدوهم ، ولا مسترد لقولهم ،

ومستعاد لمجدهم ، إلا بالرجوع إلى أصل كتابهم ، والعلم بآدابه ، والمحافظة على أحكامه ، ونبذ ما ألصق به ، مما يحرف كلمته ، ويجافي حقيقته ، وللحكماء في هذا الموضوع مقالات معروفة .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [6]

(243/760)

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ تكرير لوجوب التأسي بإبراهيم وأصحابه ، لمزيد الحث على التبرؤ من المشركين ، والاسترسال إليهم ، فإن محبة المفسدين فيها تخريب لمباني الحق ، وتوهين لقوى أهله ، وتشكيك لضعفاء القلوب ، مما يفسد عمل المخلصين ، ويزلزل مساعيهم ، ويفتن أعداؤهم بهم ، لذلك كان البغض في الله من شعب الإيمان ، لأن الحق لا يقوى إلا باعتصاب أهله على كلمته ، ورمي أعدائه عن قوس واحدة . وفي إبدال ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ من ﴿ لَكُمْ ﴾ دلالة على أنه لا ينبغي لمؤمن أن يترك التأسي بهم ، وأن تركه مؤذن بسوء العقيدة . ولذلك عقبه بقوله :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أي: من يتول عما أمر به، ويوالي أعداء الله، ويلقي إليهم بالمودة، فإنه لا يضرّ إلا نفسه، والله هو الغني عن إيمانه به وطاعته، المحمود على كل حال.

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذا وعد منه تعالى، وقد أنجزه بأن أسلم كثير منهم بعدُ، وصاروا لهم أولياء وأحزاباً. والآية من معجزات القرآن، لما فيها من الإخبار عن مغيب، وقع مصداقه.

(244/760)

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ هذا ترخيص من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم. فهو في المعنى تخصيص لقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي ﴾ إلخ أي: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من أهل مكة، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم، وتقسطوا إليهم، أي: تفضوا إليهم بالبرّ، وهو الإحسان، والقسط وهو العدل، فهذا القدر من

الموالاة غير منهي عنه، بل مأمور به في حقهم . والخطاب، وإن يكن في مشركي مكة، إلا أن العبرة بعموم لفظه، وقد حاول بعض المفسرين تخصيصه، فردّ ذلك الإمام ابن جرير بقوله:

والصواب قول من قال: عني بقوله تعالى ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ من جميع أصناف الملل والأديان، أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم، فإن الله عز وجل عمّ بقوله ﴿ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضاً دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ، لأن برّ المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة ونسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب، غير محرم ولا منهي عنه، إذا لم يكن في ذلك دلالة على له، أو لأهل الحرب، على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح، وقد بين صحة ما قلناه الخبر في قصة أسماء وأمها . انتهى .

(245/760)

وذلك أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله! إن أمي

قدمت وهي راغبة ، أفأصلها ؟ قال : < نعم ! صلي أمك > . رواه أحمد والشيخان

ورواه أيضاً الإمام أحمد عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا : ضباب ، وقرظ ، وسمن ، وهي مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها ، وتدخلها بيتها ، فسألت عائشة النبي صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله تعالى :

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ إلى آخر الآية . فأمرها أن تقبل هديتها ، وأن تدخلها بيتها . قال الرازي : وقوله تعالى :

﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ بدل من ﴿ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ ﴾ وكذلك ﴿ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ بدل من ﴿ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ ﴾ والمعنى : لا ينهاكم عن مبرة هؤلاء ، إنما ينهاكم عن تولي هؤلاء ، وهذا رحمة لهم ، لشدتهم في العداوة ، وهذه الآية على جواز البرّ بين المشركين والمسلمين ، وإن كانت الموالاة منقطعة . انتهى .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾

أي : من مكة إلى المدينة ، ﴿ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ أي : فاختبروهن بما يغلب على ظنكم صدقهن في الإيمان ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ أي : المطلع على قلوبهن ، لا أنتم ، فإنه غير مقدور لكم ، فحسبكم أماراته وقرائنه .

وقد روى ابن جرير عن ابن عباس قال : كانت المرأة إذا أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حلّفها بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض

، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله .

وقال مجاهد : أي : سلوهن ما جاء بهن ؟ فإن كان بهن غضب على أزواجهن أو سخطة أو غيره ، ولم يؤمنّ ، فارجعوهن إلى أزواجهن .

(246/760)

﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ قال الزمخشري : أي : العلم الذي تبلغه طاقتكم ، وهو الظن الغالب بالحلف ، وظهور الأمارات ، وإنما سماه علماً ، إيذاناً بأنه كالعلم في وجوب العمل به .

﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ أي : فلا تردوهن إلى أزواجهن المشركين ، إذ لا حلّ بين المؤمنة والمشرك ، لأن إيمانها قطع عصمتها من المشرك المعادي لله ولرسوله .

(247/760)

قال ابن جرير : وإنما قيل ذلك للمؤمنين ، لأن العهد كان جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين مشركي قريش في صلح الحديبية ، أن يردّ المسلمون إلى المشركين من جاءهم

مسلماً ، فأبطل ذلك الشرط في النساء إذا جئن مؤمنات مهاجرات ، فامتُحنَّ فوجدهن المسلمون مؤمنات ، وصح ذلك عندهم مما ذكرنا ، وأمروا أن لا يردوهن إلى المشركين ، إذا علم أنهن مؤمنات ، ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ أي : لانقطاع النكاح بينهنّ .

قال ابن كثير : هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين . وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك من المؤمنة . ولهذا كان أمر أبي العاص بن الربيع ، ، زوج ابنة النبي صلى الله عليه وسلم زينب رضي الله عنها ، وقد كانت مسلمة ، وهو على دين قومه . فلما وقع الأسارى يوم بدر ، بعثت امرأته زينب في فدائه بقلادة لها كانت لأمها خديجة ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رقّ لها رقة شديدة . وقال للمسلمين : < إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا > ، ففعلوا ، فأطلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يبعث ابنته إليه ، فوفى بذلك ، وصدقه فيما وعده ، وبعثها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زيد بن حارثة رضي الله عنه ، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر ، وكانت سنة اثنتين ، إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان ، فردها عليه بالنكاح الأول ، ولم يحدث لها صدقاً ، ومنهم من يقول بعد سنتين ، وهو صحيح لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بسنتين ، انتهى .

﴿ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ﴾ قال ابن جرير : أي : وأعطوا المشركين الذين جاءكم نساؤهم مؤمنات ، إذا علمتموهن مؤمنات ، فلم ترجعوهن إليهم ، ما أنفقوا في نكاحهم إياهن من الصداق ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ أي : هؤلاء المهاجرات اللاتي لحقن بكم من دار الحرب ، مفارقات لأزواجهن ، وإن كان لهن أزواج ﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي : مهورهن . قال ابن زيد : لأنه فرق بينهما الإسلام إذا استبرأت أرحامهن .

ثم أشار إلى أنه ، كما بطل نكاح المؤمنة على الكافر ، بطل نكاح الكافرة على المسلم . بقوله ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ أي : بعقودهن التي يتمسك بها في الاستحلال .

قال ابن جرير : يقول جل ثناؤه للمؤمنين به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تمسكوا أيها المؤمنون بحبال النساء الكوافر وأسبابهن . و ﴿ الْكَوَافِرِ ﴾ جمع كافرة . و العصم : جمع عصمة ، وهي ما اعتصم به من العقد والسبب . وهذا نهي من الله تعالى للمؤمنين عن الإقدام على نكاح المشركات من أهل الأوثان ، وأمر لهم بفراقهن . ثم روي عن مجاهد قال : أُمر أصحاب محمد بطلاق نسائهم كوافر بمكة قعدن مع الكفار .

وعن الزهري : لما نزلت هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ كان ممن طلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأتين كانتا له بمكة : ابنة أبي أمية ، وابنة جرول . وطلحة بن عبيد الله بنت ربيعة ، ففرق بينهما الإسلام ، حين نهى القرآن عن التمسك بعصم الكوافر ، وكن ممن فرّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نساء الكفار ، ممن لم يكن بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد ، فحبسها وزوجها رجلاً من المسلمين ، أميمة بنت بشر الأنصارية كانت عند ثابت بن الدحداحة ، ففرّت منه ، وهو يومئذ كافر ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم سهل بن حنيف ، أحد بني عمرو بن عوف ، فولدت عبد الله بن سهل .

﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ ﴾ أي : اطلبوا أيها المؤمنون الذين ذهبت أزواجهم فلحقن بالمشركين ما أنفقتم على أزواجكم اللواتي لحقن بهم ، من الصداق ، من تزوجن منهم ﴿ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ﴾ أي : وليسألكم المشركون منهم ، الذي لحق بكم أزواجهم مؤمنات ، إذا تزوجن فيكم ، من تزوجها منكم ، ما أنفقوا عليهن من الصداق ، ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : هذا الحكم الذي حكم به من أمير المؤمنين بمسألة المشركين ما أنفقوا ، وأمر المشركين بمثل ذلك ، حكم الله الحق الذي لا يعدل عنه .

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ أي : وإن ارتدت منكم امرأة فلحقت

الكفار ، فلم يردّوا مهرها ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ أي : فغزوتموهم فوجدتم منهم غنيمة ﴿ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم ﴾ أي : من المسلمين ﴿ مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾ أي : في مهورهن .

قال مجاهد : مهر مثلها يدفع إلى زوجها .

(250/760)

وقال قتادة : كنّ إذا فررنّ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكفار ، ليس بينهم وبين نبي الله عهد ، فأصاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة ، أعطي زوجها ما ساق إليها من جميع الغنيمة ، ثم يقتسمون غنيمتهم .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ أي : فإن الإيمان به يقتضي أداء أوامره ، واجتناب نواهيه .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ ﴾

قال ابن كثير : أي : أموال الناس الأجانب ، فأما إذا كان الزوج معسراً في نفقتها ، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ، ما جرت به عادة أمثالها ، وإن كان من غير علمه ، عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت : يا رسول الله ! إن أبا سفيان رجل شحيح ، لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بنيّ ، فهل عليّ جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول

الله : < خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك > أخرجاه في "الصحيحين "

﴿ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ قال الزمخشريّ : يريد وأد البنات .

وقال ابن كثير : هذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية إملاق ، ويعمّ قتله وهو جنين ، كما قد يفعله بعض الجاهلات من النساء ، تطّرح نفسها ، لئلا تحبل ، إما لغرض فاسد أو ما أشبهه .

﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ قال ابن عباس : أي : لا يلحق بأزواجهن غير أولادهم . وأوضحه الزمخشري بقوله : كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هو ولدي منك . كنيّ بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً ، لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين ، فهو غير الزنا ، فلا تكرار فيه .

وقال الشهاب : في "شرح البخاري "للكرماني معناه : لا تأتوا ببهتان من قبل أنفسكم . واليد والرجل كناية عن الذات ، لأن معظم الأفعال بهما ، ولذا قيل للمعاقب بجناية قولية : هذا ما كسبت يداك . أو معناه : لا تنشئوه من ضمائركم وقلوبكم ، لأنه من القلب الذي

مقره بين الأيدي والأرجل . والأول كناية عن إلقاء البهتان من تلقاء أنفسهم ، والثاني عن كونه من دخيلة قلوبهم المبنية عن الخبث الباطني .

وقال الخطابي : معناه لا تبهتوا الناس كفاحاً ومواجهة ، كما يقال للآمر بحضرتك : إنه بين يديك . ورد بأنهم ، وإن كنوا عن الحاضر بكونه بين يديه فلا يقال : بين أرجله وهو وارد لو ذكرت الأرجل وحدها ، أما مع الأيدي تبعاً فلا . فالمخطئ مخطئ وهو كناية عن خرق جلباب الحياء ، والمراد : النهي عن القذف ، ويدخل فيه الكذب والغيبة . انتهى .

﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ أي : من أمر الله تأمرهن به .

قال في " النهاية" : المعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله ، والإحسان إلى الناس ، وكل ما أمر به الشرع ، ونهى عنه .

﴿ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : فبايعهن على الوفاء بذلك ، وسل الله لهن مغفرة ذنوبهن ، والعفو عنها ، فإنه غفور رحيم لمن تاب منها .

تنبيهات :

الأول : روى البخاري عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم < كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ، فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد بايعتك > كلاماً ، ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة

، ما يبايعهن إلا بقوله : < قد بايعتك على ذلك > .

قال ابن حجر : أي : لا مصافحة باليد ، كما جرت العادة بمصافحة الرجال عند المبايعة .

(252/760)

ثم قال : وروى النسائي والطبري أن أميمة بنت رقيقة أخبرته أنها دخلت في نسوة تبايع . فقلن : يا رسول الله ! ابسط يدك نصافحك . فقال : < إني لا أصافح النساء ، ولكن سآخذ عليكن > فأخذ علينا حتى بلغ ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ فقال : < فيما أطقتنّ واستطعتنّ > ، فقلن : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا – وفي رواية الطبري : ما قولي لمائة امرأة إلا كقولي لامرأة واحدة – وقد جاء في أخبار أخرى أنهن كن يأخذن بيده عند المبايعة من فوق ثوب – أخرجه يحيى بن سلام في تفسيره عن الشعبي .

وفي " المغازي " لابن إسحاق عن أبان بن صالح أنه كان يغمس يده في إناء ، فيغمسن أيديهن فيه . انتهى .

والمعول على رواية البخاري الأولى لصحتها ، وضعف ما عداها .

الثاني : روى مسلم عن أم عطية قالت : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ كان منه النياحة . ولفظ البخاري عنها قالت : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

< فقرأ علينا ﴿ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾ ونهانا عن النياحة < .

وأخرج الطبري بسنده إلى امرأة من المبايعات قالت : < كان فيما أخذ علينا أن لا نعصيه في شيء من المعروف ، ولا نخمش وجهاً ، ولا ننشر شعراً ، ولا نشق جيباً ، ولا ندعو ويلاً < .

وعن قتادة قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم أخذ عليهن يومئذ أن لا يَنُحْنَ ، ولا يحدثن الرجال إلا رجلاً منكن محرماً . فقال عبد الرحمن بن عوف : يا نبيّ الله ! إن لنا أضيافاً وإنا نغيب عن نسائنا ؟ فقال : < ليس أولئك عنيت < .

الثالث : قال إلكيا الهراسي : يؤخذ من قوله تعالى ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ أنه لا طاعة لأحد في غير المعروف . قال وأمر النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن إلا بمعروف وإنما شرطه في الطاعة ، لئلا يرخص أحد في طاعة السلاطين .

(253/760)

وأصله مما أخرجه ابن جرير عن ابن زيد ، قال في هذه الآية : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نبيه وخيرته من خلقه ، ثم لم يستحل له أمر إلا بشرط ، لم يقل : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ ﴾ ويترك حتى قال : ﴿ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ فكيف ينبغي لأحد أن يطاع في غير معروف ، وقد

اشترط الله هذا على نبيه ؟

ثم نبه تعالى في آخر السورة بما نبّه به في فاتحتها ، من النهي عن موالاة محاربي الدِّين ، تحذيراً من التهاون في ذلك ، وزيادة اعتناء به ، فقال سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ [13]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : مسخوطاً عليهم لمعاداتهم الحق ، ومحاربتهم الصلاح ، وعيثهم الفساد . وهو عام في كل محارب ، ومنهم من خصه باليهود ، لأنه عبر عنهم في غير هذه الآية بالمغضوب عليهم ، واقتصر عليه الزمخشري . قال الناصر : قد كان الزمخشريّ ذكر في قوله ، ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ [فاطر : 12] ، أن آخر الآية استطراد ، وهو فن من فنون البيان ، مبوّب عليه عند أهله . وآية الممتحنة هذه ممكنة أن تكون من هذا الفن جداً ، فإنه ذم اليهود ، واستطرد ذمهم بذم المشركين ، على نوع حسن من النسبة . وهذا لا يمكن أن يوجد للفصحاء في الاستطراد أحسن ولا أمكن منه ، ومما صدروا به هذا الفن قوله :

~إذا ما اتقى اللهَ الفتى وأطاعه فليس به بأس وإن كان من جُرُمِ

وقوله :

~إن كنت كاذبَة الذي حدثتني فنجوتِ منجى الحارث بن هشامِ

وقوله :

~ترك الأحبة أَنْ يقاتِلَ دونهم ونَجَا برأس طِمِرَّةٍ ولِجَامِ

انتهى .

(254/760)

وكان وجهة إيثاره الفرار من التأكيد إلى التأسيس ، مع أن إرادة ما أريد بأول السورة منه ، فيه من المحسنات البديعية ردّ العجز عن الصدر ، تذكيراً به وتفخيماً ، للعناية بشأنه ، ولكل وجهة .

﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ أي : من جزائها لجحدهم بها ، ولذلك طغوا وبغوا وعاثوا . والجملة صفة ثانية ﴿ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ أي : كما يئس من سلفهم من إخوانهم الكفار المقبورين ، أي : أنهم على شاكلة من قبلهم ، وكلّ مؤاخذ بكفره . وقيل : المعنى كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا . ففيه وضع الظاهر موضع المضمر ، تسجيلاً لكفرهم ، وبياناً لما اقتضى الغضب عليهم ، ولما آيسهم . والأول أظهر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 93.109 ﴾

(255/760)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الممتحنة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾

تبدأ السورة بذلك النداء الودود الموحي: يا أيها الذين آمنوا . . نداء من ربهم الذي آمنوا به , يدعوهم باسم الإيمان الذي ينسبهم إليه . يدعوهم ليبصرهم بحقائق موقفهم , ويحذرهم حبائل أعدائهم , ويذكرهم بالمهمة الملقاة على عاتقهم .

وفي مودة يجعل عدوهم عدوه , وعدوه عدوهم:

(لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) . .

فيشعر المؤمنين بأنهم منه وإليه . يعاديهم من يعاديه . فهم رجاله المنتسبون إليه الذين يحملون شارته في هذه الأرض , وهم أوداؤه وأحباؤه . فلا يجوز أن يلقوا بالمودة إلى أعدائهم وأعدائه .

ويذكرهم بجريرة هؤلاء الأعداء عليهم وعلى دينهم وعلى رسولهم , وعدوانهم على هذا كله في تجن وظلم:

(وقد كفروا بما جاءكم من الحق . يخرجون الرسول وإياكم . أن تؤمنوا بالله ربكم) . .

فماذا أبقوا بعد هذه الجرائر الظالمة للموالاة والمودة ? كفروا بالحق . وأخرجوا الرسول

والمؤمنين, لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله ربهم ? إنه يهيج في قلوب المؤمنين هذه الذكريات المرتبطة بعقيدتهم . وهي التي حاربهم المشركون من أجلها, لا من أجل أي سبب آخر . ويبرز القضية التي عليها الخلاف والخصومة والحرب . فهي قضية العقيدة دون سواها . قضية الحق الذي كفروا به والرسول الذي أخرجوه, والإيمان الذي من أجله أخرجوهم . وإذا تمحضت القضية هكذا وبرزت, ذكرهم بأنه لا محل إذن للمودة بينهم وبين المشركين إن كانوا قد خرجوا من ديارهم ابتغاء رضوان الله وجهادا في سبيله:

إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وإبتغاء مرضاتي . .

فما يجتمع في قلب واحد أن يهاجر جهادا في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله, مع مودة لمن أخرجه من أجل إيمانه بالله, وهو عدو الله وعدو رسول الله !

ثم يحذرهم تحذيرا خفيا مما تكن قلوبهم, وما يسرون به إلى أعدائهم وأعداء الله من المودة, وهو مطلع على خفية القلوب وعلانيتها : (تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم) .

ثم يهددهم تهديدا مخيفا, يثير في القلب المؤمن الوجل والمخافة:

(ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) . .

وهل يخيف المؤمن شيء ما يخيفه أن يضل سواء السبيل بعد الهداية والوصول ? !

وهذا التهديد وذلك التحذير يتوسطان تبصير المؤمنين بحقيقة أعدائهم وما يضمرون لهم من الشر والكيد . ثم تجيء البقية:

(إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) . .

فلا تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها من المسلمين حتى يتصرفوا معهم تصرف العدو الأصيل . ويوقعوا بهم ما يملكون من أذى ومن تنكيل بالأيدي وبالألسنة وبكل وسيلة وكل سبيل .

والأدهى من هذا كله والأشد والأنكى:

(وودوا لو تكفرون) . .

وهذه عند المؤمن أشد من كل أذى ومن كل سوء يصيبه باليد أو اللسان . فالذي يود له أن يخسر هذا الكنز العزيز . كنز الإيمان . ويرتد إلى الكفر , هو أعدى من كل عدو يؤذيه باليد وباللسان !

والذي يذوق حلاوة الإيمان بعد الكفر , ويهتدي بنوره بعد الضلال , ويعيش عيشة المؤمن بتصوراته ومداركه ومشاعره واستقامة طريقه وطمأنينة قلبه يكره العودة إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النار . أو أشد . فعدو الله هو الذي يود أن يرجعه إلى جحيم الكفر وقد خرج منه إلى جنة الإيمان , وإلى فراغ الكفر الخاوي بعد عالم الإيمان المعمور .

لهذا يتدرج القرآن في تهييج قلوب المؤمنين ضد أعدائه وأعدائهم حتى يصل إلى قمته بقوله لهم عنهم: (وودوا لو تكفرون) . .

الدرس الثاني:3 انقطاع الروابط يوم القيامة إلا الإيمانية

(257/760)

هذه هي الجولة الأولى بلمساتها المتعددة . ثم تليها جولة ثانية بلمسة واحدة تعالج مشاعر القرابة ووشائجها المتأصلة ; والتي تشتجر في القلوب فتجرها جرا إلى المودة ; وتنسيها تكاليف التميز بالعقيدة:

(لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم . يوم القيامة يفصل بينكم . والله بما تعملون بصير) . .

إن المؤمن يعمل ويرجو الآخرة . يزرع هنا وينتظر الحصاد هناك . فلمسة قلبه بما يكون في الآخرة من تقطيع وشائج القربى كلها إذا تقطعت وشيجة العقيدة , من شأنها أن تهون عنده شأن هذه الوشائج في فترة الحياة الدنيا القصيرة ; وتوجهه إلى طلب الوشيجة الدائمة التي لا تنقطع في دنيا ولا في آخرة:

ومن ثم يقول لهم: (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم) . . التي تهفون إليها وتتعلق قلوبكم بها ; وتضطركم إلى موادة أعداء الله وأعدائكم وقاية لها - كما حدث لحاطب في حرصه

على أولاده وأمواله - وكما تجيش خواطر آخرين غيره حول أرحامهم وأولادهم الذين خلفوهم في دار الهجرة . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم . ذلك أنه (يوم القيامة يفصل بينكم) . . لأن العروة التي تربطكم مقطوعة . وهي العروة التي لا رباط بغيرها عند الله . (والله بما تعملون بصير) . . مطلع على العمل الظاهر والنية وراءه في الضمير

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4)

الدرس الثالث:4 - 6 الدعوة للإقتداء بإبراهيم ومن معه في الولاء والبراء

(258/760)

ثم تأتي الجولة الثالثة فتصل المسلمين بأول هذه الأمة الواحدة:أمة التوحيد . وهذه القافلة الواحدة:قافلة الإيمان . فإذا هي ممتدة في الزمان , متميزة بالإيمان , متبرئة من كل وشيجة تنافي وشيجة العقيدة . . إنها الأمة الممتدة منذ إبراهيم . أبيهم الأول وصاحب الحنيفية الأولى . وفيه أسوة لا في العقيدة وحدها , بل كذلك في السيرة , وفي التجارب التي عاناها

مع عاطفة القرابة ووشائجها ; ثم خلص منها هو ومن آمن معه , وتجرد لعقيدته وحدها :

(قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ; إذ قالوا لقومهم:إنا برآء منكم , ومما تعبدون من دون الله , كفرنا بكم , وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده . إلا قول إبراهيم لأبيه , لأستغفرن لك , وما أملك لك من الله من شيء . ربنا عليك توكلنا , وإليك أنبنا , وإليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا , واغفر لنا ربنا , إنك أنت العزيز الحكيم . . لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد) . .

وينظر المسلم فإذا له نسب عريق , وماض طويل , وأسوة ممتدة على آماد الزمان . وإذا هو راجع إلى إبراهيم , لا في عقيدته فحسب , بل في تجاربه التي عاناها كذلك . فيشعر أن له رصيدا من التجارب أكبر من رصيده الشخصي وأكبر من رصيد جيله الذي يعيش فيه . إن هذه القافلة الممتدة في شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله , الواقفين تحت راية الله , قد مرت بمثل ما يمر به , وقد انتهت في تجربتها إلى قرار اتخذته . فليس الأمر جديدا ولا مبتدعا ولا تكليفا يشق على المؤمنين . . ثم إن له لأمة طويلة عريضة يلتقي معها في العقيدة ويرجع إليها , إذا انبتت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته . فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال . . الشجرة التي غرسها أول المسلمين . إبراهيم . .

مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التي يعانيها المسلمون المهاجرون . وفيهم أسوة حسنة: (إذ قالوا لقومهم:إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله , كفرنا بكم , وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) . .

فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم . وهو الكفر بهم والإيمان بالله . وهي العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده . وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئًا من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان . وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمر بها المؤمن في أي جيل . وفي قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين .

ولقد كان بعض المسلمين يجد في استغفار إبراهيم لأبيه - وهو مشرك - ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوي قرباهم من المشركين . فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم في قوله لأبيه: (لأستغفرن لك) . .

فلقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك . قاله وهو يرجو إيمانه ويتوقعه: (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) . . كما جاء في سورة أخرى .

ويثبت هنا أن إبراهيم فوض الأمر كله لله , وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال:

(وما أملك لك من الله من شيء . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) . .

وهذا التسليم المطلق لله , هو السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم يبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين . كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه , وإبراز ما في ثناياه من ملامح وسمات وتوجيهات

(260/760)

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6)

على طريقة القرآن الكريم .

ويستطرد لهذا في إثبات بقية دعاء إبراهيم ونجواه لمولاه:

(ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) . .

فلا تسلطهم علينا . فيكون في ذلك فتنة لهم , إذ يقولون:لو كان الإيمان يحمي أهله ما سلطنا عليهم وقهرناهم ! وهي الشبهة التي كثيرا ما تحيك في الصدور , حين يتمكن

الباطل من الحق , ويتسلط الطغاة على أهل الإيمان - لحكمة يعلمها الله - في فترة من الفترات . والمؤمن يصبر للابتلاء , ولكن هذا لا يمنعه أن يدعو الله ألا يصيبه البلاء الذي يجعله فتنة وشبهة تحيك في الصدور .

وبقية الدعاء:

(واغفر لنا) . .

يقولها إبراهيم خليل الرحمن . إدراكا منه لمستوى العبادة التي يستحقها منه ربه , وعجزه ببشريته عن بلوغ المستوى الذي يكافئ به نعم الله وآلاءه , ويمجد جلاله وكبرياءه فيطلب المغفرة من ربه , ليكون في شعوره وفي طلبه أسوة لمن معه ولمن يأتي بعده .

ويختم دعاءه وإنابته واستغفاره يصف ربه بصفته المناسبة لهذا الدعاء:

(ربنا إنك أنت العزيز الحكيم) . .

العزيز:القادر على الفعل , الحكيم:فيما يمضي من تدبير .

وفي نهاية هذا العرض لموقف إبراهيم والذين معه , وفي استسلام إبراهيم وإنابته يعود فيقرر الأسوة ويكررها ; مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين:

(لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد) . .

فالأسوة في إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . وهؤلاء هم الذين يدركون قيمة التجربة التي عاناها هذا الرهط الكريم , ويجدون فيها أسوة تتبع , وسابقة تهدي . فمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتخذ منها أسوة . . وهو تلميح موح للحاضرين من المؤمنين .

فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج . من يريد أن يحيد عن طريق القافلة . من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق . فما بالله من حاجة إليه - سبحانه - (فإن الله هو الغني الحميد) . .

وتنتهي الجولة وقد عاد المؤمنون أدراجهم إلى أوائل تاريخهم المديد , ورجعوا بذكرياتهم إلى نشأتهم في الأرض ; وعرفوا تجاربهم المذخورة لهم في الأجيال المتطاولة , ورأوا القرار الذي انتهى إليه من مروا بهذه التجربة ; ووجدوها طريقا معبدة من قبل ليسوا هم أول السالكين فيها .

والقرآن الكريم يؤكد هذا التصور ويكرره ليتصل ركب المؤمنين , فلا يشعر بالغربة أو الوحشة سالك - ولو كان وحده في جيل ! ولا يجد مشقة في تكليف نهض به السالكون معه في الطريق !

بعدئذ يعود فينسم على هذه القلوب التي يعلم الله ما بها من حنين ورغبة في زوال حالة

العداء والجفوة التي

عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (7) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)

(262/760)

الدرس الرابع: 7 - 11 تصنيف الكفار حسب العداوة وامتحان المهاجرات ونتائجه

تكلفهم هذه المشقة . ينسم عليها بنسمة الأمل الندية في أن ينضم هؤلاء الأعداء إلى راية الإسلام , وإلى صفوف المسلمين ; فيكون هذا هو الطريق لزوال الجفوة وقيام الود على أساسه الركين . . ثم يخفف عنهم مرة أخرى - وهو يضع القاعدة الإسلامية الكبرى في العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم , فيجعل المقاطعة والخصومة خاصة بحالة العداء والعدوان . فأما حين ينتفي العداء والعدوان فهو البر لمن يستحق البر , وهو القسط في المعاملة والعدل:

(عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة , والله قدير والله غفور رحيم . لا

ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم . إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم , وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) . .

إن الإسلام دين سلام , وعقيدة حب , ونظام يستهدف أن يظلل العالم كله بظله , وأن يقيم فيه منهجه , وأن يجمع الناس تحت لواء الله إخوة متعارفين متحابين . وليس هنالك من عائق يحول دون اتجاهه هذا إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله . فأما إذا سالموهم فليس الإسلام براغب في الخصومة ولا متطوع بها كذلك ! وهو حتى في حالة الخصومة يستبقي أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة , انتظارا لليوم الذي يقتنع فيه خصومه بأن الخير في أن ينضووا تحت لوائه الرفيع . ولا ييأس الإسلام من هذا اليوم الذي تستقيم فيه النفوس , فتتجه هذا الاتجاه المستقيم .

وفي الآية الأولى من هذا المقطع إشارة إلى هذا الرجاء الذي لا يغلب عليه اليأس ; في معرض التخفيف على نفوس بعض المهاجرين , وتغذية قلوبهم المتعبة بمشقة المقاطعة والحرب للأهل والعشيرة:

(عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) . .

وهذا الرجاء من الله ، معناه القطع بتحققه . والمؤمنون الذين سمعوه لا بد قد أيقنوا به ، ولقد وقع بعد هذا بوقت قصير أن فتحت مكة ، وأن أسلمت قريش ، وأن وقف الجميع تحت لواء واحد ، وأن طويت الثارات والمواجد ، وأن عاد الجميع إخوة مؤتلفي القلوب .

(والله قدير) . . يفعل ما يريد بلا معقب .

(والله غفور رحيم) . . يغفر ما سلف من الشرك والذنوب . .

وإلى أن يتحقق وعد الله الذي دل عليه لفظ الرجاء رخص الله لهم في موادة من لم يقاتلوهم في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم . ورفع عنهم الحرج في أن يبروهم ، وأن يتحروا العدل في معاملاتهم معهم فلا يبخسونهم من حقوقهم شيئا . ولكنه نهى أشد النهي عن الولاء لمن قاتلوهم في الدين وأخرجوهم من ديارهم وساعدوا على إخراجهم . وحكم على الذين يتولونهم بأنهم هم الظالمون . . ومن معاني الظلم الشرك بالرجوع إلى قوله تعالى: (إن الشرك لظلم عظيم) . . وهو تهديد رهيب يجزع منه المؤمن ، ويتقي أن يدخل في مدلوله المخيف !

وتلك القاعدة في معاملة غير المسلمين هي أعدل القواعد التي تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية ، بل نظرته الكلية لهذا الوجود ، الصادر عن إله واحد

, المتجه إلى إله واحد , المتعاون في تصميمه اللدني وتقديره الأزلي , من وراء كل اختلاف وتنويع .

(264/760)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11)

وهي أساس شريعته الدولية , التي تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعا هي الحالة الثابتة , لا يغيرها إلا وقوع الاعتداء الحربي وضرورة رده , أو خوف الخيانة بعد المعاهدة , وهي تهديد بالاعتداء ; أو الوقوف بالقوة في وجه حرية الدعوة وحرية الاعتقاد . وهو كذلك اعتداء . وفيما عدا هذا فهي السلم والمودة والبر والعدل للناس أجمعين .

ثم هي القاعدة التي تتفق مع التصور الإسلامي الذي يجعل القضية بين المؤمنين ومخالفيهم

هي قضية هذه العقيدة دون غيرها ; ويجعل القيمة التي يضن بها المؤمن ويقاتل دونها هي قضية العقيدة وحدها . فليس بينهم وبين الناس ما يتخاصمون عليه ويتقاتلون إلا حرية الدعوة وحرية الاعتقاد , وتحقيق منهج الله في الأرض , وإعلاء كلمة الله .

(265/760)

وهذا التوجيه يتفق مع اتجاه السورة كلها إلى إبراز قيمة العقيدة , وجعلها هي الراية الوحيدة التي يقف تحتها المسلمون . فمن وقف معهم تحتها فهو منهم , ومن قاتلهم فيها فهو عدوهم . ومن سالمهم فتركهم لعقيدتهم ودعوتهم , ولم يصد الناس عنها , ولم يحل بينهم وبين سماعها , ولم يفتن المؤمنين بها , فهو مسالم لا يمنع الإسلام من البر به والقسط معه .

إن المسلم يعيش في هذه الأرض لعقيدته , ويجعلها قضيته مع نفسه ومع الناس من حوله . فلا خصومة على مصلحة , ولا جهاد في عصبية - أي عصبية - من جنس أو أرض أو عشيرة أو نسب . إنما الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا , ولتكون عقيدته هي المنهج المطبق في الحياة .

ولقد نزلت بعد ذلك سورة التوبة وفيها (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . . الخ) . . فانتهت بهذا حالة المعاهدة والموادعة بين المسلمين والمشركين كافة

. بعد مهلة أربعة أشهر لأصحاب المعاهدات غير المسماة الأجل , ومهلة إلى انتهاء الأجل لأصحاب المعاهدات المسماة . ولكن هذا إنما كان بعد ما أثبتت التجارب أن القوم لا يرعون عهودهم مع المسلمين إلا ريثما تسنح لهم الفرصة لنقضها وهم الراجحون ! فانطبقت القاعدة الأخرى: (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) . . وكان هذا ضرورة لتأمين القاعدة الإسلامية - وهي حينئذ شبه الجزيرة كلها - من المتربصين بالمسلمين من أعدائهم المعايشين لهم من المشركين وأهل الكتاب الذين تكررت غدراتهم ونقضهم للعهود . وهي حالة اعتداء في صميمها . تنطبق عليها حالة الاعتداء . وبخاصة أن الأمبراطوريتين المحيطتين بأرض الإسلام قد بدأتا تجمعان له وتشعران بخطره , وتؤلبان عليه الإمارات العربية المتاخمة الخاضعة للدولتين الرومانية والفارسية . فلم يبق بد من تطهير المعسكر الإسلامي من بقية أعدائه قبل الالتحام في المعارك الخارجية المتوقعة يومذاك .

ونكتفي بهذا القدر من الاستطراد لنعود إلى سياق السورة في حكم المؤمنات المهاجرات:

(يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن , الله أعلم بإيمانهن , فإن

علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار , لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن , وآتوهم ما أنفقوا , ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ; ولا تمسكوا بعصم الكوافر , واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا . ذلكم حكم الله يحكم بينكم , والله عليم حكيم . وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا , واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) . .

وقد ورد في سبب نزول هذه الأحكام أنه كان بعد صلح الحديبية الذي جاء فيه: "على ألا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا " . . فلما كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون معه بأسفل الحديبية جاءته نساء مؤمنات يطلبن الهجرة والانضمام إلى دار الإسلام في المدينة ; وجاءت قريش تطلب ردهن تنفيذا للمعاهدة . ويظهر أن النص لم يكن قاطعا في موضوع النساء , فنزلت هاتات الآيتان تمنعان رد المهاجرات المؤمنات إلى الكفار , يفتن في دينهن وهن ضعاف .

ونزلت أحكام هذه الحالة الدولية معها , تنظم التعامل فيها على أعدل قاعدة تتحرى العدل في ذاته دون تأثر بسلوك الفريق الآخر , وما فيها من شطط وجور . على طريقة الإسلام في كل معاملاته الداخلية والدولية .

وأول إجراء هو امتحان هؤلاء المهاجرات لتحري سبب الهجرة , فلا يكون تخلصا من زواج مكروه , ولا طلبا لمنفعة , ولا جريا وراء حب فردي في دار الإسلام !

قال ابن عباس: كان يمتحنهن: بالله ما خرجت من بغض زوج, وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض, وبالله ما خرجت التماس دنيا, وبالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله.

وقال عكرمة: يقال لها: ما جاء بك إلا حب الله ورسوله, وما جاء بك عشق رجل منا, ولا فرارا من زوجك.

(267/760)

وهذا هو الامتحان.. وهو يعتمد على ظاهر حالهن واقرارهن مع الحلف بالله. فأما خفايا الصدور فأمرها إلى الله, ولا سبيل للبشر إليها: (الله أعلم بإيمانهن..) فإذا ما أقررن هكذا (فلا ترجعوهن إلى الكفار)..

(لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن)..

فقد أنبتت الوشيجة الأولى.. وشيجة العقيدة.. فلم تعد هناك وشيجة أخرى يمكن أن تصل هذه القطيعة. والزوجية حالة امتزاج واندماج واستقرار, لا يمكن أن تقوم إذا انقطعت هذه الوشيجة الأولى. والإيمان هو قوام حياة القلب الذي لا تقوم مقامه عاطفة أخرى, فإذا خوى منه قلب لم يستطع قلب مؤمن أن يتجاوب معه, ولا أن يأنس به, ولا أن يواده ولا أن يسكن إليه ويطمئن في جواره. والزواج مودة ورحمة وأنس وسكن.

وكان الأمر في أول الهجرة متروكا بغير نص, فلم يكن يفرق بين الزوجة المؤمنة والزوج الكافر; ولا بين الزوج المؤمن والزوجة الكافرة, لأن المجتمع الإسلامي لم يكن قد استقرت قواعده بعد . فأما بعد صلح الحديبية -أو فتح الحديبية كما يعتبره كثير من الرواة- فقد آن أن تقع المفاصلة الكاملة; وأن يستقر في ضمير المؤمنين والمؤمنات, كما يستقر في واقعهم, أن لا رابطة إلا رابطة الإيمان, وأن لا وشيجة إلا وشيجة العقيدة, وأن لا ارتباط إلا بين الذين يرتبطون بالله .

ومع إجراء التفريق إجراء التعويض -على مقتضى العدل والمساواة- فيرد على الزوج الكافر قيمة ما أنفق من المهر على زوجته المؤمنة التي فارقته تعويضا للضرر . كما يرد على الزوج المؤمن قيمة ما أنفق من المهر على زوجته الكافرة التي يطلقها من عصمته .

وبعد ذلك يحل للمؤمنين نكاح المؤمنات المهاجرات متى آتوهن مهورهن . . مع خلاف فقهي:هل لهن عدة, أم لا عدة إلا للحوامل حتى يضعن حملهن ? وإذا كانت لهن عدة فهل هي عدة المطلقات . . . ثلاثة قروء . . أم هي عدة استبراء للرحم بحيضة واحدة ?

(وآتوهم ما أنفقوا , ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن . ولا تمسكوا بعصم الكوافر ,واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا) .

ثم يربط هذه الأحكام كلها بالضمانة الكبرى في ضمير المؤمن . ضمانة الرقابة الإلهية وخشية الله وتقواه:

(ذلكم حكم الله يحكم بينكم , والله عليم حكيم) . .

وهي الضمانة الوحيدة التي يؤمن عليها من النقض والالتواء والاحتيال . فحكم الله , هو حكم العليم الحكيم . وهو حكم المطلع على ذوات الصدور . وهو حكم القوي القدير . ويكفي أن يستشعر ضمير المسلم هذه الصلة , ويدرك مصدر الحكم ليستقيم عليه ويرعاه . وهو يوقن أن مرده إلى الله .

فإذا فات المؤمنين شيء مما أنفقوا , بامتناع الكوافر أو أهليهن من رد حق الزوج المؤمن - كما حدث في بعض الحالات - عوضهم الإمام مما يكون للكافرين الذين هاجرت زوجاتهم من حقوق على زوجاتهم في دار الإسلام , أو مما يقع من مال الكفار غنيمة في أيدي المسلمين:

(وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) ويربط هذا الحكم وتطبيقاته كذلك بالضمان الذي يتعلق به كل حكم وكل تطبيق:

(واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) . .

وهي لمسة للمؤمنين بالله عميقة الأثر في القلوب .

وهكذا تكون تلك الأحكام بالمفاصلة بين الأزواج تطبيقا واقعيا للتصور الإسلامي عن قيم الحياة وارتباطاتها ; وعن وحدة الصف الإسلامي وتميزه من سائر الصفوف ; وعن إقامة الحياة كلها على أساس العقيدة , وربطها كلها بمحور الإيمان ; وإنشاء عالم إنساني تذوب فيه فوارق الجنس واللون واللغة والنسب والأرض . وتبقى شارة واحدة تميز الناس . . شارة الحزب الذي ينتمون إليه . . وهما حزبان اثنان: حزب الله وحزب الشيطان .

.

الدرس الخامس: 12 مبايعة المؤمنات

ثم بين لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) كيف يبايعهن على الإيمان , هن وغيرهن ممن يردن الدخول في الإسلام . وعلى أي الأسس يبايعهن:

يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا , ولا يسرقن , ولا يزنين , ولا يقتلن أولادهن , ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن , ولا يعصينك في معروف , فبايعهن , واستغفر لهن الله , إن الله غفور رحيم . .

وهذه الأسس هي المقومات الكبرى للعقيدة , كما أنها مقومات الحياة الاجتماعية الجديدة . .

إنها عدم الشرك بالله إطلاقا . . وعدم إتيان الحدود . . السرقة والزنا . . وعدم قتل الأولاد . . إشارة إلى ما كان يجري في الجاهلية من وأد البنات , كما أنه يشمل قتل الأجنة لسبب من الأسباب . . وهن أمينات على ما في بطونهن . . (ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن) . . قال ابن عباس:يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن . وكذلك قال مقاتل . ولعل هذا التحفظ - بعد المبايعة على عدم الزنا - كان للحالات الواقعة في الجاهلية من أن تبيح المرأة نفسها لعدة رجال , فإذا جاءت بولد , نظرت أيهم أقرب به شبها فألحقته به , وربما اختارت هي أحسنهم فألحقت به ابنها وهي تعلم من هو أبوه !

وعموم اللفظ يشمل هذه الحالة وغيرها من كل بهتان مزور يدعى . ولعل ابن عباس ومقاتل خصصاه بذلك المعنى لمناسبة واقعة وقتذاك

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (12) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (13)

والشرط الأخير: (ولا يعصينك في معروف) . . وهو يشمل الوعد بطاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في كل ما يأمرهن به . وهو لا يأمر إلا بمعروف . ولكن هذا الشرط هو أحد قواعد الدستور في الإسلام, وهو يقرر أن لا طاعة على الرعية لإمام أو حاكم إلا في المعروف الذي يتفق مع دين الله وشريعته . وأنها ليست طاعة مطلقة لولي الأمر في كل أمر! وهي القاعدة التي تجعل قوة التشريع والأمر مستمدة من شريعة الله, لا من إرادة إمام ولا من إرادة أمة إذا خالفت شريعة الله . فالإمام والأمة كلاهما محكوم بشريعة الله, ومنها يستمدان السلطات !

فإذا بايعن على هذه الأسس الشاملة قبلت بيعتهن . واستغفر لهن الرسول (صلى الله عليه وسلم) عما سلف (إن الله غفور رحيم) . . يغفر ويرحم ويقيل العثرات .

الدرس السادس:13 النهي عن موالاة الكفار

وفي الختام يجيء هذا الإيقاع العام:

(يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم, قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور) .

يجيء هتافا للذين آمنوا باسم الإيمان, وبالصفة التي تميزهم عن سائر الأقوام, إذ تصلهم بالله وتفصلهم عن أعداء الله .

وقد وردت بعض الروايات بأن المقصود بالقوم الذين غضب الله عليهم هم اليهود , استنادا إلى دمغهم بهذه الصفة في مواضع أخرى من القرآن . ولكن هذا لا يمنع من عموم النص ليشمل اليهود والمشركين الذين ورد ذكرهم في السورة , وكل أعداء الله . وكلهم غضب عليه الله . وكلهم يائس من الآخرة , لا يعلق بها رجاء , ولا يحسب لها حسابا كيأس الكفار من الموتى - أصحاب القبور - لاعتقادهم أن أمرهم انتهى , وما عاد لهم من بعث ولا حساب .

وهو هتاف يتجمع من كل إيقاعات السورة واتجاهاتها . فتختم به كما بدأت بمثله . ليكون هو الإيقاع الأخير . الذي تترك السورة أصداءه في القلوب . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3540. 3548 ﴾

(271/760)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُمْ مِّنَ الحق يُخْرِجُونَ الرسول وَإِيَّاكُمْ ﴾ .

نهى تعالى المؤمنين عن اتخاذ العدو المشترك أولياء ، ولفظ العدو مفرد ، ويطلق على الفرد

والجماعة .

ومن إطلاقه على الفرد قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ياآدم إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ [طه : 117] يعني بالعدو إبليس .

ومن إطلاقه على الجمع قوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ [الكهف : 50] ، والمراد به هنا الجمع لما ففي السياق من القرائن منها قوله " أولياء " بالجمع ، ومنها ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ﴾ وهو ضمير جمع ، ومنها ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ ﴾ بواو الجمع ، ومنها يخرجون أيضاً بالجمع ، وقوله بعدها ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً ويبسطوا ﴾ [الممتحنة : 2] وكلها بضمائر الجمع .

أما العدو المراد هنا فقد عم وخص في وصفه فوصفه أولاً بقوله ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُمْ مِّنَ الحق ﴾ وخص بوصفه يخرجون الرسول ، ولوصف بالكفر يشمل الجميع ، فيكون ذكرهما معاً للتأكيد والاهتمام بالخاص ، كقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوّاً للَّهِ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ ﴾ [البقرة : 98] ففي ذكر الخاص هنا وهو وصف العدو بإخراج الرسول والمؤمنين للتهييج على من أخرجوهم من ديارهم كقوله ﴿ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ [البقرة : 191] .

وقد بين تعالى المراد بالذين أخرجوا الرسول والمؤمنين في عدة مواضع ، مناه قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ [محمد : 13] أي مكة ، ومنها قوله : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ [التوبة : 40] الآية .

فعليه يكون المراد بعدوي وعدوكم هنا ، خصوص المشركين بمكة .

وقد أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ، وقصة الرسالة مع الظعينة لأهل مكة قبل الفتح بإخبارهم بتجهز المسلمين إليهم مما يؤيد المراد بالعدو هنا ، ولكن ، وإن كانت بصورة السبب قطعية الدخول إلا أن عموم اللفظ لا يهمل ، فقوله ﴿ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾ يشمل كل من كفر بما جاءنا من الحق كاليهود والنصارى والمنافقين ومن تجدد من الطوائف الحديثة .

وقد جاء النص على كل طائفة مستقلة ، ففي سورة المجادلة عن المنافقين قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ [المجادلة : 14] .

وتكلم عليها لاشيخ رحمة الله تعالى عليه .

وعن اليهود في سورة الحشر كما تقدم ، وعن اليهود والنصارى معاً قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ ﴾ [المائدة : 51] .

ومن الطوائف المحدثة كل من كفر بما جاءنا من الحق من شيوعية وغيرهم ، وكالهندوكية ، والبوذّية وغيرهم ، ومما يتبع هذا العموم ما جاء في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الذين اتخذوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ والكفار أَوْلِيَآءَ واتقوا الله إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصلاة اتخذوها هُزُواً وَلَعِباً ذلك بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾

[المائدة : 57 – 58] .

فكل من خزئ بشيء من الدين أو اتخذه لعباً ولهواً فإنه يخشى عليه من تناول هذه الآية إياه .

تنبيه

ذكر المقابلة هنا بين عدوي وعدوكم أولياء فيه إبراز صورة الحال وتقبيح الفعل ، لأن العداوة تتنافى مع الموالاة والمساواة للعدو بالمودة ، وقد ناقش بعض المفسرين قضية التقديم والتأخير في تقديم عدوي أولاً ، وعطف عدوكم عليه ، فقال الفخر الرازي : التقديم لأن عداوة العبد لله بدون علة ، وعداوة العبد للعبد لعلة ، وما كان بدون علة فهو مقدم على

ما كان بعلة اه .

والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن التقديم لغرض شرعي وبلاغي ، وهو أن عداوة العبد لله هي الأصل ، وهي أشد قبحاً ، فلذا قدمت ، وقبحها في أنهم عبدوا غير خالقهم ، وشكروا غير رازقهم ، وكذبوا رسل ربهم وآذوهم .

وقد جاء في الأحاديث القدسية ما يستأنس به في ذلك فيما رواه البيهقي والحاكم ، عن معاذ والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرجاء ما نصه : " إني والجن والإنس في نبإ عظيم أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري " وفيه " خيري إلى العباد نازل وشرهم إلى صاعد ، أتحبَّب إليهم بالنعم ويتبغضون إلي بالمعاصي "كما أن تقديمه يؤكد بأنه هو السبب في الداوة بين المؤمنين والكافرين ، وما كان سبباً فحقه التقديم .

(274/760)

ويدل على ما ذكرنا من أنه الأصل ، أن الكفار لو آمنوا بالله وانتفت عداوتهم لله لأصحبوا إخواناً للمؤمنين والتفت العداوة بينهما ، وكذا كونه مغياً بغاية في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حتى يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ الله ﴾ [النساء : 89] .

ومثله قوله تعالى في قوم إبراهيم : ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء أَبَداً حتى تُؤْمِنُواْ

باللهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة : 4] فإذا هاجر المشركون وآمن الكافرون ، انتفت العداوة وجاءت الموالاة .

ومما قدمنا من أن سبب النهي عن مولاة الأعداء ، هو الكفر يعلم أنه إذا وجدت عداوة لا لسبب الكفر فلا ينهى عن تلك الموالاة لتخلف العلة الأساسية ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن : 14] ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن : 14] .

فلما تخلف السبب الأساسي في النهي عن مولاة العدو الذي هو الكفر ، جاء الحث على العفو والصفح والغفران ، لأن هذه العداوة لسبب آخر هو ما بينه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن : 15] . فكان مقتضاها فقط الحذر من أن يفتنوه ، وكان مقتضى الزوجية حسن العشرة ، كما هو معلوم . وسيأتي زيادة إيضاح لهذه المسألة عند هذه الآية ، إن شاء الله تعالى .

وقد نص صراحة على عدم النهي المذكور في خصوص من لم يعادوهم في الدين في قوله تعالى :

﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وتقسطوا إِلَيْهِمْ ﴾ [الممتحنة : 8] الآية .

وللموالاة أحكام عامة وخاصة ، وقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى عليه في عدة مواضع من الأضواء .

(275/760)

منها في الجزء الثاني عند قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ ﴾ [المائدة : 51] وقد أطال البحث فيها .

ومنها في الجزء الثالث عرضاً ضمن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] وبين روابط العالم الإسلامي بتوسع .

ومنها في الجزء الرابع عند قوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الكهف : 50] الآية .

ومنها في مخطوط السابع عند قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ التي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ [محمد : 13] وأحال فيها على آية الممتحنة هذه .

ومنها أيضاً عند قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ الله سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأمر ﴾ [محمد : 26] ، وأحال عندها على مواضع متقدمة من سورة الشورى وبني إسرائيل .

ومنها في سورة المجادلة على قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم ﴾ [المجادلة : 14] .

وفيما كتبه رحمة الله تعالى عليه ، بيان لكل جوانب أحكام هذه الآية ، غير أني لم أجده رحمة الله تعالى عليه تعرّض لما في هذه السورة من خصوص التخصيص للآية بقوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ ﴾ [الممتحنة : 8] الآية .

ولم أسمع منه رحمة الله تعالى عليه فيها شيئاً مع أنها نص في تخصيص العموم من هذه الآية ، وسيأتي لها بيان لذلك عندها إن شاء الله .

تنبيه

رد أهل السنة بهذه الآية وأمثالها على المعتزلة قولهم : إن المعصية تنافي الإيمان ، لأن الله ناداهم بوصف الإيمان مع قوله : ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل ﴾ فلم يخرجهم بضلالهم عن عموم إيمانهم ، ويشهد لهذا أن الضلال هنا عن سواء السبيل لا مطلق السبيل .

إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2)

يثقفوكم : أي يدركوكم ، وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء وفعله ، والرمح المثقف المقوم .

قال الراغب : ثم يتجوز به فيستعمل في الإدراك وإن لم تكن معه ثقافة ، قال تعالى : ﴿ واقتلوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم ﴾ [البقرة : 191] ، وقال ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الحرب ﴾ [الأنفال : 57] اه .

فهذه نصوص القرآن في أن الثقافة بمعنى الإدراك ، وقوله تعالى ﴿ واقتلوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم ﴾ الآية ، نص على أن العداوة وبسط اليد واللسان بالسوء ، يكون بعد أن يثقفوهم مع أنه العداء سابق بإخراجهم إياهم من ديارهم ، فيكون هذا من باب التهييج وشدة التحذير ، وأن الذي يكون بعد الشرط هو بسط الأيدي بالسوء لأنهم الآن لا يقدرون عليهم بسبب الهجرة ، ومن أدلة القرآن على وجود العداوة بالفعل لذى عموم من دون المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البغضآء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران : 118] فقوله : من دونكم يشمل المشركين والمنافقين وأهل الكتاب ، وقوله ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي في الحاضر ، وقوله : ﴿ قَدْ بَدَتِ البغضآء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي

صُدُورُهُمْ أَكْبَر ﴾ لم يتوقف على الشرط المذكور في إن يثقفوكم ، فهم أعداء ، وقد بدت منهم البغضاء قولاً وفعلاً .

(277/760)

وعلى هذا تكون الآية إعلان المقاطعة بين المؤمنين ، ومن دونهم وقوله : وودوا لو تكفرون ، قد بين تعالى سبب ذلك بأنه الحسد كما في قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحق ﴾ [البقرة : 109] .

وقال تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي المنافقين فِئَتَيْنِ والله أَرْكَسَهُمْ بِمَا كسبوا ﴾ [النساء : 88] إلى قوله ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء : 89] .

لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3)

قوله تعالى : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ القيامة يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ .

الأرحام تستعمل في القرآن لعموم القرابة ، كقوله تعالى : ﴿ وَأُوْلُواْ الأرحام بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ ﴾ [الأنفال : 75] ، وقوله تعالى : ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ أي بتقطع الأنساب بينهم ، كما بينه تعالى بقوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [

المؤمنون : 101] .

وقد بين تعالى نتيجة هذا لفصل بينهم يوم القيامة في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 34 - 37] ، قوله في موضع آخر : ﴿ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ التي تُؤْوِيهِ ﴾ [المعارج : 12 - 13] فعمت جميع الأقارب وبينت سبب الفصل بينهم ، وما يترتب عليه .

وهذه الآية خطاب للمؤمنين في ذوي أرحامهم من المشركين ، كما في قصة سبب النزول في أمر حاطب بن أبي بلتعة في إرساله الخطاب لأهل مكة قبيل الفتح بأمر التجهز لهم .

(278/760)

ومفهوم الوصف في أول السياق عدوي وعدوّكم ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يدل بمفهوم المخالفة أن أولي الأرحام من المؤمنين قد لا يفصل بينهم يوم القيامة .

ويدل لهذا المفهوم قوله تعالى : ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الطور : 21] ، وقوله تعالى في دعاء الملائكة من حمله العرش للمؤمنين : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدْتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ [غافر : 8] .

وهذه الآية بيان واضح في أن روابط الدين أقوى وألزم من روابط النسب .

وهذا المعنى بالذات تقدم للشيخ رحمة الله تعالى عليه ، الكلام عليه عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] والآية الآتية بيان واضح لحقيقة هذا المعنى وشموله في جميع الأمم .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ والذين مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآؤاْ مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء أَبَداً حتى تُؤْمِنُواْ بالله وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَك ﴾ .

الأسوة كالقدوة ، وهي اتباع الغير على الحالة التي يكون عليها حسنة أو قبيحة ، ولذا قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] وهنا أيضاً : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ والذين مَعَه ﴾ .

وقد بين تعالى هذا التأسي المطلوب ، وذلك بقوله : ﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآؤاْ مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ الآية .

فالتأسي هنا في ثلاث أمور . أولاً : التبرؤ منهم ومما يعبدون من دون الله ثانياً : الكفر بهم . ثالثاً إبداء العداوة والبغضاء وإعلانها وإظهارها أبداً غلى الغاية المذكورة حتى يؤمنوا بالله وحده ، وهذا غاية في القطيعة بينهم وبين قومهم ، وزيادة عليهم إبداء العاوة والبغضاء أبداً ، والسبب في ذلك هو الكفر ، فإذا آمنوا بالله وحده انتفى كل ذلك بينهم .

وهنا سؤال ، هو موضع الأسوة إبراهيم والذين معه بدليل العطف بينهما .

وقوله تعالى : ﴿ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالذين مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ ﴾ فقائل القول لقومهم إبراهيم والذين مع إبراهيم ، وهذا محل التأسي بهم فيما قالوه لقومهم .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ فهذا القول من إبراهيم ليس موضع التأسي ، وموضع التأسي المطلوب في إبراهيم عليه السلام هو ما قاله مع قومه المتقدم جملة ، وما فصله تعالى في موضع آخر في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الذي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف : 26 - 27] وهذا التبرؤ جعله باقياً في عقبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً ﴾ [الزخرف : 28] .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ الآية . لم يبين هنا سبب هذا الاستثناء وهل هو خاص بإبراهيم لأبيه أم لماذا ؟

وقد بينه تعالى في موضع آخر في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 114] تلك الموعدة التي كانت له عليه في بادئ دعوته حينما قال له أبوه ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يا إبراهيم لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ واهجرني مَلِيّاً قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ [مريم : 46 – 47] فكان قد وعده ووفَّى بعهده ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، فكان محل التأسي في إبراهيم في هذه التبرؤ من أبيه ، لما تبين له أنه عدو لله .

وقد جاء ما يدل على أنها قضية عامة وليست خاصة في إبراهيم عليه السلام كما في قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانوا أُوْلِي قربى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجحيم ﴾ [التوبة : 113] وفي هذه الآية وما قبلها أقوى دليل على أن دين الإسلام ليست فيه تبعية أحد لأحد ، بل كل نفس بما كسبت رهينة ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

ومن عجب أن يأتي نظير موقف إبراهيم من أبيه مواقف مماثلة في أمم متعددة ، منها موقف نوح عليه السلام من ابنه لما قال ﴿ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق وَأَنتَ أَحْكَمُ

الحاكمين ﴾ [هود : 45] فلما تبين له أمره أيضاً من قوله تعالى : ﴿ يا نوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود : 46] الآية ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ [هود : 47] الآية . فكان موقف نوح من ولده كموقف إبراهيم من أبيه .

(281/760)

ومنها موقف نوح ولوط من أزواجهما في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امرأة نُوحٍ وامرأة لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ [التحريم : 10] الآية .

ومنها موقف زوجة فرعون من فرعون في قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امرأة فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين ﴾ [التحريم : 11] فتبرأت الزوجة من زوجها ، وهذا التأسي قد بين تمام البيان معنى قوله تعالى : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ ﴾ [الممتحنة : 3] أي ولا آباؤكم ولا أحد من أقربائكم ، يوم القيامة يفصل بينكم ، وقول إبراهيم لأبيه ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الممتحنة : 4] بينه ما قدمنا من أن الإسلام ليس فيه تبعية ، وأن ليس

للإنسان إلا ما سعى، وكل نفس بما كسبت رهينة.

وقوله: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾ [الأنعام: 158]، وقوله: ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [الانفطار: 19].

وقد سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى عليه محاضرة في (كنو بنيجريا) في مجتمع فيه من يتعلق ببعض الأشخاص في اعتقاداتهم، فعرض هذا الموضع، وبين عدم استطاعة أحد نفع أحد فكان لها وقع عظيم الأثر في النوسن ولعل الله ييسر طبعها مع طبع جميع محاضراته في تلك الرحلة الميمونة.

مسألة

جعل بعض المفسرين هذه الآية دليلاً على أن شرع من قبلنا شرع لنا بدليل التأسي بإبراهيم عليه السلام والذين معه، وتحقيق هذه المسألة في كتب الأصول، وهذه الآية وإن كانت دالة في الجملة على أن شرع من قبلنا شرع لنا، إلا أ، ها ليست نصاً في محل النزاع.

وقد قسم الشيخ رحمة الله تعالى عليه، حكم المسألة إلى ثلاثة أقسام:

قسم هو شرع لنا قطعاً ، وهو ما جاء في شرعنا أنه شرع لنا كآية الرجم ، وكهذه الآية في العداوة والموالاة ، وإما ليس بشرع لنا قطعاً كتحريم العمل يوم السبت ، وتحريم بعض الشحوم .

إلخ .

وقسم ثالث : وهو محل النزاع ، وهو ما ذكر لنا في القرآن ، ولم نؤمر به ولم ننه عنه .

فالجمهور على أنه شرع لنا لذكره لنا ، لأنه لو لم يكن شرعاً لنا لما كان لذكره لنا فائدة ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى : 13] وبهذه الآية أيضاً ، والشافعي يعارض في هذا القسم ويقول : الآية في العقائد لا في الفروع ، ويستدل بقوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة : 48] وعلى هذا التقسيم المذكور ، فالآية ليست نصاً في محل النزاع ، لأننا أمرنا بالتأسي به في معين جاء في شرعنا الأمر به في أول السورة .

تنبيه

يظهر لي في هذه المسألة والله تعالى أعلم : أن الخلاف بين الشافعي والجمهور يكاد يكون شكلياً ، وكل محجوج بما حج به الآخر ، وذلك كالآتي :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ يدل على وجود شرعة وعلى وجود منهاج ، فإذا جئنا لاستدلال الجمهور ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً ﴾ [الشورى : 13] لم نجد فيه ذكر المنهاج ، ونجد واقع التشريع ، أن منهاج ما شرع لنا يغاير منهاج ما شرع لمن قبلنا كما في مشروعية الصيام قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام كَمَا كُتِبَ عَلَى الذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة : 183] وهذا يتفق في أصل الشرعة ، ولكن جاء ما يبين الاختلاف في المنهاج في قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصيام الرفث إلى نِسَآئِكُمْ ﴾ [البقرة : 187] ومعنى ذلك أنه كان محرماً ، وهو ضمن منهاج من قبلنا وشرعتهم فاتفقنا معهم في الشرعة واختلف منهجنا عن منهجهم بإحلال ما كان منه حراماً ، وهذا ملزم للجمهور ، هكذا بقية أركان الإسلام في الصلاة فهي مشروعة للجميع ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ والعاكفين والركع السجود ﴾ [البقرة : 125] ، وقوله : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم : 37] وقوله عن عيسى ﴿ وَأَوْصَانِي بالصلاة والزكاة مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ [مريم : 31] ، وغير ذلك . وفي الحج ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت ﴾ [آل عمران : 97] ، وقوله : ﴿ وَأَذِّن فِي الناس بالحج يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ [الحج : 27] الآية ، فجميع الأركان ، وهي فروع لا عقائد مشروعة في جميع الأديان على جميع الأمم ، فاشتركنا معهم في المشروعية ، ولكن هل

كانت كلها كنهجها عندنا في أوقاتها وأعدادها وكيفياتها ، لقد وجدنا المغايرة في الصوم واضحة ، وهكذا في غيرها ، فالشرعة عامة للجميع والمنهاج خاص كما يقول الشافعي ، والعلم عند الله تعالى .

(284/760)

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6)

إعادة هذه الآية تأكيد على معنى الآية الأولى .

وقوله : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو الله واليوم الآخر ﴾ يفسره ما تقدم من قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وابتغآء مَرْضَاتِي ﴾ [الممتحنة : 1] ، لأنها تساويها في المصادق ، وهنا جاء بهذا اللفظ ليدل على العموم ، وتكون قضية عامة فيما بعد لكل من يرجو الله واليوم الآخر ، أن يتأسى بإبراهيم عليه السلام والذين معه في موقفهم المتقدم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ الله هُوَ الغني الحميد ﴾ التولي هنا الإعراض عن أوامر الله عموماً .

وهنا يحتمل تولي الكفار وموالاتهم ، فإن الله غني عنه حميد .

قال ابن عباس : كمل في غناه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ واستغنى الله ﴾ [التغابن : 6] .

وقد جاء بيان استغناء الله عن طاعة الطائعين عموماً وخصوصاً فجاء في خصوص الحج ﴿ ولِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ العالمين ﴾ [آل عمران : 97] .

وجاء في العموم قوله تعالى : ﴿ إِن تكفروا أَنتُمْ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً فَإِنَّ الله لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : 8] ، لأن أعمال العباد لأنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ الله لَغَنِيٌّ عَنِ العالمين ﴾ [العنكبوت : 6] .

وكما في الحديث القدسي : " لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً "

وقد بين تعالى غناه المطلق بقوله : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض إِنَّ الله هُوَ الغني الحميد ﴾ [لقمان : 26] .

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7)

لم يبني هنا هل جعل المودة بالفعل بينهم وبين من عادوهم وأمروا بمقاطعتهم وعدم موالاتهم من ذوي أرحامهم أم لا . ولكن عسى من الله للتأكيد ، والتذييل بقوله تعالى : ﴿ والله قَدِيرٌ ﴾ يشعر بأنه فاعل ذلك لهم ، وقد جاء ما يدل على أنه فعله فعلاً في سورة النصر حين دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وقد فتح الله عليهم مكوة وكانوا طلقاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك موقف أبي سفيان وغيره ، وعام الوفود إلى المدينة بعد التفح ، وفي التذييل بأن الله قدير ، يشعر بأن تأليف القلوب ومودتها إنما هو من قدرة الله تعالى وحده ، كما بينه قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأرض جَمِيعاً ﴾ [الأنفال : 63] الآية .

لأن المودة المتوقعة بسبب هداية الكفار ، والهداية منحة من الله : إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء . والعلم عند الله تعالى .

لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8)

اعتبر بعض المفسرين الآية الأولى رخصة من الآية في أول السورة ، ولكن في هاتين الآيتين صنفان من الأعداء وقسمان من المعاملة .

الصنف الأول : عدو لم يقاتلوا المسلمين في دينهم ولم يخرجوهم من ديارهم . فهؤلاء يقول تعالى في حقهم ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللهُ ﴾ ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ وتقسطوا إِلَيْهِمْ ﴾ .

(286/760)

والصنف الثاني : قاتلوا المسلمين وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم ، وهؤلاء يقول تعالى فيهم : إنما ينهاكم الله أن تولوهم إذاً فهما قسمان مختلفان وحكمان متغايران ، وإن كان القسمان لم يخرجا عن عموم عدوي وعدوكم المتقدم في أول السورة ، وقد اعتبر بعض المفسرين الآية الأولى رخصة بعد النهي المتقدم ، ثم إنها نسخت بآية السيف أو غيرها على ما سيأتي .

واعتبر الآية الثانية تأكيداً للنهي الأول ، وناقش بعض المفسرين دعوى النسخ في الأولى ، واختلفوا فيمن نزلت ومن المقصود منها ، والوقع أن الآيتين تقسيم لعموم العدو المتقدم في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [الممتحنة : 1] ، مع بيان كل قسم وحكمه ، كما تدل له قرائن في الآية الأولى ، وقرائن في هاتين الآيتين على ما سيأتي إن شاء الله تعالى .

أما التقسيم فقسمان : قسم مسالم لم يقاتل المسلمين ولم يخرجهم من ديارهم ، فلم ينه الله

المسلمين عن برهم والإقساط إليهم ، وقسم غير مسالم يقاتل المسلمين ويخرجهم من ديارهم ويظاهر على إخراجهم ، فنهى الله المسلمين عن موالاتهم ، وفرق بين الإذن بالبر والقسط ، وبين النهي عن الموالاة والمودة ، ويشهد لهذا التقسيم ما في الآية الأولى من قرائن ، وهي عموم الوصف بالكفر ، وخصو الوصف بإخراج الرسول وإياكم .

ومعلوم أن إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين من ديارهم كان نتيجة لقتالهم وإيذائهم ، فهذا السم هو المعني بالنهي عن موالته لموقفه المعادي لأن المعاداة تنافي الموالاة .

ولذا عقب عليه بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فأولئك هُمُ الظالمون ﴾ فأي ظلم بعد موالاة الفرد لأعداء أمته وأعداء الله ورسوله .

(287/760)

أما القسم العام وهم الذين كفروا بما جاءهم من الحق لكنهم لم يعادوا المسلمين في دينهم لا بقتال ولا بإخراج ولا بمعاونة غيرهم عليهم ولا ظاهروا على إخراجهم ، فهؤلاء من جانب ليسوا محلاً للموالاة لكفرهم ، وليس منهم ما يمنع برهم والإقساط إليهم .

وعلى هذا فإن الآية الثانية ليس فيها جديد بحث بعد البحث المتقدم في أول السورة ، وبقي البحث في الآية الأولى ، ومن جانبين : الأول : بيان من المعنى بها ، والثاني : بيان

حكمها ، وهل هي محكمة أم نسخت .

وقد اختلفت أقوال المفسرين في الأمرين ، ولأهمية هذا المبحث وحاجة الأمة إليه في كل وقت ، وأشد ما تكون في هذا العصر لقوة تشابك مصالح العالم وعمق تداخلها ، وترابط بعضه ببعض في جميع المجالات ، وعدم انفكاك دولة عن أخرى مما يزيد من وجوب الاهتمام بهذا الموضوع .

وإني مستعين الله في إيراد ما قيل فيها ، ثم مقدم ما يمكن أخذه من مجموع أقوال المفسرين ، وكلام الشيخ رحمة الله عليه .

القول الأول إنها منسوخة ، قال القرطبي عن أبي زيد أنها كانت في أول الإسلام زمن الموادعة وترك الأمر بالقتال ثم نسخت قيل بآية : ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5] قاله قتادة .

وقيل : كانت في أهل الصلح فلما زال زال حكمها وانتهى العمل بها بعد فتح مكة .

وقيل : هي في أحاب العهد حتى ينتهي عهدهم أو بنبذ إليهم أي أنها كانت مؤقتة بوقت ومرتبطة بقوم .

وقيل : إنها كانت في العاجزين عن القتال من النساء والصبيان من المشركين .

وقيل : إنها في ضعفة المؤمنين عن الهجرة حينما كانت الهجرة واجبة ، فلم يستطيعوا ، وعلى كل هذه الأقوال تكون قد نسخت ، بفوات وقتها وذهاب من عني بها .

والقول الثاني : إنها محكمة قاله أيضاً القرطبي ونقله عن أكثر أهل التأويل ، ونقل من أدلتهم أ ، ها نزلت في أم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، جاءت إليها وهي لم تسلم بعد وكان بعد الهجرة ، وجاءت لابنتها بهدايا فأبت أن تقبلها منها وأن تستقبلها حتى تستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن لها وأمرها بصلتها وعزاه للبخاري ومسلم .

وقال غيره : ذكره البخاري في تاريخه ، وذكر عن الماوردي أن قدومها كان في وقت الهدنة ، ومعلوم أن وقت الهدنة من القسم الأول الذي قيل : إنه منسوخ أي بانتهائها ، وعليها فالآية دائرة عند المفسرين بين الإحكام والنسخ .

وإذا رجعنا إلى سبب نزول السورة وتقيدنا بصورة السبب ، نجد أولها نزل بعد انتهاء العهد بنقض المشركين إياه ، وعند تهيئ المسلمين لفتح مكة ، ومجيء أم أسماء وإن كان بعد الهدنة فهل كان النساء داخلات في العهد أم لا ؟ لعدم التصريح بذكرهن .

وعليه فلا دلالة في قصة أم أسماء على عدم النسخ ولا على إثباته .

وإذا رجعنا إلى عموم اللفظ نجد الآية صريحة شاملة لكل من لم يناصب المسلمين العداء ، ولم يظهر سوءاً إليهم ، وهي في الكفار أقرب منها في المسلمين ، لأن الإحسان إلى ضعفه

المسلمين معلوم بالضرورة الشرعية ، وعليه فإن دعوى النسخ تحتاج إلى دليل قوي يقاوم صراحة هذا النص الشامل ، وتوفر شروط النسخ المعلومة في أصول التفسير .

(289/760)

ويؤيد عدم النسخ ما نقله القرطبي عن أكثر أهل التأويل أنها محكمة ، وكذلك كلام الشيخ رحمة الله تعالى عليه عند قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ [آل عمران : 28] بأن ذلك رخصة في حالة الخوف والضعف مع اشتراط سلامة الداخل في القلب ، فإن مفهومه أنها محكمة وباق العمل بها عند اللزوم ، ومفهومه أن المؤمنين إذا كانوا في حالة قوة وعدم خوف وفي مأمنٍ منهم ، وليس منهم قتال ، وهم في غاية من المسالمة فلا مانع من برهم بالعدل والإقساط معهم ، وهذا مما يرفع من شأن الإسلام والمسلمين ، بل وفيه دعوة إلى الإسلام بحسن المعاملة وتأليف القلوب بالإحسان إلى من أحسن إليهم ، وعدم معاداة من لم يعادهم ، ومما يدل لذلك من القرائن التي نهونا عنها سابقاً ما جاء في التذييل لهذه الآية بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ فهذا ترشيح لما قدمنا كما قابل هذا بالتذييل على الآية الأخرى :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [التوبة : 23] ، ففيه مقابلة بين العدل

والظلم فالعدل في الإحسان ، والقسط لمن يسالمك ، والظلم ممن يوالي من يعادي قومه .

ومما ينفي النسخ عدم التعارض بين هذا المعنى ، وبين آية السيف ، لأن شرط النسخ التعارض ، وعدم إمكان الجمع ، ومعرفة التاريخ ، والجمع هنا ممكن والتعارض منفي ، وذلك لأن الأمر بالقتال لا يمنع الإحسان قبله ، كما أن المسلمين ما كانوا ليفاجئوا قوماً بقتال حتى يدعوهم إلى الإسلام ، وهذا من الإحسان قطعاً ، ولأنهم قبلوا من أهل الكتاب الجزية ، وعاملوا أهل الذمة بكل إحسان وعدالة .

(290/760)

وقصة الظعينة في صحيح البخاري صاحبة المزادتين لم يقاتلوها أو يأسروها أو يستبيحوا ماءها بل استقاوها بمائها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ من مزادتيها قليلاً ، ودعا فيه ورده ، ثم استقوا وقال لها : اعلمي أن الله هو الذي سقانا ولم تنقص من مزادتيك شيئاً ، وأكرموها وأحسنوا إليها وجمعوا لها طعاماً ، وأرسلوها في سبيلها فكانت تذكر ذلك ، وتدعو قومها للإسلام .

وقصة ثمامة لما جيء به أسيراً وربط في سارية المسجد ، وبعد أن أصبح عاجزاً عن القتال لم يمنعهم من الإحسان إليه ، فكان يراح عليه كل يوم بحليب سبع نياق حتى فك أسره فأسلم

طواعية ، وهكذا نص قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله ﴾ [الإنسان : 8 - 9] الآية .

ومعلوم أنه لم يكن ثم أسير بيد المسلمين إلا من الكفار .

وفي سنة تسع وهي سنة الوفود ، فكان يقدم إلى المدينة المسلمون وغير المسلمين ، فيتلقون الجميع بالبر والإحسان كوفد نجران وغيرهم وها هوذا وفد تميم جاء يفاخر ويفاوض في أسارى له ، فيأذن لهم صلى الله عليه وسلم ، ويستمع مفاخرتهم ويأمر من يرد عليهم من المسلمين ، وفي النهاية يسلمون ويجيزهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالجوائز ، وهذا أقوى دليل على عدم النسخ ، لأن وفداً يأتي متحدياً مفاخراً لكنه لم يقاتل ولم يظاهر على إخراجهم من ديارهم ، وجاء في أمر جار في عرف العرب فجاراهم فيه صلى الله عليه وسلم بعد أن أعلن لهم أنه ما بالمفاخرة بُعث ، ولكن ترفقاً بهم ، وإحساناً إليهم ، وتأليفاً لقلوبهم ، وقد كان فأسلموا ، وهذا ما تعطيه جميع الأقوال التي قدمناها .

وقد بحث إمام المفسرين الطبري هذه المسألة من نواحي النقل وأخيراً ختم بحثه بقوله ما نصه : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ، قول من قال عنى بذلك قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ

الله عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين ﴾ من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إلهم إن الله عز وجل عم بقوله : ﴿ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُم ﴾ جميع من كان ذلك صفته فلم يخصص به بعضاً دون بعض ، ولا معنى لقول من قال : ذلك منسوخ ، لأن بر المؤمنين من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب أو ممن لا قرابة بينه ولا نسب غير محرم ولا منهي عنه ، إذا لم يكن في ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام ، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح .

وقد بينا صحة ما قلنا في ذلك الخبر الذي ذكرناه عن الزبير في قصة أسماء وأمها .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المقسطين ﴾ ، يقول إن الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم ، فيبرون من برهم ، ويحسنون إلى من أحسن إليهم .

انتهى منه .

وفي تفسير آيات الأحكام للشافعي رحمه الله مبحث هام نسوقه أيضاً بنصه لأهميته :

قال الله عز وجل : ﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين ﴾ الآية . قال : يقال : والله أعلم إن بعض المسلمين تأثر من صلة المشركين أحسب ذلك لما نزل فرض جهادهم

وقطع الولاية بينهم وبينهم ونزل ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ الله ورَسُولَهُ ﴾ [المجادلة : 22] الآية ، فلما خافوا أن تكون المودة الصلة بالمال أنزل ﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وتقسطوا إِلَيْهِمْ إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الذين قَاتَلُوكُمْ فِي الدين وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُواْ على إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فأولئك هُمُ الظالمون ﴾ ، وقال الشافعي رحمه الله : وكانت الصلة بالمال والبر والإقساط ولين الكلام والمراسلة بحكم الله غير ما نهوا عنه من الولاية لمن نهوا عن ولايته مع المظاهرة على المسلمين ، وذلك لأنه أباح بر من لم يظاهر عليهم من المشركين والإقساط إليهم ولم يحرم ذلك إلى من لم يظاهر عليهم بل ذكر الذين ظاهروا عليهم فنهاهم عن ولايتهم إذ كان الولاية غير البر والإقساط ، وكان النَّبي صلى الله عليه وسلم فادى بعض أسارى بدر ، وقد كان أبو عزة الجمحي ممَّن منَّ عليه ، وقد كان معروفاً بعداوته ، والتأليب عليه بنفسه ولسانه ، ومن بعد بدر على ثمامة بن أثال ، وكان معروفاً بعداوته ، وأمر بقتله ثم منّ عليه بعد أسره وأسلم ثمامة وحبس الميرة عن أهل مكة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأذن له أن يميرهم فأذن له فمارهم .

وقال الله عز وجل :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ [الإنسان : 8] والأسرى يكونون ممن حاد الله ورسوله اه منه .

وهذا الذي صوَّبه ابن جرير وصححه الشافعي رحمه الله الذي تقتضيه روح التشريع الإسلامي ، أما وجهة النظر التي وعدنا بتقديمها فهي أن المسلمين اليوم مشتركة مصالحهم بعضهم ببعض ومرتبطة بمجموع دول العالم من مشركين وأهل كتاب ، ولا يمكن لأمة اليوم أن تعيش منعزلة عن المجموعة الدولية لتداخل المصالح وتشابكها ، ولا سيما في المجال الاقتصادي عصب الحياة اليوم من إنتاج أو تصنيع أو تسويق ، فعلى هذا تكون الآية مساعدة على جواز التعامل مع أولئك المسالمين ومبادلتهم مصلحة بمصلة على ساس ما قاله ابن جرير وبيّنه الشافعي ، وذكره الشيخ رحمة الله عليه في حقيقة موقف المسلمين اليوم من الحضارة الغربية في عدة مناسبات من محاضراته ومن الأضواء نفسه ، وبشرط ما قاله الشيخ رحمة الله تعالى عليه من سلامة الداخل أي عدم الميل بالقلب ، ولو قيل بشرط آخر وهو مع عدم وجود تلك المصلحة عند المسلمين أنفسهم ، أي أن العالم الإسلامي يتعاون أولاً مع بعضه ، فإذا أعوزه أو بعض دوله حاجة عند غير المسلمين ممن لم يقاتلوهم ولم يظاهروا عدواً على قتالهم فلا مانع من التعاون مع تلك الدولة في ذلك ، ومما يؤيد كل ما تقدم عملياً معاملة النَّبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده لليهود في خيبر .

فمما لا شك فيه أنهم داخلون أولاً في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [الممتحنة : 1] . ومنصوص على عدم موالاتهم في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا اليهود والنصارى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ الله لَا يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ [المائدة : 51] .

(294/760)

ومع ذلك لما أخرجهم صلى الله عليه وسلم من المدينة وحاصرهم بعدها في خيبر وفتحها الله عليه وأصبحوا في قبضة يده فلم يكونوا بعد ذلك في موقف المقاتلين ، ولا مظاهرين على إخراج المسلمين من ديارهم . عاملهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالقسط فعاملهم على أرض خيبر ونخيلها وأبقاهم فيها على جزء من الثمرة كأجراء يعملون لحسابه وحساب المسلمين ، فلم يتخذهم عبيداً يسخرهم فيها ، وبقيت معاملتهم بالقسط كما جاء في قصة ابن رواحة رضي الله عنه لما ذهب . يخرص عليهم وعرضوا عليه ما عرضوا من الرشوة ليخفف عنهم ، فقال لهم كلمته المشهورة : والله لأنتم أبغض الخلق إلي وجئتكم من عند أحب الخلق إليّ ، ولن يحملني بغضي لكم ، ولا حبي له أن أجيب عليكم ، فإما أن تأخذوا بنصف ما قدرت ، وإما أن تكفوا أيديكم ولكمنصف ما قدرت ، فقالوا له : بهذا قامت

السماوات والأرض أي بالعدالة والقسط ، وقد بقوا على ذلك نهاية زمنه صلى الله عليه وسلم وخلافة الصديق وصدراً من خلافة عمر حتى أجلاهم عنها .

ومثل ذلك المؤلفة قلوبهم أعطاهم صلى الله عليه وسلم بعد الفتح وأعطاهم الصديق حتى منعهم عمر رضي الله عنه .

وقد أطلنا الكلام في هذه المسألة لأهميتها ومسيس الحاجة إليها اليوم .

وفي الختام إن أشد ما يظهر وضوحاً في هذا المقام ولم يدَّع أحد فيه نسخاً قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً ﴾ [لقمان : 15] .

فهذه حسن معاملة وبر وإحسان لمن جاهد المسلم على أن يشرك بالله ولم يقاتل المسلمين .

فكان حق الأبوة مقدماً ولو مع الكفر والمجاهدة على الشرك .

وكذلك أيضاً في نهاية هذه السورة نفسها قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [الممتحنة : 10] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَءَاتُوهُم مَّا أَنفَقُواْ ﴾ [الممتحنة : 10] أي آتوا المشركين أزواج المؤمنات المهاجرات ما أنفقوا على أزواجهم بعد هجرتهن . فبعد أن أسلمت الزوجة وهاجرت وانحلت العصمة بينها وبين زوجها الكافر ، وبعدت عنه بالهجرة وفاتت عليه ولم يقدر عليها ، يأمر الله المسلمين أن يؤتوا أزواجهن وهم مشركون ، ما أنفقوا من صداق عند الزواج ونحوه مع بقاء الأزواج على الكفر وعجزهم عن استرجاع الزوجات وعدم جواز موالاتهم قطعاً لكفرهم ، وهذا من المعاملة بالقسط والعلم عند الله تعالى .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ

في قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَكُمُ المؤمنات مُهَاجِرَاتٍ فامتحنوهن الله أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ نص على امتحان المؤمنات المهاجرات ، وكان صلى الله عليه وسلم يمتحنهن : ما خرجت كرهاً لزوج أو فراراً لسبب ونحو ذلك . ذكره ابن كثيرة وغيره .

وقيل : كان امتحانهن البيعة الآتية : ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن الآية ، ومفهومه أن الرجال المهاجرون لا يمتحنون .

وفعلاً لم يكن النّبي صلى الله عليه وسلم يمتحن من هاجر إليه والسبب في امتحانهن دون الرجال ، هو ما أشارت إليه هذه الآية في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ ، كأن الهجرة وحدها لا تكفي في حقهن بخلاف الرجال ، فقد شهد الله لهم بصدق إيمانهم بالهجرة في قوله ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصادقون ﴾ [الحشر : 8] وذلك أن الرجل إذا خرج مهاجراً يعلم أن عليه تبعة الجهاد والنصر فلا يهاجر إلا وهو صادق الإيمان فلا يحتاج إلى امتحان ، ولا يرد عليه مهاجر أم قيس لأنه أمر جانبي ، ولا يمنع من المهمة الأساسية للهجرة المنوه عنه في أول هذه السورة ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي ﴾ [الممتحنة : 1] الآية ، بخلاف النساء فليس عليهن جهاد ولا يلزمهن بالهجرة أية تبعية ، فأي سبب يواجههن في حياتهم سواء كان بسبب الزوج أو غيره ، فإنهن يخرجن باسم الهجرة . فكان ذلك موجباً للتوثق من هرجتهن بامتحانهن ليعلم إيمانهن ، ويرشح لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ ، وفي حق الرجال ﴿ أولئك هُمُ الصادقون ﴾ [الحجرات : 15] ، وكذلك من جانب آخر وهو أن هجرة المؤمنات يتعلق عليها حق مع طرف آخر ، وهو الزوج فيفسخ نكاحها منه ، ويعوض هو عما أنفق عليها ، وإسقاط حقه في النكاح وإيجاب حقه في العوض قضايا حقوقية ، تتطلب إثباتاً بخلاف هجرة الرجال . والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار ﴾ معلوم أن المؤمنات المهاجرات بعد الامتحان والعلم بأنهن مؤمنات لا ينبغي إرجاعهن إلى الكفار ، لأنهم يؤونهن إن رجعن إليهم ، فلأي شيء يأتي النص عليه ؟

(297/760)

قال كثير من المفسرين : إن هذه الآية مخصصة لما جاء في معاهدة صلح الحديبية ، والتي كان بها من جاء من الكفار مسلماً غلى المسلمين ردوه على المشركين ، ومن جاء من المسلمين كافراً للمشركين لا يردونه على المسلمين فأخرجت النساء من المعادة وأبقت الرجال من باب تخصيص العموم وتخصيص السنة بالقرآن ، وتخصيص القرآن بالسنة معلوم ، وقد بينه الشيخ رحمة الله تعالى عليه في مذكرة الأصول ، وذكر القاعدة من مراقي السعود بقوله :

وخصص الكتاب والحديث به . . . أو بالحديث مطلقاً فلتنتبه

ومما ذكره لأمثلة تخصيص السنة بالكتاب قوله صلى الله عليه وسلم : " ما أبين من حيّ فهو ميت "

، أي محرم ، جاء تخصيص هذا العموم بقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا ﴾]

النحل : 80] أي ليس محرماً .

ومن أمثلة تخصيص الكتاب بالسنة قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم ﴾ [

المائدة : 3] جاء تخصيص هذا العموم بقوله صلى الله عليه وسلم : " أحلت لنا ميتتان ودمان ، أما الميتتان : فالجراد والحوت " الحديث قال القرطبي : جاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنّبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية بعد ، فأقبل زوجها وكان كافراً ، فقال : يا محمد اردد علي امرأتي فإنك شرطت ذلك ، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد ، فأنزل الله هذه الآية ، وقال بعض المفسرين : إنها ليست مخصصة للمعاهدة ، لأن النساء لم يدخلن فيها ابتداء ، وإنما كانت في حق الرجال فقط .

(298/760)

وذكر القرطبي وابن كثير أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط جاءت فارّة من زوجها عمرو بن العاص ومعها أخواها عمارة والوليد ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم أخويها وحبسها ، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ردها علينا للشرط ، فقال صلى الله عليه وسلم " كان الشرط في الرجال لا في النساء " ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، والذي يظهر والله تعالى أعلم أنها مخصصة لمعاهدة الهدنة ، وهي من أحسن الأمثلة لتخصيص السنة

بالقرآن ، كما قاله ابن كثير .

وقد روي أنها مخصصة عن عروة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد والزهري ومقاتل بن حيان والسدي .

ويدل على أنها مخصصة أمران مذكوران في الآية .

الأول منهما : أنها أحدثت حكماً جديداً في حقهن وهو عدم الحلية بينهن وبين أزواجهن ، فلا محل لإرجاعهن ، ولا يمكن تنفيذ معاهدة الهدنة مع هذا الحكم فخرجن منها وبقي الرجال .

والثاني منهما : أنها جعلت للأزواج حق المعاوضة على ما أنفقوا عليهن ، ولو لم يكن داخلات أولاً لما كان طلب المعاوضة ملزماً ، ولكنه صار ملزماً ، وموجب إلزامه أنهم كانوا يملكون منعهن من الخروج بمقتضى المعاهدة المذكورة ، فإذا خرجن بغير إذن الأزواج كن كمن نقض العهد فلزمهن العوض المذكور . والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ ، فيها تحريم المؤمنات على الكافرين ، والظاهر أن التحريم بالهجرة لا بالإسلام قبلها ، واتفق الجمهور على أنه إذا أسلم وهاجر أحد الزوجين بقيت العصمة إلى نهاية العدة ، فإن هاجر الطرف الآخر فيها ، فهما على نكاحهما الأول .

وهنا مبحث زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوجها أبي العاص بن الربيع .

وقد كثر الخلاف في أمر ردها إليه هل كان بالعقد الأول ، أو جدَّد لها صلى الله عليه وسلم عقداً جديداً ، ومن أسباب كثرة الخلاف الربط بين تاريخ إسلامها وتاريخ إسلامه ، وبينهما ست سنوات وهذا خطأ ، لأن قبل نزول الآية لم يقع تحريم بين مسلمة وكافر ، ونزولها بعد الحديبية وإسلامها كان سنة ثمان ، يحمل على عدم انقضاء عدتها ، وهذا يوافق على ما عليه الجمهور ، ونقل ابن كثير قولاً ، وهو أن المسلمة كانت بالخيار إن شاءت فسخت نكاحها وتزوجت بعد انقضاء عدتها ، وإن شاءت انتظرت اه .

وهذا القول له وجه ، لأنه بإسلامها لم يكن كفأً لها وإذا انتفت الكفاءة أعطيت الزوجة الخيار ، كقصة بريرة لما عتقت وكان زوجها مملوكاً ، ولا يرده قوله تعالى : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ لأن ذلك في حالة كفر الزوج لقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا ﴾ يدل على أن الفرقة إذا جاءت بسبب من جهة الزوجة أن عليها رد ما أنفق الزوج عليها ، وكونه الصداق أو أكثر قد بحثه الشيخ رحمة الله تعالى عليه في مبحث الخلع في سورة البقرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكوافر ﴾ ، أمر المؤمنين بفك عصمة زوجاتهم الكوافر ، فطلق عمر بن الخطاب يومئذ زوجتين ، وطلب طلبحة بن عبيد الله زوجته أروى بنت ربيعة ، وعصم الكوافر عام في كل كافرة ، فيشمل الكتابيات لكفرهن باعتقاد الولد لله ، كما حققه الشيخ رحمة الله تعالى عليه ، ولكن هذا العموم قد خصص بإباحة الكتابيات في قوله تعالى : ﴿ والمحصنات مِنَ الذين أُوتُوا الكتاب ﴾ [المائدة : 5] أي الحرائر ، وبقيت الحرمة بين المسلم والمشركة بالعقد على التأبيد .

(300/760)

ومفهوم العصمة لا يمنع الإمساك بملك اليمين ، فيحل للمسلم الاستمتاع بالمشركة بملك اليمين ، وعليه تكون حرمة المسلمة على الكافر مطلقاً مشركاً كان أو كتابياً على التأبيد لقوله تعالى : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ أي في الحاضر ، ﴿ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ أي في المستقبل ، وقد فصل الشيخ رحمة الله تعالى عليه مسألة المحرمات من النكاح فيما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ المحصنات ﴾ [النساء : 25] الآية .

تنبيه

هنا سؤال ، وهو : إذا كان الكفر هو سبب فك عصمة الكافرة من المسلم ، وتحريم

المسلمة على الكافر ، فلماذا حلت الكافرة من أهل الكتاب للمسلم ، ولم تحل المسلمة للكافر من أهل الكتاب ؟ والجواب من جانبين : الأول : أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه والقوامة في الزواج للزوج قطعاً لجانب الرجولة ، وإن تعادلا في الحلية بالعقد ، لأن التعادل لا يلغي الفوارق كما في ملك اليمين ، فإذا امتلك رجل امرأة حل له أن يستمتع منها بملك اليمين والمرأة إذا امتلكت عبداً لا يحل لها أن تستمتع منه بملك اليمين ، ولقوامة الرجل على المرأة وعلى أولادها وهو كافر لا يسلم لها دينها ، ولا لأولادها ، والجانب الثاني شمول الإسلام وقصور غيره ، ويبين عليه أمر اجتماعي له مساس بكيان الأسرة وحسن العشرة ، وذلك أن المسلم إذا تزوج كتابية ، فهو يؤمن بكتابها وبرسولها ، فيسكون معها على مبدأ من يحترم دينها لإيمانه به في الجملة ، فسيكون هناك مجال للتفاهم ، وقد يحصل التوصل إلى إسلامها بموجب كتابها ، أما الكتابي إذا تزوج مسلمة ، فهو لا يؤمن بدينها ، فلا تجد منه احتراماً لمبدئها ودينها ، ولا مجال للمفاهمة معه في أمر لا يؤمن به كلية ، وبالتالي فلا مجال للتفاهم ولا للوئام ، وإذا فلا جدوى من هذا الزواج بالكلية ، فمنع منه ابتداءً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ يعني صداقهن .

ويدل بمفهومه أن النكاح بدون الأجور فيه جناح ، وقد جاء النص بهذا المفهوم في قوله تعالى : ﴿ وامرأة مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النبي أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ المؤمنين ﴾ [الأحزاب : 50] ، فهبة المرأة نفسها بدون صداق خاص به صلى الله عليه وسلم ، فقوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ المؤمنين ﴾ لا يحله لغيره صلى الله عليه وسلم ، وقوله ﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُن ﴾ ظاهر في أن النكاح لا يصح إلا بإتيان الأجور .

وقد جاء ما يدل على صحة العقد بدون إتيان الصداق كما في قوله تعالى : ﴿ لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النسآء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ [البقرة : 236] الآية .

وقد ذكر الفقهاء حكم المفوضة ، أنه إن دخل بها فله صداق المثل ، ويدل لإطلاق الأجور على الصداق قوله تعالى في نكاح الإماء لمن لم يستطع طولاً للحرائر ﴿ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ

أَيمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ المؤمنات ﴾ [النساء : 25] إلى قوله ﴿ فانكحوهن بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [النساء : 25] وفي نكاح أهل الكتاب ﴿ المحصنات مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ [المائدة : 5] الآية ، وقوله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاتي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ [الأحزاب : 50] وبهذا كله يرد على من استدل بلفظ الأجور على نكاح المتعة في قوله تعالى : ﴿ فَمَا استمتعتم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [النساء : 24] وتقدم مبحث المتعة موجزاً للشيخ رحمة الله تعالى عليه عند قوله تعالى : ﴿ فَمَا استمتعتم بِهِ مِنْهُنَّ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ .

القيد بالمعروف هنا للبيان ولا مفهوم له ، لأن كل ما يأمر به صلى الله عليه وسلم معروف ، وفيه حياتهن ، وقد بينه الشيخ رحمة الله تعالى عليه ، عند قوله تعالى : ﴿ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : 24] في دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وتقدم الكلام عليه عند قوله تعالى ﴿ وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر : 7] ولكن فيه تنبيه على أن من كان في موضع الأمر من بعده لا طاعة له إلا في المعروف والعلم عند الله تعالى .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (13)

يرى المفسرون أن هذه الآية في ختام هذه السورة كالآية الأولى في أولها ، وهذا ما يسمى عوداً على بدء .

(303/760)

قال أبو حيان : لما افتتح هذه السورة بالنهي عن اتخاذ الكفار أولياء ختمها بمثل ذلك تأكيداً لترك موالاتهم وتنفيراً للمسلمين عن توليهم وإلقاء المودة إليهم .

وقال ابن كثير : ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة ، كما نهى عنها في أولها ، والذي يظهر لي والله تعالى أعلم : أنها لم تكن لمجرد التأكيد للنهي المتقدم ، ولكنها تتضمن معنى جديداً ، وذلك للآتي :

(304/760)

أولاً : أنها نص في قوم غضب الله عليهم ، وعلى أنها للتأكيد حملها البعض العموم ، لأن كل كافر مغضوب عليه ، وحملها البعض على خصوص اليهود ، لأنه وصف صار عرفاً لهم ، هو قول الحسن وابن زيد . قاله أبو حيان ، ومما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى عليه في مقدمة

الأضواء : أنه إذا اختلف في تفسير آية ، وكان أكثر استعمال القرآن لأحد المعنيين كان مرجحاً على الآخر ، وهو محقق هنا ، كما قال الحسن ، أصبح عرفاً عليهم ، وقد خصهم تعالى في قوله : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذلك مَثُوبَةً عِندَ الله مَن لَّعَنَهُ الله وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القردة والخنازير ﴾ [المائدة : 60] وقولهم فيهم : ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ على غَضَبٍ ﴾ [البقرة : 90] وقد فرق الله بينهم وبين النصارى في قوله تعالى ﴿ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِمْ وَلاَ الضآلين ﴾ [الفاتحة : 7] ، ولو قيل : إنها في اليهود والمنافقين ، لما كان بعيداً لأنه تعالى نص على غضبه على المنافقين في هذا الخصوص في سورة المجادلة في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين تَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ الله عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [المجادلة : 14] وعلى هذا فتكون خاصة في اليهود والمنافقين ، والغرض من تخصيصها بهما وعودة ذكرهما بعد العموم المتقدم في عدوي وعدوكم ، كما أسلفنا هو والله تعالى أعلم : لما نهى أولاً عن موالاة الأعداء وأمر بتقطيع الأواصر بين ذوي الأرحام ، جاء بعدها ما يشيع الأمل بقوله : ﴿ عَسَى الله أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ [الممتحنة : 7] وعاديتم عامة باقية على عمومها . ولكن اليهود والمنافقين لم يدخلوا في مدلول عسى تلك ، فنبه تعالى عليهم بخصوصهم لئلا يطمع المؤمنون أو ينتظروا شيئاً من ذلك ، فآيأسهم من موالاتهم ومودتهم ، كيأس اليهود

والمنافقين في الآخرة ، أي بعدم الإيمان الذي هو رابطة الرجاء المتقدم في عسى ، وفعلاً كان كما أخبر الله ، فقد جعل المودة من بعض المشركين ولم يجعلها من بعض المنافقين ولا اليهود ، فهي إذا مؤسسة لمعنى جديد ، وليست مؤكدة لما تقدم ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الْمُمْتَحَنَةِ

قَوْله تَعَالَى – : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ ؛

رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي حَاطِبِ بْنِ أَبِي بلتعة حِينَ كَتَبَ إلَى كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَنْتَصِحُ لَهُمْ فِيهِ ، فَأَطْلَعَ

اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَدَعَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ ﴿ : أَنْتَ كَتَبْتَ هَذَا الْكِتَابَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : وَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ ؟ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ مَا ارْتَبْتُ فِي اللَّهِ مُنْذُ أَسْلَمْتُ وَلَكِنِّي كُنْتُ امْرَأً غَرِيبًا فِي قُرَيْشٍ وَكَانَ لِي بِمَكَّةَ مَالٌ وَبَنُونَ فَأَرَدْتُ أَنْ أُدَافِعَ بِذَلِكَ عَنْهُمْ ، فَقَالَ عُمَرُ : ائْذَنْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَهْلًا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَإِنِّي غَافِرٌ لَكُمْ ﴾ .

حَدَّثَنَا بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ بِمَعْنَى مَا قَدَّمْنَا .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : ظَاهِرُ مَا فَعَلَهُ حَاطِبٌ لَا يُوجِبُ الرِّدَّةَ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ لَهُ ؛ لِيَدْفَعَ بِهِ عَنْ وَلَدِهِ وَمَالِهِ كَمَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ بِمِثْلِهِ عِنْدَ التَّقِيَّةِ وَيَسْتَبِيحُ إظْهَارَ كَلِمَةِ الْكُفْرِ ، وَمِثْلُ هَذَا الظَّنِّ إذَا صَدَرَ عَنْهُ الْكِتَابُ الَّذِي كَتَبَهُ فَإِنَّهُ لَا يُوجِبُ الْإِكْفَارَ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ يُوجِبُ الْإِكْفَارَ لَاسْتَتَابَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا لَمْ يَسْتَتِبْهُ وَصَدَّقَهُ عَلَى مَا قَالَ عُلِمَ أَنَّهُ مَا

كَانَ مُرْتَدًّا .

وَإِنَّمَا قَالَ عُمَرُ ائْذَنْ لِي فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ ؛ لِأَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ فَعَلَهُ

عَنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ فَإِنْ قِيلَ : قَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ إنَّمَا مَنَعَ عُمَرَ مِنْ قَتْلِهِ ؛ لِأَنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا ، وَقَالَ : " مَا يُدْرِيك لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ " فَجَعَلَ الْعِلَّةَ الْمَانِعَةَ مِنْ قَتْلِهِ كَوْنَهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ قِيلَ لَهُ : لَيْسَ كَمَا ظَنَنْت ؛ لِأَنَّ كَوْنَهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ كَافِرًا مُسْتَحِقًّا لِلنَّارِ إذَا كَفَرَ ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ : مَا يُدْرِيك لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ عَلِمَ أَنَّ أَهْلَ بَدْرٍ ، وَإِنْ أَذْنَبُوا لَا يَمُوتُونَ إلَّا عَلَى التَّوْبَةِ ؛ وَمَنْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُ وُجُودَ التَّوْبَةِ إذَا أَمْهَلَهُ فَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَأْمُرَ بِقَتْلِهِ أَوْ يَفْعَلَ مَا يَقْتَطِعُهُ بِهِ عَنْ التَّوْبَةِ ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ أَنَّ فِي مَعْلُومِ اللَّهِ أَنَّ أَهْلَ بَدْرٍ ، وَإِنْ أَذْنَبُوا فَإِنَّ مَصِيرَهُمْ إلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْخَوْفَ عَلَى الْمَالِ وَالْوَلَدِ لَا يُبِيحُ التَّقِيَّةَ فِي إظْهَارِ الْكُفْرِ ، وَأَنَّهُ لَا يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الْخَوْفِ عَلَى نَفْسِهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ نَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مِثْلِ مَا فَعَلَ حَاطِبٌ مَعَ خَوْفِهِ عَلَى أَهْلِهِ وَمَالِهِ ، وَكَذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا أَنَّهُ لَوْ قَالَ لِرَجُلٍ : " لَأَقْتُلَنَّ وَلَدَك أَوْ لَتَكْفُرَنَّ " أَنَّهُ لَا يَسَعُهُ إظْهَارُ الْكُفْرِ .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ فِيمَنْ لَهُ عَلَى رَجُلٍ مَالٌ فَقَالَ : "لَا أُقِرُّ لَك حَتَّى تَحُطَّ عَنِّي بَعْضَهُ" فَحَطَّ عَنْهُ بَعْضَهُ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْحَطُّ عَنْهُ وَجُعِلَ خَوْفُهُ عَلَى ذَهَابِ مَالِهِ بِمَنْزِلَةِ الْإِكْرَاهِ عَلَى الْحَطِّ ، وَهُوَ فِيمَا أَظُنُّ مَذْهَبُ ابْنِ أَبِي لَيْلَى وَمَا ذَكَرْنَاهُ يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِنَا ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْخَوْفَ عَلَى الْمَالِ وَالْأَهْلِ لَا يُبِيحُ التَّقِيَّةَ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ الْهِجْرَةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمْ يَعْذُرْهُمْ فِي التَّخَلُّفِ لِأَجْلِ أَمْوَالِهِمْ

وَأَهْلِيهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ قُلْ إنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ الْآيَةَ .

وَقَالَ : ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالَ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبْرَاهِيمَ وَاَلَّذِينَ مَعَهُ ﴾ الْآيَةَ ؛ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاَلَّذِينَ مَعَهُ ﴾ قِيلَ فِيهِ : الْأَنْبِيَاءُ ، وَقِيلَ : الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ؛ فَأَمَرَ اللَّهُ النَّاسَ بِالتَّأَسِّي بِهِمْ فِي إظْهَارِ مُعَادَاةِ الْكُفَّارِ وَقَطْعِ الْمُوَالَاةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ إنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾ .

فَهَذَا حُكْمٌ قَدْ تَعَبَّدَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ يَعْنِي فِي أَنْ لَا يَتَأَسَّوْا بِهِ فِي الدُّعَاءِ لِلْأَبِ الْكَافِرِ ، وَإِنَّمَا فَعَلَ إِبْرَاهِيمُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ أَظْهَرَ لَهُ الْإِيمَانَ وَوَعَدَهُ إِظْهَارَهُ ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - أَنَّهُ مُنَافِقٌ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ؛ فَأَمَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - بِالتَّأَسِّي بِإِبْرَاهِيمَ فِي كُلِّ أُمُورِهِ إِلَّا فِي اسْتِغْفَارِ لِلْأَبِ الْكَافِرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؛ قَالَ قَتَادَةُ : يَعْنِي بِإِظْهَارِهِمْ عَلَيْنَا فَيَرَوْا أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَا تُسَلِّطْهُمْ عَلَيْنَا فَيَفْتِنُونَنَا .

بَابُ صِلَةِ الرَّحِمِ الْمُشْرِكِ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿ لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ الْآيَةَ .

رَوَى هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ : ﴿ أَنَّ أَسْمَاءَ سَأَلَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أُمِّهَا مُشْرِكَةٍ جَاءَتْنِي أَأَصِلُهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ صِلِيهَا ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إلَيْهِمْ ﴾ عُمُومٌ فِي جَوَازِ دَفْعِ الصَّدَقَاتِ إلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ إذْ لَيْسَ هُمْ مِنْ أَهْلِ قِتَالِنَا ، وَفِيهِ النَّهْيُ عَنْ الصَّدَقَةِ عَلَى أَهْلِ الْحَرْبِ ؛ لِقَوْلِهِ : ﴿ إنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَ فِيهِ غَيْرُ ذَلِكَ ؛ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ قَالَ : نَسَخَهَا قَوْلُهُ : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ الْآيَةَ .

رَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا : ﴿ كَانَ مِمَّا شَرَطَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ لَا يَأْتِيك مِنَّا أَحَدٌ ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِك إلَّا رَدَدْته عَلَيْنَا فَرَدَّ أَبَا جَنْدَلٍ عَلَى أَبِيهِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو ، وَلَمْ يَأْتِهِ أَحَدٌ مِنْ الرِّجَالِ إلَّا رَدَّهُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ ، وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا وَجَاءَ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ، وَكَانَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ مِمَّنْ خَرَجَ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ وَهِيَ عَاتِقٌ ، فَجَاءَ أَهْلُهَا يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرْجِعَهَا ،

فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ : ﴿ إذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ ﴾ الْآيَةَ .

قَالَ عُرْوَةُ: فَأَخْبَرَتْنِي عَائِشَةُ ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَمْتَحِنُهُنَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ ، قَالَتْ: فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنْهُنَّ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ بَايَعْتُكِ كَلَامًا يُكَلِّمُهَا بِهِ وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِ الْمُبَايَعَةِ ﴾ وَرَوَى عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ عَنْ أَبِي زُمَيْلٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: لَقَدْ ﴿ صَالَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ مَكَّةَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَجَعَلَ لَهُمْ أَنَّ مَنْ لَحِقَ بِالْكُفَّارِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَرُدُّوهُ، وَمَنْ لَحِقَ بِالْمُسْلِمِينَ مِنَ الْكُفَّارِ يَرُدُّونَهُ.

﴾ وَرَوَى الْحَكَمُ عَنْ مُقْسِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "كَانَ فِي الصُّلْحِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَنَّ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَهُوَ رَدٌّ إِلَيْهِمْ، وَنَزَلَتْ سُورَةُ الْمُمْتَحَنَةِ بَعْدَ الصُّلْحِ فَكَانَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ نِسَائِهِمْ تُسْأَلُ مَا أَخْرَجَكِ؟ فَإِنْ كَانَتْ خَرَجَتْ هَرَبًا مِنْ زَوْجِهَا وَرَغْبَةً عَنْهُ رُدَّتْ، وَإِنْ كَانَتْ خَرَجَتْ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ أُمْسِكَتْ وَرُدَّ عَلَى زَوْجِهَا مَا أَنْفَقَ".

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَا يَخْلُو الصُّلْحُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَانَ خَاصًّا فِي الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذُكِرَ مِنْ رَدِّ مَنْ جَاءَ مِنْهُمْ مُسْلِمًا إلَيْهِمْ ، أَوْ أَنْ يَكُونَ وَقَعَ بَدِيًّا عَامًّا ثُمَّ نُسِخَ عَنْ النِّسَاءِ ، وَهَذَا أَظْهَرُ الْوَجْهَيْنِ وَذَلِكَ جَائِزٌ عِنْدَنَا ، وَإِنْ لَمْ يَرُدَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدًا مِنْ النِّسَاءِ عَلَيْهِمْ ؛ لِأَنَّ النَّسْخَ جَائِزٌ بَعْدَ التَّمْكِينِ مِنْ الْفِعْلِ ، وَإِنْ لَمْ يَقَعْ الْفِعْلُ .

وَقَوْلُهُ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُرَادُ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ إذَا هَاجَرْنَ إلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى امْتِحَانَهُنَّ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَدْ أُرِيدَ بِهِ سَائِرُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ غَيْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ حَضْرَتِهِمْ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ } الْمُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ الظَّاهِرُ لَا حَقِيقَةُ الْيَقِينِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا سَبِيلَ لَنَا إلَيْهِ ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ إخْوَةِ يُوسُفَ : { إنَّ ابْنَك سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إلَّا بِمَا عَلِمْنَا } يَعْنُونَ الْعِلْمَ الظَّاهِرَ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ سَرَقَ فِي الْحَقِيقَةِ ، أَلَا تَرَى إلَى قَوْلِهِ : { وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ } ؟ ، وَإِنَّمَا حَكَمُوا عَلَيْهِ بِالسَّرِقَةِ مِنْ جِهَةِ الظَّاهِرِ لَمَّا وَجَدُوا الصُّوَاعَ فِي رَحْلِهِ ؛ وَهُوَ مِثْلُ شَهَادَةِ الشُّهُودِ الَّذِينَ ظَاهِرُهُمْ الْعَدَالَةُ قَدْ تَعَبَّدَنَا اللَّهُ بِالْحُكْمِ بِهَا مِنْ طَرِيقِ الظَّاهِرِ وَحَمْلِ شَهَادَتِهِمَا عَلَى الصِّحَّةِ ، وَكَذَلِكَ قَبُولُ أَخْبَارِ الْآحَادِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ

هَذَا الطَّرِيقِ وَقَدْ أَلْزَمَنَا اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ قَبُولَ قَوْلِ مَنْ أَظْهَرَ لَنَا الْإِيمَانَ وَالْحُكْمَ بِصِحَّةِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ .

وَهَذَا أَصْلٌ فِي تَصْدِيقِ كُلِّ مَنْ أَخْبَرَ عَمَّا لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ مِنْ حَالِهِ ، مِثْلُ الْمَرْأَةِ إِذَا أَخْبَرَتْ عَنْ حَيْضِهَا وَطُهْرِهَا وَحَبَلِهَا ، وَمِثْلُ الرَّجُلِ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ : " أَنْتِ طَالِقٌ إذَا حِضْتِ " أَوْ قَالَ : " إذَا طَهُرْتِ " فَيَكُونُ قَوْلُهَا مَقْبُولًا فِيهِ ، وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ إذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ فَقَالَ عَطَاءٌ : مَا عَلِمْنَا إيمَانَهُنَّ إلَّا بِمَا ظَهَرَ مِنْ قَوْلِهِنَّ ؛ وَقَالَ قَتَادَةُ : امْتِحَانُهُنَّ مَا خَرَجْنَ إلَّا لِلدِّينِ وَالرَّغْبَةِ فِي الْإِسْلَامِ وَحُبِّ اللَّهِ - تَعَالَى - وَرَسُولِهِ .

بَابُ وُقُوعِ الْفُرْقَةِ بِاخْتِلَافِ الدَّارَيْنِ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ الْآيَةَ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فِي هَذِهِ الْآيَةِ ضُرُوبٌ مِنْ الدَّلَالَةِ عَلَى وُقُوعِ الْفُرْقَةِ بِاخْتِلَافِ الدَّارَيْنِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ .

وَاخْتِلَافُ الدَّارَيْنِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الزَّوْجَيْنِ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْحَرْبِ وَالْآخَرُ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْإِسْلَامِ وَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْمُهَاجِرَةَ إلَى دَارِ الْإِسْلَامِ قَدْ صَارَتْ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْإِسْلَامِ وَزَوْجُهَا بَاقٍ عَلَى

كُفْرِهِ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْحَرْبِ فَقَدْ اخْتَلَفَتْ بِهِمَا الدَّارَانِ ، وَحَكَمَ اللَّهُ بِوُقُوعِ الْفُرْقَةِ بَيْنَهُمَا بِقَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ .

وَلَوْ كَانَتْ الزَّوْجِيَّةُ بَاقِيَةً لَكَانَ الزَّوْجُ أَوْلَى بِهَا بِأَنْ تَكُونَ مَعَهُ حَيْثُ أَرَادَ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُهُ : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ ؛ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ﴾ يَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا ؛ لِأَنَّهُ أَمَرَ بِرَدِّ مَهْرِهَا عَلَى الزَّوْجِ ، وَلَوْ كَانَتْ الزَّوْجِيَّةُ بَاقِيَةً لَمَا اسْتَحَقَّ الزَّوْجُ رَدَّ الْمَهْرِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَسْتَحِقَّ الْبُضْعَ وَبَدَلَهُ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ وَلَوْ كَانَ النِّكَاحُ الْأَوَّلُ بَاقِيًا لَمَا جَازَ لَهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ ، وَالْعِصْمَةُ الْمَنْعُ ، فَنَهَانَا أَنْ نَمْتَنِعَ مِنْ تَزْوِيجِهَا لِأَجْلِ زَوْجِهَا الْحَرْبِيِّ .

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْحَرْبِيَّةِ تَخْرُجُ إلَيْنَا مُسْلِمَةً ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي الْحَرْبِيَّةِ تَخْرُجُ إلَيْنَا مُسْلِمَةً وَلَهَا زَوْجٌ كَافِرٌ فِي دَارِ الْحَرْبِ : " قَدْ وَقَعَتْ الْفُرْقَةُ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَلَا عِدَّةَ عَلَيْهَا " وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ : " عَلَيْهَا الْعِدَّةُ ، وَإِنْ
أَسْلَمَ الزَّوْجُ لَمْ تَحِلَّ لَهُ إلَّا بِنِكَاحٍ مُسْتَقْبَلٍ " ، وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَقَالَ مَالِكٌ وَالْأَوْزَاعِيّ وَاللَّيْثُ

وَالشَّافِعِيُّ : " إنْ أَسْلَمَ الزَّوْجُ قَبْلَ أَنْ تَحِيضَ ثَلَاثَ حِيَضٍ فَقَدْ وَقَعَتْ الْفُرْقَةُ " .

وَلَا فَرْقَ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ بَيْنَ دَارِ الْحَرْبِ وَبَيْنَ دَارِ الْإِسْلَامِ ، لَا حُكْمَ لِلدَّارِ عِنْدَهُ .

(317/760)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : رَوَى قَتَادَةُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ : " إذَا أَسْلَمَتْ الْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ قَبْلَ زَوْجِهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا مَا دَامُوا فِي دَارِ الْهِجْرَةِ " .

وَرَوَى الشَّيْبَانِيُّ عَنْ السَّفَّاحِ بْنِ مَطَرٍ عَنْ دَاوُد بْنِ كُرْدُوسٍ قَالَ : " كَانَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَغْلِبَ نَصْرَانِيٌّ عِنْدَهُ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ نَصْرَانِيَّةٌ فَأَسْلَمَتْ الْمَرْأَةُ وَأَبَى الزَّوْجُ أَنْ يُسْلِمَ ، فَفَرَّقَ عُمَرُ بَيْنَهُمَا " وَرَوَى لَيْثٌ عَنْ عَطَاءٍ وَطَاوُسٍ وَمُجَاهِدٍ فِي النَّصْرَانِيِّ تُسْلِمُ امْرَأَتُهُ قَالُوا : " إنْ أَسْلَمَ مَعَهَا فَهِيَ امْرَأَتُهُ ، وَإِنْ لَمْ يُسْلِمْ فُرِّقَ بَيْنَهُمَا " .

(318/760)

وَرَوَى قَتَادَةُ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : " إذَا أَسْلَمَ وَهِيَ فِي عِدَّتِهَا فَهِيَ امْرَأَتُهُ ، وَإِنْ لَمْ تُسْلِمْ فُرِّقَ بَيْنَهُمَا " ، وَرَوَى حَجَّاجٌ عَنْ عَطَاءٍ مِثْلَهُ ، وَعَنْ الْحَسَنِ وَابْنِ الْمُسَيِّبِ مِثْلُهُ وَقَالَ إبْرَاهِيمُ :

" إِنْ أَبَى أَنْ يُسْلِمَ فُرِّقَ بَيْنَهُمَا " وروى عَبَّادُ بْنُ الْعَوَّامِ عَنْ خَالِدٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " إذَا أَسْلَمَتْ النَّصْرَانِيَّةُ قَبْلَ زَوْجِهَا فَهِيَ أَمْلَكُ لِنَفْسِهَا " قال أبو بكر : حَصَلَ اخْتِلَافُ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْحَاءٍ ؛ فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : " هُوَ أَحَقُّ بِهَا مَا دَامُوا فِي دَارِ الْهِجْرَةِ " ، وَهَذَا مَعْنَاهُ عِنْدَنَا إذَا كَانَا فِي دَارٍ وَاحِدَةٍ ، وَمَتَى اخْتَلَفَتْ بِهِمَا الدَّارُ فَصَارَ أَحَدُهُمَا فِي دَارِ الْحَرْبِ وَالْآخَرُ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ بَانَتْ ، وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : " إذَا أَسْلَمَتْ وَأَبَى الزَّوْجُ الْإِسْلَامَ

فُرِّقَ بَيْنَهُمَا " .

(319/760)

وَهَذَا أَيْضًا عَلَى أَنَّهُمَا فِي دَارِ الْإِسْلَامِ وَقَالَ آخَرُونَ مِمَّنْ ذَكَرْنَا قَوْلَهُ : " هِيَ امْرَأَتُهُ مَا دَامَتْ فِي الْعِدَّةِ فَإِذَا انْقَضَتْ الْعِدَّةُ وَقَعَتْ الْفُرْقَةُ " ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " تَقَعُ الْفُرْقَةُ بِإِسْلَامِهَا " وَاتَّفَقَ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ عَلَى أَنَّهَا لَا تَبِينُ مِنْهُ بِإِسْلَامِهَا إذَا كَانَا فِي دَارٍ وَاحِدَةٍ وَاخْتَلَفُوا فِي وَقْتِ وُقُوعِ الْفُرْقَةِ إذَا أَسْلَمَتْ وَلَمْ يُسْلِمْ الزَّوْجُ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا : " إنْ كَانَا ذِمِّيَّيْنِ لَمْ تَقَعْ الْفُرْقَةُ حَتَّى يَعْرِضَ الْإِسْلَامَ عَلَيْهِ ، فَإِنْ أَسْلَمَ ، وَإِلَّا فُرِّقَ بَيْنَهُمَا " ، وَهُوَ مَعْنَى مَا رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَعُمَرَ ، وَقَالُوا : " إنْ كَانَا حَرْبِيَّيْنِ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَأَسْلَمَتْ فَهِيَ امْرَأَتُهُ مَا لَمْ تَحِضْ

ثَلَاثَ حِيَضٍ ، فَإِذَا حَاضَتْ ثَلَاثَ حِيَضٍ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ فُرِّقَ بَيْنَهُمَا " وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَنْ رُوِيَ عَنْهُ مِنْ السَّلَفِ اعْتِبَارُ الْحَيْضِ إنَّمَا أَرَادُوا بِهِ الْحَرْبِيِّينَ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَقَالَ أَصْحَابُنَا : " إذَا أَسْلَمَ أَحَدُ الْحَرْبِيِّينَ ، وَخَرَجَ إلَيْنَا أَيُّهُمَا كَانَ وَبَقِيَ الْآخَرُ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَقَدْ وَقَعَتْ الْفُرْقَةُ بِاخْتِلَافِ الدَّارَيْنِ " وَقَدْ ذَكَرْنَا وُجُوهَ دَلَائِلِ الْآيَةِ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ وَمِنْ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ النِّسَاءِ إلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ : " نَزَلَتْ فِي سَبَايَا أَوْطَاسٍ كَانَ لَهُنَّ أَزْوَاجٌ فِي الشِّرْكِ وَأَبَاحَهُنَّ لَهُمْ بِالسَّبْيِ " وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي

(320/760)

قَوْلِهِ : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ النِّسَاءِ إلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ قَالَ : " كُلُّ ذَاتِ زَوْجٍ فَإِتْيَانُهَا زِنًا إلَّا مَا سُبِيَتْ " وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السَّبَايَا ﴿ : لَا تُوطَأُ حَامِلٌ حَتَّى تَضَعَ وَلَا حَائِلٌ حَتَّى تُسْتَبْرَأَ بِحَيْضَةٍ ﴾ .

وَاتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى جَوَازِ وَطْءِ الْمَسْبِيَّةِ بَعْدَ

الِاسْتِبْرَاءِ ، وَإِنْ كَانَ لَهَا زَوْجٌ فِي دَارِ الْحَرْبِ إذَا لَمْ يُسْبَ زَوْجُهَا مَعَهَا ، فَلَا يَخْلُو وُقُوعُ الْفُرْقَةِ مِنْ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِإِسْلَامِهَا أَوْ بِاخْتِلَافِ الدَّارَيْنِ عَلَى الْحَدِّ الَّذِي بَيَّنَّا أَوْ بِحُدُوثِ الْمِلْكِ

عَلَيْهَا ، وَقَدْ اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّ إسْلَامَهَا لَا يُوجِبُ الْفُرْقَةَ فِي الْحَالِ ؛ وَثَبَتَ أَيْضًا أَنَّ حُدُوثَ الْمِلْكِ لَا يَرْفَعُ النِّكَاحَ بِدَلَالَةِ أَنَّ الْأَمَةَ الَّتِي لَهَا زَوْجٌ إذَا بِيعَتْ لَمْ تَقَعْ الْفُرْقَةُ .

(321/760)

وَكَذَلِكَ إذَا مَاتَ رَجُلٌ عَنْ أَمَةٍ لَهَا زَوْجٌ لَمْ يَكُنْ انْتِقَالُ الْمِلْكِ إلَى الْوَارِثِ رَافِعًا لِلنِّكَاحِ ، فَلَمْ يَبْقَ وَجْهٌ لِإِيقَاعِ الْفُرْقَةِ إلَّا اخْتِلَافَ الدَّارَيْنِ فَإِنْ قِيلَ : اخْتِلَافُ الدَّارَيْنِ لَا يُوجِبُ الْفُرْقَةَ ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ إذَا دَخَلَ دَارَ الْحَرْبِ بِأَمَانٍ لَمْ يَبْطُلْ نِكَاحُ امْرَأَتِهِ ، وَكَذَلِكَ لَوْ دَخَلَ حَرْبِيٌّ إلَيْنَا بِأَمَانٍ لَمْ تَقَعْ الْفُرْقَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ ، وَكَذَلِكَ لَوْ أَسْلَمَ الزَّوْجَانِ فِي دَارِ الْحَرْبِ ثُمَّ خَرَجَ أَحَدُهُمَا إلَى دَارِ الْإِسْلَامِ لَمْ تَقَعْ الْفُرْقَةُ ، فَسَلَّمْنَا أَنَّهُ لَا تَأْثِيرَ لِاخْتِلَافِ الدَّارَيْنِ فِي إيجَابِ الْفُرْقَةِ قِيلَ لَهُ : لَيْسَ مَعْنَى اخْتِلَافِ الدَّارَيْنِ مَا ذَهَبْت إلَيْهِ ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا مِنْ أَهْلِ دَارِ الْإِسْلَامِ إمَّا بِالْإِسْلَامِ أَوْ بِالذِّمَّةِ وَالْآخَرُ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْحَرْبِ فَيَكُونُ حَرْبِيًّا كَافِرًا ، فَأَمَّا إذَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ فَهُمَا مِنْ أَهْلِ دَارٍ وَاحِدَةٍ ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا مُقِيمًا فِي دَارِ الْحَرْبِ وَالْآخَرُ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ فَإِنْ احْتَجَّ الْمُخَالِفُ لَنَا بِمَا رَوَى يُونُسُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إسْحَاقَ عَنْ دَاوُد بْنِ الْحُصَيْنِ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : { رَدَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْنَتَهُ زَيْنَبَ

عَلَى أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ بِالنِّكَاحِ الْأَوَّلِ بَعْدَ سِتِّ سِنِينَ ﷺ ، وَقَدْ كَانَتْ زَيْنَبُ هَاجَرَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَبَقِي

زَوْجُهَا بِمَكَّةَ مُشْرِكًا ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ بِالنِّكَاحِ الْأَوَّلِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا تَأْثِيرَ لِاخْتِلَافِ الدَّارَيْنِ فِي إِيقَاعِ الْفُرْقَةِ فَيُقَالُ : لَا يَصِحُّ الِاحْتِجَاجُ بِهِ لِلْمُخَالِفِ مِنْ وُجُوهٍ .

أَحَدُهَا : أَنَّهُ قَالَ : " رَدَّهَا بَعْدَ سِتِّ سِنِينَ بِالنِّكَاحِ الْأَوَّلِ " ؛ لِأَنَّهُ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ أَنَّهَا لَا تُرَدُّ إِلَيْهِ بِالْعَقْدِ الْأَوَّلِ بَعْدَ انْقِضَاءِ ثَلَاثِ حِيَضٍ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْعَادَةِ أَنَّهَا لَا تَحِيضُ ثَلَاثَ حِيَضٍ فِي سِتِّ سِنِينَ ، فَسَقَطَ احْتِجَاجُ الْمُخَالِفِ بِهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

وَوَجْهٌ آخَرُ : وَهُوَ مَا رَوَى خَالِدٌ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْيَهُودِيَّةِ تُسْلِمُ قَبْلَ زَوْجِهَا أَنَّهَا أَمْلَكُ لِنَفْسِهَا ؛ فَكَانَ مِنْ مَذْهَبِهِ أَنَّ الْفُرْقَةَ قَدْ وَقَعَتْ بِإِسْلَامِهَا ، وَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يُخَالِفَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا قَدْ رَوَاهُ عَنْهُ .

وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ : أَنَّ عَمْرَو بْنَ شُعَيْبٍ رَوَى عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ : ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَدَّ ابْنَتَهُ زَيْنَبَ عَلَى أَبِي الْعَاصِ بِنِكَاحٍ ثَانٍ ﴾ فَهَذَا يُعَارِضُ حَدِيثَ دَاوُد بْنِ الْحُصَيْنِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَوْلَى ؛ لِأَنَّ حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ إنْ صَحَّ فَإِنَّمَا هُوَ إخْبَارٌ عَنْ كَوْنِهَا زَوْجَةً لَهُ بَعْدَمَا أَسْلَمَ ، وَلَمْ يَعْلَمْ حُدُوثَ عَقْدٍ ثَانٍ ، وَفِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ الْإِخْبَارُ عَنْ حُدُوثِ عَقْدٍ ثَانٍ بَعْدَ إسْلَامِهِ ، فَهُوَ أَوْلَى ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَ إخْبَارٌ عَنْ ظَاهِرِ الْحَالِ ، وَالثَّانِي إخْبَارٌ عَنْ مَعْنًى حَادِثٍ قَدْ عَلِمَهُ ، وَهَذَا مِثْلُ مَا نَقُولُهُ فِي رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَزَوَّجَ مَيْمُونَةَ وَهُوَ مُحْرِمٌ ﴾ ، وَحَدِيثُ يَزِيدَ بْنِ الْأَصَمِّ أَنَّهُ تَزَوَّجَهَا وَهُوَ حَلَالٌ .

فَقُلْنَا : حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ أَوْلَى ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ حَالٍ حَادِثَةٍ وَأَخْبَرَ الْآخَرُ عَنْ ظَاهِرِ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ ، وَكَحَدِيثِ

زَوْجِ بَرِيرَةَ أَنَّهُ كَانَ حُرًّا حِينَ أُعْتِقَتْ وَرِوَايَةِ مَنْ رَوَى أَنَّهُ كَانَ عَبْدًا ، فَكَانَ الْأَوَّلُ أَوْلَى لِإِخْبَارِهِ عَنْ حَالٍ حَادِثَةٍ عَلِمَهَا ، وَأَخْبَرَ الْآخَرُ عَنْ ظَاهِرِ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ وَلَمْ يَعْلَمْ حُدُوثَ حَالٍ أُخْرَى .

فَصْلٌ وَإِنَّمَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي الْمُهَاجِرَةِ أَنَّهُ لَا عِدَّةَ عَلَيْهَا مِنْ الزَّوْجِ الْحَرْبِيِّ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى - : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ ، فَأَبَاحَ نِكَاحَهَا مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ عِدَّةٍ ، وَقَالَ فِي نَسَقِ التِّلَاوَةِ : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ ، وَالْعِصْمَةُ الْمَنْعُ ، فَحَظَرَ الِامْتِنَاعَ مِنْ نِكَاحِهَا ؛ لِأَجْلِ زَوْجِهَا الْحَرْبِيِّ .

وَالْكَوَافِرُ يَجُوزُ أَنْ يَتَنَاوَلَ الرِّجَالَ ، وَظَاهِرُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الرِّجَالُ ؛ لِأَنَّهُ فِي ذِكْرِ الْمُهَاجِرَاتِ .

وَأَيْضًا أَبَاحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَطْءَ الْمَسْبِيَّةِ بَعْدَ الِاسْتِبْرَاءِ بِحَيْضَةٍ ، وَالِاسْتِبْرَاءُ لَيْسَ بِعِدَّةٍ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ عِدَّةُ الْأَمَةِ حَيْضَتَانِ ﴾ وَالْمَعْنَى فِيهَا وُقُوعُ الْفُرْقَةِ بِاخْتِلَافِ الدَّارَيْنِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى - : ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ﴾ ؛ قَالَ مَعْمَرٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ : يَعْنِي رَدَّ الصَّدَاقِ ، وَاسْأَلُوا أَهْلَ الْحَرْبِ مَهْرَ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ إذَا صَارَتْ إلَيْهِمْ ، وَلْيَسْأَلُوا هُمْ أَيْضًا مَهْرَ مَنْ صَارَتْ إلَيْنَا مُسْلِمَةً مِنْهُمْ " ؛ وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : " فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَأَقَرُّوا بِحُكْمِ اللَّهِ ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَأَبَوْا أَنْ يُقِرُّوا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ ، وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إلَى

الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ فَأُمِرَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَرُدُّوا الصَّدَاقَ إِذَا ذَهَبَتْ امْرَأَةٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَلَهَا زَوْجٌ مُسْلِمٌ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ صَدَاقَ امْرَأَتِهِ إِنْ كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ مِمَّا يَرُدُّونَ، وَأَنْ يَرُدُّوا إِلَى الْمُشْرِكِينَ".

وَرَوَى خُصَيْفٌ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى -: ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ ﴾ : "مِنْ الْغَنِيمَةِ أَنْ يُعَوَّضَ مِنْهَا".

(326/760)

وَرَوَى زَكَرِيَّا بْنُ أَبِي زَائِدَةَ عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ: "كَانَتْ زَيْنَبُ امْرَأَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ مِمَّنْ ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ: ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ﴾ خَرَجَتْ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ" وَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي الضُّحَى عَنْ مَسْرُوقٍ: ﴿ ، وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ قَالَ: "لَيْسَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ" ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ "وَأَصَبْتُمْ غَنِيمَةً" ﴿ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ قَالَ: "عَوِّضُوا زَوْجَهَا مِثْلَ الَّذِي ذَهَبَ مِنْهُ".

وَرَوَى سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ مِثْلَهُ، وَزَادَ: "يُعْطَى مِنْ جَمِيعِ الْغَنِيمَةِ ثُمَّ يَقْتَسِمُونَ غَنِيمَتَهُمْ" وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: "إِنْ فَاتَ أَحَدَكُمْ أَهْلُهُ إِلَى الْكُفَّارِ وَلَمْ يَأْتِ مِنْ الْكُفَّارِ مَنْ تَأْخُذُونَ مِنْهُ مِثْلَ مَا أَخَذَ مِنْكُمْ فَعَوِّضُوهُمْ مِنْ فَيْءٍ إِنْ أَصَبْتُمُوهُ" وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ

الرِّوَايَةُ عَنْ الزُّهْرِيِّ غَيْرَ مُخَالِفَةٍ لِمَا قَدَّمْنَا مِنْ أَنَّهُمْ يُعَوِّضُونَ مِنْ صَدَاقٍ إنْ وَجَبَ عَلَيْهِمْ رَدُّهُ إلَى الْكُفَّارِ ، وَأَنَّهُ إنَّمَا يَجِبُ رَدُّهُ مِنْ صَدَاقٍ وَجَبَ لِلْكُفَّارِ إذَا كَانَ هُنَاكَ صَدَاقٌ قَدْ وَجَبَ رَدُّهُ عَلَيْهِمْ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ صَدَاقٌ رُدَّ عَلَيْهِمْ مِنْ الْغَنِيمَةِ وَهَذِهِ الْأَحْكَامُ فِي رَدِّ الْمَهْرِ وَأَخْذِهِ مِنْ الْكُفَّارِ وَتَعْوِيضِ الزَّوْجِ مِنْ الْغَنِيمَةِ أَوْ مِنْ صَدَاقٍ قَدْ وَجَبَ رَدُّهُ عَلَى أَهْلِ الْحَرْبِ مَنْسُوخٌ عِنْدَ جَمَاعَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ غَيْرُ ثَابِتِ الْحُكْمِ إلَّا شَيْئًا رُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ .

" فَإِنَّ عَبْدَ الرَّزَّاقِ رَوَى عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ : قُلْت لِعَطَاءٍ : أَرَأَيْت لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ جَاءَتْ الْمُسْلِمِينَ فَأَسْلَمَتْ أَيُعَوَّضُ زَوْجُهَا مِنْهَا شَيْئًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى – فِي الْمُمْتَحَنَةِ : ﴿ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ﴾ ؟ قَالَ : إنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ أَهْلِ عَهْدِهِ ، قُلْت : فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ الْآنَ مِنْ أَهْلِ عَهْدٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، يُعَاضُ فَهَذَا مَذْهَبُ عَطَاءٍ فِي ذَلِكَ " وَهُوَ خِلَافُ الْإِجْمَاعِ فَإِنْ قِيلَ : لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ مَا يُوجِبُ نَسْخَ هَذِهِ الْأَحْكَامِ ، فَمِنْ أَيْنَ وَجَبَ نَسْخُهَا ؟ قِيلَ لَهُ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَنْسُوخًا بِقَوْلِهِ – تَعَالَى – : ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ وَبِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلَّا بِطِيبَةٍ مِنْ نَفْسِهِ . ﴾

وقوله تعالى - : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ قال ابن عبّاس : " لا يُلحقن بأزواجهنّ غير أولادهنّ " وقيل : إنّه قد دخل فيه قذف أهل الإحصان ، والكذب على النّاس ، وقذفهم بالباطل وما ليس فيهم وسائر ضروب الكذب ، وظاهر الآية يقتضي جميع ذلك .

وقوله تعالى - : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ ، روى معمر عن ثابت عن أنس قال : ﴿ أخذ النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم على النّساء حين بايعهنّ أن لا ينحن فقلن : يا رسول اللّه إنّ نساءً أسعدننا في الجاهليّة فنسعدهنّ في الإسلام ؟ فقال النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم : لا إسعاد في الإسلام ولا شغار في الإسلام ولا جلب في الإسلام ولا جنب في الإسلام ومن انتهب فليس منّا ﴾ وروي عن شهر بن حوشب عن أمّ سلمة عن النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ قال : النّوح .

وروى هشام عن حفصة عن أمّ عطيّة قالت : أخذ علينا في البيعة أن لا ننوح ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ .

وروى عطاء عن جابر أنّ النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم قال : ﴿ نهيت عن صوتين أحمقين

صَوْتِ لَعِبٍ وَلَهْوٍ وَمَزَامِيرِ شَيْطَانٍ عِنْدَ نَغْمَةٍ ، وَصَوْتٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ خَمْشِ وُجُوهٍ وَشَقِّ جُيُوبٍ وَرَنَّةِ شَيْطَانٍ .

(329/760)

﴿ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هُوَ عُمُومٌ فِي جَمِيعِ طَاعَةِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّهَا كُلَّهَا مَعْرُوفٌ ، وَتَرْكُ النَّوْحِ أَحَدُ مَا أُرِيدَ بِالْآيَةِ ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ نَبِيَّهُ لَا يَأْمُرُ إلَّا بِمَعْرُوفٍ إلَّا أَنَّهُ شَرَطَ فِي النَّهْيِ عَنْ عِصْيَانِهِ إذَا أَمَرَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لِئَلَّا يَتَرَخَّصَ أَحَدٌ فِي طَاعَةِ السَّلَاطِينِ إذَا لَمْ تَكُنْ طَاعَةً لِلَّهِ – تَعَالَى – ؛ إذْ كَانَ اللَّهُ – تَعَالَى – قَدْ شَرَطَ فِي طَاعَةِ أَفْضَلِ الْبَشَرِ فِعْلَ الْمَعْرُوفِ ، وَهُوَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ﴾ .

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ أَطَاعَ مَخْلُوقًا فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْمَخْلُوقَ ﴾ وَفِي لَفْظٍ آخَرَ : ﴿ عَادَ حَامِدُهُ مِنْ النَّاسِ ذَامًّا ﴾ ، وَإِنَّمَا خَصَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمُخَاطَبَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ ؛ لِأَنَّ بَيْعَةَ مَنْ أَسْلَمَ كَانَ مَخْصُوصًا بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَمَّ الْمُؤْمِنِينَ بِذِكْرِ الْمِحْنَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى – : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ﴾ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَخْتَصُّ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُونَ غَيْرِهِ ، أَلَا تَرَى أَنَّا

نَمْتَحِنُ الْمُهَاجِرَةَ الْآنَ ؟ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

آخِرُ سُورَةِ الْمُمْتَحَنَةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص جـ 3 صـ ﴾

(330/760)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْمُمْتَحَنَةِ

فِيهَا سَبْعُ آيَاتٍ

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ .

فِيهَا ثَمَانِ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ وَاللَّفْظُ فِي الْبُخَارِيِّ ﴿ أَنَّ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ وَكَانَ عُثْمَانِيًّا قَالَ لِابْنِ عَطِيَّةَ وَكَانَ عَلَوِيًّا : قَدْ عَلِمْت مَا جَرَّأَ صَاحِبَك عَلَى الدِّمَاءِ ، سَمِعْته يَقُولُ : بَعَثَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالزُّبَيْرَ فَقَالَ : ائْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ وَتَجِدُونَ بِهَا امْرَأَةً أَعْطَاهَا حَاطِبٌ كِتَابًا ، فَأَتَيْنَا الرَّوْضَةَ ، فَقُلْنَا : الْكِتَابَ ؟ فَقَالَتْ : لَمْ يُعْطِنِي شَيْئًا ، فَقُلْنَا : لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُجَرِّدَنَّك .

فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ حُجْزَتِهَا ، أَوْ قَالَ : مِنْ عِقَاصِهَا .

فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى حَاطِبٍ فَقَالَ : لَا تَعْجَلْ ، فَوَاللَّهِ مَا كَفَرْتُ وَمَا ازْدَدْتُ لِلْإِسْلَامِ إِلَّا حُبًّا ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَّا وَلَهُ بِمَكَّةَ مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِي أَحَدٌ ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا ، فَصَدَّقَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ عُمَرُ : دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ فَإِنَّهُ قَدْ نَافَقَ .

فَقَالَ لَهُ : مَا يُدْرِيكَ ، لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ ، فَقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ ﴾ .

فَهَذَا الَّذِي جَرَّأَهُ وَنَزَلَتْ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ الْآيَةَ ، إِلَى : ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ﴾ : قَدْ بَيَّنَّا الْعَدَاوَةَ وَالْوِلَايَةَ وَأَنَّ مَآلَهُمَا إِلَى الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ فِي الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فِي كِتَابِ الْأَمَدِ الْأَقْصَى .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ يَعْنِي فِي الظَّاهِرِ ؛ لِأَنَّ قَلْبَ حَاطِبٍ كَانَ سَلِيمًا بِالتَّوْحِيدِ ، بِدَلِيلِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُمْ : أَمَّا صَاحِبُكُمْ

فَقَدْ صَدَقَ ﴿ .

وَهَذَا نَصٌّ فِي سَلَامَةِ فُؤَادِهِ وَخُلُوصِ اعْتِقَادِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ مَنْ كَثُرَ تَطَلُّعُهُ عَلَى عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيُنَبِّهُ عَلَيْهِمْ ، وَيُعَرِّفُ عَدُوَّهُمْ بِأَخْبَارِهِمْ لَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ كَافِرًا إذَا كَانَ فِعْلُهُ لِغَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ ، وَاعْتِقَادُهُ عَلَى ذَلِكَ سَلِيمٌ ، كَمَا فَعَلَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ حِينَ قَصَدَ بِذَلِكَ اتِّخَاذَ الْيَدِ وَلَمْ يَنْوِ الرِّدَّةَ عَنْ الدِّينِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ إذَا قُلْنَا : إنَّهُ لَا يَكُونُ بِهِ كَافِرًا [فَاخْتَلَفَ النَّاسُ] فَهَلْ يُقْتَلُ بِهِ حَدًّا أَمْ لَا ؟

فَقَالَ مَالِكٌ ، وَابْنُ الْقَاسِمِ ، وَأَشْهَبُ : يَجْتَهِدُ فِيهِ الْإِمَامُ .

وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : إذَا كَانَتْ تِلْكَ عَادَتَهُ قُتِلَ لِأَنَّهُ جَاسُوسٌ .

وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ : يُقْتَلُ الْجَاسُوسُ ، وَهُوَ صَحِيحٌ لِإِضْرَارِهِ بِالْمُسْلِمِينَ وَسَعْيِهِ بِالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ .

فَإِنْ قِيلَ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ هَلْ يُقْتَلُ كَمَا قَالَ عُمَرُ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ ، وَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ ؛ وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ يُمْنَعَ مِنْهُ وَحْدَهُ ، وَيَبْقَى قَتْلُ غَيْرِهِ حُكْمًا شَرْعِيًّا ، فَهَمَّ عُمَرُ بِهِ بِعِلْمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ

إِلَّا بِالْعِلَّةِ الَّتِي خَصَّصَهَا بِحَاطِبٍ .

قُلْنَا : إنَّمَا قَالَ عُمَرُ : إنَّهُ يُقْتَلُ لِعِلَّةِ أَنَّهُ مُنَافِقٌ ، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُنَافِقٍ فَإِنَّمَا يُوجِبُ عُمَرُ قَتْلَ مَنْ نَافَقَ ، وَنَحْنُ لَا نَتَحَقَّقُ نِفَاقَ فَاعِلِ مِثْلِ هَذَا ، لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ نَافَقَ ، وَاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ قَصَدَ بِذَلِكَ مَنْفَعَةَ نَفْسِهِ مَعَ بَقَاءِ إيمَانِهِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ ذَلِكَ مَا رُوِيَ فِي الْقِصَّةِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ : يَا حَاطِبُ ؛ أَنْتَ كَتَبْتَ الْكِتَابَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَأَقَرَّ بِهِ وَلَمْ يُنْكِرْ ، وَبَيَّنَ الْعُذْرَ فَلَمْ يُكَذِّبْ ﴾ ، وَصَارَ ذَلِكَ كَمَا لَوْ أَقَرَّ رَجُلٌ بِالطَّلَاقِ ابْتِدَاءً ، وَقَالَ : أَرَدْت بِهِ كَذَا وَكَذَا لِلنِّيَّةِ الْبَعِيدَةِ الصِّدْقِ ، وَلَوْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْبَيِّنَةُ وَادَّعَى فِيهِ النِّيَّةَ الْبَعِيدَةَ لَمْ يُقْبَلْ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ابْنَ الْجَارُودِ سَيِّدَ رَبِيعَةَ أَخَذَ دِرْبَاسًا وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ يُخَاطِبُ الْمُشْرِكِينَ بِعَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَمَّ بِالْخُرُوجِ إلَيْهِمْ ، فَصَلَبَهُ فَصَاحَ يَا

عُمَرَاهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَأَرْسَلَ عُمَرُ إلَيْهِ ، فَلَمَّا جَاءَ أَخَذَ الْحَرْبَةَ فَعَلَا بِهَا لِحْيَتَهُ ، وَقَالَ : لَبَّيْكَ يَا دِرْبَاسُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَقَالَ : لَا تَعْجَلْ ؛ إنَّهُ كَاتَبَ الْعَدُوَّ ، وَهَمَّ بِالْخُرُوجِ إلَيْهِمْ ، فَقَالَ : قَتَلْته عَلَى الْهَمِّ ، وَأَيُّنَا لَا يَهُمُّ .

فَلَمْ يَرَهُ عُمَرُ مُوجِبًا لِلْقَتْلِ، وَلَكِنَّهُ أَنْفَذَ اجْتِهَادَ ابْنِ الْجَارُودِ فِيهِ، لِمَا رَأَى مِنْ خُرُوجِ حَاطِبٍ عَنْ هَذَا الطَّرِيقِ كُلِّهِ.

وَلَعَلَّ ابْنَ الْجَارُودِ إِنَّمَا أَخَذَ بِالتَّكْرَارِ فِي هَذَا؛ لِأَنَّ حَاطِبًا أُخِذَ فِي أَوَّلِ فِعْلِهِ.

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ فَإِنْ كَانَ الْجَاسُوسُ كَافِرًا فَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ يَكُونُ نَقْضًا لِعَهْدِهِ.

وَقَالَ أَصْبَغُ: الْجَاسُوسُ الْحَرْبِيُّ يُقْتَلُ، وَالْجَاسُوسُ الْمُسْلِمُ وَالذِّمِّيُّ يُعَاقَبَانِ إِلَّا أَنْ يَتَعَاهَدَا عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَيُقْتَلَانِ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ ﴿ أَتَى بِعَيْنٍ لِلْمُشْرِكِينَ اسْمُهُ فُرَاتُ بْنُ حَيَّانَ، فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُقْتَلَ، فَصَاحَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؛ أُقْتَلُ وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَأَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخُلِّيَ سَبِيلُهُ.

ثُمَّ قَالَ: إنَّ مِنْكُمْ مَنْ أَكِلُهُ إلَى إيمَانِهِ، وَمِنْهُمْ فُرَاتُ بْنُ حَيَّانَ ﴾.

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ تَوَدُّدُ حَاطِبٍ إلَى الْكُفَّارِ لِيَجْلِبَ مَنْفَعَةً لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَعْقِدْ ذَلِكَ بِقَلْبِهِ.

وَقَدْ رَوَى جَابِرٌ ﴿ أَنَّ عَبْدًا لِحَاطِبٍ جَاءَ يَشْكُو حَاطِبًا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ، لَيَدْخُلَنَّ حَاطِبٌ النَّارَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَذَبْتَ؛ لَا يَدْخُلُهَا فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ ﴾.

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾.

وَهَذَا نَصٌّ فِي الِاقْتِدَاءِ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي فِعْلِهِ، وَهَذَا يُصَحِّحُ أَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا فِيمَا أَخْبَرَ اللَّهُ أَوْ رَسُولُهُ عَنْهُمْ.

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ يَعْنِي فِي بَرَاءَتِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَمُبَاعَدَتِهِمْ لَهُمْ، وَمُنَابَذَتِهِمْ عَنْهُمْ، وَأَنْتُمْ بِمُحَمَّدٍ أَحَقُّ بِهَذَا الْفِعْلِ مِنْ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ بِإِبْرَاهِيمَ ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ فَلَيْسَ فِيهِ أُسْوَةٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَ حُكْمَهُ فِي سُورَةِ " بَرَاءَةٍ ".

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾.

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِل : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي بَقَاءِ حُكْمِهَا أَوْ نَسْخِهِ : فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ هَذَا كَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ عِنْدَ الْمُوَادَعَةِ وَتَرْكِ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ ؛ ثُمَّ نُسِخَ ؛ قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ .

الثَّانِي : أَنَّهُ بَاقٍ ، وَذَلِكَ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ خُزَاعَةُ وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ .

الثَّانِي : مَا رَوَاهُ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ أَبِيهِ ﴿ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ قُتَيْلَةَ أُمَّ أَسْمَاءَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَقَدِمَتْ عَلَيْهِمْ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَادَنَ فِيهَا كُفَّارَ قُرَيْشٍ ، وَأَهْدَتْ إلَى أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قُرْطًا ، فَكَرِهَتْ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهَا ، حَتَّى أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ ﴾ .

وَاَلَّذِي صَحَّ فِي رِوَايَةِ أَسْمَاءَ مَا بَيَّنَّاهُ مِنْ رِوَايَةِ الصَّحِيحِ فِيهِ مِنْ قَبْلُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَتُقْسِطُوا إلَيْهِمْ ﴾ أَيْ تُعْطُوهُمْ قِسْطًا مِنْ أَمْوَالِكُمْ [عَلَى وَجْهِ الصِّلَةِ] ، وَلَيْسَ يُرِيدُ بِهِ مِنْ الْعَدْلِ ؛ فَإِنَّ الْعَدْلَ وَاجِبٌ فِيمَنْ قَاتَلَ وَفِيمَنْ لَمْ يُقَاتِلْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ اسْتَدَلَّ بِهِ بَعْضُ مَنْ تُعْقَدُ عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ عَلَى وُجُوبِ نَفَقَةِ الِابْنِ الْمُسْلِمِ عَلَى أَبِيهِ الْكَافِرِ ، وَهَذِهِ وَهْلَةٌ عَظِيمَةٌ ؛ فَإِنَّ الْإِذْنَ فِي الشَّيْءِ أَوْ تَرْكَ النَّهْيِ عَنْهُ لَا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِهِ ، إنَّمَا يُعْطِيك الْإِبَاحَةَ خَاصَّةً .

وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ إسْمَاعِيلَ بْنَ إسْحَاقَ الْقَاضِيَ دَخَلَ عَلَيْهِ ذِمِّيٌّ فَأَكْرَمَهُ ، فَوَجَدَ عَلَيْهِ الْحَاضِرُونَ ، فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ عَلَيْهِمْ .

الْآيَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاَللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

فِيهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ مَسْأَلَةً : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : ثَبَتَ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا صَالَحَ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَةِ كَانَ فِيهِ أَنَّ مَنْ جَاءَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ إلَى الْمُسْلِمِينَ رُدَّ إلَيْهِمْ ، وَمَنْ ذَهَبَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إلَى الْمُشْرِكِينَ لَمْ يُرَدَّ ؛ وَتَمَّ الْعَهْدُ عَلَى ذَلِكَ ، وَكَانَ رَسُولُ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَدَّ أَبَا بَصِيرٍ عُتْبَةَ بْنَ أُسَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ الثَّقَفِيَّ حِينَ قَدِمَ ، وَقَدِمَ أَيْضًا نِسَاءٌ مُسْلِمَاتٌ مِنْهُنَّ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، وَسُبَيْعَةُ الْأَسْلَمِيَّةُ ، وَغَيْرُهُمَا ، فَجَاءَ الْأَوْلِيَاءُ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلُوهُ رَدَّهُنَّ عَلَى الشَّرْطِ ، وَاسْتَدْعَوْا مِنْهُ الْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّمَا الشَّرْطُ فِي الرِّجَالِ لَا فِي النِّسَاءِ ﴾ ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ الْمُعْجِزَاتِ إلَّا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَبَضَ أَلْسِنَتَهُمْ عَنْ أَنْ يَقُولُوا : غَدَرَ مُحَمَّدٌ ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي النِّسَاءِ ، وَذَلِكَ إحْدَى مُعْجِزَاتِهِ .

(338/760)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ : اُخْتُلِفَ فِي تَفْسِيرِ الِامْتِحَانِ عَلَى قَوْلَيْنِ :

أَحَدُهُمَا الْيَمِينُ رَوَاهُ أَبُو نَصْرٍ الْأَسَدِيُّ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَرَوَاهُ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي أُسَامَةَ ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِسُبَيْعَةَ وَكَانَ زَوْجُهَا صَيْفِيَّ بْنَ السَّائِبِ : بِاَللَّهِ مَا أَخْرَجَكِ مِنْ قَوْمِكِ ضَرْبٌ وَلَا كَرَاهِيَةٌ لِزَوْجِكِ ، وَلَا أَخْرَجَكِ إلَّا حِرْصٌ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَرَغْبَةٌ فِيهِ ، لَا تُرِيدِينَ غَيْرَهُ ﴾ .

الثَّانِي : وَهُوَ مَا رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَمْتَحِنُ النِّسَاءَ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ فِي الْمَعْنَى الَّذِي لِأَجْلِهِ لَمْ تُرَدَّ النِّسَاءُ وَإِنْ دَخَلْنَ فِي عُمُومِ الشَّرْطِ، وَفِي ذَلِكَ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا لِرِقَّتِهِنَّ وَضَعْفِهِنَّ.

الثَّانِي: لِحُرْمَةِ الْإِسْلَامِ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ وَالْمَعْنَيَانِ صَحِيحَانِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُعَلَّلَ الْحُكْمُ بِعِلَّتَيْنِ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ.

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ خُرُوجُ النِّسَاءِ مِنْ عَهْدِ الرَّدِّ كَانَ تَخْصِيصًا لِلْعُمُومِ لَا نَاسِخًا لِلْعَهْدِ كَمَا تَوَهَّمَهُ بَعْضُ الْغَافِلِينَ.

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي.

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ الَّذِي أَوْجَبَ فُرْقَةَ الْمُسْلِمَةِ مِنْ زَوْجِهَا [هُوَ إسْلَامُهَا لَا] هِجْرَتُهَا كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ مَسَائِلِ الْخِلَافِ، وَهُوَ التَّلْخِيصُ.

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: الَّذِي فَرَّقَ بَيْنَهُمَا هُوَ اخْتِلَافُ الدَّارَيْنِ، وَإِلَيْهِ إشَارَةٌ فِي مَذْهَبِ مَالِكٍ، بَلْ عِبَارَةٌ قَدْ أَوْضَحْنَاهَا فِي مَسَائِلِ الْفُرُوعِ.

وَالْعُمْدَةُ فِيهِ هَاهُنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَالَ: ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ فَبَيَّنَ أَنَّ

الْعِلَّةَ عَدَمُ الْحِلِّ بِالْإِسْلَامِ، وَلَيْسَ اخْتِلَافَ الدَّارَيْنِ.

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى إذَا أُمْسِكَتْ الْمَرْأَةُ الْمُسْلِمَةُ أَنْ تَرُدَّ عَلَى زَوْجِهَا مَا أَنْفَقَ، وَذَلِكَ مِنْ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا مُنِعَ مِنْ أَهْلِهِ لِحُرْمَةِ الْإِسْلَامِ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُرَدَّ إلَيْهِ الْمَالُ، حَتَّى لَا يَقَعَ عَلَيْهِمْ خُسْرَانٌ مِنْ الْوَجْهَيْنِ: الزَّوْجَةِ، وَالْمَالِ.

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِرَدِّ مَا أَنْفَقُوا إلَى الْأَزْوَاجِ وَكَانَ الْمُخَاطَبُ بِهَذَا الْإِمَامَ يُنَفِّذُ ذَلِكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ الَّذِي لَا يَتَعَيَّنُ لَهُ مَصْرِفٌ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ رَفَعَ اللَّهُ الْحَرَجَ فِي نِكَاحِهَا بِشَرْطِ الصَّدَاقِ، وَسَمَّى ذَلِكَ أَجْرًا، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ وَبَيَانُ شَرْطٍ آخَرَ وَهُوَ الِاسْتِبْرَاءُ مِنْ مَاءِ الْكَافِرِ، لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ لَا تُوطَأُ حَامِلٌ حَتَّى تَضَعَ، وَلَا حَائِلٌ حَتَّى تَحِيضَ؛ وَالِاسْتِبْرَاءُ هَا هُنَا بِثَلَاثِ حِيَضٍ وَهِيَ الْعِدَّةُ ﴾.

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ.

ثُمَّ قَالَ وَهِيَ:

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ يَعْنِي إذْ أَسْلَمْنَ وَانْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ، لِمَا ثَبَتَ مِنْ تَحْرِيمِ نِكَاحِ الْمُشْرِكَةِ وَالْمُعْتَدَّةِ؛ فَعَادَ جَوَازُ النِّكَاحِ إلَى حَالَةِ الْإِيمَانِ ضَرُورَةً.

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ قَوْلُهُ: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾: هَذَا بَيَانٌ لِامْتِنَاعِ نِكَاحِ الْمُشْرِكَةِ مِنْ جُمْلَةِ الْكَوَافِرِ.

وَهُوَ تَفْسِيرُهُ وَالْمُرَادُ بِهِ.

قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ كَانَ لَهُ زَوْجَةٌ مُشْرِكَةٌ أَنْ يُطَلِّقَهَا.

وَقَدْ كَانَ الْكُفَّارُ يَتَزَوَّجُونَ الْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُسْلِمُونَ يَتَزَوَّجُونَ الْمُشْرِكَاتِ، ثُمَّ نَسَخَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا.

وَكَانَ ذَلِكَ نَسْخَ الْإِقْرَارِ عَلَى الْأَفْعَالِ بِالْأَقْوَالِ.

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ، فَطَلَّقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ حِينَئِذٍ قُرَيْبَةَ بِنْتَ أُمَيَّةَ، وَابْنَةَ جَرْوَلٍ الْخُزَيْمِيِّ؛ فَتَزَوَّجَ قُرَيْبَةَ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَتَزَوَّجَ ابْنَةَ جَرْوَلٍ أَبُو جَهْمٍ.

فَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ لِمُعَاوِيَةَ: طَلِّقْ قُرَيْبَةَ لِئَلَّا يَرَى عُمَرُ سَلَبَهُ فِي بَيْتِك، فَأَبَى مُعَاوِيَةُ ذَلِكَ.

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ قَوْلُهُ : ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ﴾ : قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : كُلُّ مَنْ ذَهَبَ مِنْ الْمُسْلِمَاتِ مُرْتَدَّاتٍ [مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ] إلَى الْكُفَّارِ يُقَالُ لِلْكُفَّارِ : هَاتُوا مَهْرَهَا وَيُقَالُ لِلْمُسْلِمِينَ إذَا جَاءَ أَحَدٌ مِنْ الْكَافِرَاتِ مُسْلِمَةً مُهَاجِرَةً : رُدُّوا إلَى الْكُفَّارِ مَهْرَهَا وَكَانَ ذَلِكَ نَصَفًا وَعَدْلًا بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ ، وَكَانَ هَذَا حُكْمَ اللَّهِ مَخْصُوصًا بِذَلِكَ الزَّمَانِ فِي تِلْكَ النَّازِلَةِ خَاصَّةً بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ أَمَّا عَقْدُ الْهُدْنَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارِ فَجَائِزٌ عَلَى مَا مَضَى مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ لِمُدَّةٍ وَمُطْلَقًا إلَيْهِمْ لِغَيْرِ مُدَّةٍ .

فَأَمَّا عَقْدُهُ عَلَى أَنْ يَرُدَّ مَنْ أَسْلَمَ إلَيْهِمْ فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّمَا جَوَّزَهُ اللَّهُ لَهُ لِمَا عَلِمَ فِي ذَلِكَ مِنْ الْحِكْمَةِ ، وَقَضَى فِيهِ مِنْ الْمَصْلَحَةِ ، وَأَظْهَرَ فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ الْعَاقِبَةِ وَحَمِيدِ الْأَثَرِ فِي الْإِسْلَامِ مَا حَمَلَ الْكُفَّارَ عَلَى الرِّضَا بِإِسْقَاطِهِ ، وَالشَّفَاعَةِ فِي حَطِّهِ ؛ فَفِي الصَّحِيحِ : ﴿ لَمَّا كَاتَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى قَصْرِ الْمُدَّةِ ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ

، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ ، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا بِهِ ذَا الْحُلَيْفَةِ فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ ، فَقَتَلَ أَبُو بَصِيرٍ أَحَدَهُمَا ، وَفَرَّ الْآخَرُ ، حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَقَدْ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ ، ثُمَّ أَنْجَانِي مِنْهُمْ .

(343/760)

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ الْبَحْرِ قَالَ : وَتَفَلَّتَ مِنْهُمْ أَبُو جُنْدُبِ بْنُ سُهَيْلٍ ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ ، وَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوهُمْ فَقَتَلُوهُمْ ، وَأَخَذُوا بِأَمْوَالِهِمْ .

فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُنْشِدُهُ اللَّهَ وَالرَّحِمَ إِلَّا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ .

فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ

وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ﴾ الآية إلى ﴿ حمية الجاهلية ﴾ ؛ فظن الناس أن ذلك كان من النبي صلى الله عليه وسلم في الانقياد إليهم عن هوان، وإنما كان عن حكمة حسن مآلها، كما سقناه آنفا من الرواية، والله أعلم.

الآية السادسة قوله تعالى: ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ﴾.

(344/760)

فيها ثلاث مسائل: المسألة الأولى قال علماؤنا: المعنى إن ارتدت امرأة ولم يرد الكفار صداقها إلى زوجها كما أمروا فردوا أنتم إلى زوجها مثل ما أنفق.

المسألة الثانية قوله تعالى: ﴿ فعاقبتم ﴾: قال علماؤنا: المعاقبة المناقلة على تصيير كل واحد من الشيئين مكان الآخر عقيب ذهاب عينه، فأراد: فعوضتم مكان الذاهب لهم عوضا، أو عوضوكم مكان الذاهب لكم عوضا، فليكن من مثل الذي خرج عنكم أو عنهم عوضا من الفائت لكم أو لهم.

المسألة الثالثة في محل العاقبة: وفيه ثلاثة أقوال: أحدها من الفيء؛ قاله الزهري.

الثاني: من مهر إن وجب للكفار في زوج أحد منهم على مذهب اقتصاص الرجل من مال

خَصْمِهِ إذَا قَدَرَ عَلَيْهِ دُونَ أَذِيَّةٍ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ يُرَدُّ مِنْ الْغَنِيمَةِ .

وَفِي كَيْفِيَّةِ رَدِّهِ مِنْ الْغَنِيمَةِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ يُخْرَجُ الْمَهْرُ وَالْخُمُسُ ثُمَّ تَقَعُ الْقِسْمَةُ ، وَهَذَا مَنْسُوخٌ إنْ صَحَّ .

الثَّانِي : أَنَّهُ يُخْرَجُ مِنْ الْخُمُسِ ، وَهُوَ أَيْضًا مَنْسُوخٌ ، وَقَدْ حَقَّقْنَاهُ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْهُ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(345/760)

الْآيَةُ السَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذَا جَاءَك الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَك عَلَى أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاَللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَك فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } .

فِيهَا أَرْبَعَ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : { إذَا جَاءَك الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَك عَلَى أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاَللَّهِ شَيْئًا } الْآيَةَ .

عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : { مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْتَحِنُ إلَّا بِهَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ : { إذَا جَاءَك الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَك } الْآيَةَ } .

قَالَ مَعْمَرٌ : فَأَخْبَرَنِي ابْنُ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ إلَّا امْرَأَةٍ يَمْلِكُهَا .

وَعَنْ عَائِشَةَ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ : ﴿ مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَ امْرَأَةٍ وَقَالَ : إنِّي لَا أُصَافِحُ النِّسَاءَ ، إنَّمَا قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ كَقَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ صَافَحَهُنَّ عَلَى ثَوْبِهِ .

وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ صَافَحَهُنَّ عَنْهُ ، وَأَنَّهُ كَلَّفَ امْرَأَةً وَقَفَتْ عَلَى الصَّفَا فَبَايَعَتْهُنَّ .

وَذَلِكَ ضَعِيفٌ ؛ وَإِنَّمَا يَنْبَغِي التَّعْوِيلُ عَلَى مَا رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ .

(346/760)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ رُوِيَ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : تُبَايِعُونِي عَلَى أَلَّا تُشْرِكُوا بِاَللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا أَيُّهَا النِّسَاءُ ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُنَّ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْهَا شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إلَى اللَّهِ إنْ شَاءَ عَذَّبَهُ ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ ﴾ ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ بَيْعَةَ الرَّجُلِ فِي الدِّينِ كَبَيْعَةِ

النِّسَاءِ إلَّا فِي الْمَسِيسِ بِالْيَدِ خَاصَّةً .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ شَهِدْتُ الصَّلَاةَ يَوْمَ الْفِطْرِ مَعَ

رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ ، فَكُلُّهُمْ يُصَلِّيهَا قَبْلَ الْخُطْبَةِ ، ثُمَّ يَخْطُبُ بَعْدُ فَنَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ حِينَ يُجَلِّسُ الرِّجَالَ بِيَدِهِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَشُقُّهُمْ حَتَّى أَتَى النِّسَاءَ وَمَعَهُ بِلَالٌ ، فَقَرَأَ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾ الْآيَةَ كُلَّهَا ، ثُمَّ قَالَ حِينَ فَرَغَ : أَنْتُنَّ عَلَى ذَلِكَ ؟ قَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ وَاحِدَةٌ لَمْ يُجِبْهُ غَيْرُهَا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

لَا يَدْرِي الْحَسَنُ مَنْ هِيَ .

قَالَ : فَتَصَدَّقْنَ وَبَسَطَ بِلَالٌ ثَوْبَهُ فَجَعَلْنَ يُلْقِينَ الْفَتَخَ وَالْخَوَاتِمَ فِي ثَوْبِ بِلَالٍ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ يَعْنِي بِالْوَأْدِ وَالِاسْتِتَارِ عَنْ الْعَمْدِ إذَا كَانَ عَنْ غَيْرِ رِشْدَةٍ ؛ فَإِنَّ رَمْيَهُ كَقَتْلِهِ ، وَلَكِنَّهُ إنْ عَاشَ كَانَ إثْمُهَا أَخَفَّ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ : قِيلَ فِي أَيْدِيهِنَّ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا الْمَسْأَلَةُ .

الثَّانِي : أَكْلُ الْحَرَامِ الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ : فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ الْكَذِبُ فِي انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ الثَّانِي : هُوَ إلْحَاقُ وَلَدٍ بِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ .

الثَّالِثُ: أَنَّهُ كِنَايَةٌ عَمَّا بَيْنَ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ.

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ : فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ النِّيَاحَةُ.

الثَّانِي: أَلَّا يُحَدِّثْنَ الرِّجَالَ.

الثَّالِثُ: أَلَّا يَخْمُشْنَ وَجْهًا، وَلَا يَشْقُقْنَ جَيْبًا، وَلَا يَرْفَعْنَ صَوْتًا، وَلَا يَرْمِينَ عَلَى أَنْفُسِهِنَّ نَقْعًا الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ فِي تَنْخِيلِ هَذِهِ الْمَعَانِي: أَمَّا مَنْ قَالَ: إنَّ قَوْلَهُ ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ ﴾ يَعْنِي الْمَسْأَلَةَ فَهُوَ تَجَاوُزٌ كَبِيرٌ؛ فَإِنَّ أَصْلَهَا اللِّسَانُ وَآخِرَهَا أَنْ أُعْطِيَ شَيْئًا فِي الْيَدِ.

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: إنَّهُ أَكْلُ الْحَرَامِ أَقْرَبُ، وَكَأَنَّهُ عَكْسُ الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّ الْحَرَامَ يَتَنَاوَلُهُ بِيَدِهِ فَيَحْمِلُهُ إلَى لِسَانِهِ، وَالْمَسْأَلَةُ يَبْدَؤُهَا بِلِسَانِهِ وَيَحْمِلُهَا إلَى يَدِهِ، وَيَرُدُّهَا إلَى لِسَانِهِ.

(348/760)

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إنَّهُ كِنَايَةٌ عَمَّا بَيْنَ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ، فَهُوَ أَصْلٌ فِي الْمَجَازِ حَسَنٌ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ فَهُوَ نَصٌّ فِي إيجَابِ الطَّاعَةِ؛ فَإِنَّ النَّهْيَ عَنْ الشَّيْءِ أَمْرٌ بِضِدِّهِ، إمَّا لَفْظًا أَوْ مَعْنًى عَلَى اخْتِلَافِ الْأُصُولِيِّينَ فِي ذَلِكَ، وَأَمَّا [مَعْنَى] تَخْصِيصِ قَوْلِهِ: ﴿ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ وَقُوَّةُ قَوْلِهِ: ﴿ لَا يَعْصِينَكَ ﴾ يُعْطِيهِ؛ لِأَنَّهُ عَامٌّ فِي وَظَائِفِ الشَّرِيعَةِ، وَهِيَ: الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ تَفْسِيرٌ لِلْمَعْنَى عَلَى

التَّأْكِيدِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ " احْكُمْ " لَكَفَى .

الثَّانِي أَنَّهُ إنَّمَا شَرَطَ الْمَعْرُوفَ فِي بَيْعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى يَكُونَ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ غَيْرَهُ أَوْلَى بِذَلِكَ ، وَأَلْزَمُ لَهُ ، وَأَنْفَى لِلْإِشْكَالِ فِيهِ .

وَفِي الْآثَارِ ﴿ : لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ رُوِيَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إذَا بَايَعَ النِّسَاءَ عَلَى هَذَا قَالَ لَهُنَّ : فِيمَا أَطَقْتُنَّ فَيَقُلْنَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا ﴾ .

وَهَذَا بَيَانٌ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَقِيقَةِ الْحَالِ ؛ فَإِنَّ الطَّاقَةَ مَشْرُوطَةٌ فِي الشَّرِيعَةِ ، مَرْفُوعٌ عَنْ الْمُكَلَّفِينَ مَا نَافَ عَلَيْهَا ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ .

(349/760)

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ رَوَتْ أُمُّ عَطِيَّةَ فِي الصَّحِيحِ قَالَتْ : ﴿ بَايَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ عَلَيْنَا : أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاَللَّهِ شَيْئًا ، وَنَهَانَا عَنْ النِّيَاحَةِ ، فَقَبَضَتْ امْرَأَةٌ عَلَى يَدِهَا وَقَالَتْ : أَسْعَدَتْنِي فُلَانَةُ أُرِيدُ أَنْ أَجْزِيَهَا .

فَمَا قَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا ، فَانْطَلَقَتْ فَرَجَعَتْ فَبَايَعَهَا ﴾ ، فَيَكُونُ هَذَا تَفْسِيرَ قَوْلِهِ : ﴿ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ ؛ وَذَلِكَ تَخْمِيشُ وُجُوهٍ ، وَشَقُّ

جُيُوبٍ .

وَفِي الصَّحِيحِ : ﴿ لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَمَشَ الْوُجُوهَ ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ جَازَ أَنْ تُسْتَثْنَى مَعْصِيَةٌ ، وَتَبْقَى عَلَى الْوَفَاءِ بِهَا ، وَيُقِرُّهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ذَلِكَ ؟ قُلْنَا : وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْكَافِي ، مِنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْهَلَهَا حَتَّى تَسِيرَ إلَى صَاحِبَتِهَا لِعِلْمِهِ بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَبْقَى فِي نَفْسِهَا ، وَإِنَّمَا تَرْجِعُ سَرِيعًا عَنْهُ ، كَمَا رُوِيَ أَنَّ بَعْضَهُمْ شَرَطَ أَلَّا يَخِرَّ إلَّا قَائِمًا ، فَقِيلَ فِي أَحَدِ تَأْوِيلَيْهِ : إنَّهُ لَا يَرْكَعُ ، فَأَمْهَلَهُ حَتَّى آمَنَ ، فَرَضِيَ بِالرُّكُوعِ .

وَقِيلَ : أَرَادَتْ أَنْ تَبْكِيَ مَعَهَا بِالْمُقَابَلَةِ الَّتِي هِيَ حَقِيقَةُ النَّوْحِ خَاصَّةً .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ فِي صِفَةِ أَرْكَانِ الْبَيْعَةِ عَلَى أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاَللَّهِ شَيْئًا إلَى آخِرِ الْخِصَالِ السِّتِّ .

صَرَّحَ فِيهِنَّ بِأَرْكَانِ النَّهْيِ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَرْكَانَ الْأَمْرِ ؛ وَهِيَ الشَّهَادَةُ ، وَالصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ ، وَالصِّيَامُ ، وَالْحَجُّ ، وَالِاغْتِسَالُ مِنْ الْجَنَابَةِ ؛ وَهِيَ سِتَّةٌ فِي الْأَمْرِ فِي الدِّينِ وَكِيدَةٌ مَذْكُورَةٌ

فِي قِصَّةِ جِبْرِيلَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَفِي اعْتِمَادِهِ الْإِعْلَامَ بِالْمَنْهِيَّاتِ دُونَ الْمَأْمُورَاتِ حُكْمَانِ اثْنَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ النَّهْيَ دَائِمٌ ، وَالْأَمْرُ يَأْتِي فِي الْفَتَرَاتِ ؛ فَكَانَ التَّنْبِيهُ عَلَى اشْتِرَاطِ الدَّائِمِ أَوْكَدَ .

الثَّانِي : أَنَّ هَذِهِ الْمَنَاهِيَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ كَثِيرٌ مَنْ يَرْتَكِبُهَا ، وَلَا يَحْجِزُهُنَّ عَنْهَا شَرَفُ الْحَسَبِ ، وَلِذَلِكَ رُوِيَ « أَنَّ الْمَخْزُومِيَّةَ سَرَقَتْ ، فَأَهَمَّ قُرَيْشًا أَمْرُهَا ، وَقَالُوا : مَنْ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا أُسَامَةُ ، فَكَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ » ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .

فَخَصَّ اللَّهُ ذَلِكَ بِالذِّكْرِ لِهَذَا ، كَمَا رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ لِوَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ : « آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ ؛ آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاَللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَأَنْ تُؤَدُّوا خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الدُّبَّاءِ ، وَالْحَنْتَمِ ، وَالنَّقِيرِ ، وَالْمُزَفَّتِ » ، فَنَبَّهَهُمْ عَلَى تَرْكِ الْمَعْصِيَةِ فِي شُرْبِ الْخَمْرِ دُونَ سَائِرِ الْمَعَاصِي ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ عَادَتَهُمْ .

وَإِذَا تَرَكَ الْمَرْءُ شَهْوَتَهُ مِنْ الْمَعَاصِي هَانَ عَلَيْهِ تَرْكُ سِوَاهَا مِمَّا لَا شَهْوَةَ لَهُ فِيهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ لَمَّا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُنَّ فِي الْبَيْعَةِ : أَلَّا يَسْرِقْنَ قَالَتْ

هِنْدُ : ﴿ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مِسِّيكٌ ، فَهَلْ عَلَيَّ حَرَجٌ أَنْ آخُذَ مِنْ مَالِهِ مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي ؟ فَقَالَ : لَا ، إلَّا بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ؛ فَخَشِيَتْ هِنْدُ أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى مَا يُعْطِيهَا أَبُو سُفْيَانَ فَتَضِيعَ أَوْ تَأْخُذَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَتَكُونَ سَارِقَةً نَاكِثَةً لِلْبَيْعَةِ الْمَذْكُورَةِ ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا ، أَيْ لَا حَرَجَ عَلَيْك فِيمَا أَخَذْت بِالْمَعْرُوفِ يَعْنِي مِنْ غَيْرِ اسْتِطَالَةٍ إلَى أَكْثَرَ مِنْ الْحَاجَةِ .

وَهَذَا إنَّمَا هُوَ فِيمَا لَا يَخْزُنُهُ عَنْهَا فِي حِجَابٍ ، وَلَا يَضْبِطُ عَلَيْهَا بِقُفْلٍ ، فَإِنَّهَا إذَا هَتَكَتْهُ الزَّوْجَةُ ، وَأَخَذَتْ مِنْهُ كَانَتْ سَارِقَةً ، تَعْصِي بِهَا ، وَتُقْطَعُ عَلَيْهِ يَدُهَا حَسْبَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ فِي صِفَةِ الْبَيْعَةِ لِمَنْ أَسْلَمَ مِنْ الْكُفَّارِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ مَنْقُولَةً وَهِيَ الْيَوْمَ مَكْتُوبَةٌ ؛ إذْ كَانَ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُكْتَبُ إلَّا الْقُرْآنُ .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي السُّنَّةِ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ وَغَيْرِهَا ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُكَتِّبُ أَصْحَابَهُ وَلَا يَجْمَعُهُمْ لَهُ دِيوَانٌ حَافِظٌ ، اللَّهُمَّ إلَّا أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا : ﴿ اُكْتُبُوا لِي

مَنْ يَلْفِظُ بِالْإِسْلَامِ لِأَمْرٍ عَرَضَ لَهُ ﴾ .

فَأَمَّا الْيَوْمَ فَيُكْتَبُ إِسْلَامُ الْكَفَرَةِ ، كَمَا يُكْتَبُ سَائِرُ مَعَالِمِ الدِّينِ الْمُهِمَّةِ وَالتَّوَابِعِ مِنْهَا لِضَرُورَةِ حِفْظِهَا حِينَ فَسَدَ النَّاسُ وَخَفَّتْ أَمَانَتُهُمْ ، وَمَرِجَ أَمْرُهُمْ ، وَنُسْخَةُ مَا يُكْتَبُ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : لِلَّهِ أَسْلَمَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ مِنْ أَهْلِ أَرْضِ كَذَا ، وَآمَنَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَهِدَ لَهُ بِشَهَادَةِ الصِّدْقِ ، وَأَقَرَّ بِدَعْوَةِ الْحَقِّ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ .

وَالْتَزَمَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ بِأَرْكَانِهَا وَأَوْصَافِهَا ، وَأَدَّى الزَّكَاةَ بِشُرُوطِهَا ، وَصَوْمَ رَمَضَانَ ، وَالْحَجَّ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، إِذَا اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَيَغْتَسِلُ مِنَ الْجَنَابَةِ ، وَيَتَوَضَّأُ مِنَ الْحَدَثِ ، وَخَلَعَ الْأَنْدَادَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا قُلْتَ : وَإِنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ .

(353/760)

وَإِنْ كَانَ يَهُودِيًّا قُلْتَ : وَإِنَّ الْعُزَيْرَ عَبْدُ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ صَابِئًا قُلْتَ : وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ عَبِيدُ اللَّهِ وَرُسُلُهُ الْكِرَامُ وَكُتَّابُهُ الْبَرَرَةُ الَّذِينَ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

وَإِنْ كَانَ هِنْدِيًّا قُلْتَ : [وَإِنَّ] مَانِي بَاطِلٌ مَحْضٌ ، وَبُهْتَانٌ صِرْفٌ

، وَكَذِبٌ مُخْتَلَقٌ مُزَوَّرٌ .

وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ عَلَى مَذْهَبٍ مِنَ الْكُفْرِ اعْتَمَدْتَهُ بِالْبَرَاءَةِ مِنْهُ بِالذِّكْرِ .

وَتَقُولُ بَعْدَهُ : سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ .

تَعَالَى وَتَقَدَّسَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا .

(354/760)

وَالْتَزَمَ أَلَّا يَقْتُلَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا يَسْرِقُ ، وَلَا يَزْنِي ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ ، وَلَا يَتَكَلَّمُ بِالزُّورِ ، وَيَكُونُ مَعَ إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ كَأَحَدِهِمْ ، وَلَا يُسْلِمُهُمْ وَلَا يُسْلِمُونَهُ ، وَلَا يَظْلِمُهُمْ وَلَا يَظْلِمُونَهُ ، وَعَلِمَ أَنَّ لِلدِّينِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَسُنَنًا ، فَعَاهَدَ اللَّهَ عَلَى أَنْ يَلْتَزِمَ كُلَّ خَصْلَةٍ مِنْهَا عَلَى نَعْتِهَا بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وَسَنَنٍ قَوِيمٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى مَا شَاءَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَشَهِدَ أَنَّهُ ﴿ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ شَهِدَ عَلَى فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ مَنْ أَشْهَدَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ صَحِيحُ الْعَقْلِ فِي شَهْرِ كَذَا .

وَقَدْ أَدْرَكَ التَّقْصِيرَ جُمْلَةٌ مِنْ الْمُؤَرِّخِينَ ، وَكَتَبُوا مَعَالِمَ الْأَمْرِ دُونَ وَظَائِفِ النَّهْيِ ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَذْكُرُ فِي بَيْعَتِهِ الْوَجْهَيْنِ ، أَوْ يُغَلِّبُ ذِكْرَ وَظَائِفِ النَّهْيِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ .

وَكَتَبُوا أَنَّهُ أَسْلَمَ طَوْعًا ، وَكَتَبُوا : وَكَانَ إسْلَامُهُ عَلَى يَدَيْ فُلَانٍ ، وَكَتَبُوا أَنَّهُ اغْتَسَلَ وَصَلَّى .

فَأَمَّا قَوْلُهُمْ : وَكَانَ إسْلَامُهُ طَوْعًا فَبَاطِلٌ ، فَإِنَّهُ لَوْ أَسْلَمَ مُكْرَهًا لَصَحَّ إسْلَامُهُ وَلَزِمَهُ ، وَقُتِلَ بِالرِّدَّةِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ

: { لَا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ } ؛ وَالْكُفَّارُ إنَّمَا يُقَاتَلُونَ قَسْرًا عَلَى الْإِسْلَامِ فَيُسْتَخْرَجُ مِنْهُمْ بِالسَّيْفِ .

(355/760)

وَالْإِمَامُ مُخَيَّرٌ بَيْنَ قَتْلِ الْأَسْرَى أَوْ مُفَادَاتِهِمْ بِالْخَمْسَةِ الْأَوْجُهِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِيهِمْ ؛ فَإِذَا أَسْلَمَ سَقَطَ حُكْمُ السَّيْفِ عَنْهُ .

وَفِي الصَّحِيحِ : { عَجِبَ رَبُّكُمْ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ } .

وَكَذَلِكَ الذِّمِّيُّ لَوْ جَنَى جِنَايَةً فَخَافَ مِنْ مُوجِبِهَا الْقَتْلَ وَالضَّرْبَ فَأَسْلَمَ سَقَطَ عَنْهُ الضَّرْبُ

وَالْقَتْلُ ، وَكَانَ إِسْلَامُهُ كُرْهًا ، وَحُكِمَ بِصِحَّتِهِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْإِكْرَاهُ الْمُسْقِطُ لِلْإِسْلَامِ إِذَا كَانَ ظُلْمًا وَبَاطِلًا ، مِثْلُ أَنْ يُقَالَ لِلذِّمِّيِّ [ابْتِدَاءً] مِنْ غَيْرِ جِنَايَةٍ وَلَا سَبَبٍ : أَسْلِمْ ، وَإِلَّا قَتَلْتُكَ ؛ فَهَذَا لَا يَجُوزُ ؛ فَإِنْ أَسْلَمَ لَمْ يَلْزَمْهُ ، وَجَازَ لَهُ الرُّجُوعُ إِلَى دِينِهِ عِنْدَ أَمْنِهِ مِمَّا خَافَ مِنْهُ .

وَإِذَا ادَّعَى الذِّمِّيُّ أَنَّهُ أُكْرِهَ بِالْبَاطِلِ لَزِمَهُ إِثْبَاتُ ذَلِكَ ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى ذِكْرِ الطَّوَاعِيَةِ بِوَجْهٍ وَلَا حَالٍ فِي كُلِّ كَافِرٍ .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : كَانَ إِسْلَامُهُ عَلَى يَدِ فُلَانٍ فَأَنَّى عَلَّقُوهَا ، وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ فِي كُتُبِ الْمُخَالِفِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ ذَلِكَ فِي شُرُوطِهِمْ لِعِلَّةٍ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الرَّجُلَ إِذَا أَسْلَمَ عَلَى يَدَيْ الرَّجُلِ كَانَ لَهُ وَلَاؤُهُ ، وَذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ بِمَذْهَبٍ لَنَا .

وَقَدْ بَيَّنَّا فَسَادَهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ وَغَيْرِهَا .

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : اغْتَسَلَ وَصَلَّى ، فَلَيْسَ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْعَقْدِ الْمَكْتُوبِ ؛ لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ وَقْتَ صَلَاةٍ ، فَلَا غُسْلَ عَلَيْهِ وَلَا وُضُوءَ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِ صَلَاةٌ .

وَأَمَّا إذَا كَانَ وَقْتَ صَلَاةٍ فَيُؤْمَرُ بِالْغُسْلِ وَالصَّلَاةِ فَيَفْعَلُهُمَا ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مَكْتُوبًا .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(357/760)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الممتحنة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ

قوله : ﴿ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ : هذان مفعولا الاتخاذ . والعدوُّ لَمَّا كان بزنةِ المصادِر وقعَ على الواحدِ فما فوقه ، وأضاف العدوَّ لنفسه تعالى تغليظاً في جُرْمِهم .

قوله : ﴿ تُلْقُونَ ﴾ فيه أربعةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه تفسيرٌ لموالاتِهم إياهم . الثاني : أنه استئنافُ إخبارٍ بذلك فلا يكون للجلمة على هذين الوجهَين محلٌّ من الإِعراب . الثالث : أنها حالٌ مِنْ فاعل " تَتَّخِذوا " أي : لا تتخذوا مُلْقِين المودةَ . الرابع : أنها صفةٌ ل " أولياءَ " . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : إذا جَعَلْتَه صفةً لأولياء ، وقد جرى على غيرِ مَنْ هوله ،

فأين الضميرُ البارزُ ، وهو قولُك : تُلْقُون إليهم أنتم بالمودة؟ قلت : ذاك إنما اشترطوه في الأسماءِ دونَ الأفعالِ لو قيل : أولياءَ مُلْقِين إليهم بالمودّة على الوصف لَما كان بُدٌّ مِن الضميرِ البارزِ " قلت : قد تقدَّمَتْ هذه المسألةُ مستوفاةً ، وفيها كلامٌ لمكي وغيرِه . إلاَّ أن الشيخَ اعترضَ على كونِها صفةً أو حالاً بأنهم نُهُوا عن اتخاذِهم أولياءً مطلقاً في قولِه : ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ اليهود والنصارى أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة : 51] والتقييدُ بالحالِ والوصفِ يُوهم جوازَ اتّخاذهم أولياءَ إذا انتفى الحالُ أو الوصفُ . ولا يَلْزَمُ ما قال لأنه معلومٌ من القواعدِ الشرعيةِ فلا مفهومَ لهما البتةَ . وقال الفراء : " تُلْقُون من صلةِ أولياء " وهذا على أصولِهم مِنْ أنَّ النكرةَ تُوْصَلُ كغيرِها من الموصولات .

(358/760)

قوله : ﴿ بالمودة ﴾ في الباء ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أن الباءَ مزيدةٌ في المفعول به كقولِه : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [البقرة : 195] . والثاني : أنها غيرُ مزيدةٍ والمفعول محذوفٌ ، ويكون معنى الباءِ السببَ . كأنه قيل : تُلْقُوْن إليهم أسرارَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأخبارَه بسبب المودةِ التي بينكم . / والثالث : أنها متعلقةٌ بالمصدرِ الدالِّ عليه " تُلْقُون " أي : إلقاؤُهم بالمودّةِ ، نقله الحوفيُّ عن البصريين ، وجعَلَ القولَ بزيادةِ الباءِ قولَ الكوفيين . إلاَّ

أن هذا الذي نَقَله عن البصريين لا يُوافقُ أصولَهم ؛ إذ يَلْزَمُ منه حَذْفُ المصدرِ وإبقاءُ معموله ، وهو لا يجوزُ عندَهم . وأيضاً فإنَّ فيه حَذْفَ الجملةِ برأسِها ، فإنَّ " إلقاءَهم " مبتدأ و " بالمودة " متعلقٌ به ، والخبرُ أيضاً محذوفٌ . وهذا إجحافٌ .

قوله : ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ ﴾ فيه أوجهٌ : الاستئناف ، والحالُ مِنْ فاعِل " تتَّخذوا " والحالُ مِنْ فاعلِ " تُلْقُون " أي : لا تتولَّوْهم ولا توادُّوهم وهذه حالُهم . والعامَّةُ " بما " بالباء ، والجحدري وعاصمٌ في روايةٍ " لِما " باللام أي : لأجلِ ما جاءكم ، فعلى هذا الشيءِ المكفورِ غيرُ مذكور ، تقديره : كفروا باللَّهِ ورسولِه .

قوله : ﴿ يُخْرِجُونَ الرسول ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ مستأنفاً ، وأن يكونَ تفسيراً لكُفْرِهم ، فلا مَحَلَّ له على هذَيْن ، وأَنْ يكونَ حالاً مِنْ فاعل " كفروا " .

قوله : ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ عطفٌ على الرسول . وقُدِّم عليهم تَشريفاً له .

(359/760)

وقد استَدَلَّ به مَنْ يُجَوِّزُ انفصالَ الضميرِ مع القدرةِ على اتصالِه ، إذ كان يجوزُ أَنْ يُقال : يُخْرجونكم والرسولَ ، فيجوز : " يُخْرِجون إياكم والرَّسولَ " في غيرِ القرآنِ وهو ضعيفٌ ؛ لأنَّ حالةَ تقديمِ الرسولِ دلالةٌ على شرَفِه . لا نُسَلِّمُ أنه يُقْدَرُ على اتِّصاله . وقد تقدَّم لك

الكلامُ على هذه الآيةِ عند قولِه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الذين أُوتُوا الكتاب مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ في سورةِ النساء فعليك باعتباره .

قوله : ﴿ أَن تُؤْمِنُوا ﴾ مفعولٌ له . وناصبُه : "يُخْرِجون" أي : يُخْرِجونكم لإِيمانِكم أو كراهةَ إيمانِكم .

قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ ﴾ جوابُه محذوفٌ عند الجمهور لتقدُّمِ "لا تَتَّخذوا" ، ومقدم وهو "لا تتخذوا" عند الكوفيين ومَنْ تابعهم . وقد تقدَّم تحريرُه . وقال الزمخشري : و ﴿ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ ﴾ متعلِّقٌ ب "لا تَتَّخذوا" . يعين : لا تتولَّوْا أعدائي إنْ كنتم أوليائي . وقولُ النحويين في مثلِه : هو شرطٌ ، جوابُه محذوفٌ لدلالةِ ما قبله عليه " انتهى . يريد أنَّه متعلِّقٌ به من حيث المعنى . وأمَّا من حيث الإِعراب فكما قال جمهورُ النَّحْويين .

قوله : "جِهَاداً وابتغاءَ" يجوزُ أَنْ يُنْصَبا على المفعول له أي : خَرَجْتُمْ لأَجلِ هذَيْن ، أو على المصدرِ بفعلٍ مقدرٍ أي : تُجاهِدون ، وتبتَغُون ، أو على أنهما في موضع الحال .

قوله : ﴿ تُسِرُّونَ ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ مستأنفاً ، ولم يذكُرِ الزمخشريُّ غيرَه ، وأن يكونَ حالاً ثانيةً مِنْ ما انتصب عنه "تُلْقُون" حالاً ، وأَنْ يكونَ بدلاً مِنْ "تُلْقُون" ، قاله ابن عطية .

ويُشْبه أَنْ يكونَ بدلَ اشتمالٍ لأنّ إلقاءَ المودةِ يكون سرّاً وجَهْراً ، فأَبْدَل منه هذا للبيانِ بأيّ نوعٍ وقع الإِلقاء ، وأن يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ أي : أنتم تُسِرُّون ، قاله ابن عطية ، ولا يَخْرُجُ عن معنى الاستئناف . وقال أبو البقاء : " هو توكيدٌ ل " تُلْقُون " بتكريرِ معناه " وفيه نظرٌ ؛ لأنّ الإِلقاءَ أعمُّ مِنْ أَنْ يكونَ سِرّاً أو جَهْراً .

وقوله : ﴿ بالمودة ﴾ الكلامُ في الباء هنا كالكلامِ عليها بعد " تُلْقُون " .

قوله : ﴿ وَأَنَاْ أَعْلَمُ ﴾ هذه الجملةُ حالٌ مِنْ فاعل " تُسِرُّون " أي : وأيُّ طائلٍ لكم في إسْراركم وقد عَلِمتم أن الإِسرارَ والإِعلان سيَّانِ في علمي ؟ و " أعلمُ " يجوز أن يكونَ أفعل تفضيل وهو الظاهرُ ، وأَنْ يكون فعلاً مضارعاً . قال ابن عطية : " وعُدِّي بالباء لأنك تقول : علمتُ بكذا " .

قوله : ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ ﴾ في الضمير وجهان ، أظهرهما : أنه يعود على الإِسرار ؛ لأنه أقربُ مذكورٍ . والثاني : أنه يعودُ على الاتخاذ ، قاله ابنُ عطية .

قوله : ﴿ سَوَآءَ السبيل ﴾ يجوز أَنْ يكونَ منصوباً على الظَّرْفِ إنْ قلنا : " ضَلَّ " قاصرٌ ، وأَنْ يكونَ مفعولاً به إنْ قلنا : هو متعدٍّ .

إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2)

قوله : ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ : في " وَدُّوا " وجهان ، أحدهما : أنه معطوفٌ على جواب الشرطِ وهو قوله : " يكونوا " و " يَبْسُطوا " قاله الزمخشري . ثم رتَّب عليه سؤالاً وجواباً فقال : " فإنْ قلتَ : كيف أوردَ جوابَ الشرط مضارعاً مثلَه ثم قال : " وَدُّوا " بلفظ الماضي ؟ قلت : الماضي وإنْ كان يجري في باب الشرط مَجْرى المضارعِ في علم الإِعراب ، فإن فيه نكتةً ، كأنه قيل : وودُّوا قبل كلِّ شيءٍ كُفْرَكم وارتدادَكم ، يعني : أنهم يريدون أن يُلْحِقوا بكم مَضارَّ الدنيا والآخرةِ جميعاً " . والثاني : أنه معطوفٌ على جملةِ الشرط والجزاء ، ويكون تعالى قد أخبر بخبَرَيْن : بما تَضَمَّنَتْه الجملةُ الشرطيةُ ، وبودادتهم كُفْرَ المؤمنين . وجعل الشيخُ هذا راجحاً ، وأسقط به سؤالَ الزمخشريِّ وجوابَه فقال : " وكان الزمخشريُّ فَهِمَ مِنْ قوله : " وَوَدُّوا " أنه معطوفٌ على جوابِ الشرطِ . والذي يظهرُ أنه ليس معطوفاً عليه لأنَّ/ ودادَتَهم كفرَهم ليسَتْ مترتبةً على الظفر بهم والتسليطِ عليهم ، بل هم وادُّون كفرَهم على كلِّ حالٍ ، سواءً ظَفِروا بهم أم لم يظفروا بهم " . انتهى .

قلت : والظاهرُ أنه عطفٌ على الجواب . وقوله : هم وادُّون ذلك مُطلقاً مُسَلَّمٌ ، ولكن ودادَتَهم له عند الظفرِ والتسليطِ أقربُ وأطمعُ لهم فيه .

وقوله : ﴿ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ لما سيقعُ لوقوعِ [غيرِه] ، وأَنْ تكونَ المصدريةَ

عند مَنْ يرى ذلك ، وقد تقدَّم تحريرهما في البقرة .

لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3)

(362/760)

قوله : ﴿ يَوْمَ القيامة ﴾ : يجوز فيه وجهان ، أحدهما : أَنْ يتعلَّقَ بما قبلَه أي : لن ينفعَكم يومَ القيامة فيُوقَفُ عليه ويُبْتدأ " يَفْصِلُ بينكم " . والثاني : أَنْ يتعلَّقُ بما بعده أي : يَفْصِلُ بينكم يومَ القيامة ، فيوقف على " أولادكم " ويُبتدأ " يوم القيامة " .

والقُرَّاء في " يَفْصِلُ " بينكم على أربع مراتبَ ، الأولى : لابن عامر بضم الياءِ وفتح الفاءِ والصادُ مثقَّلةٌ . الثانية : كذلك إلاَّ أنَّه بكسرِ الصاد للأخويْن . الثالثة : بفتح الياء وسكونِ الفاءِ وكسرِ الصاد مخففةً لعاصم . الرابعة : بضمِّ الياء وسكونِ الفاءِ وفتح الصادِ مخففةً للباقين ، وهم نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرو هذا في السَّبعة . وقرأ ابنُ أبي عبلةٍ وأبو حيوةَ بضم الياء وسكون الفاء وكسرِ الصادِ مخففةً ، مِنْ أَفْصَلَ . وأبو حيوة أيضاً " نُفْصِلُ " بضمِّ النونِ مِنْ أَفْصَلَ . والنخعيُّ وطلحة " نُفَصِّلُ " بضم النون وفتح الفاء وكسر الصاد مشددةً . وقرأ أيضاً وزيد بن علي " نَفْصِلُ " بفتح النون وسكون الفاء وكسرِ الصاد مخففةً . فهذه أربعٌ فصارت ثمانِ قراءاتٍ .

فمَنْ بناه للمفعولِ فالقائمُ مقامَ الفاعلِ : إمَّا ضميرُ المصدرِ أي : يُفْصَلُ الفصلُ أو الظرف ، وبُني على الفتحِ لإِضافته إلى غيرِ متمكن كقوله : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] في أحدِ الأوجه ، أو الظرفُ وهو باقٍ على نصبِه كقولك : " جُلِس عندك " .

(363/760)

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4)

قوله : ﴿ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه متعلقٌ ب " أُسوة " تقول : " لي أُسْوَةٌ في فلان " . وقد منع أبو البقاء أَنْ يتعلَّقَ بها . قال : " لأنها قد وُصِفَتْ " وهذا لا يُبالى به لأنه يُغتفر في الظرفِ ما لا يُغتفر في غيره . الثاني : أنه متعلق بحسنة تعلُّقَ الظرفِ بالعامل . الثالث : أنه نعتٌ ثانٍ لأُسْوَة . الرابع : أنه حالٌ من الضمير المستتر في " حسنةٌ " . الخامس : أن يكونَ خبرَ كان ، و " لكم " تبيينٌ . وقد تقدَّم لك قراءتا " أسْوة " في الأحزاب ، والكلامُ على مادتِها .

قوله : ﴿ إِذْ قَالُواْ ﴾ فيه وجهان ، : أحدهما : أنَّه خبرُ كان . والثاني : أنه متعلقٌ بخبرها ، قالهما أبو البقاء . ومَنْ جوَّز في "كان" أَنْ تعمل في الظرف عَلَّقه بها .

(364/760)

قوله : ﴿ بُرَآءُ ﴾ هذه قراءةُ العامَّةِ بضمِّ الباءِ وفتح الراءِ وألفٍ بين همزتَيْن ، جمعَ بريء ، نحو : كُرَماء في جمع كريم . وَعيسى الهمذاني بكسرِ الباء وهمزةٍ واحدةٍ بعد ألف نحو : كرام في جمع كريم . وعيسى أيضاً ، وأبو جعفر ، بضم الباءِ وهمزةٍ بعد ألف . وفيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه جمعُ بَرِيْء أيضاً ، والأصل كسرُ الباءِ ، وإنما أبدل من الكسرةِ ضمةً ، كرُخال ورُباب قاله الزمخشري . الثاني : أنه جمعٌ أيضاً ل بَريء ، وأصلُه برَآء كالقراءةِ المشهورة ، إلاَّ أنه حذَفَ الهمزة الأولى تخفيفاً ، قاله أبو البقاء . الثالث : أنه اسمُ جمعٍ ل بريء نحو : تُؤَام وظُؤَار اسْمَيْ جمعٍ لتَوْءَم وظِئْر . وقرأ عيسى أيضاً : "بَراء" بفتح الباء . وهمزة بعد ألف كالتي في الزخرف ، وصَحَّ ذلك لأنه مصدرٌ والمصدرُ يقع على الجمع كوقوعِه على الواحد . قال الزمخشري : "والبَراء والبراءةُ كالظَّماء والظَّماءة" . وقال مكي : "وأجاز أبو عمروٍ وعيسى ابن عمر "بِراء" بكسر الباء جعله ككريم وكِرام . وأجاز الفراء "بَراء" بفتح الباء" ثم قال : "وبَراء في الأصلِ مصدرٌ" كأنه لم يَطَّلِعْ عليها قراءةً منقولةً .

قوله : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه استثناءٌ متصلٌ مِنْ قولِه : " في إبراهيم " ولكنْ لا بُدَّ مِنْ حذفِ مضافٍ ليصِحَّ الكلامُ ، تقديرُه : في مقالات إبراهيم / إلاَّ قولَه كيت وكيت . الثاني : أنه مستثنى مِنْ " أسوةٌ حسنةٌ " وجاز ذلك لأن القولَ أيضاً من جملة الأُسْوة ؛ لأن الأسوةَ الاقتداءُ بالشخص في أقوالِه وأفعاله ، فكأنه قيل لكم : فيه أُسْوة في جميع أحوالِه من قَوْلٍ وفِعْلٍ إلاَّ قولَه كذا . وهذا عندي واضحٌ غيرُ مُحْوِجٍ إلى تقديرِ مضافٍ وغيرُ مُخْرِجٍ الاستثناءِ من الاتصالِ الذي هو أصلُه إلى الانقطاع ، ولذلك لم يذكُرِ الزمخشريُّ غيرَه قال : " فإنْ قلتَ مِمَّ استثنى قولَه : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ؟ قلت مِنْ قولِه : " أُسْوَةٌ حسنةٌ " لأنه أرادَ بالأُسوةِ الحسنةِ قولَهم الذي حَقَّ عليهم أَنْ يَأْتَسُوا به ويتخذوه سنةً يَسْتَنُّون بها .

فإنْ قلت : فإنْ كان قولُه : " لأَستغفِرَنَّ لك " مستثنى من القولِ الذي هو أُسْوَةٌ حسنةٌ فما بالُ قولِه : ﴿ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ ، وهو غيرُ حقيق بالاستثناء . ألا ترى إلى قولِه : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ [الفتح : 11] قلت : أرادَ استثناءَ جملةِ قولِه لأبيه ، والقصدُ إلى موعدِ الاستغفارِ له وما بعده مبنيٌّ عليه وتابعٌ له . كأنه قال : أنا

أستغفر لك وما في طاقتي إلاَّ الاستغفارُ " . الثالث : قال ابن عطية : " ويحتمل أن يكون الاستثناءُ من التبرُّؤِ والقطيعة التي ذُكِرت أي : لم تُبْقِ صلةً إلاَّ كذا " . الرابع : أنه استثناءٌ منقطع أي : لكنْ قولُ إبراهيم . وهذا بناءً مِنْ قائليه على أنَّ القول لم يَنْدَرِجْ تحت قولِه : " أُسْوة " وهو ممنوعٌ .

رَّبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5)

(366/760)

قوله : ﴿ رَبَّنَا ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مِنْ مقولِ إبراهيمَ والذين معه فهو من جملةِ الأُسْوَةِ الحسنةِ ، وفَصَلَ بينهما بالاستثناءِ ويجوز أَنْ يكونَ منقطعاً مِمَّا قبله على إضمارِ قولٍ ، وهو تعليمٌ من الله تعالى لعبادِه كأنَّه قال لهم : قولوا ربَّنا عليك توكَّلْنا . والأول أُظْهرُ .

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6)

قوله : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو ﴾ : بدلٌ من الضمير في " لكم " بدلُ بعضٍ مِنْ كل . وقد تقدَّم مثلُه في الأحزاب . والضميرُ في " فيهم " عائدٌ على إبراهيم ومَنْ معه وكُرِّرَتْ الأُسْوةُ تأكيداً .

لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)

قوله: ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾، ﴿ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾: بدلان من "الذين" قبلهما بدلُ اشتمالٍ.

والمعنى: لا يَنْهاكم اللَّهُ تعالى عن مَبَرَّةِ هؤلاء، إنما يَنْهاكم عن تَوَلِّي هؤلاء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10)

قوله: ﴿ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾: قيل: هو تأكيد للأول لتلازُمِهما. وقيل: أراد استمرارَ الحكم بينهم فيما يَسْتقبل، كما هو في الحال ما داموا مشركين وهُنَّ مؤمناتٌ. وقوله: "المؤمنات" تسميةٌ للشيء بما يقارِبُه ويُشارِفُه أو في الظاهر. وقُرِىء "مُهاجراتٌ" بالرفع وخُرِّجَتْ على البدلِ. الجملةُ مِنْ قوله: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ فائدتُها: بيانُ أنَّه لا

سبيلَ لكم إلى ما تطمئنُّ به النفس ويُثلج الصدرَ من الإِحاطة بحقيقةِ إيمانهنَّ ، فإنَّ ذلك ممَّا استأثر اللَّهُ به . قاله الزمخشري : وسُمِّي الظنُّ الغالِبُ في قولِه : " عَلِمْتُموهُنَّ " عِلْماً لما بينهما من القُرْب ، كما يقع الظنُّ موقعَه . وتقدَّم ذلك في البقرة .

وقوله : ﴿ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ أي : في أَنْ . وقوله : " إذا آتَيْتُمُوهُنَّ " يجوزُ أَنْ يكونَ ظرفاً مَحْضاً ، وأَنْ يكونَ شرطاً ، جوابُه مقدَّرٌ أي : فلا جُناحَ عليكم .

(368/760)

قوله : ﴿ وَلاَ تُمْسِكُواْ ﴾ قرأ أبو عمرو في آخرين بضم التاء وفتح الميم وشدِّ السين ، وباقي السبعة بتخفيفها مِنْ مَسَّك وأَمْسَك بمعنىً واحد . ويقال : أَمْسَكْتُ الحَبْلَ إمساكاً ومَسَّكْتُه تَمْسكياً . وفي التشديد مبالغةٌ ، والمخفَّفُ صالحٌ لها أيضاً . وقرأ الحسن وابنُ أبي ليلى وأبو عمرو وابنُ عامر في روايةٍ عنهما " تَمَسَّكُوا " بالفتح في الجميع وتشديدِ السينِ . والأصلُ : تَتَمَسَّكوا بتاءين ، فحُذِفَتْ إحداهما . وعن الحسن أيضاً " تَمْسِكوا " مضارع مَسَكَ ثلاثياً . والعِصَمُ : جمع عِصْمة ، والكوافر : جمع كافرة كضَوارب في ضاربة . ويُحكى عن الكَرْخِيِّ الفقيهِ المعتزليِّ أنه قال : الكوافِرُ يشمل الرجالَ والنساءَ . قال الفارسي : / " فقلت له : النَّحْويون لا يَرَوْن هذا إلاَّ في النساءِ جمعَ " كافرة " فقال : أليس

يُقال: طائفة كافرة، وفِرْقَةٌ كافرة. قال أبو علي: فبُهِتُّ وقلتُ: هذا تأييدٌ إلهيٌّ" قلت: وإنما أُعْجِبَ بقولِه لكونِه معتزليّاً مثلَه. والحقُّ أنه لا يجوز "كافِرة" وصفاً للرجال، إلاَّ أن يكونَ الموصوفُ مذكوراً نحو: هذه طائفة كافرة، أو في قوةِ المذكور. أمَّا أنه يقال: "كافرة" باعتبارِ الطائفة غير المذكورة، ولا في قوةِ المذكورة بل لمجردِ الاحتمال، ويُجمع جَمْعَ فاعِلة، فهذا لا يجوز. وقولُ الفارسي: "لا يَرَوْنَ هذا إلاَّ في النساء" صحيحٌ ولكنه الغالِبُ.

وقد يُجْمَعُ فاعِل وصفُ المذكرِ العاقلِ على فواعِل وهو محفوظٌ نحو: فوارِس ونواكِس.

قوله: ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ فيه وجهان، أحدُهما: أنه مستأنفٌ لا محلَّ له. والثاني: أنه حالٌ مِنْ "حُكْمُ". والراجعُ: إمَّا مستترٌ أي: يحكم هو أي: الحكم على المبالغةِ، وإمَّا محذوفٌ أي: يحكمُه. وهو الظاهرُ.

(369/760)

وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11)

قوله: ﴿ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾: يجوز أَنْ يتعلَّق "مِنْ أزواجِكم" ب "فاتكم" أي: مِنْ جهةِ أزواجِكم، ويُراد بالشيء المَهْرُ الذي غُرِّمه الزوجُ؛ لأنَّ التفسيرَ ورَدَ: أنَّ الرجلَ

المسلمَ إذا فَرَّتْ زوجتُه إلى الكفار أَمرَ اللَّهُ تعالى المؤمنين أَنْ يُعْطُوْه ما غرُِمَه ، وفعَله النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع جمعٍ مِن الصحابة ، مذكورون في التفسير ، ويجوز أَنْ يتعلَّقَ بمحذوف على أنَّه صفةٌ لشيء ، ثم يجوز في " شيء " أَنْ يُرادَ به ما تقدَّم من المُهور ، ولكن على هذا لا بُدَّ مِنْ حَذْفِ مضافٍ أي : مِنْ مُهورِ أزواجِكم ليتطابقَ الموصوفُ وصفتُه ، ويجوز أَنْ يُرادَ بشيء النساءُ أي : شيءٌ من النساء أي : نوعٌ وصنفٌ منهنَّ ، وهو ظاهرٌ ، وصَفَه بقولِه : " مِن أزواجِكم " .

(370/760)

وقد صرَّح الزمخشري بذلك فإنه قال : " وإنْ سبقكم وانفلَت منكم شيءٌ مِنْ أزواجكم ، أحدٌ منهن إلى الكفار وفي قراءة ابنِ مسعود " أحد " فهذا تصريحٌ بأنَّ المرادَ بشيء النساءُ الفارَّاتُ . ثم قال : " فإنْ قلتَ : هل لإِيقاع " شيء " في هذا الموقعِ فائدةٌ؟ قلت : نعم الفائدةُ فيه : أن لا يُغادِرَ شيئاً من هذا الجنسِ ، وإنْ قَلَّ وحَقُر ، غيرَ مُعَوَّض منه ، تَغْليظاً في هذا الحكم وتشديداً فيه " ولولا نَصُّه على أنَّ المرادَ ب " شيء " " أحد " كما تقدَّم لكان قولُه : " أن لا يغادِرَ شيئاً من هذا الجنس وإن قَلَّ وحَقُر " ظاهراً في أنَّ المرادَ ب " شيء " المَهْرُ ؛ لأنه يُوْصَفُ بالقلة والحَقَارة وصفاً شائعاً . وقوله : " تغليظاً وتشديداً " فيه نظرٌ ؛

لأنَّ المسلمين ليس [لهم] تَسَبُّبٌ في فِرار النساءِ إلى الكفار ، حتى يُغَلَّظَ عليهم الحكمُ بذلك . وعَدَّى " فات " ب " إلى " لأنه ضُمِّن معنى الفِرار والذَّهاب والسَّبْقِ ونحو ذلك .

قوله : ﴿ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ عطفٌ على " فاتكم " . وقرأ العامَّةُ " عاقَبْتُم " وفيه وجهان ، أحدهما : أنَّه من العقوبة . قال الزجاج : " فعاقَبْتُم : فَأَصَبْتُموهم في القتال بعقوبةٍ حتى غَنِمْتُم " . الثاني : أنه من العُقْبة وهي التَّوْبَةُ ، شبَّه ما حَكَم به على المسلمين والكافرين مِنْ أداءِ هؤلاء مهورَ نساءِ أولئك تارةً ، وأولئك مهورَ نساءِ هؤلاء أخرى ، بأَمْرٍ يتعاقبون فيه كما يُتعاقَبُ في الرُّكوب وغيرِه ، ومعناه : فجاءَتْ عُقْبَتُكم مِنْ أداء المَهْر " انتهى .

(371/760)

وقرأ مجاهدٌ والأعرجُ والزهريُّ وأبو حيوةَ وعكرمةُ وحميدٌ بشَدِّ القاف ، دون ألفٍ ، ففَسَّرها الزمخشريُّ على أصلِه بعَقَّبه إذا قفَاه ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من المتعاقِبَيْن يَقْفي صاحبه وكذلك " عَقَبْتُم " بالتخفيف يقال : " عَقَبه يَعْقُبُه " انتهى . قلت : والذي قرأه بالتخفيف وفتحِ القافِ النخعيُّ وابن وثاب والزهري والأعرج أيضاً ، وبالتخفيف وكسر القافِ مَسْرُوقٌ والزهريُّ والنخعي أيضاً .

وقرأ مجاهد " أَعْقَبْتُمْ " . قال الزمخشريُّ معناه : " دَخَلْتُم في العُقْبة " .

وأمّا الزجّاجُ ففَسَّر القراءاتِ الباقيةَ: فكانت العُقْبى لكم أي: كانت الغلبةُ لكم حتى غَنِمْتُم. والظاهرُ أنه كما قال الزمخشريُّ من المعاقبة بمعنى المناوبة. يقال: عاقَبَ الرجلُ صاحبَه في كذا أي: جاء فِعْلُ كلِّ واحد منهما بعَقِب فِعْلِ الآخرِ ويُقال: أَعْقَبَ أيضاً، وأُنْشِد:

4255 وحارَدَتِ النُّكْدُ الجِلادُ ولم يكُنْ... لعُقْبَةِ قِدْرِ المُسْتعيرين مُعقِبُ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12)

قوله: ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾: حالٌ. وشيئاً مصدرٌ أي: شيئاً من الإِشراك. وقرأ علي والسُّلمي والحسن "يُقَتِّلْن" بالتشديد و "يَفْتَرِيْنَه" صفةٌ لبُهتان، أو حالٌ مِنْ فاعل "يأْتين".

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (13)

وقوله : ﴿ غَضِبَ اللهُ ﴾ : صفةٌ ل " قَوْماً وكذلك " قد يَئِسُوا " .

قوله : ﴿ مِنَ الآخرة ﴾ " مِنْ " لابتداء الغاية أي : إنهم لا يُوقنون بالآخرةِ البتّةَ . و ﴿ مِنْ أَصْحَابِ القبور ﴾ فيه وجهان ، أحدُهما : أنها لابتداء الغايةِ أيضاً ، كالأولى ، والمعنى أنهم لا يُوقنون ببَعْثِ الموتى البتّةَ ، فيأْسُهم من الآخرةِ كيأسِهم مِنْ مَوْتاهم لاعتقادِهم عَدَمَ بَعْثِهم . والثاني : أنَّها لبيانِ الجنس ، يعني / أنّ الكفارَ هم أصحابُ القبورِ . والمعنى : أن هؤلاء يئسوا من الآخرة كما يَئِس الكفارُ ، الذين هم أصحابُ القبور ، مِنْ خيرِ الآخرة ، فيكون متعلَّقُ " يَئِس " الثاني محذوفاً . وقرأ ابنُ أبي الزناد " الكافرُ " بالإِفراد . والله أعلمُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 297.311 ﴾

(373/760)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الممتحنة

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم) " بسم الله " اسم ملك لا أصل لملكه عند حدث ولا نسل له ، فعله يرث ، ملك لا استظهر بجيش وعدد ، ولا يتعزز بقوم وعدد ، ملك

للخلق بأجمعهم – لكنه اختار قوما لا لينتفع بهم – بل لنفعهم ، ورد آخرين وأذلهم بمنعهم ووضعهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِى سَبِيلِى وَابْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ﴾ .

قال صلى الله عليه وسلم : " أعدى عدوِّك نَفْسُك التي بين جنبيك " وأوحى الله سبحانه إلى داود عليه السلام : " عادِ نَفْسَك فليس لي في المملكة مُنازِعٌ غيرها " فَمَنْ عادى نَفسَه فقد قام بحقِّ الله ، ومَنْ لم يعادِ نفسه لَحِقَتْه هذ الوصمة . وأصلُ الإيمانِ الموالاةُ والمعاداةُ في الله ومَنْ جَنَحَ إلى الخارجين عن دائرة الإسلام انحاز إلى جانبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ ﴾ .

أنا أعلم ﴿ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ ﴾ من دقائقِ التصنُّعِ وخَفِيَّاتِ الرياء .

﴿ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ من التزيُّن للناس .

﴿ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ ﴾ من الاستسرار بالزَّلة ، ﴿ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ ، من الطاعة والبرِّ .

﴿ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ ﴾ من الخيانة ﴿ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ من الأمانة .

﴿ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ ﴾ من الغِلّ والغِشّ للناس ، ﴿ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ من الفضيحةِ للناس .

﴿ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ ﴾ من ارتكاب المحظورات ، ﴿ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ من الأمر بالمعروف .

(374/760)

﴿ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ ﴾ من تَرْكِ الحشمة مني وقلة المبالاة باطّلاعي ، وما أعلنتم من تعليم الناسِ ووَعْظِهِمْ .

﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ ﴾ فقد حاد عن طريق الدين ، ووقَعَ في الكفر .

قوله جل ذكره : ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالْسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ ﴾ .

إنْ يَظْفَروا بكم وصادفوكم يكونوا لكم أعداء ، ولن تَسْلَموا من أيديهم بالسوءِ ولا من ألسنتهم بالذمِّ وذِكْرِ القبيح .

﴿ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ : ولن يَنْفَعَكم توَدُّدُكم إليهم ، ولا ما بينكم وبينهم من الأرحام . ثم عقوبة الآخرة تُدْرِكُكم .

وكذلك صفة المخالِف ، ولا ينبغي للمرء أن يتعطّش إلى عشيرته – وإن داهَنْته في قالَةٍ ،

ولا أن ينخدعَ بتغريرها – وإنْ لا يَنْتَه في حالة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ .

أي لكم قُدْوَةٌ حسنة بإبراهيم ومَنْ قبله من الأنبياء حيث تبرّؤوا من الكفار من أقوامهم ؛ فاقْتَدُوا بهم . . إلاَّ استغفار إبراهيم لأبيه – وهو كافر – فلا تقتدوا به .

ولا تَسْتَغْفِروا للكفار . وكان إبراهيمُ قد وعده أبوه أنه يُؤمن فلذلك كان يستغفر له ، فلمّا تَبَيَّن له أنه لن يُؤمِن تَبرَّأ منه .

ويقال : كان منافقاً . . ولم يَعْلَمْ إبراهيم ذلك وقتَ استغفاره له .

(375/760)

ويقال : يجوز أنه لم يعلم في ذلك الوقت أنّ الله لا يغفر للكفار .

والفائدةُ في هذه الآيه تخفيفُ الأمر على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتعريفهم أنّ مَنْ كانوا قبلهم حين كذّبوا بأنبيائهم اهلكهم الله ، وأنهم صبروا ، وأنه ينبغى

لذلك أن يكونَ بالصبرِ أمرُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ .

أخبر أنهم قالوا ذلك .

ويصحُّ أن يكون معناه : قولوا : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ .

وقد مضى القولُ في معنى التوكل والإنابة .

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5)

ربَّنا لا تُظْفِرهم بنا ، ولا تُقَوِّهم علينا .

والإشارة في الآية : إلى الأمرِ بسُنَّةِ إبراهيم في السخاء وحُسْنِ الخُلُقِ والإخلاصِ والصدقِ والصبرِ وكلِّ خصلةٍ له ذَكَرَها لنا .

قوله جل ذكره : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وقفهم في مقتضى قوله تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ ﴾ عند حدِّ التجويز . . لا حُكْماً بالقَطْعِ ، ولا دَفْعَ قلبٍ باليأس . . ثم أَمَرَهم بالاقتصاد في العداوة والولاية معهم بقلوبهم ، وعرَّفهم بوقوع الأمر حسب تقديره وقدرته ، وجَرَيانِ كلِّ شيءٍ على ما يريد لهم ، وصدَّق هذه الترجية بإيمان مَنْ آمَنَ منهم عند فتح مكة ، وكيف أسلم كثيرون ، وحصل بينهم وبين المسلمين مودةٌ أكيدة .

قوله جل ذكره: ﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُواْ إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُواْ عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

أمَرَهُم بشدة العداوة مع أعدائهم على الوجه الذي يفعلونه، وأمّا من كان فيهم ذا خُلُقٍ حسَنٍ، أو كان منه للمسلمين وجهُ نَفْعٍ أو رِفْقٍ - فقد أمرَهم بالملاينة معه. والمؤلَّفَةُ قلوبهم شاهدٌ لهذه الجملة، "فإنَّ الله يحب الرّفق في جميع الأمور"

قوله جل ذكره: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَآءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾.

كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يمتحنهن باليمين، فيَحْلِفنَّ إنهن لم يخرجن إلاّ لله، ولم يخرجن مغايظةً لأزواجهن، ولم يخرجن طمعاً في مالٍ.

وفي الجملة: الامتحانُ طريقٌ إلى المعرفة، وجواهرُ الناس تتبيَّن بالتجربة. ومَنْ أقْدمَ على شيءٍ من غير تجربة تَحسَّى كأسَ الندم.

﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ .

لا توافِقوا مَنْ خالَفَ الحقَّ في قليل أو كثير.

(377/760)

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

إذا جاءك النساء يبايعنك على الإسلام فطالِبْهُنَّ وشارِطْهُنَّ بهذه الأشياء :

تَرْكِ الشِّرك ، وترك السرقة والزنا وقتل الاولاد والافتراء في إلحاق النَّسب ، وألا يعصينك في معروفٍ ؛ فلا يخالفنك فيما تأمرهن به ، ويدخل في ذلك تَرْكُ النياحةِ وشقُّ الجيوب ونَتْفُ الشَّعْرِ عند المصيبة وتخميش الوجوه والتبرُّجُ وإظهارُ الزينه . . وغير ذلك مما هو من شعائر الدِّين في الجملة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ .

الذين غضب الله عليهم هم الكفار . يئسوا من الآخرة كما يَئِسَ أصحاب القبور أن يعودوا

إلى الدنيا ويُبْعثوا (بعد ما تبينوا سوء منقلبهم) .

ويقال : كما يئس الكفار حين اعتقدوا أن الخَلْقَ لا يُبْعَثُون في القيامة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 569 . 574 ﴾

(378/760)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الممتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (1) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3)

الإعراب :

(أيّها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الذين) بدل من أيّ في محلّ نصب -أو عطف بيان- (لا) ناهية جازمة (أولياء) مفعول به ثان منصوب (إليهم) متعلّق بـ (تلقون) وكذلك (بالمودّة) " 1 "،

---

(1) أو متعلّق بحال من فاعل تلقون والباء للملابسة، ومفعول تلقون محذوف أي تلقون إليهم خبر الرسول.. وقيل الباء زائدة في المفعول.

و (الباء) سببيّة (الواو) حاليّة (قد) حرف تحقيق (بما) متعلّق بـ (كفروا)، (من الحقّ) متعلّق بحال من فاعل جاءكم (إيّاكم) ضمير منفصل في محلّ نصب معطوف على الرسول بالواو (أن) حرف مصدريّ ونصب (باللَّه) متعلّق بـ (تؤمنوا).

والمصدر المؤوّل (أن تؤمنوا..) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف هو اللام متعلّق بـ (يخرجون)...

(ربّكم) نعت للفظ الجلالة (كنتم) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط (جهادا) مصدر في موضع الحال "

(في سبيلي) متعلّق بـ (جهادا)، (ابتغاء) معطوف على (جهادا) منصوب (إليهم) متعلّق بـ

(تسرّون) ، (بالمودّة) مثل الأول في نوع التعليق (الواو) حاليّة (أعلم) خبر المبتدأ (أنا) وقصد به الوصف لا التفضيل (بما) متعلّق بـ (أعلم) ، والثاني معطوف عليه ، والعائدان لكليهما محذوفان (الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (منكم) متعلّق بحال من فاعل يفعله (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (سواء) مفعول به منصوب "2" .

جملة: "النداء ... "لا محلّ لها ابتدائية.

وجملة: "آمنوا ... "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "لا تتخذوا ... "لا محل لها جواب النداء .

وجملة: "تلقون ... "لا محلّ لها استئناف بيانيّ "3" .

وجملة: "كفروا ... "في محلّ نصب حال من ضمير الغائب في (إليهم) .

---

(1) أو مفعول مطلق لفعل محذوف.

(2) وإذا جعل (ضلّ) لازما كان (سواء) ظرفا له.

(3) أو في محلّ نصب حال من فاعل تتّخذوا ، أو في محلّ نصب نعت لأولياء .

وجملة: " جاءكم ... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: " يخرجون ... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 ".

وجملة: " تؤمنوا ... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: " كنتم خرجتم ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " خرجتم ... " في محلّ نصب خبر كنتم.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي فلا تتّخذوا عدوى.. أولياء.

وجملة: " تسرّون ... " في محلّ نصب حال من فاعل تتّخذوا جواب الشرط " 2 ".

وجملة: " أنا أعلم ... " في محلّ نصب حال من فاعل تسرّون وتلقون.

وجملة: " أخفيتم ... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول.

وجملة: " أعلنتم ... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني.

وجملة: " من يفعله ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يفعله ... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 ".

وجملة: " ضلّ ... " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

2 - (لكم) متعلّق بحال من أعداء " 4 "، (يبسطوا) مضارع مجزوم معطوف على (يكونوا) بالواو (إليكم) متعلّق بـ (يبسطوا)، (بالسوء) متعلّق بحال من فاعل يبسطوا و(الباء) للملابسة (الواو) عاطفة (لو) حرف مصدريّ..

والمصدر المؤوّل (لو تكفرون . .) في محلّ نصب مفعول به عامله ودّوا . . . .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل كفروا .

(2) أو هي بدل من جملة تلقون . . ويجوز أن تكون الجملة استئنافيّة .

(3) أو الخبر جملتا الشرط والجواب معا .

(4) أو متعلّق بأعداء .

وجملة : " يثقفوكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يكونوا . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " يبسطوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط .

وجملة : " ودّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط .

وجملة : " تكفرون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (لو) .

3 - (الواو) عاطفة والثانية استئنافيّة (لا) زائدة لتأكيد النفي (أولادكم) معطوف على (أرحامكم) مرفوع (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تنفعكم) " 1 " ، (ما) حرف مصدريّ " 2 " . .

والمصدر المؤوّل (ما تعملون . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بالخبر (بصير) .

وجملة : " لن تنفعكم أرحامكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يفصل بينكم " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " اللَّه . . . بصير " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

الصرف :

(3) أرحامكم : جمع رحم اسم لمستودع الجنين وبمعنى القرابة وزنه فعل بفتح فكسر وهو مؤنّث . . ووزن أرحام أفعال .

البلاغة

العدول عن المضارع إلى الماضي : في قوله تعالى وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ .

---

(1) أو متعلّق بـ (يفصل) ، والوقف تابع للتعليق ، أو العكس .

(2) أو هو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف .

(3) يجوز أن تكون معطوفة على جملة يفصل .

حيث عبّر بالماضي ، وإن كان المعنى على الاستقبال ، للاشعار بأن ودادتهم كفرهم قبل كل شيء ، وأنها حاصلة وإن لم يثقفوهم فهم يريدون أن يلحقوا بهم مضار الدنيا والدين جميعا ، من قتل الأنفس ، وتمزيق الأعراض ، وردهم كفارا أسبق المضارّ عندهم ، وأولها ، لعلمهم أن الدين أعز عليهم من أرواحهم ، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه .

الفوائد :

- قصة حاطب . .

روي أن مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم ، يقال لها سارة أتت رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) بالمدينة ، وهو يتجهز للفتح ، فقال لها : أ مسلمة جئت ؟ قالت : لا . قال : أفمهاجرة جئت ؟ قالت : لا . قال : فما جاء بك ؟ قالت : احتجت حاجة شديدة . فحث عليها بني عبد المطلب ، فكسوها وحملوها وزودوها ، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة ، وأعطاها عشرة دنانير ، وكساها بردا ، واستحملها كتابا إلى أهل مكة جاء فيه : (من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة ، اعلموا أن رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) يريدكم ، فخذوا حذركم) . فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر ، فبعث رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) عليا وعمارا وعمر وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد ، وكانوا فرسانا ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا (روضة خاخ) ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل

مكة ، فخذوه منها وخلوها ، فإن أبت فاضربوا عنقها ، فأدركوها ، فجحدت وحلفت ، فهمّوا بالرجوع ، فقال علي : واللَّه ما كذبنا ولا كذب رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) ، وسل سيفه وقال لها : أخرجي الكتاب أو تضعي رأسك . فأخرجته من عقاص شعرها . فاستحضر رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) حاطبا وقال : ما حملك على هذا ؟

فقال : يا رسول اللَّه ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكني كنت امرءا ملصقا من قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكل من معك من المهاجرين ، لهم قرابات بمكة ، يحمون أهاليهم وأموالهم ، فخشيت على أهلي ، فأردت أن أتخذ عندهم يدا ، وقد علمت أن اللَّه ينزل عليهم بأسه ، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئا فصدقه ، وقبل عذره . فقال عمر رضي اللَّه عنه : دعني يا رسول اللَّه أضرب عنق هذا المنافق . فقال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) : وما يدريك يا عمر

لعل اللَّه قد اطلع على أهل بدر ، فقال لهم اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم ، ففاضت عينا عمر رضي اللَّه عنه ، فنزل قوله تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 4 إلى 6]

قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5) لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6)

الإعراب:

(لكم) متعلّق بخبر كانت (في إبراهيم) متعلّق بـ (أسوة) " 1 " ، (معه) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة الذين (إذ) ظرف للمضيّ في محلّ نصب متعلّق بخبر كان " 2 " ، (لقومهم) متعلّق بـ (قالوا) ، (منكم) متعلّق بـ (برآء) ، وكذلك (ممّا) فهو معطوف على الجارّ الأول (من دون) حال من المفعول المحذوف لفعل العبادة (بكم) متعلّق بـ (كفرنا) ، (بيننا) ظرف منصوب متعلّق بحال من العداوة والبغضاء ، وكذلك (بينكم) فهو معطوف

---

(1) أو بنعت لأسوة . . أو هو خبر كانت و(لكم) حال من أسوة .

(2) أو بدل اشتمال من إبراهيم في محلّ جرّ . [. . . . .]

عليه (أبدا) ظرف زمان منصوب متعلّق بحال من العداوة والبغضاء (حتّى) حرف غاية وجرّ (تؤمنوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى (بالله) متعلّق بـ (تؤمنوا) ، (وحده) حال من لفظ الجلالة " 1 " منصوب (إلّا) للاستثناء (قول) مستثنى منصوب من أسوة " 2 " ، (لأبيه) متعلّق بـ (قول) (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (لك) متعلّق بـ (أستغفرنّ) ، (الواو) حاليّة (ما) نافية (لك) الثاني متعلّق بـ (أملك) ، (من الله) متعلّق بـ (أملك) بحذف مضاف أي من عذابه (شيء) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (ربّنا) منادى مضاف منصوب (عليك) متعلّق بـ (توكّلنا) ، (إليك) الأول متعلّق بـ (أنبنا) ، (إليك) الثاني خبر مقدّم للمبتدأ المؤخر (المصير) .

جملة : " كانت لكم أسوة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قالوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " إنّا برآء . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تعبدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : "كفرنا بكم " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " بدا . . . العداوة " لا محلّ لها معطوفة على جملة كفرنا .

وجملة : " تؤمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

والمصدر المؤوّل (أن تؤمنوا) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (بدا) .

وجملة : " أستغفرنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدرة في محلّ نصب مقول القول للمصدر قول إبراهيم .

وجملة : " ما أملك . . . " في محلّ نصب حال من فاعل أستغفرنّ " 3 " .

---

(1) هو مصدر بتأويل مشتقّ أي منفردا .

(2) أو مستثنى من إبراهيم بحذف مضاف أي في أقوال إبراهيم إلّا قول . .

(3) أو معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : " النداء وجوابه . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز قول إبراهيم " 1 " .

وجملة : " عليك توكّلنا " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أنبنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة توكّلنا .

وجملة : " إليك المصير " لا محلّ لها معطوفة على جملة توكّلنا .

5 – (ربّنا) مثل الأول (لا) ناهية جازمة (فتنة) مفعول به ثان منصوب (للذين) متعلّق بنعت لـ (فتنة) ، (لنا) متعلّق بـ (اغفر) ، (أنت) ضمير منفصل أستعير لمحلّ النصب لتأكيد الضمير المتصل اسم إنّ " 2 " .

وجملة : " النداء الثانية " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " لا تجعلنا . . . " لا محلّ لها جواب النداء الثاني .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " اغفر لنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تجعلنا .

وجملة : " النداء الثالثة " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائية .

وجملة : " انّك أنت العزيز " لا محلّ لها تعليلة لطلب الغفران .

6 – (اللام) لام القسم لقسم مقدر (قد) حرف تحقيق (كان لكم فيهم أسوة . .) مرّ إعرابها (لمن) بدل من (لكم) بإعادة الجارّ " (من) الثانية " اسم شرط في محلّ رفع مبتدأ (الفاء) رابطة لجواب الشرط (هو) ضمير فصل " 3 " . .

وجملة : " كان لكم . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر .

وجملة : " كان يرجو . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة مقول القول لقول مقدّر هو أمر من اللَّه أي قولوا ربّنا عليك توكّلنا ..

(2) يجوز أن يكون ضمير فصل يفيد التوكيد لا عمل له.

(3) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره الغنيّ، والجملة خبر إنّ.

وجملة: " يرجو اللَّه . . . " في محلّ نصب خبر كان (الثاني).

وجملة: " من يتولّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم " 1 ".

وجملة: " يتولّ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 ".

وجملة: " إنّ اللَّه هو الغنيّ . . . " لا محلّ لها تعليل لجواب الشرط المحذوف أي من يتولّ فإنّ وبال تولّيه على نفسه لأنّ اللَّه هو الغني.

[سورة الممتحنة (60) : آية 7]

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7)

الإعراب:

(أن) حرف مصدريّ ونصب (بينكم) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف مفعول به ثان

(بين) متعلّق مثل الظرف الأول فهو معطوف عليه (منهم) متعلّق بحال من اسم الموصول الذين (الواو) استئنافيّة، والثانية عاطفة.

جملة: "عسى اللَّه... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يجعل... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

والمصدر المؤوّل (أن يجعل..) في محلّ نصب خبر عسى..

وجملة: "عاديتم... " لا محل لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "اللَّه قدير... " لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة.

وجملة: "اللَّه غفور... " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة الأخيرة.

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 8 إلى 9]

---

(1) أو استئنافيّة.

(2) أو الخبر جملتا الشرط والجواب معا.

لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ

مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)

الإعراب :

(لا) نافية (عن الذين) متعلّق بـ (ينهاكم) ، (في الدين) متعلّق بـ (يقاتلوكم) والجارّ للتعليل ، (من دياركم) متعلّق بـ (يخرجوكم) ، (أن) حرف مصدريّ ونصب (تقسطوا) مضارع منصوب معطوف على تبرّوهم ، (إليهم) متعلّق بـ (تقسطوا) . .

والمصدر المؤوّل (أن تبرّوهم . .) في محلّ جرّ بدل من الموصول الذين أي لا ينهاكم اللَّه عن برّ الذين . . .

جملة : " لا ينهاكم اللَّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لم يقاتلوكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لم يخرجوكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " تبرّوهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " تقسطوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تبرّوهم .

وجملة : " إنّ اللَّه يحبّ . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يحبّ . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

9 - (إنّما) كافّة ومكفوفة (ينهاكم اللَّه عن . . . من دياركم) مثل الأولى (على إخراجكم) متعلق بـ (ظاهروا) ، (أن تولّوهم) مثل أن تبرّوهم (الواو) استئنافيّة (من) اسم

شرط في محلّ رفع مبتدأ (الفاء) رابطة للجواب (هم) للفصل " 1 " .

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره الظالمون، والجملة من المبتدأ والخبر في محل رفع خبر أولئك.

وجملة: " ينهاكم اللَّه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " قاتلوكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني.

وجملة: " أخرجوكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: " ظاهروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: " تولّوهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: " من يتولّهم . . . " لا محلّ لها استئناف في حكم التعليل.

وجملة: " يتولّهم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من).

وجملة: " أولئك . . . الظالمون " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

الصرف:

(9) تولّوهم: فيه حذف إحدى التاءين تخفيفا وأصله تتولّوهم . . وفيه إعلال بالحذف،

حذفت الألف لام الكلمة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، وزنه تفعّوهم.

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 10 إلى 11]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10) وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11)

الإعراب:

(يأيّها الذين آمنوا) مرّ إعرابها مفردات وجملا " 1 "، (الفاء) رابطة للجواب (بإيمانهنّ) متعلّق بـ (أعلم)، (الفاء) عاطفة والثانية رابطة للجواب (علمتموهن) ماض في محلّ جزم فعل الشرط.. و(الواو) زائدة إشباع حركة الميم (مؤمنات) مفعول به ثان (لا) ناهية جازمة (إلى الكفار) متعلّق بـ (ترجعوهنّ)، (لا) نافية مهملة في الموضعين (الواو) عاطفة في

المواضع الستة (لهم) متعلّق بـ (حلّ) ، (لهنّ) متعلّق بـ (يحلّون) ، (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به ثان (لا) نافية للجنس (عليكم) متعلّق بخبر لا (أن) حرف مصدريّ ونصب . .

و(الواو) في (آتيتموهنّ) زائدة للإشباع.

والمصدر المؤوّل (أن تنكحوهنّ) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بالاستقرار الذي هو خبر أي: في أن تنكحوهنّ.

(أجورهنّ) مفعول به ثان منصوب (لا) ناهية جازمة (بعصم) متعلّق بـ (تمسكوا) ، (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به لفعل السؤال في الموضعين ، والإشارة في (ذلكم) إلى الحكم المذكور في الآيات (بينكم) ظرف منصوب متعلّق بـ (يحكم) ، (الواو) استئنافيّة.

جملة: "جاءكم المؤمنات . . . " في محلّ جرّ مضاف اليه.

وجملة: "امتحنوهنّ . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "اللَّه أعلم . . . " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "علمتموهنّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء: الشرط وفعله وجوابه.

---

(1) في الآية (1) من هذه السورة.

وجملة : " لا ترجعوهنّ " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " لا هنّ حلّ . . . " لا محل لها تعليليّة .

وجملة : " لا هم يحلّون . . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

وجملة : " يحلّون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

وجملة : " آتوهم . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا ترجعوهنّ .

وجملة : " أنفقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " لا جناح عليكم . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا ترجعوهنّ .

وجملة : " تنكحوهنّ " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " آتيتموهنّ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

وجملة : " لا تمسكوا . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا ترجعوهنّ .

وجملة : " اسألوا . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا ترجعوهنّ .

وجملة : " أنفقتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " يسألوا . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا ترجعوهنّ .

وجملة : " أنفقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثالث .

وجملة : " ذلك حكم اللَّه " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يحكم . . . " لا محلّ لها تعليليّة " 1 " .

وجملة : " اللَّه عليم " لا محلّ لها استئنافيّة .

11 - (الواو) عاطفة (إن فاتكم) مثل إن علمتموهنّ (من أزواجكم) متعلّق بـ (فاتكم) بحذف مضاف أي من جهة أزواجكم " 2 " (إلى الكفّار) متعلّق بحال

---

(1) أو في محلّ نصب حال بتقدير الرابط أي يحكم بينكم به .

(2) أو متعلّق بمحذوف نعت لشيء بحذف مضاف أي : شيء من مهور أزواجكم .

من أزواجكم أي مرتدّات (الفاء) عاطفة والثانية رابطة لجواب الشرط (مثل) مفعول به ثان عامله آتوا (ما) موصول في محلّ جرّ مضاف إليه ، والعائد محذوف (الواو) عاطفة

(الذي) موصول في محلّ نصب نعت للفظ الجلالة (به) متعلّق بالخبر (مؤمنون) .

وجملة : " فاتكم شيء . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة علمتموهنّ . .

وما بين الجملتين اعتراض .

وجملة : " عاقبتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة فاتكم .

وجملة : " آتوا . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " ذهبت أزواجهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

(394/760)

وجملة : " أنفقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " اتّقوا . . . " في محلّ جزم

معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " أنتم به مؤمنون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

الصرف :

(10) عصم : جمع عصمة اسم بمعنى عقدة النكاح ، وزنه فعلة بكسر فسكون ، ووزن

عصم فعل بكسر ففتح .

(الكوافر) ، جمع كافرة مؤنث كافر ، اسم فاعل من الثلاثيّ كفر ، وزنه فاعل والكوافر

فواعل.

[سورة الممتحنة (60) : آية 12]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12)

الإعراب:

(يأيّها النبيّ) مثل يأيها الذين "1" (أن) حرف مصدريّ ونصب (لا) نافية (يشركن) مضارع مبنيّ على السكون في محلّ نصب "2"، و(النون) فاعل (باللّه) متعلّق بـ (يشركن)، (شيئا) مفعول مطلق نائب عن المصدر أي شيئا من الإشراك "3"، (لا) نافية في المواضع الخمسة (ببهتان) متعلّق بـ (يأتين)، (بين) ظرف منصوب متعلّق بحال من ضمير الغائب في (يفترينه) "4"، (في معروف) متعلّق بـ (يعصينك)، (الفاء) رابطة لجواب الشرط، (لهنّ) متعلّق بـ (استغفر) ..

جملة: "النداء ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "الشرط وفعله وجوابه ... " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "جاءك المؤمنات ... " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "يبايعنك ... " في محلّ نصب حال من المؤمنات.

وجملة : " لا يشركن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

والمصدر المؤوّل (ألّا يشركن) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بـ (يبايعنك) .

وجملة : " لا يسرقن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يشركن .

وجملة : " لا يزنين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يشركن .

وجملة : " لا يقتلن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يشركن .

وجملة : " لا يأتين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يشركن .

وجملة : " يفترينه . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يأتين " 5 " .

وجملة : " لا يعصينك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يشركن .

وجملة : " بايعهنّ " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

---

(1) في الآية (1) من هذه السورة .

(2) ومثله الأفعال (يسرقن ، يزنين ، يقتلن ، يأتين ، يعصينك) فهي في محلّ نصب معطوفة على (يشركن) بحروف العطف . [. . . . .]

(3) أو مفعول به ، أي شيئًا من الأصنام .

(4) أي يخلقن وجود الولد اللقيط بين أيديهن أي ينسبه إلى الرجل كالولد الحقيقيّ .

(5) أو في محلّ جرّ نعت لبهتان .

وجملة : " استغفر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط.

وجملة : " إنّ اللَّه غفور . . . " لا محل لها تعليليّة.

الفوائد :

- حدود اللَّه :

اشتملت هذه الآية على عدد من المحرمات التي حرمها اللَّه عز وجل ، وقد أخذ رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) البيعة من النساء ، على ألّا يقربن شيئًا منها . وهذه المحرمات هي : الشرك باللَّه ، والزنا ، وقتل الأولاد (الوأد) . حيث كانت المرأة في الجاهلية إذا جاءها المخاض انطرحت على شفير حفرة ، فإن كان المولود صبيا أخذوه ، وإن كان بنتا تركوه في الحفرة وردموه ، والبهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن يعني ذلك أن تلحق المرأة بزوجها غير ولده ، وذلك أن المرأة كانت تلتقط المولود ، فتقول لزوجها : هذا ولدي منك ، فهذا هو البهتان المفترى ، وليس المراد به الزنا ، لأن النهي عنه قد تقدم ، ومعنى بين أيديهن وأرجلهن ، أن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها . وكذلك حرم عليهن العصيان في المعروف ، وهو كل أمر فيه طاعة اللَّه ، وقيل : هو النهي عن النوح والدعاء بالويل وتمزيق

الثياب وحلق الشعر ونتفه وخمش الوجه. وأن لا تحدّث المرأة الرجال الأجانب، ولا تخلوا برجل غير ذي محرم. عن أم عطية قالت: بايعنا رسول الله (صلّى اللّه عليه وسلّم) فقرأ علينا "أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً" ونهانا عن النياحة.

[سورة الممتحنة (60) : آية 13]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ (13)

الإعراب:

(يأيها الذين آمنوا) مرّ إعرابها " 1 "، (لا) ناهية جازمة (عليهم) متعلّق بـ (غضب)، والضمير المجرور يعود على اليهود (من الآخرة) متعلّق بـ (يئسوا) بحذف مضاف أي من ثواب الآخرة (ما) حرف مصدريّ (من

---

(1) في الآية (1) من هذه السورة.

أصحاب) متعلّق بـ (يئس) " 1 ". والمصدر المؤوّل (ما يئس..) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يئسوا أي: يئسوا من الآخرة يأسا كيأس الكفّار...

جملة: " النداء ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " آمنوا ... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: " لا تتولّوا ... " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " غضب اللَّه ... " في محلّ نصب نعت لـ (قوما).

وجملة: " يئسوا ... " في محلّ نصب نعت ثان لـ (قوما) " 2 ".

وجملة: " يئس الكفّار ... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

البلاغة

فن الاستطراد: في قوله تعالى يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

فهذه الآية متصلة بخاتمة قصة المشركين، الذين نهي المؤمنون عن اتخاذهم أولياء بقوله تعالى لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ، وقوله سبحانه وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، وقوله تعالى يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ إلخ مستطرد، فإنه لما جرى حديث المعاملة مع الذين لا يقاتلون المسلمين، والذين يقاتلونهم وقد أخرجوهم من ديارهم، أتى بحديث المعاملة مع نسائهم، ولما فرغ من ذلك أوصل الخاتمة بالفاتحة، على منوال رد العجز على الصدر، من حيث المعنى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الجدول حـ 28 صـ 213. 229 ﴾

---

(1) أي كيأس الكفّار من موتاهم بعدم بعثهم.. ويجوز أن يتعلّق بحال من الكفّار، أي

الكفّار حالة كونهم من المقبورين.

(2) أو لا محلّ لها في حكم التعليل للنهي عن تولية القوم.

(397/760)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(60) سورة الممتحنة

مدنيّة وآياتها ثلاث عشرة

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (1) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3)

الإعراب:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ)

يا حرف نداء وأيّها منادى نكرة مقصودة مبني على الضم والهاء للتنبيه والذين بدل من أيدي وجملة آمنوا صلة ولا ناهية وتتخذوا فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعل وعدوي مفعول به، وهو يقع على الواحد فما فوقه لأنه بزنة المصدر، وعدوكم عطف على عدوي وأولياء مفعول به ثان وجملة تلقون حال من فاعل تتخذوا ويجوز أن تكون في موضع نصب صفة لأولياء ويجوز أن تكون تفسيرية لا محل لها لموالاتهم إياهم وقيل هي استئناف مسوق للإخبار بذلك وتلقون فعل وفاعل والمفعول به محذوف تقديره إخبار رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وقيل الباء زائدة والمودّة هي المفعول به ولا حذف وإليهم متعلق بتلقون (وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ) الواو حالية وقد حرف تحقيق وكفروا فعل وفاعل والجملة حال من لا تتخذوا أو من تلقون والمعنى لا توادوهم وهذه حالهم وبما متعلقان بكفروا وجملة جاءكم صلة ومن الحق حال (يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ) جملة

يخرجون مستأنفة أو مفسّرة لكفرهم فلا محل لها على الحالين ويجوز أن تكون حالا من فاعل كفروا والرسول مفعول وإياكم عطف على الرسول وأن تؤمنوا مصدر مؤول في محل نصب مفعول لأجله أي لإيمانكم بالله وبالّله متعلق بتؤمنوا وربكم بدل (إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي) إن شرطية وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والتاء اسمها وجملة خرجتم خبر كنتم وجهادا مفعول لأجله أي لأجل الجهاد ويجوز أن يكون النصب على الحال أي حال كونكم مجاهدين وجواب الشرط محذوف دلّ عليه قوله لا تتخذوا (تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ) جملة تسرون إما مستأنفة وإما تابعة لتلقون إليهم على أنها بدل بعض من كل لأن إلقاء المودّة أعمّ من السرّ والجهر ، وتسرون

فعل مضارع مرفوع والواو فاعل والمفعول به محذوف وبالمودّة متعلقان بتسرون أو الباء زائدة في

المفعول على غرار ما تقدم في تلقون إليهم بالمودّة والواو حالية وأنا مبتدأ وأعلم خبر على أنه اسم تفضيل وبما متعلقان بأعلم وجملة أخفيتم صلة ما ويجوز أن تكون أعلم فعلا مضارعا

وما أعلنتم عطف على بما أخفيتم (وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) الواو عاطفة أو مستأنفة ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ويفعله فعل الشرط والفاعل مستتر تقديره هو والهاء مفعول به والفاء رابطة لجواب الشرط لاقترانه بقد وضلّ فعل وفاعله هو وسواء السبيل مفعوله وقيل ضلّ لازم فينصب سواء السبيل على الظرفية المكانية (إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً) إن شرطية ويثقفوكم فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والكاف مفعول به ويكونوا جواب الشرط وعلامة جزمه حذف النون أيضا والواو اسمها وأعداء خبرها ولكم حال وفي المصباح:

"

ثقفت الشيء ثقفا من باب تعب أخذته وثقفت الرجل في الحرب أدركته وثقفته ظفرت به وثقفت الحديث فهمته بسرعة والفاعل ثقيف" (وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ) عطف على يكونوا وإليكم متعلقان بيبسطوا وأيديهم مفعول به وألسنتهم عطف على أيديهم وبالسوء حال (وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ) عطف أيضا على جملة الشرط والجزاء فيكون تعالى قد أخبر بخبرين: بما تضمنته الجملة الشرطية وبودادتهم كفر المؤمنين وسيأتي سر

العدول عن المضارع إلى الماضي ، ولو مصدرية وتكفرون فعل مضارع مرفوع ولو وما في حيّزها مصدر في محل نصب مفعول ودّوا (لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ) كلام مستأنف مسوق للإعلام بأن أرحامهم وأولادهم لن ينفعوهم ، ولن حرف نفي ونصب واستقبال وتنفعكم فعل مضارع منصوب بلن والكاف مفعول به مقدم وأرحامكم فاعل مؤخر ولا أولادكم عطف على أرحامكم ويوم القيامة ظرف متعلق بما قبله أي لن ينفعكم يوم القيامة فيوقف عليه أو متعلق بما بعده أي يفصل بينكم يوم القيامة ، ويفصل فعل مضارع

وفاعله هو أي اللّه تعالى وقرئ يفصل بالبناء للمجهول وبينكم ظرف متعلق بيفصل على كل حال (وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) اللّه مبتدأ وبما متعلقان ببصير وجملة تعملون صلة وبصير خبر اللّه .

البلاغة :

عدل عن المضارع المناسب لما قبله في قوله " وودّوا لو تكفرون " إلى الماضي مع أن السياق يتطلب أن يكون مضارعا مستقبلا لاعتباره قد كان أي أن ودادتهم كفركم هو المهم لديهم ولا شيء يعدله في الرجحان ، يعني أنهم يريدون أن يلحقوا بكم جميع مضار الدنيا والدين وارتدادكم كفّارا أسبق المضار لكم لأنهم يعلمون أن الدين أعزّ عليكم من أرواحكم وهذا

من بديع التعبير.

الفوائد :

و قد آن أن ننقل إليك خلاصة وافية للقصة التي نزلت السورة بسببها لما فيها من متعة وفائدة فقد روى الأئمة واللفظ لمسلم عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه قال : بعثنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال : ائتوا روضة خاخ- بالصرف وعدمه- موضع بينه وبين المدينة اثنا عشر ميلا ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فانطلقنا نهادي خيلنا أي نسرعها فإذا نحن بامرأة فقلنا اخرجي الكتاب فقالت : ما معي كتاب فقلنا لتخرجنّ الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : يا حاطب ما هذا ؟ فقال : لا تعجل عليّ يا رسول

اللّه إنّي كنت امرأ ملصقا في قريش- قال سفيان : كان حليفا لهم ولم يكن من أنفسها- وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم فأحببت إذ فاتني ذلك من

النسب فيهم أن اتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي ولم أفعله كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام وقد علمت أن اللّه ينزل بهم بأسه وإن كتابي لا يغني عنهم شيئا وأنّ اللّه ناصرك عليهم فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : صدق فقال عمر : دعني يا رسول اللّه أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إنه شهد بدرا وما يدريك لعلّ اللّه اطّلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فأنزل اللّه عزّ وجلّ : " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء " الآية . قيل اسم المرأة سارة وهي مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم .

نص الكتاب :

أما نص كتاب حاطب فهو " أما بعد فإن رسول اللّه قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل وأقسم باللّه لو لم يسر إليكم إلا وحده لأظفره اللّه بكم ولأنجز له موعده فيكم فإن اللّه وليّه وناصره " .

وذكر القشيري والثعلبي أن حاطب بن أبي بلتعة كان رجلا من أهل اليمن وكان في مكة حليف بني أسد بن عبد العزّى رهط الزبير بن العوّام وقيل كان حليفا للزبير بن العوّام

فقدمت من مكة سارة إلى المدينة ورسول اللّه يتجهز لفتح مكة فقال لها رسول اللّه :
أمهاجرة جئت يا سارة؟ فقالت : لا فقال : أمسلمة جئت؟ قالت : لا قال : فما جاء بك؟

قالت : كنتم الأهل والموالي والأصل والعشير وقد ذهب بعض الموالي يعني قتلوا يوم بدر وقد احتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني فقال عليه الصلاة والسلام : فأين أنت من شباب مكة وكانت
مغنية قالت ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر ، فحث رسول اللّه بني عبد المطلب على إعطائها فكسوها وحملوها وأعطوها فخرجت إلى مكة وأتاها حاطب فقال أعطيك عشرة دنانير وبردا على أن تبلغي هذا الكتاب إلى أهل مكة وكتب في الكتاب أن رسول اللّه يريدكم فخذوا حذركم إلى آخر القصة .

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 4 إلى 7]

قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ

وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7)

اللغة:

(أُسْوَةٌ) بضم الهمزة وكسرها وقد قرئ بها أيّ القدوة وما يتعزى به والجمع أسى بضم الهمزة وكسرها أيضا.

(بُرَآءُ) جمع بريء كظريف وظرفاء ويجمع أيضا على براء بكسر الباء كظريف وظرف وعلى براء بضم الباء كتؤام وظؤار وعلى أبراء وأبرياء والبريء الخالص والخالي وخلاف المذنب والمتهم.

الإعراب:

(

قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ) كلام مستأنف مسوق لضرب المثال الجدير بالاحتذاء في النهي عن موالاة الكفّار والركون إلى الأعداء وأن الصدور المطوية على الضغن يجب أن تبقى على عدائها حتى يزول السبب القائم فإذا زال انقلبت العداوة مودّة

والبغضاء محبة . وقد حرف تحقيق وكانت فعل ماض ناقص ولكم خبرها المقدّم وأسوة اسمها المؤخر وحسنة نعت لأسوة ، وفي إبراهيم :

لك أن تعلقه بمحذوف صفة ثانية لأسوة أو حال منها لأنها وصفت ، وعبارة أبي البقاء " فيه أوجه : أحدها هو نعت آخر لأسوة والثاني هو متعلق بحسنة تعلق الظرف بالعامل والثالث أن يكون حالا من الضمير في حسنة والرابع أن يكون خبرا لكان ولكم تبيين ولا يجوز أن يتعلق بأسوة لأنها قد وصفت " وقد ردّ على أبي البقاء عدد من المعربين الوجه الأخير لأن الظروف يغتفر فيها ما لا يغتفر بغيرها ، والذين عطف على إبراهيم ومعه ظرف مكان متعلق بمحذوف هو الصلة للذين (إِذْ قالوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآَؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) إذ ظرف لما مضى من الزمن أي حين قالوا وهو بدل اشتمال من إبراهيم والذين معه وهذا أولى الأعاريب المتكلفة التي ذكرها أبو البقاء وغيره ، وجملة قالوا في محل

جر بإضافة الظرف إليها ولقومهم متعلقان بقالوا وإن واسمها وبرآء خبرها والجملة مقول قولهم ومنكم متعلق ببرآء ومما عطف على منكم وجملة تعبدون صلة ومن دون اللّه حال (كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) الجملة مفسّرة للتبرؤ منهم ومما يعبدون ولك أن تجعلها حالا أي تبرأنا منكم حال كوننا كافرين بكم، وكفرنا فعل وفاعل وبكم متعلق بكفرنا وبدا فعل ماض وبيننا ظرف متعلق ببدا وبينكم ظرف معطوف على بيننا والعداوة فاعل والبغضاء عطف على العداوة وأبدا ظرف متعلق ببدا أيضا وحتى حرف غاية وجر وتؤمنوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى وباللّه متعلقان بتؤمنوا ووحده حال (إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) ما قبله مرتب عليه بطريق الحالية ويجوز العطف أيضا، وما نافية وأملك فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا ولك متعلقان بأملك ومن اللّه حال لأنه كان في الأصل صفة لشيء ومن حرف جر زائد وشيء مجرور لفظا منصوب محلا على أنه

مفعول أملك (رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) تتمة مقول قول الخليل إبراهيم والذين معه فهو من جملة المستثنى منه فيتأسى به فيه فهو في المعنى مقدّم على الاستثناء

وجملة الاستثناء اعتراضية في خلال المستثنى منه وعبارة الكشاف " فإن قلت بم اتصل قوله تعالى : ربنا عليك توكلنا قلت بما قبل الاستثناء وهو من جملة الأسوة الحسنة ويجوز أن يكون المعنى : قولوا ربنا أمرا من اللّه تعالى للمؤمنين بأن يقولوه وتعليما منه لهم تتميما لما وصّاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفّار والائتساء بإبراهيم وقومه في البراءة منهم وتنبيها على الإثابة إلى اللّه والاستعاذة به من فتنة أهل الكفر والاستغفار مما فرط منهم " أي فهو مقول قول محذوف وربنا منادى مضاف وعليك متعلقان بتوكلنا وإليك متعلقان بأنبنا والواو عاطفة وإليك خبر مقدّم والمصير مبتدأ مؤخر (رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ربنا منادى مضاف أيضا ولا ناهية والمقصود به الدعاء وتجعلنا فعل مضارع مجزوم بلا ونا مفعول به أول وفتنة مفعول به ثان وهو مصدر بمعنى الفاعل أي لا تجعلنا فاتنين لهم بأن ينتصروا علينا فتقصف عقولهم وتفتتن وتسوّل لهم أنفسهم أنهم على حق ، أو بمعنى المفعول كما قرر البيضاوي أي لا تجعلنا

مفتونين بهم بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا طاقة لنا باحتماله ، وللذين متعلقان بفتنة على الحالين وجملة كفروا صلة الموصول وربنا منادى مضاف كرره للتأكيد وإن واسمها

وأنت ضمير فصل أو مبتدأ والعزيز خبر إن أو خبر أنت والجملة خبر إن والحكيم خبر ثان على كل حال (لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) الجملة تابعة لجملة قد كانت لكم أسوة تأكيد لها أتى بها للمبالغة في التحريض على الحكم. واللام موطئة لقسم مقدّر وقد حرف تحقيق وكان فعل ماض ناقص ولكم خبرها المقدّم وفيهم حال وأسوة اسم كان المؤخر وحسنة نعت لأسوة ولمن

بدل بعض من كل من لكم بإعادة الجار وقيل بدل اشتمال وجملة كان صلة لمن واسم كان مستتر تقديره هو وجملة يرجو الله خبر كان واليوم الآخر عطف على الله (وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ويتول فعل الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلّة والفاء رابطة للجواب والجواب محذوف تقديره فإن وبال توليه على نفسه وإن واسمها وخبراها تعليل للجواب (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً) عسى فعل من أفعال الرجاء والله اسمها وأن يجعل في موضع الخبر وبينكم ظرف في موضع المفعول الثاني ليجعل وبين الذين عاديتهم عطف على الظرف ومودّة مفعول يجعل الأول ومنهم حال من الذين عاديتم (وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) مبتدأ وخبر وعطف عليهما مثيلهما.

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 8 إلى 9]

لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)

الإعراب :

(لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ) كلام مستأنف مسوق لبيان الترخيص في صلة الذين لم يقاتلوا المؤمنين ولم يخرجوهم

من ديارهم ولا نافية وينهاكم اللّه فعل مضارع ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وعن الذين متعلقان بينهاكم وجملة لم يقاتلوكم صلة الموصول وفي الدين متعلقان بيقاتلوكم أي لأجله (وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) ولم يخرجوكم عطف على لم يقاتلوكم ومن دياركم متعلقان بيخرجوكم وأن تبرّوهم في موضع جر بدل اشتمال من الذين ، وتقسطوا إليهم عطف على تبروهم وإن واسمها وجملة يحبّ المقسطين خبرها وجميل قول الزمخشري بهذا الصدد " وناهيك بتوصية اللّه المؤمنين أن يستعملوا

القسط مع المشركين به ويتحاموا ظلمهم مترجمة عن حال مسلم يجترىء على ظلم أخيه المسلم " (إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ) إنما كافّة ومكفوفة وينهاكم اللّه فعل مضارع ومفعول به مقدّم وفاعل مؤخر وعن الذين متعلقان بينهاكم وجملة قاتلوكم صلة الذين وفي الدين متعلقان بقاتلوكم (وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ) وأخرجوكم عطف على قاتلوكم ومن دياركم متعلقان بأخرجوكم وظاهروا عطف أيضا وعلى إخراجكم متعلقان بظاهروا أي عاونوا على إخراجكم وأن وما في حيّزها بدل اشتمال من الذين وقد تقدم نظيره (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم مبتدأ ويتولهم فعل الشرط والفاء رابطة وجملة أولئك هم الظالمون في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من .

[سورة الممتحنة (60) : الآيات 10 إلى 13]

(410/760)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ

وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10) وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ (13)

اللغة :

(فَامْتَحِنُوهُنَّ) فابتلوهنّ واختبروهن ولذلك سمّيت السورة الممتحنة بكسر الحاء أي المختبرة ، أراد المرأة أو الجماعة الممتحنة فقد ذكر فيها أمر جماعة المؤمنين بالامتحان ، وإن فتحت الحاء يكون المعنى سورة المرأة المهاجرة التي نزلت فيها آية الامتحان وسيأتي حديثها في باب الفوائد .

)

بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ) العصم جمع عصمة وهي هنا عقد النكاح وكل ما عصم به الشيء فهو عصام وعصمة وقد مرّت خصائص العين والصاد فاء وعينا ، والكوافر جمع كافرة كضوارب في ضاربة ، وعبارة أبي حيان " وقال الكرخي : الكوافر يشمل الرجال والنساء فقال له أبو علي الفارسي النحويون لا يرون هذا إلا في النساء جمع كافرة فقال أليس يقال : طائفة كافرة وفرقة كافرة قال أبو علي : فبهت فقلت هذا تأييد " والكرخي هذا معتزلي فقيه وأبو علي معتزلي أيضا فأعجبه هذا التخريج وليس بشيء لأنه لا يقال كافرة في وصف الرجال إلا تابعا لموصوفها أو يكون محذوفا مرادا أما بغير ذلك فلا يجمع فاعلة على فواعل إلا ويكون للمؤنث .

الإعراب :

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ) إذا ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه منصوب بجوابه وجملة جاءكم في محل جر بإضافة الظرف إليها والمؤمنات فاعل مؤخر ومهاجرات حال والفاء رابطة وجملة امتحنوهنّ لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وهو فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والهاء مفعول به (اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ) الله مبتدأ وأعلم خبر وبإيمانهنّ متعلقان بأعلم لأنه أفعل تفضيل والفاء عاطفة وإن شرطية وعلمتموهنّ فعل

الشرط وهو فعل وفاعل ومفعول به أول ومؤمنات مفعول به ثان والفاء رابطة للجواب لأنه جملة طلبية ولا ناهية وترجعوهنّ فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون وإلى الكفّار متعلقان بترجعوهنّ (لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ) الجملة لا محل لها لأنها تعليلية لقوله فلا ترجعوهنّ، ولا نافية

وهنّ مبتدأ وحلّ خبر ولهم متعلقان بحل ولا هم يحلّون لهنّ عطف على الجملة الآنفة مماثلة لها (وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا) الواو عاطفة وآتوهم فعل ماض وفاعل ومفعول به والضمير يعود إلى الكفّار أي أعطوا أزواجهنّ الكفّار ما أنفقوا عليهن، وما مفعول به ثان وجملة أنفقوا صلة ما أي ما أنفقوا عليهنّ من المهور (وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) الواو عاطفة ولا نافية للجنس وجناح اسمها المبني على الفتح وعليكم خبر لا وأن حرف مصدري ونصب وتنكحوهنّ فعل مضارع منصوب بأن والمصدر المؤول في محل نصب بنزع الخافض أي في أن تنكحوهنّ والجار والمجرور متعلقان بجناح وإذا ظرف متضمن معنى الشرط وجملة آتيتموهنّ في محل جر بإضافة الظرف إليها وأجورهنّ مفعول ثان لآتيتموهنّ (وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ) الواو عاطفة ولا ناهية وتمسكوا فعل مضارع مجزوم بلا والواو

فاعل وبعصم الكوافر متعلقان بتمسكوا (وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا) الواو عاطفة واسألوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وما مفعول به وجملة أنفقتم لا محل لها لأنها صلة ما ، وليسألوا الواو عاطفة واللام لام الأمر ويسألوا فعل مضارع مجزوم بلام الأمر وما مفعول به وجمل أنفقوا صلة (ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) ذلكم مبتدأ والاشارة إلى الحكم الوارد في الآيات وحكم اللّه خبر وجملة يحكم استئنافية أو حالية من حكم اللّه وبينكم ظرف متعلق بيحكم واللّه مبتدأ وعليم خبر أول وحكيم خبر ثان (وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا) الواو عاطفة لتتساوق الأحكام ، وإن شرطية وفاتكم فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وشيء فاعل فاتكم

ومن أزواجكم فيه وجهان أولهما يجوز أن يتعلق بفاتكم أي من جهة أزواجكم ويراد بالشيء المهر الذي غرمه الزوج لأنه ورد أن الرجل المسلم إذا فرّت زوجه إلى الكفار أمر اللّه المؤمنين أن يعطوه ما غرمه

وثاني الوجهين أنه يتعلق بمحذوف على أنه صفة لشيء ثم يجوز في شيء أن يراد به ما تقدم

من المهور ولكن على هذا لا بدّ من حذف مضاف أي من مهور أزواجكم ليتطابق الموصوف وصفته ويجوز أن يراد بالشيء النساء أي نوع وصنف منهنّ ، وإلى الكفار متعلقان بمحذوف حال أي ذاهبات أو سابقات ، فعاقبتم الفاء عاطفة وعاقبتم فعل وفاعل أي فغزوتم وغنمتم وأصبتموهم في القتال ، فآتوا الفاء رابطة وآتوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة في محل جزم جواب الشرط والذين مفعول به وجملة ذهبت أزواجهم صلة ومثل مفعول به ثان وما موصول مضاف لمثل وجملة أنفقوا صلة (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ) واتقوا الله فعل أمر وفاعل ومفعول به والذي نعت وأنتم مبتدأ وبه متعلق بمؤمنون ومؤمنون خبر أنتم والجملة لا محل لها لأنها صلة الذي (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً) إذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجمل جاءك في محل جر بإضافة الظرف إليها والكاف مفعول به والمؤمنات فاعل ويبايعنك فعل مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون

النسوة والنون فاعل والكاف مفعول به والجملة حالية أي حال كونهنّ طالبات للمبايعة وعلى حرف جر وأن وما في حيّزها في محل جر بعلى والجار والمجرور متعلقان بيبايعنك

وشيئا مفعول مطلق أي شيئا من الإشراك (وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ) كلام معطوف على أن لا يشركن ومعنى يقتلن أولادهنّ كما كان الحال في زمن الجاهلية من وأد البنات ، وببهتان متعلقان بيأتين وجملة يفترينه حالية وبين أيديهنّ وأرجلهنّ الظرف متعلق بمحذوف حال من الضمير المنصوب في يفترينه أي يأتين بولد ملقوط ينسبنه إلى الزوج ، وجميل وصفه بصفة الولد الحقيقي فإن الولد متى وضعته أمه سقط بين يديها ورجليها ، فبايعهنّ الفاء رابطة

لجواب إذا وجملة بايعهنّ لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) الواو عاطفة واستغفر فعل أمر ولهنّ متعلقان باستغفر واللّه مفعول به وجملة إن اللّه غفور رحيم تعليل للأمر بالاستغفار (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) كلام مستأنف مسوق لاختتام السورة بمثل ما ابتدأها من النهي عن اتخاذ الكفار أولياء ، ولا ناهية وتتولوا فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون وقوما مفعول به وجملة غضب اللّه عليهم نعت لقوما (قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) الجملة نعت ثان لقوما أو حال بعد أن وصف ، وقد حرف تحقيق ويئسوا فعل

وفاعل ومن الآخرة متعلقان بيئسوا وكما نعت لمصدر محذوف ويئس الكفار فعل وفاعل والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول الحرفي ومن أصحاب القبور فيه وجهان أحدهما أن من لابتداء الغاية كالأولى والمعنى أنهم لا يوقنون ببعث الموتى البتة فيأسهم من الآخرة كيأسهم من موتاهم لاعتقادهم عدم بعثهم والثاني أن من لبيان الجنس يعني أن الكفّار هم أصحاب القبور فيكون متعلق الجار والمجرور بمحذوف حال ومتعلق يئس الثاني محذوفا والمعنى أن هؤلاء يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار حال كونهم من أصحاب القبور من خير الآخرة.

البلاغة:

في قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب اللّه عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفّار من أصحاب القبور" فن الاستطراد وهو فن رفيع من فنون البيان وقد ذكر الحاتمي أنه نقل هذه التسمية عن البحتري الشاعر وسمّاه ابن المعتز الخروج من معنى إلى معنى ومنه في القرآن المجيد "ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود" فقد

استطرد ، وفي الآية التي نحن بصددها ذمّ اليهود واستطرد ذمّهم بذمّ المشركين على نوع حسن من النسبة ، والاستطراد في اللغة مصدر استطرد الفارس من قرنه في الحرب وذلك أن يفرّ من بين يديه يوهمه الانهزام ثم يعطف عليه على غرّة منه ، وفي الاصطلاح أن تكون في غرض من أغراض الشعر توهم أنك مستمر فيه ثم تخرج منه إلى غيره لمناسبة بينهما ولا بدّ من التصريح باسم المستطرد بشرط أن لا يكون قد تقدم له ذكر ثم ترجع إلى الأول ، أو يكون آخر الكلام وقيل إن أول شاهد ورد في هذا النوع وسار مسير الأمثال قول السموأل :

وإنّا لقوم لا نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول

فانظر إلى خروجه الداخل في الافتخار إلى الهجو وحسن عوده إلى ما كان عليه من الافتخار بقوله :

يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

ومنه قول حسان بن ثابت :

إن كنت كاذبة الذي حدّثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام

فانظر كيف خرج من الغزل إلى هجو الحارث بن هشام وهو أخو أبي جهل أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه ومات يوم اليرموك بالشام ، ومنه أيضا قول البحتري من قصيدة في وصف فرس :

كالهيكل المبني إلا أنه في الحسن جاء كصورة في هيكل

ملك العيون فإن بدا أعطيته نظر المحب إلى الحبيب المقبل

ما إن يعاف قذى ولو أوردته يوما خلائق حمدويه الأحول

ومثله قول بعضهم يصف خمرا طبخت حتى راقت وصفت :

لم يبق منها وقود الطابخين لها إلا كما أبقت الأنواء من داري

فما أحلى استطراده من وصف الخمر إلى وصف داره بالخراب .

ومن الغريب في هذا الباب الاستطراد من الهجو إلى الهجو كقول جرير يهجو الفرزدق :

لها برص بأسفل أسكتيها كعنفقة الفرزدق حين شابا

الفوائد :

اشتملت هذه السورة على فوائد تاريخية وتشريعية نورد منها ما يتعلق بموضوع كتابنا ونحيل القارئ إلى كتب الفقه والتفاسير المطوّلة :

1- روى التاريخ أنه لما فرغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من مبايعة الرجال يوم فتح مكّة أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل منه يبايعهنّ بأمره ويبلغهنّ

عنه وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان منتقبة متنكرة مع النساء خوفا من رسول اللّه أن يعرفها لما صنعت بحمزة يوم أحد فقالت : واللّه إنك لتأخذ علينا أمرا ما رأيتك أخذته على الرجال وكان قد بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط فقال رسول اللّه ولا يسرقن فقالت إن أبا سفيان شحيح وإني أصبت من ماله هنات فما أدري أتحلّ لي أم لا فقال أبو سفيان ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال فضحك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وعرفها فقال لها : وإنك لهند بنت عتبة قالت نعم فاعف ما سلف يا نبي اللّه عفا اللّه عنك فقال ولا يزنين فقالت أو تزني الحرة ؟

وفي رواية : ما زنت منهنّ امرأة فقال عليه الصلاة والسلام : ولا يقتلن أولادهنّ فقالت ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا فأنتم وهم أعلم وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى وتبسم

رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال : ولا يأتين ببهتان فقالت : واللّه إن البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق فقال ولا يعصينك في معروف فقالت واللّه ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء .

2- ذكروا في كيفية وأد البنات روايات شتى نرى أن أقربها إلى المنطق ما روي عن ابن عباس قال : "كانت المرأة في الجاهلية إذا قربت ولادتها حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فإذا ولدت بنتا رمت بها في الحفرة وردّت التراب عليها وإذا ولدت غلاما أبقته ، وكان الرجل في الجاهلية إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية أي بنت ست سنين يقول لأمها طيّبيها وزيّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها وقد حفر لها بئرا في الصحراء فيذهب بها إلى البئر فيقول لها انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 56.74﴾

(419/760)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والستون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/761)

الجزء الحادى والستون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الصف)

(4/761)

(سورة الصف)

(5/761)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الصف

وتسمى الحواريين .

مقصودها الحث على الاجتهاد التام في الاجتماع على قلب واحد في جهاد من دعت الممتحنة إلى البراءة منهم ، بحملهم على الدين الحق ، أو محقهم عن جديد الأرض أقصى المحق ، تنزيها للملك الأعلى عن الشرك ، وصيانة لجنابه الأقدس عن الإفك ، ودلالة على الصدق في البراءة منهم والعداوة لهم ، فهي نتيجة سورة التوبة ، وأدل عما فيها على هذا المقصد الصف بتأمل آيته ، وتدبر ما له من جليل النفع في أوله وأثنائه وغايته ، وكذا الحواريون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 570 ﴾

(6/761)

"فصل"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . سبح لله . . . الصف)

السّورة مكّيّة بالاتّفاق .

آياتها أَربع عشرة .

كلماتها مائتان وإِحدى وعشرون .

وحروفها تسعمائة .

مجموع فواصل آياتها (صمن) .

وعلى الصّاد آية واحدة : مرصوص .

ولها اسمان : سورة الصّف ؛ لقوله : ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً ﴾ ، وسورة الحَوارّيّين .

لقوله : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ وقيل : تسمّى سورة عيسى .

معظم مقصود السّورة : عتاب الذين يقولون أَقوالاً لا يعملون بمقتضاها ، وتشريف صفوف الغُزَاة والمصلّين ، والتَّنبيهُ على جفاءِ بنى إِسرائيل ، وإِظهار دِين المصطفى على سائر الأَديان ، وبيان التجارة الرّابحة مع الرّحيم الرّحمن ، والبشارة بنصر أَهل الإِيمان ، على أَهل الكفر والخِذلان ، وغلبة بنى إِسرائيل على أَعدائهم ذوى العُدْوان ، فى قوله ﴿ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ ﴾ .

والسّورة محكمة، خالية عن الناسخ والمنسوخ.

المتشابهات:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بالألف واللام، وفى غيرها ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بالنكرة [لأنها أكثر استعمالا مع المصدر من المعرفة، وخصّت هذه السورة بالمعرفة لأنه] إشارة إلى ما تقدّم من قول اليهود والنّصارى.

قوله: ﴿لِيُطْفِئُوا﴾ باللام؛ لأن المفعول محذوف.

وقيل: اللام زيادة.

وقيل: محمول على المصدر.

قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جزم على جواب الأمر؛ فإن قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ محمول على الأمر أى آمِنوا وليس بعده: (من) ولا (خالدين).

فضل السّورة

فيه حديث مُنْكَر عن أُبىّ: مَنْ قرأ سورة عيسى كان عيسى مصلّيًا مستغفراً له ما دام [فى] الدّنيا، وهو يوم القيامة رفيقه، ولم نجد فى رواية علىّ لهذه السّورة ذكر فضيلة والله أَعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 462. 463﴾

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الصف

437 – مسألة :

قوله تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ)

بالألف واللام وسائر المواضع : افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) منكرا .

جوابه :

أن المراد بآية الصف : كذب خاص وهو جعلهم البينات

سحرا

والمراد في بقية المواضع : أي كذب كان ، وعطف عليه (أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ) أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ

وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ) (أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ) و شبه ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني

صـ 356.355﴾

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الصف

اشتهرت هذه السورة باسم (سورة الصَّف) وكذلك سميت في عصر الصحابة .

روى ابن أبي حاتم سنده إلى عبد الله بن سَلاَم أن نَاساً قالوا : (لو أرسلنا إلى رسول الله نسأله عن أحب الأعمال) إلى أن قال : (فدعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أولئك النفَرَ حتى جمعهم ونزلتْ فيهم (سورة سبح لله الصّف) الحديث ، رواه ابن كثير ، وبذلك عنونت في (صحيح البخاري) وفي (جامع الترمذي) ، وكذلك كتب اسمها في المصاحِف وفي كتب التفسير .

ووجه التسمية وقوع لفظ) صَفًّا ((الصف : 4) فيها وهو وصف القتال ، فالتعريف باللام تعريف العهد .

وذكر السيوطي في (الإِتقان) : أنها تسمّى (سورة الحواريين) ولم يسنده . وقال الألوسي تسمّى (سورة عِيسى) ولم أقف على نسبته لقائل . وأصله للطبرسي فلعلّه أخذ من حديث رواه في فضلها عن أبيّ بن كعب بلفظ (سورة عيسى) . وهو حديث موسوم بأنه موضوع . والطبرسي يكثر من تخريج الأحاديث الموضوعة . فتسميتها (سورة الحواريين) لذكر الحواريين فيها . ولعلّها أول سورة نزلت ذكر فيها لفظ الحواريين .

وإذا ثبت تسميتها (سورة عيسى) فِلما فيها من ذكر) عيسى ((الصف : 6 و 14)

مرتين

(9/761)

وهي مدنية عند الجمهور كما يشهد لذلك حديث عبد الله بن سَلاَم . وعن ابن عباس ومجاهد وعطاء أنها مكية ودرج عليه في (الكشاف) والفخر . وقال ابن عطية : الأصح أنها مدنية ويشبه أن يكون فيها المكيّ .

واختلف في سبب نزولها وهل نزلت متتابعة أو متفرقة متلاحقة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ 171 . 172 ﴾

(10/761)

وقال الشيخ سيد قطب :

مقدمة لسورة الصف

هذه السورة تستهدف أمرين أساسيين واضحين في سياقها كل الوضوح , إلى جانب

الإشارات والتلميحات الفرعية التي يمكن إرجاعها إلى ذينك الأمرين الأساسيين:

تستهدف أولا أن تقرر في ضمير المسلم أن دينه هو المنهج الإلهي للبشرية في صورته الأخيرة , سبقته صور منه تناسب أطوارا معينة في تاريخ البشرية , وسبقته تجارب في حياة الرسل وحياة الجماعات , تمهد كلها لهذه الصورة الأخيرة من الدين الواحد , الذي أراد الله أن يكون خاتمة الرسالات . وأن يظهره على الدين كله في الأرض . .

ومن ثم يذكر رسالة موسى ليقرر أن قومه الذين أرسل إليهم آذوه وانحرفوا عن رسالته فضلوا , ولم يعودوا امناء على دين الله في الأرض:(وإذ قال موسى لقومه:يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم , والله لا يهدي القوم الفاسقين) . . وإذن فقد انتهت قوامة قوم موسى على دين الله ; فلم يعودوا أمناء عليه , مذ زاغوا فأزاغ الله قلوبهم , ومذ ضلوا فأضلهم الله والله لا يهدي القوم الفاسقين .

ويذكر رسالة عيسى ليقرر أنه جاء امتدادا لرسالة موسى , ومصدقا لما بين يديه من التوراة , وممهدا للرسالة الأخيرة ومبشرا برسولها ; ووصلة بين الدين الكتابي الأول والدين الكتابي الأخير: وإذ قال عيسى ابن مريم:يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم , مصدقا لما بين يدي من التوراة , ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد . . وإذن فقد جاء ليسلم أمانة الدين الإلهي التي حملها بعد موسى إلى الرسول الذي يبشر به .

وكان مقررا في علم الله وتقديره أن تنتهي هذه الخطوات إلى قرار ثابت دائم , وأن يستقر دين

الله في الأرض في صورته الأخيرة على يدي رسوله الأخير: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .

(11/761)

هذا الهدف الأول الواضح في السورة يقوم عليه الهدف الثاني . فإن شعور المسلم بهذه الحقيقة , وإدراكه لقصة العقيدة , ولنصيبه هو من أمانتها في الأرض . . يستتبع شعوره بتكاليف هذه الأمانة شعورا يدفعه إلى صدق النية في الجهاد لإظهار دينه على الدين كله - كما أراد الله - وعدم التردد بين القول والفعل ; ويقبح أن يعلن المؤمن الرغبة في الجهاد ثم ينكص عنه , كما يبدو أنه حدث من فريق من المسلمين كما تذكر الروايات . . ومن ثم يجيء في مطلع السورة بعد إعلان تسبيح الكون وما فيه لله . . (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ? كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) .

ثم يدعوهم في وسط السورة إلى أربح تجارة في الدنيا والآخرة: (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ? تؤمنون بالله ورسوله , وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات

تجري من تحتها الأنهار , ومساكن طيبة في جنات عدن , ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب , وبشر المؤمنين) .

ثم يختم السورة بنداء أخير للذين آمنوا , ليكونوا أنصار الله كما كان الحواريون أصحاب عيسى أنصارها إلى الله , على الرغم من تكذيب بني إسرائيل به وعدائهم لله: (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين: من أنصاري إلى الله ? قال الحواريون: نحن أنصار الله . فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة , فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) . .

(12/761)

هذان الخطان واضحان في السورة كل الوضوح , يستغرقان كل نصوصها تقريبا . فلا يبقى إلا التنديد بالمكذبين بالرسالة الأخيرة - وهذه قصتها وهذه غايتها - وهذا التنديد متصل دائما بالخطين الأساسيين فيها . وذلك قول الله تعالى , عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد ذكر تبشير عيسى - عليه السلام - به: (فلما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ? والله لا يهدي القوم الظالمين . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم , والله متم نوره , ولو كره الكافرون) . .

وفيه يتضح في ضمير المسلم أن دينه هو دين الله في صورته الأخيرة في الأرض ; وأن أمانة العقيدة في البشرية كلها موكولة إليه ; يعلم أنه مكلف أن يجاهد في سبيل الله , كما يحب الله ; ويتضح طريقه , فلا يبقى في تصوره غبش , ولا يبقى في حياته مجال للتمتمة والغمغمة في هذه القضية , أو للتردد والتلفت عن الهدف المرسوم والنصيب المقسوم في علم الله وتقديره منذ بعيد .

وفي أثناء توجيهه إلى هذا الهدف الواضح يوجه كذلك إلى خلق المسلم وطبيعة ضميره . وهو أن لا يقول ما لا يفعل , وألا يختلف له قول وفعل , ولا ظاهر وباطن , ولا سريرة وعلانية . وأن يكون هو نفسه في كل حال . متجردا لله . خالصا لدعوته . صريحا في قوله وفعله . ثابت الخطو في طريقه . متضامنا مع إخوانه . كالبنيان المرصوص . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3550. 3551 ﴾

(13/761)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الصف

مدنية وآياتها أربع عشرة آية

بين يدي السورة

* سورة الصف هي إحدى السور المدنية ، التي تعنى بالأحكام التشريعية ، وهذه السورة تتحدث عن موضوع (القتال) وجهاد أعداء الله ، والتضحية في سبيل الله ، لإعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، وعن التجارة الرابحة التي بها سعادة المؤمن في الدنيا والآخرة ، ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو (القتال والجهاد لإعلاء كلمة الله) ولهذا سميت سورة الصف ، لأن المراد به اصطفاف المجاهدين للحرب .

* ابتدأت السورة الكريمة - بعد تسبيح الله وتمجيده - بتحذير المؤمنين من إخلاف الوعد ، وعدم الوفاء بما التزموا به [سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون] ؟ .

* ثم تحدثت عن قتال أعداء الله بشجاعة المؤمن وبسالته ، لأنه يقاتل من أجل غرض نبيل ، وهو رفع منار الحق ، وإعلاء كلمة الله [إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص] .

* وتناولت السورة بعد ذلك موقف اليهود من دعوة (موسى وعيسى) عليهما السلام ، وما أصابهما من الأذى في سبيل الله ، وذلك تسلية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما ناله من كفار مكة [وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني . .] الآيات .

* وتحدثت السورة عن سنة الله في نصرة دينه ، وأنبيائه ، وأوليائه ، وضربت المثل

للمشركين في عزمهم على محاربة دين الله ، بمن يريد إطفاء نور الشمس بفمه الصغير الحقير [يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون] .

* ودعت السورة المؤمنين إلى التجارة الرابحة ، وحرضتهم على الجهاد في سبيل الله ، بالنفس والنفيس ، لينالوا السعادة الدائمة الكبيرة ، مع النصرة العاجلة في الدنيا ، وخاطبتهم بأسلوب الترغيب والتشويق [يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله . .] الآيات .

(14/761)

---

* وختمت السورة بدعوة أهل الإيمان إلى نصرة (دين الرحمن) ، كما فعل الحواريون أصحاب عيسى ، حين دعاهم إلى نصرة دين الله ، فاستجابوا ونصروا الحق والرسول [يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين] . وهكذا يتناسق البدء مع الختام في أبدع بيان وإحكام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير ـ 3 صـ 369 ـ 370 ﴾

(15/761)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الصف

(لِمَ) أي لأىّ شىء تقولون قد فعلنا كذا وكذا ، وأنتم لم تفعلوا ؟ والمراد بذلك التّأنيب والتوبيخ على صدور هذا الكذب منهم ، كبر : أي عظم ، والمقت : أشد البغض وأعظمه ، ورجل مقيت وممقوت إذا كان يبغضه كل أحد ، والمرصوص :

المحكم ، قال المبرد : تقول رصصت البناء إذا لا أمت بين أجزائه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة .

تؤذوننى : أي تخالفون أمرى بترك القتال ، زاغوا : أي أصرّوا على الزيغ والانحراف عن الحق الذي جاء به موسى عليه السلام ، أزاغ اللّه قلوبهم : أي صرفها عن قبول الحق ، الفاسقين : أي الخارجين عن الطاعة ومنهاج الصدق المصرّين على الغواية ، وأحمد : من أسماء نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، قال حسان :

صلّى الإله ومن يحفّ بعرشه والطّيّبون على المبارك أحمد

الإسلام : الاستسلام والانقياد والخضوع للّه عز وجل ، والمراد من إبطال نور اللّه بأفواههم إرادتهم إبطال الإسلام ، بنحو قولهم هذا سحر مفترى ، واللّه متم نوره :

أي والله متم الحق ومبلغه غايته ، بالهدى : أي بالقرآن ، ودين الحق : أي بالملة السمحة ، ليظهره : أي ليعليه ، على الدين كله : أي على سائر الأديان .

التجارة هنا : ما يقدمه المرء من عمل صالح ، لينال به الثواب كما قال سبحانه :

"إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ" طيبة : أي طاهرة مستلذة ، جنات عدن : أي بساتين إقامة وخلود ، قريب : أي عاجل وهو فتح مكة ، وحوارىّ الرجل : صفيه وخليله ، وأنصار الله : أي الناصرون لدينه ، فأيدنا :

أي قوّينا وساعدنا ، على عدوهم : أي الكفار ، ظاهرين : أي غالبين . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المراغى حـ 28 صـ 79 . 89 ﴾ . باختصار .

(16/761)

وقال الفراء :

سورة (الصف)

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ . . . ﴾ .

كان المسلمون يقولون : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لأتيناه ، ولو ذهبتْ فيه أنفسنا

وأموالنا ، فلما كانت وقعة أحد فتولوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شُجّ وكسرت رباعِيتُهُ فقال: ﴿لِمَ تقولونَ مَا لا تفعَلونَ﴾ لذلك. ثم قال: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ [أَن تَقُولُواْ . . . ﴾ فأن فى موضع رفع لأن (كبر) بمنزلة قولك: بئس رجلاً أخوك ، وقوله: كَبُرَ مَقْتاً عند الله]: أضمر فى كبر آسما يكون مرفوعا . وأما قوله ﴿كَبُرَتْ كَلمة﴾ فإن الحسن قرأها رفعا ، لأنه لم يضمر شيئا ، وجعل الفعل للكلمة ، ومن نصب أضمر فى كبرت اسما ينوى به الرفع .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾

وقوله: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ . . . ﴾ بالرصاص ، حثهم على القتال .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ . . . ﴾ .

قرأها يحيى أو الأعمش شك الفراء: "والله متمُّ نورِه" بالإضافة ، ونونها أهل الحجاز: متمٌّ نورَه . وكلٌّ صواب .

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . . . ﴾ ﴿تُؤْمِنُونَ . . . ﴾ .

وفى قراءة عبدالله: آمنوا ، فلو قيل فى قراءتنا : أن تؤمنوا ؛ لأنه ترجمة للتجارة . وإذا فسرْت الاسم الماضى بفعل جاز فيه أن وطرحها ؛ تقول للرجل: هل لك فى خير تقوم بنا إلى المسجد فنصلى ، وإن قلت: أن تقوم إلى المسجد كان صوابا . ومثله مما فسر ما قبله على وجهين قوله: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ : أَنَّا ، وإنا ، فمن قال: أنا ها هنا فهو الذى يدخل (أَنْ) فى يقوم ، ومن قال: إنا فهو الذى يلقى (أنْ) من تقوم ، ومثله: ﴿ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا ﴾ و (إِنَّا) .

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

وقوله: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ . . . ﴾ .

جزمت فى قراءتنا فى هل . وفى قراءة عبدالله للأمر الظاهر ، لقوله: (آمِنوا) ، وتأويل: هل أدلكم أمر أيضاً فى المعنى ، كقولك للرجل: هل أنت ساكت ؟ معناه: اسكت ، والله أعلم .

﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا . . . ﴾ .

فى موضع رفع ؛ أى: ولكم أخرى فى العاجل مع ثواب الآخرة ، ثم قال: ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ

وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾: مفسّر للأخرى، ولو كان نصرا من الله، لكان صوابا، ولو قيل: وآخر تحبونه يريد: الفتح، والنصر. كان صوابا.

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾

وقوله: ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ. . . ﴾.

(18/761)

قرأها عاصم بن أبى النَّجود مضافا، وقرأها أهل المدينة: أنصاراً الله، يفردون الأنصار، ولا يضيفونها، وهى فى قراءة عبد الله: أنتم أنصار الله. انتهى انتهى. اهـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 153. 155 ﴾

(19/761)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الصف

(مرصوص) [4] مكتنز ، ملتصق بعضه ببعض ، كأنه رص بالرصاص ، قال الراعي:

1272- ما لقي البيض من الحرقوص 1273- يفتح باب المغلق المرصوص . (وأخرى تحبونها) [13] يجوز في موضع الجر عطفاً على (تجارة) . ويجوز في موضع الرفع بتقدير ولكم تجارة أخرى .

[تمت سورة الصف] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1500 ﴾

(20/761)

وقال الأخفش :

سورة (الصف)

﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾

قال ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ ﴾ أي: كَبُرَ مَقْتُكُم مقتاً ، ثم قال ﴿ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ أَيْ: قولُكم .

﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّن اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[و] قال ﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا ﴾ يقول: وتجارةٌ أُخْرَى [176] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 541 ﴾

(21/761)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الصف

مدنية كلها «1»

4 - . . . بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ «2» أي يثبتون في القتال ولا يبرحون ، فكأنهم بناء قد رص .

14 - مَنْ أَنصارِي إِلَى اللَّهِ ؟ أي مع اللّه .

قال الْحَوارِيُّونَ : شيعة عيسى عليه السلام . يقال : كانوا قصّارين [يحوّرون الثياب] .

و«التّحوير» للثياب وغيرها : تبييضها .

فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ : غالبين عالين عليهم . من قولك : ظهرت على فلان ، إذا علوته .

وظهرت على السطح : إذا صري فوقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 398 ﴾

---

(1) وهو قول الجمهور، وقيل هي مكية.

(2) قال ابن عباس: مرصوص ملصق بعضه ببعض.

وقال الغزنوى:

سورة الصف

4 مَرْصُوصٌ: مكتنز ملتصق بعضه ببعض كأنها رصّ بالرصاص «1».

12 وَأُخْرى تُحِبُّونَها جرّ الموضع عطفا على تِجارَةٍ «2» أو رفع بتقدير: ولكم تجارة أخرى «3». انتهى انتهى. ا هـ ﴿معانى القرآن/ للغزنوى حـ 2 صـ 816﴾

---

(1) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 464، وتفسير الطبري: 28/ 86، ومعاني

الزجاج:

5/ 164، والمفردات للراغب: 196.

(2) من قوله تعالى: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ [آية: 10]، وهذا الوجه في إعراب (وأخرى) قول الأخفش في معانيه: 2/ 708، وإعراب القرآن للنحاس

:

(4/ 422، 423) .

(3) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 154 ، ووصفه النحاس في إعراب القرآن : 4/ 423 بأنه أصح من قول الأخفش ، فقال : «يدل على ذلك : نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ بالرفع ولم يخفضا ، وعلى قول الأخفش الرفع بإضمار مبتدأ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أي : بالنصر والفتح» .

وانظر تفسير الطبري : 28/ 90 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 166 ، والتبيان للعكبري : 2/ 1221 .

(23/761)

وقال ملاحويش :

تفسير سورة الصّف

عدد 23 و109 - 61 نزلت بالمدينة بعد سورة التغابن وهي أربع عشرة آية ومئتان وإحدى وعشرون كلمة ، وتسعمئة حرف ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها ، وبينا السّور المبدوءة بما بدئت به أول سورة الحديد المارة ، ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به ولا مثلها في عدد الآي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ" من شيء "وَهُوَ الْعَزِيزُ" المنيع الجانب القاهر كلّ شيء على تسبيحه وتنزيهه طوعا أو كرها قالا أو حالا ، راجع الآية 45 من سورة الإسراء ج 1 وأول سورة الحديد المارة "الْحَكِيمُ" (1) بأفعاله وأوامره ونواهيه فلا يخلق إلّا عن حكمه ، ولا يأمر إلّا بحكمة ، ولا يفعل إلّا لحكمة ، قال عبد اللّه بن سلام قعدنا نفرا من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فتذاكرنا ، فقلنا لو نعلم أي الأعمال أحب إلى اللّه لعملناها ، وكانت نزلت آية الجهاد العاشرة من سورة التحريم المارة ، وتباطأ بعضهم عنه ، وكان يتمنى نزول الأمر بالجهاد ، فأنزل اللّه "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ" (2) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ"

(3) وكان من عادة العرب الّذين هم عرب يفعلون ولا يقولون فيقضون حوائج المحتاجين ودين المدينين ونصرة المظلومين ولا يدرى بهم ، ثم قلت المروءة عند بعضهم فصاروا يفعلون ويقولون ، ثم تدانوا وتخاسسوا فصاروا لا يقولون ولا يفعلون ، ثم تدنت نفوسهم ورذلت فصاروا يقولون ولا يفعلون ، فذمهم اللّه تعالى في هذه الآية وأنبهم بأن القول بلا فعل مما يوقع العبد في غضب اللّه ويبعده عنه ، ومن هذا القبيل من يعد بشيء ويقوله ولا يفعله ، ومن يتعهد ولا يوفي ، ويحلف ويخلف ، ويواثق وينكث .

ثم بين جل جلاله العمل الذي يحب اللّه فاعله عند لزومه أكثر من غيره ، فقال "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ" إعلاء لكلمته وابتغاء مرضاته "صَفًّا" تجاه أعدائه لا يزولون ولا يروغون عن أماكنهم إلّا للتقدم ليكيدوا عدوهم ، فتراهم في تضامنهم وتلاحقهم ومتانتهم في صفوف الحرب "كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ" (4) بعضه ببعض لا ترى فيهم فرجة تمكن العدو من الدّخول فيها بينهم ، أو يجعل بسببها خللا في صفوفهم ، وكان التراص في ذلك الزمن مطلوبا لأن من الفرسان من يقحم بفرسه فيمزّق الصّف المخلل والذي فيه فرجة فيفتك فيه بما أوتي من عزم وحزم فيفرقه ويقع الرّعب في قلوب الآخرين فينصرون ، والتراص باب من أبواب الحرب في زمن الأصحاب فمن بعدهم ، أما الآن وقد أحدثت الصّواعق والقاذفات والدّبابات فقد يكون في مكان دون مكان بحسب قوة العدو وآلاته وعدده ، وقد ورد عنه صلّى اللّه عليه وسلم أن اللّه يحب من يثبت في الجهاد ويلزم مكانه كثبوت البنيان ، وهو يشير إلى التحذير من الهزيمة ، لأنه من الكبائر المهلكة ولهذا يجازى عليها بالإعدام ولعذاب الآخرة أشد وأمر ، راجع الآية 94 من سورة البقرة والآية 176 من آل عمران والآية 15 فما بعدها من سورة الأنفال المارات .

قال تعالى "وَ" أذكر لقومك يا سيد الرّسل "إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي" بتعنتكم وتطاولكم على اللّه إذ تقولون أرنا اللّه جهرة ولن نصبر على طعام واحد وتتهموني بأني آذر

، وتحرضون الباغية عليّ ، وتنسبون لي قتل هارون أخي وعضيدي على إرشادكم كما مر في الآيتين 56 و62 من الأحزاب المارتين ، وتنكرون رسالتي

(25/761)

"وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ" خاصة وطاعتي عليكم واجبة تعظيما لمن أرسلني وإن الأنبياء مبرّءون من العيوب ومعصومون بعصمة اللّه وهم بشر مثلكم لا قدرة لهم على إجابة ما تقترحونه عليهم إلّا بإذن اللّه "فَلَمَّا زاغُوا" عن الحق وأسروا على عنادهم "أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ" عن الهداية وخذلهم وحرمهم من نور الإيمان وأضلهم عن اتباعه وأعماهم عن سبيله فخرجوا عن السّبيل إلى السّبل فضلوا وأضلوا وخسروا ، راجع الآية 152 من الأنعام في ج 2 "وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ" (5) الخارجين عن طاعته .

تنبه هذه الآية إلى أن أذى الرّسل يؤدي إلى الكفر ونزع نور الإيمان بحيث لا يبقى فيه قابلية للهداية "وَ" أذكر لقومك يا أكمل الرّسل أيضا "إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ" بدلالة الوصف الموجود لي في توراتكم وإخبار الأنبياء قبلى إني آتيكم رسولا من قبل اللّه وقد بعثت لكم "مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ" بالإنجيل الذي أنزله اللّه علي وخفف به بعض ما في التوراة من التشديد راجع الآية 50 من آل عمران المارة تقف

على هذا التخفيف "وَ" كما بشرت بي الأنبياء أممها ، فقد جئت "مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ" قال أبو موسى في حديث طويل سمعت النّجاشي يقول أشهد أن محمدا رسول الله ، وأنه الذي بشّر به عيسى ، ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحملت من أمر النّاس لأتيته حتى أحمل نعليه – أخرجه أبو داود – راجع تفسير الآية 199 من آل عمران المارة تعرف النّجاشي وعقيدته وصلاة الرّسول عليه .

وقال عبد اللّه بن سلام : مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى بن مريم ، فقال أبو داود والمدني قد بقي في البيت موضع قبر – أخرجه الترمذي – أي بقي في الحجرة المدفون بها حضرة الرّسول وصاحبيه موضع ليدفن فيه عيسى بن مريم راجع الآية 62 من سورة الزخرف ج 2 وفي اسم احمد إشارة إلى أن الأنبياء كلهم حامدون للّه ومحمد وأحمدهم له ، وإن الأنبياء كلهم محمودون ، ومحمد أكثرهم حمدا روى البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم قال قال صلّى اللّه عليه وسلم لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا احمد ، وأنا الماحي الذي يمحو اللّه بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر النّاس

على قدمي يوم القيامة ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي "فَلَمَّا جاءَهُمْ" الرسول المبشر به من قبل موسى وعيسى بالبينات "قالُوا" أي المرسل إليهم "هذا" الذي جاء به محمد من الآيات "سِحْرٌ مُبِينٌ" (7) ظاهر لا يخفى على أحد ، فقد كذبوا وافتروا على الرّسول من اتهامهم له بالسحر ، وعلى المرسل من كونه غير نبي ، والافتراء على الرّسل افتراء على المرسل ، ولهذا يقول جل قوله "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ" فيقول هذا سحر بدل التصديق والإجابة إليه وهذا كذب بدل الاعتراف به ، فمثل هذا لا أظلم منه البتة "وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (7) أنفسهم بالإنكار والجحود عقوبة لهم "يُرِيدُونَ" هؤلاء الظّلمة بافترائهم هذا "لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ" بأقوالهم المجردة عن الصّدق "وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ" بإظهاره على غيره وعلو كلمة الإسلام على سائر الأديان "وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ" (8) رغما عنهم شاءوا أم أبو "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ" فلا يبقى على وجه الأرض دين إلّا وقد نسخ به وغلب أهله من قبل الإسلام لقوة دليله وعظيم برهانه وجليل سلطانه "وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ" (9) ذلك ، فإنه ظاهر عليهم .

ونظير هاتين الآيتين الآيتان 23 و24 من سورة التوبة الآتية .

وهذا سيكون ان شاء الله ، ويتم بنزول عيسى عليه السّلام إذ يحكم النّاس ويدينهم بدين

محمد صلّى اللّه عليه وسلم فلا يبقى إذ ذاك دين على وجه الأرض يعبد اللّه فيه إلّا دين الإسلام ، لأن الأديان السّائرة تضمحل وينضم بعض أهلها لدين الإسلام ، وكان هذا زمن الرّسول ومن بعده وإلى الآن ، ثم تجتمع الكلمة على الإسلام فقط إن شاء اللّه فلا يبقى إلّا مؤمن وكافر .

(28/761)

قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ" (10) كما ينجي التاجر الرّابح من الفقر ويغنيه غنى ما بعده غنى ،

وكأنهم قالوا ما هي هذه التجارة ؟ فأنزل اللّه قوله "تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ" الإيمان والجهاد هما أحب الأعمال إلى اللّه تعالى التي تسألون عنها ، وأكثر ثوابا من جميع الأعمال

(29/761)

فهي التجارة الرّابحة "خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (11) ما ينتج عنها لأن نتيجه الإيمان دخول الجنان ورضى الرّحمن ، ونتيجة الجهاد علو الشّأن ورفعة المجد ، وهذا أفضل من ربح المال مع بقاء النّفس ذليلة حقيرة بسبب تسلط عدوها عليها ، لأن النّفس الأبية التي تحب الموت في سبيل عزها لتوهب لها الحياة الطّيبة التي هي أحسن من كلّ شيء ،

والفعلان بمعنى الأمر أي آمنوا وجاهدوا وجوابهما فعل يغفر الآتي ، أي إذا فعلتم هذا فإنه تعالى "يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ" الدنيوية ويعزّكم في دنياكم لاختياركم طريق العز "وَيُدْخِلْكُمْ" في الآخرة "جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (12) لأن فيه خير الدّنيا والآخرة فلا أعظم فوزا منه لأنه مما يعمل العاقل له في دنياه لينال في عقباه "وَ" تجارة "أُخْرَى تُحِبُّونَهَا" وهي في الدّنيا فقط "نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ" على أعدائكم "وَفَتْحٌ قَرِيبٌ" (13) لبلاد أعدائكم واستيلائكم عليها واغتنام ما لدى أهلها ، وقد كان هذا والحمد للّه في صدر الإسلام وبعده ، ولكن خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصّلاة واتبعوا الشّهوات فحرموا تلك الفتوحات والغنائم وملاذ النّصر والظّفر ، لإضاعتهم أمر دينهم وتفرق كلمتهم وتكالبهم على الدّنيا وخوفهم من الموت ، وعسى أن يردهم اللّه لاقتفاء آثار أوائلهم فينالوا ما نالوه ويذوقوا طعم العز والظّفر .

ونظير هذه الآيات الآية 25 من سورة الأنفال المارة فما بعدها ، وقد رتب فيها الحياة على الجهاد ، زرع اللّه في قلوبنا حبه لإعلاء كلمته ، وجعلنا من المحبين لدعوته المقصودين بفضله ، وما ذلك على اللّه بعزيز "وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" بالنصر والفتوح يا سيد الرّسل في هذه الدّنيا والفوز والسّعادة في العقبي ما داموا مؤمنين حقا ، وإنما سمى الجهاد تجارة لما فيه من الرّبح العظيم والعزّ في الدّنيا ورضى اللّه والجنّة في الآخرة ، وهذه تبشر المؤمنين حال نزولها بقرب فتح مكة إنجازا لوعد اللّه به لهم ، وقد كان ذلك ، وفيها بشارة عامة لكل مؤمن يتصف بما ذكره اللّه في هذه الآية بالنصر والفوز على أعدائه في كلّ مكان وزمان .

قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ" لنبيكم وأجيبوا دعوته ولبوا كلامه وابذلوا شيئكم له "كَما قالَ

عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ"

(31/761)

أصحابه الّذين آمنوا به "مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ" على إعلاء كلمته وإظهار دينه وخلاص عباده مما يشينهم "قالَ الْحَوارِيُّونَ" ملبّين دعوته رغبة بما وعدهم اللّه على لسانه "نَحْنُ

أَنصارُ اللَّهِ" جنوده المجيبون لأمره المؤدون لشعائره المعينون له على أعدائه ، أي كونوا أنتم يا أمة محمد مثل هؤلاء الأبرار لتفوزوا بخير الدّنيا والآخرة ، فجاهدوا بأموالكم وأنفسكم مع إمامكم مع سلطانكم مع أميركم ، ولا تهنوا وقد كنتم الأعلون "فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ" بالسيد عيسى عليه السّلام وأجابت دعوته وجاهدت في سبيل اللّه فغنمت ، إذ نشرت دعوته بعد رفعه بين النّاس ، فآمن بهم خلق كثير فعلى المؤمنين من أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلم أن يتعاونوا ويقوموا دائما ببث دعوته والسّعي على طريقته ليفوزوا ببغيتهم ويظفروا بأعدائهم ، فتعلو كلمتهم فيحوزون خير الدّنيا والآخرة ، ولا يكونون لا سمح اللّه مثل المعنيين بقوله جل قوله "وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ" به فلم تجب دعوته ولم تؤمن به ونصبت له العداء من أجل تكليفهم لهدى اللّه ونفعهم بآلائه فخسرت وخابت .

فكونوا يا أمة محمد من الطّائفة الأولى التي ملأت الأرض لتعلو كلمتهم ويرفع مجدكم فتدخلوا في قوله تعالى "فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ" وعدو ربهم "فَأَصْبَحُوا" أولئك المؤمنون "ظاهِرِينَ" (14) على الكافرين اللّهم أيد المؤمنين على الكافرين برحمتك يا أرحم الرّاحمين .

هذا واللّه أعلم .

وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى

آله وأصحابه وأتباعه أجمعين ، وسلم تسليما كثيرا ، والحمد للّه رب العالمين . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 6 صـ 248.253 ﴾

(32/761)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الصف

مكية أو مدنية

الحكيم تام ما لا تفعلون الأول كاف ما لا تفعلون الثاني تام وكذا مرصوص رسول الله إليكم كاف وكذا قلوبهم الفاسقين تام اسمه احمد كاف مبين تام الإسلام كاف الظالمين حسن الكافرون تام وكذا المشركون أليم كاف وأنفسكم حسن عند بعضهم العظيم كاف وفتح قريب تام وأتم منه وبشر المؤمنين من أنصاري إلى الله كاف وكذا أنصار الله وقوله وكفرت طائفة آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(33/761)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الصف

مكية أو مدنية أربع عشرة آية إجماعاً ليس فيها اختلاف وكلمها مائتان وإحدى وعشرون كلمة وحروفها تسعمائة وستة وعشرون حرفاً وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع موضع واحد وهو قوله وفتح قريب

وما في الأرض (حسن)

الحكيم (تام) وفي قوله لم ثلاث لغات لم ولمه بالهاء ولم بإسكان الميم

مالا تفعلون الأول (كاف)

عند الله (حسن) إن جعل موضع أن رفعاً خبر مبتدأ محذوف تقديره هو أن تقولوا وليس بوقف إن جعل مبتدأ وما قبله خبراً له أي قولكم مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أو بتقدير مبتدأ أي هو أن تقولوا ومثله في عدم الوقف جعل أن تقولوا بدلاً من ضمير كبر أي كبر هو أي القول مقتاً عند الله

مالا تفعلون الثاني (تام)

صفاً ليس بوقف لأنَّ قوله كأنَّهم تشبيه فيما قبله

مرصوص (تام) إن نصب إذ بمقدر

أَنِّي رسول الله إليكم (كاف) ومثله قلوبهم

الفاسقين (تام) إن علق إذ بمقدر

إليكم الثاني ليس بوقف لأنَّ مصدقاً حال مما قبله

من بعدي (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل جملة اسمه أحمد في موضع جر صفة رسول أو في موضع نصب حالاً من فاعل يأتي

اسمه أحمد (كاف)

بالبينات ليس بوقف لأنَّ الذي بعده جواب فلما

مبين (تام)

إلى الإسلام (كاف) ومثله الظالمين على استئناف ما بعده

بأفواههم (حسن)

متم نوره ليس بوقف على القراءتين قرأ الأخوان وحفص وابن كثير بإضافة متم لنوره والباقون بتنوينه ونصب نوره وجملة والله متم حالية من فاعل يريدون أو يطفؤا وقوله ولو كره حال من هذه الحال وجواب لو ما قبله قد قام مقامه أي الله أتم دينه وأظهره على سائر الأديان كلها وكذا يقال في قوله ولو كره المشركون

الكافرون (تام)

ودين الحق ليس بوقف لأنَّ بعده لام كي ومثله في عدم الوقف كله لأنَّ قوله ولو كره قد قام ما

قبله مقام جوابه

المشركون (تام)

(34/761)

أليم (كاف) إن جعل تؤمنون خبر مبتدأ محذوف أي تلك التجارة هي تؤمنون فالخبر نفس المبتدأ فلا يحتاج لرابط وكذا إن جعل تؤمنون بمعنى آمنوا بمعنى الأمر لأنَّ بعده يغفر مجزوم على جواب الأمر ونظير ذلك قول العرب اتقي الله امرؤ فعل خيراً يثب عليه معناه ليتق الله فانجزم قوله يثب على تقدير هذا الأمر فكذلك انجزم يغفر على تقدير آمنوا وجاهدوا وليس أليم بوقف إن جعل تؤمنون بمعنى أن تؤمنوا فهو منصوب المحل تفسيرا للتجارة فلما حذف أن ارتفع الفعل كقوله ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى

الأصل إن أحضر فكأنَّه قال هل أدلكم على تجارة منجية إيمان وجهاد وهو معنى حسن لولا ما فيه من التأويل قاله المبرد وعليه فلا يوقف من قوله تؤمنون إلى قوله في جنات عدن لأن يغفر مجزوم على جواب الأمر فلا يفصل بين الأمر وجوابه بالوقف وقال الفراء هو مجزوم على جواب الاستفهام وهو قوله هل أدلكم واختلف الناس في تصحيح هذا القول فبعضهم غلطة قال الزجاج ليسوا إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا

يعني أَنَّه ليس مرتباً على مجرد الاستفهام ولا مجرد الدلالة ويجوز أنَّ الفراء نظر إلى المعنى لأَنَّه قال هل أدلكم على تجارة ثم فسر التجارة بقوله تؤمنون فكأن الاستفهام إنَّما وقع على نفس المفسر كأَنَّه قال هل تؤمنون وتجاهدون يغفر لكم

تعلمون (كاف) إن أضمر شرط أي أن تؤمنوا يغفر لكم ذنوبكم

في جنات عدن (كاف) ومثله العظيم

تحبونها (حسن) إن رفع نصر خبر مبتدأ محذوف أي هي نصر وليس بوقف إن جعل بدلاً من أخرى

وفتح قريب (تام) وأتم منه وبشر المؤمنين ولا يوقف على الله

ولا على الحواريين

إلى الله (حسن)

أنصار الله (كاف) وقال نافع تام

من بني إسرائيل ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله

وكفرت طائفة (كاف) آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى ص ﴾

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة ابن جنى :

سورة الصف :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ طلحة : "وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْأِسْلامِ1" .

قال أبو الفتح : ظاهر هذا أن يقال : يدعى الإسلام ، إلا أنه لما كان يدعى الإسلام : ينتسب إليه قال : يدعى إلى الإسلام ، حملا على معناه ، كقول الله "تعالى" ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى2 ، ﴾ وعادة الاستعمال : هل لك في كذا ، لكنه لما كان معناه أدعوك إلى أن تزكى استعمل "إلى" هنا ، تطاولا نحو المعنى . وقد تقدم هذا ، وهو غور عظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 320﴾

---

1 سورة الصف : 7 .

2 سورة النازعات : 8 وتشديد الزاي قراءة نافع وابن كثير وأبي جعفر ويعقوب ، كما في الاتحاف : 267 .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الصف

مدنية وقيل مكية وآيها أربع عشر مشبه الفاصلة ( ) وفتح قريب (القراآت وقف البزي ويعقوب بخلفهما على لم بهاء السكت وعن ابن محيصن يا قوم بضم الميم وأمال فلما زاغوا حمزة واتفقوا على عدم إمالة أزاغ وسهل أبو جعفر همزة إسرائل مع المد والقصر ومر خلف الأزرق في تثليث الهمزة كوقف حمزة عليها أول البقرة وأمال من التورية الأصبهاني وأبو عمرو وابن ذكوان وحمزة في أحد وجهيه والكسائي وخلف وقللها الأزرق وحمزة في وجهه الثاني وقالون بخلفه والثاني له الفتح وفتح ياء الإضافة من بعدي اسمه نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر وأبو جعفر ويعقوب وقرأ ساحر بألف بعد السين وكسر والحاء حمزة والكسائي وخلف ومر آخر المائدة

وأمال يدعى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وقرأ ليطفؤا بحذف الهمزة مع ضم الفاء أبو جعفر ويوقف عليه لحمزة بثلاثة أوجه التسهيل كالواو والحذف كقراءة أبي جعفر والإبدال ياء محضة واختلف في ( ) متم نوره ( ) الآية 8 فابن كثير وحفص وحمزة والكسائي وخلف متم بغير تنوين نوره بالخفض على إضافة اسم الفاعل للتخفيف فلا يعرف لأنها من إضافة الصفة إلى معمولها والباقون بالتنوين والنصب على أعمال اسم الفاعل كما هو الأصل

وقرأ (تنجيكم) الآية 10 بالتشديد ابن عامر وحده ومر بالأنعام

واختلف في ( ) كونوا أنصار الله (فابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب (

أنصار) غير منون مضافا إلى لفظ الجلالة بلا لام جر وافقهم الأعمش والباقون ﴿ أنصارا

﴾ منونا لله بلام الجر واللام إما مزيدة في المفعول للتقوية إذ الأصل أنصار الله أو غير مزيدة

ويكون الجار والمجرور نعتا لأنصارا والأول أظهر كما في الدر وفتح ياء الإضافة من أنصاري

إلى الله نافع وابو جعفر وأمال ألفها الدوري عن الكسائي وفتحها الباقون

(37/761)

المرسوم كتب لم تؤذونني ويأتي من بعدي بالياء ياءات الإضافة ثنتان ( ) من بعدي اسمه (

الآية 6 ( ) أنصاري إلى الله (الآية 14 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر ص ﴾

(38/761)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

"سورة الصف "

" وهو " إسرائيل ، ومبشرًا ، أظلم ، خير ، جلي .

" لم "كله وقف عليه يعقوب والبزي بخلف عنه بهاء السكت وغيرهما بحذفها .

" بعدي اسمه " فتح الياء المدنيان والمكي والبصريان وشعبة وأسكنها غيرهم .

" سحر " قرأ الأخوان وخلف بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء والباقون بكسر السين وحذف الألف وإسكان الحاء ، ورقق ورش راءه .

" ليطفئوا " قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة مع ضم الفاء في الحالين وهو أحد الأوجه الثلاثة عن حمزة عند الوقف والثاني التسهيل والثالث الإبدال ياء محضة ، ولا يخفى ما فيه من ثلاثة البدل لورش .

" متم نوره " قرأ المكي وحفص والأخوان وخلف بحذف تنوين متم وخفض راء نوره ويترتب عليه كسر هاء الضمير والباقون بتنوين متم ونصب راء نوره ويترتب عليه ضم هاء الضمير . " تنجيكم " قرأ الشامي بفتح النون وتشديد الجيم وغيره بإسكان النون وتخفيف الجيم .

" أنصار الله كما " قرأ المدنيان والمكي والبصري بتنوين أنصار وزيادة لام مكسورة في لفظ الجلالة فيصير النطق بلام مكسورة بعدها لام مفتوحة مشددة والباقون بحذف تنوين أنصار وحذف اللام المكسورة من لفظ الجلالة .

" أنصاري إلى " فتح الياء المدنيان وأسكنها سواهما .

" ظاهرين " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

عسى لدى الوقف وينهاكم معا ويدعى وبالهدى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ؛ دياركم معا والكفار معا بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، جاءكم وجاءك وجاءهم لابن ذكوان وخلف وحمزة ، موسى وعيسى معا لدى الوقف بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، افترى وأخرى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش زاغوا لحمزة ولا إمالة في أزاغ لكونه رباعيا ، التوراة بالإمالة لابن ذكوان والكسائي وخلف في اختياره وبالتقليل لحمزة وورش وقالون بخلف عنه وبالفتح للباقين وهو الوجه الثاني لقالون ، أنصاري لدوري الكسائي ولا تقليل فيه لورش .

المدغم

" الصغير " واستغفر لهن ويغفر لكم للبصري بخلف عن الدوري وقد تعلمون للكل .

" الكبير " أعلم بإيمانهن ، الكفار لاهن ، نحكم بينكم ، أظلم ممن ، أرسل رسوله الحواريون نحن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 326 ﴾

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

سورة الصف

قوله تعالى ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة ﴾ يقرأ بضم الهمزة وكسرها وقد تقدم ذكر علل ذلك في سورة الاحزاب ومن سورة الصف

قوله تعالى ﴿ من بعدي اسمه أحمد ﴾ يقرأ بفتح الياء واسكانها فالحجة لمن فتح التقاء الساكنين سكونها وسكون السين والحجة لمن اسكنها استثقال الحركة فيها

واحمد ها هنا نبينا صلى الله عليه وسلم ومن الانبياء من له اسمان اتى بهما القرآن خمسة محمد واحمد واسرائيل ويعقوب وذو النون ويونس وعيسى والمسيح والياس وذو الكفل

قوله تعالى ﴿ متم نوره ﴾ يقرأ بالتنوين والنصب وبحذف التنوين والخفض وقد ذكرت علته في غير موضع

قوله تعالى ﴿ تنجيكم من عذاب أليم ﴾ اجماع القراء على التخفيف الا ابن عامر فإنه شدد ومعناهما قريب وهما لغتان فالدليل على التخفيف قوله انجينا الذين ينهون عن السوء

والدليل على التشديد قوله تعالى ﴿ ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾

قوله تعالى ﴿ كونوا أنصار الله ﴾ يقرأ بالتنوين على انه نكرة وبطرح التنوين وإضافته الى اسم الله تعالى على انه معرفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 345 ﴾

(41/761)

وقال ابن زنجلة :

61 - سورة الصف

فلما جاءهم بالبينت قالوا هذا سحر مبين 6

قرأ حمزة والكسائي قالوا هذا ساحر مبين بالألف وقرأ الباقون سحر وقد ذكرت الحجة في سورة المائدة والله متم نوره ولو كره الكفرون 8

قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر والله متم منون

نوره نصب وحجتهم أن الفعل منتظر فالتنوين الأصل وهو وعد من الله فيما يستقبل وفي حال الفعل كا ت قول أنا ضارب زيدا

وقرأ الباقون متم نوره على الإضافة وقد ذكر فيها وجهان أحدهما أن الإضافة قد

استعملتها العرب في الماضي و المنتظر وأن التنوين لم يستعمل إلا في المنتظر خاصة فلما كانا مستعملين وقد نزل بهما القرآن أخذ بأكثر الوجهين أصلا والوجه الآخر أن يراد به التنوين ثم يحذف التنوين طلبا للتخفيف كما قال جل وعز كل نفس ذائقة الموت وقوله إنكم لذائقو العذاب الأليم هل أدلكم على تجرة تنجيكم من عذاب أليم 10

قرأ ابن عامر تنجيكم من عذاب أليم بالتشديد وحجته قوله ونجينا الذين آمنوا

وقرأ الباقون بالتخفيف وحجتهم فأنجاه الله من النار وهما لغتان كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله 14

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو كونوا أنصارا لله منونا أي كونوا لله أنصارا أي اثبتوا أو دوموا على هذا

وقرأ الباقون أنصار الله على الإضافة كما تقول كن ناصر زيد وحجتهم في ذلك إجماع الجميع على الإضافة في قوله نحن أنصار الله ولم يقل نحن أنصار لله فكان رد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى أنصار واحدها ناصر مثل شاهد وأشهاد وصاحب وأصحاب.

انتهى انتهى . اهـ ﴿حجة القراءات صـ 707.709﴾

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الصف 61

مدنية هذا قول قتادة وقال ابن عباس ومجاهد وعطاء هي مكية ولا نظير لها في عددها

وكلمها مئتان وإحدى وعشرون كلمة

وحروفها تسع مئة وستة وعشرون حرفا

وهي أربع عشرة آية ليس فيها اختلاف

وفيها مما يشبه الفواصل موضع واحد وهو قوله تعالى (﴿ وفتح قريب ﴾)

ورؤوس الآي

الحكيم

1 تفعلون

2 تفعلون

3 مرصوص

4 الفاسقين

5 مبين

6 الظالمين

7 الكافرون

8 المشركون

9 أليم

10 تعملون

11 العظيم

12 المؤمنين

13 ظاهرين

14 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 245 ﴾

(43/761)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (أن تقولوا) يجوز أن يكون فاعل "كبر " ، أو على تقدير هو ، ويكون التقدير : كبر

ذلك ، وأن يكون بدلا ، ومقتا تمييز ، و (صفا) حال ، وكذلك (كأنهم) و (مصدقا) حال مؤكدة ، والعامل فيها رسول أو ما دل عليه الكلام ، و (من التوراة) حال من الضمير في يين ، و (مبشرا) حال أيضا ، و (اسمه أحمد) جملة في موضع جر نعتا لرسول ، أو في موضع نصب حال من الضمير في يأتي .

قوله تعالى (متم نوره) بالتنوين والأضافة ، وإعرابها ظاهر ، و (بالهدى) حال من رسوله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى (تؤمنون بالله) هو تفسير للتجارة ، فيجوز أن يكون في موضع جر على البدل ، أو في موضع رفع على تقدير هي ، وإن محذوفة ، ولما حذفت بطل عملها .

قوله تعالى (يغفر لكم) في جزمه وجهان: أحدهما هو جواب شرط محذوف دل عليه الكلام تقديره: إن تؤمنوا يغفر لكم ، وتؤمنون بمعنى آمنوا .

والثاني هو جواب لما دل عليه الاستفهام ، والمعنى: هل تقبلون إن دللتكم .

وقال الفراء: هو جواب الاستفهام على اللفظ ، وفيه بعد لأن دلالته إياهم لا توجب المغفرة لهم .

قوله تعالى (وأخرى) في موضعها ثلاثة أوجه: أحدها نصب على تقدير: ويعطكم أخرى .

والثاني هو نصب بتحبون المدلول عليه ب (تحبونها) .

والثالث موضعها رفع: أي وثم أخرى ، أو يكون الخبر (نصر) أي هي نصر .

قوله تعالى (كما قال) الكاف في موضع نصب: أي أقول لكم كما قال، وقيل هو محمول على المعنى، إذ المعنى: انصروا الله كما نصر الحواريون عيسى ابن مريم عليه السلام، والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(44/761)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة الصف

[سورة الصف (61): آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1)

"سَبَّحَ" ماض "لِلَّهِ" متعلقان بالفعل "ما" اسم موصول فاعل "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول والجملة ابتدائية لا محل لها و"ما فِي الْأَرْضِ" معطوف على ما في السموات "وَ" الواو حالية "هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" مبتدأ وخبران والجملة حال.

[سورة الصف (61): آية 2]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ (2)

"يا أَيُّهَا" أي منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب "الَّذِينَ" بدل من أيها "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "لِمَ" ما اسم استفهام في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بما بعدهما "تَقُولُونَ" مضارع وفاعله "ما" مفعول به والجملة ابتدائية لا محل لها "لا تَفْعَلُونَ" نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة.

[سورة الصف (61) : آية 3]

كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ (3)

"كَبُرَ" ماض "مَقْتاً" تمييز "عِنْدَ اللَّهِ" ظرف مكان مضاف إلى لفظ الجلالة "أَنْ تَقُولُوا" مضارع منصوب بأن والواو فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل رفع مبتدأ مؤخر وجملة كبر.. خبره المقدم "ما" مفعول به "لا تَفْعَلُونَ" نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة.

[سورة الصف (61) : آية 4]

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ (4)

"إِنَّ اللَّهَ" إن واسمها "يُحِبُّ" مضارع مرفوع فاعله مستتر "الَّذِينَ" اسم الموصول مفعوله والجملة خبر إن والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "يُقاتِلُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة "فِي سَبِيلِهِ" متعلقان بالفعل "صَفًّا" حال "كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ" كأن واسمها وخبرها "مَرْصُوصٌ" صفة والجملة حال.

[سورة الصف (61) : آية 5]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (5)

"وَإِذْ قالَ" الواو استئنافية وإذ ظرف زمان وماض "مُوسى" فاعله "لِقَوْمِهِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة "يا قَوْمِ" منادى منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف "لِمَ" جار ومجرور متعلقان بما بعدهما والجملة مقول القول "تُؤْذُونَنِي" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة مقول القول "وَ" الواو حالية "قَدْ تَعْلَمُونَ" حرف تحقيق ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة حال "أَنِّي" أن واسمها "رَسُولُ اللَّهِ" خبرها المضاف إلى لفظ الجلالة "إِلَيْكُمْ" متعلقان برسول والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي تعلمون. والفاء حرف استئناف "لما" ظرفية حينية "زاغُوا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ" ماض ولفظ الجلالة فاعله "قُلُوبَهُمْ" مفعوله وجملة فلما.. استئنافية لا

محل لها والواو حرف استئناف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مبتدأ "لا يَهْدِي" نافية ومضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر المبتدأ "الْقَوْمَ" مفعول به "الْفاسِقِينَ" صفة والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة الصف (61) : آية 6]

(46/761)

وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (6)

"وَإِذْ قالَ عِيسَى" سبق إعراب مثيلها "ابْنُ" بدل من عيسى و"مَرْيَمَ" مضاف إليه "يا بَنِي إِسْرائِيلَ" منادى مضاف إلى إسرائيل منصوب بالياء وجملة النداء مقول القول "إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ" إن واسمها وخبرها المضاف إلى لفظ الجلالة "إِلَيْكُمْ" متعلقان برسول والجملة الاسمية مقول القول "مُصَدِّقاً" حال "لِما" متعلقان بمصدقا "بَيْنَ" ظرف مكان مضاف إلى "يَدَيَّ" "مِنَ التَّوْراةِ" متعلقان بمحذوف حال "وَمُبَشِّراً" معطوف على مصدقا "بِرَسُولٍ" متعلقان بمبشرا "يَأْتِي" مضارع فاعله مستتر والجملة صفة رسول "مِنْ بَعْدِي" متعلقان بالفعل

"اسْمُهُ أَحْمَدُ" مبتدأ وخبره والجملة صفة ثانية لرسول "فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف "لِما" ظرفية حينية "جاءَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "بِالْبَيِّناتِ" متعلقان بالفعل "قالُوا" ماض وفاعله "هذا سِحْرٌ" مبتدأ وخبره "مُبِينٌ" صفة والجملة الاسمية مقول القول وجملة قالوا . . جواب لما لا محل لها .

[سورة الصف (61) : آية 7]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (7)

(47/761)

"وَ" الواو حرف استئناف "مَنْ أَظْلَمُ" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "مِمَّنِ" متعلقان بأظلم "افْتَرى" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بالفعل "الْكَذِبَ" مفعول به "وَهُوَ" مبتدأ "يُدْعى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "إِلَى الْإِسْلامِ" متعلقان بالفعل والجملة الفعلية خبر هو والجملة الاسمية حال . "وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" سبق إعراب مثيلها .

[سورة الصف (61) : آية 8]

يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (8)

"يُرِيدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة استئنافية لا محل لها "لِيُطْفِؤُا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعله "نُورَ اللَّهِ" مفعوله مضاف إلى لفظ الجلالة والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل "بِأَفْواهِهِمْ" متعلقان بالفعل "وَ" الواو حالية "اللَّهُ مُتِمُّ" مبتدأ وخبره "نُورِهِ" مضاف إليه والجملة حال "وَ" الواو حرف عطف "لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ" لو وصلية وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الصف (61) : آية 9]

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9)

(48/761)

"هُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "أَرْسَلَ" ماض فاعله مستتر "رَسُولَهُ" مفعول به والجملة صلة لا محل لها "بِالْهُدى" متعلقان بالفعل "وَدِينِ" معطوف على الهدى "الْحَقِّ" مضاف إليه "لِيُظْهِرَهُ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والهاء مفعوله والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور

متعلقان بأرسل "عَلَى الدِّينِ" متعلقان بالفعل "كُلِّهِ" توكيد "وَ" الواو حالية "لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ" لو وصلية وماض وفاعله والجملة حال.

[سورة الصف (61) : آية 10]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (10)

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" سبق إعرابها و"هَلْ أَدُلُّكُمْ" هل حرف استفهام ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها "عَلى تِجارَةٍ" متعلقان بالفعل "تُنْجِيكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صفة تجارة "مِنْ عَذابٍ" متعلقان بالفعل "أَلِيمٍ" صفة عذاب.

[سورة الصف (61) : آية 11]

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11)

"تُؤْمِنُونَ" مضارع وفاعله "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "وَرَسُولِهِ" معطوف على لفظ الجلالة والجملة استئنافية لا محل لها "وَتُجاهِدُونَ" معطوف على تؤمنون "فِي سَبِيلِ اللَّهِ" متعلقان بالفعل ولفظ الجلالة مضاف إليه "بِأَمْوالِكُمْ" متعلقان بالفعل أيضا "وَأَنْفُسِكُمْ" معطوف على أموالكم "ذلِكُمْ خَيْرٌ" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "لَكُمْ" متعلقان بخير

"إِنْ كُنْتُمْ" إن شرطية جازمة وماض ناقص في محل جزم والتاء اسمه "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر كنتم وجواب الشرط محذوف .

(49/761)

[سورة الصف (61) : آية 12]

يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)

"يَغْفِرْ" مضارع مجزوم لوقوعه جوابا للأمر المفهوم من قوله تؤمنون بالله والفاعل مستتر "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "ذُنُوبَكُمْ" مفعول به والجملة لا محل لها "وَيُدْخِلْكُمْ" معطوف على يغفر لكم "جَنَّاتٍ" مفعول به ثان ومضارع "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بالفعل "الْأَنْهارُ" فاعل والجملة صفة جنات "وَمَساكِنَ" معطوف على جنات "طَيِّبَةً" صفة مساكن "فِي جَنَّاتِ" متعلقان بمحذوف حال "عَدْنٍ" مضاف إليه "ذلِكَ الْفَوْزُ" مبتدأ وخبره "الْعَظِيمُ" صفة والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة الصف (61) : آية 13]

وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13)

"وَأُخْرى " مبتدأ مؤخر والخبر مقدم محذوف "تُحِبُّونَها" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة صفة أخرى "نَصْرٌ" خبر لمبتدأ محذوف والجملة مفسرة لا محل لها "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بنصر "وَفَتْحٌ" معطوف على

نصر "قَرِيبٌ" صفة فتح "وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" الواو حرف عطف وأمر فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "الْمُؤْمِنِينَ" مفعول به .

[سورة الصف (61) : آية 14]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ (14)

(50/761)

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" سبق إعرابها . "كُونُوا" فعل أمر ناقص والواو اسمه "أَنْصارَ اللَّهِ" خبره مضاف إلى لفظ الجلالة والجملة ابتدائية لا محل لها "كَما" صفة مفعول مطلق محذوف "قالَ عِيسَى" ماض وفاعله "ابْنُ" بدل من عيسى "مَرْيَمَ" مضاف إليه "لِلْحَوارِيِّينَ" متعلقان بالفعل والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بالكاف "مَنْ" اسم استفهام مبتدأ

"أَنصارِي" خبر "إِلَى اللَّهِ" متعلقان بمحذوف حال والجملة مقول القول "قَالَ الْحَوارِيُّونَ" ماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "نَحْنُ أَنصارُ اللَّهِ" مبتدأ وخبره ولفظ الجلالة مضاف إليه والجملة مقول القول ، "فَآمَنَتْ طائِفَةٌ" الفاء حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "مِنْ بَنِي" متعلقان بمحذوف صفة طائفة "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه وجملة "وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ" معطوفة على ما قبلها . "فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ" الفاء حرف استئناف وماض وفاعله واسم الموصول مفعوله والجملة استئنافية لا محل له "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة . "عَلى عَدُوِّهِمْ" متعلقان بالفعل "فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ" الفاء حرف عطف وأصبح واسمها وخبرها والجملة معطوفة على ما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 337 . 340 ﴾

(51/761)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَةُ الصَّفّ

ذكر فِيهَا ثَلَاثَة أَحَادِيث

1334 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَن رجلا آذَى الْمُسلمين ونَكى فيهم فَقتله صُهَيْب وانْتَحَلَ قَتله آخر فَقَالَ عمر لِصُهَيْب أخبر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّك قتلته فَقَالَ إِنَّمَا قتلته لله وَلِرَسُولِهِ فَقَالَ عمر يَا رَسُول الله قَتله صُهَيْب قَالَ كَذَلِك يَا أَبَا يَحْيَى قَالَ نعم فَنزلت فِي الْمُنْتَحل

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أَنا الْحُسَيْن بن فَنْجَوَيْهِ الدينَورِي ثَنَا ابْن أبي صقْلاب ثَنَا أَبُو الْحَارِث بن سعيد بِدِمَشْق ثَنَا أَحْمد بن مَنْصُور الرَّمَادِي ثَنَا مُحَمَّد بن يَعْقُوب ابْن مُحَمَّد الزُّهْرِيّ ثَنَا حُصَيْن بن حُذَيْفَة الصُّهَيْبِيّ ثَنَا يَحْيَى عَن سعيد بن الْمسيب عَن صُهَيْب قَالَ كَانَ رجل يَوْم بدر قد آذَى الْمُسلمين ونكاهم فَقتله صُهَيْب فَقَالَ رجل يَا رَسُول الله قتلت فلَانا ففرح بذلك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ عمر وَعبد الرَّحْمَن لِصُهَيْب أخبر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّك قتلته فَإِن فلَانا يَنْتَحِلهُ فَقَالَ صُهَيْب إِنَّمَا قتلته لله وَرَسُوله فَقَالَ عمر وَعبد الرَّحْمَن يَا رَسُول الله إِنَّمَا قَتله صُهَيْب قَالَ كَذَلِك يَا أَبَا يَحْيَى قَالَ نعم يَا رَسُول الله فَأنْزل الله تَعَالَى يأيها الَّذين آمنُوا لم تَقولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . . . انْتَهَى

1335 - الحَدِيث الثَّانِي

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزُّبَيْر ابْن عَمَّتي وَحوَارِيي من أمتِي

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي سنَنه الْكُبْرَى فِي كتاب المناقب ثَنَا أَحْمد بن حَرْب

ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة عَن هِشَام بن عُرْوَة عَن مُحَمَّد بن الْمُنْكَدر عَن جَابر بن عبد الله قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزُّبَيْر ابْن عَمَّتي وحواريي من أمتِي انْتَهَى

ورَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي كتاب الْفَضَائِل وَكَذَلِكَ فِي مُسْنده أَيْضا ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة سندا ومتنا

والْحَدِيث فِي الصَّحِيحَيْنِ بعضه أخرجَاهُ فِي الْفَضَائِل من حَدِيث مُحَمَّد بن الْمُنْكَدر عَن جَابر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِن لكل نَبِي حوارِي وَحَوارِيي الزُّبَيْر انْتَهَى

1336 - الحَدِيث الثَّالِث

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَرَأَ سُورَة الصَّف كَانَ عِيسَى مُصَليا عَلَيْهِ مُسْتَغْفِرًا لَهُ مَا دَامَ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ يَوْم الْقِيَامَة رَفِيقَة

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أخبرنَا أَبُو الْحُسَيْن الْخَبَّازِي ثَنَا ابْن حَنش الْمُقْرِئ ثَنَا أَبُو الْعَبَّاس مُحَمَّد بن مُوسَى الرَّازِيّ ثَنَا عبد الله بن روح الْمَدَائِنِي ثَنَا شَبابَة بن سوار الْفَزارِيّ ثَنَا مخلد بن عبد الْوَاحِد عَن عَلّي بن زيد وَعَطَاء بن أبي مَيْمُونَة عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره

ورَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه بِسَنَدِهِ فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيرِه الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 8.7 ﴾

(53/761)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الصف

قوله تعالى : (لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ) ، الآية/ 2 .

يحتج به في وجوب الوفاء بالنذر ، في نذر اللجاج ، على أحد قولي الشافعي . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 413 ﴾

(54/761)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الصف»

[سورة الصف (61) : آية 5]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (5)

قوله سبحانه : فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [5] وهذه استعارة. وكنا أغفلنا الكلام على نظيرها فى آل عمران. وهو قوله تعالى : رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا «1» لأن ذلك أدخل فى باب الكلام على الآي المتشابهة ، وأبعد من الكلام على الألفاظ المستعارة. إلا أننا رأينا الإشارة إلى هذا المعنى هاهنا ، لأنه مما يجوز أن يجرى فى مضمار كتابنا هذا ، فنقول :

إن المراد بقوله تعالى : رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا أي لا تحمّلنا من التكاليف ما لا طاقة لنا به ، فتزيغ قلوبنا ، أي تميل عن طاعتك ، وتعدل عن طريق مرضاتك ، فتصادفها زائغة ، أو يحكم عليها الزيغ عند كونها زائغة.

وقد يجوز أن يكون المراد بذلك : أي أدم لنا ألطافك وعصمك لتدوم قلوبنا على الاستقامة ، ولا تزيغ «2» عن مناهج الطاعة. وحسن أن يقال : لا تزغ قلوبنا بمعنى الرغبة فى إدامة

الألطاف، لما كان إعدام تلك الألطاف فى الأكثر يكون عنه زيغ القلوب، ومواقعة الذنوب.

وقد استقصينا الكلام على ذلك فى كتابنا الكبير.

وأما قوله تعالى فى هذه السورة: فَلَمَّا زاغوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فهو أوضح فيما يذهب إليه من الأول، لأنه سبحانه لما زاغوا عن الحق حكم عليهم بالزّيغ عنه، وحكمه

---

(1) سورة آل عمران الآية رقم 8.

(2) فى الأصل «ولا تزغ» وهو تحريف إذ لا محل لجزم الفعل هنا.

(55/761)

بذلك أن يأمر أولياءه بذمّهم ولعنهم والبراءة منهم عقوبة لهم على ذميم فعلهم. وقد يجوز أن يكون معنى ذلك أنهم لما زاغوا عن الحق خذلهم وأبعدهم وخلّاهم واختيارهم، وأضاف سبحانه الفعل إلى نفسه على طريق الاتساع، لما كان وقوع الزّيغ منهم مقابلا لأمره لهم باتباع الحقّ، وسلوك الطريق النهج. كما قال تعالى: فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي «1» أي وقع نسيانكم لذكرى، فى مقابلة أمر أولئك العباد الصالحين لكم بأن تسلكوا الطريق الأسلم، وتتّبعوا الدين الأقوم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تلخيص البيان صـ 333.

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الصف

الرسالات الكبرى تحتاج فى نصرتها وحمايتها إلى الجد والصدق ، ولا يصلح فى مساندتها أهل الكلام والدعوى ، ولا الجبناء الذين إذا كلفوا بالجهاد تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ! إن المبطلين وأصحاب الأهواء لديهم جراءة فى خدمة ما يعتنقون ، ولن يستطيع قهرهم إلا مؤمنون شداد يستميتون فى دعم الحق ، ويرخصون فى سبيله النفس والمال ، ويتراصون فى مواجهة العدو ، كلما استشهد بطل حل مكانه آخر . " ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض " . أما الكلام المرسل والصياح العالى ، فلا يجديان فى بلوغ غاية . ولذلك عوتب المؤمنون الذين لا يرتفعون إلى هذا المستوى " يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون " . إن المؤمن عندما يتفانى فى مرضاة ربه ، يتجاوب مع كل شىء فى الكون يسبح بحمد ربه . أما المقصر العاصى ، فهو شذوذ فى الكون وخروج على قاعدة الطاعة ، ولذلك افتتحت

سورة الصف بهذه الآية . "سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم" . ثم وقع بعد ذلك التوبيخ ، وذكرت الأمم التى لم تصدق الله ، بل حادت الله ورسله . وأول هذه الأمم اليهود الذين آذوا موسى وأتعبوه وفقدوا الشجاعة فى مقاتلة عدوه ، وسرعان ما ضيعوا الكتاب الذى نزل عليهم . "وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم" . وخذلان أى نبى يكون بالزهد فى تعاليمه والجزع من لقاء عدوه . . ثم ذكرت السورة عيسى وقومه . . فبينت أن عيسى عليه السلام صاحب رسالة محدودة الزمان والمكان ، فهو مبعوث إلى خراف بنى إسرائيل الضالة ، يربطها بالتوراة التى تمردت عليها ، ويعالج

(57/761)

أمراضها النفسية والاجتماعية ، ويمهد لنبوة عامة تهدى البشر كلهم إلى الله الواحد . . " وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد . . . " . وعندما ننظر فى الكتب التى ألفها تلامذة عيسى ، والتى سقيت تجوزا أناجيل ، نجد كلمات جديرة بأن نقف عندها متأملين . ففى إنجيل متى فى الإصحاح الرابع والعشرين يقول عيسى عليه السلام " . . . .

ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ، ويضلون كثيرا ، ولكن الذى يصير إلى المنتهى فهذا يخلص ويكرز – أى يدعو – ببشارة الملكوت هذه ، فى كل المسكونة ، شهادة لجميع الأمم ثم يكون المنتهى . . . " وتتساءل : من هذا الذى يدعو الملكوت ويعرض نفسه على العالم أجمع ويبقى حتى نهاية العالم ؟ هل عرفت هذه الصفات لشخص آخر غير محمد ؟ وفى إنجيل يوحنا فى الإصحاح الرابع عشر " إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر يثبت معكم إلى الأبد " وهذه كلمة يونانية تعنى الرحيم الذى يدافع الأحزان ! فمن هو هذا القادم الذى تبقى رسالته إلى الأبد ؟ إننى أتبع محمدا لأن كتابه تجاوب مع ضميرى ! إننى عرفت الله بعقلى بعد ما نظرت فى نفسى وفى آفاق العالم الذى يضمنى وسائر البشر . وإذا كان كتاب محمد لا يصلح دليلا على رسالته ، فلن يصح فى الأذهان شىء ، ولن تصدق رسالة بشر ! ! والنبوءات التى تشير إلى صدق محمد قد تخدم أصحابها ، أما محمد نفسه فحسبه كتابه وسيرته . . " ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين * يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون " . إن العقل أثمن ما وهب الله للناس ، والإيمان الذى يقوم على تخدير العقل أو تمويته لا وزن له ولا خير فيه ، ولكن جماهير غفيرة تنحى العقل جانبا ثم تتكلم ، فكيف نسمع لها ؟ وقد ختمت السورة بمعنيين كريمين يصدقان ما بدئت به : الأول أن الحياة إيمان

(58/761)

وجهاد " تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم " . وقد اقتبس شوقى هذا المعنى فى قوله: قف دون رأيك فى الحياة مجاهدا إن الحياة عقيدة وجهاد !

أما الثانى فهو استعداد المؤمن فى كل موطن لنصرة الله وإعلاء كلمته . إنه يمشى فى دروب الحياة مصيخا السمع ، فإذا بلغته صيحة تدعو إلى الله هرع إليها ولبى صاحبها وكان رجع الصدى ، كما نصدق المؤذن عندما يشق بصوته أجواز الفضاء داعيا إلى الصلاة . وقد اعتمد عيسى على هذا التأييد عندما رأى اليهود يرتابون فيه وينصرفون عنه فصاح: " من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله " ! وحواريو عيسى كأصحاب محمد ، ككل متجرد للحق يؤنس وحشته ويرفع رايته ، هم أمل الرسالات فى قيامها وبقائها . والإسلام فى هذا العصر بحاجة إلى أن نفهم هذه الآية فى ختام سورة الصف " يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله . . " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 455 . 457 ﴾

(59/761)

(60/761)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الصف

أقول: في سورة الممتحنة ذكر الجهاد في سبيل الله ، وبسطه في هذه السورة أبلغ بسط .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 137 ﴾

(61/761)

قوله تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الملك الأعظم الذي له الأمر كله لأنه لا كفوء له ، (الرحمن) الذي عم بنعمة البيان عما يرضيه ممن شاقه ، فقد شرع لكل أحد أن يرده أو يقبله (الرحيم) الذي خص بإتمام الإنعام الموصل إلى دار السلام من شاء من عباده فهيأه لذلك وأهله .

لما ختمت الممتحنة بالأمر بتنزيهه سبحانه عن تولي من يخالف أمره بالتولي عنهم والبراءة منهم اتباعاً لأهل الصافات المتجردين عن كل ما سوى الله لا سيما عمن كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، افتتحت الصف بما هو كالعلة لذلك فقال : ﴿ سبح لله ﴾ أي أوقع التنزيه الأعظم للملك الأعظم الذي له ﴿ ما في السموات ﴾ من جميع الأشياء التي لا يغفل من أفلاكها ونجومها وغير ذلك من جواهرها وأعراضها في طلوعها وأفولها وسيرها في ذهابها ورجوعها وإنشاء السحاب وإنزال المياه وغير ذلك .

ولما كان الخطاب مع غير الخلص أكده فقال : ﴿ وما في الأرض ﴾ أي بامتثال جميع ما يراد منه مما هو كالمأمور بالنسبة إلى أفعال العقلاء من نزول المياه وإخراج النبات من النجم والشجر وإنضاج الحبوب والثمار - وغير ذلك من الأمور الصغار والكبار .

(62/761)

ولما كان امتثال غير العاقل وعصيان العاقل ربما أوهم نقصاً قال : ﴿ وهو ﴾ أي وحده لا شريك له ﴿ العزيز ﴾ أي العظيم النفع الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ، ويعسر الوصول إليه ﴿ الحكيم ﴾ أي الذي يضع الأشياء في أتقن مواضعها ، فما مكّن العاقل من المعصية إلا لإظهار صفات الكمال من العلم والقدرة والحلم والكرم والرحمة والغضب وغير ذلك ، وقد علم بهذا التنزيه وختم آيته بهاتين الصفتين أنه تعالى منزه عما تضمنه يأس الكفار المذكور من أنه لا بعث وعن أن يجعل سبحانه لهم حظاً في الآخرة لأن كلاًّ من عدم البعث والتسوية بين المسيء والمحسن نقص .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : افتتحت بالتسبيح لما ختمت به سورة الممتحنة من قوله ﴿ لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ [الممتحنة : 13] وهم اليهود ، وقد تقدم الإيماء إلى ما استوجبوا به هذا فأتبع بالتنزيه لما تقدم بيانه فإنه مما تعقب به ذكر جرائم المرتكبات ولا يرد في غير ذلك ، ثم أتبع ذلك بأمر العباد بالوفاء وهو الذي حد لهم في الممتحنة ليتنزهوا عن حال مستوجبي الغضب بنقيض الوفاء والمخالفة بالقلوب والألسنة ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ [آل عمران : 167] ﴿ لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ﴾ [النساء : 46] ﴿ من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ﴾ [المائدة : 41] ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم ﴾ [النور : 47] وبمجموع هذا استجمعوا اللعنة والغضب فقيل للمؤمنين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ [

الصف : 2] احذروا أن تشبه أحوالكم حال من استحق المقت واللعنة والغضب ، ثم أتبع بحسن الجزاء لمن وفى قولاً وعقداً ولساناً وضميراً ، وثبت على ما أمر به فقال : ﴿ إن الله يحب الذي يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ [الصف : 4] الآية ثم تناسج ما بعد .

(63/761)

ولما كان الوارد من هذا الغرض في سورة الممتحنة قد جاء على طريق الوصية وسبيل النصح والإشفاق ، أتبع في سورة الصف بصريح العتب في ذلك والإنكار ليكون بعد ما تمهد في السورة قبل أوقع في الزجر ، وتأمل كم بين قوله سبحانه
﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ [الممتحنة : 1] وما تضمنته من اللطف وبين قوله ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ [الصف : 2] انتهى .

(64/761)

ولما تقدمت في الممتحنة قصة الفتح الأعظم في شأن حاطب بن أبي بلتعة . رضى الله عنه . وجل منابذة الكفار بكل اعتبار علماً على صحة الهجرة وادعى التجرد لجهاد أعداء الله ، وقصة الفتح السببي من تحريم المؤمنات على المشركين وتحريم المشركين على المؤمنات في غزوة الحديبية ، وأبدى سبحانه في ذلك من الصنائع التي تعجز قوى الخلق عنها أن رتب ما في الفتح السببي على ما في الفتح الفعلي الحقيقي ، فجعل الأول في الزمان آخر في الرتبة والآخر في الزمان أولاً في الرتبة مع شدة الإحكام في ترصيف النظام والبلوغ في الرشاقة والانسجام إلى حد لا يطيقه نوافذ الأفهام مع بداعة المعاني ومتانة المباني ، وكان فعل من ناصح الكفار ممن أمن بلسانه وأذعن بجنانه وهاجر بأركانه نوع مناصحة فعل من يقول ما لا يفعل في منابذتهم والتجرد بعداوتهم ، فذكر أول هذه السورة من تنزيهه بألسنة أحوال ما لا يعقل ما يخجل المسلم بشيء من ذلك تأديباً لأمثاله ، وتدريباً لمن يلم بشيء من المخالفة بباله ، وكان العاقل أولى من غيره بتنزيه جناب القدس بالطاعة ، فكيف إذا كان ممن أقر بالإيمان وتقلد عهدة الإذعان ، وكان من عصى منهم منادياً على نفسه بمخالفة قوله لفعله ، ومن نزهه حق تنزيهه لم يقصر في حق من حقوقه بتضييع شيء من أوامره كما أن تنزيه ما لا يعقل بأن لا يخالف شيئاً من مراده ، قال مرهباً بنداء البعد والتوبيخ الذي من مبادئ الغضب والإنكار بالاستفهام والتعبير بما يفهم أدنى مراتب الإيمان : ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ أي ادعوا الإيمان ﴿ لم ﴾ قال في الكشاف : هي لام الإضافة داخلة على " ما "

الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في بم وفيم وممّ وعمّ وإلامَ وعلام ، وإنما حذفت الألف لأن " ما " والحرف كشيء واحد ، ووقع استعمالها بزيادة هاء السكت أو الإسكان ، ومن أسكن في الوصل فلإجرائه مجرى الوقف كما سمع ثلاثه أربعه بالهاء وإلقاء حركة الهمزة عليها محذوفة ، وقال الرضي في

الموصول : إنها حذفت لأن لها صدر الكلام ولم يمكن تأخير الجار عنها فقدم وركب معها حتى يصير المجموع موضوعة للاستفهام ، فلا يسقط الاستفهام عن مرتبة الصدر ، وجعل حذف الألف دليل التركيب ﴿ تقولون ﴾ أي من دعوى الإيمان التي مقتضاها إلزام الإخلاص في جميع الأحوال ﴿ ما لا تفعلون ﴾ أي ما لا تصدقونه بالفعل الذي يكون بغاية الرغبة والقوة فتتخذوا العدو ولياً بالإقبال عليه وإرسال التنصح إليه وقد تلفظتم بالإيمان الذي يستلزم المعاداة لكل من كفر ، وخلف الوعد في نفسه قبيح ومع الخالق أقبح .

ولما كان ذلك مهلكاً ، رحم المخاطبين بتعظيمه لينجوا أنفسهم بالكف عنه فقال :

﴿ كبر ﴾ فقصد به التعجيب وهو تعظيم الأمر في قلوب السامعين لأن التعجب لا يكون إلا في أمر خارج عن نظائره وأشكاله ، وفسر ما قصد منه للدلالة على خلوصه في المقت بقوله

: ﴿ مقتاً ﴾ أي عظم جداً وما أعظمه من بغض هو أشد البغض ، وزاد في تبشيعه زيادة في التنفير منه بقوله : ﴿ عند الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي يحقر عنده كل متعاظم .
ولما أبلغ في تبشيعه تشوفت النفس إلى المسند إليه ذلك قال : ﴿ أن تقولوا ﴾ أي عظم من تلك الجهة أن يقع في وقت من الأوقات أو حال من الأحوال قولكم ﴿ ما لا تفعلون ﴾ وقال القشيري : ويقال : لم يتوعد الله على زلة بمثل ما توعد على هذا – انتهى .

(66/761)

وكل ما ذكروه في سببها صالح للسببية قول بعضهم لو ندري أحب الأعمال إلى الله لاجتهدنا فيه ثم ولّوا يوم أحد ، وتوانى بعضهم في الجهاد ، وكون " صهيب .رضى الله عنه. قتل يوم بدر رجلاً آذى المسلمين وأنكى فيهم وادعى غيره أنه قتله فأعجب رسول الله .صلى الله عليه وسلم. فقال عمر وعبد الرحمن بن عوف لصهيب .رضى الله عنه.م : أخبر رسول الله .صلى الله عليه وسلم. أنك قتلته ، فقال صهيب .رضى الله عنه. : " إنما قتلته لله ولرسوله ، فأخبر عمر وعبد الرحمن .رضى الله عنهما .النبي .صلى الله عليه وسلم. فقال : أكذلك أبا يحيى ، فقال : نعم يا رسول الله " والتزام المنافقين أحكام الإسلام ، وتخلفهم إخلافاً في الأمور العظام ، وكذا قصة حاطب .رضى الله عنه. .

ولما عظم ما يكرهه بعد ما ألهب به من تنزيه غير العاقل ، فكان العاقل جديراً بأن يسأل عما يحبه لينزهه به ، قال ذاكراً الغاية التي هي أم جامعة لكل ما قبلها من المحاسن ، مؤكداً لأن الخطاب مع من قصر أو هو في حكمه : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ يحب ﴾ أي يفعل فعل المحب مع ﴿ الذين يقاتلون ﴾ أي يوقعون القتال ﴿ في سبيله ﴾ أي بسبب تسهيل طريقه الموصلة إلى رضاه إيقاعاً مظروفاً للسبيل ، لا يكون شيء منه كشيء خارج عنه ، فيقاتلون أعداء الدين من الشيطان بالذكر القلبي واللسان ، والإنسان بالسيف والسنان ﴿ صفاً ﴾ أي مصطفين حتى كأنهم في اتحاد المراد على قلب واحد كما كانوا في التساوي في الاصطفاف كالبدن الواحد .

(67/761)

ولما كان الاصطفاف يصدق مع التقدم والتأخر اليسير نفى ذلك بقوله حالاً بعد حال : ﴿ كأنهم ﴾ أي من شدة التراص والمساواة بالصدور والمناكب والثبات في المراكز ﴿ بنيان ﴾ وزاد في التأكيد بقوله : ﴿ مرصوص ﴾ أي عظيم الاتصال شديد الاستحكام كأنما رص بالرصاص فلا فرجة فيه ولا خلل ، فإن من كان هكذا كان جديراً بأن لا يخالف شيء من أفعاله شيئاً من أقواله ، فالرص إشارة إلى اتحاد القلوب والنيات في

موالاة الله ومعاداة من عاداه المنتج لتسوية الصفوف في الصلاة التي هي محاربة الشيطان ، والحرب التي هي مقارعة حزبه أولى الطغيان ، والأفعال التي هي ثمرات الأبدان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 573.570 ﴾

(68/761)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ زاغوا ﴾ بالإمالة مثل ﴿ زاغ البصر ﴾ [النجم : 17] ﴿ بعدي ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو وحماد وأبو بكر غير ابن غالب ﴿ متم نوره ﴾ بالإضافة : ابن كثير وحمزة وعلي وخلف وحفص . الآخرون : بالتنوين ونصب ﴿ نوره ﴾ ﴿ تنجيكم ﴾ بالتشديد : ابن عامر ﴿ أنصاراً ﴾ بالتنوين ﴿ لله ﴾ جاراً ومجروراً : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو . والباقون : بالإضافة ﴿ أنصاري إلى الله ﴾ بالفتح كما مر في " آل عمران " .

الوقوف : ﴿ وما في الأرض ﴾ ط ﴿ الحكيم ﴾ وج ﴿ تفعلون ﴾ ه ﴿ تفعلون ﴾ ه ﴿ مرصوص ﴾ ط ﴿ إليكم ﴾ ط ﴿ قلوبهم ﴾ ط ﴿ الفاسقين ﴾ ه ﴿ أحمد ﴾

ط ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ الإسلام ﴾ ط ﴿ الظالمين ﴾ ه ﴿ الكافرون ﴾ ه ﴿ المشركون ﴾ ه ﴿ أليم ﴾ ه ز ﴿ وأنفسكم ﴾ ط ﴿ تعلمون ﴾ ه لالأن قوله ﴿ يغفر لكم ﴾ جواب ﴿ تؤمنون ﴾ على أنه خبر في معنى الأمر ﴿ عدن ﴾ ط ﴿ العظيم ﴾ ه ج للعطف ﴿ تحبونها ﴾ ط لحق الحذف أي هي نصر ﴿ قريب ﴾ ه لانقطاع النظم واختلاف المعنى ﴿ المؤمنين ﴾ ه ﴿ إلى الله ﴾ ط ﴿ وكفرت طائفة ﴾ ه لاتفاق الجملتين مع تخصيص الثانية ببيان حال أحد الفريقين ﴿ ظاهرين ﴾ ه. انتهى. ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 295.296 ﴾

(69/761)

فصل

قال الفخر :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

وجه التعلق بما قبلها هو أن في تلك السورة بيان الخروج جهاداً في سبيل الله وابتغاء مرضاته بقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِى سَبِيلِى وابتغاء مَرْضَاتِى ﴾ [المتحنة : 1] وفي هذه السورة بيان ما يحمل أهل الإيمان ويحثهم على الجهاد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الذين يقاتلون فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بنيان مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف : 4] وأما الأول بالآخر ، فكأنه قال : إن كان الكفرة بجهلهم يصفون لحضرتنا المقدسة بما لا يليق بالحضرة ، فقد كانت الملائكة وغيرهم من الإنس والجن يسبحون لحضرتنا ، كما قال : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ أي شهد له بالربوبية والوحدانية وغيرهما من الصفات الحميدة جميع ما في السموات والأرض و ﴿ العزيز ﴾ من عز إذا غلب ، وهو الذي يغلب على غيره أي شيء كان ذلك الغير ، ولا يمكن أن يغلب عليه غيره و ﴿ الحكيم ﴾ من حكم على الشيء إذا قضى عليه ، وهو الذي يحكم على غيره ، أي شيء كان ذلك الغير ، ولا يمكن أن يحكم عليه غيره ، فقوله : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ يدل على الربوبية والوحدانية إذن ، ثم إنه تعالى قال في البعض من السور : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ [الحديد : 1 ، الحشر : 1] ، وفي البعض : ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ [الجمعة : 1 ، التغابن : 1] ، وفي البعض : ﴿ سَبِّحِ ﴾ [الأعلى : 1] بصيغة الأمر ، ليعلم أن تسبيح حضرة الله تعالى دائم غير منقطع لما أن الماضي يدل عليه في الماضي من الزمان ، والمستقبل يدل عليه في المستقبل من الزمان ، والأمر يدل عليه في الحال ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ منهم من قال : هذه الآية في حق جماعة من المؤمنين ، وهم الذين أحبوا أن يعملوا بأحب الأعمال إلى الله ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارة ﴾ [الصف : 10] الآية و ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ الذين يقاتلون ﴾ [

الصف : 4] فأحبوا الحياة وتولوا يوم أحد فأنزل الله تعالى : ﴿ لِمَ تقولونَ مَا لا تفعَلونَ ﴾ وقيل في حق من يقول : قاتلت ولم يقاتل ، وطعنت ولم يطعن ، وفعلت ولم يفعل ، وقيل : إنها في حق أهل النفاق في القتال ، لأنهم تمنوا القتال ، فلما أمر الله تعالى به قالوا : ﴿ لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القتال ﴾ [النساء : 77] وقيل : إنها في حق كل مؤمن ، لأنهم قد اعتقدوا الوفاء بما وعدهم الله به من الطاعة والاستسلام والخضوع والخشوع فإذا لم يوجد الوفاء بما وعدهم خيف عليهم في كل زلة أن يدخلوا في هذه الآية ثم في هذه الجملة مباحث :

الأول : قال تعالى : ﴿ سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ [الحديد : 1 ، الحشر : 1] في أول هذه السورة ، ثم قاله تعالى في أول سورة أخرى ، وهذا هو التكرار ، والتكرار عيب ، فكيف هو ؟ فنقول : يمكن أن يقال : كرره ليعلم أنه في نفس الأمر غير مكرر لأن ما وجد منه التسبيح عند وجود العالم بإيجاد الله تعالى فهو غير ما وجد منه التسبيح بعد وجود العالم ، وكذا عند وجود آدم وبعد وجوده .

الثاني : قال : ﴿ سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ ولم يقل : سبح لله السموات والأرض وما فيهما ، مع أن في هذا من المبالغة ما ليس في ذلك ؟ فنقول : إنما يكون كذلك

إذا كان المراد من التسبيح، التسبيح بلسان الحال مطلقاً، أما إذا كان المراد هو التسبيح المخصوص فالبعض يوصف كذا، فلا يكون كما ذكرتم.

(71/761)

الثالث: قال صاحب الكشاف: ﴿لم﴾ هي لام الإضافة داخلة على ما الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك: بم وفيم وعم ومم، وإنما حذفت الألف لأن (ما) والحرف كشيء واحد، وقد وقع استعمالها في كلام المستفهم، ولو كان كذلك لكان معنى الاستفهام واقعاً في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ والاستفهام من الله تعالى محال وهو عالم بجميع الأشياء، فنقول: هذا إذا كان المراد من الاستفهام طلب الفهم، أما إذا كان المراد إلزام من أعرض عن الوفاء ما وعد أو أنكر الحق وأصر على الباطل فلا.

كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3)

والمقت هو البغض، ومن استوجب مقت الله لزمه العذاب، قال صاحب الكشاف: المقت أشد البغض وأبلغه وأفحشه، وقال الزجاج: ﴿أن﴾ في موضع رفع و: ﴿مَقْتاً﴾ منصوب على التمييز، والمعنى: كبر قولكم ما لا تفعلون مقتاً عند الله، وهذا

كقوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ [الكهف : 5] .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (4)

(72/761)

قرأ زيد بن علي : ﴿ يقاتلون ﴾ بفتح التاء ، وقرىء (يقتلون) أن يصفون صفاً ، والمعنى يصفون أنفسهم عند القتال كأنهم بنيان مرصوص ، قال الفراء : مرصوص بالرصاص ، يقال : رصصت البناء إذا لا يمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة ، وقال الليث : يقال : رصصت البناء إذا ضممته ، والرص انضمام الأشياء بعضها إلى بعض ، وقال ابن عباس : يوضع الحجر على الحجر ثم يرص بأحجار صغار ثم يوضع اللبن عليه فتسميه أهل مكة المرصوص ، وقال أبو إسحق : أعلم الله تعالى أنه يحب من يثبت في الجهاد ويلزم مكانه كثبوت البناء المرصوص ، وقال : ويجوز أن يكون على أن يستوي شأنهم في حرب عدوهم حتى يكونوا في اجتماع الكلمة ، وموالاة بعضهم بعضاً كالبنيان المرصوص ، وقيل : ضرب هذا المثل للثبات : يعني إذا اصطفوا ثبتوا كالبنيان المرصوص الثابت المستقر ، وقيل : فيه دلالة على فضل القتال راجلاً ، لأن العرب يصطفون على هذه الصفة ، ثم المحبة في الظاهر على وجهين أحدهما : الرضا عن الخلق وثانيها : الثناء عليهم بما يفعلون ، ثم ما وجه تعلق

الآية بما قبلها وهو قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن ﴾ تقول تلك الآية مذمة المخالفين في القتال وهم الذين وعدوا بالقتال ولم يقاتلوا ، وهذه الآية محمدة الموافقين في القتال وهم الذين قاتلوا في سبيل الله وبالغوا فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 269 . 271 ﴾

(73/761)

وقال القرطبى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

تقدّم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2)

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ روى الدّارِمي أبو محمد في مسنده أخبرنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عبد الله بن سَلاَم قال : قَعَدنا نَفَرٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا فقلنا : لو نعلم أيّ الأعمال أحبّ إلى الله تعالى لعملناه ؛ فأنزل الله تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي

السماوات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم * يا أيها الذين آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ حتى ختمها .

قال عبد الله : فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ختمها .

قال أبو سلمة : فقرأها علينا ابن سَلاَم .

قال يحيى : فقرأها علينا أبو سلمة وقرأها علينا يحيى وقرأها علينا الأوزاعي وقرأها علينا محمد .

وقال ابن عباس قال عبد الله بن رَوَاحة : لو علمنا أحبّ الأعمال إلى الله لعملناه .

فلما نزل الجهاد كرهوه .

وقال الكلبي : قال المؤمنون يا رسول الله ، لو نعلم أحبَّ الأعمال إلى الله لسارعنا إليها ؛ فنزلت ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ تُنجيكم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فمكثوا زماناً يقولون : لو نعلم ما هي لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين ؛ فدلهم الله تعالى عليها بقوله : ﴿ تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ الآية .

فابْتُلوا يوم أُحُد ففرّوا ؛ فنزلت تعيّرهم بترك الوفاء .

وقال محمد بن كعب : لما أخبر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بثواب شهداء بدر قالت الصحابة : اللهم اشهد ! لئن لقينا قتالاً لنُفرِغَنّ فيه وُسْعَنا ؛ ففروا يوم أُحُد فعيّرهم الله بذلك .

وقال قتادة والضحاك : نزلت في قوم كانوا يقولون : نحن جاهدنا وأَبْلَيْنا ولم يفعلوا .

وقال صُهيب : "كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر وأنكاهم فقتلته .

فقال رجل يا نبيّ الله ، إني قتلت فلانا ، ففرح النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك .

فقال عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عَوْف : يا صُهيب ، أما أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنك قتلت فلانا ! فإن فلانا انتَحَل قتله ؛ فأخبره فقال : "أكذلك يا أبا يحيى" ؟ قال نعم ، والله يا رسول الله" ؛ فنزلت الآية في المنتحِل .

وقال ابن زيد : نزلت في المنافقين ؛ كانوا يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه : إن خرجتم وقاتلتم خرجنا معكم وقاتلنا ؛ فلما خرجوا نكصوا عنهم وتخلفوا .

الثانية : هذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملا فيه طاعة أن يفي بها .

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى أنه بعث إلى قرّاء أهل البصرة فدخل عليه ثلثمائة رجلٍ قد قرءوا القرآن ؛ فقال : أنتم خيار أهل البصرة وقرّاؤهم ، فاتْلُوه ولا يَطُولَنّ عليكم الأمد فتَقْسُوَ قلوبكم كما قستْ قلوب من كان قبلكم .

وإنا كنا نقرأ سورةً كنا نشبهها في الطُّول والشدة ب "براءة" فأُنسيتها ؛ غير أني قد حفِظت

منها "لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب" .

وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المُسبّحات فأنسيتها ؛ غير أني حفظت منها ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ فَتُكْتَب شهادةً في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة .

قال ابن العربي : وهذا كله ثابت في الدِّين .

أما قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ فثابت في الدِّين لفظاً ومعنىً في هذه السورة .

وأما قوله : شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة فمعنىً ثابتٌ في الدِّين ؛ فإن من التزم شيئاً لزمه شرعاً .

(75/761)

والملتَزَم على قسمين : أحدهما النذر ، وهو على قسمين ، نذرُ تقرّب مبتدأ كقوله : لله عليّ صلاة وصوم وصدقة ، ونحوه من القُرَب .

فهذا يلزم الوفاء به إجماعاً .

ونذرُ مباحٍ وهو ما علّق بشرط رغبة ، كقوله : إن قدم غائبي فعليّ صدقة ، أو عُلّق بشرط

رهبة ، كقوله : إن كفاني الله شرّ كذا فعليّ صدقة .

فاختلف العلماء فيه ، فقال مالك وأبو حنيفة : يلزمه الوفاء به .

وقال الشافعي في أحد أقواله : إنه لا يلزمه الوفاء به .

وعموم الآية حجة لنا ، لأنها بمطلقها تتناول ذمّ من قال ما لا يفعله على أي وجه كان من مطلق أو مقيد بشرط .

وقد قال أصحابه : إن النذر إنما يكون بما القصد منه القُرْبة مما هو من جنس القربة .

وهذا وإن كان من جنس القربة لكنه لم يقصد به القربة ، وإنما قصد منع نفسه عن فعل أو الإقدام على فعل .

قلنا : القرب الشرعية مَشَقّات وكُلَف وإن كانت قربات .

وهذا تكلّف التزام هذه القربة بمشقة لجَلْب نفع أو دفع ضر ، فلم يخرج عن سَنَن التكليف ولا زال عن قصد التقرب .

قال ابن العربي : فإن كان المقول منه وعداً فلا يخلو أن يكون منوطاً بسبب كقوله : إن تزوّجت أعنتُك بدينار ، أو ابتعت حاجة كذا أعطيتك كذا .

فهذا لازم إجماعاً من الفقهاء .

وإن كان وعداً مجرّداً فقيل يلزم بتعلقه .

وتعلقوا بسبب الآية ، فإنه روي أنهم كانوا يقولون : لو نعلم أيّ الأعمال أفضل أو أحبّ إلى

الله لعملناه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وهو حديث لا بأس به .

وقد روي عن مجاهد أن عبد الله بن رَوَاحة لما سمعها قال : لا أزال حبيساً في سبيل الله حتى أُقْتل .

والصحيح عندي : أن الوعد يجب الوفاء به على كل حال إلا لعذر .

قلت : قال مالك : فأما العِدَة مثل أن يسأل الرجل الرجل أن يَهَب له الهبة فيقول له نعم ؛ ثم يبدو له ألاّ يفعل فما أرى ذلك يلزمه .

وقال ابن القاسم : إذا وعَد الغرماء فقال : أشهدكم أني قد وهبت له من أن يؤدّى إليكم ؛ فإن هذا يلزمه .

(76/761)

وأما أن يقول نعم أنا أفعل ؛ ثم يبدو له ، فلا أرى عليه ذلك .

قلت : أي لا يقضى عليه بذلك ؛ فأما في مكارم الأخلاق وحسن المروءة فنعَم .

وقد أثنى الله تعالى على من صدَق وعده ووفَى بنذره فقال : ﴿ والموفون بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ ﴾ [البقرة : 177] ، وقال تعالى : ﴿ واذكر فِي الكتاب إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ

صَادِقَ الوعد ﴾ [مريم : 54] وقد تقدم بيانه .

الثالثة : قال النّخَعِيّ : ثلاث آيات منعتني أن أقص على الناس ﴿ أَتَأْمُرُونَ الناس بالبر وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : 44] ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إلى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود : 88] ، ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ .

وخرّج أبو نُعيم الحافظ من حديث مالك بن دِينار عن ثُمَامة أن " أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتيت ليلة أسْرِيَ بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قُرِضت وَفَت" قلت : " من هؤلاء يا جبريل" ؟ قال : "هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون ويقرءون كتاب الله ولا يعملون" " وعن بعض السلف أنه قيل له : حدِّثْنا ؛ فسكت .

ثم قيل له : حدِّثنا .

فقال : أتروْنني أن أقول ما لا أفعل فأستعجل مقت الله !

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله .

أما في الماضي فيكون كذباً ، وأما في المستقبل فيكون خُلْفاً ، وكلاهما مذموم .

وتأول سفيان بن عُيَينة قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ أي لم تقولون ما ليس الأمر

فيه إليكم ، فلا تدرون هل تفعلون أو لا تفعلون .

فعلى هذا يكون الكلام محمولاً على ظاهره في إنكار القول .

(77/761)

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ قد يحتج به في وجوب الوفاء في اللجاج والغضب على أحد قولي الشافعي .

و "أَنْ" وقع بالابتداء وما قبلها الخبر ؛ وكأنه قال : قولكم ما لا تفعلون مذموم ، ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف .

الكسائي : "أن" في موضع رفع ؛ لأن "كَبُرَ" فعل بمنزلة بئس رجلاً أخوك .

و "مَقْتاً" نصب بالتمييز ؛ المعنى كبر قولهم ما لا يفعلون مقتاً .

وقيل : هو حال .

والمقت والمَقَاتة مصدران ؛ يقال : رجل مَقِيت وممقوت إذا لم يحبه الناس .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (4)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذين يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً ﴾ أي يصفُّون صفاً :

والمفعول مضمر ؛ أي يصفُّون أنفسهم صفاً .

﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ قال الفرّاء : مرصوص بالرَّصاص .

وقال المبرّد : هو من رصصت البناء إذا لا أمْتَ بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة .

وقيل : هو من الرصيص وهو انضمام الأسنان بعضها إلى بعض .

والتراصّ التلاصق ؛ ومنه وتراصُّوا في الصف .

ومعنى الآية : يحبّ مَن يثبت في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء .

وقال سعيد بان جبير : هذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوّهم .

الثانية : وقد استدلّ بعض أهل التأويل بهذا على أن قتال الراجل أفضل من قتال الفارس ، لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة .

المهدَوِيّ : وذلك غير مستقيم ، لما جاء في فضل الفارس في الأجر والغنيمة .

ولا يخرج الفرسان من معنى الآية ؛ لأن معناه الثبات .

الثالثة : لا يجوز الخروج عن الصف إلا لحاجة تعرض للإنسان ، أو في رسالة يرسلها الإمام ، أو في منفعة تظهر في المقام ، كفرصة تنتهز ولا خلاف فيها .

وفي الخروج عن الصف للمبارزة خلاف على قولين: أحدهما أنه لا بأس بذلك إرهاباً للعدوّ ، وطلباً للشهادة وتحريضاً على القتال.

وقال أصحابنا: لا يبرز أحد طالباً لذلك، لأن فيه رياءً وخروجاً إلى ما نهى الله عنه من لقاء العدوّ.

وإنما تكون المبارزة إذا طلبها الكافر؛ كما كانت في حروب النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر وفي غَزْوة خَيْبر، وعليه دَرَج السلف.

وقد مضى القول مستوفى في هذا في "البقرة" عند قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ [البقرة: 195]. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(79/761)

وقال الآلوسى:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السماوات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾

الكلام فيه كالكلام المار في نظيره، والنداء بوصف الإيمان في قوله تعالى:

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾

على ما عدا القول الأخير في سبب النزول ظاهر، وعليه قيل: هو للتهكم بأولئك المنافقين

وبإيمانهم ، و ﴿ لَمْ ﴾ مركبة من اللام الجارة .

وما الاستفهامية قد حذف ألفها على ما قال النحاة للفرق بين الخبر والاستفهام ولم يعكس حرصا على الجواب ، وقيل : لكثرة استعمالهما معا فاستحق التخفيف وإثبات الكثرة المذكورة أمر عسير ، وقيل : لاعتناقهما في الدلالة على المستفهم عنه ، وبين بأن قولك . لم فعلت ؟ مثلا المستفهم عنه علة الفعل فهو كالمركب من العلة والفعل والعلة مدلول اللام والفعل مدلول ما لأنها بمعنى أي شيء ، والمفيد لذلك المجموع ، وعند عدم الحرف المسؤول عنه الفعل وحده وهو كما ترى ، والمعنى لأي شيء تقولون ما لا تفعلونه من الخير والمعروف ؟! على أن مدار التوبيخ في الحقيقة عدم فعلهم ، وإنما وجه إلى قولهم تنبيهاً على تضاعف معصيتهم ببيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط بل الوعد أيضاً ، وقد كانوا يحسبونه معروفاً ، ولو قيل : لم لا تفعلون ما تقولون لفهم منه أن المنكر هو ترك الموعود .

﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾

بيان لغاية قبح ما فعلوه ، و ﴿ كَبُرَ ﴾ من باب بئس فيه ضمير مبهم مفسر بالنكرة بعده ، و ﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ هو المخصوص بالذم ، وجوز أن يكون في ﴿ كَبُرَ ﴾ ضمير يعود على المصدر المفهوم من قوله سبحانه : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ ﴾ [الصف : 2] أي كبر هو أي القول مقتاً ؛ و ﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ بدل من المضمر أو خبر مبتدأ محذوف ، وقيل : قصد فيه كثر التعجب من غير لفظه كما في قوله

: وجارة جساس أبأنا بنابها . . .

كليباً غلت ناب كليب بواؤها

(80/761)

ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين ، وأسند إلى ﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ ونصب ﴿ مَقْتاً ﴾ على تفسيره دلالة على أن قولهم : ﴿ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ مقت خالص لا شوب فيه لفرط تمكن المقت منه ، واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه ، ومنه نكاح المقت لتزوج الرجل امرأة أبيه ، ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيراً حتى جعل أشده وأفحشه ، وعند الله أبلغ من ذلك لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله تعالى الذي يحقر دونه سبحانه كل عظيم فقد تم كبره وشدته وانزاحت عنه الشكوك ، وتفسير المقت بما سمعت ذهب إليه غير واحد من أهل اللغة ، وقال ابن عطية : المقت البغض من أجل ذنب .

أو ريبة .

أو دناءة يصنعها الممقوت ، وقال المبرد : رجل ممقوت ومقيت إذا كان يبغضه كل واحد ، واستدل بالآية على وجوب الوفاء بالنذر ؛ وعن بعض السلف أنه قيل له : حدثنا فسكت ، فقيل له : حدثنا فقال : وما تأمرونني أن أقول ما لا أفعل ؟ فاستعجل مقت الله عز وجل ،

وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يقاتلون فِى سَبِيلِهِ كَأَنَّهُم بنيان مَّرْصُوصٌ ﴾ بيان لما هو مرضى عنده سبحانه وتعالى بعد بيان ما هو ممقوت عند جل شأنه ، وظاهره يرجح أن ما قالوه عبارة عن الوعد بالقتال دون ما يقتضيه ما روي عن الضحاك أو عن ابن زيد في سبب النزول ، ويقتضي أن مناط التوبيخ هو إخلافهم لا وعدهم وصف مصدر وقع موقع اسم الفاعل ، أو اسم المفعول ، ونصبه على الحال من ضمير ﴿ يقاتلون ﴾ أي صافين أنفسهم أو مصفوفين ، و ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ الخ حال من المستكن في الحال الأولى أي مشبهين في تلاصقهم ببنيان الخ ، وهذا ما عناه الزمخشري بقوله : هما أي ﴿ صَفًّا ﴾ و ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ الخ حالان متداخلان ، وقول ابن المنير إن معنى التداخل أن الحال الأولى مشتملة على الحال الثانية فإن هيئة الاتصاف هي هيئة الارتصاص خلاف المعروف من التداخل في اصطلاح النحاة ، وجوز أن يكون حالا ثانية من الضمير .

(81/761)

وقال الحوفي : هو في موضع النعت لصفاً وهو كما ترى ، والمرصوص على ما قال الفراء .

ومنذر بن سعيد هو المعقود بالرصاص ، ويراد به المحكم ، وقال المبرد : رصصت البناء

لاءَمت بين أجزائه وقاربته حتى يصير كقطعة واحدة ، ومنه الرصيص وهو انضمام الأسنان ، والظاهر أن المراد تشبيههم في التحام بعضهم ببعض بالبنيان المرصوص من حيث أنهم لا فرجه بينهم ولا خلل ، وقيل : المراد استواء نياتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص ، والأكثرون على الأول ، وفي أحكام القرآن فيه استحباب قيام المجاهدين في القتال صفوفاً كصفوف الصلاة وأنه يستحب سدّ الفرج والخلل في الصفوف ، وإتمام الصف الأول فالأول ، وتسوية الصفوف عدم تقدم بعض على بعض فيها ، وقال ابن الفرس : استدل به بعضهم على أن قتال الرجالة أفضل من قتال الفرسان لأن التراصي إنما يمكن منهم ، ثم قال : وهو ممنوع انتهى ، ثم إن القتال على هذه الهيئة اليوم من أصول العساكر المحمدية النظامية لا زالت منصورة مؤيدة بالتأييدات الربانية ، وأنت تعلم أن للوسائل حكم المقاصد فما يتوصل به إلى تحصيل الاتصاف بذلك مما لا ينبغي أن يتكاسل في تحصيله ، وقرأ زيد بن علي ﴿ يقاتلون ﴾ بفتح التاء ، وقرىء يقتلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(82/761)

وقال ابن عاشور :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

مناسبة هذه الفاتحة لما بعدها من السورة بيان أن الكافرين محقوقون بأن تقاتلوهم لأنهم شذوا عن جميع المخلوقات فلم يسبحوا الله ولم يصفوه بصفات الكمال إذ جعلوا له شركاء في الإلهية .

وفيه تعريض بالذين أخلفوا ما وعدوا بأنهم لم يؤدُّوا حق تسبيح الله ، لأن الله مستحق لأن يوفَّى بعهده في الحياة الدنيا وأن الله ناصر الذين آمنوا على عدوّهم .

وتقدم الكلام على نظير قوله : ﴿ سبح لله ﴾ إلى ﴿ الحكيم ﴾ في أول سورة الحشر وسورة الحديد .

وفي إجراء وصف ﴿ العزيز ﴾ عليه تعالى هنا إيماء إلى أنه الغالب لعدوّه فما كان لكم أن تَرهَبُوا أعداءه فتفرّوا منهم عند اللقاء .

وإجراء صفة ﴿ الحكيم ﴾ إن حملت على معنى المتصف بالحكمة أن الموصوف بالحكمة لا يأمركم بجهاد العدوّ عبثاً ولا يخليهم يغلبونكم .

وإن حملت على معنى المُحكِم للأمور فكذلك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2)

ناداهم بوصف الإيمان تعريضاً بأن الإيمان من شأنه أن يزع المؤمن عن أن يخالف فعلُه قولَه في

الوعد بالخير .

واللام لتعليل المستفهم عنه وهو الشيء المبْهم الذي هو مدلول ﴿ ما ﴾ الاستفهامية لأنها تدل على أمر مبهم يطلب تعيينه .

والتقدير : تقولون مَا لاَ تفعلون لأي سبب أو لأية علّة .

وتعلق اللام بفعل ﴿ تقولون ﴾ المجرور مع حرف الجر لصدارة الاستفهام .

والاستفهام عن العلة مستعمل هنا في إنكار أن يكون سبب ذلك مرضياً لله تعالى ، أي أن ما يدعوهم إلى ذلك هو أمر منكر وذلك كناية عن اللوم والتحذير من ذلك كما في قوله تعالى : ﴿ قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ﴾ في سورة البقرة (91) .

فيجوز أن يكون القول الذي قالوه وعداً وعَدوه ولم يفوا به .

ويجوز أن يكون خبراً أخبروا به عن أنفسهم لم يطابق الواقع .

وقد مضى استيفاء ذلك في الكلام على صدر السورة .

(83/761)

وهذا كناية عن تحذيرهم من الوقوع في مثل ما فعلوه يوم أحد بطريق الرمز ، وكناية عن اللوم على ما فعلوه يوم أحد بطريق التلويح .

وتعقيب الآية بقوله : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ [الصف : 4] الخ .

يؤذن بأن اللوم على وعد يتعلق بالجهاد في سبيل الله .

وبذلك يلتئم معنى الآية مع حديث الترمذي في سبب النزول وتندحض روايات أخرى رويت في سبب نزولها ذكرها في "الكشاف" .

وفيه تعريض بالمنافقين إذ يظهرون الإيمان بأقوالهم وهم لا يعملون أعمال أهل الإيمان بالقلب ولا بالجسد .

قال ابن زيد : هو قول المنافقين للمؤمنين نحن منكم ومعكم ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك .

وجملة ﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ بيان لجملة ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ تصريحاً بالمعنى المكنّى عنه بها .

وهو خبر عن كون قولهم : ﴿ ما لا تفعلون ﴾ أمراً كبيراً في جنس المقت .

والكِبَر : مستعار للشدة لأن الكبير فيه كثرة وشدة في نوعه .

و ﴿ أن تقولوا ﴾ فاعل ﴿ كبر ﴾ .

والمقت : البغض الشديد .

وهو هنا بمعنى اسم المفعول .

وانتصب ﴿ مقتاً ﴾ على التمييز لجهة الكبر .

وهو تمييز نسبة .

والتقدير : كبر ممقوتاً قولُكم ما لا تفعلونه .

ونُظِم هذا الكلام بطريقة الإِجمال ثم التفصيل بالتمييز لتهويل هذا الأمر في قلوب السامعين لكون الكثير منهم بِمظنة التهاون في الحيطة منه حتى وقعوا فيما وقعوا يوم أُحد .

ففيه وعيد على تجدد مثله ، وزيد المقصود اهتماماً بأن وصف المقت بأنه عند الله ، أي مقتٌ لا تسامح فيه .

وعدل عن جعل فاعل ﴿ كبر ﴾ ضمير القول بأن يقتصر على ﴿ كبر مقتاً عند الله ﴾ أو يقال : كبر ذلك مقتاً ، لقصد زيادة التهويل بإعادة لفظه ، ولإِفادة التأكيد .

و﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما لا تفعلون ﴾ في الموضعين موصولة ، وهي بمعنى لام العهد ، أي الفعل الذي وَعدتم أن تفعلوه وهو أحبّ الأعمال إلى الله أو الجهادُ .

(84/761)

---

4 فاقتضت الآية أن الوعد في مثل هذا يجب الوفاء به لأن الموعود به طاعة فالوعد به من قبيل النذر المقصودِ منه القُربة فيجب الوفاء به .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (4)

هذا جواب على تمنيهم معرفةَ أحب الأعمال إلى الله كما في حديث عبد الله بن سَلام عند الترمذي المتقدم وما قبله توطئة له على أسلوب الخطب ومقدماتها .

والصف : عَدد من أشياء متجانبة منتظمة الأماكن ، فيطلق على صف المصلين ، وصفّ الملائكة ، وصف الجيش في ميدان القتال بالجيش إذا حضر القتال كان صفّاً من رَجّالة أو فرسان ثم يَقع تقدم بعضهم إلى بعض فرادى أو زرافات .

فالصفّ هنا : كناية عن الانتظام والمقاتلة عن تدّبر .

وأما حركات القتال فتعرض بحسب مصالح الحرب في اجتماع وتفرق وكرّ وفرّ .

وانتصب ﴿ صفاً ﴾ على الحال بتأويل : صافّين ، أو مصفوفين .

والمرصوص : المتلاصق بعضه ببعض .

والتشبيه في الثبات وعدم الانفلات وهو الذي اقتضاه التوبيخ السابق في قوله : ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ [الصف : 2] . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(85/761)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [2] قال : إن الله هدد عباده على دعواهم من غير تحقيق ، والدعوى أن يلزمه اليوم حق من حقوق الله براءة وتوبة من كل ذنب ارتكبه ، فيقول غداً أعمل ، وما من أحد ادعى إلا وقد ضيع حق الله من وجهين ، ظاهر وباطن ، ولا يكون المدعي خائفاً ، ومن لم يكن خائفاً لم يكن آمناً ، ومن لم يكن آمناً لم يكن يطلع على الجزاء .

وقال : طلاب الآخرة كثيرة ، والذي يتولى الله كفايته عبدان ، عبد ساذج غير أنه صادق في طلبه ، متوكل على الله ، فيصدقه فيكفيه مولاه ، ويتولى جميع أموره ؛ وعبد عالم بالله وبأيامه وأمره ونهيه ، كفاه الله كل شيء من هذه الدنيا ، فإذا صار إلى الآخرة ما سوى هذين لا يعبأ الله بهم ، لأنهم يدعون ما ليس لهم .

وقال ابن عيينة في هذه الآية : لم تقولون ما ليس الأمر فيه لكم ، لا تدرون تفعلون ذلك أم لا تفعلون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير التسترى صـ 167 ﴾

(86/761)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى البنيان)

وقد ورد فى القرآن على أَربعة أَوجهٍ :

الأَوّل : بمعنى الصّرح ، والقصر العالى : ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ بنيانهم : أَى صَرْحهم .

الثَّانى : بمعنى المسجد : ﴿ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ﴾ (مسجدا) ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا ﴾ أَى مسجدهم .

الثالث : بمعنى بيت النار : ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ .

الرّابع : بمعنى تشبيه صفّ الغازين بالجدران المرصوصة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ .

والبنيان واحد لا جمع له .

وقال بعضهم : جمع واحدته بُنْيَانة ، على حدّ نخلة ونخل .

وهذا النَّحوُ من الجمع يصحّ تذكيره وتأْنيثه .

وابْنٌ أَصله بَنَىٌ لقولهم فى الجمع : أَبناءٌ ، وفى التّصغير بُنىّ .

وسمّى بذلك ؛ لكونه بناءً للأَب ؛ فإِنّ الأَب قد بناه .

ويقال لكلّ ما يحصل من جهة شىءٍ ، أَو من ترتيبه أَو بتفقده ، أَو كثرة خدمته له ، وقيامه بأَمره : هو ابنه ؛ نحو فلانٌ ابن الحرب ، وابن السّبيل للمسافر .

وابن بطنِه ، وابن فرجه إِذا كان همّه مصروفاً إِليهما ، وابن يومه إِذا لم يتفكَّر فى غدِه .

وجمع ابن أَبناءُ ، وبنون .

ومؤنَّثه ابنة وبنت .

والجمع بنات .

وقوله : ﴿ هؤلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ فقد قيل : خاطب بذلك أَكابر القوم ، وعرَض عليهم بناته ، لا أَهل قريته كلَّهم ؛ فإِنَّه محال أَن يعرض بنات قليلة على الجمّ الغفير .

وقيل : بل أَشار بالبنات إِلى بنات أُمّته .

سمّاهنّ بنات له ؛ لكون النبىّ بمنزلة الأَب لأُمّته ، بل لكونه أَكبر الأَبوين لهم .

وقوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ﴾ يريد به قولهم : الملائكة بنات الله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز جـ 2 صـ 277 . 278 ﴾

(87/761)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي

إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التخلف عن أمر الله تعالى والغفلة عن شيء يؤدي تركه إلى التهاون به والإخلال بأدب من آدابه موجباً للكون في صف الشيطان ومفارقة حزب الرحمن ، فيكون أذى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فيوجب ذلك الشقاء كله لأنه جدير بأن يجر إلى أكبر منه إلى أن تحيط الخطايا فتبيح الرزايا ، وكان للتذكير بالمشاهدات والأمور الواقعات ما ليس لغيره في التأديب ومرجع الترهيب ، ذكر بما كان لبني إسرائيل ترهيباً من مثل حالهم ، لئلا يوقع في نكالهم ، حين تقاعسوا عما أمروا به من فتح بيت المقدس من الله تعالى غضب من فعلهم ذلك فسماهم فاسقين وضربهم بالتيه أربعين سنة ، وأمات في تلك الأربعين كل من توانى منهم في ذلك ، فلم يدخل إلى بيت المقدس منهم أحد ، فحرموا البلاد التي تقاعدوا عن فتحها ، وهي بعد مكة والمدينة خير بلاد الله تعالى ومهاجر أبيهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومواطن أبويهما إسحاق ويعقوب عليهما الصلاة والسلام وأنزه الأرض ، وأكثرها خيراً وأبركها ، مع ما كانوا فيه من الضيق والنكد من التيه الذي هو طرد عن جناب الله بما أراد – بما أشار إليه التعبير عن زمنه بالسنين – إلى ما أبقوا بعدهم ثم سوء الذكر وشناعة

القالة إلى آخر الدهر فقال تعالى : ﴿ وإذ ﴾ عطفاً على ما تقديره : اذكروا ما فعل بعضكم - بما أشرت إليه أول هذه الآيات من الآداب من تنبيه الكفار بما قد يمنع من الفتح أو يكون سبباً في عسره أو في إهلاك خلق كثير من عبادي الذين خلقتهم في أحسن تقويم من المؤمنين وغيرهم ، أو من الفرار من الكفار عند المقارعة ، أو التقاعس عن اللقاء عند البعث عليه ، فآذى ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي أذاه من أذى الله فحلم عنكم ، وقبل بما له من بليغ الرحمة بكم والشفقة عليكم منكم ، وكان أنهى ما عاتبكم به مرسله سبحانه النداء بما هو أدنى الأسنان في الإيمان في نظير إطلاقه على بني إسرائيل الفسق بالوصف المؤذن بالرسوخ : واذكروا حين

(88/761)

﴿ قال موسى لقومه ﴾ وهم - مع كونه منهم - ممن له قوة على ما يحاولونه : ﴿ يا قوم ﴾ استعطافاً لهم واستنهاضاً إلى رضى ربهم ﴿ لم تؤذونني ﴾ أي تجددون إذائي مع الاستمرار بالتواني في أمر الله والتقاعد عن فتح بيت المقدس مع قولي عن الله أنكم فاتحوها إن أطعتموه وأن الله أقسم لآبائكم أنه ما تحكموها لا محالة .

ولما كان هذا الاستفهام الإنكار موجباً لتوقع ما يأتي بعده من موجب التعظيم بدل الأذى ،

والتبجيل والانقياد موضع التوقف والإباء ، قال محققاً بحرف التحقيق مضمون الكلام :

﴿ وقد ﴾ أي والحال أنكم ﴿ تعلمون ﴾ أي علمتم قطعياً مع تجدده لكم في كل وقت بتجدد أسبابه بما آتيتكم به من المعجزات وبالكتاب الحافظ لكم من الزيغ ﴿ أني رسول الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له ورسوله أيضاً يعظم ويحترم لا أنه تنتهك جلالته وتخترم ﴿ إليكم ﴾ لا أقول لكم شيئاً إلا عنه ، ولا أنطق عن الهوى ، فعصياني عصيانه مع أني ما قلت لكم شيئاً إلا تم ، وإن كنتم قاطعين بخلافه فهي معصيته لا حامل عليها أصلاً إلا رداءة الجبلات .

(89/761)

ولما تحنن إليهم واستعطفهم وذكرهم ما يعلمون من رسليته وصلته بالله بما شاهدوا من الآيات التي هي أعظم الإحسان إليهم ، أعلم أنهم أوشكوا العصيان ، فقال معبراً عن ذلك بالفاء تسبيباً عن هذا القول الذي هو أهل لأن يسبب الثبات وتعقيباً وتقريباً : ﴿ فلما زاغوا ﴾ أي تحقق زيغهم عن قرب عن أوامر الله في الكتاب الآتي إليهم بما أبوا من قبول أمره في الإقدام على الفتح ﴿ أزاغ الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ قلوبهم ﴾ من الاستواء ، وجمع الكثرة يدل على أنه لم يثبت منهم إلا القليل فهزمهم بين يدي أعدائهم وضربهم بالتيه

لأنهم فسقوا عن أمر الله ﴿ فالله ﴾ - لا يهديهم ، فأسند الذنب إليهم والعقوبة إليه وإن كان الكل فعله تعليماً لعباده الأدب وإعلاماً بأن أفعالهم الاختيارية ينسب إليهم كسبها ويقوم به الحجة عليهم لعدم علمهم بالعاقبة ﴿ والله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الحكمة البالغة لأنه المستجمع لصفات الكمال ﴿ لا يهدي ﴾ أي بالتوفيق بعد هداية البيان ﴿ القوم الفاسقين ﴾ أي العريقين في الفسق الذين لهم قوة المحاولة فلم يحملهم على الفسق ضعف ، فاحذروا أن تكونوا مثلهم في العزائم فتساووهم في عقوبات الجرائم - انتهى .

ولما كان أذى النبي -صلى الله عليه وسلم- بمخالفة أمره تارة يكون مع العلم برسالته والإقرار بها وتارة مع الإنكار ، وقدم العتاب على ما كان منه على تقدير التصديق ، وذكر فيه بقصة موسى عليه الصلاة والسلام الذي كانوا يؤذونه مع العلم برسالته ، وهدد بما اتفق لهم من زيغ القلوب التي هي عماد الأبدان وصلاح الإنسان ، أتبعه ما يكون منه عند فرض الإنكار .

(90/761)

ولما كان رد المنكر تارة بالعقل وتارة بالنقل ، وكان الذي بالعقل يكون بنظر المعجزات ولا سيما إخراج الخبأ وقد كان منه في قصة حاطب رضي الله تعالى عنه في إخراج كتابه الذي اجتهد في إخفائه واجتهدت الظعينة الحاملة له في كتمانه ما فيه مقنع في العلم بالرسالة

وتحقق الجلالة ، أتبع ذلك دليلاً نقلياً تأيداً للعقل مع كونه دليلاً على صحة الإخبار بإزاغة قلوب بني إسرائيل جزاء على زيغهم عن الحق فقال : ﴿ وإذ ﴾ أي واذكروا حين ﴿ قال عيسى ﴾ ووصفه بما حقق من هو فقال : ﴿ ابن مريم ﴾ أي لقوم موسى عليهما الصلاة والسلام الذين أرسل إليهم وثبتت نبوته لديهم بالمعجزات مع إخلاص الدعوة لله وتصديق من كان قبله من أهل الله : ﴿ يا بني إسرائيل ﴾ وذكرهم بما كان عليه أبوهم من الدين وما وصى به نبيه من التمسك بالإسلام ، ولم يعبر بالقوم كما قال موسى عليه الصلاة والسلام لأنه لا أب له فيهم وإن كانت أمه منهم ، فإن النسب إنما هو من جهة الأب ، وأكد لإنكار بعضهم فقال : ﴿ إني رسول الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي أحاط علمه بكل شيء ﴿ إليكم ﴾ أي لا إلى غيركم ، حال كوني ﴿ مصدقاً ﴾ نصبه بما في الرسول من رائحة الفعل ولا ينصب ب " إليكم " لأنه صفة للرسول ، وحروف الجر لا تعمل بأنفسها بل بما فيها من معنى الفعل ، فإذا كانت صلات لم تكن متضمنة لمعنى فعل فلا تعمل ، وهو الحرف الذي يسمى في غير " الكتاب العزيز " لغواً ﴿ لما بين يدي ﴾ أي تقدمني وكان من قبلي ﴿ من التوراة ﴾ التي تعلمون أن الله تعالى أنزلها على موسى عليه الصلاة والسلام وهي أول الكتب التي نزلت بعد الصحف وحكم بها النبيون ، فتصديقي لها مع تأييدي لها مؤيد لأن ما أقمته من الدلائل حق ومبين أنها دليلي فيما لم أنسخه منه كما يستدل الإنسان بما قدامه من الأعلام ويراعيه ببصره .

(91/761)

ولما ذكر أول الكتب ذكر أيضاً أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً وهو آخر الرسل ليكون في ذلك إشارة إلى أن البشارة به في التوراة والإنجيل فقال : ﴿ ومبشراً ﴾ أي في حال تصديقي للتوراة .

(92/761)

ولما كانت رسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ عامة لجميع الخلق لم يذكر في رسالته حرف الغاية كما ذكر في الرسالتين المذكورتين قبل فقال : ﴿ برسول ﴾ أي إلى كل من شملته المربوبية ﴿ يأتي ﴾ ولما كان إتيانه بعده بمدة طويلة أدخل الجار فقال : ﴿ من بعدي ﴾ ولما كان الإتيان بغاية البيان وإزاحة اللبس بكل اعتبار أقعد في العتاب لمن هفا بعده والأخذ لمن جفا فنقض عهده ، أتى بالاسم الذي ما شارك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه أحد في زمانه ولا قبله أصلاً ، ووزنه دال على المبالغة في معناه فقال : ﴿ اسمه أحمد ﴾ أي دال على أنه أبلغ الخلق حامداً ومحموداً وهو اسمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في السماء التي

سيصير إليها هذا المبشر ، وفي تخصيصه بالذكر احتراز عن أن يتوهم أن البعدية في الرتبة لأنه يليح بتصديره بالهمزة التي هي أول الحروف مخرجاً وأشد حروف الحلق الذي هو أول المخارج وتضمينه الميم إلى أنه. صلى الله عليه وسلم. كما أنه خاتم بما أشار إليه أشهر أسمائه وأعظمها " محمد " لابتدائه بالميم التي هي أمكن حروف الشفة التي هي خاتمة للحروف لأن مخرجها آخر المخارج ، لا نبي بعده فهو فاتح مقدم باعتبار الذكر والشرف والحكم بالوصف الشريف لا نبي قبله في الخلق وجبت له النبوة وإن آدم لمنجدل في طينه وبين الروح والجسد كما في الحديث الذي أخرجه أحمد عن ميسرة الفجر. رضى الله عنه. والترمذي عن أبي هريرة. رضى الله عنه. وأخرجه البيهقي في أول دلائل النبوة وقال : إن معناه أنه كذلك في قضاء الله وتقديره ، وكأنه يريد قضاء مكتوباً في أم الكتاب ومذكوراً لمن أراد من الملائكة قبل إتمام خلق آدم عليه الصلاة والسلام فإنه يحتمل أنه سبحانه وتعالى لما صور آدم عليه الصلاة والسلام جعل طينته شفافة تشف عن ذريته وجعل لصالحيهم نوراً يرى دون غيره ، فلما رأوا أعظمهم نوراً سألوا عنه فأخبرهم سبحانه وتعالى به وأثبت ما أراد من أوصافه في أم الكتاب كما أنه كان نبياً

بالإخبار في دعوة أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام وببشارة عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام وبأمارات النور الذي خرج من أمه كما في الحديث الذي رواه البيهقي في الدلائل وغيره عن العرباض بن سارية . رضى الله عنه .

" إني عبد الله وخاتم النبيين " وفي رواية " إني عبد الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأخبركم عن ذلك ؛ دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين " وأن أم رسول الله . صلى الله عليه وسلم . رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام ، فتأويل ذلك بذكره سبحانه له لملائكته مثل تأويله بدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى حكاية عنه ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ [البقرة : 129] وبشارة عيسى عليه الصلاة والسلام في مثل حكايته عنه في هذه الآية ، وتأويله بالنور الذي رأت أمه مثل تأويله بالنور الذي يحتمل أن يكون الملائكة عليهم السلام " رأوا في شفاف طينة آدم عليه السلام والله سبحانه وتعالى أعلم .

وكانت سورة القتال أحق باسمه الدال على الختم لأن الختام محتاج إلى علاج في لأم ما كان من صدع الافتراق، وكذا سورة الفتح لما يلزمه من محاولة المنغلق وإزالة الأغلاق، وختام السورتين بالميم عظيم المناسبة لذلك لأن الميم اسم لتمام الظاهر المقام بالألف، وإلى ذلك إشارة رسم ألف التنوين في الفتح بعد الميم مع أنه لا يخلو من إشارة إلى أنه الفاتح مع كونه الخاتم، ويؤيد ذلك افتتاح السورة بأول حروف الاسم المليح إلى الفتح، وكانت هذه السورة أحق به لأنه أدل دال على الاتفاق واجتماع الكلمة دون اختلاف وافتراق، كما كان عند نزول آدم عليه الصلاة والسلام وبعده بمدة، وإلى ذلك أشار ختمها وختم نظيرتها الصافات بالنون الذي هو مظهر مبين محيط بما أظهره، فهو مبشر لهذه الأمة بالاجتماع والظهور على الاسم الذي يحيط آخره بجميع أهل الأرض على زمن المبشر عيسى عليه السلام المؤيد للمبشر به بتجديد أمره وإقامة دينه. صلى الله عليه وسلم. ، وآخر هذه نتيجة آخر الصافات بالحمد الذي هو الإحاطة بأوصاف الكمال - والله تعالى أعلم بالصواب " .

ذكر ما يصدق هذه الآية من الإنجيل من تصديقه للتوارة

وبشارته بأحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، قال : وكان رجل مريض اسمه العازر من بيت عنيا وهو أخو مريم ومرتا ، فأرسلت الأختان إلى يسوع أن الذي تحبه مريض ، فأقام في الموضع الذي هو فيه يومين ثم قال لتلاميذه : امضوا بنا إلى اليهودية ، فقال له تلاميذه : الآن يا معلم أراد اليهود رجمك وأنت تريد المضي إليهم ، فقال : إن العازر حبيبنا قد نام ، فأنا انطلق فاوقظه ، فقال : يا سيدنا ، إن كان نائماً فهو يستيقظ ، فقال العازر مات ، فأقبلوا إلى بيت عنيا ، فإذا له أربعة أيام في القبر وكانت بيت عنيا من يروشليم على نحو خمس عشرة غلوة ، وكان كثير من اليهود قد جاؤوا إلى مرتا ومريم يعزوهما ، فلما سمعت مرتا بقدوم يسوع خرجت لتلقاه فقالت له : يا سيد ، لو كنت ههنا لم يمت أخي وأنا أعلم أن الله يعطيك كل ما سألته ، قال : سيقوم أخوك ، قالت : أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة ، ثم جاءت مريم للقائه ، فظن اليهود الذين كانوا يعزونها أنها تذهب إلى القبر فتبعوها ، فلما انتهت إلى المكان الذي كان فيه يسوع خرت على قدميه ساجدة ، فلما رآها تبكي ورأى اليهود الذين كانوا معها قال : أين وضعتموه ؟ فقالوا له : يا سيد ، تعالى وانظر ، فدمع يسوع فقال اليهود : انظروا كيف كان يحبه ، فقال ناس منهم : أما كان هذا الذي فتح عيني الأعمى يقدر أن يجعل هذا لا يموت ، فجاء إلى القبر وكان مغارة وعليه حجر موضوع فقال : ارفعوا الصخرة ، فقالت له مرتا أخت الميت : يا سيد ، إنه قد أنتن لأن له أربعة أيام ، قال لها يسوع : ألم أقل لك إن آمنت رأيت مجد الله ، فرفعوا الصخرة فرفع يسوع بصره إلى فوق وقال :

أشكرك ، لأنك تسمع لي ، أقول هذا من أجل هذا الجمع ليؤمنوا أنك أرسلتني ، قال هذا القول ونادى بصوت عظيم وصاح : عازر اخرج ، فخرج الميت ويداه ورجلاه ملفوفة باللفائف ووجهه ملفوف بعمامة ، فقال يسوع : حلوه ودعوه يمضي ، وإن كثيراً من اليهود الذين جاؤوا إلى مريم لما رأوا

(96/761)

ما صنع يسوع آمنوا ، ومضى قوم منهم إلى الفريسيين فأخبروهم ، فجمع عظماء الكهنة والفريسيون محفلاً فقالوا : ماذا نصنع إذ كان هذا الرجل يعمل آيات كثيرة وإن تركناه فيؤمن به جميع الناس وتأتي الروم فتنقلب على أمتنا وموضعنا ، وإن واحداً منهم اسمه قيافاً كان أعظم الكهنة في تلك السنة قال لهم : إنه خير لنا أن يموت واحد من الشعب من أن تهلك الأمة كلها - إلى آخر ما مضى في النساء عند قوله تعالى :

(97/761)

﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ [النساء : 157] الآيات ، نرجع إلى متى قال : حينئذ ذهب الفريسيون وتشاوروا ليصطادوه بكلمة فأرسلوا إليه تلاميذهم والهردوسيين قائلين : يا معلم ، قد علمنا أنك محق وطريق الله بالحق تعلم ولا تبالي بأحد ولا تنظر لوجه إنسان فقل لنا ما عندك ، أيجوز لنا أن نعطي الجزية لقيصر أم لا ؟ فعلم يسوع شرهم فقال : لماذا تجربوني يا مراؤون أروني دينار الجزية ، فأتوه بدينار فقال لهم يسوع : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ فقالوا : لقيصر ، حينئذ قال لهم : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا ، وقال يوحنا : فقال يسوع : أنا ماكث فيكم زماناً يسيراً ، ثم انطلق إلى من أرسلني وتطلبوني فلا تجدوني ، وحيث أكون أنا لستم تقدرون على المجيء إلي فقال اليهود فيما بينهم : إلى أين هذا مزمع أن يذهب حتى لا نجده ، لعله مزمع أن يذهب إلى منفى اليونانيين ، وقال متى : وفي اليوم جاء إليه الزنادقة القائلون : ليس قيامة ، وسألوه – فذكر سؤالهم وجوابه لهم إلى أن قال في آخر جوابه : أما قرأتم ما قيل لكم من الله ، وقال مرقس : في سفر موسى قول الله على العوسج إذ قال : أنا هو إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب وأنتم تضلون كثيراً ، وعبارة لوقا : فقد نبأ بذلك موسى في العليقة كما قال الرب : أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب ، وقال متى : فلما سمع الجمع بهتوا من تعليمه ، فلما سمع ذلك الفريسيون أنه قد أبكم الزنادقة اجتمعوا عليه جميعاً وسأله كاتب منهم ليجربه قائلاً ، يا معلم ! أي الوصايا أعظم في الناموس ؟ قال له يسوع : تحب الرب

إلهك من كل قلبك ، وقال : اسمع ، يا إسرائيل ، الرب إلهك واحد هو ، تحب إلهك من كل قلبك – انتهى ، ومن كل نفسك ومن كل فكرك ، هذه الوصية الأولى العظيمة ، والثانية التي تشبهها أن تحب قريب مثل نفسك ، قال مرقس : ليس وصية أعظم من هاتين – انتهى ، في الوصيتين سائر الناموس

(98/761)

والأنبياء يتعلق ، قال مرقس : فقال له الكاتب : فحينئذ يا معلم الحق قلت أنه واحد ليس آخر غيره ، وأن تحبه من كل القلب ومن كل النية ومن كل النفس ومن كل القوة ، وتحب القريب مثلك ، هذه أفضل من جميع الذبائح والمحترقات ، فلما رأى يسوع عقله أجابه قائلاً : لست بعيدا من ملكوت الله ، وقال لوقا : فقال ليسوع : ومن هو قريبي ؟ قال يسوع : كان رجل نازلاً من يروشليم إلى أريحا ، فوقع بين اللصوص فسلبوه وجرحوه ومضوا وتركوه متخناً قريب الموت ، واتفق أن كاهناً نزل في تلك الطريق فأبصره وجاز ، وكذلك لاوي جاء إلى المكان فأبصره وجاز ، وإن سامرياً جاز به ، فلما رآه تحنن ودنا منه وضمد جراحاته وحمله على دابته وجاء به إلى الفندق وعني بأمره ، وفي الغد أخرج بدينارين أعطاهما لصاحب الفندق وقال : اهتم به فإن أنفقت عليه أكثر من هذين دفعت لك عند

عودتي ، فمن من هؤلاء الثلاثة تظن أنه قد صار قريباً للذي وقع بين اللصوص ، فقال له : الذي صنع معه رحمة ، فقال له يسوع : اذهب أنت وافعل هكذا ، وقال مرقس : فلم يتجرأ أحد أن يسأله ثم قال : وكانت جماعة كثيرة يسمعون منه بشهوة ، وقال يوحنا : وآمن باسمه عند كونه بإيروشليم في عيد الفسح كثير لأنهم عاينوا الآيات التي عمل ، ثم قال : وكان رجل من الفريسيين اسمه نيقوديميس رئيساً لليهود أتى إلى يسوع ليلاً وقال له : يا معلم نحن نعلم أنك من الله أتيت معلماً لأنه ليس بقدر أحد أن يعمل هذه الآيات التي تعمل أنت إلا من كان الله معه ، قال متى : وحينئذ كلم يسوع الجمع وتلاميذه وقال : على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون وكل ما قالوه لكم احفظوه أنتم وافعلوه ، ومثل أعمالهم لا تصنعوا لأنهم يقولون ولا يفعلون ، لأنهم يربطون أحمالاً ثقالاً صعبة الحمل ويحملونها على أعناق الناس ولا يريدون أن يحركوها بإصبعهم ، وكل أعمالهم يصنعونها لكي يراؤوا الناس ، يعرضون أرديتهم ويعظمون أطراف ثيابهم ، ويحبون أول الجماعات

(99/761)

في الولائم وصدور المجالس في المجامع والسلام في الأسواق ، وأن يدعوهم الناس معلمين ، فأما أنتم فلا تدعوا لكم معلماً على الأرض ولا مدبراً فإن مدبركم واحد هو المسيح ،

وأنتم جميعاً إخوة ، ولا تدعوا لكم أباً على الأرض فإن أباكم واحد ، هو الذي في السماوات ، والكبير الذي فيكم يكون لكم خادماً ، فمن رفع نفسه اتضع ، ومن وضع نفسه ارتفع ، الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون ، لأكلكم بيوت الأرامل والأيتام ، لعلة تطويل صلاتكم ، ومن أجل هذا تأخذون أعظم دينونة ، الويل لكم أنكم تغلقون ملكوت السماوات قدام الناس فلا أنتم تدخلون ولا تتركون الداخلين يدخلون ، الويل لكم أنكم تطوفون البر والبحر لتصطفوا غريباً واحداً ، فإذا صار صيرتموه لجهنم ابناً مضعفاً ، لكم الويل يا أيها الهداة العميان الذين يقولون : من حلف بالهيكل فليس عليه شيء ، ومن حلف بذهب الهيكل يخطىء ، أيها الجهال العمي أيما أعظم ؟ الذهب أن الهيكل الذي يقدس الذهب ، ومن حلف بالمذبح فلا شيء ، ومن حلف بالقربان الذي فوقه فهو يخطىء يا جهال وعميان ، أيما أعظم ؟ القربان أم المذبح الذي يقدس القربان ؟ ومن حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما فوقه ، ومن حلف بالهيكل فهو يحلف به وبالساكن فيه ، ومن حلف بالسماء فهو يحلف بكرسي الله وبالجالس عليه ، الويل لكم أنكم تعشرون الشبث والنعنع والكمون وتتركون أثقل الناموس الحكم والرحمة والإيمان ، وقال لوقا : تعشرون النعنع والسداب وكل البقول ، وترفضون حكم الله ومحبته ، قد كان ينبغي أن تعقلوا هذا ولا تغفلوا عن تلك – انتهى ، يا هداة عيمان الذين يتركون البعوضة ويبلعون الجمل ، الويل لكم أنكم تنقون خارج الكأس والسكرجة وداخلهما مملوء اختطافاً وظلماً ، أيها الأعمى ، نق

أولاً داخل الكأس والسكرجة لكيما يتطهر خارجهما ، وقال لوقا : اعطوا الرحمة فكل شيء يتطهر لكم - الويل لكم لأنكم لا تشبهون القبور المكلسة التي ترى من خارجها حسنة وداخلها

(100/761)

مملوء عظام الأموات وكل نجس ، وقال لوقا : لأنكم مثل القبور المخفية والناس يمشون عليها ولا يعلمون - انتهى .

وكذلك أنتم ترون الناس ظواهركم مثل الصديقين ، ومن داخل ممتلئون إثماً ورياء ، قال لوقا : وأنتم أيها الكتبة الويل لكم لأنكم تحملون أوساقاً وأثقالاً وأنتم لا تدنون منها بإحدى أصابعكم ، الويل لكم لأنكم أخذتم مفاتيح الغرفة فما دخلتم ، ومنعتم الذين يريدون الدخول - انتهى ، الويل لكم لأنكم تبنون قبور الأنبياء ، قال لوقا : الذين قتلهم آباؤكم - انتهى ، وتزينون مدافن الصديقين وتقولون : لو كنا في أيام آبائنا لم نشاركهم في دم الأنبياء ، فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء إنكم تكملون مكيلة آبائكم ، أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم ، من أجل هذا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة فتقتلون منهم وتصلبون وتجلدون منهم في مجامعكم وتطردونهم من مدينة

إلى مدينة لكي يأتي عليكم دم الصديقين المسفوك على الأرض ، وقال لوقا : وأنتم تشهدون وتسرون بأعمال آبائكم لأنهم قتلوهم وأنتم تبنون قبورهم ، ولهذا قالت حكمة الله : هوذا أرسل إليهم أنبياء ورسلاً فيقتلون منهم ويطردونهم لينتقم عن دم جميع الأنبياء الذي أهريق من أول العالم إلى هذا الجيل .

(101/761)

وقال متى : من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن براشيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح ، الحق أقول لكم إن هذا كله يأتي على هذا الجيل ، يا أروشليم ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم من مرة أردت أن أجمع بنيك فيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا ، هوذا يترك بينكم لكم خراباً ، أنا أقول لكم : إني لا تروني من الآن حتى تقولوا : مبارك الآتي باسم الرب ، وقال مرقس : ثم جاء يسوع عند باب الخزانة ينظر الجمع يلقي نحاساً في الخزانة وأغنياء كثير ألقوا كثيراً ، فجاءت امرأة أرملة مسكينة ، فألقت فلسين فاستدعى تلاميذه وقال لهم : الحق أقول لكم ، إن هذه الأرملة المسكينة ألقت أكثر من الكل الذين ألقوا في الخزانة ، لأن الكل القوا من فضل ما عنده ، وهذه ألقت مع مسكنتها كل ما لها ، ثم خرج من الهيكل - انتهى .

هذا ما فيه الدلالة على الرسالة وتصديق التوراة ، وأما البشارة بمحمد .صلى الله عليه وسلم.فقد تقدم في هذا الكتاب مفرقاً في السور كالأعراف والنساء وغيرهما ، وقال ابن هشام في تهذيب السيرة النبوية جمع ابن إسحاق ، قال ابن إسحاق : وقد كان فيما بلغني عما كان وضع عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام فيما جاءه من الله تعالى في الانجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله.صلى الله عليه وسلم.مما أثبت يحنس الحواري لهم حين نسخ لهم الإنجيل عن عهد عيسى ابن مريم في رسول الله.صلى الله عليه وسلم.إليهم أنه قال : من أبغضني فقد أبغض الرب ، ولولا أني صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلي ما كانت لهم خطيئة ، ولكن من الآن بطروا وظنوا أنهم يعزونني وأيضاً للرب ولكن لا بد أن تتم الكلمة التي في الناموس أنهم أبغضوني مجاناً أي باطلاً فلو قد جاء المنحمنا هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب روح القدس هذا الذي من عند الرب خرج فهو شهيد عليّ وأنتم أيضاً لأنكم قديماً كنتم معي في هذا قلت لكم لكي لا تشكوا .

فالمنحمنا بالسريانية محمد .صلى الله عليه وسلم.وهو بالرومية البارقليطس – انتهى .

ولما تم الدليل النقلي على نبوة محمد .صلى الله عليه وسلم.وعلى كونه أشرف الأنبياء

فاتحاً لهم وخاتماً عليهم ، دل على إلزام بني إسرائيل الزيغ فقال : ﴿ فلما جاءهم ﴾ أي عيسى أو محمد - صلى الله عليه وسلم - بني إسرائيل وغيرهم ﴿ بالبينات ﴾ أي من المعجزات العظيمة التي لا يسوغ لعاقل إلا التسليم لها ومن الكتاب المبين ﴿ قالوا ﴾ أي عند مجيئها سواء من غير نظرة لتأمل ولا غيره : ﴿ هذا ﴾ أي المأتي به من البينات أو الآتي بها على المبالغة كما دل عليه قراءة حمزة " ساحر " إشارة بالإشارة إلى القريب بعد الإشارة - بفاء التعقب إلى شدة اتصال الكفر بأول أوقات المجيء : ﴿ سحر ﴾ فكانوا أول كافر به ، لأن هذا وصف لهم لازم سواء بلغهم ذلك وهم بمفردهم أو منضماً إليهم غيرهم ﴿ مبين ﴾ أي في البيان في سحريته حتى أن شدة ظهوره في نفسه لكل من رآه أنه سحر عناداً منهم ومكابرة للحق الذي لا لبس فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 582.574 ﴾

(103/761)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾

معناه اذكر لقومك هذه القصة ، و ﴿ إِذْ ﴾ منصوب بإضمار اذكر أي حين قال لهم :

﴿ تُؤْذُونَنِى ﴾ وكانوا يؤذونه بأنواع الأذى قولاً وفعلاً ، فقالوا : ﴿ أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء : 153] ، ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ [البقرة : 61] وقيل : قد رموه بالأدرة ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللهِ ﴾ في موضع الحال ، أي تؤذونني عالمين علماً قطعياً أني رسول الله وقضية علمكم بذلك موجبة للتعظيم والتوقير ، وقوله : ﴿ فَلَمَّا زَاغُواْ ﴾ أي مالوا إلى غير الحق ﴿ أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي أمالها عن الحق ، وهو قول ابن عباس وقال مقاتل : ﴿ زَاغُواْ ﴾ أي عدلوا عن الحق بأبدانهم ﴿ أَزَاغَ اللهُ ﴾ أي أمال الله قلوبهم عن الحق وأضلهم جزاء ما عملوا ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ والله لاَ يَهْدِى القوم الفاسقين ﴾ قال أبو إسحق معناه : والله لا يهدي من سبق في عمله أنه فاسق ، وفي هذا تنبيه على عظيم إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى ﴿ وَقَدْ ﴾ معناه التوكيد كأنه قال : وتعلمون علماً يقينياً لا شبهة لكم فيه .

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ

قوله : ﴿ إِنِّى رَسُولُ اللهِ ﴾ أي اذكروا أني رسول الله أرسلت إليكم بالوصف الذي وصفت به في التوراة ومصدقاً بالتوراة وبكتب الله وبأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتأخر ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ ﴾ يصدق بالتوراة على مثل تصديقي ، فكأنه قيل له : ما اسمه ؟ فقال : اسمه أحمد ، فقوله : ﴿ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ ﴾ جملتان في موضع الجر لأنهما صفتان للنكرة التي هي رسول ، وفي ﴿ بَعْدِي اسمه ﴾ قراءتان تحريك الياء بالفتح على الأصل ، وهو الاختيار عند الخليل وسيبويه في كل موضع تذهب فيه الياء لالتقاء ساكنين وإسكانها ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ ﴾ [نوح : 28] فمن أسكن في قوله : ﴿ مِن بَعْدِي اسمه ﴾ حذف الياء من اللفظ لالتقاء الساكنين ، وهما الياء والسين من اسمه ، قاله المبرد وأبو علي ، وقوله تعالى : ﴿ أَحْمَدُ ﴾ يحتمل معنيين أحدهما : المبالغة في الفاعل ، يعني أنه أكثر حمداً لله من غيره وثانيهما : المبالغة من المفعول ، يعني أنه يحمد بما فيه من الإخلاص والأخلاق الحسنة أكثر ما يحمد غيره .

ولنذكر الآن بعض ما جاء به عيسى عليه السلام، بمقدم سيدنا محمد عليه السلام في الإنجيل في عدة مواضع أولها : في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا : "وأنا أطلب لكم إلى أبي حتى يمنحكم، ويعطيكم الفارقليط حتى يكون معكم إلى الأبد، والفارقليط هو روح الحق اليقين" هذا لفظ الإنجيل المنقول إلى العربي، وذكر في الإصحاح الخامس عشر هذا اللفظ : "وأما الفارقليط روح القدس يرسله أبي باسمي، ويعلمكم ويمنحكم جميع الأشياء، وهو يذكركم ما قلت لكم" ثم ذكر بعد ذلك بقليل : "وإني قد خبرتكم بهذا قبل أن يكون حتى إذا كان ذلك تؤمنون"، وثانيها : ذكر في الإصحاح السادس عشر هكذا : "ولكن أقول لكم الآن حقاً يقيناً انطلاقي عنكم خير لكم، فإن لم أنطلق عنكم إلى أبي لم يأتكم الفارقليط، وإن انطلقت أرسلته إليكم، فإذا جاء هو يفيد أهل العالم، ويدينهم ويمنحهم ويوقفهم على الخطيئة والبر والدين" وثالثها : ذكر بعد ذلك بقليل هكذا : "فإن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم، ولكن لا تقدرون على قبوله والاحتفاظ به، ولكن إذا جاء روح الحق إليكم يلهمكم ويؤيدكم بجميع الحق، لأنه ليس يتكلم بدعة من تلقاء نفسه" هذا ما في الإنجيل، فإن قيل : المراد بفارقليط إذا جاء يرشدهم إلى الحق ويعلمهم الشريعة، وهو عيسى يجيء بعد الصلب ؟ نقول : ذكر الحواريون في آخر الإنجيل أن عيسى لما جاء بعد الصلب ما ذكر شيئاً من الشريعة، وما علمهم شيئاً من الأحكام، وما لبث عندهم إلا لحظة، وما تكلم إلا قليلاً، مثل أنه قال :

"أنا المسيح فلا تظنوني ميتاً ، بل أنا ناج عند الله ناظر إليكم ، وإني ما أوحي بعد ذلك إليكم" فهذا تمام الكلام ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُم بالبينات ﴾ قيل : هو عيسى ، وقيل : هو محمد ، ويدل على أن الذي جاءهم بالبينات جاءهم بالمعجزات والبينات التي تبين أن الذي جاء به إنما جاء به من عند الله ، وقوله تعالى : ﴿ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ساحر مبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 272.271 ﴾

(106/761)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ ﴾

لما ذكر أمر الجهاد بيّن أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد وجاهدا في سبيل الله ؛ وحلّ العقاب بمن خالفهما ؛ أي واذكر لقومك يا محمد هذه القصة .

قوله تعالى : ﴿ يا قوم لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾ وذلك حين رَمَوْه بالأُدْرَة ؛ حسب ما تقدّم في آخر سورة "الأحزاب" .

ومن الأذى ما ذكر في قصة قارون : إنه دس إلى امرأة تَدّعي على موسى الفجور .

ومن الأذى قولهم : ﴿ اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف : 138] .

وقولهم: ﴿ فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا ﴾ [المائدة: 24].

وقولهم: إنك قتلت هارون.

وقد تقدّم هذا.

﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ والرسول يحترم ويعظَّم.

ودخلت "قد" على "تعلمون" للتأكيد؛ كأنه قال: وتعلمون علماً يقيناً لا شبهة لكم فيه.

﴿ فَلَمَّا زاغوا ﴾ أي مالوا عن الحق ﴿ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي أمالها عن الهُدَى.

وقيل: ﴿ فَلَمَّا زاغوا ﴾ عن الطاعة ﴿ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ عن الهداية.

وقيل: ﴿ فَلَمَّا زاغوا ﴾ عن الإيمان ﴿ أَزَاغَ اللَّهُ ﴾ عن الثواب.

وقيل: أي لما تركوا ما أُمِرُوا به من احترام الرسول عليه السلام وطاعة الرب، خلق الله الضلالة في قلوبهم عقوبة لهم على فعلهم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾

أي واذكر لهم هذه القصة أيضاً.

وقال: ﴿ يا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ ولم يقل "يا قوم" كما قال موسى؛ لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم ﴾ أي بالإنجيل.

﴿ مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة ﴾ لأن في التوراة صفتي، وأني لم آتكم بشيء يخالف التوراة فتنفروا عني.

﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ ﴾ مصدقاً .

"ومبشّراً" نصب على الحال ؛ والعامل فيها معنى الإرسال .

و "إليكم" صلة الرسول .

(107/761)

﴿ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو "مِنْ بَعْدِيَ" بفتح الياء .

وهي قراءة السُّلَمِي وزِرّ بن حُبَيْش وأبي بكر عن عاصم .

واختاره أبو حاتم لأنه اسم ؛ مثل الكاف من بعدك ، والتاء من قمت .

الباقون بالإسكان .

وقرىء "من بعدى اسمه أحمد" بحذف الياء من اللفظ .

و "أحمد" اسم نبيّنا صلى الله عليه وسلم .

وهو اسم عَلَمٍ منقول من صفة لا من فعل ؛ فتلك الصفة أفعل التي يراد بها التفضيل .

فمعنى "أحمد" أي أَحْمَدُ الحامدين لربّه .

والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون الله ، ونبيُّنا أحمد أكثرهم حمداً .

وأما محمد فمنقول من صفة أيضاً ، وهي في معنى محمود ؛ ولكن فيه معنى المبالغة

والتكرار .

فالمحمَّد هو الذي حُمِد مَرَّةً بعد مرةً .

كما أن المُكَرَّم من الكرم مرة بعد مرة .

وكذلك الممدَّح ونحو ذلك .

فاسم محمد مطابق لمعناه ، والله سبحانه سمّاه قبل أن يُسَمِّيَ به نفسه .

فهذا عَلَمٌ من أعلام نبوّته ، إذ كان اسمه صادقاً عليه ؛ فهو محمود في الدنيا لما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة .

وهو محمود في الآخرة بالشفاعة .

فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ .

ثم إنه لم يكن مُحَمَّداً حتى كان أحمدَ ، حَمِد ربَّه فَنَبّأه وشرّفه ؛ فلذلك تقدّم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد فذكره عيسى عليه السلام فقال : "اسمُهُ أَحَمَدُ" .

وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه : تلك أمة أحمد ، فقال : اللَّهُمَّ اجعلني من أمة أحمد .

فبأحمد ذَكره قبل أن يذكره بمحمد ، لأن حَمْدَهَ لربّه كان قبل حمد الناس له .

فلما وُجد وبُعث كان محمداً بالفعل .

وكذلك في الشفاعة يحمد ربّه بالمحامد التي يفتحها عليه ، فيكون أحمد الناس لربه ثم يشفع فيحمد على شفاعته .

(108/761)

وروي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " اسمي في التوراة أحيد لأني أحيد أمتي عن النار واسمي في الزبور الماحي محا الله بي عَبَدة الأوثان واسمي في الإنجيل أحمد واسمي في القرآن محمد لأني محمود في أهل السماء والأرض " وفي الصحيح : " لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي تحشر الناس على قَدَمي وأنا العاقب " وقد تقدّم .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بالبينات ﴾ قيل عيسى .

وقيل محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ قرأ الكسائي وحمزة "ساحر" نعتاً للرجل .

وروي أنها قراءة ابن مسعود .

الباقون "سِحر" نعتا لما جاء به الرسول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ

﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يا قوم قَوْمٍ لَّمْ تُؤْذُونَنِى ﴾

كلام مستأنف مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال ﴿ وَإِذْ ﴾ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به سيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين أي اذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال وقت قول موسى عليه السلام لبني إسرائيل حين ندبهم إلى قتال الجبابرة بقوله : ﴿ العالمين يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا على أدباركم فَتَنْقَلِبُوا خاسرين ﴾ فلم يمتثلوا لأمره عليه السلام وعصوه أشد عصيان حيث قالوا : ﴿ قَالُوا يا موسى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حتى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا داخلون ﴾ [المائدة : 21] إلى قوله تعالى : ﴿ فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هاهنا قاعدون ﴾ [المائدة : 22] إلى قوله تعالى : ﴿ فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هاهنا قاعدون ﴾ [المائدة : 24] وأصروا على ذلك كل الاصرار وآذوه عليه السلام كل الأذية فوبخهم على ذلك بوقله : ﴿ لِقَوْمِهِ يا قوم لَمَ تُؤْذُونَنِى ﴾ [الصف : 5] بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به ﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ﴾ جملة حالية

مؤكدة لانكار الإيذاء ونفى سببه ﴿ وَقَدْ ﴾ لتحقيق العلم لا للتقليل ولا للتقريب لعدم مناسبة ذلك للمقام ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار أي والحال أنكم تعلمون علماً قطعياً مستمراً بمشاهدة ما ظهر على يدي من المعجزات الباهرة التي معظمها إهلاك عدوكم وإنجائكم من ملكته أني رسول الله إليكم لأرشدكم إلى خيري الدنيا والآخرة ، ومن قضية علمكم بذلك أن تبالغوا في تعظيمي وتسارعوا إلى طاعتي ﴿ فَلَمَّا زَاغُواْ ﴾ أي أصروا على الزيغ والانحراف عن الحق الذي جاء به عليه السلام واستمروا عليه ﴿ أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب لصرف اختيارهم نحو العمى والضلال ، وقيل :

(110/761)

أي فلما زاغوا في نفس الأمر وبمقتضى ما هم عليه فيها أزاغ الله تعالى في الخارج قلوبهم إذ الإيجاد على حسب الإرادة .

والإرادة على حسب العلم .

والعلم على حسب ما عليه الشيء في نفس الأمر ، وعلى الوجهين لا إشكال في الترتيب ، وقوله تعالى : ﴿ والله لا يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله من

الإزاغة ومؤذن بعلته أي لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة .

ومنهاج الحق المصرين على الغواية هداية موصلة إلى البغية ، وإلا فالهداية إلى ما يوصل إليها شاملة للكل ، والمراد بهم إما المذكورون خاصة والإظهار في مقام الإضمار لذمهم بالفسق وتعليل عدم الهداية به ، أو جنس الفاسقين وهم داخلون في حكمهم دخولاً أولياً ، قيل : وأياً مّا كان فهو ناظر إلى ما في قوله تعالى : ﴿ فافرق بَيْنَنَا وَبَيْنَ القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : 25] وقوله سبحانه : ﴿ فَلاَ تَأْسَ عَلَى القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : 26] هذا وقيل : إذ ظرف متعلق بفعل مقدر يدل عليه ما بعده كزاغوا ونحوه ، والجملة معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة .

وذهب بعضهم إلى أن إيذاءهم إياه عليه السلام بما كان من انتقاصه وعيبه في نفسه وجحود آياته وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه وعبادتهم البقر وطلبهم رؤية الله سبحانه جهرة والتكذيب الذي هو حق الله تعالى وحقه عليه السلام ، وما ذكر أولا هو الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم ويرتضيه الذوق السليم :

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (6)

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ ﴾ إما معطوف على ﴿ إذ ﴾ [الصف : 5] الأولى معمول لعاملها ، وإما معمول لمضمر معطوف على عاملها ﴿ يا بَنِى إسرائيل ﴾ ولعله عليه السلام لم يقل ﴿ إِنَّ قَوْمِى ﴾ كما قال موسى عليه السلام بل قال : ﴿ مَعِىَ بَنِى إسرائيل ﴾ لأنه ليس له النسب المعتاد وهو ما كان من قبل الأب فيهم ، أو إشارة إلى أنه عامل بالتوراة وأنه مثلهم في أنه من قوم موسى عليه السلام هضماً لنفسه بأنه لا أتباع له ولا قوم ، وفيه من الاستعطاف ما فيه ، وقيل : إن الاستعطاف بما ذكر لما فيه من التعظيم ، وقد كانوا يفتخرون بنسبتهم إلى إسرائيل عليه السلام .

(112/761)

﴿ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ﴾ أي مرسل منه تعالى إليكم حال كوني مصدقاً ، فنصب ﴿ بيحيى مُصَدّقاً ﴾ على الحال من الضمير المستتر في ﴿ رَّسُولٍ ﴾ وهو العامل فيه ، و ﴿ إِلَيْكُمْ ﴾ متعلق به ، وهو ظرف لغو لا ضمير فيه ليكون صاحب حال ، وذكر هذا الحال لأنه من أقوى الدواعي إلى تصديقهم إياه عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿ وَمُبَشّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى ﴾ معطوف على ﴿ مُصَدّقاً ﴾ ، وهو داع أيضاً إلى

تصديقه عليه السلام من حيث أن البشارة بهذا الرسول صلى الله عليه وسلم واقعة في التوراة كقوله تعالى في الفصل العشرين من السفر الخامس : منها أقبل الله من سينا وتجلى من ساعير وظهر من جبال فاران معه الربوات الأطهار عن يمينه ، وقوله سبحانه في الفصل الحادي عشر من هذا السفر : يا موسى إني سأقيم لبني إسرائيل نبياً من إخوتهم مثلك أجعل كلامي في فيه ، ويقول لهم ما آمره فيه ، والذي لا يقبل قول ذلك النبي الذي يتكلم باسمى أنا أنتقم منه ومن سبطه إلى غير ذلك ، ويتضمن كلامه عليه السلام أن دينه التصديق بكتب الله تعالى وأنبيائه عليهم السلام جيمعاً من تقدم ومن تأخر ، وجملة ﴿ يَأْتِى ﴾ الخ في موضع الصفة لرسول وكذا جملة قوله تعالى : ﴿ اسمه أَحْمَدُ ﴾ وهذا الاسم الجليل علم لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعليه قول حسان

: صلى الإله ومن يحف بعرشه . . .

والطيبون على المبارك أحمد

وصح من رواية مالك .

والبخاري .

ومسلم .

والدارمي ، والترمذي .

والنسائي عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لي أسماء أنا

محمد .

وأنا أحمد .

وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي .

وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر .

وأنا العاقب " والعاقب الذي ليس بعده نبى وهو منقول من المضارع للمتكلم .

(113/761)

أو من أفعل التفضيل من الحامدية ، وجوز أن يكون من المحمودية بناءاً على أنه قد سمع أحمد اسم تفضيل منها نحو العود أحمد ، وإلا فأفعل من المبني للمفعول ليس بقياسي ، وقرىء ﴿ مِن بَعْدِى ﴾ بفتح الياء ، هذا وبشارته عليه السلام بنبينا صلى الله عليه وسلم مما نطق به القرآن المعجز ، فإنكار النصارى ذلك ضرب من الهذيان ، وقولهم : لو وقعت لذكرت في الانجيل الملازمة فيه ممنوعة ، وإذا سلمت قلنا : بوقوعها في الإنجيل إلا أن جامعيه بعد رفع عيسى عليه السلام أهملوها اكتفاءاً بما في التوراة .

ومزامير داود عليه السلام .

وكتب شعياء .

وحبقوق.

وأرمياء.

وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام.

(114/761)

ويجوز أن يكونوا قد ذكروها إلا أن علماء النصارى بعد حباً لدينهم أو لأمر ما غير ذلك أسقطوها كذا قيل، وأنا أقول: الأناجيل التي عند النصارى أربعة: إنجيل متى من الاثنى عشر الحواريين جمعه باللغة السريانية بأرض فلسطين بعد رفع عيسى عليه السلام بثماني سنين وعدة إصحاحاته ثمانية وستون إصحاحا، وإنجيل مرقص وهو من السبعين جمعه باللغة الفرنجية بمدينة رومية بعد الرفع باثنتي عشرة سنة وعدة إصحاحاته ثمانية وأربعون إصحاحاً، وإنجيل لوقا وهو من السبعين أيضاً جمعه بالاسكندرية باللغة اليونانية وعدة إصحاحاته ثلاثة وثمانون إصحاحاً، وإنجيل يوحنا وهو حبيب المسيح جمعه بمدينة إفسس من بلاد رومية بعد الرفع بثلاثين سنة وعدة إصحاحاته في النسخ القبطية ثلاثة وثلاثون إصحاحاً وهي مختلفة، وفيها ما يشهد الانصاف بأنه ليس كلام الله عز وجل ولا كلام عيسى عليه السلام كقصة صلبه الذي يزعمونه ودفنه ورفعه من قبره إلى السماء فما

هي إلا كتواريخ وتراجم فيها شرح بعض أحوال عيسى عليه السلام ولادة ورفعاً ونحو ذلك ، وبعض كلمات له عليه السلام على نحو بعض الكتب المؤلفة في بعض الأكابر والصالحين فلا يضر إهمالها بعض الأحوال ، والكلمات التي نطق القرآن العظيم بها ككلامه عليه السلام في المهد وبشارته بنبينا صلى الله عليه وسلم على أن في إنجيل يوحنا ما هو بشارة بذلك عند من أنصف وسلك الصراط السوى وما تعسفا ، ففي الفصل الخامس عشر منه قال يسوع المسيح : إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي يعلمكم كل شيء ، وقال يوحنا أيضاً : قال المسيح : من يحبني يحفظ كلمتي وأبي يحبه وإليه يأتي وعنده يتخذ المنزلة كلمتكم بهذا لأني لست عندكم بمقيم ، والفارقليط روح القدس الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ما قلت لكم أستودعكم سلامي لا تقلق قلوبكم ولا تجزع فإني منطلق وعائد إليكم لو كنتم تحبوني كنتم تفرحون بمضيي إلى الأب ، وقال أيضاً : إن خيراً

لكم أن أنطلق لأبي إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط فإذا انطلقت أرسلته إليكم فإذا جاء فهو يوبخ العالم على الخطيئة وإن لي كلاماً كثيراً أريد قوله ولكنكم لا تستطيعون حمله لكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما

يسمع ويخبركم بكل ما يأتي ويعرفكم جميع ما للأب ، وقال أيضاً : إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فار قليطاً آخر يثبت معكم إلى الأبد روح الحق الذي لم يطق العالم أن يقبلوه لأنهم لم يعرفوه ولست أدعكم أيتاماً لأني سآتيكم من قريب ، والفار قليط لفظ يؤذن بالحمد ، وتعين إرادته صلى الله عليه وسلم من كلامه عليه السلام مما لا غبار عليه لمن كشف الله تعالى غشاوة التعصب عن عينيه ، وقد فسره بعض النصارى بالحماد ، وبعضهم بالحامد فيكون في مدلوله إشارة إلى اسمه عليه الصلاة والسلام أحمد ، وفسره بعضهم بالمخلص لقوله عيسى عليه السلام : فالله يرسل مخلصاً آخر فلا يكون ما ذكر بشارة به صلى الله عليه وسلم بعنوان الحمد لكنه بشارة به صلى الله عليه وسلم بعنوان التخليص ، فيستدل به على ثبوت رسالته صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يستدل به على ما في الآية هنا ، وزعم بعضهم أن الفار قليط إشارة إلى ألسن نارية نزلت من السماء على التلاميذ ففعلوا الآيات والعجائب ، ولا يخفى أن وصفه بآخر يأبى ذلك إذ لم يتقدم لهم غيره ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ أي عيسى عليه السلام ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالمعجزات الظاهرة .

﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ مشيرين إلى ما جاء به عليه السلام ، فالتذكير بهذا الاعتبار ، وقيل : مشيرين إليه عليه السلام وتسميته سحراً للمبالغة ، ويؤيده قراءة عبد الله .

وطلحة.

والأعمش.

(116/761)

وابن وثاب هذا ساحر وكون فاعل ﴿ جاءهم ﴾ ضمير عيسى عليه السلام هو الظاهر لأنه المحدث عنه، وقيل: هو ضمير ﴿ أحمد ﴾ عليه الصلاة والسلام لما فرغ من كلام عيسى تطرق إلى الإخبار عن أحمد صلى الله عليه وسلم أي فلما جاء أحمد هؤلاء الكفار بالبينات ﴿ قالوا ﴾ الخ. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(117/761)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب:

وقوله تعالى: « وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ » فى هذه الآية عزاء للنبى.

صلوات اللّه وسلامه عليه. عما يرى فى بعض المؤمنين من ضعف إيمان، أو انحراف عن

غير الطريق القويم ، أو انحياز إلى المشركين ، أو ممالأة للكافرين . . فهذا كله مما يمكن أن يقع فى الإنسانية ، حيث

(118/761)

لا يخلو أي مجتمع من المجتمعات البشرية من هذا الضعف الإنسانى ، وحيث لم تسلم دعوة من دعوات الرسل من أن يقع فى محيطها مثل ما يرى النبي فى محيط دعوته ، من منافقين ، ومنحرفين . .

فهذا موسى ـ عليه السلام ـ قد لقى من قومه اليهود ، الذين يرى النبي أبناءهم يكيدون له ، ويكيدون لدعوته ـ قد لقى منهم نبيهم موسى ألوانا من الكيد ، وصنوفا من الأذى . .

وإذن فليوطن النبي ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ نفسه على أنه سيستقبل صورا من الأذى الذي لا ينقطع أبدا ، ما دام قائما فى مواجهة الناس بتلك الدعوة ، سواء فى هذا ما يكون من المشركين والكافرين والمنافقين ، أو من المؤمنين الذين لم تطمئن قلوبهم بالإيمان . . فتلك هى الحياة ، وهؤلاء هم الناس . . . ! !

والأذى الذي لقيه موسى من قومه ، هو ما كان يأتيه منهم من مكر بآيات اللّه ، وشرود عن الطريق الذي أقامهم عليه . . فقد كانوا أبدا فى لجاج وعناد ، وفى تحدّ وتكذيب لآيات

اللّه التي بين أيديهم . .

وفى القرآن الكريم مواقف كثيرة لإعنات اليهود لموسى ، وشرودهم ، وجماحهم عن طريق الهدى . .

لقد أنجاهم اللّه على يد موسى من فرعون ، ومما كان يسومهم ، من سوء العذاب ، وبين أيديهم ، وأمام أعينهم ضرب موسى البحر بعصاه ، فأقام من هذه الضربة طريقا فى البحر يبسا ، سلكوه ، وعبروا به الجانب الآخر من البحر ، على حين أنه أطبق على فرعون وجنوده حين اتخذوا هذا الطريق مركبا فكانوا من المغرقين . .

ومع هذه المعجزة القاهرة ، فإن بنى إسرائيل ما كادت تستقر أقدامهم فى

المكان الجديد ، حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا لموسى ، اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . .

وفى مكانهم الجديد ينزل اللّه عليهم المنّ والسلوى ، ثم لا تلبث طباعهم النكدة أن تنفر من هذا الطعام ، كما نفرت قلوبهم المظلمة من الإيمان بالإله الواحد ، فقالوا لموسى : « فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وَفُومِها وَعَدَسِها وَبَصَلِها » (61 :

البقرة) . . وإنهم وهم يطلبون ما يرضى طباعهم الخبيثة ، لا يقولون لموسى : ادع لنا ربنا ، بل يقولون « فَادْعُ لَنا رَبَّكَ » فكأنهم لا يعترفون بربّ موسى ربّا لهم . !

ويذهب موسى لميقات ربه ، ثم يعود إليهم ، فيجدهم قد اتخذوا من حليّهم عجلا جعلوه إلها يعبدونه ، كما يقول سبحانه : « وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا . . اتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ . . » (148 : الأعراف) .

فهذه المواقف الضالة ، المسرفة فى الضلال ، هى التي كانت تؤذى موسى ، وتزعجه ، إذ كانت تهدم كل بناء يقيمه ، وتفسد كل طريق يصلحه .

وفى قوله تعالى : « وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ » أي لم تؤذوننى بهذا الخلاف علىّ ، والخروج عن السبيل الذي أقيمكم عليه ، وأنتم تعلمون أنى رسول اللّه إليكم ، بما أقمت أمام أعينكم من آيات ومعجزات ، هى شهادة قائمة بأنّى رسول من عند اللّه . ؟

فالواو هنا ، واو الحال ، و(قد) حرف تحقيق ، يفيد التوكيد ، والجملة حالية ، وقد جىء بالفعل المضارع بدل الماضي ، للدلالة على أن هذا العلم قائم بينهم ، وأن الآيات والمعجزات لا تزال تتنزل عليهم ، وفى هذا ما يشير إلى ما فى طبائع القوم من عناد وجماح عن الانقياد للحق ، والاستقامة على طريق الهدى .

وقوله تعالى : « فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ » أي فلما انحرفوا ، ومالوا عن طريق الحق ، أمال الله قلوبهم نحو هذا الضلال ، وأغرقهم فيه ، لأنهم فسقوا « وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ » الذين يلبسون ثوب الحق ثم ينزعونه عنهم ، ويخرجون منه . . فقد هداهم الله إلى الحق ، ثم خرجوا من هذا الهدى ، وآثروا الظلام والضلال . . فهم بهذا يخالفون الله عن عمد ، وعن علم . . ومن كان هذا شأنه ، فهو على عداوة متحدية لله ، والله لا يهدى من يعاديه . .

وفى ذكر كلمة القوم فى قوله تعالى : « وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ » بدلا من أن يقال « والله لا يهدى الفاسقين » - فى هذا إشارة إلى أن المراد بهذا ، هم قوم مخصوصون ، وهم هؤلاء القوم ، أي اليهود . .

قوله تعالى : «وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ . . فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ » . .

نسب السيد المسيح إلى أمه ، لأنه هو النسب الذي له فى الناس ، إذ لا أب له من بنى الإنسان ، وإنما هو نفحة من روح الله . .

ونادى المسيح بنى إسرائيل بقوله « يا بَنِي إِسْرائِيلَ » ولم يقل يا قوم كما هو حديث الأنبياء إلى أقوامهم ، لأنه - وإن ولد فيهم - ليس ابنا لرجل منهم . .

واليهود لا ينسبون أحدا إليهم إلا إذا كان مولودا من أبوين يهوديين ، أو من أب يهودى على الأقل . .

ومع أن اليهود ، كانوا ينسبون السيد المسيح ـ عليه السلام ـ نسبة غير شرعية ـ إلى يهودىّ منهم ، هو يوسف النجار ، وإنه بهذا لا مانع عندهم من أن ينسب

السيد المسيح إليهم ، إلا أنه عليه السلام ، رفض هذا النسب المدّعى له ، محتفظا بنسبه السماوي ، الذي كرمه اللّه به ، متحدّيا بهت اليهود ، ضاربا فى وجوههم بهذا الافتراء الذي افتروه عليه ، وعلى أمه البتول . . لأنه لا يقول غير الحق ، ولا يقبل إلا ما هو حق !

وفى قوله : « إنى رسول اللّه إليكم » ـ إشارة إلى أنه رسول اللّه إليهم خاصة ، كما كان موسى ـ عليه السلام ـ رسولا من عند اللّه إليهم . .

وقوله : « مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ » .

. أي مؤمنا بالتوراة التي بين يدىّ ، والتي هى كتابكم الذي تؤمنون به . . فأنا لم أجئكم بما تنكرونه علىّ ، بل جئتكم مجددا هذه الرسالة التي جاءكم بها موسى ، لأقيمكم على تعاليمها . . فلم تنكرون ما أدعوكم إليه ! وفى هذا يقول السيد المسيح فى الإنجيل : « ما

جئت لأنقض الناموس ، وإنما جئت لأكّمل » أي لأقيم ما هدمتم من تلك الشريعة ، وما نقضتم من ناموسها . .

وقوله : « ومبشرا برسول يأتى من بعدي اسمه أحمد » . هو إشارة إلى نبيّ يأتى من بعده اسمه أحمد ، وهو رسول اللّه « محمد » صلى اللّه عليه وسلم . .

وقد صدقت كلمة المسيح . عليه السلام . فما جاء بعده رسول . ولو على سبيل الادّعاء . حتى كانت رسالة محمد صلوات اللّه وسلامه عليه . .

قوله تعالى : « فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ » أي فلما جاءهم المسيح بالمعجزات التي وضعها اللّه سبحانه بين يديه ، بهتوه ، وكذبوه ، واتهموه بالسحر والشعوذة ، وتعقبوه بالأذى ، وأخذوه بالبأساء والضراء ، ولم يمسكوا عن مساءته حتى ساقوه إلى ساحة الاتهام ، وحكموا عليه بالموت صلبا : « وَما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ » (النساء : 157) .

(122/761)

ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى النبي . صلوات اللّه وسلامه عليه . وقد بشر به المسيح فى قوله تعالى : « وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » .

. بمعنى فلماء جاءهم النبي الذي بشرهم به المسيح ، ومعه آيات اللّه البينات ، كفروا به وقالوا هذا سحر مبين . .

والذين كفروا هنا هم اليهود والنصارى . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ . . فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ » (البقرة : 89) . .

[المسيح . . وتبشيره بالنبي] جاء فى هذه السورة - سورة الحشر - قوله تعالى على لسان المسيح : « وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ . . إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ . . مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ . . »

هذا ما جاء به القرآن ، على لسان المسيح ، إلى بنى إسرائيل ، مبشرا إياهم ، برسول يأتى من بعده اسمه « أحمد » ، وهو اسم « محمد » رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، لأن كلا الاسمين مشتق من الحمد ، فهو - صلوات اللّه وسلامه عليه ، أحمد ، ومحمود ، ومحمد . .

وإذا كانت الأناجيل الأربعة المتداولة اليوم ، قد خلت من هذه البشرى على وجه صريح ، فإن ذلك لا ينقض ما جاء به القرآن الكريم ، فى الآية السابقة ، إذ القرآن ، هو الحجة القائمة على ما سبقه من الكتب السماوية ، لأنه آخرها ، وضابط محكمها ، والمهيمن عليها ، كما يقول سبحانه

وتعالى : « وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ » (48 : المائدة) .

والإنجيل الذي يتحدث عنه القرآن ، هو كتاب واحد ، ولكنّ الذي فى أيدى الناس اليوم ليس إنجيلا واحدا ، وإنما هو أربعة أناجيل ، وقد كان فى وقت ما خمسة وسبعين إنجيلا ، وقد وقع خلاف فيما بينها . . لأنها لا تعتمد على أصل واحد ، ولا ترجع إلى الإنجيل الذي أنزل على المسيح عليه السلام ، وإنما هى مرويات تتحدث عن السيد المسيح ، وعن سيرته وأخباره ، فيما يرويه عنه بعض حوارييه ، أو من اتصل بحوارييه ، وسمع منهم ، وتتلمذ عليهم ، وفى هذه السيرة عبارات من عظات السيد المسيح ووصاياه ، وقد يكون فيها بعض آيات من الإنجيل السماوي ، كان السيد المسيح يضمّنها عظاته ووصاياه . .

وإذن فالأناجيل التي ذكرت سيرة السيد المسيح ، تختلف فى تشخيص شخصية السيد المسيح ، وفى تناول مواقفه ، وفى نقل عباراته وكلماته ، باختلاف الكتّاب الذين كتبوا هذه السيرة ، ونفضوا عليها من عواطفهم ومشاعرهم ، ومن ألوان ثقافاتهم ما جعل الأناجيل تختلف هذا الاختلاف ، كما يختلف إنسان عن إنسان ، فى تفكيره ، وفى تصوره للأحداث .

وليس من همّنا هنا دراسة الأناجيل دراسة تاريخية ، محققة ، للإنجيل السماوي ، أو

الأناجيل التي جاءت محدّثة عنه . .

وإنما الذي نقف عنده منها ، هو أن القرآن الكريم قد ذكر آية صريحة تذكر على لسان السيد المسيح ، تلك البشرى التي أعلنها فى بنى إسرائيل ، مبشرا برسول يأتى من بعده اسمه « أحمد » .

. ثم نبحث فى

(124/761)

الأناجيل الأربعة فلا نجد هذه البشرى صريحة تلك الصراحة التي تقطع بأن نبيّا اسمه أحمد سيجيئ بعد المسيح ! وإنما الذي جاء فى بعض الأناجيل التي اعتمدتها المسيحية. إشارات ، يمكن أن تؤوّل إلى ما يفهم منه ظهور نبى عربى ، يأتى من بعد المسيح موصوفا بصفات الحمد . . وهو كلمة « بار قليط » الذي وعد المسيح بأنه سيأتى من بعده . .

وإنه لكى نفهم هذه الإشارة التي جاءت على لسان المسيح ، كما رواها « يوحنا » فى إنجيله ، ينبغى أن نقف وقفة قصيرة مع السيد المسيح ، ومع الظروف التي ولد فيها ، وما كان بينه وبين اليهود من مواقف . .

فذلك من شأنه أن يحل لنا كثيرا من رموز هذه الكلمات التي رويت عن السيد المسيح ،

عليه السلام . .

فى حياة المسيح - عليه السلام - أكثر من حدث أثار تضارب الآراء فيه ، واختلاف الناس عليه . .

(فأولا) ميلاده من عذراء . .

كان هذا الميلاد مشكلة ضخمة . . إذ أن هذا الميلاد غير طبيعى ، وغير جار على مألوف الحياة . . وذلك مما يدير الرءوس نحوه ، ويلفت العقول إليه ، ويفتح للناس طرائق شتى للقول فيه ، أو التقول عليه .

فاليهود - مثلا - لم يعترفوا بهذا الميلاد ، ولم يقبلوه . . بل اعتبروه ولادة غير شرعية ، جاءت على غير رشدة . . من اتصال محرّم ، بين مريم ، ويوسف النجار .

وبهذا وضعوا المسيح وأمه فى هذا الموضع الذي يصمهما بالدنس . . والعار ! .

(وثانيا) صلبه . . ووقوعه بهذا الصلب تحت حكم الناموس الذي يقضى بلعن كل من علق على خشبة ! كما تقول التوراة .

(وثالثا) ألوهيته . . وخروجه بهذه الألوهية عن وجوده البشرى الذي رآه الناس عليه

والقضاء على شخصيته، وإفنائها . .

فهذه ثلاث شبه، أوتهم، تحوم حول شخص المسيح، وتفسد الرأى فيه، وتجعل منه شخصية أسطورية أكثر منها شخصية حقيقية . .

والقرآن الكريم، هو وحده الذي تولّى «الدفاع» عن المسيح، وكشف الشّبه عن شخصه الكريم، ووضعه بالمقام المحمود الجدير به كإنسان، يأخذ مكان الذورة بين الناس! . .

يقول اللّه تعالى «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاها إِلى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ»: (171 : النساء) ويقول سبحانه: «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ، وَجَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ» (59 الزخرف) . . ويقول جل شأنه:

«مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ . . كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ» (75 : المائدة).

إن الأخذ بما يقول القرآن فى المسيح، هو الذي يرفع هذه الشبه، التي كانت ولا تزال داعية لسوء القالة فيه عند أعدائه اليهود، أو باعثة للاضطراب، والقلق النفسي، والروحي، والعقلي، عند أتباعه، إذ يرونه إنسانا فى شخص، إله، أو إلها فى جسد إنسان! .

كان المسيح قد تنبأ لهذا الخلاف، الذي يكون فى شأنه، ولهذه المقولات المنحرفة التي قيلت، أو تقال فيه . . وقد أشفق على نفسه منها، إذ كان بعضها يطعنه فى شرف مولده

، وفى طهارة أمه وعفافها ، على حين كان بعضها الآخر يسلحه من بشريته ، ويخرجه من إنسانيته إلى صورة مختلطة ، تجمع الإله والإنسان فى ذات واحدة ، وفى جسد واحد . .

(126/761)

كان المسيح قد تنبأ لهذا ، وأشفق منه ، بل وتألم له ! ولكن اللّه طمأنه وأذهب مخاوفه ، إذ أوحى إليه أن هناك من سيتولى الدفاع عنه ، ودفع الشبهات التي ستدخل على الناس من أمره . . فى حال حياته ، وبعد أن فارق الحياة . .

يقول السيد المسيح فيما روت الأناجيل المعتمدة اليوم ، على لسانه ، مخاطبا تلاميذه ، وحوارييه :

« لكنى أقول لكم : الحق إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّى ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ، ومتى جاء ذك يبكّت العالم على خطيّة ، وعلى برّ ، وعلى دينونه . . أما على خطية ، فإنهم لا يؤمنون بي . . وأما على برّ فإنى ذاهب إلى أبى ، ولا تروننى أيضا . . وأما على دينونة ، فلأن رئيس هذا العالم قد أدين ! « إن لى أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء بروح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية . . ذاك

يمجّدنى ، لأنه يأخذ مما لى ويخبركم ، كل ما للأب هولى ، لهذا قلت إنه يأخذ مما لى ، ويخبركم . . بعد قليل لا تبصروننى ، ثم بعد قليل أيضا تروننى لأنى ذاهب إلى الآب » « 1 » يتحدث المسيح إلى أتباعه هنا عن شخص ، سيجيئ بعده ، إذا هو ترك مقامه فيهم ، وفارق هذه الدنيا .

وصفات هذا الشخص كما يحددها السيد المسيح هى :

أولا : أنه المعزّى الذي يجىء مواسيا ومعزيا ، فيما أصيب به المسيح فى شخصه

---

(1) إنجيل يوحنا 16 : 16.8 .

وما رمى به من تهم . . وكلمة المعزّى ، هى إحدى المعاني التي فسرت بها كلمة « بارقليت » اليونانية ، والتي فسرت أيضا بمعنى المحامى ، أو مستشار الدفاع .

ثانيا : أنه سيبكّت العالم على أمور ثلاثة :

ا . على خطية . . هى أنهم لم يؤمنوا بالمسيح على الوجه الذي جاء عليه .

ب . وعلى برّ . . وهو أنه ذاهب إلى اللّه ، لينزل المنزل الكريم الذي أعده له ، ولكن الناس أنزلوه فى غير هذه المنزلة ، حيث رفعه أتباعه إلى مقام الإله ذاته ، على حين أنزله اليهود

منازل الضالين .

ح- وعلى دينونة . . وهى هذا الحكم الظالم الذي حكم به اليهود على المسيح .

وثالثا : أن المعزّى هذا ، سيرشد أتباع المسيح إلى الحقيقة كلها ، ومعنى هذا أن هناك أشياء لم يكشف عنها المسيح ، ومعنى هذا ، أيضا أن هذه الأشياء هى مما جدّ بعد المسيح من أمور ، اختلط على الناس وجه الحق فيها ، وهذا هو موضوع القضية الذي سيكون من عمل المحامى ، الدفاع عنه ، ودفع الشبه التي ألقيت عليه .

ورابعا : أن هذا المحامى لا يتكلم من عند نفسه ، بل بما قد سمع . . ومعنى هذا أنه إنما يأخذ دفاعه تلقّيا من جهة غير جهته ، هى التي تلقّنه المقولات والحجج التي يلقيها على الشبه المتلبسة بتلك القضية .

وخامسا : أن هذا المحامى سيمجد المسيح .

وسادسا : أن هذا التمجيد الذي يقدمه المحامى فى شأن المسيح ليس مديحا ، تستجلب به صفات لم يكن متصفا بها ، وإنما هو تمجيد يكشف حقيقته للناس

وإزالة ما علق بذاته من شبه وضلالات .

هذا ما تنطق به كلمات الإنجيل على لسان السيد المسيح ، فى أوصاف المحامى أو المعزى الذي سيجيئ بعده ، ولكن أتباع السيد المسيح خرّجوا هذه الكلمات تخريجا على غير هذا الوجه ، على ما سنرى :

يقول صاحب المسيحية الأصلية :

« وقد بلغ الأمر بيسوع ، من حيث ثقته واقتناعه من مكانه الرئيسى فى قصد اللّه . بلغ به حدّا جعله يأخذ على عاتقه أن يرسل شخصا ، ليحلّ محله ، بعد صعوده إلى السماء ، ألا وهو الروح القدس ، وقد دعاه « المعزى » (باراكليت) وهى تسمية مشروعة ، ومعناها المحامى ، أو مستشار الدفاع .

«وبذلك يكون عمل (الروح القدس) هو الدفاع عن قضية يسوع أمام العالم ، وقال عنه يسوع : « هو يشهد لى » (يوحنا 15 : 26) ثم قال : « ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم » (يوحنا 16 : 14) « 1 » .

ومفهوم هذا القول أن الشخص الذي سيرسله المسيح هو « روح القدس » لا محمد ، ولا غيره من البشر . . ! !

وإذا علمنا أن معتقد المسيحية هو أن المسيح هو « اللّه » وأن « روح القدس » هو اللّه ، بمعنى أن كلّا منهما هو فى أقنوم من أقانيمه الثلاثة . إذا علمنا ذلك كان عجبا أن يكون «

المعزّى » شخصا ، وأن يكون هذا الشخص هو اللّه ، ثم أن يكون المسيح ـ وهو اللّه ـ يرسل « روح القدس » وهو اللّه ! ! .

اللّه يذهب فى صورة المسيح « الابن » ويجىء فى صورة روح القدس !

---

(1) المسيحة الأصلية ص 27 . 28

ثم من جهة أخرى . . ما معنى أن المحامى ـ إذا كان هو « روح القدس » ، الذي هو اللّه ذاته ـ ما معنى أنه لا يتكلم من عند نفسه . . « بل يتكلم بما يكون قد سمع ، ويخبركم ؟ » أروح القدس ، أو اللّه ، ينتظر من يلقّنه ما يقول ، ويأذن له به . . فيتكلم بما يكون قد سمع ؟

وهذا من حيث الشكل ـ كما يقال فى لغة القضاء ـ أما من حيث الموضوع ، فإذ ننظر نجد :

(أولا) : أن « روح القدس » الذي يقال إن المسيح وعد بإرساله بعد أن يمضى ـ لم ير له أحد وجها ، لا من أتباع المسيح ، ولا من غيرهم .

(و ثانيا) أن روح القدس هذا ، وهو المحامى أو مستشار الدفاع ـ لم يعرف له أحد موقعا ، ولم يكن له قول مأثور فى شأن المسيح ، وفى تمجيده . .

فأين إذن هو روح القدس ؟ وأين أعماله ، وأقواله ، التي واجه بها الناس لتمجيد المسيح ؟

ولسنا نجد جوابا لهذا إلا إذا نظرنا فى القرآن الكريم، ووقفنا عند ما جاء فيه من دفاع مشرق مفحم، عن السيد المسيح.. هذا الدفاع المشرق المفحم، هو تمجيد وتعزية للسيد المسيح، لما أصابه فى شخصه، وفى شخص أمّه، من ضرّ وأذى! جاءت. بعثة «محمد» صلوات اللّه وسلامه عليه. وقد مضى على الدعوة المسيحية نحو ستة قرون، وكان هذا الزمن الممتد كافيا لأن يفسح للدعوة مجال الحركة فى الحياة، وأن يبلغ بها أقصى ما تبلغه فى عقول الناس وقلوبهم.. من أولياء الدعوة وأعدائها على السوء.. إذ قد استنفد أعداؤها كلّ ما لديهم من مقولات يقولونها فى المسيح ودعوته، كما استنفد أولياؤها كلّ ما عندهم من مقولات، فى تصويرها، وتقرير حقائقها والاحتجاج لها..

ومن هذا الشد والجذب،

والهجوم والدفاع، تشكّلت للمسيح «قضية» من أشد ما عرف الناس من قضايا، غموضا وتعقيدا.. والمسيح هو «الضحية» التي تنوشها رميات المتنازعين فيه، والمختلفين عليه.. من أعدائه، وأوليائه جميعا!..

وهنا تبرز الحكمة فى الحاجة إلى محام، أو مستشار للدفاع، ليقول فى هذه القضية، شيئا

. . لا شيئا من عند نفسه ، بل بما يكون قد سمع ، ويخبر به ! وليس ثمّة شك فى أن هذا المحامى ، أو مستشار الدفاع أو المعزّى ، هو « محمد » عليه الصلاة والسلام .

فهو كما تنطق كلمات السيد المسيح :

(أولا) : هو المحامى ، الذي كان له دور معروف فى قضية المسيح ، وكان بمشهد ، أو بمسمع من الناس جميعا . .

(وثانيا) هو الذي دافع فى هذه القضية دفاعه المعروف عن شخص المسيح ، وعن أمه ، وكان دفاعه هذا تمجيدا لهما ، وعزاء مما أصابهما من رميات وطعنات .

(وثالثا) : لم يقل هذا المحامى كلمة من عند نفسه ، بل كل ما قاله هو مما تلقاه وحيا من ربه . . «لأنه لا يتكلم من عند نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به» . .

(ورابعا) أن هذا الذي سمعه وحيا من ربه ، لم يحتفظ به لنفسه ، بل أخبر به ، وبلّغه للناس ، كما أمره ربه بقوله : « يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ

إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ »

. . وفى هذا يقول السيد المسيح : « بل يتكلم بما يكون قد سمع ، ويخبركم » .

لقد كان « محمد » بما تلقّى من كلمات اللّه ، هو المحامى الذي ردّ للمسيح ولأمه اعتبارهما ، وهو الذي مجدهما ورفع قدرهما فى العالمين ، وكان فى ذلك العزاء الجميل لهما ، والمواساة الكريمة ، لما أصابهما من بلاء عظيم . !

وننظر فى كلمات المسيح مرة أخرى . .

ونقف من كلمات السيد المسيح عند هذه الكلمات :

1 . « إن فى انطلاقى لخيرا لكم » .

. فهذا الخير هو ما ينكشف لهم من أمر المسيح على لسان « المحامى » الذي يتولى الدفاع عن قضيته ، وبعرضه لهم فى المعرض الذي يجلّى حقيقته ، ويكشف عن شخصه الكريم .

2 . « فإنى أرسله إليكم » .

. وهذه المقولة توحى بأن المسيح هو الذي يرسل هذا المحامى ، أو بمعنى آخر ، هو الذي يملك إرسال الرسل ، أو بمعنى ثالث ، هو الإله المتصرف فى هذا الوجود .

وهى مقولة إن حملت على ظاهرها هذا ، كانت إقرارا من اللّه ـ الذي هو المسيح ـ بالعجز عن الدفاع عن نفسه ، فيقيم محاميا يتولّى الدفاع عنه ! ! وعلى هذا ، فإن هذه المقولة إما أن تكون قد حرّفت ليستقيم عليها الفهم الذي وقع لأتباع المسيح من أنه هو اللّه ! وإما أن تحمل على غير ظاهرها ، ويكون قول المسيح : « إنى أرسله إليكم » محمولا على المجاز

السببى ، إذ لمّا كان وجود المسيح مانعا من وجود المحامى الذي يتولى الدفاع فى قضيته ، إذ القضية لا تتشكل بصورتها الكاملة إلا بعد أن يذهب المسيح ، وتكثر المقولات فيه. فإن ذهاب المسيح هو الذي يهيىء للمحامى سبيلا إلى الظهور . . وبهذا يمكن

القول بأن المسيح هو الذي أرسله ، بمعنى أنه كان سببا من أسباب إرساله !

3. فى قوله : « يخبركم بما يأتى » فيه إشارة إلى تلك المقولات التي ستقال فى المسيح بعد ذهابه ، والتي ستشكّل منها تلك القضية التي تولّى القرآن الكريم الكشف عن وجه الحق فيها .

4. فى قوله : « يأخذ ممّا لى ويخبركم » إشارة إلى أن ما يقوله المحامى الذي يتولى الدفاع عن المسيح ، ليس شيئًا غريبا عن المسيح ، بل هو ممّاله ، أي مما اشتملت عليه ذاته ، سواء أكان ذلك عن مولده ، أو عن بشريته . كما نطق بذلك القرآن الكريم .

وإذا كان القرآن الكريم ، قد قال على لسان المسيح : « يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » . نقول إذا كان القرآن قد قال هذا على لسان السيد المسيح ، فإن هذا القول يوافق تماما ما

سجلته الأناجيل عنه، من قوله الذي أشرنا إليه من قبل، والذي يقول فيه مخاطبا أتباعه:

«إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إذا لم أنطلق لا يأتيكم المعزّى».

. وكلمة «المعزّى» هى إحدى المعاني التي فسرت بها كلمة «باركليت» اليونانية، والتي فسّرت أيضا بمعنى: المحامى، أو مستشار الدفاع.

والقرآن يصرّح بأن المسيح بشّر فى الإنجيل باسم هذا الذي سيجيئ من بعده، لا بصفته، إذ يقول: «وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ..»

وأحمد صفة من الحمد، يشتقّ منها محمد، ومحمود، وحامد، وحمّاد..

وقد أخذ الرسول الكريم أعدل صفات الحمد، وأقومها، وأجمعها للمحامد كلّها، فهو «محمد» أي هو موضع الحمد له، والثناء عليه، من كلّ حامد

(133/761)

للخير، ومن كل مثن على الحق والعدل والإحسان. وإنه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ ما استحق أن يكون «محمدا» حتى كان أحمد، وحامدا، وحمّادا، ومحمودا.. فصلوات اللّه وسلامه عليه، وعلى إخوانه من أنبياء اللّه ورسله أجمعين.. انتهى انتهى. ا هـ ﴿

التفسير القرآنى للقرآن ـ 14 صـ 917.933﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾

موقع هذه الآية هنا خفي المناسبة .

فيجوز أن تكون الجملة معترضة استئنافاً ابتدائياً انتقل به من النهي عن عدم الوفاء بما وعدوا الله عليه إلى التعريض بقوم آذوا النبي صلى الله عليه وسلم بالقول أو بالعصيان أو نحو ذلك ، فيكون الكلام موجهاً إلى المنافقين ، فقد وسموا بأذى الرسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة ﴾ [الأحزاب : 57] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ [التوبة : 61] وقوله : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن ﴾ [التوبة : 61] .

وعلى هذا الوجه فهو اقتضاب نقل به الكلام من الغرض الذي قبله لتمامه إلى هذا الغرض ، أو تكون مناسبة وقعه في هذا الموقع حدوث سبب اقتضى نزوله من أذى قد حدث لم يطلع عليه المفسرون ورواة الأخبار وأسباب النزول .

والواو على هذا الوجه عطف غرض على غرض .

وهو المسمّى بعطف قصة على قصة .

ويجوز أن يكون من تتمة الكلام الذي قبلها ضرب الله مثلاً للمسلمين لتحذيرهم من إتيان ما يؤذي رسوله صلى الله عليه وسلم ويسوؤوه من الخروج عن جادة الكمال الديني مثل عدم الوفاء بوعدهم في الإِتيان بأحبّ الأعمال إلى الله تعالى .

وأشفقهم من أن يكون ذلك سبباً للزيغ والضلال كما حدث لقوم موسى لمَّا آذوه .

وعلى هذا الوجه فالمراد بأذى قوم موسى إياه : عدم توخي طاعته ورضاه ، فيكون ذلك مشيراً إلى ما حكاه الله عنه من قوله : ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ [المائدة : 21] ، إلى قوله : ﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ [المائدة : 24] .

(135/761)

فإن قولهم ذلك استخفاف يدل لذلك قوله عقِبَه ﴿ قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : 25] .

وقد يكون وصفهم في هذه الآية بقوله : ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ ناظراً إلى وصفهم بذلك مرتين في آية سورة العقود في قوله : ﴿ فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : 25] وقوله : ﴿ فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : 26] .

فيكون المقصود الأهم من القصة هو ما تفرع على ذكرها من قوله : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ .

ويناسب أن تكون هذه الآية تحذيراً من مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وعبرة بما عرض لهم من الهزيمة يوم أُحُد لما خالفوا أمره من عدم ثبات الرماة في مكانهم .

وقد تشابهت القصتان في أن القوم فرّوا يوم أُحُد كما فرّ قوم موسى يوم أريحا ، وفي أن الرماة الذين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يبرحوا مكانهم "ولو تخطَّفَنَا الطير" وأن ينضحوا عن الجيش بالنبال خشية أن يأتيه العدوّ من خلفه لم يفعلوا ما أمرهم به وعصوا أمر أميرهم عبد الله بن جبير وفارقوا موقفهم طلباً للغنيمة فكان ذلك سبب هزيمة المسلمين يوم أُحُد .

والواو على هذا الوجه عطف تحذير مأخوذ من قوله : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ على النهي الذي في قوله : ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ [الصف : 2] الآية .

ويتبع ذلك تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على ما حصل من مخالفة الرماة حتى تسببوا في هزيمة الناس .

و﴿ إذ ﴾ متعلقة بفعل محذوف تقديره : اذْكُر ، وله نظائر كثيرة في القرآن ، أي اذكر لهم أيضاً وقت قول موسى لقومه أو اذكر لهم مع هذا النهي وقت قول موسى لقومه .

وابتداء كلام موسى عليه السلام بـ ﴿ يا قوم ﴾ تعريض بأن شأن قوم الرسول أن يطيعوه بَلْهَ أن لا يؤذوه .

ففي النداء بوصف ﴿ قوم ﴾ تمهيد للإِنكار في قوله : ﴿ لم تؤذونني ﴾ .

(136/761)

والاستفهام للإِنكار ، أي إنكار أن يكون للإِذاية سبب كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون .

وقد جاءت جملة الحال من قوله : وقد تعلمون أني رسول الله ﴾ مصادفة المحلّ من الترقّي في الإِنكار .

و﴿ قد ﴾ لتحقيق معنى الحالية ، أي وعلمكم برسالتي عن الله أمر محقق لما شاهدوه من دلائل رسالته ، وكما أكد علمهم بـ ﴿ قَد ﴾ أكد حصول المعلوم بـ (أنّ) المفتوحة ، فحصل تأكيدان للرسالة .

والمعنى : فكيف لا يجري أمركم على وفق هذا العلم .

والإتيان بعد ﴿ قد ﴾ بالمضارع هنا للدلالة على أن علمهم بذلك مجدّد بتجدد الآيات والوحي، وذلك أجدى بدوام امتثاله لأنه لو جيء بفعل المضي لما دلّ على أكثر من حصول ذلك العلم فيما مضى.

ولعله قد طرأ عليه ما يبطله، وهذا كالمضارع في قوله: ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾ في سورة [الأحزاب: 18].

والزيغ: الميل عن الحق، أي لما خالفوا ما أمرهم رسولهم جعل الله في قلوبهم زيغاً، أي تمكن الزيغ من نفوسهم فلم ينفكوا عن الضلال.

وجملة والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ تذييل، أي وهذه سنة الله في الناس فكان قوم موسى الذين آذوْه من أهل ذلك العموم.

وذُكر وصف ﴿ الفاسقين ﴾ جارياً على لفظ ﴿ القوم ﴾ للإِيماء إلى الفسوق الذي دخل في مقوّمات قوميتهم.

كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ إن في خلق السماوات والأرض إلى قوله: ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في [البقرة: 164].

فالمعنى: الذين كان الفسوق عن الحق سجية لهم لا يلطف الله بهم ولا يعتني بهم عناية خاصة تسوقهم إلى الهدى، وإنما هو طوع الأسباب والمناسبات.

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

عطف على جملة ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ [الصف : 5] فعلى الوجه الأول في موقع التي قبلها فموقع هذه مساوٍ له .

(137/761)

وأما على الوجه الثاني في الآية السابقة فإن هذه مسوقة مساق التتميم لقصة موسى بذكر مثال آخر لقوم حادُوا عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم من غير إفادة تحذير للمخاطبين من المسلمين ، وللتخلص إلى ذكر أخبار عيسى بالرسول الذي يجيء بعده .

ونادى عيسى قومه بعنوان ﴿ بني إسرائيل ﴾ دون ﴿ يا قوم ﴾ [الصف : 5] لأن بني إسرائيل بعد موسى اشتهروا بعنوان "بني إسرائيل" ولم يطلق عليهم عنوان : قوم موسى ، إلا في مدة حياة موسى خاصة فإنهم إنما صاروا أمة وقوماً بسببه وشريعته .

فأما عيسى فإنما كان مرسلاً بتأييد شريعة موسى ، والتذكير بها وتغيير بعض أحكامها ، ولأن عيسى حين خاطبهم لم يكونوا قد اتبعوه ولا صدّقوه فلم يكونوا قوماً له خالصين .

وتقدم القول في معنى ﴿ مصدقاً لما بين يدي من التوراة ﴾ في أوائل سورة [آل عمران : 50] وفي أثناء سورة العقود .

والمقصود من تنبيههم على هذا التصديق حين ابتدأهم بالدعوة تقريب إجابتهم واستنزال

طائرهم لشدة تمسكهم بالتوراة واعتقادهم أن أحكامها لا تقبل النسخ ، وأنها دائمة .

ولذلك لما ابتدأهم بهذه الدعوة لم يزد عليها ما حكي عنه في سورة [آل عمران : 50] من قوله : ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ ، فيحمل ما هنالك على أنه خطاب واقع بعد أول الدعوة فإن الله لم يوح إليه أوّل مرّة بنسخ بعض أحكام التوراة ثم أوحاه إليه بعد ذلك .

فحينئذٍ أخبرهم بما أوحي إليه .

وكذلك شأن التشريع أن يُلقَى إلى الأمة تدريجاً كما في حديث عائشة في صحيح البخاري ﴿ أنها قالت : "إنما أُنزل أوّل ما أُنزل منه (أي القرآن) سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو أنزل أول شيء : لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا نترك الخمر أبداً ، ولو نزل : لا تزنوا : لقالوا : لا ندع الزنا أبداً .

(138/761)

لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية ألْعَب ﴿ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾ [القمر : 46] ، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده" أ هـ .

فمعنى قوله : ﴿ مصدقاً لما بين يدي من التوراة ﴾ في كلتا الآيتين هو التصديق بمعنى التقرير والأعمال على وجه الجملة ، أي أعمال مجموعها وجمهرة أحكامها ولا ينافي ذلك أنه قد تغير بعض أحكامها بوحي من الله في أحوال قليلة .

والتبشير : الإِخبار بحادث يسُرّ ، وأطلق هنا على الإِخبار بأمر عظيم النفع لهم لأنه يلزمه السرور الحق فإن مجيء الرسول إلى الناس نعمة عظيمة .

ووجه إيثار هذا اللفظ الإِشارة إلى ما وقع في الإِنجيل من وصف رسالة الرسول الموعود به بأنها بشارة الملكوت .

وإنما أخبرهم بمجيء رسول من بعده لأن بني إسرائيل لم يزالوا ينتظرون مجيء رسول من الله يخلصهم من براثن المتسلطين عليهم وهذا الانتظار ديدنهم ، وهم موعودون لهذا المخلّص لهم على لسان أنبيائهم بعد موسى .

فكان وعد عيسى به كوعد من سبقه من أنبيائهم ، وفاتحهم به في أول الدعوة اعتناء بهذه الوصية .

وفي الابتداء بها تنبيه على أن ليس عيسى هو المخلص المنتظر وأن المنتظر رسول يأتي من بعده وهو محمد صلى الله عليه وسلم

ولعظم شأن هذا الرسول الموعود به أراد الله أن يقيم للأمم التي يظهر فيها علامات ودلائل ليتبينوا بها شخصه فيكون انطباقها فاتحة لإِقبالهم على تلقّي دعوته ، وإنما يعرفها حقّ

معرفتها الراسخون في الدين من أهل الكتاب لأنهم الذين يرجع إليهم الدهماء من أهل ملتهم قال تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ [البقرة: 146].

وقال: ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ [الرعد: 43].

وقد وصف الله بعض صفات هذا الرسول لموسى عليه السلام في قوله تعالى حكاية عن إجابته دعاء موسى ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون إلى قوله: الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ [الأعراف: 157].

فلما أراد الله تعالى إعداد البشر لقبول رسالة هذا الرسول العظيم الموعود به صلى الله عليه وسلم استودعهم أشراطه وعلاماته على لسان كل رسول أرسله إلى الناس.

قال تعالى: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيئين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصري قالوا أقررنا قال

فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ [آل عمران : 81 – 82] أي أأخذتم إصري من أُممكم على الإِيمان بالرسول الذي يجيء مصدقاً للرسل .

وقوله : ﴿ فاشهدوا ﴾ [آل عمران : 81] ، أي على أُممكم وسيجيء من حكاية كلام عيسى في الإِنجيل ما يشرح هذه الشهادة .

وقال تعالى في خصوص ما لَقّنه إبراهيمَ عليه السلام ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ [البقرة : 129] الآية .

وأوصى به عيسى عليه السلام في هذه الآية وصية جامعة لما تقدمها من وصايا الأنبياء وأجملها إجمالاً على طريق الرمز .

وهو أسلوب من أساليب أهل الحكمة والرسالة في غير بيان الشريعة ، قال السّهروردي : في تلك حكمة الإِشراق "وكلمات الأوّلين مرموزة" فقال قطب الدين الشيرازي في "شرحه" : "كانوا يرمزون في كلامهم إما تشحيذاً للخاطر باستكداد الفكر أو تشبهاً بالباري تعالى وأصحابِ النواميس فيما أتوا به من الكتب المنزلة المرموزة لتكون أقرب إلى فهم الجمهور فينتفع الخواصّ بباطنها والعوام بظاهرها .

اه" ، أي ليتوسمها أهل العلم من أهل الكتاب فيتحصل لهم من مجموع تفصيلها شمائل الرسول الموعود به ولا يلتبس عليهم بغيره ممن يدّعي ذلك كذباً .

أو يدّعيه له طائفة من الناس كذباً أو اشتباهاً .

ولا يحمل قوله : ﴿ اسمه أحمد ﴾ على ما يتبادر من لفظ اسم من أنه العلَم المجهول للدلالة على ذات معيَّنة لتميزه من بين من لا يشاركها في ذلك الاسم لأن هذا الحمل يمنع منه وأنه ليس بمطابق للواقع لأن الرسول الموعود به لم يدعه الناسُ أحمد فلم يكن أحد يدعو النبي محمداً صلى الله عليه وسلم باسم أحمد لا قبل نبوته ولا بعدها ولا يعْرف ذلك .

وأما ما وقع في "الموطأ" و "الصحيحين" عن محمّد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب" فتأويله أنه أطلق الأسماء على ما يشمل الاسم العَلَم والصفة الخاصة به على طريقة التغليب .

وقد رويت له أسماء غيرها استقصاها أبو بكر ابن العربي في "العارضة" و "القَبس" .

فالذي نُوقِن به أن محمل قوله : ﴿ اسمه أحمد ﴾ يجري على جميع ما تحمله جُزْءاً هذه الجملة من المعاني .

فأما لفظ "اسم" فأشهر استعماله في كلام العرب ثلاثة استعمالات:

أحدها : أن يكون بمعنى المسمّى .

قال أبو عبيدة : الاسم هو المسمّى .

ونَسب ثعلب إلى سيبويه أن الاسم غير المسمّى (أي إذا أطلق لفظ اسم في الكلام فالمعنى به مسمّى ذلك الاسم) لكن جزم ابن السيد البَطَلْيَوسي في كتابه الذي جعله في معاني الاسم هَل هو عين المسمى ، أنه وقع في بعض مواضع من كتاب سيبويه أن الاسم هو المسمّى ، ووقع في بعضها أنه غير المسمّى ، فحمَله ابن السيد البطليوسي على أنهما إطلاقان ، وليس ذلك باختلاف في كلام سيبويه ، وتوقف أبو العباس ثعلب في ذلك فقال : ليس لي فيه قول .

(141/761)

ولما في هذا الاستعمال من الاحتمال بطل الاستدلال به .

الاستعمال الثاني : أن يكون الاسم بمعنى شهرة في الخير وأنشد ثعلب :

لأعظمها قدراً وأكرمها أباً

وأحسنِها وجْهاً وأعلَنها سُمَى . . .

سُمىً لغة في اسم .

الاستعمال الثالث : أن يطلق على لفظ جُعل دالاً على ذات لتميَّز من كثير من أمثالها ، وهذا هو العَلَم .

ونحن نجري على أصلنا في حمل ألفاظ القرآن على جميع المعاني التي يسمح بها الاستعمال الفصيح كما في المقدمة التاسعة من مقدمات هذا التفسير ، فنحمل الاسم في قوله : ﴿ اسمه أحمد ﴾ على ما يجمع بين هذه الاستعمالات الثلاثة ، أي مسماه أحمد ، وذِكْره أحْمد ، وعَلَمه أحْمَد ، ولنحمل لفظ أحمد على ما لا يأباه واحد من استعمالاتِ اسم الثلاثةِ إذا قُرن به وهو أن أَحْمد اسم تفضيل يجوز أن يكون مسلوب المفاضلة معنياً به القوةُ فيم هو مشتق منه ، أي الحمدِ وهو الثناء ، فيكون أحمد هنا مستعملاً في قوةِ مفعولية الحَمد ، أي حَمْد الناس إياه ، وهذا مثل قولهم .

"العَود أحمد" ، أي محمود كثيراً .

فالوصف بـ ﴿ أحمد ﴾ بالنسبة للمعنى الأول في اسم أن مسمّى هذا الرسول ونفسه موصوفة بأقوى ما يحمد عليه محمود فيشمل ذلك جميع صفات الكمال النفسانية والخُلقية والخَلقية والنسبية والقومية وغير ذلك مما هو معدود من الكمالات الذاتية والغرضية .

ويصح اعتبار ﴿ أحمد ﴾ تفضيلاً حقيقياً في كلام عيسى عليه السّلام ، أي مسماه أحمد مني ، أي أفضل ، أي في رسالته وشريعته .

وعبارات الإِنجيل تشعر بهذا التفضيل ، ففي إنجيل يوحنا في الإصحاح الرابع عشر "وأنا

أطلب من الأب (أي من ربنا) فيعطيكم (فارقليط) آخر ليثبت معكم إلى الأبد روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه .

ثم قال : وأما الفارقليط الروح القدس الذي سيرسله الأب (الله) باسمي فهو يعلّمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم" ، أي في جملة ما يعلّمكم أن يذكركم بكل ما قلته لكم .

(142/761)

وهذا يفيد تفضيله على عيسى بفضيلة دوام شريعة المعبر عنها بقول الإنجيل "ليثبت معكم إلى الأبد" وبفضيلة عموم شرعه للأحكام المعبر عنه بقوله : "يعلمكم كل شيء" .

والوصف بـ ﴿ أحمد ﴾ على المعنى الثاني في الاسم .

أن سُمعتَه وذِكره في جيله والأجيال بعده موصوف بأنه أشدُّ ذكرٍ محمود وسمعةٍ محمودة .

وهذا معنى قوله في الحديث "أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة" وأن الله يبعثه مقاماً محموداً .

ووصف ﴿ أحمد ﴾ بالنسبة إلى المعنى الثالث في الاسم رمز إلى أنه اسمه العَلَم يكون بمعنى : أحمد ، فإن لفظ محمَّد اسم مفعول من حَمَّد المضاعف الدال على كثرة حَمد الحامدين إياه كما قالوا : فلان مُمَدَّح ، إذا تكرر مدحُه من مادحين كثيرين .

فاسم "محمّد" يفيد معنى : المحمود حمداً كثيراً ورمز إليه بأحمد .

وهذه الكلمة الجامعة التي أوحى الله بها إلى عيسى عليه السّلام أراد الله بها أن تكون شعاراً لجماع صفات الرسول الموعود به صلى الله عليه وسلم صيغت بأقصى صيغة تدل على ذلك إجمالاً بحسب ما تسمح اللغة بجمعه من معاني .

ووكل تفصيلها إلى ما يظهر من شمائله قبل بعثته وبعدها ليتوسمها المتوسمون ويتدبر مطاويها الراسخون عند المشاهدة والتجربة .

جاء في إنجيل متّى في الإِصحاح الرابع والعشرين قول عيسى "ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيراً ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يكون المنتهى" ، ومعنى يكرز يدعو وينبىء ، ومعنى يصير إلى المنتهى يتأخر إلى قرب الساعة .

وفي إنجيل يوحنّا في الإِصحاح الرابع عشر "إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر يثبت معكم إلى الأبد" .

و(فارقليط) كلمة رومية ، أي يونانية تطلق بمعنى المُدافع أو المسلي ، أي الذي يأتي بما يدفع الأحزان والمصائب ، أي يأتي رحمة ، أي رسول مبشر ، وكلمة آخر صريحة في أنه رسول مثل عيسى .

وفي الإصحاح الرابع عشر "والكلام الذي تسمعونه ليس لي بل الذي أرسلني .

وبهذا كَلّمتُكم وأنا عندكم (أي مدة وجودي بينكم) ، وأما (الفارقليط) الروح القدسي الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته" (ومعنى "باسمي" أي بصفة الرسالة) لا أتكلم معكم كثيراً لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس له فِيَّ شيء ولكن ليفهم العالم أني أحبّ الأب وكما أوصاني الأبُ أفعل" .

وفي الإِصحاح الخامس عشر منه "ومتى جاء الفارقليط الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روحُ الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي" .

وفي هذه الأخبار إثبات أن هذا الرسول المبشر به تعمّ رسالته جميع الأمم في جميع الأرض ، وأنه الخاتم ، وأن لشريعته مُلكاً لقول إنجيل متّى "هو يكرز ببشارة الملكوت" والملكوت هو الملك ، وأن تعاليمه تتعلق بجميع الأشياء العارضة للناس ، أي شريعته تتعلق أحكامها بجميع الأحوال البشرية ، وجميعها مما تشمله الكلمة التي جاءت على لسان عيسى عليه السلام وهي كلمة ﴿ اسمه أحمد ﴾ فكانت من الرموز الإِلهية ولكونها مرادة لذلك ذكرها الله تعالى في القرآن تذكيراً وإعلاناً .

وذِكر القرآن تبشيرَ عيسى بمحمدٍ عليهما الصلاة والسّلام إدماج في خلال المقصود الذي هو تنظير ما أوذي به موسى من قومه وما أوذي به عيسى من قومه إدماجاً يؤيد به النبي

صلى الله عليه وسلم ويثبّت فؤاده ويزيده تسلية .

وفيها تخلص إلى أن ما لقيه من قومه نظيرَ ما لقيه عيسى من بني إسرائيل .

وقوله : ﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ هو مناط الأذى .

فإن المتبادر أن يعود ضمير الرفع في قوله : ﴿ جاءهم ﴾ إلى عيسى ، وأن يعود ضمير النصب إلى الذين خاطبهم عيسى .

والتقدير : فكذبوه ، فلما جاءهم بالمعجزات قالوا هذا سحر أو هُو ساحر .

ويحتمل أن يكون ضمير الرفع عائداً إلى رسول يأتي من بعدي .

وضمير النصب عائداً إلى لفظ بني إسرائيل ، أي بني إسرائيل غير الذين دعاهم عيسى عليه السلام من باب : عندي درهم ونصفه ، أي نصف ما يسمّى بدرهم ، أي فلما جاءهم الرسول الذي دعاه عيسى باسم أحمد بالبينات ، أي دلائل انطباق الصفات الموعود بها قالوا هذا سحر أو هذا ساحر مبين فيكون هذا التركيب مبين من قبيل الكلام الموجه .

وحصل أذاهم بهذا القول لكلا الرسولين .

فالجملة على هذا الاحتمال تُحمل على أنها اعتراض بين المتعاطفات وممهدة للتخلص إلى مذمة المشركين وغيرهم ممن لم يقبل دعوة محمد صلى الله عليه وسلم

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بفتح الياء من قوله : ﴿ بعديَ ﴾ .

وقرأه الباقون بسكونها .

قال في "الكشاف" : واختار الخليل وسيبويه الفتح .

وقرأ الجمهور ﴿ هذا سحر ﴾ بكسر السين .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف ﴿ هذا ساحر ﴾ فعلى الأولى الإِشارة للبنات ، وعلى الثانية الإِشارة إلى عيسى أو إلى الرسول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(145/761)

فائدة

قال ابن القيم :

قال تعالى ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾

وقال عن عباده المؤمنين إنهم سألوه ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وأصل الزيغ الميل ومنه

زاغت الشمس إذا مالت فأزاغه القلب إمالته وزيغه ميله عن الهدى إلى الضلال والزيغ يوصف به القلب والبصر كما قال تعالى وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وقال قتادة ومقاتل شخصت فرقا وهذا تقريب للمعنى فإن الشخوص غير الزيغ وهو أن يفتح عينيه ينظر إلى الشيء فلا يطرق ومنه شخص بصر الميت ولما مالت الأبصار عن كل شيء فلم تنظر إلا إلى هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب اشتغلت عن النظر إلى شيء آخر فمالت عنه وشخصت بالنظر إلى الأحزاب وقال الكلبي مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم وقال الفراء زاغت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها متحيرة تنظر إليه قلت القلب إذا امتلأ رعبا شغله ذلك عن ملاحظة ما سوى المخوف فزاغ البصر عن الوقوع عليه وهو مقابلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ شفاء العليل صـ 212 ﴾

(146/761)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

هذه الآية الكريمة تدل بظاهرها على أن الخارج عن طاعة الله لا يهديه الله .

وقد جاءت آيات أُخر تدل على خلاف ذلك كقوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ .

والجواب: أن الآية من العام المخصوص فهي في خصوص الأشقياء الذين أزاغ الله قلوبهم عن الهدي لشقاوتهم الأزلية وقيل المعنى لا يهديهم ما داموا على فسقهم فإن تابوا منه هداهم.

انتهى انتهى. ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 293 ﴾

(147/761)

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (7) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التقدير إعلاماً بأنهم أظلم الناس لتعمدهم للكذب : فمن أظلم منهم لتهتكهم في

ذلك، عطف عليه قوله: ﴿ومن أظلم﴾ وعم كل من اتصف بوصفهم فقال: ﴿ممن افترى﴾ أي تعمد ﴿على الله﴾ أي الملك الأعلى ﴿الكذب﴾ الذي هو أقبح الأشياء ﴿وهو﴾ أي والحال أنه ﴿يدعى﴾ أي من أي داع كان ﴿إلى الإسلام﴾ الذي هو أحسن الأشياء فيكفي في الدعاء إليه أدنى تنبيه لأنه الاعتراف بالحق لمن هو له، فيجعل مكان الإجابة افتراء الكذب في تلك الحالة الحسنى.

ولما كان التقدير: فهو لا يهديه الله لأجل ظلمه، عطف عليه قوله: ﴿والله﴾ أي الذي له الأمر كله فلا أمر لأحد معه ﴿لا يهدي القوم﴾ أي لا يخلق الهداية في قلوب من فيهم قوة المحاولة للأمور الصعاب ﴿الظالمين﴾ أي الذين يخبطون في عقولهم خبط من هو في الظلام.

ولما أخبر عن ردهم للرسالة، علله بقوله: ﴿يريدون﴾ أي يوقعون إرادة ردهم للرسالة بافترائهم ﴿ليطفئوا﴾ أي لأجل أن يطفئوا ﴿نور الله﴾ أي الملك الذي لا شيء يكافيه ﴿بأفواههم﴾ أي بما يقولون من الكذب لا منشأ له غير الأفواه لأنه لا اعتقاد له في القلوب لكونه لا يتخيله عاقل، فهم في ذلك كالنافخين في الشمس إرادة أن يمحو نفخهم عينها وينقص شينهم زينها، فمثل إرادتهم لإخفاء القرآن بتكذيبهم وجميع كيدهم بمن يريد إطفاء الشمس بنفخه فهو في أجهد وأضل الضلال:

وفي تعب من يحسد الشمس ضوءها . . .

ويجهد أن يأتي لها بضريب

فأفاد قصر الفعل أن إرادتهم كلها مصروفة لهذا الغرض وأنه لا إرادة لهم غير ذلك وأنه لا ينبغي أن يكون لهم إرادة لأنهم عبيد ، والإرادة لا ينبغي إلا للسيد ليكون إرادة العبد تابعة لها ، فتكون امتثالاً لإرادته ، فكأنه لا إرادة له ، فهو أبلغ مما في براءة لأن هذه نتيجتها .

(148/761)

ولما أخبر بعلة إرادتهم وأشار إلى وهي أمرهم بعد أن أخبر بردهم للحق وجرأ عليهم بالإخبار بإضلالهم ، زاد ذلك بقوله مظهرا غير مضمر تنبيهاً على جميع صفات الجلال والإكرام : ﴿ والله ﴾ أي الذي لا مدافع له لتمام عظمته .

ولما كانت هذه السورة نتيجة سورة براءة التي أخبر فيها بأنه يأبى إلا إتمام نوره ، أخبر في هذه بنتيجة ذلك وهي ثبات تمام النور ودوامه ، لأن هذا شأن الملك الذي لا كفوء له إذا أراد شيئاً فكيف إذا أرسل رسولاً فقال : ﴿ متم ﴾ وهذا المعنى يؤيد قول الجمهور أنها مدينة بعد التأييد بذكر الجهاد ، فإن فرضه كان بعد الهجرة من والظاهر من ترتيبها على الممتحنة التي نزلت في غزوة الفتح أنها بعد براءة في النزول أيضاً .

ولما كان النور لإظهار صور الأشياء بعد انطماسها سبباً لوضع الأشياء في أتقن مواضعها ،

وكان ما أتى من عند الله من العلم كذلك ، جعل عينه فأطلق عليه اسمه فقال : ﴿ نوره ﴾ فلا يضره ستر أحد له بتكذيبه ولا إرادة إطفائه ، وزاد ذلك بقوله : ﴿ ولو كره ﴾ أي إتمامه له ﴿ الكافرون ﴾ أي الراسخون في صفة الكفر المجتهدون في المحاماة عنه .

(149/761)

ولما أخبر بذلك ، علله بما هو شأن كل ملك فكيف بالواحد في ملكه فقال : ﴿ هو ﴾ أي الذي ثبت أنه جامع لصفات الجمال والجلال وحده من غير أن يكون له شريك أو وزير ﴿ الذي أرسل ﴾ بما له من القوة والإرادة ﴿ رسوله ﴾ أي الحقيق بأن يعظمه كل من بلغه أمره لأن عظمته من عظمته ، ولم يذكر حرف الغاية إشارة إلى عموم الإرسال إلى كل من شمله الملك كما مضى ﴿ بالهدى ﴾ أي البيان الشافي ﴿ ودين الحق ﴾ أي الملك الذي ثباته لا يدانيه ثبات ، فلا ثبات لغيره ، فثبات هذا الدين بثباته ، ويجوز أن يكون المعنى : والدين الذي هو الحق الثابت في الحقية الكامل فيها كمالاً ليس لغيره ، فيكون من إضافة الموصوف إلى صفته إشارة إلى شدة التباسه بها ﴿ ليظهره ﴾ أي يعليه مع الشهرة وإذلال المنازع ﴿ على الدين ﴾ أي جنس الشريعة التي تجعل ليجازي من يسلكها ومن يزيغ عنها ، بها يشرع فيها من الأحكام ﴿ كله ﴾ فلا يبقى دين إلا كان دونه وانمحق به وذل أهله له ذلاً

لا يقاس به ذل ﴿ ولو كره ﴾ أي إظهاره ﴿ المشركون ﴾ أي المعاندون في كفرهم الراسخون في تلك المعاندة ، وأعظم مراد بهذا أهل العناد ببدعة الاتحاد ، فإنهم ما تركوا شيئاً مما سواه حتى أشركوا به – تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، – وهم مع بعد نحلتهم من العقول وفسادها من الأوهام ومصادمتها لجميع النقول في غاية الكثرة لمصير الناس إلى ما وعد الله ورسوله – وصدق الله ورسوله – من أن أكثرهم قد مرجت عهودهم وخفيت أماناتهم وصاروا حثالة كحثالة التمر لا يعبأ الله بهم ، لكنهم على كثرتهم بما تضمنته هذه الآية في أمثالها في غاية الذل ولله الحمد لا عز لهم إلا بإظهار الاتباع للكتاب والسنة وهم يعلمون أنهم يكذبون في هذه الدعوى لأنهم في غاية المخالفة لهما بحيث يعتقدون أنهما شرك لإثباتهما لله تعالى وجوداً يخالف وجود الخلق وهم يقولون مكابرة للضرورة أن الوجود واحد وأنه لا موجود ظاهراً وباطناً سواه ، ولذلك سموا الوجود به ثم لا يردهم

علمهم بذلهم وأنهم لا عز لهم إلا بحمى الشريعة عن ضلالهم فأعجب لذلك وألجأ إلى الله تعالى بسؤال العافية ، فإن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء ، وضربهم بالذل مع كثرتهم في غاية الدلالة على الله سبحانه لأن الملك الكامل القدرة لا يقر من يطعن في ملكه ويسعى فر

رد رسالته وإهانة رسله ولقد أنجز سبحانه كثيراً من وعده بما دل – لكونه تغليباً على أقوى الملوك من الأكاسرة والقياصرة – على القدرة على الباقين ، وذلك أنه لما تقاعد قومه عن نصرته وانتدبوا لتكذيبه وجحد ما شاهدوه من صدقه يسر الله له أنصاراً من أمته هم نزاع القبائل وأجاد الأفاضل وسادات الأماثل فبلغوا في تأييده أقصى الأمل . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 582.585 ﴾

(151/761)

فصل

قال الفخر :

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله الكذب ﴾

أي من أقبح ظلماً ممن بلغ افتراؤه المبلغ الذي يفتري على الله الكذب وأنهم قد علموا أن ما نالوه من نعمة وكرامة فإنما نالوه من الله تعالى ، ثم كفروا به وكذبوا على الله وعلى رسوله : ﴿ والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ أي لا يوافقهم الله للطاعة عقوبة لهم .

وفي الآية بحث : وهو أن يقال : بم انتصب ﴿ مُصَدّقاً ﴾ و ﴿ مُبَشّرًا ﴾ أبما في الرسول من

معنى الإرسال أم ﴿ إِلَيْكُمْ ﴾ ؟ نقول : بل بمعنى الإرسال لأن إليكم صلة للرسول .

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8)

(152/761)

﴿ لِيُطْفِئُوا ﴾ أي أن يطفئوا وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيداً له لما فيها من معنى الإرادة في قولك : جئتك لإكرامك ، كما زيدت اللام في لا أباً لك ، تأكيداً لمعنى الإضافة في أباك ، وإطفاء نور الله تعالى بأفواههم ، تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن : ﴿ هذا سحرٌ ﴾ [الصف : 6] مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه ، كذا ذكره في الكشاف ، وقوله : ﴿ والله مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ قرىء بكسر الراء على الإضافة ، والأصل هو التنوين ، قال ابن عباس : يظهر دينه ، وقال صاحب الكشاف : متم الحق ومبلغه غايته ، وقيل : دين الله ، وكتاب الله ، ورسول الله ، وكل واحد من هذه الثلاثة بهذه الصفة لأنه يظهر عليهم من الآثار وثانيها : أن نور الله ساطع أبداً وطالع من مطلع لا يمكن زواله أصلاً وهو الحضرة القدسية ، وكل واحد من الثلاثة كذلك وثالثها : أن النور نحو العلم ، والظلمة نحو الجهل ، أو النور الإيمان يخرجهم من الظلمات إلى النور ، أو الإسلام هو النور ، أو يقال : الدين وضع إلهي سائق لأولي الألباب إلى الخيرات

باختيارهم المحمود وذلك هو النور ، والكتاب هو المبين قال تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الكتاب المبين ﴾ [الشعراء : 2] فالإبانة والكتاب هو النور ، أو يقال : الكتاب حجة لكونه معجزاً ، والحجة هو النور ، فالكتاب كذلك ، أو يقال في الرسول : إنه النور ، وإلا لما وصف بصفة كونه رحمة للعالمين ، إذ الرحمة بإظهار ما يكون من الأسرار وذلك بالنور ، أو نقول : إنه هو النور ، لأنه بواسطته اهتدى الخلق ، أو هو النور لكونه مبيناً للناس ما نزل إليهم ، والمبين هو النور ، ثم الفوائد في كونه نوراً وجوه منها : أنه يدل على علو شأنه وعظمة برهانه ، وذلك لوجهين أحدهما : الوصف بالنور وثانيهما : الإضافة إلى الحضرة ، ومنها : أنه إذا كان نوراً من أنوار الله تعالى كان مشرقاً في جميع أقطار العالم ، لأنه لا يكون

مخصوصاً ببعض الجوانب ، فكان رسولاً إلى جميع الخلائق ، لما روي عنه صلى الله عليه وسلم : " بعثت إلى الأحمر والأسود " فلا يوجد شخص من الجن والإنس إلا ويكون من أمته إن كان مؤمناً فهو من أمة المتابعة ، وإن كان كافراً فهو من أمة الدعوة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ أي اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين ، وقوله : ﴿ بالهدى ﴾ لمن اتبعه ﴿ وَدِينِ الحق ﴾ قيل : الحق هو الله تعالى ، أي دين الله : وقيل :

نعت للدين ، أي والدين هو الحق ، وقيل : الذي يحق أن يتبعه كل أحد و ﴿ يُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ يريد الإسلام ، وقيل : ليظهره ، أي الرسول صلى الله عليه وسلم بالغلبة وذلك بالحجة ، وههنا مباحث :

الأول : ﴿ والله مُتِمُّ نورِهِ ﴾ والتمام لا يكون إلا عند النقصان ، فكيف نقصان هذا النور ؟ فنقول إتمامه بحسب النقصان في الأثر ، وهو الظهور في سائر البلاد من المشارق إلى المغارب ، إذ الظهور لا يظهر إلا بالإظهار وهو الإتمام ، يؤيده قوله تعالى :

﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : 3] وعن أبي هريرة : أن ذلك عند نزول عيسى من السماء ، قال مجاهد .

الثاني : قال ههنا : ﴿ مُتِمُّ نورِهِ ﴾ وقال في موضع آخر : ﴿ مَثَلُ نورِهِ ﴾ [النور : 35] وهذا عين ذلك أو غيره ؟ نقول : هو غيره ، لأن نور الله في ذلك الموضع هو الله تعالى عند أهل التحقيق ، وهنا هو الدين أو الكتاب أو الرسول .

(154/761)

الثالث : قال في الآية المتقدمة : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ وقال في المتأخرة : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ﴾ فما الحكمة فيه ؟ فنقول : إنهم أنكروا الرسول ، وما أنزل إليه وهو الكتاب ،

وذلك من نعم الله ، والكافرون كلهم في كفران النعم ، فلهذا قال : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ ولأن لفظ الكافر أعم من لفظ المشرك ، والمراد من الكافرين ههنا اليهود والنصارى والمشركون ، وهنا ذكر النور وإطفاءه ، واللائق به الكفر لأنه الستر والتغطية ، لأن من يحاول الإطفاء إنما يريد الزوال ، وفي الآية الثانية ذكر الرسول والإرسال ودين الحق ، وذلك منزلة عظيمة للرسول عليه السلام ، وهي اعتراض على الله تعالى كما قال :

ألا قل لمن ظل لي حاسدا . . أتدري على من أسأت الأدب أسأت على الله في فعله

كأنه لم ترض لي ما وهب . . والاعتراض قريب من الشرك ، ولأن الحاسدين للرسول عليه السلام ، كان أكثرهم من قريش وهم المشركون ، ولما كان النور أعم من الدين والرسول ، لا جرم قابله بالكافرين الذين هم جميع مخالفي الإسلام والإرسال ، والرسول والدين أخص من النور قابله بالمشركين الذين هم أخص من الكافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 272. 274 ﴾

(155/761)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

قد تقدم القول غير مرة في تسبيح الجمادات ، و ﴿ العزيز ﴾ في سلطانه وقدرته ، و ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله وتدبيره ، واختلف الناس في السبب الذي نزلت فيه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ فقال ابن عباس وأبو صالح : نزلت بسبب أن جماعة قالوا : لوددنا أن نعرف أحب الأعمال إلى ربنا حتى نفنى فيه ، ففرض الله الجهاد وأعلمهم بفضله لديه وأنه يحب المقاتلين في سبيله كالبنيان المرصوص ، وكان إذ فرض قد تكرهه قوم منهم ، وفر من فر يوم أحد فعاتبهم الله بهذه الآية بسبب أو جماعة من شباب المسلمين كانوا يتحدثون عن أنفسهم في الغزو بما لم يفعلوا ويقولون فعلنا وصنعنا وذلك كذب ، فنزلت الآية في ذلك . وقال ابن زيد : نزلت في المنافقين لأن جملة منهم كانوا يقولون للمؤمنين نحن منكم ومعكم ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك ، فنزلت الآية عتاباً لهم ، وحكم هذه الآية باق غابر الدهر ، وكل من يقول ما لا يفعل ، فهو ممقوت مذق الكلام ، والقول الآخر في المنافقين إنما يتوجه بأن يكونوا غير مجلحين بالنفاق فلذلك خوطبوا بالمؤمنين أي في زعمكم وما تظهرون ، والقول الأول يترجح بما يأتي بعد من أمر الجهاد والقتال . و" المقت " : البغض من أجل ذنب أو ريبة أو دناءة يصنعها الممقوت ، وهذا حد المقت فتأمله ، و ﴿ مقتاً ﴾

نصب على التمييز ، والتقدير ﴿ كبر ﴾ فعلكم ﴿ مقتاً ﴾ ، والمراد كبر مقت فعلكم فحذف المضاف إليه ونصب المضاف على التمييز ، وهذا كما تريد تفقأ شحم بطنك فتقول : تفقأ بطنك شحماً ، و﴿ أن تقولوا ﴾ ، يحتمل أن يكون بدلاً من المقدر ، ويحتمل أن يكون فاعلاً ب ﴿ كبر ﴾ ، وقول المرء ما لا يفعل موجب مقت الله تعالى ، ولذلك فر كثير من العلماء عن الوعظ والتذكير وآثروا السكوت ، ثم وكد تعالى الإخبار بمحبته للمقاتلين ﴿ صفاً ﴾ ، ومحبة الله تعالى هي ما يظهر عليهم من نصره وكرامته وهي صفة فعل وليست بمعنى الإرادة ، لأن الإرادة لا يصح أن يقع ما يخالفها ،

ونحن نجد المقاتلين على غير هذه الصفة كثيراً ، وقال بعض الناس : قتال الرجالة أفضل من قتال الفرسان لأن التراص فيه يتمكن ، وهذا ضعيف خفي على قائله مقصد الآية ، وليس المراد نفي التصاف وإنما المقصد الجد في كل أوطان القتال وأحواله ، وقصد بالذكر أشد الأحوال وهي الحالة التي تحوج إلى القتال ﴿ صفاً ﴾ متراصاً ، ونابت هذه الحال المذكورة مناب جميع الأحوال ، وقضت الآية بأن الذين يبلغ جدهم إلى هذه الحال حريون بأن لا يقصروا عن حال ، و﴿ المرصوص ﴾ المصفوف المتضام ، وقال أبو بحرية رحمه الله : إذا

رأيتموني ألتفت في الصف فجبوا فؤادي ومنه قول الشاعر [ابن أبي العنبس الثقفي] : [مجزوء الكامل]

وبالشعب بين صفائح . . . صم ترصص بالجنوب

(158/761)

وقال منذر بن سعيد والبراء وغيره : ﴿ المرصوص ﴾ المعقود بالرصاص ، وهذا يحتمل أن يكون أصل اللفظة ، ثم ذكر الله تعالى مقالة موسى وذلك ضرب مثل للمؤمنين الذين يقولون ما لا يفعلون ذكرهم الله تعالى بقوم آذوا نبيهم على علم منهم بنبوته و ﴿ زاغوا ﴾ ف ﴿ أزاغ الله قلوبهم ﴾ ، أي فاحذروا أيها المؤمنون أن يصيركم العصيان ، وقول الباطل إلى مثل حالهم ، وقال أبو أمامة : هم الخوارج ، وقال سعد بن أبي وقاص : هم الحرورية ، المعنى : أنهم أشباههم في أنهم لما ﴿ زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ ، وقوله ﴿ لم تؤذونني ﴾ تقرير ، والمعنى ﴿ تؤذونني ﴾ بتعنيتكم وعصيانكم واقتراحاتكم ، وهذه كانت أفعال بني إسرائيل ، وانظر إنه تعالى أسند الزيغ إليهم لكونه فعل حطيطة ، كما قال الله تعالى : ﴿ نسوا الله فأنساهم ﴾ [الحشر : 19] وهذا يخالف قوله تعالى : ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ [التوبة : 118] فأسند التوبة إلى نفسه لكونها فعل رفعة ومنه قوله تعالى حكاية عن

إبراهيم عليه السلام : ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ [الشعراء : 80] ، و﴿ زاغ ﴾ معناه : مال ، وصار عرفها في الميل عن الحق ، و﴿ أزاغ الله قلوبهم ﴾ معناه : طبع عليها وختم وكثر ميلها عن الحق ، وهذه العقوبة على الذنب بالذنب ، وأمال ابن أبي إسحاق : ﴿ زاغوا ﴾ .

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

(159/761)

المعنى : " واذكر يا محمد إذ قال عيسى " ، وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لكفار قريش ، وحكي عن موسى أنه قال : ﴿ يا قوم ﴾ [الصف : 5] وعن عيسى أنه قال : ﴿ يا بني إسرائيل ﴾ من حيث لم يكن له فيهم أب ، و﴿ مصدقاً ﴾ ، حال مؤكدة ، ﴿ ومبشراً ﴾ عطف عليه ، وقوله تعالى : ﴿ يأتي من بعدي ﴾ ، وقوله : ﴿ اسمه أحمد ﴾ جملتان كل واحدة منهما في موضع خفض على الصفة لرسول ، و﴿ أحمد ﴾ فعل سمي به ، ويحتمل أن يكون أفعل كأسود ، وهو في هذه الآية الكلمة لا الشخص ، وليست على حد قولك جاءنا أحمد لأنك ها هنا أوقعت الاسم على مسماه ، وفي الآية إنما أراد : اسمه هذه الكلمة ، وذكر أبو علي هذا الغرض ومنه ينفك إعراب قوله تعالى ﴿ يقال له إبراهيم

﴾ [الأنبياء : 60] ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر : " بعديَ " بفتح الياء ، وقوله تعالى : ﴿ فلما جاءهم بالبينات ﴾ ، الآية يحتمل أن يريد ﴿ عيسى ﴾ ، وتكون الآية وما بعدها تمثيلاً بأولئك لهؤلاء المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يكون التمثيل قد فرغ عند قوله : ﴿ اسمه أحمد ﴾ ، ثم خرج إلى ذكر ﴿ أحمد ﴾ لما تطرق ذكره ، فقال مخاطبة للمؤمنين ، ﴿ فلما جاء ﴾ أحمد هؤلاء الكفار ﴿ قالوا هذا سحر مبين ﴾ ، و" البينات " هي الآيات والعلامات ، وقرأ جمهور الناس : " هذا ساحر " إشارة إلى ما جاء به ، وقرأ ابن مسعود وطلحة والأعمش وابن وثاب : " هذا سحر " إشارة إليه بنفسه ، وقوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ﴾ تعجيب وتقرير أي لا أحد أظلم منه ، و" افتراء الكذب " هو قولهم : ﴿ هذا سحر ﴾ ، وما جرى مجرى هذا من الأقوال التي هي اختلاق وبغير دليل ، وقرأ الجمهور : "يُدعى" على بناء الفعل للمفعول ، وقرأ طلحة بن مصرف " يدعي " بمعنى ينتمي وينتسب ومن ذلك قول الشاعر [ساعدة بن عجلان الهذلي] : [الكامل]

فرميت فوق ملاءة محبوكة . . . وأبنت للأشهاد حزة أدعي

والمعنى على هذه القراءة إنما هو إشارة إلى الأنبياء عليهم السلام لما حكي عن الكفار أنهم قالوا : " هذا ساحر " ، بين بعد ذلك أن العقل لا يقبله ، أي وهل أظلم من هذا الذي يزعم أنه نبي ويدعي إلى الإسلام وهو مع ذلك مفتر على ربه وهذا دليل واضح لأن مسالك أهل الافتراء والمخرقة إنما هي دون هذا وفي أمور خسيسة ، وضبط النقاش هذه القراءة " يُدَّعى " بضم الياء وفتح الدال المشددة على ما لم يسم فاعله ، والضمير في ﴿ يريدون ﴾ للكفار ، واللام في قوله : ﴿ ليطفئوا ﴾ لام مؤكدة ، دخلت على المفعول لأن التقدير : " يريدون أن يطفئوا " وأن مع الفعل بتأويل المصدر فكأنه قال : يريدون إطفاء ، وأكثر ما تلتزم هذه اللام المفعول إذا تقدم تقول لزيد : ضربت ولرؤيتك قصدت ، و ﴿ نور الله ﴾ هو شرعه وبراهينه .

وقوله تعالى : ﴿ بأفواههم ﴾ إشارة إلى الأقوال أي بقولهم : سحر وشعر وتكهن وغير ذلك ، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم وابن محيصن والحسن وطلحة والأعرج : " والله متمٌّ " بالتنوين ، " نورَه " " نورَه " بالنصب ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم والأعمش : " متمُ نورِه " بالإضافة وهي في معنى الانفصال وفي هذا نظر .

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9)

هذا تأكيد لأمر الرسالة وشد لأزرها كما يقول الإنسان لأمر يثبته ويقويه أنا فعلته ، أي فمن

يقدر على معارضته فليعارض ، والرسول المشار إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله تعالى : ﴿ على الدين كله ﴾ لفظ يصلح للعموم وأن يكون المعنى أو لا يبقى موضع فيه دين غير الإسلام ، وهذا لا يكون إلا عند نزول عيسى ابن مريم ، قاله مجاهد وأبو هريرة ، ويحتمل أن يكون المعنى أن يظهره حتى لا يوجد دين إلا الإسلام أظهر منه ، وهذا قد كان ووجد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(161/761)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾

أي لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنِ افترى عَلَى الله الكذب ﴾ تقدّم في غير موضع .

﴿ وَهُوَ يدعى إِلَى الإسلام ﴾ هذا تعجُّب ممن كفر بعيسى ومحمد بعد المعجزات التي ظهرت لهما .

وقرأ طلحة ابن مُصَرِّف "وهو يَدَّعِي" بفتح الياء والدال وشدّها وكسر العين ، أي ينتسب .

ويَدّعِي وينتسب سواء .

﴿ والله لا يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ أي من كان في حكمه أنه يُختم له بالضلالة .

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾

الإطفاء هو الإخماد ، يستعملان في النار ، ويستعملان فيما يجري مجراها من الضياء والظهور .

ويفترق الإطفاء والإخماد من وجه ؛ وهو أن الإطفاء يستعمل في القليل والكثير ، والإخماد إنما يستعمل في الكثير دون القليل ؛ فيقال : أطفأت السراج ؛ ولا يقال أخمدت السراج .

وفي "نُورَ اللهِ" هنا خمسة أقاويل : أحدها أنه القرآن ؛ يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول ؛ قاله ابن عباس وابن زيد .

والثاني أنه الإسلام ؛ يريدون دفعه بالكلام ؛ قاله السُّدِّي .

الثالث أنه محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يريدون هلاكه بالأراجيف ؛ قاله الضحاك .

الرابع حجج الله ودلائله ؛ يريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم ؛ قاله ابن بحر .

الخامس أنه مَثَل مضروب ؛ أي من أراد إطفاء نور الشمس بفيه فوجده مستحيلاً ممتنعاً فكذلك من أراد إبطال الحق ؛ حكاه ابن عيسى .

وسبب نزول هذه الآية ما حكاه عطاء عن ابن عباس : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أبطأ عليه الوحي أربعين يوماً ؛ فقال كعب بن الأشرف : يا معشر اليهود ، أبشروا ! فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتّم أمره ؛ فحزن رسول الله صلى الله عليه

وسلم ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية واتصل الوحي بعدها ؛ حكى جميعَه الماوردِيّ رحمه الله .

﴿ والله مُتِمّ نُورِهِ ﴾ أي بإظهاره في الآفاق .

(162/761)

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ والله مُتِمّ نُورِهِ ﴾ بالإضافة على نية الانفصال ؛ كقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ﴾ [آل عمران : 185] وشبهه ، حسب ما تقدم بيانه في "آل عمران" .

الباقون ﴿ مُتِمّ نُورِهِ ﴾ لأنه فيما يستقبل ؛ فعمِل .

﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ من سائر الأصناف .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى ﴾

أي محمداً بالحق والرشاد .

﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ أي بالحجج .

ومن الظهور الغلبَة باليد في القتال ؛ وليس المراد بالظهور ألاّ يبقى دين آخر من الأديان ، بل المراد يكون أهل الإسلام عالين غالبين .

ومن الإظهار ألاّ يبقى دين سوى الإسلام في آخر الزمان .

قال مجاهد : وذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلاّ دين الإسلام .

وقال أبو هريرة : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدينِ كُلِّهِ ﴾ بخروج عيسى .

وحينئذ لا يبقى كافر إلا أسلم .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لينزلنّ ابن مريم حَكَماً عادلاً فَلَيَكْسِرَنّ الصليب وَلَيَقْتُلَنّ الخنزير وَلَيَضَعَنّ الجِزْيَة وَلَتُتْرَكَنّ القِلاص فلا يُسْعَى عليها ولَتَذْهَبَنّ الشَّحْناءُ والتّبَاغُضُ والتّحاسدُ ولَيَدْعونّ إلى المال فلا يَقْبَلُهُ أحَدٌ "

وقيل : "لِيُظْهِرَهُ" أي ليطلع محمداً صلى الله عليه وسلم على سائر الأديان ؛ حتى يكون عالماً بها عارفاً بوجوه بطلانها ، وبما حَرّفوا وغَيّروا منها .

﴿ عَلَى الدين ﴾ أي الأديان ؛ لأن الدين مصدر يعبّر به عن جمع . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(163/761)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ سَبَّحَ للّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِى الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾

الكلامُ فيهِ كالذي مرَّ في نظيره. ﴿ يا أيُّها الذين ءامَنُوا لِمَ تقُولُونَ مَا لا تفعَلُونَ ﴾ رُوِيَ أنَّ المسلمينَ قالُوا لو علمنَا أحبَّ الأعمالِ إلى الله تعالى لبذلنَا فيه أموالَنا وأنفسَنا فلما نزلَ الجهادُ كرهوهُ فنزلتْ وما قيل من أن النازل قوله تعالى ﴿ إنَّ الله يُحِبُّ الذين يقاتلون فِى سَبيلِهِ صَفّاً ﴾ بيّن الاختلال. وروي أنهم قالوا: يا رسول الله لو نعلم أحبّ الأعمال إلى الله تعالى لسارعنا إليه، فنزلت: ﴿ هَلْ أَدُلُّكمْ على تجارة ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وتجاهدون فِى سَبيلِ الله بأموالكم وَأَنفُسِكُمْ ﴾ فولَّوا يومَ أحدٍ. وفيه التزامُ أنَّ ترتيبَ الآياتِ الكريمةِ ليسَ على ترتيبِ النزولِ وقيل لما أخبرَ الله تعالى بثوابِ شهداءِ بدرٍ قالتِ الصحابةُ اللَّهم أشهدْ لئِن لقِينا قتالاً لنُفرغَنَ فيهِ وُسعنا ففرّوا يومَ أحدٍ فنزلتْ. وقيلَ إنَّها نزلتْ فيمَنْ يتمدحُ كاذباً حيثُ كانَ الرجلُ يقولُ قتلتُ ولم يقتُلْ وطعنتُ ولم يَطعنْ وهكذا، وقيل كانَ رجلٌ قد آذَى المسلمينَ يومَ بدرٍ ونكى فيهم فقتَلَهُ صهيبٌ وانتحلَ قتلَهُ آخرُ فنزلتْ في المنتحِلِ. وقِيلَ نزلتْ في المنافقينَ ونداؤُهم بالإيمانِ تهكمٌ بهم وبإيمانهم وليسَ بذاكَ كما ستعرفهُ، ولِمَ مركبةٌ من اللامِ الجارةِ وما الاستفهاميةِ قد حذفتْ ألفُها تخفيفاً لكثرةِ استعمالِهما معاً كما في عَمَّ وفيمَ ونظائِرِهما. معنَاها لأيّ شيءٍ تقولونَ نفعلُ ما لا تفعلونَ من الخيرِ والمعروفِ على أنَّ مدارَ التعبيرِ والتوبيخِ في الحقيقةِ عدمُ فعلِهم وإنَّما وجها إلى قولِهم تنبيهاً على تضاعفِ معصيتِهم ببيانِ أنَّ المنكرَ ليسَ تركَ الخيرِ الموعودِ فقط بلِ الوعدَ

بِهِ أيضاً ، وقد كانُوا يحسبونَهُ معروفاً ولو قيل لِمَ لا تفعلونَ ما تقولونَ لفُهِم منه أنَّ المنكرَ هُو تركُ الموعودِ ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ

(164/761)

تَفْعَلُونَ ﴾ بيانٌ لغايةِ قُبحِ ما فعلوهُ وفرطِ سماجتِه . وكبُرَ من بابِ نِعْمَ وبِئْسَ فيه ضميرٌ مبهمٌ مفسرٌ بالنكرةِ بعدهُ ، وأنْ تقولوا هو المخصوصُ بالذمِّ . وقيل قُصدَ فيهِ التعجبُ من غيرِ لفظِهِ وأُسْندَ إلى أنْ تقولُوا . ونصبُ مقتاً على تفسيرِهِ دلالةٌ على أنَّ قولَهُم ما لا يفعلونَ مقتٌ خالصٌ لا شوبَ فيهِ كبُرَ عندَ من يحقرُ دونَهُ كلُّ عظيمٍ .

وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذين يقاتلون فِى سَبِيلِهِ صَفّاً ﴾

(165/761)

بيانٌ لما هو مرضيٌّ عنده تعالى بعد بيان ما هو ممقوتٌ عندهُ . وهذا صريحٌ في أنَّ ما قالُوه عبارةٌ عن الوعدِ بالقتال لا عما تقوَّلَهُ الممتدحُ أو انتحلَهُ المنتحِلُ أو ادَّعاهُ المنافقُ وأنَّ مناطَ التعبيرِ والتوبيخِ هو إخلافُهم لا وعدُهم كما أُشيرَ إليه . وقُرِىءَ يقاتَلُونَ بفتح التاء ويُقتلون ،

و (صفاً) مصدرٌ وقعَ موقعَ الفاعلِ أو المفعولِ ونصبُهُ على الحاليةِ منْ فاعلِ يقاتلونَ أي صافّينَ أنفسَهُم أو مصفوفِينَ . وقولُه تعالى : ﴿ كَأَنَّهُم بنيانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ حالٌ من المستكنّ في الحالِ الأُولى أي مشبهينَ في تراصّهِم من غيرِ فُرجةٍ وخللٍ ببنيانٍ رُصَّ بعضُهُ إلى بعضٍ ورُصفَ حتى صارَ شيئاً واحداً . وقولُه تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مقررٌ لما قبله من شناعة تركِ القتالِ وإذْ منصوبٌ على المفعوليةِ بمضمرٍ خوطبَ به النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بطريقِ التلوينِ . أيْ واذكُرْ لهؤلاءِ المعرضينَ عن القتالِ وقتَ قولِ مُوسى لبني إسرائيل حينَ ندبَهُم إلى قتالِ الجبابرةِ بقولِهِ : ﴿ يا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا على أدباركم فَتَنْقَلِبُوا خاسرين ﴾ فلم يمتثلوا بأمرِهِ وعَصوه أشدَّ عصيانٍ حيثُ قالوا : ﴿ قَالُوا يا موسى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حتى يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا داخلون ﴾ إلى قولِهِ تعالى : ﴿ فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتلا إِنَّا هاهنا قاعدون ﴾ وأصرُّوا على ذلكَ وآذُوه عليهِ الصلاةُ والسلامُ كلَّ الأذيةِ ﴿ يا قومِ لَمَ تُؤْذُونَنِى ﴾ أي بالمخالفةِ والعصيانِ فيما أمرتكُم به . وقولُه تعالى : ﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ﴾ جملةٌ حاليةٌ مؤكدةٌ لإنكارِ الإيذاءِ ونفي سببِهِ ، وقدْ لتحقيقِ العلمِ وصيغةُ

المضارعِ للدلالةِ على استمرارِهِ أي والحالُ أنكم تعلمونَ علماً قطعياً مستمراً بمشاهدةِ ما ظهر بيديَّ من المعجزاتِ القاهرةِ التي معظمُها إهلاكُ عدوِّكُم وإنجاؤكم من ملكتِهِ أنِّي رسولُ اللهِ إليكُم لأرشدَكم إلى خيرِ الدُّنيا والآخرةِ ومن قضيةِ علمكم بذلكَ أن تبالغُوا في تعظيمي وتسارعُوا إلى طاعتِي.

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ ﴾ أي أصرُّوا على الزيغِ عن الحقِّ الذي جاءَ به موسَى عليهِ السلامُ واستمرُّوا عليهِ ﴿ أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أيْ صرفَها عن قبولِ الحقِّ والميلِ إلى الصوابِ لصرفِ اختيارِهِم نحو الغيِّ والضلالِ. وقولُهُ تعالى ﴿ واللهُ لاَ يَهْدِى القومَ الفاسقينَ ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لمضمونِ ما قبله من الإزاغةِ، ومؤذنٌ بعلتِهِ أيْ لا يهدِي القومَ الخارجينَ عن الطاعةِ ومنهاجِ الحقِّ المُصرِّين على الغَوايةِ هدايةً موصلةً إلى البغيةِ، لا هدايةً موصلةً إلى ما يوصل إليها فإنها شاملةٌ للكُلِّ والمرادُ بهم إما المذكورونَ خاصَّةً، والإظهارُ في موقعِ الإضمارِ لذمِّهم بالفسقِ وتعليلِ عدمِ الهدايةِ بهِ. أو جنسِ الفاسقِينَ وهم داخلونَ في حُكمه دخولاً أولياً وأيّاً ما كانَ فوصفُهم بالفسقِ ناظرٌ إلى ما في قولِهِ تعالى: ﴿ فافرقْ بَيْنَنَا وبَيْنَ القومِ الفاسقينَ ﴾ وقولِهِ تعالى: ﴿ فَلاَ تَأْسَ عَلَى القومِ الفاسقينَ ﴾ هذا هُو الذي تقتضيهِ جزالةُ النظمِ الكريمِ ويرتضيهِ الذوقُ السليمُ. وأما ما قيلَ بصددِ بيانِ أسبابِ الأذيةِ من أنهم كانُوا يؤذونَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بأنواعِ الأذَى من انتقاصِهِ وعيبِهِ في نفسِهِ

وجحودِ آياتِه وعصيانِه فيما تعودُ إليهم منافعُهُ وعبادتِهم البقرَ وطلبهم رؤيةَ اللهِ جهرةً والتكذيبِ الذي هو تضييعُ حقِّ اللهِ وحقِه فممَّا لا تعلقَ له بالمقامِ.

وقولُهُ تعالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾

(167/761)

إمَّا معطوفٌ على إذ الأُولى معمولٌ لعاملِهَا، وإما معمولٌ لمضمرٍ معطوفٍ على عاملِها ﴿ يَبَنِى إِسراءيل ﴾ ناداهُم بذلكَ استمالةً لقلوبِهم إلى تصديقِه في قولِه تعالى: ﴿ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التوراة ﴾ فإنَّ تصديقَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إيَّاها من أَقْوى الدَّواعِي إلى تصديقِهم إيَّاه. وقولُهُ تعالَى: ﴿ وَمُبَشّرا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى ﴾ معطوفٌ على مصدقاً أي داعٍ إلى تصديقِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ مثلَه من حيثُ إن البشارةَ بِه واقعةٌ في التوارةِ والعاملُ فيهما ما في الرسولِ من مَعْنَى الإرسالِ لا الجارُّ فإنَّه صلةٌ للرسولِ والصلاتُ بمعزلٍ من تضمنِ معنى الفعلِ وعليهِ يدورُ العملُ أي أُرسلتُ إليكم حالَ كونِي مصدقاً لما تقدمَنِي من التوارةِ ومبشراً بمَنْ يأتي من بعدِي من رسولٍ ﴿ اسمه أَحْمَدُ ﴾ أي محمدٌ صلى الله عليه وسلم، يريدُ أنَّ دينِيَ التصديقُ بكتبِ اللهِ وأنبيائِه جميعاً ممن تقدمَ وتأخَّر. وقرِيءَ من بعديَ بفتحِ الياءِ ﴿ فَلَمَّا جَاءهُم بالبينات ﴾ أي بالمعجزاتِ الظاهرة

﴿ قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ مشيرين إلى ما جاءَ به أو إليهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وتسميتُه سحراً للمبالغةِ ويؤيدُه قراءةُ من قرأَ هَذا ساحرٌ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله الكذب وَهُوَ يدعى إِلَى الإسلام ﴾ أي أيُّ الناسِ أشدُّ ظُلماً ممن يُدعى إلى الإسلامِ الذي يوصله إلى سعادةِ الدارينِ فيضعَ موضعَ الإجابةِ الافتراءَ على الله عزَّ وجلَّ بقولِه لكلامِه الذي هو دعاءُ عبادِهِ إلى الحقِّ هذا سحرٌ . أيْ هُو أظلمُ منْ كلِّ ظالمٍ وإنْ لم يتعرضْ ظاهرُ الكلامِ لنفي المُساوي وقد مرَّ بيانُهُ غيرَ مرةٍ . وقُرِئ يُدّعى يقال دَعَاهُ وادَّعاهُ مثل لمسَهُ والتمسَهُ ﴿ والله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ أي لا يرشدهُم إلى ما فيهِ فلاحُهم

(168/761)

لعدمِ توجههم إليهِ ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ الله ﴾ أي يريدونَ أنْ يطفئُوا دينَهُ أو كتابَهُ أو حجتَهُ النيرةَ . واللامُ مزيدةٌ لما فيهَا من مَعْنَى الإرادةِ تأكيداً لها ، كما زيدتْ لما فيها من مَعْنَى الإضافةِ تأكيداً لها في لا أبا لكَ أو يريدونَ الافتراءَ ليطفئُوا نورَ الله ﴿ بأفواههم ﴾ بطعنِهم فيه ، مثلتْ حالهُم بحالِ من ينفخُ في نورِ الشمسِ بفيةِ ليطفئَهُ ﴿ والله مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ أي مبلغُهُ إلى غايتِه بنشرِه في الآفاقِ وإعلائِه وقُرِئ متمٌّ نورُهُ بلا إضافة ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ أي إرغاماً لهم والجملةُ في حيزِ الحالِ على ما بُينَ مراراً .

﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى ﴾

بالقرآنِ أو المعجزةِ ﴿ وَدِينِ الحق ﴾ والمِلّة الحنيفيةِ ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ ليُعلِيَه على جميعِ الأديانِ المخالفةِ له ولقد أنجزَ الله عزَّ وعلا وعدَهُ حيثُ جعلَهُ بحيثُ لم يبقَ دينٌ من الأديانِ إلا وهو مغلوبٌ مقهورٌ بدينِ الإسلامِ ﴿ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ﴾ ذلكَ. وقُرِىءَ هُو الذي أرسلَ نبيَّهُ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(169/761)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلاَمِ ﴾

أي أي الناس أشد ظلماً ممن يدعي إلى الإسلام الذي يوصله إلى سعادة الدارين فيضع موضع الإجابة الافتراء على الله عز وجل بتكذيب رسوله وتسمية آياته سحراً فإن الافتراء على الله تعالى يعم نفي الثابت وإثبات المنفى أي لا أظلم من ذلك، والمراد أنه أظلم من كل ظالم، وقرأ طلحة ﴿ يدعي ﴾ مضارع ادعى مبنياً للفاعل وهو ضميره تعالى، و﴿ يدعي ﴾ بمعنى يدعو يقال : دعاه وادعاه نحو لمسه والتمسه، وقيل : الفاعل ضمير المفتري، وادعى يتعدى بنفسه إلى المفعول به لكنه لما ضمن معنى الانتماء والانتساب

عدي بإلى أي وهو ينتسب إلى الإسلام مدعياً أنه مسلم وليس بذاك ، وعنه ﴿ يدعي ﴾ مضارع ادعى أيضاً لكنه مبني للمفعول ، ومعناه كما سبق ، والآية فيمن كذب من هذه الأمة على ما يقتضيه ما بعد ، وهي إن كانت في بني إسرائيل الذين جاءهم عيسى عليه السلام ففيها تأييد لمن ذهب إلى عدم اختصاص الإسلام بالدين الحق الذي جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظالمين ﴾ أي لا يرشدهم إلى ما فيه فلاحهم لسوء استعدادهم وعدم توجههم إليه .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ تمثيل لحالهم في اجتهادهم في إبطال الحق بحالة من ينفخ الشمس بفيه ليطفئها تهكماً وسخرية بهم كما تقول الناس : هو يطفىء عين الشمس ، وذهب بعض الأجلة إلى أن المراد بنور الله دينه تعالى الحق كما روي عن السدى على سبيل الاستعارة التصريحية ، وكذا في قوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ و﴿ متم ﴾ تجريد ، وفي قوله تعالى : ﴿ بأفواههم ﴾ تورية ، وعن ابن عباس .

وابن زيد يريدون إبطال القرآن وتكذيبه بالقول ، وقال ابن بحر : يريدون إبطال حجج الله تعالى بتكذيبهم ، وقال الضحاك : يريدون هلاك الرسول صلى الله عليه وسلم بالأراجيف ، وقيل : يريدون إبطال شأن النبي صلى الله عليه وسلم وإخفاء ظهوره بكلامهم وأكاذيبهم ، فقد روي عن ابن عباس أن الوحي أبطأ أربعين يوماً فقال كعب بن الأشرف : يا معشر يهود أبشروا أطفأ الله تعالى نور محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتم نوره فحزن الرسول صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿ يريدون ﴾ إلى آخره ، وفي ﴿ يريدون ليطفئوا ﴾ مذاهب : أحدها أن اللام زائدة والفعل منصوب بأن مقدرة بعدها ، وزيدت لتأكيد معنى الإرادة لما في لام العلة من الاشعار بالإرادة والقصد كما زيدت اللام في : لا أبالك لتأكيد معنى الإضافة ؛ ثانيها أنها غير زائدة للتعليل ، ومفعول ﴿ يريدون ﴾ محذوف أي يريدون الافتراء لأن يطفئوا ، ثالثها أن الفعل أعني ﴿ يريدون ﴾ حال محل المصدر مبتدأ واللام للتعليل والمجرور بها خبر أي إرادتهم كائنة للاطفاء ، والكلام نظير تسمع بالمعيدي خير من أن تراه من وجه ، رابعها أن اللام مصدرية بمعنى أن من غير تقدير والمصدر مفعول به ويكثر ذلك بعد فعل الإرادة والأمر ، خامسها أن ﴿ يريدون ﴾ منزل منزلة اللازم لتأويله بيوقعون الإرادة ، قيل : وفيه مبالغة لجعل كل إرادة لهم للاطفاء وفيه كلام في "شرح المغني" وغيره .

وقرأ العربيان .

ونافع .

وأبو بكر.

والحسن.

وطلحة.

والاعرج.

وابن محيصن ﴿ متم ﴾ بالتنوين ﴿ نوره ﴾ بالنصب على المفعولية لمتم ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ حال من المستكن في ﴿ متم ﴾ وفيه إشارة إلى أنه عز وجل متم ذلك إرغاماً لهم.

(171/761)

﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ بالْهُدَى ﴾ بالقرآن، أو بالمعجزة بجعل ذلك نفس الهدى مبالغة ﴿ وَدِينِ الحَقّ ﴾ والملة الحنيفية ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّه ﴾ ليعليه على جميع الأديان المخالفة له، ولقد أنجز الله عز وجل وعده حيث جعله بحيث لم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام.

وعن مجاهد إذا نزل عيسى عليه السلام لم يكن في الأرض إلا دين الإسلام، ولا يضر في ذلك ما ورد من أنه يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه من الإسلام إلا اسمه إذ لا دلالة في الآية على

الاستمرار ، وقيل : المراد بالاظهار الاعلاء من حيث وضوح الأدلة وسطوع البراهين وذلك أمر مستمر أبداً ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ذلك لما فيه من محض التوحيد وإبطال الشرك ، وقرىء هو الذي أرسل نبيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(172/761)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾

قد تقدّم الكلام على هذا ، ووجه التعبير في بعض السور بلفظ الماضي كهذه السورة ، وفي بعضها بلفظ المضارع ، وفي بعضها بلفظ الأمر الإرشاد إلى مشروعية التسبيح في كل الأوقات ماضيها ومستقبلها وحالها ، وقد قدّمنا نحو هذا في أوّل سورة الحديد ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ أي : الغالب الذي لا يغالب الحكيم في أفعاله وأقواله .

﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، أي : لم تقولون من الخير ما لا تفعلونه ، و " لم " مركبة من اللام الجارّة ، وما الاستفهامية ، وحذفت ألفها تخفيفاً لكثرة استعمالها ، كما في نظائرها .

ثم ذمهم سبحانه على ذلك فقال : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ أي :

عظم ذلك في المقت ، وهو البغض ، والمقت والمقاتة مصدران ، يقال رجل مقيت ، وممقوت : إذا لم يحبه الناس ، قال الكسائي ﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ في موضع رفع ؛ لأن ﴿ كبر ﴾ فعل بمعنى بئس ، و ﴿ مقتاً ﴾ منتصب على التمييز ، وعلى هذا فيكون في ﴿ كبر ﴾ ضمير مبهم مفسر بالنكرة ، وأن ﴿ تقولوا ﴾ هو المخصوص بالذمّ ، ويجيء فيه الخلاف هل رفعه بالابتداء ، وخبره الجملة المتقدّمة عليه ، أو خبره محذوف ، أو هو خبر مبتدأ محذوف .

وقيل : إنه قصد بقوله : ﴿ كَبُرَ ﴾ التعجب ، وقد عدّه ابن عصفور من أفعال التعجب .

وقيل : إنه ليس من أفعال الذم ، ولا من أفعال التعجب ، بل هو مسند إلى ﴿ أن تقولوا ﴾ ، و ﴿ مقتاً ﴾ تمييز محوّل عن الفاعل .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الذين يقاتلون فِى سَبِيلِهِ صَفّاً ﴾ قال المفسرون : إن المؤمنين قالوا : وددنا أن الله يخبرنا بأحبّ الأعمال إليه حتى نعمله ، ولو ذهبت فيه أموالنا وأنفسنا .

فأنزل الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الذين يقاتلون ﴾ الآية ، وانتصاب ﴿ صفاً ﴾ على المصدرية ، والمفعول محذوف ، أي : يصفون أنفسهم صفا ، وقيل : هو : مصدر في موضع

الحال أي: صافين، أو مصفوفين.

قرأ الجمهور: ﴿ يقاتلون ﴾ على البناء للفاعل.

وقرأ زيد بن عليّ على البناء للمفعول، وقرىء (يقتلون) بالتشديد، وجملة: ﴿ كَأَنَّهُم بنيان مَّرْصُوصٌ ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل ﴿ يقاتلون ﴾، أو من الضمير في ﴿ صفاً ﴾ على تقدير أنه مؤوّل بصافين، أو مصفوفين، ومعنى ﴿ مَّرْصُوصٌ ﴾: ملتزق بعضه ببعض، يقال: رصصت البناء أرصه رصاً: إذا ضممت بعضه إلى بعض.

قال الفرّاء: مرصوص بالرصاص.

قال المبرد: هو مأخوذ من رصصت البناء: إذا لايمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة، وقيل: هو من الرصيص، وهو ضمّ الأشياء بعضها إلى بعض، والتراصّ: التلاصق.

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ ﴾ لما ذكر سبحانه أنه يحبّ المقاتلين في سبيله بيّن أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد، وجاهدا في سبيل الله، وحلّ العقاب بمن خالفهما، والظرف متعلق بمحذوف هو اذكر، أي: اذكر يا محمد لهؤلاء المعرضين وقت قول موسى، ويجوز

أن يكون وجه ذكر قصة موسى وعيسى بعد محبة المجاهدين في سبيل الله التحذير لأمة محمد أن يفعلوا مع نبيهم ما فعله قوم موسى وعيسى معهما ﴿ لِقَوْمِهِ يا قومِ لِمَ تُؤْذُونَنِى ﴾ هذا مقول القول، أي: لم تؤذونني بمخالفة ما أمركم به من الشرائع التي افترضها الله عليكم، أو لم تؤذونني بالشتم والانتقاص، ومن ذلك رميه بالأدرة، وقد تقدّم بيان هذا في سورة الأحزاب، وجملة: ﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ﴾ في محلّ نصب على الحال، "وقد" لتحقق العلم، أو لتأكيده، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، والمعنى: كيف تؤذونني مع علمكم بأني رسول الله، والرسول يحترم ويعظم، ولم يبق معكم شك في الرسالة لما قد شاهدتم من المعجزات التي توجب عليكم الاعتراف برسالتي، وتفيدكم العلم بها علماً يقينياً ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي: لما أصرّوا على الزيغ، واستمرّوا عليه أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وصرفها عن قبول الحقّ، وقيل: فلما زاغوا عن الإيمان أزاغ الله قلوبهم عن الثواب.

قال مقاتل: لما عدلوا عن الحق أمال الله قلوبهم عنه، يعني: أنهم لما تركوا الحقّ بإيذاء نبيهم أمال الله قلوبهم عن الحق جزاء بما ارتكبوا ﴿ والله لاَ يَهْدِى القوم الفاسقين ﴾ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها.

قال الزجاج: لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق، والمعنى: أنه لا يهدي كل متصف بالفسق، وهؤلاء من جملتهم.

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ معطوف على ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى ﴾ معمول لعامله ، أو معمول لعامل مقدّر معطوف على عامل الظرف الأوّل ﴿ مَرْيَمَ يا بنى إسراءيل إِنّى رَسُولُ الله إِلَيْكُم مُّصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التوراة ﴾ أي : إني رسول الله إليكم بالإنجيل مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة لأني لم آتكم بشيء يخالف التوراة ، بل هي مشتملة على التبشير بي ، فكيف تنفرون عني وتخالفونني ، وانتصاب ﴿ مصدّقاً ﴾ على الحال ، وكذا ﴿ مُبَشّرًا ﴾ ، والعامل فيهما ما في الرسول من معنى الإرسال ، والمعنى : أني أرسلت إليكم حال كوني مصدّقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً بمن يأتي بعدي ، وإذا كنت كذلك في التصديق والتبشير ، فلا مقتضى لتكذيبي ، وأحمد اسم نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو علم منقول من الصفة ، وهي تحتمل أن تكون مبالغة من الفاعل ، فيكون معناها أنه أكثر حمداً لله من غيره ، أو من المفعول ، فيكون معناها أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره .

قرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، والسلمي ، وزرّ بن حبيش ، وأبو بكر عن عاصم : (من بعدي) بفتح الياء .

وقرأ الباقون بإسكانها ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بالبينات قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : لما جاءهم عيسى بالمعجزات قالوا هذا الذي جاءنا به سحر واضح ظاهر ، وقيل : المراد : محمد صلى الله عليه وسلم ، أي : لما جاءهم بذلك قالوا هذه المقالة ، والأوّل أولى .

قرأ الجمهور : ﴿ سحر ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي : (ساحر) .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله الكذب وَهُوَ يدعى إِلَى الإسلام ﴾ أي : لا أحد أكثر ظلماً منه حيث يفتري على الله الكذب ، والحال أنه يدعى إلى دين الإسلام الذي هو خير الأديان وأشرفها ؛ لأن من كان كذلك ، فحقه أن لا يفتري على غيره الكذب ، فكيف يفتريه على ربه .

قرأ الجمهور : ﴿ وهو يدعى ﴾ من الدعاء مبنياً للمفعول .

(176/761)

وقرأ طلحة بن مصرف : (يدعي) بفتح الياء وتشديد الدال من الادّعاء مبنياً للفاعل ، وإنما عدّي بإلى لأنه ضمن معنى الانتماء والانتساب ﴿ والله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها .

والمعنى : لا يهدي من اتصف بالظلم ، والمذكورون من جملتهم ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ الله

بأفواههم ﴾ الإطفاء : الإخماد ، وأصله في النار ، واستعير لما يجري مجراها من الظهور .

والمراد بنور الله : القرآن ، أي : يريدون إبطاله ، وتكذيبه بالقول ، أو الإسلام ، أو محمد ، أو الحجج والدلائل ، أو جميع ما ذكر ، ومعنى ﴿ بأفواههم ﴾ : بأقوالهم الخارجة من أفواههم المتضمنة للطعن ﴿ واللهُ مُتِمُّ نورِه ﴾ بإظهاره في الآفاق وإعلائه على غيره .

قرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : ﴿ متمّ نوره ﴾ بالإضافة ، والباقون بتنوين " متمّ " ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ ذلك ، فإنه كائن لا محالة ، والجملة في محل نصب على الحال .

قال ابن عطية : واللام في ﴿ ليطفئوا ﴾ لام مؤكدة دخلت على المفعول ؛ لأن التقدير : يريدون أن يطفئوا ، وأكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقدّم ، كقولك : لزيد ضربت ، ولرؤيتك قصدت ، وقيل : هي لام العلة ، والمفعول محذوف ، أي : يريدون إبطال القرآن ، أو دفع الإسلام ، أو هلاك الرسول ؛ ليطفئوا ، وقيل : إنها بمعنى أن الناصبة ، وأنها ناصبة بنفسها .

قال الفراء : العرب تجعل لام كي في موضع أن في أراد وأمر ، وإليه ذهب الكسائي ، ومثل هذا قوله : ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [النساء : 26] .

وجملة : ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ﴾ مستأنفة مقرّرة لما قبلها ، والهدى : القرآن ، أو المعجزات ، ومعنى ﴿ دِينَ الحق ﴾ : الملة الحقة ، وهي ملة الإسلام ؛ ومعنى ﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ : ليجعله ظاهراً على جميع الأديان عالياً عليها غالباً لها ، ولو كره المشركون ذلك ، فإنه كائن لا محالة .

قال مجاهد : ذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلاّ دين الإسلام ، والدّين مصدر يعبر به عن الأديان المتعدّدة ، وجواب " لو " في الموضعين محذوف ، والتقدير : أتمه وأظهره .

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : وددنا لو أن الله أخبرنا بأحبّ الأعمال فنعمل به ، فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن أحبّ الأعمال إيمان بالله لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ، ولم يقرّوا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين ، وشقّ عليهم أمره ، فقال الله : ﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه في قوله : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ قال : هذه الآية في القتال وحده ، وهم قوم كانوا يأتون النبيّ ، فيقول الرجل : قاتلت وضربت بسيفي ، ولم يفعلوا ، فنزلت .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن مردويه عنه أيضاً قال : قالوا : لو نعلم أحبّ الأعمال إلى الله لفعلناه ، فأخبرهم الله ، فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذين يقاتلون فِى سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بنيان مَّرْصُوصٌ ﴾ فكرهوا ذلك ، فأنزل الله : ﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ كَأَنَّهُم بنيان مَّرْصُوصٌ ﴾ قال : مثبت لا يزول ملصق بعضه على بعض .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لي أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذي يحشر الله الناس على قدمي ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا العاقب : والعاقب الذي ليس بعده نبيّ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿فتح القدير حـ 5 صـ 218. 221﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾

كانت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم مماثلة دعوة عيسى عليه السّلام وكان جواب الذين دعاهم إلى الإِسلام من أهل الكتابين والمشركين مماثلاً لجواب الذين دعاهم عليه السّلام .

فلما أدمج في حكاية دعوة عيسى بشارته برسول يأتي من بعده ناسب أن ينقل الكلام إلى ما قابل به قوم الرسول الموعود دعوة رسولهم فلذلك ذكر في دعوة هذا الرسول دين الإِسلام فوصفوا بأنهم أظلم الناس تشنيعاً لحالهم .

فالمراد من هذا الاستفهام هم الذين كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك عطف هذا الكلام بالواو ودون الفاء لأنه ليس مفرعاً على دعوة عيسى عليه السلام .

وقد شمل هذا التشنيع جميع الذين كذبوا دعوة النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتابين والمشركين .

والمقصود الأول هم أهل الكتاب ، وسيأتي عند قوله تعالى : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله ﴾ إلى قوله : ﴿ ولو كره المشركون ﴾ [الصف : 8 ، 9] فهما فريقان .

والاستفهام بـ ﴿ من أظلم ﴾ إنكار ، أي لا أحد أظلم من هؤلاء فالمكذبون مِن قبلهم ، إما أن يكونوا أظلم منهم وإمّا أن يساووهم على كل حال ، فالكلام مبالغة .

وإنما كانوا أظلم الناس لأنهم ظلموا الرسول صلى الله عليه وسلم بنسْبته إلى ما ليس فيه إذ

قالوا : هو ساحر ، وظلموا أنفسهم إذ لم يتوخوا لها النجاة ، فيعرضوا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم على النظر الصحيح حتى يعلموا صدقه ، وظلموا ربهم إذ نسبوا ما جاءهم من هديه وحجج رسوله صلى الله عليه وسلم إلى ما ليس منه فسموا الآيات والحجج سحراً ، وظلموا الناس بحملهم على التكذيب وظلموهم بإخفاء الأخبار التي جاءت في التوراة والإنجيل مُثبتة صدق رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم وكمل لهم هذا الظلم بقوله تعالى : ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ، فيعلم أنه ظلم مستمر .

(180/761)

وقد كان لجملة الحال ﴿ وهو يدعى إلى الإسلام ﴾ موقع متين هنا ، أي فعلوا ذلك في حين أن الرسول يدعوهم إلى ما فيه خيرهم فعَاضوا الشكر بالكفر .

وإنما جُعل افتراؤهم الكذب على الله لأنهم كذبوا رسولاً يخبرهم أنه مرسل من الله فكانت حُرمة هذه النسبة تقتضي أن يُقبلوا على التأمل والتدبر فيما دعاهم إليه ليصلوا إلى التصديق ، فلما بادروها بالإعراض وانتحلوا للداعي صفات النقص كانوا قد نسبوا ذلك إلى الله دون توقير .

فأما أهل الكتاب فجحدوا الصفات الموصوفة في كتابهم كما قال تعالى فيهم ﴿ ومن أظلم

ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ في سورة [البقرة : 140] .

وذلك افتراء .

وأما المشركون فإنهم افتروا على الله إذ قالوا : ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ [الأنعام : 91] .

واسم ﴿ الإسلام ﴾ عَلَم للدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وهو جامع لما فيه خير الدنيا والآخرة فكان ذكر هذا الاسم في الجملة الحالية زيادة في تشنيع حال الذين أعرضوا عنه ، أي وهو يُدعى إلى ما فيه خيره وبذلك حق عليه وصف ﴿ أظلم ﴾ .

وجملة ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ تأييس لهم من الإِقلاع عن هذا الظلم ، أي أن الذين بلغوا هذا المبلغ من الظلم لا طمع في صلاحهم لتمكُن الكفرِ منهم حتى خالط سجاياهم وتقوّم مع قوميتهم ، ولذلك أقحم لفظ ﴿ القوم ﴾ للدلالة على أن الظلم بلغ حدّ أن صار من مقومات قَوميتهم كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة [البقرة : 164] .

وتقدم غير مرة .

وهذا يعم المخبر عنهم وأمثالهم الذين افتروا على عيسى ، ففيها معنى التذييل .

وأسند نفي هديهم إلى الله تعالى لأن سبب انتفاء هذا الهدي عنهم أثر من آثار تكوين عقولهم ومداركهم على المكابرة بأسباب التكوين التي أودعها الله في نظام تكوّن الكائنات وتطورها من ارتباط المسببات بأسبابها مع التنبيه على أن الله لا يتدارك أكثرهم بعنايته، فمُغَيِّر فيهم بعض القوى المانعة لهم من الهدى غضباً عليهم إذ لم يخلفوا بدعوة تستحق التبصر بسبب نسبتها إلى جانب الله تعالى حتى يتميز لهم الصدق من الكذب والحق من الباطل.

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8)

استئناف بياني ناشئ عن الإخبار عنهم بأنهم افتروا على الله الكذب في حال أنهم يُدعون إلا الإِسلام لأنه يثير سؤال سائل عما دعاهم إلى هذا الافتراء.

فأجيب بأنهم يريدون أن يخفوا الإِسلام عن الناس ويعوقوا انتشاره ومثلت حالتهم بحالة نفر يبتغون الظلام للتّلصّص أو غيره مما يراد فيه الاختفاء.

فلاحت له ذُبالة مصباح تضيء للناس، فكرهوا ذلك وخشُوا أن يُشعَّ نوره على الناس فتفتضح ترهاتهم، فعمدوا إلى إطفائه بالنفخ عليه فلم ينطَفِئْ، فالكلام تمثيل دال على حالة الممثل لهم.

والتقدير: يريدون عوق ظهور الإِسلام كمثل قوم يريدون إطفاء النور، فهذا تشبيه الهيئة

بالهيئة تشبيه المعقول بالمحسوس.

ثم إن ما تضمنه من المحاسن أنه قابل لتفرقة التشبيه على أجزاء الهيئة، فاليَهود في حال إرادتهم عوق الإِسلام عن الظهور مشبَّهون بقوم يريدون إطفاء نور الإِسلام فشبه بمصباح.

(182/761)

والمشركون مثلُهم وقد مُثّل حال أهل الكتاب بنظير هذا التمثيل في قوله تعالى: ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ﴾ إلى قوله: ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ﴾ الآية في سورة [براءة: 30 – 32]، ووصفهم القرآن بأنه سحر ونحو ذلك من تمويهاتهم، فشبه بنفخ النافخين على المصباح فكان لذكر بأفواههم ﴾ وقع عظيم في هذا التمثيل لأن الإِطفاء قد يكون بغير الأفواه مثل المروحة والكِير، وهم أرادوا إبطال آيات القرآن بزعم أنها من أقوال السحر.

وإضافة نور إلى اسم الجلالة إضافة تشريف، أي نوراً أوقده الله، أي أوجده وقدَّره فما ظنكم بكماله.

واللام من قوله: ﴿ ليطفئوا ﴾ تسمّى اللام الزائدة، وتفيد التأكيد.

وأصلها لام التعليل، ذُكِرت علة فعل الإِرادة عوضاً عن مفعوله بتنزيل المفعول منزلة العلة.

والتقدير : يريدون إطفاء نور الله ليطفئوا .

ويكثر وقوع هذه اللام بعد مادة الإرادة ومادة الأمر .

وقد سماها بعض أهل العربية : لام (أَنْ) لأن معنى (أَنْ) المصدرية ملازم لها .

وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ في سورة [النساء : 26

] .

فلذلك قيل : إن هذه اللام بعد فعل الإرادة مزيدة للتأكيد .

وجملة والله متم نوره ﴾ معطوفة على جملة ﴿ يريدون ﴾ وهي إخبار بأنهم لا يبلغون

مرادهم وأن هذا الدِّين سيتم ، أي يبلغ تمام الانتشار .

وفي الحديث "والله لَيَتَمَّن هذا الأمرُ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حضرَموت لا يخاف

إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون" .

والجملة الاسمية تفيد ثبوت هذا الإتمام .

والتمام : هو حصول جميع ما للشيء من كيفية أو كمية ، فتمام النور : حصول أقوى شعاعه

وإتمامه إمداد آلته بما يقوى شعاعه كزيادة الزيت في المصباح وإزالة ما يغشاه .

وجملة ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ حالية و ﴿ لو ﴾ وصلية ، وهي تدل على أن مضمون شرطها أجدر ما يُظَنُّ أن لا يحصل عند حصوله مضمونُ الجوَاب .

ولذلك يقدِّر المعربون قبله ما يدلّ على تقدير حصول ضد الشرط .

فيقولون هذا إذا لم يكن كذا بل وإن كان كذا ، وهو تقدير معنى لا تقدير حذف لأن مثل ذلك المحذوف لا يطرد في كل موقع فإنه لا يستقيم في مثل قوله تعالى : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ [يوسف : 17] ، إذ لا يقال : هذا إذا كنّا كاذبين ، بل ولو كنا صادقين .

وكذلك ما في هذه الآية لأن المعنى : والله متمّ نورَه على فرض كراهة الكافرين ، ولما كانت كراهة الكافرين إتمام هذا النور محققةً كان سياقها في صورة الأمر المفروض تهكماً .

وتقدم استعمال (لو) هذه عند قوله تعالى : ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ في سورة [آل عمران : 91] .

وإنما كانت كراهية الكافرين ظهور نور الله حالة يُظَنّ انتفاء تمام النور معها ، لأن تلك الكراهية تبعثهم على أن يتألبوا على إحداث العراقيل وتضليل المتصدين للاهتداء وصرفهم عنه بوجوه المكر والخديعة والكيد والإضرار .

وشمل لفظ الكافرون ﴾ جميع الكافرين بالإسلام من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم .

ولكن غلب اصطلاح القرآن على تخصيص وصف الكافرين بأهل الكتاب ومقابلتهم

بالمشركين أو الظالمين ويتجه على هذا أن يكون الاهتمام بذكر هؤلاء بعد ﴿ لو ﴾ الوصلية لأن المقام لإِبطال مرادهم إطفاء نور الله فإتمام الله نوره إبطال لمرادهم إطفاءَه.

وسيرد بعد هذا ما يبطل مراد غيرهم من المعاندين وهم المشركون.

وقرأ نافع وأبو عَمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿ متمٌ نورَه ﴾ بتنوين ﴿ متمٌ ﴾ ونصب ﴿ نورَه ﴾.

وقرأه ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص وخلف بدون تنوين وجَرّ ﴿ نورِه ﴾ على إضافة اسم الفاعل على مفعوله وكلاهما فصيح.

(184/761)

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9)

هذا زيادة تحدّ للمشركين وأحلافهم من أهل الكتاب فيه تقوية لمضمون قوله: ﴿ والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ [الصف: 8].

وفيه معنى التعليل للجملة التي قبله.

فقد أفاد تعريفُ الجزأين في قوله: ﴿ هو الذي أرسل رسوله ﴾ قصراً إضافياً لقلب زَعْم الكافرين أن محمّداً صلى الله عليه وسلم أتى من قِبَلِ نفسه، أي الله لا غيره أرسل محمداً

صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق .

وأن شيئاً تولى الله فعله لا يستطيع أحد أن يزيله .

وتعليل ذلك بقوله : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ إعلام بأن الله أراد ظهور هذا الدين وانتشاره كيلا يطمعوا أن يناله ما نال دين عيسى عليه السّلام من القمع والخفت في أول أمره واستمر زماناً طويلاً حتى تنصَّر قسطنطينُ سلطانُ الروم ، فلما أخبر الله بأنه أراد إظهار دين الإِسلام على جميع الأديان عُلم أن أمره لا يزال في ازدياد حتى يتمّ المراد .

والإِظهار : النصر ويطلق على التفضيل والإِعلاء المعنوي .

والتعريف في قوله : ﴿ على الدين ﴾ تعريف الجنس المفيد للاستغراق ، أي ليعلي هذا الدين الحق على جميع الأديان وينصر أهله على أهل الأديان الأخرى الذين يتعرضون لأهل الإسلام .

ويظهر أن لفظ ﴿ الدين ﴾ مستعمل في كلا معنييه : المعنى الحقيقي وهو الشريعة .

والمعنى المجازي وهو أهل الدّين كما تقول : دخلت قرية كذا وأكرمتني ، فإظهار الدين على الأديان بكونه أعلى منها تشريعاً وآداباً ، وأصلح بجميع الناس لا يخص أمة دون أخرى ولا جيلاً دون جيل .

وإظهار أهله على أهل الأديان بنصر أهله على الذين يشاقُّونهم في مدة ظهوره حتى يتمّ أمره ويستغني عمن ينصره .

(185/761)

وقد تمّ وعد الله وظهر هذا الدين وملك أهله أمماً كثيرة ثم عرضت عوارض من تفريط المسلمين في إقامة الدين على وجهه فغلبت عليهم أمم ، فأمّا الدين فلم يزل عالياً مشهوداً له من علماء الأمم المنصفين بأنه أفضل دين للبشر .

وخص المشركون بالذكر هنا إتماماً للذين يكرهون إتمام هذا النور ، وظهور هذا الدين على جميع الأديان .

ويعلم أن غير المشركين يكرهون ظهور هذا الدين لأنهم أرادوا إطفاء نور الدين لأنهم يكرهون ظهور هذا الدين فحصل في الكلام احتباك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(186/761)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى نور)

النُّورُ : الضِّياء والسَّناءُ الَّذى يُعين على الإِبصار ، وذلك ضربان : دُنْيَوِىّ وأُخْرَوِىٌّ ، الدُّنْيوى ضربان : مَعْقولٌ بعين البَصِيرة وهو ما انْتَشَر من الأَنوار الإِلهيّة كنُور العَقْل ونُور / القُرْآن ، ومَحْسوسٌ بعين البَصَر وهو ما انْتَشَر من الأَجْسام النَيِّرة كالقَمَرَيْن والنُّجوم [و] والنيّرات .

أَنشد بعض المفسّرين :

*ثلاثةُ أَنوارٍ تُضِيءُ من السّما * وفى سرّ قَلْبى مِثْلُهنّ مُصوَّرُ*

*فأَوَّله بدرٌ وثانِيه كوْكَبٌ * وثالثُهُ شمْسٌ مُنِيرٌ مدوَّرُ*

*عُلومِى نُجُوم القَلْبِ ، والعَقْل بَدْرُه * ومَعْرِفةُ الرَّحمان شَمْسٌ مُنَوَّرُ*

*إِمامِى كتابُ الله ، والبَيْتُ قِبْلتى * ودِينِى من الأَدْيان أَعْلَى وأَفْخَرُ*

*شَفِيعى رسولُ الله ، واللهُ غافِرٌ * ولا ربّ إِلاَّ اللهُ واللهُ أَكْبَرُ*

فمن النُّور الإِلهىّ ، قولُه تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ، أَنشد بعضهم :

*فى القَلْب نورٌ ونُورُ الحَقّ يَمْدُدُه * يا حَبَّذا نُورُه من واحد أَحَدِ*

*نورٌ على النُّور فى نور تَنَوَّرَه * نُورٌ على النُّور دَلاَّلٌ على الصَّمَد*

*إِنْ رُمْتَ أَوَّلَه يَهْدى إِلى أَزَل * أَو رُمْتَ آخِرَه يَطْوى على الأَبدِ*

ومن النُّورِ المحسوس الَّذى يُرَى بعَيْنِ البَصَرِ نحو قولِه : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ .

وتخصيصُ الشمسِ بالضَّوْءِ ، والقمرِ بالنُّورِ من حيثُ إِنَّ الضوءَ أَخصُّ من النَّورِ ، وقولُه : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ أَى ذا نُور .

وممّا هو عامٌّ فيهما قوله : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ ، ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ .

(187/761)

ومن النُّورِ الأُخْرَوىّ قوله : ﴿ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ .

وسَمَّى اللهُ نَفْسه

نُوراً من حيث إِنَّه المُنَوِّر فقال : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ، وتسميتُه تعالى بذلك لمُبالَغة فِعْله ، وقيل : النُّورُ هو الذى يُبْصِرُ بنُوره ذو العَماية ويَرْشُد بهداه ذو الغَوَايَة ، وقيل : هو الظاهر الذى به كُلُّ ظُهور ، فالظَّاهِرُ فى نفسه المُظْهِر لغَيْره يُسَمَّى نُوراً .

وسئل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم هَلْ رَأَيْت رَبَّ؟ فقال : "نورٌ أَنَّى أَراه" ! أَى هو نورٌ كيف أَراهُ ! وسُئل عنه الإِمام أَحمد فقال : ما زِلْتُ مُنْكِراً له ، وما أَدْرِى ما وَجْهُه .

وقال ابنُ خُزَيْمَة : في القَلْب من صِحّة هذا الحديث شيءٌ .

وقال بعض أَهل الحِكْمة : النُور جسْمٌ وعَرَضٌ ، والله تعالى ليس بجسم ولا عَرَض ، وإِنما حجابُه النّور ، وكذا رُوِى فى حديث أَبى مُوسى ، والمعنى كيف أَرَى وحجابُه النُّور ! أَى النُّورُ يمنعُ من رُؤيته .

وفى الحديث :

"اللَّهُمَّ اجْعَل فى قَلْبِى نُورا" وذَكَرَ سائِرَ الأَعضاءِ ، والمعنى : اسْتَعْمِل هذه الأَعضاءَ مِنّى فى الحقّ ، واجْعَلْ تَصَرُّفى وتَقَلُّبى فيها على سبيل الصَّواب والخَيْر .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ ﴾ يعنى سيِّد المرسَلين محمّدا صلَّى الله عليه وسلَّم .

وقولُه تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ أَى القرآن ، ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ قيل : أَى الليل والنَّهار .

وقولُه : ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ يعنى به الإِسلام .

وقوله ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ : وقوله : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ المراد به نور العِناية .

والنّارُ تقالُ لِلَّهيب الذى يَبْدُو للحاسّ نحو قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ ، ولِلْحَرارَةِ المجرّدة؛ ولنارِ جَهَنَّم المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .

وفى حديث شَجَر جهنم :

"فتَعْلوهم نارُ الأَنيار"

يحتمل أَن يكون معناه نار النّيران فجمع النار على أَنيار وأَصلها أَنوار/ كما جاءَ فى رِيح وعِيد رِياح وأَعْياد ، وأَصلُهما واوٌ .

ولِنار الحَرْب المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ .

وقال بعضهم : النّارُ والنُّورُ من أَصْل واحد ، وهما كثيراً ما يتلازمان ، لكنَّ النّار متاعٌ للمُقْوِينَ فى الدّنيا ، والنُّورُ متاعٌ للمُتَّقِينَ فى الدُّنيا والآخِرَة ، ولأَجْلِ ذلك اسُتعْمِل فى النُّورِ الاقْتِباسُ ، فقال : ﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ .

وتَنَوَّرْتُ ناراً : أَبصرْتُها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 133 .

﴿ 136

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أنتج هذا كله نصر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على كل حال ودمار من يخالف أمره ، أنتج قطعاً أن الجهاد معه متجر رابح لأن النصر مضمون ، والموت منهل لا بد من وروده سواء خاض الإنسان الحتوف أو احترس في القصور المشيدة ، فقال تعالى في أسلوب النداء والاستفهام لأنه أفخم وأشد تشويقاً بالأداة التي لا يكون ما بعدها إلا بالغاً في العظم إلى النهاية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي قالوا في إقرارهم بالإيمان ما عليهم أن يفعلوا بمقتضاه ﴿ هل أدلكم ﴾ وأنا المحيط علماً وقدرة ، فهي إيجاب في المعنى ذكر بلفظ الاستفهام تشويقاً ليكون أوقع في النفس فتكون له أشد تقبلاً ، والآية أيضاً نتيجة ما مضى باعتبار آخر لأنه لما وبخ على الخلال العزائم واخبر بما يجب من القتال ، وبكت على أذى الرسول .

صلى الله عليه وسلم. بالمخالفة، وأخبر أن من خالفه لا يضر إلا نفسه، كان موضع الاستباق في طاعته فرتب عليه الاشتياق إلى ذكر ثمرته فذكرها، ولما كان فعل حاطب. رضى الله عنه. لأجل أنه لا نجاح أهله الذين كانوا بمكة في أنفسهم ولا في شيء من مالهم، وكان هذا في معنى التجارة قال: ﴿ على تجارة ﴾ وقراءة ابن عامر ﴿ تنجيكم ﴾ بالتشديد أنسب لهذا المقام من قراءة الجماعة بالتخفيف، وقراءة الجماعة أنسب لمقصود حاطب. رضى الله عنه. ﴿ من عذاب أليم ﴾ بالإجاحة في النفس أو المال.

(190/761)

ولما كان الاتجار إجهاد النفس في تحصيل الربح النافع، وكان الإيمان والجهاد أعظم إجهاد النفس في تحصين – الجنة الباقية التي لا ربح توازيها، فاستعار لهما اسمها، وكان جواب النداء الإقبال وجواب الاستفهام نعم، عدوا كأنهم أقبلوا وأنعموا تنبيهاً على ما هو الأليق بهم، فاستأنف لهم بيان التجارة بأنه الجمع بين الإيمان الذي هو أساس الأعمال كلها، والجهاد بنوعيه المكمل للنفس والمكمل للغير فقال: ﴿ تؤمنون ﴾ أي آمنوا بشرط تجديد الإيمان على سبيل الاستمرار ﴿ بالله ﴾ الذي له جميع صفات الكمال ﴿ ورسوله ﴾ الذي تصديقه آية الإذعان المعنوية والخضوع لكونه ملكاً ﴿ وتجاهدون ﴾ أي وجاهدوا

بياناً لصحة إيمانكم على سبيل التجديد والاستمرار .

ويدل على أنهما بمعنى الأمر ما أرشد إليه جزم ما أقيم في موضع الجواب مع قراءة عبد الله. رضى الله عنه. : آمنوا وجاهدوا – بصيغة الأمر ﴿ في سبيل الله ﴾ أي بسبب تسهيل طريق الملك الأعظم الموصل إليه الذي لا أمر لغيره بحيث يكون ظرفاً لكم في جميع هذا الفعل فلا شيء يكون منه خارجاً عنه ليكون خالصاً بفتح بلد الحج ليسهل الوصول إليه من كل من أراده وغير ذلك من شرائعه فتكونوا ممن يصدق فعله قوله ، وهذا المعنى لا وقفة فيه لأنه فرق بين قولنا : فلان فعل كذا – الصادق بمرة ، وبين قولنا بفعله الدال على أن فعله قد صار ديدناً له ، فالمعنى : يا من فعل الإيمان إن أردتم النجاة فكونوا عريقين في وصف الإيمان حقيقين به ثابتي الإقدام فيه وأديموا الجهاد دلالة على ذلك فإن الجهاد لما فيه من الخطر والمشقة والضرر أعظم دليل على صدق الإيمان ، ويؤيد ذلك أن السياق لقصة حاطب. رضى الله عنه. المفهمة في الظاهر لعدم الثبات في الإيمان وإرادة الجهاد الدال على المصدق فيه ، ولذلك قال عمر. رضى الله عنه. ما قال – والله الهادي .

ولما كان الجمع بين الروح وعديلها المال على وجه الرضى والرغبة أدل على صحة الإيمان ، قال : ﴿ بأموالكم ﴾ وقدمها لعزتها في ذلك الزمان ولأنها قوام الأنفس والأبدان ، فمن بذل ماله كله لم يبخل بنفسه لأن المال قوامها .

ولما قدم القوام أتبعه القائم به فقال : ﴿ وأنفسكم ﴾ ولما أمر بهذا في صيغة الخبر اهتماماً به وتأييداً لشأنه ، أشار إلى عظمته بمدحه قبل ذكر جزائه ، فقال : ﴿ ذلكم ﴾ أي الأمر العظيم من الإيمان وتصديقه بالجهاد ﴿ خير لكم ﴾ أي خاصة مما تريدون من الذبذبة بمناصحة الكفار ﴿ إن كنتم ﴾ أي بالجبلات الصالحة ﴿ تعلمون ﴾ أي إن كان يمكن أن يتجدد لكم علم في وقت من الأوقات فأنتم تعلمون أن ذلك خير لكم ، فإذا علمتم ، أنه خير أقبلتم عليه فكان لكم به أمر عظيم ، وإن كانت قلوبكم قد طمست طمساً لا رجاء لصلاحها فصلوا على أنفسكم صلاة الموت .

ولما كان معنى " تؤمنون " : فالأمر كما تقدم ، لكنه حول عن ذلك لما ذكر ، وكان أهم ما إلى الإنسان خوفه مما هدد عليه ، أمن سبحانه من ذلك دالاً على أصل الفعل بجزم ما هو في موضع الجواب فقال : ﴿ يغفر لكم ﴾ أي خاصة دون من لم يفعل ذلك ﴿ ذنوبكم ﴾ أي بمحو أعيانها وآثارها كلها .

ولما فرغ القلوب من كدر العقاب والعتاب، لذذها بطيب الثواب فقال: ﴿ويدخلكم﴾ أي بعد التزكية بالمغفرة رحمة لكم ﴿جنات تجري﴾ ودل على قرب الجاري وتخلله الأراضي بالجار فقال: ﴿من تحتها﴾ أي تحت أشجارها وغرفها وكل متنزه فيها ﴿الأنهار﴾ فهي لا تزال غضة زهراء، ولم يحتج هذا الأسلوب إلى ذكر الخلود لإغناء ما بعده عنه، دل على الكثرة المفرطة في الدور بقوله بصيغة منتهى الجموع: ﴿ومساكن﴾ ولما كانت المساكن لا تروق إلا بما يقارنها من المعاني الحسنة قال: ﴿طيبة﴾ أي في الاتساع واختلاف أنواع الملاذ وعلو الأبنية والأسرة مع سهولة الوصول إليها وفي بهجة المناظر وتيسر مجاري الريح بانفساح الأبنية مع طيب الغرف، لم يفسد الماء الجاري تحتها شيئاً من ريحها ولا في اعتدالها في شيء مما يراد منها.

ولما كانت لا يرغب فيها إلا بدوام الإقامة، بين صلاحيتها لذلك بقوله: ﴿في جنات عدن﴾ أي بساتين هي أهل للإقامة بها لا يحتاج في إصلاحها إلى شيء خارج يحتاج في تحصيله إلى الخروج عنها له، ولا آخر لتلك الإقامة، قال حمزة الكرماني في كتابه جوامع التفسير: هي قصبة الجنان ومدينة الجنة أقربها إلى العرش.

ولما كان هذا أمراً شريفاً لا يوجد في غيرها قال: ﴿ذلك﴾ أي الأمر العظيم جداً وحده ﴿الفوز العظيم﴾.

ولما ذكر ما أنعم عليه به في الأخرى لأنه أهم لدوامها ، كان التقدير بما دل عليه العطف : هذا لكم ، عطف عليه ما جعل لهم في الدنيا فقال : ﴿ وأخرى ﴾ أي ولكم نعمة ، أو يعطيكم ، أو يزيدكم نعمة أخرى .

(193/761)

ولما كان الإنسان أحب في العاجل وأفرح بالناجز قال : ﴿ تحبونها ﴾ أي محبة كثيرة متجددة متزايدة ، ففي ظاهر هذه البشرى تشويق إلى الجهاد وتحبيب ، وفي باطنها حث على حب الشهادة بما يشير إليه من التوبيخ أيضاً على حل العاجل والتقريع : ﴿ نصر من الله ﴾ أي الذي أحاطت عظمته بكل شيء لكم وعلى قدر إحاطته تكون نصرته ﴿ وفتح قريب ﴾ أي تدخلون منه إلى كل ما كان متعسراً عليكم من حصون أعدائكم وغيرها من أمورهم في حياة نبيكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعظمه فتح مكة الذي كتب حاطب ـ رضى الله عنه ـ بسببه ، وبعد مماته ، وفيه شهادة لحاطب ـ رضى الله عنه ـ بأنه يحب نصرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والفتح عليه مكة وغيرها لصحة إيمانه كما أخبر به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي لا ينطق عن الهوى .

ولما كان ما تقدم من المعاتبة إنذاراً لمن خالف فعله قوله من الذين آمنوا ، وكان المقام قد

أخذ حظه من الإنذار والتوبيخ ، طوى ما تقديره : فأنذر من لم يكن راسخاً في الدين من المنافقين ، ومن خالف فعله قوله من المؤمنين : عطف عليه دلالة عليه ليكون أوقع في النفس لمن يشير إليه طيه من الاستعطاف قوله : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أي الذين صار الإيمان لهم وصفاً راسخاً كحاطب بن أبي بلتعة. رضى الله عنه. بأن الله يفتح لك البلاد شرقاً وغرباً ، وأول ذلك مكة المشرفة ولا يحوجهم إلى أن يدرؤوا عن عشائرهم وأموالهم ولا أن يكون شيء من أفعالهم يخالف شيئاً من أقوالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 588.585 ﴾

(194/761)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) ﴾

(195/761)

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ في معنى الأمر عند الفراء ، يقال : هل أنت ساكت أي اسكت وبيانه : أن هل ، بمعنى الاستفهام ، ثم يتدرج إلى أن يصير عرضاً وحثاً ، والحث كالإغراء ، والإغراء أمر ، وقوله تعالى : ﴿ على تجارة ﴾ هي التجارة بين أهل الإيمان وحضرة الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وأموالهم بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ [التوبة : 111] دل عليه ﴿ تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ والتجارة عبارة عن معاوضة الشيء بالشيء ، وكما أن التجارة تنجي التاجر من محنة الفقر ، ورحمة الصبر على ما هو من لوازمه ، فكذلك هذه التجارة وهي التصديق بالجنان والإقرار باللسان ، كما قيل في تعريف الإيمان فلهذا قال : بلفظ التجارة ، وكما أن التجارة في الربح والخسران ، فكذلك في هذا ، فإن من آمن وعمل صالحاً فله الأجر ، والربح الوافر ، واليسار المبين ، ومن أعرض عن العمل الصالح فله التحسر والخسران المبين ، وقوله تعالى : ﴿ تُنجِيكُم مّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قرىء مخففاً ومثقلاً ، ﴿ وَتُؤْمِنُونَ ﴾ استئناف ، كأنهم قالوا : كيف نعمل ؟ فقال : ﴿ تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ وهو خبر في معنى الأمر ، ولهذا أجيب بقوله : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وتجاهدون فِي سَبِيلِ الله ﴾ والجهاد بعد هذين الوجهين ثلاثة ، جهاد فيما بينه وبين نفسه ، وهو قهر النفس ، ومنعها عن اللذات والشهوات ، وجهاد فيما بينه وبين الخلق ، وهو أن يدع الطمع منهم ، ويشفق عليهم ويرحمهم وجهاد فيما بينه بين الدنيا وهو أن يتخذها زاداً لمعاده فتكون على خمسة أوجه ،

وقوله تعالى : ﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يعني الذي أمرتم به من الإيمان بالله تعالى والجهاد في سبيله خير لكم من أن تتبعوا أهواءكم ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي إن كنتم تنتفعون بما علمتم فهو خير لكم ، وفي الآية مباحث :

(196/761)

الأول : لم قال : ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ بلفظ الخبر ؟ نقول : للإيذان بوجوب الامتثال ، عن ابن عباس قالوا : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لعملنا ، فنزلت هذه الآية ، فمكثوا ما شاء الله يقولون : يا ليتنا نعلم ما هي ؟ فدلهم الله عليها بقوله : ﴿ تُؤْمِنُونَ بالله ﴾ .

الثاني : ما معنى : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ نقول : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه خير لكم كان خيراً لكم ، وهذه الوجوه للكشاف ، وأما الغير فقال : الخوف من نفس العذاب لا من العذاب الأليم ، إذ العذاب الأليم هو نفس العذاب مع غيره ، والخوف من اللوازم كقوله تعالى : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : 175] ومنها أن الأمر بالإيمان كيف هو بعد قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فنقول : يمكن أن يكون المراد من هذه الآية المنافقين ، وهم الذين آمنوا في الظاهر ، ويمكن أن يكون أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فإنهم آمنوا بالكتب المتقدمة فكأنه قال : يا أيها الذين آمنوا بالكتب المتقدمة آمنوا بالله وبمحمد

رسول الله ، ويمكن أن يكون أهل الإيمان كقوله : ﴿ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [التوبة : 124] ، ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا ﴾ [الفتح : 4] وهو الأمر بالثبات كقوله : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين ءَامَنُوا ﴾ [إبراهيم : 27] وهو الأمر بالتجدد كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [النساء : 136] وفي قوله صلى الله عليه وسلم : " من جدد وضوءه فكأنما جدد إيمانه " ، ومنها : أن رجاء النجاة كيف هو إذا آمن بالله ورسوله ، ولم يجاهد في سبيل الله ، وقد علق بالمجموع ، ومنها أن هذا المجموع وهو الإيمان بالله ورسوله والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله خبر في نفس الأمر .

يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

(197/761)

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ يَغفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ جواب قوله : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ [الصف : 11] لما أنه في معنى الأمر ، كما مر فكأنه قال : آمنوا بالله وجاهدوا في سبيل الله يغفر لكم ، وقيل جوابه : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [الصف : 11] وجزم : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ لما أنه ترجمة : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ومحله جزم ، كقوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن ﴾ [المنافقون : 10] لأن محل

﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ جزم على قوله : ﴿ لَوْلا أَخَّرْتَنِي ﴾ وقيل : جزم ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ بهل ، لأنه في معنى الأمر ، وقوله تعالى : ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ إلى آخر الآية ، من جملة ما قدم بيانه في التوراة ، ولا يبعد أن يقال : إن الله تعالى رغبهم في هذه الآية إلى مفارقة مساكنهم وإنفاق أموالهم والجهاد ، وهو قوله : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ يعني ذلك الجزاء الدائم هو الفوز العظيم ، وقد مر ، وقوله تعالى : ﴿ وأخرى تُحِبُّونَهَا ﴾ أي تجارة أخرى في العاجل مع ثواب الآجل ، قال الفراء : وخصلة أخرى تحبونها في الدنيا مع ثواب الآخرة ، وقوله تعالى : ﴿ نَصْرٌ مّن الله ﴾ هو مفسر للأخرى ، لأنه يحسن أن يكون : ﴿ نَصْرٌ مّن الله ﴾ مفسراً للتجارة إذ النصر لا يكون تجارة لنا بل هو ربح للتجارة ، وقوله تعالى : ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أي عاجل وهو فتح مكة ، وقال الحسن : هو فتح فارس والروم ، وفي ﴿ تُحِبُّونَهَا ﴾ شيء من التوبيخ على محبة العاجل ، ثم في الآية مباحث :

الأول : قوله تعالى : ﴿ وَبَشّرِ المؤمنين ﴾ عطف على ﴿ تؤمنون ﴾ [الصف : 11] لأنه في معنى الأمر ، كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبكم الله وينصركم ، وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك .

ويقال أيضاً : بم نصب من قرأ : ﴿ نَصْرًا مِنَ اللهِ وفتحاً قَرِيبًا ﴾ ، فيقال : على الاختصاص ، أو على تنصرون نصراً ، ويفتح لكم فتحاً ، أو على يغفر لكم ، ويدخلكم ويؤتكم خيراً ، ويرى نصراً وفتحاً ، هكذا ذكر في الكشاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 274.276 ﴾

(199/761)

وقال القرطبى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ ﴾ قال مقاتل : نزلت في عثمان بن مظعون ؛ وذلك أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أذِنت لي فطلّقتُ خوْلة ، وتَرهّبْتُ واختَصيْتُ وحرّمْتُ اللّحم ، ولا أنام بليل أبداً ، ولا أُفطر بنهار أبداً ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ من سُنّتي النكاح ولا رَهْبَانِية في الإسلام إنما رهبانِيةُ أمتي الجهادُ في سبيل الله وخِصاءُ أُمتي الصومُ ولا تُحرّموا طيبات ما أحلّ الله لكم .

ومِنْ سُنَّتي أنام وأقوم وأفْطِر وأصوم فمن رَغِب عن سُنَّتي فليس مني " .

فقال عثمان : والله لَوددْتُ يا نبي الله أي التجارات أحبّ إلى الله فأتّجر فيها " ؛ فنزلت .

وقيل : ﴿ أَدُلُّكمْ ﴾ أي سأدلكم .

والتجارة الجهاد ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ [التوبة : 111] الآية .

وهذا خطاب لجميع المؤمنين .

وقيل : لأهل الكتاب .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ تنجِيكُم ﴾ أي تخلصكم ﴿ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي مؤلم .

وقد تقدّم .

وقراءة العامة ﴿ تُنْجِيكُم ﴾ بإسكان النون من الإنجاء .

وقرأ الحسن وابن عامر وأبو حيوة "تُنَجّيكم" مشدّدا من التّنجية .

ثم بين التجارة وهي المسألة :

الثالثة : فقال : ﴿ تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ ذكر الأموال أوّلا لأنها التي يبدأ بها في الإنفاق .

﴿ ذِلَكُمْ ﴾ أي هذا الفعل ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

و"تُؤمِنُونَ" عند المبرد والزجاج في معنى آمنوا ؛ ولذلك جاء ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ مجزوماً على أنه جواب الأمر .

(200/761)

وفي قراءة عبد الله "آمنوا بالله" وقال الفراء ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ جواب الاستفهام ؛ وهذا إنما يصح على الحمل على المعنى ؛ وذلك أن يكون "تُؤْمِنُونَ بالله ، وَتُجَاهِدُونَ" عطف بيان على قوله : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ كأن التجارة لم يدر ما هي ؛ فبُيّنت بالإيمان والجهاد ؛ فهي هما في المعنى .

فكأنه قال : هل تؤمنون بالله وتجاهدون يغفر لكم .

الزَّمَخْشريّ : وجه قول الفراء أن متعلق الدلالة هو التجارة والتجارة مفسّرة بالإيمان (والجهاد) .

كأنه قيل : هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم .

قال المهدوِيّ : فإن لم تقدر هذا التقدير لم تصح المسألة ؛ لأن التقدير يصير إن دُللتم يغفر لكم ؛ والغفران إنما نُعت بالقبول والإيمان لا بالدلالة .

قال الزجاج : ليس إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم ؛ إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا .

وقرأ زيد بن علي "تؤمنوا" ، "وتجاهدوا" على إضمار لام الأمر ؛ كقوله :

محمّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كلُّ نفسٍ . . .

إذا ما خِفْتَ من شيء تَبَالا

أراد لِتَفْدِ .

وأدغم بعضهم فقال : "يغفر لكم" والأحسن ترك الإدغام ؛ لأن الراء حرف متكرر قويّ فلا يحسن إدغامه في اللام ؛ لأن الأقوى لا يدغم في الأضعف .

(201/761)

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ خرّج أبو الحسين الآجرّي " عن الحسن قال : سألت عمران بن الحُصَين وأبا هريرة عن تفسير هذه الآية ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ فقالا : على الخبير سقطت : سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : "قَصْرٌ من لؤلؤة في الجنة فيه سبعون دارا من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتاً من زَبَرجْدة خضراء في كل بيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون فراشاً من كل لَونْ على كلّ فراش سبعون امرأةً من الحُور العِين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام في كل بيت سبعون وَصِيفاً ووصِيفة فيعطى الله تبارك وتعالى المؤمن من القُوّة في غداة واحدة ما يأتي

على ذلك كله" " ﴿ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أي إقامة .

﴿ ذَلِكَ الفوز العظيم ﴾ أي السعادة الدائمة الكبيرة .

وأصل الفوز الظفَر بالمطلوب .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وأخرى تُحِبُّونَهَا ﴾ قال الفرّاء والأخفش : "أُخْرَى" معطوفة على "تِجَارَةٍ" فهي في محل خفض .

وقيل : محلها رفع ؛ أي ولكم خصلة أخرى وتجارة أخرى تحبونها ﴿ نَصْرٌ مِّن الله ﴾ أي هو نصر من الله ؛ ف "نصر" على هذا تفسير "وأخْرَى" .

وقيل : رفع على البدل من "أُخْرَى" أي ولكم نصر من الله .

﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أي غنيمة في عاجل الدنيا ؛ وقيل فتح مكة .

وقال ابن عباس : يريد فتح فارس والروم .

﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ برضا الله عنهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(202/761)

وقال الآلوسى :

﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تجَارَة ﴾

جليلة الشأن ﴿ تُنْجيكُمْ مِنْ عَذَاب أَليم ﴾ يوم القيامة ، وقرأ الحسن .

وابن أبي إسحق .

والأعرج .

وابن عامر ﴿ تنجيكم ﴾ بالتشديد ، وقوله تعالى :

﴿ تُؤْمنُونَ بالله وَرَسُوله وتجاهدون في سَبيل الله بأَمْوَالكُمْ وَأَنْفُسكُمْ ﴾

استئناف بياني كأنه قيل : ما هذه التجارة ؟ دلنا عليها : فقيل : ﴿ تؤمنون ﴾ الخ ،

والمضارع في الموضعين كما قال المبرد .

وجماعة خبر بمعنى الأمر أي آمنوا وجاهدوا ، ويؤيده قراءة عبد الله كذلك ، والتعبير به للإيذان بوجوب الامتثال كأن الايمان والجهاد قد وقعا فأخبر بوقوعهما ، والخطاب إذا كان للمؤمنين الخلص فالمراد تثبتون وتدومون على الايمان أو تجمعون بين الايمان والجهاد أي بين تكميل النفس وتكميل الغير وإن كان للمؤمنين ظاهراً فالمراد تخلصون الايمان ، وأياً ما كان فلا إشكال في الأمر ، وقال الأخفش : ﴿ تؤمنون ﴾ الخ عطف بيان على ﴿ تجارة ﴾ ، وتعقب بأنه لا يتخيل إلا على تقدير أن يكون الأصل أن تؤمنوا حتى يتقدر بمصدر ، ثم حذف أن فارتفع الفعل كما في قوله

: ألا أيهذا الزاجري احضر الوغى . . .

يريد أن احضر فلما حذف أن ارتفع الفعل وهو قليل ، وقال ابن عطية : ﴿ تؤمنون ﴾ فعل مرفوع بتقدير ذلك أنه تؤمنون ، وفيه حذف المبتدا وأن واسمها وإبقاء خبرها ، وذلك على ما قال أبو حيان : لا يجوز ، وقرأ زيد بن علي تؤمنوا وتجاهدوا بحذف نون الرفع فيهما على إضمار لام الأمر أي لتؤمنوا وتجاهدوا ، أو لتجاهدوا كما في قوله

: قلت لبواب على بابها . . .

تأذن لنا إني من أحمائها

وكذا قوله

: محمد تفد نفسك كل نفس . . .

إذا ما خفت من أمر تبالا

وجوز الاستئناف ، والنون حذفت تخفيفاً كما في قراءة (ساحران يظاهرا) وقوله

: ونقري ما شئت أن تنقري . . .

قد رفع الفخ فماذا تحذري

وكذا قوله

: أبيت أسري وتبيتي تدلكي . . .

وجهك بالعنبر والمسك الذكي

وأنت تعلم أن الحذف شاذ ﴿ ذلكم ﴾ أي ما ذكر من الايمان والجهاد ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ على الإطلاق أو من أموالكم وأنفسكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم إذ الجهلة لا يعتدّ بأفعالهم حتى توصف بالخيرية، وقيل: أي إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيراً لكم حينئذ لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتم أحببتم الايمان والجهاد فوق ما تحبون أموالكم وأنفسكم فتخلصون وتفلحون.

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر كما في قولهم: اتقى الله تعالى امرؤ وفعل خيراً يثب عليه؛ أو جواب لشرط، أو استفهام دل عليه الكلام، والتقدير أن تؤمنوا وتجاهدوا يغفر لكم، أو هل تقبلون أن أدلكم؟ أو هل تتجرون بالايمان والجهاد؟ يغفر لكم، وقال الفراء: جواب للاستفهام المذكور أي هل أدلكم، وتعقب بأن مجرد الدلالة لا يوجب المغفرة، وأجيب بأنه كقوله تعالى: ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ [إبراهيم: 31] وقد قالوا فيه: إن القول لما كان للمؤمن الراسخ الإيمان كان مظنة لحصول الامتثال فجعل كالمحقق وقوعه فيقال ههنا: لما كانت الدلالة مظنة لذلك نزلت منزلة المحقق، ويؤيده ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ [الصف: 11] لأن من له عقل إذا دله سيده على ما هو

خير له لا يتركه ، وادعاء الفرق بما ثمة من الإضافة التشريفية وما هنا من المعاتبة قيل : غير ظاهر فتدبر ، والانصاف أن تخريج الفراء لا يخلو عن بعد ، وأما ما قيل : من أن الجملة مستأنفة لبيان أن ذلك خير لهم ، و﴿ يغفر ﴾ مرفوع سكن آخره كما سكن آخر ﴿ أشرب ﴾ في قوله

: فاليوم (أشرب) غير مستحقب . . .

إثماً من الله ولا واغل

فليس بشيء لما صرحوا به من أن ذلك ضرورة .

(204/761)

﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جنات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار ومساكن طَيّبَةً ﴾ أي طاهرة زكية مستلذة ، وهذا إشارة إلى حسنها بذاتها ، وقوله تعالى : ﴿ في جنات عَدْنٍ ﴾ إشارة إلى حسنها باعتبار محلها ﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر من المغفرة وما عطف عليها ﴿ الفوز العظيم ﴾ الذي لا فوز وراءه .

﴿ وَأُخْرَى ﴾ أي ولكم إلى ما ذكر من النعم نعمة أخرى ، فأخرى مبتدأ ، وهي في الحقيقة صفة للمبتدأ المحذوف أقيمت مقامه بعد حذفه ، والخبر محذوف قاله الفراء ،

وقوله تعالى: ﴿ تُحِبُّونَهَا ﴾ في موضع الصفة، وقوله سبحانه: ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أي عاجل بدل أو عطف بيان، وجملة المبتدأ وخبره قيل: حالية؛ وفي "الكشف" وإنما عطف على جواب الأمر أعني ﴿ يغفر ﴾ [الصف: 12] من حيث المعنى كما تقول: جاهدوا تؤجروا ولكم الغنيمة وفي ﴿ تحبونها ﴾ تعبير لهم وكذلك في إيثار الاسمية على الفعلية وعطفها عليها كأن هذه عندهم أثبت وأمكن ونفوسهم إلى نيلها والفوز أسكن.

وقيل: ﴿ أخرى ﴾ مبتدأ خبره ﴿ نصر ﴾ وقال قوم: هي في موضع نصب باضمار فعل أي ويعطكم أخرى، وجعل ذلك من باب

.

علفتها تبناً وماءاً بارداً . . .

ومنهم من قدر تحبون أخرى على أنه من باب الاشتغال، و﴿ نصر ﴾ على التقديرين خبر مبتدأ محذوف أي ذلك أو هو ﴿ نصر ﴾، أو مبتدأ خبره محذوف أي نصر وفتح قريب عنده، وقال الأخفش: هي في موضع جر بالعطف على ﴿ تجارة ﴾ [الصف: 10] وهو كما ترى.

وقرأ ابن أبي عبلة نصراً وفتحاً قريباً بالنصب بأعني مقدراً، أو على المصدر أي تنصرون نصراً ويفتح لكم فتحاً، أو على البدلية من ﴿ أخرى ﴾ على تقدير نصبها ﴿ وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ ﴾ عطف على قل مقدراً قبل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ [الصف : 10] ، وقيل : على أبشر مقدراً أيضاً ، والتقدير فأبشر يا محمد وبشر .

(205/761)

وقال الزمخشري : هو عطف على ﴿ تؤمنون ﴾ [الصف : 11] لأنه في معنى الأمر كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبكم الله تعالى وينصركم وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك ، وتعقبه في الإيضاح بأن فيه نظراً لأن المخاطبين في ﴿ تؤمنون ﴾ هم المؤمنون ، وفي ﴿ بشر ﴾ هو النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قوله تعالى : ﴿ تؤمنون ﴾ بيان لما قبله على طريق الاستئناف فكيف يصح عطف ﴿ بشر المؤمنون ﴾ عليه ؟ وأجيب بما خلاصته أن قوله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته كما تقرر في أصول الفقه ، وإذا فسر بآمنوا وبشر دل على تجارته عليه الصلاة والسلام الرابحة وتجارتهم الصالحة ، وقدم ﴿ آمنوا ﴾ لأنه فاتحة الكل ثم لو سلم فلا مانع من العطف على جواب السائل بما لا يكون جواباً إذا ناسبه فيكون جواباً للسؤال وزيادة كيف وهو داخل فيه ؟ كأنهم قالوا : دلنا يا ربنا فقيل : آمنوا يكن لكم كذا وبشرهم يا محمد بثبوته لهم ، وفيه من إقامة الظاهر مقام المضمر وتنويع الخطاب ما لا يخفى نبل موقعه ، واختاره "صاحب

الكشف" فقال: إن هذا الوجه من وجه العطف على قل ووجه العطف على فابشر لخلوهما عن الفوائد المذكورة يعني ما تضمنه الجواب. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(206/761)

وقال ابن عاشور:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) ﴾

هذا تخلص إلى الغرض الذي افتتحت به السورة من قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ إلى قوله: ﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾ [الصف: 42].

فبعد أن ضربت لهم الأمثال، وانتقل الكلام من مجال إلى مجال، أعيد خطابهم هنا بمثل ما خوطبوا به بقوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ [الصف: 2]، أي هل أدلكم على أحب العمل إلى الله لتعملوا به كما طلبتم إذْ قلتم لو نعلم أيَّ الأعمال أحبّ إلى الله لعملنا به فجاءت السورة في أُسلوب الخطابة.

والظاهر أن الضمير المستتر في ﴿ أدلكم ﴾ عائد إلى الله تعالى لأن ظاهر الخطاب أنه موجه من الله تعالى إلى المؤمنين.

ويجوز أن يجعل الضمير إلى النبي صلى الله عليه وسلم على تقدير قول محذوف وعلى اختلاف الاحتمال يختلف موقع قوله الآتي ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ [الصف : 13] .

والاستفهام مستعمل في العَرض مجازاً لأن العارض قد يسأل المعروضَ عليه ليعلم رغبته في الأمر المعروض كما يقال : هل لك في كذا ؟ أو هل لك إلى كذا ؟

والعرض هنا كناية عن التشويق إلى الأمر المعروض ، وهو دلالته إياهم على تجارة نافعة .

وألفاظ الاستفهام تخرج عنه إلى معان كثيرة هي من ملازمات الاستفهام كما نبه عليه السكّاكي في "المفتاح" ، وهي غير منحصرة فيما ذكره .

وجيء بفعل ﴿ أدلكم ﴾ لإفادة ما يذكر بعده من الأشياء التي لا يهتدى إليها بسهولة .

وأطلق على العمل الصالح لفظُ التجارة على سبيل الاستعارة لمشابهة العمل الصالح التجارةَ في طلب النفع من ذلك العمل ومزاولته والكد فيه ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ في سورة [البقرة : 16] .

(207/761)

ووصف التجارة بأنها تنجي من عذاب أليم ، تجريد للاستعارة لقصد الصراحة بهذه الفائدة لأهميتها وليس الإنجاء من العذاب من شأن التجارة فهو من مناسبات المعنى

الحقيقي للعمل الصالح .

وجملة تؤمنون بالله ورسوله ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن ذكر الدلالة مجمل والتشويقُ الذي سبقها مما يثير في أنفس السامعين التساؤل عن هذا الذي تدلنا عليه وعن هذه التجارة .

وإذ قد كان الخطاب لقوم مؤمنين فإن فِعْل ﴿ تؤمنون بالله ﴾ مع ﴿ وتجاهدون ﴾ مراد به تجمعون بين الإِيمان بالله ورسوله وبين الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم تنويهاً بشأن الجهاد .

وفي التعبير بالمضارع إفادة الأمر بالدوام على الإِيمان وتجديده في كل آن ، وذلك تعريض بالمنافقين وتحذير من التغافل عن ملازمة الإِيمان وشؤونه .

وأما ﴿ وتجاهدون ﴾ فإنه لإِرادة تجدّد الجهاد إذا استُنفِروا إليه .

ومجيء ﴿ يغفر ﴾ مجْزوماً تنبيه على أن ﴿ تؤمنون ﴾ ﴿ وتجاهدون ﴾ وإن جاءا في صيغة الخبر فالمراد الأمرُ لأن الجزم إنما يكون في جواب الطلب لا في جواب الخبر .

قاله المبرد والزمخشري .

وقال الفراء : جزم ﴿ يغفرْ ﴾ لأنه جواب ﴿ هل أدلكم ﴾ ، أي لأن متعلق ﴿ أدلكم ﴾ هو التجارة المفسرة بالإِيمان والجهاد ، فكأنه قيل : هل تتَّجرون بالإِيمان والجهاد يَغفرْ لكم ذنوبكم .

وإنما جيء بالفعلين الأولين على لفظ الخبر للإِيذان بوجوب الامتثال حتى يفرض المأمور كأنه سمع الأمر وامتثله .

وقرأ الجمهور ﴿ تنجيكم ﴾ بسكون النون وتخفيف الجيم .

وقرأه ابن عامر بفتح النون وتشديد الجيم ، يقال : أنجاه ونَجّاه .

والإِشارة بـ ﴿ ذلكم ﴾ إلى الإِيمان والجهاد بتأويل المذكور : خير .

و﴿ خير ﴾ هذا ليس اسم تفضيل الذي أصله : أخير ووزنه : أَفعل ، بل هو اسم لضد الشر ، ووزنه : فَعْل .

وجمع قوله : ﴿ خير ﴾ ما هو خيرُ الدنيا وخيرُ الآخرة .

(208/761)

وقوله : ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ تعريض لهم بالعتاب على تولّيهم يوم أُحُد بعد أن قالوا : لو نعلم أيَّ الأعمال أحب إلى الله لعَمِلْنَاه ، فندبوا إلى الجهاد فكان ما كان منهم يوم أُحُد ، كما تقدم في أول السورة ، فنزلوا منزلة من يُشك في عملهم بأنه خير لعدم جريهم على موجَب العلم .

والمساكن الطيبة : هي القصور التي في الجنة ، قال تعالى : ﴿ ويجعل لك قصوراً ﴾ [

الفرقان : 10] .

وإنما خُصّت المساكن بالذكر هنا لأن في الجهاد مفارقة مساكنهم ، فوعدوا على تلك المفارقة الموقتة بمساكن أبدية .

قال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ﴾ إلى قوله : ﴿ ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ﴾ [التوبة : 24] الآية .

﴿ وأخرى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّن اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ .

عطف على جملة ﴿ يغفر لكم ويدخلكم ﴾ [الصف : 12] عطفَ الاسمية على الفعلية .

وجيء بالاسمية لإفادة الثبوت والتحقق .

ف ﴿ أُخرى ﴾ مبتدأ خبره محذوف دل عليه قوله : ﴿ لكم ﴾ من قوله : ﴿ يغفر لكم ﴾ .

والتقدير : أخرى لكم ، ولك أن تجعل الخبر قوله : ﴿ نصر من الله ﴾ .

وجيء به وصفاً مؤنثاً بتأويل نعمة ، أو فضيلة ، أو خصلة مما يؤذن به قوله : ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ [الصف : 12] إلى آخره من معنى النعمة والخصلة كقوله تعالى : ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها ﴾ في سورة [الفتح : 21]

ووصف أخرى بجملة ﴿ تحبونها ﴾ إشارة إلى الامتنان عليهم بإعطائهم ما يحبون في الحياة الدنيا قبل إعطاء نعيم الآخرة.

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ [البقرة: 144].

(و ﴿ نصر من الله ﴾ بدل من ﴿ أُخرى ﴾، ويجوز أن يكون خبراً عن ﴿ أخرى ﴾.

والمراد به النصر العظيم، وهو نصر فتح مكة فإنه كان نصراً على أشد أعدائهم الذين فتنوهم وآذوهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وألَّبوا عليهم العرب والأحزاب.

(209/761)

وراموا تشويه سمعتهم، وقد انضم إليه نصر الدين بإسلام أولئك الذين كانوا من قبل أئمة الكفر ومساعير الفتنة، فأصبحوا مؤمنين إخواناً وصدق الله وعده بقوله: ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ [الممتحنة: 7] وقوله: ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ [آل عمران: 103].

وذكر اسم الجلالة يجوز أن يكون إظهاراً في مقام الإِضمار على احتمال أن يكون ضمير التكلم في قوله: ﴿ هل أدلكم ﴾ [الصف: 10] كلاماً من الله تعالى، ويجوز أن يكون

جارياً على مقتضى الظاهر إن كان الخطاب أُمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم بتقدير "قل".

ووصف الفتح بـ ﴿ بقريب ﴾ تعجيل بالمسرة.

وهذه الآية من معجزات القرآن الراجعة إلى الإخبار بالغيب.

﴿ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ﴾.

يجوز أن تكون عطفاً على مجموع الكلام الذي قبلها ابتداء من قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة ﴾ [الصف: 10] على احتمال أن ما قبلها كلام صادر من جانب الله تعالى، عطفَ غرض على غرض فيكون الأمر من الله لنبيئه صلى الله عليه وسلم بأن يبشر المؤمنين.

ولا يتأتى في هذه الجملة فرضُ عطف الإنشاء على الإخبار إذ ليس عطف جملة بل جملة على جملة على مجموع جُمل على نحو ما اختاره الزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات ﴾ الآية في أوائل سورة [البقرة: 25] وما بيَّنه من كلام السيد الشريف في حاشية الكشاف ﴾.

وأما على احتمال أن يكون قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم ﴾ إلى آخره مسوقاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول: ﴿ هل أدلكم على تجارة ﴾ بتقدير قول محذوف، أي قل يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم، إلى آخره، فيكون الأمر في ﴿ وبشر ﴾

التفاتاً من قبيل التجريد .

والمعنى : وأُبشّرُ المؤمنين .

(210/761)

وقد تقدم القول في عطف الإِنشاء على الإِخبار عند قوله تعالى : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ في أوائل سورة [البقرة : 25] .

والذي استقر عليه رأيي الآن أن الاختلاف بين الجملتين بالخبرية والإِنشائية اختلاف لفظي لا يؤثر بين الجملتين اتصالاً ولا انقطاعاً لأن الاتصال والانقطاع أمران معنويان وتابعان للأغراض فالعبرة بالمناسبة المعنوية دون الصيغة اللفظية وفي هذا مقنع حيث فاتني التعرض لهذا الوجه عند تفسير آية سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(211/761)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى التجارة)

وقد ذكرها الله تعالى فى ستّة مواضع .

الأوّل : تجارة غُزاة المجاهدين بالرُّوح ، والنفْس ، والمال : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ .

الثانى : تجارةُ المنافقين فى بَيْع الهدى بالضَّلالة : ﴿ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ ﴾ .

الثالث : تجارة قراءَة القرآن : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ .

الرّابع : تجارة عُبّاد الدّنيا بتضييع الأَعمال ، فى استزادة الدرهم والدّينار : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّواْ إِلَيْهَا ﴾ .

الخامس : فى معاملة الخَلْق بالبيع والشّرَى : ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ﴾ .

السّادس : تجارة خواصّ العباد بالإعراض عن كلّ تجارة دنيويّة : ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

وهى لغةً : التَّصرّف فى رأْس المال ؛ طلباً للرّبح .

تَجَرَ يَتْجُرُ فهو تاجر .

والجمع تَجْر - كصاحب وصَحْب - وتُجّار وتِجَار .

وليس فى الكلام تاءٌ بعده جيم غيرها .

ويقال : هو تاجر بكذا : أَى حاذِق ، عارف لوجه المكتسب منه .

ويقال : نِصف البركة فى التجارة .

وقيل ، نعم الشئُ التجارة ، ولو فى الحجارة .

ويروى فى الكلمات القدسيّة : من تاجَرَنى لم يخسر .

وأُوحى إِلى بعض الأَنبياءِ : قل لعبيدى : تاجرونى تربحوا علىّ ؛ فإِنى خلقتكم لتربحوا علىّ لا لأَربح عليكم .

وفى الحديث : الرفق فى المعيشة خير من بعض التجارة .

وقال الشاعر :

*خُذوا مال التجار وسوّفوهم * إِلى وقت فإِنهم لئام*

*وليس عليكم فى ذاك إِثْمٌ * فإِن جميع ما جَمَعوا حرام* . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 295 . 296 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربيّة المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والستون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثانى والستون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 14 ﴾ من (سورة الصف)

وحتى الآية ﴿ 14 ﴾ آخر السورة

(4/762)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما هز سبحانه إلى الجهاد وشوق إليه بأنه متجر رابح ، ولوح إلى النذارة بالتنشيط بالبشارة ، فتهيأت النفوس إلى الإقبال عليه وانبعثت أي انبعاث ، حض عليه بالإيجاب المقتضي للثواب أو العقاب ، فقال منادياً بأداة البعد والتعبير بما يدل على أدنى الأسنان تأنيباً على أنه لا يعدم الوصف بالإيمان إلا مقرون بالحرمان تشويقاً وتحبباً : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي أقروا بذلك فأذعنوا بهذا الوعظ غاية الإذعان أني أمرت رسول الله - صلى

الله عليه وسلم - أن يقول لكم: ﴿كونوا﴾ أي بغاية جهدكم ﴿أنصار الله﴾ أي راسخين في وصف النصرة وفي الذروة العليا من ثبات الأقدام في تأييد الذي له الغنى المطلق لتكونوا - بما أشارت إليه قراءة الجماعة بالإضافة - بالاجتهاد في ذلك كأنكم جميع أنصاره، فإنكم أشرف من قوم عيسى عليه الصلاة والسلام، وما ندبكم سبحانه لنصرته إلا لتشريفكم بمصاحبة رسله الذين هم خلاصة خلقه عليهم الصلاة والسلام فقولوا سمعنا وأطعنا نحن أنصار الله وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالتنوين ولام الجر على معنى: كونوا بعض أنصاره، ويشبه أن يكون المأمور به في هذه القراءة الثبات على الإيمان ولو في أدنى الدرجات، وفي قراءة الجمهور الرسوخ فيه.

ولما كان التقدير على صفة هي من الثبات والسرعة على صفة الحواريين، عبر عن ذلك بقوله: ﴿كما﴾ أي كونوا لأجل أني أنا ندبتكم بقولي من غير واسطة ولذذتكم بخطابي مثل ما كان الحواريون أنصار الله حين ﴿قال عيسى ابن مريم﴾ حين أرسلته إلى بني إسرائيل ناسخاً لشريعة موسى عليه الصلاة والسلام ﴿للحواريين﴾ أي خلص أصحابه وخاصته منهم: ﴿من أنصاري﴾ حال كونهم سائرين في منازل السلوك والمعاملات ومراحل المجاهدات والمنازلات ﴿إلى الله﴾ أي المحيط بكل شيء فنحن إليه راجعون كما كنا به مبدوئين.

ولما اشتد تشوف السامع إلى جوابهم ، أبان ذلك بقوله : ﴿ قال الحواريون ﴾ معلمين أنه جادون في ذلك جداً لا مزيد عليه عاملين فيما دعاهم إليه عمل الواصل لا السائر لعلمهم أنه إجابته إجابة الله لأنه لا ينطق عن الهوى فليس كلامه إلا عن الله : ﴿ نحن ﴾ أي بأجمعنا ﴿ أنصار الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي هو غني عنا وقادر على تمام نصرنا ، ولو كان عدونا كل أهل الأرض ننصره الآن بالفعل ، لا نحتاج إلى تدريب يسير ولا نظر إلى غير ، لاستحضارنا لجميع ما يقدر عليه الآدمي من صفات جلاله وجماله وكماله ، ولذلك أظهروا ولم يضمروا .

ولما كان التقدير : ثم دعوا من خالفهم من بني إسرائيل وبارزوهم ، سبب عنه قوله : ﴿ فآمنت ﴾ أي به ﴿ طائفة ﴾ أي ناس فيهم أهلية الاستدارة لما لهم من الكثرة ﴿ من بني إسرائيل ﴾ أي قومه ﴿ وكفرت طائفة ﴾ أي منهم ، وأصل الطائفة : القطعة من الشيء ﴿ فأيدنا ﴾ أي قوينا بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي الذين أقروا بالإيمان المخلص منهم وغيره في القول والفعل وشددنا قلوبهم ﴿ على عدوهم ﴾ الذين عادوهم لأجل إيمانهم .

ولما كان الظفر بالمحبوب أحب ما يكون إذا كان أول النهار ، تسبب عن تأييده قوله : ﴿ فأصبحوا ﴾ أي صاروا بعد ما كانوا فيه من الذل ﴿ ظاهرين ﴾ أي عالين غالبين

قاهرين في أقوالهم وأفعالهم لا يخافون أحداً إلا الله ولا يستخفون منه ، فالتأييد تارة يكون بالعلم وتارة بالفعل ﴿ علمه شديد القوى ﴾ [النجم : 5] فصار علمه في غاية الإحكام وتبعته قوة هي في منتهى التمام ، لأنه ناشىء عن علم مستفاد من قوة ، وإلا لقال : علمه كثير العلم .

(6/762)

﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ [النمل : 40] قوة مستفادة من علم ، والظاهر كما هو ظاهر قوله تعالى : ﴿ جاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ [آل عمران : 55] وغيرها أن تأييد المؤمنين به كان بعد رفعه بيسير حين ظهر الحواريون وانبثوا في البلاد يدعون إلى الله بما آتاهم من الآيات ، فاتبعهم الناس ، فلما تمادى الزمان ومات الحواريون .رضى الله عنه. م افترق الناس ودب إليهم الفساد ، فغلب أهل الباطل وضعف أهل الحق حتى كانوا عند بعث النبي .صلى الله عليه وسلم. عدماً أو في حكم العدم ، - كما دلت عليه قصة سلمان الفارسي .رضى الله عنه. ، فقد رجع آخر السورة كما ترى بما وقع من التنزه عما يوهمه علو الكفرة من النقص بنصر أوليائه وقسر أعدائه ، ومن الأمر مما أخبر أولها أنه يحبه من القتال في سبيله حثاً عليه

وتشويقاً إليه – على أولها ، واتصل بما بشر به من آمن ولو على أدنى وجوه الإيمان من العز موصلها بمفصلها ، بما أزيل من الأسباب الحاملة له على المداراة ، والأمور التي أوقعته في المماشاة مع الكفار والمجاراة ، فأوجب ذلك رسوخ الإيمان ، وحصول الإتقان ، المقتضي للتنزيه بالفعل عن كل شوب نقصان ، والله الموفق للصواب وعليه التكلان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 588.589 ﴾

(7/762)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ كُونُواْ أَنصَارَ الله كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيّينَ مَنْ أَنَّصَارِي إِلَى الله قَالَ الحواريون نَحْنُ أنصار الله ﴾ .

قوله : ﴿ كُونُواْ أَنصَارَ الله ﴾ أمر بإدامة النصرة والثبات عليه ، أي ودوموا على ما أنتم عليه من النصرة ، ويدل عليه قراءة ابن مسعود : كونوا أنتم أنصار الله فأخبر عنهم بذلك ، أي أنصار دين الله وقوله : ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيّينَ ﴾ أي انصروا دين الله مثل نصرة الحواريين لما قال لهم : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى الله ﴾ قال مقاتل ، يعني من يمنعني من الله ،

وقال عطاء : من ينصر دين الله ، ومنهم من قال : أمر الله المؤمنين أن ينصروا محمداً صلى الله عليه وسلم كما نصر الحواريون عيسى عليه السلام ، وفيه إشارة إلى أن النصر بالجهاد لا يكون مخصوصاً بهذه الأمة ، والحواريون أصفياؤه ، وأول من آمن به ، وكانوا اثني عشر رجلاً ، وحواري الرجل صفيه وخلصاؤه من الحور ، وهو البياض الخالص ، وقيل : كانوا قصارين يحورون الثياب ، أي يبيضونها ، وأما الأنصار فعن قتادة : أن الأنصار كلهم من قريش : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وحمزة ، وجعفر ، وأبو عبيدة ابن الجراح ، وعثمان بن مظعون ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وعثمان بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، ثم في الآية مباحث :

البحث الأول : التشبيه محمول على المعنى والمراد كونوا كما كان الحواريون .

الثاني : ما معنى قوله : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى الله ﴾ ؟ نقول : يجب أن يكون معناه مطابقاً لجواب الحواريين والذي يطابقه أن يكون المعنى : من عسكري متوجهاً إلى نصرة الله ، وإضافة ﴿ أَنصَارِي ﴾ خلاف إضافة ﴿ أَنصَارُ الله ﴾ لما أن المعنى في الأول : الذين ينصرون الله ، وفي الثاني : الذين يختصون بي ويكونون معي في نصرة الله .

الثالث: أصحاب عيسى قالوا: ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ وأصحاب محمد لم يقولوا هكذا، نقول: خطاب عيسى عليه السلام بطريق السؤال فالجواب لازم، وخطاب محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الإلزام، فالجواب غير لازم، بل اللازم هو امتثال هذا الأمر، وهو قوله تعالى: ﴿ كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾.

قال ابن عباس يعني الذين آمنوا في زمن عيسى عليه السلام، والذين كفروا كذلك، وذلك لأن عيسى عليه السلام لما رفع إلى السماء تفرقوا ثلاث فرق، فرقة قالوا: كان الله فارتفع، وفرقة قالوا: كان ابن الله فرفعه إليه، وفرقة قالوا: كان عبد الله ورسوله فرفعه إليه، وهم المسلمون، واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس، واجتمعت الطائفتان الكافرتان على الطائفة المسلمة فقتلوهم وطردوهم في الأرض، فكانت الحالة هذه حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم، فظهرت المؤمنة على الكافرة فذلك قوله تعالى: ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ﴾، وقال مجاهد: ﴿ فَأَصْبَحُوا ظاهرين ﴾ يعني من اتبع عيسى، وهو قول المقاتلين، وعلى هذا القول معنى الآية: أن من آمن بعيسى ظهروا على من كفروا به فأصبحوا غالبين على أهل الأديان، وقال إبراهيم: أصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم وأن عيسى كلمة الله وروحه، قال الكلبي:

ظاهرين بالحجة ، والظهور بالحجة هو قول زيد بن علي رضي الله عنه ، والله أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 276 . 277 ﴾

(9/762)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ ﴾

ثم ندب تعالى المؤمنين وحضهم على الجهاد بهذه التجارة التي بينها ، وهي أن يعطي المرء نفسه وماله ، ويأخذ ثمناً جنة الخلد . وقرأ جمهور القراء والناس : " تُنْجِيكُم " بتخفيف النون وكسر الجيم دون شد ، وقرأ ابن عامر وحده والحسن والأعرج وابن أبي إسحاق : " تُنَجِّيكم " بفتح النون وشد الجيم ، وقوله تعالى : ﴿ تؤمنون ﴾ لفظه الخبر ومعناه الأمر أي آمنوا ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : " أليم آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا " ، وقوله ﴿ تؤمنون ﴾ فعل مرفوع تقديره ذلك أنه تؤمنون ، وقال الأخفش : هو عطف بيان على ﴿ تجارة ﴾ ، قال المبرد : هو بمعنى آمنوا على الأمر ولذلك جاء ﴿ يغفر ﴾ مجزوماً ، وقوله تعالى : ﴿ ذلكم ﴾ أشار إلى الجهاد والإيمان ، و﴿ خير ﴾ هنا يحتمل أن يكون

للتفضيل ، فالمعنى من كل عمل ، ويحتمل أن يكون إخباراً ، أن هذا خير في ذاته ونفسه ، وانجزم قوله ﴿ يغفر ﴾ على الجواب للأمر المقدر في ﴿ تؤمنون ﴾ ، أو على ما يتضمنه قوله : ﴿ هل أدلكم ﴾ من الحض والأمر وإلى نحو هذا ذهب الفراء ، وروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قرأ : " يغفلكم " بإدغام الراء في اللام ولا يجيز ذلك سيبويه وقوله تعالى : ﴿ ومساكن ﴾ عطف على ﴿ جنات ﴾ ، وطيب المساكن سعتها وجمالها ، وقيل طيبها المعرفة بدوام أمرها ، وهذا هو الصحيح ، وأي طيب مع الفناء والموت .

(10/762)

قوله تعالى : ﴿ وأخرى ﴾ قال الأخفش هي في موضع خفض على ﴿ تجارة ﴾ [الصف : 10] ، وهذا قول قلق ، قد رد عليه ناس ، واحتج له آخرون ، والصحيح ضعفه ، لأن هذه " الأخرى " ليست مما دل عليه إنما هي مما أعطى ثمناً وجزاء على الإيمان والجهاد بالنفس والمال ، وقال الفراء : ﴿ وأخرى ﴾ في موضع رفع ، وقال قوم : إن ﴿ أخرى ﴾ ، في موضع نصب بإضمار فعل ، كأنه قال : ﴿ يغفر ذنوبكم ويدخلكم جنات ﴾ [الصف : 12] ويمنحكم أخرى ، وهي النصر والفتح القريب ، وقرأ ابن أبي عبلة " نصراً من الله وفتحاً " ، بالنصب فيهما ، ووصفها تعالى بأن النفوس تحبها من حيث هي

عاجلة في الدنيا ، وقد وكلت النفس لحب العاجل ، ففي هذا تحريض ، ثم قواه تعالى بقوله : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ وهذه الألفاظ في غاية الإيجاز ، وبراعة المعنى ، ثم ندب تعالى المؤمنين إلى النصرة ، ووضع لهم هذا الاسم ، وإن كان العرف قد خص به الأوس والخزرج ، وسماهم الله تعالى به ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والأعرج وعيسى : " أنصاراً " ، بتنوين الأنصار ، وقرأ الباقون والحسن والجحدري " أنصارَ الله " ، بالإضافة ، وفي حرف عبد الله : " أنتم أنصار الله " ، ثم ضرب تعالى لهم المثل بقوم بادروا حين دعوا ، وهم " الحواريون " : خلصان الأنبياء ، سموا بذلك لأنه ردد اختبارهم وتصفيتهم ، وكذلك رد تنخيل الحواري : فاللفظتان في الحور ، وقيل : " الحَواريون " سموا بذلك لبياض ثيابهم ، وكانوا غسالين ، نصروا عيسى ، واستعمل اسمهم حتى قيل للناصر العاضد حواري ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " وحواريي الزبير " ، وافتراق طوائف بني إسرائيل هو في أمر عيسى عليه السلام ، قال قتادة : والطائفة الكافرة ثلاث فرق : اليعقوبية : وهم قالوا هو الله ، والإسرائيلية : وهم قالوا ابن الله ، والنسطورية : وهم قالوا هو إله ، وأمه إله والله ثالثهما ، تعالى الله عن أقوالهم علواً كبيراً .

وقوله تعالى : ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ﴾ قيل ذلك قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعد فترة من رفع عيسى عليه السلام ، رد الله تعالى الكرة لمن آمن به ، فغلبوا الكافرين الذين قتلوا صاحبه الذي ألقي عليه الشبه ، وقيل ذلك بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أصبح المؤمن بعيسى ظاهراً لإيمانه بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه لا يؤمن أحد حق الإيمان بعيسى ، إلا وفي ضمن ذلك الإيمان بمحمد لأنه بشر به ، وحرض عليه ، وقيل كان المؤمنون به قديماً ﴿ ظاهرين ﴾ بالحجة ، وإن كانوا مفرقين في البلاد ، مغلوبين في ظاهر الحياة الدنيا ، وقرأ مجاهد وحميد والأعرج وابن محيصن : " فأَيَدنا " مخففة الياء ممدودة الألف .

نجز تفسير سورة الصف ولله الحمد كثيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(12/762)

وقال القرطبى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ ﴾

أكّد أمر الجهاد ؛ أي كونوا حوارِيّ نبيّكم ليظهركم الله على من خالفكم كما أظهر حواريّ

عيسى على من خالفهم .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع "أنصاراً لله" بالتنوين .

قالوا : لأن معناه اثبتوا وكونوا أعواناً لله بالسيف على أعدائه .

وقرأ الباقون من أهل البصرة والكوفة والشام "أنصار الله" بلا تنوين ؛ وحذفوا لام الإضافة من اسم الله تعالى .

واختاره أبو عبيد لقوله : "نحنُ أنصَارُ الله" ولم ينوّن ؛ ومعناه كونوا أنصاراً لدين الله .

ثم قيل : في الكلام إضمار ؛ أي قل لهم يا محمد كونوا أنصار الله .

وقيل : هو ابتداء خطاب من الله ؛ أي كونوا أنصاراً كما فعل أصحاب عيسى فكانوا بحمد الله أنصاراً وكانوا حواريّين .

والحوَاريُّون خواصّ الرسل .

قال مَعْمَر : كان ذلك بحمد الله ؛ أي نصروه وهم سبعون رجلاً ، وهم الذين بايعوه ليلة العَقَبة .

وقيل : هم من قريش .

وسمّاهم قتادة : أبا بكر وعمر وعليّ وطلحة والزبير وسعد بن مالك وأبا عبيدة واسمه عامر وعثمان بن مَظْعُون وحمزة بن عبد المطلب ؛ ولم يذكر سعيداً فيهم ، وذكر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين .

﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ ﴾ وهم أصفياؤه اثنا عشر رجلاً ، وقد مضت اسماؤهم في "آل عمران" ، وهم أوّل من آمن به من بني إسرائيل ، قاله ابن عباس .

وقال مقاتل : قال الله لعيسى إذا دخلت القرية فأت النهر الذي عليه القَصَّارون فاسألهم النُّصرة ، فأتاهم عيسى وقال : من أنصاري إلى الله ؟ قالوا : نحن ننصرك .

فصدّقوه ونصروه .

ومعنى "مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّه" أي من أنصاري مع الله ، كما تقول : الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل ، أي مع الذَّوْد .

وقيل : أي من أنصاري فيما يقرّب إلى الله .

وقد مضى هذا في "آل عمران" .

(13/762)

﴿ فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بني إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ والطائفتان في زمن عيسى افترقوا بعد رفعه إلى السماء ، على ما تقدم في "آل عمران" بيانه .

﴿ فَأَيَّدْنَا الذين آمَنُواْ على عَدُوِّهِمْ ﴾ الذين كفروا بعيسى .

﴿ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ ﴾ أي غالبين .

قال ابن عباس : أيّد الله الذين آمنوا في زمن عيسى بإظهار محمد على دين الكفار .

وقال مجاهد : أيدوا في زمانهم على من كفر بعيسى .

وقيل أيّدنا الآن المسلمين على الفرقتين الضالتين ، من قال كان الله فارتفع ، ومن قال كان ابن الله فرفعه الله إليه ؛ لأن عيسى ابن مريم لم يقاتل أحداً ولم يكن في دين أصحابه بعده قتال .

وقال زيد بن عليّ وقتادة : ﴿ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ ﴾ غالبين بالحجة والبرهان ؛ لأنهم قالوا فيما روي : ألستم تعلمون أن عيسى كان ينام والله لا ينام ، وأن عيسى كان يأكل والله تعالى لا يأكل ! .

وقيل : نزلت هذه الآية في رسل عيسى عليه الصلاة والسلام .

قال ابن إسحاق : وكان الذي بعثهم عيسى من الحوارِيّين والأتباع فطرس وبولس إلى رُومِيَة ، واندرابيس ومتى إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس .

وتوماس إلى ارض بابل من أرض المشرق .

وفيلبس إلى قُرْطَاجَنّة وهي أفريقية .

ويحنّس إلى دقسوس قرية أهل الكهف .

ويعقوبس الى أورشليم وهي بيت المقدس .

وابن تلما إلى العرابية وهي أرض الحجاز .

وسمين إلى أرض البربر .

ويهودا وبردس إلى الإسكندرية وما حولها .

فأيدهم الله بالحجة .

﴿ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ ﴾ أي عالين ؛ من قولك : ظهرت على الحائط أي عَلَوْت عليه .

(والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(14/762)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارة تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وقُرِىءَ تنجِّيكم بالتشديدِ .

وقولُه تعالَى : ﴿ تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ وتجاهدون فِى سَبِيلِ الله بأموالكم وَأَنفُسِكُمْ ﴾ استئنافٌ وقعَ جواباً عما نشأَ مما قبله كأنَّهم قالوا كيفَ نعملُ أو ماذا نصنعُ فقيلَ تؤمنونَ بالله الخ . وهو خبرٌ في مَعْنى الأمرِ جيءَ بهِ للإيذانِ بوجوبِ الامتثالِ فكأنَّه قد وقعَ فأخبرَ بوقوعِهِ ويؤيدُهُ قراءةُ من قرأَ ﴿ ءَامِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ وجاهدوا ﴾ وقُرِىءَ تُؤمنُوا وتُجاهِدُوا على إضمارِ لامِ الأمرِ ﴿ ذلكم ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكَرَ من الإيمانِ والجهادِ بقسميهِ وما فيه من

معنى البعدِ لما مرَّ غيرَ مرةٍ ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ على الإطلاقِ، أو منْ أموالِكُم وأنفسِكُم ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي أنْ كنتُم من أهلِ العلمِ فإنَّ الجهلةَ لا يعتدُّ بأفعالِهم، أو إنْ كنتُم تعلمونَ أنَّه خيرٌ لكم حينئذٍ لأنكم إذَا علمتُم ذلكَ واعتقدتموه أحببتُم الإيمانَ والجهادَ فوقَ ما تحبونَ أنفسَكُم وأموالَكُم فتُخلِصونَ وتفلحونَ ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ جوابٌ للأمرِ المدلولِ عليه بلفظِ الخبرِ، أو لشرطٍ أو استفهامٍ دلَّ عليهِ الكلامُ، تقديرُهُ أنْ تؤمنُوا وتُجاهِدوا أو هلْ تقبلُونَ أن أدلكم يغفرْ لكُمْ، وجعلُه جواباً لهَلْ أدلكم بعيدٌ لأنَّ مجردَ الدلالةِ لا يوجبُ المغفرةَ ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ومساكن طَيّبَةً فِى جنات عَدْنٍ ذَلِكَ ﴾ أي ما ذكرَ من المغفرةِ وإدخالِ الجناتِ الموصوفةِ بما ذكرَ من الأوصافِ الجليلةِ ﴿ الفوز العظيم ﴾ الذي لا فوزَ وراءَهُ ﴿ وأخرى ﴾ ولكُم إلى هذه النعمِ العظيمةِ نعمةٌ أُخرى عاجلةٌ ﴿ تُحِبُّونَهَا ﴾ وترغبونَ فيهَا، وفيهِ تعريضٌ بأنهم يؤثرونَ العاجلَ على الآجلِ، وقيلَ أُخرى منصوبةٌ بإضمارِ يعطكُمْ، أو تحبونَ، أو مبتدأٌ خبرُهُ ﴿ نَصْرٌ مّن الله ﴾ وهوعَلَى الأولِ بدلٌ، أو بيانٌ، وعلى تقديرِ النصبِ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أي عاجلٌ، عطفٌ على نصرٌ على الوجوهِ المذكورةِ. وقُرِىءَ نصراً وفتحاً قريباً على

(15/762)

الاختصاصِ ، أو على المصدرِ أيْ تنصرونَ نصراً ويُفتحُ لكم فَتْحاً ، أو عَلى البدليةِ من أُخرى على تقديرِ نصبِهَا ، أي يعطكُم نعمةً أُخرى نصراً وفتحاً ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ عطفٌ على محذوفٍ مثل قُل يا أيُّها الذينَ آمنُوا وبشرْ ، وعلى تؤمنونَ فإنَّه في معنى آمِنُوا كأنَّه قيلَ آمِنُوا وجاهِدُوا أيُّها المؤمنونَ وبشرْهُم يا أيُّها الرسولُ بما وعدتَهم على ذلكَ عاجلاً وآجلاً .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ كُونُواْ أنصار الله ﴾

وقُرِىءَ أنصاراً للهِ بلاَ إضافةٍ لأنَ المَعْنَى كونُوا بعضَ أنصارِ اللهِ . وقُرِىءَ كونُوا أنتُم أنصارَ اللهِ ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيّينَ مَنْ أنصارى إِلَى الله ﴾ أي مَنْ جُنديِ متوجهاً إلى نصرةِ اللهِ كما يقتضيهِ قولُهُ تعالى : ﴿ قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنصَارُ الله ﴾ والإضافةُ الأُولى إضافةُ أحدِ المتشاركينِ إلى الآخرِ لما بينهُما من الاختصاصِ ، والثانيةُ إضافةُ الفاعلِ إلى المفعولِ ، والتشبيهُ باعتبارِ المَعْنَى أي كونُوا أنصارَ اللهِ كما كانَ الحواريونَ أنصارَهُ حينَ قالَ لهُم عيسى مَن أنصاري إلى اللهِ أو قُل لَهُم كونُوا كما قالَ عيسى للحواريينَ . والحواريونَ أصفياؤُه وهم أولُ من آمنَ به وكانوا إثني عشرَ رجلاً ﴿ فَئَامَنَت طَّآئِفَةٌ مّن بَنِى إسرايل ﴾ أي بعِيسَى وأطاعُوه فيما أمرَهُم به من نصرةِ الدينِ ﴿ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾ أُخرى به وقاتلوهم ﴿ فَأَيَّدْنَا الذين ءامَنُواْ على عَدُوِّهِمْ ﴾ أي قوَّيناهُم بالحجةِ أو بالسيفِ وذلكَ

بعد رفعِ عيسى عليهِ السلامُ ﴿ فَأَصْبَحُواْ ظاهرين ﴾ غالبينَ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(16/762)

وقال الآلوسى :

﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ ﴾

أي نصرة دينه سبحانه وعونة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وقرأ الأعرج .

وعيسى .

وأبو عمرو .

والحرميان أنصاراً لله بالتنوين وهو للتبعيض فالمعنى كونوا بعض أنصاره عز وجل .

وقرأ ابن مسعود على ما في "الكشف" كونوا أنتم أنصار الله ، وفي موضح الأهوازي .

والكواشي أنتم دون ﴿ كونوا ﴾ ﴿ كَمَا قَالَ عيسَى ابْنُ مَرْيَمَ للحواريان مَنْ أنصارى إلَى الله ﴾ أي من جندي متوجهاً إلى نصرة الله تعالى ليطابق قوله سبحانه : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ وقيل : ﴿ إلى ﴾ بمعنى مع و﴿ نحن أنصار الله ﴾ بتقدير نحن أنصار نبي الله فيحصل التطابق ، والأول أولى ، والإضافة في ﴿ أنصاري ﴾ إضافة أحد

المتشاركين إلى الآخر لأنهما لما اشتركا في نصرة الله عز وجل كان بينهما ملابسة تصحح إضافة أحدهما للآخر والإضافة في ﴿ أنصار الله ﴾ إضافة الفاعل إلى المفعول والتشبيه باعتبار المعنى إذ المراد قل لهم ذلك كما قال عيسى ، وقال أبو حيان : هو على معنى قلنا لكم كما قال عيسى .

(17/762)

وقال الزمخشري : هو على معنى كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم : ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ وخلاصته على ما قيل : إن ما مصدرية وهي مع صلتها ظرف أي كونوا أنصار الله وقت قولي لكم ككون الحواريين أنصاره وقت قول عيسى ، ثم قيل : كونوا أنصاره كوقت قول عيسى هذه المقالة ، وجيء بحديث سؤاله عن الناصر وجوابهم فهو نظير كاليوم في قولهم : كاليوم رجل أي كرجل رأيته اليوم فحذف الموصوف مع صفته ، واكتفى بالظرف عنهما لدلالته على الفعل الدال على موصوفه ، وهذا من توسعاتهم في الظروف ، وقد جعلت الآية من الاحتباك ، والأصل كونوا أنصار الله حين قال لكم النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ من أنصاري الله ﴾ كما كان الحواريون أنصار الله حين قال لهم عيسى عليه السلام ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ فحذف من كل منهما ما دل

عليه المذكور في الآخر ، وهو لا يخلو عن حسن ، و﴿ الحواريون ﴾ أصفياؤه عليه السلام ، والعدول عن ضميرهم إلى الظاهر للاعتناء بشأنهم ، وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً فرقهم على ما في "البحر" عيسى عليه السلام في البلاد ، فمنهم من أرسله إلى رومية ، ومنهم من أرسله إلى بابل ، ومنهم من أرسله إلى أفريقية ، ومنهم من أرسله إلى أفسس ، ومنهم من أرسله إلى بيت المقدس ، ومنهم من أرسله إلى الحجاز ، ومنهم من أرسله إلى أرض البربر وما حولها وتعيين المرسل إلى كل فيه ، ولست على ثقة من صحة ذلك ولا من ضبط أسمائهم ، وقد ذكرها السيوطي أيضاً في الاتقان فليلتمس ضبط ذلك من مظانه ، واشتقاق الحواريين من الحور وهو البياض وسموا بذلك لأنهم كانوا قصارين ، وقيل : للبسهم البياض ، وقيل : لنقاء ظاهرهم وباطنهم ، وزعم بعضهم أن ما قيل : من أنهم كانوا قصارين إشارة إلى أنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بإفادتهم الدين والعلم ، وما قيل : من أنهم كانوا صيادين إشارة إلى أنهم كانوا يصطادون نفوس الناس من الحيرة ويقودونهم إلى الحق .

وقيل : الحواريون المجاهدون ، وفي الحديث " لكل نبي حواري وحواريي الزبير " وفسر بالخاصة من الأصحاب .

والناصر ، وقال الأزهري : الذي أخلص ونقى من كل عيب ، وعن قتادة إطلاق الحواري على غيره رضي الله تعالى عنه أيضاً ، فقد قال : إن الحواريين كلهم من قريش أبو بكر .

وعمر .

وعلي .

وحمزة .

وجعفر .

وأبو عبيدة بن الجراح .

وعثمان بن مظعون .

وعبد الرحمن بن عوف .

وسعد بن أبي وقاص .

وعثمان بن عفان .

وطلحة بن عبيد الله .

والزبير بن العوام رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

﴿ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي بعيسى عليه السلام ﴿ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾

أخرى .

﴿ فَأَيَّدْنَا الذين ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ ﴾ وهم الذين كفروا فأَصْبَحُوا ظاهرين ﴾ فصاروا غالبين ؛ قال زيد بن علي .

وقتادة : بالحجة والبرهان ، وقيل : إن عيسى عليه السلام حين رفع إلى السماء قالت طائفة من قومه : إنه الله سبحانه ، وقالت أخرى : إنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً رفعه الله عز وجل إليه ، وقالت طائفة : إنه عبد الله ورسوله فاقتتلوا فظهرت الفرقتان الكافرتان على الفرقة المؤمنة حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم فظهرت المؤمنة على الكافرتين ، وروى ذلك عن ابن عباس ، وقيل : اقتتل المؤمنون والكفرة بعد رفعه عليه السلام فظهر المؤمنون على الكفرة بالسيف ، والمشهور أن القتال ليس من شريعته عليه السلام ، وقيل : المراد ﴿ فآمنت طائفة من بني إسرائيل ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام وكفرت أخرى صلى الله عليه وسلم فأيدنا المؤمنين على الكفرة فصاروا غالبين .

وهو خلاف الظاهر .

والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(19/762)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ يَأَيُّهَا الذين ءامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارة تُنجيكم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ جعل العمل المذكور بمنزلة التجارة ؛ لأنهم يربحون فيه ، كما يربحون فيها ، وذلك بدخولهم الجنة ، ونجاتهم من النار .

قرأ الجمهور ﴿ تنجيكم ﴾ بالتخفيف من الإنجاء .

وقرأ الحسن ، وابن عامر ، وأبو حيوة بالتشديد من التنجية .

ثم بيّن سبحانه هذه التجارة التي دلّ عليها فقال : ﴿ تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ وتجاهدون فِى سَبِيلِ الله بأموالكم وَأَنفُسِكُمْ ﴾ وهو خبر في معنى الأمر للإيذان بوجوب الامتثال ، فكأنه قد وقع ، فأخبر بوقوعه ، وقدّم ذكر الأموال على الأنفس ؛ لأنها هي التي يبدأ بها في الإنفاق والتجهز إلى الجهاد .

قرأ الجمهور : ﴿ تؤمنون ﴾ وقرأ ابن مسعود : (آمنوا ، وجاهدوا) على الأمر .

قال الأخفش : ﴿ تؤمنون ﴾ عطف بيان ل ﴿ تجارة ﴾ ، والأولى أن تكون الجملة مستأنفة مبينة لما قبلها ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ إلى ما ذكر من الإيمان والجهاد ، وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي : هذا الفعل خير لكم من أموالكم وأنفسكم ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : إن كنتم ممن يعلم ، فإنكم تعلمون أنه خير لكم ، لا إذا كنتم من أهل الجهل ، فإنكم لا تعلمون ذلك .

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ هذا جواب الأمر المدلول عليه بلفظ الخبر، ولهذا جزم.

قال الزجاج، والمبرد: قوله: ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ في معنى آمنوا، ولذلك جاء ﴿ يغفر لكم ﴾ مجزوماً.

وقال الفرّاء: ﴿ يغفر لكم ﴾ جواب الاستفهام، فجعله مجزوماً لكونه جواب الاستفهام، وقد غلطه بعض أهل العلم.

قال الزجاج: ليسوا إذا دلّهم على ما ينفعهم يغفر لهم إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا.

(20/762)

وقال الرازي في توجيه قول الفراء: إن ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ في معنى الأمر عنده، يقال: هل أنت ساكت، أي: اسكت، وبيانه أن "هل" بمعنى الاستفهام، ثم يتدرّج إلى أن يصير عرضاً وحثاً، والحثّ كالإغراء، والإغراء أمر.

وقرأ زيد بن عليّ: (تؤمنوا، وتجاهدوا) على إضمار لام الأمر.

وقيل: إن ﴿ يغفر لكم ﴾ مجزوم بشرط مقدّر، أي: إن تؤمنوا يغفر لكم، وقرأ بعضهم بالإدغام في يغفر لكم، والأولى ترك الإدغام؛ لأن الراء حرف متكرّر، فلا يحسن إدغامه في اللام ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ قد تقدّم بيان كيفية جري الأنهار

من تحت الجنات ﴿ ومساكن طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أي: في جنات إقامة ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ أي: ذلك المذكور من المغفرة، وإدخال الجنات الموصوفة بما ذكر هو الفوز الذي لا فوز بعده، والظفر الذي لا ظفر يماثله.

﴿ وأخرى تُحِبُّونَهَا ﴾ قال الأخفش، والفرّاء: ﴿ أخرى ﴾ معطوفة على ﴿ تجارة ﴾ فهي في محل خفض، أي: وهل أدلكم على خصلة أخرى تحبونها في العاجل مع ثواب الآخرة، وقيل: هي في محل رفع، أي: ولكم خصلة أخرى، وقيل: في محل نصب، أي: ويعطيكم خصلة أخرى.

ثم بيّن سبحانه هذه الأخرى فقال: ﴿ نَصْرٌ مّن الله وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أي: هي نصر من الله لكم، وفتح قريب يفتحه عليكم، وقيل: ﴿ نصر ﴾ بدل من ﴿ أخرى ﴾ على تقدير كونها في محلّ رفع، وقيل: التقدير ولكم نصر وفتح قريب.

قال الكلبي: يعني النصر على قريش وفتح مكة.

وقال عطاء: يريد فتح فارس والروم ﴿ وَبَشّرِ المؤمنين ﴾ معطوف على محذوف، أي: قل يا أيها الذين آمنوا، وبشر، أو على ﴿ تؤمنون ﴾؛ لأنه في معنى الأمر، والمعنى: وبشّر يا محمد المؤمنين بالنصر والفتح، أو، وبشّرهم بالنصر في الدنيا والفتح، وبالجنة في الآخرة، أو وبشّرهم بالجنة في الآخرة.

ثم حضّ سبحانه المؤمنين على نصرة دينه فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الذين ءامَنُوا كُونُوٓا أَنصار الله ﴾ أي : دوموا على ما أنتم عليه من نصرة الدين .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع : (أنصاراً لله) بالتنوين ، وترك الإضافة .

وقرأ الباقون بالإضافة ، والرسم يحتمل القراءتين معاً ، واختار أبو عبيدة قراءة الإضافة لقوله : ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ الله ﴾ بالإضافة ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أنصارى إِلَى الله ﴾ أي : انصروا دين الله مثل نصرة الحواريين لما قال لهم عيسى : ﴿ مَنْ أَنصَارِى إِلَى الله ﴾ فقالوا : ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ الله ﴾ والكاف في ﴿ كَمَا قَالَ ﴾ نعت مصدر محذوف تقديره : كونوا كوناً ، كما قال ، وقيل : الكاف في محل نصب على إضمار الفعل ، وقيل : هو كلام محمول على معناه دون لفظه ، والمعنى : كونوا أنصار الله ، كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم من أنصاري إلى الله ، وقوله : ﴿ إِلَى الله ﴾ قيل : إلى بمعنى : مع ، أي : من أنصاري مع الله ، وقيل : التقدير : من أنصاري فيما يقرّب إلى الله ، وقيل التقدير : من أنصاري متوجهاً إلى نصرة الله ، وقد تقدّم الكلام على هذا في سورة آل عمران .

والحواريون هم أنصار المسيح وخلص أصحابه ، وأوّل من آمن به ، وقد تقدّم بيانهم ﴿ فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة ﴾ أي : آمنت طائفة بعيسى وكفرت به

طائفة ، وذلك لأنهم لما اختلفوا بعد رفعه تفرّقوا وتقاتلوا ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ﴾ أي : قوينا المحقين منهم على المبطلين ﴿ فَأَصْبَحُواْ ظاهرين ﴾ أي : عالين غالبين ، وقيل المعنى : فأيدنا الآن المسلمين على الفرقتين جميعاً .

(22/762)

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قالوا : لو كنا نعلم أيّ الأعمال أحبّ إلى الله ؟ فنزلت ﴿ المشركون يأيُّهَا الذين ءامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارة تُنجِيكُم مّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فكرهوا ، فنزلت : ﴿ الحكيم يأيُّهَا الذين ءامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ بنيان مَّرْصُوصٌ ﴾ وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ يأيُّهَا الذين ءامَنُواْ كُونُواْ أنصار الله ﴾ قال : قد كان ذلك بحمد الله جاءه سبعون رجلاً ، فبايعوه عند العقبة وآووه ونصروه حتى أظهر الله دينه .

وأخرج ابن إسحاق ، وابن سعد عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنفر الذين لقوه بالعقبة : " أخرجوا إليّ اثني عشر منكم يكونون كفلاء على قومهم ، كما كفلت الحواريون لعيسى ابن مريم " وأخرج ابن سعد عن محمود بن لبيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنقباء : " إنكم كفلاء على

قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل قومي " ، قالوا : نعم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ فأيدنا الذين ءامنوا ﴾ قال : فقوينا الذين آمنوا .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه ، فأيدنا الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته على عدوّهم ، فأصبحوا اليوم ظاهرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 222 . 223 ﴾

(23/762)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ ﴾

هذا خطاب آخر للمؤمنين تكملة لما تضمنه الخطاب بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة ﴾ إلى قوله : ﴿ وتجاهدون في سبيل الله ﴾ [الصف : 10 ، 11] الآية الذي هو المقصود من ذلك الخطاب ، فجاء هذا الخطاب الثاني تذكيراً بأسوة عظيمة من أحوال المخلصين من المؤمنين السابقين وهم أصحاب عيسى عليه السلام مع قلة عددهم وضعفهم .

فأمر الله المؤمنين بنصر الدين وهو نصر غير النصر الذي بالجهاد لأن ذلك تقدم التحريض

عليه في قوله : ﴿ وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ [الصف : 11] الآية ووَعَدهم عليه بأن ينصرهم الله ، فهذا النصر المأمور به هنا نصر دِين الله الذي آمنوا به بأن يبثّوه ويَثْبُتوا على الأخذ به دون اكتراث بما يلاقونه من أذى من المشركين وأهلِ الكتاب ، قال تعالى : ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ [آل عمران : 186] وهذا هو الذي شبه بنصر الحواريين دين الله الذي جاء به عيسى عليه السّلام ، فإن عيسى لم يجاهد من عاندوه ، ولا كان الحواريون ممن جاهدوا ولكنه صبر وصبروا حتى أظهر الله دين النصرانية وانتشر في الأرض ثم دبّ إليه التغيير حتى جاء الإسلام فنسخه من أصله .

والأنصار : جمع نصير ، وهو الناصر الشديد النصر .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ﴿ كونوا أنصاراً لله ﴾ بتنوين ﴿ أنصاراً ﴾ وقرن اسم الجلالة باللام الجارة فيكون ﴿ أنصاراً ﴾ مراداً به دلالة اسم الفاعل المفيد للإِحداث ، أي محدثين النصر ، واللام للأجْل ، أي لأجل الله ، أي ناصرين له كما قال تعالى : ﴿ فلا ناصر لهم ﴾ [محمد : 13] .

وقرأه الباقون بإضافة ﴿ أنصار ﴾ إلى اسم الجلالة بدون لام على اعتبار أنصار كاللقب على نحو قوله : ﴿ من أنصاري ﴾ .

والتشبيه بدعوة عيسى ابن مريم للحواريين وجواب الحواريين تشبيهُ تمثيل ، أي كونوا عند ما يدعوكم محمد صلى الله عليه وسلم إلى نصر الله كحالة قول عيسى ابن مريم للحواريين واستجابتهم له .

والتشبيه لقصد التنظير والتأسّي فقد صدق الحواريون وعدهم وثبتوا على الدّين ولم تزعزعهم الفتن والتعذيب .

و(ما) مصدرية ، أي كقول عيسى وقول الحواريين .

وفيه حذف مضاف تقديره : لكونن قولِ عيسى وقول الحواريين .

فالتشبيه بمجموع الأمرين قول عيسى وجواب الحواريين لأن جواب الحواريين بمنزلة الكلام المفرع على دعوة عيسى وإنما تحذف الفاء في مثله من المقاولات والمحاورات للاختصار ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ في سورة [البقرة : 30] .

وقول عيسى من أنصاري إلى الله ﴾ استفهام لاختبار انتدَابهم إلى نصر دين الله معه نظير قول طرفة:

إن القوم قالوا مَن فتىً خلت إنني . . .

عُنيت فلم أكسَل ولم أتبلد

وإضافة ﴿ أنصار ﴾ إلى ياء المتكلم وهو عيسى باعتبارهم أنصارَ دعوته .

و﴿ إلى الله ﴾ متعلق بـ ﴿ أنصاري ﴾ .

ومعنى ﴿ إلى ﴾ الانتهاء المجازي ، أي متوجهين إلى الله ، شبه دعاؤهم إلى الدين وتعليمهم الناس ما يرضاه الله لهم بسعي ساعين إلى الله لينصروه كما يسعى المستنجَد بهم إلى مكان مستنجِدهم لينصروه على من غلبه .

ففي حرف ﴿ إلى ﴾ استعارة تبعية ، ولذلك كان الجواب المحكي عن الحواريين مطابقاً للاستفهام إذ قالوا : نحن أنصار الله ، أي نحن ننصر الله على من حادّه وشاقّه ، أي ننصر دينه .

و﴿ الحواريون : جمع حواري بفتح الحاء وتخفيف الواو وهي كلمة معربَة عن الحبشية (حَواريا) وهو الصاحب الصفي ، وليست عربية الأصل ولا مشتقة من مادة عربية ، وقد عدها الضحاك في جملة الألفاظ المعرّبة لكنه قال : إنها نبطية .

ومعنى الحواري : الغسّال ، كذا في الإتقان ﴾ .

و ﴿ الحواريون ﴾ : اسم أطلقه القرآن على أصحاب عيسى الاثني عشر ، ولا شك أنه كان معروفاً عند نصارى العرب أخذوه من نصارى الحبشة .

ولا يعرف هذا الاسم في الأناجيل .

وقد سمى النبي صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام حواريَّهُ على التشبيه بأحد الحواريين فقال : "لكل نبيء حواري وحواري الزبير" .

وقد تقدم ذكر الحواريين في قوله تعالى : ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ في سورة [آل عمران : 52] .

واعلم أن مقالة عيسى عليه السّلام المحكية في هذه الآية غير مقالته المحكية في آية آل عمران فإن تلك موجهة إلى جماعة بني إسرائيل الذين أحسّ منهم الكفر لمَّا دعاهم إلى الإِيمان به .

أمّا مقالته المحكية هنا فهي موجهة للذين آمنوا به طالباً منهم نصرته لقوله تعالى : كما قال عيسى ابن مريم للحواريين ﴾ الآية ، فلذلك تعين اختلاف مقتضى الكلامين المتماثلين .

وعلى حسب اختلاف المقامين يجرى اختلاف اعتبار الخصوصيات في الكلامين وإن كانا متشابهين فقد جعلنا هنالك إضافة ﴿ أنصارُ الله ﴾ [آل عمران : 52] إضافة لفظية وبذلك لم يكن قولهم : ﴿ نحن أنصار الله ﴾ مفيداً للقصر لانعدام تعريف المسند .

فأما هنَا فالأظهر أن كلمة ﴿ أنصار الله ﴾ اعتبرت لقباً للحواريين عرَّفوا أنفسهم به وخلعوه على أنفسهم فلذلك أرادوا الاستدلال به على أنهم أحق الناس بتحقيق معناه ،

ولذلك تكون إضافة ﴿ أنصار ﴾ إلى اسم الجلالة هنا إضافة معنوية مفيدة تعريفاً فصارت جملة ﴿ نحن أنصار الله ﴾ هنا مشتملة على صيغة قصر على خلاف نظيرتها التي في سورة آل عمران.

ففي حكاية جواب الحواريين هنا خصوصية صيغة القصر بتعريف المسند إليه والمسند. وخصوصيةُ التعريف بالإِضافة.

(26/762)

فكان إيجازاً في حكاية جوابهم بأنهم أجابوا بالانتداب إلى نصر الرسول وبجعل أنفسهم محقوقين بهذا النصر لأنهم محضوا أنفسهم لنصر الدين وعُرِفوا بذلك وبحصر نصر الدين فيهم حصراً يفيد المبالغة في تمحضهم له حتى كأنه لا ناصر للدين غيرهم مع قلتهم وإفادته التعريض بكفر بقيّة قومهم من بني إسرائيل.

وفرع على قول الحواريين ﴿ نحن أنصار ﴾ الإخبار بأن بني إسرائيل افترقوا طائفتين طائفة آمنت بعيسى وما جاء به، وطائفة كفرت بذلك وهذا التفريع يقتضي كلاماً مقدراً وهو فَنصروا الله بالدعوة والمصابرة عليها فاستجاب بعض بني إسرائيل وكفر بعض وإنما استجاب لهم من بني إسرائيل عدد قليل فقد جاء في إنجيل (لُوقَا) أن أتباع عيسى كانوا

أكثر من سبعين .

والمقصود من قوله : ﴿ فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ﴾ التوطئة لقوله : ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ والتأييد النصر والتقوية ، أيد الله أهل النصرانية بكثير ممن اتبع النصرانية بدعوة الحواريين وأتباعهم مثل بولس .

وإنما قال : ﴿ فأيدنا الذين آمنوا ﴾ ولم يقل : فأيدناهم لأن التأييد كان لمجموع المؤمنين بعيسى لا لكل فرد منهم إذ قد قتل من أتباعه خلق كثير ومُثِّل بهم وأُلْقوا إلى السباع في المشاهد العامة تفترسهم ، وكان ممن قُتل من الحواريين الحواري الأكبر الذي سماه عيسى بطرس ، أي الصخرة في ثباته في الله .

ويزعمون أن جثته في الكنيسة العظمى في رومة المعروفة بكنيسة القدِّيس بطرس والحكمُ على المجموع في مثل هذا شائع كما تقول : نصر الله المسلمين يوم بدر مع أن منهم من قتل .

والمقصود نصر الدين .

والمقصود من هذا الخبر وعد المسلمين الذين أُمروا أن يكونوا أنصاراً لله بأن الله مؤيدهم على عدوّهم .

والعدوّ يطلق على الواحد والجمع، قال تعالى: ﴿ وهم لكم عدو ﴾ [الكهف: 50] وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ في سورة [الممتحنة: 1].

والظاهرُ: هو الغالب، يقال: ظهر عليه، أي غلبه، وظهَر به أي غلب بسببه، أي بإعانته وأصل فعله مشتق من الاسم الجامد.

وهو الظَّهْر الذي هو العمود الوسط من جسد الإنسان والدَّواب لأن بالظهر قوة الحيوان.

وهذا مثل فعل (عَضَد) مشتقاً من العضُد.

و(أيد) مشتقاً من اليد ومن تصاريفه ظاهرَ عليه واستظهر وظَهير له قال تعالى: ﴿ والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ [التحريم: 4].

فمعنى ﴿ ظاهرين ﴾ أنهم منصورون لأن عاقبة النصر كانت لهم فتمكنوا من الحكم في اليهود الكافرين بعيسى ومزقوهم كل ممزق. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(28/762)

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال ناس : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لفعلناه ، فأخبرهم الله ، فقال : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ فكرهوا ذلك فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كانوا يقولون : والله لو نعلم ما أحب الأعمال إلى الله فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ إلى قوله : ﴿ بنيان مرصوص ﴾ فدلهم على أحب الأعمال إليه .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قالوا : لو كنا نعلم أي الأعمال أحب إلى الله فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ إلى قوله : ﴿ بنيان مرصوص ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن عساكر عن مجاهد في قوله ﴿ يا أيها لذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ إلى قوله : ﴿ بنيان مرصوص ﴾ قال : نزلت في نفر من الأنصار منهم عبد الله بن رواحة قالوا في مجلس لهم : لو نعلم أي عمل أحب إلى الله لعملناه حتى نموت ، فأنزل الله هذا فيهم ، فقال ابن رواحة : لا أبرح حبيساً في سبيل الله حتى أموت ،

فقتل شهيداً .

وأخرج مالك في تفسيره عن زيد بن أسلم قال : نزلت هذه الآية في نفر من الأنصار فيهم عبد الله بن رواحة قالوا في مجلس : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا به حتى نموت ، فأنزل الله هذه فيهم ، فقال ابن رواحة : لا أبرح حبيساً في سبيل الله حتى أموت شهيداً .

(29/762)

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال : قال المؤمنون : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملناه فدلهم على أحب الأعمال إليه فقال : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ فبين لهم فابتلوا يوم أحد بذلك فولوا عن النبي صلى الله عليه وسلم مدبرين ، فأنزل الله في ذلك ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبي صالح قال : قال المسلمون : لو أمرنا بشيء نفعله ، فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ قال : بلغني أنها نزلت في الجهاد ، كان الرجل يقول : قاتلت وفعلت ، ولم يكن فعل ، فوعظهم الله في ذلك أشد الموعظة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث السرية

، فإذا رجعوا كانوا يزيدون في الفعل، ويقولون قاتلنا كذا وفعلنا كذا، فأنزل الله الآية.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ميمون بن مهران قال: إن القاص ينتظر المقت فقيل له أرأيت قول الله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ أهو الرجل يقرظ نفسه فيقول: فعلت كذا وكذا من الخير، أم هو الرجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وإن كان فيه تقصير، فقال: كلاهما ممقوت.

وأخرج عبد بن حميد عن أبي خالد الوالبي قال: جلسنا إلى خباب، فسكت، فقلنا: ألا تحدثنا فإنما جلسنا إليك لذلك؟ فقال: أتأمروني أن أقول ما لا أفعل.

قوله تعالى: ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ الآيات.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾ قال: مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ الآية، قال: ألم تروا إلى صاحب البناء كيف لا يحب أن يختلف بنيانه، فكذلك الله لا يحب أن يختلف أمره وإن الله وصف المسلمين في قتالهم وصفهم في صلاتهم فعليكم بأمر

الله فإنه عصمة لمن أخذ به .

وأخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقيمت الصلاة يمسح مناكبنا وصدورنا ، ويقول : " لا تختلفوا فتختلف قلوبكم إن الله وملائكته يصلون على الصفوف الأول ، وصلوا المناكب بالمناكب والأقدام بالأقدام ، فإن الله يحب في الصلاة ما يحب في القتال ﴿ صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ " .

وأخرج أحمد وابن ماجة والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاثة يضحك الله إليهم : القوم إذا اصطفوا للصلاة ، والقوم إذا اصطفوا لقتال المشركين ، ورجل يقوم إلى الصلاة في جوف الليل " .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم ﴾ الآية .

أخرج ابن مردويه عن العرياض ابن سارية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إني عبد الله في أم الكتاب وخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسوف أنبئكم بتأويل ذلك . أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى قومه ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي موسى قال : أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن ننطلق مع جعفر بن أبي طالب إلى أرض النجاشي قال : ما منعك أن تسجد لي ؟ قلت : لا نسجد إلا لله . قال : وما ذاك ؟ قلت : إن الله بعث فينا رسوله ، وهو الرسول الذي بشر به

عيسى ابن مريم برسول يأتي من بعد اسمه أحمد ، فأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً .

وأخرج مالك والبخاري ومسلم والدارمي والترمذي والنسائي عن جبير بن مطعم قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إن لي خمسة أسماء : أنا محمد وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا العاقب ، والعاقب الذي ليس بعده نبي " .

وأخرج الطيالسي وابن مردويه عن جبير بن مطعم سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " أنا محمد وأنا أحمد والحاشر ونبي التوبة ونبي الملحمة " .

وأخرج ابن مردويه عن أبيّ بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " " أعطيت ما لم يعط أحد من أنبياء الله " قلنا يا رسول الله ما هو ؟ قال : " نصرت بالرعب ، وأعطيت مفاتيح الأرض ، وسميت أحمد ، وجعل لي تراب الأرض طهوراً ، وجعلت أمتي خير الأمم " " .

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ فلما جاءهم بالبينات ﴾ قال : محمد وفي قوله : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ﴾ قال : بألسنتهم .

وأخرج عبد بن حميد عن مسروق أنه كان يقرأ التي في المائدة وفي الصف وفي يونس " ساحر " .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ هذا سحر مبين ﴾ بغير ألف ، وقرأ ﴿ والله متم نوره ﴾ بتنوين متم وبنصب نوره .

(32/762)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10)

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة ﴾ الآية ، قال : لما نزلت قال المسلمون : لو علمنا ما هذه التجارة لأعطينا فيها الأموال والأهلين ، فبين لهم التجارة ، فقال : ﴿ تؤمنون بالله ورسوله ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة ﴾ الآية قال : فلولا أن الله بينها ودل عليها للهف الرجال أن يكونوا يعلمونها حتى يطلبوها ، ثم دلهم الله عليها فقال : ﴿ تؤمنون بالله ورسوله ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ على تجارة تنجيكم ﴾ خفيفة .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ﴾ .

أخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ كونوا أنصار الله ﴾ مضاف .

(33/762)

وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ﴾ قال : قد كان ذلك بحمد الله جاءه سبعون رجلاً فبايعوه عند العقبة ، فنصروه وآووه حتى أظهر الله دينه ولم يسمّ حيّ من السماء قط باسم لم يكن لهم قبل ذلك غيرهم ، وذكر لنا أن بعضهم قال : هل تدرون ما تبايعون هذا الرجل ؟ إنكم تبايعونه على محاربة العرب كلها أو يسلموا ، " وذكر لنا أن رجلاً قال : يا نبي الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال : أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبي الله ؟ قال : " لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة " ففعلوا ، ففعل الله " قال : والحواريون كلهم من قريش أبو بكر وعمر وعلي وحمزة وجعفر وأبو عبيدة بن الجراح وعثمان بن مظعون وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوّام .

وأخرج ابن إسحق وابن سعد عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم للنفر الذين لاقوه بالعقبة : " اخرجوا إليّ اثني عشر رجلاً منكم يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى ابن مريم " .

وأخرج ابن سعد عن محمد بن لبيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنقباء : " أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل قومي " قالوا : نعم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ قال : من يتبعني إلى الله ، وفي قوله : ﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾ قال : من آمن مع عيسى من قومه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ فأيدنا الذين آمنوا ﴾ قال : فقوّينا الذين آمنوا .

(34/762)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم النخعي ﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾ قال : أصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد أن عيسى كلمة الله وروحه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ فأيدنا الذين آمنوا ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فأصبحوا ﴾ اليوم ﴿ ظاهرين ﴾ والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 145. 150 ﴾

فصل

قال السمرقندي في الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾

وذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا بعدما فروا يوم أحد : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى ، وأفضل لفعلناه ، فنزل : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ .

ويقال : قالوا ذلك قبل يوم أحد ، فابتلوا بذلك وفروا ، فنزل تيسيراً لهم بترك الوفاء ، فقال : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ .

﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله ﴾ ، يعني : عظم بغضاً عند الله ﴿ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ إِنَّ الله يُحِبُّ الذين يقاتلون فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بنيان مَّرْصُوصٌ ﴾ ، يعني : يصفون بمنزلة الصف في الصلاة وملتزمة بعضهم في بعض ، لا يتأخر أحدهم عن صاحبه بمنزلة البنيان الذي بني بالرصاص ؛ ويقال : ﴿ كَأَنَّهُم بنيان مَّرْصُوصٌ ﴾ أي : متفقي الكلمة بعضهم على بعض على عدوهم ، فلا يخالف بعضهم بعضاً .

وروي في الخبر : أنه كان يوم مؤتة وكان عبد الله بن رواحة أحد الأمراء الذين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ناداهم : يا أهل المجلس الذين وعدتم ربكم قولكم ، ثم مشى فقاتل حتى قتل .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى ﴾ وقد قال موسى ﴿ لِقَوْمِهِ يا قوم لَمَّ تُؤْذُونَنِى ﴾ بالتكذيب ، وذلك أنهم كذبوه وقالوا : إنه آدر ، ويقال : إنه حين مات هارون ، ويقال : إنه قال لقومه الكفار : لم تؤذونني بالتكذيب والشتم ؟ ﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغوا ﴾ يعني : مالوا عن الحق وعدلوا عنه .

﴿ أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ ﴾ يعني : خذلهم عن الهدى فثبتوا على اليهودية .

(36/762)

﴿ والله لاَ يَهْدِى ﴾ يعني : لا يرشد إلى دينه ﴿ القوم الفاسقين ﴾ ، يعني : العاصين المكذبين ، الذين لا يرغبون في الحق .

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ يعني : وقد قال عيسى ابن مريم ﴿ مَرْيَمَ يا بنى إسراءيل إِنّى رَسُولُ الله إِلَيْكُم ﴾ ، يعني : أرسلني الله تعالى إليكم ، لأدعوكم إلى الإسلام .

﴿ مُّصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التوراة ﴾ يعني : أقرأ عليكم الإنجيل موافقاً للتوراة في التوحيد

وفي بعض الشرائع ، ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ ﴾ يعني : أبشركم برسول الله ﴿ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ .

وروى ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنَا عَنْ نَفْسِكَ .

فقال : " أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيسَى صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَرَأَتْ أُمِّي رُؤْيَاهَا حِينَ حَمَلَتْ بِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ بُصْرَى فِي أَرْضِ الشَّامِ " .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بالبينات ﴾ ، يعني : جاءهم عيسى بالبينات التي كان يريهم من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص .

﴿ قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : بيناً ظاهراً .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ ساحر ﴾ بالألف ، والباقون ﴿ ساحر ﴾ بغير ألف .

فمن قرأ ﴿ ساحر ﴾ فهو فاعل ، ومن قرأ ﴿ ساحر ﴾ فهو نعت الفعل .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ يعني : من أشد في كفره ﴿ مِمَّنِ افترى عَلَى الله ﴾ يعني : اختلق على الله ﴿ الكذب ﴾ وهم اليهود .

﴿ وَهُوَ يدعى إِلَى الإسلام ﴾ يعني : إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ يعني : لا يرشدهم .

ويقال : لا يرحمهم ما داموا على كفرهم .

ثم قال عز وجل: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بأفواههم ﴾ يعني: ليبطلوا دين الله بقولهم:

﴿ والله مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ يعني: مظهر توحيده وكتابه، ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ يعني: وإن

كره اليهود والنصارى.

قرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر، وعاصم في رواية حفص: ﴿ والله مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ على

معنى الإضافة، والباقون ﴿ مُتِّمٌ ﴾ بالتنوين ﴿ نُورِهِ ﴾ بالنصب.

فمتم فاعل ونصب نوره، لأنه مفعول به.

ثم قال عز وجل: ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى ﴾ يعني: بالتوحيد ﴿ وَدِينِ الحق

﴾ يعني: الشهادة لا إله إلا الله.

﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ يعني: على الأديان كلها.

قال مقاتل: وقد فعل، ويقال: إنه يكون في آخر الزمان، لا يبقى أحد إلا مسلم أو ذمة

للمسلم.

﴿ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ﴾ يعني: وإن كرهوا ذلك.

ثم قال عز وجل: ﴿ المشركون يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارة تُنجِيكُم مِّنْ

عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، يعني : من عذاب دائم .

قرأ ابن عامر ﴿ تُنجيكم ﴾ بالتشديد ، والباقون بالتخفيف ، وهما لغتان .

أنجاه ونجاه بمعنى واحد .

ثم بيَّن لهم تلك التجارة ، فقال عز وجل : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ يعني : تصدقون بتوحيد الله

﴿ وَرَسُولِهِ ﴾ يعني : وتصدقون برسوله ، وبما جاء به من عنده .

﴿ وتجاهدون فِى سَبِيلِ اللهِ بأموالكم وَأَنفُسِكُمْ ﴾ ، فقدم ذكر المال ، لأن الإنسان ربما يضر بماله ما لا يضر بنفسه ، ولأنه إذا كان له مال ، فإنه يؤخذ به النفس ليغزو .

﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يعني : التصديق والجهاد خير لكم من تركهما .

﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني : تعلمون ثواب الله تعالى ، ويقال : يعلمون يعني : يصدقون .

ثم بين ثواب ذلك العمل .

فقال : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ يعني : إن فعلتم ذلك العمل ، يغفر لكم ذنوبكم .

(38/762)

﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ومساكن طَيِّبَةً ﴾ يعني : يدخلكم منازل الجنة ﴿ فِى جنات عَدْنٍ ذَلِكَ الفوز العظيم ﴾ يعني : النجاة الوافرة .

ثم قال عز وجل: ﴿ وأخرى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّن الله ﴾ يعني: تجارة أخرى تحبونها ﴿ نَصْرٌ مِّن الله ﴾ يعني: ولكم سوى الجنة أيضاً عدة أخرى في الدنيا تحبونها، ويقال: معناه ونجاة أخرى تحبونها ﴿ نَصْرٌ مِّن الله ﴾ يعني: هي النصرة من الله تعالى على عدوكم، ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ يعني: ظفراً سريعاً عاجلاً في الدنيا والجنة في الآخرة.

ثم قال: ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ يعني: بشرهم بالجنة.

ثم قال عز وجل: ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُوا كُونُوا أنصار الله ﴾، قرأ ابن كثير، ونافع وأبو عمرو ﴿ أَنصَاراً لِّلَّهِ ﴾ بالتنوين، والباقون ﴿ أَنصَارَ الله ﴾ بالإضافة، ومعناهما واحد يعني: كونوا أعوان الله بالسيف على أعدائه، ومعناه: انصروا الله، وانصروا دين الله، وانصروا محمداً صلى الله عليه وسلم، كما نصر الحواريون عيسى ابن مريم.

وهو قوله تعالى: ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أنصارى إِلَى الله ﴾ يعني: من أعواني إلى الله، ويقال: إنما سموا الحواريون لبياض ثيابهم، ويقال: كانوا قصارين، ويقال: خلصاؤه وصفوته.

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الزُّبَيْرُ ابنُ عِمَّتِي وَحَوَارِيَّ مِنْ أُمَّتِي".

وتأويل الحواريين في اللغة، الذين أخلصوا وتبرؤوا من كل عيب؛ وكذلك الدقيق الحواري، لأنه ينتقى من لباب البرّ.

وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: إنما سموا الحواريين لبياض ثيابهم، وكانوا

صيادين .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر قال : تلا قتادة ﴿ المؤمنين يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ كُونُواْ أنصار الله ﴾ قال : وقد كان ذلك بحمد الله جاءه السبعون ، فبايعوه عند العقبة فنصروه وآووه ، حتى أظهر الله دينه .

(39/762)

﴿ قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنصَارُ الله ﴾ يعني : نحن أعوانك مع الله ، ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ كُونُواْ أنصار ﴾ يعني : بعيسى عليه السلام ويقال : فآمنت طائفة من بني إسرائيل بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ﴿ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾ يعني : جماعة منهم .

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ كُونُواْ أنصار ﴾ يعني : قوينا الذين آمنوا على عدوهم من الكفار ، ﴿ فَأَصْبَحُواْ ظاهرين ﴾ ، فصاروا غالبين بالنصرة ، والحجة ؛ والله أعلم بالصواب .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 420 . 423 ﴾

(40/762)

وقال الثعلبى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم * يا أيها الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾

قال مقاتل : قال المؤمنون قبل أن يؤمروا بالقتال : لو نعلم أحب الأعمال الى الله سبحانه لعلمناه وبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فدلّهم الله على أحب الأعمال اليه فقال : ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ الذين يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ فبيّن لهم فابتلوا يوم أحد بذلك ، فولّوا عن النبي صلى الله عليه وسلم مدبرين فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

وقال : الكلبي : قال : المؤمنون : يا رسول الله لو نعلم أحب الأعمال لفعلنا ونزل ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ثم أنقطع الكلام ولم يبين لهم شيئاً فمكثوا بعد ذلك ما شاء الله أن يمكثوا وهم يقولون : ليتنا نعلم ما هي أما والله إذن لأشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين ، فدلّهم الله سبحانه فقال : ﴿ تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله ﴾ الآية ، فأبتلوا بذلك يوم أحد ففرّوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صرع وشج في وجهه وكسرت رباعيته ، فنزلت هذه الآية يعيّرهم ترك الوفاء .

وقال محمد بن كعب : لما أخبر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بثواب شهداء بدر قالت الصحابة : لئن لقينا بعده قتالا لنفرغن فيه وسعنا ففروا يوم أحد فعيّرهم الله بهذه الآية ، وقال ابن عباس : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : وددنا لو أن الله دلّنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبرهم الله تعالى أن أفضل الأعمال إيمان لا شك فيه والجهاد ، فكره ذلك ناس منه وشق عليهم الجهاد وتباطؤوا عنه فأنزل الله سبحانه هذه الآية ، وقال : قتادة والضحاك : نزلتا في شأن القتال ، كان الرجل يقول : قتلت ولم يقاتل ، وطعنت ولم يطعن ، وضربت ولم يضرب ، وصبرت ولم يصبر .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن مقلاب قال : حدّثنا أبو الحرث أحمد بن سعيد بدمشق قال : حدّثنا يعقوب بن محمد الزهري قال : أخبرنا حصين بن حذيف الصهري قال : حدّثني عمي عن سعيد بن المسيب عن مهيب قال : كان رجل يوم بدر قد آذى المسلمين ونهاهم فقتله صهيب في القتال ، فقال رجل : يا رسول الله قتلت فلاناً ففرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمرو بن عبد الرحمن لصهيب : أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنك قتلته فأن فلاناً ينتحله ، فقال صهيب : إنما قتلته لله تعالى ولرسوله ، فقال عمرو بن عبدالرحمن : يا رسول الله قتله صهيب ، قال : كذلك يا أبا يحيى ؟ قال : نعم يا رسول الله ، فأنزل الله سبحانه ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ والآية الأخرى .

وقال الحسن : هؤلاء المنافقون ندبهم الله سبحانه ونسبهم الى الأقرار الذي أعلنوه للمسلمين فأنزل الله فقال : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ كذباً وزوراً ، وقال : ابن زيد : نزلت في المنافقين كانوا يعدون المؤمنين النصر وهم كاذبون ، وقال : مجاهد : نزلت في نفر من الأنصار منهم عبد الله بن رواحة قال : في مجلس لهم : لو علمنا أي الأعمال أحب الى الله لعملنا بها حتى نموت ، فأنزل الله سبحانه هذه السورة فقال عبد الله بن رواحة : لا أبرح حبيساً في سبيل الله حتى أموت أو أُقتل فقتل بمؤته شهيداً رحمة الله عليه ورضوانه ، وقال : ميمون بن مهران : نزلت في الرجل يقرض نفسه بما لم يفعله نظيره ويحبون أن يحمدوا عما لم يفعلوا .

حدّثنا أبو القاسم الحسيني لفظاً قال : حدّثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبدوس الطرائفي قال : حدّثنا عمي سعيد الدارمي قال : حدّثنا محبوب بن موسى الأنطاكي قال : حدّثنا أبو إسحاق الفراري عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن سلام قال : خرجنا نتذاكر فقلنا : أيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أي الأعمال أحب الى الله ، ثم تفرقنا وَهِبنا أن يأتيه أحدنا ، فأرسل إلينا

رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمعنا فجعل يومي بعضنا الى بعض فقرأ علينا ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ الى آخرها .

(43/762)

قال أبو سلمة : فقرأها علينا عبد الله بن سلام الى آخرها قال يحيى بن أبي كثير : فقرأ علينا أبو سلمة الى آخرها ، قال الأوزاعي : فقرأ علينا يحيى بن إسحاق الى آخرها ، قال أبو إسحاق الفزاري : فقرأها علينا الأوزاعي الى آخرها ، قال محبوب بن موسى : قرأها علينا الفزاري الى آخرها ، قال عثمان بن سعيد : فقرأها علينا محبوب الى آخرها ، قال الطرائفي : فقرأها علينا عثمان بن سعيد الى آخرها ، قال القاسم : وقرأها علينا أبو الحسن الطرائفي الى آخره ، وقرأها علينا الإستاذ أبو القاسم الى آخرها وسألنا أحمد الثعلبي أن يقرأ فقرأ علينا إلى آخرها .

﴿ كَبُرَ مَقْتاً ﴾ نصب على الحال وأن شئت على التمييز .

وقال الكسائي : ﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ في موضع رفع لان ﴿ كَبُرَ ﴾ بمنزلة قولك بئس رجلا أخوك ، وأضمر القراء فيه أسماً مرفوعاً ، والمقت والمقاتة مصدر واحد يقال : رجل ممقوت ومقيت إذا لم تحبّه الناس ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ قد رصّ بعضه الى بعض أي

أحكم وأيقن وأدقّ فليس فيه فرجة ولا خلل ، وأصله من الرصاص ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " تراصوا بينكم في الصفوف لا يتخللنكم الشياطين كأنها بنات حذف " .

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ ﴾ من بني إسرائيل ﴿ يا قومِ لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾ وذلك حين رموه بالادرة ﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ﴾ والرسول يحترم ويعظم ﴿ فَلَمَّا زاغوا أَزَاغَ الله ﴾ عن الحق ﴿ قُلُوبَهُمْ ﴾ عن الدين ﴿ والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين * وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ يا بني إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ ﴾ وهو الذي لا يذم ، وفي وجهه قولان :

أحدهما : أن الأنبياء كلّهم حمّادون لله سبحانه ونبينا صلى الله عليه وسلم أحمد ، أي أكثر حمداً لله منهم .

والثاني : أنّ الأنبياء كلّهم محمودون ونبيّنا أحمد أي أكثر مناقب وأجمع للفضائل .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بالبينات قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ الكذب وَهُوَ يدعى إِلَى الإسلام والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ والله مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون * هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى

الدين كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشركون * يا أيها الذين آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ تُنجيكُم ﴾ قراءة العامة بالتخفيف من الإنجاء وقرأ ابن عامر بالتشديد من [التنجية] ﴿ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ بيّن ما هي فقال : ﴿ تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثني ابن حرجة قال : حدّثنا محمد بن عبد الله بن سليمان قال : حدّثنا محمد بن الفرح البغدادي قال : حدّثنا حجاج بن محمد بن جبير القصاب عن الحسن قال : سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها فقال : " قصر من لؤلؤة في الجنّة وذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء في كل بيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون ، على كلّ فراش امرأة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لوناً من كل الطعام ، في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة ، قال : فيعطي الله المؤمن من القوة في غذائه وحده ما يأتي على ذلك كله " .

﴿ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الفوز العظيم * وأخرى ﴾ قال : نحاة البصرة : هي في محل الخفض مجازه : وتجارة أخرى ، وقال نحاة الكوفة : محلها رفع أي ولكم أخرى في العاجل مع ثواب الآجل .

﴿ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّن الله وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ ثم حثهم على نصرة الدين وجهاد المخالفين فقال : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ كونوا أَنصَارَ الله ﴾ أعواناً بالسيف على أعدائه ، قرأ أبو عمرو وقرأ أهل الحجاز أنصاراً بالتنوين وهو أختيار أيوب ، وقرأ الباقون بالأضافة وهو أختيار أبي حاتم وأبي عبيد قال : لقوله ﴿ أَنصَارَ الله ﴾ ولم يقل : أنصاراً لله .

﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أنصاري إِلَى الله قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنصَارُ الله فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بني إِسْرَائِيل وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الذين آمَنُواْ على عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 301.304 ﴾

(46/762)

وقال الزمخشرى :

سورة الصف

مدنية ، وآياتها 14 [نزلت بعد التغابن] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة الصف (61) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ (3) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ (4)

لِمَ هي لام الإضافة داخلة على ما الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك: بم، وفيم، وممّ، وعمّ، وإلام، وعلام. وإنما حذفت الألف، لأنّ ما والحرف كشيء واحد، ووقع استعمالهما كثيرا في كلام المستفهم، وقد جاء استعمال الأصل قليلا والوقف على زيادة هاء السكت أو الإسكان، ومن أسكن في الوصل فلإجرائه مجرى الوقف، كما سمع:

ثلاثة، أربعة: بالهاء وإلقاء حركة الهمزة عليها محذوفة، وهذا الكلام يتناول الكذب وإخلاف الموعد. وروى أنّ المؤمنين قالوا قبل أن يؤمروا بالقتال: لو نعلم أحب الأعمال إلى اللّه تعالى لعملناه ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فدلهم اللّه تعالى على الجهاد في سبيله، فولوا يوم أحد فعيرهم. وقيل: لما أخبر اللّه بثواب شهداء بدر قالوا: لئن لقينا قتالا لنفرغن فيه وسعنا، ففروا يوم أحد ولم يفوا. وقيل: كان الرجل يقول: قتلت ولم يقتل، وطعنت ولم يطعن، وضربت ولم يضرب، وصبرت ولم يصبر. وقيل: كان قد أذى المسلمين رجل

ونكى فيهم ، فقتله صهيب وانتحل قتله آخر ، فقال عمر لصهيب : أخبر النبي عليه السلام أنك قتلته ، فقال : إنما قتله للّه ولرسوله ، فقال عمر : يا رسول اللّه قتله صهيب ، قال : كذلك يا أبا يحيى ؟

قال : نعم ، فنزلت «1» في المنتحل . وعن الحسن : نزلت في المنافقين . ونداؤهم بالإيمان : تهكم بهم

---

(1) . أخرجه الثعلبي من حديث صهيب قال «كان رجل يوم بدر قد آذى المسلمين ونكأ فيهم فقتله صهيب .

فقال رجل : يا رسول اللّه قتلت فلانا . ففرح بذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . فقال عمرو بن عبد الرحمن لصهيب أخبر النبي صلى اللّه عليه وسلم بذلك - الحديث»

(47/762)

وبإيمانهم ، هذا من أفصح كلام وأبلغه «1» في معناه قصد في كُبُرَ التعجب من غير لفظه كقوله :

غلت ناب كليب بواؤها «2»

ومعنى التعجب : تعظيم الأمر في قلوب السامعين ، لأن التعجب لا يكون إلا من شيء

خارج عن نظائره وأشكاله ، وأسند إلى أن تقولوا . ونصب مَقْتاً على تفسيره ، دلالة على أنّ قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه ، لفرط تمكن المقت منه ، واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه . ومنه قيل : نكاح المقت ، للعقد على الرابة «3» ، ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيرا ، حتى جعل أشده وأفحشه . وعِنْدَ اللَّهِ أبلغ من ذلك ، لأنه إذا ثبت كبر مقته عند اللّه فقد تم كبره وشدته وانزاحت عنه الشكوك . وعن بعض السلف أنه قيل له : حدّثنا ، فسكت ثم قيل له حدثنا ، فقال : تأمروننى أن أقول ما لا أفعل فاستعجل مقت اللّه . في قوله إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ عقيب ذكر مقت المخلف : دليل «4» على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات في قتال الكفار فلم يفوا . وقرأ زيد بن على : يقاتلون بفتح التاء . وقرئ : يقتلون صَفًّا صافين أنفسهم أو مصفوفين كَأَنَّهُمْ في تراصهم من غير فرجة ولا خلل بُنْيانٌ رص بعضه إلى بعض ورصف . وقيل : يجوز أن يريد استواء نياتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص . وعن بعضهم : فيه دليل على فضل القتال راجلا ، لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة . وقوله صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ حالان متداخلتان «5» .

---

(1) . قال محمود : «هذا من أفصح الكلام وأبلغه ، في معناه قصد إلى التعجب بغير صيغة التعجب لتعظيم الأمر . . . الخ» قال أحمد : وزائد على هذه الوجوه الأربعة وجه خامس : وهو تكراره لقوله ما لا تَفْعَلُونَ وهو لفظ واحد في كلام واحد ومن فوائد التكرار : التهويل

والإعظام ، وإلا فقد كان الكلام مستقلا لو قيل : كبر مقتا عند اللّه ذلك ، فما إعادته إلا لمكان هذه الفائدة الثانية ، واللّه أعلم .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة 273 فراجعه إن شئت اه مصححة . [. . . . .]

(3) . قوله «على الرابة» هي بتشديد الباء كالدابة . وفي الصحاح : نكاح المقت كان في الجاهلية : أن يتزوج الرجل امرأة أبيه اه . (ع)

(4) . قال محمود : «ذكره لهذا عقيب ذكر مقت المخلف دليل . . . الخ» قال أحمد : صدق ، والأول كالبسطة العامة لهذه القصة الخاصة ، كقوله تعالى يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ فالنهي العام ورد أولا ، والمقصود اندراج هذا الخاص فيه كما تقول للمقترف جرما معينا : لا تفعل ما يلصق العار بك ولا تشاتم زيدا ، وفائدة مثل هذا النظم :

النهي عن الشيء الواحد مرتين مندرجا في العموم ومفردا بالخصوص ، وهو أولى من النهى عنه على الخصوص مرتين فان ذلك معدود في حين التكرار ، وهذا يتكرر مع ما في التعميم من التعظيم والتهويل ، واللّه أعلم .

(5) . قال محمود : «قوله صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ : حالان متداخلتان» قال أحمد :

يريد أن معنى الأولى مشتمل على معنى الثانية ، لأن التراص هيئة للاصطفاف ، واللّه أعلم .

(48/762)

[سورة الصف (61) : آية 5]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (5)

وَإِذْ منصوب بإضمار اذكر . أو : وحين قال لهم ما قال كان كذا وكذا تُؤْذُونَنِي كانوا يؤذونه بأنواع الأذى من انتقاصه وعيبه في نفسه ، وجحود آياته ، وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه ، وعبادتهم البقر ، وطلبهم رؤية اللّه جهرة ، والتكذيب الذي هو تضييع حق اللّه وحقه وَقَدْ تَعْلَمُونَ في موضع الحال ، أى : تؤذوننى عالمين علما يقينا «1» أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ وقضية علمكم بذلك وموجبه تعظيمي وتوقيري ، لا أن تؤذوني وتستهينوا بى ، لأن من عرف اللّه وعظمته عظم رسوله ، علما بأن تعظيمه في تعظيم رسوله ، ولأن من آذاه كان وعيد اللّه لا حقا به فَلَمَّا زاغُوا عن الحق أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بأن منع ألطافه عنهم «2» وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ لا يلطف بهم لأنهم ليسوا من أهل اللطف . فإن قلت : ما معنى قَدْ في

قوله قَدْ تَعْلَمُونَ؟ قلت: معناه التوكيد كأنه قال: وتعلمون علما يقينا لا شبهة لكم فيه.

[سورة الصف (61) : آية 6]

وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (6)

---

(1) . قال محمود: «بين أنهم على عكس الصواب حيث قال: تؤذونني عالمين... الخ» قال أحمد: أهل العربية تقول: إن «قد» تصحب الماضي لتقريبه من الحال. ومنه قول المؤذن: قد قامت الصلاة، وتشتمل المصاحبة للماضي أيضا على معنى التوقع، فلذلك قال سيبويه «قد فعل» جواب لما يفعل، وقال الخليل: هذا الخبر لقوم ينتظرونه، وأما مع المضارع فإنها تفيد التقليل مثل: ربما، كقولهم: إن الكذوب قد يصدق، فإذا كان معناها مع المضارع التقليل وقد دخلت في الآية على مضارع، فالوجه - والله أعلم - أن يكون هذا من الكلام الذي يقصدون به الافراط فيما ينعكس عنه، وتكون «قد» في هذا المعنى نظيرة «ربما» في قوله رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ فإنها في هذا الموضع أبلغ من كم في التكثير، فلما أوردت «ربما» في التكثير على عكس معناها الأصلى في التقليل، فكذلك إيراد «قد» ها هنا لتكثير علمهم، أى: تحقيق تأكيده على عكس معناها الأصلى في تقليل الأصل، وعليه:

قد أترك القرن مصفرا أنامله

وإنما مدح نفسه بكثرة هذا الفعل منه عكس ديدنه الأصلى ، ولا يقال : إن حملها في الآية على التكثير متعذر ، لأن العلم معلوم التعلق لا يتكثر ولا يتقلل ، لأنا نقول : يعبر عن تمكن الفعل وتحققه وتأكده وبلوغه الغاية في نوعه بما يعبر به عن التكثير ، وهو تعبير صحيح . ألا ترى أن قوله رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا هو من هذا القبيل ، فان المراد شدة ودهم لذلك وبلوغه أقصى منتهاه لا غير ، واللّه الموفق .

(2) . قوله «بأن منع ألطافه عنهم» فسر الازاغة بذلك بناء على مذهب المعتزلة : أنه تعالى لا يريد الشر .

ومذهب أهل السنة : أنه تعالى يريد الشر والخير ، كما تقرر في محله . (ع)

(49/762)

قيل : إنما قال : يا بنى إسرائيل ، ولم يقل : يا قوم كما قال موسى ، لأنه لا نسب له فيهم فيكونوا قومه «1» . والمعنى : أرسلت إليكم في حال تصديقى ما تقدمني مِنَ التَّوْراةِ وفي حال تبشيرى بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي يعنى : أن دينى التصديق بكتب اللّه وأنبيائه جميعا ممن تقدم وتأخر . وقرئ : من بعدي ، بسكون الياء وفتحها ، والخليل وسيبويه يختاران الفتح .

وعن كعب : أن الحواريين قالوا لعيسى : يا روح اللّه ، هل بعدنا من أمّة ؟ قال : نعم أمّة أحمد حكماء علماء أبرار أتقياء ، كأنهم من الفقه أنبياء ، يرضون من اللّه باليسير من الرزق ، ويرضى اللّه منهم باليسير من العمل . فإن قلت : بم انتصب مصدقا ومبشرا ؟ أبما في الرسول من معنى الإرسال أم بإليكم ؟ قلت : بل بمعنى الإرسال ، لأن إِلَيْكُمْ صلة للرسول ، فلا يجوز أن تعمل شيئًا لأن حروف الجرّ لا تعمل بأنفسها ، ولكن بما فيها من معنى الفعل ، فإذا وقعت صلات لم تتضمن معنى فعل ، فمن أين تعمل ؟ وقرئ : هذا ساحر مبين .

[سورة الصف (61) : آية 7]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (7)

وأى الناس أشد ظلما ممن يدعوه ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين ، فيجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على اللّه بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق : هذا سحر ، لأنّ السحر كذب وتمويه . وقرأ طلحة بن مصرف : وهو يدعى ، بمعنى يدعى . دعاه وادّعاه ، نحو : لمسه والتمسه . وعنه : يدّعى ، بمعنى يدعو ، وهو اللّه عز وجل .

[سورة الصف (61) : آية 8]

يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (8)

أصله : يريدون أن يطفؤا كما جاء في سورة براءة ، وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيدا له ، لما فيها من معنى الإرادة في قولك : جئتك لإكرامك ، كما زيدت اللام في : لا أبا لك ، تأكيدا لمعنى الإضافة في : لا أباك ، وإطفاء نور اللّه بأفواههم : تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن : هذا سحر ، مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ أى متمّ الحق ومبلغه غايته . وقرئ بالإضافة .

---

(1) . قال الزمخشري : «وإنما قال يا بَنِي إِسْرائِيلَ ولم يقل : يا قوم ، لأنه لم يكن له - صلوات اللّه على نبينا وعليه - نسب فيهم» قال أحمد : وهذا نظير قوله تعالى إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ لأن شعيبا لم يكن من قوم من أرسل إليهم .

(50/762)

[سورة الصف (61) : آية 9]

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9)

وَدِينِ الْحَقِّ الملة الحنيفية لِيُظْهِرَهُ ليعليه عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ على جميع الأديان المخالفة له ، ولعمري لقد فعل ، فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام .

وعن مجاهد : إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض إلا دين الإسلام . وقرئ : أرسل نبيه .

[سورة الصف (61) : الآيات 10 إلى 13]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13)

تُنْجِيكُمْ قرئ مخففا ومثقلا. وتُؤْمِنُونَ استئناف، كأنهم قالوا: كيف نعمل؟ فقال: تؤمنون «1» ، وهو خبر في معنى الأمر، ولهذا أجيب بقوله يَغْفِرْ لَكُمْ وتدل عليه قراءة ابن مسعود: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا. فإن قلت: لم جيء به على لفظ الخبر؟ قلت:

للإيذان بوجوب الامتثال، وكأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين. ونظيره قول

---

(1) . قال محمود: قوله تُؤْمِنُونَ استئناف كلام كأنه لما قال الكلام الأول قيل: كيف نفعل؟ فقيل:

تؤمنون ... الخ» قال أحمد: إنما وجه إعراب الفراء بما ذكر، لأنه لو جعله جوابا لقوله هَلْ أَدُلُّكُمْ فإنكم إن أدلكم على كذا وكذا أغفر لكم، فتكون المغفرة حينئذ مترتبة على مجرد دلالته إياهم على الخير، وليس كذلك، إنما تترتب المغفرة على فعلهم لما دلهم عليه لا على

نفس الدلالة ، فلذلك أول هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجارَةٍ بتأويل : هل تتجرون بالايمان والجهاد حتى تكون المغفرة مترتبة على فعل الايمان والجهاد لا على الدلالة ، وهذا التأويل غير محتاج إليه ، فان حاصل الكلام إذا صار إلى : هل أدلكم أغفر لكم ، التحق ذلك بأمثال قوله تعالى قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ فانه رتب فعل الصلاة على الأمر بها ، حتى كأنه قال ، فإنك إن تقل لهم أقيموا يقيموها . وللقائل أن يقول : قد قيل لبعضهم : أقم الصلاة فتركها ؟ فالجواب عنه : أن الأمر الموجه على المؤمن الراسخ في الايمان لما كان مظنة لحصول الامتثال ، جعل كالمحقق وقوعه مرتبا عليه ، وكذلك هاهنا لما كانت دلالة الذين آمنوا على فعل الخير مظنة لامتثالهم . وامتثالهم سببا في المغفرة محققا : عومل معاملة تحقق الامتثال والمغفرة مرتبين على الدلالة ، والله أعلم .

(51/762)

الداعي : غفر اللّه لك ، ويغفر الله لك : جعلت المغفرة لقوّة الرجاء ، كأنها كانت ووجدت .

فإن قلت : هل لقول الفراء أنه جواب هَلْ أَدُلُّكُمْ وجه ؟ قلت : وجهه أن متعلق الدلالة هو التجارة ، والتجارة مفسرة بالإيمان والجهاد ، فكأنه قيل : هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر

لكم ؟ فإن قلت : فما وجه قراءة زيد بن على رضى اللّه عنهما تُؤْمِنُونَ . . . وَتُجاهِدُونَ ؟

قلت : وجهها أن تكون على إضمار لام الأمر ، كقوله :

محمّد تفد نفسك كلّ نفس إذا ما خفت من أمر تبالا «1»

وعن ابن عباس أنهم قالوا : لو نعلم أحب الأعمال إلى اللّه لعملناه ، فنزلت هذه الآية ، فمكثوا ما شاء اللّه يقولون : ليتنا نعلم ما هي ، فدلهم اللّه عليها بقوله تُؤْمِنُونَ وهذا دليل على أن تُؤْمِنُونَ كلام مستأنف ، وعلى أنّ الأمر الوارد على النفوس بعد تشوّف وتطلع منها إليه :

أوقع فيها وأقرب من قبولها له مما فوجئت به ذِلِكُمْ يعنى ما ذكر من الإيمان والجهاد خَيْرٌ لَكُمْ من أموالكم وأنفسكم . فإن قلت : ما معنى قوله إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ قلت : معناه إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيرا لكم «2» حينئذ ، لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتموه أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم ، فتخلصون وتفلحون وَأُخْرى تُحِبُّونَها ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب في الآجلة نعمة أخرى عاجلة محبوبة إليكم ، ثم فسرها بقوله نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ أى عاجل وهو فتح مكة . وقال الحسن : فتح فارس والروم . وفي تُحِبُّونَها شيء من التوبيخ على محبة العاجل . فإن قلت : علام عطف قوله وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قلت : على تُؤْمِنُونَ لأنه في معنى الأمر ، كأنه قيل : آمنوا

وجاهدوا يثبكم اللّه وينصركم، وبشر يا رسول اللّه المؤمنين بذلك. فإن قلت: لم نصب من قرأ نصرا من

---

(1). لأبى طالب. وقيل: للأعشى، يقول: يا رسول اللّه، تفد، أى لتفد، فحذف لام الدعاء الجازمة للفعل لضرورة الشعر، وسوغ حذفها قرينة مقام الطلب، وإلا فحروف الجزم كحروف الجر لا تعمل وهي محذوفة إلا شذوذا، كما صرح به السكاكي. هذا والحذف في نحو قوله تعالى قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ أسهل لأن قرينته لفظية، وهي لفظ قُلْ الدال على الطلب. وقيل: هو خبر بمعنى الدعاء، وخفف بحذف الياء، وقيل: إن ذلك في غير الفواصل والقوا في غير سديد، أى: فدى اللّه نفسك بكل نفس إذا خفت تبالا من شيء.

والتبال: هو الوبال، قلبت واوه تاء. ويروى بالجر، على أنه صفة أمر وليس بجيد.

(2). قال محمود: «معناه: إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيرا لكم... الخ» قال أحمد: كأنه يجرى الشرط على حقيقته وليس بالظاهر، لأن علمهم لذلك محقق. إذ الخطاب مع المؤمنين، والظاهر أنه من وادى قوله يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ والمقصود بهذا الشرط: التنبيه على المعنى الذي يقتضى الامتثال وإلهاب الحمية للطاعة، كما تقول لمن تأمره بالانتصاف من عدوه: إن كنت حرا فانتصر، تريد أن تثير منه حمية الانتصار لا غير، واللّه أعلم.

اللّه وفتحا قريبا ؟ قلت : يجوز أن ينصب على الاختصاص . أو على تنصرون نصرا ، ويفتح لكم فتحا . أو على : يغفر لكم ويدخلكم جنات ، ويؤتكم أخرى نصرا من اللّه وفتحا .

[سورة الصف (61) : آية 14]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ (14)

قرئ : كونوا أنصار اللّه وأنصارا للّه . وقرأ ابن مسعود : كونوا أنتم أنصار اللّه . وفيه زيادة حثم للنصرة عليهم . فإن قلت : ما وجه صحة التشبيه - وظاهره تشبيه كونهم أنصارا بقول عيسى صلوات اللّه عليه : مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ «1» ؟ قلت : التشبيه محمول على المعنى ، وعليه يصح . والمراد : كونوا أنصار اللّه كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ . فإن قلت : ما معنى قوله مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ ؟ قلت : يجب أن يكون معناه مطابقا لجواب الحواريين نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ والذي يطابقه أن يكون المعنى : من

جندي متوجها إلى نصرة اللّه ، وإضافة أَنْصارِي خلاف إضافة أَنْصارَ اللَّهِ فإنّ معنى نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ :

نحن الذين ينصرون اللّه . ومعنى مَنْ أَنْصارِي من الأنصار الذين يختصون بى ويكونون معى في نصرة اللّه ، ولا يصح أن يكون معناه : من ينصرني مع اللّه ، لأنه لا يطابق الجواب . والدليل عليه : قراءة من قرأ : من أنصار اللّه . والحواريون أصفياؤه وهم أوّل من آمن به وكانوا اثنى عشر رجلا ، وحوارى الرجل : صفيه وخلصانه «2» من الحور وهو البياض الخالص .

والحوّارى :

الدرمك . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «الزبير ابن عمّى وحواريي من أمتى» «3»

وقيل :

كانوا قصارين يحوّرون الثياب يبيضونها . ونظير الحوارى في زنته : الحوالى : الكثير الحيل فَآمَنَتْ طائِفَةٌ منهم بعيسى وَكَفَرَتْ به طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا مؤمنيهم على كفارهم ، فظهروا

---

(1) . قال محمود : «إن قلت ما وجه التشبيه وظاهره تشبيه كونهم أنصارا . . . الخ» قال أحمد : كلام حسن وتمام على الذي أحسن : أن يميز بين الاضافتين المذكورتين : بأن الأولى محضة والثانية غير محضة ، فتنبه لها ، واللّه الموفق .

(2) . قوله «وخلصانه» أى خالصته ، يستوي فيه الواحد والكثير ، كذا في الصحاح.

وفيه : الدرمك :

دقيق الحوارى. وفيه أيضا: والحوارى ما حور من الطعام، أى بيض. وهذا دقيق حوارى

، وكل هذه بالضم كما أفاده الصحاح. (ع)

(3) . أخرجه النسائي من حديث جابر. وهو في الصحيحين بلفظ «لكل نبى حوارى

وحواريي الزبير» .

عليهم. وعن زيد بن على: كان ظهورهم بالحجة.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من قرأ سورة الصف كان عيسى مصليا عليه

مستغفرا له ما دام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه» «1» . انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف

حـ 4 صـ 522.529﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبى بن كعب رضى اللّه عنه.

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين ءامنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها نزلت في قوم قالوا : لو عملنا أحب الأعمال إلى الله لسارعنا إليه ، فلما نزل فرض الجهاد تثاقلوا عنه ، قاله ابن عباس ومجاهد .

الثاني : أنها نزلت في قوم كان يقول الرجال منهم : قاتلت ولم يقاتل ، وطعنت ، ولم يطعن ، وضربت ، ولم يضرب وصبرت ، ولم يصبر ، وهذا مروي عن عكرمة .

الثالث : أنها نزلت في المنافقين كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم ولأصحابه إن خرجتم وقاتلتم خرجنا معكم وقاتلنا فلما خرجوا نكصوا عنهم وتخلفوا .

وهذه الآية وإن كان ظاهرها الإنكار لمن قال ما لا يفعل فالمراد بها الإنكار لمن لم يفعل ما قال ، لأن المقصود بها القيام بحقوق الالتيام دون إسقاطه .

﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ مصطفين صفوفاً كالصلاة ، لأنهم إذا اصطفوا مثلاً صفين كان أثبت لهم وأمنع من عدوهم . قال سعيد بن جبير :

هذا تعليم من الله للمؤمنين .

﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن المرصوص الملتصق بعضه إلى بعض لا ترى فيه كوة ولا ثقباً لأن ذلك أحكم في

البناء من تفرقه وكذلك الصفوف، قاله ابن جبير، قال الشاعر:

وأشجر مرصوص بطين وجندل... له شرفات فوقهن نصائب

والثاني: أن المرصوص المبني بالرصاص، قاله الفراء، ومنه قول الراجز:

ما لقي البيض من الحرقوص... يفتح باب المغلق المرصوص

﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وفي الزيغ وجهان:

أحدهما: أنه العدول، قاله السدي.

الثاني: أنه الميل، إلا أنه لا يستعمل إلا في الزيغ عن الحق دون الباطل.

ويحتمل تأويله وجهين:

أحدهما: فلما زاغوا عن الطاعة أزاغ الله قلوبهم عن الهداية.

الثاني: فلما زاغوا عن الإيمان أزاغ قلوبهم عن الكلام.

وفي المِعنيّ بهذا الكلام ثلاثة أقاويل:

أحدها: المنافقون.

الثاني: الخوارج، قاله مصعب بن سعيد عن أبيه.

الثالث: أنه عام.

﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ وهذه البشرى من عيسى تتضمن أمرين :

أحدهما : تبليغ ذلك إلى قومه ليؤمنوا به عند مجيئه ، وذلك لا يكون منه بعد إعلام الله له بذلك إلا عن أمر بتبليغ ذلك إلى أمته .

الثاني : ليكون ذلك من معجزات عيسى عند ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا يجوز أن يقتصر عيسى فيه على إعلام الله له بذلك دون أمره بالبلاغ .

وفي تسمية الله له بأحمد وجهان :

أحدهما : لأنه من أسمائه فكان يسمى أحمد ومحمداً قال حسان :

صلى الإله ومن يحف بعرشه . . . والطيبون على المبارك أحمد

الثاني : أنه مشتق من اسمه محمود ، فصار الاشتقاق اسماً ، كما قال حسان :

وشق له من اسمه ليجله . . . فذو العرش محمود وهذا محمد

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" اسمي في التوراة أحيد لأني أحيد أمتي عن النار ، واسمي في الزبور الماحي محا الله بي عبادة الأصنام ، واسمي في الإنجيل أحمد ، واسمي في القرآن محمد لأني محمود في أهل السماء والأرض . "

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم الكفار والمنافقون ، قاله ابن جريج .

الثاني : أنه النضر وهو من بني عبد الدار قال إذا كان يوم القيامة شفعت لي العزى واللات ، فأنزل الله هذه الآية ، قاله عكرمة .

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ﴾ الآية . والإطفاء هو الإخماد ، ويستعملان في النار ، ويستعاران فيما يجري مجراها من الضياء والنور .

والفرق بين الإطفاء والإخماد من وجه وهو أن الإطفاء يستعمل في القليل والكثير ، والإخماد يستعمل في الكثير دون القليل ، فيقال أطفأت السراج ولا يقال أخمدت السراج .

وفي ﴿ نور الله ﴾ ها هنا خمسة أقاويل :

أحدها : القرآن ، يريدون إبطاله بالقول ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنه الإسلام ، يريدون دفعه بالكلام ، قاله السدي .

الثالث : أنه محمد صلى الله عليه وسلم يريدون هلاكه بالأراجيف ، قاله الضحاك .

الرابع : أنه حجج الله ودلائله ، يريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم ، قاله ابن بحر .

الخامس : أنه مثل مضروب ، أي من أرد إطفاء نور الشمس بفيه فوجده مستحيلاً ممتنعاً فكذلك من أراد إبطال الحق ، حكاه ابن عيسى .

وسبب نزول هذه الآية ما حكاه عطاء عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم أبطأ عليه الوحي أربعين يوماً ، فقال كعب بن الأشرف :

يا معشر اليهود ابشروا فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان الله ليتم أمره ، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك ، فأنزل الله هذه الآية ، ثم اتصل الوحي بعدها .

﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ الآية . وفي الإظهار ثلاثة أقاويل :

أحدها : الغلبة على أهل الأديان .

الثاني : العلو على الأديان .

الثالث : العلم بالأديان من قولهم قد ظهرت على سره أي علمت به .

﴿ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ﴾ وهذا من الله لزيادة الترغيب ، لأنه لما وعدهم بالجنة على طاعته وطاعة رسوله علم أن منهم من يريد عاجل النصر لقاء رغبة في الدنيا ولقاء تأيد الدين فوعدهم بما يقوي به الرغبة فقال : ﴿ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ﴾ يعني فتح البلاد عليه وعليهم ، وقد أنجز الله وعده في كلا الأمرين من

النصر والفتح .

وفي قوله : ﴿ قريب ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه راجع إلى ما يحبونه أنه نصر من الله وفتح قريب .

الثاني : أنه إخبار من الله بأن ما يحبونه من ذلك سيكون قريباً ، فكان كما أخبر لأنه عجل لهم الفتح والنصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 527 . 531 ﴾

(57/762)

وقال ابن الجوزى :

سورة الصف

قوله تعالى : ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾

في سبب نزولها خمسة أقوال :

أحدها : ما روى أبو سلمة عن عبد الله بن سلام ، قال : قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلنا : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل عملناه ، فأنزل الله ﴿ سبح لله ما في السموات ﴾ إلى آخر السورة .

والثاني : أن الرجل كان يجيء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول : فعلتُ كذا وكذا ،

وما فعل ، فنزلت "لم تقولون ما لا تفعلون" رواه عكرمة عن ابن عباس ، وكذلك قال الضحاك : كان الرجل يقول : قاتلتُ ، ولم يقاتل ، وطعنت ، ولم يطعن ، وصبرت ، ولم يصبر ، فنزلت هذه الآية .

والثالث : أن ناساً من المسلمين كانوا يقولون قبل أن يفرض الجهاد : لوددنا أن الله تعالى دلنا على أحب الأعمال إِليه ، فلما نزل الجهاد ، كرهه ناس من المؤمنين ، فنزلت هذه الآية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والرابع : أن صهيباً قتل رجلاً يوم بدر ، فجاء رجل فادعى أنه قتله وأخذ سلبه ، فقال صهيب : أنا قتلته يا رسول الله ، فأمره أن يدفع سلبه إلى صهيب ، ونزلت هذه الآية ، رواه سعيد بن المسيب عن صهيب .

والخامس : أن المنافقين كانوا يقولون للنبي وأصحابه : لو قد خرجتم خرجنا معكم ، ونصرناكم .

فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم نكصوا عنه ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ كبُر مقتاً عند الله ﴾ قال الزجاج : "مقتاً" منصوب على التمييز ، والمعنى : كَبُرَ قولُكم ما لا تفعلون مقتاً عند الله .

ثم أعلم عز وجل ما الذي يحبه ، فقال تعالى : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ أي : بنيان لاصق بعضه ببعض ، فأعلم أنه يحب من يثبت

في الجهاد ، ويلزم مكانه كثبوت البنيان المرصوص .

ويجوز أن يكون عنى أن يستوي ثباتهم في حرب عدوِّهم حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص ، وللمفسرين في المراد ب "المرصوص" قولان .

(58/762)

أحدهما : أنه الملتصق بعضه ببعض ، فلا يرى فيه خلل لإحكامه ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه المبنيُّ بالرصاص ، وإلى نحو هذا ذهب الفراء ، وكان أبو بحرية يقول : كانوا يكرهون القتال على الخيل ، ويستحبُّون القتال على الأرض لهذه الآية اسم أبي بحرية : عبد الله بن قيس التَّراغِمي ، يروي عن معاذ ، وكأنه أشار بذلك إلى أن الفرسان لا يصطفُّون في الغالب إنما يَصْطَفُّ الرَّجَّالة .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى ﴾ المعنى : اذكر لمن يؤذيك من المنافقين ما صنعتُ بالذين آذَوْا موسى .

وقد ذكرنا ما آذَوْا به موسى في [الأحزاب : 69] .

قوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا ﴾ أي : مالوا عن الحق ﴿ أزاغ الله قلوبهم ﴾ أي : أمالها عن الحق جزاءً لما ارتكبوه ، وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى ﴿ يأتي من بعدي ﴾ قرأ ابن

كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم "من بعديَ اسْمُه" بفتح الياء.

وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم "من بعديْ اسمه" بإسكان الياء

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب ﴾ وفيهم قولان.

أحدهما: أنهم اليهود، قاله مقاتل.

والثاني: النصارى حين قالوا: عيسى ابن الله، قاله أبو سليمان الدمشقي.

وقرأ ابن مسعود.

وعاصم الجحدري، وطلحة بن مصرف "يَدَّعِي إِلى الإسلام" بفتح الياء، والدال،

وتشديدها، وبكسر العين، وما بعد هذا في [براءة: 32] إلى قوله تعالى: ﴿ مُتِمُّ نُورِه

﴾ قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم وخلف "مُتِمُّ نُورِه" مضاف.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم "مُتِمٌّ" رفع منون.

قوله تعالى: ﴿ هل أدلكم على تجارة ﴾ قال المفسرون: نزلت: هذه الآية حين قالوا: لو

علمنا أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا به أبداً، فدلَّهم الله على ذلك، وجعله بمنزلة

التجارة لمكان ربحهم فيه.

قوله تعالى: ﴿ تنجيكم ﴾ قرأ ابن عامر "تنجّيكم" بالتشديد.

وقرأ الباقون بالتخفيف.

ثم بَيَّن التجارة ، فقال تعالى : ﴿ تؤمنون بالله ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ يغفر لكم ﴾ قال الزجاج : وقوله : "يغفر لكم" جواب قوِله : "وتجاهدون" ، لأن معناه معنى الأمر .

والمعنى : آمنوا بالله وجاهدوا ، يغفر لكم ، أي : إن فعلتم ذلك ، يغفر لكم .

وقد غلط بعض النحويين ، فقال : هذا جواب "هل" وهذا غلط بَيِّنٌ ، لأنه ليس إذا دلَّهم على ما ينفعهم غفر لهم ، إنما يغفر لهم إذا عملوا بذلك .

ومن قرأ "يغفر لهم" بإدغام الراء في اللام ، فغير جائز عند سيبويه ، والخليل ، لأنه لا تدغم الراء في اللام في قولهم .

وقد رُوِيَتْ عن أبي عمرو بن العلاء ، وهو إمام عظيم ، ولا أحسبه قرأها إلا وقد سمعها من العرب .

وقد زعم سيبويه والخليل وجميع البصريين ، ما خلا أبا عمرو ، أن اللام تدغم في الراء ، وأن الراء لا تدغم في اللام ، وحُجَّتهم أن الراء حرف مكرر قوي ، فإذا أدغمت في اللام ذهب التكرير منها .

وما بعد هذا قد سبق إلى قوله تعالى : ﴿ وأخرى تحبُّونها ﴾ قال الفراء : والمعنى : ولكم في العاجل مع ثواب الآخرة أخرى تحبُّونها ، ثم فسرها فقال تعالى : ﴿ نَصْرٌ من الله وفتح قريب ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : أنه فتح مكة ، قاله ابن عباس .

والثاني : فتح فارس والروم ، قاله عطاء .

قوله تعالى : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أي : بالنصر في الدنيا ، والجنة في الآخرة ، ثم حضَّهم على نصر دينه بقوله تعالى ﴿ كونوا أنصار الله ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، "كونوا أنصاراً لله" منوَّنة .

(60/762)

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي "أنصارَ الله" ومعنى الآية : دُوموا على ما أنتم عليه ، وانصروا دين الله ، مثل نُصْرَة الحواريين لمَّا قال لهم عيسى : ﴿ مَن أنصاري إلى الله ﴾ وحرَّك نافع ياء "مَن أنصاريَ إلى الله" وقد سبق تفسير هذا الكلام [آل عمران : 52] ﴿ فآمنت طائفة من بني إسرائيل ﴾ بعيسى ﴿ وكفرت طائفة ﴾ ﴿ فأيَّدنا الذين آمنوا ﴾ بعيسى ﴿ على عدوِّهم ﴾ وهم مخالفو عيسى ، كذلك قال ابن عباس ، ومجاهد ، والجمهور ، وقال مقاتل : تم الكلام عند قوله تعالى : ﴿ وكفرت طائفة ﴾ ، ﴿ فأيدنا الذين آمنوا ﴾ بمحمد ﴿ على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، بمحمد على الأديان .

وقال إبراهيم النخعي : أصبح من آمن بعيسى ظاهرين بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم ، أن عيسى كلمة الله وروحه بتعليم الحجة .

قال ابن قتيبة : ﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾ أي : غالبين عليهم بمحمد .

من قولك : ظهرت على فلان : إذا علوته ، وظهرت على السطح : إذا صرتَ فوقه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 249. 256 ﴾

(61/762)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾

قيل سبب نزولها ما روي عن عبد الله بن سلام قال " قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتذاكرنا فقلنا لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا فأنزل الله تعالى سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون قال عبد الله بن سلام فقرأها علينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أخرجه الترمذي وقال المفسرون إن المؤمنين قالوا لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعملناه ولبذلنا

فيها أموالنا وأنفسنا فأنزل الله : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ وأنزل الله ﴿ هل أدلكم على تجارة ﴾ الآية فابتلوا بذلك يوم أحد فولوا مدبرين وكرهوا الموت وأحبوا الحياة فأنزل الله تعالى لم تقولون ما لا تفعلون وقيل لما أخبر الله تعالى رسوله (صلى الله عليه وسلم) بثواب أهل بدر قالت الصحابة لئن لقينا قتالاً لنفرغن فيه وسعنا ففروا يوم أحد فعيرهم الله بهذه الآية وقيل نزلت في شأن القتال كان الرجل يقول قاتلت ولم يقاتل وأطعمت ولم يطعم وضربت ولم يضرب فنزلت هذه الآية وقيل نزلت في المنافقين وذلك أنهم كانوا يعدون النصر للمؤمنين وهم كاذبون .

﴿ كبر مقتاً عند الله ﴾ أي عظم بغضاً عند الله ﴿ أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ معناه أن يعدوا من أنفسهم شيئاً ولم يفوا به ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ أي يصفون أنفسهم عند القتال صفاً ولا يزولون عن أماكنهم ﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾ أي قد رص بعضه ببعض وألزق بعضه إلى بعض وأحكم فليس فيه فرجة ولا خلل ومنه الحديث " تراصوا في الصف " ومعنى الآية إن الله يحب أن يثبت في الجهاد في سبيله ويلزم مكانه كثبوت البناء المرصوص .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك إذ قال موسى لقومه بني إسرائيل ﴿ يا قوم لم تؤذونني ﴾ قيل : إنهم كانوا يؤذونه بأنواع من الأذى التعنت منها قولهم أرنا الله جهرة وقولهم لن نصبر على طعام واحد ومنها أنهم رموه بالأدرة ﴿ وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ﴾ يعني تؤذونني وأنتم عالمون علماً قطعياً أني رسول الله إليكم والرسول يعظم ويوقر ويحترم ولا يؤذي ﴿ فلما زاغوا ﴾ أي عدلوا ومالوا عن الحق ﴿ أزاغ الله قلوبهم ﴾ أي أمالها عن الحق إلى غيره ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ أي لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق خارج عن طاعته وهدايته وهذا تنبيه على عظم إيذاء الرسل حتى إن أذاهم يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم ﴾ أي إني رسول أرسلت إليكم بالوصف الذي وصفت به في التوراة ﴿ مصدقاً لما بين يدي من التوراة ﴾ أي مقر معترف بأحكام التوراة وكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن قد تقدم ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي ﴾ أي يصدق بالتوراة على مثل تصديقي فكأنه قيل ما اسمه فقال ﴿ اسمه أحمد ﴾ عن أبي موسى قال " أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أصحابه أن يأتوا النجاشي " وذكر الحديث ، وفيه قال " سمعت النجاشي يقول أشهد أن محمداً رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بشر به عيسى ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحملت من أمر الناس لأتيته حتى أحمل نعليه " أخرجه أبو داود وعن عبد الله بن سلام قال مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن

مريم يدفن معه فقال أبو داود المدني قد بقي في البيت موضع قبر أخرجه الترمذي عن كعب الأحبار أن الحواريين قالوا لعيسى (صلى الله عليه وسلم) يا روح الله هل بعدنا من أمة؟ قال نعم يأتي بعدكم أمة حكماء علماء أبرار أتقياء كأنهم في الفقه أنبياء يرضون من الله باليسير من الرزق ويرضى الله منهم باليسير من العمل (ق) عن جبير بن مطعم قال :

(63/762)

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

(64/762)

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب ﴾ أي ومن أقبح ظلماً ممن بلغ افتراؤه أن يكذب على الله وذلك أنهم علموا أن ما نالوه من نعمة فمن الله ثم كفروا به ﴿ وهو يدعى إلى الإسلام ﴾ معنى الآية أي الناس أشد ظلماً ممن يدعوه ربه على لسان نبيه (صلى الله عليه وسلم) إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين فيجعل مكان إجابته افتراء الكذب على الله بقوله هذا سحر مبين ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي لا يوفقهم للهداية علم من

حالهم عقوبة لهم ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ﴾ يعني إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن هذا سحر ﴿ والله متم نوره ﴾ يعني متم للحق ومظهره ومبلغه غايته وقال ابن عباس مظهر دينه ﴿ ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ أي ليعليه على الأديان المخالفة له ولقد فعل ذلك فلم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب ومقهور بدين الإسلام ﴿ ولو كره المشركون ﴾ ، قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾ نزلت هذه الآية حين قالوا لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه وإنما سماه تجارة لأنهم يربحون فيه رضا الله ونيل جنته والنجاة من النار ثم بين تلك التجارة فقال تعالى : ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ﴾ أي الذي آمركم به من الإيمان والجهاد في سبيله ﴿ إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ﴾ هذا جواب قوله تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون لأن معناه معنى الأمر والمعنى آمنوا بالله وجاهدوا في سبيل الله أي إذا فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم ﴿ ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ﴾ يعني هذا الجزاء الذي ذكر هو الفوز العظيم ، ﴿ وأخرى تحبونها ﴾ أي ولكم تجارة أخرى وقيل لكم خصلة أخرى تحبونها في العاجل مع ثواب الآخرة وتلك الخصلة ﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾ ، قيل هو النصر على

قريش وفتح مكة وقيل فتح مدائن فارس والروم ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أي يا محمد بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة ثم حضهم على نصر الدين وجهاد المخالفين فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله ﴾ أي مع الله والمعنى انصروا دين الله كما نصر الحواريون دين الله لما قال لهم عيسى من أنصاري إلى الله ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ وكانوا اثني عشر رجلاً أول من آمن بعيسى وحواري الرجل صفيه وخلاصته ومنه قوله (صلى الله عليه وسلم) " حواري الزبير ﴿ فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ﴾ قال ابن عباس في زمن عيسى وذلك أنه لما رفع تفرق قومه ثلاث فرق فرقة قالوا كان الله فارتفع وفرقة قالوا كان ابن الله فرفعه وفرقة قالوا كان عبد الله ورسوله فرفعه وهم المؤمنون واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس فاقتتلوا فظهرت الفرقتان الكافرتان على المؤمنين حتى بعث الله محمداً (صلى الله عليه وسلم) فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرة فذلك قوله تعالى : ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ أي غالبين وقيل معناه فأصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد (صلى الله عليه وسلم) أن عيسى روح الله وكلمته والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 83 . 86 ﴾

وقال النسفى :

سورة الصف

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السماوات وَمَا فِى الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾

رُوي أنهم قالوا قبل أن يؤمروا بالجهاد : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملناه ، فنزلت آية الجهاد فتباطأ بعضهم فنزلت ﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ "لم" هي لام الإضافة داخلة على "ما" الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك : "بم وفيم وممّ وعمّ وإلام وعلام" ، وإنما حذفت الألف لأن "ما" واللام أو غيرها كشيء واحد وهو كثير الاستعمال في كلام المستفهم ، وقد جاء استعمال الأصل قليلاً قال :

على ما قام يشتمني جرير

والوقف على زيادة هاء السكت أو الإسكان ومن أسكن في الوصل فلإجرائه مجرى الوقف ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ قصد في كبر التعجب من غير لفظه كقوله

غلت ناب كليب بواؤها

ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين ، لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأسند إلى أن تقولوا ونصب مقتاً على التمييز ، وفيه دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه ، والمعنى : كبر قولكم ما لا تفعلون مقتاً عند الله ، واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض ، وعن بعض السلف أنه قيل له : حدثنا ، فقال : أتأمرونني أن أقول ما لا أفعل فأستعجل مقت الله .

ثم أعلم الله عز وجل ما يحبه فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الذين يقاتلون فِى سَبِيلِهِ صَفّاً ﴾ أي : صافين أنفسهم مصدر وقع موقع الحال ﴿ كَأَنَّهُم بنيان مَّرْصُوصٌ ﴾ لاصق بعضه ببعض .

(67/762)

وقيل : أريد به استواء نياتهم في حرب عدوهم حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان الذي رص بعضه إلى بعض وهو حال أيضاً ﴿ وَإِذْ ﴾ منصوب ب "اذكر" ﴿ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يا قوم لِمَ تُؤْذُونَنِى ﴾ بجحود الآيات والقذف بما ليس فيّ ﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ ﴾ في موضع الحال أي : لم تؤذونني عالمين علماً يقيناً ﴿ أَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ وقضية علمكم بذلك توقيري وتعظيمي لا أن تؤذوني ﴿ فَلَمَّا زَاغُواْ ﴾ مالوا عن الحق ﴿ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ

﴾ من الهداية، أو لما تركوا أوامره نزع نور الإيمان من قلوبهم، أو فلما اختاروا الزيغ أزاغ الله قلوبهم أي: خذلهم وحرمهم توفيق اتباع الحق ﴿ والله لا يَهْدِى القوم الفاسقين ﴾ أي: لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق.

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ يا بنى إسراءيل ﴾ ولم يقل: يا قوم كما قال موسى لأنه لا نسب له فيهم فيكونوا قومه ﴿ إِنِّى رَسُولُ الله إِلَيْكُم مُّصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التوراة وَمُبَشّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسمه أَحْمَدُ ﴾ أي: أرسلت إليكم في حال تصديقي ما تقدمني من التوراة وفي حال تبشيري برسول يأتي من بعدي يعني: أن ديني التصديق: التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتأخر، ﴿ بَعْدِى ﴾ حجازي وأبو عمرو وأبو بكر وهو اختيار الخليل وسيبويه، وانتصب ﴿ مُصَدّقاً ﴾ و ﴿ مُبَشّرًا ﴾ بما في الرسول من معنى الإرسال ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم ﴾ عيسى أو محمد عليهما السلام ﴿ بالبينات ﴾ بالمعجزات ﴿ قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ ساحر ﴾ حمزة وعلي.

(68/762)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله الكذب وَهُوَ يدعى إِلَى الإسلام والله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ وأيّ: الناس أشد ظلماً ممن يدعوه ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي له فيه

سعادة الدارين ، فيجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على الله بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق هذا سحر والسحر كذب وتمويه ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللهِ بأفواههم ﴾ هذا تهكم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن : هذا سحر ، مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه والمفعول محذوف واللام للتعليل ، والتقدير : يريدون الكذب ليطفئوا نور الله بأفواههم ، أي : بكلامهم ﴿ والله مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ مكي وحمزة وعلي وحفص ﴿ مُتِمٌّ نورَهِ ﴾ غيرهم أي : متم الحق ومبلغه غايته ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق ﴾ أي : الملة الحنيفية ﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ ليعليه ﴿ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ على جميع الأديان المخالفة له ، ولعمري لقد فعل فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام ، وعن مجاهد : إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض إلا دين الإسلام ﴿ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ﴾ .

﴿ يأَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارة تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ﴿ تُنجّيكم ﴾ شامي ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ استئناف كأنهم قالوا كيف نعمل؟ فقال : ﴿ تؤمنون ﴾ وهو بمعنى آمنوا عند سيبويه ولهذا أجيب بقوله : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ويدل عليه قراءة ابن مسعود ﴿

آمنوا بالله وَرَسُولِهِ وجاهدوا ﴾ وإنما جيء به على لفظ الخبر للإيذان بوجوب الامتثال وكأنه امتثل ، فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين ﴿ بالله وَرَسُولِهِ وتجاهدون فِى سَبِيلِ الله بأموالكم وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ ﴾ أي : ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه خير لكم كان خيراً حينئذ لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتموه أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أموالكم وأنفسكم فتفلحون وتخلصون ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ومساكن طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أي : إقامة وخلود يقال عدن بالمكان إذا أقام به كذا قيل : ﴿ ذلك الفوز العظيم وأخرى تُحِبُّونَهَا ﴾ ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب في الآجلة نعمة أخرى عاجلة محبوبة إليكم ، ثم فسرها بقوله ﴿ نَصْرٌ مِّن الله وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أي : عاجل ، وهو فتح مكة والنصر على قريش : أو فتح فارس والروم ، وفي ﴿ تُحِبُّونَهَا ﴾ شيء من التوبيخ على محبة العاجل ، وقال صاحب الكشف معناه : هل أدلكم على تجارة تنجيكم وعلى تجارة أخرى تحبونها ، ثم قال : ﴿ نَصْرٌ ﴾ أي : نصر هي ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ عطف على ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ لأنه في معنى الأمر ، كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا – يثبكم الله وينصركم وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك : وقيل : عطف على "قل" مراداً قبل ﴿ ياأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ .

﴿ يا أيها الذين ءامنوا كونوا أنصارُ الله ﴾ أي : أنصار دينه ﴿ أَنصَارًا لِلَّهِ ﴾ حجازي وأبو عمرو ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ للحوارين من أنصاري إلى الله ﴾ ظاهره تشبيه كونهم أنصاراً بقول عيسى ﴿ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللهِ ﴾ ولكنه محمول على المعنى ، أي : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم : ﴿ مَنْ أَنصَارِى إِلَى الله ﴾ ومعناه : من جندي متوجهاً إلى نصرة الله ليطابق جواب الحواريين وهو قوله : ﴿ قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنصَارُ الله ﴾ أي : نحن الذين ينصرون الله ، ومعنى ﴿ مَنْ أَنصَارِى ﴾ من الأنصار الذين يختصون بي ويكونون معي في نصرة الله والحواريون أصفياؤه ، وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً ، وحواري الرجل صفيه ، وخالصه من الحور وهو البياض الخالص ، وقيل : كانوا قصارين يحورون الثياب ، أي : يبيضونها ﴿ فَئَامَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِى إسراءيل ﴾ بعيسى ﴿ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾ به ﴿ فَأَيَّدْنَا الذين آمَنُوا عَلَى عَدُوِهِمْ ﴾ فقوينا مؤمنيهم على كفارهم ﴿ فَأَصْبَحُواْ ظاهرين ﴾ فغلبوا عليهم والله ولي المؤمنين والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 251. 254 ﴾

(71/762)

وقال ابن جزى :

سورة الصف

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

في سببها ثلاثة أقوال : أحدها قول ابن عباس : أن جماعة قالوا : وددنا أن نعرف أحب الأعمال إلى الله فنعمله ، ففرض الله الجهاد فكرهه قوم فنزلت الآية والآخر أن قوماً من شبان المسلمين كانوا يتحدثون عن أنفسهم في الغزو بما لم يفعلوا ، ويقولون فعلنا وصنعنا وذلك كذب ، فنزلت الآية زجراً لهم . والثالث أنها نزلت في المنافقين ، لأنهم كانوا يقولون للمؤمنين : نحن معكم ومنكم ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك وهذا ضعيف ، لأنه خاطبهم بقوله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ ﴾ إلا أن يريد أنهم آمنوا بزعمهم ، وفيما يُظهرون . ومع ذلك فحكم الآية على العموم في زجر من يقول ما لا يفعل ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُواْ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ كان بعض السلف يستحي أن يعظ الناس لأجل هذا الآية ويقول : أخاف من مقت الله ، والمقت هو البغض لريبة أو نحوها ، وانتصب مقتاً على التمييز وأن تقولوا فاعل ، وقيل : فاعل كبر محذوف تقديره : كبر فعلكم مقتاً وأن تقولوا بدل من الفاعل المحذوف أو خبر ابتداء مضمر ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ الذين يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً ﴾ وورود هذه الآية هنا دليل على أن الآية التي قبلها في شأن القتال ، وقال بعض الناس : قتال الرجالة أفضل من قتال الفرسان ، لأن التراص فيه يتمكن أكثر مما يتمكن للفرسان . قاله ابن عطية

وهذا ضعيف، خفي على قائله مقصد الآية، وليس المراد نفس التراص، وإنما المراد الثبوت والجد في القتال ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ المرصوص هو الذي يُضم بعضُه إلى بعض. وقيل: هو المعقود بالرصاص ولا يبعد أن يكون هذا أصل اللفظ.

(72/762)

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يا قوم لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾ كانوا يؤذونه بسوء الكلام وبعصيانه وتنقيصه وانظر في الأحزاب ﴿ لاَ تَكُونُواْ كَالذين آذَوْاْ موسى ﴾ [الأحزاب: 69] ﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ ﴾ هذا إقامة حجة عليهم وتوبيخ لهم، وتقبيح لإذايته مع علمهم بأنه رسول الله، ولذلك أدخل قد الدالة على التحقيق ﴿ فَلَمَّا زاغوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ ﴾ هذه عقوبة على الذنب بذنب، وزيغ القلب هو ميله على الحق.

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ يا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ إنما ق لموسى يا قوم، وقال عيسى يا بني إسرائيل، لأنه لم يكن له فيهم أب ﴿ مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة ﴾ معناه مذكور في [الأحزاب: 41] في قوله مصدقاً لما معكم ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ ﴾ عن كعب أن الحواريين قالوا لعيسى: يا روح الله هل بعدنا من أمة؟ قال: نعم أمة أحمد حكماء علماء أتقياء أبرار ﴿ اسمه أَحْمَدُ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لي خمسة أسماء: أنا

محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الله الناس على قدمي وأنا العاقب فلا نبي بعدي" وأحمد مشتق من الحمد ، ويحتمل أن يكون فعلاً سمي به ، أو يكون صفة سمي بها كأحمد ، ويحتمل أن يكون بمعنى حامد أو بمعنى محمود كمحمد ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بالبينات ﴾ يحتمل أن يريد عيسى أو محمداً عليهما الصلاة والسلام ويؤيد الأول اتصاله بما قبله ، ويؤيد الثاني قوله : وهو ﴿ يدعى إِلَى الإسلام ﴾ لأن الداعي إلى الإسلام هو محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ الله ﴾ ذكر في [التوبة : 32] .

(73/762)

﴿ تُؤْمِنُونَ بالله ﴾ الآية تفسير للتجارة المذكورة ، قال الأخفش : هو عطف بيان عليها ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ جزم في جواب تؤمنون لأنه بمعنى الأمر ، وقد قرأه ابن مسعود آمنوا وجاهدوا على الأمر ؛ لأنه يقتضي التحضيض ﴿ وأخرى تُحِبُّونَهَا ﴾ ارتفع أخرى على أنه ابتداء مضمر تقديره : ولكم نعمة أخرى ، أو انتصب على أنه مفعول بفعل مضمر تقديره : ويمنحكم أخرى ﴿ نَصْرٌ مِّن الله ﴾ تفسير لأخرى فهو بدل منها ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ قال الزمخشري عطف على تؤمنون بالله ؛ لأنه في معنى الأمر .

﴿ كونوا أَنصَارَ الله ﴾ جمع ناصر وقد غلب اسم الأنصار على الأوس والخزرج، سماهم الله به وليس ذلك المراد هنا ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ هذا التشبيه محمول على المعنى لأن ظاهره : كونوا أنصار الله كقول عيسى ، والمعنى : كونوا أنصار الله كما قال الحواريون حين قال لهم عيسى : من أنصاري إلى الله وقد ذكر في [آل عمران : 52] معنى الحواريين وأنصاري إلى الله ﴿ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ ﴾ قيل : إنهم ظهروا بالحجة ، وقيل : إنهم غلبوا الكفار بالقتال بعد رفع عيسى عليه السلام ، وقيل : إن ظهور المؤمنين منهم هو بمحمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 117. 118 ﴾

(74/762)

وقال البيضاوى :

سورة الصف

مدنية ، وقيل مكية وآيها أربع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾

سبق تفسيره .

﴿ يا أيها الذين ءامنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ روي أن المسلمين قالوا : لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا فأنزل الله ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ فولوا يوم أحد فنزلت . و﴿ لم ﴾ مركبة من لام الجر وما الاستفهامية والأكثر على حذف ألفها مع حرف الجر لكثرة استعمالها معاً واعتناقهما في الدلالة على المستفهم عنه .

﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ المقت أشد البغض ونصبه على التمييز للدلالة على أن قولهم هذا مقت خالص ﴿ كبر ﴾ عند من يحقر دونه كل عظيم ، مبالغة في المنع عنه .

﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ مصطفين مصدر وصف به . ﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾ في تراصهم من غير فرجة ، حال من المستكن في الحال الأولى . والرص اتصال بعض البناء بالبعض واستحكامه .

﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ مقدراً باذكر أو كان كذا . ﴿ يا قوم لم تؤذونني ﴾ بالعصيان والرمي بالادرة . ﴿ وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ﴾ بما جئتكم من المعجزات ، والجملة حال مقررة للإنكار فإن العلم بنبوته يوجب تعظيمه ويمنع إيذاءه ، ﴿ وقد ﴾ لتحقيق العلم . ﴿ فلما زاغوا ﴾ عن الحق . ﴿ أزاغ الله قلوبهم ﴾ صرفها عن

قبول الحق والميل إلى الصواب . ﴿ والله لا يَهْدِى الفاسقين ﴾ هداية موصلة إلى معرفة الحق أو إلى الجنة .

(75/762)

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ يا بنى إسراءيل ﴾ ولعله لم يقل ﴿ يا قَوْمِ ﴾ كما قال موسى عليه الصلاة والسلام لأنه لا نسب له فيهم . ﴿ إِنّى رَسُولُ الله إِلَيْكُم مُّصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التوراة وَمُبَشّراً ﴾ في حال تصديقي لما تقدمني من التوراة وتبشيري ﴿ بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى ﴾ . والعامل في الحالين ما في الرسول من معنى الإِرسال لا الجار لأنه لغو إذ هو صلة للرسول فلا يعمل . ﴿ بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسمه أَحْمَدُ ﴾ يعني محمداً عليه الصلاة والسلام ، والمعنى أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه ، فذكر أول الكتب المشهورة الذي حكم به النبيون والنبي الذي هو خاتم المرسلين . ﴿ فَلَمَّا جَاءهُم بالبينات قَالُواْ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ الإِشارة إلى ما جاء به أو إليه ، وتسميته سحر للمبالغة ويؤيده قراءة حمزة والكسائي هذا "ساحراً" على أن الإِشارة إلى عيسى عليه الصلاة والسلام .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله الكذب وَهُوَ يدعى إِلَى الإسلام ﴾ أي لا أحد أظلم ممن يدعى إلى الإِسلام الظاهر حقيته المقتضي له خير الدارين فيضع موضع إجابته الافتراء

على الله بتكذيب رسوله وتسميته آياته سحراً فإنه يعم إثبات المنفي ونفي الثابت وقرىء "يدعى" يقال دعاه وادعاه كلمسه والتمسه . ﴿ والله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ لا يرشدهم إلى ما فيه فلاحهم .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ ﴾ أي يريدون أن يطفئوا ، واللام مزيدة لما فيها من معنى الإِرادة تأكيداً لها كما زيدت لما فيها من معنى الاضافة تأكيداً لها في لا أبا لك ، أو ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ الافتراء ﴿ لِيُطْفِئُواْ ﴾ . ﴿ نُورَ الله ﴾ يعني دينه أو كتابه أو حجته . ﴿ بأفواههم ﴾ بطعنهم فيه . ﴿ والله مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ مبلغ غايته بنشره وإعلائه ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص بالإِضافة . ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ إرغاماً لهم .

(76/762)

﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى ﴾ بالقرآن أو المعجزة . ﴿ وَدِينِ الحق ﴾ والملة الحنيفية . ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ ليغلبه على جميع الأديان . ﴿ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ﴾ لما فيه من محض التوحيد وإبطال الشرك .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارة تُنجِيكُم مّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وقرأ ابن عامر "تُنجِيكُم" بالتشديد .

﴿ تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ وتجاهدون فِى سَبِيلِ الله بأموالكم وَأَنفُسِكُمْ ﴾ استئناف مبين للتجارة وهو الجمع بين الإِيمان والجهاد المؤدي إلى كمال عزهم ، والمراد به الأمر وإنما جيء بلفظ الخبر إيذاناً بأن ذلك مما لا يترك . ﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يعني ما ذكر من الإِيمان والجهاد . ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إن كنتم من أهل العلم إذ الجاهل لا يعتد بفعله.

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر ، أو لشرط أو استفهام دل عليه الكلام تقديره أن تؤمنوا وتجاهدوا ، أو هل تقبلون أن أدلكم يغفر لكم ، ويبعد جعله جواباً لهل أدلكم لأن مجرد دلالته لا توجب المغفرة ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ومساكن طَيّبَةً فِى جنات عَدْنٍ ذَلِكَ الفوز العظيم ﴾ الإِشارة إلى ما ذكر من المغفرة وإدخال الجنة.

(77/762)

﴿ وأخرى تُحِبُّونَهَا ﴾ ولكم إلى هذه النعمة المذكورة نعمة أخرى عاجلة محبوبة ، وفي ﴿ تُحِبُّونَهَا ﴾ تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل ، وقيل ﴿ أخرى ﴾ منصوبة بإضمار يعطيكم ، أو تحبون أو مبتدأ خبره : ﴿ نَصْرٌ مّن الله ﴾ وهو على الأول بدل أو بيان وعلى قول النصب خبر محذوف ، وقد قرىء بما عطف عليه بالنصب عى البدل ، أو

الاختصاص أو المصدر . ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ عاجل . ﴿ وَبَشّرِ المؤمنين ﴾ عطف على محذوف مثل : قل يا أيها الذين آمنوا ﴿ وَبَشّرِ ﴾ ، أو على ﴿ تؤْمِنُونَ ﴾ فإنه في معنى الأمر كأنه قال : آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون وبشرهم يا رسول الله بما وعدتهم عليهما آجلاً وعاجلاً .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ كُونُواْ أنصار الله ﴾

وقرأ الحجازيان وأبو عمرو بالتنوين واللام لأن المعنى كونوا بعض أنصار الله . ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيّينَ مَنْ أنصارى إِلَى الله ﴾ أي من جندي موجهاً إلى نصرة الله ليطابق قوله تعالى : ﴿ قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنصَارُ الله ﴾ والإضافة الأولى إضافة أحد المتشاركين إلى الآخر لما بينهما من الاختصاص ، والثانية إضافة الفاعل إلى المفعول والتشبيه باعتبار المعنى إذ المراد قل لهم كما قال عيسى ابن مريم ، أو كونوا أنصاراً كما قال الحواريون حين قال لهم عيسى ﴿ مَنْ أَنصَارِى إِلَى الله ﴾ . والحواريون أصفياؤه وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً من الحور وهو البياض . ﴿ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ أي بعيسى . ﴿ فَأَيَّدْنَا الّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوّهِمْ ﴾ بالحجة وبالحرب وذلك بعد رفع عيسى . ﴿ فَأَصْبَحُواْ ظاهرين ﴾ فصاروا غالبين .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الصف كان عيسى مصلياً عليه مستغفراً له ما دام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه " . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5

ص336.332 ﴾

---

(1) حديث موضوع.

(78/762)

وقال أبو حيان:

سورة الصف

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

النداء ب ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ، إن كان للمؤمنين حقيقة ، فالاستفهام يراد به التلطف في العتب ، وإن كان للمنافقين ، فالمعنى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ : أي بألسنتهم ، والاستفهام يراد به الإنكار والتوبيخ وتهكم بهم في إسناد الإيمان إليهم ، ولم يتعلق بالفعل وحده.

ووقف عليه بالهاء أو بسكون الميم ، ومن سكن في الوقف فلإجرائه مجرى الوقف ، والظاهر انتصاب ﴿ مقتاً ﴾ على التمييز ، وفاعل ﴿ كبر ﴾ : أن ﴿ تقولوا ﴾ ، وهو من التمييز المنقول من الفاعل ، والتقدير : كبر مقت قولكم ما لا تفعلون.

ويجوز أن يكون من باب نعم وبئس ، فيكون في كبر ضمير مبهم مفسر بالتمييز ، وأن تقولوا

هو المخصوص بالذم ، أي بئس مقتاً قولكم كذا ، والخلاف الجاري في المرفوع في : بئس رجلاً زيد ، جار في ﴿ أن تقولوا ﴾ هنا ، ويجوز أن يكون في كبر ضمير يعود على المصدر المفهوم من قوله : ﴿ لم تقولون ﴾ ، أي كبر هو ، أي القول مقتاً ، ومثله كبرت كلمة ، أي ما أكبرها كلمة ، وأن تقولوا بدل من المضمر ، أو خبر ابتداء مضمر .

وقيل : هو من أبنية التعجب ، أي ما أكبره مقتاً .

وقال الزمخشري : قصد في كبر التعجب من غير لفظه كقوله :

غلت ناب كليب بواؤها . . .

ومعنى التعجب : تعظيم الأمر في قلوب السامعين ، لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظرائه وأشكاله ، وأسند إلى ﴿ أن تقولوا ﴾ ونصب ﴿ مقتاً ﴾ على تفسيره ، دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه لفرط تمكن المقت منه ، واختير لفظ المقت لأنه أشدّ البغض ، ولم يقتصر على أن جعل البغض كثيراً حتى جعل أشدّه وأفحشه ، وعند الله أبلغ من ذلك ، لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله فقد تم كبره وشدته . انتهى .

وقال ابن عطية : والمقت : البغض من أجل ذنب أو ريبة أو دناءة يصنعها الممقوت . انتهى .

وقال المبرد : رجل ممقوت ومقيت ، إذا كان يبغضه كل أحد . انتهى .

وقرأ زيد بن عليّ : يقاتلون بفتح التاء .

وقيل : قرئ يقتلون ، وانتصب صفاً على الحال ، أي صافين أنفسهم أو مصفوفين ، كأنهم في تراصهم من غير فرجة ولا خلل ، بنيان رص بعضه إلى بعض .

والظاهر تشبيه الذوات في التحام بعضهم ببعض بالبنيان المرصوص .

وقيل : المراد استواء نياتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص .

قيل : وفيه دليل على فضل القتال راجلاً ، لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة ؛ وصفاً وكأنهم ، قال الزمخشري : حالان متداخلان .

وقال الحوفي : كأنهم في موضع النعت لصفاً . انتهى .

ويجوز أن يكونا حالين من ضمير يقاتلون .

ولما كان في المؤمنين من يقول ما لا يفعل ، وهو راجع إلى الكذب ، فإن ذلك في معنى الإذاية للرسول عليه الصلاة والسلام ، إذ كان في أتباعه من عانى الكذب ، فناسب ذكر قصة موسى وقوله لقومه : ﴿ لم تؤذونني ﴾ ، وإذايتهم له كان بانتقاصه في نفسه وجحود آيات الله تعالى واقتراحاتهم عليه ما ليس لهم اقتراحه ، ﴿ وقد تعلمون ﴾ : جملة حالية تقتضي تعظيمه وتكريمه ، فرتبوا على علمهم أنه رسول الله ما لا يناسب العلم وهو الإذاية ،

وقد تدل على التحقق في الماضي والتوقع في المضارع ، والمضارع هنا معناه المضي ، أي وقد علمتم ، كقوله :

﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ أي قد علم ، ﴿ قد نرى تقلب ﴾ وعبر عنه بالمضارع ليدل على استصحاب الفعل ، ﴿ فلما زاغوا ﴾ عن الحق ، ﴿ أزاغ الله قلوبهم ﴾ .

قال الزمخشري : بأن منع ألطافه ، ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ : لا يلطف بهم ، لأنهم ليسوا من أهل اللطف .

(80/762)

وقال غيره : أسند الزيغ إليهم ، ثم قال : ﴿ أزاغ الله ﴾ كقوله تعالى : ﴿ نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ وهو من العقوبة على الذنب بالذنب ، بخلاف قوله : ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ ولما ذكر شيئاً من قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل ، ذكر أيضاً شيئاً من قصة عيسى عليه السلام .

وهناك قال : ﴿ يا قوم ﴾ لأنه من بني إسرائيل ، وهنا قال عيسى : ﴿ يا بني إسرائيل ﴾ من حيث لم يكن له فيهم أب ، وإن كانت أمه منهم .

ومصدقاً ومبشراً : حالان ، والعامل رسول ، أي مرسل ، ويأتي واسمه جملتان في موضع

الصفة لرسول أخبر أنه مصدق لما تقدم من كتب الله الإلهية ، ولمن تأخر من النبي المذكور ، لأن التبشير بأنه رسول تصديق لرسالته .

وروي أن الحواريين قالوا : يا رسول الله هل بعدنا من أمة ؟ قال : " نعم ، أمة أحمد (صلى الله عليه وسلم) ، حكماء علماء أبرار أتقياء ، كأنهم من الفقه أنبياء يرضون من الله باليسير من الرزق ، ويرضى الله منهم بالقليل من العمل " وأحمد علم منقول من المضارع للمتكلم ، أو من أحمد أفعل التفضيل ، وقال حسان :

صلى الإله ومن يحف بعرشه . . .

والطيبون على المبارك أحمد

وقال القشيري : بشر كل نبي قومه بنبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، والله أفرد عيسى بالذكر في هذا الموضع لأنه آخر نبي قبل نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، فبين أن البشارة به عمت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام .

والظاهر أن الضمير المرفوع في ﴿ جاءهم ﴾ يعود على عيسى لأنه المحدث عنه .

وقيل : يعود على أحمد .

لما فرغ من كلام عيسى ، تطرق إلى الإخبار عن أحمد (صلى الله عليه وسلم) ، وذلك على سبيل الإخبار للمؤمنين ، أي فلما جاء المبشر به هؤلاء الكفار بالمعجزات الواضحة قالوا : ﴿ هذا سحر مبين ﴾ .

وقرأ الجمهور : سحر ، أي ما جاء به من البينات .

وقرأ عبد الله وطلحة والأعمش وابن وثاب : ساحر ، أي هذا الحال ساحر .

(81/762)

وقرأ الجمهور : يدعى مبنياً للمفعول ؛ وطلحة : يدعى مضارع ادعى مبنياً للفاعل ، وادعى يتعدى بنفسه إلى المفعول به ، لكنه لما ضمن معنى الانتماء والانتساب عدى بإلى . وقال الزمخشري : أيضاً ، وقرأ طلحة بن مصرف : وهو يدعى بشد الدال ، بمعنى يدعى دعاه وادعاه ، نحو لمسه والتمسه .

﴿ يريدون ﴾ الآية : تقدم تفسير نظيرها في سورة التوبة .

وقال الزمخشري : أصله : ﴿ يريدون أن يطفئوا ﴾ كما جاء في سورة براءة ، وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيداً له لما فيها من معنى الإرادة في قولك : جئتك لأكرمك ، كما زيدت اللام في : لا أبا لك ، تأكيداً لمعنى الإضافة في : لا أبا لك . انتهى .

وقال نحوه ابن عطية ، قال : واللام في قوله : ﴿ يطفئوا ﴾ لام مؤكدة ، دخلت على المفعول لأن التقدير : يريدون أن يطفؤا ، وأكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقدم ، تقول : لزيد ضربت ، ولرؤيتك قصرت . انتهى .

وما ذكره ابن عطية من أن هذه اللام أكثر ما تلزم المفعول إذا تقدم ليس بأكثر ، بل الأكثر : زيداً ضربت ، من : لزيد ضربت .

وأما قولهما إن اللام للتأكيد ، وإن التقدير أن يطفؤا ، فالإطفاء مفعول ﴿ يريدون ﴾ ، فليس بمذهب سيبويه والجمهور .

وقال ابن عباس وابن زيد : هنا يريدون إبطال القرآن وتكذيبه بالقول .

وقال السدي : يريدون دفع الإسلام بالكلام .

وقال الضحاك : هلاك الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالأراجيف .

وقال ابن بحر : إبطال حجج الله بتكذيبهم .

وعن ابن عباس : سبب نزولها أن الوحي أبطأ أربعين يوماً ، فقال كعب بن الأشرف : يا معشر يهود أبشروا ، اطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه وما كان ليتم نوره ، فحزن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فنزلت واتصل الوحي .

وقرأ العربيان ونافع وأبو بكر والحسن وطلحة والأعرج وابن محيصن : ﴿ متم ﴾ بالتنوين ، ﴿ نوره ﴾ بالنصب ؛ وباقي السبعة والأعمش : بالإضافة .

وقرأ الجمهور : ﴿ تنجيكم ﴾ مخففاً ؛ والحسن وابن أبي إسحاق والأعرج وابن عامر : مشدداً .

والجمهور : ﴿ تؤمنون ﴾ ، ﴿ وتجاهدون ﴾ ؛ وعبد الله : آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا أمرين ؛ وزيد بن علي بالتاء ، فيهما محذوف النون فيهما .

فأما توجيه قراءة الجمهور ، فقال المبرد : هو بمعنى آمنوا على الأمر ، ولذلك جاء يغفر مجزوماً .

انتهى ، فصورته صورة الخبر ، ومعناه الأمر ، ويدل عليه قراءة عبد الله ، ونظيره قوله : اتقى الله امرؤ فعل خيراً يثب عليه ، أي ليتق الله ، وجيء به على صورة الخبر .

قال الزمخشري : للإيذان بوجوب الامتثال وكأنه امتثل ، فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين ، ونظيره قول الداعي : غفر الله لك ويغفر الله لك ، جعلت المغفرة لقوة الرجاء ، كأنها كانت ووجدت . انتهى .

وقال الأخفش : هو عطف بيان على تجارة ، وهذا لا يتخيل إلا على تقدير أن يكون الأصل أن تؤمنوا حتى يتقدر بمصدر ، ثم حذف أن فارتفع الفعل كقوله :

ألا أيهذا الزاجري احضر الوغا . . .

يريد : أن احضر ، فلما حذف أن ارتفع الفعل ، فكان تقدير الآية ﴿ هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾ : إيمان بالله ورسوله وجهاد .

وقال ابن عطية : ﴿ تؤمنون ﴾ فعل مرفوع تقديره ذلك أنه تؤمنون .

انتهى ، وهذا ليس بشيء ، لأن فيه حذف المبتدأ وحذف أنه وإبقاء الخبر ، وذلك لا يجوز .

وقال الزمخشري : وتؤمنون استئناف ، كأنهم قالوا : كيف نعمل ؟ فقال : تؤمنون ، ثم اتبع المبرد فقال : هو خبر في معنى الأمر ، وبهذا أجيب بقوله : ﴿ يغفر لكم ﴾ . انتهى .

وأما قراءة عبد الله فظاهرة المعنى وجواب الأمر يغفر ، وأما قراءة زيد فتتوجه على حذف لام الأمر ، التقدير : لتؤمنوا ، كقول الشاعر :

قلت لبواب على بابها . . .

تأذن لي أني من أحمائها

يريد : لتأذن ، ويغفر مجزوم على جواب الأمر في قراءة عبد الله وقراءة زيد ، وعلي تقدير المبرد .

(83/762)

وقال الفراء : هو مجزوم على جواب الاستفهام ، وهو قوله : ﴿ هل أدلكم ﴾ ، واستبعد هذا التخريج .

قال الزجاج : ليسوا إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم ، إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا .

وقال المهدوي : إنما يصح حملاً على المعنى ، وهو أن يكون تؤمنون وتجاهدون عطف بيان على قوله : ﴿ هل أدلكم ﴾ ، كأن التجارة لم يدر ما هي ، فبينت بالإيمان والجهاد ، فهي هما في المعنى ، فكأنه قال : هل تؤمنون وتجاهدون ؟ قال : فإن لم تقدر هذا التقدير لم يصح ، لأنه يصير : إن دللتم يغفر لكم ، والغفران إنما يجب بالقبول والإيمان لا بالدلالة .

وقال الزمخشري نحوه ، قال : وجهه أن متعلق الدلالة هو التجارة ، والتجارة مفسرة بالإيمان والجهاد ، فكأنه قال : هل تتحرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم ؟ انتهى ، وتقدم شرح بقية الآية .

ولما ذكر تعالى ما يمنعهم من الثواب في الآخرة ، ذكر ما يسرهم في العاجلة ، وهي ما يفتح عليهم من البلاد .

﴿ وأخرى ﴾ : صفة لمحذوف ، أي ولكم مثوبة أخرى ، أو نعمة أخرى عاجلة إلى هذه النعمة الآجلة .

فأخرى مبتدأ وخبره المقدر لكم ، وهو قول الفراء ، ويرجحه البدل منه بقوله : ﴿ نصر من الله ﴾ ، و﴿ تحبونها ﴾ صفة ، أي محبوبة إليكم .

وقال قوم : وأخرى في موضع نصب بإضمار فعل ، أي ويمنحكم أخرى ؛ ونصر خبر مبتدأ ، أي ذلك ، أو هو نصر .

وقال الأخفش : وأخرى في موضع جر عطفاً على تجارة ، وضعف هذا القول لأن هذه الأخرى ليست مما دل عليه ، إنما هي من الثواب الذي يعطيهم الله على الإيمان والجهاد بالنفس والمال .

وقرأ الجمهور : ﴿ نصر ﴾ بالرفع ، وكذا ﴿ وفتح قريب ﴾ ؛ وابن أبي عبلة : بالنصب فيها ثلاثتها ، ووصف أخرى بتحبونها ، لأن النفس قد وكلت بحب العاجل ، وفي ذلك تحريض على ما يحصل ذلك ، وهو الإيمان والجهاد .

(84/762)

وقال الزمخشري : وفي تحبونها شيء من التوبيخ على محبة العاجل ، قال : فإن قلت : لم نصب من قرأ نصراً من الله وفتحاً قريباً ؟ قلت : يجوز أن ينصب على الاختصاص ، أو على ينصرون نصراً ويفتح لكم فتحاً ، أو على ﴿ يغفر لكم ﴾ و﴿ لهم جنات ﴾ ويؤتكم أخرى نصراً وفتحاً قريباً .

فإن قلت علام عطف قوله : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ ؟ قلت : على ﴿ تؤمنون ﴾ ، لأنه في معنى الأمر ، كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبكم الله وينصركم ، وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك . انتهى .

﴿ كونوا أنصار الله ﴾ : ندب المؤمنين إلى النصرة ووضع لهم هذا الاسم ، وإن كان قد صار عرفاً للأوس والخزرج ، وسماهم الله به .

وقرأ الأعرج وعيسى وأبو عمرو والحرميان : أنصاراً لله بالتنوين ؛ والحسن والجحدري وباقي السبعة : بالإضافة إلى الله ، والظاهر أن كما في موضع نصب على إضمار ، أي قلنا لكم ذلك كما قال عيسى .

وقال مكي : نعت لمصدر محذوف ، والتقدير : كونوا كوناً .

وقيل : نعت لأنصاراً ، أي كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال : ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ . انتهى .

والحواريون اثنا عشر رجلاً ، وهم أول من آمن بعيسى ، بثهم عيسى في الآفاق ، بعث بطرس وبولس إلى رومية ، وأندارس ومتى إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس ، وبوقاس إلى أرض بابل ، وفيليس إلى قرطاجنة وهي إفريقية ، ويحنس إلى أقسوس قرية أصحاب الكهف ، ويعقوبين إلى بيت المقدس ، وابن بليمن إلى أرض الحجاز وتستمر إلى أرض البربر وما حولها ، وفي بعض أسمائهم إشكال من جهة الضبط ، فليلتمس ذلك من مظانه .

﴿ فأيدنا الذين آمنوا بعيسى على عدوّهم ﴾ : وهم الذين كفروا بعيسى ، ﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾ : أي قاهرين لهم مستولين عليهم .

وقال زيد بن عليّ وقتادة : ظاهرين : غالبين بالحجة والبرهان .

وقيل : أيدنا المسلمين على الفرقتين الضالتين ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(85/762)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

التفسير : يروى أن المؤمنين قالوا قبل أن يؤمروا بالقتال : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملناه فدلهم الله على الجهاد فولوا يوم أحد فعيرهم . وروي أن الله تعالى حين أخبر بثواب شهداء بدر قالوا : لئن لقينا قتالاً لا إلى الله لنفرغن فيه وسعنا ففرّوا يوم أحد ولم يفوا . وقيل ؛ كان الرجل يقول : قلت ولم يقل وطعنت ولم يطعن فأنزل الله تعالى ﴿ لم تقولون ﴾ واللام الجاره إذا دخلت على " ما " الاستفهامية أسقطت الألف لكثرة الاستعمال . وقد عرفت مراراً أن خصوص سبب النزول لا ينافي عموم الحكم ، وهذا التفسير يتناول إخلاف كل وعد . وقال الحسن : نزلت في الذين آمنوا بلسانهم لا بقلوبهم . ثم عظم أمر الإخلاف في قلوب المنافقين فقال ﴿ كبر ﴾ الآية . وفيه أصناف مبالغة من جهة صيغة التعجب والتعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله ، ومن جهة إسناد الفعل إلى ﴿ أن تقولوا

﴿ ونصب ﴿ مقتاً ﴾ على التمييز ومن قبل أن المقت أشدّ من البغض أو من وصفه بأنه ﴿ عند الله ﴾ لأن الممقوت عنده ممقوت عند كل ذي لب . ثم حث على الجهاد بنوع آخر وذلك أنه نسب أوّلاً ترك الجهاد بعد تمنيه إلى المقت ثم نسب الجهاد إلى الحب . وانتصب ﴿ صفاً ﴾ على المصدر بمعنى الحال . وقوله ﴿ كأنهم ﴾ مع الأول حالان متداخلان أي صافين أنفسهم أو مصفوفين كأنهم في تراميهم من غير فرجة ولا خلل ﴿ بنيان ﴾ رص بعضه على بعض أي رص صف . وجوزوا أن يراد صف معنوي وهو اتفاق كلمتهم واستواء نياتهم في الثبات . وعلى الأول استدل بعضهم به على تفضيل القتال راجلاً بناء على أن الفرسان لا يصطفون من غير فرجة ، ثم ذكرهم قصة موسى عليه السلام مع قومه كيلا يفعلوا بنبيهم مثل ما فعل به بنو إسرائيل .

(86/762)

تفسير الإيذاء مذكور في آخر " الأحزاب " وسائر أصناف إيذائهم إياه من عبادة العجل وطلب الرؤية والالتماسات المنكرة مشهورة ﴿ وقد تعلمون ﴾ في موضع الحال . وفائدة " قد " تأكيد العلم لا تقليله وفيه إشارة إلى نهاية جهلهم إذا عكسوا القضية وصنعوا مكان تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم إيذاءه . والزيغ الميل عن الحق والإزاغة الإمالة

فكأنهم تسببوا لمزيد الانحراف عن الجادة ، فالطاعة تجر الطاعة والمعصية تجر المعصية .

قال بعض العلماء : إنما قال عيسى ﴿ يا بني إسرائيل ﴾ ولم يقل يا قوم كما قال موسى ، لأنه لا نسب له فيهم . قلت : ممنوع لقوله تعالى في " الأنعام " ﴿ ومن ذريته داود ﴾ [الأنعام : 84] إلى قوله ﴿ وعيسى ﴾ [الآية : 85] قال النحويون : قوله ﴿ مصدّقاً ﴾ و ﴿ مبشراً ﴾ حالان والعامل فيهما معنى الإرسال في الرسول فلا يجوز أن يكون ﴿ إليكم ﴾ عاملاً لأنه ظرف لغو . عن كعب أن الحواريين قالوا لعيسى : يا روح الله هل بعدنا من أمة ؟ قال : نعم أمة محمد حكماء علماء أبرار أتقياء كأنهم من الفقه أنبياء يرضون من الله باليسير من الرزق ويرضى الله منهم باليسير من العمل . قوله ﴿ وهو يدعى إلى الإسلام ﴾ نظير ما مر من قوله ﴿ وقد تعلمون إني رسول الله ﴾ ففي كل منهما تعكيس القضية إذ جعل مكان إجابة النبي إلى الإسلام الذي فيه سعادة الدارين افتراء الكذب على الله وهو قولهم للمعجزات هي سحر ، لأن السحر كذب وتمويه ولهذا عرف الكذب بخلاف آخر " العنكبوت " . ثم ذكر غرضهم من الافتراء بقوله ﴿ يريدون ليطفؤا ﴾ ولهذا خص هذه السورة باللام كأنه قال : يريدون الافتراء لأجل هذه الإرادة كما زيدت اللام في " لا أبالك " لتأكيد معنى الإضافة . وباقي الآيتين سبق تفسيره في " براءة " . وإنما قال ههنا ﴿ والله متم نوره ﴾ لمكان الفصل بالعلة كأنه قال : يريدون الافتراء لغرض إطفاء نور الله والحال أن الله متم نوره ، وأما هنالك فإنه عطف قوله ﴿ ويأبى ﴾ على قوله

(87/762)

﴿ يريدون ﴾ .

ثم دل أهل الإيمان على التجارة الرابحة وهي مجاز عن وجدان الثواب على العمل كما قال ﴿ إن الله اشترى ﴾ [التوبة : 111] إلى قوله ﴿ فاستبشروا ببيعكم ﴾ [التوبة : 111] قال أهل المعاني : فائدة إيقاع الخبر موقع الأمر هي التنبيه على وجوب الأمر وتأكيده كأنه أمتثل فهو يخبره به كأنه قيل : هل تتجرون بالإيمان ؟ وعن الفراء أن قوله ﴿ يغفر لكم ﴾ جواب ﴿ هل أدلكم ﴾ بتأويل أن متعلق الدلالة هو التجارة والتجارة مفسرة بالإيمان والجهاد فكأنه قيل : هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم ﴿ ذلكم ﴾ يعني ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿ خير لكم ﴾ من أموالكم وأنفسكم وهو اعتراض .

(88/762)

وقوله ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ اعتراض زائد على اعتراض ومعناه إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيراً لكم لأن نتيجة الخير إنما تحصل بعد اعتقاد كونه خيراً . ثم قال ﴿ و ﴾ لكم

مع هذه النعم الآجلة نعمة ﴿ أخرى ﴾ عاجلة ﴿ تحبونها ﴾ وهي فتح مكة كما قال ﴿ وأثابكم فتحاً قريباً ﴾ [الفتح : 18] وعن الحسن : هو فتح فارس والروم . قال في الكشاف : في قوله ﴿ تحبونها ﴾ شيء من التوبيخ على محبة العاجلة . وعندي أنه سبحانه رتب أمرين على أمرين : المغفرة وإدخال الجنة على الإيمان ، والنصر والفتح على الجهاد ، ومحبة النصر من الله والفتح القريب لا تقتضي التوبيخ وإنما ذلك مطلوب كل ذي لب ودين . وقال في قوله ﴿ وبشر ﴾ إنه معطوف على ﴿ تؤمنون ﴾ لأنه بمعنى الأمر . والأظهر عند علماء المعاني أنه معطوف على " قل " مقدراً قل يا أيها الذين آمنوا يؤيد تقدير قل . قوله ﴿ هل أدلكم ﴾ فإن نسبة هذا الاستفهام إلى رسوله أولى من نسبته إلى الله سبحانه على ما لا يخفى . قوله ﴿ كونوا أنصار الله ﴾ أي أعوان دينه ﴿ كما قال عيسى ابن مريم للحوارين ﴾ أي أصفيائه وقد مر ذكرهم في " آل عمران " ﴿ من أنصاري ﴾ متوجهاً ﴿ إلى ﴾ نصرة دين ﴿ الله ﴾ قال أهل البيان : فيه تشبيه كونهم أنصاراً بقول عيسى وإنه لا يصح على الظاهر لأن الكون يشبه بالكون لا القول ، فوجهه أن يحمل التشبيه على المعنى وبيانه أن كون الحواريين أنصار الله يعرف من سياق الآية بعدها وهو قول الحواريين ﴿ نحن أنصار الله ﴾ وارد بطريق الاستئناف كأن سائلاً سأل : فماذا قال الحواريون حينئذ ؟ فأجيب بما أجيب . وقولهم لا يخالف كونهم فيعود معنى الآية إلى قول القائل : كونوا أنصار الله مثل كون الحواريين أنصار عيسى وقت قوله ﴿ من أنصاري ﴾

على أن " ما " مصدرية والمصدر يستعمل مقام الظرف اتساعاً كقولك " جئتك قدوم الحاج " و " خفوق النجم " أي وقت القدوم والخفوق والسر في العدول عن العبارة الواضحة إلة العبارة الموجودة هو أن

(89/762)

سوق الكلام بطريق الكناية حيث جعل المشبه به لازم ما هو المشبه به أبلغ من التصريح ، وأن بناء الكلام على السؤال والجواب أوكد ، وأن المجاز وهو استفادة كونهم من قولهم أبلغ من الحقيقة ، ولعل في الآية أسراراً آخر لم نطلع عليها . ومعنى ﴿ ظاهرين ﴾ غالبين . عن زيد بن علي : كان ظهورهم بالحجة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 296 298. ﴾

(90/762)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الصف

مدنية في قول الأكثرين ، وذكر النحاس عن ابن عباس أنها مكية ، وهي أربع عشرة آية ومائتان وإحدى وعشرون كلمة وتسعمائة حرف

﴿ بسم الله ﴾ الملك الأعظم الذي لا كفء له ﴿ الرحمن ﴾ الذي عم بفضله كل أحد من خلقه ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص من شاء من عباده فهيأه لعبادته وأهله .

﴿ سبح لله ﴾ أي : أوقع التنزيه الأعظم للملك الأعظم ﴿ ما في السموات ﴾ من جميع الملائكة وغيرها كالأفلاك والنجوم ﴿ وما في الأرض ﴾ كذلك من الآدميين وغيرهم كالشجر والثمار . وقيل : اللام مزيدة ، أي : نزه الله وأتى بما دون من ، قال الجلال المحلي : تغليباً للأكثر .

فإن قيل : ما الحكمة في انه تعالى قال في بعض السور سبح لله بلفظ الماضي ، وفي بعضها يسبح بلفظ المضارع ، وفي بعضها فسبح بلفظ الأمر ؟ .

أجيب : بأن الحكمة في ذلك تعليم العبد أن يسبح الله تعالى على الدوام كما أن الماضي يدل عليه في الماضي من الزمان ، والمستقبل يدل عليه في المستقبل من الزمان ، والأمر يدل عليه في الحال فإن قيل : هلا قيل سبح لله السموات والأرض وما فيهما ، وهو أكثر مبالغة أجيب

: بأن المراد بالسماء جهة العلو فيشمل السماء وما فيها ، وبالأرض جهة السفل فيشمل الأرض وما فيها ﴿ وهو ﴾ أي : وحده ﴿ العزيز ﴾ أي : الغالب على غيره أي شيء كان ذلك الغير ، ولا يمكن أن يغلب عليه غيره ﴿ الحكيم ﴾ أي : الذي يضع الأشياء في أتقن مواضعها . روى الدرامي في مسنده قال : أنبأنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عبد الله بن سلام قال : قعدنا مع نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا ، فقلنا : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي : ادّعوا الإيمان ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ حتى ختمها . قال عبد الله : "فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ختمها ، قال أبو سلمة : قرأها علينا عبد الله بن سلام حتى ختمها ، قال يحيى فقرأها علينا أبو سلمة فقرأها علينا أبو يحيى ، فقرأها علينا الأوزاعي ، فقرأها علينا محمد فقرأها علينا الدرامي . انتهى . ولي بقراءتها سند متصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وقال عبد الله بن عباس : قال عبد الله بن رواحة : لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لعملناه فلما نزل الجهاد كرهوه . وقال الكلبي : قال المؤمنون : يا رسول الله لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لسارعنا إليه فنزل ﴿ هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾ فمكثوا زماناً يقولون : لو نعلمها

لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين ، فدلهم الله تعالى عليها بقوله تعالى : ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله ﴾ (الصف :)

(92/762)

الآية ، فابتلوا يوم أحد ففروا فنزلت الآية تعييراً لهم بترك الوفاء . وقال محمد بن كعب : لما أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بثواب شهداء بدر .

قالت الصحابة : اللهم اشهد لئن لقينا قتالاً لنفرغن فيه وسعنا ، ففروا يوم أحد فعيرهم الله تعالى بذلك . وقال قتادة والضحاك : نزلت في قوم كانوا يقولون : نحن جاهدنا وأبلينا ، ولم يفعلوا . وقيل : قد آذى المسلمين رجل ونكى فيهم ، فقتله صهيب وانتحل قتله آخر ، فقال عمر لصهيب : أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنك قتلته ، فقال : إنما قتلته لله ولرسوله ، فقال عمر : يا رسول الله قتله صهيب ، قال : كذلك يا أبا يحيى ، قال : نعم ، فنزلت في المنتحل . وقال ابن زيد : نزلت في المنافقين ونداؤهم بالإيمان تهكم بهم وبإيمانهم ، وكانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه : إن خرجتم وقاتلتم خرجنا معكم ، وقاتلنا فلما خرجوا نكصوا عنهم وتخلفوا . وقال القرطبي : هذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملاً فيه طاعة أن يفي به

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى : أنه بعث إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرأوا القرآن ، فقال : أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاتلوه ، ولا تطولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم كما قست قلوب من قبلكم ، وإنا كنا نقرأ سورة فشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها غير أني قد حفظت منها لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . وكنا نقرأ سورة فشبهها بإحدى المسبحات فأنسيتها غير أني حفظت منها ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ فلبثت شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة . قال ابن العربي : وهذا كله ثابت في الدين لفظاً ومعنى في هذه السورة ، وأما قوله : شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة ، فمعنى ذلك : ثابت في الدين فإن من التزم شيئاً ألزمه شرعاً . وقال القرطبي : ثلاث آيات منعتني أن أقضي على الناس ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ (البقرة :)

﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ (هود :)

و﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أتيت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، كلما

قرضت عادت ، قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون ، ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به" .

(94/762)

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ استفهام على وجه الإنكار والتوبيخ على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله ، إما في الماضي فيكون كذباً ، وإما في المستقبل فيكون خلقاً وكلاهما مذموم . قال الزمخشري : لم هي لام الإضافة داخلة على ما الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك : بم ، وفيم ، ومم ، وعم ، وإلام ، وعلام ، وإنما حذفت الألف لأن ما والحرف كشيء واحد ، ووقع استعمالهما كثيراً في كلام المستفهم ، وقد جاء استعمال الأصل قليلاً والوقف على زيادة هاء السكت أو الإسكان . ومن أسكن في الوصل فلإجرائه مجرى الوقف كما سمع ثلاثه أربعه بالهاء وإلقاء حركة الهمزة عليها محذوفة ا .ه . ووقف البزي لمه بهاء السكت بخلاف عنه .

﴿ كبر ﴾ أي : عظم . وقوله تعالى : ﴿ مقتاً ﴾ تمييز ، والمقت أشد البغض ، وزاد في تشنيعه زيادة في التنفير منه بقوله تعالى : ﴿ عند الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي يحقر عنده كل متعاظم ، وقيل : إن كبر من أمثلة التعجب . وقد عده ابن عصفور في التعجب

المبوب له في النحو فقال : صيغة ما أفعله وأفعل به ، وفعل ، نحو كرم الرجل ، وإليه نحا الزمخشري فقال : هذا من أفصح الكلام وأبلغه في معناه قصد في كبر التعجب من غير لفظه ،كقوله : غلت ناب كليب بواؤها ، ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله . وقوله تعالى : ﴿ أن تقولوا ﴾ أي : عظم من تلك الجهة أن يقع في وقت من الأوقات ، أو حال من الأحوال قولكم ﴿ ما لا تفعلون ﴾ فاعل كبر . قال الرازي : وجه تعلق هذه السورة بما قبلها هو أن في السورة التي قبلها بين الخروج إلى الجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته بقوله تعالى : ﴿ إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ﴾ وفي هذه السورة بين ما يحمل المؤمن ويحثه على الجهاد بقوله تعالى:

(95/762)

﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال ﴿ يحب ﴾ أي : يفعل فعل المحب مع ﴿ الذين يقاتلون ﴾ أي : يوقعون القتال ﴿ في سبيله ﴾ أي : بسبب تسهيل طريقه الموصلة إلى رضاه . وقوله تعالى : ﴿ صفاً ﴾ حال ، أي : مصطفين حتى كأنهم في اتحاد المراد على قلب واحد كما كانوا في التساوي في الاصطفاف كالبدن الواحد ﴿ كأنهم ﴾ من

شدة التراص والمساواة بالصدور والمناكب والثبات في المركز ﴿ بنيان ﴾ وزاد في التأكيد بقوله تعالى : ﴿ مرصوص ﴾ أي : ملزوق بعض إلى بعض ثابت كثبوت البناء .

وقال ابن عباس : يوضع الحجر على الحجر ، ثم يرص بأحجار صغار ، ثم يوضع اللبن عليه فيسميه أهل مكة المرصوص. وقال الرازي : يجوز أن يكون المعنى على أن يستوي شأنهم في حرب عدوهم ، حتى يكونوا في اجتماع الكلمة وموالاة بعضهم بعضاً كالبنيان المرصوص قال القرطبي : استدل بعضهم بهذه الآية على أن قتال الراجل أفضل من قتال الفارس ، لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة. قال المهدوي : وذلك غير مستقيم لما جاء في فضل الفارس من الأجر والغنيمة ، ولا يخرج الفرسان من معنى الآية لأن معناها الثبات ، ولهذا يحرم الخروج من الصف إن قاومناهم إلا متحرفاً لقتال ، كمن ينصرف ليكمن في موضع ويهجم ، أو ينصرف من مضيق ليتبعه العدو إلى متسع سهل للقتال ، أو متحيز إلى فئة يستنجد بها ولو بعيدة قليلة أو كثيرة ، فيجوز انصرافه لقوله تعالى : ﴿ إلا متحرفاً لقتال ﴾ (الأنفال :)

وتجوز المبارزة لكافر لم يطلبها بلا كره ، وندب لقوي أذن له الإمام أو نائبه لإقراره صلى الله عليه وسلم عليها ، وهي ظهور اثنين من الصفين للقتال ، من البروز وهو الظهور ، فإن طلبها كافر سنت للقوي المأذون له للأمر بها في خبر أبي داود ، ولإن تركها حينئذ إضعافاً لنا وتقوية لهم ، وإلا كرهت

ولما ذكر تعالى الجهاد ذكر قصة موسى وعيسى عليهما السلام تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم ليصبر على أذى قومه ، مبتدئاً بقصة موسى عليه السلام لتقدمه فقال تعالى:

(96/762)

﴿ وإذ ﴾ أي : واذكر يا أشرف الخلق إذ ﴿ قال موسى لقومه ﴾ أي : بني إسرائيل ، وقوله : ﴿ ياقوم ﴾ استعطاف لهم واستنهاض إلى رضا ربهم ﴿ لم تؤذونني ﴾ أي : تجددون أذاي مع الاستمرار ، وذلك حين رموه بالأدرة كما مر في سورة الأحزاب ومن الأذى ما ذكر في قصة قارون أنه دس إلى امرأة تدعي على موسى الفجور ، ومن الأذى قولهم ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ (الأعراف :)

وقولهم : ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ (المائدة :)

وقولهم : أنت قتلت هارون ، وغير ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وقد تعملون ﴾ جملة حالية ، أي : علمتم علماً قطعياً تجدده لكم كل وقت بتجدد أسبابه بما آتيتكم به من المعجزات ، والكتاب الحافظ لكم من الزيغ ﴿ إني رسول الله ﴾ الملك الأعظم الذي لا كفؤ له ﴿ إليكم ﴾ ورسوله يعظم ويحترم لا أنه تنتهك جلالته وتخترم ، وأنا لا أقول لكم شيئاً إلا عنه ، ولا أنطق عن الهوى ﴿ فلما زاغوا ﴾ أي : عدلوا عن الحق بمخالفة أوامر الله تعالى

وبإيذائه. وقرأ حمزة بالإمالة والباقون بالفتح ﴿أزاغ الله﴾ أي: الملك الذي له الأمر كله ﴿قلوبهم﴾ أي: أمالهم عن الهدى على وفق ما قدره في الأزل ﴿والله﴾ أي: الذي له الحكمة البالغة لأنه المستجمع لصفات الكمال ﴿لا يهدي﴾ أي: بالتوفيق بعد هداية البيان ﴿القوم الفاسقين﴾ أي: العريقين في الفسق الذين لهم قوة المحاولة، فلم يحملهم على الفسق ضعف فاحذروا أن تكونوا مثلهم في العزائم فتساووهم في عقوبات الجرائم، وهذا تنبيه على عظيم إيذاء الرسل حتى إن أذاهم يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى، ثم ذكر القصة الثانية بقوله تعالى:

(97/762)

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وإذ﴾ أي: واذكر يا أشرف المرسلين إذ ﴿قال عيسى﴾ ووصفه بقوله ﴿ا ابن مريم﴾ ليعلم أنه من غير أب وثبتت نبوته بالمعجزات ﴿يا بني إسرائيل﴾ فذكرهم بما كان عليه أبوهم من الدين وما أوصى به بنيه من التمسك بالإسلام، ولم يقل: يا قوم، كما قال موسى عليه السلام؛ لأنه لا أب له فيهم وإن كانت أمه منهم، فإن النسب إنما هو من

جهة الأب ، وأكد لإنكار بعضهم فقال ﴿ إني رسول الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ إليكم ﴾ أي : لا إلى غيركم ﴿ مصدقاً لما بين يدي ﴾ أي : قبلي ﴿ من التوراة ﴾ التي تعلمون أن الله تعالى أنزلها على موسى عليه السلام ، وهي أول الكتب التي نزلت بعد الصحف وحكم بها النبيون ، فتصديقي لها مع تأييدي بها مؤيد ، لأن ما أقمت من الدلائل حق ومبين أنها دليلي فيما لم أنسخه منها ، كما يستدل بما قدامه من الإعلام ويراعيه ببصره . وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان والكسائي بالإمالة محضة ، وقرأ حمزة ونافع بين بين بخلاف عنه عن قالون ، والباقون بالفتح ﴿ ومبشراً ﴾ في حال تصديقي للتوراة ﴿ برسول ﴾ أي : إلى كل من شملته الربوبية ﴿ يأتي من بعدي ﴾ أي : يصدق بالتوراة . فكأنه قيل : ما اسمه ؟ قال : ﴿ اسمه أحمد ﴾ والمعنى : أرسلت إليكم في حال تصديقي ما تقدمني من التوراة ، وفي حال تبشيري برسول يأتي من بعدي يعني أن ديني التصديق بكتب الله تعالى وأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتأخر .

فإن قيل : بم انتصب مصدقاً ومبشراً ، أبما في الرسول من معنى الإرسال أم بإليكم ؟ .

أجيب : بأنه بمعنى الإرسال لأن إليكم صلة للرسول فلا يجوز أن يعمل شيئاً لأن حروف الجر لا تعمل بأنفسها ، ولكن بما فيها من معنى الفعل ، فإذا وقعت صلات لم تتضمن معنى فعل فمن أين تعمل .

وعن كعب : أن الحواريين قالوا لعيسى : يا رسول الله هل بعدنا من أمة ؟ قال : نعم أمة أحمد حكماء علماء أبرار أتقياء ، كأنهم من الفقه أنبياء ، يرضون من الله باليسير من الرزق ويرضى الله منهم باليسير من العمل . وعن حبيش بن مطعم قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي" وقد سماه الله تعالى رؤوفاً ورحيماً . وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "اسمي في التوراة أحيد لأني أحيد أمتي عن النار ، واسمي في الزبور الماحي محى الله بي عبدة الأوثان ، واسمي في الإنجيل أحمد ، وفي القرآن محمد لأني محمود في أهل السماء والأرض" بل ذكر بعض العلماء أنه له ألف اسم . قال البغوي : والألف في أحمد للمبالغة في الحمد ، وله وجهان:

أحدهما : أنه مبالغة من الفاعل ، أي : ومعناه أن الأنبياء حمادون لله تعالى ، وهو أكثر حمداً من غيره .

والثاني : أنه مبالغة من المفعول ، أي : ومعناه أن الأنبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال

الحميدة، وهو أكثر مبالغة وأجمع للفضائل والمحاسن والأخلاق التي يحمد بها ا . ه. وعلى كلا الوجهين منعه من الصرف للعملية والوزن الغالب، إلا أنه على الاحتمال الأول يمتنع معرفة وينصرف نكرة، وعلى الثاني يمتنع تعريفاً وتنكيراً لأنه يخلف العلمية الصفة، وإذا نكر بعد كونه علماً جرى فيه خلاف سيبويه والأخفش، وهي مسألة مشهورة بين النحاة.

وأنشد حسان يمدحه وصرفه:

*صلى الإله ومن يحف بعرشه ** والطيبون على المبارك أحمد *

(99/762)

أحمد بدل أو بيان للمبارك، وأما محمد فمنقول من صفة أيضاً، وهو في معنى محمود ولكن في معنى المبالغة والتكرار، فأحمد هو الذي حمد مرة بعد مرة. قال القرطبي: كما أن المكرم من أكرم مرة بعد مرة، وكذلك الممدح ونحو ذلك: واسم محمد مطابق لمعناه، والله سبحانه وتعالى سماه قبل أن يسمي به نفسه، فهذا علم من أعلام نبوته، وكان اسمه صادقاً عليه فهو محمود في الدنيا لما هدي إليه ونفع به من العلم والحكمة، وهو محمود في الآخرة بالشفاعة. فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ، ثم إنه لم يكن محمداً حتى كان أحمد حمد ربه فنبأه وشرفه، فلذلك تقدم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد فذكره عيسى

فقال : اسمه أحمد ، وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه : تلك أمة أحمد ، فقال : اللهم اجعلني من أمة محمد . فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد ، لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له ، فلما وجد وبعث كان محمداً بالفعل .

وكذلك في الشفاعة يحمد ربه بالمحامد التي يفتحها عليه فيكون أحمد الناس لربه ، ثم يشفع فيحمد على شفاعته ، فدل ذلك على أنه صلى الله عليه وسلم أشرف الأنبياء فاتحاً لهم وخاتماً عليهم . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة بفتح الياء ، والباقون بالسكون

وقوله تعالى : ﴿ فلما جاءهم ﴾ يحتمل أن يعود فيه الضمير لأحمد ، أي : جاء الكفار ، واقتصر على ذلك الجلال المحلي ، ويحتمل عوده لعيسى ، أي : جاء لبني إسرائيل ﴿ بالبينات ﴾ أي : من المعجزات العظيمة التي لا يسوغ لعاقل إلا التسليم لها ، ومن الكتاب المبين ﴿ قالوا ﴾ أي : عند مجيئها من غير نظرة تأمل ﴿ هذا ﴾ أي : المأتي به من البينات ، أو الآتي بها على المبالغة ﴿ سحر ﴾ فكانوا أول كافر به ، لأن هذا وصف لهم لازم سواء بلغهم ذلك أم لا ﴿ مبين ﴾ أي : في غاية البيان في سحريته . وقرأ حمزة والكسائي بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء ، وهذه القراءة مناسبة للتفسير الثاني ،

والباقون بكسر السين وسكون الحاء ، وهذه مناسبة للتفسير الأول .

﴿ ومن ﴾ أي : لا أحد ﴿ أظلم ﴾ أي : أشد ظلماً ﴿ممن افترى ﴾ أي : تعمد ﴿ على الله ﴾ أي : الملك الأعلى ﴿ الكذب ﴾ أي : بنسبة الشريك والولد إليه ، ووصف آياته بالسحر ، ووصف أنبيائه بالسحرة ﴿ وهو ﴾ أي : والحال أنه ﴿ يدعى ﴾ أي : من أي داع كان ﴿ إلى الإسلام ﴾ أي : الذي هو أحسن الأشياء فإن له فيه سعادة الدارين ، فيجعل مكان إجابته افتراء الكذب على الله تعالى : ﴿ والله ﴾ أي : الذي له الأمر كله فلا أمر لأحد معه ﴿ لا يهدي القوم ﴾ أي : لا يخلق الهداية في قلوب من فيهم قوة المجادلة للأمور الصعاب ﴿ الظالمين ﴾ أي : الذين يخبطون في عقولهم خبط من هو في الظلام .

﴿ يريدون ﴾ أي : يوقعون إرادة ردهم للرسالة بافترائهم ﴿ ليطفئوا ﴾ أي : لأجل أن يطفئوا ﴿ نور الله ﴾ أي : الملك الذي لا شئ يكافئه ﴿ بأفواههم ﴾ أي : بما يقولون من كذب لا منشأ له غير الأفواه ، لأنه لا اعتقاد له في القلوب .

تنبيه : الإطفاء هو الإخماد يستعملان في النار وفيما يجري مجراها من الضياء والظهور ، ويفرق بين الإطفاء والإخماد من حيث إن الإطفاء يستعمل في القليل ، فيقال : أطفأت

السراج، ولا يقال: أخمدت السراج، وفي هذه اللام أوجه: أحدها: أنها تعليلية كما مر، ثانيها: أنها مزيدة في مفعول الإرادة، وقال الزمخشري: أصله يريدون أن يطفئوا كما في سورة التوبة، وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة توكيداً له، لما فيها من معنى الإرادة في قولك: جئتك لإكرامك، كما زيدت اللام في: لا أب لك تأكيداً لمعنى الإضافة في لا أباك. r قال الماوردي: وسبب نزول هذه الآية ما حكاه عطاء عن ابن عباس: "أن النبي صلى الله عليه وسلم أبطأ عليه الوحي أربعين يوماً، فقال كعب بن الأشرف: يا معشر يهود أبشروا فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه وما كان ليتم أمره، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية"، واتصل الوحي بعدها واختلف في المراد بالنور، فقال ابن عباس: هو القرآن، أي: يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول. وقال السدي: الإسلام، أي: يريدون رفعه بالكلام. وقال الضحاك: إنه محمد صلى الله عليه وسلم أي: يريدون هلاكه بالأراجيف وقال ابن جريج: حجج الله تعالى ودلائله، يريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم. وقيل: إنه مثل مضروب، أي: من أراد إطفاء نور الشمس بفيه فوجده مستحيلاً ممتنعاً، كذلك من أراد إطفاء الحق ﴿ والله ﴾ أي: الذي لا مدافع له لتمام عظمته ﴿ متم نوره ﴾ فلا يضره ستر أحد له بتكذيبه ولا إرادة إطفائه، وزاد ذلك بقوله تعالى: ﴿ ولو كره ﴾ أي: إتمامه له ﴿ الكافرون ﴾ أي: الراسخون في جهة الكفر المجتهدون في المحاماة عنه.

﴿ هو ﴾ أي: الذي ثبت أنه جامع لصفات الكمال والجلال وحده من غير أن يكون له شريك أو وزير ﴿ الذي أرسل رسوله ﴾ أي: الحقيق بأن يعظمه كل من بلغه أمره لأن عظمته من عظمته، ولم يذكر حرف الغاية إشارة إلى عموم الإرسال إلى كل من شمله الملك كما مضى ﴿ بالهدى ﴾ أي: البيان الشافي بالقرآن والمعجزة ﴿ ودين الحق ﴾ أي: والملة الحنيفية ﴿ ليظهره ﴾ أي: يعليه مع الشهرة وإذلال المنازع ﴿ على الدين ﴾ أي: جنس الشريعة التي ستجعل ليجازى من يسلكها ومن يزغ عنها بما يشرع فيها من الأحكام ﴿ كله ﴾ فلا يبقى دين إلا كان دونه، وانمحق به وذل أهله ذلاً لا يقاس به ذل ﴿ ولو كره ﴾ أي: إظهاره ﴿ المشركون ﴾ أي: المعاندون في كفرهم الراسخون في سلك المعاندة.

فإن قيل: قال أولاً: ﴿ ولو كره الكافرون ﴾، وقال ثانياً: ﴿ ولو كره المشركون ﴾، فما الحكمة في ذلك؟.

أجيب: بأنه تعالى أرسل رسوله، وهو من نعم الله تعالى، والكافرون كلهم في كفران النعم سواء فلهذا قال ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ لأن لفظ الكافر أعم من لفظ المشرك فالمراد من

الكافرين هنا اليهود والنصارى والمشركون ، فلفظ الكافر أليق به . وأما قوله تعالى : ﴿ ولو كره المشركون ﴾ فذلك عند إنكارهم التوحيد وإصرارهم عليه ، لأنه صلى الله عليه وسلم في ابتداء الدعوة أمر بالتوحيد بلا إله إلا الله فلم يقولوها ، فلهذا قال : ﴿ ولو كره المشركون ﴾ .

(103/762)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾

(104/762)

واختلف في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي : أقروا بالإيمان ﴿ هل أدلكم ﴾ أي : وأنا المحيط علماً وقدرة فهي إيجاب في المعنى ، ذكر بلفظ الاستفهام تشريفاً ليكون أوقع في النفس ﴿ على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾ أي : مؤلم فقال مقاتل : نزلت في عثمان بن مظعون قال : "يا رسول الله لو أذنت لي طلقت خولة ، وترهبت واختصيت ، وحرمت اللحم ، ولا أنام بليل أبداً ، ولا أفطر بنهار ، فقال صلى الله عليه وسلم إن من سنتي النكاح ، ولا رهبانية في الإسلام إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله ، وخصاء أمتي الصوم ، ولا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ، ومن سنتي أنام وأقوم وأفطر وأصوم فمن رغب عن سنتي فليس مني ، فقال عثمان : والله لوددت يا رسول الله أيّ التجارة أحب إلى الله تعالى فأتجر فيها ، فنزلت" وقيل : أدلكم ، أي : سأدلكم ، والتجارة : الجهاد ، قال الله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴾ (التوبة :) الآية ، وهذا خطاب لجميع المؤمنين . وقيل : نزل هذا حين قالوا : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملنا به . قال البغوي : وجعل هذا بمنزلة التجارة لأنهم يربحون بها رضا الله تعالى ، ونيل جنته والنجاة من النار وقرأ ابن عامر بفتح النون وتشدد الجيم ، والباقون بسكون النون وتخفيف الجيم

ثم بين سبحانه تلك التجارة بقوله تعالى : ﴿ تؤمنون ﴾ أي : تدومون على الإيمان ﴿ بالله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال ، وعلى هذا فلا ينافي ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وقيل : المراد من هذه الآية المنافقون وهم الذين آمنوا في الظاهر ، وقيل : أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فإنهم آمنوا بالكتب المتقدمة ﴿ ورسوله ﴾ الذي تصديقه آية الإذعان للعبودية ﴿ وتجاهدون ﴾ بياناً لصحة إيمانكم على سبيل التجديد والاستمرار ﴿ في سبيل الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي لا أمر لغيره ﴿ بأموالكم وأنفسكم ﴾ وقدم الأموال لعزتها في ذلك الزمان ، ولأنها قوام الأنفس فمن بذل ماله كله لم يبخل بنفسه ، لأن المال قوامها . وقال القرطبي : ذكر الأموال أولاً لأنها التي يبدأ بها في الإنفاق ﴿ ذلكم ﴾ أي : الأمر العظيم من الإيمان وتصديقه بالجهاد ﴿ خير لكم ﴾ أي : من أموالكم وأنفسكم ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أي : إن كان يمكن أن يتجدد لكم علم في وقت فأنتم تعلمون أن ذلك خير لكم ، فإذا علمتم أنه خير أقبلتم عليه فكان لكم به أمر عظيم ، وإن كانت قلوبكم قد طمست طمساً لا رجاء لصلاحه فصلوا على أنفسكم صلاة الموت .

وقوله تعالى : ﴿ يغفر لكم ﴾ فيه أوجه:

أحدها : أنه مجزوم على جواب الخبر بمعنى الأمر ، أي : آمنوا وجاهدوا .

والثاني : أنه مجزوم في جواب الاستفهام ، كما قاله الفراء .

(106/762)

والثالث : أنه مجزوم بشرط مقدر ، أي : إن تؤمنوا يغفر لكم . قال القرطبي : وأدغم بعضهم فقرأ يغفر لكم ، والأحسن ترك الإدغام فإن الراء متكرر قوي فلا يحسن الإدغام في اللام ، لأن الأقوى لا يدغم في الأضعف ا .ه . وتقدم في آخر سورة البقرة مثل ذلك للزمخشري والبيضاوي ورد عليهما ﴿ ذنوبكم ﴾ أي : يمحو أعيانها وآثارها كلها ﴿ ويدخلكم ﴾ أي : بعد التزكية بالمغفرة رحمة لكم ﴿ جنات ﴾ أي : بساتين ﴿ تجري من تحتها ﴾ أي : من تحت أشجارها وغرفها وكل منتزه فيها ﴿ الأنهار ﴾ فهي لا تزال غضة زهراء لم يحتج هذا الأسلوب إلى ذكر الخلود لإغناء ما بعده عنه ، ودل على الكثرة المفرطة في الدور بقوله في صيغة منتهى الجموع ﴿ ومساكن طيبة ﴾ روى الحسن قال : "سألت عمران بن حصين ، وأبا هريرة عن قوله تعالى : ﴿ ومساكن طيبة ﴾ فقالا : على الخبير سقطت سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : "قصر من لؤلؤة في الجنة في ذلك القصر سبعون

داراً من ياقوتة حمراء ، في كل دار سبعون بيتاً من زبرجدة خضراء ، في كل بيت سبعون سريراً ، في كل سرير سبعون فراشاً من كل لون على كل فراش سبعون امرأة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام ، في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة فيعطي الله تعالى المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله"

﴿ في جنات عدن ﴾ أي : بساتين هي أهل للإقامة بها لا يحتاج في إصلاحها إلى شيء خارج يحتاج في تحصيله إلى الخروج عنها له ، قال حمزة الكرماني في كتابه "جوامع التفسير" : هي أي جنات عدن قصبة الجنان ومدينة الجنة أقربها إلى العرش ﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم جداً ﴿ الفوز العظيم ﴾ أي : السعادة الدائمة الكبيرة ، وأصل الفوز الظفر بالمطلوب .

ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم في الآخرة بشرهم بنعمته في الدنيا .

(107/762)

بقوله تعالى : ﴿ وأخرى تحبونها ﴾ أي : ولكم إلى هذه النعمة المذكورة نعمة أخرى عاجلة محبوبة ، وفي تحبونها تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل . وقوله تعالى : ﴿ نصر من الله ﴾ أي : الذي أحاطت عظمته بكل شيء خبر مبتدأ مضمر ، أي : تلك النعمة أو

الخصلة الأخرى نصر من الله ﴿ وفتح قريب ﴾ أي : غنيمة في عاجل الدنيا قيل : فتح مكة قال الكلبي : هو النصر على قريش ، وقال ابن عباس : يريد فتح فارس والروم . وقوله تعالى : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ عطف على محذوف مثل ﴿ قل يا أيها الذين آمنوا وبشر ﴾ ، أو على يؤمنون فإنه في معنى الأمر كأنه قال آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون ، وبشرهم يا أشرف الرسل بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي : أقروا بذلك ﴿ كونوا ﴾ أي : بغاية جهدكم ﴿ أنصاراً لله ﴾ أي : لدينه ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو أنصاراً بالتنوين وجر اللام من الاسم الجليل وترقيقها ، والباقون بغير تنوين وتفخيم اللام . ﴿ كما ﴾ أي : كونوا لأجل أني ندبتكم أنا بقولي من غير واسطة ولذذتكم بخطابي مثل ما كان الحواريون أنصار الله حين ﴿ قال عيسى ابن مريم ﴾ حين أرسلته إلى بني إسرائيل ناسخاً لشريعة موسى عليه السلام ﴿ للحواريين ﴾ أي : خلص أصحابه وخاصته منهم ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ أي : المحيط بكل شيء أي : انصروا دين الله تعالى مثل نصرة الحواريين لما قال لهم عيسى عليه السلام من أنصاري إلى الله ، أي : من ينصرني مع الله تعالى : ﴿ قال الحواريون ﴾ معلمين إنهم جادون في ذلك جداً لا مزيد عليه لعلمهم أن أجابته إجابة الله تعالى ، لأنه لا ينطق عن الهوى فليس كلامه إلا عن الله تعالى : ﴿ نحن ﴾ أي : بأجمعنا وكانوا اثني عشر رجلاً ،

وهم أول من آمن بعيسى ﴿ أنصار الله ﴾ أي : الملك الأعلى القادر على تمام نصرنا ، ولو كان عدونا كل أهل الأرض .

(108/762)

ولما كان التقدير ثم دعوا كل من خالفهم من بني اسرائيل وبارزهم تسبب عنهم قوله تعالى : ﴿ فآمنت ﴾ أي : به ﴿ طائفة ﴾ أي : ناس منهم أهل الاستدارة لما لهم من الكثرة ﴿ من بني اسرائيل ﴾ قومه ﴿ وكفرت طائفة ﴾ أي : منهم ، وأصل الطائفة : القطعة من الشيء ، وذلك أنه لما رفع تفرق قومه ثلاث فرق:

فرقة قالوا : كان الله فارتفع .

وفرقة قالوا : كان ابن الله فرفعه إليه .

وفرقة قالوا : كان عبد الله ورسوله فرفعه إليه ، وهم المؤمنون .

واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس فاقتتلوا ، وظهرت الفرقتان الكافرتان على الفرقة المؤمنة حتى بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم فظهرت الفرقة المؤمنة على الكافرة فذلك قوله تعالى : ﴿ فأيدنا ﴾ أي : قوينا بعد رفع عيسى عليه السلام ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي : أقروا بالإيمان المخلص ﴿ على عدوهم ﴾ أي : الذين عادوهم لأجل

إيمانهم ﴿ فأصبحوا ﴾ أي : صاروا بعد ما كانوا فيه من الذل ﴿ ظاهرين ﴾ أي : عالين غالبين قاهرين في أقوالهم وأفعالهم لا يخافون أحداً ولا يستخفون منه ، وروى المغيرة عن إبراهيم قال : فأصبحت حجة من آمن بعيسى عليه السلام ظاهرة بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم أن عيسى عليه السلام كلمة الله وعبده ورسوله . وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة الصف كان عيسى مصلياً عليه مستغفراً له ما دام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه" حديث موضوع . انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 7 صـ 409 . 420 ﴾

(109/762)

وقال القاسمى :

سورة الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

أي : أذعن لله كل خلقه العلوي والسفلي ، وانقاد لتسخيره ، ودل على ألوهيته وربوبيته . وتقدم بيانه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [2 - 3]

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ قال القاشانيّ : من لوازم الإيمان الحقيقي الصدق وثبات العزيمة ؛ إذ خلوص الفطرة عن شوائب النشأة يقتضيهما . وقوله : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ يحتمل الكذب ، وخلف الوعد . فمن ادعى الإيمان وجب عليه الاجتناب عنهما بحكم الإيمان ، وإلا فلا حقيقة لإيمانه ؛ ولهذا قال :

﴿ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ لأن الكذب ينافي المروءة التي هي من مبادئ الإيمان ، فضلاً عن كماله ؛ إذ الإيمان الأصلي هو الرجوع إلى الفطرة الأولى والدين القيم . وهي تستلزم أجناس الفضائل بجميع أنواعها ، التي أقل درجاتها العفة المقتضية للمروءة ، والكاذب لا مروءة له ، فلا إيمان له حقيقة . وإنما قلنا : لا مروءة له ، لأن النطق هو الإخبار المفيد للغير معنى ، المدلول عليه باللفظ . والْإِنْسَاْن خاصته التي تميزه عن غيره ، هي النطق ، فإذا لم يطابق الإخبار ، لم تحصل فائدة النطق, فخرج صاحبه عن الْإِنْسَاْنية ، وقد أفاد ما لم يطابق من اعتقاد وقوع غير الواقع ، فدخل في حد الشيطنة ، فاستحق المقت الكبير عند الله ، بإضاعة استعداده ، واكتساب ما ينافيه من أضداده . وكذا الخلف ، لأنه قريب من الكذب ، ولأن صدق العزم وثباته من لوازم الشجاعة التي هي إحدى الفضائل اللازمة لسلامة الفطرة ، وأول درجاتها ، فإذا انتفت انتفى الإيمان الأصلي بانتفاء ملزومه ، فثبت

المقت من الله . انتهى .

لطيفة :

(110/762)

قال الزمخشريّ : هذا من أفصح الكلام وأبلغه في معناه ، قصد في ﴿ كَبُرَ ﴾ التعجب من غير لفظه . ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين . وأسند إلى ﴿ أَن تَقُولُواْ ﴾ ، ونصب ﴿ مَقْتاً ﴾ على تفسيره ، دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص ، لا شوب فيه ، لفرط تمكن المقت منه . واختير لفظ المقت ؛ لأنه أشد البغض وأبلغه ، ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيرا ، حتى جعل أشده وأفحشه . و ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ أبلغ من ذلك ، لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله ، فقد تم كبره وشدته .

قال الناصر : وزائد على هذه الوجوه الأربعة وجه خامس ، وهو تكرار لقوله : ﴿ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ وهو لفظ واحد ، في كلام واحد . ومن فوائد التكرار التهويل والإعظام .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ قال القاشانيّ : لأن بذل النفس في سبيل الله لا يكون إلا عند خلوص النفس في محبة الله ، إذ المرء إنما يحب

كل ما يحب من دون الله لنفسه . فأصل الشرك ومحبة الأنداد ، محبة النفس . فإذا سمح بالنفس ، كان غير محب لنفسه ، وإذا لم يحب نفسه فبالضرورة لم يحب شيئاً من الدنيا ، وإذا كان بذله للنفس في اللهو وفي سبيله لا للنفس ، كما قال - ترك الدنيا للدنيا - كانت محبة الله في قلبه راجحة على محبة كل شيء ، فكان من الذين قال فيهم : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ ﴾ [البقرة : 165] ، وإذا كانوا كذلك يلزم محبة الله إياهم ، لقوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : 54] ، انتهى .

تنبيهات :

الأول : في ذكر هذه الآية عقيب مقت المخلف دليل على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات في قتال الكفار ، فلم يفوا . انتهى .

(111/762)

وأيده الناصر من الوجهة البيانية بأن الأول كالبسطة العامة لهذه القصة الخاصة ، كقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ [الحجرات : 1 - 2] ، فالنهي العام ورد أولاً ، والمقصود اندراج هذا الخاص فيه ، كما تقول للمقترف جرماً معيناً : لا

تفعل ما يلصق العار بك، ولا تشاتم زيداً. وفائدة مثل هذا النظم النهي عن الشيء الواحد مرتين، مندرجاً في العموم، ومفرداً بالخصوص. وهو أولى من النهي عنه على الخصوص مرتين فإن ذلك معدود في حيز التكرار، وهذا يتكرر مع ما في التعميم من التعظيم والتهويل. انتهى.

الثاني: في "الإكليل": قال إلكيا الهراسي: يحتج بقوله تعالى ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: 2- 3] في وجوب الوفاء بالنذر، ونذر اللجاج. قال غيره: والوعود. انتهى.

قال ابن كثير: هو إنكار على من يعد وعداً، أو يقول قولاً، لا يفي به. ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً، سواء ترتب عليه عزم الموعود أم لا. واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: <آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدّث كذب، وإذا اؤتمن خان>. ولهذا أكد الله تعالى هذه الإنكار عليهم بقوله تعالى ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا صبي ، فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله ! تعال أعطك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < وما أردت أن تعطيه > ؟ قالت : تمراً . فقال : < أما إنك لو لم تفعلي ، كُتبت عليك كذبة > .

وذهب الإمام مالك رحمه الله إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود ، وجب الوفاء به . كما قال لغيره : تزوج ولك عليّ كل يوم كذا . فتزوج . وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك ، لأنه تعلق به حق آدمي .

(113/762)

وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً ، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم ، فلما فرض ، نكل عنه بعضهم ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء : 77] . وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ

رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت ﴾ [محمد : 20] الآية ، وهكذا هذه الآية معناها كما قال ابن عباس : كان ناس من المؤمنين ، قبل أن يفرض الجهاد ، يقولون : لوددنا أن الله عز وجل دلّنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ، ولم يقروا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ وقيل : كان المسلمون يقولون : لو نعلم أي : الأعمال أحب إلى الله لأتيناه ، ولو ذهبت فيه أنفسنا وأموالنا ، فلما كان يوم أحد ، تولوا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى شج وكسرت رباعيته ، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ روي ذلك عن مقاتل بن حيان .

وقيل : نزل هذا توبيخاً لقوم من المنافقين كانوا يعدون المؤمنين النصر وهم كاذبون . يقولون : لو خرجتم خرجنا معكم ، وكنا في نصركم ، وفي وفي . . . . . . روي ذلك عن ابن زيد .

وكل المروي هنا ما تشمله الآية .

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسأله : أي : الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم منا أحد ، فأرسل إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة - يعني سورة الصف - كلها . ولفظ ابن أبي حاتم عن عبد الله بن سلام أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : لو أرسلنا إلى رسول الله نسأله عن ذلك . قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر رجلاً رجلاً ، حتى جمعهم ، ونزلت فيهم هذه السورة - الصف - قال عبد الله بن سلام : فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها . وفي رواية ابن أبي حاتم هذه فائدة جليلة : وهي أن قول الصحابي نزلت هذه السورة ، بمعنى قرئت في الحادثة ، كما بيّنَتْهُ الرواية قبله . والروايات يفسر بعضها بعضاً . وقد نبهنا على ذلك مراراً .

الثالث : في " الإكليل " في قوله :

﴿ كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ استحباب قيام المجاهدين في القتال صفوفاً كصفوف الصلاة ، وأنه يستحب سد الفُرَج والخلل في الصفوف ، وإتمام صف الأول فالأول ، وتسوية الصفوف قدماً بقدم ، لا يتقدم بعض على بعض فيها .

قال ابن أبي الفَرَس : واستدل بها على أن قتال الرجالة أفضل من قتال الفرسان ؛ لأن التراص إنما يمكن منهم . قال : وهو ممنوع . انتهى .

وفي التشبيه وجهان آخران :

أحدهما : أن يكون المراد الثبات ورسوخ الأقدام في الموقف ، تنبيهاً على أن المتزلزل القدم ، والمضطرب في الموقف : دع من يعزم على الفرار ممن يمقته الله تعالى ، ولا تناله محبته .

(115/762)

ثانيهما : أن يكون المعنى به اجتماع الكلمة ، والاتفاق على تسوية الشأن مع العدوّ ، حتى يكونوا في الاتحاد وموالاة بعضهم بعضاً كالبنيان المرصوص . وقد أشار لهذين الوجهين الرازيّ . وهما أقرب من الأول ، لتقويتهما لمعنى طليعة السورة ، من الثبات على الوعد والوفاء به ، والعتب على من يخلف فيه ، كما تقدم .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ أي : لم توصلون إليّ الأذى بالمخالفة والعصيان لما آمركم به ، وأنتم تعلمون علم اليقين صدقي فيما جئتكم به من الرسالة ، لما شاهدتم من الآيات البينات ؟ ومقتضى علمكم ذلك ، تعظيمي وإطاعتي ، لأن من عرف الله وعظمته ، عظّم رسوله ، لأن تعظيمه في تعظيم رسوله .

قال ابن كثير : وفي هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر . ولهذا قال صلوات الله عليه : < رحمة الله على موسى

! لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر > . وفيه نهي للمؤمنين أن يوصلوا له ، صلوات الله عليه أذى ، كما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ [الأحزاب : 69] ، انتهى .

(116/762)

وقال أبو السعود : هذا كلام مستأنف ، مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال . و ﴿ إِذ ﴾ منصوب على المفعولية بمضمر . خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين . أي : واذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال ، وقت قول موسى لبني إسرائيل حين ندبهم إلى قتال الجبابرة ، بقوله : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : 21] ، فلم يمتثلوا أمره ، وعصوه أشد عصيان ، حيث قالوا : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ [المائدة : 22] ، إلى قوله : ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة : 24] ، وأصروا على ذلك ، وآذوه عليه الصلاة والسلام ، كل الأذية . هذا هو الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم ، ويرتضيه الذوق السليم . وأما ما

قيل بصدد بيان أسباب الأذية ، من أنهم كانوا يؤذونه بأنواع الأذى ، من انتقاصه وعيبه في نفسه وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه ، وعبادتهم البقر ، وطلبهم رؤية الله جهرة ، فمما لا تعلق له بالمقام . انتهى ملخصاً . وملخصه : أن المقام يعيّن نوع الأذية ويخصصها ، والقرينة إحدى مخصصات العامّ ، إلا أن أخذها عامة أعظم في التسلية وأولى ، وقوفاً مع عموم اللفظ الكريم .

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا ﴾ أي : عن مقتضى علمهم لفرط الهوى ، وحب الدنيا ﴿ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي : عن طريق الهدى ، وحجبهم عن نور الكمال ، لصرف اختيارهم نحو الغي والضلال ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي : الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق ، المصرّين على الغواية .

(117/762)

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ أي : التي أنزلت على موسى ، وذلك مما يدعو إلى تصديقه عليه السلام .

﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : الدلالات التي آتاها الله إياه ، حججاً على نبوته ، ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : بيّن .

والإشارة إلى ما جاء به أو إليه صلى الله عليه وسلم ، وتسميته سحراً مبالغة . يريد عليه السلام : أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ، ممن تقدم وتأخر .

تنبيهات :

الأول : نقل الرازي وغيره مصداق هذه الآية من الإنجيل الموجود بين أيديهم . وذلك في "إنجيل يوحنا" ، في الباب الرابع عشر ، هكذا :

إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد - كما في النسخة المطبوعة سنة 1821 و1831 و1833 بمدينة لندن - وفارقليط يونانية ، ولفظها الأصلي بيركلوط ، ومعناه :

محمد أو أحمد ، كما بينه صاحب "إظهار الحق" .

وذكرت جريدة المؤيد عدد (3284) صفحة *تحت عنوان : لا يعدم الإسلام منصفاً :

وقال مسيو مارسيه من مدرسة اللغات الشرقية ، ما يأتي :

إن محمداً هو مؤسس الدين الإسلاميّ ، واسم محمد جاء من مادة حمد . ومن غريب الاتفاق أن نصارى العرب كانوا يستعملون اسماً من نفس المادة يقرب في المعنى من محمد ، وهو أحمد ، لتسمية البراكلية به ، ومعنى أحمد صاحب الحمد ، وهذا ما دعا علماء الدين الإسلامي أن يثبتوا بأن كتب المسيحيين قد بشرت بمجيء النبي محمد . وقد أشار

القرآن نفسه إلى هذا بقوله عن المسيح : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾

(118/762)

وقد قال اسبرانجيه : إن هذه الآية تشير إشارة خاصة إلى عبارة " إنجيل يوحنا " حيث وعد المسيح تلامذته ببعثة صاحب هذا الاسم . انتهى بالحرف .

وأما " إنجيل برنابا " ففيه العبارات الصريحة المتكررة ، بل الفصول الضافية الذيول ، التي يذكر فيها اسم محمد في عرضها ذكراً صريحاً ، ويقول : إنه رسول الله .

وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة إنكليزي أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بالقلم الحميري قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيها يقول المسيح :

﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ وذلك موافق لنص القرآن الكريم بالحرف . وقد بدل الرهبان نقط الفارقليط في المطبوعات الأخيرة بـ " المعزّي " .

قال بعضهم : ولا عجب من هذه التحريفات المتجددة بتجدد الطبعات ، فإنها سجية القوم في كتبهم المقدسة .

~سجيةٌ تلك فيهم غير محدثةَ

الثالث : قال الإمام ابن القيم في " جلاء الأفهام " : الفرق بين محمد وأحمد من وجهين :

أحدهما : أن محمداً هو المحمود حمداً بعد حمد ، فهو دالّ على كثرة حمد الحامدين له ، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه ، وأحمد أفعل تفضيل من الحمد ، يدل على أن الحمد الذي يستحقه أفضل مما يستحقه غيره . فمحمد زيادة حمد في الكمية ، وأحمد زيادة في الكيفية ، فيحمد أكثر حمد ، وأفضل حمد حمده البشر .

والوجه الثاني : أن محمداً هو المحمود حمداً متكرراً كما تقدم ، وأحمد هو الذي حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره . فدل أحد الاسمين – وهو محمد – كونه محموداً . ودل الاسم الثاني – وهو أحمد – على كونه أحمد الحامدين لربه ، وهذا هو القياس ، فإن أفعل التفضيل والتعجب عند جماعة البصريين لا يبنيان إلا من فعل الفاعل ، لا من فعل المفعول ، ذهاباً إلى أنهما إنما يصاغان من الفعل اللازم لا المتعدي ونازعهم آخرون وجوزوا بناءهما من الفعل الواقع على المفعول ، لقول العرب : ما أشغله بالشيء .

إلى أن قال : والمقصود أنه صلى الله عليه وسلم سمي محمداً وأحمد ، لأنه يحمد أكثر ما

يُحمد غيره ، وأفضل مما يحمد غيره . فالاسمان واقعان ، على المفعول ، وهذا هو المختار . وذلك أبلغ في مدحه ، وأتم معنى . ولو أريد به اسم الفاعل لسميّ الحمّاد وهو كثير الحمد ، كما سمي محمداً ، وهو المحمود كثيراً . فإنه صلى الله عليه وسلم < كان أكثر الخلق حمداً لربه > ، فلو كان اسمه باعتبار الفاعل ، لكان الأولى أن يسمى حمّاداً ، كما أن اسم أمته الحمّادون . وأيضاً فإن الاسمين إنما اشتقا من أخلاقه وخصائله المحموده التي لأجلها استحق أن يسمى محمداً وأحمد ، فهو الذي يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة ، ويحمده أهل السماوات والأرض ، فلكثرة خصائله التي تفوت عدّ العادّين سمي باسمين من أسماء الحمد ، يقتضيان التفضيل والزيادة في القدر والصفة . انتهى .

(120/762)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ أي : لا أحد أظلم وأشد عدواناً ممن يدعى إلى الإسلام الظاهر حقيقته ، المسعد له في الدارين ، فيستبدل إجابته بافتراء الكذب ، واختلاقه على الله ، وذلك قوله لكلامه تعالى : سحر ، ولرسوله : ساحر ، وهذه الآية إما مستأنفة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، طليعة للآيات بعدها ، وإما متممة لما قبلها ، لتقبيح ما بهت به الإسرائيليون عيسى عليه السلام مع الإشارة

بعمومها إلى ذم كل من كان على شاكلتهم . ولا يقال : ﴿ الإِسْلاَمُ ﴾ يؤيد الأول ، لأنه عنوان الملة الحنيفية ، لأنه قد يراد به معناه اللغوي . وقد كثر ذلك في آيات شتى ، نعم الأقرب الأول ، واحتمال مثل الآية لهذين الوجهين ، مع بدائع التنزيل .

﴿ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بما أنزل من الحق .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ قال ابن جرير : أي : يريد هؤلاء القائلون لمحمد صلى الله عليه وسلم : هذا ساحر ، ليبطلوا الحق الذي جاء به بقولهم : إنه ساحر ، وما جاء به سحر ، والله معلن الحق ، ومظهر دينه ، وناصر رسوله على من عاداه ، فذلك إتمام نوره . انتهى .

ف ﴿ نُورَ اللّهِ ﴾ استعارة تصريحية لدينه ، و الإطفاء ترشيح ، أو التركيب استعارة تمثيلية ، مثلت على حالهم في اجتهادهم في إبطال الحق ، بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه ، تهكماً وسخريةً بهم ، كما يقول الناس : هو يطين عين الشمس والثاني أبلغ وألطف ، وهو مختار الزمخشري .

وفي لام ﴿ لِيُطْفِؤُوا ﴾ مذاهب للنحاة مقررة في المطولات ، ومن أشهرها أنها مزيدة لتأكيد معنى الإرادة ، لما في لام العلة من الإشعار بالإرادة والقصد .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ قال ابن جرير : أي : على كل دين سواه . وذلك عند نزول عيسى ابن مريم ، وحين تصير الملة واحدة ، فلا يكون دين غير الإسلام .

وقال الزمخشري : أي : ليعليه على جميع الأديان المخالفة له ، ولعمري لقد فعل ، فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام ، وتقدم في آخر سورة الفتح في مثل هذه الآية تحقيق آخر ، فليراجع .

﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ أي : لما فيه من محض التوحيد ، وإبطال الشرك .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

أي : إيماناً يقينياً لا يشوبه أدنى شك ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : من أهل العلم . أو أنه خير . فإن قيل : إن ذلك خير بنفسه علموا أولاً ، وأيضاً أن علمهم محقق ، إذ الخطاب مع المؤمنين . فالجواب ما قاله الناصر : أن الشرط ليس على حقيقته ، بل هو من وادي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : 278] . والمقصود بهذا الشرط التنبيه على المعنى الذي يقتضي الامتثال ، وإلهاب الحمية للطاعة ، كما تقول لمن

تأمره بالانتصاف من عدوه : إن كنت حراً فانتصر . تريد أن تثير فيه حمية الانتصار لا غير . انتهى .

(122/762)

وقوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر . أو لشرط أو استفهام ، دل عليه الكلام تقديره : إن تؤمنوا وتجاهدوا . أو هل تقبلون أن أدلكم ، يغفر لكم ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أي : بساتين إقامة لا ظعن عنها ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي : النجاء العظيم من نكال الآخرة وأهوالها .

﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أي : عاجل . وهو فتح مكة . وهذا يدلّ على أن السورة نزلت قبل فتح مكة بقليل . وكان القصد منها تشجيع المؤمنين على قتال محاربيهم ، والثبات أمامهم ، والتحذير عن الزيغ عن ذلك ، والترغيب في السخاوة ببذل الأنفس والأموال ، في سبيل الحق ، لإعلاء شأنه ، وإزهاق الباطل . و ﴿ أُخْرَى ﴾ مفعول لمقدر معطوف على الجوابين قبله ، وهو جواب ثالث . أي : ويؤتكم أخرى أو صفة لمبتدأ مقدّر ، وخبره محذوف . وهو لكم ، أي : ولكم إلى هذه النعمة المذكورة ، نعمة

أخرى عاجلة محبوبة ، وهي نصر من الله لكم على أعدائكم ، وفتح قريب يعجّله لكم .

﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : بنصره تعالى لهم وفتحه . ومن منع من النحاة عطف الإنشاء على الخبر يقول : و ﴿ بَشِّرِ ﴾ معطوف على ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ ، لأنه بمعنى آمنوا . وضعّف بأن المخاطب بـ ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ المؤمنون ، وب ﴿ بَشِّرِ ﴾ النبي صلى الله عليه وسلم . ثم إن ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ بيان لما قبله ، و ﴿ بَشِّرِ ﴾ لا يصلح لذلك . وأجيب بأنه لا مانع من العطف على الجواب ، ما هو زيادة عليه إذا ناسبه . وهذا أولى على الوجوه عند صاحب "الكشف" ، كتقدير : أبشر يا محمد ، و ﴿ بَشِّرِ ﴾ ، وتقدير : قل قبل ﴿ يا أَيُّهَا ﴾ وجعل ﴿ بَشِّرِ ﴾ أمراً بمعنى الخبر ، كما في قوله : أبطئي أو أسرعي .

(123/762)

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصارَ اللَّهِ ﴾

أي : أنصار الحق الذي أنزله وأمر به ، ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنصارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي : من معي وجندي متوجهاً إلى نصرة الله ، ﴿ قَالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنصارُ اللَّهِ ﴾ أي : ننصر دينه ، وما أمر به ، وندعو إليه ، ونضحّي لأجله حياتنا ، ﴿ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي : بعيسى عليه السلام ، ونهضت تدعوا إلى ما بعث به ،

وتنتشر دعوته ، ﴿ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾ أي : برسالته والحق الذي معه ، ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ ﴾ من اليهود والرومان الوثنيين ، و ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ أي : غالبين عليهم بالبراهين الواضحة ، والحجج الظاهرة ، والسلطة القاهرة ، وفيه بشارة للمؤمنين بالتأييد الرباني لهم ، ما داموا متناصرين على الحق ، مجتمعين عليه ، غير متفرقين عنه ولا متخاذلين ، كما وقع لسلفهم ، اتفقوا فملكوا ، وإلا فإذا تفرقوا هلكوا .

لطيفة :

ليس التشبيه على ظاهره ، من تشبيه كون المؤمنين أنصار الله بقول عيسى ، إذ لا وجه لتشبيه الكون بالقول ، بل هو مؤول بجعل التشبيه باعتبار المعنى ، إما على تقدير : قل لهم ، كما قال عيسى ، لظهوره فيه ، وانصباب الكلام إليه ، أو تقدير : كونوا أنصار الله ، كما كان الحواريون حين قال لهم عيسى : من أنصاري إلى الله ؟

قال الشهاب : ف ﴿ مَا ﴾ مصدرية ، وهي مع صلتها ظرف ، والأصل : ككون الحواريين أنصاراً وقت قول عيسى . ثم حذف المظروف ، وأقيم ظرفه مقامه . وقد جعلت الآية من الاحتباك . والأصل : كونوا أنصار الله حين قال لكم النبيّ : من أنصاري إلى الله ؟ كما كان الحواريون أنصار الله ، حين قال لهم منهما ، أنصاري إلى الله ؟ فحذف من كل منهما ، ما دل عليه المذكور في الآخر . وهو كلام حسن . انتهى . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 122.111 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الصف

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) ﴾

تجيء هذه التسبيحة من الوجود كله لله العزيز الحكيم , في مطلع السورة التي تعلن للمسلمين أن دينهم هو الحلقة الأخيرة في دين الله ; وأنهم هم الأمناء على هذا الدين الذي يوحد الله , وينكر على الكافرين المشركين كفرهم وشركهم , والذي يدعوهم للجهاد لنصرته , وقد قدر الله أن يظهره على الدين كله ولو كره المشركون . فيوحي هذا المطلع أن الأمانة التي يقوم عليها المسلمون هي أمانة الوجود كله ; وأن العقيدة التي يطلب إليهم الجهاد فيها هي عقيدة كل ما في السماوات وما في الأرض ; وأن ظهور هذا الدين على الدين كله , هو ظاهرة كونية تتسق مع اتجاه الكون كله إلى الله العزيز الحكيم .

الدرس الثاني:2 - 4 لوم من يقول ولا يفعل ومحبة الله للمجاهدين

ثم يعاتب الله الذين آمنوا عتابا شديدا على أمر حدث من طائفة منهم . أمر يكرهه الله أشد الكره , ويمقته أكبر المقت , ويستفظعه من الذين آمنوا على وجه الخصوص:

(يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا , كأنهم بنيان مرصوص . .

قال علي بن طلحة عن ابن عباس قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليه , فنعمل به , فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه , وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ,

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3)

(125/762)

وشق عليهم أمره , فقال الله سبحانه وتعالى: (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . . .) . . وقد اختار ابن جرير في تفسيره هذا القول .

وقال ابن كثير في تفسيره: "وحملوا الآية - يعني الجمهور - على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم , فلما فرض نكل عنه بعضهم , كقوله تعالى: (ألم تر إلى الذين قيل لهم: كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة , فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس

كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا: ربنا لم كتبت علينا القتال؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب! قل: متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا. أينما تكونوا يدرككم الموت. ولو كنتم في بروج مشيدة) . .

وقال قتادة والضحاك نزلت توبيخا لقوم كانوا يقولون: قتلنا . ضربنا . طعنا . وفعلنا . . ولم يكونوا فعلوا ذلك!

والراجح من سياق الآيات وذكر القتال أن مناسبة النزول هي التي عليها الجمهور وهي اختيار ابن جرير. ولكن النصوص القرآنية دائما أبعد مدى من الحوادث المفردة التي تنزل الآيات لمواجهتها، وأشمل لحالات كثيرة غير الحالة التي نزلت بسببها. ومن ثم فإننا نسير مع هذه النصوص إلى مدلولاتها العامة، مع اعتبار الحادث الذي تذكره روايات النزول.

إنها تبدأ بعتاب على حادث وقع أو حوادث:

(يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون؟).

وتثني باستنكار لهذا الفعل وهذا الخلق في صيغة تضخم هذا الاستنكار:

(كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون؟) . .

والمقت الذي يكبر (عند الله) . هو أكبر المقت وأشد البغض وأنكر النكر . . وهذا غاية التفظيع لأمر، وبخاصة في ضمير المؤمن، الذي ينادى بإيمانه، والذي يناديه ربه الذي آمن به.

والآية الثالثة تشير إلى الموضوع المباشر الذي قالوا فيه ما لم يفعلوا . . وهو الجهاد . .

وتقرر ما يحبه الله فيه ويرضاه:

(126/762)

(إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) . .

فليس هو مجرد القتال . ولكنه هو القتال في سبيله . والقتال في تضامن مع الجماعة المسلمة داخل الصف . والقتال في ثبات وصمود (صفا كأنهم بنيان مرصوص) . .

إن القرآن - كما قلنا في مناسبات متعددة في هذا الجزء - كان يبني أمة . كان يبنيها لتقوم على أمانة دينه في الأرض , ومنهجه في الحياة , ونظامه في الناس . ولم يكن بد أن يبني نفوسها أفرادا ويبنيها جماعة , ويبنيها عملا واقعا . . كلها في آن واحد . . فالمسلم لا يبنى فردا إلا في جماعة . ولا يتصور الإسلام قائما إلا في محيط جماعة منظمة ذات ارتباط , وذات نظام , وذات هدف جماعي منوط في الوقت ذاته بكل فرد فيها . هو إقامة هذا المنهج الإلهي في الضمير وفي العمل مع إقامته في الأرض . وهو لا يقوم في الأرض إلا في مجتمع يعيش ويتحرك ويعمل وينتج في حدود ذلك المنهج الإلهي .

والإسلام على شدة ما عني بالضمير الفردي وبالتبعة الفردية - ليس دين أفراد منعزلين , كل

واحد منهم يعبد الله في صومعة . . إن هذا لا يحقق الإسلام في ضمير الفرد ذاته , ولا يحققه بطبيعة الحال في حياته . ولم يجئ الإسلام لينعزل هذه العزلة . إنما جاء ليحكم حياة البشرية ويصرفها . ويهيمن على كل نشاط فردي وجماعي في كل اتجاه . والبشرية لا تعيش أفرادا إنما تعيش جماعات وأمما . والإسلام جاء ليحكمها وهي كذلك . وهو مبني على أساس أن البشر يعيشون هكذا . ومن ثم فإن آدابه وقواعده ونظمه كلها مصوغة على هذا الأساس . وحين يوجه اهتمامه إلى ضمير الفرد فهو يصوغ هذا الضمير على أساس أنه يعيش في جماعة . وهو والجماعة التي يعيشون فيها يتجهون إلى الله , ويقوم - فيها - على أمانة دينه في الأرض , ومنهجه في الحياة , ونظامه في الناس .

(127/762)

ومنذ اليوم الأول للدعوة قام مجتمع إسلامي - أو جماعة مسلمة - ذات قيادة مطاعة هي قيادة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذات التزامات جماعية بين أفرادها , وذات كيان يميزها عن سائر الجماعات حولها , وذات آداب تتعلق بضمير الإنسان مراعى فيها - في الوقت ذاته - حياة هذه الجماعة . . وذلك كله قبل أن تقوم الدولة المسلمة في المدينة . بل إن قيام تلك الجماعة كان هو وسيلة إقامة الدولة في المدينة . .

وننظر في هذه الآيات الثلاث فنرى امتزاج الخلق الفردي بالحاجة الجماعية, في ظل العقيدة الدينية, وطبيعتها التي تقتضي تحقيقها في الحياة البشرية في صورة نظام يقوم عليه من يحرسه ويتولاه .

إن الآيتين الأوليين تتضمنان العقاب من الله سبحانه والاستنكار لأن يقول الذين آمنوا ما لا يفعلون . .

وهما بهذا ترسمان الجانب الأصيل في شخصية المسلم . . الصدق . . والاستقامة . وأن يكون باطنه كظاهره, وأن يطابق فعله قوله . . إطلاقا . . وفي حدود أبعد مدى من موضوع القتال الذي يجيء في الآية الثالثة .

وهذه السمة في شخصية المسلم يدق القرآن عليها كثيرا, وتتابعها السنة في تكرار يزيدها توكيدا: يقول الله تعالى مندد باليهود: (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب . أفلا تعقلون ?) . . ويقول تعالى مندد بالمنافقين: (ويقولون: طاعة . فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول) . . ويقول فيهم كذلك: (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام, وإذا تولى سعى

في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد) . . ويقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب , وإذا وعد أخلف , وإذا أؤتمن خان " . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة . ولعل الحديث الذي سنذكره هنا من أدق وألطف التوجيهات النبوية الكريمة في هذا الاتجاه . . روى الإمام أحمد وأبو داود عن عبدالله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنا صبي , فذهبت لأخرج لألعب . فقالت أمي : يا عبدالله تعال أعطك . فقال لها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " وما أردت أن تعطيه ! " فقالت : تمرا . فقال : " أما إنك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة " . . ولعله استقاء من هذا النبع النبوي الطاهر الرائق امتنع الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - من الرواية من رجل سافر إليه مسافات شاسعة ليأخذ عنه حديثا . حينما وجده يضم حجره ويدعو بغلته يوهمها بطعام وحجره فارغ ! فتحرج أن يروي عنه , وقد كذب على بغلته !

فهذا بناء أخلاقي دقيق نظيف لضمير المسلم وشخصيته التي تليق بمن يقوم أمينا على منهج الله في الأرض . وهو الأمر الذي تقرره هذه السورة . وهذه حلقة من حلقات التربية في الجماعة المسلمة التي يعدها الله لتقوم على هذا الأمر .

فإذا جئنا للموضوع المباشر الذي كانت هذه الآيات تواجهه عند نزولها . . وهو موضوع الجهاد . . فإننا نقف أمام موضوعات شتى للحديث والملاحظة والعبرة .

نقف أولا أمام النفس البشرية التي تلم بها لحظات الضعف الطارئة , فلا يعصمها منها إلا عون الله , وإلا التذكير الدائم , والتوجيه الدائم , والتربية الدائمة . . فهؤلاء جماعة من المسلمين قيل في بعض الروايات: إنهم من المهاجرين الذين كانوا يتمنون أن يأذن الله لهم في القتال وهم في مكة من شدة الحماس والاندفاع . وكانوا يؤمرون بكف أيديهم وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة (فلما كتب عليهم القتال) في المدينة في الوقت المناسب الذي قدره الله (إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية , وقالوا: ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب !) . . أو هم جماعة من المسلمين في المدينة كانوا يسألون عن أحب الأعمال إلى الله ليفعلوه فلما أمروا بالجهاد كرهوه !

وهذه الوقفة كفيلة بأن تفتح أعيننا على ضرورة الموالاة للنفس البشرية بالتقوية والتثبيت والتوجيه ; وهي تواجه التكاليف الشاقة , لتستقيم في طريقها , وتتغلب على لحظات ضعفها , وتتطلع دائما إلى الأفق البعيد . كما تلهمنا أن نتواضع في طلب التكاليف وتمنيها ونحن في حالة العافية ! فلعلنا لا نقوى على ما نقترح على الله حين يكلفنا إياه ! وهؤلاء جماعة من المسلمين الأوائل يضعفون ويقولون ما لا يفعلون ; حتى يعاتبهم الله هذا العتاب

الشديد , وينكر عليهم هذا الإنكار المخيف !

ونقف ثانية أمام حب الله للذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص . . نقف أمام هذا الإغراء القوي العميق على القتال في سبيل الله . . وأول ما يسجل هنا أنه كان لمواجهة حالة تقاعس وتخلف وكراهية للقتال . ولكن هذا السبب الغريب في الحادث المحدود لا ينفي أن الحض عام , وأن وراءه حكمة دائمة .

(130/762)

إن الإسلام لا يتشهى القتال , ولا يريده حبا فيه . ولكنه يفرضه لأن الواقع يحتمه , ولأن الهدف الذي وراءه كبير . فالإسلام يواجه البشرية بالمنهج الإلهي في صورته الأخيرة المستقرة . وهذا المنهج - ولو أنه يلبي الفطرة المستقيمة - إلا أنه يكلف النفوس جهدا لتسمو إلى مستواه , ولتستقر على هذا المستوى الرفيع . وهناك قوى كثيرة في هذه الأرض لا تحب لهذا المنهج أن يستقر , لأنه يسلبها كثيرا من الامتيازات , التي تستند إلى قيم باطلة زائفة , يحاربها هذا المنهج ويقضي عليها حين يستقر في حياة البشر . وهذه القوى تستغل ضعف النفوس عن البقاء في المستوى الإيماني وتكاليفه , كما تستغل جهل العقول , وموروثات الأجيال , لتعارض هذا المنهج وتقف في طريقه . والشر عارم . والباطل

متبجح . والشيطان لئيم ! ومن ثم يتعين على حملة الإيمان وحراس المنهج أن يكونوا أقوياء ليغلبوا عملاء الشر وأعوان الشيطان . أقوياء في أخلاقهم , وأقوياء في قتال خصومهم على السواء . ويتعين عليهم أن يقاتلوا عندما يصبح القتال هو الأداة الوحيدة لضمان حرية الدعوة للمنهج الجديد , وحرية الاعتقاد به , وحرية العمل وفق نظامه المرسوم .

وهم يقاتلون في سبيل الله . . لا في سبيل ذواتهم أو عصبيتهم من أي لون . . عصبية الجنس وعصبية الأرض وعصبية العشيرة وعصبية البيت . . . في سبيل الله وحده , لتكون كلمة الله هي العليا . والرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول:" من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ (4)

(131/762)

وكلمة الله هي التعبير عن إرادته . وإرادته الظاهرة لنا - نحن البشر - هي التي تتفق مع الناموس الذي يسير عليه الكون كله . الكون الذي يسبح بحمد ربه . ومنهج الله في صورته الأخيرة التي جاء بها الإسلام هو الذي يتناسق مع ذلك الناموس ; ويجعل الكون كله - والناس من ضمنه - يحكمون بشريعة الله . لا بشريعة يضعها سواه .

ولم يكن بد أن يقاومه أفراد , وأن تقاومه طبقات , وأن تقاومه دول . ولم يكن بد كذلك أن يمضي الإسلام في وجه هذه المقاومة ; ولم يكن بد أن يكتب الجهاد على المسلمين لنصرة هذا المنهج , وتحقيق كلمة الله في الأرض . ولهذا أحب الله - سبحانه - الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص .

ونقف ثالثا أمام الحالة التي يحب الله للمجاهدين أن يقاتلوا وهم عليها : (صفا كأنهم بنيان مرصوص) . . فهو تكليف فردي في ذاته , ولكنه فردي في صورة جماعية . في جماعة ذات نظام . ذلك أن الذين يواجهون الإسلام يواجهونه بقوى جماعية , ويؤلبون عليه تجمعات ضخمة ; فلا بد لجنود الإسلام أن يواجهوا أعداءه صفا . صفا سويا منتظما , وصفا متينا راسخا ذلك إلى أن طبيعة هذا الدين حين يغلب ويهيمن أن يهيمن على جماعة , وأن ينشئ مجتمعا متماسكا . . متناسقا . فصورة الفرد المنعزل الذي يعبد وحده , ويجاهد وحده , ويعيش وحده , صورة بعيدة عن طبيعة هذا الدين , وعن مقتضياته في حالة الجهاد , وفي حالة الهيمنة بعد ذلك على الحياة .

وهذه الصورة التي يحبها الله للمؤمنين ترسم لهم طبيعة دينهم , وتوضح لهم معالم الطريق , وتكشف لهم عن طبيعة التضامن الوثيق الذي يرسمه التعبير القرآني المبدع: (صفا كأنهم بنيان مرصوص) . . بنيان تتعاون لبناته وتتضامن وتتماسك , وتؤدي كل لبنة دورها , وتسد ثغرتها , لأن البنيان كله ينهار أذا تخلت منه لبنة عن مكانها . تقدمت أو تأخرت سواء . وإذا تخلت منه لبنة عن أن تمسك بأختها تحتها أو فوقها أو على جانبيها سواء .

. إنه التعبير المصور للحقيقة لا لمجرد التشبيه العام . التعبير المصور لطبيعة الجماعة , ولطبيعة ارتباطات الأفراد في الجماعة . ارتباط الشعور , وارتباط الحركة , داخل النظام المرسوم , المتجه إلى هدف مرسوم .

الدرس الثالث:5 - 6 موسى وعيسى يقرعان بني إسرائيل لسوء فعلهم

بعدئذ يذكر قصة هذا المنهج الإلهي ومراحلها في الرسالات قبل الإسلام .

(وإذ قال موسى لقومه:يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ? فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم , والله لا يهدي القوم الفاسقين) .

وإذ قال عيسى بن مريم:يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد . .

وإيذاء بني إسرائيل لموسى - وهو منقذهم من فرعون وملئه , ورسولهم وقائدهم ومعلمهم - إيذاء متطاول متعدد الألوان , وجهاده في تقويم اعوجاجهم جهاد مضن عسير شاق .

ويذكر القرآن في قصص بني إسرائيل صورا شتى من ذلك الإيذاء ومن هذا العناء .

كانوا يتسخطون على موسى وهو يحاول مع فرعون إنقاذهم , ويتعرض لبطشه وجبروته وهم آمنون بذلتهم له ! فكانوا يقولون له لائمين متبرمين: (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) ! كأنهم لا يرون في رسالته

(133/762)

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5)

خيرا , أو كأنما يحملونه تبعة هذا الأذى الأخير !

وما كاد ينقذهم من ذل فرعون باسم الله الواحد الذي أنقذهم من فرعون وأغرقه وهم ينظرون . . حتى مالوا إلى عبادة فرعون وقومه . . (فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا:يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) . . وما كاد يذهب لميقات ربه على الجبل ليتلقى الألواح , حتى أضلهم السامري:(فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا:هذا إلهكم وإله موسى فنسي !) . .

ثم جعلوا يتسخطون على طعامهم في الصحراء:المن والسلوى . فقالوا : (يا موسى لن نصبر

على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها

وبصلها) !

وفي حادث البقرة التي كلفوا ذبحها ظلوا يماحكون ويتعللون ويسيئون الأدب مع نبيهم وربهم

وهم يقولون: (ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) . . (ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها) . . (ادع لنا

ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا) . . (فذبحوها وما كادوا يفعلون) !

ثم طلبوا يوم عطلة مقدسا فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه .

وأمام الأرض المقدسة التي بشرهم الله بدخولها وقفوا متخاذلين يصعرون خدهم في الوقت

ذاته لموسى :(قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين , وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن

يخرجوا منها فإنا داخلون) . . فلما كرر عليهم التحضيض والتشجيع تبجحوا

وكفروا :(قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا

هاهنا قاعدون) . . .

ذلك إلى إعنات موسى بالأسئلة والاقتراحات والعصيان والتمرد , والاتهام الشخصي

بالباطل كما جاء في بعض الأحاديث .

وتذكر الآية هنا قول موسى لهم في عتاب ومودة:

(يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ?) . .

وهم كانوا يعلمون عن يقين . . إنما هي لهجة العتاب والتذكير . .

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعدما بذلت لهم كل أسباب الاستقامة , فزادهم الله زيغا , وأزاغ قلوبهم فلم تعد صالحة للهدى . وضلوا فكتب الله عليهم الضلال أبدا : (والله لا يهدي القوم الفاسقين) . .

وبهذا انتهت قوامتهم على دين الله , فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر , وهم على هذا الزيغ والضلال .

ثم جاء عيسى بن مريم . جاء يقول لبني إسرائيل:

(يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم) . .

فلم يقل لهم:إنه الله , ولا إنه ابن الله , ولا إنه أقنوم من أقانيم الله .

(مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) . .

في هذه الصيغة التي تصور حلقات الرسالة المترابطة , يسلم بعضها إلى بعض , وهي متماسكة في حقيقتها , واحدة في اتجاهها , ممتدة من السماء إلى الأرض , حلقة بعد حلقة في السلسلة الطويلة المتصلة . . وهي الصورة اللائقة بعمل الله ومنهجه . فهو منهج واحد في أصله , متعدد في صوره , وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقاتها , ووفق تجاربها

ورصيدها من المعرفة حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلي والشعوري , فتجيء الحلقة الأخيرة في الصورة الأخيرة كاملة شاملة , تخاطب العقل الراشد , في ضوء تلك التجارب , وتطلق هذا العقل يعمل في حدوده ,

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (6) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (7)

داخل نطاق المنهج المرسوم للإنسان في جملته , المتفق مع طاقاته واستعداداته .

وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص , سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها . فثابت أن الطريقة التي كتبت بها هذه الأناجيل والظروف التي أحاطت بها لا تجعلها هي المرجع في هذا الشأن .

وقد قرئ القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه: (النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل) . وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا

كعبدالله بن سلام بهذه الحقيقة , التي كانوا يتواصون بتكتمها !

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبي قد أظلهم زمانه , وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أحبار النصارى في الجزيرة العربية . ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم . فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم , كرهوا هذا وحاربوه !

وعلى أية حال فالنص القرآني بذاته هو الفيصل في مثل هذه الأخبار . وهو القول الأخير .

.

الدرس الرابع: 7 - 9 فشل الأعداء في ضرب الإسلام ووعد الله بظهوره ونصره

ويبدو أن الآيات التالية في السورة جاءت على الأكثر بصدد استقبال بني إسرائيل - اليهود والنصارى - للنبي الذي بشرت به كتبهم . والتنديد بهذا الاستقبال , وكيدهم للدين الجديد الذي قدر الله أن يظهره على الدين كله , وأن يكون هو الدين الأخير !

فلما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ? والله لا يهدي القوم الظالمين , يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم , والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . .

ولقد وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد وقفة العداء والكيد والتضليل , وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حربا شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم . حاربوه بالاتهام: (فلما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مبين) . كما قال الذين لا يعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بالدين الجديد . وحاربوه بالدس والوقيعة داخل المعسكر الإسلامي , للإيقاع بين المهاجرين والأنصار في المدينة , وبين الأوس والخزرج من الأنصار . وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة ومع المشركين تارة . وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين كما وقع في غزوة الأحزاب . وحاربوه بالإشاعات الباطلة كما جرى في حديث الإفك على يد عبدالله بن أبي بن سلول , ثم ما جرى في فتنة عثمان على يد عدو الله عبدالله بن سبأ . وحاربوه بالأكاذيب والإسرائيليات التي دسوها في الحديث وفي السيرة وفي التفسير - حين عجزوا عن الوضع والكذب في القرآن الكريم .

ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة . فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام , وظلتا تغيران عليه أو تؤلبان عليه في غير وناة ولا هدنة في جيل من الأجيال . حاربوه في الحروب الصليبية في المشرق , وحاربوه في الأندلس في المغرب , وحاربوه في الوسط في دولة الخلافة الأخيرة حربا شعواء حتى مزقوها وقسموا تركة ما كانوا يسمونه "الرجل المريض" . واحتاجوا أن يخلقوا أبطالا مزيفين في

أرض الإسلام يعملون لهم في تنفيذ أحقادهم ومكايدهم ضد الإسلام . فلما أرادوا تحطيم "الخلافة" والإجهاز على آخر مظهر من مظاهر الحكم الإسلامي صنعوا في تركيا "بطلا" ! . . ونفخوا فيه . وتراجعت جيوش الحلفاء التي كانت تحتل الأستانة أمامه لتحقق منه بطلا في أعين مواطنيه . بطلا يستطيع إلغاء الخلافة , وإلغاء اللغة العربية وفصل تركيا عن المسلمين , وإعلانها دولة مدنية لا علاقة

(137/762)

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9)

لها بالدين ! وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية في بلد من بلاد المسلمين , ليقيموا مكانه عصبية غير عصبية الدين ! وراية غير راية الدين .

(يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم . والله متم نوره ولو كره الكافرون) . .

وهذا النص القرآني يعبر عن حقيقة , ويرسم في الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء ! فهي حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم: (هذا سحر مبين) . . ويدسون

ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد . وهي صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم هم الضعاف المهازيل !

(والله متم نوره ولو كره الكافرون) . . وصدق وعد الله . أتم نوره في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج الإلهي المختار . صورة ذات معالم واضحة وحدود مرسومة , تترسمها الأجيال لا نظرية في بطون الكتب , ولكن حقيقة في عالم الواقع . وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام دينا يحبونه , ويجاهدون في سبيله , ويرضى أحدهم أن يلقى في النار ولا يعود إلى الكفر . فتمت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء . وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين . وتنبض وتنتفض قائمة - على الرغم من كل ما جرد على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد . لأن نور الله لا يمكن أن تطفئه الأفواه , ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد , في أيدي العبيد ! وإن خيل للطغاة الجبارين , وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالغو هذا الهدف البعيد !

لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين , فكان من الحتم أن يكون:

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله , ولو كره المشركون) . .

وشهادة الله لهذا الدين بأنه (الهدى ودين الحق) هي الشهادة . وهي كلمة الفصل التي ليس بعدها زيادة . ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله . ظهر في ذاته كدين , فما يثبت له دين آخر في حقيقته وفي طبيعته . فأما الديانات الوثنية فليست في شيء في هذا المجال . وأما الديانات الكتابية فهذا الدين خاتمتها , وهو الصورة الأخيرة الكاملة الشاملة منها , فهو هي , في الصورة العليا الصالحة إلى نهاية الزمان .

ولقد حرفت تلك الديانات وشوهت ومزقت وزيد عليها ما ليس منها , ونقصت من أطرافها , وانتهت لحال لا تصلح معه لشيء من قيادة الحياة . وحتى لو بقيت من غير تحريف ولا تشويه فهي نسخة سابقة لم تشمل كل مطالب الحياة المتجددة أبدا , لأنها جاءت في تقدير الله لأمد محدود .

فهذا تحقيق وعد الله من ناحية طبيعة الدين وحقيقته . فأما من ناحية واقع الحياة , فقد صدق وعد الله مرة , فظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله فدانت له معظم الرقعة المعمورة في الأرض في مدى قرن من الزمان . ثم زحف زحفا سلميا بعد ذلك إلى قلب آسيا وأفريقية , حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا في إبان الحركات الجهادية الأولى . . وما يزال يمتد بنفسه دون دولة واحدة – منذ أن قضت

الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الخلافة الأخيرة في تركيا على يدي "البطل" الذي صنعوه ! - وعلى الرغم من كل ما يرصد له في أنحاء الأرض من حرب وكيد , ومن تحطيم للحركات الإسلامية الناهضة في كل بلد من بلاد الإسلام على أيدي "أبطال" آخرين من صنع الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على السواء .

(139/762)

وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يؤديها , ظاهرا بإذن الله على الدين كله تحقيقا لوعد الله , الذي لا تقف له جهود العبيد المهازيل , مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل !

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)

ولقد كانت تلك الآيات حافزا للمؤمنين المخاطبين بها على حمل الأمانة التي اختارهم الله لها بعد أن لم يرعها اليهود والنصارى . وكانت تطمينا لقلوبهم وهم ينفذون قدر الله في إظهار دينه الذي أراده ليظهر , وإن هم إلا أداة . وما تزال حافزا ومطمئنا لقلوب المؤمنين

الواثقين بوعد ربهم , وستظل تبعث في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد الله مرة أخرى في واقع الحياة . بإذن الله .

الدرس الخامس:10 - 14 الجهاد الرابح ومكاسبه وثمراته في الدنيا والآخرة والدعوة ليكونوا أنصار الله

وفي ظلال قصة العقيدة , وفي مواجهة وعد الله بالتمكين لهذا الدين الأخير , يهتف القرآن الكريم بالذين آمنوا . . من كان يواجه ذلك الخطاب ومن يأتي بعدهم من المؤمنين إلى يوم الدين . . يهتف بهم إلى أربح تجارة في الدنيا والآخرة . تجارة الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله:

(140/762)

(يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن , ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها :نصر من الله وفتح قريب , وبشر المؤمنين) . .

وصيغة التعبير بما فيها من فصل ووصل , واستفهام وجواب , وتقديم وتأخير , صيغة

ظاهر فيها القصد إلى إقرار هذا الهتاف في القلوب بكل وسائل التأثير التعبيرية .

يبدأ بالنداء باسم الإيمان: يا أيها الذين آمنوا . . يليه الاستفهام الموحي . فالله – سبحانه – هو الذي يسألهم ويشوقهم إلى الجواب: (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟) . .

(141/762)

ومن ذا الذي لا يشتاق لأن يدله الله على هذه التجارة ؟ وهنا تنتهي هذه الآية , وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق . ثم يجيء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع: (تؤمنون بالله ورسوله) . . وهم مؤمنون بالله ورسوله . فتشرق قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم ! (وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) . . وهو الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السورة , يجيء في هذا الأسلوب , ويكرر هذا التكرار , ويساق في هذا السياق . فقد علم الله أن النفس البشرية في حاجة إلى هذا التكرار , وهذا التنويع , وهذه الموحيات , لتنهض بهذا التكليف الشاق , الضروري الذي لا مفر منه لإقامة هذا المنهج وحراسته في الأرض . . . ثم يعقب على عرض هذه التجارة التي دلهم عليها بالتحسين والتزيين: (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) . . فعلم الحقيقة يقود من يعلم

إلى ذلك الخير الأكيد . . ثم يفصل هذا الخير في آية تالية مستقلة, لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه, ويقره في الحس ويمكن له: (يغفر لكم ذنوبكم) . . وهذه وحدها تكفي . فمن ذا الذي يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء ? أو يدخر في سبيلها شيئا ? ولكن فضل الله ليست له حدود: (ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن) . . وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة - حتى حين يفقد هذه الحياة كلها - ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم . . وحقا . . (ذلك الفوز العظيم) . .

وكأنما ينتهي هنا حساب التجارة الرابحة . وإنه لربح ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة . فالذي يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق . فكيف بمن يتجر في أيام قليلة معدودة في هذه الأرض, ومتاع محدود في هذه الحياة الدنيا, فيكسب به خلودا لا يعلم له نهاية إلا ما شاء الله, ومتاعا غير مقطوع ولا ممنوع ?

(142/762)

وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13)

لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعبد الله بن

رواحة – رضي الله عنه – ليلة العقبة . قال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) :"اشترط لربك ولنفسك ما شئت" . فقال (صلى الله عليه وسلم) :"أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا , وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " . قال:فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال:" الجنة " قالوا :" ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل" !

ولكن فضل الله عظيم . وهو يعلم من تلك النفوس أنها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض , يناسب تركيبها البشري المحدود . وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض , وتحقيق منهجه وهيمنته على الحياة في ذلك الجيل:(وأخرى تحبونها :نصر من الله وفتح قريب . وبشر المؤمنين) . .

وهنا تبلغ الصفقة ذروة الربح الذي لا يعطيه إلا الله . الله الذي لا تنفد خزائنه , والذي لا ممسك لرحمته . فهي المغفرة والجنات والمساكن الطيبة والنعيم المقيم في الآخرة . وفوقها . . فوق البيعة الرابحة والصفقة الكاسبة النصر والفتح القريب . . فمن الذي يدله الله على هذه التجارة ثم يتقاعس عنها أو يحيد ? !

وهنا يعن للنفس خاطر أمام هذا الترغيب والتحبيب . . إن المؤمن الذي يدرك حقيقة التصور الإيماني للكون والحياة ; ويعيش بقلبه في هذا التصور ; ويطلع على آفاقه وآماده ; ثم ينظر للحياة بغير إيمان , في حدودها الضيقة الصغيرة , وفي مستوياتها الهابطة الواطية , وفي اهتماماتها الهزيلة الزهيدة . . هذا القلب لا يطيق أن يعيش لحظة واحدة بغير ذلك الإيمان , ولا يتردد لحظة واحدة في الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الوسيع الرفيع في عالم الواقع , ليعيش فيه , وليرى الناس من حوله يعيشون فيه كذلك . . ولعله لا يطلب على جهاده هذا أجرا خارجا عن ذاته . فهو ذاته أجر . . هذا الجهاد . . وما يسكبه في القلب من رضى وارتياح . ثم إنه لا يطيق أن يعيش في عالم بلا إيمان . ولا يطيق أن يقعد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان . فهو مدفوع دفعا إلى الجهاد . كائنا مصيره فيه ما يكون . .

ولكن الله - سبحانه - يعلم أن النفس تضعف , وأن الاندفاع يهبط , وأن الجهد يكل وأن حب السلامة قد يهبط بتلك المشاعر كلها ويقودها إلى الرضى بالواقع الهابط . .

ومن ثم يجاهد القرآن هذه النفس ذلك الجهاد ; ويعالجها ذلك العلاج , ويهتف لها بالموحيات والمؤثرات ذلك الهتاف المتكرر المتنوع , في شتى المناسبات . ولا يكلها إلى مجرد الإيمان , ولا إلى نداء واحد باسم هذا الإيمان .

فهذا هو ذا يختم السورة بنداء جديد , يحمل طابعا جديدا , وإغراء جديدا , وموحيا

جديدا:

يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله, كما قال عيسى بن مريم للحواريين: من أنصاري إلى الله ? قال الحواريون: نحن أنصار الله . فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة . فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين . .

والحواريون هم تلاميذ المسيح - عليه السلام - قيل: الاثنا عشر الذين كانوا يلوذون به, وينقطعون للتلقي عنه . وهم الذين قاموا بعد رفعه بنشر تعاليمه وحفظ وصاياه .

(144/762)

والآية هنا تهدف إلى تصوير موقف لا إلى تفصيل قصة, فنسير نحن معها في ظلالها المقصودة إلى الغاية من سردها في هذا الموضع من السورة .

(يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله) . . في هذا الموضع الكريم الذي يرفعكم إليه الله . وهل أرفع من مكان يكون فيه العبد نصيرا للرب ? ! إن هذه الصفة تحمل من التكريم ما هو أكبر من الجنة والنعيم . . كونوا أنصار الله, (كما قال عيسى بن مريم للحواريين: من أنصاري إلى الله ? قال الحواريون: نحن أنصار

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ

قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآَمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (14)

الله) . . فانتدبوا لهذا الأمر ونالوا هذا التكريم . وعيسى جاء ليبشر بالنبي الجديد والدين الأخير . . فما أجدر أتباع محمد أن ينتدبوا لهذا الأمر الدائم , كما انتدب الحواريون للأمر الموقوت ! وهذه هي اللمسة الواضحة في عرض هذا الحوار في هذا السياق .

وماذا كانت العاقبة ?

(فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة , فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) . .

(145/762)

وتأويل هذا النص يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين: إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى عليه السلام هم المسيحيون إطلاقا من استقام ومن دخلت في عقيدته الانحرافات , وقد أيدهم الله على اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلا كما حدث في التاريخ . وإما أن الذين آمنوا هم الذين أصروا على التوحيد في وجه المؤلهين لعيسى والمثلثين وسائر النحل التي انحرفت عن

التوحيد . ومعنى أنهم أصبحوا ظاهرين أي بالحجة والبرهان . أو أن التوحيد الذي هم عليه هو الذي أظهره الله بهذا الدين الأخير ; وجعل له الجولة الأخيرة في الأرض كما وقع في التاريخ . وهذا المعنى الأخير هو الأقرب والأرجح في هذا السياق .

والعبرة المستفادة من هذه الإشارة ومن هذا النداء هي العبرة التي أشرنا إليها , وهي استنهاض همة المؤمنين بالدين الأخير , الأمناء على منهج الله في الأرض , ورثة العقيدة والرسالة الإلهية . المختارين لهذه المهمة الكبرى . استنهاض همتهم لنصرة الله ونصرة دينه (كما قال عيسى بن مريم للحواريين: من أنصاري إلى الله ? قال الحواريون: نحن أنصار الله) . . والنصر في النهاية لأنصار الله المؤمنين .

إنها الجولة الأخيرة في السورة , واللمسة الأخيرة في السياق ; وهي ذات لون وذات طعم يناسبان جو السورة وسياقها , مع ما فيها من تجدد في اللون وتنوع في المذاق . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3551. 3561﴾

(146/762)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) ﴾

في الآية الأولى إنكار على الذين يقولون ما لا يفعلون ، وفي الآية الثانية بيان شدة غضب الله ومقته على من يكون كذلك ، ولكن لم يبين هنا القول المغاير للفعل المنهى عنه ، والمعاتبون عليه والمستوجب لشدة الغضب إلا أن مجيء الآية الثالثة بعدهما يشعر بموضوع القول والفعل ، وهو الجهاد في سبيل الله .

وقد اتفقت كلمة علماء التفسير على أن سبب النزول مع تعدده عندهم : أنه حول الجهاد في سبيل الله من رغبة في الإذن لهم في الجهاد ومعرفة أحب الأعمال إلى الله ، ونحو ذلك .

وقد بين القرآن في عدة مواضع أن موضع الآيتين الأولى والثانية فيما يتعلق بالجهاد وتمنيهم إياه .

من ذلك قوله تعالى عنهم : ﴿ وَيَقُولُ الذين آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا القتال رَأَيْتَ الذين فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المغشي عَلَيْهِ مِنَ الموت ﴾ [محمد : 20] .

ومنها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين قِيلَ لَهُمْ كفوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتال إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ الناس كَخَشْيَةِ الله أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القتال لولا أَخَّرْتَنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ [النساء : 77] .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَاهَدُواْ الله مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأدبار وَكَانَ عَهْدُ الله مَسْئُولاً ﴾ [الأحزاب : 15] .

ففي الآية الأولى تمنوا نزول سورة يؤذن فيها بالقتال ، فلما نزلت صار مرضى القلوب كالمغشي عليه من الموت .

وفي الثانية : قيل لهم كفوا أيديكم عن القتال ، فتمنوا الإذن لهم فيه ، فلما كتب عليهم رجعوا وتمنوا لو أخروا إلى أجل قريب .

وفي الثالثة : أعطوا العهود على الثبات وعدم التولي ، وكان هد الله مسؤولاً ، فلما كان في أحد وقع ما وقع وكذلك في حنين ، ويشهد لهذا أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يا أهل يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فارجعوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النبي يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ الفتنة لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلاَّ يَسِيراً وَلَقَدْ كَانُواْ عَاهَدُواْ الله مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأدبار ﴾ [الأحزاب : 13 - 15] الآية .

ففي هذا السياق بيان لعتابهم على نقض العهد ، وهو معنى : لم تقولون ما لا تفعلون سواء بسواء ، ويقلل هذا أن الله تعالى امتدح طائفة أخرى منهم حين أوفوا بالعهد وصدقوا ما عاهدوا الله عليه في قوله تعالى : ﴿ مِّنَ المؤمنين رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ الله عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ

مَّن قضى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب : 23] .

ثم بين الفرق بين الفريقين بقوله بعدها ﴿ لِّيَجْزِيَ اللهُ الصادقين بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ المنافقين إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً وَرَدَّ اللهُ الذين كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً ﴾

[الأحزاب : 24 - 25] الآية ، وذلك في غزوة الأحزاب .

فتبين بهذا أن الفعل المغاير للقول هنا هو عدم الوفاء بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم من قبل فاستوجبوا العتاب عليه ، كما تبين أن الذين وفوا بالعهد استوجبوا لثناء على الوفاء ، وقد استدل بالآية من عموم لفظها على الإنكار على كل من خالف قوله فعله ، سواء في عهد أو وعد أو أمر أو نهي .

(148/762)

ففي الأمر والنهي كقوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ الناس بالبر وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : 44] .

وكقوله عن نبي الله شعيب لقومه : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إلى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود : 88] .

وفي العهد قوله : ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ العهد كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 34] .

ومن هذا الوجه ، فقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى عليه في عدة مواضع ، منها في سورة هود عند قول شعيب المذكور .

ومنها عند قوله تعالى : ﴿ واذكر فِي الكتاب إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوعد ﴾ [مريم : 54] في سورة مريم .

وبحث فيها الوفاء بالوعد ، والفرق بين الوعد والوعيد ، والوفاء بالوعد والخلف في الوعيد ، وعقد لها مسألة ، وساق آيتي الصف هناك .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ الذين يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ .

اختلف علماء التفسير في المراد بالبنيات المصرصو ، فنقل بعضهم عن الفراء : أنه المتلاحم بالرصاص لشدة قوته ، والجمهور : أنه المتلاصق المتراص المتساوي .

والواقع أن المراد بالتشبيه هنا هو وجه الشبه ، ولا يصح أن يكون هنا هو شكل البناء لا في تلاحمه بالرصاص ، وعدم انفكاكه ولا تساويه وتراصه ، لأن ذلك يتنافى وطبيعة الكر والفر في أرض المعركة ، ولكل وقعة نظامها حسب موقعها .

والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن وجه الشبهة المراد هنا هو عموم القوة والوحدة .

قال الزمخشري : يجوز أن يريد استواء بنائهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص اه .

ويدل لهذا الآتي :

أولاً قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ المؤمنين مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : 121] .

(149/762)

فالمقاعد هنا هي المواقع للجماعات من الجيش ، وهي التعبئة حسب ظروف الموقعة ، كما فعل صلى الله عليه وسلم في وضع الرماة في غزوة أحد حماية لظهورهم من التفا العدو بهم لطبيعة المكان ، وكما فعل في غزوة بدر ورصهم سواهم بقضيب في يده أيضاً لطبيعة المكان .

وهكذا ، فلا بد في كل وقعة من مراعاة موقعها ، بل وظروف السلاح والقاتلة .

وقد ذكر صاحب الجمان في تشبيهات القرآن أجزاء الجيش وتقسيماته بصفة عامة من قلب وميمنة وميسره وأجنحة ، ونحو ذلك فيكون وجه الشبهة هو الارتباط المعنوي والشعور بالمسؤولية والإحساس بالواجب كما فعل الحباب بن المنذر في غزوة بدر حين نظر إلى منزل المسلمين من لموقع فلم يرقه ، وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجابه فأبدى خطة جديدة فأخذ بها صلى الله عليه وسلم وغيّر الموقع من مكان المعركة .

وثانياً قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثبتوا واذكروا الله كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ واصبروا إِنَّ اللهَ مَعَ الصابرين ﴾ [الأنفال : 45 – 46] .

فذكر تعالى من عوامل النصر : الثبات عند اللقاء ، وذكر الله والطاعة ، والامتثال ، والحفاظ عليها بعدم التنازع والصبر عند الحملة والمجالدة ، فتكون حملة رجل واحد ، وكلها داخلة تحت معنى البنيان المرصوص في قوته وحمايته وثباته ، وقد عاب تعالى على اليهود تشتت قلوبهم عند القتال في قوله تعالى : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [الحشر : 14] ، وامتجح المؤمنين في قتالهم بوحدتهم كأنهم بنيان مرصوص .

وقد جاءت السنة بهذا التشبيه للتعاون في قوله صلى الله عليه وسلم : " المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً "

(150/762)

فهو يبين المراد من وجه الشبه في البنيات المرصوص هنا ، وقد أثر عن أبي موسى رضي الله عنه قوله لأصحابه : الزموا الطاعة فإنها حصن المحارب .

وعن أكثم بن صيفي : أقلوا الخلاف على أمرائك ، وإن المسلمين اليوم لأحوج ما يكونون إلى

الالتزام بهذا التوجيه القرآني الكريم ، إزاء قضيتهم العامة مع عدوهم المشترك ، ولا سيما ، وقد مر العالم الإسلامي بعده تجارب في تاريخهم الطويل وكان لهم منها أوضح العبر ، ولهم في هذا المنهج القرآني أكبر موجب لاسترجاع حقوقهم والحفاظ على كيانهم ، فضلاً عن أنه العمل الذي يحبه الله من عباده ، وبالله تعالى التوفيق .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5)

قول موسى عليه السلام : لم تؤذونني ؟ لم يبين نوع هذا الإيذاء وقد جاء مثل هذا الإجمال في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لاَ تَكُونُواْ كالذين آذَوْاْ موسى فَبرَّأَهُ الله مِمَّا قَالُواْ ﴾ [الأحزاب : 69] .

وأحال عليه ابن كثير في تفسيرهن وساق حديث البخاري أنه صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ما يتستر هذا التستر غلا من عيب في جلده ، إما برص وإما أدرة وإما آفة ، وأن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وأن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إبرائيل فرأه عرياناً أحسن ما خلق الله عز وجل وبرأه مما يقولون إلى آخر القصة " .

ونقله غيره من المفسرين عندها ، وعلى هذا يكون إيذاؤهم إياه إيذاء شخصياً بادعاء العيب فيه خلقة ، وهذا وإن صح في آية الأحزاب لقوله تعالى : ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ ، فإنه لا يصح في آية الصف هذه لأن قول لهم . ﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ مما يثير إلى أن الإيذاء في جانب الرسالة لا في جانبه الشخصي ، ويرشح له قوله تعالى بعده مباشرة : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ .

أي فلما زاغوا بما آذوا به موسى ، فيكون إيذاء قومه له هنا إيذاء زيغ وضلال ، وقد آذوه كثيراً في ذلك كما بينه تعالى في قوله عنهم : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : 55] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : 93] .

فها هم يؤخذ الميثاق عليهم ويرفع فوقهم الطور ، ويقال لهم : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ﴾ فكله يساوي قوله : ﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ ، لأن قد هنا للتحقيق ومع ذلك يؤذونه بقولهم : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ ويؤذونه بأن أشربوا في قلوبهم حب العجل وعبادته بكفرهم ، ولذا قال لهم : ﴿ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

﴾ .

وقد جمع إيذاء الكفار لرسول الله مع إيذاء قوم موسى لموسى في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكتاب أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السماء فَقَدْ سَأَلُواْ موسى أَكْبَرَ مِن ذلك فقالوا أَرِنَا الله جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة بِظُلْمِهِمْ ﴾ [النساء : 153] الآية .

(152/762)

ومن مجموع هذا يتبين أن الإيذاء المنصوص عليه هنا هو في خصوص الرسالة ، ولا مانع من أنهم آذوه بأنواع من الإيذاء في شخصه ، وفي ما جاء به فبرأه الله مما قالوا في آية الأحزاب وعاقبهم على إيذائه فيما أرسل به إليهم بزيغ قلوبهم ، والعلم عند الله تعالى .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا زاغوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ ﴾ ، تقدم كلام الشيخ رحمة الله تعالى عليه على هذا المعنى في سورة الروم ، عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الذين أَسَاءُواْ السواءى أَن كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله ﴾ [الروم : 10] الآية .

وقال : إن الكفر والتكذيب قد يؤدي شؤمه إلى شقاء صاحبه ، وسارق هذه الآية ﴿ فَلَمَّا زاغوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً ﴾ [البقرة : 10] وأحال على سورة بني إسرائيل على قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ

وفي آذانهم وقْراً ﴾ [الإسراء : 46] .

وعلى سورة الأعراف على قوله : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ على قُلُوبِ الكافرين ﴾ [الأعراف : 101] .

ومما يشهد لهذا المعنى العام بقياس العكس قوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تقواهُمْ ﴾ [محمد : 17] وأمثالها .

ومما يلفت النظر هنا إسناد الزيغ للقلوب في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زاغوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ .

وأن والهداية أيضاً للقلب كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن : 11] ولذا حرص المؤمنين على هذا الدعاء : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران : 8] فتضمن المعنيين ، والعلم عند الله تعالى .

(153/762)

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (6)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ يا بني إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ

يَدَيَّ مِنَ التوراة وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ يا بني إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ ﴾ .

ذكر موسى ولم يذكر معه البشرى بالنّبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر عيسى فذكرها معه ، مما ديل بمفهومه أنه لم يبشر به إلا عيسى عيه السلام ، ولكن لفظ عيسى مفهوم لقب ولا عمل عليه عند الأصوليين ، وقد بشرت به صلى الله عليه وسلم جميع الأنبياء ، ومنهم موسى عليه السلام ومما يشير إلى أن موسى مبشراً به قول عيسى عليه السلام في هذه الآية : مصدقاً لما بين يدي ، والذي بين يديه هي التوراة أنزلت على موسى .

وقد جاء صريحاً الترغيف به صلى الله عليه وسلم وبالذين معه في التوراة في قوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ الله وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة ﴾ [الفتح : 29] إلى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة ﴾ [الفتح : 29] .

وجاء وصفهم في الإنجيل في نفس السياق ، في قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فاستغلظ فاستوى على سُوقِهِ ﴾ [الفتح : 29] إلى آخر السورة .

وجاء النص في حق جميع الأنبياء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النبيين لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِي قالوا أَقْرَرْنَا قَالَ فاشهدوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ الشاهدين ﴾ [آل عمران : 81] .

قال ابن كثير : قال ابن عباس ما بعث الله نبياً غلا أخذ علهي العهد لئن بعص وهو حيي ليتبعنه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهمك أحياء ليتبعنه وينصرنه .

اه .

وجاء مصداق ذلك في قصة النجاشي لما سمع من جعفر عنه صلى الله عليه وسلم : فقال : " أشهد أن رسول الله وأن الذي نجد في الإنجيل ، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم ، وما قاله أيضاً : والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه . في حديث طويل ساقه ابن كثير ، وعزاه إلى أحمد رحمه الله .

وكذلك دعوة نبي الله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام : ﴿ رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة : 129] .

ولذا قال صلى الله عليه وسلم : " أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمي التي

رأت "

وقد خص عيسى بالنص على البشرى به صلى الله عليه وسلم أنه آخر أنبياء بني إسرائيل ، فهو ناقل تلك البشرى لقومه عما قبله .

كما قال : ﴿ مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة ﴾ ومن قبله ناقل عمن قبله ، وهكذا حتى صرح بها عيسى عليه السلام وأداها إلى قومه .

(155/762)

وقوله تعالى : ﴿ اسمه أَحْمَدُ ﴾ جاء النص أنه صلى الله عليه وسلم له عدة أسماء ، وفي الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم : " أن لي أسماء أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب " بهذه المناسب فقد ذكر صلى الله عليه وسلم باسمه أحمد هنا . وباسمه محمد في سورة محمد صلى الله عليه وسلم .

كما ذكر صلى الله عليه وسلم بصفات عديدة أجمعها ما يعد ترجمة ذاتية من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] .

وسيأتي المزيد من بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4] إن شاء الله تعالى.

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8)

تقدم بيان ذلك للشيخ رحمة الله تعالى عليه عند قوله تعالى: ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [الشورى: 16] في سورة الشورى، وقوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ [الأنبياء: 18] في سورة الانبياء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10)

فسرت التجارة بقوله تعالى: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف: 11].

التجارة: هي التصرف في رأس المال طلباً للربح كما قال تعالى:

﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة: 282].

وقال تعالى: ﴿ وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ [التوبة: 24].

والتجارة هنا فسرت بالإيمان بالله ورسوله ، وبذل المال والنفس في سبيل الله ، فما هي المعارضة الموجودة في تلك التجارة الهامة ، بينها تعالى في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة يُقَاتِلونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التوراة والإنجيل والقرآن وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ﴾ [التوبة : 111] ، فهنا مبايعة ، وهنا بشرى وهنا فوز عظيم .

وكذلك في هذه الآية : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الفوز العظيم وأخرى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّن اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيب ﴾ [الصف : 12 - 13] .

وقد دل القرآن على أنه من فاته هذه الصفقة الرابحة فهو لا محالة خاسر ، كما في قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة : 16] .

حقيقة هذه التجارة أن رأس مال الإنسان حياته ومنتهاه مماته .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : "كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها " والعرب تعرف هذا لبيع في المبادلة كما قول الشاعر :

فإن تزعميني كنت أجهل فيكم . . . إن شربت الحلم بعدك بالجهل

وقول الآخر :

بدلت بالجمة رأساً أزعرا . . . وبالثنايا الواضحات الدردرا

كما اشترى المسلم إذ تنصرا . . . فأطلق الشراء على الاستبدال .

تنبيه

في هذه الآية الكريمة تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في قوله تعالى : ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [الصف : 11] .

(157/762)

وفي آية إن الله اشترى من المؤمنين ، قدم النفس عن المال فقال ﴿ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ﴾ [التوبة : 111] ، وفي ذلك سر لطيف .

أما في آية الصف ، فإن المقام مقام تفسير وبيان لمعنى التجارة الرابحة بالجهاد في سبيل الله .

وحقيقة الجهاد بذل الجهد والطاقة ، والمال هو عصب الحرب وهو مدد الجيش . وهو أهم من الجهاد بالسلاح ، فبالمال يشترى السلاح ، وقد تستأجر الرجال كما في الجيوش الحديثة من الفرق الأجنبية ، وبالمال يجهز الجيش ، ولذا لما جاء الإذن بالجهاد أعذر الله المرضى والضعفاء ، وأعذر معهم الفقراء الذين لا يستطيعون تجهيز أنفسهم ، وأعذر معهم الرسول

صلى الله عليه وسلم إذ لم يوجد عنده ما يجهزهم به كما في قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضعفآء وَلاَ على المرضى ﴾ [التوبة : 91] إلى قوله : ﴿ وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنْفِقُونَ ﴾

[التوبة : 92] .

وكذلك من جانب آخر ، قد يجاهد بالمال من لا يستطيع بالسلاح كالنساء والضعفاء ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " من جهز غازياً فقد غزا "

أما الآية الثانية ، فهي في معرض الاستبدال والعرض والطلب أو ما يسمى بالمساومة ، فقدم النفس لأنها أعز ما يملك الحي ، وجعل في مقابلها الجنة وهي أعز ما يوهب ، وأحسن ما قيل في ذلك .

أثامن بالنفس النفيسة ربها . . . وليس لها في الخلق كلهم ثمن

بها تملك الأخرى فإن أنا بعتها . . . بشيء من الدنيا فذاك هو الغبن

لئن ذهبت نفس بدنيا أصيبها . . . لقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن

فالتجارة هنا معاملة مع الله إيماناً بالله وبرسوله وجهاد بالمال والنفس ، والعمل الصالح ، كما قيل أيضاً .

فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً . . . فإنما الربح والخسران في العمل

وفي آية ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشترى ﴾ [التوبة : 111] تقديم بشرى خفية لطيفة بالنصر لمن جاهد في سبيل الله وهي تقديم قوله : ﴿ فَيَقْتُلُونَ ﴾ بالبناء للفاعل أي فيقتلون عدوهم ﴿ وَيُقْتَلُونَ ﴾ بالبناء للمجهول ، لأن التقديم هنا يشعر بأنهم يقتلون العدو قبل أن يقتلهم ويصيبون منه قبل أن يصيب منهم ، ومثل هذا يكون في موقف القوة والنصر والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ كونوا أَنصَارَ الله كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ ﴾ .

في هذه الآية أيضاً إشعار المسلمين بالنصر في قوله تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا الذين آمَنُواْ على عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف : 14] ولكن لم يبين فيها هل كانوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله أم لا ؟

وقد جاء ما يدل على أنهم بالفعل أصنار الله كما تقدم في سورة الحشر في قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ الله وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ [الحشر : 8] .

وكذلك الأنصار في قوله تعالى : ﴿ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار ﴾ [التوبة : 100] وكقوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ﴾ [الفتح : 29] فأشداء على الكفار هو معنى ينصرون الله ورسوله ، ثم جاء المثل المضروب لهم التآزر والتعاون في قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فاستغلظ فاستوى على سُوقِهِ يُعْجِبُ الزراع لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾ [الفتح : 29] فسماهم أنصاراً ، وبين نصرتهم سواء من المهاجرين والأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(160/762)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الصَّفّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى – ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يُحْتَجُّ بِهِ فِي أَنَّ كُلَّ مَنْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ عِبَادَةً أَوْ قُرْبَةً وَأَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ عَقْدًا لَزِمَهُ الْوَفَاءُ بِهِ ؛ إذْ تَرْكُ الْوَفَاءِ بِهِ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ قَائِلًا مَا لَا يَفْعَلُ ، وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ فَاعِلَ ذَلِكَ ، وَهَذَا فِيمَا لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً ، فَأَمَّا الْمَعْصِيَةُ فَإِنَّ إيجَابَهَا فِي الْقَوْلِ لَا يُلْزِمُهُ الْوَفَاءَ بِهَا .

(161/762)

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةٍ وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ ﴾ ، وَإِنَّمَا يَلْزَمُ ذَلِكَ فِيمَا عَقَدَهُ عَلَى نَفْسِهِ مِمَّا يَتَقَرَّبُ بِهِ إلَى اللَّهِ – عَزَّ وَجَلَّ – مِثْلِ النُّذُورِ وَفِي حُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ الْعُقُودُ الَّتِي يَتَعَاقَدُونَهَا ، وَكَذَلِكَ الْوَعْدُ بِفِعْلٍ يَفْعَلُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَهُوَ مُبَاحٌ ، فَإِنَّ الْأَوْلَى الْوَفَاءُ بِهِ مَعَ الْإِمْكَانِ فَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ : " إنِّي سَأَفْعَلُ كَذَا " فَإِنَّ ذَلِكَ مُبَاحٌ لَهُ عَلَى شَرِيطَةِ اسْتِثْنَاءِ مَشِيئَةِ اللَّهِ – تَعَالَى – وَأَنْ يَكُونَ فِي عَقْدِ ضَمِيرِهِ الْوَفَاءُ بِهِ ، وَلَا جَائِزَ لَهُ أَنْ يَعِدَ وَفِي ضَمِيرِهِ أَنْ لَا يَفِيَ بِهِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَحْظُورُ الَّذِي نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَمَقَتَ فَاعِلَهُ عَلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ فِي عَقْدِ ضَمِيرِهِ الْوَفَاءُ بِهِ وَلَمْ يَقْرِنْهُ بِالِاسْتِثْنَاءِ فَإِنَّ ذَلِكَ مَكْرُوهٌ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي هَلْ يَقَعُ مِنْهُ الْوَفَاءُ بِهِ أَمْ لَا .

فَغَيْرُ جَائِزٍ لَهُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ فِي مِثْلِهِ مَعَ خَوْفِ إِخْلَافِ الْوَعْدِ فِيهِ وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ قَالَ : " إِنْ فَعَلْت كَذَا فَأَنَا أَحُجُّ أَوْ أُهْدِي أَوْ أَصُومُ " فَإِنَّ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْإِيجَابِ بِالنَّذْرِ ؛ لِأَنَّ تَرْكَ فِعْلِهِ يُؤَدِّيهِ إِلَى أَنْ يَكُونَ قَائِلًا مَا لَمْ يَفْعَلْ وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ : "

(162/762)

أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ قَالُوا : لَوْ عَلِمْنَا أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ – تَعَالَى – لَسَارَعْنَا إِلَيْهِ ، فَلَمَّا نَزَلَ فَرْضُ الْجِهَادِ تَثَاقَلُوا عَنْهُ " وَقَالَ قَتَادَةُ : " نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانُوا يَقُولُونَ : جَاهَدْنَا وَأَبْلَيْنَا ، وَلَمْ يَفْعَلُوا " وَقَالَ الْحَسَنُ : " نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ وَسَمَّاهُمْ بِالْإِيمَانِ لِإِظْهَارِهِمْ لَهُ " وقَوْله تَعَالَى – : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ بِذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ فِي ضَعْفٍ وَقِلَّةٍ وَحَالِ خَوْفٍ مُسْتَذَلُّونَ مَقْهُورُونَ فَكَانَ مُخْبِرُهُ عَلَى مَا أَخْبَرَهُ بِهِ ؛ لِأَنَّ الْأَدْيَانَ الَّتِي كَانَتْ فِي تِلْكَ الزَّمَانِ الْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ وَالْمَجُوسِيَّةُ وَالصَّابِئَةُ وَعُبَّادُ الْأَصْنَامِ مِنْ السِّنْدِ وَغَيْرِهِمْ فَلَمْ تَبْقَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَدْيَانِ أُمَّةٌ إِلَّا وَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ الْمُسْلِمُونَ فَقَهَرُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى جَمِيعِ بِلَادِهِمْ أَوْ بَعْضِهَا وَشَرَّدُوهُمْ إِلَى أَقَاصِي بِلَادِهِمْ فَهَذَا هُوَ مِصْدَاقُ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ – تَعَالَى – رَسُولَهُ فِيهَا إِظْهَارَهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْغَيْبَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ – عَزَّ وَجَلَّ – وَلَا يُوحِي بِهِ إِلَّا إِلَى رُسُلِهِ فَهَذِهِ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ

مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ إظْهَارًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ ، وَإِنَّمَا حَدَثَ بَعْدَ مَوْتِهِ ؟ قِيلَ لَهُ إنَّمَا وَعَدَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ

(163/762)

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُظْهِرَ دِينَهُ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ يَعْنِي دِينَ الْحَقِّ وَعَلَى أَنَّهُ لَوْ أَرَادَ رَسُولَهُ لَكَانَ مُسْتَقِيمًا ؛ لِأَنَّهُ إذَا أَظْهَرَ دِينَهُ وَمَنْ آمَنَ بِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ فَجَائِزٌ أَنْ يُقَالَ قَدْ أَظْهَرَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

كَمَا أَنَّ جَيْشًا لَوْ فَتَحُوا بَلَدًا عَنْوَةً جَازَ أَنْ يُقَالَ إنَّ الْخَلِيفَةَ فَتَحَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَشْهَدْ الْقِتَالَ إذْ كَانَ بِأَمْرِهِ وَتَجْهِيزِهِ لِلْجَيْشِ فَعَلُوا وقَوْله تَعَالَى - ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ وَهَذَا أَيْضًا مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ لِوَعْدِهِ مِنْ أَمْرٍ بِالنَّصْرِ وَالْفَتْحِ وَقَدْ وُجِدَ ذَلِكَ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ، وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ .

آخِرُ سُورَةِ الصَّفِّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 ص ﴾

(164/762)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الصَّفِّ

[فِيهَا آيَتَانِ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى رَوَى أَبُو مُوسَى فِي الصَّحِيحِ أَنَّ سُورَةً كَانَتْ عَلَى قَدْرِهَا ، أَوَّلُهَا : سَبَّحَ لِلَّهِ ، كَانَ فِيهَا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ سَتُكْتَبُ شَهَادَةٌ فِي أَعْنَاقِهِمْ فَتُسْأَلُونَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا كُلُّهُ ثَابِتٌ فِي الدِّينِ .

أَمَّا قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ فَثَابِتٌ فِي الدِّينِ لَفْظًا وَمَعْنًى فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَا تَلَوْنَاهُ آنِفًا فِيهَا .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : [فَتُكْتَبُ] شَهَادَةٌ فِي أَعْنَاقِكُمْ فَتُسْأَلُونَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَعْنًى ثَابِتٌ فِي الدِّينِ [لَفْظًا وَمَعْنًى] ؛ فَإِنَّ مَنْ الْتَزَمَ شَيْئًا لَزِمَهُ شَرْعًا ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ وَالْمُلْتَزَمُ عَلَى قِسْمَيْنِ : أَحَدُهُمَا النَّذْرُ ، وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : نَذْرِ تَقَرُّبٍ مُبْتَدَأً ؛ كَقَوْلِهِ : لِلَّهِ عَلَيَّ صَوْمٌ وَصَلَاةٌ وَصَدَقَةٌ ، وَنَحْوُهُ مِنْ الْقُرَبِ ؛ فَهَذَا يَلْزَمُهُ الْوَفَاءُ بِهِ إجْمَاعًا .

وَنَذْرٍ مُبَاحٍ ؛ وَهُوَ مَا عُلِّقَ بِشَرْطِ رَغْبَةٍ [كَقَوْلِهِ : إنْ قَدِمَ غَائِبِي فَعَلَيَّ صَدَقَةٌ ، أَوْ عُلِّقَ

بِشَرْطِ رَهْبَةٍ] ، كَقَوْلِهِ : إنْ كَفَانِي اللَّهُ شَرَّ كَذَا فَعَلَيَّ صَدَقَةٌ ، فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ ؛ فَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ : يَلْزَمُهُ الْوَفَاءُ بِهِ .

(165/762)

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ فِي أَحَدِ أَقْوَالِهِ : إنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ الْوَفَاءُ بِهِ .

وَعُمُومُ الْآيَةِ حُجَّةٌ لَنَا ؛ لِأَنَّهَا بِمُطْلَقِهَا تَتَضَمَّنُ ذَمَّ مَنْ قَالَ مَا لَا يَفْعَلُهُ عَلَى أَيِّ وَجْهٍ كَانَ ، مِنْ مُطْلَقٍ ، أَوْ مُقَيَّدٍ بِشَرْطٍ .

وَقَدْ قَالَ أَصْحَابُهُ : إنَّ النَّذْرَ إنَّمَا يَكُونُ بِمَا الْقَصْدُ مِنْهُ الْقُرْبَةُ مِمَّا هُوَ مِنْ جِنْسِ الْقُرْبَةِ .

وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مِنْ جِنْسِ الْقُرْبَةِ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ بِهِ الْقُرْبَةَ ،

وَإِنَّمَا قَصَدَ مَنْعَ نَفْسِهِ عَنْ فِعْلٍ أَوْ الْإِقْدَامِ عَلَى فِعْلٍ .

قُلْنَا : الْقُرَبُ الشَّرْعِيَّةُ مُقْتَضَيَاتٌ وَكُلَفٌ وَإِنْ كَانَتْ قُرُبَاتٍ .

وَهَذَا تَكَلَّفَ فِي الْتِزَامِ هَذِهِ الْقُرْبَةِ مَشَقَّةً لِجَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضُرٍّ ، فَلَمْ يَخْرُجْ عَنْ سُنَنِ التَّكْلِيفِ ، وَلَا زَالَ عَنْ قَصْدِ التَّقَرُّبِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ فَإِنْ كَانَ الْمَقُولُ مِنْهُ وَعْدًا فَلَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ مَنُوطًا بِسَبَبٍ ؛ كَقَوْلِهِ : إنْ تَزَوَّجْتَ أَعَنْتُك بِدِينَارٍ ، أَوْ ابْتَعْت حَاجَةَ كَذَا أَعْطَيْتُك كَذَا ؛ فَهَذَا لَازِمٌ إجْمَاعًا مِنْ

الْفُقَهَاءِ .

وَإِنْ كَانَ وَعْدًا مُجَرَّدًا فَقِيلَ : يَلْزَمُ بِمُطْلَقِهِ ؛ وَتَعَلَّقُوا بِسَبَبِ الْآيَةِ فَإِنَّهُ رُوِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ : لَوْ نَعْلَمُ أَيَّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلَ أَوْ أَحَبَّ إلَى اللَّهِ لَعَمِلْنَاهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ .

وَهُوَ حَدِيثٌ لَا بَأْسَ بِهِ .

وَقَدْ رَوَى مُجَاهِدٌ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ لَمَّا سَمِعَهَا قَالَ : لَا أَزَالُ حَبِيسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى أُقْتَلَ .

(166/762)

وَالصَّحِيحُ عِنْدِي أَنَّ الْوَعْدَ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ إلَّا لِعُذْرٍ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : { إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ } .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْلُهُ : (مَرْصُوصٌ) ، أَيْ مُحْكَمٌ ثَابِتٌ ، كَأَنَّهُ عُقِدَ بِالرَّصَاصِ ، وَكَثِيرًا مَا تُعْقَدُ بِهِ الْأَبْنِيَةُ الْقَدِيمَةُ ، عَايَنْتُ مِنْهَا بِمِحْرَابِ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَغَيْرِهِمَا وَهُوَ كَذَلِكَ بِالصَّادِ الْمُهْمَلَةِ .

وَيُقَالُ : حَدِيثٌ مَرْسُوسٌ بِالسِّينِ الْمُهْمَلَةِ أَيْ سِيقَ سِيَاقَةً مُحْكَمَةً مُرَتَّبَةً .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ ؛ وَقَدْ بَيَّنَّا فِي كِتَابِ الْأَمَدِ أَنَّ الْمَحَبَّةَ هِيَ إرَادَةُ الثَّوَابِ لِلْعَبْدِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ فِي إحْكَامِ الصُّفُوفِ جَمَالٌ لِلصَّلَاةِ ، وَحِكَايَةٌ لِلْمَلَائِكَةِ ، وَهَيْئَةٌ لِلْقِتَالِ ، وَمَنْفَعَةٌ فِي أَنْ تُحْمَلَ الصُّفُوفُ عَلَى الْعَدُوِّ كَذَلِكَ .

وَأَمَّا الْخُرُوجُ مِنْ الصَّفِّ فَلَا يَكُونُ إلَّا لِحَاجَةٍ تَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ ، أَوْ فِي رِسَالَةٍ يُرْسِلُهَا الْإِمَامُ ، وَمَنْفَعَةٍ تَظْهَرُ فِي الْمَقَامِ ، كَفُرْصَةٍ تُنْتَهَزُ وَلَا خِلَافَ فِيهَا ، أَوْ بِتَظَاهُرٍ عَلَى التَّبَرُّزِ لِلْمُبَارَزَةِ .

وَفِي الْخُرُوجِ عَنْ الصَّفِّ لِلْمُبَارَزَةِ خِلَافٌ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِذَلِكَ ؛ إرْهَابًا لِلْعَدُوِّ ، وَطَلَبًا لِلشَّهَادَةِ ، وَتَحْرِيضًا عَلَى الْقِتَالِ .

(167/762)

وَقَالَ أَصْحَابُنَا : لَا يَبْرُزُ أَحَدٌ طَالِبًا لِذَلِكَ ؛ لِأَنَّ فِيهِ رِيَاءً وَخُرُوجًا إلَى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تَمَنِّي لِقَاءِ الْعَدُوِّ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ الْمُبَارَزَةُ إذَا طَلَبَهَا الْكَافِرُ ، كَمَا كَانَتْ فِي حُرُوبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَفِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ ، وَعَلَيْهِ دَرَجَ السَّلَفُ . انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربي حـ 4 صـ ﴾

(168/762)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الصف

كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3)

قوله : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أَنْ يكونَ مِنْ باب نِعْم وبِئْسَ ، فيكون في " كَبُرَ " ضميرٌ مبهمٌ مفسَّرٌ بالنكرة بعدَه . " وأَنْ تقولوا " هو المخصوصُ بالذمِّ فيجيء فيه الخلافُ المشهورُ : هل رَفْعُه بالابتداء ، وخبرُه الجملة مقدمةً عليه ، أو خبرُه محذوفٌ ، أو هو خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، كما تقدَّم تحريرُه . هذه قاعدةٌ مُطَّردةٌ : كلُّ فعلٍ يجوز التعجبُ منه يجوز أَنْ يُبْنَى على فَعُل بضم العين ويَجْري مَجْرى نِعْم وبئس في جميعِ الأحكام . والثاني : أنه من أمثلةِ التعجب . وقد عدَّه ابنُ عصفور في التعجبِ المبوبِ له في النحو فقال : " صيغة ما أَفْعَلَه وأَفْعِلْ به ولَفَعُل نحو : لَرَمُوَ الرجل " . وإليه نحا الزمخشري فقال : " هذا مِنْ أفصحِ كلامٍ وأبلغِه في معناه . قَصَدَ في " كَبُرَ " التعجبَ من غير لفظه كقوله :

4256 . . . .

. . . . . غَلَتْ نابُ كُلَيْبٌ بَواؤُها

ثم قال : " وأَسْند إلى " أَنْ تقولوا " ونَصَبَ " مَقْتاً " على تفسيره دلالةً على أنّ قولَهم ما لا يفعلون مَقْتٌ خالِصٌ لا شَوْبَ فيه " . الثالث : أنّ كَبُرَ ليس للتعجب ولا للذَّمِّ ، بل هو مُسْنَدٌ إلى " أَنْ تقولوا " و " مَقْتاً " تمييزٌ محولٌ من الفاعلية ، والأصل : كَبُرَ مَقْتُ أَنْ يقولوا أي : مَقْتُ قَوْلِكم . ويجوز أن يكونَ الفاعلُ مضمراً عائداً على المصدرِ المفهومِ مِنْ قولِه : " لِم تقولونَ " أي : كَبُر هو أي : القولُ مَقْتاً ، و " أَنْ تقولوا " على هذا : إما بدلٌ من ذلك الضميرِ ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي : هو أن تقولوا . وقرأ زيد بن علي " يُقاتَلون " بفتح التاءِ على ما لم يُسَمَّ فاعلُه . وقُرِىء " يُقَتَّلون " بالتشديد .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (4)

قوله : { صَفّاً } : نصبٌ على الحالِ أي : صافِّين ، أو مَصْفُوفين .

قوله : { كَأَنَّهُم } يجوز أَنْ يكونَ حالاً ثانيةً مِنْ فاعل " يُقاتِلون " ، وأَنْ يكونَ حالاً من الضمير في " صَفّاً " ، فتكونَ حالاً متداخلةً ، قاله الزمخشريُّ ، وأن يكونَ نعتاً لصَفّاً ، قاله الحوفيُّ : وعاد الضميرُ على " صَفّاً " جمعاً لأنه جمعٌ في المعنى كقولِه : { وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا } [الحجرات : 9] والمَرْصُوصُ قيل : المتلائمُ الأجزاءِ المُسْتَوِيها . وقيل :

المعقود بالرّصاص . وقيل : هو من التضامّ ، مِنْ تراصّ الأسنان . وقال الراعي :

4257 ما لَقِيَ البيضُ من الحُرْقوصِ . . . يَفْتَحُ بابَ المُغْلَقِ المَرْصوصِ

الحُرْقوص : دُوَيبَّة تُولَعُ بالنساءِ الأبكار .

(170/762)

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5)

قوله : و ﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ ﴾ : جملةٌ حالية .

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (6)

(171/762)

قوله: ﴿ مُّصَدِّقاً ﴾: حالٌ وكذلك "مُبَشِّراً" والعاملُ "رسول" لأنَّه بمعنى المُرْسَل.

قال الزمخشري: "فإنْ قلتَ بِمَ انتصبَ مُصَدِّقاً مُبَشِّراً، أبما في الرسولِ مِنْ معنى الإِرسال أم بإليكم؟ قلت: بمعنى الإِرسال؛ لأنَّ "إليكم" صلةٌ للرسول، فلا يجوزُ أن تعملَ شيئاً، لأنَّ حروفَ الجرِّ لا تعملُ بأنفسِها، ولكنْ بما فيها مِنْ معنى الفعل، فإذا وقعَتْ صِلاتٍ لم تتضمَّنْ معنى فعلٍ فمِنْ أين تعملُ" انتهى. يعني بقوله: "صلات" أنها متعلقةٌ برسول صلةً له، أي: متصلٌ معناها به، لا الصلةُ الصناعيةُ. و "يأتي مِنْ بعدي" و "اسمُه أحمدُ" جملتان في موضعِ جرٍّ نعتاً لرسول أو "اسمُه أحمدُ" في موضعِ نصبٍ على الحالِ مِنْ فاعل "يَأْتي" أو تكونُ الأولى نعتاً، والثانيةُ حالاً. وكونُهما حالَيْن ضعيفٌ لإِتيانِهما من النكرة، وإنْ كان سيبويه يُجَوِّزه. و "أحمدُ" يَحْتمل النقلَ من الفعل المضارع، أو من أفعلِ التفضيل، والظاهرُ الثاني، وعلى كلا الوجهَين فمنعُه من الصَرفِ للعلميةِ والوزنِ الغالب، إلاَّ أنه على الأول يمتنعُ معرفةً وينصرف نكرةً، وعلى الثاني يمتنع تعريفاً وتنكيراً، لأنه تَخْلُفُ العلميةَ الصفةُ. وإذا نُكِّر بعد كونِه عَلَماً جَرى فيه خلافُ سيبويه والأخفشِ، وهي مسألةٌ مشهورة بين النحاة. وأنشد حسان رضي الله عنه يمدح النبي صلَّى الله عليه وسلَّم وصرَفَه:

4258 صلَّى الإِلهُ ومَنْ يَحُفُّ بعرشِه ... والطيبونَ على المباركِ أحمدِ

"أحمد" بدل أو بيان للمبارك.

قوله : ﴿ هذا سِحْرٌ ﴾ قد تقدَّم خلافُ القراء فيها في المائدة .

وقال الشيخ هنا : " وقرأ الجمهور "سِحْرٌ" وعبد الله وطلحة والأعمش وابن وثاب " ساحر " ، وترك ذِكْرَ الأخويْن .

(172/762)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (7)

قوله : ﴿ وَهُوَ يدعى إِلَى الإسلام ﴾ : جملةٌ حاليةٌ مِنْ فاعل " افترى " ، وهذه قراءةُ العامَّةِ . وقرأ طلحة "يَدَّعي" بفتح الياء والدال مشددة مبنياً للفاعل ، وفيها تأويلان ، أحدهما قاله الزمخشري وهو أن يكونَ يَفْتَعِل بمعنى يَفْعَل نحو : لَمَسَه والتَمَسه . والضميران أعني "هو" والمستتر في "يَدَّعي" لله تعالى ، وحينئذٍ تكون القراءتان/ بمعنى واحدٍ ، كأنَّه قيل : واللَّهُ يدعو إلى الإسلام . وفي القراءة الأولى يكون الضميران عائدَيْن على "مَنْ" .

والثاني : أنه مِنْ ادَّعى كذا دَعْوَى ، ولكنه لَمَّا ضُمِّن "يَدَّعي" معنى يَنْتَمي وينتسبُ عُدِّي ب "إلى" وإلاَّ فهو متعدٍّ بنفسه ، وعلى هذا الوجهِ فالضميران ل "مَنْ" أيضاً ، كما هي في القراءِة المشهورة .

وعن طلحة أيضاً "يُدَّعى" مشددَ الدال مبنياً للمفعول . وخرَّجها الزمخشريُّ على ما تقدَّم مِنْ : ادَّعاه ودَعاه بمعنىً نحو : لَمَسه والتمسه . والضميران عائدان على "مَنْ" عكسَ ما تقدَّم عنده في تخريج القراءة الأولى فإنَّ الضميرَيْن لله تعالى ، كما تقدَّم تحريرُه .

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8)

(173/762)

قوله : ﴿ لِيُطْفِئُواْ ﴾ : في هذه اللامِ أوجهٌ ، أحدُها : أنها مزيدةٌ في مفعولِ الإِرادةِ . قال الزمخشريُّ : "أصلُه : يُريدون أَنْ يُطْفِئوا ، كما جاء في سورة التوبة . وكأنَّ هذه اللامَ زِيْدَتْ مع فعل الإِرادة توكيداً له لِما فيها من معنى الإِرادة في قولِك : "جِئْتُ لأُكرمَك" كما زِيْدَت اللامُ في "لا أبالك" تأكيداً لمعنى الإِضافةِ في "لا أباك" . وقال ابن عطية : "واللامُ في "لِيُطْفِئوا" لامُ مؤكِّدة دخلَتْ على المفعولِ لأنَّ التقديرَ : يُريدون أَنْ يُطْفئوا . وأكْثَرُ ما تَلْزَمُ هذه اللامُ المفعولَ إذا تقدَّمَ . تقول : "لزيدٍ ضَرَبْتُ ، ولِرؤيتك قصَدْتُ" انتهى . وهذا ليس مذهبَ سيبويه وجمهورِ الناس . ثم قولُ أبي محمد : "وأكْثرُ ما تَلْزَمُ" إلى آخره ليس بظاهرٍ لأنه لا قولَ بلزومِها البتةَ ، بل هي جائزةُ الزيادةِ ، وليس الأكثرُ أيضاً زيادتَها جوازاً ، بل الأكثرُ عَدَمُها .

الثاني: أنَّها لامُ العلة والمفعولُ محذوفٌ أي: يُريدون إبطالَ القرآنِ أو دَفْعَ الإِسلامِ أو هلاكَ الرسولِ عليه السلامِ لِيُطْفِئُوا.

الثالث: أنها بمعنى "أَنْ" الناصبةِ، وأنها ناصبةٌ للفعل بنفسِها. قال الفراء: "العربُ تجعل لامَ كي في موضع "أَنْ" في أرادَ وأَمر" وإليه ذهب الكسائيُّ أيضاً. وقد تقدَّم لك نحوٌ مِنْ هذا في قوله: ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ في سورة النساء [الآية: 26].

(174/762)

قوله: ﴿ مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ قرأ الأخَوان وحفص وابن كثير بإضافة "مُتِمُّ" ل "نورِه" والباقون بتنوينه ونصبِ "نورَه" فالإِضافةُ تخفيفٌ، والتنوينُ هو الأصلُ. والشيخُ ينازِعُ في كونِه الأصلَ وقد تقدَّم. وقوله: "واللَّهُ متمُّ" جملةٌ حاليةٌ مِنْ فاعلِ "يريدون" أو "يُطفئوا" وقوله: "ولو كَرِه" حالٌ من هذه الحالِ فهما متداخلان. وجوابُ "لو" محذوفٌ أي: أتمَّه وأظهرَه، وكذلك ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10)

قوله: ﴿ تُنجيكم ﴾: الجملةُ صفةٌ ل "تجارة". وقرأ ابن عامر "تُنَجِّيكم" بالتشديد. والباقون بالتخفيف. مِنْ أَنْجى، وهما بمعنىً واحدٍ؛ لأن التضعيفَ والهمزةَ مُعَدِّيان.

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11)

قوله: ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾: لا محلَّ له لأنه تفسير لتجارة. ويجوز أَنْ يكونَ محلُّها الرفعَ خبراً لمبتدأ مضمرٍ أي: تلك التجارةُ تؤْمنون، والخبرُ نفسُ المبتدأ فلا حاجةَ إلى رابطٍ، وأَنْ تكونَ منصوبةَ المحلِّ بإضمارِ فعلٍ أي: أعني تؤْمنون. وجاز ذلك على تقديرِ "أَنْ" وفيه تَعَسُّفٌ. والعامَّةُ على "تُؤْمنون" خبراً لفظاً ثابتَ النون. وعبد الله "آمِنوا" و" جاهِدوا" أمرَيْن. وزيد بن علي "تؤمنوا" و"تجاهِدوا" بحذف نونِ الرفع. فأمَّا قراءةُ العامَّة فالخبرُ بمعنى الأمرِ يَدُلُّ عليه القراءتان الشاذَّتان؛ فإن قراءةَ زيدِ بن علي على حَذْفِ لامِ الأمر أي: لِتؤمنوا ولتجاهِدوا كقوله:

4259 محمدُ تَفْدِ نَفْسَك كلُّ نفسٍ . . . .

(175/762)

وقوله: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الذين آمَنُواْ يُقِيمُواْ ﴾ [إبراهيم: 31] في وجهٍ أي: لِتَفْدِ، وليقيموا، ولذلك جُزِمَ الفعلُ في جوابِه في قوله: "يَغْفِرْ" وكذلك قولُهم: "اتقى اللَّهَ امرؤ

فَعَلَ خيراً يُثَبْ عليه" تقديرُه: ليتقِ اللهَ. وقال الأخفش: "إنَّ" تؤمنون" عطفُ بيان لتجارة" وهذا لا يُتَخَيَّلُ إلاَّ بتأويل أن يكونَ الأصلُ: أنْ تؤمنوا فلمَّا حَذَفَ "أن" ارتفع الفعلُ كقوله:

4260 ألا أيُّهذا الزَّاجِرِيْ أَحْضُرُ الوغَى . . . .

(176/762)

الأصل: أن أَحْضُرَ. وكأنه قيل: هل أدلُّكم على تجارة مُنْجية: إيمانٍ وجهاد. وهو معنى حسنٌ لولا ما فيه من التأويل. وعلى هذا فيجوزُ أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ تجارة. وقال الفراء: هو مجزومٌ على جوابِ الاستفهام وهو قولُه: "هل أدلُّكم" واختلف الناسُ في تصحيح هذا القولِ: فبعضُهم/ غلَّطه. قال الزجاج: ليسُوا إذا دَلَّهم على ما ينفعهم يَغْفِرُ لهم، إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا "يعني أنه ليس مرتَّباً على مجرد الاستفهام ولا على مجرَّدِ الدلالة.

وقال المهدوي: "إنما يَصِحُّ حَمْلاً على المعنى: وهو أَنْ يكونَ" يؤمنون" ويُجاهدون عطفَ بيان على قولِه: "هل أدلُّكم" كأنَّ التجارةَ لم يُدْرَ ما هي؟ فبُيِّنَتْ بالإِيمان والجهاد، فهي هما في المعنى فكأنه قيل: هل تُؤْمنون وتجاهدون؟ قال: فإنْ لم تقدِّر هذا التقديرَ لم

يَصِحَّ ؛ لأنه يَصيرُ : إنْ دُلِلْتُمْ يَغْفِرْ لكم . والغُفْرانُ إنما يجبُ بالقَبولِ والإِيمانِ لا بالدَّلالةِ .

وقال الزمخشري قريباً منه أيضاً . وقال أيضاً : " إنَّ" تُؤْمنون " استئنافٌ ، كأنهم قالوا : كيف نعملُ؟ فقال : تؤْمنون " . وقال ابن عطية : " تُؤْمنون فعلٌ مرفوعٌ ، تقديرُه : ذلك أنَّه تُؤْمنون " ، فجعله خبراً ل " أَنَّ" ، وهي وما في حَيِّزها خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ . وهذا محمولٌ على تفسيرِ المعنى لا تفسيرِ الإِعراب ، فإنَّه لا حاجةَ إليه .

يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)

قوله : ﴿ يَغْفِرْ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه مجزومٌ على جوابِ الخبرِ بمعنى الأمر ، كما تقدَّم تقريرُه . والثاني : أنه مجزومٌ على جوابِ الاستفهامِ ، كما قاله الفراءُ ، وتقدَّم تأويلُه . الثالث : أنه مجزومٌ بشرطٍ مقدَّرٍ أي : إنْ تُؤْمنوا يَغْفِرْ لكم .

(177/762)

وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13)

قوله : ﴿ وأخرى ﴾ : فيها خمسةُ أوجهٍ ، أحدُها ، أنَّها في موضعِ رفعٍ على الابتداءِ ، وخبرُها مقدَّرٌ أي : ولكم أو ثَمَّ ، أو عنده خَصْلَةٌ أخرى ، أو مَثُوْبَةٌ أخرى . و " تُحِبُّونها "

نعتٌ لها . الثاني : أن الخبرَ جملةٌ حُذِفَ مبتدَؤُها تقديرُه : هي نصرٌ ، والجملةُ خبرُ " أُخْرى " ، قاله أبو البقاء ، وفيه بُعْدٌ كثيرٌ ؛ لأنه تقديرٌ لا حاجةَ إليه . والثالث : أنها منصوبةٌ بفعلٍ محذوفٍ للدلالةِ عليه بالسِّياق ، أي ويُعْطِكُمْ ، أو يَمْنَحْكم مَثوبةً أخرى . و " تُحبونها " نعتٌ لها أيضاً .

والرابع : أنها منصوبةٌ بفعلٍ مضمرٍ يُفَسِّره " تُحبُّونها " فيكونُ من الاشتغالِ ، وحينئذٍ لا يكون " تُحِبُّونها " نعتاً ؛ لأنه مفسِّرٌ للعاملِ قبله . الخامس : أنها مجرورةٌ عطفاً على " تجارة " . وضُعِّفَ هذا : بأنها ليسَتْ مِمَّا دَلَّ عليه ، إنما هي ثوابٌ مِنْ عندِ الله . وهذا الوجهُ منقولٌ عن الأخفش .

قوله : ﴿ نَصْرٌ مِّنَ الله ﴾ خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : " تلك النعمةُ أو الخَلَّةُ الأُخْرى نَصْرٌ . و " من الله " نعتٌ له ، أو متعلِّقٌ به ، أي : ابتداؤه منه . ورفْعُ " نصرٌ وفَتْحٌ " قراءةُ العامَّةِ ، ونَصَبَ ابنُ أبي عبلةَ الثلاثةَ . وفيه أوجهٌ ، ذكرها الزمخشريُّ ، أحدُها : أنها منصوبةٌ على الاختصاصِ . الثاني : أن ينتصِبْنَ على المصدريَّةِ أي : يُنْصَرون نَصْراً ، ويُفتح لهم فتحاً قريباً . الثالث : أن ينتصِبْنَ على البدلِ مِنْ " أُخْرى " و " أُخْرى " منصوبٌ بمقدَّرٍ كما تقدَّم أي : يَغْفِرْ لكم ، ويُدْخِلْكم جناتٍ ، ويؤْتكم أُخْرى ، ثم أبدل منها " نَصْراً وفَتْحاً قريباً " .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (14)

قوله: ﴿ أَنصَارَ اللَّهِ ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو "أنصارا" منوناً، "لله" جارّاً ومجروراً. والباقون "أنصارَ" غيرَ منونٍ بل مضافاً للجلالة الكريمة، والرسمُ يحتمل القراءتَيْن معاً. واللامُ يُحتمل أَنْ تكونَ مزيدةً في المفعولِ للتقوية لكونِ العاملِ فَرْعاً، إذ الأصلُ: أنصاراً اللَّهَ، وأَنْ تكونَ غيرَ مزيدةٍ، ويكونَ الجارُّ والمجرورُ نعتاً ل "أَنْصاراً" والأولُ أظهرُ. وأمَّا قراءةُ الإِضافةِ ففرعُ الأصلِ المذكورِ. ويؤيِّدُ قراءةَ الإِضافةِ الإِجماعُ عليها في قوله: ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾. ولم يُتَصَوَّرْ جَرَيانُ الخلافِ هنا لأنه مرسومٌ بالألفِ.

قوله: ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ﴾ فيه أوجهٌ، أحدُها: أنَّ الكافَ في موضعِ نصبٍ على إضمارِ القولِ أي: قُلْنا لهم ذلك، كما قال عيسى. الثاني: أنها نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ تقديرُه: كونوا كَوْناً، قاله مكي وفيه نظرٌ؛ إذ لا يُؤْمَرُون بأن يكونوا كَوْناً. الثالث: أنه كلامٌ محمولٌ على معناه دون لفظِه، وإليه نحا الزمخشريُّ، فإنه قال: "فإنْ قلتَ ما وجهُ صحةِ التشبيهِ، وظاهرُه تشبيهُ كونِهم أنصاراً بقولِ عيسى صلوات الله عليه مَنْ أنصاري؟ قلت

: التشبيهُ محمولٌ على المعنى ، وعليه يَصِحُّ ، والمرادُ : كونوا أنصارَ الله كما كان الحواريُّون/ أنصارَ عيسى . حين قال لهم : ﴿ مَنْ أنصاري إلَى الله ﴾ .

(179/762)

وتقدَّم في آل عمران تَعَدِّي "أَنْصَاري" ب "إلى" ، واختلافُ الناسِ في ذلك . وقال الزمخشري هنا : "فإنْ قلتَ : ما معنى قولِه : ﴿ مَنْ أنصاري إِلَى الله ﴾ قلت : يجبُ أَنْ يكونَ معناه مطابقاً لجوابِ الحواريين : نحن أنصارُ الله . والذي يطابِقُه أَنْ يكونَ المعنى : مَنْ جُنْدِيٌّ متوجِّهاً إلى نصرةِ الله؟ وإضافةُ "أَنْصاري" خلافُ إضافةِ "أنصار الله" ؛ فإنَّ معنى "نحن أنصارُ الله" : نحن الذين يَنْصُرون الله ، ومعنى "مَنْ أنصاري" : مَنْ الأنصارُ الذين يختصُّون بي ، ويكونون معي في نُصْرَةِ اللَّهِ . ولا يَصِحُّ أَنْ يكونَ معناه مَنْ يَنْصُرني مع الله؛ لأنه لا يطابِقُ الجوابَ . والدليل عليه قراءةُ مَنْ قرأ "أنصارَ الله" انتهى . قلت : يعني أنَّ بعضهم يَدَّعي أنَّ "إلى" بمعنى مع أي : مَنْ أنصاري مع الله؟ وقوله : "قراءةُ مَنْ قرأ أنصارَ الله" أي : لو كانت بمعنى "مع" لَما صَحَّ سُقوطُها في هذه القراءةِ . وهذا غيرُ لازمٍ؛ لأنَّ كلَّ قراءةٍ لها معنىً يَخُصُّها ، إلاَّ أن الأَوْلَى توافُقُ القراءتَيْن .

قوله : ﴿ فَأَيَّدْنَا الذين آمَنُواْ على عَدُوِّهِمْ ﴾ مِنْ إيقاعِ الظاهرِ موقعَ المضمرِ فيهما ، تَنْبيهاً

على عداوةِ الكافرِ للمؤمن ؛ إذ الأصل : فأيَّدْناهم عليهم ، أي : أيَّدْنا المؤمنين على الكافرين من الطائفتَيْن المذكورتَيْن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 313 . 324 ﴾

(180/762)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الصف

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة من وقفه الله لعرفانها لم يصبر عن ذكرها بلسانه ثم لا يفتر حتى يصل إلى المسمى بها بجنانه : في البداية بتأمل برهانه لمعرفة سلطانه ، ثم لا يزال يزيده يفي إحسانه حتى ينتهي يفي شأنه بالتحقق مما هو كعيانه .

قوله جل ذكره : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

مَنْ أراد أنْ يصفو له تسبيحُه فَلْيَصِفّ قلبَه من آثار نَفْسِه ، ومَنْ أراد أن يَصْفُوَا له في الجَنَّةِ عَيشُه فَلْيُصَفّ من أوضارِ ذَنْبِهِ نَفْسَه .

قوله جل ذكره: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

جاء في التفاسير أنهم قالوا: لو عَلِمْنا ما فيه رضا الله لفَعَلْنا ولو فيه كل جهد.. ثم لمَّا كان يومُ أُحُد لم يثبوا، فنزلت هذه الآية في العتاب.

وفي الجملة: خلفُ الوعدِ مع كلِّ أحَدٍ قبيحٌ، ومع الله أقبح.

ويقال إظهارُ التجلُّدِ من غير شهود مواضِع الفقر إلى الحقِّ في كلِّ نفَسٍ يؤذِنُ بالبقاء عمَّا حصل بالدعوى.. والله يحب التبرِّي من الحوْلِ والقوة.

ويقال: لم يتوعَّد - سبحانه - زلَّةٍ بمثْلِ ما على هذا حين قال: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ .

(181/762)

المحبة توجِبُ الإِثارَ. وتقديم مُرادِ حبيبك عَلَى مُرادِ نَفْسِك، وتقديم محبوب حبيبك على محبوبِ نَفْسِك. فإذا كان الحقُّ تعالى يحبُّ من العبدِ أن يُقاتِلَ على الوجه الذي ذكره فمَنْ لم يُؤثِرْ محبوبَ الله على محبوب نَفْسِه - أي على سلامته - انسلخ من محبته لربِّه، ومَنْ خلا

من محبة الله وقع في الشّق الآخر، في خسرانه.

قوله جل ذكره: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾.

لمّا زاغوا بتْرك الحدّ أزاغ اللّهُ قلوبهم بنقض العهد.

ويقال: لمّا زاغوا عن طريق الرُّشْدِ أزاغ الله قلوبهم بالصدّ والردّ والبُعْدِ عن الوُدّ.

ويقال: لما زاغوا بظواهرهم أزاغ الله سرائرَهم.

ويقال: لمّا زاغوا عن خدمة الباب أزاغ اللّهُ قلوبهم عن التشوُّق إلى البساط.

ويقال: لمّا زاغوا عن العبادة أزاغ اللّهُ قلوبَهم عن الإرادة.

قوله جل ذكره: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

بَشّرَ كلُّ نبيٍ قومَه بنبيّنا صلى الله عليه وسلم، وأفرد الله – سبحانه – عيسى بالذّكْرِ في هذا الموضع لأنه آخِرُ نبيٍ قبل نبيّنا صلى الله عليه وسلم: فبيَّن بذلك أن البشارة به عَمّتْ جميعَ الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت بعيسى عليه السلام.

قوله جل ذكره: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾.

فَمَنْ احتال لوَهنه ، أورامَ وهْيَه انعكس عليه كَيْدُه ، وانتقض عليه تدبيرُه .

﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ : كما قالوا :

ولله سِرٌّ في عُلاهُ وإنما . . . كلامُ العِدَى ضَرْبٌ من الهَذَيانِ

كأنه قال : مَنْ تمنّى أن يُطْفِئ نورَ الإسلام بكيده كمن يحتال ويزاول إطفاء شعاعِ الشمس بنَفْثه ونَفْخِه فيه – وذلك من المُحال .

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ .

لمَّا تقاعد قومُه عن نصرته ، وانبرى أعداؤه لتكذيبه ، وجحدوا ما شاهدوه من صِدْقِه قَيَّض الله له أنصاراً من أمته هم : نُزَّاعُ القبائل ، والآحاد الأفاضل ، والساداتُ الأماثل ، وأفرادُ المناقب –فبذلوا في إعانته ونصرة دينه مُهَجَهم ، ولم يُؤْثِروا عليه شيئاً من كرائمهم ، ووقوه بأرواحهم ، وأَمَدَّهم اللَّهُ سبحانه بتوفيقه كي ينصروا دينه ، أولئك أقوامٌ عَجَنَ الله بماء السعادة طِينَتَهم ، وخَلَقَ من نور التوحيد أرواحهم وأَهَّلَهم يومَ القيامة للسيادة على أضرابهم .

ولقد أرسل الله نبيَّه لدينه مُوَضّحاً ، وبالحقّ مُفْصِحاً ، ولتوحيده مُعْلِناً ، ولجهده في الدعاء إليه مستفرِغاً . . فأَقْرَعَ بنُصْحِه قلوباً نُكْراً ، وبصَّرَ بنور تبليغه عيوناً عُمْياً .

قوله جل ذكره : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

سَمَّى الإيمانَ والجهادَ تجارةً لِمَا في التجارة من الرِّبح والخسران ونوعٍ تكسُّب من التاجر - وكذلك : في الإيمان والجهاد رِبْحُ الجنَّة وفي ذلك يجتهد العبد ، وخسرانها إذا كان الامرُ بالضِّدّ .

(183/762)

وقوله : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ أي في ذلك جهادكم وإيمانُكم واجتادكم ، وهو خيرٌ لكم .

ثم بيَّن الربحَ على تلك التجارة ما هو فقال :

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

قدَّم ذِكْرَ أهمّ الأشياء -وهو المغفرة . ثم إذا فرغَتْ القلوبُ عن العقوبة قال :

﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ ﴾ فبعد ما ذَكَرَ الجنَّةَ ونعيمَهَا قال : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ ، وبماذا تطيب تلك المساكن ؟ لا تطيب إلاّ برؤية الحقِّ سبحانه ، ولذلك قالوا :

أجيرانَنَا ما اوحشَ الدارَ بعدكم . . . إذا غِبْتُموا عنها ونحن حضورُ

نحن في أكمل السرورِ ولكنْ . . . ليس إلا بكم يتمُّ السرورُ

عيبُ ما نحن فيه يا أهل ودّي . . . أنكم غُيَّبٌ ونحن حضورُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أي ولكم نعمة أخرى تحبونها : نصرٌ من الله ؛ اليومَ حِفْظُ الإيمانِ وتثبيتُ الأقدام على صراط الاستقامة ، وغداً على صراط القيامة .

﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ : الرؤية والزلفة . ويقال الشهود . ويقال : الوجود أبدَ الأبد .

﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : بأنهم لا يبقون عنك في هذا التواصل .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (14)

أي كونوا أنصاراً لدينه ورسوله كما أنّ عيسى لمّا استعانَ واستنصرَ الحواريين نصروه .

فانصروا محمداً إذا استنصركم .

ثم أخبر أنّ طائفةً من بني إسرائيل آمنوا بعيسى فأُكْرِموا ، وطائفةً كفروا فأُذِلُّوا ، وأظفرَ أولياءَه على أعدائه . . لكي يعرف الرسول صلى الله عليه وسلم أنَّ الله سبحانه يُظْفِرُ أولياءَه على أعدائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 575. 580﴾

(185/762)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الصّف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1)

الإعراب :

(للّه) متعلّق بحال من الموصول "

، (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة الموصول ، وكذلك (في الأرض) صلة الموصول

الثاني (الواو) حاليّة " 2 " . .

جملة : " سبّح للّه ما في السموات . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " هو العزيز . . . " في محلّ نصب حال من لفظ الجلالة " 2 " .

[سورة الصف (61) : الآيات 2 إلى 3]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ (3)

الإعراب :

(أيها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الذين) بدل من أيّ في محلّ نصب

- أو عطف بيان عليه - (لم) متعلّق

(2، 3) أو استئنافيّة.

ب (تقولون) ، و(ما) استفهاميّة حذفت ألفها ، (ما) موصول " 1 " في محلّ نصب مفعول به

والعائد محذوف (لا) نافية (مقتا) تمييز منصوب (أن) حرف مصدريّ ونصب (عند)

ظرف منصوب متعلّق بـ (كبر) . . .

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " تقولون . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " لا تفعلون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 2 " .

وجملة: "كبر... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " تقولوا ... " لا محل لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

والمصدر المؤوّل (أن تقولوا ..) في محلّ رفع فاعل كبر.

وجملة: " لا تفعلون (الثانية) ... " لا محلّ لها صلة (ما) " 3 ".

البلاغة

---

(1) أو نكرة موصوفة بمعنى شيء، والعائد محذوف.

(2، 3) أو في محلّ نصب نعت لـ (ما).

المبالغة والتكرير: في قوله تعالى كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ.

هذا من أفصح الكلام وأبلغه، ففي معناه قصد إلى التعجب بغير صيغة التعجب، لتعظيم الأمر في قلوب السامعين، لأن التعجب لا يكون، إلا من شيء خارج من نظائره وأشكاله، وأسند إلى " أَنْ تَقُولُوا " ونصب " مقتا " على تفسيره، دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه، لفرط تمكن المقت منه، واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه، ولم يقتصر على جعل البغض كبيرا، حتى جعل أشده وأفحشه، وعند اللّه أبلغ من

ذلك.

وزائد على هذه الوجوه الأربعة وجه خامس: وهو تكراره لقوله "ما لا تَفْعَلُونَ" وهو لفظ واحد في كلام واحد، ومن فوائد التكرار: التهويل والإعظام. وإلا فقد كان الكلام مستقلا.

[سورة الصف (61): آية 4]

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ (4)

الإعراب:

(في سبيله) متعلّق بـ (يقاتلون)، (صفّا) حال من الفاعل في (يقاتلون)..

وجملة: "إنّ الله يحبّ..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يحبّ..." في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "يقاتلون..." لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "كأنّهم بنيان..." في محلّ نصب حال من الضمير في (صفّا).

الصرف:

(مرصوص)، اسم مفعول من الثلاثيّ (رصّ)، وزنه مفعول.

البلاغة

اندراج الخاص بالعام: حيث ورد النهي العام أولا في الآية الثالثة، ثم أتى عقب هذا النهي العام مباشرة قوله تعالى إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ.

(188/762)

وفي ذكره ذلك، عقب النهي العام مباشرة، دليل على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات في قتال الكفار فلم يفوا، كما تقول للمقترف جرما معينا:

لا تفعل ما يلصق العار بك ولا تشاتم زيدا، وفائدة مثل هذا النظم: النهي عن الشيء الواحد مرتين، مندرجا في العموم، ومفردا بالخصوص، وهو أولى من النهي عنه على الخصوص مرتين، فإن ذلك معدود في حين التكرار، وهذا يتكرر مع ما في التعميم من التعظيم والتهويل.

[سورة الصف (61): آية 5]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (5)

الإعراب:

(الواو) استئنافية (إذ) اسم ظرفيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر

(لقومه) متعلّق بـ (قال) ، (قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف .

وهي مضاف إليه (لم) متعلّق بـ (تؤذونني) ، و(ما) للاستفهام حذفت ألفها (الواو) حاليّة (قد) للتحقيق " 1 " ، (إليكم) متعلّق بـ (رسول) .

والمصدر المؤوّل (أنّي رسول . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي تعلمون .

(الفاء) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب أزاغ (الواو) استئنافيّة (لا) نافية .

جملة : " قال موسى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " النداء . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تؤذونني . . . لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " تعلمون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل تؤذونني .

وجملة : " زاغوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أزاغ اللّه . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

---

(1) ذلك لتحقّق علمهم برسالته فليست للتقليل ولا للتقريب .

وجملة: " اللَّه لا يهدي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لا يهدي . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللَّه).

الصرف:

(أزاغ)، فيه إعلال قياسه كقياس الإعلال في زاغ . . انظر الآية (17) من سورة النجم.

[سورة الصف (61): آية 6]

وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (6)

الإعراب:

(وإذ قال عيسى) مثل وإذ قال موسى " 1 "، (ابن) بدل من عيسى مرفوع " 2 "، (إليكم) متعلّق بـ (رسول) (مصدّقا) حال من الضمير في رسول (لما) متعلّق بـ (مصدّقا) " 3 "، (بين) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (من التوراة) متعلّق بحال من الضمير في الصلة المحذوفة (برسول) متعلّق بـ (مبشّرا)، (من بعدي) متعلّق بـ (يأتي)، (فلما جاءهم) مثل لمّا زاغوا " 4 "، وفاعل جاءهم ضمير يعود على أحمد " 5 "، (بالبيّنات) متعلّق بحال من فاعل جاءهم.

جملة : " قال عيسى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " النداء . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّي رسول . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

(1 ، 4) في الآية (5) من هذه السورة .

(2) أو عطف بيان عليه ، أو نعت له .

(3) أو اللام زائدة للتقوية ، وما في محلّ نصب مفعول به لاسم الفاعل (مصدقا) .

[. . . . . .]

(5) يجوز أن يعود الضمير على عيسى عليه السلام .

(190/762)

وجملة : " يأتي . . . " في محلّ جرّ نعت لرسول .

وجملة : " اسمه احمد " في محلّ جرّ نعت ثان لرسول " 1 " .

وجملة : " جاءهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " هذا سحر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(أحمد) ، اسم علم من أسماء الرسول عليه السلام مأخوذ من الحمد ، وهو على صيغة المضارع مبدوءا بهمزة المتكلم ، فهو ممنوع من التنوين .

[سورة الصف (61) : آية 7]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (7)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من) اسم استفهام بمعنى الإنكار في محلّ رفع مبتدأ ، خبره (أظلم) ، (ممّن) متعلّق بـ (أظلم) (على الله) متعلّق بـ (افترى) ، (الكذب) مفعول به منصوب " 2 " ، (الواو) حاليّة (إلى الإسلام) متعلّق بـ (يدعى) ، (الواو) استئنافيّة (لا) نافية .

جملة : " من أظلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " افترى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " هو يدعى . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " يدعى . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) .

وجملة : " الله لا يهدي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يهدي . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الله) .

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل يأتي - أو من رسول.

(2) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه ملاقيه في المعنى.

[سورة الصف (61) : آية 8]

يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (8)

الإعراب:

(اللام) زائدة (يطفئوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (بأفواههم) متعلّق ب (يطفئوا) و(الباء) للاستعانة (الواو) حاليّة في الموضعين (لو) حرف شرط غير جازم.. والمصدر المؤوّل (أن يطفئوا) في محلّ نصب مفعول به لفعل الإرادة.

وجملة: " يريدون... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يطفئوا... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: "اللَّه متمّ . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يريدون - أو يطفئوا - وجملة: "لو كره الكافرون . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في متمّ . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي: لو كره الكافرون نور اللَّه فاللَّه باعث نوره ومظهره.

الصرف:

(متمّ)، اسم فاعل من الرباعيّ أتمّ، وزنه مفعل، وعينه ولامه من حرف واحد.

البلاغة

الاستعارة التمثيلية: في قوله تعالى يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ.

تمثيل حالهم، في اجتهادهم في إبطال الحق، بحالة من ينفخ الشمس بفيه ليطفئها، تهكما وسخرية بهم، كما تقول الناس: هو يطفئ عين الشمس.

وذهب بعض الأجلة إلى أن المراد بنور اللَّه دينه تعالى الحق، على سبيل الاستعارة التصريحية، وكذا في قوله تعالى وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ.

[سورة الصف (61): آية 9]

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9)

الإعراب:

(بالهدى) متعلّق بحال من فاعل أرسل أو من مفعوله (اللام) للتعليل (يظهره) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (على الدين) متعلّق بـ (يظهره) بتضمينه معنى يعليه (الواو)

حاليّة (لو كره المشركون) مثل لو كره الكافرون " 1 " .

جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أرسل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يظهره . . . " لا محل لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

والمصدر المؤوّل (أن يظهره . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أرسل) ، وفاعل يظهر ضمير يعود على لفظ الجلالة .

وجملة : " لو كره المشركون " في محلّ نصب حال من فاعل يظهره .

[سورة الصف (61) : الآيات 10 إلى 13]

---

(1) في الآية السابقة (8) .

(193/762)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ (13)

الإعراب:

(يأيّها الذين آمنوا) مرّ إعرابها " 1 "، (هل) حرف استفهام (على تجارة) متعلّق بـ (أدلّ)، (من عذاب) متعلّق بـ (تنجيكم).

جملة: " يأيّها الذين... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " آمنوا... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: " هل أدلّكم... " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " تنجيكم... " في محلّ جرّ نعت لتجارة.

11 - (بالله) متعلّق بـ (تؤمنون)، (في سبيل) متعلّق بـ (تجاهدون) وكذلك (بأموالكم)، والإشارة في (ذلكم) إلى الإيمان والجهاد (لكم) متعلّق بـ (خير) (كنتم) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط.

وجملة: " تؤمنون... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 ".

وجملة: " تجاهدون... " لا محلّ لها معطوفة على جملة تؤمنون.

وجملة: " ذلكم خير... " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "كنتم تعلمون... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " تعلمون... " في محلّ نصب خبر كنتم. وجواب الشرط محذوف دل عليه ما

قبله أي فآمنوا وجاهدوا . . .

12 - (يغفر) مضارع مجزوم جواب شرط مقدّر (لكم) متعلّق بـ (يغفر) ، (من تحتها) متعلّق بـ (تجري) " 3 " (مساكن) معطوف على جنّات ، ومنع من التنوين لأنه جمع على صيغة منتهي الجموع (في جنّات) متعلّق بنعت ثان لمساكن ،

---

(1) في الآية (2) من هذه السورة .

(2) أو هي تفسير على رأي ابن هشام فسرّت التجارة .

(3) بحذف مضاف أي من تحت أشجارها . . ويجوز أن يكون الجارّ متعلّقا بحال من الأنهار .

والإشارة في (ذلك) إلى الغفران ودخول الجنّات . .

وجملة : " يغفر . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي إن تفعلوه يغفر .

وجملة : " يدخلكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يغفر .

وجملة : " ذلك الفوز . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

13 - (الواو) عاطفة (أخرى) مفعول به لفعل محذوف تقديره يؤتكم نعمة أخرى ، مجزوم

عطفا على (يغفر) " 1 " ، (نصر) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي أي النعمة الأخرى (من اللَّه) متعلّق بـ (نصر) ، (الواو) استئنافيّة - أو عاطفة - وجملة : " (يؤتكم) أخرى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يغفر . .

وجملة : " تحبّونها . . . " في محلّ نصب نعت لأخرى .

وجملة : " (هي) نصر . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " بشر المؤمنين " لا محلّ لها استئنافيّة

الفوائد :

- عطف الخبر على الإنشاء ، وبالعكس ، منع ذلك أكثر العلماء ، ومنهم ابن مالك وابن عصفور ، وأجاز ذلك الصفّار وجماعة ، مستدلين بقوله تعالى :

"

---

(1) أو محذوف على الاشتغال أي تحبون أخرى . . ويجوز أن يكون (أخرى) مبتدأ خبره نصر من الله . . أو معطوفا على تجارة مجرور مثله .

فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ" وقوله تعالى في سورة الصف في الآية التي نحن بصددها (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) .

ويؤيد هذا المذهب ، وهو جواز عطف الخبر على الإنشاء ، قول امرئ القيس :

وإن شفائي عبرة مهراقة وهل عند رسم دارس من معوّل

(196/762)

ورد الزمخشري على آيتي البقرة والصف ، نافيا جواز عطف الخبر على الإنشاء بقوله : أما آية البقرة ليس المعتمد بالعطف الأمر حتى يطلب له مشاكل ، بل المراد عطف جملة ثواب المؤمنين على جملة عذاب الكافرين ، كقولك : (زيد يعاقب بالقيد وبشر فلانا بالإطلاق) ، وجوّز عطفه على اتقوا ، وأتم من كلامه في الجواب الأول أن يقال : المعتمد بالعطف جملة الثواب كما ذكر ، ويزاد عليه فيقال : والكلام منظور فيه إلى المعنى الحاصل منه ، وكأنه قيل

: والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات فبشرهم بذلك ، وأما الجواب الثاني ، ففيه نظر ، لأنه لا يصح أن يكون جوابا للشرط ، إذ ليس الأمر بالتبشير مشروطا بعجز الكافرين عن الإتيان بمثل القرآن . ويجاب : بأنه قد علم أنهم غير المؤمنين ، فكأنه قيل : فإن لم يفعلوا فبشر غيرهم بالجنات ، ومعنى هذا فبشر هؤلاء المعاندين بأنه لا حظ لهم في الجنة .

وقال في آية الصف : إن العطف على (تؤمنون) لأنه بمعنى آمنوا ، ولا يقدح في ذلك أن المخاطب بـ (تؤمنون) المؤمنون ، وب (بشر) النبي عليه الصلاة والسلام ، ولا أن يقال : في (تؤمنون) : إنه تفسير للتجارة لا طلب ، وإن (يغفر لكم) جواب الاستفهام تنزيلا للسبب منزلة المسبب ، لأن تخالف الفاعلين لا يقدح ، كقولنا (قوموا واقعد يا زيد) ولأن (تؤمنون) لا يتعين للتفسير ، سلّمنا ، ولكن يحتمل أنه تفسير مع كونه أمرا ، وذلك بأن يكون معنى الكلام السابق اتجروا تجارة تنجيكم من عذاب أليم كما كان (فهل أنتم منتهون) في معنى انتهوا ، أو بأن يكون تفسيرا في المعنى دون الصناعة ، لأن الأمر قد يساق لإفادة المعنى الذي يتحصل من المفسرة يقول :

" هل أدلك على سبب نجاتك ؟ آمن باللَّه " كما تقول : " هو أن تؤمن باللَّه " وحينئذ فيمتنع العطف لعدم دخول التبشير في معنى التفسير .

[سورة الصف (61) : آية 14]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ (14)

الإعراب:

(يأيّها الذين آمنوا) مرّ إعرابها " 1 "، (ما) حرف مصدريّ (للحواريّين) متعلّق ب (قال) ..

والمصدر المؤوّل (ما قال..) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بفعل محذوف تقديره قلنا ذلك كقول عيسى " 2 ".

(من) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ، خبره (أنصاري)، (إلى اللّه) متعلّق بحال من ضمير المتكلّم أي متوجّها إلى نصرة اللّه، أي: بحذف مضاف (الفاء) استئنافيّة (من بني) متعلّق بنعت لطائفة (الفاء) الثانية عاطفة (على عدوّهم) متعلّق ب (أيدنا) بتضمينه معنى قوّينا (الفاء) عاطفة...

جملة: " النداء... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " آمنوا... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: " كونوا... " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " (قلنا) ذلك كقول... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " قال عيسى... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

وجملة: " من أنصاري... " في محلّ نصب مقول القول.

---

(1) في الآية (2) من هذه السورة.

(2) نحا الزمخشريّ في إعرابه للآية الكريمة منحى غيّر معنى الآية أي: كونوا أنصار اللَّه كما كان الحواريّون أنصار عيسى حين قال لهم من أنصاري إلى اللَّه.

وجملة: " قال الحواريّون... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " نحن أنصار اللَّه... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " آمنت طائفة... " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 ".

وجملة: " كفرت طائفة... " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنت طائفة.

وجملة: " أيّدنا... " لا محلّ لها معطوفة على جملة كفرت طائفة.

وجملة: " آمنوا (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني.

وجملة: " أصبحوا... " لا محلّ لها معطوفة على جملة أيّدنا.... انتهى. اهـ

﴿ الجدول حـ 28 صـ 242.230 ﴾

---

(1) أو الجملة معطوفة على استئناف مقدّر أي فلمّا رفع عيسى عليه السلام إلى السماء افترق الناس فرقا فآمنت طائفة . .

(199/762)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(61) سورة الصّفّ

مدنيّة وآياتها أربع عشرة

[سورة الصف (61) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ (3) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ (4)

اللغة :

(مَقْتاً) قال في الأساس : " مقته مقتا وهو بغض عن أمر قبيح وفيه قيل لنكاح الرجل رابّته :

نكاح المقت " إنه كان فاحشة ومقتا " ومقت إلى الناس مقاتة نحو بغض بغاضة وهو ممقوت ومقيت " .

(مَرْصُوصٌ) ملزق بعضه على بعض كأنما بني بالرصاص وقيل المرصوص : المتلاحم الأجزاء المستويها وقيل : المعقود بالرصاص وقيل المتضام من تراصّ الأسنان وفي المصباح : " والرص اتصال بعض البناء بالبعض واستحكامه وبابه ردّ " ومن غريب أمر الراء والصاد إذا

وقعتا فاء وعينا للكلمة دلّتا على معنى التضام والاستحكام ، والتهيؤ للأمر ، تقول : رصدته وارتصدته وترصدته : قعدت له على طريقه أترقبه وتراصد الرجلان قال ذو الرمة :

يراصدها في جوف حدباء ضيق على المرء إلا ما تخرّق حالها

(200/762)

وسبع رصيد : يرصد ليثب وأنا لك بالمرصد والمرصاد أي لا تفوتني ، وقد أرصدت هذا الجيش للقتال وهذا الفرس للطراد وهذا المال لأداء الحقوق إذا أعددته لذلك وجعلته بسبيل منه ، ورصع التاج : حلّاه بكواكب الحلية ورصّع الطائر عشه بالقضبان والريش

قارب بعضه من بعض ونسجه وأسنانه مرتصعة مرتصّة وتراصع العصفوران : تسافدا وراصع الطائر أنثاه ، ورصف الحجارة ورصّفها وجرى الماء على الرّصف والرّصاف وهي الصخر المرصوف وتراصفوا في الصلاة والقتال وتقول : تراصفوا ثم تقاصفوا ورصف إحدى قدميه إلى الأخرى ضمّها وتراصفت أسنانه تراصفا وهو تنضّدها ومن المجاز : امرأة رصوف ضيقة الهن ورجل رصيف محكم العمل ويقال : أجاب بجواب مترّص حصيف ، بين رصيف ، ليس بسخيف ولا خفيف ، ورصن البناء وغيره رصانة فهو رصين ومن المجاز له رأي رصين ، وكلام متين رصين .

الإعراب :

(سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) تقدم إعراب هذه الآية في مستهل سورة الحشر فجدد به عهدا (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ) لم : اللام حرف جر وما اسم استفهام يفيد الإنكار والتوبيخ وقد تقدم أن حرف الجر إذا دخل على ما الاستفهامية حذف ألفها نحو بم وفيم وممّ وإلام وعلام وعمّ وحتام وإنما حذفت الألف لأن ما وحرف الجر يشبهان الشيء الواحد وقد وقع

استعمالها كثيرا في كلام المستفهم محذوفة الألف وجاء استعمال الأصل قليلا ، والجار والمجرور متعلقان بتقولون وتقولون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وما مفعول به ولا نافية وجملة تفعلون صلة ما (كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ) كبر فعل ماض أي عظم ومقتا تمييز محوّل عن الفاعل وعند اللّه الظرف متعلق بمحذوف صفة لمقتا أو حال وأن تقولوا مصدر مؤول في محل رفع فاعل كبر والأصل كبر مقت قولهم أي المقت المترتب على قولهم ما لا يفعلون ويجوز أن يكون كبر من باب نعم وبئس فيكون الفاعل ضميرا مستترا مفسّرا بالتمييز النكرة ، وأن تقولوا مبتدأ خبره الجملة قبله لأنه المخصوص بالذم وقد تقدم بحث ذلك كله ، وسيأتي المزيد من بحث هذا التركيب في باب البلاغة (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ)

البلاغة :

1- في قوله "كبر مقتا عجب بغير صيغة التعجب لتعظيم الأمر في قلوب السامعين لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارق للعادة والنظائر .

2- أسند إلى أن تقولوا ونصب مقتا على تفسيره للدلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا مشوب فيه .

3- اختيار لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه حتى قيل نكاح المقت كما تقدم في باب اللغة .

4- ثم لم يقتصر على أن جعل البغض كبيرا حتى جعله أشدّه وأفحشه وقوله عند اللّه أبلغ من ذلك لأنه إذ ثبت كبر مقته عند الله فقد تم كبره وشدّته وانجابت عنه الشكوك.

5- التكرار لقوله ما لا تفعلون وهو لفظ واحد في كلام واحد، ومن فوائد التكرار التهويل والإعظام وإلا فقد كان الكلام مستقلا لو قيل كبر مقتا عند الله ذلك فما إعادته إلا لمكان هذه الفائدة.

(202/762)

2- اندراج الخاص بالعام، وقد ورد النهي العام عن القول غير المؤيد بالفعل والمقصود اندراج الأمر الخاص الذي ورد عقب ذلك وهو قوله: "إن اللّه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفّا كأنهم بنيان مرصوص" وفي ذكره ذلك عقب النهي العام مباشرة دليل على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات في قتال الكفار فلم يفوا كما تقول للمقترف جرما بعينه لا تفعل ما يلصق العار بك ولا تشاتم زيدا وفائدة مثل هذا النظم النهي عن الشيء الواحد مرتين مندرجا في العموم ومفردا بالخصوص وهو أولى من النهي عنه على الخصوص مرتين فإن ذلك معدود في خير التكرار وهذا لا يتكرر مع ما في التعميم من التعظيم والتهويل.

[سورة الصف (61) : الآيات 5 إلى 6]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (5) وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (6)

الإعراب :

(203/762)

(وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ) كلام مستأنف مسوق لتسلية نبيّه محمد صلّى اللّه عليه وسلم وتوطينه على الصبر. وإذ مفعول لفعل محذوف تقديره اذكر وجملة قال في محل جر بإضافة الظرف إليها وموسى فاعل ولقومه متعلقان بقال ، ولم اللام حرف جر وما اسم استفهام في محل جر باللام وقد تقدم السر في حذف الألف من ما الاستفهامية إذا سبقها حرف جر وتؤذونني فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل والنون للوقاية والياء مفعول به والواو حالية وقد حرف تحقيق وإن دخلت على المضارع وإنما عبّر بالمضارع للدلالة على استصحاب الحال وتعلمون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وأني رسول اللّه أن واسمها وخبرها وأن وما في

حيّزها سدّت مسدّ مفعولي تعلمون وإليكم متعلقان برسول وجملة وقد تعلمون إلخ في محل نصب حال. والمعنى أن من عظّم الله عظّم رسوله (فَلَمَّا زاغوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ) الفاء عاطفة ولما رابطة أو حينية وزاغوا فعل وفاعل وجملة أزاغ اللّه قلوبهم لا محل لها واللّه مبتدأ وجملة لا يهدي القوم الظالمين خبر (وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ) الظرف مفعول بفعل محذوف تقديره اذكر وجملة قال في محل جر بإضافة الظرف إليها

وعيسى فاعل وابن مريم بدل من عيسى ويا بني إسرائيل منادى مضاف، ولم يقل يا قوم لأنه لا يمتّ إليهم بنسبة ما دام ليس له أب لأن النسب لا يكون إلا من جهته وإن كانت أمه مريم من أشرفهم نسبا، وإن واسمها ورسول اللّه إليكم خبرها والجملة مقول القول (مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) مصدّقا:

(204/762)

حال من الضمير المستكن في رسول اللّه لتأويله بمرسل ولما متعلقان بمصدقا والظرف متعلق بمحذوف لا محل له لأنه صلة الموصول ويدي مضاف لبين وعلامة جره الياء لأنه مثنى ومبشّرا عطف على مصدّقا فهو حال مثله وبرسول متعلقان بمبشّرا وجملة يأتي صفة

لرسول ومن بعدي متعلقان بيأتي واسمه مبتدأ وأحمد خبره والجملة صفة ثانية (فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ) الفاء استئنافية ولما رابطة أو حينية وجاءهم فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به وبالبيّنات متعلقان بجاءهم وجملة قالوا لا محل لها وجملة هذا سحر مبين من المبتدأ والخبر في محل نصب مقول قولهم .

الفوائد :

أهل العربية يقولون أن " قد " تصحب الماضي لتقريبه من الحال ومنه قول المؤذّن قد قامت الصلاة وتشتمل المصاحبة للماضي أيضا على معنى التوقع فلذلك قال سيبويه قد فعل جواب لما يفعل وقال الخليل هذا الخبر لقوم ينتظرونه وأما مع المضارع فإنها تفيد التقليل مثل ربما كقولهم إن الكذوب قد يصدق ، فإذا كان معناها مع المضارع التقليل وقد دخلت في الآية على مضارع فالوجه أن يكون هذا من الكلام الذي يقصدون به الإفراط فيما ينعكس عنه ، وتكون " قد " في هذا المعنى نظير ربما في قوله " ربما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين " فإنها في هذا الموضع أبلغ من كم في التكثير فلما أوردت ربما في التكثير على عكس معناه الأصلي في التقليل فكذلك إيراد " قد " هاهنا لتكثير علمهم أي تحقيق تأكيده على عكس معناها الأصلي في التقليل .

[سورة الصف (61) : الآيات 7 إلى 13]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
(7) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11)
يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13)

الإعراب:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ) الواو استئنافية ومن اسم استفهام معناه النفي أي لا أحد في محل رفع

مبتدأ وأظلم خبر وممّن متعلقان بأظلم وجملة افترى صلة لا محل لها وعلى اللّه متعلقان بافترى والكذب مفعول به، وهو: الواو للحال وهو مبتدأ وجملة يدعى خبر هو والجملة في

محل نصب على الحال أي يدعوه ربه على لسان نبيّه إلى الإسلام الذي فيه سعادة الدارين فيجعل مكان إجابته افتراء الكذب على اللّه ويدعى فعل مضارع مبني للمجهول وإلى اللّه متعلقان بيدعى (وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) اللّه مبتدأ وجملة لا يهدي خبر والقوم مفعول به والظالمين نعت للقوم (يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ) يريدون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل، وليطفئوا: ذكر المعربون في هذه اللام أوجها أقواها ثلاثة:

1- أنها مزيدة في مفعول الإرادة قال الزمخشري: "أصله يريدون أن يطفئوا كما جاء في سورة براءة وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة توكيدا له لما فيها من معنى الإرادة في قولك جئتك لإكرامك كما زيدت اللام في لا أبا لك تأكيدا لمعنى الإضافة في لا أباك" وقال ابن عطية مؤيدا هذا الرأي: "واللام في ليطفئوا لام مؤكدة دخلت على المفعول لأن التقدير يريدون أن يطفئوا".

2- أنها لام التعليل والمفعول محذوف أي يريدون إبطال القرآن أو رفع الإسلام أو هلاك الرسول ليطفئوا.

3- أنها بمعنى أن الناصبة وأنها ناصبة للفعل بنفسها، قال الفرّاء: العرب تجعل لام كي في موضع أن في أراد وأمر وإليه ذهب الكسائي أيضا.

وعبارة أبي حيان بعد أن أورد قول الزمخشري وابن عطية الآنفي الذكر قال: وما ذكره ابن عطية من أن هذه اللام أكثر ما تلزم المفعول إذا تقدم ليس بأكثر بل الأكثر زيدا ضربت من

لزيد ضربت وأما قولهما

إن اللام للتأكيد وأن التقدير أن يطفئوا فالإطفاء مفعول يريدون فليس بمذهب سيبويه والجمهور " .

(207/762)

(وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) الواو للحال والله مبتدأ ومتمّ خبر ونوره مضاف إليه والجملة حالية من فاعل يريدون أو يطفئوا والواو للحال أيضا ولو شرطية وكره الكافرون فعل وفاعل والجملة حالية من الحالية المتقدمة فهي متداخلة وجواب لو محذوف والتقدير : أتمّه وأظهره (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) هو مبتدأ والذي خبره وجملة أرسل صلة ورسوله مفعول به وبالهدى متعلقان بأرسل أو بمحذوف حال ودين الحق عطف على الهدى واللام للتعليل ويظهره فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والهاء مفعول به والجار والمجرور متعلقان بأرسل وعلى الدين متعلقان بيظهره وكله تأكيد وجملة ولو كره المشركون حال ومفعول كره محذوف أي إظهاره وجواب لو محذوف أيضا والتقدير أظهره (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ) هل حرف استفهام معناه الإخبار والإيجاب أي سأدلّكم وإنما أورده في

صيغة الاستفهام تشويقا وإلها با للرغبة ، وأدلكم فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنا والكاف مفعول به وعلى تجارة متعلقان بأدلكم وجملة تنجيكم صفة لتجارة ومن عذاب متعلقان بتنجيكم وأليم صفة لعذاب ، وسيأتي حديث نزولها الممتنع في باب الفوائد (تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ) الجملة خبر لمبتدأ محذوف أي هي تؤمنون أو مستأنفة في جواب سؤال مقدّر كأنه قيل ما هي التجارة ؟ وتؤمنون فعل مضارع مرفوع ولكنه بمعنى الأمر ويدل عليه قراءة عبد اللّه بن مسعود آمنوا باللّه ورسوله وجاهدوا ، وفائدة العدول عن الأمر إلى الإخبار الإشعار بوجوب الامتثال وكأنهم امتثلوا فهو يخبر عن

إيمان وجهاد موجودين ، وباللّه متعلقان بتؤمنون ورسوله عطف على باللّه وتجاهدون عطف على تؤمنون وفي سبيل اللّه متعلقان بتجاهدون أو بمحذوف حال وبأموالكم متعلقان بتجاهدون وأنفسكم عطف على أموالكم (ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ذلكم مبتدأ وخير خبر ولكم متعلقان بخير وإن شرطية وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط وجملة تعلمون خبر كنتم وجواب الشرطية محذوف تقديره فافعلوه وحذف

مفعول تعلمون اختصارا للعلم به أي أنه خير لكم {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} يغفر فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب المفهوم من قوله تؤمنون كما تقدم وقيل جواب شرط مقدّر أي إن تفعلوه يغفر وعبارة أبي البقاء : "يغفر لكم في جزمه وجهان أحدهما هو جواب شرط محذوف دلّ عليه الكلام تقديره إن تؤمنوا يغفر لكم وتؤمنون بمعنى آمنوا والثاني هو جواب لما دلّ عليه الاستفهام والمعنى هل تقبلون إن دللتكم ، وقال الفرّاء هو جواب الاستفهام على اللفظ وفيه بعد لأن دلالته إياهم لا توجب المغفرة" .

(209/762)

و عبارة الزمخشري " فإن قلت هل لقول الفرّاء أنه جواب هل أدلكم وجه ؟ قلت وجهه أن متعلق الدلالة هو التجارة والتجارة مفسّرة بالإيمان والجهاد فكأنه قيل : هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم" وتعقبه ابن المنير فقال : "إنما وجه إعراب الفرّاء بما ذكر لأنه لو جعله جوابا لقوله هل أدلكم فإنكم إن أدلكم على كذا وكذا أغفر لكم فتكون المغفرة حينئذ مترتبة على مجرد دلالته إياهم على الخير وليس كذلك إنما تترتب المغفرة على فعلهم لما دلّهم عليه لا على نفس الدلالة فليس أوّل هل أدلكم على تجارة بتأويل هل تتجرون بالإيمان والجهاد حتى تكون المغفرة مترتبة على فعل الإيمان والجهاد لا على الدلالة وهذا

التأويل غير محتاج إليه فإن حاصل الكلام إذا صار إلى هل أدلكم أغفر لكم التحق ذلك بأمثال قوله تعالى : " قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة " فإنه رتب فعل الصلاة على الأمر بها

حتى كأنه قال فإنك إن تقل لهم أقيموا يقيموها " (وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) ويدخلكم عطف على يغفر والكاف مفعول به وجنات مفعول به ثان على السعة وجملة تجري نعت لجنات ومن تحتها متعلقان بتجري والأنهار فاعل (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ) ومساكن عطف على جنات وطيبة نعت لمساكن وفي جنات عدن نعت ثان (ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ذلك مبتدأ والإشارة إلى المغفرة وإدخال الجنات والفوز خبر والعظيم نعت للفوز (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) الواو

(210/762)

حرف عطف وأخرى مبتدأ مؤخر وخبره المقدم محذوف أي لكم نعمة أو مثوبة أخرى ويجوز أن يكون منصوبا على إضمار فعل تقديره ويمنحكم أخرى وجملة تحبونها صفة لأخرى أو منصوبا بفعل مضمر يفسره تحبونها فيكون من باب الاشتغال وحينئذ لا تكون جملة تحبونها صفة لأنها مفسّرة للعامل قبل أخرى ونصر خبر لمبتدأ محذوف أي تلك النعمة

الأخرى نصر من اللّه أو بدل من أخرى إذا أعربته مبتدأ ومن اللّه نعت لنصر وفتح عطف على نصر وقريب نعت ، وبشّر الواو عاطفة وبشّر فعل أمر وهو معطوف على تؤمنون لأنه في معنى الأمر كما تقدم .

البلاغة :

وفي قوله " يريدون ليطفئوا نور اللّه " استعارة تمثيلية تمثيلا لحالتهم في اجتهادهم في إبطال الحق بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئها تهكما وسخرية بهم ، وقيل الاستعارة تصريحية والإطفاء ترشيح .

الفوائد :

قال مقاتل نزلت هذه الآية وهي " يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم " إلى قوله " وبشّر المؤمنين " في عثمان بن مظعون وذلك أنه قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لو أذنت لي فطلّقت خولة وترهبت واختصيت وحرمت اللحم ولا أنام الليل أبدا ولا أفطر نهارا أبدا فقال صلّى اللّه عليه وسلم : إن من سنّتي النكاح ولا رهبانية في الإسلام إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل اللّه وخصاء أمتي الصوم ولا تحرموا طيّبات ما أحلّ لكم ومن سنّتي أنام وأقوم وأفطر وأصوم فمن رغب عن سنّتي فليس منّي فقال عثمان وددت يا نبي اللّه أن أعلم أيّ التجارات أحبّ إلى اللّه فأتجر

فيها فنزلت.

[سورة الصف (61) : آية 14]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ (14)

الإعراب:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ) كونوا فعل أمر ناقص والواو اسمها وأنصار الله خبرها ولفظ الجلالة مضاف لأنصار وقرىء أنصارا لله فيكون لله نعتا لأنصارا (كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ) اختلف المعربون في هذه الكاف اختلافا كثيرا وحاصل ما ذكروه أنها تحتمل ثلاثة أوجه: 1- في موضع نصب على إضمار القول أي قلنا لهم ذلك كما قال عيسى. 2- أنها نعت لمصدر محذوف قيل وفيه نظر إذ لا يؤمرون بأن يكونوا كونا. 3- أنه كلام محمول على معناه

دون لفظه وإليه نحا الزمخشري فإنه قال: "فإن قلت ما وجه صحة التشبيه وظاهره

تشبيه كونهم أنصارا بقول عيسى من أنصاري إلى اللّه ؟

قلت : التشبيه محمول على المعنى وعليه يصحّ والمراد كونوا أنصار اللّه كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم من أنصاري إلى اللّه " .

وقد تقدم في آل عمران معنى أنصاري إلى اللّه وتعدّي هذا اللفظ بإلى . ومن اسم استفهام مبتدأ وأنصاري خبر وإلى اللّه متعلقان بمحذوف حال أي متوجها إلى نصر اللّه وفيما يلي نص عبارة الزمخشري : " فإن قلت : ما معنى قوله من أنصاري إلى اللّه قلت :

يجب أن يكون معناه مطابقا لجواب الحواريين بقولهم نحن أنصار اللّه والذي يطابقه أن يكون المعنى من جندي متوجها إلى نصرة اللّه وإضافة أنصاري خلاف إضافة أنصار اللّه فإن معنى نحن أنصار اللّه نحن الذين ينصرون اللّه ومعنى من أنصاري من الأنصار الذين يختصّون بي ويكونون معي في نصرة اللّه ولا يصحّ أن يكون معناه من ينصرني مع اللّه لأنه لا يطابق الجواب والدليل عليه قراءة من قرأ : من أنصار اللّه " (قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ) قال الحواريون فعل وفاعل والحواريون أصفياؤه وهم أول من آمن وتقدم القول في هذا اللفظ مفصلا ، ونحن مبتدأ وأنصار اللّه خبر والجملة مقول القول وهو من إضافة الوصف

إلى مفعوله أي نحن الذين ننصر الله أي دنيه ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ الفاء عاطفة على جمل محذوفة لا بدّ من تقديرها أي فلما رفع عيسى إلى السماء افترق الناس فيه فرقتين فآمنت طائفة، وطائفة فاعل آمنت ومن بني إسرائيل نعت لطائفة وكفرت طائفة عطف على فآمنت طائفة ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ الفاء عاطفة على محذوف أيضا أي فاقتتلت الطائفتان، وأيدنا فعل وفاعل والذين مفعول به وجملة آمنوا صلة وعلى عدوهم متعلقان بأيدنا فأصبحوا عطف على فأيدنا والواو اسمها وظاهرين خبرها أي غالبين قاهرين. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 75.87﴾

(213/762)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والستون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/763)

الجزء الثالث والستون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الجمعة)

(4/763)

(سورة الجمعة)

"فصل فى مقصود السورة الكريمة"

قال البقاعى :

سورة الجمعة

مقصودها بيان مسمى الصف بدليل هو أوضح شرائع الدين وأوثق عرى الإسلام وهو الجمعة التي اسمها مبين للمراد منها من فرضية الاحتماع فيها وإيجاب الإقبال عليها وهو التجرد عن غيرها والانقطاع لما وقع من التفرق حال الخطبة عمن بعث للتزكية بالاجتماعه عليه في الجهاد وغيره في العسر واليسر والمنشط والمكره ، واسمها الجمعة أنسب شيء فيها لهذا المقصد بتدبر آياته وتأمل أوائله وغاياته ، الحاثة على قوة التواصل والاجتماع ، والحاملة على دوام الإقبال على المزكي والحب له والاتباع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 7 صـ 590﴾

"فصل"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . يسبح . . . الجمعة)

السّورة مَدَنِيَّة بالاتِّفاق.

وآياتها إِحدى عشرة.

وكلماتها مائة وثمانون.

وحروفها سبعمائة وعشرون.

فواصل آياتها (من) وتسمّى سورة الجمعة ، لقوله : ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ .

معظم مقصود السّورة : بيان بَعْث المصطفى ، وتعْيير اليهود ، والشكاية من قوم بإِعراضهم عن الجمعة ، وتقوية القلوب بضمان الرّزق لكلّ حَىّ فى قوله : ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ .

والسّورة خالية عن النّاسخ والمنسوخ.

المتشابهات :

قوله : ﴿وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ﴾ وفى البقرة ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾ سبق .

فضل السّورة

فيه حديث أُبىّ : مَنْ قرأَ سورة الجمعة كِتب له عشر حسنات ، بعدد مَنْ ذهب إِلى الجمعة من أَمصار المسلمين ، ومَنْ لم يذهب ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَ [ها] فكأَنَّما فُتح له

أَلف مدينة ، وعُصِم من إِبليس وجنوده ، وله بكل آية قرأَها ثواب المنفِق على عياله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 464﴾

(7/763)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الجمعة

438 - مسألة :

قوله تعالى : (وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا) ، و (لَنْ يَتَمَنَّوْهُ)

في سورة البقرة تقدم جوابه عند تلك الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 356﴾

(8/763)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الجمعة

سميت هذه السورة عند الصحابة وفي كتب السنة والتفاسير (سورة الجمعة) ولا يعرف لها اسم غير ذلك . وفي (صحيح البخاري) عن أبي هريرة قال : (كنا جلوساً عند النبي فأنزلت عليه سورة الجمعة) الحديث . وسيأتي عند تفسير قوله تعالى : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ((الجمعة : 3) .

ووجه تسميتها وقوع لفظ) الجمعة ((الجمعة : 9) فيها وهو اسم لليوم السابع من أيام الأسبوع في الإِسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ 204 ﴾

(9/763)

وقال الشيخ سيد قطب :

تقديم لسورة الجمعة

نزلت هذه السورة بعد سورة "الصف" السابقة . وهي تعالج الموضوع الذي عالجته سورة الصف , ولكن من جانب آخر , وبأسلوب آخر , وبمؤثرات جديدة .

إنها تعالج أن تقر في أخلاد الجماعة المسلمة في المدينة أنها هي المختارة أخيرا لحمل أمانة العقيدة الإيمانية ;

وأن هذا فضل من الله عليها ; وأن بعثة الرسول الأخير في الأميين - وهم العرب - منة كبرى تستحق الالتفات والشكر , وتقتضي كذلك تكاليف تنهض بها المجموعة التي استجابت للرسول , واحتملت الأمانة ; وأنها موصولة على الزمان غير مقطوعة ولا منبتة , فقد قدر الله أن تنمو هذه البذرة وتمتد . بعدما نكل بنو إسرائيل عن حمل هذه الأمانة وانقطعت صلتهم بأمانة السماء ; وأصبحوا يحملون التوراة كالحمار يحمل أسفارا , ولا وظيفة له في إدراكها , ولا مشاركة له في أمرها !

تلك هي الحقيقة الرئيسية التي تعالج السورة إقرارها في قلوب المسلمين . من كان منهم في المدينة يومذاك على وجه الخصوص , وهم الذين ناط الله بهم تحقيق المنهج الإسلامي في صورة واقعة . ومن يأتي بعدهم ممن أشارت إليهم السورة , وضمتهم إلى السلسلة الممتدة على الزمان .

وفي الوقت ذاته تعالج السورة بعض الحالات الواقعة في تلك الجماعة الأولى ; في أثناء عملية البناء النفسي العسيرة المتطاولة الدقيقة . وتخلصها من الجواذب المعوقة من الحرص والرغبة العاجلة في الربح , وموروثات البيئة والعرف . وبخاصة حب المال وأسبابه الملهية عن الأمانة الكبرى , والاستعداد النفسي لها . وتشير إلى حادث معين . حيث كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يخطبهم في المسجد للجمعة حين حضرت قافلة من قوافلهم التجارية ; فما إن أعلن نبأ قدومها حتى انفض المستمعون منصرفين إلى التجارة واللهو الذي كانت القافلة تحاط به - على عادة الجاهلية - من ضرب بالدفوف وحداء وهيصة ! وتركوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائما . فيما عدا اثني عشر من الراسخين فيهم أبو بكر وعمر بقوا يستمعون ! كما تذكر الروايات , التي قد لا تكون دقيقة من حيث العدد , ولكنها ثابتة من حيث وقوع هذه الحركة من عدد من الحاضرين اقتضى التنبيه إليها في القرآن الكريم .

وهي حادثة تكشف بذاتها عن مدى الجهد الذي بذل في تربية تلك الجماعة الأولى حتى انتهت إلى ما انتهت إليه ; وحتى صارت ذلك النموذج الفريد في تاريخ الإسلام وفي تاريخ البشرية جميعا . وتلهمنا الصبر على مشقة بناء النفوس في أي جيل من الأجيال , لتكوين الجماعة المسلمة التي تنهض بحمل أمانة هذه العقيدة , وتحاول تحقيقها في عالم الواقع كما حققتها الجماعة الأولى .

وفي السورة مباهلة مع اليهود , بدعوتهم إلى تمني الموت للمبطلين من الفريقين وذلك ردا على دعواهم أنهم أولياء الله من دون الناس , وأنهم شعب الله المختار , وأن بعثة الرسول في غيرهم لا تكون ! كما كانوا يدعون ! مع جزم القرآن بأنهم لن يقبلوا هذه المباهلة التي دعوا إليها فنكلوا عنها لشعورهم ببطلان دعواهم . وتعقب السورة على هذا بتقرير حقيقة الموت الذي يفرون منه , وأنه ملاقيهم مهما فروا , وأنهم مردودون إلى عالم الغيب والشهادة فمنبئهم بما كانوا يعملون . . وهو تقرير لا يخص اليهود وحدهم , إنما يلقيه القرآن ويدعه يفعل فعله في نفوس المؤمنين كذلك . فهذه الحقيقة لا بد أن تستقر في نفوس حملة أمانة الله في الأرض , لينهضوا بتكاليفها وهم يعرفون الطريق !

هذا هو اتجاه السورة , وهو قريب من اتجاه سورة الصف قبلها , مع تميز كل منهما بالجانب الذي تعالجه , وبالأسلوب الذي تأخذ القلوب به , والظلال التي تلقيها هذه وتلك في الإتجاه الواحد العام . فلننظر كيف يتناول الأسلوب القرآني هذا الاتجاه . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3562. 3563 ﴾

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الجمعة

مدنية وآياتها إحدى عشرة آية

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مدنية وهي تتناول جانب التشريع ، والمحور الذي تدور عليه السورة بيان أحكام " صلاة الجمعة " التي فرضها الله على المؤمنين .

* تناولت السورة الكريمة بعثة خاتم الرسل محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) وبينت أنه الرحمة المهداة ، أنقذ الله به العرب والعالم ، من ظلام الشرك والضلال ، وأكرم به الإنسانية ، فكانت رسالته بلسما لأمراض المجتمع البشري ، بعد أن كان يتخبط في الظلام .

* ثم تحدثت السورة عن اليهود ، وانحرافهم عن شريعة الله ، حيث كلفوا بالعمل بأحكام التوراة ، ولكنهم أعرضوا عنها ، ونبذوها وراء ظهورهم ، وضربت مثلا لهم بالحمار ، الذي يحمل على ظهره الكتب الكبيرة النافعة ، ولكنه لا يناله منها إلا العناء والتعب ، وذلك نهاية الشقاء والتعاسة .

* ثم تناولت أحكام " صلاة الجمعة " فدعت المؤمنين إلى المسارعة لأداء الصلاة ، وحرمت عليهم البيع وقت الأذان ، ووقت النداء لها ، وختمت بالتحذير من الإنشغال عن

الصلاة ، بالتجارة واللهو ، كحال المنافقين ، الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى متثاقلين. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 377 ﴾

(13/763)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الجمعة

القدوس : المنزه عن النقائص المتصف بصفات الكمال ، الأميين : هم العرب ، واحدهم أمي نسبة إلى الأم التي ولدته ، لأنه على الحال التي ولد عليها لم يتعلم الكتابة والحساب ، فهو على الجبلة الأولى ، يزكيهم : أي يطهرهم بتلاوة آياته ، وآخرين واحدهم آخر بمعنى غير ، لما يلحقوا بهم : أي لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون وهم من جاء بعد الصحابة إلى يوم الدين حمّلوا التوراة : أي علّموها وكلّفوا العمل بها ، لم يحملوها : أي لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بما فى تضاعيفها ، والأسفار : واحدها سفر وهو الكتاب الكبير ، هادوا :

أي تهوّدوا وصاروا يهودا ، أولياء لله : أي أحباء له ، بما قدمت أيديهم : أي بسبب ما اجترحوه من الكفر والمعاصي .

نودى للصلاة : أي النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا خرج فجلس على المنبر ، أما النداء الأول على الزوراء (أعلى دار بالمدينة حينئذ بقرب المسجد) فقد زاده عثمان لكثرة الناس ، فاسعوا : أي فامشوا ، وذكر اللّه : هو الصلاة ، وذروا البيع : أي اتركوه ، فانتشروا : أي فتفرقوا ، من فضل اللّه :

أي من رزقه ، والمراد باللهو : الطبول والمزامير ونحوها ، انفضّوا : أي انصرفوا ، قائما : أي على المنبر وأنت تخطب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 28 صـ 94. 101 ﴾ . باختصار .

(14/763)

وقال الفراء :

سورة (الجمعة)

﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ. . . ﴾ .

يقال: إنهم ممن لم يسلم على عهد رسول الله صلى الله عليه ، ثم أسلم ، ويقال: هم الذين يأتون من بعد . (وآخرين) فى موضع خفض ؛ بعث فى الأميين وفى آخرين منهم . ولو

جعلتها نصبا بقوله: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُم ﴾ ويعلم آخرين فينصب على الرد على الهاء فى: يزكيهم، ويعلمهم.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

وقوله: ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا . . . ﴾ .

يحمل من صلة الحمار؛ لأنه فى مذهب نكرة، فلو جعلت مكان يحمل حاملا لقلت: كمثل الحمار حاملا أسفارا. وفى قراءة عبد الله: كمثل حمار يحمل أسفارا. والسِّفْر واحد الأسفار، وهى الكتب العظام. شبه اليهود، ومن لم يسلم إذ لم ينتفعوا بالتوراة والإنجيل. وهما دليلان على النبى صلى الله عليه. بالحمار الذى يحمل كتب العلم ولا يدرى ما عليه.

﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ . . . ﴾ .

أدخلت العرب الفاء فى خبر (إنّ) ؛ لأنها وقعت على الذى ، والذى حرف يوصل ، فالعرب تدخل الفاء فى كل خبرٍ كان اسمه مما يوصل مثل: من ، والذى وإلقاؤها صواب ، وهى فى قراءة عبد الله: "إن الموتَ الذى تفرُّون منه ملاقيكُم" ، ومن أدخل الفاء ذهب بالذى إلى تأويل الجزاء إذا احتاجت إلى أن توصل ، ومن ألقى الفاء فهو على القياس ؛ لأنك تقول: إن أخاك قائم ، ولا تقول: إن أخاك فقائم . ولو قلت: إن ضاربك فظالم كان جائزا ؛ لأن تأويل: إن ضاربك ، كقولك: إن من يضربك فظالم ، فقس على هذا الاسم المفرد الذى فيه تأويل الجزاء فأدخل له الفاء .

وقال بعض المفسرين: إن الموت هو الذى تفرون منه ، فجعل الذى فى موضع الخبر للموت . ثم قال: ففروا أولا تفروا فإنه ملاقيكم . ولا تجد هذا محتملا فى العربية والله أعلم بصواب ذلك .

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ . . . ﴾ .

خفضها الأعمش فقال: الجُمْعة ، وثقلها عاصم وأهل الحجاز ، وفيها لغة: جُمَعَة ، وهى لغة لبنى عقيل لو قرىء بها كان صوابا . والذين قالوا: الجمعة: ذهبوا بها إلى صفة اليوم أنه يوم جُمَعَة ؛ كما تقول: رجل ضُحَكَة للذى يُكثر الضحك .

وقوله: ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ . . . ﴾ .

وفى قراءة عبد الله: "فامضوا إلى ذكر الله" ، والمضى والسعى والذهاب فى معنى واحد ؛ لأنك تقول للرجل: هو يسعى فى الأرض يبتغى من فضل الله ، وليس هذا باشتداد .

وقد قال بعض الأئمة: لو قرأتها : "فاسعوا" لاشتددت يقول: لأسرعت ، والعرب تجعل السعى أسرع من المضى ، والقول فيها القول الأول .

وقوله: ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ . . . ﴾ .

إذا أمر بترك البيع فقد أمر بترك الشراء ؛ لأن المشترِى والبيّع يقع عليهما البيِّعان ، فإذا أذن المؤذن من يوم الجمعة حرم البيع والشراء [١/] .

(16/763)

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ . . . ﴾ .

هذا : إذْنٌ ، وإباحةٌ ، من شاء باع ، ومن شاء لزم المسجد .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ

التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا . . . ﴾ .

فجعل الهاء للتجارة دون اللهو ، وفى قراءة عبد الله: "وإذا رأوا لهوا أو تجارة انفضوا إليها" . وذكروا أن النبى صلى الله [عليه] كان يخطب يوم الجمعة ، فقد دِحْيَة الكلبى بتجارة من الشام فيها كل ما يحتاج إليه الناس ، فضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه ؛ فخرج جميع الناس إليه إلاّ ثمانية نفر ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً ﴾ يعنى: التجارة التى قدِم بها ، ﴿ أَوْ لَهْوًا ﴾ : يعنى: الضرب بالطبل . ولو قيل: انفضوا إليه ، يريد: اللهو كان صوابا ، كما قال: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا ﴾ ولم يقل: بها . ولو قيل: بهما ، وانفضوا إليهما كما قال: ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ﴾ ، كان صوابا وأجود من ذلك فى العربية أن تجعل الراجع من الذكر للآخِر من الاسمين وما بعد ذا فهو جائز . وإنما اختير فى انفضوا إليها ـ فى قراءتنا وقراءة عبد الله ؛ لأن التجارة كانت أهم إليهم ، وهم بها أسرّ منهم بضرب الطبل ؛ لأن الطبل إنما دل عليها ، فالمعنى كله لها . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 155 . 157 ﴾

(17/763)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الجمعة

(وءاخرين منهم) [3] أي: ويعلم آخرين ، وهم العجم . (لما يلحقوا بهم) [3] لم يدركوهم ، قال عليه السلام: "رأيت في المنام غنماً سوداً بينهم غنم عفر" ، فقال أبو بكر: تلك العجم تتبع العرب ، فقال عليه السلام: "[كذلك] عبرها لي الملك" . (حملوا التوراة ثم لم يحملوها) [5] أي: طوقوا الأمانة في إظهار صفة محمد . (كمثل الحمار يحمل أسفارا) [5] كتباً ، واحدها سفر . وأنشد أبو سعيد الضرير على معنى هذه الآية: 1274- [زوامل] للأسفار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر 1275- لعمرك ما يدري البعير إذا غدا لحاجته أو راح ما في الغرائر . (فاسعوا إلى ذكر الله) [9] قال السدي:/ السعي إجابة الداعي إليها . وقال غيره: هو التأهب لها والمشي إليها .

(أو لهواً انفضوا إليها) [11] واللهو طبل يضرب إذا وردت العير .

[تمت سورة الجمعة] . انتهى انتهى . اهـ ﴿باهر البرهان صـ 1503.1501﴾

(18/763)

وقال الأخفش :

سورة (الجمعة)

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

قال ﴿ أَسْفَارًا ﴾ وواحدها "السِّفْر" .

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

وقال ﴿ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ يقول – والله أعلم – مِنْ صَلاةِ يَوْمِ الجُمُعَةِ .

وقال بعض النحويين لا يكون لـ"الأَسْفارِ" واحد كنحو "أَبابيل" و"أَساطِير" ، ونحو قول العرب: "ثَوْبٌ أَكْبَاشٌ" وهو الرديء الغزل ، و"ثَوْبٌ مِزَقٌ" للمتمزّق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 542 ﴾

(19/763)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الجمعة

مدنية كلها

5 - . . . يَحْمِلُ أَسْفاراً أي كتبا . واحدها : «سفر» .

يريد : ان اليهود يحملون التوراة ولا يعملون بها ، فمثلهم كمثل حمار يحمل كتبا من العلم : وهو لا يعقلها .

6 - فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أي ادعوا على أنفسكم به .

وفي الحديث : «لو دعوا على أنفسهم بالموت ، لماتوا جميعا»

، هذا او نحوه من الكلام .

و«التّمنّي» : القول والتلاوة ، والتخرص بالكذب وليس يعرف عوامّ الناس منه إلا الودادة .

9 - فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ : بادروا بالنية والجد . ولم يرد العدو ، ولا الإسراع في المشي .

10 - فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ أي فرغ منها .

11 - وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً .

يقال : «قدم دحية الكلبي - رضي اللّه عنه - بتجارة له من الشام ، فضرب بالطبل : ليؤذن الناس بقدومه» .

انْفَضُّوا إِلَيْها أي تفرّقوا عنك إليها . وقال (إليها) ، ولو قال :

«إليهما» او «إليه» ، لكان جائزا .

وَتَرَكُوكَ قائِماً تخطب .

يقال : «إن الناس خرجوا إلا ثمانية نفر» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن

صـ 399. 400 ﴾

---

(1) أخرج الشيخان عن جابر قال : كان النبي صلّى اللّه عليه وسلم يخطب يوم الجمعة إذ أقبلت عير قد قدمت فخرجوا إليها حتى لم يبق معه إلّا إثنا عشر رجلا فأنزل اللّه : وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً .

(21/763)

وقال الغزنوى :

سورة الجمعة

2 بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ليوافق ما تقدمت به البشارة ، ولئلا يتوهّم الاستعانة بالكتب وليشاكل حال الأمة التي بعث فيها وذلك أقرب إلى مساواته لو أمكنهم .

3 وَآخَرِينَ مِنْهُمْ أي: ويعلم آخرين. أو ويزكي آخرين، وهم العجم «1».

لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ: لم يدركوهم. قال عليه السّلام «2»: «رأيت غنما سودا تتبعها غنم عفر «3» فقال أبو بكر: تلك العجم تتبع العرب فقال: كذلك عبّرها لي الملك».

5 أَسْفاراً: كتبا. واحدها «سفر» «4».

11 انْفَضُّوا: أقبل عير ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في الخطبة. فذهبوا نحوها «5».

و«اللّهو»: طبل يضرب إذا وردت العير.

وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ لا يفوتهم رزق اللّه بترك البيع. انتهى انتهى. ا هـ ﴿معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 816.817﴾

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 28/ 95 عن مجاهد.

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: كنا جلوسا عند النبي صلى اللّه عليه وسلم فأنزلت عليه سورة الجمعة وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ قال: قلت: من هم يا رسول اللّه؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثا وفينا سلمان الفارسي - وضع رسول اللّه

صلى اللّه عليه وسلم يده على سلمان ثم قال : لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال ، أو رجل من هؤلاء» .

صحيح البخاري : 6/ 63 ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الجمعة .

وصحيح مسلم : (4/ 1972 ، 1973) كتاب فضائل الصحابة ، باب «فضل فارس» .

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك : 4/ 395 كتاب تعبير الرؤية ، وسكت عنه الحاكم ، وكذا الذهبي ، وأورده الماوردي في تفسيره : 4/ 235 ، والقرطبي في تفسيره : 18/ 93 .

(3) العفرة : البياض غير الناصع .

النهاية : 3/ 261 ، واللسان : 4/ 585 (عفر) .

(4) معاني القرآن للفراء : 3/ 155 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 258 ، وتفسير الطبري :

28/ 97 ، والمفردات للراغب : 233 .

(5) ينظر سبب نزول هذه الآية في صحيح البخاري : 6/ 63 ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الجمعة» .

وصحيح مسلم : 2/ 590 ، كتاب الجمعة ، باب في قوله تعالى : وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً

انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً .

وتفسير الطبري : (28/ 103 ، 104) ، وأسباب النزول للواحدي : 493 .

(23/763)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الجمعة

عدد 42 و110 و62

نزلت بالمدينة بعد سورة الصّف .

وهي إحدى عشرة آية ، ومائة وثلاثون كلمة وتسعمئة وعشرون حرفا ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

بدئت سورة التغابن بما بدئت به فقط ، ومثلها في عدد الآي سورة المنافقين والضّحى والقارعة والعاديات فقط ، ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ" من دابة وجماد وجن وإنس وملائكة وحوت وطير لهذا الإله الجليل "الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ" (1) في ملكه وحكمه .

واعلم أن التسبيح ثلاثة أقسام خلقه وهو إذا نظرت إلى كلّ شيء من المكونات الإلهية ، دلتك خلقته على وحدانية اللّه تعالى وتنزيهه ، وأنه الخالق الموجد له ومعرفة وهو جعل اللّه تعالى في كلّ شيء ما يعرف به ربه ، بحيث لو سألته من سماك وسواك ينطق بلسان حاله أو قاله بلا تردد أو توقف معترفا بأن اللّه تعالى مكونه ومميزه عن غيره ، يدلك هذا قوله عز وجل (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) الآية 15 من سورة الإسراء ج 1 ، وضرورة بان يجري اللّه تعالى لفظ تسبيحه وتنزيهه عما لا يليق به على كلّ جوهر أوجده في كونه من غير معرفة له بذلك ، راجع أول سورة الحديد المارة .

(24/763)

واعلم أن هذا الإله العظيم المعلوم لدى كلّ خلقه المسبح بكل لسان "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ" أهل مكة ومن حولها لأنهم لا يقرءون ولا يكتبون ولا يحسبون "رَسُولًا مِنْهُمْ" أميّا مثلهم ومن جنسهم فجعله "يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ" التي أنزلها عليه لإرشادهم ونصحهم ، وهذه معجزة دالة على تصديقه كافية عن كلّ معجزة "وَيُزَكِّيهِمْ" بذلك من دنس الشرك ودون الكفر ووسخ العصيان "وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ" الذي أمره اللّه بتلاوته عليهم ليعرفوا معالم دينهم وما يرمي إليه "وَالْحِكْمَةَ" يعلمها لهم أيضا وهي الفقه فيه ليفطنوا لمراميه ويعلموا مغازيه

ويتفهموا تعاليمه الحكيمة التي ترفع شأنهم بين الأمم وتعلى كلمتهم عليهم وتهديهم إلى طرق النّجاح والفلاح "وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ" بعثته إليهم "لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" (2) ظاهر وهم مائلون عن الحق وطرقه لا يميزون بين الحلال والحرام، غافلون عما شرعه اللّه لأمم الأنبياء يدينون بما تسول لهم أنفسهم يتبعون شهواتهم في ذلك، تراهم عاكفين على عبادة الأوثان مع علمهم بأنها لا تضر ولا تنفع، مائلين إلى هوى أنفسهم، لا يدينون بدين، ولا يعرفون رب العالمين. واعلم أن هذه التي بصدر هذه الجملة مخففة من الثقيلة واسمها محذوف (أي أنهم

مطلب الفرق بين إن النّافية والمخففة ومما يدل على عموم رسالته صلّى اللّه عليه وسلم والفرق بين لم ولما:

(25/763)

ووجود اللام في (لَفِي) دليل عليها وتسمى اللام الفارقة بين النّافية التي هي بمعنى ما وإن المخففة، لأن اللام لا تأتي بعد إن النّافية "وَآخَرِينَ مِنْهُمْ" عطف على الأميين وهم كلّ من آمن بهذا النّبي الأمي واتبع دينه إلى يوم القيامة "لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ" لم يدركهم وسيجيئون بعدهم، أي فكما أنه صلّى اللّه عليه وسلم مبعوث لأهل مكة ومن حولها في ذلك الزمن مبعوث أيضا للأجيال الحادثة الآتية بعدهم وهذه الآية أيضا فيها دلالة على عموم رسالته صلّى اللّه

عليه وسلم التي ألمحنا إليها في الآية 28 من سورة سبأ في ج 2 وعلى كونه خاتم الأنبياء كما أشرنا في الآية 40 من سورة الأحزاب المارة، وعلى فضله العام المنوه به في الآية 253 من سورة البقرة المارة ولهذا البحث صلة في الآية 158 من سورة الأعراف في ج 1 فراجعها.

واعلم أن النفي بلمّا متصل إلى زمن التكلم بخلاف النّفي بلم فإنه منقطع عنه، فإذا قلت جئت ولم يأت زيد مثلا فيحتمل أنه جاء بعد مجيئك، وإذا قلت ولما يأت فيكون المعنى لم يأت إلى زمن التكلم.

هذا وجاء في الحديث المخرج في الصّحيحين عن أبي هريرة قال كنا جلوسا عند النّبي صلّى اللّه عليه وسلم إذ نزلت سورة الجمعة فتلاها فلما بلغ وآخرين منهم إلخ قال له رجل يا رسول اللّه من هؤلاء الّذين لم يلحقوا بنا؟ فلم يكلمه حتى سأله ثلاثا، قال وسلمان الفارسي فينا فوضع رسول اللّه يده على سلمان وقال والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من هولاء.

راجع الآية الأخيرة من سورة القتال سورة محمد صلّى اللّه عليه وسلم المارة لتعلقها بهذا البحث.

واعلم أن هذا الحديث لا يخصص الآية بالفرس والأكراد ولا يقيدها بهم كما قال بعضهم لأن الآية عامة فيهم وفي غيرهم إلى يوم القيامة من كلّ من يأتي بعد ويدين بدين الإسلام من الملل والنّحل كافة ، لأن المسلمين أمة واحدة عربهم وعجمهم أبيضهم وأحمرهم أسودهم وسمرهم وأصفرهم "وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (3) الذي أيد هذا النبي الأمي ومكّنه في أمره العظيم ونصره على من أرسله إليهم ونشر دينه في مشارق الأرض ومغاربها "ذَلِكَ" الفضل الذي خص به هذا الرّسول المحترم

هو "فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ" من عباده برحمته ولطفه لا بعمل ولا بقوة قال في الجوهرة :

ولم تكن نبوة مكتسبة ولو رقى في الخير أعلى عقدة

وقال تعالى (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ) الآية 124 من سورة الأنعام ج 2 "وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" (4) على خلقه ومن أعظم فضله عليهم إرسال محمد صلّى اللّه عليه وسلم لهدايتهم وإنقاذهم من الظّلمات إلى النّور ، وأعظم فضله على أنبيائه أن خصهم برسالته ، وجعلهم هداة لخلقه .

واعلم أن مطلق الفضل يمنّ به اللّه على من من يشاء من عباده ، وقد يكون لسبب اجتهاد العبد سواء كان دنيويا أو أخرويا أما النّبوة فلا تكون بالاجتهاد أبدا ولو قام اللّيل وصام النّهار طول عمره وتصدق بجميع ما عنده .

قال تعالى "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ" فكلفوا علمها والعمل بها من الحمالة بالصدر والقلب لا من الحمل على الظّهر أو الأيدي "ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا" فلم يعملوا بها ولم يقوموا بحقها ولم يؤدوا ما افترضه اللّه عليهم بها ، لأن من علم الشيء ولم يعمل به فكأنه لم يعلمه ، فمثله في حالة هذه "كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً" كتبا عظاما جمع سفر وهو الكتاب الكبير الضّخم فوبخهم اللّه تعالى على مبلغ علمهم فيما أنزله إليهم وصدودهم وحدهم عنه بقوله جل قوله "بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ" المنزلة على رسوله لإرشادهم "وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (5) أنفسهم لعدم قبولهم نعمة اللّه وتكذيبهم بآياته ولا يوجد بالقرآن آية مبدوءة بكلمة بئس إلّا هذه والآية 11 من الحجرات المارة وهذا مثل ضربه اللّه لليهود والّذين أعرضوا عمّا في التوراة وعن الإيمان بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، كما أعرضوا عن الإيمان بعيسى عليه السّلام إذ لم ينتفعوا بما فيها ولا بما تلقوه من آثار الأنبياء السّالفين فلم يهتدوا بهديهم ، لأن من جملة هدى التوراة والأنبياء الّذين عملوا بها الإيمان بالرسل الّذين يأتون بعد موسى الّذين منهم عيسى ومحمد وقد كفروا بهما ، ولذلك شبهوا بالحمار الذي يحمل الكتب على ظهره ولم يدر ما هي فلا ينتفع بها ، ولا فرق عنده بين أن يحملها أو يحمل حطبا ، وهذا المثل يدخل فيه من يقرأ القرآن ولم يعمل به ولم يفهم مراده من معانيه ، ولا مغازيه من مراميه ، ولم يفطن لما انطوى عليه من حكم وعلوم ، وكذلك من أعرض عنه

اعراض من لا يحتاج إليه وهجره في بيته كالمتاع الذي لا يسأل عنه ، وهؤلاء هم الّذين شكاهم الرّسول إلى ربه بقوله تعالى (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً) الآية 21 من الفرقان في ج 1 .

(28/763)

ويدخل هذا في قوله تعالى (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً) الآية 124 من سورة طه في ج 1 .

ومما يؤسف أن أكثر أهل هذا الزمن هكذا وخاصة الشّباب الّذين لا يهمهم شأنه لانصرافهم إلى الكتب الحديثة التي لا علاقة لها بالدين والقرآن وتوغلهم في الرّوايات والقصص وغيرهما مما هو كذب وتخيل ، وترى الفصيح منهم يقرأ السفر فلا يغلط فيه وإذا قرأ آية من القرآن يتخبط فيها فلا حول ولا قوة إلا باللّه ، يا ويح آبائهم ويا خسارتهم اللّهم اهدهم وسائر المسلمين إلى سواء السّبيل واحفظهم من أن يدخلوا في معنى هذه الآية قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ" محمد فمن دونه وتقولون نحن أبناء اللّه وأحباؤه "فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ" (6) في زعمكم لأن ما بينكم وبين اللّه إلّا الموت والمحب حريص على الاجتماع مع محبوبه وسريع الطّلب إلى الالتحاق به والآخرة

لأحباب الله خير من الدّنيا ولكنكم كاذبون في دعواكم قال تعالى ردا على زعمهم هذا "وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ" من الكفر المبعد عن الإيمان بالله فضلا عن تلبسهم بالجحود والظّلم "وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ"

(29/763)

---

(7) أمثالهم الّذين يكرهون الموت لما فيه من الويلات عليهم وتهالكهم على الدّنيا وتكالبهم على البقاء راجع الآية 96 من البقرة المارة المصدرة بلن وهذه بلا وكلاهما نفي للمستقبل إلّا أن لن أكد من لا بالنفي وقد جاءت الآية الأولى بالتأكيد وهذه بدونه قال تعالى "قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ" حتما لا ينجيكم منه أحد ولا مهرب منه راجع الآية 78 من سورة النساء "ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (8) في هذه الدّنيا ويجازيكم بحسبه إن خيرا فخير و

إن شرا فشر .

مطلب أول جمعة أقيمت في الإسلام وفضلها والعمل بها وسبب تسميتها :

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ" أجمعت الأمة على أن المراد بهذا النّداء الأذان بين يدي الخطيب حين جلوسه على المنبر لا الأذان الأوّل على المنائر ، روى

البخاري عن السّائب بن زيد قال كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وأبي بكر وعمر فلما كان عثمان وكثر النّاس زاد النّداء الثاني على الزوراء (موقع عند سوق المدينة مرتفع) زاد في رواية فثبت الأمر على ذلك ولا بي داود قال كان يؤذن بين يدي رسول اللّه إذا جلس على المنبر يوم الجمعة على باب المسجد .

وسمى هذا اليوم جمعة لأن اللّه تعالى جمع خلق آدم فيه وفرغ فيه من خلق الدّنيا بما فيها من المخلوقات فاجتمعت فيه .

ورواه مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم خير يوم طلعت عليه الشّمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنّة وفيه أخرج منها ولا تقوم السّاعة إلّا في يوم الجمعة وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلي يسأل اللّه فيها شيئا ألا أعطاه إياه وأشار بيده يقللها وأول من سماه في العرب كعب بن لؤي وكان يسمى يوم العروبة وأول من جمع النّاس فيه بالمدينة سعد بن زرارة قبل تشريف النّبي صلّى اللّه عليه وسلم إلى المدينة وأول جمعة جمعها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بالمدينة في بطن وادي بني سالم بن عوف

أفتتخذوه مسجدا وقد المعنا لما يتعلق في هذا البحث في الآية 124 من سورة النّحل والآية 4 من سورة الدّخان في ج 2 والآية المذكورة تحتوي على ما يتعلق بسائر الأيام فراجعها وما ترشدك إليه من المواضع .

هذا وإذا سمعتم النّداء أيها النّاس "فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ" امضوا وسارعوا لا تجروا وتركضوا ، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال صلّى اللّه عليه وسلم إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصّلاة وعليكم بالسكينة والوقار ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا "وَذَرُوا الْبَيْعَ" دعوه واتركوه ولبّوا داعي اللّه ، ولفظ البيع يتناول الشّراء لأنه يطلق عليه "ذلِكُمْ" المبادرة إلى صلاة الجمعة وترك العمل عند سماع النّداء "خَيْرٌ لَكُمْ" عند اللّه من الانشغال في الأمور الدّنيوية كلها "إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (9) ما يصلح لكم في الدّنيا

(31/763)

ويهذب نفوسكم فيها ويوصلكم إلى خير الآخرة التي خلقتم لأجلها ، قال تعالى (ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الآية 56 من الذاريات في ج 2 واعلم أن ثمرة العبادة وما تشتمل عليه من الصّدق والأمانة والوفاء وإن كانت في الدّنيا الثناء والمدح وائتمان النّاس على أموالهم وأعراضهم ، إلا أن ثمرتها الحقيقة الدّائمة التي ينعم بها صاحبها تكون في الآخرة .

الحكم الشّرعي يحرم البيع والشّراء وجميع الأعمال الدّنيوية عند الأذان الأخير حتى ان الفقهاء قالوا بعدم صحة العقود كلها إذ ذاك وكلّ عقد يقع آنذاك فهو باطل ، ولا يجوز السّفر فيه أيضا ، بدليل ما أخرجه الترمذي عن ابن عباس رضي اللّه عنه ، قال بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عبد اللّه بن رواحه في سرية فوافق ذلك يوم الجمعة ، فغزا أصحابه وقال أتخلف فأصلي مع رسول اللّه ثم ألحقهم ، فلما صلّى رآه صلّى اللّه عليه وسلم فقال ما منعك أن تغزو مع أصحابك ؟ قال أردت أن أصلي معك ثم أتبعهم ، فقال لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما أدركت فضل غزوتهم .

ورأى عمر رجلا يقول لو لا أن اليوم جمعة لخرجت ، فقال أخرج فإن الجمعة لا تحبس عن سفر .

وهذا أولى من القول بعدم جواز السّفر فيها بعد طلوع الفجر ، لأن النّهي عن السّفر والبيع وغيره وقت الأذان الثاني ، أما قبله فلا مانع وتنعقد في ثلاثة مع الإمام ، ولا تصح إلّا في المصر ، وبإذن الوالي ، ويجوز تعددها إذا لم يوجد جامع يسع المصلين كافة بقدر الحاجة ، فإذا كان يكفي المصلين جامعان فلا حاجة إلى الثالث ، وهكذا كي تصح الجمعة بإجماع العلماء ، أما إذا كان التعدد زائدا على الحاجة ففيه أقوال بعدم صحتها ، وأقوال بصلاة الظّهر بعدها احتياطا ، ويجوز تركها للمريض ولمن يتعاهده ولمن يخاف من عدو أو ظالم

وعند المطر والوحل .

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس أنه خطب في يوم ذي أرواح (جمع ريح لا

(32/763)

روح بمعنى النّفس والأرواح بمعنى الرّاحة والرّحمة ونسيم الريح) فأمر المؤذن حينما بلغ حي على الصّلاة أن يقول الصّلاة في الرّحال ، فنظر القوم فقال كأنكم أنكرتم عليّ ؟ إن هذا فعله من هو خير مني ، يعني النّبي صلّى اللّه عليه وسلم وإنها عزيمة وإني كرهت أن أخرجكم فتمشوا في الطّين والرّحض والزلق .

وهي فرض عين على كلّ مسلم حرّ بالغ عاقل ذكر مقيم .

أخرج أبو داود عن طارق

ابن شهاب أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال الجمعة حق واجب على كلّ مسلم في جماعة إلا على أربعة : عبد مملوك وامرأة وصبي ومريض ، وتجب على أهل القرى والبوادي إذا سمعوا النّداء في موضع تقام فيه الجمعة .

وأخرج أبو داود عن عبد اللّه بن العاص أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال الجمعة على من سمع النّداء .

وهي آكد من الظّهر إذ لأظهر لمن بصليها ، وأوجب الحنفية صلاة أربع ركعات في البيت بنية آخر ظهر احتياطا من أن يكون التعدد لغير حاجته .

ولا تصلى في الجامع لئلا يعتقد العوام فرضيتها ، لأن اللّه لم يفرض فريضتين بوقت واحد على عباده ، وأوجب الشّافعية صلاة الظّهر حالة التعدد لعدم تحققه هل هو لحاجة أم لا ، والأحسن عندهم أن تصلى في الجامع بجماعة وعليه العمل في الأمصار كافة ، وتفصيل هذا البحث في كتب الفقه فلتراجع .

وسبب نزول هذه الآية هو ما رواه البخاري ومسلم عن جابر .

قال بينما نحن نصلي مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إذ أقبلت غير تحمل طعاما فانفتلوا إليها حتى ما بقي مع النّبي صلّى اللّه عليه وسلم إلّا اثنا عشر رجلا ، فنزلت هذه وفي رواية قال والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحد لسال بكم الوادي نارا وأراد باللهو ما يفعلونه عند استقبال القوافل بالطبول والتصفيق .

وشروط صحة الخطبة : حمد اللّه بما هو أهله ، والصّلاة على النّبي صلّى اللّه عليه وسلم ، والوصية بتقوى اللّه ، وتلاوة آية من القرآن في الخطبة الأولى ، والدّعاء للمؤمنين في الثانية .

ويستحب عدم تطويلهما ويراعى أحوال النّاس والمواسم ، وكان صلّى اللّه عليه وسلم يطيل الصّلاة ويقصر الخطبة وإطالة الصّلاة في الصّبح والعشاء بحسب رغبة المصلين مطلوبة وقصرها في الظّهر والعصر والمغرب مسنون ، لأنها أوقات اشتغال النّاس .

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال كان النّبي صلّى اللّه عليه وسلم يخطب خطبتين يقعد بينهما .

وروى مسلم عن كعب بن عجرة أنه دخل المسجد وعبد الرّحمن بن الحكم يخطب جالسا ، فقال انظروا إلى هذا الخبيث يخطب قاعدا ، وقال اللّه تعالى (وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً) إلخ الآية قال تعالى "فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ" بيعا وشراء وعملا وغيره من أسباب الرّزق "وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً" بعد فراغكم منها ، ومن ذكر اللّه تعالى بعدها قائما وقاعدا ومضطجعا ، فقد ذكر اللّه

كثيرا فأديموا ذكره "لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (10) بفضل إدامة ذكر اللّه ، لأنه بنور القلب ويقذف فيه المعرفة التي توضح له سبيل النّجاح في كلّ الأمور .

ثم ذمهم اللّه تعالى على ما وقع منهم فقال عزّ قوله "وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها" أي التجارة يلهون بها عن صلاة الجمعة ولقلة أدبهم انصرفوا "وَتَرَكُوكَ" يا محمد "قائِماً" على المنبر ولم يقدروا قدرك وما تلقيه إليهم من النصح والإرشاد "قُلْ" لهم يا أكمل الخلق "ما عِنْدَ

اللّهِ" من الفضل المخبوء لكم بسبب سماع خطبته "خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ" وأعظم ريحا "وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ" (11) لأنه يرزق بلا مقابل.

(34/763)

روى مسلم عن جابر قال كانت خطبة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يوم الجمعة يحمد اللّه ويثني عليه بما هو أهله، ثم يقول على أثر ذلك وقد علا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم مساكم ويقول بعثت أنا والسّاعة كهاتين ويقرن بين إصبعيه السّبابة والوسطى ويقول:

أما بعد فخير الحديث كتاب اللّه وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكلّ بدعة ضلال ثم يقول أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالا فلأهله ومن ترك دينا أو ضياعا (أولادا صغارا لا أحد لهم ولا مال) فإليّ وعليّ.

تفيد هذه الخطبة أن رسول اللّه كان يزجر النّاس في خطبته ويعلي صوته فيها أحيانا لأن الوقت يستدعي ذلك، ولأن القوم حديثوا عهد شرك، وإن منهم لا يزال في نفاق، وهو مرسل من اللّه لتوطيد دعائم الدّين وتوحيد رب العالمين، وقد أمر بقتال من لم يؤمن، ومن دواعي هذه الأمور الزجر وعلو الصّوت.

ومما جاء في محذورات الجمعة ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت .

وفي رواية ومن لغى فلا جمعة له .

وروى مسلم عن عبد الله بن عمر وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله يقول على منبره لينتهينّ أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمنّ الله على قلوبهم ، ثم ليكوننّ من الغافلين .

وأخرج أبو داود والنّسائي عن أبي الجعد الضّمري وكانت له صحبة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : من ترك ثلاث جمع تهاونا طبع الله على قلبه ومن طبع الله على قلبه يجعله في أسفل درك جهنم .

وللترمذي مثله .

وروى البخاري عن سلمان قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من الطّهور

ويدهن من دهنه ويمس من طيب بيته ثم يخرج فلم يفرق بين اثنين ثم يصلي ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام الا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى .

وفي رواية وزيادة ثلاثة أيام ومن مسّ الحصى فقد لغا أي اشتغل عن سماع الخطبة به .

وأخرج أبو داود والنّسائي عن أوس بن أوس الثقفي قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول من غسّل واغتسل وبكّر وابتكر ومشى ولم يركب ودنى من الإمام ولم يلغ واستمع كان له بكل خطوة أجر عمل سنة صيامها وقيامها .

واعلم أن بعض العلماء حسن الانصراف بعد سلام الإمام محتجا بقوله تعالى (فَانْتَشِرُوا) وهو خطأ ، لأن اللّه تعالى قال فإذا قضيت الصّلاة إذا سلم الإمام وإن صلاة سنة الجمعة البعدية والأوراد التي أمر رسول بها بعد الصّلوات من تمام الصّلاة لما يترتب عليها من الأجر العظيم عند اللّه تعالى كما أخبر به رسوله والتحذير من تركها حرمانه من الأجر الذي أخبر به حضرة الرّسول ، وفي الأخذ بقول هذا المتطفل ترغيب لترك السّنة التي أمر رسول اللّه بفعلها بعد الفرائض التي منها الجمعة ، وترك التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير بعد الصّلوات التي أمر رسول اللّه بتلاوتها أيضا ، فعلى أرباب العقول أن لا يأخذوا بأقوال هكذا عندية مبنية على ما تخيلوه تأويلا وتفسيرا ، وأن يتمسكوا بظاهر الشرع وما عليه السّلف الصّالح ومن تبعهم من العلماء العاملين ، لأن الذي يبادر الباب بعد السّلام كأنه فارّ من قفص أو هارب مما يكره كأنه ليس له عند ربه حاجة يدعوه بها ، وكأنه تخلص من كان على عاتقه في الصّلاة ، والأحسن له من أن يسابق غيره إلى الخروج من المسجد ويندفع معه على الباب أو يقف ليتحين الفرصة بوجود فرجة يخرج منها أن يصلي على الأقل ركعتين بعدها ويتلو

الأوراد ثم يخرج بهدوء وسكينة، فقد جاء في صحيح مسلم سنته أربع ركعات بعد الجمعة وفيه من شغله أمر فليركع ركعتين في المسجد وركعتين في بيته، لأن هذا الفعل تهاونا في الجمعة، وقد أجمعت الفقهاء على سنيتها .

(36/763)

هذا وقد بينا ما يتعلق بالأذكار الواردة بعد الصّلوات في الآية 39 من سورة ق والآية 92 من الفرقان في ج 1 وفيهما يرشدانك إلى المواضع الأخرى .

أما ما جاء في فضل التبكير للجمعة فمنه ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال من اغتسل يوم الجمعة

غسل الجنابة ثم راح في السّاعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في السّاعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في السّاعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن، ومن راح في السّاعة الرّابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في السّاعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا أحرم الإمام قعدت الملائكة يستمعون الذكر .

وفي رواية كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأوّل فالأول، فإذا جلس الإمام طووا الصّحف (وكلمة راح في الحديث السّابق بمعنى خف إلى الصّلاة ومشى إليها

وأخذته الأريحية طلبا

لثواب اللّه تعالى) وروى البخاري عن عبادة قال أدركني أبو عيسى وأنا ذاهب إلى الجمعة ، فقال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول من اغبرت قدماه في سبيل اللّه حرمه اللّه على النّار .

فقد جعل الذهاب إلى الجمعة بمنزلة الذهاب إلى الجهاد في سبيل اللّه .

فما بال أناس يتركونها بلا عذر ويحرمون أنفسهم هذا الثواب العظيم ، ويتعرضون لمقت اللّه ؟ روى مسلم عن ابن مسعود رضي اللّه عنه عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلم قال لقوم يتخلفون عن الجمعة هممت أن آمر رجلا يصلي بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم .

(37/763)

وعن أبي الجعد الضّمري وكان له صحبة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال من ترك ثلاث جمع تهاونا طبع اللّه على قلبه - أخرجه أبو داود والنّسائي - وورد عنه عليه السّلام في حديث طويل قال فيه واعلموا أن اللّه فرض عليكم الجمعة في يومي هذا في شهري هذا في مقامي هذا ، من تركها تهاونا واستخفافا بحقها وله إمام عادل أو جائر فلا جمع اللّه شمله

ولا بارك له في أمره ، الا فلا صلاة له ، الا فلا زكاة له ، الا فلا صوم له ، الا أن يتوب فمن تاب تاب اللّه عليه .

وحديث مسلم الذي أشرنا إليه آنفا هو أنه قال إذا صليتم الجمعة فصلوا بعدها أربعا فإن عجل بك شيء فصل ركعتين في المسجد وركعتين إذا رجعت ، وسنده فيه فراجعه فما بعد هذا عذر لمن يخرج فورا ، ولنا رسالة خاصة في هذا البحث ، وفي الأوراد والسّنن التي ينبغي فعلها بعد الفرائض في الرّد على من منعها أو حبذ تركها .

هذا واللّه أعلم وأستغفر اللّه ولا حول ولا قوة إلّا باللّه العلي العظيم وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين . انتهى انتهى . اهـ ﴿بيان المعاني حـ 6 صـ 263.253﴾

(38/763)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الجمعة

مدنية

الحكيم حسن رسولا منهم صالح وكذا مبين لما يلحقوا بهم كاف الحكيم حسن من يشاء كاف العظيم تام أسفار كاف وكذا بآيات الله الظالمين تام صادقين كاف وكذا أيديهم بالظالمين تام ملاقيكم صالح تعملون تام وذروا البيع وكذا تعملون وتفلحون وتركوك قائما ومن التجارة أخر السورة تام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(39/763)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني:

سورة الجمعة

مدنية إحدى عشرة آية كلمها مائة وخمس وسبعون كلمة وحروفها سبعمائة وثمان وأربعون حرفاً

وما في الأرض (كاف) إن رفع ما بعده على إضمار مبتدأ محذوف أي هو الملك وبها قرأ أبو وائل والخليل وشقيق بن سلمة وليس بوقف على قراءة العامة بالجر في الأربعة على النعت لما قبله

الحكيم (حسن)

رسولاً منهم (جائز) ومثله والحكمة إن جعلت أن قوله وإن كانوا مخففة من الثقيلة أو نافية

واللام بمعنى إلاَّ أي ما كانوا إلا في ضلال مبين من عبادة الأوثان وغيرها

مبين (جائز) لأنه رأس آية ولولا ذلك لما جاز لأنَّ قوله وآخرين مجرور عطفاً على الأميين أو

هو منصوب عطفاً على الهاء في ويعلمهم أي ويعلم آخرين والمراد بالآخرين العجم لما صح

أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت سورة الجمعة قرأها إلى قوله وآخرين قال رجل

من هؤلاء يا رسول الله فوضع يده على سلمان ثم قال لو كان الإيمان عند الثريا لنا له رجال

من هؤلاء وقال أيضاً لو كان الدين عند الثريا لذهب إليه رجل أو قال رجال من أبناء فارس

حتى يتناولوه أو هم التابعون أو هم جميع من دخل في الإسلام بعد النبي صلى الله عليه

وسلم قاله الكواشي

لما يلحقوا بهم (كاف) ومثله الحكيم وكذا من يشاء

العظيم (تام)

أسفاراً (كاف) ومثله بآيات الله

الظالمين (تام)

من دون الناس ليس بوقف لأنَّ قوله فتمنوا الموت جواب الشرط وهو قوله إن زعمتم

صادقين (كاف) على استئناف ما بعده

أيديهم (كاف)

بالظالمين (تام) ووقف بعضهم على منه وجعل فإنه استئنافاً بعد الخبر الأول ويعضد هذا

ما قرئ أنَّه ملاقيكم وهو وجيه ولكن وصله أوجه

ملاقيكم (جائز) والشهادة ليس بوقف لمكان الفاء

تعلمون (تام) من يوم الجمعة ليس بوقف لأنَّ الذي بعده جواب إذا ومثله في عدم الوقف إلى

ذكر الله للعطف

وذروا البيع (كاف) ومثله تعلمون

فانتشروا في الأرض (جائز) ومثله من فضل الله

تفلحون (تام)

(40/763)

قائماً (حسن) وقال محمد بن عيسى تام قال مقاتل والحسن أصاب المدينة جوع وغلاء فقدم دحية بن خليفة الكلبي بتجارة وزيت من الشام وكان إذا قدم قدم بكل ما يحتاج إليه من البر وغيره فضرب الطبل ليؤذن الناس بقدومه والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة فخرجوا إليه ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد إلَّا اثنا عشر رجلاً وامرأة منهم أبو بكر الصديق وعمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم كم بقي في المسجد فقالوا اثنا عشر رجلاً وامرأة فقال النبي صلى الله عليه وسلم لولا هؤلاء القوم لسوَّمت

عليهم الحجارة من السماء وفي لفظ والذي نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً

ومن التجارة (كاف)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى ص ﴾

(41/763)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الجمعة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قرأ ابن يعمر وابن إسحاق : "فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ1" ، بالكسر .

قال أبو الفتح : قد سبق القول على هذا فيما مضى2 ، فأغنى عنه هنا .

ومن ذلك قراءة علي "عليه السلام" وعمر "صلوات الله عليه" وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وابن عمر وابن الزبير "رضي الله عنهم" وأبي العالية والسلمي ومسروق طاوس3 وسالم بن عبد الله4 وطلحة ، بخلاف : " فامضوا ذِكْرِ اللَّه5" .

قال أبو الفتح : في هذه القراءة تفسير للقراءة العامة : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، أي : فاقصدوا ، وتوجهوا . وليس فيه دليل على الإسراع ، وإنما الغرض المضي إليها ، كقراءة من ذكرنا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 321 ﴾

---

1 سورة الجمعة : 6 .

2 انظر الصفحة 54 من الجزء الأول .

3 هو طاوس بن كيسان أبو عبد الرحمن اليماني التابعي الكبير المشهور . وردت عنه الرواية في حروف القرآن . أخذ القرآن عن ابن عباس ، ومات بمكة قبل التروية بيوم سنة 106 طبقات ابن الجزري : 1 : 341 .

4 هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي ، أبو عمر ، ويقال : أبو عبد الله ، أحد الفقهاء السبعة . وردت عنه الرواية في حروف القرآن ، ومات سنة 106 على الصحيح . طبقات ابن الجزري : 1 : 301 .

5 سورة الجمعة : 9 .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الجمعة

مدنية وآيها إحدى عشرة أية القراآت ضم الهاء من (يزكيهم) الآية 2 يعقوب وسبق حكم التورية أمالة وتقليلا في السابقة وأمال الحمار أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه والدوري عن الكسائي وهي رواية الجمهور عن الأخفش عن ابن ذكوان من طريق ابن الأخرم ورواه آخرون بالفتح من طريق النقاش وبالإمالة لابن ذكوان بكماله قطع صاحب المبهج وصاحب التيسير وقلله الأزرق وعن ابن محيصن) فتمنوا الموت ( ) الآية 6 بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين وعن المطوعي (الجمعة) الآية 9 بسكون الميم لغة تميم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(43/763)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

"سورة الجمعة"

"عليهم" ويزكيهم ، وهو ، يؤتيه ، بئس ، أيديهم ، تفرون ، منه ، للصلاة ، خير ، الصلاة ،

فانتشروا ، كثيرا ، خير ، خير سبق كله مرارا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 327 ﴾

(44/763)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الجمعة

لا خلف فيها إلا التفخيم والإمالة في قوله تعالى ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ وقد ذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 346 ﴾

(45/763)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الجمعة 62

مدنية ونظيرتها في جميع العدد المنافقون والضحى والعاديات وزاد الكوفي القارعة وزاد

البصري الطلاق

وكلمها مئة وثمانون كلمة

وحروفها سبع مئة وأربعون حرفا

وهي إحدى عشرة آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف ولا مما يشبه الفواصل شيء

ورؤوس الآي

الحكيم

1 مبين

2 الحكيم

3 العظيم

4 الظالمين

5 صادقين

6 بالظالمين

7 تعملون

8 تعلمون

9 تفلحون

10 الرازقين

11 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 246 ﴾

(46/763)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (الملك) يقرأ هو وما بعده بالجر على النعت ، وبالرفع على الاستئناف والجمهور على ضم القاف من (القدوس) وقرئ بفتحها وهما لغتان .

قوله تعالى (وآخرين) هو في موضع جر عطفا على الأميين .

قوله تعالى (يحمل) هو في موضع الحال من الحمار ، والعامل فيه معنى المثل .

قوله تعالى (بئس مثل) مثل هذا فاعل بئس ، وفي (الذين) وجهان: أحدهما هو في موضع جر نعتا للقوم والمخصوص بالذم محذوف: أي هذا المثل .

والثانى في موضع رفع تقديره: بئس مثل القوم مثل الذين ، فمثل المحذوف هو المخصوص

بالذم ، وقد حذف ، وأقيم المضاف إليه مقامه .

قوله تعالى (فإنه ملاقيكم) الجملة خبر إن ، ودخلت الفاء لما في الذى من شبه الشرط ، ومنع منه قوم وقالوا : إنما يجوز ذلك إذا كان الذى هو المبتدأ ، أو اسم إن ، والذى هنا صفة ، وضعفوه من وجه آخر وهو أن الفرار من الموت لا ينجى منه فلم يشبه الشرط .

وقال : هؤلاء الفاء زائدة ، وقد أجيب عن هذا بأن الصفة والموصوف كالشئ الواحد ، ولأن الذى لا يكون إلا صفة ، فإذا لم يذكر الموصوف معها دخلت الفاء والموصوف مراد ، فكذلك إذا صرح ، وأما ما ذكروه ثانيا فغير صحيح ، فإن خلقا كثيرا يظنون أن الفرار من أسباب الموت ينجيهم إلى وقت آخر .

قوله تعالى (من يوم الجمعة) " من " بمعنى في ، والجمعة بضمتين وبإسكان الميم مصدر بمعنى الاجتماع ، وقيل في المسكن هو بمعنى المجتمع فيه مثل رجل ضحكة أي يضحك منه ، ويقرأ بفتح الميم بمعنى الفاعل : أي يوم المكان الجامع مثل رجل ضحكة : أي كثير الضحك .

قوله تعالى (إليها) إنما أنث الضمير لأنه أعاده إلى التجارة لأنها كانت أهم عندهم ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الجمعة

[سورة الجمعة (62) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1)

"يُسَبِّحُ" مضارع "لِلَّهِ" متعلقان بالفعل "ما" فاعل والجملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "وَما فِي الْأَرْضِ" معطوف على ما في السموات "الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ" بدل من لفظ الجلالة.

[سورة الجمعة (62) : آية 2]

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (2)

"هُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "بَعَثَ" ماض وفاعله مستتر "فِي الْأُمِّيِّينَ" متعلقان بالفعل "رَسُولًا" مفعول به والجملة صلة "مِنْهُمْ" صفة رسولا "يَتْلُوا" مضارع فاعله مستتر والجملة صفة "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "آياتِهِ" مفعول به "وَيُزَكِّيهِمْ" معطوف على يتلو "وَيُعَلِّمُهُمُ" مضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر "الْكِتابَ" مفعوله

الثاني "وَالْحِكْمَةَ" معطوف على الكتاب "وَ" الواو حالية "إِنْ كانُوا" إن مخففة وماض ناقص واسمه "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بمحذوف حال واللام فارقة "فِي ضَلالٍ" خبر كانوا "مُبِينٍ" صفة والجملة حال.

[سورة الجمعة (62) : آية 3]

وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3)

"وَآخَرِينَ" معطوف على الأميين "مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف صفة آخرين "لَمَّا يَلْحَقُوا" مضارع مجزوم بلمّا والواو فاعله والجملة صفة ثانية لآخرين "بِهِمْ" متعلقان بالفعل "وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" مبتدأ وخبران والجملة استئنافية لا محل لها.

[سورة الجمعة (62) : آية 4]

(48/763)

ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4)

"ذلِكَ فَضْلُ" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "يُؤْتِيهِ" مضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر "مَنْ" مفعول به ثان والجملة حال "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَاللَّهُ ذُو" مبتدأ وخبره "الْفَضْلِ" مضاف إليه "الْعَظِيمِ"

صفة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الجمعة (62) : آية 5]

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5)

"مَثَلُ الَّذِينَ" مبتدأ مضاف إلى اسم الموصول "حُمِّلُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل "التَّوْراةَ" مفعول به ثان والجملة صلة "ثُمَّ" حرف عطف "لَمْ يَحْمِلُوها" مضارع مجزوم بلم والواو

فاعله والهاء مفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "كَمَثَلِ" خبر المبتدأ "الْحِمارِ" مضاف إليه وجملة مثل . . استئنافية لا محل لها . "يَحْمِلُ" مضارع فاعله مستتر "أَسْفاراً" مفعول به والجملة حال "بِئْسَ" ماض جامد "مَثَلُ الْقَوْمِ" فاعل مضاف إلى القوم "الَّذِينَ" صفة القوم "كَذَّبُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِآياتِ اللَّهِ" متعلقان بالفعل ولفظ الجلالة مضاف إليه "وَاللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "لا" نافية "يَهْدِي" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر المبتدأ "الْقَوْمَ" مفعول به "الظَّالِمِينَ" صفة القوم والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة الجمعة (62) : آية 6]

قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (6)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر "يا أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة وها للتنبيه "الَّذِينَ" اسم الموصول بدل من أيها والجملة استئنافية لا محل لها وجملة النداء مقول القول "هادُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِنْ" شرطية جازمة "زَعَمْتُمْ" ماض وفاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ" أن واسمها وخبرها والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي زعمتم "لِلَّهِ" متعلقان بأولياء "مِنْ دُونِ" متعلقان بأولياء أيضا "النَّاسِ" مضاف إليه "فَتَمَنَّوُا" الفاء رابطة وأمر وفاعله "الْمَوْتَ" مفعول به والجملة في محل جزم جواب الشرط "إِنْ" شرطية جازمة "كُنْتُمْ صادِقِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة ابتدائية لا محل لها . وجواب الشرط محذوف .

[سورة الجمعة (62) : آية 7]

وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7)

"وَ" الواو حرف استئناف "لا يَتَمَنَّوْنَهُ" لا نافية ومضارع وفاعله ومفعوله والجملة استئنافية لا محل لها "أَبَداً" ظرف زمان "بِما" متعلقان بالفعل "قَدَّمَتْ" ماض "أَيْدِيهِمْ" فاعله والجملة صلة "وَاللَّهُ عَلِيمٌ" مبتدأ وخبره "بِالظَّالِمِينَ" متعلقان بعليم والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الجمعة (62) : آية 8]

قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)

(50/763)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر "إِنَّ الْمَوْتَ" إن واسمها "الَّذِي" صفة الموت "تَفِرُّونَ" مضارع وفاعله "مِنْهُ" متعلقان بالفعل والجملة صلة الذي "فَإِنَّهُ" الفاء زائدة وإن واسمها "مُلاقِيكُمْ" خبرها والجملة الاسمية خبر إن وجملة إن الموت . . مقول القول "ثُمَّ" حرف عطف "تُرَدُّونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "إِلى عالِمِ" متعلقان بالفعل "الْغَيْبِ" مضاف إليه "وَالشَّهادَةِ" معطوف على الغيب. "فَيُنَبِّئُكُمْ" معطوف على تردون "بِما" متعلقان بالفعل "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم . . صلة ما .

[سورة الجمعة (62) : آية 9]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9)

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" سبق إعرابها . "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "نُودِيَ" ماض مبني للمجهول "لِلصَّلاةِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة "مِنْ يَوْمِ" متعلقان بالفعل أيضا "الْجُمُعَةِ" مضاف إليه ، "فَاسْعَوْا" الفاء رابطة وأمر وفاعله والجملة جواب إذا لا محل لها "إِلى ذِكْرِ" متعلقان بالفعل ولفظ الجلالة مضاف إليه "وَذَرُوا" معطوف على فاسعوا "الْبَيْعَ" مفعول به . "ذلِكُمْ خَيْرٌ" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "لَكُمْ" متعلقان بخير "إِنْ" شرطية جازمة "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر كنتم وجملة كنتم . . ابتدائية لا محل لها .

وجواب الشرط محذوف .

[سورة الجمعة (62) : آية 10]

(51/763)

فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10)

"فَإِذا" الفاء حرف استئناف "إِذا قُضِيَتِ" إذا ظرفية شرطية غير جازمة وماض مبني للمجهول "الصَّلاةُ" نائب فاعل والجملة في محل جر بالإضافة ، "فَانْتَشِرُوا" الفاء رابطة وأمر

وفاعله "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل والجملة جواب الشرط لا محل لها . "وَابْتَغُوا" معطوف على فانتشروا "مِنْ فَضْلِ اللَّهِ" متعلقان بالفعل ولفظ الجلالة مضاف إليه "وَاذْكُرُوا اللَّهَ" معطوف على فانتشروا ولفظ الجلالة مفعول به "كَثِيراً" نائب مفعول مطلق "لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" لعل واسمها ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر لعل والجملة الاسمية تعليل لا محل لها .

[سورة الجمعة (62) : آية 11]

وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11)

"وَإِذا رَأَوْا" الواو حرف عطف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة وماض وفاعله "تِجارَةً" مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة "أَوْ" حرف عطف "لَهْواً" معطوف على تجارة "انْفَضُّوا" ماض وفاعله "إِلَيْها" متعلقان بالفعل والجملة جواب الشرط لا محل لها . "وَتَرَكُوكَ قائِماً" ماض وفاعله ومفعولاه والجملة معطوفة على ما قبلها "قُلْ" أمر فاعله مستتر "ما" مبتدأ "عِنْدَ اللَّهِ" ظرف مكان مضاف إلى لفظ الجلالة "خَيْرٌ" خبر "مِنَ اللَّهْوِ" متعلقان بالخبر "وَمِنَ التِّجارَةِ" معطوف على من اللهو والجملة الاسمية مقول القول وجملة قل . . استئنافية لا محل لها . "وَاللَّهُ خَيْرُ" الواو حالية ومبتدأ وخبره "الرَّازِقِينَ" مضاف إليه والجملة حال . انتهى انتهى . اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 341. 343﴾

(52/763)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

ذكر فِيهَا خَمْسَة عشر حَدِيثا

1337 - الحَدِيث الأول

فِي حَدِيث أشعياء إِنِّي أبعث أَعْمَى فِي عُمْيَان وأُمِّيًّا فِي أُمِّيين

(53/763)

قلت لم أَجِدهُ إِلَّا من قَول وهب بن مُنَبّه رَوَاهُ الْحَافِظ أَبُو نعيم فِي كِتَابه دَلَائِل النُّبُوَّة حَدثنَا أبي ثَنَا إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد بن جميل ثَنَا مُحَمَّد بن سهل بن عَسْكَر ثَنَا إِسْمَاعِيل بن عبد الْكَرِيم ثني عبد الصَّمد بن معقل قَالَ سَمِعت وهب بن مُنَبّه يَقُول أوحى الله إِلَى نَبِي من أَنْبيَاء بني إِسْرَائِيل يُقَال لَهُ أشعياء أَن قُم فِي بني إِسْرَائِيل فَإِنِّي سأُطلقُ لسَانك بوَحْي

فَقَامَ فَقَالَ يَا سَمَاءُ أَسْمِعِي يَا أَرْضُ أَنْصِتِي فَإِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يَقْضِيَ شَأْنًا وَيُدَبِّرَ أَمْرًا هُوَ مُنْفِذُهُ إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُحَوِّلَ الرِّيفَ إِلَى الْفَلَاةِ وَالْآجَامَ إِلَى الْغِيطَانِ وَالْأَنْهَارَ فِي الصَّحَارِي وَالنِّعْمَةَ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْمُلْكَ فِي الرُّعَاةِ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُبْتَعِثٌ كَذَلِكَ نَبِيًّا أُمِّيًّا مِنْ أُمِّيِّينَ أَعْمَى مِنْ عُمْيَانٍ ضَالًّا مِنْ ضَالِّينَ أَفْتَحُ بِهِ آذَانًا صُمًّا وَأَعْيُنًا عُمْيًا وَقُلُوبًا غُلْفًا وَأُسَدِّدُهُ لِكُلِّ أَمْرٍ جَمِيلٍ وَأَهَبُ لَهُ كُلَّ خُلُقٍ كَرِيمٍ وَأَجْعَلُ السَّكِينَةَ لِبَاسَهُ وَالْبِرَّ شِعَارَهُ وَالتَّقْوَى ضَمِيرَهُ وَالْحِكْمَةَ مَنْطِقَهُ وَالصِّدْقَ وَالْوَفَاءَ طَبِيعَتَهُ وَالْعَفْوَ وَالْمَعْرُوفَ خُلُقَهُ وَالْحَقَّ شَرِيعَتَهُ وَالْعَدْلَ سِيرَتَهُ وَالْهُدَى أَمَامَهُ وَالْإِسْلَامَ مِلَّتَهُ اسْمُهُ أَحْمَدُ أَهْدِي بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ وَأُعَلِّمُ بِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ وَأَرْفَعُ بِهِ بَعْدَ الْخَمَالَةِ وَأُعَرِّفُ بِهِ بَعْدَ النُّكْرَةِ وَأُكَثِّرُ بِهِ بَعْدَ الْقِلَّةِ وَأُغْنِي بِهِ بَعْدَ الْعَيْلَةِ وَأَجْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْفُرْقَةِ وَأُؤَلِّفُ بِهِ بَيْنَ أُمَمٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَقُلُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَهْوَاءٍ مُتَشَتِّتَةٍ وَأَسْتَنْقِذُ بِهِ فِئَامًا مِنَ النَّاسِ عَظِيمًا مِنَ الْمَهْلَكَةِ وَأَجْعَلُ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ مُوَحِّدِينَ مُؤْمِنِينَ مُخْلِصِينَ مُصَدِّقِينَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلِي انْتَهَى

(54/763)

حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْبَرَاءِ ثَنَا عَبْدُ الْمُنْعِمِ بْنُ إِدْرِيسَ ابْنِ سِنَانٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ فَذَكَرَهُ

1338 - الحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَنه كَانَ لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَوْم الْجُمُعَة مُؤذن وَاحِد وكَانَ إِذا جلس عَلَى الْمِنْبَر أذن عَلَى الْمَسْجِد فَإِذا نزل أَقَامَ الصَّلَاة وكَانَ أَبُو بكر وَعمر عَلَى ذَلِك حَتَّى إِذا كَانَ عُثْمَان وَكثر النَّاس وَتَبَاعَدتْ الْمنَازل زَاد مُؤذنًا آخر فَأمر بِالتَّأْذِينِ الأول عَلَى دَاره الَّتِي تسمى الزَّوْرَاء فَإِذا جلس عَلَى الْمِنْبَر أذن الْمُؤَذّن الْأَذَان الثَّانِي فَإِذا نزل أَقَامَ الصَّلَاة فَلم يعب عَلَيْهِ ذَلِك

قلت رَوَى الْجَمَاعَة إِلَّا مُسلما من حَدِيث الزُّهْرِيّ عَن السَّائِب بن يزِيد أَن الْأَذَان كَانَ أَوله حِين يجلس الإِمَام عَلَى الْمِنْبَر يَوْم الْجُمُعَة فِي عهد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَأبي بكر وَعمر فَلَمَّا كَانَ خلَافَة عُثْمَان وَكثر النَّاس أَمر عُثْمَان يَوْم الْجُمُعَة بِالْأَذَانِ الثَّالِث فَأذن بِهِ عَلَى الزَّوْرَاء انْتَهَى وَفِي رِوَايَة للْبُخَارِيّ لم يكن لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَّا مُؤذن وَاحِد وَفِي رِوَايَة كَانَ يُؤذن بَين يَدي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا جلس عَلَى الْمِنْبَر يَوْم الْجُمُعَة

1339 - الحَدِيث الثَّالِث

رُوِيَ أَن الْأَنْصَار قَالُوا إِن الْيَهُود يَوْمًا مَا يجْتَمعُونَ فِيهِ كل سَبْعَة أَيَّام وَلِلنَّصَارَى يَوْمًا مثل ذَلِك فَهَلُمُّوا نجْعَل لنا يَوْمًا نَجْتَمِع فِيهِ فَنَذْكُر الله وَنُصَلِّي فَقَالُوا يَوْم السبت للْيَهُود وَيَوْم الْأَحَد لِلنَّصَارَى فَاجْعَلُوهُ

يَوْم الْعرُوبَة وَكَانَ يُقَال لَهَا الْعرُوبَة فَاجْتمعُوا إِلَى أسعد بن زُرَارَة فصلى بهم يَوْمئِذٍ رَكْعَتَيْنِ وَذكرهمْ فسموهُ يَوْم الْجُمُعَة لاجْتِمَاعِهِمْ فِيهِ فَأَنْزل الله آيَة الْجُمُعَة فَهِيَ أول جُمُعَة كَانَت فِي الْإِسْلَام

قلت رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه فِي الْجُمُعَة أخبرنَا معمر عَن أَيُّوب عَن ابْن سِيرِين قَالَ جمع أهل الْمَدِينَة قبل أَن يقدم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقبل أَن ينزل الْجُمُعَة وهم الَّذين سَموهَا الْجُمُعَة فَقَالَت الْأَنْصَار للْيَهُود يَوْم وَلِلنَّصَارَى مثله فَهَلُمَّ نجْعَل لنا يَوْمًا نَجْتَمِع فِيهِ وَنَذْكُر الله وَنُصَلِّي فَقَالُوا يَوْم السبت للْيَهُود وَيَوْم الْأَحَد لِلنَّصَارَى فَاجْعَلُوهُ يَوْم الْعرُوبَة وَكَانُوا يسمون يَوْم الْجُمُعَة يَوْم الْعرُوبَة فَاجْتمعُوا إِلَى أسعد بن زُرَارَة فَذكرهمْ وَصلى بهم فسموهُ الْجُمُعَة حِين اجْتَمعُوا فِيهِ فَأنْزل الله بعد ذَلِك يَا أَيهَا الَّذين آمنُوا إِذا نُودي للصَّلَاة من يَوْم الْجُمُعَة انْتَهَى

وَمن طَرِيق عبد الرَّزَّاق رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ وَمَتنه

وَاخْتَصَرَهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه عَن مُحَمَّد بن إِسْحَاق ثني مُحَمَّد بن أبي أُمَامَة ابْن سهل بن حنيف عَن أَبِيه حَدثنِي عبد الرَّحْمَن بن كَعْب بن مَالك قَالَ كنت قَائِد أبي حِين كف بَصَره

فَإِذا خرجت بِهِ إِلَى الْجُمُعَة اسْتغْفر لأبي أُمَامَة أسعد ابْن زُرَارَة فَمَكثت حينا أسمع مِنْهُ ذَلِك فَسَأَلته يَوْمًا عَن ذَلِك فَقَالَ أَي بني كَانَ أسعد بن زُرَارَة أول من جمع بنا فِي الْمَدِينَة قبل مقدم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَقِيع الْخضمات قلت وَكم كُنْتُم قَالَ كُنَّا أَرْبَعِينَ رجلا انْتهى

(56/763)

وروى ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمَة مُصعب بن عُمَيْر من حَدِيث الزُّهْرِيّ وَأبي سَلمَة بن عبد الرَّحْمَن وَعَاصِم بن عمر بن قَتَادَة قَالَ لما انْصَرف أهل الْعقبَة الأولى وهم اثْنَا عشر رجلا وَأسلم بعض الْأَنْصَار أرْسلُوا إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن ابْعَثْ إِلَيْنَا رجلا يعلمنَا الْقُرْآن وَشَرَائِع الدّين فَبعث إِلَيْهِم مُصعب بن عُمَيْر وَكَانَ يُقْرِئهُمْ الْقُرْآن وَيُعلمهُمْ الْإِسْلَام حَتَّى فَشَا الْإِسْلَام فِي دور الْأَنْصَار فَكتب مُصعب إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَأْذِنهُ فِي أَن يجمع بهم فَأذن لَهُ وَكتب إِلَيْهِ أَن
انْظُر الْيَوْم الَّذِي تجهز الْيَهُود فِيهِ لسبتها فَإِذا زَالَت الشَّمْس فَأْرْدف إِلَى الله بِرَكْعَتَيْنِ واخطب فيهم فَجمع بهم مُصعب بن عُمَيْر فِي دَار سعد بن خَيْثَمَة وهم اثْنَا عشر رجلا فَهُوَ أول من جمع فِي الْإِسْلَام وروى قوم من الْأَنْصَار أَن أول من جمعهم أَبُو أُمَامَة اسْعَدْ بن

زُرَارَة مُخْتَصر

1340 - الحَدِيث الرَّابِع

رُوِيَ أَن أول جُمُعَة جمعها رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انه لما قدم الْمَدِينَة مُهَاجرا نزل قبَاء عَلَى بني عَمْرو بن عَوْف وَأقَام بهَا يَوْم الِاثْنَيْنِ وَالثُّلَاثَاء وَالْأَرْبعَاء وَالْخَمِيس فَأَسَّسَ مَسْجِدهمْ ثمَّ خرج يَوْم الْجُمُعَة عَامِدًا الْمَدِينَة فأدْركته الْجُمُعَة فِي بني سَالم بن عَوْف فِي بطن وَادِيهمْ فَخَطب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَصلى الْجُمُعَة

(57/763)

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة من حَدِيث مُحَمَّد بن إِسْحَاق عَن مُحَمَّد ابْن جَعْفَر عَن عُرْوَة بن الزُّبَيْر عَن عبد الرَّحْمَن بن عويم قَالَ أَخْبرنِي بعض قومِي قَالَ قدم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْمَدِينَة يَوْم الِاثْنَيْنِ لِاثْنَتَيْ عشرَة لَيْلَة مَضَت من ربيع الأول فَأَقَامَ بقباء الِاثْنَيْنِ وَالثُّلَاثَاء وَالْأَرْبعَاء وَالْخَمِيس فَأَسَّسَ الْمَسْجِد وَصلى فِيهِ تِلْكَ الْأَيَّام حَتَّى إِذا كَانَ يَوْم الْجُمُعَة خرج عَلَى نَاقَته الْقَصْوَاء وَبَنُو عَمْرو بن عَوْف يَزْعمُونَ أَنه لبث فيهم ثَمَان عشرَة لَيْلَة ثمَّ خرج وَقد اجْتمع النَّاس فأدْركته الصَّلَاة فِي بني سَالم فَصلاهَا بِمن مَعَه فِي الْمَسْجِد الَّذِي بِبَطن الْوَادي فَكَانَت أول جُمُعَة صلاهَا بِالْمَدِينَةِ انْتَهَى

وَذكره ابْن هِشَام فِي السِّيرَة من قَول ابْن إِسْحَاق لم يتَجَاوَز بِهِ فَذكر كلَاما طَويلا فِي الْهِجْرَة إِلَى أَن قَالَ فَأَقَامَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بقباء فِي بني عَمْرو ابْن عَوْف يَوْم الِاثْنَيْنِ وَيَوْم الثُّلَاثَاء وَيَوْم الْأَرْبَعَاء وَيَوْم الْخَمِيس وَأسس مَسْجِدهمْ ثمَّ أخرجه الله من بَين أظهرهم يَوْم الْجُمُعَة أدْركْته الْجُمُعَة فِي بني سَالم بن عَوْف فَصلاهَا فِي الْمَسْجِد الَّذِي بِبَطن الْوَادي وَادي رانوناء وَكَانَت أول جُمُعَة صلاهَا بِالْمَدِينَةِ مُخْتَصر

(58/763)

وَأخرج الْبَيْهَقِيّ نَحوه عَن عُرْوَة بن الزُّبَيْر مُرْسلا قَالَ تلقى الْمُسلمُونَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فلقوه إِلَى بني عَمْرو بن عَوْف وَذَلِكَ يَوْم الِاثْنَيْنِ لهِلَال شهر ربيع الأول . . . إِلَى أَن قَالَ وَمكث رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي بني عَمْرو بن عَوْف ثَلَاث لَيَال وَقيل أَكثر واتخذوا فيهم مَسْجِدا وَهُوَ الَّذِي فِي الْقُرْآن أَنه أسس عَلَى التَّقْوَى ثمَّ إِن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ركب يَوْم الْجُمُعَة فَمر عَلَى بني سَالم فصلى فيهم الْجُمُعَة وَكَانَت أول جُمُعَة صلاهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِالْمَدِينَةِ مُخْتَصر وَلَيْسَ فِيهَا ذكر الْخطْبَة وَفِي صَحِيح البُخَارِيّ مِنْهُ قِطْعَة يسيرَة ذكره فِي آخر حَدِيث الْهِجْرَة أَن الْمُسلمين تلقوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِظهْر الْحرَّة فَعدل بهم ذَات الْيَمين حَتَّى نزل بهم فِي بني

عَمْرو ابْن عَوْف وَذَلِكَ يَوْم الِاثْنَيْنِ من شهر ربيع الأول فَلبث رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بني عَمْرو بن عَوْف بضع عشرَة لَيْلَة وأسس الْمَسْجِد الَّذِي أسس عَلَى التَّقْوَى وَصلى فِيهِ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمَّ ركب رَاحِلَته وَسَار وَالنَّاس مَعَه حَتَّى بَركت عِنْد مَسْجِد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُخْتَصر

1341 - الحَدِيث الْخَامِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير يَوْم طلعت فِيهِ الشَّمْس يَوْم الْجُمُعَة فِيهِ خلق آدم وَفِيه أَدخل الْجنَّة وَفِيه أهبط إِلَى الأَرْض وَفِيه تقوم السَّاعَة هُوَ عِنْد الله يَوْم الْمَزِيد

(59/763)

قلت هُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَلَيْسَ فِيهِ قَوْله وَهُوَ عِنْد الله يَوْم الْمَزِيد أَخْرجَاهُ فِي الْجُمُعَة من حَدِيث الْأَعْرَج عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير يَوْم طلعت فِيهِ الشَّمْس يَوْم الْجُمُعَة فِيهِ خلق آدم وَفِيه أدخل الْجنَّة وَفِيه أخرج مِنْهَا وَفِي رِوَايَة أهبط وَفِيه تقوم السَّاعَة

1342 - الحَدِيث السَّادِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَتَانِي جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام وَفِي كَفه مرْآة

بَيْضَاء وَقَالَ هَذَا يَوْم الْجُمُعَة يعرضها عَلَيْك رَبك ليَكُون لَك عيدا ولامتك من بعْدك وَهُوَ سيد الْأَيَّام عندنَا وَنحن نَدْعُوهُ فِي الآخِرَة يَوْم الْمَزِيد

قلت رُوِيَ من حَدِيث أنس وَمن حَدِيث حُذَيْفَة

أما حَدِيث أنس فَلهُ طرق

(60/763)

مِنْهَا عِنْد الْبَزَّار فِي مُسْنده عَن عمر بن يُونُس اليمامي ثَنَا جَهْضَم بن عبد الله ابْن أبي الطُّفَيْل ثني أَبُو طيبَة عَن عُثْمَان بن عُمَيْر عَن انس بن مَالك أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَتَانِي جِبْرِيل وَفِي يَده مرْآة بَيْضَاء فِيهَا نُكْتَة سَوْدَاء فَقلت مَا هَذِه يَا جِبْرِيل قَالَ هَذِه الْجُمُعَة يعرضها عَلَيْك رَبك لتَكون لَك عيدا ولامتك من بعْدك قلت مَا هَذِه النُّكْتَة السَّوْدَاء فِيهَا قَالَ هِيَ السَّاعَة تقوم يَوْم الْجُمُعَة وَهُوَ سيد الْأَيَّام عندنَا وَنحن نَدْعُوهُ فِي الْآخِرَة يَوْم الْمَزِيد قلت فَلم تدعونه يَوْم الْمَزِيد قَالَ إِن الله تَعَالَى إِذا صير أهل الْجنَّة إِلَى الْجنَّة أخرجُوا إِلَى دَار الْمَزِيد فَيخْرجُونَ فِي كُثْبَان الْمسك . . . إِلَى أَن قَالَ ثمَّ يرجعُونَ إِلَى مَنَازِلهمْ فَتَقول لَهُم أَزوَاجهم لقد خَرجْتُمْ من عندنَا بِصُورَة وَرَجَعْتُمْ إِلَيْنَا بغَيْرهَا فَيَقُولُونَ تجلى لنا الْجَبَّار عز وَجل فَنَظَرْنَا إِلَى مَا جِئْنَا بِهِ عَلَيْكُم فهم يتقلبون فِي مسك الْجنَّة

وَنَعِيمهَا فِي كل سَبْعَة أَيَّام يَوْم وَهُوَ يَوْم الْمَزِيد مُخْتَصر

وَرَوَاهُ كَذَلِك الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره فِي سُورَة ق إِلَّا أَنه أَدخل بَين أبي طيبَة وَعُثْمَان بن عُمَيْر رجلا آخر فَقَالَ ثني أَبُو ظَبْيَة عَن مُعَاوِيَة الْعَبْسِي عَن عُثْمَان ابْن عُمَيْر

طَرِيق آخر رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط حَدثنَا أَحْمد بن زُهَيْر ثَنَا مُحَمَّد ابْن عُثْمَان بن كَرَامَة ثَنَا خَالِد بن مخلد الْقَطَوَانِي ثَنَا عبد السَّلَام بن حَفْص عَن أبي عمرَان الْجونِي عَن انس بن مَالك . . . فَذكره

(61/763)

طَرِيق آخر رَوَاهُ الشَّافِعِي فِي مُسْنده أَخْبرنِي إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد الْأَسْلَمِيّ ثني مُوسَى بن عُبَيْدَة ثني أَبُو الْأَزْهَر مُعَاوِيَة بن إِسْحَاق بن طَلْحَة عَن عبيد بن عُمَيْر أَنه سمع أنس بن مَالك يَقُول أَتَى جِبْرِيل إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بمرآة بَيْضَاء فِيهَا نُكْتَة سَوْدَاء فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام مَا هَذِه قَالَ هَذِه الْجُمُعَة فضلت بهَا أَنْت وَأمتك وَهُوَ عندنَا يَوْم الْمَزِيد قَالَ يَا جِبْرِيل وَمَا يَوْم الْمَزِيد قَالَ إِن رَبك اتخذ فِي الفردوس وَاديا فِيهِ كثب مسك فَإِذا كَانَ يَوْم الْجُمُعَة . . . إِلَى آخِره كَمَا تقدم

وَمن طَرِيق الشَّافِعِي رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي الْمعرفَة إِلَّا أَنه قَالَ مُوسَى بن عقبَة عوض ابْن عُبَيْدَة

رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث مُوسَى بن عُبَيْدَة بِهِ

وَرَوَاهُ أَيْضا من حَدِيث عَلّي بن الحكم الْبَيَانِي عَن عُثْمَان بن عُمَيْر عَن أنس . . . فَذكره

وَرَوَاهُ من حَدِيث عَنْبَسَة بن سعيد عَن عُثْمَان بن عُمَيْر عَن أنس بِهِ

طَرِيق آخر رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مسنديهما قَالَ ابْن أبي شيبَة أخبرنَا عبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد الْمحَاربي وَقَالَ إِسْحَاق أخبرنَا جرير قَالَا أَنا لَيْث بن أبي سليم عَن عُثْمَان بن عُمَيْر بِهِ سَوَاء

طَرِيق آخر رَوَاهُ أَبُو يعلى الْموصِلِي فِي مُسْنده ثَنَا شَيبَان بن فروخ ثَنَا الصَّعق ابْن حزن ثَنَا عَلّي بن الحكم الْبنانِيّ عَن أنس . . . فَذكره بِلَفْظ الشَّافِعِي

(62/763)

طَرِيق آخر رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط أَيْضا من حَدِيث الْوَلِيد بن مُسلم عَن عبد الرَّحْمَن بن ثَابت بن ثَوْبَان عَن أَبِيه عَن سَالم بن عبد الله انه سمع انس ابْن مَالك يَقُول قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَتَانِي جِبْرِيل وَفِي يَده كَهَيْئَةِ الْمرْآة الْبَيْضَاء فِيهَا نُكْتَة سَوْدَاء فَقلت مَا هَذِه يَا جِبْرِيل قَالَ هَذِه الْجُمُعَة بعث بهَا إِلَيْك رَبك تكون عيدا لَك وَلأُمَّتك من بعْدك فَقلت مَا لنا فِيهَا قَالَ خير كثير أَنْتُم الْآخرُونَ السَّابِقُونَ يَوْم الْقِيَامَة وفيهَا

سَاعَةً لَا يُوَافِقهَا عبد يُصَلِّي يسْأَل الله شَيْئا إِلَّا أعطَاهُ إِيَّاه فَقلت مَا هَذِه النُّكْتَة السَّوْدَاء فَقَالَ هَذِه السَّاعَة تقوم يَوْم الْجُمُعَة وَنحن نُسَمِّيه عندنَا يَوْم الْمَزِيد انْتَهَى

طَرِيق آخر رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده أخبرنَا مُحَمَّد بن شُعَيْب بن سَابُور حَدثنِي عمر مولى عفرَة عَن انس فَذكره بِاللَّفْظِ الأول

وَله طرق أُخْرَى أضربت عَنْهَا لضعفها

وَأما حَدِيث حُذَيْفَة فَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث يحيى بن كثير ثَنَا إِبْرَاهِيم بن الْمُبَارك عَن الْقَاسِم بن مُطيب عَن الْأَعْمَش عَن أبي وَائِل عَن حُذَيْفَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَتَانِي جِبْرِيل فَذكره بِاللَّفْظِ الأول

وَله طَرِيق آخر عِنْد ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية عَن عبد الله بن عَرَادَة الشَّيْبَانِيّ ثَنَا الْقَاسِم بن الْمطلب عَن الْأَعْمَش فَذكره وَأعله بِعَبْد الله بن عَرَادَة وَنقل عَن ابْن معِين انه قَالَ فِيهِ لَيْسَ بِشَيْء وَعَن ابْن عدي انه قَالَ عَامَّة مَا يرويهِ لَا يُتَابع عَلَيْهِ

1343 - الحَدِيث السَّابِع

عَن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ إِن الله فِي كل جُمُعَة سِتّمائَة ألف عَتيق من النَّار

قلت رُوِيَ من حَدِيث انس وَله طرق

أَحدهَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْحَادِي وَالْعِشْرين وَأَبُو يعلى الْموصِلِي فِي مُسْنده من حَدِيث أَزور بن غَالب عَن سُلَيْمَان التَّيْمِيّ عَن ثَابت

عَن أنس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِن الله تَعَالَى فِي كل جُمُعَة أَو قَالَ لَيْلَة جُمُعَة سِتّمائَة ألف عَتيق من النَّار كلهم قد اسْتوْجبَ النَّار انْتَهَى قَالَ الْبَيْهَقِيّ فِي سَنَده ضعف انْتَهَى

وَرَوَاهُ كَذَلِك ابْن عدي فِي الْكَامِل وَابْن حبَان فِي الضُّعَفَاء وَأَعلاهُ بالأزور قَالَ ابْن حبَان يروي عَن الثِّقَات مَا لَا يُتَابع عَلَيْهِ من الْمَنَاكِير فَكَانَ يُخطئ وَهُوَ لَا يعلم حَتَّى صَار مِمَّن لَا يحْتَج بِهِ إِذا انْفَرد وَأما ابْن عدي فَإِنَّهُ مَشاهُ فَقَالَ أَرْجُو أَنه لَا بَأْس بِهِ

وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ فِي علله الْأَزْوَر مَتْرُوك والْحَدِيث غير ثَابت انْتَهَى

وَقَالَ البُخَارِيّ وَأَبُو حَاتِم مُنكر الحَدِيث وَقَالَ النَّسَائِيّ ضَعِيف

طَرِيق آخر رَوَاهُ أَبُو يعلى الْموصِلِي فِي مُسْنده وَالْبُخَارِيّ فِي تَارِيخه الْكَبِير فِي حرف الْمِيم فِي تَرْجَمَة الْمُعْتَمِر بن نَافِع فَقَالَ ثَنَا سَلمَة بن شبيب ثَنَا زيد بن الْحباب عَن الْمُعْتَمِر بن نَافِع عَن أبي عبد الله الْعَنزي عَن ثَابت الْبنانِيّ حَدثنِي أنس بن مَالك قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَيْلَة الْجُمُعَة وَيَوْم الْجُمُعَة أَربع وَعِشْرُونَ سَاعَة الله تَعَالَى فِي كل سَاعَة مِنْهَا سِتّمائَة ألف عَتيق من النَّار كلهم قد اسْتَوْجبَ النَّار عَلَى نَفسه انْتَهَى

(64/763)

طَرِيق آخر رَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية من طَرِيق الدَّارَقُطْنِيّ بِسَنَدِهِ عَن عبد الْوَاحِد بن زيد عَن الْبنانِيّ عَن انس مَرْفُوعا بِلَفْظ البُخَارِيّ سَوَاء قَالَ ابْن الْجَوْزِيّ هَذَا لَا يَصح قَالَ ابْن معِين عبد الْوَاحِد بن زيد لَيْسَ بِشَيْء وَقَالَ الفلاس مَتْرُوك انْتَهَى

1344 - الحَدِيث الثَّامِن

وَعَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من مَاتَ يَوْم الْجُمُعَة كتب لَهُ أجر شَهِيد وَوُقِيَ فتْنَة الْقَبْر

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَقَرِيب مِنْهُ مَا رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة مُحَمَّد ابْن الْمُنْكَدر قَالَ ثَنَا عبد الرَّحْمَن بن الْعَبَّاس الْوراق ثَنَا أَحْمد بن دَاوُد السجسْتانِي ثَنَا الْحسن بن سوار أَبُو الْعَلَاء ثَنَا عمر بن مُوسَى بن الْوَجِيه عَن مُحَمَّد بن الْمُنْكَدر عَن جَابر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من مَاتَ يَوْم الْجُمُعَة أَو لَيْلَة الْجُمُعَة أجير من عَذَاب الْقَبْر وَجَاء يَوْم الْقِيَامَة عَلَيْهِ طَابع الشُّهَدَاء انْتَهَى وَقَالَ غَرِيب من حَدِيث مُحَمَّد بن

الْمُنْكَدر وَجَابر تفرد بِهِ عَنهُ عمر بن مُوسَى وَهُوَ مدنِي فِيهِ لين انْتهى

وَفِي سنَن أبي قُرَّة مُوسَى بن طَارق الزبيدِيّ فِي الْجُمُعَة قَالَ ذكر ابْن جريج أَخْبرنِي سُفْيَان عَن ربيعَة بن سيف الْمعَافِرِي عَن عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاصِ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من مَاتَ يَوْم الْجُمُعَة أَو لَيْلَة الْجُمُعَة وَفِي فتْنَة الْقَبْر وَمَات شَهِيدا انْتَهى

(65/763)

وروى عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه أَنا ابْن جريج عَن رجل عَن ابْن شهَاب أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من مَاتَ يَوْم الْجُمُعَة أَو لَيْلَة الْجُمُعَة وَفِي فتْنَة الْقَبْر وَكتب شَهِيدا انْتَهى

والْحَدِيث رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي جَامعه بِسَنَد مُنْقَطع وَلَيْسَ فِيهِ كتب الله لَهُ أجر شَهِيد أخرجه فِي الْجَنَائِز عَن ربيعَة بن سيف عَن عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاصِ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا من مُسلم يَمُوت يَوْم الْجُمُعَة إِلَّا وَقَاهُ الله فتْنَة الْقَبْر انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث غَرِيب وَلَيْسَ بِمُتَّصِل لَا يعرف لِرَبِيعَة سَماع من عبد الله وَإِنَّمَا يروي عَن أبي عبد الرَّحْمَن الحبلي عَنهُ انْتَهى

قلت وَصله الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه فَرَوَاهُ من حَدِيث ربيعَة بن سيف عَن عِيَاض ابْن عقبَة الفِهري عَن عبد الله بن عَمْرو فَذكره وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَبُو يعلى الْموصِلِي فِي مُسْنده

وله طَرِيق آخر رَوَاهُ احْمَد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مسنديهما وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث بَقِيَّة حَدثنِي مُعَاوِيَة بن سعيد التجيبي سَمِعت أَبَا قبيل سَمِعت عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاصِ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول من مَاتَ يَوْم الْجُمُعَة أَو لَيْلَة الْجُمُعَة وقِي فتْنَة الْقَبْر انْتَهَى وَكَذَلِكَ رَوَاهُ عبد بن حميد فِي مُسْنده سَوَاء

(66/763)

والْحَدِيث الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ التِّرْمِذِيّ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ فِي الْجَنَائِز عَن ربيعَة بن سيف عَن أبي عبد الرَّحْمَن الحبلي عَن عبد الله بن عَمْرو أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لفاطمة لَعَلَّك بلغت مَعَهم الكدا الحَدِيث وَلَيْسَ لِرَبِيعَة غير هذَيْن الْحَدِيثين مَعَ أَن فِيهِ مقَالا

1345 - الحَدِيث التَّاسِع

فِي الحَدِيث إِذا كَانَ يَوْم الْجُمُعَة قعدت الْمَلَائِكَة على أَبْوَاب الْمَسْجِد بِأَيْدِيهِم صحف من فضَّة وَأَقْلَام من ذهب يَكْتُبُونَ الأول فَالْأول على مَرَاتِبهمْ

قلت الحَدِيث فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيرهمَا وَلَيْسَ فِيهِ بِأَيْدِيهِم صحف من فضَّة وَأَقْلَام من ذهب أخرجَاهُ فِي الْجُمُعَة من حَدِيث سلمَان الْأَغَر عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذا كَانَ يَوْم الْجُمُعَة وقفت الْمَلَائِكَة على بَاب الْمَسْجِد يَكْتُبُونَ الأول

فَالْأول عَلَى مَرَاتِبهمْ فَمثل المهجر كَمثل الَّذِي يهدي بَدَنَة ثمَّ كَالَّذي يهدي بقرة ثمَّ كَبْشًا ثمَّ دجَاجَة ثمَّ بَيْضَة فَإِذا خرج الإِمَام طووْا صُحُفهمْ وَاسْتَمعُوا للذّكر انْتَهَى

ثمَّ وجدته فِي تَفْسِير ابْن مرْدَوَيْه رَوَاهُ فِي تَفْسِير سُورَة الْأَعْرَاف عِنْد قَوْله تَعَالَى وَاخْتَار مُوسَى قومه سبعين رجلا لِمِيقَاتِنَا قَالَ ثَنَا زيد بن عَلّي بن دُحَيْم ثَنَا أَحْمد بن حَازِم أَنا أَبُو صَالح الْحرار ثَنَا عَمْرو بن شمر عَن سعد بن طريف عَن الْأَصْبَغ بن نباتة عَن عَلّي عَنهُ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا كَانَ يَوْم

(67/763)

الْجُمُعَة نزل جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام إِلَى الْمَسْجِد الْحَرَام فَركز لِوَاءَهُ بِهِ وَعدا سَائِر الْمَلَائِكَة إِلَى الْمَسَاجِد الَّتِي يجمع فِيهَا الْجُمُعَة فركزوا أَلْوِيَتهم بِأَبْوَاب الْمَسَاجِد ثمَّ نشرُوا قَرَاطِيس من فضَّة وأقلاما من ذهب ثمَّ كتبُوا الأول فَالْأول مِمَّن بكر إِلَى الْجُمُعَة فَإِذا بلغ من الْمَسْجِد سبعين رجلا قد بكرُوا طووْا الْقَرَاطِيس فَكَانَ أُولَئِكَ السبعون كَالَّذِين اخْتَارَهُمْ مُوسَى من قومه وَالَّذين اخْتَارَهُمْ مُوسَى من قومه كَانُوا أَنْبيَاء انْتَهَى

1346 - الحَدِيث الْعَاشِر

عَن ابْن مَسْعُود انه بكر فَرَأَى ثَلَاثَة نفر سَبَقُوهُ فاغتمَّ وَأخذ يُعَاتب نَفسه وَيَقُول أَرَاك رَابِع

أَرْبعَة وَمَا رَابِع أَرْبعَة ببَعِيد

قلت رَوَاهُ ابْن ماجة فِي سنَنه فِي الْجُمُعَة ثَنَا كثير بن عبيد الْحِمصِي عَن عبد الْمجِيد بن عبد الْعَزِيز بن أبي رواد عَن معمر عَن الْأَعْمَش عَن إِبْرَاهِيم عَن عَلْقَمَة قَالَ خرجت مَعَ عبد الله بن مَسْعُود إِلَى الْجُمُعَة فوجد ثَلَاثَة فَقَالَ رَابِع أَرْبعَة وَمَا رَابِع أَرْبعَة ببَعِيد إِنِّي سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول إِن النَّاس يَجْلِسُونَ من الله تَعَالَى يَوْم الْقِيَامَة عَلَى قدر رَوَاحهمْ إِلَى الْجُمُعَات الأول وَالثَّانِي وَالثَّالِث ثمَّ قَالَ رَابِع أَرْبعَة وَمَا رَابِع أَرْبعَة ببَعِيد انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْحَادِي عشر عَن عبد الْمجِيد بن عبد الْعَزِيز بن أبي رواد عَن مَرْوَان بن سَالم عَن الْأَعْمَش بِهِ قَالَ الْبَزَّار ومروان بن سَالم لين الحَدِيث

(68/763)

وَقَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي علله بعد أَن رَوَاهُ بِسَنَد ابْن ماجة وَقد رُوِيَ عَن عبد الْمجِيد عَن مَرْوَان بن سَالم ومروان بن سَالم مُنكر الحَدِيث ضَعِيف الحَدِيث جدا لَيْسَ لَهُ حَدِيث قَائِم

يكْتب انْتَهى

وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ فِي علله وَقد رُوِيَ من حَدِيث عبد الْمجِيد عَن سُفْيَان

(69/763)

الثَّوْريّ عَن الْأَعْمَش بِهِ ثمَّ قَالَ وَهَذَا لَا يَصح عَن الثَّوْريّ انْتَهى

1347 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لَا جُمُعَة وَلَا تَشْرِيق وَلَا فطر وَلَا أَضْحَى إِلَّا فِي مصر جَامع

قلت غَرِيب وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه مَوْقُوفا عَلَى عَلّي فَقَالَ ثَنَا عباد بن الْعَوام عَن حجاج عَن أبي إِسْحَاق عَن الْحَارِث عَن عَلّي قَالَ لَا جُمُعَة وَلَا تَشْرِيق وَلَا صَلَاة فطر وَلَا أَضْحَى إِلَّا فِي مصر جَامع أَو مَدِينَة عَظِيمَة انْتَهى

1348 - الحَدِيث الثَّانِي عشر

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من تَركهَا يَعْنِي الْجُمُعَة وَله إِمَام عَادل أَو جَائِر . . . الحَدِيث

قلت رُوِيَ من حَدِيث جَابر وَمن حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث أبي سعيد الْخُدْرِيّ

وَأما حَدِيث جَابر فَرَوَاهُ ابْن مَاجَه فِي سنَنه فِي الْجُمُعَة من حَدِيث عبد الله ابْن مُحَمَّد الْعَدوي عَن عَلّي بن زيد بن جدعَان عَن سعيد بن الْمسيب عَن جَابر ابْن عبد الله قَالَ خَطَبنَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ يأيها النَّاس تُوبُوا إِلَى الله قبل أَن تَمُوتُوا وَبَادرُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَة قبل أَن تشْغلُوا وصلوا الَّذِي بَيْنكُم وَبَين ربكُم بِكَثْرَة ذكركُمْ وَكَثْرَة الصَّدَقَة فِي السِّرّ وَالْعَلَانيَة ترْزقُوا وتنصروا وتجبروا وَاعْلَمُوا أَن الله قد افْترض عَلَيْكُم الْجُمُعَة فِي مقَامي هَذَا فِي يومي هَذَا فِي شَهْري هَذَا فِي عَامي هَذَا إِلَى يَوْم الْقِيَامَة فَمن تَركهَا وَله إِمَام عَادل أَو جَائِر استخفافا بهَا أَو جحودا بهَا فَلَا جمع الله شَمله وَلَا بَارك الله فِي أمره أَلا وَلَا صَلَاة لَهُ وَلَا زَكَاة لَهُ وَلَا حج لَهُ وَلَا صَوْم لَهُ وَلَا بر لَهُ حَتَّى يَتُوب وَمن تَابَ تَابَ الله عَلَيْهِ

الا وَلَا تؤمن امْرَأَة رجلا وَلَا يؤم أَعْرَابِي مُهَاجرا وَلَا يؤم فَاجر مُؤمنا إِلَّا أَن يقهره بسُلْطَان يخَاف سَيْفه وسوطه انْتهى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان وَأَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة بشر الْأُمِّي

وَالدَّارَقُطْنِيّ فِي علله وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وَأسْندَ إِلَى وَكِيع أَنه قَالَ عبد الله بن

مُحَمَّد الْعَدوي يضع الحَدِيث وَإِلَى البُخَارِيّ أَنه قَالَ مُنكر الحَدِيث ووافقهم وَقَالَ إِن هَذَا الحَدِيث مَعْرُوف بِهِ انْتهى

وَقَالَ ابْن حبَان مُنكر الحَدِيث جدا عَلَى قلَّة رِوَايَته لَا يحل الِاحْتِجَاج بِخَبَرِهِ ثمَّ ذكر لَهُ هَذَا الحَدِيث

(71/763)

وَله طَرِيق آخر عِنْد أبي يعْلى الْموصِلِي فِي مُسْنده عَن فُضَيْل بن مَرْزُوق اخبرني الْوَلِيد بن بكير عَن مُحَمَّد بن عَلّي عَن سعيد بن الْمسيب عَن جَابر

وَله طَرِيق آخر رَوَاهُ ابْن حبَان فِي كتاب الضُّعَفَاء أَنا مُحَمَّد بن إِسْحَاق بن خُزَيْمَة ثَنَا مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن غزوان ثَنَا أبي عَن حَمَّاد بن سَلمَة عَن عَلّي بن زيد بِهِ وأعله بِمُحَمد بن عبد الرَّحْمَن وَقَالَ إِنَّه يروي عَن أَبِيه وَغَيره الْعَجَائِب

وَأما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية من طَرِيق الدَّارَقُطْنِيّ عَن ابْن حبَان هَكَذَا رَوَاهُ ابْن حبَان فِي كتاب الضُّعَفَاء حَدثنَا عمر بن مُحَمَّد الْهمدَانِي ثنا زَكَرِيَّا بن يَحْيَى الْوَقَّاد ثَنَا خَالِد بن عبد الدَّائِم ثَنَا نَافِع بن يزِيد عَن زهرَة بن معبد عَن سعيد عَن أبي هُرَيْرَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطب فَقَالَ . . . الحَدِيث ثمَّ قَالَ هَذَا حَدِيث

لَا يَصح قَالَ ابْن حبَان خَالِد بن عبد الدَّائِم يروي الْمَنَاكِير الَّتِي لَا تشبه أَحَادِيث الثِّقَات وَيلْزق الْمُتُون الْوَاهِيَة بالْأَسَانِيدِ الْمَشْهُورَة انْتَهَى

وَقَالَ ابْن عدي زَكَرِيَّا بن يَحْيَى كَانَ يَضَع الحَدِيث انْتَهَى

وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ فِي علله هَذَا حَدِيث يرويهِ زهرَة بن معبد عَن سعيد بن الْمسيب عَن أبي هُرَيْرَة وَخَالفهُ عَلّي بن زيد بن جدعَان فَرَوَاهُ عَن سعيد بن الْمسيب عَن جَابر وكلَاهُمَا غير ثَابت انْتَهَى

(72/763)

وَأما حَدِيث الْخُدْرِيّ فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط ثَنَا مُحَمَّد بن يَحْيَى ثَنَا يَحْيَى بن حبيب بن عدي ثَنَا مُوسَى بن عَطِيَّة الْبَاهِلِيّ ثَنَا فُضَيْل بن مَرْزُوق عَن عَطِيَّة عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ قَالَ خَطَبنَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ إِن الله كتب عَلَيْكُم الْجُمُعَة فِي مقَامي هَذَا . . . إِلَى آخِره ثمَّ قَالَ لم يرو هَذَا الحَدِيث عَن عَطِيَّة إِلَّا فُضَيْل بن مَرْزُوق وَلَا عَن فُضَيْل إِلَّا مُوسَى بن عَطِيَّة تفرد بِهِ يَحْيَى ابْن حبيب بن عدي قَالَ وَرَوَاهُ أَسد بن مُوسَى وَعبد الله بن صَالح الْعجلِيّ عَن فُضَيْل بن مَرْزُوق عَن الْوَلِيد بن بكير عَن عبد الله بن مُحَمَّد الْعَدوي عَن عَلّي ابْن زيد عَن سعيد بن الْمسيب عَن جَابر عَن النَّبِي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

1349 - الحَدِيث الثَّالِث عشر

وَعَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَربع إِلَى الْوُلَاة الْفَيْء وَالصَّدقَات وَالْحُدُود وَالْجمعَات

قلت غَرِيب

ورَفعه صَاحب الْهِدَايَة كَمَا رَفعه المُصَنّف وَهُوَ فِي غَالب كتب الْفِقْه مَوْقُوف عَلَى ابْن

عمر

1350 - قَوْله

وَعَن عُثْمَان رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أَنه صعد الْمِنْبَر فَقَالَ الْحَمد لله وَارْتَجَّ عَلَيْهِ فَقَالَ إِن أَبَا بكر

وَعمر كَانَا يعدَّان لهَذَا الْمقَام مقَالا

وَإِنَّكُمْ إِلَى إِمَام فَعَّال أحْوج مِنْكُم إِلَى إِمَام قَوَّال وستأتيكم الْخطب ثمَّ نزل وَكَانَ بِحَضْرَة الصَّحَابَة من غير نَكِير

1351 - الحَدِيث الرَّابِع عشر

(73/763)

رُوِيَ أَن أهل الْمَدِينَة أَصَابَهُم جوع وَغَلَاء شَدِيد فَقدم دحْيَة بن خَليفَة الْكَلْبِيّ بِتِجَارَة من

زَيْت الشَّام وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخْطب يَوْم الْجُمُعَة فَقَامُوا إِلَيْهِ خَشوا أَن يسْبقُوا

إِلَيْهِ فَمَا بَقِي مَعَه إِلَّا يسير قيل ثَمَانِيَة وَقيل أحد عشر واثنا عشر وَأَرْبَعُونَ فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَو خَرجُوا جَمِيعًا لأضرم الله عَلَيْهِم الْوَادي نَارا

قلت غَرِيب وروى الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنَا ابْن حميد ثَنَا مهْرَان عَن سُفْيَان عَن إِسْمَاعِيل عَن السّديّ عَن أبي مَالك قَالَ قدم دحْيَة بن خَليفَة بِتِجَارَة زَيْت من الشَّام وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يخْطب يَوْم الْجُمُعَة فَلَمَّا رَأَوْهُ قَامُوا خشوا أَن يسبقوا إِلَيْهِ فَنزلت وَإِذا رَأَوْا تِجَارَة الْآيَة انْتَهَى

وروى عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره أخبرنَا معمر عَن الْحسن فِي قَوْله تَعَالَى وَإِذا رَأَوْا تِجَارَة أَو لهوا . . . الْآيَة قَالَ أصَاب أهل الْمَدِينَة جوع وغلاء سعر فقدمت عير وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يخْطب يَوْم الْجُمُعَة فَسَمِعُوا بهَا وَخَرجُوا إِلَيْهَا وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَائِم يخْطب كَمَا هُوَ فَأنْزل الله وتركوك قَائِما فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَو اتبع آخِرهم أَوَّلهمْ لالتهب عَلَيْهِم الْوَادي نَارا انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع التَّاسِع وَالْخمسين من الْقسم الثَّالِث

من حَدِيث أبي سُفْيَان عَن جَابر بن عبد الله قَالَ بَينا النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخْطب يَوْم الْجُمُعَة فَقدمت عير إِلَى الْمَدِينَة فابتدرها أَصْحَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى لم يبْق مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا اثْنَا عشر رجلا فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَو تتابعتم حَتَّى لم يبْق مِنْكُم أحد لسال بكم الْوَادي نَارا وَنزلت هَذِه الْآيَة وَإِذا رَأَوْا تِجَارَة . . . الْآيَة انْتَهَى

وروى الْبَزَّار فِي مُسْنده حَدثنَا عبد الله بن شبيب ثَنَا إِسْحَاق بن مُحَمَّد ثَنَا إِبْرَاهِيم بن إِسْمَاعِيل عَن دَاوُد بن الْحصين عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخْطب يَوْم الْجُمُعَة فجَاء دحْيَة بن خَليفَة بِبيع سلْعَة لَهُ فَمَا بَقِي فِي الْمَسْجِد أحد إِلَّا خرج إِلَّا نفر وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِم فَأنْزل الله تَعَالَى وَإِذا رَأَوْا تِجَارَة الْآيَة انْتَهَى وَقَالَ هَذَا الحَدِيث بِهَذِهِ الْحِكَايَة لَا نعلمهُ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَاد انْتَهَى

(75/763)

وَرِوَايَة الِاثْنَي عشر فِي الصَّحِيحَيْنِ أخرجَاهُ من حَدِيث سَالم بن أبي الْجَعْد عَن جَابر قَالَ كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخْطب قَائِما يَوْم الْجُمُعَة فَجَاءَت عير من الشَّام فانفتل النَّاس حَتَّى لم يبْق إِلَّا اثْنَا عشر رجلا فأنزلت هَذِه الْآيَة وَإِذا رَأَوْا تِجَارَة أَو لهوا انْفَضُّوا إِلَيْهَا

. . . الْآيَة وَفِي لفظ للْبُخَارِيّ بَيْنَمَا نَحن نصلي مَعَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَقبلت عير فَقَالَ الْبَيْهَقِيّ الْأَشْبَه رِوَايَة أَنه كَانَ فِي الْخطْبَة وكَأَن المُرَاد بقوله يُصَلِّي الْخطْبَة وَيدل عَلَيْهِ حَدِيث كَعْب بن عجْرَة انه دخل الْمَسْجِد وَعبد الرَّحْمَن ابْن أم الحكم يخْطب قَاعِدا فَقَالَ انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْخَبيث يخْطب قَاعِدا وَقد قَالَ تَعَالَى وَإِذا رَأَوْا تِجَارَة أَو لهوا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوك قَائِما أخرجه مُسلم انْتَهَى فِي لفظ لمُسلم إِلَّا اثْنَا عشر رجلا فيهم أَبُو بكر وَعمر وَفِي لفظ أَنا فيهم

وَرِوَايَة الْأَرْبَعين رَوَاهَا الدَّارَقُطْنِيّ فِي سنَنه من حَدِيث عَلّي بن عَاصِم عَن حُصَيْن بن عبد الرَّحْمَن عَن سَالم بن أبي الْجَعْد عَن جَابر بن عبد الله قَالَ بَيْنَمَا
رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبنَا يَوْم الْجُمُعَة إِذْ أَقبلت عير تحمل الطَّعَام حَتَّى نزلُوا بالبَقِيع فَانْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتركُوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ مَعَه إِلَّا أَرْبَعُونَ رجلا أَنا فيهم وَانْزِلْ الله الْآيَة ثمَّ قَالَ لم يقل فِيهِ أَرْبَعُونَ إِلَّا عَلّي بن عَاصِم عَن حُصَيْن وَخَالفهُ أَصْحَاب حُصَيْن فَقَالُوا لم يبْق مَعَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا اثْنَا عشر رجلا انْتَهَى

(76/763)

فَائِدَة ورد مَا يدل عَلَى أَن هَذِه الْوَاقِعَة كَانَت حِين كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقدم الصَّلَاة عَلَى الْخطْبَة فِي الْجُمُعَة روى أَبُو دَاوُد فِي مراسيله ثَنَا مَحْمُود بن خَالِد عَن الْوَلِيد أَخْبرنِي أَبُو معَاذ بكير بن مَعْرُوف أَنه سمع مقَاتل بن حَيَّان قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُصَلِّي يَوْم الْجُمُعَة قبل الْخطْبَة مثل الْعِيديْن حَتَّى إِذا كَانَ يَوْم وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يخْطب وَقد صَلَّى الْجُمُعَة فَدخل رجل فَقَالَ إِن دحْيَة بن خَليفَة قد قدم لِتجارَة وَكَانَ إِذا قدم تَلقاهُ أَهله بالدُّفُوفِ فَخرج النَّاس لم يظنُّوا إِلَّا أَنه لَيْس فِي ترك الْخطْبَة شَيْء فَأنْزل الله وَإِذا رَأَوْا تِجَارَة أَو لهوا انْفَضُّوا إِلَيْهَا الْآيَة فَقدم النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخطْبَة يَوْم الْجُمُعَة وَأخر الصَّلَاة فَكَانَ لَا يخرج أحد لحَدث أَو رُعَاف بعد النَّهْي حَتَّى يسْتَأْذن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُشِير إِلَيْهِ بأُصْبُعِهِ الَّتِي تَلِي الْإِبْهَام فَيَأْذَن لَهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَكَانَ من الْمُنَافِقين من يثقل عَلَيْهِ الْخطْبَة وَالْجُلُوس فِي الْمَسْجِد فَكَانَ إِذا اسْتَأْذن رجل من الْمُسلمين قَامَ الْمُنَافِق إِلَى جنبه يسْتَتر بِهِ حَتَّى يخرج فَأنْزل الله تَعَالَى قد يعلم الله الَّذين يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُم لِوَاذًا الْآيَة

وَمن طَرِيق أبي دَاوُد وَرَوَاهُ الْحَازِمِي فِي النَّاسِخ والمنسوخ وَذكر انه مُرْسل مَنْسُوخ بالأحاديث الْمُتَّصِلَة الثَّابِتَة بِالْإِجْمَاع وَالله أعلم

1352 - الحَدِيث الْخَامِس عشر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ سُورَة الْجُمُعَة أعطي من الْأجر عشر حَسَنَات بِعَدَد من أَتَى الْجُمُعَة وَبِعَدَد من لم يأتهم فِي أَمْصَار الْمُسلمين

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ حَدثنَا أَبُو مُوسَى عمرَان بن مُوسَى ثَنَا مكي بن عَبْدَانِ ثَنَا سُلَيْمَان ثَنَا أَبُو معَاذ عَن أبي عصمَة عَن زيد الْعمي عَن أبي نَضرة عَن

ابْن عَبَّاس عَن أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ سُورَة الْجُمُعَة ... إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي سُورَة يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 29 . 11 ﴾

(78/763)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الجمعة

قوله تعالى : ﴿إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ ، الآية/ 9 :

وليس في الآية تعيين الصّلاة ، إلا أن الاتفاق منعقد على أن المراد به الجمعة ، والمراد بالنداء الأذان .

قال تعالى : ﴿فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ، الآية/ 9 .

قرأ عمرو بن مسعود : فامضوا ، قال عبد اللّه : لو قرأت فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي .

ويجوز أن يكون ذلك تفسيرا كما قال : ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ﴾ «1» .

وقيل : السعى بمعنى العمل ، كما قيل : ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾ «2» .

قوله تعالى : ﴿فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ، الآية/ 9 : يحتمل أن يريد به الصلاة ، ويحتمل الخطبة ، وهو عموم فيهما ، وإنما ثبت وجوبهما بدليل آخر غير هذا اللفظ .

---

(1) سورة الدخان آية 43 - 44 .

(2) سورة النجم آية 39 .

نعم في هذا اللفظ دليل على أن هناك ذكر يجب السعي إليه ، فأما عين الذكر فلا دليل عليه .

قال مالك ، قوله : (وَذَرُوا الْبَيْعَ) : يدل على فساد البيع ، ورآه أخص من العمومات الواردة في البيع ، ورأى أن البيع لما حرم دل على فساده ، وهذا مما بينا فساده في أصول الفقه .

قوله تعالى : (فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) ، الآية 10 . بالتصرف في التجارة وغيرها ، فهو إباحة .

قوله تعالى : (وَتَرَكُوكَ قائِماً) ، الآية/ 11 : يدل على أن الإمام يخطب قائما ، فإنهم كانوا انفضوا من الخطبة «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن/ للكيا هراسي جـ 4 ص 416.415﴾

---

(1) انظر أسباب النزول للواحدي النيسابوري .

(80/763)

وقال السايس :

من سورة الجمعة

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا

الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10)

المراد بالنداء الأذان والإعلام، والمراد بالصلاة المنادى لها صلاة الجمعة، بدليل قوله: مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ إذ غيرها من الصلوات التي يؤذّن لها لا مزية لها في يوم الجمعة عن غيره.

والأذان الذي يجب السعي عنده اختلف فيه، فقال بعضهم: المراد به الأذان الذي بين يدي الخطيب، ووجه هذا أنّه الأذان الذي كان على عهد النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم وأبي بكر وعمر، فقد كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم مؤذّن واحد، وكان إذا جلس النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم على المنبر أذّن على باب المسجد، وإذا نزل من على المنبر أقام الصلاة، ثم كان أبو بكر وعمر كذلك، ويرى بعضهم أنّ السعي إنما يجب عند الأذان الأول الذي على المنارة، وهو الأذان الذي زاده عثمان رضي اللّه عنه، وذلك حين رأى كثرة الناس وتباعد مساكنهم، فأمر بالأذان الأول على داره التي تسمّى الزوراء، فإذا جلس على المنبر أذّن المؤذن الثاني، فإذا نزل أقام الصلاة، وفي بعض الروايات زاد الأذان الثالث، وكونه ثالثا، لأنّ الإقامة تسمّى أذانا، كما في

قوله عليه الصلاة والسلام: «بين كلّ أذانين صلاة» «1».

وهذا القول هو الظاهر من مذهب الحنفية، وهم قد نظروا فيه إلى المعنى.

وذلك أنّ المراد من النداء الإعلام، والسعي إنما يجب عند الإعلام، وقد فهم عثمان

رضي اللّه عنه هذا المعنى ، وزاد النداء الثاني ليتمكّن الناس من حضور الخطبة والصلاة من أماكنهم البعيدة ، ولم تكن بالمسلمين حاجة إلى هذا في زمن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لقرب مساكنهم من المسجد ، ولأنّهم كانوا يحافظون على أن يجيئوا في أوّل الوقت - إن لم يكن قبله - محافظة على أخذ الأحكام عن الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم فكان النداء الذي بين يدي الخطيب يسمعهم

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (1/ 573) ، 6 - كتاب المسافرين ، 56 - باب بين كل أذانين حديث رقم (304/ 838) ، والبخاري في الصحيح (1/ 175) ، 10 - كتاب الأذان ، 16 - باب بين كل أذانين صلاة حديث رقم (627) .

(81/763)

فيحضرون سراعا ، ويدركون الخطبة من أولها ، لقرب المساكن من المسجد .

والسعي عند الأذان الثاني يفوّت على الناس سماع الخطبة التي خفّضت من أجلها الصلاة ، ويفوّت عليهم السنة القبلية .

ومن يرى أنّ السعي إنما يجب بالأذان الذي بين يدي الخطيب يقول : إنّه النداء الذي كان في زمنه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو أحرص الناس على أن يؤدّي المؤمنون الواجب عليهم في

وقته ، فلو كان السعي واجبا قبل ذلك لبيّن لهم ، ولجعل بين الأذان والخطبة زمنا يتّسع لحضور الناس ، ومسألة السنة القبلية فيها كلام ، وربّما كان في عمل الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم والأذان بين يديه وهو على المنبر ما يدل على أنّ السنة القبلية التي كانت في الظهر لم تعد مطلوبة في الجمعة ، ومع ذلك فهي سنة ، وهل يمكن أن يقال : إن السعي يجب قبل وقته لتحصيل سنة لم تثبت ، ومع ذلك فالمصلي يندب له أن يجيء مبكّرا لفوائد جمة ، منها أداء السنّة .

هذا وقد تكلّم المفسرون هنا في لفظ (من) وأنّها بمعنى (في) وتبعيضية ، كما تعرّضوا لحركة (ميم) الجمعة ، وما فيها من لغات ، وفي أصل مدلولها قبل أن تكون علما ، والمناسبة عند النقل ، وذلك بحث لا طائل تحته بعد أن صارت الجمعة في لغاتها جميعا علما على اليوم المعروف من أيام الأسبوع .

وقد اختلف العلماء في أول جمعة صلّيت في الإسلام ، فقد أخرج عبد الرزّاق وعبد بن حميد عن ابن سيرين قال : جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وقبل أن تنزل الجمعة قالت الأنصار : لليهود يوم يجتمعون فيه بكل سبعة أيام ، وللنصارى مثل ذلك ، فهلم فلنجعل لنا يوما نجتمع فيه ، فنذكر فيه اللّه تعالى ونشكره ، فقالوا : يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى ، فاجعلوه يوم العروبة ، وكانوا يسمون يوم الجمعة بذلك ، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة ، فصلّى بهم يومئذ ركعتين ، وذكّرهم ، وسموه يوم الجمعة حين اجتمعوا ،

وذبح لهم شاة، وغدّاهم، وعشّاهم منها «1».

وهذا الخبر مرويّ عن غير ابن سيرين أيضا فقد أخرج أبو داود وابن ماجه والبيهقي عن عبد الرحمن بن كعب أن أباه كان إذا سمع النداء ترحّم على أسعد بن زرارة، فقلت: يا أبتاه أرأيت استغفارك لأسعد بن زرارة كلّما سمعت الأذان للجمعة ما هو؟ قال: لأنّه أول من جمع بنا في نقيع الخضمات في هزم من حرّة بني بياضة، قلت: كم كنتم يومئذ؟ قال: أربعين رجلا «2».

---

(1) انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (6/ 218).

(2) رواه أبو داود في السنن (1/ 402)، كتاب الصلاة، باب الجمعة حديث رقم (1069)، وابن ماجه في السنن (1/ 343)، 5 - كتاب إقامة الصلاة، 78 - باب فرض الجمعة حديث رقم (1082).

قال الكمال بن الهمام: الظاهر من هذه الروايات أنّ صلاة أسعد بن زرارة للجمعة كانت قبل أن تفرض «1».

ويرى العلامة ابن حجر أنّ الجمعة فرضت في مكة، ولم تقم بها، إما لعدم تكامل العدد،

وإما لأنّ أمرها كان على الإظهار ، والنبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان في مكة غير متمكن من الإظهار .

وقال : إنّ أول من أقامها بالمدينة أسعد بن زرارة ، بقرية على ميل من المدينة ، فلعلّها فرضت ، ثم نزلت الآية ، ولكن يمنع من هذا ما

روي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنّه خطب فقال : «إن اللّه فرض عليكم الجمعة في مقامي هذا ، في يومي هذا ، في شهري هذا ، في عامي هذا ، إلى يوم القيامة ، فمن تركها استخفافا بها ، أو جحودا لها ، فلا جمع اللّه شمله ، ولا بارك له في أمره ، ألا ولا صلاة له ، ولا زكاة له ، ولا حج له ، ولا صوم له ، ولا برّ له حتى يتوب ، فمن تاب تاب اللّه عليه» «2» . حيث ذكر في هذا الحديث أنّه لا حج له ، والحج وإن كان قد اختلف في مبدأ افتراضه ، إلا أنّهم صححوا أنه في السنة السادسة من الهجرة ، فالظاهر أنّ الجمعة كانت بعد ذلك .

ويرى بعض آخر من العلماء أنّ أول من جمع بالناس مصعب بن عمير ،

فقد أخرج الدار قطني عن ابن عباس قال : أذن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالجمعة قبل أن يهاجر ، ولم يستطع أن يجمع بمكة ، فكتب إلى مصعب بن عمير : «أما بعد ، فانظر اليوم الذي تجهر فيه اليهود بالزبور ، فاجمعوا نساءكم وأبناءكم ، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة ، فتقرّبوا إلى اللّه بركعتين» قال : فهو أول من جمع ، حتى قدم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم المدينة .

وقد جمع بين هذين بأنّ جمع أسعد كان بغير أمر الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وجمع مصعب كان بأمره، وأول جمعة صلّاها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كانت بعد مقدمه بأربعة أيام حيث أدركه وقتها في بني سالم بن عوف، فصلّاها في بطن واد لهم، حيث خطب صلّى اللّه عليه وسلّم، وصلّى بالناس.

وقوله تعالى: فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ السعي المراد منه المشي دون إفراط في السرعة.

أخرج الستة في كتبهم عن أبي سلمة من حديث أبي هريرة قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وأنتم تمشون، وعليكم السكينة، فما أدركتم، فصلّوا، وما فاتكم فأتموا» «3».

---

(1) انظر فتح القدير للإمام كمال الدين السيواسي المعروف بابن الهمام الحنفي بيروت، دار الفكر (2/ 51). [.....]

(2) رواه ابن ماجه في السنن (1/ 343)، 5- كتاب إقامة الصلاة، 78- باب فرض الجمعة حديث رقم (1081).

(3) رواه مسلم في الصحيح (1/ 420)، 5- كتاب المساجد، 27- باب ما يقال في تكبيرة الإحرام رقم (151/ 602)، والبخاري في الصحيح (1/ 246)، 11- كتاب الجمعة، 18- باب المشي إلى الجمعة حديث رقم (908).

والمراد من ذكر اللّه الخطبة والصلاة جميعا ، لاشتمالهما عليه ، واستظهر بعضهم أنّ المراد به الصلاة ، وقصره بعضهم على الخطبة .

وقد ورد الذكر في الآية مطلقا غير محدود ، ومن أجل ذلك قال الحنفية : إنه لا يشترط في الخطبة اشتمالها على ما يسمّى خطبة عرفا ، لأنّ اللّه تعالى ذكر الذكر من غير تفضيل بين كونه طويلا أو قصيرا ، يسمى خطبة أو لا يسمى خطبة ، فكان الشرط هو الذكر مطلقا ، وما ورد من الآثار مشتملا على بيان الكيفية فهو يدل على السنية أو الوجوب ، ولا ينتهض دليلا على أنه لا يجوز إلا ذلك . ودونه تبطل الخطبة ، ولا تصح الصلاة ، بل هو اختيار للفرد الكامل من أفراد المطلق .

والشافعية يشترطون أن يأتي الخطيب بخطبتين مستوفيتين لشروط خاصة ، واستدلوا على ذلك بآثار وردت فيها ، فإن ثبتت هذه الأدلة ، وانتهضت دليلا لإثبات الشرطية ، فهي الدليل .

وقد جاء في الآية الأمر بالسعي ، والأمر للوجوب ، فيكون السعي واجبا ، وقد أخذوا من هذا أنّ الجمعة فريضة ، وذلك أنّه قد رتّب الأمر للذكر على النداء للصلاة ، فإذا كان المراد

بالذكر هو الصلاة ، فالدلالة ظاهرة ، لأنه لا يكون السعي لشيء واجبا حتّى يكون ذلك الشيء واجبا .

وأما إذا كان المراد بالذكر الخطبة فقط فهو كذلك ، لأن الخطبة شرط الصلاة ، وقد أمر بالسعي إليه ، والأمر للوجوب ، فإذا وجب السعي للمقصود تبعا ، فما ذلك إلا لأن المقصود بالذات واجب ، ألا ترى أن من ارتفع عنه وجوب الجمعة لا يجب عليه السعي لها ، إذا فالسعي تابع لوجوب الجمعة ، والجمعة جاء طلبها والنكير على تركها في السنة ، وقد انعقد الإجماع على وجوبها بشروطها .

وقد أجمعوا على اشتراط العدد فيها ، بل هي ما سميت جمعة إلا لما فيها من الاجتماع ، وقد اختلف في أقلّ عدد تنعقد به الجمعة على أقوال كثيرة : ابتدأت من الاثنين إلى الثمانين ، ولقد قيل : إنه قد زادت الأقوال فيها على ثلاثة عشر قولا .

والكلام فيها من حيث التحديد ومن حيث الأدلة يرجع [فيه] إلى كتب الفقه وكتب السنة ، فإنّ الآية لم تعرض لشيء منها .

وَذَرُوا الْبَيْعَ المراد من البيع المعاملة ، فهو مجاز عن ذلك ، فيعم البيع والشراء والإجارة ، ولقد ذهب جماعة إلى أنّ الأمر للوجوب ، فيكون الاشتغال بهذه الأشياء محرّما .

وقال بعضهم : هو مكروه تحريما ، بل لقد زعم بعضهم أنّ الكراهة تنزيهية ، بناء على أنّ

الأمر للندب ، ولم يرتضه كثير من العلماء ، وقد قالوا : إنّ التحريم يستمرّ إلى فراغ الإمام من الخطبة .

(84/763)

وأما مبدأ التحريم فهو مبنيّ على الخلاف الذي قد علمته في المراد بالنداء ، وظاهر أنّ المأمور بالسعي هو المأمور بترك البيع ، وأما من عداهم فلا يشملهم الأمر ، فإنّ الأمر بترك البيع إنما كان لوجوب السعي .

وقد روي عن بعض السلف أنّ ترك البيع وقت النداء واجب على الناس جميعا من وجب عليه السعي ومن لم يجب .

ذِلكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أي السعي إلى ذكر اللّه ، وترك أعمالكم من أجل ذلك خير لكم وأنفع ، والتفضيل باعتبار ما في المعاملة من المنافع الدنيوية ، وقوله : إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ معناه : إن كنتم من أهل العلم عرفتم أنّ امتثال أوامر اللّه في الذهاب إلى الجمعة ، والانتفاع بما يلقى على الناس من مواعظ خير لكم في الدنيا والآخرة .

في الدنيا حيث يبصّركم الإمام بما فيه خيركم ونجاتكم من الأذى ، وفي الآخرة برضا اللّه عنكم ، حيث امتثلتم أمره .

قال اللّه تعالى : فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10) .

أي إذا فرغتم من أداء الصلاة فتفرّقوا في الأرض إلى حيث تؤدّون أعمالكم التي كنتم تركتموها من أجل الذكر ، واطلبوا الربح من فضل اللّه وفيض إنعامه .

وقد قالوا : إن هذا أمر ورد بعد الحظر فهو للإباحة ، وعليه فليس يطلب من الإنسان أن يخرج من المسجد بعد الصلاة ، لا وجوبا ولا ندبا .

ولقد روي عن بعض السلف أنّه كان إذا انتهت الصلاة خرج من المسجد ، ودار في السوق ساعة ، ثم رجع إلى المسجد فصلّى ما شاء أن يصلّي ، فقيل له : لأي شيء تصنع هذا ؟ قال : إني رأيت سيّد المرسلين يصنع هذا ، وتلا قوله تعالى : فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ رضي اللّه عن أصحاب رسول اللّه ، فقد كانوا يتأسون بالمصطفى حتى في حركاته وسكناته .

وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً وفي وقت اشتغالكم بأعمالكم ، ولا تكتفوا بالذكر الذي سعيتم من أجله ، لكي تفوزوا بخير الدارين .

وقد عرض المفسرون هنا لأحكام كثيرة تتعلق بالجمعة ، كاشتراط المصر ، وكون الخطبة قبل الصلاة أو بعدها ، وهل هناك سنن قبلية ، أو بعدية ؟ ونحن نرى أن هذه الأحكام لا تدل عليها الآية ، ولا من طريق الإشارة ، فيرجع إليها في السنة والفقه .

قال اللّه تعالى : وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11) أخرج البخاري ومسلم وأحمد والترمذي «1» وغيرهم عن جابر بن عبد اللّه قال :

بينما النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يخطب يوم الجمعة قائما ، إذ قدمت عير المدينة ، فابتدرها أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلا ، أنا فيها وأبو بكر وعمر ، فأنزل اللّه تعالى : وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً إلى آخر السورة .

بهذا تضافرت الروايات على اختلاف بينها في التفاصيل ، وفي بعض الروايات أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم نارا»

وفي بعضها :

كان الباقي ثمانية ، وفي بعض آخر : بقي أربعون رجلا ، وكانت العير لعبد الرحمن بن عوف تحمل طعاما ، وكان قد أصاب المدينة جوع وغلاء سعر .

ولما كانت الآية نزلت بعد أن ترك من ترك رسول اللّه في موقفه ، قال العلماء :

إن إذا مستعملة في الماضي ، ولما كان العطف بين قوله : تِجارَةً أَوْ لَهْواً ب أو صحّ مجيء

الضمير في إليها مفردا ، ورجع الضمير إلى التجارة دون اللهو ، لأن الانفضاض كان لها بالأصالة ، ولهوهم كان للفرح بمجيء التجارة التي أنقذتهم مما هم فيه من الجوع وغلاء السعر ، وقد روي أنّه حين جاءت العير استقبلها الناس بالفرح وضرب الدفوف ، فخرج المنفضون على ذلك .

وقد استدل العلماء بقوله تعالى : وَتَرَكُوكَ قَائِماً على مشروعية القيام أثناء الخطبة ، والمشروعية أمر متفق عليه بين العلماء ، وقد ثبت في السنة أنّ النبي ما خطب إلا قائما ، وكذلك الخلفاء من بعده ، استمرّ الأمر هكذا إلى زمن بني أمية ، حيث وجد منهم من استهان بأمر الخطبة فخطب جالسا .

نعم قد روي أن أول من خطب جالسا معاوية رضي اللّه عنه ، وقد حمل العلماء هذه الرواية على فرض صحتها على أنّه كان عاجزا عن القيام ، وإلا فمقام معاوية أجلّ من أن يخالف ما كان عليه الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم .

أخرج البخاري ومسلم «2» عن ابن عمر أن النبيّ كان يخطب خطبتين يجلس بينهما .

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (1/ 590) ، 7 - كتاب الجمعة ، 11 - باب قوله تعالى : إِذا رَأَوْا تِجارَةً حديث رقم (39/ 863) ، والبخاري في الصحيح (2/ 75) ، 65 - كتاب التفسير ، 2 - باب وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً حديث رقم (4899) ، والترمذي في الجامع الصحيح (5/ 386) ، كتاب التفسير ، باب تفسير سورة الجمعة ، حديث رقم

(3311) ، وأحمد في المسند (3/ 370) .

(2) رواه مسلم في الصحيح (2/ 589) ، 7 - كتاب الجمعة ، 10 - باب ذكر الخطبتين حديث رقم (33/ 861) ، والبخاري في الصحيح (1/ 251) ، 11 - كتاب الجمعة ، 3 - باب القعدة بين الخطبتين حديث رقم (928) .

(86/763)

وحكم القيام في الخطبة أنّه سنة عند الحنفية «1» ، ويرى الشافعية أنّه أحد شروطها ، وأنت تعلم أنّ الحنفية لا يثبتون الشرط إلا بقطعي ، وهو غير موجود هنا .

والشافعية يتمسكون بما في الآية من إشارة ، وبما ثبت من السنة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية على ما عرفت قبلا .

قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ قدمت التجارة على اللهو عند الرؤية ، لأنها كانت الباعث الأقوى على الخروج ، وأخّرت هنا لأنّه أقوى في الذم ، والغرض التنفير ، فكان من المناسب تقديمه .

وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ فهو الذي يقدّر الأقوات وييسرها ، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء ، وما يمسك فلا مرسل له ، وما يرسل فلا ممسك له ، إلا من بعد إذنه ، وما ينبغي لأحد أن

يهجر عبادة الله من أجل شيء ، إن كان له فسوف يأتيه ، وإذا لم يكن له فلن يفيد فيه الإسراع إليه ، والجري وراءه ، وهو لو شاء الحرمان منه لحرمه وهو في البيت ، بل وفي اليد إلى الفم .

وقد حاول العلماء أن يستدلوا بما روي في أسباب النزول من أعداد الباقين والمنفضين على العدد في الجمعة ، فمن صحّ عنده أن الباقين كانوا اثني عشر قال : إنّ العدد المعتبر في الابتداء هو العدد المعتبر في البقاء ، فلو كان العدد الباقي لا تصحّ به الجمعة لما صحت الجمعة ، ولم يروا أنّهم أعادوها .

وقد ردّ هذا الاستدلال من وجوه :

أولا : قد روي أنّ الباقي كان أربعين ، وروي أنه كان ثمانية ، ولو سلّم أنهم كانوا اثني عشر ، فلا دلالة فيه ، لأنّه لا يدل إلا على أنّها تصح باثني عشر ، وهو لا يفيد أنها لا تصح بما دون ذلك ، فأين التحديد باثني عشر .

وقد سبق أن قلنا : إن الآية لا يؤخذ منها شيء من هذه الأحكام التي يثبتها الفقهاء في الجمعة ، ولا دلالة لها على أكثر من وجوب السعي عن الجمعة ، وعلى وجوب ترك البيع وشؤون الدنيا من أجل الصلاة ، وعلى أنّه لا يجوز أن يترك الناس الخطيب يخطب وينصرفوا إلى أي شأن آخر . انتهى انتهى . اهـ ❁ تفسير آيات الأحكام / للسايس صـ 765 .

(1) انظر الهداية شرح بداية المبتدي للمرغيناني (1/ 89) .

(87/763)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الجمعة» (62)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«فِي الْأُمِّيِّينَ» (2) الذين لا يكتبون «يُزَكِّيهِمْ» (2) يطهرهم . .

«يَحْمِلُ أَسْفاراً» (5) واحدها سفر وهو الكتاب . .

«فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ» (9) أجيبوا وليس من العدو . .

«وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها» (11) مجازها : إذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهوا

قال الشاعر :

من كان يسعى فى تفرّق فالج فلبونه جربت معا وأغدّت

(77) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 258 ﴾

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة القنوجى :

سورة الجمعة

إحدى عشرة آية

وهي مدنيّة ، قال القرطبي «1» : في قول الجميع .

[الآية الأولى]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9) .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ : أي وقع النداء : لها ، والمراد به الأذان إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة ، لأنه لم يكن على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم نداء سواه .

مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ : بيان لإذا وتفسير لها .

وقال أبو البقاء : (من) بمعنى في .

فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ: قال عطاء: يعني الذهاب والمشي إلى الصلاة.

وقال الفراء: المضي، والسعي، والذهاب، في معنى واحد. ويدل على ذلك قراءة عمر بن الخطاب وابن مسعود: (فامضوا إلى ذكر اللّه).

وقيل: المراد القصد.

قال الحسن: واللّه ما هو سعي على الأقدام ولكنه قصد بالقلوب والنيات. وقيل: هو العمل كقوله: وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ [الإسراء: 19]، وقوله: إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) [الليل: 4]، وقوله: وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى (39) [النجم: 39].

---

(1) انظره في «تفسيره» (18/ 91).

(89/763)

قال القرطبي «1»: وهذا قول الجمهور.

وَذَرُوا الْبَيْعَ: أي اتركوا المعاملة به، ويلحق به سائر المعاملات.

قال الحسن: إذا أذّن المؤذن يوم الجمعة لم يحل الشراء والبيع.

والإشارة بقوله: ذلِكُمْ إلى السعي إلى ذكر اللّه وترك البيع، وهو مبتدأ وخبره:

خَيْرٌ لَكُمْ لما في الامتثال من الأجر والجزاء، وفي عدمه من عدم ذلك إذا لم يكن موجبا للعقوبة.

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9): أي إن كنتم من أهل العلم، فإنه لا يخفى عليكم أن ذلكم خير لكم، أو فاختاروا ذلك «2». انتهى انتهى. اهـ ﴿نيل المرام صـ 446. 447﴾

---

(1) انظره في «تفسيره»: (18/ 101).

(2) انظر: تفسير الطبري (28/ 68)، وزاد المسير (8/ 267).

(90/763)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى:

ومن السورة التي يذكر فيها «الجمعة»

[سورة الجمعة (62): آية 7]

وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7)

قوله سبحانه: وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [7] وهذه استعارة. والمراد: ولا يتمنّون الموت أبدا خوفا مما فرط منهم من الأعمال السيئة، والقبائح

المجترحة . ونسب تعالى تلك الأفعال إلى الأيدى لغلبة الأيدى على الأعمال ، وإن كان فيها ما يعمل بالقلب واللسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 334 ﴾

(91/763)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الجمعة

(92/763)

"يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم" . بهذه الآية افتتحت سورة الجمعة ، تحريضا للمؤمنين على أداء الفريضة وسماع الخطبة ، وإذا كان كل شىء يسبح بحمد الله ، فلم يتأخر المسلمون عن المشاركة فى هذا الحفل الجماعى العام ؟ إنهم يحثون الخطى إلى المساجد تكثيرا لسواد المسلمين وتقوية لصفوفهم . ويوم الجمعة هو العيد الأسبوعى لنا ، وفيه ساعة مباركة لا يوافقها عبد مقبل على الله بدعوة أو عبادة أو

تسبيح إلا تقبل الله منه وغفر له . ويستحب الغسل والطيب لهذا اليوم ! وقد يكون افتتاح السورة بالتسبيح لونا من توبيخ الذين خرجوا من المسجد لما سمعوا قدوم القوافل بالبضائع " وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين " . وصدر السورة ووسطها يحدثان عن ابتعاث الرسول الخاتم من بين العرب الأميين . والواقع أن الله صرف الرسالة العامة عن أهل الكتاب ، لأن أمراض التدين الفاسد كثيرة تجمع بين الكبر والقسوة والغباء . وإذا كان القوم لا يصلحون أنفسهم ، فكيف يصلحون الآخرين ؟ إذا كانت طباع العامة سليمة وأطماعهم قليلة ، فإنهم أسرع استجابة للحق وقدرة على نصرته ، لذلك لم يبعث الله نبيه من اليهود ، وآثر عليهم العرب " هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين " . وقد بلغ العرب الرسالة وذابوا وسط الشعوب الأخرى ، أو كانوا جسورا حسنة لتوصيل أمانات الوحى . أما اليهود فقد عبدوا جنسهم ونسوا ربهم وذكروا شهواتهم " مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين " . وقد كان اليهود ولا يزالون أبعد الناس عن طلب الآخرة وأشدهم تكالبا على حطام

الدنيا . وهم قد يصلحون لأى عمل إلا اقتياد الجماهير إلى الله " قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم " . ويحزننا أن المسلمين المعاصرين قد سرت إليهم العدوى من أهل الكتاب ، فنسوا الوحى ورفعوا فى أوطانهم شعارات أخرى عرقية ودنيوية مبتوتة العلاقة بدين الله . ونحن نجاهد للعودة بالأمة إلى كتابها وتراث نبيها ، حتى تحكم دنيا الناس بدين الله .

انتهى انتهى . اهـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 458. 459﴾

(94/763)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(95/763)

" فصل "

قال السيوطى :

أقول: ظهر لي في وجه اتصالها بما قبلها: أنه تعالى لما ذكر في سورة الصف حال موسى مع قومه، وأذاهم له، ناعياً عليهم ذلك، ذكر في هذه السورة حال الرسول صلى الله عليه وسلم، وفضل أمته، تشريفاً لهم، ليظهر فضل ما بين الأمتين، ولذا لم يعرض فيها الذكر اليهود وأيضاً لما ذكر هناك قول عيسى: (ومُبشراً برسول يأَتي من بَعدي اسمُهُ أَحمد) قال هنا: (هوَ الذي بعث في الأُميين رَسولاً منهم) إشارة إلى أنه الذي بشر به عيسى وهذا وجه حسن في الربط وأيضاً لما ختم تلك السورة بالأمر بالجهاد وسماه تجارة، ختم هذه بالأمر بالجمعة، وأخبر أنها خير من التجارة الدنيوية وأيضاً: فتلك سورة الصف، والصفوف تشرع في موضعين: القتال، والصلاة، فناسب تعقيب سورة صف القتال بسورة صلاة تستلزم الصف ضرورة، وهي الجمعة، لأن الجماعة شرط فيها، دون سائر الصلوات فهذه وجوه أربعة فتح الله بها. انتهى انتهى. اهـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 137.

138﴾

(96/763)

قوله تعالى ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي أحاط علمه بكل معلوم فتم بيانه (الرحمن) الذي عمت نعمة بيانه بعد شمول كرامة إيجاده فهو العظيم شأنه (الرحيم) الذي خص حزبه بالتوفيق لما يرضاه فثبت فيي سويداء كل منهم حبه له وإيمانه به .

ولما ختمت الصف بالإقبال ببعض بني إسرائيل على جنابه الأقدس بعد أن زاغوا فأزاغ الله قلوبهم كلهم أو الشاذ منهم بما أفهمه إطلاق الضمير عليهم ثم تأييدهم على من استمر منهم على الزيغ ، فثبت أن له تمام القدرة المستلزم لشمول العلم اللازم منه التنزه عن كل شائبة نقص ، وكان سبحانه قد ذكر التسبيح الذي هو الأعظم الأشهر للتنزيه بلفظ الماضي ثلاث مرات في افتتاح ثلاث سور ، وذلك نهاية الإثبات المؤكد ، فثبت بذلك أنه وقع تنزيهه من كل ناطق وصامت ، أخبر أول هذه السورة أن ذلك التنزيه على وجه التجديد والاستمرار بالتعبير بالمضارع لاستمرار ملكه فقال : ﴿ يسبح ﴾ أي يوقع التنزيه

الأعظم الأبهى الأكمل ﴿ لله ﴾ أي الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ، وأكد بذلك لما في التغابن ولم يحتج بعد الإقرار بالوقوع على هذا الوجه إلى التأكيد بأكثر من مرة وجعل بين كل مسبحتين سورة خالية من ذلك ليكون ذلك أدل على قصد التأكيد من حيث شدة الاعتناء بالذكر ، وإن وقع فصل ويكون التأكيد أكثر تنبيهاً وأعظم صدعاً وتذكيراً .

(97/763)

ولما كان تقريع العاقل الناطق بطاعة الصامت أعظم ، قال : ﴿ ما في السماوات ﴾ وإن كان العاقل يدخل في ذلك ما عليه فيكون تسبيحه تارة طوعاً موافقة للأمر ، وتارة كرهاً بالانقياد مع الإرادة ، وتسبيح الصامت طوعاً في كل حال .

ولما كان الخطاب مع الذين آمنوا ، دعا ذلك إلى التأكيد لاحتياجهم إليه فقال : ﴿ وما في الأرض ﴾ كذلك .

ولما ثبت بالسور الثلاث الماضية أن الموجودات أوقعت له التسبيح ، وأخبرت هذه باستمرار ذلك على سبيل التجديد ، دل ذلك مع التنزيه عن النقائص على إثبات الكمال الذي لا يكون إلا لملك عظيم الشأن مطاع الأمر ، وكان الاقتصار على الصامت بالتعبير بما هو ظاهر فيه ربما أوهم شيئاً ، قال مصرحاً بما أفهمه السياق : ﴿ الملك ﴾ أي الذي

ثبتت له جميع الكمالات فهو ينصر من يشاء من جنده ولو كان ذليلاً فيصبح ظاهراً ﴿ القدوس ﴾ الذي انتفت عنه جميع النقائص ، فلا يكون شيء إلا بإذنه وتنزه عن إحاطة أحد من الخلق بعلمه أو إدراك كنه ذاته فليس في أيدي الخلق إلا التردد في شهود أفعاله ، والتدبر لمفاهيم نعوته وجلاله ، وأحقهم بالقرب والعداد في حزبه المتخلق بأوصافه على قدر اجتهاده ، فينبغي للمؤمن التنزه عن أن يقول ما لا يفعل أو يبني شيئاً من أموره على غير إحكام ، وقد مضى شرح الاسمين الشريفين قريباً وذكر خلاصة شرحهما بما هو خاصة الملك وآية الطهارة للطاهر فقال : ﴿ العزيز ﴾ أي الذي يغلب كل شيء ، لا يغلبه شيء ، فلو أراد لجعل العقلاء كلهم أيضاً مع تسبيحهم بالجري تحت مراده طوعاً وكرهاً مسبحين بالموافقة لأمره طوعاً ﴿ الحكيم ﴾ الذي يوقع كل ما أراده في أحكم مواقعه وأتمها وأتقنها .

(98/763)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما ختمت سورة الصف بالثناء على الحواريين في حسن استجابتهم وجميل إيمانهم ، وقد أمر المؤمنين بالتشبه بهم في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله ﴾ [الصف : 14] كان ذلك مما يوهم فضل أتباع عيسى عليه السلام على أتباع محمد . صلى الله عليه

وسلم. فاتبع ذلك بذكر هذه الأمة، والثناء عليها، فافتتحت السورة بالتنزيه عما أشار إليه قوله: ﴿ وكفرت طائفة ﴾ [الصف: 14] فإنهم ارتكبوا العظيمة وقالوا بالنبوة، فنزه سبحانه نفسه عن ذلك ثم قال: ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾ [الجمعة: 2] إلى قوله: ﴿ ذو الفضل العظيم ﴾ [الجمعة: 4] ثم أعلم تعالى بحال طائفة لاح لهم نور الهدى ووضح لها سبيل الحق فعميت عن ذلك وارتبكت في ظلمات جهلها ولم تزدد بما حملت إلا حيرة وضلالة فقال تعالى: ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ [الجمعة: 5] الآيات وهي في معرض التنبيه لمن تقدم الثناء عليه ورحمه الله إياه لئلا يكونوا فيما يتلو عليهم نبيهم من الآيات ويعلمهم من الكتاب والحكمة مثل أولئك الممتحنين، فإنهم مقتوا ولعنوا بعد حملهم التوراة، وزعموا أنهم التزموا حمله والوفاء به فوعظ هؤلاء بمثالهم لطفاً من الله لهذه الأمة ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ انتهى.

(99/763)

ولما كانت القدرة على تزكية الجلف الجافي بحمله على التنزيه أدل على القدرة على غيره، وكان قد أسلف عن بني إسرائيل أنهم لم يقبلوا التزكية بل زاغوا، دل على قدرته في عزته وحكمته وملكه وقدسه على تزكية جميع العقلاء بقوله: ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الذي

بعث ﴾ أي من حضرة غيب غيبه بشرع أوامره ونواهيه ﴿ في الأميين ﴾ أي العرب لأنهم كانوا معروفين من بين سائر الأمم لا يكتبون بل هم على الخلقة الأولى حين الخروج من بطن الأم ، وذكر ظرف البعث وإهمال غايته دال على أنها كل من يتأتى البعث إليه وهم جميع الخلق ، ويجوز أن تطلق الأمية على جميع أهل الأرض لأن بعثه.صلى الله عليه وسلم.كان حين ذهب العلم من الناس ، ولأن العرب أصل فجميع الباقين تبع لهم ، فلا بدع أن يحمل عليهم وصفهم ﴿ رسولاً ﴾ ولما كان تقويم الشيء بمثله أعجب قال : ﴿ منهم ﴾ بل الأمية بمعنى عدم الكتابة والتجرد عن كل تكلف وصف لازم له دائماً وعلمه لما يكن يعلم من غير تطلب ، فكانت آثار البشرية عند مندرسة ، وأنوار الحقائق عليه لائحة ، وذلك يتوهم الافتقار إلى الاستعانة بالكتب لأن منشأ مشاكلته لحال من بعث فيهم أقرب إلى مساواتهم له لو أمكنهم ، فيكون عدم إمكان المساواة أدل على الإعجاز ، وذكر بعثه منهم إن خص الوصف بالعرب لا ينفي بعثه إلى غيرهم ولا سيما مع ما ورد فيه من الصرائح وأثبته من الدلائل القواطع ، فذكر موضع البعث وابتداءه فتكون الغاية مطلقة تقديرها : إلى عامة الخلق .

ولما كان كونه منهم مفهماً لأنه لا يزيد عليهم من حيث كونه منهم وإن زاد فبشيء يسير ، عجب من أمره ونبه على معجزة عظيمة له بقوله مستأنفاً : ﴿ يتلوا ﴾ أي يقرأ قراءة يتبع بعضها بعضاً على وجه الكثرة والعلو والرفعة ﴿ عليهم ﴾ مع كونه أمياً مثلهم ﴿ آياته ﴾ أي يأتيهم بها على سبيل التجدد والمواصلة آية بينة على صدقه لأنه أمي مثلهم بل فيهم الكاتب والعالم وإن كانوا معمورين في كثرتهم فما خصه عنهم بذلك إلا القادر على كل شيء .

(101/763)

ولما كان المقام للتنزيه ولتأديب من وقع في موادة الكفار ونحو ذلك ، قدم التزكية فقال : ﴿ ويزكيهم ﴾ أي عن الأخلاق الرذيلة والعقائد الزائغة ، فكانت تزكيته لهم مدة حياته بنظره الشريف إليهم وتعليمه لهم وتلاوته عليهم ، فربما نظر إلى الإنسان نظرة محبة فزكاه الله بها ، وربما سرت تلك النظرة إلى ثان فأشرقت أنوارها عليه على حسب القابليات كما وقع لعمير بن وهب ثم صفوان بن أمية وكذا ذو النور الطفيل بن عامر الدوسي -رضى الله عنه- ثم قومه ، فأما عمير فكان من أعظم المؤذين للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولمن آمن به فتذاكر مع صفوان وقعة بدر في الحجر ومن فقدوا من صناديدهم وأنه ليس في العيش

بعدهم خير ، ثم تمنوا رجلاً بقتال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال عمير : لولا فقري وبنات لي وعيال أخشى عليهم الضيعة من بعدي لأتيته بغلة أسيري عندهم فقتلته ، فاغتنمها صفوان فعاهده أن يكفي عياله إن مات وأن يواسيه إن عاش ، فقال : اكتم عني ثلاثاً ، ثم ذهب إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهداه الله فحلف صفوان أن لا يكلمه أبداً ، فلما فتحت مكة فر صفوان ليركب البحر من جدة ، فاستأذن عمير النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم ذهب إليه فلحقه فلم يزل به حتى رجع ثم أسلم فكان من خيار الصحابة ـ رضى الله عنه ـ ، وأما ذو النور فحين دعاه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم سأل آية يعينه الله بها على قومه فآتاه الله نوراً حين أشرف على الحي الذي هو منه ، ثم دعا أباه وأمه فأسلما ، ثم صاحبته فكذلك ثم قومه ، فما تخلف منهم أحد ، وأما غير الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م فتزكيته لهم بآثاره بحسب القابليات والأمور التي قضى الله أن يكون مهياً ، فمن كان له أعشق كان لاتباعه ألزم ، فكان في كتاب الله وسنته أرسخ من سيرة وغيرها علماً وعملاً فكان أشد زكاء .

ولما كانوا بعد التزكية التي هي تخلية عن الرذائل أحوج ما يكون إلى تحلية بالفضائل قال : ﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ أي المنزل عليه الجامع لكل خير ديني ودنيوي في الأولى والأخرى ﴿ والحكمة ﴾ وهي غاية الكتاب في قوة فهمه والعمل به ، فهي العلم المزين بالعمل والعمل المتقن بالعلم معقوله ومنقوله ليضعوا كل شيء منه في أحكم مواضعه فلا يزيغوا عن الكتاب كما زاغ بنو إسرائيل ، فيكون مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً ولو لم يكن له ـ صلى الله عليه وسلم ـ معجزة إلا هذه لكانت غاية .

ولما كان الوصف بالأمية مفهماً للضلال ، وكان كثير منهم حال إنزال هذه السورة يعتقد أنهم على دين متين وحال جليل مبين ، وكانوا بعد هدايته لهم بعد الأمية سيضلون لأن الإرسال من حضرة غيب الغيب في العلوم المنافية للأمية إلى ما لم تصل إليه أمة من الأمم قبلهم ، وكان ذلك موجباً للتوقف في كونهم كانوا أميين ، أكد هذا المفهوم بقوله : ﴿ وإن ﴾ أي والحال أنهم ﴿ كانوا ﴾ أي كوناً هو كالجبلة لهم .

ولما كان كونهم ذلك في بعض الزمن الماضي ، أدخل الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي قبل إرساله إليهم من حين غيروا دين أبيهم إسماعيل عليه الصلاة والسلام وعبدوا الأصنام ﴿ لفي ضلال ﴾ أي بعد عن المقصود ﴿ مبين ﴾ أي ظاهر في نفسه مناد لغيره أنه ضلال باعتقادهم الأباطيل الظاهرة وظنهم أنهم على شيء وعموم الجهل لهم ورضاهم به واختيارهم له وعيبهم من يميل إلى التعلم وينحو نحو التبصر كما وقع لهم مع زيد بن عمرو بن

نفيل وغيره ، فوصفهم بهذا غاية في نفي التعلم من مخلوق عن نبيهم إعظاماً لما جاء به من الإعجاز وتقريراً لشدة احتياجهم إلى نبي يرشدهم إلى الهدى ، وينقذهم مما كانوا فيه من العمى والردى .

(103/763)

ولما كانت تزكيته لهم مع أميتهم وغباوتهم لوصف الأمية في الجهل أمراً باهراً في دلالته على تمام القدرة ، زاد في الدلالة على ذلك بإلحاق كثير ممن في غيرهم من الأمم مثلهم في الأمية بهم فقال : ﴿ وآخرين ﴾ أي وبعثه في آخرين ﴿ منهم ﴾ في الأمية لا في العربية ﴿ لما يلحقوا بهم ﴾ أي في وقت من الأوقات الماضية في صفة من الصفات ، بل هم أجلف الناس كعوام المجوس واليهود والنصارى والبرابر ونحوهم من طوائف العجم الذين هم ألكن الناس لساناً وأجمدهم أذهاناً وأكثفهم طبعاً وشأناً ، وسيلحقهم الله بهم في العلم والتزكية .

ولما كان عدم إلحاقهم بهم في الماضي ربما أوهم شيئاً في القدرة ، وإلحاقهم بهم في المستقبل في غاية الدلالة على القدرة ، قال : ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه وحده ﴿ العزيز ﴾ الذي يقدر على كل شيء ولا يغلبه شيء فهو يزكي من يشاء ويعلمه ما أراد من أيّ طائفة كان ، ولو كان أجمد أهل تلك الطائفة لأن الأشياء كلها بيده ﴿ الحكيم ﴾ فهو إذا أراد شيئاً

موافقاً لشرعه وأمره جعله على أتقن الوجوه وأوثقها فلا يستطاع نقضه ، ومهما أراده كيف كان فلا بد من إنفاذه فلا يطلق رده بوجه ، ويكون المراد بالآخرين العجم ، وأن الله تعالى سيلحقهم بالعرب ، قال ابن عمر . رضى الله عنهما . وسعيد بن جبير أيضاً . رضى الله عنه . وهو رواية ليث عن مجاهد ويؤيده ما :

" روي عن أبي هريرة . رضى الله عنه . أن رجلاً سأل عنهم لما نزلت سورة الجمعة فوضع رسول الله . صلى الله عليه وسلم . يده على سلمان . رضى الله عنه . وقال : " لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء " " .

ولما كان هذا أمراً باهراً ، عظمه بقوله على وجه الاستثمار من قدرته : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الرتبة من تفضيل الرسول وقومه وجعلهم متبوعين بعد أن كان العرب أتباعاً لا وزن لهم عند غيرهم من الطوائف ﴿ فضل الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ، والفضل ما لم يكن مستحقاً بخلاف الفرض ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ بحوله وقوته بأن يهيئه له ولو كان أبعد الناس منه ﴿ والله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ ذو الفضل ﴾ ولما كانت " آل " دالة

على الكمال دل على ذلك بقوله : ﴿ العظيم ﴾ أي الذي يحقر دونه كل عطاء من غيره .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 590 . 595 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ كمثل الحمار ﴾ و ﴿ التوراة ﴾ بالإمالة قد سبق ذكرهما .

الوقوف ﴿ وما في الأرض ﴾ لا ﴿ الحكيم ﴾ ه ﴿ مبين ﴾ ه لا للعطف أي وفي آخرين ﴿ بهم ﴾ ط ﴿ الحكيم ﴾ ه ﴿ من يشاء ﴾ ط ﴿ العظيم ﴾ ه ﴿ أسفاراً ﴾ ط ﴿ بآيات الله ﴾ ط ﴿ الظالمين ﴾ ه ﴿ صادقين ﴾ ه ﴿ أيديهم ﴾ ط ﴿ بالظالمين ﴾ ه ﴿ تعملون ﴾ ه ﴿ البيع ﴾ ط ﴿ تعلمون ﴾ ه ﴿ تفلحون ﴾ ه ﴿ قائماً ﴾ ط ﴿ للتجارة ﴾ ط ﴿ الرازقين ﴾ ه. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 299 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

وجه تعلق هذه السورة بما قبلها هو أنه تعالى قال في أول تلك السورة : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ [الصف : 1] بلفظ الماضي وذلك لا يدل على التسبيح في المستقبل ، فقال في أول هذه السورة بلفظ المستقبل ليدل على التسبيح في زماني الحاضر والمستقبل ، وأما تعلق الأول بالآخر ، فلأنه تعالى ذكر في آخر تلك السورة أنه كان يؤيد أهل الإيمان حتى صاروا عالين على الكفار ، وذلك على وفق الحكمة لا للحاجة إليه إذ هو غني على الإطلاق ، ومنزه عما يخطر ببال الجهلة في الآفاق ، وفي أول هذه السورة ما يدل على كونه مقدساً ومنزهاً عما لا يليق بحضرته العالية بالاتفاق ، ثم إذا كان خلق السموات والأرض بأجمعهم في تسبيح حضرة الله تعال فله الملك ، كما قال تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض لَهُ الملك ﴾ [التغابن : 1] ولا ملك أعظم من هذا ، وهو أنه خالقهم ومالكهم وكلهم في قبضة قدرته وتحت تصرفه ، يسبحون له آناء الليل وأطراف النهار بل في سائر الأزمان ، كما مر في أول تلك السورة ، ولما كان الملك كله له فهو الملك على الإطلاق ، ولما كان الكل بخلقه فهو المالك ، والمالك والملك أشرف من المملوك ، فيكون متصفاً بصفات

يحصل منها الشرف، فلا مجال لما ينافيه من الصفات فيكون قدوساً، فلفظ ﴿الملك﴾ إشارة إلى إثبات ما يكون من الصفات العالية، ولفظ ﴿القدوس﴾ هو إشارة إلى نفي ما لا يكون منها، وعن الغزالي ﴿القدوس﴾ المنزه عما يخطر ببال أوليائه، وقد مر تفسيره وكذلك ﴿العزيز الحكيم﴾ ثم الصفات المذكورة قرئت بالرفع على المدح، أي هو الملك القدوس، ولو قرئت بالنصب لكان وجهاً، كقول العرب: الحمد لله أهل الحمد، كذا ذكره في "الكشاف"، ثم في الآية مباحث:

(107/763)

الأول: قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ ولم يقل: يسبح الله، فما الفائدة؟ نقول: هذا من جملة ما يجري فيه اللفظان: كشكره وشكر له، ونصحه ونصح له.

الثاني: ﴿القدوس﴾ من الصفات السلبية، وقيل: معناه المبارك.

الثالث: لفظ ﴿الحكيم﴾ يطلق على الغير أيضاً، كما قيل في لقمان: إنه حكيم، نقول: الحكيم عند أهل التحقيق هو الذي يضع الأشياء (في) مواضعها، والله تعالى حكيم بهذا المعنى.

ثم إنه تعالى بعدما فرغ من التوحيد والتنزيه شرع في النبوة فقال:

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2)

الأمي منسوب إلى أمة العرب ، لما أنهم أمة أميون لا كتاب لهم ، ولا يقرأون كتاباً ولا يكتبون .

وقال ابن عباس : يريد الذين ليس لهم كتاب ولا نبي بعث فيهم ، وقيل : الأميون الذين هم على ما خلقوا عليه وقد مر بيانه ، وقرىء الأمين بحذف ياء النسب ، كما قال تعالى : ﴿ رَسُولاً مّنْهُمْ ﴾ [المؤمنون : 32] يعني محمداً صلى الله عليه وسلم نسبه من نسبهم ، وهو من جنسهم ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : 128] قال أهل المعاني : وكان هو صلى الله عليه وسلم أيضاً أمياً مثل الأمة التي بعث فيهم ، وكانت البشارة به في الكتب قد تقدمت بأنه النبي الأمي ، وكونه بهذه الصفة أبعد من توهم الاستعانة على ما أتى به من الحكمة بالكتابة ، فكانت حاله مشاكلة لحال الأمة الذين بعث فيهم ، وذلك أقرب إلى صدقة .

وقوله تعالى : ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءاياته ﴾ أي بيناته التي تبين رسالته وتظهر نبوته ، ولا يبعد أن تكون الآيات هي الآيات التي تظهر منها الأحكام الشرعية ، والتي يتميز بها الحق من الباطل ﴿ وَيُزَكّيهِمْ ﴾ أي يطهرهم من خبث الشرك ، وخبث ما عداه من الأقوال والأفعال ، وعند البعض ﴿ يُزَكّيهِمْ ﴾ أي يصلحهم ، يعني يدعوهم إلى اتباع ما يصيرون به أزكياء أتقياء ﴿ وَيُعَلّمُهُمُ الكتاب والحكمة ﴾ والكتاب : ما يتلى من الآيات ، والحكمة : هي الفرائض ، وقيل : ﴿ الحكمة ﴾ السنة ، لأنه كان يتلو عليهم آياته ويعلمهم سننه ، وقيل : ﴿ الكتاب ﴾ الآيات نصاً ، والحكمة ما أودع فيها من المعاني ، ولا يبعد أن يقال : الكتاب آيات القرآن والحكمة وجه التمسك بها ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضلال مُّبِينٍ ﴾ ظاهر لأنهم كانوا عبدة الأصنام وكانوا في ضلال مبين وهو الشرك ، فدعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد والإعراض عما كانوا فيه ، وفي هذه الآية مباحث :

أحدها : احتجاج أهل الكتاب بها قالوا قوله : ﴿ بَعَثَ فِي الأميين رَسُولاً مّنْهُمْ ﴾ يدل على أنه عليه السلام كان رسولاً إلى الأميين وهم العرب خاصة ، غير أنه ضعيف فإنه لا يلزم من تخصيص الشيء بالذكر نفي ما عداه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت : 48] أنه لا يفهم منه أنه يخطه بشماله ، ولأنه لو كان رسولاً إلى العرب خاصة كان قوله تعالى : ﴿ كَافَّةً لّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [سبإ : 28] لا يناسب

ذلك ، ولا مجال لهذا لما اتفقوا على ذلك ، وهو صدق الرسالة المخصوصة ، فيكون قوله تعالى : ﴿ كَافَّةً الناس ﴾ دليلاً على أنه عليه الصلاة والسلام كان رسولاً إلى الكل .

وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3)

﴿ وَءاخَرِينَ ﴾ عطف على الأميين .

(109/763)

يعني بعث في آخرين منهم ، قال المفسرون : هم الأعاجم يعنون بهم غير العرب أي طائفة كانت ، قاله ابن عباس وجماعة ، وقال مقاتل : يعني التابعين من هذه الأمة الذين لم يلحقوا بأوائلهم ، وفي الجملة معنى جميع الأقوال فيه كل من دخل في الإسلام بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة فالمراد بالأميين العرب .

وبالآخرين سواهم من الأمم ، وقوله : ﴿ وَءاخَرِينَ ﴾ مجرور لأنه عطف على المجرور يعني الأميين ، ويجوز أن ينتصب عطفاً على المنصوب في ﴿ وَيُعَلّمُهُمُ ﴾ [الجمعة : 2] أي ويعلمهم ويعلم آخرين منهم ، أي من الأميين وجعلهم منهم ، لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم ، فالمسلمون كلهم أمة واحدة وإن اختلف أجناسهم ، قال تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ [التوبة : 71] وأما من لم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ولم

يدخل في دينه فإنهم كانوا بمعزل عن المراد بقوله : ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ وإن كان النبي مبعوثاً إليهم بالدعوة فإنه تعالى قال في الآية الأولى : ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب والحكمة ﴾ [الجمعة : 2] وغير المؤمنين ليس من جملة من يعلمه الكتاب والحكمة ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ من حيث جعل في كل واحد من البشر أثر الذل له والفقر إليه ، والحكيم حيث جعل في كل مخلوق ما يشهد بوحدانيته ، قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ قال ابن عباس : يريد حيث ألحق العجم وابناءهم بقريش ، يعني إذا آمنوا ألحقوا في درجة الفضل بمن شاهد الرسول عليه السلام ، وشاركوهم في ذلك ، وقال مقاتل : ﴿ ذلك فَضْلُ الله ﴾ يعني الإسلام ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ وقال مقاتل بن حيان : يعني النبوة فضل الله يؤتيه من يشاء ، فاختص بها محمداً صلى الله عليه وسلم .

(110/763)

والله ذو المن العظيم على جميع خلقه في الدنيا بتعليم الكتاب والحكمة كما مر ، وفي الآخرة بتفخيم الجزاء على الأعمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 3 . 5 ﴾

(111/763)

وقال القرطبى :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

تقدّم الكلام فيه .

وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم "الملك القدوس العزيز الحكيم" .

كلها رفعاً ؛ أي هو الملك .

قول تعالى : ﴿ هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأميين رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾

قال ابن عباس : الأميُّون العرب كلهم ، من كتب منهم ومن لم يكتب ، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب .

وقيل : الأميُّون الذين لا يكتبون .

وكذلك كانت قريش .

وروى منصور عن إبراهيم قال : الأمّي الذي يقرأ ولا يكتب .

وقد مضى في "البقرة" .

﴿ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم .

وما من حَيّ من العرب إلا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة وقد وَلَدوُه .

قال ابن إسحاق : إلا حَيّ تَغْلِب ؛ فإن الله تعالى طهّر نبيّه صلى الله عليه وسلم منهم

لنَصْرَانِيَّتهم ، فلم يجعل لهم عليه ولادة .

وكان أمّياً لم يقرأ من كتاب ولم يتعلّم صلى الله عليه وسلم .

قال الماوردي : فإن قيل ما وجه الامتنان فإن بعث نبياً أمّياً ؟ فالجواب عنه من ثلاثة أوجه : أحدها لموافقته ما تقدمت (به) بشارة الأنبياء .

الثاني لمشاكلة حاله لأحوالهم ، فيكون أقرب إلى موافقتهم .

الثالث لينتفي عنه سوء الظن في تعليمه ما دعي إليه من الكتب التي قرأها والحِكَم التي تلاها .

قلت : وهذا كله دليل معجزته وصدق نبوّته .

قوله تعالى : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان ؛ قاله ابن عباس .

وقيل : يطهّرهم من دنس الكفر والذنوب ؛ قاله ابن جُريج ومقاتل .

وقال السدّي : يأخذ زكاة أموالهم ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ والحكمة ﴾ السُّنَّة ؛ قاله الحسن .

وقال ابن عباس : "الكتاب" الخط بالقلم ؛ لأن الخط فَشَا في العرب بالشرع لمّا أُمِروا بتقييده بالخط .

وقال مالك بن أنس : "الحِكْمَة" الفقه في الدِّين .

وقد مضى القول في هذا في "البقرة" .

﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبله وقبل أن يرسل إليهم .

﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في ذهاب عن الحق .

قوله تعالى : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾

هو عطف على "الأمّيين" أي بعث في الأمّيين وبعث في آخرين منهم .

ويجوز أن يكون منصوباً بالعطف على الهاء والميم في "يُعَلِّمُهُم وَيُزَكِّيهِمْ" أي يعلمهم ويعلم آخرين من المؤمنين ؛ لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مسنداً إلى أوّله ، فكأنه هو الذي تولّى كل ما وجد منه .

﴿ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ أي لم يكونوا في زمانهم وسيجيئون بعدهم .

قال ابن عمر وسعيد بن جبير : هم العجم .

وفي صحيح البخاريّ ومسلم "عن أبي هريرة قال : كنا جلوساً عند النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ نزلت عليه سورة "الجمعة" فلما قرأ ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قال رجل : من هؤلاءِ يا رسول الله ؟ فلم يراجعْه النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى سأله مرة أو مرتين

أو ثلاثاً .

قال : وفينا سَلْمان الفارسي .

قال : فوضع النبيّ صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال : "لو كان الإيمان عند الثُّرَيّاَ لناله رجال من هؤلاء" "في رواية" لو كان الدِّين عند الثُّرَيَّا لذهب به رجل من فارس أو قال من أبناء فارس حتى يتناوله" لفظ مسلم .

وقال عكرمة : هم التابعون .

مجاهد : هم الناس كلهم ؛ يعني من بعد العرب الذين بُعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم .

وقاله ابن زيد ومقاتل بن حيّان .

قالا : هم من دخل في الإسلام بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة .

وروى سهل بن سعد السَّاعدي : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن في أصلاب أمتي رجالاً ونساءً يدخلون الجنة بغير حساب ثم تلا ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ "

والقول الأوّل أثبت .

وقد روي : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " "رأيتُني أسقي غنماً سوداً ثم أتبعتها غنماً عُفْراً أَوِّلْها يا أبا بكر" فقال : يا رسول الله ، أما السود فالعرب ، وأما العُفْر فالعجم تتبعك بعد العرب .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كذا أَوَّلَها المَلَك" " يعني جبريل عليه السلام .

رواه ابن أبي لَيْلَى عن رجل من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4)

قال ابن عباس : حيث ألحق العجم بقريش .

وقيل : يعني الإسلام ، فضلُ الله يؤتيه من يشاء قاله الكلبي .

وقيل : يعني الوحي والنبوّة ؛ قاله مقاتل .

وقول رابع إنه المال يُنفق في الطاعة ؛ وهو معنى قول أبي صالح .

وقد روى مسلم عن أبي صالح : عن أبي هريرة " أن فقراء المهاجرين أَتَوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ذهب أهل الدُّثُور بالدرجات العلا والنعيم المقيم .

فقال : "وما ذاك" ؟ قالوا : يُصَلُّون كما نصلّي ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويُعتقون ولا نعتق .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أفلا أعلمكم شيئاً تُدركون به مَن سبقكم

وتَسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضلَ منكم إلاّ من صنع مثل ما صنعتم" قالوا : بلى يا رسول الله ؛ قال "تسبّحون وتكبّرون وتحمدون دُبُرَ كلِّ صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة" .

قال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : سمِع إخواننا أهلُ الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ " وقول خامس إنه انقياد الناس إلى تصديق النبي صلى الله عليه وسلم ودخولهم في دينه ونصرته .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(114/763)

وقال الآلوسى :

بسْم الله الرحمن الرَّحيم

﴿ يُسَبّحُ لِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾

تسبيحاً متجدداً على سبيل الاستمرار ﴿ الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ صفات للاسم الجليل ، وقد تقدم معناها ، وقرأ أبو وائل ، ومسلمة بن محارب ، ورؤبة ، وأبو الدينار ، والأعرابي برفعها على المدح ، وحسن ذلك الفصل الذي فيه نوع طول بين الصفة

والموصوف، وجاء كذلك عن يعقوب، وقرأ أبو الدينار، وزيد بن علي ﴿ القدوس ﴾ بفتح القاف.

﴿ هُوَ الذى بَعَثَ فِى الأميين ﴾ يعني سبحانه العرب لأن أكثرهم لا يكتبون ولا يقرأون. وقد أخرج البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب" وأريد بذلك أنهم على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب فهم على جبلتهم الأولى، فالأمي نسبة إلى الأم التي ولدته، وقيل: نسبة إلى أمة العرب، وقيل: إلى أم القرى، والأولى أشهر، واقتصر بعضهم في تفسيره على أنه الذي لا يكتب، والكتابة على ما قيل: بدئت بالطائف أخذوها من أهل الحيرة وهم من أهل الأنبار، وقرىء الأمين بحذف ياء النسب ﴿ رَسُولاً مّنْهُمْ ﴾ أي كائناً من جملتهم، فمن تبعيضية، والبعضية: إما باعتبار الجنس فلا تدل على أنه عليه الصلاة والسلام أمي، أو باعتبار الخاصة المشتركة في الأكثر فتدل، واختار هذا جمع، فالمعنى رسولاً من جملتهم أمياً مثلهم ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءاياته ﴾ مع كونه أمياً مثلهم لم يعهد منه قراءة ولا تعلم ﴿ وَيُزَكّيهِمْ ﴾ عطف على ﴿ يَتْلُو ﴾ فهو صفة أيضاً لرسولاً أي يحملهم على ما يصيرون به أزكياء طاهرين من خبائث العقائد والأعمال.

﴿ وَيُعَلّمُهُمُ الكتاب والحكمة ﴾ صفة أيضاً لرسولاً مترتبة في الوجود على التلاوة.

وإنما وسط بينهم التزكية التي هي عبارة عن تكميل النفس بحسب قوتها العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للإيذان بأن كلاً من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر ، ولو روعي ترتيب الوجود لربما يتبادل إلى الفهم كون الكل نعمة واحدة كما في سورة البقرة ، وهو السر في التعبير عن القرآن تارة بالآيات ؛ وأخرى بالكتاب والحكمة رمزاً إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة .

ولا يقدح فيه شمول الحكمة لما في تضاعيف الأحاديث النبوية من الأحكام والشرائع قاله بعض الأجلة ، وجوز كون ﴿ الكتاب والحكمة ﴾ كناية عن جميع النقليات والعقليات كالسماوات والأرض بجميع الموجودات .

والأنصار والمهاجرين بجميع الصحابة رضي الله تعالى عنهم .

وفيه من الدلالة على مزيد علمه صلى الله عليه وسلم ما فيه ؛ ولو لم يكن له عليه الصلاة والسلام سوى ذلك معجزة لكفاه كما أشار إليه البوصيري بقوله

: كفاك بالعلم في الأمي معجزة . . .

في الجاهلية والتأديب في اليتم

﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ من الشرك وخبث الجاهلية ، وهو بيان لشدة

افتقارهم إلى من يرشدهم وإن كان نسبة الضلال إليهم باعتبار الأكثر إذ منهم مهتد كورقة وأضرابه، وفي الكلام إزاحة لما عسى أن يتوهم من تعلمه عليه الصلاة والسلام من الغير ﴿ وَأَنْ ﴾ هي المخففة واللام هي الفارقة.

(116/763)

﴿ وَءاخَرِينَ ﴾ جمع آخر بمعنى الغير، وهو عطف على ﴿ الأميين ﴾ [الجمعة: 2] أي وفي آخرين ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي من الأميين، ومن للتبيين ﴿ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ أي لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون، وهو الذين جاءوا بعد الصحابة إلى يوم الدين؛ وجوز أن يكون عطفاً على المنصوب في ﴿ وَيُعَلّمُهُمُ ﴾ [الجمعة: 2] أي ويعلمهم ويعلم آخرين فإن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستنداً إلى أوله فكأنه عليه الصلاة والسلام هو الذي تولى كل ما وجد منه واستظهر الأول، والمذكور في الآية قوله صلى الله عليه وسلم، وجنس الذين بعث فيهم، وأما المبعوث إليهم فلم يتعرض له فيها نفياً أو إثباتاً، وقد تعرض لإثباته في آياته أخر، وخصوص القوم لا ينافي عموم ذلك فلا إشكال في تخصيص الآخرين بكونهم من الأميين أي العرب في النسب، وقيل: المراد من الأميين في الأمية فيشمل العجم، وبهم فسره مجاهد كما رواه عنه ابن جرير.

وغيره وتعقب بأن العجم لم يكونوا أميين.

وقيل: المراد منهم في كونهم منسوبين إلى أمة مطلقاً لا في كونهم لا يقرأون ولا يكتبون، وهو كما ترى إلا أنه لا يشكل عليه وكذا على ما قبله ما أخرجه البخاري.

والترمذي.

والنسائي.

وجماعة عن أبي هريرة قال: "كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم حين أنزلت سورة الجمعة فتلاها فلما بلغ ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ﴾ قال له رجل: يا رسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فوضع يده على سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه، وقال: والذي نفسي بيده لو كان الايمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء" فإنه صلى الله عليه وسلم أشار بذلك إلى أنهم فارس، ومن المعلوم أنهم ليسوا من الأميين المراد بهم العرب في النسب.

وقال بعض أهل العلم: المراد بالأميين مقابل أهل الكتاب لعدم اعتناء أكثرهم بالقراءة والكتابة لعدم كتاب لهم سماوي تدعوهم معرفته إلى ذلك فيشمل الفرس إذ لا كتاب لهم

كالعرب ، وعلى ذلك يخرج ما أشار إليه الحديث من تفسير الآخرين بالفرس وهو مع ذلك من باب التمثيل ، والاقتصار على بعض الأنواع بناءاً على أن بعض الأمم لا كتاب لهم أيضاً ، وربما يقال : إن من في ﴿ مِنْهُمْ ﴾ اسمية بمعنى بعض مبتدأ كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ﴾ [البقرة : 8] وضمير الجمع لآخرين وجملة ﴿ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ خبر فيشمل آخرين ، طوائف الناس الذين يلحقون إلى يوم القيامة من العرب والروم والعجم وغيرهم ؛ وبذلك فسره الضحاك .

وابن حيان .

ومجاهد في رواية ، ويكون الحديث من باب الاقتصار والتمثيل كقول ابن عمر : هم أهل اليمن ، وابن جبير هم الروم والعجم فتدبر .

وزعم بعضهم أن المراد بقوله تعالى : ﴿ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ أنهم لم يلحقوا بهم في الفضل لفضل الصحابة على التابعين ومن بعدهم ، وفيه أن ﴿ لَمَّا ﴾ منفيها مستمر إلى الحال ويتوقع وقوعه بعده فتفيد أن لحوق التابعين ومن بعدهم في الفضل للصحابة متوقع الوقوع مع أنه ليس كذلك ، وقد صرحوا أنه لا يبلغ تابعي وإن جل قدراً في الفضل مرتبة صحابي وإن لم يكن من كبار الصحابة ، وقد سئل عبد الله بن المبارك عن معاوية .

وعمر بن عبد العزيز أيهما أفضل ؟ فقال : الغبار الذي دخل أنف فرس معاوية أفضل عند الله من مائة عمر بن عبد العزيز فقد صلى معاوية خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] الخ فقال معاوية : آمين ، واستدل على عدم اللحوق بما صح من قوله عليه الصلاة والسلام فيهم : " لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه " على القول بأن الخطاب لسائر الأمة ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم : " أمتي كالمطر لا يدري أوله خير أم آخر " فمبالغة في خيريتهم كقول القائل في ثوب حسن البطانة : لا يدري ظهارته خير أم بطانته .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم من كونه عليه الصلاة والسلام رسولاً في الأميين ومن بعدهم معلماً مزكياً وما فيه من معنى البعد للتعظيم أي ذلك الفضل العظيم ﴿ فَضْلُ اللهِ ﴾ وإحسانه جل شأنه ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ من عباده تفضلاً ، ولا يشاء سبحانه إيتاءه لا حد بعده صلى الله عليه وسلم .

﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ الذي يستحقر دونه نعم الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

افتتاح السورة بالإخبار عن تسبيح أهل السماوات والأرض لله تعالى براعة استهلال لأن الغرض الأول من السورة التحريض على شهود الجمعة والنهي عن الأشغال التي تشغل عن شهودها وزجر فريق من المسلمين انصرفوا عن صلاة الجمعة حِرصاً على الابتياع من عِيرٍ وردت المدينة في وقت حضورهم لصلاة الجمعة .

وللتنبيه على أن أهل السماوات والأرض يجددون تسبيح الله ولا يفترون عنه أوثر المضارع في قوله : ﴿ يسبح ﴾ .

ومعاني هذه الآية تقدمت مفرقة في أوائل سورة الحديد وسورة الحشر .

سوى أن هذه السورة جاء فيها فعل التسبيح مُضارعاً وجيء به في سواها ماضياً لمناسبةٍ فيها وهي : أن الغرض منها التنويه بصلاة الجمعة والتنديد على نفر قطعوا عن صلاتهم وخرجوا لتجارة أو لهو فمناسب أن يحكى تسبيح أهل السماوات والأرض بما فيه دلالة على استمرار تسبيحهم وتجدده تعريضاً بالذين لم يتموا صلاة الجمعة .

ومعاني صفات الله تعالى المذكورة هنا تقدمت في خواتم سورة الحشر .

ومناسبة الجمع بين هذه الصفات هنا أن العظيم لا يَنصرِف عن مجلس من كان عنده إلا

عند انفضاض مجلسه أو إيذانه بانصرافهم .

و﴿ القُدوس ﴾ : المنزَّه عن النقص وهو يُرغب في حضرته .

و﴿ العزيز ﴾ : يَعتز الملتفون حوله .

فمفارقتهم حضرته تفريط في العزة .

وكذلك ﴿ الحكيم ﴾ إذا فارق أحد حضرته فاته في كل آن شيء من الحكمة كما فات الذين انفضوا إلى العِير مَا خطب به النبي صلى الله عليه وسلم إذْ تركوه قائماً في الخطبة .

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

(120/763)

استئناف بياني ناشىء عن إجراء الصفات المذكورة آنفاً على اسم الجلالة إذ يتساءل السامع عن وجه تخصيص تلك الصفات بالذكر من بين صفات الله تعالى فكأن الحال مقتضياً أن يبين شيء عظيم من تعلق تلك الصفات بأحوال خلقه تعالى إذ بعث فيهم رسولاً يطهر نفوسهم ويزكيهم ويعلمهم .

فصفة ﴿ الملك ﴾ [الجمعة : 1] تعلقت بأن يدبر أمر عباده ويصلح شؤونهم ، وصفة ﴿ القدوس ﴾ [الجمعة : 1] تعلقت بأن يزكي نفوسهم ، وصفة ﴿ العزيز ﴾ [الجمعة

: 1] اقتضت أن يلحق الأميين من عباده بمراتب أهل العلم ويخرجهم من ذلة الضلال فينالوا عزة العلم وشرفه ، وصفة ﴿ الحكيم ﴾ [الجمعة : 1] اقتضت أن يعلمهم الحكمة والشريعة .

وابتداء الجملة بضمير اسم الجلالة لتكون جملة اسمية فتفيد تقوية هذا الحكم وتأكيده ، أي أن النبي صلى الله عليه وسلم مَبعوث من الله لا محالة .

و﴿ في ﴾ من قوله : ﴿ في الأميين ﴾ للظرفية ، أي ظرفية الجماعة ولأحد أفرادها .

ويفهم من الظرفية معنى الملازمَة ، أي رسولاً لا يفارقهم فليس ماراً بهم كما يَمرّ المرسل بمقالةٍ أو بمالكةٍ يبلغها إلى القوم ويغادرهم .

والمعنى : أن الله أقام رسوله للناس بين العرب يدعوهم وينشر رسالته إلى جميع النّاس من بلاد العرب فإن دلائل عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم معلومة من مواضع أخرى من القرآن كما في سورة [الأعراف : 158] ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وفي سورة [سبأ : 28] ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً .

﴾ والمراد بالأميين : العرب لأن وصف الأميّة غالب على الأمة العربية يومئذٍ .

ووصف الرسول بـ ﴿ منهم ﴾ ، أي لم يكن غريباً عنهم كما بعث لوطاً إلى أهل سدوم ولا كما بعث يونس إلى أهل نينوَى ، وبعث إلياس إلى أهل صيدا من الكنعانيين الذين يعبدون بَعل ، ف (من) تبعيضية ، أي رسولاً من العرب .

وهذه منة موجهة للعرب ليشكروا نعمة الله على لطفه بهم ، فإن كون رسول القوم منهم نعمةٌ زائدة على نعمة الإِرشاد والهدي ، وهذا استجابة لدعوة إبراهيم إذ قال : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ [البقرة : 129] فتذكيرهم بهذه النعمة استنزال لطائر نفوسهم وعنادهم .

وفيه تورك عليهم إذ أعرضوا عن سماع القرآن فإن كون الرسول منهم وكتابه بلغتهم هو أعون على تلقي الإِرشاد منه إذ ينطلق بلسانهم ويحملهم على ما يصلح أخلاقهم ليكونوا حملة هذا الدين إلى غيرهم .

و﴿ الأميين ﴾ : صفة لموصوف محذوف دل عليه صيغة جمع العقلاء ، أي في الناس الأميين .

وصيغة جمع الذكور في كلام الشارع تشمل النساء بطريقة التغليب الاصطلاحي ، أي في الأميين والأمّيات فإن أدلة الشريعة قائمة على أنها تعم الرجال والنساء إلا في أحكام معلومة .

والأميون : الذين لا يقرؤون الكتابة ولا يكتبون ، وهو جمع أمي نسبة إلى الأمة ، يعنون بها

أمة العرب لأنهم لا يكتبون إلا نادراً ، فغلبت هذا التشبيه في الإطلاق عند العرب حتى صارت تطلق على من لا يكتب ولو من غيرهم ، قال تعالى في ذكر بني إسرائيل ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني ﴾ وقد تقدم في سورة [البقرة : 78] .

وأوثر التعبير به هنا توركاً على اليهود لأنهم كانوا يقصدون به الغض من العرب ومن النبي جهلاً منهم فيقولون : هو رسول الأميين وليس رسولاً إلينا .

وقد قال ابن صياد للنبي لما قال له : أتشهد أني رسول الله .

أشهد أنكَ رسولُ الأميين .

وكان ابن صياد متديناً باليهودية لأن أهله كانوا حلفاء لليهود .

(122/763)

وكان اليهود ينتقصون المسلمين بأنهم أميون قال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ﴾ [آل عمران : 75] فتحدى الله اليهود بأنه بعث رسولاً إلى الأميين وبأن الرسول أمي ، وأعلمهم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء كما في آخر الآية وأن فضل الله ليس خاصاً باليهود ولا بغيرهم وقد قال تعالى من قبل لموسى ﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ﴾ [القصص :

5 - 6].

ووصف الرسول بأنه منهم ، أي من الأميين شامل لمماثلته لهم في الأمية وفي القومية .

وهذا من إيجاز القرآن البديع .

وفي وصف الرسول الأمي بأنه يتلو على الأميين آيات الله ، أي وحيه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب ، أي يلقنهم إياه كما كانت الرسل تلقن الأمم الكتاب بالكتابة ، ويعلمهم الحكمة التي علمتها الرسل السابقون أممهم في كل هذه الأوصاف تحد بمعجزة الأمية في هذا الرسول صلى الله عليه وسلم أي هو مع كونه أمّياً قد أتى أمته بجميع الفوائد التي أتى بها الرّسل غير الأميين أممهم ولم ينقص عنهم شيئاً ، فتمحضت الأمية للكون معجزة حصل من صاحبها أفضل مما حصل من الرسل الكاتبين مثل موسى .

وفي وصف الأميّ بالتلاوة وتعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس ضرب من محسن الطباق لأن المتعارف أن هذه مضادة للأمية .

وابتدىء بالتلاوة لأن أول تبليغ الدعوة بإبلاغ الوحي ، وثني بالتزكية لأن ابتداء الدعوة بالتطهير من الرجس المعنوي وهو الشرك ، وما يعْلق به من مساوىء الأعمال والطباع .

وعقب بذكر تعليمهم الكتاب لأن الكتاب بعد إبلاغه إليهم تُبيّن لهم مقاصده ومعانيه كما قال تعالى : ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه ﴾ [القيامة : 18 ، 19] ، وقال : ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ [النحل : 44] ، وتعليم الحكمة هو غاية ذلك كله لأن من تدبر القرآن وعمل به وفهم خفاياه نال الحكمة قال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ [البقرة : 231] ونظيرها قوله : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ في سورة [آل عمران : 164] .

وجملة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ في موضع الحال من الأميين ، أي ليست نعمة إرسال هذا الرسول إليهم قاصرة على رفع النقائص عنهم وعلى تحليتهم بكمال علم آيات الله وزكاة أنفسهم وتعليمهم الكتاب والحكمة بل هي أجل من ذلك إذ كانت منقذة لهم من ضلال مبين كانوا فيه وهو ضلال الإِشراك بالله .

وإنما كان ضلالاً مبيناً لأنه أفحش ضلال وقد قامت على شناعته الدلائل القاطعة ، أي فأخرجهم من الضلال المبين إلى أفضل الهدى ، فهؤلاء هم المسلمون الذين نفروا إسلامهم في وقت نزول هذه السورة .

و﴿ إنْ ﴾ مخففة من الثقيلة وهي مهملة عن العمل في اسمها وخبرها .

وقد سد مسدها فعل (كان) كما هو غالب استعمال ﴿ إنْ ﴾ المخففة .

واللام في قوله : ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ تسمى اللام الفارقة ، أي التي تفيد الفرق بين (إنْ) النافية و ﴿ إنْ ﴾ المخففة من الثقيلة وما هي إلا اللام التي أصلها أن تقترن بخبر (إن) إذ الأصل : وإنهم لفي ضلال مبين ، لكن ذكر اللام مع المخففة واجب غالباً لئلا تلتبس بالنافية ، إلا إذا أمن اللبس .

وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3)

(124/763)

لا يجوز أن يكون ﴿ وآخرين ﴾ عطفاً على ﴿ الأميين ﴾ [الجمعة : 2] لأن آخرين يقتضي المغايرة لما يقابله فيقتضي أنه صادق على غير الأميين ، أي غير العرب والرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن بين غير العرب فتعين أن لا يعطف ﴿ وآخرين ﴾ على ﴿ الأميين ﴾ لئلا يتعلق بفعل ﴿ بعث مجرور القي ولا على الضمير في قوله : منهم ﴾ كذلك .

فهو إما معطوف على الضمير في ﴿ عليهم ﴾ من قوله : ﴿ يتلوا عليهم ﴾ [الجمعة : 2] والتقدير : ويتلو على آخرين وإذا كان يتلو عليهم فقد علم أنه مرسل إليهم لأن تلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم لا تكون إلا تلاوة تبليغ لما أُوحي به إليه .

وإما أن يجعل ﴿ وآخرين ﴾ مفعولاً معه .

والواو للمعية ويتنازعه الأفعال الثلاثة وهي "يتلو ، ويزكي ، ويعلم" .

والتقدير : يتلو على الأميين آياتنا ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة مع آخرين .

وجملة ﴿ وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ [الجمعة : 2] معترضة بين المعطوف والمعطوف عليها أو بين الضمائر والمفعول معه و ﴿ آخرين ﴾ : جمع آخر وهو المغاير في وصف مما دل عليه السياق .

وإذ قد جعل ﴿ آخرين ﴾ هنا مقابلاً للأميين كان مراداً به آخرون غير الأميين ، أي من غير العرب المعنيين بالأميين .

فلو حملنا المغايرة على المغايرة بالزمان أو المكان ، أي مغايرين للذين بعث فيهم الرسول ، وجعلنا قوله : ﴿ منهم ﴾ بمعنى أنهم من الأميين ، وقلنا : أريد وآخرين من العرب غير الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ، أي عَرباً آخرين غير أهل مكة ، وهم بقية قبائل العرب ناكده ما روى البخاري ومسلم والترمذي يزيد آخِرهم على الأوَّلَيْن عن أبي هريرة قال : كنّا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه سورة الجمعة فتلاها فلما

بلغ ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قال له رجل : مَن هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعه حتى سأَل ثلاثاً ، وفينا سلمان الفارسي ووضع رسول الله يده على سلمان وقال : لو كان الإِيمانُ عند الثريا لناله رجال من هؤلاء ؟ وهذا وارد مورد التفسير لقوله تعالى : ﴿ وآخرين ﴾ .

والذي يلوح أنه تفسير بالجزئي على وجه المثال ليفيد أن ﴿ آخرين ﴾ صادق على أمم كثيرة منها أمةُ فارس ، وأما شموله لقبائل العرب فهو بالأَوْلى لأنهم مما شملهم لفظ الأميين .

ثم بِنَا أن ننظر إلى تأويل قوله تعالى : ﴿ منهم ﴾ .

فلنا أن نجعل (مِن) تبعيضية كما هو المتبادر من معانيها فنجعلَ الضمير المجرور بـ (مِن) عائداً إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ كانوا ﴾ من قوله : ﴿ وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ [الجمعة : 2] ، فالمعنى : وآخرين من الضّالين يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم الكتاب والحكمة ولنا أن نجعل (مِن) اتصالية كالتي في قوله تعالى : ﴿ لست منهم في شيء ﴾ [الأنعام : 159] .

والمعنى : وآخرين يتصلون بهم ويصيرون في جملتهم ، ويكون قوله : ﴿ منهم ﴾ موضع الحال ، وهذا الوجه يناسب قوله تعالى : ﴿ لما يلحقوا بهم ﴾ لأن اللحوق هو معنى الاتصال .

وموضع جملة ﴿ لما يلحقوا بهم ﴾ موضع الحال ، وينشأ عن هذا المعنى إيماء إلى أن الأمم التي تدخل في الإِسلام بعد المسلمين الأولِينَ يصيرون مثلهم ، وينشأ منه أيضاً رمز إلى أنهم يتعربون لفهم الدين والنطق بالقرآن فكم من معان جليلة حوتها هذه الآية سكت عنها أهل التفسير .

وهذه بشارة غيبية بأن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ستبلغ أُمماً ليسوا من العرب وهم فارس ، والأرمن ، والأكراد ، والبربر ، والسودان ، والروم ، والترك ، والتتار ، والمغول ، والصين ، والهنود ، وغيرهم وهذا من معجزات القرآن من صنف الإِخبار بالمغيبات .

وفي الآية دلالة على عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم لجميع الأمم .

والنفي بـ (لمَّا) يقتضي أن المنفي بها مستمر الانتفاء إلى زمن التكلم فيشعر بأنه مترقَّب الثبوت كقوله تعالى : ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ [الحجرات : 14] ، أي وسيدخل كما في "الكشاف" ، والمعنى : أن آخرين هم في وقت نزول هذه الآية لم يدخلوا في الإِسلام ولم يلتحقوا بمن أسلم من العرب وسيدخلون في أزمان أخرى .

واعلم أن قول النبي صلى الله عليه وسلم "لو كان الإِيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء" إيماء إلى مثال مما يشمله قوله تعالى : ﴿ وآخرين منهم ﴾ لأنه لم يصرح في جواب سؤال السائل بلفظ يقتضي انحصار المراد بـ ﴿ آخرين ﴾ في قوم سلمان .

وعن عكرمة : هم التابعون .

وعن مجاهد : هم الناس كلهم الذين بُعث إليهم محمد صلى الله عليه وسلم وقال ابن عمر : هم أهل اليمن .

وقوله : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ تذييل للتعجيب من هذا التقدير الإلهي لانتشار هذا الدين في جميع الأمم .

فإن ﴿ العزيز ﴾ لا يغلب قدرته شيء .

و﴿ الحكيم ﴾ تأتي أفعاله عن قدر محكم .

ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4)

الإِشارة إلى جميع المذكورِ من إرسال محمد صلى الله عليه وسلم بالآيات والتزكية وتعليم الكتاب والحكمة والإِنقاذ من الضلال ومن إفاضة هذه الكمالات على الأميين الذين لم تكن لهم سابقة علم ولا كتاب ، ومن لحاق أمم آخرين في هذا الخبر فزال اختصاص اليهود بالكتاب والشريعة ، وهذا أجدع لأنفهم إذ حالوا أن يجيء رسول أمي بشريعة إلى أمة أمية فضلاً عن أن نلتحق بأمية أمم عظيمة كانوا أمكن في المعارف والسلطان .

وقال : ﴿ قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثلما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ [آل عمران : 13] يختص به .

وهذا تمهيد ومقدمة لقوله تعالى : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ﴾ [الجمعة : 5] الآيات .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(128/763)

قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أدب عباده المؤمنين في الممتحنة عما يؤذي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأتمه في الصف بما حذر من إزاغة القلوب لمن آذى نبيه موسى عليه الصلاة والسلام ، وأعلم أنه

سبحانه جمع الآداب كلها في هذا الكتاب الذي أنزله على نبيهم الذي جعله خاتم الأنبياء وأشرف الأصفياء ، ودل على فضله العظيم بتعليم الجاهل ، دل على عقابه الأليم تتميماً للدلالة على باهر قدرته بتجهيل العالم بإزاغة قلبه وإذهاب لبه بيأسه من الآخرة لغضبه عليه تحذيراً من الوقوع بما يوجب الإضلال بعد العلم ، فقال جواباً لمن كأنه قال : هذا فضله على الجاهل فكيف فعله بالعالم؟ فقال تحذيراً من يزكي فلا يتزكى بأن يقول ما لا يعمل ، ويحمل الكتاب فيحمله غير عالم به من أن يفعل به ما فعل باليهود من الذل في الدنيا والخزي والعذاب في الآخرة بإزاغة القلوب وإحاطة الذنوب فيكون أقبح مما قيل فيه .

من فاته العلم وأخطأ الغنى . . .

فذاك والكلب على حد سوا

﴿ مثل الذين ﴾ ولما كان العلم ولا سيما الرباني يجب أن يفرح به ويرغب فيه من أيّ موصل كان ، بني للمجهول قوله وصيانة لاسمه الشريف عن أن يذكر عن العصيان : ﴿ حملوا التوراة ﴾ أي كلفوا وألزموا حمل الكتاب الذي آتاه الله لبني إسرائيل على لسان موسى عليه الصلاة والسلام بأن علمهم إياها سبحانه وكلفهم حفظ ألفاظها عن التغيير والنسيان ومعانيها عن التحريف والتلبيس وحدودها وأحكامها عن الإهمال والتضييع .

ولما كان تركهم لحملها وهي من عند الله وعلى لسان رجل منهم هو أعظم في أنفسهم وأجلهم إحساناً إليهم في غاية البعد ولا سيما مع طول الزمان المسهل لحفظها الميسر لتدبرها وتعرف مقدارها ، عبر بأداة البعد فقال : ﴿ ثم لم يحملوها ﴾ بأن حفظوا ألفاظها ولم يعملوا بما فيها من الوصية باتباع عيسى عليه الصلاة والسلام إذا جاءهم ثم محمد . صلى الله عليه وسلم . إذا جاء ، فهي ضارة لهم بشهادتها عليهم قاذفة لهم في النار من غير نفع أصلاً ﴿ كمثل ﴾ أي مِثْل مَثَل ﴿ الحمار ﴾ الذي هو أبله الحيوان ، فهو مثل في الغباوة ، حال كونه ﴿ يحمل أسفاراً ﴾ أي كتباً من العلم كاشفة للأمور تنفع الألباء ، جمع سفر ، وهو الكتاب الكبير المسفر عما فيه .

ولما كان المثل الجامع لهما - وهو وجه الشبه - شخصاً مثقلاً متعباً جداً بشيء لا نفع له به أصلاً فهو ضرر عليه صرف لا يدرك ما هو حامله غير أنه متعب ولا يدري أصخر هو أم كتب ، أنتج قوله معبراً بالأداة التي هي لجامع الذم ترهيباً للآدميين من أن يتهاونوا بشيء من أحكام القرآن فيكونوا أسوأ مثلاً من أهل الكتاب فيكونوا دون الحمار لأن رسولهم . صلى

الله عليه وسلم ـ أعظم وكتابهم أعلى وأفخم فقال : ﴿ بئس مثل القوم ﴾ أي الذين لهم قوة شديدة على محاولة ما يريدونه فلم يؤتوا من عجز يعذرون به ﴿ الذين كذبوا ﴾ أي عمدوا على علم عناداً منهم وكفراً ﴿ بآيات الله ﴾ أي دلالات الملك الأعظم على رسله ولا سيما محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجميع ما يرضيه مثلهم فإن مثلهم قد تكفل بتعريف أنهم قد اجتمعوا مع الحمار في وصف هو الروح الباطني ، وهو الضرر الصرف الذي لا نفع فيه بوجه بأنفع الأشياء ، وهو ما دل على الله فضمن سعادة الدارين ، وهذا المثل وإن كان نصاً في اليهود فهو لجميع قراء السوء من كل ملة لاشتراكهم معهم في وجه الشبه كما أن مثل الكلب في الأعراف على هذا النحو ، وكأنه لم يدخل سبحانه هذه الأمة في ذلك صريحاً إشارة إلى حفظها من غير أن يكلها إلى نفسها كما أنه آتاها العلم مع الأمية منها ومن رسولها من غير أن يكلهم إلى كتابة ولا تقدم علم ما ولا تكلف لشيء .

ولما كان التقدير : فاستحقوا الوصف بجميع المذام لأنهم ظلموا أشد الظلم ، عطف عليه قوله : ﴿ والله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال لا يهديهم – هكذا كان الأصل ، ولكنه أظهر تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال : ﴿ لا يهدي القوم ﴾ أي لا يخلق الهداية في قلوب الأقوياء الذين تعمدوا الزيغ : ﴿ الظالمين ﴾ أي الذين تعمدوا الظلم بمنابذة الهدى الذي هو البيان الذي لم يدع لبساً حتى صار الظلم لهم صفة راسخة .

ولما كان قولهم أنهم أولياء الله وأحباؤه في غاية البعد من هذا المثل ، استأنف ما يدل على صحة المثل قطعاً ، فقال معرضاً عنهم آمراً لمن كذبوه بتبكيتهم : ﴿ قل ﴾ أي يا أيها الرسول الذي هم قاطعون بأنه رسوله الله : ﴿ يا أيها الذين هادوا ﴾ أي تدينوا باليهودية . ولما كان الحق يصدع من له أدنى مسكة ، فكانوا جديرين بالرجوع عن العناد ، عبر بأداة الشك فقال : ﴿ إن زعمتم ﴾ أي قلتم قولاً هو معرض للتكذيب ولذلك أكدتموه ﴿ أنكم أولياء الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لا أمر لأحد معه ، خصكم بذلك خصوصية مبتدأة ﴿ من دون ﴾ أي أدنى رتبة من رتب ﴿ الناس ﴾ فلم تتعد الولاية تلك الرتبة الدنيا إلى أحد منكم غيركم ، بل خصكم بذلك عن كل من فيه أهلية الحركة لا سيما الأميين ﴿ فتمنوا الموت ﴾ وأخبروا عن أنفسكم بذلك للقلة من دار البلاء إلى محل الكرامة والآلاء ﴿ إن كنتم ﴾ أي كوناً راسخاً ﴿ صادقين ﴾ أي عريقين عند أنفسكم في الصدق فإن من علامات المحبة الاشتياق إلى المحبوب ، ومن التطوع به أن من كان في كدر وكان له ولي قد وعده عند الوصول إليه الراحة التي لا يشوبها ضرر أنه يتمنى النقلة إلى وليه ، روي أنه. صلى الله عليه وسلم. قال لهم " والذي نفسي بيده لا يقولها منكم أحد إلا غص بريقه " فلم يقلها أحد منهم علماً منهم بصدقه. صلى الله عليه وسلم. فلم يقولوا ولم يؤمنوا عناداً منهم .

(132/763)

ولما كان التقدير : فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ امتثالاً لأمرنا ذلك ، فلم يتمنوه في الوقت الحاضر ، تصديقاً منا لنبوته وتعجيزاً وتحقيقاً لمعجزات رسالته ، دل على هذا المقدر بما عطف عليه من قوله الدال قطعاً على صدقه بتصديقهم له بالكف عما أخبر أنهم لا يفعلونه : ﴿ ولا يتمنونه ﴾ أي في المستقبل ، واكتفى بهذا في التعبير بلا لأن المذكور من دعواهم هنا أنهم أولياء لا كل الأولياء فهي دون دعوى الاختصاص بالآخرة ، وأيضاً الولاية للتوسل إلى الجنة ، ولا يلزم منها الاختصاص بالنعمة بدليل أن الدنيا ليست خالصة للأولياء المحقق لهم الولاية ، بل البر والفاجر مشتركون فيها .

ولما أخبر بعدم تمنيهم ، وسع لهم المجال تحقيقاً للمراد فقال : ﴿ أبداً ﴾ وعرف أن سببه معرفتهم بأنهم أعداء الله فقال : ﴿ بما قدمت ﴾ ولما كان أكثر الأفعال باليد ، نسب الكل إليها لأنها صارت عبارة عن القدرة فقال : ﴿ أيديهم ﴾ أي من المعاصي التي أحاطت بهم فلم تدع لهم حظاً في الآخرة بعلمهم .

(133/763)

ولما كان التقدير تسبباً عن هذا : لئلا يقولوا : سلمنا جميع ما قيل في الظالمين لكنا لسنا منهم فالله عليم بهم في أفعالهم ونياتهم ، عطف عليه قوله معلقاً بالوصف تعميماً وإعلاماً بأن وصف ما قدموا من الظلم ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ عليم ﴾ أي بالغ العلم محيط بهم - هكذا كان الأصل ، ولكنه قال : ﴿ بالظالمين ﴾ تعميماً وتعليقاً بالوصف لا بالذات ، فالمعنى أنه عالم بأصحاب هذا الوصف الراسخين فيه منهم ومن غيرهم فهو يجازيهم على ظلمهم وهم يعلمون ذلك ، وأعظم مصدق الله - ومن أصدق من الله قيلاً - في هذا أنهم ما قوتلوا قط إلا أرزوا إلى حصونهم وقراهم كما مر في سورة الحشر ، فدل ذلك على أنهم أحرص على الحياة الدنيا من الذين أشركوا كما مر في سورة البقرة فإنهم عالمون بأنهم يصيرون إلى النار ، والعرب يظنون أنهم لا يبعثون فهم لا يخافون ما بعد الموت وهم شجعان يقدمون على الموت كما قال عنترة بن شداد العبسي :

بكرت تخوفني المنون كأنني . . .

أصبحت عن عرض الحتوف بمعزل

فأجبتها أن المنية منهل . . .

لا بد أن أسقى بذاك المنهل

فافني حياك لا أبا لك واعلمي . . .

أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

ولما كان عدم تمنيهم علم من أعلام نبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لموافقته ما أخبر به ، وكان ذلك فعل من يعتقد أن التمني يقدمه عن أجله وعدمه يؤخره ، فصاروا بين التكذيب بما عندهم ونهاية البلادة ، أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتنبيههم على بلادتهم تبكيتاً لهم فقال : ﴿ قل ﴾ وأكد إعلاماً لهم بأنه يلزم من فعلهم هذا إنكار الموت الذي لا ينكره أحد فقال : ﴿ إن الموت ﴾ وزاد في التقريع والتوبيخ بقوله : ﴿ الذي تفرون منه ﴾ أي بالكف عن التمني الذي هو أيسر ما يكون مع أنه يوصلكم إلى تكذيب من أنتم جاهدون في تكذيبه ، وأكد وقوعه بهم لأن عملهم عمل من هو منكر له ، وربطه بالفاء جعلاً لفرارهم كالسبب له ، فإن الجبن من أسباب الموت مع ما يكسب من العار كما قال : " إن الجبان حتفه من فوقه " أي هو غالب عليه غلبة العالي على السافل فقال : ﴿ فإنه ملاقيكم ﴾ أي مدرككم في كل وجه سلكتموه بالظاهر أو الباطن .

ولما كان الحبس في البرزخ أمراً – مع أنه لا بد منه – مهولاً ، نبه عليه وعلى طوله بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم تردون ﴾ ونبه بالبناء للمفعول على القهر منه سبحانه والصغار منهم وأنه عنده في غاية السهولة ﴿ إلى عالم الغيب ﴾ وهو كل ما غاب عن العباد فهو مخبر عن

أخلاقكم عن علم .

ولما كان بعض الفلاسفة يقر بعلمه تعالى بالكليات ، وينكر علمه بالجزئيات قال :

﴿ والشهادة ﴾ وهي كل ما ظهر وتشخص ولو لواحد من الخلق قبل كونه وبعد كونه .

ولما كان التوقيف على الأعمال فظيعاً مرجفاً ، قال مسبباً عن الرد : ﴿ فينبئكم ﴾ أي يخبركم إخباراً عظيماً مستقصى مستوفى ﴿ بما كنتم ﴾ أي بما هو لكم كالجبلة ﴿ تعملون ﴾ أي بكل جزء منه مما برز إلى الخارج ومما كان في جبلاتكم ولو لقيتم لعلمتموه ليجازيكم عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 595 . 599 ﴾

(135/763)

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى ضرب لليهود الذين أعرضوا عن العمل بالتوراة ، والإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم مثلاً فقال :

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا

اعلم أنه تعالى لما أثبت التوحيد والنبوة ، وبين في النبوة أنه عليه السلام بعث إلى الأميين

واليهود لما أوردوا تلك الشبهة ، وهي أنه عليه السلام بعث إلى العرب خاصة ، ولم يبعث إليهم بمفهوم الآية أتبعه الله تعالى بضرب المثل للذين أعرضوا عن العمل بالتوراة ، والإيمان بالنبي عليه السلام ، والمقصود منه أنهم لما لم يعملوا بما في التوراة شبهوا بالحمار ، لأنهم لو عملوا بمقتضاها لانتفعوا بها ، ولم يوردوا تلك الشبهة ، وذلك لأن فيها نعت الرسول عليه السلام ، والبشارة بمقدمه ، والدخول في دينه ، وقوله : ﴿ حُمِّلُواْ التوراة ﴾ أي حملوا العمل بما فيها ، وكلفوا القيام بها ، وحملوا وقرىء : بالتخفيف والتثقيل ، وقال صاحب "النظم" : ليس هو من الحمل على الظهر ، وإنما هو من الحمالة بمعنى الكفالة والضمان ، ومنه قيل للكفيل : الحميل ، والمعنى : ضمنوا أحكام التوراة ثم لم يضمنوها ولم يعملوا بما فيها .

قال الأصمعي : الحميل ، الكفيل ، وقال الكسائي : حملت له حمالة .

أي كفلت به ، والأسفار جمع سفر وهو الكتاب الكبير ، لأنه يسفر عن المعنى إذا قرىء ، ونظيره شبر وأشبار ، شبه اليهود إذ لم ينتفعوا بما في التوراة ، وهي دالة على الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم بالحمار الذي يحمل الكتب العلمية ولا يدري ما فيها .

وقال أهل المعاني : هذا المثل مثل من يفهم معاني القرآن ولم يعمل به ، وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه ، ولهذا قال ميمون بن مهران : يا أهل القرآن اتبعوا القرآن قبل أن يتبعكم (1) ثم تلا هذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ أي لم يؤدوا حقها ولم يحملوها حق حملها على ما بيناه ، فشبههم والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها بحمار يحمل كتباً ، وليس له من ذلك إلا ثقل الحمل من غير انتفاع مما يحمله ، كذلك اليهود ليس لهم من كتابهم إلا وبال الحجة عليهم ، ثم ذم المثل ، والمراد منه ذمهم فقال : ﴿ بِئْسَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بآيات الله ﴾ أي بئس القوم مثلاً الذين كذبوا ، كما قال : ﴿ سَاء مَثَلاً القوم ﴾ [الأعراف : 177] وموضع الذين رفع ، ويجوز أن يكون جراً ، وبالجملة لما بلغ كذبهم مبلغاً وهو أنهم كذبوا على الله تعالى كان في غاية الشر والفساد ، فلهذا قال : ﴿ بِئْسَ مَثَلُ القوم ﴾ والمراد بالآيات ههنا الآيات الدالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو قول ابن عباس ومقاتل ، وقيل : الآيات التوراة لأنهم كذبوا بها حين تركوا الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا أشبه هنا ﴿ والله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ قال عطاء : يريد الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الأنبياء

---

(1) معنى اتباع القرآن لهم إذا أهملوا العمل به عاقبهم الله على تضيع أحكامه وعدم الامتثال بأوامره وإسناد الاتباع إلى القرآن مجاز .

وههنا مباحث :

البحث الأول : ما الحكمة في تعيين الحمار من بين سائر الحيوانات ؟ نقول : لوجوه منها : أنه تعالى خلق ﴿ الخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ والزينة في الخيل أكثر وأظهر ؛ بالنسبة إلى الركوب ، وحمل الشيء عليه ، وفي البغال دون ، وفي الحمار دون البغال ، فالبغال كالمتوسط في المعاني الثلاثة ، وحينئذ يلزم أن يكون الحمار في معنى الحمل أظهر وأغلب بالنسبة إلى الخيل والبغال ، وغيرهما من الحيوانات ، ومنها : أن هذا التمثيل لإظهار الجهل والبلادة ، وذلك في الحمار أظهر ، ومنها : أن في الحمار من الذل والحقارة ما لا يكون في الغير ، والغرض من الكلام في هذا المقام تعيير القوم بذلك وتحقيرهم ، فيكون تعيين الحمار أليق وأولى ، ومنها أن حمل الأسفار على الحمار أتم وأعم وأسهل وأسلم ، لكونه ذلولاً ، سلس القياد ، لين الانقياد ، يتصرف فيه الصبي الغبي من غير كلفة ومشقة .

وهذا من جملة ما يوجب حسن الذكر بالنسبة إلى غيره ومنها : أن رعاية الألفاظ والمناسبة بينها من اللوازم في الكلام ، وبين لفظي الأسفار والحمار مناسبة لفظية لا توجد في الغير من الحيوانات فيكون ذكره أولى .

الثاني : ﴿ يَحْمِلُ ﴾ ما محله ؟ نقول : النصب على الحال ، أو الجر على الوصف كما قال في "الكشاف" إذا الحمار كاللئيم في قوله :

ولقد أمر على اللئيم يسبني . . (فمررت ثمة قلت لا يعنيني)

الثالث : قال تعالى : ﴿ بِئْسَ مَثَلُ القوم ﴾ كيف وصف المثل بهذا الوصف ؟ نقول : الوصف وإن كان في الظاهر للمثل فهو راجع إلى القوم ، فكأنه قال : بئس القوم قوماً مثلهم هكذا .

ثم إنه تعالى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب لهم وهو قوله تعالى :

قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6)

هذه الآية من جملة ما مر بيانه ، وقرىء : ﴿ فَتَمَنَّوُا الموت ﴾ بكسر الواو ، و ﴿ هَادُواْ ﴾ أي تهودوا ، وكانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه ، فلو كان قولكم حقاً وأنتم على ثقة فتمنوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريعاً إلى دار كرامته التي أعدها لأوليائه ، قال الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت . . إنما الميت ميت الأحياء

فهم يطلبون الموت لا محالة إذا كانت الحالة هذه ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بسبب ما قدموا من الكفر وتحريف الآيات ، وذكر مرة بلفظ التأكيد ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ ومرة بدون لفظ التأكيد ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ ﴾ وقوله : ﴿ أَبَدًا . . . وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أي بظلمهم من تحريف الآيات وعنادهم لها ، ومكابرتهم إياها .

قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)

يعني أن الموت الذي تفرون منه بما قدمت أيديكم من تحريف الآيات وغيره ملاقيكم لا محالة ، ولا ينفعكم الفرار ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة يعني ما أشهدتم الخلق من التوراة والإنجيل وعالم بما غيبتم عن الخلق من نعت محمد صلى الله عليه وسلم وما أسررتم في أنفسكم من تكذيبكم رسالته ، وقوله تعالى : ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ إما عياناً مقروناً بلقائكم يوم القيامة ، أو بالجزاء إن كان خيراً فخير .

وإن كان شراً فشر ، فقوله : ﴿ إِنَّ الموت الذي تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ هو التنبيه على السعي فيما ينفعهم في الآخرة وقوله : ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ هو الوعيد البليغ والتهديد الشديد .

ثم في الآية مباحث :

البحث الأول : أدخل الفاء لما أنه في معنى الشرط والجزاء ، وفي قراءة ابن مسعود ﴿ ملاقيكم ﴾ من غير ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ .

(139/763)

الثاني : أن يقال : الموت ملاقيهم على كل حال ، فروا أو لم يفروا ، فما معنى الشرط والجزاء ؟ قيل : إن هذا على جهة الرد عليهم إذ ظنوا أن الفرار ينجيهم ، وقد صرح بهذا المعنى ، وأفصح عنه بالشرط الحقيقي في قوله :

ومن هاب أسباب المنايا تناله . . (1)

ولو نال أسباب السماء بسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 8.5 ﴾

---

(1) الرواية المحفوظة : ومن هاب أسباب المنايا ينلنه .

(140/763)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

تقدم القول في لفظ الآية الأولى ، واختلفت القراءة في إعراب الصفات في آخرها .

فقرأ جمهور الناس : " الملكِ " بالخفض نعتاً ﴿ لله ﴾ ، وكذلك ما بعده ، وقرأ أبو وائل شقيق بن سلمة وأبو الدينار : " الملكُ " بالرفع على القطع ، وفتح أبو الدينار القاف من " القَدوس " ، و﴿ الأميين ﴾ : يراد بهم العرب ، والأمي في اللغة الذي لا يكتب ولا يقرأ كتاباً ، قيل هو منسوب إلى الأم ، أي هو على الخلقة الأولى في بطن أمه ، وقيل هو منسوب إلى الأمة ، أي على سليقة البشر دون تعلم ، وقيل منسوب إلى أم القرى وهي مكة وهذا ضعيف ، لأن الوصف ب ﴿ الأميين ﴾ على هذا يقف على قريش ، وإنما المراد جميع العرب ، وفيهم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا " .

وهذه الآية تعديد نعمة الله عندهم فيما أولاهم ، والآية المتلوة : القرآن ﴿ يزكيهم ﴾ معناه : يطهرهم من الشرك وينمي الخير فيهم ، و﴿ الكتاب ﴾ : الوحي المتلو ، ﴿ والحكمة ﴾ : السنة التي هي لسانه عليه السلام ، ثم أظهر تعالى تأكيد النعمة بذكر حالهم التي كانت في الضد من الهداية ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ ، ﴿ وآخرين ﴾ في موضع خفض عطفاً على ﴿ الأميين ﴾ وفي موضع نصب عطفاً على الضمائر المتقدمة .

واختلف الناس في المعنيين بقوله : ﴿ وآخرين ﴾ من هم ؟ فقال أبو هريرة وغيره : أراد فارساً ، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الآخرون ؟ فأخذ بيد سلمان وقال : " لو كان الدين في الثريا لناله رجال من هؤلاء " . أخرجه مسلم . وقال سعيد بن جبير ومجاهد : أراد الروم والعجم ، فقوله تعالى : ﴿ منهم ﴾ على هذين القولين : إنما يريد في البشرية والإيمان كأنه قال : وفي آخرين من الناس : وقال مجاهد وعكرمة ومقاتل : أراد التابعين من أبناء العرب ، فقوله : ﴿ منهم ﴾ يريد به النسب والإيمان ، وقال ابن زيد ومجاهد والضحاك وابن حبان : أراد بقوله : ﴿ وآخرين ﴾ جميع طوائف الناس ، ويكون منهم في البشرية والإيمان على ما قلناه وذلك أنا نجد بعثه عليه السلام إلى جميع الخلائق ، وقال ابن عمر لأهل اليمن : أنتم هم ، وقوله تعالى : ﴿ لما يلحقوا ﴾ نفي لما قرب من الحال ، والمعنى أنهم مزمعون أن يلحقوا فهي " لم " زيدت عليها " ما " تأكيداً . قال سيبويه " لما " نفي قولك قد فعل ، و " لن " قولك فعل دون قد ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ الآية ، تبيين لموقع النعمة ، وتخصيصه إياهم بها .

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا

﴿ الذين حملوا التوراة ﴾ هم بنو إسرائيل الأحبار المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، و﴿ حملوا ﴾ معناه : كلفوا القيام بأوامرها ونواهيها ، فهذا كمال حمل الإنسان الأمانة ، وليس ذلك من الحمل على الظهر ، وإن كان مشتقاً منه ، وذكر تعالى أنهم ﴿ لم يحملوها ﴾ ، أي لم يطيعوا أمرها ، ويقفوا عند حدها حين كذبوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، و﴿ التوراة ﴾ تنطق بنبوته ، فكان كل حبر لم ينتفع بما حمل كمثل حمار عليه أسفار ، فهي عنده والزبل وغير ذلك بمنزلة واحدة ، وقرأ يحيى بن يعمر : " حَمَلوا " بفتح الحاء والميم مخففة ، وقرأ المأمون العباسي : "يُحَمَّل أسفاراً" بضم الياء وفتح الحاء وشد الميم مفتوحة ، وفي مصحف ابن مسعود : "كمثل حمار" بغير تعريف ، والسفر : الكتاب المجتمع الأوراق منضودة ، ثم بين حال مثلهم وفساده بقوله تعالى : ﴿ بئس مثل القوم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم ﴾ الآية ، روي أنها نزلت بسبب أن يهود المدينة لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم خاطبوا يهود خيبر في أمره ، وذكروا لهم نبوته ، وقالوا : إن رأيتم اتباعه أطعناكم وإن رأيتم خلافه خالفناه معكم ، فجاءهم جواب أهل خيبر يقولون : نحن أبناء إبراهيم خليل الرحمن ، وأبناء عُزَير ابن الله ومنا الأنبياء ومتى كانت النبوة في العرب ، نحن أحق بالنبوة من محمد ، ولا سبيل إلى اتباعه ، فنزلت الآية بمعنى : أنكم إذا كنتم من الله تعالى بهذه المنزلة فقربه وفراق هذه الحياة الحسية أحب إليكم

﴿ فتمنوا الموت ﴾ إن كنتم تعتقدون في أنفسكم هذه المنزلة ، أخبر تعالى عنهم بأنهم لا يتمنونه ولا يلقونه إلا كرهاً لعلمهم بسوء حالهم عند الله وبعدهم منه . هذا هو المعنى اللازم من ألفاظ الآية ، وروى كثير من المفسرين أن الله تعالى جعل هذه الآية معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم فيهم ، وآية باهرة ، وأعلمه أنه إن تمنى أحد منهم الموت في أيام معدودة مات

وفارق الدنيا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تمنوا الموت " على جهة التعجيز وإظهار الآية ، فما تمناه أحد خوفاً من الموت ، وثقة بصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم توعدهم تعالى بالموت الذي لا محيد لهم عنه ، ثم بما بعده من الرد إلى الله تعالى ، وقرأ ابن مسعود : " منه ملاقيكم " بإسقاط ﴿ فإنه ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فينبئكم ﴾ أي إنباء معاقب مجاز عليه بالتعذيب ، وقرأ ابن أبي إسحاق " فتمنوا الموت " بكسر الواو وكذلك يحيى بن يعمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبي :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾

ضرب مَثَلاً لليهود لما تركوا العمل بالتوراة ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ حُمِّلُواْ التوراة ﴾ أي كُلِّفوا العمل بها ؛ عن ابن عباس .

وقال الجُرجاني : هو من الحَمَالة بمعنى الكفالة ؛ أي ضمنوا أحكام التوراة .

﴿ كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ هي جمع سِفْر ، وهو الكتاب الكبير ؛ لأنه يسفر عن المعنى إذا قرىء .

قال مَيمون بن مِهْران : الحمار لا يدري أسِفْر على ظهره أم زبِيل ؛ فهكذا اليهود .

وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه ؛ لئلا يلحقه من الذّم ما لحق هؤلاء .

وقال الشاعر :

زوامل للأسفار لا علم عندهم . . .

بجيّدها إلا كعِلْم الأباعر

لَعْمرُكَ ما يدري البعيرُ إذا غَدَا . . .

بأوساقه أو راح ما في الغرائر

وقال يحيى بن يمان : يكتب أحدهم الحديث ولا يتفّهم ولا يتدّبر ، فإذا سئل أحدهم عن

مسألة جلس كأنه مكاتب .

وقال الشاعر :

إن الرواة على جهل بما حَمَلوا . . .

مِثْلُ الجمال عليها يُحمل الوَدَعُ

لا الوَدْع ينفعه حمل الجمال له . . .

ولا الجمال بحمل الوَدْع تنتفعُ

وقال منذر بن سعيد البَلّوطي رحمه الله فأحسن :

انْعِقْ بما شئت تجد أنصارًا . . .

وزُمَّ أسفاراً تجد حمارا

يحمل ما وضعت من أسفارِ . . .

يحمله كمثل الحمار

يَحمل أُسفاراً له وما درَى . . .

إن كان ما فيها صواباً وخطا

إن سُئلوا قالوا كذا روَيْنا . . .

ما إن كَذَبْنا ولا أعتدَيْنا

كبيرهم يصغر عند الحَفْلِ . . .

لأنه قلّد أهل الجهل

﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ أي لم يعملوا بها .

شبههم والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها بالحمار يحمل كتباً وليس له إلا ثِقْل الحِمل من غير فائدة .

و"يحمل" في موضع نصب على الحال ؛ أي حاملاً .

(145/763)

ويجوز أن يكون في موضع جر على الوصف ؛ لأن الحمار كاللئيم .

قال :

ولقد أمُرُّ على اللئيم يَسُبُّني . . .

﴿ بِئْسَ مَثَلُ القوم ﴾ المثل الذي ضربناه لهم ؛ فحذف المضاف .

﴿ والله لا يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ أي من سبق في علمه أنه يكون كافراً .

قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6)

لما ادّعت اليهود الفضيلة وقالوا ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ إن

زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ الناس ﴾ فللأولياء عند الله الكرامة .

﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ لتصيروا إلى ما يصير إليه أولياء الله ﴿ وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي أسلفوه من تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فلو تمنّوه لماتوا ؛ فكان في ذلك بطلان قولهم وما ادّعوه من الولاية .

وفي حديث .

أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت هذه الآية : " والذي نفس محمد بيده لو تمنّوا الموت ما بقي على ظهرها يهودي إلا مات " وفي هذا إخبار عن الغيب ، ومعجزةٌ للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقد مضى معنى هذه الآية في "البقرة" في قوله : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدار الآخرة عِندَ الله خَالِصَةً مِّن دُونِ الناس فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : 94] .

قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)

قال الزجاج : لا يقال : إن زيداً فمنطلق ، وها هنا قال : "فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ" لِما في معنى "الَّذِي" من الشرط والجزاء ، أي إن فررتم منه فإنه ملاقيكم ، ويكون مبالغة في الدلالة على إنه لا ينفع الفرار منه .

قال زهير :

(146/763)

ومن هاب أسباب المنايا يَنَلْنَهُ . . .

ولو رام أسباب السماء بُسلّمِ

قلت : ويجوز أن يتم الكلام عند قوله قوله : "الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ" ثم يبتدىء "فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ" .

وقال طرفة :

وكفَى بالمَوْت فاعلم واعظاً . . .

لمَن المَوْتُ عليه قد قُدر

فاذكر الموتَ وحاذر ذكره . . .

إنّ في الموت لذي اللُّبّ عِبَرْ

كلُّ شيء سوف يَلْقى حَتْفَه . . .

في مقامٍ أو على ظَهْرِ سَفَرْ

والمنايا حَوْلَه تَرْصُدُه . . .

ليس يُنجيه من الموت الْحَذَرْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(147/763)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ يُسَبّحُ للَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾

تسبيحاً مُستمِراً ﴿ الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ وَقَدْ قُرِىءَ الصفاتُ الأربعُ بالرَّفعِ عَلَى المدحِ ﴿ هُوَ الذى بَعَثَ فِى الأميين ﴾ أيْ في العرب لأنّ أكثرَهُمْ لا يكتبونَ ولا يقرأونَ قيلَ بدئتْ الكتابةُ بالطَّائفِ أخذُوها منْ أهلِ الحيرةِ وهُمْ من أهلِ الأنبارِ ﴿ رَسُولاً مّنْهُمْ ﴾ أيْ كائناً منْ جُملتِهم أمياً مثلَهم ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءاياته ﴾ معَ كونِه أمياً مثلَهم لم يُعهدْ منْهُ قراءةٌ ولا تعلمٌ ﴿ وَيُزَكّيهِمْ ﴾ صفةٌ أُخرى لرسولاً معطوفةٌ عَلَى يتلُوا أيْ يحملُهم عَلى ما يصيرُونَ به أزكياءَ مِن خبائثِ العقائدِ والأعمالِ ﴿ وَيُعَلّمُهُمُ الكتاب والحكمة ﴾ صفةٌ أُخْرَى لرسولاً مترتبةٌ في الوجودِ عَلَى التّلاوةِ وإنَّما وَسَّطَ بينَهُما التزكيةَ التي هيَ عبارةٌ عنْ تكميلِ النفسِ بحسبِ قوتِهَا العمليةِ وتهذيبِهَا المتفرعِ عَلَى تكميلِهَا بحسبِ القوةِ النظريةِ الحاصلِ بالتعليمِ المترتبِ على التلاوةِ للإيذانِ بأنّ كلاً منَ الأمورِ المترتبةِ نعمةٌ جليلةٌ على حيالِهَا مستوجبةٌ للشكرِ فلَو رُوعِي ترتيبَ الوجودِ لتبادرَ إلى الفهمِ كونُ الكُلّ نعمةً واحدةً كمَا مرّ في سورةِ البقرةِ وهُوَ السرُّ في التعبيرِ عن القرآنِ تارةً بالآياتِ وأُخرَى بالكتابِ والحكمةِ رمزاً إلى أنَّه باعتبارِ كُلّ عنوانٍ نعمةٌ عَلى حدةٍ ولا يقدحُ فيهِ شمولُ الحكمةِ لمَا في تضاعيفِ الأحاديثِ النبويةِ منَ الأحكامِ والشرائعِ ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضلال مُّبِينٍ

﴾ منَ الشركِ وخبثِ الجاهليةِ وهو بيانٌ لشدةِ افتقارِهم إلى مَنْ يرشدُهم وإزاحةٌ لِمَا عَسَى يتوهمُ منْ تعلّمِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ منَ الغيرِ ، وإنْ هيَ المخففةُ واللامُ هيَ الفارقةُ

﴿ وَءاخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ عطفٌ على الأميينَ أوْ علَى المنصوبِ في يعلِّمُهم أيْ يعلِّمُهم ويعلِّمُ آخرينَ منهُم أيْ من

(148/763)

الأميينَ وهُم الذينَ جَاءُوا بعدَ الصحابةِ إلى يومِ الدِّينِ فإنَّ دعوتَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وتعليمَهُ يعمُّ الجميعَ ﴿ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ صفةٌ لآخرينَ أيْ لمْ يلحقُوا بهِمْ بعدُ وسيلحقونَ

﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ المبالغُ في العزةِ والحكمةِ ولذلكَ مكَّنَ رجلاً أمياً منْ ذلكَ الأمرِ العظيمِ واصطفاهُ منْ بينِ كافةِ البشرِ .

﴿ ذلك ﴾ الذي امتازَ بهِ منْ بينِ سائرِ الأفرادِ ﴿ فَضْلُ الله ﴾ وأحسانُهُ ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ تفضلاً وعطيةً ﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ الذي يُستحقَرُ دُونَهُ نعيمُ الدُّنيا ونعيمُ الآخرةِ .

﴿ مَثَلُ الذين حُمّلُواْ التوراة ﴾ أيْ عُلِّمُوهَا وكُلِّفُوا العملَ بهَا ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ أيْ لَمْ يعملُوا بِمَا في تضاعِيفِها منَ الآياتِ التي منْ جُملتِها الآياتُ الناطقةُ بنبوةِ رسولِ الله صلى الله

عليه وسلم ﴿ كَمَثَلِ الحمارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ أيْ كتباً منَ العلمِ يتعبُ بحملِهَا ولا ينتفعُ بها ، ويحملُ إمَّا حالٌ والعاملُ فيهَا معْنَى المَثَلِ أو صفةٌ للحمارِ إذْ ليسَ المرادُ بِهِ معيناً فهُوَ في حكمِ النكرةِ كمَا في قولِ مَنْ قالَ

(149/763)

وَلَقَدْ أمرُّ عَلى اللئيمِ يَسُبُّنِي . . . ﴿ بِئْسَ مَثَلُ القومِ الذين كَذَّبُواْ بئاياتِ اللهِ ﴾ أيْ بئسَ مثلاً مثلُ القومِ الذينَ كذَّبُوا بآياتِ الله ، عَلى أنَّ التمييزَ محذوفٌ والفاعلَ المُفسَّرَ بِهِ مستترٌ . ومثلُ القومِ هُو المخصوصُ بالذمِّ والموصولُ صفةٌ للقومِ . أو بئسَ مثلُ القومِ مثلُ الذينَ كذَّبوا إلخ على أنَّ مثلُ القومِ فاعلُ بئسَ والمخصوصُ بالذمِّ الموصولُ بحذفِ المضافِ أو بئسَ مثلُ القومِ المكذبينَ مثلُ هؤلاءِ على أنَّ الموصولَ صفةُ القومِ والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ وهم اليهودُ الذينَ كذَّبُوا بمَا في التوراةِ من الآياتِ الشاهدةِ بصحةِ نبوةِ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم ﴿ واللهُ لاَ يَهْدِى القومَ الظالمين ﴾ الواضعينَ للتكذيبِ في موضعِ التصديقِ أو الظالمينَ لأنفسِهم بتعريضِهَا للعذابِ الخالِدِ .

﴿ قُلْ يا أيها الذين هَادُواْ ﴾

(150/763)

أَيْ تهودُوا ﴿ إن زَعمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءِ لِلَّهِ مِن دُونِ الناس ﴾ كانُوا يقولونَ نحنُ أبناءُ اللهِ وأحباؤُه ويدّعُونَ أنّ الدارَ الآخرةَ لهُمْ عندَ اللهِ خالصةً ويقولونَ لنْ يدخلَ الجنةَ إلاَّ منْ كانَ هُوداً فأُمِرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بأنْ يقولَ لهم إظهاراً لكذبِهِمْ إنْ زعمتُم ذلكَ ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت ﴾ أيْ فتمنَّوا منَ اللهِ أنْ يميتَكُم وينقُلَكُم منْ دارِ البليةِ إلى دارِ الكرامةِ ﴿ إن كُنتُمْ صادقين ﴾ جوابُهُ محذوفٌ لدلالةِ مَا قبلَهُ عليهِ أيْ إنْ كنتُم صادقينَ في زَعْمِكُم واثقينَ بأنَّه حقٌّ فتمنَّوا الموتَ فإنَّ مَنْ أيقنَ بأنَّهُ مِنْ أهلِ الجنةِ أحبَّ أنْ يتخلصَ إليها منْ هذهِ الدارِ التي هيَ قرارةُ الأكدارِ ﴿ وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً ﴾ إخبارٌ بما سيكونُ منهُم والباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ متعلقةٌ بما يدلُّ عليهِ النفيُ أيْ يأبونَ التمنِّي بسببِ ما عملُوا من الكفرِ والمعاصِي الموجبةِ لدخولِ النارِ ولما كانتِ اليدُ من بينِ جوارحِ الإنسانِ مناطَ عامَّةِ أفاعيله عبَّرَ بها تارةً عن النفسِ وأُخرى عنِ القدرةِ ﴿ والله عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ أيْ بهِم، وإيثارُ الإظهارِ على الإظمارِ لذمِّهِم والتسجيلِ عليهِم بأنَّهم ظالمونَ في كُلِّ ما يأتونَ وما يذرونَ من الأمورِ التي منْ جُملتِهَا ادعاءُ ما هُمْ عنْهُ بمعزلٍ، والجملةُ تذييلٌ لما قبلَها مقررةٌ لمضمونِهِ أيْ عليمٌ بهِم وبِمَا صدرَ عَنْهُم من فنونِ الظلمِ والمعَاصِي المفضيةِ إلى أفانينِ العذابِ وبِمَا سيكونُ منهم منَ الاحترازِ عَمَّا يؤدّي إلى ذلكَ فوقعَ الأمرُ كما ذكرَ فلم يتمنَّ منهُم موتَهُ أحدٌ كما يعربُ عَنْهُ قولُهُ تعالى:

(151/763)

﴿ قُلْ إِنَّ الموت الذى تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ فإنّ ذلكَ إنَّما يقال لُهُم بعدَ ظهورِ فرارِهِم منَ التمنّي وقدْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ :

"لَوْ تمَنَّوا لماتُوا منْ ساعتِهِم" وهذهِ إحدى المعجزاتِ أيْ إنَّ الموتَ الذي تفرونَ منهُ ولا تجسَرونَ عَلى أنْ تتمنّوهُ مخافةَ أنْ تُؤخذوا بوبالِ كفرِكُم ﴿ فَإِنَّهُ ملاقيكم ﴾ ألبتةَ منْ غيرِ صارفٍ يلويهِ ولا عاطفٍ يثنيهِ والفاءِ لتضمنِ الإسمِ مَعْنَى الشرطِ باعتبارِ الوصفِ وقُرِىءَ بدونِهَا وقُرِىءَ تفرونَ منْهُ مُلاقِيكُم ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عالمِ الغيبِ والشهادة ﴾ الذي لا تخفَى عليهِ خافيةٌ ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ منَ الكفرِ والمعاصِي بأنْ يجازيَكُم بهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(152/763)

وقال الآلوسى :

﴿ مَثَلُ الذين حُمّلُوا التوراة ﴾

أي علموها وكلفوا العمل بما فيها ، والتحميل في هذا شائع يلحق بالحقيقة ، والمراد بهم اليهود ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ أي لم يعلموا بما في تضاعيفها التي من جملتها الآيات الناطقة بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ أي كتباً كباراً على ما يشعر به التنكير ، وإيثار لفظ السفر وما فيه من معنى الكشف من العلم يتعب بحملها ولا ينتفع بها ، و﴿ يَحْمِلُ ﴾ إما حال من الحمار لكونه معرفة لفظاً والعامل فيه معنى المثل ، أو صفة له لأن تعريفه ذهني فهو معنى نكرة فيوصف بما توصف به على الأصح .

ونسب أبو حيان للمحققين تعين الحالية في مثل ذلك ، ووجه ارتباط الآية بما قبلها تضمنها الإشارة إلى أن ذلك الرسول المبعوث قد بعثه الله تعالى بما نعته به في التوراة وعلى ألسنة أنبياء بني إسرائيل كأنه قيل : هو الذي بعث المبشر به في التوراة المنعوت فيها بالنبي الأمي المبعوث إلى أمة أميين ؛ مثل من جاءه نعته فيها وعلمه ثم لم يؤمن به مثل الحمار ، وفي الآية دليل على سوء حال العالم الذي لا يعمل بعلمه ، وتخصيص الحمار بالتشبيه به لأنه كالعلم في الجهل ، ومن ذلك قول الشاعر :

ذوامل للأسفار لا علم عندهم . . .

بجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدري البعير إذا غدا . . .

بأوساقه أوراح ما في الغرائر

بناءاً على نقل عن ابن خالويه أن البعير اسم من أسماء الحمار كالجمل البازل، وقرأ يحيى بن يعمر.

وزيد بن علي ﴿ حُمّلُواْ ﴾ مبنياً للفاعل، وقرأ عبد الله حمار بالتنكير، وقرىء ﴿ يَحْمِلُ ﴾ بشد الميم مبنياً للمفعول.

(153/763)

﴿ بِئْسَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بآيات الله ﴾ أي بئس مثل القوم مثل الذين كذبوا فحذف المضاف وهو المخصوص بالذم وأقيم المضاف إليه مقامه، ويجوز أن يكون ﴿ الذين ﴾ صفة القوم، والمخصوص محذوف أي بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله هو، والضمير راجع إلى ﴿ مَثَلُ الذين حُمّلُواْ التوراة ﴾، وظاهر كلام الكشاف أن المخصوص هو ﴿ مَثَلُ ﴾ المذكور، والفاعل مستتر يفسره تمييز محذوف، والتقدير بئس مثلاً مثل القوم الخ، وتعقب بأن سيبويه نص على أن التمييز الذي يفسر الضمير المستتر في باب نعم لا يجوز حذفه ولو سلم جوازه فهو قليل، وأجيب بأن ذاك تقرير لحاصل المعنى وهو أقرب لاعتبار الوجه الأول، وكان قول ابن عطية التقدير بئس المثل مثل القوم من ذلك الباب، وإلا ففيه

حذف الفاعل ، وقد قالوا بعدم جوازه إلا في مواضع ليس هذا منها ﴿ والله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ أي الواضعين للتكذيب في موضع التصديق ، أو الظالمين لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بسبب التكذيب .

(154/763)

﴿ قُلْ يا أهل أَيُّهَا الذين هَادُواْ ﴾ أي تهودوا أي صاروا يهوداً ﴿ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ ﴾ أي أحباء له سبحانه ولم يضف أولياء إليه تعالى كما في قوله سبحانه : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء الله ﴾ [يونس : 62] قال الطيبي : ليؤذن بالفرق بين مدعي الولاية ومن يخصه عز وجل بها ﴿ مّن دُونِ الناس ﴾ حال من الضمير الراجع إلى اسم ﴿ إن ﴾ أي متجاوزين عن الناس ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت ﴾ أي فتمنوا من الله تعالى أن يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى محل الكرامة ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه أي إن كنتم صادقين في زعمكم واثقين بأنه حق فتمنوا الموت فإن من أيقن أنه من أهل الجنة أحب أن يتخلص إليها من هذه الدار التي هي قرارة الإنكاد والأكدار ، وأمر صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ذلك إظهاراً لكذبهم فإنهم كانوا يقولون : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاء الله وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة : 18] ويدّعون أن الآخرة لهم عند الله خالصة ويقولون : ﴿ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ

هُودًا ﴾ [البقرة : 111] وروى أنه لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبت يهود المدينة ليهود خيبر : إن اتبعتم محمداً أطعناه وإن خالفتموه خالفناه ، فقالوا نحن أبناء خليل الرحمن ومنا عزيز ابن الله والأنبياء ومتى كانت النبوة في العرب نحن أحق بها من من محمد ولا سبيل إلى اتباعه فنزلت ﴿ قُلْ يا أهل أَيُّهَا الذين هَادُواْ ﴾ الآية ، واستعمال ﴿ إن ﴾ التي للشك مع الزعم وهو محقق للإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يجزم به لوجود ما يكذبه .

وقرأ ابن يعمر .

وابن أبي إسحق .

وابن السميقع ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت ﴾ بكسر الواو تشبيهاً ب ﴿ لو استطعنا ﴾ [التوبة : 42] ، وعن ابن السميقع أيضاً فتحها ، وحكى الكسائي عن بعض الأعراض أنه قرأ بالهمزة مضمومة بدل الواو .

﴿ وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً ﴾ إخبار بحالهم المستقبلة وهو عدم تمنيهم الموت ، وذلك خاص على ما صرح به جمع بأولئك المخاطبين ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : " والذي نفسي بيده لا يقولها أحد منكم إلا غص بريقه " فلم يتمنه أحد منهم وما ذلك إلا

لأنهم كانوا موقنين بصدقه عليه الصلاة والسلام فعلموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد ، وهذه إحدى المعجزات ، وجاء نفي هذا التمني في آية أخرى بلن وهو من باب التفنن على القول المشهور في أن كلا من لا ولن لنفي المستقبل من غير تأكيد ، ومن قال : بإفادة لن التأكيد فوجه اختصاص التوكيد عنده بذلك الموضع أنهم ادعوا الاختصاص دون الناس في الموضعين ، وزادوا هنالك أنه أمر مكشوف لا شبه فيه محققة عند الله فناسب أن يؤكد ما ينفيه ، والباء في قوله سبحانه : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيدِيهِمْ ﴾ سببية متعلقة بما يدل عليه النفي أي يأبون التمني بسبب ما قدمت ، وجوز تعلقه بالانتفاء كأنه قيل : انتفى تمنيهم بسبب ما قدمت كما قيل ذلك في قوله تعالى : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم : 2] والمراد بما قدمته أيديهم الكفر والمعاصي الموجبة لدخول النار ، ولما كانت اليد من بين جوارح الإنسان مناط عامة أفعاله عبر بها تارة عن النفس.

وأخرى عن القدرة.

﴿ والله عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ أي بهم وإيثار الإظهار على الإضمار لذمهم والتسجيل عليهم بأنهم ظالمون في كل ما يأتون ويذرون من الأمور التي من جملتها ادعاء ما هم عنه بمعزل ، والجملة تذييل لما قبلها مقررة لما أشار إليه من سوء أفعالهم واقتضائها العذاب أي والله تعالى عليم بما صدر منهم من فنون الظلم والمعاصي وبما سيكون منهم فيجازيهم على ذلك.

﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ ولا تجسرون على أن تمنوه مخافة أن تؤخذوا بوبال أفعالكم.

(156/763)

﴿ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ﴾ البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه والجملة خبر ﴿ إن ﴾ والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط باعتبار وصفه بالموصول، فإن الصفة والموصوف كالشيء الواحد، فلا يقال: إن الفاء إنما تدخل الخبر إذا تضمن المبتدأ معنى الشرط، والمتضمن له الموصول وليس بمبتدأ، ودخولها في مثل ذلك ليس بلازم كدخولها في الجواب الحقيقي، وإنما يكون لنكتة تليق بالمقام وهي ههنا المبالغة في عدم الفوت، وذلك أن الفرار من الشيء في مجرى العادة سبب الفوت عليه فجيء بالفاء لإفادة أن الفرار سبب الملاقاة مبالغة فيما ذكر وتعكيساً للحال، وقيل: ما في حيزها جواب من حيث المعنى على معنى الإعلام فتفيد أن الفرار المظنون سبباً للنجاة سبب للإعلام بملاقاته كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: 53] وهو وجه ضعيف فيما نحن فيه لا مبالغة فيه من حيث المعنى؛ ومنع قوم منهم الفراء دخول الفاء في نحو هذا، وقالوا: هي ههنا زائدة، وجوز أن يكون الموصول خبر ﴿ إن ﴾ والفاء عاطفة كأنه قيل: إن الموت هو

الشيء الذي تفرون منه فيلاقيكم .

وقرأ زيد بن علي إنه ملاقيكم بدون فاء ، وخرج على أن الخبر هو الموصول وهذه الجملة مستأنفة أو هي الخبر والموصول صفة كما في قراءة الجمهور ، وجوز أن يكون الخبر ﴿ ملاقيكم ﴾ وإنه توكيداً لأن الموت ، وذلك أنه لما طال الكلام أكد الحرف مصحوباً بضمير الاسم الذي لأن ، وقرأ ابن مسعود تفرون منه ملاقيكم بدون الفاء ولا إنه وهي ظاهرة ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عالم الغيب والشهادة ﴾ الذي لا يخفى عليه خافية .

(157/763)

﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والمعاصي بأن يجازيكم بها ، واستشعر غير واحد من الآية ذم الفرار من الطاعون ، والكلام في ذلك طويل ، فمنهم من حرمه كابن خزيمة فإنه ترجم في صحيحه باب الفرار من الطاعون من الكبائر وأن الله تعالى يعاقب من وقع منه ذلك ما لم يعف عنه ، واستدل بحديث عائشة " الفرار من الطاعون كالفرار من الزحف "

رواه الإمام أحمد .

والطبراني .

وابن عدي .

وغيرهم ، وسنده حسن .

وذكر التاج السبكي أن الأكثر على تحريمه ، ومنهم من قال : بكراهته كالإمام مالك ، ونقل القاضي عياض .

وغيره جواز الخروج عن الأرض التي يقع بها عن جماعة من الصحابة منهم أبو موسى الأشعري .

والمغيرة بن شعبة ، وعن التابعين منهم الأسود بن هلال .

ومسروق ، وروى الإمام أحمد .

والطبراني أن عمرو بن العاص قال في الطاعون في آخر خطبته : إن هذا رجز مثل السيل من تنكبه أخطأه ومثل النار من تنكبها أخطأها ومن أقام أحرقته ، وفي لفظ إن هذا الطاعون رجس فتفرقوا منه في الشعاب وهذه الأودية فتفرقوا فبلغ ذلك عمر رضي الله تعالى عنه فلم ينكره ولم يكرهه ، وعن طارق بن شهاب قال : كنا نتحدث إلى أبي موسى اوشعري وهو في داره بالكوفة فقال لنا وقد وقع الطاعون : لا عليكم أن تنزحوا عن هذه القرية فتخرجوا في فسيح بلادكم حتى يرفع هذا الوباء فإني سأخبركم بما يكره من ذلك أن يظن من خرج أنه لو أقام فأصابه ذلك أنه لو خرج لم يصبه فإذا لم يظن هذا فلا عليه أن يخرج ويتنزه عنه .

وأخرج البيهقي .

وغيره عنه بسند حسن أنه قال : إن هذا الطاعون قد وقع فمن أراد أن يتنزه عنه فليفعل واحذروا اثنتين أن يقول قائل : خرج خارج فسلم .

(158/763)

وجلس جالس فأصيب ، فلو كنت خرجت لسلمت كما سلم فلان ولو كنت جلست أصبت كما أصيب فلان ، ويفهم أنه لا بأس بالخروج مع اعتقاد أن كل مقدر كائن ، وكأني بك تختار ذلك ، لكن في فتاوى العلامة ابن حجر أن محل النزاع فيما إذا خرج فاراً منه مع اعتقاد أنه لو قدر عليه لأصابه وأن فراره لا ينجيه لكن يخرج مؤملاً أن ينجو أما الخروج من محله بقصد أن له قدرة على التخلص من قضاء الله تعالى وأن فعله هو المنجي له فواضح أنه حرام بل كفر اتفاقاً .

وأما الخروج لعارض شغل أو للتداوي من علة طعن فيه أو غير ذلك فهو مما لا ينبغي أن يختلص في جوازه كما صرح به بعض المحققين ، ومن ذلك فيما أرى عروض وسوسة طبيعية له لا يقدر على دفعها تضر به ضرراً بيناً وغلبة ظن عدم دفنه أو تغسيله إذا مات في ذلك المحل قيل : ولا يقاس على الفرار من الطاعون الفرار من غيره من المهالك فإنه مأمور به ؛ وقد قال الجلال السيوطي : الفرار من الوباء كالحمى ومن سائر أسباب الهلاك جائز

بالإجماع ، والطاعون مستثنى من عموم المهالك المأمور بالفرار منها للنهي التحريمي أو التنزيهي عن الفرار منه .

واختلفوا في علة النهي فقيل : هي أن الطاعون إذا وقع في بلد مثلاً عم جميع من فيه بمداخلة سببه فلا يفيد الفرار منه بل إن كان أجله قد حضر فهو ميت وإن رحل وإلا فلا ، وإن أقام فتعينت الإقامة لما في الخروج من العبث الذي لا يليق بالعقلاء ، واعترض بمنع عمومه إذا وقع في بلد جميع من فيه بمداخلة سببه ولو سلم فالوباء مثله في أن الشخص الذي في بلده إن كان أجله قد حضر فهو ميت وإن رحل وإلا فلا وإن أقام مع أنهم جوزوا الفرار منه ، وقيل : هي أن الناس لو تواردوا على الخروج لضاعت المرضى العاجزون عن الخروج لفقد من يتعهدهم والموتى لفقد من يجهزهم ، وأيضاً في خروج الأقوياء كسراً لقلوب الضعفاء عن الخروج ، وأيضاً إن الخارج يقول : لو لم أخرج لمت ، والمقيم : لو خرجت لسلمت فيقعان في اللو المنهي عنه ، واعترض كل ذلك بأنه موجود في الفرار عن الوباء أيضاً ، وكذا الداء الحادث ظهوره المعروف بين الناس بأبي زوعة الذي أعيا الأطباء علاجه ولم ينفع فيه التحفظ والعزلة على الوجه المعروف في الطاعون ، وقيل : هي إن للميت به وكذا للصابر

المحتسب المقيم في محله وإن لم يمت به أجر شهيد ، وفي الفرار إعراض عن الشهادة وهو محل التشبيه في حديث عائشة عند بعض ، واعترض بأنه قد صح أنه صلى الله عليه وسلم مر بحائط مائل فأسرع ولم يمنع أحد من ذلك .

وكذا من الفرار من الحريق مع أن الميت بذلك شهيد أيضاً ، وذهب بعض العلماء إلى أن النهي تعبدي وكأنه لما رأى أنه لا تسلم علة له عن الطعن قال ذلك ، ولهم في هذه المسألة رسائل عديدة فمن أراد استيفاء الكلام فيها فليرجع إليها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى جـ 28 صـ ﴾

(160/763)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ يُسَبّحُ لِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾

قد تقدم تفسير هذا في أوّل سورة الحديد ، وما بعدها من المسبحات ﴿ الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ قرأ الجمهور بالجرّ في هذه الصفات الأربع على أنها نعت ل ﴿ لله ﴾ ، وقيل : على البدل ، والأوّل أولى .

وقرأ أبو وائل بن محارب ، وأبو العالية ، ونصر بن عاصم ، ورؤبة بالرفع على إضمار مبتدأ .

وقرأ الجمهور : ﴿ القدوس ﴾ بضم القاف ، وقرأ زيد بن علي بفتحها ، وقد تقدم تفسيره .

﴿ هُوَ الذى بَعَثَ فِى الأميين رَسُولاً مّنْهُمْ ﴾ المراد بالأميين : العرب ، من كان يحسن الكتابة منهم ومن لا يحسنها ؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتاب ، والأميّ في الأصل : الذي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ، وكان غالب العرب كذلك ، وقد مضى بيان معنى الأميّ في سورة البقرة ، ومعنى ﴿ مِنْهُمْ ﴾ : من أنفسهم ، ومن جنسهم ، ومن جملتهم ، وما كان حيّ من أحياء العرب إلاّ ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة ، ووجه الامتنان بكونه منهم أن ذلك أقرب إلى الموافقة ؛ لأن الجنس أميل إلى جنسه وأقرب إليه ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءاياته ﴾ يعني : القرآن مع كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولا تعلم ذلك من أحد ، والجملة صفة ل ﴿ رسولاً ﴾ ، وكذا قوله : ﴿ وَيُزَكّيهِمْ ﴾ قال ابن جريج ، ومقاتل : أي : يطهرهم من دنس الكفر والذنوب ، وقال السديّ : يأخذ زكاة أموالهم ، وقيل : يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان ﴿ وَيُعَلّمُهُمُ الكتاب والحكمة ﴾ هذه صفة ثالثة ل ﴿ رسولاً ﴾ ، والمراد بالكتاب : القرآن ، وبالحكمة : السنة ، كذا قال الحسن .

وقيل : الكتاب : الخط بالقلم ، والحكمة : الفقه في الدين ، كذا قال مالك بن أنس ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ أي : وإن كانوا من قبل بعثته فيهم في شرك وذهاب عن الحق .

﴿ وَءاخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ معطوف على الأميين أي : بعث في الأميين ، وبعث في آخرين منهم ﴿ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ ذلك الوقت ، وسيلحقون بهم من بعد ، أو هو معطوف على المفعول الأوّل في ﴿ يعلمهم ﴾ ، أي : ويعلم آخرين ، أو على مفعول ﴿ يزكيهم ﴾ ، أي : يزكيهم ويزكي آخرين منهم ، والمراد بالآخرين : من جاء بعد الصحابة إلى يوم القيامة ، وقيل : المراد بهم من أسلم من غير العرب .

وقال عكرمة : هم التابعون .

وقال مجاهد : هم الناس كلهم ، وكذا قال ابن زيد ، والسديّ ، وجملة : ﴿ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ صفة ل ﴿ آخرين ﴾ ، والضمير في " منهم " و " لهم " راجع إلى الأميين ، وهذا يؤيد أن المراد بالآخرين هم من يأتي بعد الصحابة من العرب خاصة إلى يوم القيامة ، وهو صلى الله عليه وسلم ، وإن كان مرسلاً إلى جميع الثقلين ، فتخصيص العرب ها هنا لقصد الامتنان عليهم ، وذلك لا ينافي عموم الرسالة ، ويجوز أن يراد بالآخرين : العجم ؛ لأنهم وإن لم يكونوا من العرب فقد صاروا بالإسلام منهم ، والمسلمون كلهم أمة واحدة وإن اختلفت أجناسهم ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ أي : بليغ العزة والحكمة ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما

تقدّم ذكره .

وقال الكلبي : يعني : الإسلام .

وقال قتادة : يعني : الوحي والنبوّة .

وقيل : إلحاق العجم بالعرب ، وهو مبتدأ ، وخبره ﴿ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ أي : يعطيه من يشاء من عباده ﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ الذي لا يساويه فضل ولا يدانيه .

(162/763)

﴿ مَثَلُ الذين حُمّلُواْ التوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ ضرب سبحانه لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة مثلاً فقال : ﴿ مَثَلُ الذين حُمّلُواْ التوراة ﴾ أي : كلفوا القيام بها والعمل بما فيها ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ أي : لم يعملوا بموجبها ، ولا أطاعوا ما أمروا به فيها ﴿ كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ هي جمع سفر ، وهو الكتاب الكبير ؛ لأنه يسفر عن المعنى إذا قرىء .

قال ميمون بن مهران : الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زبل ؟ فهكذا اليهود .

وقال الجرجاني : هو يعني : حملوا من الحمالة بمعنى الكفالة أي : ضمنوا أحكام التوراة ، وقوله : ﴿ يَحْمِلُ ﴾ في محلّ نصب على الحال ، أو صفة للحمار ، إذ ليس المراد به حماراً معيناً ، فهو في حكم النكرة ، كما في قول الشاعر :

ولقد أمر على اللئيم يسبني . . . فمضيت ثم وقلت لا يعنيني

﴿ بِئْسَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بِئَايَاتِ الله ﴾ أي : بئس مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، على أن التمييز محذوف ، والفاعل المفسر به مضمر ، و ﴿ مثل القوم ﴾ هو المخصوص بالذم ، أو ﴿ مثل القوم ﴾ فاعل ﴿ بئس ﴾ ، والمخصوص بالذمّ الموصول بعده على حذف مضاف ، أي : مثل الذين كذبوا ، ويجوز أن يكون الموصول صفة للقوم ، فيكون في محل جرّ ، والمخصوص بالذمّ محذوف ، والتقدير : بئس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء ﴿ والله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ يعني : على العموم ، فيدخل فيهم اليهود دخولاً أوّلياً .

(163/763)

﴿ قُلْ يأيها الذين هَادُواْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ الناس ﴾ المراد : بالذين هادوا الذين تهوّدوا ، وذلك أن اليهود ادّعوا الفضيلة على الناس ، وأنهم أولياء الله من دون الناس ، كما في قولهم : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاء الله وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة : 18] وقولهم : ﴿ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نصارى ﴾ [البقرة : 111] فأمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم لما ادّعوا هذه الدعوى الباطلة ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت ﴾ لتصيروا إلى ما تصيرون إليه من

الكرامة في زعمكم ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في هذا الزعم ، فإن من علم أنه من أهل الجنة أحبّ الخلوص من هذه الدار .

قرأ الجمهور : ﴿ فتمنوا ﴾ بضم الواو ، وقرأ ابن السميفع بفتحها تخفيفاً ، وحكى الكسائي إبدال الواو همزة ، ثم أخبر الله سبحانه أنهم لا يفعلون ذلك أبداً بسبب ذنوبهم فقال : ﴿ وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصي ، والتحريف والتبديل ﴿ والله عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ يعني : على العموم ، وهؤلاء اليهود داخلون فيهم دخولاً أوّلياً .

(164/763)

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يقول لهم بأن الفرار من الموت لا ينجيهم ، وأنه نازل بهم ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّ الموت الذى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ ملاقيكم ﴾ لا محالة ، ونازل بكم بلا شك ، والفاء في قوله : " فَإِنَّهُ " داخلة لتضمن الاسم معنى الشرط ، قال الزجاج : لا يقال : إن زيداً فمنطلق ، وها هنا قال : فإنه ملاقيكم لما في معنى الذي من الشرط والجزاء ، أي : إن فررتم منه ، فإنه ملاقيكم ، ويكون مبالغة في الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه ، وقيل : إنها مزيدة ، وقيل : إن الكلام قد تمّ عند قوله ﴿ تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ ثم ابتدأ فقال ﴿ فَإِنَّهُ ملاقيكم

ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال القبيحة ، ويجازيكم عليها .

وقد أخرج ابن المنذر ، والحاكم ، والبيهقي في الشعب عن عطاء بن السائب عن ميسرة أن هذه الآية مكتوبة في التوراة بسبعمائة آية : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ أوّل سورة الجمعة .

(165/763)

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب " وأخرج البخاري ، وغيره عن أبي هريرة قال : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم حين نزلت سورة الجمعة ، فتلاها ، فلما بلغ ﴿ وَءاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ قال له رجل : يا رسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فوضع يده على سلمان الفارسي ، وقال : " والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء " وأخرجه أيضاً مسلم من حديثه مرفوعاً بلفظ : " لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجال من فارس ، -أو قال- : من أبناء فارس " وأخرج سعيد بن منصور ، وابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو

كان الإيمان بالثريا لناله ناس من أهل فارس " وأخرج الطبراني ، وابن مردويه ، والضياء عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب " ، ثم قرأ ﴿ وَءاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ ذلك فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ قال : الدين .

وأخرج عبد بن حميد من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه ﴿ مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ قال : اليهود .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ أَسْفَاراً ﴾ قال : كتباً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 224.226 ﴾

(166/763)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة أشارت إلى الأميين الذين يتعالى عليهم

اليهود ، الّذين رأوا فيما أنزل اللّه عليهم من كتب ، وبما بعث فيهم من رسل.أنهم قد اختصّوا بفضل اللّه ، من دون الناس جميعا ، وقد جاءت الآيات لتبطل زعمهم هذا ، فقد بعث اللّه فى الأميين رسولا ، وأنزل عليه كتابا يتلوه عليهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ثم إنه سبحانه ، لم يجعل هذا الفضل ، وتلك الرحمة إلى العرب وحدهم ، بل جعل ذلك للأميين جميعا من العرب وغير العرب.ثم جاء قوله تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ

(167/763)

الآية ».جاء مخزيا اليهود ، ومبطلا ادعاءهم ، بأنهم قد استأثروا بفضل اللّه . .

ونعم ، إن اللّه قد ساق إليهم فضلا ، وأنزل إليهم التوراة فيها هدى ونور . . ولكن ليس كلّ من كانت بين يديه نعمة ، مستفيدا منها ، بل إنه كثيرا ما تكون النعمة نقمه حين لا تجد من يحفظها ، ويرعاها حقّ رعايتها . .

إنها تكون حينئذ أشبه بالغيث يقع على الأرض السبخة فلا تستجيب له ، ولا تتفاعل معه ، وسرعان ما يفسد ، ويتحول إلى ماء آسن ، ينبث فى أحشائها الهوامّ والديدان . .

وهؤلاء اليهود ، قد حمّلوا التوراة ، وكلّفوا العمل بها ، ولكنهم لم يحسنوا العمل ، بل اختلفوا فيها ، وتأولوها تأويلا فاسدا . . فكان مثلهم فى هذا كمثل الحمار ، يحمل كتبا ، تثقل

ظهره ، وتصبح علة ملتصقة به ، دون أن يفيد منها شيئا . .

وفى تشبيه اليهود - حملة التوراة - بالحمار الذي يحمل أسفارا ، ما يكشف عن طباع هؤلاء القوم ، وعن بلادة حسّهم ، وعن قبولهم الهوان والذّلة ، وأنهم فى هذه الدنيا أشبه بالحمر ، يسخرها الناس للحمل والركوب . . فالحمار من بين حيوانات الركوب جميعا ، أكثرها هوانا على الناس ، وأخسّها مطية للركوب . .

لا يتخذه كرام الناس مركبا لهم . . وفى هذا يقول الشاعر :

ولا يقيم على ضيم يراد به إلّا الأذلّان عير الحىّ والوتد

هذا الخسف مربوط برمّته وذا يشجّ فلا يرثى له أحد

ولا يفترنّ أحد بما يبدو فى ظاهر الأمر من أحوال اليهود ، ومن ظهور بعض العلماء فيهم ، ومن تمكنهم من كثير من المرافق العاملة فى الحياة فهذا كلّه ثمن للهوان الذي استساغوا طعامه ، تماما كما يزيّن بعض الحمير أحيانا

بألوان من الزينة ، بما يصطنع له من سرج القطيفة ، ولجم الفضة ، فلا يرفع ذلك من قدره ، ولا يخرجه من بنى جنسه . . فهو « الحمار » أيّا كانت الحلية التي يتحلّى بها . .

وإنه لو وضع أعلم اليهود ، علمه تحت نظر فاحص دارس ، لما رأى منه الناظر إليه إلّا غباء وجهلا ، وإن هذا العلم مهما بلغ لا يعدو أن يكون ثوبا اختطفه ، أو سرقه ، أو ألقى به عليه غيره ، ممن لا يريد أن يظهر فى الناس بهذا العلم ، الذي كثيرا ما يكون منحرفا ، مصادما للعقائد ، والأخلاق .

وقوله تعالى : « بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ » .أي بئس هذا المثل ، وهو الحمار ، مثلا لهؤلاء القوم الذين كذبوا بآيات اللّه .

وقد وقع الذّم على المثل ، ولم يقع على المماثل ، وفى هذا مبالغة فى الذمّ للماثل ، لأن الذي وقع عليه الذم إنما استحق الذّم فى هذا المقام بسبب من مثل به . . فكأن هذا الشيء المذموم لم يكن مذموما حتى اقترن بهذا الممثّل به ، فأصابه منه هذا البلاء الذي استوجب ذمّه .

وقوله تعالى : « وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .إشارة إلى أن هؤلاء القوم إنما تخبطوا فى الضلال ، وعموا عن الانتفاع بما فى التوراة التي يحملونها ، لأنهم كانوا ظالمين ، معتدّين حدود اللّه ، فتركهم اللّه فى ظلمات يعمهون .

قوله تعالى : « قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ » . .

الذين هادوا ، هم اليهود ، وأصله من الهود ، وهو الرجوع برفق ، وسمى

اليهود يهودا ، لأنهم رجعوا إلى اللّه تائبين ، بعد أن عبدوا العجل ، كما جاء فى فى قوله تعالى على لسان موسى «وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ» (156 : الأعراف) . .

ثم لزمهم هذا الاسم ، ولعنهم اللّه وهم معروفون به . .

فالخطاب فى الآية الكريمة موجّه من النبي - صلى اللّه عليه وسلم - إلى اليهود ، بأمر ربه ، ليقول لهم : إن صحّ ما زعمتموه ، من أنكم أولياء للّه من دون الناس ، وأن اللّه سبحانه وتعالى قد اختصكم بالفضل والإحسان ، حتى لقد قلتم إنكم أبناء اللّه وأحباؤه - إن صحّ زعمكم هذا ، فتمنّوا الموت واطلبوه ، إن كنتم صادقين فيما تزعمون . . فإن هذا الموت سيصير بكم إلى اللّه الذي تزعمون أنكم أولياؤه وأبناؤه وأحباؤه . . والولىّ إنما يشتاق إلى لقاء وليّه ، والابن إنما يسعى إلى لقاء أبيه ، والحبيب إنما يشوقه لقاء من أحب . . فلم لا تتمنون الموت ، ولا تطلبونه ، وهو السبب الذي يصلكم اتصالا مباشرا باللّه ، الذي تزعمون أنكم أولياؤه وأحباؤه من دون الناس ! إن هذا ادعاء كاذب منكم ، ونفاق تنافقون به أنفسكم ، إذ لو كنتم مؤمنين بما تزعمون ، لما فزعتم من الموت ، ولما حرصتم

على الحياة هذا الحرص الذي جعل منكم أجبن الناس ، وأشدهم فرارا من لقاء العدو . .

وفى هذا يقول اللّه تعالى : « وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ » (96 : البقرة) . .

وهذا لا يكون إلا من إنسان يرى الموت نهاية لوجوده ، أو يرى أن وراء الموت أهوالا تنتظره ، بما قدمت يداه من آثام . .

(170/763)

قوله تعالى : « وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » .

هو بيان للعلّة التي من أجلها يحرص اليهود على الحياة ، ويفزعون من الموت ، وأنهم لا يتمنون الموت أبدا ، لما يعلمون من أنفسهم أنهم على ضلال ، وأنهم لن يجدوا فى الآخرة إلا البلاء والهوان . . شأنهم فى هذا شأن إبليس الذي يعلم أن مصيره إلى عذاب اللّه ، وأنه إنما سأل اللّه أن ينظره ، وأن يؤخر عنه العذاب الذي توعده به ، فرارا من هذا العذاب ، ودفعا له من يومه إلى غده .

قوله تعالى : « قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

أي أن هذا الموت الذي تحذرونه ، وتفرون من ملاقاته ، هو ملاقيكم حتما ، ولن تفروا منه أبدا . . ثم إنّ وراء هذا الموت رجعة إلى اللّه ، وحسابا ، وعقابا ، وسترون أعمالكم المنكرة حاضرة بين أيديكم ، وسينزل بكم العذاب الذي أنتم أهل له . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 14 صـ 546.550 ﴾

(171/763)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾

بعد أن تبين أنه تعالى آتى فضله قوماً أميين أعقبه بأنه قد آتى فضله أهل الكتاب فلم ينتفع به هؤلاء الذين قد اقتنعوا من العلم بأن يحملوا التوراة دون فهم وهم يحسبون أن ادخار أسفار التوراة وانتقالها من بيت إلى بيت كافٍ في التبجح بها وتحقير من لم تكن التوراة بأيديهم ، فالمراد اليهود الذين قاوموا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وظاهروا المشركين .

وقد ضرب الله لهؤلاء مثلاً بحال حمار يحمل أسفاراً لا حظّ له منها إلا الحَمل دون علم ولا فهم .

ذلك أن علم اليهود بما في التوراة أدخلوا فيه ما صيره مخلوطاً بأخطاء وضلالات ومتبعاً فيه

هوى نفوسهم وما لا يعد و نفعهم الدنيوي ولم يتخلقوا بما تحتوي عليه من الهدى والدعاء إلى تزكية النفس وقد كتموا ما في كتبهم من العهد باتباع النبي الذي يأتي لتخليصهم من ربقة الضلال فهذا وجه ارتباط هذه الآية بالآيات التي قبلها ، وبذلك كانت هي كالتتمة لما قبلها .

وقال في "الكشاف" عن بعضهم : افتخر اليهود بأنهم أهل كتاب .

والعرب لا كتاب لهم .

فأبطل الله ذلك بشَبَهِهم بالحمار يحمل أسفاراً .

ومعنى ﴿ حملوا ﴾ : عُهد بها إليهم وكلفوا بما فيها فلم يفوا بما كلفوا ، يقال : حَمَّلت فلاناً أمر كذا فاحتمله ، قال تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ سورة [الأحزاب : 72] .

وإطلاق الحمل وما تصرف منه على هذا المعنى استعارة ، بتشبيه إيكال الأمر بحمل الحِمل على ظهر الدابة ، وبذلك كان تمثيل حالهم بحال الحمار يحمل أسفاراً تمثيلاً للمعنى المجازي بالمعنى الحقيقي .

وهو من لطائف القرآن .

وثم ﴾ للتراخي الرتبي فإن عدم وفائهم بما عُهد إليهم أعجب من تحملهم إياه .

وجملة ﴿ يحمل أسفاراً ﴾ في موضع الحال من الحمار أو في موضع الصفة لأن تعريف الحمار هنا تعريف جنس فهو معرفة لفظاً نكرة معنى ، فصحّ في الجملة اعتبار الحاليَّة والوصف .

وهذا التمثيل مقصود منه تشنيع حالهم وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس المتعارف ، ولذلك ذيل بذم حالهم ﴿ بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ﴾ .

و﴿ بئس ﴾ فعل ذم ، أي ساء حال الذين كذبوا بكتاب الله فهم قد ضموا إلى جهلهم بمعاني التوراة تكذيباً بآيات الله وهي القرآن .

و﴿ مثل القوم ﴾ ، فاعل ﴿ بئس ﴾ .

وأغنى هذا الفاعل عن ذكر المخصوصِ بالذم لحصول العلم بأن المذموم هو حَال القوم المكذبين فلم يسلك في هذا التركيب طريق الإِبهام على شرط التفسير لأنه قد سبقه ما بينه بالمَثل المذكور قبله في قوله : ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ .

فصار إعادة لفظ المثل ثقيلاً في الكلام أكثر من ثلاث مرات .

وهذا من تفننات القرآن .

و﴿ الذين كذبوا ﴾ صفة ﴿ القوم ﴾ .

وجملة ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ تذييل إخباراً عنهم بأن سوء حالهم لا يرجى لهم منه انفكاك لأن الله حرمهم اللطف والعناية بإنقاذهم لظلمهم بالاعتداء على الرسول صلى الله عليه وسلم بالتكذيب دون نظر ، وعلى آيات الله بالجحد دون تدبر .

قال في "الكشاف" : "وعن بعضهم قد أبطل الله قول اليهود في ثلاث" ، أي آيات من هذه السورة : افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم في قوله : ﴿ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ [الجمعة : 6] .

وبأنهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم ، فشبههم بالحمار يحمل أسفاراً ، وبالسبت وأنه ليس للمسلمين مثله فشرع الله لهم الجمعة .

قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6)

أعقب تمثيل حال جهلهم بالتوراة بذكر زعم من آثار جهلهم بها إبطالاً لمفخرة مزعومة عندهم أنهم أولياء الله وبقية الناس ليسوا مثلهم .

وذلك أصل كانوا يجعلونه حجة على أن شؤونهم أفضل من شؤون غيرهم .

ومن ذلك أنهم كانوا يفتخرون بأن الله جعل لهم السبت أفضل أيام الأسبوع وأنه ليس للأميين مثله فلما جعل الله الجمعة للمسلمين اغتاظوا ، وفي "الكشاف" "افتخر اليهود بالسبت وأنه للمسلمين مثله فشرع الله لهم الجمعة" .

وافتتح بفعل ﴿ قل ﴾ للاهتمام .

و﴿ الذين هادوا ﴾ : هم الذين كانوا يهوداً ، وتقدم وجه تسمية اليهود يهوداً عند قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ﴾ في سورة [البقرة : 62] .

ويجوز أن يكون هادوا ﴾ بمعنى تابوا لقول موسى عليه السّلام بعد أن أخذتهم الرجفة : ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ كما تقدم في سورة [الأعراف : 156] .

وأشهر وصف بني إسرائيل في القرآن بأنهم هود جمع هائد مثل قعود جمع قاعد .

وأصل هود هُوُود وقد تنوسي منه هذا المعنى وصار علماً بالغلبة على بني إسرائيل فنودوا به هنا بهذا الاعتبار لأن المقام ليس مقام ثناء عليهم أو هو تهكم .

وجيء بإن ﴾ الشرطية التي الأصل فيها عدم الجزم بوقوع الشرط مع أن الشرط هنا محقق الوقوع إذ قد اشتهروا بهذا الزعم وحكاه القرآن عنهم في سورة [العقود : 18] : ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ للإِشارة إلى أن زعمهم هذا لما كان باطلاً بالدلائل كان بمنزلة الشيء الذي يفرض وقوعه كما يفرض المستبعد وكأنه ليس واقعاً

على طريقة قوله تعالى : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً إن كنتم قوماً مسرفين ﴾ [الزخرف : 5] ويفيد ذلك توبيخاً بطريق الكناية .

والمعنى : إن كنتم صادقين في زعمكم فتمنوا الموت .

وهذا إلجاء لهم حتى يلزمهم ثبوت شكهم فيما زعموه .

(174/763)

والأمر في قوله : ﴿ فتمنوا ﴾ مستعمل في التعجيز : كناية عن التكذيب مثل قوله تعالى :

﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ [آل عمران : 93] .

ووجه الملازمة بين الشرط وجوابه أن الموْت رجوع الإِنسان بروحه إلى حياة أبدية تظهر فيها آثار رضى الله عن العبد أو غضبه ليجزيه على حسب فعله .

والنتيجة الحاصلة من هذا الشرط تُحَصِّلُ أنهم مثل جميع الناس في الحياتين الدنيا والآخرة وآثارهما ، واختلافِ أحوالِ أهلهما ، فيعلم من ذلك أنهم ليسوا أفضل من الناس .

وهذا ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق ﴾ [المائدة : 18] .

وبهذا يندفع ما قد يعرض للناظر في هذه الآية من المعارضة بينها وبين ما جاء في الأخبار

الصحيحة من النهي عن تمني الموت .

وما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كَره لقاء الله كره الله لقاءه "

، فقالت عائشة : "إنا نكره الموت فقال لها ليس ذلك" الحديث .

وما روي عنه أنه قال : " ارسل ملك الموت إلى موسى فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه فقال أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت " إلى قوله : "قال موسى فالآن" .

ذلك أن شأن المؤمنين أن يكونوا بين الرجاء والخوف من الله ، وليسوا يتوهمون أن الفوز مضمون لهم كما توهم اليهود .

فما تضمنته هذه الآية حكاية عن حال اليهود الموجودين يومئذٍ ، وهم عامة غلبت عليهم الأوقام والغرور بعد انقراض علمائهم ، فهو حكايه عن مجموع قوم ، وأما الأَخبار التي أوردناها فوصف لأحوال معيّنة وأشخاص معينين فلا تعارض مع اختلاف الأحوال والأزمان ، فلو حصل لأحد يقين بالتعجيل إلى النعيم لتمنى الموت إلا أن تكون حياته لتأييد الدين كحياة الأنبياء .

فعلى الأول يحمل حال عُمَير بن الحُمَام في قوله:

جَرْياً إلى الله بغير زاد . . .

وحال جعفر بن أبي طالب يوم مُوتَةَ وقد اقتحم صَفّ المشركين:

يَا حَبَّذا الجنةُ واقترابها . . .

وقول عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمان مغفرة . . .

وضربة ذات فَرْغٍ تقذف الزبدا

المتقدمة في سورة البقرة لأن الشهادة مضمونة الجزاء الأحسن والمغفرة التامة .

وعلى الثاني يحمل قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة في تأويل قوله : " من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه " إن المؤمن إذا حضره الموت بُشر برضوان الله فليس شيء أحبَّ إليه مما أمَامَه فأحَب لقاء الله .

وقول موسى عليه السلام لملَك الموت : "فالآن .

وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7)

اعتراض بين جملتي القولين قصد به تحديهم لإقامة الحجة عليهم أنهم ليسوا أولياء لله .

وليس المقصود من هذا معذرة لهم من عدم تمنيهم الموت وإنما المقصود زيادة الكشف عن بطلان قولهم : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة : 18] وإثبات أنهم في شك من

ذلك كما دل عليه استدلال القرآن عليهم بتحققهم أن الله يعذبهم بذنوبهم في قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم .

وقد مرّ ذلك في تفسير سورة العقود (18 .

(والباء في بما قدمت أيديهم ﴾ سببية متعلقة بفعل ﴿ يتمنونه ﴾ المنفي فما قدمت أيديهم هو سَبَب انتفاء تمنيهم الموت ألقى في نفوسهم الخوف مما قدمت أيديهم فكان سبب صرفهم عن تمنّي الموت لتقدم الحجة عليهم .

و(ما) موصولة وعائدة الصلة محذوف وحذفه أغلبي في أمثاله .

والأيدي مجاز في اكتساب الأعمال لأن اليد يلزمها الاكتساب غالباً .

ومَصْدَقُ "ما قدمت أيديهم" سيئاتهم ومعاصيهم بقرينة المقام .

وتقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة وما ذكرتُه هنا أتم مما هنالك فاجمع بينهما .

والتقديم : أصله جعل الشيء مقدّماً ، أي سابقاً غيرَه في مكان يقعوه فيه غيره .

واستعير هنا لما سلف من العمل تشبيهاً له بشيء يسبِّقه المرء إلى مكان قبل وصوله إليه .

وجملة ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ ، أي عليم بأحوالهم وبأحوال أمثالهم من الظالمين فشمل لفظ الظالمين اليهود فإنهم من الظالمين .

وقد تقدم معنى ظلمهم في الآية قبلها .

وقد وصف اليهود بالظالمين في آيات كثيرة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ [البقرة : 140] والمقصود أن إحجامهم عن تمنّي الموت لما في نفوسهم من خوف العقاب على ما فعلوه في الدنيا ، فكني بعلم الله بأحوالهم عن عدم انفلاتهم من الجزاء عليها ففي هذا وعيد لهم .

قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ

تصريح بما اقتضاه التذييل من الوعيد وعدم الانفلات من الجزاء عن أعمالهم ولو بَعُد زمان وقوعها لأن طول الزمان لا يؤثر في علم الله نسياناً ، إذ هو عالم الغيب والشهادة .

وموقع هذه الجملة موقع بدل الاشتمال من جملة ﴿ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ [الجمعة : 6] ، وإعادة فعل ﴿ قل ﴾ من قبيل إعادة العامل في المبدل منه كقوله تعالى : ﴿ تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ﴾ في سورة [العقود : 114] .

ووصف الموت ﴾ بـ ﴿ الذي تفرون منه ﴾ للتنبيه على أن هلعهم من الموت خطأ كقول علقمة:

إن الذين ترونهم إخوانكم

يشفي غليل صدورهم أن تُصرعوا

وأطلق الفرار على شدة الحذر على وجه الاستعارة .

واقتران خبر (إن) بالفاء في قوله : ﴿ فإنه ملاقيكم ﴾ لأن اسم (إن) نُعِت باسم الموصول والموصول كثيراً ما يعامل معاملة الشرط فعومل اسم (إن) المنعوت بالموصول معاملة نعته .

وإعادة ﴿ إنّ ﴾ الأولى لزيادة التأكيد كقول جرير:

إن الخليفةَ إن الله سربله

سِربال مُلْكٍ به تُرْجى الخَواتِيم

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ في سورة [الكهف : 30] .

وفي سورة الحج أيضاً .

والإنباء بما كانوا يعملون كناية عن الحساب عليه ، وهو تعريض بالوعيد . انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾

فقاس من حمله سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له ولا تحكيم له وعمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها وحظه منها حمله على ظهره ليس إلا فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤد حقه ولم يرعه حق رعايته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أعلام الموقعين حـ 1 صـ 165 ﴾

(178/763)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَوْله تعَالَى ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا ﴾ وَفِي الْبَقَرَةِ ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ ﴾ مَا نَصُّهُ :

تَكَلَّمَ فِيهِ السُّهَيْلِيُّ بِنَاءً عَلَى أَنَّ كَلِمَةَ " لَا " أَبْلَغُ .

وَصَاحِبُ دُرَّةِ التَّنْزِيلِ بنَاءً عَلَى أَنَّ " لَنْ " أَبْلَغُ .

وَأَنَا أَقُولُ إنَّ " لَنْ " أَبْلَغُ فِي حَقِيقَةِ النَّفْيِ وَالْمُبَالَغَةِ فِيهِ أَوَّلَ زَمَانِ النَّفْيِ ، وَ " لا " أَبْلَغُ فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ وَهُوَ الْمُسْتَقْبَلُ مَعَ اشْتِرَاكِهِمَا فِيهِ .

وَوَرَدَ التَّأْبِيدُ فِيهِمَا ، وَإِذَا عُرِفَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ قَالَ ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ وَهَذَا الشَّرْطُ وَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ وَهِيَ نِهَايَةُ مُرَادِ الْمُؤْمِنِ ، وَجَزَاؤُهَا الْأَمْرُ بِتَمَنِّي الْمَوْتِ لِذَلِكَ ، لِأَنَّهُ إذَا كَانَتْ نِهَايَةُ الْمُرَادِ قَدْ حَصَلَتْ فَلَا مَانِعَ مِنْ تَمَنِّي الْمَوْتِ الْمُوصِلِ إلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ الْخَالِصَةِ الَّتِي ثَبَتَ حُصُولُهَا لَهُمْ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ ، فَحَسُنَ بَعْدَهُ " لَنْ " لِأَنَّهَا قَاطِعَةٌ بِالنَّفْيِ الْآنَ الْمُضَادِّ لِلشَّرْطِ الَّذِي قُدِّرَ حُصُولُهُ الْآنَ ، فَالْمَقْصُودُ تَحْقِيقُ النَّفْيِ الْآنَ وَتَأْكِيدُهُ ، وَإِنْ امْتَدَّ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَلِذَلِكَ قُرِنَ بِالتَّأْبِيدِ ، فَحَصَلَ تَأْكِيدَانِ أَحَدُهُمَا فِي الطَّرَفِ الْأَوَّلِ بِلَنْ وَالثَّانِي فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ بِالتَّأْبِيدِ .

وَفِي سُورَةِ الْجُمُعَةِ قَالَ ﴿ إنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ فَجَعَلَ الشَّرْطَ أَمْرًا مُسْتَقْبَلًا قَدْ يَقَعُ الزَّعْمُ مِنْهُمْ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ .

ورتب عليه الأمر بتمني الموت ، لأنه يلزم من كونهم أولياء حصول الدار الآخرة لهم ، وإن لم يدل عليها مطابقة كالآية الأولى فجاء الانتفاء للتمني المستقبل التي متى وقع الزعم علم انتفاء التمني ، فكان التأكيد فيه في الطرف الآخر فقط ، وكذلك صرح بالتأبيد

(180/763)

، ولم يؤت بصيغة " لن " فإن قلت فمن أين لك هذا الفرق بين " لن " و " لا " ولم يذكره النحاة وغاية ما ذكره بعضهم الاختلاف في أن " لن " أوسع أو " لا " أوسع وفي أن " لا " تختص بالمستقبل أو تحتمل الحال والاستقبال ، وهذا الذي قلته أنت من أن كلا منهما أبلغ من وجه لم يذكره أحد .

قلت وإن لم يذكروه فإنهم لم ينفوه ويؤخذ من استقراء مواردها .

قال تعالى ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾ ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ ﴿ إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ﴾ ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا ﴾ ﴿ فلن يهتدوا إذا أبدا ﴾ ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ ﴿ لن ندخلها حتى

يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ ﴿ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ ﴾ ﴿ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ ﴾ ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

(181/763)

فَانْظُرْ مَوَارِدَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَقُوَّةَ تَحْقِيقِ النَّفْيِ فِي الْحَالِ فِيهَا ، وَفِي بَعْضِهَا التَّأْبِيدُ لِإِرَادَةِ تَقْوِيَةِ الطَّرَفَيْنِ وَفِي قَوْلِهِ (إِذًا أَبَدًا) الْمَقْصُودُ تَحْقِيقُ النَّفْيِ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَى الْأَبَدِ إِنْ تَأَخَّرَ عَنْ وَقْتِ الْخِطَابِ فَالتَّأْبِيدُ مِنْ ابْتِدَاءِ زَمَانِهِ إِلَى الْأَبَدِ وَلِذَلِكَ احْتَرَزْتَ فِي أَوَّلِ كَلَامِي فَلَمْ أَقُلْ مِنْ الْآنَ وَأَمَّا " لَا " فَقَالَ تَعَالَى ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ لِأَنَّ الْقَصْدَ نَفْيُ عِلْمِهِمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ .

فَلَا يَحْسُنُ هُنَا .

وَكَذَلِكَ ﴿ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ لَيْسَ الْمَقْصُودُ الْمُبَالَغَةَ فِي تَأْكِيدِ النَّفْيِ لِأَنَّهُ

(182/763)

مَعْلُومٌ وَقَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ ﴾ أَيْ لَا أَبْرَحُ مُسَافِرًا وَلَعَلَّهُ قَالَ قَبْلَ السَّفَرِ فَلَيْسَ كَقَوْلِ أَخِي يُوسُفَ ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ ﴿ وَإِذًا لَا يَلْبَسُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ لَمَّا كَانَ الْمُسْتَثْنَى الزَّمَانَ الْأَوَّلَ جَازَ " لَا " وَالْمُسْتَثْنَى فِي ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ الْفِعْلَ فَكَانَ " لَنْ " مَعَ تَحْقِيقِ النَّفْيِ فِي أَوَّلِ الْأَزْمِنَةِ وَانْظُرْ كَيْفَ وَقَعَ التَّعَادُلُ بَيْنَ " لَنْ " وَ " لَا " اشْتَرَكَا فِي نَفْيِ الْمُسْتَقْبَلِ وَاخْتَصَّتْ " لَا " بِنَفْيِ الْحَالِ وَالْمَاضِي وَاخْتَصَّتْ لَنْ بِقُوَّةِ النَّفْيِ مِنْ ابْتِدَاءِ الْمُسْتَقْبَلِ وَكَذَلِكَ جَاءَتْ فِي قَوْلِهِ ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ قُوَّةُ نَفْيِ رُؤْيَتِهِ ذَلِكَ الْوَقْتَ فِي الدُّنْيَا ، وَلَمْ يَجِئْ فِيهَا التَّأْبِيدُ فَلَا صَرِيحَ فِي دَلَالَتِهِمَا عَلَى النَّفْيِ فِي الْآخِرَةِ وَدَلَالَةُ " لَنْ " عَلَى النَّفْيِ فِي أَوَّلِ أَزْمِنَةِ الِاسْتِقْبَالِ أَقْوَى مِنْ دَلَالَةِ " لَا " وَدَلَالَةُ " لَا " عَلَى اسْتِغْرَاقِ الْأَزْمِنَةِ الْمُسْتَقْبَلَةِ أَقْوَى مِنْ دَلَالَةِ " لَنْ " لِمَا فِي " لَا " مِنْ الْمَدِّ الْمُنَاسِبِ لِلْمُسْتَقْبَلِ ، فَلِذَلِكَ نَقُولُ " لَا " أَوْسَعُ " وَلَنْ " أَقْوَى وُسْعَةً لَا فِي الظَّرْفِ مِنْ الْمُسْتَقْبَلِ وَيَمُدُّهُ مَا قَبْلَهُ إلَى أَوَّلِ أَزْمِنَةِ الِاسْتِقْبَالِ ، وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي الْحَالِ ، وَفِي الْمَاضِي فَصَارَتْ لِجَمِيعِ الْأَزْمِنَةِ ؛ " وَلَنْ " لَا تَصْلُحُ إلَّا لِلْمُسْتَقْبَلِ وَهِيَ بَاقِيَةٌ فِي أَوَّلِهِ ، فَظَاهِرُ " لَنْ " بَاقِيَةٌ وَالْمُعَادَلَةُ بَيْنَ الْحَرْفَيْنِ مِنْ حِكْمَةِ

لِسَانِ الْعَرَبِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انْتَهَى . انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 117 . 119 ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الأبد)

وقد ذكر فى اثنى عشر موضعاً من التنزيل : ﴿ لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُوا فِيهَا ﴾ ، ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ﴿ وَلاَ يَتَمَنَّونَهُ أَبَداً ﴾ ﴿ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ﴾ ﴿ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴾ ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ﴾ ﴿ فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً ﴾ ﴿ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ﴾ ﴿ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً ﴾ ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً ﴾ ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ﴾ ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .

والأَبد : عبارة عن مُدّة الزّمان الممتدّ الّذى لا يتجزّأ كما يتجزّأُ الزمان .

وذلك أَنَّه يقال : زمان كذا ، ولا يقال أَبد كذا .

وكان حقّه أَلاَّ يثنى ولا يُجمع ، إِذ لا يتصوّر حصُول أَبدٍ آخر يضمّ إِليه ، فيثنى ، ولكن قيد قيل آباد .

وذلك على حَسَب تخصيصه فى بعض ما يتناوله ؛ كتخصيص اسم الجنس فى بعضه ثمّ يثنى ، ويجمع .

على أَنَّ بعض النَّاس ذكر أَنَّ (آباد) مولَّد ، وليس من الكلام العربىّ الفصيح .

وأَبَدُ آبد ، وأَبِيدُ أَى دائم .

وذلك على التأْكيد .

وتأَبَّد الشَّيْءُ : بقِى أَبَداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 176 ﴾

(184/763)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والستون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/764)

الجزء الرابع والستون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 9 ﴾ من (سورة الجمعة)

وحتى الآية ﴿ 11 ﴾ من السورة

(4/764)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قبح سبحانه المخالفة بين القول والفعل وصور صاحبها بصورة الحمار على الهيئة السابقة ، وحذر من ذلك بما هيأ به العاقل للإجابة إلى دوام الطاعة بعد أن بين أن جميع الكائنات مقرة بشمول ملكه بما لها من التسبيح بألسنة الأحوال ، والقيام في مراداته بغاية الامتثال ، فكان العاقل جديراً بالمبادرة إلى غاية التسبيح بلسان المقال ، وختم بالتحذير من الإخبار يوم الجمع الأعظم بجميع الأعمال ، قال على طريق الاستنتاج مما مضى من الترغيب والترهيب ، نادباً لهم - ليكونوا أولياء الله - إلى التزكية المذكورة التي هي ثمرة الرسالة بما حاصله الإقبال بالكلية على الله والإعراض بالكلية عن الدنيا ليجمع المكلف بين التحلي بالمزايا والتخلي عن الدنايا ، فخص من المزايا أعظم تسبيح يفعله العاقل في أيام الأسبوع وهو الإسراع بالاجتماع العظيم في يوم الجمعة الذي يناظر الاجتماع لإجابة المنادي في يوم الجمع الأكبر ، ثم الإقبال الأعظم بفعل صلاة الجمعة التي هي سر اليوم الذي ضيعه اليهود واستبدلوا به ما كان سبب تعذيبهم بعذاب لم يعذب به أحد من العالمين كما جعل نتيجة السورة الماضية النداء بالإرشاد إلى الإيمان والجهاد الموجب للأمان : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي أقروا بألسنتهم بالإيمان وألهبهم بأداة البعد - المشيرة إلى احتياجهم إلى التزكية - إلى المبادرة إلى الإقبال على ما يتعقب ذلك من الأوامر ﴿ إذا نودي ﴾ أي من أي مناد

كان من أهل النداء ﴿ للصلاة ﴾ أي لأجل الحضور إليها وإليه عند قعود الإمام على المنبر للخطبة.

(5/764)

ولما كانت الإجابة يكفي في إيجابها النداء في الوقت المعروف للنداء ولا يشترط لها استغراق النداء لجميع اليوم أتى بالجار فقال: ﴿ من يوم الجمعة ﴾ أي اليوم الذي عرض على من قبلنا فأبوه فكانوا كمثل الحمار يحمل أسفاراً وادخره الله لنا ووفقنا لقبوله، فكانوا لنا تبعاً مع تأخرنا عنهم في الزمان، سمي بذلك لوجوب الاجتماع فيه للصلاة، فعلة بالسكون ويضم اسم للمفعول كالضحكة للمضحوك منه، فإن فتح ميمه كان بمعنى الوقت الجامع كالضحكة للكثير الضحك، ومن جمعه أن فيه اجتمع خلق آدم عليه الصلاة والسلام فاجتمع بخلقه جميع الخلق، وهو مذكر بيوم البعث والجمع الذي يقع فيه الإنباء بالأعمال، وتظهر فيه ظهوراً بيناً تاماً الجلال والجمال ﴿ يوم يناد المناد من مكان قريب ﴾ [ق: 41] وفيه تقوم الساعة، روى مالك عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه الصلاة والسلام وفيه أهبط وفيه مات وفيه تيب عليه، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مصيحة

يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس مشفقاً من الساعة إلا الجن والإنس ، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه " وفي آخر الحديث أن عبد الله بن سلام ـ رضى الله عنه ـ قال : إنها آخر ساعة يوم الجمعة ، وأول الصلاة بما هو أعم من فعلها وانتظارها لقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ " من جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصليها " وكان النداء في زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند باب المسجد إذا صعد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المنبر ، فإذا نزل بعد الخطبة أقيمت الصلاة ، وكذا في زمن أبي بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ ، فلما كان عثمان ـ رضى الله عنه ـ وكثر الناس وتباعدت المنازل وقلت الهمم زاد مؤذناً آخر على داره التي تسمى الزوراء ، فإذا جلس على المنبر أذن المؤذن

(6/764)

ثانياً الأذان الذي كان على زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فإذا نزل من المنبر أقيمت الصلاة ، ولم يعب أحد على عثمان زيادة الأذان الأول لعلمهم أنه من السنة بما جعل إليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قال : " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ".

ولما كان المراد إيجاب المعنى جزماً من غير تردد مع قطع كل علاقة بلا التفات إلى شيء من غير ما عذر الشارع به ، عبر عنه بالسعي ، وهو معنى قول الحسن أنه السعي بالنية لا بالقدم ، فقال : ﴿ فاسعوا ﴾ أي لتكونوا أولياء الله ولا تهاونوا في ذلك لتكونوا أعداءه كاليهود ﴿ إلى ذكر الله ﴾ أي الخطبة والصلاة المذكرة بالملك الأعظم الذي من انقطع عن خدمته هلك ، هذا المراد بالسعي لا حقيقة بل هي منهي عنها كما قال صلى الله عليه وسلم :

" إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ولكن ائتوها وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا " .

ولما أمر بالمبادرة إلى تجارة الآخرة ، وكان طلب الأرباح لكونها حاضرة أعظم مانع عن أمور الآخرة لكونها غايته ، وكان البيع أجل ذلك لتعين الفائدة فيه ولكونه أكثر ما يشتغل به أهل الأسواق لكثرة الوافدين إلى الأمصار يوم الجمعة من الحواضر واجتماعهم للتجارة عند تعالي النهار ، قال ناهياً عن تجارة الدنيا وكل ما يعوق عن الجمعة معبراً به عنها لأنه أعظمها : ﴿ وذروا البيع ﴾ أي اتركوه ولو على أقبح حالاته وأذلها وأحقرها ، فأفاد النهي عن غيره من باب الأولى ، ووقت التحريم من الزوال إلى فراغ الصلاة ، فإن خالف وباع صح العقد مع عصيانه ، فإن النهي ليس لعينه ولا لما هو داخل فيه ولا لما هو خارج ولازم له بل

لأمر مقارن بطريق الاتفاق ، وهو ما هو فيه من الذهول عن الواجب فهو كالصلاة في الدار المغصوبة والثوب المغصوب والوضوء بالماء المغصوب .

(7/764)

ولما أمر بما هو شاق على النفوس معبراً بالفعل المريض لفظاً ومعنى ، رغب فيه بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ أي الأمر العالي الرتبة من فعل السعي وترك الاشتغال بالدنيا ﴿ خير لكم ﴾ لأن الذي أمركم به له الأمر كله وهو يريد تطهيركم في أديانكم وأبدانكم وأموالكم وبيده إسعادكم وإشقاؤكم ، وألهب إلى ذلك وزاد في الحث عليه بقوله : ﴿ إن كنتم ﴾ أي بما هو لكم كالجبلة ﴿ تعلمون ﴾ أي يتجدد لكم علم في يوم من الأيام فأنتم ترون ذلك خيراً ، فإذا علمتموه خيراً أقبلتم عليه فكان ذلك لكم خيراً ، وصلاة الجمعة فرض عين على كل من جمع البلوغ والعقل والحرية والذكورة والإقامة إذا لم يكن له عذر مما ذكره الفقهاء ، وإنما عبر عنها بهذا إشارة إلى أن عاقلاً لا يسعه أن يترك ما يعلم أنه أعلى وجوه الخير ، وكل من لا يجب عليه حضور الجمعة فإذا حضر وصلى مع الإمام سقط عنه فرض من الظهر ولا يكمل به عدد الجمعة إلا صاحب العذر ، فإنه إذا حضر يكمل به العدد .

(8/764)

ولما حث على الصلاة وأرشد إلى أن وقتها لا يصلح لطلب شيء غيرها ، وأنه متى طلب فيه شيء من الدنيا محقت بركته مع ما اكتسب من الإثم ، بين وقت المعاش فقال مبيحاً لهم ما كان حظر عليهم ، ولهذا قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : إن شئت فاخرج وإن شئت فاقعد : ﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾ أي وقع الفراغ منها على أي وجه كان ﴿ فانتشروا ﴾ أي فدبوا وتفرقوا مجتهدين في الأرض في ذلك ﴿ في الأرض ﴾ جميعها إن شئتم ، لا حجر عليكم ولا حرج رخصة من الله لكم ﴿ وابتغوا ﴾ أي وتعمدوا وكلفوا أنفسكم مجتهدين بالسعي في طلب المعاش ﴿ من فضل الله ﴾ أي زفلة الملك الأعلى الذي له كل كمال ولا يجب لأحد عليه شيء بالبيع والشراء وغيرهما من مصالح الدين والدنيا التي كنتم نهيتم عنها .

ولما كان السعي في طلب الرزق ملهياً عن الذكر ، بين أنه أعظم السعي في المعاش وأن من غفل عنه لم ينجح له مقصد وإن تحايل له بكل الحيل وغير ذلك فقال : ﴿ واذكروا الله ﴾ أي الذي بيده كل شيء ولا شيء لغيره فإنه لا رخصة في ترك ذكره أصلاً .

ولما كان العبد مطلوباً بالعبادة في كل حال فإنه مجبول على النسيان .

فمهما فتر عن نفسه استولت عليها الغفلة فمرنت على البطالة فهلكت قال : ﴿ كثيراً ﴾ أي بحيث لا تغفلوا عنه بقلوبكم أصلاً ولا بألسنتكم حتى عند الدخول إلى الخلاء وعند

أول الجماع وعند الإنزال، واستثنى من اللساني وقت التلبس بالقذر كالكون في قضاء الحاجة.

ولما كان مراد الإنسان من جميع تصرفاته الفوز بمراداته قال معللاً لهذا الأمر: ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي لتكونوا عند الناظر لكم والمطلع عليكم من أمثالكم ممن يجهل العواقب على رجاء من أن تظفروا بجميع مطلوباتكم، فإن الأمور كلها بيد من تكثرون ذكره، وهو عالم بمن يستحق الفلاح فيسعفه به وبمن عمل رياء ونحوه فيخيبه، فإذا امتثلتم أمره كان جديراً بتنويلكم ما تريدون، وإن نسيتموه كنتم جديرين بأن يكلكم إلى أنفسكم فتهلكوا.

(9/764)

ولما كان التقدير مما ينطق به نص الخطاب: هذه أوامرنا الشريفة وتقديساتنا العظيمة وتفضلاتنا الكريمة العميمة، فما لهم إذا نودي لها توانى بعضهم في الإقبال إليها، وكان قلبه متوجهاً نحو البيع ونحوه من الأمور الدنيوية عاكفاً عليها ساعياً بجهده إليها فخالف قوله أنه أسلم لرب العالمين فعله هذا، عطف عليه قوله: ﴿وإذا رأوا﴾ أي بعد الوصول إلى موطنها المريح ومحلها الفسيح الشرح المليح، والاشتغال بشأنها العالي ﴿تجارة﴾ أي حمولاً هي موضع للتجارة.

ولما ذكر ما من شأنه إقامة المعاش أتبعه ما هو أنزل منه وهو ما أقل شؤونه البطالة التي لا يجنح إليها ذو قدر ولا يلقي لها باله فقال : ﴿ أو لهواً ﴾ أي ما يلهي عن كل نافع .

ولما كان مطلق الانفضاض قبيحاً لأنه لا يكون إلا تقرباً على حال سيئ ، من الفض وهو الكسر بالتفرقة ، والفضاض ما تفرق من الفم والطلع : كسرهما ، فكيف إذا كانت علته قبيحة ، قال تعالى معبراً به : ﴿ انفضوا ﴾ أي نفروا متفرقين من العجلة .

ولما كان سبب نزول الآية أنه كان أصاب الناس جوع وجهد ، فقد دحية الكلبي رحمه الله تعالى بعير تحمل الميرة ، وكان في عرفهم أن يدخلوا في مثل ذلك بالطبل والمعازف والصياح ، وكان قصد بعض المنفضين العير ، وبعضهم ما قارنها من اللهو ، ولكن قاصد التجارة هو الكثر ، أنث الضمير فقال معلماً بالاهتمام بها لأن اللهو مسبب عنها : ﴿ إليها ﴾ وللدلالة على أنه إذا ذم قاصدها مع ما فيها من النفع والإنسان لا بد له من إصلاح معاشه لقيام حاله ولا سيما والحاجة إذ ذاك شديدة ، كان الذم لقصد اللهو من باب الأولى .

(10/764)

ولما كان ذلك حال الخطبة التي هي جديرة بشدة الإصغاء إليها والاتعاظ بها في صرف النفس عن الدنيا والإقبال على الآخرة قال : ﴿ وتركوك ﴾ أي تخطب حتى بقيت في اثني

عشر رجلاً ، قال جابر ـ رضى الله عنه ـ : أنا أحدهم ، ودل على مشروعية القيام بقوله : ﴿ قائماً ﴾ فالواجب خطبتان : قائماً يفصل بينهما بجلوس ، والواجب فيهما أن يحمد الله تعالى ويصلي على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويوصي بتقوى الله تعالى ، هذه الثلاثة واجبة في الخطبتين معاً ، ويجب أن يقرأ في الأولى آية من القرآن وفي الثانية أن يدعو للمؤمنين ، فلو ترك واحدة من هذه الخمس لم تصح الخطبة عند الشافعي ـ رضى الله عنه ـ ، ولجواز الجمعة خمس شرائط : الوقت وهو وقت الظهر ، والعدد وهو الأربعون ، والإمام والخطبة ودار الإقامة ، فإن فقد شرط وجبت الظهر ، ولا تبتدأ الخطبة إلا بعد تمام ، وبقاء هذا العدد شرط إلى آخر الصلاة ، فإن انفض بعضهم ثم عاد ولم يفته شيء من الأركان صحت .

ولما كان هذا فعل من سفلت همته عن سماع كلام الحق من الحق ، أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بوعظهم إلهاباً لهم إلى الرجوع إلى تأهلهم للخطاب ولو بالعتاب قال : ﴿ قل ﴾ أي لهم ترغيباً في الرجوع إلى ما كانوا عليه من طلب الخير من معدنه : ﴿ ما عند الله ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال من الأعراض العاجلة في الدنيا من واردات القلوب وبوادر الحقيقة ، الحاصل من سماع الخطبة الآمر بكل خير ، الناهي عن كل شر ، المفيد لتزكية الباطن وتقويم الظاهر والبركة في جميع الأحوال والآجلة في الآخرة مما لا يدخل تحت الوصف ﴿ خير ﴾ ولما قدم التجارة أولاً اهتماماً بها ، قدم هنا ما كانت سبباً له ليصير

كل منهما مقصوداً بالنهي فقال : ﴿ من اللهو ﴾ ولما بدأ به لإقبال الإغلب في حال الرفاهية عليه قال معيداً الجار للتأكيد : ﴿ ومن التجارة ﴾ أي وإن عظمت .

(11/764)

ولما كان من عنده الشيء قد لا يعطيه بسهولة وإذا أعطاه لا يعطيه إلا من يحبه قال : ﴿ والله ﴾ أي ذو الجلال والإكرام وحده ﴿ خير الرازقين ﴾ لأنه يرزق متاع الدنيا لسفوله ولكونه زاداً إلى الآخرة البر والفاجر والمطيع والعاصي ، ويعطي من يريد ما لا يحصيه العد ولا يحصره الحد ، وأما المعارف الإلهية والأعمال الدينية الدال عليها رونق الصدق وصفاء الإخلاص وجلالة المتابعة فلا يؤتيها إلا الأبرار وإن كانوا أضعف الناس وأبعدهم من ذلك ولا يفوت أحداً ، أقبل على ما شرعه شيئاً كان ينفعه فلا تظنوا أن الغنى في البيع والتجارة إنما هو في متابعة أمر من أحل البيع وأمر به وشرع ما هو خير منه تزكية وبركة ونماء في الظاهر والباطن ، روى صاحب الفردوس عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " من قال يوم الجمعة " اللهم أغنني بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصيتك وبفضلك عمن سواك سبعين مرة لم تمر به جمعتان حتى يغنيه الله تعالى " وأصل الحديث أخرجه أحمد والترمذي – وقال حسن – عن علي ـ رضى الله عنه

. ، وفي الباب عن ابن عباس -رضى الله عنهما - . فأقبلوا على متابعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- وألزموا هدية واستمسكوا بغرزه تنالوا خيري الدارين بسهولة ، فقد رجع آخر السورة كما ترى على أولها بما هو من شأن الملك من الرزق وإنالة الأرباح والفوائد ولا سيما إذا كان قدوساً وتبكيت من أعرض عن خطبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- اللازم منه استمرار الإقبال عليه ودوام الإقامة بين يديه ، لأنه لا يدعوهم إلا لما يحييهم من الصلاة والوعظ الذي هو عين تنزيه الله وتسبيحه ﴿ يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ [آل عمران : 164] يزكيهم ربهم ويرزقهم من فضله إنه كريم وهاب - والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 599.604 ﴾

(12/764)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

وجه التعلق بما قبلها هو أن الذين هادوا يفرون من الموت لمتاع الدنيا وطيباتها والذين آمنوا يبيعون ويشرون لمتاع الدنيا وطيباتها كذلك ، فنبههم الله تعالى بقوله : ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ

الله ﴾ أي إلى ما ينفعكم في الآخرة، وهو حضور الجمعة، لأن الدنيا ومتاعها فانية والآخرة وما فيها باقية، قال تعالى: ﴿ والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ [الأعلى: 17] ووجه آخر في التعلق، قال بعضهم: قد أبطل الله قول اليهود في ثلاث، افتخروا بأنهم أولياء الله واحباؤه، فكذبهم بقوله: ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ [الجمعة: 6] وبأنهم أهل الكتاب، والعرب لا كتاب لهم، فشبههم بالحمار يحمل أسفاراً، وبالسبت وليس للمسلمين مثله فشرع الله تعالى لهم الجمعة، وقوله تعالى: ﴿ إِذَا نُودِىَ ﴾ يعني النداء إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة وهو قول مقاتل، وأنه كما قال لأنه لم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء سواء كان إذا جلس عليه الصلاة والسلام على المنبر أذن بلال على باب المسجد، وكذا على عهد أبي بكر وعمر، وقوله تعالى: ﴿ للصلاة ﴾ أي لوقت الصلاة يدل عليه قوله: ﴿ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ ولا تكون الصلاة من اليوم، وإنما يكون وقتها من اليوم، قال الليث: الجمعة يوم خص به لاجتماع الناس في ذلك اليوم، ويجمع على الجمعات والجمع، وعن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سميت الجمعة جمعة لأن آدم جمع فيه خلقه" وقيل: لما أنه تعالى فرغ فيها من خلق الأشياء، فاجتمعت فيها المخلوقات.

قال الفراء : وفيها ثلاث لغات التخفيف ، وهي قراءة الأعمش والتثقيل ، وهي قراءة العامة ، ولغة لبني عقيل ، وقوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ أي فامضوا ، وقيل : فامشوا وعلى هذا معنى ، السعي : المشي لا العدو ، وقال الفراء : المضي والسعي والذهاب في معنى واحد ، وعن عمر أنه سمع رجلاً يقرأ : ﴿ فاسعوا ﴾ قال من أقرأك هذا ، قال : أبي ، قال : لا يزال يقرأ بالمنسوخ ، لو كانت فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي ، وقيل : المراد بالسعي القصد دون العدو ، والسعي التصرف في كل عمل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعي ﴾ قال الحسن : والله ما هو سعي على الأقدام ولكنه سعي بالقلوب ، وسعي بالنية ، وسعي بالرغبة ، ونحو هذا ، والسعي ههنا هو العمل عند قوم ، وهو مذهب مالك والشافعي ، إذ السعي في كتاب الله العمل ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تولى سعى فِي الأرض ﴾ [البقرة : 205] ﴿ وَأَنْ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ [الليل : 4] أي العمل ، وروي عنه صلى الله عليه وسلم : " إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، ولكن ائتوها وعليكم السكينة " واتفق الفقهاء على : "أن النبي صلى الله عليه وسلم (كان) متى أتى الجمعة أتى على هينة" وقوله : ﴿ إلى ذِكْرِ الله ﴾ الذكر هو الخطبة عند الأكثر من أهل التفسير ، وقيل : هو الصلاة ، وأما الأحكام المتعلقة بهذه الآية فإنها تعرف من الكتب الفقهية ، وقوله تعالى : ﴿ وَذَرُواْ البيع ﴾ قال الحسن : إذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم

يحل الشراء والبيع ، وقال عطاء : إذا زالت الشمس حرم البيع والشراء ، وقال الفراء إنما حرم البيع والشراء إذا نودي للصلاة لمكان الاجتماع ولندرك له كافة الحسنات ، وقوله تعالى : ﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي في الآخرة ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما هو خير لكم وأصلح ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة ﴾ أي إذا صليتم الفريضة يوم الجمعة ﴿ فانتشروا فِي الأرض ﴾ هذا صيغة الأمر بمعنى الإباحة لما

(14/764)

أن إباحة الانتشار زائلة بفرضية أداء الصلاة ، فإذا زال ذلك عادت الإباحة فيباح لهم أن يتفرقوا في الأرض ويبتغوا من فضل الله ، وهو الرزق ، ونظيره :

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مّن رَّبّكُمْ ﴾ [البقرة : 198] ، وقال ابن عباس :

إذا فرغت من الصلاة فإن شئت فاخرج ، وإن شئت فصل إلى العصر ، وإن شئت فاقعد ، كذلك قوله : ﴿ وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ فإنه صيغة أمر بمعنى الإباحة أيضاً لجلب الرزق بالتجارة بعد المنع ، بقوله تعالى : ﴿ وَذَرُواْ البيع ﴾ وعن مقاتل : أحل لهم ابتغاء الرزق بعد الصلاة ، فمن شاء خرج .

ومن شاء لم يخرج ، وقال مجاهد : إن شاء فعل ، وإن شاء لم يفعل ، وقال الضحاك ، هو إذن

من الله تعالى إذا فرغ ، فإن شاء خرج ، وإن شاء قعد ، والأفضل في الابتغاء من فضل الله أن يطلب الرزق ، أو الولد الصالح أو العلم النافع وغير ذلك من الأمور الحسنة ، والظاهر هو الأول ، وعن عراك بن مالك أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد (و) قال : اللهم أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين ، وقوله تعالى : ﴿ واذكروا الله كَثِيرًا ﴾ قال مقاتل : باللسان ، وقال سعيد بن جبير : بالطاعة ، وقال مجاهد : لا يكون من الذاكرين كثيراً حتى يذكره قائماً وقاعداً ومضطجعاً ، والمعنى إذا رجعتم إلى التجارة وانصرفتم إلى البيع والشراء مرة أخرى فاذكروا الله كثيراً ، قال تعالى : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تجارة وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله ﴾ .

وعن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا أتيتم السوق فقولوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، فإن من قالها كتب الله له ألف ألف حسنة وحط عنه ألف ألف خطيئة ورفع له ألف ألف درجة " وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ من جملة ما قد مر مراراً ، وفي الآية مباحث :

البحث الأول : ما الحكمة في أن شرع الله تعالى في يوم الجمعة هذا التكليف ؟ فنقول : قال القفال : هي أن الله عز وجل خلق الخلق فأخرجهم من العدم إلى الوجود وجعل منهم جماداً ونامياً وحيواناً ، فكان ما سوى الجماد أصنافاً ، منها بهائم وملائكة وجن وإنس ، ثم هي مختلفة المساكن من العلو والسفل فكان أشرف العالم السفلي هم الناس لعجيب تركيبهم ، ولما كرمهم الله تعالى به من النطق ، وركب فيهم من العقول والطباع التي بها غاية التعبد بالشرائع ، ولم يخف موضع عظم المنة وجلالة قدر الموهبة لهم فأمروا بالشكر على هذه الكرامة في يوم من الأيام السبعة التي فيها أنشئت الخلائق وتم وجودها ، ليكون في اجتماعهم في ذلك اليوم تنبيه على عظم ما أنعم الله تعالى به عليهم ، وإذا كان شأنهم لم يخل من حين ابتدئوا من نعمة تتخللهم ، وإن منة الله مثبتة عليهم قبل استحقاقهم لها ، ولكل أهل ملة من الملل المعروفة يوم منها معظم ، فلليهود يوم السبت وللنصارى يوم الأحد ، وللمسلمين يوم الجمعة ، روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يوم الجمعة هذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له فلليهود غداً وللنصارى بعد غد " ولما جعل يوم الجمعة يوم شكر وإظهار سرور وتعظيم نعمة احتيج فيه إلى الاجتماع الذي به تقع شهرته فجمعت الجماعات له كالسنة في الأعياد ، واحتيج فيه إلى الخطبة تذكيراً بالنعمة وحثاً على استدامتها بإقامة ما يعود بآلاء الشكر ، ولما كان مدار التعظيم ، إنما هو على الصلاة

جعلت الصلاة لهذا اليوم وسط النهار ليتم الاجتماع ولم تجز هذه الصلاة إلا في مسجد واحد ليكون أدعى إلى الاجتماع، والله أعلم.

الثاني: كيف خص ذكر الله بالخطبة، وفيها ذكر الله وغير الله؟ نقول: المراد من ذكر الله الخطبة والصلاة لأن كل واحدة منهما مشتملة على ذكر الله، وأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة والثناء عليهم والدعاء لهم فذلك ذكر الشيطان.

(17/764)

الثالث: قوله: ﴿ وَذَرُواْ البيع ﴾ لم خص البيع من جميع الأفعال؟ نقول: لأنه من أهم ما يشتغل به المرء في النهار من أسباب المعاش، وفيه إشارة إلى ترك التجارة، ولأن البيع والشراء في الأسواق غالباً، والغفلة على أهل السوق أغلب، فقوله: ﴿ وَذَرُواْ البيع ﴾ تنبيه للغافلين، فالبيع أولى بالذكر ولم يحرم لعينه، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة.

الرابع: ما الفرق بين ذكر الله أولاً وذكر الله ثانياً؟ فنقول: الأول من جملة ما لا يجتمع مع التجارة أصلاً إذ المراد منه الخطبة والصلاة كما مر، والثاني من جملة ما يجتمع كما في قوله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تجارة وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله ﴾ [النور: 37].

وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11)

قال مقاتل : إن دحية بن خليفة الكلبي أقبل بتجارة من الشام قبل أن يسلم وكان معه من أنواع التجارة ، وكان يتلقاه أهل المدينة بالطبل والصفق : وكان ذلك في يوم الجمعة والنبي صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر يخطب فخرج إليه الناس وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم ولم يبق إلا اثنا عشر رجلاً أو أقل كثمانية أو أكثر كأربعين ، فقال عليه السلام : لولا هؤلاء لسومت لهم الحجارة ، ونزلت الآية : وكان من الذين معه أبو بكر وعمر .

(18/764)

وقال الحسن : أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر فقدمت عير والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة فسمعوا بها وخرجوا إليها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لو اتبع آخرهم أولهم لالتهب الوادي عليهم ناراً " قال قتادة : فعلوا ذلك ثلاث مرات ، وقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَهْواً ﴾ وهو الطبل ، وكانوا إذا أنكحوا الجواري يضربون المزامير ، فمروا يضربون ، فتركوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله : ﴿ انفضوا إِلَيْهَا ﴾ أي تفرقوا وقال المبرد : مالوا إليها وعدلوا نحوها ، والضمير في (إليها) للتجارة ، وقال الزجاج : انفضوا إليه

وإليها ، ومعناهما واحد كقوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : 45]

واعتبر هنا الرجوع إلى التجارة لما أنها أهم إليهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾ اتفقوا على أن هذا القيام كان في الخطبة للجمعة قال جابر : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخطبة إلا وهو قائم ، وسئل عبد الله أكان النبي يخطب قائماً أو قاعداً فقرأ : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ ﴾ أي ثواب الصلاة والثبات مع النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ خَيْرٌ مِّنَ اللهو وَمِنَ التجارة ﴾ من اللهو الذي مر ذكره ، والتجارة التي جاء بها دحية ، وقوله تعالى : ﴿ والله خَيْرُ الرازقين ﴾ هو من قبيل أحكم الحاكمين وأحسن الخالقين ، والمعنى إن أمكن وجود الرازقين فهو خير الرازقين ، وقيل : لفظ الرازق لا يطلق على غيره إلا بطريق المجاز ، ولا يرتاب في أن الرازق بطريق الحقيقة خير من الرازق بطريق المجاز ، وفي الآية مباحث :

البحث الأول : أن التجارة واللهو من قبيل ما لا يرى أصلاً ، ولو كان كذلك كيف يصح ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً ﴾ نقول : ليس المراد إلا ما يقرب منه اللهو والتجارة ، ومثله حتى يسمع كلام الله ، إذ الكلام غير مسموع ، بل المسموع صوت يدل عليه .

الثاني : كيف قال : ﴿ انفضوا إِلَيْهَا ﴾ وقد ذكر شيئين وقد مر الكلام فيه ، وقال صاحب "الكشاف" : تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو لهواً انفضوا إليه ، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه.

الثالث : أن قوله تعالى : ﴿ والله خَيْرُ الرازقين ﴾ مناسب للتجارة التي مر ذكرها لا للهو ، نقول : بل هو مناسب للمجموع لما أن اللهو الذي مر ذكره كالتبع للتجارة ، لما أنهم أظهروا ذلك فرحاً بوجود التجارة كما مر ، والله أعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 8 . 11 ﴾

(20/764)

وقال ابن عطية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

"النداء بالجمعة" هو في ناحية من المسجد ، وكان على الجدار في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال السائب بن يزيد : كان للنبي صلى الله عليه وسلم مؤذن واحد على باب المسجد ، وفي مصحف أبي داود : كان بين يديه وهو على منبر أذان ،

وهو الذي استعمل بنو أمية ، وبقي بقرطبة إلى الآن ، ثم زاد عثمان النداء على الزوراء ليسمع الناس ، فقوم عبروا عن زيادة عثمان بالثاني ، كأنهم لم يعتدوا الذي كان بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوم عبروا عنه بالثالث ، وقرأ الأعمش وابن الزبير : "الجمْعة" بإسكان الميم وهي لغة ، والمأمور بالسعي هو المؤمن الصحيح البالغ الحر الذكر ، ولا جمعة على مسافر في طاعة ، فإن حضرها أحسن ، وأجزأته .

واختلف الناس في الحد الذي يلزم منه السعي ، فقال مالك : ثلاثة أميال .

(21/764)

قال القاضي أبو محمد : من منزل الساعي إلى المنادي ، وقال فريق : من منزل الساعي إلى أول المدينة التي فيها النداء ، وقال أصحاب الرأي : يلزم أهل المدينة كلها السعي من سمع النداء ومن لم يسمع ، وإن كانت أقطارها فوق ثلاثة أميال . قال أبو حنيفة : ولا من منزله خارج المدينة كزرارة من الكوفة ، وإنما بينهما مجرى نهر ، ولا يجوز لهم إقامتها لأن من شروطها الجامع والسلطان القاهر ، والسوق القائمة ، وقال بعض أهل العلم : يلزم السعي من خمسة أميال ، وقال الزهري : من ستة أميال ، وقال أيضاً : من أربعة أميال وقاله ابن المنكدر ، وقال ابن عمر وابن المسيب وابن حنبل : إنما يلزم السعي من سمع النداء ، وفي

هذا نظر . والسعي في الآية : ليس الإسراع في المشي كالسعي بين الصفا والمروة ، وإنما هو بمعنى قوله : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ [النجم : 39] ، فالقيام والوضوء ولبس الثوب والمشي سعي كله إلى ذكر الله تعالى ، قال الحسن وقتادة ومالك وغيرهم : إنما تؤتى الصلاة بالسكينة ، فالسعي هو بالنية والإرادة ، والعمل والذكر هو وعظ الخطبة قاله ابن المسيب ، ويؤيد ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الملائكة على باب المسجد يوم الجمعة يكتبون الأول فالأول إذا خرج الإمام طويت الصحف وجلست الملائكة يستمعون الذكر " ، والخطبة عند جمهور العلماء شرط في انعقاد الجمعة ، وقال الحسن : وهي مستحبة ، وقرأ عمر بن الخطاب ، وعلي وأبي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وابن الزبير ، وجماعة من التابعين : " فامضوا إلى ذكر الله " ، وقال ابن مسعود : لو قرأت " فاسعوا " لأسرعت حتى يقع ردائي .

(22/764)

واختلف الناس في : ﴿ البيع ﴾ في الوقت المنهي عنه إذا وقع ما الحكم فيه بعد إجماعهم على وجوب امتناعه بدءاً ، فقال الشافعي : يمضي ، وقال مرة : يفسخ ما لم يفت فإن فات صح بالقيمة ، واختلف في وقت التقويم ، فقيل : وقت القبض ، وقيل : وقت الحكم ،

وقوله تعالى : ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى السعي وترك البيع ، وقوله : ﴿ فانتشروا ﴾ أجمع الناس على أن مقتضى هذا الأمر الإباحة ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وابتغوا من فضل الله ﴾ أنه الإباحة في طلب المعاش ، وأن ذلك مثل قوله تعالى :

﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾ [المائدة : 2] إلا ما روي عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ذلك الفضل المبتغى هو عيادة مريض أو صلة صديق أو اتباع جنازة " .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا ينبغي أن يكون المرء بقية يوم الجمعة ، ويكون نحوه صبيحة يوم السبت ، قاله جعفر بن محمد الصادق ، وقال مكحول : الفضل المبتغي العلم ، فينبغي أن يطلب إثر الجمعة ، وقوله تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً ﴾ الآية نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قائماً على المنبر يخطب يوم الجمعة ، فأقبلت عير من الشام تحمل ميرة وصاحب أمرها دحية بن خليفة الكلبي ، قال مجاهد : وكان من عرفهم أن يدخل عير الميرة بالطبل والمعازف والصياح سروراً بها ، فدخلت العير بمثل ذلك ، فانفض أهل المسجد إلى رؤية ذلك وسماعه وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً على المنبر ولم يبق معه غير اثني عشر رجلاً . قال جابر بن عبد الله : أنا أحدهم .

قال القاضي أبو محمد : ولم تمر بي تسميتهم في ديوان فيما أذكر الآن ، إلا إني سمعت أبي رضي الله عنه يقول : هم العشرة المشهود لهم بالجنة ، واختلف في الحادي عشر ، فقيل : عمار بن ياسر ، وقيل : عبد الله بن مسعود ، وقال ابن عباس في كتاب الثعلبي : بقي معه ثمانية نفر ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لولا هؤلاء لقد كانت الحجارة سومت على المنفضين من السماء " ، وفي حديث آخر : " والذي نفس محمد بيده ، ولو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحد ، أسال عليكم الوادي ناراً " وقال قتادة : بلغنا أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات ، لأن قدوم العير كان يوافق يوم الجمعة يشبه أن المراحل كانت تعطي ذلك . وقال تعالى : ﴿ إليها ﴾ ولم يقل تهمما بالأهم ، إذ هي كانت سبب اللهو ولم يكن اللهو سببها ، وفي مصحف ابن مسعود : " ومن التجارة للذين اتقوا والله خير الرازقين " . وتأمل إن قدمت التجارة مع الرؤية لأنها أهم وأخرت مع التفضيل لتقع النفس أولاً على الأبين ، وهذه الآية ، قيام الخطيب ، وأول من استراح في الخطبة عثمان ، وأول من جلس معاوية وخطب جالساً ، والرازق صفة فعل ، وقد يتصف بها بعض البشر تجوزاً إذا كان سبب رزق الحيوان ، ﴿ والله ﴾ تعالى ﴿ خير الرازقين ﴾ .

نجز تفسير سورة الجمعة والحمد لله كثيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ

﴾

وقال القرطبى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ قرأ عبد الله بن الزبير والأعمش وغيرهما "الجُمْعة" بإسكان الميم على التخفيف .

وهما لغتان .

وجمعهما جُمَع وجُمُعات .

قال الفرّاء : يقال الْجُمعة (بسكون الميم) والجُمُعة (بضم الميم) والجُمَعة (بفتح الميم)

فيكون صفة اليوم ؛ أي تجمع الناس .

كما يقال : ضُحَكَة للذي يضحك .

وقال ابن عباس : نزل القرآن بالتثقيل والتفخيم فاقرءوها جُمُعه ، يعني بضم الميم .

وقال الفراء وأبو عبيد : والتخفيف أَقْيَس وأحسن ؛ نحو غُرْفة وغُرَف ، وطُرْفة وطُرَف ، وحُجرْة وحُجَر .

وفتحُ الميم لغة بني عقيل .

وقيل : إنها لغة النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وعن سَلْمان أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنما سُمّيت جمعة لأن الله جمع فيها من خلق آدم " وقيل : لأن الله تعالى فرغ فيها خلق كل شيء فاجتمعت فيها المخلوقات .

وقيل : لتجتمع الجماعات فيها .

وقيل : لاجتماع الناس فيها للصلاة .

و"مِن" بمعنى "في" ؛ أي في يوم ؛ كقوله تعالى : ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأرض ﴾ [الأحقاف : 4] أي في الأرض .

الثانية : قال أبو سلمة : أول من قال : "أما بعد" كعب بن لُؤَيّ ، وكان أوّل من سَمَّى الجمعة جمعة .

وكان يقال ليوم الجمعة : العَرُوبة .

وقيل : أول من سماها جمعة الأنصارُ .

قال ابن سيرين : جمع أهل المدينة مِن قبل أن يَقْدَمَ النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة ، وقبل أن تنزل الجمعة ؛ وهم الذين سموها الجمعة ؛ وذلك أنهم قالوا : إن لليهود يوماً يجتمعون فيه ، في كل سبعة أيام يوم وهو السبت .

وللنصارى يوم مثل ذلك وهو الأحد فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل يوماً لنا نذكر الله ونصلي فيه ونستذكر أو كما قالوا فقالوا : يوم السبت لليهود ، ويوم الأحد للنصارى ؛ فاجعلوه يوم العَرُوبة .

فاجتمعوا إلى أسعد بن زُرارة (أبو أمامة رضي الله عنه) فصلّى بهم يومئذ ركعتين وذكّرهم ، فسمّوْهُ يوم الجمعة حين اجتمعوا .

فذبح لهم أسعد شاةً فتعشّوْا وتغدّوْا منها لقلتهم .

فهذه أوّل جمعة في الإسلام .

قلت : وروى أنهم كانوا اثني عشر رجلا على ما يأتي .

وجاء في هذه الرواية : أن الذي جَمّع بهم وصلّى أسعد بن زُرارة ، وكذا في حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه كعب على ما يأتي .

وقال البَيْهَقِيّ : ورَوينا عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزُّهْرِيّ أن مُصْعَب ابن عمير كان أولَ من جَمّع الجمعة بالمدينة للمسلمين قبل أن يَقْدَمها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال البيهقي : يحتمل أن يكون مصعب جَمع بهم بمعونة أسعد بن زُرارة فأضافه كعب إليه . والله أعلم .

وأما أوّل جمعة جمَّعها النبيّ صلى الله عليه وسلم بأصحابه ؛ فقال أهل السير والتواريخ :

قَدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً حتى نزل بقُبَاء ، على بني عمرو بن عوف يوم الاثنين لأثنتي عشرة ليلةٍ خلت من شهر ربيع الأوّل حين اشتّد الضُّحَى .

ومن تلك السنة يُعَدّ التاريخ .

فأقام بقُبَاء إلى يوم الخميس وأسَّس مسجدهم .

ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة ؛ فأدركته الجمعة في بني سالم بن عَوْف في بطن وادٍ لهم قد اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجداً ؛ فجمّع بهم وخَطَب .

وهي أوّل خُطْبة خطبها بالمدينة ، وقال فيها : " الحمدُ لله .

أحْمَده وأستعينه ، وأستغفره وأَستهديه ، وأُومن به ولا أَكفُره ، وأُعادي من يكفُر به .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

(26/764)

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهُدَى ودِين الحق ، والنور والموعظة والحكمة على فَتْرة من الرُّسل ، وقلّة من العلم ، وضلالةٍ من الناس ، وانقطاع من الزمان ودُنُوٍّ من الساعة ، وقُرْب من الأجل .

من يُطِع الله ورسولَه فقد رَشَد .

ومن يَعْصِ الله ورسوله فقد غَوَى وفرّط وضلّ ضلالاً بعيداً .

أُوصِيكم بتَقْوى الله ، فإنه خير ما أوصَى به المسلمُ المسلمَ أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله .

واحذَروا ما حذّركم الله من نفسه ؛ فإن تقوى الله لمن عَمل به على وَجَلٍ ومخافةٍ من ربه عَوْنُ صدقٍ على ما تبغُون من (أمر) الآخرة .

ومن يُصْلِح الذي بينه وبين ربّه من أمره في السِّر والعَلاَنِية ، لا ينوِي به إلا وَجْهَ الله يكن له ذكراً في عاجل أمره ، وذُخْراً فيما بعد الموت ، حين يفتقر المرء إلى ما قَدّم .

وما كان مما سوى ذلك يَوَدّ لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً .

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ واللهُ رَؤُوفٌ بالعباد ﴾ .

هو الذي صَدق قولَه ، وأنجز وعده ، لا خُلْف لذلك ؛ فإنه يقول تعالى : ﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَيَّ وَمَا أَنَاْ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ .

فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجِله في السرّ والعلانية ؛ فإنه ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾ .

ومن يَتَّقِ الله فقد فاز فوزاً عظيماً .

وإنّ تقوى الله توقّي مَقْتَه وتُوَقِّي عقوبتَه وتُوَقِّى سَخَطه .

وإن تقوى الله تبيّض الوجوهَ ، وتُرْضِى الربّ ، وترفع الدرجة .

فخُذوا بحظّكم ولا تفرّطوا في جَنْب الله ، فقد علَّمكم كتابَه ، ونَهج لكم سبيلَه ؛ ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين .

فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده ؛ هو اجتباكم وسمّاكم المسلمين .

لِيَهْلك من هَلَك عن بيِّنة ، ويحيا من حيّ عن بينة .

ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

(27/764)

فأكثروا ذكر الله تعالى ، واعملوا لما بعد الموت ؛ فإنه من يُصلح ما بينه وبين الله يَكْفِه الله ما بينه وبين الناس .

ذلك بأن الله يقضِي على الناس ولا يَقْضُون عليه ، ويملِك من الناس ولا يمِلكون منه .

الله أكبر ، ولا حوْل ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم "

وأوّل جمعة جُمّعت بعدها جمعة بقرية يقال لها : "جُوَاثى" من قُرَى الْبَحْرَين .

وقيل : إن أوّل من سماها الجمعة كعب بن لؤيّ بن غالب لاجتماع قريش فيه إلى كعب ؛ كما تقدم .

والله أعلم.

الثالثة: خاطب الله المؤمنين بالجمعة دون الكافرين تشريفاً لهم وتكريماً فقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ثم خصه بالنداء، وإن كان قد دخل في عموم قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصلاة ﴾ [المائدة: 58] ليدل على وجوبه وتأكيد فرضه.

وقال بعض العلماء: كون الصلاة الجمعة ها هنا معلوم بالإجماع لا من نفس اللفظ.

قال ابن العربيّ: وعندي أنه معلوم من نفس اللفظ بنكتة وهي قوله: ﴿ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ وذلك يفيده؛ لأن النداء الذي يختص بذلك اليوم هو نداء تلك الصلاة.

فأما غيرها فهو عام في سائر الأيام.

ولو لم يكن المراد به نداء الجمعة لما كان لتخصيصه بها وإضافته إليها معنىً ولا فائدة.

الرابعة: فقد تقدّم حكم الأذان في سورة "المائدة" مستوفىً.

وقد كان الأذان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في سائر الصلوت؛ يؤذّن واحد إذا جلس النبيّ صلى الله عليه وسلم على المنبر.

وكذلك كان يفعل أبو بكر وعمر وعليّ بالكوفة.

ثم زاد عثمان على المنبر أذاناً ثالثاً على داره التي تسمى "الزّوْراء" حين كثر الناس بالمدينة.

فإذا سمعوا أقبلوا ؛ حتى إذا جلس عثمان على المنبر أذّن مؤذن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم يخطب عثمان .

(28/764)

خرّجه ابن ماجه في سُنَنه من حديث محمد بن إسحاق عن الزُّهري عن السائب بن يزيد قال : ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مؤذن واحد ؛ إذا خرج أذّن وإذا نزل أقام .

وأبو بكر وعمر كذلك .

فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثالث على دارٍ في السوق يقال لها "الزوراء" ؛ فإذا خرج أذّن وإذا نزل أقام .

خرّجه البخاري من طرق بمعناه .

وفي بعضها : أن الأذان الثاني يوم الجمعة أمر به عثمان بن عفان حين كثر أهل المسجد ، وكان التأذين يوم الجمعة حين يجلس الإمام .

وقال الماوَرْديّ : فأما الأذان الأول فمحدَث ، فعله عثمان بن عَفّان ليتأهب الناس لحضور الخطبة عند اتساع المدينة وكثرة أهلها .

وقد كان عمر رضي الله عنه أمر أن يؤذّن في السوق قِبَل المسجد ليقوم الناس عن بيوعهم ، فإذا اجتمعوا أذّن في المسجد ، فجعله عثمان رضي الله عنه أذانين في المسجد .

قاله ابن العربي .

وفي الحديث الصحيح : أن الأذان كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً ، فلما كان زمن عثمان زاد الأذان الثالث على الزوراء ، وسمّاه في الحديث ثالثاً لأنه أضافه إلى الإقامة .

كما قال عليه الصلاة والسلام : " بين كل أذانين صلاة لمن شاء "

يعني الأذان والإقامة .

ويتوهّم الناس أنه أذان أصْلِيّ فجعلوا المؤذنين ثلاثة فكان وَهَماً ، ثم جمعوهم في وقت واحد فكان وَهماً على وَهَم .

ورأيتهم يؤذِّنون بمدينة السلام بعد أذان المنار بين يدي الإمام تحت المنبر في جماعة ، كما كانوا يفعلون عندنا في الدُّوَل الماضية .

وكل ذلك مُحْدَث .

الخامسة : قوله تعالى ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ اختلف في معنى السَّعْي ها هنا على ثلاثة أقوال : أوّلها القَصد .

قال الحسن : والله ما هو بسَعْيٍ على الأقدام ولكنه سَعْيٌ بالقلوب والنيّة .

الثاني أنه العمل، كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [الإسراء: 19]، وقوله: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ [الليل: 4]، وقوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ [النجم: 39].

وهذا قول الجمهور.

وقال زهير:

سَعَى بعدهم قومٌ لكَيْ يدركوهمُ . . .

وقال أيضاً:

سَعَى ساعِياً غَيْظِ بن مُرّة بعدما . . .

تَبَزّلَ ما بين العَشِيرة بالدّمِ

أي فاعملوا على المضي إلى ذكر الله، واشتغلوا بأسبابه من الغسل والتطهير والتّوجه إليه.

الثالث أن المراد به السَّعْي على الأقدام.

وذلك فضلٌ وليس بشرط.

ففي البخارِيّ: أن أبا عَبْس بن جَبْر واسمه عبد الرحمن وكان من كبار الصحابة مشى إلى

الجمعة راجلاً وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من اغْبَرَّتْ قدماه في سبيل الله حرّمه الله على النار " ويحتمل ظاهره رابعاً وهو الجري والاشتداد .

قال ابن العربي : وهو الذي أنكره الصحابة الأعلمون والفقهاء الأقدمون .

وقرأها عمر "فامضوا إلى ذِكرِ الله" فراراً عن طريق الجَرْي والاشتداد الذي يدلّ على الظاهر .

وقرأ ابن مسعود كذلك وقال : لو قرأت "فاسْعَوْا" لسعيتُ حتى يسقط ردائي .

وقرأ ابن شهاب : "فامضُوا إلى ذكر الله سالكاً تلك السبيل" .

وهو كله تفسير منهم ؛ لا قراءة قرآن منزل .

وجائز قراءة القرآن بالتفسير في معرض التفسير .

قال أبو بكر الأنباري : وقد احتجّ من خالف المصحف بقراءة عمر وابن مسعود ، وأن خَرَشَة بن الحُرّ قال : رآني عمر رضي الله عنه ومعي قطعة فيها ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ فقال لي عمر : من أقرأك هذا ؟ قلت أُبَيّ .

فقال : إن أُبَيّاً أقرؤنا للمنسوخ.

ثم قرأ عمر "فامضُوا إلى ذِكر الله" .

حدّثنا إدريس قال حدّثنا خَلَف قال حدّثنا هُشيم عن المُغيرة عن إبراهيم عن خَرَشَة ؛ فذكره .

وحدّثنا محمد بن يحيى أخبرنا محمد وهو ابن سَعدان قال حدثنا سفيان بن عُيَيْنَة عن الزُّهْري عن سالم عن أبيه قال : ما سمعت عمر يقرأ قطُّ إلا "فامضُوا إلى ذكر الله" .

وأخبرنا إدريس قال حدّثنا خلف قال حدّثنا هشيم عن المُغيرة عن إبراهيم أن عبد الله بن مسعود قرأ "فامضُوا إلى ذكر الله" وقال : لو كانت "فاسْعَوْا" لسعيت حتى يسقط ردائي .

قال أبو بكر : فاحتج عليه بأن الأمة أجمعت على "فَاسْعَوْا" برواية ذلك عن الله ربّ العالمين ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فأما عبد الله ابن مسعود فما صحّ عنه "فَامْضُوا" لأن السَّنَد غير متصل ؛ إذ إبراهيم النَّخَعيّ لم يسمع عن عبد الله بن مسعود شيئاً ، وإنما ورد "فامضوا" عن عمر رضي الله عنه .

فإذا انفرد أحدٌ بما يخالف الآية والجماعة كان ذلك نسياناً منه .

والعرب مُجْمِعة على أن السعي يأتي بمعنى المُضِيّ ؛ غير أنه لا يخلو من الجِدّ والانكماش .

قال زهير :

سَعَى ساعيا غيْظِ بن مُرّة بعدما . . .

تَبَزّلَ ما بين العَشِيرةِ بالدّمِ

أراد بالسّعْي المضيَّ بجدٍ وانكماش، ولم يُقصد للعَدْوِ والإسراع في الخَطْو.

وقال الفرّاء وأبو عبيدة: معنى السعي في الآية المضيّ.

واحتج الفرّاء بقولهم: هو يسعى في البلاد يطلب فضل الله؛ معناه هو يمضي بجد

واجتهاد.

واحتج أبو عبيدة بقول الشاعر:

أسْعَى على جُلّ بني مالِكٍ . . .

كلّ امرِىءٍ في شأنه ساعِي

فهل يحتمل السعي في هذا البيت إلا مذهب المضي بالإنكماش؛ ومحال أن يخفى هذا

المعنى على ابن مسعود على فصاحته وإتقان عربيّته.

قلت: ومما يدل على أنه ليس المراد ها هنا العَدو: قوله عليه الصلاة والسلام: "إذا أقيمت

الصلاة فلا تأتوها تسعَون ولكن ائتوها وعليكم السكينة" قال الحسن: أما والله ما هو

بالسّعي على الأقدام، ولقد نُهُوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار؛ ولكن

بالقلوب والنية والخشوع.

وقال قتادة: السعي أن تسعى بقلبك وعملك.

وهذا حسن ، فإنه جمع الأقوال الثلاثة .

وقد جاء في الاغتسال للجمعة والتطيّب والتزّين باللباس أحاديث مذكورة في كتب الحديث .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ خطاب للمكلفين بإجماع .

ويخرج منه المَرْضَى والزَّمْنَى والمسافرون والعبيد والنساء بالدليل ، والعميان والشيخ الذي لا يمشي إلا بقائد عند أبي حنيفة .

روى أبو الزبير " عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا مريض أو مسافر أو امرأة أو صبي أو مملوك فمن استغنى بلَهْوٍ أو تجارةٍ استغنى الله عنه والله غنيٌّ حميد " " خرّجه الدَّارَقُطْني وقال علماؤنا رحمهم الله : ولا يتخلف أحد عن الجمعة ممن عليه إتيانها إلا بعذر لا يمكنه منه الإتيان إليها ؛ مثل المرض الحابس ، أو خوف الزيادة في المرض ، أو خوف جور السلطان عليه في مال أو بدن دون القضاء عليه بحق .

والمطر الوابل مع الوَحَل عذر إن لم ينقطع .

ولم يره مالكٌ عذراً له ؛ حكاه المهدوِيّ .

ولو تخلّف عنها متخلف على وَلِيّ حَمِيم له قد حضرته الوفاة ، ولم يكن عنده من يقوم بأمره

رَجَا أن يكون في سَعَة .

وقد فعل ذلك ابن عمر .

ومن تخلف عنها لغير عذر فصلّى قبل الإمام أعاد ، ولا يجزيه أن يصلّي قبله .

وهو في تخلفه عنها مع إمكانه لذلك عاصٍ لله بفعله .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ﴾ يختص بوجوب الجمعة على القريب الذي يسمع النداء ، فأما البعيد الدار الذي لا يسمع النداء فلا يدخل تحت الخطاب .

واختلف فيمن يأتي الجمعة من الدّاني والقاصي ، فقال ابن عمر وأبو هريرة وأنس : تجب الجمعة على من في المِصْر على ستة أميال .

وقال ربيعة : أربعة أميال .

وقال مالك والليث : ثلاثة أميال .

وقال الشافعي : اعتبار سماع الأذان أن يكون المؤذن صَيِّتاً ، والأصوات هادئة ، والريح ساكنة وموقف المؤذن عند سُور البلد .

وفي الصحيح عن عائشة : أن الناس كانوا ينتابون الجمعة من منازلهم ومن العَوَالي فيأتون في الغُبَار ويصيبهم الغُبار فتخرج منهم الريح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو اغتسلتم ليومكم هذا " قال علماؤنا : والصَّوْت إذا كان منيعاً والناس في هدوء وسكون فأقصى سماع الصوت ثلاثة أميال .

والعَوَالي من المدينة أقربها على ثلاثة أميال .

وقال أحمد بن حنبل وإسحاق : تجب الجمعة على من سمع النداء .

وروى الدَّارَقُطْنيّ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما الجمعة على من سمع النداء " وقال أبو حنيفة وأصحابه : تجب على مَن في المصْر ، سَمِع النداء أو لم يسمعه ، ولا تجب على من هو خارج المصر وإن سمع النداء .

حتى سئل : وهل تجب الجمعة على أهل زبارة بينها وبين الكوفة مجرى نهر ؟ فقال لا .

وروي عن ربيعة أيضاً : أنها تجب على من إذا سمع النداء وخرج من بيته ماشياً أدرك الصلاة .

وقد روي عن الزُّهْري : أنها تجب عليه إذا سمع الأذان .

الثامنة : قوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ دليل على أن الجمعة لا تجب إلا بالنداء ، والنداء لا يكون إلا بدخول الوقت ، بدليل : قوله عليه

الصلاة والسلام : " إذا حضرت الصلاة فأذِّنا ثم أَقِيما ولْيَؤُمَّكما أكبركما " قاله لمالك بن الحُوَيْرِث وصاحبِه .

وفي البخاري عن أنس بن مالك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يصلي الجمعة حين تميل الشمس .

وقد روي عن أبي الصِّديق وأحمد بن حنبل أنها تُصَلَّى قبل الزوال .

وتمسّك أحمد في ذلك بحديث سَلَمة بن الأكْوَع : كنا نصلّي مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم ننصرف وليس للحيطان ظِلّ .

وبحديث ابن عمر : ما كنا نَقِيل ولا نتغدّى إلا بعد الجمعة .

ومثلُه عن سَهْل .

خرّجه مسلم .

وحديث سَلَمة محمول على التبكير .

(33/764)

رواه هشام بن عبد الملك عن يَعْلَى بن الحارث عن إياس بن سلمة بن الأكْوَع عن أبيه .

وروى وَكِيع عن يَعْلَى عن إياس عن ابيه قال : كنا نُجَمِّع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

إذا زالت الشمس ثم نرجع نتتبع الفَيْء .

وهذا مذهب الجمهور من الخَلَف والسَّلَف ، وقياساً على صلاة الظهر .

وحديث ابن عمر وسَهْلٍ ، دليلٌ على أنهم كانو يبكِّرون إلى الجمعة تبكيراً كثيراً عند الغداة أو قبلها ، فلا يتناولون ذلك إلا بعد انقضاء الصلاة .

وقد رأى مالك أن التبكير بالجمعة إنما يكون قرب الزوال بيسير .

وتأوّل : قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من راح في الساعة الأولى فكأنما قرّب بَدَنَة . . .

" الحديث بكماله .

إنه كان في ساعة واحدة .

وحَمَله سائر العلماء على ساعات النهار الزمانية الاثنتي عشرة ساعة المستوية أو المختلفة بحسب زيادة النهار ونقصانه .

ابن العربيّ : وهو أصحّ ؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما : ما كانوا يَقِيلون ولا يتغدّون إلا بعد الجمعة لكثرة البكور إليها .

التاسعة : فرض الله تعالى الجمعة على كل مسلم ؛ ردّاً على من يقول : إنها فرض على الكفاية ؛ ونقل عن بعض الشافعية .

ونقل عن مالك من لم يُحقّق : أنها سنة .

وجمهور الأمة والأئمة أنها فرض على الأعيان ؛ لقول الله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُوا البيع ﴾ .

وثبت : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لَيَنْتَهِيَنَّ أقوام عن وَدْعِهِم الجُمُعات أو لَيَخْتِمَنّ الله على قلوبهم ثم ليكونُنّ من الغافلين" وهذا حجة واضحة في وجوب الجمعة وفرضيتها .

وفي سُنن ابن ماجه عن أبي الجَعْد الضَّمْرِيّ وكانت له صحبة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاوناً بها طبع الله على قلبه" إسناده صحيح .

(34/764)

وحديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من ترك الجمعة ثلاثاً من غير ضرورة طَبَع الله على قلبه" ابن العربي : وثبت : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الرَّواح إلى الجمعة واجبٌ على كل مسلم"

العاشرة : أوجب الله السَّعْي إلى الجمعة مطلقاً من غير شَرْط .

وثبت شرط الوضوء بالقرآن والسنة في جميع الصلوات ؛ لقوله عز وجل : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى

الصلاة فاغسلوا وُجُوهَكُمْ ﴾ [المائدة : 6] الآية .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يقبل الله صلاة بغير طهور " وأَغْرَبت طائفة فقالت : إن غسل الجمعة فرض .

ابن العربيّ : وهذا باطل ؛ لما روى النسائي وأبو داود في سننهما : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من توضأ يوم الجمعة فبِها ونِعْمَتْ .

ومن اغتسل فالغسل أفضل " وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من توضأ يوم الجمعة فأحسن الوضوء ثم راح إلى الجمعة فاستمع وأنصت غفر الله له ما بين الجمعة إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام .

ومن مَسّ الحَصَى فقد لَغَا "

وهذا نَصٌ .

وفي الموطأ : أن رجلاً دخل يوم الجمعة وعمر بن الخطاب يخطب . . .

الحديث إلى أن قال : ما زدتُ على أن توضأت ، فقال عمر : والوضوء أيضا ؟ وقد علمتَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل .

فأمر عمر بالغسل ولم يأمره بالرجوع ، فدّل على أنه محمول على الاستحباب .

فلم يمكن وقد تلبّس بالفرض وهو الحضور والإنصات للخطبة أن يرجع عنه إلى السُّنة ، وذلك بمحضر فحول الصحابة وكبار المهاجرين حوالي عمر ، وفي مسجد النبيّ صلى الله

عليه وسلم .

الحادية عشرة : لا تسقط الجمعة لكونها في يوم عيد ، خلافاً لأحمد بن حَنْبل فإنه قال : إذا اجتمع عِيدٌ وجمعة سقط فرض الجمعة ؛ لتقدّم العيد عليها واشتغال الناس به عنها .

وتعلّق في ذلك بما روي أن عثمان أذِن في يوم عِيد لأهل العَوَالي أن يتخلّفوا عن الجمعة .

(35/764)

وقول الواحد من الصحابة ليس بحجة إذا خولف فيه ولم يجمع معه عليه .

والأمر بالسَّعْي متوجّه يوم العيد كتوجهه في سائر الأيام .

وفي صحيح مسلم عن النُّعمان بن بَشير قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في العيدين وفي الجمعة : ب ﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى ﴾ و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية ﴾ قال : وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما أيضاً في الصلاتين .

أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

الثانية عشرة : قوله تعالى : ﴿ إلى ذِكْرِ الله ﴾ أي الصلاة .

وقيل الخطبة والمواعظ ؛ قاله سعيد بن جُبير .

ابن العربيّ : والصحيح أنه واجب في الجميع ؛ وأوّله الخطبة .

وبه قال علماؤنا ؛ إلا عبد الملك بن الماجِشُون فإنه رآها سُنّة .

والدليل على وجوبها أنها تُحَرِّم البيع ولولا وجوبها ما حَرّمته ؛ لأن المستحب لا يُحَرِّم المباح.

وإذا قلنا : إن المراد بالذكر الصلاة فالخطبة من الصلاة .

والعبد يكون ذاكراً لله بفعله كما يكون مُسَبِّحاً لله بفعله .

الزَّمَخْشَرِيّ : فإن قلت : كيف يفسَّر ذكر الله بالخطبة وفيها غير ذلك ! قلت : ما كان من ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو في حكم ذكر الله .

فأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم ، وهم أحقاء بعكس ذلك ؛ فهو من ذكر الشيطان ، وهو من ذكر الله على مراحل .

الثالثة عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَذَرُواْ البيع ﴾ منع الله عز وجل منه عند صلاة الجمعة ، وحرّمه في وقتها على من كان مخاطَباً بفرضها .

والبيع لا يخلو عن شراء فاكتفى بذكر أحدهما ، كقوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل : 81] .

وخصّ البيع لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق .

ومن لا يجب عليه حضور الجمعة فلا يُنهى عن البيع والشّراء .

وفي وقت التحريم قولان : إنه من بعد الزوال إلى الفراغ منها ، قاله الضحاك والحسن وعطاء .

الثاني من وقت أذان الخطبة إلى وقت الصلاة ، قاله الشافعي .

ومذهب مالك أن يترك البيع إذا نُودِيَ للصلاة ، ويفسخ عنده ما وقع من ذلك من البيع في ذلك الوقت .

ولا يفسخ العتق والنكاح والطلاق وغيره ، إذ ليس من عادة الناس الاشتغال به كاشتغالهم بالبيع .

قالوا : وكذلك الشركة والهبة والصدقة نادر لا يفسخ .

ابن العربيّ : والصحيح فسخ الجميع ، لأن البيع إنما مُنع منه للاشتغال به .

فكل أمرٍ يَشْغَل عن الجمعة من العقود كلّها فهو حرام شرعاً مفسوخ رَدْعاً .

المهدوِيّ : ورأى بعض العلماء البيعَ في الوقت المذكور جائزاً ، وتأوّل النّهي عنه ندباً ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

قلت : وهذ مذهب الشافعي ؛ فإن البيع ينعقد عنده ولا يفسخ .

وقال الزَّمَخْشَرِيّ في تفسيره : إن عامة العلماء على أن ذلك لا يؤدّي فساد البيع .

قالوا : لأن البيع لم يَحْرُم لعينه ، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب ؛ فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة والثوب المغصوب ، والوضوء بماء مغصوب .

وعن بعض الناس أنه فاسد .

قلت : والصحيح فساده وفسخه : لقوله عليه الصلاة والسلام : "كلُّ عملٍ ليس عليه أمْرُنَا فهو رَدّ " أي مردود .

والله أعلم .

فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10)

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض ﴾ هذا أمر إباحةٍ ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فاصطادوا ﴾ [المائدة : 2] .

يقول : إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم .

﴿ وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ أي من رزقه .

(37/764)

وكان عِراك بن مالك إذا صلّى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللَّهُمّ إني أجبت دعوتك ، وصلّيت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين .

وقال جعفر بن محمد في قوله تعالى : ﴿ وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ إنه العمل في يوم السبب .

وعن الحسن بن سعيد بن المسَيِّب : طلب العلم .

وقيل : صلاة التطوّع .

وعن ابن عباس : لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا ؛ إنما هو عيادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة الأخ في الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ واذكروا الله كَثِيراً ﴾ أي بالطاعة واللسان ، وبالشكر على ما به أنعم عليكم من التوفيق لأداء الفرائض .

﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ كي تفلحوا .

قال سعيد بن جبير : الذكر طاعة الله تعالى ، فمن أطاع الله فقد ذكره ، ومن لم يطعه فليس بذاكر وإن كان كثير التسبيح .

وقد مضى هذا مرفوعاً في "البقرة" .

وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11)

فيه سبع عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفضوا إِلَيْهَا ﴾ في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يخطب قائما يوم الجمعة ، فجاءت عِيرٌ من الشام فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا في رواية أنا فيهم فأنزلت هذه الآية التي في الجمعة ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفضوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾ .

في رواية : فيهم أبو بكر وعمر وقد ذكر الكلبيّ وغيره : أن الذي قدِم بها دِحْيَة بن خليفة الكلبي من الشام عند مجاعة وغلاءِ سعر ، وكان معه جميع ما يحتاج الناس من بُرّ ودقيق وغيره ، فنزل عند أحجار الزيت ، وضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه ؛ فخرج الناس إلا اثني عشر رجلا .

وقيل : أحد عشر رجلا .

(38/764)

قال الكلبي : وكانوا في خطبة الجمعة فانفضوا إليها ، وبقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية رجال ؛ حكاه الثعلبي عن ابن عباس ، وذكر الدّارَقُطْنيّ من حديث جابر بن عبد الله قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبنا يوم الجمعة إذ أقبلت عِير تحمل

الطعام حتى نزلت بالبقيع ؛ فالتفتوا إليها وانفضوا إليها وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس معه إلا أربعون رجلا أنا فيهم .

قال : وأنزل الله عز وجل على النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفضوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾ .

قال الدَّارَقُطْنيّ : لم يقل في هذا الإسناد "إلا أربعين رجلا" غيرُ عليّ بن عاصم عن حُصين ، وخالفه أصحاب حُصين فقالوا : لم يبق مع النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا اثنا عشر رجلا .

وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : " والذي نفسي بيده لو خرجوا جميعا لأضرم الله عليهم الوادي ناراً " ؛ ذكره الزَّمَخْشرِيّ .

وروي في حديث مرسلٍ أسماء الاثني عشر رجلاً ، رواه اسد بن عمرو والد أسار بن موسى بن أسد .

وفيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق معه إلا أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ ، وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجَرّاح ، وسعيد بن زيد وبلال ، وعبد الله ابن مسعود في إحدى الروايتين .

وفي الرواية الأخرى عمّار بن ياسِر .

قلت : لم يذكر جابراً ؛ وقد ذكر مسلم أنه كان فيهم ؛ والدّارَقُطْنيّ أيضاً .

فيكونون ثلاثة عشر .

وإن كان عبد الله بن مسعود فيهم فهم أربعة عشر .

(39/764)

وقد ذكر أبو داود في مراسيله السبب الذي ترخّصوا لأنفسهم في ترك سماع الخطبة ، وقد كانوا خليقاً بفضلهم ألا يفعلوا ؛ فقال : حدّثنا محمود بن خالد قال حدّثنا الوليد قال أخبرني أبو معاذ بكر ابن معروف أنه سمع مقاتل بن حيّان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين ، حتى كان يوم جمعة والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب ، وقد صلّى الجمعة فدخل رجل فقال : إن دِحْيَة بن خليفة الكَلْبي قدم بتجارة ، وكان دِحيَة إذا قدم تلقّاه أهله بالدّفاف ؛ فخرج الناس فلم يظنّوا إلا أنه ليس في ترك الخطبة شيء ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ﴾ .

فقدّم النبيّ صلى الله عليه وسلم الخطبة يوم الجمعة وأخّر الصلاة .

وكان لا يخرج أحد لرُعاف أو أحداث بعد النّهي حتى يستأذن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، يشير إليه بأصبعه التي تلي الإبهام ؛ فيأذن له النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم يشير إليه بيده .

فكان من المنافقين من ثَقُل عليه الخطبة والجلوس في المسجد ، وكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه مستترًا به حتى يخرج؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الذين يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً ﴾ [النور : 63] الآية .

قال السُّهَيْليّ : وهذا الخبر وإن لم ينقل من وجه ثابت فالظن الجميل بأصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يوجب أن يكون صحيحا .

وقال قتادة : وبلغنا أنهم فعلوه ثلاث مرات ؛ كل مَرّة عِير تَقْدُم من الشام ، وكل ذلك يوافق يوم الجمعة .

وقيل : إن خروجهم لقدوم دِحْيَة الكَلْبي بتجارته ونظرهم إلى العِير تمُرّ ، لَهْوٌ لا فائدة فيه ؛ إلا أنه كان مما لا إثم فيه لو وقع على غير ذلك الوجه ، ولكنه لما اتصل به الإعراض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والانفضاض عن حضرته ، غَلُظ وكَبُر ونزل فيه من القرآن وتهجينه باسم اللّهو ما نزل .

(40/764)

وجاء : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كل ما يَلْهو به الرجل باطل إلا رَمْيه بقَوْسه" الحديث .

وقد مضى في سورة "الأنفال" فلله الحمد .

وقال جابر بن عبد الله : كانت الجواري إذا نُكحن يمررن بالمزامير والطبل فانفضوا إليها ؛ فنزلت .

وإنما رَدّ الكناية إلى التجارة لأنها أهم .

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف "وإذا رأوا التجارة واللّهو انْفضُّوا إليها" .

وقيل : المعنى وإذا رأوا تجارة انفضُّوا إليها ، أو لهواً انفضُّوا إليه ، فحذف لدلالته .

كما قال :

نحن بما عندنا وأنت بما . . .

عندك راضٍ والرأيُ مُخْتَلِفُ

وقيل : الأجود في العربية أن يجعل الراجع في الذكر للآخر من الاسمين .

الثانية : واختلف العلماء في العدد الذي تنعقد به الجمعة على أقوال ؛ فقال الحسن : تنعقد الجمعة باثنين .

وقال الليث وأبو يوسف ، تنعقد بثلاثة .

وقال سفيان الثَّوْريّ وأبو حنيفة : بأربعة .

وقال ربيعة : باثني عشر رجلاً .

وذكر النجاد أبو بكر أحمد بن سليمان قال : حدّثنا أبو خالد يزيد بن الهَيْثم بن طَهْمان

الدقّاق ، حدّثنا صبح بن دِينار قال حدّثنا المعافى بن عمران حدّثنا مَعْقِل بن عبيد الله عن الزهري بسنده إلى مُصعب بن عمير : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعثه إلى المدينة ، وأنه نزل في دار سعد بن معاذ ، فجمّع بهم وهم اثنا عشر رجلا ذبح لهم يومئذ شاة .

وقال الشافعي : بأربعين رجلا .

وقال أبو إسحاق الشِيرازي في (كتاب التنبيه على مذهب الإمام الشافعي) : كل قرية فيها أربعون رجلاً بالِغين عقلاء أحرارا مقيمين ، لا يظعنون عنها صيفاً ولا شتاءً إلا ظَعْن حاجة ، وأن يكونوا حاضرين من أوّل الخطبة إلى أن تقام الجمعة وجبت عليهم الجمعة .

ومال أحمد وإسحاق إلى هذا القول ولم يشترطا هذه الشروط .

وقال مالك : إذا كانت قرية فيها سوق ومسجد فعليهم الجمعة من غير اعتبار عدد .

وكتب عمر بن عبد العزيز : أي قرية اجتمع فيها ثلاثون بيتا فعليهم الجمعة .

(41/764)

وقال أبو حنيفة : لا تجب الجمعة على أهل السَّواد والقرى ، لا يجوز لهم إقامتها فيها .

واشترط في وجوب الجمعة وانعقادها : المِصر الجامع والسلطان القاهر والسوق القائمة والنهر الجاري .

واحتجّ بحديث عليّ : لا جمعة ولا تشريق إلا في مصر جامع ورفقة تعينهم .

وهذا يردّه حديث ابن عباس ، قال : أنّ أوّل جمعة جُمّعت بعد جمعة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقرية من قرى البحرين يقال لها جُوَاثى .

وحجة الإمام الشافعيّ في الأربعين حديث جابر المذكور الذي خرّجه الدّارَقُطْنيّ .

وفي سنن ابن ماجه والدّارقُطْني أيضاً ودلائل النبوّة للبَيْهَقيّ عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كنت قائد أبي حين ذهب بصره ، فإذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان ، صلّى على أبي أمامة واستغفر له قال فمكث كذلك حينا لا يسمع الأذان بالجمعة إلا فعل ذلك ؛ فقلت له : يا أبةِ ، استغفارك لأبي أمامة كلّما سمعت أذان الجمعة ، ما هو ؟ قال : أي بُنَيّ ، هو أوّل من جمَّع بالمدينة في هَزْم من حرّة بني بَيَاضة يقال له نَقِيع الخَضِمات ؛ قال قلت : كم أنتم يومئذ ؟ قال أربعون رجلا .

وقال جابر بن عبد الله :

مضت السُّنة أن في كل ثلاثة إماماً ، وفي كل أربعين فما فوق ذلك جمعة وأضْحَى وفِطراً ، وذلك أنهم جماعة .

خرّجه الدّارقُطْنيّ .

وروى أبو بكر أحمد بن سليمان النّجاد : قرىء على عبد الملك بن محمد الرّقاشي وأنا أسمع حدّثني رجاء بن سلمة قال حدّثنا أبي قال حدّثنا رَوْح بن غُطيف الثّقفي قال

حدّثني الزُّهِري عن أبي سلمة قال : قلت لأبي هريرة على كم تجب الجمعة من رجل ؟ قال : لما بلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسين رجلاً جمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قُرِئ على عبد الملك بن محمد وأنا أسمع قال حدّثنا رجاء بن سلمة قال حدثنا عباد بن عباد المُهَلَّبي عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(42/764)

" تجب الجمعة على خمسين رجلا ولا تجب على من دون ذلك " قال ابن المنذر : وكتب عمر بن عبد العزيز : أيما قرية اجتمع فيها خمسون رجلاً فليصلوا الجمعة .

وروى الزّهري عن أم عبد الله الدُّوسِيّة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الجمعة واجبة على كل قرية وإن لم يكن فيها إلا أربعة " يعني بالقُرَى : المدائن .

لا يصح هذا عن الزهري .

في رواية " الجمعة واجبة على أهل كل قرية وإن لم يكونوا إلا ثلاثة رابعهم إمامهم " (الزهري) لا يصح سماعه من الدّوسية .

والحكم هذا متروك .

الثالثة : وتصح الجمعة بغير إذن الإمام وحضوره .

وقال أبو حنيفة : من شرطها الإمام أو خليفته .

ودليلنا أن الوليد بن عُقْبة والي الكوفة أبطأ يوماً فصلى ابن مسعود بالناس من غير إذنه .

ورُوِي أن عليّا صلى الجمعة يوم حصِر عثمان ولم يُنقل أنه استأذنه .

وروي أن سعيد بن العاصي والي المدينة لما خرج من المدينة صلّى أبو موسى بالناس الجمعة من غير استئذان .

وقال مالك : إن لله فرائض في أرضه لا يضيّعها ؛ وَلِيَها والٍ أو لم يَلِها .

الرابعة : قال علماؤنا : من شرط أدائها المسجد المسقّف .

قال ابن العربي : ولا أعلم وجهه .

قلت : وجهه قوله تعالى : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ [الحج : 26] ، وقوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ [النور : 36] .

وحقيقة البيت أن يكون ذا حيطان وسقف .

هذا العُرْف ، والله أعلم .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾ شرط في قيام الخطيب على المنبر إذا خطب .

قال عَلقَمة : سئل عبد الله أكان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب قائماً أو قاعداً ؟ فقال : أما تقرأ ﴿ وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾ .

(43/764)

وفي صحيح مسلم : عن كعب بن عُجْرَة أنه دخل المسجد وعبد الرحمن بن أم الحَكَم يخطب قاعداً فقال : انظروا إلى هذا الخبيث ، يخطب قاعداً ! وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾ .

وخرّج عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب قائما ثم يجلس ثم يقوم فيخطب ، فمن نبّأك أنه كان يخطب جالساً فقد كذب ؛ فقد والله صلّيتُ معه أكثر من ألفي صلاة .

وعلى هذا جمهور الفقهاء وأئمة العلماء .

وقال أبو حنيفة : ليس القيام بشرط فيها .

ويروى أن أوّل من خطب قاعداً معاوية .

وخطب عثمان قائماً حتى رقّ فخطب قاعدا .

وقيل : إن معاوية إنما خطب قاعداً لسِنّه .

وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يخطب قائماً ثم يقعد ثم يقوم ولا يتكلم في قعدته .

رواه جابر بن سَمرة .

ورواه ابن عمر في كتاب البخاري .

السادسة : والخطبة شرط في انعقاد الجمعة لا تصح إلا بها ؛ وهو قول جمهور العلماء .

وقال الحسن : هي مستحبة .

وكذا قال ابن الماجِشُون : إنها سُنّة وليست بفرض .

وقال سعيد بن جبير : هي بمنزلة الركعتين من صلاة الظهر ؛ فإذا تركها وصلّى الجمعة فقد ترك الركعتين من صلاة الظهر .

والدليل على وجوبها قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾ .

وهذا ذمّ ، والواجب هو الذي يُذَم تاركه شرعاً ، ثم إن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يصلها إلا بخطبة .

السابعة : ويخطب متوكّئاً على قوس أو عَصاً .

وفي سنن ابن ماجه قال حدثنا هشام بن عمار حدثنا عبد الرحمن بن سعد بن عمار بن سعد قال حدّثني أبي عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خطب في الحرب خطب على قَوْس ، وإذا خطب في الجمعة خطب على عصا .

الثامنة : ويسلّم إذا صَعِد المِنبر على الناس عند الشافعي وغيره .

ولم يره مالك .

وقد روى ابن ماجه من حديث جابر بن عبد الله : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا صعد المنبر سلّم .

(44/764)

التاسعة : فإن خطب على غير طهارة الخطبة كلّها أو بعضها أساء عند مالك ؛ ولا إعادة عليه إذا صلّى طاهراً .

وللشافعيّ قولان في إيجاب الطهارة ؛ فَشرطها في الجديد ولم يشترطها في القديم .

وهو قول أبي حنيفة .

العاشرة : وأقلّ ما يجزي في الخطبة أن يحمد الله ويصلّي على نبيّه صلى الله عليه وسلم ، ويوصى بتقوى الله ويقرأ آية من القرآن .

ويجب في الثانية أربع كالأولى ؛ إلا أن الواجب بدلاً من قراءة الآية في الأولى الدعاء ؛ قاله أكثر الفقهاء .

وقال أبو حنيفة : لو اقتصر على التحميد أو التسبيح أو التكبير أجزأه .

وعن عثمان رضي الله عنه أنه صعد المنبر فقال : الحمد لله ؛ وارْتُجّ عليه فقال : أن أبا بكر

وعمر كانا يُعِدّان لهذا المقام مقالاً ، وإنكم إلى إمام فَعّال أحوج منكم إلى إمام قوّال ، وستأتيكم الخطب ؛ ثم نزل فصلّى .

وكان ذلك بحضرة الصحابة فلم ينكر عليه أحد .

وقال أبو يوسف ومحمد : الواجب ما تناوله اسم خطبة .

وهو قول الشافعي : قال أبو عمر بن عبد البر : وهو أصح ما قيل في ذلك .

الحادية عشرة : في صحيح مسلم : عن يَعْلَى بن أُمَيّة أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر ﴿ وَنَادَوْا يا مالك ﴾ .

وفيه عن عَمْرة بنت عبد الرحمن عن أختٍ لعَمْرَة قالت : ما أخذت ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ إلا من في رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وهو يقرأ بها على المنبر في كل جمعة .

وقد مضى في أوّل "قا" .

وفي مراسيل أبي داود عن الزّهري قال : "كان صدر خطبة النبيّ صلى الله عليه وسلم "الحمد لله .

نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا .

من يهد الله فلا مُضِلّ له ، ومن يُضْلِلْ فلا هادِي له .

ونشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يَدَي

الساعة .

من يطِعِ الله ورسوله فقد رَشَد ، ومن يعصهما فقد غَوَى .

(45/764)

نسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ، ويتّبع رضوانه ويجتنب سَخطه ، فإنما نحن به وله" "

وعنه قال : بلغنا " عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا خطب : "كلُّ ما هو آتٍ قريبٌ ، ولا بُعْدَ لما هو آت .

لا يعجل الله لعجلةِ أحدٍ ، ولا يَخِفّ لأمر الناس .

ما شاء الله لا ما شاء الناس .

يريد الله أمراً ويريد الناسُ أمراً ، ما شاء الله كان ولو كَرِه الناس .

ولا مُبْعِدَ لما قَرّب الله ، ولا مقرِّب لما بعّد الله .

لا يكون شيء إلا بإذن الله جل وعز" " وقال جابر : "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة يخطب فيقول بعد أن يَحْمَد الله ويصلّي على أنبيائه : "أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم .

إن العبد المؤمن بين مخافتين بين أجلٍ قد مضى لا يدري ما الله قاضٍ فيه ، وبين أجل قد بقِي لا يدري ما الله صانع فيه .

فليَأْخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشّبيبة قبل الكِبَر ، ومن الحياة قبل الممات .

والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ ، وما بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنّة أو النار .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم " وقد تقدّم ما خطب به عليه الصلاة والسلام أوّل جمعة عند قدومه المدينة .

الثانية عشرة : السكوت للخطبة واجب على من سمعها وجوب سُنّة .

والسُّنّة أن يسكت لها من يسمع ومَن لم يسمع ، وهما إن شاء الله في الأجر سواء .

ومن تكلم حينئذ لَغا ؛ ولا تفسد صلاته بذلك .

وفي الصحيح عن أبي هريرة : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قلت لصاحبك أنْصِت يوم الجمعة والإمامُ يخطب فقد لَغَوْت " الزّمَخْشري : وإذا قال المُنصِت لصاحبه صَهْ ؛ فقد لَغَا ، أفلا يكون الخطيب الغالي في ذلك لاغياً ؟ نعوذ بالله من غُرْبة الإسلام ونكد الأيام .

الثالثة عشرة : ويستقبلُ الناس الإمام إذا صَعِد المنبر ؛ لما رواه أبو داود مُرْسَلاً عن أبان بن عبد الله قال : كنت مع عدِيّ بن ثابت يوم الجمعة ؛ فلما خرج الإمام أو قال صعد المنبر استقبله وقال : هكذا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون برسول الله صلى الله عليه وسلم .

خرّجه ابن ماجه عن عديّ بن ثابت عن أبيه ؛ فزاد في الإسناد : عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام على المنبر استقبله أصحابه بوجوههم .

قال ابن ماجه : أرجو أن يكون متّصلا .

قلت : وخرّج أبو نعيم الحافظ قال حدّثنا محمد بن مَعْمر قال حدثنا عبد الله بن محمد بن ناجية قال حدّثنا عبّاد بن يعقوب قال حدّثنا محمد بن الفضل الخُرَاسانِيّ عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا استوى على المنبر استقبلناه بوجوهنا .

تفرّد به محمد بن الفضل بن عطية عن منصور .

الرابعة عشرة : ولا يركع من دَخل المسجد والإمام يخطب ؛ عند مالك رحمه الله .

وهو قول ابن شهاب رحمه الله وغيره .

وفي المُوَطَّأ عنه : فخروج الإمام يقطع الصلاة ، وكلامه يقطع الكلام .

وهذا مرسل .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوّز فيهما " وهذا نصٌّ في الركوع .

وبه يقول الشافعي وغيره .

الخامسة عشرة : . . .

. . .

ابن عَوْن عن ابن سيرين قال : كانوا يكرهون النّوم والإمام يخطب ويقولون فيه قولاً شديداً .

قال ابن عَوْن : ثم لَقِيني بعد ذلك فقال : تدري ما يقولون ؟ قال : يقولون مَثَلُهم كمَثَل سَرِيّة أخفقوا ؛ ثم قال : هل تدري ما أخفقوا ؟ لم تَغْنَم شيْئاً .

وعن سَمُرة بن جُنْدب : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا نَعَس أحدكم فليتحوّل إلى مقعد صاحبه وليتحوّل صاحبه إلى مقعده "

السادسة عشرة : نذكر فيها من فضل الجمعة وفرضيتّها ما لم نذكره .

روى الأئمة عن أبي هريرة رضي الله عنه : " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوم الجمعة فقال : "فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلّي يسأل الله عز وجل شيئاً إلا أعطاه إياه" " وأشار بيده يُقَلِّلها .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي موسى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة " .

" وروي من حديث أنس : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أبطأ علينا ذات يوم ؛ فلما خرج قلنا : احتبستَ ! قال : "ذلك أن جبريل أتاني بكهيئة المرآة البيضاء فيها نُكْتة سَوْداء فقلت ما هذه يا جبريل قال هذه الجمعة فيها خير لك ولأمتك وقد أرادها اليهود والنصارى فأخطئوها وهداكم الله لها قلت يا جبريل ما هذه النكتة السوداء قال هذه الساعة التي في يوم الجمعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه أو أدّخر له مثله يوم القيامة أو صرف عنه من السوء مثله وإنه خير الأيام عند الله وإن أهل الجنة يسمّونه يوم المزيد" " وذكر الحديث .

وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام قالا : حدّثنا المسعوديّ عن المِنهال بن عمرو عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود قال : تسارعوا إلى الجمعة فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة كل يوم جمعة في كَثِيب من كافور أبيض ، فيكونون منه في القُرْب قال ابن المبارك على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا .

وقال يحيى بن سلام: كمسارعتهم إلى الجمعة في الدنيا.

وزاد: فيُحْدِث لهم من الكرامة شيئًا لم يكونوا رأوه قبل ذلك.

قال يحيى: وسمعت غير المسعودي يزيد فيه: وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: 35] قلت: قوله "في كَثيب" يريد أهل الجنة.

(48/764)

أي وهم على كثيب؛ كما روى الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أهل الجنة ينظرون إلى ربهم في كل جمعة على كثيب من كافور لا يُرَى طرفاه وفيه نهرٌ جارٍ حافتاه المسك عليه جوارٍ يقرأن القرآن بأحسن أصوات سمعها الأوّلون والآخرون فإذا انصرفوا إلى منازلهم أخذ كل رجل بيد ما شاء منهن ثم يمرون على قناطر من لؤلؤ إلى منازلهم فلولا أن الله يهديهم إلى منازلهم ما اهتدوا إليها لما يحدث الله لهم في كل جمعة" ذكره يحيى بن سلام.

وعن أنس قال: قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "ليلة أُسْرِي بي رأيت تحت العرش سبعين مدينة كل مدينة مثل مدائنكم هذه سبعين مرة مملوءة من الملائكة يسبّحون الله ويقدّسونه ويقولون في تسبيحهم اللهم اغفر لمن شهد الجمعة اللهم اغفر لمن اغتسل يوم

الجمعة " ذكره الثّعلبيّ .

وخرّج القاضي الشريف أبو الحسن عليّ بن عبد الله بن إبراهيم الهاشمي العِيسَوي من ولد عيسى بن عليّ بن عبد الله بن عباس رضي الله عنه بإسناد صحيح عن أبي موسى الأشعري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله عز وجل يبعث الأيام يوم القيامة على هيئتها ويبعث الجمعة زهراء منيرة أهلها يحفّون بها كالعروس تُهْدَى إلى كريمها تضيء لهم يمشون في ضوئها ، ألوانهم كالثلج بياضاً ، وريحهم يسطع كالمسك ، يخوضون في جبال الكافور ، ينظر إليهم الثّقَلان ما يطرقون تعجّباً يدخلون الجنة لا يخالطهم أحد إلا المؤذّنون المحتسِبون " وفي سُنن ابن ماجه عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الجمعة إلى الجمعة كفارة ما بينهما ما لم تُغْشَ الكبائر " خرّجه مسلم بمعناه .

(49/764)

وعن أوس بن أوس الثّقَفيّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من غسل يوم الجمعة واغتسل وبَكّر وابتكر ومشى ولم يركب ودنا من الإمام فاستمع ولم يَلْغ كان له بكل خطوة عمل سَنَة أجر صيامها وقيامها " وعن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

"يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا .

وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا .

وصِلُوا الذي بينكم وبين ربّكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصّدقة في السر والعلانية تُرزقوا وتُنصروا وتُؤجروا .

واعلموا أن الله قد فرض عليكم الجمعة في مقامي هذا في شهري هذا في عامي هذا إلى يوم القيامة فمن تركها في حياتي أو بعد مماتي وله إمام عادل أو جائر استخفافاً بها أو جحوداً لها فلا جمع الله شَمْله ولا بارك له في أمره .

ألاَ ولاَ صلاة له ولا زكاة له ولا حَجّ له .

ألاَ ولا صوم له ولا برّ له حتى يتوب فمن تاب تاب الله عليه .

ألاَ لا تَؤُمّن امرأة رجلاً ولا يؤم أعرابيٌّ مهاجراً ولا يؤمّ فاجرٌ مؤمناً إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه"

وقال مَيْمون بن أبي شيبة : أردت الجمعة مع الحجاج فتهيأت للذهاب ، ثم قلت : أين أذهب أصلّي خلف هذا الفاجر ؟ فقلت مرة : أذهب ، ومرة لا أذهب ، ثم أَجْمَع رأيي على الذهاب ، فناداني منادٍ من جانب البيت "يَاأَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ للصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسعَوْا إلىَ ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ" .

السابعة عشرة : قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللهوِ وَمِنَ التجارة ﴾ فيه وجهان

: أحدهما ما عند الله من ثواب صلاتكم خير من لذة لهوكم وفائدة تجارتكم .

الثاني ما عند الله من رزقكم الذي قسمه لكم خيرٌ مما أصبتموه من لهوِكم وتجارتكم .

وقرأ أبو رجاء العُطّارِديّ : "قُلْ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ مِنَ اللّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ للذين آمنوا" .

(50/764)

﴿ والله خَيْرُ الرازقين ﴾ أي خير من رزق وأعطى ؛ فمنه فاطلبوا ، واستعينوا بطاعته على نَيْل ما عنده من خيري الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(51/764)

وقال الثعالبى :

وقوله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ إِذَا نُودِىَ للصلاة ﴾ الآية ،

النداءُ : هو الأذانُ ، وكان على الجِدَارِ في مسجدِ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم ، وفي مصنف أبي داودَ : كَانَ بَيْنَ يَدَي النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وهو عَلَى المنبر أذَانُ ، ثم زادَ

عثمانُ النداءَ عَلَى الزوراء ليسمعَ الناسُ.

* ت *: وفي البخاريّ والترمذيِّ وصححه عن السائبِ بن يزيد قَالَ: كَانَ النداءُ يومَ الجمعةِ أولُه إذا جَلَسَ الإمام على المنبر؛ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكرٍ وعمرَ، فلما تَوَلَّى عثمانُ وكثرَ الناسُ، زَادَ الأَذَانَ الثالثَ فأُذِّنَ به على الزَّوراءِ، فَثَبَتَ الأَمْرُ على ذلك، قِيل: فقوله «الثالثَ» يَقْتَضِي أنهم كَانُوا ثلاثةً، وفي طريقٍ آخرَ «الثاني» بدَلَ «الثالث» وهو يَقْتَضِي أَنَّهُمَا اثنانِ، انتهى، وخرَّجَ مسلم عن أبي هريرةَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " مَنِ 1649;غْتَسَلَ، ثمَّ أَتَى الجُمُعَةَ، فصلى مَا قُدِّرَ لَهُ، ثم أَنْصتَ لِلإمَامِ حتى يَفْرُغَ مِنْ خُطْبَتِهِ، ثمَّ يُصَلِّي مَعَهُ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ الأخرى، وَفَضْلَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ " انتهى، وخرَّجَهُ البخاريُّ من طريقِ سُلَيْمَان.

وقوله: ﴿ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ قال ابن هشام: «من» مرادفَةٌ «في»، انتهى.

(52/764)

وقوله تعالى: ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله... ﴾ الآية، السعيُ في الآيةِ لاَ يُرَادُ به الإِسْرَاعُ في المشي، وإنما هو بمعنى قوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإنسان إِلاَّ مَا سعى ﴾ [النجم: 39] فالسَّعْيُ هو بالنِّيةِ والإرادَةِ والعَمَلِ؛ مِنْ وُضوءٍ، وغُسْلٍ، وَمَشْيٍ، ولُبْسِ ثوبٍ؛ كُلُّ ذلك

سَعْيٌ ، وَقَدْ قَالَ مالكٌ وغيره : إنما تُؤْتَى الصلاةُ بالسَّكِينَةِ ، *ت* : وهو نصُّ الحديثِ الصحيحِ ، وهُوَ قوله صلى الله عليه وسلم في الصلاة : " فَلاَ تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ وَأْتُوهَا [و] عَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ " ، *ت* : والظاهرُ أنَّ المرادَ بالسعيِ هُنا المُضِيُّ إلى الجمعةِ ، كما فسَّره الثعلبيُّ ، ويدلُّ على ذلكَ إطلاقُ العلماءِ لفظَ الوجوبِ عَلَيْهِ ، فيقولونَ السَّعْيُ إلَى الجمعةِ واجبٌ ، ويدلُّ عَلَى ذلك قراءةُ عمرَ وعليٍّ وابنِ مسعودٍ وابن عمر وابنِ عباس وابن الزبير وجماعة من التابعين : «فَامْضُوا إلى ذِكْرِ اللَّهِ» وقال ابن مسعود : لَوْ قَرَأْتُ : ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ لأَسْرَعْتُ حَتَّى يَقَعَ رِدائِي ، وقال العِرَاقِيُّ : ﴿ فاسعوا ﴾ معناه بَادِروا ، انتهى ، وقوله : ﴿ إلى ذِكْرِ الله ﴾ هو وعظُ الخطبةِ ؛ قاله ابن المسيب ، ويؤيدُه قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : " إذَا كَانَ يومُ الجمعةِ ، كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ المَسْجِدِ مَلاَئِكَةٌ يَكْتُبُونَ الأَوَّلَ فالأَوَّلَ ، فَإذَا جَلَسَ [الإمَامُ] طَوُوا الصُّحُفَ ، وجَاؤُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ " الحديثُ خَرَّجَهُ البخاريُّ ومسلم ، واللفظُ لمسلمٍ ، والخُطْبَةُ عِنْدَ الجمهورِ شَرْطٌ في انعقادِ الجمعةِ ، وعن أبي موسى الأشعري أن رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قَالَ :

" إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يَبْعَثُ الأيَّامَ يومَ القيامةِ على هَيْئَتِهَا ، ويَبْعَثُ الجُمُعَةَ زَهْرَاءَ مُنِيرَةً ، أَهْلُهَا مُحِفُّونَ بِهَا ؛ كالعَرُوسِ تهدى إلى كريمِهَا ، تُضِيءُ لهم ؛ يَمْشُونَ في ضَوْئِهَا ؛ أَلْوَانُهُمْ كالثَّلْجِ بَيَاضاً ، ورِيحُهُمْ يَسْطَعُ كالمِسْكِ ، يَخُوضُونَ في جِبَالِ الكَافُورِ ، يَنْظُرُ إلَيْهِمُ الثَّقَلانِ ، مَا يَطْرِفُونَ تَعَجُّباً ، يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ لاَ يُخَالِطُهُمْ إلاَّ المُؤَذِّنُونَ المُحْتَسِبُونَ " خَرَّجَهُ القاضِي الشريفُ أبو الحسنِ علي بن عبد اللَّهِ بن إبراهيمَ الهاشميّ ، قال صاحبُ «التذكرة» : وإسنادُهُ صحيح ، انتهى .

وقوله سبحانه : ﴿ ذلكم ﴾ إشارةٌ إلى السعي وتَرْكِ البَيْعِ .

وقوله : ﴿ فانتشروا ﴾ أجمعَ الناسُ على أنَّ مُقْتَضَى هذا الأمْرِ الإباحةُ ، وكذلك قوله : «وابتَغُوا من فضل اللَّه» أنَّه الإباحَة في طلب المعاش ، مثلَ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فاصطادوا ﴾ [المائدة : 2] إلا مَا رُوِيَ عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ذلكَ الفضلُ المُبْتَغَى هو عيادةُ مريضٍ ، أو صِلَةُ صديقٍ ، أو اتِّباعُ جنازةٍ " ، قال *ع* : وفي هذا ينبغي أنْ يكونَ المرءُ بقيةَ يومِ الجمعةِ ، ونحوه عن جعفر بن محمد ، وقال مكحول : الفضلُ المُبْتَغَى : العلمُ فينبغي أن يُطْلَبَ إثْرَ الجمعةِ .

وقوله تعالى : ﴿ واذكروا الله كَثِيراً . . . ﴾ الآية ، قال معاذ بن جبل : مَا شَيْءٌ أنجى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ : رواه الترمذي واللفظ له ، وابنُ ماجه ، والحاكمُ في «المستدرك» ؛ وقال صحيحُ الإسناد ، انتهى من «السلاح» .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا . . . ﴾ الآية ، نزلت بسبب أن رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم كان قائماً على المنبر يَخْطُبُ يومَ الجمعةِ ، فأقبلت عِيرٌ مِنَ الشَامِ تحملُ مِيرةً ، وصاحبُ أمْرِهَا دِحْيَةُ بن خليفة الكلبي ، قال مجاهد : وكان من عُرْفِهِمْ أن تَدْخُلَ عِيرُ المدينةِ بالطَّبْلِ والمعازفِ ، والصياح سروراً بها ، فدخلتْ العيرُ بمثل ذلك ، فانْفَضَّ أهْلُ المسجدِ إلى رؤية ذلك وسماعِه ؛ وتركوا رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قائماً عَلَى المنبرِ ، ولم يَبْقَ معه غَيْر اثنَيْ عَشَرَ رجُلاً ، قال جابر بن عبد اللَّه : أنا أحَدُهُم ، قال *ع * : ولم تَمُرَّ بي تَسْمِيتُهم في ديوان فيما أذْكُرُ الآنَ ، إلا أنِّي سمعتُ أبي رحمه اللَّه يقولُ : هُمُ العشرةُ المشهودُ لهم بالجنة ، واخْتُلِفَ في الحادِي عَشَرَ ، فقيل : عمارُ بن ياسر ، وقيل : ابن مسعودٍ ، * ت * : وفي تقييد أبي الحسنِ الصغير : والاثْنَا عَشَرَ الباقون هُمُ الصحابةُ العَشَرَةُ ، والحادِي عَشَرَ : بلالٌ ، واخْتُلِفَ في الثاني عشر ، فقيل : عمار بن ياسرٍ ، وقيل : ابن مسعود ، انتهى ، قال السهيلي : وجاءَتْ تسميةُ الاثْنَي عَشَرَ في حديثٍ مُرْسَلٍ رواه أسد بن عمرو والدُ موسى بن أسد ، وفيه أنَّ : رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم لَمْ يَبْقَ معه إلا أبو بكرٍ وعُمَرُ وعثمانُ ؛ حتى العشرةِ ، وقَال : وبلالٌ وابن مسعود ، وفي روايةٍ : عمارُ

بَدلَ ابنِ مسعودٍ ، وفي «مَرَاسِيلِ أبي داودَ» ذكر السببَ الذي من أجله تَرَخَّصُوا ، فقال : إن الخطبةَ يوم الجمعةِ كَانَتْ بعدَ الصلاةِ فتَأَوَّلُوا رضي اللَّه عنهم أنهم قَدْ قَضَوْا مَا عَلَيْهِمْ ، فَحوِّلَتْ الخطبةُ بعدَ ذلك قبلَ الصلاةِ ، فهذا الحديثُ وإن كانَ مُرْسَلاً فالظن الجميل بأَصْحَابِ النبي صلى الله عليه وسلم يُوجِبُ أنْ يكونَ صحيحاً ، واللَّه أعلم ؛ انتهى ، ورُوِيَ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال :

" لَوْلاَ هؤلاءِ لَقَدْ كَانَتِ الحِجَارَةُ سُوِّمَتْ على المُنفضِّينَ من السماءِ " ، وفي حديثٍ آخر : " والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوْ تَتَابَعْتُمْ حتى لاَ يبقى أَحَدٌ لسَالَ بكُمُ الوَادِي نَاراً " ، قَالَ البخاريُّ : ﴿ انفضوا ﴾ معناه تَفَرَّقُوا ، انتهى ، وقرأ ابن مسعود : «وَمِنَ التِّجَارَةِ لِلَّذِينَ اتقوا ، وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» وإنما أعاد الضميرَ في قوله : ﴿ إِلَيْهَا ﴾ على التجارةِ وَحْدَهَا لأَنَّها أَهَمُّ ، وهي كَانَتْ سَبَبَ اللَّهوِ ، *ص* : وقرىء «إِلَيْهِمَا» بالتثنيةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُوا إِذَا نُودِيَ للصلاة ﴾

أيْ فُعِلَ النداءُ لَهَا أيْ أُذِّنَ لَهَا ﴿ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ بيانٌ لإذَا وتفسيرٌ لَهَا وقيلَ من بمَعْنَى في كَمَا في قولِه تعالَى : ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ أيْ في الأرضِ وإنَّما سمِّي جمعةً لاجتماعِ الناسِ فيهِ للصلاةِ وقيلَ أولُ مَنْ سمَّاها جمعةً كعبُ بنُ لُؤَي وكانتِ العربُ تسميهِ العَرُوبَةَ وقيلَ إنَّ الأنصارَ قالُوا قبلَ الهجرةِ لليهودِ يومٌ يجتمعونَ فيهِ بكُلِّ سبعةِ أيامٍ وللنَّصارَى مثلُ ذلكَ فهلمُّوا نجعلْ لَنَا يوماً نجتمعُ فيهِ فنذكرُ الله فيهِ ونُصلِّي فقالُوا يومُ السبتِ لليهودِ ويومُ الأحدِ للنَّصارَى فاجعلوه يومَ العَروبَةِ فاجتمعُوا إلى سعدِ بنِ زُرارةَ فصلَّى بهمْ ركعتَينِ وذكَّرهُم فسمَّوه يومَ الجمعةِ لاجتماعِهِم فيهِ فأنزلَ اللهُ آيةَ الجمعةِ فهيَ أولُ جمعةٍ كانتْ في الإسلامِ . وأما أولُ جمعةٍ جمَّعها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فهُو أنَّه لما قدمَ المدينةَ مُهاجراً نزلَ قُبَاءَ على بني عمرو بنِ عوفٍ وأقامَ بها يومَ الإثنينِ والثَّلاثاءِ والأربعاءِ والخميسِ وأسَّس مسجدَهُم ثم خرجَ يومَ الجمعةِ عامداً المدينةَ فأدركتْهُ صلاةُ الجمعةِ في بني سالمِ بنِ عوفٍ في بطنِ وادٍ لهم فخطبَ وصلَّى الجمعةَ ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ أيْ امشُوا واقْصِدُوا إلى الخطبةِ والصلاةِ ﴿ وَذَرُواْ البيع ﴾ واتركُوا المعاملةَ ﴿ ذلكم ﴾ أي السعيُ

إلى ذكرِ اللهِ وتركُ البيعِ ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ منْ مباشرتهِ فإنَّ نفعَ الآخرةِ أجلُّ وأبقَى ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أيْ الخيرَ والشرَّ الحقيقينِ أوْ إنْ كنتم أهلَ العلمِ.

(57/764)

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة ﴾ أي أُدِّيتْ وفُرِغَ منهَا ﴿ فانتشروا فِى الأرض ﴾ لإقامةِ مصالِحِكم ﴿ وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ أي الربحَ فالأمرُ للإطلاقِ بعدَ الحظرِ وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا لَمْ يؤمَروا بطلبِ شيءٍ من الدُّنيا إنَّما هو عيادةُ المرضَى وحضورُ الجنائزِ وزيارةُ أخٍ في اللهِ وعنِ الحسنِ وسعيدِ بنِ المسيِّبِ طلبُ العلمِ وقيلَ صلاةُ التطوعِ ﴿ واذكروا الله كَثِيراً ﴾ ذِكراً كثيراً أو زماناً كثيراً ولا تخصوا ذكرَهُ تعالَى بالصلاةِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ كي تفوزُوا بخيرِ الدارينِ.

(58/764)

﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تجارة أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ﴾ رُوي أنَّ أهلَ المدينةِ أصابَهُم جوعٌ وغلاءٌ شديدٌ فقدمَ دِحيةُ بنُ خَليفةَ بتجارةٍ منْ زَيْتِ الشامِ والنبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يخطبُ يومَ الجمعةِ

فقاموا إليهِ خشيةَ أنْ يُسْبقُوا إليهِ فما بقيَ معهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إلا ثمانيةٌ وقيلَ أحدَ عشرَ وقيلَ اثنا عشرَ وقيلَ أربعونَ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : " والَّذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ لَوْ خرجُوا جميعاً لأضرمَ اللهُ عليهم الواديَ ناراً " وكانُوا إذَا أقبلتْ العيرُ استقبلُوها بالطبلِ والتصفيقِ وهُو المرادُ باللهوِ وتخصيصُ التجارةِ برجعِ الضميرِ لأنَّها المقصودةُ أوْ لأنَّ الانفضاضَ للتجارةِ معَ الحاجةِ إليهَا والانتفاعِ بهَا إذا كانَ مذموماً فمَا ظنُّكَ بالانفضاضِ بالكُلِّيةِ إلَى اللَّهوِ وهُو مذمومٌ في نفسهِ ، وقيلَ تقديرُهُ إذَا رأَوا تجارةً انفضُّوا إليهِ فحذفَ الثانيَ لدلالةِ الأولِ عليهِ وقُرِىءَ إليهمَا ﴿ وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾ أيْ علَى المنبرِ ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللهِ ﴾ منَ الثوابِ ﴿ خَيْرٌ مّنَ اللهوِ وَمِنَ التجارة ﴾ فإنَّ ذلكَ نفعٌ محققٌ مخلَّدٌ بخلافِ ما فيهمَا منَ النَّفعِ المتوهَّمِ ﴿ والله خَيْرُ الرزقين ﴾ فإليهِ اسعَوا ومنْهُ اطلبُوا الرزقَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(59/764)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا نُودِىَ لِلصلاة ﴾

أي فعل النداء لها أي الأذان ، والمراد به على ما حكاه في الكشاف الأذان عند قعود الإمام

على المنبر .

وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن واحد فكان إذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد فإذا نزل عليه الصلاة والسلام أقام الصلاة ، ثم كان أبو بكر .

وعمر على ذلك حتى إذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد مؤذناً آخر فأمر بالتأذين الأول على داره التي تسمى زوراء فإذا جلس على المنبر أذن المؤذن الثاني فإذا نزل أقام الصلاة فلم يعب ذلك عليه .

وفي حديث الجماعة إلا مسلماً فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء ، وفي رواية للبخاري .

ومسلم زاد النداء الثاني ، والكل بمعنى ، وتسمية ما يفعل من الأذان أولاً ثانياً باعتبار أنه لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كان بعد ، وتسميته ثالثاً لأن الإقامة تسمى أذاناً كما في الحديث " بين كل أذانين صلاة " وقال مفتي الحنفية في دار السلطنة السنية الفاضل سعد الله جلبي : المعتبر في تعلق الأمر يعني قوله تعالى الآتي : ﴿ فاسعوا ﴾ هو الأذان الأول في الأصح عندنا لأن حصول الإعلام به لا الأذان بين يدي المنبر ، ورد بأن الأول لم يكن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كما سمعت فكيف يقال : المراد الأول في الأصح ، وأما كون الثاني لا إعلام فيه فلا يضر لأن وقته معلوم تخميناً ولو أريد ما ذكر وجب بالأول السعي وحرم البيع وليس كذلك .

وفي كتاب الأحكام روي عن ابن عمر .

والحسن في قوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِىَ ﴾ الخ قال : إذا خرج الإمام وأذن المؤذن فقد نودي للصلاة انتهى ، وهو التفسير المأثور فلا عبرة بغيره كذا قال الخفاجي .

(60/764)

وفي كتب الحنفية خلافه ففي الكنز وشرحه : ويجب السعي وترك البيع بالأذان الأول لقوله تعالى : ﴿ تَعْمَلُونَ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا نُودِىَ للصلاة ﴾ الآية وإنما اعتبر لحصول الإعلام به ، وهذا القول هو الصحيح في المذهب ، وقيل : العبرة للأذان الثاني الذي يكون بين يدي المنبر لأنه لم يكن في زمنه إلا هو وهو ضعيف لأنه لو اعتبر في وجوب السعي لم يتمكن من السنة القبلية ومن الاستماع بل ربما يخشى عليه فوات الجمعة انتهى ، ونحوه كثير لكن الاعتراض عليه قوي فتدبر ﴿ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ أي فيه كما في قوله تعالى : ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ [فاطر : 40] أي فيها ، وجوز أبو البقاء أيضاً كون ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض ، وفي "الكشاف" هي بيان لإذا وتفسير له ، والظاهر أنه أراد البيان المشهور فأورد عليه أن شرط ﴿ مِنْ ﴾ البيانية أن يصح حمل ما بعدها على المبين قبلها وهو منتف هنا لأن الكل لا يحمل على الجزء واليوم لا يصح أن يراد به هنا مطلق الوقت لأن يوم

الجمعة علم لليوم المعروف لا يطلق على غيره في العرف ولا قرينة عليه هنا ؛ وقيل : أراد البيان اللغوي أي لبيان أن ذلك الوقت في أي يوم من الأيام إذ فيه إبهام فيجامع كونها بمعنى في ، وكونها للتبعيض وهو كما ترى .

والجمعة بضم الميم وهو الأفصح ، والأكثر الشائع ، وبه قرأ الجمهور .

وقرأ ابن الزبير .

وأبو حيوة .

وابن أبي عبلة .

وزيد بن علي .

والأعمش بسكونها ، وروي عن أبي عمرو وهو لغة تميم وجاء فتحها ولم يقرأ به ، ونقل بعضهم الكسر أيضاً ، وذكروا أن الجمعة بالضم مثل الجمعة بالإسكان .

ومعناه المجموع أي يوم الفوج المجموع كقولهم : ضحكة للضحوك منه ، وأما الجمعة : بالفتح فمعناه الجامع أي يوم الوقت الجامع كقولهم : ضحكة لكثير الضحك ، وقال أبو البقاء : الجمعة بضمتين وبإسكان الميم مصدر بمعنى الاجتماع .

وقيل : في المسكن هو بمعنى المجتمع فيه كرجل ضحكة أي كثير الضحك منه انتهى ، وقد صار يوم الجمعة علماً على اليوم المعروف من أيام الأسبوع ، وظاهر عبارة أكثر اللغويين أن الجمعة وحدها من غير يوم صارت علماً له ولا مانع منه ، وإضافة العام المطلق إلى الخاص جائزة مستحسنة فيما إذا خفي الثاني كما هنا لأن التسمية حادثة كما ستعلمه إن شاء الله تعالى فليست قبيحة كالإضافة في إنسان زيد ، وكانت العرب على ما قال غير واحد تسمى يوم الجمعة عروبة ، قيل : وهو علم جنس يستعمل بأن وبدونها ؛ وقيل : أل لازمة ، قال الخفاجي : والأول أصح .

وفي النهاية لابن الأثير عروبة اسم قديم للجمعة ، وكأنه ليس بعربي يقال : يوم عروبة .

ويوم العروبة ، والأفصح أن لا يدخلها الألف واللام انتهى ، وما ظنه من أنه ليس بعربي جزم به مختصر كتاب التذييل والتكميل مما استعمل من اللفظ الدخيل لجمال الدين عبد الله بن أحمد الشهير بالشيشي فقال : عروبة منكراً ومعرفاً هو يوم الجمعة اسم سرياني معرب ، ثم قال : قال السهيلي : ومعنى العروبة الرحمة فيما بلغنا عن بعض أهل العلم انتهى وهو غريب فليحفظ .

وأول من سماه جمعة قيل : كعب بن لؤي ، وأخرج عبد الرزاق .

وعبد بن حميد .

وابن المنذر عن ابن سيرين قال : جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي صلى الله عليه وسلم

وقبل أن تنزل الجمعة قالت الأنصار : لليهود يوم يجتمعون فيه بكل سبعة أيام .

وللنصارى مثل ذلك فهلم فلنجعل لنا يوماً نجتمع فيه فنذكر الله تعالى ونشكره ، فقالوا : يوم السبت لليهود .

(62/764)

ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة ، وكانوا يسمون يوم الجمعة بذلك فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذٍ ركعتين وذكرهم فسموه الجمعة حين اجتمعوا إليه فذبح لهم شاة فتغذوا وتعشوا منها وذلك لعامتهم ؛ فأنزل الله تعالى في ذلك بعد ﴿ يَا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا نُودِىَ للصلاة ﴾ الآية ، وكون أسعد هذا أول من جمع مروى عن غير ابن سيرين أيضاً ، أخرج أبو داود .

وابن ماجه .

وابن حبان .

(63/764)

والبيهقي عن عبد الرحمن بن كعب أن أباه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم على أسعد بن زرارة فقلت : يا أبتاه أرأيت استغفارك لأسعد بن زرارة كلما سمعت الأذان للجمعة ما هو؟ قال : لأنه أول من جمع بنا في نقيع الخضمات من حرة بني بياضة قلت : كم كنتم يومئذٍ ؟ قال : أربعون رجلاً ، وظاهر قول ابن سيرين : فأنزل الله تعالى في ذلك بعد ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ الخ أن أسعد أقام الجمعة قبل أن تفرض ، وكذا قوله : جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي صلى الله عليه وسلم وقبل أن تنزل الجمعة ، وفي "فتح القدير" التصريح بذلك ، وقال العلامة ابن حجر في "تحفة المحتاج" : فرضت يعني صلاة الجمعة بمكة ولم تقم بها لفقد العدد ، أو لأن شعارها الإظهار ، وكان صلى الله عليه وسلم بها مستخفياً ، وأول من أقامها بالمدينة قبل الهجرة أسعد بن زرارة بقرية على ميل من المدينة انتهى ، فلعلها فرضت ثم نزلت الآية كالوضوء للصلاة فإنه فرض أولاً بمكة مع الصلاة ثم نزلت آيته لكن يعكر على هذا ما أخرجه ابن ماجه عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال : " إن الله افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا في يومي هذا في شهري هذا في عامي هذا إلى يوم القيامة فمن تركها استخفافاً بها أو جحوداً بها فلا جمع الله شمله ولا بارك له في أمره ألا ولا صلاة له ولا زكاة له ولا حج له ولا صوم له ولا بر له حتى يتوب فمن تاب تاب الله عليه " فإن الظاهر أن هذه الخطبة كانت في المدينة بل ظاهر الخبر أنها بعد الهجرة بكثير إذ ظاهر قوله عليه الصلاة والسلام فيه : " لا حج له " أن الحج كان مفروضاً إذا ذاك ، وهو

وإن اختلف في وقت فرضه فقيل : فرض قبل الهجرة ، وقيل : أول سنيها ، وقيل : ثانيها ، وهكذا إلى العاشرة لكن قالوا : إن الأصح أنه فرض في السنة السادسة فإما أن يقدح في صحة الحديث ، وإما أن يقال : مفاده افتراض الجمعة إلى يوم القيامة أي بهذا القيد ، ويقال : إن

الحاصل قبل افتراضها غير مقيد بهذا القيد ثم ما تقدم من كون أسعد أول من جمع بالمدينة يخالفه ما أخرج الطبراني عن أبي مسعود الأنصاري قال : أول من قدم من المهاجرين المدينة مصعب ابن عمير ، وهو أول من جمع بها يوم الجمعة جمع بهم قبل أن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم اثنا عشر رجلاً .

وأخرج البخاري على ما نقله السيوطي نحوه وكان ذلك بأمره عليه الصلاة والسلام ، فقد أخرج الدارقطني عن ابن عباس قال : أذن النبي عليه الصلاة والسلام بالجمعة قبل أن يهاجر ولم يستطع أن يجمع بمكة فكتب إلى مصعب بن عمير : أما بعد فانظر اليوم الذي تجهر فيه اليهود بالزبور فأجمعوا نساءكم وأبناءكم فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة فتقربوا إلى الله تعالى بركعتين قال : فهو أول من جمع حتى قدم النبي صلى الله عليه

وسلم المدينة فجمع عند الزوال من الظهر وأظهر ذلك فلعل ما يدل على كون أسعد أول من جمع أثبت من هذه الأخبار أو يجمع بأن أسعد أول من أقامها بغير أمر منه صلى الله عليه وسلم كما يدل عليه خبر ابن سيرين ، وصرح به ابن الهمام .

(65/764)

ومصعباً أول من أقامها بأمره عليه الصلاة والسلام ، أو بأن مصعباً أول من أقامها في المدينة نفسها وأسعد أول من أقامها في قرية قرب المدينة ، وقولهم : في المدينة تسامح ، وقال الحافظ ابن حجر : يجمع بين الحديثين بأن أسعد كان أميراً ، ومصعباً كان إماماً وهو كما ترى ، ولم يصرح في شيء من الأخبار التي وقفت عليها فيمن أقامها قبل الهجرة بالمدينة بالخطبة التي هي أحد شروطها ، وكأن في خبر ابن سيرين رمزاً إليها بقوله : وذكرهم ، وقد يقال : إن صلاة الجمعة حقيقة شرعية في الصلاة المستوفية للشروط ، فمتى قيل : إن فلاناً أول من صلى الجمعة كان متضمناً لتحقق الشروط لكن يبعد كل البعد كون ما وقع من أسعد رضي الله تعالى عنه إن كان قبل فرضيتها مستوفياً لما هو معروف اليوم من الشروط ، ثم إني لا أدري هل صلى أسعد الظهر ذلك اليوم أم اكتفى بالركعتين اللتين صلاهما عنها ؟ وعلى تقدير الاكتفاء كيف ساغ له ذلك بدون أمره عليه الصلاة والسلام ؟! وقصارى ما

يظن أن الأنصار علموا فرضية الجمعة بمكة وعلموا شروطها وإغناءها عن صلاة الظهر فأرادوا أن يفعلوها قبل أن يؤمروا بخصوصهم فرغب خواصهم عوامهم على أحسن وجه وجاءوا إلى أسعد فصلى بهم وهو خلاف الظاهر جداً فتدبر والله تعالى الموفق.

وأما ما كان من صلاته عليه الصلاة والسلام إياها فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة مهاجراً نزل قباً على بني عمرو بن عوف وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم فخطب وصلى الجمعة وهو أول جمعة صلاها عليه الصلاة والسلام، وقال بعضهم: إنما سمي هذا اليوم يوم الجمعة لأن آدم عليه السلام اجتمع فيه مع حواء في الأرض، وقيل: لأن خلق آدم عليه السلام جمع فيه وهو نحو ما أخرجه سعيد بن منصور.

وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قلت: "يا نبي الله لأي شيء سمي يوم الجمعة؟ فقال: لأن فيها جمعت طينة أبيكم آدم عليه السلام" الخبر، ويشعر ذلك بأن التسمية كانت قبل كعب بن لؤي ويسميه الملائكة يوم القيامة يوم المزيد لما أن الله تعالى يتجلى فيه لأهل الجنة فيعطيهم

ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر كما في حديث رواه ابن أبي شيبة عن أنس مرفوعاً وهو من أفضل الأيام ، وفي خبر رواه كثيرون منهم الإمام أحمد .

وابن ماجه عن أبي لبابة بن عبد المنذر مرفوعاً " يوم الجمعة سيد الأيام وأعظم عند الله تعالى من يوم الفطر ويوم الأضحى " وفيه أن فيه خلق آدم .

وإهباطه إلى الأرض .

وموته .

وساعة الإجابة أي للدعاء ما لم يكن سؤال حرام .

وقيام الساعة ، وفي خبر الطبراني " وفيه دخل الجنة .

وفيه خرج " .

وصحح ابن حبان خبر " لا تطلع الشمس ولا تغرب على يوم أفضل من يوم الجمعة " وفي خبر مسلم " فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها وفيه تقوم الساعة وأنه خير يوم طلعت عليه الشمس " وصح خبر " وفيه تيب عليه وفيه مات " .

وأخذ أحمد من خبري مسلم .

وابن حبان أنه أفضل حتى من يوم عرفة ، وفضل كثير من الحنابلة ليلته على ليلة القدر ، قيل : ويردهما أن لذينك دلائل خاصة فقدمت ، واختلف في تعيين ساعة الإجابة فيه ، فعن أبي بردة : هي حين يقوم الإمام في الصلاة حتى ينصرف عنها ، وعن الحسن : هي عند

زوال الشمس ، وعن الشعبي : هي ما بين أن يحرم البيع إلى أن يحل ، وعن عائشة : هي حين ينادي المنادي بالصلاة ، وفي حديث مرفوع أخرجه ابن أبي شيبة عن كثير بن عبد الله المزني : هي حين تقام الصلاة إلى الانصراف منها ، وعن أبي أمامة لأني لأرجو أن تكون الساعة التي في الجمعة إحدى هذه الساعات : إذا أذن المؤذن .

أو جلس الإمام على المنبر .

أو عند الإقامة ، وعن طاوس .

ومجاهد : هي بعد العصر ، وقيل : غير ذلك ، ولم يصح تعيين الأكثرين ، وقد أخفاها الله تعالى كما أخفى سبحانه الاسم الأعظم .

وليلة القدر .

وغيرهما لحكمة لا تخفى .

﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ أي امشوا إليه بدون إفراط في السرعة ، وجاء في الحديث مقابلة السعي بالمشي ، وجعل ذلك من خصائص الجمعة ، فقد أخرج الستة في كتبهم عن أبي سلمة من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا " والمراد بذكر الله الخطبة والصلاة ، واستظهر أن المراد به الصلاة ، وجوز كون المراد به الخطبة وهو على ما قيل مجاز من إطلاق البعض على الكل كإطلاقه على الصلاة ، أو لأنها كالمحل له ، وقيل : الذكر عام يشمل الخطبة المعروفة ونحو التسبيحة ، واستدلوا بالآية لأبي حنيفة رضي الله تعالى عنه على أنه يكفي في خطبة الجمعة التي هي شرط لصحتها الذكر مطلقاً ولا يشترط الطويل وأقله قدر التشهد كما اشترطه صاحباه ، وبينوا ذلك بأنه تعالى ذكر الذكر من غير فصل بين كونه ذكراً طويلاً يسمى خطبة أو ذكراً لا يسمى خطبة فكان الشرط هو الذكر الأعم بالقاطع غير أن المأثور عنه صلى الله عليه وسلم اختيار أحد الفردين وهو الذكر المسمى بالخطبة والمواظبة عليه فكان ذلك واجباً أو سنة لا أنه الشرط الذي لا يجزىء غيره إذ لا يكون بياناً لعدم الإجمال في لفظ الذكر ، والشافعية يشترطون خطبتين : ولهما أركان عندهم ، واستدلوا على ذلك بالآثار ، وأياً مّا كان فالأمر بالسعي للوجوب .

واستدل بذلك على فرضية الجمعة حيث رتب فيها الأمر بالسعي لذكر الله تعالى على النداء للصلاة فإن أريد به الصلاة أو هي والخطبة فظاهر ، وكذلك إن أريد به الخطبة لأن افتراض السعي إلى الشرط وهو المقصود لغيره فرع افتراض ذلك الغير ، ألا ترى أن من لم تجب عليه الصلاة لا يجب عليه السعي إلى الجمعة بالإجماع ؟ وكذا ثبتت فرضيتها بالسنة والإجماع ، وقد صرح بعض الحنفية بأنها آكد فرضية من الظهر وبإكفار جاحدها وهي فرض عين ، وقيل : كفاية وهو شاذ ، وفي حديث رواه أبو داود .

وقال النووي : على شرط الشيخين " الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا أربعة : مملوك ، أو امرأة .

أو صبي .

أو مريض " .

وأجمعوا على اشتراط العدد فيها لهذا الخبر وغيره ، وقول القاشاني : تصح بواحد لا يعتد به كما في "شرح المهذب" لكنهم اختلفوا في مقداره على أقوال : أحدها : أنه اثنان أحدهما الإمام وهو قول النخعي .

والحسن بن صالح .

وداود الثاني : ثلاثة أحدهم الإمام وحكي عن الأوزاعي .

وأبي ثور .

وعن أبي يوسف .

ومحمد .

وحكاه الرافعي .

وغيره عن قول الشافعي القديم الثالث : أربعة أحدهم الإمام وبه قال أبو حنيفة .

والثوري .

والليث .

وحكاه ابن المنذر عن الأوزاعي .

وأبي ثور واختاره ، وحكاه في شرح المهذب عن محمد ، وحكاه صاحب التلخيص قولاً للشافعي في القديم الرابع : سبعة حكي عن عكرمة الخامس : تسعة حكي عن ربيعة السادس : اثني عشر في رواية عن ربيعة .

وحكاه الماوردي عن محمد .

والزهري .

والأوزاعي السابع : ثلاثة عشر أحدهم الإمام حكي عن إسحاق بن راهويه الثامن : عشرون رواه ابن حبيب عن مالك التاسع : ثلاثون في رواية عن مالك العاشر : أربعون أحدهم الإمام وبه قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة .

والإمام الشافعي في الجديد ، وهو المشهور عن الإمام أحمد ، وأحد القولين المرويين عن عمر بن عبد العزيز الحادي عشر : خمسون في الرواية الأخرى عنه الثاني عشر : ثمانون حكاه المازري الثالث عشر : جمع كثير بغير قيد وهو مذهب مالك فقد اشتهر أنه قال : لا يشترط عدد معين بل تشترط جماعة تسكن بهم قرية ويقع بينهم البيع ، ولا تنعقد بالثلاثة والأربعة ونحوهم .

قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري : ولعل هذا المذهب أرجح المذاهب من حيث الدليل ، وأنا أقول أرجحها مذهب الإمام أبي حنيفة ، وقد رجحه المزني وهو من كبار الآخذين عن الشافعي وهو اختيار الجلال السيوطي ، ووجه اختياره مع ذكر أدلة أكثر الأقوال بما لها وعليها مذكور في رسالة له سماها ضوء الشمعة في عدد الجمعة ، ولولا مزيد التطويل لذكرنا خلاصتها .

ومن أراد ذلك فليرجع إليها ليظهر له بنورها حقيقة الحال .

وقرأ كثير من الصحابة .

والتابعين فامضوا وحملت على التفسير بناءاً على أنه لا يراد بالسعي الإسراع في المشي ولم تجعل قرآناً لمخالفتها سواد المصحف المجمع عليه ﴿ وَذَرُواْ البيع ﴾ أي واتركوا المعاملة على أن البيع مجاز عن ذلك فيعم البيع والشراء والإجارة وغيرها من المعاملات ، أو هو دال

على ما عداه بدلالة النص ولعله الأولى ، والأمر للوجوب فيحرم كل ذلك بل روي عن عطاء حرمة اللهو المباح وأن يأتي الرجل أهله وأن يكتب كتاباً أيضاً .

وعبر بعضهم بالكراهة وحملت على كراهة التحريم ، وقول الأكمل في شرح المنار : إن الكراهة تنزيهية مردود وكأنه مأخوذ من زعم القاضي الاسبيجابي أن الأمر في الآية للندب وهو زعم باطل عند أكثر الأئمة ، وعامة العلماء على صحة البيع ، وإن حرم نظير ما قالوا في الصلاة بالثوب المغصوب أو في الأرض المغصوبة .

(70/764)

وقال ابن العربي : هو فاسد ، وعبر مجاهد بقوله : مردود ويستمر زمن الحرمة إلى فراغ الإمام من الصلاة ، وأوله إما وقت أذان الخطبة وروي عن الزهري ، وقال به جمع وأما أول وقت الزوال وروي ذلك عن عطاء .

والضحاك .

والحسن والظاهر أن المأمورين بترك البيع هم المأمورون بالسعي إلى الصلاة .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الرحمن بن القاسم أن القاسم دخل على أهله يوم الجمعة وعندهم عطار يبايعونه فاشتروا منه وخرج القاسم إلى الجمعة فوجد الإمام قد خرج فلما

رجع أمرهم أن يناقضوه البيع ، وظاهره حرمة البيع إذا نودي للصلاة على غير من تجب عليه أيضاً ، والظاهر حرمة البيع والشراء حالة السعي .

وصرح في السراج الوهاج بعدمها إذا لم يشغله ذلك ﴿ ذلكم ﴾ أي المذكور من السعي إلى ذكر الله تعالى وترك البيع ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أنفع من مباشرة البيع فإن نفع الآخرة أجل وأبقى ، وقيل : أنفع من ذلك ومن ترك السعي ، وثبوت أصل النفع للمفضل عليه باعتبار أنه نفع دنيوي لا يدل على كون الأمر للندب والاستحباب دون الحتم والإيجاب كما لا يخفى ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الخير والشر الحقيقيين ، أو إن كنتم من أهل العلم على تنزيل الفعل منزلة اللام .

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة ﴾

أي أديت وفرغ منها ﴿ فانتشروا فِى الأرض ﴾ لإقامة مصالحكم ﴿ وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ أي الربح على ما قيل ، وقال مكحول .

والحسن .

وابن المسيب : المأمور بابتغائه هو العلم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : لم يؤمروا بشيء من طلب الدنيا إنما هو عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله تعالى ، وأخرج نحوه ابن جرير عن أنس مرفوعاً ، والأمر للإباحة على الأصح فيباح بعد قضاء الصلاة الجلوس في المسجد ولا يجب الخروج ،

وروي ذلك عن الضحاك .

ومجاهد .

وحكى الكرماني في شرح البخاري الاتفاق على ذلك وفيه نظر ، فقد حكى السرخسي القول بأنه للوجوب ، وقيل : هو للندب ، وأخرج أبو عبيد .

وابن المنذر .

(71/764)

والطبراني .

وابن مردويه عن عبد الله بن بسر الحراني قال : رأيت عبد الله بن بسر المازني صاحب النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى الجمعة خرج فدار في السوق ساعة ثم رجع إلى المسجد فصلى ما شاء الله تعالى أن يصلي ، فقيل له : لأي شيء تصنع هذا ؟ قال : إني رأيت سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم هكذا يصنع وتلا هذه الآية ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة ﴾ الخ .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : إذا انصرفت يوم الجمعة فأخرج إلى باب المسجد فساوم بالشيء وإن لم تشتره ، ونقل عنه القول بالندبية وهو الأقرب والأوفق بقوله

تعالى :

﴿ واذكروا الله كَثِيراً ﴾ أي ذكرا كثيراً ولا تخصوا ذكره عز وجل بالصلاة ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ كي تفوزوا بخير الدارين ، ومما ذكرنا يعلم ضعف الاستدلال بما هنا على أن الأمر الوارد بعد الحظر للإباحة ، واستدل بالآية على تقديم الخطبة على الصلاة وكذا على عدم ندب صلاة سنتها البعدية في المسجد ، ولا دلالة فيها على نفي سنة بعدية لها ، وظاهر كلام بعض الأجلة أن من الناس من نفى أن للجمعة سنة مطلقاً فيحتمل على بعد أن يكون استشعر نفي السنة البعدية من الأمر بالانتشار وابتغاء الفضل ، وأما نفي القبلية فقد استند فيه إلى ما روي في الصحيح وقد تقدم من أن النداء كان على عهده عليه الصلاة والسلام إذا جلس على المنبر إذ من المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام إذا كمل الأذان أخذ في الخطبة وإذا أتمها أخذ في الصلاة ، فمتى كانوا يصلون السنة ؟ وأجيب عن هذا بأن خروجه عليه الصلاة والسلام كان بعد الزوال بالضرورة فيجوز كونه بعد ما كان يصلي الأربع ، ويجب الحكم بوقوع الحكم بهذا المجوز لعموم ما صح من أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي إذا زالت الشمس أربعاً ، وكذا يجب في حقهم لأنهم أيضاً يعلمون الزوال كالمؤذن بل ربما يعلمونه بدخول الوقت ليؤذن ، واستدل بقوله تعالى :

﴿ إِذَا نُودِىَ ﴾ [الجمعة : 9] الخ من قال : إنما يجب إتيان الجمعة من مكان يسمع فيه النداء ، والمسألة خلافية فقال ابن عمر .

وأبو هريرة .

ويونس .

والزهري : يجب إتيانها من ستة أميال ، وقيل : من خمسة ، وقال ربيعة : من أربعة ، وروي ذلك عن الزهري .

وابن المنكدر .

وقال مالك .

والليث : من ثلاثة ، وفي بحر أبي حيان .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : يجب الإتيان على من في المصر سمع النداء أو لم يسمع لا على من هو خارج المصر وإن سمع النداء ؛ وعن ابن عمر .

وابن المسيب .

والزهري .

وأحمد .

وإسحاق على من سمع النداء ، وعن ربيعة على من إذا سمع وخرج من بيته ماشياً أدرك

الصلاة ، وكذا استدل بذلك من قال بوجوب الإتيان إليها سواء كان إذن عام أم لا ، وسواء أقامها سلطان .

أو نائبه .

أو غيرهما أم لا لأنه تعالى إنما رتب وجوب السعي على النداء مطلقاً كذا قيل ، وتحقيق الكلام على ذلك كله في كتب الفروع المطولة .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تجارة أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ﴾ أخرج الإمام أحمد .

والبخاري .

ومسلم .

والترمذي .

وجماعة عن جابر بن عبد الله قال : "بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة قائماً إذ قدمت عير المدينة فابتدرها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم .

وأبو بكر .

وعمر فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تجارة ﴾ إلى آخر السورة ، وفي رواية ابن مردويه عن ابن عباس أنه بقي في المسجد اثنا عشر رجلاً وسبع نسوة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم ناراً " وفي رواية عن قتادة " والذي نفس

محمد بيده لو اتبع آخركم أولكم لالتهب الوادي عليكم ناراً " وقيل : لم يبق إلا أحد عشر رجلاً ، وهم على ما قال أبو بكر : غالب بن عطية العشرة المبشرة .

وعمار في رواية .

وابن مسعود في أخرى ، وعلى الرواية السابقة عدوا العشرة أيضاً منهم .

وعدوا بلالا .

وجابراً لكلامه السابق ، ومنهم من لم يذكر جابراً وذكر بلالاً .

وابن مسعود .

ومنهم من ذكر عماراً بدل ابن مسعود ، وقيل : لم يبق إلا ثمانية ، وقيل : بقي أربعون ، وكانت العير لعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى تحمل طعاماً ، وكان قد أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر .

وأخرج أبو داود في مرسيله عن مقاتل بن حيان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين حتى كان يوم جمعة والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب وقد صلى الجمعة فدخل رجل فقال : إن دحية بن خليفة قدم بتجارة وكان إذا قدم

تلقاه أهله بالدفاف فخرج الناس ولم يظنوا إلا أنه ليس في ترك حضور الخطبة شيء فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا ﴾ الخ فقدم النبي صلى الله عليه وسلم الخطبة يوم الجمعة وأخر الصلاة ، ولا أظن صحة هذا الخبر ، والظاهر أنه صلى الله عليه وسلم لم يزل مقدماً خطبتها عليها ، وقد ذكروا أنها شرط صحتها وشرط الشيء سابق عليه ، ولم أر أحداً من الفقهاء ذكر أن الأمر كان كما تضمنه ولم أظفر بشيء من الأحاديث مستوف لشروط القبول متضمن ذلك ، نعم ذكر العلامة ابن حجر الهيتمي أن بعضهم شذ عن الإجماع على كون الخطبة قبلها والله تعالى أعلم ، والآية لما كانت في أولئك المنفضين وقد نزلت بعد وقوع ذلك منهم قالوا : إن ﴿ إِذَا ﴾ فيها قد خرجت عن الاستقبال واستعملت للماضي كما في قوله

: وندمان تزيد الكاس طيبا . . .

سقيت "ذا" تغورت النجوم

ووحد الضمير لأن العطف بأو واختير ضمير التجارة دون اللهو لأنها الأهم المقصود ، فإن المراد باللهو ما استقبلوا به العير من الدف ونحوه ، أو لأن الانفضاض للتجارة مع الحاجة إليها

والانتفاع بها إذا كان مذموماً فما ظنك بالانفضاض إلى اللهو وهو مذموم في نفسه ؟! وقيل : الضمير للرؤية المفهومة من ﴿ رَأَوْا ﴾ وهو خلاف الظاهر المتبادر ، وقيل : في الكلام تقدير ، والأصل إذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو لهواً انفضوا إليه فحذف الثاني لدلالة الأول عليه ، وتعقب بأنه بعد العطف بأو لا يحتاج إلى الضير لكل منهما بل يكفي الرجوع لأحدهما فالتقدير من غير حاجة ، وقال الطيبي : يمكن أن يقال : إن ﴿ أَوْ ﴾ في ﴿ أَوْ لَهْواً ﴾ مثلها في قوله

: بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى . . .

وصورتها "أو" أنت في العين أملح

فقال الجوهري : يريد بل أنت فالضمير في ﴿ إِلَيْهَا ﴾ راجع إلى اللهو باعتبار المعنى ، والسر فيه أن التجارة إذا شغلت المكلف عن ذكر الله تعالى عدت لهواً ، وتعدّ فضلاً إن لم تشغله كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِى الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ [الجمعة : 10] انتهى وليس بشيء كما لا يخفى .

وقرأ ابن أبي عبلة إليه بضمير اللهو ، وقرىء إليهما بضمير الاثنين كما في قوله تعالى : ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فالله أولى بِهِمَا ﴾ [النساء : 135] وهو متأول لأنه بعد العطف بأو لكونها لأحد الشيئين لا يثنى الضمير وكذا الخبر ، والحال والوصف فهي على هذه القراءة بمعنى الواو كما قيل به في الآية التي ذكرناها ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِماً ﴾ أي على المنبر .

واستدل به على مشروعية القيام في الخطبة وهو عند الحنفية أحد سننها ، وعند الشافعية هو شرط في الخطبتين إن قدر عليه ، وأخرج ابن ماجه .

(75/764)

وغيره عن ابن مسعود أنه سئل أكان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب قائماً أو قاعداً ؟ فقال : أما تقرأ ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِماً ﴾ ؟ وكذا سئل ابن سيرين .

وأبو عبيدة ، وأجابا بذلك ، وأول من خطب جالساً معاوية .

ولعل ذلك لعجزه عن القيام ، وإلا فقد خالف ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أخرج البخاري .

ومسلم والترمذي .

والنسائي .

وابن ماجه عن ابن عمر أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يخطب خطبتين يجلس بينهما ، وذكر أبو حيان أن أول من استراح في الخطبة عثمان رضي الله تعالى عنه ، وكأنه أراد بالاستراحة غير الجلوس بين الخطبتين إذ ذاك ما كان عليه صلى الله عليه وسلم .

وأبو بكر .

وعمر رضي الله تعالى عنهما ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللهو وَمِنَ التجارة ﴾ فإن ذلك نفع محقق مخلد بخلاف ما فيهما من النفع ، فإن نفع اللهو ليس بمحقق بل هو متوهم ، ونفع التجارة ليس بمخلد ، وتقديم اللهو ليس من تقديم العدم على الملكة كما توهم بل لأنه أقوى مذمة ، فناسب تقديمه في مقام الذم ، وقال ابن عطية : قدمت التجارة على اللهو في الروية لأنها أهم ، وأخرت مع التفضيل لتقع النفس أولا على الأبين ، وهو قريب مما ذكرنا .

وقال الطيبي : قدم ما كان مؤخراً وكرر الجار لإرادة الاطلاق في كل واحد ، واستقلاله فيما قصد منه ليخالف السابق في اتحاد المعنى لأن ذلك في قصة مخصوصة ، واستدل الشيخ عبد الغني النابلسي عفا الله تعالى عنه على حل الملاهي بهذه الآية لمكان أفعل التفضيل المقتضى لإثبات أصل الخيرية للهو كالتجارة ، وأنت تعلم أن ذلك مبني على الزعم والتوهم ، وأعجب منه استدلاله على ذلك بعطف التجارة المباحة على اللهو في صدر الآية ، والأعجب الأعجب أنه ألف رسائل في إباحة ذلك مما يستعمله الطائفة المنسوبة إلى مولانا جلال الدين الرومي دائرة على أدلة أضعف من خصر شادت يدور على محور الغنج في مقابلتهم ، ومنها أكاذيب لا أصل لها لن يرتضيها عاقل ولن يقبلها ، ولا أظن ما يفعلونه إلا

شبكة لاططياد طائر الرزق والجهلة يظنونه مخلصاً من ربقة الرق ، فإياك أن تميل إلى ذلك وتوكل على الله تعالى المالك ﴿ والله خَيْرُ الرزقين ﴾ فإليه سبحانه اسعوا ومنه عز وجل اطلبوا الرزق .

(77/764)

واستدل بما وقع في القصة على أقل العدد المعتبر في حماعة الجمعة بأنه اثنا عشر بناءاً على ما في أكثر الروايات من أن الباقين بعد الانفضاض كانوا كذلك ، ووجه الدلالة منه أن العدد المعتبر في الابتداء يعتبر في الدوام فلما لم تبطل الجمعة بانفضاض الزائد على اثني عشر دل على أن هذا العدد كاف ، وفيه أن ذلك وإن كان دالاً على صحتها باثني عشر رجلاً بلا شبهة لكن ليس فيه دلالة على اشتراط اثني عشر ، وأنها لا تصح بأقل من هذا العدد ، فإن هذه واقعة عين أكثر ما فيها أنهم انفضوا وبقي اثنا عشر رجلاً وتمت بهم الجمعة ، وليس فيها أنه لو بقي أقل من هذا العدد لم تتم بهم ، وفيما يصنع الإمام إن اتفق تفرق الناس عنه في صلاة الجمعة خلاف : فعند أبي حنيفة إن بقي وحده ، أو مع أقل من ثلاثة رجال يستأنف الظهر إذا نفروا عنه قبل الركوع ، وعند صاحبيه إذا كبروهم معه معي فيها ، وعند زفر إذا نفروا قبل القعدة بطلت لأن العدد شرط ابتداءاً فلا بد من دوامه كالوقت ، ولهما أنه

شرط الانعقاد فلا يشترط دوامه كالخطبة ، وللإمام أن الانعقاد بالشروع في الصلاة ولا يتم ذلك إلا بتمام الركعة لأن ما دونها ليس بصلاة فلا بد من دوامه إلى ذلك بخلاف الخطبة لأنها تنافي الصلاة فلا يشترط دوامها .

وقال جمهور الشافعي : إن انفض الأربعون ، أو بعضهم في الصلاة ولم يحرم عقب انفضاضهم في الركعة الأولى عدد نحوهم سمع الخطبة بطلت الجمعة فيتمونها ظهراً لنحو ما قال زفر ، وفي قول : لا يضر إن بقي إثنان مع الإمام لوجود مسمى الجماعة إذ يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء وتمام ذلك في محله .

وطعن الشيعة لهذه الآية الصحابة رضي الله تعالى عنهم بأنهم آثروا دنياهم على آخرتهم حيث انفضوا إلى اللهو والتجارة ورغبوا عن الصلاة التي هي عماد الدين وأفضل كثير من العبادات لا سيما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروي أن ذلك قد وقع مراراً منهم ، وفيه إن كبار الصحابة كأبي بكر .

وعمر .

وسائر العشرة المبشرة لم ينفضوا ، والقصة كانت في أوائل زمن الهجرة ، ولم يكن أكثر القوم

تام التحلي بحلية آداب الشريعة بعد ، وكان قد أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر فخاف أولئك المنفضون اشتداد الأمر عليهم بشراء غيرهم ما يقتات به لو لم ينفضوا ، ولذا لم يتوعدهم الله تعالى على ذلك بالنار أو نحوها بل قصارى ما فعل سبحانه أنه عاتبهم ووعظهم ونصحهم ، ورواية أن ذلك وقع منهم مراراً إن أريد بها رواية البيهقي في شعب الإيمان عن مقاتل بن حيان أنه قال : بلغني والله تعالى أعلم أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات فمثل ذلك لا يلتفت إليه ولا يعول عند المحدثين عليه ، وإن أريد بها غيرها فليبين ولتثبت صحته ، وأنى بذلك ؟! وبالجملة الطعن بجميع الصحابة لهذه القصة التي كانت من بعضهم في أوائل أمرهم وقد عقبها منهم عبادات لا تحصى سفه ظاهر وجهل وافر .

هذا ومن باب الإشارة : على ما قيل في الآيات : ﴿ هُوَ الذى بَعَثَ فِى الأميين رَسُولاً مّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءاياته وَيُزَكّيهِمْ وَيُعَلّمُهُمُ الكتاب والحكمة ﴾ [الجمعة : 2] إشارة إلى عظيم قدرته عز وجل وأن إفاضة العلوم لا تتوقف على الأسباب العادية ، ومنه قالوا : إن الولي يجوز أن يكون أمياً كالشيخ معروف الكرخي على ما قال ابن الجوزي وعنده من العلوم اللدنية ما تقصر عنها العقول ، وقال العز بن عبد السلام : قد يكون الإنسان عالماً بالله تعالى ذا يقين وليس عنده علم من فروض الكفايات ، وقد كان الصحابة أعلم من علماء التابعين بحقائق اليقين ودقائق المعرفة مع أن في علماء التابعين من هو أقوم بعلم الفقه من بعض الصحابة ، ومن انقطع إلى الله عز وجل وخلصت روحه أفيض على قلبه أنوار إلهية تهيأت

بها لادراك العلوم الربانية والمعارف اللدنية، فالولاية لا تتوقف قطعاً على معرفة العلوم الرسمية كالنحو.

والمعاني.

والبيان.

(79/764)

وغير ذلك، ولا على معرفة الفقه مثلا على الوجه المعروف بل على تعلم ما يلزم الشخص من فروض العين على أي وجه كان من قراءة أو سماع من عالم أو نحو ذلك، ولا يتصور ولاية شخص لا يعرف ما يلزمه من الأمور الشرعية كأكثر من تقبل يده في زماننا ، وقد رأيت منهم من يقول وقد بلغ من العمر نحو سبعين سنة إذا تشهد لا إله أن الله بأن بد لا إلا فقلت له : منذ كم تقول هكذا ؟ فقال : من صغرى إلى اليوم فكررت عليه الكلمة الطيبة فما قالها على الوجه الصحيح إلا بجهد ، ولا أظن ثباته على ذلك، وخبر

"لا يتخذ الله ولياً جاهلاً ولو اتخذه لعلمه" ليس من كلامه عليه الصلاة والسلام.

ومع ذلك لا يفيد في دعوى ولاية من ذكرنا .

وذكر بعضهم أن قوله تعالى : ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ بعد قوله سبحانه : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءاياته ﴾

إشارة إلى الإفاضة القلبية بعد الإشارة إلى الإفادة القالية اللسانية ، وقال بحصولها للأولياء المرشدين : فيزكون مريديهم بإفاضة الأنوار على قلوبهم حتى تخلص قلوبهم وتزكو نفوسهم ، وهو سر ما يقال له التوجه عند السادة النقشبندية ، وقالوا : بالرابطة ليتهيأ ببركتها القلب لما يفاض عليه ، ولا أعلم لثبوت ذلك دليلاً يعول عليه عن الشارع الأعظم صلى الله عليه وسلم ، ولا عن خلفائه رضي الله تعالى عنهم ، وكل ما يذكرونه في هذه المسألة ويعدونه دليلاً لا يخلو عن قادح بل أكثر تمسكاتهم فيها تشبه التمسك بحبال القمر ، ولولا خوف الأطناب لذكرتها مع ما فيها ، ومع هذا لا أنكر بركة كل من الأمرين : التوجه .

(80/764)

والرابطة ، وقد شاهدت ذلك من فضل الله عز وجل ، وأيضاً لا أدعى الجزم بعدم دليل في نفس الأمر ، وفوق كل ذي علم عليم ، ولعل أول من أرشد إليهما من السادة وجد فيهما ما يعول عليه ، أو يقال : يكفي للعمل بمثل ذلك نحو ما تمسك به بعض أجلة متأخريهم وإن كان للبحث فيه مجال ولأرباب القال في أمره مقال ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَءاخَرِينَ ﴾ [الجمعة : 3] الخ بناءاً على عطفه على الضمير المنصوب قيل : إشارة إلى عدم انقطاع فيضه صلى الله عليه وسلم عن أمته إلى يوم القيامة ؛ وقد قالوا بعدم انقطاع فيض الولي أيضاً بعد انتقاله

من دار الكثافة والفناء إلى دار التجرد والبقاء : وفي قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الذين حُمّلوا التوراة ﴾ [الجمعة : 5] الخ إشارة إلى سوء حال المنكرين مع علمهم ، وفي قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أهل أيُّهَا الذين هَادُوا ﴾ [الجمعة : 6] الآية إشارة إلى جواز امتحان مدعى الولاية ليظهر حاله بالامتحان فعند ذلك يكرم أو يهان ، وفي عتاب الله تعالى المنفضين إشارة إلى نوع من كيفيات تربية المريد إذا صدر منه نوع خلاف ليسلك الصراط السوي ولا يرتكب الاعتساف ، وفي الآيات بعد إشارات يضيق عنها نطاق العبارات ، " ومن عمل بما علم أورثه الله عز وجل علم ما لم يعلم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(81/764)

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا نُودِىَ للصلاة ﴾

أي : وقع النداء لها ، والمراد به : الأذان إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة ؛ لأنه لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء سواه ، وقوله : ﴿ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ بيان لإذا وتفسير لها .

وقال أبو البقاء : إن " من " بمعنى : في ، كما في قوله : ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ (

فاطر 40) أي : في الأرض .

قرأ الجمهور : ﴿ الجمعة ﴾ بضم الميم .

وقرأ عبد الله بن الزبير ، والأعمش بإسكانها تخفيفاً .

وهما لغتان ، وجمعها جمع وجمعات .

قال الفراء : يقال : الجمعة بسكون الميم وبفتحها وبضمها .

وهي صفة لليوم ، أي : يوم يجمع الناس .

قال الفراء أيضاً ، وأبو عبيد : والتخفيف أخفّ وأقيس ، نحو غرفة وغرف ، وطرفة وطرف ، وحجرة وحجر .

وفتح الميم لغة عقيل .

وقيل : إنما سميت جمعة ؛ لأن الله جمع فيها خلق آدم ، وقيل : لأن الله فرغ فيها من خلق كلّ شيء ، فاجتمعت فيها جميع المخلوقات ، وقيل : لاجتماع الناس فيها للصلاة ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ قال عطاء : يعني الذهاب والمشي إلى الصلاة .

وقال الفراء : المضيّ والسعي والذهاب في معنى واحد ، ويدلّ على ذلك قراءة عمر بن الخطاب ، وابن مسعود : (فامضوا إلى ذكر الله) .

وقيل : المراد القصد .

قال الحسن : والله ما هو سعي على الأقدام ولكنه قصد بالقلوب والنيات ، وقيل : هو

العمل كقوله : ﴿ ومَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [الإسراء : 19]
وقوله : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ [الليل : 4] وقوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ للإنسان إِلاَّ مَا سعى ﴾ [النجم : 39] قال القرطبي : وهذا قول الجمهور ، ومنه قول زهير :

سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم . . . وقال أيضاً :

سعى ساعياً غيظ بن مرة بعد ما . . . تنزل ما بين العشيرة بالدم

(82/764)

أي : فاعملوا على المضيّ إلى ذكر الله ، واشتغلوا بأسبابه من الغسل والوضوء والتوجه إليه ، ويؤيد هذا القول قول الشاعر :

أسعى على جل بني مالك . . . كلّ امرىء في شأنه ساعي

﴿ وَذَرُواْ البيع ﴾ أي : اتركوا المعاملة به ، ويلحق به سائر المعاملات .

قال الحسن : إذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحلّ الشراء والبيع ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ إلى السعي إلى ذكر الله ، وترك البيع ، وهو مبتدأ ، وخبره ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي : خير لكم من فعل البيع ، وترك السعي لما في الامتثال من الأجر والجزاء .

وفي عدمه من عدم ذلك إذا لم يكن موجباً للعقوبة ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : إن كنتم من

أهل العلم ، فإنه لا يخفى عليكم أن ذلكم خير لكم ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة ﴾ أي : إذا فعلتم الصلاة وأدّيتموها وفرغتم منها ﴿ فانتشروا فِى الأرض ﴾ للتجارة والتصرّف فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم ﴿ وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ أي : من رزقه الذي يتفضل به على عباده بما يحصل لهم من الأرباح في المعاملات والمكاسب ، وقيل : المراد به ابتغاء ما عند الله من الأجر بعمل الطاعات ، واجتناب ما لا يحلّ ﴿ واذكروا الله كَثِيراً ﴾ أي ذكراً كثيراً بالشكر له على ما هداكم إليه من الخير الأخروي والدنيويّ ، وكذا اذكروه بما يقرّبكم إليه من الأذكار ، كالحمد ، والتسبيح ، والتكبير ، والاستغفار ، ونحو ذلك ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي : كي تفوزوا بخير الدارين وتظفروا به .

﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تجارة أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً ﴾ سبب نزول هذه الآية أنه كان بأهل المدينة فاقة وحاجة ، فأقبلت عير من الشام ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلاّ اثنا عشر رجلاً في المسجد .

ومعنى ﴿ انفضوا إِلَيْهَا ﴾ : تفرّقوا خارجين إليها .

وقال المبرد : مالوا إليها ، والضمير للتجارة ، وخصت بإرجاع الضمير إليها دون اللهو ؛ لأنها كانت أهمّ عندهم ، وقيل التقدير : وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو لهواً انفضوا إليه ، فحذف الثاني لدلالة الأوّل عليه ، كما في قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما . . . عندك راضٍ والرأي مختلف

وقيل : إنه اقتصر على ضمير التجارة ؛ لأن الانفضاض إليها إذا كان مذموماً مع الحاجة إليها ، فكيف بالانفضاض إلى اللهو ، وقيل : غير ذلك ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِماً ﴾ أي : على المنبر : ثم أمره الله سبحانه أن يخبرهم بأن العمل للآخرة خير من العمل للدنيا ، فقال : ﴿ قُلْ مَا عِندَ الله ﴾ يعني : من الجزاء العظيم وهو الجنة ﴿ خَيْرٌ مّنَ اللهو وَمِنَ التجارة ﴾ اللذين ذهبتم إليهما ، وتركتم البقاء في المسجد ، وسماع خطبة النبيّ صلى الله عليه وسلم لأجلها ﴿ والله خَيْرُ الرازقين ﴾ فمنه اطلبوا الرزق ، وإليه توسلوا بعمل الطاعة ، فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق وأعظم ما يجلبه .

وقد أخرج سعيد بن منصور ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قلت : يا رسول الله لأيّ شيء سمي يوم الجمعة؟ قال : " لأن فيه جمعت طينة أبيكم آدم ، وفيه الصعقة والبعثة ، وفي آخره ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها بدعوة استجاب له " وأخرج سعيد بن منصور ، وأحمد ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عن سلمان قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتدري ما يوم الجمعة " ؟ قلت : الله ورسوله

أعلم ، قالها ثلاث مرات ، ثم قال في الثالثة : " هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم آدم أفلا أحدّثكم عن يوم الجمعة " ، الحديث .

وأخرج أحمد ، ومسلم ، والترمذي ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلاّ في يوم الجمعة "

(84/764)

وفي الباب أحاديث مصرحة بأنه خلق فيه آدم .

وورد في فضل يوم الجمعة أحاديث كثيرة ، وكذلك في فضل صلاة الجمعة وعظيم أجرها ، وفي الساعة التي فيها ، وأنه يستجاب الدعاء فيها ، وقد أوضحت ذلك في شرحي للمنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره .

وأخرج أبو عبيد في فضائله ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن الأنباري في المصاحف عن خرشة بن الحرّ قال : رأى معي عمر بن الخطاب لوحاً مكتوباً فيه ﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصلاة مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ فقال : من أملى عليك هذا ؟ قلت أبيّ بن كعب ، قال : إن أبياً أقرأنا للمنسوخ اقرأها : (فامضوا إلى ذكر الله)

وروى هؤلاء ما عدا أبا عبيد عن ابن عمر قال : لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما نقرأ هذه الآية التي في سورة الجمعة إلاّ : (فامضوا إلى ذكر الله) وأخرجه عنه أيضاً الشافعي في الأمّ ، وعبد الرزاق ، والفريابي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم .

وأخرجوا كلهم أيضاً عن ابن مسعود أنه كان يقرأ : (فامضوا إلى ذكر الله) قال : ولو كان فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي .

وأخرج عبد بن حميد عن أبيّ بن كعب أنه قرأ كذلك .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس : ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ قال : فامضوا .

وأخرج عبد بن حميد عنه أن السعي : العمل .

وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب : أن رجلين من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم كانا يختلفان في تجارتهما إلى الشام ، فربما قدما يوم الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب ، فيدعونه ويقومون ، فنزلت الآية : ﴿ وَذَرُواْ البيع ﴾ فحرم عليهم ما كان قبل ذلك .

وأخرج ابن جرير عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِى الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ قال : " ليس لطلب دنيا ، ولكن عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله " وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : لم تؤمروا بشيء من طلب الدنيا إنما هو : عيادة مريض ، وحضور جنازة ، وزيارة أخ في الله .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال : بينما النبيّ صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة قائماً إذ قدمت عير المدينة ، فابتدرها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لم يبق منهم إلاّ اثنا عشر رجلاً ، أنا فيهم وأبو بكر وعمر ، فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تجارة أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ﴾ إلى آخر السورة .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في الآية قال : جاءت عير عبد الرحمن بن عوف تحمل الطعام ، فخرجوا من الجمعة بعضهم يريد أن يشتري ، وبعضهم يريد أن ينظر إلى دحية ، وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً على المنبر ، وبقي في المسجد اثنا عشر رجلاً وسبع نسوة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم ناراً " وفي الباب روايات متضمنة لهذا المعنى عن جماعة من الصحابة وغيرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿فتح القدير حـ 5 صـ 227 . 229﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن السورة قد بدأت بذكر هذه النعمة العظيمة التي أنعم اللّه بها على المؤمنين ، إذ بعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آيات اللّه ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة . . وهذه النعمة العظيمة لا تثمر الثمر الطيب الذي تحمله إلا إذا صادفت من يرعاها ، ويعرف قدرها ، وإلّا انقلبت هذه النعمة نقمة على أهلها ، فحوسبوا على تضييعها ، ووقعوا تحت طائلة العقاب الأليم ، كما وقع ذلك لليهود الذي حمّلوا التوراة ، ثم لم يحملوها ، فكان مثلهم مثل الحمار يحمل أسفارا ، وقد أوعدهم اللّه سبحانه بما توّعد به الظالمين. فناسب أن يجىء بعد هذا ، أن ينبّه المسلمون إلى ما ينبغى أن يكون منهم لرعاية هذه النعمة التي أنعم اللّه بها عليهم ، وكان أول ما نبهوا إليه ، هو الصّلاة ، إذ كانت الصلاة عماد الدين ، وكانت الركن الأول من أركانه ، بعد الإيمان باللّه . . وإذ كانت صلاة الجمعة أظهر صلاة فى أيام الأسبوع ، لأنها الصلاة الجامعة ، التي لا تصحّ إلا فى جماعة. فقد كان الإلفات إليها إلفاتا إلى الصلوات المفروضة كلّها .

وقوله تعالى : « إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ » أي إذا جاء وقتها ، وأذّن المؤذن بها .

وقوله تعالى : « فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ » أي بادروا وأسرعوا إلى ذكر اللّه ، أي الصلاة ، لأنها تذكّر باللّه ، وتصل العبد بربه . . ومن ذكر اللّه فى صلاة الجمعة ، « الخطبة » وما فيها من عظات تذكر باللّه .

وقوله تعالى : « وَذَرُوا الْبَيْعَ » أي اتركوا البيع ، والشراء ، وكلّ ما يشغلكم من عمل . . حتى تفرغوا للصلاة ، جسدا ، وروحا .

وقوله تعالى : « ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » الإشارة إلى السعى للصلاة ، وترك كل ما بين يدى الإنسان من عمل . . فذلك السعى خير من كلّ ما كان يحصّله الإنسان من عمله الذي بين يديه ، وذلك مما لا يعلمه ، ويعلم قدره إلا أهل العلم ، من المؤمنين ، المستيقنين من واسع الفضل ، وعظيم الإحسان ، عند اللّه . .

قوله تعالى .

« فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

هو دعوة إلى العمل ، وإلى السعى إليه ، كما سعى المؤمنون إلى الصلاة . .

فالسعى إلى العمل ، أداء لحقّ النفس ، وحقّ الأهل والولد ، كما أن السعى إلى الصلاة أداء لحق اللّه سبحانه وتعالى ، وكلا الحقّين واجب الأداء ، فمن قصّر فى أحدهما ، حوسب عليه حساب المقصّرين .

وفى قوله تعالى : « فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ » دعوة إلى أن يملأ المسلمون وجوه الأرض ، سعيا وعملا ، وأن يأخذوا بكل ما يمكّن لهم منها ، ويقيم لهم فيها المقام الكريم ، وألا يقصروا جهدهم على جانب منها ،

(88/764)

أو فى ميدان من ميادينها ، بل ينبغى أن يكون لهم فى كل ميدان مجال ، وفى كل موقع عمل . .

وفى الدعوة إلى الانتشار فى الأرض بعد الاجتماع بين يدى اللّه فى الصلاة. فى هذا جمع بين العبادة والعمل ، وبين ذكر اللّه والسعى فى الأرض . . فقد جاءت الدعوة من اللّه سبحانه لصلاة الجمعة ، موجهة إلى من هم مشغولون بالعمل ، ساعون لطلب الرزق ، وإن كانت الدعوة عامة إلى كل من تجب عليه صلاة الجمعة . . ثم جاء الأمر إلى هؤلاء الذين حضروا الصلاة. أن ينتشروا فى الأرض ، ويبتغوا من فضل اللّه ، بعد أن تزودوا بهذا الزاد

الطيب من ذكر اللّه ، وبذلك يستقيم لهم الطريق ، وتفتح لهم أبواب الرزق الطيب المبارك .

وفى قوله تعالى : « وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . إشارة إلى هؤلاء المنطلقين للعمل ، الساعين إلى الابتغاء من فضل اللّه ، أن يذكروا اللّه دائما ، وأن يستحضروا جلاله وعظمته ، فى كل حال ، لا فى وقت الصلاة . . ففى ذلك فلاح أي فلاح ، حيث يجد الذاكر للّه سبحانه وتعالى ، حارسا يحرسه من وساوس الشيطان ، وأهواء النفس ، فلا يتعثر ، ولا ينحرف ، ولا يزلّ .

قوله تعالى : « وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » .

اللهو : ما يشغل الإنسان من هزل الأمور عن جدّها . . والانفضاض : التفرّق فى عجلة ، وفى غير نظام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 14 صـ 953.951 ﴾

(89/764)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

هذه الآيات هي المقصود من السورة وما قبلها مقدمات وتوطئات لها كما ذكرناه آنفاً .

وقد تقدم ما حكاه "الكشاف" من أن اليهود افتخروا على المسلمين بالسبت فشرع الله للمسلمين الجمعة .

فهذا وجه اتصال هذه الآية بالآيات الأربع التي قبلها فكن لهذه الآية تمهيداً وتوطئة .

اللام في قوله : ﴿ للصلاة ﴾ لام التعليل ، أي نادى مناد لأجل الصلاة من يوم الجمعة ، فعلم أن النداء هنا هو أذان الصلاة .

والجمعة بضم الجيم وضم الميم في لغة جمهور العرب وهو لغة أهل الحجاز .

وبنو عُقَيْل بسكون الميم .

والتعريف في ﴿ الصلاة ﴾ تعريف العهد وهي الصلاة المعروفة الخاصة بيوم الجمعة .

وقد ثبتت شرعاً بالتواتر ثم تقررت بهذه الآية فصار دليل وجوبها في الكتاب والسنة المتواترة وإجماع الأمة .

وكانت صلاةُ الجمعة مشروعة من أول أيام الهجرة .

رُوي عن ابن سيرين أن الأنصار جمّعوا الجمعة قبل أن يقدمَ النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قالوا : إن لليهود يوماً يجتمعون فيه وللنصارى يوم مثل ذلك فتعالَوا فلنجتمع حتى نجعل يوماً لنا نذكر الله ونصلي فيه .

وقالوا : إن لليهود السبت وللنصارى الأحد فاجعلوه يوم العَروبة .

فاجتمعوا إلى أسعدَ بنِ زرُارَةَ فصلى بهم يومئذٍ ركعتين وذكَّرهم .

وروى البيهقي عن الزهري أن مُصْعَب بن عُمير كان أول من جَمَّع الجمعة بالمدينة قبل أن يقدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتعين أن يكون ذلك قد عَلم به النبي صلى الله عليه وسلم ولعلهم بلغهم عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثُ فضل يوم الجمعة وأنه يوم المسلمين .

(90/764)

فمشروعية صلاة الجمعة والتجميع فيه إجابة من الله تعالى رغبة المسلمين مثل إجابته رغبة النبي صلى الله عليه وسلم استقبال الكعبة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 144] .

وأما أول جمعة جمَّعها النبي صلى الله عليه وسلم فقال أهل السِيرَ : كانت في اليوم الخامس للهجرة لأن رسول الله قدم المدينة يومَ الاثنين لاثنتيْ عشرةَ ليلةً خلتْ من ربيع الأول فأقام بقُبَاء ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة فأدركه وقتُ الجُمعة في بطن واد لبني سَالم بنِ عوف كان لهم فيه مسجد ، فجمّع بهم في ذلك المسجد ، وخطب فيه أول خطبة خطبها

بالمدينة وهي طويلة ذكر نصها القرطبي في "تفسيره" .

وقولهم : "فأدركه وقت الجمعة" ، يدل على أن صلاة الجمعة كانت مشروعة يومئذٍ وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان عازماً أن يصليها بالمدينة فضاق عليه الوقت فأداها في مسجد بني سالم ، ثم صلّى الجمعة القابلة في مسجده بالمدينة وكانت جمعة المسجد النبوي بالمدينة الثانيةَ بالأخبار الصحيحة .

وأول جُمعة جُمِّعت في مسجد من مساجد بلاد الإِسلام بعدَ المدينة كانت في مسجد جُؤَاثاء من بلاد البحرين وهي مدينة الخَطّ قرية لعبد القيس .

ولما ارتدت العرب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ثبت أهل جُؤَاثاء على الإِسلام .

وتقرر أن يوم الجمعة اليوم السابع من أيام الأسبوع في الإِسلام وهو الذي كان يسمّى في الجاهلية عَروبَة .

قال بعض الأيمة : ولا تدخل عليه اللام .

قال السهيلي : معنى العَروبة الراحة فيما بلغني عن بعض أهل العلم اهـ .

قلت وذلك مروي عن ثعلب ، وهو قبل يوم السبت وقد كان يوم السبت عيدَ الأسبوع عند اليهود وهو آخر أيام الأسبوع .

وقد فرضت عليهم الراحة فيه عن الشغل بنص التوراة فكانوا يبتدئون عدد أيام الأسبوع من يوم الأحد وهو الموالي للسبت وتبعهم العرب في ذلك لأسباب غير معروفة ولذلك سمّى العرب القدماءُ يوم الأحد أولَ.

فأيام الأسبوع عند العرب في القديم هي: أَوَّلُ، أَهونُ جُبَار، (كغُراب وكِتاب)، دُبار (كذلك)، مُؤنِس (مهموزاً)، عَروبة، شِيار (بشين معجمة مكسورة بعدها تحتية مخففة).

ثم أحدثوا أسماءَ لهذه الأيام هي: الأحد، الإثنين، الثُّلاثاء بفتح المثلثة الأولى وبضمها، الإِرْبِعاء بكسر الهمزة وكسر الموحدة، الخميس، عَروبة أو الجمعة في قول بعضهم السَّبْت.

وأصل السبت: القطع، سمي سبتاً عند الإِسرائيليين لأنهم يقطعون فيه العمل، وشاع ذلك الاسم عند العرب.

وسمّوا الأيام الأربعة بعدهُ بأسماء مشتقة عن أسماء العدد على ترتيبها وليس في التوراة ذكر أسماء للأيام.

وفي سفر التكوين منها "ذُكرت أيامُ بدء الخلق بأعدادها أول وثانٍ" الخ، وأن الله لم يخلق شيئاً في اليوم الذي بعد اليوم السادس.

وسمتْه التوراة سَبْتاً ، قال السهيلي : قيل أول من سَمى يوم عَروبة الجمعةَ كَعبُ بن لؤَي جدُّ أبي قُصي .

وكان قريش يجتمعون فيه إلى كعب قال : وفي قول بعضهم .

لم يسم يوم عروبة يوم الجمعة إلا مذ جاء الإِسلام .

جعل الله يوم الجمعة للمسلمين عيدَ الأُسبوع فشرع لهم اجتماع أهل البلد في المسجد وسماعَ الخطبة ليعلَّموا ما يهمهم في إقامة شؤون دينهم وإصلاحهم .

قال القفّال : ما جعل الله الناس أشرف العالم السفلي لم يُخْففِ عظم المنة وجلالة قدر موهبته لهم فأمرهم بالشكر على هذه الكرامة في يوم من الأيام السبعة ليكون في اجتماعهم في ذلك اليوم تنبيه على عظم ما أنعم الله به عليهم .

ولكل أهل ملةٍ معروفة يومٌ من الأسبوع معظم ، فلليهود يوم السبت وللنصارى الأحد وللمسلمين يوم الجمعة .

(92/764)

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " نحن الآخِرون " ، أي آخر الدنيا السابقون يوم القيامة (يوم القيامة يتعلق ب"السابقون") .

بيدَ أنهم (أي اليهود والنصارى) أوتوا الكتاب من قبلنا ثم كان هذا اليومَ الذي اختلفوا فيه فهدَانَا الله إليه ، فالناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد .

ولما جُعل يوم الجمعة يوم شكر وتعظيم نعمة احتيج فيه إلى الاجتماع الذي تقع به شهرته فجُمّعت الجماعات لذلك ، واحتيج فيه إلى الخطبة تذكيراً بالنعمة وحثّاً على استدامتها .

ولما كان مدار التعظيم إنما هو على الصلاة جعلت الصلاة لهذا اليوم وسط النهار ليتم الاجتماع ولم تُجْز هذه الصلاة إلا في مسجد واحد ليكون أدعى الاجتماع أ هـ .

كلام القفال .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم " والنصارى بعد غد " ، إشارة إلى ما عمله النصارى بعد المسيح وبعدَ الحواريين من تعويض يوم السبت بيوم الأحد لأنهم زعموا أن يومَ الأحد فيه قام عيسى من قبره .

فعوضوا الأحد عن يوم السبت بأمر من قُسطنطين سلطانِ الروم في سنة 321 المسيحي .

وصار دِيناً لهم بأمر أحبارهم .

وصلاة الجمعة هي صلاة ظُهرِ يوم الجمعة ، وليست صلاةً زائدة على الصلوات الخمس فأُسقط من صلاة الظهر ركعتان لأجْل الخطبتين .

روي عن عمر بن الخطاب أنه قال : وإنما قُصِّرت الجمعة لأجل الخطبة .

وأحسب أن ذلك تخفيف على الناس إذ وجبت عليهم خطبتان مع الصلاة فكانت كل خطبة بمنزلة ركعةٍ وهذا سبب الجلوس بين الخطبتين للإيماء إلى أنهما قائمتان مقام الركعتين ولذلك كان الجلوس خفيفاً .

غير أن الخطبتين لم تعطيا أحكام الركعتين فلا يضر فوات إحداهما أو فواتهما معاً ولا يجب على المسبوق تعويضهما ولا سجودٌ لنقصهما عند جمهور فقهاء الأمصار ، روي عن عطاء ومجاهد وطاووس : أن من فاتته الخطبة يوم الجمعة صلى أربعاً صلاة الظهر .

(93/764)

وعن عطاء : أن من أدرك ركعة من صلاة الجمعة أضاف إليها ثلاث ركعات وهو أراد إن فاتته الخطبة وركعة من صلاة الجمعة .

وجعلت القراءة في الصلاة جهراً مع أن شأن صلوات النهار إسرار القراءة لفائدة إسماع الناس سُوراً من القرآن كما أسمِعوا الخطبة فكانت صلاةَ إرشاد لأهل البلد في يوم من كل أسبوع .

والإجماع على أن صلاة الجمعة قائمة مقام صلاة الظهر في يوم الجمعة فمن صلاها لا يصلي معها ظهراً فأما من لم يصلِها لعذر أو لغيره فيجب عليه أن يصلي الظهر .

ورأيت في الجامع الأموي في دمشق قَام إمام يصلي بجماعة ظُهراً بعد الفراغ من صلاة الجمعة وذلك بدعة .

وإنما اختلف الأيمة في أصل الفرض في وقت الظهر يوم الجمعة فقال مالك والشافعي في آخر قوليه وأحمد وزُفَر من أصحاب أبي حنيفة : صلاة الجمعة المعروفة فرضُ وقت الزوال في يوم الجمعة وصلاة الظهر في ذلك اليوم لا تكون إلا بَدلاً عن صلاة الجمعة ، أي لمن لم يصل الجمعة لعذر ونحوه .

وقال أبو حنيفة والشافعي في أول قوليه (المرجوع عنه) وأبو يوسف ومحمدٌ في رواية : الفرضُ بالأصل هو الظهر وصلاة الجمعة بَدل عن الظهر ، وهو الذي صححه فقهاء الحنفية .

وقال محمد في رواية عنه : الفرض إحدى الصلاتين من غير تعيين والتعيينُ للمكلف فأشبه الواجبَ المخير (لأن الواجب المخير لا يأثم فيه فاعل أحد الأمرين وتارك الجمعة بدون عذر آثم) .

قالوا : تظهر فائدة الخلاف في حُرَ مقيم صلّى الظهر في أول الوقت ؛ فقال أبو حنيفة وأصحابه : له صلاة الظهر مطلقاً حتى لو خرج بعد أن صلّى الظهرَ أو لم يخرج لم يبطل فرضُه ، لكن عند أبي حنيفة يبطل ظُهره بمجرد السعي مطلقاً وعند صاحبيه لا يبطل ظُهره إلا إذا أدرك الجمعة .

وقال مالك والشافعي : لا يجوز أن يصلّي الظهر يوم الجمعة سواء أدرك الجمعةَ أم لا ، خرج إليها أم لا (يعني فإن أدرك الجمعة فالأمرُ ظاهر وإن لم يدركها وجب عليه أن يصلي ظهراً آخر) .

(94/764)

والنداء للصلاة : الأذان المعروف وهو أذان الظهر ورد في "الصحيح" عن السائب بن يزيد قال : كان النداء يوم الجمعة إذا جلس الإِمام على المنبر على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعُمر .

قال السائب بن يزيد : فلما كان عثمان وكثُر الناس بالمدينة زاد أذاناً على الزوراء (الزوراء موضع بسوق المدينة) .

وربما وصف في بعض الرّوايات بالأذان الثاني .

ومعنى كونه ثانياً أنه أذانٌ مكرِّر للأذان الأصلي فهو ثان في المشروعية ولا يريد أنه يؤذن به بعد الفراغ من الأذان الذي يؤذن به وقت جلوس الإِمام على المنبر ، أي يؤذن به في باب المسجد ، إذْ لم يكن للناس يومئذٍ صومعة ، وربما وقع في بعض الروايات وصفه بالنداء الثالث وإنما يُعنَى بذلك أنه ثالث بضميمه الأذان الأول .

ولا يراد أن الناس يؤذنون أذانين في المسجد وإنما زاده عثمان ليُسمعَ النداءُ من في أطراف المدينة ، وربما سموه الأذان الأول .

والذي يظهر من تحقيق الروايات أن هذا الأذان الثاني يؤذّن به عقب الأذان الأول ، لأن المقصود حضور الناس للصلاة في وقت واحد ووقع في بعض عبارات الروايات والرواة أنه كان يؤذن بأذان الزوراء أولاً ثم يخرج الإمام فيؤذن بالأذان بَين يديه .

قال ابن العربي في "العارضة" : "لما كثر الناس في زمن عثمان زاد النداءَ على الزوراء ليشعر الناس بالوقت فيأخذوا بالإقبال إلى الجمعة ثم يخرج عثمان فإذا جلس على المنبر أُذّن الثاني الذي كان أولاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخطب .

ثم يؤذَّن الثالث يعني به الإقامة" أ هـ .

وقال في "الأحكام" : "وسمّاه في الحديث (أي حديثِ السائب بن يزيد) ثالثاً لأنه أضافه إلى الإقامة فجعله ثالثَ الإقامة ، (أي لأنه أحدث بعد أن كانت الإقامة مشروعة وسمّى الإقامة أذاناً مشاكلة أو لأنها إيذان بالدخول في الصلاة) كما قال النبي صلى الله عليه وسلم "بينَ كل أذانَيْن صلاةٌ لمن شاء "

يعني بين الأذان والإقامة ، فتوهم الناس أنه أذانٌ أصْليّ فجعلوا الأذانات ثلاثة فكان وهَماً . ثم جمعوهم في وقت واحد فكان وهَماً على وهَم أ هـ .

فتوهم كثير من أهل الأمصار أن الأذان لصلاة الجمعة ثلاث مرات لهذا تراهم يؤذنون في جوامع تونس ثلاثة أذانات وهو بدعة .

قال ابن العربي في "العارضة" : فأما بالمَغْرب (أي بلاد المغرب) فيؤذن ثلاثة من المؤذنين لجهل المفتين قال في "الرسالة" : "وهذا الأذان الثاني أحدثه بنو أمية" فوصفه بالثاني وهو التحقيق ، ولكنه نسبه إلى بني أمية لعدم ثبوت أن الذي زاده عثمان ، ورواه البخاري وأهل السنن عن السائب بن يزيد ولم يروه مسلم ولا مالك في "الموطأ" .

والسبب في نسبته إلى بني أمية : أن علي بن أبي طالب لما كان بالكوفة لم يُؤذّن للجمعة إلا أذاناً واحداً كما كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وألغى الأذان الذي جعله عثمان بالمدينة .

فلعل الذي أرجع الأذان الثاني بعضُ خلفاء بني أمية قال مالك في "المجموعة" : إن هشام بن عبد الملك أحدث أذاناً ثانياً بين يدَيه في المسجد .

واعلم أن النداء الذي نيط به الأمر بالسعي في هذه الآية هو النداء الأول ، وما كان النداء الثاني إلا تبليغاً للأذان لمن كان بعيداً فيجب على من سمعه السعي إلى الجمعة للعلم بأنه قد نُودي للجمعة .

والسعي : أصله الاشتداد في المشي .

وأطلق هنا على المشي بحرص وتوقي التأخر مجازاً .

و ﴿ ذِكر الله ﴾ فُسر بالصلاة وفُسر بالخطبة ، بهذا فسره سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير .

قال أبو بكر بن العربي "والصحيح أنه الجميع أوله الخطبة" .

قلت : وإيثار ﴿ ذكر الله ﴾ هنا دون أن يقول : إلى الصلاة ، كما قال : ﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾ لتتأتى إرادة الأمرين الخطبة والصلاة .

وفيه دليل على وجوب الخطبة في صلاة الجمعة وشرطيته على الجملة .

وتفصيل أحكام التخلف عن الخطبة ليست مساوية للتخلف عن الصلاة إلاّ في أصل حرمة التخلف عن حضور الخطبة بغير عذر .

(96/764)

وفي حديث "الموطأ" "فإذا خرج الإِمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر" ولا شك أن الإِمام إذا خرج ابتدأ بالخطبة فكانت الخطبة من الذكر وفي ذلك تفسير للفظ الذكر في هذه الآية .

وإنما نهوا عن البيع لأنه الذي يشغلهم ولأن سبب نزول الآية كان لترك فريق منهم الجمعة إقبالاً على عِيرِ تجارة وردت كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ﴾ [الجمعة: 11].

ومثل البيع كل ما يشغل عن السعي إلى الجمعة، وبعد كون البيع وما قيس عليه منهياً عنه فقد اختُلف في فسخ العقود التي انعقدت وقت الجمعة.

وهو مبني على الخلاف في اقتضاء النهي فساد المنهي عنه، ومذهب مالك أن النهي يقتضي الفساد إلا لدليل.

وقول مالك في "المدونة": إن البيع الواقع في وقت صلاة الجمعة بين من تجب عليهم الجمعة يفسخ.

وقال الشافعي: لا يفسخ.

وجعله كالصلاة في الأرض المغصوبة وهو قول أبي حنيفة أيضاً.

وأما النكاح المعقود في وقت الجمعة: ففي "العتيبة" عن ابن القاسم: لا يفسخ.

ولعله اقتصر على ما ورد النهي عنه في القرآن ولم ير القياس موجباً لفسخ المقيس.

وكذلك قال أئمة المالكية: لا تفسخ الشركة والهبة والصدقة الواقعة في وقت الجمعة وعللوا ذلك بندرة وقوع أمثالها بخلاف البيع.

وخطاب الآية جميعَ المؤمنين فدل على أن الجمعة واجبة على الأعيان.

وشذ قوم قالوا : إنها واجبة على الكفاية قال ابن الفرس : ونسب إلى بعض الشافعية وخطاب القرآن الذين آمنوا عام خصصته السنة بعدم وجوب الجمعة على النساء والعبيد والمسافر إذا حل بقرية الجمعة ومن لا يستطيع السعي إليها .

و ﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ من يوم الجمعة ﴾ تبعيضية فإن يوم الجمعة زمان تقع فيه أعمال منها الصلاة المعهودة فيه ، فنزّل ما يقع في الزمان بمنزلة أجزاء الشيء .

ويجوز كون ﴿ مِن ﴾ للظرفية مثل التي في قوله تعالى : ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ [فاطر : 40] ، أي فيها من المخلوقات الأرضية .

(97/764)

والإِشارة بـ ﴿ ذلكم ﴾ إلى المذكور ، أي ما ذُكر من أمر بالسعي إليها ، وأمر بترك البيع حينئذٍ ، أي ذلك خير لكم مما يحصل لكم من البيوعات .

فلفظ ﴿ خير ﴾ اسم تفضيل أصله : أخير ، حذفت همزته لكثرة الاستعمال .

والمفضل عليه محذوف لدلالة الكلام عليه .

والمفضل : الصلاة ، أي ثوابها .

والمفضل عليه : منافع البيع للبائع والمشتري .

وإنما أعقب بقوله تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ تنبيهاً على أن لهم سعة من النهار يجعلونها للبيع ونحوه من ابتغاء أسباب المعاش فلا يأخذوا ذلك من وقت الصلاة ، وذكر الله .

والأمر في ﴿ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ للإباحة .

والمراد بـ ﴿ فضل الله ﴾ : اكتساب المال والرزق .

وأما قوله : ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ فهو احتراس من الانصباب في أشغال الدنيا انصباباً ينسي ذكر الله ، أو يشغل عن الصلوات فإن الفلاح في الإقبال على مرضاة الله تعالى .

وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11)

عطف على جملة ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ [الجمعة : 9] الآية .

عُطف التوبيخ على ترك المأمور به بعد ذكر الأمر وسُلكت في المعطوفة طريقة الالتفات لخطاب النبي صلى الله عليه وسلم إيذاناً بأنهم أحرياء أن يصرف للخطاب عنهم فحرموا من عز الحضور .

وأخبر عنهم بحال الغائبين ، وفيه تعريض بالتوبيخ .

ومقتضى الظاهر أن يقال : وإذا رأيتم تجارة أو لهواً فلا تنفضّوا إليها .

ومن مقتضيات تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر هنا أن يكون هذا التوبيخ غير شامل لجميع المؤمنين فإن نفراً منهم بَقُوا مع النبي صلى الله عليه وسلم حين خطبته ولم يخرجوا للتجارة ولا للهو.

(98/764)

وفي "الصحيح" عن جابر بن عبد الله قال: "بينما نحن نصلّي مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب يوم الجمعة إذْ أقبلتْ عيرٌ من الشام تحمل طعاماً فانفتل الناس إليها حتى لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم".

وفي رواية: وفيهم أبو بكر وعمر، فأنزل الله فيهم هذه الآية التي في الجمعة ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ﴾ أهـ.

وقد ذكروا في روايات أخرى أنه بقي مع النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمان بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد، وبلال، وعبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وجابر بن عبد الله، فهؤلاء أربعة عشر.

وذكر الدارقطني في حديث جابر: "أنه قال ليس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا

أربعون رجلاً" .

وعن مجاهد ومقاتل : "كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب فقدم دِحية بن خليفة الكلبي بتجارة فتلقاه أهله بالدفوف فخرج الناس" .

وفي رواية "أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد فقدم دحية بتجارة من زيت الشام" .

وفي رواية "وطعام وغير ذلك فخرج الناس من المسجد خشية أن يُسبقوا إلى ذلك" .

وقال جابر بن عبد الله "كانت الجواري إذا نَكحن يمرّرن بالمزامير والطَّبْل فانفضّوا إليها" ، فلذلك قال الله تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ﴾ ، فقد قيل إن ذلك تكرر منهم ثلاث مرات ، فلا شك أن خروجهم كان تارة لأجل مجيء العِير وتارة لحضور اللهو .

وروي أن العِير نزلت بموضع يقال له : أحجار الزيت فتوهم الراوي فقال : بتجارة الزيت .

وضمير ﴿ إليها ﴾ عائد إلى التجارة لأنها أهم عندهم من اللهو ولأن الحدث الذي نزلت الآية عنده هو مجيء عِير دحية من الشام .

واكتفى به عن ضمير اللهو كما في قول قيس بن الخطيم ، أو عمرو بن الحارث بن امرىء القيس:

نحن بما عندنا وأنت بما . . .

عندك راضض والرأيُ مختلف

ولعل التقسيم الذي أفادته ﴿ أو ﴾ في قوله : ﴿ أو لهواً ﴾ تقسيم لأحوال المنفضّين إذ يكون بعضهم من ذوي العائلات خرجوا ليَمْتَاروا لأهلهم ، وبعضهم من الشباب لا همة لهم في الميرة ولكن أحبوا حضور اللهو .

و﴿ إذا ﴾ ظرف للزمان الماضي مجرد عن معنى الشرط لأن هذا الانفضاض مضى .

وليس المراد أنهم سيعودون إليه بعد ما نزل هذا التوبيخ وما قبله من الأمر والتحريض .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ﴾ [النساء : 83] وقوله : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا ﴾ [التوبة : 92] الآية .

والانفضاض : مطاوع فَضَّه إذا فرقه ، وغلب إطلاقه على غير معنى المطاوعة ، أي بمعنى مطلق كما تفرق .

قال تعالى : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا ﴾ [المنافقون : 7] .

وقوله: ﴿ أو لهواً ﴾ فيه للتقسيم، أي منهم من انفضّ لأجل التجارة، ومنهم من انفضّ لأجل اللهو، وتأنيث الضمير في قوله: ﴿ إليها ﴾ تغليب للفظ (تجارة) لأن التجارة كانت الداعي الأقوى لانفضاضهم.

وجملة ﴿ وتركوك قائماً ﴾ تفظيع لفعلهم إذ فرطوا في سماع وعظ النبي صلى الله عليه وسلم أي تركوك قائماً على المنبر.

وذلك في خطبة الجمعة، والظاهر أنها جملة حالية، أي تركوك في حال الموعظة والإرشاد فأضاعوا علماً عظيماً بانفضاضهم إلى التجارة واللهو.

وهذه الآية تدل على وجوب حضور الخطبة في صلاة الجمعة إذ لم يقل: وتركوا الصلاة.

وأمر الله نبيئه صلى الله عليه وسلم أن يعظهم بأن ما عند الله من الثواب على حضور الجمعة خير من فائدة التجارة ولذة اللهو.

وكذلك ما أعد الله من الرزق للذين يؤثرون طاعة الله على ما يشغل عنها من وسائل الارتزاق جزاء لهم على إيثارهم جزاء في الدنيا قبل جزاء الآخرة، فرب رزق لم ينتفع به الحريص عليه وإن كان كثيراً، وربّ رزق قليل ينتفع به صاحبه ويعود عليه بصلاح، قال

تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : 97] .

وقال حكاية عن خطاب نوح قومه ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ [نوح : 10 12] .

وذيل الكلام بقوله : ﴿ والله خير الرازقين ﴾ لأن الله يرزق الرزق لمن يرضى عنه سليماً من الأكدار والآثام ، ولأنه يرزق خير الدنيا وخير الآخرة ، وليس غير الله قادراً على ذلك ، والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله وهو العالم بالسرائر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(101/764)

وقال الشيخ الصابونى

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ﴾

سورة الجمعة

[1] صلاة الجمعة وأحكامها

التحليل اللفظي

﴿ نودي ﴾ : النداء : الدعاء بأرفع الصوت تقول : ناديته نداء ومناداة ، وفي الحديث " فإنه أندى صوتا منك " أي أحسن وأعذب ، وقيل : أرفع وأعلى ، والمراد بالنداء هنا : الأذان والإعلام لصلاة الجمعة .

﴿ الجمعة ﴾ : هو اليوم المعروف ، وهو يوم عيد المسلمين الأسبوعي قال الفراء : يقال (الجمعة) بسكون الميم ، و (الجمعة) بضم الميم ، و (الجمعة) بفتح الميم فيكون صفة اليوم ، أي تجمع الناس ، كما يقال : ضحكة للذي يضحك الناس ، ففيها ثلاث لغات .

والأفصح الأشهر (الجمعة) بضم الميم ، قال ابن عباس : نزل القرآن بالتثقيل والتفخيم فاقرؤها جمعة .

وقد صار يوم الجمعة علما على اليوم المعروف من أيام الأسبوع ، وسميت جمعة لاجتماع الناس فيها للصلاة ، وكان العرب تسمي يوم الجمعة (عروبة) وأول من سماها جمعة (كعب بن لؤي) .

قال السهيلي : ومعنى العروبة : الرحمة فيما بلغنا عن بعض أهل العلم .

﴿ فاسعوا ﴾ : السعي : العدو في المشي والإسراع فيه ، والمراد منه في الآية : امشوا إلى الصلاة بدون إفراط في السرعة لقوله عليه السلام : " إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وأنتم تمشون ، وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا "

.

قال الفراء : المضي ، والسعي ، والذهاب ، بمعنى واحد واحتج بقولهم : هو يسعى في البلاد يطلب فضل الله ، معناه يمضي بجد واجتهاد ، وليس معناه : العدو والركض .

واحتج أبو عبيدة : بقول الشاعر :

أسعى على جل بني مالك . . . كل امرئ في شأنه ساعي

وكان ابن مسعود : يقرؤها : (فامضوا إلى ذكر الله) ويقول : "لو كانت من السعي لسعيت حتى يسقط ردائي" .

قال القرطبي : وقراءة ابن مسعود تفسير منه ، لا قراءة قرآن منزل ، وجائز قراءة القرآن بالتفسير ، في معرض التفسير .

﴿ ذكر الله ﴾ : المراد بذكر الله صلاة الجمعة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاوة فانتشروا في الأرض ﴾ وقيل : المراد به الخطبة .

والصحيح الراجح : أن المراد به (الصلاة ، والخطبة) جميعا لاشتمالهما على ذكر الله .

﴿ وذروا البيع ﴾ : أي اتركوا البيع ، والمعاملة ، وسائر أمور التجارة والأعمال .

قال الألوسي : أي اتركوا المعاملة ، فيعم البيع ، والشراء ، والإجارة وغيرها من المعاملات .

وقال القرطبي : وخص البيع لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق .

﴿ قضيت الصلاوة ﴾ : أي أديتم الصلاة وفرغتم منها ، يقال : قضى الرجل عمله أي أداه ومنه قوله تعالى : ﴿ فإذا قضيتم مناسككم ﴾ [البقرة : 200] أي أديتموها ، وقضى دينه أي وفاه ، وليس من قضاء الفائتة في الصلاة ، وقد استدل الفقهاء بهذه الآية الكريمة على أن لفظ (القضاء) يطلق على (الأداء) وهو استدلال لطيف .

﴿ فانتشروا ﴾ : أي تفرقوا في الأرض لإقامة مصالحكم ، والانتشار معناه التفرق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فإذا طعمتم فانتشروا ﴾ [الأحزاب : 53] .

﴿ وابتغوا ﴾ : أي اطلبوا من الابتغاء بمعنى الطلب ، قال تعالى :

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ [القصص : 77] .

﴿ فضل الله ﴾ : المراد به الرزق والتجارة ، والكسب الحلال .

وعن ابن عباس : لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا ، وإنما هو عيادة المرضى ، وحضور الجنائز وزيارة الأخ في الله .

﴿ انفضوا إليها ﴾ : بمعنى انصرفوا إليها ، وتفرقوا عنك ، والانفضاض معناه : التفرق والانصراف ، قال ذو الرمة :

تكاد تنقض منهن الحيازيم . . . وأعاد الضمير إلى التجارة ، لأنها كانت أهم إليهم ، وقال الزجاج : المعنى : وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو لهوا انفضوا إليه ، فحذف الثاني لدلالة الأول عليه مثل قوله تعالى : ﴿ يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ [المؤمنون : 33] ، وكما قال الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما . . . عندك راض والرأي مختلف

﴿ وتركوك قآئما ﴾ : أي على المنبر تخطب ، قال بعض العلماء : وفيه دلالة على مشروعية القيام في الخطبة .

﴿ خير الرازقين ﴾ : لأنه يرزق من يؤمن به ويعبده ، ومن يكفر به ويجحده ، فهو يعطي من سأل سواء كان مؤمنا أم كافرا .

قال الطبري : ﴿ والله خير الرازقين ﴾ : يقول : والله خير رازق ، فإليه فارغبوا في طلب أرزاقكم ، وإياه فاسألوا أن يوسع عليكم من فضله دون غيره .

المعنى الإجمالي

يقول الله تعالى ما معناه : " يا أيها المؤمنون يا من صدقتم بالله ورسوله ، إذا سمعتم المؤذن ،

ينادي لصلاة الجمعة ويؤذن لها ، فاتركوا أعمالكم وأشغالكم ، ودعوا البيع والشراء وامضوا سراعا إلى ذكر الله وعبادته ، وإلى أداء صلاة الجمعة مع إخوانكم المسلمين ، فإن ذلك خير لكم وأفضل ، وأرجى لكم عند الله ، وأعود عليكم بالخيرات والبركات ، إن كنتم من أهل العلم والفهم السليم ، فإذا أديتم الصلاة وفرغتم منها ، فانبثوا في الأرض لقضاء مصالحكم ، واطلبوا من فضل الله ، فإن الرزق بيده ، وهو المنعم المتفضل ، الذي لا يخيب أمل السائل ، ولا يضيع عمل العامل ، ولا يمنع أحدا من فضله وإحسانه ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون .

(104/764)

ثم أخبر تعالى أن هناك فريقا من الناس يؤثرون الدنيا الفانية ، على الآخرة الباقية ، فإذا سمعوا بتجارة رابحة ، أو صفقة قادمة ، أو شيء من لهو الدنيا ، وزينتها وبهرجها ، تفرقوا عن رسول الله عليه السلام ، وانصرفوا إلى متاع الحياة ، وتركوا الرسول قائما يخطب ، ولو عقلوا لعلموا أن ما عند الله خير وأبقى ، وأن ثوابه خير من اللهو والتجارة ، وأن الله - جل وعلا - هو خير الرازقين ، يرزق من يشاء بغير حساب ، وما عند الله خير للأبرار .

وصدق الله حيث يقول : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا

أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : 96] . سبب النزول

أ- أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة قائما ، إذ قدمت عير إلى المدينة ، فابتدرها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلا أنا فيهم ، وأبو بكر وعمر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ﴾ إلى آخر السورة .

ب- وروى ابن كثير عن أبي يعلى بسنده إلى جابر بن عبد الله أنه قال : " بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فقدمت عير إلى المدينة ، فابتدرها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا اثنا عشر رجلا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادي نارا " ونزلت هذه الآية : ﴿ وإذا رأوا تجارة . . . ﴾ .

ج- وروى أبو حيان في تفسيره " البحر المحيط " في سبب هذا الانصراف أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء سعر ، فقدم (دحية) بعير تحمل ميرة وكان من عرفهم أن يدخل

بالطبل والمعازف من درى بها . فدخلت بها فانفضوا إلى رؤية ذلك وسماعه ، وتركوه صلى الله عليه وسلم قائما على المنبر في اثني عشر رجلا ، قال جابر : أنا أحدهم ، فنزلت ﴿ وإذا رأوا تجارة . . . ﴾ .

وجوه القراءات

1- قرأ الجمهور ﴿ من يوم الجمعة ﴾ بضم الجيم والميم ، وقرأ الزهري والأعمش بضم الجيم وسكون الميم ﴿ الجمعة ﴾ وهي لغة تميم ، وقرأ أبو العالية والنخعي ﴿ الجمعة ﴾ بضم الجيم مع فتح الميم ، وهي ثلاث لغات .

قال الزجاج : من قرأ بتسكين الميم فهو تخفيف الجمعة لثقل الضمتين ، وأما فتح الميم فمعناها : الذي يجمع الناس ، كما تقول : رجل لعنة : يكثر لعنة الناس ، وضحكة : يكثر الضحك .

2- قرأ الجمهور ﴿ انفضوا إليها ﴾ بضمير المؤنث عائدا إلى التجارة ، وقرأ ابن أبي عبلة بضمير المذكر ﴿ انفضوا إليه ﴾ عائدا إلى اللهو .

قال الأخفش : وكلاهما جائز عند العرب ، وقرئ ﴿ انفضوا إليهما ﴾ بضمير التثنية عائدا إلى التجارة واللهو .

3- قرأ الجمهور ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ وروي عن ابن مسعود وعمر أنهما كانا يقرآنها ﴿ فامضوا إلى ذكر الله ﴾ وقراءتهما محمولة على أنها وجه من وجوه التفسير ، لا أنها

قراءة من القراءات وقد مر معك كلام القرطبي فتدبره .

وجوه الإعراب

1- قوله تعالى : ﴿ إذا نودي للصلاوة من يوم الجمعة ﴾ (إذا) شرطية و (نودي) مبني للمجهول ، و (من) بمعنى (في) أي في يوم الجمعة كقوله تعالى : ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ [فاطر : 40] أي في الأرض .

وجوز أبو البقاء كون (من) للتبعيض .

وفي " الكشاف " : هي بيان ل (إذا) وتفسير له ، وقد اعترض عليه في هذا ، والصحيح أنها بمعنى (في) .

(106/764)

2- قوله تعالى : ﴿ واذكروا الله كثيرا . . . ﴾ . (اذكروا) فعل أمر مبني على حذف النون لأن مضارعه من الأفعال الخمسة ، والواو فاعل ، ولفظ الجلالة منصوب على التعظيم تأدبا ، و (كثيرا) صفة لمفعول مطلق محذوف تقديره : (ذكرا كثيرا) ، وقد صرح به في سورة الأحزاب في قوله تعالى :

﴿ يا أَيُّها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا * وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ [الأحزاب :

. [42 - 41

3- قوله تعالى : ﴿ وتركوك قآئما ﴾ ، قائما منصوب على الحال ، وصاحب الحال هو النبي صلى الله عليه وسلم المشار إليه ب (تركوك) أيها النبي حال كونك قائما .

4- قوله تعالى : ﴿ قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة . . . ﴾ (ما) اسم موصول مبتدأ ، و (خير) خبره ، والجملة (ما عند الله خير) مقول القول .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : يوم الجمعة كان يسمى في الجاهلية يوم (العروبة) . وأول من سماه جمعة (كعب بن لؤي) وروي في سبب تسميته أن أهل المدينة اجتمعوا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم ، لنا يوما نجتمع فيه فنذكر الله تعالى ، ونشكره ، فقالوا : يوم السبت لليهود ، ويوم الأحد للنصارى ، فاجعلوه يوم العروبة ، فاجتمعوا إلى (أسعد بن زرارة) فصلى بهم يومئذ ركعتين ، وذكرهم ، فسميت الجمعة حين اجتمعوا إليه ، فذبح لهم شاة فتغدوا وتعشوا منها ، فهي أول جمعة كانت في الإسلام .

اللطيفة الثانية : في التعبير بقوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ لطيفة وهي أنه ينبغي للمؤمن أن يقوم إلى صلاة الجمعة بجد ونشاط ، وعزيمة وهمة ، لأن لفظ (السعي) يفيد القصد والجد والعزة ، وليس المراد منه العدو في المشي فإن ذلك منهي عنه .

قال الحسن : " والله ما هو سعي على الأقدام ، ولكنه سعي بالقلوب وسعي بالنية ، وسعي بالرغبة ، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار " .

(107/764)

اللطيفة الثالثة : أطلق لفظ البيع (وذروا البيع) وقصد به جميع أنواع المعاملة من بيع ، وشراء ، وإجارة ، وغيرها من المعاملات فهو على سبيل المجاز المرسل .

قال أبو حيان : " وإنما ذكر البيع من بين سائر المحرمات ، لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق ، إذ يكثر الوافدون من القرى إلى الأمصار ويجتمعون للتجارة إذا تعالى النهار ، فأمروا بالبدار إلى تجارة الآخرة ، ونهوا عن تجارة الدنيا حتى الفراغ من الصلاة " .

اللطيف الرابعة : كان السلف الصالح يقتدون برسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع أفعاله وحركاته وسكناته ، حتى ولو لم يدركوا السر فيه ، وذلك من فرط حبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روي عن بعضهم أنه كان إذا صلى الجمعة خرج فدار في السوق ساعة ، ثم رجع إلى المسجد فصلى ما شاء الله تعالى أن يصلي ، فقيل له : لأي شيء تصنع هذا ؟ قال : إني رأيت سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم هكذا يصنع ، وتلا هذه الآية : ﴿ فإذا قضيت الصلاوة ﴾ .

اللطيفة الخامسة : كان عراك بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : " اللهم إني أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين " .

اللطيفة السادسة : في قوله تعالى : ﴿ واذكروا الله كثيرا ﴾ لطيفة وهي أن الله عز وجل أمر بالسعي في طلب الرزق ، والاشتغال بالتجارة ، ولما كان هذا قد يسوق الإنسان إلى الغفلة ، وربما دفعته الرغبة في جمع المال ، إلى الكذب ، والغش ، والاحتيال ، أمر المسلم أن يذكر الله تعالى ، ليعلم أن الدنيا ومتاعها فانية وأن الآخرة وما فيها باقية ، وأن ما عند الله خير وأبقى ، فلا تشغله تجارة الدنيا عن تجارة الآخرة كما قال تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ [النور : 37] وهذا هو السر في الأمر بذكر الله كثيرا فتدبره .

اللطيفة السابعة : الأصل في (إذا) أنها للاستقبال ، والآية الكريمة نزلت بعد تلك الحادثة وبعد انفضاض الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا فقد خرجت عن الاستقبال واستعملت في الماضي ، على حد قول القائل :

وندمان يزيد الكأس طيبا . . . سقيت (إذا) تغورت النجوم

ما ورد في فضائل يوم الجمعة

أ- يوم الجمعة أفضل الأيام وأشرفها على الاطلاق فقد روى مسلم في "صحيحة" عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة".

ب- وروى مالك في "الموطأ" عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أهبط من الجنة، وفيه تيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة، من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقا من الساعة، إلا الإنس والجن، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي، يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه".

ج- وروى أبو داود في "سننه" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي، قالوا يا رسول الله: كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ يعني (بليت) فقال صلى الله عليه وسلم: إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء".

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما هو الأذان الذي يجب السعي عنده ؟

دل قوله تعالى : ﴿ إذا نودي للصلاوة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ على وجوب السعي إلى المسجد ، وترك البيع والشراء ، وقد اختلف العلماء في الأذان الذي يجب السعي عنده .

1- قال بعض العلماء : المراد به الأذان الأول الذي هو على (المنارة) .

(109/764)

2- وقال آخرون : المراد به الأذان الذي بين يدي الخطيب إذا صعد الإمام المنبر .

حجة الفريق الأول :

أ- أن المراد من النداء هو الإعلام ، والسعي إنما يجب عند الإعلام ، وهو (الأذان الأول) على المنارة ، الذي زاده عثمان رضي الله عنه ، وذلك حين رأى كثرة الناس ، وتباعد مساكنهم عن المسجد ، فأمر بالتأذين الأول على دار له بالسوق ، يقال لها (الزوراء) وقد ثبت الأمر على ذلك من عهده إلى عصرنا هذا .

ب- واستدلوا بما رواه البخاري في " صحيحه " عن (السائب بن يزيد) رضي الله عنه أنه قال : (كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد النبي صلى الله

عليه وسلم وأبي بكر ، وعمر رضي الله عنهما ، فلما كان زمن عثمان رضي الله عنه وكثر الناس ، زاد النداء الثالث على الزوراء فثبت الأمر على ذلك) .

ج – وقالوا : السعي عند الأذان الثاني ، وقت صعود الخطيب المنبر ، يفوت على الناس سماع الخطبة التي م أجلها خفف الله تعالى الصلاة فجعلها ركعتين ، ولم تكن بالمسلمين حاجة إلى هذا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لقرب مساكنهم من المسجد ، ولحرصهم الشديد على أن يجيئوا من أول الوقت محافظة على أخذ الأحكام عن الرسول صلى الله عليه وسلم فكان النداء الذي بين يدي الخطيب يسمعهم فيحضرون سراعا ، ويدركون الخطبة من أولها لقرب المساكن من المسجد .

وهذا القول هو الظاهر المعتمد في مذهب الحنفية ، وقد نص عليه صاحب " الكنز " من أئمة فقهاء الحنفية فقال : " ويجب السعي وترك البيع بالأذان الأول لقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا إذا نودي للصلاوة ﴾ الآية وإنما اعتبر لحصول الإعلام به ، وهذا القول هو الصحيح في المذهب .

وقيل : العبرة للأذان الثاني ، الذي يكون بين يدي الخطيب على المنبر ، لأنه لم يكن في زمنه صلى الله عليه وسلم إلا هو – وهو ضعيف – لأنه لو اعتبر في وجوب السعي لم يتمكن من السنة القبلية ، ومن الاستماع ، بل ربما يخشى عليه فوات الجمعة انتهى .

حجة الفريق الثاني :

أ– الأذان الذي يجب فيه السعي وترك البيع ، هو (الأذان الثاني) الذي يكون بين يدي الخطيب ، لأنه هو الأذان الذي كان في زمنه صلى الله عليه وسلم ، وهو عليه السلام أحرص الناس على أن يؤدي المؤمنون الواجب عليهم في وقته ، فلو كان السعي واجبا قبل ذلك لبينه لهم ، ولجعل بين الأذان والخطبة زمنا يتسع لحضور الناس .

ب– ما روي عن ابن عمر والحسن في قوله تعالى : ﴿ إذا نودي للصلاوة من يوم الجمعة ﴾ قالا : " إذا خرج الإمام وأذن المؤذن فقد نودي للصلاة " .

قالوا : وهو التفسير المأثور فلا عبرة بغيره .

ج– وقالوا أيضا : إن المصلي يندب له أن يجيء مبكرا لفوائد جمة كما دلت على ذلك الأحاديث الكثيرة ، ولكن تحريم البيع والشراء والحكم بالإثم شيء ، وإدراك الأمر المندوب شيء آخر .

ثم إن السنة القبلية – على فرض أنها بقيت مطلوبة في الجمعة – فإنه لا يمكننا أن نوجب السعي قبل وقته لتحصيل سنة لم تثبت ، فيبقى النداء الذي يحرم عنده البيع هو (النداء

الثاني) الذي يكون عند صعود المنبر ، وهو الذي كان في زمنه عليه السلام .

وهذا المذهب هو رأي جمهور العلماء ، وقول عند فقهاء الحنفية ، ولعله يكون الأرجح والله تعالى أعلم .

الحكم الثاني : هل يفسخ البيع عند الآذان ؟

دل قوله تعالى : ﴿ وذروا البيع ﴾ على حرمة البيع والشراء وسائر المعاملات عند الأذان ، وقد اختلف العلماء في عقد البيع هل هو صحيح أم فاسد ؟

فقال بعضهم إنه فاسد لورود النهي ﴿ وذروا البيع ﴾ .

وقال الأكثرون إنه حرام ولكنه غير فاسد وهو يشبه الصلاة في الأرض المغصوبة تصح مع الكراهة .

(111/764)

قال القرطبي في تفسيره " الجامع لأحكام القرآن " : " وفي وقت التحريم قولان :

الأول : أنه من بعد الزوال إلى الفراغ من الصلاة . قاله الضحاك ، والحسن ، وعطاء .

الثاني : من وقت أذان الخطبة إلى وقت الصلاة ، قاله الشافعي .

قال : ومذهب مالك : أن يترك البيع إذا نودي للصلاة ، ويفسخ عنده ما وقع من البيع في ذلك

الوقت ، ولا يفسخ العتق ، والنكاح ، والطلاق وغيره ، إذا ليس من عادة الناس الاشتغال به كاشتغالهم بالبيع ، قالوا : وكذلك الشركة والهبة والصدقة نادر لا يفسخ .

قال ابن العربي : والصحيح فسخ الجميع ، لأن البيع إنما منع منه للاشتغال به ، فكل أمر يشغل عن الجمعة من العقود كلها فهو حرام شرعا . مفسوخ ردعا .

ورأى بعض العلماء البيع في الوقت المذكور جائزا ، وتأول النهي عنه ندبا ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ ، وهذا مذهب الشافعي فإن البيع عنده ينعقد ولا يفسخ .

وقال الزمخشري في تفسيره : إن عامة العلماء على أن ذلك لا يؤدي إلى فساد البيع ، قالوا : لأن البيع لم يحرم لعينه ، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب ، فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة ، والثوب المغصوب ، والوضوء بماء مغصوب ، وعن بعض الناس أنه فاسد .

قال القرطبي : والصحيح فساده ، وفسخه ، لقوله عليه الصلاة والسلام : "كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد " أي مردود ، والله أعلم .

الحكم الثالث : هل الخطبة شرط لصحة الجمعة ؟

دل قوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ على أن الخطبة شرط لصحة صلاة الجمعة ، لأن ذكر الله سواء قلنا إنه : (الموعظة) أو إنه (الموعظة والصلاة معا) يدخل فيه خطبة الجمعة ، فلا بد أن تكون شرطا لصحة الصلاة . ولأن صلاة الجمعة إنما خففت من أجل الخطبة وسماع الموعظة ، وعليه تكون الخطبة واجبة ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء .

غير أن فقهاء الحنفية قالوا : لا يشترط في الخطبة أن تكون مشتملة على ما يسمى (خطبة) عرفا ، لأن الله تعالى ذكر الذكر من غير تفصيل بين كونه طويلا ، أو قصيرا ، يسمى خطبة أو لا يسمى خطبة ، فكان الشرط هو الذكر مطلقا ، ويكفي فيه أقل ما يطلق عليه اسم الذكر ، غير أن المأثور عنه صلى الله عليه وسلم هو الذكر المسمى ب (الخطبة) والمواظبة عليه فكان ذلك واجبا أو سنة ، لا أنه الشرط الذي لا يجزئ غيره .

وفقهاء الشافعية والحنابلة : يشترطون أن يأتي الخطيب بخطبتين مستوفيتين لشروط خاصة منها : حمد الله ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقراءة آية من كتاب الله تعالى ، والوصية بتقوى الله تعالى .

وزاد الشافعية الدعاء للمؤمنين والمؤمنات .

وفقهاء المالكية : شرطوا في الخطبة شرطا واحدا وهي أن تكون مشتملة على تحذير أو تبشير مما يسمى في العرف موعظة وخطبة .

قال في " الروضة الندية " : " ثم اعلم أن الخطبة المشروعة هي ما كان يعتاده صلى الله عليه وسلم من ترغيب الناس وترهيبهم ، فهذا في الحقيقة روح الخطبة الذي لأجله شرعت ،

وأما اشتراط الحمد لله ، أو الصلاة على رسوله ، أو قراءة شيء من القرآن ، فجميعه خارج عن معظم المقصود من شرعية الخطبة ، واتفاق مثل ذلك في خطبته صلى الله عليه وسلم لا يدل على أنه مقصود متحتم ، وشرط لازم .

(113/764)

ولا يشك منصف أن معظم المقصود هو الوعظ دون ما يقع قبله من الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان عرف العرب المستمر أن أحدهم إذا أراد أن يقوم مقاما ، ويقول مقالا ، شرع بالثناء على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم – وما أحسن هذا وأولاه – ولكن ليس هو المقصود ، بل المقصود ما بعده ، ولو قال : إن من قام في محفل من المحافل خطيبا ، ليس له باعث على ذلك إلا أن يصدر منه الحمد ، والصلاة ، لما كان هذا مقبولا بل كل طبع سليم يمجه ويرده ، إذا تقرر هذا عرفت أن الوعظ في خطبة الجمعة هو الذي يساق إليه الحديث ، فإذا فعله الخطيب فقد فعل الأمر المشروع إلا أنه قدم الثناء على الله وعلى رسوله ، أو استطرد في وعظه القوارع القرآنية كان أتم وأحسن " .

الحكم الرابع : ما هو العدد الذي تنعقد به الجمعة ؟

لا خلاف بين الفقهاء أن الجماعة شرط من شروط صحة الجمعة ، لقوله عليه السلام : " الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة ، إلا أربعة : مملوك ، أو امرأة ، أو صبي ، أو مريض " .

ولأن التسمية تقتضي ذلك ، فلا يقال لمن صلى وحده إنه صلى الجمعة . فلا بد من الجماعة ، وقد اختلفوا في العدد الذي تنعقد به الجمعة إلى خمسة عشر قولا ذكرها الحافظ في " الفتح " .

والآية الكريمة لم تنص على عدد معين ، وكذلك السنة المطهرة لم يرد فيها نص صريح صحيح على العدد الذي تنعقد به ، ولهذا اختلف الفقهاء على أقوال عديدة :

أ- الحنفية قالوا : يكفي أربعة أحدهم الإمام ، وقيل : ثلاثة .

ب- الشافعية والحنابلة قالوا : لا بد من جمع غفير أقله أربعون .

ج- المالكية قالوا : لا يشترط عدد معين بل تشترط جماعة تسكن بهم قرية ، ويقع بينهم البيع ، ولا تنعقد بالثلاثة والأربعة ونحوهم .

قال الحافظ ابن حجر : ولعل هذا المذهب أرجح المذاهب من حيث الدليل .

وهناك أحكام أخرى تطلب من كتب الفروع ضربنا صفحا عنها لأن الآية الكريمة لا تدل عليها والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولا : الجمعة فريضة على المسلمين المكلفين بالشروط المعروفة .

ثانيا : وجوب السعي للاستماع إلى الخطبة وأداء فريضة الجمعة .

ثالثا : حرمة البيع والشراء وسائر المعاملات عند الأذان .

رابعا : جواز الاشتغال بأمور التجارة والمعاش قبل الصلاة وبعدها .

خامسا : الرزق بيد الله ومع ذلك ينبغي أن يأخذ الإنسان بأسباب الكسب .

سادسا : لا ينبغي للمؤمن أن تشغله تجارة الدنيا عن تجارة الآخرة .

خاتمة البحث :

حكمة التشريع

الصلاة صلة العبد بربه ، وعبادة تشد القلب ، وتقوي الإيمان فيه ، وهي إلى جانب هذا تزيد المجتمع ترابطا وتآلفا ، يلتقي فيها أفراده على الخير ، ويتعاونون على البر والتقوى ، وإذا كانت الصلوات الخمس في كل يوم وليلة مفروضة فقد يشغل المرء عن بعضها في شغله الدنيوي الذي يبعده عن المسجد ، أو يتساهل في عدم المجيء إليها ، لذلك فقد فرض الله صلاة الجمعة في كل أسبوع مرة واحدة ليسرع إلى الصلاة يستمع إلى كلام الله وحديث

المصطفى صلى الله عليه وسلم وموعظة الخطيب ، فيكون له زادا إيمانيا ، ويجتمع بإخوانه المؤمنين جميعا ، فيتفقد الغائب ، ويعين المحتاج ، ويعود المريض ، ويصالح المتخاصمين ، ويبذل نصحه للمقصرين . . . كما يتعلم الآداب الإسلامية في الاجتماع من السلام ، والاحترام ، والبشاشة التي تجعل المجتمع في سلام وأمان ، لهذا كله فرض الله سبحانه صلاة الجمعة على كل مسلم ، وأمره أن يسعى إليها ، وحثه على أدائها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روائع البيان حـ 2 صـ 569.586 ﴾

(115/764)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ الآية .

لا يخفى أن أصل مرجع الضمير هو الأحد الدائر بين التجارة واللهو لدلالة لفظة أو على ذلك ولكن هذا الضمير رجع إلى التجارة وحدها دون اللهو فبينه وبين مفسره بعض منافاة في الجملة .

والجواب أن التجارة أهم من اللهو وأقوى سببا في الانفضاض عن النبي صلى الله عليه وسلم

لأنهم انفضوا عنه من أجل العير ، واللهو كان من أجل قدومها مع أن اللغة العربية يجوز فيها رجوع الضمير لأحد المذكورين قبله .

أما في العطف فواضح لأن الضمير في الحقيقة راجع إلى الأحد الدائر الذي هو واحد لا بعينه .

كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾

وأما الواو فهو فيها كثير .

ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا ﴾ الآية – وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ – وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا ﴾ الآية – وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ الآية – ونظيره من كلام العرب قول نابغة ذبيان: –

وَقَدْ أَرَانِي وَنُعْماً لاهِيَيْنِ بِها

وَالدَّهْرُ وَالعَيْشُ لَمْ يَهْمُمْ بِإِمْرارِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 294 .

295 ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

أخرج ابن المنذر والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن عطاء بن السائب عن ميسرة أن هذه الآية مكتوبة في التوراة بسبعمائة آية ﴿ يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ أول سورة الجمعة .

قوله تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾ الآية .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾ الآية ، قال : كان هذا الحي من العرب أمة أمية ليس فيها كتاب يقرأونه فبعث الله فيهم محمداً رحمة وهدى يهديهم به .

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن المنذر وابن مردويه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب" .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾ قال : هو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يتلوا عليهم آياته ﴾ قال : القرآن ﴿ وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ قال : هو الشرك .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد

رضي الله عنه في قوله : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾ قال : العرب ﴿ وآخرين منهم لم يلحقوا بهم ﴾ قال : العجم .

وأخرج سعيد بن منصور والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن أبي هريرة قال : "كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم حين أنزلت سورة الجمعة فتلاها ، فلما بلغ ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قال ، له رجل : يا رسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فوضع يده على رأس سلمان الفارسي وقال : " والذي نفسي بيده لو كان الإِيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء " " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن الإِيمان بالثريا لناله رجال من أهل فارس " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساء يدخلون الجنة بغير حساب " ثم قرأ ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قال : من ردف الإسلام من الناس كلهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قال : هم التابعون .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ يعني من أسلم من الناس وعمل صالحاً من عربي وعجمي إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ قال : الدين .

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ﴾ قال : اليهود .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ﴾ قال : أمرهم أن يأخذوا بما فيها فلم يعملوا به .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ قال : كتباً لا يدري ما فيها ولا يدري ما هي يضرب الله لهذه الأمة أي وأنتم إن لم تعملوا بهذا الكتاب كان مثلكم كمثلهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ يحمل أسفاراً ﴾ قال : كتباً لا يعلم ما فيها ولا يعقلها .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ قال : يحمل كتباً على ظهره لا يدري ماذا عليه .

(118/764)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أسفاراً ﴾ قال : كتباً .

وأخرج الخطيب عن عطاء بن أبي رباح مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ أسفاراً ﴾ قال : كتباً والكتاب بالنبطية يسمى سفراً .

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كالحمار يحمل أسفاراً ، والذي يقول له أنصت ليست له جمعة " .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9)

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ إن زعمتم أنكم أولياء لله ﴾ قالوا : نحن أبناء الله واحباؤه ، وفي قوله : ﴿ ولا يتمنونه أبداً ، بما قدمت أيديهم ﴾ قال : عرفوا أن محمداً نبي الله فكتموه ، وقالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم ﴾ قال : إن سوء العمل يكره الموت شديداً .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن معمر قال : تلا قتادة ﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ قال : إن الله أذل ابن آدم بالموت لا أعلمه إلا رفعه .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ﴾ الآية .

أخرج سعيد بن منصور وابن مردويه " عن أبي هريرة قال : قلت يا نبي الله لأي شيء سمي يوم الجمعة ؟ قال : " لأن فيها جمعت طينة أبيكم آدم ، وفيها الصعقة والبعثة ، وفي آخر ثلاث ساعات منها ساعة من دعا فيها بدعوة استجاب له " " .

(119/764)

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد والنسائي وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " أتدري ما يوم الجمعة ؟ " قال : الله

ورسوله أعلم . قالها ثلاث مرات ، ثم قال في الثالثة : " هو اليوم الذي جمع فيه أبوكم آدم أفلا أحد ثكم عن يوم الجمعة لا يتطهر رجل فيحسن طهوره ، ويلبس أحسن ثيابه ، ويصيب من طيب أهله ، إن كان لهم طيب ، وإلا فالماء ثم يأتي المسجد فيجلس وينصت حتى يقضي الإِمام صلاته إلا كانت كفارة ما بين الجمعة ما اجتنبت الكبائر ، وذلك الدهر كله " " .

وأخرج مسلم والترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن ماجة وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن أبي لبابة بن عبد المنذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله ، وأعظم عند الله من يوم الفطر ويوم الأضحى ، وفيه خمس خصال : خلق الله فيه آدم ، وأهبط فيه إلى الأرض ، وفيه توفي الله آدم ، وفيه ساعة لا يسأل العبد فيها شيئاً إلا أعطاه الله ما لم يسأل حراماً ، وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك ولا أرض ولا سماء ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة أن تقوم فيه الساعة " .

وأخرج أحمد وابن مردويه عن سعد بن عبادة

" أن رجلاً من الأنصار أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أخبرنا عن يوم الجمعة ماذا فيه من الخير ؟ قال : " فيه خمس خصال : فيه خلق آدم ، وفيه أهبط آدم ، وفيه توفى

الله آدم ، وفيه ساعة لا يسأل الله شيئاً إلا آتاه إياه ما لم يسأل مأثماً أو قطيعة رحم ، وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا جبل ولا ريح إلا يشفقن من يوم الجمعة " " .

(120/764)

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال : سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول : " في سبعة أيام يوم اختاره الله على الأيام كلها يوم الجمعة ، فيه خلق الله السموات والأرض ، وفيه قضى الله خلقهن ، وفيه خلق الله الجنة والنار ، وفيه خلق آدم ، وفيه أهبطه من الجنة وتاب عليه ، وفيه تقوم الساعة ليس شيء من خلق إلا وهو يفزع من ذلك اليوم شفقة أن تقوم الساعة إلا الجن والانس " .

وأخرج ابن مردويه عن كعب الأحبار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يبعث الأيام يوم القيامة على هيئاتها ، ويبعث الجمعة زهراء منيرة لأهلها يحفون بها كالعروس يهدي إلى كريمها تضيء لهم يمشون في ضوئها ، ألوانها كالثلج بياضهم ، رياحهم تسطع كالمسك ، يخوضون في جبال الكافور ، ينظر إليهم الثقلان ما يطرفون تعجباً حتى يدخلوا الجنة ، لا يخالطهم أحد إلا المؤذنون المحتسبون " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سيد الأيام يوم الجمعة " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة والدارمي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن أوس بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه النفخة وفيه الصعقة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب قال : لم تطلع الشمس في يوم هو أعظم من يوم الجمعة إنها إذا طلعت فزع لها كل شيء إلا الثقلان اللذان عليهما الحساب والعذاب .

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب قال : إن يوم الجمعة لتفزع له الخلائق إلا الجن والإنس وأنه ليضاعف فيه الحسنة والسيئة ، وإنه ليوم القيامة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب قال : الحسنة تضاعف يوم الجمعة .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عمر قال : " نزل جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي يده شبه مرآة فيها نكتة سوداء ، فقال يا جبريل : ما هذه ؟ قال : هذه الجمعة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتاني جبريل وفي يده كالمرآة البيضاء فيها كالنكتة السوداء ، فقلت يا جبريل : ما هذه ؟ قال : هذه الجمعة ، قلت : وما الجمعة ؟ قال : لكم فيها خير ، قلت : وما لنا فيها ؟ قال : تكون عيداً لك ولقومك من بعدك ، وتكون اليهود والنصارى تبعاً لك . قلت : وما لنا فيها ؟ قال : لكم فيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها شيئاً من الدنيا والآخرة هو لكم قسم إلا أعطاه إياه ، وليس له قسم إلا ادخر له عنده ما هو أفضل منه ، أو يتعوّذ به من شر هو عليه مكتوب إلا صرف عنه من البلاء ما هو أعظم منه ، قلت له : وما هذه النكتة فيها ؟ قال : هي الساعة ، وهي تقوم يوم الجمعة ، وهو عندنا سيد الأيام ، ونحن ندعوه يوم القيامة ، يوم المزيد ، قلت : مم ذاك ؟ قال : لأن ربك اتخذ في الجنة وادياً من مسك أبيض ، فإذا كان يوم القيامة هبط من عليين على كرسيه ، ثم حف الكرسي بمنابر من ذهب مكللة بالجوهر ، ثم يجيء النبيون حتى يجلسوا عليها ، وينزل أهل الغرف حتى يجلسوا على ذلك الكثيب ، ثم يتجلى لهم ربهم تبارك وتعالى ثم يقول : سلوني أعطكم ، فيسألونه الرضا فيقول : رضاي أحلكم داري وأنا لكم كريم ، متى تسألوني أعطكم ، فيسألونه الرضا فيشهدهم أني قد رضيت عنهم ، فيفتح لهم ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ، وذلكم مقدار انصرافكم من يوم الجمعة ، ثم يرتفع ويرتفع معه النبيون والصديقون والشهداء ، ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم ، وهي درة بيضاء ليس فيها وصم ولا فصم ، أو درة حمراء

، أو زبرجدة خضراء فيها غرفها وأبوابها مطروزة ، وفيها أنهارها وثمارها متدلية ، قال : فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا إلى ربهم نظراً ، وليزدادوا منه كرامة " .

(122/764)

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن في الجمعة لساعة ما دعا الله فيها عبد مسلم بشيء إلا استجاب له " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " في الجمعة ساعة من النهار لا يسأل العبد فيها شيئاً إلا أعطي سؤله ، قيل : أي ساعة هي ؟ قال : هي أن تقام الصلاة إلى الانصراف فيها " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن يوم الجمعة مثل يوم عرفة ، تفتح فيه أبواب الرحمة ، وفيه ساعة لا يسأل الله العبد شيئاً إلا أعطاه ، قيل وأي ساعة ؟ قال : إذا أذن المؤذن لصلاة الغداة .

وأخرج ابن أبي شيبة من وجه آخر عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن يوم الجمعة مثل يوم عرفة ، وإن فيه لساعة تفتح أبواب الرحمة ، فقيل : أي ساعة ؟ قالت : حين ينادي

بالصلاة .

وأخرج ابن أبي شيبة من طريق عطاء عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم قالا : الساعة التي تذكر في الجمعة ، قال : فقلت : هي الساعة اختار الله لها أوفى فيها الصلاة ، قال : فمسح رأسي وبرك عليّ وأعجبه ما قلت .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي أمامة قال : إني لأرجو أن تكون الساعة التي في الجمعة إحدى هذه الساعات إذا أذن المؤذن أو جلس الإِمام على المنبر ، أو عند الإِقامة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن رضي الله عنه قال : هي عند زوال الشمس .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي قال : هي ما بين أن يحرم البيع إلى أن يحل .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي بردة قال : إن الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة حين يقوم الإِمام في الصلاة حتى ينصرف منها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عوف بن حصيرة في الساعة التي ترجى في الجمعة ما بين خروج الإِمام إلى أن تقضى الصلاة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن طاووس قال : إن الساعة التي ترجى في الجمعة بعد العصر .

وأخرج ابن أبي شيبة عن هلال بن يسار قال : قال رسول الله : " إن في الجمعة لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه ، فقال رجل : يا رسول الله ماذا أسأله ؟ قال : سل الله العافية في الدنيا والآخرة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سلمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر بما استطاع من طهوره وادهن من دهنه أو مس طيباً من بيته ، ثم راح فلم يفرق بين اثنين ، ثم صلى ما كتب الله له ، ثم أنصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه إلى الجمعة الأخرى " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن السائب بن يزيد قال : كان النداء الذي ذكر الله في القرآن يوم الجمعة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعامة خلافة عثمان أن ينادي المنادي إذا جلس الإمام على المنبر ، فلما تباعدت المساكن وكثر الناس أحدث النداء الأول ، فلم يعب الناس ذلك عليه ، وقد عابوا عليه حين أتم الصلاة بمنى ، قال : فكنا في زمان عمر نصلي ، فإذا خرج عمر وجلس على المنبر قطعنا الصلاة وتحدثنا ، فربما أقبل عمر على بعض من يليه فسألهم عن سوقهم وقد أمهم والمؤذن يؤذن ، فإذا سكت المؤذن قام عمر فتكلم ولم يتكلم حتى يفرغ من خطبته .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ﴾ قال : هو الوقت .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ﴾ قال : النداء عند

الذكر عزمة .

وأخرج أبو الشيخ في كتاب الأذان عن ابن عباس قال : الأذان نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع فرض الصلاة ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن سيرين قال : جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي صلى الله عليه وسلم وقبل أن تنزل الجمعة ، قالت الأنصار : لليهود يوم تجمعون فيه كل سبعة أيام ، والنصارى مثل ذلك ، فهلم فلنجعل يوماً نجتمع فيه ، فنذكر الله ونشكره ، فقالوا : يوم السبت لليهود ، ويوم الأحد للنصارى ، فاجعلوه يوم العروبة ، وكانوا يسمون الجمعة يوم العروبة ، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين ، وذكرهم ، فسموه الجمعة حين اجتمعوا إليه فذبح لهم شاة فتغدوا وتعشوا منها ، وذلك لقلتهم ، فأنزل الله في ذلك بعد ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ الآية .

وأخرج الدارقطني عن ابن عباس قال : " أذن النبي صلى الله عليه وسلم الجمعة قبل أن

يهاجر ، ولم يستطع أن يجمع بمكة ، فكتب إلى مصعب بن عمير " أما بعد ، فأنظر اليوم الذي تجهر فيه اليهود بالزبور فأجمعوا نسائكم وأبناءكم ، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة فتقربوا إلى الله بركعتين " قال : فهو أول من جمع حتى قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فجمع بعد الزوال من الظهر وأظهر ذلك " .

وأخرج أبو داود وابن ماجة وابن حبان والبيهقي عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أن أباه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم على أسعد بن زرارة فقلت له يا أبتاه أرأيت استغفارك لأسعد بن زرارة كلما سمعت الآذان للجمعة ما هو ؟ قال : إنه أول من جمع بنا في نقيع يقال له نقيع الخضمات من حرة بني بياضة . قلت : كم كنتم يومئذٍ ؟ قال : أربعون رجلاً .

وأخرج الطبراني عن أبي مسعود الأنصاري قال : أول من قدم من المهاجرين المدينة مصعب بن عمير وهو أول من جمع بها يوم الجمعة بهم قبل أن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم اثنا عشر رجلاً .

وأخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن ابن شهاب قال : ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة من قباء ، فمر على بني سالم ، فصلى فيهم الجمعة ببني سالم ، وهو

المسجد الذي في بطن الوادي ، وكانت أول جمعة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن ماجة عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال : " إن الله افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا ، في يومي هذا ، في شهري هذا ، في عامي هذا ، إلى يوم القيامة ، فمن تركها استخفافاً بها أو جحوداً لها فلا جمع الله له شمله ، ولا بارك له في أمره ، ألا ولا صلاة له ، ولا زكاة له ، ولا حج له ، ولا صوم له ، ولا بركة له ، حتى يتوب فمن تاب تاب الله عليه " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر وابن عباس قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على أعواد المنبر : " لينتهين أقوام عن ترك الجمعة والجماعات ، أو ليطمسن الله على قلوبهم وليكتبن من الغافلين " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سمرة بن جندب مرفوعاً " من ترك الجمعة من غير عذر طمس على قلبه " .

وأخرج أحمد والحاكم عن أبي قتادة مرفوعاً " من ترك الجمعة ثلاث مرات من غير ضرورة طبع الله على قلبه " .

وأخرج النسائي وابن ماجة وابن خزيمة من حديث جابر مثله .

وأخرج أحمد وابن حبان عن أبي الجعد الضمري قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر فهو منافق " .

وأخرج أبو يعلى والمروزي في الجمعة من طريق محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عمه عن النبي صلى الله عليه وسلم " سيد الأيام عند الله يوم الجمعة ، أعظم من يوم النحر والفطر ، وفيه خمس خلال : خلق آدم فيه ، وفيه أهبط من الجنة إلى الأرض ، وتوفي فيه آدم ، وفيه ساعة لا يسأل العبد فيها ربه إلا أعطاه ، ما لم يسأل حراماً ، وفيه تقوم الساعة " .

(126/764)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ميمون بن أبي شعيب قال : أردت الجمعة في زمن الحجاج ، فتهيأت للذهاب ، ثم قلت : أين أذهب أصلي خلف هذا ، فقلت مرة أذهب ومرة لا أذهب ، فأجمع رأيي على الذهاب ، فناداني منادٍ من جانب البيت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ الآية .

أخرج أبو عبيد في فضائله وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف عن خرشة بن الحر قال : رأى معي عمر بن الخطاب لوحاً مكتوباً فيه ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ فقال : من أملى عليك هذا ؟ قلت :

أبيّ بن كعب. قال: إن أبياً أقرؤنا للمنسوخ قرأها " فامضوا إلى ذكر الله " .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم قال: قيل لعمر: إن أبياً يقرأ ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ قال عمر: أبيّ أعلمنا بالمنسوخ، وكان يقرأها " فامضوا إلى ذكر الله " .

وأخرج الشافعي في الأم وعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال: ما سمعت عمر يقرأها قط إلا " فامضوا إلى ذكر الله " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال: ما سمعت عمر يقرؤها قط إلا " فامضوا إلى ذكر الله " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن ابن عمر قال: لقد توفي عمر وما يقول هذه الآية التي في سورة الجمعة إلا " فامضوا إلى ذكر الله " .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وأبو عبيد وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري والطبراني من طرق عن ابن مسعود أنه كان يقرأ " فامضوا إلى ذكر الله " قال: ولو كانت فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي .

وأخرج عبد الرزاق والطبراني عن قتادة قال في حرف ابن مسعود : " فامضوا إلى ذكر الله " وهو كقوله : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ [الليل : 4] .

وأخرج عبد بن حميد من طريق أبي العالية عن أبيّ بن كعب وابن مسعود أنهما كانا يقرآن " فامضوا إلى ذكر الله " .

وأخرج ابن المنذر عن عبد الله بن الزبير أنه كان يقرأها " فامضوا إلى ذكر الله " .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ قال : فامضوا .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن أنه سئل عن قوله : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ قال : ما هو بالسعي على الأقدام ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، ولكن بالقلوب والنية والخشوع .

وأخرج عبد بن حميد والبيهقي في شعب الإيمان عن قتادة في قوله : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ قال : السعي أن تسعى بقلبك وعملك ، وهو المضي إليها . قال الله : ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ [الصافات : 102] قال : لما مشى مع أبيه .

وأخرج عبد بن حميد عن ثابت قال : كنا مع أنس بن مالك يوم الجمعة فسمع النداء بالصلاة فقال : قم لنسعى إليها .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء في قوله : ﴿ فاسعوا إلى ذكر

الله ﴾ قال : الذهاب والمشي .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد في الآية قال : إنما السعي العمل ، وليس السعي على الأقدام .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن محمد بن كعب قال : السعي العمل .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس وعكرمة مثله .

وأخرج البيهقي في سننه عن عبد الله بن الصامت قال : خرجت إلى المسجد يوم الجمعة فلقيت أبا ذر ، فبينا أنا أمشي إذ سمعت النداء ، فرفعت في المشي لقول الله ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ فجذبني جذبة فقال : أولسنا في سعي .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب في قوله : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ قال : موعظة الإِمام .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حرمت التجارة يوم الجمعة ما بين الأذان الأول إلى الإِقامة إلى انصراف الإِمام ، لأن الله يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر ﴾ إلى ﴿ وذروا البيع ﴾

" .

وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب أن رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانا يختلفان في تجارتهما إلى الشام ، فربما قدما يوم الجمعة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، يخطب فيدعونه ويقومون فيما هم إلا بيعاً حتى تقام الصلاة فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ قال : فحرم عليهم ما كان قبل ذلك .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن الزهري قال : الأذان الذي يحرم فيه البيع هو الأذان الذي عند خروج الإِمام . قال : وأرى أن يترك البيع الآن عند الأذان الأول .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة حرم الشراء والبيع .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن الضحاك قال : إذا زالت الشمس من يوم الجمعة حرم البيع والتجارة حتى تقضى الصلاة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء والحسن أنهما قالا : ذلك .

وأخرج عبد بن حميد عن أيوب قال : لأهل المدينة ساعة يوم الجمعة ينادون : حرم البيع ، وذلك عند خروج الإِمام .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن ميمون بن مهران قال : كان بالمدينة إذا أذن المؤذن من يوم الجمعة ينادون في الأسواق : حرم البيع حرم البيع .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الرحمن بن القاسم أن القاسم دخل على أهله في يوم الجمعة وعندهم عطار يبايعونه ، فاشتروا منه ، وخرج القاسم إلى الجمعة ، فوجد الإمام قد خرج ، فأمرهم أن يناقضوه البيع .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد قال : من باع شيئاً بعد الزوال يوم الجمعة فإن بيعه مردود لأن الله تعالى نهى عن البيع إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : هل تعلم من شيء يحرم إذا أذن بالأولى سوى البيع ؟ قال عطاء : إذا نودي بالأولى حرم اللهو والبيع ، والصناعات كلها هي بمنزلة البيع والرقاد ، وأن يأتي الرجل أهله ، وأن يكتب كتاباً قلت : إذا نودي بالأولى وجب الرواح حينئذ ؟ قال : نعم .

قلت : من أجل قوله إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ؟ قال : نعم ، فليدع حينئذ كل شيء وليرح.

أخرج أبو عبيد وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن بسر الحراني قال : رأيت عبد الله بن بشر المازني صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الجمعة خرج فدار في السوق ساعة ، ثم رجع إلى المسجد ، فصلى ما شاء الله أن يصلي ، فقيل له : لأي شيء تصنع هذا ؟ قال : لأني رأيت سيد المرسلين هكذا يصنع ، وتلا هذه الآية ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : إذا انصرفت يوم الجمعة فاخرج إلى باب المسجد فساوم بالشيء وإن لم تشتره .

وأخرج ابن المنذر عن الوليد بن رباح أن أبا هريرة كان يصلي بالناس الجمعة ، فإذا سلم صاح ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله ﴾ فيبتدر الناس الأبواب .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد وعطاء ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ﴾ قالا : إن شاء فعل ، وإن شاء لم يفعل .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك في قوله : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ﴾ قال : هو إذن من الله ، فإذا فرغ فإن شاء خرج ، وإن شاء قعد في المسجد .

وأخرج ابن جرير عن أنس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ قال : " ليس لطلب دنيا ولكن عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله " " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ قال : لم يؤمروا بشيء من طلب الدنيا ، إنما هو عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من صلى الجمعة فصام يومه وعاد مريضاً وشهد جنازة وشهد نكاحاً وجبت له الجنة " .

قوله تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة ﴾ الآية .

أخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن جابر بن عبد الله قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة قائماً إذ قدمت عير المدينة ، فابتدرها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم وأبو بكر وعمر ، فأنزل الله ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾ إلى آخر السورة .

وأخرج البزار عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فقدم دحية بن خليفة يبيع سلعة له ، فما بقي في المسجد أحد إلا نفر ، والنبي صلى الله عليه وسلم قائم ، فأنزل الله ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ﴾ قال : قدم دحية الكلبي بتجارة ، فخرجوا ينظرون إلا سبعة نفر .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ﴾ قال : " جاءت عير عبد الرحمن بن عوف تحمل الطعام ، فخرجوا من الجمعة ، بعضهم يريد أن يشتري ، وبعضهم يريد أن ينظر إلى دحية ، وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً على المنبر ، وبقي في المسجد اثنا عشر رجلاً وسبع نسوة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم ناراً " " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قدمت عير المدينة يوم الجمعة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر يخطب ، فانفض أكثر من كان في المسجد ، فأنزل الله في هذه الآية ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾ .

وأخرج أبو داود في مراسيله عن مقاتل بن حيان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين ، حتى كان يوم الجمعة ، والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب ، وقد صلى الجمعة ، فدخل رجل فقال : إن دحية بن خليفة قد قدم بتجارة ، وكان دحية إذا قدم تلقاه أهله بالدفاف ، فخرج الناس ولم يظنوا إلا أنه ليس في ترك الخطبة شيء ، فأنزل الله ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾ فقدم النبي صلى الله عليه وسلم الخطبة يوم الجمعة وأخر الصلاة .

(132/764)

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن مقاتل بن حيان قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ويقوم قائماً ، وإن دحية الكلبي كان رجلاً تاجراً ، وكان قبل أن يسلم : قدم بتجارته إلى المدينة خرج الناس ينظرون إلى ما جاء به ويشترون منه ، فقدم ذات يوم ووافق الجمعة ، والناس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ، وهو قائم يخطب ، فاستقبل أهل دحية العير حين دخل المدينة بالطبل واللهو ، فذلك اللهو الذي ذكر الله ، فسمع الناس في المسجد أن دحية قد نزل بتجارة عند أحجار الزيت ، وهو مكان في سوق المدينة ، وسمعوا أصواتاً ، فخرج عامة الناس إلى دحية ينظرون إلى تجارته وإلى اللهو

، وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً ليس معه كبير عدة أحد ، فبلغني والله أعلم أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات ، وبلغنا أن العدة التي بقيت في المسجد مع النبي صلى الله عليه وسلم عدة قليلة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك : "لولا هؤلاء ، يعني الذين بقوا في المسجد ؛ عند النبي صلى الله عليه وسلم : لقصدت إليهم الحجارة من السماء " ونزل ﴿ قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب الناس يوم الجمعة ، فإذا كان نكاح لعب أهله وعزفوا ومروا باللهو على المسجد ، وإذا نزل بالبطحاء جلب قال : وكانت البطحاء مجلساً بفناء المسجد الذي يلي بقيع الغرقد ، وكانت الأعراب إذا جلبوا الخيل والإبل والغنم وبضائع الأعراب نزلوا البطحاء ، فإذا سمع ذلك من يقعد للخطبة قاموا للهو والتجارة وتركوه قائماً ، فعاتب الله المؤمنين لنبيه صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾ قال : رجال يقومون إلى نواضحهم وإلى السفر يقدمون يبتغون التجارة واللهو .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : " بينا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، إذ قدمت عير المدينة فانفضوا إليها وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يبق معه إلا رهط منهم أبو بكر وعمر ، فنزلت هذه الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى معي أحد منكم لسال بكم الوادي ناراً " " .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : " ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قام يوم الجمعة فخطبهم ووعظهم وذكرهم ، فقيل : جاءت عير ، فجعلوا يقومون حتى بقيت عصابة منهم فقال : "كم أنتم فعدوا " أنفسكم فإذا اثنا عشر رجلاً وامرأة ، ثم قام الجمعة الثانية فخطبهم ووعظهم وذكرهم ، فقيل : جاءت عير ، فجعلوا يقومون حتى بقيت عصابة منهم ، فقال : "كم أنتم " فعدوا أنفسكم ، فإذا اثنا عشر رجلاً وامرأة ، فقال : " والذي نفس محمد بيده لو أتبع آخركم أولكم لالتهب الوادي عليكم ناراً " وأنزل الله فيها ﴿ وإذا رأوا تجارة ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ أو لهواً ﴾ قال : هو الضرب بالطبل .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان قال : " بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس

يوم الجمعة أقبل شاء وشيء من سمن ، فجعل الناس يقومون إليه ، حتى لم يبق إلا قليل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو تتابعتم لتأجج الوادي ناراً " " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن ماجة والطبراني وابن مردويه عن ابن مسعود أنه سئل : أكان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب قائماً أو قاعداً ؟ قال : أما تقرأ ﴿ وتركوك قائماً ﴾ .

(134/764)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وابن مرديه والبيهقي في سننه عن كعب بن عجرة أنه دخل المسجد وعبد الرحمن بن أم الحكم يخطب قاعداً فقال : انظروا إلى هذا الخبيث يخطب قاعداً وقد قال الله : ﴿ وتركوك قائماً ﴾ .

وأخرج أحمد وابن ماجة وابن مردويه عن جابر بن سمرة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب قائماً .

وأخرج أحمد وابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن جابر بن سمرة قال : كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خطبتان يجلس بينهما ، يقرأ القرآن ، ويذكر الناس .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة عن ابن عمر أن

النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يخطب خطبتين يجلس بينهما .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب يوم الجمعة قائماً ، ثم يقعد ، ثم يقوم فيخطب .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن سيرين أنه سئل عن خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة فقرأ ﴿ وتركوك قائماً ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عمرو بن مرة قال : سألت أبا عبيدة رضي الله عنه عن الخطبة يوم الجمعة ، فقرأ ﴿ وتركوك قائماً ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن طاووس قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً وأبو بكر وعمر وعثمان ، وإن أوّل من جلس على المنبر معاوية بن أبي سفيان .

وأخرج ابن أبي شيبة عن طاووس قال : الجلوس على المنبر يوم الجمعة بدعة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي قال : إنما خطب معاوية قاعداً حين كثر شحم بطنه ولحمه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صعد المنبر يوم الجمعة استقبل الناس بوجهه الكريم ، فقال : السلام عليكم ، ويحمد الله ويثني عليه ، ويقرأ سورة ثم يجلس ، ثم يقوم فيخطب ، ثم ينزل ، وكان أبو بكر وعمر يفعلانه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن جابر بن سمرة قال : كانت خطبة النبي صلى الله عليه وسلم قصراً وصلاته قصراً .

(135/764)

وأخرج ابن أبي شيبة عن مكحول قال : إنما قصرت صلاة الجمعة من أجل الخطبة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن سيرين أنه سئل عن خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة فقرأ ﴿ وتركوك قائماً ﴾ .

وأخرج ابن أبي الدنيا في شعب الإيمان والديلمي " عن الحسن البصري قال : طلبت خطب النبي صلى الله عليه وسلم في الجمعة فأعيتني ، فلزمت رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك ، فقال : كان يخطب فيقول في خطبته يوم الجمعة : " يا أيها الناس إن لكم علماً فانتهوا إلى علمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، فإن المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري كيف صنع الله فيه ، وبين أجل قد بقي لا يدري كيف الله بصانع فيه ، فليتزوّد المؤمن من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشباب قبل الهرم ، ومن الصحة قبل السقم ، فإنكم خلقتم للآخرة ، والدنيا خلقت لكم والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، وما بعد الدنيا دار إلا الجنة والنار ، وأستغفر الله

لي ولكم " " .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن شهاب قال : بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا خطب : "كل ما هو آت قريب ، لا بعد لما هو آت ، لا يعجل الله لعجلة أحد ، ولا يخف لأمر الناس ، ما شاء الله لا ما شاء الناس ، يريد الناس أمراً ويريد الله أمراً ، وما شاء الله كان ، ولو كره الناس ، لا مبعد لما قرب الله ، ولا مقرب لما بعد الله ولا يكون شيء إلا بإذن الله " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 151 .

169 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾

وقد ذكرناه .

﴿ الملك القدوس ﴾ يعني : الملك الذي يملك كل شيء ، ولا يزال ملكه القدوس يعني : الطاهر عن الشريك والولد .

قرئ في الشاذ : ﴿ الملك القدوس ﴾ بالضم ومعناه هو الملك القدوس ؛ وقرأه العامة بالكسر ، فيكون نعتاً لله تعالى : ﴿ العزيز ﴾ في ملكه ، ﴿ الحكيم ﴾ في أمره .

ثم قال : ﴿ هُوَ الذى بَعَثَ فِى الاميين ﴾ يعني : في العرب .

والأميون الذين لا يكتبون ، وهو ما خلقت عليه الأمة قبل تعلم الكتابة .

﴿ رَسُولاً مّنْهُمْ ﴾ يعني من قومهم العرب .

﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : يقرأ عليهم ﴿ ءاياته ﴾ يعني : القرآن ، ﴿ وَيُزَكّيهِمْ ﴾ يعني : يدعوهم إلى التوحيد ، ويطهرهم به من عبادة الأوثان ؛ ويقال : ﴿ يُزَكّيهِمْ ﴾ يعني : يصلحهم ، ويقال : يأمرهم بالزكاة .

﴿ وَيُعَلّمُهُمُ الكتاب ﴾ يعني : القرآن ﴿ والحكمة ﴾ يعني : الحلال والحرام .

﴿ وَإِن كَانُواْ ﴾ يعني : وقد كانوا ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أن يبعث إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، ﴿ لَفِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ يعني : لفي خطأ بيّن يعني : الشرك .

﴿ وَءاخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ يعني : التابعين من هذه الأمة ممن بقي ، ﴿ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ يعني : لم يكونوا بعد فسيكونون .

وروى جويبر ، عن الضحاك في قوله : ﴿ ءاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ قال : يعني : من أسلم من الناس ، وعمل صالحاً إلى يوم القيامة من عربي وعجمي .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ يعني : العزيز في ملكه ، الحكيم في أمره .

قوله تعالى : ﴿ ذلك فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ ﴾ يعني : الإسلام فضل الله يؤتيه ﴿ مَن يَشَآء ﴾ يعني : يعطيه من يشاء ، ويكرم به من يشاء من كان أهلاً لذلك .

﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ يعني : ذو المنّ العظيم لمن اختصه بالإسلام .

(137/764)

ثم قال : ﴿ مَثَلُ الذين حُمّلُواْ التوراة ﴾ يعني : صفة الذين علموا التوراة ، وأمروا بأن يعملوا بما فيها .

﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ ، أي : لم يعملوا بما أمروا فيها من الأمر والنهي وبيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقال : ﴿ مَثَلُ الذين حُمّلُواْ التوراة ﴾ وأمروا بأن يحملوا تفسيرها ، ثم لم يحملوها يعني : لم يعلموا تفسيرها ، فمثلهم ﴿ كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ يعني : يحمل كتباً ولا يدري ما فيها ، كما لا يدري اليهود ما حملوا من التوراة .

ثم قال : ﴿ بِئْسَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بِئَايَاتِ الله ﴾ يعني : بئس مثل القوم ضربنا لهم الأمثال ، ويقال : بئس صفة القوم الذين كذبوا بآيات الله ، يعني : جحدوا بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ واللهُ لاَ يَهْدِى القومَ الظالمين ﴾ يعني : إلى طريق الجنة اليهود الذين لا يرغبون في الحق .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الذين هَادُواْ ﴾ يعني : مالوا عن الإسلام والحق إلى اليهودية .

﴿ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ ﴾ يعني : إن ادعيتم وقلتم إنكم ﴿ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ ﴾ يعني : أحباباً لله .

﴿ مِّن دُونِ الناس ﴾ يعني : من دون المؤمنين ، ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت ﴾ يعني : سلوا الموت ، فقولوا : اللهم أمتنا .

﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ بأنكم أولياء الله من دون المؤمنين .

﴿ وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً ﴾ يعني : لا يسألون أبداً ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ يعني : بما عملت وأسلفت أيديهم .

﴿ واللهُ عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ يعني : عليماً بحالهم بأنهم لا يتمنون الموت .

﴿ قُلْ إِنَّ الموت الذى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ ملاقيكم ﴾ أي : تكرهون الموت ، يعني : نازل بكم لا محالة .

﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ ﴾ يعني : ترجعون في الآخرة .

﴿ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ ، وقد ذكرناه ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني : يخبركم ويجازيكم بما كنتم تعملون في الدنيا .

قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا نُودِىَ للصلاة ﴾ يعني : إذا أذن للصلاة ﴿ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ يعني : امضوا إلى الصلاة فصلوها .

ويقال : ﴿ إلى ذِكْرِ الله ﴾ يعني : الخطبة فاستمعوها .

وروى الأعمش ، عن إبراهيم قال : كان ابن مسعود يقرأ : (فامضوا إلى ذكر الله) ويقول : لو قرأتها فاسعوا ، لسعيت حتى يسقط ردائي .

وقال : القتبي : السعي على وجه الإسراع في المشي كقوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى المدينة يسعى قَالَ يا موسى إِنَّ الملأ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فاخرج إِنِّى لَكَ مِنَ الناصحين ﴾ [القصص : 20] والسعي : العمل كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأولئك كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء : 19] وقال : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ [الليل : 4] ، والسعي : المشي ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ الموتى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بلى ولكن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطير فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجعل على كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادعهن يَأْتِينَكَ سَعْيًا واعلم أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقر : 260] وكقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا إِذَا نُودِىَ للصلاة مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة : 9] وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ قال : ليس

السعي بالأقدام، ولكن سعي بالنية، وسعي بالقلب، وسعي بالرغبة.

ثم قال: ﴿ وَذَرُواْ الْبَيْعَ ﴾، ولم يذكر الشراء، لأنه لما ذكر البيع، فقد دل على الشراء.

ومعناه: اتركوا البيع والشراء.

وقال جماعة من العلماء: لو باع بعد الأذان يوم الجمعة، لم يجز البيع.

وقال الزهري: يحرم البيع يوم الجمعة عند خروج الإمام.

وروى جويبر، عن الضحاك أنه قال: إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، حَرُمَ الشِّرَاءُ وَالْبَيْعُ، وَلَوْ كُنْتُ قَاضِيًا لَرَدَدْتُهُ.

وروى معمر، عن الزهري قال: الأَذَانُ الَّذِي يُحرمُ نِيَّةَ الْبَيْعِ عِنْدَ خُرُوجِ الإِمَامِ وَقْتَ الْخُطْبَةِ، وقال الحسن: إذَا زَالَتِ الشَّمْسِ، فَلا تَشْتَرِ وَلَا تَبِعْ.

وقال محمد: يُحْرَمُ الْبَيْعُ عِنْدَ النّداءِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عِنْدِ الصَّلاةِ.

وروى عكرمة، عن ابن عباس قال: لا يَصِحُّ الْبَيْعُ وَالشّرَاءُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ حِينَ يُنَادَى بِالصَّلاةِ حَتَّى تَنْقَضِي.

وقال عامة أهل الفتوى من الفقهاء: إِنَّ الْبَيْعَ جَائِزٌ فِي الْحُكْمِ لأَنَّ النَّهْيَ لأَجْلِ الصَّلاةِ وَلَيْسَ

بِمَانِعٍ لِمَعْنَى فِي الْبَيْعِ .

ثم قال : ﴿ ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يعني : السعي إلى الصلاة ، وترك الشراء والبيع .

والاستماع إلى الخطبة ، خير لكم من الشراء والبيع .

﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني : فاعلموا ذلك .

وكل ما في القرآن ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إن كنتم مؤمنين ، فهو بمعنى التقرير والأمر .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة ﴾ يعني : فرغتم من الصلاة ، ﴿ فانتشروا فِى الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ يعني : اطلبوا الرزق من الله تعالى بالتجارة والكسب .

(140/764)

اللفظ لفظ الأمر ، والمراد به الرخصة ، كقوله : ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ الله وَلاَ الشهر الحرام وَلاَ الهدى وَلاَ القلائد ولا ءَامِّينَ البيت الحرام يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ ورضوانا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فاصطادوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى البر والتقوى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإثم والعدوان واتقوا الله إِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة : 2] ، وهي رخصة بعد النهي .

﴿ واذكروا الله كَثِيراً ﴾ يعني : واذكروا الله باللسان ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ يعني : لكي

تنجوا .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تجارة أَوْ لَهْوًا ﴾ ، قال مجاهد : اللهو هو الضرب بالطبل ، فنزلت الآية حين قدم دحية بن خليفة الكلبي .

وروى سالم ، عن جابر قال : أقبلت عير ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نصلي الجمعة ، فانفض الناس إليهم ، فما بقي غير اثني عشر رجلاً ، فنزلت الآية ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تجارة أَوْ لَهْوًا ﴾ .

﴿ انفضوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ .

وروى معمر ، عن الحسن : أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء سعر ، فقدمت عير والنبي صلى الله عليه وسلم قائم ، يخطب يوم الجمعة ، فسمعوا بها فخرجوا إليها ، والنبي صلى الله عليه وسلم قائم .

قال الله تعالى : وتركوك قائماً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " وَلَوْ اتَّبَعَ آخِرُهُمْ أَوَّلَهُمْ لَالْتَهَبَ الْوَادِي عَلَيْهِمْ نَارًا " .

قال معمر ، عن قتادة قال : لم يبق يومئذ معه إلا اثنا عشر رجلاً وامرأة ، ويقال : إن أهل المدينة كانوا إذا قدمت عير ، ضربوا بالطبل وخرج الناس ، فنزل ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تجارة أَوْ لَهْوًا انفضوا إِلَيْهَا ﴾ والمعنى خرجوا إليها ، يعني : إلى التجارة ، ويقال : ﴿ إِلَيْهَا ﴾ يعني : جملة ما رأوا من اللهو والتجارة .

وتركوك قائماً على المنبر .

﴿ قُلْ مَا عِندَ الله خَيْرٌ مّنَ اللهو ﴾ يعني : ثواب الله تعالى خير من اللهو ﴿ وَمِنَ التجارة والله خَيْرُ الرزقين ﴾ وخير المعطين ؛ والله أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 424 . 427 ﴾

(142/764)

وقال الثعلبي :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض الملك القدوس ﴾

قال أهل اللغة : كل أسم على فعّول بتشديد للعين فالفاء منه منصوبة ، نحو سفّود وكلّوب وسمّور وشبّوط وهو ضرب من السمك إلاّ أحرف : سبّوح وقدّوس ، ومردوح لواحد المراديح ، وحكى الفراء عن الكسائي قال : سمعت أبا الدنيا وكان إعرابياً فصيحاً يقرأ

القدوس بفتح القاف ولعلها لغة .

﴿ العزيز الحكيم ﴾ وقرأ أبو وائل الملك القدوس بالرفع على معنى هو الملك القدوس .

أخبرني عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن عبد الله قال : حدّثنا محمد بن عبد الله ابن سليمان قال : حدّثنا محمد بن إسحاق الرازي قال : حدّثنا إسحاق بن سليمان قال : سمعت عمرو بن أبي قيس عن عطاء بن السائب عن ميسرة قال : هذه الآية ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ في التوراة سبعمائة آية .

﴿ هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأميين ﴾ يعني العرب ﴿ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب والحكمة وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ في ﴿ وَآخَرِينَ ﴾ وجهان من الأعراب : أحدهما الخفض على الرد الى الأميين ، مجازه : وفي آخرين ، والثاني : النصب على الردّ الى الهاء والميم من قوله ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ﴾ أي ويعلم آخرين منهم أي من المؤمنين الذين يدينون بدينه .

﴿ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ أي لم يدركوهم ولكنهم يكونون بعدهم .

وأختلف العلماء فيهم فقال ابن عمرو سعيد بن جبير : هم العجم ، وهي رواية ليث عن مجاهد يدلّ عليه كما روى ثور بن يزيد عن أبي العتب عن أبي هريرة قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ كلّمه فيها الناس فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على سلمان فقال : لو كان (الدين) عند الثريا لناله رجال من هؤلاء " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا محمد بن خلف قال : حدّثنا إسحاق بن محمد قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا إبراهيم بن عيسى قال : حدّثنا علي بن علي قال : حدّثني أبو حمزة الثمالي قال : حدّثني حُصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " رأيتني تبعني غنم سود ثم أتبعتها غنم سود ثم اتبعتها غنم عفر " أوّلها أبا بكر قال : أمّا السود فالعرب ، وأما العفر فالعجم تبايعك بعد العرب ، قال : " كذلك عبّرها الملك سحر " يعني وقت السحر .

وبه عن أبي حمزة قال : حدّثني السدي قال : كان عبد الرحمن بن أبي ليلى إذا قال : رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فأنه يعني به علياً ، وإذا قال : رجل من أهل بدر فأنما يعني به علياً ، فكان أصحابه لا يسألونه عن أسمه ، وقال : عكرمة ومقاتل : هم التابعون ، وقال ابن زيد وابن حيان : هم جميع من دخل في الإسلام بعد النبي صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامة وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد .

وروى سهل بن سعد الساعدي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " وأن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال (أمتي) رجالا ونساء يدخلون الجنة بغير حساب " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم * ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم * مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التوراة ﴾ أي كلّفوا العمل بها ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ ولم يعملوا بما فيها ولم يؤدّوا حقّها ﴿ كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ كتباً من العلم والحكمة.

قال الفراء : هي الكتب العظام واحدها سفر ، ونظيرها في الكلام شبر وأشبار وجلد وأجلاد فكما أن الحمار يحملها ولا يدري ما فيها ولاينتفع بها كذلك اليهود يقرؤون التوراة ولا ينتفعون به ، لأنهم خالفوا ما فيه.

أنشدنا أبو القاسم بن أبي بكر المكتب قال : أنشدنا أبو بكر محمد بن المنذر قال : أنشدنا أبو محمد العشائي المؤدب قال : أنشدنا أبو سعيد الضرير :

زوامل للأسفار لا علم عندهم . . . بجيّدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدري المطي إذا غدا . . . بأسفاره إذ راح ما في الغرائز

﴿ بِئْسَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين * قُلْ يا أيها الذين هادوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ الناس ﴾ محمد وأصحابه ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت ﴾ فادعوا على أنفسكم بالموت ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنكم أبناء الله وأحباؤه فإن الموت هو الذي يوصلكم إليه .

(145/764)

﴿ وَلاَ يَتَمَنَّونَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ والله عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ . أخبرنا الحسن قال : حدّثنا السني قال : حدّثنا النسائي قال : أخبرني عمرو بن عثمان قال : حدّثنا بقية بن الوليد قال : حدّثنا الزبيدي قال : حدّثني الزهري عن أبي عبيد أنه سمع أبا هريرة يقول قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يتمن أحدكم الموت أما محسن فإن يعش يزدد خيراً فهو خيرٌ له وأما مسيئاً فلعلّه أن يستعتب " .

﴿ قُلْ إِنَّ الموت الذي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغيب والشهادة فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * يا أيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ أي في يوم الجمعة كقوله سبحانه ﴿ مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ [فاطر : 40] أي في الأرض وأراد بهذا النداء الآذان عند قعود الإمام على المنبر للخطبة ، يدل عليه ما أخبرنا محمد بن عبد الله

بن حمدون قال: أخبرنا أحمد بن الحسن قال: حدّثنا محمد بن يحيى قال: حدّثنا أحمد بن خالد الوهبي قال: حدّثنا محمد بن إسحاق عن الزهري عن السائب بن يزيد قال: كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن واحد بلال لم يكن له مؤذن آخر غيره، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر أذّن على باب المسجد فإذا نزل أقام الصلاة، ثم كان أبو بكر كذلك وعمر كذلك حتى إذا كان عثمان فكثر الناس وتباعدت المنازل زاد أذاناً فأمر بالتأذين الأوّل على دار له بالسوق يقال لها الزوراء، فكان يؤذن له عليها، فأذا جلس عثمان على المنبر أذن مؤذنه الأوّل، فإذا نزل أقام للصلاة فلم يُعب ذلك عليه.

وقراءة العامة (الجمعة) بالضم الميم، وقرأ الأعمش مخففة بجزم الميم وهما لغتان وجمعها: جُمع وجمعات.

(146/764)

أخبرنا محمد بن نعيم قال: أخبرنا أبا الحسن بن أيوب قال: أخبرنا علي بن عبد العزيز قال: أخبرنا القاسم بن سلام قال: سمعت الكسائي يخبر عن سليمان عن الزهري قال: قال ابن عباس: نزل القرآن بالتثقيل والتفخيم قال الفرّاء وأبو عبيد: التخفيف حسن وهو[. .

. . . . . .] في مذهب العربية مثل غرفة وغرف وطرفة وطرف وحجرة وحجر .

وقال الفراء : وفيها لغة أخرى ثالثة : جمعة بالفتح كقولك رجل ضحكة وهمزة ولمزة وهي لغة بني عقيل ، وقيل : هي لغة النبي صلى الله عليه وسلم وإنما سمي هذا اليوم جمعة لما أخبرنا الحسن قال : حدّثنا الكندي قال : حدّثنا محمد بن مخلد العطّار قال : حدّثنا محمد بن عيسى بن أبي موسى قال : حدّثنا عبد الله بن عمرو بن أبي أُمية قال : حدّثنا قيس الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن قرثع الضبي عن سليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنَّما سميت الجمعة لأن آدم جمع فيها خلقه" وقيل : لأنّ الله سبحانه فرغ فيه من خلق الأشياء فأجتمعت فيه المخلوقات .

وقيل : يجمع الجماعات فيها ، وقيل : لاجتماع الناس فيه للصلاة ، وقيل : أوّل من سماها جمعة كعب بن لؤي .

أخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حفصويه قال : حدّثنا الحسن بن أحمد بن حفص الحلواني قال : حدّثنا إبراهيم بن إسحاق قال : حدّثنا إبراهيم بن المنذر قال : حدّثنا عبد العزيز عن محمد بن عبد العزيز عن أبيه عن أبي سلمة قال : أول من قال : أما بعد كعب بن لؤي ، وكان أول من سمى الجمعة الجمعة وكان يقال للجمعة : العروبة ، وقيل : أوّل من سماها جمعة الأنصار .

أخبرني الحسين قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا إبراهيم بن سهلويه قال : حدّثنا سلمة ابن شيب قال : حدّثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين قال : جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وقبل أن ينزل الجمعة وهم الذين سمّوها الجمعة ، قالت الأنصار : لليهود يوم يجمعون فيه كل سبعة أيام وللنصارى يوم أيضاً مثل ذلك ، فهلموا فلنجعل يوماً يجمع فيه فيذكر الله عزّ وجلّ ونصلّي ونشكره أو كما قالوا .

فقالوا : يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة ، وكانوا يسمّون يوم الجمعة يوم العروبة واجتمعوا الى أسعد بن زرارة فصلّى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم فسمّوه يوم الجمعة حين أجتمعوا إليه فذبح لهم أسعد بن زرارة شاة فتغدوا وتعشوا من شاة واحده وذلك لقلتهم ، فأنزل الله سبحانه في ذلك بعد ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ الآية ، فهذه أول جمعة جمعت في الإسلام .

فأما أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه فقال أهل السير والتواريخ : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً حتى نزل قباء على بني عمرو بن عوف وذلك يوم الأثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين أشتد الضحى فأقام صلى الله عليه وسلم بقباء يوم الأثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس

مسجدهم ثم خرج بين أظهرهم يوم الجمعة عامداً المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم قد اتخذ اليوم في ذلك الموضع مسجد وكانت هذه الجمعة أول جمعة .

وقال : الحسن هي مستحبة وليست بفرض ، وقال سعيد : جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام فخطب في هذه الجمعة وهي أوّل خطبة خطبها بالمدينة فيما قيل ، وقال صلى الله عليه وسلم " الحمد لله أحمده وأستعينه واستغفره وأستهديه وأؤمن به ولا أكفره وأعادي من يكفره وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلّة من العلم وضلالة من الناس وإنقطاع من الزمان ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصيهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيداً ، وأوصيكم بتقوى الله فأنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وان يأمره بتقوى الله فاحذروا ما حذركم الله من نفسه وأن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربّه عون وصدق على ما تبغون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السرِّ والعلانية لاينوي بذلك

إلّا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره ، وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء الى ما قدم ، وما كان من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ، والذي صدق قوله ونجز وعده لا خلق لذلك فأنه يقول ما يبدل القول لديّ وما أنا بظلام للعبيد ، واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السرّ والعلانية فإنه من يتّق الله كفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجراً ، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً ، وان تقوى الله توقي مقته وتوقي عقوبته وتوقي سخطه ، وأن تقوى الله تبيض الوجوه وترضي الرب وترفع الدرجة خذوا بحظّكم ولا تفرطوا في جنب الله فقد علّمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في سبيل الله حقّ جهاده ، هو اجتباكم وسماكم المسلمين ، ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيى عن بيّنة ولا حول ولا قوة إلّا

(149/764)

بالله ، وأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم ، فأنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس ، وذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوّة إلّا بالله العظيم " .

فلهذا صارت الخطبة شرطاً في إنعقاد الجمعة وهو قول جمهور العلماء ، وقال الحسن : هي مستحبة وليست بفرض ، وقال سعيد بن جبير : هي بمنزلة الركعتين من الظهر فإذا تركها وصلّى الجمعة فقد صلى الركعتين من الظهر ، وأقلّ ما يجزي من الخطبة أن يحمد الله ويصلّي على نبيّه ويوصي بتقوى الله سبحانه ويقرأ آية من القرآن في الخطبة الأولى ويجب في الثانية أربع كالأولى إلاّ إن الواجب بدل قراءة الآية الدعاء ، هذا قول أكثر العلماء والفقهاء ، وقال أبو حنيفة : لو أقتصر على التحمد أو التسبيح أو التكبير أجزاه ، وقال أبو يوسف ومحمد : الواجب ما يتناوله أسم الخطبة .

ثم القيام شرط في صحة الخطبة مع القدرة عليه في قول عامّة الفقهاء إلاّ أبا حنيفة فأنه لم يشرطه فيها ، والدليل على أن القيام شرط في الخطبة قوله سبحانه : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾ . وحديث ابن عمر : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب خطبتين إلاّ وهو قائم .

وللشافعي قولان في الطهارة في حال الخطبة فقال في الجديد : هي شرط في الخطبة ، وقال في القديم : ليست بشرط ، وهو مذهب أبي حنيفة رحمة الله .

فهذا بيان القول في أول جمعة جمعت في الإسلام ، وأول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول خطبة خطبها فيها في المدينة ، فأمّا أول جمعة جمعت بعدها بالمدينة فقال ابن عباس : أول جمعة جمعت في الإسلام بعد الجمعة بالمدينة بقرية يقال لها جُواثا من قرى

البحرين .

قوله : ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ أي أمضوا إليه واعملوا له .

(150/764)

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا مكّي قال : حدّثنا عبد الله بن هاشم قال : حدّثنا يحيى بن حنظلة قال : سمعت سالماً قال : قال ابن عمر : سمعت صلى الله عليه وسلم يقرأ فأمضوا الى ذكر الله .

وأخبرنا أبو عبد الله الحافظ في آخرين قالوا : حدّثنا محمد بن يعقوب قال : أخبرنا الربيع ابن سليمان قال : أخبرنا الشافعي قال : أخبرنا سفيان عن الزهري عن سالم عن أبيه قال : ما سمعت عمر قط يقرأها إلاّ وأمضوا الى ذكر الله .

وأخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن جعفر الكلمواني قال : حد ثنا أبو بكر محمد بن محمد بن حفص قال : حد ثنا السري بن خزيمة قال : حدّثنا أبو نعيم قال : حدّثنا سفيان عن حنظلة عن سالم عن عمر أنه كان يقرأها فأمضوا الى ذكر الله ، وروى الأعمش عن إبراهيم قال : كان عبد الله يقرأها فأمضوا الى ذكر الله ويقول : لو قرأها فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي ، وهي قراءة أبي العالية أيضاً ، وقال الحسن : أما والله ما هو بالسعي على

الأقدام، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلاّ وعليهم السكينة والوقار ولكن بالقلوب والنيّة والخشوع.

وأنبأني عبد الله بن حامد قال: أخبرنا محمد بن يعقوب قال: حدّثنا يحيى بن أبي طالب قال: أخبرنا عبد الوهاب قال: سئل سعيد عن فضل الجمعة فأخبرنا عن قتادة أنه كان يقول في هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ ﴾ فالسعي أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها قال: وكان يتأوّل هذه الآية ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعي ﴾ [الصافات: 102] يقول فلما مشى معه، وقال: الكلبي فلما عمل مثله عمله.

وأخبرنا محمد بن حمدويه قال: حدّثنا محمد بن يعقوب قال: أخبرنا الربيع قال: قال الشافعي: السعي في هذا الموضع هو العمل، قال الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ [الليل: 4] وقال سبحانه: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ [النجم: 39] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تولى سعى فِي الأرض لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ [البقرة: 205] وقال زهر: سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم فلم يدركوهم ولم يلاقوا ولم يألوا الى ذكر الله يعني

الصلاة.

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا محمد بن جعفر قال: حدّثنا علي بن حرب وليع قال: حدّثنا منصور بن دينار عن موسى بن أبي كثير عن سعيد بن المسيب ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ قال: موعظة الإمام ﴿ وَذَرُواْ البيع ﴾ يعني البيع والشراء لأنَّ البيع يتناول المعنيين جميعاً ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم

" البيّعان بالخيار ما لم يتفرقا " أراد البائع والمشتري، وقال الأخطل:

وباع بنيه بعضهم بخشارة . . . وبعت لذبيان العلاء بمالكا

يريد بالأول البيع وبالآخر الابتياع، وإنّما يحرم البيع عند الأذان الثاني، وقال الزهري: عند خروج الإمام، وقال الضحاك: إذا زالت الشمس حرم البيع والشرى، وروى السدي عن أبي مالك قال: كان قوم يجلسون في بقيع الزبير ويشترون ويبيعون إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ولا يقومون فنزلت هذه الآية.

﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الذي ذكرت من حضور الجمعة والإستماع الى الجمعة وأداء الفريضة ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من المبايعة ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ مصالح أنفسكم ومضارها.

ذكر تلكم الآية

أعلم أن صلاة الجمعة واجب على كل مسلم إلاّ خمسة نفر : النساء الصبيان والعبيد والمسافر والمرضى . يدل عليه ما أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن بن محمد بن إسحاق الأزهري [باسفرائين] قال : أخبرنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الحافظ قال : أخبرنا المزني قال : قال الشافعي : أخبرنا إبراهيم بن محمد قال : حدّثني سلمة بن عبد الله الحطمي عن محمد ابن كعب القرطي أنه سمع رجلا من بني وائل يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تجب الجمعة على كلّ مسلم إلا امرأة أو صبي أو مملوك " .

وأخبرنا أن فنجويه قال : حدّثنا ابن يوسف قال : حدّثنا ابن وهب قال : حدّثنا الربيع بن سليمان الجبري قال : حدّثنا عبد الملك بن سلمة القرشي قال : حدّثنا أبو المثنى سلمان بن يزيد الكعبي عن محمد بن عجلان عن أبي الزبير عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تحرم التجارة عند الأذان يوم الجمعة ويحرم الكلام عند الخطبة وتحل التجارة بعد صلاة الجمعة ولا تجب الجمعة على أربعة : المريض والعبد والصبي والمرأة ، فمن سعى بلهو أو تجارة أستغنى الله عنه والله غني حميد " .

وتجب الجمعة على أهل القرى إذا سمعوا النداء من المصر ، ووقت اعتبار سماع الأذان يكون المؤذّن صيّتاً والأصوات هادئة والريح ساكنة ، وموقف المؤذن عند سور البلد ، ويعتبر كل قرية بالسور الذي يليها ، هذا مذهب الشافعي ، وقال ابن عمر وأبو هريرة وأنس

: تجب الجمعة على من كان على عشرة أميال من المصر ، وقال سعيد بن المسيب : يجب على من آواه المبيت ، وقال الزهري : تجب على من كان على ستة أميال ، ربيعة أربع أميال ، مالك والليث : ثلاثة أميال .

وقال أبو حنيفة ، لا تجب الجمعة على أهل السواد سواء كانت القرية قريبة من البلد أو بعيدة ، حتى حكي أن محمد بن الحسن سأله هل تجب الجمعة على أهل دياره وبينها وبين الكوفة مجرى نهر ، فقال : لا .

(153/764)

واختلف الفقهاء في عدد من ينعقد بهم الجمعة ، فقال الحسن : ينعقد بأثنين ، وقال الليث ابن سعد وأبو يوسف : بثلاثة ، وقال سفيان الثوري وأبو حنيفة : بأربعة ، وقال ربيعة : الرأي بأثني عشر ، وقال الشافعي : لا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين نفساً ، قال : فكل قرية جمعت فيها أربعين بالغين عاقلين أحرار مقيمين لا يظعنون عنها شتاءً وصيفاً الا ظعن حاجة وجبت عليهم الجمعة ، وقال مالك : إذا كانت قرية فيها سوق ومسجد فعليهم الجمعة من غير أعتبار عدد ، وقال أبو حنيفة : لا تجب الجمعة على أهل السواد والقرى ولا يجوز لهم أقامتها فيها ، وأشترط في وجوب الجمعة وأنعقادها : المصر الجامع للسلطان

القاهر والسوق القائمة والنهر الجاري ، واحتج بحديث علي كرم الله وجهه : لا جمعة ولا تسويق إلا في مصر جامع ، وفي بعض الأخبار إلا على أهل مصر جامع وضعّفه بعضهم .

والدليل على أبي حنيفة حديث ابن عباس قال : أول جمعة جمعت بعد جمعة النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة في قرية من قرى البحرين يقال لها جواثاً ، وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب الى أهل البحرين صلّوا الجمعة حيث ماكنتم ، وتصح إقامة الجمعة بغير إذْن السلطان وحضوره ، وقال أبو حنيفة : من شرطها الإمام أو خليفة .

والدليل على أن السلطان ليس بشرط في أنعقاد الجمعة ، ما روي أن الوليد بن عقبة والي الكوفة أبطأ يوماً في حضور الجمعة فتقدّم عبد الله بن مسعود وصلى الجمعة بالناس من غير إذنه ، وروي أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه صلى الجمعة بالناس ، يوم حصر عثمان ولم يُنقل أنه إستأذنه ، وروى أن سعيد بن العاص والي المدينة لما أخرج من المدينة صلى أبو موسى الأشعري الجمعة بالناس من غير استئذان .

(154/764)

ولا يجوز أن يصلي في بلد واحد إلاّ جمعة واحدة فأن صليت ثانية بطلت ، وقال أبو يوسف : فإن كان للبلد جانبان جاز أن يصلي كل جانب منه جمعة ، وقال محمد بن الحسن يجوز أن

يصلي في بلد واحد جمعتان أستحساناً .

فأما الوعيد الوارد لمن ترك صلاة الجمعة من غير عذر ، فأخبرنا أبو عمرو الفراتي قال : حدّثنا أبو العباس الأحمر قال : أخبرنا محمد بن عبد الله بن الحكم قال : أخبرنا ابن أبي فديك قال : أخبرنا ابن أبي ذئب عن أسيد بن أسيد البرّاد عن عبد الله بن قتادة عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من ترك الجمعة ثلاثاً من غير ضرورة طبع الله على قلبه " .

وروى عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لينتهين أقوام يسمعون النداء يوم الجمعة ثم لا يشهدونها أو ليطبعن الله على قلوبهم أو ليكونن من الغافلين أو ليكونن من أهل النار " .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم خطب فقال :

" إن الله قد افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا ، في يومي هذا ، [في شهري هذا من عامي هذا إلى يوم القيامة] فمن تركها في حياتي أو بعد مماتي وله إمام عادل أو جائر من غير عذر فلا بارك الله له ولا جمع الله شمله ألا فلا حج له ألا ولا صوم له ، ومن تاب تاب الله عليه " .

أخبرنا أبو عبد الله الفتحوي قال : حدّثنا أبو بكر القطيعي قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا حسن بن علي عن الحسن بن الحر عن ميمون بن أبي المسيّب قال : أردت الجمعة زمن الحجاج ، قال : فتهيأت للذهاب ثم قلت : أين أذهب أصلي خلف هذا فقلت مرة : أذهب ، وقلت مرة : لا أذهب قال : فاجمع رأي على الذهاب ، فناداني مناد من جانب البيت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ قال : وجلست اكتب كتاباً فعرض لي شيء إن أنا كتبته في كتابي زُين كتابي وكنت قد كذبت ، فأن أنزلته كان في كتابي بعض القبح وكنت قد صدقت ، فقلت مرة : اكتب ، وقلت مرة : لا أكتب ، فأجمع رأيي على تركه فتركته ، فناداني مناد من جانب البيت ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمَنُواْ بالقول الثابت فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة ﴾ [إبراهيم : 27] .

فأما ثواب من شهد الجمعة

وأخبرنا أحمد بن أبي قال : حدّثنا الهيثم بن كليب قال : حدّثنا عيسى بن أحمد قال : حدّثنا بقية قال : حدّثني الضحاك بن حمزة عن أبي نصرة عن أبي رجاء العطار عن أبي بكر الصديق وعمر بن حصين قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من اغتسل يوم

الجمعة كُفِّرت عنه ذنوبه وخطاياه فإذا أخذ في المشي [إلى الجمعة] كتب له بكل خطوة عمل عشرين سنة فإذا (فرغ) من (الجمعة) أجيز بعمل مائتي سنة " .

(156/764)

وأخبرنا أحمد بن أُبي في آخرين قالوا : حدّثنا أبو العباس الأصم قال : أخبرنا الربيع قال : أخبرنا الشافعي قال : أخبرنا مالك عن سمي عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرّب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشاً ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرّب بيضة . فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر " .

وأخبرنا أبو عمرو الفراتي قال : أخبرنا أبو القاسم عمر بن أحمد بن الحسن البصري قال : حدّثنا عبد الله بن محمد بن شودب قال : حدّثنا محمد بن عبد الملك الدقيقي قال : حدّثنا الحسن بن عرفة قال : حدّثنا بن يزيد بن هارون عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" ليلة أُسري بي الى السماء رأيت تحت العرش سبعين مدينة كل مدينة مثل دنيا كم هذه

سبعين مرة مملوءة من الملائكة يسبحون الله ويقدّسونه ويقولون في تسبيحهم : اللهم أغفر لمن شهد الجمعة ، اللهم أغفر لمن اغتسل في الجمعة " .

فأما فضل يوم الجمعة فأخبرنا أبو عمرو الفراتي وأبو عبد الله الحافظ وأبو محمد الكناني وأبو علي الثوري قالوا : حدّثنا أبو العباس محمد بن يعقوب بن يوسف قال : أخبرنا الربيع قال : أخبرنا الشافعي قال : أخبرنا مالك عن يزيد بن عبد الله بن السهاد عن محمد بن إبراهيم بن الحرث عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط وفيه [تِيْبَ] عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة وما من دابة إلاّ وهي مسبحة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلاّ الجن والإنس وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم يسأل الله شيئاً إلاّ أعطاه إياه " .

(157/764)

" قال أبو هريرة : قال عبد الله بن سلام : هي آخر ساعة في يوم الجمعة ، فقلت له : كيف يكون آخر ساعة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي وتلك الساعة لا يصلي فيه فقال ابن سلام ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم " من جلس

مجلساً ينتظر فيه الصلاة فهو في الصلاة حتى يصلّي" فقلت بلى قال : "فهو ذلك" .

وأخبرنا عبد الخالق قال : أخبرنا ابن هند قال : حدّثنا يحيى بن أبي طالب قال حدّثنا أَبُو بدر شجاع بن الوليد السكوني قال حدّثنا زياد بن خيثمة عن عثمان بن أبي مسلم "عن أنس بن مالك قال : أبطأ علينا رسول اللّه (عليه السلام) ذات يوم فلمّا خرج قلنا : أحُبستَ قال : ذلك أنّ جبرئيل (عليه السلام) أتاني بهيئة المرأة البيضاء فيها نكتة سوداء فقال إنّ هذه الجمعة فيها خيرٌ لك ولأمّتك وقد أرادها النصارى فأخطؤوها ، قلت : يا جبرائيل ما هذه النكتة السوداء ؟ قال : هذه السّاعة الّتي في يوم الجمعة لا يوافقها مسلم يسأل اللّه فيها خيراً إلاّ أعطاه إيّاه أو ذخر له مثله يوم القيامة أو صرف عنه من السوءِ مثله وإنّه خيرُ الأيّام عند اللّه ، وإنّ أهل الجنّة يسمّونه يوم المزيد ، قلت : يا رسول الله وما يوم المزيد ؟

(158/764)

قال : إنّ في الجنّة وادياً ، رائحة نبته مسك أبيض ، ينزل اللّه سبحانه وتعالى كل يوم جمعة ويضع كرسيّه فيه ، ثم يجاءُ بمنابر من نور وتوضع خلفه فتحفُّ منه الملائكة ثم يجاءُ بكرسي من ذهب فيوضع ، ثمّ يجيىء النبيّيون والصدّيقون والشهداء والمؤمنون أهل

الغرف فيجلسون ثمّ يُقسم اللّه سبحانه وتعالى فيقول : أي عبادي سلوا ، فيقولون : نسألك رضوانك ؟ فيقول : قد رضيت عنكم ، فسلوا ، فيسألون مناهم فيعطيهم اللّه ما شاءوا وأضعافها فيعطيهم مالا عين رأت ولا خطر على قلب بشر ، ثم يقول : ألم أُنجزكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي ، وهذا محل كرامتي ، ثم ينصرفون إلى غرفهم ويعودون كلّ يوم جمعة قلت : يا جبرائيل ما غرفهم ؟ قال : من لؤلؤة بيضاء أو ياقوتة حمراء أو زبرجدة خضراء مفرزة منها أبوابها فيها أزواجها ، مطردة فيها أنهارها " .

وأخبرنا عبد الخالق قال : أخبرنا أَبو العبّاس عبد الوهّاب بن عبد الجليل ذكر قال حدّثنا أَبو محمّد أحمد بن محمّد بن إسحاق السني قال حدّثنا أحمد بن غالب البصري الزاهد بعد إذ قال حدّثنا دينار مولى أنس بن مالك قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " إنّ ليلة الجمعه ويوم الجمعة أربعة وعشرون ساعة ، للّه سبحانه في كل ساعة ستمائه ألف عتيق من النّار " .

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة ﴾ أي فرغ منها .

﴿ فانتشروا فِي الأرض ﴾ للتجارة والتصرف في حوائجكم .

﴿ وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ أي الرزق وهما أمر إباحة وتخيير كقوله سبحانه ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فاصطادوا ﴾ [المائدة : 2] .

وقد أخبر عقيل أنّ أبا الفرح أخبرهم عن أبي جعفر الطبري قال : حدّثني العبّاس بن أبي طالب قال حدّثنا علي بن المعافي بن يعقوب الموصلي قال : حدّثنا أَبو علي الضايع عن أبي خلف عن أنس قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في قول الله سبحانه ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ قال : ليس بطلب دنيا ولكن عيادة مريض ، وحضور جنازة ، وزيارة أخ في اللّه .

قال الحسن وسعيد بن جبير ومكحول ﴿ وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ هو طلب العلم .

وقال جعفر بن محمّد الصّادق ﴿ فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ هو يوم السبت .

﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً ﴾ الآية أخبرنا عبد اللّه بن حامد قال : أخبرنا محمّد بن جعفر قال حدّثنا علي بن حرب قال حدّثنا ابن فضيل قال حدّثنا حُصَين عن سالم بن الجعد عن جابر ابن عبد اللّه قال : أقبلت عيرٌ ونحن نصلّي مع النبّي (عليه السلام) الجمعة فانفضّ الناس إليها فما بقي غير إثني عشر رجلا أنا فيهم فنزلت ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً ﴾ الآية .

وقال الحسن وأَبو مالك : أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر ، فقدم دُحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فلمّا رأوهُ قاموا إليه

بالبقيع ، خشوا أن يسبقوا إليه فلم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلاّ رهط منهم أَبو بكر وعمر ، فنزلت هذه الآية فقال رسول اللّه (عليه السلام) : " والّذي نفس محمّد بيده لو تتابعتم حتّى لا يبقى أحدٌ منكم لسال بكم الوادي ناراً " .

(160/764)

قال المقاتلان : " بينا رسول اللّه (عليه السلام) يخطب يوم الجمعة إذ قدم دُحية بن خليفة بن فروة الكلبي ثم أحد بني الخزرج ثم أحد بني زيد بن مناة بن عامر من الشام بتجارة ، وكان إذا قدم لم يبق بالمدينة عاتق إلاّ أتاه وكان يقدّم إذا قدم كل ما يحتاج إليه من دقيق أو بُرّ أو غيره ، فينزل عند أحجار الزيت ، وهو مكان في سوق المدينة ، ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فيخرج إليه الناس ، فقدم ذات جمعة وكان ذلك قبل أن يُسلم ، ورسول اللّه (عليه السلام) قائماً على المنبر يخطب ، فخرج النّاس فلم يبقَ في المسجد إلاّ إثنا عشر رجلا وامرأة فقال النبي (عليه السلام) : لولا هؤلاء لسوّمت عليهم الحجارة من السماء " وأنزل اللّه سبحانه هذه الآية ، وقال ابن عباس في رواية الكلبي لم يبق في المسجد إلاّ ثمانية رهط ، وقال ابن كيسان : رجوا إلاّ أحد عشر رجلا وامرأة .

قال قتادة ومقاتل : بلغنا أنّهم فعلوا ذلك ثلاث مرات ، وكل مرّة بعير تقدم من الشام ، وكل

ذلك يوافق يوم الجمعة .

وقال مجاهد : كانوا يقومون إلى نواضحهم وإلى السفر ، يقدّمون يتبعون التجارة واللهو ، فأنزل اللّه سبحانه ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً ﴾ قال المفسّرون : يعني الطبل وذلك أنّ العير كانت إذا قدمت المدينة استقبلوها بالطبل والتصفير .

وقال جابر بن عبد اللّه : كان الجواري إذا نكحوا يمرّون بالمزامير والطبل فانفضّوا إليها ، فنزلت هذه الآية ، وقوله ﴿ انفضوا إِلَيْهَا ﴾ ردّ الكناية إلى التجارة لأنّها أهم وأفضل ، وقد مضت هذه المسألة .

وقرأ طلحة بن مصرف ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ﴾ .

﴿ وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾ على المنبر .

(161/764)

أخبرنا عبد اللّه بن حامد قال : أخبرنا أبو عَمْرو بن الحسن قال حدّثنا أحمد بن الحسن بن سعيد قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا حُصين عن مسعر وأبي حنيفة عن حماد عن إبراهيم عن حسان عن عبيدة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد اللّه أنّه سئل : أكان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب قائماً أو قاعداً ؟

قال أما تقرأ ﴿ وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾ .

﴿ قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللهوِ وَمِنَ التجارة ﴾ قرأ أبو رجاء العطاردي ﴿ خَيْرٌ مِّنَ اللهو وَمِنَ التجارة ﴾ .

﴿ واللهُ خَيْرُ الرازقين ﴾ لأنّه موجد الأرزاق فإيّاه فاسألوا ومنه فاطلبوا . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 305 . 319 ﴾

(162/764)

وقال الزمخشرى :

سورة الجمعة

مدنية ، وآياتها 11 [نزلت بعد الصف] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة الجمعة (62) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (2) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذلِكَ

فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4)

قرئت صفات اللّه عزّ وعلا بالرفع على المدح ، كأنه قيل : هو الملك القدوس ، ولو قرئت منصوبة لكان وجها ، كقول العرب : الحمد للّه أهل الحمد . الأمى : منسوب إلى أمّة العرب ، لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرؤن من بين الأمم . وقيل : بدأت الكتابة بالطائف ، أخذوها من أهل الحيرة ، وأهل الحيرة من أهل الأنبار . ومعنى بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ بعث رجلا أميا في قوم أميين ، كما جاء في حديث شعياء : أنى أبعث أعمى في عميان ، وأمّيا في أميين «1» وقيل منهم ، كقوله تعالى مِنْ أَنْفُسِكُمْ يعلمون نسبه وأحواله . وقرئ : في الأمين ، بحذف ياءى النسب

---

(1) . أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق عبد الصمد بن معقل ، سمعت وهب بن منبه يقول «أوحى اللّه إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له شعياء فذكره مطولا . [.....]

يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ يقرؤها عليهم مع كونه أمّيا مثلهم لم تعهد منه قراءة ولم يعرف بتعلم ، وقراءة أمى بغير تعلم آية بينة وَيُزَكِّيهِمْ ويطهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ القرآن والسنة . وإن في وَإِنْ كانُوا هي المخففة من الثقيلة واللام دليل عليها ، أى :

كانوا في ضلال لا ترى ضلالا أعظم منه وَآخَرِينَ مجرور عطف على الأميين، يعنى: أنه بعثه في الأميين الذين على عهده، وفي آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون بهم، وهم الذين بعد الصحابة رضى اللّه عنهم. وقيل: لما نزلت قيل: من هم يا رسول اللّه، فوضع يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من هؤلاء» وقيل: هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم القيامة، ويجوز أن ينتصب عطفا على المنصوب في وَيُعَلِّمُهُمُ أى: يعلمهم ويعلم آخرين لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستندا إلى أوّله، فكأنه هو الذي تولى كل ما وجد منه وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ في تمكينه رجلا أمّيا من ذلك الأمر العظيم، وتأييده عليه، واختياره إياه من بين كافة البشر ذلِكَ الفضل الذي أعطاه محمدا وهو أن يكون نبى أبناء عصره، ونبى أبناء العصور الغوابر، هو فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ إعطاءه وتقتضيه حكمته.

[سورة الجمعة (62): آية 5]

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5)

شبه اليهود - في أنهم حملة التوراة وقرّاؤها وحفاظ ما فيها، ثم إنهم غير عاملين بها ولا منتفعين بآياتها، وذلك أنّ فيها نعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والبشارة به ولم يؤمنوا به - بالحمار حمل أسفارا، أى كتبا كبارا من كتب العلم، فهو يمشى بها ولا يدرى منها إلا

ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب. وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله، وبئس المثل بِئْسَ مثلا مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وهم اليهود الذين كذبوا بآيات اللّه الدالة على صحة نبوّة محمد صلى اللّه عليه وسلم. ومعنى حُمِّلُوا التَّوْراةَ: كلفوا علمها والعمل بها، ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها ثم لم يعملوا بها، فكأنهم لم يحملوها. وقرئ: حملوا التوراة، أى حملوها ثم لم يحملوها في الحقيقة لفقد العمل. وقرئ: يحمل الأسفار. فإن قلت: يَحْمِلُ ما محله؟ قلت: النصب على الحال «1»، أو الجر على الوصف، لأنّ الحمار كاللئيم في قوله:

ولقد أمرّ على اللّئيم يسبّنى «2»

---

(1). قال محمود: «إما أن يكون قوله يَحْمِلُ حالا، كقوله:

ولقد أمر على اللئيم يسبني

قال أحمد: يريد أن المراد فيها الجنس، فتعريفه وتنكيره سواء.

(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 16 فراجعه إن شئت اه مصححه.

[سورة الجمعة (62): الآيات 6 إلى 8]

قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ

صادِقِينَ (6) وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)

هاد يهود : إذا تهود «1» أَوْلِياءُ لِلَّهِ كانوا يقولون : نحن أبناء اللّه وأحباؤه ، أى : إن كان قولكم حقا وكنتم على ثقة فَتَمَنَّوُا على اللّه أن يميتكم وينقلكم سريعا إلى دار كرامته التي أعدّها لأوليائه ، ثم قال وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بسبب ما قدّموا من الكفر ، وقد قال لهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «والذي نفسي بيده لا يقولها أحد منكم إلا غص بريقه» فلولا أنهم كانوا موقنين بصدق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لتمنوا ، ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد ، فما تمالك أحد منهم أن يتمنى ، وهي إحدى المعجزات. وقرئ :

فتمنوا الموت ، بكسر الواو ، تشبيها بلو استطعنا. ولا فرق بين «لا» و«لن» في أن كل واحدة منهما نفى للمستقبل ، إلا أن في «لن» تأكيدا وتشديدا ليس في «لا» فأتى مرّة بلفظ التأكيد وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ ومرّة بغير لفظه وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ ثم قيل لهم : إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ ولا تجسرون أن تتمنوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم لا تفوتونه وهو ملاقيكم لا محالة ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى اللّه فيجازيكم بما أنتم أهله من العقاب. وقرأ زيد بن على رضى اللّه عنه : إنه ملاقيكم. وفي قراءة ابن مسعود : تفرون منه ملاقيكم ، وهي ظاهرة. وأما التي بالفاء ،

فلتضمن الذي معنى الشرط ، وقد جعل إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ كلاما برأسه في قراءة زيد ، أى : إنّ الموت هو الشيء الذي تفرّون منه ، ثم استؤنف : إنه ملاقيكم .

[سورة الجمعة (62) : الآيات 9 إلى 10]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10)

---

(1) . قوله «هاد يهود إذا تهود» في الصحاح : هاد يهود : تاب ورجع إلى الحق ، وهاد وتهود : إذا صار يهوديا . (ع)

يوم الجمعة : يوم الفوج المجموع ، كقولهم : ضحكة ، للمضحوك منه . ويوم الجمعة ، بفتح الميم : يوم الوقت الجامع ، كقولهم : ضحكة ، ولعنة ، ولعبة ويوم الجمعة تثقيل للجمعة ، كما قيل : عسرة في عسر . وقرئ بهنّ جميعا . فإن قلت : من في قوله مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ما هي ؟ قلت : هي بيان لإذا وتفسير له . والنداء : الأذان . وقالوا : المراد به الأذان عند قعود الإمام على المنبر ، وقد كان لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مؤذن واحد ، فكان إذا

جلس على المنبر أذن على باب المسجد ، فإذا نزل أقام للصلاة «1» ، ثم كان أبو بكر وعمر رضى اللّه عنهما على ذلك ، حتى إذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد مؤذنا آخر ، فأمر بالتأذين الأوّل على داره التي تسمى زوراء ، فإذا جلس على المنبر : أذن المؤذن الثاني ، فإذا نزل أقام للصلاة ، فلم يعب ذلك عليه . وقيل : أول من سماها «جمعة» كعب بن لؤي ، وكان يقال لها : العروبة . وقيل : إنّ الأنصار قالوا : لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام ، وللنصارى مثل ذلك ، فهلموا نجعل لنا يوما نجتمع فيه فنذكر اللّه فيه ونصلى . فقالوا : يوم السبت لليهود ، ويوم الأحد للنصارى ، فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم ، فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ، فأنزل اللّه آية الجمعة ، فهي أوّل جمعة ، كانت في الإسلام «2» وأما أوّل جمعة جمعها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فهي : أنه لما قدم المدينة مهاجرا نزل قباء على بنى عمرو بن عوف ، وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأسس مسجدهم ، ثم خرج يوم الجمعة عامدا المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بنى سالم بن عوف في بطن واد لهم ، فخطب وصلى الجمعة «3» . وعن بعضهم : قد أبطل اللّه قول اليهود في ثلاث : افتخروا بأنهم أولياء اللّه وأحباؤه ، فكذبهم في قوله فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ وبأنهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم فشبههم بالحمار يحمل أسفارا ، وبالسبت وأنه ليس للمسلمين مثله فشرع اللّه لهم الجمعة .

وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أهبط إلى الأرض ، وفيه تقوم الساعة ، وهو عند اللّه يوم المزيد .

وعنه عليه السلام : «أتانى جبريل وفي كفه مرآة بيضاء وقال : هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيدا ولأمّتك من بعدك ، وهو سيد الأيام عندنا ، ونحن

---

(1) . متفق عليه من حديث السائب بن يزيد بغير هذا السياق ، وليس فيه على باب المسجد .

(2) . أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين بهذا مطولا . وأخرجه الثعلبي من طريقه . وروى الطبراني من حديث كعب بن مالك نحوه باختصار .

(3) . أخرجه ابن إسحاق في المغازي عن محمد بن جعفر عن عروة بن عبد الرحمن بن عويم أخبرنى بعض قومي قال قدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المدينة يوم الاثنين . ذكر ذلك مطولا . ومن طريقه البيهقي في الدلائل .

وذكره ابن هشام في مختصره عن ابن إسحاق بغير إسناد

ندعوه إلى الآخرة يوم المزيد» «1» . وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «إنّ للّه تعالى في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار «2» . وعن كعب : إنّ اللّه فضل من البلدان : مكة ، ومن الشهور : رمضان ، ومن الأيام : الجمعة . وقال عليه الصلاة والسلام «من مات يوم الجمعة كتب اللّه له أجر شهيد ، ووقى فتنة القبر» «3» وفي الحديث : «إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المسجد «4» بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب ، يكتبون الأوّل فالأوّل على مراتبهم» «5» وكانت الطرقات في أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر مغتصة بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج .

---

(1) . متفق عليه دون قوله «وهو عند اللّه يوم المزيد» البزار والطبري من طريق جهضم بن عبد اللّه بن الطفيل عن أبى طيبة عن عثمان بن عمير عن أنس بهذا مطولا . ولفظه «ونحن ندعوه في الآخرة» وهو الصواب وفي رواية الطبري في تفسير في حدثنا جهضم بن عبد اللّه بن الطفيل عن أبى طيبة عن عثمان بن عمير عن أنس بهذا مطولا ولفظه «ونحن ندعوه في الآخرة» وهو الصواب . وفي رواية الطبري في تفسير ق حدثني أبو طيبة عن معاوية العبسي عن عثمان . ورواه ابن مردويه من رواية على بن الحكم البناني وعنبسة بن سعيد ، كلاهما عن عثمان بن عمير عن أنس به . وطريق على بن الحكم عن أبى يعلى وأخرجه ابن أبى شيبة وإسحاق من رواية ليث بن أبى سليم عن عثمان ابن عمير به . ورواه الشافعي بإسناد واه قال : أخبرنى إبراهيم بن أبى يحيى حدثني موسى بن عبيدة حدثني

أبو الأزهر معاوية بن إسحاق بن طلحة عن عبد اللّه بن عمير أنه سمع أنس بن مالك نحوه. وله طريق أخرى عن أنس أخرجه الطبراني في الأوسط. من رواية ثابت بن ثوبان عن سالم بن عبد الله عن أنس. وقال إسحاق بن راهويه. أخبرنا محمد بن شعيب حدثني عمر مولى عمرة عن أنس. وله شاهد من حديث حذيفة أخرجه البزار من رواية القاسم بن مطيب عن الأعمش عن أبى وائل عنه.

(2). أخرجه أبو يعلى والبيهقي في الشعب وابن عدى وابن حبان من رواية أزور بن غالب عن سليمان التيمي عن ثابت عن أنس والأزور. قال الدارقطني: متروك. رواه أبو يعلى من رواية المعتمر بن نافع عن عبد الله العمرى عن ثابت حدثني أنس، وأخرجه البخاري وفي التاريخ في ترجمة المعتمر. وأخرجه الدارقطني في الأفراد من رواية عبد الواحد بن زيد بن ثابت.

(3). قال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج عن رجل عن ابن شهاب أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال «من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقى فتنة القبر وكتب له أجر شهيد» وقال أبو مرة في السنن: ذكر ابن جريج أخبرنى سفيان عن ربيعة بن سيف عن عبد اللّه بن عمرو مرفوعا مثله. ومن طريق ربيعة أخرجه الترمذي ولم يذكر الشهادة وقال: غريب وليس لربيعة سماع من عبد اللّه بن عمرو انتهى. وقد وصله الطبراني وأبو يعلى من حديث ربيعة عن عياض عن قبة العزى عن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما. وله طريق أخرى

أخرجها أحمد وإسحاق والطبراني من رواية بقية : حدثني معاوية عن سعيد سمعت أبا قبيل سمعت عبد الله بن عمرو نحوه . ورواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة ابن المنكدر من طريق عمر بن موسى بن الوجيه عن جابر ، بلفظ «من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة أجير من عذاب القبر ، وجاء يوم القيامة عليه طابع الشهداء» .

(4) . قوله «على أبواب المسجد» لعله «المساجد» . وفي الخازن : إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المساجد ملائكة يكتبون . . . الخ» . (ع)

(5) . أخرجه ابن مردويه من طريق عمرو بن سمرة عن سعد بن طريف عن الأصبغ بن نباتة عن على وإسناده ضعيف جدا . وهو في الصحيح من حديث أبى هريرة دون قوله بأيديهم صحاف من فضة وأقلام من ذهب» .

(167/764)

وقيل : أوّل بدعة أحدثت في الإسلام : ترك البكور إلى الجمعة . وعن ابن مسعود : أنه بكر فرأى ثلاثة نفر سبقوه ، فاغتم وأخذ يعاتب نفسه يقول : أراك رابع أربعة وما رابع أربعة بسعيد «1» . ولا تقام الجمعة عند أبى حنيفة رضى اللّه عنه إلا في مصر جامع ، لقوله عليه السلام :

«لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع» «2» والمصر الجامع : ما أقيمت فيه الحدود ونفذت فيه الأحكام ، ومن شروطها الإمام أو من يقوم مقامه ، لقوله عليه السلام «فمن تركها وله إمام عادل أو جائر . . . الحديث» «3» وقوله صلى اللّه عليه وسلم : «أربع إلى الولاة : الفيء ، والصدقات «والحدود ، والجمعات» «4» . فإن أمّ رجل بغير إذن الإمام أو من ولاه من قاض أو صاحب شرطة : لم يجز ، فإن لم يكن الاستئذان فاجتمعوا على واحد فصلى بهم : جاز ، وهي تنعقد بثلاثة سوى الإمام. وعند الشافعي بأربعين . ولا جمعة على المسافرين والعبيد والنساء والمرضى والزمنى ، ولا على الأعمى عند أبى حنيفة ، ولا على الشيخ الذي لا يمشى إلا بقائد . وقرأ عمر وابن عباس وابن مسعود وغيرهم : فامضوا . وعن عمر رضى اللّه عنه أنه سمع رجلا يقرأ : فاسعوا ، فقال : من أقرأك هذا ؟ قال أبىّ بن كعب ، فقال : لا يزال يقرأ بالمنسوخ ، لو كانت فَاسْعَوْا لسعيت حتى يسقط ردائي . وقيل : المراد بالسعي القصد دون

---

(1) . أخرجه ابن ماجة والبزار من رواية الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال «خرجت مع عبد اللّه بن مسعود إلى الجمعة ، فوجد ثلاثة قد سبقوه - فذكره . وليس فيه فاغتم وأخذ يعاتب نفسه ، وزاد «إنى سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : إن الناس يجلسون من اللّه يوم القيامة على قدر رواحهم إلى الجمعات» واختلفا في الراوي عن الأعمش مع اتفاقهما على أنه من رواية عبد المجيد بن أبى رواد . ففي ابن ماجة بينهما

معمر وفي البزار بينهما مروان بن سالم . وذكره ابن أبى حاتم في العلل روى عن عبد المجيد عن الثوري عن الأعمش . وهذا لا يصح عن الثوري .

(2) . لم أره مرفوعا ورواه ابن أبى شيبة عن على . وإسناده ضعيف .

(3) . أخرجه ابن ماجة من رواية عبد اللّه بن محمد العدوى عن على بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب عن جابر قال «خطبنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : أيها الناس توبوا إلى اللّه قبل أن تموتوا - الحديث بطوله» وفيه هذا وغيره أخرجه ابن عدى . وروى عن وكيع أن العدوى كان يضع الحديث . وله طريق أخرى عند أبى يعلى من رواية فضيل بن مرزوق : أخبرنى الوليد بن بكير عن نمر بن على عن سعيد بن المسيب . وفي إسناده نظر .

فقال : رواه الطبراني في الأوسط من رواية موسى بن عطية الباهلي عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبى سعيد .

وقال : تفرد به يحيى بن حبيب عن موسى بن عطية . وقال : رواه أسد بن موسى وعبد اللّه بن صالح العجلى عن فضيل بن مرزوق عن الوليد بن بكير عن عبد اللّه بن محمد العدوى عن على بن زيد عن سعيد عن جابر . قلت :

فرجعت الرواية الأخرى إلى العدوى وقال ابن حبان في الضعفاء : أخبرنا ابن خزيمة حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غزوان حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد ، وقال محمد بن

عبد الرحمن يروى العجائب . ورواه في الضعفاء أيضا من طريق خالد بن عبد الدائم حدثنا نافع بن يزيد عن زهرة بن معبد عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة وأهله بخالد بن عبد الدايم . وقال الدارقطني في العلل : اختلف زهرة وعلى في صحته . وكلاهما غير ثابت . [. . . . . .]

(4) . لم أره مرفوعا .

(168/764)

العدو ، والسعى : التصرف في كل عمل . ومنه قوله تعالى فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعَى وعن الحسن : ليس السعى على الأقدام ، ولكنه على النيات والقلوب .

وذكر محمد بن الحسن رحمه الله في موطنه : أن عمر سمع الإقامة وهو بالبقيع فأسرع المشي . قال محمد : وهذا لا بأس به ما لم يجهد نفسه إِلى ذِكْرِ اللَّهِ إلى الخطبة والصلاة ، ولتسمية الله الخطبة ذكرا له قال أبو حنيفة رحمه الله : إن اقتصر الخطيب على مقدار يسمى ذكرا لله كقوله :

الحمد لله ، سبحان الله : جاز «1» . وعن عثمان أنه صعد المنبر فقال : الحمد لله وأرتج

عليه ، فقال :

إن أبا بكر وعمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالا ، وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوّال ، وستأتيكم «2» الخطب ، ثم نزل ، وكان ذلك بحضرة الصحابة ولم ينكر عليه أحد .

وعند صاحبيه والشافعي : لا بد من كلام يسمى خطبة . فإن قلت : كيف يفسر ذكر الله بالخطبة وفيها ذكر غير الله ؟ «3» قلت : ما كان من ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو في حكم ذكر الله ، فأمّا ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم ، وهم أحقاء بعكس ذلك ، فمن ذكر الشيطان وهو من ذكر الله على مراحل ، وإذا قال المنصت للخطبة لصاحبه «صه» فقد لغا ، أفلا يكون الخطيب الغالي في ذلك لاغيا ، نعوذ بالله من غربة الإسلام ونكد الأيام .

أراد الأمر بترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا ، وإنما خص البيع من بينها لأن يوم

---

(1) . قال : محمود «استدل بذلك على مذهب أبى حنيفة رحمه الله . . . الخ» قال أحمد : ولا دليل فيه ، فان العرب تسمى الشيء باسم بعض ما يشتمل عليه ، كما سميت الصلاة مرة قرآنا ومرة سجودا ومرة ركوعا ، لأنها مشتملة على ذلك ، فكذلك الخطبة لما كانت مشتملة على ذكر الله سميت به ، ولا يلزم أن يكون كذلك كل ما اشتملت عليه . لا سيما والمسمى خطبة عند العرب لا بد وأن يزيد على القدر الذي اكتفى به أبو حنيفة .

قال بعض أصحاب مالك رحمه الله : أقلها حمد اللّه والصلاة على نبيه وتحذير وتبشير وقرآن .

(2) . أتبع الزمخشري الاستدلال على مذهب أبى حنيفة بالآية ، بأثر عن عثمان : وهو أنه صعد المنبر فقال إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال ، وستأتيكم الخطب ثم نزل وكان ذلك بحضرة الصحابة فلم ينكر عليه أحد » قال أحمد : سلمه بلا اشتباه ، فإن عثمان لم يصدر ذلك منه في خطبة الجمعة ، وإنما كان ذلك في ابتداء خلافته وصعوده المنبر للبيعة ، وكانت عادة العرب الخطب في المهمات .

ألا ترى إلى قوله : وستأتيكم بعد ذلك الخطب ، فان ذلك يحقق أن مقالته هذه ليست بخطبة ، ولو كان في الجمعة لكان تاركا للخطبة بالكلية ، وهي منقولة في التاريخ أنه أرتج عليه فقال : سيجعل اللّه بعد عسر يسرا وبعد عي بيانا ، وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال ، وستأتيكم الخطب .

(3) . قال محمود : «إن قلت : كيف فسر ذكر اللّه بالخطبة وفيه ذكر غير اللّه ، وأجاب بأن ذكر رسول اللّه والصحابة والخلفاء الراشدين . . . الخ» قال أحمد : الدعاء السلطان الواجب الطاعة مشروع بكل حال . وقد نقل عن بعض السلف أنه دعا لسلطان ظالم فقيل

له : أتدعو له وهو ظالم ؟ فقال : إي واللّه أدعو ، له إن ما يدفع اللّه ببقائه أعظم مما يندفع بزواله ، لا سيما إذا ضمن ذلك الدعاء بصلاحه وسداده وتوفيقه ، واللّه الموفق .

(169/764)

الجمعة يوم يهبط الناس فيه من قراهم وبواديهم ، وينصبون إلى المصر من كل أوب ووقت هبوطهم واجتماعهم واغتصاص الأسواق بهم إذا انتفخ النهار «1» وتعالى الضحى ودنا وقت الظهيرة ، وحينئذ تحرّ التجارة ويتكاثر البيع والشراء ، فلما كان ذلك الوقت مظنة الذهول بالبيع عن ذكر اللّه والمضي إلى المسجد ، قيل لهم : بادروا تجارة الآخرة ، واتركوا تجارة الدنيا ، واسعوا إلى ذكر اللّه الذي لا شيء أنفع منه وأربح وَذَرُوا الْبَيْعَ الذي نفعه يسير وربحه مقارب . فإن قلت : فإذا كان البيع في هذا الوقت مأمورا بتركه محرما ، فهل هو فاسد ؟ قلت :

عامّة العلماء على أن ذلك لا يوجب فساد البيع . قالوا : لأنّ البيع لم يحرم لعينه ، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب ، فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة والثوب المغصوب ، والوضوء بماء مغصوب ، وعن بعض الناس : أنه فاسد . ثم أطلق لهم ما حظر عليهم بعد قضاء الصلاة من الانتشار وابتغاء الربح ، مع التوصية بإكثار الذكر ، وأن لا يلهيهم شيء من

تجارة ولا غيرها عنه ، وأن تكون هممهم في جميع أحوالهم وأوقاتهم موكلة به لا ينفصون عنه

، لأنّ فلاحهم فيه وفوزهم منوط به : وعن ابن عباس : لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا ،

إنما هو عيادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة أخ في اللّه : وعن الحسن وسعيد بن المسيب

: طلب العلم ، وقيل :

صلاة التطوّع : وعن بعض السلف أنه كان يشغل نفسه بعد الجمعة بشيء من أمور الدنيا

نظرا في هذه الآية.

[سورة الجمعة (62) : آية 11]

وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ

وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11)

روى أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد ، فقدم دحية بن خليفة بتجارة من زيت

الشام والنبي صلى اللّه عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فقاموا إليه ، خشوا أن يسبقوا إليه ،

فما بقي معه إلا يسير. قيل : ثمانية ، وأحد عشر ، واثنا عشر ، وأربعون ، فقال عليه

السلام :

«و الذي نفس محمد بيده ، لو خرجوا جميعا لأضرم اللّه عليهم الوادي «2» نارا» وكانوا

إذا

---

(1) . قوله «إذا انتفخ النهار» أى علا. وقوله «تحر» أى تعطش أو يشتد حرها. أفاده

الصحاح. (ع)

(2) . هكذا ذكره الواحدي عن المفسرين . وذكره الثعلبي ثم البغوي عن الحسن بغير إسناد . ولفظ الحسن أخرجه عبد الرزاق عن معمر عنه قال «أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر . فقدمت عير والنبي صلى اللّه عليه وسلم قائم يخطب يوم الجمعة فسمعوا بها وخرجوا إليها والنبي صلى اللّه عليه وسلم قائم يخطب كما هو ، فأنزل اللّه تعالى وَتَرَكُوكَ قائِماً فقال : لو اتبع آخرهم أولهم لا لتهب الوادي عليهم نارا» وفي رواية أبى سفيان الآتية عند ابن حبان نحوه قال «والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال الوادي عليكم نارا : «نزلت هذه الآية» وتعيين دحية في قوله «خشوا أن يسبقوا إليه» رواه الطبري مختصرا من رواية السدى عن ابن مالك قال : قدم دحية بن خليفة بتجارة زبيب من الشام والنبي صلى اللّه عليه وسلم يخطب يوم الجمعة . فلما رأوه قاموا خشية أن يسبقوا إليه فنزلت وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً - الآية وروى البزار من طريق عكرمة عن ابن عباس قال «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فجاء دحية يبيع سلعة فما بقي في المسجد أحد إلا خرج - إلا نفر - والنبي صلى اللّه عليه وسلم قائم فنزلت . وأصل هذه القصة في الصحيحين من رواية حصين عن سالم بن أبى الجعد عن جابر قال «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يخطب قائما يوم الجمعة فجاءت عير من الشام فانفتل الناس حتى لم يبق إلا اثنى عشر رجلا فأنزلت» وفي لفظ مسلم «منهم أبو بكر وعمر» وفي رواية له «أنا

فيهم» وفي رواية البخاري «بينما نحن نصلى مع النبي صلى اللّه عليه وسلم إذ أقبلت عير» قال البيهقي : المراد بقوله نصلى أى نسمع الخطبة ، جمعا بين الروايتين انتهى . وقد أخرجه ابن حبان من رواية أبى سفيان عن جابر كذلك . ولفظه «بينما النبي صلى اللّه عليه وسلم يخطب يوم الجمعة .

فقدمت عير من الشام إلى المدينة فابتدرها أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم حتى لم يبق معه إلا اثنى عشر رجلا - الحديث» ويؤيده حديث كعب بن عجرة عند مسلم «أنه أنكر على عبد الرحمن بن أم الحكم أن يخطب قاعدا .

فقال : انظروا إلى هذا يخطب قاعدا . واللّه يقول : وتركوك قائما» ويدل أيضا على أنه كان في الخطبة ما رواه أبو داود في المراسيل من رواية بكر بن معروف عن مقاتل بن حيان قال «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يصلى يوم الجمعة قبل الخطبة حتى إذا كان ذات يوم وهو يخطب وقد صلى الجمعة فدخل رجل فقال : إن دحية قد قدم .

وكان إذا قدم تلقوه بالدفاف فخرج الناس ، لم يظنوا إلا أنه ليس في ترك الخطبة شيء فأنزل اللّه الآية . فقدم النبي صلى اللّه عليه وسلم الخطبة يوم الجمعة «وأخر الصلاة» «تنبيه» لم أقف على رواية أنهم كانوا ثمانية ولا أحد عشر ، وأما رواية اثنى عشر فهي المشهورة الصحيحة . ورواية الأربعين أخرجها الدارقطني من طريق على بن عاصم عن حصين : وقال : لم يقل أحد من أصحاب حصين أربعون إلا على بن عاصم . والكل قالوا : اثنى

عشر رجلا .

وكذلك قال أبو سفيان عن جابر كما تقدم عند ابن حبان .

(170/764)

أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق ، فهو المراد باللهو : وعن قتادة : فعلوا ذلك ثلاث مرات في كل مقدم عير . فإن قلت : فإن اتفق تفرق الناس عن الإمام في صلاة الجمعة كيف يصنع ؟ قلت : إن بقي وحده أو مع أقل من ثلاثة ، فعند أبى حنيفة : يستأنف الظهر إذا نفروا عنه قبل الركوع . وعند صاحبيه : إذا كبر وهم معه مضى فيها . وعند زفر : إذا نفروا قبل التشهد بطلت . فإن قلت : كيف قال إِلَيْها وقد ذكر شيئين ؟ قلت : تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو لهوا انفضوا إليه : فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ، وكذلك قراءة من قرأ : انفضوا إليه . وقراءة من قرأ : لهوا أو تجارة انفضوا إليها . وقرئ : إليهما .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة الجمعة أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة وبعدد من لم يأتها في أمصار المسلمين» «1» . انتهى انتهى .

اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 529 . 537﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى اللّه عنه .

(171/764)

وقال الماوردى :

﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾

﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم ءاياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ .

﴿ بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾ يعني في العرب ، وفي تسميتهم أميين قولان : أحدهما : لأنه لم ينزل عليهم كتاب ، قاله ابن زيد .

الثاني : لأنهم لم يكونوا يكتبون ولا كان فيهم كاتب ، قاله قتادة .

ثم فيهم قولان :

أحدهما : أنهم قريش خاصة لأنها لم تكن تكتب حتى تعلم بعضها في آخر الجاهلية من أهل الحيرة .

الثاني : أنهم جميع العرب لأنه لم يكن لهم كتاب ولا كتب منهم إلا قليل ، قاله المفضل .

فلو قيل : فما وجه الامتنان بأن بعث نبياً أمياً ؟

فالجواب عنه ثلاثة أوجه :

احدها : لموافقته ما تقدمت بشارة الأنبياء به .

الثاني : لمشاكلة حاله لأحوالهم ، فيكون أقرب إلى موافقتهم .

الثالث : لينتفي عنه سوء الظن في تعلمه ما دعا إليه من الكتب التي قرأها والحكم التي تلاها .

﴿ يتلوا عليهم ءاياته ﴾ يعني القرآن .

﴿ ويزكيهم ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان ، وهو معنى قول ابن عباس .

الثاني : يطهرهم من الكفر والذنوب ، قاله ابن جريج ومقاتل .

الثالث : يأخذ زكاة أعمالهم ، قاله السدي .

﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنه القرآن ، قاله الحسن .

الثاني : أنه الخط بالقلم ، قاله ابن عباس ، لأن الخط إنما فشا في العرب بالشرع لما أمروا بتقييده بالخط .

الثالث : معرفة الخير والشر كما يعرفونه بالكتاب ليفعلوا الخير ويكفوا عن الشر ، وهذا

معنى قول محمد بن إسحق .

﴿ والحكمة ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن الحكمة السنة ، قاله الحسن .

الثاني : أنه الفقه في الدين ، وهو قول مالك بن أنس .

الثالث : أنه الفهم والاتعاظ ، قاله الأعمش .

﴿ وءاخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ أي ويعلم آخرين ويزكيهم ، وفيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنهم المسلمون بعد الصحابة ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنهم العجم بعد العرب ، قاله الضحاك وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " رأيت في منامي غنماً سوداً تتبعها غنم عفر " فقال أبو بكر : يا رسول الله تلك العرب يتبعها العجم ، فقال : "كذلك عبرها لي الملك " .

الثالث : أنهم الملوك أبناء الأعاجم ، قاله مجاهد .

الرابع : أنهم الأطفال بعد الرجال . ويحتمل خامساً : أنهم النساء بعد الرجال .

﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها النبوة التي خص الله بها رسوله هي فضل الله يؤتيه من يشاء ، قاله مقاتل .

الثاني : الإسلام الذي آتاه الله من شاء من عباده ، قاله الكلبي .

الثالث : ما روي أنه قيل يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور ، فأمر ذوي الفاقة بالتسبيح والتحميد والتكبير بدلاً من التصدق بالأموال ، ففعل الأغنياء مثل ذلك ، فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ " قاله أبو صالح .

ويحتمل خامساً : أنه انقياد الناس إلى تصديقه صلى الله عليه وسلم ودخولهم في دينه ونصرته .

﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ﴾ يحتمل أربعة أوجه :

أحدها : معناه تفرون من الداء بالدواء فإنه ملاقيكم بانقضاء الأجل .

الثاني : تفرون من الجهاد بالقعود فإنه ملاقيكم بالوعيد .

الثالث : تفرون منه بالطيرة من ذكره حذراً من حلوله فإنه ملاقيكم بالكره والرضا .

الرابع : إنه الموت الذي تفرون أن تتمنوه حين قال تعالى : ﴿ فتمنوا الموت ﴾ .

﴿ يا أيها الذين ءامنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ في السعي إليها أربعة أقاويل :

أحدها : النية بالقلوب ، قاله الحسن .

الثاني : أنه العمل لها ، كما قال تعالى : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ قاله ابن زيد .

الثالث : أنه إجابة الداعي ، قاله السدي .

(173/764)

الرابع : المشي على القدم من غير إسراع ، وذكر أن عمر وابن مسعود كانا يقرآن ﴿ فامضوا إلى ذكر الله ﴾ .

وفي ذكر الله ها هنا ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها موعظة الإمام في الخطبة ، قاله سعيد بن المسيب .

الثاني : أنها الوقت ، حكاه السدي .

الثالث : أنه الصلاة ، وهو قول الجمهور .

وكان اسم يوم الجمعة في الجاهلية العروبة ، لأن أسماء الأيام في الجاهلية كانت غير هذه الأسماء ، فكانوا يسمون يوم الأحد أوّل ، والأثنين أهون ، والثلاثاء جبار ، والأربعاء دبار ، والخميس مؤنس ، والجمعة عروبة ، والسبت شيار ، وأنشدني بعض أهل الأدب :

أؤمل أن أعيش وإن يومي . . . بأوّل أو أهون أو جبار

أو التالي دبار أو فيومي . . . بمؤنس أو عروبة أو شيار

وأول من سماه يوم الجمعة كعب بن لؤي بن غالب لاجتماع قريش فيه إلى كعب ، وقيل بل سمي في الإسلام لاجتماع الناس فيه للصلاة .

﴿ وذروا البيع ﴾ منع الله منه عند صلاة الجمعة وحرمه في وقتها على ما كان مخاطباً بفرضها . وفي وقت التحريم قولان :

أحدهما : أنه بعد الزوال [إلى ما] بعد الفراغ منها ، قاله الضحاك .

الثاني : من وقت أذان الخطبة إلى الفراغ من الصلاة ، قاله الشافعي رحمه الله فأما الأذان الأول فمحدث ، فعله عثمان بن عفان ليتأهب الناس به لحضور الخطبة عند اتساع المدينة وكثرة أهلها ، وقد كان عمر أمر أن يؤذن في السوق قبل المسجد ليقوم الناس عن بيوعهم ، فإذا اجتمعوا أذن في المسجد ، فجعله [عثمان] آذانين في المسجد ، وليس يحرم البيع بعده وقبل الخطبة ، فإن عقد في هذا الوقت المحرم بيع لم يبطل البيع وإن كان قد عصى الله ، لأن النهي مختص بسبب يعود إلى العاقدين دون العقد ، وأبطله ابن حنبل تمسكاً بظاهر النهي .

﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ يعني أن الصلاة خير لكم من البيع والشراء لأن الصلاة تفوت بخروج وقتها ، والبيع لا يفوت .

﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾ يعني أُدّيتْ .

﴿ فانتشروا في الأرض ﴾ حكي عن عراك بن مالك أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فرضيتك وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين .

﴿ وابتغوا من فضل الله ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : الرزق من البيع والشراء ، قاله مقاتل والضحاك .

الثاني : العمل في يوم السبت ، قاله جعفر بن محمد .

الثالث : ما رواه أبو خلف عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ، قال : ليس بطلب الدنيا لكن من عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله . "

﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفَضُّوا إليها وتركوك قائماً ﴾ روى سالم عن جابر قال : أقبلت عير ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني في الخطبة فانفتل الناس إليها وما بقي غير اثني عشر رجلاً ، فنزلت هذه الآية .

وذكر الكلبي أن الذي قدم بها دحية بن خليفة الكلبي من الشام عند مجاعة وغلاء سعر ، وكان معه جميع ما يحتاج إليه من بُر ودقيق وغيره فنزل عند أحدار الزيت وضرب الطبل ليؤذن الناس بقدومه ، وكانوا في خطبة الجمعة ، فانفضوا إليها ، وبقي مع رسول الله صلى

الله عليه وسلم ثمانية رجال ، فقال تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾

والتجارة من أموال التجارات .

وفي اللهو ها هنا أربعة أوجه :

أحدها : يعني لعباً ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه الطبل ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه المزمار ، قاله جابر .

الرابع : الغناء .

﴿ وتركوك قائماً ﴾ يعني في خطبته ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " والذي نفسي بيده لو ابتدرتموها حتى لا يبقى معي أحد لسال الوادي بكم ناراً ، " وإنما قال تعالى :

﴿ انفضوا إليها ﴾ ولم يقل إليهما ، لأن غالب انفضاضهم كان للتجارة دون اللهو . وقال الأخفش : في الكلام تقدير وتأخير ، وتقديره وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهواً ، وكذلك قرأ ابن مسعود .

وفي ﴿ انفضوا ﴾ وجهان :

أحدهما : ذهبوا .

الثاني : تفرقوا .

فمن جعل معناه ذهبوا أراد التجارة ، ومن جعل معناه تفرقوا أراد عن الخطبة وهذا أفصح الوجهين ، قاله قطرب ، ومنه قول الشاعر :

انفض جمعهم عن كل نائرة . . . تبقى وتدنس عرض الواجم الشبم

﴿ قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ما عند الله من ثواب صلاتكم خير من لذة لهوكم وفائدة تجارتكم .

الثاني : ما عند الله من رزقكم الذي قسمت لكم خير مما أصبتموه انفضاضكم من لهوكم وتجارتكم .

﴿ والله خير الرازقين ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن الله سبحانه خير من رَزَق وأعطى .

الثاني : ورزق الله خير الأرزاق . انتهى انتهى . اهـ ﴿النكت والعيون حـ 6 صـ 5 .

12 ﴾

وقال ابن الجوزي :

سورة الجمعة

قوله تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين ﴾

يعني : العرب ، وكانوا لا يكتبون وقد شرحنا هذا المعنى في [البقرة : 78] ﴿ رسولاً ﴾

يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ منهم ﴾ أي : من جنسهم ونسبهم .

فإن قيل : فما وجه الامتنان في أنه بعث نبياً أمياً ؟

فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : لموافقة ما تقدَّمت البشارة [به في كتب] الأنبياء .

والثاني : لمشاكلة حاله لأحوالهم ، فيكون أقرب لموافقتهم .

والثالث : لئلا يظن به أنه يعلم كتب من قبله .

وما بعد هذا في سورة [البقرة : 129] .

إلى قوله تعالى : ﴿ وإن كانوا من قَبْلُ ﴾ ، أي : وما كانوا قبل بعثته إلا في ﴿ ضلال مبين ﴾ بَيِّن ، وهو الشرك .

قوله تعالى : ﴿ وآخرين منهم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : وبعث محمداً في آخرين منهم ، أي : من الأميين .

والثاني : ويعلم آخرين منهم ، ويزكِّيهم .

وفي المراد بالآخرين أربعة أقوال :

أحدها : أنهم العجم ، قاله ابن عمر ، وسعيد بن جبير ، وهي رواية ليث عن مجاهد .

فعلى هذا إنما قال : "منهم" ، لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم ، إذ المسلمون يد واحدة ، وملَّةٌ واحدة .

والثاني : أنهم التابعون ، قاله عكرمة ، ومقاتل .

والثالث : جميع من دخل في الإسلام إلى يوم القيامة ، قاله ابن زيد ، وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والرابع : أنهم الأطفال ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ لما يلحقوا بهم ﴾ أي : لم يلحقوا بهم .

قوله تعالى : ﴿ ذلك فضل الله ﴾ يعني : الإسلام والهدى ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم ضرب لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة مثلاً ، فقال تعالى : ﴿ مثل الذين حُمِّلوا التوراة ﴾ أي : كُلِّفوا العمل بما فيها ﴿ ثم لم يحملوها ﴾ أي : لم يعملوا بموجبها ، ولم يؤدُّوا حقها ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ ، وهي جمع سفر .

والسِّفْر : الكتاب ، فشبَّههم بالحمار لا يعقل ما يحمل ، إذ لم ينتفعوا بما في التوارة ، وهي دالَّة على الإيمان بمحمدٍ [وهذا المثل يلحق من لم يعمل بالقرآن ولم يفهم معانيه ﴿ بئس مثل القوم ﴾ ذم مثلهم ، والمراد ذمُّهم ، واليهود كذبوا بالقرآن وبالتوراة حين لم يؤمنوا بمحمد] ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أنفسهم بتكذيب الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿ إِن زعمتم أنكم أولياءُ لله ﴾ وذلك أن اليهود ، قالوا : نحن ولد إسرائيل الله ، ابن ذبيح الله ، ابن خليل الله ، ونحن أولى بالله عز وجل من سائر الناس ، وإِنما تكون النبوة فينا .

فقال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ قل ﴾ لهم إن كنتم ﴿ أولياء لله فتمنَّوا الموت ﴾ لأن الموت خير لأولياء الله من الدنيا .

وقد بيَّنا هذا وما بعده في [البقرة : 94] إلى قوله تعالى : ﴿ قل إِن الموت الذي تفرُّون منه ﴾ وذلك أن اليهود علموا أنهم أفسدوا على أنفسهم أمر الآخرة بتكذيبهم محمداً ، وكانوا يكرهون الموت ، فقيل لهم : لا بد من نزوله [بكم] بقوله تعالى : ﴿ فإنه ملاقيكم ﴾ قال الفراء : العرب تدخل الفاء في كل خبر كان اسمه مما يوصل ، مثل : "من" و "الذي" فمن أدخل الفاء هاهنا ذهب "بالذي" إِلى تأويل الجزاء .

وفي قراءة عبد الله "إِن الموت الذي تفرُّون منه ملاقيكم" وهذا على القياس ، لأنك تقول :

إن أخاك قائم ، ولا تقول : فقائم ، ولو قلت : إن ضاربك فظالم ، لجاز ، لأن تأويله : إن من يضربك فظالم .

وقال الزجاج : إنما جاز دخول الفاء ، لأن في الكلام معنى الشرط والجزاء .

ويجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله تعالى : "تفرُّون منه" كأنه قيل : إن فررتم من أي موت كان من قتل أو غيره "فإنه ملاقيكم" وتكون "فإنه" استئنافاً بعد الخبر الأول .

(178/764)

قوله تعالى : ﴿ إذا نودي للصلاة ﴾ وهذا هو النداء الذي ينادى به إذا جلس الإمام على المنبر ، ولم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء سواه ، كان إِذا جلس على المنبر أذَّن بلال على باب المسجد ، وكذلك كان على عهد أبي بكر ، وعمر ، فلما كثر الناس على عهد عثمان أمر بالتأذين على دارٍ له بالسُّوق ، يقال لها "الزوراء" وكان إذا جلس أذَّن أيضاً .

قوله تعالى : ﴿ للصلاة ﴾ أي : لوقت الصلاة .

وفي "الجمعة" ثلاث لغات .

ضم الجيم والميم ، وهي قراءة الجمهور .

وضم الجيم مع إسكان الميم ، وبها قرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو رجاء ، وعكرمة ، والزهري ، وابن أبي ليلى ، وابن أبي عبلة ، والأعمش .

وبضم الجيم مع فتح الميم ، وبها قرأ أبو مجلز ، وأبو العالية ، والنخعي ، وعدي بن الفضل عن أبي عمرو .

قال الزجاج : من قرأ بتسكين الميم ، فهو تخفيف الجمعة لثقل الضمتين .

وأما فتح الميم ، فمعناها : الذي يجمع الناس ، كما تقول : رجل لُعَنَة : يكثر لعنة الناس ، وضُحَكَة : يكثر الضحك .

وفي تسمية هذا اليوم بيوم الجمعة ثلاثة أقوال .

أحدها : لأن فيه جُمع آدم .

" روى سلمان قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتدري ما الجمعة ؟" قلت : لا .

قال : "فيه جُمع أبوك" " ، يعني : تمام خلقه في يوم .

والثاني : لاجتماع الناس فيه للصلاة .

والثالث : لاجتماع المخلوقات فيه ، لأنه اليوم الذي منه فرغ من خلق الأشياء .

وفي أول من سماها بالجمعة قولان .

أحدهما : أنه كعب بن لؤي سماها بذلك ، وكان يقال ليوم الجمعة : العَروبة ، قاله أبو سلمة .

وقيل : إنما سماها بذلك لاجتماع قريش فيه .

والثاني : أول من سماها بذلك الأنصار ، قاله ابن سيرين .

قوله تعالى : ﴿ فاسعَوا إلى ذكر الله ﴾ وفي هذا السعي ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه المشي ، قاله ابن عباس .

وكان ابن مسعود يقرؤها "فامضوا" ويقول : لو قرأتها "فاسعَوْا" لسعَيت حتى يسقط ردائي .

(179/764)

وقال عطاء : هو الذهاب والمشي إلى الصلاة .

والثاني : أن المراد بالسعي : العمل ، قاله عكرمة ، والقرظي ، والضحاك ، فيكون المعنى : فاعملوا على المضي إلى ذكر الله بالتفرغ له ، والاشتغال بالطهارة ونحوها .

والثالث : أنه النية بالقلب ، قاله الحسن .

وقال ابن قتيبة : هو المبادرة بالنية والجدّ .

وفي المراد "بذكر الله" قولان .

أحدهما : أنه الصلاة ، قاله الأكثرون .

والثاني : موعظة الإمام ، قاله سعيد بن المسيب .

قوله تعالى : ﴿ وذروا البيع ﴾ أي : دعوا التجارة في ذلك الوقت .

وعندنا : أنه لا يجوز البيع في وقت النداء ، ويقع البيع باطلاً في حق من يلزمه فرض الجمعة ، وبه قال مالك خلافاً للأكثرين .

فصل

تجب الجمعة على من سمع النداء من المصر ، إذا كان المؤذن صَيِّتاً ، والريح ساكنة .

وقد حدَّه مالك بفرسخ ، ولم يحدّه الشافعي .

وعن أحمد في التحديد نحوهما .

وتجب الجمعة على أهل القرى .

وقال أبو حنيفة : لا تجب إلا على أهل الأمصار .

ويجوز لأهل المصر أن يقيموا الجمعة في الصحراء القريبة من المصر خلافاً للشافعي .

ولا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين .

وعن أحمد : أقله خمسون .

وعنه : أقله ثلاثة .

وقال أبو حنيفة : تنعقد بثلاثة والإمام ، والعدد شرط في الجمعة وقال أبو حنيفة في إِحدى الروايتين : يصح أن يخطب منفرداً .

وهل تجب الجمعة على العبيد ؟ فيه عن أحمد روايتان .

وعندنا : تجب على الأعمى إذا وجد قائداً ، خلافاً لأبي حنيفة .

ولا تنعقد الجمعة بالعبيد والمسافرين ، خلافاً لأبي حنيفة .

وهل تجب الجمعة والعيدان من غير إذن سلطان ؟ فيه عن أحمد روايتان .

وتجوز الجمعة في موضعين في البلد مع الحاجة .

وقال مالك ، والشافعي ، وأبو يوسف : لا تجوز إلا في موضع واحد .

وتجوز إقامة الجمعة قبل الزوال خلافاً لأكثرهم ، وإذا وقع العيد يوم الجمعة أجزأ حضوره عن يوم الجمعة ، وبه قال الشعبي ، والنخعي ، خلافاً للأكثرين .

والمستحب لأهل الأعذار أن يصلوا الظهر في جماعة .

(180/764)

وقال أبو حنيفة : يكره .

ولا يجوز السفر يوم الجمعة بعد الزوال .

وقال أبو حنيفة : يجوز .

وهل يجوز السفر بعد طلوع الفجر ؟ فيه عن أحمد روايتان .

ونقل عن أحمد : أنه لا يجوز الخروج في الجمعة إلا للجهاد .

وقال أبو حنيفة : يجوز لكل سفر .

وقال الشافعي : لا يجوز أصلاً .

والخطبة شرط في الجمعة .

وقال داود : هي مستحبة .

والطهارة لا تشترط في الخطبة ، خلافاً للشافعي في أحد قوليه .

والقيام ليس بشرط في الخطبة ، خلافاً للشافعي .

ولا تجب القعدة بين الخطبتين ، خلافاً له أيضاً .

ومن شرط الخطبة : التحميد ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقراءة آية ، والموعظة .

وقال أبو حنيفة : يجوز أن يخطب بتسبيحة .

والخطبتان واجبتان .

وأما القراءة في الخطبة الثانية ، فهي شرط ، خلافاً للشافعي .

والسُّنَّة للإمام إذا صعِد المنبر ، واستقبل الناس : أن يسلِّم ، خلافاً لأبي حنيفة ، ومالك .

وهل يحرم الكلام في حال سماع الخطبة ؟ فيه عن أحمد روايتان .

ويحرم على المستمع دون الخاطب ، خلافاً للأكثرين .

ولا يكره الكلام قبل الابتداء بالخطبة، وبعد الفراغ منها، خلافاً لأبي حنيفة.

ويستحب له أن يصليَ تحية المسجد والإمام يخطب، خلافاً لأبي حنيفة، ومالك.

وهل يجوز أن يخطب واحد، ويصلي آخر، فيه عن أحمد روايتان.

قوله تعالى: ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي: إِن كان لكم علم بالأصلح ﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾ أي: فرغتم منها ﴿ فانتشروا في الأرض ﴾ هذا أمر إباحة ﴿ وابتغوا من فضل الله ﴾ إباحة لطلب الرزق بالتجارة بعد المنع منها بقوله تعالى: "وذروا البيع"

وقال الحسن، وابن جبير: هو طلب العلم.

(181/764)

قوله تعالى: ﴿ وإذا رأوا تجارة ﴾ سبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب يوم الجمعة، إذ أقبلت عير قد قَدِمَتْ، فخرجوا إليها حتى لم يبق معه إلا إثنا عشر رجلاً، فنزلت هذه الآية، أخرجه البخاري ومسلم في "الصحيحين" من حديث جابر بن عبد الله، قاله الحسن: وذلك أنهم أصابهم جوع.

وغلاء سعر، فلما سمعوا بها خرجوا إليها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لو اتبع آخرُهم أوّلَهم التهب عليهم الوادي ناراً" قال المفسرون: كان الذي قدم بالتجارة دحية بن

خليفة الكلبي ، قال مقاتل : وذلك قبل أن يسلم .

قالوا : قَدِمَ بها من الشام ، وضرب لها طبل يُؤذن الناس بقدومها .

وهذه كانت عادتهم إذا قدمت عير .

قال جابر بن عبد الله : كانت التجارة طعاماً .

وقال أبو مالك : كانت زيتاً .

والمراد باللهو : ضرب الطبل .

و ﴿ انفضوا ﴾ بمعنى : تفرَّقوا عنك ، فذهبوا إليها .

والضمير للتجارة .

وإنما خصت برد الضمير إليها ، لأنها كانت أهم إليهم ، هذا قول الفراء ، والمبرد .

وقال الزجاج : المعنى : وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو لهواً انفضوا إليه ، فحذف خبر أحدهما ، لأن الخبر الثاني يدل على الخبر المحذوف .

وقرأ ابن مسعود ، وابن أبي عبلة "انفضوا إليهما" .

على التثنية .

وعن ابن مسعود ، وابن أبي عبلة "انفضوا إليه" على ضمير مذكر ﴿ وتركوك قائماً ﴾ وهذا القيام كان في الخطبة ﴿ قل ما عند الله ﴾ من ثواب الصلاة والثبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾ لأنه يرزق من

يؤمن به ويعبده ، ومن يكفر به ويجحده ، فهو يعطي من سأل ، ويبتدىء من لا يسأل ، وغيره إنما يرزق من يرجو منفعته ، ويُقبل على خدمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير جـ 8 صـ 270.256 ﴾

(182/764)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ يسبح له ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم هو الذي بعث في الأميين ﴾

(183/764)

يعني العرب وكانت العرب أمة أمية لا تكتب ولا تقرأ حتى بعث فيهم نبي الله وقيل الأمي هو الذي على ما خلق عليه كأنه منسوب إلى أمه ﴿ رسولاً منهم ﴾ يعني محمد (صلى الله عليه وسلم) يعلمون نسبه وهو من جنسهم وقيل أمياً مثلهم وإنما كان أمياً لأن نعته في كتب الأنبياء النبي الأمي وكونه بهذه الصفة أبعد من توهم الاستعانة بالكتابة على ما أتى به من

الوحي والحكمة ولتكون حاله مشاكلة لحال أمته الذين بعث فيهم وذلك أقرب إلى صدقه ﴿ يتلوا عليهم آياته ﴾ أي التي يبين رسالته وقيل آياته التي يتميز بها الحلال من الحرام والحق من الباطل ﴿ ويزكيهم ﴾ أي يطهرهم من دنس الشرك ﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ أي القرآن وقيل الفرائض ﴿ والحكمة ﴾ قيل هي السنة ﴿ وإن كانوا من قبل ﴾ أي من قبل إرسال محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ لفي ضلال مبين وآخرين منهم ﴾ أي من المؤمنين الذين ظهروا يدينون بدينهم لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم فإن المسلمين كلهم أمة واحدة ، وقيل أراد بالآخرين العجم وهو قول ابن عمر وسعيد بن جبير ورواية عن مجاهد يدل عليه ما روي عن أبي هريرة قال "كنا جلوساً عند النبي (صلى الله عليه وسلم) إذ نزلت سورة الجمعة فتلاها فلما بلغ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم قال له رجل يا رسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا فلم يكلمه حتى ساله ثلاثاً قال وسلمان الفارسي فينا فوضع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يده على سلمان وقال والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من هؤلاء " أخرجاه في الصحيحين ، وقيل هم جميع من دخل في الإسلام بعد النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى يوم القيامة ﴿ لما يلحقوا بهم ﴾ لم يدركوهم ولكنهم جاؤوا بعدهم وقيل لم يلحقوا بهم في الفضل والسابقة لأن التابعين لا يدركون شأو الصحابة ﴿ وهو العزيز ﴾ أي الغالب الذي قهر الجبابرة ﴿ الحكيم ﴾ أي الذي جعل كل مخلوق يشهد بوحدانيته .

﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ يعني الإسلام وقيل النبوة خص بها محمداً (صلى الله عليه وسلم) ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ أي على خلقه حيث أرسل فيهم رسوله محمداً (صلى الله عليه وسلم) .

قوله تعالى : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ﴾ يعني اليهود حيث كلفوا القيامة بها والعمل بما فيها وليس هو من الحمل على الظهر وإنما هو من الحمالة والحميل والكفيل ﴿ ثم لم يحملوها ﴾ أي لم يعملوا بما فيها ولم يؤدوا حقها ، ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ جمع سفر الكتب العظام من العلم سمى سفراً لأنه سفر عما فيه من المعنى وهذا مثل ضربه الله تعالى لليهود الذين أعرضوا عن العمل بالتوراة والإيمان بمحمد (صلى الله عليه وسلم) شبهوا إذا لم ينتفعوا بما في التوراة الدال على الإيمان بمحمد (صلى الله عليه وسلم) بالحمار الذي يحمل الكتب ولا يدري ما فيها ولا ينتفع بها كذلك اليهود الذين يقرؤون التوراة ولا ينتفعوا

بها لأنهم خالفوا ما فيها وهذا المثل يلحق من لم يفهم معاني القرآن ولم يعمل بما فيه وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه ولهذا قال ميمون بن مهران يا أهل القرآن اتبعوا القرآن قبل أن يتبعكم ثم تلا هذه الآية ثم ذم هذا المثل والمراد منهم ذمهم فقال تعالى : ﴿ بئس مثل القوم ﴾ يعني بئس مثلاً مثل القوم ﴿ الذين كذبوا بآيات الله ﴾ يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) وما أتي من آيات القرآن وقيل المراد من الآيات آيات التوراة لأنهم كذبوا بها حين تركوا الإيمان بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي لا يهدي من سبق في علمه أن يكون ظالماً وقيل يعني الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب آيات الله وأنبيائه ﴿ قل ﴾ أي قل يا محمد ﴿ يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس ﴾ أي من دون محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ﴿ فتمنوا الموت ﴾ ادعوا على أنفسكم ﴿ بالموت إن كنتم صادقين ﴾ يعني فيما زعمتم أنكم أبناء الله وأحياؤه فإن الموت هو الذي يوصلكم إليه لأن الآخرة خير لأولياء الله من الدنيا ﴿ ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم ﴾ أي بسبب ما قدموا من الكفر والتكذيب ﴿ والله عليم بالظالمين قل إن الموت

الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ﴾ أي لا ينفعكم الفرار منه ﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ فيه وعيد وتهديد .

قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة ﴾ أي لوقت الصلاة ﴿ من يوم الجمعة ﴾ أي في يوم الجمعة وأراد بهذا النداء الإذن عند قعود الإمام على المنبر للخطبة لأنه لم يكن في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نداء سواه "كان إذا جلس (صلى الله عليه وسلم) على المنبر أذن بلال " (خ) عن السائب بن يزيد قال "كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأبي بكر وعمر فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء " زاد في رواية " فثبت الأمر على ذلك " ، ولأبي داود قال "كان يؤذن بين يدي النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا جلس على المنبر يوم الجمعة على باب المسجد وذكر نحوه " الزوراء موضع عند سوق المدينة قريب من المسجد وقيل كان مرتفعاً كالمنارة .

واختلفوا في تسمية هذا اليوم جمعة فقيل لأن الله تعالى جمع فيه خلق آدم وقيل لأن الله تعالى فرغ من خلق الأشياء فيه فاجتمعت فيه المخلوقات وقيل لاجتماع الجماعات فيه للصلاة

وقيل أول من سمى هذا اليوم جمعة كعب بن لؤي قال أبو سلمة أول من قال أما بعد كعب بن لؤي وكان أول من سمى الجمعة جمعة وكان يقال لها يوم العروبة ، عن ابن سيرين قال جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي (صلى الله عليه وسلم) المدينة وقبل أن تنزل الجمعة وهم الذين سموا الجمعة وقالوا لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام وللنصارى يوم فهلم فلنجعل يوماً نجتمع فيه فنذكر اسم الله تعالى ونصلي فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة ثم أنزل الله تعالى في ذلك اليوم ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة ﴾ الآية عن كعب بن مالك أنه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة فقال له ابنه عبد الرحمن يا أبت إذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة قال لأنه أول من جمع بنا في هزم النبيت من حرة بني بياضة في نقيع يقال له نقيع الخضمات قلت له كم كنتم يومئذ ؟ قال أربعون " أخرجه أبو داود وأما أول جمعة جمعها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فذكر أصحاب السير أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لما دخل المدينة مهاجراً نزل قباء على بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين لثنتي عشرة خلت من ربيع الأول حين امتد الضحى فأقام بقباء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجدهم ثم خرج من بين أظهرهم يوم الجمعة عامداً إلى المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واديهم وقد اتخذوا في ذلك الموضع مسجداً فجمع فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخطب .

وقوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ أي فامضوا إليه واعملوا له وليس المراد من السعي الإسراع في المشي وإنما المراد منه العمل وكان عمر بن الخطاب يقرأ فامضوا إلى ذكر الله وقال الحسن أما والله ما هو بالسعي على الاقدام ولقد نهوا أن يأتوا إلى الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ولكن بالقلوب والنية والخشوع.

وعن قتادة في هذه الآية فاسعوا إلى ذكر الله قال السعي أن تسعى بقلبك وعملك وهو المشي إليها وكان يتأول قوله : ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ بقوله فلما مشى معه (ق) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا" وفي رواية "فإذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون وعليكم السكينة" وذكره زاد مسلم "فإن أحدكم إذا كان يعمد إلى الصلاة فهو في الصلاة" والمراد بقوله فاسعوا إلى ذكر الله الصلاة وقال سعيد بن المسيب هو موعظة الإمام ﴿ وذروا البيع ﴾ يعني البيع والشراء لأن البيع اسم يتناولهما جميعاً وهو من لوازمه وإنما يحرم البيع والشراء عند الأذان الثاني وقال الزهري عند خروج الإمام وقال الضحاك إذا زالت الشمس حرم البيع والشراء

﴿ ذلكم ﴾ أي الذي ذكرت من حضور الجمعة وترك البيع والشراء ﴿ خير لكم ﴾ أي من المبايعة في ذلك الوقت ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أي من مصالح أنفسكم والله تعالى أعلم .

(فصل في فضل الجمعة وأحكامها وإثم تاركها)

وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) : في فضلها (م) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج لما منها " ، زاد في رواية " ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة " (ق) عنه " أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذكر يوم الجمعة فقال : فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلي يسأل فيها شيئاً إلا أعطاه إياه وأشار بيده يقللها " (ق) عنه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة فإذا أحرم الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر "

، وفي رواية " إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المساجد ملائكة يكتبون الأول فالأول فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاؤوا يستمعون الذكر " قوله من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة معناه غسلاً كغسل الجنابة (م) عنه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة واستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ومن مس الحصى فقد لغا " قوله ومن مس الحصى فقد لغا معناه أنه يشغله عن سماع الخطبة كما يشغله الكلام فجعله كاللغو (خ) عن عبادة قال أدركني أبو عيسى وأنا ذاهب إلى الجمعة فقال سمعت النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول " من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار " عن أبي هريرة قال خرجت إلى الطور فرأيت كعب الأحبار فجلست معه فحدثني عن التوراة وحدثته عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكان فيما حدثته أن قلت له قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط وفيه مات وفيه تيب عليه وفيه تقوم الساعة وما دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس وفيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلي

يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه " قال كعب ذاك في كل سنة يوماً فقلت بل في كل جمعة فقرأ كعب التوراة فقال صدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال أبو هريرة ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب الأحبار وما حدثته في يوم الجمعة فقال عبد الله بن سلام قد علمت أي ساعة هي قال أبو هريرة فقلت أخبرني بها ولا تكن عني ، وفي رواية تضن عليّ قال هي آخر ساعة في يوم الجمعة قال أبو هريرة قلت وكيف تقول آخر ساعة في يوم الجمعة وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي وتلك الساعة لا يصلي فيها قال عبد الله بن سلام ألم يقل رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) " من جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصليها " قال أبو هريرة فقلت بلى قال فهو ذلك أخرجه مالك في الموطأ والنسائي (خ) عن سلمان قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من الطهور ويدهن من دهنه ويمس من طيب بيته ثم يخرج فلم يفرق بين اثنين ثم يصلي ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة "

الأخرى عن أوس بن أوس الثقفي قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول "

من غسل واغتسل وبكر وابتكر ومشى ولم يركب ودنا من الإمام ولم يلغ واستمع كان له بكل خطوة أجر عمل سنة صيامها وقيامها " أخرجه أبو داود والنسائي قال أبو داود سئل مكحول عن غسل واغتسل قال غسل رأسه وجسده .

(المسألة الثانية) : في إثم تاركها (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول على منبره " لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين " عن أبي الجعد الضمري وكان له صحبة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " من ترك ثلاث جمع تهاوناً طبع الله على قلبه " أخرجه أو داود والنسائي وللترمذي نحوه (م) عن ابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لقوم يتخلفون عن الجمعة " هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم " .

(المسألة الثالثة) : في تأكيد وجوبها قال العلماء صلاة الجمعة هي من فروض الأعيان فتجب على كل مسلم حر بالغ عاقل ذكر مقيم إذا لم يكن له عذر في تركها ومن تركها من غير عذر استحق الوعيد أما الصبي والمجنون فلا جمعة عليهما لأنهما ليسا من أهل الفرض ولا

جمعة على النساء بالاتفاق يدل عليه ما روي عن طارق بن شهاب أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا على أربعة عبد مملوك أو امرأة أو صبي أو مريض " ، أخرجه أبو داود وقال طارق " رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) وبعضاً من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) ولم يسمع منه شيئاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " الجمعة على من سمع النداء " أخرجه أبو داود وقال رواه جماعة ولم يرفعوه وإنما أسنده قبيصة عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " الجمعة على من آواه الليل إلى أهله " ، أخرجه الترمذي ولا تجب الجمعة على العبيد وقال الحسن وقتادة والأوزاعي تجب على العبد المكاتب وعن أحمد في العبيد روايتان وتجب الجمعة على أهل القرى والبوادي إذا سمعوا النداء من موضع تقام فيه الجمعة يلزمهم الحضور وإن لم يسمعوا فلا جمعة عليهم وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق والشرط أن يبلغهم نداء مؤذن جهوري الصوت يؤذن في وقت تكون الأصوات فيه هادئة والرياح ساكنة فكل قرية تكون من موضع الجمعة في القرب على هذا القدر يجب على أهلها حضور الجمعة وقال سعيد بن المسيب تجب الجمعة على من آواه المبيت وقال الزهري تجب على كل من كان على ستة أميال وقال ربيعة على أربعة أميال ، وقال مالك والليث على ثلاثة أميال وقال أبو حنيفة لا جمعة على أهل السواد سواء كانت القرية قريبة أو بعيدة دليل الشافعي ومن وافقه ما روي البخاري عن ابن عباس قال "

إن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مسجد عبد

القيس بجؤاثى من البحرين " ولأبي داود نحوه فيه بجؤائى قرية من قرى البحرين .

(المسألة الرابعة) : في تركها لعذر كل من له عذر من مرض أو تعهد مريض أو خوف جاز له ترك الجمعة وكذا له تركها بعذر المطر والوحل يدل على ذلك ما روي عن ابن عباس " أنه خطب في يوم ذي ردغ فأمر المؤذن فلما بلغ حي على الصلاة قال قل الصلاة في الرحال فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم أنكروا ذلك فقال كأنكم أنكرتم هذا إن هذا فعله من هو خير مني يعني النبي (صلى الله عليه وسلم) وإنها عزمة وإني كرهت أن أخرجكم " زاد في رواية " فتمشون في الطين و الدحض والزلق " ، أخرجه البخاري ومسلم وكل من لا تجب عليه الجمعة فإذا حضر وصلى مع الإمام الجمعة سقط عنه فرض الظهر ولكن لا يكمل به عدد الذين تنعقد بهم الجمعة إلا صاحب العذر فإنه إذا حضر كمل به العدد .

(المسالة الخامسة) : في العدد الذي تنعقد به الجمعة اختلف أهل العلم في العدد الذي تنعقد به الجمعة فقيل لا تنعقد بأقل من أربعين رجلاً وهو قول عبيد الله بن عبد الله وعمر

بن عبد العزيز وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق قالوا لا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين رجلاً من أهل الكمال وذلك بأن يكونوا أحراراً بالغين عاقلين مقيمين في موضع لا يظعنون عنه شتاء ولا صيفاً إلا ظعن حاجة، وشرط عمر بن عبد العزيز أن يكون فيهم وال والوالي غير شرط عند الشافعي وقال علي بن أبي طالب: لا جمعة إلا في مصر جامع وهو قول أصحاب الرأي ثم عند أبي حنيفة تنعقد بأربعة والوالي شرط عنده وقال الأوزاعي وأبو يوسف تنعقد بثلاثة إذا كان فيهم وال وقال الحسن تنعقد باثنين وكسائر الصلوات وقال ربيعة تنعقد باثني عشر رجلاً ولا يكمل العدد بمن لا تجب عليه الجمعة كالعبد والمرأة والمسافر والصبي ولا تنعقد إلا في موضع واحد من البلد وبه قال الشافعي ومالك وأبو يوسف وقال أحمد تصح بموضعين إذا كثر الناس وضاق الجامع.

(194/764)

قوله: ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ﴾ أي إذا فرغ من صلاة الجمعة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم ﴿ وابتغوا من فضل الله ﴾ يعني الرزق وهذا أمر إباحة قال ابن عباس إن شئت فاخرج وإن شئت فاقعد وإن شئت فصل إلى العصر وقيل قوله فانتشروا في الأرض ليس لطلب دنيا ولكن لعيادة مريض وحضور

جنازة وزيارة أخ في الله وقيل وابتغوا من فضل الله هو طلب العلم وعن عراك بن مالك أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد وقال اللهم أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ أي إذا فرغتم من الصلاة ورجعتم إلى التجارة والبيع والشراء فاذكروا الله كثيراً قيل باللسان وقيل بالطاعة قيل لا تكون من الذاكرين الله كثيراً حتى تذكره قائماً وقاعداً ومضطجعاً ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ قوله تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ﴾ (ق) عن جابر قال " بينما نحن نصلي مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذ أقبلت عير تحمل طعاماً فانفتلوا إليها حتى ما بقي مع النبي (صلى الله عليه وسلم) إلا إثنا عشر رجلاً فنزلت هذه الآية وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً " وفي رواية " أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يخطب قائماً فجاءت عير من الشام وذكر نحوه " وفيه " إلا اثنا عشر رجلاً فيهم أبو بكر وعمر " ولمسلم "كنا مع النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم الجمعة فقدمت سويقة قال فخرج الناس إليها فلم يبق إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم " وذكر الحديث وهو حجة من يرى صحة الجمعة باثني عشر رجلاً .

وأجيب عنه بأنه ليس فيه بيان أنه أقام بهم الجمعة حتى يكون الحديث حجة لاشتراط هذا العدد وقال ابن عباس في رواية عنه لم يبق في المسجد إلا ثمانية رهط قال الحسن وأبو مالك " أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر فقدم دحية بن خليفة الكلبي بتجارة زيت وطعام من الشام والنبي (صلى الله عليه وسلم) يخطب فلما رأوه بالبقيع قاموا إليه خشية أن يسبقوا إليه فلم يبق مع النبي (صلى الله عليه وسلم) إلا رهط فيهم أبو بكر وعمر ، فنزلت هذه الآية فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) والذي نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً " وقال مقاتل " بينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يخطب يوم الجمعة إذ قدم دحية بن خليفة الكلبي من الشام بالتجارة وكان إذا قدم لم تبق عاتق بالمدينة إلا أتته وكان يقدم بكل ما يحتاج إليه من دقيق وبر وزيت وغيره وينزل عند أحجار الزيت وهو مكان في سوق المدينة ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فيخرج إليه الناس ليبتاعوا منه فقدم ذات جمعة وذلك قبل أن يسلم ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائم على المنبر يخطب فخرج إليه الناس ولم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلاً وامرأة فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) كم بقي في المسجد ؟ فقالوا اثني عشر رجلاً وامرأة ، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) لولا هؤلاء لسومت لهم الحجارة من السماء فأنزل الله هذه الآية "

وأراد باللهو الطبل وكانت العير إذا قدمت استقبلوها بالطبل والتصفيق ، وقوله تعالى انفضوا أي تفرقوا وذهبوا نحوها والضمير في إليها راجع إلى التجارة لأنها أهم إليهم وتركوك قائماً اتفقوا على أن القيام كان في الخطبة للجمعة قال علقمة " سئل ابن مسعود أكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يخطب قائماً أو قاعداً ؟ قال أما تقرؤون وتركوك قائماً " قال العلماء الخطبة فريضة في صلاة الجمعة وقال داود الظاهري هي مستحبة ويجب أن يخطب الإمام قائماً خطبتين يفصل بينهما بجلوس وقال أبو حنيفة وأحمد لا يشترط القيام ولا القعود وتشترط الطهارة في الخطبة عند الشافعي في أحد القولين وأقل ما يقع عليه اسم الخطبة أن يحمد الله ويصلي على النبي (صلى الله عليه وسلم) ويوصي بتقوى الله هذه الثلاث شروط في الخطبتين جميعاً ويجب أن يقرأ في الأولى آية من القرآن ويدعو للمؤمنين في الثانية ولو ترك واحدة من هذه الخمسة لم تصح خطبته ولا جمعته عند الشافعي وذهب أبو حنيفة إلى أنه لو أتى بتسبيحة أو تحميدة أو تكبيرة أجزأه وهذا القدر لا يقع عليه اسم الخطبة وهو مأمور بالخطبة والسنة للإمام إذا صعد المنبر أن يستقبل الناس وأن يسلم عليهم خلافاً لأبي حنيفة ومالك وهل يحرم الكلام في حال الخطبة فيه خلاف بين العلماء والأصح

أنه يحرم على المستمع دون الخاطب ويستحب أن يصلي تحية المسجد إذا دخل والإمام يخطب خلافاً لأبي حنيفة ومالك.

(ذكر الأحاديث الواردة الدالة على هذه الأحكام)

(197/764)

(ق) عن ابن عمر قال "كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يخطب خطبتين يعقد بينهما" وفي رواية أخرى "كان يخطب يوم الجمعة وهو قائم ثم يقوم فيتم كما يفعلون الآن" (م) عن جابر بن سمرة قال "كانت للنبي (صلى الله عليه وسلم) خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس" زاد في رواية "فمن حدثك أنه كان يخطب جالساً فقد كذب"، (م) عن كعب بن عجرة أنه دخل المسجد وعبد الرحمن بن الحكم يخطب جالساً فقال انظروا إلى هذا الخبيث يخطب قاعداً وقد قال الله تعالى: ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ﴾، (م) عن جابر بن سمرة قال "كنت أصلي مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الصلاة فكانت صلاته قصداً وخطبته قصداً" زاد أبو داود ويقرأ آيات من القرآن ويذكر الناس عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال

(198/764)

"كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء " أخرجه أبو داود والترمذي ولأبي داود عنه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم " عن ابن مسعود " أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان إذا تشهد قال الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا من يهدي الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصيهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً " وفي رواية أن يونس سأل ابن شهاب عن تشهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم الجمعة فذكر نحوه وقال فيه " ومن يعصيهما فقد غوى ونسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ويتبع رضوانه ويجتنب سخطه إنما نحن به وله " أخرجه أبو داود (م) عن جابر بن عبد الله قال " كانت خطبة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم الجمعة يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول على أثر ذلك وقد علا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم ويقول " بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ويقول أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة ثم يقول أنا أولى بكل مؤمن من نفسه من ترك مالاً فلأهله ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ " عن ابن مسعود قال " كان

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا استوى على المنبر استقبلناه بوجوهنا أخرجه الترمذي (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت " عن نافع أن ابن عمر رأى رجلين يتحدثان والإمام يخطب يوم الجمعة فحصبهما أن اصمتا أخرجه مالك في الموطأ قال ابن شهاب خروج الإمام يقطع الصلاة وكلامه يقطع الكلام " فأما صفة صلاة الجمعة "

(199/764)

فركعتان يجهر فيهما بالقراءة ولجواز الجمعة خمس شروط الوقت وهو وقت الظهر ما بين زوال الشمس إلى دخول وقت العصر والعدد والإمام والخطبة ودار الإقامة فإن فقد شرط من هذه الشروط لخمس يجب أن يصلي ظهراً ولا يجوز للإمام أن يبتدىء الخطبة قبل تمام العدد وهو أربعون عند الشافعي فلو اجتمعوا وخطب بهم ثم انفضوا قبل افتتاح الصلاة أو انفض واحد من العدد لا يجوز أن يصلي بهم الجمعة بل يصلي الظهر ولو افتتح بهم الصلاة ثم انفضوا فأصح أقوال الشافعي أن بقاء الأربعين شرط إلى آخر الصلاة كما أن بقاء الوقت شرط إلى آخر الصلاة فلو نقص واحد قبل أن يسلم الإمام يجب على الباقين أن يصلوها ظهراً ، وفيه قول آخر وهو أنه إن بقي معه اثنان أتمها جمعة وقيل إن بقي معه واحد أتمها

جمعة وعند المزني إن انفضوا بعد ما صلى بهم الإمام ركعة أتمها جمعة وإن بقي وحده وإن كان في الركعة الأولى يتمها أربعاً وإن انفض من العدد واحداً ، وبه قال أبو حنيفة لكن في العدد الذي يشترط كالمسبوق إذا أدرك مع الإمام ركعة من الجمعة فإذا سلم الإمام أتمها جمعة وإن أدرك أقل من ركعة أتمها أربعاً (خ) عن أنس

(200/764)

" أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي الجمعة حين تميل الشمس " (م) عن عبيد الله بن أبي رافع قال " استخلف مروان أبا هريرة على المدينة وخرج إلى مكة فصلى بنا أبو هريرة الجمعة فقرأ بعد الحمد سورة الجمعة في الأولى وإذا جاءك المنافقون في الثانية قال فأدركت أبا هريرة حين انصرف فقلت له إنك قرأت سورتين كان علي بن أبي طالب يقرأ بهما في الكوفة فقال أبو هريرة إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما يوم الجمعة " ، (م) عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في العيدين وفي الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية قال وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما في الصلاتين " عن سمرة بن جندب رضي الله عنهما " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى

وهل أتاك حديث الغاشية " أخرجه أبو داود والنسائي .

وقوله تعالى: ﴿ قل ما عند الله ﴾ أي ما عند الله من الثواب والأجر على الصلاة والثبات مع النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ خير من اللهو ومن التجارة ﴾ الذي جاء بهما دحية ﴿ والله خير الرازقين ﴾ يعني أنه تعالى موجد الأرزاق وأصلها منه فإياه فاسألوا ومنه فاطلبوا ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 86 . 97 ﴾

(201/764)

وقال النسفى :

سورة الجمعة

﴿ يُسَبّحُ لِلَّهِ مَا فِى السماوات وَمَا فِى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾

التسبيح إما أن يكون تسبيح خلقة يعني إذا نظرت إلى كل شيء دلتك خلقته على وحدانية الله تعالى وتنزيهه عن الأشباه ، أو تسبيح معرفة بأن يجعل الله بلطفه في كل شيء ما يعرف به الله تعالى وينزهه ، ألا ترى إلى قوله ﴿ وَإِن مّن شَىْء إِلاَّ يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] أو تسبيح ضرورة بأن يجري الله التسبيح على كل جوهر من غير معرفة له بذلك ﴿ هُوَ الذى بَعَثَ ﴾ أرسل ﴿ فِى الأميين رَسُولاً مّنْهُمْ ﴾ أي

بعث رجلاً أمياً في قوم أميين .

وقيل ﴿ مِنْهُمْ ﴾ كقوله ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : 128] يعلمون نسبه وأحواله .

والأمي منسوب إلى أمة العرب لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرؤون من بين الأمم .

وقيل : بدئت الكتابة بالطائف وهم أخذوها من أهل الحيرة وأهل الحيرة من أهل الأنبار ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءاياته ﴾ القرآن ﴿ وَيُزَكّيهِمْ ﴾ ويطهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية ﴿ وَيُعَلّمُهُمُ الكتاب ﴾ القرآن ﴿ والحكمة ﴾ السنة أو الفقه في الدين ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ ﴾ من قبل محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَفِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ كفر وجهالة ، و"إن" مخففة من الثقيلة واللام دليل عليها أي كانوا في ضلال لا ترى ضلالاً أعظم منه .

﴿ وَءاخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ مجرور معطوف على ﴿ الأميين ﴾ يعني أنه بعثه في الأميين الذين على عهده وفي آخرين من الأميين ﴿ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ أي لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون بهم وهم الذين بعد الصحابة رضي الله عنهم ، أو هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم الدين .

وقيل : هم العجم .

أو منصوب معطوف على المنصوب في ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ﴾ أي يعلمهم ويعلم آخرين لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستنداً إلى أوله فكأنه هو الذي تولى كل ما وجد منه ﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ في تمكينه رجلاً أمياً من ذلك الأمر العظيم وتأييده عليه واختياره إياه من بين كافة البشر ﴿ ذلك ﴾ الفضل الذي أعطاه محمداً وهو أن يكون نبي أبناء عصره ونبي أبناء العصور الغوابر هو ﴿ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ إعطاءه وتقتضيه حكمته ﴿ والله ذُو الفضل العظيم مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التوراة ﴾ أي كلفوا علمها والعمل بما فيها ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ ثم لم يعملوا بها فكأنهم لم يحملوها ﴿ كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ جمع سفر وهو الكتاب الكبير و ﴿ يَحْمِلُ ﴾ في محل النصب على الحال أو الجر على الوصف لأن الحمار كاللئيم في قوله :

ولقد أمر على اللئيم يسبني . . .

شبه اليهود في أنهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها ثم لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بآياتها ، وذلك أن فيها نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم والبشارة به فلم يؤمنوا به بالحمار حمل كتباً كباراً من كتب العلم فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب ، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله ﴿ بِئْسَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بئايات الله ﴾ أي بئس مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، أو بئس مثل القوم المكذبين مثلهم وهم اليهود الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ والله لاَ

يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ أي وقت اختيارهم الظلم أو لا يهدي من سبق في علمه أنه يكون ظالماً .

(203/764)

﴿ قُلْ يا أيها الذين هَادُواْ ﴾ هاد يهود إذا تهود ﴿ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ الناس فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه أي إن كان قولكم حقاً وكنتم على ثقة فتمنوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريعاً إلى دار كرامته التي أعدها لأوليائه ، ثم قال ﴿ وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بسبب ما قدموا من الكفر .

ولا فرق بين "لا" و"لن" في أن كل واحدة منهما نفي للمستقبل إلا أن في "لن" تأكيداً وتشديداً ليس في "لا" فأتى مرة بلفظ التأكيد و ﴿ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ ﴾ ومرة بغير لفظه و ﴿ لاَ يَتَمَنَّوْنَهُ ﴾ ﴿ والله عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ وعيد لهم .

﴿ قُلْ إِنَّ الموت الذى تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ ولا تجسرون أن تتمنوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم ﴿ فَإِنَّهُ ملاقيكم ﴾ لا محالة والجملة خبر "إن" ودخلت الفاء لتضمن الذي معنى الشرط ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عالم الغيب والشهادة فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم بما أنتم أهله

من العقاب .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُوا إِذَا نُودِىَ للصلاة مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ النداء الأذان و"من" بيان ل "إذا" وتفسير له ، ويوم الجمعة سيد الأيام وفي الحديث : " من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر " ﴿ فاسعوا ﴾ فامضوا وقرىء بها وقال الفراء : السعي والمضي والذهاب واحد وليس المراد به السرعة في المشي ﴿ إلى ذِكْرِ الله ﴾ أي إلى الخطبة عند الجمهور وبه استدل أبو حنيفة رضي الله عنه على أن الخطيب إذا اقتصر على الحمد لله جاز ﴿ وَذَرُواْ البيع ﴾ أراد الأمر بترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا .

(204/764)

وإنما خص البيع من بينها لأن يوم الجمعة يتكاثر فيه البيع والشراء عند الزوال فقيل له بادروا تجارة الآخرة واتركوا تجارة الدنيا واسعوا إلى ذكر الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح ، وذروا البيع الذي نفعه يسير ﴿ ذلكم ﴾ أي السعي إلى ذكر الله ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من البيع والشراء ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة ﴾ أي أديت ﴿ فانتشروا فِى الأرض ﴾ أمر إباحة ﴿ وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ الرزق أو طلب العلم أو عيادة المريض أو زيارة أخ في الله ﴿ واذكروا الله كَثِيراً ﴾ واشكروه على ما وفقكم لأداء فرضه ﴿ لَعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ تفرقوا عنك إليها وتقديره : وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهوا انفضوا إليه فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه خص التجارة لأنها كانت أهم عندهم .

رُوي أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء ، فقدم دحية بن خليفة بتجارة من زيت الشام والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة فقاموا إليه فما بقي معه إلا ثمانية أو اثنا عشر فقال صلى الله عليه وسلم : " والذي نفس محمد بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم عليهم الوادي ناراً " وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق فهو المراد باللهو ﴿ وَتَرَكُوكَ ﴾ على المنبر ﴿ قَائِمًا ﴾ تخطب ، وفيه دليل على أن الخطيب ينبغي أن يخطب قائماً ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللهِ ﴾ من الثواب ﴿ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أي لا يفوتهم رزق الله بترك البيع فهو خير الرازقين ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 254 .256 ﴾

(205/764)

وقال ابن جزى :

سورة الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾

﴿ القدوس ﴾ ذكر في [الحشر : 24] ﴿ هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأميين رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ يعني سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ، والأميين : هم العرب ، وقد ذكر معنى الأمي في [الأعراف : 157] ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ عطفاً على الأميين ، وأراد بهؤلاء فارس " وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هؤلاء الآخرون فأخذ بيد سليمان الفارسي ، وقال : لو كان العلم بالثريا لناله رجال من هؤلاء " يعني فارس ، وقيل : هم الروم ، و ﴿ مِنْهُمْ ﴾ على هذين القولين ، يريد به في البشرية وفي الدين ، لا في النسب . وقيل ؛ هم أهل اليمن وقيل : التابعون ، وقيل : هم سائر المسلمين ، والأول أرجح لوروده في الحديث الصحيح ﴿ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ أي لما يلحقوا بهم بالنفي وسيلحقون ، وذلك أن ﴿ لَمَّا ﴾ لذكر الماضي القريب من الحال ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ الله ﴾ إشارة إلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهداية الناس به .

﴿ مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التوراة ﴾ يعني اليهود ومعنى حملوا التوراة كلفوا العمل بها والقيام بأوامرها ونواهيها ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ لم يطيعوا أمرها ولم يعملوا بها ، شبههم الله بالحمار الذي يحمل الأسفار على ظهره ، ولم يدر ما فيها ﴿ بِئْسَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله ﴾ يعني اليهود الذين كذبوا سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم وهم الذين حملوا التوراة ولم

يحملوها ؛ لأن التوراة تنطق بنبوته صلى الله عليه وسلم ، فكل من قرأها ولم يؤمن به فقد خالف التوراة ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت ﴾ ذكر في [البقرة : 94] .

(206/764)

﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ النداء للصلاة هو الأذان لها ، ومن في قوله ﴿ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ لبيان إذا ، وتفسير له ، وذكر الله : يراد به الخطبة والصلاة ، ويتعلق بهذه الآية ثمان مسائل : الأولى اختلف في الأذان للجمعة هل هو سنة كالأذان لسائر الصلوات ؟ أو واجب لظاهر الآية لأنه شرط في السعي لها أن يكون عند الأذان ، والسعي واجب فالأذان واجب . الثانية كان الأذان للجمعة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جدار المسجد وقيل : على باب المسجد وقيل : كان بين يديه صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر ، وقد كان بنو أمية يأخذون بهذا ، وبقي بقرطبة زماناً وهو باق في المشرق إلى الآن . قال أبو محمد بن الفرس : قال مالك في المجموعة إن هشام بن عبد الملك هو الذي أحدث الأذان بين يديه قال : وهذا دليل على أن الحديث في ذلك ضعيف . الثالث كان الأذان للجمعة واحداً ثم زاد عثمان رضي الله عنه النداء على الزوراء ليسمع الناس . واختلف الفقهاء هل المستحب أن يؤذن فيها اثنان أو ثلاثة :

الرابعة : السعي في الآية بمعنى المشي لا بمعنى الجري ، وقرأ عمر بن الخطاب : فامضوا إلى ذكر الله وهذا تفسير للسعي ، فهو بخلاف السعي في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا نودي للصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون . الخامسة : حضور الجمعة واجب ، لحمل الأمر الذي في الآية على الوجوب باتفاق ، إلا أنها لا تجب على المرأة ولا على الصبي ولا على المريض باتفاق ، ولا على العبد والمسافر عند مالك والجمهور ؛ خلافاً للظاهرية . وتعلقوا بعموم الآية وحجة الجمهور قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : الجمعة واجبة على كل مسلم في جماعة إلا أربعة عبد مملوك أو امرأة أو صبي أو مريض وحجتهم في المسافر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يقيم الجمعة في السفر ، واختلف هل تسقط الجمعة بسبب المطر أم لا ؟ وهل يجوز للعروس التخلف

عنها أم لا ، والمشهور أنها لا تتسقط عنه لعموم الآية ، السادسة : اختلف متى يتعين الإقبال إلى الصلاة ؟ فقيل : إذا زالت الشمس ، وقيل : إذا أذن المؤذن وهو ظاهر الآية ، السابعة : اختلف في الموضع الذي يجب منه السعي إلى الجمعة . فقيل : ثلاثة أميال وهو مذهب مالك ، وقيل : ستة أميال وقيل : على من كان داخل المصر ، وقيل : على من سمع

النداء ، وقيل : على من آواه الليل إلى أهله ، الثامنة : اختلف في الوالي هل هو من شرط الجمعة أم لا ؟ على قولين ، والمشهور سقوطه لأن الله لم يشترطه في الآية .

﴿ وَذَرُواْ البيع ﴾ أمر بترك البيع يوم الجمعة إذا أخذ المؤذنون في الأذان ، وذلك على الوجوب ، فيقتضي تحريم البيع ، واختلف في البيع الذي يعقد في ذلك الوقت هل يفسخ أم لا ؟ واختلف في بيع من لا تلزمهم الجمعة من النساء والعبد هل يجوز في ذلك الوقت أم لا ؟ والأظهر جوازه ؛ لأنه إنما منع منه من يدعى إلى الجمعة ﴿ فانتشروا فِي الأرض ﴾ هذا الأمر للإباحة باتفاق ، وحكى الإجماع على ذلك ابن عطية وابن الفرس ﴿ وابتغوا مِن فَضْلِ الله واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ قيل : معناه طلب المعاش ، فالأمر على هذا للإباحة ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" الفضل المبتغى عيادة مريض أو صلة صديق أو اتباع جنازة " وقيل : هو طلب العلم .

وإن صح الحديث لم يعدل إلى سواه .

﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ﴾ " سبب الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قائماً على المنبر يخطب يوم الجمعة ، فأقبلت عير من الشام بطعام ، وصاحب

أمرها دحية بن خليفة الكلبي ، وكانت عادتهم أن تدخل العير المدينة بالطبل والصياح سروراً بها ، فلما دخلت العير كذلك انفض أهل المسجد إليها ، وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً على المنبر ، ولم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً . قال جابر بن عبد الله : أنا أحدهم " وذكر بعضهم أن منهم العشرة المشهود لهم بالجنة ، واختلف في الثاني عشر ، فقيل : عبد الله بن مسعود ، وقيل : عمار بن ياسر ، وقيل : إنما بقي معه صلى الله عليه وسلم ثمانية وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال لهؤلاء : لقد كانت الحجارة سُوِّمت في السماء على المنفضين . وظاهر الآية يقتضي أن الجماعة شرط من الجمعة وهو مذهب مالك والجمهور ، إلا أنهم اختلفوا في مقدار الجماعة الذي تنعقد بهم الجمعة ؟ فقال مالك : ليس في ذلك عدد محدود ، وإنما هم جماعة تقوم بهم قرية . وروى ابن الماجشون عن مالك ثلاثون . وقال الشافعي : أربعون . وقال أبو حنيفة : ثلاثة مع الإمام وقيل : اثنا عشر عدد الذي بقوا مع النبي صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : لم قال انفضوا إليها بضمير المفرد وقد ذكر التجارة واللهو ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما أنه أراد انفضوا إلى اللهو وانفضوا إلى التجارة ، ثم حذف أحدهما لدلالة الآخرة عليه . قاله الزمخشري . والآخر أنه قال ذلك مهتماً بالتجارة إذ كانت أهم ، وكانت هي سبب اللهو ، ولم يكن اللهو سببها ، قاله ابن عطية .

﴿ وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾ اختلفوا في القيام في الخطبة هل هو وجب أم لا ؟ وإذ قلنا بوجوبه فهل هو شرط فيها أم لا ؟ فمن أوجبه واشترطه أخذ بظاهر الآية من ذكر القيام . ومن لم يوجبه رأى أن ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك لم يكن على الوجوب . ومذهب مالك أن من سنة الخطبة الجلوس قبلها والجلوس بين الخطبتين ، وقال أبو حنيفة : لا يجلس بين الخطبتين لظاهر الآية وذكر القيام فيها دون الجلوس ، وحجة مالك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللهوِ وَمِنَ التجارة ﴾ إن قيل : لم قدم اللهو هنا على التجارة وقدم التجارة قبل هذا على اللهو ؟ فالجواب : أن كل واحد من الموضعين جاء على ما ينبغي فيه ؛ وذلك أن العرب تارة يبتدئون بالأكثر ثم ينزلون إلى الأقل كقولك : فلان يخون في الكثير والقليل فبدأت بالكثير ثم أردفت عليه الخيانة فيما دونه ، وتارة يبتدئون بالأقل ثم يرتقون إلى الأكثر كقولك : فلان أمين على القليل والكثير فبدأت بالقليل ثم أردفت عليه الأمانة فيما هو أكثر منه ، ولو عكست في كل واحد من المثالين لم يكن حسناً ؛ فإنك لو قدمت في الخيانة القليل لعلم أنه يخون في الكثير .

من باب أولى وأحرى ، ولو قدمت في الأمانة ذكر الكثير لعلم أنه أمين في القليل من باب أولى وأحرى ، فلم يكن لذكره بعد ذلك فائدة وكذلك قوله ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ﴾ . قدم التجارة هنا ليبين أنهم ينفضون إليها ، وأنهم مع ذلك ينفضون إلى اللهو الذي

هو دونها وقوله : ﴿ خَيْرٌ مِّنَ اللهو وَمِنَ التجارة ﴾ قدم اللهو ليبين أن ما عند الله خير من اللهو ، وأنه أيضاً خير من التجارة التي هي أعظم منه ، ولو عكس كل واحد من الموضعين لم يحسن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 118. 121 ﴾

(210/764)

وقال البيضاوى :

سورة الجمعة

مدنية وآيها إحدى وعشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبّحُ لِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾

وقد قرىء الصفات الأربع بالرفع على المدح.

﴿ هُوَ الذى بَعَثَ فِى الأميين ﴾ أي في العرب لأن أكثرهم لا يكتبون ولا يقرؤون . ﴿ رَسُولاً مّنْهُمْ ﴾ من جملتهم أمياً مثلهم . ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءاياته ﴾ من كونه أمياً مثلهم لم يعهد منه قراءة ولا تعلم . ﴿ وَيُزَكّيهِمْ ﴾ من خبائث العقائد والأعمال . ﴿ وَيُعَلّمُهُمُ الكتاب والحكمة ﴾ القرآن والشريعة ، أو معالم الدين من المنقول والمعقول ، ولو لم يكن له سواه

معجزة لكفاه . ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ من الشرك وخبث الجاهلية ، وهو بيان لشدة احتياجهم إلى نبي يرشدهم ، وإزاحة لما يتوهم أن الرسول تعلم ذلك من معلم ، و﴿ إن ﴾ هي المخففة واللام تدل عليها .

﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ عطف على ﴿ الأميين ﴾ ، أو المنصوب في ﴿ يَعْلَمُهُمْ ﴾ وهم الذين جاؤوا بعد الصحابة إلى يوم الدين ، فإن دعوته وتعليمه يعم الجميع . ﴿ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ﴾ لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون . ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ في تمكينه من هذا الأمر الخارق للعادة . ﴿ الحكيم ﴾ في اختياره وتعليمه .

﴿ ذلك فَضْلُ الله ﴾ ذلك الفضل الذي امتاز به عن أقرانه فضله . ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ تفضلاً وعطية . ﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ الذي يستحقر دونه نعيم الدنيا ، أو نعيم الآخرة أو نعيمهما .

(211/764)

﴿ مَثَلُ الذين حُمِّلُوا۟ التوراة ﴾ علموها وكلفوا العمل بها . ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ لم يعملوا بها أو لم ينتفعوا بما فيها . ﴿ كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ كتباً من العلم يتعب في حملها ولا ينتفع بها ، ويحمل حال والعامل فيه معنى المثل أو صفة إذ ليس المراد من ﴿ الحمار ﴾

معيناً . ﴿ بِئْسَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بئَايات الله ﴾ أي مثل الذين كذبوا وهم اليهود المكذبون بآيات الله الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، ويجوز أن يكون الذين صفة للقوم والمخصوص بالذم محذوفاً . ﴿ والله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ .

﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الذين هَادُواْ ﴾ تهودوا . ﴿ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ الناس ﴾ إذ كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه . ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت ﴾ فتمنوا من الله أن يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى محل الكرامة . ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في زعمكم .

﴿ وَلاَ يَتَمَنَّونَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بسبب ما قدموا من الكفر والمعاصي . ﴿ والله عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ فيجازيهم على أعمالهم .

﴿ قُلْ إِنَّ الموت الذى تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ وتخافون أن تتمنوه بلسانكم مخافة أن يصيبكم فتؤخذوا بأعمالكم . ﴿ فَإِنَّهُ ملاقيكم ﴾ لاحق بكم لا تفوتونه ، والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط باعتبار الوصف ، وكأن فرارهم يسرع لحوقه بهم . وقد قرىء بغير فاء ويجوز أن يكون الموصول خبراً والفاء عاطفة . ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عالم الغيب والشهادة فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بأن يجازيكم عليه .

﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ إِذَا نُودِىَ للصلاة ﴾ أي إذا أذن لها . ﴿ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ بيان ل ﴿ إِذَا ﴾ وإنما سمي جمعة لاجتماع الناس فيه للصلاة ، وكانت العرب تسميه العروبة . وقيل سماه كعب بن لؤي لاجتماع الناس فيه إليه ، وأول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما قدم المدينة نزل قباء فأقام بها إلى الجمعة ، ثم دخل المدينة وصلى الجمعة في واد لبني سالم بن عوف . ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ فامضوا إليه مسرعين قصداً فإن السعي دون العدو ، وال ﴿ ذِكْرَ ﴾ الخطبة ، وقيل الصلاة والأمر بالسعي إليها يدل على وجوبها . ﴿ وَذَرُواْ البيع ﴾ واتركوا المعاملة . ﴿ ذلكم ﴾ أي السعي إلى ذكر الله . ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من المعاملة فإن نفع الآخرة خير وأبقى . ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الخير والشر الحقيقيين ، أو إن كنتم من أهل العلم .

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة ﴾ أديت وفرغ منها . ﴿ فانتشروا فِى الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ إطلاق لما حظر عليهم ، واحتج به من جعل الأمر بعد الحظر للإباحة . وفي الحديث " ابتغوا من فضل الله ليس بطلب الدنيا وإنما هو عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله " ﴿ واذكروا الله كَثِيراً ﴾ واذكروه في مجامع أحوالكم ولا تخصوا ذكره بالصلاة . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ بخير الدارين .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يخطب للجمعة فمرت عليه عير تحمل الطعام ، فخرج الناس إليهم إلا اثني عشر رجلاً فنزلت . وإفراد التجارة برد الكناية لأنها المقصودة ، فإن المراد من اللهو الطبل الذي كانوا يستقبلون به العير ، والترديد للدلالة على أن منهم من انفض لمجرد سماع الطبل ورؤيته ، أو للدلالة على أن الإنفضاض إلى التجارة مع الحاجة إليها والانتفاع بها إذا كان مذموماً كان الانفضاض إلى اللهو أولى بذلك . وقيل تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها وإذا رأوا لهواً انفضوا إليه . ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِماً ﴾ أي على المنبر . ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللهِ ﴾ من الثواب . ﴿ خَيْرٌ مِّنَ اللهو وَمِنَ التجارة ﴾ فإن ذلك محقق مخلد بخلاف ما تتوهمون من نفعهما ﴿ والله خَيْرُ الرزقين ﴾ فتوكلوا عليه واطلبوا الرزق منه .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الجمعة أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة ومن لم يأتها في أمصار المسلمين " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 337. 340 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال أبو حيان :

سورة الجمعة

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

وقرأ الجمهور : ﴿ الملك ﴾ بجرّه وجر ما بعده ؛ وأبو وائل ومسلمة بن محارب ورؤبة وأبو الدّينار الأعرابي : بالرفع على إضمار هو ، وحسنه الفصل الذي فيه طول بين الموصوف والصفة ، وكذلك جاء عن يعقوب .

وقرأ أبو الدينار وزيد بن عليّ : القدوس بفتح القاف ؛ والجمهور : بالضم .

﴿ هو الذي بعث ﴾ الآية : تقدم الكلام في نظيرها في آل عمران وفي نسبة الأمّي .

﴿ وآخرين ﴾ : الظاهر أنه معطوف على ﴿ الأمّيين ﴾ ، أي وفي آخرين من الأمّيين لم يلحقوا بهم بعد ، وسيلحقون .

وقيل : ﴿ وآخرين ﴾ منصوب معطوف على الضمير في ﴿ ويعلمهم ﴾ ، أسند تعليم الآخرين إليه عليه الصلاة والسلام مجازاً لما تناسق التعليم إلى آخر الزمان وتلا بعضه بعضاً ، فكأنه عليه الصلاة والسلام وجد منه .

وقال أبو هريرة وغيره : وآخرين هم فارس ، وجاء نصاً عنه في صحيح البخاري ومسلم ، ولو فهم منه الحصر في فارس لم يجز أن يفسر به الآية ، ولكن فهم المفسرون منه أنه تمثيل .

فقال مجاهد وابن جبير : الروم والعجم .

وقال مجاهد أيضاً وعكرمة ومقاتل : التابعين من أبناء العرب لقوله : ﴿ منهم ﴾ ، أي في النسب .

وقال مجاهد أيضاً والضحاك وابن حبان : طوائف من الناس .

وقال ابن عمر : أهل اليمن .

وعن مجاهد أيضاً : أبناء الأعاجم ؛ وعن ابن زيد أيضاً : هم التابعون ؛ وعن الضحاك أيضاً : العجم ؛ وعن أبي روق : الصغار بعد الكبار ، وينبغي أن تحمل هذه الأقوال على التمثيل ، كما حملوا قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) في فارس : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ في تمكينه رجلاً أمّياً من ذلك الأمر العظيم ، وتأييده واختياره من سائر البشر .

﴿ ذلك فضل الله ﴾ : أي إيتاء النبوة وجعله خير خلقه واسطة بينه وبين خلقه .

﴿ مثل الذين حملوا التوراة ﴾ : هم اليهود المعاصرون للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كلفوا القيام بأوامرها ونواهيها ، ولم يطيقوا القيام بها حين كذّبوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وهي ناطقة بنبوته .

وقرأ الجمهور : حملوا مشدداً مبنياً للمفعول ؛ ويحيى بن يعمر وزيد بن عليّ : مخففاً مبنياً للفاعل .

شبه صفتهم بصفة الحمار الذي يحمل كتباً ، فهو لا يدري ما عليه ، أكتب هي أم صخر وغير ذلك ؟ وإنما يدرك من ذلك ما يلحقه من التعب بحملها .

وقال الشاعر في نحو ذلك :

زوامل للأشعار لا علم عندهم . . .

بجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدري البعير إذا غدى . . .

بأوساقه أو راح ما في الغرائر

وقرأ عبد الله : حمار منكراً ؛ والمأمون بن هارون : يحمل بشد الميم مبنياً للمفعول .

والجمهور : الحمار معرفاً ، ويحمل مخففاً مبنياً للفاعل ، ويحمل في موضع نصب على الحال .

قال الزمخشري : أو الجر على الوصف ، لأن الحمار كاللئيم في قوله :

ولقد أمر على اللئيم يسبني . . .

انتهى .

وهذا الذي قاله قد ذهب إليه بعض النحويين ، وهو أن مثل هذا من المعارف يوصف بالجمل ، وحملوا عليه

﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ وهذا وأمثاله عند المحققين في موضع الحال، لا في موضع الصفة.

ووصفه بالمعرفة ذي اللام دليل على تعريفه مع ما في ذلك المذهب من هدم ما ذكره المتقدمون من أن المعرفة لا تنعت إلا بالمعرفة، والجمل نكرات.

﴿ بئس مثل القوم ﴾.

قال الزمخشري: بئس مثلاً مثل القوم. انتهى.

فخرجه على أن يكون التمييز محذوفاً، وفي بئس ضمير يفسره مثلاً الذي ادعى حذفه.

وقد نص سيبويه على أن التمييز الذي يفسره الضمير المستكن في نعم وبئس وما أجري مجراهما لا يجوز حذفه.

وقال ابن عطية: والتقدير بئس المثل مثل القوم. انتهى.

وهذا ليس بشيء، لأن فيه حذف الفاعل، وهو لا يجوز.

(216/764)

والظاهر أن ﴿ مثل القوم ﴾ فاعل ﴿ بئس ﴾، والذين كفروا هو المخصوص بالذم على حذف مضاف، أي مثل الذين كذبوا بآيات الله، وهم اليهود، أو يكون ﴿ الذين كذبوا

﴾ صفة للقوم ، والمخصوص بالذم محذوف ، التقدير : بئس مثل القوم المكذبين مثلهم ، أي مثل هؤلاء الذين حملوا التوراة .

روي أنه لما ظهر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، كتبت يهود المدينة ليهود خيبر : إن اتبعتموه أطعناكم ، وإن خالفتموه خالفناه ، فقالوا لهم : نحن أبناء خليل الرحمن ، ومنا عزير بن الله والأنبياء ، ومتى كانت النبوة في العرب نحن أحق بها من محمد ، ولا سبيل إلى اتباعه ، فنزلت : ﴿ قل يا أيها الذين هادوا ﴾ ، وكانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه ، وإن كان قولكم حقاً فتمنوا أن تنقلوا سريعاً إلى دار كرامته المعدة لأوليائه ، وتقدم تفسير نظير بقية الآية في سورة البقرة .

وقرأ الجمهور : ﴿ فتمنوا الموت ﴾ ، بضم الواو ؛ وابن يعمر وابن أبي إسحاق وابن السميفع : بكسرها ؛ وعن ابن السميفع أيضاً : فتحها .

وحكى الكسائي عن بعض الأعراب أنه قرأ بالهمز مضمومة بدل الواو ، وهذا كقراءة من قرأ : تلؤون بالهمز بدل الواو .

قال الزمخشري : ولا فرق بين لا ولن في أن كل واحد منهما نفي للمستقبل ، إلا أن في لن تأكيداً وتشديداً ليس في لا ، فأتى مرة بلفظ التأكيد : ﴿ ولن يتمنوه ﴾ ومرة بغير لفظه : ﴿ ولا يتمنونه ﴾ ، وهذا منه رجوع عن مذهبه في أن لن تقتضي النفي على التأبيد إلى مذهب الجماعة في أنها لا تقتضيه ، وأما قوله : إلا أن في لن تأكيداً وتشديداً ليس في لا ،

فيحتاج ذلك إلى نقل عن مستقري اللسان .

وقرأ الجمهور : ﴿ فإنه ﴾ ، والفاء دخلت في خبر إن إذا جرى مجرى صفته ، فكان إن باشرت الذي ، وفي الذي معنى الشرط ، فدخلت الفاء في الخبر ، وقد منع هذا قوم ، منهم الفراء ، وجعلوا الفاء زائدة .

وقرأ زيد بن علي : إنه بغير فاء ، وخرجه الزمخشري على الاستئناف ، وخبر إن هو الذي ، كأنه قال : قل إن الموت هو الذي تفرون منه .

انتهى .

ويحتمل أن يكون خبر أن هو قوله : أنه ملاقيكم ، فالجملة خبر إن ، ويحتمل أن يكون إنه توكيداً ، لأن الموت وملاقيكم خبر إن .

لما طال الكلام ، أكد الحرف مصحوباً بضمير الاسم الذي لإن .

﴿ إذا نودي ﴾ : أي إذا أذن ، وكان الأذان عند قعود الإمام على المنبر .

وكذا كان في زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كان إذا صعد على المنبر أذن على باب المسجد ، فإذا نزل بعد الخطبة أقيمت الصلاة .

وكذا كان في عهد أبي بكر وعمر إلى زمان عثمان ، كثر الناس وتباعدت المنازل ، فزاد مؤذناً آخر على داره التي تسمى الزوراء ، فإذا جلس على المنبر أذن الثاني ، فإذا نزل من المنبر أقيمت الصلاة ، ولم يعب ذلك أحد على عثمان رضى الله عنه .

فإن قلت : من في قوله : ﴿ من يوم الجمعة ﴾ ما هي ؟ قلت : هي بيان لإذا وتفسير له .

انتهى .

وقرأ الجمهور : الجمعة بضم الميم ؛ وابن الزبير وأبو حيوة وابن أبي عبلة ، ورواية عن أبي عمرو وزيد بن علي والأعمش : بسكونها ، وهي لغة تميم ، ولغة بفتحها لم يقرأ بها ، وكان هذا اليوم يسمى عروبة ، ويقال : العروبة .

قيل : أول من سماه الجمعة كعب بن لؤي ، وأول جمعة صليت جمعة سعد بن أبي زرارة ، صلى بهم ركعتين وذكرهم ، فسموهم يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ، فأنزل الله آية الجمعة ، فهي أول جمعة جمعت في الإسلام .

وأما أول جمعة جمعها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فإنه لما قدم المدينة ، نزل بقباء على بني عمرو بن عوف ، وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأسس مسجدهم ، ثم خرج يوم الجمعة عامداً المدينة ، فأدرك صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف ، في بطن واد لهم ، فخطب وصلى الجمعة .

والظاهر وجوب السعي لقوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ ، وأنه يكون في المشي خفة وبدار .

(218/764)

وقال الحسن وقتادة ومالك وغيرهم : إنما تؤتى الصلاة بالسكينة ، والسعي هو بالنية والإرادة والعمل ، وليس الإسراع في المشي ، كالسعي بين الصفا والمروة ؛ وإنما هو بمعنى قوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ فالقيام والوضوء ولبس الثوب والمشي كله سعي .

والظاهر أن الخطاب بالأمر بالسعي للمؤمنين عموماً ، وأنهما فرض على الأعيان .

وعن بعض الشافعية ، أنها فرض كفاية ، وعن مالك رواية شاذة : أنها سنة .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي : ثبت عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : " الرواح إلى الجمعة واجب على كل مسلم " وقالوا : المأمور بالسعي المؤمن الصحيح الحر الذكر المقيم .

فلو حضر غيره أجزأتهم . انتهى .

والمسافة التي يسعى منها إلى صلاة الجمعة لم تعرض الآية لها ، واختلف الفقهاء في ذلك .

فقال ابن عمرو وأبو هريرة وأنس والزهري : ستة أميال .

وقيل : خمسة .

وقال ربيعة : أربعة أميال .

وروي ذلك عن الزهري وابن المنكدر .

وقال مالك والليث : ثلاثة .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : على من في المصر ، سمع النداء أو لم يسمع ، لا على من هو خارج المصر ، وإن سمع النداء .

وعن ابن عمر وابن المسيب والزهري وأحمد وإسحاق : على من سمع النداء .

وعن ربيعة : على من إذا سمع النداء وخرج من بيته ماشياً أدرك الصلاة .

وقرأ كبراء من الصحابة والتابعين : فامضوا بدل ﴿ فاسعوا ﴾ ، وينبغي أن يحمل على التفسير من حيث أنه لا يراد بالسعي هنا الإسراع في المشي ، ففسروه بالمضي ، ولا يكون قرآناً لمخالفته سواد ما أجمع عليه المسلمون .

وذكر الله هنا الخطبة ، قاله ابن المسيب ، وهي شرط في انعقاد الجمعة عند الجمهور .

وقال الحسن : هي مستحبة ، والظاهر أنه يجزىء من ذكر الله تعالى ما يسمى ذكراً .

قال أبو حنيفة : لو قال الحمد لله أو سبحان الله واقتصر عليه جاز ، وقال غيره : لا بد من كلام يسمى خطبة ، وهو قول الشافعي وأبي سفيان ومحمد بن الحسن ، والظاهر تحريم البيع ، وأنه لا يصح .

وقال ابن العربي : يفسخ ، وهو الصحيح .

وقال الشافعي : ينعقد ولا يفسخ ، وكلما يشغل من العقود كلها فهو حرام شرعاً ، مفسوخ ورعاً . انتهى .

وإنما ذكر البيع من بين سائر المحرمات ، لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق ، إذ يكثر الوافدون الأمصار من القرى ويجتمعون للتجارة إذا تعالى النهار ، فأمروا بالبدار إلى تجارة الآخرة ، ونهوا عن تجارة الدنيا ، ووقت التحريم من الزوال إلى الفراغ من الصلاة ، قاله الضحاك والحسن وعطاء .

وقال ناس غيرهم : من وقت أذان الخطبة إلى الفراغ ، والإشارة بذلكم إلى السعي وترك البيع ، والأمر بالانتشار والابتغاء أمر إباحة ، وفضل الله هو ما يلبسه في حالة حسنة ، كعيادة المريض ، وصلة صديق ، واتباع جنازة ، وأخذ في بيع وشراء ، وتصرفات دينية ودنيوية ؛ فأمر مع ذلك بإكثار ذكر الله .

وقال مكحول والحسن وابن المسيب : الفضل : المأمور بابتغائه هو العلم .

وقال جعفر الصادق : ينبغي أن يكون فجر صبح يوم السبت ، ويعني أن يكون بقية يوم الجمعة في عبادة .

وروي أنه كان أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر ، فقدم دحية بعير تحمل ميرة .

قال مجاهد : وكان من عرفهم أن يدخل بالطبل والمعازف من درابها ، فدخلت بها ، فانفضوا إلى رؤية ذلك وسماعه ، وتركوه (صلى الله عليه وسلم) قائماً على المنبر في اثني عشر رجلاً .

قال جابر : أنا أحدهم .

قال أبو بكر غالب بن عطية : هم العشرة المشهود لهم بالجنة ، والحادي عشر قيل : عمار .

وقيل : ابن مسعود .

وقيل : ثمانية ، قالوا : فنزلت : ﴿ وإذا رأوا تجارة ﴾ .

وقرأ الجمهور : ﴿ إليها ﴾ بضمير التجارة ؛ وابن أبي عبلة : إليه بضمير اللهو ، وكلاهما جائز ، نص عليه الأخفش عن العرب .

وقال ابن عطية : وقال إليها ولم يقل إليهما تهمماً بالأهم ، إذ كانت سبب اللهو ، ولم يكن اللهو سببها .

وتأمّل أن قدّمت التجارة على اللهو في الرؤية لأنها أهم ، وأخرت مع التفضيل لتقع النفس أولاً على الأبين . انتهى .

وفي قوله : ﴿ قائماً ﴾ دلالة على مشروعية القيام في الخطبة .

وأول من استراح في الخطبة عثمان ، وأول من خطب جالساً معاوية .

وقرىء : إليهما بالتثنية للضمير ، كقوله تعالى : ﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ﴾ وتخريجه على أن يتجوّز بأو ، فتكون بمعنى الواو ، وقد تقدّم غير هذا التخريج في قوله : ﴿ فالله أولى بهما ﴾ في موضعه في سورة النساء .

وناسب ختمها بقوله : ﴿ والله خير الرازقين ﴾ ، لأنهم كانوا قد مسهم شيء من غلاء الأسعار ، كما تقدم في سبب النزول ، وقد ملأ المفسرون كثيراً من أوراقهم بأحكام وخلاف في مسائل الجمعة مما لا تعلق لها بلفظ القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

التفسير : في الأميين منسوب إلى أمة العرب أو إلى أم القرى . وقد مر سائر الوجوه في " الأعراف " في قوله ﴿ النبيّ الأميّ ﴾ [الآية : 157] وباقي الآية مذكورة في " البقرة " و " آل عمران " . والمراد بآخرين التابعون وحدهم أو مع تبع التابعين إلى يوم القيامة . ثمّ شبه اليهود الطاعنين في نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم مع أنهم حاملوا التوراة وحفاظها العارفون بما فيها من نعت نبيّ آخر الزمان بالحمار الحامل للأسفار أي الكتب الكبار لأنه لا يدري منها إلا ما مر بجنبيه من الكدّ والتعب . ومعنى ﴿ حملوا ﴾ كلفوا العمل بما فيها . ومحل ﴿ يحمل ﴾ جر صفة للحمار كما في قوله " على اللئيم يسبني " وهذا مثل كل من علم علماً يتعلق بعمل صالح ثم لم يعمل به . ثم قبح مثلهم بقوله ﴿ بئس ﴾ مثلاً ﴿ مثل القوم الذين ﴾ وكانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه فقيل لهم : إن كان قولكم حقاً ﴿ فتمنوا الموت ﴾ ليكون وصولكم إلى دار الكرامة أسرع وقد مر مثله في أول " البقرة " إلا أنه قال ههنا ﴿ ولا يتمنونه ﴾ وهناك ولن يتمنوه وذلك أن كليهما للنفي إلا أن " لن " أبلغ في

نفي الاستقبال وكانت دعواهم هناك قاطعة بالغة وهي كون الجنة لهم بصفة الخلوص فخص الأبلغ بتلك السورة . ثم بين أن الموت الذي لا يجترؤن على تمنيه خيفة أن يؤاخذوا بوبال كفرهم فإنه ملاقيهم لا محالة . قال أهل النظم : قد أبطل الله تعالى قول اليهود في ثلاث : زعموا أنهم أولياء لله فكذبهم بقوله ﴿ فتمنوا الموت ﴾ وافتخروا بأنهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم فشبههم بالحمار يحمل أسفاراً ، وباهوا بالسبت وأنه ليس للمسلمين مثله فشرع لنا الجمعة . قال جار الله : يوم الجمعة بالسكون الفوج المجموع كضحكة للمضحوك منه ، وضمَّ الميم تثقيل لها كما قيل في عسرة عسرة . قلت : ومما يدل على أن أصلها الكسون جمعها على جمع كقدرة وقدر . وفي الكشاف أن ﴿ من يوم الجمعة ﴾ بيان " إذا " وتفسير له . وأقوال : إن اليوم أعم من

وقت النداء والعام . لإبهامه لا يصير بياناً ظاهراً فالأولى أن تكون " من " للتبعيض .

والنداء الأذان في أول وقت الظهر ، وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن واحد فكان إذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد فإذا نزل أقام للصلاة ، ثم كان أبو بكر

وعمر على ذلك ، حتى إذا كان عثمان وكثر الناس زاد مؤذناً آخر ، مؤذن على داره التي تسمى زوراء فإذا جلس على المنبر أذن المؤذن الثاني ، فإذا نزل أقام للصلاة .

وعن ابن عباس : إن أول جمعة في الإسلام بعد جمعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لجمعة أجتمعت بجواثى قرية من قرى البحرين من قرى عبد القيس وروي أن الأنصار بالمدينة اجتمعوا إلى أسعد بن زرارة . وكنيته أبو إمامة وقالوا : هلموا نجعل لنا يوماً نجتمع فيه فنذكر الله ونصلي فإن لليهود السبت وللنصارى الأحد فاجعلوه يوم العروبة ، فصلّى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ، وأنزل الله تعالى آية الجمعة فهي أول جمعة كانت في الإسلام قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما قدم المدينة مهاجراً نزل قباء على بني عمرو بن عوف وأقام بها يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخمس وأسس مسجدهم ، ثم خرج يوم الجمعة عامداً المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم فخطب وصلّى الجمعة .

وفضيلة صلاة الجمعة كثيرة منها ما ورد في الصحاح عن أبي هريرة " إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول " و " مثل المبكر كمثل الذي يهدي

بدنه ثم كالذي يهدي بقرة ثم كبشاً ثم دجاجة ثم بيضة فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ويستمعون الذكر " وعنه صلى الله عليه وسلم " من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر " وكانت الطرقات في أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر غاصة بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج . وقيل : أول بدعة أحدثت مع الإسلام ترك البكور إلى الجمعة . ولا تقام الجمعة عند أبي حنيفة إلا في مصر جامع وهو ما أقيمت فيه الحدود ونفذت فيه الأحكام . وقد يقال : ما يكون فيه نهر جار وسوق قائم وملك قاهر وطبيب حاذق . وعنده تنعقد بثلاثة سوى الإمام ، وعند الشافعي لا تنعقد إلاّ بأربعين متوطنين . وأعذار الجمعة مشهورة في كتب الفقه . ومعنى السعي القصد دون العدو ومنه قول الحسن : ليس السعي على الأقدام ولكنه على النيات والقلوب . وعن ابن عمر أنه سمع

الإقامة وهو بالبقيع فأسرع المشي . قال العلماء : وهذا لا بأس به ما لم يجهد نفسه . قوله ﴿ إلى ذكر الله ﴾ أي إلى الخطبة والصلاة وهي تسمية الشيء بأشرف أجزائه . ومذهب أبي حنيفة أنه لو اقتصر على كل ما يسمى ذكراً مثل الحمد لله أو سبحان الله جاز .

وعند صاحبيه والشافعي لا بد من كلام يسمى خطبة . وعن جابر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته : نحمد الله ونثني عليه بما هو أهله ثم يقول : من يهد الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له ، إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار . وعنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان صلاته قصداً وخطبته قصداً . وعن أبي وائل قال : خطبنا عمار فأوجز وأبلغ فلما نزل قال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "إن طول الصلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه فأقصر الخطبة وأطل الصلاة" وإن من البيان لسحراً . قوله ﴿ وذروا البيع ﴾ خاص ولكنه عام في الحقيقة لكل ما يذهل عن ذكر الله . وسبب التخصيص أن أهل القرى وقتئذ يجتمعون من كل أوب في السوق وأغلب اجتماعهم على البيع والشراء . ولا خلاف بين العلماء في تحريم البيع وقت النداء . وهل يصح ذلك البيع إن وقع الأكثرون ؟ نعم لأن المنع غير متوجه نحو خصوص البيع . وإنما هو متوجه نحو ترك الجمعة حتى لو تركها بسبب آخر فقد ارتكب النهي ولو باع في غير تلك الحالة لم يصادفه نهي . قوله ﴿ فانتشروا ﴾ وابتغوا إباحة بعد حظر . وعن بعض السلف أنه كان

يشغل نفسه بعد الجمعة بشيء من أمور الدنيا امتثالاً للآية . وعن ابن عباس : لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا إنما هو عيادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة أخ في الله . وعن الحسن وسعيد بن المسيب : الطلب طلب العلم . وقيل : صلاة التطوع . وفي قوله ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ إشارة إلى أن المرء لا ينبغي أن يغفل عن ذكر ربه في كل حال كما قال ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ [النور : 37] عن جابر قال : بينا نحن نصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم إذا قيل : عير تحمل طعاماً فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا اثنا عشر رجلاً فنزلت ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾ أي

(227/764)

تفرقوا إليها ﴿ وتركوك قائماً ﴾ في الصلاة أو في الخطبة أو في الزاوية ، وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق فهذا هو المراد باللهو والتقدير إذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهواً انفضوا إليه ، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه . يروى أنه صلى الله عليه وسلم وآله قال : والذي نفس محمد بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً . ثم حث

على تجارة الآخرة وعلى تيقن أن لا رازق بالحقيقة إلا هو سبحانه وقد مر مراراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 300.302﴾

(228/764)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الجمعة

مدنية وهي إحدى عشرة آية ، ومائتو ثمانون كلمة ، وسبعمائة وعشرون حرفاً

روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة" وعنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "نحن الآخرون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب الأول من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فهدانا الله تعالى لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه هدانا الله له" وقال يوم الجمعة : "فاليوم لنا ، وغداً لليهود ، وبعد غد للنصارى" .

﴿بسم الله﴾ الذي أحاط علمه بكل معلوم فتم بيانه ﴿الرحمن﴾ الذي تمت نعمة بيانه فهو العظيم شأنه ﴿الرحيم﴾ الذي خص حزبه بالتوفيق فثبت عندهم حبه وإيمانه

(229/764)

﴿ يسبح ﴾ أي : يوقع التنزيه الأعظم الأنهى الأكمل ﴿ لله ﴾ أي : الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ ما في السموات ﴾ أي : من جميع الأشياء من الملائكة وغيرها كالأفلاك والنجوم ﴿ وما في الأرض ﴾ كذلك من الآدميين وغيرهم كالشجر والثمار ، وقيل : اللام مزيدة ، أي : ينزه الله وأتى بما دون من ، قال الجلال المحلي : تغليباً للأكثر ، ويحتمل أن يكون المراد بالسماء جهة العلو فيشمل السماء وما فيها ، وبالأرض جهة السفل فيشمل الأرض وما فيها ﴿ الملك ﴾ أي : الذي ثبت له جميع الكمالات ، فهو ينصر من يشاء من جنده ولو كان ذليلاً فيصبح ظاهراً ﴿ القدوس ﴾ أي : المنزه عما لا يليق به ، وعن إحاطة أحد من الخلق بعلمه وإدراك كنه ذاته فليس في أيدي الخلق إلا التردد في شهود أفعاله والتدبير لمفاهيم نعوته وجلاله وأحقهم بالقرب و العداد في حزبه المتخلق بأوصافه على قدر اجتهاده ، فينبغي للمؤمن التنزه عن أن يقول مالا يفعل ، أو يبني شيئاً من أموره على غير إحكام ﴿ العزيز ﴾ أي : الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ﴿ الحكيم ﴾ أي : الذي يوقع كل ما أراد في أحكم مواقعه وأتمها وأتقنها .

(230/764)

﴿ هو ﴾ أي: وحده ﴿ الذي بعث في الأميين ﴾ أي: العرب لأن أكثرهم لا يكتبون ولا يقرؤون، والأمي: من لا يقرأ ولا يكتب ﴿ رسولاً منهم ﴾ أي: من جملتهم أمياً مثلهم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم وما من حي من العرب إلا وله صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة، وقد ولدوه. قال ابن إسحاق: إلا بني تغلب فإن الله تعالى طهر نبيه صلى الله عليه وسلم منهم فلم يجعل لهم عليه ولادة، وكان أمياً لم يقرأ من كتاب ولم يتعلم صلى الله عليه وسلم علمه الله ما لم يكن يعلم من غير تطلب، فكانت آثار البشرية عنه مندرسة وأنوار الحقائق علية لائحة، وذلك لئلا يتوهم الافتقار إلى الاستعانة بالكتب لأن مشاكلته لحال من بعث فيهم أقرب إلى مساواتهم له لو أمكنهم فيكون معنى عدم إمكان المساواة أدل على الإعجاز، وبعثه إلى العرب لا ينفي بعثه إلى غيرهم لاسيما مع ما ورد فيه من صرائح الدلائل القطعية، فذكر موضع البعث وابتداءه فتكون الغاية مطلقة تقديرها إلى عامة الخلق ﴿ يتلو ﴾ أي: يقرأ قراءة يتبع بعضها بعضاً على وجه الكثرة والعلو والرفعة ﴿ عليهم ﴾ مع كونه أمياً مثلهم ﴿ آيات ﴾ أي: يأتيهم بها على سبيل التجدد والمواصلة، وهي القرآن الذي أعجز الجن والإنس أن يأتوا بسورة من مثله ﴿ ويزكيهم ﴾ أي: يطهرهم من الشرك والأخلاق الرذيلة، والعقائد الزائغة فكانت تزكيته لهم مدة حياته بنظره الشريف إليهم، وتعليمه لهم وتلاوته عليهم، فربما نظر الإنسان نظرة محبة فزكاه الله تعالى بها بحسب

القابليات والأمور التي قضى الله تعالى أن تكون مهيآت فكان له أعشق فكان لأتباعه ألزم فكان في كتاب الله وسنته أرسخ ﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ أي : القرآن المنزل عليه الجامع لكل خير ديني ودنيوي في الأولى والأخرى ﴿ والحكمة ﴾ هي غاية الحكم للكتاب في قوة فهمه والعمل به فهي العمل المزين بالعلم المتقن به ، وقال الحسن : الكتاب : القرآن ، والحكمة : السنة . وقال ابن عباس : الكتاب الخط بالقلم ، والحكمة : السنة ، لأن

الخط إنما فشا

في العرب بالشرع لما أمروا بالتقييد بالخط . وقال مالك بن أنس : الحكمة : الفقه في الدين ﴿ وإن ﴾ أي : والحال أنهم ﴿ كانوا ﴾ أي : كوناً هو كالجبلة لهم ﴿ من قبل ﴾ أي : قبل إرساله إليهم ﴿ لفي ضلال ﴾ أي : بعد عن المقصود ﴿ مبين ﴾ أي : ظاهر في نفسه مناد لغيره أنه ضلال باعتقادهم الأباطيل الظاهرة ، وظنهم أنهم على شيء ، وعموم الجهل لهم ورضاهم به واختبارهم له .

وقوله تعالى : ﴿ وآخرين منهم ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أنه مجرور عطفاً على الأميين ، أي : وبعث في الآخرين من الأميين ، أي : الموجودين والآتين منهم بعدهم ﴿ لما ﴾ أي : لم

﴿ يلحقوا بهم ﴾ في السابقة والفصل والثاني : أنه منصوب عطفاً على الضمير المنصوب في يعلمهم ، أي : ويعلم آخرين لما يلحقوا بهم وسيلحقون ، وكل من تعلم شريعة محمد صلى الله عليه وسلم إلى آخر الزمان فرسول الله صلى الله عليه وسلم معلمه بالقوة ، لأنه أصل ذلك الخير العظيم والفضل الجسيم .

تنبيه : الذين لم يلحقوا بهم هم الذين لم يكونوا في زمنهم وسيجيئون بعدهم . قال عمر وسعيد بن جبير : هم العجم ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : "كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نزلت عليه سورة الجمعة فلما قرأ : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قال رجل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ فلم يراجعه النبي صلى الله عليه وسلم حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثاً ، قال : وفينا سلمان الفارسي ، قال : "فوضع النبي صلى الله علية وسلم يده على سلمان ثم قال : "لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجل من هؤلاء" وفي رواية "لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجال من فارس" أو قال : من أبناء فارس حتى يتناوله . وقال عكرمة : هم التابعون ، وقال مجاهد : هم الناس كلهم ، يعني : من بعد العرب الذين بعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم وقال ابن زيد ، ومقاتل بن حبان : هم من دخل في الإسلام بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة .

وروى سهل بن سعد الساعدي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "إن في أصلاب أمتي رجالاً ونساء يدخلون الجنة بغير حساب ، ثم تلا ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾" قال ابن عادل : والقول الأول أثبت . وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "رأيتني أسقي غنماً سوداً ، ثم أتبعتها غنماً عقراً أولها يا أبا بكر ، قال : يا نبي الله أما السود فالعرب ، وأما العقر فالعجم تتبعك بعد العرب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم كذلك أولها الملك يعني جبريل عليه الصلاة والسلام" رواه ابن أبي ليلى عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهو علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه . ﴿ وهو ﴾ أي : والحال أنه وحده ﴿ العزيز ﴾ أي : الذي يقدر على كل ما أراده ، ولا يغلبة شيء فهو يزكي من يشاء ويعلمه ما أراد من أي طائفة كان ، ولو كان أجهل أهل تلك الطائفة لأن الأشياء كلها بيده ﴿ الحكيم ﴾ فهو إذا أراد شيئاً موافقاً لشرعه وأمره جعله على أتقن الوجوه وأوثقها ، فلا يستطاع نقضه ومهما أراده كيف كان فلا بد من إنفاذه فلا يطاق ردة بوجه .

ولما كان هذا أمراً باهراً عظمه بقوله تعالى على وجه الاستثمار من قدرته:

﴿ ذلك ﴾ الأمر العظيم الرتبة من تفضيل الرسول وقومه ، وجعلهم متبوعين بعد أن كان العرب أتباعاً لا وزن لهم عند غيرهم من الطوائف ﴿ فضلُ الله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال والفضل ما لم يكن مستحقاً بخلاف الفرص ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ قال ابن

عباس : حيث ألحق العجم بقريش ، وقال الكلبي : يعني الإسلام فضل الله يؤتيه من يشاء ، وقال مقاتل : يعني الوحي والنبوة .

وقيل : إنه المال ينفق في الطاعة لما روى أبو صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، فقال : وما ذاك ؟ فقالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم ، وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : تسبحون ، وتكبرون ، وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة ، قال أبو صالح فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : سمع إخواننا من أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء" وقيل : إنه انقياد الناس إلى تصديق النبي صلى الله عليه وسلم ودخولهم في دينه ونصرته ﴿ والله ﴾ الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ ذو الفضل العظيم ﴾ .

ولما ترك اليهود العمل بالتوراة ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ضرب الله تعالى لهم مثلاً بقوله تعالى:

(234/764)

﴿ مثل الذين حملوا التوراة ﴾ أي: كلفوا وألزموا حمل الكتاب الذي آتاه الله تعالى لبني إسرائيل على لسان موسى عليه الصلاة والسلام، بأن علمهم إياها سبحانه وكلفهم حفظ ألفاظها عن التغيير والنسيان ومعانيها عن التحريف والتلبيس، وحدودها وأحكامها عن الإهمال والتضييع ﴿ ثم لم يحملوها ﴾ أي: بأن حملوا ألفاظها ولم يعملوا بما فيها من الوصية باتباع عيسى عليه الصلاة والسلام إذا جاءهم، ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم إذا جاء فهي ضارة لهم بشهادتها عليهم فإذا لهم النار من غير نفع أصلاً ﴿ كمثل ﴾ أي: مثلهم مثل ﴿ الحمار ﴾ أي: الذي هو أبلد الحيوان فهو مثل في الغباوة حال كونه ﴿ يحمل أسفاراً ﴾ أي: كتباً كباراً من كتب العلم جمع سفر، وهو الكتاب الكبير المسفر عما فيه، في عدم الانتفاع بها لأنه يمشي ولا يدري منها إلا ما يضر بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله ومثل ذلك قول الشاعر:

*زوامل للأسفار لا علم عندهم ** بجيدها إلا كعلم الأباعر*

*لعمرك ما يدري البعير إذا غدا ** بأحماله أو راح ما في الغرائر*

من إنشاد الشيخ ابن الخباز . ﴿ بئس مثل القوم ﴾ أي : الذين لهم قوة شديدة على محاولة ما يريدون ﴿ الذين كذبوا ﴾ أي : محمداً على علم ﴿ بآيات الله ﴾ أي : دلالات الملك الأعظم على رسوله ، ولاسيما محمد صلى الله عليه وسلم والمخصوص بالذم محذوف تقديره : هذا المثل ﴿ والله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال ﴿ لا يهدي القوم ﴾ أي : لا يخلق الهداية في قلوب الذين تعمدوا الزيغ ﴿ الظالمين ﴾ أي : الذين تعمدوا الظلم بمنابذة الهدى الذي هو البيان ، الذي لم يدع لبساً حتى صار الظلم لهم صفة راسخة .

ولما ادعت اليهود الفضيلة وقالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه نزل قوله تعالى:

(235/764)

﴿ قل ﴾ أي : يا أشرف الرسل ﴿ يا أيها الذين هادوا ﴾ أي : تدينوا باليهودية ﴿ إن زعمتم ﴾ أي : قلتم قولاً هو معرض للتكذيب ، ولذلك أكذبتموه ﴿ إنكم أولياء لله ﴾ أي : الملك الأعلى الذي لا أمر لأحد معه خصكم بذلك خصوصية مبتدأة ﴿ من دون ﴾ أي : أدنى رتبة من رتب ﴿ الناس ﴾ فلم تنفذ الولاية ، وتلك الرتبة في الدنيا إلى أحد منهم غيركم بل خصكم بذلك عن كل من فيه أهلية الحركة لاسيما الأميين ﴿ فتمنوا الموت ﴾

وأخبروا عن أنفسكم بذلك للنقلة من دار البلاء إلى محل الكرامة والآلاء ﴿ إن كنتم ﴾ أي : كوناً راسخاً ﴿ صادقين ﴾ أي : عريقين عند أنفسكم في الصدق ، فإن من علامات المحبة الاشتياق إلى المحبوب ، ومن المقطوع به أن من كان في كدر وكان له ولي قد وعده عند الوصول إليه الراحة التي لا يشوبها ضرر تمنى النقلة إلى وليه . روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم "والذي نفسي بيده لا يقولها أحد منكم إلا غص بريقه فلم يقلها منهم أحد علماً منهم بصدقه صلى الله عليه وسلم فلم يقولوا ولم يؤمنوا عناداً منهم" .

ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم لا يتمنونه في المستقبل أيضاً بقوله تعالى:

﴿ ولا يتمنونه ﴾ أي : في المستقبل ﴿ أبداً بما قدمت أيديهم ﴾ أي : بسبب ما قدموا من الكفر والمعاصي التي أحاطت به فلم تدع لهم حظاً في الآخرة .

تنبيه : قال تعالى هنا : ﴿ ولا يتمنونه ﴾ وفي البقرة ﴿ ولن يتمنوه ﴾ (البقرة :)

(236/764)

قال الزمخشري : لا فرق بين لا ولن في أن كل واحدة منهما نفي للمستقبل ، إلا أن في لن تأكيداً وتشديداً ليس في لا فأتى مرة بلفظ التأكيد ﴿ ولن يتمنوه ﴾ ومرة بغير لفظه ﴿ ولا يتمنونه ﴾ قال أبو حيان : وهذا رجوع منه عن مذهبه وهو أن لن تقتضي النفي على

التأبيد إلى مذهب الجماعة، وهي أنها لا تقتضيه. قال بعضهم: وليس فيه رجوع، غاية ما فيه أنه سكت عنه، وتشريكه بين لا ولن في نفي المستقبل لا ينفي اختصاص لن بمعنى آخر اهـ. ودعواهم الولاية إلى التوسل إلى الجنة لا يلزم منها الاختصاص بالنعم بدليل أن الدنيا ليست خالصة للأولياء المحقق لهم الولاية بل البر والفاجر مشتركون فيها.

﴿ والله ﴾ أي: الذي له الإحاطة بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ عليم ﴾ بالغ العلم محيط بهم هكذا كان الأصل ولكنه تعالى قال: ﴿ بالظالمين ﴾ تعميماً وتعليقاً بالوصف لا بالذات، فالمعنى أنه عالم بأصحاب هذا الوصف الراسخين فيه منهم ومن غيرهم، فهو مجازيهم على ظلمهم.

﴿ قل ﴾ أي: لهؤلاء يا أشرف الرسل ﴿ إن الموت الذي تفرون منه ﴾ بالكف عن التمني ﴿ فإنه ملاقيكم ﴾ أي: لا تفوتونه لاحق بكم.

تنبيه: في هذه الفاء وجهان: أحدهما: إنها داخلة لما تضمنه الاسم من معنى الشرط، وحكم الموصوف بالموصول حكم الموصول في ذلك. قال الزجاج: لا يقال: إن زيداً فمنطلق، وههنا قال: ﴿ فإنه ملاقيكم ﴾ لما في معنى الذي من الشرط أو الجزاء، أي: إن فررتم منه فإنه ملاقيكم، ويكون مبالغة في الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه. الثاني: إنها مزيدة محضة لا للتضمن المذكور.

ولما كان الحبس في البرزخ أمراً لا بد منه مهولاً نبه عليه وعلى طوله بأداة التراخي فقال تعالى : ﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب ﴾ أي : السر ﴿ والشهادة ﴾ أي : العلانية ، أو كل ما غاب عن الخلق ، وكل ما شوهد ﴿ فينبئكم ﴾ أي : يخبركم إخباراً عظيماً مستقصى مستوفى ﴿ بما كنتم ﴾ أي : بما هو لكم كالجبلة ﴿ تعملون ﴾ أي : بكل جزء منه بما برز إلى الخارج ، وبما كان في جبلاتكم ولو بقيتم لفعلتموه ليجازيكم .

﴿ يا أيها الذين أمنوا ﴾ أي : أقروا بألسنتهم بالإيمان ﴿ إذا نودي ﴾ أي : من أي مناد كان من أهل النداء ﴿ للصلاة ﴾ أي : صلاة الجمعة ﴿ من ﴾ أي : في ﴿ يوم الجمعة ﴾ كقوله تعالى : ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ (فاطر :)

أي : في الأرض ، والمراد بهذا النداء الأذان عند قعود الإمام على المنبر للخطبة ، لأنه لم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء سواه ، كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر أذن بلال ، وعن السائب بن يزيد قال : كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر ، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثاني على الدور ، زاد في رواية فثبت الأمر على ذلك .

وعن أبي داود قال : كان يؤذن بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس يوم

الجمعة على المنبر على باب المسجد ، روي أنه كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن واحد فكان إذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد ، فإذا نزل أقام الصلاة ، ثم كان أبو بكر وعمر وعلي بالكوفة على ذلك حتى إذا كان عثمان ، وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد أذاناً آخر ، فأمر بالتأذين الأول على داره التي تسمى زوراء ، فإذا سمعوا أقبلوا حتى إذا جلس عثمان على المنبر أذن الأذان الثاني الذي كان على زمن النبي صلى الله عليه وسلم فإذا نزل أقام الصلاة ، فلم يعب ذلك عليه لقوله صلى الله عليه وسلم "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي" .

قال الماوردي : أما الأذان الأول فمحدث فعله عثمان بن عفان ليتأهب الناس لحضور الخطبة عند اتساع المدينة وكثرة أهلها ، وكان عمر أمر أن يؤذن في السوق قبل المسجد ليقوم الناس عن سوقهم ، فإذا اجتمعوا أذن في المسجد فجعله عثمان أذانين في المسجد .

قال ابن العربي : وفي الحديث الصحيح : "أن الأذان كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً ، فلما كان زمن عثمان زاد النداء الثالث على الزوراء" ، وسماه في الحديث ثالثاً لأنه أضافه إلى الإقامة ، كقوله صلى الله عليه وسلم "بين كل إذانين صلاة لمن

شاء" يعني : الأذان والإقامة ، وتوهم بعض الناس أنه أذان أصلي فجعلوا المؤذنين ثلاثة .

قال ابن عادل : فكان وهماً ، ثم جمعوهم في وقت واحد فكان وهماً على وهم .

واختلفوا في تسمية هذا اليوم جمعة فمنهم من قال : لأن الله تعالى جمع فيه خلق آدم عليه الصلاة والسلام . روى مالك عن أبن هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم عليه الصلاة والسلام ، وفيه أهبط ، وفيه مات وفيه تاب الله عليه ، وفيه تقوم الساعة ، وهو عند الله يوم المزيد " وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "أتاني جبريل وفي كفه مرآة بيضاء ، وقال : هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولأمتك من بعدك ، وهو سيد الأيام عندنا ، ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد " ومنهم من قال : لأن الله تعالى فرغ من خلق الأشياء فاجتمعت فيه المخلوقات ، ومنهم من قال : لاجتماع الجماعات فيه للصلاة ، وقيل : أول من سمى هذا اليوم جمعة كعب بن لؤي .

(239/764)

قال أبو سلمة : أول من قال أما بعد : كعب بن لؤي ، وكان أول من سمى الجمعة جمعة ، وكان يقول له : يوم العروبة . وعن ابن سيرين قال : جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي صلى

الله عليه وسلم ، وقبل أن تنزل الجمعة وهم الذين سموها الجمعة . وقيل : إن الأنصار قالوا لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام وللنصارى مثل ذلك ، فهلموا نجعل لنا يوماً نجتمع فيه فنذكر الله تعالى فيه ونصلي ، فقالوا : يوم السبت لليهود ، ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين ، وذكرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ، ثم أنزل الله تعالى آية الجمعة فهي أول جمعة كانت في الإسلام .

وروي عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه كعب أنه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحم لأسعد بن زرارة ، فقلت له : إذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة ، قال : لأنه أول من جمع بنا في هزم النبت من حرة بني بياضة في بقيع يقال له : بقيع الخضمان ، قلت له : كم كنتم يومئذٍ ، قال : أربعين" أخرجه أبو داوود .

وأما أول جمعة جمعها النبي صلى الله عيه وسلم بأصحابه ، فقال أهل السير : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم مهاجراً نزل قباء على بني عمرو بن عوف يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، حين اشتد الضحى ومن تلك السنة يعد التاريخ ، فأقام بها إلى يوم الخميس وأسس مسجدهم ، ثم خرج يوم الجمعة عامداً المدينة ، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم قد اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجداً ، فجمع بهم وخطب وهي أول خطبة خطبها بالمدينة .

وقال فيها : "الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره ، وأستهديه وأؤمن به ولا أكفره ، وأعادي من يكفر به ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ، والنور والموعظة ، والحكمة على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة وقرب من الأجل . من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى وفرط ، وضل ضلالاً بعيداً أوصيكم بتقوى الله فإن خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، واحذروا ما حذركم الله من نفسه فإن تقوى الله لمن عمل بها على وجل ومخافة من ربه عنوان صدق على ما تبغون من الآخرة ، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي به إلا وجه الله يكون له ذكراً في عاجل أمره ، وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم ، وما كان مما سوى ذلك ﴿ يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾ (آل عمران :)

وهو الذي صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك ، فإنه يقول : ﴿ ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد ﴾ (ق :)

فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية ، فإنه من يتق الله يكفر عن سيئاته ويعظم له أجراً ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ (الأحزاب :)

وإن تقوى الله توقي مقته ، وتوقي عقوبته ، وتوقي سخطه ، وإن تقوى الله تبيض الوجه ، وترضي الرب ، وترفع الدرجة فخذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله فقد علمكم في كتابه ، وأوضح لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين وأحسنوا كما أحسن الله إليكم وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده ﴿ هو اجتباكم ﴾ و ﴿ سماكم المسلمين ﴾ (الحج :)

(241/764)

ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيّ عن بينة ولا حول ولا قوة إلا بالله فأكثروا ذكر الله تعالى واعملوا لما بعد الموت ، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" .

قال بعضهم : قد أبطل الله تعالى قول اليهود في ثلاث افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه ، فكذبهم في قوله : ﴿ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ وبأنهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم فشبههم الله بالحمار يحمل أسفاراً وبالسبت وإنه ليس للمسلمين مثله فشرع الله تعالى لهم يوم الجمعة .

تنبيه : سمى الله تعالى الجمعة ذكراً له ، قال أبو حنيفة : إن اقتصر الخطيب على مقدار يسمى ذكر الله كقوله : الحمد لله سبحان الله جاز ، وعن عثمان أنه صعد المنبر فقال : الحمد لله ؛ فارتج عليه ، فقال : إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالاً ، وإنكم إلى أمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال ، وستأتيكم الخطب ، ثم نزل وكان ذلك بحضرة الصحابة فلم ينكر عليه أحد .

وعند صاحبيه والشافعي لا بد من كلام يسمى خطبة ، ولها أركان وشروط مذكورة في الفقه .

فإن قيل : كيف يفسر ذكر الله بالخطبة ، وفيها ذكر غير الله ؟

أجيب : بأن ما كان من ذكر رسوله والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين ، وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو في حكم ذكر الله ، وأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم ، وهم أحق بعكس ذلك فمن ذكر الشيطان .

(242/764)

وهو من ذكر الله على مراحل فإن المنصت للخطبة إذا قال لصاحبه : صه فقد لغا ، أفلا يكون الخطيب المغالي في ذلك لاغياً نعوذ بالله من غربة الإسلام ، ومن نكد الأيام وقد

خاطب الله تعالى المؤمنين بالجمعة دون الكافرين تشريفاً لهم وتكريماً ، فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ثم خصه بالنداء وإن كان قد دخل في عموم قوله تعالى : ﴿ وإذا ناديتم إلى الصلاة ﴾ ليدل على وجوبه وتأكد فرضه . وقال بعض العلماء : كون الصلاة الجمعة ههنا معلوم بالإجماع لا من نفس اللفظ ، وقال ابن العربي : وعندي إنه معلوم من نفس اللفظ بنكتة ، وهي قوله تعالى : ﴿ من يوم الجمعة ﴾ وذلك يفيده لأن النداء الذي يختص بذلك اليوم هو نداء تلك الصلاة ، وأما غيرها فهو عام في سائر الأيام ، ولو لم يكن المراد به نداء الجمعة لما كان لتخصيصه بها وإضافته إليها معنى فلا فائدة فيه .

واختلف في معنى قوله تعالى : ﴿ فاسعوا ﴾ أي : لتكونوا أولياء الله ولا تتهاونوا في ذلك .

فقال الحسن : والله ما هو سعي على الأقدام ، ولكن سعي بالقلوب والنية ، وقال الجمهور : السعي : العمل لقوله تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ﴾ (الإسراء :)

كقوله تعالى : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ (الليل :)

وقوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ (النجم :)

وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، ولكن أئتوها تمشون وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا"

واختلفوا أيضاً : في معنى قوله تعالى : ﴿ إلى ذكر الله ﴾ أي : الملك الأعظم ، فقال سعيد

بن المسيب : هو موعظة الإمام ، وقال غيره : الخطبة والصلاة المذكرة بالملك الأعظم الذي من انقطع عن خدمته هلك .

(243/764)

ولما أمر بالمبادرة إلى تجارة الآخرة قال تعالى ناهياً عن تجارة الدنيا التي تعوق عن الجمعة ﴿ وذروا البيع ﴾ أي : اتركوا البيع والشراء ؛ لأن اسم البيع يتناولهما جميعاً ، وإنما يحرم البيع والشراء عند الأذان الثاني . وقال الزهري : عند خروج الإمام ، وقال الضحاك : إذا زالت الشمس حرم البيع والشراء . وإنما خص البيع من بين الأمور الشاغلة عن ذكر الله تعالى ، لأن يوم الجمعة يوم تهبط الناس فيه من بواديهم وقراهم ، وينصبون إلى المصر من كل أوب ووقت هبوطهم واجتماعهم ، واختصاص الأسواق إذا انتفخ النهار وتعالى الضحى ، ودنا وقت الظهيرة وحينئذ تنجز التجارة ويتكاثر البيع والشراء ، فلما كان ذلك الوقت مظنة للذهول بالبيع عن ذكر الله والمضي إلى المسجد قيل : بادروا تجارة الآخرة ، واتركوا تجارة الدنيا ، واسعوا إلى ذكر الله ﴿ ذلكم ﴾ أي : الأمر العالي الرتبة من فعل السعي ، وترك الاشتغال بالدنيا ﴿ خير لكم ﴾ لأن الأمر الذي أمركم به الذي له الأمر كله ، وهو

يريد تطهيركم في أديانكم وأبدانكم وأموالكم وبيده إسعادكم وإشقاؤكم .

فإن قيل : إذا كان البيع في هذا الوقت محرماً فهل هو فاسد ؟ .

أجيب : بأن عامة العلماء على أن ذلك لا يوجب فساد البيع ، قالوا : لأن البيع لم يحرم لعينه ، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة ، والثوب المغصوب ، والوضوء بماء مغصوب ، وعن بعض الناس أنه فاسد . وزاد في الحث على ذلك بقوله تعالى : ﴿ إن كنتم ﴾ أي : بما هو لكم كالجبلة ﴿ تعلمون ﴾ أي : يتجدد لكم علم في يوم من الأيام فأنتم ترون ذلك خيراً ، فإذا علمتموه خيراً أقبلتم عليه فكان ذلك خيراً لكم وصلاة الجمعة فرض عين تجب على كل من جمع الإسلام ، والبلوغ ، والعقل ، والحرية ، والذكورة ، والإقامة ، إذا لم يكن له عذراً مما ذكره الفقهاء ، ومن تركها استحق الوعيد . قال صلى الله عليه وسلم : "لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله تعالى على قلوبهم ، ثم ليكونن من الغافلين" وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاوناً بها طبع الله تعالى على قلبه" قال ابن عادل : ونقل عن بعض الشافعية أن الجمعة فرض على الكفاية ، أما من به عذر يعذر به في ترك الجماعة مما يتصور هنا فلا تجب عليه ،

وتجب على أعمى وجد قائداً وشيخ هرم وزمن وجدا مركباً لا يشق ركوبه عليهما .

واختلف أهل العلم في موضوع إقامة الجمعة ، وفي العدد الذي تنعقد به الجمعة ، وفي المسافة التي يجب أن يؤتى منها ، فذهب قوم إلى أن كل قرية اجتمع فيها أربعون رجلاً بالصفة المتقدمة تجب عليهم إقامة الجمعة فيها ، وهو قول عبد الله بن عمر ، وعمر بن عبد العزيز ، وبه قال الشافعي ، وأحمد ، وإسحاق قالوا : لا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين رجلاً على هذه الصفة ، وشرط عمر بن عبد العزيز مع الأربعين أن يكون فيهم وال .

وعند أبي حنيفة تنعقد بأربعة ، والوالي شرط ، ولا تقام عنده إلا في مصر جامع . وقال الأوزاعي وأبو يوسف : تنعقد بثلاثة إن كان فيهم وال . وقال الحسن ، وأبو ثور : تنعقد باثنين كسائر الصلوات ، وقال شعبة : تنعقد باثني عشر رجلاً ولا تجب الجمعة على أهل البوادي إلا إذا سمعوا النداء من موضع تقام فيه الجمعة ، فيلزمهم الحضور ، وإن لم يسمعوا فلا جمعة عليهم ، وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق .

والشرط أن يبلغهم نداء مؤذن جهوري الصوت في وقت تكون الأصوات هادئة ، والرياح ساكنة فكل قرية تكون من موضع الجمعة في القرب على هذا القدر يجب على أهلها

حضور الجمعة. وقال سعيد بن المسيب: تجب الجمعة على من آواه المبيت. قال الزهري: تجب على من كان على ستة أميال وقال ربيعة: على أربعة أميال، وقال مالك والليث: على ثلاثة أميال، وقال أبو حنيفة: لا جمعة على أهل البوادي سواء كانت القرية قريبة أم بعيدة.

دليل الشافعي ومن وافقه ما روى البخاري عن ابن عباس: "أن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد عبد القيس بجؤانا من البحرين"، ولأبي داود نحوه، وفيه بجؤانا قرية من قرى البحرين".

تنبيه: فضل يوم الجمعة مشهور وأحاديثه كثيرة مشهورة تقدم بعضها، ومنها: أن الله يعتق في كل جمعة ستمائة عتيق من النار"، وعن كعب: إن الله تعالى فضل من البلدان مكة، ومن الشهور رمضان، ومن الأيام الجمعة. وقال صلى الله عليه وسلم "من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد، ووقي فتنة القبر" وفي الحديث "إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المساجد بأيديهم صحف من فضة، وأقلام من ذهب يكتبون الأول فالأول على مراتبهم" قال الزمخشري: وكانت الطرقات في أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر

مغتصة بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج ، وقيل : أول بدعة أحدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجمعة . وعن ابن مسعود : أنه بكر فرأى ثلاثة نفر سبقوه فاغتم وأخذ يعاتب نفسه ويقول : أراك رابع أربعة ، وما رابع أربعة بسعيد . وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة - أي : مثل غسلها - ثم راح في الساعة الأولى كان كمن قرب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة كأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يسمعون الذكر" وروى النسائي "في الخامسة كالذي يهدي عصفوراً ، وفي السادسة بيضة ، فمن جاء في أول ساعة منها ، ومن جاء في آخرها مشتركان في تحصيل البدنة مثلاً ، لكن بدنة الأول أكمل من بدنة الآخر ، وبدنة المتوسط متوسطة" وهذا في حق غير الإمام أما هو فيسن له التأخير إلى وقت الخطبة اتباعاً للنبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه ، ويسن إكثار الدعاء يومها وليلتها ، أما يومها فلرجاء أن يصادف ساعة الإجابة ، وهي ساعة خفية وإرجاها من جلوس الخطيب إلى آخر الصلاة كما في خبر مسلم . قال النووي : وأما خبر : "يوم الجمعة ثنتا عشرة ساعة فيه ساعة لا يوجد مسلم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه ،

فالتمسوها آخر

ساعة بعد العصر فيحتمل أن هذه الساعة منتقلة تكون يوماً في وقت ، ويوماً في آخر كما هو المختار في ليلة القدر .

وأما ليلتها فبالقياس على يومها ، وقد قال الشافعي : بلغني أن الدعاء يستجاب في ليلة الجمعة ، ويسن إكثار الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في يومها وليلتها لخبر : "أكثروا علي من الصلاة ليلة الجمعة ويوم الجمعة فمن صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً" وإكثار قراءة سورة الكهف يومها وليلتها لخبر : "من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق" وخبر : "من قرأها يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين" وفي هذا القدر كفاية .

ولما حث على الصلاة وأرشد إلى أن وقتها لا يصلح لطلب شيء غيرها بين لهم وقت المعاش بقوله تعالى:

﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾ أي : وقع الفراغ منها على أيّ وجه كان ﴿ فانتشروا ﴾ أي : فدبوا وتفرقوا مجتهدين ﴿ في الأرض ﴾ أي : جميعها للتجارة والتصرف في حوائجكم إن شئتم لا جناح عليكم ولا حرج رخصة من الله تعالى لكم ﴿ وابتغوا ﴾ أي : اطلبوا الرزق

﴿ من فضل الله ﴾ أي : الذي بيده كل شيء ولا شيء لغيره ، وهذا أمر إباحة كقوله تعالى : ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾ (المائدة :)

(248/764)

قال ابن عباس : إن شئت فاخرج ، وإن شئت فاقعد ، وإن شئت فصل إلى العصر . وقيل : فانتشروا في الأرض ليس لطلب دنيا ، ولكن لعيادة مريض وحضور جنازة ، وزيارة أخ في الله تعالى . وقال الحسن ، وسعيد بن جبير ومكحول ﴿ وابتغوا من فضل الله ﴾ هو طلب العلم ﴿ واذكروا الله ﴾ أي : الذي له الأمر كله ﴿ كثيراً ﴾ أي : بحيث لا تغفلون عنه بقلوبكم أصلاً ولا بألسنتكم حتى عند الدخول إلى الخلاء وعند أول الجماع ، واستثني من الثاني وقت التلبس بالقذر كوقت قضاء الحاجة والجماع ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي : تفوزون بالجنة والنظر إلى وجهه الكريم وعن جابر بن عبد الله "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب قائماً يوم الجمعة فجاءت عير من الشام فانفتل الناس إليها ، حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً" وفي رواية "أنا فيهم" فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة ﴾ أي : حمولاً هي موضع للتجارة ﴿ أو لهواً ﴾ أي : ما يلهي عن كل نافع ﴿ انفضوا ﴾ أي : نفروا متفرقين من العجلة ﴿ إليها ﴾ أي : التجارة لأنها مطلوبهم دون اللهو ، وأيضاً العطف بأو

فإفراد الضمير أولى . وقال الزمخشري : تقديره : إذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهواً انفضوا إليه ، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه . وذكر الكلبي وغيره : أن الذي قدم بها دحية بن خليفة الكلبي من الشام عن مجاعة وغلاء سعر ، وكان معه جميع ما تحتاج إليه الناس من بر ودقيق وغيره ، فنزل عند أحجار الزيت وضرب الطبل ليؤذن الناس بقدومه ، فخرج الناس إلا اثنى عشر رجلاً ، وقيل : أحد عشر رجلاً وقال ابن عباس في رواية الكلبي : لم يبق في المسجد إلا ثمانية رهط . وقال الحسن وأبو مالك : أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر فقدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام ، والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فلما رأوه قاموا إليه بالبقيع خشوا أن يسبقوا إليه ، فلما لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا رهط منهم أبو بكر وعمر فنزلت هذه الآية ، فقال صلى الله عليه وسلم "والذي

(249/764)

نفس محمد بيده لو

تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً" .

وقال مقاتل بن حيان ، ومقاتل بن سليمان : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب

يوم الجمعة إذ قدم دحية بن خليفة الكلبي من الشام بالتجارة وكان إذا قدم المدينة لم يبق بالمدينة عاتق إلا أتته ، وكان يقدم بكل ما يحتاج إليه من دقيق وغيره ، فينزل عند أحجار الزيت ، وكانت في سوق المدينة ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فخرج إليه الناس ليتبايعوا منه ، فقدم ذات جمعة وكان ذلك قبل أن يسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر يخطب فخرج إليه الناس ، ولم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلاً وامرأة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "لولا هؤلاء لرميت عليهم الحجارة من السماء" وأنزل الله تعالى هذه الآية والمراد باللهو الطبل .

وقيل : كانت العير إذا قدمت المدينة استقبلوا بالطبل والتصفيق . وقال علقمة : سئل عبد الله أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب قائماً أو قاعداً فقال : أما تقرأ ﴿ وتركوك قائماً ﴾ وعن جابر بن عبد الله قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة خطبتين قائماً يفصل بينهما بجلوس" وذكر أبو داود في مراسيله السبب الذي ترخصوا لأنفسهم في ترك سماع الخطبة ، وقد كانوا خليقاً لفضلهم أن لا يفعلوا ، فقال : حدثنا محمد بن خالد ، قال : حدثنا الوليد ، قال : أخبرني أبو معاذ بكير بن معروف أنه سمع مقاتل بن

حبان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الجمعة قبل الخطبة كالعيدين ، حتى كان يوم جمعة والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب وقد صلى الجمعة فدخل رجل يقال له : دحية بن خليفة قدم بتجارة ، وكان دحية إذا قدم تلقاه أهله بالدفوف فخرج الناس فلم يظنوا إلا أنه ليس في ترك الخطبة شيء فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فقدم النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة الخطبة وأخر الصلاة ، وكان لا يخرج أحد لرعاف أو حدث بعد النهي حتى يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم يشير إليه بأصبعه التي تلي الإبهام ، فيأذن له النبي صلى الله عليه وسلم ثم يشير إليه بيده ، فكان في المنافقين من تثقل عليه الخطبة والجلوس في المسجد ، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه مستتراً به حتى يخرج فأنزل الله تعالى : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾

(النور :)

الآية" . قال السهيلي : وهذا الخبر وإن لم ينقل من وجه ثابت فالظن الجميل بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يوجب أن يكون صحيحاً وقال قتادة : وبلغنا أنهم فعلوه ثلاث مرات كل مرة عير تقدم من الشام ، وكل ذلك يوافق يوم الجمعة .

وقيل : إن خروجهم لقدوم دحية بتجارته ونظرهم إلى العير ، وهي تمر لهو لا فائدة فيه إلا أنه كان مما لا إثم فيه لو وقع على ذلك الوجه ، ولكنه لما اتصل به الإعراض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والانفضاض عن حضرته غلظ وكبر ، ونزل فيه من القرآن وتهجينه باسم اللهو ما نزل. وقوله تعالى : ﴿ وتركوك ﴾ أي : تخطب حتى بقيت في اثني عشر رجلاً ، قال جابر : أنا أحدهم ﴿ قائماً ﴾ جملة حالية من فاعل انفضوا ، وقد مقدرة عند بعضهم.

تنبيه : في قوله تعالى : ﴿ قائماً ﴾ تنبيه على مشروعيته في الخطبتين ، وهو من الشروط للقادر على القيام ، وأما أركانهما فخمسة : حمد الله تعالى ، وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بلفظهما ، ووصية بتقوى الله ، وهذه الثلاثة في كل من الخطبتين ، وقراءة آية مفهمة ولو في إحداهما والأولى أولى ، ودعاء للمؤمنين والمؤمنات في ثانية ، ومن الشروط كونهما عربيتين ، وكونهما في الوقت ، وولاء ، وطهر ، وستر كالصلاة ﴿ قل ﴾ يا أشرف الخلق للمؤمنين ﴿ ما عند الله ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ خير ﴾ ما موصولة مبتدأ وخير خبرها ﴿ من اللهو ومن التجارة ﴾ والمعنى : ما عند الله تعالى من ثواب صلاتكم خير من لذة لهوكم ، وفائدة تجارتكم. وقيل : ما عند الله من رزقكم الذي قسمه لكم خير مما اقتسمتموه من لهوكم وتجارتكم ﴿ والله ﴾ أي : ذو الجلال والإكرام وحده ﴿ خير الرازقين ﴾ أي : خير من رزق وأعطى فاطلبوا منه ، واستعينوا بطاعته على نيل

ما عنده من خيري الدنيا والآخرة. وما قاله البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال: "من قرأ سورة الجمعة أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة ومن لم يأتها في أمصار المسلمين" حديث موضوع. انتهى انتهى. ا هـ ﴿السراج المنير حـ 7 صـ 421.437﴾

(252/764)

وقال القاسمى:

سورة الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ ﴾

أي: العرب، ﴿ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ أي: من أنفسهم، أمياً مثلهم، ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ أي: مع كونه أمياً مثلهم لم تعهد منه قراءة ولا تعلم، ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي: من خبائث العقائد والأخلاق، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أي: القرآن والسنة ﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: جور عن الحق، وانحراف عن سبيل الرشد. وهو بيان لشدة

افتقارهم إلى نبي يرشدهم .

قال ابن كثير : فبعثه الله سبحانه وتعالى على حين فترة من الرسل ، وطموس من السبل ، وقد اشتدت الحاجة إليه ، وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم عليه السلام فبدّلوه وغيروه ، واستبدلوا بالتوحيد شركاً ، وباليقين شكاً ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله . وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوه, فيأولوها ، فبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم ، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ، ورضا الله عنهم ، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى ، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب ، في الأصول والفروع ، وجمع له تعالى – وله الحمد والمنة – جميع المحاسن فيمن كان قبله ، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين ، ولا يعطيه أحداً من الآخرين ، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . انتهى .

(253/764)

وإنما أوثرت بعثته صلوات الله عليه في الأميين ، لأنهم أحدُّ الناس أذهاناً ، وأقواهم جناناً ، وأصفاهم فطرة ، وأفصحهم بياناً ، لم تفسد فطرتهم بغواشي المتحضرين ، ولا بأفانين

تلاعب أولئك المتمدنين ، ولذا انقلبوا إلى الناس بعد الإسلام بعلم عظيم ، وحكمة باهرة ، وسياسة عادلة ، قادوا بها معظم الأمم ، ودوخوا بها أعظم الممالك . وإيثار البعثة فيهم - بمعنى إظهارها فيهم - لا ينافي عموم الرسالة ، كما قال سبحانه :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأعراف : 158] . وقوله :

﴿ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام : 19] وهو ظاهر قوله :

﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [3]

﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ معطوف على ﴿ الْأُمِّيِّينَ ﴾ يعني : أنه بعثه في الأميين الذين على عهده ، وفي آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد ، وسيلحقون بهم ، وهم الذين بعد الصحابة رضي الله عنهم ، من كل من دخل في الإسلام إلى يوم القيامة ، كما فسره مجاهد وغيره ، واختاره ابن جرير .

قال الرازي : فالمراد بالأميين العرب ، وبالآخرين سواهم من الأمم ، وجعلهم منهم ؛ لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم ، فالمسلمون كلهم أمة واحدة ، وإن اختلفت أجناسهم ، قال تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ [التوبة : 71] ، انتهى .

تنبيه :

قال بعض المحققين : في الآية معجزة من معجزات النبوة ، وذلك في الإخبار عن غيب وقع ، والبشارة بدخول أمم غير العرب في الإسلام قد حصل ، فقد صارت تلك الأمم التي أسلمت ، من العرب لأن بلادهم صارت بلاد العرب ، ولغتهم لغة العرب ، وكذلك دينهم وعاداتهم ، حتى أصبحوا من العرب جنساً وديناً ولغة ، وحتى صار لفظ العرب يطلق على كل المسلمين من جميع الأجناس ، لأنهم أمة واحدة ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [المؤمنون : 52] ، فصدق الله العظيم .

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [4]

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ يعني بعثته تعالى رسولاً في الأميين ، وفي آخرين ، فضله تفضل به على من اصطفاه واختاره لذلك ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، والآيات هذه رد على من أنكر نبوته صلى الله عليه وسلم من يهود المدينة ؛ حسداً وعناداً ، مع أن لديهم من شواهد رسالته ما لا ترتاب أفئدتهم بصدقها ، ولذا نعى عليهم مخالفتهم لموجب علمهم ، بقوله سبحانه :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ قال الزمخشري : شبه اليهود في أنهم حملة التوراة وقراؤها ، وحفاظ ما فيها ، ثم إنهم غير عاملين بها ، ولا منتفعين بآياتها ؛ وذلك أن فيها نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والبشارة به ، ولم يؤمنوا به – بالحمار حمل أسفاراً – أي : كتباً كباراً من كتب العلم ، فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمرّ بجنبيه وظهر من الكد والتعب ، وكل من علم ولم يعمل ، فهذا مثله ، وبئس المثل ! ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ وهو اليهود الذين كذبوا بآيات الله ، الدالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعنى ﴿ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ﴾ كلفوا علمها ، والعمل بها ، ثم لم يحملوها ، ثم لم يعملوا بها ، فكأنهم لم يحملوها في الحقيقة لفقد العمل . انتهى .

قال الإمام ابن القيم في " أعلام الموقعين " : قاس من حَمّلَه سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدّبره ويعمل به ويدعو إليه ، ثم خالف ذلك ، ولم يحمله إلا على ظهر قلب ، فقراءته بغير تدّبر ولا تفهّم ولا اتباع له ، ولا تحكيم له ، وعمل بموجبه – كحمار على ظهره زاملة أسفار – لا يدري ما فيها ، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا . فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره ، فهذا المثل ، وإن كان قد ضرب لليهود ، فهو متناول من حيث المعنى ، لمن حمل القرآن ، فترك العمل به ، ولم يؤدّ حقه ، ولم يرعه حق رعايته . انتهى . ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : الذين ظلموا أنفسهم ، فكفروا بآيات ربهم .

(256/764)

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ كان اليهود يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، فقيل لهم : إن كنتم صادقين في زعمكم ، وعلى ثقة من أمركم ، فتمنوا على الله أن يميتكم ، وينقلكم سريعاً إلى الآخرة ، فإن الحبيب يتمنى لقاء من يحب ، ولا يفرّ منه ، ويود أن يستريح من كرب الدنيا وغمومها ، ويصير إلى روح الجنان ونعيمها .

﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : من المعاصي والسيئات والكفر ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أي : فيجازيهم على أعمالهم ، وتقدم في البقرة نظير الآية : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ ﴾ [البقرة : 94]

.

﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ أي : تخافون أن تتمنوه بلسانكم ، مخافة أن يصيبكم ، فتؤخذوا بأعمالكم ﴿ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : من الأعمال ، حسنها وسيئها ، فيجازيكم عليها .

(257/764)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ أي : عند جلوس الإمام على المنبر ، لأنه لم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء سواه ، <كان إذا جلس على المنبر أذن بلال رضي الله عنه> ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي : الخطبة والصلاة ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ أي : في ذلك الوقت . قال أبو مالك : كان قوم يجلسون في بقيع الزبير ، فيشترون ويبيعون إذا نودي للصلاة يوم الجمعة ؛ فنزلت : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي : سعيكم لها ، وترك البيع ، خير لكم مما نفعه يسير ، وربحه مقارب ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴾ أي : أديت وفرغ منها ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي : أذكروا أمره ودينه وشرعه دائماً ، لتصير ملكة لكم ، تظهر آثارها على أعمالكم وأخلاقكم ، فتفلحوا بسعادة الدارين .

قال ابن جرير : أي : اذكروه بالحمد له ، والشكر على ما أنعم به عليكم من التوفيق لأداء فرائضه ، لتفلحوا فتدركوا طلباتكم عند ربكم ، وتصلوا إلى الخلد في جنانه .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً ﴾ أي : عِير تجارة ﴿ أَوْ لَهْواً ﴾ أي : ما تلهو به النفس عن الحق والجد النافع ﴿ انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ أي : أسرعوا إلى التجارة خشية أن يُسبقوا إليها ، وإنما أوثر ضميرها لأنها الأهم المقصود ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِماً ﴾ أي : على المنبر ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ ﴾ أي : من الثواب المرجوّ بسماع الخطبة والعظة بها ﴿ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ﴾ أي

: لأن الثواب مخلد نفعه ، بخلاف ما يتوهمونه منها .

قال الشهاب : وتقديم اللهو ؛ لأنه أقوى مذمة ، فناسب تقديمه في مقام الذم .

(258/764)

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أي : فاعملوا للأعراض الباقية عنده ، فإنها خير من الأمور الفانية عندكم ، وفوضوا أمر الرزق إليه بالتوكل ، والثقة بفضله ؛ فإنه خير الرازقين .

تنبيهات :

الأول : قال الرازي : وجه تعلق آية الجمعة بما قبلها ، هو أن الذين هادوا يفرون من الموت لمتاع الدنيا وطيباتها ، والذين أمنوا يبيعون ويشرون لمتاع الدنيا وطيباتها كذلك . فنبههم الله تعالى بقوله :

﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي : إلى ما ينفعكم في الآخرة ، وهو حضور الجمعة ، لأن الدنيا ومتاعها فانية ، والآخرة وما فيها باقية . قال تعالى :

﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى : 17] . ووجه آخر في التعلق ، قال بعضهم : قد أبطل الله قول اليهود في ثلاث : افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم بقوله :

﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : 94] ، وبأنهم أهل الكتاب ، والعرب لا

كتاب لهم ، فشبههم بالحمار يحمل أسفاراً . وبالسبت ، وليس للمسلمين مثله ، فشرع الله لهم الجمعة ، انتهى .

وقال المهايميّ في وجه المناسبة : بيّن الله تعالى أن مقتضى الإيمان الاجتماع على الخير ، لاسيما الشكر على الْإِنْسَاْنية ، لئلا تنقلب حمارية أو بهيمية ، في مقابلة اجتماع أهل الكتاب على الشر ، الذي جرهم إلى الحمارية والبهيمية .

الثاني : قال السيوطي في " الإكليل " : في قوله تعالى :

﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ مشروعية صلاة الجمعة ، والأذان لها ، والسعي إليها ، وتحريم البيع بعد الأذان . واستدل بالآية من قال : إنما يجب إتيان الجمعة على من كان يسمع فيه النداء . ومن قال : لا يحتاج إلى إذن السلطان ، لأنه تعالى أوجب السعي ، ولم يشترط إذن أحد . ومن قال : لا تجب على النساء لعدم دخولهن في خطاب الذكور . انتهى .

(259/764)

الثالث : في " الإكليل " : في قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ إباحة الانتشار عقب الصلاة ، فيستفاد

منه تقديم الخطبة عليها . انتهى .

وظاهره أنه لا يشرع بعد أدائها صلاة ما ، غير أنه <كان صلى الله عليه وسلم يتنفل بعدها في بيته ركعتين> ، وفي رواية <أربعاً> . وأما اعتقاد فريضة الظهر بعدها إذا تعددت ، فتعصب مذهبي لا برهان له . وقد قلت في مقدمة مجموعة الخطب ، في الفائدة الرابعة ما مثاله :

الحاجة في هذه البلاد في هذه الأوقات تدعو إلى أكثر من جمعة ، إذ ليس للناس جامع واحد يسعهم ، ولا يمكنهم جمعة واحدة أصلاً ، إلا أن خروجها عن حد أن لا فرق بينها وبين بقية الصلوات في كثير من المساجد الصغيرة التي لم تشيد لمثلها ، قد هوَّل فيه السبكي في " فتاويه " ؛ لأنه مما تأباه مشروعيتها ، وما مضى عليه عمل القرون الثلاثة ، بل تسميتها جمعة ، فإن صيغة فُعُلَة في اللغة للمبالغة . وبالجملة فالجوامع الكبار التي تؤمها الأفواج يوم الجمعة ويحتاج لإقامتها فيها حاجة بينة لمجاوريها ، هي التي لا خلاف في جوازها مهما تعددت ، والتي لا تعاد الظهر بعدها ، وقد بسطناه في كتابنا " إصلاح المساجد من البدع والعوائد " .

الرابع : يدل قوله تعالى :

﴿ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ على عدم مشروعيته تعطيل يوم الجمعة ، ففيه تعريض بمجانبة التشبه بأهل الكتاب في تعطيل يومي السبت والأحد ، وردّ على ما ابتدع فيه من الوظائف ما يدعو إلى الانقطاع عن كل عمل . والأصل أن كل ما لم ينص عليه الكتاب

الحكيم ، ولا الهدي النبويّ ، من خبر قويم ، فهو تشريع ما لم يأذن به الله . وإذا رفع الله بفضله عنا الإصر والأغلال التي كانت على من قبلنا ، فما بالنا نستجرّها إلينا بالأسباب الضعيفة ؟ فاللهم غفراً .

الخامس : قال في " الإكليل " : في قوله تعالى :

(260/764)

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً ﴾ مشروعية الخطبة ، والقيام فيها ، واشتراط الجماعة في الصلاة ، وسماعهم الخطبة ، وتحريم الانفضاض ، انتهى .

وفي الصحيحين عن جابر قال : قدمت عيرٌ مرةً المدينة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب ، فخرج الناس ، وبقي اثنا عشر رجلاً ؛ فنزلت ﴿ وَإِذَا رَأَوْا ﴾ الآية .

وروى ابن جرير عن جابر قال : كان الجواري إذا نكحوا يمرون بالكَبَر والمزامير ، ويتركون النبيّ صلى الله عليه وسلم قائماً على المنبر ، وينفضون إليها ، فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا ﴾ الآية .

وعن مجاهد : اللهو الطبل . انتهى انتهى . اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 16 صـ 124.

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الجمعة

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

هذا المطلع يقرر حقيقة التسبيح المستمرة من كل ما في الوجود لله ; ويصفه - سبحانه - بصفات ذات علاقة لطيفة بموضوع السورة . السورة التي اسمها "الجمعة" وفيها تعليم عن صلاة الجمعة , وعن التفرغ لذكر الله في وقتها , وترك اللهو والتجارة , وابتغاء ما عند الله وهو خير من اللهو ومن التجارة . ومن ثم تذكر: (الملك) . . الذي يملك كل شيء بمناسبة التجارة التي يسارعون إليها ابتغاء الكسب . وتذكر (القدوس) الذي يتقدس ويتنزه ويتوجه إليه بالتقديس والتنزيه كل ما في السماوات والأرض , بمناسبة اللهو الذي ينصرفون إليه عن ذكره . وتذكر (العزيز) . . بمناسبة المباهلة التي يدعى إليها اليهود والموت الذي لا بد أن يلاقي الناس جميعا والرجعة إليه والحساب . وتذكر (الحكيم) . . بمناسبة اختياره الأميين ليبعث فيهم رسولا يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . . وكلها مناسبات لطيفة المدخل والاتصال .

الدرس الثاني:2 - 4 مهمة الرسول وطبيعة رسالته وأثره في أمته

ثم يبدأ في موضوع السورة الرئيسي:

(هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم , ويعلمهم الكتاب والحكمة , وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم , وهو العزيز الحكيم) . .

قيل إن العرب سموا الأميين لأنهم كانوا لا يقرأون ولا يكتبون - في الأعم الأغلب - وروي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال:الشهر هكذا وهكذا وهكذا وأشار بأصابعه وقال:" إنا نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب " . . وقيل:إنما سمي من لا يكتب أميا لأنه نسب إلى حال ولادته من الأم , لأن الكتابة إنما تكون بالاستفادة والتعلم .

(262/764)

وربما سموا كذلك كما كان اليهود يقولون عن غيرهم من الأمم:إنهم "جوييم" باللغة العبرية أي أميون . نسبة إلى الأمم - بوصفهم هم شعب الله المختار وغيرهم هم الأمم ! - والنسبة في العربية إلى المفرد . . أمة . . أميون . وربما كان هذا أقرب بالنسبة إلى موضوع السورة .

ولقد كان اليهود ينتظرون مبعث الرسول الأخير منهم , فيجمعهم بعد فرقة , وينصرهم بعد

هزيمة, ويعزهم بعد ذل . وكانوا يستفتحون بهذا على العرب, أي يطلبون الفتح بذلك النبي الأخير .

ولكن حكمة الله اقتضت أن يكون هذا النبي من العرب, من الأميين غير اليهود ; فقد علم الله أن يهود قد فرغ عنصرها من مؤهلات القيادة الجديدة الكاملة للبشرية - كما سيجيء في المقطع التالي في السورة - وأنها زاغت وضلت كما جاء في سورة الصف . وأنها لا تصلح لحمل الأمانة بعدما كان منها في تاريخها الطويل !

وكانت هناك دعوة إبراهيم خليل الرحمن - عليه الصلاة والسلام - تلك الدعوة التي أطلقها في ظل البيت هو وإسماعيل عليه السلام:(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم, ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك, ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . إنك أنت العزيز الحكيم) . .

كانت هناك هذه الدعوة من وراء الغيب, ومن وراء القرون, محفوظة عند الله لا تضيع, حتى يجيء موعدها المقدور في علم الله, وفق حكمته ; وحتى تتحقق في وقتها المناسب في قدر الله وتنسيقه, وحتى تؤدي دورها في الكون حسب التدبير الإلهي الذي لا يستقدم معه شيء, ولا يستأخر عن موعده المرسوم .

وتحققت هذه الدعوة - وفق قدر الله وتدبيره - بنصها الذي تعيده السورة هنا لتذكر بحكاية ألفاظ إبراهيم . . (رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) . . كما قال إبراهيم ! حتى صفة الله في دعاء إبراهيم: (إنك أنت العزيز الحكيم) هي ذاتها التي تعقب على التذكير بمنة الله وفضله هنا : (وهو العزيز الحكيم) .

وقد سئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن نفسه فقال: " دعوة أبي إبراهيم . وبشرى عيسى . ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام " .

(هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) . .

والمنة ظاهرة في اختيار الله للأميين ليجعلهم أهل الكتاب المبين ; وليرسل فيهم رسولا منهم , يرتفعون باختياره منهم إلى مقام كريم ; ويخرجهم من أميتهم أو من أميتهم بتلاوة آيات الله عليهم , وتغيير ما بهم , وتمييزهم على العالمين . .

(ويزكيهم) . . وإنها لتزكية وإنه لتطهير ذلك الذي كان يأخذهم به الرسول (صلى الله عليه وسلم) تطهير للضمير والشعور , وتطهير للعمل والسلوك , وتطهير للحياة الزوجية , وتطهير للحياة الاجتماعية . تطهير ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد ;

ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح , ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح . وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني . ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال . . إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع . تزكية ترتفع بالإنسان وتصوراته عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التي يتصل فيها بربه , ويتعامل مع الملأ الأعلى ; ويحسب في شعوره وعمله حساب ذلك الملأ العلوي الكريم .

(ويعلمهم الكتاب والحكمة) . . يعلمهم الكتاب فيصبحون أهل كتاب . ويعلمهم الحكمة فيدركون حقائق الأمور , ويحسنون التقدير , وتلهم أرواحهم صواب الحكم وصواب العمل وهو خير كثير .

(وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) . . ضلال الجاهلية التي وصفها جعفر بن أبي طالب لنجاشي الحبشة حين بعثت قريش إليه عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة ليكرهاه في المهاجرين من المسلمين , ويشوها موقفهم عنده , فيخرجهم من ضيافته وجيرته . . فقال جعفر:

"أيها الملك . كنا قوما أهل جاهلية . نعبد الأصنام , ونأكل الميتة , ونأتي الفواحش , ونقطع الأرحام , ونسيء الجوار , ويأكل القوي منا الضعيف . . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا , نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا إلى الله لنوحده ولنعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ; وأمرنا بصدق الحديث , وأداء الأمانة , وصلة الرحم , وحسن الجوار , والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش وقول الزور , وأكل مال اليتيم , وقذف المحصنات . وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا , وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام" . .

وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5)

ومع كل ما كانوا عليه في الجاهلية من ضلال فقد علم الله أنهم هم حملة هذه العقيدة الأمناء عليها , بما علم في نفوسهم من استعداد للخير والصلاح ; ومن رصيد مذخور للدعوة الجديدة ; وقد فرغت منه نفوس اليهود التي أفسدها الذل الطويل في مصر , فامتلأت بالعقد

والالتواءات والانحرافات , ومن ثم لم تستقيم أبدا بعد ذلك , لا في حياة موسى عليه السلام , ولا من بعده . حتى كتب الله عليهم لعنته وغضبه , وانتزع من أيديهم أمانة القيام على دينه في الأرض إلى يوم القيامة .

وعلم الله أن الجزيرة في ذلك الأوان هي خير مهد للدعوة التي جاءت لتحرير العالم كله من ضلال الجاهلية , ومن انحلال الحضارة في الامبراطوريات الكبيرة , التي كان سوس الانحلال قد نخر فيها حتى اللباب ! هذه الحالة التي يصفها كاتب أوربي حديث فيقول:

"ففي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى . لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت , ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها . وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها أربعة آلاف سنة , مشرفة على التفكك والانحلال ; وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية , إذ القبائل تتحارب وتتناحر , لا قانون ولا نظام . أما النظم التي خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام . وكانت المدنية , كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله , واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب . . . وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعه " . .

وهذه الصورة مأخوذة من زاوية النظر لكاتب أوربي . وهي من زاوية النظر الإسلامية أشد عتاما وظلاما !

(266/764)

وقد اختار الله - سبحانه - تلك الأمة البدوية في شبه الجزيرة الصحراوية لتحمل هذا الدين, بما علم في نفوسها وفي ظروفها من قابلية للاستصلاح وذخيرة مرصودة للبذل والعطاء . فأرسل فيهم الرسول يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين .

(وآخرين منهم لما يلحقوا بهم, وهو العزيز الحكيم) . .

وهؤلاء الآخرون وردت فيهم روايات متعددة . .

قال الإمام البخاري - رحمه الله تعالى -:حدثنا عبد العزيز بن عبد الله, حدثنا سليمان بن بلال, عن ثور, عن أبي الغيث, عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال:"كنا جلوسا عند النبي (صلى الله عليه وسلم) فأنزلت عليه سورة الجمعة (وآخرين لما يلحقوا بهم)قالوا:من هم يا رسول الله ? فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثا, وفينا سلمان الفارسي, فوضع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يده على سلمان الفارسي ثم قال:" لو كان الإيمان عند الثريا

لناله رجال أو رجل من هؤلاء " . فهذا يشير إلى أن هذا النص يشمل أهل فارس . ولهذا قال مجاهد في هذه الآية: هم الأعاجم وكل من صدق النبي (صلى الله عليه وسلم) من غير العرب .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي, حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي, حدثنا الوليد بن مسلم, حدثنا أبو محمد عيسى بن موسى عن أبي حازم, عن سهل بن سعد الساعدي .

قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب " ثم قرأ: (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) . . يعني بقية من بقي من أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وكلا القولين يدخل في مدلول الآية . فهي تدل على آخرين غير العرب . وعلى آخرين غير الجيل الذي نزل فيه القرآن . وتشير إلى أن هذه الأمة موصولة الحلقات ممتدة في شعاب الأرض وفي شعاب الزمان, تحمل هذه الأمانة الكبرى, وتقوم على دين الله الأخير .

(وهو العزيز الحكيم) . . القوي القادر على الاختيار . الحكيم العليم بمواضع الاختيار .

.

واختياره للمتقدمين والمتأخرين فضل وتكريم:

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء , والله ذو الفضل العظيم) . .

وإن اختيار الله لأمة أو جماعة أو فرد ليحمل هذه الأمانة الكبرى , وليكون مستودع نور الله وموضع تلقي فيضه , والمركز الذي تتصل فيه السماء بالأرض . . إن اختيار الله هذا لفضل لا يعدله فضل . فضل عظيم يربى على كل ما يبذله المؤمن من نفسه وماله وحياته ; ويربى على متاعب الطريق وآلام الكفاح وشدائد الجهاد .

والله يذكر الجماعة المسلمة في المدينة , والذين يأتون بعدها الموصولين بها والذين لم يلحقوا بها . يذكرهم هذا الفضل في اختيارهم لهذه الأمانة , ولبعث الرسول فيهم يتلو عليهم الكتاب ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . ويترك للآتين في أطواء الزمان ذلك الرصيد الضخم من الزاد الإلهي , ومن الأمثلة الواقعية في حياة الجماعة الأولى . يذكرهم هذا الفضل العظيم الذي تصغر إلى جانبه جميع القيم , وجميع النعم ; كما تصغر إلى جانبه جميع التضحيات والآلام . .

الدرس الثالث: 5 اليهود مع التوراة كالحمار يحمل الأسفار

بعد ذلك يذكر ما يفيد أن اليهود قد انتهى دورهم في حمل أمانة الله ; فلم تعد لهم قلوب تحمل هذه الأمانة التي لا تحملها إلا القلوب الحية الفاقهة المدركة الواعية المتجردة العاملة بما تحمل:

(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ! والله لا يهدي القوم الظالمين) . .

(268/764)

فبنوا إسرائيل حملوا التوراة , وكلفوا أمانة العقيدة والشريعة . . (ثم لم يحملوها) . . فحملها يبدأ بالإدراك والفهم والفقه , وينتهي بالعمل لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وعالم الواقع . ولكن سيرة بني إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم - وكما هي في حقيقتها - لا تدل على أنهم قدروا هذه الأمانة , ولا أنهم فقهوا حقيقتها , ولا أنهم عملوا بها . ومن ثم كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام , وليس له منها إلا ثقلها . فهو ليس صاحبها . وليس شريكا في الغاية منها !

وهي صورة زرية بائسة , ومثل سيئ شائن , ولكنها صورة معبرة عن حقيقة صادقة (بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) . .

ومثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها . . كل الذين حملوا أمانة العقيدة ثم لم يحملوها . والمسلمون الذين غبرت بهم أجيال كثيرة , والذين يعيشون في هذا الزمان , وهم يحملون أسماء المسلمين ولا يعملون عمل المسلمين . وبخاصة أولئك الذين يقرأون القرآن والكتب ,

وهم لا ينهضون بما فيها . . أولئك كلهم , كالحمار يحمل أسفارا . وهم كثيرون كثيرون !

فليست المسألة مسألة كتب تحمل وتدرس . إنما هي مسألة فقه وعمل بما في الكتب .

قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (6) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (8)

(269/764)

الدرس الرابع:6 - 8 مباهلة القرآن لليهود وكان اليهود يزعمون - كما يزعمون حتى اليوم - أنهم شعب الله المختار , وأنهم هم أولياؤه من دون الناس وأن غيرهم هم "الجوييم" أو الأمميون أو الأميون . وأنهم من ثم غير مطالبين بمراعاة أحكام دينهم مع غيرهم من الأميين: (قالوا ليس علينا في الأميين سبيل) . . إلى آخر هذه الدعاوى التي تفتري الكذب على الله بلا دليل ! فهنا دعوة لهم إلى المباهلة التي تكررت معهم ومع النصارى ومع المشركين:

(قل:يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . قل:إن الموت الذي

تفرون منه فإنه ملاقيكم , ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة , فينبئكم بما كنتم تعملون) .

.

والمباهلة معناها وقوف الفريقين المتنازعين وجها لوجه , ودعاؤهما معا إلى الله أن ينكل بالمبطل منهما . . وقد خاف كل من دعاهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى هذه المباهلة ونكلوا عنها , ولم يقبلوا التحدي فيها . مما يدل على أنهم في قرارة نفوسهم كانوا يعرفون صدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحقية هذا الدين .

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يزيد الزرقي , حدثنا أبو يزيد , حدثنا فرات , عن عبد الكريم ابن مالك الجزري , عن عكرمة , عن ابن عباس , قال: قال أبو جهل - لعنه الله - إن رأيت محمدا عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه . قال: فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "لو فعل لأخذته الملائكة عيانا . ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار . ولو خرج الذين يباهلون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا" .

وقد لا تكون هذه مباهلة ولكن مجرد تحد لهم , بما أنهم يزعمون أنهم أولياء لله من دون الناس . فما يخيفهم إذن من الموت , ويجعلهم أجبن خلق الله ? وهم حين يموتون ينالون ما عند الله مما يلقاه الأولياء والمقربون ? !

ثم عقب على هذا التحدي بما يفيد أنهم غير صادقين فيما يدعون , وأنهم يعرفون أنهم لم يقدموا بين أيديهم ما يطمئنون إليه , وما يرجون الثواب والقربى عليه , إنما قدموا المعصية التي تخيفهم من الموت وما وراءه . والذي لم يقدم الزاد يجفل من ارتياد الطريق:

(ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) . .

وفي نهاية الجولة يقرر حقيقة الموت وما بعده , ويكشف لهم عن قلة الجدوى في فرارهم من الموت , فهو حتم لا مهرب منه , وما بعده من رجعة إلى الله , وحساب على العمل حتم كذلك لا ريب فيه:

(قل:إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم . ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة , فينبئكم بما كنتم تعملون) . .

وهي لفتة من اللفتات القرآنية الموحية للمخاطبين بها وغير المخاطبين . تقر في الأخلاد حقيقة ينساها الناس , وهي تلاحقهم أينما كانوا . . فهذه الحياة إلى انتهاء . والبعد عن الله فيها ينتهي للرجعة إليه , فلا ملجأ منه إلا إليه . والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنان لا محالة . فلا مهرب ولا فكاك .

روى الطبري في معجمه من حديث معاذ بن محمد الهذلي عن يونس عن الحسن عن سمرة مرفوعا: " مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب, تطلبه الأرض بدين, فجاء يسعى, حتى إذا أعيا وأنهر دخل جحره,

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (9)

فقالت له الأرض: يا ثعلب ! ديني . فخرج له حصاص . فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه فمات " . .

وهي صورة متحركة موحية عميقة الإيحاء . .

(271/764)

الدرس الخامس: 9 - 11 توجيه إلى فضائل وأحكام صلاة الجمعة

والآن يجيء المقطع الأخير في السورة خاصا بتعليم يتعلق بالجمعة, بمناسبة ذلك الحادث الذي وقع ربما أكثر من مرة, لأن الصيغة تفيد التكرار:

يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله

واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون .

(وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما . قل:ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة . والله خير الرازقين) . .

وصلاة الجمعة هي الصلاة الجامعة , التي لا تصح إلا جماعة . . وهي صلاة أسبوعية يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون ويلتقوا ويستمعوا إلى خطبة تذكرهم بالله . وهي عبادة تنظيمية على طريقة الإسلام في الإعداد للدنيا والآخرة في التنظيم الواحد وفي العبادة الواحدة ; وكلاهما عبادة . وهي ذات دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية الجماعية التي تحدثنا عنها في ظلال سورة الصف . وقد وردت الأحاديث الكثيرة في فضل هذه الصلاة والحث عليها والاستعداد لها بالغسل والثياب والطيب .

جاء في الصحيحين عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :"إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل " .

وروى أصحاب السنة الأربعة من حديث أوس بن أوس الثقفي قال:سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول:" من غسل واغتسل يوم الجمعة , وبكر وابتكر , ومشى ولم يركب , ودنا من الإمام واستمع ولم يلغ , كان له بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها " . .

وروى الإمام أحمد من حديث كعب بن مالك عن أبي أيوب الأنصاري قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: "من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله إن كان عنده، ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج يأتي المسجد، فيركع إن بدا له، ولم يؤذ أحدا، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي، كانت كفارة لما بينهما وبين الجمعة الأخرى" . .

والآية الأولى في هذا المقطع تأمر المسلمين أن يتركوا البيع - وسائر نشاط المعاش - بمجرد سماعهم للأذان:

(يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) . .

وترغبهم في هذا الانخلاع من شؤون المعاش والدخول في الذكر في هذا الوقت:

(ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) . .

مما يوحي بأن الانخلاع من شؤون التجارة والمعاش كان يقتضي هذا الترغيب والتحبيب .

وهو في الوقت ذاته تعليم دائم للنفوس؛ فلا بد من فترات ينخلع فيها القلب من شواغل المعاش وجواذب الأرض، ليخلو إلى ربه، ويتجرد لذكره، ويتذوق هذا الطعم الخاص للتجرد والاتصال بالملأ الأعلى، ويملأ قلبه وصدره

فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ

اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11)

من ذلك الهواء النقي الخالص العطر ويستروح شذاه !

ثم يعود إلى مشاغل العيش مع ذكر الله:

فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الإرض , وابتغوا من فضل الله , واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . . وهذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي . التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض , من عمل وكد ونشاط وكسب . وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر . وهي ضرورة لحياة القلب لا يصلح بدونها للاتصال والتلقي والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى . وذكر الله لا بد منه في أثناء ابتغاء المعاش , والشعور بالله فيه هو الذي يحول نشاط المعاش إلى عبادة . ولكنه - مع هذا - لا بد من فترة للذكر الخالص , والانقطاع الكامل , والتجرد الممحض . كما توحي هاتان الآيتان .

وكان عراك بن مالك - رضي الله عنه - إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: "اللهم إني أجبت دعوتك , وصليت فريضتك , وانتشرت كما أمرتني . فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين" . . [رواه ابن أبي حاتم] . . وهذه الصورة تمثل

لنا كيف كان يأخذ الأمر جدا , في بساطة تامة , فهو أمر للتنفيذ فور سماعه بحرفيته

وبحقيقته كذلك !

ولعل هذا الإدراك الجاد الصريح البسيط هو الذي ارتقى بتلك المجموعة إلى مستواها الذي

بلغت إليه , مع كل ما كان فيها من جواذب الجاهلية . مما تصوره الآية الأخيرة في السورة:

(وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما . قل:ما عند الله خير من اللهو ومن

التجارة . والله خير الرازقين) . .

عن جابر - رضي الله عنه - قال:" بينا نحن نصلي مع النبي (صلى الله عليه وسلم) إذ

أقبلت عير تحمل طعاما , فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي (صلى الله عليه وسلم) إلا

اثنا عشر رجلا , منهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . فنزلت: (وإذا رأوا تجارة أو لهوا

انفضوا إليها وتركوك قائما) . . "

وفي الآية تلويح لهم بما عند الله وأنه خير من اللهو ومن التجارة . وتذكير لهم بأن الرزق من

عند الله (والله خير الرازقين) . .

وهذا الحادث كما أسلفنا يكشف عن مدى الجهد الذي بذل في التربية وبناء النفوس حتى انتهت إلى إنشاء تلك الجماعة الفريدة في التاريخ . ويمنح القائمين على دعوة الله في كل زمان رصيدا من الصبر على ما يجدونه من ضعف ونقص وتخلف وتعثر في الطريق . فهذه هي النفس البشرية بخيرها وشرها . وهي قابلة أن تصعد مراقي العقيدة والتطهر والتزكي بلا حدود , مع الصبر والفهم والإدراك والثبات والمثابرة , وعدم النكوص من منتصف الطريق . والله المستعان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3564. 3570 ﴾

(275/764)

وقال الشيخ الشنقيطى :

سورة الجمعة

قوله تعالى : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ الآية .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، في المذكرة المشار إليها : هذا عطف على قوله : في الأميين ، أي ، بعث هذا النَّبي صلى الله عليه وسلم في الأميين ، وفي آخرين منهم ، وقيل : عطف على الضمير في قوله : يعلمه من أي يعلمهم ويعلم آخرين منهم ، والمراد بقوله : وآخرين كل من يأتي بعد الصحابة من أهل الإسلام إلى يوم القيامة بدليل قوله : ﴿ وَأُوحِيَ

إِلَيَّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغ ﴾ [الأنعام: 19].

وصح عن النَّبي صلى الله عليه وسلم لما يدل على أن قوله: وآخرين، نزلت في فارس قوم سلمان، وعلى كل حال فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب اه.

وسبق أن قدمنا الكلام على هذا المعنى عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ والذين جآءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفر لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الذين سَبَقُونَا بالإيمان ﴾ [الحشر: 10].

ولكن سقنا كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، حين عثرنا عليه لزيادة الفائدة والاستئناس.

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾.

اختلف في مرجع اسم الإشارة هنا وفي المراد بالمتفضل به عليهم، أهم الأمة الأميّة تفضل الله عليها ببعثة نبي منهم فيهم؟ أم هو النَّبي صلى الله عليه وسلم الأمّي تفضل الله تعالى عليه ببعثته معلماً هادياً؟ أم هم الآخرون الذين لم يلحقوا زمن البعثة ووصلتهم دعوتها، وأدركوا فضلها؟

وقد اكتفى الشيخ رحمة الله تعالى عليه وعلينا، في مذكر الدراسة بقوله ذلك أي المذكور من بعث هذا النَّبي الكريم في الأميين فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، ومن عظم فضله تفضله على هذه الأمة بهذا النَّبي الكريم اه.

وهذا القول منه رحمة الله تعالى علينا وعليه ، يتضمن القولين الأول والثاني من الأقوال الثلاثة ، تفضل الله على الأميين ببعثة هذا النّبي الكريم فيهم ، وتفضل الله على النّبي ببعثه فيهم مما لا يشعر بأنه لا خلاف بين هذه الأقوال الثلاثة ، وأنها من الاختلاف التنوعي او هي من المتلازمات فلا مانع من إدارة الجميع ، لأن فضل الله تعالى قد شمل الجميع .

وقد نص الأول بقوله : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المؤمنين إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب والحكمة وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : 164] وهذا عين ما في سورة الجمعة سواء ، لأن الامتنان هو التفضل .

ونص على الثاني بقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكتاب والحكمة وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء : 113] .

ونص على الثالث بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائم ذلك فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : 54] .

فقوله : فسوف يأتي ، ويساوي ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ [الجمعة : 3] ، فهو خلاف تنوع ، وفضل الله شامل للجميع .

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه : هذا مثل ضربه الله لليهود ، وهو أنه شبههم بحمار ، وشبه التوراة التي كلفوا العمل بما فيها بأسفار أي كتب جامعة للعلوم النافعة ، وشبه تكليفهم بالتوراة : بحمل ذلك الحمال لتلك الأسفار ، فكما أن الحمار لا ينتفع بتلك العلوم النافعة التي ف تلك الكتب المحمولة على ظهره ، فكذلك اليهود لم ينتفعوا بما في التوراة من العلوم النافعة لأنهم كلفوا باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وإظهار صفاته للناس فخانوا وحرفوا وبدّلوا فلم ينفعم ما في كتابهم من العلوم اه .

فأشار الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، إلى أن وجه الشبه عدم الانتفاع بما تحملوه من التوراة وهم يعلمون ما فيها من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد أوضح الله تعالى هذا في موضع آخر في قوله تعالى : ﴿ الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 146] فقد جحدوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فلم ينفعهم علمهم به

وهذه الآية أشد ما ينبغي الحذر منها ، وخاصة لطلاب العلم وحملته ، كما قال تعالى : ﴿ بِئْسَ مَثَلُ القوم ﴾ [الجمعة : 5] أي تشبيههم في هذا المثل بهذا الحيوان المعروف .

وقد سبق للشيخ رحمة الله تعالى لعينا وعليه الكلام على هذا المثال في عدة مواضع من الأضواء ، منها في الجزء الثاني عند قوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب ﴾ [الأعراف : 176] الآية .

ومنها في الجزء الثالث عند قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ [إبراهيم : 18] الآية .

ومنها في الجزء الرابع عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا القرآن لِلنَّاسِ ﴾ الكهف : 54] في سورة الكهف بما فيه الكفاية .

(278/764)

والذي ينبغي التنبيه عليه هو أن أكثر المفسرين يجعله من قبيل التشبيه المفرد ، وأن وجه الشبه فيه مفرد وهو عدم الانتفاع بالمحمول ، كالبيت الذي فيه :

كالعيس في البَيْداء يقتلها الظما . . . والماء فوق ظهورها محمول

والذي يظهر والله تعالى أعلم ، أنه من قبيل التشبيه التمثيلي لأن وجه الشبه مركب من مجموع كون المحمول كتباً نافعة ، والحامل حمار لا علاقة له بها بخلاف ما في البيت ، لأن العيش يمكن أن تنتفع بالماء لو حصلت عليه ، والحمار لا ينتفع بالأسفار ولو نشرت بين

عينيه ، وفيه إشارة إلى أن من موجبات نقل النبوة عن بني إسرائيل كلية أنهم وصلوا إلى حد الإياس من انتفاعهم بأمانة التبليغ والعمل ، فنقلها الله إلى قوم أحق بها وبالقيام بها .

قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6)

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والذين هادوا هم اليهود .

ومعنى هادوا : أي رجعوا بالتوبة إلى الله من عبادة العجل .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 156] ، وكان رجوعهم عن عبادة العجل بالتوبة النصوح : حيث سلموا أنفسهم للقتل توبة وإنابة إلى الله كما بينه بقوله : ﴿ فتوبوا إلى بَارِئِكُمْ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : 54] إلى قوله ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : 54] .

وقوله : ﴿ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ الناس فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في : ﴿ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ اللَّهِ ﴾ اي إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم أولياء لله ، وأبناء الله وأحباؤه دون غيركم من الناس ، فتمنوا الموت لأن ولي الله حقاً يتمنى لقاءه ، والإسراع إلى ما أعد له من النعيم المقيم اه .

وفي قوله رحمة الله تعالى علينا وعليه . إشارة إلى بيان زعمهم المجمل في الآية وهو ما بينه تعالى بقوله عنهم وعن النصارى معهم : ﴿ وَقَالَتِ اليهود والنصارى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة : 18] .

وقد ردّ زعمهم عليهم بقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة : 18] .

ومثل هذه الآية إن زعمتم قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدار الآخرة عِندَ الله خَالِصَةً مِّن دُونِ الناس فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : 94] .

وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : وقيل المراد بالتمني المباهلة ، والمراد من الآية إظهار كذب اليهود في دعواهم أنهم أولياء الله .

وقوله : ﴿ إِن زَعَمْتُمْ ﴾ مع قوله : ﴿ إن كُنتُمْ ﴾ شرطان يترتب الأخذ منهما على الأول أي فتمنوا الموت ، إن زعمتم ، إن صدقتم في زعمكم ، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر :

إن تستغيثوا بنا إن تذعروا تجدوا . . . منا معاقل عز زانها كرم

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ .

نص على أنهم لا يتمنون الموت أبداً ، وأن السبب هو ما قدمت أيديهم ، ولكن ليبين ما هو ما قدمت أيديهم الذي منعهم من تمني الموت .

وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه . لا يتمنونه لشدة حرصهم على الحياة كما بينه تعالى بقوله : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ [البقرة : 96] فشدة حرصهم على الحياة لعلمهم أنهم إذا ماتوا دخلوا النار ، ولو تمنوا لماتوا من حينهم .

(280/764)

وقوله : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ الباء سببية والمسبب انتفاء تمنيهم وما قدمت أيديهم من الكفر والمعاصي اه .

والذي أشار إليه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، من الأسباب من كفرهم ومعاصيهم ، قد بينه تعالى في موضع آخر صريحاً في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [آل عمران : 181 - 182] .

فالباء هنا سببية أيضاً أي ذوقوا عذاب الحريق بسبب ما قدمت أيديكم من هذه

المذكورات ، ولهذا كله لن يتمنوا الموت ويود أحدهم لو يمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، فقد أيقنوا الهلاك ويئسوا من الآخرة .

كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لاَ تتَوَلَّوْا قوماً غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخرة كَمَا يَئِسَ الكفار مِنْ أَصْحَابِ القبور ﴾ [الممتحنة : 13] ولهذا كله لم يتمنوا الموت ، كما أخبر الله تعالى عنهم . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الموت الذي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ﴾ .

أي إن رزتم من الموت بعدم تمنيه فلن يجعلكم تنجون منه وهو ملاقيكم لا محالة ، وملاقيكم بمعنى مدرككم ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الموت وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : 78] .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9)

هذه الآية الكريمة ، وهذا السياق يشبه في مدلولة وصورته قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِي الناس بالحج يَأْتُوكَ رِجَالاً وعلى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج :

27 – 28] مع قوله : ﴿ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فاذكروا الله عِندَ المشعر الحرام ﴾ [البقرة : 198] الآية .

ففي كل منهما نداء ، وأذان الحج وصلاة وسعي وإتيان وذكر الله ، ثم انتشار وإفاضة مما يربط الجمعة بالحج في الشكل وإن اختلف الحجم ، وفي الكيف وإن تفاوتت التفاصيل ، وفي المباحث والأحكام كثرة وتنويعاً من متفق عليه ومختلف فيه ، مما يجعل مباحث الجمعة لا تقل أهمية عن مباحث الحج ، وتتطلب عناية بها كالعناية به .

وقد نقل عن الشيخ رحمة الله تعالى عليه أنه كان عازماً على بسط الكلام فيها كعادته رحمة الله تعالى عليه ، ولكن إرادة الله نافذة ، وقدرته غالبة . وإن كل إنسان يستشعر مدى مباحث الشيخ وبسطه وتحقيقه للمسائل ليحجم ويترك الدخول فيها تقاصراً دونها ولا سيما وأن ربط هذه المباحث بنصوص القرآن ليس بالأمر المبين ، كما أشار إليه أبو حيان في مضمون قوله في نهاية تفسيره لهذه السورة بعد إيجاز الكلام عن أحكامها ، قال ما نصه : وقد ملأ المفسرون كثيراً من أوراقهم بأحكام وخلاف في مسائل الجمعة مما لا تعلق بها بلفظ القرآن اه .

فهو يشير بأن لفظ القرآن لا تعلق له بتلك الأحكام التي ناقشها المفسرون في مباحث الجمعة ، ولكن الدارس لمنهج الشيخ رحمة الله تعالى عليه في الأضواء ، والمتذوق لأسلوبه لم يقتصر على اللفظ فقط ، أي دلالة النص التطابقي وتأمل أنواع الدلالات من تضمن والتزام وإيماء

وتنبيه ، فإنه يجد لأكثر أو كل ما قاله المفسرون والمحدثون والفقهاء من المباحث أصولاً من أصول تلك الدلالات .

(282/764)

وإني أستلهم الله تعالى الرشد وأستمد ، العون والتوفيق لبيان كل ما يظهر من ذلك إن شاء الله ، فإن وفقت فيفضل من الله وخدمة لكتابه ، وإلا فإنها محاولة تغتفر بجاني القصور العلمي وتحسين القصد ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع ﴾ [البقرة : 198] الآية .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعيله في مذكرة الدراسة ما نصه : إذا نودي للصلاة أي قام المنادي بها ، وهو المؤذن يقول : حي على الصلاة .

وقوله : ﴿ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ أي من صلاة يوم الجمعة أي صلاة الجمعة اه .

ومما يدل على أن المراد بها صلاة الجمعة نفسها دون بقية صلوات ذلك اليوم مجيء من التي للتبعيض ثم تتبين هذا البعض بالأمر ، بترك البيع في قوله : ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع ﴾ ، لأن هذا خاص بالجمعة دون غيرها لوجود الخطبة ، وقد كانت معينة لهم قبل

نزول هذه الآية، وصولها قبل مجيء النّبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، كما سيأتي إن شاء الله.

والمراد بالنداء هو الأذان، كما أشار إليه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، وكما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصلاة اتخذوها هُزُواً وَلَعِباً ﴾ [المائدة: 58].

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم"

وقيل: النداء لغة هو النداء بصوت مرتفع لحديث: "فإنه أندى منك صوتاً"

وقد عرف الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الأذان لغة عند قوله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي الناس بالحج يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ [الحج: 27] قال: الأذان لغة الإعلام.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ إِلَى الناس يَوْمَ الحج الأكبر ﴾ [التوبة: 3]

وقول الحارث بن حلزة:

آذنتنا ببينها أسماء . . . رب ثاو يمل منه الثواء

(283/764)

والأذان من خصائص هذه الأمة، شعاراً للمسلمين ونداء للصلاة.

بدء مشروعيته:

اختلف في بدء المشروعية ، والصحيح أنه بدئ بعد الهجرة ، وجاءت نصوص لكنها ضعيفة : أنه شرع ليلة الإسراء أو بمكة .

منها : عن علي رضي الله عنه عند البزار : أنه شرع مع الصلاة .

ومنها عن ابن عباس عند ابن حبان أنه شرع بمكة عن أول الصلاة .

وقال ابن حجر : لا يصح شيء من ذلك .

أما مشروعيته بعد الهجرة ، وفي المدينة ففيها نصوص عديدة صحيحة نبين بدأه وكيفيته .

منها : حديث ابن عمر رضي الله عنهما في الصحيحين وغيرهما قال : "كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة وليس ينادي بها أحد ، فتكلموا يوماً في ذلك ، فقال بعضهم : اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى ، وقال بعضهم قرناً مثل قرن اليهود ، فقال عمر : أولاً تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا بلال قم فناد بالصلاة" ، وفي الموطأ لمالك رحمة الله "أنه صلى الله عليه وسلم كان قد أراد أن يتخذ خشبتين يضرب بهما ليجتمع الناس للصلاة ، فأرى عبد الله بن زيد الأنصاري خشبتين في النوم فقال : إن هاتين لنحو مما يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "ألا تؤذنون للصلاة" ؟ فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استيفظ فذكر له ذلك فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأذان" .

وبعض الروايات الأخرى عن غي ابن عمر وعند غير الشيخين بألفاظ أخرى ، وصور

مختلفة منها قالوا : " انصب راية فإذا رآها الناس أذن بعضهم بعضاً أي أعلمه عند حضور الصلاة ، فلم يعجبه ذلك فذكر له القنع ، وهو الشَّبُّور لليهود فلم يعجبه ، فقال هذا من أمر اليهود " .

وفي رواية أنس " أن ينوروا ناراً فلم يعجبه شيء من ذلك كله " .

وفي حديث عبد الله بن زيد " لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناقوس يعمل ليضرب به للناس لجمع الصوات طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوساً في يده .

فقلت يا عبد الله أتبيع الناقوس قال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعو به إلى الصلاة . قال أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك . فقلت : بلى ، فقال : تقول : الله اكبر الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ! أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله " . ثم استأخر عني غير بعيد ثم قال : " تقول : إذا أقمت للصلاة : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا غله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة . الله أكبر الله

أكبر لا إله إلا الله " . حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة . الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله . فلما أصبحت أتيت النَّبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما رأيت فقال " إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به ، فإنه أندى صوتاً منك ، فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به فسمع عمر وهو في بيته فخرج يجر رداءه ويقول : يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت ما رأى ، فقال صلى الله عليه وسلم " فلله الحمد " رواه أبو داود .

وفي رواية له ، فقال : " إني لبين نائم ويقظان إذا أتاني آت فأراني الأذان " .

فتبين من هذا كله أن الصحيح في مشروعية الأذان أنه كان بعد الهجرة ، وفي المدينة المنورة .

وهنا سؤال حول مشروعية الأذان . قال بعض الناس : كيف يترك أمر الأذان وهو بهذه الأهمية من الصلاة فيكون أمر مشروعيته رؤيا يراها بعض الأصحاب ، وطعن في سند الحديث واستدل بحديث ابن عمر في الصحيحين وغيرهما من قوله صلى الله عليه وسلم : " قم يا بلال فناد بالصلاة " والجواب عن هذا من عدة وجوه :

منها : سند حديث عبد الله صحيح ، وقد ناقشة الشوكاني رحمة الله ، وذكر تصحيحه ومن صححه ويشهد لصحته ما قدمناه من رواية الموطإ بإرادة اتخاذ خشبتين ، فأرى عبد الله بن زيد خشبتين الحديث ، وكذلك في الصحيحين إثبات التشاور فيما يعلم به حين الصلاة .

ومنها : أنه لا يتعارض مع حديث ابن عمر لأن حديث ابن عمر لم يذكر ألفاظ النداء فيكون الجمع بينهما . إما أن بلالاً كان ينادي بغير هذه الصيغة ، ثم رأى عبد الله الأذان فعلمه بلالاً .

وقد يشهد لهذا الوجه ما جاء عن ابن أبي ليلى قال : " أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال ، وحدثنا أصحابنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لقد أعجبني أن تكون صلاة المسلمين واحد ، حتى لقد هممت أن أبث رجالاً في الدور ينادون الناس بحين الصلاة ، وحتى هممت أن آمر رجالاً يقومون على الآطام ينادون المسلمين حتى نقسوا أكادوا أن ينقسوا " ، فجاء رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله إني لما رجعت لما رأيت من اهتمامك رأيت رجلاً كأن عليه ثوبين أخضرين فقام على المسجد فأذن ثم قعد قعدة ثم قال فقال مثلها إلا أنه يقول قد قامت الصلاة ، ولولا أن يقول الناس لقلت إني كنت يقظان غير نائم . فقال صلى الله عليه وسلم : " لقد أراك الله خيراً فمر بلالاً فليؤذن " ، فقال عمر : أما إني قد رأيت مثل الذي رأى ولكني لما سبقت استحييت " لأبي داود أيضاً .

ففيه أنه صلى الله عليه وسلم كان قد همَّ أن يبث رجالاً في الدور ، وعلى الأطم ينادون للصلاة ، فيكون نداء بلال أولاً من هذا القبيل دون تعيين ألفاظ ، أما أن يكون نداء بلال الوارد في الصحيح بألفاظ الأذان ، الواردة في حديث عبد الله بعد أن رأى ما رآه أمره صلى الله عليه وسلم أن يعلمه بلالاً فنادى به ، ولا تعارض في ذلك كما ترى .

ومنها أيضاً : أن رؤيا عبد الله للأذان لا تجعله مشروعاً له من عنده ولا متوقفاً عليه ، لأنه جاء في الرؤيا الصالحة أنها جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة

وهذا النظم لألفاظ الاذان لا يكون إلا من القسم فهي بعيدة عن الوساوس والهواجس لما فيها من إعلان العقيدة وإرغام الشيطان كما في الحديث : " إن الشيطان إذا سمع النداء أدبر " إلخ .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم لما سمعها أقرها وقال : " إنها لرؤيا حق " ، أو " لقد أراك الله حقاً " ، فكانت سنة تقرير كما يقرر بعض الناس على بعض الأفعال .

ثم جاء بعد ذلك تعليمه صلى الله عليه وسلم لأبي محذورة فصار سنة ثابتة ، وكان يتوجه السؤال لو أنه لم يبلغه صلى الله عليه وسلم وعملوا به لمجرد الرؤيا ، ولكن وقد بلغه وأقره فلا

سؤال إذاً .

ومنها : أن في بعض الروايات أن الوحي قد جاءه به ، ولما أخبره عم وقال له : سبقك بذلك الوحي . ذكر في مراسيل أبي داود .

وذكر عن ابن العربي بسط الكلام إثبات الحكم بالرؤيا ذكرهما المعلق على بذل المجهود .

ومنها ما قيل : ترك مجيء بيان وتعليم لأذان إلى أن رآه عبد الله ورواه عمر رضي الله عنهما لأمرين ، ذكرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم معلناً مع ذكر الله فيكون مجيئه عن طريقهما أولى وأكرم لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يأتيهم من طريقه هو حتى لا يكون عناية من يدعوهم لإطرائه .

وهذا وإن كان متوجهاً إلا أن فيه نظراً لأنه صلى الله عليه وسلم لو جاءهم بأعظم من ذلك لما كان موضع تساؤل .

من مجموع ما تقدم يكون أصل مشروعية الأذان سنة ثابتة ، إما أنه كان قد همّ أن يبعث رجالاً في البيوت ينادوه ، وإما لأنه أقرّ ما رأى عبد الله فيكون أصل المشروعيّة منه صلى الله عليه وسلم ، والتقرير منه على الألفاظ التي رآها عبد الله .

فضل الأذان وآداب المؤذن

لا شك أن الأذان من أفضل الأعمال ، وأن المؤذن يشهد له ما سمع صوته من حجر ومدر . إلخ .

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم : " أن المؤذنين أطول الناس أعناقا يوم القيامة "

وقال عمر رضي الله عنه : لولا الخلافة لأذنت .

(287/764)

وقال صلى الله عليه وسلم : " الإمام ضامن ، والمؤذن مؤتمن ، اللهم أرشد الأئمة ، واغفر للمؤذنين " رواه أبو داود والترمذي ، إلى غير ذلك من فضائل الأذان ، فقيل : مؤتمن على الوقت ، وقيل : مؤتمن على عورات البيوت عند الأذان فقد حث صلى الله عليه وسلم المؤذنين على الوضوء له كما في حديث : " لا ينادي للصلاة إلا متوضىء " وإن كان الحديث لا يبطله اتفاقاً .

ولما كان بهذه المثابة كانت له آداب في حق المؤذنين .

منها : أن يكونوا من خيار الناس ، كما عند أبي داود : " ليؤذن لكم خياركم وليؤمكم أقرؤكم " ، وعليه حذر صلى الله عليه وسلم من تولي الفسقة الأذان كما في حديث : " الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن " المتقدم . فإن فيه زيادة عند البزار قالوا يا رسول الله . لقد رتكتنا نتنافس في الأذان بعدك فقال : " إنه يكون بعدي أو بعدكم قوم سفلتهم مؤذنوهم "

ومنها : أنه يكره التغني فيه ، لأنه ذكر ودعاء إلى أفضل العبادات ، وقد يجاء عن ابن عمر

رضي الله عنه أن رجلاً قال له : إني أحبك في الله ، قال ابن عمر : لكني أبغضك في الله ، فقال : ولم ؟ قال لأنك تتغنى في أذانك .

وفي المغني لابن قدامة : ولا يعتد بأذان صبي ولا فاسق ، أي ظاهر الفسق ، وعند المالكية : لا يحاكي في أذلة الفسقة .

ومنها : ألا يلحن فيه لحناً بيناً ، قال في المغني : ويكره اللحن في الأذان ، فإنه ربما غيّر المعنى ، فإن من قال : أشهد أن محمداً رسول الله ونصب لام رسول . أخرجه عن كونه خبراً .

ولا يمد لفظه أكبر لأنه يجعل فيها ألفاً فيصير جمع كبر ، وهو الطبل ، ولا يسقط الهاء من اسم الله والصلاة ولا الحاء من الفلاح ، لما روى أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" لا يؤذن لكم من يدغم الهاء " الحديث أخرجه الدار قطني .

فأما إن كان ألثغ لا تتفاحش جاز أذانه ، فقد روي أن بلالاً كان يقول : أسهد بجعل الشين سينا ، نقله ابن قدامة ، ولكن لا أصل لهذا الأثر مع شهرته على ألسنة الناس ، كما في كشف الخفاء ومزيل الإلباس .

ومن هذا ينبغي تعهد المؤذنين في هذين الأمرين اللحن والتلحين وكذلك الفسق ، وصفة المؤذنين ولا سيما في بلاد الحرمين الشريفين مهبط الوحي ومصدر التأسي ، وموفد القادمين من كل مكان ليأخذوا آداب الأذان والمؤذنين ، عن أهل هذه البلاد المقدسة .

ألفاظ الأذان والإقامة والراجح منها

مع بيان التثويب والترجيح

مدار ألفاظ الأذان والإقامة في الأصل على حديثي عبد الله بن زيد بالمدينة ، وحديث أبي محذورة في مكة بعد الفتح . وما عداهما تبع لهما كحديث بلال وغيره ، رضي الله عنهم .

وحديث عبد الله موجود في السنن أي فيما عدا البخاري ومسلم . وهو متقدم من حيث الزمن كما تقدم ذلك في مبحث مشروعية الأذان وأنه كان ابتداء في المدينة أول مقدمة صلى الله عليه وسلم إليها .

وحديث أبي محذورة موجود في السنن وفي صحيح مسلم . ولم يذكر البخاري واحداً منهما ، وإنما ذكر قصة سبب المشروعية ، وحديث " أمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة " على ما سيأتي إن شاء الله .

وعليه سنقدم حديث عبد الله لتقدمه في الزمن : وألفاظه كما تقدم في بدء المشروعية هي : الله أكبر الله أكبر . الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد

أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح حي على الفلاح. الله أكبر الله أكبر. لا إله إلا الله.

(289/764)

ومجموعه خمس عشرة كلمة أي جملة. ففيه تربيع التكبير في أوله وتثنية باقيه ، وإفراد آخره. وفيه الإقامة بتثنية التكبير في أوله في كلمة وإفراد باقيها إلا لفظ الإقامة ، ولفظها : الله أكبر الله اكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله. حي على الصلاة ، حي على الفلاح. قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة. الله أكبر الله أكبر. لا إله إلا الله.

قال الشوكاني : رواه أحمد وأبو داود ، وقال عنه الترمذي : حسن صحيح. وذكر له عدة طرق. ومنها عند الحاكم وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما والبيهقي وابن ماجه.

حديث أبي محذورة : وحديث أبي محذورة كان بعد الفتح كما في السنن أنه خرج في نفر فلقي النّبي صلى الله عليه وسلم مقدمه من حنين ، وأذن مؤذنه صلى الله عليه وسلم ، فظل أبو محذورة في نفره يحونه استهزاء به ، فسمعهم صلى الله عليه وسلم فأحضرهم فقال :

"أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع ؟ فأشاروا إلى أبي محذورة ، فحبسه وأرسلهم ، ثم

قال له قم فأذن بالصلاة فعلمه "

أما ألفاظه : فعند مسلم بتثنية التكبير في أوله : والباقي كحديث عبد الله بن زيد مع زيادة ذكر الترجيع . وقد ساقه مسلم في ثلاثة مواضع وبلفظ التكبير مرتين فقط .

الموضع الأول : عن أبي محذورة نفسه ، أن النَّبي صلى الله عليه وسلم علمه الأذان : الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله . حي على الصلاة ، حي على الصلاة . حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

(290/764)

والموضع الثاني : في قصة الإغارة أنه "كان صلى الله عليه وسلم يغير إذا طلع الفجر ، وكان يستمع الأذان فإذا سمع أذاناً أمسك وإلا أغار . فسمع رجلاً يقول : الله أكبر الله أكبر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "على الفطرة" ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خرجت من النار" الحديث .

والموضع الثالث : عن عمر رضي الله عنه ، أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : "إذا قال المؤذن : الله أكبر الله أكبر فقال أحدكم : الله أكبر الله أكبر ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله ،

قال : أشهد أن لا إله إلا الله " الحديث ، فهذه كلها ألفاظ مسلم لأذان أبي محذورة ، ولم يذكر مسلم عن الإقامة إلا حديث أنس ، أمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة ، وعند غير مسلم جاء حديث أبي محذورة بتربيع التكبير في أوله ، كحديث عبد الله بن زيد ، وبالترجيع والتثويب في الفجر ، وفيها أن الترجيع يكون أولاً بصوت منخفض . ثم يرجع ويمد بهما أي بالشهادتين صوته ، وذلك عند أحمد وأبي داود والترمذي والنسائي ، أما الإقامة فجاءت عن أبي محذورة روايتان : الأولى قال : وعلمني النَّبي صلى الله عليه وسلم الإقامة مرتين : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة حي على الصلاة ، حي على الفلاح حي على الفلاح ، قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

(291/764)

الثانية : مثل الأذان تماماً بتربيع التكبير ، وبدون ترجيع ، وتثنية الإقامة أي : الله أكبر الله أكبر . الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة حي على الصلاة ، حي على

الفلاح حي على الفلاح ، قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

فالأولى كالأذان في رواية مسلم ، والثانية كرواية الأذان عند غيره بدون ترجيع ولا تثويب ، وإضافة لفظ الإقامة مرتين .

هذا مجموع ما جاء في أصول ألفاظ الذان من حديثي عبد الله بن زيد وأبي محذورة .

وبالنظر في حديث عبد الله بن زيد نجده لم تختلف ألفاظه لا في الأذان ولا في الإقامة . وهو بتربيع التكبير في الأذان وبدون تثويب ولا ترجيع ، وبإفراد الإقامة إلا لفظ الإقامة ، أما حديث أبي محذورة فجاء بعدة صور في الأذان وفي الإقامة .

أما الأذان فعند مسلم بتثنية التكبير في أوله وعند غيره بتربيعه ، وعند الجميع إثباته الترجيع في الشهادتين ، وأن الأولى منخفضة ، والثانية مرتفعة ، كبقية ألفاظ الأذان ، وأما الإقامة فجاءت مرتين مرتين ، وجاءت مثل الأذان تماماً عند غير مسلم سوى الترجيع والتثويب مع تثنية الإقامة ، فكان الفرق بين الحديثين كالآتي :

في ألفاظ الأذان ثلاثة نقاط :

أولاً : ذكر الترجيع .

ثانياً : التثويب .

ثالثاً : عدد التكبير في أوله .

أما الترجيع فيجب أن يؤخذ به ، لأنه متأخر بعد الفتح ، ولا معارضة فيه ، لأنه زيادة بيان وبسند صحيح .

وأما التثويب ، فقد ثبت من حديث بلال ، وكان أيضاً متأخراً عن حديث عبد الله قطعاً ، وقد ثبت أن بلالاً أذن للصبح فقيل له : إن رسول الله صلى الله عليه سلم نائم فصرخ بلال بأعلى صوته : " الصلاة خير من النوم " .

قال سعيد بن المسيب : فأدخلت هذه الكلمة في التأذين لصلاة الفجر . أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : " اجعل ذلك في أذانك " فاختصت بالفجر .

وذكر ابن قدامة رحمه الله في المغني عن بلال : " أن النّبي صلى الله عليه وسلم نهاه أن يثوب في العشاء " رواه ابن ماجه ، وقال : دخل ابن عمر رضي الله عنهما مسجداً يصلي فيه ، فسمع رجلاً يثوب في أذان الظهر فخرج فقيل له : أين ؟ فقال : أخرجتني البدعة ، فلزم بهذا كله الأخذ بها في صلاة الفجر خاصة .

أما التكبير في أول الأذان ، ففي رواية مسلم لأبي محذورة مرتين في كلمة فاختلف مع حديث عبد الله بن زيد ، وعند غير مسلم بتربيع التكبير . وبالنظر إلى سند مسلم فهو

أصح سنداً ، وبالنظر إلى ما عند غيره ، تجد فيه زيادة صحيحة ، وهي تربيع التكبي ، فوجب العمل بها كما وجب العمل بالتوثيب والترجيع ، لأن الرواية المتفقة مع الحديث الآخر أولى من المختلفة معها .

أما الإقامة : ففي حديث عبد الله لم تختلف كما تقدم ، ولكنها في حديث أبي محذورة قد جاءت متعددة ولم تتفق صورة من صورها مع حديث عبد الله ، حيث إن فيها مرتين مرتين في جميع الكلمات ، ومنها كالأذان مع لفظ الإقامة مرتين ، وسند الجميع سواء

فهل نأخذ في الإقامة بحديث عبد الله أم بحديث أبي محذورة ؟ من حيث الصناعة كل منهما في السند سواء .

وفي حديث أبي محذورة زيادة وهي تشبيهها بالأذان ، فلو كان الأمر قاصراً على ذلك لكان العمل بحديث أبي محذورة في الإقامة أولى ، لأنه متأخر وفيه زيادة صحيحة ، ولكن وجدنا حديث بلال في الصحيح ، وعند مسلم أيضاً وهو أمر بلال أن يشفع الأذان وأن يوتر بالإقامة . وحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : "كان الأذان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين ، والإقامة مرة ، مرة غير أنه كان يقول : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة" رواه أبو داود والنسائي .

وبهذين الحديثين يمكن الترجيح بين حديثي عبد الله وأبي محذورة في كل من الأذان والإقامة .

فمن حديث بلال : نشفع الأذان ولكنهم يختلفون في تحقيق المناط في المراد بالشفع من حيث التكبير لأن الشفع يصدق على اثنين وأربع ، وعند في الأذان إما مرتان وإما أربع ، وكلاهما يصدق عليه معنى الشفع . ولكن إذا اعتبرنا أن كل تكبيرتين جملة واحدة ، كان تحقق الشفع بجملتين ، فيأتي أربع تكبيرات . وإذا اعتبرنا كل تكبيرة كلمة وجد الشفع في جملة واحدة لاشتمالها على كلمتين ، ولهذا وقع الخلاف .

ولكن الأذان لم تعد عباراته بالكلمات المفردة بل بالجمل ، لأننا نعد قولنا : حي على الصلاة ، وهي في الواقع جملة تشتمل على عدة كلمات مفردة ، وعليه فقولنا : الله أكبر الله اكبر كلمة ، وعلى هذا يكون الشفع بتكرارها ، فيأتي أربع تكبيرات : وهذا يتف مع رواية الحديثين ، وحديث عبد الله تماماً .

وقال النووي في شرح مسلم : قال القاضي عياض : إن حديث أبي محذورة جاء في نسخة الفاسي لمسلم بأربع تكبيرات اه .

وبهذا تتفق الروايات كلها ي تربيع التكبير في الأذان .

أما الإقامة فحديث بلال نص في إيثار الإقامة إلا لفظ الإقامة وهو عين نص الإقامة في

حديث عبد الله ، وعين النص في حديث عبد الله بن عمر ، والإقامة مرة مرة إلا الإقامة ، أي فهي مرتين وعلى هذا العرض وبهذه المناقشة يكون الراجح هو العمل بحديث عبد الله بن زيد في الأذان والإقامة ، مع أخذ الترجيع والتثويب من حديث أبي محذورة للأذان .

ثم نسوق ما أخذ به فقهاء الأمصار من هذا كله مع بيان النتيجة من جواز العمل بالجميع إن شاء الله .

قال ابن رشد في البداية ما نصه : اختلف العلماء في الأذان على أربع صفات مشهورة .

إحداها : تثنية التكبير وتربيع الشهادتين وبايه مثنى ، وهو مذهب أهل المدينة مالك وغيره ، واختار المتأخرون من أصحاب مالك الترجيع في الشهادتين بصوت أخفض من الأذان .

والصفة الثانية : أذان المكيين ، وبه قال الشافعي ، وهو تربيع التكبير الأول والشهادتين ، وتثنية باقي الأذان .

والصفة الثالثة : أذان الكوفيين ، وهو تربيع التكبير الأول وتثنية باقي الأذان ، وبه قال أبو حنيفة .

والصفة الرابعة : أذان البصريين ، وهو تربيع التكبير الأول وتثليث الشهادتين ، وحي على الصلاة وحي على الفلاح ، يبدأ بأشهد أن لا إله إلا الله حتى يصل إلى حي على الفلاح ، ثم يعيد كذلك مرة ثانية أعني الأربع كلما تبعاً ثم يعيدهن ثالثة . وبه قال الحسن البصري وابن سيرين .

والسبب في اختلاف كل واحد من هؤلاء الفرق الأرقع اختلاف الآثار في ذلك ، واختلاف اتصال العمل عند كل واحد منهم ، وذلك أن المدنيين يحتجون لمذهبهم بالعمل المتصل بذلك في المدينة ، والمكيون كذلك أيضاً يحتجون بالعمل المتصل عندهم بذلك ، وكذلك الكوفيون والبصريون ، ولكل واحد منهم آثار تشهد لقوله اه .

ثم ساق نصوص كل فريق من النصوص التي أوردناها سابقاً ، ولم يورد نصاً لمذهب البصريين الذي فيه التثليث المذكور ، وقد وجد في مصنف عبد الرزاق بسند جيد مجلد (1) ص 465 وجاء مروياً عن بعض الصحابة في المصنف المذكور .

وقال في الإقامة : أما صفتها فإنها عند مالك والشافعي بتثنية التكبير في أولها ، وبإفراد باقيها إلا لفظ الإقامة ، فعند الشافعي مرتين وعند أبي حنيفة ، فهي مثنى مثنى ، وأما أحمد فقد خير بين الأفراد والتثنية . فيها اه .

تلك هي خلاصة أقوال أئمة الأمصار في ألفاظ الأذان والإقامة ، وقد أجملها العلامة ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد تحت عنوان : فصل مؤذنيه صلى الله عليه وسلم قال ما نصه :

وكان أبو محذورة يرجع الأذان ويثني الإقامة وبلال لا يرجع ويفرد الإقامة ، فأخذ الشافعي وأهل مكة بأذان أبي محذورة ، وإقامة بلال ، ويعني بأذان أبي محذورة على رواية تربيع التكبير ، وأخذ أبو حنيفة وأهل العراق بأذان بلال وإقامة أبي محذورة ، وأخذ أحمد وأهل الحديث وأهل المدينة بأذان بلال وإقامته ، أي بتربيع التكبير وبدون ترجيع ، وبإفراد الإقامة إلى لفظ الإقامة ، قال : وخالف مالك في الموضعين إعادة التكبير وتثنية لفظ الإقامة ، فإنه لا يكررها اه .

ومراده بمخالفة مالك هنا لأهل الأمصار ، وإلا فهو متفق مع بعض الصور المتقدمة . أما في عدم إعادة التكبير ، فعلى حديث أبي محذورة عند مسلم ، وعدم تكريره للفظ الإقامة ، فعلى بعض روايات حديث بلال أن يوتر الإقامة أي على هذا الإطلاق ، وبهذا مرة أخرى يظهر لك أن تلك الصفات كلها صحيحة ، وأنها من باب اختلاف التنوع وكل ذهب إلى ما هو صحيح وراجح عنده ، ولا تعارض مطلقاً إلا قول الحسن البصري وابن سيرين بالتثليث ولم يقل به أحد من الأئمة الأربعة

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى كلمة فصل في ذلك في المجموع بعد ذكر هذه المسألة نصه :

فإذا كان كذلك فالصواب مذهب أهل الحديث ومن وافقهم تسويغ كل ما ثبت في ذلك عن النَّبي صلى الله عليه وسلم لا يكرهون شيئاً من ذلك، إذ تنوع صفة الأذان والإقامة كتنوع صفة القراءات والتشهدات ونحو ذلك، وليس لأحد أن يكره ما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته اه.

وقال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد في موضع آخر: مما لا ينبغي الخلاف فيه ما نصه: وهذا من الاختلاف المباح الذي لا يعنف فيه من فعله ولا من تركه.

وهذا كرفع اليدين في الصلاة وتركه، وكالخلاف في أنواع التشهدات وأنواع الأذان والإقامة، وأنواع النسك من الإفراد والتمتع والقرآن.

تنبيه

قد جاء في التثويب بعض الآثار عن عمر وبعض الأمراء، والصحيح أنه مرفوع، كما في قصة بلال المتقدمة، ولا يبعد أن ما جاء عن عمر أو غيره يكون تكرارا ً لما سبق أن جاء عن بلال مع النَّبي صلى الله عليه وسلم. وقيل فيها هل هو خاصب بالفجر أو عام في كل صلاة يكون الإمام نائماً فيها؟ والصحيح أنه خاص بالفجر وفي الأذان لا عند باب الأمير أو

الإمام. وتقدم أثر عبد الله بن عمر فيمن ثوب في أذان الظهر أنَّه اعتبره بدعة وخرج من المسجد .

كيفية أداء الأذان

يؤدي الأذان بترسل وتمهل، لأنه إعلان للبعيد ، والإقامة حدراً لأنها للحاضر القريب، أما النطق بالأذان فيكون جزماً غير معرب .

قال في المغني : ذكر أبو عبد الله بن بطة، أنه حال ترسله ودرجه أي في الأذان والإقامة. لا يصل الكلام بعضه ببعض، بل جزماً . وحكاه عن ابن الانباري عن أهل اللغة، وقال : وروي عن إبراهيم النخعي قال : شيئان مجزومان كانوا لا يعربونهما الأذان والإقامة، قال : وهذا إشارة إلى إجماعهم .

حكم الأذان والإقامة

قال ابن رشد : واختلف العلماء في حكم الأذان هل هو واجب أو سنة مؤكدة؟ وإن كان واجباً فهل هو من فروض الأعيان أو من فروض الكفاية؟ اه .

فتراه يدور حكمه بين فرض العين والسنة المؤكدة، والسبب في هذا الاختلاف، اختلافهم في وجه النظر في الغرض من الأذان هل هو من حلق الوقت للإعلام بدخوله أو من حق الصلاة، كذكر من أذكارها أو هو شعار للمسلمين يميزهم عن غيرهم؟

وسنجمل أقوال الأئمة رحمهم الله مع الإشارة إلى مأخذ كل منهم ثم بيان الراجح إن شاء

الله .

أولاً : اتفق الشافعي وأبو حنيفة على أنه سنة على ما رجحه النووي عن الشافعي في المجموع أنه سنة في حق الجميع المنفرد والجماعة في الحضر وفي السفر ، أي أنه لا تتعلق به صحة الصلاة .

(297/764)

وحكي عنه أنه فرض كفاية أي للجماعة أو للجمعة خاصة ، والدليل لهم في ذلك حديث المسيء صلاته ، لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم علمه معها الوضوء واستقبال القبلة ، ولم يعلمه أمر الأذان ولا الإقامة .

ثانياً : مالك جاء عنه أنه فرض على المساجد التي للجماعة وليس على المنفرد فرضاً ولا سنة .

وعنه : أنه سنة مؤكدة على مساجد الجماعة ، ففرق مالك بين المنفرد ومساجد الجماعة . وفي متن خليل عندهم أنه سنة لجماعة تطلب غيرها في فرض وقتي ، ولو جمعة أي وما عدا ذلك فليس بسنة . فلم يجعله على المنفرد ألا . واختلف القول عنه في مساجد الجماعة ما بين الفرض والسنة المؤكدة ، واستدل بحديث ابن عمر رضي الله عنه . كان لا

يزيد على الإقامة في السفر إلا في الصبح ، وكان يقول إنما الأذان للإمام الذي يجتمع له الناس . رواه مالك .

وكذلك أثر ابن مسعود وعلقمة : صلوا بغير أذان ولا إقامة قال سفيان ، كفتهم إقامة المصر ، وقال ابن مسعود : إقامة المصر تكفي ، رواهما الطبراني في الكبير بلين .

ثالثاً : وعند الحنابلة : قال الخرقي : هو سنة أي كالشافعي وأبي حنيفة ، وغير الخرقي قال كقول مالك .

رابعاً : عند الظاهرية فرض على الأعيان ، ويستدلون بحديث مالك بن الحويرث وصاحبه ، قال لهما صلى الله عليه وسلم : "إذا كنتما في سفر فأذنا وأقيما وليؤمكما أكبركما " متفق عليه .

فحملوا الأمر على الوجوب .

هذا موجز أقوال الأئمة رحمهم الله مع الإشارة إلى أدلتهم في الجملة وحكمه كما رأيت دائر بين السنة عموماً عند الشافعي وأبي حنيفة ، والوجوب عند الظاهرية .

والسنة المؤكدة أو فرض الكفاية عند مالك وغيره على تفصيل في ذلك .

وقد رأيت النصوص عند الجميع ، ولكن من أسباب الخلافة في حكم الأذان هو تردد النظر فيه هل هو في حق الوقت للإعلام بدخول الوقت ، أو هو حق الصلاة نفسها ، أو هو شعار للمسلمين ؟

فعلى أنه من حق الوقت ، فأذان واحد ، فإنه يحصل به الإعلام ويكفي عن غيره ، ولا يؤذن من فاته أول الوقت ، ولا من يصلي في مسجد قد صليت فيه الفريقة أولاً ولا للفوائت .

وإن كان من حق الصلاة فهل هو شرط في صحتها أو سنة مستقلة .

وعلى أنه للوقت للإعلام به ، فإنه يعارضه حديث قصة تعريسهم آخر الليل ، ولم يوقظهم إلا حر الشمس ، وأمره صلى الله عليه وسلم بالانتقال عن ذلك الوادي ثم نزولهم والأمر بالأذان والإقامة ، فلا معنى لكونه للوقت في هذا الحديث ، وهو من رواية مالك في الموطأ .

وعلى أنه للصلاة فله جهتان :

الأولى : إذا كان المصلي منفرداً ولا يطلب من يصلي معه .

والثانية : أنه إذا كانوا جماعة .

فإذا كان منفرداً لا يطلب من يصلي معه ، فلا ينبغي أن يختلف في كونه ليس شرطاً في صحة الصلاة ، وليس واجباً عليه لأن الأذان للإعلام ، وليس هناك من يقصد إعلامه .

ولحديث المسيء صلاته المتقدم ذكره ، وقد يدل لذلك ظاهر نصوص القرآن في بيان شروط الصلاة التي هي : الطهارة ، والوقت ، وستر العورة ، واستقبال القبلة .

ففي الطهارة قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا وُجُوهَكُمْ ﴾ [المائدة : 6] الآية .

وفي الوقت قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار وَزُلَفاً مِّنَ الليل ﴾ [هود : 114] الآية ونحوها .

وفي العورة قال تعالى : ﴿ يا بني آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : 31] الآية .

وفي القبلة قال تعالى : ﴿ قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السمآء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 144] .

وأما في الأذان : فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصلاة اتخذوها هُزُواً وَلَعِباً ﴾ [المائدة : 58] .

(299/764)

وقال في سورة الجمعة في هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ وكلاهما حكاية وقال واقع ، وليس فيهما صيغة أمر كغير الأذان مما تقدم ذكره .

أما حديث ابن الحويرث فهو في خصوص جماعة ، وليس في شخص واحد كما هو نص

الحديث .

وبقي النظر فيه في حق الجماعة ، هل هو على الوجوب في حقهم أم على الندب ؟ وإذا كان بالنصوص القرآنية المتقدمة أنه ليس شرطاً لصحة صلاة الفرد ، فليس هو إذاً بشرط في صحة صلاة الجماعة فيجعل الأمر فيه على الندب .

وعليه حديث ابن صعصعة أن أبا سعيد قال له : " أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت للصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة ، سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم " . رواه البخاري ومالك في الموطإ والنسائي .

ومحل الشاهد فيه قوله رضي الله عنه : فأذنت للصلاة فارفع صوتك . فيفهم منه أ ، ه إن لم يؤذن فلا شيء عليه ، وأنه يراد به الحث على رفع الصوت لمن يؤذن ولو كان في البادية ، لما يترتب عليه من هذا الأجر .

أما كونه شعاراً للمسلمين فينبغي أن يكون وجوبه متعلقاً بالمساجد في الحضر ، فيلزم أهلها ، كما قال مالك والشافعي في حق المساجد .

قال الشافعي : يقاتلون لعيه إن تركوه ، ذكر النووي في المجموع لدليل الإغارة في الصبح أو الترك بسبب سماعه ، وكذلك يتعلق في السفر بالإمام ، وينبغي أن يحرص عليه لفعله صلى

الله عليه وسلم في كل أسفاره في غزواته وفي حجه كما هو معلوم ، وما عدا ذلك فهو لا شك سنة لا ينبغي تركها .

(300/764)

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تقسيم نحو هذا في المجموع في الجزء الثاني والعشرين : وللأذان عدة جوانب تبع لذلك محنها في حالة الجمع بين الصلاتين ، فقد جاءت السنة بالأذان والإقامة للأولى منهما ، والاكتفاء بالإقامة للثانية ، كما في الجمع بين الظهر والعصر بعرفة ، والمغرب والعشاء في المزدلفة على الصحيح ، وهو من أدلة عدم الوجوب لكل صلاة .

ومنها أن لا أذان على النساء أي لا وجوب . وإن أردن الفضيلة أتين به سراً ، وقد عقد له البيهقي باباً قال فيه : ليس على النساء أذان ولا إقامة ، وساق فيه عن عبد الله بن عمر موقوفاً ، قال : ليس على النساء أذان ولا إقامة ، ثم ساق عن أسماء رضي الله عنها مرفوعاً : " ليس على النساء أذان ولا إقامة ولا جمعة ولا اغتسال جمعة ، ولا تقدمهن امرأة ، ولكن تقوم في وسطهن " هكذا رواه الحكم ابن عبد الله الأيلي وهو ضعيف ، وقال : ورويناه في الأذان والإقامة عن أنس بن مالك موقوفاً ومرفوعاً ، ورفعه ضعيف وهو قول

الحسن وابن المسيب وابن سيرين والنخعي .

تعدد المؤذنين

لصلاة الجمعة ولبقية الصلوات الخمس في المسجد الواحد

أولاً : ما يتعلق بالجمعة ، صور التعدد لها فيه صورتان ، صورة تعدد الأذان أي قبل الوقت وبعد الوقت ، وضورة تعدد المؤذنين بعد الوقت على ما سياتي في ذلك إن شاء الله ، أما تعدد الأذان فقد بوَّب له البخاري رحمه الله في صحيحه في باب الجمعة قال : باب الأذان يوم الجمعة ، وساق حديث السائب بن يزيد ، قال : كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فلما كان عثمان رضي الله عنه وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزَّوراء ففيه الأذان أولاً للوقت كبقية الصلوات ، وفيه أذان قبل الوقت زاده عثمان لما كثر الناس ، وهو المعنى الثالث ، والاثنان الآخران هما الأذان للوقت ، والإقامة الموجودان من قبل .

وذكر ابن حجر رحمه الله في الشرح ، تنبيهاً قال فيه : ورد ما يخالف ذلك الخبر بأن عمر رضي الله عنه هو الذي زاد الأذان .

ففي تفسير جويبر عن الضحاك عن زيادة الراوي عن برد بن سنان عن مكحول عن معاذ أن عمر أمر مؤذنيه أن يؤذنا للناس الجمعة خارجاً من المسجد حتى يسمع الناس، وأمر أن يؤذن بين يديه، كما كان في عهد النّبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر. ثم قال عمر نحن ابتدعناه لكثرة المسلمين اه.

ثم ناقش ابن حجر هذا الأثر وقال: إنه منقطع ثم ذكر أنه وجد له ما يقويه إلى آخر كلامه.

فهذا دليل على تعدد الأذان للجمعة قبل الوقت وعند دخوله، سواء من عمر أو من عثمان أو منهما معاص، رضوان الله عليهما.

أما مكان هذا الأذان وزمانه، فإن المكان قد جاء النص أنه كان على الزوراء.

وقد كثر الكلام في تحديد الزوراء مع اتفاقهم أنها مكان بالسوق، هذا يتفق مع الغرض من مشروعيته لتنبيه أهل السوق بوقت الجمعة للسعي إليها.

أما الزوراء بعينها فقال علماء تاريخ المدينة إنه اسم للسوق نفسها، وقيل: مكان منها مرتفع كان عند أحجار الزيت، وعند قبر مالك بن سنان، وعند سوق العباءة.

والشيء الثابت الذي لم يقبل التغير ، هو قبل مالك بن سنان ، لكن يقولون عنده ، وليس في مكانه ، وقد بدا لي أن الزوراء هو مكان المسجد الذي يوجد الآن بالسوق في مقابلة الباب المصري المعروف بمسجد فاطمة ، ويبدو لي أن الزوراء حرفت إلى الزهراء ، والزهراء عند الناس يساوي فاطمة لكثرة قولهم : فاطمة الزهراء ، ومعلوم قطعاً أن فاطمة الزهراء رضي الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن لها مسجد في هذا المكان ، فلا صحة لنسبة هذا المسجد إليها ، بل ولا ما نسب لأبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم من مساجد في جوانب مسجد المصلى المعروف الآن بمسجد الغمامة . وإنما صحة ما نسب إليهم رضوان الله تعالى عليهم هو أن تلك الأماكن كانت مواقفهم في مصلى العيد ، ولهذا تراها كلها في هذا المكان المتواجدة فيه .

فأولهم أبو بكر رضي الله عنه ، وقد أخر موقفه عن موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى العيد تأدباً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء من بعده ، واختلفت أماكن مصلاهم فأقيمت تلك المساجد في أماكن قيامهم .

أما ما ينسب إلى فاطمة الزهراء فلا مناسبة له ولا صحة له ، وقد قال بعض المتأخرين : إنه منسوب إلى إحدى الفضليات من نساء العصور المتأخرة ، واسمها فاطمة ، وعليه فلعلها قد جددته ولم تؤسسه لأنه لا موجب أيضاً لتبرعها بإنشاء مسجد بهذا القرب من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبمناسبة العمل بالقضاء فقد عرض على صك شرط وقف للأشراف الشراقمة بالمدينة المنورة ، وفي بعض تحديد أعيانه يقول : الواقع في طريق الزوراء ، ويحده جنوباً وقف الحلبي ، ووقف الحلبي موجود حتى الآن معروف يقع عن المسجد الموجود بالفعل في الجنوب الشرقي وليس بينه وبين المسجد المذكور إلا السور . والشارع فقط ، وتاريخ هذا الصك قبل مائة سنة من تاريخ كتابة هذه الأحرف أي قبل عام ألف ومائتين من الهجرة .

(303/764)

وبهذا ترجح عندي أن موضع أذان عثمان رضي الله عنه كان بذلك المكان ، وأنه المتوسط بسوق المدينة ، وتقدر مسافته عن المسجد النبوي بحوالي مائتين وخمسين متراً تقريباً .

وقد كان الأذان الأول زمن النّبي صلى الله عليه وسلم على المنارة ، وهكذا الأذان للوقت زمن الخلفاء الراشدين ، ثم من بعدهم . أما هذا الأذان فكان ابتداؤه من الزوراء ، ثم نقل إلى باب المسجد ، ثم نقل إلى ما بين يدي الإمام ، وذلك زمن هشام بن عبد الملك ، ثم نقل إلى المنارة .

أما زمانه فلم أقف على تحديد صحيح صريح ، كم كان بينه وبين الثاني ؟ وهل كان بعد

دخول الوقت أو قبله .

وقد ذكر ابن حجر في الفتح رواية عن الطبراني ما نصه : فأمر بالنداء الأول على دار له يقال لها الزوراء ، فكان يؤذن عليها ، فإذا جلس على المنبر أذن مؤذنه الأول ، فإذا نزل أقام الصلاة ، وفي رواية له من هذا الوجه ، فأذن بالزوراء قبل خروجه ليعلم الناس أن الجمعة قد حضرت ، إلى أن قال : وتبين بما مضى أن عثمان أحدثه لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة قياساً على بقية الصلوات ، فألحق الجمعة بها ، وأبقى خصوصيتها بالأذان بين يدي الخطيب .

فتراه يرجح كونه بعد دخول الوقت وعند خروج عثمان أي من بيته وكان يسكن إلى تلك الجهة ، ولكن هذا لا يتمشى مع الغرض من إيجاد هذا الإذان ، لأنه لما كثر الناس جعله في السوق لإعلامهم ، فإذا كان بعد الوقت ، فأي فائدة منه ، وكيف يعد ثالثاً ، إنه يكون من تعدد المؤذنين لا من تعدد الأذان .

ثم إن مسكن عثمان رضي الله عنه كان بجوار مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحله معروف حتى الآن ، وكان يعرف برباط عثمان . فكيف يجعل هذا الأذان عند خروجه مع بعد ما بين الزوراء ومكان سكناه .

ثم إن من المتفق عليه أن الأذان بين يدي الإمام هو الأذان الذي بعد دخول الوقت ، وتصح الصلاة بعده ، فالأذان الثالث كالأول بالنسبة للصبح ، وبهذا يترجح أنه كان قبل الوقت لا بعده ، كالأول للصبح ليتحقق الغرض منه ، وعليه ينبغي أن يراعي في زمنه ما بينه وبين الثاني وما يتحقق به الغرض من رجوع أهل السوق وتهيئتهم للجمعة وهذا يختلف باختلاف الأماكن والبلاد ، وسواء كان قبل الوقت أو بعده ، فلابد من زمن بينهما يتمكن فيه أهل السوق من الحضور إلى المسجد وإدراك الخطبة .

ولو أخذنا بعين الاعتبار ما وقع لعثمان نفسه زمن عمر رضي الله عنه لما دخل المسجد وعمر يخطب فعاتبه على التأخير ، ثم أحدث عثمان هذا الأذان في عهده لوجدنا قرينة تقديمه عن الوقت لئلا يقع غيره فيما يقع هو فيه ، والله تعالى أعلم .

وسيأتي نص ابن الحاج على أنه قبل الوقت .

وهذا آخر ما يتعلق بتعدد الأذان يوم الجمعة ، وسيأتي التنبيه على ما يوجد من نداءات أخرى يوم الجمعة في بعض الأمصار عند الكلام على ما استحدث في الأذن وابتدع فيه ، مما ليس منه إن شاء الله .

أما تعدد المؤذنين يوم الجمعة

فقد جاء صريحاً في صحيح البخاري في باب رجم الحبلى من الزنا في حديث طويل عن ابن

عباس زمن عمر رضي الله عنه ، وفيه : ما نصه : " فجلس عمر على المنبر ولما سكت المؤذنون قام فأثنى على الله بما هو أهله إلى آخر " الحديث .

فهذا نص صريح من البخاري أنه كان لعمر مؤذنون ، وكانوا يؤذنون حين يجلس على المنبر ، وكان يجلس إلى أن يفرغوا من الأذان ، ثم يقوم فيخطب أي كان أذانهم كلهم بعد دخول الوقت .

قال ابن الحاج في المدخل ، وكانوا ثلاثة يؤذنون واحداً بعد واحد ، ثم زاد عثمان أذاناً آخر بالزوراء قبل الوقت ، فتحصل من هذا وجود تعدد المؤذنين لصلاة الجمعة ، وكانوا زمن عمر ثلاثة وكانوا يؤذنون متفرقين واحداً بعد واحد .

(305/764)

وقد ذكر ابن حجر في الفتح أيضاً ضمن كلامه على الحديث المتقدم تحت عنوان " المؤذن الواحد يوم الجمعة " رواية عن ابن حبيب أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رقي المنبر وجلس أذن المؤذنون وكانوا ثلاثة واحداً بعد واحد ، فإذا فرغ الثالث قام فخطب .

ثم قال : فإنه دعوى تحتاج إلى دليل ، ولم يرد ذلك صريحاً من طريق متصلة يثبت مثلها .

ثم قال : ثم وجدته في مختصر البويطي عن الشافعي ، وفي تعليق لسماحة رئيس الجامعة في

الحاشية على ذلك قال في مخطوطة الرياض في مختصر المزني : وسواء كان في مختصر البويطي أو الزني فإن عزوه إلى الشافعي صحيح وابن حجر لم يعلق على وجود هذا الأثر بشيء .

وقال النووي في المجموع : قال الشافعي رحمه الله في البويطي : والنداء يوم الجمعة هو الذي يكون والإمام على المنبر ، يكون المؤذنون يستفتحون الأذان فوق المنارة جملة حين يجلس الإمام على المنبر ليسمع الناس ، فيأتون إلى المسجد ، فإذا فرغوا خطب الإمام بهم . فهذا أيضاً نص الشافعي ينقله النووي على تعدد المؤذنين يوم الجمعة فوق المنارة جملة . والإمام على المنبر ، وبهذا تظهير مشروعية تعدد الأذان للجمعة ، قبل وبعد الوقت من عمل الخلفاء الراشدين ، وفي توفر الصحابة المرضيين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين مما يصلح أن يقال فيه إجماع سكوتي في وفرة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، كما ثبتت مشروعية تعدد الأذان بعد الوقت من فعل الخلفاء أيضاً وإجماع الصحابة عليه مع أثر فيه نقاش مرفوع إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم .

أما ما يتعلق بالأذان لبقية الصوات الخمس فكالآتي :

أولاً : تعدد الأذان ، فقد ثبت في حديث بلال وابن أم مكتوم في قوله صلى الله عليه وسلم : " إن بلالاً ينادي بليل ، فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أم مكتوم " متفق عليه ، وهذا في صلاة الفجر فقط لما في الحديث من القرائن المتعددة التي منها : ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أم مكتوم ، أي إن أذان بلال قبل الفجر يحل الطعام وأذان ابن أم مكتوم بعد دخول الوقت حين يحرم الطعام على الصائم .

وفي رواية : " لم يكن ابن مكتوم يؤذن حتى يقال له أصبحت أصبحت " وكان بينما من الزمن ، ففي بعض الروايات أنه " لم يكن بينهما إلا أن ينزل هذا ويرقى هذا " . رواه مسلم .

وفي رواية للجماعة عن ابن مسعود قال صلى الله عليه وسلم : " لا يمنعن أحدكم أذان بلال من سحوره ، فإنه يؤذن "

- أو قال : " ينادي بليل ليرجع قائمكم ويوقظ نائمكم "

قال الشوكاني : يريد القائم المتهجد إلى راحته ليقوم إلى صلاة الصبح نشيطاً أو يتسحر ، إن كان له حاجة إلى الصيام ، ويوقظ النائم ليتأهب للصلاة بالغسل والوضوء ، فالأول يشعر بتواليهما مع فرق يسير ، والآخر يدل بالفرق بينهما ، وكلاهما صحيح السند .

وقد فسر هذا النووي في شرح مسلم ونقله عن الشوكاني في نيل الأوطار بقوله : قال العلماء معناه : إن بالاً كان يؤذن قبل الفجر ، ويتربص بعد أذانه للدعاء ونحوه ، ثم يرقب الفجر ، فإذا قارب طلوعه نزل فأخبر ابن أم مكتوم فيتأهب ابن أم مكتوم بالطهارة وغيرها ، ثم يرقى

ويشرع في الأذان مع طلوع الفجر ، وهذا يتفق مع قوله صلى الله عليه وسلم " ليرجع قائمكم ويوقظ نائمكم " إلى آخره ، ويصدقه ما جاء في الأثر أيضاً عن ابن مكتوم وكان رجلاً أعمى فلا يؤذن حتى يقال له : أصبحت أصبحت ، وهذا الأذان الأول للفجر هو مذهب الجمهور ما عدا الإمام أبا حنيفة رحمه الله من الأئمة الأربعة ، وحمل أذان بلال على النداء بغير ألفاظ الأذان .

قال الشوكاني : وعند الأحناف أن أبا حنيفة رحمه الله لما أذن بلال قبل الوقت أمره النَّبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع فيقول : إلا أن العبد قد نام ، وهذا الأثر رواه الترمذي وقال حديث غير محفوظ .

وفي فتح القدير للأحناف ، ما نصه : ولا يؤذن لصلاة قبل دخول وقتها ، ويعاد في الوقت .

وقال أبو يوسف : يجوز للفجر في النصف الأخير من الليل ، قال في الشرح : وهو قول الشافعي ، وقال : لتوارث أهل الحرمين ، فيكون أبو يوسف صاحب أبي حنيفة رحمهما الله قد وافق الجمهور في مشروعية الأذان قبل الفجر قبل الوقت ، وإن ما استدل به أن أبو حنيفة ليس بمحفوظ ، وقد جوزه أبو يوسف في النصف الأخير من الليل .

وجاء نص المالكية أنه في السدس الأخير ، قال في مختصر خليل : غير مقدم على الوقت إلا الصبح فيسدس الليل الأخير .

وعند الحنابلة في المعنى ما نصه : قال أصحابنا : ويجوز الأذان للفجر بعد نصف الليل ، وهذا مذهب الشافعي إلى قوله :

وقد روى الأثرم عن جابر قال : كان مؤذن مسجد دمشق يؤذن لصلاة الصبح في السحر بقدر ما يسير الراكب ستة أميال فلا ينكر ذلك مكحول ولا يقول فيه شيئاً اه .

تنبيه

قال في المغني : وقال طائفة من أهل الحديث إذا كان مؤذنا يؤذن أحدهما قبل طلوع الفجر والآخر بعده ، فلا بأس أي ليعرف الأول منهما من الثاني ويلتزما بذلك ليعلم الناس الفرق بين الأذانين كما كان زمن النبي صلى الله عليه وسلم انتهى ملخصاً .

أما تعدد المؤذنين لبقية الأوقات الخمسة فكالآتي :

أولاً : فإن الأصل في ذلك عند العلماء هو حديث بلال وابن أم مكتوم المتقدم ذكره في صلاة الفجر ، ثم قاسوا عليه للحاجة بقية الصلوات ، كما استأنسوا لزيادة عمر وعثمان في الجمعة للجماعة لزيادة الإعلام كما تقدم .

ثانياً : نسوق موجز الأقوال في ذلك عند الشافعية :

قال النووي في شرح مسلم : باب استحباب اتخاذ مؤذنين للمسجد الواحد ، وساق كلامه على حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنان : بلال وابن أم مكتوم .

ثم قال ما نصه : وفي الحديث استحباب مؤذنين للمسجد الواحد ، يؤذن أحدهما قبل الفجر والآخر عند طلوعه .

قال أصحابنا : فإذا احتاج إلى أكثر من مؤذنين اتخذ ثلاثة ، وأربعة فأكثر بحسب الحاجة .

وقد اتخذ عثمان رضي الله عنه أربعة للحاجة عند كثرة الناس .

قال أصحابنا : وإذا ترتب للأذان اثنان فصاعداً ، فالمستحب ألا يؤذنون دفعة واحدة ، بل إن اتسع الوقت ترتبوا فيه ، فإن تنازعوا في الابتداء أقرع بينهم ، وإن ضاق الوقت ، فإن كان المسجد كبيراً أذنوا متفرقين في أقطاره ، وإن كان ضيقاً وقفوا معاً وأذنوا ، وهذا إذا لم يؤد اختلاف الأصوات إلى تشويش ، فإن أدى إلى ذلك لم يؤذن إلا واحد اه .

فهذا نص النووي على قول أصحابه أي الشافعية في المسألة ساقه في شرح مسلم ، وقال في المجموع شرح المهذب على نص المتن إذ قال : الماتن : والمستحب أن يكون المؤذن للجماعة اثنين . وذكر حديث بلال وابن أم مكتوم ، فإن احتاج إلى الزيادة جعلهم أربعة ، لأنه كان لعثمان أربعة ، والمستحب أن يؤذن واحد بعد واحد ، لأن ذلك أبلغ في الإعلام .

قال النووي في الشرح : قال أبو علي الطبري : تجوز الزيادة إلى أربعة ، ثم ناقش المسألة مع من خالفه في العدد : ثم قال : العبرة بالمصلحة ، فكما زاد عثمان إلى أربعة للمصلحة جاز لغيره الزيادة .

وذكر عن صاحب الحاوي إلى ثمانية ، ثم قال : فرع . وساق فيه ما نصه :

فإن كان للمسجد مؤذنان أذن واحد بعد واحد ، كما كان بلال وابن أم مكتوم ، فإن تنازعا وفي الابتداء أقرع بينهم ، فإن ضاق الوقت والمسجد كبير أذنوا في أقطاره كل واحد في قطر ليسمع أهل تلك الناحية ، وإن كان صغيراً أذنوا معاً وإذا لم يؤد إلى تهويش .

(309/764)

قال صاحب الحاوي وغيره : ويقفون جميعاً عليه كلمة كلمة فإن أدى إلى تهويش أذان واحد . إلخ .

وفي صحيح البخاري ، باب من قال : ليؤذن في السفر مؤذن واحد ، وساق بسنده عن مالك بن الحويرث " أتيت النَّبي صلى الله عليه وسلم في نفر من قومي ، فأقمنا عنده عشرين ليلة وكان رحيماً ورفيقاً ، فلما رأى شوقنا إلى أهلينا ، قال : " ارجعوا فكونوا فيهم وعلموهم وصلوا إذا حضرت الصلاة ، فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم "

قال في الفتح أثناء الشرح : وعلى هذا فلا مفهوم لقوله : مؤذن واحد في السفر : لأن الحضر أيضاً لا يؤذن فيه إلا واحد ، ولو احتيج إلى تعددهم لتباعد أقطار البلد أذن كل واحد في جهة ولا يؤذنون جميعاً .

وقد قيل : إن أول من أحدث التأذين جميعاً بنو أمية .

وقال الشافعي في الأم : وأحب أن يؤذن مؤذن بعد مؤذن ، ولا يؤذنون جميعاً ، وإن كان مسجد كبير فلا بأس أن يؤذن في كل جهة منه ، مؤذن ، يسمع من يليه في وقت واحد اه .

وهذا الذي حكاه الشارح عن الشافعي موجود في الأم ، ولكن بلفظ فلا بأس أن يؤذن في كل منارة له مؤذن فيسمع من يليه في وقت واحد اه .

وهذا القدر كاف لبيان قول الشافعي وأصحابه ، من أن التعدد جائز بحسب المصلحة .

وعند مالك جاء في الموطأ حديث بلال وابن أم مكتوم أيضاً .

وقال الباجي في شرحه : ويدل هذا الحديث على جواز اتخاذ مؤذنين في مسجد يؤذنان ، لصلاة واحدة .

وروى علي بن زياد عن مالك : لا بأس أن يؤذن للقوم في السفر والحرس والمركب ثلاثة مؤذنين وأربعة ، ولا بأس أن يتخذ في المسجد أربعة مؤذنين وخمسة .

قال ابن حبيب : ولا بأس فيما اتسع وقته من الصلوات ، كالصبح والظهر والعشاء ، أن يؤذن خمسة إلى عشرة واحد بعد واحد ، وفي العصر من ثلاثة إلى خمسة ، ولا يؤذن في

المغرب إلا واحد .

فهذا نص مالك والمالكية في جواز تعدد الأذان في المسجد الواحد ، يؤذنون واحداً بعد واحد .

(310/764)

وفي متن خليل ما نصه : وتعدده وترتيبهم إلا المغرب ، وجمعهم كل على أذان .

وذكر الشارح الخرشي من خمسة إلى عشرة في الصبح والظهر والعشاء ، وفي العصر من ثلاثة إلى خمسة ، وفي المغرب واحد أو جماعة . إلخ .

وعند الحنابلة قال في المغني : " فصل " ولا يستحب الزيادة على مؤذنين لحديث بلال وابن أم مكتوم أيضاً ، ثم قال : إلا أن تدعو الحاجة إلى الزيادة عليهما فيجوز

فقد روي عن عثمان رضي الله عنه ، أنه كان له أربعة مؤذنين . وإن دعت الحاجة إلى أكثر منهم كان مشروعاً ، وإذا كان أكثر من واحد وكان الواحد يسمع الناس ، فالمستحب أن يؤذن واحد بعد واحد ، لأن مؤذني النَّبي صلى الله عليه وسلم كان أحدهما يؤذن بعد الآخر ، وإن كان الإعلام لا يحصل بواحد أذنوا على حسب ما يحتاج إليه ، وأما أن يؤذن كل واحد في منارة أو ناحية أو دفعة واحدة في موضع واحد .

قال أحمد : إن أذن عدة في منارة فلا بأس ، وإن خافوا من تأذين واحد بعد واحد فوات أول الوقت ، أذنوا جميعاً دفعة واحدة .

وعند الأحناف : جاء في فتح القدير شرح الهداية في سياق إجابة المؤذن وحكاية الأذان ما نصه :

إذا كان في المسجد أكثر من مؤذن أذنوا واحداً بعد واحد ، فالحرمة للأول إلى أن قال : فإذا فرض أن سمعوه من غير مسجده تحقق في حقه السبب ، فيصير كتعددهم في المسجد الواحد ، فإن سمعهم معاً أجابة معتبراً كون جوابه لمؤذن مسجده ، هذا نصوص الأئمة رحمه الله في جواز تعدد المؤذنين والأذان في المسجد .

الواحد للصلاة الواحدة متفرقين أو مجتمعين .

وقال ابن حزم : ولا يجوز أن يؤذن إثنان فصاعداً معاً ، فإن كان ذلك فالمؤذن هو المبتدئ إلى أن قال :

وجائز أن يؤذن جماعة واحداً بعد واحد للمغرب وغيرهما سواء في كل ذلك ، فلم يمنع تعدد الأذان من عدة مؤذنين في المسجد الواحد أحد من سلف الأمة .

الحكمة في الأذان

أما الحكمة في الأذان فإن أعظمها أن من خصائص هذه الأمة كما تقدم في أصل مشروعيته ، وقد اشتمل على أصول عقائد التوحيد تعلن على الملأ ، تملأ الأسماع حتى صار شعار المسلمين .

ونقل عن القاضي عياض رحمه الله قوله :

اعلم أن الأذان كلام جامع لعقية الإيمان مشتمل على نوعه من العقليات والسمعيات ، فأوله : إثبات لاذات وما تستحقه من الكمالات والتنزيه عن أضدادهما وذلك بقوله " الله أكبر " وهذه اللفظة مع اختصار لفظها دالة على ما ذكرناه .

ثم يصرح بإثبات الوحدانية ونفي ضدها من الشركة المستحيلة في حقه سبحانه وتعالى ، وهذه عمدة الإيمان والتوحيد المقدمة على كل وظائف الدين ، ثم يصرح بإثبات النبوة والشهادة بالرسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي قاعدة عظيمة بعد الشهادة بالوحدانية ، وموضعها بعد التوحيد لأنها من باب الأفعال الجائزة الوقوع ، وتلك المقدمة من باب الواجبات وبعد هذه القواعد كلمات العقائد العقليات ، فدعا إلى الصلاة وجعلها عقب إثبات النبوة ، لأن معرفة وجوبها من جهة النَّبي صلى الله عليه وسلم ، لا من جهة العقل .

ثم دعا إلى الفلاح وهو الفوز والبقاء في النعيم المقيم ، وفيه إشعار بأمور الآخرة من البعث

والجزاء وهي آخر تراجم عقائد الإسلام. إلخ.

ومراده بالعقليات في العقائد أي إثبات وجود الله وأنه واحد لا شريك له، وهو المعروف عندهم بقانون الإلزام، الذي يقال فيه إن الموجود إما جائز الوجود أو واجبه، فجائز الوجود جائز العدم قبل وجوده واستوى الوجود والبقاء في العدم قبل أن يوجد، فترجح وجوده على بقائه في العدم. وهذا الترجيح لا بد له من مرجح وهو الله تعالى. وواجب الوجود لم يحتج إلى موجد. ولم يجز في صفة عدم وإلا لاحتاج موجده إلى موجد، ومرجح وجوده على موجود.

وهكذا فاقتضى الإلزام العقلي وجوب وجود موجد واجب الوجود، وهذا من حيث الوجود فقط، وقد أدخل العقل في بعض الصفات التي يستلزمها الوجود، والحق أن العقل لا دخل له في العقائد من حيث الإثبات أو النفي، لأنها سمعية ولا تؤخذ إلى عن الشارع الحكيم، لأن العقل يقصر عن ذلك، ومرادنا التنبيه على إدخال العقليات هنا فقط.

وقد سقنا كلام القاضي عياض هذا في حكمة الأذان لوجاهته، ولتعلم من خصوصية الأذان في هذه الأمة وغيرها به أنه ليس بصلصلة ناقوس أجوف، ولا أصوات بوق أهوج،

ولا دقات طبل أرعن ، كما هو الحال عند الآخرين ، بل هو كلمات ونداء يوقظ القلوب من سباتها ، وتفيق النفوس من غفلتها ، وتكف الأذهان عن تشاغلها ، وتهيئ المسلم إلى هذه الفريضة العظمى ، ثانية أركان الإسلام وعموده .

فإذا ما سمع الله أكبر الله أكبر مرتين ، عظم الله في نفسه ، واستحضر جلاله وقدسه واستصغر كل شيء بعد الله ، فلا يشغله شيء عن ذكر الله ، لأن الله أكبر من كل شيء ، فلا يشغل نفسه عنه أي شيء .

فإذا سمع أشهد أن لا إله إلا الله ، علم أن من حقه عليه طاعة الله وعبادته .

وإذا سمع : أشهد أن محمداً رسول الله ، علم أنه يلزمه استجابة داعي الله .

وإذا سمع حي على الصلاة حي على الفلاح ، علم أن فلاحه في صلاته في وقتها لا فيما يشغله عنها .

وهكذا فكان ممشاه إليها تخشعاً ، وخطاه إلى المسجد تطوعاً مع حضور القلب واستجماع الشعور .

ومن هنا أيضاً ندرك السر في طلب السامع محاكاة الأذان تبعاً للمؤذن ليرتبط معه في إعلانه وعقيدته وشعوره ، كما جاء في أثر عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله إن المؤذنين يفضلوننا ، فقال رسول الله صل الله عليه وسلم : " قل مثل ما يقولون ، فإذا انتهيت فاسأل تعطه " رواه أبو داود .

وقد قدمنا هذا الموضع هنا ، وإن كان ليس من منهج الكتاب ، ولكن لموجب اقتضاء ، ولمناسبة مبحث الأذان .

(313/764)

أما الموجب فهو أني سمعت منذ أيام أثناء الكتابة في مباحث الأذان ، وسمعت من إذاعة لبلد عربي مسلم أن كاتباً استنكر الأذان في الصبح خاصة ، وفي بقية الأقوات بواسطة المكبر للصوت ، وقال إنه يرهق الأعصاب وخاصة عند أداء الناس لأعمالهم أو عند الفراغ منها والعودة لراحتهم ، ولا سيما في الفجر عند نومهم ، فكان وقعه أليماً أن يصدر ذلك وينشر ، ولكن أجاب عليه أحد خطباء الجمع في خطبة وافية ، وأفهمه أن الإرهاق والأضطراب إنما هو من عدم الاستجابة لهذا النداء ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر أن الشطيان يبول في أذان النائم ، وأنه يعقد عليه ثلاث عقد . فإذا ما استيقظ وذكر الله انحلت عقدة ، وإذا توضأ انحلت عقدة أخرى ، فإذا صلى انحلت العقدة الثالثة ، وأصبح نشيطاً إلى غير ذلك من الرد الكافي .

ولا شك أن مثل تلك الكتابة لا تصدر إلا ممَّن لا يعي معنى الأذان .

هذا ما استوجب عرض الحكمة من الأذان ، وإن كانت مجانبة لمنهج الكتاب ، ولكن

بمناسبة مباحث الأذان يغتفر ذلك ، وبالله التوفيق .

محاكاة المؤذن

تعتبر محاكاة المؤذن ربطاً لسامع الأذان ، وتنبيهاً له لموضوعه ، جاء الحديث : " إذا سمعتم المؤمذن فقولوا مثل ما يقول " رواه البخاري .

وفي رواية عنده عن معاوية رضي الله عنه أنه قال – أي معاوية – : وهو على المنبر مثل قول المؤذن إلى قوله : أشهد أن محمداً رسول الله ، ولما قال المؤذن " حي على الصلاة " قال معاوية : " لا حول ولا قوة إلا بالله " ، وكذلك " حي على الفلاح " ، ثم قال : " هكذا سمعنا نبيكم صلى الله عليه وسلم " .

وعند النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه : "كنا مع النّبي صلى الله عليه وسلم فقام بلال ينادي ، فلما سكت قال صلى الله عليه وسلم : " من قال مثل هذا يقيناً دخل الجنة "

كيفية المحاكاة ، في الحديث الأول فقولوا مثلما يقول ، وهكذا يشعر بتتبعه جملة جملة ، وفي الحديث الثاني : فلما سكت قال صلى الله عليه وسلم : " من قال مثل هذا " وبعد السكوت تنطبق المثلية بمجيء الأذان بعد فراغ المؤذن ، فوقع الاحتمال .

وقد جاء عند مسلم وأبي داود ما يؤيد الأول ، فعن عمر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قال المؤذن : الله أكبر الله أكبر ، فقال أحدكم : الله أكبر الله أكبر ، ثم قال أشهد ألا إله إلا الله ، قال : أشهد ألا إله إلا الله ، ثم قال : أشهد أن محمداً رسول الله ، قال أشهد أن محمداً رسول الله ، ثم قال : حي على الصلاة قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : حي على الفلاح ، قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : الله أكبر الله أكبر . قال : الله أكبر الله أكبر . ثم قال : لا إله إلا الله من قلبه دخل الجنة "

فهذا نص صريح في أن محاكي المؤذن يتابعه جملة جملة إلى آخره ما عدا الحيعلتين . فإنه يتي بدلاً منها بالحوقلة . وقالوا : إن الحيعلتين نداء للإقبال على المنادي . وهذا يصدق في حق المؤذن . أما الذي يحكي الأذان فلم يرفع صوته ولا يصدق عليه أن ينادي غيره فلا أجر له في نطقه بهما . فيأتي بلا حول ولا قوة إلا الله لأمرين : الأولي أنه ذكر يثاب عليه سراً وعلانية . والثاني : استشعار بأنه لا حول له عن معصية ولا قوة له على طاعة إلا بالله العلي العظيم ، وفيه استعانة بالله وحوله وقوته على إجابة هذا النداء . وأداء الصلاة مع الجماعة .

وقد أخذ الجمهور بحديث عمر عند مسلم بمحاكاة المؤذن في جميع الأذن على النحو المقدم . وعند مالك يكتفي إلى الحوقلة لحديث معاوية .

ونص كتب المالكية أنه هو المشهور في المذهب . وغير المشهور أي مقابل المشهور طلب

حكاية الأذان جميعه ، ذكره الزمخشري على خليل .

بعض الزيادات على ألفاظ الأذان

تقدم ذكر الحوقلة عند الحيعلة في بعض روايات مسلم وغيره ، عند الشهادتين يقول زيادة : " وأنا أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رضين بالله رباً ، وبمحمد رسولاً . وبالإسلام ديناً ، غفرت له ذنوبه " .

الصلاة على النَّبي صلى الله عليه وسلم وسؤال الله له الوسيلة .

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه : أنه سمع النَّبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ، ثم صلوا علي فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنَّة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجوا أن أكون هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة " وهذا عام للأذان ، في الصلوات الخمس إلا أنه جاء في المغرب والفجر بعض الزيادات ، ففي المغرب حكى النووي : أنه له أن يقول بعد النداء : " اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعائك اغفر لي " ، ويدعو بين الأذان ، والإقامة . ذكره صاحب المهذب وعزاه

لحديث أم سلمة ، وأقره النووي في المجموع .

أما في سماع أذان الفجر فيقول عند الصلاة خير من النوم : صدقت وبررت . حكاه النووي المجموع .

وإذا سمع المؤذن وهو في الصلاة ، نص العلماء على أنه لا يحكيه ، لأنه في الصلاة لشغلا ، وإذا سمعه وهو في المسجد جالس نص أحمد أنه لا يقوم حالاً للصلاة حتى يفرغ المؤذن أو يقرب .

وإذا دخل المسجد وهو يؤذن استحب له انتظاره ليفرغ ويقول مثل ما يقول جمعاً بن الفضيلتين ، وإن لم يقل كقوله وافتتح الصلاة ، فلا بأس ذكره صاحب المغني عن أحمد رحمه الله .

أجابة أكثر من مؤذن

وللعلماء مبحث فيما لو سمع أكثر من مؤذن ، قال النووي : لم أر فيه شيئاً لأصحابنا ، وفيه خلاف للسلف ، وقال حكاه القاضي عياض في شرح مسلم ، والمسألة محتملة ، ثم قال : والمختار أن يقال : المتابعة سنة متأكدة يكره تركها لتصريح الأحاديث الصحيحة بالأمر ،

وهذا يختص بالأول لأن الأمر لا يقتضي التكرار .

وذكر صاحب الفتح وقال : وقال ابن عبد السلام : يجيب كل واحد بإجابة لتعدد السبب اه .

وعند الأحناف الحق للأول .

وأصل هذه المسألة في مبحث الأصول ، هل الأمر المطلق يقتضي تكرار المأمور به أم لا ؟

وقد بحث هذا الموضع فضيلة شيخنا رحمة الله تعالى عليه في مذكرة الأصول وحاصله :

إن الأمر إما مقيد بما يقتضي التكرار أو مطلق عنه : ثم قال : والحق أن الأمر المطلق لا يقتضي التكرار بل يخرج من عهدته بمرة ، ثم فصل رحمة الله تعالى عليه القول فيما اتفق عليه وما اختلف يه ، ومنه تعدد حكاية المؤذن وبحثها بأوسع في الأضواء عن تعدد الفدية في الحج ، والواقع أن سبب الخلافة فيما اختلف فيه إنما هو من باب تحقيق المناط هل السبب المذكور مما يقتضي التعدد أم لا ؟

والأسباب في هذا الباب ثلاثة أقسام ، قسم يقتضي التكرار قطعاً ، وقسم لا يقتضيه قطعاً ، وقسم هو محل الخلاف .

فمن الأسباب المقتضية التكرار قطعاً : ما لو ولد له توأمان فإن عليه عقيقتين ، ومنها : لو ضرب حاملاً فأجهضت جنينين لوجبت عليه غرتان .

ومن الأسبا التي لا تقتضي التكرار ما لو أحدث عدة أحداث من نواقض الوضوء فأراد أن

يتوضأ فإنه لا يكرر الوضوء بعدد الأحداث ، ويكفي وضوء واحد ، وكذلك موجبات الغسيل لو تعدت قبل أن يغتسل فإنه يكفيه غسر واحد عن الجميع .

(317/764)

ومما اختلف فيه ما كان دائراً بين هذا وذاك ، كما لو ظاهر من عدة زوجات هل عليه كفارة واحدة نظراً لما أوقع من ظهار أم عليه عدة كفارات نظراً لعدد ظاهر منهن ؟ وكذلك إذا ولغ عدة كلاب في إناء هل يعفر الإناء مرة واحدة ، أم يتعدد التعفير لتعدد الولوغ من عدة كلاب ؟

ومن ذلك ما قالوه في إجابة المؤذن إذا تعدد المؤذن تعددت الأسباب ، فهل تتعدد الإجابة أم يكتفي بإجابة واحدة . تقدم قول النووي أنه لم يجد شيئاً لأصحابه ، وكلام العز بن عبد السلام بتعدد الإجابة وبالنظر الأصولي ، نجد تعدد المؤذنين ليس كتعدد نواقض الوضوء لأن المتوضئ إذا أحدث ارتفع وضوءه وليس عليه أن يتوضأ لهذا الحديث ، فإذا أحدث مرة أخرى لم يقع هذا الحدث الثاني على طهر ولم يجد حدثاً آخر .

وهكذا مهما تعددت الأحداث ، فإذا أراد الصلاة كان عليه أن يرفع حدثه فيكفي فيه وضوء واحد ، ولكن مستمع المؤذن حينما سمع المؤذن الأول فهو مطالب بمحاكاته ، فإن

فرغ منه وسمع مؤذناً آخر ، فإن من حق هذا المؤذن الآخر أن يحاكيه ، ولا علاقة لأذان هذا بذاك ، فهو من باب تجدد السبب وتعدده أو هو إليه أقرب ، كما لو سمع أذان الظهر فأجابه ثم سمع أذان العصر فلا يكفي عنه إجابة أذان الظهر ، فإن قيل : قد اختلف الوقت وجاء أذان جديد ، فيقال قد اختلف المؤذن فجاء أذان جديد .

وأقرب ما يكون لهذه المسألة مسألة الصلاة على النّبي صلى الله عليه وسلم ك عند ذكره في حديث قوله صلى الله عليه وسلم "آمين آمين" ثلاث مرات وهو يصعد المنبر ، ولما سئل عن ذلك قال : "أتاني جبريل فقال يا محمد من ذكرت عنده ولم يصل عليك باعده الله في النار فقل : آمين فقلت آمين" ، وذكر بقية المسائل فإن بهذا يتعين تكرار الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم عند كل ما يسمع ذكره صلوات الله وسلامه عليه ، وهنا عليه تكرار محاكاة المؤذن ، كما رجحه ابن عبد السلام والله تعالى أعلم .

تنبيه

وإذا سمع المؤذن وهو في صلاة فلا يقول مثل ما يقول المؤذن ، وإذا كان في قراءة أو دعاء أو ذكر خارج الصلاة ، فإنه يقطعه ويقول مثل قول المؤذن .

قاله ابن تيمية في الفتاوى وابن قدامة في المغني ، والنووي في المجموع .

تنبيه

ولا يجوز النداء للصلاة جمعة أو غيرها من الصلوات الخمس إلا بهذه الألفاظ المتقدم ذكرها ، وما عداها مما أدخله الناس لا أصل له ، كالتسبيح قبل الفجر ، والتسبيح والتحميد والتكبير يوم الجمعة بما يسمى [بالتطليع] ونحوه فكل هذا لا نص عليه ولا أصل له .

وقد نص في فتح الباري رداً على ابن المنير ، حيث جعل بعض الهيئات أو الأقوال من مكملات الإعلام ، فقال ابن حجر : وأغرب ابن المنير ولو كان ما قاله على إطلاقه لكان ما أحدث من التسبيح قبل الصبح وقبل الجمعة ، ومن الصلاة على النَّبي صلى الله عليه وسلم من جملة الأذان ، وليس كذلك لا لغة ولا شرعاً .

وفي الحاشية للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز تعليق على كلام ابن المنير بقوله هذا فيه نظر . والصواب أن ما أحدثه الناس من رفع الصوت بالتسبيح قبل الأذان والصلاة على النَّبي صلى الله عليه وسلم بعده ، كما أشار إليه الشارع بدعة يجب على ولاة الأمر إنكارها حتى لا يدخل في الأذان ما ليس منه ، وفيما شرعه الله غنية وكفاية عن المحدثات فتنبه .

وقال في الفتح أيضاً ما نصه : وما أحدث الناس قبل وقت الجمعة من الدعاء إليها بالذكر والصلاة على النَّبي صلى الله عليه وسلم فهو في بعض البلاد دون بعض ، واتباع السلف

الصالح أولى ، وقال ابن الحاج في المدخل جلد ، وينهي المؤذنين عما أحدثوه من التصبيح بالليل ، وإن كان ذكر الله تعالى حسناً وعلناً لكن في المواضع التي تركها الشارع صلوات الله وسلامه عليه ، ولم يعين فيها شيئاً معلوماً .

(319/764)

وقال بعده بقليل : وكذلك ينبغي أَن ينهاهم عما أحدثوه من صفة الصلاة والتسليم على النَّبي صلى الله عليه وسلم عند طلوع الفجر ، وإن كانت الصلاة على النَّبي صلى الله عليه وسلم من أكبر العبادات وأجلها ، فينبغي أن يسلك بها مسلكها ، فلا توضع إلا في مواضعها التي جعلت لها .

وقال صاحب الإبداع في مضار الابتداع . ما نصه .

ومن البدع ما يسمى بالأول والثانية ، أعني ما يقع قبل الزوال يوم الجمعة من الدعاء إليها بالذكر والصلاة بوالسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك ، ولا خلاف في أن ذلك لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عهد السلف الصالح ، وإنما النظر في ذمه واستحسانه اه .

وهذا النظر مفروغ منه في التنبيهات المتقدمة لابن حجر وابن الحاج وابن باز

والقاعدة الأصولية الفقهية : أن العبادات مبناها على التوقيف ، وما لم يكن ديناً ولا عبادة عند السلف الصالح فلا حاجة إليه اليوم ، كما قال مالك رحمه الله : لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها .

وقد ذكر صاحب الإبداع أيضاً تاريخ إحداث رفع الصوت بالصلاة والتسليم على النَّبي الكريم عقب الأذن ، فقال : كان ابتداء ذلك في أيام السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب وبأمره في مصر وأعمالها ، لسبب مذكور في كتب التاريخ اه .

والسبب يتعلق ببدعة الفاطميين بسبب بعض الأشخاص على المنابر والمنائر ، فغير عمر بن عبد العزيز رحمة الله ما كان على المنابر بقوله : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر .

وكذلك غير صلاح الدين ما كان بعد الأذان بالصلاة والتسليم على النَّبي صلى الله عليه وسلم .

تنبيه

من أسباب تمسك بعض البلاد بهذين العملين هو ألا يؤذن قبل الجمعة ، فاعتاضوا عن الأذان بما يسمى التطليع أو بالأولى والثانية أي التطليعة الأولى والتطليعة الثانية ، وكذلك لا يؤذنون للفجر قبل الوقت فاستعاضوا عنه بالتسبيح والتكبير وغيره .

أما الصلاة والسلام على النّبي صلى الله عليه وسلم عقب كل أذان ، فقد قاسوا المؤذن على السامع في حديث : " إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ ، فإن من صلّى علي مرة صلى الله عليه بها عشراً "

فقالوا : والمؤذن أيضاً يصلي ويسلم ، ثم زادوا في القياس خطة وجعلوا صلاة المؤذن وتسليمه على النّبي صلى الله عليه وسلم بصوت مرتفع كالأذان ، وبهذا تعلم أنه ما أميتت سنة إلا ونشأت بدعة ، وأن قياس المؤذن على السامع ليس سليماً .

وتقدم لك أن محاكاة المؤذن لربط السامع بالأذان ليتجاوب معه في معانيه ، ولو قيل : إن للمؤذن أن يصلي ويسلم على النّبي صلى الله عليه وسلم سراً بعد الفراغ من الأذان ، وأن يسأل الله الوسيلة للرسول صلى الله عليه وسلم ليشارك في الأجرين : أجر الأذان وأجر سؤال الوسيلة . لكان له أجر . والعلم عند الله تعالى .

حي على حي العمل في الأذان

اتفق الأئمة رحمهم الله على أنها ليست من ألفاظ الأذان ، وحكاها الشوكاني عن العترة ، وناقش مقالتهم وآثارها بأسانيدها .

ومما جاء فيها عندهم أثر عن ابن عمر ، أنه كان يؤذن بها أحياناً .

ومنها عن علي بن الحسين أنه قال : هو الأذان الأول .

ثم قال : وأجاب الجمهور عن كل ذلك بأن أحاديث ألفاظ الأذان في الصحيحين وغيرهما لم يثبت فيهما شيء من ذلك .

قالوا : وإذا صح ما روي أنه الأذان الأول فهو منسوخ بأحاديث الأذان لعدم ذكره فيها .

وقد أورد البيهقي حديثاً في نسخ ذلك ، ولكن من طريق لا يثبت النسخ بمثلها اه .

ملخصاً .

وقد ذكر صاحب جمع الفوائد حديثاً عن بلال رضي الله عنه أنه كان يؤذن للصبح فيقول : حي على خير العمل ، فأمر النَّبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل مكانها الصلاة خير من النوم ، وترك حي على خير العمل " ، وقال : رواه الطبراني في الكبير بضعف اه .

ولا يبعد أن يكون أثر بلال هذا هو الذي عناه علي بن الحسين ، وعلى كل فهذا الأثر وإن كان ضعيفاً فإنه مرفوع ، وفيه التصريح بالمنع منها ، وعليه الأئمة الأربعة وغيرهم إلا ما عليه الشيعة فقط .

ومن جهة المعنى ، فإن معناها لا يستقيم مع بقية النصوص الصحيحة الصريحة ، وذلك أنه ثبت عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أن خر العمل أمر نسبي ، وأن خير جميع الأعمال كلها

هو أولاً وقبل كل شيء الإيمان بالله ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم سئل " أي الأعمال أفضل يا رسول الله ، قال : " إيمان الله " ، قيل : ثم ماذا ؟ فقال : " مرة الجهاد في سبيل الله " ، وقال مرة : " الصلاة على أول وقتها " ، وقال مرة : " بر الوالدين " وفي كل مرة يقدم إيماناً بالله .

فعليه ، الإيمان بالله هو خير العمل ، وليست الصلاة ، ثم بعد الإيمان بالله فهو بحسب حال السائل وحالة كل شخص ، فمن كان قوياً وليس عليه حق لوالديه ، فالجهاد أفضل الأعمال في حقه مع من الحفاظ على الصلاة ، فإن كان ذا والدين ، فبّرهما مقدم على كل عمل . ولم لا ، فإن الصلاة على أول وقتها لغير هؤلاء فإطلاق القول بالصلاة خير العمل في حق جميع الناس لا يصح مع هذه الأحاديث . ولهذا منع رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً أن يقولها ، وجعلها : خيراً من النوم . وهذا لا نزاع فيه ولا بالنسبة لأي من الناس . والله تعالى أعلم .

الصلاة بين أذان عثمان رضي الله عنه

والأذان الذي بين يدي الإمام

تعوَّد الناس في جميع الأمصار صلاة ركعتين عند الأذان الأول ، والذي يقع الآن قبل الوقت وقبل جلوس الإمام على المنبرن وهو المسمى عند الفهاء بأذان عثمان ، وقد تساءل الناس عن هذه الصلاة ، أهي سنة أم لا ؟ ويتجدد هذا السؤال من حيث إلى آخر ، وأجمع ما

رأيت فيه هو كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة خاصة ، جواراً على سؤال وجه إليه هذا نصه :

هل الصلاة بعد الأذان الأول يوم الجمعة فعلها النَّبي صلى الله عليه وسلم أو أحد من أصحابه أو التابعين أو الأئمة أم لا ؟ وهل هو منصوص في مذهب من مذاهب الأئمة المتفق عليهم ، وقوله صلى الله عليه وسلم

" بين كل أذانين صلاة " ، هل هو مخصوص بيوم الجمعة ، أم هو عام في جميع الأوقات ؟

فأجاب رحمه الله بقوله :

أما النَّبي صلى الله عليه وسلم فإنه لم يكن يصلي قبل الجمعة بعد الأذان شيئاً ، ولا نقل هذا عن أحد ، فإن النَّبي صلى الله عليه وسلم لا يؤذن على عهده إلا إذا قعد على المنبر ، ويؤذن بلال ثم يخطب النَّبي صلى الله عليه وسلم الخطبتين ، ثم يقيم بلال فيصلي بالناس ، فما كان يمكن أن يصلي بعد الأذان لا هو ولا أحد من المسلمين الذين يصلون معه صلى الله عليه وسلم ، ولا نقل عن أحد أنه صلَّى صلى الله عليه وسلم في بيته قبل الخروج يوم الجمعة ، ولا وقت بقوله صلاة مقدرة قبل الجمعة ، بل ألفاظه فيها الترغيب في الصلاة إذا قدم

الرجل المسجد يوم الجمعة من غير توقيت كقوله : " من بكر وابتكر ومشى ولم يركب وصلى ما كتب له " . . الحديث .

وهذا المأثور عن الصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا أتوا امسجد يوم الجمعة يصلون من حين يدخلون ما تيسر . منهم من يصلي ثماني ركعات ، ومنهم من يصلي عشر ركعات ومنهم من يصلي ثنتي عشرة ركعة ومنهم من يصلي أقل من ذلك . ولهذا كان جمهور الأئمة متفقين على أنه ليس قبل الجمعة سنة مؤقتة بوقت مقدرة بعدد .

ثم قال : وهذا مذهب مالك ومذهب الشافعي وأكثر أصحابه ، وهو المشهور من مذهب أحمد .

وذهب طائفة من العلماء إلى أن قبلها سنة ، فمنهم من جعلها ركعتين ، ومنهم من جعلها أربعاً تشبيهاً لها بسنة الظهر ، وقالوا : إن الجمعة ظهر مقصورة ، وهذا خطأ من وجهين وساقهما . وخلاصة ما ساقه فيهما أن الجمعة لها خصائص لا توجد في الظهر فليست ظهراً مقصورة .

وكذلك أنه لم يكن صلى الله عليه وسلم في سفره سنة للظهر ، أي وهي مقصورة في السفر فلا تمسك في ذلك .

أما عن حديث " بين كل أذانين صلاة " فالصواب أنه لا يقال إن قبل الجمعة سنة راتبة مقدرة ، وأنه صلى الله عليه وسلم قال : " بين كل أذانين صلاة " مرتين . وقال في الثالثة : " لمن شاء "

وهذا يدل على أن الصلاة مشروعة قبل الأوقات الخمسة ، وأن ذلك ليس بسنة راتبة .

وقد احتج بعض الناس بهذا على الصلاة يوم الجمعة .

وعارض غيره قائلاً : الأذان الذي على المنارة لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ويتوجه عليه أن يقال : هذا الأذان الثالث لما سنه عثمان رضي الله عنه واتفق عليه صار أذاناً شرعاً ، وحينئذ فتكون الصلاة بينه وبين الأذان الثاني جائز حسنة ، وليست سنة راتبة كالصلاة قبل المغرب ، وحينئذ فمن فعل ذلك لم ينكر عليه ، ومن ترك ذلك فم ينكر عليه .

وهذا أعدل الأقوال .

وكلام أحمد يدل عليه ، وحينئذ فقد يكون تركها أفضل إذا كان الجهال يعتقدون أن هذه سنة راتبة أو واجبة ، لا سيما إذا داوم الناس عليها ، فينبغي تركها أحياناً ، كما ينبغي ترك قراءة السجدة يوم الجمعة أحياناً .

ثم قال : وإذا كان رجل مع قوم يصلونها ، فإن كان مطاعاً إذا تركها وبين لهم السنة لم ينكروا عليه ، بل عرفوا السنة فتركها حسن ، وإن لم يكن مطاعاً ورأى في صلاتها تأليفاً لقلوبهم إلى ما هو أنفع ، أو دفعاً للخصام والشرع لعدم التمكن من بيان الحق لهم ، وقولهم له ونحو ذلك . فهذا أيضاً حسن .

فالعمل الواحد يكون مستحباً فعله تارة ، وتركه تارة ، باعتبار ما يترجح من مصلحة فعله وتركه بحسب الأدلة الشرعية .

كما ترك النَّبي صلى الله عليه وسلم بناء البيت على قواعد إبراهيم إلى آخره . اه ملخصاً .

فأنت تراه رحمه الله قد بين أولاً أنها ليست من فعله صلى الله عليه وسلم ، لعدم وجود مكان لها في عهده ، ولا في عهد صاحبيه من بعده ، وأن فعلها بعد حديث عثمان رضي الله عنه يرجع إلى حال الشخص ، فإن كان عامياً لا تمس له مخرج من حديث : " بين كل أذانين صلاة " لا على أنها سنة راتبة .

أما العالم الذي يقتدى به فإن كان مطاعاً فتركها أحسن .

وتعليم الناس متعين ، وإن كان غير مطاع ويرجو نفعهم أو يخشى خصومة عليهم تضيع

عليهم منفعتهم منه ، ففعلها تأليفاً لقلوبهم ، فهذا حسن . اه ملخصاً .

وهذا منه رحمه الله من أدق مسالك سياسة الدعوة إلى الله ، حيث ينبغي للداعي أن يراعي حالة العامة ، وأن يكون بفعله مؤثراً كتأثيره بقوله مع مراعاة الأحوال ما هو أصلح لهم فيما فيه سعة من الأمر ، كما بين أنها ليست بسنة راتبة .

وقد ساق ضمناً كلام العلماء في حكم الصلاة قبل الجمعة مطلقاً ، أي عند المجيء وقبل الأذان ، وهذا كله ما عدا الداخل للمسجد وقت الخطبة فيما يتعلق بتحية المسجد .

وقال النووي في المجموع بعد مناقشة كلام المذهب . قال :

وأما السنة قبلها فالعمدة فيها حديث عبد الله بن معقل المذكور . "بين كل أذانين صلاة" ، والقياس على الظهر قال : وذكر أبو عيسى الترمذي أن عبد الله بن مسعود كان يصلي قبل الجمعة أربعاً ، وإليه ذهب سفيان الثوري وابن المبارك ، وهذا منهم على أنها راتبة الظهر انتقلت إلى الجمعة ، ولا علاقة لها بالأذان ، بل من حين مجيئه إلى المسجد .

قوله تعالى : ﴿ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ .

قال الزمخشري ونقله عنه أبو حيان من في قوله ﴿ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ بيان لإذا وتفسير له اه .

يعني : إذا نودي فهي بيان لإذا الظرفية وتفسير لها .

والجمعة : بضم الجيم والميم قراءة الجمهور .

وبضم الجيم وتسكين الميم قراءة عبد الله بن الزبير والأعمش وغيرهما ، وهما لغتان وجمعهما جمع وجمعات .

قال الفراء : يقال الجمعة بإسكان الميم ، والجمعة بضمها والجمعة بفتح الميم ، فتكون صفة لليوم أي يجمع الناس .

وقال ابن عباس : نزل القرآن بالتثقيل والتفخيم فاقرؤهما جمعة ، يعني بضم الميم .

وقال الفراء وأبو عبيد : والتخفيف أقيس وأحسن ، مثل غرفة وغرف وطرفة وطرف وحجرة وحجر ، وفتح الميم لغة بن عقيل . وقيل : إنها لغة النّبي صلى الله عليه وسلم . حكاه القرطبي وغيره .

وقال الزمخشري : قرئ بهن جميعاً . وقال غيره : والأول أصح لقول ابن عباس رضي الله عنهما .

وذكر في سبب تسمية هذا اليوم عدة أسباب لا تناقض بين شيء منها .

من ذلك ما قاله ابن كثير رحمه الله : إنها مشتقة من الجمع ، وأهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع .

ومنها : أنه تم فيه خلق جميع الخلائق ، فإنه اليوم السادس من الستة التي خلق الله فيها السماوات والأَرض ، وفيه خلق آدم يعني جمع خلقه ، وفيه الحديث عن سلمان أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال له : "يا سلمان ، ما يوم الجمعة" ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يوم الجمعة يوم جمع الله فيه أبواكم أو أبوكم" ، قال ابن كثير : وقد روي عن أبي هريرة من كلامه نحو هذا ، فالله أعلم .

والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن ما حكاه عن أبي هريرة له حكم الرفع ، كما جاء في الموطإ في فضل يوم الجمعة "أنه خير يوم تطلع فيه الشمس ، فيه خلق آدم" إلى آخر الحديث ، وسيأتي إن شاء الله عند بيان فضلها .

وقد كان يقال له في الجاهلية يوم العروبة .

ونقل عن الزجاج والفراء وأبي عبيدة : أن العرب العاربة كانت تسمي الأيام هكذا : السبت شبار ، الأحد أول ، الاثنين أهون ، الثلاثاء جبار ، الأربعاء دبار ، الخميس مؤنس ، الجمعة العروبة . وأول من نقل العروبة إلى الجمعة كعب بن لؤي ، نقل بذل المجهود شرح أبي داود .

وقيل : أول من سماه بالجمعة كعب بن لؤي ، وقد كان معروفاً بهذا الاسم في أول البعثة ، كما جاء في سبب أول جمعة صليت بالمدينة .

قال القرطبي : وأول من سماها جمعة : الأنصار ، ونقل عن ابن سيرين قوله : جمع أهل المدينة من قبل أن يقدم النّبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، وقبل أن تنزل الجمعة هم الذين سموها الجمعة ، وذلك أنهم قالوا : إن لليهود يوماً يجتمعون فيه في كل سبعة أيام يوم ، وهو السبت ، وللنصارى يوم مثل ذلك وهو الأحد ، فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل يوماً لنتذاكر الله ونصلي فيه ونستذكر أو كما قالوا ، فقالوا : يوم السبت لليهود ، ويوم الأحد للنصارى فاجلعوه يوم العروبة . فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة وهو أبو أمامة رضي الله عنه ، فصلى بهم يومئذ ركعتين .

وذكرهم فسموه يوم الجمعة حتى اجتمعوا فذبح لهم أسعد شاة فتعشوا وتغدوا منها لقلتهم .

فهذه أول جمعة في الإسلام .

أما أول جمعة أقامها النّبي صلى الله عليه وسلم ، فهي التي أقامها في مقدمه إلى المدينة حين نزل قباء يوم الإثنين ومكث الثلاثاء والأربعاء والخميس ، وفي صبيحة الجمعة نزل المدينة فأدركته في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم ، قد اتخذ القوم في ذلك اموضع مسجداً فجمع بهم صلى الله عليه وسلم وخطب ، وهو موضع معروف إلى اليوم في بني النجار ، وقد

ساق القرطبي خطبته صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم ، ثم كانت الجمعة التي تلتها في الإسلام في قرية جوانا بالأحساء اليوم .

(327/764)

وقد خص الله المسلمين بهذا اليوم وفضّله ، كما قال ابن كثير وغيره لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري ومسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم إن هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له فالناس لنا في هتبع ، اليهود غداً والنصارى بعد غد " ، لفظ البخاري . وفي لفظ لمسلم " أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة ، المقضي بينهم قبل الخلائق " ذكره ابن كثير ، من خصائص يوم الجمعة .

كما اختصت هذه الأمة بيوم الجمعة عن سائر الأيام ، فقد اختص يوم الجمعة نفسه بخصائص عن سائر الأيام ، أجمعها ما جاء في الموطإ مالك عن أبي هريرة " أنه قال : خرجت إلى الطور فلقيت كعب الأحبار فجلست معه ، فحدثني عن التوراة ، وحدثته

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان فيما حدثته أن قلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم ، وفيه أهبط من الجنة ، وفيه تيب عليه وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس ، وفيه ساعة لا يصدافها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه " قال كعب : ذلك في كل سنة . قلت بل في كل جمعة فقرأ كعب التوراة ، فقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال أبو هريرة : فلقيت بصرة بن أبي بصرة الغفاري فقال من أين أقبلت : فقلت : من الطور فقال : لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجت ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" لا تعمل المَطِيُّ إلا إلى ثلاثة مساجد ، إلى المسجد الحرام ، وإلى مسجدي هذا ، وإلى مسجد إِيْلِيَاءَ أو بيت المقدس " يشك . قال أبو هريرة ، ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب الأحبار ، وما حدثته به في يوم الجمعة فقلت : قال كعب : ذلك في كل

سنة يوم ، قال : قال عبد الله بن سلام : كذب كعب . فقلت : ثم قرأ التوراة ، فقال : بل هي في كل جمعة . فقال عبد الله بن سلام : صدق كعب . قم قال عبد الله بن سلام : قد علمت أية ساعة هي ؟ قال أبو هريرة فقلت له : أخبرني بها ولا تضن عليَّ ، فقال عبد الله بن سلام : هي آخر ساعة في يوم الجمعة . قال أبو هريرة : فقلت وكيف تكون آخر ساعة في يوم الجمعة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي " وتلك الساعة ساعة لا يصلي فيها ؟ فقال عبد الله بن سلام : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من جلس مجلساً ينتظر الصلاة فيهو في صلاة حتى يصلي " قال أبو هريرة : فقلت : بلى ، قال فهو كذلك " .

فهذا نص صريح في أنه خير يوم طلعت عليه الشمس ، ثم بيان أن الخيرية فيه لما وقع به من أحداث ، وإلا فجميع الأيام حركة فلكي لا مزية فيها إلا ما خصها الله دون غيرها من الوقائع .

وقد تعددت هنا في حق أبينا آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، ولذا قيل : يوم الجمعة يوم آدم ، ويوم الإثنين يوم محمد صلى الله عليه وسلم ، أي لقوله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن كثرة صيامه يوم الإثنين قال " ذلك يوم ولدت فيه ، وعلي فيه أنزل " الحديث .

ولما كان يوم الجمعة هو يوم آدم فيه خلق ، وفيه أسكن الجنة ، وفيه أنزل إلى الأرض ، وفيه تاب الله عليه ، وفيه قيام الساعة . فكان يوم العالم من بدء أبيهم إلى منتهى حياتهم ، فكأنه

في الإسلام يوم تزودهم إلى ذلك المصير .

وروى البخاري ومسلم أن النّبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ ﴿ ألم السجدة ﴾ ، ﴿ وهل أتى على الإنسان ﴾ في فجر يوم الجمعة .

(329/764)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وذلك لما فيها من ذكر خلق الله آدم وحياة الإنسان ومنتهاه ، كما في سورة السجدة في قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السماآء إِلَى الأرض ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ذلك عَالِمُ الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

[السجدة : 4 - 9] .

وفي سورة ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ قوله تعالى : ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ [الإنسان : 1 – 5] .

ففي هذا بيان لخلق العالم كله جملة ثم خلق آدم ، ثم تناسل نسله ثم منتهاهم ومصيرهم ليتذكر بخلق أبيه آدم ، وما كان من أمره كيلا ينسى ولا يسهو عن نفسه .

وهكذا ذكر مثل هذا التوجيه في الجملة ابن حجر في الفتح ، وناقش حكم قراءتهما والمداومة ليها أو تركهما ، وذلك في باب ما يقرأ في صلاة الجمعة .

وفي المنتقى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ يوم الجمعة في صلاة الصبح : آلم تنزيل ، وهل أتى على الإنسان ، وفي صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقون . رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي .

وناقش الشوكاني السجود فيها أي في فجر الجمعة أو في غيرها من الفريضة ، إذا قرأ ما فيه سجدة تلاوة

وحكي السجود في فجر الجمعة عن عمر وعثمان وابن مسعود وابن عمر وابن الزبير وقال : هو مذهب الشافعي ، وقال : كرهه مالك وأبو حنيفة وبعض الحنابلة ، فراجعه .

الساعة التي في يوم الجمعة

فقد تقدم كلام أبي هريرة رضي الله عنه مع عبد الله بن سلام وهو قول الأكثر ، ويوجد عند مسلم : أنها ما بين أن يجلس الإمام إلى أن يفرغ من الصلاة ، وقد ناقش هذه المسألة جميع العلماء ، وحكى أقوالهم الزرقاني في شرح الموطأ ، وكلاهما بسند صحيح : إلا أن سند مالك لم يطعن فيه أحمد وسند مسلم قد نقل الزرقاني الكلام .

فيه ، ومن تكلم عليه ، والذي يلفت النظر ما يتعلق بقيام الساعة في يوم الجمعة من قوله صلى الله عليه وسلم : " وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس " ففيه التصريح بأن الدواب عندها هذا الإدراك الذي تفرق به بين أيام الأسبوع ، وعندها هذا الإيمان بيوم القيامة والإشفاق منه ، وأخذ منه العلماء أن الساعة تكون في يوم الجمعة وفي أوله ، وعندها هذا الإيمان بيوم القيامة والإشفاق منه ، وأخذ منه العلماء أن الساعة تكون في يوم الجمعة وفي أوله ، فإذا كان هذا أمر غيب عنا ، فقد أخبرنا به صلى الله عليه وسلم فعلينا أن نعطي هذا اليوم حقه من الذكر والدعاء ، مما يليق من العبادات إشفاقاً أو تزوداً لهذا اليوم ، لا أن نجعله موضع النزهة واللعب والتفريط ، وقد يكون إخفاؤها مدعاة للاجتهاد كل اليوم كليلة القدر ، وقد نفهم من هذا كله المعنى الصحيح لحديث :

"من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنه" إلى آخره، وأن الحق فيه ذهب إليه الجمهور على ما سيأتي إن شاء الله عند مناقشة وقت السعي إلى الجمعة. قال النيسابوري في تفسيره: وكانت الطرقات في أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر غاصة بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج. وقيل: أول بدعة أحدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجمعة، إذ البكور إليها من شدة العناية بها.

قوله تعالى: ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾.

قرأ الجمهور فاسعوا وقرأها عمر فامضوا. روى ابن جرير رحمه الله أنه قيل لعمر رضي الله عنه: إن أبياً يقرؤها فساعوا، قال أما إنه أقرؤنا وأعلمنا بالمنسوخ. وإنما هي فامضوا.

وروي أيضاً عن سالم أنه قال: ما سمعت عمر قط يقرؤها إلا فامضوا.

وبوب له البخاري قال باب قوله: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ [الجمعة: 3] وقرأ عمر ﴿ فامضوا ﴾، وذكر القرطبي عن عبد الله بن مسعود أنه قرأها ﴿ فامضوا إلى ذكر الله ﴾، وقال لو كانت فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي اه.

وبالنظر فيما ذكره القرطبي نجد الصحيح قراءة الجمهور لأمرين. الأول: لشهادة عمر نفسه رضي الله عنه أن أبياً أقرؤهم وأعلمهم بالمنسوخ، وإذا كان كذلك فالقول قوله، لأنه أعلمهم وأقرؤهم. أما قراءة ابن مسعود فقال القرطبي: إن سنده غير متصل، لأنه عن

إبراهيم النخعي عن ابن مسعود ، وإبراهيم لم يسمع من ابن مسعود شيئًا اه .

وقد اختلف في معنى السعي هنا ، وحاصل أقوال المفسرين فيه على ثلاثة أقوال لا يعارض بعضها بعضاً :

الأول : العمل لها ، والتهيؤ من أجلها .

الثاني : القصد والنية على إتيانها .

الثالث : السعي على الأقدام دون الركوب .

واستدلوا لذلك بأن السعي يطلق في القرآن على العمل ، قاله الفخر الرازي . وقال : هو مذهب مالك والشافعي ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تولى سعى فِي الأرض ﴾ [البقرة : 205] ، وقال : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ [الليل : 4] أي العمل .

واستدلوا للثاني بقول الحسن : والله ما هو بسعي على الأقدام ، ولكن سعي القلوب والنية .

واستدلوا للثالث بما في البخاري عن أبي عبس بن جبر واسمه عبد الرحمن ، وكان من كبار الصحابة مشى إلى الجمعة راجلاً ، وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "

من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار " ذكره القرطبي ، ولم يذكره البخاري في التفسير.

وبالتأمل في هذه الأقوال الثلاثة نجدها متلازمة لأن العمل أعم من السعي ، والسعي أخص ، فلا تعارض بين أعم وأخص ، والنية شرط في العمل ، وأولى هذه الأقوال كلها ما جاء في قراءة عمر رضي الله عنه الصحيحة : فامضوا .

فهي بمنزلة التفسير للسعي .

وروي عن الفراء : أن المضي والسعي والذهاب في معنى واحد ، والصحيح أن السعي يتضمن معنى زائداً وهو الجد والحرص على التحصيل ، كما في قوله تعالى : ﴿ والذين سَعَوْا في آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ [الحج : 51] بأنهم حريصون على ذلك : وهو أكثر استعمالات القرآن .

قال الراغب الأصفهاني : السعي المشي السريع ، وهو دون العدو ، ويستعمل للجد في الأمر خيراً كان أو شراً ، قال تعالى : ﴿ وسعى فِي خَرَابِهَا ﴾ [البقرة : 114] . ﴿ وَإِذَا تولى سعى فِي الأرض ﴾ [البقرة : 205] . ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ [الإسراء : 19] . وجمع الأمرين الخير والشر ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى ﴾ [النجم : 39 – 40] وهو ما تشهد له اللغة ، كما في قول زهير بن أبي سلمى :

سعى ساعياً غيظ ابن مرة بعدما . . . تبزل ما يين العشيرة بالدم

وكقول الآخر :

إن أجز علقمة بن سعد سعيه . . . لا أجزه ببلاء يوم واحد

تنبيه

من هذا كله يظهر أن السعي هو المضي مع مراعاة ما جاء في السنة من الحث على السكينة والوقار .

لحديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ، ولا تسرعوا ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا "

وهذا أمر عام لكل آت إلى كل صلاة ولو كان الإمام في الصلاة لحديث أبي قتادة عند البخاري قال : " بينا نحن نصلي مع النَّبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع جلبة رجال فلما صلى قال : " ما شأنكم " ؟ قالوا : استعجلنا إلى الصلاة ، قال : " فلا تفعلوا إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا " اه .

وكذلك حديث أبي بكرة رضي الله عنه لما ركع خلف الصف ودب حتى دخل في الصف وهو راكع ، فقال له صلى الله عليه وسلم : " زادك الله حرصاً ، ولا تعد " على رواية تعد من العود .

وهنا يأتي مبحث بم تدرك الجمعة ؟

الأقوال في القدر الذي به تدرك الجمعة ثلاثة ، وتعتبر طرفين وواسطة .

الطرف الأول : القول بأنها لا تدرك إلا بإدراك شيء من الخطبة ، هذا ما حكاه ابن حزم عن مجاهد وعطاء وطاوس وعمر ، ولم يذكر له دليلاً .

والقول الآخر : تدرك ولو بالجلوس مع الإمام قبل أن يسلم ، وهو مذهب أبي حنيفة رحمة الله : ومذهب ابن حزم ، بل عند أبي حنيفة رحمه الله : أنه لو أن الإمام سها وسجد ، وفي سجود السهو أدركه المأموم لأدراك الجمعة بإدراكه سجود السهو مع الإمام ، لأنه منها ، ولكن خالف الإمام أبا حنيفة صاحبه محمد على ما سيأتي .

والقول الوسط هو قول الجمهور : أنها تدرك بإدراك ركعة كاملة مع الإمام ، وذلك بإدراكه قبل أن يرفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية ، فحينئذ يصلي مع الإمام ركعة ثم يضيف إليها أخرى وتتم جمعته بركعتين ، وإلا صلى ظهراً .

أما الراجح من ذلك فهو قول الجمهور للأدلة الآتية :

أولاً أن القول الأول لا دليل عليه أصلاً ، ويمكن أن يلتمس لقائله شبهة من قوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ لحمل ذكر الله على خصوص الخطبة لقوله تعالى بعدها ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة ﴾ [الجمعة : 10] .

فسمى الصلاة في الأول بالنداء إليها ، وسمى الصلاة أخيراً بانقضائها ، وذكر الله جاء بينهما ولكن يرده استدلال الجمهور الآتي .

والقول الثاني : وهو قول أبي حنيفة رحمه الله وابن حزم استدل له بحديث " فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا "

والجمعة ركعتان فقط ، فإتمامها بتمام ركعتين ، واعتبروا إدراك أي جزء منها إدراكاً لها ، وقد خالف أبا حنيفة في ذلك صاحبه محمد لأدلة الجمهور الآتية :

وأدلة الجمهور من جانبين :

الأول : خاص بالجمعة ، وهو حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أدرك من صلاة الجمعة ركعة فليضف إليها أخرى " أي فتتم له جمعة بركعتين ، وأخذوا من مفهوم إدراك ركعة ، أن من لم يدرك ركعة كاملة فلا يصح له أن يضيف لها أخرى ، وعليه أن يصلي ظهراً .

والجانب الثاني عام في كل الصلوات ، وهو حديث الصحيحين ، " من أدرك ركعة من

الصلاة فقد أدرك الصلاة "

وقد رد الأحناف على الحديث الأول بأنه ضعيف ، واعتبروا الإدراك في الحديث الثاني ، يحصل بأي جزء ، ورد عليهم الجمهور بالآتي :

أولاً : الحديث الخاص بمن أدرك ركعة من الجمعة فليضف إليها أخرى . ذكره ابن حجر في بلوغ المرام .

وقال : رواه النسائي وابن ماجه والدارقطني واللفظ له ، وإسناده صحيح ، لكن قوى أبو حاتم إرساله ، وقال الصنعاني في الشرح : وقد أخرج الحديث من ثلاث عشرة طريقاً عن أبي هريرة ، ومن ثلاث طرق عن ابن عمر ، وفي جميعها مقال إلى أن قال : ولكن كثرة طرقه يقوي بعضها بعضاً ، مع أنه خرجه الحاكم من ثلاث طرق :

إحدها : من حديث أبي هريرة : وقال فيها على شرط الشيخين إلى آخر اه .

وقال النووي في المجموع : ويغني عنه ما في الصحيحن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة " فهذا نص صحيح ، وهو صريح في أن إدراك الصلاة إنما هو بإدراك ركعة ، وبالإجماع لا يكون إدراك

الركعة بإدراك الجلوس قبل السلم ، لأن من دخل مع الإمام في إحدى الصلوات وهو جالس في التشهد لا يعتد بهذه الركعة إجماعاً ، وعليه الصلاة كاملة .

والنص الخاص أن من أدرك ركعة من صلاة الجمعة فليضف إليها أخرى يجعل معنى الإدراك لركعة كاملة يعتد بها ، ومن لم يدرك ركعة كاملة لم يكن مدركاً للجمعة .

وقد حكى النووي في المجموع أن الجمعة تدرك بركعة تامة لحديث الصحيحين المذكور ، وقال : احتج به مالك في الموطأ ، والشافعي في الأم وغيرهما .

وقال الشافعي معناه : لم تفته تلك الصلاة ، ومن لم تفته الجمعة صلاها ركعتين ، وقال : وهو قول أكثر العلماء . حكاه ابن المنذر عن ابن مسعود وابن عمر وأنس بن مالك وسعيد بن المسيب ، والأسود ، وعلقمة والحسن البصري وعروة بن الزبير ، والنخعي والزهري ، ومالك والأوزاعي والثوري ، وأحمد وإسحاق وأبي ثور وأبي يوسف .

وتقدم أن الذي وافق الجمهور من أصحاب أبي حنيفة ، إنما هو محمد لما في كتاب الهداية ما نصه :

وقال محمد رحمه الله : إن من أدرك أكثر الركعة بني عليهما الجمعة وإن ادرك أقلها بنى عليها الظهر .

وفي الشرح : أن أكثر الركعة هو بإدراك الركوع مع الإمام .

وبالنظر في الأدلة نجد رجحان أدلة الجمهور للآتي :

أولاً : قوة استدلالهم بعموم " من أدرك من الصلاة ركعة ، فقد أدرك الصلاة " ، وهذا عام في الجمعة وفي غيرها ، وهو من أحاديث الصحيحين .

ثم بخصوص " من أدرك من الجمعة ركعة مع الإمام فليضف إليها أخرى " ، وتقدم الكلام على سنده وتقوية طرقه بعضها ببعض .

(336/764)

وقد أشرنا إلى معنى الإدراك وهو ما يمكن الاعداد به في عدد الركعات ، وهي نقطة هامة لا ينبغي إغفالها ، وأن مفهوم من أدرك ركعة مع الإمام فليضف إليها أخرى ، أن من لم يدرك ركعة كاملة لا يتأتى له أن يضيف إليها أخرى ، بل عليه كما قال الجمهور أن يصلي أربعاً .

ثانياً ضعف استدلال المعارض لأن : ما أدركتم فصلوا . على من أدرك من الجمعة ركعة خاص بها .

ثم إن معنى الإدراك ليس كما ذهب المستدل إليه ، بل لا بد أن يكون إدراكاً لما يعتد به .

وأشرنا إلى أن الإجماع على أن مريم على أن من لم يدرك ركعة كاملة لا يعتد بها في عدد الركعات ، ويشير إلى هذا المعنى حديث أبي بكرة حيث ركع قبل أن يصل إلى الصف ليدرك الركعة قبل أن يرفع النّبي صرى الله عليه وسلم رأسه ، ولو كان المعنى إدراك الركعة

يتم بأي جزء منها لما فعل أبو بكرة هذه الصورة ، وقد قال له صلى الله عليه وسلم : " هذا زادك الله حرصا ولا تعد "

ومعلوم أنه اعتد بتلك الركعة لإدراكه الركوع منها ، وبهذا تعلم أنه لا دليل لمن اشترط إدراك شيء من الخطبة ، لأن من أدرك ركعة فقد فاتته الخطبة كلها ، وفاتته الأولى من الركعتين ، وأدراك الجمعة بإدراك الثانية . والعلم عند الله تعالى .

حكم صلاة الجمعة عنقها الفدء

قوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ .

فيه الأمر بالسعي إذا نودي غليها ، والأمر يقتضي الوجوب ما لم يوجد له صارف ، ولا صارف له هنا ، فكان يكفي حكاية الإجماع على وجوبها ، كما حكاه ابن المنذر وابن قدامة وغيرهما ، ونقله الشوكاني ، وهو قول الأئمة الأربعة رحمهم الله ، ولكن وجد من يقول : إن الجمعة ليست واجبة . ولعله ظن أن في الآية صارف للأمر عن الوجودب ، وهو ما جاء في آخر السياق في قوله تعالى : ﴿ وَذَرُواْ البيع ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ فقالوا : إن الأمر لتحصيل الخير المذكور ، وقد نقل عن بعض اتباع بعض الأئمة رحمهم الله ما يوهم أنها

ليست بفرض ، وهو مسطري كتبهم ، مما قد يغتبر به بعض البسطاء ولا سيما مع ضعف الوازع وكثرة الشاغل في هذه الآونة ، مما يستوجب إيراده من أقوال أصحابهم وأئمتهم رحمهم الله جميعاً .

فعند المالكية حكاية ابن وهب عن مالك أن شهودها سنة .

وعند الشافعية قال الخطابي : فيها الخلاف هل هي من فروض الأعيان أو من فروض الكفاية .

وعند الأحناف ، قال في شرح الهداية : وقد نسب إلى مذهب أبي حنيفة أنها ليتس بفرض .

وكلها أقوال مردودة في المذهب من أصحابهم وأئمة مذاهبهم ، فلزم التنبيه عليها ، وبيان الحق فها من كتبهم ، ومن كلام أصحابهم ، وإليك بيان ذلك :

أما ما نسب لمالك رحمه الله فقد حكاه ابن العربي عن ابن وهب ورده بقوله : وحكى ابن وهب عن مالك أن شهودها سنة ، ورد عليه قوله بتأويلين : أحدهما أن مالكاً يطلق السنة على الفرض ، والثاني : أنه أراد سنة على صفتها لا يشاركها فيها سائر الصلوات ، حسب ما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعله السملمون ، وقد روى ابن وهب عن مالك : عزيمة الجمعة على كل من سمع النداء ، اه . نقلاً من نيل الأوطار .

ومما يؤيد قول ابن العربي في الوجه الأول ما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، عن مالك وغيره في تحرزهم في الفتيا من قول حلال وحرام وواجب إلخ . في سياق ما وقع من خلاف والنهي عن التعصب ، وأن مالكاً أشد تحفظاً في ذلك ، وما يؤيد الوجه الثاني أيضاً رواية المدونة بما نصه ما قول مالك : إذا اجتمع الأضحى والجمعة أو الفطر فصلى رجل من أهل الحضر العيد مع الإمام ثم أراد ألا يشهد الجمعة هل يضع ذلك عنه شهود صلاة العيد ما وجب عليه من إتيان الجمعة ؟ قال لا ، كان مالك يقول : لا يضع ذلك عنه ما وجب عليه من إتيان الجمعة ، وقال مالك : ولم يبلغني أن أحداً أذن لأهل العوالي إلا عثمان ، ولم يكن مالك يرى الذي فعل عثمان ، وكان يرى أن من وجبت عليه الجمعة لا يضعها عنه إذن الإمام ، وإن شهد مع الإمام قبل ذلك من يومه ذلك عيداً .

اه من المدونة ، فهذه نصوص صريحة عن مالك أن الجمعة واجبة لا يضعها عمن وجبت عليه إذن الإمام بصرف النظر عن فقه مسألة العيد والجمعة ، فإن فيها خلافاً مشهوراً ، ولكن يهمنا تنصيص مالك على خصوص الجمعة ، وفي مختصر خليل عند المالكية ما نصه : ولزمت المكلف الحر الذكر بلا عذر ، قال شارحه الخرشي : لزمت ووجبت إثم تاركها وعقوبته ، فهذه أقوال المالكية وحقيقة مذهب مالك رحمه الله .

أما الشافعية فقال صاحب المهذب ، ما نصه : صلاة الجمعة واجبة لما روى جابر وساق حديثه . وقال النووي في المجموع شرح المهذب : إنما تتعين على كل مكلف حر ذكر مقيم بلا مرض ونحوه . إلى أن قال : أما حكم المسألة فالجمعة فرض عين على كل مكلف غير أصحاب الأعذار ، والنقص المذكور بين هذا هو المذهب ، وهو المنصوص للشافعي في كتبه ، وقطع به الأصحاب في جميع الطرق إلا ما حكاه القاضي أبو الطيب في تعليقه وصاحب الشامل وغيرهما من بعض الأصحاب أنه غلط ، فقال : هي فرق كفاية ، قالوا : وسبب غلطه أن الشافعي قال : من وجبت عليه الجمعة وجبت عليه صلاة العيدين ، وغلط من فهمه . لأن مراد الشافعي من خوطب بالجمعة وجوباً خوطب بالعيدين متأكداً ، واتفق القاضي أبو الطيب وسائر من حكى هذا الوجه على غلط الجمعة قائله ، قال القاضي أبو إسحاق المروزي : لا يحل أن يحكى هذا عن الشافعي ولا يختلف أن مذهب الشافعي : أن الجمعة فرض عين ، ونقل ابن المنذر في كتابيه كتاب الإجماع والإشراق : إجماع المسلمين على وجوب الجمعة . اه من المجموع للنوي ، وهذا الذي حكاه النووي وابن المنذر والمروزي عن الشافعي هو المنصوص عنه في كتاب الأم للشافعي نفسه ، قال مجلد (

1) ص 188 تحت عنوان : إيجاب الجمعة بعد ما ذكر الآية ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ قال : ودلت السنة من فرض الجمعة على ما دل عليه كتاب الله تبارك وتعالى وساق حديث : " نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم – يعني الجمعة – فاختلفوا يه ، فهدانا الله له فالناس لنا في تبع " إلى أن قال : والتنزيل ثم السنة يدلان على إيجاب الجمعة ، وقال : ومن كان مقيماً ببلد تجب فيها الجمعة من بالغ حر لا عذر له وجبت عليه الجمعة . فهذه نصوص الشافعي عامة في الوجوب وخاصة في الأعيان ، وهذا بيان كاف لمذهب الشافعي رحمه الله من نص كتابه

(340/764)

الأم اه .

الحديث الذي استدل به الشافعي رحمه الله " نحن الآخرون السابقون " هو عين الحديث الذي بوب عليه البخاري وجوب الجمعة ، ووجه الاستدلال منه قوله صلى الله عليه وسلم : " ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم "

ففيه التنصيص على الفرضية .

أما الأحناف ، فقال في شرح الهداية ما نصه : وقد نسب إلى مذهب أبي حنيفة أنها ليست بفرض . ثم قال : وهذا من جهلهم ، وسبب غلطهم قول القدوري : ومن صلى الظهر يوم الجمعة في منزله ولا عذر له كره له ذلك وجازت صلاته ، وإنما أراد حرم عليه وصحت الظهر بترك الفرض . إلى آخره .

ثم قال : وقد صرح أصحابنا بأنها فرض آكد من الظهر ، وذكر أول الباب ، اعلم أن الجمعة فريضة محكمة بالكتاب والسنة والإجماع ، فحكي الإجماع على وجوبها وجهل من نسب إلى مذهبهم القول بعدم فرضيتها ، هذه أيضاً حقيقة مذهب أبي حنيفة رحمه الله ، وأنها عند أصحابه آكد من الظهر .

أما الحنابلة . فقال في المغني ما نصه : الأصل في فرض الجمعة الكتاب والسنة والإجماع ، وساق الآية ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾ الآية ، وقال بعدها : فصل : وتجب الجمعة والسعي إليها سواء كان من يقيمها سنياً أو مبتدعاً أو عدلاً أو فاسقاً ، نص عليه أحمد ، وهذا أعم وأشمل ، حتى مع الإمام غير العادل وغير السني .

فهذه نصوص المذاهب الأربعة في وجوب الجمعة وفرضها على الأعيان . فلم يبق لأحد بعد ذلك أدنى شبهة يلتمسها من أي مذهب ، ولا تتبع شواذه للتهاون بفرض الجمعة لنيابة الظهر عنها .

ثم اعلم أن في الآية قرينة على هذا الوجوب وأنه لا صارف للأمر عن وجوب السعي إليها ، وذلك أن مع الأمر بالسعي إليه الأمر بترك البيع والنهي عنه ، إذا كان ترك البيع واجباً من أجلها فما وجب هو من أجله كان وجبه هو أولى ، قال في المغني : فأمر بالسعي ، ويقتضي الأمر الوجوبد لا ويجب السعي إلا إلى الواجب ، ونهي عن البيع لئلا يشغل به عنها ، فلو لم تكن واجبة لما نهي عن البيع من أجلها ، وهو واضح كما ترى والأحاديث ي الوعيد لتاركها بدون عذر مشهور تؤكد هذا الوجوب .

من ذلك حديث أبي الجعد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله عليه قلبه " رواه أبو داود ، وسكت عنه .

وفي المنتقى ، قال : رواه الخمسة أي ما عدا البخاري ومسلماً ، وفي المنتقى عن أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على أعزاد منبره : " لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات ، أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين " رواه مسلم .

وعن ابن مسعود أن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، قال لقوم يتخلفون عن الجمعة : " لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم " رواه أحمد ومسلم .

وقد فسر الطبع في حديث أبي الجعد بأنه طبع النفاق، كما في قوله تعالى في سورة المنافقون ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون : 3] ، وقيل : طبع ضلال، كما في الحديث : ثم يكون أي القلب كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً . نسأل الله العافية والسلامة لنا ولجميع المسلمين والتوفيق لفضل هذا اليوم الذي خص الله به هذه الأمة .

مسألة

من المخاطب بالسعي هنا ، أي من الذي تجب عليه الجمعة تستهل الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ، وهو نداء عام لكل مؤمن ذكر وأنثى ، وحر ، وعبد صحيح ومريض فشمل كل مكلف على الإطلاق كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام ﴾ [البقرة : 183] .

وقوله تعالى (فاسعوا) الواو فيه للجميع ، وإن كانت للمذكر إلا أنها عائدة إلى الموصول السابق وهو عام كما تقدم ، فيكون طلب السعي متجهاً إلى كل مكلف إلا ما أخرجه الدليل .

وقد أخرج الدليل من هذا العموم أصنافاً ، منها : المتفق عليه ، ومنها المختلف فيه .

فمن المتفق عليه : ما أخرج من عموم خطاب التكليف كالصغير والنائم والمجنون لحديث " رفع القلم عن ثلاثة "

وما خرج من خصوص الجمعة ، كالمرأة إجماعاً فلا جمعة النساء .

وكالمريض فلا جمعة عيله اتفاقاً كذلك .

وهو من يشق عليه أو يزيد مرضه ، ومن يمرضه تابع له . وقد اختلف في السمافر والمملوك . ومن في حكم المسافر وهم أهل البوادي .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ خطاب للمكلفين بإجماع ويخرج منه المرضى ، والزمنى ، والعبيد ، والسناء ، بالدليل والعميان ، والشيخ الذي لا يمشي إلا بقائد عند أبي حنيفة .

روى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا مريضاً ، أو مسافراً ، أو امرأة ، أو صبياً ، أو مملوكاً ، فمن استغنى بلهو ، أو تجارة ، استغنى الله عنه ، والله غني حميد " خرجه الدارقطني اه .

ويشهد لما رواه القرطبي ما رواه ابن حجر في بلوغ المرام عن طارق بن شهاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا أربعة : مملوكاً وامرأة ، وصبياً ، ومريضاً " ، رواه أبو داود .

وقال : طارق لم يسمع من النَّبي صلى الله عليه وسلم : وذكر أبو داود أ ، ه رأى النَّبي صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه ، وأخرجه الحاكم من رواية طارق المذكور عن أبي موسى اه .

قال الصنعاني : يريد المؤلف بهذا ، أي بروايةعن أبي موسى أنه أصبح متصلاً .

قال : وفي الباب عن تميم الداري وابن عمر ومولى لابن الزبير رواه البيهقي وناقش سنده .

وقال : وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة مرفوعاً " خمسة لا جمعة عليهم : المرأة والمسافر والعبد والصبي وأهل البادية " اه .

وقد ذكر صاحب المنتقى . حديث طارق كما ساقه صاحب البلوغ ، وقال الشوكاني فيه : قال الحافظ وصححه غير واحد .

وقال الخطابي : ليس إسناد هذا الحديث بذاك ، وذكر صحبة طارق ، ونقل قول العراقي ، فإذا ثبتت صحبته فالحديث صحيح ، وغايته أن يكون مرسل صحابي وهو حجة عند الجمهور ، إنما خالف فيه أبو إسحاق الاسفرائيني ، بل ادعى بعض الأحناف الإجامع على أن مرسل الصحابي حجة اه .

وقال الشوكاني : على أنه قد اندفع الإعلال : بالإرسال بما في رواية الحاكم من ذكر أبي

موسى إلى آخره ، أي صار موصولاً ، كما قال ابن حجر سابقاً .

ووجه حجية مرسل الصحابي عندهم . هو أن الصحابي إذا أرسل الحديث ولم يرفعه إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فيكون بينه وبين النَّبي صلى الله عليه وسلم واسطة وتلك الواسطة هي صحابي آخر والصحابي ثقة ، فتكون الواسطة الساقطة ثقة ، فيصح الحديث ، ولذا دعي بعض الأحناف أن مرسل الصحابي حجة لهذا السبب ، وعلى هذا مناقشة أهل الحديث والتفسير لهذه المسألة ، وبالتأمل في الآية الكريمة وعموم السياق يظهر من مجموعه شهادة القرآن ، إلى صحة ذلك لدلالة الإيماء .

أما عن النساء ففيه الإجماع كما تقدم ، ويشهد له أن الدعوة إلى السعي إلى الجمعة ، وترك البيع من أجلها ، ثم الانتشار بعدها في الأرض والابتغاء من فضل الله بالعمل والكسب يشعر بأن هذا كله للرجال ، لأن المرأة محلها في بيتها ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب : 33] .

وتقدم لفضيلة والدنا الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، مبحث مفصل استدل بدليل قرآن على سقوط الجمعة عن النساء ، وذلك عند قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن

تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال رِجَالٌ ﴾ [النور : 36 – 37] .

ويبين رحمة الله تعالى علينا وعليه ، مفهوم رجال ، هل هو مفهوم صفة أو مفهوم لقب ، وساق علاقة النساء بالمساجد في الجمعة وغيرها ، أما المملوك فمما يستأنس له أيضاً من السياق في قوله تعالى : ﴿ وَذَرُواْ البيع ﴾ إذ البيع والشراء ابتداء ليس من حق العبيد إلا بإذن السيد .

وقوله : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ [الجمعة : 10] ، فإن المملوك لا ينتشر في الأرض إلا بإذن السيد أيضاً ، وكذلك المسافر فليس مشتغلاً ببيع ولا محل اشتغال به ، وهو منتشر في الأرض بسفره وسفره شاغل له ، وبسفره يقصر الصلاة ويجمعها .

وقد حكى الشوكاني الاتفاق بين الفقهاء على سقوط الجمعة عن المملوك إلا داود ، وكذلك المسافر إذا كان سائراً ، أما إذا كان نازلاً ، فخالف فيه داود أيضاً .

ومما استدل به الجمهور على سقوط الجمعة عن المسافر وقت نزوله ما وقع من فعله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، إذا كانت الوقفة يوم الجمعة ، وكان صلى الله عليه وسلم نازلاً ولصل الجمعة ، بدليل أنه لم يجهر بالقراءة ، ونازع في ذلك ابن حزم وقال : غاية ما فيه ترك الجهر في الجهرية ، وهذا لا يبطلها .

ولكن يمكن أن يقال له : لقد قال صلى الله عليه وسلم : " خذوا عني مناسككم "

والصلاة أثناء الحج مما يؤخذ عنه صلى الله عليه وسلم كالجمع تقديماً في عرفة وتأخيراً في مزدلفة ، ولا يتأتى أن يترك الجهر في الجهرية وهو أقل ما فيه أنه خلاف الأولى ويأمرهم أن يأخذوه عنه .

ومن هذا كله صح ما ذهب إليه الجمهور من أنه لا جمعة على مملوك ولا مسافر . كما لا جمعة على المرأة والمريض ، وبالله تعالى التوفيق .

قال ابن كثير : وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون العبيد والنساء والصبيان ، ويعذر المسافر والمريض ويتم المريض وما أشبه ذلك من الأعذار .

أما سقوطها عن أهل البوادي ومن في حكمهم ، فهو قول لجمهور مع اختلافهم في تحقيق المناط في ذلك بين المصر والقرية ، والبادية ، وبالرجوع إلى أقوال الأئمة نجد الخلاف الآتي أقوال الأئمة في مكان الجمعة .

أولاً : عند أبي حنيفة رحمه الله قال في الهداية ما نصه : لا تصح الجمعة إلا في مصر جامع أو في مصلى المصر ، ولا تجوز في القرية لقوله صلى الله عليه وسلم : "لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع"

وفسر الشارح ابن الهمام المصر بقوله : والمصر الجامع كل موضع له أمير وقاضي ينفذ الأحكام ويقيم الحدود ، وناقش الأثر الذي أورده المصنف قائلاً : رواه ابن أبي شيبة موقوفاً على عليّ رضي الله عنه " لا جمعة ولا تشريق ولا صلاة فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع أو مدينة عظيمة " صححه ابن حزم .

ورواه عبد الرزاق من حديث عبد الرحمن السلمي عن علي رضي الله عنه ، قال : لا تشريق ولا جمعة إلا في مصر جامع اه .

وذكر هذا الأثر القرطبي موقوفاً على عليّ رضي الله عنه .

وعند المالكية قال في متن خليل في فصل شروط الجمعة ما نصه : باستيطان بلد أو أخصاص لا خيم .

وفسر الشارح : الاستيطان بالعزم على الإقامة على نية التأبيد ، ولا تكفي نية الإقامة ولو طالت ، وجاء في المتن بعدها قوله : ولزمت المكلف الحر الذكر بلا عذر المتوطن .

وقال الشارح على كلمة متوطناً : هو أيضاً من شروط الوجوب . يعني أنه يشترط في وجوبها الاستيطان ببلد يتوطن فيه ويكون محلاً للإقامة يمكن الشراء فيه ، وإن بعدت داره

من المنارة سمع النداء أو لم يسمع ، ولو على خمسة أميال أو ستة إجماعاً . فلا تجعل على مسافر ولا مقيم ولو نوى إقامة زمناً طويلاً إلا تبعاً اه . أي تبعاً لغيره .

وعند الشافعي قال في المهذب ما نصه : ولا تصح الجمعة إلا في أبنية يستوطنها من تنعقد بهم الجمعة من بلد أو قرية لأنه لم تقم جمعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في أيام الخلفاء إلا في بلد أو قرية ، ولم ينقل أنها أقيمت في بدو ، فإن خرج أهل البلد إلى خارج البلد فصلوا الجمعة لم يجز ، لأنه ليس بوطن فلم تصح فيه الجمعة كالبدو ، وإن انهدم البلد فأقام أهله على عمارته ، فحضرت الجمعة لزمهم إقامتها لأنهم في موضع الاستيطان .

قال النووي في الشرح ما نصه : قال أصحابنا يشترط لصحة الجمعة أن تقام في أبنية مجتمعة يستوطنها شتاء وصيفاً من تنعقد بهم الجمعة .

قال الشافعي والأصحاب : سواء كان البناء من أحجار أو أخشاب أو طين أو قصب أو سعف أو غيرهما ، وسواء فيه البلاد الكبار ذوات الأسواق والقرى الصغار ، والأسراب المتخذة وطناً ، فإن كانت الأبنية متفرقة لم تصح الجمعة بلا خلاف ، لأنها لا تعد قرية ويرجع في الاجتماع والتفرق إلى العرف .

وأما أهل الخيام فإن كانوا ينتقلون من موضعهم شتاءاً وصيفاً وهي مجتمعة بعضها إلى بعض فقولان . ثم قال : أصحهما باتفاق الأصحاب لا تجب عليهم الجمعة ولا تصح منهم ، وبه قطع الأكثرون ، وبه قال مالك وأبو حنيفة ، ثم ذكر الدليل بقوله لحديث : " صلوا كما

رأيتموني أصلِّي" ولم يصل هكذا .

وعند الحنابلة قال في المغني ما نصه :

فصل

(347/764)

فأما الاستيطان فهو شرط في قول أكثر أهل العلم ، وهو الاستيطان في قرية على الأوصاف المذكورة لا يظعنون عنها صيفاً ولا شتاء ، ولا تجب على مسافر ولا على مقيم في قرية يظعن أهلها عنها في الشتاء دون الصيف ، أو في بعض السنة .

فإن خربت القرية أو بعضها وأهلها مقيمون فيها عازمون على إصلاحها فحكمها باق في إقامة الجمعة بها وإن عزموا على النقلة عنها لم تجب عليهم لعدم الاستيطان .

هذه خلاصة أقوال أهل المذاهب الأربعة متفقة على اشتراط الوطن والاستيطان . وإن اختلفت في صفة الوطن من مصر أو قرية أو نحوها مبينة بحجر أو طين أو أخشاب أو خيام ثابتة صيفاً وشتاء على ما تقدم .

وقد انفرد أبو حنيفة ومعه صاحبه أبو يوسف باشتراط وجود الأمير والقاضي الذي يقيم الحدود احترازاً من القاضي الذي لا يقيم الحدود ، كقاضي السوق ، أو إذا كان من يلي

القشاء امرأة على مذهبه في ذلك وهي لا تقضي في الحدود لعدم جواز شهادتها فيها ، واكتفى الأئمة الثلاثة بمطلق الاستيطان ، ومعلوم أن الاستيطان يستلزم الإمارة شرعاً وعقلاً .

أما شرعاً فلقوله صلى الله عليه وسلم : " ما من ثلاثة لا يؤمرون عليهم أميراً إلا استحوذ عليهم الشطيان " .

وعقلاً ، فإن مستوطنين لا تسلم أحوالهم من خلافات ومشاحة فيما بينهم فلا بد من شخص يرجعون إليه ، وهو في معنى الأمير المطلوب ، كما أن الاستيطان يستلزم السوق لحوائجهم كما هو معلوم عرفاً .

(348/764)

وقد استدل الجمهور بحديث ابن عباس رضي الله عنه " أن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقرية من قرى البحرين يقال لها جواثي " وبحديث أبي أمامة أنه جمع بهم بالمدينة قبل مجيء النَّبي صلى الله عليه وسلم في هزم من حرة بني بياضة يقال له : نقيع الخضمات . مما لا يستلزم المصر الذي اشترطه أبو حنيفة رحمه الله ، وأجاب الأحناف عن ذلك بعدم المعارضة بين حديث علي وحديث ابن عباس ،

وفعل أبي أمامة ، وقالوا : إن قول علي لا يكون إلا عن سماع ، ولأن قوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ ليس على إطلاقه بإتفاق الأمة ، إذ لا يجوز إقامتها في البراري إجماعاً ، ولا في كل قرية عند ابن عباس ، بل يشترط ألا يظعن أهلها عنها صيفاً ولا شتاء ، فكان خصوص المكان مراداً فيها إجماعاً ، فقدر القرية من أخذ بحديث ابن عباس بأنها القرية الخاصة. وقدر الأحناف المصر وقالوا : هو أولى لنص حديث علي " إلا في مصر جامع " ، وقالوا إن إقامتها في قرية جواثي غاية ما فيه تسمية جواثاً قرية ، وهذه التسمية هي عرف الصدر الأول ، وهو لغة القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] أي مكة والطائف ، ومكة بلا شك مصر ، وفي الصحاح أن وجواثاً حصن بالبحرين ، فهي مصر إذ الحصن لا يخلو عن حاكم عليهم وعالم ، أما صلاة أبي أمامة فلم تكن عن علم ولا تقرير من النَّبي صل الله عليه وسلم ، ولا كانت شرعت الجمعة آنذاك ، فلا حجة فيه. والذي يقتضيه النظر بين هذه الأقوال والله تعالى أعلم : أن رأي الجمهور أرجح. ويتمشى مع قواعد مذهب أبي حنيفة في الجملة ، لأن الأحناف يتفقون مع الجمهور على تسمية المصر قرية كتسيمة الطائف ومكة قرى.

وجاء في القرآن : مكة أم القرى ، فالقرية أعم من المصر ، ومذهب أبي حنيفة تقديم العام على الخاص في كثير من الأمور ، كما في حديث " فيما سقت السماء العشر " فقدمه على حديث " ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة " ، من هذا كله يتضح أن الاستيطان مجمع عيله ، فلا تصح في غير وطن ، ولا تلزم غير مستوطن . ومن قال بغير ذلك فقد خالف الأئمة ، وشذ عن الأمة ، لويس له سلف فيما ذهب غليه ، والذي قاله الجمهور يشهد له سياق القرآن الكريم بالإيماء والإشارة ، لأننا لو أخذنا بعين الاعتبار الأمر بالسعي إلى ذكرا لله وترك البيع حتى لا يشغل عنهم ، ثم الانتشار في الأرض بعد قضائها ، لتحصل عندنا من مجموع ذلك كله أن هناك جماعة نوديت وكلفت باستجابة النداء والسعي ، ثم الكف عن البيع الذي يشغل عن السعي ، ومثل هذا البيع الذي يكلفون بالكف عنه والذي يخشى منه شغل الناس عن السعي إلى الجمعة لا يكون عقداً بين اثنين فقط ، ولا يكون عملاً فردياً بل يشعر بأنه عمل بين أفراد عديدين ومبايعات متعددة مما يشكل حالة السوق ، والسوق لا يكون في البوادي بل في القرى وللمستوطنين .

والعادة أن أهل البوادي ينزلون إلى القرى والأمصار للتزود من أسواقها ، وإذا وجد السوق ، ووجدت الجماعة ، اقتضى ذلك وجود الحاكم لاحتمال المشاحة والمنازعات . كما تقدم استلزام ذلك شرعاً وعقلاً ، كما أن قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ يدل على الكثرة ، لأن مادة الانتشار لا تطلق على الواحد

ولا الاثنين، كما في حديث "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا "، ومنه انتشار الخبر لا يصدق على ما يكون بين اثنين، أو أكثر، إذا كانوا يتكتمون. فإذا استفاض وكثر من يعرفه، قيل له : انتشر الخبر.

قال صاحب معجم مقاييس اللغة في مادة نشر : النون والشين والراء أصل صحيح يدل على فتح شيء وتشعبه، فقوله : وتشعبه يدل على الكثرة.

(350/764)

وقد يقال : اكتسى البازي ريشاً نشراً، أي منتشراً واسعاً طويلاً، ومعلوم أن ريش البازي كثير، وهذا الوصف لا يتأتى من نفر قلائل في بادية، بل لا يتأتى تحققه إلا من أهل القرى المستوطنين. وفعلنا في هذا قد أوضحنا هذه المسألة خاصة لهؤلاء الذين يقولون : إن الجمعة كالجماعة تصح من أي عدد في أي مكان على آية حالة كانوا، وهو قول في الواقع لم يكن لهم فيه سلف، وخالفوا به السلف والخلف، مع ما في قولهم من هدم حكمة التشريع في إقامة الجمعة، حيث إننا وجدنا حكمة الجماعة في العدد القليل، ولأهل كل مسجد في كل ضاحية.

ثم نأت الجمعة لأهل القرية والمصر ومن في ضواحيها على بعد خمسة أو ستة أميال، كام قال

المالكية ، وكما كان السلف يأتون إلى المدينة زمن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، لما فيه من تجمع للمسلمين على نطاق أوسع من نطاق الجماعة .

ثم يأتي العيد وهو على نطاق أوسع فيشمل حتى النساء يحضرن ذلك اليوم ، ثم يأتي الحج يأتون إليه من كل فج عميق ، ولعل مما يشهد لهذا ويرد على من خالفه ، ما جاء في اجتماع العيد والجمعة . إذ خيرهم النَّبي صلى الله عليه وسلم بين النزول إلى الجمعة وبين الاكتفاء العيد أي أهل الضواحي .

ثم أخبرهم بأنه سيصلي الجمعة ، تصح منهم في منازلهم وضواحيهم لأرشدهم إلى ذلك وأعفاهم من النزول سواء في يوم العيد الذي يكون في يوم الجمعة أو في الجمعة من غير يوم العيد ، بل كانوا ينزلون من أطراف المدينة كما هو معلوم ، والعلم عند الله تعالى .

العدد في الجمعة

والواقع أن مسألة العدد في الجمعة قد كثر الخلاف فيها . فمن قائل : تصح بواحد مع الإمام . وعزاه ابن رشد للطبري ، ومن قائل باثنين مع الإمام وعزاه القرطبي للحسن ، ومن قائل بثلاثة مع الإمام وعزى لأبي حنيفة ، ومن قائل باثني عشر رجلاً ، وعزاه القرطبي لربيعة ،

ومن قائل بثلاثين ، ومن قائل بأربعين ، وهو قول الشافعي وأحمد . ومن قائل بكل عدد يتأتى في قرية مستوطنة ، وألا يكونوا ثلاثة ونحوها ، وهو قول مالك . قال في متن خليل :

وبجماعة تتقرى بهم قرية بلا حد .

وقال في الشرح : أي جماعة يمكنهم الدفع عن أنفسهم في الأمور الكثيرة لا النادرة ، وذلك يختلف بحسب الجهات إلى أن قال : وأفهم كلام المؤلف أن الاثني عشر لا تتقرى بهم قرية .

فقوله : بلا حد أي بعد الاثني عشر اه .

والواقع أن كل هذه الأقوال ليس عليها مستند يعول عيه في العدد . بحيث لو نقص واحد بطلت ، ولكن الذي يشهد له الشرع من السماحة واليسر ، هو ما قاله مالك رحمه الله ، وما قدمنا من أن السياق يدل على وجود جماعة لها سوق ، ويتأتى منها الانتشار في الأرض بعد انقضاء الصلاة . ولم نطل الكلام في هذه المسألة لعدم وجود نص صريح فيها ، وكل ما يستدل به فهو حكاية حال تحتمل الزيادة والنقص ولا يعمل بمفاهيمها . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض ﴾ الآية .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه التنبيه على ما فيها من مبحث أصولي ، وهو الأمر بعد الحظر وأصح ما فيه أنه يرد الأمر المحظور إلى ما كان عليه قبل ورود الحظر عليه .

مسألة

وقت السعي إلى الجمعة ظاهر قوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُوا البيع ﴾ [الجمعة : 9] أن السعي يكون بعد النداء ، وعند ترك البيع ، ومفهومه أن قبل النداء لا يلزم السعي ولا ترك البيع ، وهذا ظاهر من النص ، ولكن جاءت نصوص للحث على البكور إلى الجمعة ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : " من بكر وابتكر ومشى ولم يركب وصلى ما تيسر له " الحديث .

وحديث " من راح في الساعة الأولى " إلى آخر الحديث ، فكان البكور مندوباً إليه ، وهذا أمر مسلم به ، ولكن وقع الخلاف بين مالك والجمهور في مبدأ البكور ، ومعنى الساعة الأولى أي ساعة لغوية أو زمنية . وهل هي الأولى من النهار أو الأولى بعد الأذان ، فقال مالك : إن الساعة لغوية ، وهي الأولى بعد الأذان ، إذ لا يجب السعي إلا بعده وقبله لا تكليف به .

وحمل الجمهور الساعة على الساعة الزمنية ، وأن الأولى هي الأولى من النهار ، والراجح ما ذهب إليه الجمهور لعدة أمور :

أولاً : في لفظ حديث البكور ، لأن لفظ البكور لا يكون إلا لأول النهار ، ولا يقال لما بعد

الزوال بكور ، بل يسمى عشياً كما في قوله تعالى :

﴿ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم : 11] وتكرار بكر ، وابتكر ، يدل على أنه في بكرة النهار وأوائله ، وكذلك لفظة من راح ، لأن الرواح لأول النهار .

ثانياً في الحديث : " وصلى ما تيسر " له دليل قاطع على أن هناك زمناً يتسع للصلاة بقدر ما تيسر له . أما على مذهب مالك فلا متسع لصلاة بعد النداء . ولا سيما في زمنه صلى الله عليه وسلم لم يكن إلا أذان واحد ، وبعد النداء فلا متسع للصلة .

ثالثاً : ما جاء عن بعض السلف ، كما تقدم أنه كان يصلي أربعاً وثماني واثنتي عشرة ركعة ، وهذا كله لا يكون مع الساعات اللغوية ، وما جاء عند النيسابوري من قوله في تفسيره :

وكانت الطرقات في أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر غاصة بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج.

وقيل : أول بدعة أحدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجمعة ، والذي يقتضيه النظر في هذه المسألة : هو أن زمن السعي له جهتان : جهة وجوب وإلزام ، وهذا لا شك أنه بعد النداء إلا من كان محله بعيداً . : بحيث لو انتظر حتى ينادى لها لا يدركها فيتعين عليه السعي إليها

قبل النداء اتفاقاً ، لأنه لا يتمكن من أداء ما وجب عليه من صلاة الجمعة إلا بذلك . وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وهذا مخصوص منظاهر النص المتقدم .

الجهة الثانية : جهة ندب واستحباب ، وهذا لا يتقيد بزمن وإنما هو بحسب ظروف الشخص . فمن تمكن من البكور ولم يتعطل ببكوره ما هو ألزم منه ، فيندب له البكور ، وبحسب ما يكون بكوره في الساعات الخمس المذكورة في الحديث يكون ماله من الأجر ، ويشهد لهذا المعنى أمران :

الأول : حديث الملائكة على أبواب المساجد يكتبون الأول فالأول . فإذا حضر الإمام طوت الصحف وجلسوا يستمعون الذكر ، فكتابه الأول فالأول قبل خروج الإمام ، تدل على فضل الأولية قبل النداء كما تقدم .

الأمر الثاني : أننا وجدنا لكل واجب مندوباً والسعي إلى الجمعة عند النداء واجب ، فيكون له مندوب وهو السعي قبل النداء ، فكما للصلاة والصيام والزكاة واجب ومندوب . فكذلك للسعي واجب ومندوب ، فواجبه بعد النداء ، ومندوبه قبله ، والله أعلم .

الغسل للجمعة

في قوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ [الجمعة : 9] ترتيب السعي إلى ذكر الله على النداء ، ومعلوم أن هذا مقيد بسبق الطهر إجماعاً . وقد

جاء في قوله تعالى ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا وُجُوهَكُمْ ﴾ [المائدة : 6] فكانت الطهارة بالوضوء شرطاً في صحة الصلاة .

وهنا في خصوص الجمعة لم يذكر شيء في خصوص الطهر لها بوضوء أو غسل .

وقد جاءت أحاديث في غسل الجمعة منها حديث أبي سعيد من قوله صلى الله عليه وسلم :

" غسل يوم الجمعة واجل على كل محتلم " ، وفي لفظ " طهر الجمعة واجب على كل محتلم كطهر الجنابة " وهذا نص صريح في وجوب الغسل على كل من بلغ سن الحلم .

وجاء حديث آخر : " من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ، ومن اغتسل فالغسل أفضل " وهذا نص صريح في أفضلية الغسل على الوضوء ، وبالتالي صحة الجمعة بالوضوء وهذا مذهب الجمهور .

وقد جاء عند مالك في الموطإ : أن عثمان دخل يوم الجمعة وعمر يخطب فعاتبه على تأخرهن فأخبره أنته ما إن سمع النداء حتى توضأ . وأتى إلى المسجد فقال له : والوضوء أيضاً ، وذلك بمحضر من الصحابة ، فلم يأمره بالعودة إلى الغسل ، ولو كان واجباً لما تركه

عثمان من نفسه ، ولا أقره عمر وتركه على وضوئه .

فقال الجمهور : إن الحديث الأول قد نسخ الوجوب فيه بحديث المفاضلة المذكور ،

واستدلُّوا على ذلك بأمرين : الأول قصة عمر مع عثمان هذه .

والثاني : قول عائشة رضي الله عنها كانوا في أول الأمر هم فعلة أنفسهم فكانوا يأتون إلى المسجد ويشتد عرقهم فتظهر لهم روائح فعزم عليهم صلى الله عليه وسلم بالغسل ، ولما فتح الله عليهم وجاءته العلوج وكفوا مؤنة العمل ، رخص لهم في ذلك ، وهذا هو مذهب الجمهور ، كما قدمنا .

وعند الظاهرية وجوب الغسل ، ولكن لليوم لا للجمعة ، لنص الحديث : غسل يوم الجمعة ولم يقل الغسل لصلاة الجمعة ، واستدلوا لما ذهبوا إليه من النصوص في تعهد الشعور والأظاهر والغسل بصيغة عامة كل يوم على الإطلاق ، وقيدوه في الغسل بخصوص الجمعة ، وعليه فإن من لم يغتسل عندهم قبل الصلاة فعليه أن يغتسل بعدها ، وأنه ليس شرطاً عندهم لصحتها ، والذي يظهر هو صحة مذهب الجمهور لأمرين :

الأول : أن مناسبة الغسل في هذا اليوم أنسب ما تكون لها التجمع ، كما أشارت عائشة رضي الله عنها ، فإذا أهدرنا هذه المناسبة كان يوم الجمعة وغيرها سواء .

الثاني : أن سياق الآية يشير إشارة خفية إلى عدم وجوب الغسل ، لأنه لم يذكر نوع طهارة عند السعي بعد الأذان ، ومعلوم أنه لا بد من طهر لها ، فيكون إحالة على الآية الثانية العامة في كل الصلوات ، ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا وُجُوهَكُمْ ﴾ [المائدة : 6] الآية . فيكتفي بالوضوء وتحصل الفضيلة بالغسل ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾ .

في عود الضمير على التجارة وحدها مغايرة لذكر اللهو معها .

وقال الزمخشري : حذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ، وذكر قراءة أخرى ، انفضوا إليه يعود الضمير إلى اللهو ، وهذا توجيه قد يسوغ لغة كما في قول نابغة ذبيان :

وقد أراني ونعما لاهيين بها . . . والدهر والعيش لم يهمم بإمرار

فذكر الدهر والعيش ، وأعاد عليها ضميراً منفرداً اكتفاء بأحدهما عن الآخر للعلم به ، وهو كما قال ابن مالك : وحذف ما يعلم جائز ؟

وقد ذكر الشيخ رحمه الله لهذا نظائر في غير عود الضمير ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل : 81] ، فالتي تقي الحر ، تقي البرد ، فاكتفى بذرك أحدهما لدلالته على الآخر ، ولكن المقام هنا خلاف ذلك .

وقد قال الشيخ عن هذه الآية في دفع إيهام الاضطراب : لا يخفى أن أصل مرجع الضمير هو الأحد الدائر بين التجارة واللهو ، بدلالة لفظة أو على ذلك ، ولكن الضمير رجع إلى التجارة وحدها دون اللهو ، فبينه وبين مفسره بعض منافاة في الجملة ، والجواب : أن التجارة أهم من اللهو وأقوى سبباً في الانفضاض عن النَّبي صلى الله عليه وسلم لأنهم انفضوا من أجل العير واللهو كان من أجل قدومها ، مع أن اللغة يجوز فيها رجوع الضمير لأحد المذكورين قبله . أما في العطف بأو فواضح ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خطيائة أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً ﴾ [النساء : 112] .

وأما الواو فهو فيها كثير كقوله ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ [البقرة : 45] وقوله ﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] ، وقوله : ﴿ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله ﴾ [التوبة : 34] اه .

أي أن هذه الأمثلة كلها يذكر فيها أمران ، ويعود الضمير على واحد منهما .

وبناء على جواب الشيخ رحمة الله تعالى عليه ، يمكن القول بأن عود الضمير على أحد المذكورين ، إما لتساويهما في الماصدق ، وإما لمعنى زائد فيما عاد عليه الضمير .

فمن المتساويين قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خطيائة أَوْ إِثْماً ﴾ لتساويهما في النهي والعصيان ، ومما له معنى زائد قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ وإنها أي الصلاة ، لأنها أخص من عموم الصبر ، ووجود الأخص يقتضي وجود الأعم دون العكس ، ولأن الصلاة وسيلة للصبر ، كما في الحديث : "كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمرهم فزع إلى الصلاة "

وكذلك قوله تعالى : ﴿ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا ﴾ أي الفضة ، لأن كنز الفضلة أوفر ، وكانزوها أكثر فصورة الكنز حاصلة فيها بصفة أوسع ، ولدى كثير من الناس ، فكان توجيه الخطاب إليهم أولى ، ومن ناحية أخرى لما كانت الفضة من ناحية أخرى لما كانت الفضلة من الناحية النقدية أقل قيمة ، والذهب أعظم ، كان في عود الضمير عليها تنبيه بالأدنى على الأعلى ، فكأنه أشمل وأعم ، وأشد تخويفاً لمن يكنزون الذهب .

أما الآية هنا ، فإن التوجيه الذي وجهه الشيخ رحمه الله تعالى عليه ، لعود الضمير على التجارة ، فإنه في السياق ما يدل عليه ، وذلك في قوله تعالى بعدها : ﴿ قُلْ مَا عِندَ الله

خَيْرٌ مِّنَ اللهو وَمِنَ التجارة ﴾ ، فذكر السببين المتقدمين لانفضاضهم عنه صلى الله عليه وسلم ، ثم عقبه بقوله تعالى ، بالتذييل المشعر بأن التجارة هي الأصل بقوله : ﴿ والله خَيْرُ الرازقين ﴾ ، والرزق ثمرة التجارة .

فكان هذا بياناً قرآنياً لعود الضمير هنا على التجارة دون اللهو . والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

قال أبو حيان عن ابن عطية : تأمل إن قدمت التجارة على اللهو في الرؤية ، لأنها أهم وأخرت مع التفضيل لتقع النفس أولاً على الأبين اه .

يريد بقوله : في الرؤية ، وإذا رأوا . وبقوله : مع التفضيل ﴿ قُلْ مَا عِندَ الله خَيْرٌ مِّنَ اللهو وَمِنَ التجارة ﴾ أي لأن اللهو أبين في الظهور ، والذي يظهر والعلم عند الله تعالى : إنه عند التفضيل ذكر اللهو للواقع فقط ، لأن اللهو لا خير فيه مطلقاً فليس محلاً للمفاضلة ، وأخر ذكر التجارة لتكون أقرب لذكر الرزق لارتباطهما معاً ، فلو قدمت التجارة هنا أيضاً لكان ذكر اللهو فاصلاً بينهم وبين قوله تعالى : ﴿ والله خَيْرُ الرازقين ﴾ ، وهو لا يتناسق مع حقيقة المفاضلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الْجُمُعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾

قِيلَ : إنَّمَا سُمُّوا أُمِّيِّينَ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَكْتُبُونَ وَلَا يَقْرَءُونَ الْكِتَابَةَ ، وَأَرَادَ الْأَكْثَرَ الْأَعَمَّ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ الْقَلِيلُ مِمَّنْ يَكْتُبُ وَيَقْرَأُ ؛ وَقَالَ النَّبِيُّ : ﴿ الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ ، وَقَالَ : إنَّا نَحْنُ أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَحْسُبُ وَلَا نَكْتُبُ ﴾ .

وَقَالَ - تَعَالَى - : ﴿ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أُمِّيًّا ، وَقَالَ - تَعَالَى - : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ وَقِيلَ إنَّمَا سُمِّيَ مَنْ لَا يَكْتُبُ أُمِّيًّا ؛ لِأَنَّهُ نُسِبَ إلَى حَالِ وِلَادَتِهِ مِنْ الْأُمِّ ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَةَ إنَّمَا تَكُونُ بِالِاسْتِفَادَةِ وَالتَّعَلُّمِ دُونَ الْحَالِ الَّتِي يَجْرِي عَلَيْهَا الْمَوْلُودُ .

وَأَمَّا وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي جَعْلِ النُّبُوَّةِ فِي أُمِّيٍّ فَإِنَّهُ لِيُوَافِقَ مَا تَقَدَّمَتْ بِهِ الْبِشَارَةُ فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ السَّالِفَةِ ؛ وَلِأَنَّهُ أَبْعَدُ مِنْ تَوَهُّمِ الِاسْتِعَانَةِ عَلَى مَا أَتَى بِهِ مِنْ الْحِكْمَةِ بِالْكِتَابَةِ ؛ فَهَذَانِ وَجْهَانِ مِنْ الدَّلَالَةِ فِي كَوْنِهِ أُمِّيًّا عَلَى صِحَّةِ النُّبُوَّةِ وَمَعَ أَنَّ مُشَاكَلَةَ لِحَالِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ وَذَلِكَ أَقْرَبُ إلَى مُسَاوَاتِهِ لَوْ كَانَ ذَلِكَ مُمْكِنًا فِيهِ ، فَدَلَّ عَجْزُهُمْ عَمَّا أَتَى بِهِ عَلَى مُسَاوَاتِهِ لَهُمْ فِي هَذَا الْوَجْهِ عَلَى أَنَّهُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - .

وقَوْله تَعَالَى -: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ الْآيَةَ.

رُوِيَ أَنَّهُ أَرَادَ الْيَهُودَ الَّذِينَ أُمِرُوا بِتَعَلُّمِ التَّوْرَاةِ وَالْعَمَلِ بِهَا فَتَعَلَّمُوهَا ثُمَّ لَمْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَشَبَّهَهُمُ اللَّهُ بِالْحِمَارِ الَّذِي يَحْمِلُ الْكُتُبَ وَهِيَ الْأَسْفَارُ؛ إِذْ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا حَمَلُوهُ كَمَا لَا يَنْتَفِعُ الْحِمَارُ بِالْكُتُبِ الَّتِي حَمَلَهَا؛ وَهُوَ نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ كَمَثَلِ الْكَلْبِ. ﴾

وقَوْله تَعَالَى - ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ رُوِيَ أَنَّ الْيَهُودَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ وَأَخْبَرَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ إِنْ تَمَنَّوْهُ مَاتُوا فَقَامَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِهَا مِنْ وَجْهَيْنِ.

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا صَادِقِينَ فِيمَا ادَّعَوْا مِنْ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ اللَّهِ لَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ؛ لِأَنَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ مَعَ الْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَتَمَنَّوْنَهُ فَوُجِدَ مَخْبَرُهُ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ فَهَذَا وَاضِحٌ مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ.

وقَوْله تعَالَى - ﴿ يا أَيُّها الَّذين آمَنُوا إِذَا نُودِيَ للصَّلَاةِ مِنْ يومِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الْآيَة .

(360/764)

قَالَ أَبو بكْرٍ يَفْعَل فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ جمَاعَةً صَلَوَاتٍ كَمَا يَفْعَل فِي سَائِرِ الْأَفْعَالِ ولَمْ يُبيِّنْ فِي الْآيَةِ أَنَّهَا هِيَ واتفقَ الْمُسْلِمونَ عَلَى أَنَّ الْمرادَ الصَّلَاةُ الَّتِي إذَا فَعَلَهَا مَعَ الْإِمامِ جُمُعَةً لَمْ يَلْزَمْهُ فِعْلُ الظُّهْرِ معها وهِيَ رَكْعَتَانِ بَعْدَ الزَّوالِ عَلَى شَرَائِطِ الْجُمُعَةِ واتَّفَقَ الْجميعُ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الْمُرادَ بِهَذَا النّداءِ هُوَ الْأَذَانُ ، ولَمْ يُبيِّنْ فِي الْآيَةِ كَيْفِيَّتَهُ وبَيَّنَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ الَّذِي رَأَى فِي الْمَنَامِ الْأَذَانَ ورآهُ عُمَرُ أَيْضًا كَمَا رآهُ ابْنُ زَيْدٍ وعَلَّمَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ أَبَا مَحْذُورَةَ وذَكَرَ فِيهِ التَّرْجِيعَ وقَدْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ عِنْدَ قَوْله تَعَالَى - : ﴿ ، وإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ .

ورُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ والْحسَنِ فِي قَوْلِهِ ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ قَالَ " إذَا خَرَجَ الْإِمَامُ وأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ فقدْ نُودِيَ لِلصَّلَاةِ " .

ورَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ " مَا كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ إلَّا مُؤَذِّنٌ واحِدٌ يُؤَذِّنُ إذَا قَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ ثُمَّ يُقِيمُ إذَا نَزَلَ ثُمَّ أَبو بكْرٍ كَذَلِكَ ثُمَّ عُمَرُ كَذَلِكَ فَلَمَّا كَانَ

عُثْمَانُ وَفَشَا النَّاسُ وَكَثُرُوا زَادَ النِّدَاءَ الثَّالِثَ " وَقَدْ رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ السَّلَفِ إنْكَارَ الْأَذَانِ الْأَوَّلِ قَبْلَ خُرُوجِ الْإِمَامِ .

رَوَى وَكِيعٌ قَالَ حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ الْغَازِ قَالَ سَأَلْتُ نَافِعًا عَنْ الْأَذَانِ الْأَوَّلِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَالَ قَالَ ابْنُ عُمَرَ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ، وَإِنْ رَآهُ النَّاسُ حَسَنًا " .

وَرَوَى مَنْصُورٌ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ " النِّدَاءُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الَّذِي يَكُونُ عِنْدَ خُرُوجِ الْإِمَامِ وَالَّذِي قَبْلُ مُحْدَثٌ " .

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ قَالَ " إنَّمَا كَانَ الْأَذَانُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِيمَا مَضَى وَاحِدًا ثُمَّ الْإِقَامَةَ وَأَمَّا الْأَذَانُ الْأَوَّلُ الَّذِي يُؤَذَّنُ بِهِ الْآنَ قَبْلَ خُرُوجِ الْإِمَامِ وَجُلُوسِهِ عَلَى الْمِنْبَرِ فَهُوَ بَاطِلٌ أَوَّلُ مَنْ أَحْدَثَهُ الْحَجَّاجُ .

" وَأَمَّا أَصْحَابُنَا فَإِنَّهُمْ إنَّمَا ذَكَرُوا أَذَانًا وَاحِدًا إذَا قَعَدَ الْإِمَامُ عَلَى الْمِنْبَرِ فَإِذَا نَزَلَ أَقَامَ عَلَى مَا كَانَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

وَأَمَّا وقْتُ الْجُمُعَةِ فَإِنَّهُ بَعْدَ الزَّوَالِ ، وَرَوَى أَنَسٌ وَجَابِرٌ وَسَهْلُ بْنُ سَعْدٍ وَسَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي الْجُمُعَةَ إِذَا زَالَتْ الشَّمْسُ ﴾ .

(362/764)

وَرَوَى شُعْبَةُ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَمَةَ قَالَ : صَلَّى بِنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَأَصْحَابُهُ الْجُمُعَةَ ضُحًى ثُمَّ قَالَ : إنَّمَا فَعَلْت ذَلِكَ مَخَافَةَ الْحَرِّ عَلَيْكُمْ " وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَعَلِيٍّ أَنَّهُمَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا صَلَّيَاهَا بَعْدَ الزَّوَالِ وَلَمَّا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : إنِّي قَدَّمْتُ مَخَافَةَ الْحَرِّ عَلَيْكُمْ " عَلِمْنَا أَنَّهُ فَعَلَهَا عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الْمُعْتَادِ الْمُتَعَارَفِ بَيْنَهُمْ .

(363/764)

وَمَعْلُومٌ أَنَّ فِعْلَ الْفُرُوضِ قَبْلَ أَوْقَاتِهَا لَا يَجُوزُ لِحَرٍّ وَلَا لِبَرْدٍ إذَا لَمْ يُوجَدْ أَسْبَابُهَا ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ فَعَلَهَا فِي أَوَّلِ وَقْتِ الظُّهْرِ الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ أَوْقَاتِ الظُّهْرِ إلَى الضُّحَى ، فَسَمَّاهُ الرَّاوِي ضُحًى ؛ لِقُرْبِهِ مِنْهُ ، كَمَا ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَتَسَحَّرُ : تَعَالَ إلَى الْغَدَاءِ الْمُبَارَكِ ﴾ فَسَمَّاهُ غَدَاءً لِقُرْبِهِ مِنْ الْغَدَاءِ ، وَكَمَا قَالَ حُذَيْفَةُ : ﴿ تَسَحَّرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ نَهَارًا ﴾ وَالْمَعْنَى قَرِيبٌ مِنْ النَّهَارِ وَلَمَّا اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي الَّذِي يَلْزَمُ مِنْ الْفَرْضِ بِدُخُولِ الْوَقْتِ ، فَقَالَ قَائِلُونَ : " فَرْضُ الْوَقْتِ الْجُمُعَةُ وَالظُّهْرُ بَدَلٌ مِنْهَا " وَقَالَ آخَرُونَ : " فَرْضُ الْوَقْتِ الظُّهْرُ وَالْجُمُعَةُ بَدَلٌ مِنْهُ " ، اسْتَحَالَ أَنْ يَفْعَلَ الْبَدَلَ إلَّا فِي وَقْتٍ يَصِحُّ فِيهِ فِعْلُ الْمُبْدَلِ عَنْهُ وَهُوَ الظُّهْرُ ، وَلَمَّا ثَبَتَ أَنَّ وَقْتَهَا بَعْدَ الزَّوَالِ ثَبَتَ أَنَّ وَقْتَ النِّدَاءِ لَهَا بَعْدَ الزَّوَالِ كَسَائِرِ الصَّلَوَاتِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى - : ﴿ فَاسْعَوْا إلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ قَرَأَ عُمَرُ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَأُبَيٌّ وَابْنُ الزُّبَيْرِ : " فَامْضُوا إلَى ذِكْرِ اللَّهِ " ؛ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : لَوْ قَرَأْت : " فَاسْعَوْا " لَسَعَيْت حَتَّى يَسْقُطَ رِدَائِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ التَّفْسِيرَ لَا نَصَّ الْقِرَاءَةِ ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ لِلْأَعْجَمِيِّ الَّذِي كَانَ يُلَقِّنُهُ : ﴿ إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ فَكَانَ يَقُولُ طَعَامُ الْيَتِيمِ " ، فَلَمَّا أَعْيَاهُ قَالَ لَهُ طَعَامُ الْفَاجِرِ " ، وَإِنَّمَا أَرَادَ إفْهَامَهُ الْمَعْنَى وَقَالَ الْحَسَنُ : " لَيْسَ يُرِيدُ بِهِ الْعَدْوَ ، وَإِنَّمَا السَّعْيُ بِقَلْبِك وَنِيَّتِك " .

وَقَالَ عَطَاءٌ : " السَّعْيُ الذَّهَابُ " وَقَالَ عِكْرِمَةُ : " السَّعْيُ الْعَمَلُ " .

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : فَاسْعَوْا أَجِيبُوا ، وَلَيْسَ مِنَ الْعَدْوِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالسَّعْيِ هَهُنَا إِخْلَاصُ النِّيَّةِ وَالْعَمَلِ ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ السَّعْيَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ وَلَمْ يَكُنْ مُرَادُهُ سُرْعَةَ الْمَشْيِ ، مِنْهَا قَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ ، ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ ﴾ ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ الْعَمَلَ وَرَوَى الْعَلَاءُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ وَلَكِنْ ائْتُوهَا وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا ﴾ ، وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ الْجُمُعَةِ وَغَيْرِهَا وَاتَّفَقَ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ عَلَى أَنَّهُ يَمْشِي إِلَى الْجُمُعَةِ عَلَى هَيْئَتِهِ .

فَصْلٌ وَاتَّفَقَ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ عَلَى أَنَّ الْجُمُعَةَ مَخْصُوصَةٌ بِمَوْضِعٍ لَا يَجُوزُ فِعْلُهَا فِي غَيْرِهِ ؛ لِأَنَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ الْجُمُعَةَ لَا تَجُوزُ فِي الْبَوَادِي وَمَنَاهِلِ الْأَعْرَابِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا : " هِيَ مَخْصُوصَةٌ بِالْأَمْصَارِ وَلَا تَصِحُّ فِي السَّوَادِ " ، وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ وَقَالَ مَالِكٌ : " تَصِحُّ الْجُمُعَةُ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ فِيهَا بُيُوتٌ مُتَّصِلَةٌ وَأَسْوَاقٌ مُتَّصِلَةٌ ، يُقَدِّمُونَ رَجُلًا يَخْطُبُ وَيُصَلِّي بِهِمْ الْجُمُعَةَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِمَامٌ " .

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : "لَا جُمُعَةَ إلَّا فِي مَسْجِدِ جَمَاعَةٍ مَعَ الْإِمَامِ" وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : "إذَا كَانَتْ قَرْيَةٌ مُجْتَمِعَةَ الْبِنَاءِ وَالْمَنَازِلِ وَكَانَ أَهْلُهَا لَا يَظْعَنُونَ عَنْهَا إلَّا ظَعْنَ حَاجَةٍ وَهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا حُرًّا بَالِغًا غَيْرَ مَغْلُوبٍ عَلَى عَقْلِهِ وَجَبَتْ عَلَيْهِمْ الْجُمُعَةُ" قَالَ أَبُو بَكْرٍ : رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَا جُمُعَةَ وَلَا تَشْرِيقَ إلَّا فِي مِصْرٍ جَامِعٍ ﴾ ، وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ مِثْلُهُ وَأَيْضًا لَوْ كَانَتْ الْجُمُعَةُ جَائِزَةً فِي الْقُرَى لَوَرَدَ النَّقْلُ بِهِ مُتَوَاتِرًا كَوُرُودِهِ فِي فِعْلِهَا فِي الْأَمْصَارِ ؛ لِعُمُومِ الْحَاجَةِ إلَيْهِ .

وَأَيْضًا لَمَّا اتَّفَقُوا عَلَى امْتِنَاعِ جَوَازِهَا فِي الْبَوَادِي ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ بِمِصْرٍ وَجَبَ مِثْلُهُ فِي السَّوَادِ وَرُوِيَ أَنَّهُ قِيلَ لِلْحَسَنِ : إنَّ الْحَجَّاجَ أَقَامَ الْجُمُعَةَ بِالْأَهْوَازِ فَقَالَ : لَعَنَ اللَّهُ الْحَجَّاجَ يَتْرُكُ الْجُمُعَةَ فِي الْأَمْصَارِ وَيُقِيمُهَا فِي حَلَاقِيمِ الْبِلَادِ فَإِنْ قِيلَ : رُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ الْجُمُعَةَ تَجِبُ عَلَى مَنْ آوَاهُ اللَّيْلُ ، وَأَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ كَانَ بِالطَّفِّ فَرُبَّمَا جَمَعَ وَرُبَّمَا لَمْ يُجْمِعْ ؛ وَقِيلَ مِنْ الطَّفِّ إلَى الْبَصْرَةِ أَقَلُّ مِنْ أَرْبَعِ فَرَاسِخَ وَأَقَلُّ مِنْ مَسِيرَةِ نِصْفِ يَوْمٍ .

قِيلَ لَهُ : إنَّمَا هَذَا كَلَامٌ فِيمَا حُكْمُهُ حُكْمُ الْمِصْرِ ، فَرَأَى

ابْنُ عُمَرَ أَنَّ مَا قَرُبَ مِنْ الْمِصْرِ فَحُكْمُهُ حُكْمُهُ وَتَجِبُ عَلَى أَهْلِهِ الْجُمُعَةُ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَ الْجُمُعَةَ إلَّا فِي الْأَمْصَارِ أَوْ مَا حُكْمُهُ حُكْمُ الْأَمْصَارِ .

وَالْجُمُعَةُ رَكْعَتَانِ نَقَلَتْهَا الْأُمَّةُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلًا وَعَمَلًا ؛ وَقَالَ عُمَرُ : ﴿ صَلَاةُ السَّفَرِ رَكْعَتَانِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ رَكْعَتَانِ وَصَلَاةُ الْجُمُعَةِ رَكْعَتَانِ تَمَامٌ غَيْرُ قَصْرٍ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَإِنَّمَا قَصُرَتْ الْجُمُعَةُ لِأَجْلِ الْخُطْبَةِ ﴾ .

(368/764)

بَابُ وُجُوبِ خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَاسْعَوْا إلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ فَاقْتَضَى ذَلِكَ وُجُوبَ السَّعْيِ إلَى الذِّكْرِ ، وَدَلَّ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ ذِكْرًا وَاجِبًا يَجِبُ السَّعْيُ إلَيْهِ وَقَالَ ابْنُ الْمُسَيِّبِ : ﴿ فَاسْعَوْا إلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ مَوْعِظَةُ الْإِمَامِ " وَقَالَ عُمَرُ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي قَدَّمْنَا : " إنَّمَا قَصُرَتْ الْجُمُعَةُ لِأَجْلِ الْخُطْبَةِ " وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ ابْنِ الْمُسَيِّبِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ مَلَائِكَةٌ يَكْتُبُونَ النَّاسَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ طُوِيَتْ الصُّحُفُ وَاسْتَمَعُوا الْخُطْبَةَ ، فَالْمُهَجِّرُ إلَى الْجُمُعَةِ كَالَّذِي يُهْدِي بَدَنَةً ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ كَالْمُهْدِي بَقَرَةً ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ كَالْمُهْدِي شَاةً ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ كَالْمُهْدِي دَجَاجَةً ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ

كَالْمُهْدِي بَيْضَةً ﴾ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالذِّكْرِ هَهُنَا هُوَ الْخُطْبَةُ : لِأَنَّ الْخُطْبَةَ هِيَ الَّتِي تَلِي النِّدَاءَ ، وَقَدْ أَمَرَ بِالسَّعْيِ إلَيْهِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ الْخُطْبَةُ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ السَّلَفِ أَنَّهُ إذَا لَمْ يَخْطُبْ صَلَّى أَرْبَعًا ، مِنْهُمْ الْحَسَنُ وَابْنُ سِيرِينَ وَطَاوُسٌ وَابْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُمْ ، وَهُوَ قَوْلُ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِيمَنْ لَمْ يُدْرِكْ الْخُطْبَةَ وَأَدْرَكَ الصَّلَاةَ أَوْ بَعْضَهَا ، فَرُوِيَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ فِي الرَّجُلِ تَفُوتُهُ الْخُطْبَةُ

يَوْمَ الْجُمُعَةِ : أَنَّهُ يُصَلِّي الظُّهْرَ أَرْبَعًا " وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَطَاوُسٍ قَالُوا : مَنْ لَمْ يُدْرِكْ الْخُطْبَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ صَلَّى أَرْبَعًا " وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ : ذَكَرَ لِمُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَوْلَ أَهْلِ مَكَّةَ إذَا لَمْ يُدْرِكْ الْخُطْبَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ صَلَّى أَرْبَعًا ، قَالَ : لَيْسَ هَذَا بِشَيْءٍ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَلَا خِلَافَ بَيْنَ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ وَالسَّلَفِ مَا خَلَا عَطَاءً وَمَنْ ذَكَرْنَا قَوْلَهُ أَنَّ مَنْ أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنْ الْجُمُعَةِ أَضَافَ إلَيْهَا أُخْرَى ، وَلَمْ يُخَالِفْهُمْ عَطَاءٌ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ لَوْ شَهِدَ الْخُطْبَةَ فَذَهَبَ يَتَوَضَّأُ ثُمَّ جَاءَ فَأَدْرَكَ مَعَ الْإِمَامِ رَكْعَةً أَنَّهُ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ، فَلَمَّا لَمْ يَمْنَعْهُ فَوَاتُ الرَّكْعَةِ مِنْ فِعْلِ الْجُمُعَةِ كَانَتْ الْخُطْبَةُ أَوْلَى وَأَحْرَى بِذَلِكَ .

وَرَوَى الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ عَطَاءٍ أَنَّ مَنْ أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنْ الْجُمُعَةِ أَضَافَ إلَيْهَا ثَلَاثًا ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ فَاتَتْهُ الْخُطْبَةُ وَرَكْعَةٌ مِنْهَا وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عُمَرَ وَأَنَسٍ وَالْحَسَنِ وَابْنِ الْمُسَيِّبِ وَالنَّخَعِيِّ وَالشَّعْبِيِّ : " إذَا أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنْ الْجُمُعَةِ أَضَافَ إلَيْهَا أُخْرَى " وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنْ الْجُمُعَةِ فَلْيُصَلِّ إلَيْهَا أُخْرَى ، وَمَنْ فَاتَتْهُ الرَّكْعَتَانِ يُصَلِّي أَرْبَعًا ﴾ وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ وَفُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ فِيمَنْ أَدْرَكَ الْإِمَامَ فِي التَّشَهُّدِ ، فَرَوَى أَبُو وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : " مَنْ أَدْرَكَ التَّشَهُّدَ فَقَدْ أَدْرَكَ الصَّلَاةَ " وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ : " إذَا دَخَلَ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ قَبْلَ التَّسْلِيمِ وَهُوَ جَالِسٌ فَقَدْ أَدْرَكَ الْجُمُعَةَ " وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ وَإِبْرَاهِيمَ وَالشَّعْبِيِّ قَالُوا : " مَنْ لَمْ يُدْرِكْ الرُّكُوعَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ صَلَّى أَرْبَعًا " وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ : " إذَا أَدْرَكَهُمْ فِي التَّشَهُّدِ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ " وَقَالَ زُفَرُ وَمُحَمَّدٌ : " يُصَلِّي أَرْبَعًا " وَذَكَرَ الطَّحَاوِيُّ عَنْ ابْنِ أَبِي عِمْرَانَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِمَاعَةَ عَنْ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ قَالَ : "يُصَلِّي أَرْبَعًا ، يَقْعُدُ فِي الثِّنْتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ قَدْرَ

التَّشَهُّدِ فَإِنْ لَمْ يَقْعُدْ قَدْرَ التَّشَهُّدِ أَمَرْتَهُ أَنْ يُصَلِّيَ الظُّهْرَ أَرْبَعًا " .

وَقَالَ مَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ وَالْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ وَالشَّافِعِيُّ : "يُصَلِّي أَرْبَعًا " ، إِلَّا أَنَّ مَالِكًا قَالَ : " إِذَا قَامَ يُكَبِّرُ تَكْبِيرَةً أُخْرَى " وَقَالَ الثَّوْرِيُّ : " إِذَا أَدْرَكَ الْإِمَامَ جَالِسًا لَمْ يُسَلِّمْ صَلَّى أَرْبَعًا يَنْوِي الظُّهْرَ ، وَأَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَسْتَفْتِحَ الصَّلَاةَ " وَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ : " إِذَا أَدْرَكَ الْإِمَامَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي التَّشَهُّدِ قَعَدَ بِغَيْرِ تَكْبِيرٍ ، فَإِذَا سَلَّمَ الْإِمَامُ قَامَ فَكَبَّرَ وَدَخَلَ فِي صَلَاةِ نَفْسِهِ ، وَإِنْ قَعَدَ مَعَ الْإِمَامِ بِتَكْبِيرٍ سَلَّمَ إِذَا فَرَغَ الْإِمَامُ ثُمَّ قَامَ فَكَبَّرَ لِلظُّهْرِ " وَقَالَ اللَّيْثُ : " إِذَا أَدْرَكَ رَكْعَةً مَعَ الْإِمَامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَعِنْدَهُ أَنَّ الْإِمَامَ قَدْ خَطَبَ فَإِنَّمَا يُصَلِّي إِلَيْهَا رَكْعَةً أُخْرَى ثُمَّ يُسَلِّمُ ، فَإِنْ أَخْبَرَهُ النَّاسُ أَنَّ الْإِمَامَ لَمْ يَخْطُبْ وَأَنَّهُ صَلَّى أَرْبَعًا صَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَسَجَدَ سَجْدَتَيِ السَّهْوِ " .

(372/764)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمَّا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَاقْضُوا ﴾ وَجَبَ عَلَى مُدْرِكِ الْإِمَامِ فِي تَشَهُّدِ الْجُمُعَةِ اتِّبَاعُهُ فِيهِ وَالْقُعُودُ مَعَهُ ، وَلَمَّا كَانَ مُدْرِكًا لِهَذَا الْجُزْءِ مِنْ الصَّلَاةِ وَجَبَ عَلَيْهِ قَضَاءُ الْفَائِتِ مِنْهَا بِظَاهِرِ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا فَاتَكُمْ

فَاقْضُوا " ، وَالْفَائِتُ مِنْهَا هِيَ الْجُمُعَةُ ، فَوَجَبَ أَنْ يَقْضِيَ رَكْعَتَيْنِ وَأَيْضًا لَمَّا كَانَ مُدْرِكُ الْمُقِيمِ فِي التَّشَهُّدِ لَزِمَهُ الْإِتْمَامُ إذَا كَانَ مُسَافِرًا وَكَانَ بِمَنْزِلَةِ مُدْرِكِهِ فِي التَّحْرِيمَةِ وَجَبَ مِثْلُهُ فِي الْجُمُعَةِ ؛ إذْ الدُّخُولُ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ الصَّلَاتَيْنِ بِغَيْرِ الْفَرْضِ .

فَإِنْ قِيلَ : رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَنْ أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنْ الْجُمُعَةِ فَلْيُصَلِّ إلَيْهَا أُخْرَى ﴾ وَفِي

(373/764)

بَعْضِ الْأَخْبَارِ : ﴿ وَإِنْ أَدْرَكَهُمْ جُلُوسًا صَلَّى أَرْبَعًا ﴾ قِيلَ لَهُ : أَصْلُ الْحَدِيثِ : ﴿ مَنْ أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنْ الصَّلَاةِ فَقَدْ أَدْرَكَ ﴾ ، فَقَالَ الزُّهْرِيُّ وَهُوَ رَاوِي الْحَدِيثِ : مَا أَرَى الْجُمُعَةَ إلَّا مِنْ الصَّلَاةِ ؛ فَذِكْرُ الْجُمُعَةِ إنَّمَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الزُّهْرِيِّ ؛ وَالْحَدِيثُ إنَّمَا يَدُورُ عَلَى الزُّهْرِيِّ ، مَرَّةً يَرْوِيهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَمَرَّةً عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَقَدْ قَالَ حِينَ رَوَى الْحَدِيثَ فِي صَلَاةٍ مُطْلَقَةٍ : أَرَى الْجُمُعَةَ مِنْ الصَّلَاةِ ؛ فَلَوْ كَانَ عِنْدَهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصٌّ فِي الْجُمُعَةِ لَمَا قَالَ : مَا أَرَى الْجُمُعَةَ إلَّا مِنْ الصَّلَاةِ وَعَلَى أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ مَنْ أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنْ الْجُمُعَةِ فَقَدْ أَدْرَكَ ﴾ لَا دَلَالَةَ فِيهِ أَنَّهُ إذَا لَمْ يُدْرِكْ رَكْعَةً صَلَّى أَرْبَعًا ، كَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ مَنْ أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنْ الْجُمُعَةِ فَلْيُضِفْ إلَيْهَا رَكْعَةً أُخْرَى ﴾ وَأَمَّا مَا رُوِيَ : " وَإِنْ

أَدْرَكَهُمْ جُلُوسًا صَلَّى أَرْبَعًا " فَإِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ بَعْضِ الرُّوَاةِ أَدْرَجَهُ فِي الْحَدِيثِ، وَلَوْ صَحَّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مَعْنَاهُ: وَإِنْ أَدْرَكَهُمْ جُلُوسًا وَقَدْ سَلَّمَ الْإِمَامُ.

(374/764)

وَلَمْ يَخْتَلِفْ الْفُقَهَاءُ أَنَّ وُجُوبَ الْجُمُعَةِ مَخْصُوصٌ بِالْأَحْرَارِ الْبَالِغِينَ الْمُقِيمِينَ دُونَ النِّسَاءِ وَالْعَبِيدِ وَالْمُسَافِرِينَ وَالْعَاجِزِينَ، وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ أَرْبَعَةٌ لَا جُمُعَةَ عَلَيْهِمْ: الْعَبْدُ وَالْمَرْأَةُ وَالْمَرِيضُ وَالْمُسَافِرُ ﴾ وَأَمَّا الْأَعْمَى فَإِنَّ أَبَا حَنِيفَةَ قَالَ: " لَا جُمُعَةَ عَلَيْهِ " وَجَعَلَهُ بِمَنْزِلَةِ الْمُقْعَدِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْحُضُورِ بِنَفْسِهِ إلَّا بِغَيْرِهِ، وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ: " عَلَيْهِ الْجُمُعَةُ " وَفَرَّقَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُقْعَدِ؛ لِأَنَّ الْأَعْمَى بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَا يَهْتَدِي الطَّرِيقَ فَإِذَا هُدِيَ سَعَى بِنَفْسِهِ، وَالْمُقْعَدُ لَا يُمْكِنُهُ السَّعْيُ بِنَفْسِهِ وَيَحْتَاجُ إلَى مَنْ يَحْمِلُهُ وَفَرَّقَ أَبُو حَنِيفَةَ بَيْنَ الْأَعْمَى وَبَيْنَ مَنْ لَا يَعْرِفُ الطَّرِيقَ؛ لِأَنَّ الَّذِي لَا يَعْرِفُ وَهُوَ بَصِيرٌ إذَا أُرْشِدَ اهْتَدَى بِنَفْسِهِ وَالْأَعْمَى لَا يَهْتَدِي بِنَفْسِهِ وَلَا يَعْرِفُهُ بِالْإِرْشَادِ وَالدَّلَالَةِ، وَيُحْتَجُّ لِأَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ بِحَدِيثِ أَبِي رَزِينٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﴿ أَنَّ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ جَاءَ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إنِّي ضَرِيرٌ شَاسِعُ الدَّارِ وَلَيْسَ لِي قَائِدٌ يُلَازِمُنِي أَفَلِي رُخْصَةٌ أَنْ لَا

آتِي الْمَسْجِدَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا ﴾ وَفِي خَبَرِ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادٍ عَنْ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ نَحْوُهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

﴿

(375/764)

أَتَسْمَعُ الْإِقَامَةَ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَأْتِهَا ﴾ .

وَاخْتَلَفُوا فِي عَدَدِ مَنْ تَصِحُّ بِهِ الْجُمُعَةُ مِنْ الْمَأْمُومِينَ ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَزُفَرُ وَمُحَمَّدٌ وَاللَّيْثُ : " ثَلَاثَةٌ سِوَى الْإِمَامِ " وَرُوِيَ عَنْ أَبِي يُوسُفَ : " اثْنَانِ سِوَى الْإِمَامِ " وَبِهِ قَالَ الثَّوْرِيُّ وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ : " إنْ لَمْ يَحْضُرْ الْإِمَامُ إلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ فَخَطَبَ عَلَيْهِ وَصَلَّى بِهِ أَجْزَأَهُمَا " وَأَمَّا مَالِكٌ فَلَمْ يَحُدَّ فِيهِ شَيْئًا ، وَاعْتَبَرَ الشَّافِعِيُّ أَرْبَعِينَ رَجُلًا .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : رَوَى جَابِرٌ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ كَانَ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَقَدِمَ عِيرٌ فَنَفَرَ النَّاسُ إلَيْهِ وَبَقِيَ مَعَهُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إلَيْهَا ﴾ ﴾ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَتْرُكْ الْجُمُعَةَ مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَلَمْ يَذْكُرْ رُجُوعَ الْقَوْمِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ قَدْ صَلَّى بِاثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا ، وَنَقَلَ أَهْلُ السِّيَرِ أَنَّ أَوَّلَ جُمُعَةٍ كَانَتْ بِالْمَدِينَةِ صَلَّاهَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ بِأَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ بِاثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا وَذَلِكَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ ، فَبَطَلَ بِذَلِكَ اعْتِبَارُ الْأَرْبَعِينَ وَأَيْضًا الثَّلَاثَةُ جَمْعٌ صَحِيحٌ فَهِيَ كَالْأَرْبَعِينَ لِاتِّفَاقِهِمَا فِي كَوْنِهِمَا جَمْعًا صَحِيحًا .

وَمَا دُونَ الثَّلَاثَةِ مُخْتَلَفٌ فِي كَوْنِهِ جَمْعًا صَحِيحًا ، فَوَجَبَ الِاقْتِصَارُ عَلَى الثَّلَاثَةِ وَإِسْقَاطُ اعْتِبَارِ مَا زَادَ .

(376/764)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي وَقْتِ النَّهْيِ عَنْ الْبَيْعِ ، فَرُوِيَ عَنْ مَسْرُوقٍ وَالضَّحَّاكِ وَمُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ : " أَنَّ الْبَيْعَ يَحْرُمُ بِزَوَالِ الشَّمْسِ " وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالزُّهْرِيُّ : " يَحْرُمُ بِالنِّدَاءِ " وَقَدْ قِيلَ : إنَّ اعْتِبَارَ الْوَقْتِ فِي ذَلِكَ أَوْلَى ؛ إذْ كَانَ عَلَيْهِمْ الْحُضُورُ عِنْدَ دُخُولِ الْوَقْتِ ، فَلَا يُسْقِطُ ذَلِكَ عَنْهُمْ تَأْخِيرَ النِّدَاءِ وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلنِّدَاءِ قَبْلَ الزَّوَالِ مَعْنًى دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ النِّدَاءَ الَّذِي بَعْدَ الزَّوَالِ إنَّمَا هُوَ بَعْدَ مَا قَدْ وَجَبَ إتْيَانُ الصَّلَاةِ وَاخْتَلَفُوا فِي جَوَازِ الْبَيْعِ عِنْدَ نِدَاءِ الصَّلَاةِ ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ وَزُفَرُ وَمُحَمَّدٌ وَالشَّافِعِيُّ : " الْبَيْعُ يَقَعُ مَعَ النَّهْيِ " ، وَقَالَ مَالِكٌ : " الْبَيْعُ بَاطِلٌ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ

تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلَّا بِطِيبَةٍ مِنْ نَفْسِهِ ﴾ وَظَاهِرُهُ يَقْتَضِي وُقُوعَ الْمِلْكِ لِلْمُشْتَرِي فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ لِوُقُوعِهِ عَنْ تَرَاضٍ .

(377/764)

فَإِنْ قِيلَ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ قِيلَ لَهُ : نَسْتَعْمِلُهُمَا فَنَقُولُ : يَقَعُ مَحْظُورًا عَلَيْهِ عَقْدُ الْبَيْعِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لِقَوْلِهِ : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ وَيَقَعُ الْمِلْكُ بِحُكْمِ الْآيَةِ الْأُخْرَى وَالْخَبَرُ الَّذِي رَوَيْنَاهُ ؛ وَأَيْضًا لَمَّا لَمْ يَتَعَلَّقْ النَّهْيُ بِمَعْنًى فِي نَفْسِ الْعَقْدِ وَإِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمَعْنًى فِي غَيْرِهِ وَهُوَ الِاشْتِغَالُ عَنْ الصَّلَاةِ وَجَبَ أَنْ لَا يَمْنَعَ وُقُوعَهُ وَصِحَّتَهُ ، كَالْبَيْعِ فِي آخِرِ وَقْتِ صَلَاةٍ يُخَافُ فَوْتُهَا إنْ اشْتَغَلَ بِهِ وَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ ، وَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ صِحَّتَهُ ؛ لِأَنَّ النَّهْيَ تَعَلَّقَ بِاشْتِغَالِهِ عَنْ الصَّلَاةِ وَأَيْضًا هُوَ مِثْلُ تَلَقِّي الْجَلَبِ وَبَيْعِ حَاضِرٍ لِبَادٍ وَالْبَيْعُ فِي الْأَرْضِ الْمَغْصُوبَةِ وَنَحْوُهَا كَوْنُهُ مَنْهِيًّا عَنْهُ لَا يَمْنَعُ وُقُوعَهُ .

(378/764)

وَقَدْ رَوَى عَبْدُ الْعَزِيزِ الدَّرَاوَرْدِيُّ عَنْ يَزِيدَ بْنِ خُصَيْفَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ ثَوْبَانَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ فِي الْمَسْجِدِ فَقُولُوا : لَا أَرْبَحَ اللَّهُ تِجَارَتَك ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ فَقُولُوا : لَا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْك ﴾ وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ عَجْلَانَ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ : " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ نَهَى أَنْ يُبَاعَ فِي الْمَسْجِدِ وَأَنْ يُشْتَرَى فِيهِ وَأَنْ تُنْشَدَ فِيهِ ضَالَّةٌ أَوْ تُنْشَدَ فِيهِ الْأَشْعَارُ ، وَنَهَى عَنْ التَّحَلُّقِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَبْلَ الصَّلَاةِ ﴾ وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ رَبِّهِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ مَكْحُولٍ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ جَنِّبُوا مَسَاجِدَكُمْ مَجَانِينَكُمْ وَصِبْيَانَكُمْ وَرَفْعَ أَصْوَاتِكُمْ وَسَلَّ سُيُوفِكُمْ وَبَيْعَكُمْ وَشِرَاكُمْ وَإِقَامَةَ حُدُودِكُمْ وَخُصُومَتَكُمْ وَجَمِّرُوهَا يَوْمَ جُمَعِكُمْ وَاجْعَلُوا مَطَاهِرَكُمْ عَلَى أَبْوَابِهَا ﴾ ، فَنَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْبَيْعِ فِي الْمَسْجِدِ ، وَلَوْ بَاعَ فِيهِ جَازَ ؛ لِأَنَّ النَّهْيَ تَعَلَّقَ بِمَعْنًى فِي غَيْرِ الْعَقْدِ .

بَابُ السَّفَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَالَ أَصْحَابُنَا : " لَا بَأْسَ بِهِ قَبْلَ الزَّوَالِ وَبَعْدَهُ إِذَا كَانَ يَخْرُجُ مِنْ مِصْرِهِ قَبْلَ خُرُوجِ وَقْتِ الظُّهْرِ " حَكَاهُ مُحَمَّدٌ فِي السِّيَرِ بِلَا خِلَافٍ ، وَقَالَ مَالِكٌ : " لَا أُحِبُّ لَهُ أَنْ يَخْرُجَ بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ وَلَيْسَ بِحَرَامٍ ، وَبَعْدَ الزَّوَالِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُسَافِرَ حَتَّى يُصَلِّيَ الْجُمُعَةَ " وَكَانَ الْأَوْزَاعِيُّ وَاللَّيْثُ وَالشَّافِعِيُّ يَكْرَهُونَ السَّفَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ حَتَّى يُصَلِّيَ .

(380/764)

وَرَوَى حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ الْحَجَّاجِ بْنِ أَرْطَاةَ عَنْ الْحَكَمِ بْنِ عُيَيْنَةَ عَنْ مِقْسَمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﴿ وَجَّهَ ابْنَ رَوَاحَةَ وَجَعْفَرًا وَزَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ، فَتَخَلَّفَ ابْنُ رَوَاحَةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا خَلَّفَك ؟ قَالَ : الْجُمُعَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُجَمِّعُ ثُمَّ أَرُوحُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ﴾ ، قَالَ : فَرَاحَ مُنْطَلِقًا وَرَوَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ الْأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ : " لَا تَحْبِسُ الْجُمُعَةُ عَنْ سَفَرٍ " ، وَلَا نَعْرِفُ أَحَدًا مِنْ الصَّحَابَةِ خَالَفَهُ ، وَرَوَى يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عَنْ نَافِعٍ أَنَّ ابْنًا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ كَانَ بِالْعَقِيقِ عَلَى رَأْسِ أَمْيَالٍ مِنْ الْمَدِينَةِ ، فَأَتَى ابْنُ عُمَرَ غَدَاةَ الْجُمُعَةِ فَأُخْبِرَ بِشَكْوَاهُ ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ وَتَرَكَ الْجُمُعَةَ وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ : خَرَجَ سَالِمٌ مِنْ مَكَّةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَرُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ وَالْقَاسِمِ بْنِ

مُحَمَّدٍ أَنَّهُمَا كَرِهَا أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي صَدْرِ النَّهَارِ وَعَنْ الْحَسَنِ وَابْنِ سِيرِينَ قَالَا : " لَا بَأْسَ بِالسَّفَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مَا لَمْ تَحْضُرْ الْجُمُعَةُ " وَرَوَى إسْرَائِيلُ عَنْ إبْرَاهِيمَ بْنِ مُهَاجِرٍ عَنْ النَّخَعِيِّ قَالَ : " إذَا أَرَادَ الرَّجُلُ السَّفَرَ يَوْمَ الْخَمِيسِ فَلْيُسَافِرْ

غَدْوَةً إلَى أَنْ يَرْتَفِعَ النَّهَارُ فَإِنْ أَقَامَ إلَى الْعَشِيِّ فَلَا يَخْرُجُ حَتَّى يُصَلِّيَ الْجُمُعَةَ " وَرُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : " إذَا أَدْرَكَتْك لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ فَلَا تَخْرُجْ حَتَّى تُجَمِّعَ " فَهَذَا مَذْهَبُ عَائِشَةَ وَإِبْرَاهِيمَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ فَأَبَاحَ السَّفَرَ فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ وَلَمْ يُخَصِّصْهُ بِوَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ .

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا وَاضِحٌ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ ، وَيَوْمِ الْجُمُعَةِ قَبْلَ الزَّوَالِ وَإِبَاحَةِ السَّفَرِ فِيهِمَا ، وَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ مَنْهِيًّا عَنْهُ بَعْدَ الزَّوَالِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ صَارَ مِنْ أَهْلِ الْخِطَابِ بِحُضُورِهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ قِيلَ لَهُ : لَا خِلَافَ أَنَّ الْخِطَابَ بِذَلِكَ لَمْ يَتَوَجَّهْ إلَى الْمُسَافِرِينَ ، وَفَرْضُ الصَّلَاةِ عِنْدَنَا يَتَعَلَّقُ بِآخِرِ الْوَقْتِ ، فَإِذَا خَرَجَ وَصَارَ مُسَافِرًا فِي آخِرِ الْوَقْتِ عَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْخِطَابِ بِفِعْلِ الْجُمُعَةِ .

وقَوْله تعَالَى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ ؛ قَالَ الْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ : هُوَ إذْنٌ وَرُخْصَةٌ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمَّا ذُكِرَ بَعْدَ الْحَظْرِ كَانَ الظَّاهِرُ أَنَّهُ إبَاحَةٌ وَإِطْلَاقٌ مِنْ حَظْرٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ وَقِيلَ : وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ بِعَمَلِ الطَّاعَةِ وَالدُّعَاءِ لِلَّهِ ، وَقِيلَ : وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ بِالتَّصَرُّفِ فِي التِّجَارَةِ وَنَحْوِهَا ؛ وَهُوَ إبَاحَةٌ أَيْضًا وَهُوَ أَظْهَرُ الْوَجْهَيْنِ لِأَنَّهُ قَدْ حَظَرَ الْبَيْعَ فِي صَدْرِ الْآيَةِ كَمَا أَمَرَ بِالسَّعْيِ إلَى الْجُمُعَةِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : ظَاهِرُ قَوْلِهِ : ﴿ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ إبَاحَةٌ لِلْبَيْعِ الَّذِي حُظِرَ بَدِيًّا ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فَكَانَ الْمَعْنَى : يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ بِالتِّجَارَةِ وَالتَّصَرُّفِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إنَّمَا أَرَادَ ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ عَقَّبَهُ بِذِكْرِ اللَّهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى إبَاحَةِ السَّفَرِ بَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ﴾ ، روي عن جابر بن عبد الله والحسن قالا : " رأوا عير طعام قدمت المدينة وقد أصابتهم مجاعة " ، وقال جابر : " اللهو المزامير " وقال مجاهد : " الطبل " ﴿ قل ما عند الله ﴾ " من الثواب على سماع الخطبة وحضور الموعظة " ﴿ خير من اللهو ومن التجارة ﴾ قوله تعالى : ﴿ وتركوك قائما ﴾ يدل على أن الخطبة قائمة ؛ روى الأعمش عن إبراهيم أن رجلا سأل علقمة أكان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب قائما أو قاعدا ؟ فقال : ألست تقرأ القرآن ﴿ وتركوك قائما ﴾ ؟ .

(384/764)

وروى حصين عن سالم عن جابر قال : ﴿ قدمت عير من الشام يوم الجمعة ورسول الله يخطب ، فانصرف الناس ينظرون وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في اثني عشر رجلا فنزلت هذه الآية : ﴿ وتركوك قائما ﴾ ﴾ وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر : أن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ كان يخطب ، فجاءت عير فخرج الناس إليها حتى بقي اثنا عشر رجلا فنزلت الآية ﴾ قال أبو بكر : اختلف ابن فضيل وابن إدريس في

الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ عَنْ حُصَيْنٍ ، فَذَكَرَ ابْنُ فَضِيلٍ أَنَّهُ قَالَ : "كُنَّا نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" وَذَكَرَ ابْنُ إِدْرِيسَ أَنَّهُ قَالَ : "كَانَ النَّبِيُّ يَخْطُبُ" ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِقَوْلِهِ : "نُصَلِّي" أَنَّهُمْ قَدْ حَضَرُوا لِلصَّلَاةِ مُنْتَظِرِينَ لَهَا ؛ لِأَنَّ مَنْ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ فَهُوَ فِي الصَّلَاةِ وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ قَالَ : إِنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ

أَصَابَهُمْ جُوعٌ وَغَلَاءُ سِعْرٍ ، فَقَدِمَتْ عِيرٌ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَسَمِعُوا بِهَا فَخَرَجُوا إِلَيْهَا وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ كَمَا هُوَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَوْ اتَّبَعَ آخِرُهُمْ أَوَّلَهُمْ لَالْتَهَبَ الْوَادِي عَلَيْهِمْ نَارًا ﴾

آخِرَ سُورَةِ الْجُمُعَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

[فِيهَا آيَتَانِ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

فِيهَا سِتَّ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ظَاهِرٌ فِي أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِالْجُمُعَةِ الْمُؤْمِنُونَ دُونَ الْكُفَّارِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ وَغَيْرِهَا وَهَا هُنَا أَنَّ الْكُفَّارَ مُخَاطَبُونَ بِفُرُوعِ الشَّرِيعَةِ ، وَمِنْ جُمْلَتِهَا الْجُمُعَةُ .

وَإِنَّمَا خُصَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْمُؤْمِنُونَ دُونَ الْكُفَّارِ ؛ تَشْرِيفًا [لَهُمْ] بِالْجُمُعَةِ ، وَتَخْصِيصًا دُونَ غَيْرِهِمْ ؛ وَذَلِكَ لِمَا ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ : نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ ؛ فَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ ، فَغَدًا لِلْيَهُودِ وَلِلنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ الْجُمُعَةُ خَاصَّةٌ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ وَيَوْمُ الْإِسْلَامِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَأَفْضَلُ الْأَيَّامِ .

رُوِيَ أَنَّ ﴿ جِبْرِيلَ جَاءَ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِيَدِهِ مِرْآةٌ فِيهَا نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ،

فَقَالَ : يَا جِبْرِيلُ ؛ مَا هَذِهِ الْمِرْآةُ ؟ قَالَ : يَوْمُ الْجُمُعَةِ .
قَالَ : مَا هَذِهِ النُّكْتَةُ السَّوْدَاءُ الَّتِي فِيهَا ؟ قَالَ : السَّاعَةُ وَفِيهَا تَقُومُ ﴾ .

كَمَا رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ : خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُهْبِطَ مِنْ الْجَنَّةِ ، وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا إلَّا أَعْطَاهُ إيَّاهُ ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ الْجُمُعَةُ فَرْضٌ ، لَا خِلَافَ فِي ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهَا قُرْآنِيَّةٌ سُنِّيَّةٌ ، وَهِيَ ظُهْرُ الْيَوْمِ ، أَوْ بَدَلٌ مِنْهُ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ ، وَلَا يُلْتَفَتُ إلَى مَا يُحْكَى فِي ذَلِكَ ، لَا سِيَّمَا مَا يُؤْثَرُ عَنْ سَحْنُونٍ أَنَّهُ قَالَ : إنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَالَ : يَجُوزُ أَنْ يَتَخَلَّفَ الْعَرُوسُ عَنْهَا ؛ فَإِنَّ الْعَرُوسَ عِنْدَنَا لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَخَلَّفَ مِنْ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ لِأَجْلِ الْعُرْسِ ، فَكَيْفَ عَنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ .

وَلَهَا شُرُوطٌ وَأَرْكَانٌ فِي الْوُجُوبِ وَالْأَدَاءِ ، فَشُرُوطُ الْوُجُوبِ سَبْعَةٌ : الْعَقْلُ ، وَالذُّكُورِيَّةُ ، وَالْحُرِّيَّةُ ، وَالْبُلُوغُ ، وَالْقُدْرَةُ ، وَالْإِقَامَةُ ، وَالْقَرْيَةُ .

وَأَمَّا شُرُوطُ الْأَدَاءِ فَهِيَ : الْإِسْلَامُ ، فَلَا تَصِحُّ مِنْ كَافِرٍ .

وَالْخُطْبَةُ ، وَالْإِمَامُ الْقَيِّمُ لِلصَّلَاةِ لَيْسَ الْأَمِيرُ ، وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ كَلِمَةً بَدِيعَةً : إنَّ لِلَّهِ فَرَائِضَ فِي أَرْضِهِ لَا يُضَيِّعُهَا [إنْ] وَلِيَهَا وَالٍ أَوْ لَمْ يَلِهَا .

وَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : مِنْ شُرُوطِ أَدَائِهَا الْمَسْجِدُ الْمُسْقَفُ .

وَلَا أَعْلَمُ وَجْهَهُ .

وَمِنْهَا الْعَدَدُ ، وَلَيْسَ لَهُ حَدٌّ .

وَإِنَّمَا حَدُّهُ جَمَاعَةٌ تَتَقَرَّى بِهِمْ بُقْعَةٌ ، وَمِنْ أَدَائِهَا الِاغْتِسَالُ ، وَتَحْسِينُ الشَّارَةِ ، وَتَمَامُ ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْمَسَائِلِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ : ﴿ إذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ﴾ : النِّدَاءُ هُوَ الْأَذَانُ ، وَقَدْ بَيَّنَّا جُمْلَةً مِنْهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ .

وَقَدْ ﴿ كَانَ الْأَذَانُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْجُمُعَةِ كَسَائِرِ الْأَذَانِ فِي الصَّلَوَاتِ ؛ يُؤَذِّنُ وَاحِدٌ إذَا جَلَسَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ بِالْكُوفَةِ ، ثُمَّ زَادَ عُثْمَانُ عَلَى الْمِنْبَرِ أَذَانًا ثَالِثًا عَلَى الزَّوْرَاءِ ، حَتَّى كَثُرَ

النّاسُ بالْمدِينَةِ ، فَإذَا سَمِعُوا أقْبَلُوا ، حَتَّى إذَا جَلَسَ عُثْمَانُ عَلَى الْمِنْبَرِ أَذَّنَ مُؤَذّنُ النّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمّ يَخْطُبُ عُثْمَانُ .

(389/764)

﴿ وَفِي الْحَدِيثِ الصّحِيحِ ﴿ أَنّ الْأَذَانَ كَانَ عَلَى عَهْدِ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاحِدًا ، فَلَمّا كَانَ زَمَنُ عُثْمَانَ زَادَ النّدَاءَ الثّالِثَ عَلَى الزّوْرَاءِ ﴾ ، وَسَمّاهُ فِي الْحَدِيثِ ثَالِثًا ؛ لِأَنّهُ أَضَافَهُ إلَى الْإِقَامَةِ فَجَعَلَهُ ثَالِثَ الْإِقَامَةِ ، كَمَا قَالَ النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : بَيْنَ كُلّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ لِمَنْ شَاءَ ﴾ يَعْنِي الْأَذَانَ وَالْإِقَامَةَ ؛ فَتَوَهّمَ النّاسُ أَنّهُ أَذَانٌ أَصْلِيٌّ ، فَجَعَلُوا الْمُؤَذّنِينَ ثَلَاثَةً ، فَكَانَ وَهْمًا ، ثُمّ جَمَعُوهُمْ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، فَكَانَ وَهْمًا عَلَى وَهْمٍ ، وَرَأَيْتهمْ بِمَدِينَةِ السّلَامِ يُؤَذّنُونَ بَعْدَ أَذَانِ الْمَنَارِ بَيْنَ يَدَيْ الْإِمَامِ تَحْتَ الْمِنْبَرِ فِي جَمَاعَةٍ ، كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ عِنْدَنَا فِي الدّوَلِ الْمَاضِيَةِ ؛ وَكُلّ ذَلِكَ مُحْدَثٌ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْلُهُ : ﴿ لِلصّلَاةِ ﴾ ؛ يَعْنِي بِذَلِكَ الْجُمُعَةَ دُونَ غَيْرِهَا ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : كَوْنُ الصّلَاةِ الْجُمُعَةِ هَاهُنَا مَعْلُومٌ بِالْإِجْمَاعِ لَا مِنْ نَفْسِ اللّفْظِ .

وَعِنْدِي أَنّهُ مَعْلُومٌ مِنْ نَفْسِ اللّفْظِ بِنُكْتَةٍ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ ، وَذَلِكَ يُفِيدُهُ ؛ لِأَنّ النّدَاءَ الّذِي يَخْتَصّ

بِذَلِكَ الْيَوْمِ هُوَ نِدَاءُ تِلْكَ الصَّلَاةِ ؛ فَأَمَّا غَيْرُهَا فَهُوَ عَامٌّ فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ الْمُرَادُ بِهِ نِدَاءُ الْجُمُعَةِ لَمَا كَانَ لِتَخْصِيصِهِ بِهَا وَإِضَافَتِهِ إلَيْهَا مَعْنًى وَلَا فَائِدَةٌ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : كَانَ اسْمُ الْجُمُعَةِ فِي الْعَرَبِ الْأَوَّلِ عُرُوبَةً ، فَسَمَّاهَا الْجُمُعَةَ كَعْبُ بْنُ لُؤَيٍّ ؛ لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ فِيهَا إلَى كَعْبٍ قَالَ الشَّاعِرُ : لَا يُبْعِدُ اللَّهُ أَقْوَامًا هُمْ خَلَطُوا يَوْمَ الْعُرُوبَةِ أَصْرَامًا بِأَصْرَامِ

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ قَوْلُهُ ﴿ فَاسْعَوْا إلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ : اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَاهُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ النِّيَّةُ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ .

الثَّانِي أَنَّهُ الْعَمَلُ ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ .

وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ .

الثَّالِثُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ السَّعْيُ عَلَى الْأَقْدَامِ .

وَيُحْتَمَلُ ظَاهِرُهُ رَابِعًا : وَهُوَ الْجَرْيُ وَالِاشْتِدَادُ ، وَهُوَ الَّذِي أَنْكَرَهُ الصَّحَابَةُ الْأَعْلَمُونَ ، وَالْفُقَهَاءُ الْأَقْدَمُونَ ، وَقَرَأَهَا عُمَرُ : " فَامْضُوا إلَى ذِكْرِ اللَّهِ " فِرَارًا عَنْ ظَنِّ الْجَرْيِ

وَالِاشْتِدَادِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الظَّاهِرُ .

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ ذَلِكَ .

وَقَالَ : لَوْ قَرَأْتُ فَاسْعَوْا لَسَعَيْتُ حَتَّى سَقَطَ رِدَائِي .

وَقَرَأَ ابْنُ شِهَابٍ : فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ سَالِكًا تِلْكَ السُّبُلَ ، وَهُوَ كُلُّهُ تَفْسِيرٌ مِنْهُمْ ، لَا قِرَاءَةُ قُرْآنٍ مُنَزَّلٍ ، وَجَائِزٌ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّفْسِيرِ فِي مَعْرِضِ التَّفْسِيرِ .

فَأَمَّا مَنْ قَالَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ النِّيَّةُ ؛ فَهُوَ أَوَّلُ السَّعْيِ وَمَقْصُودُهُ الْأَكْبَرُ فَلَا خِلَافَ فِيهِ .

(391/764)

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ السَّعْيُ عَلَى الْأَقْدَامِ فَهُوَ أَفْضَلُ ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِشَرْطٍ .

فِي الصَّحِيحِ أَنَّ أَبَا عِيسَى بْنَ جُبَيْرٍ وَاسْمُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، وَكَانَ مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ يَمْشِي إلَى الْجُمُعَةِ رَاجِلًا .

وَقَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : { مَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُمَا اللَّهُ عَلَى النَّارِ .

فَذَلِكَ فَضْلٌ وَأَجْرٌ لَا شَرْطٌ .

} وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ الْعَمَلُ فَأَعْمَالُ الْجُمُعَةِ هِيَ : الِاغْتِسَالُ ، وَالتَّمَشُّطُ ، وَالِادِّهَانُ ،

وَالتَّطَيُّبُ ، وَالتَّزَيُّنُ بِاللِّبَاسِ ، وَفِي ذَلِكَ كُلِّهِ أَحَادِيثُ بَيَانُهَا فِي كُتُبِ الْفِقْهِ ؛ وَظَاهِرُ الْآيَةِ وُجُوبُ الْجَمِيعِ ، لَكِنَّ أَدِلَّةَ الِاسْتِحْبَابِ

ظَهَرَتْ عَلَى أَدِلَّةِ الْوُجُوبِ ، فَقَضَى بِهَا حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ : اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّهُ الْخُطْبَةُ ؛ قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّهُ الصَّلَاةُ .

وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ [وَاجِبٌ] الْجَمِيعُ أَوَّلُهُ الْخُطْبَةُ ، فَإِنَّهَا تَكُونُ عَقِبَ النِّدَاءِ ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الْخُطْبَةِ ، وَبِهِ قَالَ عُلَمَاؤُنَا ، إلَّا عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ الْمَاجِشُونِ فَإِنَّهُ رَآهَا سُنَّةً .

وَالدَّلِيلُ عَلَى وُجُوبِهَا أَنَّهَا تُحَرِّمُ الْبَيْعَ ، وَلَوْلَا وُجُوبُهَا مَا حَرَّمَتْهُ ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَحَبَّ لَا يُحَرِّمُ الْمُبَاحَ .

(392/764)

وَإِذَا قُلْنَا : إنَّ الْمُرَادَ بِالذِّكْرِ الصَّلَاةُ فَالْخُطْبَةُ مِنْ الصَّلَاةِ ، وَالْعَبْدُ يَكُونُ ذَاكِرًا لِلَّهِ [بِفِعْلِهِ] كَمَا يَكُونُ مُسَبِّحًا لِلَّهِ بِفِعْلِهِ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ : وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ ، وَلَا خِلَافَ

فِي تَحْرِيمِ الْبَيْعِ .

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ إذَا وَقَعَ ؛ فَفِي الْمُدَوَّنَةِ يُفْسَخُ .

وَقَالَ الْمُغِيرَةُ : يُفْسَخُ مَا لَمْ يَفُتْ .

وَقَالَهُ ابْنُ الْقَاسِمِ فِي الْوَاضِحَةِ ، وَأَشْهَبُ ، وَقَالَ فِي الْمَجْمُوعَةِ : الْبَيْعُ مَاضٍ .

وَقَالَ ابْنُ الْمَاجِشُونِ : يُفْسَخُ بَيْعُ مَنْ جَرَتْ عَادَتُهُ بِهِ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا يُفْسَخُ بِكُلِّ حَالٍ .

وَأَبُو حَنِيفَةَ يَقُولُ بِالْفَسْخِ فِي تَفْصِيلٍ قَرِيبٍ مِنْ الْمَالِكِيَّةِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا تَوْجِيهَ ذَلِكَ فِي الْفِقْهِ ، وَحَقَّقْنَا أَنَّ الصَّحِيحَ فَسْخُهُ بِكُلِّ حَالٍ ؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الصَّحِيحِ : { مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ } .

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ فَإِنْ كَانَ نِكَاحًا فَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ فِي الْعُتْبِيَّةِ : لَا يُفْسَخُ .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا : لِأَنَّهُ نَادِرٌ ، وَيَقْرُبُ هَذَا مِنْ قَوْلِ ابْنِ الْمَاجِشُونِ : يُفْسَخُ بَيْعُ مَنْ جَرَتْ عَادَتُهُ بِالْبَيْعِ .

وَقَالُوا : إنَّ الشَّرِكَةَ وَالْهِبَةَ وَالصَّدَقَةَ نَادِرٌ لَا يُفْسَخُ .

وَالصَّحِيحُ فَسْخُ الْجَمِيعِ ؛ لِأَنَّ الْبَيْعَ إنَّمَا مُنِعَ لِلِاشْتِغَالِ بِهِ ، فَكُلُّ أَمْرٍ يَشْغَلُ عَنْ الْجُمُعَةِ مِنْ الْعُقُودِ كُلِّهَا فَهُوَ حَرَامٌ شَرْعًا مَفْسُوخٌ رَدْعًا .

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ لَا تَفْتَقِرُ إقَامَةُ الْجُمُعَةِ إلَى السُّلْطَانِ ، خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ ، وَإِنَّمَا تَفْتَقِرُ إلَى الْإِمَامِ ، وَعَلَيْهِ تَدُلُّ الْآيَةُ لَا عَلَى السُّلْطَانِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ﴾ يَخْتَصُّ بِوُجُوبِ الْجُمُعَةِ عَلَى الْقَرِيبِ الَّذِي يَسْمَعُ النِّدَاءَ ؛ فَأَمَّا الْبَعِيدُ الدَّارِ الَّذِي لَا يَسْمَعُ النِّدَاءَ فَلَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْخِطَابِ .

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيمَنْ يَأْتِي الْجُمُعَةَ مِنْ الدَّانِي وَالْقَاصِي اخْتِلَافًا مُتَبَايِنًا بَيَّنَّاهُ فِي الْمَسَائِلِ وَغَيْرِهَا مِنْ الْخِلَافِيَّاتِ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِيهِ أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ عُلَمَائِنَا قَالُوا : إنَّ الْجُمُعَةَ تَلْزَمُ مَنْ كَانَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مِنْ الْمَدِينَةِ ، لِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ أَهْلَ الْعَوَالِي كَانُوا يَأْتُونَهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحِكْمَتُهُ أَنَّ الصَّوْتَ إذَا كَانَ رَفِيعًا وَالنَّاسُ فِي هُدُوءٍ وَسُكُونٍ فَأَقْصَى سَمَاعِ الصَّوْتِ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ ؛ وَهَذَا نَظَرٌ وَمُلَاحَظَةٌ إلَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ نُودِيَ ﴾ ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ .

فَإِنْ قِيلَ : فَإِنَّ الْعَبْدَ وَالْمَرْأَةَ يَسْمَعَانِ النِّدَاءَ ، وَقَدْ قُلْتُمْ لَا تَجِبُ الْجُمُعَةُ عَلَيْهِمَا .

قُلْنَا : أَمَّا الْمَرْأَةُ فَلَا يَلْزَمُهَا خِطَابُ الْجُمُعَةِ ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ أَهْلِ الْجَمَاعَةِ ؛ وَلِهَذَا لَا تَدْخُلُ فِي خِطَابِهَا .

وَأَمَّا الْعَبْدُ فَفِي صَحِيحِ الْمَذْهَبِ لَا تَجِبُ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ نَقْصَ الرِّقِّ أَثَّرَ بِصِفَتِهِ حَتَّى لَمْ تُقْبَلْ شَهَادَتُهُ ، وَلَا يَلْزَمُ عَلَيْهِ الْفَاسِقُ ؛ لِأَنَّ نَقْصَهُ فِي فِعْلِهِ ، وَهَذَا نَقْصُهُ فِي ذَاتِهِ ؛ فَأَشْبَهَ نَقْصَ الْمَرْأَةِ وَمِنْ النُّكَتِ الْبَدِيعَةِ فِي سُقُوطِ الْجُمُعَةِ عَنْ الْعَبْدِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ ؛ فَإِنَّمَا خَاطَبَ اللَّهُ بِالْجُمُعَةِ مَنْ يَبِيعُ ، وَالْعَبْدُ وَالصَّبِيُّ لَا يَبِيعَانِ ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ تَحْتَ حَجْرِ السَّيِّدِ ، وَالصَّبِيَّ تَحْتَ حَجْرِ الصِّغَرِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْجُمُعَةَ لَا تَجِبُ إلَّا بِالنِّدَاءِ ، وَالنِّدَاءُ لَا يَكُونُ إلَّا بَعْدَ دُخُولِ الْوَقْتِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ أَنَّهَا تُصَلَّى قَبْلَ الزَّوَالِ ؛ وَتَعَلَّقَ فِي ذَلِكَ بِحَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ ﴿ : كُنَّا نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ نَنْصَرِفُ ، وَلَيْسَ لِلْحِيطَانِ ظِلٌّ .

﴾ وَبِحَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ : ﴿ مَا كُنَّا نَقِيلُ وَلَا نَتَغَدَّى إلَّا بَعْدَ الْجُمُعَةِ .

﴾ وَقَدْ كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لَا يَخْرُجُ إلَى الْجُمُعَةِ حَتَّى يَغْشَى ظِلُّ الْجِدَارِ الْغَرْبِيِّ طَنْفَسَةَ عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الَّتِي كَانَتْ تُطْرَحُ لَهُ عِنْدَ الْجِدَارِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ الزَّوَالِ .

وَحَدِيثُ سَلَمَةَ مَحْمُولٌ عَلَى التَّبْكِيرِ بِالْجُمُعَةِ ، وَحَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يُبَكِّرُونَ إِلَى الْجُمُعَةِ تَبْكِيرًا كَثِيرًا عِنْدَ الْغَدَاةِ وَقَبْلَهَا فَلَا يَتَنَاوَلُونَ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ انْقِضَاءِ الصَّلَاةِ .

وَقَدْ رَأَى مَالِكٌ أَنَّ التَّبْكِيرَ إِلَى الْجُمُعَةِ إِنَّمَا يَكُونُ وَقْتَ الزَّوَالِ بِيَسِيرٍ .

وَتَأَوَّلَ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : مَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ ﴾ الْحَدِيثُ أَنَّهُ كُلَّهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَحَمَلَهُ سَائِرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى سَاعَاتِ النَّهَارِ الزَّمَانِيَّةِ الِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَاعَةً الْمُسْتَوِيَةِ أَوْ الْمُخْتَلِفَةِ بِحَسَبِ زِيَادَاتِ النَّهَارِ وَنُقْصَانِهِ .

وَهُوَ أَصَحُّ ؛ لِحَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ : ﴿ مَا كَانُوا يُقِيلُونَ وَلَا يَتَغَدَّوْنَ إِلَّا بَعْدَ الْجُمُعَةِ ﴾ يُرِيدُ لِكَثْرَةِ الْبُكُورِ إِلَيْهَا .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ فَرَضَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ السَّعْيَ إِلَى الْجُمُعَةِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ رَدًّا عَلَى مَنْ يَقُولُ : إِنَّهَا فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ ، لِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ وَثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ :

الرَّوَاحُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ .

﴿ وَفِي الْحَدِيثِ ﴾ : مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ بِالنِّفَاقِ .

(396/764)

﴿ الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ أَوْجَبَ اللَّهُ السَّعْيَ إِلَى الْجُمُعَةِ مُطْلَقًا مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ ، وَثَبَتَ شَرْطُ الْوُضُوءِ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فِي جَمِيعِ الصَّلَوَاتِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إذَا قُمْتُمْ إلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ الْآيَةَ ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةً بِغَيْرِ طَهُورٍ .

﴿ وَأَغْرَبَتْ طَائِفَةٌ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴾ : غُسْلُ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ .

﴿ فَقَالَتْ : إنَّ غُسْلَ الْجُمُعَةِ فَرْضٌ ؛ وَهَذَا بَاطِلٌ ؛ لِمَا رَوَى النَّسَائِيُّ وَأَبُو دَاوُد أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴾ : مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَبِهَا وَنِعْمَتْ ، وَمَنْ اغْتَسَلَ فَالْغُسْلُ أَفْضَلُ .

﴿ وَهَذَا نَصٌّ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ رَاحَ إلَى الْمَسْجِدِ فَأَنْصَتَ وَلَمْ يَلْغُ غُفِرَ لَهُ ﴾ .

وَهَذَا نَصٌّ آخَرُ .

وَفِي الْمُوطَّأِ أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الْمَسْجِدَ وَالْإِمَامُ عُمَرُ يَخْطُبُ الْحَدِيثُ إِلَى أَنْ قَالَ : مَا زِدْتُ عَلَى أَنْ تَوَضَّأْتُ .

فَقَالَ عُمَرُ : وَالْوُضُوءُ أَيْضًا ، وَقَدْ عَلِمْتَ « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَأْمُرُ بِالْغُسْلِ » .

فَأَمَرَ عُمَرُ بِالْغُسْلِ ، وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى

الِاسْتِحْبَابِ ، فَلَمْ يُمْكِنْ ، وَقَدْ تَلَبَّسَ بِالْفَرْضِ وَهُوَ الْحُضُورُ وَالْإِنْصَاتُ لِلْخُطْبَةِ أَنْ يَرْجِعَ عَنْهُ إِلَى السُّنَّةِ ، وَذَلِكَ بِمَحْضَرِ فُحُولِ الصَّحَابَةِ وَكِبَارِ الْمُهَاجِرِينَ حَوَالَيْ عُمَرَ ، وَفِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ لَا يُسْقِطُ الْجُمُعَةَ كَوْنُهَا فِي يَوْمِ عِيدٍ ، خِلَافًا لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ حِينَ قَالَ : إذَا اجْتَمَعَ عِيدٌ وَجُمُعَةٌ سَقَطَ فَرْضُ الْجُمُعَةِ ؛ لِتَقَدُّمِ الْعِيدِ عَلَيْهَا ، وَاشْتِغَالِ النَّاسِ بِهِ عَنْهَا .

وَتَعَلَّقَ فِي ذَلِكَ بِمَا رُوِيَ أَنَّ عُثْمَانَ أَذِنَ فِي يَوْمِ الْعِيدِ لِأَهْلِ الْعَوَالِي أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ الْجُمُعَةِ ،

وَقَوْلُ الْوَاحِدِ مِنْ الصَّحَابَةِ لَيْسَ بِحُجَّةٍ إذَا خُولِفَ فِيهِ وَلَمْ يُجْمَعْ مَعَهُ عَلَيْهِ .

وَالْأَمْرُ بِالسَّعْيِ مُتَوَجِّهٌ يَوْمَ الْعِيدِ كَتَوَجُّهِهِ فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إلَيْهَا وَتَرَكُوك قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ اللَّهْوِ وَمِنْ التِّجَارَةِ وَاَللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : وَفِي ذَلِكَ ثَلَاثُ رِوَايَاتٍ : الْأُولَى ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ ، فَدَخَلَتْ عِيرٌ إلَى الْمَدِينَةِ ، فَالْتَفَتُوا ، فَخَرَجُوا إلَيْهَا حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا ، فَنَزَلَتْ : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ﴾ الْآيَةُ كُلُّهَا ﴾ .

الثَّانِيَةُ رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ : ﴿ كَانَ النَّاسُ قَرِيبًا مِنْ السُّوقِ ، فَرَأَوْا التِّجَارَةَ ، فَخَرَجُوا إلَيْهَا ، وَتَرَكُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ قَائِمًا ، وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ إذَا كَانَتْ لَهُمْ عُرْسٌ يَمُرُّونَ بِالْكَبَرِ يَضْرِبُونَ بِهِ ، فَخَرَجَ إلَيْهِ نَاسٌ ، فَغَضِبَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﴾ .

الثَّالِثُ مِنْ حَدِيثِ مُجَاهِدٍ ﴿ : نَزَلَتْ مَعَ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ تِجَارَةٌ بِأَحْجَارِ الزَّيْتِ فَضَرَبُوا طَبْلَهُمْ ، يُعَرِّفُونَ بِإِقْبَالِهِمْ ، فَخَرَجَ إلَيْهِمْ النَّاسُ بِمِثْلِهِ فَعَاتَبَهُمْ اللَّهُ وَنَزَلَتْ الْآيَةُ ، وَقَالَ النَّبِيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَوْ تَفَرَّقَ جَمْعُهُمْ لَسَالَ الْوَادِي عَلَيْهِمْ نَارًا ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَ إنَّمَا يَخْطُبُ قَائِمًا ، كَذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ .

وَخَطَبَ عُثْمَانُ قَائِمًا حَتَّى رَقَّ فَخَطَبَ قَاعِدًا .

وَيُرْوَى أَنَّ أَوَّلَ مَنْ خَطَبَ قَاعِدًا مُعَاوِيَةُ ، وَدَخَلَ كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ الْمَسْجِدَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَكَمِ يَخْطُبُ قَاعِدًا ، فَقَالَ : اُنْظُرُوا إلَى هَذَا الْخَبِيثِ يَخْطُبُ قَاعِدًا وَاَللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ إشَارَةً إلَى أَنَّ فِعْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقُرُبَاتِ عَلَى الْوُجُوبِ ، وَلَكِنْ فِي بَيَانِ الْمُجْمَلِ الْوَاجِبِ لَا خِلَافَ فِيهِ ، وَفِي الْإِطْلَاقِ مُخْتَلَفٌ فِيهِ .

وَقَدْ قِيلَ : إنَّ مُعَاوِيَةَ إنَّمَا خَطَبَ قَاعِدًا لِسِنِّهِ ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ قَائِمًا ثُمَّ يَقْعُدُ ثُمَّ يَقُومُ وَلَا يَتَكَلَّمُ فِي قَعْدَتِهِ رَوَاهُ جَابِرُ بْنُ سَمُرَةَ ، وَرَوَاهُ ابْنُ عُمَرَ فِي كِتَابِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَالَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَائِنَا : إنَّ هَذَا الْقَوْلَ يُوجِبُ الْخُطْبَةَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّهُمْ عَلَى تَرْكِهَا ، وَالْوَاجِبُ هُوَ الَّذِي يُذَمُّ تَارِكُهُ شَرْعًا حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ .

وَقَالَ ابْنُ الْمَاجِشُونِ : إنَّهَا سُنَّةٌ .

وَالصَّحِيحُ مَا قَدَّمْنَاهُ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(400/764)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الجمعة

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1)

قوله : ﴿ الملك ﴾ : هذه قراءةُ العامَّةِ أعني جرَّ " المِلكِ " وما بعده نعتاً له والبدلُ ضعيفٌ لاشتقاقِها . وقرأ أبو وائل ومسلمة ابن محارب ورؤبةُ بالرفعِ على إضمار مبتدأ مُقْتَضٍ للمدح . قال الزمخشريُّ : " ولو قُرِىء بالنصب على قولهم " الحمدُ اللهِ أهلَ الحَمْدِ " لكان وجهاً " . وقرأ زيد بن علي " القَدُّوس " بفتح القاف . وتقدَّم الكلامُ عليه وعلى الأمِّيِّ والأُمِّيِّين جَمْعِه . و " يَتْلُوا " وما بعده صفاتٌ لرسول .

وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3)

قوله: ﴿ وَآخَرِينَ ﴾: فيه وجهان، أحدُهما: أنه مجرورٌ عطفاً على الأمِّيِّيْنَ، أي: وبَعَثَ في آخرين من الأمِّيِّيْنَ. و ﴿ لَمَّا يَلْحَقُوْا بِهِمْ ﴾ صفةٌ ل "آخرين" قبلُ. والثاني: أنه منصوبٌ عَطْفاً على الضمير المنصوب في "يَعَلِّمُهم"، أي: ويُعَلِّمُ آخرين لم يَلْحقوا بهم وسيَلْحقون، وكلَّ مَنْ يَعْلَم شريعةَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم إلى آخرِ الزمان فرسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مُعَلِّمه بالقوة؛ لأنه أصلُ ذلك الخيرِ العظيمِ والفَضْلِ الجَسيم.

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5)

قوله: ﴿ حُمِّلُوْا التوراة ﴾: هذه قراءةُ العامَّةِ. وقرأ زيد بن علي ويحيى بن يعمر "حَمَلوا" مخففاً مبنياً للفاعل.

(401/764)

قوله ﴿ كَمَثَلِ الحمار ﴾ هذه قراءةُ العامَّةِ. وقرأ عبدُ الله "حِمارٍ" منكَّراً. وهو في قوة قراءةِ الباقين؛ لأنَّ المراد بالحمارِ الجنسُ. ولهذا وُصِفَ بالجملةِ بعده كما سيأتي. وقرأ المأمون ابن هارون الرشيد "يُحَمَّلُ" مشدَّداً مبنياً للمفعول. والجملةِ مِنْ "يَحْمِل" أو "يُحَمَّلُ" فيها وجهان، أحدُهما: وهو المشهورُ أنَّها في موضعِ الحالِ من "الحمار" والثاني:

أنَّها في موضع الصفةِ للحمار لجريانِه مَجْرى النكرة؛ إذ المُرادِ به الجنسُ . قال الزمخشري : " أو الجرِّ على الوصفِ؛ لأنَّ الحمارَ كاللئيمِ في قوله :

4261 ولَقد أَمُرُّ على اللئيمِ يَسُبُّني . . . .

. . .

وقد تقدَّم تحريرُ هذا ، وأنَّ منه عند بعضِهم ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ ﴾ [يس : 37] وأنَّ " نَسْلَخُ " نعتٌ ل الليل . والجمهورُ يَجْعَلونه حالاً للتعريف اللفظي . وأمَّا على قراءةِ عبد الله فالجملةُ وصفٌ فقط ، ولا يمتنعُ أَنْ تكونَ حالاً عند سيبويه .

والأَسْفار : جمعُ سِفْرٍ ، وهو الكتابُ المجتمعُ الأوراقِ .

قوله ﴿ بِئْسَ مَثَلُ القوم ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدها : وهو الظاهرُ المشهور أنَّ " مَثَلُ القوم " فاعلُ " بِئْس " . والمخصوصُ بالذَّمِّ الموصولُ بعده فيُشْكِلُ؛ لأنه/ لا بُدَّ مِنْ تصادُقِ فاعلِ نِعْم وبِئْسَ والمخصوص ، وهنا المَثَلُ ليس القومَ المكذِّبين . والجواب : أنَّه على حَذْفِ مضافٍ ، أي : بِئْسَ مَثَلُ القومِ مَثَلُ الذين كَذَّبوا . الثاني : أنَّ " الذين " صفةٌ للقوم فيكونُ مجرورَ المحلِّ ، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ لِفَهْمِ المعنى تقديره : بِئْسَ مَثَلُ القومِ المكذِّبين مَثَلُ

هؤلاء ، وهو قريبٌ من الأولِ . الثالث : أنّ الفاعلَ محذوفٌ ، وأنّ مَثَلَ القومِ هو المخصوصُ بالذّم ، تقديره : بِئْسَ المَثَلُ مَثَلُ القوم ، ويكونُ الموصولُ نعتاً للقوم أيضاً ، وإليه يَنْحو كلامُ ابنِ عطيةً ، فإنه قال : " والتقديرُ : بِئْسَ المَثَلُ مَثَلُ القومِ . وهذا فاسدٌ ؛ لأنَّه لا يُحْذَفُ الفاعلُ عند البَصْريين ، إلاَّ في مواضعَ ثلاثةٍ ، ليس هذا منها ، اللهم إلاَّ أَنْ يقولَ بقولِ الكوفيين .

الرابع : أَنْ يكونَ التمييزُ محذوفاً ، والفاعلُ المُفَسَّرُ به مستترٌ تقديره : بئس مَثَلاً مَثَلُ القوم ، وإليه يَنْحو كلامُ الزمخشريِّ فإنه قال : " بِئْسَ مَثَلاً مَثَلُ القوم " فيكونُ الفاعلُ مستتراً ، مُفَسَّرٌ ب " مَثَلاً " ، و " مَثَلُ القومِ " هو المخصوصُ بالذمِّ والموصولُ صفةٌ له ، وحُذِفَ التمييزُ ، وهذا لا يُجيزه سيبويهِ وأصحابُه البتة ، نَصُّوا على امتناعِ حَذْفِ التمييزِ ، وكيف يُحْذَفُ وهو مُبَيِّنٌ ؟

قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6)

قوله : ﴿ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ ﴾ : سادٌّ مَسَدَ المفعولَيْن ، أو المفعول ، على الخلافِ . و " لله " متعلِّقٌ ب " أَوْلياء " أو بمحذوف نعتاً ل أولياء و ﴿ مِن دُونِ الناس ﴾ كذلك .

وقوله ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الموت ﴾ جوابُ الشرطِ . والعامَّةُ بضمِّ الواوِ ، وهو الأصلُ في واو الضميرِ . وابن السَّمَيْفع وابن يعمر وابن أبي إسحاق بكسرها ، وهو أصلُ التقاءِ الساكنين . وابن السَّميفع أيضاً بفتحها ، وهذا طَلَبٌ للتخفيف ، وتقدَّم نحوُه في قولِه ﴿ اشتروا الضلالة ﴾ [البقرة : 16] وحكى الكسائيُّ إبدالَ الواوِ همزةً .

وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7)

قوله : ﴿ وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ ﴾ : وقال في البقرة " ولن يتمنَّوْه " قال الزمشخري : " لا فرقَ بين " لا " و " لن " في أنَّ كل واحدٍ منهما نفيٌ للمستقبل ، إلاَّ أنَّ في " لن " تأكيداً وتشديداً ليس في " لا " ، فأتى مرةً بلفظ التأكيد " ولن يتمنَّوْه " ، ومرةً بغير لفظِه " ولا يتمنَّوْنه " . قال الشيخ : " وهذا رجوعٌ منه عن مذهبِه : وهو أنَّ " لن " تقتضي النفي على التأبيد إلى مذهبِ الجماعة وهو أنَّها لا تقتضيه " قلت : وليس فيه رجوعٌ ، غايةُ ما فيه أنه سكتَ عنه ، وتشريكُه بين " لا " و " لن " في نفي المستقبل لا يَنْفي اختصاصَ " لن " بمعنى آخرَ . وقد تقدَّم الكلامُ على هذا بأشبعَ منه هنا في البقرة .

قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)

قوله : ﴿ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ﴾ : في الفاءِ وجهان أحدُهما : أنها داخلةٌ لما تَضَمَّنه الاسمُ مِنْ معنى الشرطِ ، وحُكْمُ الموصوفِ بالموصول حكمُ الموصولِ في ذلك . والثاني : أنَّها مزيدةٌ مَحْضَةٌ لا للتضمين المذكور . وأفسدَ هؤلاء القولَ الأول بوجهَيْن ، أحدُهما أنَّ ذلك إنَّما يجوز إذا كان المبتدأُ أو اسمُ " إنَّ " موصولاً ، واسمُ " إنَّ " هنا ليس بموصول ، بل موصوفٌ بالموصول . والثاني : أنَّ الفِرارَ مِنْ الموتِ لا يُنْجي منه ، فلم يُشْبِهِ الشرطَ ، يعنى أنه متحققٌ فلم يُشْبِه الشرطَ الذي هو مِنْ شأنِه الاحتمالُ .

وأُجيب عن الأول : بأنَّ الموصوفَ مع صفتِه كالشيءِ الواحدِ ، ولأن " الذي " لا يكونَ إلاَّ صفةً . فإذا لم يُذْكَرِ الموصوفُ دخلَتِ الفاءُ ، والموصوفُ مرادٌ ، فكذلك إذا صَرَّح بها .

وعن الثاني : بأنَّ خَلْقاً كثيراً يظُنُّون أنَّ الفِرارَ مِنْ أسبابِ الموتِ يُنَجِّيهم إلى وقتٍ آخر .

وجوَّز مكي أَنْ يكونَ الخبرُ قولَه ﴿ الذي تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ ، وتكون الفاءُ جوابَ الجملة . قال : "كما تقول : زيدٌ منطلقٌ فقُمْ إليه" وفيه نظر ؛ لأنه لا تَرَتُّبَ بين قولِه : ﴿ إِنَّ المَوْتَ الذي تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾ وبين قولِه : ﴿ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ﴾ فليس نظيراً لما مَثَّله .

وقرأ زيد بن علي "إنه" دونَ فاء وفيها أوجه، أحدُها: أنَّه مستأنفٌ، وحينئذٍ يكونُ الخبرُ نفسَ الموصولِ كأنه قيل: إنَّ الموتَ هو الشيءُ الذي تَفِرُّونَ منه، قاله الزمخشري.

الثاني: أنَّ الخبَرَ الجملةُ: "إنَّه مُلاقيكم". وحينئذٍ يكونُ الموصولُ نعتاً للموت. الثالث: أَنْ يكونَ "إنَّه" تأكيداً؛ لأنَّ الموتَ لَمَّا طال الكلامُ أُكِّدَ الحرفُ توكيداً لفظيًّا، وقد عَرَفْتَ أنه لا يُؤَكَّدُ كذلك إلاَّ بإعادةِ ما دَخَلَ عليه. أو بإعادةِ ضميرِه، فأُكِّد بإعادةِ ضميرِ ما دَخَلَتْ عليه "إنَّ" وحينئذٍ يكون الموصول نعتاً للموتِ، و"مُلاقِيكم" خبرُه كأنه قيل: إنَّ الموتَ إنَّه مُلاقيكم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9)

(406/764)

قوله: ﴿ مِن يَوْمِ الجمعة ﴾: "مِنْ" هذه بيانٌ ل "إذا" وتفسيرٌ لها قاله الزمخشريُّ. وقال أبو البقاء: إنَّها بمعنى "في"، أي: في يوم. وقرأ العامَّةُ "الجمعة" بضمَّتَيْن. وقرأ ابن الزبير وزيد ابن علي وأبو حيوة وأبو حيوة وأبو عمروٍ في روايةٍ بسكونِ الميم. فقيل: هي لغةٌ في الأُولى وسُكِّنَتْ تخفيفاً، وهي لغةُ تميم. وقيل: / هو مصدرٌ بمعنى الاجتماع. وقيل:

لَمَّا كان بمعنى الفعل صار كرجل هُزْأَة ، أي : يُهْزَأ به ، فلمَّا كان في الجمعة معنى التجمُّع أُسْكِن ؛ لأنه مفعولٌ به في المعنى ، أو يُشْبهه فصار كَهُزْأَة الذي يُهْزأ به . قاله مكي ، وكذا قال أبو البقاء : " هو بمعنى المُجْتَمَع فيه مثل : رجل ضُحْكَة ، أي : يُضْحك منه " وقال مكي : " يجوز إسكان الميم استخفافاً . وقيل : هي لغةٌ " . قلت : قد تقدَّم أنها قراءةٌ ، وأنها لغة تميم . وقال الشيخ : " ولغةٌ بفتحِها لم يُقْرَأ بها " قلت : قد نقلها قراءةً أبو البقاء فقال : " ويقرأ بفتح الميم بمعنى الفاعِل ، أي : يومَ المكان الجامع . مثل : رجلٌ ضُحْكَة ، أي : كثيرُ الضَّحِك " وقال مكي قريباً منه ، فإنه قال : " وفيه لغةٌ ثالثةٌ بفتح الميم على نسبةِ الفعل إليها ، كأنَّها تَجْمع الناسَ كما يُقال : رجل لُحَنَة ، إذا كان يُلَحِّن الناس ، وقُرَأَة ، إذا كان يُقْرِىءُ الناس " ، ونقلها قراءةً أيضاً الزمخشري ، إلاَّ أنه جعل الجُمْعَةَ بالسكون هو الأصلَ ، وبالمضموم مخفَّفاً منه فقال : " يوم الجُمعة : يوم الفوجِ المجموعِ كقولهم : ضُحْكَة للمضحوك منه . ويومُ الجمعة بفتح الميم : يومُ الوقتِ الجامعِ كقولهم : ضُحَكَة ولُعَبَة ، ويوم الجُمُعة تثقيلٌ للجُمْعَة كما قيل : عُسُرة في عُسْرة وقُرِيء بهن جميعاً " وتقديره : يوم الوقتِ الجامعِ أحسنُ من تقدير أبي البقاءِ : يوم المكانِ الجامع ؛ لأنَّ نسبةَ الجمعِ إلى الظرفَيْن مجازٌ

فالأَوْلى إبقاؤُه زماناً على حالِه .

وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11)

قوله : ﴿ انفضوا إِلَيْهَا ﴾ : أعاد الضمير على التجارة دونَ اللهو ؛ لأنها الأهمُّ في السبب .

قال ابن عطية : " وقال : إليها ولم يقل : إليهما تَهَمُّماً بالأهمِّ ، إذ كانَتْ هي سببَ اللهوِ ولم يكن اللهوُ . سببَهَا . وتأمَّلْ أنْ قُدِّمتْ التجارةُ على اللهو في الرؤية ؛ لأنها أهمُّ وأُخِّرت مع التفضيل ، لتقعَ النفسُ أولاً على الأَبين " انتهى . وفي قولِه " لم يَقُلْ إليهما " ثم أجاب بما ذكرَ نَظَرٌ لا يَخْفَى ؛ لأنَّ العطفَ ب " أو " لا يُثَنَّى معه الضميرُ ولا الخبرُ ولا الحالُ ولا الوصف ؛ لأنها لأحدِ الشيئَيْن ، ولذلك تأوَّل الناسُ " إنْ يكُنْ غنياً أو فقيراً فاللَّهُ أَوْلى بهما " كما قَدَّمْتُه في موضعِه ، وإنما الجوابُ عنه : أنه وَحَدَّ الضميرَ لأنَّ العطفَ ب " أو " وإنما جيْءَ بضميرِ التجارة دونَ ضميرِ اللهوِ وإن كان جائزاً لِما ذكَره ابنُ عطيةَ مِنْ الجوابِ ، وهو الاختمام كما قاله غيرُ واحدٍ . وقد قال الزمخشريُّ قريباً ممَّا قاله ابنُ عطية فإنه قال : " كيف قال : إليها ، وقد ذكرَ شيئَيْن ؟ قلت : تقديرُه : إذ رأوا تجارةً انفَضُّوا إليها أو لَهْواً انفَضُّوا إليه ، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ، وكذلك قراءةُ مَنْ قرأ " انفَضُّوا إليه " انتهى . قوله : قلتُ تقديرُه إلى آخره ، يُشْعِرُ ، بأنَّه كان حقُّ الكلام أَنْ يُثَنَّى الضمير ، ولكنه حُذِف . وفيه ما قَدَّمْتُه لك : مِنْ أنَّ المانعَ مِن ذلك أمرٌ صناعيٌ وهو العطفُ ب " أو " .

(408/764)

وقرأ ابن أبي عبلةَ " إليه " أعاد الضميرَ إلى اللهو وقد نَصَّ على جوازِ ذلك الأخفش سَماعاً من العرب نحو : " إذا جاءك زيد أو هند فأَكْرِمه " وإن شئْتَ " فأكرِمْها " . وقرأ بعضهُم " إليهما " بالتثنية . وتخريجُها كتخريجِ ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً ﴾ [النساء : 135] وقد تقدَّم تحريرُه .

قوله : ﴿ وَتَرَكُوكَ ﴾ جملةٌ حاليةٌ مِنْ فاعل " انفَضُّوا " و " قد " مقدرةٌ عند بعضِهم وقولِه ﴿ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ " ما " موصولةٌ مبتدأ ، و " خيرٌ " خبرُها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿الدر المصون حـ 10 صـ 325.333﴾

(409/764)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الجمعة

قل جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم عزيز إذا تجلى لقلب عبد بوصف جماله تجمعت أفكاره على بساط جوده فلم يتفرق بسواه .

ومن تجلى لسره بنعت جلاله اندرجت جملته ، واستهلك في وجوده فلم يشعر بكرائم دنياه ولا بعظائم عقباه .

وكم له من إنعام وكم له من إحسان وكم في أمثالهم : جرى الوادي فطم على القرى .

قوله جل ذكره : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ .

تَسْبَحُ في بحارِ توحيد الحقّ أسرارُ أهلِ التحقيق ، وبَحْرُهم بلا شاطىء ؛ فبعد ما حصلوا فيها فلا خروجَ ولا براحَ ، فحازت أيديهم جواهرَ التفريد فرصّعوها في تاج العرفان كي يَلْبَسُوه يومَ اللّقاء .

﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ .

﴿ الْمَلِكِ ﴾ : الملك المتفرّد باستحقاق الجبروت .

﴿ الْقُدُّوسِ ﴾ : المُنزَّه عن الدرك والوصول : فليس بيد الخَلْق إلاَّ عرفان الحقائق بنعت التعالي ، والتأمل في شهود أفعاله ، فأمَّا الوقوف على حقيقة أنِّيته - فقد جَلَّتْ الصمديةُ عن إشرافٍ عليه ، أو طمعِ إدراكٍ في حال رؤيته ، أو جواز إحاطةٍ في العِلْم به . . فليس إلا قالة بلسانٍ مُسْتَنْطقٍ ، وحالة بشهودِ حقٍّ مستغرق .

وقُلْنَ بنا : نحن الأهِلَّة إنما . . . نُضيءُ لِمَنْ يَسْرِي بليل ولا نَقْرِي

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّنَ رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

جرّده كلَّ تكلُّفٍ لِتَعَلُّمٍ ، وعن الاتصافِ بتطَلُّبٍ . ثم بَعَثَه فيهم وأظْهَرَ عليه من الأوصاف ما فاق الجميع .

(410/764)

فكما أَيْتَمَهُ في الابتداء عن أبيه وامّه ، ثم آواه بلُطْفِه – وكان ذلك أبلغَ وأتَمَّ – فإنه كذلك أفرده عن تكلُّفِه العلم – ولكن قال : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء : 113] .

وقال : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً ﴾ [الشورى : 52]

ألبسه لباسَ العِزَّة ، وتوجَّه بتاجِ الكرامة ، وخلَعَ عليه حُسْنَ التوَلّي . لتكونَ آثارُ البشرية عنه مندرجة ، وأنوارُ الحقائق عليه لائحة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

أي بَعثَه في الأميين ، وفي آخرين منهم وهم العجم ، ومن يأتي . . إلى يوم القيامة ؛ فهو صلى الله عليه وسلم مبعوثٌ إلى لناس كافَّة .

قوله جل ذكره: ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

يقصد به هنا النبوة، يؤتيها ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ وفي ذلك ردٌّ على مَنْ قال: إنها تُسْتَحَقُّ لكثرة طاعة الرسول - وردٌّ على من قال: إنها لتخصيصهم بطينتهم؛ فالفضل ما لا يكون مُسْتَحَقّاً، والاستحقاق فرضٌ لا فضل.

ويقال: ﴿ فَضْلُ اللَّهِ ﴾ هنا هو التوفيق حتى يؤمنوا به.

ويقال: هو الأُنسُ بالله، والعبدُ يَنْسَى كلَّ شيء إذا وَجَدَ الأُنسَ.

ويقال: قَطَعَ الأسباب، - بالجملة - في استحقاق الفضل، إذا أحاله على المشيئة.

قوله جل ذكره: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ : ثم لم يعملوا بها.

(411/764)

ويلْحَقُ بهؤلاء في الوعيد - من حيث الإشارة - الموسومون بالتقليد في أي معنى شِئتَ: في علم الأصول، ومّا طريقُه أدلة العقول، وفي هذه الطريقة مّا طريقُه المنازلات.

قوله جل ذكره: ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا

الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ .

هذا من جلمة معجزاته صلى الله عليه وسلم ، فَصَرْفُ قلوبهم عن تمنّي الموتِ إلى هذه المدة دلَّ على صِدْقِه صلوات الله عليه .

ويقال : من علامات المحبة الاشتياق إلى المحبوب ؛ فإذا كان لا يَصِلُ إلى لقائه إلا بالموتِ فتمنّيه - لا محالة - شرطٌ ، فأخبر أنهم لا يتمنونه أبداً . . وكان كما اخبر .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

الموتُ حَتْمٌ مَقْضِيٌّ . وفي الخبر : " مَنْ كَرِهَ لقاء الله كَرِهَ الله لقاءه " والموتُ جسْرٌ والمقصدُ عند الله . . . ومَنْ لم يَعِشْ عفيفاً فَلْيَمُتْ ظريفاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

أَوْجَبَ السَّعْيَ يومَ الجمعة إذا نودِيَ لها ، وأمَرَ بتَرْكِ البيع .

ومنهم من يحمله على الظاهر ؛ أي تَرْكُ المعاملة مع الخَلْقِ ، ومنهم من يحمله عليه وعلى معنىً آخر : هو تَرْكُ الاشتغال بملاحظة الأعراض ، والتناسي عن جميع الأغراض إلا معانقة الأمر ؛ فمنهم مَنْ يسعى إلى ذِكْرِ الله ، ومنهم من يسعى إلى الله ، بل يسعون إلى ذِكْرِ الله جَهْراً بجَهْرٍ ، ويسعون إلى الله تعالى سِرّاً بسِرٍّ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

إنما ينصرف مَنْ كان له جَمْعٌ يرجع إليه ، أو شغْلٌ يقصده ويشتغل به – ولكن . . . مَنْ لا شُغْلَ له ولا مأوى . . فإلى أين يرجع ؟ وإنما يقال : ﴿ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ إذا كان له أربٌ . . فأمّا مَنْ سكَنَ عن المطالبات ، وكُفِيَ داءَ الطَّلَبِ . . فما لَه وابتغاء ما ليس يريده ولا هو في رِقّه ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

مَنْ أسَرَتْهُ أخطارُ الأشياء استجاب لكلِّ داعٍ جرّه إليه لَهْوٌ أو حَمَلَه عليه سهوٌ ومَنْ مَلَكَه سلطانُ الحقيقة لم ينحرف عن الحضور ، ولم يلتفت في حال الشهود . ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ﴾ وما عند الله للعُبّاد والزُّهّاد – غداً – خيرٌ مما نالوه في الدنيا نقداً . وما عند الله للعارفين – نقداً – من واردات القلوب وبواده الحقيقية خيرٌ مما يُؤمَّل

المستأنف في الدنيا والعُقْبى. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 581. 586﴾

(413/764)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة:

سورة الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1)

الإعراب:

(يسبّح للَّه... في الأرض) مرّ إعرابها مفردات وجملا " 1 "، (الملك، القدوس، العزيز، الحكيم) نعوت للفظ الجلالة مجرورة.

[سورة الجمعة (62): الآيات 2 إلى 4]

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4)

الإعراب :

(في الأمّيّين) متعلّق بـ (بعث) بتضمينه معنى أقام (منهم)

---

(1) في الآية (1) من سورة الصفّ السابقة .

(414/764)

متعلّق بنعت لـ (رسولا) ، (عليهم) متعلّق بـ (يتلو) ، (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة ، والرابعة حاليّة (إن) مخففة من الثقيلة ، واسم إنّ محذوف أي : إنّهم (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بحال من ضلال (في ضلال) متعلّق بخبر كانوا . .

جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " بعث . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يتلو . . . " في محلّ نصب نعت ثان لـ (رسولا) " 1 " .

وجملة : " يزكّيهم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يتلو .

وجملة : " يعلّمهم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يتلو .

وجملة : " إن كانوا . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " كانوا . . . " في محلّ رفع خبر إن المخفّفة .

3 - (الواو) عاطفة في الموضعين (آخرين) معطوف على الأمّيّين مجرور (منهم) متعلّق بنعت لـ (آخرين) " 2 " ، والضمير فيه يعود على الأمّيّين (لمّا) حرف نفي وقلب وجزم (بهم) متعلّق بـ (يلحقوا) . .

وجملة : " لمّا يلحقوا . . . " في محلّ نصب حال من آخرين .

وجملة : " هو العزيز . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هو الذي " 3 " . . .

4 - والإشارة في (ذلك) إلى تفضيل الرسول وقومه (من) موصول في محلّ نصب مفعول به ثان (الواو) عاطفة - أو حاليّة - (ذو) خبر المبتدأ (اللَّه) . .

وجملة : " ذلك فضل الله . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو حال من (رسولا) .

(2) أو حال من آخرين لدلالته على عموم الأميين . [. . . . .]

(3) أو حال من فاعل بعث .

وجملة : " يؤتيه . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ ذلك " 1 " .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " اللّه ذو الفضل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ذلك فضل " 2 " . .

[سورة الجمعة (62) : آية 5]

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5)

الإعراب :

(ثمّ) حرف عطف (كمثل) متعلّق بخبر المبتدأ (مثل) . .

والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره هذا المثل (الذين) موصول في محلّ جرّ نعت للقوم

(بآيات) متعلّق ب (كذّبوا) ، (الواو) استئنافيّة (لا) نافية .

جملة : " مثل الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " حمّلوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لم يحملوها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " يحمل . . . " في محلّ نصب حال من الحمار " 3 " .

وجملة : " بئس مثل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو حال من (فضل اللّه) والعامل فيها معنى الإشارة .

(2) أو حال من فاعل يؤتيه .

(3) أو في محلّ جرّ نعت لحمار لأنّ (ال) فيه جنسيّة .

وجملة: "كذّبوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني.

وجملة: "اللَّه لا يهدي . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا يهدي القوم . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللَّه).

الصرف:

(أسفارا)، جمع سفر، اسم للكتاب الكبير، وزنه فعل بكسر فسكون، ووزن أسفار أفعال.

البلاغة

التشبيه التمثيلي: في قوله تعالى مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً. شبه اليهود - في أنهم حملة التوراة وقرّاؤها وحفاظ ما فيها، ثم إنهم غير عاملين بها ولا منتفعين بآياتها، وذلك أن فيها نعت رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) والبشارة به ولم يؤمنوا به - بالحمار حمل أسفارا، أي كتبا كبارا من كتب العلم، فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره، من الكد والتعب. وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله.

[سورة الجمعة (62): الآيات 6 إلى 8]

قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ
صادِقِينَ (6) وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ
الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
(8)

الإعراب:

(أيها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الذين) موصول في محلّ نصب بدل من أيّ - أو عطف بيان - (زعمتم) ماض في محلّ جزم فعل الشرط (للَّه) متعلّق ب (أولياء) " 1 "، (من دون) متعلّق

---

(1) أو متعلّق بنعت لأولياء.. والمصدر المؤوّل (أنّكم أولياء..) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي زعمتم.

ب (أولياء) " 1 " (الفاء) رابطة لجواب الشرط (كنتم) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط..

جملة: " قل... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " النداء . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " هادوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: " إن زعمتم . . . " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " تمنّوا . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: " إن كنتم . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز جواب النداء " 2 " وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب الشرط الأول أي: فتمنّوا الموت.

7 - (الواو) استئنافيّة في الموضعين (لا) نافية (أبدا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يتمنّونه) المنفيّ (ما) حرف مصدريّ " 3 "، (بالظالمين) متعلّق بـ (عليم)..

والمصدر المؤوّل (ما قدّمت . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (يتمنّونه) المنفيّ، و (الباء) سببيّة.

وجملة: " لا يتمنّونه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " قدّمت أيديهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة: " اللّه عليم بالظالمين " لا محلّ لها استئنافيّة.

8 - (منه) متعلّق بـ (تفرّون)، (الفاء) زائدة في خبر إنّ لأن الاسم وصف

---

(1) أو متعلّق بحال من الضمير في أولياء.

(2) الشرط الأول في هذا التركيب قيد في الثاني وهو الأصل أي: إن كنتم صادقين إن

زعمتم أنّكم أولياء فتمنّوا الموت.

(3) أو اسم موصول في محلّ جرّ، والعائد محذوف، والجملة بعده صلة له.

(418/764)

بالموصول فأخذ حكم الموصول المشابه للشرط (ثمّ) حرف عطف، والواو في (تردّون) نائب الفاعل، (إلى عالم) متعلّق بـ (تردّون)، (بما كنتم) مثل بما قدّمت..

وجملة: " قل ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " إنّ الموت ... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " تفرّون ... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة: " إنّه ملاقيكم ... " في محلّ رفع خبر إنّ (الأول).

وجملة: " تردّون ... " في محلّ رفع معطوفة على خبر إنّ، والرابط مقدّر أي تردّون بعده.

وجملة: " ينبّئكم " في محلّ رفع معطوفة على جملة تردّون.

وجملة: "كنتم ... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

وجملة: " تعملون " في محلّ نصب خبر كنتم.

[سورة الجمعة (62) : الآيات 9 إلى 11]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10) وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11)

الإعراب:

(يأيّها الذين آمنوا) مثل يأيّها الذين هادوا " 1 "، (للصلاة) نائب الفاعل، (من يوم) متعلّق بحال من الصلاة (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إلى ذكر) متعلّق ب (اسعوا)، (لكم) متعلّق ب (خير) ..

جملة: " النداء ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " آمنوا ... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: " الشرط وفعله وجوابه ... " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " نودي للصلاة ... " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " اسعوا ... " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: " ذروا ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة اسعوا.

---

(1) في الآية (6) من هذه السورة.

(419/764)

وجملة : " ذلكم خير لكم . . . " لا محلّ لها استئناف بياني – أو تعليليّة – وجملة : " كنتم تعلمون " لا محلّ لها استئنافيّة . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : إن كنتم تعلمون أنّه خير لكم فاسعوا إلى ذكر اللَّه .

وجملة : " تعلمون " في محلّ نصب خبر كنتم .

10 – (الفاء) عاطفة والثانية رابطة لجواب الشرط (في الأرض) متعلّق بـ (انتشروا) ، (من فضل) متعلّق بـ (ابتغوا) ، (كثيرا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته . .

وجملة : " قضيت الصلاة . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " انتشروا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " ابتغوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة انتشروا .

وجملة : " اذكروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة انتشروا .

وجملة : " لعلّكم تفلحون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(420/764)

وجملة : " تفلحون . . . " في محلّ رفع خبر لعلّكم .

11 - (الواو) استئنافيّة (أو) حرف عطف (إليها) متعلّق بـ (انفضّوا) ، (الواو) حاليّة - أو عاطفة - (قائما) حال منصوبة من ضمير الخطاب في (تركوك) ، (ما) موصول في محلّ رفع مبتدأ خبره (خير) ، (عند) ظرف منصوب متعلّق بصلة ما المقدّرة (من اللهو) متعلّق بـ (خير) ، وكذلك (من التجارة) ، (الواو) استئنافيّة . .

وجملة : " رأوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " انفضّوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " تركوك . . . " في محلّ نصب حال من فاعل انفضّوا بتقدير قد " 1 " .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما عند اللّه خير . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اللّه خير الرازقين " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(9) الجمعة : اسم لواحد من أيّام الأسبوع ، والأصل فيه أنّه مصدر بمعنى الاجتماع ، وزنه فعلة بضمّتين "

.

---

(1) أو لا محلّ لها معطوفة على جملة انفضّوا .

(2) وقرأ بعضهم بتسكين الميم ، وقيل هي لغة فيه .

(اسعوا) ، فيه إعلال بالحذف شأن المضارع يسعون . . انظر الآية (33) من سورة المائدة .

الفوائد :

صلاة الجمعة . .

أفادت هذه الآية حكما فقهيا ، هو وجوب تلبية النداء يوم الجمعة ، لذا قال الفقهاء بأن صلاة الجمعة لا تصح إلا في المسجد ، فمن فاتته صلاها ظهرا ، كما أفادت حرمة التشاغل بعد النداء ، والمقصود به الأذان بين يدي الخطيب ، أما التشاغل بعد الأذان الأول فهو مكروه . عن ابن سيرين قال : جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي (صلّى اللَّه عليه وسلّم) ، وقبل أن تنزل الجمعة ، وهم الذين سمّوا الجمعة . وقالوا : لليهود يوم السبت ، وللنصارى يوم الأحد ، فلنجعل يوما نجتمع فيه فنذكر اسم اللَّه تعالى ونصلي ، فجعلوه يوم العروبة . ثم أنزل اللَّه تعالى في ذلك : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ

الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ . وأسعد بن زرارة رضي اللَّه عنه هو أول من جمع الناس يوم الجمعة ، وكانوا أربعين . أخرجه أبو داود . أما أول جمعة جمعها رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) بأصحابه ، فذكر أصحاب السّير ، أن النبي (صلّى اللَّه عليه وسلّم) لما دخل المدينة مهاجرا ، نزل قباء ، على بني عمرو بن عوف ، وذلك يوم الاثنين ، لثنتي عشرة خلت من ربيع الأول ، حين امتد الضحى ، فأقام بقباء من الاثنين إلى الخميس ، وأسس مسجدهم ، وهو أول مسجد في الإسلام ، ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة ، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف ، في بطن واديهم ، وقد اتخذوا في ذلك الموضع مسجدا ، فجمع فيه رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) وخطب .

العدد الذي تنعقد به الجمعة :

قال عبيد اللَّه بن عبد اللَّه وعمر بن عبد العزيز والشافعي وأحمد وإسحاق :

لا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين رجلا من أهل الكمال ، وذلك بأن يكونوا أحرارا بالغين عاقلين مقيمين في موضع لا يظعنون عنه شتاء ولا صيفا إلا لحاجة وقد اشترط عمر بن عبد العزيز الوالي حتى تصح الجمعة . أما الشافعي فقال : تصح بلا وال ، وقال أبو حنيفة :

تنعقد الجمعة بأربعة، شريطة وجود الوالي، وقال الأوزاعي وأبو يوسف: تنعقد بثلاثة إذا كان فيهم وال، وقال الحسن: تنعقد باثنين كسائر الصلوات، وقال ربيعة: تنعقد باثني عشر رجلا، ولا يكمل العدد بمن لا تجب عليه الجمعة، كالعبد والمرأة والمسافر والصبي، ولا تنعقد إلا في موضع واحد، أما إذا كثر الناس وضاق الجامع، فجمهور الفقهاء على أنها تنعقد بأكثر من جامع. واللَّه أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿الجدول حـ 28 صـ 343. 251﴾

(423/764)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(62) سورة الجمعة

مدنيّة وآياتها إحدى عشرة

[سورة الجمعة (62): الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا

مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (2) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4)

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5)

اللغة:

(الْقُدُّوسِ) بضم القاف وتشديد الدال من أسماء اللّه تعالى ويفتح أي الطاهر أو المبارك وكل فعول مفتوح غير قدوس وسبوح وذرّوح وفرّوج فبالضم ويفتحن.

(أَسْفاراً) جمع سفر بكسر السين وهو الكتاب الكبير لأنه يسفر ويكشف إذا قرىء عمّا فيه من المعاني.

الإعراب:

)

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) يسبّح فعل مضارع مرفوع ولله متعلقان به أو اللام زائدة في المفعول وما فاعل وغلب الأكثر على الأقل

وفي السموات متعلقان بمحذوف هو الصلة للموصول وما في الأرض عطف على ما في السموات وما بعده صفات أو بدل من الله (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ) هو مبتدأ والذي خبره وجملة بعث صلة الذي وفي الأميّين متعلقان ببعث وقد تقدم القول مسهبا في معنى الأميين في آل عمران ورسولا مفعول بعث ومنهم نعت رسولا (يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) جملة يتلو نعت ثان أو حال وعليهم متعلقان بيتلو وآياته مفعول به ويزكيهم عطف على يتلو وهو فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ويعلمهم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به أول والكتاب مفعول به ثان والحكمة عطف على الكتاب (وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) الواو حالية وإن مخففة من الثقيلة مهملة وكانوا فعل ماض ناقص والواو اسمها ومن قبل حال واللام الفارقة المختصّة بإن المخفّفة وفي ضلال خبر كانوا ومبين نعت لضلال (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) الواو عاطفة وآخرين مجرور عطفا على الأمّيين أي وبعثه في آخرين من الأمّيين أو منصوب عطفا على الضمير المنصوب في يعلمهم أي ويعلم آخرين لم يلحقوا بهم ومنهم حال من آخرين أي حال كون الآخرين من مطلق الأميين ولما حرف نفي وجزم ويلحقوا فعل مضارع مجزوم بلما وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل

والجملة نعت لآخرين ، والواو استئنافية وهو مبتدأ والعزيز خبر أول والحكيم خبر ثان (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) ذلك مبتدأ والإشارة إلى الأمر العظيم وهو كون الرسول وقومه مفضلين على غيرهم وفضل الله خبر ويؤتيه فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو والهاء مفعول به والجملة في محل رفع خبر ثان لذلك ومن مفعول به ثان وجملة يشاء صلة من والله مبتدأ وذو الفضل خبر والعظيم نعت للفضل (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) كلام مستأنف مسوق لضرب المثل لليهود عند ما تركوا العمل بالتوراة ولم يؤمنوا بمحمد ومثل مبتدأ والذين مضاف إليه وجملة حملوا صلة للذين وحملوا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والتوراة مفعول به ثان ، ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ولم حرف نفي وقلب وجزم ويحملوها فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والهاء مفعول به ومعنى الحمل هنا ليس من الحمل على الظهر وإنما هو من الحمالة ، والحميل هو الكفيل قال في المختار : " حمل بدين ودية من باب ضرب حمالة بفتح الحاء أي كفل وحمل الرسالة تحميلا كلفه حملها وتحمل الحمالة حملها " وكمثل الحمار خبر مثل وجملة يحمل أسفارا في محل نصب على الحال من الحمار وأجازوا أن تكون في محل جر نعتا للحمار لجريانه مجرى النكرة إذ المراد به الجنس فهو من وادي قوله :

ولقد أمر على اللئيم يسبني فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

وسيأتي المزيد من بحث هذا التشبيه في باب البلاغة وأسفارا مفعول به (بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ) بئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم ومثل القوم فاعل بئس والذين صفة وجملة كذبوا صلة وبآيات الله متعلقان بكذبوا والمخصوص بالذم محذوف أي هذا المثل

(وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) الله مبتدأ وجملة لا يهدي خبر والقوم مفعول به والظالمين نعت للقوم.

البلاغة:

في قوله «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا» تشبيه تمثيلي فقد شبّه اليهود حيث لم ينتفعوا بما في التوراة من الدلالة على الإيمان بمحمد صلّى الله عليه وسلم والإلماع إلى بعثته بالحمار الذي يحمل الكتب ولا يدري ما فيها ووجه الشبه عدم الانتفاع بما هو حاصل وكائن فالحمار يمشي في طريقه وهو لا يحسّ بشيء مما يحمله على ظهره

الإعراب:

(قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) يا أيها الذين تقدم إعرابها كثيرا وجملة هادوا صلة وهو فعل ماض مبني على الضم والواو فاعل أي اتخذوا اليهودية دينا وإن شرطية وزعمتم فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وأن وفي حيّزها سدّت مسدّ مفعولي زعمتم وأن واسمها وأولياء الله خبرها ولله متعلقان بمحذوف نعت لأولياء أو بنفس أولياء ومن دون الناس نعت ثان أو حال والفاء رابطة للجواب لأنه جملة طلبية وتمنّوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والموت مفعول به وإن شرطية وكان واسمها وخبرها والجواب محذوف أي فتمنّوه (وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) الواو حرف عطف ولا نافية ويتمنّونه فعل مضارع مرفوع والواو فاعل والهاء مفعول به وأبدا ظرف متعلق بيتمنّونه وبما متعلقان بما في معنى النفي لأنها سبب لنفي التمنّي وجملة قدّمت صلة وأيديهم فاعل والله مبتدأ وعليم خبر وبالظالمين متعلقان بعليم (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ) قل فعل أمر وفاعل مستتر تقديره أنت وإن واسمها والذي نعت للموت وجملة تفرّون صلة ومنه متعلقان بتفرّون

والفاء رابطة لما تضمنه الموصول من معنى الشرط، وإن واسمها وملاقيكم خبرها وجملة فإنه ملاقيكم خبر إن

(428/764)

الأولى وقد منع هذا قوم منهم الفرّاء وجعلوا الفاء زائدة وقيل الخبر هو نفس الذي وما بعده استئناف كأنه قيل إن الموت هو الشيء الذي تفرّون منه وإلى هذا نحا الزمخشري وتؤيده قراءة زيد بن علي بدون فاء (ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وتردّون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وإلى عالم الغيب متعلقان بتردّون، فينبئكم عطف على تردّون وبما في موضع نصب مفعول ينبئكم الثاني وجملة كنتم صلة لا محل لها وجملة تعملون خبر كنتم (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ) إذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه وجملة نودي في محل جر بإضافة الظرف إليها وللصلاة متعلقان بنودي ومن يوم الجمعة متعلقان بمحذوف حال لأنها بمثابة البيان لإذا والتفسير لها قال الزمخشري: "فإن قلت "من" في قوله من يوم الجمعة ما هي قلت هي بيان لإذا وتفسير له" وسيأتي القول في الجمعة في باب الفوائد مسهبا، وقال أبو البقاء: "أن" من

" بمعنى في " أي في يوم الجمعة فتتعلق بنودي ، والنداء يراد به هنا الأذان والفاء رابطة لجواب إذا ، واسعوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وإلى ذكر اللّه متعلقان باسعوا وذروا فعل أمر والواو فاعل والبيع مفعول به (ذِلكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ذلكم مبتدأ والإشارة إلى ما ذكر من السعي وترك الاشتغال بأمور الدنيا وخير خبر ولكم متعلقان بخير وإن شرطية وكنتم فعل الشرط وجملة تعلمون خبر كنتم وجواب إن محذوف دلّ عليه ما قبله (فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) الفاء عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة قضيت

(429/764)

في محل جر بإضافة الظرف إليها والصلاة نائب فاعل والفاء رابطة وانتشروا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة لا محل لها وفي الأرض

متعلقان بانتشروا وابتغوا عطف على فانتشروا ومن فضل اللّه متعلقان بابتغوا (وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) واذكروا عطف على فانتشروا ولفظ الجلالة مفعول به وكثيرا نعت لمصدر محذوف أو ظرف زمان ولعلّ واسمها وجملة تفلحون خبرها (وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً) عطف على ما تقدم وجملة انفضّوا إليها لا محل لها وقال

الزمخشري : " فإن قلت كيف قال إليها وقد ذكر شيئين قلت :

تقديره إذا رأوا تجارة انفضّوا إليها أو لهوا انفضوا إليه فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه

" وتركوك فعل ماض وفاعل ومفعول به وقائما مفعول به ثان ويجوز إعرابه حالا وجملة

تركوك قائما حالية من فاعل انفضوا وقد مقدّرة ولك أن تجعلها معطوفة منسوقة على

سوابقها (قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) ما اسم موصول في

محل رفع مبتدأ وعند اللّه ظرف متعلق بمحذوف هو الصلة وخير خبر ومن اللهو متعلقان

بخير ومن التجارة عطف على من اللهو واللّه مبتدأ وخير الرازقين خبر .

الفوائد :

(430/764)

قرأ العامة الجمعة بضمتين وقرأ ابن الزبير وزيد بن علي وأبو حيان وأبو عمرو في رواية

بسكون الميم فقيل هي لغة في الأولى وسكنت تخفيفا وهي لغة تميم وقيل هو مصدر بمعنى

الاجتماع وقل لما كان بمعنى الفعل صار كرجل هزأة أي يهزأ به فلما كان في الجمعة معنى

التجمع سكن لأنه مفعول به في المعنى أو يشبهه وكانت العرب تسمّيه العروبة وقيل سمّاه

كعب بن لؤي لاجتماع الناس فيه وإليه وفي الكشاف : " وقيل إن الأنصار قالوا لليهود يوم

يجتمعون فيه كل سبعة أيام وللنصارى مثل ذلك فهلمّوا نجعل لنا يوما نجتمع فيه فنذكر اللّه فيه

ونصلي فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلّى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم فسمّوه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه فأنزل اللّه آية الجمعة فهي أول جمعة كانت في الإسلام وأما أول جمعة جمعها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فهي أنه لما قدم المدينة مهاجرا نزل قباء على بني عمرو بن عوف وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسّس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة عامدا المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم فخطب وصلّى الجمعة ، وعن بعضهم : أبطل اللّه قول اليهود في ثلاث : افتخروا بأنهم أولياء اللّه وأحباؤه فكذبهم في قوله : "فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين" وبأنهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم فشبّههم بالحمار يحمل أسفارا وبالسبت وأنه ليس للمسلمين مثله فشرع اللّه لهم الجمعة.

هذا ومن يرد الإطالة والإفاضة فليراجع كتب السنّة والفقه ومطولات التفاسير. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 88. 96﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والستون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/765)

الجزء الخامس والستون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة المنافقون)

(4/765)

(سورة المنافقون)

(5/765)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة المنافقون

مقصودها كمال التحذير مما يثلم الإيمان من الأعمال الباطنة ، والترهيب مما يقدح في الإسلام من الأحوال الظاهرة ، بمخالفة الفعل للقول فإنه نفاق في الجملة فيوشك يجر إلى كمال النفاق فيخرج من الدين ويدخل الهاوية ، ليكون هذا التحذير سببا في صدق الأقوال ثم صدق

الأعمال ثم صدق الأخلاق ثم صدق الأحوال ثم قف الأنفاس ، فصدق القول أن لا يقول القائل إلا عن برهان ، وصدق العمل أن لا يكطون للبدعة عليه سلطان ، وصدق الأخلاق أن لا يلاحظ ما يبدو منه من الإحسان بعد المبالغة فيه بعين النقصان ، وصدق الأحوال أن يكون على كشف وبيان وصدق الأنفاس أن لا يتنفس إلا عن وجود كالعيان ، وتسميتها بالمنافقين واضحة في ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 7 صـ 605﴾

(6/765)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . إذا جاءك المنافقون)

السّورة مدنيّة بالاتّفاق .

آياتها إِحدى عشرة .

كلماتها مائة وثمانون .

حروفها سبعمائة وست وسبعون .

فواصل آياتها (نون) سمّيت سورة المنافقين بمفتتحها .

معظم مقصود السّورة: تقريع المنافقين وتبكيتهم، وبيان ذلّهم وكذبهم، وذكر تشريف المؤمنين وتبجيلهم، وبيان عزّهم وشرفهم، والنّهى عن نسيان ذكر الحقّ تعالى، والغفلة عنه، والإخبار عن ندامة الكفّار بعد الموت، وبيان أنّه لا تأخير ولا إمهال بعد حلول الأجل، فى قوله: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً ﴾ الآية.

وليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

المتشابهات

قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ وبعده: ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، لأَنّ الأَوّل متّصل بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وفى معرفتها غموض يحتاج إلى فطنة، والمنافق لا فطنة له؛ والثانى متّصل بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَى لا يعلمون بأَنّ الله مُعِزّ لأَوليائه ومذِلّ لأَعدائه.

فضل السّورة

روى فيه من الأَحاديث المردودة حديث أُبىّ: من قرأَها برىء من النِّفاق، وحديث علىّ: يا علىّ مَنْ قرأَها أَعطاه الله مثل ثواب (من أَنفق حمل بعير دينارا فى طاعة الله، وخرج من الدنيا على رضا الله، وله مثل ثواب) مَن يقضى دَيْن أَبويه بعد موتهما، وجعل الله اثنى عشر منافقاً فداه من النّار. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز جـ 1 صـ 465.

466 ﴾

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة المنافقين

39 ، - مسألة :

قوله تعالى : (وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ)

ثم قال بعده : (وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) ؟ .

جوابه :

لما قالوا : (لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ) ختم بأنهم (لَا يَفْقَهُونَ) أي لا يفهمون أن الأرزاق على الله تعالى ، وأن منعهم ذلك لا يضرهم لأن الله تعالى يرزقهم إذا منعوهم من جهة أخرى ، فلما كان الفكر في ذلك أمرا خفيا يحتاج إلى فكر وفهم ، وأن خزائن الله سبحانه مقدورته إذا شاءها قال (لَا يَفْقَهُونَ) .

وأما : (لَا يَعْلَمُونَ) : فرد على عبد الله بن أبي حين قال : (لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) لأن ذلك يدل على عدم علمه أن العزة لله وللرسول ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، فمنه العزة

وهو معطيها لمن يشاء ، وليس ذلك إلى غيره ، وذلك من الأمور الظاهرة لمن عرف الله تعالى ، فجهَّلهم

بقولهم ذلك مع ظهور دليله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 357.358 ﴾

(8/765)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة المنافقون

سميت هذه السورة في كتب السنة وكتب التفسير (سورة المنافقين) اعتباراً بذكر أحوالهم وصفاتهم فيها .

ووقع هذا الاسم في حديث زيد بن أرقم عند الترمذي قوله : (فلما أصبحنا قرأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سورة المنافقين) . وسيأتي قريباً ، وروَى الطبراني في (الأوسط) عن أبي هريرة قال : (كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة فيحرض بها المؤمنين ، وفي الثانية بسورة المنافقين فيُقرع بها المنافقين) .

ووقع في (صحيح البخاري) وبعض كتب التفسير تسميتها (سورة المنافقون) على

حكاية اللفظ الواقع في أولها وكذلك ثبت في كثير من المصاحف المغربية والمشرقية .

وهي مدنية بالاتفاق .

واتفق العادُّون على عدّ آيها إحدى عشرةَ آية .

وقد عُدّت الثانية بعد المائة في عداد نزول السور عند جابر بن زيد . نزلت بعد سورة الحج وقبل سورة المجادلة .

والصحيح أنها نزلت في غزوة بني المصطلق ووقع في (جامع الترمذي) عن محمد بن كعب القرظي (أنها نزلت في غزوة تبوك) . ووقع فيه أيضاً عن سفيان : أن

(9/765)

ذلك في غزوة بني المصطلق) (وغزوةُ بني المصطلق سنة خمس ، وغزوة تبوك سنة تسع)
.

ورجّح أهل المغازي وابن العربي في (العارضة) وابن كثير : أنها نزلت في غزوة بني المصطلق وهو الأظهر . لأن قول عبد الله بن أبيّ ابن سلول : (لَيُخْرِجن الأعز منها الأذلّ) ، يناسب الوقت الذي لم يَضعف فيه شأن المنافقين وكان أمرهم كل يوم في ضعف وكانت غزوة تبوك في آخر سني النبوءة وقد ضعُف أمر المنافقين .

وسبب نزولها (ما روي عن زيد بن أرقم أنه قال : كنا في غزاة فكَسع رجل من المهاجرين رجلاً جُهَنِيًّا حَليفاً للأنصار فقال الجهني : يَا للأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين : فسمع ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : ما بال دعوى الجاهلية ، قالوا : كَسَع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال : (دَعُوها فإنها مُنْتِنَة) (أي اتركوا دعوة الجاهلية : يآل كذا) فسمع هذا الخبر عبد الله بن أُبيّ فقال : أقد فعلوها أمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجن الأعزّ منها الأذّل) . وقال : لا تنفقوا على مَن عندَ رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، قال زيد بن أرقم : فسمعت ذلك فأخبرت به عَمي فذكره للنبيء (صلى الله عليه وسلم) فدعاني فحدثته فأرسل رسول الله إلى عبد الله بن أُبيّ وأصحابه فحلفوا ما قالوا ، فكذّبني رسول الله وصدّقه فأصابني همّ لم يصبني مثلُه فقال عمّي : ما أردتَ إلا أن كذبك رسول الله ، وفي رواية : إلى أن كَذَّبك ، فلما أصبحنا قرأ رسول الله سورة المنافقين وقال لي : (إن الله قد صدقك) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير ـ 28 صـ 232.231 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

تقديم لسورة المنافقون

هذه السورة التي تحمل هذا الاسم الخاص "المنافقون" الدال على موضوعها . . ليست هي السورة الوحيدة التي فيها ذكر النفاق والمنافقين , ووصف أحوالهم ومكائدهم . فلا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحا أو تصريحا . ولكن هذه السورة تكاد تكون مقصورة على الحديث عن المنافقين , والإشارة إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم .

وهي تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم , وما في نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين , ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب .

وليس في السورة عدا هذا إلا لفتة في نهايتها إلى الذين آمنوا لتحذيرهم من كل ما يلصق بهم صفة من صفات المنافقين , ولو من بعيد . وأدنى درجات النفاق عدم التجرد لله , والغفلة عن ذكره اشتغالا بالأموال والأولاد , والتقاعس عن البذل في سبيل الله حتى يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه البذل والصدقات .

وحركة النفاق التي بدأت بدخول الإسلام المدينة , واستمرت إلى قرب وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولم تنقطع في أي وقت تقريبا , وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والحين . . هذه الحركة ذات أثر واضح في سيرة هذه الفترة التاريخية وفي أحداثها ;

وقد شغلت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقتهم قدرا كبيرا ; وورد ذكرها في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف مرات كثيرة تدل على ضخامة هذه الحركة , وأثرها البالغ في حياة الدعوة في ذلك الحين .

وقد ورد عن هذه الحركة فصل جيد في كتاب: "سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن الكريم" لمؤلفه الأستاذ "محمد عزة دروزة" نقتطف منه فقرات كاشفة:

(11/765)

"وعلة ظهور تلك الحركة في المدينة واضحة , فالنبي (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون الأولون في مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ في حالة تستدعي وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم , فتتملقهم وتتزلف إليهم في الظاهر , وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم في الخفاء , كما كان شأن المنافقين بوجه عام . ولقد كان أهل مكة وزعماؤها خاصة يناوئون النبي جهارا , ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالأذى الشديد , ويقاومون الدعوة بكل وسيلة دون ما تحرز أو تحفظ ; وكانت القوة لهم حتى اضطر المسلمون إلى الهجرة فرارا بدينهم ودمهم إلى الحبشة أولا , ثم إلى يثرب ; وحتى فتن بعضهم عن دينه بالعنف والإكراه ,

أو بالإغراء والتهويش ; وحتى تزلزل بعضهم وتبرم ونافق المشركين , وحتى مات بعض من ناله الأذى ممن ثبت على دينه نتيجة للتعذيب . . .

(12/765)

"أما في المدينة فقد كان الأمر مختلفا جدا . فالنبي (صلى الله عليه وسلم) استطاع قبل أن يهاجر إليها أن يكسب أنصارا أقوياء من الأوس والخزرج ; ولم يهاجر إلا بعد أن استوثق من موقفه , ولم يبق تقريبا بيت عربي فيها لم يدخله الإسلام . ففي هذه الحالة لم يكن من الهين أن يقف الذين لم يؤمنوا به - إما عن جهالة وغباء , وإما عن غيظ وحقد وعناد , لأنهم رأوا في قدوم النبي حدا لنفوذهم وسلطانهم - موقف الجحود والعداء العلني للنبي والمسلمين من المهاجرين والأنصار ; وكان للعصبية في الوقت نفسه أثر غير قليل في عدم الوقوف هذا الموقف , لأن سواد الأوس والخزرج أصبحوا أنصار النبي , ومرتبطين به بمواثيق الدفاع والنصر , إلى أن جلهم قد حسن إسلامهم , وغدوا يرون في النبي رسول الله , وقائدهم الأعلى الواجب الطاعة , ومرشدهم الأعظم الواجب الاتباع , فلم يكن يسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك , ويتحكم فيهم مرض القلب والمكابرة والحقد , ويحملهم ذلك على مناوأة النبي (صلى الله عليه وسلم) ودعوته ونفوذه - أن يظهروا علنا في نزعتهم وعدائهم ,

ولم يكن أمامهم إلا التظاهر بالإسلام, والقيام بأركانه, والتضامن مع قبائلهم . وجعل مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والخداع والتمويه, وإذا كانوا وقفوا أحيانا مواقف علنية فيها كيد ودس, وعليها طابع من النفاق بارز, فإنما كان هذا منهم في بعض الظروف والأزمات الحادة التي كانت تحدق بالنبي والمسلمين, والتي كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعي المصلحة والمنطق والاحتياط; ولم يكونوا على كل حال يعترفون بالكفر أو النفاق, غير أن نفاقهم وكفرهم ومواقفهم في الكيد والدس والتآمر لم تكن لتخفى على النبي (صلى الله عليه وسلم) والمخلصين من أصحابه من المهاجرين والأنصار, كما أن المواقف العلنية التي كانوا يقفونها في فرص الأزمات كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقتا . وقد كانت الآيات

(13/765)

القرآنية توجه إليهم كذلك الفضائح المرة بعد المرة, وتدل عليهم بما يفعلون أو يمكرون, وتدمغهم بشرورهم وخبثهم ومكايدهم, وتحذر النبي (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين منهم في كل ظرف ومناسبة .

"ولقد كانت مواقف المنافقين ومكايدهم بعيدة المدى والأثر على ما تلهم الآيات المدنية,

حتى لكأنه نضال قوي , يذكر بما كان من نضال بين النبي (صلى الله عليه وسلم) وزعماء مكة , وإن اختلفت الأدوار والنتائج ; إذ أن النبي لم يلبث أن أخذ مركزه يتوطد وقوته تزداد , ودائرة الإسلام تتسع , وصار صاحب سلطان وأمر نافذ وجانب عزيز ; وإذ لم يكن المنافقون كتلة متضامنة ذات شخصية خاصة بارزة , وكان ضعفهم وضآلة عددهم وشأنهم يسيران سيرا متناسبا عكسيا مع ما كان من تزايد قوة النبي (صلى الله عليه وسلم) واتساع دائرة الإسلام , وتوطد عزته وسلطانه" .

(14/765)

[ويكفيك لأجل أن تشعر بخطورة الدور الذي قام به المنافقون , وخاصة في أوائل العهد , أن تلاحظ أن المنافقين كانوا أقوياء نسبيا بعصبياتهم التي كانت ما تزال قوية الأثر في نفوس سواد قبائلهم , كما أنهم لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة , ولم يكن الإسلام قد رسخ في هذا السواد رسوخا كافيا ; وأن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان محوطا بالمشركين الجاحدين من كل جانب , وأهل مكة خصومه الألداء , وهم قبلة الجزيرة يتربصون به الدوائر , ويتحينون كل فرصة ووسيلة للقضاء عليه ; واليهود في المدينة وحولها قد تنكروا له منذ عهد مبكر وتطيروا به , ثم جاهروه بالكفر والعداء والمكر ; ولم يلبث أن انعقد بينهم

وبين المنافقين حلف طبيعي على توحيد المسعى , والتضامن في موقف المعارضة والكيد , حتى ليمكن القول: إن المنافقين لم يقووا ويثبتوا ويكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار في الكيد والدس إلا بسبب ما لقوه من اليهود من تعضيد , وما انعقد بينهم من تضامن وتواثق , ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد أن مكن الله للنبي من هؤلاء وأظهره عليهم , وكفاه شرهم] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3572.3573 ﴾

(15/765)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة المنافقون

مدنية وآياتها إحدى عشرة آية

بين يدي السورة

* سورة (المنافقون ، مدنية ، شأنها شأن سائر السور المدنية ، التي تعالج " التشريعات والأحكام لما وتتحدث عن الإسلام من زاويته العملية وهي القضايا التشريعية .

* والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة ، هو الحديث بإسهاب عن (النفاق والمنافقين) ، حتى سميت السورة بهذا الاسم الفاضح ، الكاشف لأستار النفاق " سورة المنافقون "

لبيان عظيم خطرهم ، وجسيم ضررهم .

* تناولت السورة الكريمة في البدء أخلاق المنافقين ، وصفاتهم الذميمة التي من أظهرها الكذب ، ومخالفة الظاهر للباطن ، فإنهم يقولون بألسنتهم ، ما لا تعتقده قلوبهم ، ثم تآمرهم على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلى المسلمين ، وقد فضحتهم السورة وكشفت عن مخازيهم وإجرامهم ، فهم بتظاهرهم بالإسلام يصدون الناس عن دين الله ، وينالون من دعوة الإسلام ، ما لا يناله الكافر المعلن لكفره ، ولذلك كان خطرهم أعظم ، وضررهم أكبر وأجسم [إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا] ولهذا بدأت السورة بالكشف عن أستارهم ، قال الله تعالى : [إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون] الآيات .

* كما تحدثت السورة الكريمة عن مقالاتهم الشنيعة في حق الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، واعتقادهم بأن دعوته ستضمحل وتتلاشى ، وأنهم بعد عودتهم من " غزوة بني المصطلق " سيطردون الرسول والمؤمنين من المدينة المنورة ، إلى غير ما هنالك من أقوال فظيعة وشنيعة [يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل 0] الآيات .

(16/765)

* وختمت السورة الكريمة بتحذير المؤمنين من أن ينشغلوا بزينة الدنيا ولهوها ومتاعها ، عن طاعة الله وعبادته شأن المنافقين ، وبينت أن ذلك طريق الخسران ، وأمرت بالإنفاق في سبيل الله ، ابتغاء مرضاة الله ، قبل أن يفوت الأوان بانتهاء الأجل ، فيتحسر الإنسان ويندم ، حيث لا تنفع الحسرة والندم [يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله . .] إلى نهاية السورة الكريمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 483 ﴾

(17/765)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة المنافقون

المنافق : من يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، جنّة : أي وقاية وسترا لدمائهم وأموالهم ، آمنوا : أي بألسنتهم ، كفروا : أي بقلوبهم ، طبع : أي ختم عليها كما يختم بالطابع على ما يراد حفظه حتى لا يؤخذ منه شىء ، لا يفقهون : أي لا يعلمون ، تعجبك أجسامهم : أي لصباحتها وتناسب أعضائها ، تسمع لقولهم : أي لفصاحتهم وحسن

حديثهم ، خشب : واحدها خشباء وهى الخشبة التي نخرجوفها ، والصيحة : الصوت ، قاتلهم اللّه : أي لعنهم وطردهم من رحمته ، يؤفكون : أي يصرفون عما هم عليه .

لوّوا رءوسهم : أي حوّلوها استهزاء ، يصدون : أي يعرضون عن القائل ، الفاسقين : أي الخارجين من طاعة اللّه وطاعة الرسول ، المنهمكين فى أنواع الشرور والآثام ، حتى ينفضّوا : أي حتى يتفرقوا ، خزائن السموات والأرض : أي خزائن الأرزاق فيهما ، لا يفقهون : أي لا يعلمون علما صادرا عن إدراك لجلال اللّه وقدرته ، والأعزّ : أي المنافقون ، والأذل فى زعمهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وصحبه ، والعزة :

الغلبة والنصر .

لا تلهكم : أي لا تشغلكم ، وذكر اللّه : العبادات المذكرة به ، والمال والأولاد يراد بها زخرف الدنيا ، الخاسرون فى تجارتهم : إذ باعوا العظيم بالحقير ، لولا : كلمة تفيد تمنى حصول ما بعدها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 28 صـ 105.114 ﴾ . باختصار .

(18/765)

وقال الفراء :

سورة (المنافقون)

﴿ إِذَا جَآءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ . . . ﴾ .

يقول القائل: قد شهدوا للنبى صلى الله عليه ، فقالوا : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ فكيف كذَّبهم الله ؟ .

يقال: إنما أكذب ضميرهم ؛ لأنهم أضمروا النفاق ، فكما لم يَقبل إيمانهم وقد أظهروه ، فكذلك جعلهم كاذبين ؛ لأنهم أضمروا غير ما أظهروا .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ . . . ﴾ .

من العرب من يجزم بإذا ، فيقول: إذا تقم أقمْ ، أنشدنى بعضهم:

وإذا نطاوعِ أمرَ سادتِنا * لا يَثْنِنا جُبن ولا بُخْلُ

وقال آخر:

واستغْنِ ما أغناك ربُّك بالغِنى * وإذا تُصِبْك خصاصةٌ فتجمّل

وأكثر الكلام فيها الرفع؛ لأنها تكون فى مذهب الصفة، ألا ترى أنك تقول: الرُّطب إذا اشتد الحر، تريد فى ذلك الوقت. فلما كانت فى موضع صفة كانت صلة للفعل الذى يكون قبلها، أو بعد الذى يليها، كذلك قال الشاعر:

وإذا تكون شديدةٌ أُدْعَى لها * وإذا يحاسُ الحَيْسُ يُدْعَى جُندُبُ

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ. . .﴾.

خفف الأعمش، وثقل إسماعيل بن جعفر المدنى عن أصحابه وعاصم، فمن ثقل فكأنه جمع خشبة خِشابا، ثم جمعه [/ب] فثقل، كما قال: ثمار وثُمُرٌ. وإن شئت جمعته، وهو خشبة على خُشُب، فخففت وثقلت، كما قالوا: البدَنة، والبُدُن والبُدْن، والأُكُم والأُكْم.

(19/765)

والعرب تجمع بعض ما هو على صورة خشبة أرى على فُعْل؛ من ذلك: أجمة وأُجْم، وبَدَنة وبُدْن، وأكَمة وأُكْم.

ومن ذلك [من] المعتل: ساحة وسُوح، وساق وسُوق، وعانة وعُون، ولابة ولُوب، وقارة وقور، وحياة وحى، قال العجاج:

* ولو ترى إذ الحياة حِيّ *

وكان ينبغى أن يكون: حُوى، فكسر أولها لئلا تتبدل الياء واوا، كما قالوا: بيض وعِين.

وقوله: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ... ﴾.

جبنا وخوفا، ثم قال: "هم العدو"، ولم يقل: هم الأعداء، وكل ذلك صواب.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ... ﴾.

حركوها استهزاء بالنبى صلى الله عليه وسلم ودعائه. وقرأ بعض أهل المدينة: "لَوَوْا رءوسهم" بالتخفيف.

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ... ﴾.

كان النبى صلى الله عليه وسلم فى غزاة من غزواته ، فالتقى رجل من المسلمين يقال له: جِعال وآخر من المنافقين على الماء فازدحما عليه ، فلطمه جعال ، فأبصره عبد الله بن أبى ، فغضب ، وقال: ما أدخلْنا هؤلاء القوم دارنا إلاّ لُنلطَم ما لهم ؟ وكلهم الله إلى جعال ، وذوى جعال ! ، ثم قال: إنكم لم منعتم أصحاب هذا الرجل الطعام لتفرقوا عنه ، وانفضوا ، فذلك قوله: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا . . . ﴾ ثم قال عبد الله بن أبى: ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ وسمعها زيد بن أرقم ، فأخبر بها النبى صلى الله عليه وسلم ، ونزل القرآن: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾ ، ويجوز فى القراءة: "لَيُخْرِجَنَّ الأعزّ منها الأذلَّ" كأنك قلت: ليخرجن العزيز منها ذليلا ، قرأ بعضهم: لَنُخْرِجَن الأعزَّ منها الأذل أى: لنخرِجن الأعزَّ فى نفسه ذليلا .

﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾

وقوله: ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ . . . ﴾ .

يقال: كيف جزم (وأكن) ، وهى مردودة على فعل منصوب ؟

فالجواب فى ذلك أن ـ الفاء ـ لو لم تكن فى أصدق كانت مجزومة ، فلما رددت (وأكنْ) ، . ردّت على تأويل الفعل لو لم تكن فيه الفاء ، ومَن أثبت الواو ردّه على الفعل الظاهر فنصبه ،

وهى فى قراءة عبدالله ، "وأكونَ من الصالحين" .

وَقد يجوز نصبها فى قراءتنا ، وإن لم تكن فيها الواو ؛ لأن العربَ قد تسقط الواو فى بعض الهجاء ، كما أسقطوا الألف من سليمن وأشباهه ، ورأيت فى بعض مصاحف عبدالله: فقولا: فقلا بغير واو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 158 . 160 ﴾

(21/765)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة المنافقون

{كأنهم خشب مسندة} [4] أي: في طول قوامهم كخشب أسندت إلى الجدار . وقيل: بل في سكوتهم عن الحق [وجمودهم] عن الهدى . قال الثعالبي في تفسيره: "أشباح بلا أرواح ، وأجسام بلا أحلام" . وفي معناه:

1276- أضحت قبورهم من بعد عزهم تسفي عليها الصبا والحرجف الشمل

1277- لا يدفعون هواماً عن وجوههم كأنهم خشب بالقاع منجدل . {يحسبون كل صيحة عليهم} [4] أي: لجبنهم وخوفهم . [و]قول جرير فيه لما سمع[ـه] الأخطل:

1278- حملت عليك حماة قيس خيلها شعثاً عوابس تحمل الأبطالا 1279- ما زلت تحسب كل شيء بعدهم خيلاً تكر عليكم ورجالا . فقال: أخذها من كتابهم: {يحسبون كل صيحة عليهم}

وقريب من هذا قول [متمم] بن نويرة في أخيه: 1280- وقالوا أتبكي كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى [فالدكادك] 1281- فقلت لهم: إن الأسى يبعث الأسى دعوني فهذا كله قبر مالك . {فأصدق وأكن} [10]

وأكن عطف على موضع "فأصدق" ، وهو مجزوم لولا الفاء ، لأن قوله: {لولا أخرتني} بمنزلة الأمر ، لأن "لولا": للتحضيض ، فتضمن معنى الشرط ، أي: [فأخرني] إلى أجل قريب أصدق .

[تمت سورة المنافقون] . انتهى انتهى . اهـ ﴿باهر البرهان صـ 1504. 1507﴾

(22/765)

وقال الأخفش :

سورة (المنافقون)

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ

كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾

قال ﴿ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ وكما قال: "عَمَدٌ" و"عُمُدٌ" وهو مثل "الخُشْب" ويقول بعضهم "الخُشُبُ".

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾

[وقال] ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ لأن كلام العرب اذا كان في السّخْرِيّ أو في التكْثِير قيل ﴿ لَوَّى لِسَانَه ﴾ و"رأسَه". وخفّف بعضهم واحتج بقول الله عز وجل ﴿ لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 543 ﴾

(23/765)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة المنافقون

مدنية كلها

2 - اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً أي استتروا بالحلف : كلّما ظهر [النبيّ] على شيء منهم يوجب معاقبتهم ، حلفوا كاذبين .

ومن قرأ: (إيمانهم) بكسر الألف، أراد: تصديقهم بالله جنة [ووقاية] من القتل.

4 - كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ «1»: جمع «خشبة». كما يقال: بدنة وبدن، وأكمة وأكم، ورحمة ورحم. ومن المعتل: قادة وقود.

ومن قرأ: (خشب). جعله جمعا ل «خشب»، [وخشب جمع «خشبة». مثل ثمرة وثمر وثمر.

يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ أي كلما صلح صائح، ظنّوا ان ذاك امر عليهم: جبنا [منهم].

كما قال الشاعر:

ولو أنها عصفورة لحسبتها مسومة تدعوا عبيدا وأزنما

أي لو طارت عصفورة لحسبتها - من جبنك - خيلا تدعو هاتين القبيلتين.

ثم قال: هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ. أي فهم الأعداء. انتهى انتهى. ا هـ ﴿تأويل مشكل القرآن صـ 401﴾

---

(1) خشب بضمتين هي قراءة الجمهور وهناك قراءة بفتح الخاء والشين.

وقال الغزنوى:

سورة المنافقين

4 كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ في سكوتهم عن الحق وجمودهم عن الهدى، أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام. وفي الحديث «1» في ذكرهم: «خشب باللّيل صخب «2» بالنّهار».

قاتَلَهُمُ اللَّهُ أحلهم محلّ من يقاتله عدو قاهر له.

5 لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ: كثّروا تحريكها استهزاء «3».

10 فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ: «أكن» عطف على موضع فَأَصَّدَّقَ وهو مجزوم [99/ أ] لولا الفاء، لأن لَوْلا/ أَخَّرْتَنِي بمنزلة الأمر وبمعنى الشرط «4». انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن/ للغزنوى حـ 2 صـ 818﴾

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: 2/ 293، عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه مرفوعا.

(2) قال ابن الأثير في النهاية: 3/ 14: «أي: صياحون فيه ومتجادلون».

(3) ينظر معاني القرآن للفراء: 3/ 159، وتفسير الطبري: 28/ 108، وتفسير القرطبي: 18/ 126.

(4) معاني القرآن للزجاج: 5/ 178، وإعراب القرآن للنحاس: 4/ 436، والتبيان للعكبري: 2/ 1225.

(25/765)

وقال ملا حويش:

تفسير سورة المنافقين

عدد 18 - 104 - 63 نزلت بالمدينة بعد سورة الحج.

وهي إحدى عشرة آية، وثمانون ومئة كلمة، وتسعمائة وستّ وسبعون حرفا.

وتقدم بيان السّور المبدوءة بما بدئت به في سورة الانفطار ج 2 ومثلها في عدد الآي العاديات والقارعة والضّحى والجمعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: "إِذا جاءَكَ" يا محمد "الْمُنافِقُونَ قالُوا" لك بلسانهم "نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ" حقا بما علمنا في كتبنا فلا تعبأ يا حبيبي بقولهم هذا، ولا تصغ لشهادتهم، وقل لهم إني رسول اللّه إن شهدتم وإن لم "وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ" فأنت في غنى عن شهادتهم الكاذبة الصّورية "وَاللَّهُ" الذي أرسلك بشيرا ونذيرا لخلقه كافة "يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ" الّذين جاءوا

إليك بشهادتهم عفوا "لَكَاذِبُونَ" 1 في شهادتهم لأنهم أضمروا عكسها في قلوبهم وان من أخبر بشيء وهو معتقد خلافه فهو كاذب وإن هؤلاء المنافقين الّذين لا تتجاوز شهادتهم حناجرهم "اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ" التي يحلفونها لك على صدق شهادتهم المزورة من قولهم لك قبل انهم لمنكم وانهم معكم وقولهم الآن نشهد والشّهادة يمين كلها "جُنَّةً" وقاية يتقون بها السّبي والجلاء والقتل وما يتخيلون إيقاعه بهم من قبلك وأصحابك "فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" أنفسهم ومنعوا غيرهم من أتباعه "إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (2) من الكذب والبهت والنّفاق والإعراض عن دين اللّه وصد النّاس عنه مع علمهم بأحقيته "ذَلِكَ" إقدامهم على هذه الأعمال القبيحة "بِأَنَّهُمْ آمَنُوا" بألسنتهم فقط ولم يظهروا ايمانهم الا عند مشاهدة المؤمنين "ثُمَّ كَفَرُوا"

(26/765)

صرا بحضورهم وعلنا فيما بينهم "فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ" حتى لا يدخلها الإيمان الخالص جزاء إيمانهم المزيف "فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ" (3) معنى ما يتلو عليهم الرّسول ولا يتدبرون مغزاه، لأنهم لا يتلقونه عن قبول وإذعان، بل عن ردّ واعتراض وإنكار وكراهية "وَ" هؤلاء الفجار "إِذَا رَأَيْتَهُمْ" أيها الرّائي "تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ" طولا وامتلاء وحسنا وهيئة وقامة "وَإِنْ يَقُولُوا

تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ" لما هم عليه من الفصاحة والمعرفة بمواقع الكلام ، ولكنهم في الحقيقة ليسوا بشيء "كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ" أشباح بلا أرواح ، وأجسام بلا أحلام ، لأن الذي ترى منهم من البلاغة وحسن النّطق كله فيما يتعلق بأمور الدّنيا أما ما يتعلق بالدين وأمور الآخرة فهم عنه بمعزل قال تعالى (يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا) ، لأنهم متغلغلون فيها منهمكون في زخارفها (وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) لاهون عنها طارحوها وراءهم .

راجع هذه الآية 8 من سورة الرّوم ج 2 في بحث الغافلين عن الآخرة المنصرفين إلى الدّنيا فتراهم يا سيد الرّسل من حيث الدّين أشباه رجال كما يتخيل من سماة بعض المتعممين الّذين يقال فيهم :

يحسبه الجاهل ما لم يعلما شيخا على كرسيه معهما

وبعض الملتحين في القول فيهم :

ألا ليت اللّحى كانت حشيشا فنعلفها دواب المسلمينا

(27/765)

ومما يدلك على هذا أن الرّعب قد ملأ قلوبهم وصاروا بحيث "يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ" وانهم المرادون بها ويظنون منها إيقاع الشّر فيهم وتوقع الضّر بهم سواء كانت من

ناشد ضالته أو ممن ندت له دآبة أو مناد في المعكر ، حتى أنهم من شدة خوفهم يلقون الخوف في غيرهم لسوء ما يراهم عليه من الاضطراب ، وهؤلاء الجبناء "هُمُ الْعَدُوُّ" اللدود لك ولأصحابك "فَاحْذَرْهُمْ" يا سيد الرسل ولا تأمنهم على شيء ولا تغتر بأيمانهم الكاذبة وإيمانهم الصّوري "قَاتَلَهُمُ" اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ" (4) جملة تعجبية من أنواع افترائهم وانصرافهم عن الحق وإصرارهم على النّفاق "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ" ربه عما سلف منكم وأخلصوا إيمانكم له "لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ" أمالوها إعراضا
عن سماع هذا القول "وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ" عما دعوا إليه أنفة منه "وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ" (5) عن الإجابة إلى استغفارك مع أنك تدعوهم لخيرهم ، ولهذا فاتركهم يا حبيبي "سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ" الأمر "أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ" لأنهم خرجوا عن الطّاعة "إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" (6) الخارجين على رسولهم ودينهم .

(28/765)

راجع الآية 81 من سورة التوبة لآتية الدّالة على قطع أملهم والآيات قبلها وبعدها التي فضح اللّه بها أحوال المنافقين كلها ، فلم يبق لهم خصلة مكتومة من أفعالهم القبيحة تجاه الرّسول وأصحابه إلا أوضحها ، وهؤلاء "هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ" لبعضهم ولمن هو على شاكلتهم "لا

تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ" من النّاس "حَتَّى يَنْفَضُّوا" عنه وقد خاب ظنهم فإن اللّه مغنيه عن نفقتهم وكيف يحتاج لهم: ولله خزائن السّموات والأرض، وبيده مفاتح الرّزق وهو مولاه يكفيه عن كلّ خلقه على رغم أنوفهم، وكيف يحتاج إليهم وقد كلفه اللّه أن يجعل له جبال مكة ذهبا تلك الجبال التي شاهدناها التي سيكون لها شأن عظيم عند ترقي العلم الدّنيوي ويستخرج منها معادن إن لم تكن ذهبا تأتي بالذهب "وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ" (7) أن الأرزاق بيد اللّه يؤتيها من يشاء من عباده ويمنعها عمن يشاء "يَقُولُونَ" أيضا هؤلاء المنافقون "لَئِنْ رَجَعْنا" من غزوة بني المصطلق بطن من خزاعة بن جذيمة وهو المصطلق وتسمى غزوة المريسيع اسم لماء من مياههم وغزوة محارب وغزوة الأعاجيب لعظم ما وقع فيها كما سنقصها بعد "إِلَى الْمَدِينَةِ" وانتهينا من غزوتنا هذه "لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا" أي من المدينة يريدون أنفسهم قاتلهم اللّه "الْأَذَلَّ" يريدون حضرة الرّسول وأصحابه أذلهم اللّه، وقد خسئوا وخابوا "وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ" لا لهم "وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ" (8) ذلك لخبث عقيدتهم وسوء نيتهم.

مطلب غزوة بني المصطلق وما وقع فيها وما فاه به عبد اللّه بن سلول على حضرة الرّسول وأصحابه وما ردّه عليه ابنه:

وخلاصة هذه القصة هو أنه كان ضرار أخو جويرية أم المؤمنين بنت الحارث

بن أبي ضرار سيد بني المصطلق جمع جموعه لحرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ولما بلغه ذلك خرج اليه بأصحابه رضي اللّه عنهم سنة ستّ من الهجرة لليلتين خلتا من شهر رمضان فلقيهم على المريسيع من ناحية قديد إلى السّاحل ، فتزاحم النّاس واقتتلوا فهزمهم اللّه وأمكن رسوله منهم واستاق أبناءهم ونساءهم وأموالهم غنيمة .

ومن وقائع هذه الغزوة التي وعدنا بذكرها آنفا ما رواه البخاري ومسلم عن جابر قال غزونا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وقد بات معه أناس من المهاجرين حتى كثروا ، وكان منهم رجل لعاب فكسع أنصاريا ، فغضب الأنصاري غضبا شديدا حتى تداعوا ، وقال الأنصاري يا للأنصار ، وقال المهاجري يا للمهاجرين ، فخرج رسول اللّه فقال ما بال دعوى الجاهلية ، ثم قال ما شأنهم ؟ فأخبر بكسعة المهاجر للأنصاري ، فقال دعوها فإنها خبيثة .

وقال عبد اللّه بن أبي بن سلول قد تداعوا علينا لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال عمر رضي اللّه عنه ألا أقتل يا رسول اللّه هذا الخبيث ؟ بارك اللّه فيك يا سيدي يا عمر كلما تكون قضية فيها ما يغضب اللّه ورسوله إلّا قوّم نفسه لينتقم للّه ورسوله .

راجع أول سورة الممتحنة المارة وقصة الفتح الآتية والآية 60 فما بعدها من سورة النّساء

المارة ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم لا يتحدث النّاس إنه كان يقتل أصحابه ، أي لا تفعل حتى لا يترنم النّاس في ذلك فيقولوا إنه كان يقتل أصحابه إذ لا يعلمون أحقية القتل لمثله .

وفي رواية مسلم فقال لا بأس ، ولينصر الرّجل أخاه ظالما كان أو مظلوما ، أي إن كان ظالما فلينهه فإنه له نصر وإن كان مظلوما فلينصره ، وزاد الترمذي ، فقال له ابنه عبد اللّه لا تنقلب حتى تقرّ أنك أنت الذليل ورسول اللّه العزيز ، ففعل .

وقد ذكرنا في الآية 43 من من سورة النّساء إن هذه الحادثة كانت سنة خمس ، والصّحيح سنة ستّ كما جاء هنا واللّه أعلم .

(30/765)

وروى البخاري ومسلم عن زيد بن أرقم قال خرجنا مع رسول اللّه في صفر أصاب النّاس فيه شدة ، فقال عبد اللّه بن سلول لا تنفقوا على من عند رسول اللّه حتى ينفضوا من حوله ، وقال لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأزل ، قال فأتيت رسول اللّه فأخبرته بذلك ، فأرسل إليه فسأله فاجتهد يمينه ما فعل ، فقالوا كذب زيد رسول اللّه ، قال فوقع في نفسي مما قالوه شدة

حتى أنزل اللّه بتصديقي (إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ) ثم قال دعاهم رسول اللّه ليستغفر لهم ،

قال فلووا رؤوسهم ، قال أصحاب السّير جاء عبد اللّه رضي اللّه عنه بن عبد اللّه بن أبي بن سلول فقال لحضرة الرّسول إن كنت تريد قتله يا رسول اللّه فدعني آت لك برأسه ، لأن النّاس تعلم أني أبرّ النّاس به ، فإن قتله غيري يا رسول اللّه يصعب علي ما تلوكه بعد ألسنة النّاس ، وأنا ما أنا عليه من البر بالوالدين والغيرة على السّمعة ، لذلك يا سيدي أحشى أن لا تدعي نفسي أنظر إلى قاتله غيرة منها وخشية من تقول النّاس ، فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النّار ، فقال له صلّى اللّه عليه وسلم بل لترفق به وتحسن صحبته ما كان معنا ، وقال أسيد بن حضير يا رسول اللّه ارفق به فوالله لقد جاء اللّه بك وقومه يعملون له التّاج كي يتوجوه ، وأنه يرى أنك سلبته ملكه قال أصحاب السّير ولما قرب عبد الله بن أبي من المدينة وأراد أن يدخلها جاءه ابنه عبد الله رضي اللّه عنه وأرضاه وقال له وراءك ، قال ويلك مالك ، قال واللّه لا تدخلها أبدا إلّا أن يأذن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ولتعلمن اليوم من الأعز من الأزل فشكاه إلى رسول اللّه ، فأرسل إليه أن خلّ عنه ، فقال إذا جاء أمر الرّسول فقم فدخل المدينة .

وقيل قالوا اذهب إلى رسول اللّه يستغفر لك ، فقال أمرتموني أن آمن فآمنت ، وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فأعطيت ، فما بقي إلّا أن أسجد لمحمد ، فأنزل اللّه هذه السّورة .

وذكر قصة المريسيع فيها لا يعني أنها نزلت بوقتها بل كانت في سنة ستّ كما ذكرنا وقد أنزل الله في هذه الغزوة فرض التيمم كما أشرنا إليه في الآية 42 من سورة النّساء المارة وأشار إليها جل شأنه في هذه السّورة كغيرها من القصص فإنها قد تقع في

زمن يخبر عنها في زمن آخر قبل وقوعها أو بعده أو زمنه ، كما أن أسباب النّزول كذلك ، فإنه قد يرافق الحادثة وقد يتقدمها أو يتأخر عنها .

قالوا ثم اشتكى عبد اللّه ولم يلبث إلّا أياما ومات على نفاقه كما سيأتي ذكره في الآية 84 من سورة التوبة الآتية إن شاء اللّه .

قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ" (9) في الدّنيا بسبب غفلتهم وانهماكهم في حب أموالهم وأولادهم المؤدي إلى خسارتهم في الآخرة

قال تعالى "وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ" أيها النّاس "مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ" فيتعذر عليه الإنفاق في حياته وفيما يؤتى به يوم القيامة في الموقف ويسأل عن تقصيره هذا يعتذر "فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ" ولم تمتني بغتة "فَأَصَّدَّقَ" بما لي على عيالك فلا يقبل منه ، لأنه أمهله أعواما كثيرة ولم يفعل وكان يمكنه التصدق قبل حلول أجله لو كان صادقا فيما يقوله ويتمناه ، وكان بوسعه التصدق ولكنه كان كاذبا يسوف طيلة السّنن التي قضاها حال

صحته وقدرته على التصدق ولم يفطن لهذا ولم يذكره ، وكذلك قوله "وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ" (10) لا صحة له ، لأن اللّه يعلم لو أمهله فيما أراد لا يفعل شيئًا من ذلك لاغتراره بالدنيا ولهوه في زخارفها فلم يخطر بباله حال الرّخاء ما خطر بباله حال الشّدة ، فوقع في الأسف والدّامة والحسرة بعد فوات وقت قبولها فلم يصلح لإجابة طلبه بل للقاء النّار .

(32/765)

وهذه الآية من تتمة ما نزل في المنافقين لأن المؤمن لا يسأل الرّجعة عند حلول الموت ، ولأن ما بعده خير له مما قبله ، وهو يحب لقاء اللّه واللّه يحب لقاءه ، فلا يغتر بالدنيا ولا بطول العمر والتمتع بالعافية والرّفاه فيمنع الزكاة ويسوف بالتوبة ويصر على المعاصي كالكافر والمنافق ، بل يتوب ويتصدق وهو صحيح صحيح ،

ولهذا قد ردّ اللّه على المنافق قوله وتمنيه بقوله عز قوله "وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها" أبدا لما ثبت باللوح هكذا ولا يقدم ولا يؤخر عن وقته المقدر له "وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ" (11) بالدنيا لو ردّكم إليها لاستمريتم على أفعالكم القبيحة وحرصكم على المال وتقاعسكم عن فعل الخير كما كنتم وأكثر ، قال تعالى (لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ) الآية 27 من الأنعام ج 2 وهذه الآية عامة في كلّ من هذا شأنه ، ونزولها في المنافقين لا يمنع

شمولها لغيرهم ولا يخصصها فيهم ، لأن العبرة لعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب فنسأل اللّه العفو والعافية والتوفيق إلى أقوم طريقها وأقول :

إليك بسطت الكف في فحمة الدّجى نداء غريق في الذنوب غريق

رجاك ضميري كي تخلص حجتي وكم من فريق شافع لفريق

فاشفع يا رسول اللّه بعبدك الجامع لهذا .

ويا رب وفقه لإكماله وانفع به عبادك ،

واجعله خالصا لوجهك الكريم ، إنك على كلّ شيء قدير ، وبالإجابة جدير .

هذا واللّه أعلم .

وأستغفر اللّه .

ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم .

وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، تسليما كثيرا دائما إلى يوم الدّين ، ومن تبعهم بإحسان آمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 6 صـ 195 . 201 ﴾

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة المنافقين

مدنية

انك لرسول الله كاف وكذا لرسوله لكاذبون حسن عن سبيل الله كاف يعملون حسن وكذا لا يفقهون خشب مسندة صالح كل صيحة عليهم تام فأحذرهم وكذا يؤفكون مستكبرون حسن لن يغفر الله لهم كاف الفاسقين تام وكذا ينفضوا لا يفقهون حسن الاذل تام وللمؤمنين كاف لا يعملون تام عن ذكر الله الخاسرون حسن وكذا من الصالحين أجلها كاف آخر السورة تام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(34/765)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة المنافقين

مدنية إحدى عشرة آية اتفاقاً كلمها مائة وثمانون كلمة وحروفها سبعمائة وستة وسبعون حرفاً وقد استخرج عمر النبي صلى اله عليه وسلم ثلاثاً وستين سنة من قوله ولن يؤخر الله

نفساً إذا جاء أجلها فإنَّها رأس ثلاث وستين سورة وأعتق ثلاثاً وستين رقبة ونحر بيده الشريفة ثلاثاً وستين بدنة في حجة الوداع

إنَّك لرسول الله (كاف) ولا يجوز وصله لأنَّه لو وصله لصار قوله والله يعلم إنَّك من مقول المنافقين وليس الأمر كذلك بل هو ردٌّ لكلامهم إنَّ رسول الله غير رسول فكذبهم الله بقوله والله يعلم إنَّك لرسوله

والوقف على رسوله (تام) عند نافع

لكاذبون (تام) عند أبي عبيدة إن جعل اتخذوا أيمانهم خبراً مستأنفاً وليس بوقف إن جعل جواب إذا وهو بعيد وتام إن جعل جوابها قالوا أو جعل محذوفاً وقالوا حالاً أي إذا جاؤك قائلين كيت وكيت فلا تقبل منهم

عن سبيل الله (حسن)

يعملون (كاف)

ثم كفروا (جائز)

لا يفقهون (كاف)

أجسامهم (جائز) ومثله تسمع لقولهم إن جعل موضع الكاف رفعاً أي هم خشب أو هي جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ومثله في الجواز مسندة

كل صحيحة عليهم (حسن) قال يحيى بن سلام وصفهم الله بالجبن عن القتال بحيث لو

نادى مناد في العسكر أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة أو نثرت حثالة لظنوا أنَّهم المرادون

لما في قلوبهم من الرعب

فاحذرهم (حسن)

أنَّى يؤفكون (كاف)

رسول الله ليس بوقف لأنَّ الذي بعده جواب إذا

رؤوسهم (جائز)

مستكبرون (كاف)

لهم (حسن) لمن قرأ آستغفرت بهمزة ممدودة ثم ألف وبها قرأ يزيد بن القعقاع وليس بوقف

لمن قرأه بهمزة مفتوحة من غير مد وهي قراءة العامة

لن يغفر الله لهم (كاف)

الفاسقين (تام)

حتى ينفضَّوا (كاف) والأرض تجاوزه أولى

لا يفقهون (كاف)

الأذل (تام)

لا يعلمون (تام) لأنَّه آخر قصة عبد الله بن أبيّ ابن سلول رأس المنافقين فهي قصة واحدة

عن ذكر الله (كاف)

الخاسرون (تام) على استئناف ما بعده

أحدكم الموت ليس بوقف ومثله في عدم الوقف إلى أجل قريب لأنَّ قوله فأصدق منصوب على جواب التمني وهو لولا أخرتني لأنَّ معناه السؤال والدعاء فكأنَّه قال أخرني إلى أجل قريب فأصدّق وأكون وبها قرأ أبو عمرو عطفاً على لفظ فأصدق وقرأ الجمهور وأكن بالجزم عطفاً على موضع الفاء كأنَّه قيل إن أخرتني أصدق وأكن هذا مذهب أبي علي الفارسي وحكى سيبويه عن شيخه الخليل غير هذا وهو أنَّه جزم وأكن على توهم الشرط كما هو في مصحف عثمان أكن بغير واو ولا موضع هنا لأنَّ الشرط ليس بظاهر وإنَّما يعطف على الموضع حيث يظهر الشرط والفرق بين العطف على الموضع والعطف على التوهم أنَّ العامل في العطف على الموضع موجود دون مؤثرة والعامل في العطف على التوهم مفقود وأثره موجود مثال الأول هذا ضارب زيد وعمراً فهذا من العطف على الموضع فالعامل وهو ضارب موجود وأثره وهو النصب مفقود ومثال الثاني ما هنا فإنَّ العامل للجزم مفقود وأثره موجود انظر أبا حيان

الصالحين (تام)

أجلها (كاف)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى ص ﴾

(36/765)

سورة المنافقون

قراءة الحسن : "اتَّخَذُوا أَيمَانَهُمْ جُنَّةً" .

قال أبو الفتح : هذا على حذف المضاف ، أي : اتخذوا إظهار إيمانهم جنة ، وقد مضى ذكر ذلك 1 .

ومن ذلك قراءة أبي جعفر : "آسْتَغْفَرْتَ" ، بالمد .

وروى عنه : "اسْتَغْفَرْتَ" ، بالوصل .

قال أبو الفتح : هاتان القراءتان كلتاهما مضعوفتان .

أما "آسْتَغْفَرْتَ" ، بالمد فإنه أثبت همزة الوصل ، وقد استغنى عنها بهمزة الاستفهام من قبلها ، وليس كذلك طريق العربية . ألا ترى إلى قول ذي الرمة :

أستحدث الركب عن أشياعهم خبرا أم عاود القلب من أطرابه طرب 2

وأما "استغفرت" ، بالوصل ففي الطرف الآخر من الضعف ، وذلك أنه حذف همزة

الاستفهام، وهو يريدها . وهذا مما يختص بالتجوز فيه الشعر، لا القرآن، نحو قوله :

[159و]

لعمرك ما أدري وإن كنت داريا شعيث ابن سهم أم شعيث ابن منقر 3 . انتهى انتهى . ا هـ

﴿المحتسب حـ 2 صـ 321﴾

---

1 انظر الصفحة : 315 من هذا الجزء .

2 انظر الديوان : 1 ، وفيه "راجع" مكان "عاود" .

3 انظر الصفحة 50 من الجزء الأول .

(37/765)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة المنافقين

مدنية وآيها إحدى عشرة مشبه الفاصلة أجل قريب القراآت أمال جاءك هشام من طريق الداجوني وابن ذكوان وحمزة وخلف وعن الحسن إيمانهم جنة بكسر الهمزة مصدر آمن ولا نعلم خلافا في موضع المجادلة وسهل الأصبهاني الهمزة من رأيتهم تعجبك ومن كأنهم وقرأ خشب) الآية 4 بسكون الشين قنبل بخلفه وأبو عمرو والكسائي ومر بالبقرة وفتح

سين يحسبون ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر وأمال أني حمزة والكسائي وخلف

وقلله الأزرق والدوري عن أبي عمرو بخلفهما وأشم قاف قيل هشام والكسائي ورويس

واختلف في (لووا) الآية 5 فنافع وروح بتخفيف الواو الأولى من لوى مخففا والباقون

بالتشديد على التكثير من لوى الرباعي وانفرد النهرواني عن ابن شبيب عن الفضل عن ابن

وردان بمد همز استغفرت قال في النشر ولم يتابعه عليه أحد إلا أن الناس أخذوه عنه ولم

يعول عليه في الطيبة ووجه بأن المد إشباع لهمزة الاستفهام للإظهار والبيان لا لقلب همزة

الوصل ألفا أي لأنها مكسورة بخلاف (آلسحر وآلله أذن) والجمهور بهمزة واحدة مفتوحة

ومقطوعة بلا مد وهي همزة التسوية التي أصلها الاستفهام وعن الحسن لنخرجن بنون

العظمة وكسر الراء ونصب الأعز مفعولا به ونصب الأذل حينئذ على الحال بتقدير مضاف

أي كخروج أو كإخراج أو مثل وأدغم لام يفعل ذلك أبو الحارث عن الكسائي واتفقوا على

تسكين الياء من أخرتني إلى كما مر

واختلف في (وأكن) الآية 10 فأبو عمرو بالواو بعد الكاف ونصب النون عطفا على

فأصدق المنصوب بأن بعد جواب التمني وهو لولا أخرتني وافقه الحسن واليزيدي وابن

محيصن بخلفه والباقون بحذف الواو لالتقاء الساكنين وبجزم النون قال الزمخشري عطفا على

محل فأصدق كأنه قيل إن أخرتني أصدق وأكن وحكى سيبويه عن الخليل أنه

جزم على توهم الشرط الذي يدل عليه التمني إذ لا محل هنا لأن الشرط ليس بظاهر وإنما يعطف على المحل حيث يظهر الشرط كقوله تعالى من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم فمن جزم عطف على موضع فلا هادي لأنه لو وقع هناك فعل لا نجزم قال السمين وهذا هو المشهور عند النحويين ويلغز بهذا فيقال مع نية صالحة أين أتى حرف أظهره أبو عمرو وأدغمه الباقون ومر حكم جاء أجلها من حيث الهمزتان في نظيره جاء أحد بالنساء واختلف في ( ) والله خبير بما تعملون (الآية 11 فأبو بكر بالغيب والباقون بالخطاب المرسوم كتبوا ( ) لولا أخرتني (بالياء وروى أبو عبيد عن مصحف عثمان رضي الله عنه و (أكن) بحذف الواو وقال الحلواني أحمد عن خالد قال رأيت في الإمام عثمان وأكون بالواو ورأيته ممتليا دما قال الجعبري وقد تعارض نقل هذين العدلين فلا بد من جامع فيحتمل أن النافي رآه بعد دثور ما بعد الكاف فبقي بعدها حرف هو النون وتكون الواو دثرت والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة المنافقين "

" لا يفقهون " آخر الربع .

الممال

التوراة سبق في سورة الصف . الحمار بالإمالة للبصري والدوري وابن ذكوان بخلف عنه والتقليل لورش . الناس لدوري البصرى جاءك لابن ذكوان وخلف وحمزة .

المدغم

" الكبير " قبل لفي . العظيم مثل . التوراة ثم على أحد الوجهين اللهو ومن ، فطبع على ولا إدغام في وتركوك قائما لسكون ما قبل الكاف .

" خشب " أسكن الشين قنبل وأبو عمرو والكسائي وضمها غيرهم .

" يحسبون . عليهم . قيل . مستكبرون . يغفر . الخاسرون . خبير رءوسهم ، جاء أجلها ، جلي .

" لوّوا " خفف الواو الأولى نافع وروح وشددها الباقون ولا خلاف بينهم في تخفيف الواو الثانية .

" أخرتني إلى " أجمع العشرة على إسكان يائه .

" وأكن " قرأ أبو عمرو بزيادة واو بين الكاف والنون مع نصب النون وغيره بحذف الواو

وإسكان النون.

"يؤخر" أبدل الهمزة واوا أبو جعفر وورش في الحالين وكذا حمزة إن وقف ورقق ورش راءه.

"بما تعملون" قرأ شعبة بياء الغيبة وغيره بتاء الخطاب. انتهى انتهى. اهـ ﴿البدور الزاهرة صـ 327﴾

(40/765)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه:

ومن سورة المنافقون

قوله تعالى كأنهم خشب مسندة يقرأ بإسكان الشين وضمها فالحجة لمن أسكن أنه شبهه في الجمع ببدنه وبدن ودليله قوله ﴿والبدن جعلناها لكم﴾ أو يكون أراد الضم فأسكن تخفيفا والحجة لمن ضم الشين أنه أراد جمع الجمع كقولهم ثمار وثمر

قوله تعالى ﴿لووا رؤوسهم﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف وقد ذكرت علله ومعناه حركوها كالمستهزئين بالقرآن

قوله تعالى ﴿ وأكن من الصالحين ﴾ يقرأ بإثبات الواو والنصب وبحذفها والجزم والإجماع على الجزم إلا ما تفرد به أبو عمرو من النصب فالحجة لمن جزم أنه رده على موضع الفاء وما اتصل بها قبل دخولها على الفعل لأن الأصل كان ? < لولا أخرتني أتصدق وأكن > ? كما قال الشاعر

فأبلوني بليتكم لعلي

أصالحكم وأستدرج نويا

فجزم واستدرج عطفا على موضع ? < أصالحكم > ? قبل دخول لعل عليه ومعناه فأبلوني بليتكم أصالحكم والحجة لمن نصب أنه رده على قوله ﴿ أصدق ﴾ لأن المعنى لولا ها هنا معنى هلا وهي للإستفهام والتحضيض والجواب في ذلك بالفاء منصوب وفيما شاكله من الأمر والنهي والتمني والجحد والعرض فعطف لفظا على لفظ ليكون الكلام فيه من وجهه واحد فأعرف ذلك أن شاء الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 346.347 ﴾

(41/765)

وقال ابن زنجلة :

63 - سورة المنافقين كأنهم خشب مسندة 4

قرأ أبو عمرو والكسائي كأنهم خشب بإسكان الشين جمع خشبة وخشب وبدنة وبدن وأكمة وأكم

وقرا الباقون خشب بضم الشين جمع خشبة كما تقول ثمرة وثمر لووا رؤوسهم 5

قرأ نافع لووا رؤوسهم بالتخفيف جعله من لوى يلوي ليا وهو إذا أنكر الرجل شيئًا لوى راسه وعنقه والأصل لويوا فحذفت الضمة من الياء فالتقى ساكنان فحذفوا الياء وحجة هذه القراءة قوله ليا بألسنتهم والأصل لويا فقلبوا الواو ياء

وأدغموا الياء في الياء والأمر منه الو

وقرأ الباقون بالتشديد من قولك لوى يلوي تلوية والأصل لويوا ثم عملوا فيها ما عملوا في التخفيف وحجتهم في ذلك أن الرؤوس جماعة فوجهها التشديد وكذلك كل فعل يكثر مرة بعد مرة ومعنى لووا أنهم ينغضون رؤوسهم أي يحركونها استهزاء باستغفار رسول الله صلى الله عليه والأمر من هذا لو رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فاصدق وأكن من الصلحين 10

قرأ أبو عمرو فأصدق وأكون من الصالحين وقرا الباقون وأكن قوله فأصدق وأكن كأنه جواب معنى الاستفها المعنى لئن أخرتني وجزم وأكن عطفا على موضعه ألا ترى أنك إذا

قلت أخرني أصدق كان جزما بأنه جواب الجزاء وقد أغنى السؤال عن ذلك الشرط

والتقدير أخرني فإن تؤخرني أصدق فلما كان الفعل المنصوب بعد الفاء في موضع فعل

مجزوم بانه جزاء الشرط حمل قوله وأكن عليه ومثل ذلك قراءة من قرأ من يضلل الله فلا

هادي له ويذرهم لما كان فلا هادي في موضع فعل مجزوم حمل يذرهم عليه

وأما قول أبي عمرو وأكون فنه حمله على لفظ فأصد وأكون وذلك أن لولا معناه هلا

وجواب الاستفهام بالفاء يكون منصوبا وكان الحمل على اللفظ أولى لظهوره في اللفظ وقربه

مما لا لفظ له في الحال والله خبير بما تعملون 11

قرأ أبو بكر والله خبير بما يعملون بالياء خبر غائبين

وقرأ الباقون بما تعملون بالتاء على الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات ص

711.709﴾

(42/765)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة المنافقين 63

مدنية وقد ذكرت نظيرتها في جميع العدد

وكلمها مئة وثمانون كلمة ككلم الجمعة

وحروفها سبع مئة وستة وسبعون حرفا

وهي إحدى عشرة آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف

وفيها مما يشبه الفواصل موضع واحد وهو قوله تعالى (﴿ إلى أجل قريب ﴾) ورؤوس الآي

لكاذبون

1 يعملون

2 لا يفقهون

3 يؤفكون

4 مستكبرون

5 الفاسقين

6 لا يفقهون

7 لا يعلمون

8 الخاسرون

9 الصالحين

10 تعملون

11 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 247 ﴾

(43/765)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة المنافقون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (كأنهم) الجملة حال من الضمير المجرور في قولهم ، وقيل هي مستأنفة ، و (خشب) بالضم والإسكان جمع خشب مثل أسد وأسد ، ويقرأ بفتحتين والواحدة خشبة ، و (يحسبون) حال من معنى الكلام ، وقيل مستأنف .

قوله تعالى (رسول الله) العامل فيه يستغفر ، ولو أعمل تعالوا لقال إلى رسول الله ، أو كان ينصب ، و (لووا) بالتخفيف والتشديد ، وهو ظاهر ، والهمزة في (أستغفرت لهم مفتوحة همزة قطع ، وهمزة الوصل محذوفة ، وقد

وصلها قوم على أنه حذف حرف الاستفهام لدلالة أم عليه .

قوله تعالى (ليخرجن) يقرأ على تسمية الفاعل والتشديد ، و (الأعز) فاعل و (الأذل) مفعول ، ويقرأ على ترك التسمية والإذل على هذا حال ، والألف واللام زائدة ، أو يكون مفعول حال محذوفة: أمشبها الأذل.

قوله تعالى (وأكون) بالنصب عطفا على ما قبله ، وهو جواب الاستفهام ، ويقرأ بالجزم حملا على المعنى ، والمعنى: إن أخرتني أكن ، والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(44/765)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة المنافقون

[سورة المنافقون (63) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ (1)

"إِذا جاءَكَ" إذا ظرفية شرطية غير جازمة وماض ومفعوله "الْمُنافِقُونَ" فاعله والجملة في

محل جر بالإضافة "قالُوا" ماض وفاعله والجملة حال "نَشْهَدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مقول القول "إِنَّكَ" إن واسمها "لَرَسُولُ اللَّهِ" اللام المزحلقة وخبرها المضاف إلى لفظ الجلالة والجملة الاسمية جواب نشهد لا محل لها لأنه جرى مجرى القسم. "وَاللَّهُ" الواو واو الاعتراض ولفظ الجلالة مبتدأ "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية معترضة لا محل لها. "إِنَّكَ لَرَسُولُهُ" إن واسمها واللام المزحلقة "رسوله" خبرها وإن واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي يعلم. "وَاللَّهُ" مبتدأ "يَشْهَدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية حال. "إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ" إن واسمها واللام المزحلقة "كاذبون" خبرها.

[سورة المنافقون (63) : آية 2]

اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (2)

"اتَّخَذُوا" ماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "أَيْمانَهُمْ" مفعول به أول "جُنَّةً" مفعول به ثان.

"فَصَدُّوا" الفاء حرف عطف "صدوا" ماض وفاعله "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" متعلقان بالفعل ولفظ الجلالة مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنَّهُمْ" إن واسمها "ساءَ" ماض "ما" فاعله وجملة ساء خبر إن. "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة ما "يَعْمَلُونَ" مضارع

مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر كانوا .

[سورة المنافقون (63) : آية 3]

(45/765)

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (3)

"ذلِكَ بِأَنَّهُمْ" مبتدأ والباء حرف جر وأن واسمها "آمَنُوا" ماض وفاعله وجملة آمنوا خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ وجملة ذلك . .

استئنافية لا محل لها . "ثُمَّ" حرف عطف "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها .

"فَطُبِعَ" الفاء حرف عطف وماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "عَلى قُلُوبِهِمْ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "فَهُمْ" مبتدأ "لا" نافية "يَفْقَهُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة المنافقون (63) : آية 4]

وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ

صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4)

"وَ" الواو حرف استئناف "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "رَأَيْتَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في

(46/765)

محل جر بالإضافة "تُعْجِبُكَ" مضارع ومفعوله "أَجْسامُهُمْ" فاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها وجملة إذا . . استئنافية لا محل لها . "وَإِنْ" الواو حرف عطف "إِنْ يَقُولُوا" إن شرطية جازمة ومضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والواو فاعله "تَسْمَعْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والفاعل مستتر "لِقَوْلِهِمْ" متعلقان بالفعل . "كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ" كأن واسمها وخبرها "مُسَنَّدَةٌ" صفة والجملة استئنافية لا محل لها "يَحْسَبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة استئنافية لا محل لها "كُلَّ" مفعول به مضاف إلى صيحة "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "هُمُ الْعَدُوُّ" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "فَاحْذَرْهُمْ" الفاء الفصيحة وأمر ومفعوله والفاعل مستتر والجملة جواب الشرط المقدر لا محل لها "قاتَلَهُمُ اللَّهُ" ماض ومفعوله ولفظ الجلالة فاعله والجملة استئنافية لا محل لها "أَنَّى" اسم استفهام حال "يُؤْفَكُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة المنافقون (63) : آية 5]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5)

(47/765)

"وَ" الواو عاطفة "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "قِيلَ" ماض مبني للمجهول والجملة في محل جر بالإضافة "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "تَعالَوْا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة مقول القول "يَسْتَغْفِرْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "رَسُولُ اللَّهِ" فاعل مضاف إلى لفظ الجلالة والجملة جواب الطلب لا محل لها. "لَوَّوْا" ماض وفاعله "رُؤُسَهُمْ" مفعوله والجملة جواب إذا لا محل لها. "وَرَأَيْتَهُمْ" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها. "يَصُدُّونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة حال "وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ" مبتدأ وخبره والجملة حال.

[سورة المنافقون (63) : آية 6]

سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (6)

"سَوَاءٌ" خبر مقدم "عَلَيْهِمْ" متعلقان بسواء "أَسْتَغْفَرْتَ" الهمزة للتسوية وماض وفاعله و"لَهُمْ" متعلقان بالفعل والمصدر المؤول من الهمزة وما بعدها في محل رفع مبتدأ مؤخر. "أَمْ" المعادلة "لَمْ تَسْتَغْفِرْ" مضارع مجزوم بلم فاعله مستتر "لَهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها.

والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها. "لَنْ يَغْفِرَ" مضارع منصوب بلن "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله "لَهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة الفعلية استئنافية لا محل لها. "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "لا يَهْدِي" لا نافية ومضارع فاعله مستتر "الْقَوْمَ" مفعول به "الْفَاسِقِينَ" صفة القوم والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها.

[سورة المنافقون (63) : آية 7]

(48/765)

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (7)

"هُمُ الَّذِينَ" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها. "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة. "لا تُنْفِقُوا" مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله والجملة مقول

القول . "عَلى مَنْ" متعلقان بالفعل "عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ" ظرف مكان مضاف إلى رسول ولفظ الجلالة مضاف إليه . "حَتَّى" حرف غاية وجر "يَنْفَضُّوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والواو فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بحتى والجار والمجرور متعلقان بتنفقوا . والواو حالية "وَلِلَّهِ" خبر مقدم "خَزائِنُ" مبتدأ مؤخر والجملة حال "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف عليها . "وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ" لكن واسمها "لا" نافية "يَفْقَهُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر لكن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة المنافقون (63) : آية 8]

يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (8)

(49/765)

"يَقُولُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها في المعنى "لَئِنْ" اللام موطئة للقسم المحذوف "إن" شرطية جازمة "رَجَعْنا" ماض في محل جزم فعل الشرط ونا فاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "إِلَى الْمَدِينَةِ" متعلقان بالفعل "لَيُخْرِجَنَّ" اللام

واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة "الْأَعَزُّ" فاعل "مِنْهَا" متعلقان بالفعل "الْأَذَلَّ" مفعول به والجملة جواب القسم لا محل لها . "وَ" الواو حالية "لِلَّهِ" خبر مقدم "الْعِزَّةُ" مبتدأ مؤخر والجملة حال "وَلِرَسُولِهِ" معطوف على لله "وَلِلْمُؤْمِنِينَ" معطوف على لله . "وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ" لكن واسمها "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع وفاعله والجملة الفعلية خبر لكن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة المنافقون (63) : آية 9]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (9)

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ" منادى نكرة مقصودة وها للتنبيه "الَّذِينَ" بدل والجملة ابتدائية لا محل لها "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "لا تُلْهِكُمْ" مضارع مجزوم بلا الناهية والكاف مفعول به "أَمْوالُكُمْ" فاعل "وَلا أَوْلادُكُمْ" معطوف على ما قبله والجملة ابتدائية أيضا لا محل لها . "عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ" متعلقان بالفعل ولفظ الجلالة مضاف إليه . "وَ" الواو حرف استئناف "مَنْ يَفْعَلْ" من اسم شرط جازم مبتدأ ومضارع مجزوم لأنه فعل الشرط "ذلِكَ" مفعول به "فَأُولئِكَ" الفاء واقعة في جواب الشرط "أولئك" مبتدأ "هُمُ" ضمير فصل "الْخاسِرُونَ" خبر أولئك والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من . وجملة من يفعل . . استئنافية لا محل لها .

[سورة المنافقون (63) : آية 10]

وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10)

"وَأَنْفِقُوا" أمر وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "مِنْ ما" متعلقان بالفعل "رَزَقْناكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة ما "مِنْ قَبْلِ" متعلقان بأنفقوا "أَنْ يَأْتِيَ" مضارع منصوب بأن "أَحَدَكُمُ" مفعول به "الْمَوْتُ" فاعل والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بالإضافة "فَيَقُولَ" الفاء حرف عطف ومضارع معطوف على يأتي منصوب مثله وفاعله مستتر "رَبِّ" منادى مضاف "لَوْلا" حرف تحضيض بمعنى هلا "أَخَّرْتَنِي" ماض وفاعله ومفعوله "إِلى أَجَلٍ" متعلقان بالفعل "قَرِيبٍ" صفة أجل والجملة الفعلية مقول القول. "فَأَصَّدَّقَ" الفاء للسببية ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل معطوف بالفاء على مصدر مؤول سابق "وَأَكُنْ" الواو حرف عطف ومضارع ناقص مجزوم بعطفه على محل فأصدق واسمه مستتر "مِنَ الصَّالِحِينَ" خبره.

[سورة المنافقون (63) : آية 11]

وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذا جاءَ أَجَلُها وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (11)

"وَلَنْ يُؤَخِّرَ" الواو حرف استئناف ومضارع منصوب بلن "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "نَفْسًا" مفعول به والجملة استئنافية لا محل لها "إِذا جاءَ أَجَلُها" ظرف زمان وماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "وَاللَّهُ خَبِيرٌ" مبتدأ وخبره والجملة حال "بِما" متعلقان بخبير "تَعْمَلُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 344. 347﴾

(51/765)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَة الْمُنَافِقين

ذكر فِيهَا حديثين

1353 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِين لَقِي بني المصطلق عَلَى الْمُرَيْسِيع وَهُوَ مَاء لَهُم وهزمَهُمْ وَقتل مِنْهُم ازْدحم عَلَى المَاء جَهْجَاه بن سعيد أجِير لعمر يَقُود فرسه وَسنَان

الْجُهَنِيّ حَلِيف لعبد الله بن أبي واقتتلا فصرخ جَهْجَاه يَا للمهاجرين وَسنَان يَا للْأَنْصَار فَأَعَانَ جَهْجَاه جعَال من فُقَرَاء الْمُهَاجِرين ولطم سِنَانًا فَقَالَ عبد الله لجعال وَأَنت هُنَاكَ قَالَ مَا صحبنَا مُحَمَّد إِلَّا لنلطم وَالله مَا مثلنَا وَمثلهمْ إِلَّا كَمَا قَالَ الْقَائِل سمن كلبك يأكلك أما وَالله لَئِن رَجعْنَا الْمَدِينَة ليخرجن الْأَعَز مِنْهَا الْأَذَل عَنى الْأَعَز بِنَفسِهِ وبالأذل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ثمَّ قَالَ لِقَوْمِهِ مَاذَا فَعلْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ أحللتموهم بِلَادكُمْ وقاسمتموهم أَمْوَالكُم وَالله لَو أمسكتم عَن جعال وَذَوِيهِ فضل الطَّعَام لم يركبوا رقابكم ولأوشكوا أَن يتحولوا عَنْكُم فَلَا تنفقوا عَلَيْهِم حَتَّى يَنْفضوا من حول مُحَمَّد فَسمع بذلك زيد بن أَرقم وَكَانَ حَدثا فَقَالَ أَنْت وَالله الذَّلِيل الْقَلِيل الْمُبْغض فِي قومه وَمُحَمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي عز من الرَّحْمَن وَقُوَّة من الْمُسلمين فَقَالَ عبد الله اسْكُتْ فَإِنَّمَا كنت أَلعَب فَأخْبر زيد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ عمر يَا رَسُول الله دَعْنِي أضْرب عنق هَذَا الْمُنَافِق قَالَ إِذا ترْعد أنف كَثِيرَة بِيَثْرِب

(52/765)

قَالَ فَإِن كرهت أَن يقْتله مُهَاجِرِي فَأمر بِهِ أَنْصَارِيًّا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام فَكيف إِذا تحدث النَّاس أَن مُحَمَّدًا يقتل أَصْحَابه وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام لعبد الله أَنْت صَاحب الْكَلَام الَّذِي بَلغنِي قَالَ

وَاللهِ الَّذِي انْزِلْ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مَا قلت شَيْئا من ذَلِك إِن زيدا لَكَاذِب فَقَالَ الْحَاضِرُونَ يَا رَسُول الله شَيخنَا وكبيرنا لَا يصدق عَلَيْهِ غُلَام عَسى أَن يكون قد وهم فروي أَنه قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام لزيد لَعَلَّك غضبت عَلَيْهِ قَالَ لَا قَالَ فَلَعَلَّهُ أَخطأ سَمعك قَالَ لَا قَالَ فَلَعَلَّهُ شبه عَلَيْك قَالَ لَا فَلَمَّا نزلت لحق رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم زيدا من خلف فعرك أُذُنه وَقَالَ وفت أُذُنك يَا غُلَام إِن الله قد صدقك وَكذب الْمُنَافِقين إِلَى هُنَا ذكره الْوَاقِدِيّ فِي الْمَغَازِي بِغَيْر سَنَد

وَلما أَرَادَ عبد الله أَن يدْخل الْمَدِينَة اعْترضهُ ابْنه حباب وَهُوَ عبد الله بن عبد الله غير النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم اسْمه وَقَالَ حباب اسْم شَيْطَان وَقَالَ لَهُ وَرَاءَك وَالله لَا تدْخلهَا حَتَّى تَقول رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْأَعَز وَأَنا الْأَذَل فَلم يزل حبيسا فِي يَده حَتَّى أمره عَلَيْهِ السَّلَام بتخليته

وَرُوِيَ أَنه قَالَ لَهُ لَئِن لم تقر لله وَرَسُوله بالْعِزَّة لأضربن عُنُقك قَالَ وَيحك أفاعل أَنْت قَالَ نعم فَلَمَّا رأى مِنْهُ الْجد قَالَ أشهد أَن الْعِزَّة لله وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمنِينَ فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لِابْنِهِ جَزَاك الله عَن رَسُوله وَعَن الْمُؤمنِينَ خيرا فَلَمَّا بَان كذب عبد الله قيل لَهُ

قد نزلت فِيك آي شَدّاد فَاذْهَبْ إِلَى رَسُول الله يسْتَغْفر لَك فلوى رَأسه وَقَالَ أمرْتُمُونِي أَن أومن فآمنت وَأَمَرْتُمُونِي أَن أزكي مَالِي فَزَكَّيْتُ فَمَا بَقِي إِلَّا أَن أَسجد لمُحَمد فنزلت وَإِذا قيل لَهُم تَعَالَوْا يسْتَغْفر لكم رَسُول الله . . . وَلم يلبث إِلَّا أَيَّامًا قَلَائِل حَتَّى اشْتَكَى وَمَات

قلت الْمُصَنّف رَحمَه الله فرق هَذَا الحَدِيث فِي طول السُّورَة وَجمعته لِأَنَّهُ حَدِيث وَاحِد وَذكره الثَّعْلَبِيّ بِتَمَامِهِ وَعَزاهُ لأَصْحَاب السّير وَكَذَلِكَ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول

وَرَوَاهُ ابْن هِشَام فِي سيرته فِي غَزْوَة بني المصطلق من طَرِيق ابْن إِسْحَاق حَدثنِي عَاصِم بن عمر بن قَتَادَة وَعبد الله بن أبي بكر وَمُحَمّد بن يَحْيَى بن حَيَّان كل قد حَدثنِي بعض حَدِيث بني المصطلق قَالُوا بلغ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِن بني المصطلق يَجْتَمعُونَ لَهُ وَقَائِدهمْ الْحَارِث بن أبي ضرار أَبُو جوَيْرِية بنت الْحَارِث زوج النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَلَمَّا سمع بهم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خرج إِلَيْهِم حَتَّى لَقِيَهُمْ عَلَى مَاء من مِيَاههمْ يُقَال لَهُ الْمُرَيْسِيع . . . فَذكر الْقِصَّة بطولها وفيهَا اخْتِلَاف يسير وَتَقْدِيم وَتَأْخِير وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره من طَرِيق ابْن إِسْحَاق بِسَنَدِهِ وَمَتنه

وَاعْلَم أَن الحَدِيث رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم فِي صَحِيحَيْهِمَا مُخْتَصرا وَكَذَلِكَ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ فِي سنَنَيْهِمَا كلهم من حَدِيث زيد بن أَرقم فَرَوَاهُ البُخَارِيّ فِي التَّفْسِير من حَدِيث أبي إِسْحَاق عَن زيد بن أَرقم قَالَ كنت مَعَ عمي فَسمِعت عبد الله ابْن أبي بن سلول يَقُول لأَصْحَابه لَا تنفقوا عَلَى من عِنْد رَسُول الله حَتَّى يَنْفضوا لَئِن رَجعْنَا إِلَى الْمَدِينَة ليخرجن الْأَعَز مِنْهَا الْأَذَل فَذكرت ذَلِك لِعَمِّي فَذكره عمي لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فدعاني عَلَيْهِ السَّلَام فَحَدَّثته فَأرْسل عَلَيْهِ السَّلَام إِلَى عبد الله بن أبي وَأَصْحَابه فَحَلَفُوا مَا قَالُوا فكَذَّبنِي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَصدقه فَأَصَابَنِي شَيْء لم يُصِبْنِي قطّ مثله فَجَلَست فِي الْبَيْت فَقَالَ عمي مَا أردْت إِلَّا أَن كذبك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأنْزل الله إِذا جَاءَك الْمُنَافِقُونَ فَبعث إِلَيّ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فقرأها ثمَّ قَالَ إِن الله قد صدقك انْتَهَى

وَرَوَاهُ مُسلم فِي كتاب الْمُنَافِقين قَرِيبا مِنْهُ وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير من حَدِيث أبي سعيد الأودي ثَنَا زيد بن أَرقم قَالَ غزونا مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَكَانَ مَعنا نَاس من الْأَعْرَاب فَكُنَّا نَبْتَدِر المَاء وَكَانَ الْأَعْرَاب يَسْبِقُونَنَا إِلَيْهِ فَيسْبق

أَعْرَابِي أَصْحَابه فَيَمْلَأ الْحَوْض ويجْعَل حوله حِجَارَة ويجْعَل النطع عَلَيْهِ حَتَّى يَجِيء أَصْحَابه قَالَ فَأتى رجل من الْأَنْصَار أَعْرَابِيًا فَأرْخى زِمَام نَاقَته ليشْرب فَأبى أَن يَدعه فانْتزع حجرا ففاض المَاء فرفع الْأَعرَابِي خَشَبَة فَضرب بهَا رَأس الْأنْصَارِيّ وشجها فَأتى عبد الله بن أبي رَأس الْمُنَافِقين فَأخْبرهُ وَكَانَ من أَصْحَابه فَغَضب عبد الله بن أبي ثمَّ قَالَ لَا تنفقوا عَلَى من عِنْد رَسُول الله حَتَّى يَنْفضوا وَكَانُوا يحْضرُون رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عِنْد الطَّعَام فَقَالَ عبد الله إِذا انفضوا من عِنْد مُحَمَّد فأتوا مُحَمَّدًا بِالطَّعَامِ فليأكل هُوَ وَمن عِنْده ثمَّ قَالَ لأَصْحَابه لَئِن رَجعْنَا إِلَى الْمَدِينَة فليخرج الْأَعَز مِنْكُم قَالَ زيد وَأَنا ردف رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَسمِعت عبد الله فَأخْبرت عمي فَانْطَلق فَأخْبر رَسُول الله فَأرْسل إِلَيْهِ رَسُول الله فَحلف وجحد قَالَ فَصدقهُ رَسُول الله وكذبني قَالَ فجَاء عمي إِلَيّ فَقَالَ مَا أردْت إِلَّا أَن مقتك رَسُول الله وكذبك هُوَ وَالْمُسْلِمُونَ قَالَ فَوَقع عَليّ من الْهم مَا لم يَقع عَلَى أحد قَالَ فَبَيْنَمَا أَسِير مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي سفر قد خفقت رَأْسِي من الْهم إِذا أَتَانِي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فعرك أُذُنِي وَضحك فِي وَجْهي فَمَا سرني أَن بهَا الْخلد فِي الْجنَّة ثمَّ إِن أَبَا بكر لَحِقَنِي فَقَالَ مَا قَالَ لَك رَسُول الله قلت مَا قَالَ شَيْئا إِلَّا أَنه عرك أُذُنِي وَضحك فِي وَجْهي فَقَالَ أبشر ثمَّ لَحِقَنِي عمر فَقلت لَهُ مثل قولي لأبي بكر فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَرَأَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

سُورَة الْمُنَافِقين انْتَهى وَقَالَ حَدِيث حسن صَحِيح

ورَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك وَقَالَ اخْرُج الشَّيْخَان بعضه

وَرَوَى الْبُخَارِيّ فِي التَّفْسِير وَمُسلم فِي الْأَدَب وَالتِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير وَالنَّسَائِيّ فِي السّير وَفِي الْيَوْم وَاللَّيْلَة من حَدِيث عَمْرو بن دِينَار عَن جَابر بن عبد الله وَاللَّفْظ لِلتِّرْمِذِي قَالَ كُنَّا فِي غَزْوَة بني المصطلق فكَسَعَ رجل من الْمُهَاجِرين رجلا من الْأَنْصَار فَقَالَ الْمُهَاجِري يَا للمهاجرين وَقَالَ الْأَنْصَارِيّ يَا لِلْأَنْصَار فَسمع ذَلِك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ مَا بَال دَعْوَى الْجَاهِلِيَّة قَالُوا رجل

من الْمُهَاجِرين كسع رجلا من الْأَنْصَار فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَة فَسمع بذلك عبد الله بن أبي بن سلول فَقَالَ أَوقد فعلوها وَالله لَئِن رَجعْنَا إِلَى الْمَدِينَة ليخرجن الْأَعَز مِنْهَا الْأَذَل فَقَالَ عمر يَا رَسُول الله دَعْنِي أضْرب عنق هَذَا الْمُنَافِق فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام دَعه لَا يتحدث النَّاس أَن مُحَمَّدًا يقتل أَصْحَابه وَقَالَ غير عمر وَقَالَ لَهُ ابْنه عبد الله بن عبد الله وَالله لَا تَنْفَلِت حَتَّى تَقول إِنَّك أَنْت الذَّلِيل وَرَسُول الله الْعَزِيز فَفعل انْتَهى وَقَالَ حَدِيث حسن صَحِيح

وروى الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حدثنا أَحْمد بن مَنْصُور الرَّمَادِي ثَنَا إِبْرَاهِيم بن الحكم بن أبان ثَنَا أبي ثني بشير بن مُسلم أَنه قيل لعبد الله بن أبي يَا أَبَا حباب إِنَّه قد أنزل فِيك آي شَدَّاد فَاذْهَبْ إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسْتَغْفر لَك فلوى رَأسه وَقَالَ أَمرْتُمُونِي أَن أُؤْمِن فآمنت وَأَمَرْتُمُونِي أَن أعطي زَكَاة مَالِي فَأعْطيت فَمَا بَقِي إِلَّا أَن أَسجد لمُحَمد انْتَهَى

1354 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَرَأَ سُورَة الْمُنَافِقين برِئ من النِّفَاق

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من طَرِيق ابْن أبي دَاوُد ثَنَا مُحَمَّد بن عَاصِم ثَنَا شَبابَة ثَنَا مخلد بن عبد الْوَاحِد عَن عَلّي بن زيد عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . ذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي سُورَة يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار جـ 4 صـ 33. 37﴾

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة المنافقون

قوله تعالى : (قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ - إلى قوله - اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً) ، الآية/ 1 ، 2 .

فمنه قال الشافعي : إذا قال أشهد باللّه ونوى به اليمين كان يمينا .

وأبو حنيفة يجعلها دون الله يمينا ، لأن اللّه تعالى أخبر عن الكفار أنهم يقولون نشهد إنك لرسول اللّه ولم يقولوا : نشهد باللّه ، وقال تعالى :

(فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللَّهِ) «1» .

والشافعي يقول : أشهد ، ينبئ عن مبالغة ما ، ولكن إذا لم يقرنه بذكر اللّه لم يدل على معنى اليمين ، فإن خاصية اليمين في ذكر اسم الله تعالى ، أو صفة من صفاته «2» .

قوله تعالى : (وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ) ، الآية/ 10 .

فيه دلالة على أنه يجب تعجيل الزكاة ، ولا يجوز تأخيرها أصلا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 417 ﴾

---

(1) سورة النور آية 6.

(2) انظر أحكام القرآن للجصاص ج 5 وتفسير القرطبي سورة المنافقون

(59/765)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى:

«سورة المنافقون» (63)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ» (4) جماعة خشب..

«حَتَّى يَنْفَضُّوا» (7) حتى يتفرقوا «1»..

«فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي» (10) مجازها: هلّا..

«فَأَصَّدَّقَ» (10) نصبت على جواب بالفاء للاستفهام منصوب تقول: من عندك فآتيك، هلّا فعلت هذه كذا وكذا فأفعل كذا وكذا ثم تبعتها «وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ» (10) بغير الواو قال أبو عمرو: وأكون من الصالحين وذهبت الواو من الخط كما يكتب أبو جاد أبجد هجاء، قال آخرون: يجوز الجزم على غير موالاة ولا شركة «وأكون» ولكنه أشركه فى

الكلام الأول كأنه قال : هلا أخرتنى أكن ، فهذه الفاء شركة فى موضع الفاء الأولى والفاء الأولى التي فى «فأصدق» فى موضع الجزم قال :

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى أعدائنا فنضارب

«2» [904] . انتهى انتهى . اهـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 259﴾

---

(1) . - 4 «حتى . . . يتفرقوا» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 498) .

(2) . - 904 : هذا بيت مختلف فى عزوه وفى الروى له ، قرأه بعضهم بالضم وبعضهم بالجر فقد نص فى الخزانة على الكسر والبيت من قصيدة بائية مجرورة .

والبيت من قصيدة مفضلية 410 - 421 للاخنس بن شهاب التغلبي ، ونسبه الأنباري إلى كعب بن مالك الأنصاري وهو فى الشعراء ص 18 لربيعة بن مقروم وذكر أن ربيعة بن مقروم أخذه من قيس بن الخطيم أو أن قيسا أخذه منه نعم هو فى ديوانه البيت العشرون من رقم 4 .

قال الأنبارى فى الشرح فى ترجمة الأخنس : وهو أول العرب وصل قصر السيوف بالخطى .

وانظر الخزانة 3/ 24 ، 164 - 169 .

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة القنوجى :

سورة المنافقين

إحدى عشرة آية

وهي مدنيّة ، قال القرطبي «1» : في قول الجميع .

[الآية الأولى]

إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ (1) .

إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ : أي إذا وصلوا إليك وحضروا مجلسك .

قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ : أكدوا شهادتهم بأن ، واللام للإشعار بأنها صادرة من صميم قلوبهم مع خلوص اعتقادهم ، والمراد بالمنافقين : عبد اللّه بن أبيّ وأصحابه .

ومعنى نشهد : نحلف ، فهو يجري مجرى القسم ، ولذلك يتلقى بما يتلقى به القسم .

وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ : معترضة مقررة لمضمون ما قبلها ، وهو ما أظهروه من الشهادة وإن

كانت بواطنهم على خلاف ذلك.

وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ (1) : أي في الشهادة التي زعموا أنها من صميم القلب وخلوص الاعتقاد، لا إلى منطوق كلامهم وهو الشهادة بالرسالة فإنه حق.

والمعنى والله يشهد إنهم لكاذبون فيما تضمنه كلامهم من التأكيد الدال على أن شهادتهم بذلك صادرة عن خلوص اعتقاد وطمأنينة قلب وموافقة باطن لظاهر «2». انتهى

انتهى. اهـ ﴿ نيل المرام صـ 448 ﴾

---

(1) انظره في «تفسيره» (18/ 120).

(2) انظر: الطبري (28/ 71)، زاد المسير (8/ 275)، والقرطبي (18/ 125)، اللباب (214)، النكت (4/ 242).

(61/765)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى:

ومن السورة التي يذكر فيها «المنافقون»

[سورة المنافقون (63): آية 7]

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ (7)

قوله تعالى : وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ [7] وهذه استعارة . والمراد بخزائن السموات والأرض مواضع أرزاق العباد ، من مدارّ السحاب ، ومخارج الأعشاب ، وما يجرى مجرى ذلك من الأرفاق .

وقال بعضهم : المراد بالخزائن هاهنا مقدورات اللّه سبحانه ، لأن فيها كلّ ما يشاء إخراجه ، من مصالح العباد ، ومنافع البلاد . وقد مضى الكلام على هذا المعنى فيما تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 334. 335 ﴾

(62/765)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة المنافقون

النفاق من أخس الصفات ، وهو ازدواج فى الشعور والسلوك يبدأ بأن يكون المرء ذا وجهين ولا يزال ينمو حتى يكون صاحبه كالحرباء التى تصطبغ بألوان شتى حسب الوسط

التى تكون فيه ! والكذب والحلف عليه من أول أخلاق المنافقين . وهم يقتربون أو يبتعدون حسب هبوب الريح التى تحملهم هنا أو هناك ، فليس لهم محور ثابت يدورون حوله ، أو وجهة محددة يرتبطون بها . إنما هى منافعهم الخاصة التى يرنون إليها ولا يتحولون عنها . " إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون" . على أن الأحداث اليومية المتكررة وما تفرضه شتى المواقف على الناس لا تدع النفاق مستورا ، فلابد أن ينكشف: إما فى فلتات اللسان وإما فى التعليق على الأحداث المفاجئة. وسورة " المنافقون " فضحت زعماء النفاق ، وسجلت عليهم ما حاولوا الفرار منه ! إنهم حريصون على أن تكون صورهم جميلة وشاراتهم معجبة – لتستر خباياهم – لكن حقدهم يغلبهم فيقولون ما يسىء إلى المهاجرين وما يحرج الأنصار . قد يقع شجار تافه بين بعض الخدم من هنا . ومن هنا فيجىء هؤلاء ليجعلوه فتنة جائحة تثير البغضاء وتنشى الوقيعة . " هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون " . إن الله ابتلى المهاجرين بترك أموالهم وبيوتهم فى مكة ، وابتلى الأنصار باستقبالهم ومواساتهم فى المدينة ؟ فهل يجوز أن يقول ابن أبى: إننا مع هؤلاء كما قيل "سمن كلبك يأكلك ! ! " يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون " ؟ هذا كلام امرئ يبغى الشر للإسلام وأمته ويريد تمزيق الشمل وبعثرة الصفوف !

(63/765)

وعبد الله بن أبى كره الإسلام ونبيه لأنه كان مرشحا لزعامة المدينة قبل الهجرة ، فلما قدم رسول الله ابتعد عنه التاج الذى كان يحلم به ! ولو أن الأحمق آمن بالله واليوم الآخر لكان له من المجد ما يرجح بالدنيا وما فيها ، إن الكفر حماقة لا قرار لها . . . ولو أنه عندما أخطأ جاء إلى رسول الله معتذرا لاستغفر له ، وتاب الله عليه ، لكنه أبى . وقد ختمت السورة بما يجعل العقلاء يؤثرون الله وما عنده ولا ينزلون بهمتهم إلى الحطام الزائل "يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون " . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 460 . 461﴾

(64/765)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(65/765)

"فصل"

قال السيوطي :

سورة المنافقون

أقول: وجه اتصالها بما قبلها : أن سورة الجمعة ذكر فيها المؤمنون ، وهذه ذكر فيها أضدادهم ، وهم المنافقون ولهذا أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة يحرض بها المؤمنين ، وبسورة المنافقين يفزع بها المنافقين وعام المناسبة أن السورة التي بعدها فيها ذكر المشركين ، والسورة التي قبل الجمعة فيها ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى والتي قبلها وهي الممتحنة فيها ذكر المعاهدين من المشركين والتي قبلها وهي الحشر فيها ذكر المعاهدين من أهل الكتاب ، فإنها نزلت في بني النضير حين نبذوا العهد وقوتلوا وبذلك أتضحت المناسبة في ترتيب هذه السور الست هكذا ، لاشتمالها على أصناف الأمم ، وفي الفصل بين المسبحات بغيرها لأن إيلاء سورة المعاهدين من أهل الكتاب بسورة المعاهدين من المشركين أنسب من غيره وإيلاء سورة المؤمنين بسورة المنافقين أنسب من غيره فظهر بذلك أن الفصل بين المسبحات التي هي نظائر لحكمة دقيقة من لدن حكيم خبير ، فلله الحمد على ما فهم وألهم هذا وقد ورد عن ابن عباس في ترتيب النزول: أن سورة التغابن نزلت

عقب الجمعة ، وتقدم نزول سورة المنافقون فما فصل بينهما إلا الحكمة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أسرار ترتيب القرآن صـ 138. 139 ﴾

(66/765)

قوله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي له الإحاطة العظمى علما وقدرة فمن زاغ أراده (الرحمن) الذي ستر بعموم رحمته من أراد من عباده وفضح من شاء وإن دقق مكره وأخفاه (الرحيم) الذي وفق أهل وده بإتمام نعمته لما يحبه ويرضاه .

لما نهى سبحانه في الممتحنة عن اتخاذ عدوه ولياً ، وذم في الصف على المخالفة بين القول والفعل ، وحذر آخر الجمعة من الإعراض عن حال من أحوال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حال من الأحوال ولو مع الوفاق ، لأن صورة ذلك كله صورة النفاق ، قبح في أول هذه

حال من أقبل عليه على حال النفاق ، لأنه يكون كاليهود الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، واستمرت السورة كلها في ذمهم بأقبح الذم ليكون زاجراً عن كل ما ظاهره نفاق ، فقال تعالى : ﴿ إذا جاءك ﴾ أي يا أيها الرسول المبشر به في التوراة والإنجيل ﴿ المنافقون ﴾ أي العريقون في وصف النفاق وهو إسلام الظاهر وكفر الباطن ، وأغلبهم من اليهود ﴿ قالوا ﴾ مؤكدين لأجل استشعارهم لتكذيب من يسمعهم لما عندهم من الارتياب : ﴿ نشهد ﴾ قال الحسن : هو بمنزلة يمين كأنهم قالوا : نقسم ﴿ إنك ﴾ - التأكيد لذلك وإيهاماً لأن قوة تأكيدهم لشدة رغبتهم في مضمون ما يقولونه ﴿ لرسول الله ﴾ أي الملك الذي له الإحاطة الكاملة ، فوافقوا الحق بظاهر أحوالهم ، وخالفوا بقلوبهم وأفعالهم .

(67/765)

ولما كانت الشهادة الإخبار عن علم اليقين لأنها من الشهود وهو كمال الحضور وتمام الاطلاع ومواطأة القلوب للألسنة ، صدق سبحانه المشهود به وكذبهم في الإقسام بالشهادة ومواطأة ألسنتهم لقلوبهم فقال : ﴿ والله يعلم ﴾ أي وعلمه هو العلم في الحقيقة ، وأكده سبحانه بحسب إنكار المنافقين فقال : ﴿ إنك لرسوله ﴾ سواء شهد المنافقون بذلك أم لم يشهدوا ، فالشهادة بذلك حق ممن يطابق لسانه قلبه ، وتوسط هذا بين شهادتهم وتكذيبهم

لئلا يتوهم أن ما تضمنته شهادتهم من الرسالة كذب .

ولما كان ربما ظن أن هذا تأكيد لكلام المنافقين ، دل على أنه تحقيق لمضمون كلامهم دون شهادتهم فقال : ﴿ والله ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ يشهد ﴾ شهادة هي الشهادة لأنها محيطة بدقائق الظاهر والباطن ﴿ أن المنافقين ﴾ أي الراسخين في وصف النفاق ﴿ لكاذبون ﴾ أي في إخبارهم عن أنفسهم أنهم يشهدون لأن قلوبهم لا تطابق ألسنتهم فهم لا يعتقدون ذلك ، ومن شرط قول الحق أن يتصل ظاهره باطنه وسره بعلانيته ، ومتى تخالف ذلك فهو كذب ، لا المراد أنهم كاذبون في صحة ما تضمنته شهادتهم من أنك رسول الله والحاصل أن الشهادة تتضمن شيئين : صدق مضمون الخبر والإذعان له ، فصدقهم في الأول وكذبهم في الثاني فصاروا بنفاقهم أسفل حالاً وشر مآلاً من اليهود .

(68/765)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما أعقب حال المؤمنين فيما خصهم الله به مما انطوت عليه الآيات الثلاث إلى صدر سورة الجمعة إلى قوله : ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ [الجمعة : 4] بذكر حال من لم ينتفع بما حمل حسبما تقدم ، وكان في ذلك من المواعظ والتنبيه ما ينتفع به من سبقت له السعادة ، أتبع بما هو أوقع في الغرض وأبلغ في المقصود ، وهو ذكر

طائفة بين أظهر من قدم الثناء عليهم ومن أقرانهم وأترابهم وأقاربهم ، تلبست في الظاهر بالإيمان ، وأظهرت الانقياد والإذعان ، وتعرضت فأعرضت وتنصلت فيما وصلت ، بل عاقتها الأقدار ، فعميت البصائر والأبصار ، ومن المطرد المعلوم أن اتعاظ الإنسان بأقرب الناس إليه وبأهل زمانه أغلب من اتعاظه بمن بعد عنه زماناً ونسباً ، فأتبعت سورة الجمعة بسورة المنافقين وعظاً للمؤمنين بحال أهل النفاق ، وبسط من قصصهم ما يلائم ما ذكرناه ، وكان قيل لهم : ليس من أظهر الانقياد والاستجابة ، ثم بني إسرائيل ثم كان فيما حمل كمثل الحمار يحمل أسفاراً بأعجب من حال إخوانكم زماناً وقرابة ، وأنتم أعرف الناس بهم وأنهم قد كانوا في الجاهلية موصوفين بجودة الرأي وحسن النظر

﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾ [المنافقين : 4] ﴿ ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ [المنافقين : 7] قلت : وقد مر في الخطبة ما رويناه في مصنف ابن أبي شيبة من قول أناس من المؤمنين : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين فيبشر بها المؤمنين ويحرضهم ، وأما سورة المنافقين فيوئس بها المنافقين ويوبخهم ، وهذا نحو ما ذكرناه أولاً – انتهى .

ولما كان المعنى أنهم لم يعتقدوا ما شهدوا به ، وكان كأنه قيل : فما الحامل لهم على هذا الكلام المؤكد والكذب في غاية القباحة لا سيما عند العرب ، علله بقوله مسمياً شهادتهم إيماناً لأن الشهادة تجري مجرى القسم في إرادة التوكيد ، ولذلك يتلقى بما يتلقى به القسم : ﴿ اتخذوا ﴾ أي أخذوا بجهدهم ﴿ أيمانهم ﴾ أي كلها من شهادتهم هذه المجتهد في توكيدها وكل يمين سواها ﴿ جنة ﴾ أي وقاية تقيهم المكاره الدنيوية ويستترون بها منها فيصونون بها دماءهم وأموالهم ، فاستضاؤوا بنور الإجابة فلم ينبسط عليهم شعاع نور السعادة فانطفأ نورهم بقهر الحرمان ، وبقوا في ظلمات القسمة السابقة بحكم الخذلان ﴿ فصدوا ﴾ أي فسبب لهم اتخاذهم هذا أن أعرضوا بأنفسهم مع سوء البواطن وحرارة الصدور ، وحملوا غيرهم على الإعراض لما يرى من سيئ أحوالهم بتلك الظواهر مع بقائهم على ما كانوا ألفوه من الكفر الذي يزينه الشيطان ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي عن طريق الملك الأعظم الذي شرعه لعباده ليصلوا به إلى محل رضوانه ، ووصلوا إلى ذلك بخداعهم ومكرهم بجرأتهم على الإيمان الحانثة التي يمشون حالهم بها لما شرعه الله في هذه الحنيفية السمحة من القناعة من الحالف بيمينه فيما لا يعلم إلا من قبله .

ولما كان ما أخبر به من حالهم في غاية القباحة ، أنتج قوله : ﴿ إنهم ﴾ وأكده لأن حالهم بعجبهم وعجب كثيراً ممن قاربهم ﴿ ساء ما كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ يعملون ﴾ أي يجددون عمله مستمرين عليه بما هو كالجبلة من جرأتهم على الله ورسوله . صلى الله عليه

وسلم. وخلص عباده بالأيمان الحانثة.

ولما كانت المعاصي تعمي القلب فكيف بأعظمها، علله بقوله: ﴿ذلك﴾ أي الأمر العظيم في البعد من الخير من الكذب بالإخبار بالشهادة والحلف على الصدق والصد عن السبيل والوصف لعملهم بالسوء ﴿بأنهم آمنوا﴾ أي بسبب أنهم أقروا بالإيمان بألسنتهم من غير مطابقة لقلوبهم.

(70/765)

ولما كان الكفر مستبعداً فكيف إذا كان بعد الإقرار، عبر بأداة البعد لذلك ولتفهم الذم على التعقيب من باب الأولى، ولئلا يتوهم أن الذم إنما هو على تعقيب الإيمان بالكفر فقط، لا على مطلقه، فالتعبير بثم يفهم أن من استمر طول عمره على الإيمان ثم كفر قبل موته بلحظة كان له هذا الذم فقال: ﴿ثم كفروا﴾ أي سراً فهابوا الناس ولم يهابوا الله.

ولما كان مجرد الطبع على القلب في غاية البشاعة، كان مفهماً لبشاعة ما كان منه من الله من باب الأولى، بني للمجهول قوله: ﴿فطبع﴾ أي فحصل الطبع وهو الختم مع أنه معلوم أنه لا يقدر على ذلك غيره سبحانه ﴿على قلوبهم﴾ لأجل اجترائهم على ما هو أكبر الكبائر على وجه النفاق حتى مرنوا على الكفر واستحكموا فيه، وكذلك من ترك الجمعة ثلاث

مرات تهاونا بها ﴿ فهم ﴾ أي فتسبب عن ذلك أنهم ﴿ لا يفقهون ﴾ أي لا يقع لهم فقه في شيء من الأشياء فهم لا يميزون صوابا من خطأ ولا حقا من باطل لأن المختوم عليه لا يصل إليه شيء ولا يخرج منه شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 605. 608 ﴾

(71/765)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات ﴿ خشب ﴾ بالسكون : أبو عمرو وعلي وابن مجاهد ﴿ لووا ﴾ بالتخفيف : نافع وقالون ﴿ تعملون ﴾ على الغيبة : يحي وحماد .

الوقوف : ﴿ لرسول الله ﴾ ط م لئلا يوهم أن قوله ﴿ والله يعلم ﴾ من مقول المنافقين ﴿ لرسوله ﴾ ط ﴿ لكاذبون ﴾ ه لا لأن ما بعده يصلح صفة واستئنافا ﴿ عن سبيل الله ﴾ ط ﴿ يعملون ﴾ ه ﴿ لا يفقهون ﴾ ط ﴿ أجسامهم ﴾ ط ﴿ لقولهم ﴾ ط ﴿ مسندة ﴾ ط ﴿ عليهم ﴾ ط ﴿ فاحذرهم ﴾ ط ﴿ قاتلهم الله ﴾ ط ز لابتداء الاستفهام مع اتصال المعنى ﴿ يؤفكون ﴾ ه ﴿ مستكبرون ﴾ ه ﴿ تستغفر لهم ﴾

ط ﴿ لن يغفر الله لهم ﴾ ط ﴿ الفاسقين ﴾ ه ﴿ ينفضوا ﴾ ط ﴿ لا يفقهون ﴾ ه ﴿ الأذل ﴾ ط ﴿ لا يعلمون ﴾ ه ﴿ عن ذكر الله ﴾ ط للشرط مع الواو ﴿ الخاسرون ﴾ ه ﴿ قريب ﴾ ج ه لتعلق الجواب ﴿ الصالحين ﴾ ه ز ﴿ أجلها ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ ه.

انتهى انتهى. ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 303. 304﴾

(72/765)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾

وجه تعلق هذه السورة بما قبلها ، هو أن تلك السورة مشتملة على ذكر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذكر من كان يكذبه قلباً ولساناً بضرب المثل كما قال : ﴿ مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التوراة ﴾ [الجمعة : 5] وهذه السورة على ذكر من كان يكذبه قلباً دون اللسان ويصدقه لساناً دون القلب ، وأما الأول بالآخر ، فذلك أن في آخر تلك السورة تنبيهاً لأهل الإيمان على تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم ورعاية حقه بعد النداء لصلاة الجمعة وتقديم متابعته في الأداء على غيره وأن ترك التعظيم والمتابعة من شيم المنافقين ، والمنافقون

هم الكاذبون ، كما قال في أول هذه السورة : ﴿ إِذَا جَاءَكَ المنافقون ﴾ يعني عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ﴾ وتم الخبر عنهم ثم ابتدأ فقال : ﴿ والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ أي أنه أرسلك فهو يعلم أنك لرسوله ﴿ والله يَشْهَدُ ﴾ أنهم أضمروا غير ما أظهروا ، وإنه يدل على أن حقيقة الإيمان بالقلب ، وحقيقة كل كلام كذلك ، فإن من أخبر عن شيء واعتقد بخلافه فهو كاذب ، لما أن الكذب باعتبار المخالفة بين الوجود اللفظي والوجود الذهني ، كما أن الجهل باعتبار المخالفة بين الوجود الذهني ، والوجود الخارجي ، ألا ترى أنهم كانوا يقولون بألسنتهم : نشهد إنك لرسول الله ، وسماهم الله كاذبين لما أن قولهم : يخالف اعتقادهم ، وقال : قوم لم يكذبهم الله تعالى في قولهم : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ﴾ إنما كذبهم بغير هذا من الأكاذيب الصادرة عنهم في قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُواْ ﴾ [التوبة : 74] الآية .

(73/765)

و ﴿ يَحْلِفُونَ بالله إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ [التوبة : 56] وجواب إذا ﴿ قَالُواْ نَشْهَدُ ﴾ أي أنهم إذا أتوك شهدوا لك بالرسالة ، فهم كاذبون في تلك الشهادة ، لما مر أن قولهم يخالف اعتقادهم ، وفي الآية مباحث :

البحث الأول : أنهم قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، فلو قالوا : نعلم إنك لرسول الله ، أفاد مثل ما أفاد هذا ، أم لا ؟ نقول : ما أفاد ، لأن قولهم : نشهد إنك لرسول الله ، صريح في الشهادة على إثبات الرسالة ، وقولهم : نعلم ليس بصريح في إثبات العلم ، لما أن علمهم في الغيب عند غيرهم .

قوله : ﴿ اتخذوا أيمانهم جُنَّةً ﴾ أي ستراً ليستتروا به عما خافوا على أنفسهم من القتل .

قال في "الكشاف" : ﴿ اتخذوا أيمانهم جُنَّةً ﴾ يجوز أن يراد أن قولهم : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله ﴾ يمين من أيمانهم الكاذبة ، لأن الشهادة تجري مجرى الحلف في التأكيد ، يقول الرجل : أشهد وأشهد بالله ، وأعزم وأعزم بالله في موضع أقسم وأولى : وبه استشهد أبو حنيفة على أن أشهد يمين ، ويجوز أن يكون وصفاً للمنافقين في استخفافهم بالإيمان ، فإن قيل : لم قالوا نشهد ، ولم يقولوا : نشهد بالله كما قلتم ؟ أجاب بعضهم عن هذا بأنه في معنى الحلف من المؤمن وهو في المتعارف إنما يكون بالله ، فلذلك أخبر بقوله : نشهد عن قوله بالله .

وقوله تعالى : ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أي أعرضوا بأنفسهم عن طاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله ، وقيل : صدوا ، أي صرفوا ومنعوا الضعفة عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ سَاءَ ﴾ أي بئس ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ حيث آثروا الكفر على الإيمان وأظهروا خلاف ما أضمروا مشاكلة للمسلمين .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ ذلك إشارة إلى قوله : ﴿ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قال مقاتل : ذلك الكذب بأنهم آمنوا في الظاهر ، ثم كفروا في السر ، وفيه تأكيد لقوله : ﴿ والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ وقوله : ﴿ فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ لا يتدبرون ، ولا يستدلون بالدلائل الظاهرة .

قال ابن عباس : ختم على قلوبهم ، وقال مقاتل : طبع على قلوبهم بالكفر فهم لا يفقهون القرآن ، وصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : إنهم كانوا يظنون أنهم على الحق ، فأخبر تعالى أنهم لا يفقهون أنه طبع على قلوبهم ، ثم في الآية مباحث :

البحث الأول : أنه تعالى ذكر أفعال الكفرة من قبل ، ولم يقل : إنهم ساء ما كانوا يعملون ، فلم قلنا هنا ؟ نقول : إن أفعالهم مقرونة بالأيمان الكاذبة التي جعلوها جنة ، أي سترة لأموالهم ودمائهم عن أن يستبيحها المسلمون كما مر .

الثاني : المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم ، فما معنى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ ؟ نقول : قال في "الكشاف" ثلاثة أوجه أحدها : ﴿ ءَامَنُوا ﴾ نطقوا بكلمة الشهادة ، وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ ثم ظهر كفرهم بعد ذلك

وثانيها : ﴿ ءَامَنُواْ ﴾ نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ﴿ ثُمَّ كَفَرُواْ ﴾ نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الذين ءَامَنُواْ قَالُوا ءَامَنَّا ﴾ وثالثها : أن يراد أهل الذمة منهم .

(75/765)

الثالث : الطبع على القلوب لا يكون إلا من الله تعالى ، ولما طبع الله على قلوبهم لا يمكنهم أن يتدبروا ويستدلوا بالدلائل ، ولو كان كذلك لكان هذا حجة لهم على الله تعالى ، فيقولون : إعراضنا عن الحق لغفلتنا ، وغفلتنا بسبب أنه تعالى طبع على قلوبنا ، فنقول : هذا الطبع من الله تعالى لسوء أفعالهم ، وقصدهم الإعراض عن الحق ، فكأنه تعالى تركهم في أنفسهم الجاهلة وأهوائهم الباطلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 14.12 ﴾

(76/765)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله ﴾

روى البخاريّ " عن زيد بن أَرْقم قال : كنت مع عَمّي فسمعت عبد الله بن أُبيّ بن سلول يقول : ﴿ لاَ تُنفِقُوا على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّوا ﴾ .

وقال : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ فذكرت ذلك لعمّي فذكر عمي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن أُبيّ وأصحابه فحلفوا ما قالوا ؛ فصدّقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكَذّبني . فأصابني همّ لم يصبني مثله ، فجلست في بيتي فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِذَا جَآءَكَ المنافقون ﴾ إلى قوله ﴿ هُمُ الذين يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله ﴾ إلى قوله ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ فأرسل إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : "إن الله قد صدقك" " خرّجه الترمذيّ قال : هذا حديث حسن صحيح .

وفي الترمذي عن زيد بن أَرقم قال : غَزَوْنَا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان معنا أناس من الأعراب فكنا نبدر الماء ، وكان الأعراب يسبقونا (إليه) فيسبق الأعرابيّ أصحابه فيملأ الحوض ويجعل حوله حجارة ، ويجعل النِّطْع عليه حتى تجيء أصحابه . قال : فأتى رجل من الأنصار أعرابياً فأرخى زمام ناقته لتشرب فأبى أن يدعه ، فانتزع حجراً فغاض الماء ؛ فرفع الأعرابيّ خشبة فضرب بها رأس الأنصاري فشجّه ، فأتى عبدَ الله بن أُبيّ رأس المنافقين فأخبره وكان من أصحابه ، فغضب عبد الله بن أُبيّ ثم قال : لا تُنفِقُوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله يعني الأعراب وكانوا يحضرون رسول

الله صلى الله عليه وسلم عند الطعام ؛ فقال عبد الله : إذا انفضوا من عند محمد فأتوا محمداً بالطعام ، فليأكل هو ومن عنده .

(77/765)

ثم قال لأصحابه : لئن رجعتم إلى المدينة لَيُخْرِجَنّ الأَعَزُّ مِنْها الأَذَلَّ .

قال زيد : وأنا رِدْف عمي فسمعت عبد الله بن أُبَيّ فأخبرت عمي ، فانطلق فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلف وجَحَد .

قال : فصدّقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكَذّبني .

قال : فجاء عمي إليّ فقال : ما أردتُ إلى أن مَقَتَك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكَذّبك والمنافقون .

قال : فوقع عليّ من جرأتهم ما لم يقع على أحد .

قال : فبينما أنا أسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرٍ قد خَفَقْتُ برأسي من الَهمّ إذ أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فَعَرك أذني وضحك في وجهي ؛ فما كان يَسُرّني أن لي بها الخُلْد في الدنيا .

ثم إن أبا بكر لحقني فقال : ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : ما قال

شيئاً إلا أنه عَرَكَ أذني وضحك في وجهي ؛ فقال أبشر ! ثم لحقني عمر فقلت له مثل قولي لأبي بكر .

فلما أصبحنا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة المنافقين .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وسئل حُذيفة بن اليَمَان عن المنافق فقال : الذي يصف الإسلام ولا يعمل به .

وهو اليوم شرّ منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم كانوا يكتمونه وهم اليوم يظهرونه .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " آية المنافق ثلاث إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان " وعن عبد الله بن عمرو : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أربع من كُنّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان وإذا حدّث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فَجَرَ " أخبر عليه السلام أن من جمع هذه الخصال كان منافقاً ، وخبره صدق .

وروي عن الحسن أنه ذكر له هذا الحديث فقال : إن بني يعقوب حدّثوا فكذبوا ووعدوا فأخلفوا وأُتمِنوا فخانوا .

إنما هذا القول من النبيّ صلى الله عليه وسلم على سبيل الإنذار للمسلمين ، والتحذير لهم أن يعتادوا هذه الخصال ؛ شَفَقاً أن تُفْضِيَ بهم إلى النفاق .

وليس المعنى : أن من بدرت منه هذه الخصال من غير اختيار واعتياد أنه منافق .

وقد مضى في سورة "براءة" القول في هذا مستوفىً والحمد لله .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " المؤمن إذا حدّث صدق وإذ وعد أنجز وإذا ائتمن وَفَّى " والمعنى : المؤمن الكامل إذا حدّث صدق .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ قيل : معنى "نَشْهَدُ" نحلف .

فعبّر عن الحلف بالشهادة ؛ لأن كل واحد من الحلف والشهادة إثبات لأمر مُغَيَّب ؛ ومنه قول قيس بن ذَرِيح :

وأشهد عند الله أني أحِبّها . . .

فهذا لها عندي فما عندها لِيا

ويحتمل أن يكون ذلك محمولاً على ظاهره أنهم يشهدون أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم اعترافاً بالإيمان ونفياً للنفاق عن أنفسهم ، وهو الأشبه .

﴿ والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ كما قالوه بألسنتهم .

﴿ واللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ ﴾ .

أي فيما أظهروا من شهادتهم وحَلفِهم بألسنتهم .

وقال الفراء : ﴿ واللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ ﴾ بضمائرهم ، فالتكذيب راجع إلى الضمائر .

وهذا يدل على أن الإيمان تصديق القلب ، وعلى أن الكلام الحقيقي كلام القلب .

ومن قال شيئاً واعتقد خلافه فهو كاذب .

وقد مضى هذا المعنى في أول "البقرة" مستوفى .

وقيل : أكذبهم الله في أيمانهم وهو قوله تعالى : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بالله إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ [التوبة : 56] .

اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (2)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ اتخذوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ أي سترة .

وليس يرجع إلى قوله ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ﴾ وإنما يرجع إلى سبب الآية التي نزلت عليه ، حسب ما ذكره البخاري والترمذي عن ابن أُبي أنه حلف ما قال وقد قال .

وقال الضحاك : يعني حلفهم بالله ﴿ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ وقيل : يعني بأيمانهم ما أخبر الربّ عنهم في سورة "براءة" إذ قال : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا ﴾ [التوبة : 74] .

الثانية : من قال أُقْسِم بالله أو أشْهد بالله أو أَعْزِم بالله أو أحلف بالله ، أو أقسمت بالله أو أشهدت بالله أو أعزمت بالله أو أحلفت بالله ، فقال في ذلك كله "بالله" فلا خلاف أنها يمين .

وكذلك عند مالك وأصحابه إن قال : أُقْسِم أو أَشْهد أو أعْزِم أو أحلف ، ولم يقل "بالله" ، إذا أراد "بالله" .

وإن لم يرد "بالله" فليس بيمين .

وحكاه الكِيَا عن الشافعيّ ، قال الشافعيّ : إذا قال أشهد بالله ونوى اليمين كان يميناً .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : لو قال أشهد بالله لقد كان كذا كان يميناً ، ولو قال أشهد لقد كان كذا دون النية كان يميناً لهذه الآية ، لأن الله تعالى ذكر منهم الشهادة ثم قال ﴿ اتخذوا أَيمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ .

وعند الشافعي لا يكون ذلك يميناً وإن نوى اليمين ، لأن قوله تعالى : ﴿ اتخذوا أَيمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ ليس يرجع إلى قوله : ﴿ قَالُواْ نَشْهَدُ ﴾ وإنما يرجع إلى ما في "براءة" من قوله تعالى : ﴿

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُواْ ﴾ [التوبة : 74] .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي أعرضوا ، وهو من الصدود .

أو صرفوا المؤمنين عن إقامة حكم الله عليهم من القتل والسَّبي وأخذ الأموال ، فهو من الصدّ ، أو منعوا الناس عن الجهاد بأن يتخلفوا ويقتدي بهم غيرهم .

وقيل : فصدّوا اليهود والمشركين عن الدخول في الإسلام ، بأن يقولوا ها نحن كافرون بهم ، ولو كان محمد حقاً لعرف هذا منّا ، ولجعلنا نكالاً .

(80/765)

فبيّن الله أن حالهم لا يخفى عليه ، ولكن حكمه أن من أظهر الإيمان أجرى عليه في الظاهر حكم الإيمان .

﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بئست أعمالهم الخبيثة من نفاقهم وأيمانهم الكاذبة وصدّهم عن سبيل الله أعمالاً .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (3)

هذا إعلام من الله تعالى بأن المنافق كافر .

أي أقرّوا باللسان ثم كفروا بالقلب وقيل : نزلت الآية في قوم آمنوا ثم ارتدوا ﴿ فَطُبِعَ على

قُلُوبِهِمْ ﴾ أي ختم عليها بالكفر ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ الإيمان ولا الخير .

وقرأ زيد ابن عليّ "فَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(81/765)

وقال الآلوسى :

﴿ إِذَا جَاءكَ المنافقون ﴾

أي حضروا مجلسك ، والمراد بهم عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله ﴾ التأكيد بأن واللام للازم فائدة الخبر وهو علمهم بهذا الخبر المشهود به فيفيد تأكيد الشهادة ، ويدل على ادعائهم فيها المواطأة وإن كانت في نفسها تقع على الحق والزور والتأكيد في قوله تعالى : ﴿ والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ لمزيد الاعتناء حقيقة بشأن الخبر ، أو ليس إلا ليوافق صنيعهم ، وجيء بالجلمة اعتراضاً لاماطة ما عسى أن يتوهم من قوله عز وجل :

﴿ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لكاذبون ﴾ من رجوع التكذيب إلى نفس الخبر المشهود به من أول الأمر ، وذكر الطيبي أن هذا نوع من التتميم لطيف المسلك ، ونظيره قول أبي الطيب

: وتحتقر الدنيا احتقار مجرب . . .

ترى كل ما فيها وحاشاك فانياً

فالتكذيب راجع إلى ﴿ نَشْهَدُ ﴾ باعتبار الخبر الضمني الذي دل عليه التأكيد وهو دعوى المواطأة في الشهادة أي والله يشهد إنهم لكاذبون فيما ضمنوه قولهم : ﴿ نَشْهَدُ ﴾ من دعوى المواطأة وتوافق اللسان والقلب في هذه الشهادة ، وقد يقال : الشهادة خبر خاص وهو ما وافق فيه اللسان القلب ، وأما شهادة الزور فتجوز كإطلاق البيع على غير الصحيح فهم كاذبون في قولهم : ﴿ نَشْهَدُ ﴾ المتفرع على تسمية قولهم ذلك شهادة ، وهو مراد من قال : أي لكاذبون في تسميتهم ذلك شهادة فلا تغفل .

وعلى هذا لا يحتاج في تحقق كذبهم إلى ادعائهم المواطأة ضمناً لأن اللفظ موضوع للمواطىء ، وجوز أن يكون التكذيب راجعاً إلى قولهم : ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ﴾ باعتبار لازم فائدة الخبر وهو بمعنى رجوعه إلى الخبر الضمني .

(82/765)

وأن يكون راجعاً إليه باعتبار ما عندهم أي لكاذبون في قولهم : ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ﴾ عند أنفسهم لأنهم كانوا يعتقدون أنه كذب وخبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه ،

قيل : وعلى هذا الكذب هو الشرعي اللاحق به الذم ألا ترى أن المجتهدين لا ينسبون إلى الكذب وإن نسبوا إلى الخطأ .

وجوز العلامة الثاني أن يكون التكذيب راجعاً إلى حلف المنافقين ، وزعموا أنهم لم يقولوا ﴿ لَا تُنفِقُوا۟ على مَنْ عِندَ رَسُولِ حتى يَنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِهِمْ وَلَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الاعز مِنْهَا الاذل ﴾ لما ذكر في صحيح البخاري عن زيد بن أرقم أنه قال : كنت في غزاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعت عبد الله بن أبيّ بن سلول يقول : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ولو رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل فذكرت ذلك لعمي فذكره لنبي الله صلى الله عليه وسلم فدعاني فحدّثته فأرسل رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى عبد الله بن أبي .

وأصحابه فخلفوا أنهم ما قالوا : فكذبني رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدقه فأصابني هم لم يصبني مثله قط فجلست في البيت فقال لي عمي : ما أردت إلى أن كذبك رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقتك فأنزل الله ﴿ إِذَا جَاءَكَ المنافقون ﴾ فبعث إليّ النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ فقال : " إن الله صدقك يا زيد " .

وجوز بعض الأفاضل أن يكون المعنى إن المنافقين شأنهم الكذب وإن صدقوا في هذا الخبر ، وأياً مّا كان فلا يتم للنظام الاستدلال بالآية على أن صدق الخبر مطابقته لاعتقاد المخبر

ولو كان ذلك الاعتقاد خطأ وكذبه عدمها ، وإظهار المنافقين في موقع الإضمار لذمهم والإشعار بعلة الحكم والكلام في ﴿ إِذاً ﴾ على نحو ما مر آنفاً ﴾ .

(83/765)

﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ أي الكاذبة على ما يشير إليه الإضافة ﴿ جُنَّةً ﴾ أي وقاية عما يتوجه إليهم من المؤاخذة بالقتل أو السبي أو غير ذلك قال قتادة : كلما ظهر على شيء منهم يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين عصمة لأموالهم ودمائهم ، وهذا كلام مستقل تعداداً لقبائحهم وأنهم من عادتهم الاستجنان بالأيمان الكاذبة كما استجنوا بالشهادة الكاذبة ، ويجوز أن يراد بأيمانهم شهادتهم السابقة ؛ والشهادة .

وأفعال العلم واليقين أجرتها العرب مجرى القسم ؛ وتلقتها بما يتلقى القسم ، ويؤكد بها الكلام كما يؤكد به ، فلهذا يطلق عليها اليمين ، وبهذا استشهد أبو حنيفة على أن أشهد يمين ، واعترضه ابن المنير بأن غاية ما في الآية أنه سمي يميناً ، والكلام في وجوب الكفارة بذلك لا في إطلاق الاسم ، وليس كل ما يسمى يميناً تجب فيه الكفارة ، فلو قال : أحلف على كذا لا تجب عليه الكفارة وإن كان حلفاً ، والجمع باعتبار تعدد القائلين ، والكلام على هذا استئناف يدل على فائدة قولهم ذلك عندهم مع الذم البالغ بما عقبه ، وقيل : إن

﴿ اتخذوا ﴾ جواب ﴿ إِذَا ﴾ وجملة ﴿ قَالُواْ ﴾ [المنافقون : 1] السابقة في موضع الحال بتقدير قد أو بدونه وهو خلاف الظاهر ، وأبعد منه جعل الجملة حالا وتقدير جواب لا ذا وقال الضحاك : أي اتخذوا حلفهم بالله إنهم لمنكم جنة عن القتل .

أو السبي .

أو نحوهما مما يعامل به الكفار .

ومن هنا أخذ الشاعر قوله

: وما انتسبوا إلى الإسلام إلا . . .

لصون دمائهم أن لا تسالا

وعن السدى أنهم اتخذوا ذلك جنة من ترك الصلاة عليهم إذا ماتوا ، وهو كما ترى وكذا ما قبله .

(84/765)

﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أي من أراد الدخول في دين الإسلام ؛ أو من أراد فعل طاعة مطلقاً على أن الفعل متعد ، والمفعول محذوف ، أو أعرضوا عن الإسلام حقيقة على أن الفعل لازم ، وأياً مّا كان فالمراد على ما قيل : استمرارهم على ذلك ، وحمل بعض الأجلة

الأيمان على ما يعم ما حكى عنهم من الشهادة، ثم قال: واتخاذها جنة عبارة عن إعدادهم وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلصوا عن المؤاخذة لا عن استعمالها بالفعل فإن ذلك متأخر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية واتخاذ الجنة لا بد أن يكون قبل المؤاخذة، وعن سببها أيضاً كما يفصح عنه الفاء في ﴿ فَصَدُّواْ ﴾ أي من أراد الإسلام أو الانفاق كما سيحكي عنهم، ولا ريب في أن هذا الصد متقدم على حلفهم، وقرىء أي قرأ الحسن دإيمانهم ﴾ بكسر الهمزة أي الذي أظهروه على ألسنتهم فاتخاذه جنة عبارة عن استعماله بالفعل فإنه وقاية دون دمائهم وأموالهم، فمعنى قوله تعالى: ﴿ ﴾ بكسر الهمزة أي الذي أظهروه على ألسنتهم فاتخاذه جنة عبارة عن استعماله بالفعل فإنه وقاية دون دمائهم وأموالهم، فمعنى قوله تعالى: ﴿ فَصَدُّواْ ﴾ فاستمروا على ما كانوا عليه من الصدود والاعراض عن سبيله تعالى انتهى، وفيه ما يعرف بالتأمل فتأمل ﴿ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من النفاق وما يتبعه، وقد مر الكلام في ﴿ سَاء ﴾ غير مرة.

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم من القول الناعي عليهم أنهم أسوأ الناس أعمالاً.

أو إلى ما ذكر من حالهم في النفاق والكذب والاستجنان بالايمان الفاجرة.

أو الإيمان الصوري ، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه لما مر مراراً من الاشعار في مثل هذا المقام ببعد منزلته في الشر ، وجوز ابن عطية كونه إشارة إلى سوء ما عملوا ، فالمعنى ساء عملهم ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ ءامَنُواْ ﴾ أي نطقوا بكلمة الشهادة كسائر من يدخل في الإسلام ﴿ ثُمَّ كَفَرُواْ ﴾ ظهر كفرهم وتبين بما اطلع عليه من قولهم : إن كان ما يقوله محمد حقاً فنحن حمير ، وقولهم في غزوة تبوك : أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى .

وقيصر هيهات ، وغير ذلك ، و﴿ ثُمَّ ﴾ على ظاهرها ، أو لاستبعاد ما بين الحالين أو ثم أسروا الكفر فثم للاستبعاد لا غير ، أو نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاءاً بالإسلام ، وقيل : الآية في أهل الردة منهم .

﴿ فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ ﴾ حتى يموتوا على الكفر ﴿ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ حقيقة الإيمان أصلاً .

وقرأ زيد بن علي ﴿ فَطُبِعَ ﴾ بالبناء للفاعل وهو ضميره تعالى ، وجوز أن يكون ضميراً يعود على المصدر المفهوم مما قبل أي فطبع هو أي تلعابهم بالدين ، وفي رواية أنه قرأ فطبع الله مصرحاً بالاسم الجليل ، وكذا قرأ الأعمش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾

لما كان نزول هذه السورة عقب خصومة المهاجري والأنصاري ومقالة عبد الله بن أُبيّ في شأن المهاجرين .

تعيّن أن الغرض من هذه الآية التعريض بكذب عبد الله بن أبيّ وبنفاقه فصيغ الكلام بصيغة تعمّ المنافقين لتجنب التصريح بالمقصود على طريقة قول النبي صلى الله عليه وسلم " مَا بال أقوام يشترطون شُروطاً ليست في كتاب الله " ومراده مولى بَريرة لما أراد أن يبيعها لعائشة أمّ المؤمنين واشترط أن يكون الولاء له ، وابتدىء بتكذيب مَنْ أُريد تكذيبه في ادعائه الإِيمان بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم وإن لم يكن ذلك هو المقصود إشعاراً بأن الله أطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم على دخَائِلهم ، وهو تمهيد لما بعده من قوله : ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يَعلم أن المنافقين قَالوا : نشهد إنك لرسول الله .

فيجوز أن يكون قولهم : ﴿ نشهد إنك لرسول الله ﴾ محكياً بالمعنى لأنهم يقولون عبارات

كثيرة تفيد معنى أنهم يشهدون بأنه رسول الله مثل نطقهم بكلمة الشهادة .

ويجوز أن يكونوا تواطؤوا على هذه الكلمة كلما أعلن أحدهم الإِسلام .

وهذا أليق بحكاية كلامهم بكلمة ﴿ قالوا ﴾ دون نحو : زعموا .

و﴿ إذا ﴾ ظرف للزمان الماضي بقرينة جعل جملتيها ماضيتين ، والظرف متعلق بفعل ﴿ قالوا ﴾ وهو جواب ﴿ إذا ﴾ .

فالمعنى : إنك تعلم أنهم يقولون نشهد إنك لرسول الله .

و﴿ نشهد ﴾ خبر مؤكّد لأن الشهادة الإِخبار عن أمر مقطوع به إذ هي مشتقة من المشاهدة أي المعاينة ، والمعاينة أقوى طرق العلم ، ولذلك كثر استعمال : أشهد ونحوه من أفعال اليقين في معنى القسم .

وكثر أن يُجاب بمثل ما يجاب به القسم قاله ابن عطية .

ومعنى ذلك : أن قوله : ﴿ نشهد ﴾ ليس إنشاء .

وبعض المفسرين جعله صيغة يمين .

وروي عن أبي حنيفة .

والمقصود من قوله : ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ إعلام النبي صلى الله عليه وسلم وإعلام المسلمين بطائفة مبهمة شأنهم النفاق ليتوسموهم ويختبروا أحوالهم وقد يتلقى النبي صلى الله عليه وسلم بطريق الوحْي تعيينهم أو تعيين بعضهم .

و ﴿ المنافقون ﴾ جمع منافق وهو الذي يظهر الإِيمان ويُسر الكفر وقد مضى القول فيه مفصلاً في سورة آل عمران .

وجملة ﴿ إنك لرسول الله ﴾ بيان لجملة ﴿ نشهد ﴾ .

وجملة ﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ معترضة بين الجملتين المتعاطفتين وهذا الاعتراض لدفع إيهام من يسمع جملة ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ أنه تكذيب لجملة ﴿ إنك لرسول الله ﴾ فإن المسلمين كانوا يومئذٍ محفوفين بفئام من المنافقين مبثوثين بينهم هجّيراهم فتنة المسلمين فكان المقام مقتضياً دفع الإِيهام وهذا من الاحتراس .

وعُلق فعل ﴿ يعلم ﴾ عن العمل لوجود (إنّ) في أول الجملة وقد عدوا (إنَّ) التي في خبرها لاَم ابتداء من المعلقات لأفعال القلب عن العَمل بناء على أن لام الابتداء هي في الحقيقة لام جواب القسم وأن حقها أن تقع قبل (إنَّ) ولكنها زُحْلقت في الكلام كراهية اجتماع مؤكَّدين متصلين ، وأُخذ ذلك من كلام سيبويه .

وجملة ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ عطف على جملة ﴿ قالوا نشهد ﴾ .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لتقوّي الحكم .

وجيء بفعل ﴿ يشهد ﴾ في الإِخبار عن تكذيب الله تعالى إياهم للمشاكلة حتى يكون إبطال خبرهم مساوياً لإِخبارهم.

والكذب: مُخالفة ما يفيدهُ الخبرُ للواقع في الخارج، أي الوُجود فمعنى كون المنافقين كاذبون هنا أنهم كاذبون في إخبارهم عن أنفسهم بأنهم يشهدون بأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله لأن خبرهم ذلك مخالف لما في أنفسهم فهم لا يشهدون به ولا يوافق قولُهم ما في نفوسهم.

(88/765)

وبهذا بطل احتجاج النَظَّام بظاهر هذه الآية على رأيه أن الكذب مخالفة الخبر لاعتقاد المخبر لأنه غفل عن قوله تعالى: ﴿ قالوا نشهد ﴾.

وقد أشار إلى هذا الرد القزويني في "تلخيص المفتاح" وفي "الإِيضاح".

وجملة ﴿ إن المنافقين لكاذبون ﴾ مبنية لجملة ﴿ يشهد ﴾ مثل سَابقتاها.

اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (2)

استئناف بياني لأن تكذيب الله تعالى إياهم في قولهم للنبيء صلى الله عليه وسلم ﴿ نشهد إنك لرسول الله ﴾ [المنافقون: 1] يثير في أنفس السامعين سؤالاً عن أيمانهم لدى

النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم مؤمنون به وأنهم لا يضمرون بغضه فأخبر الله عنهم بأنهم اتخذوا أيمانهم تقية يتقون بها وقد وصفهم الله بالحلف بالأيمان الكاذبة في آيات كثيرة من القرآن.

والجُنة: ما يستتر به ويُتَّقَى ومنه سميت الدرع جُنة.

والمعنى: جعلوا أيمانهم كالجُنّة يتّقي بها ما يَلْحق من أذى.

فلما شبهت الأيمان بالجُنّة على طريقة التشبيه البليغ، أُتبع ذلك بتشبيه الحَلف باتخاذ الجنة، أي استعمالها، ففي ﴿ اتخذوا ﴾ استعارة تبعية، وليس هذا خاصاً بحلف عبد الله بن أُبَيّ أنه قال: "لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل"، كما تقدم في ذكر سبب نزولها، بل هو أعمّ، ولذلك فالوجه حمل ضمائر الجمع في قوله: ﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ الآية على حقيقتها، أي اتخذ المنافقون كلُّهم أيمانهم جُنة، أي كانت تلك تقيتهم، أي تلك شنشنة معروفة فيهم.

﴿ فصدوا عن سبيل الله ﴾ تفريع لصدهم عن سبيل الله على الحلف الكاذب لأن اليمين الفاجرة من كبائر الإِثم لما فيها من الاستخفاف بجانب الله تعالى ولأنهم لما حلفوا على الكذب ظنوا أنهم قد أمنوا اتّهام المسلمين إياهم بالنفاق فاستمروا على الكفر والمكر بالمسلمين وذلك صدّ عن سبيل الله، أي إعراض عن الأعمال التي أمر الله بسلوكها.

وفعل (صدّوا) هنا قاصر الذي قياس مضارعه يَصِدُّ بكسر الصاد .

وجملة ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ تذييل لتفظيع حالهم عن السامع .

وساء من أفعال الذم تُلحق ببئس على تقدير تحويل صيغة فعْلها عن فَعَل المفتوح العين إلى فَعُل المضمومِها لقصد إفادة الذم مع إفادة التعجب بسبب ذلك التحويل كما نبه عليه صاحب "الكشاف" وأشار إليه صاحب "التسهيل" .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (3)

جملة في مَوضع العلة لمضمون جملة ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ [المنافقون : 2] .

والإشارة إلى مضمون قوله : ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ [المنافقون : 2] ، أي سبب إقدامهم على الأعمال السيئة المتعجب من سوئها ، هو استخفافهم بالأيمان ومراجعتهم الكفر مرة بعد أخرى ، فرسخ الكفر في نفوسهم فتجرأت أنفسهم على الجرائم وضَرِيت بها ، حتى صارت قلوبهم كالمطبوع عليها أن لا يخلص إليها الخير .

فقوله : ﴿ بأنهم آمنوا ﴾ خبر عن اسم الإشارة .

ومعنى الباء السببية .

و﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي فإن إبطال الكفر مع إظهار الإيمان أعظم من الكفر الصريح .

وأن كفرهم أرسخ فيهم من إظهار أيمانهم .

ويجوز أن يراد مع ذلك التراخي في الزمن وهو المهلة .

فإسناد فعل ﴿ آمنوا ﴾ إليهم مع الإخبار عنهم قبل ذلك بأنهم كاذبون في قولهم : ﴿ نشهد إنك لرسول الله ﴾ [المنافقون : 1] مستعمل في حقيقته ومجازه فإن مراتب المنافقين متفاوتة في النفاق وشدةِ الكفر فمنهم من آمنوا لما سمعوا آيات القرآن أو لاحت لهم أنوار من النبي صلى الله عليه وسلم لم تثبت في قلوبهم .

ثم رجعوا إلى الكفرِ للوم أصحابهم عليهم أو لإلقائهم الشك في نفوسهم قال ابن عطية : وقد كان هذا موجوداً .

قلت : ولعل الذين تابوا وحسن إسلامهم من هذا الفريق .

فهؤلاء إسناد الإيمان إليهم حقيقة .

(90/765)

ومنهم من خالجهم خاطر الإيمان فترددوا وقاربوا أن يؤمنوا ثم نكصوا على أعقابهم فشابه أول حالهم حَالَ المؤمنين حين خطور الإيمان في قلوبهم .

ومنهم من أظهروا الإيمان كذباً وهذا هو الفريق الأكثر .

وليس ما أظهروه في شيء من الإيمان وقد قال الله تعالى في مثلهم : ﴿ وكفروا بعد إسلامهم

﴾ [التوبة : 74] فسمّاه إسلاماً ولم يسمِّه إيماناً .

ومنهم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ قالت الأعراب آمنَّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ [الحجرات : 14] .

وإطلاق اسم الإِيمان على مثل هذا الفريق مجاز بعلاقة الصورة وهو كإسناد فعل ﴿ يحذر ﴾ في قوله تعالى : ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم ﴾ سورة الآية ، في سورة [براءة : 64] .

وعلى هذا الاعتبار يجوز أن يكون ثُمّ ﴾ مستعملاً في معنييه الأصلي والمجازي على ما يناسب محمل فعل ﴿ آمنوا ﴾ .

ولو حمل المنافقون على واحد معيَّن وهو عبد الله بن أُبيّ جاز أن يكون ابن أُبَيّ آمن ثم كفر فيكون إسناد ﴿ آمنوا ﴾ حقيقة وتكون ﴿ ثم ﴾ للتراخي في الزمان .

وتفريع ﴿ فهم لا يفقهون ﴾ على قوله : ﴿ آمنوا ثم كفروا ﴾ ، فصار كفرهم بعد الإِيمان على الوجوه السابقة سبباً في سوء أعمالهم بمقتضى باء السببية ، وسبباً في انتفاء إدراكهم الحقائق النظرية بمقتضى فاء التفريع .

والفقه : فهم للحقائق الخفية .

والمعنى : أنهم لا يدركون دلائل الإِيمان حتى يعلموا حقّيته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(91/765)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ الآية .

هذا الذي شهدوا عليه حق لأن رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم حق لا شك فيها وقد كذبهم الله بقوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، مع أن قوله والله يعلم أنك لرسوله كأنه تصديق لهم .

والجواب أن تكذيبه تعالى لهم منصب على إسنادهم الشادة إلى أنسهم في قولهم نشهد وهم في باطن الأمر لا يشهدون برسالته بل يعتقدون عدمها أو يشكون فيه كما يدل للأول قوله تعالى: ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ويدل للثاني قوله تعالى: ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ . انتهى . ا هـ

﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 296 ﴾

(92/765)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وصف سبحانه بواطنهم بما زهد فيهم لأن الإنسان بعقله كما أن المأكول بشكله ، وكانت لهم أشكال تغر ناظرها لأن العرب كانت تقول : جمال المنظر يدل غالباً على حسن المخبر ، قال تعالى : ﴿ وإذا رأيتهم ﴾ أي أيها الرسول على ما لك من الفطنة ونفوذ الفراسة أو أيها الرائي كائناً من كان بعين البصر ﴿ تعجبك أجسامهم ﴾ لضخامتها وصباحتها ، فإن غايتهم كلها بصلاح ظواهرهم وترفيه أنفسهم ، فهم أشباح وقوالب ليس وراءها ألباب وحقائق ، قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : كان ابن أبي – يعني – الذي نزلت السورة بسببه – جسيماً فصيحاً صحيحاً ذلق اللسان ، وقوم من المنافقين في مثل صفته وهم رؤساء المدينة ، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويستندون فيه ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن ، وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن حضر يعجبون بهيا كلهم .

ولما وصف البواطن والظواهر ، وكان قولهم : المرء بأصغريه قلبه ولسانه مشروطاً كما هو ظاهر العبارة بمطابقة اللسان للقلب ، قال معبراً بأداة الشك إشارة إلى أنهم لا يكلمونه.

صلى الله عليه وسلم. إلا اضطراراً لأنهم لا يحبون مكالمته ولا باعث لهم عليها لما عندهم من أمراض القلوب : ﴿ وإن يقولوا ﴾ أي يوجد منهم قول في وقت من الأوقات ﴿ تسمع لقولهم ﴾ أي لأنه يكون بحيث يلذذ السمع ويروق الفكر لما فيه من الادهان مع الفصاحة فهو يأخذ بمجامع القلب.

ولما أخبر عن ظاهرهم ، دل على أن ذلك الظاهر أمر لا حقيقة له ، وأنهم لما وطنوا أنفسهم على الوقاحة وخلعوا لباس الحياء بالكذب بذلوا جميع الجهد في تحسين القول لأنه لا درك عليهم فيه فيما يحسبون بوجه لأنهم لا يحسبون للآخرة حساباً فقال : ﴿ كأنهم ﴾ أي في حسن ظواهرهم وسوء بواطنهم وفي الجبن والخور وعدم الانتفاع بهم في شيء من فهم أو ثبات فإنهم لا حقيقة لهم ﴿ خشب ﴾ جمع كثرة لخشبة وهو دليل على كثرتهم.

(93/765)

ولما كان الخشب ربما أطلق على المغروس ، نفى ذلك بقوله منبهاً بالتشديد على الكثرة :

﴿ مسندة ﴾ أي قد قطعت من مغارسها وقشرت وأسندت إلى الجدر لئلا يفسدها

التراب ، فهي بيض تلوح تعجب ناظرها ولا ثبات لها ولا باطن بثمرة ولا سقي فلا مدد سماوي لها أصلاً يزكيها نوع زكاء فقد فقدت روح الإثبات الذي به كمالها كما فقد المنافق روح الإيمان الذي به كمال الناطق وبقاؤه ، فهم في تلك الحالة أشباح بلا أرواح أجسام بلا أحلام .

ولما كان من يقول ما لا يفعل يصير متهماً لكل من يكلمه ، لأنه لإخلافه له قد صار عدوه فيتوهم الناس كلهم أعداء له فيكسبه ذلك أشد الجبن ، وذلك هو السبب الأعظم في تحسين قوله ، قال : ﴿ يحسبون ﴾ أي لضعف عقولهم وكثرة ارتيابهم لكثرة ما يباشرون من سوء أعمالهم ﴿ كل صيحة ﴾ أي من نداء مناد في انفلات دابة أو إنشاد ضالة ، ونحو ذلك ﴿ عليهم ﴾ أي واقعة .

ولما كان من يظن عداوة الناس له يكون هو عدواً لهم ، قال نتيجة ما مضى : ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ العدو ﴾ أي كامل العداوة بما دل عليه الإخبار بالمفرد الذي يقع على الجمع دون الجمع إشارة إلى أنهم – في شدة عداوتهم للاسلام وأهله وكمال قصدهم وشدة سعيهم فيه – على قلب واحد وإن أظهروا التودد في الكلام والتقرب به إلى أهل الإسلام ، فإن ألسنتهم معكم إذا لقوكم ، وقلوبهم عليكم مع أعدائكم ، فهو عيون لهم عليكم .

ولما بين ذلك من سوء أحوالهم سبب عنه قوله : ﴿ فاحذرهم ﴾ لأن أعدى الأعداء العدو المداحي الذي يكاشرك وتحت ظلوعه الداء الدوي ، فإن من استشعر أنك عدو له

بغى لك الغوائل ، وأغلب من يعجبك قوله على هذا الوصف يكون ، ولكنه يكون بلطف الله دائم الخذلان منكوساً في أكثر تقلباته بيد القهر والحرمان لسر قوله تعالى : ﴿ قاتلهم الله ﴾ أي أحلهم الملك المحيط علماً وقدرة محل من يقاتله عدو قاهر له أشد مقاتلة على عادة الفعل الذي يكون بين اثنين .

(94/765)

ولما كان حالهم في غاية العجب في صرفهم عن الإسلام أولاً بالعمى عن الآيات الظاهرات ، وثانياً عن الإخبار بأسرارهم ، وخفي مكرهم وأخبارهم ، وفي عدم صرفهم عما هم عليه من قبح السرائر وسوء الضمائر بتعكيس مقاصدهم ، وتخييب مصادرهم في مكرهم ومواردهم ، دل على ذلك بقوله : ﴿ أنّى ﴾ أي كيف ومن أيّ وجه ﴿ يؤفكون ﴾ أي يصرفهم عن إدراك قبح ما هم عليه صارف ما كائناً ما كان ليرجعوا عنه إلى حسن الدين والأنس به وإدراك بركته وعظيم أثره .

ولما كان هذا أمراً عظيماً قاطعاً عن الله ورسوله فيحتاج فاعله حاجة شديدة إلى التطهير وهو جدير بعظمه أن لا يطهره غاية الطهر إلا سؤال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانوا لم يفعلوا ذلك ، دل على سوء بواطنهم وغلظ أكبادهم وأنهم كالخشب المسندة في أنهم لا ثمرة

لهم ولا زكاء أصلاً بقوله : ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي من أيّ قائل كان : ﴿ تعالوا ﴾ أي ارفعوا أنفسكم مجتهدين في ذلك بالمجيء إلى أشرف الخلق الذي لا يزال مكانه عالياً لعلو مكانته ﴿ يستغفر لكم ﴾ أي يطلب الغفران لأجلكم خاصة بعد أن تتولوا من ذنبكم من أجل هذا الكذب الذي أنتم مصرون عليه .

(95/765)

ولما تقدم عاملان ، أعمل الثاني منهما كما هو المختار من مذهب البصريين فرفع قوله : ﴿ رسول الله ﴾ أي أقرب الخلق إلى الملك الأعظم الذي لا شبيه لجوده ﴿ لووا رؤوسهم ﴾ أي فعلوا اللي بغاية الشدة والكثرة ، وهو الصرف إلى جهة أخرى إعراضاً وعتواً وإظهاراً للبغض والنفرة ، وبالغوا فيه مبالغة تدل على أنهم مغلوبون عليه لشدة ما في بواطنهم من المرض ﴿ ورأيتهم ﴾ أي بعين البصيرة ﴿ يصدون ﴾ أي يعرضون إعراضاً قبيحاً عما دعوا إليه مجددين لذلك كلما دعوا إليه ، والجملة في موضع المفعول الثاني لرأيت ﴿ وهم مستكبرون ﴾ أي ثابتو الكبر عما دعوا إليه وعن إحلال أنفسهم في محل الاعتذار ، فهم لشدة غلظتهم لا يدركون قبح ما هم عليه ولا يهتدون إلى دوائه ، وإذا أرشدهم غيرهم ونبههم لا ينبهون ، فقد روي أنه لما نزل القرآن فيهم أتاهم عشائرهم من المؤمنين

وقالوا : ويحكم افتضحتم وأهلكتم أنفسكم ، فأتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتولوا إليه واسألوه أن يستغفر لكم ، فأبوا ذلك فأنزل الله هذه الآية ، وروي أن ابن أبي رأسهم لوى رأسه وقال لهم : أشرتم علي بالإيمان فآمنت وأشرتم عليّ بأن أعطي زكاة مالي ففعلت ، ولم يبق إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد .

ولما كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب صلاحهم فهو يحب أن يستغفر لهم ، وربما ندبه إلى ذلك بعض أقاربهم ، فكان استغفاره بحيث يسأل عنه ، قال منبهاً على أنهم ليسوا بأهل للاستغفار لأنهم لا يؤمنون .

﴿ سواء ﴾ أي غلب واستعلى هذا الاستواء الذي عالجوا أنفسهم عليه حتى تخلقوا به فصار مجرداً عن أدنى ميل وكلفة ﴿ عليهم ﴾ .

(96/765)

ولما كان قد سلخ في هذا السياق عن الهمزة معنى الاستفهام كان معنى ﴿ استغفرت لهم ﴾ أي في هذا الوقت ﴿ أم لم تستغفر لهم ﴾ أي فيه أو فيما بعده - مستو عندهم استغفارك لهم وتركه ، لأنه لا أثر له عندهم ، ولهذا كانت نتيجته - عقوبة لهم - النفي المبالغ فيه بقوله : ﴿ لن يغفر الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ لهم ﴾ ولعل التعبير بالاستفهام

بعد سلخ معناه للاشارة إلى أنهم لو شاهدوا الملك يستفهمك عن ذلك ما ردهم عن نفاقهم وما زادهم ذلك على ما عندهم شيئاً ، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قيد هذه الآية بآية براءة المحتملة للتخيير وأنه إن زاد على السبعين كان الغفران مرجواً ، فاستجاز بذلك الصلاة على ابن أبي رأس المنافقين والاستغفار له لما عنده ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عظيم الشفقة على عباد الله ومزيد الرحمة لهم ولا سيما من كان في عداد أصحابه والأنصار ـ رضى الله عنه ـم به عناية .

ولما كان التقدير لتعليل المبالغة في الإخبار بعد الغفران لهم : لأن فسقهم قد استحكم فصار وصفاً لهم ثابتاً ، عبر عن ذلك بقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ لا يهدي القوم ﴾ أي الناس الذي لهم قوة في أنفسهم على ما يريدونه ﴿ الفاسقين ﴾ لأنهم لا عذر لهم في الإصرار على الفسق وهو المروق من حصن الإسلام بخرقه وهتكه مرة بعد مرة والتمرن عليه حتى استحكم فهم راسخون في النفاق والخروج عن مظنة الإصلاح. انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 608. 611 ﴾

(97/765)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ يعني عبد الله بن أبي ، ومغيث بن قيس ، وجد بن قيس ، كانت لهم أجسام ومنظر ، تعجبك أجسامهم لحسنها وجمالها ، وكان عبد الله بن أبي جسيماً صبيحاً فصيحاً ، وإذا قال : سمع النبي صلى الله عليه وسلم قوله ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ أي ويقولوا : إنك لرسول الله تسمع لقولهم ، وقرىء يسمع على البناء للمفعول ، ثم شبههم بالخشب المسندة ، وفي الخشب التخفيف كبدنة وبدن وأسد وأسد ، والتثقيل كذلك كثمرة وثمر ، وخشبة وخشب ، ومدرة ومدر . وهي قراءة ابن عباس ، والتثقيل لغة أهل الحجاز ، والخشب لا تعقل ولا تفهم ، فكذلك أهل النفاق كأنهم في ترك التفهم ، والاستبصار بمنزلة الخشب .

وأما المسندة يقال : سند إلى شيء ، أي مال إليه ، وأسنده إلى الشيء ، أي أماله فهو مسند ، والتشديد للمبالغة ، وإنما وصف الخشب بها ، لأنها تشبه الأشجار القائمة التي تنمو وتثمر بوجه ما ، ثم نسبهم إلى الجبن وعابهم به ، فقال : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العدو ﴾ وقال مقاتل : إذا نادى مناد في العسكر ، وانفلتت دابة ، أو نشدت ضالة مثلاً ظنوا أنهم يرادون بذلك لما في قلوبهم من الرعب ، وذلك لأنهم على وجل من أن يهتك الله

أستارهم، ويكشف أسرارهم، يتوقعون الإيقاع بهم ساعة فساعة، ثم أعلم (الله) رسوله بعداوتهم فقال: ﴿ هُمُ العدو فاحذرهم ﴾ أن تأمنهم على السر ولا تلتفت إلى ظاهرهم فإنهم الكاملون في العداوة بالنسبة إلى غيرهم وقوله تعالى: ﴿ قاتلهم الله أنى يُؤْفَكُونَ ﴾ مفسر وهو دعاء عليهم وطلب من ذاته أن يلعنهم ويخزيهم وتعليم للمؤمنين أن يدعوا بذلك، و ﴿ أنى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي يعدلون عن الحق تعجباً من جهلهم وضلالتهم وظنهم الفاسد أنهم على الحق.

(98/765)

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ قال الكلبي: لما نزل القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم بصفة المنافقين مشى إليه عشائرهم من المؤمنين وقالوا: لهم ويلكم افتضحتم بالنفاق وأهلكتم أنفسكم فأتوا رسول الله وتوبوا إليه من النفاق واسألوه أن يستغفر لكم، فأبوا ذلك وزهدوا في الاستغفار فنزلت، وقال ابن عباس لما رجع عبد الله بن أبي من أحد بكثير من الناس مقته المسلمون وعنفوه وأسمعوه المكروه فقال له بنو أبيه: لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يستغفر لك ويرضى عنك، فقال: لا أذهب إليه، ولا أريد أن يستغفر لي، وجعل يلوي رأسه فنزلت.

وعند الأكثرين ، إنما دعى إلى الاستغفار لأنه قال : ﴿ لَيُخرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الاذل ﴾ [المنافقون : 8] وقال : ﴿ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله ﴾ [المنافقون : 7] فقيل له : تعال يستغفر لك رسول الله فقال : ماذا قلت : فذلك قوله تعالى : ﴿ لَوَّوْاْ رُءوسَهُمْ ﴾ وقرىء : ﴿ لَوَوْاْ ﴾ بالتخفيف والتشديد للكثرة والكناية قد تجعل جمعاً والمقصود واحد وهو كثير في أشعار العرب قال جرير :

لا بارك الله فيمن كان يحسبكم . . إلا على العهد حتى كان ما كانا

(99/765)

وإنما خاطب بهذا امرأة وقوله تعالى : ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي عن استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكر تعالى أن استغفاره لا ينفعهم فقال : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ ﴾ قال قتادة : نزلت هذه الآية بعد قوله : ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ وذلك لأنها لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خيرني ربي فلأزيدنهم على السبعين " فأنزل الله تعالى : ﴿ لَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ قال ابن عباس : المنافقين ، وقال قوم : فيه بيان أن الله تعالى يملك هداية وراء

هداية البيان ، وهي خلق فعل الاهتداء فيمن علم منه ذلك ، وقيل : معناه لا يهديهم لفسقهم وقالت المعتزلة : لا يسميهم المهتدين إذا فسقوا وضلوا وفي الآية مباحث :

(100/765)

البحث الأول : لم شبههم بالخشب المسندة لا بغيره من الأشياء المنتفع بها ؟ نقول لاشتمال هذا التشبيه على فوائد كثيرة لا توجد في الغير الأولى : قال في "الكشاف" : شبهوا في استنادهم وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير ، بالخشب المسندة إلى الحائط ، ولأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، وما دام متروكاً فارغاً غير منتفع به أسند إلى الحائط ، فشبهوا به في عدم الانتفاع ، ويجوز أن يراد بها الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحائط شبهوا بها في حسن صورهم ، وقلة جداوهم الثانية : الخشب المسندة في الأصل كانت غصناً طرياً يصلح لأن يكون من الأشياء المنتفع بها ، ثم تصير غليظة يابسة ، والكافر والمنافق كذلك كان في الأصل صالحاً لكذا وكذا ، ثم يخرج عن تلك الصلاحية الثالثة : الكفرة من جنس الإنس حطب ، كما قال تعالى : ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 98] والخشب المسندة حطب أيضاً الرابعة : أن الخشب المسندة إلى الحائط أحد طرفيها إلى جهة ، والآخر إلى

جهة أخرى ، والمنافقون كذلك ، لأن المنافق أحد طرفيه وهو الباطن إلى جهة أهل الكفر ، والطرف الآخر وهو الظاهر إلى جهة أهل الإسلام الخامسة : المعتمد عليه الخشب المسندة ما يكون من الجمادات والنباتات ، والمعتمد عليه للمنافقين كذلك ، وإذا كانوا من المشركين إذ هو الأصنام ، إنها من الجمادات أو النباتات .

الثاني : من المباحث أنه تعالى شبههم بالخشب المسندة ، ثم قال من بعد ما ينافي هذا التشبيه وهو قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العدو ﴾ [المنافقون : 4] والخشب المسندة لا يحسبون أصلاً ، نقول : لا يلزم أن يكون المشبه والمشبه به يشتركان في جميع الأوصاف ، فهم كالخشب المسندة بالنسبة إلى الانتفاع وعدم الانتفاع ، وليسوا كالخشب المسندة بالنسبة إلى الاستماع وعدم الاستماع للصيحة وغيرها .

(101/765)

الثالث : قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ ولم يقل : القوم الكافرين أو المنافقين أو المستكبرين مع أن كل واحد منهم من جملة ما سبق ذكره ؟ نقول : كل أحد من تلك الأقوام داخل تحت قوله : ﴿ الفاسقين ﴾ أي الذين سبق ذكرهم وهم الكافرون والمنافقون والمستكبرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 16.14 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾

أي هيئاتهم ومناظرهم .

﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ يعني عبد الله بن أُبَيّ .

قال ابن عباس : كان عبد الله بن أُبَيّ وسِيماً جسيماً صبيحاً ذَلِق اللسان ، فإذا قال سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم مقالته .

وصفه الله بتمام الصورة وحسن الإبانة .

وقال الكلبي : المراد ابن أُبَيّ وَجَدّ بن قيس ومُعَتِّب بن قُشير ، كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة .

وفي صحيح مسلم : وقوله ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ قال : كانوا رجالاً أجمل شيء كأنهم خشب مسندةٌ ، شبههم بخُشب مسنّدة إلى الحائط لا يسمعون ولا يعقلون ، أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام .

وقيل : شبههم بالخُشُب التي قد تآكلت فهي مسندة بغيرها لا يعلم ما في بطنها .

وقرأ قَنْبُل وأبو عمرو والكسائي "خُشْبٌ" بإسكان الشين .

وهي قراءة البَرَاء بن عازب واختيار ابي عبيد ، لأن واحدتها خَشَبة .

كما تقول : بَدَنَة وبُدْن ، وليس في اللغة فعَلَة يجمع على فُعُل .

ويلزم من ثقلها أن تقول : البُدُن ، فتقرأ "والبُدُن" .

وذكر اليزيدي أنه جماع الخشباء ، كقوله عز وجل : ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ [عبس : 30]

واحدتها حديقة غلباء .

وقرأ الباقون بالتثقيل وهي رواية البزّي عن ابن كَثِير وعيّاش عن أبي عمرو ، وأكثر

الروايات عن عاصم .

واختاره أبو حاتم ، كأنه جمع خِشاب وخُشُب ، نحو ثَمرة وثِمار وثُمُر .

وإن شئت جمعت خشبة على خشب كما قالوا : بدنة وبدن وبدن .

وقد رُوي عن ابن المسيب فتح الخاء والشين في "خُشُب" .

قال سِيبويه : خَشَبة وخُشُب ، مثل بَدَنة وبدن .

قال : ومثله بغير هاء أَسَد وأُسْد ووَثَن ووُثْن .

وتقرأ خُشُب وهو جمع الجمع ، خشبة وخِشاب وخُشُب ، مثل ثمرة وثمار وثُمُر .

والإسناد الإمالة ، تقول : أسندت الشيء أي أملته .

و"مُسَنَّدَة" للتكثير ؛ أي استندوا إلى الأيمان بحقن دمائهم .

قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العدو ﴾ أي كل أهل صيحة عليهم هم العدّو.

ف "هم العَدُوّ" في موضع المفعول الثاني ؛ على أن الكلام لا ضمير فيه.

يصفهم بالجُبْن والخَوَر.

قال مقاتل والسُّدي : أي إذا نادى منادٍ في العسكر أن انفلتت دابة أو أُنشِدت ضالّة ظنوا أنهم المرادون ؛ لما في قلوبهم من الرعب.

كما قال الشاعر وهو الأخطل :

مازلت تحسب كل شيء بعدهم . . .

خيلاً تَكُرّ عليهمُ ورجالاَ

وقيل : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العدو ﴾ كلام ضميره فيه لا يفتقر إلى ما بعد ؛ وتقديره : يحسبون كلّ صيحة عليهم أنهم قد فُطِن بهم وعُلم بنفاقهم ؛ لأن للرِّيبة خوفاً ثم استأنف الله خطاب نبيّه صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ هُمُ العدو ﴾ وهذا معنى قول الضحاك وقيل : يحسبون كل صيحة يسمعونها في المسجد أنها عليهم ، وأن النبيّ صلى الله

عليه وسلم قد أمر فيها بقتلهم ؛ فهم أبداً وَجِلون من أن يُنزل الله فيهم أمراً يبيح به دماءهم ، ويهتك به أستارهم .

وفي هذا المعنى قول الشاعر :

فلو أنها عَصْفورةٌ لحسبتُها . . .

مُسَوَّمَةً تَدْعُو عُبيدا وأَزْنَمَا

بطن من بني يَرْبُوع .

ثم وصفهم الله بقوله : ﴿ هُمُ العدو فاحذرهم ﴾ حكاه عبد الرحمن بن أبي حاتم .

وفي قوله تعالى : ﴿ فاحذرهم ﴾ وجهان : أحدهما فاحذر أن تثق بقولهم أو تميل إلى كلامهم .

الثاني فاحذر مُمَايلتهم لأعدائك وتخذيلهم لأصحابك .

﴿ قَاتَلَهُمُ الله ﴾ أي لعنهم الله ؛ قاله ابن عباس وأبو مالك .

وهي كلمة ذمّ وتوبيخ .

وقد تقول العرب : قاتله الله ما أشعره ! فيضعونه موضع التعجب .

وقيل : معنى ﴿ قَاتَلَهُمُ الله ﴾ أي أحلهم محلّ من قاتله عدوٌ قاهر ؛ لأن الله تعالى قاهر لكل معاند .

حكاه ابن عيسى .

﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي يكذبون ؛ قاله ابن عباس .

قتادة : معناه يعدلون عن الحق .

الحسن : معناه يصرفون عن الرشد .

وقيل : معناه كيف تضلّ عقولهم عن هذا مع وضوح الدلائل ؛ وهو من الإفك وهو الصرف .

و"أَنَّى" بمعنى كيف ؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾

لما نزل القرآن بصفتهم مشى إليهم عشائرهم وقالوا : افتضحتم بالنفاق فتوبوا إلى رسول الله من النفاق ، واطلبوا أن يستغفر لكم .

فَلَوَّوْا رءوسهم ؛ أي حرّكوها استهزاء وإباء ؛ قاله ابن عباس .

وعنه أنه كان لعبد الله بن أبيّ موقف في كل سبب يحض على طاعة الله وطاعة رسوله ؛ فقيل له : وما ينفعك ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليك غضبان ، فأْتِه يستغفر لك ؛ فأبى وقال : لا أذهب إليه .

وسبب نزول هذه الآيات : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم غزا بني المُصطِلق على ماء يقال له "المُرَيْسِيع" من ناحية "قُدَيد" إلى الساحل ، فازدحم أجير لعمر يقال له : "جَهْجَاه" مع حَليف لعبد الله بن أُبَيّ يقال له : "سِنان" على ماء "بالمُشَلّل" ، فصرخ جهجاه بالمهاجرين ، وصرخ سِنان بالأنصار ؛ فلَطَم جهجاه سناناً فقال عبد الله بن أُبيّ : أوقد فعلوها ! والله ما مَثَلُنا ومَثَلُهم إلا كما قال الاول : سَمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجَنّ الأعزُّ يعني أُبَيّاً الأذل ؛ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم .

ثم قال لقومه : كُفُّوا طعامكم عن هذا الرجل ، ولا تنفقوا على مَن عندَه حتى ينفضوا ويتركوه .

فقال زيد بن أَرْقَم وهو من رهط عبد الله أنت والله الذليل المُنَتَقَص في قومك ؛ ومحمد صلى الله عليه وسلم في عِزّ من الرحمن ومودّة من المسلمين ، والله لا أحبك بعد كلامك هذا أبداً .

فقال عبد الله : اسكت إنما كنت ألعب .

فأخبر زيد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله ؛ فأقسم بالله ما فعل ولا قال ؛ فعذره النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قال زيد : فوجدت في نفسي ولاَمَني الناس ؛ فنزلت سورة المنافقين في تصديق زيد وتكذيب عبد الله .

فقيل لعبد الله : قد نزلت فيك آيات شديدة فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستغفر لك ؛ فألوى برأسه ، فنزلت الآيات .

خرّجه البخاري ومسلم والترمذي بمعناه .

وقد تقدم أول السورة .

وقيل : ﴿ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ يستتبكم من النفاق ؛ لأن التوبة استغفار .

﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي يعرضون عن الرسول متكبرين عن الإيمان .

وقرأ نافع "لَوَوْا" بالتخفيف .

وشدد الباقون ؛ واختاره أبو عبيد وقال : هو فعل الجماعة .

النحاس : وغلط في هذا ؛ لأنه نزل في عبد الله بن أُبَيّ لما قيل له : تعال يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم حَرّك رأسه استهزاء .

فإن قيل : كيف أخبر عنه بفعل الجماعة ؟ قيل له : العرب تفعل هذا إذا كنّت عن الإنسان .

أنشد سِيبويه لحسان :

ظننتم بأن يَخْفى الذي قد صنعتُم . . .

وفينا رسولٌ عنده الوَحْي واضِعُهْ

وإنما خاطب حَسّان ابن الأبيَرق في شيء سَرَقه بمكة .

وقصته مشهورة .

وقد يجوز أن يخبر عنه وعمن فعل فعله .

وقيل : قال ابن أُبَيّ لما لَوَى رأسه : أمرتموني أن أوِمن فقد آمنت ، وأن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت ؛ فما بقي إلا أن أسجد لمحمد ! .

قوله تعالى : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾

يعني كل ذلك سواء ، لا ينفع استغفارك شيئاً ؛ لأن الله لا يغفر لهم .

نظيره : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [البقرة : 6] ، ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴾ [الشعراء : 136] .

وقد تقدم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ أي من سبق في علم الله أنه يموت فاسقاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ إِذَا جَاءكَ المنافقون ﴾

أي حضرُوا مجلسكَ ﴿ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله ﴾ مؤكدينَ كلامَهُم بأنَّ واللامُ للإيذانِ بأنَّ شهادَتَهُم هذهِ صادرةٌ عن صميمِ قلوبِهم وخلوصِ اعتقادِهم ووفورِ رغبتِهم ونشاطِهم . وقولُهُ تعالى : ﴿ والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ اعتراضٌ مقررٌ لمنطوقِ كلامِهم وُسّطَ بينه وبينَ قولِهِ تعالى : ﴿ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لكاذبون ﴾ تحقيقاً وتعييناً لِما نيطَ به التكذيبُ من أنَّهم قالوه عن اعتقادٍ كما أُشيرَ إليهِ وإماطةً من أولِ الأمرِ لما عسى يتوهمُ من توجه التكذيبِ إلى منطوقِ كلامِهم أيْ والله يشهدُ أنَّهم لكاذبونَ فيما ضمَّنُوا مقالتَهم من أنَّها صادرةٌ عن اعتقادٍ وطمأنينة قلب والإظهارُ في موقعِ الإضمارِ لذمِّهم والإشعارِ بعلةِ الحُكمِ .

(107/765)

﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ الفاجرةَ التي منْ جُملتها ما حُكِيَ عنْهُم ﴿ جُنَّةً ﴾ أيْ وقايةً عمَّا يتوجَّهُ إليهمْ منَ المؤاخذةِ بالقتلِ والسبيِ أو غيرِ ذلكَ واتخاذُها جنةً عبارةٌ عن إعدادِهم

وتهيئتِهم لها إلى وقتِ الحاجةِ ليحلِفوا بهَا ويتخلصُوا عنِ المؤاخذةِ لا عنِ استعمالِهَا بالفعلِ فإنَّ ذلكَ متأخرٌ عنِ المؤاخذةِ المسبوقةِ بوقوعِ الجنايةِ واتخاذُ الجنةِ لا بدَّ أن يكونَ قبلَ المؤاخذةِ وعن سببهَا أيضاً كما يفصحُ عنهُ الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي قصدُوا منْ أرادَ الدخولَ في الإسلامِ بأنَّه عليهِ الصلاةُ والسلامُ ليسَ برسولٍ ومن أرادَ الإنفاقَ في سبيلِ الله بالنَّهي عنهُ كما سيُحْكَى عنهُم، ولا ريبَ في أنَّ هذا الصدَّ منهم متقدمٌ على حلفِهم بالفعلِ وقُرِىءَ إيمانَهُم أي ما أظهرُوه على ألسنتِهم فاتخاذُهُ جنةً عبارةٌ عنِ استعمالِه بالفعلِ فإنه وقايةٌ دونَ دمائِهم وأموالِهم فمَعْنَى قولِه تعالى فصدُّوا حينئذٍ فاستمرُّوا على ما كانُوا عليهِ من الصدِّ والإعراضِ عن سبيلِه تعالَى: ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من النفاقِ والصدِّ وفي ساءَ مَعْنَى التعجبِ وتعظيمُ أمرِهم عندَ السامعينَ ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدمَ من القولِ النَّاعِي عليهِمْ إنَّهم أسوأُ الناسِ أعمالاً أو إلى ما وُصفَ من حالِهم في النفاقِ والكذبِ والاستتارِ بالإيمانِ الصوريِّ، وما فيهِ من مَعْنَى البُعْدِ مع قُربِ العهدِ بالمشارِ إليهِ لما مَرَّ مراراً من الإشعارِ ببُعدِ منزلتِه في الشرِّ ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسببِ أنَّهم ﴿ ءامَنُواْ ﴾ أي نطقُوا بكلمةِ الشهادةِ كسائرِ منْ يدخُل في الإسلامِ ﴿ ثُمَّ كَفَرُواْ ﴾ أي ظهرَ كفرُهُم بما شُوهدَ منهم من شَواهدِ الكُفْرِ ودلائِله أو نطقُوا بالإيمانِ عندَ المؤمنينَ ثم نطقُوا بالكفرِ عند شياطينهم ﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾

حتى تمرنوا على الكفرِ واطمأَنُّوا بهِ وقُرِئَ على البناءِ للفاعلِ وقُرِئَ فطبعَ اللهُ . ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ حقيقةَ الإيمانِ ولا يعرفونَ حقيتَهُ أصلاً .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أجسامهم ﴾

(109/765)

لضخامتها ويروقكَ منظرُهُم لصباحةِ وجوهِهم ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ لفصاحتِهِم وذلاقةِ ألسنتِهِم وحلاوةِ كلامِهم وكانَ ابنُ أُبيَ جسيماً فصيحاً يحضرُ مجلسَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ في نفرٍ منْ أمثالِهِ وهُم رؤساءُ المدينةِ وكانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ومنْ معَهُ يعجبونَ بهياكِلهم ويسمعونَ إلى كلامِهم وقيلَ الخطابُ لكلِّ أحدٍ ممن يصلُحُ للخطابِ ويؤيدُه قراءةُ يُسمعْ على البناءِ للمفعولِ وقولُه تعالَى : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ في حيزِ الرفعِ على أنه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ أو كلامٌ مستأنفٌ لا محلَّ له شُبهوا في جلوسِهِم في مجالسِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ مستندينَ فيها بخشبٍ منصوبةٍ مُسندةٍ إلى الحائطِ في كونِهم أشباحاً خاليةً عن العلمِ والخيرِ ، وقُرِئَ خُشْبٌ على أنه جمعُ خشبةٍ كبُدْنٍ جمعُ بَدَنَةٍ ، وقيل هو جمعُ خشباءَ وهيَ الخشبةُ التي دُعِرَ جوفُها أي فسدَ شُبهوا بها في نفاقِهم وفسادِ

بواطِنِهم وقُرِىءَ خَشَبٌ كمَدَرةٍ ومدَرٍ ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أي واقعةً عليهم ضارةً لهم لجبنِهم واستقرارِ الرعبِ في قلوبِهم ، وقيل كانُوا على وجلٍ من أنْ يُنزلَ اللَّهُ فيهم ما يهتكُ أستارَهُم ويبيحُ دماءَهُم وأموالَهُم ﴿ هُمُ العدو ﴾ أي هُم الكاملونَ في العداوةِ والراسخونَ فيها فإنَّ أعْدَى الأعادِي العدوُّ المُكاشرُ الذي يُكاشِرُكَ وتحتَ ضُلوعِهِ الداءُ الدَّوِيُ ، والجملةُ مستأنفةٌ وجعلُها مفعولاً ثانياً للحسبانِ ممَّا لا يساعدُهُ النظمُ الكريمُ أصلاً فإنَّ الفاءَ في قولِهِ تعالَى : ﴿ فاحذرهم ﴾ لترتيبِ الأمرِ بالحذرِ على كونِهم أعْدَى الأعداءِ ﴿ قاتلهم الله ﴾ دعاءٌ عليهمْ وطلبٌ من ذاتِه تعالَى أنْ يلعنَهُم ويُخزيَهم أو تعليمٌ للمؤمنينَ أن يدعُوا عليهِم بذلكَ وقولُهُ تعالَى : ﴿ أنى يُؤْفَكُونَ ﴾ تعجيبٌ من حالِهم أي كيفَ يُصرفونَ

(110/765)

عن الحقِّ إلى ما هُم عليهِ من الكُفرِ والضَّلالِ . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ عندَ ظهورِ جنايتِهم بطريقِ النصيحةِ ﴿ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْاْ رُؤُوسَهُمْ ﴾ أي عطفُوها استكباراً ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ يُعرضونَ عن القائلِ أو عن الاستغفارِ ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن ذلكَ .

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ ﴾ كما إذا جاءوك معتذرين من جناياتهم وقُرِئ استغفرتَ بحذفِ حرفِ الاستفهامِ ثقةً بدلالةِ أمْ عليهِ وقُرِئ آستغفرتَ بإشباعِ همزةِ الاستفهامِ لا بقلبِ همزةِ الوصلِ ألفاً ﴿ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ كما إذا أصرُّوا عَلى قبائِحهم واستكبرُوا عن الاعتذارِ والاستغفارِ ﴿ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ أبداً لإصرارِهم على الفسقِ ورسوخِهم في الكفرِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى القوم الفاسقين ﴾ الكاملينَ في الفسقِ الخارجينَ عن دائرة الاستصلاحِ المنهمكينَ في الكفرِ والنفاقِ ، والمرادُ إما هُم بأعيانِهم والإظهارُ في موقعِ الإضمارِ لبيانِ غُلوهم في الفسقِ أو الجنسِ وهم داخلونَ في زمرتِهم دُخولاً أولياً . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(111/765)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أجسامهم ﴾

لصباحتها وتناسب أعضائها ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم وحلاوة كلامهم ، وكان ابن أبيّ جسيما فصيحاً يحضر مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أمثاله كالجد بن قيس .

ومعتب بن قشير فكان عليه الصلاة والسلام ومن معه يعجبون من هيا كلهم ويسمعون لكلامهم ، والخطاب قيل : لكل من يصلح له وأيد بقراءة عكرمة.

وعطية العوفي يسمع بالياء التحتية والبناء للمفعول ، وقيل : لسيد المخاطبين عليه الصلاة والسلام ، وهذا أبلغ على ما في الكشف لأن أجسامهم إذا أعجبته صلى الله عليه وسلم فأولى أن تعجب غيره ؛ وكذا السماع لقولهم ، وليوافق قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءكَ ﴾ [المنافقون : 1] والسماع مضمن معنى الإصغاء فليست اللام زائدة ، وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ كلام مستأنف لذمهم لا محل له من الاعراب ؛ وجوز أن يكون في حيز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم كأنهم الخ ؛ والكلام مستأنف أيضاً ، وأنت تعلم أن الكلام صالح للاستئناف من غير تقدير فلا حاجة إليه ، وقيل : هو في حيز النصب على الحال من الضمير المجرور في ﴿ لِقَوْلِهِمْ ﴾ أي تسمع لما يقولون مشبهين بخشب مسندة كما في قوله :

فقلت : عسى أن تبصريني كأنما . . .

بنى حوالي الأسود الحوادر

وتعقب بأن الحالية تفيد أن السماع لقولهم لأنهم كالخشب المسندة وليس كذلك ، و ﴿ خُشُبٌ ﴾ جمع خشبة كثمرة وثمر ، والمراد به ما هو المعروف شبهوا في جلوسهم مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم مستندين فيها وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير بخشب منصوبة مسندة إلى الحائط في كونهم أشباحاً خالية عن الفائدة لأن الخشب تكون مسندة إذا لم تكن في بناء أو دعامة بشيء آخر ، وجوز أن يراد بالخشب المسندة الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم ، وفي مثلهم قال الشاعر :

لا يخدعنك اللحى ولا الصور . . .

تسعة أعشار من ترى بقر

تراهم كالسحاب منتشرا . . .

وليس فيها لطالب مطر

في شجر السرو منهم شبه . . .

له رواء وماله ثمر

وقرأ البراء بن عازب .

والنحويان .

وابن كثير ﴿ خُشْبٌ ﴾ بإسكان الشين تخفيف خشب المضموم ، ونظيره بدنة وبدن .

وقيل : جمع خشباء .

كحمر .

وحمراء ، وهي الخشبة التي نخر جوفها شبهوا بها في فساد بواطنهم لنفاقهم ، وعن اليزيدي حمل قراءة الجمهور بالضم على ذلك ، وتعقب بأن فعلاء لا يجمع على فعل بضمتين ، ومنه يعلم ضعف القيل إذ الأصل توافق القراآت .

وقرأ ابن عباس .

وابن المسيب .

وابن جبير ﴿ خُشُبٌ ﴾ بفتحتين كمدرة ومدر وهو اسم جنس على ما في البحر ، ووصفه بالمؤنث كما في قوله تعالى :

﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 7] ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أي واقعة عليهم ضارة لهم لجبنهم وهلعهم فكانوا كما قال مقاتل : متى سمعوا بنشدان ضالة أو صياحاً بأي وجه كان طارت عقولهم وظنوا ذلك إيقاعاً بهم ، وقيل : كانوا على وجل من أن ينزل الله عز وجل فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم ؛ ومنه أخذ جرير قوله يخاطب الأخطل :

مازلت تحسب كل شيء بعدهم . . .

خيلا تكر عليهم ورجالا

وكذا المتنبي قوله :

وضاقت الأرض حتى ظن هاربهم . . .

إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

(113/765)

والوقف على ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ الواقع مفعولاً ثانياً ليحسبون وهو وقف تام كما في الكواشي ، وعليه كلام الواحدي ، وقوله تعالى : ﴿ هُمُ العدو ﴾ استئناف أي هم الكاملون في العداوة والراسخون فيها فإن أعدى الأعادي العدو المداجى الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوى ككثير من أبناء الزمان ﴿ فاحذرهم ﴾ لكونهم أعدى الأعادي ولا تغترن بظاهرهم ، وجوز الزمخشري كون ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ صلة ﴿ صَيْحَةٍ ﴾ و﴿ هُمُ العدو ﴾ والمفعول الثاني ليحسبون كما لو طرح الضمير على معنى أنهم يحسبون الصيحة نفس العدو ، وكان الظاهر عليه هو أو هي العدو لكنه أتى بضمير العقلاء المجموع لمراعاة معنى الخبر أعني العدو بناءاً على أنه يكون جمعاً ومفرداً وهو هنا جمع ، وفيه أنه تخريج متكلف بعيد جداً لا حاجة إليه وإن كان المعنى عليه لا يخلو عن بلاغة ولطف ، ومع ذلك لا يساعد عليه ترتب ﴿ فاحذرهم ﴾ لأن التحذير منهم يقتضي وصفهم بالعداوة لا

بالجبن ﴿ قاتلهم الله ﴾ أي لعنهم وطردهم فإن القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها ، وكذلك الطرد عن رحمة الله تعالى والبعد عن جنابه الأقدس منتهى عذابه عز وجل وغاية نكاله جل وعلا في الدنيا والآخرة ، والكلام دعاء وطلب من ذاته سبحانه أن يلعنهم ويطردهم من رحمته تعالى ، وهو من أسلوب التجريد فلا يكون من إقامة الظاهر مقام الضمير لأنه يفوت به نضارة الكلام ، أو تعليم للمؤمنين أن يدعو عليهم بذلك فهو على معنى قولوا : قاتلهم الله ، وجوز أن لا يكونوا من الطلب في شيء بأن يكون المراد أن وقوع اللعن بهم مقرر لا بد منه ، وذكر بعضهم أن قاتله الله كلمة ذم وتوبيخ ، وتستعملها العرب في موضع التعجب من غير قصد إلى لعن ، والمشهور تعقيبها بالتعجب نحو قاتله الله ما أشعره ، وكذا قوله سبحانه هنا : ﴿ قاتلهم الله ﴾ .

(114/765)

﴿ إِنّى يُؤْفَكُونَ ﴾ وهذا تعجيب من حالهم ، أي كيف يصرفون عن الحق إلى ما هم عليه من الكفر والضلال ؟ فأني ظرف متضمن للاستفهام معمول لما بعده ، وجوز ابن عطية كونه ظرفاً لقاتلهم وليس هناك استفهام ، وتعقبه أبو حيان بأن ﴿ إِنّى ﴾ لا تكون لمجرد الظرفية أصلاً ، فالقول بذلك باطل .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾

أي عطفوها وهو كناية عن التكبر والاعراض على ما قيل ؛ وقيل : هو على حقيقته أي حركوها استهزاءاً ، وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ يعرضون عن القائل أو عن الاستغفار ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن ذلك .

روي أنه لما صدق الله تعالى زيد بن أرقم فيما أخبر به عن ابن أبي مقت الناس ابن أبي ولامه المؤمنون من قومه ، وقال بعضهم له : امض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واعترف بذنبك يستغفر لك فلوى رأسه إنكاراً لهذا الرأي ، وقال لهم : لقد أشرتم علي بالإيمان فآمنت ، وأشرتم علي بأن أعطي زكاة مالي ففعلت ، ولم يبق لكم إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وفي حديث أخرجه عبد بن حميد .

وابن أبي حاتم عن ابن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : " تب " فجعل يلوي رأسه فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ الخ ، وفي حديث أخرجه الإمام أحمد .

والشيخان .

والترمذي .

والنسائي .

وغيرهم عن زيد بعد نقل القصة إلى أن قال : حتى أنزل الله تعالى تصديقي في ﴿ إِذَا جَاءكَ المنافقون ﴾ [المنافقون : 1] ما نصه فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم ، فجمع الضمائر : إما على ظاهره ، وإما من باب بنو تميم قتلوا فلاناً ، وإذاً على ما مر ، و﴿ يَسْتَغْفِرِ ﴾ مجزوم في جواب الأمر ، و﴿ رَسُولِ الله ﴾ فاعل له ، والكلام على ما في "البحر" من باب الأعمال لأن ﴿ رَسُولِ الله ﴾ يطلبه عاملان : ﴿ يَسْتَغْفِرِ ﴾ و﴿ تَعَالَوْاْ ﴾ فأعمل الثاني على المختار عند أهل البصرة ولو أعمل الأول لكان التركيب تعالوا يستغفر لكم إلى رسول الله ، وجملة ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ في موضع الحال ، وأتت بالمضارع ليدل على الاستمرار التجددي ، ومثلها في الحالية جملة ﴿ هُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ ؛ وقرأ مجاهد .

ونافع .

وأهل المدينة .

وأبو حيوة .

وابن أبي عبلة .

والمفضل .

وأبان عن عاصم .

والحسن.

ويعقوب بخلاف عنهما ﴿ لَوَوْا ﴾ بتخفيف الواو، والتشديد في قرارة باقي السبعة للتكثير، ولما نعى سبحانه عليهم إباءهم عن الإتيان ليستغفر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإعراضهم واستكبارهم أشار عز وجل إلى عدم فائدة الاستغفار لهم لما علم سبحانه من سوء استعدادهم واختيارهم بقوله تعالى:

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾

فهو للتسوية بين الأمرين الاستغفار لهم وعدمه، والمراد الاخبار بعدم الفائدة كما يفصح عنه قوله جل شأنه: ﴿ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ وتعليله بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي الكاملين في الفسق الخارجين عن دائرة الاستصلاح المنهمكين لسوء استعدادهم بأنواع القبائح، فإن المغفرة فرع الهداية، والمراد بهؤلاء القوم إما المحدث عنهم بأعيانهم.

(116/765)

والإظهار في مقام الإضمار لبيان غلوهم في الفسق؛ والإشارة إلى علة الحكم أو الجنس وهم داخلون دخولاً أولياً، والآية في ابن أبي كسوابقها كما سمعت ولواحقها كما صح

وستسمعه قريباً إن شاء الله تعالى ، والاستغفار لهم قيل : على تقدير مجيئهم تائبين معتذرين من جناياتهم ، وكان ذلك قد اعتبر في جانب الأمر الذي جزم في جوابه الفعل وإلا فمجرد الإتيان لا يظهر كونه سبباً للاستغفار ، ويومىء إليه قوله صلى الله عليه وسلم في خبر ابن جبير لابن أبي : "تب" وترك الاستغفار على تقدير الإصرار على القبائح والاستكبار وترك الاعتذار وحيث لم يكن منهم توبة لم يكن منه عليه الصلاة والسلام استغفار لهم.

وحكى مكي أنه صلى الله عليه وسلم استغفر لهم لأنهم أظهروا له الإسلام أي بعد ما صدر منهم ما صدر بالتوبة ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما نزلت آية براءة ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْلاَ تَسْتَغْفِرْ ﴾ [التوبة : 80] الخ قال النبي صلى الله عليه وسلم : "أسمع ربي قد رخص لي فيهم فوالله لأستغفرن لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم" فنزلت هذه الآية ﴿ سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ ﴾ الخ.

(117/765)

وأخرج أيضاً عن عروة نحوه وإذا صح هذا لم يتأت القول بأن براءة بأسرها آخر ما نزل ولا ضرورة تدعو لالتزامه إلا إن صح نقل غير قابل للتأويل ، ولعل هذه الآية إشارة منه تعالى

لنبيه صلى الله عليه وسلم إلى أن المراد بالعدد هناك التكثير دون التحديد ليكون حكم الزائد مخالفاً لحكم المذكور فيكون المراد بالآيتين عند الله تعالى واحداً وهو عدم المغفرة لهم مطلقاً ، والآية الأولى فيما اختار نزلت في اللامزين كما سمعت هناك عن ابن عباس وهو الأوفق بالسباق ، وهذه نزلت في ابن أبي وأصحابه كما نطقت به الأخبار الصحيحة ويجمع الطائفتين النفاق ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم ما قال مع اختلاف أعيان الذين نزلتا فيهم ، ثم إني لم أقف في شيء مما أعول عليه على أن ابن أبي كان مريضاً إذ ذاك ، ورأيت في خبر أخرجه عبد بن حميد عن ابن سيرين ما يشعر بأنه بعد قوله : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل بأيام قلائل اشتكى واشتد وجعه ، وفيه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم وقد ذهب إليه بشفاعة ولده : حاجتي إذا أنا مت أن تشهد غسلي وتكفنني في ثلاثة أثواب من أثوابك وتمشي مع جنازتي وتصلي علي ففعل صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية

﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ على قَبْرِهِ ﴾ [التوبة : 84] ولا يشكل الاستغفار إن كان قد وقع لأحد من المنافقين بعد نزول ما يفيد كونه تعالى لا يهدي القوم الفاسقين إذ لا يتعين اندراج كل منهم إلا بتبين أنه بخصوصه من أصحاب الجحيم كأن يموت على ما هو عليه من الكفر والنفاق ، وهذا الذي ذكرته هنا هو الذي ظهر لي بعد كتابة ما كتبت في آية براءة ، والمقام بعد محتاج إلى تحقيق فراجع وتأمل والله تعالى ولي التوفيق .

وقرأ أبو جعفر استغفرت بمدة على الهمزة فقيل : هي عوض من همزة الوصل ، وهي مثل المدة في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا حَرَّمَ ﴾ [الأنعام : 143] لكن هذه المدة في الاسم لئلا يلتبس الاستفهام بالخبر ولا يحتاج ذلك في الفعل لأن همزة الوصل فيه مكسورة ، وعنه أيضاً ضم ميم ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ إذ أصلها الضم ووصل الهمزة .

وروى معاذ بن معاذ العنبري عن أبي عمرو كسر الميم على أصل التقاء الساكنين ، ووصل الهمزة فتسقط في القراءتين واللفظ خبر والمعنى على الاستفهام ، وجاء حذف الهمزة ثقة بدلالة ﴿ أَمْ ﴾ عليها كما في قوله

: بسبع رمين الجمر أم بثمان . . .

وقال الزمخشري : قرأ أبو جعفر آستغفرت إشباعاً لهمزة الاستفهام للإظهار والبيان لا قلباً لهمزة الوصل ألفاً كما في آلسحر .

وآلله وقال أبو جعفر بن القعقاع : بمدة على الهمزة وهي ألف التسوية .

وقرأ أيضاً بوصل الألف دون همزة على الخبر ، وفي ذلك ضعف لأنه في الأولى أثبت همزة

الوصل وقد أغنت عنها همزة الاستفهام ، وفي الثانية حذف همزة الاستفهام وهو يريدها ، وهذا مما لا يستعمل إلا في الشعر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(119/765)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أجسامهم وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ .

هذا انتقال إلى وضَحْ بعض أحوالهم التي لا يبرزونها إذا جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولكنها تبرز من مشاهدتهم ، فكان الوضح الأول مفتتحاً بـ ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ [المنافقون : 1] وهذا الوضح مفتتحاً بـ ﴿ إذا رأيتهم ﴾ .

فجملة ﴿ وإذا رأيتهم ﴾ معطوفة على جملة ﴿ فهم لا يفقهون ﴾ [المنافقون : 3]

واقعة موقع الاحتراس والتتميم لدفع إيهام من يغره ظاهر صورهم .

واتبع انتفاء فقه عقولهم بالتنبيه على عدم الاغترار بحسن صورهم فإنها أجسام خالية عن كمال الأنفس كقول حسان ولعله أخذه من هذه الآية :

لا بأس بالقوم من طُول ومن غلظ

جِسم البغال وأحلام العصافِير . . .

وتفيد مع الاحتراس تنبيهاً على دخائلهم بحيث لو حذف حرف العطف من الجملتين لصح وقوعهما موقع الاستئناف الابتدائي .

ولكن أوثر العطف للتنبيه على أن هاتين صفتان تحسبان كمالاً وهما نقيصتان لعدم تناسقهما مع ما شأنُه أن يكون كمالاً .

فإن جمال النفس كجمال الخلقة إنما يحصل بالتناسب بين المحاسن وإلا فربما انقلب الحسن موجب نقص .

فالخطاب في هذه الآية لغير معيّن يشمل كل من يراهم ممن يظن أن تغرّه صورهم فلا يدخل فيه النبي صلى الله عليه وسلم لأن الله قد أطلعه على أحوالهم وأوقفه على تعيينهم فهو كالخطاب الذي في قوله في سورة [الكهف : 18] ﴿ لو اطلعتَ عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ﴾ والظاهر أن المراد بضمير الجمع واحد معيّن أو عدد محدود إذ يبعد أن يكون جميع المنافقين أحاسن الصور .

وعن ابن عباس : كان ابن أُبيّ جسيماً صحيحاً صبيحاً ذلق اللسان .

وقال الكلبي : المراد ابنُ أُبيّ والجِد بن قَيس ومعتب بن قُشير كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة .

وقال في الكشاف ﴿ : وقوم من المنافقين في مثل صفة ابن أُبيّ رؤساء المدينة .

وأجسام : جمع جسم بكسر الجيم وسكون السين وهو ما يقصد بالإِشارة إليه أو ما له طُول وعَرض وعُمق .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وزاده بَسطة في العلم والجسم ﴾ في سورة [البقرة : 247] .

وجملة وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾ معترضة بين جملة ﴿ وإذا رأيتهم ﴾ الخ وبين جملة ﴿ كأنهم خشب مسندة ﴾ .

والمراد بالسَّماع في قوله : ﴿ تسمع لقولهم ﴾ الإِصغاء إليهم لحسن إبانتهم وفصاحة كلامهم مع تغريرهم بحلاوة معانيهم تمويه حالهم على المسلمين .

فاللام في قوله : ﴿ لقولهم ﴾ لتضمين ﴿ تسمع ﴾ معنى : تُصْغ أيها السامع ، إذ ليس في الإِخبار بالسماع للقول فائدة لولا أنه ضمن معنى الإِصغاء لوعي كلامهم .

وجملة ﴿ كأنهم خشب مسندة ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً جواباً عن سؤال يَنشأ عن وصف حسن أجسامهم وذَلاقة كلامهم ، فإنه في صورة مدح فلا يناسب ما قبله من ذمهم فيترقب السامع ما يَرد بعد هذا الوصف .

ويجوز أن تكون الجملة حالاً من ضميري الغيبة في قوله : ﴿ رأيتهم تعجبك أجسامهم ﴾ .

ومعناه أن حسن صورهم لا نفع فيه لأنفسهم ولا للمسلمين .

و﴿ خشب ﴾ بضم الخاء وضم الشين جمع خَشَبة بفتح الخاء وفتح الشين وهو جمع نادر

لم يحفظ إلا في ثَمَرة ، وقيل : ثُمر جمع ثمار الذي هو جمع ثَمرة فيكون ثُمُر جمعَ جمع .

فيكون خُشب على مثال جمع الجمع وإن لم يسمع مفرده .

ويقال : خُشْب بضم فسكون وهو جمع خشبة لا محالة ، مثل : بُدْن جمع بدنة .

وقرأه الجمهور بضمتين .

وقرأه قنبل عن ابنِ كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوبُ بضمة فسكون .

والمسنَّدة التي سُندت إلى حائط أو نحوه ، أي أميلت إليه فهي غليظة طويلة قوية لكنها غير منتفع بها في سَقف ولا مشدود بها جدار .

(121/765)

شبُهوا بالخُشُب المسنَّدة تشبيه التمثيل في حُسن المرأى وعدم الجَدوى ، أفيد بها أن أجسامهم المعجَب بها ومقالَهم المصغى إليه خاليان عن النفع كخُلوّ الخُشب المسنَّدة عن الفائدة ، فإذا رأيتموهم حسبتموهم أرباب لبّ وشجاعة وعلم ودراية .

وإذا اختبرتموهم وجدّتموهم على خلاف ذلك فلا تحْتفلوا بهم .

﴿ مُّسَنَّدَةٌۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ ﴾ .

هذه الجملة بمنزلة بدل البعض من مضمون جملة ﴿ كأنهم خشب مسندة ﴾ ، أي من

مخالفة باطنهم المشوه للظاهر المموّه، أي هم أهل جبن في صورة شجعان.

وهذا من جملة ما فضحته هذه السورة من دخائلهم ومطاوي نفوسهم كما تقدم في الآيات السابقة وإن اختلفت مواقعها من تفنن أساليب النظم، فهي مشتركة في التنبيه على أسرارهم.

والصيحة: المرة من الصياح، أي هم لسوء ما يضمرونه للمسلمين من العداوة لا يزالون يتوجّسون خيفة من أن ينكشف أمرهم عند المسلمين فهم في خوف وهلع إذا سمعوا صيحة في خصومة أو أنشدت ضالة خشُوا أن يكون ذلك غارة من المسلمين عليهم للإِيقاع بهم.

و﴿ كلّ ﴾ هنا مستعمل في معنى الأكثر لأنهم إنما يتوجّسون خوفاً من صيحات لا يعلمون أسبابها كما استعمله النابغة في قوله:

بها كل ذيّال وخنساءَ ترعوي...

إلى كُلّ رَجَّاف من الرمل فارد

وقوله: ﴿ عليهم ﴾ ظرف مستقر هو المفعول الثاني لفعل ﴿ يحسبون ﴾ وليس متعلقاً بـ﴿ صيحة ﴾.

﴿ عَلَيْهِمْ هُمُ العدو ﴾.

يجوز أن تكون استئنافاً بيانياً ناشئاً عن جملة ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ لأن تلك

الجملة لغرابة معناها تثير سؤالاً عن سبب هلعهم وتخوفهم من كلّ ما يتخيَّل منه بأس المسلمين فيجاب بأن ذلك لأنهم أعداء أِلدّاءُ للمسلمين ينظرون للمسلمين بمرآة نفوسهم فكما هم يتربصون بالمسلمين الدوائر ويتمنون الوقيعة بهم في حين يظهرون لهم المودة كذلك يظنون بالمسلمين التربص بهم وإضمار البطش بهم على نحو ما قال أبو الطيب :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه

(122/765)

وصدَّق ما يعتاده من توهم . . .

ويجوز أن تكون الجملة بمنزلة العلة لِجملة ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ على هذا المعنى أيضاً .

ويجوز أن تكون استئنافاً ابتدائياً لِذكر حالة من أحوالهم تهُم المسلمين معرفتُها ليترتب عليها تفريع ﴿ فاحذرهم ﴾ وعلى كل التقادير فنظم الكلام واف بالغرض من فضح دخائلهم .

والتعريف في ﴿ العدو ﴾ تعريف الجنس الدال على معيّن كمال حقيقة العدوّ فيهم ، لأن أعدى الأعادي العدوّ المتظاهر بالموالاة وهو مداح وتحت ضلوعه الداء الدوي .

وعلى هذا المعنى رتب عليه الأمر بالحذر منهم .

و﴿ العدوّ ﴾ : اسم يقع على الواحد والجمع .

والمراد : الحذر من الاغترار بظواهرهم الخلابة لئلا يُخلص المسلمون إليهم بسرهم ولا يتقبلوا نصائحهم خشية المكائد .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم ليبلغه المسلمين فيحذروهم .

﴿ فاحذرهم قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى ﴾ .

تذييل فإنه جمع على الإجمال ما يغني عن تعداد مذامّهم (كقوله ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ﴾ [النساء : 63] ، مسوق للتعجيب من حال توغلهم في الضلالة والجهالة بعُدولهم عن الحق .

فافتتح التعجيب منهم بجملة أصلها دعاء بالإهلاك والاستئصال ولكنها غلب استعمالها في التعجب أو التعجيب من سوء الحال الذي جرّهُ صاحبه لنفسه فإن كثيراً من الكَلم التي هي دعاء بسوء تستعمل في التعجيب من فعل أو قول مكروهٍ مثل قولهم : ثكلته أمهُ ، ووَيلُ أمّه .

وتَربتْ يمينه .

واستعمال ذلك في التعجب مجاز مرسل للملازمة بين بُلوغ الحال في السوء وبين الدعاء على صاحبه بالهلاك ، إذ لا نفع له ولا للناس في بقائه ، ثم الملازمةِ بين الدعاء بالهلاك وبين

التعجب من سوء الحال.

فهي ملازمة بمرتبتين كنايةٌ رمزية.

و﴿ أَنَّى ﴾ هنا اسم استفهام عن المكان.

(123/765)

وأصل ﴿ أَنَّى ﴾ ظرف مكان وكثر تضمينه معنى الاستفهام في استعمالاته، وقد يكون للمكان المجازي فيفسر بمعنى (كيفَ) كقوله تعالى: ﴿ قلتم أنى هذا ﴾ في سورة [آل عمران: 165]، وفي قوله: ﴿ أَنَّى لهم الذكرى ﴾ في سورة [الدخان: 13].

ومنه قوله هنا أنى يؤفكون ﴾، والاستفهام هنا مستعمل في التعجيب على وجه المجاز المرسل لأن الأمر العجيب من شأنه أن يستفهم عن حال حصوله.

فالاستفهام عنه من لوازم أعجوبته.

فجملة ﴿ أنى يؤفكون ﴾ بيان للتعجيب الإجمالي المفاد بجملة ﴿ قاتلهم الله ﴾.

و﴿ يؤفكون ﴾ يُصرفون يقال: أَفَكَه، إذا صرفه وأبعده، والمراد: صرفهم عن الهدى، أي كيف أمكن لهم أن يصرفوا أنفسهم عن الهدى، أو كيف أمكن لمضلليهم أن يصرفوهم عن الهدى مع وضوح دلائله.

وتقدم نظير هذه الآية في سورة براءة .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5)

هذا حالهم في العناد ومجافاة الرسول صلى الله عليه وسلم والإعراض عن التفكر في الآخرة ، بَلْهَ الاستعداد للفوز فيها .

و﴿ تعالوا ﴾ طَلَب من المخاطب بالحضور عند الطالب ، وأصله فِعل أمر من التَعالي ، وهو تكلف العُلو ، أي الصعود ، وتنوسي ذلك وصار لمجرد طلب الحضور ، فلزم حالة واحدة فصار اسم فِعل ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ الآية في سورة [الأنعام : 151] .

وهذا الطلب يجعل تعالوا ﴾ مشعر بأن هذه حالة من أحوال انفرادهم في جماعتهم فهي ثالث الأغراض من بيان مختلف أنواع تلك الأحوال ، وقد ابتدأت بـ ﴿ إذا ﴾ كما ابتدىء الغرضان السابقان بـ ﴿ إذا ﴾ ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ [المنافقون : 1] .

و﴿ إذا رأيتَهم تعجبك أجسامهم ﴾ [المنافقون : 4] .

والقائل لهم ذلك يحتمل أن يكون بعضَ المسلمين وَعَظوهم ونصحوهم ، ويحتمل أنه بعض منهم اهتدى وأراد الإِنابة .

قيل المقول له هو عبد الله بنُ أُبَيّ ابن سلول على نحو ما تقدم من الوجوه في ذكر المنافقين بصيغة الجمع عند قوله: ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ [المنافقون: 1] وما بعده.

والمعنى: اذهبوا إلى رسول الله وسَلُوه الاستغفار لكم.

وهذا يدل دلالة اقتضاء على أن المراد توبوا من النفاق وأخلصوا الإِيمان وسَلُوا رسول الله ليستغفر لكم ما فرط منكم، فكانَ الذي قال لهم ذلك مطَّلعاً على نفاقهم وهذا كقوله تعالى في سورة البقرة (13) ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ وليس المراد من الاستغفار الصفح عن قول عبد الله بن أُبَيّ ليخرجن الأعز منها الأذل.

لأن ابنَ أُبَيّ ذَهب إلى رسول الله وتبرأ من أن يكون قال ذلك ولأنه لا يلتئم مع قوله تعالى: ﴿ لن يغفر الله لهم ﴾ [المنافقون: 6].

ولَيُّ الرؤوس: إمالتها إلى جانب غير وِجاه المتكلم.

إعراضاً عن كلامه، أي أبوا أن يستغفروا لأنهم ثابتون على النفاق، أو لأنهم غيرُ راجعين فيما قالوه من كلام بَذيء في جانب المسلمين، أو لئلا يُلزموا بالاعتراف بما نسب إليهم من النفاق.

وقرأ الجمهور ﴿ لوّوا ﴾ بتشديد الواو الأولى مضاعف لوى للدلالة على الكثرة فيقتضي كثرة اللي منهم، أي لوى جمع كثير منهم رؤوسهم، وقرأهُ نافع ورَوح عن يعقوب بتخفيف

الواو الأولى اكتفاء بإسناد الفعل إلى ضمير الجماعة.

والخطاب في ﴿ ورأيتهم ﴾ لغير معيّن، أي ورأيتهم يا من يراهم حينئذٍ.

وجملة ﴿ وهم مستكبرون ﴾ في موضع الحال من ضمير يصدون، أي يصدون صدّ المتكبر عن طلب الاستغفار.

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾

جملة معترضة بين حكاية أحوالهم نشأت لمناسبة قوله: ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ﴾ [المنافقون: 5] الخ.

(125/765)

واعلم أن تركيب: سواء عليه أكذا أم كذا، ونحوه مما جرى مجرى المثل فيلزم هذه الكلمات مع ما يناسبها من ضمائر المخبر عنه.

ومدلوله استواء الأمرين لدى المجرور بحرف (على)، ولذلك يعقَّب بجملةٍ تبين جهة الاستواء كجملة ﴿ لن يغفر الله لهم ﴾.

وجملة ﴿ لا يؤمنون ﴾ في سورة [البقرة: 6].

وقوله: ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ في سورة [يس: 10] وأما ما

ينسب إلى بُثينة في رثاء جَميل بن معمر من قولها :

سَواء عَلَينا يا جميلُ بنَ معمر . . .

إذا مِتَّ بأساءُ الحياةِ ولينُها

فلا أحسبه صحيح الرواية .

وسواء اسم بمعنى مساو ويعامل معاملة الجامد في الغالب فلا يتغير خبره نقول : هما سواء ، وهم سواء .

وشذ قولهم : سِواءٌين .

و (على) من قوله : عليهم ﴾ بمعنى تَمكُّن الوصف .

فالمعنى : سواء فيهم .

وهمزة ﴿ أستغفرت لهم ﴾ أصلها همزة استفهام بمعنى : سواء عندهم سُؤال السائل عن وقوع الاستغفار لهم وسؤالُ السائل عن عدم وقوعه .

وهو استفهام مجازي مستعمل كناية عن قلة الاعتناء بكلا الحالين بقرينة لفظ سواء ولذلك يسمي النُحَاة هذه الهمزة التسوية .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ في سورة [البقرة : 6] ، أي سواء عندهم استغفارك لهم وعدمه .

ف (على) للاستعلاء المجازي الذي هو التمكن والتلبس فتؤول إلى معنى (عند) كما

تقول سَواء عليّ أرضيت أم غَضبت وقوله تعالى : ﴿ قالوا سواء علينا أَوَعَظْتَ أم لم تكن من الواعظين ﴾ في سورة [الشعراء : 136] .

وجملة لن يغفر الله لهم ﴾ معترضة بين جملة ﴿ سواء عليهم ﴾ وجملة ﴿ هم الذين يقولون ﴾ [المنافقون : 7] وهي وعيد لهم وجزاء على استخفافهم بالاستغفار من رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى القوم ﴾ .

جملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً عن حال من أحوالهم .

(126/765)

وجملة ﴿ إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ تعليل لانتفاء مغفرة الله لهم بأن الله غضب عليهم فحرمهم اللطف والعناية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(127/765)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الآية ظاهر هذه الآية الكريمة أنه لا يغفر للمنافقين مطلقا وقد جاءت آية توهم الطمع في غفرانه لهم إذا استغفر لهم رسوله صلى الله عليه وسلم أكثر من سبعين مرة .

وهي قوله تعالى: ﴿ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾

والجواب أن هذه الآية هي الأخيرة بينت أنه لا يغفر لهم على كل حال لأنهم كفار في الباطن .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 296 ﴾

(128/765)

قوله تعالى ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (7) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان هذا داعياً إلى السؤال عن الأمر الذي فسقوا به ، قال مبيناً له : ﴿ هم ﴾ أي خاصة بواطنهم ﴿ الذين يقولون ﴾ أي أوجدوا هذا القول ولا يزالون يجددونه لأنهم كانوا مربوطين بالأسباب محجوبين عن شهود التقدير غير محققين بتصريف الأحكام ، فأنطقهم ما خامر قلوبهم من تمني إطفاء نور الله فتواصوا فيما بينهم بقولهم : ﴿ لا تنفقوا ﴾ أيها المخلصون في النصرة ﴿ على من ﴾ أي الذين ﴿ عند رسول الله ﴾ أي الملك المحيط بكل شيء ، وهم فقراء المهاجرين ، وكأنهم عبروا بذلك وهم لا يعتقدونه تهكماً وإشارة إلى أنه لو كان رسوله وهو الغنى المطلق لأغنى أصحابه ولم يحوجهم إلى أن ينفق الناس عليهم ، وما درى الأغبياء أن ذلك امتحان منه سبحانه لعباده - فسبحان من يضل من يشاء - حتى يكون كلامه أبعد شيء عن الصواب بحيث يعجب العاقل كيف يصدر ذلك من أحد ، أو أن هذه ليست عبارتهم وهو الظاهر ، وعبر سبحانه عنهم بذلك إشارة إلى أن كلامهم يؤول إلى إرادة ضر من الله معه توقيفاً على كفرهم وتنبيهاً على أن من أرسل رسولاً لا يكله إلى أحد بل يكفيه جميع ما يهمه من غير افتقار إلى شيء أصلاً ، فقد أرسل سبحانه إليه. صلى الله عليه وسلم. بمفاتيح خزائن الأرض فأباها وما كفاهم هذا الجنون حتى زادوه ما دل على أنهم ظنوا أن أبواب الرزق تغلق إذا امتنع المنفقون من الناس عن إنفاقهم ، وعبروا بحرف غاية ليكون لما بعده حكم ما قبله فقالوا : ﴿ حتى ينفضوا ﴾ أي يتفرقوا تفرقاً قبيحاً فيه كسر فيذهب أحد منهم إلى أهله وشغله الذي كان له قبل ذلك ، قال الحرالي : "

حتى "كلمة تفهم غاية محوطة يدخل ما بعدها في حكم ما قبلها مقابل معنى "إلى" ، وقال أهل العربية : لا يجربها إلى آخر أو متصل بالآخر نحو الفجر في ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ [القدر : 5] وحتى آخر الليل ، ولا تقولوا : حتى نصف الليل ، وما درى الأجلاف أنهم لو فعلوا ذلك أتاح الله غيرهم للانفاق ، أو أمر رسوله.صلى الله عليه وسلم.

(129/765)

فدعا في الشيء اليسير فصار كثيراً ، أو كان بحيث لا ينفد ، أو أعطى كلاًّ يسيراً من طعام على كيفية لا تنفد معها كتمر أبي هريرة وشعير عائشة وعكة أم أيمن.رضى الله عنه.م وغير ذلك كما روي ذلك غير مرة ، ولكن ليس لمن يضل الله من هاد ، ولذلك عبر في الرد عليهم بقوله : ﴿ ولله ﴾ أي قالوا ذلك واستمروا على تجديد قوله والحال أن للملك الذي لا أمر لأحد معه فهو الآمر الناهي ﴿ خزائن السماوات ﴾ أي كلها ﴿ والأرض ﴾ كذلك من الأشياء المعدومة الداخلة تحت مقدرة "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون" ومن الأشياء التي أوجدها فهو يعطي من يشاء منها ما يشاء حتى من أيديهم ، لا يقدر أحد على منع شيء من ذلك لا مما في يده ولا مما في يد غيره ، ونبه على سوء غباوتهم وأنهم

تقيدوا بالوهم حتى سفلوا عن رتبة البهائم كما قال بعضهم: إن كان محمد صادقاً فنحن شر من البهائم، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿ولكن المنافقين﴾ أي العريقين في وصف النفاق.

(130/765)

ولما كان ما يساق إلى الخلق من الأرزاق فيظن كثير منهم أنهم حصلوه بقوتهم، عبر بالفقه الأخص من العلم فقال: ﴿لا يفقهون﴾ أي لا يتجدد لهم فهم أصلاً لأن البهائم إذا رأت شيئاً ينفعها يوماً ما في مكان طلبته مرة أخرى، وهؤلاء رأوا غير مرة ما أخرج الله من خوارق البركات على يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم ينفعهم ذلك، فمن رأى أن رزقه بيد الخلق فألهاه ذلك عن الله حتى ضيع حقوقه وداهن في دينه فقد بريء من القرآن، ودل على عدم فقههم بقوله تعالى: ﴿يقولون﴾ أي يوجدون هذا القول ويجددونه مؤكدين له لاستشعارهم بأن أكثر قومه ينكره: ﴿لئن رجعنا﴾ أي نحن أيتها العصابة المنافقة من غزاتنا هذه - التي قد رأوا فيها من نصرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يعجز الوصف وهي غزوة بني المصطلق حي من هذيل بالمريسيع وهو ماء من مياههم من ناحية قديد إلى الساحل وفيها تكلم ابن أبي بالإفك وأشاعه - ﴿إلى المدينة﴾ ودلوا على تصميمهم على عدم المساكنة بقولهم: ﴿ليخرجن الأعز﴾ يعنون أنفسهم ﴿منها الأذل﴾ وهم

كاذبون في هذا ، لكنهم تصوروا لشدة غباوتهم أن العزة لهم وأنهم يقدرون على إخراج المؤمنين ﴿ ولله ﴾ أي والحال أن كل من له نوع بصيرة يعلم أن للملك الأعلى الذي له وحده عز الإلهية ﴿ العزة ﴾ كلها ، فهو قهار لمن دونه وكل ما عداه دونه .

ولما حصر العزة بما دل على ذلك من تقديم المعمول ، أخبر أنه يعطي منها من أراد وأحقهم بذلك من أطاعه فترجم ذلك بقوله : ﴿ ولرسوله ﴾ لأن عزته من عزته بعز النبوة والرسالة وإظهار الله دينه على الدين كله ، وكذلك أيضاً أن العزة لمن أطاع الرسول بقوله :

﴿ وللمؤمنين ﴾ أي الذين صار الإيمان لهم وصفاً راسخاً لأن عزتهم بعزة الولاية ، ونصر الله إياهم عزة لرسولهم -صلى الله عليه وسلم- ، ومن تعزز بالله لم يلحقه ذل .

(131/765)

ولما كان جهلهم في هذا أشد لكثرة ما رأوا من نصرة الله لرسوله -صلى الله عليه وسلم- ومن تابعه -رضى الله عنه- م وإعلائهم على كل من ناواهم ، قال منبهاً على ذلك :

﴿ ولكن المنافقين ﴾ أي الذي استحكم فيهم مرض القلوب .

ولما كانت الدلائل على عزة الله لا تخفى على أحد لما تحقق من قهره للملوك وغيرهم بالموت الذي لم يقدر أحد على الخلاص منه ولا المنازعة فيه ، ومن المنع من أكثر المرادات ، ومن

نصر الرسول وأتباعهم بإهلاك أعدائهم بأنواع الهلاك، وبأنه سبحانه ما قال شيئاً إلا تم ولا قالت الرسل شيئاً إلا صدقهم فيه، ختم الآية بالعلم الأعم من الفقه فقال: ﴿لا يعلمون﴾ أي لا لأحد لهم علم الآن، ولا يتجدد في حين من الأحيان، فلذلك هم يقولون مثل هذا الخراف، وروي أنه لما نزلت هذه الآية جاء عبد الله ولد عبد الله بن أبي ابن سلول الذي نزلت بسببه إلى أبيه، وذلك في غزوة المريسيع لبني المصطلق فأخذ بزمام ناقة أبيه وقال: أنت والله الذليل، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ العزيز، ولما دنوا من المدينة الشريف جر سيفه وأتى أباه فأخذ بزمام ناقته.

وزجرها إلى ورائها وقال: إياك وراءك والله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولئن لم تقر بأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأعز وأنت الأذل لأضربن عنقك، قال: أفاعل أنت؟ قال: نعم، قال: أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وشكا ولده إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمره أن يدعه يدخل المدينة، فأطلق فدخل. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 7 صـ 611. 613﴾

(132/765)

فصل

قال الفخر :

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا ﴾

(133/765)

أخبر الله تعالى بشنيع مقالتهم فقال : ﴿ هُمُ الذين يَقُولُونَ ﴾ كذا وكذا : ﴿ وينفضوا ﴾ أي يتفرقوا ، وقرىء : ﴿ يَنفَضُّواْ ﴾ من أنفض القوم إذا فنيت أزوادهم ، قال المفسرون : اقتتل أجير عمر مع أجير عبد الله بن أبي في بعض الغزوات فأسمع أجير عمر عبد الله بن أبي المكروه واشتد عليه لسانه ، فغضب عبد الله وعنده رهط من قومه فقال : أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على قومه فقال : لو أمسكتم النفقة عن هؤلاء يعني المهاجرين لأوشكوا أن يتحولوا عن دياركم وبلادكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد فنزلت ، وقرىء : ﴿ لَيُخْرِجَنَّ ﴾ بفتح الياء ، وقرأ الحسن وابن أبي عيلة : ﴿ لَنُخْرِجَنَّ ﴾ بالنون ونصب الأعز والأذل ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السموات والأرض ﴾ قال مقاتل : يعني مفاتيح الرزق والمطر والنبات ، والمعنى أن الله هو الرزاق :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السماء والأرض ﴾ [يونس : 31] وقال أهل المعاني : خزائن الله تعالى مقدوراته لأن فيها كل ما يشاء مما يريد إخراجه ، وقال الجنيد : خزائن الله تعالى في السموات الغيوب وفي الأرض القلوب وهو علام الغيوب ومقلب القلوب ، وقوله تعالى :

﴿ ولكن المنافقين لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ أي لا يفقهون أن : ﴿ أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [ياس : 82] وقوله يقولون : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا ﴾ أي من تلك الغزوة وهي غزوة بني المصطلق إلى المدينة فرد الله تعالى عليه وقال : ﴿ وَلِلَّهِ العزة ﴾ أي الغلبة والقوة ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين وعزهم بنصرته إياهم وإظهار دينهم على سائر الأديان واعلم رسوله بذلك ولكن المنافقين لا يعلمون ذلك ولو علموه ما قالوا : مقالتهم هذه ، قال صاحب "الكشاف" : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهم الأخصاء بذلك كما

أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين ، وعن بعض الصالحات وكانت في هيئة رثة ألست على الإسلام وهو العز الذي لا ذل معه ، والغنى الذي لا فقر معه ، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أن رجلاً قال له : إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً قال :

ليس بتيه ولكنه عزة فإن هذا العز الذي لا ذل معه والغنى الذي لا فقر معه ، وتلا هذه الآية قال بعض العارفين في تحقيق هذا المعنى : العزة غير الكبر ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه ، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وإكرامها عن أن يضعها لأقسام عاجلة دنيوية كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلها فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة ، وتختلف من حيث الحقيقة كاشتباه التواضع بالضعة والتواضع محمود ، والضعة مذمومة ، والكبر مذموم ، والعزة محمودة ، ولما كانت غير مذمومة وفيها مشاكلة للكبر ، قال تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ وفيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق ، والوقوف على حد التواضع من غير انحراف إلى الضعة وقوف على صراط العزة المنصوب على متن نار الكبر ، فإن قيل : قال في الآية الأولى : ﴿ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ وفي الأخرى ﴿ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ فما الحكمة فيه ؟ فنقول : ليعلم بالأول قلة كياستهم وفهمهم ، وبالثاني كثرة حماقتهم وجهلهم ، ولا يفقهون من فقه يفقه ، كعلم يعلم ، ومن فقه يفقه : كعظم يعظم ، والأول لحصول الفقه بالتكلف والثاني لا بالتكلف ، فالأول علاجي ، والثاني مزاجي .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 16 . 17 ﴾

(135/765)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾

فضح الله تعالى بهذه الآية سريرة المنافقين ، وذلك أنهم كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ نشهد إنك لرسول الله ﴾ ، وهم في إخبارهم هذا كاذبون ، لأن حقيقة الكذب أن يخبر الإنسان بضد ما في قلبه ، وكسرت الألف من " إن " في الثلاثة ، لدخول اللام المؤكدة في الخبر ، وذلك لا يكون مع المفتوحة ، وقوله : ﴿ نشهد ﴾ وما جرى مجراها من أفعال اليقين ، والعلم يجاب بما يجاب به القسم ، وهي بمنزلة القسم ، وقرأ الناس : " أيمانهم " جميع يمين ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن بخلاف " إيمانهم " ، بكسر الألف ، أي هذا الذي تظهرون ، وهذا على حذف مضاف ، تقديره : إظهار إيمانهم ، والجنة : ما يستتر به في الأجرام والمعاني ، وقوله تعالى : ﴿ فصدوا ﴾ يحتمل أن يكون غير متعد تقول : صد زيد ، ويحتمل أن يكون متعدياً كما قال :

صددت الكأس عنا أم عمرو . . . والمعنى : صدوا غيرهم ممن كان يريد الإيمان أو من المؤمنين في أن يقاتلوهم وينكروا عليهم ، وتلك سبيل الله فيهم ، وقد تقدم تفسير نظير هذه

الآية ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى فعل الله تعالى في فضيحتهم وتوبيخهم ، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى سوء ما عملوا ، فالمعنى ساء عملهم أن كفروا بعد إيمانهم ، وقوله تعالى : ﴿ آمنوا ثم كفروا ﴾ إما أن يريد به منهم من كان آمن ثم نافق بعد صحة من إيمانه ، وقد كان هذا موجوداً ، وإما أن يريدهم كلهم ، فالمعنى ذلك أنهم أظهروا الإيمان ثم كفروا في الباطن أمرهم فسمى ذلك الإظهار إيماناً ، وقرأ بعض القراء : " فطبع " على بناء الفعل للفاعل ، وقرا جمهور القراء : " فطُبع " بضم الطاء على بنائه للمفعول بغير إدغام . وأدغم أبو عمرو ، وقرأ الأعمش : " فطبع الله " ، وعبر بالطبع عما خلق في قلوبهم من الريب والشك وختم عليهم به من الكفر والمصير إلى النار ، وقوله تعالى : ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾ توبيخ لهم لأنهم كانوا رجالاً أجمل شيء وأفصحه ، فكان نظرهم يروق وقولهم يخيب ، ولكن الله تعالى جعلهم "كالخشب المسندة " ، وإنما هي أجرام لا عقول لها ، معتمدة على غيرها ، لا تثبت بأنفسها ، ومنه قولهم : تساند القوم إذا اصطفوا وتقابلوا للقتال ، وقد يحتمل أن يشبه اصطفافهم في الأندية باصطفاف الخشب المسندة وخلوهم من الأفهام النافعة خلو الخشب من ذلك ، وقال رجل لابن سيرين : رأيتني في النوم محتضناً خشبة ، فقال ابن سيرين : أظنك من أهل هذه الآية وتلا : ﴿ كأنهم خشب مسندة ﴾ . وقرأ عكرمة وعطية : "يُسمع " مضمومة بالياء ، وقرأ نافع وابن عامر وحمزة وعاصم : " خُشُب " بضم الخاء والشين ، وقرأ قنبل وأبو عمرو

والكسائي : " خُشْب " بضم الخاء وإسكان الشين وهي قراءة البراء بن عازب واختيار ابن عبيد .

(137/765)

وقرأ سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب : " خَشَب " بفتح الخاء والشين ، وذلك كله جمع خشبة بفتح الخاء والشين ، فالقراءتان أولاً كما تقول : بُدْنة وبَدْن وبُدْن : قاله سيبويه ، والأخيرة على الباب في تمرة وتمر .

وكان عبد الله بن أبي من أبهى المنافقين وأطولهم ، ويدل على ذلك أنه لم يوجد قميص يكسو العباس غير قميصه ، وقد تقدم في سورة البقرة تحرير أمر المنافقين وكيف سترهم الإسلام .

وقوله تعالى : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ ، فضح أيضاً لما كانوا يسرونه من الخوف ، وذلك أنهم كانوا يتوقعون أن يأمر النبي صلى الله عليه وسلم عن الله بقتلهم ، وقال مقاتل : فكانوا متى سمعوا نشدان ضالة أو صياحاً بأي وجه كان أو أخبروا بنزول وحي طارت عقولهم حتى يسكن ذلك . ويكون في غير شأنهم ، وجرى هذا اللفظ مثلاً في الخائف ، ونحو قول الشاعر [بشار بن برد العقيلي] : [الوافر]

يروّعه السرار بكل أرض . . . مخافة أن يكون به السرار

وقول جرير : [الكامل]

ما زلت تحسب كل شيء بعدهم . . . خيلاً تكر عليهمُ ورجالا

ثم أخبر تعالى بأنهم ﴿ العدو ﴾ وحذر منهم ، و﴿ العدو ﴾ يقع للواحد والجمع ، وقوله تعالى : ﴿ قاتلهم الله ﴾ دعاء يتضمن الإقصاء والمنابذة ، وتمني الشر لهم ، وقوله تعالى : ﴿ أنى يؤفكون ﴾ معناه : كيف يصرفون ، ويحتمل أن يكون ﴿ أنى ﴾ استفهاماً ، كأنه قال كيف يصرفون أو لأي سبب لا يرون أنفسهم ، ويحتمل أن يكون : ﴿ أنى ﴾ ظرفاً ل ﴿ قاتلهم ﴾ كأنه قال ﴿ قاتلهم الله ﴾ ، كيف انصرفوا أو صرفوا ، فلا يكون في القول استفهام على هذا .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5)

كان أمر عبد الله بن أبي ابن سلول ، أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق ، فبلغ الناس إلى ماء سبق إليه المهاجرون وكأنهم غلبوا الأنصار عليه بعض

الغلبة ، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه : قد كنت قلت لكم في هؤلاء الجلابيب ما قلت فلم تسمعوا مني ، وكان المنافقون ومن لا يتحرى يسمي المهاجرين الجلابيب ومنه قول حسان بن ثابت : [البسيط]

أرى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا . . . وابن القريعة أمسى بيضة البلد

(139/765)

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أتحض علينا يا حسان " ث ، م إن الجهجاه الغفاري كان أجيراً لعمر بن الخطاب ورد الماء بفرس لعمر ، فازدحم هو وسنان بن وبرة الجهني وكان حليفاً للأوس فكسع الجهجاه سناناً ، فغضب سنان فتأثروا ، ودعا الجهجاه : يا للمهاجرين ، ودعا سنان : يا للأنصار ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ما بال دعوى الجاهلية " ، فلما أخبر بالقصة ، قال : " دعوها فإنها منتنة " . واجتمع في الأمر عبد الله بن أبيّ في قوم من المنافقين ، وكان معهم زيد بن أرقم فتى صغيراً لم يتحفظ منه ، فقال عبد الله بن أبي : أوَقَد تداعوا علينا فوالله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، وقال بهم : ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ ، وقال لهم : إنما يقيم هؤلاء المهاجرون مع محمد بسبب معونتكم وإنفاقكم عليهم ، ولو قطعتم ذلك

عنهم لفروا ، فذهب زيد بن أرقم إلى عمه وكان في حجره وأخبره ، فأتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا زيد ، غضبت على الرجل أو لعلك وهمت " ، فأقسم زيد ما كان شيء من ذلك ، ولقد سمع من عبد الله بن أبيّ ما حكى ، فعاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي عند رجال من الأنصار ، فبلغه ذلك ، فجاء وحلف ما قال ، وكذّب زيداً ، وحلف معه قوم من المنافقين ، فكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً ، وصدق عبد الله بن أبي ، فبقي زيد في منزله لا يتصرف حياء من الناس ، فنزلت هذه السورة عند ذلك ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في زيد وقال له : " لقد صدقك الله يا زيد ووفت أذنك " ، فخزي عند ذلك عبد الله بن أبي ابن سلول ، ومقته الناس ، ولامه المؤمنون من قومه وقال بعضهم : امض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعترف بذنبك يستغفر لك ، فلوى رأسه إنكاراً لهذا الرأي ، وقال لهم : لقد أشرتم عليّ بأن أعطي

زكاة من مالي ففعلت ، ولم يبق لكم إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد .

قال القاضي أبو محمد : فهذا هو قصص هذه السورة موجزاً ، و" تعال " نداء يقتضي لفظه

أنه دعاء الأعلى للأسفل ، ثم استعمل لكل داع لما فيه من حسن الأدب . وقرأ نافع والمفضل عن عاصم " لووا " بتخفيف الواو ، وهي قراءة الحسن بخلاف ومجاهد ، وأهل المدينة ، وقرأ الباقون وأبو جعفر والأعمش : " لوّوا " بشد الواو على تضعيف المبالغة ، وهي قراءة طلحة وعيسى وأبي رجاء وزر والأعرج ، وقرأ بعض القراء هنا : " يصِدون " بكسر الصاد ، والجمهور بضمها ، وقوله تعالى : ﴿ سواء عليهم ﴾ الآية ، روي أنه لما نزلت : ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر لهم ﴾ [التوبة : 80] ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لأزيدن على السبعين " ، وفي حديث آخر : " لو علمت أني إن زدت على السبعين غفر لهم لزدت " ، فكأنه عليه السلام رجا أن هذا الحد ليس على جهة الحتم جملة ، بل على أن ما يجاوزه يخرج عن حكمه ، فلما فعل ابن أبي وأصحابه ما فعلوا شدد الله تعالى عليهم في هذه السورة ، وأعلم أنه لن يغفر لهم دون حد في الاستغفار ، وفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أعلم أني إن زدت غفر لهم " نص على رفض دليل الخطاب .

وقرأ جمهور الناس : " أستغفرت " بالقطع وألف الاستفهام ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : " آستغفرت " بمدّ على الهمزة وهي ألف التسوية ، وقرأ أيضاً : بوصل الألف دون همز على الخبر ، وفي هذا كله ضعف لأنه في الأولى : أثبت همزة الوصل ، وقد أغنت عنها همزة

الاستفهام ، وفي الثانية : حذف همزة الاستفهام وهو يريدها وهذا مما لا يستعمل إلا في الشعر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(141/765)

وقال القرطبى :

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا ﴾

ذكرنا سبب النزول فيما تقدم .

وابن أُبيّ قال : لا تُنفقوا على مَن عند محمد حتى ينفضُّوا ؛ حتى يتفرّقوا عنه .

فأعلمهم الله سبحانه أن خزائن السموات والأرض له ، ينفق كيف يشاء .

قال رجل لحاتم الأَصمّ : من أين تأكل ؟ فقال : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السماوات والأرض ﴾ .

وقال الْجُنَيد : خزائن السموات الغيوب ، وخزائن الأرض القلوب ؛ فهو علاَّم الغيوب ومُقلّب القلوب .

وكان الشّبْلِيّ يقول : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السماوات والأرض ﴾ فأين تذهبون .

﴿ ولكن المنافقين لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ أنه إذا أراد أمراً يسّرَه .

يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ

الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8)

القائل ابن أُبَيّ كما تقدم.

وقيل: إنه لما قال: ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾.

ورجع إلى المدينة لم يلبث إلا أياماً يسيرة حتى مات؛ فاستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألبسه قميصه؛ فنزلت هذه الآية: ﴿ لَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ ﴾.

وقد مضى بيان هذا كله في سورة "براءة" مستوفىً.

وروي أن عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ بن سلول قال لأبيه: والذي لا إله إلا هو لا تدخل المدينة حتى تقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأعَزّ وأنا الأذلّ؛ فقاله.

تَوَهَّمُوا أن العزّة بكثرة الأموال والأتباع؛ فبيّن الله أن العِزّة والمَنَعة والقُوّة لله. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(142/765)

وقال الآلوسى:

﴿ هُمُ الذين يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّواْ ﴾

استئناف مبين لبعض ما يدل على فسقهم، وجوز أن يكون جارياً مجرى التعليل لعدم

مغفرته تعالى لهم وليس بشيء لأن ذاك معلل بما قبل ، والقائل رأس المنافقين ابن أبي وسائرهم راضون بذلك ، أخرج الترمذي وصححه .

وجماعة عن زيد بن أرقم قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان معنا ناس من الأعراب فكنا نبتدر الماء وكان الأعراب يسبقونا إليه فيسبق الأعرابي أصحابه فيملأ الحوض ويجعل حوضه حجارة ويجعل النطع عليه حتى يجيء أصحابه فإني رجل من الأنصار أعرابياً فأرخى ذمام ناقته لتشرب فأبى أن يدعه فانتزع حجراً ففاض فرفع الأعرابي خشبة فضرب رأس الأنصاري فشجه فأتى عبد الله بن أبي رأس المنافقين فأخبره وكان من أصحابه فغضب ، وقال : ﴿ لاَ تُنفِقُواْ عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ يعني الأعراب ، ثم قال لأصحابه : إذا رجعتم إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل ، قال زيد : وأنا ردف عمي فسمعت عبد الله فأخبرت عمي فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام فحلف وجحد وصدقه صلى الله عليه وسلم وكذبني فجاء عمي إلي فقال : ما أردت إلي أن مقتك وكذبك المسلمون فوقع على من الهم ما لم يقع على أحد قط فبينا أنا أسير وقد

خفضت رأسي من الهم إذا أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرك أذني وضحك في وجهي ثم إن أبا بكر رضي الله تعالى عنه لحقني فقال : ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : ما قال لي شيئاً إلا أنه عرك أذني وضحك في وجهي فقال : أبشر فلما أصبحنا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِذَا جَاءكَ الْمُنافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله ﴾ حتى بلغ ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الاعز مِنْهَا الاذل ﴾ [المنافقون : 8 1] وقد تقدم عن البخاري ما يدل على أنه قائل ذلك أيضاً .

وأخرج الإمام أحمد .

ومسلم .

والنسائي نحو ذلك ، والأخبار فيه أكثر من أن تحصى ؛ وتلك الغزاة التي أشار إليها زيد قال سفيان : يرون أنها غزاة بني المصطلق ، وفي "الكشاف" خبر طويل في القصة يفهم منه أنهم عنوا بمن عند رسول الله فقراء المهاجرين ، والظاهر أن التعبير برسول الله صلى الله عليه وسلم أي بهذا اللفظ وقع منهم ولا يأباه كفرهم لأنهم منافقون مقرون برسالته عليه الصلاة والسلام ظاهراً .

وجوز أن يكونوا قالوه تهكماً أو لغلبته عليه الصلاة والسلام حتى صار كالعلم لم يقصد منه إلا الذات ، ويحتمل أنهم عبروا بغير هذه العبارة فغيرها الله عز وجل إجلالاً لنبيه عليه الصلاة والسلام وإكراماً ، والانفضاض التفرق ، و ﴿ حتى ﴾ للتعليل أي لا تنفقوا عليهم كي يتفرقوا عنه عليه الصلاة والسلام ولا يصحبوه .

وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشي ينفضوا من أنفض القوم فنى طعامهم فنفض الرجل وعاءه ، والفعل مما يتعدى بغير الهمزة وبالهمزة لا يتعدى ، قال في "الكشاف" : وحقيقته حان لهم أن ينفضوا مزاودهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السماء والأرض ﴾ ردّ وإبطال لما زعموا من أن عدم إنفاقهم على من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤدي إلى انفضاضهم عنه عليه الصلاة والسلام ببيان أن خزائن الأرزاق بيد الله تعالى خاصة يعطي منها من يشاء ويمنع من يشاء ﴿ ولكن المنافقين لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ ذلك لجهلهم بالله تعالى وبشؤنه عز وجل ، ولذلك يقولون من مقالات الكفرة ما يقولون .

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾

قائله كما سمعت ابن أبي ، وعنى بالأعز نفسه أو ومن يلوذ به ، وبالأذل من أعزه الله عز وجل وهو الرسول صلى الله عليه وسلم أو هو عليه الصلاة والسلام والمؤمنون ، وإسناد القول المذكور إلى جميعهم لرضاؤهم به كما في سابقه .

وقرأ الحسن .

وابن أبي عبلة .

(145/765)

والسبتي في اختياره لنخرجن بالنون ، ونصب ﴿ الاعز ﴾ على أن ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الاعز ﴾ مفعول به ، و﴿ الاذل ﴾ إما حال بناءاً على جواز تعريف الحال ، أو زيادة أل فيه نحو أرسلها العراك ، وأدخلوا الأول فالأول وهو المشهور في تخريج ذلك ، أو حال بتقدير مثل وهو لا يتعرف بالإضافة أي مثل الأذل ، أو مفعول به لحال محذوفة أي مشبهاً الأذل ، أو مفعول مطلق على أن الأصل إخراج الأذل فحذف المصدر المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فانتصب انتصابه .

وحكى الكسائي .

والفراء أن قوماً قرأوا ليخرجن بالياء مفتوحة وضم الراء .

ورفع ﴿ الاعز ﴾ على الفاعلية .

ونصب ﴿ الاذل ﴾ على ما تقدم ، بيد أنك تقدر على تقدير النصب على المصدرية خروج ، وقرىء ليخرجن بالياء مبنياً للمفعول ، ورفع ﴿ الاعز ﴾ على النيابة عن الفاعل

، ونصب ﴿ الاذل ﴾ على ما مر .

وقرأ الحسن فيما ذكر أبو عمرو الداني لنخرجن بنون الجماعة مفتوحة وضم الراء ، ونصب ﴿ الاعز ﴾ ، وحكى هذه القراءة أبو حاتم ، وخرجت على أن نصب ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الاعز ﴾ على الاختصاص كما في قولهم : نحن العرب أقرى الناس للضيف ، ونصب ﴿ الاذل ﴾ على أحد الأوجه المارة فيما حكاه الكسائي .

والفراء ، والمقصود إظهار التضجر من المؤمنين وأنهم لا يمكنهم أن يساكنوهم في دار كذا قيل : وهو كما ترى ، ولعل هذه القراءة غير ثابتة عن الحسن ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ رد لما زعموه ضمناً من عزتهم وذل من نسبوا إليه الذل ، وحاشاه منه أي ولله تعالى الغلبة والقوة ولمن أعزه الله تعالى من رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لا للغير ، ويعلم مما أشرنا إليه توجيه الحصر المستفاد من تقديم الخبر ، وقيل : إن العطف معتبر قبل نسبة الإسناد فلا ينافي ذلك ولا يضر إعادة الجار لأنها ليست لإفادة الاستقلال في النسبة بل لإفادة تفاوت ثبوت العزة فإن ثبوتها لله تعالى ذاتي وللرسول صلى الله عليه وسلم بواسطة الرسالة وللمؤمنين بواسطة الايمان ، وجاء من عدة طرق أن عبد

الله بن أبي وكان مخلصاً سل سيفه على أبيه عندما أشرفوا على المدينة فقال : والله على أن لا أغمده حتى تقول : محمد الأعز وأنا الأذل فلم يبرح حتى قال ذلك ، وفي رواية أنه رضي الله تعالى عنه وقف والناس يدخلون حتى جاء أبوه فقال : وراءك ، قال : ما لك ويلك ؟! قال : والله لا تدخلها أبداً إلا أن يأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولتعلمن اليوم الأعز من الأذل فرجع حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكا إليه ما صنع ابنه فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن خل عنه يدخل ففعل ؛ وصح من رواية الشيخين .

والترمذي .

وغيرهم عن جابر بن عبد الله أنه لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ابن أبي قام عمر رضي الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه " وفي رواية عن قتادة أنه قال له عليه الصلاة والسلام : يا نبي الله مر معاذاً أن يضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم ، وفي الآية من الدلالة على شرف المؤمنين ما فيها ، ومن هنا

قالت بعض الصالحات وكانت في هيئة رثة : ألست على الإسلام وهو العز الذي لا ذل معه والغني الذي لا فقر معه .

وعن الحسن بن علي على رسول الله وعليهما الصلاة والسلام أن رجلاً قال له : إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً قال : ليس بتيه ولكنه عزة وتلا هذه الآية ، وأريد بالتيه الكبر ، وأشار العز إلى أن العزة غير الكبر ، وقد نص على ذلك أبو حفص السهر وردي قدس سره فقال : العزة غير الكبر لأن العزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وإكرامها أن لا يضعها لأقسام عاجلة كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها ، فالعزة ضد الذلة كما أن الكبر ضد التواضع ، وفسر الراغب العزة بحالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم : أرض عزاز أي صلبة وتعزز اللحم اشتد كأنه حصل في عزاز يصعب الوصول إليه ، وقد تستعار للحمية والأنفة المذمومة وهي بهذا المعنى تثبت للكفرة ، وتفسيرها بالقوة والغلبة كما سمعت شائع ولك أن تريد بها هنا الحالة المانعة من المغلوبية فأنها أيضاً ثابتة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين على الوجه اللائق بكل .

﴿ ولكن المنافقين لَا يَعْلَمُونَ ﴾ من فرط جهلهم وغرورهم فيهذون ما يهذون والفعل هنا منزل منزلة اللازم فلذا لم يقدر له مفعول ولا كذلك الفعل فيما تقدم، وهو ما اختاره غير واحد من الأجلة، وقيل في وجهه: إن كون العزة لله عز وجل مستلزم لكون الأرزاق بيده دون العكس فناسب أن يعتبر الأخلاق في الجملة المذيلة لما يفيد كون العزة له سبحانه قصداً للمبالغة والتقييد للجملة المذيلة لما يفيد كون الأرزاق بيده تعالى، ثم قيل: خص الجملة الأولى ب

﴿ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: 7] والثانية ب ﴿ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ لأن إثبات الفقه للإنسان أبلغ من إثبات العلم له فيكون نفي العلم أبلغ من نفي الفقه فأوثر ما هو أبلغ لما هو ادعى له. وعن الراغب معنى قوله تعالى: ﴿ هُمُ الذين يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ ﴾ [المنافقون: 7] الخ أنهم يأمرون بالاضرار بالمؤمنين وحبس النفقات عنهم ولا يفطنون أنهم إذا فعلوا ذلك أضروا بأنفسهم فهم لا يفقهون ذلك ولا يفطنون له، ومعنى الثاني إيعادهم بإخراج الأعز للأذل، وعندهم أن الأعز من له القوة والغلبة على ما كانوا عليه في الجاهلية فهم لا يعلمون أن هذه القدرة التي يفضل بها الإنسان غيره إنما هي من الله تعالى فهي له سبحانه ولمن يخصه بها من عباده، ولا يعلمون أن الذل لمن يقدرون فيه العزة وأن الله تعالى معز أوليائه بطاعتهم له ومذل أعدائه بمخالفتهم أمره عز وجل، فقد اختص كل آية بما اقتضاه معناها فتدبر،

والإظهار في مقام الإضمار لزيادة الذم مع الإشارة إلى علة الحكم في الموضعين . انتهى

انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(149/765)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِذَا جَاءَكَ المنافقون ﴾

أي : إذا وصلوا إليك وحضروا مجلسك ، وجواب الشرط : ﴿ قالوا ﴾ ، وقيل : محذوف ، و ﴿ قالوا ﴾ : حال ، والتقدير : جاءوك قائلين كيت وكيت ، فلا تقبل منهم ، وقيل : الجواب ﴿ اتخذوا أيمانهم جُنَّةً ﴾ وهو بعيد ﴿ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله ﴾ أكدوا شهادتهم بإنّ واللام ، للإشعار بأنها صادرة من صميم قلوبهم مع خلوص اعتقادهم ، والمراد بالمنافقين : عبد الله بن أبيّ وأصحابه ، ومعنى ﴿ نشهد ﴾ : نحلف ، فهو يجري مجرى القسم ، ولذلك يتلقى بما يتلقى به القسم ، ومن هذا قول قيس بن ذَريح :

وأشهد عند الله أني أحبها . . . فهذا لها عندي فما عندها ليا

ومثل نشهد نعلم ، فإنه يجري مجرى القسم ، كما في قول الشاعر :

ولقد علمت لتأتينّ منيتي . . . إن المنايا لا تطيش سهامها

وجملة : ﴿ واللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ معترضة مقرّرة لمضمون ما قبلها ، وهو ما أظهروه من الشهادة ، وإن كانت بواطنهم على خلاف ذلك ﴿ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لكاذبون ﴾ أي : في شهادتهم التي زعموا أنها من صميم القلب وخلوص الاعتقاد ؛ لا إلى منطوق كلامهم ، وهو الشهادة بالرسالة ، فإنه حقّ ، والمعنى : والله يشهد إنهم لكاذبون فيما تضمنه كلامهم من التأكيد الدالّ على أن شهادتهم بذلك صادرة عن خلوص اعتقاد وطمأنينة قلب ، وموافقة باطن لظاهر .

﴿ اتخذوا أيمانهم جُنَّةً ﴾ أي : جعلوا حلفهم الذي حلفوا لكم به إنهم لمنكم ، وإن محمداً لرسول الله وقاية تقيهم منكم ، وسترة يستترون بها من القتل والأسر ، والجملة مستأنفة لبيان كذبهم وحلفهم عليه ، وقد تقدّم قول من قال : إنها جواب الشرط .

(150/765)

قرأ الجمهور : ﴿ أيمانهم ﴾ بفتح الهمزة ، وقرأ الحسن بكسرها ، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة المجادلة ، ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي : منعوا الناس عن الإيمان والجهاد ، وأعمال الطاعة بسبب ما يصدر منهم من التشكيك والقدح في النبوّة .

هذا معنى الصدّ الذي بمعنى الصرف ، ويجوز أن يكون من الصدود ، أي : أعرضوا عن

الدخول في سبيل الله وإقامة أحكامه ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من النفاق والصدّ ، وفي ساء معنى التعجب ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم ذكره من الكذب ، والصدّ ، وقبح الأعمال ، وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي : بسبب أنهم آمنوا في الظاهر نفاقاً ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ في الباطن ، أو أظهروا الإيمان للمؤمنين ، وأظهروا الكفر للكافرين ، وهذا صريح في كفر المنافقين ، وقيل : نزلت الآية في قوم آمنوا ثم ارتدّوا ، والأوّل أولى ، كما يفيده السياق .

﴿ فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : ختم عليها بسبب كفرهم .

قرأ الجمهور : ﴿ فطبع ﴾ على البناء للمفعول ، والقائم مقام الفاعل الجار والمجرور بعده ، وقرأ زيد بن عليّ على البناء للفاعل ، والفاعل ضمير يعود إلى الله سبحانه ، ويدل على هذا قراءة الأعمش : (فطبع الله على قلوبهم) .

﴿ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ ما فيه من صلاحهم ورشادهم ، وهو الإيمان .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أجسامهم ﴾ أي : هيئاتهم ومناظرهم ، يعني : أن لهم أجساماً تعجب من يراها لما فيها من النضارة والرونق ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ فتحسب أن قولهم حقّ وصدق لفصاحتهم ، وذلاقة ألسنتهم ، وقد كان عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين فصيحاً جسيماً جميلاً ، وكان يحضر مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فإذا قال سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم مقالته .

قال الكلبي : المراد عبد الله بن أبيّ ، وجدّ بن قيس ، ومعتب بن قيس كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة ، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقيل : لكلّ من يصلح له ، ويدلّ عليه قراءة من قرأ : (يسمع) على البناء للمفعول ، وجملة : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ مستأنفة لتقرير ما تقدّم من أن أجسامهم تعجب الرائي وتروق الناظر ، ويجوز أن تكون في محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، شبّهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم مستندين بها بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط التي لا تفهم ولا تعلم ، وهم كذلك لخلوّهم عن الفهم النافع ، والعلم الذي ينتفع به صاحبه ، قال الزجاج : وصفهم بتمام الصور ، ثم أعلم أنهم في ترك الفهم والاستبصار بمنزلة الخشب .

قرأ الجمهور : ﴿ خشب ﴾ بضمتين ، وقرأ أبو عمرو ، والكسائي ، وقنبل بإسكان الشين ، وبها قرأ البراء بن عازب ، واختارها أبو عبيد ؛ لأن واحدتها خشبة كبدنة وبدن ، واختار القراءة الأولى أبو حاتم .

وقرأ سعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب بفتحتين ، ومعنى ﴿ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ : أنها أسندت إلى غيرها ، من قولهم : أسندت كذا إلى كذا ، والتشديد للتكثير .

ثم عابهم الله سبحانه بالجبن ، فقال : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : يحسبون كل صيحة يسمعونها واقعة عليهم ، نازلة بهم لفرط جبنهم ورعب قلوبهم ، وفي المفعول الثاني للحسبان وجهان : أحدهما : أنه عليهم ، ويكون قوله : ﴿ هُمُ العدو ﴾ جملة مستأنفة ؛ لبيان أنهم الكاملون في العداوة لكونهم يظهرون غير ما يبطنون ، والوجه الثاني : أن المفعول الثاني للحسبان هو قوله : ﴿ هُمُ العدو ﴾ ، ويكون قوله : ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ متعلقاً ب ﴿ صيحة ﴾ ، وإنما جاء بضمير الجماعة باعتبار الخبر ، وكان حقه أن يقال : هو العدوّ ، والوجه الأوّل أولى .

(152/765)

قال مقاتل ، والسديّ : أي إذا نادى منادٍ في العسكر ، أو انفلتت دابة ، أو أنشدت ضالة ظنوا أنهم المرادون لما في قلوبهم من الرعب ، ومن هذا قول الشاعر :

ما زلت تحسب كلّ شيء بعدهم . . . خيلا تكرّ عليهم ورجالا

وقيل : كان المنافقون على وجل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم ، ويبيح دماءهم وأموالهم .

ثم أمر الله سبحانه رسوله بأن يأخذ حذره منهم فقال : ﴿ فاحذرهم ﴾ أن يتمكنوا من

فرصة منك ، أو يطلعوا على شيء من أسرارك ؛ لأنهم عيون لأعدائك من الكفار .

ثم دعا عليهم بقوله : ﴿ قاتلهم الله أنى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي : لعنهم الله ، وقد تقول العرب هذه الكلمة على طريقة التعجب ، كقولهم : قاتله الله من شاعر ، أو ما أشعره ، وليس بمراد هنا ، بل المراد ذمهم وتوبيخهم ، وهو طلب من الله سبحانه طلبه من ذاته – عزّ وجلّ – أن يلعنهم ويخزيهم ، أو هو تعليم للمؤمنين أن يقولوا ذلك ؛ ومعنى ﴿ أنى يُؤْفَكُونَ ﴾ : كيف يصرفون عن الحق ، ويميلون عنه إلى الكفر .

قال قتادة : معناه يعدلون عن الحق .

وقال الحسن معناه يصرفون عن الرشد .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ الله ﴾ أي : إذا قال لهم القائل من المؤمنين قد نزل فيكم ما نزل من القرآن ، فتوبوا إلى الله ورسوله ، وتعالوا يستغفر لكم رسول الله ﴿ لَوَّوْا رُءوسَهُمْ ﴾ أي : حركوها استهزاء بذلك .

قال مقاتل : عطفوا رءوسهم رغبة عن الاستغفار .

قرأ الجمهور : ﴿ لوّوا ﴾ بالتشديد .

وقرأ نافع بالتخفيف، واختار القراءة الأولى أبو عبيد ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ أي: يعرضون عن قول من قال لهم: تعالوا يستغفر لكم رسول الله، أو يعرضون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجملة: ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل الحال الأولى، وهي يصدّون؛ لأن الرؤية بصرية، ف ﴿ يصدّون ﴾ في محل نصب على الحال، والمعنى: ورأيتهم صادّين مستكبرين ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ أي: الاستغفار وعدمه سواء لا ينفعهم ذلك لإصرارهم على النفاق، واستمرارهم على الكفر.

قرأ الجمهور: ﴿ أستغفرت ﴾ بهمزة مفتوحة من غير مدّ، وحذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة "أم" عليها.

وقرأ يزيد بن القعقاع بهمزة ثم ألف ﴿ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ أي: ما داموا على النفاق ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي: الكاملين في الخروج عن الطاعة، والانهماك في معاصي الله، ويدخل فيهم المنافقون دخولاً أوّلياً.

ثم ذكر سبحانه بعض قبائحهم فقال: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّواْ ﴾ أي: حتى يتفرّقوا عنه، يعنون بذلك فقراء المهاجرين، والجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل لفسقهم، أو لعدم مغفرة الله لهم.

قرأ الجمهور: ﴿ ينفضوا ﴾ من الانفضاض، وهو التفرّق، وقرأ الفضل بن عيسى

الرقاشي : (ينفضوا) من أنفض القوم : إذا فنيت أزوادهم ، يقال : نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفضّ .

ثم أخبر سبحانه بسعة ملكه فقال : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السموات والأرض ﴾ أي : إنه هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين ؛ لأن خزائن الرزق له فيعطي من شاء ما شاء ، ويمنع من شاء ما شاء ﴿ ولكن المنافقين لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ ذلك ، ولا يعلمون أن خزائن الأرزاق بيد الله عزّ وجلّ ، وأنه الباسط القابض المعطي المانع .

ثم ذكر سبحانه مقالة شنعاء قالوها فقال : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ القائل لهذه المقالة هو عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين ، وعنى بالأعزّ : نفسه ومن معه ، وبالأذلّ : رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ، ومراده بالرجوع : رجوعهم من تلك الغزوة ، وإنما أسند القول إلى المنافقين مع كون القائل هو فرد من أفرادهم ، وهو عبد الله بن أبيّ ، لكونه كان رئيسهم وصاحب أمرهم ، وهم راضون بما يقوله سامعون له مطيعون .

ثم ردّ الله سبحانه على قائل تلك المقالة فقال : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي :

القوّة والغلبة لله وحده ولمن أفاضها عليه من رسله وصالحي عباده لا لغيرهم .

اللَّهم كما جعلت العزّة للمؤمنين على المنافقين ، فاجعل العزّة للعادلين من عبادك ، وأنزل الذلة على الجائرين الظالمين ﴿ ولكن المنافقين لا يَعْلَمُونَ ﴾ بما فيه النفع فيفعلونه ، وبما فيه الضرّ فيجتنبونه ، بل هم كالأنعام لفرط جهلهم ومزيد حيرتهم ، والطبع على قلوبهم .

وقد أخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن زيد بن أرقم قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فأصاب الناس شدّة ، فقال عبد الله بن أبيّ لأصحابه : ﴿ لا تُنفِقُوا على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّوا ﴾ من حوله ، وقال : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته بذلك ، فأرسل إلى عبد الله بن أبيّ ، فسأله ، فاجتهد يمينه ما فعل ، فقالوا : كذب زيد رسول الله ، فوقع في نفسي مما قالوا شدّة حتى أنزل الله تصديقي في ﴿ إِذَا جَاءكَ المنافقون ﴾ ، فدعاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ليستغفر لهم ، فلوّوا رءوسهم ، وهو قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ قال : كانوا رجالاً أجمل شيء .

وأخرجه عنه بأطول من هذا ابن سعد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، وابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : إنما سماهم الله منافقين ، لأنهم كتموا الشرك وأظهروا الإيمان .

وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ اتخذوا أيمانهم جُنَّةً ﴾ قال : حلفهم بالله إنهم لمنكم اجتنوا بأيمانهم من القتل والحرب .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ قال : نخل قيام .

وأخرج ابن مردويه ، والضياء في المختارة عنه أيضاً .

قال : نزلت هذه الآية : ﴿ هُمُ الذين يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّواْ ﴾ في عسيف لعمر بن الخطاب .

وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم ، وابن مسعود أنهما قرآ : (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله) .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في غزاة .

قال سفيان : يرون أنها غزوة بني المصطلق ، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال المهاجريّ يا للمهاجرين ، وقال الأنصاريّ يا للأنصار ، فسمع ذلك النبيّ صلى الله عليه

وسلم فقال :

" ما بال دعوة الجاهلية " ؟ قالوا : رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " دعوها ، فإنها منتنة " ، فسمع ذلك عبد الله بن أبيّ ، فقال : أو قد فعلوها ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منه الأذلّ ، فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقام عمر فقال : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه " ، زاد الترمذي فقال له ابنه عبد الله : والله لا تنفلت حتى تقر أنك الذليل ، ورسول الله العزيز ، ففعل .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 229 . 233 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا ﴾

هذا أيضاً من مقالاتهم في مجامعهم وجماعتهم يقولونها لإخوانهم الذين كانوا ينفقون على فقراء المسلمين تظاهراً بالإسلام كأنهم يقول بعضهم لبعض تظاهَرْ الإسلام بغير الإنفاق مثل قولهم لمن يقول لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله ، ولذلك عقبت بها .

وقد جاء في الأحاديث الصحيحة أن قائل هذه المقالة عبد الله بن أُبيّ ابن سلول كما تقدم في طالعة تفسير هذه السورة فإسناد هذا القول إلى ضمير المنافقين لأنهم تقبلوه منه إذ هو رأس المنافقين أو فشا هذا القول بين المنافقين فأخذوا يبثونه في المسلمين .

وموقع الجملة الاستئناف الابتدائي المعْربِ عن مكرهم وسوء طواياهم انتقالاً من وصف إعراضهم عند التقرب من الرسول صلى الله عليه وسلم إلى وصف لون آخر من كفرهم وهو الكيد للدِّين في صورة النصيحة .

وافتتحت الجملة بضميرهم الظاهر دون الاكتفاء بالمستتر في ﴿ يقولون ﴾ معاملة لهم بنقيض مقصودهم فإنهم سَتروا كيدهم بإظهار قصد النصيحة ففضح الله أمرهم بمزيد التصريح ، أي قد علمتُ أنكم تقولون هذا .

وفي إظهار الضمير أيضاً تعريض بالتوبيخ كقوله تعالى : ﴿ أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ﴾ [ص : 60] .

وليَكون للجملة الاسمية إفادةُ ثبات الخبر ، وليكون الإِتيان بالموصول مشعراً بأنهم عرفوا بهذه الصّلة .

وصيغة المضارع في ﴿ يقولون ﴾ يشعر بأنّ في هذه المقالة تتكرّر منهم لقصد إفشائها .

و﴿ من عند رسول الله ﴾ من كانوا في رعايته مثل أهل الصُفّة ومن كانوا يَلحقون بالمدينة

من الأعراب العُفاة أو فريق من الأعراب كان يموّنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق.

(157/765)

روى البخاري عن زيد بن أرقم قال: "خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر أصاب الناسَ فيه شدة فقال عبد الله بن أُبَيّ: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله" وهذا كلام مَكر لأن ظاهره قصد الرفق برسول الله صلى الله عليه وسلم من كلفة إنفاق الأعراب الذين أُلَمّوا به في غزوة بني المصطلق، وباطنه إرادة إبعاد الأعراب عن تلقي الهدي النبوي وعن أن يتقوى بهم المسلمون أو تفرق فُقراء المهاجرين لتضعف بتفرقهم بعض قوة المسلمين.

وروايات حديث زيد مختلطة.

وقوله: ﴿رسول الله﴾ يظهر أنه صدر من عبد الله بن أُبَيّ ومن معه من المنافقين بهذا اللفظ إذا كانوا قالوا ذلك جهراً في ملإ المسلمين إذ هم يتظاهرون ساعتئذٍ بالإسلام.

و﴿حتّى﴾ مستعملة في التعليل بطريقة المجاز المرسل لأن معنى ﴿حتى﴾ انتهاء الفعل المذكور قبلها وغاية الفعل ينتهي الفاعل عن الفعل إذا بلغها، فهي سبب للانتهاء وعلّة

له ، وليس المراد فإذا نفضوا فأنفقوا عليهم .

والإِنفضاض : التفرق والابتعاد .

﴿ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السماوات والأرض ولكن المنافقين لاَ ﴾ .

عطف على جملة ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله ﴾ إبطال لمكر المنافقين فيما قصدوه من قولهم المتظاهرين بأنهم قصدوا به نصح المسلمين ، أي لو تمشت حيلتهم على المسلمين فأمسكوا هم وبعض المسلمين عن إنفاق الأعراب ومن يأوون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العفاة ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقطع عنهم الإِنفاق وذلك دأبه كما دل عليه حديث عمر بن الخطاب "أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما عندي شيء ولكن ابتع عليَّ فإذا جاءني شيء قضيتُه .

فقال عمر : يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه ، فكره النبي صلى الله عليه وسلم قول عمر .

فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أَنفق ولا تخشَ من ذِي العرشش إِقلالاً .

فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعُرف في وجهه البشر لقول الأنصاري ثم قال :

بهذا أُمرتُ" .

رواه الترمذي في كتاب "الشمائل" .

وهذا جواب من باب طريقة النقض لكلامهم في مصطلح آداب البحث .

و ﴿ خزائن ﴾ جمع خزانة بكسر الخاء .

وهي البيت الذي تُخزن فيه الطعام قال تعالى : ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض ﴾

تقدم في سورة يوسف (55) .

وتطلق على الصندوق الكبير الذي يخزن فيه المال على سبيل التوسع وعلى بيوت الكتب وصناديقها ، ومن هذا ما جاء في حديث الصرف من الموطأ ﴾ "حتى يحضر خازني من الغابة" .

و ﴿ خزائن السماوات ﴾ مقارّ أسباب حصول الأرزاق من غيوث رسمية وأشعة الشمس والرياح الصالحة فيأتي ذلك بتوفير الثمار والحبوب وخصب المرعى وتزايد النتاج.

وأما خزائن الأرض فما فيها من أهرية ومطاميرَ وأندر ، ومن كنوز الأحوال وما يفتح الله لرسوله صلى الله عليه وسلم من البلاد وما يفيء عليه من أهل القرى .

واللام في ﴿ لله ﴾ الملك أي التصرف في ذلك ملك لله تعالى .

ولما كان الإنفاق على فقراء المسلمين مما يعين على ظهور الدين الذي أرسل الله به رسوله صلى الله عليه وسلم كان الإخبار بأن الخزائن لله كنايةً عن تيسير الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم حصول ما ينفق منه كما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم لما قال له الأنصاري "ولا تَخشَ من ذي العرش إقلالاً" "بهذا أُمرت" .

وذلك بما سيره الله لرسوله صلى الله عليه وسلم من زكوات المسلمين وغنائم الغزوات ، وما فتح الله عليه من البلاد بخيراتها ، وما أفاء الله عليه بغير قتال .

وتقديم المجرور من قوله : ﴿ ولله خزائن السماوات والأرض ﴾ لإفادة قصر القلب وهو قلب للازم قولهم لا لصريحه لأن المنافقين لما قالوا : ﴿ لا تنفقوا على من عند رسول الله ﴾ حسبوا أنهم إذا قطعوا الإنفاق على مَن عند رسول الله لا يجد الرسول صلى الله عليه وسلم ما ينفق منه عليهم فأعلم الله رسوله مباشرة وأعلمهم تبعاً بأن ما عند الله من الرزق أعظم وأوسع .

واستدراك قوله : ﴿ ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ لرفع ما يتوهم من أنهم حين قالوا : ﴿ لا

تنفقوا على من عند رسول الله ﴾ كانوا قالوه عن بصيرة ويقين بأن انقطاع إنفاقهم على الذين يلوذون برسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع رزقهم فينفضون عنه بناء على أن القدرة على الإنفاق منحصرة فيهم لأنهم أهل الأحوال وقد غفلوا عن تعدد أسباب الغنى وأسباب الفقر .

والمعنى : أنهم لا يدركون دقائق المدركات وخفاياها .

ومفعول ﴿ يفقهون ﴾ محذوف ، أي لا يفقهون ذلك وهو مضمون ﴿ لله خزائن السماوات والأرض ﴾ ، أو نُزل الفعل منزلة اللازم مبالغة في انتفاء فقه الأشياء عنهم في كل حال .

يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8)

استئناف ثان على أسلوب التعداد والتكرير ولذلك لم يعطف .

ومثله يكثر في مقام التوبيخ .

(160/765)

وهذا وصف لخبث نواياهم إذْ أرادوا التهديد وإفسادَ إخلاص الأنصار وأخوّتهم مع المهاجرين بإلقاء هذا الخاطر في نفوس الأنصار بذراً للفتنة والتفرقة وانتهازاً لخصومة طفيفة

حدثت بين شخصين من موالي الفريقين ، وهذا القول المحكي هنا صدر من عبد الله بن أُبيّ ابن سلول حين كسَع حليفُ المهاجرين حليفَ الأنصار كما تقدم في ذكر سبب نزول هذه السورة ، وعند قوله تعالى : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله ﴾ [المنافقون : 7] فإسناد القول إلى ضمير المنافقين هنا كإسناده هناك .

وصيغة المضارع في حكاية هذه المقالة لاستحضار الحالة العجيبة كقوله تعالى : ﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ [هود : 74] .

والمدينة هي مدينتهم المعهودة وهي يثرب .

و ﴿ الأعزّ ﴾ : القويّ العِزة وهو الذي لا يُقهر ولا يُغلب على تفاوت في مقدار العزّة إذ هي من الأمور النسبية .

والعزة تحصل بوفرة العدد وسعة المال والعُدة ، وأراد بـ ﴿ الأعز ﴾ فريق الأنصار فإنهم أهل المدينة وأهل الأموال وهم أكثر عدداً من المهاجرين فأراد لَيُخْرِجن الأنصار من مدينتهم مَن جاءها من المهاجرين .

وقد أبطل الله كلامهم بقوله : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ وهو جواب بالطريقة التي تسمي القول بالموجَب في علم الجدل وهي مما يسمّى بالتسليم الجَدلي في علم آداب البحث .

والمعنى : إن كان الأعزّ يخرج الأذلّ فإن المؤمنين هم الفريق الأعزّ .

وعزتهم بكون الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم وبتأييد الله رسولَه صلى الله عليه وسلم وأولياءه لأن عزّة الله هي العزة الحق المطلقة ، وعزّة غيره ناقصة ، فلا جرم أن أولياء الله هم الذين لا يُقهرون إذا أراد الله نصرهم ووعدهم به .

فإن كان إخراجٌ من المدينة فإنما يُخرج منها أنتم يا أهل النفاق .

وتقديم المسند على المسند إليه في ﴿ ولله العزة ﴾ لقصد القصر وهو قصر قلب ، أي العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين لا لكم كما تحسبون .

(161/765)

وإعادة اللام في قوله : ﴿ ولرسوله ﴾ مع أن حرف العطف مُغن عنها لتأكيد عزّة الرسول صلى الله عليه وسلم وأنها بسبب عزّة الله ووعده إياه ، وإعادة اللام أيضاً في قوله : ﴿ وللمؤمنين ﴾ للتأكيد أيضاً إذ قد تخفى عزتهم وأكثرهم في حال قلة وحاجة .

والقول في الاستدراك بقوله : ﴿ ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ نظير القول آنفاً في قوله : ﴿ ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ [المنافقون : 7] .

وعدل عن الإِضمار في قوله : ﴿ ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ .

وقد سبق اسمهم في نظيرها قبلها لتكون الجملة مستقلة الدلالة بذاتها فتسير سير المثل .

وإنما نفي عنهم هنا العلم تجهيلاً بسوء التأمل في أمارات الظهور والانحطاط فلم يفطنوا للإقبال الذي في أحوال المسلمين وازدياد سلطانهم يوماً فيوماً وتناقص من أعدائهم فإن ذلك أمر مشاهد فكيف يظن المنافقون أن عزتهم أقوى من عزّة قبائل العرب الذين يَسقطون بأيدي المسلمين كلما غزوهم من يوم بدر فما بعده. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(162/765)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (9) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان هذا الذي حكاه سبحانه وتعالى عن المنافقين بحيث يعجب غاية العجب من تصور قائله له فضلاً عن أن يتفوه به فكيف بأن يعتقده، نبه على أن العلة الموجبة له طمس

البصيرة ، وأن العلة في طمس البصيرة الإقبال بجميع القلب على الدنيا رجوعاً على إيضاح ما تقدم في نتيجة الجمعة من الإذن في طلب الرزق والتحذير من مثل فعل حاطب. رضى الله عنه. وفعل من انصرف عن خطبة لتلك العير ، وكان هذا التنبيه على وجه حاسم لمادة شرههم في كلامهم فإن كلمة الشح كما قيل مطاعة ، ولو بأن تؤثر أثراً ما ولو بأن تقتر نوع تقتير في وقت ما ، فقال منادياً لمن يحتاج إلى ذلك : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي أخبروا بما يقتضي أن بواطنهم مذعنة كظواهرهم ﴿ لا تلهكم أموالكم ﴾ ولما كان الخطاب مع من يحتاج إلى التأكيد قال : ﴿ ولا أولادكم ﴾ أي لا تقبلوا على شيء من ذلك بجميع قلوبكم إقبالاً يحيركم سواء كان ذلك في إصلاحها أو التمتع بها بحيث تشتغلون وتغفلون ﴿ عن ذكر الله ﴾ أي من توحيد الملك الأعظم الذي له الإحاطة الكاملة بكل شيء فله الملك وله الحمد يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، فإذا كان العبد ذاكراً له بقلبه دائماً لم يقل كقول المنافقين ﴿ لا تنفقوا ﴾ [المنافقين : 7] ولا ﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ [المنافقين : 8] لعلمه أن الأمر كله لله ، وأنه لن يضر الله شيئاً ، ولا يضر بذلك إلا نفسه ، وهذا يشمل ما قالوه من التوحيد والصلاة والحج والصوم وغير ذلك ، ولإرادة المبالغة في النهي وجّه النهي إلى الأموال والأولاد بما المراد منه نهيهم .

ولما كان التقدير : فمن انتهى فهو من الفائزين ، عطف عليه قوله : ﴿ ومن يفعل ﴾ أي يوقع في زمن من الأزمان على سبيل التجديد والاستمرار فعل ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر البعيد عن أفعال ذوي الهمم من الانقطاع إلى الاشتغال بالفاني والإعراض عن الباقي والإقبال على العاجل مع نسيان الآجل ﴿ فأولئك ﴾ أي البعداء عن الخير ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ الخاسرون ﴾ أي العريقون في الخسارة حتى كأنهم كانوا مختصين بها دون الناس ، وذلك ضد ما أرادوا بتوفير النظر إليهم والإقبال عليهم من السعي للتكثير والزيادة والتوفير ، وفي إفهامه أن من شغله ما يهمه من أمر دينه الذي أمره سبحانه به ونهاه عنه إضاعته وتوعده عليها كفاه سبحانه أمر دنياه الذي ضمنه له ونهاه أن يجعله أكبر همه وتوعده على ذلك ، فما ذكره إلا من وجده في جميع أموره ديناً ودنيا ، وتوجه إليه في جميع نوائبه ، وأقبل عليه بكل همومه ، وبذل نفسه له بذل من يعلم أنه مملوك مربوب فقد أمر ربه على نفسه واتخذه وكيلاً فاستراح من المخاوف ، ولم يمل إلى شيء من المطامع فصار حراً .

ولما حذر من الإقبال على الدنيا ، رغب في بذلها مخالفة للمنافقين فقال : ﴿ وأنفقوا ﴾ أي ما أمرتم به من واجب أو مندوب ، وزاد في الترغيب بالرضى منهم باليسير مما هو كله له بقوله : ﴿ من ما رزقناكم ﴾ أي من عظمتنا وبلغ النهاية في ذلك بالرضا بفعل ما أمر به مع التوبة النصوح في زمن ما ولو قل بما أرشد إليه إثبات الجار ، فقال مرغباً في التأهب للرحيل

والمبادرة لمباغتة الأجل، محذراً من الاغترار بالتسويف في أوقات السلامة: ﴿ من قبل ﴾ وفك المصدر ليفيد "أن" مزيد القرب فقال: ﴿ أن يأتي ﴾ ولما كان تقديم المفعول كما تقدم في النساء أهول قال: ﴿ أحدكم الموت ﴾ أي برؤية دلائله وأماراته، وكل لحظة مرت فهي من دلائله وأماراته.

(164/765)

ولما كانت الشدائد تقتضي الإقبال على الله، سبب عن ذلك بقوله: ﴿ فيقول ﴾ سائلاً في الرجعة، وأشار إلى ترقيقها للقلوب بقوله: ﴿ رب لولا ﴾ أي هل لا ولم لا ﴿ أخرتني ﴾ أي أخرت موتي إمهالاً لي ﴿ إلى أجل ﴾ أي زمان، وبين أن مراده استدراك ما فات ليس إلا بقوله: ﴿ قريب فأصدق ﴾ أي للتزود في سفري هذا الطويل الذي أنا مستقبله، قال الغزالي في كتاب التوبة من الإحياء: قال بعض العارفين: إن ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة، وأنك لا تستأخر عنها طرفة عين فيبدو للعبد من الأسف والحسرة مما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه، يقول: يا ملك الموت! أخرني يوماً أعتذر فيه إلى ربي وأتوب وأتزود فيها صالحاً لنفسي، فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه

باب التوبة فيتغرغر بروحه وتردد أنفاسه في شراسيفه ويتجرع غصة البأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأهوال ، فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد ، فذلك حسن الخاتمة ، وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله تعالى خرجت روحه على الشك والاضطراب ، وذلك سوء الخاتمة ، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين : أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو ، الثاني أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ، فيأتي الله تعالى بقلب غير سليم ، والقلب أمانة الله عند عبده ، قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين على سبيل الإلهام : أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له : عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً واستودعتك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر كيف تلقاني ، والثاني عند خروج روحه يقول : عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها

حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعذاب .

ولعله أدغم تاء التفعل إشارة إلى أنه إذا أخر فعل ذلك على وجه الإخفاء ليكون أفضل ، أو يكون إدغامها اختصاراً لبلوغ الأمر إلى حد محوج إلى الإيجاز في القول كما طلب في الزمن ، ويؤيده قراءة الجماعة غير أبي عمرو ﴿ وأكن ﴾ بالجزم عطفاً على الجواب الذي هدى السياق إلى تقديره ، فإن حال هذا الذي أشرف هذا الإشراف يقتضي أن يكون أراد إن " أخرتني أتصدق " ولكنه حذفه لضيق المقام عنه واقتضاء الحال لحذفه ، وهو معنى ما حكاه سيبويه عن الخليل أن الجزم على توهم الشرط الذي دل عليه التمني على الموضع ، فإن الجازم غير موجود ، ومعنى ما قال غيره أن " لولا " لكونها تحضيضية متضمنة معنى الأمر ومعنى الشرط ، فكأنه قيل : أخرني ، فيكون جوابه العاري عن الفاء مجزوماً لفظاً والمقرون بها مجزوماً محلاًف " اكن " عطف على المحل ، ونصب أبو عمرو عطفاً على اللفظ لأنه جواب التمني الذي دلت عليه " لولا " وإجماع المصاحف على حذف الواو لا يضره لأنه قال : إنها للاختصار ، وهو ظاهر ، وذلك للمناسبة بين اللفظ والخط والزمان والمراد ، ومن هنا تعرف جلالة القراء ومرادهم إن شاء الله تعالى بقولهم في الضابط المشهور وإن توافق رسم المصحف ولو احتمالاً ﴿ من الصالحين ﴾ أي العريقين في هذا الوصف العظيم ، وزاد في الحث على المبادرة بالطاعات قبل الفوات بقوله مؤكداً لأجل عظيم الرجاء من هذا المحتضر للتأخير عطفاً على ما تقديره : فلا يؤخره الله فيفوته ما أراد

: ﴿ ولن ﴾ ويجوز أن تكون الجملة حالاً أي قال ذلك والحال أنه لن ﴿ يؤخر الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له فلا اعتراض عليه ﴿ نفساً ﴾ أي أيّ نفس كانت ، وحقق الأجل بقوله : ﴿ إذا جاء أجلها ﴾ أي وقت موتها الذي حده الله لها فلا يؤخر الله نفس هذا القائل لأنها من جملة النفوس التي شملها النفي .

(166/765)

ولما كان المعنى على طريق النتائج التي لا شك في إرشاد اللفظ إليها : الله عالم فإنه يقول ذلك ، عطف عليه قوله حاثاً على المسارعة إلى الخروج عن عهدة الطاعات والاستعداد لما لا بد منه من اللقاء محذراً من الإخلال ولأنه لا تهديد كالعلم : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة الشاملة علماً وقدرة ﴿ خبير ﴾ أي بالغ الخبرة والعلم ظاهراً وباطناً ﴿ بما تعملون ﴾ أي توقعون عمله في الماضي والحال والمآل كله ظاهره وباطنه من هذا الذي أخبرتكم أن المحتضر العاصي يقوله ومن غيره منه ومن غيره أيها الناس - هذا على قراءة الجمهور بالخطاب ، وعلى قراءة أبي بكر عن عاصم بالغيب يمكن أن يراد المنافقون ، ويمكن أن يعم فيكون الضمير للنفس على المعنى ويمكن أن يكون الضمير للناس على الالتفات للإعراض تخويفاً لهم ، ولذلك علم سبحانه كذب المنافقين في أنهم يعتقدون ما

شهدوا به في أمر الرسالة وعلم جميع ما قص من أخبارهم ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [الملك : 14] والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 617.613 ﴾

(167/765)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

﴿ لاَ تُلْهِكُمْ ﴾ لا تشغلكم كما شغلت المنافقين ، وقد اختلف المفسرون منهم من قال : نزلت في حق المنافقين ، ومنهم من قال في حق المؤمنين ، وقوله : ﴿ عَن ذِكْرِ الله ﴾ عن فرائض الله تعالى نحو الصلاة والزكاة والحج أو عن طاعة الله تعالى وقال الضحاك : الصلوات الخمس ، وعند مقاتل : هذه الآية وما بعدها خطاب للمنافقين الذين أقروا بالإيمان ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك ﴾ أي ألهاه ماله وولده عن ذكر الله ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ أي في تجارتهم حيث باعوا الشريف الباقي بالخسيس الفاني وقيل : هم الخاسرون في إنكار ما قال به رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوحيد والبعث .

وقال الكلبي : الجهاد ، وقيل : هو القرآن وقيل : هو النظر في القرآن والتفكر والتأمل فيه ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا رزقناكم ﴾ قال ابن عباس يريد زكاة المال ومن للتبعيض ، وقيل : المراد هو الإنفاق الواجب ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الموت ﴾ أي دلائل الموت وعلاماته فيسأل الرجعة إلى الدنيا وهو قوله : ﴿ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ وقيل حضهم على إدامة الذكر ، وأن لا يضنوا بالأموال ، أي هلا أمهلتني وأخرت أجلي إلى زمان قليل ، وهو الزيادة في أجله حتى يتصدق ويتزكى وهو قوله تعالى : ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصالحين ﴾ قال ابن عباس هذا دليل على أن القوم لم يكونوا مؤمنين إذ المؤمن لا يسأل الرجعة .

(168/765)

وقال الضحاك : لا ينزل بأحد لم يحج ولم يؤد الزكاة الموت إلا وسأل الرجعة وقرأ هذه الآية ، وقال صاحب "الكشاف" : من قبل أن يعاين ما ييأس معه من الإمهال ويضيق به الخناق ويتعذر عليه الإنفاق ، ويفوت وقت القبول فيتحسر على المنع ويعض أنامله على فقد ما كان متمكناً منه ، وعن ابن عباس تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل وقوله : ﴿ وَأَكُن مِّنَ الصالحين ﴾ قال ابن عباس : أحج وقرىء فأكون وهو على لفظ فأصدق وأكون ، قال المبرد : وأكون على ما قبله لأن قوله : ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾

جواب للاستفهام الذي فيه التمني والجزم على موضع الفاء ، وقرأ أبي فأتصدق على الأصل وأكن عطفاً على موضع فأصدق : وأنشد سيبويه أبياتاً كثيرة في الحمل على الموضع منها :

(معاوى إننا بشر فأسجح) . . فلسنا بالجبال ولا الحديدا

فنصب الحديد عطفاً على المحل والباء في قوله : بالجبال ، للتأكيد لا لمعنى مستقبل يجوز حذفه وعكسه قول ابن أبي سلمى :

بدا لي أني لست مدرك ماضي . . ولا سابق شيئاً إذا كان جائياً

توهم أنه قال بمدرك فعطف عليه قوله سابق ، عطفاً على المفهوم ، وأما قراءة أبي عمرو ﴿ وأكون ﴾ فإنه حمله على اللفظ دون المعنى ، ثم أخبر تعالى أنه لا يؤخر من انقضت مدته وحضر أجله فقال : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً ﴾ يعني عن الموت إذا جاء أجلها ، قال في "الكشاف" : هذا نفي للتأخير على وجه التأكيد الذي معناه منافاة المنفي ، وبالجملة فقوله : ﴿ لاَ تُلْهِكُمْ أموالكم وَلاَ أولادكم ﴾ تنبيه على الذكر قبل الموت : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا رزقناكم ﴾ تنبيه على الشكر لذلك وقوله تعالى : ﴿ والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي لو رد إلى الدنيا ما زكى ولا حج ، ويكون هذا كقوله :

﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 28] والمفسرون على أن هذا خطاب جامع لكل عمل خيراً أو شراً وقرأ عاصم يعملون بالياء على قوله : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً ﴾ لأن النفس وإن كان واحداً في اللفظ ، فالمراد به الكثير فحمل على المعنى والله أعلم وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 18.17 ﴾

(170/765)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ هم الذين ﴾

أشار عبد الله بن أبي ومن قال بقوله ، قاله علي بن سليمان ثم سفه أحلامهم في أن ظنوا إنفاقهم هو سبب رزق المهاجرين ونسوا أن جريان الرزق بيد الله تعالى ، إذا انسد باب انفتح غيره ، وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشي : " حتى يُنفِضْوا " بضم الياء وتخفيف الفاء ، يقال : " أنفَضَ " الرجل إذا فني طعامه فنفض وعاءه والخزائن موضع الإعداد ، ونجد القرآن قد نطق في غير موضع بالخزائن ونجد في الحديث : " خزنة الربح " وفي القرآن : ﴿ من جبال

فيها من برد ﴾ [النور : 43] ، فجائز أن تكون هذه عبارة عن القدرة وأن هذه الأشياء إيجادها عند ظهورها جائز . وهو الأظهر . إن منها أشياء مخلوقة موجودة يصرفها الله تعالى حيث شاء ، وظواهر ألفاظ الشريعة تعطي هذا . ومعناه في التفسير قال عتت على الخزان ، وفي الحديث : " ما انفتح من خزائن الربح على قوم عاد إلا قدر حلقة الخاتم ، ولو انفتح مقدار منخر الثور لهلكت الدنيا "

(171/765)

، وقال رجل لحاتم الأصم : من أين تأكل ، فقرأ : ﴿ ولله خزائن السماوات والأرض ﴾ ، وقال الجنيد : ﴿ خزائن ﴾ السماء : الغيوب ، و﴿ خزائن ﴾ الأرض : القلوب : وقرأ الجمهور : " لَيُخرِجن الأعز " بضم الياء وكسر الراء بمعنى أن العزيز يخرج الذليل ويبعده ، وقال أبو حاتم : وقرئ " لنَخرُجن " بنون الجماعة مفتوحة ، وضم الراء ، " الأعزَّ " نصباً منها ، " الأذلَّ " أيضاً نصباً على الحال ، وذكرها أبو عمر الداني عن الحسن ، ورويت هذه القراءة : " لَنُخرِجن " بضم النون وكسر الراء ، وقرأ قوم فيما حكى الفراء والكسائي ، وذكرها المهدوي : " لَيَخرُجن الأعز منها الأذلَّ " بفتح الياء وضم الراء . ونصب " الأذلَّ " على الحال بمعنى : أن نحن الذين كنا أعزة سنخرج أذلاء ، وجاءت هذه الحال معرفة ،

وفيها شذوذ ، وحكى سيبويه : أدخلوا الأول فالأول ، ثم أعلم تعالى أن العزة لله وللرسول وللمؤمنين ، وفي ذلك وعيد ، وروي أن عبد الله بن عبد الله بن أبي ، وكان رجلاً صالحاً لما سمع الآية ، جاء إلى أبيه فقال له : أنت والله يا أبت الذليل ، ورسول الله العزيز ، فلما وصل الناس إلى المدينة ، وقف عبد الله بن عبد الله على باب السكة التي يسلكها أبوه ، وجرد السيف ومنعه الدخول ، وقال : والله لا دخلت إلى منزلك إلا أن يأذن في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعبد الله بن أبي في أذل الرجال ، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث إليه أن خلّه يمض إلى منزله ، فقال : أما الآن فنعم ، فمضى إلى منزله .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

(172/765)

الإلهاء والإشغال بملتذ وشهوة ، و﴿ ذكر الله ﴾ هنا عام في الصلاة والتوحيد والدعاء ، وغير ذلك من فرض ومندوب ، وهذا قول الحسن وجماعة من المفسرين ، وقال الضحاك وعطاء وأصحابه : المراد بالذكر : الصلاة المكتوبة ، والأول أظهر ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ ، قال جمهور من المتأولين : المراد الزكاة ، وقال آخرون : ذلك عام في مفروض ومندوب . وقوله : ﴿ يأتي أحدكم الموت ﴾ أي علاماته ، وأوائل أمره

وقوله : ﴿ لولا أخرتني إلى أجل قريب ﴾ ، طلب للكرة والإمهال ، وفي مصحف أبي بن كعب : " آخرتن " بغير ياء ، وسماه قريباً لأنه آت ، وأيضاً فإنما يتمنى ذلك ليقضي فيه العمل الصالح فقط ، وليس يتسع الأمل حينئذ لطلب العيش ونضرته ، وفي مصحف أبي : " فأتصدق " ، وقوله : ﴿ وأكن من الصالحين ﴾ ظاهره العموم ، فقال ابن عباس هو الحج ، وروي عنه أنه قال في مجلسه يوماً : ما من رجل لا يؤدي الزكاة ولا يحج إلا طلب الكرة عند موته فقال له رجل : أما تتقي الله المؤمن بطلب الكرة ؟ فقال له ابن عباس : نعم ، وقرأ الآية ، وقرأ جمهور السبعة والناس : " وأكنْ " بالجزم عطفاً على الموضع ، لأن التقدير : " إن تؤخرني أصدق ، وأكن " ، هذا مذهب أبي علي ، فأما ما حكاه سيبويه عن الخليل فهو غير هذا وهو جزم " أكن " على توهم الشرط الذي يدل عليه التمني ، ولا موضع هنا ، لأن الشرط ليس بظاهر ، وإنما يعطف على الموضع حيث يظهر الشرط كقوله تعالى : ﴿ من يضلل الله فلا هادي به ﴾ [الأعراف : 186] ، ونذرهم ، فمن قرأ بالجزم عطف على موضع ﴿ فلا هادي له ﴾ [الأعراف : 186] ، لأنه وقع هنالك فعل كان مجزوماً ، وكذلك من قرأ : " ونكفر " بالجزم عطفاً على موضع فهو خير لكم ، وقرأها أبو عمرو وأبو رجاء والحسن وابن أبي إسحاق ، ومالك بن دينار وابن محيصن والأعمش وابن جبير وعبيد الله بن الحسن العنبري ، قال أبو حاتم ، وكان من العلماء الفصحاء : " وأكون " بالنصب عطفاً

(173/765)

على ﴿ فأصدق ﴾ ، وقال أبو حاتم في كتبها في المصحف بغير واو ، وإنهم حذفوا الواو كما حذفوها من " أبجد " وغيره ، ورجحها أبو علي ، وفي مصحف أبيّ بن كعب وابن مسعود : " فأتصدق وأكن " وفي قوله تعالى : ﴿ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ﴾ ، حض على المبادرة ومسابقة الأجل بالعمل الصالح ، وقرأ السبعة والجمهور : " تعملون " بالتاء على المخاطبة لجميع الناس ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر : " بما يعملون " بالياء على تخصيص الكفار بالوعيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(174/765)

وقال القرطبى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

حذّر المؤمنين أخلاق المنافقين ؛ أي لا تشتغلوا بأموالكم كما فعل المنافقون إذ قالوا للشُّح بأموالهم : لا تُنْفِقوا على مَن عند رسول الله .

﴿ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي عن الحج والزكاة .

وقيل : عن قراءة القرآن .

وقيل : عن إدامة الذكر .

وقيل : عن الصلوات الخمس ؛ قاله الضحاك .

وقال الحسن : جميع الفرائض ؛ كأنه قال عن طاعة الله .

وقيل : هو خطاب للمنافقين ؛ أي آمنتم بالقول فآمنوا بالقلب .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ أي من يشتغل بالمال والولد عن طاعة ربه ﴿ فأولئك هُمُ الخاسرون ﴾ .

﴿ وَأَنفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الموت ﴾ يدل على وجوب تعجيل أداء الزكاة ، ولا يجوز تأخيرها أصلاً .

وكذلك سائر العبادات إذا تعين وقتها .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لولا أخرتني إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصالحين ﴾ سأل الرجعة إلى الدنيا ليعمل صالحاً .

وروى الترمذي عن الضحاك بن مُزاحم عن ابن عباس قال : من كان له مال يبلِّغه حجّ بيت

ربّه أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل ، سأل الرجعة عند الموت .

فقال رجل : يا بن عباس ، اتق الله ، إنما سأل الرجعة الكفارُ .

فقال : سأتلو عليك بذلك قرآناً ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَموَالُكُمْ ولا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ الله ومَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فأولئك هُمُ الخاسرون * وأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أن يأْتِيَ أَحَدَكُمُ الموت فيَقُولُ رَبِّ لولا أخرتني إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وأَكُن مِّنَ الصالحين ﴾ .

(175/765)

إلى قوله ﴿ والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قال : فما يوجب الزكاة ؟ قال : إذا بلغ المال مائتين فصاعداً .

قال : فما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والراحلة .

"قلت" : ذكره الحَلِيمِيّ أبو عبد الله الحسين بن الحسن في كتاب (مِنهاج الدِّين) مرفوعاً فقال : وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان عنده مال يبلّغه الحج . . .

" الحديث ؛ فذكره .

وقد تقدم في "آل عمران" لفظه .

الثالثة : قال ابن العربيّ : "أخذ ابن عباس بعموم الآية في إنفاق الواجب خاصّةً دون النفل ؛ فأما تفسيره بالزكاة فصحيح كله عموماً وتقديراً بالمائتين .

وأما القول في الحج ففيه إشكال ؛ لأنّا إن قلنا : إن الحج على التراخي ففي المعصية في الموت قبل الحج خلاف بين العلماء ؛ فلا تُخَرَّج الآية عليه .

وإن قلنا : إن الحج على الفور فالآية في العموم صحيح ؛ لأن من وجب عليه الحج فلم يؤدّه لقي من الله ما يودّ أنه رجع ليأتي بما ترك من العبادات .

وأما تقدير الأمر بالزاد والراحلة ففي ذلك خلاف مشهور بين العلماء .

وليس لكلام ابن عباس فيه مدخل ؛ لأجل أن الرجعة والوعيد لا يدخل في المسائل المجتهد فيها ولا المختلف عليها ، وإنما يدخل في المتفق عليه .

والصحيح تناوله للواجب من الإنفاق كيف تصرف بالإجماع أو بنص القرآن ؛ لأجل أن ما عدا ذلك لا يتطرق إليه تحقيق الوعيد .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ لولا ﴾ أي هلاَّ ؛ فيكون استفهاماً .

وقيل : "لا" صلة ؛ فيكون الكلام بمعنى التمني .

﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ نصب على جواب التمني بالفاء .

﴿ وَأَكُن ﴾ عطف على "فَأَصَّدَّقَ" وهي قراءة أبي عمرو وابن مُحَيْصِن ومجاهد .

وقرأ الباقون "وَأَكُنْ" بالجزم عطفاً على موضع الفاء ؛ لأن قوله : "فَأَصَّدَّقَ" لو لم تكن الفاء

لكان مجزوماً ؛ أي أصدق .

ومثله : ﴿ مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ ﴾ [الأعراف : 186] فيمن جزم .

(176/765)

قال ابن عباس : هذه الآية أشدّ على أهل التوحيد ؛ لأنه لا يتمنَّى الرجوع في الدنيا أو التأخير فيها أحد له عند الله خير في الآخرة .

قلت : إلا الشهيد فإنه يتمنَّى الرجوع حتى يقتل ، لما يرى من الكرامة .

﴿ والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من خير وشر .

وقراءة العامة بالتاء على الخطاب .

وقرأ أبو بكر عن عاصم والسُّلَميّ بالياء ؛ على الخبر عمن مات وقال هذه المقالة .

(تمت السورة بحمد الله وعونه) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(177/765)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ هُمُ الذين يَقُولُون ﴾

أيْ للأنصارِ ﴿ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله ﴾ صلى الله عليه وسلم ﴿ حتى يَنفَضُّواْ ﴾ يعنونَ فقراءَ المهاجرينَ ، استئنافٌ جارٍ مَجْرَى التعليل لفسقِهم أو لعدمِ مغفرتِه تعالَى لَهُم وقُرِىءَ حتى يَنْفِضُوا من أنفضَ القومُ إذا فنيتْ أزوادُهُم وحقيقتُه حانَ لهم أن ينفضُوا مزاودَهُم . وقولُه تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السموات والأرض ﴾ ردٌّ وإبطالٌ لما زعمُوا من أن عدمَ إنفاقِهم يؤدي إلى انفضاضِ الفقراءِ منْ حولِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ ببيانِ أنَّ خزائنَ الأرزاقِ بيدِ الله تعالَى خاصةً يُعطِي منْ يشاءُ ويمنعُ من يشاءُ ﴿ ولكن المنافقين لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ ذلكَ لجهلِهم بالله تعالَى وبشؤونِه ولذلكَ يقولونَ منْ مقالاتِ الكفرِ ما يقولونَ .

(178/765)

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ رُوِيَ أن جَهْجاهَ بنَ سعيدٍ أَجيرَ عمرَ رضيَ الله عنهُ نازعَ سِناناً الجُهْنِيَّ حليفَ ابنِ أبيَ واقتتَلا فصرخَ جَهجاهُ يا للمهاجرينَ وسنانٌ يا للأنصارِ فأعانَ جهجاهاً رجالٌ من فقراءِ المهاجرينَ ولطمَ سناناً فاشتكَى إلى ابنِ أُبيَ فقالَ للأنصارِ لا تُنفقُوا الخ والله لئن رجعنَا إلى المدينةِ ليُخرجَنَّ الأعزَّ

منهَا الأذلَّ عَنى بالأعزِّ نفسَهُ وبالأذلِ جانبَ المؤمنينَ وإسنادُ القولِ المذكورِ إلى المنافقينِ لرضاهُم بهِ فردَّ عليهِم ذلكَ بقولِه تعالَى : ﴿ وَلِلَّهِ العزةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وللهِ الغلبةُ والقوةُ ولمنْ أعزَّهُ من رسولِه والمؤمنينَ لا لغيرِهِم ﴿ ولكنَ المنافقينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ من فرطِ جهلِهم وغرورِهم فيهذونَ ما يهذونَ . رُوِيَ أنَّ عبدَ اللهِ بنِ أُبيَ لما أرادَ أن يدخلَ المدينةَ اعترضَهُ ابنُهُ عبدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ أُبيَ وكانَ مخلصاً وقالَ لئِن لم تُقِرَّ للهِ ولرسولِه بالعزِّ لأضرِبَنَّ عنقَكَ فلمَّا رأَى منه الجِدَّ قالَ أشهدُ أنَّ العزةَ للهِ ولرسولِه وللمؤمنينَ فقالَ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لابنه جزاكَ اللهُ عن رسولِه وعن المؤمنينَ خيراً .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أموالكم وَلاَ أولادكم عَن ذِكْرِ الله ﴾

أي لا يشغلْكُم الاهتمامُ بتدبيرِ أمورِهَا والاعتناءُ بمصالحِهَا والتمتعُ بها عن الاشتغالِ بذكرِه عزَّ وجلَّ من الصلاةِ وسائرِ العباداتِ المذكّرةِ للمعبودِ والمرادُ نهيهُم عنِ التّلهّي بها ، وتوجيهُ النهيِ إليهَا للمبالغةِ كما في قولِه تعالَى : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شنَاَنُ قَوْمٍ ﴾ الخ ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك ﴾ أي التَّلهي بالدُّنيا من الدينِ ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ أي الكاملونَ في الخسرانِ حيثُ باعُوا العظيمَ الباقي بالحقيرِ الفاني ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا رزقناكم ﴾ أي بعضَ ما

أعطيناكم تفضلاً منْ غيرِ أنْ يكونَ حصولهُ من جهتكم ادخاراً للآخرة ﴿ مّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الموت ﴾ بأنْ يشاهدَ دلائلَهُ ويعاينَ أماراتِهِ ومخايلَهُ، وتقديمُ المفعولِ على الفاعلِ لما مرَّ مراراً من الاهتمامِ بما قُدِّمَ والتشويقِ إلى ما أُخِّرَ ﴿ فَيَقُولُ ﴾ عند تيقنه بحلولِه ﴿ رَبّ لَوْلا أَخَّرْتَنِى ﴾ أي أمهلتَنِي ﴿ إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أي أمدٍ قصيرٍ ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ بالنصبِ على جوابِ التمني وقُرِىءَ فأتصدقَ ﴿ وَأَكُن مّنَ الصالحين ﴾ بالجزمِ عطفاً على محلِّ فأصدقَ كأنه قيلَ إنْ أخرتنِي أصدقْ وأكنْ وقُرِىءَ وأكونَ بالنصبِ عطفاً على لفظِهِ وقُرِىءَ وأكونُ بالرفعِ أي وأَنَا أكونَ، عِدةً منه بالصلاحِ ﴿ وَلَن يُؤَخّرَ الله نَفْساً ﴾ أي ولَنْ يمهلَهَا ﴿ إِذَا جَاء أَجَلُهَا ﴾ أي آخرُ عُمرِهَا أو انتهى إنْ أُريدَ بالأجلِ الزمانُ الممتدُ من أولِ العمرِ إلى آخرِهِ ﴿ والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فمجازيكُم عليهِ إنْ خيراً فخيرٌ وإنْ شراً فشرٌّ فسارِعُوا في الخيراتِ واستعدُّوا لما هُو آتٍ وقُرِىءَ يعملُونَ بالياءِ التحتانيةِ. انتهى

انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(180/765)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أموالكم وَلاَ أولادكم عَن ذِكْرِ الله ﴾

أي لا يشغلكم الاهتمام بتدبير أمورها والاعتناء بمصالحها والتمتع بها عن الاشتغال بذكر الله عز وجل من الصلاة وسائر العبادات المذكرة للمعبود الحق جل شأنه فذكر الله تعالى مجاز عن مطلق العبادة كما يقتضيه كلام الحسن وجماعة ، والعلاقة السببية لأن العبادة سبب لذكره سبحانه وهو المقصود في الحقيقة منها .

وفي رواية عن الحسن أن المراد به جميع الفرائض ، وقال الضحاك .

وعطاء : الذكر هنا الصلاة المكتوبة ، وقال الكلبي : الجهاد مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقيل : القرآن ، والعموم أولى ، ويفهم كلام الكشاف أن المراد بالأموال والأولاد الدنيا ، وعبر بهما عنها لكونهما أرغب الأشياء منها قال الله تعالى : ﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 46] فإذا أريد بذكر الله العموم يؤول المعنى إلى لا تشغلنكم الدنيا عن الدين ، والمراد بنهي الأموال وما بعدها نهى المخاطبين وإنما وجه إليها للمبالغة لأنها لقوة تسببها للهو وشدة مدخليتها فيه جعلت كأنها لاهية ، وقد نهيت عن اللهو فالأصل لا تلهوا بأموالكم الخ ، فالتجوز في الإسناد ، وقيل : إنه تجوز بالسبب عن المسبب كقوله تعالى : ﴿ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ [الأعراف : 2] أي لا تكونوا بحيث تلهيكم أموالكم الخ .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك ﴾ أي اللهو بها وهو الشغل، وهذا أبلغ مما لو قيل: ومن تلهه تلك ﴿ فَأُوْلَئكَ هُمُ الخاسرون ﴾ حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني، وفي التعريف بالإشارة والحصر للخسران فيهم، وفي تكرير الإسناد وتوسيط ضمير الفصل ما لا يخفى من المبالغة، وكأنه لما نهى المنافقون عن الانفاق على من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأريد الحث على الانفاق جعل قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ الخ تمهيداً وتوطئة للأمر بالانفاق لكن على وجه العموم في قوله سبحانه:

﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رزقناكم ﴾

أي بعض ما أعطيناكم وتفضلنا به عليكم من الأموال ادخاراً للآخرة ﴿ مّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الموت ﴾ أي أماراته ومقدماته فالكلام على تقدير مضاف ولذا فرع على ذلك قوله تعالى: ﴿ رَبّ لَوْلا أَخَّرْتَنِى ﴾ أي أمهلتني ﴿ إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أي أمد قصير ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ أي فأتصدق، وبذلك قرأ أبي.

وعبد الله.

وابن جبير، ونصب الفعل في جواب التمني والجزم في قوله سبحانه: ﴿ وَأَكُن مّنَ الصالحين ﴾ بالعطف على موضع ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ كأنه قيل: إن أخرتني أصدّق وأكن، وإلى هذا ذهب أبو علي الفارسي.

والزجاج ، وحكى سيبويه عن الخليل أنه على توهم الشرط الذي يدل عليه التمني لأن الشرط غير ظاهر ولا يقدر حتى يعتبر العطف على الموضع كما في قوله تعالى : ﴿ مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ﴾ [الأعراف : 186] ويذرهم فيمن قرأ بالجزم وهو حسن بيد أن التعبير بالتوهم هنا ينشأ منه توهم قبيح ، والفرق بين العطف على الموضع والعطف على التوهم أن العامل في العطف على الموضع موجود وأثره مفقود ، والعامل في العطف على التوهم مفقود وأثره موجود ، واستظهر أن الخلاف لفظي فمراد أبي علي .

والزجاج العطف على الموضع المتوهم أي المقدر إذ لا موضع هنا في التحقيق لكنهما فرا من قبح التعبير .

وقرأ الحسن .

وابن جبير .

(182/765)

وأبو رجاء .

وابن أبي إسحق .

ومالك بن دينار .

والأعمش.

وابن محيصن.

وعبد الله بن الحسن العنبري.

وأبو عمرو ﴿ وأكون ﴾ بالنصب وهو ظاهر، وقرأ عبيد بن عمير ﴿ وأكون ﴾ بالرفع على الاستئناف، والنحويون.

وأهل المعاني قدروا المبتدا في أمثال ذلك من أفعال المستأنفة، فيقال هنا: أي وأنا أكون ولا تراهم يهملون ذلك، ووجه بأن ذلك لأن الفعل لا يصلح للاستئناف مع الواو الاستئنافية كما هنا ولا بدونها، وتعقب بأنه لم يذهب إلى عدم صلاحيته لذلك أحد من النحاة وكأنه لهذا صرح العلامة التفتازاني بأن التزام التقدير مما لم يظهر له وجهه، وقيل: وجهه أن الاستئناف بالاسمية أظهر وهو كما ترى، وجوز كون الفعل على هذه القراءة مرفوعاً بالعطف على أصدّق على نحو القولين السابقين في الجزم، هذا وعن الضحاك أنه قال في قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا رزقناكم ﴾ يعني الزكاة والنفقة في الحج، وعليه قول ابن عباس فيما أخرج عنه ابن المنذر: ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ أزكى ﴿ وَأَكُن مّنَ الصالحين ﴾ أحج، وأخرج الترمذي.

وابن جرير.

والطبراني.

وغيرهم عنه أيضاً أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من كان له مال يبلغه

حج بيت ربه أو تجب عليه فيه الزجاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت "

فقال له رجل : يا ابن عباس اتق الله تعالى فإنما يسأل الرجعة الكفار فقال : سأتلو عليكم بذلك قرآناً ﴿ يَعْلَمُونَ يا أيها الذين ءامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أموالكم ولَا أولادكم عَن ذِكْرِ الله ﴾ [المنافقون : 9] إلى آخر السورة كذا في "الدر المنثور" .

وفي "أحكام القرآن" رواية الترمذي عنه ذلك موقوفاً عليه ، وحكى عنه في البحر .

(183/765)

وغيره أنه قال : إن الآية نزلت في مانع الزكاة ، ووالله لو رأى خيراً لما سأل الرجعة ، فقيل له : أما تتقي الله تعالى يسأل المؤمنون الكرة ؟! فأجاب بنحو ما ذكر ، ولا يخفى أن الاعتراض عليه وكذا الجواب أوفق بكونه نفسه ادّعى سؤال الرجعة ولم يرفع الحديث بذلك ، وإذا كان قوله تعالى : ﴿ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِى ﴾ الخ سؤالاً للرجعة بمعنى الرجوع إلى الدنيا بعد الموت لم يحتج قوله تعالى : ﴿ مّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الموت ﴾ إلى تقدير مضاف كما سمعت آنفاً .

﴿ وَلَن يُؤَخّرَ الله نَفْساً ﴾

(184/765)

أي ولن يمهلها ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ أي آخر عمرها أو انتهى الزمان الممتد لها من أول العمر إلى آخره على تفسير الأجل به ﴿ واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فمجاز عليه ، وقرأ أبو بكر بالياء آخر الحروف ليوافق ما قبله في الغيبة ونفساً لكونها نكرة في سياق النفي في معنى الجمع ، واستدل الكيا بقوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُواْ ﴾ [المنافقون : 10] الخ على وجوب إخراج الزكاة على الفور ومنع تأخيرها ، ونسب للزمخشري أنه قال : ليس في الزجر عن التفريط في هذه الحقوق أعظم من ذلك فلا أحد يؤخر ذلك إلا ويجوز أن يأتيه الموت عن قريب فيلزمه التحرز الشديد عن هذا التفريط في كل وقت ، وقد أبطل الله تعالى قول المجبرة من جهات : منها قوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُواْ ﴾ [المنافقون : 10] ، ومنها أنه إن كان قبل حضور الموت لم يقدر على الانفاق فكيف يتمنى تأخير الأجل ، ومنها قوله تعالى : مؤيساً له في الجواب : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ ﴾ ولولا أنه مختار لأجيب باستواء التأخير والموت حين التمني ، وأجيب بأن أهل الحق لا يقولون بالجبر فالبحث ساقط عنهم على أنه لا دلالة في الأول كما في سائر الأوامر كما حقق في موضعه ، والتمني وهو متمسك الفريق لا يصح الاستدلال به ، والقول المؤيس إبطال لتمنيهم لا جواب عنه إذ لا استحقاق لوضوح البطلان ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

وقال الشوكانى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

لما ذكر سبحانه قبائح المنافقين رجع إلى خطاب المؤمنين مرغباً لهم في ذكره فقال : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أموالكم وَلاَ أولادكم عَن ذِكْرِ الله ﴾ فحذرهم عن أخلاق المنافقين الذين ألهتهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله ، ومعنى ﴿ لاَ تُلْهِكُمْ ﴾ : لا تشغلكم ، والمراد بالذكر : فرائض الإسلام ، قاله الحسن .

وقال الضحاك : الصلوات الخمس ، وقيل : قراءة القرآن ، وقيل : هو خطاب للمنافقين ، ووصفهم بالإيمان لكونهم آمنوا تظاهراً ، والأوّل أولى .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك ﴾ أي : يلتهي بالدنيا عن الدين ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ أي : الكاملون في الخسران .

﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا رزقناكم ﴾ الظاهر أن المراد الإنفاق في الخير على عمومه ، و " من " للتبعيض ، أي : أنفقوا بعض ما رزقناكم في سبيل الخير ، وقيل : المراد : الزكاة المفروضة ﴿ مّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الموت ﴾ بأن تنزل به أسبابه ، ويشاهد حضور علاماته ،

وقدّم المفعول على الفاعل للاهتمام ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أي : يقول عند نزول ما نزل به منادياً لربه : هلا أمهلتني وأخرت موتي إلى أجل قريب ، أي : أمد قصير ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ أي : فأتصدق بمالي ﴿ وَأَكُن مِّنَ الصالحين ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ فأصدّق ﴾ بادغام التاء في الصاد ، وانتصابه على أنه جواب التمني ، وقيل : إن " لا " في ﴿ لولا ﴾ زائدة ، والأصل : لو أخرتني .

وقرأ أبيّ ، وابن مسعود ، وسعيد بن جبير .

(فأتصدّق) بدون إدغام على الأصل .

وقرأ الجمهور : ﴿ وأكن ﴾ بالجزم على محل ، ﴿ فأصدّق ﴾ ، كأنه قيل : إن قيل : إن أخرتني أتصدّق وأكن .

(186/765)

قال الزجاج : معناه : هلا أخرتني ؟ وجزم ﴿ أكن ﴾ على موضع ﴿ فأصدق ﴾ ؛ لأنه على معنى : إن أخرتني ﴿ فأصدّق ﴾ وأكن .

وكذا قال أبو عليّ الفارسي ، وابن عطية ، وغيرهم .

وقال سيبويه حاكياً عن الخليل : إنه جزم على توهم الشرط الذي يدلّ عليه التمني ، وجعل

سيبويه هذا نظير قول زهير :

بدا لي أني لست مدرك ما مضى . . . ولا سابق شيئًا إذا كان جائيا

فخفض ، ولا سابق عطفاً على مدرك الذي هو خبر ليس على توهم زيادة الباء فيه .

وقرأ أبو عمرو ، وابن محيصن ، ومجاهد : (وأكون) بالنصب عطفاً على ﴿ فأصدّق ﴾ ، ووجهها واضح .

ولكن قال أبو عبيد : رأيت في مصحف عثمان : ﴿ وأكن ﴾ بغير واو ، وقرأ عبيد بن عمير : (وأكون) بالرفع على الاستئناف ، أي : وأنا أكون .

قال الضحاك : لا ينزل بأحد الموت لم يحج ولم يؤدّ زكاة إلاّ سأل الرجعة ، وقرأ هذه الآية ؛ ثم أجاب الله سبحانه عن هذا المتمني فقال : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ أي : إذا حضر أجلها وانقضى عمرها ﴿ واللهُ خَبِيرُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ لا يخفى عليه شيء منه ، فهو مجازيكم بأعمالكم .

قرأ الجمهور : ﴿ تعملون ﴾ بالفوقية على الخطاب ، وقرأ أبو بكر عن عاصم ، والسلمي بالتحتية على الخبر .

(187/765)

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ ﴾ الآية قال : " هم عباد من أمتي الصالحون منهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وعن الصلوات الخمس المفروضة " وأخرج عبد بن حميد ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان له مال يبلغه حجّ بيت الله ، أو تجب عليه فيه الزكاة ، فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت " ، فقال رجل : يا ابن عباس اتق الله ، فإنما يسأل الرجعة الكافر ، فقال : سأتلو عليكم بذلك قرآناً ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ إلى آخر السورة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصالحين ﴾ قال : أحج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿فتح القدير حـ 5 صـ 233.234 ﴾

(188/765)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

انتقال من كشف أحوال المنافقين المسوق للحذر منهم والتحذير من صفاتهم ، إلى الإقبال

على خطاب المؤمنين بنهيهم عما شأْنُه أن يشغل عن التذكر لما أمر الله ونهى ، ثم الأمر بالإِنفاق في سبل الخير في سبيل الله ومصالح المسلمين وجماعتهم وإسعاف آحادهم ، لئلا يستهويهم قول المنافقين ﴿ لا تنفقوا على من عند رسول الله ﴾ [المنافقين : 7] والمبادرة إلى ذلك قبل إتيان الموت الذي لا يُدْرى وقت حلوله حين تمنى أن يكون قد تأخر أجله ليزيد من العمل الصالح فلا ينفعه التمني وهو تمهيد لقوله بعده ﴿ وأنفقوا من ما رزقناكم ﴾ [المنافقون : 10] ، فالمناسبة لهذا الانتقال هو حكاية مقال المنافقين ولذلك قدم ذكر الأموال على ذكر الأولاد لأنها أهم بحسب السياق .

ونودي المخاطبون بطريق الموصول لما تؤذن به الصلة من التهمم لامتثال النهي .

وخص الأموال والأولاد بتوجه النهي عن الاشتغال بها اشتغالاً يلهي عن ذكر الله لأن الأموال مما يكثر إقبال الناس على إنمائها والتفكير في اكتسابها بحيث تكون أوقات الشغل بها أكثر من أوقات الشغل بالأولاد .

ولأنها كما تشغل عن ذكر الله بصرف الوقت في كسبها ونمائها ، تشغل عن ذكره أيضاً بالتذكير لكنزها بحيث ينسى ذكر ما دعا الله إليه من إنفاقها .

وأما ذِكر الأولاد فهو إدماج لأن الاشتغال بالأولاد والشفقة عليهم وتدبير شؤونهم وقضاء الأوقات في التأنس بهم من شأنه أن ينسي عن تذكر أمر الله ونهيه في أوقات كثيرة فالشغل بهذين أكثر من الشغل بغيرهما .

وصيغ الكلام في قالب توجيه النهي عن الإِلهاء عن الذكر ، إلى الأموال والأولاد والمراد نهي أصحابها ، وهو استعمال معروف وقرينته هنا قوله : ﴿ ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ .

(189/765)

وأصله مجاز عقلي مبالغة في نهي أصحابها عن الاشتغال بسببها عن ذكر الله ، فنُزّل سبب الإِلهاء منزلة اللاَّهي للملابسة بينهما وهو كثير في القرآن وغيره كقوله : ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان ﴾ [الأعراف : 27] وقولهم لا أعرفنك تفعل كذا .

و﴿ لا ﴾ في قوله : ﴿ ولا أولادكم ﴾ نافية عاطفة ﴿ أولادكم ﴾ على ﴿ أموالكم ﴾ ، والمعطوف عليه مدخول ﴿ لا ﴾ الناهية لأن النهي يتضمن النفي إذ هو طلب عدم الفعل ف ﴿ لا ﴾ الناهية أصلها ﴿ لا ﴾ النافية أشربت معنى النهي عند قصد النهي فجزمت الفعل حملاً على مضادة معنى لام الأمر فأكد النهي عن الاشتغال بالأولاد بحرف النفي ليكون للاشتغال بالأولاد حظ مثل حظ الأموال .

و﴿ ذكر الله ﴾ مستعمل في معنييه الحقيقي والمجازي .

فيشمل الذكر باللسان كالصلاة وتلاوةِ القرآن ، والتذكر بالعقل كالتدبر في صفاته

واستحْضار امتثاله قال عمر بن الخطاب : "أفضل من ذكر الله باللسان ذِكر الله عند أمره ونهيه" .

وفيه أن الاشتغال بالأموال والأولاد الذي لا يُلهي عن ذكر الله ليس بمذموم وله مراتب .

وقوله : ﴿ ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ ، دليل على قول علماء أصول الفقه "النهيُ اقتضاءُ كفَ عن فعل" .

والإِشارة بـ ﴿ ذلك ﴾ إلى اللهو عن ذكر الله بسبب الأموال والأولاد ، أي ومن يُلْهِ عن ذكر الله ، أي يترك ذكر الله الذي أوجبه مثل الصلاة في الوقت ويترك تذكر الله ، أي مراعاة أوامره ونواهيه .

ومتى كان اللهو عن ذكر الله بالاشتغال بغير الأموال وغير الأولاد كان أولى بحكم النهي والوعيد عليه .

وأفاد ضمير الفصل في قوله : ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾ قصرَ صفة الخاسر على الذين يفعلون الذي نُهوا عنه ، وهو قصر ادعائي للمبالغة في اتصافهم بالخسران كأن خسران غيرهم لا يعد خسرانًا بالنسبة إلى خسرانهم .

والإِشارة إليهم بـ ﴿ أولئك ﴾ للتنبيه على أنهم استحقوا ما بعد اسم الإِشارة بسبب ما ذكر قبل اسم الإِشارة ، أعني اللهو عن ذكر الله .

وَأَنفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ

هذا إبطال ونقض لكيد المنافقين حين قالوا : ﴿ لا تنفقوا على من عند رسول الله ﴾ [المنافقون : 7] ، وهو يعمّ الإنفاق على الملتفين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم والإنفاقَ على غيرهم فكانت الجملة كالتذييل .

وفعل ﴿ أنفقوا ﴾ مستعمل في الطلب الشامل للواجب والمستحب فإن مدلول صيغة : افعل ، مطلق الطلب ، وهو القدر المشترك بين الوجوب والندب .

وفي قوله : ﴿ من ما رزقناكم ﴾ إشارة إلى أن الإنفاق المأمور به شكر لله على ما رزق المنفِق فإن الشكر صرف العبد ما أنعم الله به عليه فيما خُلق لأجله ، ويعرف ذلك من تلقاء الشريعة .

و ﴿ مِن ﴾ للتبعيض ، أي بعض ما رزقناكم ، وهذه توسعة من الله على عباده ، وهذا البعض منه هو معيّن المقدار مثل مقادير الزكاة وصدقة الفطر .

ومنه ما يتعين بسدّ الخلة الواجب سدّها مع طاقة المنفق كنفقات الحج والجهاد والرباط ونفقات العيال الواجبة ونفقات مصالح المسلمين الضرورية والحاجيّة ، ومنه ما يتعين بتعين سببه كالكفارات ، ومنه ما وكل للناس تعيينه مما ليس بواجب من الإنفاق فذلك موكول إلى رغبات الناس في نوال الثواب فإن ذلك باب عظيم من القربى من رضى الله تعالى ، وفي

الحديث " الصدقة تُطفىء الخطايا كما يُطفىء الماءُ النارَ " .

وقد ذكَّر الله المؤمنين بما في الإنفاق من الخير بأن عليهم أن يكثروا منه ما داموا مقتدرين قبل الفوت ، أي قبل تعذر الإنفاق والإتيان بالأعمال الصالحة ، وذلك حين يحسّ المرء بحالة تؤذن بقرب الموت ويُغْلَب على قواه فيسأل الله أن يؤخر مَوته ويشفيه ليأتي بكثير مما فرط فيه من الحسنات طمعاً أن يستجاب له فإن كان في أجله تأخير فلعل الله أن يستجيب له ، فإن لم يكن في الأجل تأخير أو لم يقدر الله له الاستجابة فإنه خير كثير .

(191/765)

و ﴿ لولا ﴾ حرف تحضيض ، والتحضيض الطلب الحثيث المضطر إليه ، ويستعمل ﴿ لولا ﴾ للعرض أيضاً والتوبيخ والتنديم والتمني على المجاز أو الكناية ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت ﴾ في سورة [يونس : 98] .

وحق الفعل بعدها أن يكون مضارعاً وإنما جاء ماضياً هنا لتأكيد إيقاعه في دعاء الداعي حتى كأنه قد تحقق مثل ﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : 1] وقرينة ذلك ترتيب فعلَيْ ﴿ فأصدق وأكن من الصالحين ﴾ عليه .

والمعنى : فيسأل المؤمن ربه سؤالاً حثيثاً أن يحقق تأخير موته إلى أجل يستدرك فيه ما

اشتغل عنه من إنفاق وعمل صالح .

ووصفُ الأجلِ بـ ﴿ قريب ﴾ تمهيد لتحصيل الاستجابة بناء على متعارف الناس أن الأمر اليسير أرجى لأن يستجيبه المسؤول فيغلب ذلك على شعورهم حين يسألون الله تنساق بذلك نفوسهم إلى ما عرفوا ، ولذلك ورد في الحديث " لا يقولَنَّ أحدكم : اللهم اغفر لي إن شئت وليعزم المسألةَ فإنه لا مُكْرِه له "

تنبيهاً على هذا التوهم فالقرآن حكى عن الناس ما هو الغالب على أقوالهم .

وانتصب فعل ﴿ فأصدق ﴾ على إضمار (أنْ) المصدرية إضماراً واجباً في جواب الطلب .

وأما قوله : ﴿ وأكن ﴾ فقد اختلف فيه القراء .

فأما الجمهور فقرأوه مجزوماً بسكون آخره على اعتباره جواباً للطلب مباشرة لعدم وجود فاء السببية فيه ، واعتبار الواو عاطفة جملة على جملة وليست عاطفة مفرداً على مفرد . وذلك لقصد تضمين الكلام معنى الشرط زيادة على معنى التسبب فيغني الجزم عن فعل شرط .

فتقديره : إنْ تؤخرْني إلى أجل قريب أَكُن من الصالحين ، جمعاً بين التسبب المفاد بالفاء ، والتعليق الشرطي المفاد بجزم الفعل .

وإذا قد كان الفعل الأول هو المؤثر في الفعلين الواقِع أحدهُما بعد فاء السببية والآخرُ بعد

الواو العاطفة عليه .

فقد أفاد الكلام التسبب والتعليق في كلا الفعلين وذلك يرجع إلى مُحسن الاحتباك .

(192/765)

فكأنه قيل : لولا أخرتني إلى أجل قريب فَأَصَّدَّقَ وأكونَ من الصالحين .

إن تؤخرني إلى أجل قريب أَصَّدَّقْ وأَكُنْ من الصالحين .

ومن لطائف هذا الاستعمال أن هذا السائل بعد أن حثّ سؤالَه أعقبه بأن الأمر ممكن فقال : إن تؤخرني إلى أجل قريب أصّدَق وأكن من الصالحين .

وهو من بدائع الاستعمال القرآني لقصد الإيجاز وتوفير المعاني .

ووجّه أبو علي الفارسي والزجاجُ قراءة الجمهور بجعل ﴿ وأكن ﴾ معطوفاً على محل ﴿ فأصدق ﴾ .

وقرأه أبو عمرو وحده من بين العشرة ﴿ وأكونَ ﴾ بالنصب والقراءة رواية متواترة وإن كانت مخالفة لرسم المصاحف المتواترة .

وقيل : إنها يوافقها رسم مصحف أَبيّ بن كعب ومصحفُ ابن مسعود .

وقرأ بذلك الحسن والأعمش وابن محيض من القراءات غير المشهورة .

ورويت عن مالك بن دينار وابن جبير وأبي رجاء .

وتلك أقل شهرة .

واعتذر أبو عمرو عن مخالفة قراءته للمصحف بأن الواو حذفت في الخط اختصاراً يريد أنهم حذفوا صورة إشباع الضمة وهو الواو اعتماداً على نطق القارىء كما تحذف الألف اختصاراً بكثرة في المصاحف .

وقال القراء العرب : قد تسقط الواو في بعض الهجاء كما أسقطوا الألف من سليمان وأشباهه ، أي كما أسقطوا الواو الثانية من داوود وبكثرة يكتبونه داود .

قال الفراء : ورأيت في مصاحف عبد الله "فقُولا" نقلاً بغير واو ، وكل هذا لا حاجة إليه لأن القرآن ملتقىًّ بالتواتر لا بهجاء المصاحف وإنما المصاحف معينة على حفظه .

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ ﴾ .

اعتراض في آخر الكلام فالواو اعتراضية تذكيراً للمؤمنين بالأجل لكل روح عند حلولها في جسدها حين يؤمر الملك الذي ينفخُ الروح يكتب أجله وعمله ورزقه وشقي أو سعيد .

فالأجل هو المدة المعينة لحياته لا يؤخر عن أمده فإذا حضر الموت كان دعاء المؤمن الله بتأخير أجله من الدعاء الذي استُجاب لأن الله قدر الآجال .

وهذا سر عظيم لا يعلم حكمة تحديده إلا الله تعالى .

والنفس : الروح ، سميت نفساً أخذاً من النَفس بفتح الفاء وهو الهواء الذي يخرج من الأنف والفم من كل حيوان ذي رئة ، فسميت النفس نفساً لأن النفس يتولد منها ، كما سمي مرادف النفس رُوحاً لأنه مأخوذ الرَوح بفتح الراء لأن الرَّوح به .

قاله أبو بكر بن الأنباري .

و ﴿ أجلها ﴾ الوقت المحدد لبقائها في الهيكل الإنساني .

ويجوز أن يراد بالنفس الذات ، أي شخص الإنسان وهو من معاني النفْس .

كما في قوله تعالى : ﴿ أن النفس بالنفس ﴾ [المائدة : 45] وأجلها الوقت المعيَّن مقداره لبقاء الحياة .

و ﴿ لَن ﴾ لتأكيد نفي التأخير ، وعموم ﴿ نفساً ﴾ في سياق النفي يعم نفوس المؤمنين وغيرهم .

ومجيء الأجل حلول الوقت المحدد للاتصال بين الروح والجسد وهو ما علمه الله من طاقة البدن للبقاء حياً بحسب قواه وسلامته من العوارض المهلكة .

وهذا إرشاد من الله للمؤمنين ليكونوا على استعداد للموت في كل وقت ، فلا يؤخروا ما يهمهم عمله سؤال ثوابه فما من أحد يؤخر العمل الذي يسره أن يعمله وينال ثوابه إلا وهو معرض لأن يأتيه الموت عن قريب أو يفاجئه ، فعليه بالتحرز الشديد من هذا التفريط في كل

وقت وحال ، فربما تعذر عليه التدارك بفجأة الفوات ، أو وهن المقدرة فإنه إن كان لم تطاوعه نفسه على العمل الصالح قبل الفوات فكيف يتمنى تأخير الأجل المحتوم .

﴿ أَجَلُهَآ واللهُ خَبِيرٌ بِمَا ﴾ .

عطف على جملة ﴿ لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم ﴾ [المنافقون : 9] .

أو تذييل والواو اعتراضية .

ويفيد بناء الخبر على الجملة الاسمية تحقيقَ علم الله بما يعمله المؤمنون .

ولما كان المؤمنون لا يخامرهم شك في ذلك كان التحقيق والتقوِّي راجعاً إلى لازم الخبر وهو الوعد والوعيد والمقام هنا مقامهما لأن الإِنفاق المأمور به منه الواجب المندوب .

وفعلهما يستحق الوعد .

وتركُ أولهما يستحق الوعيد .

وإيثار وصف ﴿ خبير ﴾ دون : عليم ، لما تؤذن به مادة ﴿ خبير ﴾ من العلم بالأمور الخفية ليفيد أنه تعالى عليم بما ظهر من الأعمال وما بَطن مثل أعمال القلب التي هي العزائم والنيّات ، وإيقاع هذه الجملة بعد ذكر ما يقطعه الموت من ازدياد الأعمال الصالحة إيماء إلى

أن ما عسى أن يقطعه الموت من العزم على العمل إذا كان وقته المعين له شرعاً ممتداً كالعُمر للحج على المستطيع لمن لم يتوقع طروّ مانع .

وكالوقت المختار للصلوات ، أن حيلولة الموت دون إتمامه لا يُرْزِىء المؤمن ثوابه لأن المؤمن إذا اعتاد حزباً أو عزم على عمل صالح ثم عرض له ما منعه منه أن الله يعطيه أجره .

ومن هذا القبيل : أنّ من همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة كما في الحديث الصّحيح .

وقرأ الجمهور ﴿ بما تعملون ﴾ بالمثناة الفوقية .

وقرأه أبو بكر عن عاصم بالمثناة التحتية فيكون ضمير الغيبة عائداً إلى ﴿ نفساً ﴾ الواقع في سياق النفي لأنه عام فله حكم الجمع في المعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(195/765)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾

والمقصود أن دوام الذكر لما كان سببا لدوام المحبة وكان الله سبحانه احق بكمال الحب

والعبودية والتعظيم والاجلال كان كثرة ذكره من انفع ما للعبد وكان عدوه حقا هو الصاد له

عن ذكر ربه وعبوديته ولهذا أمر الله سبحانه بكثرة ذكره في القرآن وجعله سببا للفلاح فقال

تعالى واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون الجمعة 10

وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا الجمعة 41

وقال تعالى والذاكرين الله كثيرا والذاكرات الأحزاب 35

وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك

فأولئك هم الخاسرون المنافقون 9

وقال تعالى فاذكروني اذكركم البقرة 152

وقال النبي سبق المفردون قالوا يا رسول الله وما المفردون قال الذاكرون الله كثيرا

والذاكرات

وفي الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي انه قال إلا أدلكم على خير اعمالكم

وازكاها عند مليككم وارفعها في درجاتكم وخير لكم من انفاق الذهب والورق وخير

لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا بلى يا رسول الله قال ذكر

الله تعالى //إسناده صحيح //وهو

في الموطأ موقوف على أبي الدرداء

قال معاذ بن جبل ما عمل آدمي عملا انجى له من عذاب الله من ذكر الله وذكر رسوله تبع لذكره

والمقصود أن دوام الذكر سبب لدوام المحبة فالذكر للقلب كالماء للزرع بل كالماء للسمك لا حياة له إلا به

وهو أنواع ذكره بأسمائه وصفاته والثناء عليه بها

الثاني تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وتمجيده والغالب من استعمال لفظ الذكر عند المتأخرين هذا

الثالث ذكره بأحكامه واوامره ونواهيه وهو ذكر العالم بل الانواع الثلاثة هي ذكرهم لربهم

ومن افضل ذكره ذكره بكلامه

قال تعالى ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾

(196/765)

طه 124 فذكره هنا كلامه الذي انزله على رسوله

وقال تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ جلاء الأفهام صـ 339. 340 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾

أخرج ابن سعد وأحمد وعبد بن حميد والبخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن زيد بن أرقم قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فأصاب الناس شدّة ، فقال عبد الله بن أبيّ لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك فأرسل إلى عبد الله بن أبيّ فسأله ، فاجتهد يمينه ما فعل ، فقالوا : كذب زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوقع في نفسي مما قالوا شدة حتى أنزل الله تصديقي في ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ليستغفر لهم ، فلووا رؤوسهم ، وهو قوله : ﴿ خشب مسندة ﴾ قال : كانوا رجالاً أجمل شيء .

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن زيد بن أرقم قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان معنا ناس من الأعراب ، فكنا نبتدر الماء ، وكان الأعراب يسبقونا إليه ، فيسبق الأعرابي أصحابه ، فيملأ الحوض ، ويجعل حوله حجارة ، ويجعل النطع عليه حتى يجيء أصحابه ، فأتى من الأنصار أعرابياً فأرخى زمام ناقته لتشرب ، فأبى أن يدعه ، فانتزع حجراً فغاض الماء ، فرفع الأعرابي خشبة فضرب بها رأس الأنصاري فشجه ، فأتى عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين فأخبره ، وكان من أصحابه فغضب ، وقال : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفض من حوله يعني الأعراب ، وكانوا يحضرون رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الطعام ، وقال عبد الله لأصحابه : إذا انفضوا من عند محمد فائتوا محمداً بالطعام فليأكل هو ومن عنده ، ثم قال لأصحابه : إذا رجعتم إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل ، قال زيد : وأنا ردف عمي ، فسمعت ، وكنا أخواله عبد الله فأخبرت عمي ، فانطلق فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إليه رسول الله ، فحلف وجحد فصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبني ، فجاء إلى عمي فقال : ما أردت إلى أن مقتك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذبك المسلمون ، فوقع عليّ من الهم ما لم يقع على أحد قط ، فبينما أنا أسير ، وقد خففت

برأسي من الهم إذا آتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرك أذني وضحك في وجهي ، فما كان يسرني أن لي بها الخلد أو الدنيا ، ثم إن أبا بكر لحقني فقال : ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : ما قال لي شيئاً إلا أنه عَرَكَ أذني وضحك في وجهي ، فقال : ابشر ثم لحقني عمر ، فقلت له مثل قولي لأبي بكر ، فلما أصبحنا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ﴾ حتى بلغ ﴿ ليخرجن الأعز منها

الأذل ﴾ .

وأخرج ابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن زيد بن أرقم قال : " لما قال عبد الله بن أبيّ ما قال : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، سمعته فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكرت ذلك له ، فلامني ناس من الأنصار ، وجاءهم يحلف ما قال ذلك ، فرجعت إلى المنزل ، فنمت فأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن الله صدقك وعذرك " ، فأنزلت هذه الآية ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله ﴾ الآيتين .

وأخرج الطبراني عن زيد بن أرقم قال: لما قال ابن أبيّ ما قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فجاء فحلف ما قال، فجعل ناس يقولون: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكذب حتى جلست في البيت مخافة إذا رأوني قالوا: هذا الذي يكذب، حتى أنزل الله ﴿ هم الذين يقولون ﴾ الآية.

وأخرج الطبراني عن زيد بن أرقم قال: كنت جالساً مع عبد الله بن أبيّ فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناس من أصحابه فقال عبد الله بن أبيّ: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فأتيت سعد بن عبادة فأخبرته، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن أبيّ، فحلف له عبد الله بن أُبيّ بالله ما تكلم بهذا، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن عبادة، فقال سعد: يا رسول الله إنما أخبرنيه الغلام زيد بن أرقم، فجاء سعد فأخذ بيدي، فانطلق بي، فقال: هذا حدثني، فانتهرني عبد الله بن أبيّ، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكيت وقلت: أي والذي أنزل النور عليك لقد قاله، وانصرف عنه النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ إلى آخر السورة.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إنما سماهم الله منافقين لأنهم كتموا الشرك وأظهروا الإيمان.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ قال : حلفهم بالله إنهم لمنكم اجنوا بأيمانهم من القتل والحرب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله : ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ قال : اتخذوا حلفهم جنة ليعصموا بها دماءهم وأموالهم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سافر كان مع كل رجل من أغنياء المؤمنين رجل من الفقراء يحمل له زاده وماءه ، فكانوا إذا دنوا من الماء تقدم الفقراء فاستقوا لأصحابهم ، فسبقهم أصحاب عبد الله بن أبيّ ، فأبوا أن يخلوا عن المؤمنين ، فحصرهم المؤمنون ، فلما جاء عبد الله بن أبيّ نظر إلى أصحابه فقال : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، وقال : امسكوا عنهم البيع لا تبايعوهم . فسمع زيد بن أرقم قول ابن أبيّ : لئن رجعنا إلى المدينة ، وقوله : لا تنفقوا على من عند رسول الله ، فأخبر عمه النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم ابن أبيّ وأصحابه ، فعجب من صورته وجماله ، وهو يمشي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فذلك قوله : ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب

مسندة ﴾ فعرفه النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبره حلف ما قاله، فذلك قوله: ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة وقالوا نشهد إنك لرسول الله ﴾ وذلك قوله: ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ﴾ وكل شيء أنزله في المنافقين فإنما أراد عبد الله ابن أبيّ.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ﴾ قال: أقروا بلا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقلوبهم تأبى ذلك.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ كأنهم خشب مسندة ﴾ قال: نخل قيام.

(201/765)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5)

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل منزلاً في السفر لم يرتحل منه حتى يصلي فيه، فلما كان غزوة تبوك نزل منزلاً، فقال عبد الله بن أبيّ: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فارتحل ولم يصل، فذكروا ذلك فذكر قصة ابن أبيّ، ونزل القرآن

﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله ﴾ وجاء عبدالله بن أبيّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل يعتذر ويحلف ما قال ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : تب ، فجعل يلوي رأسه " ، فأنزل الله عز وجل ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ﴾ قال : عبدالله بن أبيّ بن سلول ، قيل له : تعال يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلوى رأسه وقال : ماذا قلت ؟

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ﴾ قال : حركوها استهزاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في الآية ، قال : نزلت في عبدالله بن أبيّ وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلم بحديث وتكذيب شديد ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو يحلف ويتبرأ من ذلك ، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعذلوه ، وقيل لعبدالله رضي الله عنه : لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستغفر لك فجعل يلوي رأسه ، ويقول : لست فاعلاً وكذب علي ، فأنزل الله ما تسمعون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر من طريق الحكم عن عكرمة " أن عبد الله بن أبيّ بن سلول كان له ابن يقال له حباب ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ، فقال يا رسول الله : إن والدي يؤذي الله ورسوله ، فذرني حتى أقتله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقتل أباك " ثم جاءه أيضاً ، فقال له : يا رسول الله إن والدي يؤذي الله ورسوله ، فذرني حتى أقتله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقتل أباك " ثم جاءه أيضا فقال : يا رسول الله إن والدي يؤذي الله ورسوله ، فذرني أقتله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تقتل أباك " فقال : يا رسول الله فذرني حتى أسقيه من وضوئك لعل قلبه يلين ، فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه ، فذهب به إلى أبيه فسقاه ثم قال له : هل تدري ما سقيتك ؟ قال له والده : سقيتني بول أمك ، فقال له ابنه : والله ولكن سقيتك وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم "

قال عكرمة : وكان عبد الله بن أبيّ عظيم الشأن ، وفيه أنزلت هذه الآية في المنافقين هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، وهو الذي قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال الحكم : ثم حدثني بشر بن مسلم أنه قيل له : يا أبا حباب إنه قد نزل فيك آي شداد ، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر

لك ، فلوى رأسه ثم قال : أمرتموني أن أومن فقد آمنت ، وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت ، فما بقي إلا أن أسجد لمحمد

(203/765)

. وأخرج البيهقي في الدلائل عن الزهري قال : كان لعبد الله بن أبيّ مقام يقومه كل جمعة لا يتركه شرفاً له في نفسه وفي قومه ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة يخطب قام فقال : أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم أكرمكم الله به ، وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحد وصنع المنافق ما صنع في أحد ، فقام يفعل كما كان يفعل ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه ، وقالوا : اجلس يا عدو الله ، لست لهذا المقام بأهل . قد صنعت ما صنعت . فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأني قلت هجراً أن قمت أسدد أمره ، فقال له رجل : ويحك ارجع يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال المنافق : والله لا أبغي أن يستغفر لي .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : " لما نزلت آية براءة ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ [التوبة : 80] قال النبي صلى الله عليه وسلم : " اسمع ربي قد رخص لي فيهم ، فوالله

لأستغفرن أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم " فنزلت ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن عروة قال : " لما نزلت ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ [التوبة : 80] قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لأزيدن على السبعين " فأنزل الله ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ﴾ الآية " .

وأخرج ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : نزلت هذه الأية ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ في عسيف لعمر بن الخطاب .

وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم وعبد الله بن مسعود أنهما كانا يقرآن ﴿ لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله ﴾ قال : إن عبد الله بن أبيّ قال لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله ، فإنكم لو لم تنفقوا عليهم قد انفضوا ، وفي قوله : ﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة

ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ قال : قد قالها منافق عظيم النفاق في رجلين اقتتلا أحدهما غفاري والآخر جهني ، فظهر الغفاري على الجهني ، وكان بين جهينة وبين الأنصار حلف ، فقال رجل من المنافقين : وهو عبدالله بن أبيّ ، يا بني الأوس والخزرج ، عليكم صاحبكم وحليفكم . ثم قال : والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك . والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسعى بها بعضهم إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : يا نبي الله مر معاذاً أن يضرب عنق هذا المنافق . فقال : لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه . وذكر لنا أنه كثر على رجلين من المنافقين عنده فقال عمر : هل يصلي ؟ قالوا : نعم ولا خير في صلاته . قال نهيت عن المصلين ، نهيت عن المصلين ، نهيت عن المصلين .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ يقول : لا تطعموا محمداً وأصحابه حتى تصيبهم مجاعة فيتركوا نبيهم وفي قوله : ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ قال : قال ذلك عبدالله بن أبيّ رأس المنافقين وأناس معه من المنافقين .

وأخرج سعيد بن منصور والبخاري ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن جابر بن عبد الله قال: "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة، قال سفيان: يرون أنها غزوة بني المصطلق، فكسع رجل من المنافقين رجلاً من الأنصار فسمع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "دعوها فإنها منتنة" فسمع ذلك عبد الله بن أبيّ، فقال: أو قد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه" زاد الترمذي، فقال له ابن عبد الله: والله لا تنقلب حتى تِقَرَّ أنك الذليل، ورسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز ففعل".

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه قال: كان بين غلام من الأنصار وغلام من بني غفار في الطريق كلام، فقال عبد الله بن أبيّ: هنيئاً، لكم بأس، هنيئاً جمعتم سوّاق الحجيج من مزينة وجهينة فغلبوكم على ثماركم، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه قال : لما حضر عبد الله بن أبيّ الموت قال ابن عباس رضي الله عنهما : فدخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجرى بينهما كلام ، فقال له عبد الله بن أبيّ : قد أفقه ما تقول ، ولكن منَّ عليَّ اليوم وكفّنّي بقميصك هذا وصلّ عليّ . قال ابن عباس رضي الله عنهما : فكفنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقميصه ، وصلى عليه والله أعلم أي صلاة كانت ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يخدع إنساناً قط ، غير أنه قال يوم الحديبية كلمة حسنة ، فسئل عكرمة رضي الله عنه ما هذه الكلمة ؟ قال : قالت له قريش : يا أبا حباب إنا قد منعنا محمداً طواف هذا البيت ، ولكنا نأذن لك ، فقال : لا لي في رسول الله أسوة حسنة . قال : فلما بلغوا المدينة أخذ ابنه السيف ثم قال لوالده : أنت تزعم لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، والله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج الحميدي في مسنده عن أبي هارون المدني قال : قال عبد الله بن عبد الله بن أبيّ لأبيه : والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعز وأنا الأذل .

وأخرج الطبراني عن أسامة بن زيد رضي الله عنه : لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني المصطلق قام عبد الله بن عبد الله بن أبيّ فسلّ على أبيه السيف ، وقال : والله

عليّ أن لا أغمده حتى تقول : محمد الأعز وأنا الأذل . فقال : ويلك محمد الأعز وأنا الأذل . فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعجبته ، وشكرها له .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : لما قدموا المدينة سلّ عبد الله بن عبد الله بن أبيّ على أبيه السيف وقال : لأضربنك أو تقول : أنا الأذل ومحمد الأعز . فلم يبرح حتى قال ذلك .

(207/765)

وأخرج ابن أبي شيبة عن عكرمة بن الزبير رضي الله عنه " أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق لما أتوا المنزل كان بين غلمان من المهاجرين وغلمان من الأنصار ، فقال غلمان من المهاجرين : يا للمهاجرين ، وقال غلمان من الأنصار : يا للأنصار ، فبلغ ذلك عبد الله بن أبيّ بن سلول فقال : أما والله لو أنهم لم ينفقوا عليهم انفضوا من حوله ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمر بالرحيل ، فأدرك ركباً من بني عبد الأشهل في المسير ، فقال لهم : " ألم تعلموا ما قال المنافق عبد الله بن أبي ؟ " قالوا : وماذا قال : يا رسول الله ؟ قال : " قال أما والله لو

لم تنفقوا عليهم لانفضوا من حوله ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل

" قالوا : صدق يا رسول الله ، فأنت والله الأعز العزيز وهو الذليل " .

(208/765)

وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن سيرين رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معسكراً وأن رجلاً من قريش كان بينه وبين رجل من الأنصار كلام حتى اشتد الأمر بينهما ، فبلغ ذلك عبد الله بن أبيّ ، فخرج فنادى : غلبني على قومي من لا قوم له ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأخذ سيفه ثم خرج عامداً ليضربه ، فذكر هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ [الحجرات : 1] فرجع حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما لك يا عمر ؟ قال : العجب من ذلك المنافق ، يقول غلبني على قومي من لا قوم له ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال النبي صلى الله عليه وسلم : قم فناد في الناس يرتحلوا ، فارتحلوا فساروا حتى إذا كان بينهم وبين المدينة مسيرة ليلة ، فعجل عبد الله بن عبد الله بن أبيّ حتى أناخ بجامع طرق المدينة ، ودخل الناس حتى جاء أبوه عبد الله بن أبيّ فقال : وراءك . فقال : ما لك ويلك ؟ قال : والله لا تدخلها أبداً إلا أن يأذن رسول الله ، وليعلمن اليوم من الأعز من

الأذل . فرجع حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكا إليه ما صنع ابنه . فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن خلِّ عنه حتى يدخل ففعل ، فلم يلبثوا إلا أياماً قلائل حتى اشتكى عبد الله فاشتد وجعه فقال لابنه عبد الله : يا بني ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم فادعه فإنك إذ أنت طلبت ذلك إليه فعل . ففعل ابنه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : يا رسول إن عبد الله بن أبيّ شديد الوجع ، وقد طلب إليّ أن آتيك فتأتيه فإنه قد اشتاق إلى لقائك ، فأخذ نعليه فقام ، وقام معه نفر من أصحابه حتى دخلوا عليه ، فقال لأهله حين دخل النبي صلى الله عليه وسلم : أجلسوني ، فأجلسوه فبكى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجزعاً يا عدو الله الآن ؟ فقال : يا رسول الله إني لم أدعك لتؤنبني ، ولكن دعوتك لترحمني ،

فاغرورقت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما حاجتك ؟ قال : حاجتي إذا أنا مت أن تشهد غسلي وتكفني في ثلاثة أثواب من ثيابك ، وتمشي مع جنازتي ، وتصلي عليّ . ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية بعد ﴿ ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾ [التوبة : 84] " .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ قال : هم عباد من أمتي الصالحون منهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وعن الصلاة المفروضة الخمس " .

وأخرج عبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو تجب عليه فيه الزكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت " . فقال له رجل : يا ابن عباس اتق الله ، فإنما يسأل الرجعة الكفار ، فقال : سأتلو عليكم بذلك قرآناً ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ إلى آخر السورة " .

وأخرج ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ الآية قال : هو الرجل المؤمن إذا نزل به الموت وله مال لم يزكه ، ولم يحج منه ، ولم يعط حق الله منه يسأل الرجعة عند الموت ليتصدق من ماله ويزكي ، قال الله : ﴿ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الضحاك في قوله : ﴿ لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم

عن ذكر الله ﴾ قال : عن الصلوات الخمس وفي قوله : ﴿ وانفقوا مما رزقناكم ﴾ قال : يعني الزكاة والنفقة في الحج .

(210/765)

وأخرج ابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن عطاء في قوله : ﴿ لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ قال : الصلاة المفروضة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فأصدق ﴾ قال : أزكي ﴿ وأكون من الصالحين ﴾ قال : أحج .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن عن عاصم أنه قرأ ﴿ فأصدق " وأكون " من الصالحين ﴾ قال : أحج .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن عن عاصم أنه قرأ ﴿ فاصدق " وأكون " من الصالحن ﴾ بالواو .

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن زيد بن ثابت قال : القراءة سنة من السنن فاقرؤوا القرآن كما اقرئتموه ﴿ إن هذان لساحران ﴾ [طه : 63] ﴿ فأصدق وأكن من الصالحين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 170 . 180 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءكَ المنافقون ﴾

إذا حرف من حروف التوقيت ، وجوابه قوله : ﴿ فاحذرهم ﴾ وهذا إعلام من الله تعالى بنفاقهم وكذبهم وغرورهم .

﴿ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله ﴾ يعني : يقولون ذلك بلسانهم دون قلوبهم .

﴿ والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ من غير قولهم .

﴿ والله يَشْهَدُ ﴾ يعني : يبيّن ﴿ إِنَّ المنافقين لكاذبون ﴾ يعني : إنهم مصدقون في قولهم ، ولكنهم كاذبون بأنهم أرادوا به الإيمان .

ثم قال عز وجل : ﴿ اتخذوا أيمانهم جُنَّةً ﴾ يعني : حلفهم جُنّة من القتل ، وقرأ بعضهم : اتخذوا إيمانهم بكسر الألف ، يعني : اتخذوا إظهارهم الإسلام وتصديقهم ستراً . لأنفسهم ، وقراءة العامة : ﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ بالنصب يعني : استتروا بالحلف .

وكلما ظهر نفاقهم ، حلفوا كاذبين .

ثم قال: ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يعني: صرفوا الناس عن دين الله وهو الإسلام.

﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يعني: بئس ما كانوا يعملون، حيث أظهروا الإيمان وأسروا الكفر، وصدوا الناس عن الإيمان.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ يعني: ذلك الحلف وصرف الناس عن الإيمان بأنهم ﴿ ءامَنُواْ ﴾ يعني: أقروا باللسان علانية، ﴿ ثُمَّ كَفَرُواْ ﴾ يعني: كفروا في السر.

﴿ فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ ﴾ بالكفر، ﴿ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ الهدى ولا يرغبون فيه.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ يعني: المنافقين، ﴿ تُعْجِبُكَ أجسامهم ﴾ يعني: عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق، كان رجلاً جسيماً فصيحاً يعني: يعجبك منظرهم وفصاحتهم.

﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ يعني: تصدقهم فتحسب أنهم محقون.

(212/765)

﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾، قال مقاتل: فيها تقديم، يقول: كأن أجسامهم خشب مسندة بعضها على بعض قائماً، وإنها لا تسمع ولا تعقل، ويقال: ﴿ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ يعني: خشب أسند إلى الحائط، ليس فيها أرواح، فكذلك المنافقون لا يسمعون الإيمان

ولا يعقلون .

قرأ الكسائي ، وأبو عمرو ، وابن كثير في إحدى الروايتين ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ ﴾ بجزم الشين ، والباقون بالضم ، ومعناهما واحد ، وهو جماعة الخشب .

فوصفهم بتمام الصور ، ثم أعلم أنهم في ترك التفهم بمنزلة الخشب .

ثم قال : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فوصفهم بالجبن أي : كلما صاح صائح ، ظنوا أن ذلك لأمر عليهم ويقال : إن كل من خاطب النبي صلى الله عليه وسلم ، كانوا يخافون ويظنون أنه مخاطب يخاطبه في أمرهم ، وكشف نفاقهم .

ثم أمر أن يحذرهم ، وبيّن أنهم أعداؤه فقال : ﴿ هُمُ العدو ﴾ يعني : هم أعداؤك ، ﴿ فاحذرهم ﴾ ولا تأمن من شرهم .

ثم قال : ﴿ قاتلهم الله ﴾ يعني : لعنهم ﴿ أنى يُؤْفَكُونَ ﴾ يعني : من أين يكذبون ؟ ويقال : من أين يصرفون عن الحق ؟ .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ الله لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ ﴾ يعني : عطفوا رؤوسهم رغبة عن الاستغفار وأعرضوا عنه .

وذلك أن عبد الله بن أبي ابن سلول قيل له : يا أبا الحباب قد أنزل فيك آي : شداد ، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك ، فلوى رأسه ثم قال : أمرتموني أن أؤمن ، فقد آمنت .

وامرتموني أن أعطي زكاة مالي ، فقد أعطيت .

وما بقي إلا أن أسجد لمحمد صلى الله عليه وسلم .

قرأ نافع ﴿ لَوَوْا رُؤُوسَهُمْ ﴾ بالتخفيف ، والباقون بالتشديد .

ومن قرأ بالتخفيف ، فهو من لوى يلوي ؛ ومن قرأ بالتشديد ، فهو للتكثير .

ثم قال : ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ يعني : يعرضون عن الاستغفار مستكبرين عن الإيمان في السر .

(213/765)

ثم أخبر : أن الاستغفار لا ينفعهم ، ما داموا على نفاقهم ، فقال : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ ، لأنهم منافقون .

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ يعني : لا يرشدهم إلى دينه ، لأنهم لا يرغبون فيه .

ثم قال : ﴿ هُمُ الذين يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا على مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حتى يَنفَضُّواْ ﴾ يعني : يتفرقوا .

وروى سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : كنا في غزوة ، فكسح رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصاري يا للأَنْصارِ وقال :

المهاجري : يا للمهاجرين .

فسمع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : " مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ ، دَعُوهَا فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ " .

فقال عبد الله بن أبي : والله لئن رجعنا إلى المدينة ، ليخرجن الأعز منها الأذل .

فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب رأس هذا المنافق فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

" دَعْهُ لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّداً يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ " .

وروى معمر ، عن قتادة أن عبد الله بن أبي قال لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله ، فإنكم لو لم تنفقوا عليهم قد انفضوا .

قال : فاقتتل رجلان ، أحدهما من جهينة ، والآخر من غفار ؛ وكانت جهينة حليف الأنصار ، فظهر عليهم الغفاري ، فقال رجل منهم عظيم النفاق يعني : عبد الله بن أبي : عليكم صاحبكم حليفكم ، فوالله ما مثلنا ومثل محمد صلى الله عليه وسلم إلا كما قال القائل : سمّن كلبك يأكلك .

أما والله لئن رجعنا إلى المدينة .

ليخرجن الأعز منها الأذلّ .

وروى معمر ، عن الحسن : أن غلاماً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا نبي الله ، إني سمعت أن عبد الله بن أبي يقول كذا .

فقال : فلعلك غضبت عليه .

فقال : أما والله يا نبي الله ، فلقد سمعته يقول ، فقال : فلعله أخطأ سمعك .

(214/765)

فقال : لا والله يا نبي الله ، لقد سمعته يقول .

فأنزل الله تعالى تصديقاً للغلام ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المدينة ﴾ .

فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بأذن الغلام ، وقال : "وَعَتْ أُذُنُكَ يَا غُلامُ" ، فنزل قوله تعالى : ﴿ هُمُ الذين يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّواْ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السموات والأرض ﴾ يعني : مفاتيح السموات وهي المطر والرزق ، ومفاتيح الأرض وهي النبات .

﴿ ولكن المنافقين لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ أمر الله تعالى .

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الاعز مِنْهَا الاذل ﴾ يعني : القوي ﴿ مِنْهَا ﴾ يعني : من المدينة الذليل يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ ﴾ يعني : المقدرة والمنعة لله ولرسوله .

﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، حيث قواهم الله تعالى ونصرهم ﴿ ولكن المنافقين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني

: لا يصدقون في السر .

ويقال : ﴿ وَلِلَّهِ العزة ﴾ يعني : القدرة ، ويقال : نفاذ الأمر ﴿ وَلِرَسُولِهِ ﴾ ، وهو عزة النبوة والرسالة ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وهو عز الإيمان والإسلام ، أعزهم الله في الدنيا والآخرة .

ولكن المنافقين لا يعلمون .

ثم قال عز وجل : ﴿ يَعْلَمُونَ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أموالكم ﴾ يعني : لا تشغلكم أموالكم ﴿ وَلاَ أولادكم عَن ذِكْرِ الله ﴾ يعني : عن طاعة الله تعالى .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك ﴾ يعني : من لم يعمل بطاعته ولم يؤمن بوحدانيته ، ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ يعني : المغبونين بذهاب الدنيا وحرمان الآخرة .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا رزقناكم ﴾ يعني : تصدقوا مما رزقناكم ، أي : مما رزقكم الله من الأموال .

(215/765)

﴿ مّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الموت فَيَقُولُ رَبّ لَوْلا أَخَّرْتَنِى إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ يعني : يقول : يا سيدي ردني إلى الدنيا ، ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ يعني : فأتصدق ، ويقال : أصدق بالله .

﴿ وَأَكُن مِّنَ الصالحين ﴾ يعني : أفعل كما فعل المؤمنون .

وروى الضحاك ، عن ابن عباس أنه قال : من كان له مال يجب فيه الزكاة فلم يزكه ، أو مال يبلغه بيت الله فلم يحج ، سأل عند الموت الرجعة قال : فقال رجل : اتق الله يا ابن عباس ، سألت الكفار الرجعة .

قال : إني أقرأ عليك بهذا القرآن ، ثم قرأ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ إِلى قوله : ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصالحين ﴾ فقال رجل : يا ابن عباس ، وما يوجب الزكاة؟ قال : مائتان فصاعداً .

قال : فما يوجب الحج؟ قال : الزاد والراحلة .

قرأ أبو عمرو ، ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ بالواو وفتح النون ، والباقون ﴿ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن ﴾ بحذف الواو بالجزم .

فمن قرأ ﴿ أَكُونَ ﴾ لأن قوله : ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ جواب لولا أخبرتني بالفاء ، فأكون معطوفاً عليه .

ومن قرأ ﴿ وَأَكُن ﴾ ، فإنه عطفه على موضع ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ ، لأنه على معنى إن أخرتني أصدق وأكن ، ولم يعطفه على اللفظ .

قال أبو عبيدة : قرأت في مصحف عثمان هكذا بغير واو .

ثم قال : ﴿ وَلَن يُؤَخّرَ الله نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا ﴾ يعني : إذ جاء وقتها .

﴿ والله خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الخير والشر ، فيجازيكم .

قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ بالياء على معنى الخبر عنهم ، والباقون بالتاء على معنى المخاطبة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 428 ـ 431 ﴾

(216/765)

وقال الثعلبى :

﴿ إِذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ ﴾

فيما أظهروا لأنّهم أضمروا خلافه .

﴿ اتخذوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ فسترة ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ لاستواء خلقها ، وحسن صورتها ، وطول قامتها .

قال ابن عبّاس : وكان عبد اللّه بن أُبيّ جسيماً صحيحاً فصيحاً ذلق اللسان ، فإذا قال يسمع النبي (عليه السلام) قوله .

﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام.

قرأ الأعمش والكسائي وأبو عمرو عن عابس وقيل عبّاس: خشب مخفف بجزم الشين، وهي قراءة البراء بن عازب واختيار أبي عبيد قال: [المدُّ مذهبها] في العربية، وذلك أنّ واحدتها خشبة ولم تجد في كلامهم اسماً على مثل فعلة تجمع فُعُل بضم الفاء والعين، ويلزم من فعلها أن ينقل البدن أيضاً فيقرأ ﴿ والبدن جَعَلْنَاهَا لَكُمْ ﴾ [الحج: 36] لأن واحدتها بُدنة أيضاً.

وقرأ الآخرون بالتثقيل وهي اختيار أبي حاتم واختلف فيه عن ابن كثير وعاصم.

أخبرنا أبو بكر بن أبي محمّد الحمشاذي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك القطيعي، حدّثنا محمّد بن يونس بن موسى قال: حدّثنا الأصمعي قال: حدّثنا سليم العاملاني قال: جاءَ رجل إلى ابن سيرين فقال: رأيت حالي مُحْتضن خشبة، فقال أحسبك من أهل هذه الآية وتلا ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾.

﴿ يَحْسَبُونَ ﴾ من جبنهم وسوء ظنهم وقلّة يقينهم.

﴿ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ قال مقاتل : يقول إن نادى مناد في العسكر وانقلبت دابّة ،

ونُشدت ضالة ظنّوا أنّهم يرادون بذلك لما في قلوبهم من الرعب .

وقال بعضهم : إنّما قال ذلك لأنّهم على وجل من أن ينزل اللّه فيهم ، يهتك أستارهم وتبيح

دماءهم وأموالهم وقال الشاعر في هذا المعنى :

ولو أنها عصفورة لحسبتها . . . مسوّمة تدعو عُبيداً وأزنما

ثمّ قال ﴿ هُمُ العدو ﴾ ابتداء وخبر .

﴿ فاحذرهم ﴾ ولا تأمنهم .

﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ لعنهم اللّه .

﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون عن الحق .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ أي أمالوها وأظهروا

بوجوههم إظهاراً للكراهية .

وقرأ نافع والمفضل ويعقوب برواية روح وزيد بتخفيف الواو ، وهي اختيار أبي حاتم .

وقرأ الباقون بالتشديد واختاره أبو عبيدة قال : لأنّهم فعلوها مرّة بعد مرّة .

﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ يعرضون عمّا دعوا إليه ، ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ لا يستغفرون .

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ نزلت هذه الآية في عبد الله بن أُبي المنافق وأصحابه ، وذلك ما ذكره أهل التفسير وأصحاب السير أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بلغه أنّ بني المصطلق يجتمعون لحربه وقائدهم الحرث بن أبي ضراب أَبو جويرية زوج رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فلمّا سمع بهم رسول الله (عليه السلام) خرج إليهم حتّى لقيهم على ماء من مياههم يقال له : المريسيع من ناحية قدموا إلى الساحل ، فتزاحف النّاس واقتتلوا فهزم اللّه بني المصطلق وقتل من قتل منهم ونقل رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءها عليه ، وقد أُصيب رجل من المسلمين من بني كليب بن عوف بن عامر يقال له : هشام بن صبابة ، أصابه رجل من الأنصار من رهط عبادة بن الصامت وهو يرى أنّه من العدو فقتله خطأً .

(219/765)

فبينا النّاس على ذلك الماء إذ وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني عمار يقال له : جهجاه بن سعيد يقود له فرسه فازدحم جهجاه وسنان الجهني حليف بني

عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار ، وصرخ الغفاري : يا معشر المهاجرين ، فأعان جهجاه الغفاري رجل من المهاجرين يقال له جعال وكان فقيراً ، وقال عبد الله بن أبي الجعال : وإنّك لهناك ؟ فقال : وما يمنعني أن أفعل ذلك ؟ فاشتدّ لسان جعال على عبد الله ، فقال عبد الله : والّذي يُحلَفُ به لأذرنّك وبهمك عن هذا ، وغضب عبد اللّه بن أبي وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلاماً حديث السّن ، وقال ابن أُبي افعلوا قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما مثلنا ومثلهم إلّا كما قال القائل : سمّن كلبك يأكلك ، أما واللّه ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ يعني بالأعزّ نفسه وبالأذلّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ثمّ أقبل على من حضر من قومه فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما واللّه لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ، ولأوشكوا أن يتحولوا عن بلادكم فيلحقوا بعشائرهم ومواليهم فلا تنفقوا عليهم حتّى ينفضّوا من حول محمّد ، فقال زيد بن أرقم : أنت واللّه الذليل المبغض في قومك ، ومحمّد في عزّ من الرحمن ومودّة من المسلمين ، واللّه لا أحبّك بعد كلامك هذا .

فقال عبد اللّه : اسكت فإنّما كنت ألعب ، فمشى زيد بن أرقم إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وذلك بعد فراغه من الغزو فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب فقال : دعني

أضرب عنقه يا رسول اللّه فقال : إذا توعد أن خلّ عنه يدخل . فقال : أمّا إذا جاءَ أمر النبي (عليه السلام) فعمر يرحل ولم يلبث إلاّ أياماً ولأنك حسبتني أشتكي ومات .

(220/765)

قالوا : فلمّا نزلت هذه الآية وبان كذب عبد اللّه بن أبي قيل له : يا أبا حباب إنّه قد نزلت أيُ شداد ، فاذهب إلى رسول اللّه يستغفر لك فلوّى رأسه ثم قال : أمرتموني أن أؤمن فقد أمنت ، وأمرتموني أن أُعطي زكاة مالي فقد أعطيت ، فما بقي إلاّ أن أسجد لمحمّد ، فأنزل اللّه سبحانه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ ﴾ إلى قوله ﴿ هُمُ الذين يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حتى يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السماوات والأرض ﴾ فلا يعذر أحد أن يعطي هنا شيئاً إلاّ بأذنه ، ولا أن يمنعه شيئاً إلاّ بمشيئته .

قال رجل لحاتم الأصم : من أين يأكل ؟ فقرأ ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السماوات والأرض ولكن المنافقين لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ .

وقال الجنيد : خزائن السماء : الغيوب ، وخزائن الأرض : القلوب وهو علاّم الغيوب ومقلّب القلوب ، وكان الشبلي يقول : وللّه خزائن السماوات والأرض فأين تَذهبون ؟ .

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى المدينة ﴾ يعني من غزوة بني لحيان ثمّ بني المصطلق ، وهم حي

من هذيل ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فعزّة اللّه سبحانه قهر مَن دونه ، وعزّ رسوله إظهار دينه على الأديان كلّها ، وعزّ المؤمنين نصره إيّاهم على أعدائهم فهم ظاهرون .

وقيل : عزّة اللّه : الولاية ، قال اللّه تعالى ﴿ هُنَالِكَ الولاية لِلَّهِ الحق ﴾ [الكهف : 44]

وعزّة الرسول : الكفاية قال اللّه سبحانه : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ المستهزئين ﴾ [الحجر : 95]

وعزّ المؤمنين : الرفعة والرعاية قال اللّه سبحانه : ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : 139] وقال ﴿ وَكَانَ بالمؤمنين رَحِيماً ﴾ [الأحزاب : 43] .

وقيل : عزة اللّه الربوبية ، وعزّة الرسول : النبوّة . وعزّة المؤمنين : العبودية .

(221/765)

وكان جعفر الصّادق يقول : " من مثلي وربّ العرش معبودي ، من مثلي وأنت لي " .

وقيل : عزّة اللّه خمسة : عزّ الملك والبقاء ، وعزّ العظمة والكبرياء ، وعزة البذل والعطاء ، وعزّ الرفعة والغناء ، وعزّ الجلال والبهاء ، وعزّ الرسول خمسة : عزّ السبق والابتداء ، وعزّ الأذان والنداء ، وعزّ قدم الصدق على الأنبياء ، وعزّ الاختيار والاصطفاء ، وعزّ الظهور على الأعداء ، وعزّ المؤمنين خمسة : عزّ التأخير بيانه : نحن السابقون الآخرون ،

وعزّ التيسير بيانه : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : 17] ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾ [البقرة : 185] ، وعزّ التبشير بيانه : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴾ [الأحزاب : 47] ، وعزّ التوقير بيانه : ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ [آل عمران : 139] ، وعزّ التكثير وبيانه : إنهم أكثر الأمم .

﴿ ولكن المنافقين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ ﴾ لا تشغلكم ﴿ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ قال المفسرون : يعني الصلوات الخمس ، نظيره قوله سبحانه : ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾ [النور : 37] الآية .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فأولئك هُمُ الخاسرون ﴾ ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الموت فَيَقُولُ رَبِّ لولا أخرتني ﴾ أمهلتني يجوز أن يكون (لا) صلة ، فيكون الكلام بمعنى التمنّي ، ويجوز أن يكون بمعنى هلاّ فيكون استفهاماً .

﴿ إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ يعني مثل ما أجلت في الدنيا ، ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ فأتصدّق وأزكّي مالي .

﴿ وَأَكُن مِّنَ الصالحين ﴾ المؤمنين نظيره قوله ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ ﴾ [الرعد : 23] هذا قول مقاتل وجماعة من المفسرين ، وقالوا : نزلت هذه الآية في المنافقين .

وقيل : الصالح ها هنا : الحج ، والآية نازلة في المؤمنين .

روى الضّحاك وعطية عن ابن عبّاس قال : ما من أحد يموت وكان له مال ولم يؤدّ زكاته وأطاق الحجّ ولم يحجّ إلاّ سأل الرجعة عند الموت فقالوا : يا بن عبّاس اتّق اللّه فأنّما نرى هذا الكافر سأل الرجعة فقال : أنا أقرأ عليكم قرآناً ، ثم قرأ هذه الآية الى قوله ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصالحين ﴾ قال : أحجّ ، أخبرناه ابن منجويه قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا ابن سهلويه قال : حدّثنا سلمة قال : حدّثنا عبد الرزّاق قال : أخبرنا الثوري عن يحيى بن أبي حيّة عن الضّحاك عن ابن عبّاس .

واختلف القرّاء في قوله ﴿ وَأَكُنْ ﴾ فقرأ أبو عَمرو وابن محيص : وأكون بالواو ونصب النون على جواب التمنّي أو للاستفهام بالفاء ، قال أبُو عَمرو : وإنّما حذفت الواو من المصحف اختصاراً كما حذفوها في (كلّمن) وأصلها الواو .

قال الفرّاء : ورأيت في بعض مصاحف عبد اللّه فقولا فقُلا بغير واو ، وتصديق هذه القراءة ما أخبرنا محمّد بن نعيم قال : أخبرنا الحسين بن أيّوب قال : أخبرنا علي بن عبد العزيز قال : أخبرنا القاسم بن سلام قال : حدّثنا حجاج عن هارون قال : في حرف أُبي بن كعب وعبد اللّه بن مسعود وأكون من الصالحين ، بالواو .

وقرأ الآخرون : بالجزم وأكنْ عطفاً بها على قوله فأصّدّق لو لم يكن فيه الفاء وذلك أنّ قوله

فأصدّق لو لم يكن فيه الفاء كان جزماً ، واختار أَبو عبيد الجزم ، قال : من ثلاث جهات :

أحدها : إنّي رأيتها في مصحف الإمام عثمان (فأكن) بحذف الواو ثم اتفقت بذلك المصاحف فلم تختلف .

والثانية : اجتماع أكثر قرّاء الأمصار عليها .

والثالثة : إنّا وجدنا لها مخرجاً صحيحاً في العربية لا يجهله أهل العلم بها وهو أنْ يكون نسقاً على محل أصدّق قبل دخول الفاء ، وقد وجدنا مثله في أشعارهم القديمة منها قول القائل :

فأبلوني بليتكم لعلّي . . . أصالحكم واستدرجْ نويا

(223/765)

فجزم واستدرج عطفاً على محل أصالحكم قبل دخول لعلّي .

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بالياء مختلف عنه غيره بالتاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 319. 324 ﴾

(224/765)

وقال الزمخشري :

سورة المنافقون

مدنية ، وهي إحدى عشرة آية [نزلت بعد الحج] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المنافقون (63) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (3)

أرادوا بقولهم نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ شهادة واطأت فيها قلوبهم ألسنتهم «1» . فقال اللّه عزّ وجلّ : قالوا ذلك وَاللَّهُ يَعْلَمُ أن الأمر كما يدل عليه قولهم : إنك لرسول اللّه ، واللّه يشهد إنهم لكاذبون في قولهم : نشهد ، وادعائهم فيه المواطأة. أو إنهم لكاذبون فيه ، لأنه إذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة في الحقيقة ، فهم كاذبون في تسميته شهادة. أو أراد : واللّه يشهد إنهم لكاذبون عند أنفسهم : لأنهم كانوا يعتقدون أنّ قولهم إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ كذب وخبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه. فإن قلت : أى فائدة في قوله تعالى وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ؟

قلت : لو قال : قالوا نشهد إنك لرسول اللّه واللّه يشهد إنهم الكاذبون ، لكان يوهم أنّ قولهم هذا كذب ، فوسط بينهما قوله وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ليميط هذا الإيهام اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً يجوز أن يراد أنّ قولهم نشهد إنك لرسول اللّه يمين من أيمانهم الكاذبة ، لأنّ الشهادة تجرى مجرى الحلف فيما يراد به من التوكيد ، يقول الرجل : أشهد وأشهد باللّه ، وأعزم وأعزم

---

(1) . قال محمود : «إنما كذبهم لأنهم ادعوا أن شهادتهم بألسنتهم تواطئ لقلوبهم . . . الخ» قال أحمد : ومثل هذا من نمطه المليح قوله قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وقد كان المطابق لقوله وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا أن يقال لهم : لا تقولوا آمنا ، ولكنه لما كان موهما للنهى عن قول الايمان عدل عنه على ما فيه من الطباق إلى ما سلم الكلام فيه من الوهم ، وذلك أجل وأعظم من فائدة المطابقة ، لا سيما في مخاطبة هؤلاء الذين كانوا يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة . ألا تراهم كيف غالطوا أنفسهم متغابين ، ولبسوا على ضعفهم متجاهلين عند ما أنزل قوله إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ .

باللّه في موضع أقسم وأولى. وبه استشهد أبو حنيفة رحمه اللّه على أن «أشهد» يمين «1». ويجوز أن يكون وصفا للمنافقين في استجنانهم بالأيمان. وقرأ الحسن البصري: إيمانهم، أى: ما أظهروه من الإيمان بألسنتهم. ويعضده قوله تعالى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا. ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ من نفاقهم وصدهم الناس عن سبيل اللّه. وفي ساءَ معنى التعجب الذي هو تعظيم أمرهم عند السامعين ذلِكَ إشارة إلى قوله ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى ذلك القول الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالا بسبب بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستجنان بالأيمان، أى: ذلك كله بسبب أنهم آمنوا ثم كفروا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فجسروا على كل عظيمة. فإن قلت: المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم، «2» فما معنى قوله آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا؟ قلت: فيه ثلاثة أوجه، أحدها: آمنوا، أى: نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام، ثم كفروا: ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما أطلع عليه من قولهم: إن كان ما يقوله محمد حقا فنحن حمير، وقولهم في غزوة تبوك: أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر هيهات. ونحوه قوله تعالى يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ أى: وظهر كفرهم بعد أن أسلموا. ونحوه قوله تعالى لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ والثاني آمنوا: أى نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام، كقوله تعالى وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا إلى قوله تعالى إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ والثالث: أن

يراد أهل الردة منهم .

وقرئ : فطبع على قلوبهم . وقرأ زيد بن على : فطبع اللّه .

---

(1) . قال محمود : «استدل لأبى حنيفة على أن قول القائل «أشهد» يمين بقوله اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً ولم يصدر منهم إلا قولهم نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ فجعله يمينا» قال أحمد : أحد القولين عند مالك رحمه اللّه إذا قال أشهد وأحلف وأقسم ولم ينو باللّه ولا بغيره ، كما نقل عن أبى حنيفة أنه يمين وليس بالمشهور . أما لو نوى باللّه وإن لم يتلفظ فيمين بلا إشكال ، وليس فيما ذكره دليل على ما ذكره ، فان قوله اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً غايته أن ما ذكروه يسمى يمينا ، وليس الخلاف في تسميته يمينا ، وإنما الخلاف هل يكون يمينا منعقدة يلزم بالحنث فيها كفارة أم لا ؟

وليس كل ما يسمى حلفا أو قسما يوجب حكما ، ألا ترى أنه لو قال : «أحلف» ولم يقل «باللّه» ولا بغيره ، فهو من محال الخلاف في وجوب الكفارة به ، وإن كان حلفا لغة باتفاق ، لأنه فعل مشتق منه .

(2) . قال محمود : «المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم . . . الخ . قال أحمد : ويحتمل وجها رابعا وهو أنهم آمنوا به قبل مبعثه على الصفة المذكورة في التوراة ، لأنهم كانوا يسمعونها من جيرانهم اليهود ، ثم كفروا به بعد مبعثه وموافقة الصفة ، ولعل في المنافقين يهودا ، وإن لم يكن فقد كان الايمان قبل مبعثه من الفريقين :

اليهود وعبدة الأوثان من العرب ، إلى نزول قوله لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ كيف حكى اللّه تعالى عن الفريقين ما كانوا يقولونه .

والبينة : النبي صلى اللّه عليه وسلم .

(226/765)

[سورة المنافقون (63) : آية 4]

وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4)

كان عبد اللّه بن أبىّ رجلا جسيما صبيحا ، فصيحا ، ذلق اللسان «1» وقوم من المنافقين في مثل صفته ، وهم رؤساء المدينة ، وكانوا يحضرون مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيستندون فيه ، ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن «2» فكان النبي صلى اللّه عليه وسلم ومن حضر يعجبون بهيا كلهم ويسمعون إلى كلامهم . فإن قلت : ما معنى قوله كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ؟ قلت :

شبهوا في استنادهم - وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير - بالخشب المسندة إلى الحائط ولأنّ الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، وما

دام متروكا فارغا غير منتفع به أسند إلى الحائط ، فشبهوا به في عدم الانتفاع . ويجوز أن يراد بالخشب المسندة : الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان ، شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم ، والخطاب في رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ لرسول اللّه ، أو لكل من يخاطب . وقرئ : يسمع ، على البناء للمفعول ، وموضع كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ رفع على : هم كأنهم خشب . أو هو كلام مستأنف لا محل له . وقرئ : خشب جمع خشبة ، كبدنة وبدن . وخشب ، كثمرة وثمر . وخشب ، كمدرة ومدر ، وهي في قراءة ابن عباس .

وعن اليزيدي أنه قال في خُشُبٌ : جمع خشباء ، والخشباء :

الخشبة التي دعر جوفها «3» : شبهوا بها في نفاقهم وفساد بواطنهم عَلَيْهِمْ ثانى مفعولي يحسبون «4» ، أى : يحسبون كل صيحة واقعة عليهم وضارة لهم ، لجبنهم وهلعهم وما في قلوبهم من الرعب :

إذا نادى مناد في العسكر أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة : ظنوه إيقاعا بهم . وقيل : كانوا على وجل من أن ينزل اللّه فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم . ومنه أخذ الأخطل :

---

(1) . قوله «فصيحا ذلق اللسان» أى طلق اللسان ، كذا في الصحاح . (ع)

(2) . قال محمود : «كانوا يجالسون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ويستندون في المجلس ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن . . . الخ» : قال أحمد : وفيما قال اليزيدي نظر من

حيث مقتضى العربية ، وإلا فهو متمكن المعنى ، وذلك أنها قرئت بضم الشين وسكونها قراءتين مستفيضتين ، ففيه دليل أن أصلها الضم ، والسكون إنما هو طارئ عليه تخفيفا ، وهذا يبعد كونها جمع خشباء على وزن فعلاء ، لأن قياس جمعه فعل بسكون العين كحمراء وحمر ، ولا يطرأ الضم ، فلو كان كما قال لم تضم شينها ، واللّه تعالى أعلم .

(3) . قوله «التي دعر جوفها» أى فسد . أفاده الصحاح. (ع)

(4) . قال محمود : «المفعول الثاني عَلَيْهِمْ تقديره : واقعة عليهم . . . الخ» قال أحمد : وغلا المتنبي في المعنى فقال :

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

[. . . . . .]

(227/765)

ما زلت تحسب كلّ شيء بعدهم خيلا تكرّ عليهم ورجالا «1»

يوقب على عَلَيْهِمْ ويبتدأ هُمُ الْعَدُوُّ أى الكاملون في العداوة : لأنّ أعدى الأعداء العدوّ المداجى «2» ، الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوىّ فَاحْذَرْهُمْ ولا تغترر بظاهرهم .

ويجوز أن يكون هُمُ الْعَدُوُّ المفعول الثاني، كما لو طرحت الضمير. فإن قلت: فحقه أن

يقال:

هي العدوّ. قلت: منظور فيه إلى الخبر، كما ذكر في هذا رَبِّي وأن يقدر مضاف محذوف

على:

يحسبون كل أهل صيحة قاتَلَهُمُ اللَّهُ دعاء عليهم، وطلب من ذاته أن يلعنهم ويخزيهم. أو

تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك أَنَّى يُؤْفَكُونَ كيف يعدلون عن الحق تعجبا من جهلهم

وضلالتهم. «3»

[سورة المنافقون (63) : الآيات 5 إلى 6]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ

(5) سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْفاسِقِينَ (6)

لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ عطفوها وأمالوها إعراضا عن ذلك واستكبارا. وقرئ بالتخفيف

والتشديد للتكثير.

[سورة المنافقون (63) : الآيات 7 إلى 8]

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ

وَالْأَرْضِ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (7) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا

الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (8)

روى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم حين لقى بنى المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتل منهم: ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر يقود فرسه،

---

(1) . للأخطل، يقول: لا زلت يا جرير تظن كل شيء بعدهم، أى: بعد خذلان قومك. ويجوز أن بعدهم بمعنى غيرهم، خيلا تكر: أى ترجع بسرعة عليهم ورجالا لكثرة ما قام بقلبك من الخوف.

(2) . قوله «العدو المداجى الذي يكاشرك» أى المدارى. والكثر: التهسم تبدو منه الأسنان. والدوى - مقصور - المرض، تقول: دوى الرجل - بالكسر - : مرض ودوى صدره أيضا: ضغن. ودوىّ الريح: حفيفها، كذا في الصحاح. (ع)

(3) . قوله «تعجبا من جهلهم» لعله تعجب، بل لعله: تعجيب. (ع)

(228/765)

وسنان الجهني حليف لعبد اللّه بن أبىّ، واقتتلا، فصرخ جهجاه: يا للمهاجرين: وسنان: يا للأنصار، فأعان جهجاها جعال من فقراء المهاجرين ولطم سنانا، فقال عبد اللّه لجعال. وأنت هناك، وقال: ما صحبنا محمدا إلا لنلطم، واللّه ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال

: سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل ، عنى بالأعز : نفسه ، وبالأذل :

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لقومه : ما ذا فعلتم بأنفسكم ؟ أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ، ولأوشكوا أن يتحوّلوا عنكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد ، فسمع بذلك زيد بن أرقم وهو حدث ، فقال : أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك ، ومحمد في عزّ من الرحمن وقوّة من المسلمين ، فقال عبد الله : اسكت فإنما كنت ألعب ، فأخبر زيد رسول الله فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله ، فقال : إذن ترعد أنف كثيرة بيثرب . قال : فإن كرهت أن يقتله مهاجرى ، فأمر به أنصاريا فقال : فكيف إذا تحدّث الناس أنّ محمدا يقتل أصحابه ، وقال عليه الصلاة والسلام لعبد الله : أنت صاحب الكلام الذي بلغني ؟ قال : والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئًا من ذلك ، وإن زيدا لكاذب ، وهو قوله تعالى اتَّخَذُوا أَيمانَهُمْ جُنَّةً فقال الحاضرون : يا رسول الله : شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه كلام غلام ، عسى أن يكون قد وهم . وروى أن رسول الله قال له : لعلك غضبت عليه ، قال : لا ، قال : فلعله أخطأ سمعك ، قال :

لا ، قال : فلعله شبه عليك ، قال : لا . فلما نزلت : لحق رسول الله زيدا من خلفه فعرك أذنه وقال : وفت أذنك يا غلام ، إنّ الله قد صدقك وكذب المنافقين « 1 » . ولما أراد عبد

اللّه أن يدخل المدينة : اعترضه ابنه حباب ، وهو عبد اللّه بن عبد اللّه غير رسول اللّه اسمه ، وقال :

إنّ حبابا اسم شيطان . وكان مخلصا وقال : وراءك ، واللّه ، لا تدخلها حتى تقول رسول اللّه الأعز وأنا الأذل ، فلم يزل حبيسا في يده حتى أمره رسول اللّه بتخليته «2» . وروى أنه قال له :

---

(1) . هكذا ذكره الواقدي في المغازي بغير إسناد وعزاه إلى الثعلبي والواحدي ولأصحاب السير ، وأخرجه ابن إسحاق في السيرة : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد اللّه بن أبى بكر ومحمد بن يحيى بن حبان كل قد حدثني بعض حديث بنى المصطلق - فذكر للغزوة بطولها والقصة المذكورة باختلاف يسير . وكذا أخرجه الطبري من طريقه وأصل القصة في الصحيحين من طريق أبى إسحاق عن زيد بن أرقم قال «كنت مع عمى فسمعت عبد اللّه بن أبى يقول - الحديث - وأوله عندهما أيضا من طريق عمرو بن دينار عن جابر قال «كنا في غزوة بنى المصطلق فتبع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار» ورواه الترمذي والنسائي والحاكم من طريق أبى سعد الأودى حدثنا زيد بن أرقم قال «غزونا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وكان معنا أناس من الأعراب فكنا نبتدر الماء وكان الأعراب يسبقوننا فسبق أعرابى . فملأ الحوض» فذكر القصة بطولها . وفي سياقها اختلاف .

(2) . هكذا ذكره الثعلبي موصولا بالذي قبله ، وروى الزبيدي من طريق عمرو بن دينار عن جابر أصل القصة وقال بعد عمر : دعني أضرب عنقه . فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه» قال وقال غير عمر وقال له ابنه عبد اللّه بن عبد اللّه «و اللّه لا تنفلت حتى تقول إنك الذليل ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم العزيز ففعل» قلت : وأصل حديث جابر في الصحيح .

(229/765)

لئن لم تقرّ للّه ورسوله بالعز لأضر بن عنقك ، فقال : ويحك ، أفاعل أنت ؟ قال : نعم . فلما رأى منه الجدّ قال : أشهد أنّ العزة للّه ولرسوله وللمؤمنين ، فقال رسول اللّه لابنه : جزاك اللّه عن رسوله وعن المؤمنين خيرا «1» ، فلما بان كذب عبد اللّه قيل له : قد نزلت فيك آي شداد ، فاذهب إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يستغفر لك ، فلوى رأسه ثم قال : أمرتموني أن أو من فآمنت ، وأمرتموني أن أزكى مالى فزكيت ، فما بقي إلا أن أسجد لمحمد ، فنزلت وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ولم يلبث إلا أياما قلائل حتى اشتكى ومات «2» سَواءٌ عَلَيْهِمْ الاستغفار وعدمه ، لأنهم لا يلتفتون إليه ولا يعتدون به لكفرهم . أو لأن اللّه لا يغفر لهم .

وقرئ: استغفرت، على حذف حرف الاستفهام لأنّ «أم» المعادلة تدل عليه. وقرأ أبو جعفر: آستغفرت، إشباعا لهمزة الاستفهام للإظهار والبيان، لا قلبا لهمزة الوصل ألفا، كما في: آلسحر، وآللّه يَنْفَضُّوا يتفرقوا. وقرئ: ينفضوا، من انفض القوم إذا فنيت أزوادهم. وحقيقته: حان لهم أن ينفضوا مزاودهم وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وبيده الأرزاق والقسم، وفهو رازقهم منها، وإن أبى أهل المدينة أن ينفقوا عليهم، ولكن عبد اللّه وأضرابه جاهلون لا يَفْقَهُونَ ذلك فيهذون بما يزين لهم الشيطان. وقرئ: ليخرجنّ الأعز منها الأذل بفتح الياء. وليخرجنّ، على البناء للمفعول. قرأ الحسن وابن أبى عبلة: لنخرجنّ، بالنون ونصب الأعز والأذل. ومعناه: خروج الأذل. أو إخراج الأذل. أو مثل الأذل وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ الغلبة والقوّة، ولمن أعزه اللّه وأيده من رسوله ومن المؤمنين، وهم الأخصاء بذلك، كما أنّ المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين. وعن بعض الصالحات - وكانت في هيئة رثة - ألست على الإسلام؟ وهو العز الذي لا ذل معه، والغنى الذي لا فقر معه. وعن الحسن بن على رضى اللّه عنهما: أنّ رجلا قال له. إنّ الناس يزعمون أنّ فيك تيها، قال: ليس بتيه، ولكنه عزة، وتلا هذه الآية.

[سورة المنافقون (63): آية 9]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (9)

---

(1) . هكذا أورده الثعلبي موصولا بالحديث الذي قبله .

(2) . ذكره الثعلبي موصولا بالذي قبله . وأخرجه الطبري من رواية إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن بشر بن مسلم «أنه قيل لعبد اللّه بن أبى : يا أبا الحباب : إنه أنزل آي شداد ، فاذهب إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - فذكره أخصر منه .

(230/765)

لا تُلْهِكُمْ لا تشغلكم أَمْوالُكُمْ والتصرف فيها : والسعى في تدبير أمرها : والتهالك على طلب النماء فيها بالتجارة والاغتلال ، وابتغاء النتاج والتلذذ بها ، والاستمتاع بمنافعها وَلا أَوْلادُكُمْ وسروركم بهم ، وشفقتكم عليهم ، والقيام بمؤنهم ، وتسوية ما يصلحهم من معايشهم في حياتكم وبعد مماتكم ، وقد عرفتم قدر منفعة الأموال والأولاد ، وأنه أهون شيء وأدونه في جنب ما عند اللّه عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وإيثاره عليها وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يريد الشغل بالدنيا عن الدين فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ في تجارتهم حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني . وقيل :

ذكر اللّه الصلوات الخمس . وعن الحسن : جميع الفرائض ، كأنه قال : عن طاعة اللّه . وقيل

:

القرآن. وعن الكلبي: الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[سورة المنافقون (63) : الآيات 10 إلى 11]

وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (11)

من في مِمَّا رَزَقْناكُمْ للتبعيض، والمراد: الإنفاق الواجب مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ من قبل أن يرى دلائل الموت، ويعاين ما ييأس معه من الإمهال، ويضيق به الخناق، ويتعذر عليه الإنفاق ويفوت وقت القبول، فيتحسر على المنع، ويعضّ أنامله على فقد ما كان متمكنا منه. وعن ابن عباس رضى الله عنه: تصدّقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت، فلا تقبل توبة، ولا ينفع عمل. وعنه: ما يمنع أحدكم إذا كان له مال أن يزكى، وإذا أطاق الحج أن يحج من قبل أن يأتيه الموت، فيسأل ربه الكرة فلا يعطاها. وعنه: أنها نزلت في ما نعى الزكاة، وو الله لو رأى خيرا لما سأل الرجعة، فقيل له: أما تتقى الله، يسأل المؤمنون الكرة؟ قال: نعم، أنا أقرأ عليكم به قرآنا، يعنى: أنها نزلت في المؤمنين وهم المخاطبون بها، وكذا عن الحسن: ما من أحد لم يزك ولم يصم ولم يحج إلا سأل الرجعة. وعن عكرمة أنها نزلت في أهل القبلة لَوْلا أَخَّرْتَنِي. وقرئ: أخرتن، يريد: هلا أخرت موتى إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ إلى زمان قليل فَأَصَّدَّقَ وقرأ أبىّ: فأتصدق على الأصل. وقرئ: وأكن، عطفا

على محل فَأَصَّدَّقَ كأنه قيل . إن أخرتني أصدّق وأكن ومن قرأ : وأكون على النصب ، فعلى اللفظ . وقرأ عبيد بن عمير : وأكون ، على : وأنا أكون عدة منه بالصلاح وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نفي للتأخير على وجه التأكيد الذي معناه منافاة المنفي الحكمة . والمعنى : إنكم إذا علمتم أنّ تأخير الموت عن وقته مما لا سبيل إليه . وأنه هاجم لا محالة ، وأنّ اللّه عليم بأعمالكم فجاز

عليها ، من منع واجب وغيره : لم تبق إلا المسارعة إلى الخروج عن عهدة الواجبات والاستعداد للقاء اللّه . وقرئ : تعملون ، بالتاء والياء . عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة المنافقين بريء من النفاق» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 538.545 ﴾

---

(1) . أخرجه ابن مردويه والثعلبي والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب .

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ﴾

سئل حذيفة ابن اليمان عن المنافق فقال : الذي يصف الإسلام ولا يعمل به ، وهم اليوم شر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا يكتمونه وهم اليوم يظهرونه .

﴿ قالوا نشهد إنك لرسول الله ﴾ يعني نحلف ، فعبر عن الحلف بالشهادة لأن كل واحد من الحلف والشهادة إثبات لأمر مغيب ، ومنه قول قيس بن ذريح :

وأشهد عند الله أني أحبها . . . فهذا لها عندي فما عندها ليا

ويحتمل ثانياً : أن يكون ذلك محمولاً على ظاهره أنهم يشهدون أن محمداً رسول الله اعترافاً بالإيمان ونفياً للنفاق عن أنفسهم ، وهو الأشبه .

وسبب نزول هذه الأية ما روى أسباط عن السدي أن عبد الله بن أبي بن سلول كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة وفيها أعراب يتبعون الناس ، وكان ابن أبي يصنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم في كل يوم طعاماً ، فاستقى أعرابي ماء في حوض عمله من أحجار ، فجاء رجل من أصحاب ابن ابي بناقة ليسقيها من ذلك الماء فمنعه الأعرابي واقتتلا فشجه الاعرابي ، فأتى الرجل إلى عبد الله [بن أبي] ودمه يسيل على وجهه ، فحزنه ، فنافق عبد الله وقال : ما لهم رد الله أمرهم إلى تبال ، وقال لأصحابه : لا تأتوا محمداً بالطعام حتى يتفرق عنه الأعراب ، فسمع ذلك زيد بن أرقم وكان حدثاً ، فأخبر

عمه ، فأتى عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه ، فبعث إلى ابن أبيّ وكان من أوسم الناس وأحسنهم منطقاً ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلف : والذي بعثك بالحق ما قلت من هذا شيئاً ، فصدقه فأنزل الله هذه الآية .

﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ أي إن نافق من نافقك من علم الله بأنك رسوله فلا يضرك .

ثم قال : ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : والله يقسم إن المنافقين لكاذبون في أيمانهم .

الثاني : معناه والله يعلم أن المنافقين لكاذبون فيها .

(233/765)

﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ والجنة : الغطاء المانع من الأذى ، ومنه قول الأعشى ميمون .

إذا أنت لم تجعل لعرضك جنة . . . من المال سار الذم كل مسير

وفيه وجهان :

أحدهما : من السبي والقتل ليعصموا بها دماءهم وأموالهم ، قاله قتادة .

الثاني : من الموت ألاّ يُصلَّى عليهم ، فيظهر على جميع المسلمين نفاقهم ، وهذا معنى قول السدي .

ويحتمل ثالثاً : جنة تدفع عنهم فضيحة النفاق .

﴿ فصدوا عن سبيل الله ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عن الإسلام بتنفير المسلمين عنه .

الثاني : عن الجهاد بتثبيطهم المسلمين وإرجافهم به وتميزهم عنهم ، قال عمر بن الخطاب : ما أخاف عليكم رجلين : مؤمناً قد استبان إيمانه وكافر قد استبان كفره ، ولكن أخاف عليكم منافقاً يتعوذ بالإيمان ويعمل بغيره .

﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ﴾ يعني حسن منظرهم وتمام خلقهم .

﴿ وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾ يعني لحسن منطقهم وفصاحة كلامهم .

ويحتمل ثانياً : لإظهار الإسلام وذكر موافقتهم .

﴿ كأنهم خشب مسندة ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه شبههم بالنخل القيام لحسن منظرهم .

الثاني : [شبههم] بالخشب النخرة لسوء مخبرهم .

الثالث : أنه شبههم بالخشب المسندة لأنهم لا يسمعون الهدى ولا يقبلونه ، كما لا تسمعه الخشب المسندة ، قاله الكلبي ، وقوله : ﴿ مسندة ﴾ لأنهم يستندون إلى الإيمان لحقن دمائهم .

﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم لِوَجَلهم وخبثهم يحسبون كل صيحة يسمعونها - حتى لو دعا رجل صاحبه أو صاح بناقته - أن العدو قد اصطلم وأن القتل قد حَلَّ بهم ، قاله السدي .

الثاني : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ كلام ضميره فيه ولا يفتقر إلى ما بعده ، وتقديره : يحسبون كل صيحة عليهم أنهم قد فطن بهم وعلم فقال : ﴿ هم العدو فاحذرهم ﴾ وهذا معنى قول الضحاك .

(234/765)

الثالث : يحسبون كل صيحة يسمعونها في المسجد أنها عليهم ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر فيها بقتلهم ، فهم أبداً وجلون ثم وصفهم الله بأن قال : ﴿ هم العدو فاحذرهم ﴾ حكاه عبد الرحمن بن أبي حاتم .

وفي قوله : ﴿ فاحذرهم ﴾ وجهان :

أحدهما : فاحذر أن تثق بقولهم وتميل إلى كلامهم .

الثاني : فاحذر ممايلتهم لأعدائك وتخذيلهم لأصحابك .

﴿ قاتلهم الله ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : معناه لعنهم الله ، قاله ابن عباس وأبو مالك .

والثاني : أي أحلهم الله محل من قاتله عدو قاهر ، لأن الله تعالى قاهر لكل معاند ، حكاه ابن عيسى .

وفي قوله : ﴿ أنى يؤفكون ﴾ أربعة أوجه :

أحدها : معناه يكذبون ، قاله ابن عباس .

الثاني : معناه يعدلون عن الحق ، قاله قتادة .

الثالث : معناه يصرفون عن الرشد ، قاله الحسن .

الرابع : معناه كيف يضل عقولهم عن هذا ، قاله السدي .

﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله ﴾ الآية .

روى سعيد بن جبير أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل منزلاً لم يرتحل منه حتى يصلي فيه ، فلما كانت غزوة تبوك بلغه أن ابن أُبَيّ قال : لئن رجعنا إلى المدينة لِيُخرجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ، فارتحل قبل أن ينزل آخرُ الناس ، وقيل لعبد الله بن أُبيّ : ائت النبي صلى الله عليه وسلم حتى يستغفر لك ، فلوى رأسه ، وهذا معنى قوله : ﴿ لوَّوْا رؤوسَهم ﴾ إشارة إليه وإلى أصحابه ، أي حركوها ، وأعرضوا يمنة ويسرة إلى غير جهة المخاطب ينظرون شزراً .

ويحتمل قولاً ثانيا : أن معنى قوله ﴿ يستغفر لكم رسول الله ﴾ يستتيبكم من النفاق لأن التوبة استغفار .

وفيما فعله عبد الله بن أبيّ حين لوى رأسه وجهان :

أحدهما : أنه فعل ذلك استهزاء وامتناعاً من فعل ما دعي إليه من إتيان الرسول للاستغار له ، قاله قتادة .

الثاني : أنه لوى رأسه بمعنى ماذا قلت ، قاله مجاهد .

﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يمتنعون ، قال الشاعر :

(235/765)

صددْتِ الكاسَ عنا أُمَّ عمرو . . . وكان الكأسُ مجراها اليمينا

الثاني : يعرضون ، قال الأعشى :

صَدَّقَ هُرَيْرَةُ عنّا ما تُكلّمنا . . . جَهْلاً بأُمِّ خُلَيْدٍ حبل من تصل

وفيما يصدون عنه وجهان :

أحدهما : عما دُعوا إليه من استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم .

الثاني : عن الإخلاص للإيمان .

﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : متكبرون .

الثاني : ممتنعون .

﴿ هم الذين يقولون لا تُنفِقوا على مَنْ عِندَ رسولِ الله ﴾ الآية يعني عبد الله بن أُبيّ وأصحابه ، وسببه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد انكفائه من غزاة بني المصطلق في شعبان سنة ست نزل على ماء المريسيع ، فتنازع عليه جهجاه ، وكان مسلماً وهو رجل من غفار ، ورجل يقال له سنان ، وكان من أصحاب عبد الله بن أُبي ، فلطمه جهجاه ، فغضب له عبد الله بن أُبيّ وقال : يا معاشر الأوس والخزرج ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمّن كلبك يأكلك ، أوطأنا هذا الرجلَ ديارنا وقاسمْناهم أموالَنا ولولانا لانفضوا عنه ، ما لهم ، رد الله أمرهم إلى جهجاه ، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل ، فسمعه زيد بن أرقم وكان غلاماً ، فأعاده على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذر له قومه ، فأنزل الله هذه الآية والتي بعدها .

﴿ ولله خزائن السموات والأرض ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : خزائن السموات : المطر ، وخزائن الأرضين : النبات .

الثاني : خزائن السموات : ما قضاه ، وخزائن الأرضين : ما أعطاه .

وفيه لأصحاب الخواطر (ثالث) : أن خزائن السموات : الغيوب ، وخزائن الأرض القلوب .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه عنى بذكر الله [الصلاة] المكتوبة ، قاله عطاء .

الثاني : أنه أراد فرائض الله التي فرضها من صلاة وغيرها ، قاله الضحاك .

الثالث : أنه طاعة اللَّه في الجهاد ، قاله الكلبي .

(236/765)

الرابع : أنه أراد الخوف من اللَّه عند ذكره .

﴿ وَأَنفِقُوا مما رَزَقْناكُم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنها الزكاة المفروضة من المال ، قاله الضحاك .

الثاني : أنها صدقة التطوع ورفد المحتاج ومعونة المضطر .

﴿ ولَن يُؤخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إذا جاءَ أَجَلُها ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لن يؤخرها عن الموت بعد انقضاء الأجل ، وهو أظهرهما .

الثاني : لن يؤخرها بعد الموت وإنما يعجل لها في القبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون

حـ 6 صـ 19.13 ﴾

(237/765)

وقال ابن الجوزي :

سورة المنافقون

قوله تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾

يعني : عبد الله بن أُبَيّ وأصحابه ﴿ قالوا نشهد إنك لرسول الله ﴾ وهاهنا تم الخبر عنهم .

ثم ابتدأ فقال تعالى : ﴿ والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ وإنما جعلهم كاذبين ، لأنهم أضمروا غير ما أظهروا .

قال الفراء : إنما كذب ضميرهم .

﴿ اتخذوا أَيمانهم جُنَّةً فَصَدُّوا عن سبيل الله ﴾ قد ذكرناه في [المجادلة : 16] قال القاضي أبو يعلى : وهذه الآية تدل على أن قول القائل : "أشهد" يمين ، لأنهم قالوا : "نشهد" فجعله يميناً بقوله تعالى : ﴿ اتخذوا أَيمانهم جُنَّة ﴾ وقد قال أحمد ، والأوزاعي ، والثوري ، وأبو حنيفة : أَشْهَدُ ، وأُقْسِمُ ، وأَعْزِمُ ، وأَحْلِفُ ، كلُّها أيمان .

وقال الشافعي : "أُقسم" ليس بيمين .

وإنما قوله : "أقسم بالله" يمين إذا أراد اليمين .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي : ذلك الكذب ﴿ بأنهم آمنوا ﴾ باللسان ﴿ ثم كفروا ﴾ في

السِرِّ ﴿ فطُبِعَ على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ الإِيمان والقرآن ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ﴾ يعني: أن لهم أجساماً ومناظر.

قال ابن عباس: كان عبد الله بن أُبَيّ جسيماً فصيحاً، ذَلْقَ اللسان، فإذا قال، سمع النبيُّ صلى الله عليه وسلم قوله.

وقال غيره: المعنى: تصغي إلى قولهم، فتَحْسِب أنه حق ﴿ كأنهم خشب ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة: "خُشُبٌ" بضم الخاء، والشين جميعاً، وهو جمع خَشَبة.

مثل ثَمَرَةٍ، وثُمُرٍ.

وقرأ الكسائي: بضم الخاء، وتسكين الشين، مثل: بَدَنَةٍ، وبُدْنٍ، وأَكَمَةٍ، وأُكْمٍ.

وعن ابن كثير، وأبي عمرو، مثله.

وقرأ أبو بكر الصديق، وعروة، وابن سيرين: "خَشَبٌ" بفتح الخاء، والشين جميعاً.

(238/765)

وقرأ أبو نهيك، وأبو المتوكل، وأبو عمران بفتح الخاء، وتسكين الشين، فوصفهم الله بحسن الصورة، وإبانة المنطق، ثم أعلم أنهم في ترك التفهُّم والاستبصار بمنزلة الخُشُب.

والمُسَنَّدة : الممالة إلى الجدار .

والمراد : أنها ليست بأشجار تثمر وتنمي ، بل خُشُبٌ مُسَنَّدةٌ إلى حائط .

ثم عابهم بالجبن فقال تعالى : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ أي : لا يسمعون صوتاً إلا ظنوا أنهم قد أُتوا لما في قلوبهم من الرعب أن يكشف الله أسرارهم ، وهذه مبالغة في الجبن .

وأنشدوا في هذا المعنى :

وَلَوْ أَنَّها عُصْفُورَةٌ لَحَسِبْتَها . . .

مُسَوَّمَةً تدعو عُبَيْدًا وَأَزْنَما

أي : لو طارت عصفورة لحسبتها من جبنك خيلاً تدعو هاتين القبيلتين .

قوله تعالى : ﴿ هم العَدُوُّ فاحذرهم ﴾ أي : لا تأمنهم على سِرِّك ، لأنهم عيون لأعدائك من الكفار ﴿ قَاتَلَهم الله أَنَّى يُؤفكون ﴾ مفسر في [براءة : 30] .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم تعالَوْا يستغفر لكم رسول الله ﴾ قد بيَّنَّا سببه في نزول السورة ﴿ لوَّوْا رؤوسهم ﴾ وقرأ نافع ، والمفضل عن عاصم ، ويعقوب : "لَوَوْا" بالتخفيف .

واختار أبو عبيدة التشديد .

وقال : لأنهم فعلوا ذلك مرّة بعد مرّة .

قال مجاهد : لما قيل لعبد الله بن أُبَيٍّ : تعال يستغفر لك رسول الله لوّى رأسه ، قال : ماذا

قلتَ؟ وقال مقاتل: عطفوا رؤوسهم رغبة عن الاستغفار.

وقال الفراء: حرّكوها استهزاءً بالنبي وبدعائه.

قوله تعالى: ﴿ ورأيتهم يَصُدُّون ﴾ أي: يعرضون عن الاستغفار.

﴿ وهم مستكبرون ﴾ أي: متكبِّرون عن ذلك.

ثم ذكر أن استغفاره لهم لا ينفعهم.

بقوله تعالى: ﴿ سواءٌ عليهم أستغفرتَ لهم ﴾ وقرأ أبو جعفر: ﴿ آستغفرت ﴾ بالمدِّ.

قوله تعالى: ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله ﴾ قد بيَّنَّا أنه قول ابن أُبَيٍّ.

﴿ وينْفَضُّوا ﴾ بمعنى: يتفرّقوا ﴿ ولله خزائن السموات والأرض ﴾ قال المفسرون: خزائن السموات: المطر، وخزائن الأرض: النبات.

والمعنى: أنه هو الرَّزَّاق لهؤلاء المهاجرين، لا أولئك، ﴿ ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ أي: لا يعلمون أن الله رازقهم في حال إنفاق هؤلاء عليهم ﴿ يقولون لئن رجعنا ﴾ من هذه الغزوة.

وقد تقدم ذكرها وهذا قول ابن أُبَيّ ﴿ لَيُخْرِجَنّ الأَعَزُّ ﴾ يعني : نفسه ، وعنى ب ﴿ الأذلِّ ﴾ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقرأ الحسن : "لَنُخرِجَنّ" بالنون مضمومة وكسر الراء "الأَعزَّ" بنصب الزاي [والأذل منصوب] على الحال [بناءً على جواز تعريف الحال ، أو زيادة "أل" فيه ، أو بتقدير "مثل"] .

المعنى : لنخرجنّه ذليلاً على أيِّ حال ذلّ .

والكل نصبوا "الأذل" فرد الله عز وجل عليه فقال : ﴿ ولله العزَّة ﴾ وهي : المَنَعة والقوّة ﴿ ولرسوله وللمؤمنين ﴾ بإعزاز الله ونصره إياهم ﴿ ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ ذلك .

قوله تعالى : ﴿ لا تلهكم ﴾ أي : لا تشغَلكم .

وفي المراد بذكر الله هاهنا أربعة أقوال :

أحدها : طاعة الله في الجهاد ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : الصلاة المكتوبة ، قاله عطاء ، ومقاتل .

والثالث : الفرائض من الصلاة ، وغيرها ، قاله الضحاك .

والرابع : أنه على إطلاقه .

قال الزجاج : حضَّهم بهذا على إدامة الذكر .

قوله تعالى : ﴿ وأنفِقوا مما رزقناكم ﴾ في هذه النفقة ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه زكاة الأموال ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنها النفقة في الحقوق الواجبة بالمال ، كالزكاة والحج ، ونحو ذلك ، وهذا المعنى مروي عن الضحاك .

والثالث : أنه صدقة التطوّع ، ذكره الماوردي .

فعلى هذا يكون الأمر ندباً ، وعلى ما قبله يكون أمر وجوب .

قوله تعالى : ﴿ من قبل أن يأتيَ أحدَكم الموتُ ﴾ قال الزجاج : أي : من قبل أن يعاين ما يعلم منه أنه ميت .

(240/765)

قوله تعالى : ﴿ لولا أخرتني ﴾ أي : هلاَّ أخرتني ﴿ إلى أجل قريب ﴾ يعني بذلك الاستزادة في أجله ليتصدّق ويزكّي ، وهو قوله تعالى : ﴿ فأَصَّدَّق ﴾ قال أبو عبيدة : "فأصدق" نصب ، لأن كل جواب بالفاء للاستفهام منصوب .

تقول : مَنْ عندك فآتيَك .

هلاَّ فعلت كذا فأفعَل كذا ، ثم تبعتْها ﴿ وأكنْ من الصالحين ﴾ بغير واو .

وقال أبو عمرو : إنما هي ، وأكون ، فذهبت الواو من الخط .

كما يكتب أبو جاد أبجد هجاءً ، وهكذا يقرؤها أبو عمرو "وأكونَ" بالواو ، ونصب النون .

والباقون يقرؤون "وأكن" بغير واو .

قال الزجاج : من قرأ "وأكونَ" فهو على لفظ فأَصَّدَّقَ .

ومن جزم "أكنْ" فهو على موضع "فأصدق" لأن المعنى : إن أخرتني أصدق وأكن .

وروى أبو صالح عن ابن عباس "فأَصَّدَّق" أي : أُزكي مالي "وأكنْ من الصالحين" أي : أَحُجّ مع المؤمنين ، وقال في قوله تعالى : ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ والمعنى : بما تعملون من التكذيب بالصدقة .

قال مقاتل : يعني : المنافقين .

وروى الضحاك عن ابن عباس ، ما من أحد يموت ، وقد كان له مال لم يزكّه ، وأطاق الحج فلم يحج ، إلا سأل الله الرجعة عند الموت ، فقالوا له : إنما يسأل الرجعة الكفار ، فقال : أنا أتلو عليكم به قرآنا ، ثم قرأ هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 271 . 278 ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾

يعني عبد الله بن أبي سلول وأصحابه قالوا ﴿ نشهد إنك لرسول الله ﴾ وتم الخبر عنهم ثم ابتدأ فقال تعالى : ﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ أي هو الذي أرسلك فهو عالم بك ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ يعني في قولهم نشهد إنك لرسول الله لأنهم أضمروا خلاف ما أظهروا وذلك لأن حقيقة الإيمان أن يواطىء اللسان القلب وكذلك الكلام فمن أخبر عن شيء واعتقد خلافه أو أضمر خلاف ما أظهر فهو كاذب ألا ترى أنهم كانوا يقولون بألسنتهم نشهد إنك لرسول الله وسماه كذباً لأن قولهم خالف اعتقادهم ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ أي سترة يسترون بها من القتل ومعنى أيمانهم ما أخبر الله عنهم من حلفهم إنهم لمنكم وقولهم نشهد إنك لرسول الله ﴿ فصدوا عن سبيل الله ﴾ أي أعرضوا بأنفسهم عن طاعة الله وطاعة رسوله وقيل منعوا الناس عن الجهاد وعن الإيمان بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ يعني حيث آثروا الكفر على الإيمان ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ﴾ أي في الظاهر وذلك إذا رأوا المؤمنين أقروا بالإيمان ﴿ ثم كفروا ﴾ أي في السر وذلك إذا خلوا مع المشركين وفيه تأكيد لقوله والله يشهد إنهم لكاذبون ﴿ فطبع على قلوبهم ﴾ أي بالكفر ﴿ فهم لا يفقهون ﴾ أي الإيمان وقيل لا يتدبرون القرآن .

﴿ وإذا رأيتهم ﴾ يعني المنافقين مثل عبد الله بن أبي ابن سلول ﴿ تعجبك أجسامهم ﴾ يعني أن لهم أجساماً ومناظر حسنة ﴿ وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾ أي فتحسب أنه صدق قال ابن عباس كان عبد الله بن أبي ابن سلول جسيماً فصيحاً ذلق اللسان فإذا قال سمع النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله ﴿ كأنهم خشب مسندة ﴾ أي أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام شبههم بالخشب المسندة إلى جدر وليست بأشجار مثمرة ينتفع بها ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ يعني أنهم لا يسمعون صوتاً في العسكر بأن ينادي مناد أو تنفلت دابة أو تنشد ضالة إلا ظنوا من خبثهم وسوء ظنهم أنهم يرادون بذلك وظنوا أنهم قد أتوا لما في قلوبهم من الرعب وقيل إنهم على خوف ووجل من أن ينزل فيهم أمر يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وتم الكلام عند قوله عليهم ثم ابتدأ فقال تعالى : ﴿ هم العدو فاحذرهم ﴾ أي لا تأمنهم فإنهم وإن كانوا معك ويظهرون تصديقك أعداء لك فاحذرهم ولا تأمنهم على سرك لأنهم عيون لأعدائك من الكفار ينقلون إليهم أسرارك ﴿ قاتلهم الله ﴾ أي لعنهم الله ﴿ أنى يؤفكون ﴾ أي يصرفون عن الحق .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ﴾ أي أمالوها وأعرضوا بوجوههم رغبة عن الاستغفار ﴿ ورأيتهم يصدون ﴾ أي يعرضون عما دعوا إليه ﴿ وهم مستكبرون ﴾ أي عن استغفار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لهم ﴿

سواء عليهم أستغفرت لهم ﴾ أي يا محمد ﴿ أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

(ذكر القصة : في سبب نزول هذه الآية)

قال محمد بن إسحاق وغيره من أصحاب السير إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بلغه أن بني المصطلق يجتمعون لحربه وقائدهم الحارث بن أبي ضرار وهو أبو جويرية زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) فلما سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بذلك خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحم الناس واقتتلوا فهزم الله تعالى بني المصطلق وأمكن منهم وقيل من قتل منهم ونقل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءها عليهم فبينما الناس على ذلك الماء إذ وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن سعيد الغفاري يقود له فرسه فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني يا معشر الأنصار وصرخ الغفاري يا معشر المهاجرين وأعان جهجاهاً رجل من المهاجرين يقال له جعال وكان فقيراً فقال عبد الله بن

أبي الجعال وإنك لهناك فقال جعال وما يمنعني أن أفعل ذلك فغضب عبد الله بن أبي وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم وهو غلام حديث السن فقال عبد الله بن أبي افعلوها قد نافرونا وكاثرنا في بلادنا والله ما مثلنا زائدة ومثلهم إلا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ثم أقبل على من حضر من قومه فقال هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولتحولوا إلى غير بلادكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد فقال زيد بن أرقم أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك ومحمد (صلى الله عليه وسلم) في عز من الرحمن ومودة من المسلمين فقال عبد الله بن أبي اسكت لقد كنت ألعب فمشى زيد بن أرقم إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذلك بعد فراغه من الغزو فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب فقال دعني

أضرب عنقه يا رسول الله قال كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ولكن أذن بالرحيل وذلك في ساعة لم يكن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يرتحل فيها فارتحل الناس وأرسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى عبد الله بن أبي فأتاه فقال أنت

صاحب هذا الكلام الذي بلغني فقال عبد الله بن أبي والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك وإن زيداً لكاذب وكان عبد الله في قومه شريفاً عظيماً فقال من حضر من الأنصار من أصحابه يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد وهم في حديثه ولم يحفظ ما قاله فعذره النبي (صلى الله عليه وسلم) وفشت الملامة لزيد في الأنصار وكذبوه وقال له عمه وكان زيد معه ما أردت إلى أن كذبك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والناس ومقتوك وكان زيد يساير النبي (صلى الله عليه وسلم) فاستحيا بعد ذلك أن يدنو من النبي (صلى الله عليه وسلم) فلما استقل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أو ما بلغك ما قال صاحبك عبد الله بن أبي فقال أسيد وما قال؟ قال يزعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل فقال أسيد أنت والله يا رسول الله تخرجه هو والله الذليل وأنت والله العزيز ثم قال يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد سلبته ملكاً وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أبيه فأتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي لما بلغك عنه فإن كنت فاعلاً فمرني فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج

ما كان بها رجل أبر بوالديه مني وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي

يمشي على الأرض فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

" بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا " قالوا وسار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يومه ذلك حتى أمسى وليلته حتى أصبح وصدر يومه حتى آذتهم الشمس فنزل بالناس فلم يكن إلا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً وإنما فعل ذلك ليشتغل الناس عن حديث عبد الله بن أبي الذي كان منه بالأمس ثم راح بالناس حتى نزل على ماء بالحجاز فويق البقيع يقال لها نقعاء فهاجت ريح شديدة آذتهم وتخوفوها وضلت ناقة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذلك بالليل فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لا تخافوا فإنما

هبت لموت عظيم من عظماء الكفار توفي بالمدينة" فقيل من هو؟ قال" رفاعة بن زيد بن التابوت" فقال رجل من المنافقين كيف يزعم أنه يعلم الغيب ولا يعلم بمكان ناقته ألا يخبره الذي يأتيه بالوحي فأتاه جبريل فأخبره بقول المنافق وبمكان ناقته فأخبر بذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أصحابه وقال" ما أزعم أني أعلم الغيب ولا أعلمه ولكن الله أخبرني بقول المنافق وبمكان ناقتي هي في الشعب وقد تعلق زمامها بشجرة" فخرجوا يسعون قبل الشعب فإذا هي كما قال فجاؤوا بها فآمن ذلك المنافق وحسن إيمانه فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت قد مات في ذلك اليوم وكان من عظماء اليهود وكهفاً للمنافقين فلما وافى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المدينة قال زيد بن أرقم جلست في البيت لما بي من الهم والحياء فأنزل الله سورة المنافقين في تصديق زيد بن أرقم وتكذيب عبد الله بن أبي فلما نزلت أخذ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بإذن زيد وقال" يا زيد إن الله قد صدقك وأوفى بإذنك" (ق) عن زيد بن أرقم قال" خرجنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في سفر أصاب الناس فيه شدة فقال عبد الله بن أبي لا تنفقوا عليّ من عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى ينفضوا من حوله وقال لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال فأتيت رسول الله (

صلى الله عليه وسلم) فأخبرته بذلك فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله فاجتهد يمينه ما فعل فقالوا كذب زيد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال فوقع في نفسي مما قالوه شدة حتى أنزل الله بتصديقي إذا جاءك المنافقون قال ثم دعاهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليستغفر لم قال فلووا رؤوسهم وقوله كأنهم خشب مسندة قال كانوا رجالاً أجمل شيء " (ق) عن جابر قال

﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا علي من عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى ينفضوا ﴾ أي يتفرقوا عنه ﴿ ولله خزائن السموات والأرض ﴾ يعني بيده مفاتيح الرزق فلا يعطي أحد أحداً شيئاً إلا بإذنه ولا يمنعه إلا بمشيئته ﴿ ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ يعني أن أمر الله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ﴾ يعني من غزوة بني المصطلق ﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ فرد الله عليهم بقوله ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ فعزة الله تعالى قهره وغلبته على من دونه وعزة رسوله (صلى الله عليه وسلم) إظهار دينه على الأديان كلها وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم ﴿ ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ أي ذلك لو علموا ما قالوا هذه المقالة قال أصحاب السير فلما نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول لم يلبث إلا أياماً قلائل حتى اشتكى ومات على نفاقه .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم ﴾ أي لا تشغلكم ﴿ أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ يعني عن الصلوات الخمس والمعنى لا تشغلكم أموالكم ولا أولادكم كما شغلت المنافقين عن ذكر الله ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أي ومن شغله ماله وولده عن ذكر الله ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾ أي في تجارتهم حيث آثروا الفاني على الباقي .

(248/765)

﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ قال ابن عباس يريد زكاة الأموال ﴿ من قبل أن يأتي أحدكم الموت ﴾ أي دلائل الموت ومقدماته وعلاماته فيسأل الرجعة ﴿ فيقول رب لولا أخرتني ﴾ أي هلا أمهلتني وقيل لو أخرت أجلي ﴿ إلى أجل قريب فأصدق ﴾ أي فأزكي مالي ﴿ وأكن ﴾ وقرئ وأكون ﴿ من الصالحين ﴾ أي المؤمنين وقيل نزلت هذه الآية في المنافقين ويدل على هذا أن المؤمن لا يسأل الرجعة وقيل نزلت في المؤمنين والمراد بالصلاح هنا الحج قال ابن عباس : ما من أحد يموت وكان له مال ولم يؤد زكاته أو أطاق الحج ولم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت وقرأ هذه الآية ﴿ وأن من الصالحين ﴾ أي أحج وأزكي ﴿ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ﴾ يعني أنه تعالى لا يؤخر من حضر أجله وانقضت مدته ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ يعني أنه لو رد إلى الدنيا وأجيب إلى ما سأل ما حج وما زكى

وقيل هو خطاب شائع لكل عامل عملاً من خير أو شر ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 102.97 ﴾

(249/765)

وقال النسفى :

﴿ إِذَا جَاءكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله ﴾

أرادوا شهادة واطأت فيها قلوبهم ألسنتهم ﴿ والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ أي والله يعلم أن الأمر كما يدل عليه قولهم ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله ﴾ ﴿ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لكاذبون ﴾ في ادعاء المواطأة أو إنهم لكاذبون فيه لأنه إذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة في الحقيقة فهم كاذبون في تسميته شهادة ، أو إنهم لكاذبون عند أنفسهم لأنهم كانوا يعتقدون أن قولهم ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله ﴾ كذب وخبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه ﴿ اتخذوا أيمانهم جُنَّةً ﴾ وقاية من السبي والقتل وفيه دليل على أن أشهد يمين ﴿ فَصَدُّواْ ﴾ الناس ﴿ عَن سَبِيلِ الله ﴾ عن الإسلام بالتنفير وإلقاء الشبه ﴿ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من نفاقهم وصدهم الناس عن سبيل الله .

وفي "ساء" معنى التعجب الذي هو تعظيم أمرهم عند السامعين ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى

قوله ﴿ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي ذلك القول الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالاً ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ ءامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستجنان بالأيمان أي ذلك كله بسبب أنهم آمنوا أي نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام ، ثم كفروا ، ثم ظهر كفرهم بعد ذلك بقولهم : إن كان ما يقوله محمد حقاً فنحن حمير ونحو ذلك ، أو نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام كقوله ﴿ وَإِذَا لَقُوا الذين ءامَنُوا قَالُوا ءامَنَّا ﴾ [البقرة : 14] الآية .

﴿ فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ ﴾ فختم عليها حتى لا يدخلها الإيمان جزاء على نفاقهم ﴿ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ لا يتدبرون أو لا يعرفون صحة الإيمان .

(250/765)

والخطاب في ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أجسامهم ﴾ لرسول الله أو لكل من يخاطب ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ كان ابن أبيّ رجلاً جسيماً صبيحاً فصيحاً ، وقوم من المنافقين في مثل صفته ، فكانوا يحضرون مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فيستندون فيه ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم ومن حضر يعجبون بهيا كلهم

ويسمعون إلى كلامهم .

وموضع ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ ﴾ رفع على "هم كأنهم خشب" ، أو هو كلام مستأنف لا محل له ﴿ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ إلى الحائط ، شبهوا في استنادهم وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير بالخشب المسندة إلى الحائط لأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، وما دام متروكاً غير منتفع به أسند إلى الحائط فشبهوا به في عدم الانتفاع ، أو لأنهم أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام ، ﴿ خُشُبٌ ﴾ أبو عمرو غير عباس وعلي جمع خشبة كبدنة وبدون خشب كثمرة وثمر ﴿ يحسبون كلّ صيحةٍ عليهم ﴾ ﴿ كُلَّ صَيْحَةٍ ﴾ مفعول أول والمفعول الثاني ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ وتم الكلام أي يحسبون كل صيحة واقعة عليهم وضارة لهم لخيفتهم ورعبهم يعني إذا نادى منادٍ في العسكر أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة ظنوه إيقاعاً بهم .

ثم قال ﴿ هُمُ العدو ﴾ أي هم الكاملون في العداوة لأن أعدى الأعداء العدو المداجي الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوي ﴿ فاحذرهم ﴾ ولا تغترر بظاهرهم ﴿ قاتلهم الله ﴾ دعاء عليهم أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك ﴿ أنى يُؤْفَكُونَ ﴾ كيف يعدلون عن الحق تعجباً من جهلهم وضلالتهم .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ ﴾ عطفوها وأمالوها

إعراضاً عن ذلك واستكباراً ﴿ لَوَّوْا ﴾ بالتخفيف : نافع ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ يعرضون ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الاعتذار والاستغفار .

رُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين لقي بني المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتلهم ، ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر وسنان الجهني حليف لابن أبي واقتتلا ، فصرخ جهجاه : يا للمهاجرين ، وسنان : يا للأنصار ، فأعان جهجاهاً جعال من فقراء المهاجرين ولطم سناناً فقال عبد الله لجعال وأنت هناك وقال : ما صحبنا محمداً إلا لنلطم والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال : سمن كلبك يأكلك .

أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، عني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لقومه : والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد .

فسمع بذلك زيد بن أرقم وهو حدث فقال : أنت والله الذليل المبغض في قومك ، ومحمد على رأسه تاج المعراج في عز من الرحمن وقوة من المسلمين .

فقال عبد الله : اسكت فإنما كنت ألعب .

فأخبر زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر رضي الله عنه : دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله .

فقال : إذن ترعد أنف كثيرة بيثرب .

قال : فإن كرهت أن يقتله مهاجري فأمر به أنصارياً .

قال : فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه .

وقال عليه الصلاة والسلام لعبد الله : أنت صاحب الكلام الذي بلغني ؟ قال : والله أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك وإن زيداً لكاذب فهو قوله ﴿ اتخذوا أيمانهم جُنَّةً ﴾ فقال الحاضرون : يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه كلام غلام عسى أن يكون قدوهم .

فلما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد : يا غلام إن الله قد صدقك وكذب المنافقين .

فلما بان كذب عبد الله قيل له : قد نزلت فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك فلوى رأسه فقال : أمرتموني أن أومن فآمنت وأمرتموني أن أزكي

مالي فزكيت وما بقي لي إلا أن أسجد لمحمد ، فنزل ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ ولم يلبث إلا أياماً حتى اشتكى ومات .

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ أي ما داموا على النفاق .

والمعنى سواء عليهم الاستغفار وعدمه لأنهم لا يلتفتون إليه ولا يعتدون به لكفرهم ، أو لأن الله لا يغفر لهم .

وقرىء ﴿ استغفرت ﴾ على حذف حرف الاستفهام لأن "أم" المعادلة تدل عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي القوم الفاسقين * هُمُ الذين يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّوا ﴾ يتفرقوا ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السماوات والأرض ﴾ أي وله الأرزاق والقسم فهو رازقهم منها وإن أبى أهل المدينة أن ينفقوا عليهم ﴿ ولكن المنافقين لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ولكن عبد الله وأضرابه جاهلون لا يفقهون ذلك فيهذون بما يزين لهم الشيطان .

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا ﴾ من غزوة بني المصطلق ﴿ إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل وَلِلَّهِ العزة ﴾ الغلبة والقوة ﴿ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين وهم الأخصاء بذلك كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين .

وعن بعض الصالحات وكانت في هيئة رثة : ألست على الإسلام وهو العز الذي لا ذل معه ،

والغني الذي لا فقر معه ! وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أن رجلاً قال له : إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً .

(253/765)

قال : ليس بتيه ولكنه عزة وتلا هذه الآية ﴿ ولكن المنافقين لاَ يَعْلَمُونَ * يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ ﴾ لا تشغلكم ﴿ أموالكم ﴾ والتصرف فيها والسعي في تدبير أمرها بالنماء وطلب النتاج ﴿ وَلاَ أولادكم ﴾ وسروركم بهم وشفقتكم عليهم والقيام بمؤنهم ﴿ عَن ذِكْرِ الله ﴾ أي عن الصلوات الخمس أو عن القرآن ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك ﴾ يريد الشغل بالدنيا عن الدين .

وقيل : من يشتغل بتثمير أمواله عن تدبير أحواله وبمرضاة أولاده عن إصلاح معاده ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ في تجارتهم حيث باعوا الباقي بالفاني .

﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رزقناكم ﴾ "من" للتبعيض والمراد بالإنفاق الواجب ﴿ مّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الموت ﴾ أي من قبل أن يرى دلائل الموت ويعاين ما ييأس معه من الإمهال ويتعذر عليه الإنفاق ﴿ فَيَقُولَ رَبّ لَوْلا أَخَّرْتَنِى ﴾ هلا أخرت موتي ﴿ إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ إلى زمان قليل ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ فأتصدق وهو جواب "لولا" ﴿ وَأَكُن مّنَ الصالحين ﴾ من

المؤمنين .

والآية في المؤمنين .

وقيل : في المنافقين .

﴿ وأكون ﴾ أبو عمرو بالنصب عطفاً على اللفظ ، والجزم على موضع ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ كأنه قيل : إن أخرتني أصدق وأكن ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً ﴾ عن الموت ﴿ إِذَا جَاء أَجَلُهَا ﴾ المكتوب في اللوح المحفوظ ﴿ والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ حماد ويحيى ، والمعنى أنكم إذا علمتم أن تأخير الموت عن وقته مما لا سبيل إليه ، وأنه هاجم لا محالة ، وأن الله عليم بأعمالكم فمجاز عليها من منع واجب وغيره ، لم يبق إلا المسارعة إلى الخروج عن عهدة الواجب والاستعداد للقاء الله تعالى ، والله أعلم بالصواب . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 257 . 260 ﴾

(254/765)

وقال ابن جزى :

سورة المنافقون

﴿ إِذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله ﴾

كانوا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم فلذلك كذبهم الله بقوله : ﴿ واللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين ﴾ أي كذبوا في دعواهم الشهادة بالرسالة ، وأما قوله : ﴿ والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ فليس من كلام المنافقين ، وإنما هو من كلام الله تعالى ، ولو لم يذكره لكان يوهم أن قوله : والله يشهد إن المنافقين لكاذبون إبطال للرسالة ، فوسطه بين حكاية المنافقين وبين تكذيبهم ليزيل هذا الوهم وليحقق الرسالة ، وعلى هذا ينبغي أن يوقف على قوله : لرسول الله ﴿ جُنَّةً ﴾ ذكر في [المجادلة : 16] ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ الإشارة إلى سوء عملهم وفضيحتهم وتوبيخهم ، وأما قوله : آمنوا ثم كفروا فيحتمل وجهين : أحدهما أن يكون فيمن آمن منهم إيماناً صحيحاً ثم نافق بعد ذلك ، والآخر أن يريد آمنوا في الظاهر كقوله : إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا [البقرة : 14] .

(255/765)

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ يعني أنهم حِسانُ الصور ﴿ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ يعني أنهم فصحاء الخطاب ، والضمير في قوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ وفي قوله : ﴿ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ : للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكل مخاطب ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ شبههم بالخشب في قلة أفهامهم ، فكان لهم منظر بلا مخبر ، وقال

الزمخشري : إنما شبههم بالخشب المسندة إلى حائط ، لأن الخشب إذا كانت كذلك لم يكن فيها منفعة ، بخلاف الخشب التي في سقف أو مغروسة في جدار ؛ فإن فيها حينئذ منفعة . فالتشبيه على هذا في عدم المنفعة ، وقيل : كانوا يستندون في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فشبههم في استنادهم بالخشب المسندة إلى الحائط ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ عبارة عن شدّة خوفهم من المسلمين ، وذلك أنهم كانوا إذا سمعوا صياحاً ظنوا أن النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بقتلهم ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ ﴾ الدعاء عليهم يتضمن ذمّهم وتقبيح أحوالهم ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي كيف يصرفون عن الإيمان مع ظهوره .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ أي أمالوها إعراضاً واستكباراً . وقصص هذه الآية وما بعدها " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في غزوة بني المصطلق ، فبلغ الناس إلى ماء ازدحموا عليه ، فكان ممن ازدحم عليه جهجاه بن سعيد أجير لعمر بن الخطاب وسنان الجهني حليف لعبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين ، فلطم الجهجاه سناناً ، فغضب سنان ودعا بالأنصار ودعا جهجاه بالمهاجرين ، فقال

عبد الله بن أبيّ : والله ما مثلنا ومثلُ هؤلاء يعني المهاجرين إلا كما قال الأول : سَمِّنْ كلبَك يأكلك . ثم قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل يعني : بالأعز نفسه وأتباعه ، ويعني بالأذنل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ، ثم قال لقومه : إنما يقيم هؤلاء المهاجرون بالمدينة بسبب معونتكم وإنفاقكم عليهم ، ولو قطعتم ذلك عنهم لفرُّوا عن مدينتكم . فسمعه زيد بن أرقم فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك عبد الله بن أبي بن سلول . فحلف أنه ما قال من ذلك شيئًا . وكذَّب زيداً فنزلت السورة عند ذلك . فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زيد ، وقال : لقد صدّقك الله يا زيد ، فخزيَ عبد الله بن أبي بن سلول ومقته الناس ، فقيل له : امض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك ، فلوى رأسه إنكاراً لهذا الرأي وقال : أمرتموني بالإسلام فأسلمت ، وأمرتموني بأداء زكاة مالي ففعلت ، ولم يبقى لكم إلا أن تأمروني أن أسجد لمحمد . ثم مات عبد الله بن أبيّ بعد ذلك بقليل " وأسندت هذه الأقوال التي قالها عبد الله بن أبيّ إلى ضمير الجماعة ، لأنه كان له أتباع من المنافقين يوافقونه عليها .

﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾ رُوي " أنه لما نزلت ﴿ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴾ [التوبة : 80] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأزيدن على السبعين " فلما فعل عبد الله بن أبيّ وأصحابه ما فعلوا شدّد الله عليهم في هذه السورة ، وأخبر أنه لا يغفر لهم بوجه . وفي هذه نظر ؛ لأن هذه السورة نزلت في غزوة بني المصطلق قبل الآية الأخرى بمدّة .

﴿ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ أي لا تشغلكم . وذِكْرُ الله هنا على العموم في الصلاة والدعاء والعبادة ، وقيل : يعني الصلاة المكتوبة والعموم أولى .

﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ عموم في الزكاة وصدقة التطوع والنفقة في الجهاد وغير ذلك ، وقيل : يعني الزكاة المفروضة والعموم أولى ﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ بالجزم عطف على موضع جواب الشرط ، وقرأ أبو عمرو فأكونَ بالنصب عطف على فأصدقَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 121 . 123 ﴾

(258/765)

وقال البيضاوى :

سورة المنافقون

مدنية وآيها إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله ﴾

الشهادة إخبار عن علم من الشهود وهو الحضور والاطلاع، ولذلك صدق المشهور به وكذبهم في الشهادة بقوله: ﴿ والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لكاذبون ﴾ لأنهم لم يعتقدوا ذلك.

﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ حلفهم الكاذب أو شهادتهم هذه، فإنها تجري مجرى الحلف في التوكيد، وقرىء "إيمانهم" ﴿ جُنَّةً ﴾ وقاية من القتل والسبي. ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ صداً أو صدوداً. ﴿ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من نفاقهم وصدهم.

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الكلام المتقدم أي ذلك القول الشاهد على سوء أعمالهم، أو إلى الحال المذكورة من النفاق والكذب والاستجنان بالإيمان. ﴿ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ﴾ بسبب أنهم آمنوا ظاهراً. ﴿ ثُمَّ كَفَرُواْ ﴾ سراً، أو ﴿ ءامَنُواْ ﴾ إذا رأوا آية ﴿ ثُمَّ كَفَرُواْ ﴾ حيثما سمعوا من شياطينهم شبهة. ﴿ فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ ﴾ حتى تمرنوا على الكفر فاستحكموا فيه. ﴿ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ حقية الإيمان ولا يعرفون صحته.

﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡ ﴾ لضخامتها وصباحتها . ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ ﴾ لذلاقتهم وحلاوة كلامهم ، وكان ابن أبيّ جسيما فصيحاً يحضر مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في جمع مثله ، فيعجب بهيكلهم ويصغي إلى كلامهم . ﴿ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞ ﴾ حال من الضمير المجرور في ﴿ قَوۡلِهِمۡ ﴾ أي تسمع لما يقولونه مشبهين بأخشاب منصوبة مسندة إلى الحائط في كونهم أشباحاً خالية عن العلم والنظر ، وقيل ال ﴿ خُشُبٞ ﴾ جمع خشباء وهي الخشبة التي نُخِرَ جَوْفُهَا ، شبهوا بها في حسن المنظر وقبح المخبر ، وقرأ أبو عمرو والكسائي وقنبل عن ابن كثير بسكون الشين على التخفيف ، أو على أنه كبدن في جمع بدنة ﴿ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي واقعة عليهم لجبنهم واتهامهم ، ف ﴿ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ثاني مفعولي ﴿ يَحۡسَبُونَ ﴾ ، ويجوز أن يكون صلته والمفعول : ﴿ هُمُ العدو ﴾ وعلى هذا يكون الضمير للكل وجمعه بالنظر إلى الخبر لكن ترتب قوله : ﴿ فاحذرهم ﴾ عليه يدل على أن الضمير للمنافقين . ﴿ قاتلهم الله ﴾ دعاء عليهم وهو طلب من ذاته أن يلعنهم ، أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك . ﴿ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ كيف يصرفون عن الحق .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ ﴾ عطفوها إعراضاً واستكباراً عن ذلك ، وقرأ نافع بتخفيف الواو . ﴿ رُءوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ ﴾

يعرضون عن الاستغفار . ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الاعتذار .

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ لرسوخهم في الكفر .

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى القوم الفاسقين ﴾ الخارجين عن مظنة الاستصلاح لانهماكهم في الكفر والنفاق .

﴿ هُمُ الذين يَقُولُونَ ﴾ أي للأنصار . ﴿ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّواْ ﴾ يعنون فقراء المهاجرين .

﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السموات والأرض ﴾ بيده الأرزاق والقسم . ﴿ ولكن المنافقين لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ ذلك لجهلهم بالله .

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ روي أن أعرابياً نازع أنصارياً في بعض الغزوات على ماء ، فضرب الأعرابي رأسه بخشبة ، فشكى إلى ابن أُبيّ فقال : لا تنفقوا على من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ينفضوا ، وإذا رجعنا إلى المدينة فليخرجن الأعز منها الأذل ، عنى بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقرىء " لَيَخْرِجَنّ " بفتح الياء و " لَيُخْرَجَنّ " على بناء المفعول و " لنخرجن "

بالنون ، ونصب "الأعز" و" الأذل" على هذه القراءات مصدر أو حال على تقدير مضاف كخروج أو إخراج أو مثل . ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولله الغلبة والقوة ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين .

﴿ ولكن المنافقين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ من فرط جهلهم وغرورهم .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أموالكم وَلاَ أولادكم عَن ذِكْرِ الله ﴾ لا يشغلكم تدبيرها والاهتمام بها عن ذكره الصلوات وسائر العبادات المذكرة للمعبود ، والمراد نهيهم عن اللهو بها . وتوجيه النهي إليها للمبالغة ولذا قال : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك ﴾ أي اللهوا بها وهو الشغل . ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ لأنهم باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني .

(261/765)

﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا رزقناكم ﴾ بعض أموالكم إدخاراً للآخرة . ﴿ مّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الموت ﴾ أي يرى دلائله ﴿ فَيَقُولُ رَبّ لَوْلا أَخَّرْتَنِى ﴾ هلا أمهلتني . ﴿ إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أمد غير بعيد . ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ فأتصدق . ﴿ وَأَكُن مّنَ الصالحين ﴾ بالتدارك ، وجزم ﴿ أَكُنْ ﴾ للعطف على موضع الفاء وما بعده ، وقرأ أبو عمروا "وأكون" منصوباً عطفاً على ﴿ فأصادق ﴾ ، وقرىء بالرفع على وأنا أكون فيكون عدة بالصلاح .

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً ﴾ ولن يمهلها . ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ آخر عمرها . ﴿ والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فمجاز عليه ، وقرأ أبو بكر بالياء ليوافق ما قبله في الغيبة .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة المنافقين برىء من النفاق " . (1) انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 341 . 343 ﴾

---

(1) حديث موضوع.

(262/765)

وقال أبو حيان :

سورة المنافقون

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾

﴿ قالوا نشهد ﴾ : يجري مجرى اليمين ، ولذلك تلقى بما يتلقى به القسم ، وكذا فعل اليقين .

والعلم يجري مجرى القسم بقوله : ﴿ إنك لرسول الله ﴾ وأصل الشهادة أن يواطىء اللسان القلب هذا بالنطق ، وذلك بالاعتقاد ؛ فأكذبهم الله وفضحهم بقوله : ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ : أي لم تواطىء قلوبهم ألسنتهم على تصديقك ، واعتقادهم أنك غير

رسول ، فهم كاذبون عند الله وعند من خبر حالهم ، أو كاذبون عند أنفسهم ، إذ كانوا يعتقدون أن قولهم : ﴿ إنك لرسول الله ﴾ كذب .

وجاء بين شهادتهم وتكذيبهم قوله تعالى : ﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ ، إيذاناً أن الأمر كما لفظوا به من كونه رسول الله حقاً .

ولم تأت هذه الجملة لتوهم أن قولهم هذا كذب ، فوسطت الأمر بينهما ليزول ذلك التوهم .

﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ : سمى شهادتهم تلك أيماناً .

وقرأ الجمهور : أيمانهم ، بفتح الهمزة جمع يمين ؛ والحسن : بكسرها ، مصدر آمن .

ولما ذكر أنهم كاذبون ، أتبعهم بموجب كفرهم ، وهو اتخاذ أيمانهم جنة يستترون بها ، ويذبون بها عن أنفسهم وأموالهم ، كما قال بعض الشعراء :

وما انتسبوا إلى الإسلام إلا . . .

لصون دمائهم أن لا تسالا

ومن أيمانهم أيمان عبد الله ، ومن حلف معه من قومه أنه ما قال ما نقله زيد بن أرقم إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، جعلوا تلك الأيمان جنة تقي من القتل ، وقال أعشى همدان :

إذا أنت لم تجعل لعرضك جنة . . .

من المال سار القوم كل مسير

وقال الضحاك : اتخذوا حلفهم بالله أنهم لمنكم .

وقال قتادة : كلما ظهر شيء منهم يوجب مؤاخذتهم ، حلفوا كاذبين عصمة لأموالهم ودمائهم .

(263/765)

وقال السدي : ﴿ جنة ﴾ من ترك الصلاة عليهم إذا ماتوا ، ﴿ فصدوا ﴾ : أي أعرضوا وصدوا اليهود والمشركين عن الدخول في الإسلام ، ﴿ ذلك ﴾ أي ذلك الحلف الكاذب والصد المقتضيان لهم سوء العمل بسبب أيمانهم ثم كفرهم .

وقال ابن عطية : ذلك إشارة إلى فعل الله بهم في فضيحتهم وتوبيخهم ، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى سوء ما عملوا ، فالمعنى : ساء عملهم بأن كفروا .

وقال الزمخشري : ذلك القول الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالاً بسبب أنهم آمنوا ثم كفروا ، أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستخفاف بالإيمان ، أي ذلك كله بسبب أنهم آمنوا ثم كفروا .

وقرأ الجمهور : ﴿ فطبع ﴾ مبنياً للمفعول ؛ وزيد بن علي : مبنياً للفاعل : أي فطبع الله ؛ وكذا قراءة الأعمش وزيد في رواية مصرحاً بالله .

ويحتمل على قراءة زيد الأولى أن يكون الفاعل ضميراً يعود على المصدر المفهوم من ما قبله ، أي فطبع هو ، أي بلعبهم بالدين .

ومعنى ﴿ آمنوا ﴾ : نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل المسلمون ، ﴿ ثم كفروا ﴾ : أي ظهر كفرهم بما نطقوا به من قولهم : لئن كان محمد ما يقوله حقاً فنحن شر من الحمير ، وقولهم : أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر ؟ هيهات ، أو نطقوا بالإيمان عند المؤمنين وبالكفر عند شياطينهم ، أو ذلك فيمن آمن ثم ارتد .

﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ﴾ : الخطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أو للسامع : أي لحسنها ونضارتها وجهارة أصواتهم ، فكان منظرهم يروق ، ومنطقهم يحلو . وقرأ الجمهور : ﴿ تسمع ﴾ بتاء الخطاب ؛ وعكرمة وعطية العوفي : يسمع بالياء مبنياً للمفعول ، و ﴿ لقولهم ﴾ : الجار والمجرور هو المفعول الذي لم يسم فاعله ، وليست اللام زائدة ، بل ضمن يسمع معنى يصغ ويمل ، تعدى باللام وليست زائدة ، فيكون قولهم هو المسموع .

وشبهوا بالخشب لعزوب أفهامهم وفراغ قلوبهم من الإيمان ، ولم يكن حتى جعلها مسندة إلى الحائط ، لا انتفاع بها لأنها إذا كانت في سقف أو مكان ينتفع بها ، وأما إذا كانت غير منتفع بها فإنها تكون مهملة مسندة إلى الحيطان أو ملقاة على الأرض قد صففت ، أو شهوة بالخشب التي هي الأصنام وقد أسندت إلى الحيطان ، والجملة التشبيهية مستأنفة ، أو على إضمارهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ خشب ﴾ بضم الخاء والشين ؛ والبراء بن عازب والنحويان وابن كثير : بإسكان الشين ، تخفيف خشب المضموم .

وقيل : جمع خشباء ، كحمر جمع حمراء ، وهي الخشبة التي نخر جوفها ، شبهوا بها في فساد بواطنهم .

وقرأ ابن المسيب وابن جبير : خشب بفتحتين ، اسم جنس ، الواحد خشبة ، وأنث وصفه كقوله : ﴿ أعجاز نخل خاوية ﴾ أشباح بلا أرواح ، وأجسام بلا أحلام .

وذكر ممن كان ذا بهاء وفصاحة عبد الله بن أبيّ ، والجد بن قيس ، ومعتب بن قشير .

قال الشاعر في مثل هؤلاء :

لا تخدعنك اللحى ولا الصور . . .

تسعة أعشار من ترى بقر

تراهم كالسحاب منتشرا . . .

وليس فيها لطالب مطر

في شجر السرو منهم شبه . . .

له رواء وما له ثمر

وقيل : الجملة التشبيهية وصف لهم بالجبن والخور ، ويدل عليه : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ في موضع المفعول الثاني ليحسبون ، أي واقعة عليهم ، وذلك لجبنهم وما في قلوبهم من الرعب .

قال مقاتل : كانوا متى سمعوا بنشدان ضالة أو صياحاً بأي وجه كان ، أو أخبروا بنزول وحي ، طارت عقولهم حتى يسكن ذلك ويكون في غير شأنهم ، وكانوا يخافون أن ينزل الله تعالى فيهم ما تباح به دماؤهم وأموالهم ، ونحو هذا قول الشاعر :

يروعه السرار بكل أرض . . .

مخافة أن يكون به السرار

وقال جرير :

ما زلت تحسب كل شيء بعدهم . . .

خيلاً تكر عليهم ورجالا

أنشده ابن عطية لجرير ، ونسب هذا البيت الزمخشري للأخطل .

قال : ويجوز أن يكون ﴿ هم العدو ﴾ المفعول الثاني كما لو طرحت الضمير .

فإن قلت : فحقه أن يقول : هي العدو .

قلت : منظور فيه إلى الخبر ، كما ذكر في هذا ربي ، وأن يقدر مضاف محذوف على يحسبون كل أهل صيحة .

انتهى .

وتخريج ﴿ هم العدو ﴾ على أنه مفعول ثان ليحسبون تخريج متكلف بعيد عن الفصاحة ، بل المتبادر إلى الذهن السليم أن يكون ﴿ هم العدو ﴾ إخباراً منه تعالى بأنهم ، وإن أظهروا الإسلام وأتباعهم ، هم المبالغون في عداوتك ؛ ولذلك جاء بعده أمره تعالى إياه بحذرهم فقال : ﴿ فاحذرهم ﴾ ، فالأمر بالحذر متسبب عن إخباره بأنهم هم العدو .

و ﴿ قاتلهم الله ﴾ : دعاء يتضمن إبعادهم ، وأن يدعو عليهم المؤمنون بذلك .

﴿ أنى يؤفكون ﴾ : أي كيف يصرفون عن الحق ، وفيه تعجب من ضلالهم وجهلهم .

ولما أخبره تعالى بعداوتهم ، أمره بحذرهم ، فلا يثق بإظهار مودتهم ، ولا بلين كلامهم .

و ﴿ قاتلهم الله ﴾ : كلمة ذم وتوبيخ ، وقالت العرب : قاتله الله ما أشعره .

يضعونه موضع التعجب ، ومن قاتله الله فهو مغلوب ، لأنه تعالى هو القاهر لكل معاند .

وكيف استفهام ، أي كيف يصرفون عن الحق ولا يرون رشد أنفسهم ؟ قال ابن عطية :

ويحتمل أن يكون أنى ظرفاً لقاتلهم ، كأنه قال : قاتلهم الله كيف انصرفوا أو صرفوا ، فلا

يكون في هذا القول استفهام على هذا . انتهى .

ولا يصح أن يكون أنى لمجرد الظرف ، بل لا بد يكون ظرفاً استفهاماً ، إما بمعنى أين ، أو

بمعنى متى ، أو بمعنى كيف ، أو شرطاً بمعنى أين .

وعلى هذه التقادير لا يعمل فيها ما قبلها ، ولا تتجرد لمطلق الظرفية بحال من غير اعتبار ما

ذكرناه ، فالقول بذلك باطل .

ولما صدق الله زيد بن أرقم فيما أخبر به عن ابن سلول ، مقت الناس ابن سلول ولامه

المؤمنون من قومه ، وقال له بعضهم : امض إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واعترف

بذنبك يستغفر لك ، فلوّى رأسه إنكاراً لهذا الرأي ، وقال لهم : لقد أشرتم عليّ بالإيمان

فآمنت ، وأشرتم عليّ بأن أعطي زكاة مالي ففعلت ، ولم يبق لكم إلا أن تأمروني بالسجود

لمحمد ويستغفر مجزوم على جواب الأمر ، ورسول الله يطلب عاملان ، أحدهما

يستغفر ﴾ ، والآخر ﴿ تعالوا ﴾ ؛ فأعمل الثاني على المختار عند أهل البصرة ، ولو أعمل الأول لكان التركيب : تعالوا يستغفر لكم إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقرأ مجاهد ونافع وأهل المدينة وأبو حيوة وابن أبي عبلة والمفضل وأبان عن عاصم والحسن ويعقوب ، بخلاف عنهما : ﴿ لووا ﴾ ، بفتح الواو ؛ وأبو جعفر والأعمش وطلحة وعيسى وأبو رجاء والأعرج وباقي السبعة : بشدها للتكثير .

وليّ رءوسهم ، على سبيل الاستهزاء واستغفار الرسول لهم ، هو استتابتهم من النفاق ، فيستغفر لهم ، إذ كان استغفاره متسبباً عن استتابتهم ، فيتوبون وهم يصدون عن المجيء واستغفار الرسول .

وقرىء : يصدون ويصدون ، جملة حالية ، وأتت بالمضارع ليدل على استمرارهم ، ﴿ وهم مستكبرون ﴾ : جملة حالية أيضاً .

ولما سبق في علمه تعالى أنهم لا يؤمنون البتة ، سوى بين استغفاره لهم وعدمه .

وحكى مكي أنه عليه الصلاة والسلام كان استغفر لهم لأنهم أظهروا له الإسلام .

وقال ابن عباس : نزلت هذه بعد قوله تعالى في براءة أن تستغفر لهم سبعين مرة ، وقوله عليه الصلاة والسلام : " سوف أستغفر لهم زيادة على السبعين " ، فنزلت هذه الآية ، فلم يبق للاستغفار وجه .

وقرأ الجمهور : ﴿ أستغفرت ﴾ بهمزة التسوية التي أصلها همزة الاستفهام ، وطرح ألف الوصل ؛ وأبو جعفر : بمدة على الهمزة .

قيل : هي عوض من همزة الوصل ، وهي مثل المدة في قوله : ﴿ قل آلذكرين حرم ﴾ لكن هذه المدة في الاسم لئلا يلتبس الاستفهام بالخبر ، ولا يحتاج ذلك في الفعل ، لأن همزة الوصل فيه مكسورة .

وعن أبي جعفر أيضاً : ضم ميم عليهم ، إذ أصلها الضم ، ووصل الهمزة .

وروى معاذ بن معاذ العنبري ، عن أبي عمرو : كسر الميم على أصل التقاء الساكنين ، ووصل الهمزة ، فتسقط في القراءتين ، واللفظ خبر ، والمعنى على الاستفهام ، والمراد التسوية ، وجاز حذف الهمزة لدلالة أم عليها ، كما دلت على حذفها في قوله :

بسبع رمينا الجمر أم بثمان . . .

يريد : أبسبع .

وقال الزمخشري : وقرأ أبو جعفر : آستغفرت ، إشباعاً لهمزة الاستفهام للإظهار والبيان ، لا قلب همزة الوصل ألفاً كما في : آلسحر ، وآلله .

وقال ابن عطية : وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : آستغفرت ، بمدة على الهمزة ، وهي ألف التسوية .

وقرأ أيضاً : بوصل الألف دون همز على الخبر ، وفي هذا كله ضعف ، لأنه في الأولى أثبت همزة الوصل وقد أغنت عنها همزة الاستفهام ، وفي الثانية حذف همزة الاستفهام وهو يريدها ، وهذا مما لا يستعمل إلا في الشعر .

﴿ هم الذين يقولون ﴾ : إشارة إلى ابن سلول ومن وافقه من قومه ، سفه أحلامهم في أنهم ظنوا أن رزق المهاجرين بأيديهم ، وما علموا أن ذلك بيد الله تعالى .

﴿ لا تنفقوا على من عند رسول الله ﴾ : إن كان الله تعالى حكى نص كلامهم ، فقولهم : ﴿ على من عند رسول الله ﴾ هو على سبيل الهزء ، كقولهم : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ أو لكونه جرى عندهم مجرى اللعب ، أي هو معروف بإطلاق هذا اللفظ عليه ، إذ لو كانوا مقرين برسالته ما صدر منهم ما صدر .

فالظاهر أنهم لم ينطقوا بنفس ذلك اللفظ ، ولكنه تعالى عبر بذلك عن رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، إكراماً له وإجلالاً .

وقرأ الجمهور : ﴿ ينفضوا ﴾ : أي يتفرقوا عن الرسول ؛ والفضل بن عيسى : ينفضوا ، من انفض القوم : فني طعامهم ، فنفض الرجل وعاءه ، والفعل من باب ما يعدى بغير الهمزة ، وبالهمزة لا يتعدى .

قال الزمخشري : وحقيقته حان لهم أن ينفضوا مزاودهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ : فالأعز فاعل ، والأذل مفعول ، وهو من كلام ابن سلول ، كما تقدم .

ويعني بالأعز : نفسه وأصحابه ، وبالأذل : المؤمنين .

والحسن وابن أبي عبلة والسبي في اختياره : لنخرجن بالنون ، ونصب الأعز والأذل ، فالأعز مفعول ، والأذل حال .

وقرأ الحسن ، فيما ذكر أبو عمر والداني : لنخرجن ، بنون الجماعة مفتوحة وضم الراء ، ونصب الأعز على الاختصاص ، كما قال : نحن العرب أقرى الناس للضيف ؛ ونصب الأذل على الحال ، وحكى هذه القراءة أبو حاتم .

وحكى الكسائي والفراء أن قوماً قرأوا : ليخرجن بالياء مفتوحة وضم الراء ، فالفاعل الأعز ، ونصب الأذل على الحال .

وقرىء : مبنياً للمفعول وبالياء ، الأعز مرفوع به ، الأذل نصباً على الحال .

ومجيء الحال بصورة المعرفة متأول عند البصريين ، فما كان منها بأل فعلى زيادتها ، لا أنها

معرفة .

ولما سمع عبد الله ، ولد عبد الله بن أبي هذه الآية ، جاء إلى أبيه فقال : أنت والله يا أبت الذليل ، ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) العزيز .

فلما دنا من المدينة ، جرد السيف عليه ومنعه الدخول حتى يأذن له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وكان فيما قال له : وراءك لا تدخلها حتى تقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأعز وأنا الأذل ، فلم يزل حبيساً في يده حتى أذن له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بتخليته .

وفي هذا الحديث أنه قال لأبيه : لئن لم تشهد لله ولرسوله بالعزة لأضربن عنقك ، قال : أفاعل أنت ؟ قال : نعم ، فقال : أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

(269/765)

وقيل للحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما : أن فيك تيهاً ، فقال : ليس بتيه ولكنه عزة ، وتلا هذه الآية .

﴿ لا تلهكم أموالكم ﴾ بالسعي في نمائها والتلذذ بجمعها ، ﴿ ولا أولادكم ﴾ بسروركم بهم وبالنظر في مصالحهم في حياتكم وبعد مماتكم ، ﴿ عن ذكر الله ﴾ : هو عام في الصلاة

والثناء على الله تعالى بالتسبيح والتحميد وغير ذلك والدعاء .

وقال نحواً منه الحسن وجماعة .

وقال الضحاك وعطاء : أكد هنا الصلاة المكتوبة .

وقال الحسن أيضاً : جميع الفرائض .

وقال الكلبي : الجهاد مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : القرآن .

﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ : أي الشغل عن ذكر الله بالمال والولد ، ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾ ، حيث آثروا العاجل على الآجل ، والفاني على الباقي .

﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ ، قال الجمهور : المراد الزكاة .

وقيل : عام في المفروض والمندوب .

وعن ابن عباس : نزلت في مانعي الزكاة ، والله لو رأى خيراً ما سأل الرجعة ، فقيل له : أما تتقي الله ؟ يسأل المؤمنون الكرة ، قال : نعم أنا أقرأ عليكم به قرآناً ، يعني أنها نزلت في المؤمنين ، وهم المخاطبون بها .

﴿ لولا أخرتني ﴾ : أي هلا أخرت موتي إلى زمان قليل ؟ وقرأ الجمهور : فأصّدّق ، وهو منصوب على جواب الرغبة ؛ وأبي وعبد الله وابن جبير : فأتصدق على الأصل .

وقرأ جمهور السبعة : ﴿ وأكن ﴾ مجزوماً .

قال الزمخشري : ﴿ وأكن ﴾ بالجزم عطفاً على محل ﴿ فأصدق ﴾ ، كأنه قيل : إن أخرتني أصدق وأكن . انتهى .

وقال ابن عطية : عطفاً على الموضع ، لأن التقدير : إن تؤخرني أصدق وأكن ، هذا مذهب أبي علي الفارسي .

فأما ما حكاه سيبويه عن الخليل فهو غير هذا ، وهو أنه جزم وأكن على توهم الشرط الذي يدل عليه بالتمني ، ولا موضع هنا ، لأن الشرط ليس بظاهر ، وإنما يعطف على الموضع ، حيث يظهر الشرط كقوله تعالى :

﴿ من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم ﴾ فمن قرأ بالجزم عطف على موضع ﴿ فلا هادي له ﴾ ، لأنه لو وقع هنالك فعل كان مجزوماً . انتهى .

والفرق بين العطف على الموضع والعطف على التوهم : أن العامل في العطف على الموضع موجود دون مؤثره ، والعامل في العطف على التوهم مفقود وأثره موجود .

وقرأ الحسن وابن جبير وأبو رجاء وابن أبي إسحاق ومالك بن دينار والأعمش وابن محيصن وعبد الله بن الحسن العنبري وأبو عمرو : وأكون بالنصب ، عطفاً على ﴿

فأصدق ﴾ ، وكذا في مصحف عبد الله وأبي .

وقرأ عبيد بن عمير : وأكون بضم النون على الاستئناف ، أي وأنا أكون ، وهو وعد الصلاح .

﴿ ولن يؤخر الله نفساً ﴾ : فيه تحريض على المبادرة بأعمال الطاعات حذاراً أن يجيء الأجل ، وقد فرط ولم يستعد للقاء الله .

وقرأ الجمهور : ﴿ تعملون ﴾ بتاء الخطاب ، للناس كلهم ؛ وأبو بكر : بالياء ، خص الكفار بالوعيد ، ويحتمل العموم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(271/765)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1) ﴾

(272/765)

التفسير : قال علماء المعاني : أرادوا بقولهم نشهد إنك لرسول الله شهادة واطأت فيها قلوبهم ألسنتهم كما ينبىء عنه " إن واللام " وكون الجملة اسمية مع تصديرها بما يجري مجرى القسم وهو الشهادة ، فكذبهم الله تعالى لأجل علمه بعدم المواطأة. أو يراد والله يشهد إنهم لكاذبون عند أنفسهم لأنهم كانوا يعتقدون أن قولهم إنك لرسول الله كذب وخبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه. قلت : هذا مذهب الجاحظ وأنه خلاف ما عليه الجمهور وهو أن مرجع كون الخبر صدقاً أو كذباً إلى طباق الحكم للواقع أو لإطباقه ولهذا أوّلوا الآية بما أوّلوا ، وهو أن التكذيب توجه إلى ادّعائهم أن قولهم قول عن صميم القلب ، ومما يدل على أن مرجع كون الخبر صدقاً إلى ما قلنا لا إلى طباقه اعتقاد المخبر أو ظنه ولا إلى عدم طباقه لذلك الاعتقاد والظن تكذيبنا اليهودي إذا قال : الإسلام باطل مع أنه مطابق لاعتقاده ، وتصديقنا له إذا قال : الإسلام حق مع أنه غير مطابق لاعتقاده. وفائدة إقحام قوله ﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ التنصيص على التأويل المذكور وإلا أمكن ذهاب الوهم إلى أن نفس قولهم ﴿ إنك لرسول الله ﴾ كذب. ثم أخبر عن استثباتهم بالايمان الكاذبة كما مر في " المجادلة ". وجوز في الكشاف أن تكون اليمين الكاذبة ههنا إشارة إلى قولهم ﴿ نشهد ﴾ لأن الشهادة تجري في إفادة التأكيد مجرى الحلف وبه استدل أبو حنيفة على أن أشهد يمين. ﴿ ذلك ﴾ الذي مر من أوصافهم وأخلاقهم أو من التسجيل عليهم أنهم مقول في حقهم ساء ما كانوا يعملون ﴿ ب ﴾ سبب ﴿ أنهم آمنوا ﴾ باللسان ﴿

ثم كفروا ﴾ بظهور نفاقهم أو نطقوا بالإسلام عند المؤمنين ثم نطقوا بكلمة الكفر إذا خلوا إلى شياطينهم ، ويجوز أن يراد أهل الردة منهم وكان عبد الله بن أبيّ رجلاً جسيماً فصيحاً وكذا أضرابه من رؤساء النفاق يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستندون ، فيه وكان النبي صلى الله عليه وسلم والحاضرون يعجبون

(273/765)

بهيا كلهم ويستمعون إلى كلامهم فنزلت ﴿ وإذا رأيتهم ﴾ أيها الرسول أو يا من له أهلية الخطاب .

(274/765)

ثم شبهوا في استنادهم وما هم إلا أجرام فارغة عن الإيمان والخير بالخشب المستندة إلى الحائط . ويجوز أن تكون الخشب أصناماً منحوتة شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم . قال في الكشاف : ويجوز أن يكون وجه التشبيه مجرد عدم الانتفاع لأن الخشب المنتفع بها هي التي تكون في سقف أو جدار أو غيرهما ، فأما المسندة الفارعة المتروكة فلا

نفع فيها . قلت : فعلى هذا لا يكون لتخصيص الخشب بالذكر فائدة لاشتراكها في هذا الباب مع الحجر والمدر المتروكين وغيرهما ، والخشب جمع خشبة كثمرة وثمر ، ومحل الجملة رفع على " هم كأنهم خشب " أو هو كلام مستأنف فلا محل له . قوله ﴿ عليهم ﴾ ثاني مفعولي ﴿ يحسبون ﴾ أي يحسبونها واقعة عليهم صادرة لهم لجبنهم والصيحة كنداء المنادي في العسكر ونحو ذلك ، أو هي أنهم كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم . ثم أخبر عنهم بأنهم ﴿ هم العدو ﴾ أي هم الكاملون في العداوة لأن أعدى الأعداء هو العدوّ المداجي المكاشر تظنه جاراً مكاشراً وتحت ضلوعه داء لا دواء له . ويقال : ما ذم الناس مذمة أبلغ من قولهم " فلان لا صديق له في السر ولا عدوّ له في العلانية " وذلك أن هذه من آيات النفاق ﴿ فاحذرهم ﴾ ولا تغتر بظاهرهم ، وجوز أن يكون ﴿ هم العدو ﴾ المفعول الثاني و ﴿ عليهم ﴾ لغو . وإنما لم يقل " هي العدو " نظراً إلى الخبر أو بتأويل كل أهل صيحة ﴿ قاتلهم الله ﴾ دعاء عليهم باللعن والإخزاء أي أحلهم الله محل من قاتله عدو قاهر . ويجوز أن يكون تعليماً للمؤمنين أي ادعوا عليهم بهذا . يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما لقي بني المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم ازدحم على الماء جمع من المهاجرين والأنصار واقتتلا ، فلطم أحد فقراء المهاجرين شاباً حليفاً لعبد الله بن أبيّ ، فبلغ ذلك عبد الله فقال : ما صحبنا محمداً إلا لنلطم والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قيل " سمن كلبك يأكلك " ، أما

والله ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ عنى بالأعز نفسه وبالأذل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لقومه : لو أمسكتم عن هؤلاء الفقراء فضل طعامكم لم يركبوا رقابكم ولا تفضوا من حول محمد ، فسمع بذلك زيد بن أرقم وهو حدث فقال : أنت والله الذليل القليل . فال عبد الله : اسكت فإنما كنت ألعب . فأخبر زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق .

فقال : إذن ترعد أنف كثيرة بيثرب . قال : فإن كرهت أن يقتله مهاجريّ فأمر به أنصارياً فقال : فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً قتل أصحابه . ولما أنزل الله تعالى تصديق قول زيد وبان نفاق عبد الله قيل له : قد نزلت فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك ، فلوى رأسه ثم قال : أمرتموني أن أومن فآمنت وأمرتموني أن أزكي مالي فزكيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمد فنزلت ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا ﴾ ولم يلبث إلا

أياماً قلائل حتى اشتكى ومات وقد تقدم قصة هذا المنافق في سورة " براءة " بأكثر من هذا ، وقد نفى عن المنافقين الفقه أولاً وهو معرفة غوامض الأشياء ، ثم نفى عنهم العلم رأساً كأنه قال : لا فقه لهم بل لا علم . أو نقول : إن معرفة كون الخزائن لله مما يحتاج إلى تدبر وتفقه لمكان الأسباب والوسائط والروابط المفتقرة في رفعها من البين إلى مزيد توجه وكمال نظر ، فأما كون الغلبة والقوة لدين الإسلام فذلك بظهور الإمارات وسطوع الدلائل بلغ مبلغاً لم يبق في وقوعه شك لمن به أدنى مسكة وقليل علم ، فلا جرم أورد في خاتمة كل آية ما يليق بها . وعن بعض الصالحات وكانت في هيئة رثة ألست على الإسلام وهو العز الذي لا ذل معه والغنى الذي لا فقر بعده . وعن الحسن بن علي رضي الله عنه أن رجلاً قال له : إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً فقال : ليس بتيه ولكنه عزة وتلا الآية . وحينئذ عير المنافقين بما عير . وحث المؤمنين على ذكر الله في كل حال بحيث لا يشغلهم عنه التصرف في الأموال والسرور بالأولاد وكل ما سوى الله حقير في جنب ما عند الله ، فإن من تصرف في شيء ما المال أو صرف زمانه في طرف من أمر الأولاد فلله وبالله وفي الله . وقال الكلبي : ذكر الله الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن الحسن : جميع الفرائض . وقيل : القرآن . وقيل : الصلوات الخمس ﴿ يفعل ذلك ﴾ أي ومن أشغلته الدنيا عن الدين . ثم حثهم على الإنفاق إما على الإطلاق وإما في

طريق الجهاد . وإتيان الموت إتيان سلطانه وأماراته حين لا يقبل توبته ولا ينفع عمل فيسأل الله التأخير في الأجل لتدارك ما فات ومن له بذلك كما قال ﴿ ولن يؤخر الله نفساً ﴾ والمعنى هلا أخرت موتي إلى زمان قليل ﴿ فأصدّق وأكون ﴾ من قرأ بالنصب فظاهر ، ومن قرأ بالجزم فعلى وهم أن الأول مجزوم كأنه قال : إن أخرتني أصدق وأكن . وقيل : هذا الوعيد لمانع الزكاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 304.306 ﴾

(278/765)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة المنافقين

مدنية وهي إحدى عشرة آية ، ومائة وثمانون كلمة وسبعمائة وستة وسبعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي له الإحاطة العظمى علماً وقدرة ﴿ الرحمن ﴾ الذي ستر بعموم رحمته من أراد من عباده ﴿ الرحيم ﴾ الذي وفق أهل وده لما يحبه ويرضاه .

﴿ إذا جاءك ﴾ يا أيها الرسول المبشر بك في التوراة والإنجيل ، وقرأ حمزة وابن ذكوان بالإمالة والباقون بالفتح ، وإذا وقف حمزة سهل الهمزة مع المد والقصر ، وله أيضاً إبدالها

ألفاً مع المد والقصر ﴿ المنافقون ﴾ أي : الغريقون في وصف النفاق ، وهم عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه ﴿ قالوا ﴾ مؤكدين لأجل استشعارهم بتكذيب من يسمعهم لما عندهم من الارتياب ﴿ نشهد ﴾ قال الحسن : هو بمنزلة اليمين كأنهم قالوا نقسم ﴿ إنك لرسول الله ﴾ أي : الملك الذي له الإحاطة الكاملة فوافقوا الحق بظاهر أحوالهم ، وخالفوا بقلوبهم وأفعالهم . وقوله تعالى : ﴿ والله يعلم ﴾ أي : وعلمه هو العلم في الحقيقة ، وأكد سبحانه بحسب إنكار المنافقين فقال تعالى : ﴿ إنك لرسوله ﴾ سواء أشهد المنافقون بذلك أم لا فالشهادة حق ممن يطابق لسانه قلبه جملة معترضة بين قولهم : ﴿ نشهد إنك لرسول الله ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ والله يشهد ﴾ لفائدة .

قال الزمخشري : لو قال قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يشهد انهم لكاذبون ، لكان يوهم أن قولهم هذا كذب فوسط بينهما قوله تعالى : ﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ ليميط هذا الإيهام ﴿ والله ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ يشهد ﴾ شهادة هي الشهادة لأنها محيطة بدقائق الظاهر والباطن ﴿ إن المنافقين ﴾ أي : الراسخين في وصف النفاق ﴿ لكاذبون ﴾ أي : في إخبارهم عن أنفسهم إنهم يشهدون ، لأن قلوبهم لا تطابق ألسنتهم فهم لا يعتقدون ذلك ، ومن شرط قول الحق أن يتصل ظاهره بباطنه وسره بعلانيته ، ومتى تخالف ذلك فهو كذب ألا ترى أنهم كانوا يقولون بألسنتهم نشهد إنك لرسول الله وسماه الله تعالى كذباً لأن قولهم خالف اعتقادهم .

﴿ اتخذوا أيمانهم ﴾ أي : كلها من شهادتهم وكل يمين سواها ﴿ جنة ﴾ أي : سترة عن أموالهم ودمائهم ، روى البخاري عن زيد بن أرقم قال : كنت مع عمي فسمعت عبد الله بن أبي ابن سلول يقول : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فذكرت ذلك لعمي فذكره عمي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا ، فصدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبني ، فأصابني هم لم يصبني مثله فجلست في بيتي ، فأنزل الله عز وجل ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله ﴾ وقوله ﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ فأرسل إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : "إن الله قد صدقك" وروى الترمذي عن زيد بن أرقم قال : "غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان معنا أناس من الأعراب فكنا نبتدر الماء ، وكان الأعراب يسبقوننا فيسبق الأعرابي أصحابه فيملأ الحوض ، ويجعل حوله حجارة ويجعل النطع عليه حتى يجيء أصحابه ، قال : فأتى رجل من الأنصار أعرابياً فأرخى زمام ناقته لتشرب فأبى أن يدعه ، فانتزع حجراً ففاض الماء ،

فرفع الأعرابي خشبة فضرب بها رأس الأنصاري فشجه ، فأتى عبد الله بن أبي رأس المنافقين فأخبره ، وكان من أصحابه فغضب عبد الله بن أبي ، ثم قال : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله ، يعني : الأعراب وكانوا يحضرون رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الطعام ، فقال عبد الله : إذا انفضوا من عند محمد فائتوا محمداً بالطعام فليأكل هو ومن عنده ، ثم قال لأصحابه : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال زيد : وأنا ردف عمي فسمعت عبد الله بن أبي فأخبرت عمي فانطلق فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلف وجحد ، قال : فصدقه رسول الله صلى الله عليه

وسلم وكذبني

قال : فجاء عمي إلي فقال : ما أردت إلا أن مقتك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبك المنافقون ، قال : فوقع علي من جراءتهم ما لم يقع على أحد ، قال : فبينما أنا أسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر قد خفقت رأسي من الهمّ ؛ إذ أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرك أذني ، وضحك في وجهي فكان ما يسرّني أنّ لي بها الخلد في

الدنيا ، ثم إنّ أبا بكر لحقني فقال : ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : ما قال لي شيئاً إلا أنه عرك أذني وضحك في وجهي ، فقال : أبشر ثم لحقني عمر فقلت له : مثل قولي لأبي بكر ، فلما أصبحنا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة المنافقين" قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(281/765)

وروي "أنه صلى الله عليه وسلم حين لقي بني المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتل منهم ، ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر يقود فرسه ، وسنان الجهني حليف لعبد الله بن أبيّ ، واقتتلا فصرخ جهجه : يا للمهاجرين ، وسنان يا للأنصار فأعان جهجاهاً جعال من فقراء المهاجرين ، ولطم سناناً ، فقال عبد الله لجعال : وأنت هناك وقال : ما صحبنا محمداً إلا لتلطم وجوهنا ، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل ، عنى بالأعز نفسه ، وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لقومه : ماذا فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ، ولأوشكوا أن يتحوّلوا عنكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من

حول محمد ، فسمع بذلك زيد بن أرقم وهو حدث ، فقال : أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك ، ومحمد في عز من الرحمن وقوّة من المسلمين ، فقال عبد الله : اسكت فإنما كنت ألعب ، فأخبر زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله ، فقال : إذن ترعد أنف كثيرة بيثرب ، قال : فإن كرهت أن يقتله مهاجري فأمر به أنصارياً ، قال : فكيف إذا تحدّث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه ؟ وقال صلى الله عليه وسلم لعبد الله : أنت صاحب الكلام الذي بلغني ، قال : والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئًا من ذلك ، وإنّ زيداً لكاذب فهو قوله تعالى : ﴿ اتخذوا إيمانهم جنة ﴾ فقال الحاضرون : يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه كلام غلام عسى أن يكون قد وهم" .

وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "لعلك غضبت عليه ، قال : لا ، قال : فلعله أخطأ سمعك ، قال : لا ، قال : فلعله شبه عليك ، قال : لا ، فلما نزلت لحق صلى الله عليه وسلم زيداً من خلفه فعرك أذنه ، وقال : وعت أذنك يا غلام إنّ الله قد صدقك وكذب المنافقين" .

تنبيه: سئل حذيفة بن اليمان عن المنافق فقال: الذي يصف الإيمان ولا يعمل به. وروى أبو هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان" وروى عبد الله بن عمر أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهنّ كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر" وروي عن الحسن أنه ذكر هذا الحديث فقال: إنّ بني يعقوب حدثوا فكذبوا، ووعدوا فأخلفوا، وائتمنوا فخانوا، إنما هذا القول من النبيّ صلى الله عليه وسلم على سبيل الإنذار للمسلمين، والتحذير لهم أن يعتادوا هذه الخصال شفقة أن تفضي بهم إلى النفاق، وليس المعنى أنّ من ندرت منه هذه الخصال من غير اختيار واعتياد أنه منافق وقال عليه الصلاة والسلام: "المؤمن إذا حدث صدق، وإذا وعد نجز، وإذا ائتمن وفى" والمعنى المؤمن الكامل ﴿فصدّوا﴾ أي: فسبب لهم اتخاذهم هذا أن أعرضوا بأنفسهم مع سوء البواطن وحرارة ما في الصدور، وحملوا غيرهم على الإعراض ﴿عن سبيل الله﴾ أي: عن طريق الملك الأعظم الذي شرعه لعباده ليصلوا به إلى محل رضوانه، ووصلوا إلى ذلك بخداعهم ومكرهم بجراءتهم على الأيمان الخائنة ﴿إنهم ساء ما كانوا﴾ أي: جبلة وطبعاً ﴿يعملون﴾ أي: يجدّدون عمله مستمرّين عليه بما هو كالجبلة من جراءتهم على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وخلص عباده بالأيمان الخائنة.

ولما كانت المعاصي تعمي القلوب فكيف بأعظمها علله بقوله تعالى:

﴿ ذلك ﴾ أي : سوء عملهم ﴿ بأنهم آمنوا ثم كفروا ﴾ .

(283/765)

فإن قيل : إنّ المنافقين لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم ، فما معنى قوله تعالى : ﴿ آمنوا ثم كفروا ﴾ ؟

أجيب : بثلاثة أوجه:

أحدها : آمنوا ، أي : نطقوا بكلمة الشهادة ، وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام ، ثم كفروا أي : ثم ظهر كفرهم بعد ذلك ، وتبين بما اطلع عليه من قولهم إن كان ما يقول محمد حقاً ، فنحن حمير ، وقولهم في غزوة تبوك : أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر هيهات ، ونحوه قوله : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم ﴾ (التوبة :)

أي : وظهر كفرهم بعد أن أسلموا ، ونحوه ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ (التوبة :

)

والثاني : آمنوا أي : نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء

بالإسلام بقوله تعالى : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا ﴾ إلى قوله ﴿ إنما نحن مستهزؤن ﴾ (البقرة :)

وهذا إعلام من الله تعالى بأنّ المنافقين كفار .

الثالث : أن يراد أنّ ذلك في قوم آمنوا ثم ارتدّوا ﴿ فطبع ﴾ أي : فحصل الطبع وهو الختم مع أنه معلوم أنه لا يقدر على ذلك غيره سبحانه ﴿ على قلوبهم ﴾ أي : لأجل اجترائهم على ما هو أكبر الكبائر على وجه النفاق ﴿ فهم ﴾ أي : فتسبب عن ذلك أنهم ﴿ لا يفقهون ﴾ أي : لا يقع لهم فقه في شيء من الأشياء ، فهم لا يميزون صواباً من خطأ ، ولا حقاً من باطل .

﴿ وإذا رأيتهم ﴾ أي : أيها الرسول على ما لك من الفطنة ونفوذ الفراسة ، أو أيها الرائي كائناً من كان بعين البصر ﴿ تعجبك أجسامهم ﴾ لضخامتها وصباحتها ، فإنّ عنايتهم كلها بصلاح ظواهرهم وترفيه أنفسهم ، فهم أشباح وقوالب ليس وراءها ألباب وحقائق .

قال ابن عباس : كان ابن أبيّ جسيماً صحيحاً فصيحاً ذلق اللسان ، وقوم من المنافقين في مثل صفته وهم رؤساء المدينة ، وكانوا يحضرون مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم

ويستندون فيه ، ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن حضر يعجبون بهيا كلهم ﴿ وإن يقولوا ﴾ أي : يوجد منهم قول في وقت من الأوقات ﴿ تسمع لقولهم ﴾ أي : لفصاحته فيلذ ذ السمع ويروق الفكر ﴿ كأنهم ﴾ أي : في حسن ظواهرهم وسوء بواطنهم ، وفي عدم الانتفاع بهم في شيء ﴿ خشب ﴾ جمع كثرة لخشبة ، وهو دليل على كثرتهم ﴿ مسندة ﴾ أي : قطعت من مغارسها ممالة إلى الجدار . وقرأ أبو عمرو والكسائي بسكون الشين ، والباقون بضمها ﴿ يحسبون ﴾ أي : لضعف عقولهم وكثرة ارتيابهم لكثرة ما يباشرون من سوء أعمالهم ﴿ كل صيحة ﴾ أي : من نداء مناد في إنشاد ضالة ، أو انفلات دابة ، أو نحو ذلك واقعة ﴿ عليهم ﴾ وضارّة لهم لجبنهم وهلعهم لما في قلوبهم من الرعب أن ينزل فيهم ما يبيح دماءهم . ومنه أخذ الأخطل:

*مازلت تحسب كل شيء بعدهم ** خيلا تكرّ عليهم ورجالاً*

ومنه قول الآخر:

*كأنّ بلاد الله وهي عريضة ** على الخائف المطلوب كفة حابل*

*يخال إليه أنّ كل ثنية ** تيممها ترمي إليه بقاتل*

﴿ هم العدوّ ﴾ أي : الكامل العداوة بما دل عليه الأخبار بالمفرد الذي يقع على الجمع ، إشارة إلى إنهم في شدّة عداوتهم للإسلام وأهله ، وكمال قصدهم وشدّة سعيهم فيه على قلب رجل واحد ، وإن أظهروا التودّد في الكلام ، والتقرّب به إلى أهل الإسلام فإنّ ألسنتهم

معكم إذا لقوكم ، وقلوبهم عليكم مع أعدائكم فهم عيون لهم عليكم ﴿ فاحذرهم ﴾ لأنّ أعدى عدوّك من يعاشرك وتحت ضلوعه الداء لكنه يكون بلطف الله دائم الخذلان منكوساً في أكثر تقلباته بيد القهر والحرمان لسرّ قوله تعالى : ﴿ قاتلهم الله ﴾ أي : أحلهم الملك المحيط قدرة وعلماً محل من يقاتله عدوّ قاهر له أشدّ مقاتلة على عادة الفعل الذي يكون بين اثنين .

وقال ابن عباس : أي لعنهم الله ، وقال أبو مالك : هي كلمة ذم وتوبيخ ، وقد تقول العرب : قاتله الله ما أشعره فيضعونه موضع التعجب ﴿ أنى ﴾ أي : كيف ، ومن أيّ جهة ﴿ يؤفكون ﴾ أي : يصرفهم عن قبح ما هم عليه صارف ما كائن ما كان ليرجعوا عما هم عليه ، وقال ابن عباس : أنى يؤفكون ، أي : يكذبون ، وقال مقاتل : أي : يعدلون عن الحق ، وقال الحسن : يصرفون عن الرشد ، وقيل : معناه كيف تضل عقولهم عن هذا مع وضوح الدلائل ، وهو من الإفك .

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي : من أيّ قائل كان ﴿ تعالوا ﴾ أي : ارفعوا أنفسكم مجتهدين في ذلك بالمجيء إلى أشرف الخلق الذي لا يزال مكانه عالياً لعلوّ مكانته ﴿ يستغفر لكم ﴾ أي

: يطلب الغفران لأجلكم خاصة من أجل هذا الكذب أي : الذي أنتم مصرّون عليه ﴿ رسول الله ﴾ أي : أقرب الخلق إلى الملك الأعظم الذي لا شبيه لوجوده ﴿ لوّوا رؤوسهم ﴾ أي : فعلوا اللي بغاية الشدّة والكثرة ، وهو الصرف إلى جهة أخرى إعراضاً وعتواً ، وإظهاراً للبغض والنفرة ﴿ ورأيتهم ﴾ أي : بعين البصيرة ﴿ يصدّون ﴾ أي : يعرضون إعراضاً قبيحاً عما دعوا إليه ، مجدّدين لذلك كلما دعوا إليه ، والجملة في وضع المفعول الثاني لرأيت ﴿ وهم مستكبرون ﴾ أي : ثابتوا الكبر عما دعوا إليه ، وعن إحلال أنفسهم في محل الاعتذار فهم لشدّة غلظهم لا يدركون قبح ما هم عليه ، ولا يهتدون إلى دوائه ، وإذا أرشدهم غيرهم ونبههم لا ينتبهون .

فقد روي أنه لما نزل القرآن فيهم أتاهم عشائرهم من المؤمنين ، وقالوا : ويحكم افتضحتم وأهلكتم أنفسكم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوبوا إليه من النفاق ، واسألوه أن يستغفر لكم فلووا رؤوسهم ، أي : حرّكوها إعراضاً وإباء قاله ابن عباس .

وعنه : أنه كان لعبد الله بن أبي موقف في كل سبت يحض على طاعة الله وطاعة رسوله ، فقيل له : وما ينفعك ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليك غضبان ، فأته يستغفر

لك فأبى ، وقال : لا أذهب إليه . وروي أنّ ابن أبيّ رأسهم لوى رأسه ، وقال لهم : أشرتم عليّ بالإيمان فآمنت ، وأشرتم عليّ بأن أعطي زكاة مالي ففعلت ، ولم يبق إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد فنزل ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا ﴾ الآية . ولم يلبث إلا أياماً قلائل حتى اشتكى ومات .

ولما كان صلى الله عليه وسلم يحب صلاحهم فهو يحب أن يستغفر لهم ، وربما ندبه إلى ذلك بعض أقاربهم ، قال تعالى منبهاً على أنهم ليسوا بأهل للاستغفار لأنهم لا يؤمنون: ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم ﴾ استغنى بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل ﴿ أم لم تستغفر ﴾ الله ﴿ لهم ﴾ أي : سواء عليهم الاستغفار وعدمه لأنهم لا يلتفتون إليه ، ولا يعتدّون به لكفرهم ﴿ لن يغفر الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ لهم ﴾ لرسوخهم في الكفر ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له كمال الصفات ﴿ لا يهدي القوم ﴾ أي : الناس الذين لهم قوّة في أنفسهم على ما يريدونه ﴿ الفاسقين ﴾ أي : لأنهم لا عذر لهم في الإصرار على الفسق ، وهو المروق من حصن الإسلام بخرقه وهتكه مرّة بعد مرّة ، والتمرن عليه حتى استحكم فهم راسخون في النفاق ، والخروج عن مظنة الإصلاح .

﴿ هم ﴾ أي خاصة بخالص بواطنهم ﴿ الذين يقولون ﴾ أي : أوجدوا هذا القول للأنصار ، ولا يزالون يجددونه لأنهم كانوا مربوطين بالأسباب محجوبين عن شهود التقدير ﴿ لا تنفقوا ﴾ أي : أيها المخلصون في النصرة ﴿ على من ﴾ أي : الذين ﴿ عند رسول الله ﴾

أي : الملك المحيط بكل شيء ، وهم فقراء المهاجرين ﴿ حتى ينفضوا ﴾ أي : يتفرّقوا فيذهب كل أحد منهم إلى أهله وشغله الذي كان له قبل ذلك .

(287/765)

قال البقاعي : وما درى الأجلاف أنهم لو فعلوا ذلك أتاح الله تعالى غيرهم للإنفاق ، أو أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا في الشيء اليسير فصار كثيراً ، أو كان بحيث لا ينفد ، أو أعطى كلاً يسيراً من طعام على كيفية لا ينفد معها كتمر أبي هريرة ، وشعير عائشة ، وعكة أمّ أيمن وغير ذلك كما روى غير مرّة ، ولكن ﴿ من يضلل الله فما له من هاد ﴾ (الزمر :)

ولذلك عبر في الردّ عليهم بقوله تعالى : ﴿ ولله ﴾ أي : قالوا ذلك واستمرّوا على تجديد قوله ، والحال أنّ الملك الذي لا أمر لغيره ﴿ خزائن السموات ﴾ أي : كلها ﴿ والأرض ﴾ كذلك من الأشياء المعدومة الداخلة تحت مقدوره ، ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ (يس :)

ومن الأشياء التي أوجدها فهو يعطي من يشاء منها ، حتى مما في أيديهم لا يقدر أحد على منع شيء من ذلك لا مما في يده ولا مما في يده غيره .

ونبه على سوء غباوتهم وأنهم تقيدوا بالوهم حتى سفلوا عن رتبة البهائم كما قال بعضهم: إن كان محمد صادقاً فنحن شرّ من البهائم بقوله تعالى: ﴿ولكن المنافقين﴾ أي: العريقين في وصف النفاق ﴿لا يفقهون﴾ أي: يتجدّد لهم فهم أصلاً كالبهائم بل هم أضل، لأنّ البهائم إذا رأت شيئاً ينفعها يوماً في مكان طلبته مرة أخرى، وهؤلاء رأوا غير مرّة ما أخرج الله تعالى من خوارق البركات على يد رسوله صلى الله عليه وسلم فلم ينفعهم ذلك، ودل على عدم نفعهم بقوله تعالى:

﴿يقولون﴾ أي: يوجدون هذا القول ويجدّدونه مؤكدين لاستشعارهم بأنّ أكثر قومهم ينكره ﴿لئن رجعنا﴾ أي: أيتها العصابة المنافقة ﴿إلى المدينة﴾ أي: من غزاتنا هذه، وهي غزوة بني المصطلق حيّ من هذيل خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل ﴿ليخرجنّ الأعز﴾ يعنون أنفسهم ﴿منها﴾ أي: المدينة ﴿الأذل﴾ يعنون النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهم كاذبون في هذا لكونهم تصوروا لشدة غباوتهم أنّ العزة لهم، وأنهم يقدرون على إخراج المؤمنين ﴿وله﴾ أي: والحال أنّ كل من له نوع بصيرة يعلم أنّ الملك الأعلى هو الذي له وحده ﴿العزة﴾ أي

: الغلبة كلها ﴿ ولرسوله ﴾ لأنّ عزّته من عزته ﴿ وللمؤمنين ﴾ فعزة الله قهره من دونه ، وكل من عداه دونه وعزة رسوله إظهار دينه على الأديان كلها ، وعزة المؤمنين نصر الله تعالى إياهم على أعدائهم ﴿ ولكن المنافقين ﴾ أي : الذين استحكم فيهم مرض القلوب ﴿ لا يعلمون ﴾ أي : لا يوجد لهم علم الآن ، ولا يتجدد في حين من الأحيان فلذلك هم يقولون مثل هذا الخراف .

(289/765)

روي أنه لما نزلت هذه الآية جاء عبد الله ولد عبد الله بن أبي ابن سلول الذي نزلت هذه الآيات بسببه كما مرّ إلى أبيه ، وذلك في غزوة المريسيع لبني المصطلق فأخذ بزمام ناقته ، وقال : أنت والله الذليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز . ولما أراد أن يدخل المدينة عبد الله بن أبي اعترضه ابنه حباب ، وهو عبد الله غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه ، وقال "إن حباباً اسم شيطان" وكان مخلصاً ، وقال : وراءك والله لا تدخلها حتى تقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعز وأنا الأذل ، فلم يزل حبيساً في يده حتى أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخليته . وروي أنه قال : لئن لم تقرّ لله ولرسوله بالعزة لأضربنّ عنقك ، فقال : ويحك أفاعل أنت ؟ قال : نعم ، فلما رأى منه الجدّ ، قال : أشهد

أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لابنه "جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً" .

فإن قيل : ما الحكمة في أنه تعالى ختم الآية الأولى بقوله تعالى : ﴿ لا يفقهون ﴾ وختم الثانية بقوله تعالى : ﴿ لا يعلمون ﴾ ؟ .

أجيب : بأنه ليعلم بالأولى قلة كياستهم وفهمهم ، وبالثانية حماقتهم وجهلهم . ويفقهون من فقه يفقه كعلم يعلم ، أو من فقه يفقه كعظم يعظم ، فالأوّل لحصول الفقه بالتكلف ، والثاني لا بالتكلف ، فالأول علاجي ، والثاني مزاجي .

ثم نهى الله تعالى المؤمنين عن التشبه بالمنافقين فقال تعالى:

(290/765)

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي : أقروا بالإيمان ، وقلوبهم مذعنة كظواهرهم ﴿ لا تلهكم ﴾ أي : لا تشغلكم ﴿ أموالكم ولا أولادكم ﴾ سواء كان ذلك في إصلاحها ، أو التمتع بها بحيث تغفلون ﴿ عن ذكر الله ﴾ أي : الملك الأعظم حذر المؤمنين أخلاق المنافقين ، أي : لا تشتغلوا بأموالكم كما فعل المنافقون ؛ إذ قالوا لأجل الشح بأموالهم ﴿ لا تنفقوا على من عند رسول الله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ عن ذكر الله ﴾ قال الضحاك : أي : عن الصلوات

الخمس ، نظيره : قوله تعالى : ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ (النور :)

وقال الحسن : عن جميع الفرائض ، كأنه قال : عن طاعة الله تعالى . وقيل : عن الحج والزكاة . وقيل عن قراءة القرآن ، وقيل : عن إدامة الذكر ، وقيل : هذا خطاب للمنافقين ، أي : آمنتم بالقول فآمنوا بالقلب .

ولما كان التقدير فمن انتهى فهو من الفائزين عطف عليه قوله تعالى : ﴿ ومن يفعل ﴾ أي : يوقع في زمن من الأزمان على سبيل التجديد والاستمرار فعل ﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر البعيد عن أفعال ذوي الهمم من الانقطاع إلى الاشتغال بالفاني والإعراض عن الباقي

﴿ فأولئك ﴾ البعداء عن الخير ﴿ هم الخاسرون ﴾ أي : العريقون في الخسارة في تجارتهم ، حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني ، حتى كأنهم مختصون بها دون الناس ، وذلك بضد ما أرادوا .

﴿ وأنفقوا ﴾ أي : ما أمرتم به من واجب أو مندوب كما قاله بعض المفسرين ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : يريد زكاة الأموال ، وهو ظاهر الأمر .

ثم إنّ الله تعالى زاد في الترغيب بالرضا منهم باليسير بقوله تعالى : ﴿ مما رزقناكم ﴾ أي : بعظمتنا . قال الزمخشري : من في ﴿ مما رزقناكم ﴾ للتبعيض ، والمراد الإنفاق الواجب ا . ه. ثم قال تعالى محذراً من الاغترار بالتسويف في أوقات السلامة : ﴿ من قبل أن يأتي أحدكم الموت ﴾ أي : يرى دلائله وأماراته وكل لحظة مرّت فهي دلائله وأماراته . قال القرطبي : وهذا دليل على وجوب تعجيل إخراج الزكاة ، ولا يجوز تأخيرها أصلاً ، أي : بلا عذر ، وكذا سائر العبادات إذا دخل وقتها . وقال الرازي : وبالجملة فقوله تعالى : ﴿ لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ تنبيه على المحافظة على الذكر قبل الموت ، وقوله تعالى : ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ تنبيه على الشكر كذلك .

ولما كانت الشدّة تقتضي الإقبال إلى الله تعالى سبب عن ذلك قوله تعالى : ﴿ فيقول ﴾ أي : سائلاً في الرجعة ، وأشار إلى ترقيقها للقلوب بقوله : ﴿ رب لولا ﴾ أي : هلا ولم لا ﴿ أخرتني ﴾ أي : أخرت موتي إمهالاً ﴿ إلى أجل ﴾ أي : زمان ، وقوله ﴿ قريب ﴾ يبين به أن مراده استدراك ما فات ليس إلا ، وقيل : لا زائدة ولو للتمني أي : لو أخرتني إلى أجل قريب ﴿ فأصدّق ﴾ أي : للتزوّد في سفري هذا الطويل الذي أنا مستقبله .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : تصدّقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت ، فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل . وعنه : ما يمنع أحدكم إذا كان له مال أن يزكي ، وإذا أطاق الحج أن يحج من قبل أن يأتيه الموت ، فيسأل ربه الكرة فلا يعطاها . وعنه : أنها نزلت في مانعي الزكاة ،

ووالله لو رأى خيراً ما سأل الرجعة ، فقيل له : أما تتقي الله يسأل المؤمنون الكرّة ، قال : نعم أنا أقرأ عليكم قرآناً يعني : أنها نزلت في المؤمنين ، وهم المخاطبون بها . وكذا عن الحسن : ما من أحد لم يزك ، ولم يصم ، ولم يحج إلا سأل الرجعة . وقال الضحاك : لا ينزل بأحد لم يحج ولم يؤدّ الزكاة الموت إلا وسأل الرجعة ، وعن عكرمة : نزلت في أهل القبلة .

(292/765)

وقيل : نزلت في المنافقين ، ولهذا نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال هذه الآية تدل على أنّ القوم لم يكونوا من أهل التوحيد ، لأنه لا يتمنى الرجوع إلى الدنيا والتأخير فيها أحد له عند الله تعالى خير في الآخرة ، أي : إذا لم يكن بالصفة المتقدمة . قال القرطبي : إلا الشهيد فإنه يتمنى الرجوع حتى يقتل لما يرى من الكرامة . وقرأ ﴿ وأكون من الصالحين ﴾ أي : العريقين في هذا الوصف بالتدارك أبو عمرو بواو بعد الكاف ونصب النون عطفاً على فأصدّق ، والباقون بحذف الواو لالتقاء الساكنين وجزم النون .

واختلفت عبارات الناس في ذلك ، فقال الزمخشري : عطفاً على محل فأصدّق ، كأنه قيل : إن أخرتني أصدق وأكن . وقال ابن عطية : عطفاً على الموضع لأنّ التقدير : إن أخرتني أصدّق وأكن ، هذا مذهب أبي عليّ الفارسي . وقال القرطبي : عطفاً على موضع الفاء

لأنّ قوله : ﴿ فأصدّق ﴾ لو لم تكن الفاء لكان مجزوماً ، أي : أصدّق .

ثم زاد تعالى في الحث على المبادرة بالطاعات قبل الفوات بقوله تعالى مؤكداً لأجل عظم الرجاء من هذا المحتضر بالتأخير عاطفاً على ما ، تقديره : فلا يؤخره الله فيفوته ما أراد : ﴿ ولن يؤخر الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي لا كفء له فلا اعتراض عليه ﴿ نفساً ﴾ أيّ نفس كانت ، وحقق الأجل بقوله تعالى : ﴿ إذا جاء أجلها ﴾ أي : وقت موتها الذي حدّه الله تعالى لها فلا يؤخر الله تعالى نفس هذا القائل ، لأنها من جملة النفوس التي شملها النفي .

وقرأ قالون والبزي وأبو عمرو بإسقاط الهمزة الأولى مع المدّ والقصر ، وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية بعد تحقيق الأولى ، ولهما أيضاً إبدالها ألفاً ، والباقون بتحقيقهما ﴿ والله ﴾ أي : الذي له الإحاطة الشاملة علماً وقدرة ﴿ خبير ﴾ أي : بالغ الخبرة والعلم ظاهراً وباطناً ﴿ بما تعملون ﴾ أي : توقعون عمله في الماضي والحال والمآل كله باطنه وظاهره .

وقرأ شعبة بالياء التحتية على الغيبة على الخبر عمن مات ، وقال هذه المقالة ، والباقون بالفوقية على الخطاب . وما قاله البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم

قال : "من قرأ سورة المنافقين بريء من النفاق" حديث موضوع. انتهى انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 7 صـ 438. 449 ﴾

(294/765)

وقال القاسمى :

سورة المنافقون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾

أي : إن الأمر كما قالوه ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : في قولهم ﴿ نَشْهَدُ ﴾ وادعائهم فيه مواطأة قلوبهم ألسنتهم ، لأنهم أضمروا غير ما أظهروا ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ أي : حلفهم الكاذب ، أو شهادتهم هذه ، فإنها تجري مجرى الحلف في التوكيد ﴿ جُنَّةً ﴾ أي : وقاية من القتل والسبي ، ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : دِينه الذي بعث به رسوله صلوات الله عليه ، وشريعته التي شرعها لخلقه ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : في اتخاذهم أيمانهم جنة ، وصدهم ، وغير ذلك من أعمالهم .

تنبيه :

في " الإكليل " : استدل بالآية أبو حنيفة على أن أشهد بالله يمين ، وإن لم ينو معه ، لأنه تعالى أخبر عن المنافقين أنهم قالوه ، ثم سماه أيماناً . انتهى .

قال الناصر : وليس فيما ذكره دليل ، فإن قوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ غايته أن ما ذكره يسمى يمناً ، وليس الخلاف في تسميته يميناً ، وإنما الخلاف : هل يكون يميناً منعقدة يلزم بالحنث فيها كفارة أم لا ؟ وليس كل ما يسمى حلفاً أو قسماً يوجب حكماً ، ألا ترى أنه لو قال : أحلف ، ولم يقل : بالله ، ولا بغيره ، فهو من محال الخلاف في وجوب الكفارة به ، وإن كان حلفاً لغة باتفاق ؛ لأنه فعل مشتق منه . انتهى .

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : ما نعي عليهم من مساوئهم ﴿ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ﴾ أي : ظاهراً ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ أي : سراً ﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : ختم عليها بما مرنوا عليه من التلوّن والتذبذب ورسوخ الهيئات المنكرة ، فحجبوا عن الحق ﴿ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ أي : حقيقة الإيمان ، وحكمة الرسالة والدين ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ أي : لتناسب أشكالهم ، وحسن مناظرهم وروائهم ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ أي : للين كلامهم بما يدهنون فيه ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾ أي : في الخلوّ عن الفائدة ، لأن الخشب إنما تكون مسندة إذا

لم تكن في بناء ، أو دعامة لشيء آخر .

قال القاشاني : روي عن بعض الحكماء أنه رأى غلاماً حسناً وجهه ، فاستنطقه لظنه ذكاءه وفطنته ، فما وجد عنده معنى ، فقال : ما أحسن هذا البيت لو كان فيه ساكن !

وهذا معنى قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ أي : أجرام خالية عن الأرواح ، لا نفع فيه ولا ثمر ، كالأخشاب المسندة إلى الجدران عند الجفاف ، وزوال الروح النامية عنها ، فهم في زوال استعداد الحياة الحقيقة ، والروح الإنْسَانْي ، بمثابتها .

﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ قال ابن جرير : أي : يحسب هؤلاء المنافقون من خبثهم ، وسوء ظنهم ، وقلة يقينهم ، كل صيحة عليهم ؛ لأنهم على وجل أن ينزل الله فيهم أمراً يهتك به أستارهم ويفضحهم ، ويبيح للمؤمنين قتلهم ، وسبي ذراريهم ، وأخذ أموالهم فهم من خوفهم من ذلك كلما نزل فيهم من الله وحي على رسوله ، ظنوا أنه نزل بهلاكهم وعَطَبِهم .

وقال القاشاني : لأن الشجاعة إنما تكون من اليقين من نور الفطرة ، وصفاء القلب ، وهم منغمسون في ظلمات صفات النفوس ، محتجبون باللذات والشهوات ، أهل الشك والارتياب ، فلذلك غلبهم الجبن والخور .

﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ قال القاشاني : فقد بطل استعدادهم ، فلا يهتدون بنورك ولا تؤثر فيهم صحبتك ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أي : كيف يصرفون عن الحق ، مع وضوح مناره . و قاتل بمعنى لعن وطرد ، وهو دعاء أو خبر .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ أي : هلموا إلى التوبة والإنابة مما فرط منكم ، وذاع من أفاعيلكم ضد المؤمنين ﴿ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ ﴾ قال ابن جرير أي : حركوها وهزوها استهزاءاً برسول الله صلى الله عليه وسلم وباستغفاره ، وبتشديد الواو من ﴿ لَوُوْا ﴾ قرأت القراء على وجه الخبر عنهم ، أنهم كرروا هزّ رؤوسهم وتحريكها وأكثروا ، إلا نافعاً فإنه قرأ ذلك بتخفيف الواو ، على وجه أنهم فعلوا ذلك مرة واحدة .

﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ أي : يعرضون عما دعوا إليه ، ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي : عن المصير إلى الرسول والاعتذار .

قال القاشاني : لضراوتهم بالأمور الظلمانية ، واعتيادهم الكمالات البهيمية والسبعية ، فلا يألفون النور ، ولا يشتاقون إليه ، ولا إلى الكمالات الْإِنْسَانْية ، لمسخ الصورة الذاتية .

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ قال القاشاني : لرسوخ الهيئات الظلمانية فيهم ، وزوال قبول استعدادهم للهداية ، لفسقهم وخروجهم عن دين الفطرة القويم . وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا ﴾ أي : حتى تصيبهم مجاعة ، فيتفرقوا عنه . يعنون فقراء المهاجرين .

قال القاشاني : لاحتجابهم بأفعالهم عن رؤية فعل الله ، وبما في أيديهم عما في خزائن الله ، فيتوهمون الإنفاق منهم ، لجهلهم .

(297/765)

﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي : من بيده خزائنهما ، رازقهم منها ، وإن بخل المنافقون .

لطيفة :

قال الشهاب : قوله تعالى :

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ إلخ تعليل لرسوخهم في الفسق ، لا لعدم المغفرة ؛ لأنه معلل بما قبله .

وقوله :

﴿ عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ الظاهر أنه حكاية ما قالوه بعينه ، لأنهم منافقون مقرون برسالته ظاهراً ، ولا حاجة إلى أنهم قالوه تهكماً ، أو لغلبة عليه ، حتى صار كالعلم ، كما

قيل . ويحتمل أنهم عبروا بغير هذه العبارة ، فغيرها الله إجلالاً لنبيه صلى الله عليه وسلم وإكراماً . انتهى .

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لمكان غرورهم وجهلهم وشدة ارتيابهم .

تنبيهان :

الأول : قال ابن جرير : عني بهذه الآيات كلها – فيما ذكر – عبد الله بن أبيّ ابن سلول ؛ وذلك أنه قال لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ينفضوا . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فسمع ذلك زيد بن أرقم فأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، > فسأله عما أخبر به عنه > ، فحلف أنه ما قال ! وقيل له : لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته أن يستغفر لك ، فجعل يلوي رأسه ويحركه استهزاء ، ويعني بذلك أنه غير فاعل ما أشاروا به عليه ، فأنزل الله عز وجل فيه هذه السورة من أولها إلى آخرها .

ثم أورد ابن جرير الروايات في ذلك . وتقدمه الإمام البخاريّ ، فأسندها من طرق .

ويجمعها كلها ما رواه ابن إسحاق في غزوة بني المصطلق : أن النبي صلى الله عليه وسلم لقيهم على ماء لهم يقال له : المريسيع وأظفره الله بهم . قال : فبينا الناس على ذلك الماء ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار ، يقال له : جهجاه ، يقود فرسه . فازدحم جهجاه وسنان الجهني حليف بني عوف بن الخزرج ، على الماء فاقتتلا ، فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار ! وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين ! فغضب عبد الله بن أبي سلول ، وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم ، غلام حدث ، فقال : أوقد فعلوها ؟ ! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ! واللهِ ! ما أعُدُّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضر من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ! أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما واللهِ لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوّه ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب . فقال : مُرْ به عباد بن بشر فليقتله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < فكيف يا عمر ، إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ! ولكن أذّن بالرحيل > ، في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها . فارتحل الناس ، وقد مشى عبد الله بن أبيّ

ابن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمع منه ، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به . وكان في قومه شريفاً عظيماً . فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله ! عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قاله

(299/765)

الرجل – حدباً على ابن سلول ودفعاً عنه –

قال ابن إسحاق : فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة ، وسلم عليه ، ثم قال : يا نبيّ الله ! والله لقد رحتَ في ساعة منكرة ، ما كنت تروح في مثلها ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : < أوما بلغك ما قال صاحبكم > ؟ قال : وأي صاحب يا رسول الله ؟ قال : < عبد الله بن أبيّ > ! قال : وما قال ؟ قال : < زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل > ! قال : فأنت يا رسول الله ، والله ، تخرجه منها إن شئت ؛ هو – والله – الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يا رسول الله ! ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه به ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً ، ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومهم ذلك ،

حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض ، فوقعوا نياماً . . . وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبيّ . ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس ، وقدم المدينة ، ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين ، في ابن أبيّ ، ومن كان على مثل أمره ، فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد بن أرقم ، ثم قال : هذا الذي أوفى لله بأذنه .

وكانت غزاة بني المصطلق هذه ، في شعبان سنة خمس ، كما في " زاد المعاد " .

وزعم قوم أن هذه المقالة كانت في غزوة تبوك . قال الحافظ ابن حجر : وقع في رواية محمد بن كعب عن زيد بن أرقم عند – النسائي – أنها غزوة تبوك ويؤيده قوله في رواية زهير : في سفر أصاب الناس فيه شدة . وأخرج عبد بن حميد بإسناده صحيح عن سعيد بن جبير مرسلاً ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل منزلاً لم يرتحل منه حتى يصلي فيه : فلما كانت غزوة تبوك ، نزل منزلاً ، فقال عبد الله بن أبي : فذكر القصة .

والذي عليه أهل المغازي أنها غزوة المصطلق . ويؤيده قول جابر ، بعد قوله صلى الله عليه

وسلم لعمر : < دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه > .

وكان الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ، ثم إن المهاجرين كثروا بعد . فهذا مما يوضح وهم من قال : إنها كانت بتبوك ، لأن المهاجرين حينئذ كانوا كثيراً جداً . وقد انضافت إليهم مسلمة الفتح في غزوة تبوك ، فكانوا حينئذ أكثر من الأنصار انتهى .

وسبقه ابن كثير حيث قال : وقوله – أي : ابن جبير – إن ذلك كان في غزوة تبوك ، فيه نظر ، بل ليس بجيد ، فإن عبد الله بن أبي ابن سلول لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك ، بل رجع بطائفة من الجيش . وإنما المشهور عند أصحاب المغازي والسير ، أن ذلك كان في غزوة المريسيع ، وهي غزوة بني المصطلق . انتهى .

التنبيه الثاني : قال الزمخشري : معنى قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ ﴾ إلخ أي : الغلبة والقوة ولمن أعزه وأيده من رسوله ومن المؤمنين ، وهم الأخصاء بذلك . كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين .

وعن بعض الصالحات – وكانت في هيئة رثة – ألستُ على الإسلام ، وهو العز الذي لا ذل معه ، والغنى الذي لا فقر معه ؟

وعن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما ، أن رجلاً قال له : إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً ؟ قال : ليس بتيه ، ولكنه عزة وتلا هذه الآية . انتهى .

قال الرازي : قال بعض العارفين في تحقيق هذا المعنى : العزة غير الكبر ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه ، فالعزة معرفة الْإِنْسَاْن بحقيقة نفسه ، وإكرامها عن أن يضعها لأقسام عاجلة دنيوية ، كما أن الكبر جهل الْإِنْسَاْن بنفسه ، وإنزالها فوق منزلها ؛ فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة ، وتختلف من حيث الحقيقة ، كاشتباه التواضع بالضعة ، والتواضع محمود ، والضعة مذمومة ، والكبر مذموم ، والعزة محمودة . ولما كانت غير مذمومة ، وفيها مشاكلة للكبر قال تعالى : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأحقاف : 20] . وفيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق ، والوقوف على حد التواضع ، من غير انحراف إلى الضعة ، وقوف على صراط العزة المنصوب على نار الكبر .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي : لا يشغلكم الاغتباط بها عن ذكر أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، أو ذكر ما أنزله وأوحى به . ومنه أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ؛ فإن مقتضى الإيمان أن لا يبالي المؤمن بعزة المال والولد ، مع عزة الله ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي : المغبونون حظوظهم من كرامة الله ورحمته ، كما قال سبحانه :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر : 19]

.

﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ ﴾ أي: أتصدق وأخرج حقوق مالي ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي: لن يؤخر في أجل أحد إذا حضر، ولكن يخترمه.

قال القاشانيّ: معنى قوله:

(302/765)

﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ إن صدقتم في الإيمان، فإن قضية الإيمان غلبة حب الله على محبة كل شيء، فلا تكن محبتهم ومحبة الدنيا، من شدة التعلق بهم وبالأموال، غالبة في قلوبكم على محبة، فتحتجبوا بهم عنه، فتصيروا إلى النار، فتخسروا نور الاستعداد الفطري بإضاعته فيما يفنى سريعاً، وتجردوا عن الأموال بإنفاقها وقت الصحة والاحتياج إليها، ليكون فضيلة في أنفسكم، وهيئة نورية لها، فإن الإنفاق إنما ينفع إذا كان عن ملكة السخاء، وهيئة التجرد في النفس. فأما عند حضور الموت، فالمال للوارث لا له، فلا ينفعه إنفاقه، وليس إلا التحسر والتندم، وتمني التأخير في الأجل بالجهل، فإنه لو كان صادقاً في دعوى الإيمان، وموقناً بالآخرة لتيقن أن الموت ضروري، وأنه مقدر في وقت معين قدره الله فيه بحكمته، فلا يمكن تأخره.

﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي: بأعمالكم ونياتكم؛ فلا ينفع الإنفاق في ذلك الوقت ولا تمني التأخير في الأجل، ووعد التصدق والصلاح، لعلمه بأنه ليس عن ملكة السخاء، ولا عن التجرد والزكاء، بل من غاية البخل وحب المال، كأنه يحسب أنه يذهب به معه، وبأن ذلك التمني والوعد محض الكذب، ومحبة العاجلة، لوجود الهيئة المنافية للتصدق والصلاح في النفس، والميل إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: 28] والله أعلم.

تنبيه:

قال الإمام إلكيا الهراسي: يدلّ قوله تعالى:

﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ الآية، على وجوب إخراج الزكاة على الفور، ومنع تأخيرها.

وأخرج الترمذي عن ابن عباس قال: من كان له مال يبلّغه حج بيت ربه، أو تجب عليه فيه زكاة، فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت، فقيل له: إنما يسأل الرجعة الكفار، فقال:

سأتلوا عليكم بذلك قرآناً ، ثم قرأ هذه الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 139.132 ﴾

(304/765)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة المنافقون

﴿ إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾

الدرس الأول: 1 - 4 سبب تكذيب المنافقين وتلاعبهم وصدهم عن سبيل الله وتصوير جبنهم

وهذه السورة تبدأ بوصف طريقتهم في مداراة ما في قلوبهم من الكفر , وإعلانهم الإسلام والشهادة بأن النبي (صلى الله عليه وسلم) هو رسول الله . وحلفهم كذبا ليصدقهم المسلمون , واتخاذهم هذه الأيمان وقاية وجنة يخفون وراءها حقيقة أمرهم , ويخدعون المسلمين فيهم:

(إذا جاءك المنافقون قالوا :نشهد إنك لرسول الله - والله يعلم إنك لرسوله - والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله , إنهم ساء ما كانوا

يعملون) . .

فهم كانوا يجيئون إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيشهدون بين يديه برسالته شهادة باللسان , لا يقصدون بها وجه الحق , إنما يقولونها للتقية , وليخفوا أمرهم وحقيقتهم على المسلمين . فهم كاذبون في أنهم جاءوا ليشهدوا هذه الشهادة , فقد جاءوا ليخدعوا المسلمين بها , ويداروا أنفسهم بقولها . ومن ثم يكذبهم الله في شهادتهم بعد التحفظ الذي يثبت حقيقة الرسالة: (والله يعلم إنك لرسوله) . . (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) . والتعبير من الدقة والاحتياط بصورة تثير الانتباه . فهو يبادر بتثبيت الرسالة قبل تكذيب مقالة المنافقين . ولولا هذا التحفظ لأوهم ظاهر العبارة تكذيب المنافقين في موضوع شهادتهم وهو الرسالة . وليس هذا هو المقصود . إنما المقصود تكذيب إقرارهم فهم لا يقرون الرسالة حقا ولا يشهدون بها خالصي الضمير !

(اتخذوا أيمانهم جنة) . . وهي توحي بأنهم كانوا يحلفون الأيمان كلما انكشف أمرهم , أو عرف عنهم كيد أو تدبير , أو نقلت عنهم مقالة سوء في المسلمين . كانوا يحلفون ليتقوا ما يترتب على افتضاح أمر من أمورهم , فيجعلون أيمانهم وقاية وجنة يحتمون وراءها ,

ليواصلوا كيدهم ودسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم . (فصدوا عن سبيل الله) . . صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم مستعينين بتلك الأيمان الكاذبة: (إنهم ساء ما كانوا يعملون) . . وهل أسوأ من الكذب للخداع والتضليل ! ؟

ويعلل حالهم هذه من شهادة مدخولة كاذبة , وأيمان مكذوبة خادعة , وصد عن سبيل الله وسوء عمل . . يعلله بأنهم كفروا بعد الإيمان , واختاروا الكفر بعد أن عرفوا الإسلام: (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم , فهم لا يفقهون) . .

فهم عرفوا الإيمان إذن , ولكنهم اختاروا العودة إلى الكفر . وما يعرف الإيمان ثم يعود إلى الكفر قلب فيه فقه , أو تذوق , أو حياة . وإلا فمن ذا الذي يذوق ويعرف , ويطلع على التصور الإيماني للوجود , وعلى التذوق الإيماني للحياة , ويتنفس في جو الإيمان الذكي , ويحيا في نور الإيمان الوضيء , ويتفيأ ظلال الإيمان الندية . . ثم يعود إلى الكفر الكالح الميت الخاوي المجدب الكنود ؟ من ذا الذي يصنع هذا إلا المطموس الكنود الحقود , الذي لا يفقه ولا يحس ولا يشعر بهذا الفارق البعيد ! (فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) . .

ثم يرسم لهم السياق صورة فريدة مبدعة ; تثير السخرية والهزء والزراية بهذا الصنف الممسوخ المطموس من الناس , وتسمهم بالفراغ والخواء والانطماس والجبن والفزع والحقد والكنود . بل تنصبهم تمثالا وهدفا للسخرية في معرض الوجود :

(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة . يحسبون كل صيحة عليهم . هم العدو فاحذرهم . قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ?) . .

(306/765)

فهم أجسام تعجب . لا أناسي تتجاوب ! وما داموا صامتين فهم أجسام معجبة للعيون .

. فأما حين ينطقون فهم خواء من كل معنى ومن كل حس ومن كل خالجة . . (تسمع لقولهم كأنهم خشب) . . ولكنها ليست خشبا فحسب . إنما هي (خشب مسندة) .

. لا حركة لها , ملطوعة بجانب الجدار !

هذا الجمود الراكد البارد يصورهم من ناحية فقه أرواحهم إن كانت لهم أرواح ! ويقابله من ناحية أخرى حالة من التوجس الدائم والفزع الدائم والاهتزاز الدائم:

(يحسبون كل صيحة عليهم) . .

فهم يعرفون أنهم منافقون مستورون بستار رقيق من التظاهر والحلف والملق والالتواء .

وهم يخشون في كل

وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ

لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (5) سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (6) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (7)

لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح وسترهم قد انكشف . والتعبير يرسمهم أبدا متلفتين حواليهم ; يتوجسون من كل حركة ومن كل صوت ومن كل هاتف , يحسبونه يطلبهم , وقد عرف حقيقة أمرهم ! !

وبينما هم خشب مسندة ملطوعة إذا كان الأمر أمر فقه وروح وشعور بإيقاعات الإيمان . . إذا هم كالقصبة المرتجفة في مهب الريح إذا كان الأمر أمر خوف على الأنفس والأموال !

(307/765)

وهم بهذا وذاك يمثلون العدو الأول للرسول (صلى الله عليه وسلم) وللمسلمين:

(هم العدو فاحذرهم) . .

هم العدو الحقيقي . العدو الكامن داخل المعسكر , المختبئ في الصف . وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح . (فاحذرهم) . . ولكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يؤمر

هنا بقتلهم , فأخذهم بخطة أخرى فيها حكمة وسعة وثقة بالنجاة من كيدهم - كما سيجيء نموذج من هذه المعاملة بعد قليل - . .

(قاتلهم الله أنى يؤفكون) . .

فالله مقاتلهم حيثما صرفوا وأنى توجهوا . والدعاء من الله حكم بمدلول هذا الدعاء , وقضاء نافذ لا راد له ولا معقب عليه . . وهذا هو الذي كان في نهاية المطاف .

الدرس الثاني:5 - 8 تآمر المنافقين على المسلمين وقصة ابن أبي في الفتنة

ويستطرد السياق في وصف تصرفاتهم الدالة على دخل قلوبهم , وتبييتهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) وكذبهم عند المواجهة . . وهي مجموعة من الصفات اشتهر بها المنافقون:

(وإذا قيل لهم:تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم , ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم , لن يغفر الله لهم , إن الله لا يهدي القوم الفاسقين . هم الذين يقولون:لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون:لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لا يعلمون) . .

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبدالله بن أبي بن سلول:

وفصل ابن إسحاق هذا في حديثه عن غزوة بني المصطلق سنة ست على المريسيع . . ماء لهم . . فبينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على ذلك الماء - بعد الغزوة - وردت واردة الناس , ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه , فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عون ابن الخزرج على الماء , فاقتتلا , فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار . وصرخ جهجاه . يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبي بن سلول , وعنده رهط من قومه , فيهم زيد بن أرقم غلام حدث . فقال: أوقد فعلوها ? قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا . والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم , وقاسمتموهم أموالكم , أما والله لو أمسكتم عنهم بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم . فمشى به إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذلك عند فراغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من عدوه , فأخبره الخبر , وعنده عمر بن الخطاب . فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ? لا ولكن أذن بالرحيل " . وذلك في ساعة لم يكن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يرتحل فيها . فارتحل الناس , وقد

مشى عبدالله بن أبي بن سلول إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه - فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به . وكان في قومه شريفا عظيما . فقال من حضر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل . حدبا على ابن أبي بن سلول ودفعا عنه .

(309/765)

قال ابن إسحاق فلما استقل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسار لقيه أسيد بن حضير , فحياه بتحية النبوة وسلم عليه , ثم قال: يا نبي الله , والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها . فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ " قال: وأي صاحب يا رسول الله ؟ قال " عبدالله بن أبي " قال: وما قال ؟ قال: " زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل ؟ " قال: فأنت يا رسول الله والله لتخرجنه منها إن شئت . هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال: يا رسول الله ارفق به . فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه , فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا !

ثم مشى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس. ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما، وإنما فعل ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله ابن أبي.

قال ابن إسحاق: ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين، في ابن أبي ومن كان على مثل أمره. فلما نزلت أخذ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأذن زيد بن ارقم، ثم قال: " هذا الذي أوفى لله بأذنه". وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي الذي كان من أمر أبيه.

قال ابن إسحاق. فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله أتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه. فإن كنت لا بد فاعلا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمنا بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا".

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: "كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم تقتله لقتلته" . قال: قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أعظم بركة من أمري . .

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي على باب المدينة , واستل سيفه , فجعل الناس يمرون عليه , فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه: وراءك ! فقال: مالك ؟ ويلك ! فقال: والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فإنه العزيز وأنت الذليل ! فلما جاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكان إنما يسير ساقة , فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه . فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: أما إذ أذن لك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فجز الآن . .

وننظر مرة إلى الأحداث , ومرة إلى الرجال , ومرة إلى النص القرآني , فنجدنا مع السيرة , ومع المنهج التربوي الإلهي , ومع قدر الله العجيب في تصريف الأمور . .

فهذا هو الصف المسلم يندس فيه المنافقون ; ويعيشون فيه - في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) قرابة عشر سنوات . والرسول (صلى الله عليه وسلم) لا يخرجهم من الصف , ولا يعرفهم الله له بأسمائهم وأعيانهم إلا قبيل وفاته . وإن كان يعرفهم في لحن القول , بالالتواء والمداورة . ويعرفهم بسيماهم وما يبدو فيها من آثار الانفعالات والانطباعات . ذلك كي لا يكل الله قلوب الناس للناس . فالقلوب له وحده , وهو الذي يعلم ما فيها ويحاسب عليه , فأما الناس فلهم ظاهر الأمر ; كي لا يأخذوا الناس بالظنة , وكي لا يقضوا في أمورهم بالفراسة ! وحتى حينما عرف الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) بالنفر الذين ظلوا على نفاقهم إلى أواخر حياته , فإنه لم يطردهم من الجماعة وهم يظهرون الإسلام ويؤدون فرائضه . إنما عرفهم وعرف بهم واحدا فقط من رجاله هو حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - ولم يشع ذلك بين المسلمين . حتى إن عمر - رضي الله عنه - كان يأتي حذيفة ليطمئن منه على نفسه أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يسمه له من المنافقين ! وكان حذيفة يقول له: يا عمر لست منهم . ولا يزيد ! وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد أمر ألا يصلي على أحد منهم مات أبدا . فكان أصحابه يعرفون عندما يرون الرسول لا يصلي على ميت . فلما قبض (صلى الله عليه وسلم) كان حذيفة لا يصلي على من عرف أنه منهم . وكان عمر لا ينهض للصلاة على ميت حتى ينظر . فإن رأى

حذيفة هناك علم أنه ليس من المجموعة وإلا لم يصل هو الآخر ولم يقل شيئًا !

وهكذا كانت تجري الأحداث - كما يرسمها القدر - لحكمتها ولغايتها, للتربية والعبرة وبناء الأخلاق والنظم والآداب .

وهذا الحادث الذي نزلت فيه تلك الآيات هو وحده موضع عبر وعظات جمة . .

(312/765)

هذا عبد الله بن أبي بن سلول . يعيش بين المسلمين . قريبا من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تتوالى الأحداث والآيات من بين يديه ومن خلفه على حقيقة هذا الدين وصدق هذا الرسول . ولكن الله لا يهدي قلبه للإيمان, لأنه لم يكتب له هذه الرحمة وهذه النعمة . وتقف دونه ودون هذا الفيض المتدفق من النور والتأثير, تقف دونه إحنة في صدره أن لم يكن ملكا على الأوس والخزرج, بسبب مقدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالإسلام إلى المدينة ! فتكفه هذه وحدها عن الهدى . الذي تواجهه دلائله من كل جانب . وهو يعيش في فيض الإسلام ومده في يثرب !

وهذا ابنه عبد الله - رضي الله عنه وأرضاه - نموذج رفيع للمسلم المتجرد الطائع . يشقى بأبيه ويضيق بأفاعيله ويخجل من مواقفه . ولكنه يكن له ما يكنه الولد البار العطوف .

ويسمع أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يريد أن يقتل أباه هذا . فيختلج قلبه بعواطف ومشاعر متباينة , يواجهها هو في صراحة وفي قوة وفي نصاعة . إنه يحب الإسلام , ويحب طاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويحب أن ينفذ أمره ولو في أبيه . ولكنه يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (9) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (11)

(313/765)

لا يطيق أن يتقدم أحد فيضرب عنق أبيه ويظل يمشي على الأرض بعده أمام ناظريه . وهو يخشى أن تخونه نفسه , وألا يقدر على مغالبة شيطان العصبية , وهتاف الثأر . . وهنا يلجأ إلى نبيه وقائده ليعينه على خلجات قلبه , ويرفع عنه هذا العنت الذي يلاقيه . فيطلب منه إن كان لا بد فاعلا أن يأمره هو بقتل أبيه . وهو لا بد مطيع . وهو يأتيه برأسه . كي لا يتولى ذلك غيره , فلا يطيق أن يرى قاتل أبيه يمشي على الأرض . فيقتله . فيقتل

مؤمنا بكافر . فيدخل النار . .

وإنها لروعة تواجه القلب أينما اتجه وأينما قلب النظر في هذا الموقف الكريم . روعة الإيمان في قلب إنسان , وهو يعرض على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يكل إليه أشق عمل على النفس البشرية - أن يقتل أباه - وهو صادق النية فيما يعرض . يتقي به ما هو أكبر في نظره وأشق . . وهو أن تضطره نوازعه البشرية إلى قتل مؤمن بكافر , فيدخل النار . . وروعة الصدق والصراحة وهو يواجه ضعفه البشري تجاه أبيه وهو يقول: "فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني" . وهو يطلب من نبيه وقائده أن يعينه على هذا الضعف ويخرجه من هذا الحرج ; لا بأن يرد أمره أو يغيره - فالأمر مطاع والإشارة نافذة - ولكن بأن يكل إليه هو أن يأتيه برأسه !

والرسول الكريم يرى هذه النفس المؤمنة المحرجة , فيمسح عنها الحرج في سماحة وكرامة: [بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا] . . ومن قبل هذا يكف عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رأيه: " فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ? " .

ثم تصرف الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحادث تصرف القائد الملهم الحكيم . . وأمره بالسير في غير أوان , ومتابعة السير حتى الإعياء , ليصرف الناس عن العصبية المنتنة التي أثارها صياح الرجلين المتقاتلين: يا للأنصار ! يا للمهاجين ! وليصرفهم كذلك عن الفتنة التي أطلقها المنافق عبد الله بن أبي بن سلول , وأرادها أن تحرق ما بين الأنصار والمهاجرين من مودة وإخاء فريدين في تاريخ العقائد وفي تاريخ الإنسان . . وحديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع أسيد بن حضير , وما فيه من تعبئة روحية ضد الفتنة , واستجاشة للأخذ على يد صاحبها وهو صاحب المكانة في قومه حتى بعد الإسلام ! وأخيرا نقف أمام المشهد الرائع الأخير . مشهد الرجل المؤمن عبد الله بن عبد الله بن أبي . وهو يأخذ بسيفه مدخل المدينة على أبيه فلا يدعه يدخل . تصديقا لمقاله هو: (ليخرجن الأعز منها الأذل) . ليعلم أن رسول الله هو الأعز . وأنه هو الأذل . ويظل يقفه حتى يأتي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيأذن له . فيدخلها بإذنه . ويتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعز ومن هو الأذل . في نفس الواقعة . وفي ذات الأوان .

ألا إنها لقمة سامقة تلك التي رفع الإيمان إليها أولئك الرجال . رفعهم إلى هذه القمة , وهم بعد بشر , بهم ضعف البشر , وفيهم عواطف البشر , وخوالج البشر . وهذا هو أجمل وأصدق ما في هذه العقيدة , حين يدركها الناس على حقيقتها , وحين يصبحون هم حقيقتها التي تدب على الأرض في صورة أناسي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق .

ثم نعيش في ظلال النصوص القرآنية التي تضمنت تلك الأحداث:

(وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم , ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون) . .

فهم يفعلون الفعلة , ويطلقون القولة . فإذا عرفوا أنها بلغت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جبنوا وتخاذلوا وراحوا يقسمون بالأيمان يتخذونها جنة . فإذا قال لهم قائل: تعالوا يستغفر لكم رسول الله , وهم في أمن من مواجهته , لووا رؤوسهم ترفعا واستكبارا !

وهذه وتلك سمتان متلازمتان في النفس المنافقة . وإن كان هذا التصرف يجيء عادة ممن لهم مركز في قومهم ومقام . ولكنهم هم في ذوات أنفسهم أضعف من المواجهة ; فهم يستكبرون ويصدون ويلوون رؤوسهم ما داموا في أمان من المواجهة . حتى إذا ووجهوا كان الجبن والتخاذل والأيمان !

ومن ثم يتوجه الخطاب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بما قضاه الله في شأنهم على كل حال . وبعدم جدوى الاستغفار لهم بعد قضاء الله:

(سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم . إن الله لا يهدي القوم

الفاسقين) . .

ويحكي طرفا من فسقهم, الذي استوجب قضاء الله فيهم:

(هم الذين يقولون: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) . .

وهي قولة يتجلى فيها خبث الطبع, ولؤم النحيزة . وهي خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان, في حرب العقيدة ومناهضة الأديان . ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يسحبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنين .

إنها خطة قريش وهي تقاطع بني هاشم في الشعب لينفضوا عن نصرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويسلموه للمشركين !

وهي خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية لينفض أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عنه تحت وطأة الضيق والجوع !

وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين, ليموتوا جوعا أو يكفروا بالله, ويتركوا الصلاة !

وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام, بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق . .

وهكذا يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان , من قديم الزمان , إلى هذا الزمان . . ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية:

(ولله خزائن السماوات والأرض . ولكن المنافقين لا يفقهون) . .

ومن خزائن الله في السماوات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا في أرزاق المؤمنين , فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم . فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين !

وهكذا يثبت الله المؤمنين ويقوي قلوبهم على مواجهة هذه الخطة اللئيمة والوسيلة الخسيسة , التي يلجأ أعداء الله إليها في حربهم . ويطمئنهم إلى أن خزائن الله في السماوات والأرض هي خزائن الأرزاق للجميع . والذي يعطي أعداءه لا ينسى أولياءه . فقد شاءت رحمته ألا يأخذ حتى أعداءه من عباده بالتجويع وقطع الأرزاق . وقد علم أنهم لا يرزقون أنفسهم كثيرا ولا قليلا لو قطع عنهم الأرزاق ! وهو أكرم أن يكل عباده - ولو كانوا أعداءه - إلى ما يعجزون عنه البتة . فالتجويع خطة لا يفكر فيها إلا أخس الأخساء وألأم اللؤماء !

ثم قولتهم الأخيرة:

(يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) . .

وقد رأينا كيف حقق ذلك عبد الله بن عبد الله بن أبي ! وكيف لم يدخلها الأذل إلا بإذن الأعز !

(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لا يعلمون) . .

ويضم الله - سبحانه - رسوله والمؤمنين إلى جانبه , ويضفي عليهم من عزته , وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله ! وأي تكريم بعد أن يوقف الله - سبحانه - رسوله والمؤمنين معه إلى جواره . ويقول:ها نحن أولاء ! هذا لواء الأعزاء . وهذا هو الصف العزيز !

(317/765)

وصدق الله . فجعل العزة صنو الإيمان في القلب المؤمن . العزة المستمدة من عزته تعالى . العزة التي لا تهون ولا تهن , ولا تنحني ولا تلين . ولا تزايل القلب المؤمن في أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان . فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة . .

(ولكن المنافقين لا يعلمون) . .

وكيف يعلمون وهم لا يتذوقون هذه العزة ولا يتصلون بمصدرها الأصيل ?

الدرس الثالث:9 - 11 تحذير المؤمنين من التثاقل والتلهي عن ذكر الله والدعوة للإنفاق

لهؤلاء المؤمنين الذين أوقفهم الله في صفه مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجعل

عزتهم من عزته يوجه النداء الأخير في السورة , ليرتفعوا إلى هذا المكان الكريم , ويبرأوا من كل صفة تشبه صفات المنافقين , ويختاروا ذلك المقام الأسنى على الأموال والأولاد , فلا يدعوها تلهيهم عن بلوغ ذلك المقام الوضيء :

يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله . ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت , فيقول: رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها , والله خبير بما تعملون . .

والأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب , ويدرك غاية وجوده , ويشعر أن له هدفا أعلى يليق بالمخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه , فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفاته الإلهية في حدود طاقته البشرية . وقد منحه الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة في الأرض لا لتلهيه عن ذكر الله والاتصال بالمصدر الذي تلقى منه ما هو به إنسان . ومن يغفل عن الاتصال بذلك المصدر , ويلهه عن ذكر الله ليتم له هذا الاتصال (فأولئك هم الخاسرون) . . وأول ما يخسرونه هو هذه السمة . سمة الإنسان . فهي موقوفة على الاتصال بالمصدر الذي صار به الإنسان إنسانا . ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شيء . مهما يملك من مال ومن أولاد .

ويلمسهم في موضوع الإنفاق لمسات متنوعة في آية واحدة . .

وأنفقوا مما رزقناكم . . فيذكرهم بمصدر هذا الرزق الذي في أيديهم . فهو من عند الله الذي آمنوا به والذي يأمرهم بالإنفاق .

(من قبل أن يأتي أحدكم الموت . . .) . .

فيترك كل شيء وراءه لغيره ; وينظر فلا يجد أنه قدم شيئًا لنفسه , وهذا أحمق الحمق وأخسر الخسران .

ثم يرجو حينئذ ويتمنى أن لو كان قد أمهل ليتصدق وليكون من الصالحين ! وأنى له هذا ?: (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها) ?

وأنى له ما يتقدم به ? (والله خبير بما تعملون) ?

إنها اللمسات المنوعة في الآية الواحدة . في مكانها المناسب بعد عرض سمات المنافقين وكيدهم للمؤمنين . ولواذ المؤمنين بصف الله الذي يقيهم كيد المنافقين . . فما أجدرهم إذن أن ينهضوا بتكاليف الإيمان , وألا يغفلوا عن ذكر الله . وهو مصدر الأمان . .

وهكذا يربي الله المسلمين بهذا القرآن الكريم . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال جـ 6 ص 3581.3573 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في مذكرة الدراسة : الخطاب للنَّبي صلى الله عليه وسلم ، والمنافقون جمع منافق وهو من يظهر الإيمان ويسر الكفر .

قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، أي قالوا ذلك نفاقاً وخوفاً ، ولم يقولوه خالصاً من قلوبهم .

ولذا قال الله : ﴿ والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُون ﴾ ، وإنما شهد عليهم بالكذب مع أن ظاهر قولهم حق لأن بواطنهم تكذب ظواهرهم لأن الأعمال بالنيات ، وإنما كسر همزة إن في المواضع الثلاثة ، لأنها بعد فعل معلق باللام ، ولولا ذلك لفتحت ، لأنها في محل المصدر .

ولأبي حيان قول حسن في ذلك إذ قال : إن قولهم : نشهد يجري مجرى اليمين . ولذلك تلقى بما يتلقى به القسم ، وكذا فعل اليقين . والعلم يجري مجرى القسم بقوله : ﴿ إِنَّ لَرَسَولُ اللَّهِ ﴾ أعني بقصد التوكيد بإن واللام ، ثم قالك وأصل الشهادة أن يواطئ اللسان القلب ، وهذا بالنطق وذلك بالاعتقاد فأكذبهم الله : وفضحهم بقوله : ﴿ والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ

والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُون ﴾ .

أي لم تواطئ قلوبهم ألسنتهم على تصديقك ، واعتقادهم أنك غير رسول ، فهم كاذبون عند الله وعند من عرف حالهم ، أو كاذبون عند أنفسهم ، إذ أنهم يعتقدون أن قولهم : ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ كذب .

وجاء قوله تعالى : ﴿ والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ بين شهادتهم وتكذيبهم إيذاناً بأن الأمر كما قالوا على حد قوله تعالى : ﴿ وكفى بالله شَهِيداً مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله ﴾ [الفتح : 28 - 29] .

(320/765)

تنبيه ي هذه الآية مبحث بالغي في تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء فقولوا : الخبر ما احتمل الصدق والكذب لذاته ، فذهب الجمهور إلى أنه ينحصر فيهما بلا واسطة ، والمخبر إما صادق وإما كاذب . وهذا بناء على مطابقة الخبر للواقع أو عدم مطابقته ولا علاقة له بالاعتقاد .

قال السعد في التلخيص ، وقال بعض الناس : صدق الخبر وكذبه مطابقته لاعتقاد الخبر ما احتمل الصدق والكذب لذاته ، فذهب الجمهور إلى أنه ينحصر فيهما بلا واسطة ،

والمخبر إما صادق وإما كاذب. وهذا بناء على مطابقة الخبر للواقع أو عدم مطابقته ولا علاقة له بالاعتقاد.

قال السعد في التلخيص، وقال بعض الناس: صدق الخبر وكذبه مطابقته لاعتقاد المخبر لا للواقع. واستدلوا للواقع أو عدم مطابقته ولا علاقة له بالاعتقاد.

قال السعد في التلخيص، وقال بعض الناس: صدق الخبر وكذبه مطابقته لاعتقاد المخبر لا للواقع. واستدلوا لذلك بأن عدم مطابقته للواقع يكون من قبيل الخطأ لا من قبيل الكذب. ولحديث عائشة رضي الله عنهما عن ابن عمر: "ما كذب ولكنه وهم"، وهذا مذهب الجاحظ وهو صدق الخبر مطابقته للواقع مع اعتقاد المخبر مستدلاً بالآية ﴿ والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ ﴾ مع قولهم: ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾.

فكذبهم الله مع أن خبرهم مطابق للواقع، لكنهم لم يعتقدوا ما قالوا فكذبهم الله لذلك.

ومقتضى مذهب الجاحظ القول بوجود واسطة بين الصدق والكذب، وهي عدم اعتقاد المخبر لما أخبر به، ولو طابق الواقع، ولكن ما قدمناه من كلام أبي حيان يرد هذا المذهب ويبطل استدلال الجاحظ ومن وافقه بالآية، لأن تكذيب الله إياهم منصب على قوم قالوا

نشهد ، والشهادة أخص من الخبر ، ولأنهم ضمنوا شهادتهم التأكيد المشعر بالقسم والموحي بمطابقة القول لما في القلب ولا سيّما في هذا المقام ، وهو مقام الإيمان والتصديق ، فأكذبهم الله في كون إخبارهم بصورة الشهادة والحال أنهم لم يأتوا بالشهادة على وجهها وهو عدم مطابقتها لاعتقادهم .

والقرآن ينفي وجود واسطة بين الصدق والكذب كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلَّا الضلال ﴾ [يونس : 32] .

أما فقه اليمين وما تنعقد به وأحكامها ، فقد تقدم للشّيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذا المبحث مستوفى في سورة المائدة عند قوله تعالى : ﴿ لاَ يُؤَاخِذُكُمُ الله باللغو في أَيمَانِكُمْ ﴾ [المائدة : 89] الآية .

وذكر في معنى لغو اليمين عند العلماء قولين :

الثاني منهما : هو أن يحلف على ما يعتقده فيظهر خلافه وعزا لمالك ، وأنه مروي عن عائشة وأبي هريرة وابن عباس في أحد قوليه ، وساق أسماء كثيرين ، ولا يبعد أن يقال : ينبغي أن نفق بين الحد اللغوي عند البلاغيين ، والحد الشرعي حيث يقبل شرعاً ما كان مبناه على غلبة الظن عند المتكلم ، لأنه حد علمه ولعدم المؤاخذة في الشرع في مثل ذلك والله أعلم .

اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (2)

قوله تعالى : ﴿ اتخذوا أَيمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ .

قرئ أيمانهم بفتح الهمزة جمع يمين ، وقرئ بكسرها من الإيمان ضد الكفر ، أي ما أظهروه من أمور الإسلام .

ومما تقدم أن من أنواع البيان إذا كان في الآية قراءتان ، وفيهما ما يرجح إحداهما ، وتقدم كلام أبي حيان تخريجه على اليمين .

(322/765)

وللشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في مذكرة التدريس قوله : الإيمان جمع يمين وهي الحلف والجنة الترس ، وهو المجن الذي تتقي به السيوف والنِبال والسِّهام في الحرب ، والمعنى أن المنافقين إذا ظهر شيء من نفاقهم أو سمعت عنهم كلمة كفر ، حلفوا بالله أنهم ما قالوا ذلك وما فعلوه ، فيجعلون حلفهم ترساً يقيهم من مؤاخذة النَّبي صلى الله عليه وسلم بذبهم .

كما قال تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفرِ ﴾ [التوبة : 74] الآية .

وقال : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ [التوبة : 56] الآية .

وقال : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ [التوبة : 62] الآية . ونحو ذلك ، فهذه نصوص تدل على أنهم يحلفون أيماناً على إيمانهم .

ومن جهة المعنى : أن أيمانهم وحلفهم منصب على دعوى إيمانهم ، فلا انفكاك بين اليمين والإيمان ، لأنهم يحلفون أنهم مؤمنون ، واليمين أخص من الإيمان ، وحمله على الأخص يقتضي وجود الأعم ، فاحلف على الأيمان يستلزم دعوى الإيمان وزيادة ، ومجرد دعوى الإيمان لا يستلزم التأكيد بالإقسام والحلف .

قوله تعالى : ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : أي بسبب اتخاذهم أيمانهم جنة وخفاء كفرهم الباطن ، تمكنوا من صدِّ بعض الناس عن سبيل الله ، لأن المسلمين يظنونهم إخواناً وهم أعداء . وشر الأعداء من تظن أنه صديق ولذا حذر الله نبيه منهم بقوله : ﴿ هُمُ العدو فاحذرهم ﴾ [المنافقون : 4] وصدهم الناس عن سبيل الله كتعويقهم عن الجهاد . كما بينه بقوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ الله المعوقين مِنكُمْ والقائلين لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَ ﴾ [الأحزاب : 18] الآية .

وبقوله : ﴿ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الحر ﴾ [التوبة : 81] الآية .

(323/765)

وقوله: ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ [آل عمران: 168] الآية.

قوله تعالى: ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾.

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه: ساء فعل جامد لإنشاء الذم بمعنى بئس اه.

وقد بين تعالى تلك الإساءة من المنافقين في عدة جهات منها قوله تعالى: ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ [البقرة: 9].

وقوله: ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ [النساء: 142].

وكان داعهم بالقول وبافعل، وخداعهم بالقول في قولهم عنهم: ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ [الفتح: 11].

وخداعهم في الفعل في قوله عنهم: ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ﴾ [النساء: 142].

وفي الجهاد قولهم: ﴿ إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ [الأحزاب: 13].

ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون (3)

قوله تعالى: ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ﴾.

في هذه الآية نص على أن الطبع على قلوبهم نتيجة لكفرهم بعد إيمانهم، ومثله قوله تعالى:

﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء : 155] .

وكقوله : ﴿ فَلَمَّا زاغوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : 5] .

وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، عن بعض العلما : ذلك بأنهم آمنوا ، أي بألسنتهم نفاقاً ثم كفروا بقلوبهم في الحقيقة اه .

وتقدم في أول سورة البقرة ختم الله على قلوبهم فهم لا يعقلون بعد هذا الطبع ، ومع هذا الختم كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [الكهف : 57] .

قوله تعالى : ﴿ هُمُ العدو فاحذرهم ﴾ .

(324/765)

فيه ما يشعر بحصر العداوة في المنافقين مع وجودها في المشركين واليهود ، ولكن إظهار المشركين شركهم ، وإعلان اليهود كفرهم مدعاة للحذر طبعاً .

أما هؤلاء فادعاؤهم الإيمان وحلفهم عليه ، قد يوحي بالركون إليه ولو رغبة في تأليفهم .

فكانوا أولى بالتحذير منهم لشدة عداوتهم ولقوة مداخلتهم مع المسلمين ، مما يمكنهم من الاطلاع على جميع شؤونهم .

وقد جاء في آخر السورة كله كاشفاً لحقيقتهم ومبيناً شدة عداوتهم سواء في قولهم ﴿ لاَ

تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حتى يَنفَضُّواْ ﴾ [المنافقون : 7] أو في تآمرهم على المسلمين في قولهم : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ [المنافقون : 8] .

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (6)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ .

هم هنا المنافقون ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ المنافقين هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : 67] .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السماوات والأرض ﴾ .

تقدم بيانه للشخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند قوله تعالى : ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض ﴾ [الزمر : 63] .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ ﴾ الآية .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ما فيها من القول بالموجب ؟

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ الله ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام عليه عند قوله تعالى : ﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 46] ، وقد بين سبب لهو المال والولد عن ذكر الله ، بأن العبد يفتن في ذلك في قوله تعالى الآتي في سورة التغابن : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ والله عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن : 15] .

أي لمن سخر المال في طاعة الله ، وبالتأمل في آخر هذه السورة ، وآخر التي قبلها نجد اتحاداً في الموضوع والتوجيه .

فهناك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفضوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ الله خَيْرٌ مِّنَ اللهو وَمِنَ التجارة والله خَيْرُ الرازقين ﴾ [الجمعة : 11] .

وجاء عقبه مباشرة سورة : إذا جاءك المنافقون ، ولعله مما يشعر أن الذين بادروا بالخروج للعير هم المنافقون ، وتبعهم الآخرون لحادتهم لما تحمل العير ، وهنا بعد ما ركن المنافقون للمنال جاء ﴿ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّواْ ﴾ [المنافقون : 7]

فكانت اموالهم فتنة لهم في مقالتهم تلك ، فحذر الله المؤمنين بقوله : ﴿ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ الله ﴾ سواء كان المراد بالأموال خصوص ذكر الخطبة والعير المتقدم ذكرهما ، أو عموم العبادات والمكتسبات .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ .

فيه الإنفاق من بعض ما رزقهم ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، مبحث الاقتصاد في الإنفاق عند قوله في أول سورة البقرة : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : 3] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ ﴾ .

وكذلك لا يقدمها عليه ، كما في قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [يونس : 49] .

(326/765)

وبين تعالى عدم تأخرهم مع أنهم وعدوا بأنهم يصدقون ويكونون من الصالحين ، مشيراً للسبب في قوله تعالى : ﴿ واللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي لو أخركم ، لأن شيمتكم الكذب وخلف الوعد ، وأن هذا دأب أمثالهم كما بينه تعالى في قوله : ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب فَيَقُولُ الذين ظلموا رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل أَوَلَمْ تكونوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : 44] .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ رَبِّ ارجعون لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ [المؤمنون : 99 - 100] .

فقوله تعالى عنهم : كلا إنها كلمة هو قائلها ، تعادل في ما صدقها .

قوله تعالى : ﴿ واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

أي لو أخرهم لن يصقوا ولن يكونوا من الصالحين ، والله تعالى محيط علمه بما سيكون ، كإحاطته بما قد كان . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(327/765)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الْمُنَافِقِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إنَّك لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(328/765)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ : " أَشْهَدُ " يَمِينٌ ؛ لِأَنَّ الْقَوْمَ قَالُوا : " نَشْهَدُ " فَجَعَلَهُ اللَّهُ يَمِينًا بِقَوْلِهِ : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ وَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَالثَّوْرِيُّ وَالْأَوْزَاعِيّ : " أَشْهَدُ وَأُقْسِمُ وَأَعْزِمُ وَأَحْلِفُ كُلُّهَا أَيْمَانٌ " وَقَالَ زُفَرُ : " إذَا قَالَ : أُقْسِمُ لَأَفْعَلَنَّ ، فَهُوَ يَمِينٌ ، وَلَوْ قَالَ : أَشْهَدُ لَأَفْعَلَنَّ لَمْ يَكُنْ يَمِينًا " وَقَالَ مَالِكٌ : " إنْ أَرَادَ بِقَوْلِهِ أُقْسِمُ أَيْ أُقْسِمُ بِاَللَّهِ فَهُوَ يَمِينٌ وَإِلَّا فَلَا شَيْءَ وَكَذَلِكَ أَحْلِفُ " قَالَ : " وَلَوْ قَالَ : أَعْزِمُ لَمْ يَكُنْ يَمِينًا إلَّا أَنْ يَقُولَ : أَعْزِمُ بِاَللَّهِ ، وَلَوْ قَالَ : عَلَيَّ نَذْرٌ أَوْ قَالَ : نَذْرٌ لِلَّهِ ، فَهُوَ عَلَى مَا نَوَى ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ فَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ " وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : " أُقْسِمُ لَيْسَ بِيَمِينٍ وَأُقْسِمُ بِاَللَّهِ يَمِينٌ إنْ أَرَادَهَا ، وَإِنْ أَرَادَ الْمَوْعِدَ فَلَيْسَتْ بِيَمِينٍ ، وَأَشْهَدُ بِاَللَّهِ إنْ نَوَى الْيَمِينَ فَيَمِينٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْوِ يَمِينًا فَلَيْسَتْ بِيَمِينٍ ، وَأَعْزِمُ بِاَللَّهِ إنْ أَرَادَ يَمِينًا فَهُوَ يَمِينٌ " وَذَكَرَ الرَّبِيعُ عَنْ الشَّافِعِيِّ : " إذَا قَالَ : أُقْسِمُ أَوْ أَشْهَدُ أَوْ أَعْزِمُ وَلَمْ يَقُلْ : بِاَللَّهِ فَهُوَ كَقَوْلِهِ : وَاَللَّهِ ، وَإِنْ قَالَ : أَحْلِفُ بِاَللَّهِ فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ إلَّا أَنْ يَنْوِيَ الْيَمِينَ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَا يَخْتَلِفُونَ أَنَّ " أَشْهَدُ بِاَللَّهِ " يَمِينٌ فَكَذَلِكَ " أَشْهَدُ " مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدِهِمَا : أَنَّ اللَّهَ حَكَى عَنْ

الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا : " نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ " ثُمَّ جَعَلَ هَذَا الْإِطْلَاقَ يَمِينًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقْرِنَهُ بِاسْمِ

اللَّهِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ﴾ فَعَبَّرَ عَنْ الْيَمِينِ بِالشَّهَادَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ .

(330/765)

وَالثَّانِي : أَنَّهُ لَمَّا أَخْرَجَ ذَلِكَ مَخْرَجَ الْقَسَمِ وَجَبَ أَنْ لَا يَخْتَلِفَ حُكْمُهُ فِي حَذْفِ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَفِي إظْهَارِهِ ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَسَمَ فِي كِتَابِهِ فَأَظْهَرَ تَارَةً الِاسْمَ وَحَذَفَهُ أُخْرَى وَالْمَفْهُومُ بِاللَّفْظِ فِي الْحَالَيْنِ وَاحِدٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : ﴿ ؛ إذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ فَحَذَفَهُ تَارَةً اكْتِفَاءً بِعِلْمِ الْمُخَاطَبِينَ بِإِضْمَارِهِ وَأَظْهَرَهُ أُخْرَى ، وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ عَبَرَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُؤْيَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَصَبْتَ بَعْضًا وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَتُخْبِرَنِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا تُقْسِمْ ﴾ وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ وَاَللَّهِ لَتُخْبِرَنِّي ﴾ فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلَهُ : " أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ " يَمِينًا ؛ فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَكْرَهُ

الْقَسَمَ لِقَوْلِهِ : " لَا تُقْسِمْ " وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَرَى بِهِ بَأْسًا وَأَنَّهُ إنَّمَا قَالَ : " لَا تُقْسِمْ " ؛ لِأَنَّ عِبَارَةَ الرُّؤْيَا ظَنٌّ قَدْ يَقَعُ فِيهَا الْخَطَأُ ، وَهَذَا يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى مَنْ أَقْسَمَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ أَنْ يَبَرَّ قَسَمَهُ ؛ لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُخْبِرْهُ لَمَّا أَقْسَمَ عَلَيْهِ لِيُخْبِرَهُ ، وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ مَنْ عَلِمَ تَأْوِيلَ

رُؤْيَا فَلَيْسَ عَلَيْهِ الْإِخْبَارُ بِهَا ؛ لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُخْبِرْ بِتَأْوِيلِ هَذِهِ الرُّؤْيَا وَرَوَى هِشَامُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كَانَ أَبُو بَكْرٍ قَدْ اسْتَعْمَلَ

عُمَرَ عَلَى الشَّامِ ، فَلَقَدْ رَأَيْتنِي وَأَنَا أَشُدُّ الْإِبِلَ بِأَقْتَابِهَا ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَرْتَحِلَ قَالَ لَهُ النَّاسُ : تَدَعُ عُمَرَ يَنْطَلِقُ إلَى الشَّامِ ؟ وَاَللَّهِ إنَّ عُمَرَ لَيَكْفِيك الشَّامَ وَهُوَ هَهُنَا قَالَ : أَقْسَمْت عَلَيْك لَمَّا أَقَمْت وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ لِلْعَبَّاسِ فِيمَا خَاصَمَ فِيهِ عَلِيًّا مِنْ أَشْيَاءَ تَرَكَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِيثَارِهِ : أَقْسَمْت عَلَيْك لَمَّا سَلَّمْته لِعَلِيٍّ .

وَقَدْ رَوَى الْبَرَاءُ قَالَ : { أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِبْرَارِ الْقَسَمِ } ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى إبَاحَةِ الْقَسَمِ وَأَنَّهُ يَمِينٌ ، وَهَذَا عَلَى وَجْهِ النَّدْبِ ؛ { لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَبَرَّ قَسَمَ أَبِي بَكْرٍ لَمَّا قَالَ : " أَقْسَمْت عَلَيْك " } وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَعَلْقَمَةَ

وَإِبْرَاهِيمَ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنِ : الْقَسَمُ يَمِينٌ وَقَالَ الْحَسَنُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ : أَقْسَمْتُ وَأَقْسَمْتُ بِاَللَّهِ سَوَاءٌ .

(332/765)

بَابُ مَنْ فَرَّطَ فِي زَكَاةِ مَالِهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ ﴾ الْآيَةَ رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ : حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ أَبِي حَبَّابٍ عَنْ أَبِي الضُّحَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ وَمَالٌ يُبْلِغُهُ بَيْتَ اللَّهِ ثُمَّ لَمْ يَحُجَّ وَلَمْ يُزَكِّ سَأَلَ الرَّجْعَةَ ، وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ الْآيَةَ ؛ وَقَدْ رُوِيَ ذَلِكَ مَوْقُوفًا عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ إلَّا أَنَّ دَلَالَةَ الْآيَةِ ظَاهِرَةٌ عَلَى حُصُولِ التَّفْرِيطِ بِالْمَوْتِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُفَرِّطًا وَوَجَبَ أَدَاؤُهَا مِنْ مَالِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ لَكَانَتْ قَدْ تَحَوَّلَتْ إلَى الْمَالِ فَلَزِمَ الْوَرَثَةَ إخْرَاجُهَا ، فَلَمَّا سَأَلَ الرَّجْعَةَ عَلِمْنَا أَنَّ الْأَدَاءَ فَائِتٌ وَأَنَّهُ لَا يَتَحَوَّلُ إلَى الْمَالِ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْ تَرِكَتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ إلَّا أَنْ يَتَبَرَّعَ بِهِ الْوَرَثَةُ .

آخِرُ سُورَةِ الْمُنَافِقِينَ . انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(333/765)

ومن فوائد ابن العربي في السورة الكريمة

قال رحمه الله:

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

[فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى: ﴿ إذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إنَّك لَرَسُولُ اللَّهِ وَاَللَّهُ يَعْلَمُ إنَّك لَرَسُولُهُ وَاَللَّهُ يَشْهَدُ إنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾.

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ: الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى الشَّهَادَةُ تَكُونُ بِالْقَلْبِ؛ وَتَكُونُ بِاللِّسَانِ، وَتَكُونُ بِالْجَوَارِحِ؛ فَأَمَّا شَهَادَةُ الْقَلْبِ فَهُوَ الِاعْتِقَادُ [أَوْ الْعِلْمُ] عَلَى رَأْيِ قَوْمٍ، وَالْعِلْمُ عَلَى رَأْيِ آخَرِينَ.

وَالصَّحِيحُ عِنْدِي أَنَّهُ الِاعْتِقَادُ [وَالْعِلْمُ] كَمَا بَيَّنَّا فِي أُصُولِ الْفِقْهِ وَالدِّينِ.

وَأَمَّا شَهَادَةُ اللِّسَانِ فَبِالْكَلَامِ، وَهُوَ الرُّكْنُ الظَّاهِرُ مِنْ أَرْكَانِهَا، وَعَلَيْهِ تُبْنَى الْأَحْكَامُ، وَتَتَرَتَّبُ الْأَعْذَارُ وَالِاعْتِصَامُ.

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ؛ فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا؛ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ.

﴾ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَاَللَّهُ يَعْلَمُ إنَّك لَرَسُولُهُ وَاَللَّهُ يَشْهَدُ إنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ

﴾ .

إنَّ الْبَارِئَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلِمَ وَشَهِدَ ؛ فَهَذَا عِلْمُهُ .

وَشَهَادَتُهُ قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ ﴾ وَأَمْثَالُهُ .

(334/765)

وَقَدْ يُقَالُ : شَهَادَةُ اللَّهِ عَلَى مَا كَانَ مِنْ الشَّهَادَاتِ فِي ذَاتِ اللَّهِ ، يُقَالُ : وَاَللَّهُ يَشْهَدُ إنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ فِي قَوْلِهِمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَا يَعْتَقِدُونَهُ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَخَدَعُوا وَغَرُّوا ، وَاَللَّهُ خَادِعُهُمْ وَمَاكِرٌ بِهِمْ ، وَهُوَ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَالَ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ : إنَّ قَوْلَ الشَّافِعِيِّ : إنَّ الرَّجُلَ إذَا قَالَ فِي يَمِينِهِ أَشْهَدُ بِاَللَّهِ يَكُونُ يَمِينًا بِنِيَّةِ الْيَمِينِ .

وَرَأَى أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ أَنَّهُ دُونَ النِّيَّةِ [يَمِينٌ] ، فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ الشَّافِعِيُّ أَنَّهَا تَكُونُ يَمِينًا بِالنِّيَّةِ ، وَلَا أَرَى الْمَسْأَلَةَ إلَّا هَكَذَا فِي أَصْلِهَا ، وَإِنَّمَا غَلِطَ هَذَا الْعَالِمُ أَوْ غَلِطَ فِي النَّقْلِ .

وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ : إذَا قَالَ [الرَّجُلُ] أَشْهَدُ : إنَّهُ يَمِينٌ إذَا أَرَادَ بِاَللَّهِ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ لَيْسَ يَرْجِعُ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ نَشْهَدُ إنَّك لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ وَإِنَّمَا يَرْجِعُ إلَى سَبَبِ الْآيَةِ الَّذِي نَزَلَتْ عَلَيْهِ ، وَهُوَ مَا رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ بِأَلْفَاظٍ مُخْتَلِفَةٍ ، مِنْهَا عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ ﴿ : كُنْت فِي غَزَاةٍ فَسَمِعْت عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ يَقُولُ : لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ ، وَلَئِنْ رَجَعْنَا إلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، فَذَكَرْت ذَلِكَ لِعَمِّي ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَعَانِي فَجِئْته ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ .

فَحَلَفُوا مَا قَالُوا ؛ فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَدَّقَهُ ، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ فَجَلَسْت فِي الْبَيْتِ ، فَقَالَ عَمِّي : مَا أَرَدْت إلَّا إلَى أَنْ كَذَّبَك رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَقَتَك ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إذَا جَاءَك الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إنَّك لَرَسُولُ اللَّهِ وَاَللَّهُ يَعْلَمُ إنَّك لَرَسُولُهُ وَاَللَّهُ يَشْهَدُ إنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ فَبَعَثَ إلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَك ﴾.

فَتَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ إشَارَةٌ إلَى أَنَّ ابْنَ أُبَيٍّ حَلَفَ أَنَّهُ مَا قَالَ.

وَقَدْ قَالَ.

وَلَيْسَ ذَلِكَ بِرَاجِعٍ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ نَشْهَدُ إنَّك لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ فَاعْلَمُوهُ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ هَذِهِ الْيَمِينُ كَانَتْ غَمُوسًا كَاذِبَةً مِنْ عَدِيمِ الْإِيمَانِ؛ فَهِيَ مُوجِبَةٌ لِلنَّارِ، أَمَّا عَدَمُ إيمَانِهِ فَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾.

وَأَمَّا عَدَمُ الثَّوَابِ فِيهِمْ وَوُجُوبُ الْعِقَابِ لَهُمْ فَبِآيَاتِ الْوَعِيدِ الْوَارِدَةِ فِي الْكُفَّارِ.

وَقَدْ كَثُرَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ.

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتنِي إلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴾.

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ: الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ

يُبَلِّغُهُ حَجَّ بَيْتِ رَبِّهِ ، أَوْ تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ فَلَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا سَأَلَ الرَّجْعَةَ عِنْدَ الْمَوْتِ .

فَقَالَ رَجُلٌ : يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ؛ اتَّقِ اللَّهَ ؛ إنَّمَا سَأَلَ الرَّجْعَةَ الْكُفَّارُ .

قَالَ : سَأَتْلُو عَلَيْك بِذَلِكَ قُرْآنًا : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتنِي إلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنْ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاَللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قَالَ : فَمَا يُوجِبُ الزَّكَاةَ ؟ قَالَ : إذَا بَلَغَ الْمَالُ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ فَصَاعِدًا .

قَالَ : فَمَا يُوجِبُ الْحَجَّ ؟ قَالَ : الزَّادُ وَالْبَعِيرُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ أَخَذَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِعُمُومِ الْآيَةِ فِي الْإِنْفَاقِ الْوَاجِبِ خَاصَّةً دُونَ النَّفْلِ .

وَهُوَ الصَّحِيحُ ؛ لِأَنَّ الْوَعِيدَ إنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِالْوَاجِبِ دُونَ النَّفْلِ .

وَأَمَّا تَفْسِيرُهُ بِالزَّكَاةِ فَصَحِيحٌ كُلُّهُ عُمُومًا وَتَقْدِيرًا بِالْمِائَتَيْنِ .

وَأَمَّا الْقَوْلُ فِي الْحَجِّ فَفِيهِ إشْكَالٌ ؛ لِأَنَّا إنْ قُلْنَا : إنَّ الْحَجَّ عَلَى التَّرَاخِي فَفِي الْمَعْصِيَةِ فِي الْمَوْتِ قَبْلَ أَدَائِهِ خِلَافٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ ، فَلَا تَخْرُجُ الْآيَةُ عَلَيْهِ .

وَإِنْ قُلْنَا : إنَّ الْحجَّ عَلَى الْفَوْرِ فَالْآيَةُ عَلَى الْعُمُومِ صَحِيحٌ ؛ لِأَنَّ مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْحجُّ فَلَمْ يُؤَدِّهِ لَقِيَ مِنْ اللَّهِ مَا يَوَدُّ أَنَّهُ رَجَعَ لِيَأْتِيَ بِمَا تَرَكَ مِنْ الْعِبَادَاتِ .

(338/765)

وَأَمَّا تَقْدِيرُ الْأَمْرِ بِالزَّادِ وَالرَّاحِلَةِ فَفِي ذَلِكَ خِلَافٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، وَلَيْسَ لِكَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِيهِ مَدْخَلٌ ، لِأَجْلِ أَنَّ الرَّجْعَةَ وَالْوَعِيدَ لَا يَدْخُلُ فِي الْمَسَائِلِ الْمُجْتَهَدِ فِيهَا وَالْمُخْتَلَفِ عَلَيْهَا ؛ وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِي الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ .

وَالصَّحِيحُ تَنَاوُلُهُ لِلْوَاجِبِ مِنْ الْإِنْفَاقِ كَيْفَ تَصَرَّفَ بِالْإِجْمَاعِ أَوْ بِنَصِّ الْقُرْآنِ ، لِأَجْلِ أَنَّ مَا عَدَا ذَلِكَ لَا يَتَطَرَّقُ إلَيْهِ تَحْقِيقُ الْوَعِيدِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(339/765)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة المنافقون

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1)

قوله : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ﴾ : شرطٌ . قيل : جوابُه قالوا . وقيل : محذوفٌ . و " قالوا " حالٌ ، أي : جاؤوك قائلين كيتَ وكيتَ ، فلا تقبلْ منهم . وقيل : الجوابُ ﴿ اتخذوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ وهو بعيدٌ ، و " قالوا " أيضاً حالٌ .

قوله : ﴿ قَالُواْ نَشْهَدُ ﴾ جرى مَجْرى القسمِ كفعلِ العِلْمِ واليقين ، ولذلك تُلُقِّيَتْ بما يُتَلَقَّى به القسمُ في قوله : ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله ﴾ وفي قوله :

4262 ولقد عَلِمْتُ لتَأْتِيَنَّ مَنِيَّتي . . . إنَّ المنايا لا تَطيشُ سِهامُها

وقد تقدَّم خلافُ الناسِ في الصدقِ والكذبِ واستدلالُهم بهذه الآيةِ ، والجوابُ عنها ، أولَ البقرة .

قوله : ﴿ والله يَعْلَمُ ﴾ جملةٌ معترضةٌ بين قوله : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ﴾ وبين قولِه : ﴿ والله يَشْهَدُ ﴾ لفائدةٍ ، قال الزمخشري : " لو قال : قالوا نشهد إنَّك لرسول الله ، واللَّهُ يَشْهد إنَّهم لكاذبون ، لكان يُوْهِم أنَّ قولَهم هذا كذبٌ ، فوَسَّط بينهما قولَه : ﴿ والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ ليُميط هذا الإِبهام " .

اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (2)

قوله : ﴿ اتخذوا ﴾ : قد تقدَّم أنه يجوز أُنْ يكونَ جواباً للشرط ، ويجوز أَنْ يكون مستأنفاً ، جيْءَ به لبيانِ كذبِهم وحَلْفِهم عليه ، أي : إنَّ الحاملَ لهم على الإِيمان/ اتِّقاؤهم بها عن أنفسِهم . والعامَّةُ على فتح الهمزة جمعَ " يمين " والحسن بكسرِها مصدراً . وتقدَّم مثله في المجادلة . والجُنَّةُ : التُّرْسُ ونحوُه ، وكلُّ ما يَقيك سوءاً . ومن كلامِ الفصحاء : " جُبَّةُ البُرْدِ جُنَّةُ البَرْدِ " وقال أعشى همدان :

4263 إذا أنتَ لم تجعلْ لعِرْضِك جُنَّةً . . . من المالِ سار الذَّمُّ كلَّ مَسيرِ

قوله : ﴿ سَآءَ مَا كَانُواْ ﴾ يجوز أن تكونَ الجارية مَجْرى بئْسَ ، وأَنْ تكونَ على بابها ، والأولُ أظهرُ ، وقد تقدَّم حكمُ كلٍ منهما ولله الحمد ، وقوله : " فطُبِعَ " هذه قراءةُ العامَّة أعني بناءَه للمفعول . والقائمُ مقامَ الفاعلِ الجارُّ بعده . وزيد بن علي " وطَبَعَ " مبنياً للفاعل . وفي الفاعلِ وجهان ، أحدهما : أنه ضميرٌ عائدٌ على الله تعالى ، ويَدُلُّ عليه قراءةُ الأعمشِ ، وقراءته هو في روايةٍ عند " فَطَبَعَ اللَّهُ " مُصَرَّحا بالجلالةِ . والثاني : أنَّ الفاعلَ ضميرٌ يعودُ على المصدرِ المفهومِ مِمَّا قبله ، أي : فطَبَعَ هو ، أي : تلعاُبهم بالدين .

وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4)

(341/765)

قوله : ﴿ تَسْمَعْ ﴾ : العامَّةُ بالخطاب ، و "لِقولهم" متعلِّقٌ به وضُمِّن "تَسْمَعْ" معنى تُصْغي وتميل ، فِلذلك عُدِّيَ باللام . وقيل : بل هي مزيدةٌ ، أي : تسمعُ قولَهم . وليس بشيءٍ ؛ لنَصاعةِ معنى الأول . وقرأ عطيةُ العَوْفِيُّ وعكرمةُ بالياء مِنْ تحت مبنياً للمفعول ، والقائم مَقامَ الفاعلِ الجارُّ لأجلِ التضمينِ المتقدِّم . ومَنْ اعتقد زيادةَ اللامِ أولاً لم يَجُزْ أَنْ يعتقدَها هنا ، أي : تسمعْ قَوْلَهم ؛ لأنَّ اللامَ لا تُزادُ في الفاعلِ ولا فيما أشبهه .

قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ ﴾ في هذه الجملةِ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنَّها مستأنفةٌ . والثاني : أنها خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هم كأنَّهم ، قالهما الزمخشري . والثالث : أنها في محلِّ نصب على الحال ، وصاحبُ الحال الضميرُ في "قولِهم" قاله أبو البقاء . وقرأ أبو عمروٍ والكسائيُّ وقنبلٌ "خُشْب" بضمٍ وسكونٍ ، وباقي السبعةِ بضمتين . وقرأ السعيدان : ابنُ جبير وابنُ المسيَّب بفتحتين ، ونسبها الزمخشريُّ لابن عباس ولم يذكُرْ غيرَه . فأمَّا القراءةُ بضمتَيْن فقيل : يجوزُ أَنْ تكونَ جمع خَشَبَة نحو : ثَمَرَة وثُمُر ، قاله الزمشخريُّ ، وفيه نظرٌ ؛

لأن هذه الصيغة محفوظةٌ في فَعَلَة لا تَنْقاس نحو : ثَمَرَة وثُمُر . ونقل الفاسيُّ عن الزبيدي أنه جمعُ خَشْبَاء ، وأَحْسَبُه غَلِطَ عليه لأنه قد يكون قال " خُشْب " بالسكون جمع خَشْبَاء نحو : حَمْراء وحُمْر ؛ لأنَّ فَعْلاء الصفة لا تُجْمع على فُعُل بضمتين بل بضمةٍ وسكونٍ .

وقوله " الزبيدي " تصحيفٌ : إمَّا منه وإمَّا من الناسخِ ، إنما هو اليزيديُّ تلميذُ أبي عمرو بن العلاء ، نقل ذلك الزمخشري . وقال أبو البقاء : " وخُشُب بالضمِّ والإِسكان جمعُ خَشَب مثل : أَسَد وأُسْد " انتهى . فهذا يُوهم أنه يقال : أُسُد بضمتين وليس كذلك .

(342/765)

وأمَّا القراءةُ بضمةٍ وسكونٍ فقيل : هي تخفيفُ الأُولى . وقيل : هي جمعُ خَشْباء وهي الخَشَبَةُ التي نُخِر جوْفُها ، أي : فُرِّغ ، شُبِّهوا بها لفراغِ بَواطِنِهم مِمَّا يُنْتَفَعُ به . وقيل : هي جمعُ خَشَبَة نحو بَدَنَة وبُدْن ، قاله الزمخشري .

وأمَّا القراءةُ بفتحتَيْن فهو اسمُ جنسٍ ، وأُنِّثَتْ صفتُه كقولِه : ﴿ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 7] وهو أحدُ الجائزَين .

وقوله : ﴿ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ تنبيهٌ على أنها لا يُنْتَفَعُ بها ، كما يُنتفع بالخَشَبِ في سَقْفٍ وغيرِه ، أو شبهوا بالأَصنامِ ؛ لأنهم كانوا يُسْنِدونها إلى الحِيطان .

قوله : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ فيه وجهان ، أظهرهما : أنَّ " عليهم " هو المفعولُ الثاني للحُسْبان ، أي : واقعةً وكائنةً عليهم ، ويكون قولُه : " هم العدوُّ " جملةً مستأنفةً ، أخبر تعالى بذلك . والثاني : أَنْ يكونَ " عليهم " متعلقاً بصيحة ، و " هم العدوُّ " الجملةُ في موضعِ المفعول الثاني للحُسبان . قال الزمخشري : " ويجوز أَنْ يكونَ " هم العدوُّ " هو المفعولَ الثاني : كما لو طَرَحْتَ الضميرَ . فإنْ قلتَ : فحقُّه أن يُقالَ : هي العدو قلت : منظورٌ فيه إلى الخبر ، كما ذُكِر في قوله : ﴿ هذا رَبِّي ﴾ [الأنعام : 77] ، وأَنْ يُقَدَّرَ مضافٌ محذوفٌ على " يَحْسَبُون كلَّ أهلِ صحيةٍ " انتهى . وفي الثاني بُعْدٌ بعيدٌ .

قوله : ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ " أَنَّى " بمعنى كيف . وقال ابن عطية : ويُحْتَمَلُ أَنْ يكونَ " أَنَّى " ظرفاً لـ " قاتَلَهم " كأنَّه قال : قاتلهم اللهُ كيف انصَرفوا ، أو صُرِفوا ؟ فلا يكونُ في القولِ استفهامٌ على هذا " انتهى . وهذا لا يجوزُ ؛ لأنَّ " أنَّى " إنما هي بمعنى كيف ، أو بمعنى أين الشرطيةِ أو الاستفهاميةِ ، وعلى التقاديرِ الثلاثةِ فلا تَتَمَحَّضُ للظرفِ فلا يعملُ فيها ما قبلَها البتةَ ، كما لا تعمل في أسماءِ الشرطِ والاستفهامِ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5)

قوله : ﴿ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ الله ﴾ : هذه المسألة عَدَّها النحاةُ من الإعمال ، وذلك أنَّ " تعالَوا " يطلبُ " رسولُ الله " مجروراً ب إلى ، أي : تعالَوا إلى رسولِ الله ، و " يَسْتغفر " يَطْلبه فاعلاً ، فأعمل الثاني ، ولذلك رفعَه ، وحَذَف من الأول ؛ إذ التقدير : تعالَوْا إليه ، ولو أَعْمل الأولَ لقيل : إلى رسولِ الله/يَسْتغفر ، فيُضمر في " يَسْتغفر " فاعلٌ ويمكن أَنْ يقال : ليَستْ هذه من الإعمال في شيء لأنَّ قولَه : " تعالَوْا " أمرٌ بالإِقبال من حيث هو ، لا بالنَّظر إلى مُقْبَلٍ عليه .

قوله : ﴿ لَوَّوْا ﴾ هذا جوابُ " إذا " . وقرأ نافع " لَوَوْا " مخففاً ، والباقون مشدَّداً على التكثير و " يَصُدُّون " حال لأنَّ الرؤية بَصَريَّةٌ ، وكذا قولُه " وهم مُستكبرون " حالٌ أيضاً : إمَّا من صاحب الحالِ الأُولى ، وإمَّا مِنْ فاعل " يَصُدُّون " فتكونُ متداخلةً . وأتى ب " يَصُدُّون " مضارعاً دلالةً على التجدُّدِ والاستمرار . وقرِئ " يَصِدُّون " بالكسر وقد تقدَّمنا في الزخرف .

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (6)

قوله : ﴿ أَسْتَغْفَرْتَ ﴾ : قراءةُ العامَّة بهمزةٍ مفتوحةٍ مِنْ غير مَدّ ، وهي همزةُ التسويةِ التي أصلُها الاستفهامُ . وقرأ يزيد ابن القعقاع "آسْتَغْفَرْتَ" . بهمزةٍ ثم ألفٍ ، فاختلف الناس في تأويلها ، فقال الزمخشري : "إشْباعاً لهمزة الاستفهام للإِظهار والبيان ، لا قَلْباً لهمزة الوصل كما في "آلسحرُ" و "آللهُ" يعني أنه أشبع فتحةَ همزةِ التسويةِ فتولَّد منها ألفٌ ، وقَصْدُه بذلِك إظهارُ الهمزةِ وبيانُها ، لا أنه قَلَبَ الوصَلَ ألفاً كما قَلَبها في قولِه : "آلسحرُ" " آللهُ أَذِنَ لكم " لأنَّ هذه الهمزةَ للوَصْلَ ، فهي تَسْقُطُ في الدَّرْج . وأيضاً فهي مكسورةٌ فلا يَلْتبسُ معها الاستفهامُ بالخبر : بخلاف "آلسحر" و "آلله" . وقال آخرون : هي عِوَضٌ من همزةِ الوصل . كما في "آلذَّاكَرَيْن" وهذا ليس بشيءٍ ؛ لأنَّ هذه مكسورةٌ فكيف تُبْدَلُ ألفاً ؟ وأيضاً فإنما قَلَبْناها هناك ألفاً ولم نحذِفْها ، وإن كان حَذْفُها مُسْتحقاً ، لئلا يلتبسَ الاستفهامُ بالخبر ، وهنا لا لَبْسَ .

(345/765)

وقال ابن عطية : " قرأ أبو جعفر يعني يزيد بن القعقاع "آستغفرْتَ" بمَدَّة على الهمزة . وهي ألفُ التسوية . وقرأ أيضاً بوَصْلِ الألف دون همز على الخبر ، وفي هذا كلِّه ضَعْفٌ ؛

لأنه في الأولى أثبت همزةَ الوصلِ ، وقد أغنتْ عنها همزةُ الاستفهام ، وفي الثانية حذَفَ همزةَ الاستفهام ، وهو يُريدها ، وهذا ممَّا لا يُسْتعمل إلاَّ في الشعر " . قلت : أمَّا قراءتُه " استغفرْتَ " بوَصْلِ الهمزة فرُوِيَتْ أيضاً عن أبي عمروٍ ، إلاَّ أنه هو يضُمُّ ميم " عليهم " عند وَصْلِه الهمزةَ ؛ لأن أصلَها الضمُّ ، وأبو عمرو يكسِرُها على أصلِ التقاء الساكنين . وأمَّا قولُه : " وهذا ممَّا لا يُسْتعمل إلاَّ في شعرٍ " فإنْ أراد بهذا مَدَّ هذه الهمزةِ في هذا المكانِ فصحيحٌ ، بل لا نجده أيضاً ، وإن أراد حَذْفَ همزةَ الاستفهام فليس بصحيحٍ لأنَّه يجوزُ حَذْفُها إجماعاً قبل " أم " نثراً ونَظْماً ، وأمَّا دونَ " أم " ففيه خلافٌ ، والأخفشُ يُجوِّزُهُ ويجعلُ منه ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ ﴾ [الشعراء : 22] وقولَه :

4264 طَرِبْتُ وما شَوْقاً إلى البيضِ أَطْرَبُ . . . ولا لَعِباً مني وذو الشَّيْبِ يَلْعَبُ

وقول الآخر :

4265 أَفْرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الكرامَ وأَنْ . . . أُوْرَثَ ذَوْداً شَصائِصاً نَبْلا

وأمَّا قبل " أم " فكثير كقولِه :

4266 لَعَمْرُكَ ما أَدْري وإنْ كنتُ داريا . . . بسَبْعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أم بثمانِ

وقد مَرَّتْ هذه المسألةُ مستوفاةً ولله الحمدُ

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (7)

(346/765)

قوله : ﴿ يَنفَضُّوْا ﴾ : قرأ العامَّةُ من الانْفِضاض وهو التفرُّقُ . وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشي "يُنْفِضُوا " مِنْ أَنْفَضَ القومُ : فَنِي زادُهم . ويقال : نَفَضَ الرجلُ وعاءَه من الزاد ، فأَنفَضَ ، فيتعدَّى دونَ الهمزةِ ولا يتعدَّى معها ، فهو من بابِ : كَبَبْتُه فأَكَبَّ . قال الزمخشري : " وحقيقتُه : حانَ لهم أَنْ يَنْفُضُوا مَزاوِدَهُم " .

يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8)

قوله : ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأعز ﴾ : قراءةُ العامَّة بضمِّ الياءِ وكسرِ الراءِ ، مسْنداً إلى " الأعزُّ " ، و " الأذلَّ " مفعولٌ به ، والأعزُّ بعض المنافقين على زعمه . وقرأ الحسن وابن أبي عبلة والمسيبيُّ " لَنُخْرِجَنَّ " بنون العظمة وبنصبِ " الأعَزَّ " على المفعول به ونصبِ الأذلِّ على الحال ، وبه استشهد مَنْ جوَّز تعريفَها . والجمهورُ جَعلوا أل مزيدةً على حدِّ :

4267 فأَرْسَلَها العِراكَ . . . .

(347/765)

وادخلوا الأوّلَ فالأوّلَ . وجوّز أبو البقاء أَنْ يكونَ منصوباً على المفعول به ، وناصبُه حالٌ محذوفةٌ ، أي : مُشْبِهاً الأذلَّ . وقد خرّجه الزمخشريُّ على حَذْفِ مضافٍ ، أي : خروجَ الأذلِّ ، أو إخراجَ الأذلِّ ، يعني بحسَبِ القراءتَيْن : مِنْ خَرَجَ وأَخْرَجَ . فعلى هذا ينتصبُ على المصدرِ لا على الحالِ . ونَقَلَ الدانيُّ عن الحسن أيضاً / " لنَخْرُجَنَّ " بفتح نونِ العظمة وضمِّ الراء ونصبِ " الأعزَّ " على الاختصاصِ كقولهم : " نحن العربَ أَقْرى الناس للضيفِ " ، و " الأذلَّ " نصبٌ على الحالِ أيضاً ، قاله الشيخ ، وفيه نظرٌ كيف يُخْبِرون عن أنفسِهم : بأنهم يَخْرُجون في حالِ الذُّلِّ مع قولهم الأعزّ ، أي : أخصُّ الأعزَّ ، ويَعْنُون بالأعزِّ أنفسَهم ؟ وقد حكى هذه القراءةَ أيضاً أبو حاتمٍ ، وحكى الكسائي والفراء أنَّ قوماً قرؤوا " ليَخْرُجَنَّ " بفتح الياء وضم الراء ورفع " الأعزُّ " فاعلاً ونصب الأول حالاً وهي واضحةٌ . وقُرِىء لَيُخْرَجَنَّ بالياء مبنياً للمفعول " الأعزُّ " قائماً مَقامَ الفاعل ، " الأذلَّ " حالٌ أيضاً .

وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10)

قوله : ﴿ وَأَكُن ﴾ : قرأ أبو عمروٍ " وأكونَ " بنصب الفعل عطفاً على " فأَصَّدَّقَ " و " فأصَّدَّقَ " منصوبٌ على جوابِ التمني في قوله : " لولا أَخَّرَتني " والباقون " وأكُنْ " مجزوماً ، وحُذِفَتِ الواوُ لالتقاء الساكنين . واختلفت عبارات الناس في ذلك ، فقال الزمخشري : " عطفاً على محلِ " فأصَّدَّقَ " كأنه قيل : إنْ أخَّرْتَني أصَّدَّقْ وأكنْ " . وقال ابنُ عطية : " عطفاً على الموضع ؛ لأنَّ التقديرَ : إنْ أخَّرتني أصَّدَّقْ وأكن ، هذا مذهب أبي علي الفارسي : فأمّا ما حكاه سيبويه عن الخليلِ فهو غيرُ هذا وهو أنه جزمٌ على توهُّمِ الشرطِ الذي يَدُلُّ عليه التمني ، ولا موضعَ هنا لأن الشرط ليس بظاهرٍ ، وإنما يُعطَفُ على الموضع حيث يَظْهَرُ الشرط كقولِه : ﴿ مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ ﴾ [الأعراف : 186] فمَنْ جزَمَ عَطَفَه على موضع ﴿ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ﴾ لأنه لو وقع موقعَه فِعْلٌ لانجزم " انتهى . وهذا الذي نَقَلَه عن سيبويهِ هو المشهورُ عند النَّحويين . ونَظَّرَ سيبويه ذلك بقول زهير :

4268 بَدا ليَ أني لَسْتُ مُدْرِكَ ما مَضَى . . . ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائيا

(349/765)

فخفضَ " ولا سابقٍ " عطفاً على " مُدْرِكَ " الذي هو خبر ليس على توهُّمِ زيادةِ الباء فيه ؛ لأنه قد كَثُرَ جَرُّ خبرِها بالباء المزيدة ، وهو عكسُ الآيةِ الكريمةِ ؛ لأنه في الآية جُزِمَ على توهُّمِ سقوط الفاء ، وهنا خُفِضَ على تَوَهُّمِ وجودِ الباءِ ، ولكنَّ الجامعَ توهُّمُ ما يَقْتضي جوازَ ذلك ، ولكني لا أُحِبُّ هذا اللفظَ مستعملاً في القرآن ، فلا يُقال : جُزم على التوهُّم ، لقُبْحه لفظاً . وقال أبو عبيد : " رأيتُه في مصحف عثمان " وأَكُنْ " بغير واوٍ . وقد فَرَّق الشيخ بين العطفِ على الموضعِ والعطفِ على التوهُّمِ بشيءٍ فقال : " الفرقُ بينهما : أنَّ العاملَ في العطف على الموضع موجودٌ ، وأثرُه مفقودٌ ، والعاملُ في العطفِ على التوهُّمِ مفقودٌ ، وأثرُه موجودٌ " انتهى . قلت : مثالُ الأول : " هذا ضاربُ زيدٍ وعمراً " فهذا من العطفِ على الموضع ، فالعاملُ وهو " ضارب " موجودٌ ، وأثرُه وهو النصبُ مفقودٌ . ومثالُ الثاني ما نحن فيه ؛ فإنَّ العاملَ للجزمِ مفقودٌ ، وأثرُه موجودٌ . وأَصْرَحُ منه بيتُ زهير فإنَّ الباءَ مفقودةٌ وأثرُها موجودٌ ، ولكن أثرَها إنما ظهر في المعطوفِ لا في المعطوفِ عليه ، وكذلك في الآيةِ الكريمة . ومن ذلك بيتُ امرىء القيس :

4269 فظلَّ طُهاةُ اللحمِ مِنْ بينِ مُنْضِجٍ . . . صَفيفِ شِواءٍ قَديرٍ مُعَجَّلِ

فإنهم جعلوه مِن العطفِ على التوهُّم ؛ وذلك : أنه توهَّمَ أنه أضاف " منضج " إلى " صَفيف " ، وهو لو أضافه إليه لَجَرَّه فعطفَ " قدير " على " صفيف " بالجرِّ تَوَهُّماً لجرِّه بالإِضافة . /

وقرأ عبيد بن عمير " وأكونُ " برفع الفعل على الاستئناف ، أي : وأنا أكونُ ، وهذا عِدَةٌ منه بالصَّلاح .

وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (11)

(350/765)

وقرأ أبو بكر " بما يعملون " بالغَيْبة ، والباقون بالخطاب ، وهما واضحتان . وقرأ أُبَي وعبد الله وابن جبير " فأَتَصَدَّقَ " وهي أصل قراءةِ العامةِ ولكنْ أُدْغِمَتْ التاءُ في الصاد . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 10 صـ 335. 346﴾

(351/765)

من لطائف الإمام القشيري فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة المنافقون

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم من تحقق به صدق في أقواله ، ثم صدق في أ " ماله ، ثم صدق في أخلاقه ثم صدق في أحواله ، ثم صدق في أنفاسه ، فصدقه في القول إلا يقول إلا عن برهان ، وصدقه في العمل ألا يكون للبدعة عليه سلطان ، وصدقه في الأخلاق إلا يلاحظ إحسانه مع الكافة بعين النقصان ، وصدفة في الأحوال أن يكون على كشف وبيان ، وصدقه في الأنفاس ألا يتنفس إلا على وجود كالعيان .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

كذَّبهم فيما قالوا وأظهروا ، ولكنهم لم يشهدوا عن بصيرة ولم يعتقدوا تصديقك ، فهم لم يكذبوا في الشهادة ولكنّ كِذْبَهم في قولهم : إنَّهم مخلصون لك ، مُصَدّقون لك . فصِدْقُ القالة لا ينفع مع قُبْح الحالة .

ويقال : الإيمان ما يوجِبُ الأمان ؛ فالإيمانُ يوجِبُ للمؤمن إذا كان عاصياً خلاصَه من العذاب أكثره وأقّله . . إلاّ ما ينقله من أعلى جهنم إلى أسفلها .

قوله جل ذكره : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ تَسَتَّرُوا بإقرارهم ، وتكشّفوا بنفاقهم عن أسْتارِهم فافتضحوا ، وذاقوا وبالَ أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

استضاؤوا بنورِ الإجابة فلم يَنْبَسِطْ عليهم شعاعُ السعادة، فانطفأ نورُهم بقَهرِ الحرمان، وبقوا في ظلمات القسمة السابقة بحُكْم الشقاوة.

(352/765)

قوله جل ذكره: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾.

أي هم أشباحٌ وقوالبُ وليس وراءهم ألبابٌ وحقائق - فالجوزُ الفارغ مُزَيَّنٌ ظاهِرُه ولكنه للعب الصبيان.

﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ وذلك لِجُبْنِهم؛ إذ ليس لهم انتعاشٌ بربِّهم، ولا استقلالٌ بغيرهم.

﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ هم عدوُّك - يا محمد - فاحْذَرْهم، ولا يَغُرَّنْكَ تَبَسُّطُهم في الكلام على وجهِ التودُّدِ والتقرُّب.

قوله جل ذكره: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾.

سمعوا إلى ما يقال لهم على وجه التكبُّر، وإظهار الاستغناء عن استغفارك لهم.. فخَلِّ

سبيلهم ؛ فليس للنُّصح فيهم مساغٌ ، ولن يُصْحِيَهم من سَكْرَتهم إلاَّ حَرُّ ما سيلقونه من العقوبة ، فما دام الإصرارُ من جانبهم فإنهم :

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

فقد سبق العِلْمُ بذلك :

قوله جل ذكره : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ .

(353/765)

كأنهم مربوطون بالأسباب ، محجوبون عن شهود التقدير ، غيرُ متحقِّقين بتصريف الأيام ، فأَنْطَقَهُم بما خَامَرَ قلوبَهم مِنْ تَمَنِّي انطفاء نورِ رسول الله ، وانتكاث شَمْلِهم ، فتواصَوْا فيما بينهم بقولهم : ﴿ لاَ تُنفِقُواْ عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ فقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَاوَاتِ ﴾ .

وليس استقلالُك – يا محمد – ولا استقلالُ أصحابِك بالمرزوقين . . بل بالرازق ؛ فهو الذي يمسككم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

إنما وقع لهم الغَلَطُ في تعيين الأعزّ والأذلّ ؛ فتوهَّموا أنّ الأعزَّ هم المنافقون ، والأذلَّ هم المسلمون ، ولكن الأمر بالعكس ، فلا جَرَمَ غَلَبَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وأُذِلَّ المنافقون بقوله : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ : لله عِزُّ الإلهية ، وللرسول عِزُّ النبوّة ، وللمؤمنين عِزُّ الولاية . وجميعُ ذلك لله ؛ فعِزُّه القديم صِفَتُه ، وعِزُّ الرسول وعِزُّ المؤمنين له فِعْلاً ومِنَّةً وفَضلاً ، فإذاً لله العِزّةُ جميعاً .

ويقال : كما انّ عِزّةَ الله - سبحانه - لا زوالَ لها فعِزّةُ الأنبياء بأن لا عَزْلَ لهم ، وعِزّةُ المؤمنين بألا يَبْقَى منهم مُخَلَّدٌ في النار .

ويقال : مَنْ كان إيمانُهم حقيقياً فلا زوالَ له .

ويقال : مَنْ تعزّزَ بالله لم يلحقه تَغَيُّرٌ عن حاله بغير الله .

ويقال : لا عِزَّ إلاّ في طاعةِ الله ، ولا ذُلَّ إلاَّ في معصية الله . . . وما سوى هذا فلا أصلَ له .

قوله جل ذكره : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ .

لا تُضَيّعوا أمورَ دينكم بسبب اموالكم وأولادكم بل آثروا حقَّ الله ، واشْتَغلوا به يَكْفِكُم أمور دنياكم وأولادكم ؛ فإذا كُنْتَ لله كان اللَّهُ لك .

ويقال : حقّ الله مما ألزمكَ القيامَ به ، وحقُّك ضمن لك القيام به ؛ فاشتغِلْ بما كُلِّفْتَ لا بما كُفِيت .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

لا تَغْتَرُّوا بسلامةِ أوقاتِكم ، وترَقَّبوا بَغَتَاتِ آجالِكم ، وتأهَّبوا لما بين أيديكم من الرحيل ، ولاتُعَرِّجوا في أوطان التسويف . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 587 . 591﴾

(355/765)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة المنافقون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (3) وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4)

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5)

الإعراب :

(اللام) لام القسم المستعاض بها من اللام المزحلقة لما في (نشهد) من معنى القسم ، وذلك في الموضعين الأول والثالث ، وهي المزحلقة

في الموضع الثاني (الواو) اعتراضيّة ، والثانية عاطفة .

جملة : " جاءك المنافقون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " نشهد . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّك لرسول اللّه . . . " لا محلّ لها جواب القسم " 1 " .

وجملة : " اللَّه يعلم . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللَّه) .

وجملة : " إنّك لرسوله . . . " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي يعلم " 2 " .

وجملة : " اللَّه يشهد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط .

وجملة : " يشهد . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللَّه) .

وجملة : " إنّ المنافقين لكاذبون " لا محلّ لها جواب القسم " 3 " .

2 - (جنّة) مفعول به ثان منصوب (عن سبيل) متعلّق بـ (صدّوا) ، (ساء) ماض لإنشاء الذم (ما) نكرة موصوفة فاعل " 4 " والمخصوص بالذم محذوف تقديره النفاق - أو عدم الثبات على الإيمان - وجملة : " اتّخذوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " صدّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اتّخذوا .

وجملة : " إنهم ساء ما كانوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ساء ما كانوا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " كانوا يعملون " في محلّ رفع نعت لـ (ما) " 5 " .

وجملة : " يعملون " في محلّ نصب خبر كانوا

(1 ، 3) أو هي استئناف بيانيّ إذا لم يقدّر فعل نشهد بمعنى نقسم .

(2) كسرت همزة (إنّ) لمجيء اللام في الخبر .

(4) أو اسم موصول - في محلّ رفع - [. . . . . .]

(5) أو لا محلّ لها صلة الموصول ما .

(356/765)

---

3 - الإشارة في (ذلك) إلى سوء عملهم (على قلوبهم) نائب الفاعل (الفاء) تعليليّة (لا) نافية .

والمصدر المؤوّل (أنّهم آمنوا . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (ذلك) .

وجملة : " ذلك بأنّهم . . . " لا محلّ لها تعليلة .

وجملة : " آمنوا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " كفروا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة : " طبع على قلوبهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة التعليل .

وجملة : " هم لا يفقهون " لا محلّ لها تعليلية " 1 " .

وجملة : " لا يفقهون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

4 - (الواو) عاطفة في الموضعين (لقولهم) متعلّق بـ (تسمع) ، (عليهم) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (أنّى) اسم استفهام في محلّ نصب

ظرف مكان متعلّق بحال من الواو في (يؤفكون) .

وجملة : " رأيتهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تعجبك أجسامهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يقولوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئنافيّة من الشرط وفعله وجوابه .

وجملة : " تسمع . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " كأنّهم خشب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " يحسبون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هم العدوّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) قد تكون الجملة مسبّبة عن طبع قلوبهم فهي معطوفة على جملة طبع على قلوبهم .

(2) أو في محلّ نصب حال من الضمير في قولهم .

وجملة : " احذرهم " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي تنبه لهذا فاحذرهم .

وجملة : " قاتلهم اللَّه " لا محلّ لها استئنافيّة دعائيّة .

وجملة : " يؤفكون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

5 - (الواو) عاطفة في الموضعين وحاليّة في الثالث (لهم) متعلّق بـ (قيل) ، (يستغفر) مضارع مجزوم جواب الأمر (لوّوا) ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين.

وجملة: " قيل . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " تعالوا . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 1 " .

وجملة: " يستغفر لكم رسول . . . " جواب شرط مقدّر، لا محلّ لها، غير مقترنة بالفاء أي: إن تقبلوا يستغفر.

وجملة: " لوّوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم (إذا).

وجملة: " رأيتهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لوّوا.

وجملة: " يصدّون . . . " في محلّ نصب حال من ضمير الغائب في (رأيتهم).

وجملة: " هم مستكبرون " في محلّ نصب حال من فاعل يصدّون.

الصرف:

(4) خشب: قيل هو اسم جمع واحدته خشبة بفتحتين أو بفتحة وسكون، وقيل هو جمع خشب بفتحتين كأسد وأسد، وزنه فعل بضمتين.

(مسنّدة)، مؤنث مسنّد، اسم مفعول من (سنّد) الرباعيّ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة.

(1) هي في الأصل مقول القول للفعل المبنيّ للمعلوم .

(358/765)

(5) لوّوا : فيه إعلال بالحذف حذفت لام الكلمة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة وزنه فعّوا .

البلاغة

التشبيه المرسل التمثيلي : في قوله تعالى "كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ" .

شبهوا في جلوسهم مجالس رسول (صلّى اللَّه عليه وسلّم) ، مستندين فيها ، وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير ، بخشب منصوبة ، مسندة إلى الحائط ، في كونهم أشباحا خالية عن الفائدة ، لأن الخشب تكون مسندة إذا لم تكن في بناء ، أو دعامة بشيء آخر ، ويجوز أن يراد بالخشب المسندة الأصنام المنحوتة من الخشب ، المسندة إلى الحيطان .

شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم .

ووجه الشبه كون الجانبين أشباحا خالية عن العلم والنظر .

[سورة المنافقون (63) : آية 6]

سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ

(6)

الإعراب:

(سواء) خبر مقدّم مرفوع (عليهم) متعلّق بـ (سواء) و(الهمزة) للتسوية مصدريّة.

والمصدر المؤوّل (أستغفرت لهم) في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر.

(لهم) متعلّق بـ (استغفرت)، (أم) حرف عطف متّصلة (لهم) الثاني متعلّق بـ (تستغفر)،

و(لهم) الثالث متعلّق بـ (يغفر)، (لا) نافية..

جملة: سواء عليهم (استغفارك)... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "استغفرت... "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ.

وجملة: "لم تستغفر... "لا محلّ لها معطوفة على جملة استغفرت.

وجملة: "لن يغفر... "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "إنّ اللَّه لا يهدي... "لا محلّ لها تعليلية.

وجملة: "لا يهدي... "في محلّ رفع خبر إنّ.

[سورة المنافقون (63): آية 7]

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (7)

الإعراب:

(لا) ناهية جازمة (على من) متعلّق بـ (تنفقوا) المنهيّ عنه (عند) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة الموصول من (حتّى) حرف غاية وجرّ (ينفضّوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى..

والمصدر المؤوّل (أن ينفضّوا...) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (تنفقوا).

(الواو) حاليّة (للَّه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ خزائن (لا) نافية.

وجملة: "هم الذين..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يقولون..." لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "لا تنفقوا..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "ينفضّوا..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: "للَّه خزائن..." في محلّ نصب حال "1".

وجملة: "لكنّ المنافقين لا يفقهون" لا محلّ لها استئنافيّة "2".

وجملة: "لا يفقهون..." في محلّ رفع خبر لكنّ.

---

(1) أو استئنافيّة.

(2) أو معطوفة على الاستئنافيّة.

[سورة المنافقون (63) : آية 8]

يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (8)

الإعراب:

(اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (رجعنا) ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (إلى المدينة) متعلّق ب (رجعنا) ، (اللام) لام القسم (منها) متعلّق ب (يخرجنّ) ، (الواو) حالية (للّه العزّة) مثل للّه خزائن " 1 " (ولكنّ المنافقين لا يعلمون) مثل ولكن المنافقين لا يفقهون مفردات وجملا " 2 " جملة: " يقولون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " إن رجعنا . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " يخرجنّ الأعزّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم.

الصرف :

(الأذلّ) ، اسم تفضيل من الثلاثيّ ذلّ ، وزنه أفعل وعينه ولامه من حرف واحد .

البلاغة

فن القول بالموجب : في قوله تعالى يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .

وهذا الفن ، هو أن يخاطب المتكلم شخصا بكلام ، فيعمد هذا الشخص المخاطب إلى كل كلمة مفردة من كلام المتكلم ، فيبني عليها من كلامه ، وما يوجب عكس معنى المتكلم ، لأن حقيقة القول بالموجب ردّ الخصم كلام خصمه من فحوى كلامه ، فإن موجب قول المنافقين ، الآنف الذكر في الآية ، إخراج الرسول

(1 ، 2) في الآية (7) من هذه السورة .

المنافقين من المدينة ، وقد كان ذلك ، ألا ترى أن اللَّه تعالى قال على إثر ذلك " واللَّه العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون " .

الفوائد :

ذلة المنافقين . .

كان رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) في غزوة بني المصطلق ، فتدافع رجلان : أنصاري ومهاجر ، فنادى كل منهما أصحابه ، فاستطلع رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) الأمر ، وقال : دعوها فإنها خبيثة ، فإنها من دعوى الجاهلية ، فتناهي الخبر إلى عبد اللَّه بن أبيّ ، رأس النفاق ، فقال : أو قد فعلوها (يعني المهاجرين) واللَّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ (يعني نفسه) منا الأذلّ (يعني رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) فوصل الخبر لرسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) فقال عمر : ائذن لي أضرب عنقه ، فقال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) : هل يرضيك أن يقول الناس إن محمدا يقتل أصحابه ؟ وفي طريق العودة ، رصد عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن أبي مدخل المدينة ، ومنع والده من الدخول قائلا له : أنت الذليل ، ورسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) هو العزيز ، فعلم رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) بالخبر ، فأرسل إلى عبد اللَّه أن يسمع لوالده بالدخول ، فقال الابن :

إن أذن رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) فنعم إذن .

[سورة المنافقون (63) : الآيات 9 إلى 11]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (9) وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ

أَجَلُها وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (11)

الإعراب:

(362/765)

(أيها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الذين) موصول في محلّ نصب بدل من أيّ - أو عطف بيان عليه - (لا) ناهية جازمة (لا) زائدة لتأكيد النهي (أولادكم) معطوف على أموالكم مرفوع (عن ذكر) متعلّق ب (تلهكم) ، (الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (الفاء) رابطة لجواب الشرط (هم) ضمير فصل " 1 " .

جملة: " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: " لا تلهكم أموالكم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة: " من يفعل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يفعل ذلك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة: " أولئك . . الخاسرون " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

10 - (الواو) عاطفة (ممّا) متعلّق ب (أنفقوا) ، والعائد محذوف (من قبل) متعلّق ب (أنفقوا)

، (أن) حرف مصدري ونصب (الموت) فاعل (يأتي) بحذف مضاف أي مقدّمات الموت

(الفاء) عاطفة (يقول) مضارع منصوب معطوف على يأتي . .

والمصدر المؤوّل (أن يأتي . . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة

للتخفيف (لولا) حرف تحضيض بمعنى الدعاء (إلى أجل)

---

(1) أو ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ خبره الخاسرون . . والجملة الاسميّة خبر المبتدأ

أولئك .

(2) أو الخبر هو جملتا الشروط والجواب معا .

متعلّق بـ (أخّرتني) ، (الفاء) فاء السببية (أصدّق) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء

(الواو) عاطفة (أكن) مضارع ناقص مجزوم جواب شرط مقدّر معطوف على جملة الدعاء

" 1 " ، (من الصالحين) متعلّق بخبر أكن .

وجملة : " أنفقوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " رزقناكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة: "يأتي . . . الموت" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "يقول . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يأتي . . الموت.

وجملة: "ربّ . . . " في محلّ نصب مقول القول "2".

وجملة: "أخّرتني . . . " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "أصّدّق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

والمصدر المؤوّل (أن أصّدّق.) في محلّ رفع معطوف على مصدر مأخوذ من الدعاء المتقدّم المتمثّل في أداة التحضيض أي أثمّة تأخير في الأجل فتصدّق بالزكاة.

وجملة: "أكن . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء.

11 - (الواو) استئنافيّة والثانية عاطفة (ما) حرف مصدريّ "3".

والمصدر المؤوّل (ما تعملون . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بالخبر (خبير).

وجملة: "لن يؤخّر اللَّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "جاء أجلها . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي: فلن يؤخّره اللَّه "4".

---

(1) أو معطوف على محلّ (فأصّدّق) بحسب المعنى . . أي إن أخّرتني أتصدّق - بالجزم - وأكن . . .

(2) أو اعتراضيّة وجملة أخّرتني مقول القول.

(3) أو اسم موصول في محلّ جرّ بالباء ، والعائد محذوف ، والجملة بعده صلته .

(4) قد يكون الظرف مجرّدا من الشرط فلا جواب . ويتعلّق الظرف حينئذ بالفعل المذكور يؤخر .

(364/765)

وجملة : " اللَّه خبير . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يؤخّر اللَّه .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

الصرف :

(9) تلهكم : فيه إعلال بالحذف ، حذفت لامه لمناسبة الجزم ، وزنه تفعكم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 28 صـ 252. 262 ﴾

(365/765)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(63) سورة المنافقون

مدنيّة وآياتها إحدى عشرة

[سورة المنافقون (63) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (3)

الإعراب:

(إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ) إذا ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه منصوب بجوابه وجملة جاءك في محل جر بإضافة الظرف إليها والمنافقون فاعل جاءك وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب الشرط وهي عاملة في الظرف وجملة نشهد مقول القول وإن واسمها وكسرت همزة إن لدخول اللام المزحلقة على خبرها ورسول الله خبر إن. ومعنى نشهد نحلف فهو يجري مجرى القسم (وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ) الواو للاعتراض والله مبتدأ وجملة يعلم خبر والجملة معترضة بين قولهم

نشهد إنك لرسول اللّه وبين قوله واللّه يشهد ، وإن واسمها واللام المزحلقة ورسوله خبر وإن وما بعدها سدّت مسدّ مفعولي يعلم وإنما كسرت همزتها لوقوع اللام داخلة على الخبر واللّه مبتدأ وجملة يشهد خبر وإن واسمها واللام المزحلقة وكاذبون خبرها (اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) اتخذوا فعل وفاعل وأيمانهم مفعول به أول وهو جمع يمين وجنة مفعول به ثان أي وقاية وترسا والجملة مستأنفة مسوقة لبيان كذبهم وحلفهم عليه وعبّر عن الحلف بالشهادة لأن كل واحد منهما إثبات لأمر معين والفاء عاطفة وصدّوا فعل وفاعل وعن سبيل اللّه متعلقان بصدّوا (إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) إن واسمها وجملة ساء خبر وما فاعل ساء وجملة كانوا صلة وكان واسمها وجملة يعملون خبر كان (ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ) ذلك مبتدأ والباء حرف جر وأن ومدخولها في محل جر بالباء والجار والمجرور خبر ذلك أي بسبب إيمانهم ثم كفرهم والفاء حرف عطف وطبع فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو وعلى قلوبهم متعلقان بطبع والفاء حرف عطف وهم مبتدأ وجملة لا يفقهون خبر.

[سورة المنافقون (63) : الآيات 4 إلى 6]

وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ

لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (6)

(367/765)

الإعراب :

(وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ) الواو عاطفة وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن وجملة رأيتهم في محل جر بإضافة الظرف إليها والظرف متعلق بالجواب وهو تعجبك وجملة تعجبك أجسامهم لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم والواو عاطفة وإن شرطية ويقولوا فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل وتسمع جواب الشرط ولقولهم متعلقان بتسمع ولا بدّ من تضمين تسمع معنى تصغي وتميل تبريرا لتعديته باللام (كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ) الجملة مستأنفة أو خبر لمبتدأ محذوف أو حالية من الضمير في قولهم ، وكأن واسمها وخبرها ومسندة نعت لخشب وفي المصباح " الخشب معروف الواحدة خشبة والخشب بضمتين وإسكان الثاني " (يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ) الجملة مستأنفة أيضا ويحسبون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وكل صيحة مفعول به أول وعليهم متعلقان بمحذوف مفعول به ثان ليحسبون

أي كائنة عليهم وهم مبتدأ والعدو خبر والجملة مستأنفة والفاء الفصيحة أي إن عرفت صفتهم وماهية أحوالهم فاحذرهم ، ويجوز أن يكون المفعول الثاني ليحسبون قوله هم العدو ويكون قوله عليهم متعلقان بصيحة أو صفة لها (قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) قاتلهم فعل ومفعول به والّله فاعل وأنّى بمعنى كيف فهو اسم استفهام في موضع نصب على الحال ويؤفكون فعل مضارع مبني للمجهول . ومعنى قاتلهم الله لعنهم (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل وجملة قيل في محل جر بالإضافة إليها ونائب الفاعل مستتر ولهم متعلقان بقيل وتعالوا

(368/765)

فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة مقول القول ويستغفر جواب الأمر مجزوم بالسكون ، ولكم متعلقان بيستغفر ورسول الّله فاعل والواو فعل ماض والواو فاعل وقرىء بالتخفيف أي عطفوا رؤوسهم وأمالوها ورءوسهم مفعول به والجملة لا محل لها لأنها جواب إذا . وعبارة السمين " وهذه المسألة عدّها النحاة من الأعمال وذلك أن تعالوا يطلب رسول الّله مجرورا بإلى أي تعالوا إلى رسول الّله ويستغفر يطلبه فاعلا فأعمل الثاني ولذلك رفعه وحذف الأول إذ التقدير تعالوا إليه ولو أعمل الأول لقيل إلى رسول الّله فيضمر

في يستغفر فاعل ويمكن أن يقال ليست هذه من الأعمال في شيء لأن قوله تعالوا أمر بالإقبال من حيث هو لا بالنظر إلى مقبل عليه " (وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) الواو عاطفة ورأيتهم فعل ماض وفاعل ومفعول به والرؤية بصرية وجملة يصدّون حال من الهاء في رأيتهم وجملة وهم مستكبرون حال من الواو في يصدّون (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ) سواء خبر مقدّم وعليهم متعلقان بسواء والهمزة للتسوية وقد تقدم بحثها وهي مؤولة مع ما بعدها بمصدر مبتدأ مؤخر وقد استغنى بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل أي سواء استغفارك وعدمه ، ولهم متعلقان باستغفرت وأم هي المعادلة لهمزة التسوية ولم حرف نفي وقلب وجزم وتستغفر فعل مضارع مجزوم بلم ولهم متعلقان بتستغفر (لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) لن حرف نفي ونصب واستقبال ويغفر فعل مضارع منصوب بلن والله فاعل ولهم متعلقان بتغفر وإن واسمها وجملة لا يهدي خبرها والقوم مفعول به والفاسقين نعت .

البلاغة :

في قوله : كأنهم خشب مسنّدة تشبيه مرسل تمثيلي فالمشبه هم أي رؤساء المنافقين من المدينة وكانوا يحضرون مجلس النبي صلّى الله

عليه وسلم ويستندون فيه إلى الجدر وكان النبي ومن حضر يتعجبون من هيا كلهم المنصوبة ، والمشبه به هو الخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط ، ووجه الشبه كون الجانبين أشباحا خالية عن العلم والنظر على حدّ قول حسان :

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم جسم البغال وأحلام العصافير

وفي قوله : " يحسبون كل صيحة عليهم " تشبيه تمثيلي أيضا أي أنهم لجبنهم وهلع نفوسهم واضطراب قلوبهم إذا نادى مناد في المعسكر أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة وجفت قلوبهم ، وزايلهم رشدهم وحسبوا أن هناك شرّا يتربص بهم وكيدا ينتظر الإيقاع بأرواحهم ، وقد رمق الأخطل سماء هذا المعنى فقال :

ما زلت تحسب كلّ شيء بعدهم خيلا تكرّ عليهم ورجالا

يقول الأخطل : لا زلت يا جرير تظن كل شيء بعد خذلان قومك خيلا تكرّ أي ترجع بسرعة عليهم لكثرة ما يساورك من الخوف ، وغلا المتنبي في هذا المعنى فقال :

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

ويمكن أن يقال أن وجه الشبه هو عزوب أحلامهم وفراغ قلوبهم من الإيمان ولم يكتف بالتشبيه بالخشب بل جعلها مسندة إلى الحائط للانتفاع بها لأنها إذا كانت في سقف أو

مكان ينتفع بها .

[سورة المنافقون (63) : الآيات 7 إلى 11]

(370/765)

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (7) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (8) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (9) وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (11)

الإعراب :

(هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا) كلام مستأنف جار مجرى التعليل لفسقهم ، وهم مبتدأ والذين خبر وجملة يقولون صلة الذين ولا الناهية وتنفقوا فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعل والجملة مقول القول وعلى من جار ومجرور متعلقان بتنفقوا والظرف متعلق بمحذوف لا محل له من الإعراب لأنه صلة من ورسول اللّه مضاف

إليه وحتى حرف تعليل ونصب وينفضّوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والمعنى لأجل أن ينفضّوا أي يذهب كل واحد منهم لطيته وشغله (وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) الواو حالية ولله خبر مقدم وخزائن السموات والأرض مبتدأ مؤخر والجملة نصب على الحال (وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ) لكن واسمها وجملة لا يفقهون

(371/765)

خبرها (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) كلام معطوف في المعنى على يقولون قبله لأن سبب المقالتين واحد واللام موطئة للقسم وإن شرطية ورجعنا فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وإلى المدينة متعلقان برجعنا ، واللام واقعة في جواب القسم ويخرجن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وجوبا والأعزّ فاعله والأذل مفعوله ، أرادوا بالأعز أنفسهم وبالأذل محمدا صلّى الله عليه وسلم ، ومنها متعلقان بيخرجن (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ) الواو حالية ولله خبر مقدم والعزّة مبتدأ مؤخر ولرسوله عطف على لله ، ولكن الواو عاطفة ولكن واسمها وجملة لا يعلمون خبرها (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) يا حرف نداء للمتوسط وأي منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب والهاء

للتنبيه والذين بدل وجملة آمنوا صلة ولا ناهية وتلهكم فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف حرف العلة وأموالكم فاعل ولا أولادكم عطف على أموالكم وعن ذكر اللّه متعلقان بتلهكم (وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ) الواو عاطفة ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ وذلك مفعول به والفاء رابطة لجواب الشرط وأولئك مبتدأ وهم مبتدأ ثان أو ضمير فصل والخاسرون خبر أولئك أو خبرهم والجملة خبر أولئك وجملة فأولئك إلخ في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من (وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ) الواو عاطفة وأنفقوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل ومما متعلقان بأنفقوا ومن تبعيضية والمراد الإنفاق الواجب وجملة رزقناكم لا محل لها لأنها صلة ومن قبل حال وأن و

ما في حيّزها في تأويل مصدر مجرور بالإضافة وأحدكم مفعول به مقدّم والموت مبتدأ مؤخر (فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ) الفاء العاطفة السببية لأنه مسبّب عن أن يأتي ، ويقول

فعل مضارع معطوف على أن يأتي والفاعل مستتر يعود على أحدكم ولو لا تحضيضية

بمعنى هلّا وأخّرتني فعل ماض مبني على السكون ولكنه بمعنى المضارع لأن لولا التحضيضية تختص بالماضي المؤول بالمضارع إذ لا معنى لطلب التأخير في الزمن الماضي والتاء فاعل والنون للوقاية والياء مفعول به وإلى أجل متعلقان بأخّرتني وقريب نعت والفاء في فأصدّق عاطفة وأكن فعل مضارع مجزوم بالعطف على محل فأصدّق فكأنه قيل إن أخّرتني أصدّق وأكن ، وقرىء بنصب أكون وإثبات الواو فتكون الواو للسببية وأصدّق منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية في جواب الطلب أي التحضيض ، واسم أكن مستتر تقديره أنا ومن الصالحين خبرها (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ) الواو عاطفة والكلام معطوف على مقدّر أي فلا يؤخر هذا الأحد المتمنّي لأنه لا يؤخر نفسا إذا جاء أجلها أية كانت . ولن حرف نفي ونصب واستقبال ويؤخر فعل مضارع منصوب بلن واللّه فاعل ونفسا مفعول به وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة جاء أجلها في محل جر بإضافة الظرف إليها والجواب محذوف دلّ عليه ما قبله أي فلن يؤخر نفسا حان حينها واللّه مبتدأ وخبير خبر وبما متعلقان بخبير وجملة تعملون صلة ما وقرىء يعملون بالياء .

البلاغة :

في قوله " يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل " فن يسمى القول بالموجب ، وهو أن يخاطب المتكلم مخاطبا بكلام فيعمد المخاطب إلى كل كلمة مفردة من كلام المتكلم فيبني عليها من كلامه وما يوجب عكس معنى المتكلم لأن حقيقة القول بالموجب ردّ الخصم كلام خصمه من فحوى كلامه فإن موجب قول

المنافقين الآنف الذكر في الآية إخراج الرسول المنافقين من المدينة وقد كان ذلك ، ألا ترى أن اللّه تعالى قال على إثر ذلك : " ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون " ومن أمثلته قول ابن حجاج البغدادي :

قلت : ثقلت إذ أتيت مرارا قال : ثقلت كاهلي بالأيادي

قلت : طولت قال لي : بل تطولت وأبرمت قال : حبل ودادي . انتهى . ا هـ

﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 96.104 ﴾

(374/765)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وسمى (جنة المشتاق فى تفسير كلام الملك الخلاق)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بورسلى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والستون بعد السبعمائة

حقوق النسخ والطبع والنشر مسموح بها لكل مسلم

﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجرا ﴾

الجزء السادس والستون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة التغابن)

(سورة التغابن)

(5/766)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة التغابن

مقصودها الإبلاغ في التحذير مما حذرت منه المنافقون بإقامة الدليل القاطع على أنه لا بد من العرض على الملك الدنيونية على النقير والقطمير يوم القيامة يوم الجمع الأعظم ، واسمها التغابن واضح الدلالة على ذلك ، وهو أدل ما فيها عليه فلذلك سميت به . انتهى ا. هـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 3 ﴾

(6/766)

"فصل"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . يسبح . . . التغابن)

السّورة مكّيّة ، إِلاَّ آخرها : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ ﴾ إِلى آخر السّورة .

وآياتها ثمان عشرة .

وكلماتها مائتان وإِحدى وأَربعون .

وحروفها أَلف وسبعون .

فواصل آياتها (من درّ) وعلى الدّال آية واحدة : حميد .

وسمّيت سورة التَّغابُن ، لقوله فيها : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ .

معظم مقصود السّورة : بيان تسبيح المخلوقات ، والحكمة فى تخليق الخَلْق ، والشكاية من القرون الماضية ، وإِنكار الكفَّار البعثَ والقيامة ، وبيان الثواب والعقاب ، والإِخبار عن عداوة الأَهل والأَولاد ، والأَمر بالتَّقوى حسب الاستطاعة ، وتضعيف ثواب المتَّقين ، والخبر عن اطِّلاع الحقّ على علم الغيب فى قوله : ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ ﴾ الآية .

السّورة خالية عن المنسوخ ، وفيها الناسخ : ﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ وبعده : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ إِنَّما كرّر (ما) فى أَوّل السّورة لاختلاف تسبحي أَهل الأَرض وأَهل السّماءِ فى الكثرة والقِلَّة، والبعد والقرب من المعصية والطَّاعة.

وكذلك اختلاف ما يُسرّون وما يعلنون؛ فإِنهما ضدّان.

ولم يكرّر مع (يعلم) لأَنَّ الكلّ بالإِضافة إِلى علم الله سبحانه جنس واحد؛ لا يخفى عليه شىء.

(7/766)

قوله: ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ ومثله فى الطَّلاق سواءً؛ لكنّه زاد هنا ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾؛ لأَنَّ هذه السّورة بعد قوله: ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ الآيات، فأَخبر عن الكفَّار بسيّئات [تحتاج إِلى تكفير إِذا آمنوا بالله، ولم يتقدّم الخبر عن الكفار بسيِّئات] فى الطلاق فلم يحتج إِلى ذكرها.

فضل السّورة

فيه حديث أُبىّ الواهى:

مَن قرأَ التغابُن رفع عنه موتُ الفُجاءَة، وحديث علىّ: يا علىّ من قرأَها فكأَنَّما تصدّق

بوزن جبل أَبى قُبيس ذهباً فى سبيل الله، وكأَنَّما أَدرك أَلف ليلة من ليالى القَدْر، وله بكلّ آية قرأَها مثل ثُواب مَنْ يصوم ثلاثة أَيّام كلّ شهر. انتهى انتهى. ا هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 467. 468﴾

(8/766)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة التغابن

440 - مسألة :

قوله تعالى : (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) ثم قال تعالى : (يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ثم قال تعالى : (وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) بإثبات (ما) ؟ .

جوابه :

لما كان تسبيح أهل السموات يختلف مع تسبيح أهل الأرض في الكمية والكيفية والإخلاص والمواظبة، ناسب ذلك التفصيل ب (ما) .

ولما كان "العلم" معنى واحدا لا يختلف معناه باختلاف المعلومات ناسبه ذلك حذف

(ما) لاتحاده في نفسه. ولما اختلف معنى "الإسرار والإعلان" ناسب ذلك إتيان

(ما) لما بينهما من البيان، والفرق بينه تعالى وبين غيره

في علم السر والعلن دون السر.

441 - مسألة:

قوله تعالى: (يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ)

وفى الطلاق: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ) أسقط (يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ) ؟ .

جوابه:

لما تقدم قوله تعالى: (وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

دخل فيه أعمال الطاعات، والسيئات.

وقال تعالى: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا) وهو

كفر وسيئة ناسب ذلك: (وَمَنْ يُؤْمِنْ) أي بعد (ما)

كفر عنه سيئاته في سره أو علنه، من أقواله وأفعاله وآية

الطلاق لم يتقدمها ذكر سيئات ولا ما يفهم منه، بل قال:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا) فناسب ذلك

ذكر الصالحات وترك ذكر السيئات. وأيضا تقدم فيها تكفير

السيئات في قوله تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ) فكفى عن إعادته.

442 – مسألة :

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة تمتحنون بها .

وقال تعالى : ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾

وقال تعالى : ﴿يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾

(9/766)

وقال تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ ونحو ذلك من الآيات الدالة على ثناء بعض أرباب الأموال

جوابه :

أنه محمول على الأغلب في الأموال والأولاد ، فقد تأتي (إنما) ولايقصد بها الحصر المطلق كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ وهو بشير أيضا ، ورسول ، وشفيع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿كشف المعاني صـ 358. 360﴾

(10/766)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة التغابن

سميت هذه السورة (سورةَ التغابن) ، ولا تعرف بغير هذا الاسم ولم ترد تسميتها بذلك في خبر مأثور عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سوى ما ذكره ابن عطية عن الثعلبي عن ابن عمر من أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (ما من مولود إلا وفي تشابيك مكتوب خمسُ آيات فاتحةُ سورة التغابن) . والظاهر أن منتهى هذه الآيات قوله تعالى : (والله عليم بذات الصدور) (التغابن : 4) فتأمله . ورواه القرطبي عن ابن عمر ولم ينسبه إلى التعليق فلعله أخذه من تفسير ابن عطية .

ووجه التسمية وقوع لفظ) التغابن ((التغابن : 9) فيها ولم يقع في غيرها من القرآن .

وهي مدنية في قول الجمهور وعن الضحاك هي مكية . وروى الترمذي عن عكرمة عن ابن عباس (أن تلك الآيات نزلت في رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا الهجرة فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدعُوهم يأتون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الحديث . وقال مجاهد : نزلت في شأن عوف الأشجعي كما سيأتي .

وهي معدودة السابعة والمائة في ترتيب نزول السور نزلت بعد سورة الجُمعة وقبل سورة

الصَّف بناء على أنها مدنية .

وعدد آيها ثماني عشرة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ 258 ﴾

(11/766)

وقال الشيخ سيد قطب :

تقديم لسورة التغابن

هذه السورة أشبه شيء بالسور المكية في موضوعها وفي سياقها وفي ظلالها وإيحاءاتها , وبخاصة المقاطع الأولى منها . فلا يكاد الجو المدني يتبين إلا في فقراتها الأخيرة .

والفقرات الأولى إلى ابتداء النداء : يا أيها الذين آمنوا . . تستهدف بناء أسس العقيدة , وإنشاء التصور الإسلامي في القلوب بأسلوب السور المكية التي تواجه الكفار المشركين ابتداء , وتخاطبهم بهذا التصور خطاب المبتدئ في مواجهته . ثم هي تستخدم المؤثرات الكونية والنفسية كما تستعرض مصائر الغابرين من المكذبين قبلهم ; وتعرض عليهم مشاهد القيامة لإثبات البعث , وتوكيده توكيدا شديدا , يدل على أن المخاطبين به من المنكرين الجاحدين .

فأما الفقرات الأخيرة فهي تخاطب الذين آمنوا بما يشبه خطابهم في السور المدنية , لحثهم

على الإنفاق , وتحذرهم فتنة الأموال والأولاد . وهي الدعوة التي تكررت نظائرها في العهد المدني بسبب مقتضيات الحياة الإسلامية الناشئة فيها . كما أن فيها ما قد يكون تعزية عن مصاب أو تكاليف وقعت على عاتق المؤمنين , ورد الأمر فيها إلى قدر الله , وتثبيت هذا التصور . . وهو ما يتكرر في السور المدنية وبخاصة بعد الأمر بالجهاد وما ينشأ عنه من تضحيات .

ولقد وردت روايات أن السورة مكية , ووردت روايات أخرى أنها مدنية مع ترجيحها . وكدت أميل إلى اعتبارها مكية تأثرا بأسلوب الفقرات الأولى فيها وجوها . ولكني أبقيت اعتبارها مدنية - مع الرأي الراجح فيها - لأنه ليس ما يمنع أن تكون الفقرات الأولى فيها خطابا للكفار بعد الهجرة سواء كانوا كفار مكة أم الكفار القريبين من المدينة . كما أنه ليس ما يمنع أن يستهدف القرآن المدني في بعض الأحيان جلاء أسس العقيدة , وإيضاح التصور الإسلامي , بهذا الأسلوب الغالب على أسلوب القرآن المكي . . والله أعلم . .

(12/766)

والمقطع الأول في السورة يستهدف بناء التصور الإيماني الكوني , وعرض حقيقة الصلة بين الخالق - سبحانه - وهذا الكون الذي خلقه . وتقرير حقيقة بعض صفات الله وأسمائه

الحسنى وأثرها في الكون وفي الحياة الإنسانية:

(يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض , له الملك وله الحمد , وهو على كل شيء قدير . هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير . خلق السماوات والأرض بالحق , وصوركم فأحسن صوركم , وإليه المصير . يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون . والله عليم بذات الصدور) . .

وهذا التصور الكوني الإيماني هو أدق وأوسع تصور عرفه المؤمنون في تاريخ العقيدة . ولقد جاءت الرسالاتالإلهية كلها بوحدانية الله , وإنشائه لهذا الوجود ولكل مخلوق , ورعايته لكل كائن في الوجود . . لا نشك في هذا لأن القرآن يحكيه عن الرسل وعن الرسالات كلها . ولا عبرة بما نجده في الكتب المفتراة والمحرفة ; أو فيما يكتبه عن الديانات المقارنة أناس لا يؤمنون بالقرآن كله أو بعضه . إنما جاء الانحراف عن العقيدة الإيمانية من أتباعها , فبدا أنها لم تأت بالتوحيد الخالص , أو لم تأت بهيمنة الله واتصاله بكل كائن . فهذا من التحريف الطارئ لا من أصل الديانة . فدين الله واحد منذ أولى الرسالات إلى خاتمة الرسالات . ويستحيل أن ينزل الله دينا يخالف هذه القواعد , كما يزعم الزاعمون بناء على ما يجدونه في كتب مفتراة أو محرفة باسم الدين !

ولكن تقرير هذه الحقيقة لا ينافي أن التصور الإسلامي عن الذات الإلهية , وصفاتها العلوية , وآثار هذه الصفات في الكون وفي الحياة الإنسانية . . أن هذا التصور أوسع وأدق وأكمل

من كل تصور سابق في الديانات الإلهية . . وهذا متفق مع طبيعة الرسالة ومهمتها الأخيرة . ومع الرشد البشري الذي جاءت هذه الرسالة لتخاطبه وتوجهه ; وتنشئ فيه هذا التصور الشامل الكامل بكل مقتضياته وفروعه وآثاره .

(13/766)

ومن شأن هذا التصور أن يدرك القلب البشري - بمقدار ما يطيق - حقيقة الألوهية وعظمتها , ويشعر بالقدرة الإلهية ويراها في آثارها المشهودة في الكون , ويحسها في ذوات الأنفس بآثارها المشهودة والمدركة ; ويعيش في مجال هذه القدرة وبين آثارها التي لا تغيب عن الحس والعقل والإلهام . ويراها محيطة بكل شيء , مهيمنة على كل شيء , مدبرة لكل شيء , حافظة لكل شيء , لا يند عنها شيء . سواء في ذلك الكبير والصغير والجليل والحقير .

ومن شأنه كذلك أن يعيش القلب البشري في حساسية مرهفة , وتوفز دائم , وخشية وارتقاب , وطمع ورجاء ; وأن يمضي في الحياة معلقا في كل حركة وكل خالجة بالله , شاعرا بقدرته وهيمنته , شاعرا بعلمه ورقابته , شاعرا بقهره وجبروته , شاعرا برحمته وفضله , شاعرا بقربه منه في كل حال .

وأخيرا فإن من شأنه أن يحس بالوجود كله متجها إلى خالقه فيتجه معه , مسبحا بحمد ربه فيشاركه تسبيحه , مدبرا بأمره وحكمته فيخضع لشريعته وقانونه . . ومن ثم فهو تصور إيماني كوني بهذا المعنى , وبمعان أخرى كثيرة تتجلى في المواضع المتعددة في القرآن التي تضمنت عرض جوانب من هذا التصور الإيماني الشامل الكامل المحيط الدقيق . وأقرب مثل منها ما ورد في ختام سورة الحشر , في هذا الجزء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3582.3584 ﴾

(14/766)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة التغابن

مدنية وآياتها ثمان عشرة آية

بين يدي السورة

* سورة التغابن من السور المدنية التي تعنى بالتشريع ، ولكن جوها جو السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية .

* تحدثت السورة الكريمة عن جلال الله وعظمته وآثار قدرته ، ثم تناولت موضوع

الإنسان المعترف بربه ، والإنسان الكافر الجاحد بآلاء الله [يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن . .] الآيات .

* وضربت الأمثال بالقرون الماضية ، والأمم الخالية ، التي كذبت رسل الله ، وما حل بهم من العذاب والدمار ، نتيجة لكفرهم وعنادهم وضلالهم [ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم . .] الآيات .

* وأقسمت السورة على أن البعث حق لابد منه ، أقر به المشركون أو أنكروه [زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربي لتبعثن . .] الآيات .

* وأمرت بطاعة الله وطاعة رسوله ، وحذرت من الإعراض عن دعوة الله [وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين ، .

* كما حذرت من عداوة بعض الزوجات والأولاد ، فإنهم كثيرا ما يمنعون الإنسان عن الجهاد والهجرة [يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم . .] الآيات .

* وختمت السورة بالأمر بالإنفاق في سبيل الله لإعلاء دينه ، وحذرت من الشح والبخل ، فإن من صفات المؤمن ، الإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاته ، وهو شطر الجهاد ، حيث ينقسم إلى قسمين : جهاد بالنفس ، وجهاد بالمال [وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح

نفسه فأولئك هم المفلحون . .] الآيات إلى نهاية السورة الكريمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ صفوة التفاسير ـ 3 صـ 390 ﴾

(15/766)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة التغابن

ألم يأتكم : هذا الاستفهام للتعجب من حالهم ، والنبأ : الخبر الهام وأصل الوبال : الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور ، ومنه الطعام الوبيل أي الثقيل على المعدة ، والوابل : للمطر الثقيل القطر ، ثم استعمل فى الضر لأنه يثقل على الإنسان ، والأمر : الكفر وعبر به للإيذان بأنه جناية عظيمة وأمر هائل ، والبينات : المعجزات ، وتولوا : أعرضوا ، واستغنى اللّه : أي أظهر غناه عنهم إذ أهلكهم وقطع دابرهم .

زعم فلان كذا : أي ادعى علمه بحصوله ، وأكثر ما يستعمل للادعاء الباطل ، بلى : كلمة للجواب تقع بعد النفي لإثبات ما بعده كما وقع فى الآية ، لتبعثن : أي لتحاسبنّ وتجزونّ بأعمالكم ، والنور : هو القرآن وسمى بذلك لأنه بيّن فى نفسه مبيّن لغيره ، والخبير : هو

العليم ببواطن الأشياء ، يوم الجمع : هو يوم القيامة سمى بذلك لأن اللّه يجمع فيه الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، والتغابن ، من قولهم : تغابن القوم فى التجارة : إذا غبن بعضهم بعضا كأن يبيع أحدهم الشيء بأقل من قيمته ، فهذا غبن للبائع ، أو يشتريه بأكثر من قيمته ، وهذا غبن للمشترى .

المصيبة : ما ينال الإنسان ويصيبه من خير أو شر ، بإذن اللّه : أي بقدرته ومشيئته ، يهد قلبه : أي يشرحه لازدياد الخير والطاعة .

فتنة : أي بلاء ومحنة ، ومن يوق : أي من يحفظ نفسه ، والشح : البخل مع الحرص ، والقرض الحسن : هو التصدق من الحلال بإخلاص وطيب نفس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المراغى حـ 28 صـ 120 . 128 ﴾ . باختصار .

(16/766)

وقال الفراء :

سورة (التغابن)

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قوله جل وعز: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ . . . ﴾ .

يريد: إلا بأمر الله، ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ عند المصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويقال: يهد قلبه إذا ابتُلى صبر، وإذا أُنعم عليه شكر، وإذا ظُلِمَ غفر، فذلك قوله يهد قلبه [١/].

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ. . . ﴾.

نزلت لما أُمر الناس بالهجرة من مكة إلى المدينة، فكان الرجل إذا أراد أن يهاجر تعلقت به امرأته وولده، فقالوا: أين تضعنا، ولمن تتركنا؟ فيرحمهم، ويقيم متخلفاً عن الهجرة، فذلك قوله: ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ أى: لا تطيعوهم فى التخلف.

وقوله: ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ . . . ﴾.

نزلت فى أولاد الذين هاجروا، ولم يطيعوا عيالاتهم لأنهم قالوا لهم عند فراقهم للهجرة: لئن لم تتبعونا لا ننفق عليكم، فلحقوهم بعد بالمدينة، فلم ينفقوا عليهم، حتى سألوا رسول الله صلى الله عليه فنزل: وإن تعفوا وتصفحوا، وتنفقوا عليهم، فرخص لهم فى الإنفاق عليهم.

﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ

فَأُوْلَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ . . . ﴾ .

(17/766)

يقال: من أدّى الزكاة فقد وُقِى شح نفسه ، وبعض القراء قد قرأ "ومَنْ يُوقَ شِحَّ نَفْسِه" ، بكسر الشين ، ورفَعها الأغلب فى القراءة. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 161 ﴾

(18/766)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة التغابن

(فمنكم كافر) [2] بأنه خلقه . (ذلك يوم التغابن) [9] سمي [بالتغابن] ، لأن الله أخفاه .

والغبن: الإخفاء ، ومغابن الجسد : ما يخفى عن العين ، والغبن: في البيع ، لخفائه/على صاحبه . ويجوز أن يكون التغابن في يوم القيامة ، لا من إخفاء الله إياه ، بل من [إخفاء] أمر

المؤمن على الكافر في الدنيا ، فكأن الكافر والظالم يظنان أنهما غبنا المؤمن بنعيم الدنيا ، والمظلوم بما نقصه من حقه وتلمه من ماله ، وقد غبنهما المؤمن والمظلوم على الحقيقة بنعيم الآخرة وجزائهما ، فلما صار الغبن من وجهين أحدهما ظن والآخر حق ، جرى على باب التفاعل .

(وأولادكم عدواً لكم) [14] كانوا يمنعونهم من الهجرة . (وإن تعفوا وتصفحوا) كان من المهاجرين من قال: إذا رجعت إلى مكة لا ينال أهلي مني خيراً ، لصدهم إياي عن الهجرة ، فأمروا بالصفح . ويكون العفو بإذهاب آثار الحقد عن القلوب ، كما تعفوا الريح الأثر .

والصفح: الإعراض عن المعاتبة .

[تمت سورة التغابن] . انتهى انتهى . اهـ ﴿باهر البرهان صـ 1508 . 1509﴾

(19/766)

وقال الأخفش :

سورة (التغابن)

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

قال ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ فجمع لأن "البَشَر" في المعنى جماعة. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش جـ 2 صـ 543 ﴾

(20/766)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة التغابن

مكية إلا ثلاث آيات «1» من قوله : . . . إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ إلى قوله : فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

نزلت بالمدينة.

11 - وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ يقال : «إذا ابتلي صبر ، وإذا أنعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفر».

15 - نَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ

أي إغرام ، كما يقال : فتن فلان بالمرأة وشغف بها .

وأصل «الفتنة» : البلوي والاختبار .

16 - وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ قال ابن عيينة : «الشّح» : الظلم .

وليس الشح ان تبخل بما في يدك ، لأن اللّه تعالى يقول : وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ

[سورة الحمد آية: 38]» . انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 402 ﴾

---

(1) وقيل أنها مدنية.

(21/766)

وقال الغزنوى:

سورة التغابن

9 ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ لأن اللّه أخفاه «1» . والغبن: الإخفاء «2» ، ومغابن الجسد ما يخفى عن العين، والغبن في البيع لخفائه على صاحبه. أو هو من إخفاء أمر المؤمن على الكافر، فالكافر أو الظالم يظن أنه غبن المؤمن بنعيم الدنيا والمظلوم بما نقصه، وقد غبنهما المؤمن والمظلوم على الحقيقة بنعيم الآخرة وجزائها.

14 وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ كانوا يمنعونهم من الهجرة «3» .

---

(1) ذكره الماوردي في تفسيره: 4/ 246. [. . . . .]

(2) اللسان: 13/ 310 (غبن) .

(3) ينظر تفسير الطبري: 28/ 124، وأسباب النزول للواحدي: 500، وتفسير الماوردي: 4/ 247، وتفسير ابن كثير: 8/ 165.

(22/766)

وَإِنْ تَعْفُوا كان من المهاجرين من قال: إذا [رجعت] «1» إلى مكة لا ينال أهلي مني خيرا بصدّهم إياي عن الهجرة فأمروا بالصّفح «2»، ويكون العفو بإذهاب آثار الحقد عن القلوب كما تعفو الريح الأثر.

والصّفح: الإعراض عن المعاتبة. وفي الحديث «3»: «لا يستعيذنّ أحدكم من الفتنة فإن اللّه يقول: نّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ

فأيّكم استعاذ فليستعذ باللّه من مضلات الفتن».

16 فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وذلك فيما قد وقع بالنّدم مع العزم على ترك معاودته وفيما لم يقع بالاحتراز عن أسبابه.

وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ ايتوا في الإنفاق خيرا لكم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن/ للغزنوى حـ 2 صـ 818.819 ﴾

---

(1) في الأصل: «راجعت»، والمثبت في النّص عن «ك».

(2) تفسير الطبري: (28/ 124، 125)، وتفسير الماوردي: 4/ 248.

(3) أخرج نحوه الطبراني في المعجم الكبير: 9/ 213 حديث رقم (8931) عن ابن مسعود رضي اللّه عنه موقوفا، واللفظ عنده: «لا يقل أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، فإنه ليس منكم أحد إلا يشتمل على فتنة، ولكن من استعاذ فليستعذ من معضلاتها، فإن اللّه عزّ وجلّ يقول: نَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ اه- .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد: 7/ 223: وإسناده منقطع.

والحديث ذكره البغوي في تفسيره: 4/ 354 عن ابن مسعود بدون سند.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 8/ 185، وعزا إخراجه إلى الطبراني وابن المنذر عن ابن مسعود رضي اللّه عنه موقوفا.

(23/766)

وقال ملاحويش:

تفسير سورة التغابن

عدد 22 - 108 - 64

نزلت بالمدينة بعد سورة التحريم.

وهي ثماني عشرة آية ، ومئتان وأربعون كلمة ، والف وسبعون حرفا .

ومبدأها كمبدأ الآية الأولى من سورة الجمعة فقط ، وختمت بما ختمت به سورة الحشر والجاثية ، ولا يوجد مثلها في عدد الآي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ" الدنيوي والملكوت الأخروي يتصرف فيهما كيف يشاء ويحكم بمن فيهما كما يريد "وَلَهُ الْحَمْدُ" من كافة خلقه على نعمائه راجع بحث الحمد في المقدمة وبحث التسبيح أول سورة الحديد المارة "وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (1) لا يعجزه شيء ولا يفلت منه أحد ولا يفوته فائت لا مانع ولا مدافع له ولا معقب لحكمه ولا راد لقضائه "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ" أيها الناس من نفس واحدة "فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ" في هذه الدّنيا كما أنتم في الأزل عند اللّه وسيعيدكم في الآخرة كذلك "وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" (2) قبل أن تعملوه لا يعزب عنه شيء من أعمالكم الموافقة لما هو في علمه ومدونة في لوحه .

روى مسلم عن عائشة رضي اللّه عنها وعن أبيها أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال إن اللّه خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق النار أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم .

راجع ما يتعلق في هذا البحث في الآية 58 من سورة هود في ج 2 وما ترشدك إليه من

المواضع.

قال تعالى "خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ" لا عبثا ولا لهوا ولا لعبا وباطلا "وَصَوَّرَكُمْ" أيها النّاس في أرحام أمهاتكم، وجعل فيكم روحا منه لا رادة غيركم، وجمّلكم "فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ" في هذه الدّنيا لأنها على صورته، فقد صح عنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال إن اللّه خلق آدم على صورته.

وفي رواية على صورة الرّحمن.

(24/766)

وهذه نافية لقول من قال إن الضّمير في صورته يعود على آدم لا على اللّه جل جلاله، وهو بعيد جدا عن المعنى، وقد أراد هذا القائل التحاشي عن وصفه تعالى بسمات خلقه، مع أنه لا مانع من القول أن اللّه تعالى له وجه ويد لا كأوجه خلقه

(25/766)

وأيديهم ، وهو ما مشى عليه الماتريدية أجمع ، أما الأشعرية فلا يقولون بهذا ، ويقولون ما جاء في القرآن من هذه السّمات بالقدرة والكمال والرّحمة وشبهها "وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ" (3) في الآخرة لا إلى غيره راجع الآية 7 من آل عمران المارة في بحث الأرحام وما يتعلق بها "يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" من حركة أو سكون "وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ" أيها النّاس في صدوركم وتحدثون به أنفسكم ويلوح في خاطركم "وَما تُعْلِنُونَ" من أقوالكم وأفعالكم "وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ" (4) في مكامنها ودخائلها وما تحوكه من نية أو خطرة أو هاجس قال تعالى "أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ" من الأمم السالفة كيف فعلنا بهم لما كذبوا رسلنا وأصروا على جحودنا أهلكناهم "فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ" جزاء ما وقع منهم في الدّنيا ، فدمرناهم تدميرا فظيعا "وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ" (5) في الآخرة لا تطيقه القوى البشرية ، ولا الجبال الرّاسيات ، فاتعظوا أيها النّاس بما جرى بهم ، واعتبروا بسوء عاقبتهم ، وارجعوا لربكم كيلا يصيبكم ما أصابهم "ذلِكَ" الذي حل بهم من العذاب الدّنيوي ، والذي سيجازون عليه في الآخرة "بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا" ساخرين بهم ومستهزئين "أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا" استفهام انكاري أي كيف يهدي البشر مثله ؟ وهذا من سخافة عقولهم لأنهم ينكرون هداية البشر لمثله ولم ينكروا على أنفسهم إضلال البشر لمثله وعبادة الأوثان وطلب الخير في الدّنيا والشّفاعة في الآخرة منها "فَكَفَرُوا" بالله ورسله بما جاءوهم من عند اللّه ولم يأخذوا بما جاءوهم لهدايتهم "وَتَوَلَّوْا" عن الانقياد لطاعتهم

والإيمان بربهم، وأصروا على الكفر والطغيان "وَاسْتَغْنَى اللَّهُ" عنهم وعن إيمانهم "وَاللَّهُ غَنِيٌّ" عن جميع خلقه برهم وفاجرهم "حَمِيدٌ 6" لمن

(26/766)

آمن به وصدق رسله ثم ذكر نوعا آخر من سفههم الذي كانوا عليه، فقال "زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا" بعد موتهم في الدّنيا فأنكروه ولم يصدقوا الرّسل بإخبارهم بالبعث يوم القيامة تبعا لعقيدتهم الجاهلية، إذ كان آباؤهم ينكرون ذلك ويجحدون الحساب والعقاب والثواب "قُلْ" لهؤلاء الحمقى يا سيد الرّسل "بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ" من قبوركم

يوم القيامة يوم يقوم النّاس لرب العالمين مخلوقين خلقا ثانيا من أجزائهم لمتفتتة، ويعودون كما كانوا عليه في الدّنيا "ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ" في ذلك اليوم "بِما عَمِلْتُمْ" في دنياكم وتعلمون جهلكم بالخلق الأوّل أدى لجهلكم بالخلق الثاني "وَذلِكَ" البعث بعد الموت والإنباء بما كان منكم وعليكم في الدّنيا "عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" 7 سهل

هين لا كلفة فيه، وكما أن خلقكم أول مرة بمجرد قول كن فكذلك تكون إعادتكم، وهي كلمة جزئية لا صعوبة فيها لو أنها تصدر من الخلق فكيف إذا صدرت من الخالق بلا صوت ولا حرف "فَآمِنُوا بِاللَّهِ" الذي خلقكم أيها النّاس ثم أماتكم بأنه يحييكم ثانيا "وَرَسُولِهِ"

الذي أرسله لهدايتكم آمنوا أيضا "وَالنُّورِ" أي الكتاب "الَّذِي أَنْزَلْنا" عليه كما أنزلنا على من قبله من الأنبياء آمنوا أيضا ، إذ لا يكفي الإيمان باللّه دون الإيمان برسوله وكتابه ، كما لا يكفي الإيمان بالكتاب والرّسول دون الإيمان بمنزل الكتب ومرسل الرّسل "وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" (8) لا يغرب عنه مثقال ذرة في السّموات ولا في الأرض ، واحذروا أيها النّاس "يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ" هو يوم القيامة إذ يجمع فيه الأولون والآخرون من أهل السّماء والأرض .

مطلب يوم التغابن في الآخرة وفتنة الأموال والأولاد في الدّنيا والأمر بالتقوى حسب الاستطاعة وذم البخل وفضل الصّدقة :

(27/766)

ذلك اليوم المسمى يوم الجمع هو "يَوْمُ التَّغابُنِ" الذي يظهر بالأعمال والأقوال الذي ما بعده تغابن ، بخلاف تغابن الدّنيا الذي يكون بالتجارة وشبهها فإنه فان لا قيمة له ، لأن هذا يضع اللّه تعالى به سعداء الدّنيا فقط منازل الأشقياء في الآخرة والأشقياء بالدنيا بسبب الفقر والفاقة والصّبر على الأذى فيها من أجل إيمانهم باللّه ورسله الّذين ماتوا على ذلك مكان السّعداء في الآخرة ، وإذ ذاك يظهر غبن الكافر بتركه الإيمان الموصل للسعادة الأخروية ،

فيتأسف ويندم ولات حين مندم ، ويرد العود إلى الدّنيا ليعمل الخير وهيهات ، وكذلك يظهر غبن المؤمن المقصر في الأعمال الصّالحة لأنه يرى من كان دونه في الدّنيا أعلى منه رتبة في الآخرة وأحسن مكانا ومكانة عند اللّه وأعلى درجة في الجنّة ، فيندم أيضا على تقصيره ويعضّ يديه على تفريطه ، قال عليه الصّلاة والسّلام ما من أحد إلّا ندم يوم القيامة إن كان محسنا ندم أن لا ازداد ، وإن كان كافرا ندم ، أن لا أقلع عن كفره .

(28/766)

"وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً" في دنياه مع إيمانه فإنه تعالى "يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ" في الآخرة "وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً" لا يتحولون عنها "ذلِكَ" التكفير والإدخال هو "الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (9) الذي لا أعظم منه لما فيه من بلوغ الغاية التي كان يتوخاها في حياته ومنتهى الأمل الذي كان يؤمله بعد وفاته "وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا" الدالة على ذلك اليوم الذي يتغابن به النّاس "أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها" أبدا لا يخرجون منها ، وقد حذف من الجملة الثانية اكتفاء بوجودها في الأولى ، وقدم مثله في الآية 35 من سورة الرّعد فراجعها "وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" (10) النار لأهلها ، وهذه الجملة بمقابلة الجملة الأخيرة في الآية قبلها وهي (الفوز العظيم) وهذا تغابن لا أعظم منه ، لأن أناسا ينعمون في الجنّة

وآخرين يعذبون في النّار ، ويرى بعضهم بعضا ويتعارفون فيها كما كانوا في الدّنيا ، فهل يوجد أعظم من هذا التغابن كلا .

(29/766)

واعلموا أيها النّاس إنه "ما أَصابَ" أحد "مِنْ مُصِيبَةٍ" سقم أو ضر أو فقر أو عناء أو عصيان أو كفر أو كلّ شر "إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ" وقضائه وقدره وإرادته ، وكذلك الصّحة والعافية والغنى والطّاعة والإيمان والهناءة وكلّ خير هو بقدره وقضائه وإرادته ورضاه ، وكل ذلك مدون في لوحه قبل خلق الخلق ، راجع الآية 22 من سورة الحديد المارة "وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ" ويعتقد أن المصائب بقضائه وقدره ، وأن من يصبر على ما أصابه ويسلم أمره إليه ويعلم أن لا محيد له عما كتبه عليه "يَهْدِ قَلْبَهُ" فيوفقه للإيقان المحض بما يقذف فيه من النّور والمعرفة ، ويجعله راضيا بكل ما يصيبه فيكون من الّذين رضى اللّه عنهم ورضوا عنه المعلومين عنده في أزله "وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (11) من كلّ ما يصيب عباده قبل أن يصيبهم ، لأنه مقدره عليهم في غيبه ويعلم الصّابر والجازع والرّاضي والغضبان ، راجع الآية 10 من سورة الليل ، والآية 121 من سورة طه في ج 1 ، والآية 78 من سورة النّساء المارة فيما يتعلق في هذا البحث ، وفيهما ما يرشدك لمراجعة غيرهما من المواضع .

(30/766)

قال تعالى "وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ" كرر الفعل تأكيدا وإعلاما بأن طاعة أحدهما لا تغني عن طاعة الآخر وعدم قبول إحداهما بغير الأخرى "فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ" أيها النّاس عن هذه الطّاعة ، فالوبال على أنفسكم في الدّنيا والآخرة "فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ" (12) فقط وقد بلغ ونصح وأرشد وأنذر وأعذر وقام بكل ما كلف به ، وليس عليه أن يقسركم على الأخذ بقوله والاقتداء بفعله ، بل بل يترككم وشأنكم ، فاعملوا أيها النّاس الخير وتيقنوا أن ربكم "اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ" لا رب غيره ولا معبود سواه ، هو المحيي المميت الضّار النّافع ، فآمنوا به وأطيعوه "وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" (13) في جميع أمورهم وهو يهديهم إلى سواء السّبيل الموصل إلى جنته ، ومن يتوكل على اللّه فهو حسبه "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ" لفظ من هنا للتبعيض ، لأن منهم أولياء لهم أودّاء بارّين بهم مقسطين لهم يأمنونهم كأنفسهم وإن منهم "عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ" من أن يوقعوا فيكم أذى ، وأنتم غافلون عنهم محسنون الظّن بهم ، وذلك بسبب ما بأيديكم من حطام الدّنيا وهذه الآية عامة مستمرة شاملة ما قبلها وبعدها إلى يوم القيامة .

(31/766)

وسبب نزولها أن رجالا منعهم أزواجهم وأولادهم من الغزو في سبيل الله خوفا من أن يقتلوا ويتركوهم وان رجالا أسلموا ومنعهم أزواجهم وأولادهم من الالتحاق برسول الله ، فحذرهم الله من طاعتهم ، ولما جاءوا أخبروا عند نزول هذه الآية بأن إخوانهم الذين هاجروا قبلهم تفقهوا في الدين ، فهموا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم ، فأنزل الله هذه الآية وأردفها بقوله "وَإِنْ تَعْفُوا" عنهم "وَتَصْفَحُوا" عما وقع منهم "وَتَغْفِرُوا" زلتهم هذه "فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ" لكم ولهم ولكل من ينيب إليه ويستغفره "رَحِيمٌ" (14) بعباده يحب العفو عنهم.

تحذر هذه الآية من الركون إلى الأزواج والأولاد ، فعلى العاقل يكون شديد الحذر من غير الصالحين من ان هذين الصنفين ، فإن كثيرا من الزوجات والأولاد قتلوا أزواجهم وآبائهم بقصد التزوج بغيره والاستيلاء على ماله ولا سيما في هذا الزمن ولا حول ولا قوة إلا بالله نما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ"

عظيمة وبلاء جسيم ، يختبركم الله بهم ، فهم سبب وقوعكم في تناول الحرام والاعتداء على الغير ، فإياكم والافتتان بالمال والولد من أن يسوقاكم إلى ما يغضب الله وينسيكم أنفسكم فتهلكوا .

وإياكم إياكم أن تستغنوا بالمال ، فإن الله يفقركم ، أو تعتمدوا على أولادكم إلا بما يرضي الله

، فإذا فعلتم ما أمرتم به بشأن المال والولد وانتهيتم مما نهيتم عنه فيهما وفي الأزواج سلمتم من فتنتهم وأمنتم من شرهم ونفعوكم في الدّنيا والآخرة "اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ"

(32/766)

---

(15) لمن يفوض أمره إليه ولا يعتمد إلّا عليه ولا يغتر بمال أو ولد أو جاه أو قوة ، راجع الآية 29 من سورة الأنفال المارة المصدرة به بلفظ اعلموا تنبيها إلى أن ما فيها لازم الأخذ واجب التقيد فيه "فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ" غاية جهدكم ونهاية وسعكم ، وهذه الآية كالتفسير لقوله تعالى (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ) الآية 103 من آل عمران المارة لا ناسخة لها كما قاله بعض المفسرين ، لأن
حق التقوى تفريغ ما في الوسع من طاقة العبد لا أكثر ولا أقل كما بيناه في الآية الملح إليها "وَاسْمَعُوا" ما يتلى عليكم من كتاب اللّه وسنة رسوله سماع قبول واعملوا بهما طاقتكم "وَأَطِيعُوا" اللّه ورسوله فيما يأمرانكم به وينهاكم عنه ، برغبة وطيب نفس "وَأَنْفِقُوا" مما رزقكم اللّه على عياله وأرحامكم لأن المال الذي أعطاكم إياه من فضله وجوده فنحكموه لتجودوا به على أنفسكم وغيركم ممن أوجب عليكم رزقهم منه وعلى الفقراء والمساكين فإذا فعلتم هذا كان "خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ" عند ربكم وأعظم أجرا ، ولا تميلوا إلى الشّح فيما

منّ به عليكم فيكون عاقبته شرا لأنفسكم "وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (26) الفائزون عند اللّه في الآخرة المنتفعون بما خولهم به من النعم الواجدون ثوابها وجزائها في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون .

واعلموا أيها الناس انكم "إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً" بأن تتصدقوا من حلالكم طلبا لمرضاة اللّه وابتغاء وجهه وتقربا إليه على فقرائه "يُضاعِفْهُ لَكُمْ" من عشرة إلى ما شاء اللّه ، لا تحديد على الكريم الجواد الذي يعطي بغير حساب ، لأنه جل شأنه لا يخشى من النّفاد ويعطي بلا عوض ولا لغرض "وَيَغْفِرْ لَكُمْ" ذنوبكم

(33/766)

وما تقدم من شحكم "وَاللَّهُ شَكُورٌ" لفعل عباده المتصدقين "حَلِيمٌ" 17 بعدم تعجيل سلب نعمه من البخلاء علمهم يرجعوا ويتوبوا فيتصدقوا مما منحهم اللّه على عياله واللّه سبحانه "عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ" يعلم ما في النّيات والضمائر كما يعلم الأقوال والأفعال الظّاهرة لا يختلف علمه فيهما "الْعَزِيزُ" الغالب على عباده القادر على سلب النّعم من لم يشكرها "الْحَكِيمُ" (18) بإبقائها على الشّاكرين وزيادتها لهم ، وما هو مقدر على السّلب والإبقاء من حكم لا يعلمها غيره ، وقد يعلمها البشر عند ظهورها .

وختمت هذه السّورة بهذا الاسم الكريم لما انطوت عليه من حكم جليله .

هذا واللّه أعلم .

وأستغفر اللّه .

ولا حول ولا قوة إلّا باللّه العلي العظيم .

وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين وسلم تسليما كثيرا دائما إلى يوم الدّين ، ومن تبعهم بإحسان آمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿بيان المعاني جـ 6 صـ 248.242﴾

(34/766)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة التغابن

مكية أو مدنية

وما في الأرض حسن وقال أبو عمرو كاف وقيل تام وله الحمد كاف قدير تام ومنكم مؤمن كاف بصير تام فأحسن صوركم كاف وقال أبو عمرو تام المصير حسن وما تعلنون كاف

بذات الصدور تام أليم حسن يهدوننا وكذا قوله وقولوا وقوله واستغنى الله حميد تام أن إن يبعثوا كاف وكذا أنزلنا وخبير يوم التغابن تام أبدا كاف العظيم تام خالدين فيها كاف المصير تام وكذا بإذن الله قلبه كاف عليم حسن الرسول كاف المبين تام خالدين فيها كاف المؤمنون تام فاحذروهم حسن رحيم تام فتنة كاف عظيم حسن لا نفسكم تام وكذا المفلحون ويغفر لكم كاف شكور حليم آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿المقصد صـ ﴾

(35/766)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة التغابن

مكية أو مدنية إلاَّ ثلاث آيات من آخرها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي وذلك أنَّه أراد الغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم فاجتمع أهله وولده وثبَّطوه وشكوا إليه فراقه فرَقَّ ولم يغز فأنزل الله يا أيها الذين آمنوا أنَّ من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم إلى آخرها وهي ثمان عشرة آية وكلمها مائتان وإحدى وأربعون كلمة وحروفها ألف وسبعون حرفاً

وما في الأرض (حسن)

وله الحمد (كاف)

قدير (تام)

مؤمن (كاف)

بصير (تام) بالحق ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله

فأحسن صوركم (كاف) ومثله المصير

والأرض (جائز)

وما تعلنون (كاف)

بذات الصدور (تام)

من قبل (جائز)

وبال أمرهم (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده متصلاً بما قبله

أليم (تام)

يهدوننا (حسن)

وتولوا (أحسن) منه

واستغنى الله (أحسن) منهما

حميد (تام)

أن لن يبعثوا (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده متصلاً بما قبله

وتقدم أنَّه متى اتصلت بلى بشرط نحو بلى من كسب بلى من أسلم بلى أن تصبروا وكذا إن

اتصلت بقسم نحو ما هنا قل بلى وربي قالوا بلى وربنا لم يوقف عليها لأنَّها إثبات للنفي السابق عليها

لتبعثن (جائز) ومثله بما عملتم

يسير (تام)

أنزلنا (كاف)

خبير (كاف) إن نصب يوم بمقدَّر وقيل ليس بوقف لأنَّ قوله يوم يجمعكم ظرف لما قبله فلا يوقف من زعم الذين كفروا إلى قوله ليوم الجمع إذ المعنى وربي لتبعثنَّ يوم يجمعكم في هذا اليوم فيجازيكم على حسب أعمالكم

يوم التغابن (تام) عند نافع وسمي يوم القيامة يوم التغابن لأنَّه يغبن فيه أهل الجنة أهل النار ويغبن فيه من كثرت طاعته من كثرت معاصيه

أبداً (كاف)

العظيم (تام)

بآياتنا ليس بوقف لأن خبر والذين لم يأت بعد

خالدين فيها (كاف)

المصير (تام)

بإذن الله (حسن) وتام عند أبي حاتم

قلبه (كاف)

عليم (تام)

وأطيعوا الرسول (كاف) للابتداء بالشرط

المبين (تام)

إلا هو (حسن)

المؤمنون (تام) ومثله فاحذروهم وكذا غفور رحيم

فتنه (كاف)

عظيم (تام) روي أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقي حذيفة بن اليمان يوماً فقال له عمر كيف أصبحت يا حذيفة فقال أصبحت أحبُّ الفتنة وأكره الحق وأقول ما ليس بمخلوق وأصلي بغير وضوء وأشهد بما لم أر ولي في الأرض ما ليس لله في السماء فغضب عمر فمضى حذيفة وتركه فأقبل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فرأى أثر الغضب في وجه عمر فقال له علي ما يغضبك يا أمير المؤمنين فقص عليه ما جرى له مع حذيفة فقال عليّ صدق حذيفة أليس أنَّه قال أحب الفتنة أصبح يحب المال والولد قال تعالى إنَّما أموالكم

وأولادكم فتنة ويكره الموت وهو حق ويقرأ القرآن وهو ليس بمخلوق ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم على غير وضوء ويشهد أن لا إله إلاَّ الله

وهو لم يره وله في الأرض زوجة وبنون وليس لله تعالى زوجة ولا بنون

ما استطعتم (حسن) (تام) للابتداء بالشرط ومثله المفلحون

ويغفر لكم (كاف)

حليم (تام) إن جعل عالم مبتدأ وقوله العزيز خبره وكاف إن جعل خبر مبتدأ محذوف وكذا إن نصب بأغنى وليس بوقف إن جعل نعتاً لما قبله أو بدلاً منه أو خبراً بعد خبر

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(37/766)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة التغابن :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "يَهْدأ قَلْبَهُ1" ، مهموزا – عكرمة وعمرو بن دينار .

قال أبو الفتح : أي : يطمئن قلبه ، كما قال : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ2 ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 322 ﴾

---

1 سورة التغابن : 11 .

2 سورة النحل : 106 .

(38/766)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة التغابن

مدنية في قول الأكثرين وقيل مكية إلا ثلاث آيات يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم واللتا ن بعدها فمدنية وآيها ثماني عشرة مشبه الفاصلة ثلاث ما تسرون وما تعلنون التغابن القراآت عن الحسن والأعمش صوركم بكسر الصاد وأسكن سين رسلهم أبو عمرو وأمال قل بلى شعبة بخلفه وحمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وأبو عمرو من روايتيه كما صحح في النشر وإن اقتصر في الطيبة على الدوري

واختلف فيجمعكم) الآية 9 فيعقوب بنون العظمة والباقون بالياء وقرأ ﴿ نكفر عنه ﴾ وندخله ﴾ الآية 9 بنون العظمة نافع وابن عامر وأبو جعفر ومر بالنساء وقرأ ﴾

يضعفه ﴾ الآية 17 بالقصر والتشديد ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب وعن ابن محيصن بسكون الضاد بلا ألف والباقون بالمد والتخفيف

المرسوم اتفقوا على كتابة ﴿ نبؤا) ﴾ بواو ثم ألف بعدها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(39/766)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

"سورة التغابن"

وهو "كافر مؤمن" تسرون . تأتيهم . وبئس ، وتغفروا ، خيرا . جلي .

"نبؤا " رسمت الهمزة على واو ففية لهشام وحمزة وقفا خمسة أوجه سبق بيانها مرارا

"رسلهم " أسكن السين البصري وضمها غيره .

"يجمعكم " قرأ يعقوب بالنون وغيره بالياء التحتية .

"يكفر . ويدخله " قرأ المدنيان والشامي بالنون في الفعلين والباقون بالياء التحتية فيهما .

"يضاعفه " قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بحذف الألف وتشديد العين غيرهم بإثبات الألف وتخفيف العين .

" الحكيم " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

أنى بالإمالة للأصحاب والتقليل لدوري البصري وورش بخلف عنه ، جاء لابن ذكوان وخلف وحمزة . واستغنى لدى الوقف عليه وبلى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . النار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " يستغفر لكم تستغفر لهم . ويغفر لكم للبصري بخلف عن الدوري يفعل ذلك لأبي الحارث .

" الكبير " " قيل لهم " خلقكم ، يعلم ما ، إلا هو وعلى الله ، ولا إدغام في فيقول رب لأن اللام مفتوحة بعد ساكن والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 328 ﴾

(40/766)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة التغابن

قوله تعالى ﴿ يكفر عنه سيئاته ويدخله ﴾ يقرآن بالياء والنون فالحجة لمن قرأه بالياء تقديم اسم الله عز وجل في أول الكلام عند قوله ﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ والحجة لمن قرأه بالنون أن الله تعالى أخبر بذلك عن نفسه

قوله تعالى ﴿ يضاعفه ﴾ يقرأ بإثبات الألف والتخفيف وبحذفها والتشديد وقد ذكر تقدم ذكر العلة فيه فأغنى عن إعادته. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 347 ﴾

(41/766)

وقال ابن زنجلة :

64 - سورة التغابن

ومن يؤمن بالله ويعمل صلحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنت 9

قرأ نافع وابن عامر نكفر عنه سيئاته وندخله بالنون وقرأ الباقون بالياء وحجتهم أن الاسم الظاهر قد تقدم وهو قوله ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا فكذلك قوله يكفر الله عنه سيئاته ويدخله وحجة النون ما تقدم أيضا وهو قوله والنور الذي أنزلنا ويجوز أن يكون النون كقوله تعالى سبحان الذي أسرى بعبده ثم جاء وآتينا موسى الكتاب

إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضعفه لكم 17

قرأ ابن كثير وابن عامر يضعفه لكم وقرأ الباقون يضاعفه بالألف ضاعف وضعف بمعنى

فيما قال سيبويه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 712.711 ﴾

(42/766)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة التغابن 64

مدنية هذا قول قتادة وقال ابن عباس ومجاهد وعطاء هي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها

نزلت في عوف بن مالك الأشجعي وذلك أنه شكى إلى رسول الله جفاء أهله وولده فأنزل

الله عز وجل بالمدينة (﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم

فاحذروهم ﴾) إلى آخر الآيات الثلاث وقد ذكر نظيرتها في جميع العدد

وكلمها مئتان وإحدى وأربعون كلمة

وحروفها ألف وسبعون حرفا

وهي ثماني عشرة آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف

وفيها مما يشبه الفواصل موضع واحد وهو قوله تعالى (﴿ وما تعلنون ﴾) ورؤوس الآي

قدير

1 بصير

2 المصير

3 الصدور

4 أليم

5 حميد

6 يسير

7 خبير

8 العظيم

9 المصير

10 عليم

11 المبين

12 المؤمنون

13 رحيم

14 عظيم

15 المفلحون

16 حليم

17 الحكيم

18 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 248﴾

(43/766)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (أبشر) هو مبتدأ ، و (يهدوننا) الخبر ، ويجوز أن يكون فاعلا أي أيهدينا بشر .

قوله تعالى (يوم يجمعكم) هو ظرف لخبير ، وقيل لما دل عليه الكلام: أي تتفاوتون يوم يجمعكم ، وقيل التقدير .

اذكروا يوم يجمعكم .

قوله تعالى (يهد قلبه) يقرأ بالهمز: أي يسكن قلبه .

قوله تعالى (خيرا لأنفسكم) هو مثل قوله تعالى " انتهوا خيرا لكم " والله أعلم . انتهى .

اهـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(44/766)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة التغابن

[سورة التغابن (64) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1)

"يُسَبِّحُ" مضارع "لِلَّهِ" متعلقان به والجملة ابتدائية لا محل لها "ما" فاعل "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "وَما فِي الْأَرْضِ" معطوف على ما قبله . "وَلَهُ" خبر مقدم "الْمُلْكُ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية حال . "وَلَهُ الْحَمْدُ" معطوف على له الملك "وَهُوَ" مبتدأ "عَلى كُلِّ" متعلقان بقدير "شَيْءٍ" مضاف إليه "قَدِيرٌ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة التغابن (64) : آية 2]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2)

"هُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "خَلَقَكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "فَمِنْكُمْ" الفاء استئنافية وخبر مقدم "كافِرٌ" مبتدأ مؤخر "وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ" معطوف على منكم كافر "وَاللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "بِما" متعلقان ببصير "بَصِيرٌ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة التغابن (64) : آية 3]

خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)

"خَلَقَ" ماض فاعله مستتر "السَّماواتِ" مفعول به "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات "بِالْحَقِّ" حال والجملة استئنافية لا محل لها . "وَصَوَّرَكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها .

"فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ" معطوف على صوركم . "وَإِلَيْهِ" خبر مقدم "الْمَصِيرُ" مبتدأ مؤخر والجملة حال .

[سورة التغابن (64) : آية 4]

يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (4)

"يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "ما" مفعول به "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات. "وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ" معطوف على ما قبله.

"وَاللَّهُ عَلِيمٌ" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "بِذاتِ" متعلقان بعليم "الصُّدُورِ" مضاف إليه.

[سورة التغابن (64) : آية 5]

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (5)

"أَلَمْ يَأْتِكُمْ" الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي ومضارع مجزوم بلم والكاف مفعوله "نَبَأُ الَّذِينَ" فاعله المضاف إلى اسم الموصول "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بمحذوف حال. "فَذاقُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَبالَ" مفعول به "أَمْرِهِمْ" مضاف إليه "وَلَهُمْ" خبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر "أَلِيمٌ" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة التغابن (64) : آية 6]

ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ

وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (6)

"

(46/766)

ذِلكَ بِأَنَّهُ" ذلك مبتدأ والباء حرف جر وأن واسمها "كَانَتْ" فعل ماض ناقص اسمه مستتر "تَأْتِيهِمْ" مضارع ومفعوله "رُسُلُهُمْ" فاعله "بِالْبَيِّنَاتِ" متعلقان بالفعل وجملة كانت . . خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بحرف الجر وهما متعلقان بخبر المبتدأ المحذوف وجملة تأتيهم خبر كانت وجملة ذلك . . استئنافية لا محل لها . "فَقَالُوا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "أَبَشَرٌ" الهمزة للاستفهام الإنكاري "بَشَرٌ" فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور والجملة الاستفهامية مقول القول "يَهْدُونَنَا" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة مفسرة لا محل لها "فَكَفَرُوا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله "وَتَوَلَّوْا" معطوف على كفروا . "وَاسْتَغْنَى اللَّهُ" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ" مبتدأ وخبران والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة التغابن (64) : آية 7]

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ

(7)

"

(47/766)

زَعَمَ الَّذِينَ" ماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "أَنْ" مخففة واسمها ضمير الشأن محذوف "لَنْ يُبْعَثُوا" مضارع مبني للمجهول منصوب بلن والواو نائب فاعل والجملة خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي زعم. "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "بَلى" حرف جواب "وَرَبِّي" جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم. "لَتُبْعَثُنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني للمجهول مرفوع والنون محذوفة لتوالي الأمثال والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين نائب فاعل والجملة جواب القسم لا محل لها "ثُمَّ" حرف عطف "لَتُنَبَّؤُنَّ" معطوف على لتبعثن. "بما" متعلقان بالفعل "عَمِلْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة ما. "وَذلِكَ" مبتدأ "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بيسير "يَسِيرٌ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها.

[سورة التغابن (64) : آية 8]

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8)

"فَآمِنُوا" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل والجملة جواب الشرط المقدر لا محل لها "وَرَسُولِهِ" معطوف على لفظ الجلالة "وَالنُّورِ" معطوف أيضا "الَّذِي" صفة النور "أَنْزَلْنَا" ماض وفاعله والجملة صلة. "وَاللَّهُ" الواو حرف استئناف ولفظ الجلالة مبتدأ "بِمَا" متعلقان بخبير "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية صلة "خَبِيرٌ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة التغابن (64) : آية 9]

(48/766)

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9)

"يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ" ظرف زمان ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "لِيَوْمِ" متعلقان بالفعل "الْجَمْعِ" مضاف إليه "ذَلِكَ يَوْمُ" مبتدأ وخبره "التَّغَابُنِ" مضاف إليه والجملة استئنافية لا محل لها . "وَ" الواو استئنافية "مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "يُؤْمِنْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والفاعل مستتر "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "وَيَعْمَلْ" معطوف

على يؤمن "صالِحاً" مفعول به "يُكَفِّرْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ من وجملة من . . استئنافية لا

محل لها . "عَنْهُ" متعلقان بالفعل "سَيِّئَاتِهِ" مفعول به "وَيُدْخِلْهُ" معطوف على يكفر والهاء مفعوله الأول "جَنَّاتٍ" مفعوله الثاني "تَجْرِي" مضارع فاعله مستتر والجملة صفة جنات . "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بالفعل "الْأَنْهارُ" فاعل "خالِدِينَ" حال "فِيها" متعلقان بخالدين "أَبَداً" ظرف زمان "ذلِكَ الْفَوْزُ" مبتدأ وخبره "الْعَظِيمُ" صفة والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة التغابن (64) : آية 10]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (10)

(49/766)

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا" الواو حرف عطف واسم الموصول مبتدأ و"كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "وَكَذَّبُوا" معطوف على كفروا "بِآياتِنا" متعلقان بالفعل "أُولئِكَ أَصْحابُ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية خبر الذين وجملة الذين . . معطوفة على ما قبلها "النَّارِ" مضاف إليه "خالِدِينَ" حال "فِيها" متعلقان بخالدين "وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" ماض جامد وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة التغابن (64) : آية 11]

ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11)

"ما" نافية "أَصابَ" ماض والجملة استئنافية لا محل لها "مِنْ" حرف جر زائد "مُصِيبَةٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل أصاب "إِلَّا" حرف حصر "بِإِذْنِ اللَّهِ" متعلقان بأصاب ولفظ الجلالة مضاف إليه. "وَ" الواو حرف استئناف "مِنْ" اسم شرط مبتدأ "يُؤْمِنْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "يَهْدِ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاعل مستتر "قَلْبَهُ" مفعول به والجملة جواب الشرط لا محل لها وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ من. وجملة من.. استئنافية لا محل لها. "وَاللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "بِكُلِّ" متعلقان بعليم "شَيْءٍ" مضاف إليه "عَلِيمٌ" خبر والجملة استئنافية لا محل لها

[سورة التغابن (64) : آية 12]

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (12)

"وَأَطِيعُوا اللَّهَ" أمر وفاعله ولفظ الجلالة مفعوله والجملة استئنافية لا محل لها . "وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ" معطوفة على أطيعوا الله . "فَإِنْ" الفاء حرف استئناف وحرف شرط جازم "تَوَلَّيْتُمْ" ماض وفاعله والجملة ابتدائية لا محل لها . "فَإِنَّما" الفاء حرف تعليل "إنما" كافة ومكفوفة "عَلى رَسُولِنَا" خبر مقدم "الْبَلاغُ" مبتدأ مؤخر "الْمُبِينُ" صفة والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة التغابن (64) : آية 13]

اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (13)

"اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "لا" نافية للجنس "إِلهَ" اسمها وخبرها محذوف "إِلَّا" حرف حصر "هُوَ" بدل من الضمير المستتر في الخبر المحذوف وجملة لا إله . . خبر لفظ الجلالة . "وَ" الواو زائدة "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بما بعدهما "فَلْيَتَوَكَّلِ" الفاء حرف استئناف ومضارع مجزوم بلام الأمر "الْمُؤْمِنُونَ" فاعل والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة التغابن (64) : آية 14]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14)

"يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" سبق إعرابها "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "مِنْ أَزْواجِكُمْ" خبر إن المقدم

"وَأَوْلادِكُمْ" معطوف على أزواجكم "عَدُوًّا" اسم إن المؤخر "لَكُمْ" متعلقان بعدوا والجملة ابتدائية لا محل لها .

(51/766)

"فَاحْذَرُوهُمْ" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله ومفعوله والجملة جواب الشرط لا محل لها "وَ" الواو حرف عطف "إِنْ تَعْفُوا" إن حرف شرط جازم ومضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والواو فاعله "وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا" معطوفان على تعفوا "فَإِنَّ اللَّهَ" الفاء واقعة في جواب الشرط وإن واسمها "غَفُورٌ رَحِيمٌ" خبراها والجملة في محل جزم جواب الشرط .

[سورة التغابن (64) : آية 15]

إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15)

نَّما"

كافة ومكفوفة مْوالُكُمْ"

مبتدأ أَوْلادُكُمْ"

معطوف على أموالكم تْنَةٌ"

خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها . اللَّهُ عِنْدَهُ"

الواو حرف استئناف ولفظ الجلالة مبتدأ وظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم جُرْ"

مبتدأ مؤخر ظِيمٌ"

صفة والجملة خبر المبتدأ وجملة اللّه . . استئنافية لا محل لها .

[سورة التغابن (64) : آية 16]

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16)

"فَاتَّقُوا اللَّهَ" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله ولفظ الجلالة مفعوله والجملة جواب الشرط المقدر لا محل لها "مَا" مصدرية "اسْتَطَعْتُمْ" ماض وفاعله والمصدر المؤول من ما والفعل منصوب بفعل محذوف أي استطاعتكم وجهدكم "وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا" معطوف على ما قبله "خَيْراً" مفعول بفعل مقدر أي وائتوا خيرا "لِأَنْفُسِكُمْ" متعلقان بخيرا "وَ" الواو حرف استئناف "مَنْ" اسم شرط مبتدأ "يُوقَ" مضارع مجزوم بفعل الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة ونائب الفاعل مستتر "شُحَّ" مفعول به ثان "نَفْسِهِ" مضاف إليه "فَأُولئِكَ" الفاء واقعة في جواب الشرط واسم الإشارة مبتدأ "هُمُ" ضمير فصل "الْمُفْلِحُونَ" خبر والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ من .

[سورة التغابن (64) : آية 17]

إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17)

"إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ" إن حرف شرط جازم ومضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والواو فاعله ولفظ الجلالة مفعول به "قَرْضاً" مفعول مطلق "حَسَناً" صفة والجملة ابتدائية لا محل لها .

"يُضاعِفْهُ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والهاء مفعوله والفاعل مستتر "لَكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة جواب الشرط لا محل لها "وَيَغْفِرْ" معطوف على يضاعفه "لَكُمْ" متعلقان بيغفر . "وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ" مبتدأ وخبران والجملة حال .

[سورة التغابن (64) : آية 18]

عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)

"عالِمُ" خبر لمبتدأ محذوف "الْغَيْبِ" مضاف إليه "وَالشَّهادَةِ" معطوف على الغيب "الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" خبران لمبتدأ محذوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن / د دعاس حـ 3 ص 351.348 ﴾

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة التغابن

ذكر فِيهَا خَمْسَة أَحَادِيث

1355 - الحَدِيث الأول

قَالَ المُصَنّف الزَّعْم ادّعَاء الْعلم وَمِنْه قَوْله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَعَمُوا مَطِيَّة الْكَذِب

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَالْمَوْجُود فِي الحَدِيث بئس مَطِيَّة الرجل زَعَمُوا وَقد تقدم فِي أَوَائِل

الْبَقَرَة فِي الحَدِيث الرَّابِع عشر

وَفِي الطَّبَقَات لِابْنِ سعد من قَول شُرَيْح زَعَمُوا كنية الْكَذِب وَقد تقدم بِإِسْنَادِهِ فِي الْبَقَرَة

1356 - الحَدِيث الثَّانِي

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا من عبد أَدخل الْجنَّة إِلَّا أرِي مَقْعَده من النَّار لَو

أَسَاءَ لِيَزْدَادَ شكرا وَمَا من عبد أَدخل النَّار إِلَّا أرِي مَقْعَده من الْجنَّة لَو أحسن لِيَزْدَادَ

حسرة

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي كتاب الرقَاق فِي كتاب صفة الْجنَّة وَالنَّار من حَدِيث

الْأَعْرَج عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يدْخل أحد الْجنَّة إِلَّا أرِي

مَقْعَده من النَّار لَو أَسَاءَ لِيَزْدَادَ شكرا وَلَا يدْخل احْدُ النَّار إِلَّا أرِي

مَقْعَده من الْجنَّة لَو أحسن ليَكُون عَلَيْهِ حسرة انْتَهَى

وَأخرج البُخَارِيّ وَمُسلم عَن ابْن عمر أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِن أحدكُم إِذا مَاتَ عرض عَلَيْهِ مَقْعَده بِالْغَدَاةِ والعشي إِن كَانَ من أهل الْجنَّة فَمن أهل الْجنَّة وَإِن كَانَ من أهل النَّار فَمن أهل النَّار يُقَال هَذَا مَقْعَدك حَتَّى يَبْعَثك الله يَوْم الْقِيَامَة انْتَهَى

(54/766)

وَلَا تعَارض بَين الْحَدِيثين فَإِنَّهُ يرى الْمَقْعَديْنِ جَمِيعًا سَوَاء كَانَ مُؤمنا أَو كَافِرًا يدل عَلَيْهِ مَا أَخْرجَاهُ عَن أنس بن مَالك قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِن العَبْد إِذا وضع فِي قَبره وَتَوَلَّى عَنهُ أَصْحَابه إِنَّه ليسمع قرع نعَالهمْ قَالَ فيأتيه ملكان فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا كنت تَقول فِي هَذَا الرجل قَالَ فَأَما الْمُؤمن فَيَقُول أشهد أَنه عَبده وَرَسُوله قَالَ فَيُقَال لَهُ انْظُر إِلَى مَقْعَدك من النَّار قد أبدلك الله بِهِ مقعدا من الْجنَّة قَالَ نَبِي الله فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا زَاد البُخَارِيّ وَأما الْكَافِر وَالْمُنَافِق فَيَقُول لَا أَدْرِي كنت أَقُول مَا يَقُول النَّاس فَيُقَال لَا دَريت وَلَا تليت ثمَّ يضْرب بَين أُذُنَيْهِ بمطرقة من حَدِيد ضَرْبَة فيصيح صَيْحَة يسمعهَا من يَلِيهِ إِلَّا الثقلَيْن انْتَهَى أخرجه البُخَارِيّ فِي الْجَنَائِز وَمُسلم فِي التَّوْبَة قبيل الْفِتَن

1357 - الحَدِيث الثَّالِث

فِي الحَدِيث يُؤْتى برَجُل يَوْم الْقِيَامَة فَيُقَال أكل عِيَاله حَسَنَاته

قلت غَرِيب مَرْفُوعا وَهُوَ فِي الْحِلْية لأبي نعيم من قَول سُفْيَان الثَّوْريّ رَوَاهُ فِي تَرْجَمته فَقَالَ حَدثنَا أَبُو حَامِد أَحْمد بن مُحَمَّد بن الْحُسَيْن ثَنَا أَبُو السّري

هناد بن السّري بن يَحْيَى ثَنَا أَبُو سعيد الْأَشَج ثَنَا حُصَيْن بن مَالك الضَّبِّيّ عَن بكر بن مُحَمَّد العابد قَالَ قَالَ سُفْيَان الثَّوْريّ يُؤمر بِالرجلِ إِلَى النَّار يَوْم الْقِيَامَة فَيُقَال هَذَا عِيَاله أكلُوا حَسَنَاته انْتَهَى

(55/766)

وَرَوَى عَلّي بن معبد فِي كتاب الطَّاعَة وَالْمَعْصِيَة ثَنَا إِسْحَاق بن أبي يَحْيَى عَن عبد الْملك عَن بكر فَقَالَ يُنَادي مُنَاد يَوْم الْقِيَامَة أَيْن الَّذين أكل عِيَالهمْ حسناتهم قومُوا فَإِن قبلكُمْ التَّبعات انْتَهَى

1358 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه كَانَ يخْطب فجَاء الْحسن وَالْحُسَيْن وَعَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يعثران ويقومان فَنزل إِلَيْهِمَا وأخذهما وَوَضعهمَا فِي حجره عَلَى الْمِنْبَر فَقَالَ صدق الله إِنَّمَا أَمْوَالكُم وَأَوْلَادكُمْ فتْنَة رَأَيْت هذَيْن الصَّبِيَّيْنِ فَلم أَصْبِر عَنْهُمَا ثمَّ أَخذ فِي

خطبَته

قلت رَوَاهُ أَصْحَاب السّنَن الْأَرْبَعَة فِي سُنَنهمْ فَأَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ فِي الْجُمُعَة وَالتِّرْمِذِيّ فِي المناقب وَابْن ماجة فِي اللبَاس من حَدِيث الْحُسَيْن بن وَاقد عَن عبد الله بن بُرَيْدَة بن الْحصيب عَن أَبِيه بُرَيْدَة قَالَ خَطَبنَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقْبَلَ الْحسن وَالْحُسَيْن عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَعْثُرَانِ وَيقومَانِ فَنزل فَأَخَذَهُمَا فَصَعدَ بهما ثمَّ قَالَ صدق الله إِنَّمَا أَمْوَالكُم وَأَوْلَادكُمْ فتْنَة رَأَيْت هذَيْن فَلم أَصْبِر ثمَّ أَخذ فِي الْخطْبَة انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن غَرِيب إِنَّمَا نعرفه من حَدِيث الْحُسَيْن بن وَاقد انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّامِن من الْقسم الثَّالِث وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي موضِعين فَرَوَاهُ فِي الْجُمُعَة وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَرَوَاهُ فِي كتاب اللبَاس وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ

(56/766)

واقره الذَّهَبِيّ وَهُوَ مِمَّا يُنْتَقد عَلَيْهِ فَإِن الْحُسَيْن بن وَاقد احْتج بِهِ مُسلم فَقَط

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْخَامِس وَالسبْعين وَرَوَاهُ أَحْمد وَالْبَزَّار وَابْن أبي شيبَة وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مسانيدهم قَالَ الْبَزَّار لَا

نعلم رواه إلا بريدة ولا طريقا عنه إلا هذه الطريق انتهى

قال النووي في الخلاصة إسناده على شرط مسلم انتهى

1359 - الحديث الخامس

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة التغابن دفع عنه موت الفجأة

قلت رواه الثعلبي في تفسيره من حديث أبي عصمة نوح بن أبي مريم عن علي بن زيد عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . فذكره

ورواه ابن مردويه في تفسيره بسنديه في آل عمران

ورواه الواحدي في الوسيط بسنده في يونس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار جـ 4 صـ 41 . 44 ﴾

(57/766)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة التّغابن» (64)

بسم الله الرّحمن الرّحيم

«وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ» (9) فمجازها على لفظ «من» وهو لفظ واحد والمعنى يقع على الجميع أيضا فجاءت «خالِدِينَ فِيها أَبَداً» (9). انتهى انتهى. ا هـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 260﴾

(58/766)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى:

ومن السورة التي يذكر فيها «التغابن»

[سورة التغابن (64): الآيات 8 الى 9]

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9)

قوله تعالى: فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا [8] وهذه استعارة.

والمراد بالنور هاهنا القرآن. وإنما سمّى نورا لأن به يهتدى فى ظلم الكفر والضلال، كما يهتدى بالنور الساطع، والشهاب اللامع. وضياء القرآن أشرف من ضياء الأنوار، لأن

القرآن يعشو إليه القلب ، والنور يعشو إليه الطّرف .

وقوله سبحانه: يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ [9] فذكر التغابن هاهنا مجاز ، والمراد به – واللّه أعلم – تشبيه المؤمنين والكافرين بالمتعاقدين والمتبايعين ، فكأن المؤمنين ابتاعوا دار الثواب ، وكأنّ الكافرين اعتاضوا منها دار العقاب ، فتفاوتوا فى الصّفقة ، وتغابنوا فى البيعة ، فكان الربح مع المؤمنين ، والخسران مع الكافرين .

ويشبه ذلك قوله تعالى: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. الآية. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 235 ﴾

(59/766)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة التغابن

"يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير" .

الكون يعرف ربه ، يعرف أن وجوده منه وبقاءه به ، ولذلك يسبح بحمده وينقاد لأمره أما الناس فلهم شأن آخر . ما أكثر الذين يتجرءون عليه ويجحدون حقوقه ويحاربون رسله: "

خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين " . أي عقوق هذا وأي إسفاف ؟ ! فيا عجبا ، كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد ؟ وفى كل شىء له آية ! تدل على أنه الواحد ! وقد بدأت سورة " التغابن " بهذا التسبيح تنبيها إلى شذوذ المعصية ووضاعة متركبها " هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير " . ومن النقائض أن يحسن الله تصويرك فتسىء تقديره ! وأن يسبغ عليك النعمة فتطيل الغفلة والإنكار ! وقد أنكر الناس الوحى لأن حملته بشر مثلهم . حتى عاد وثمود فى القرون الغابرة قالوا : " لو شاء ربنا لأنزل ملائكة . . " . إنه صعب على الإنسان أن يعترف بامتياز شخص آخر . إنه يريد أن يذهب بنفسه ويتطاول على غيره ! خصوصا الأغبياء ، فإن لذتهم فى احتقار الذكاء وإهانة أهله " ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم * ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد " . إن استكثار التفوق على الغير والسعى فى هدمه وهزيمته طبيعة فى بعض الأفراد ، بل يخيل إلى أنه طبيعة فى بعض الشعوب ! ولو أن الأنبياء والمصلحين يدلون بما أوتوا من مواهب ويجنحون إلى الكبر والاستعلاء ، لقلنا إنهم استثاروا غيرهم وألجئوه إلى الكبر والكفر . أما والرسل من أشد الناس تواضعا وألينهم عريكة ، فإن تحديهم منكر مضاعف ومعصية سافرة . .

" زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير " . إنكار البعث جريمة قديمة . ولكنها لم تلق الانتشار الذى أتيح لها فى هذا العصر ، فالحضارة التى تظلنا زينت الحياة الدنيا وأهالت التراب على ما بعدها ، بل إن الكلام عن اليوم الآخر وهم لا يجوز أن يجرى على ألسنة العقلاء ! وأهل الكتاب يقودهم اليهود فى هذا الإنكار ، وملاحدة العرب يجرئون الجماهير على نسيان الله وجحد لقائه ، ويضيقون بالقرآن وهو يصور مشاهد الآخرة . إن قضايا الدين كلها تحتاج إلى عرض جديد يقاوم الإلحاد السائد . " فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا " . النور هو القرآن ، وقد سمى كذلك فى آيات كثيرة " ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا " . ولا يوجد كلام موثق من ألفه إلى يائه صادر عن الله سبحانه إلا هذا الكتاب ، وقد أحصى العقائد المنجية وساقها فى حشد من الأدلة تورث اليقين . وليت المسلمين يرتفعون إلى مستوى كتابهم ويؤدون رسالته . " يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن " . شعور الناس يوم البعث يحتاج إلى شرح . سيقول البعض " يا ليتني قدمت لحياتي " . وسيندم كثير على أنهم أضاعوا أوقاتا طويلة فى غير طائل وأوتوا الصحة فلم ينتفعوا بها فى طاعة ، كما جاء فى الحديث " نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ " . وسيندم آخرون على أنهم صادقوا فلانا الكبير وخاصموا فلانا الضعيف ! إن فرصا كثيرة للنجاة أفلتت

منهم بغباء شديد ! " ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين " . وهيهات لقد مضت أيام العمل وأتت أيام الحساب . . ولما كانت السورة مدنية ، وكان المهاجرون والأنصار مكلفين بإقامة دولة الإسلام فى وجه صعوبات بالغة وخصومات عنيفة ، فقد قال ! الله تعالى تصبيرا للقوم وتقوية للإيمان : " ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم " . إن إكراه المرء على ترك وطنه نصرة لدينه شىء شاق ، وليس

يتحمل ذلك كل إنسان .

قال أبو الطيب :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال ! !

وقد لبى نداء الهجرة أناس فسبقوا سبقا بعيدا ، وتقاعس آخرون ليستريحوا مع زوجاتهم وأولادهم ففقدوا هذا الشرف . وكثير أولئك الذين يصفون آذانهم عن نداء الواجب ليحيوا مع من يحبون ! لهؤلاء يقول الله " يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم " . قد يكون التعلق بالحياة طريق الخيانة والضياع " إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم " .

والحق أن مقاومة الضلال ! والعدوان تحتاج إلى مغارم وتضحيات ينبغى أن يتحملها أهل الإيمان بجلد ورضا . وقد رأينا فى عصرنا مبطلين لا يبالون بشىء يستحيل أن يقهرهم إلا رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . أما أن يتجرأ اللصوص ويتقهقر رجال الشرطة ، فلا أمان ولا إيمان ! ! ولذلك ختمت السورة بضرورة البذل والكفاح " فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 462.464﴾

(62/766)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(63/766)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة التغابن

أقول: لما وقع في آخر سورة المنافقون: (وأَنفِقوا ممّا رَزَقناكُم مِن قبلِ أَن يأَتي أَحدكُم الموت) عقب بسورة التغابن، لأنه قيل في معناه: إن الإنسان يأتي يوم القيامة، وقد جمع مالاً، ولم يعمل فيه خيراً، فأخذه وارثه بسهولة، من غير مشقة في جمعه، فأنفقه في وجوه الخير، فالجامع محاسب معذب مع تعبه في جمعه، والوارث منعَّم مثاب، مع سهولة وصوله إليه وذلك هو التغابن فارتباطه بآخر السورة المذكورة في غاية الوضوح ولهذا قال هنا: (وأَنفِقوا خيراً لأَنفُسكُم ومَن يوقَ شُحَ نَفَسِهِ فأولَئكَ هُم المُفلِحون) وأيضاً ففي آخر تلك: (لا تُلهِكُم أَموالِكُم ولَا أَولادكُم عَن ذكرِ اللَهِ) وفي هذه: (إِنَّما أَموالكُم وأَولادكم فتنة) وهذه الجمة كالتعليل لتلك الجملة، ولذا ذكرت على ترتيبها وقال بعضهم: لما كانت سورة المنافقون رأس ثلاث وستين سورة، أشير فيها إلى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (ولَن يؤخِر اللَهُ نفساً إِذا جاءَ أَجَلُها) فانه مات على رأس ثلاث وستين سنة، وعقبها بالتغابن، ليظهر التغابن في فقده صلى الله عليه وسلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 140.139﴾

(64/766)

قوله تعالى ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) مالك الملك فلا كفوء له ولا مثيل (الرحمن) الذي وسع الخلائق بره الجليل (الرحيم) الذي خص ممن عمه بالبر قوما فوفقهم للجميل .

لما ختمت تلك بإثبات القهر بنفوذ الأمر وإحاطة العلم ، افتتح هذه بإحاطة الحمد ودوام التنزه عن كل شائبة نقص ، إرشاداً إلى النظر في أفعاله والتفكر في مصنوعاته لأنه الطريق إلى معرفته ، وأما معرفته بكنه الحقيقة فمحال فإنه لا يعرف الشيء كذلك إلا مثله ولا مثل له ، فقال مؤكداً لما أفهمه أول الجمعة : ﴿ يسبح ﴾ أي يوقع التنزيه التام مع التجديد والاستمرار ﴿ لله ﴾ الذي له الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ ما في السماوات ﴾ الذي من جملته الأراضي وما فيها فلا يريد من شيء منه شيئاً إلا كان على وفق الإرادة ، فكان لذلك الكون والكائن شاهداً له بالبراءة عن كل شائبة نقص .

ولما كان الخطاب مع من تقدم في آخر المنافقين ممن هو محتاج إلى التأكيد ، قال مؤكداً بإعادة الموصول : ﴿ وما في الأرض ﴾ أي كذلك بدلالتها على كماله واستغنائه ، وقد تقدم أن موافقة العاقل للأمر مثل موافقة غير العاقل للارادة ، فعليه أن يهذب نفسه غاية التهذيب فيكون في طاعته بامتثال الأوامر كطاعة غير العاقل في امتثاله لما يراد منه .

ولما ساق سبحانه ذلك الدليل النقلي كمال نزاهته على وجه يفهم الدليل العقلي لمن له لب كما قال علي ـ رضى الله عنه ـ : لا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوع ، كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع ، وذلك لكونه سبحانه جعلهم مظروفين كما هو المشاهد ، والمظروف محتاج لوجود ظرفه قبله فهو عاجز فهو مسبح دائماً إن لم يكن بلسان قاله كان بلسان حاله ، وصانعه الغني عن الظرف فغيره سبوح ، علل ذلك بقوله : ﴿ له ﴾ أي وحده ﴿ الملك ﴾ أي كله مطلقاً في الدنيا والآخرة ، وهو السيادة العامة للخاص والعام والسياسة العامة بركنيها دفع الشرور وجلب الخيور الجالب للسرور والحبور من الإبداع والإعدام ، فهو أبلغ مما في الجمعة ، فإن الملك قد يكون ملكاً في الصورة ، وذلك الملك الذي هو ظاهر فيه لغيره ، فداوم التسبيح الذي اقتضته عظمة الملك هنا أعظم من ذلك الدوام .

ولما أتبعه في الجمعة التنزيه عن النقص ، أتبعه هنا الوصف بالكمال فقال : ﴿ وله ﴾ أي وحده ﴿ الحمد ﴾ أي الإحاطة بأوصاف الكمال كلها فلذلك ينزهه جميع مخلوقاته ، فمن

فهم تسبيحها فذلك المحسن ، ومن كان في طبعه وفطرته الأولى بالفهم ثم ضيعه يوشك أن يرجع فيفهم ، ومن لم يهيأ لذلك فذلك الضال الذي لا حيلة فيه ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ على كل شيء ﴾ أيّ شيء ممكن أن يتعلق به المشيئة ﴿ قدير ﴾ لأنه وحده بكل شيء مطلقاً عليم ، لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى الأشياء كلها على حد سواء وهذا واضح جداً ، ولأن من عرف نفسه بالنقص عرف ربه بالكمال وقوة السلطان والجلال .

(66/766)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير رحمه الله تعالى : لما بسط في السورتين قبل من حال من حمل التوراة من بني إسرائيل ثم لم يحملها ، وحال المنافقين المتظاهرين بالإسلام ، وقلوبهم كفرا وعناداً متكاثفة الإظلام ، وبين خروج الطائفتين عن سواء السبيل المستقيم ، وتنكبهم عن هدى الدين القويم ، وأوهم ذكر اتصافهم بمتحد أوصافهم خصوصهم في الكفر بوسم الانفراد وسماً ينبىء عن عظيم ذلك الإبعاد ، سوى ما تناول غيرهم من أحزاب الكفار ، فأنبأ تعالى عن أن الخلق بجملتهم وإن تشعبت الفرق وافترقت الطرق راجعون بحكم السوابق إلى طريقين فقال تعالى ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ [التغابن : 2] وقد أوضحنا الدلائل أن المؤمنين على درجات ، وأهل الكفر ذو طبقات ، وأهل

النفاق أدونهم حالاً وأسوأهم كفراً وضلالاً " إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار "

وافتتحت السورة بالتنزيه لعظيم مرتكب المنافقين في جهلهم ولو لم تنطو سورة المنافقين من عظيم مرتكبهم إلا على ما حكاه تعالى من قولهم ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ [المنافقين : 8] وقد أشار قوله تعالى ﴿ يعلم ما في السماوات وما في الأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ﴾ [التغابن : 4] إلى ما قبله وبعده من الآيات إلى سوء جهل المنافقين وعظيم حرمانهم في قولهم بألسنتهم مما لم تنطو عليه قلوبهم ﴿ والله يشهد أن المنافقين لكاذبون ﴾ [المنافقين : 1] واتخاذهم أيمانهم جنة وصدهم عن سبيل الله إلى ما وصفهم سبحانه به ، فافتتح سبحانه وتعالى سورة التغابن بتنزيهه عما توهموه من مرتكباتهم التي لا تخفى عليه سبحانه ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ﴾ [التوبة : 78] ثم قال تعالى : ﴿ ويعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ [التغابن : 4] فقرع ووبخ في عدة آيات ثم أشار إلى ما منعهم من تأمل الآيات ، وصدهم عن اعتبار المعجزات ، وأنه الكبر المهلك غيرهم ، فقال تعالى مخبراً عن

سلفهم في هذا المرتكب، ممن أعقبه ذلك أليم العذاب وسوء المنقلب ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا ﴾ [التغابن : 6] ثم تناسج الكلام معرفاً بمآلهم الأخروي ومآل غيرهم إلى قوله ﴿ وبئس المصير ﴾ [التغابن : 10] ومناسبة ما بعد يتبين في التفسير بحول الله - انتهى.

ولما كان أعظم الدلائل عليه سبحانه آيات الآفاق ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق ﴾ وآيات الأنفس، وقدم الأول علويه وسفليه لوضوحه، أتبعه الثاني دليلاً على عموم قدرته الدال على تمام ملكه بأنه المختص بالاختراع لأعجب الأشياء خلقاً والحمل على المكاره فقال:

﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الذي خلقكم ﴾ أي أنشأكم على ما أنتم عليه بأن قدركم وأوجدكم بالحق على وفق التقدير خلافاً لمن أنكر ذلك من الدهرية وأهل الطبائع.

ولما كان قد تقدم في سورة المنافقين ما أعلم أنهم فريقان، عرف في هذه أن ذلك مسبب عن إبداعه لأن من معهود الملك أن يكون في مملكته الولي والعدو والمؤالف والمخالف والطائع والعاصي والملك ينتقم ويعفو ويعاقب ويثيب ويقدم ويؤخر ويرفع ويضع، ولذلك قال. صلى الله عليه وسلم.

"لو لم تذنبوا فتستغفروا لذهب الله بكم ثم جاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم"

أخرجه مسلم والترمذي عن أبي أيوب. رضي الله عنه. ، فقال تعالى مقدماً للعدو إشارة إلى أنه عالم به وقادر عليه ، وما كان منه شيئاً إلا بإرادته ، وفيه تلويح إلى أنه الأكثر ومع كثرته هو الأضعف ، لأن الله تعالى ليس معه بمعونته وإلا لأعدم الصنف الآخر :

﴿ فمنكم ﴾ أي فتسبب عن خلقه لكم وتقديره لأشباحكم التي تنشأ عنها الأخلاق إن كان منكم بإبداعه لصفاتكم كما أبدع لذواتكم ﴿ كافر ﴾ أي عريق في صفة الكفر مهلك نفسه بما هيأه لاكتسابه ويسره له بعد ما خلقه في أحسن تقويم على الفطرة الأولى ، وفي الحديث أن الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام طبع كافراً فمعنى أن فطرته الأولى خلقت مهيأة للكفر ، فإن الأفعال عامة وخاصة ، فالخاصة تضاف إلى العبد يقال : صلى وصام وآمن وكفر ، والعامة تضاف إلى الله تعالى فيقال : أوجد القدرة على الحركة والسكون وخلق الحركة والسكون ، والأفعال الخاصة متعلق الأمر والنهي ﴿ ومنكم مؤمن ﴾ أي راسخ في الإيمان في حكم الله تعالى في الأزل منح نفسه بالأعمال الصالحة التي طابق بها العلم الأزلي ، فهو سبحانه خلق الكافر وخلق كفره فعلاً له ، والمؤمن وإيمانه فعلاً له ، لأنه خلق القدرة والاختيار وغيب أمر العاقبة ، فكل منهما يكتب باختياره بتقدير الله ، ولا يوجد من كل منهما إلا ما قدره عليه وأراده منه لأن وجود غير المقدور عجز ، وخلاف المراد المعلوم جهل ، وقد علم من هذه القسمة علماً قطعياً أن أحد القسمين مبطل ضال مخالف

لأمر الملك الذي ثبت ملكه ، ومن المعلوم قطعاً أن كل ملك لا بدّ له أن يحكم بين رعيته في الأمر الذي اختلفوا فيه وينصف المظلوم من ظالمه ، ومن المشاهد أن بعضهم يموت على كفرانه من غير نقص يلحقه ، وبعضهم على إيمانه كذلك ، فعلم أن هذه الدار ليست دار الفصل ، وأن الدار المعدة له إنما هي بعد الموت والبعث ، وهذا مما هو

مركوز في الطبائع لا يجهله أحد ، ولكن الخلق أعرضوا عنه بما هم فيه من القواطع ، فصار مما لا يخطر بإنكارهم ، فصار بحيث لا تستقل به عقولهم ، ولكنهم إذا ذكروا به وأوضحت لهم هذه القواطع التي أشار سبحانه إليها وجردوا النفس عن الحظوظ والمرور مع الألف عدوه كلهم من الضروريات ، وعلم ن تسبيبه تقسيمهم هذا عن تقديره وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره .

ولما كان التقدير : فالذي أبدعكم وحملكم على ذلك وفاوت بينكم على كل شيء قدير ، عطف عليه قوله تعالى : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة بفعله ذلك ، وقدم الجار لا للتخصيص بل إشارة إلى مزيد الأعتناء كما تقول لمن سألك : هل تعرف كذا ، وظهر منه التوقف في علمك له : نعم أعرفه ولا أعرف غيره ، فقال : ﴿ بما تعملون ﴾ أي توقعون

عمله كسباً ﴿ بصير ﴾ أي بالغ العلم بذلك ، فهو الذي خلق جميع أعمالكم التي نسب كسبها إليكم ، وهو خالق جميع الاستعدادات والصفات كما خلق الذوات خلافاً للقدرية لأنه لا يتصور أن يخلق الخالق ما لا يعلمه ، ولو سئل الإنسان كم مشى في يومه من خطوة لم يدر ، فيكف لو سئل أين موضع مشيه ومتى زمانه فكيف وإنه ليمشي أكثر مشيه وهو غافل عنه ، ومن جهل أفعاله كماً وكيفاً وأيناً وغير ذلك لم يكن خالقاً لها بوجه .

(70/766)

ولما ذكر المظروف ذكر ظرفه دالاً على تمام إحاطته بالبواطن ، والظواهر بأنه يخلق الشيء العظيم جداً فيأتي على وفق الإرادة ثم لا يحتاج إلى أن يزاد فيه ولا أن ينقص منه فقال : ﴿ خلق السماوات ﴾ التي هي السقف لبيت عبيد الملك على كبرها وعلوها كما ترون ﴿ والأرض ﴾ التي هي قرار بيتهم ومهاده على سعتها وما فيها من المرافق والمعاون ﴿ بالحق ﴾ أي بالأمر الذي يطابقه الواقع فلا زائداً عنه ولا ناقصاً بل جاء الواقع منها مطابقاً لما أراد سواء لا كما يريد أحدنا الشيء فإذا أوجده لم يكن على وفق مراده سواء ، وبسبب إظهار الأمر الثابت وإبطال الباطل فهو خالق المسكنين : الدنيوي والأخروي ، خلافاً لمن لا يقول بذلك من صابىء وفلسفي وغيرهم .

ولما كان أهل الطبائع يقولون : إن الأفلاك لها تأثير بحسب الذات والطبع ، قال نافياً لذلك مذكراً بنعمته لتشكر : ﴿ وصوركم ﴾ أي أيها المخاطبون على صور لا توافق شيئاً من صور العلويات ولا السفليات ولا فيها صورة توافق الأخرى من كل وجه ﴿ فأحسن صوركم ﴾ فجعلها أحسن صور الحيوانات كلها كما هو مشاهد في الدنيا وكذا في الآخرة خلافاً لأهل التناسخ مع أن وضعها في نفسها أحسن الأوضاع ، لو غير شيء منها عن مكانه إلى شيء مما نعلمه فحصلت البشاعة به مع تفضيل الآدمي بتزيينه بصفوة أوصاف الكائنات وجعل سبحانه أعضاء متصرفة بكل ما يتصرف به أعضاء سائر الحيوان مع زيادات اختص بها الآدمي إلى حسن الوجه وجمال الجوارح ، فهو أحسن بالنسبة إلى النوع من حيث هو هو ، وبالنسبة إلى الأفراد في نفس الأمر وإن كان بعضها أحسن من بعض ، فقبح القبيح منه إنما هو بالنسبة إلى أحسن منه ، ولذا قال الحكماء ، شيئان لا غاية لهما : الجمال والبيان ، فخلق الانسان في أحسن تقويم لا ينفي أن يكون للنوع الذي جعل أحسن أفراد أنواع لما فوقه من الجنس ، لا نهاية لأحسنية بعضها بالنسبة إلى بعض يشاهد ما وجد من أفراد نوعه من الذوات فقدرة الله لا تتناهى ، فإياك أن تصغي لما وقع في كتب الإمام

الغزالي أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ، وإن كان قد علم أنه اعترض عليه في ذلك وأجاب عنه في الكتاب الذي أجاب فيه عن أشياء اعترض عليه فيها فإنه لا عبرة بذلك الجواب أيضاً ، فإن ذلك ينحل إلى أنه سبحانه وتعالى لا يقدر على أن يخلق أحسن من هذا العالم ، وهذا لا يقوله أحد ، وهو لا ينقص مقدار الغزالي فإن كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد كما قال الإمام مالك .رضى الله عنه . ، وعزاه الغزالي بنفسه إلى ابن عباس .رضى الله عنهما . ، وقال الإمام الشافعي .رضى الله عنه .وأرضاه : صنفت هذه الكتاب وما ألوت فيها جهداً وإني لأعلم أن فيها الخطأ لأن الله تعالى يقول :

﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ [النساء : 82] .

ولما كان التقدير : فكان منه سبحانه المبدأ ، عطف عليه قوله : ﴿ وإليه ﴾ أي وحده ﴿ المصير ﴾ أي بعد البعث بعين القدرة التي قدر بها على البداأة فمن كان على الفطرة الأولى لم يغيرها أدخله الجنة ، ومن كان قد أفسدها فجعل روحه نفساً بما طبعها به من حيث جسده أدخله النار ، وفي الدنيا أيضاً بانفراده بالتدبير ، فلا يكون من الملك والسوقة إلا ما يريد ، لا ما يريد ذلك المريد الفاعل . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 3. 8﴾

"القراءات والوقوف"

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ يوم نجمعكم ﴾ بالنون : رويس . الباقون : على الغيبة ﴿ نكفر ﴾ و ﴿ ندخله ﴾ بالنون فيهما : أبو جعفر ونافع وابن عامر والمفضل . الآخرون : على الغيبة .

الوقوف : ﴿ وما في الأرض ﴾ ط لاختلاف الجملتين ﴿ وله الحمد ﴾ ط النوع اختلاف وهو تقديم الخبر على المبتدأ في الأوّل ﴿ قدير ﴾ ه ﴿ مؤمن ﴾ ط ﴿ بصير ﴾ ه ﴿ صوركم ﴾ ج لعطف المختلفين ﴿ المصير ﴾ ه ﴿ تعلنون ﴾ ه ﴿ الصدور ﴾ ه ﴿ من قبل ﴾ ط لتناهي الاستفهام إلى الاخبار مع صدق الاتصال بالفاء ﴿ أليم ﴾ ه ﴿ يهدوننا ﴾ ه لاعتراض الاستفهام بين المتفقين ﴿ الله ﴾ ط ﴿ حميد ﴾ ه ﴿ يبعثوا ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ ه ﴿ يسير ﴾ ه ﴿ أنزلنا ﴾ ط ﴿ خبير ﴾ ه ﴿ التغابن ﴾ ط ﴿ أبداً ﴾ ط ﴿ العظيم ﴾ ه ﴿ فيها ﴾ ط ﴿ المصير ﴾ ه ﴿ بإذن الله ﴾ ط ﴿ قلبه ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ ه ﴿ الرسول ﴾ ج ط ﴿ المبين ﴾ ه ﴿ إلا هو ﴾ ط ﴿ المؤمنون ﴾ ه ﴿ فاحذروهم ﴾ ج ﴿ رحيم ﴾ ه ﴿ فتنة ﴾ ط ﴿ عظيم ﴾ ه ﴿ لأنفسكم ﴾ ط ﴿ المفلحون ﴾ ه ﴿ ويغفر لكم ﴾ ط ﴿ حليم ﴾ ه لا ﴿ الحكيم ﴾ ه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 307 . 308 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾

وجه التعلق بما قبلها ظاهر لما أن تلك السورة للمنافقين الكاذبين وهذه السورة للمنافقين الصادقين ، وأيضاً تلك السورة مشتملة على بطالة أهل النفاق سراً وعلانية ، وهذه السورة على ما هو التهديد البالغ لهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السموات والأرض وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ والله عَلِيمُ بِذَاتِ الصدور ﴾ وأما الأول بالآخر فلأن في آخر تلك السورة التنبيه على الذكر والشكر كما مر ، وفي أول هذه إشارة إلى أنهم إن أعرضوا عن الذكر والشكر ، قلنا : من الخلق قوم يواظبون على الذكر والشكر دائماً ، وهم الذين يسبحون ، كما قال تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الملك وَلَهُ الحمد ﴾ معناه إذا سبح لله ما في السموات وما في الأرض فله الملك وله الحمد ، ولما كان له الملك فهو متصرف في ملكه والتصرف مفتقر إلى القدرة فقال : ﴿ والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقال في "الكشاف" : قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى

اختصاص الملك والحمد بالله تعالى وذلك لأن الملك في الحقيقة له لأنه مبدئ لكل شيء ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه، كذلك الحمد فإن أصول النعم وفروعها منه، وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء، وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قيل: معناه وهو على كل شيء أراده قدير، وقيل: قدير يفعل ما يشاء بقدر ما يشاء لا يزيد عليه ولا ينقص.

وقد مر ذلك، وفي الآية مباحث:

الأول: أنه تعالى قال في الحديد: ﴿ سَبَّحَ ﴾ [الحديد: 1] والحشر والصف كذلك، وفي الجمعة والتغابن ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ﴾ فما الحكمة فيه؟ نقول: الجواب عنه قد تقدم.

(74/766)

البحث الثاني: قال في موضع: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ [الحشر: 1] وفي موضع آخر ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السموات والأرض ﴾ [الحديد: 1] فما الحكمة فيه؟ قلنا: الحكمة لا بد منها، ولا نعلمها كما هي، لكن نقول: ما يخطر بالبال، وهو أن مجموع السموات والأرض شيء واحد، وهو عالم مؤلف من الأجسام الفلكية والعنصرية، ثم الأرض من هذا المجموع شيء والباقي منه شيء آخر، فقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي

السموات وَمَا فِي الأَرض ﴾ بالنسبة إلى هذا الجزء من المجموع وبالنسبة إلى ذلك الجزء منه كذلك ، وإذا كان كذلك فلا يبعد أن يقال ، قال تعالى في بعض السور كذا وفي البعض هذا ليعلم أن هذا العالم الجسماني من وجه شيء واحد ، ومن وجه شيئان بل أشياء كثيرة ، والخلق في المجموع غير ما في هذا الجزء ، وغير ما في ذلك أيضاً ولا يلزم من وجود الشيء في المجموع أن يوجد في كل جزء من أجزائه إلا بدليل منفصل ، فقوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأَرض ﴾ على سبيل المبالغة من جملة ذلك الدليل لما أنه يدل على تسبيح ما في السموات وعلى تسبيح ما في الأرض ، كذلك بخلاف قوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السموات والأرض ﴾ .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2)

(75/766)

قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنه تعالى خلق بني آدم مؤمناً وكافراً ، ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمناً وكافراً ، وقال عطاء : إنه يريد فمنكم مصدق ، ومنكم جاحد ، وقال الضحاك : مؤمن في العلانية كافر في السر كالمنافق ، وكافر في العلانية مؤمن في السر كعمار بن ياسر ، قال الله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان ﴾ [النحل : 106

] وقال الزجاج : فمنكم كافر بأنه تعالى خلقه ، وهو من أهل الطبائع والدهرية ، ومنكم مؤمن بأنه تعالى خلقه كما قال : ﴿ قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [عبس : 17 ، 18] وقال : ﴿ أَكَفَرْتَ بالذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [الكهف : 37] وقال أبو إسحاق : خلقكم في بطون أمهاتكم كفاراً ومؤمنين ، وجاء في بعض التفاسير أن يحي خلق في بطن أمه مؤمناً وفرعون خلق في بطن أمه كافراً ، دل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله يُبَشِّرُكَ بيحيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ الله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي عالم بكفركم وإيمانكم اللذين من أعمالكم ، والمعنى أنه تعالى تفضل عليكم بأصل النعم التي هي الخلق فأنظروا النظر الصحيح وكونوا بأجمعكم عباداً شاكرين ، فما فعلتم مع تمكنكم بل تفرقتم فرقاً فمنكم كافر ومنكم مؤمن وقوله تعالى : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أي بالإرادة القديمة على وفق الحكمة ، ومنهم من قال : بالحق ، أي للحق ، وهو البعث ، وقوله : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أحسن أي أتقن وأحكم على وجه لا يوجد بذلك الوجه في الغير ، وكيف يوجد وقد وجد في أنفسهم من القوى الدالة على وحدانية الله تعالى وربوبيته دلالة مخصوصة لحسن هذه الصورة وثانيهما : أن نصرف الحسن إلى حسن المنظر ، فإن من نظر في قد الإنسان وقامته وبالنسبة بين أعضائه فقد علم أن صورته أحسن صورة وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ

المصير ﴾ أي البعث وإنما أضافه إلى نفسه لأنه هو النهاية في خلقهم والمقصود منه ، ثم قال تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ لأنه لا يلزم من خلق الشيء أن يكون مصوراً بالصورة ، ولا يلزم من الصورة أن تكون على أحسن الصور ، ثم قال : ﴿ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ أي المرجع ليس إلا له ، وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السموات والأرض وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ والله عَلِيمُ بِذَاتِ الصدور ﴾ نبه بعلمه ما في السموات والأرض ، ثم بعلمه ما يسره العباد وما يعلنونه ، ثم بعلمه ما في الصدور من الكليات والجزئيات على أنه لا يخفى عليه شيء لما أنه تعالى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة ألبتة أزلاً وأبداً ، وفي الآية مباحث :

الأول : أنه تعالى حكيم ، وقد سبق في علمه أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ، والإصرار عليه فأي حكمة دعته إلى خلقهم ؟ نقول : إذا علمنا أنه تعالى حكيم ، علمنا أن أفعاله كلها على وفق الحكمة ، وخلق هذه الطائفة فعله ، فيكون على وفق الحكمة ، ولا يلزم من عدم علمنا بذلك أن لا يكون كذلك بل اللازم أن يكون خلقهم على وفق الحكمة .

الثاني : قال : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ وقد كان من أفراد هذا النوع من كان مشوه الصورة سمج الخلقة ؟ نقول : لا سماجة ثمة لكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطاً بيناً لا يظهر حسنه ، وإلا فهو داخل في حيز الحسن غير خارج عن حده .

الثالث: قوله تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ يوهم الانتقال من جانب إلى جانب، وذلك لا يمكن إلا أن يكون الله في جانب، فكيف هو؟ قلت: ذلك الوهم بالنسبة إلينا وإلى زماننا لا بالنسبة إلى ما يكون في نفس الأمر، فإن نفس الأمر بمعزل عن حقيقة الانتقال من جانب إلى جانب إذا كان المنتقل إليه منزهاً عن الجانب وعن الجهة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 21.19 ﴾

(77/766)

وقال القرطبى:

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾

تقدم في غير موضع.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2)

قال ابن عباس: إن الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً، ويعيدهم في يوم القيامة مؤمناً وكافراً.

وروى أبو سعيد الخُدْرِيّ قال: خطَبَنا النبيّ صلى الله عليه وسلم عَشِيّةً فذكر شيئاً مما يكون فقال: "يولد الناس على طبقات شتّى.

يولد الرجل مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت مؤمناً.

ويولد الرجل كافراً ويعيش كافراً ويموت كافراً .

ويولد الرجل مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت كافراً .

ويولد الرجل كافراً ويعيش كافراً ويموت مؤمناً " وقال ابن مسعود : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " خلق الله فرعون في بطن أمه كافراً وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً " وفي الصحيح من حديث ابن مسعود : " وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع فيسبِق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها .

وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها " خرّجه البخاري والترمذي وليس فيه ذكر الباع .

وفي صحيح مُسْلم عن سهل بن سعد السّاعديّ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يَبْدُو للناس وهو من أهل النار .

وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة " قال علماؤنا : والمعنى تعلّق العلم الأزلي بكل معلوم ؛ فيجري ما علم وأراد وحكم .

فقد يريد إيمان شخص على عموم الأحوال ، وقد يريده إلى وقت معلوم .

وكذلك الكفر .

وقيل في الكلام محذوف : فمنكم مؤمن ومنكم كافر ومنكم فاسق ؛ فحذف لما في الكلام من الدلالة عليه ؛ قاله الحسن .

(78/766)

وقال غيره : لا حذف فيه ؛ لأن المقصود ذكر الطرفين .

وقال جماعة من أهل العلم : إن الله خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا .

قالوا : وتمام الكلام ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ ﴾ .

ثم وصفهم فقال : ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ ﴾ [النور : 45] الآية .

قالوا : فالله خلقهم ، والمَشْي فعلهم .

واختاره الحسين بن الفضل ، قال : لو خلقهم مؤمنين وكافرين لما وصفهم بفعلهم في قوله ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ .

واحتجوا : بقوله عليه الصلاة والسلام : "كل مولود يولد على الفِطرة فأبَوَاه يُهوّدِانه ويُنَصّرِانه ويُمَجّسِانه" الحديث .

وقد مضى في "الروم" مستوفى .

قال الضحاك : فمنكم كافر في السِّر مؤمن في العلانية كالمنافق ، ومنكم مؤمن في السِّر كافر في العلانية كَعمّار وذَوِيه .

وقال عطاء بن أبي رَبَاح : فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب ؛ ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب ؛ يعني في شأن الأنواء .

وقال الزجاج وهو أحسن الأقوال ، والذي عليه الأئمة والجمهور من الأمة : إن الله خلق الكافر ، وكُفْرُه فِعْلٌ له وكسب ؛ مع أن الله خالق الكفر .

وخلق المؤمن ، وإيمانه فعلٌ له وكسب ؛ مع أن الله خالق الإيمان .

والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه ؛ لأن الله تعالى قدّر ذلك عليه وعَلمه منه .

ولا يجوز أن يوجد من كل واحد منهما غير الذي قدّر عليه وعلمه منه ؛ لأن وجود خلاف المقدور عَجْزٌ ، ووجود خلاف المعلوم جَهْلٌ ، ولا يَليقان بالله تعالى .

وفي هذا سلامة من الجبر والقدر ؛ كما قال الشاعر :

يا ناظراً في الدِّين ما الأَمْرُ . . .

لا قَدْرٌ صحّ ولا جَبْرُ

وقال سِيلان : قَدِم أعرابي البصرة فقيل له : ما تقول في القدر ؟ فقال : أمرٌ تغالت فيه الظنون ، واختلف فيه المختلفون ؛ فالواجب أن نَرُدّ ما أشكل علينا من حكمه إلى ما سبق من علمه .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق ﴾

تقدّم في غير موضع ؛ أي خلقها حقاً يقيناً لا ريب فيه .

وقيل الباء بمعنى اللام ؛ أي خلقها للحق ؛ وهو أن يَجْزِي الذين أساءوا بما عمِلوا ويجزي الذين أحسنوا بالحُسْنَى .

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ يعني آدم عليه السلام ، خلقه بيده كرامةً له ؛ قاله مقاتل .

الثاني جميع الخلائق .

وقد مضى معنى التصوير ، وأنه التخطيط والتشكيل .

فإن قيل : كيف أحسن صورهم ؟ قيل له : جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه صورةً ؛ بدليل أن الإنسان لا يتمنّى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصُّوَر .

ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب ؛ كما قال عز وجل : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

﴿ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ أي المرجع ؛ فيجازِي كلاًّ بعمله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(80/766)

وقال الآلوسى :

بسم الله الرحمن الرَّحيم

﴿ يُسَبّحُ لِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾

أي ينزهه سبحانه وتعالى جميع المخلوقات عما لا يليق بجناب كبريائه سبحانه تسبيحاً مستمراً ، وذلك بدلالتها على كمال عز وجل واستغنائه تعالى ، والتجدد باعتبار تجدد النظر في وجوه الدلالة على ذلك ﴿ لَهُ الملك وَلَهُ الحمد ﴾ لا لغيره تعالى إذ هو جل شأنه المبدىء لكل شيء وهو القائم به والمهيمن عليه وهو عز وجل المولي لأصول النعم وفروعها وأما ملك غيره سبحانه فاسترعاء منه تعالى وتسليط ، وأما حمد غيره تبارك وتعالى فلجريان إنعامه تعالى على يده فكلا الأمرين له تعالى في الحقيقة ولغيره بحسب الصورة ، وتقديم ﴿ لَهُ الملك ﴾ لأنه كالدليل لما بعده ﴿ وَهُوَ على كُلّ شَىْء قَدِيرٌ ﴾ لأن نسبة ذاته جل شأنه المقتضية للقدة إلى الكل سواء فلا يتصور كون بعض مقدوراً دون بعض ،

وقوله تعالى :

﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ ﴾ الخ بيان لبعض قدرته تعالى العامة ، والمراد هو الذي أوجدكم كما شاء وقوله تعالى :

﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ أي فبعضكم كافر به تعالى وبعضكم مؤمن به عز وجل ، أو فبعض منكم كافر به سبحانه وبعض منكم مؤمن به تعالى تفصيل لما في ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ من الإجمال لأن كون بعضهم .

أو بعض منهم كافراً ، وكون بعضهم .

أو بعض منهم مؤمناً مراد منه فالفاء مثلها في قوله تعالى : ﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاء فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِى على بَطْنِهِ ﴾ [النور : 45] الخ فيكون الكفر والايمان في ضمن الخلق وهو الذي تؤيده الأخبار الصحيحة كخبر البخاري .

ومسلم .

والترمذي .

وأبي داود عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق " إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات : يكتب رزقه .

وأجله .

وعمله .

(81/766)

وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح الحديث " وأخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا مكث المني في الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس فعرج به إلى الرب فيقول : يا رب أذكر أم أنثى ؟ فيقضي الله ما هو قاض فيقول : أشقي أم سعيد ؟ فيكتب ما هو لاق " .

وقرأ أبو ذر من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ [التغابن : 3] والجمع بين الخبرين مما لا يخفى على من أوتي نصيباً من العلم ، وتقديم الكفر لأنه الأغلب .

واختار بعضهم كون المعنى هو الذي خلقكم خلقاً بديعاً حاوياً لجميع مبادي الكمالات العلمية والعملية ، ومع ذلك فمنكم مختار للكفر كاسب له على خلاف ما تستدعيه خلقته

، وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للايمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد وما يتفرع عليهما من سائر النعم ، فما فعلتم ذلك مع تمام تمكنكم منه بل تشعبتم شعباً وتفرقتم فرقاً ، وهو الذي ذهب إليه الزمشخري ، بيد أنه فسر الكافر بالآتي بالكفر والفاعل له . والمؤمن بالآتي بالايمان والفاعل له لأنه الأوفق بمذهبه من أن العبد خالق لأفعاله ، وأن الآية لبيان إخلالهم بما يقتضيه التفضل عليهم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد من النعم ، وأن الآيات بعد في معنى الوعيد على الكفر وإنكار أن يعصي الخالق ولا تشكر نعمته .

ثم قال : فما أجهل من يمزج الكفر وإنكار أن يعصي الخالق ولا تشكر نعمته .

ثم قال : فما أجهل من يمزج الكفر بالخلق ويجعله من جملته ، والخلق أعظم نعمة من الله تعالى على عباده ، والكفر أعظم كفران من العباد لربهم سبحانه ، وجعل الطيبي الفاء على هذا للترتيب والفرض على سبيل الاستعارة كاللام في قوله تعالى :

﴿ فالتقطه ءال فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَنًا ﴾ [القصص : 8] وهي كالفاء في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النبوة والكتاب فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مّنْهُمْ فاسقون ﴾ [الحديد : 26] ولم يجعلها للتفصيل كما قيل .

واختار في الآية المعنى السابق مؤيداً له بالأحاديث الصحيحة ، وبأن السياق عليه مدعياً أن الآيات كلها واردة لبيان عظمة الله تعالى في ملكه وملكوته واستبداده فيهما ، وفي شمول علمه تعالى كلها وفي إنشائه تعالى المكونات ذواتها وأعراضها ، ووافقه في اختيار ذلك تلميذه المدقق صاحب الكشف ، واعترض قول الزمخشري : فما أجهل الخ بقوله فيه ما مر مراراً كأنه يعني مخالفة النصوص في عدم كون الكفر مخلوقاً كغيره على أن خلق الكفر أيضاً من النعم العظام فلولا خلقه وتبيين ما فيه من المضار ما ظهر مقدار الأنعام بالايمان وما فيه من المنافع ، ثم إن كونه كفراً باعتبار قيامه بالعبد ومنه جاء القبح لا باعتبار كونه خلقه تعالى على ما حقق في موضعه ، ثم قال : ومنه يظهر أن تكلفه في قوله تعالى : ﴿ فَمِنكُمْ ﴾ الخ ليخرجه عن تفصيل المجمل في ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ تحريف لكتاب الله تعالى انتهى .

ويرجح التفصيل عندي في الجملة قوله تعالى : ﴿ كَافِرٍ ﴾ دون من يكفر ومن يؤمن ، نعم عدم دخول الكفر والايمان في الخلق أوفق بقوله تعالى : ﴿ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ التى فَطَرَ الناس عَلَيْهَا ﴾ [الروم : 30] وقوله صلى الله عليه وسلم : "كل مولود يولد على الفطرة" والانصاف أن الآية تحتمل كلا من المعنيين : المعنى الذي ذكر أولاً .

(83/766)

والمعنى الذي اختاره البعض ، والسياق يحتمل أن يحمل على ما يناسب كلا وليس نصاً في أحد الأمرين اللذين سمعتهما حتى قيل : إن الآيات واردة لبيان ما يتوقف عليه الوعد والوعيد بعد من القدرة التامة والعلم المحيط بالنشأتين ، وقوله تعالى : ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي فيجازيكم بما يناسب ذلك لا ينافي خلق الكفر والايمان لأنهما مكسوبان للعبد ، وخلق الله تعالى إياهما لا ينافي كونهما مكسوبين للعبد كما بين في الكلام على قوله تعالى : ﴿ والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : 96] لكن أكثر الأحاديث تؤيد المعنى الأول ، وكأني بك تختار الثاني لأن كون المقام للتوبيخ على الكفر أظهر وهو أوفق به ، وعن عطاء بن أبي رباح ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ ﴾ أي بالله تعالى مؤمن بالكوكب ﴿ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ بالله تعالى كافر بالكوكب ، وقيل : ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ ﴾ بالخلق وهم الدهرية ﴿ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ به ، وعن الحسن أن في الكلام حذفاً والتقدير ومنكم فاسق ، ولا أراه يصح ، وكأنه من كذب المعتزلة عليه ، والجملة على ما استظهر بعض الأفاضل معطوفة على الصلة ، ولا يضره عدم العائد لأن المعطوف بالفاء يكفيه وجود العائد في إحدى الجملتين كما قرروه في نحو الذي يطير فيغضب زيد الذباب ، أو يقال : فيها رابط بالتأويل أي فمنكم من قدر كفره ومنكم من قدر إيمانه ، أو ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ ﴾ به ﴿ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ به ، ويقدر الحذف تدريجاً ، وجوز أن يكون العطف على جملة ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ ﴾ .

﴿ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق ﴾

بالحكمة البالغة المتضمنة للمصالح الدينية والدنيوية ، قيل : وأصل الحق مقابل الباطل فأريد به الغرض الصحيح الواقع على أتم الوجوه وهو الحكمة العظيمة .

(84/766)

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ حيث برأكم سبحانه في أحسن تقويم وأودع فيكم من القوى والمشاعر الظاهرة والباطنة ما نيط بها جميع الكمالات البارزة والكامنة وزينكم بصفوة صفات مصنوعاته وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته وجعلكم أنموذج جميع مخلوقاته في هذه النشأة ، وقد ذكر بعض المحققين أن الإنسان جامع بين العالم العلوي والسفلي ، وذلك لروحه التي هي من عالم المجردات وبدنه الذي هو من عالم الماديات وأنشدوا : وتزعم أنك جرم صغير . . .

وفيك انطوى العالم الأكبر

ولعمري أن الإنسان أعجب نسخة في هذا العالم قد اشتملت على دقائق أسرار شهدت ببعضها الآثار وعلم ما علم منها ذوو الأبصار ، وخص بعضهم الصورة بالشكل المدرك بالعين كما هو المعروف ، وكل ما يشاهد من الصور الإنسانية حسن لكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب فلانحطاط بعضها عن مراتب ما فوقها انحطاطاً بيناً

وإضافتها إلى الموفى عليها لا تستملح وإلا فهي داخلة في حيز الحسن غير خارجة من حده ؛ ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها ثم ترى أملح وأعلى في مراتب الحسن فينبو عن الأولى طرفك وتستثقل النظر إليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها ، وقالت الحكماء : شيآن لا غاية لهما : الجمال.

والبيان.

وقرأ زيد بن علي.

وأبو رزين ﴿ صُوَرَكُمْ ﴾ بكسر الصاد والقياس الضم كما في قراءة الجمهور.

﴿ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ في النشأة الأخرى لا إلى غيره استقلالاً أو اشتراكاً فاصرفوا ما خلق لكم فيما خلق له لئلا يمسخ ما يشاهد من حسنكم بالعذاب. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(85/766)

وقال ابن عاشور :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾

لما كان جُلّ ما اشتملت عليه هذه السورة إبطالَ إشراك المشركين وزجرهم عن دين

الإشراك بأسره وعن تفاريعه التي أعظمها إنكارهم البعث وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وتكذيب القرآن وتلك أصول ضلالهم ابتُدئت السورة بالإعلان بضلالهم وكفرانهم المنعم عليهم ، فإن ما في السماوات والأرض يسبح لله تعالى عن النقائص : إما بلسان المقال مثل الملائكة والمؤمنين أو بلسان الحال مثل عبادة المطيعين من المخلوقات المدركة كالملائكة والمؤمنين ، وإما بلسان الحال مثل دلالة حال الاحتياج إلى الإيجاد والإمداد كحاجة الحيوان إلى الرزق وحاجة الشجرة إلى المطر وما يشهد به حال جميع تلك الكائنات من أنها مربوبة لله تعالى ومسخرة لما أراده منها .

وكل تلك المخلوقات لم تنقض دلالة حالها بنقائض كفر مقالها فلم يخرج عن هذا التسبيح إلا أهل الضلال من الإنس والشياطين فإنهم حَجبوا بشهادة حالهم لما غشوها به من صرح الكفر .

فالمعنى : يسبح لله ما في السماوات والأرض وأنتم بخلاف ذلك .

وهذا يفيد ابتداء تقرير تنزيه الله تعالى وقوة سلطانه ليزداد الذين آمنوا إيماناً ويكون لهم تعليماً وامتناناً ويفيد ثانياً بطريق الكناية تعريضاً بالمشركين الذين لم ينزهوه ولا وقروه فنسبوا إليه شركاء .

وجيء بفعل التسبيح مضارعاً للدلالة على تجدّد ذلك التسبيح ودوامه وقد سبق نظيره في فاتحة سورة الجمعة .

وجيء به في فواتح سُور: الحديد، والحشر، والصف بصيغة الماضي للدلالة على أن التسبيح قد استقر في قديم الأزمان.

(86/766)

فحصل من هذا التفنن في فواتح هذه السورة كلا المعنيين زيادة على ما بيناه من المناسبة الخاصة بسورة الجمعة، وما في هاته السورة من المناسبة بين تجدد التسبيح والأمر بالعفو عن ذوي القربى والأمر بالتقوى بقدر الاستطاعة والسمع والطاعة لكي لا يكتفي المؤمنون بحصول إيمانهم ليجتهدوا في تعزيزه بالأعمال الصالحة.

وإعادة ﴿ ما ﴾ الموصولة في قوله: ﴿ وما في الأرض ﴾ لقصد التوكيد اللفظي.

وجملة ﴿ له الملك ﴾ استئناف واقع موقع التعليل والتسبب لمضمون يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض فإن ملابسة جميع الموجودات لدلائل تنزيه الله تعالى عن الشركاء وعن النقائص لا مقتضى لها إلا انفرادُه بتملكها وإيجادها وما فيها من الاحتياج إليه وتصرفه فيها تصرف المالك المتفرد في ملكه.

وفي هذه الجملة تنويه بإقبال أهل السماوات والأرض على تسبيح الله وتجديد ذلك التسبيح.

فتقديم المسند على المسند إليه لإفادة تخصيصه بالمسند إليه ، أي قصر تعلق لام الاستحقاق بالملك عليه تعالى فلا ملك لغيره وهو قصر ادعائي مبني على عدم الاعتداد بما لغير الله من ملك لنقصه وعدم خلوّه عن الحاجة إلى غيره من هو له بخلاف ملكه تعالى فهو الملك المطلق الداخل في سلطانه كل ذي ملك .

وجملة ﴿ وله الحمد ﴾ مضمونها سبب لتسبيح الله ما في السماوات وما في الأرض ، إذ التسبيح من الحمد ، فلا جرم أن كان حمد ذوي الإدراك مختصاً به تعالى إذ هو الموصوف بالجميل الاختياري المطلق فهو الحقيق بالحمد والتسبيح .

(87/766)

فهذا القصر ادعائي لعدم الاعتداد بحمد غيره لنقصان كمالاتهم وإذا أريد بالحمد ما يشمل الشكر أو يفضي إليه كما في الحديث " الحمد رأس الشكر لم يشكر الله عبد لم يحمده " وهو مقتضى المقام من تسفيه أحلام المشركين في عبادتهم غيره فالشكر أيضاً مقصور عليه تعالى لأنه المنعم الحق بنعم لا قبل لغيره بإسدائها ، وهو المفيض على المنعمين ما ينعمون به في الظاهر ، قال تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ [النحل : 53] كما تقدم في تفسير أول سورة الفاتحة .

وجملة ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ معطوفة على اللتين قبلها وهي بمنزلة التذييل لهما والتبيين لوجه القصرين فيهما ، فإن التقدير على كل شيء هو صاحب الملك الحق وهو المختص بالحمد الحق .

وفي هذا التذييل وعد للشاكرين ووعيد وترهيب للمشركين .

والاقتصار على ذكر وَصف ﴿ قدير ﴾ هنا لأن المخلوقات التي تسبح الله دالة على صفة القدرة أولاً لأن من يشاهد المخلوقات يعلم أن خالقها قادر .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2)

هذا تقرير لما أفاده قوله : ﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ [التغابن : 1] ، وتخلصٌ للمقصود منه على وجه التصريح بأن الذين أشركوا بالله قد كفروا بنعمته وبخلقهم زيادة على جحدهم دلائل تنزهه تعالى عن النقص الذي اعتقدوه له .

ولذلك قدم ﴿ فمنكم كافر ﴾ على ﴿ ومنكم مؤمن ﴾ لأن الشق الأول هو المقصود بهذا الكلام تعريضاً وتصريحاً .

وأفاد تعريف الجزأين من جملة ﴿ هو الذي خلقكم ﴾ قصر صفة الخالقية على الله تعالى ، وهو قصر حقيقي قصد به الإشارة بالكناية بالرد على المشركين إذ عمدوا إلى عبادة أصنام يعلمون أنها لم تخلقهم فما كانت مستحقة لأن تعبد ، لأن العبادة شكر .

قال تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ [النحل : 17] .

والخطاب في قوله : ﴿ خلقكم ﴾ لِجميع الناس الذين يدعوهم القرآن بقرينة قوله : ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ ، فإن الناس لا يعْدون هذين القسمين .

والفاء في ﴿ فمنكم كافر ﴾ عاطفة على جملة ﴿ هو الذي خلقكم ﴾ وليست عاطفة على فعل ﴿ خلقكم ﴾ وهي للتفريع في الوقوع دون تسبب .

ونظيره قوله : ﴿ وجعلنا في ذريتهما النبوءة والكتاب فمنهم مهتدٍ وكثير منهم فاسقون ﴾ [الحديد : 26] ومثل هذا التفريع يستتبع التعجيب من جري أحوال بعض الناس على غير ما يقتضيه الطبع ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ [الواقعة : 82] فجملة ﴿ فمنكم كافر ﴾ هي المقصود من التفريع ، وهو تفريع في الحصول .

وقدم ذكر الكافر لأنه الأهم في هذا المقام كما يشير إليه قوله تعالى في ﴿ ألم يأتكم نبؤا الذين كفروا من قبل ﴾ [التغابن : 5] .

وجملة ﴿ ومنكم مؤمن ﴾ تتميم وتنويه بشأن أهل الإِيمان ومضادّةَ حالهم لحال أهل الكفر ومقابلة الحال بالحال .

وقوله : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ تتميم واحتراس واستطراد ، فهو تتميم لما يكمِّل

المقصود من تقسيمهم إلى فريقين لإِبداء الفرق بين الفريقين في الخير والشر وهو عليم بذلك وعليم بأنه يقع وليس الله مغلوباً على وقوعه ولكن حكمته وعلمه اقتضيا ذلك .

ودون تفصيل هذا تطويل نخصهُ بتأليف في معنى القدر وجريان أعمال الناس في الدنيا إن شاء الله .

ونقتصر هنا على أن نقول : خلق الله الناس وأودع فيهم العقول التي تتوصل بالنظر السليم من التقصير وشوائب الهوى وغشاوات العناد إلى معرفة الله على الوصف اللائق به وخلق فيهم القُدرة على الأعمال الصالحة وغيرها المسماة عند الأشعري بالكسب وعند المعتزلة بقُدرة العبد (والخلاف في التعبير) .

(89/766)

وأرشدهم إلى الصلاح وحذرهم من الفساد ، والله عالم بما يكتسبه كل أحد ولو شاء لصرف مقترف الفساد عن فعله ولكنه أوجد نُظُماً مرتبطاً بعضها ببعض ومنتشرة فقضت حكمته بالحفاظ على تلك النظم الكثيرة بأن لا يعوق سيرَها في طرائقها ولا يعطلَ عمَلها لأجل إصلاح أشخاص هم جزء من كلَ لأن النظُم العامة أعم فالحفاظ على اطرادها أصلح وأرجح ، فلا تتنازل إرادة الله وقدرته إلى التدخل فيما سُمي بالكسب على

أصولنا أو بالقدرة الحادثة على أصول المعتزلة ، بل جعل بحكمته بين الخَلْقِ والكسب حاجزاً هو نظام تكوين الإِنسان بما فيه من إرادة وإدراك وقدرة ، وقد أشار إلى هذا قوله : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أي هو بصير به من قَبل أن تعملوه ، وبعد أن عملتموه .

فالبصير : أريد به العالم عِلمَ انكشاف لا يقبل الخفاء فهو كعلم المشاهدة وهذا إطلاق شائع في القرآن لا سيما إذا أفردت صفة ﴿ بصير ﴾ بالذكر ولم تذكر معها صفة "سميع" .

واصطلح بعض المتكلمين على أن صفة البصيرة : العالم بالمرْئيات .

وقال بعضهم : هي تعلق العلم الإلهي بالأمور عند وقوعها .

والحق أنها استعمالات مختلفة .

وبهذا يتضح وجه الجمع بين ما يبدو من تعارض بين آيات القرآن وإخبارٍ من السنة فاجعلوه مِثالاً يُحتذى ، وقولوا هكذا .

هكذا .

وهو احتراس من أن يتوهم من تقسيمهم إلى فريقين أن ذلك رضى بالحالين كما حكي عن المشركين ﴿ وقالوا لو شاء الرحمان ما عبدناهم ﴾ [الزخرف : 20] .

وهو استطراد بطريق الكناية به عن الوعد والوعيد .

وشمل قوله : ﴿ بما تعملون ﴾ أعمالَ القلوب كالإِيمان وهي المقصود ابتداء هنا .

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)

﴿ خَلَقَ السماوات والأرض ﴾ ﴿ ﴾ .

(90/766)

استئناف بياني نَاشىء عن قوله : ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ [التغابن : 2] يبيِّن أن انقسامهم إلى قسمي الكافرين والمؤمنين نشأ عن حياد فريق من الناس عن الحق الذي أقيم عليه خلق السماوات والأرض لأن الحق أن يؤمن الناس بوجود خالقهم ، وبأنه واحد وأن يفردوه بالعبادة فذلك الذي أراده الله من خلقهم ، قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : 56] .

وقال : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ [الروم : 30] فمن حَاد عن الإِيمان ومال إلى الكفر فقد حاد عن الحق والفطرة .

﴿ والأرض ﴾ .

وقوله : ﴿ بالحق ﴾ معترض بين جملة ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ وجملة ﴿ وصوّركم ﴾ .

وفي قوله : ﴿ بالحق ﴾ إيماء إلى إثبات البعث والجزاء لأن قوله بالحق متعلق بفعل ﴿ خلق

﴿ تعلَّق الملابسة المفاد بالباء، أي خلقاً ملابساً للحق، والحق ضد الباطل، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ إن في خلق السماوات والأرض إلى قوله: ربنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ [آل عمران: 190 - 191].

والباطل مَصْدَقهُ هنالك هو العبث لقوله تعالى: ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ [الدخان: 38، 39] فتعين أن مَصْدَقَ الحقّ في قوله: ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أنه ضد العبث والإهمال.

والمراد بـ ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ خلق ذوَاتهن وخلق ما فيهن من المخلوقات كما أنبأ عنه قوله: ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق، أي ما خلقناهما وما بينهما إلا بالحقّ، فكذلك يكون التقدير في الآية من هذه السورة.

وملابسة الحق لخلق السماوات والأرض يلزم أن تكون ملابسة عامة مطردة لأنه لو اختلت ملابسة حال من أحوال مخلوقات السماوات للحق لكان ناقضاً لمعنى ملابسة خلقِها للحقّ، فكان نفي البعث للجزاء على أعمال المخلوقات موجباً اختلال تلك الملابسة في بعض الأحوال.

(91/766)

وتخلّف الجزاء عن الأعمال في الدنيا مشاهد إذ كثيراً ما نرى الصالحين في كرب ونرى أهل الفساد في نعمة ، فلو كانت هذه الحياة الدنيا قصارى حياة المكلفين لكان كثيرٌ من أهل الصلاح غيرَ لاقٍ جزاءً على صلاحه .

وانقلب أكثر أهل الفساد متمتعاً بإرضاء خباثة نفسه ونوال مشتهياته ، فكان خلق كلا هذين الفريقين غيرَ ملابس للحق ، بالمعنى المراد .

ولزيادة الإِيقاظ لهذا الإِيمان عطف عليه قوله : وإليه المصير ﴾ وكل ذلك توطئة إلى ما سبقه من قوله تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ﴾ [التغابن : 7] الآية .

وفي قوله ﴿ بالحق ﴾ رمز إلى الجزاء وهو وعيد ووعد .

وفي قوله : ﴿ خلق السموات ﴾ إلى آخره إظهار أيضاً لعظمة الله في ملكوته .

﴿ بالحق وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ ﴾ .

إدماج امتنان على الناس بأنهم مع ما خلقوا عليه من ملابسة الحق على وجه الإِجمال وذلك من الكمال وهو ما اقتضته الحكمة الإلهية فقد خُلقوا في أحسن تقويم إذ كانت صورة الإِنسان مستوفية الحسن متماثلة فيه لا يعتورها من فظاعة بعض أجزائها ونقصان الانتفاع بها ما يُناكد محاسن سائرها بخلاف محَاسن أحاسن الحيوان من الدواب والطيرِ والحيتان من مَشي على أربع مع انتكاس الرأس غالباً ، أو زحف ، أو نقز في المشي في البعض .

ولا تَعْتَوِرُ الإِنسانَ نقائصُ في صورته إلا من عوارضَ تعرض في مدة تكوينه من صدَمَات

لبطون الأمهات ، أو علل تحلّ بهن ، أو بالأجنة أو من عوارض تعرض له في مدة حياته فتشوه بعض محاسن الصور .

فلا يعد ذلك من أصل تصوير الإِنسان على أن ذلك مع ندرته لا يعد فظاعة ولكنه نقص نسبي في المحاسن فقد جمع بين الإِيماء إلى ما اقتضته الحكمة قد نبههم إلى ما اقتضاه الإِنعام .

وفيه إشارة إلى دليل إمكان البعث كما قال : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾ [ق : 15] ، وقال : ﴿ أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ [يس : 81] .

﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

(92/766)

عطف على جملة ﴿ وصوركم ﴾ لأن التصوير يقتضي الإِيجاد فأعقب بالتذكير بأن بعد هذا الإِيجادِ فناءً ثم بعثًا للجزاء .

والمَصير مصدر ميمي لفعل صادر بمعنى رَجع وانتهى ، ولذلك يُعدَّى بحرف الانتهاء ، أي ومرجعكم إليه يعني بعد الموت وهو مصير الحشر للجزاء .

وتقديم ﴿ إليه ﴾ على ﴿ المصير ﴾ للرعاية على الفاصلة مع إفادة الاهتمام بتعلق ذلك

المصير بتصرف الله المحض .

وليس مراداً بالتقديم قصر لأن المشركين لا يصدقون بهذا المصير من أصله بَلْهَ أن يدّعوا أنه مصير إلى غيره حتى يُردّ عليهم بالقصر .

وهذه الجملة أشد ارتباطاً بجملة ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ منها بجملة ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ كما يظهر بالتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(93/766)

قوله تعالى ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (4) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (5) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تقرر بما مضى إحاطة قدرته بما دل على ذلك من إبداعه للخلق على هذا الوجه

المحكم وشهد البرهان القاطع بأن ذلك صنعه وحده ، لا فعل فيه لطبيعة ولا غيرها ، دل على أن ذلك بسبب شمول علمه إشارة إلى أن من لم يكن تام العلم فهو ناقص القدرة فقال : ﴿ يعلم ﴾ أي علمه حاصل في الماضي والحال والمآل يتعلق بالمعلومات على حسب تعليق قدرته على وفق إرادته بوجدانها ﴿ ما ﴾ أي الذي أو كل شيء ﴿ في السماوات ﴾ كلها .

ولما كان الكلام بعد قيام الدليل القطعي البديهي على جميع أصول الدين مع الخلص لأن بداهة الأدلة قادتهم إلى الاعتقاد أو إلى حال صاروا فيه أهلاً للاعتقاد ، والتحلي بحلية أهل السداد ، ولم يؤكد بإعادة الموصول بل قال : ﴿ والأرض ﴾ ولما ذكر حال الظرف على وجه يشمل المظروف ، وكان الاطلاع على أحوال العقلاء أصعب ، قال مؤكداً بإعادة العامل : ﴿ ويعلم ﴾ أي على سبيل الاستمرار ﴿ ما تسرون ﴾ أي حال الانفراد وحال الخصوصية مع بعض الإفراد .

ولما كانت لدقتها وانتشارها بحيث ينكر بعض الضعفاء الإحاطة بها ، وكان الإعلان ربما خفي لكثرة لغط واختلاط أصوات ونحو ذلك أكد فقال : ﴿ وما تعلنون ﴾ من الكليات والجزئيات خلافاً لمن يقول : يعلم الكليات الكليات فقط ولا يعلم الجزئيات إلا بعد وجودها ، من فلسفي وغيره ، ولمن يقول : يعلم الكليات خاصة .

ولما ذكر حال المظروف على وجه يشمل ظروفه وهي الصدور ، وكان أمرها أعجب من أمر غيرها ، قال مصرحاً بها إشارة إلى دقة أمرها مظهراً موضع الإضمار تعظيماً :

﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة التامة لكل كمال ﴿ عليم ﴾ أي بالغ العلم ﴿ بذات ﴾ أي صاحبة ﴿ الصدور ﴾ من الأسرار والخواطر التي لم تبرز إلى الخارج سواء كان صاحب الصدر قد علمها أو لا ، وعلمه لكل ذلك على حد سواء لا تفاوت فيه بين علم الخفي وعلم الجلي ، لأن نسبة المقتضي لعلمه وهو وجود ذاته على ما هي عليه من صفات الكمال إلى الكل على حد سواء ، فراقبوه في الإخلاص وغيره مراقبة من يعلم أنه بعينه لا يغيب عنه واحذروا أن يخالف السر العلانية ، فإن حقه أن يتقي ويحذر ، وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد وتقديم تقرير القدرة على تقريره لأن دلالة المخلوقات على قدرته أولاً وبالذات ، وكمال قدرته يستلزم كمال علمه لأن من لا يكمل علمه لا تتم قدرته ، فلا يأتي مصنوعه محكماً .

ولما تقرر الإيمان به من أنه الملك الذي له وحده الملك ، وأشار بما يشاهد من انقسام عبيده إلى مؤمن وكافر إلى أنه لا من الأخذ على يد الظالم منهما كما هي عادة الملوك ، لا يسوغ في الحكمة ولا في العادة غير ذلك ، وأخبر أن علمه محيط لنسبته إلى العلويات والسفليات والظواهر والبواطن على حد سواء ، أتبع ذلك وجوب الإيمان برسله لجمع الكلمة عليه

سبحانه لنكمل الحياة بإصلاح ذات البين لئلا يقع الخلاف فتفسد الحياة ووجوب الاعتبار لمن مضى من أممهم ، فمن لم يعتبر عثر على مهواه من الأمل ، ودل عليه بإهلاكه من خالفهم إهلاكاً منسقاً في خرقه للعادة وخصوصه لهم على وجه مقرر ما مضى من انفراده بالملك معلم أن الكفرة هم المبطلون فقال : ﴿ ألم يأتكم ﴾ أي أيها الناس ولا سيما الكفار لتعلموا أنه شامل العلم محيط القدرة ينتقم من المسيء ﴿ نبؤا الذين ﴾ وعبر بما يشمل شديد الكفر وضعيفه فقال : ﴿ كفروا ﴾ أي خبرهم العظيم .

(95/766)

ولما كان المهلكون على ذلك الوجه بعض الكفار وهم الذين أرسل إليهم الرسل ، فلم يستغرقوا ما مضى من الزمان قال : ﴿ من قبل ﴾ كالقرون المذكورين في الأعراف ، ثم سبب عن كفرهم وعقب قوله : ﴿ فذاقوا ﴾ أي باشروا مباشرة الذائق بالعدل الثاني كما كان حكم عليهم بالعدل الأول بالتقسيم إلى كافر ومؤمن ﴿ وبال أمرهم ﴾ أي شدة ما كانوا فيه مما يستحق أن يشاور فيه ويؤمر وينهى وثقله ووخامة مرعاه في الدنيا ، وأصله الثقل كيفما قلب ﴿ ولهم ﴾ أي مع ما ذاقوه بسببه في الدنيا ﴿ عذاب أليم ﴾ في البرزخ ثم القيامة التي هي موضع الفصل الأعظم .

ولما ذكر ما أحله بهم سبحانه وأشار إلى القطع بأنه من عنده باتساقه في خرقه العوائد بالاستئصال والخصوص لمن كذب الرسل والتنجية لمن صدقهم ، علله بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر الشنيع العظيم من الوبال الدال قطعاً على أن الكفر أبطل الباطل وأنه مما يغضب الخالق .

ولما لم يكن مقصودها كمقصود غافر من تصنيف الناس صنفين ، وإنما حصل تصنيفهم هنا بالعرض للدلالة على الساعة اكتفى بضمير الشأن فقال : ﴿ بأنه ﴾ أي بسبب أن الشأن العظيم البالغ في الفظاعة ﴿ كانت تأتيهم ﴾ على عادة مستمرة ﴿ رسلهم ﴾ أي رسل الله الذين أرسلهم إليهم وخصهم بهم ليكونوا موضع سرورهم بهم ﴿ بالبينات ﴾ أي الأمور التي توضح غاية الإيضاح أنهم رسل الله من الكتب وغيرها ، فشهدوا الأمر من معدنه ، فلذلك كان عذابهم أشد .

(96/766)

ولما كان سبحانه وتعالى قد أودع الإنسان من جملة ما منحه به خاصة لطيفة وهي العزة وحب الكبر والعلو ، فمن وضعها موضعها بالتكبر على من أمر الله بالتكبر عليه وهم شياطين الإنس والجن ممن عصاه سبحانه نجا ، ومن وضعها في غير موضعها بالتكبر على

أولياء الله رب العزة هلك ، يبن تعالى أن الكفار وضعوها في غير موضعها : ﴿ فقالوا ﴾ أي الكل لرسلهم منكرين غاية الإنكار تكبراً : ﴿ أبشر ﴾ أي هذا الجنس وهو مرفوع على الفاعلية لأن الاستفهام يطلب الفعل ، ولما كان تكذيب الجمع أعظم ، وكان لو أفرد الضمير لم يكن له روعة الجمع قال : ﴿ يهدوننا ﴾ فأنكروا على الملك الأعظم إرساله لهم ﴿ فكفروا ﴾ بذلك عقب مجيء الرسل وبسببه من غير نظر وتفكر وأدنى تأمل وتبصر حسداً للرسل لكونهم مساوين لهم في البشرية فاستبعدوا أن يخصوا من بينهم بأمر ولا سيما إن كان عظيماً جداً ، فلزمهم ارتكاب أقبح الأمور وهو استبعاد أن يكون النبي بشراً مع الإقرار بأن يكون الإله حجراً ﴿ وتولوا ﴾ أي كلفوا أنفسهم خلاف ما تدعو إليه الفطرة الأولى من الإعراض عن الرسل بعد إنكار رسالتهم لشبهة قامت عندهم ، وذلك أنهم قالوا : إن الله عظيم لا يشبه البشر فينبغي أن يكون رسله من غير البشر ، ولو تأملوا حق التأمل لعلموا أن هذا هكذا ، وأن الرسل إنما هي ملائكة ، لكن لما كان لا يقوى جميع البشر على رؤية الملائكة كما هو مقتضى العظمة التي توهموها ولم يثبتوها على وجهها ، خص سبحانه من البشر ناساً وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بقوى زائدة طوقهم بها على معالجتهم ، فأتوا إليهم ليكونوا واسطة بين الله وبين خلقه لأن بعض الجنس أميل إلى بعض وأقبل .

ولما كان هذا كله إنما هو لمصالح الخلق لا يعود على الله سبحانه وتعالى وعز شأنه نفع من وجوده ولا يلحقه ضرر من عدمه ولا بالعكس ، نبه على ذلك بقوله ﴿ واستغنى الله ﴾ أي فعل الملك الأعظم الذي لا أمر لأحد معه فعل من يطلب الغنى عنهم وأوجده إيجاداً عظيماً ممن هداه لاتباع الرسل فأعرض عنهم حين أعرضوا عن رسله فضرهم إعراضه عنهم ولم يضره إعراضهم وما ضروا إلا أنفسهم وأطلق الاستغناء ليعم كل شيء .

ولما كان التعبير بذلك قد يوهم حدوث ما لم يكن له ، نفى ذلك بقوله مظهراً زيادة في العظمة : ﴿ والله ﴾ أي المستجمع لصفات الكمال من غير تقيد بحيثية ﴿ غني ﴾ عن الخلق جميعاً ﴿ حميد ﴾ له صفة الغنى المطلق والحمد الأبلغ الذي هو الإحاطة بجميع أوصاف الكمال على الدوام أزلاً وأبداً ، لم يتجدد له شيء لم يكن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 11.8 ﴾

(98/766)

فصل

قال الفخر :

اعلم أن قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ الذين كَفَرُواْ ﴾

خطاب لكفار مكة وذلك إشارة إلى الويل الذي ذاقوه في الدنيا وإلى ما أعد لهم من العذاب في الآخرة .

فقوله : ﴿ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي شدة أمرهم مثل قوله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ وقوله : ﴿ ذلك بِأَنَّهُ ﴾ أي بأن الشأن والحديث أنكروا أن يكون الرسول بشراً . ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً فكفروا وتولوا ، وكفروا بالرسل وأعرضوا واستغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم من الأزل ، وقوله تعالى : ﴿ والله غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ من جملة ما سبق ، والحميد بمعنى المحمود أي المستحق للحمد بذاته ويكون بمعنى الحامد ، وقوله تعالى : ﴿ زَعَمَ الذين كَفَرُواْ ﴾ قال في "الكشاف" : الزعيم ادعاء العلم ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " زعموا مطية الكذب " وعن شريح لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا ، ويتعدى إلى مفعولين ، تعدى ، العلم ، قال الشاعر :

ولم أزعمك عن ذلك معزولا . . والذين كفروا هم أهل مكة ﴿ بلى ﴾ إثبات لما بعد أن وهو البعث وقيل : قوله تعالى : ﴿ قُلْ بلى وَرَبِّي ﴾ يحتمل أن يكون تعليماً للرسول صلى الله عليه وسلم ، أي يعلمه القسم تأكيداً لما كان يخبر عن البعث وكذلك جميع القسم في القرآن وقوله تعالى : ﴿ وَذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ أي لا يصرفه صارف ، وقيل : إن أمر البعث على الله يسير ، لأنهم أنكروا البعث بعد أن صاروا تراباً ، فأخبر أن إعادتهم أهون

في العقول من إنشائهم ، وفي الآية مباحث .

الأول : قوله : ﴿ فَكَفَرُواْ ﴾ يتضمن قوله : ﴿ وَتَوَلَّواْ ﴾ فما الحاجة إلى ذكره ؟ نقول : إنهم كفروا وقالوا : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ وهذا في معنى الإنكار والإعراض بالكلية ، وذلك هو التولي ، فكأنهم كفروا وقالوا قولاً يدل على التولي ، ولهذا قال : ﴿ فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ﴾ .

(99/766)

الثاني : قوله : ﴿ وَتَوَلَّواْ واستغنى الله ﴾ يوهم وجود التولي والاستغناء معاً ، والله تعالى لم يزل غنياً ، قال في "الكشاف" : معناه أنه ظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ، ولم يضطرهم إليه مع قدرته على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 21 . 22﴾

(100/766)

وقال القرطبى :

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

تقدّم في غير موضع .

فهو عالم الغيب والشهادة ، لا يخفى عليه شيء .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (5)

الخطاب لقريش ؛ أي ألم يأتكم خبر كفار الأمم الماضية .

﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي عوقبوا .

﴿ وَلَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي موجع .

وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي هذا العذاب لهم بكفرهم بالرسل تأتيهم ﴿ بالبينات ﴾ أي بالدلائل الواضحة .

﴿ فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أنكروا أن يكون الرسول من البشر .

وارتفع "أَبَشَرٌ" على الابتداء .

وقيل : بإضمار فعل ، والجمع على معنى بشر ؛ ولهذا قال : "يَهْدُونَنَا" ولم يقل يهدينا .

وقد يأتي الواحد بمعنى الجمع فيكون اسماً للجنس ؛ وواحده إنسان لا واحد له من لفظه .

وقد يأتي الجمع بمعنى الواحد ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ مَا هذا بَشَرًا ﴾ [يوسف : 30] .

﴿ فَكَفَرُوا ﴾ أي بهذا القول ؛ إذ قالوه استصغاراً ولم يعلموا أن الله يبعث من يشاء إلى عباده .

وقيل : كفروا بالرسل وتولوا عن البرهان ، وأعرضوا عن الإيمان والموعظة .

﴿ واستغنى الله ﴾ أي بسلطانه عن طاعة عباده ؛ قاله مقاتل .

وقيل : استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه لهم من البيان ، عن زيادة تدعو إلى الرشد وتقود إلى الهداية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(101/766)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ يُسَبّحُ لِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِى الأرض ﴾

أي ينزهُهُ سبحانَهُ جميعُ ما فيهما من المخلوقاتِ عمَّا لا يليقُ بجنابِ كبريائِه تنزيهاً مُستمراً ﴿ لَهُ الملك وَلَهُ الحمد ﴾ لا لغيرِه إذْ هو المُبدِىءُ لكلِّ شيءٍ وهو القائمُ به والمهيمنُ عليهِ وهو المُولِي لأصولِ النعمِ وفروعِها ، وأما ملكُ غيرِه فاسترعاءٌ من جنابِه وحمدُ غيرِه اعتداءٌ بأنَّ نعمةَ الله جرتْ على يدِه ﴿ وَهُوَ على كُلّ شَىْء قَدِيرٌ ﴾ لأنَّ نسبةَ ذاتِه المقتضيةَ للقدرِة إلى الكلِّ سواءٌ ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ ﴾ خلقاً بديعاً حاوياً لجميعِ مبادِي الكمالاتِ العلميةِ والعمليةِ ومع ذلكَ ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ ﴾ أي فبعضكم أو فبعضٌ منكم مختارٌ للكفرِ كاسبٌ له على خلافِ ما تستدعيهِ خلقتُه ﴿ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ مختارٌ للإيمانِ

كاسبٌ له حسبما تقتضيهِ خلقتُه ، وكان الواجبُ عليكم جميعاً أن تكونُوا مختارينَ للإيمانِ شاكرينَ لنعمةِ الخلقِ والإيجادِ وما يتفرعُ عليها من سائرِ النعمِ ، فما فعلتُم ذلكَ مع تمامِ تمكنِكُم منهُ بل تشعبتُم شعباً وتفرقتُم فرقاً . وتقديمُ الكفرِ لأنه الأغلب فيما بينَهُم والأنسبُ بمقامِ التوبيخ ، وحملُه على مَعْنَى فمنكم كافرٌ مقدرٌ كفرُه موجهٌ إليهِ ما يحملُه عليهِ ومنكُم مؤمنٌ مقدرٌ إيمانُه موفقٌ لما يدعُوه إليهِ مما لا يلائمُ المقامَ ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكُم بذلكَ فاختارُوا منه ما يجديكُم من الإيمانِ والطاعةِ ، وإياكُم وما يُرديكم من الكفرِ والعصيانِ ﴿ خُلِقَ السموات والأرض بالحق ﴾ بالحكمةِ البالغةِ المتضمنةِ للمصالحِ الدينيةِ والدنيويةِ ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ حيثُ بَرَأَكُم في أحسنِ تقويمٍ وأودعَ فيكُم من القُوى والمشاعرِ الظاهرةِ والباطنةِ ما نيطَ بها جميعُ الكمالاتِ البارزةِ والكامنةِ وزينكُم بصفوةِ صفاتِ مصنُوعاتِهِ وخصّكُم بخلاصةِ خصائصِ مُبدعَاتِهِ وجعلَكُم أنموذجَ جميعَ مخلوقاتِهِ في هذه النشأة ﴿

(102/766)

وَإِلَيْهِ المصير ﴾ في النشأةِ الأُخرى لا إلى غيرِهِ استقلالاً أو اشتراكاً فأحسِنُوا سرائرَكُم باستعمالِ تلكَ القُوى والمشاعرِ فيما خُلقنَ لَهُ .

﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السموات والأرض ﴾ من الأمورِ الكليةِ والجزئيةِ والأحوالِ الجليةِ والخفيةِ ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي ما تسرونَهُ فيما بينَكم وما تظهرونَهُ من الأمورِ، والتصريحُ بهِ مع اندراجِهِ فيما قبلَهُ لأنَّهُ الذي يدورُ عليهِ الجزاءُ ففيهِ تأكيدٌ للوعدِ والوعيدِ وتشديدٌ لهما وقولُهُ تعالَى: ﴿ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لما قبلَهُ من شمولِ علمِهِ تعالَى لسرِّهم وعلنِهم أي هو محيطٌ بجميعِ المضراتِ المستكنةِ في صدورِ الناسِ بحيثُ لا تفارقُها أصلاً فكيفَ يخفى عليهِ ما يُسرونَهُ وما يُعلنونَهُ، وإظهارُ الجلالةِ للإشعارِ بعلةِ الحكمِ وتأكيدِ استقلالِ الجملةِ. قيلَ وتقديمُ تقريرِ القدرةِ على تقريرِ العلمِ لأنَّ دلالةَ المخلوقاتِ على قدرتِهِ بالذاتِ وعلى علمِهِ بما فيها من الإتقانِ والاختصاصِ ببعضِ الأنحاءِ.

(103/766)

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ أيها الكفرةُ ﴿ نَبَؤُاْ الذين كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ﴾ كقومِ نوحٍ ومن بعدهم من الأممِ المصرةِ على الكفرِ ﴿ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ عطفٌ على كفرُوا والوبالُ الثقلُ والشدةُ المترتبةُ على أمرٍ من الأمورِ وأمرُهُم كفرُهُم عبرَ عنْهُ بذلكَ للإيذانِ بأنه أمرٌ هائلٌ وجنايةٌ عظيمةٌ أي ألم يأتكم خبرُ الذينَ كفرُوا من قبلُ فذاقوا من غيرِ مهلةٍ ما يستتبعُه كفرُهُم في

الدُّنيا ﴿ ولَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لا يُقادرُ قدرُهُ ﴿ ذلك ﴾ أي ما ذُكِرَ من العذابِ الذي ذاقوه في الدُّنيا وما سيذوقونَهُ في الآخرةِ ﴿ بأَنَّهُ ﴾ بسببِ أنَ الشأنَ ﴿ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ أي بالمعجزاتِ الظاهرةِ ﴿ فَقَالُواْ ﴾ عطفٌ على كانتْ ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أي قال كلُّ قومٍ من المذكورينَ في حقّ رسولِهم الذي أتاهُم بالمعجزاتِ منكرينَ لكونِ الرسولِ من جنسِ البشرِ متعجبينَ من ذلكَ أبشرٌ يهدينَا كما قالتْ ثمودُ ﴿ أَبَشَراً مّنَّا واحدا نَّتَّبِعُهُ ﴾ وقد أُجملَ في الحكايةِ فأُسندَ القولُ إلى جميعِ الأقوامِ وأُريدَ بالبشرِ الجنسُ فوصفَ بالجمعِ كما أُجملَ الخطابُ والأمرُ في قولِه تعالَى : ﴿ يا أيها الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صالحا ﴾ ﴿ فَكَفَرُواْ ﴾ أي بالرسلِ ﴿ وَتَوَلَّواْ ﴾ عن التدبرِ فيما أتَوا بهِ من البيناتِ وعن الإيمانِ بهم ﴿ واستغنى الله ﴾ أي أظهرَ استغناءَهُ عن إيمانِهم وطاعَتِهم حيثُ أهلكهُم وقطعَ دابرَهُم ، ولولاَ غناهُ تعالَى عنهُما لما فعلَ ذلكَ ﴿ والله غَنِىٌّ ﴾ عنِ العالمينَ فضلاً عن إيمانِهم وطاعَتِهم ﴿ حَمِيدٌ ﴾ يحمَدُهُ كلُّ مخلوقٍ بلسانِ الحالِ ، أو مستحقٌ للحمدِ بذاتِه وإنْ لم يحمَدهُ حامدٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السموات والأرض ﴾

من الأمور الكلية والجزئية والأحوال الجلية والخفية ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي ما تسرونه فيما بينكم وما تظهرونه من الأمور والتصريح به مع اندراجه فيما قبله للاعتناء بشأنه لأنه الذي يدور عليه الجزاء ، وقوله تعالى : ﴿ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من شمول علمه تعالى لسرهم وعلنهم أي هو عز وجل محيط بجميع المضمرات المستكنة في صدور الناس بحيث لا تفارقها أصلاً فكيف يخفى عليه تعالى ما يسرونه وما يعلنونه ، وإظهار الجلالة للإشعار بعلة الحكم وتأكيد استقلال الجملة ، قيل : تقديم تقرير القدرة على العلم لأن دلالة المخلوقات على قدرته تعالى بالذات وعلى علمه سبحانه لما فيها من الإتقان والاختصاص ببعض الأنحاء .

وقرأ عبيد عن أبي عمرو .

وأبان عن عاصم ما يسرون وما يعلنون بياء الغيبة .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ أي أيها الكفرة لدلالة ما بعد على تخصيص الخطاب بهم ، وظاهر كلام بعض الأجلة أن المراد بهم أهل مكة فكأنه قيل : ألم يأتكم يا أهل مكة ﴿ نَبَؤُا الذين كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ﴾ كقوم نوح .

وهود .

وصالح.

وغيرهم من الأمم المصرة على الكفرة ﴿ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي ضرر كفرهم في الدنيا من غير مهلة، وأصل الوبال الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور، ومنه الوبيل لطعام يثقل على المعدة، والوابل للمطر الثقيل القطار، واستعمل للضرر لأنه يثقل على الإنسان ثقلاً معنوياً، وعبر عن كفرهم بالأمر للإيذان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة ﴿ وَلَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لا يقادر قدره.

﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر من العذاب الذي ذاقوه في الدنيا وما سيذوقونه في الآخرة ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ أي بسبب أن الشأن.

﴿ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ بالمعجزات الظاهرة ﴿ فَقَالُواْ ﴾ عطف على ﴿ كَانَتْ ﴾.

(105/766)

﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أي قال كل قوم من أولئك الأقوام الذين كفروا في حق رسولهم الذي أتاهم بالمعجزات منكرين لكون الرسول من جنس البشر، أو متعجبين من ذلك أبشر يهدينا كما قالت ثمود: ﴿ أَبَشَراً مّنَّا واحدا نَّتَّبِعُهُ ﴾ [القمر: 24]، وقد أجمل في الحكاية

فأسند القول إلى جميع الأقوام ، وأريد بالبشر الجنس ، فوصف بالجمع كما أجمل الخطاب ، والأمر في قوله تعالى : ﴿ وَمَعِينٍ يا أَيُّهَا الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صالحا ﴾ [المؤمنون : 51] وارتفاع ﴿ بُشَرٌ ﴾ على الابتداء ، وجملة ﴿ يَهْدُونَنَا ﴾ هو الخبر عند الحوفي .

وابن عطية ، والأحسن أن يكون مرفوعاً على الفاعلية بفعل محذوف يفسره المذكور لأن همزة الاستفهام أميل إلى الفعل والمادة من باب الاشتغال ﴿ فَكَفَرُواْ ﴾ بالرسل عليهم السلام ﴿ وَتَوَلَّواْ ﴾ عن التأمل فيما أتوا به من البينات ؛ وعن الإيمان بهم ﴿ واستغنى الله ﴾ أي أظهر سبحانه غناه عن إيمانهم وعن طاعتهم حيث أهلكهم وقطع دابرهم ، ولولا غناه عز وجل عنهما لما فعل ذلك ، والجملة عطف على ما قبلها ، وقيل : في موضع الحال على أن المعنى ﴿ فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ﴾ وقد استغنى الله تعالى عن كل شيء ، والأول هو الوجه ﴿ والله غَنِيٌّ ﴾ عن العالمين فضلاً عن إيمانهم وطاعتهم ﴿ حَمِيدٌ ﴾ يحمده كل مخلوق بلسان الحال الذي هو أفصح من لسان المقال ، أو مستحق جل شأنه للحمد بذاته وإن لم يحمده سبحانه حامد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 28 صـ ﴾

(106/766)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأَرْض ﴾

أي : ينزهه سبحانه جميع مخلوقاته التي في سماواته وأرضه عن كل نقص وعيب ﴿ لَهُ الملك وَلَهُ الحمد ﴾ يختصان به ليس لغيره منهما شيء ، وما كان لعباده منهما ، فهو من فيضه وراجع إليه ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ أي : فبعضكم كافر وبعضكم مؤمن .

قال الضحاك : فمنكم كافر في السرّ مؤمن في العلانية كالمنافق ، ومنكم مؤمن في السرّ كافر في العلانية كعمار بن ياسر ونحوه ممن أكره على الكفر .

وقال عطاء : فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب ، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب .

قال الزجاج : إن الله خلق الكافر ، وكفره فعل له وكسب مع أن الله خالق الكفر .

وخلق المؤمن ، وإيمانه فعل له وكسب مع أن الله خالق الإيمان .

والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه ؛ لأن الله تعالى قدّر ذلك عليه وعلمه منه لأن وجود خلاف المقدّر عجز ، ووجود خلاف المعلوم جهل .

قال القرطبي : وهذا أحسن الأقوال ، وهو الذي عليه جمهور الأمة ، وقدّم الكافر على المؤمن لأنه الأغلب عند نزول القرآن ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ، فهو مجازيكم بأعمالكم .

ثم لما ذكر سبحانه خلق العالم الصغير أتبعه بخلق العالم الكبير فقال : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أي : بالحكمة البالغة .

وقيل : خلق ذلك خلقاً يقيناً لا ريب فيه ، وقيل : الباء بمعنى اللام ، أي : خلق ذلك لإظهار الحق ، وهو أن يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

ثم رجع سبحانه إلى خلق العالم الصغير فقال : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ قيل : المراد آدم خلقه بيده كرامة له ، كذا قال مقاتل ، وقيل : المراد جميع الخلائق ، وهو الظاهر ، أي : أنه سبحانه خلقهم في أكمل صورة وأحسن تقويم وأجمل شكل .

(107/766)

والتصوير : التخطيط والتشكيل .

قرأ الجمهور : ﴿ فأحسن صوركم ﴾ بضمّ الصاد ، وقرأ زيد بن عليّ ، والأعمش ، وأبو زيد بكسرها ﴿ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ في الدار الآخرة ، لا إلى غيره ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السموات والأرض ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي : ما تخفونه وما تظهرونه ، والتصريح به مع اندراجه فيما قبله لمزيد التأكيد في الوعد والوعيد ﴿ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من شمول علمه لكل معلوم ،

وهي تذييلية .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الذين كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ وهم كفار الأمم الماضية كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، والخطاب لكفار العرب ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ بسبب كفرهم ، والوبال : الثقل والشدّة ، والمراد : بأمرهم هنا : ما وقع منهم من الكفر والمعاصي ، وبالوبال ما أصيبوا به من عذاب الدنيا ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وذلك في الآخرة ، وهو عذاب النار ؛ والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما ذكر من العذاب في الدارين ، وهو مبتدأ ، وخبره ﴿ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ أي : بسبب أنها كانت تأتيهم الرسل المرسلة إليهم بالمعجزات الظاهرة ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أي : قال كل قوم منهم لرسولهم هذا القول منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر متعجبين من ذلك ، وأراد بالبشر الجنس ، ولهذا قال : ﴿ يهدوننا ﴾ .

﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ﴾ أي : كفروا بالرسل وبما جاءوا به ، وأعرضوا عنهم ولم يتدبروا فيما جاءوا به ، وقيل : كفروا بهذا القول الذي قالوه للرسل ﴿ واستغنى الله ﴾ عن إيمانهم وعبادتهم .

وقال مقاتل : استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه من المعجزات ، وقيل : استغنى بسلطانه عن طاعة عباده ﴿ والله غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي : غير محتاج إلى العالم ولا إلى عبادتهم له ، محمود من كل مخلوقاته بلسان المقال والحال .

(108/766)

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا مكث المنيّ في الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس ، فعرج به إلى الربّ فيقول : يا ربّ أذكر أم أنثى ؟ فيقضي الله ما هو قاض ، فيقول : أشقي أم سعيد ؟ فيكتب ما هو لاق " ، وقرأ أبو ذرّ من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " العبد يولد مؤمناً ، ويعيش مؤمناً ، ويموت مؤمناً ، والعبد يولد كافراً ، ويعيش كافراً ، ويموت كافراً ، وإن العبد يعمل برهة من دهره بالسعادة ، ثم يدركه ما كتب له فيموت شقياً ، وإن العبد يعمل برهة من دهره بالشقاء ، ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيداً " . انتهى . اهـ

﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 234 . 236 ﴾

(109/766)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾

كانوا ينفون الحشر بعلة أنه إذا تفرقت أجزاء الجسد لا يمكن جمعها ولا يحاط بها .

﴿ وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد ﴾ [السجدة : 10] ، فكان قوله تعالى : ﴿ يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ دحضا لشبهتهم ، أي أن الذي يعلم ما في السماوات والأرض لا يعجزه تفرق أجزاء البدن إذا أراد جمعها .

والذي يعلم السرّ في نفس الإنسان ، والسرُّ أدق وأخفى من ذرات الأجساد المتفرقة ، لا تخفى عليه مواقع تلك الأجزاء الدقيقة ولذلك قال تعالى : ﴿ أيحسب الإنسانُ أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ [القيامة : 3 - 4] .

فالمقصود هو قوله : ﴿ ويعلم ما تسرون ﴾ كما يقتضيه الاقتصار عليه في تذييله بقوله : ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ ولم يذكر أنه عليم بأعمال الجوارح ، ولأن الخطاب للمشركين في مكة على الراجح .

وذلك قبل ظهور المنافقين فلم يكن قوله : ﴿ ويعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ تهديداً على ما يبطنه الناس من الكفر .

وأما عطف ﴿ وما تعلنون ﴾ فتتميم للتذكير بعموم تعلق علمه تعالى بالأعمال .

وقد تضمن قوله : ﴿ ويعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ وعيداً ووعداً ناظرين إلى قوله : ﴿

فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ [التغابن : 2] فكانت الجملة لذلك شديدة الاتصال بجملة ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ [التغابن : 2].

وإعادة فعل ﴿ يعلم ﴾ للتنبيه على العناية بهذا التعلق الخاص للعلم الإِلهي بعد ذكر تعلقه العام في قوله : ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ﴾ تنبيهاً على الوعيد والوعد بوجه خاص.

وجملة ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ تذييل لجملة ﴿ ويعلم ما تسرون ﴾ لأنه يعلم ما يُسِرُّه جميع الناس من المخاطبين وغيرهم.

و﴿ ذات الصدور ﴾ صفة لموصوف محذوف نزلت منزلة موصوفها ، أي صاحبات الصدور ، أي المكتومة فيها.

(110/766)

والتقدير : بالنوايا والخواطر ذات الصدور كقوله : ﴿ وحملناه على ذات ألواح ﴾ [القمر : 13] وتقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ في سورة [الأنفال : 43].

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (5)

انتقال من التعريض الرمزي بالوعيد الأخروي في قوله : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ [التغابن : 2] ، إلى قوله : ﴿ وإليه المصير ﴾ [التغابن : 3] ، وقوله : ﴿ ويعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ [التغابن : 4] ، إلى تعريض أوضح منه بطريق الإِيماء إلى وعيد لعذاب دنيوي وأخروي معاً فإن ما يسمّى في باب الكناية بالإِيما ن أقل لوازم من التعريض والرمز فهو أقرب إلى التصريح .

وهذا الإِيماء بضرب المَثل بحال أمم تلقوا رسلهم بمثل ما تلقّى به المشركون محمداً صلى الله عليه وسلم تحذيراً لهم من أن يحلّ بهم مثل ما حلّ بأولئك ، فالجملة ابتدائية لأنها عَدٌّ لصنف ثانٍ من أصناف كفرهم وهو إنكار الرسالة .

فالخطاب لخصوص الفريق الكافر بقرينة قوله : ﴿ الذين كفروا من قبل ﴾ فهذا الخطاب موجه للمشركين الذين حالهم كحال من لم يبلغهم نبأ الذين كفروا مثل كفرهم ، مثلُ عاد وثمود ومَدين وقوم إبراهيم .

والاستفهام تقريري ، والتقريري يؤتى معه بالجملة منفية توسعة على المقرر إن كان يريد الإِنكار حتى إذا أَقرّ لم يستطع بعد إقراره إنكاراً لأنه قد أعذر له من قبل بتلقينه النفي وقد تقدم غير مرة .

وحُذف ما أضيف إليه ﴿ قبلُ ﴾ ونوي معناه ، والتقدير : من قبلِكم ، أي في الكفر بقرينة قوله : ﴿ فمنكم كافر ﴾ [التغابن : 2] .

والكافرون يعلمون أنهم المقصود لأنهم مُقدمون على الكفر ومستمرون عليه .

والوبال : السوء وما يكره .

والأمر : الشأن والحال .

(111/766)

والذَّوق مجاز في مطلق الإِحساس والوِجدان ، شبه ما حلّ بهم من العذاب بشيء ذي طعم كريه يذوقه من حلّ به ويبتلعه لأن الذوق باللسان أشد من اللمس باليد أو بالجلد .

والمعنى : أحسوا العذاب في الدنيا إحساساً مكيناً .

وقوله : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ مراد به عذاب الآخرة لأن العطف يقتضي المغايرة .

ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا

ارتقاء في التعريض إلى ضرب منه قريبٍ من الصريح .

وهو المسمى في الكناية بالإِشارة .

كانت مقالة الذين من قبلُ مماثلة لمقالة المخاطبين فإذا كانت هي سبب ما ذاقوه من الوبال فيوشك أن يذوق مماثلوهم في المقالة مثل ذلك الوبال .

فاسم الإِشارة عائد إلى المذكور من الوبال والعذاب الأليم .

فهذا عَدّ لكفر آخر من وجوه كفرهم وهو تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم بالقرآن فإن القرآن بيِّنة من البيّنات لأنه معجزة .

والباء للسببية فالجملة في موقع العلة .

والضمير ضمير الشأن لقصد تهويل ما يفسر الضمير ، وهو جملة ﴿ كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ إلى آخرها .

والاستفهام في ﴿ أبشر ﴾ استفهام إنكار وإبطال فهم أحالوا أن يكون بشر مثلهم يهدون بشراً أمثالهم ، وهذا من جهلهم بمراتب النفوس البشرية ومن يصطفيه الله منها ، ويخلقه مضطلعاً بتبليغ رسالته إلى عباده .

كما قال : ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] وجهلوا أنه لا يصلح لإرشاد الناس إلا مَن هو من نوعهم قال تعالى : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ [الإسراء : 95] ولمَّا أحالوا أن يكون البشر أهلاً لهداية بشر مثله جعلوا ذلك كافياً في إعراضهم عن قبول القرآن والتدبر فيه .

والبشر : اسم جنس للإنسان يصدق على الواحد كما في قوله تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم ﴾ [الكهف : 110] ويقال على الجمع كما هنا .

وتقدم في قوله: ﴿ وقلن حاش لله ما هذا بشراً ﴾ في سورة [يوسف: 31] وفي سورة [مريم: 17] عند قوله: ﴿ فتمثل لها بشراً سوياً ﴾

وتنكير بشر ﴾ للنوعية لأن محط الإنكار على كونهم يَهدونهم، هو نوعُ البشرية.

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لقصد تقوّي حكم الإنكار، وما قالوا ذلك حتى اعتقدوه فلذلك أقدموا على الكفر برسلهم إذ قد اعتقدوا استحالة إرسال الله إياهم فجزموا بكذبهم في دعوى الرسالة فلذلك فرع عليه ﴿ فكفروا وتولوا ﴾.

والتولي أصله: الانصراف عن المكان الذي أنت فيه، وهو هنا مستعار للإعراض عن قبول دعوة رسلهم، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾ في سورة [البقرة: 64].

واستغنى ﴾ غَنِيَ فالسين والتاء للمبالغة كقوله: ﴿ أما من استغنى ﴾ [عبس: 5].

والمعنى: غَنِي الله عن إيمانهم قال تعالى: ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ﴾ [الزمر: 7].

والواو واو الحال، أي والحال أن الله غني عنهم من زمن مضى فإن غنى الله عن إيمانهم مقرر في الأزل.

ويجوز أن يراد: واستغنى الله عن إعادة دعوتهم لأن فيما أظهر لهم من البينات على أيدي

رسلهم ما هو كاف لحصول التصديق بدعوة رسلهم لولا المكابرة فلذلك عجّل لهم بالعذاب .

وعلى الوجهين فمتعلق ﴿ استغنى ﴾ محذوف دل عليه قوله : ﴿ فكفروا ﴾ وقوله : ﴿ بالبينات ﴾ والتقدير : واستغنى الله عن إيمانهم .

وجملة ﴿ والله غني حميد ﴾ تذييل ، أي غني عن كل شيء فيما طلب منهم ، حميد لمن امتثل وشكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(113/766)

قوله تعالى ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (7) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قرر وجوب الإيمان به وبرسله وكتبه وبالقدر خيره وشره ، وقسم الناس إلى مؤمن وكافر ، وأخبر أن الكافر تكبر عن الرسل ، عين الموجب الأعظم لكفرهم بقوله دالاً على وجوب الإيمان بالعبث وترك القياس والرأي فإن عقل الإنسان لا يستقل ببعض أمور الإلهية ، معبراً بما أكثر إطلاقه على ما يشك فيه ويطلق على الباطل إشارة إلى أنهم شاكون وإن كانوا جازمين ، لكونهم لا دليل لهم ، وإلى أنهم في نفس الأمر مبطلون : ﴿ زعم ﴾ قال ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ : هي كنية الكذب ، وفي حديث أبي مسعود ـ رضى الله عنه ـ عند أبي داود : " بئس مطية الرجل زعموا " ﴿ الذين كفروا ﴾ أي أوقعوا الستر لما دلت عليه العقول من وحدانية الله تعالى ولو على أدنى الوجوه .

ولما كان الزعم ادعاء العلم وكان مما يتعدى إلى مفعولين ، أقام سبحانه مقامهما قوله : ﴿ أن لن يبعثوا ﴾ أي من باعث ما بوجه من الوجوه .

ولما كان قد أشار سبحانه بنوعي المؤمن والكافر إلى الدليل القطعي الضروري على وجود المبطل اللازم منه ودعه اللازم منه وجب البعث ، اكتفى في الأمر بإجابتهم بقوله : ﴿ قل ﴾ أي لهم : ﴿ بلى ﴾ أي لتبعثن ، ثم أكده بصريح القسم فقال : ﴿ وربى ﴾ أي المحسن إليّ بالانتقام ممن كذب بي ، وبإحقاق كل حق أميت ، وإبطال كل باطل أقيم ﴿ لتبعثن ﴾ مشيراً ببنائه للمفعول إلى أنه ويكون على وجه القهر لهم بأهون شيء وأيسر أمر وكذلك قوله : ﴿ ثم لتنبؤن ﴾ أي لتخبرن حتماً إخباراً عظيماً ممن يقيمه الله لإخباركم ﴿ بما

عملتم ﴾ للدينونة عليه .

وشرح بعض ما أفاده بناء الفعلين للمجهول بقوله : ﴿ وذلك ﴾ أي الأمر العظيم عندكم من البعث والحساب ﴿ على الله ﴾ أي المحيط بصفات الكمال وحده ﴿ يسير ﴾ لقبول المادة وحصول القدرة ، وكون قدرته سبحانه كذلك شأنها ، نسبة الأشياء الممكنة كلها جليلها وحقيرها إليها على حد سواء .

(114/766)

ولما كان في رد قولهم على هذا الوجه مع الإقسام من غير استدلال إشارة إلى تأمل الكلام السابق بما اشتمل عليه من الأدلة التي منها ذلك البرهان البديهي ، سبب عنه قوله فذلكة لما مضى من الأدلة وجمعاً لحديث جبريل عليه الصلاة والسلام في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره والإسلام والإحسان : ﴿ فآمنوا بالله ﴾ أي الذي لا أظهر من أن له الإحاطة الكاملة بكل شيء وأنه لا كفؤ له ولا راد لأمره .

ولما دعاه هذا إلى الإيمان به سبحانه عقلاً ونقلاً ذكراً وفكراً ، ثنى بالإيمان بالرسل من الملائكة والبشر فقال : ﴿ ورسوله ﴾ أي كل من أرسله ولا سيما محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما ثبت من تصديقه بالمعجزات من أنه رسوله ، ويلزم من الإيمان به الإيمان بمن أبلغه

من الملائكة .

ولما كانت تلك المعجزات موجبات للعلم كانت أحق الأشياء باسم التور فإن النور هو المظهر للأشياء بعد انحجابها برداء الظلام وكان أعظم تلك المعجزات وأحقها بذلك كتب الله المنزلة على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، وأعظمها القرآن الذي هو مع إعجازه بيان لكل شيء ، قال : ﴿ والنور ﴾ وعينه بقوله : ﴿ الذي أنزلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة فكان معجزاً فكان بإعجازه ظاهراً بنفسه مظهراً لغيره ، وهذا وإن كان هو الواقع لكن ذكر هذا الوصف صالح لشمول كل ما أوحاه الله سبحانه وتعالى إلى رسله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ومن المعلوم أن أعظمه القرآن المنزل على أشرف رسله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعليهم أجمعين ، فهو أحق ذلك باسم النور لما مضى من إعجازه ، فمن آمن به أدخل الله قلبه من أنوار الفهوم والألطاف والسكينة ما يضيء الأقطار .

(115/766)

ولما كان التقدير : والله محاسبكم على ما قابلتم به إنعامه عليكم بذلك من إيمان وكفران ، عطف عليه مرغباً مرهباً قوله : ﴿ والله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ، وقدم الجار لما تقدم غير مرة من مزيد التأكيد فقال : ﴿ بما تعملون ﴾ أي توقعون عمله في وقت من الأوقات

﴿ خبير ﴾ أي بالغ العلم بباطنه وظاهره .

ولما أخبر بالبعث وأقسم عليه ، وأشار إلى دليلة السابق ، وسبب عنه ما ينجي في يومه ، ذكر يومه وما يكون فيه ليحذر فقال متبعاً ما مضى من دعائم الإيمان دعامة اليوم الآخر واعظاً لمن يقول : يا ليت شعري ما حالي بعد ترحالي ؟ وقامعاً لمن يقول : لا حال بعد الترحال ، بالإعلام بأنها أحوال أي أحوال ، تشيب الأطفال ، وتقصم ظهور الرجال ، بل تهد شم الجبال : ﴿ يوم ﴾ أي تبعثون في يوم ﴿ يجمعكم ﴾ أي أيها الثقلان .

ولما كان الوقت المؤرخ به فعل من الأفعال إنما يذكر لأجل ما وقع فيه ، صار كأنه علة لذلك الفعل فقال تعالى : ﴿ ليوم الجمع ﴾ لأجل ما يقع في ذلك اليوم الذي يجمع فيه أهل السماوات وأهل الأرض من الحساب والجزاء الذي يكون فوزاً لناس فيكونون غابنين ، ويكون خيبة لناس فيكونون مغبونين ، وكل منهم يطلب أن يكون غابناً .

ولما كان هذا المقصد أمراً عظيماً مقطعاً ذكره الأكباد ، قال تعالى مشيراً إلى هوله بأداة البعد مستأنفاً : ﴿ ذلك ﴾ أي اليوم العظيم المكانة الجليل الأوصاف ﴿ يوم التغابن ﴾ الذي لا تغابن في الحقيقة غيره لعظمه ودوامه ، والغبن : ظهور النقصان للحظ الناشىء عن

خفاء لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون وسائر الخلق أجمعون ، ويكون فيه السمع والإبصار على غاية لا توصف بحيث إن جميع ما يقع فيه يمكن أن يطلع عليه كل أحد من أهل ذلك الجمع ، فإذا فضح أحد افتضح عند الكل ، وما من عبد يدخل الجنة إلا أري مقعده نم النار لو أساء ليزداد شكراً ، وما من عبد يدخل النار إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة فيغبن كل كافر بتركه الإيمان وكل مؤمن بتقصيره في الإحسان ، ومادة " غبن " تدور على الخفاء من مغابن الجسد وهي ما يخفى عن العين ، وسمي الغبن في البيع – لخفائه عن صاحبه ، فالكافر والظالم يظن أنه غبن المؤمن بنعيم الدنيا الذي استأثر به الكافر ، وبالنقص الذي أدخله الظالم على المظلوم ، وقد غبنهما المؤمن والمظلوم على الحقيقة بنعيم الآخرة وكمال جزائها العظيم الدائم ، فالغبن فيه لا يشبهه غبن ، فقد بعث ذكر هذا اليوم على هذا الوجه على التقوى أتم بعث ، وهي الحاملة على اتباع الأوامر واجتناب النواهي لئلا يحصل الغبن بفوات النعيم أو نقصانه ، ويحصل بعده للكافر العذاب الأليم .

(117/766)

ولما كان كل أحد يحسب أن يكون في النور ، ويكره أن يكون في الظلام ، ويحب أن يكون غابناً ، ويكره أن يكون مغبوناً ، أرشدت سوابق الكلام ولواحقه إلى أن التقدير ، فمن آمن

كان في النور ، وكان في ذلك اليوم برجحان ميزانه من الغابنين ، ومن كفر كان في الظلام ، وكان في ذلك اليوم بنقصان ميزانه من المغبونين ، فعطف عليه قوله بياناً لآثار ذلك الغبن ، وتفضيلاً له بإصلاح الحامل على التقوى وهو أمور منها القوة العلمية : ﴿ ومن يؤمن ﴾ أي يوقع الإيمان ويجدده على سبيل الاستمرار ﴿ بالله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا كفؤ له .

ولما ذكر الرأس وهو إصلاح القوة العلمية ، أتبعه البدن وهو إصلاح القوة العملية فقال :

﴿ ويعمل ﴾ تصديقاً لإيمانه ﴿ صالحاً ﴾ أي عملاً هو مما ينبغي الاهتمام بتحصيله لأنه لا مثل له في جلب المنافع ودفع المضار .

(118/766)

ولما كان الدين مع سهولته متيناً لن يشاده أحد إلا غلبه ، قال حاملاً على التقوى بالوعد بدفع المضار ، ولعله أفرد الضمير إشارة إلى أن زمان التكفير والدخول متفاوت بحسب طول الحساب وقصره ، كلما فرغ واحد من الحساب دخل الجنة إن كان من أهلها :

﴿ يكفر ﴾ أي الله - على قراءة الجماعة بأن يستر ستراً عظيماً ﴿ عنه سيئاته ﴾ التي غلبه عليها نقصان الطبع ، وأتبع ذلك الحامل الآخر وهو الترجئة بجلب المسار لأن الإنسان يطير إلى ربه سبحانه بجناحي الخوف والرجاء والرهبة والرغبة والنذارة والبشارة فقال :

﴿ ويدخله ﴾ أي رحمة له وإكراماً وفضلاً ﴿ جنّات ﴾ أي بساتين ذات أشجار عظيمة وأغصان ظليلة تستر داخلها ، ورياض مديدة منوعة الأزاهير عطرة النشر تبهج رائيها ، وأشار إلى دوام ريها بقوله : ﴿ تجري ﴾ ولما كان عموم الماء لجميع الأرض غير ممدوح ، بين أنه في خلالها على أحسن الأحوال فقال : ﴿ من تحتها ﴾ وبين عظمه بقوله :

﴿ الأنهار ﴾ ولما كان النزوح أو توقعه عن مثل هذا محزناً ، أزال توقع ذلك بقوله جامعاً لئلا يظن الخلود لواحد بعينه تصريحاً بأن من معناها الجمع وأن كل من تناولته مستوون في الخلود : ﴿ خالدين فيها ﴾ وأكد بقوله : ﴿ أبداً ﴾ والتقدير على قراءة نافع وابن عامر بالنون : نفعل التكفير والإدخال إلى هذا النعيم بما لنا من العظمة فإنه لا يقدر على إسعاد من شاء وإشقاء من شاء إلا الله سبحانه ، ولا تكون هذه القدرة تامة إلا لمن كان عظيماً لا راد لأمره أصلاً .

ولما كان هذا أمراً باهراً جالباً بنعيمه سرور القلب ، أشار إلى عظمته بما يجلب سرور القلب بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العالي جداً من الغفران والإكرام ، لا غيره ﴿ الفوز العظيم ﴾ لأنه جامع لجميع المصالح مع دفع المضار وجلب المسار .

ولما ذكر الفائز بلزومه التقوى ترغيباً ، أتبعه الخائب بسبب إفساد القوتين الحاملتين على التقوى : العلمية والعملية ترهيباً ، فقال بادئاً بالعلمية : ﴿ والذين كفروا ﴾ أي غطوا أدلة ذلك اليوم فكانوا في الظلام .

ولما ذكر إفسادهم القوة العلمية ، أتبعه العملية فقال : ﴿ وكذبوا ﴾ أي أوقعوا جميع التغطية وجميع التكذيب ﴿ بآياتنا ﴾ بسببها مع ما لها من العظمة بإضافتها إلينا ، فلم يعملوا شيئاً .

ولما بين إفسادهم للقوتين ، توعدهم بالمضار فقال معرياً من الفاء في جانبي الأشقياء والسعداء طرحاً للأسباب ، لأن نظر هذه السورة إلى الجبلات التي لا مدخل فيها لغيره أكثر بقوله : ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ [التغابن : 2] فإن ذلك أجدر بالخوف منه ليكون أجدر بالبعد عما يدل على الجبلة الفاسدة من الأعمال السيئة :

﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ أصحاب النار ﴾ ولما كان السجن إذا رجي الخلاص منه قلل من خوف داخله ، وكان التعبير بالصحبة مشعراً بالدوام المقطع للقلوب لأنه مؤيس من الخلاص ، أكده بقوله : ﴿ خالدين فيها ﴾ وزاد في الإرهاب منها بقوله مشيراً إلى مضار القلب بعد ذكر مضار القالب : ﴿ وبئس المصير ﴾ أي جمعت المذام كلها الصيرورة إليها وبقعتها التي للصيرورة إليها ، فكيف بكونها على وجه الإقامة زمناً

طويلاً فكيف إذا كان على وجه الخلود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 11 . 15 ﴾

(120/766)

فصل

قال الفخر :

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ

الثالث : كيف يفيد القسم في إخباره عن البعث وهم قد أنكروا رسالته .

نقول : إنهم وإن أنكروا الرسالة لكنهم يعتقدون أنه يعتقد ربه اعتقاداً لا مزيد عليه فيعلمون أنه لا يقدم على القسم بربه إلا وأن يكون صدق هذا الإخبار أظهر من الشمس عنده وفي اعتقاده ، والفائدة في الإخبار مع القسم ليس إلا هذا ، ثم إنه أكد الخبر باللام والنون فكأنه قسم بعد قسم .

ولما بالغ في الإخبار عن البعث والاعتراف بالبعث من لوازم الإيمان قال :

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8)

قوله : ﴿ فَئَامِنُواْ ﴾ يجوز أن يكون صلة لما تقدم لأنه تعالى لما ذكر ما نزل من العقوبة بالأمم

الماضية ، وذلك لكفرهم بالله وتكذيب الرسل قال : ﴿ فَـَٔامِنُواْ ﴾ أنتم ﴿ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ لئلا ينزل بكم ما نزل بهم من العقوبة ﴿ والنور الذى أَنزَلْنَا ﴾ وهو القرآن فإنه يهتدى به في الشبهات كما يهتدى بالنور في الظلمات ، وإنما ذكر النور الذي هو القرآن لما أنه مشتمل على الدلالات الظاهرة على البعث ، ثم ذكر في "الكشاف" أنه عنى برسوله والنور محمداً صلى الله عليه وسلم والقرآن ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي بما تسرون وما تعلنون فراقبوه وخافوه في الحالين جميعاً وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع ﴾ يريد به يوم القيامة جمع فيه أهل السموات وأهل الأرض ، و ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ والتغابن تفاعل من الغبن في المجازاة والتجارات ، يقال : غبنه يغبنه غبناً إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن قوماً في النار يعذبون وقوماً في الجنة يتنعمون ، وقيل : هو يوم يغبن فيه أهل الحق ، أهل الباطل ، وأهل الهدى أهل الضلالة ، وأهل الإيمان .

(121/766)

أهل الكفر ، فلا غبن أبين من هذا ، وفي الجملة فالغبن في البيع والشراء وقد ذكر تعالى في حق الكافرين أنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة واشتروا الضلالة بالهدى ، ثم ذكر أنهم ما ربحت تجارتهم ودل المؤمنين على تجارة رابحة ، فقال : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارة ﴾ [

الصف : 10] الآية ، وذكر أنهم باعوا أنفسهم بالجنة فخسرت صفقة الكفار وربحت صفقة المؤمنين ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صالحا ﴾ يؤمن بالله على ما جاءت به الرسل من الحشر والنشر والجنة والنار وغير ذلك ، ويعمل صالحاً أي يعمل في إيمانه صالحاً إلى أن يموت ، قرىء يجمعكم ويكفر ويدخل بالياء والنون ، وقوله : ﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾ أي بوحدانية الله تعالى وبقدرته ﴿ وَكَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا ﴾ أي بآياته الدالة على البعث ﴿ أولئك أصحاب النار خالدين فِيهَا وَبِئْسَ المصير ﴾ ثم في الآية مباحث :

الأول : قال : ﴿ فآمنوا بالله رسوله ﴾ بطريق الإضافة ، ولم يقل : ونوره الذي أنزلنا بطريق الإضافة مع أن النور ههنا هو القرآن والقرآن كلامه ومضاف إليه ؟ نقول : الألف واللام في النور بمعنى الإضافة كأنه قال : ورسوله ونوره الذي أنزلنا .

الثاني : بم انتصب الظرف ؟ نقول : قال الزجاج : بقوله : ﴿ لَتُبْعَثُنَّ ﴾ وفي "الكشاف" بقوله : ﴿ لَتُنَبَّؤُنَّ ﴾ أو بخبير لما فيه من معنى الوعيد .

كأنه قيل : والله معاقبكم يوم يجمعكم أو بإضمار اذكر .

الثالث : قال تعالى في الإيمان : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله ﴾ بلفظ المستقبل ، وفي الكفر وقال : ﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾ بلفظ الماضي ، فنقول : تقدير الكلام : ومن يؤمن بالله من الذين كفروا وكذبوا بآياتنا يدخله جنات ومن لم يؤمن منهم أولئك أصحاب النار .

الرابع : قال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن ﴾ بلفظ الواحد و ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ بلفظ الجمع ، نقول : ذلك بحسب اللفظ ، وهذا بحسب المعنى .

(122/766)

الخامس : ما الحكمة في قوله : ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ بعد قوله : ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ وذلك بئس المصير فنقول : ذلك وإن كان في معناه فلا يدل عليه بطريق التصريح فالتصريح مما يؤكده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 22 ـ 23 ﴾

(123/766)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ زَعَمَ الذين كفروا أَن لَّن يُبْعَثُواْ ﴾

أي ظنُّوا .

والزَّعْمُ هو القول بالظن .

وقال شُرَيح : لكل شيء كُنْية وكُنْيَة الكذب زعموا .

قيل : نزلت في العاص بن وائل السَّهْمِيّ مع خَبّاب ؛ حسب ما تقدم بيانه في آخر سورة "مريم" ، ثم عَمّت كل كافر .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ بلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ أي لتخرجن من قبوركم أحياء .

﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ ﴾ لتخبرن .

﴿ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أي بأعمالكم .

﴿ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ إذ الإعادة أسهل من الابتداء .

قوله تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أمرهم بالإيمان بعد أن عرفهم قيام الساعة .

﴿ والنور الذي أَنْزَلْنَا ﴾ وهو القرآن ، وهو نور يُهْتَدَى به من ظلمة الضلال .

﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع ﴾ العامل في "يَوْمَ" "لَتُنَبَّؤُنَّ" أو "خَبِيرٌ" لما فيه من معنى الوعيد ؛ كأنه قال : والله يعاقبكم يوم يجمعكم .

أو بإضمار اذكر .

والغَبْنُ : النقص .

يقال : غَبَنَه غَبْناً إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته .

وقراءة العامة "يَجْمَعُكُمْ" بالياء ؛ لقوله تعالى : ﴿ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فأخبر .

ولِذِكر اسم الله أوّلا .

وقرأ نصر وابن أبي إسحاق والجَحْدَرِيّ ويعقوب وسلام "نجمعكم" بالنون ؛ اعتباراً بقوله :

﴿ والنور الذي أَنْزَلْنَا ﴾ .

ويوم الجمع : يوم يجمع الله الأوّلين والآخرين والإنس والجن وأهل السماء وأهل الأرض .

وقيل : هو يوم يجمع الله بين كل عبد وعمله .

وقيل : لأنه يجمع فيه بين الظالم والمظلوم .

وقيل : لأنه يجمع فيه بين كل نبيّ وأمّته .

وقيل : لأنه يجمع فيه بين ثواب أهل الطاعات وعقاب أهل المعاصي .

﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ أي يوم القيامة .

وقال :

وما أرتجي بالعيش في دار فرقة . . .

ألا إنما الراحات يوم التغابن

وسمّى يوم القيامة يوم التغابُن ؛ لأنه غَبَن فيه أهل الجنة أهل النار .

أي أن أهل الجنة أخذوا الجنة ، وأخذ أهل النار النار على طريق المبادلة ؛ فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر ، والجيّد بالرديء ، والنعيم بالعذاب .

يقال : غَبَنت فلاناً إذا بايعته أو شاريته فكان النقص عليه والغَلَبة لك .

وكذا أهل الجنة وأهل النار ؛ على ما يأتي بيانه .

ويقال : غَبَنت الثوب وخبنته إذا طال عن مقدارك فخطت منه شيئاً ؛ فهو نقصان أيضاً .

والْمَغَابِن : ما انثنى من الخِلقَ نحو الإبطين والفخذين .

قال المفسرون : فالمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة .

ويظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الإيمان ، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان وتضييعه الأيام .

قال الزجاج : ويغبن من ارتفعت منزلته في الجنة من كان دون منزلته .

الثانية : فإن قيل : فأيُّ معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغَبْن فيها .

قيل له : هو تمثيل الغبن في الشراء والبيع ؛ كما قال تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ [البقرة : 16] .

ولما ذكر أن الكفار اشتروا الضلالة بالهدى وما ربحوا في تجارتهم بل خسروا ، ذكر أيضاً أنهم غُبِنوا ؛ وذلك أن أهل الجنة اشتَروُا الآخرة بترك الدنيا ، واشترى أهل النار الدنيا بترك

الآخرة .

وهذا نوع مبادلة اتساعاً ومجازاً .

وقد فرّق الله سبحانه وتعالى الخلق فريقين : فريقاً للجنة وفريقاً للنار .

ومنازل الكل موضوعة في الجنة والنار .

فقد يسبق الخِذلان على العبد كما بيناه في هذه السورة وغيرها فيكون من أهل النار ، فيحصل الموفق على منزل المخذول ومنزل الموفق في النار للمخذول ؛ فكأنه وقع التبادل فحصل التغابن .

والأمثال موضوعة للبيان في حكم اللغة والقرآن .

وذلك كله مجموع من نشر الآثار وقد جاءت مفرّقة في هذا الكتاب .

(125/766)

وقد يخبر عن هذا التبادل بالوراثة كما بيناه في ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1]

والله أعلم .

وقد يقع التغابن في غير ذلك اليوم على ما يأتي بيانه بعدُ ؛ ولكنه أراد التغابن الذي لا جبران لنهايته .

وقال الحسن وقتادة : بلغنا أن التغابن في ثلاثة أصناف : رجل علم عِلماً فعلّمه وضيّعه هو ولم يعمل به فشَقِي به ، وعَمِل به من تعلمه منه فَنَجا به .

ورجل اكتسب مالاً من وجوه يُسأل عنها وشحّ عليه ، وفرّط في طاعة ربه بسببه ، ولم يعمل فيه خيراً ، وتركه لوارث لا حساب عليه فيه ؛ فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربّه .

ورجل كان له عبد فعمل العبد بطاعة ربِّه فسعد ، وعمل السيّد بمعصية ربّه فشقي .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله تعالى يقيم الرجل والمرأة يوم القيامة بين يديه فيقول الله تعالى لهما قولاَ فما أنتما بقائلين فيقول الرجل يا ربّ أوجبت نفقتها عليّ فتعسّفتُها من حلال وحرام وهؤلاء الخصوم يطلبون ذلك ولم يبق لي ما أوفي به فتقول المرأة يا ربِ وما عسى أن أقول اكتسبه حراما وأكلته حلالاً وعصاك في مَرْضاتي ولم أرض له بذلك فَبُعْداً له وسُحْقاً فيقول الله تعالى قد صدقتِ فيؤمر به إلى النار ويؤمر بها إلى الجنة فتطلع عليه من طبقات الجنة وتقول له غَبَنّاك غَبَنّاك سعدنا بما شقيت أنت به " فذلك يوم التغابن .

الثالثة : قال ابن العربيّ : استدل علماؤنا بقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ على أنه لا يجوز الغَبْن في المعاملة الدُّنْيَوِية ؛ لأن الله تعالى خصّص التغابن بيوم القيامة فقال : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ وهذا الاختصاص يُفيد أنه لا غَبْن في الدنيا ؛ فكل من اطلع على غَبْن في مَبيع فإنه مردود إذا زاد على الثلث .

واختاره البغداديون واحتجوا عليه بوجوه : منها : " قوله صلى الله عليه وسلم لحبّان بن مُنْقِذ : "إذا بايعت فقُلْ لا خِلاَبة ولك الخيارُ ثلاثاً" " وهذا فيه نظر طويل بيّناه في مسائل الخلاف .

نُكْتَتُه أن الغَبْن في الدنيا ممنوع بإجماع في حكم الدين ؛ إذ هو من باب الخداع المحرَّم شرعاً في كل ملّة ، لكن اليسير منه لا يمكن الاحتراز عنه لأحد ، فمضى في البيوع ؛ إذ لو حكمنا بردّه ما نفذ بيع أبداً ؛ لأنه لا يخلو منه ، حتى إذا كان كثيراً أمكن الاحتراز منه فوجب الردّ به .

والفرق بين القليل والكثير أصل في الشريعة معلوم ، فقدّر علماؤنا الثلث لهذا الحدّ ؛ إذ رأوه في الوصية وغيرها .

ويكون معنى الآية على هذا : ذلك يوم التغابن الجائز مطلقاً من غير تفصيل .

أو ذلك يوم التغابن الذي لا يستدرك أبداً ؛ لأن تغابن الدنيا يستدرك بوجهين : إما بردٍّ في بعض الأحوال ، وإما بربح في بيع آخر وسِلْعَة أخرى .

فأما مَنْ خَسِر الجنة فلا درك له أبداً .

وقد قال بعض علماء الصوفية : إن الله كتب الغبن على الخلق أجمعين ، فلا يلقى أحد ربّه

إلا مغبوناً ؛ لأنه لايمكنه الاستيفاء للعمل حتى يحصل له استيفاء الثواب .

وفي الأثر : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يلقى الله أحد إلا نادماً إن كان مسيئاً إن لم يحسن ، وإن كان محسناً إن لم يزدد "

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ ﴾ .

قرأ نافع وابن عامر بالنون فيهما ، والباقون بالياء .

قوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ ﴾

يعني القرآن ﴿ أولئك أَصْحَابُ النار خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ المصير ﴾ لما ذكر ما للمؤمنين ذكر ما للكافرين ؛ كما تقدّم في غير موضع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(127/766)

وقال الآلوسى :

﴿ زَعَمَ الذين كَفَرُواْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ﴾

الزعم العلم ، وأكثر ما يستعمل للادعاء الباطل .

وعن ابن عمر .

وابن شريح إنه كنية الكذب ، واشتهر أنه مطية الكذب ، ولما فيه من معنى العلم يتعدى إلى مفعولين ، وقد قام مقامهما هنا ﴿ إن ﴾ المخففة وما في حيزها ، والمراد بالموصول على ما في "الكشاف" أهل مكة فهو على ما سمعت في الخطاب من إقامة الظاهر مقام المضمر ، ويؤيده ظاهراً قوله تعالى : ﴿ قُلْ بلى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ قال في "الكشف" : ويحتمل التعميم فيتناولهم وأضرابهم لتقدم كفار مكة في الذكر وغيرهم ممن حملوا على الاعتبار بحالهم ، وهذا أبلغ أي زعموا أن الشأن لن يبعثوا بعد موتهم ﴿ قُلْ ﴾ رداً عليهم وإظهاراً لبطلان زعمهم بإثبات ما نفوه بلى تبعثون ، وأكد ذلك بالجملة القسمية فهي داخلة في حيز الأمر ، وكذا قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أي لتحاسبن وتجزون بأعمالكم ، وزيد ذلك لبيان تحقق أمر آخر متفرع على البعث منوط به ففيه أيضاً تأكيد له ﴿ وَذَلِكَ ﴾ أي ما ذكر من البعث والجزاء ﴿ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ لتحقق القدرة التامة ، وقبول المادة ؛ والفاء في قوله تعالى :

﴿ فَئَامِنُواْ ﴾ مفصحة بشرط قد حذف ثقة بغاية ظهوره أي إذا كان الأمر كذلك ﴿ فَئَامِنُواْ ﴾ .

﴿ بالله ﴾ الذي سمعتم ما سمعتم من شؤونه عز وجل ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ والنور الذى أَنزَلْنَا ﴾ وهو القرآن ، فإنه بإعجازه بين بنفسه مبين لغيره كما أن النور كذلك ، والالتفات إلى نون العظمة لإبراز العناية بأمر الإنزال ، وفي ذلك من تعظيم

شأن القرآن ما فيه ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الامتثال بالأمر وتركه ﴿ خَبِيرٌ ﴾ عالم بباطنه.

والمراد كمال علمه تعالى بذلك، وقيل: عالم بأخباره.

(128/766)

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ ظرف ﴿ لَتُنَبَّؤُنَّ ﴾ [التغابن: 7] وقوله تعالى: ﴿ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: 7] وقوله سبحانه: ﴿ فَآمِنُوا ﴾ إلى ﴿ خَبِيرٌ ﴾ [التغابن: 8] من الاعتراض، فالأول: يحقق القدرة على البعث، والثاني: يؤكد ما سيق له الكلام من الحث على الإيمان به وبما تضمنه من الكتاب وبمن جاء به، وبالحقيقة هو نتيجة قوله تعالى: ﴿ لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ ﴾ قدم على معموله للاهتمام فجرى مجرى الاعتراض، وقوله سبحانه: ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ اعتراض في اعتراض لأنه من تتمة الحث على الإيمان كما تقول: اعمل إني غير غافل عنك، وقال الحوفي: ظرف لخبير وهو عند غير واحد من الأجلة بمعنى مجازيكم فيتضمن الوعد والوعيد.

وجعله الزمخشري بمعنى معاقبكم، ثم جوز هذا الوجه، وتعقب بأنه يرد عليه أنه ليس لمجرد الوعيد بل للحث كيف لا والوعيد قد تم بقوله تعالى: ﴿ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ [

التغابن : 7] فلم يحسن جعله بمعنى معاقبكم فتدبر ، وجوز كونه منصوباً بإضمار اذكر مقدراً ، وتعقب بأنه وإن كان حسناً إلا أنه حذف لا قرينة ظاهرة عليه ، وجوز كونه منصوباً بإضمار اذكر مقدراً ، وتعقب بأنه وإن كان حسناً إلا أنه حذف لا قرينة ظاهرة عليه ، وجوز كونه ظرفاً لمحذوف بقرينة السياق أي يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به نطاق المقال يوم يجمعكم ، وتعقب بأن فيه ارتكاب حذف لا يحتاج إليه ، فالأرجح الوجه الأول ، وقرىء ﴿ يَجْمَعُكُمْ ﴾ بسكون العين ، وقد يسكن الفعل المضارع المرفوع مع ضمير جمع المخاطبين المنصوب ، وروي إشمامها الضم ، وقرأ سلام .

ويعقوب .

وزيد بن علي .

(129/766)

والشعبي نجمعكم بالنون ﴿ لِيَوْمِ الجمع ﴾ ليوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، وقيل : الملائكة عليهم السلام والثقلان ، وقيل : غير ذلك ، والأول أظهر ، واللام قيل : للتعليل ، وفي الكلام مضاف مقدر أي لأجل ما في يوم الجمع من الحساب ، وقيل : بمعنى في فلا تقدير ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس .

ومجاهد .

وقتادة أنهم قالوا : يوم غبن فيه أهل الجنة أهل النار فالتفاعل فيه ليس على ظاهره كما في التواضع والتحامل لوقوعه من جانب واحد ، واختير للمبالغة ، وإلى هذا ذهب الواحدي .

وقال غير واحد : أي يوم غبن فيه بعض الناس بعضاً بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس ، ففي الصحيح " ما من عبد يدخل الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً ، وما من عبد يدخل النار إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة " وهو مستعار من تغابن القوم في التجارة ، وفيه تهكم بالأشقياء لأنهم لا يغبنون حقيقة السعداء بنزولهم في منازلهم من النار ، أو جعل ذلك تغابناً مبالغة على طريق المشاكلة فالتفاعل على هذا القول على ظاهره وهو حسن إلا أن التغابن فيه تغابن السعداء والأشقياء على التقابل ، والأحسن الإطلاق ، وتغابن السعداء على الزيادة ثبت في الصحاح ، واختار ذلك محي السنة حيث قال : التغابن تفاعل من الغبن وهو فوت الحظ ، والمراد بالمغبون من غبن في أهله ومنازله في الجنة فيظهر يومئذٍ غبن كل كافر بترك الإيمان وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان ، قال الطيبي : وعلى هذا الراغب حيث قال : الغبن أن يبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء فإن كان ذلك في مال يقال :

غبن فلان بضم الغين وكسر الباء ، وإن كان في رأي يقال : غبن بفتح الغين وكسر الباء ، و ﴿ يَوْمُ التغابن ﴾ يوم القيامة لظهور الغبن في المبايعة المشار إليها بقوله تعالى :

(130/766)

﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابتغاء مَرْضَاتِ الله ﴾ [البقرة : 207] وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ ﴾ [التوبة : 111] وقوله عز وجل : ﴿ الذين يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وأيمانهم ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [آل عمران : 77] فعلم أنهم قد غبنوا فيما تركوا من المبايعة وفيما تعاطوه من ذلك جميعاً انتهى ، والجملة مبتدأ وخبر ، والتعريف للجنس ، وفيها دلالة على استعظام ذلك اليوم وأن تغابنه هو التغابن في الحقيقة لا التغابن في أمور الدنيا وإن جلت وعظمت .

﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صالحا ﴾ أي عملاً صالحاً ﴿ يُكَفِّرْ ﴾ أي الله تعالى ﴿ عَنْهُ سيئاته ﴾ في ذلك اليوم ﴿ وَيُدْخِلْهُ جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي مقدرين الخلود فيها ، والجمع باعتبار معنى ﴿ مِنْ ﴾ كما أن الإفراد باعتبار لفظه ، وقرأ الأعرج.

وشيبة .

وأبو جعفر .

وطلحة .

ونافع .

وابن عامر .

والمفضل عن عاصم .

وزيد بن علي .

والحسن بخلاف عنه نكفر .

وندخله بنون العظمة فيهما ﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر من تكفير السيآت وإدخال الجنات ﴿ الفوز العظيم ﴾ الذي لا فوز وراءه لانطوائه على النجاة من أعظم الهلكات والظفر بأجل الطلبات .

﴿ والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا أُولَئِكَ أصحاب النار خالدين فِيهَا وَبِئْسَ المصير ﴾ أي النار ، وكأن هذه الآية والتي قبلها لاحتوائهما على منازل السعداء والأشقياء بيان للتغابن على تفسيره بتغابن الفريقين على التقابل ولما فيه من التفصيل نزل منزلة المغاير فعطف بالواو وكذا على الإطلاق لكنه عليه بيان في الجملة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ﴾

هذا ضرب ثالث من ضروب كفر المشركين المخاطبين بقوله : ﴿ ألم يأتكم ﴾ [التغابن : 5] الخ ، وهو كفرهم بإنكارهم البعث والجزاءَ .

والجملة ابتدائية .

وهذا الكلام موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بقرينة قوله : ﴿ قل بلى ﴾ .

وليس هذا من الإِظهار في مقام الإضمار ولا من الالتفات بل هو ابتداء غرض مخاطببٍ به غيرُ من كان الخطاب جارياً معهم .

وتتضمن الجملة تصريحاً بإثبات البعث ذلك الذي أوتي إليه فيما مضى يفيد بالحق في قوله : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ [التغابن : 3] وبقوله : ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ﴾ [التغابن : 4] كما علمته آنفاً .

والزعم : القول الموسوم بمخالفة الواقع خطَأً فمنه الكذب الذي لم يتعمد قائله أن يخالف الواقع في ظن سامعه .

ويطلق على الخبر المستغرب المشكوك في وقوع ما أُخبر به ، وعن شُريح : لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا (أراد بالكنية الكناية) .

فَبَيْن الزعم والكذب عموم وخصوص وجهي .

وفي الحديث "بئس مطية الرجل إلى الكذب زعموا" ، أي قول الرجل زعموا كذا .

وروى أهل الأدب أن الأعشى لما أنشد قيس بن معد يكرب الكِندي قوله في مدحه:

ونبئتُ قيساً ولم أَبلُه . . .

كما زَعموا خيرَ أهل اليمن

غضب قيس وقال له : "وما هو إلا الزعم" .

ولأجل ما يصاحب الزعم من توهم قائله صدق ما قاله أُلحق فعلُ زعم بأفعال الظن فنصب مفعولين .

وليس كثيراً في كلامهم ، ومنه قول أبي ذؤيب:

فإن تزعميني كنتُ أجهلُ فيكم . . .

فإني شَرَيْتُ الحِلم بَعدَكِ بالجهل

ومن شواهد النحو قول أبي أمية أوس الحنفي :

زعمتْني شيخاً ولستُ بشيخ

إنما الشيخ من يَدبّ دبيباً . . .

والأكثر أن يقع بعد فعل الزعم (أَنّ) المفتوحة المشددة أو المخففة مثل التي في هذه الآية

فيسد المصدرُ المنسبك مسدّ المفعولين .

والتقدير : زعم الذين كفروا انتفاء بعثهم .

(132/766)

وتقدم الكلام على فعل الزعم في قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ﴾ الآية في سورة [النساء : 60] ، وقوله : ﴿ ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾ في سورة [الأنعام : 22] وما ذكرته هنا أوفى .

والمراد بـ﴿ الذين كفروا ﴾ هنا المشركون من أهل مكة ومن على دينهم .

واجتلاب حرف ﴿ لن ﴾ لتأكيد النفي فكانوا موقنين بانتفاء البعث .

ولذلك جيء إبطال زعمهم مؤكّداً بالقَسَم لينْقض نفيهم بأشد منه ، فأُمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يبلغهم عن الله أن البعث واقع وخاطبهم بذلك تسجيلاً عليهم أن لا يقولوا ما بلغناه ذلك .

وجملة ﴿ قل بلى ﴾ معترضة بين جملة ﴿ زعم الذين كفروا ﴾ وجملةِ ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ [التغابن : 8] .

وحرف ﴿ بلَى ﴾ حرف جواب للإِبطال خاصصٍ بجواب الكلام المنفي لإِبطاله .

وجملة ﴿ ثم لتنبؤن بما عملتم ﴾ ارتقاء في الإِبطال .

و﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي فإن إنباءهم بما عملوا أهم من إثبات البعث إذ هو العلة للبعث .

والإِنباء : الإِخبار ، وإنباؤهم بما عملوا كناية عن محاسبتهم عليه وجزائهم عما عملوه ، فإن الجزاء يستلزم علم المجازَى بعمله الذي جوزي عليه فكانَ حصول الجزاء بمنزلة إخباره بما عمله كقوله تعالى : ﴿ إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ﴾ [لقمان : 23] .

وهذا وعيد وتهديد بجزاء سَيِّيءٍ لأن المقام دليل على أن عملهم سَيِّيء وهو تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وإنكار ما دعاهم إليه .

وجملة ﴿ وذلك على الله يسير ﴾ تذييل ، والواو اعتراضية .

واسم الإِشارة : إما عائد إلى البعث المفهوم من ﴿ لتبعثن ﴾ مثل قوله : ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة : 8] أي العدل أقرب للتقوى ، وإما عائد إلى معنى المذكور من مجموع ﴿ لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ﴾ .

وأخبر عنه بـ ﴿ يسير ﴾ دون أن يقال : وَاقِع كما قال : ﴿ وإن الدين لواقع ﴾ [الذاريات : 6] ، لأن الكلام لردّ إحالتهم البعث بعلة أن أجزاء الجسد تفرقت فيتعذر جمعها فذكِّروا

بأن العسير في متعارف الناس لا يعسر على الله وقد قال في الآية الأخرى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ [الروم : 27] .

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8)

من جملة القول المأمور رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقوله .

والفاء فصيحة تفصح عن شرط مقدّر ، والتقدير : فإذا علمتم هذه الحجج وتذكّرتم ما حلّ بنظرائكم من العقاب وما ستَنبّؤونَ به من أعمالكم فآمنوا بالله ورسوله والقرآن ، أي بنصه .

والمراد بالنور الذي أُنْزَل الله ، القرآن ، وُصف بأنه نور على طريقة الاستعارة لأنه أشبه النور في إيضاح المطلوب باستقامة حجته وبلاغة كلامه قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ [النساء : 174] .

وأشبه النور في الإرشاد إلى السلوك القويم وفي هذا الشبه الثاني تشاركه الكتب السماوية ، قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ [المائدة : 44] ، وقرينة الاستعارة قوله : ﴿ الذي أنزلنا ﴾ ، لأنه من مناسبات المشبّه لاشتهار القرآن بين الناس كلهم بالألقاب المشتقة من الإنزال والتنزيل عَرَف ذلك المسلمون والمعاندون .

وهو إنزال مجازي أريد به تبليغ مراد الله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقد تقدم عند

قوله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ في سورة البقرة (4) وفي آيات كثيرة .

(134/766)

وإنما جعل الإِيمان بصدق القرآن داخلاً في حيّز فاء التفريع لأن ما قبل الفاء تضمن أنهم كذبوا بالقرآن من قوله : ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا ﴾ [التغابن : 6] كما قال المشركون من أهل مكة ، والإِيمان بالقرآن يشمل الإِيمان بالبعث فكان قوله تعالى : ﴿ والنور الذي أنزلنا ﴾ شاملاً لما سبق الفاء من قوله : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ﴾ [التغابن : 7] الخ .

وفي قوله : ﴿ الذي أنزلنا ﴾ التفات من الغيبة إلى المتكلم لزيادة الترغيب في الإِيمان بالقرآن تذكيراً بأنه منزل من الله لأن ضمير التكلم أشد دلالة على معاده من ضمير الغائب ، ولتقوية داعي المأمور .

وجملة ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ تذييل لجملة ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ يقتضي وعداً إنْ آمنوا ، ووعيداً إن لم يؤمنوا .

وفي ذكر اسم الجلالة إظهار في مقام الإِضمار لتكون الجملة مستقلة جارية مجرى المثل

والكلمِ الجوامع ، ولأن الاسم الظاهر أقوى دلالة من الضمير لاستغنائه عن تطلب المعاد .

وفيه من تربيَة المهابة ما في قول الخليفة "أمير المؤمنين يأمركم بكذا" .

والخبير : العَليم ، وجيء هنا بصفة "الخبير" دون : البصير ، لأن ما يعلمونه منه محسوسات ومنه غير محسوسات كالمعتقدات ، ومنها الإِيمان بالبعث ، فعُلق بالوصف الدال على تعلق العلم الإلهي بالموجودات كلها ، بخلاف قوله فيما تقدم ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير ﴾ [التغابن : 2] فإن لكفر الكافرين وإيمان المؤمنين آثاراً ظاهرة محسوسة فعلقت بالوصف الدال على تعلق العلم الإلهي بالمحسوسات .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ .

متعلقٌ بفعل ﴿ لتنبؤن بما عملتم ﴾ [التغابن : 7] الذي هو كناية عن "تُجَازوْنَ" على تكذيبكم بالبعث فيكون من تمام ما أُمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم ابتداء من قوله تعالى : ﴿ قل بلى وربي لتبعثن ﴾ [التغابن : 7] .

والضمير المستتر في ﴿ يجمعكم ﴾ عائد إلى اسم الجلالة في قوله : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ [التغابن : 8] .

ومعنى ﴿ يجمعكم ﴾ يجمع المخاطبين والأمم من الناس كلهم ، قال تعالى : ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ﴾ [المرسلات : 38] .

ويجوز أن يراد الجمع الذي في قوله تعالى : ﴿ أيحسب الإِنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ [القيامة : 3] ، وهذا زيادة تحقيق للبعث الذي أنكروه .

واللام في ﴿ ليوم الجمع ﴾ يجوز أن يكون للتعليل ، أي يجمعكم لأجل اليوم المعروف بالجمع المخصوص .

وهو الذي لأجل جمع الناس ، أي يبعثكم لأجل أن يجمع الناس كلهم للحساب ، فمعنى ﴿ الجمع ﴾ هذا غيرُ معنى الذي في ﴿ يجمعكم ﴾ .

فليس هذا من تعليل الشيء بنفسه بل هو من قبيل التجنيس .

ويجوز أن يكون اللام بمعنى (في) على نحو ما قيل في قوله تعالى : ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ [الأعراف : 187] ، وقوله : ﴿ يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ [الفجر : 24] وقول العرب : مضى لسبيله ، أي في طريقه وهو طريق الموت .

والأحسن عندي أن يكون اللام للتوقيت ، وهي التي بمعنى (عند) كالتي في قولهم : كُتب لكَذا مَضِينَ مثلاً ، وقوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ [الإسراء : 78] .

وهو استعمال يدل على شدة الاقتراب ولذلك فسروه بمعنى (عند) ، ويفيد هنا : أنهم مجموعون في الأجل المعين دون تأخير ردّاً على قولهم : ﴿ لن يبعثوا ﴾ [التغابن : 7] ،

فيتعلق قوله : ﴿ ليوم الجمع ﴾ بفعل ﴿ يجمعكم ﴾ .

ف"يوم الجمع" هو يوم الحشر .

وفي الحديث " يجمع الله الأولين والآخرين " الخ .

جعل هذا المركب الإضافي لقباً ليوم الحشر ، قال تعالى : ﴿ وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ [الشورى : 7] .

وقرأ الجمهور ﴿ يجمعكم ﴾ بياء الغائب .

وقرأه يعقوب بنون العظمة .

﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الجمع ﴾ .

اعتراض بين جملة ﴿ ثم لتنبؤن بما عملتم ﴾ [التغابن : 7] بمتعلقها وبين جملة ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً نكفر عنه سيئاته ﴾ اعتراضاً يفيد تهويل هذا اليوم تعريضاً بوعيد المشركين بالخسارة في ذلك اليوم : أي بسوء المنقلب .

والإتيان باسم الإشارة في مقام الضمير لقصد الاهتمام بهذا اليوم بتمييزه أكمل تمييز مع ما يفيده اسم إشارة البعيد من علوّ المرتبة على نحو ما تقدم في قوله : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ في

سورة [البقرة : 2] .

والتغابن ﴾ : مصدر غابَنه من باب المفاعلة الدالة على حصول الفعل من جانبين أو أكثر .

وحقيقة صيغة المفاعلة أن تدل على حصول الفعل الواحد من فاعلين فأكثر على وجه المشاركة في ذلك الفعل .

والغبن أن يعطى البائع ثَمَناً لمبيعه دون حَقِّ قيمته التي يعوَّض بها مثلُه .

فالغبن يؤول إلى خسارة البائع في بيعه ، فلذلك يطلق الغبن على مطلق الخسران مجازاً مرسلاً كما في قول الأعشى :

لا يقبَلُ الرَشْوَةَ في حُكمه

ولا يبالي غَبَنَ الخَاسر . . .

فليست مادة التغابن في قوله : ﴿ يوم التغابن ﴾ مستعملة في حقيقتها إذ لا تعارض حتى يكون فيه غبن بل هو مستعمل في معنى الخسران على وجه المجاز المرسل .

وأما صيغة التفاعل فحملها جمهور المفسرين على حقيقتها من حصول الفعل من جانبين ففسروها بأن أهل الجنة غبنوا أهل النار إذ أهل الجنة أخذوا الجنة وأهل جهنم أخذوا جهنم قاله مجاهد وقتادة والحسن .

فحمل القرطبي وغيره كلام هؤلاء الأيمة على أن التغابن تمثيل لحال الفريقين بحال مُتَبَايَعَيْن أخذ أحدهما الثمن الوافيَ ، وأخذ الآخر الثمنَ المغبون ، يعني وقوله عقبه ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً نكفر عنه سيئاته ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وبئس المصير ﴾ قرينة على المراد من الجانبين وعلى كلا المعنيين يكون قوله : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً ﴾ إلى قوله : ﴿ وبئس المصير ﴾ تفصيلاً للفريقين ، فيكون في الآية مجاز وتشبيه وتمثيل ، فالمجاز في مادة الغبن ، والتمثيل في صيغة التغابن ، وهو تشبيه مركب بمنزلة التشبيه البليغ إذ التقدير : ذلك يوم مِثْل التغَابن .

وحمل قليل من المفسرين (وهو ما فسر إليه كلام الراغب في مفرداته) وصرح ابن عطية صيغَة التفاعل على معنى الكثرة وشدة الفعل (كما في قولنا : عافاك الله وتبارك الله) فتكون استعارة ، أي خسارة للكافرين إذ هم مناط الإِنذار .

وهذا في معنى قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ﴾ في سورة [البقرة : 16] ، وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾ الآية في سورة [الصف : 10] .

فصيغة التفاعل مستعملة مجازاً في كثرة حصول الغبن تشبيهاً للكثرة بفعل من يحصل من متعدد .

والكلام تهديد للمشركين بسوء حالتهم في يوم الجمع ، إذ المعنى : ذلك يوم غبنكم الكثير الشديد بقرينة قوله قبله ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا ﴾ [التغابن : 8] .

والغابن لهم هو الله تعالى .

ولولا قصد ذلك لما اقتصر على أن ذلك يوم تغابن فإن فيه ربحاً عظيماً للمؤمنين بالله ورسوله والقرآن ، فوزان هذا القصر وزان قوله : ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ [البقرة : 16] وقول النبي صلى الله عليه وسلم " إنما المُفلس الذي يفلس يوم القيامة "

(138/766)

وأفاد تعريف جزأي جملة ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ قصرَ المسند على المسند إليه أي قصر جنس يوم التغابن على يوم الجمعة المشار إليه باسم الإشارة ، وهو من قبيل قصر الصفة على الموصوف قصراً ادعائياً ، أي ذلك يوم الغبن لا أيام أسواقكم ولا غيرُها ، فإن عدم أهمية غبن الناس في الدنيا جعل غبن الدنيا كالعدم وجعل يوم القيامة منحصراً فيه جنس الغبن .

وأما لام التعريف في قوله : ﴿ التغابن ﴾ فهي لام الجنس ، ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ [الزمر : 15] .

وقوله في ضده ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ [فاطر : 29] .

هذا هو المتعين في تفسير هذه الآية وأكثر المفسرين مرّ بها مَرّاً .

ولم يحتلب منها دَرّاً .

وها أنا ذا كددت ثمادي ، فعَسَى أن يقع للناظر كوقْع القراحِ من الصادي ، والله الهادي .

﴿ ﴾ لله .

معطوفة على جملة ﴿ فآمنوا بالله ورسوله خَبِيرٌ * يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع ذَلِكَ يَوْمُ التغابن وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صالحا يُكَفِّرْ عَنْهُ سيئاته وَيُدْخِلْهُ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانهار خالدين فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الفوز العظيم * والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فِيهَا وَبِئْسَ المصير ﴾ معطوفة على جملة ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ [التغابن : 8] وهو تفصيل لما أجمل في قوله : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ [التغابن : 8] الذي هو تذييل .

و﴿ مَن ﴾ شرطية والفعل بعدها مستقبل ، أي من يؤمن من المشركين بعد هذه الموعظة نكفر عنه ما فرط من سيئاته .

والمراد بالسيئات : الكفر وما سبقه من الأعمال الفاسدة .

وتكفير السيئات : العفو عن المؤاخذة بها وهو مصدر كفّر مبالغة في كفَر .

وغلب استعماله في العفو عما سلف من السيّئات وأصله : استعارة الستر للإزالة مثل الغفران أيضاً .

(139/766)

وانتصب ﴿ صالحاً ﴾ على الصفة لمصدر وهو مفعول مطلق محذوف تقديره : عملاً صالحاً .

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿ نكفر ﴾ و ﴿ ندخله ﴾ بنون العظمة على الالتفات من الغيبة إلى التكلم لأن مقام الوعد مقام إقبال فناسبه ضمير التكلم .

وقرأهما الباقون بياء الغيبة على مقتضى الظاهر لأن ضمير الجلالة يؤذن بعناية الله بهذا الفريق .

وجملة ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ تذييل .

وقوله : ﴿ والذين كفروا وكذبوا ﴾ ، أي كفروا وكذبوا من قبلُ واستمرّوا على كفرهم وتكذيبهم فلم يستجيبوا لهذه الدعوة ثبت لهم أنهم أصحاب النار .

ولذلك جيء في جانب الخبر عنهم بالجملة الاسمية الدالة على الثبات لعراقتهم في الكفر والتكذيب .

وجيء لهم باسم الإشارة لتمييزهم تمييزاً لا يلتبس معه غيرهم بهم مثل قوله: ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة: 5] مع ما يفيده اسم الإشارة من أن استحقاقهم لملازمة النار ناشىء عن الكفر والتكذيب بآيات الله وهذا وعيد.

وجملة ﴿ وبئس المصير ﴾ اعتراض تذييلي لزيادة تهويل الوعيد. انتهى انتهى. اهـ

﴿التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(140/766)

قوله تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (12) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (13) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى:

ولما كان من تعرفه من المرغبين والمرهبين لا يفعل ذلك إلا فيما ليس قادراً على حفظه وضبطه حتى لا يحتاج العامل في عمل ذلك إلى رقيب يحفظه ووكيل يلزمه ذلك العمل ويضبطه، وكان قول المنافقين المتقدم في الإنفاق والإخراج من المصائب، وكانت المصائب

تطيب إذا كانت من الحبيب ، قال جواباً لمن يتوهم عدم القدرة متمماً ما مضى من خلال الأعمال بالإيمان بالقدر خيره وشره ، مرغباً في التسليم مرهباً من الجزع قاصراً الفعل ليعم كل مفعول : ﴿ ما أصاب ﴾ أي أحداً يمكن المصائب أن تتوجه إليه ، وذكر الفعل إشارة إلى القوة ، وأعرق في النفي بقوله : ﴿ من مصيبة ﴾ أيّ مصيبة كانت دينية أو دنيوية من كفر أو غيره ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي بتقدير الملك الأعظم وتمكينه ، فلا ينبغي لمؤمن أن يعوقه شيء من ذلك عن التقوى النافعة في يوم التغابن .

(141/766)

ولما تسبب عن ذلك ما تقديره : فمن يكفر بالله بتقديره عليه الكفر يغو قلبه ويزده ضلالاً فيفعل ما يتوغل به في المصيبة حتى تصير مصائب عدة فتهلكه ، عطف عليه قوله باعثاً على أول ركني الإسلام وهو إصلاح القوة العلمية : ﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ أي يوجد الإيمان في وقت من الأوقات ويجدده بشهادة إن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله بسبب الملك الأعظم وتقديره وإذنه ﴿ يهد قلبه ﴾ أي يزده هداية بما يجدده له من التوفيق في كل وقت حتى يرسخ إيمانه فتنزاح عنه كل مصيبة ، فإنه يتذكر أنها من الله وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه فيسلم بقضائه فيصبر له ويفعل ويقول ما أمر الله به

ورسوله فيخف عليه ، ولا يعوقه عن شيء من المنجيات في يوم التغابن ، بل يحصل له بسببها عدة أرباح وفوائد ، فتكون حياته طيبة بالعافية الشاملة في الدينيات والكونيات لأن بالعافية في الكونيات تطيب الحياة في الدنيا ، وبالعافية في الدينيات تطيب الحياة في الآخرة فتكون العيشة راضية ، وذلك بأن يصير عمله صواباً في سرائه وضرائه فيترك كل فاحشة دينية بدنية وباطنة قلبية ويترك الهلع في المصائب الكونية كالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات وذلك لأنه بصلاح القلب ينصلح البدن كله .

ولما كان التقدير تعليلاً لذلك : فالله على كل شيء قدير فهو لا يدع شيئاً يكون إلا بإذنه ، عطف عليه قوله : ﴿ والله ﴾ أي الملك الذي لا نظير له ﴿ بكل شيء ﴾ مطلقاً من غير مثنوية ﴿ عليم ﴾ فإذا تحقق من هدى قلبه ذلك زاح كل اعتقاد باطل من كفر أو بدعة أو صفة خبيثة .

(142/766)

ولما كان التقدير : فاصبروا عن هجوم المصائب ، عطف عليه قوله تحذيراً من أن يشتغل بها فتوقع في الهلاك وتقطع عن أسباب النجاة دالاً على تعلم أمور الدين من معاداتها مشيراً إلى أن العبادة لا تقبل إلا بالاتباع لا بالابتداع : ﴿ وأطيعوا الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له

الأمر كله فافعلوا في كل مصيبة ونائبة تنوبكم وقضية تعروكم ما شرعه لكم ، وأكد بإعادة العامل إشارة إلى أن الوقوف عند الحدود ولا سيما عند المصائب في غاية الصعوبة فقال : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أي الكامل في الرسلية - صلى الله عليه وسلم - فإنه المعصوم بما خلق فيه من الاعتدال وما زكى به من شق البطن وغسل القلب مراراً ، وما أيد به من الوحي ، فما كانت الأفعال بإشارة العقل مع الطاعة لله والمتابعة لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كل إقدام وإحجام كانت معتدلة ، سواء كانت شهوانية أو غضبية ، ومتى لم تكن كذلك كانت منحرفة إلى أعلى وإلى أسفل فكانت مذمومة ، فإن الله تعالى بلطف تدبيره ركب في الإنسان قوة غضبية دافعة لما يهلكه ويؤذيه ، وقوة شهوانية جالبة لما ينميه ويقويه ، فاعتدال الغضبية شجاعة ونقصها جبن وزيادتها تهور ، فالناس باعتبارها جبان وشجاع ومتهور ، واعتدال الشهوانية عفة ونقصانها زهادة وزيادتها شره ، والناس باعتبارها زهيد وعفيف وشره ، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم ، وميزان العدل متابعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما شرعه ، فبذلك تنزاح الفتن الظاهرة والباطنة ، ولا طريق إلى الله إلا بما شرعه ، وكل طريق لم يشرعه ضلال من الكفر إلى ما دونه ، ثم سبب عن أمره ذلك قوله معبراً بإداة الشك إشارة إلى البشارة بحفظ هذه الأمة من الردة ومشعراً بأن بعضهم يقع منه ذلك ثم يقرب رجوعه أو هلاكه : ﴿ فإن توليتم ﴾ أي كلفتم أنفسكم

عندما تدعو إليه الفطرة الأولى من الإعراض عن هذا النور الأعظم والميل إلى طرف من الأطراف المفهومة من طرفي القصد فما على رسولنا شيء من توليكم

(143/766)

﴿ فإنما على رسولنا ﴾ أضافه إليه على وجه العظمة تعظيماً له وتهديداً لمن يتولى عنه ﴿ البلاغ المبين ﴾ أي الظاهر في نفسه المظهر لكل أحد أنه أوضح له غاية الإيضاع ولم يدع لبساً ، ليس إليه خلق الهداية في القلوب .

ولما كان هذا موجعاً لإشعاره بإعراضهم مع عدم الحيلة في ردهم ، عرف بأن ذلك إنما هو إليه وأنه القادر عليه فقال جواباً لمن كأنه قال : فما الحيلة في أمرهم - مكملاً لقسمي الدين بالاستعانة بعد بيان قسمه الآخر وهو العبادة : ﴿ الله ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ لا إله إلا هو ﴾ فهو القادر على الإقبال بهم ولا يقدر على ذلك غيره ، فإليه اللجاء في كل دفع ونفع وهو المستعان في كل شأن فإياه فليرج في هدايتهم المهتدون ﴿ وعلى الله ﴾ أي الذي له الأمر كله لا على غيره .

ولما كان مطلق الإيمان هو التصديق بالله باعتقاد أنه القادر على كل شيء فلا أمر لأحد معه ولا كفوء له فكيف بالرسوخ فيه ، نبه على هذا المقتضي للربط بالفاء والتأكيد بلام

الأمر في قوله : ﴿ فليتوكل المؤمنون ﴾ أي يوجد التوكيل إيجاداً هو في غاية الظهور والثبات العريقون في هذا الوصف في رد المتولي منهم إن حصل منهم تول وكذا في كل مفقود فالعفة ليست مختصة بالموجود فكما أن قانون العدل في الموجود الطاعة فقانون العدل في المفقود التوكل وكذا فعل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فكان لهم الحظ الأوفر في كل توكل لا سيما حين ارتدت العرب بعد موت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان أحقهم بهذا الوصف الصديق رضي الله تعالى عنه كما يعرف ذلك من ينظر الكتب المصنفة في السير وأخبار الردة لا سيما كتابي المسمى في أخبار الردة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 15.17 ﴾

(144/766)

فصل

قال الفخر :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ أي بأمر الله قاله الحسن ، وقيل : بتقدير الله وقضائه ، وقيل : بإرادة الله تعالى ومشيئته ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : بعلمه وقضائه وقوله تعالى

: ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ أي عند المصيبة أو عند الموت أو المرض أو الفقر أو القحط ، ونحو ذلك فيعلم أنها من الله تعالى فيسلم لقضاء الله تعالى ويسترجع ، فذلك قوله : ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ أي للتسليم لأمر الله ، ونظيره قوله : ﴿ الذين إِذَا أصابتهم مُّصِيبَةٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ أولئك هُمُ المهتدون ﴾ [البقرة : 156 ، 157] ، قال أهل المعاني : يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء ، وهو معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما يهد قلبه إلى ما يحب ويرضى وقرىء ﴿ نهدِ قَلْبَهُ ﴾ بالنون وعن عكرمة ﴿ يُهْدَ قَلْبَهُ ﴾ بفتح الدال وضم الياء ، وقرىء ﴿ يهدأ ﴾ قال الزجاج : هدأ قلبه يهدأ إذا سكن ، والقلب بالرفع والنصب ووجه النصب أن يكون مثل ﴿ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة : 130] ﴿ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى اطمئنان القلب عند المصيبة ، وقيل : عليم بتصديق من صدق رسوله فمن صدقه فقد هدى قلبه : ﴿ وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ فيما جاء به من عند الله يعني هونوا المصائب والنوازل واتبعوا الأوامر الصادرة من الله تعالى ، ومن الرسول فيما دعاكم إليه .

وقوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه ﴿ فَإِنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين ﴾ الظاهر والبيان البائن ، وقوله : ﴿ الله لآ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ يحتمل أن يكون هذا من جملة ما تقدم من الأوصاف الحميدة لحضرة الله تعالى من قوله : ﴿ لَهُ الملك وَلَهُ الحمد وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن : 1] فإن من كان موصوفاً بهذه الصفات ونحوها : فهو الذي ﴿ لا إله إِلاَّ هُوَ ﴾ أي لا معبود إلا هو ولا مقصود إلا هو عليه التوكل في كل باب ، وإليه المرجع والمآب ، وقوله : ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ بيان أن المؤمن لا يعتمد إلا عليه ، ولا يتقوى إلا به لما أنه يعتقد أن القادر بالحقيقة ليس إلا هو ، وقال في "الكشاف" : هذا بعث لرسول الله صلى الله عليه وسلم على التوكل عليه والتقوى به في أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه ، فإن قيل : كيف يتعلق ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ بما قبله ويتصل به ؟ نقول : يتعلق بقوله تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ [التغابن : 8] لما أن من يؤمن بالله فيصدقه يعلم ألا تصيبه مصيبة إلا بإذن الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 24 ﴾

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ عموم معناه التنبيه ، والشيء : الموجود ، وقوله : ﴿ هو الذي خلقكم ﴾ تعديد نعمة ، والمعنى ﴿ فمنكم كافر ﴾ لنعمته في الإيجاد حين لم يوجد كافر لجهله بالله تعالى ، ﴿ ومنكم مؤمن ﴾ بالله ، والإيمان به شكر لنعمته ، فالإشارة في هذا التأويل في الإيمان والكفر هي إلى اكتساب العبد ، هذا قول جماعة من المتأولين ، وحجتهم قول النبي صلى الله عليه وسلم : "كل مولود يولد على الفطرة" ، وقوله تعالى : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ [الروم : 30] ، وكأن العبارة في قوله تعالى : ﴿ فمنكم ﴾ تعطي هذا ، وكذلك يقويه قوله : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ . وقيل : المعنى " خلقكم منكم مؤمن ومنكم كافر " في أصل الخلق فهي جملة في موضع الحال ، فالإشارة على هذا في الإيمان والكفر هي إلى اختراع الله تعالى وخلقه ، وهذا تأويل ابن مسعود وأبي ذر ، ويجري مع هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم :

"إن أحدكم يكون في بطن أمه نطفة أربعين يوماً ، ثم علقة أربعين يوماً ، ثم مضغة أربعين يوماً ، ثم يجيء الملك فيقول يا رب : أذكَرَ أم أنثى ؟ أشقي أم سعيد ؟ فما الرزق فما الأجل ؟ فيكتب ذلك في بطن أمه" ، فقوله في الحديث : "أشقي أم سعيد" هو في هذه الآية : ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ ويجري مع هذا المعنى قوله في الغلام الذي قتله الخضر : إنه طبع يوم طبع كافراً ، وما روى ابن مسعود أنه عليه السلام قال : "خلق الله فرعون في البطن كافراً وخلق يحيى بن زكرياء مؤمناً" وقال عطاء بن أبي رباح : فمعنى الآية : ﴿ فمنكم كافر ﴾ بالله ﴿ مؤمن ﴾ بالكوكب ، ومؤمن بالله كافر بالكوكب ، وقدم الكافر لأنه أعرف من جهة الكثرة ، وقوله تعالى : ﴿ بالحق ﴾ أي حين خلقها محقوقاً في نفسه ليست عبثاً ولا لغير معنى .

(148/766)

وقرأ جمهور الناس : "صُوركم" بضم الصاد ، وقرأ أبو رزين : "صِوركم" بكسرها ، وهذا تعديد النعمة في حسن الخلقة ، لأن أعضاء ابن آدم متصرفة لجميع ما تتصرف به أعضاء الحيوان ، وبزيادات كثيرة فضل بها ثم هو مفضل بحسن الوجه ، وجمال الجوارح ، وحجة هذا قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ [التين : 4] ، وقال

بعض العلماء : النعمة المعددة هنا إنما هي صورة الإنسان من حيث هو إنسان مدرك عاقل ، فهذا هو الذي حسن له حتى لحق ذلك كمالات كثيرة .

قال القاضي أبو محمد : والقول الأول أحرى في لغة العرب ، لأنها لا تعرف الصور إلا الشكل ، وذكر تعالى علمه بما في السماوات والأرض ، فعم عظام المخلوقات ، ثم تدرج القول إلى أخفى من ذلك وهو جميع ما يقوله الناس في سر وفي علن ، ثم تدرج إلى ما هو أخفى ، وهو ما يهجس بالخواطر ، وذات الصدور : ما فيها من خطرات واعتقادات كما يقال : الذئب مغبوط بذي بطنه ، كما قال أبو بكر رضي الله عنه : إنما هو ذو بطن خارجة ، و ﴿ الصدور ﴾ هنا عبارة عن القلب ، إذ القلب في الصدر .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (5)

(149/766)

﴿ يأتكم ﴾ جزم وأصله "يأتيكم" قال سيبويه : واعلم أن الآخر إذا كان يسكن في الرفع حذف في الجزم ، والخطاب في هذه الآية لقريش ، ذكروا بما حل بعاد وثمود وقوم إبراهيم وغيرهم ممن سمعت قريش أخبارهم ، و"وبال الأمر" : مكروهه ، وما يسوء منه ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأنه ﴾ إشارة إلى ذوق الوبال ، وكون عذاب الآخرة لهم ، ثم ذكر تعالى من

مقالة أولئك الماضين ما هو مشبه لقول كفار قريش من استبعاد بعث الله للبشر ، ونبوة أحد من بني آدم ، وحسد الشخص المبعوث ، وقوله : ﴿ أبشر ﴾ رفع بالابتداء ، وجمع الضمير في قوله : ﴿ يهدوننا ﴾ من حيث كان البشر اسم هذا النوع الآدمي ، كأنهم قالوا أناس هداتنا ؟ وقوله تعالى : ﴿ استغنى الله ﴾ عبارة عما ظهر من هلاكهم ، وأنهم لن يضروا الله شيئاً ، فبان أنه كان غنياً أزلاً وبسبب ظهور هلاكهم بعد أن لم يكن ظاهراً ساغ استعمال هذا البناء مسنداً إلى اسم الله تعالى ، لأن بناء استفعل إنما هو لطلب الشيء وتحصيله بالطلب ، وقوله تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا ﴾ يريد قريشاً ثم هي بعد تعم كل كافر بالبعث ، وقال عبد الله بن عمر : الزعم : كنية الكذب ، وقال عليه السلام : بئس مطية الرجل زعموا ، ولا توجد " زعم " مستعملة في فصيح من الكلام إلا عبارة عن الكذب ، أو قول انفرد به قائله فيريد ناقله أن يبقي عهدته على الزاعم ، ففي ذلك ما ينحو إلى تضعيف الزعم ، وقول سيبويه : زعم الخليل إنما يجيء فيما انفرد الخليل به ، ثم أمره تعالى أن يجيب نفيهم بما يقتضي الرد عليه إيجاب البعث وأن يؤكد ذلك بالقسم ، ثم توعدهم تعالى في آخر الآية بأنهم يخبرون بأعمالهم على جهة التوقيف والتوبيخ ، المؤدي إلى العقاب .

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8)

هذا دعاء إلى الله تعالى وتبليغ وتحذير من يوم القيامة ، و﴿ النور ﴾ القرآن ومعانيه ، والعامل في قوله ﴿ يوم يجمعكم ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ لتنبؤن ﴾ [التغابن : 7] ، ويحتمل أن تكون ﴿ خبير ﴾ ، وهو تعالى خبير في كل يوم ، ولكن يخص ذلك اليوم ، لأنه يوم تضرهم فيه خبرة الله تعالى بأمورهم ، وقرأ جمهور السبعة : "يجمعُكم" بضم العين ، وقرأ أبو عمر بسكونها ، وروي عنه أنه أشمها الضم وهذا على جواز تسكين الحركة وإن كانت لإعراب ، كما قال جرير : ولا تعرفكم العرب ، وقرأ سلام ويعقوب : "نجمعُكم" بالنون وضم العين ، و: ﴿ يوم الجمع ﴾ هو يوم القيامة ، وهو ﴿ يوم التغابن ﴾ ، وذلك أن كل واحد ينبعث من قبره وهو يرجو حظاً ومنزلة ، فإذا وقع الجزاء غبن المؤمنون الكافرين لأنهم يحوزون الجنة ويحصل الكفار في النار ، نحا هذا المنحى مجاهد وغيره ، وليس هذا الفعل من التغابن من اثنين ، بل كتواضع وتحامل ، وقرأ نافع وابن عامر والمفضل عن عاصم : "نكفر عنه" بنون وكذلك : "ندخله" ، وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر وشيبة والحسن بخلاف وطلحة ، وقرأ الباقون والأعمش وعيسى والحسن في الموضعين بالياء على معنى يكفر الله ، والأول هو نون العظمة وقوله تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة ﴾ يحتمل أن يريد المصائب التي هي رزايا وخصها بالذكر بأنها الأهم على الناس والأبين أثراً في أنفسهم ، ويحتمل أن يريد جميع الحوادث من خير وشر ، وذلك أن الحكم واحد في أنها ﴿ بإذن الله

﴾ ، والإذن في هذا الموضع عبارة عن العلم والإرادة وتمكين الوقوع ، وقوله تعالى : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ قال فيه المفسرون المعنى : ومن آمن وعرف أن كل شيء بقضاء الله وقدره ، وعلمه ، هانت عليه مصيبته وسلم الأمر لله تعالى . وقرأ سعيد بن جبير وطلحة بن مصرف : " نهد " بالنون ، وقرأ الضحاك : "يُهد قلبه" برفع الياء . وقرأ عكرمة وعمرو بن دينار : " يهدأ " برفع القلب ، وروي عن عكرمة أنه سكن بدل

(151/766)

الهمزة ألفاً ، على معنى أن صاحب المصيبة يسلم فتسكن نفسه ، ويرشد الله المؤمن به إلى الصواب في الأمور . وقوله تعالى : ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ عموم مطلق على ظاهره . قوله تعالى : ﴿ وأطيعوا ﴾ عطف على ﴿ فآمنوا ﴾ [التغابن : 8] ، وقوله تعالى : ﴿ فإن توليتم . . . ﴾ إلى آخر الآية . وعيد وتربية لمحمد صلى الله عليه وسلم إذا بلغ ، وفي قوله تعالى : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ تحريض للمؤمنين على مكافحة الكفار والصبر على دين الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(152/766)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

أي بإرادته وقضائه .

وقال الفرّاء : يريد إلا بأمر الله .

وقيل : إلا بعلم الله .

وقيل : سبب نزولها أن الكفار قالوا : لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب في الدنيا ؛ فبيّن الله تعالى أن ما أصاب من مصيبة في نفس أو مال أو قول أو فعل ، يقتضي همّاً أو يوجب عقاباً عاجلاً أو آجلاً فبعلم الله وقضائه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ ﴾ أي يصدّق ويعلم أنه لا يصيبه مصيبة إلا بإذن الله .

﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ للصبر والرضا .

وقيل : يُثَبّته على الإيمان .

وقال أبو عثمان الجِيزي : من صح إيمانه يهد الله قلبه لاتباع السُّنة .

وقيل : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ عند المصيبة فيقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعونَ ﴾ [البقرة : 156] قاله ابن جبير .

وقال ابن عباس : هو أن يجعل الله في قلبه اليقين ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما

أخطأه لم يكن ليصيبه .

وقال الكَلْبيّ : هو إذا ابْتُلِي صَبَرَ ، وإذا أُنعِم عليه شَكَر ، وإذا ظُلم غَفَر .

وقيل : يَهْدِ قلبه إلى نيل الثواب في الجنة .

وقراءة العامة "يَهْدِ" بفتح الياء وكسر الدال ؛ لذكر اسم الله أوّلا .

وقرأ السُّلَمِيّ وقتادة "يُهْدَ قَلْبُه" بضم الياء وفتح الدال على الفعل المجهول ورفع الباء ؛ لأنه اسم فعل لم يسمّ فاعله .

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف والأعرج "نَهْدِ" بنونٍ على التعظيم "قَلْبَه" بالنصب .

وقرأ عكرمة "يَهْدَأ قلبُه" بهمزة ساكنة ورفع الباء ، أي يسكن ويطمئن .

وقرأ مثله مالك بن دِينار ، إلا أنه لَيّن الهمزة .

﴿ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه تسليم مَن انقاد وَسَلَّم لأمره ، ولا كراهة من كرهه .

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (12)

أي هوّنوا على أنفسكم المصائب ، واشتغلوا بطاعة الله ، واعملوا بكتابه ، وأطيعوا الرسول في العمل بُسنّته ؛ فإن توليّتم عن الطاعة فليس على الرسول إلا التبليغ .

﴿ اللهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أي لا معبود سواه ، ولا خالق غيره ؛ فعليه توكّلوا . انتهى . ا . هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(154/766)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ زَعَمَ الذين كَفَرُواْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ﴾

الزعمُ ادعاءُ العلمِ يتعدى إلى مفعولينِ وقد قام مقامَهما أن المخففةُ معَ مَا في حيزِهَا ، والمرادُ بالموصولِ كفارُ مكةَ أي زعمُوا أنَّ الشأنَ لن يبعثُوا بعد موتِهم أبداً ﴿ قُلْ ﴾ رداً عليهم وإبطالاً لزعمِهم بإثباتِ ما نفوه ﴿ بلى ﴾ أي تبعثونَ وقوله : ﴿ وَرَبّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أي لتُحاسبُنَّ ولتُجزوُنَّ بأعمالِكم ، جملةٌ مستقلةٌ داخلةٌ تحتَ الأمرِ واردةٌ لتأكيدِ ما أفادَهُ كلمةُ بَلَى من إثباتِ البعثِ وبيانِ تحقيقِ أمرٍ آخرَ متفرعٍ عليهِ منوطٍ به ففيهِ تأكيدٌ لتحقيقِ البعثِ بوجهينِ ﴿ وَذَلِكَ ﴾ أي ما ذُكرَ من البعثِ والجزاءِ ﴿ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ لتحققِ القدرةِ التامةِ وقبولِ المادةِ .

الفاءُ في قولِه تعالَى : ﴿ فَئَامِنُواْ ﴾ فصيحةٌ مفصحةٌ عن شرطٍ قد حُذفَ ثقةً بغايةِ ظهورِه أي إذا كانَ الأمرُ كذلكَ فآمنُوا ﴿ باللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ﴿ والنور الذى أَنزَلْنَا ﴾ وهُو القرآنُ فإنَّه بإعجازِه بيِّنٌ بنفسِه مبيِّنٌ لغيرِه كما أنَّ النورَ كذلكَ. والالتفاتُ إلى نونِ العظمةِ لإبرازِ كمالِ العنايةِ بأمرِ الإنزالِ ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الامتثالِ بالأمرِ وعدمِه ﴿ خَبِيرٌ ﴾ فمجازيكُم عليهِ. والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لما قبلَهُ من الأمرِ موجبٌ للامتثالِ به بالوعدِ والوعيدِ ، والالتفاتُ إلى الإسمِ الجليلِ لتربيةِ المهابةِ وتأكيدِ استقلالِ الجُملةِ ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ ظرفٌ لتنبؤنَّ وقيلَ لخبيرٌ لما فيهِ من مَعْنَى الوعيدِ كأنَّه قيلَ واللهُ مجازيكُم ومعاقبكُم يومَ يجمعُكُم أو مفعولٌ لأذكُرْ وقُرِىءَ نَجْمعكُم بنونِ العظمةِ ﴿ لِيَوْمِ الجمع ﴾ ليومٍ يُجمعُ فيهِ الأولونَ والآخرونَ أي لأجلِ ما فيهِ من الحسابِ والجزاءِ ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ أي يومُ غَبْنِ بعضِ الناسِ بعضاً بنزولِ السعداءِ منازلَ الأشقياءِ لو كانُوا سعداءَ وبالعكسِ وفي الحديثِ : " ما منْ عبدٍ يدخلُ الجنةَ إلا أُرِي مقعدَهُ من النارِ لو أساءَ ليزدادَ شُكراً وما من عبدٍ يدخلُ النارَ إلا أُرِي مقعدَهُ من الجنةِ لو

أحسنَ ليزدادَ حسرةً " وتخصيصُ التغابنِ بذلكَ اليومِ للإيذانِ بأنَ التغابنَ في الحقيقةِ هو الذي يقعُ فيهِ لا ما يقعُ في أمورِ الدُّنيا .

(156/766)

﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صالحا ﴾ أي عملاً صالحاً ﴿ يُكَفِّرْ ﴾ أي الله عزَّ وجلَّ وقُرِىءَ بنونِ العظمةِ ﴿ عَنْهُ سيئاته ﴾ يومَ القيامةِ ﴿ وَيُدْخِلْهُ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ وقُرِىءَ ندخله بالنونِ ﴿ ذلك ﴾ أي ما ذُكِرَ من تكفيرِ السيئاتِ وإدخالِ الجناتِ ﴿ الفوز العظيم ﴾ الذي لا فوزَ وراءَهُ لانطوائِه على النجاةِ من أعظمِ الهلكاتِ والظفرِ بأجلِّ الطلباتِ ﴿ والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا أُوْلَئِكَ أصحاب النار خالدين فِيهَا وَبِئْسَ المصير ﴾ أي النارُ كأنَّ هاتينِ الآيتينِ الكريمتينِ بيانٌ لكيفيةِ التغابنِ ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ من المصائبِ الدنيويةِ ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ أي بتقديرِه وإرادتِه كأنَّها بذاتِها متوجهةٌ إلى الإنسانِ متوقفةٌ على إذنِه تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ عند إصابتِهَا للثباتِ والاسترجاعِ وقيل يهدِ قلبَهُ حتَّى يعلمَ أنَّ ما أصابَهُ لم يكُنْ ليخطئَهُ وما أخطأهُ لم يكُن ليصيبَهُ وقيل يهدِ قلبَهُ أي يلطفُ بِهِ ويشرحُهُ لازديادِ الطاعةِ والخيرِ . وقُرِىءَ يُهْدَ قلبُهُ على البناءِ للمفعولِ ورفعِ قلبُهُ ، وقُرِىءَ بنصبِه على نهجِ سفِه نفسَهُ وقُرِىءَ بالهمزة

أي يسكن ﴿ واللهُ بِكلِّ شيْء ﴾ من الأشياء التي من جُملتِهَا القلوبُ وأحوالِها ﴿ عَلِيمٌ ﴾ فيعلمُ إيمانَ المؤمنِ ويهدي قلبَهُ إلى ما ذُكِرَ.

﴿ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾

(157/766)

كررَ الأمرَ للتأكيدِ والإيذانِ بالفرقِ بينَ الطاعتينِ في الكيفيةِ وتوضيحِ موردِ التولّي في قولِه تعالَى: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي عن إطاعةِ الرسولِ، وقولُه تعالَى: ﴿ فَإِنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين ﴾ تعليلٌ للجوابِ المحذوفِ أي فلا بأسَ عليهِ إذْ ما عليهِ إلا التبليغُ المبينُ وقد فعلَ ذلكَ بما لا مزيدَ عليهِ، وإظهارُ الرسولِ مضافاً إلى نونِ العظمةِ في مقامِ إضمارِه لتشريفِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ والإشعارُ بمدارِ الحكمِ الذي هو كونُ وظيفتِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ محضَ البلاغِ ولزيادةِ تشنيعِ التولِّي عنْهُ ﴿ اللهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ جملةٌ من مبتدأٍ وخبرٍ أي هو المستحقُّ للمعبوديةِ لا غيرُه، وفي إضمارِ خبرِ لا مثل في الوجودِ أو يصح أن يوجدَ خلافٌ للنجاةِ معروفٌ ﴿ وَعَلَى اللهِ ﴾ أي عليهِ تعالى خاصَّة دونَ غيرِه لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ وإظهارُ الجلالةِ في موقعِ الإضمارِ للإشعارِ بعلةِ التوكلِ والأمرِ به

فإن الألوهية مقتضية للتبتل إليه تعالى بالكلية وقطع التعلق عما سواه بالمرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(158/766)

وقال الآلوسى :

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾

أي ما أصاب أحداً مصيبة على أن المفعول محذوف ، و﴿ مِنْ ﴾ زائدة ، و﴿ مُّصِيبَةٍ ﴾ فاعل ، وعدم إلحاق التاء في مثل ذلك فصيح لكن الإلحاق أكثر كقوله تعالى : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ [الحجر : 5] ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءايَةٍ ﴾ [الأنعام : 4] والمراد بالمصيبة الرزية وما يسوء العبد في نفس .

أو مال .

أو ولد .

أو قول .

أو فعل أي ما أصاب أحداً من رزايا الدنيا أي رزية كانت ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي بإرادته سبحانه وتمكينه عز وجل كأن الرزية بذاتها متوجهة إلى العبد متوقفة على إرادته تعالى

وتمكينه جل وعلا ، وجوز أن يراد بالمصيبة الحادثة من شر أو خير ، وقد نصوا على أنها تستعمل فيما يصيب العبد من الخير وفيما يصيبه من الشر لكن قيل : إنها في الأول : من الصوب أي المطر ، وفي الثاني : من إصابة السهم ، والأول هو الظاهر ، وإن كان الحكم بالتوقف على الإذن عاماً .

﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ عند إصابتها للصبر والاسترجاع على ما قيل ، وعن علقمة للعلم بأنها من عند الله تعالى فيسلم لأمر الله تعالى ويرضى بها ، وعن ابن مسعود قريب منه ، وقال ابن عباس : ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وقيل : ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ أي يلطف به ويشرحه لازدياد الخير والطاعة ، وقرأ ابن جبير .

وطلحة .

وابن هرمز .

والأزرق عن حمزة نهد بنون العظمة .

وقرأ السلمي .

والضحاك .

وأبو جعفر ﴿ يَهْدِ ﴾ بالياء مبنياً للمفعول ﴿ قَلْبَهُ ﴾ بالرفع على النيابة عن الفاعل ، وقرئ كذلك لكن بنصب ﴿ قَلْبَهُ ﴾ ، وخرج على أن نائب الفاعل ضمير ﴿ مِنْ ﴾ و ﴿ قَلْبَهُ ﴾ منصوب بنزع الخافض أي يهد في قلبه ، أو يهد إلى قلبه على معنى أن الكافر ضال عن قلبه بعيد منه ، والمؤمن واجد له مهتد إليه كقوله تعالى : ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ق : 37] فالكلام من الحذف والإيصال نحو ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] ، وفيه جعل القلب بمنزلة المقصد فمن ضل فقد منع منه ومن وصل فقد هدي إليه ، وجوز أن يكون نصبه على التمييز بناءاً على أنه يجوز تعريفه .

وقرأ عكرمة .

وعمرو بن دينار .

ومالك بن دينار يهدأ بهمزة ساكنة ﴿ قَلْبَهُ ﴾ بالرفع أي يطمئن قلبه ويسكن الإيمان ولا يكون فيه قلق واضطراب ، وقرأ عمرو بن قايد يهدا بألف بدلاً من الهمزة الساكنة ،

وعكرمة .

ومالك بن دينار أيضاً ﴿ يَهْدِ ﴾ بحذف الألف بعد إبدالها من الهمزة ، وإبدال الهمزة في مثل ذلك ليس بقياس على ما قال أبو حيان ، وأجاز ذلك بعضهم قياساً ، وبني عليه جواز حذف تلك الألف للجازم ، وخرج عليه قول زهير بن أبي سلمى

: جرى متى يظلم يعاقب بظلمه . . .

سريعاً وأن "لا يبد" بالظلم يظلم

أصله يبدأ فأبدلت الهمزة ألفاً ثم حذفت للجازم تشبيها بألف يخشى إذا دخل عليه الجازم ، وقوله تعالى : ﴿ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء التي من جملتها القلوب وأحوالها ﴿ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم إيمان المؤمن ويهدي قلبه عند إصابة المصيبة ؛ فالجملة متعلقة بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن ﴾ الخ ، وجوز أن تكون متعلقة بقوله سبحانه : ﴿ مَا أَصَابَ ﴾ الخ على أنها تذييل له للتقرير والتأكيد ، وذكر الطيبي أن في كلام الكشاف رمزاً إلى أن في الآية حذفاً أي فمن لم يؤمن لم يلطف به أو لم يهد قلبه ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، وبنى عليه أن المصيبة تشمل الكفر والمعاصي أيضاً لورودها عقيب جزاء المؤمن والكافر وإردافها بالأمر الآتي" وأي مصيبة أعظم منهما ؟ وهو كما أشار إليه يدفع في نحر المعتزلة .

﴿ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ كرر الأمر للتأكيد والإيذان بالفرق بين الإطاعتين في الكيفية ، وتوضيح مورد التولي في قوله تعالى :

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي عن إطاعة الرسول ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين

﴿ تعليل للجواب المحذوف أقيم مقامه أي فلا بأس عليه إذ ما عليه إلا التبليغ المبين وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه، وإظهار الرسول مضافاً إلى نون العظمة في مقام إضماره لتشريفه عليه الصلاة والسلام، والإشعار بمدار الحكم الذي هو كون وظيفته صلى الله عليه وسلم محض البلاغ ولزيادة تشنيع التولي عنه، والحصر في الكلام إضافي.

﴿ اللهُ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ الكلام فيها كالكلام في كلمة التوحيد، وقد مر وحلا ﴿ وَعَلَى اللهِ ﴾ أي عليه تعالى خاصة دون غيره لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ وإظهار الجلالة في موقع الإضمار للإشعار بعلة التوكل.

(161/766)

أو الأمر به فإن الألوهية مقتضية للتبتل إليه تعالى بالكلية، وقطع التعلق بالمرة عما سواه من البرية، وذكر بعض الأجلة أن تخصيص المؤمنين بالأمر بالتوكل لأن الإيمان بأن الكل منه تعالى يقتضي التوكل، ومن هنا قيل: ليس في الآيات لمن تأمل في الحث على التوكل أعظم من هذه الآية لإيمائها إلى أن من لا يتوكل على الله تعالى ليس بمؤمن، وهي على ما قال الطيبي: كالخاتمة والفذلكة لما تقدم، وكالمخلص إلى مشرع آخر. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ زَعَمَ الذين كَفَرُواْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ﴾

الزعم : هو القول بالظنّ ، ويطلق على الكذب .

قال شريح : لكل شيء كنية ، وكنية الكذب زعموا ، و ﴿ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ﴾ قائم مقام مفعول زعم ، و " أن " هي المخففة من الثقيلة لا المصدرية لئلا يدخل ناصب على ناصب ، والمراد بالكفار : كفار العرب ؛ والمعنى : زعم كفار العرب أن الشأن لن يبعثوا أبداً .

ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يردّ عليهم ويبطل زعمهم فقال : ﴿ قُلْ بلى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ ﴾ بل هي التي لإيجاب النفي ، فالمعنى : بلى تبعثون .

ثم أقسم على ذلك ، وجواب القسم : ﴿ لتبعثنّ ﴾ أي : لتخرجنّ من قبوركم ، ﴿ لتنبؤن بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أي : لتخبرنّ بذلك إقامة للحجة عليكم ، ثم تجزون به ﴿ ذَلِكَ ﴾ البعث والجزاء ﴿ عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ إذ الإعادة أيسر من الابتداء ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ الفاء هي الفصيحة الدالة على شرط مقدّر أي : إذا كان الأمر هكذا ، فصدّقوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ والنور الذى أَنزَلْنَا ﴾ وهو القرآن ؛ لأنه نور يهتدى

به من ظلمة الضلال ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم ، فهو مجازيكم على ذلك ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع ﴾ العامل في الظرف : ﴿ لتنبؤن ﴾ ، قاله النحاس .

وقال غيره : العامل فيه خبير ، وقيل : العامل فيه محذوف هو اذكر .

وقال أبو البقاء : العامل فيه ما دلّ عليه الكلام ، أي : تتفاوتون يوم يجمعكم .

قرأ الجمهور : ﴿ يجمعكم ﴾ بفتح الياء وضم العين ، وروي عن أبي عمرو إسكانها ، ولا وجه لذلك إلاّ التخفيف ، وإن لم يكن هذا موضعاً له ، كما قرىء في ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ [الأنعام : 109] بسكون الراء ، وكقول الشاعر :

فاليوم أشرب غير مستحقب . . . إثماً من الله ولا واغل

(163/766)

بإسكان باء أشرب ، وقرأ زيد بن عليّ ، والشعبي ، ويعقوب ، ونصر ، وابن أبي إسحاق ، والجحدري : (نجمعكم) بالنون ، ومعنى ﴿ لِيَوْمِ الجمع ﴾ : ليوم القيامة ، فإنه يجمع فيه أهل المحشر للجزاء ، ويجمع فيه بين كل عامل وعمله ، وبين كل نبيّ وأمته ، وبين كل مظلوم وظالمه ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ يعني : أن يوم القيامة هو يوم التغابن ، وذلك أنه يغبن فيه بعض

أهل المحشر بعضاً ، فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل ، ويغبن فيه أهل الإيمان أهل الكفر ، وأهل الطاعة أهل المعصية ، ولا غبن أعظم من غبن أهل الجنة أهل النار عند دخول هؤلاء الجنة وهؤلاء النار ، فنزلوا منازلهم التي كانوا سينزلونها لو لم يفعلوا ما يوجب النار ، فكأن أهل النار استبدلوا الخير بالشرّ ، والجيد بالرديء ، والنعيم بالعذاب ، وأهل الجنة على العكس من ذلك .

يقال : غبنت فلاناً إذا بايعته ، أو شاريته فكان النقص عليه والغلبة ، كذا قال المفسرون ، فالمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صالحا نُكَفِّرْ عَنْهُ سيئاته ﴾ أي : من وقع منه التصديق مع العمل الصالح استحق تكفير سيئاته ، قرأ الجمهور : (يكفر) و (يدخله) بالتحتية ، وقرأ نافع ، وابن عامر بالنون فيهما ، وانتصاب ﴿ خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ على أنها حال مقدّرة ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما ذكر من التكفير والإدخال ، وهو مبتدأ ، وخبره ﴿ الفوز العظيم ﴾ أي : الظفر الذي لا يساويه ظفر .

﴿ والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا أُوْلَئِكَ أصحاب النار خالدين فِيهَا وَبِئْسَ المصير ﴾ المراد بالآيات : إما التنزيلية أو ما هو أعم منها .

ذكر سبحانه حال السعداء ، وحال الأشقياء هاهنا لبيان ما تقدم من التغابن ، وأنه سيكون بسبب التكفير ، وإدخال الجنة للطائفة الأولى ، وبسبب إدخال الطائفة الثانية النار ، وخلودهم فيها .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي : ما أصاب كل أحد من مصيبة من المصائب إلاّ بإذن الله ، أي : بقضائه وقدره ، قال الفراء : إلاّ بإذن الله ، أي : بأمر الله ، وقيل : إلاّ بعلم الله .

قيل : وسبب نزولها أن الكفار قالوا : لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب في الدنيا ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ أي : من يصدّق ويعلم أنه لا يصيبه إلاّ ما قدّره الله عليه يهد قلبه للصبر والرضا بالقضاء .

قال مقاتل بن حيان : يهد قلبه عند المصيبة ، فيعلم أنها من الله ، فيسلم لقضائه ويسترجع .

وقال سعيد بن جبير : يهد قلبه عند المصيبة ، فيقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعون ﴾ [البقرة : 156] وقال الكلبي : هو إذا ابتلي صبر ، وإذا أنعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفر .

قرأ الجمهور : ﴿ يهد ﴾ بفتح الياء ، وكسر الدال ، أي : يهده الله ، وقرأ قتادة ، والسلمي ، والضحاك ، وأبو عبد الرحمن بضم الياء ، وفتح الدال على البناء للمفعول ، وقرأ طلحة بن مصرّف ، والأعرج ، وسعيد بن جبير ، وابن هرمز ، والأزرق : (نهد) بالنون ، وقرأ

مالك بن دينار، وعمرو بن دينار، وعكرمة: (يهدأ) بهمزة ساكنة، ورفع قلبه، أي: يطمئن ويسكن ﴿ والله بِكُلِّ شَيْء عَلِيمٌ ﴾ أي: بليغ العلم لا تخفى عليه من ذلك خافية.

(165/766)

﴿ وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ أي: هوّنوا على أنفسكم المصائب، واشتغلوا بطاعة الله وطاعة رسوله ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي: أعرضتم عن الطاعة ﴿ فَإِنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين ﴾ ليس عليه غير ذلك وقد فعل، وجواب الشرط محذوف، والتقدير فلا بأس على الرسول، وجملة: ﴿ فَإِنَّمَا على رَسُولِنَا ﴾ تعليل للجواب المحذوف، ثم أرشد إلى التوحيد والتوكل فقال: ﴿ الله لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ أي: هو المستحق للعبودية دون غيره، فوحدوه ولا تشركوا به ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ أي: يفوّضوا أمورهم إليه، ويعتمدوا عليه لا على غيره.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبيهقي، وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قيل له: ما سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: في زعموا؟ قال: سمعته يقول:

" بئس مطية الرجل " وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر عنه أنه كره زعموا.

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : يوم التغابن من أسماء يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عنه في قوله : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ قال : غبن أهل الجنة أهل النار ، وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود في قوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ قال : هي المصيبات تصيب الرجل ، فيعلم أنها من عند الله ، فيسلم لها ويرضى .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ قال : يعني يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 236 . 238 ﴾

(166/766)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

استئناف انتقل إليه بعد أن تُوعِّد المشركون بما يحصل لهم من التغابن يوم يجمع الله الناس يوم الحساب .

ويشبه أن يكون استئنافاً بيانيا لأن تهديد المشركين بيوم الحساب يثير في نفوس المؤمنين التساؤل عن الانتصاف من المشركين في الدنيا على ما يلقاه المسلمون من إضرارهم بمكة فإنهم لم يكفوا عن أذى المسلمين وإصابتهم في أبدانهم وأموالهم والفتنة بينهم وبين أزواجهم وأبنائهم.

فالمراد: المصائبُ التي أصابت المسلمين من معاملة المشركين فأنبأهم الله بما يسليهم عن ذلك بأن الله عالم بما ينالهم.

وقال القرطبي "قيل سبب نزولها أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب".

واختصت المصيبة في استعمال اللغة بما يَلحق الإنسان من شر وضر وإن كان أصل فعلها يقال كما يصيب الإنسان مطلقاً ولكن غلب إطلاق فعل أصاب على لحاق السوء، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ [النساء: 79]، أن إسناد الإصابة إلى الحسنة من قبيل المشاكلة.

وتأنيث المصيبة لتأويلها بالحادثة وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ﴾ في سورة [آل عمران: 165].

والإذن: أصله إجازة الفعل لمن يفعله وأطلق على إباحة الدخول إلى البيت وإزالة الحجاب

لأنه مشتق من أذِن له إذا سمع كلامه .

وهو هنا مستعار لتكوين أسباب الحوادث .

(167/766)

وهي الأسباب التي تفضي في نظام العادة إلى وقوعٍ واقعات ، وهي من آثار صنع الله في نظام هذا العالم من ربط المسببات بأسبابها مع علمه بما تفضي إليه تلك الأسباب فلما كان هو الذي أوجد الأسباب وأسبابَ أسبابها ، وكان قد جعل ذلك كله أصولاً وفروعاً بعلمه وحكمته ، أطلق على ذلك التقدير والتكوين لفظُ الإِذن ، والمشابهة ظاهرة ، وهذا في معنى قوله : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ [الحديد : 22] .

ومقتضى هذه الاستعارة تقريب حقيقة التقلبات الدنيوية إلى عقول المسلمين باختصار العبارة لضيق المقام عن الإِطناب في بيان العلل والأسباب ، ولأن أكثر ذلك لا تبلغ إليه عقول عموم الأمة بسهولة .

والقصد من هذا تعليم المسلمين الصبر على ما يغلبهم من مصائب الحوادث لكيلا تُفَلّ عزائمهم ولا يهنوا ولا يلهيهم الحزن عن مهمات أمورهم وتدبير شؤونهم كما قال في سورة [

الحديد : 23] ﴿ لكيلا تأسَوا على ما فاتكم ﴾

ولذلك أعقبه هنا بقوله : ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ ، أي يهد قلبه عندما تصيبه مصيبة ، فحذف هذا المتعلق لظهوره من السياق قال : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يَمْسَسْكُم قَرَح فقد مسّ القوم قرْح مثلُه وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ [آل عمران : 139 – 140] .

والمعنى : أن المؤمن مرتاض بالأخلاق الإِسلامية متبع لوصايا الله تعالى فهو مجاف لفاسد الأخلاق من الجزع والهلع يتلقى ما يصيبه من مصيبة بالصبر والتفكر في أن الحياة لا تخلو من عوارض مؤلمة أو مكدرة .

قال تعالى : ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ [البقرة : 155 – 157] ، أي أصحاب الهدى الكامل لأنه هدىً متلقىً من التعاليم الإلهية الحق المعصومة من الخطل كقوله هنا : ﴿ يهد قلبه ﴾ .

وهذا الخبر في قوله : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ إيماء إلى الأمر بالثبات والصبر عند حلول المصائب لأنه يلزم من هدْي الله قلب المؤمن عند المصيبة ترغيب المؤمنين في الثبات والتصبر عند حلول المصائب فلذلك ذيل بجملة ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ فهو تذييل للجملة التي قبلها وارد على مراعاة جميع ما تضمنته من أن المصائب بإذن الله ، ومن أن الله يهدي قلوب المؤمنين للثبات عند حلول المصائب ومن الأمر بالثبات والصبر عند المصائب ، أي يعلم جميع ذلك .

وفيه كناية عن مجازاة الصابرين بالثواب لأن فائدة علم الله التي تهم الناس هو التخلق ورجاء الثواب ورفع الدرجات .

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (12)

عطف على جملة ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ [التغابن : 11] لأنها تضمنت أن المؤمنين متهيئون لطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيما يدعوانهم إليه من صالح الأعمال كما يدل عليه تذييل الكلام بقوله : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [آل عمران : 122] ، ولأن طلب الطاعة فرع عن تحقق الإيمان كما في حديث معاذ " أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له : إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فأولُ ما تدعوهم إليه فادْعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة " الحديث .

وتفريع ﴿ فإن توليتم ﴾ تحذير من عصيان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والتولي مستعار للعصيان وعدم قبول دعوة الرسول .

وحقيقة التّولي الانصراف عن المكان المستقر فيه واستعير التولي للعصيان تشنيعاً له مبالغة في التحذير منه ، ومثله قوله تعالى في خطاب المؤمنين ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ [محمد : 38] ، وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ [الأنفال : 20] .

(169/766)

والتعريف في قوله : ﴿ رسولنا ﴾ بالإِضافة لقصد تعظيم شأنه بأنه صلى الله عليه وسلم رسول ربّ العالمين .

وهذا الضمير التفات من الغيبة إلى التكلم يفيد تشريف الرسول بعزّ الإضافة إلى المتكلم .

ومعنى الحَصْر قوله : ﴿ فإنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ قصر الرسول صلى الله عليه وسلم على كون واجبه البلاغ ، قصرَ موصوف على صفةٍ فالرسول صلى الله عليه وسلم مقصور على لزوم البلاغ له لا يعدُو ذلك إلى لزوم شيء آخر .

وهو قصر قلب تنزيلاً لهم في حالة العصيان المفروض منزلة من يعتقد أن الله لو شاء لألجأهم

إلى العمل بما أمرهم به إلهاباً لنفوسهم بالحث على الطاعة.

ووصف البلاغ بـ ﴿ المبين ﴾، أي الواضح عُذر للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ادعى ما أمر به على الوجه الأكمل قطعاً للمعذر عن عدم امتثال ما أمر به.

وباعتبار مفهوم القصر جملة ﴿ فإنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ كانت جواباً للشرط دون حاجة إلى تقدير جواب تكون هذه الجملة دليلاً عليه أو علة له.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (13)

جملة معترضة بين جملة ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ [التغابن: 12] وجملة: ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

واسم الجلالة مبتدأ وجملة: الله لا إله إلا هو ﴾ خبر.

وهذا تذكير للمؤمنين بما يعلمونه.

أي من آمن بأن الله لا إله إلا هو كان حقاً عليه أن يطيعه وأن لا يعبأ بما يصيبه في جانب طاعة الله من مصائب وأذى كما قال حُبيب بن عدي:

لستُ أبالي حين أُقتل مسلماً

على أيّ جنب كان لله مصرعي...

ويجوز أن تكون جملة ﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ في موقع العلة لجملة ﴿ وأطيعوا الله ﴾ [التغابن: 12] وتفيد أيضاً تعليل جملة ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ [التغابن: 12] لأن

طاعة الرسول ترجع إلى طاعة الله قال تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء : 80] .

(170/766)

وافتتاح الجملة باسم الجلالة إظهار في مقام الإضمار إذ لم يقُل هو لا إِله إلاّ هو لاستحضار عظمة الله تعالى بما يَحويه اسم الجلالة من معاني الكمال ، ولتكون الجملة مستقلة بنفسها فتكون جارية مجرى الأمثال والكلمِ الجوامع .

﴿ هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ﴾ .

عطف على ﴿ وأطيعوا الله ﴾ فهو في معنى : وتوكلوا على الله ، فإن المؤمنين يتوكلون على الله لا على غيره وأنتم مؤمنون فتوكلوا عليه .

وتقدم المجرور لِإفادة الاختصاص ، أي أن المؤمنين لا يتوكلون إلا على الله .

وجيء في ذلك بصيغة أمر المؤمنين بالتوكل على الله دون غيره ربطاً على قلوبهم وتثبيتاً لنفوسهم كيلا يأسفوا من إعراض المشركين وما يصيبهم منهم وأن ذلك لن يضرهم .

فإن المؤمنين لا يعتزُّون بهم ولا يتقوون بأمثالهم ، لأن الله أمرهم أن لا يتوكلوا إلا عليه ، وفيه إيذان بأنهم يخالفون أمر الله وذلك يغيظ الكافرين .

والإتيان باسم الجلالة في قوله : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ إظهار في مقام الإضمار لتكون الجملة مستقلة فتسير مَسرى المثَل ، ولذلك كان إظهار لفظ ﴿ المؤمنون ﴾ ولم يقل : وعلى الله فليتوكلوا ، ولما في ﴿ المؤمنون ﴾ من العموم الشامل للمخاطبين وغيرهم ليكون معنى التمثيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(171/766)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والستون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/767)

الجزء السابع والستون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 14 ﴾ من (سورة التغابن)

وحتى الآية ﴿ 18 ﴾ آخر السورة

(4/767)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت أوامر الدين تارة تكون باعتبار الأمر الديني من سائر الطاعات المحضة ، وتارة باعتبار الأمر التكويني وهو ما كان بواسطة مال أو أهل أو ولد ، أتم سبحانه القسم الأول في الآيتين الماضيتين ، شرع في الأمر الثاني لأنه قد ينشأ عنه فتنة في الدين وقد ينشأ عنه فتة في الدنيا ، ولما كانت الفتنة بالإقبال عليه والإعراض عنه أعظم الفتن ، لأنها تفرق بين المرء وزوجه وبين المرء وابنه وتذهل الخليل عن خليله - كما شوهد ذلك في بدء الإسلام ، وكان أعظم ذلك في الردة ، وكان قد تقدم النهي عن إلهاء الأموال والأولاد ، وكان النهي عن ذلك في الأولاد نهياً عنه في الأزواج بطريق الأولى ، فلذلك اقتصر عليهم دون الأزواج ، وكان المأمور بالتوكل ربما رأى أن تسليم قياده لكل أحد لا يقدح في التوكل ، أشار إلى أن بناء هذه الدار على الأسباب مانع من ذلك فأمر بنحو " اعقلها وتوكل " " واحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز " الحديث ، فقال جواباً عن ذلك لمن يحتاج إلى السؤال عن مثله مبيناً للأوامر بالاعتبار للامتحان التكويني وإن كان أولى الناس ببذل الجهد في تأديبه وتقويمه وتهذيبه أقرب الأقارب وألصق الناس بالإنسان وهو كالعلة لآخر " المنافقون " : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ولما كان الأزواج أقرب عداوة من الأولاد قدمهن ، فقال مؤكداً لمن يستبعد ذلك : ﴿ إن من أزواجكم ﴾ وإن أظهرن غاية المودة ﴿ وأولادكم ﴾ وإن أظهروا

أيضاً غاية الشفقة والحنان ﴿ عدواً لكم ﴾ أي لشغلهم لكم عن الدين أو لغير ذلك من جمع المال وتحصيل الجاه لأجلهم والتهاون بالنهي عن المنكر فإن الولد مجبنة وغير ذلك ، قال أبو حيان رحمه الله تعالى : ولا أعدى على الرجل من زوجه وولده إذا كانا عدوين وذلك في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فبإذهاب ماله - كما هو معروف - وعرضه ، وأما في الآخرة فيما يسعى في اكتسابه من الحرام لأجلهم وبما يكسبانه منه بسبب جاهه .

(5/767)

فالرجل من رأى ذلك نعمة من الله فجعله معيناً له على طاعته لا قاطعاً ومعوقاً عما يرضيه بأن يلتهي بمحبته وعداوته وبغضته .

ولما أخبر عن العداوة ، عبر بما قد يفهم الواحد فقط تخفيفاً ، ولما أمر بالحذر جمع إشارة إلى زيادة التحذير والخوف في كل أحد ولو كان أقرب الأقرباء لأن الحزم سوء الظن كما رواه الطبراني في الأوسط ، فسبب عن الإخبار بالعداوة الأمر بالحذر في قوله :

﴿ فاحذروهم ﴾ أي بأن تتقوا الله في كل أمرهم فتطلبوا في السعي عليهم الكفاف من حله وتقتصروا عليه ، ولا يحملنكم حبهم على غير ذلك ، وليشتد حذركم منهم بالعمل بما أمر الله حتى في العدل بينهم لئلا يتمكنوا من أذاكم فيعظم بهم الخطب ويكون فاتناً لكم في الدين

إما بالردة – والعياذ بالله تعالى – أو بالشغل عن الطاعة أو بالإقحام في المعصية ومخالفة السنة والجماعة .

ولما كان قد يقع ما يؤذي مع الحذر لأنه لا يغني من قدر أو مع الاستسلام ، وكان وكل المؤذي إلى الله أولى وأعظم في الاستنصار ، قال مرشداً إلى ذلك : ﴿ وإن تعفوا ﴾ أي توقعوا المجاوزة عن ذنوبهم بعدم العقاب عليها فإنه لا فائدة في ذلك لأن من طبع على شيء لا يرجع ، وإنما النافع الحذر الذي أرشد إليه سبحانه لئلا يكون سبباً للوا المنهي عنه .

(6/767)

ولما كان الرجوع عن الحظوظ صعباً جداً ، أكد سبحانه فقال : ﴿ وتصفحوا ﴾ أي بالإعراض عن المقابلة بالتثريب باللسان ﴿ وتغفروا ﴾ أي بأن تستروا ذنوبهم ستراً تاماً شاملاً للعين والأثر بالتجاوز بعد ترك العقاب عن العتاب ، فلا يكون منكم اشتغال بعداوتهم ولا ما قد يجرها عما ينفع من الطاعة ، ولما كان التقدير : يغفر الله لكم ، سبب عنه قوله : ﴿ فإن الله ﴾ أي الجامع لصفات الكمال ﴿ غفور ﴾ أي بالغ المحو الأعيان الذنوب وآثرها جزاء لكم على غفرانكم لهم وهو جدير بأن يصلحهم لكم بسبب غفرانكم لهم فإنه ﴿ رحيم ﴾ يزيدكم بعد ذلك الستر الإكرام بالإنعام إن أكرمتموهم ، فتخلقوا

بأخلاقه سبحانه يزدكم من فضله .

ولما حكم على البعض ، كان كأنه قيل : فما حكم سائره ؟ فكأن الحكم بذلك يلزم منه الحذر من الكل لكن للتصريح سر كبير في ركون النفس إليه ، فقال حاصراً الجميع ضاماً إليهم المال الذي به قيام ذلك كله وقدمه لأنه أعظم فتنة : ﴿ إنما ﴾ وأسقط الجار لأن شيئاً من ذلك لا يخلو عن شغل القلب فقال : ﴿ أموالكم ﴾ أي عامة ﴿ وأولادكم ﴾ كذلك ﴿ فتنة ﴾ أي اختبار مميل عن الله لكم وهو أعلم بما في نفوسكم منكم لكن ليظهر في عالم الشهادة من يميله ذلك فيكون عليه نقمة ممن لا يميله فيكون له نعمة ، فربما رام الإنسان صلاح ماله وولده فبالغ فأفسد نفسه ثم لا يصلح ذلك ماله ولا ولده ، وذلك أنه من شأنه أن يحمل على كسب الحرام ومنع الحق والإيقاع في الإثم ، روي عن أبي نعيم في الحلية في ترجمة سفيان الثوري عنه أنه قال : " يؤتى برجل يوم القيامة فيقال له : أكل عياله حسناته " " ويكفي فتنة المال قصة ثعلبة بن حاطب أحد من نزل فيه قوله فتنة تعالى : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ﴾ [التوبة : 75] " وكأنه سبحانه ترك ذكر الأزواج في الفتنة لأن منهم من يكون صلاحاً وعوناً على الآخرة .

ولما كان التقدير : ففي الاحتراز من فتنهم تعب كبير ، لا يفوت به منهم إلى حظ يسير ، وكانت النفس عند ترك مشتبهاتها ومحبوباتها قد تنفر ، عطف عليه مهوناً له بالإشارة إلى كونه فانياً وقد وعد عليه بما لا نسبة له منه مع بقائه قوله : ﴿ والله ﴾ أي ذو الجلال ﴿ عنده ﴾ وناهيك بما يكون منه بسبيل جلاله وعظمه ﴿ أجر ﴾ ولم يكتف سبحانه بدلالة السياق على أن التنوين للتعظيم حتى وصفه بقوله : ﴿ عظيم ﴾ أي لمن ائتمر بأوامره التي إنما نفعها لصاحبها ، فلم يقدم على رضاه مالاً ولا ولداً ، وذلك الأجر أعظم من منفعتكم بأموالكم وأولادكم على وجه ينقص من الطاعة .

ولما كان التقدير : وعنده عذاب أليم لمن خالف ، سبب عنه قوله فذلكة أخرى لما تقدم من السورة كلها : ﴿ فاتقوا الله ﴾ مظهراً غير مضمر تعظيماً للمقام واحترازاً من أن يتوهم نوع تقيد فأفهم الإظهار أن المعنى : اجعلوا بينكم وبين سخط الملك الأعلى وقاية من غير نظر إلى حيثية ولا خصوصية بشيء ما ، باجتناب نواهيه بعد امتثال أوامره ، فإن التقوى إذا انفردت كان المراد بها فعل الأوامر وترك المناهي ، وإذا جمعت مع غيرها أريد بها اجتناب النواهي فقط .

ولما كان الأمر إذا نسب إليه سبحانه أعظم من مقالة قائل ، فلا يستطيع أحد أن يقدره سبحانه حق قدره ، خفف ويسر بقوله : ﴿ ما استطعتم ﴾ أي ما دمتم في الجملة قادرين مستطيعين ، ويتوجه عليكم التكليف في العلميات والعمليات ، وابذلوا جهدكم في ذلك في

الإيمانيات لما علمتم من ذاته ومرتبته وصفاته تعالى وأفعاله ، وغير ذلك من جميع أعمالكم الظاهرة والباطنة ، وأعظمه الهجرة والجهاد ، فلا يمنعكم الإخلاد إليها ذلك والتقوى فيما وقع من المكروهات بالندم والإقلاع مع العزم على ترك العود ، وفيما لم يقع بالاحتراس عن أسبابه ، وبذل الإنسان جميع جهده هو الاتقاء حق التقاة فلا نسخ - والله أعلم .

(8/767)

ولما كان إظهار الإسلام فيه مشقة كالأعمال قال : ﴿ واسمعوا ﴾ أي سماع إذعان وتسليم لما توعظون به ولجميع أوامره ﴿ وأطيعوا ﴾ أي وصدقوا ذلك الإذعان بمباشرة الأفعال الظاهرة في الإسلاميات من القيام بأمر الله والشفقة على خلق الله في كل أمر ونهي على حسب الطاقة ، وحذف المتعلق ليصدق الأمر بكل طاعة من الكل والبعض وكذا في الإنفاق .

ولما كان الإنفاق شديداً أكد أمره بتخصيصه بالذكر فقال : ﴿ وأنفقوا ﴾ أي أوقعوا الإنفاق كما حد لكم فيما أوجبه أو ندب إليه وإن كان في حق من اطلعتم منها على عداوة ، والإنفاق لا يخص نوعاً بل يكون ما رزق الله من الذاتي والخارجي .

ولما كان الحامل على الشح ما يخطر في البال من الضرورات التي أعزها ضرورة النفس ،

رغب فيه بما ينصرف إليه بادئ بدء ويعم جميع ما تقدم فقال : ﴿ خيراً ﴾ أي يكن ذلك أعظم خير واقع ﴿ لأنفسكم ﴾ فإن الله يعطي خيراً منه في الدنيا ما يزكي به النفس، ويدخر عليه من الجزاء في الآخرة ما لا يدري كنهه، فلا يغرنكم عاجل شيء من ذلك فإنما هو زخرف وغرور لا طائل تحته.

ولما ذكر ما في الإنفاق من الخير عم في جميع الأوامر فقال : ﴿ ومن يوق ﴾ بناه للمفعول تعظيماً للترغيب فيه نفسه مع قطع الناصر عن الفاعل أي يقيه واق أيّ واق كان - وأضافه إلى ما الشؤم كله منه فقال : ﴿ شح نفسه ﴾ فيفعل في ماله وجميع ما أمر به ما يطيقه مما أمر به موقناً به مطمئناً إليه حتى يرتفع عن قلبه الأخطار، ويتحرز عن رق المكونات، والشح : خلق باطن هو الداء العضال رأس الحية وكل فتنة ضلالة، والبخل فعل ظاهر ينشأ عن الشح، والنفس تارة تشح بترك الشهوة من المعاصي فتفعلها، وتارة بإعطاء الأعضاء في الطاعات فتتركها، وتارة بإنفاق المال، ومن فعل ما فرض عليه خرج عن الشح.

(9/767)

ولما كان الواقي إنما هو الله تعالى سبب عن وقايته قوله : ﴿ فأولئك ﴾ أي العالو الرتبة ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ المفلحون ﴾ أي الذين حازوا جميع المرادات بما اتقوا الله فيه من

الكونيات من المال والولد والأهل والمشوشات من جميع القواطع .

ولما أمر ورهب من ضده على وجه أعم ، رغب فيه تأكيداً لأمره لما فيه نم الصعوبة لا سيما في زمان النبي -صلى الله عليه وسلم- فإن المال فيه كان في غاية العزة ولا سيما إن كان في لوازم النساء اللاتي افتتح الأمر بأن منهن أعداء ولا سيما إن كان في حال ظهور العداوة ، فقال بياناً للإفلاح متلطفاً في الاستدعاء بالتعبير بالقرض مشيراً إلى أنه على خلاف الطبع بأدة الشك : ﴿ إن تقرضوا الله ﴾ أي الملك الأعلى ذا الغنى المطلق المستجمع لجميع صفات الكمال بصرف المال وجميع قواكم التي جعلها فتنة لكم في طاعاته ، ورغب في الإحسان فيه بالإخلاص وغيره فقال : ﴿ قرضاً حسناً ﴾ أي على صفة الإخلاص والمبادرة ووضعه في أحسن مواضعه على أيسر الوجوه وأجملها وأهنأها وأعدلها ، وأعظم الترغيب فيه بأن رتب عليه الربح في الدنيا والغفران في الآخرة فقال : ﴿ يضاعفه لكم ﴾ أي لأجلكم خاصة أقل ما يكون للواحد عشراً إلى ما لا يتناهى على حسب النيات ، قال القشيري : يتوجه الخطاب بهذا على الأغنياء في بذل أموالهم وعلى الفقراء في إخلاء أيامهم وأوقاتهم عن مراداتهم وإيثار مراد الحق على مراد أنفسهم ، فالغني يقال له : آثر على مرادك في مالك وغيره ، والفقير يقال له : آثر حكمي في نفسك وقلبك ووقتك .

ولما كان الإنسان لما له النقصان وإن اجتهد لا يبلغ جميع ما أمر به لأن الدين وإن كان يسيراً فهو متين " لن يشاده أحد إلا غلبه " قال : ﴿ ويغفر لكم ﴾ أي يوقع الغفران وهو محو ما

فرط عينه وأثره لأجلكم ببركة الإنفاق ، وقد تضمنت ها تان الجملتان جلب السرور ودفع الشرور ، وذلك هو السعادة كلها .

(10/767)

ولما كان التقدير : فالله غفور رحيم ، عطف عليه قوله : ﴿ والله ﴾ أي الذي لا يقاس عظمته بشيء ﴿ شكور ﴾ أي بليغ الشكر لمن يعطي لأجله ولو كان قليلاً فيثيبه ثواباً جزيلاً خارجاً عن الحصر وهو ناظر إلى المضاعفة ﴿ حليم ﴾ لا يعاجل بالعقوبة على ذنب من الذنوب وإن عظم بل يمهل كثيراً طويلاً ليتذكر العبد الإحسان مع العصيان فيتوب ، ولا يهمل ولا يغتر بحلمه ، فإن غضب الحليم لا يطاق ، وهو راجع إلى الغفران .

ولما كان الحليم قد يتهم في حلمه بأن ينسب إلى الجهل بالذنب أو بمقداره قال : ﴿ عالم الغيب ﴾ وهو ما غاب عن الخلق كلهم فيشمل ما هو داخل القلب مما تؤثره الجبلة ولا علم لصاحب القلب به فضلاً عن غيره .

ولما كان قد يظن أنه لا يلزم من علم ما غاب علم ما شهد ، أو يظن أن العلم إنما يتعلق بالكليات ، قال موضحاً أن علمه بالعالمين بكل من الكليات والجزئيات قبل الكون وبعده على حد سواء : ﴿ والشهادة ﴾ وهو كل ما ظهر فكان بحيث يعلمه الخلق ، وهذا

الوصف داع إلى الإحسان من حيث إنه يوجب للمؤمن ترك ظاهر الاسم وباطنه وكل قصور وفتور وغفلة وتهاون فيعبد الله كأنه يراه .

ولما شمل ذلك كل ما غاب عن الخلق وما لم يغب عنهم فلم يبق إلا أن يتوهم أن تأخير العقوبة للعجز قال : ﴿ العزيز ﴾ أي الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء .

ولما كان ذلك قد يكون لأمر آخر لا يمدح عليه قال : ﴿ الحكيم ﴾ أي أنه ما أخره إلا لحكمة بالغة يعجز عن إدراكها الخلائق ، وقد أقام الخلائق في طاعته بالجري تحت إرادته ، وتارة يوافق ذلك أمره فيسمى طاعة .

(11/767)

وتارة يخالف فيسمى معصية ، فمن أراد أتم نعمته عليه بالتوفيق للطاعة بموافقته أمره بإحاطة علمه والإتقان في التدبير ببالغ حكمته وإدامة ذلك وحفظه عن كل آفة بباهر عزته ، ومن أراد منعه ذلك بذلك أيضاً والكل تسبيح له سبحانه بإفادة أنه الواحد القهار ، وقد أحاط أول الجمعة بهذه السورة أولها وآخرها ، فجاءت هذه شارحة له وكاشفة عنه على وجه أفخم لأن مقصود هذه نتيجة مقصد تلك ، وقد رجع - بالتنزه عن شوائب النقص والاختصاص بجميع صفات الكمال وشمول القدرة للخق وإحاطة العلم بأحوال

الكافر والمؤمن - على افتتاحها حسن ختامها ، وعلم علماً ظاهراً جلالة انتظامها ، وبداعة اتساق جميع آيها وبراعة التئامها - والله الموفق للصواب . انتهى . ا هـ

﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 22.17﴾

(12/767)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾

(13/767)

قال الكلبي : كان الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به بنوه وزوجته فقالوا : أنت تذهب وتذرنا ضائعين فمنهم من يطيع أهله ويقيم فحذرهم الله طاعة نسائهم وأولادهم ، ومنهم من لا يطيع ويقول : أما والله لو لم نهاجر ويجمع الله بيننا وبينكم في دار الهجرة لا ننفعكم شيئاً أبداً ، فلما جمع الله بينهم أمرهم أن ينفقوا ويحسنوا ويتفضلوا ، وقال مسلم الخراساني : نزلت

في عوف بن مالك الأشجعي كان أهله وولده يثبطونه عن الهجرة والجهاد ، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية ، فقال : هؤلاء رجال من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا المدينة فلم يدعهم أزواجهم وأولادهم فهو قوله : عدواً لكم فاحذروهم أن تطيعوا وتدعوا الهجرة ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ ﴾ قال هو أن الرجل من هؤلاء إذا هاجر ورأى الناس قد سبقوا بالهجرة وفقهوا في الدين هم أن يعاقب زوجته وولده الذين منعوه الهجرة وإن لحقوا به في دار الهجرة لم ينفق عليهم ، ولم يصبهم بخير فنزل : ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ ﴾ الآية ، يعني أن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم ، ينهون عن الإسلام ويثبطون عنه وهم من الكفار فاحذروهم ، فظهر أن هذه العداوة إنما هي للكفر والنهي عن الإيمان ، ولا تكون بين المؤمنين فأزواجهم وأولادهم المؤمنون لا يكونون عدواً لهم ، وفي هؤلاء الأزواج والأولاد الذين منعوا عن الهجرة نزل : ﴿ إِنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا تطيعوهم في معصية الله تعالى وفتنة أي بلاء وشغل عن الآخرة ، وقيل : أعلم الله تعالى أن الأموال والأولاد من جميع ما يقع بهم في الفتنة وهذا عام يعم جميع الأولاد ، فإن الإنسان مفتون بولده لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه وباشر الفعل الحرام لأجله ، كغصب مال الغير وغيره : ﴿ والله عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي جزيل ، وهو الجنة أخبر أن عنده أجراً عظيماً ليتحملوا المؤونة العظيمة ،

والمعنى لا تباشروا المعاصي بسبب الأولاد ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم .

وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ قال مقاتل : أي ما أطقتم يجتهد المؤمن في تقوى الله ما استطاع ، قال قتادة : نسخت هذه الآية قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : 102] ومنهم من طعن فيه وقال : لا يصح لأن قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ لا يراد به الاتقاء فيما لا يستطيعون لأنه فوق الطاقة والاستطاعة ، وقوله :

﴿ اسمعوا ﴾ أي لله ولرسوله ولكتابه وقيل : لما أمركم الله ورسوله به ﴿ وَأَطِيعُواْ ﴾ الله فيما يأمركم ﴿ وَأَنْفِقُواْ ﴾ من أموالكم في حق الله خيراً لأنفسكم ، والنصب بقوله :

﴿ وَأَنْفِقُواْ ﴾ كأنه قيل : وقدموا خيراً لأنفسكم ، وهو كقوله :

﴿ فآمنوا خيراً لكم ﴾ [النساء : 170] وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ الشح هو البخل ، وإنه يعم المال وغيره ، يقال : فلان شحيح بالمال وشحيح بالجاه وشحيح بالمعروف ، وقيل : يوق ظلم نفسه فالشح هو الظلم ، ومن كان بمعزل عن الشح فذلك من أهل الفلاح فإن قيل : ﴿ إِنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ ﴾ ، يدل على أن الأموال والأولاد كلها من الأعداء و ﴿ إِنَّ مِنْ أزواجكم وأولادكم عَدُوّاً لَّكُمْ ﴾ يدل على أن بعضهم من الأعداء دون البعض ، فنقول : هذا في حيز المنع فإنه لا يلزم أن يكون البعض من المجموع

الذي مر ذكره من الأولاد يعني من الأولاد من يمنع ومنهم من لا يمنع ، فيكون البعض منهم عدواً دون البعض .

إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17)

(15/767)

اعلم أن قوله : ﴿ إِن تُقْرِضُواْ الله قَرْضاً حَسَناً ﴾ أي إن تنفقوا في طاعة الله متقاربين إليه يجزكم بالضعف لما أنه شكور يحب المتقربين إلى حضرته حليم لا يعجل بالعقوبة غفور يغفر لكم ، والقرض الحسن عند بعضهم هو التصدق من الحلال ، وقيل : هو التصدق بطيبة نفسه ، والقرض هو الذي يرجى مثله وهو الثواب مثل الإنفاق في سبيل الله ، وقال في "الكشاف" : ذكر القرض تلطف في الاستدعاء وقوله : ﴿ يضاعفه لَكُمْ ﴾ أي يكتب لكم بالواحدة عشرة وسبعمائة إلى ما شاء من الزيادة وقرىء (يضعفه) ﴿ شَكُورٌ ﴾ مجاز أي يفعل بكم ما يفعل المبالغ في الشكر من عظيم الثواب وكذلك حليم يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسيء فلا يعاجلكم بالعذاب مع كثرة ذنوبكم ، ثم لقائل أن يقول : هذه الأفعال مفتقرة إلى العلم والقدرة ، والله تعالى ذكر العلم دون القدرة فقال : ﴿ عالم الغيب ﴾ ، فنقول قوله : ﴿ العزيز ﴾ يدل على القدرة من عز إذا غلب و ﴿ الحكيم ﴾

على الحكمة ، وقيل : العزيز الذي لا يعجزه شيء ، والحكيم الذي لا يلحقه الخطأ في التدبير ، والله تعالى كذلك فيكون عالماً قادراً حكيماً جل ثناؤه وعظم كبرياؤه ، والله أعلم بالصواب .

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 25 ـ 26 ﴾

(16/767)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم . . . ﴾ إلى آخر السورة قرآن مدني ، اختلف الناس في سببه ، فقال عطاء بن أبي رباح : إنه نزل في عوف بن مالك الأشجعي ، وذلك أنه أراد غزواً مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فاجتمع أهله وأولاده فثبطوه وتشكوا إليه فراقه ، فرق ولم يغز ، ثم إنه ندم وهم بمعاقبتهم ، فنزلت الآية بسببه محذرة من الأزواج والأولاد وفتنتهم ، ثم صرفه تعالى عن معاقبتهم بقوله : ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا ﴾ وقال بعض المفسرين سبب الآية : إن قوماً آمنوا بالله وثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة فلم يهاجروا إلا بعد مدة ، فوجدوا غيرهم قد تفقه في الدين ، فندموا

وأسفوا وهموا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم ، ثم أخبر تعالى أن الأموال والأولاد ﴿ فتنة ﴾ تشغل المرء عن مراشده وتحمله من الرغبة في الدنيا على ما لا يحمده في آخرته ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " الولد مجبنة " (مبخلة) ، وخرج أبو داود حديثاً في مصنفه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يخطب يوم الجمعة على المنبر حتى جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يجرانهما يعثران ويقومان ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنبر حتى أخذهما وصعد بهما ، ثم قرأ : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ الآية ، وقال إني رأيت هذين فلم أصبر ، ثم أخذ في خطبته .

قال القاضي أبو محمد : وهذه ونحوها هي فتنة الفضلاء ، فأما فتنة الجهال والفسقة ، فمؤدية إلى كل فعل مهلك ، وقال ابن مسعود : لا يقول أحدكم اللهم اعصمني عن الفتنة فإنه ليس يرجع أحد إلى أهل ومال إلا وهو مشتمل على فتنة ، ولكن ليقل : اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن . وقال عمر لحذيفة : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت أحب الفتنة وأكره الحق ، فقال عمر : ما هذا ؟ فقال : أحب ولدي وأكره الموت . وقوله تعالى : ﴿ والله عنده أجر عظيم ﴾ تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة .

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ

قال قتادة وفريق من الناس : إن قوله : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ ناسخ لقوله : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ [آل عمران : 102] ، وروي أن الأمر بحق التقاة نزل ، فشق ذلك على الناس حتى نزل : ﴿ ما استطعتم ﴾ ، وذهبت فرقة منهم أبو جعفر النحاس إلى أنه لا نسخ في الآيتين ، وأن قوله : ﴿ حق تقاته ﴾ [آل عمران : 102] مقصده " فيما استطعتم " ، ولا يعقل أن يطيع أحد فوق طاقته واستطاعته ، فهذه على هذا التأويل مبينة لتلك ، وتحتمل هذه الآية أن يكون : ﴿ فاتقوا الله ﴾ مدة استطاعتكم التقوى ، وتكون : ﴿ ما ﴾ ظرفاً للزمان كله كأنه يقول : حياتكم وما دام العمل ممكناً ، وقوله : ﴿ خيراً ﴾ ذهب بعض النحاة إلى أنه نصب على الحال وفي ذلك ضعف ، وذهب آخرون منهم إلى أنه نصب بقوله : ﴿ وأنفقوا ﴾ قالوا والخبر هنا : المال ، وذهب فريق منهم إلى أنه نعت لمصدر محذوف ، تقديره : إنفاقاً ﴿ خيراً ﴾ ، ومذهب سيبويه : أنه نصب بإضمار فعل يدل عليه ﴿ أنفقوا ﴾ .

وقرأ أبو حيوة : " يوَقّ " بفتح الواو وشد القاف ، وقرأ أبو عمرو " شِح " بكسر الشين ، وقد تقدم القول في ﴿ شح ﴾ النفس ما هو في سورة الحشر . وقال الحسن : نظرك لامرأة لا تملكها شح ، وقيل : يا رسول الله : ما يدخل العبد النار ؟ قال : " شح مطاع ، وهوى متبع ، وجبن هالع ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخويصة نفسك " .

وقرأ جمهور السبعة: "تضاعفه" وقرأ ابن كثير وابن عامر: "يضاعفه"، وذهب بعض العلماء إلى أن هذا الحض هو على أداء الزكاة المفروضة، وذهب آخرون منهم إلى أن الآية، في المندوب إليه وهو الأصح إن شاء الله.

وقوله تعالى: ﴿ والله شكور ﴾ إخبار بمجرد شكره تعالى على الشيء اليسير، وأنه قد يحط به عن من يشاء الحوب العظيم لا رب غيره. انتهى انتهى. ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(18/767)

وقال القرطبى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فاحذروهم ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بالمدينة في عَوْف بن مالك الأشْجَعِيّ؛ شكا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم جَفاء أهلِه وولدِه؛ فنزلت.

ذكره النحاس.

وحكاه الطَّبَري عن عطاء بن يَسار قال: نزلت سورة "التغابن" كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ نزلت في عَوْف بن مالك الأَشْجَعِيّ كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغَزْو بَكَوْا إليه ورقّقوه فقالوا: إلى مَن تدعنا؟ فَيَرِقّ فيُقيم؛ فنزلت: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ الآية كلها بالمدينة في عَوْف بن مالك الأشجعي.

وبقية الآيات إلى آخر السورة بالمدينة.

وروى الترمذي: عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فاحذروهم ﴾ قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدعوهم أن يأتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم، فلما أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم رأَوُا الناس قد فَقُهُوا في الدّين هَمُّوا أن يعاقبوهم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فاحذروهم ﴾ الآية.

هذا حديث حسن صحيح.

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا يبيّن وجه العداوة، فإن العدوّ لم يكن عدوًّا لذاته وإنما كان عدوًّا بفعله.

فإذا فعل الزوج والولد فِعْل العدوّ كان عدُوا ، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة .

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الشيطان قَعَد لابن آدم في طريق الإيمان فقال له أتؤمن وتَذَر دينَك ودين آبائك فخالفه فآمن ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له أتهاجر وتترك مالك وأهلك فخالفه فهاجر ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له أتجاهد فتقتل نفسك فتُنكح نساؤك ويقسم مالك فخالفه فجاهد فقتِل فحق على الله أن يدخله الجنة " وقعود الشيطان يكون بوجهين : أحدهما يكون بالوسوسة .

والثاني بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [فصلت : 25] .

وفي حكمة عيسى عليه السلام : من اتخذ أهلاً ومالاً وولداً كان للدنيا عبداً .

وفي صحيح الحديث بيان أدنى من ذلك في حال العبد : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " تَعِس عبد الدينار تَعِس عبد الدِّرْهم تَعِس عبد الخَميصَة تَعِس عبد القَطيفة تَعِس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش "

ولا دناءة أعظم من عبادة الدينار والدرهم ، ولا همّة أخسّ من همّة ترتفع بثوب جديد .

الثالثة : كما أن الرجل يكون له ولده وزوْجُه عدُوًّا كذلك المرأة يكون لها زوجها وولدها عدوًّا بهذا المعنى بعينه .

وعموم قوله : ﴿ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ يدخل فيه الذكر والأنثى لدخولهما في كل آية .

والله أعلم .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فاحذروهم ﴾ معناه على أنفسكم .

والحذر على النفس يكون بوجهين : إما لضرر في البدن ، وإما لضرر في الدين .

وضرر البدن يتعلق بالدنيا ، وضرر الدين يتعلق بالآخرة .

فحذَّر الله سبحانه العبد من ذلك وأنذره به .

(20/767)

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ روى الطَّبَري عن عِكْرمة في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فاحذروهم ﴾ قال : كان الرجل يريد أن يأتي النبيّ صلى الله عليه وسلم فيقول له أهله : أين تذهب وتدعنا ؟ قال : فإذا أسلم وَفَقُه قال : لأرجعن إلى الذين كانوا ينهون عن هذا الأمر ، فلأفعلن ولأفعلن ؛ قال : فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ

فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فاحذروهم ﴾ قال : ما عادوهم في الدنيا ولكن حملتهم مودّتهم على أن أخذوا لهم الحرام فأعطوه إياهم .

والآية عامة في كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد .

وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾

أي بلاء واختبار يحملكم على كسب المحرّم ومنع حق الله تعالى ؛ فلا تطيعوهم في معصية الله .

وفي الحديث : "يُؤْتَى برجل يوم القيامة فيقال أَكَلَ عِيالُه حسناتِه " وعن بعض السلف : العيال سُوس الطاعات .

وقال القُتَيبي : "فِتْنَةٌ" أي إغرام ؛ يقال : فُتِن الرجل بالمرأة أي شُغف بها .

وقيل "فِتْنَةٌ" مِحنة .

ومنه قول الشاعر :

لقد فتن الناس في دينهم . . .

وخَلّى ابن عَفّان شرا طويلا

وقال ابن مسعود : لا يقولن أحدكم اللَّهم اعْصِمْني من الفتنة ؛ فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتمل على فتنة ؛ ولكن ليقل : اللَّهُمّ إني أعوذ بك من مُضِلاّت الفتن .

وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ : أدخل "من" للتبعيض ؛ لأن كلهم ليسوا بأعداء .

(21/767)

ولم يذكر "مِن" في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ لأنهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما .

روى الترمذي وغيره "عن عبد الله بن بُرَيْدة عن أبيه قال : رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم يخطب ؛ فجاء الحسن والحسين عليهما السلام وعليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويعثران ؛ فنزل صلى الله عليه وسلم فحملهما ووضعهما بين يديه ، ثم قال : "صدق الله عز وجل إنما أموالكم وأولادكم فتنة .

نظرت إلى هذين الصبيّين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما "ثم أخذ في خطبته " ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني الجنة ، فهي الغاية ، ولا أجر أعظم

منها في قول المفسرين .

وفي الصحيحين واللفظ للبخاريّ عن أبي سعيد الخُدْري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لَبَّيْك رَبَّنَا وسعْديْك فيقول هل رضيتم فيقولون وما لَنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك فيقول ألاَ أعطيكم أفضل من ذلك قالوا يا ربّ وأيّ شيء أفضلُ من ذلك فيقول أُحِلّ عليكم رِضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً " وقد تقدم .

ولا شك في أن الرِّضا غاية الآمال .

وأنشد الصوفية في تحقيق ذلك :

امتحن الله به خلقهُ . . .

فالنار والجنة في قبضتهْ

فهجره أعظم من نارِه . . .

ووَصْلُه أطْيَبُ من جنَّتَهْ

قوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم واسمعوا وَأَطِيعُواْ وَأَنْفِقُواْ خَيْراً لأَنفُسِكُمْ ﴾ .

فيه خمس مسائل :

الأولى : ذهب جماعة من أهل التأويل إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : 102] منهم قتادة والربيع بن أنس والسُّدّي وابن زيد .

ذكر الطَّبَري : وحدّثني يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ قال : جاء أمر شديد ، قالوا : ومن يَعرف قدر هذا أو يبلغه؟ فلما عرف الله أنه قد اشتد ذلك عليهم نسخها عنهم وجاء بهذه الآية الأخرى فقال : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ .

وقيل : هي محكمة لا نسخ فيها .

وقال ابن عباس : قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ إنها لم تنسخ ، ولكن حق تقاته أن يجاهد لله حق جهاده ، ولا يأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم .

وقد تقدم .

الثانية : فإن قيل : فإذا كانت هذه الآية محكمة غير منسوخة فما وجه قوله في سورة "التغابن" : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ وكيف يجوز اجتماع الأمر باتقاء الله حقّ تُقاته ، والأمر باتقائه ما استطعنا .

والأمر باتقائه حقّ تقاته إيجاب القرآن بغير خصوص ولا وصل بشرط ، والأمر باتقائه ما

استطعنا امرؤ باتقائه موصولاً بشرط.

قيل له: قوله: ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ بمعزل مما دل عليه قوله تعالى: ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ وإنما عنى بقوله: ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ فاتقوا الله أيها الناس وراقبوه فيما جُعل فتنة لكم من أموالكم وأولادكم أن تغلبكم فتنتهم، وتصدّكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام؛ فتتركوا الهجرة ما استطعتم؛ بمعنى وأنتم للهجرة مستطيعين.

وذلك أن الله جل ثناؤه قد كان عَذَرَ من لم يقدر على الهجرة بتركها بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكة ظالمي أَنْفُسِهِمْ إلى قوله فأولئك عَسَى الله أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ [النساء: 97-99].

(23/767)

فأخبر أنه قد عفا عمن لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً بالإقامة في دار الشرك؛ فكذلك معنى قوله: ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ في الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام أن تتركوها بفتنة أموالكم وأولادكم.

ومما يدل على صحة هذا أن قوله: ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ عقيب قوله: ﴿ يا أيها

الذين آمنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فاحذروهم ﴾ .

ولا خلاف يبن السلف من أهل العلم بتأويل القرآن أن هذه الآيات نزلت بسبب قوم كفار تأخّروا عن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام بتثبيط أولادهم إياهم عن ذلك ؛ حسب ما تقدم .

وهذا كله اختيار الطَّبَري .

وقيل : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ فيما تطّوع به من نافلة أو صدقة ؛ فإنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ اشتدّ على القوم فقاموا حتى وَرِمت عراقيبهم وتقرّحت جباههم ، فأنزل الله تعالى تخفيفاً عنهم : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ فنسخت الأولى ؛ قاله ابن جُبَير .

قال الماوردي : ويحتمل إن لم يثبت هذا النقل أن المكره على المعصية غير مؤاخذ بها ؛ لأنه لا يستطيع اتقاءها .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ واسمعوا وَأَطِيعُواْ ﴾ أي اسمعوا ما توعظون به وأطيعوا فيما تؤمرون به وتُنْهَوْن عنه .

وقال مقاتل : "اسْمَعُوا" أي اصغوا إلى ما ينزل عليكم من كتاب الله ؛ وهو الأصل في السماع .

"وأَطِيعُوا" لرسوله فيما أمركم أو نهاكم .

وقال قتادة : عليهما بويع النبيّ صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة .

وقيل : "وَاسْمَعُوا" أي اقبلوا ما تسمعون ؛ وعبّر عنه بالسماع لأنه فائدته .

قلت : وقد تغلغل في هذه الآية الحجاج حين تلاها وقَصَرها على عبد الملك بن مروان فقال : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم واسمعوا وَأَطِيعُواْ ﴾ هي لعبد الملك بن مروان أمين الله وخليفته ، ليس فيها مَثْنَوِيّة ، والله لو أمرت رجلاً أن يخرج من باب المسجد فخرج من غيره لحلّ لي دمه .

(24/767)

وكذب في تأويلها ! بلى هي للنبيّ صلى الله عليه وسلم أوّلاً ثم لأولي الأمر من بعده .

دليلهُ ﴿ وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول وَأُوْلِي الأمر مِنْكُمْ ﴾ [النساء : 59] .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُواْ ﴾ قيل : هو الزكاة ؛ قاله ابن عباس .

وقيل : هو النفقة في النفْل .

وقال الضحاك : هو النفقة في الجهاد .

وقال الحسن : هو نفقة الرجل لنفسه .

قال ابن العربي : وإنما أوقع قائلَ هذا قوله : "لأَنفُسِكُم" وخفِيَ عليه أن نفقة النفل والفرض

في الصدقة هي نفقة الرجل على نفسه ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : 7] .

وكل ما يفعله الرجل من خير فإنما هو لنفسه .

والصحيح أنها عامة .

" وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل : عندي دينار ؟ قال : "أنفقه على نفسك" قال : عندي آخر ؟ قال : "أنفقه على عيالك" قال : عندي آخر ؟ قال : "أنفقه على ولدك" قال : عندي آخر ؟ قال : "تصدّق به" " فبدأ بالنفس والأهل والولد وجعل الصدقة بعد ذلك .

وهو الأصل في الشرع .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ "خَيْراً" نصب بفعل مضمر عند سيبويه ؛ دلّ عليه ﴿ وَأَنْفِقُوا ﴾ .

كأنه قال : ايتوا في الإنفاق خيراً لأنفسكم ، أو قدموا خيراً لأنفسكم من أموالكم .

وهو عند الكسائي والفرّاء نعت لمصدر محذوف ؛ أي أنفقوا إنفاقاً خيراً لأنفسكم .

وهو عند أبي عبيدة خبر كان مضمرة ؛ أي يكن خيراً لكم .

ومن جعل الخير المال فهو منصوب ب "أنفقوا" .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ تقدم الكلام فيه .

وكذا ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ تقدم الكلام فيه أيضاً في "البقرة" وسورة "الحديد" .

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ تقدم معنى الشكر في "البقرة" .

والحليم : الذي لا يَعْجَل .

(25/767)

قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الغيب والشهادة ﴾

أي ما غاب وحضر .

وهو ﴿ العزيز ﴾ أي الغالب القاهر .

فهو من صفات الأفعال ، ومنه قوله عز وجل : ﴿ تَنزِيلُ الكتاب مِنَ اللَّهِ العزيز الحكيم ﴾ [الجاثية : 2] .

أي من الله القاهر المحكم خالق الأشياء .

وقال الخطّابي : وقد يكون بمعنى نفاسة القدر ، يقال منه : عَزّ يَعِزّ (بكسر العين) فيتناول معنى العزيز على هذا أنه لا يعادله شيء وأنه لا مِثل له .

والله أعلم .

﴿ الحكيم ﴾ في تدبير خلقه .

وقال ابن الأنباري : "الْحَكِيمُ" هو المحكم لخلق الأشياء ، صُرف عن مُفْعِل إلى فَعِيل ، ومنه قوله عز وجل : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم ﴾ [يونس : 1] معناه المُحْكَم ، فصُرف عن مُفْعَل إلى فَعِيل .

والله أعلم . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(26/767)

وقال أبو السعود :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُوا إِنَّ مِنْ أزواجكم وأولادكم عَدُوّاً لَّكُمْ ﴾

يشغلونَكُم عن طاعةِ الله تعالَى أو يخاصمونَكُم في أمورِ الدينِ أو الدُّنيا ﴿ فاحذروهم ﴾ الضميرُ للعدوِّ فإنَّه يطلقُ على الجمعِ نحو قولِه تعالَى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى ﴾ أو للأزواجِ والأولادِ جميعاً فالمأمورُ به على الأولِ الحذرُ عن الكلِّ وعلى الثاني إما الحذرُ عن البعضِ لأنَّ منهم من ليسَ بعدوَ وإما الحذرُ عن مجموعِ الفريقينِ لاشتمالِهم على العدوِّ ﴿ وَأَن تَعْفُواْ ﴾ عن ذنوبِهم القابلةِ للعفوِ بأن تكونَ متعلقةً بأمورِ الدُّنيا أو بأمورِ الدينِ لكن مقارنةً للتوبةِ ﴿ وَتَصْفَحُواْ ﴾ بتركِ التثريبِ والتعييرِ ﴿ وَتَغْفِرُواْ ﴾ بإخفائِهَا وتمهيدِ عُذرِهَا ﴿ فَإِنَّ

اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعاملكم بمثلِ ما عملتُم ويتفضلُ عليكُم . وقيلَ إنّ ناساً من المؤمنينَ أرادُوا الهجرةَ عن مكةَ فثبطهُم أزواجُهُم وأولادُهُم وقالوا تنطلقونَ وتضيعونَنَا فرقُّوا لهُم ووقفُوا فلما هاجَرُوا بعد ذلكَ ورأَوا المهاجرينَ الأولينَ قد فقهُوا في الدينِ أرادُوا أن يعاقبُوا أزواجَهُم وأولادَهُم فزُينَ لهم العفوُ ، وقيلَ قالُوا لهُم أينَ تذهبونَ وتدعُونَ بلدكُم وعشيرَتَكُم وأموالَكُم فغضبُوا عليهِم وقالُوا لئِن جمعنَا اللهُ في دارِ الهجرةِ لم نُصِبكم بخيرٍ فلما هاجرُوا منعُوهُم الخيرَ فحَثُّوا على أنْ يعفُوا عنهُم ويردُّوا إليهِمْ البرَّ والصلةَ .

﴿ إِنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ ﴾

(27/767)

بلاءٌ ومحنةٌ يوقعونَكُم في الإثمِ من حيثُ لا تحتسبون ﴿ واللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لمن آثَرَ محبةَ اللهِ تعالَى وطاعَتَهُ على محبةِ الأموالِ والأولادِ والسعيِ في تدبيرِ مصالِحِهِم ﴿ فاتقوا اللهَ مَا استطعتم ﴾ أي ابذلُوا في تقواهُ جهدكُم وطاقَتَكُم ﴿ واسمعوا ﴾ مواعظَهُ ﴿ وَأَطِيعُواْ ﴾ أوامرَهُ ﴿ وَأَنْفِقُواْ ﴾ مما رزقكُم في الوجوهِ التي أمركُم بالإنفاقِ فيها خالصاً لوجهِهِ ﴿ خَيْراً لأَنفُسِكُمْ ﴾ أي ائتُوا خيرا لأنفسِكُم وافعلُوا ما هو خيرٌ لها وأنفعُ وهو تأكيدٌ للحثِّ على امتثالِ هذهِ الأوامرِ وبيانٌ لكونِ الأمورِ المذكورةِ خيراً لأنفسِهِم ، ويجوزُ

أن يكونَ صفةً لمصدرٍ محذوفٍ أو إنفاقاً خيراً أو خبراً لكانَ مقدراً جواباً للأوامرِ أي يَكُنْ خيراً لأنفسِكُم ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ الفائزونَ بكلِ مرامٍ.

﴿ إِن تُقْرِضُواْ الله ﴾ بصرفِ أموالِكُم إلى المصارفِ التي عينها ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ مقروناً بالإخلاصِ وطيبِ النفسِ ﴿ يضاعفه لَكُمْ ﴾ بالواحدِ عشرةً إلى سبعمائةٍ وأكثرَ. وقُرِىءَ يُضعّفهُ لكُم ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمُ ﴾ ببركةِ الإنفاقِ ما فرطَ منكُم من بعضِ الذنوبِ ﴿ والله شَكُورٌ ﴾ يَعطى الجزيلَ بمقابلةِ النزرِ القليلِ ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجلُ بالعقوبةِ مع كثرةِ ذنوبِكُم ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ لا يَخفى عليهِ خافيةٌ ﴿ العزيز الحكيم ﴾ المبالغُ في القدرةِ والحكمةِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(28/767)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِنَّ مِنْ أزواجكم وأولادكم عَدُوّاً لَّكُمْ ﴾

أي إن بعضهم كذلك فمن الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهن ويخاصمنهم ويجلبن عليهم ، ومن الأولاد أولاداً يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى ، وقد شاهدنا من

الأزواج من قتلت زوجها ، ومن أفسدت عقله بإطعام بعض المفسدات للعقل ، ومن كسرت قارورة عرضه ، ومن مزقت كيس ماله ومن ، ومن وكذا من الأولاد من فعل نحو ذلك ﴿ فاحذروهم ﴾ أي كونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم ، والضمير للعدو فإنه يطلق على الجمع نحو قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾ [الشعراء : 77] فالمأمور به الحذر عن الكل ، أو للأزواج ، والأولاد جميعاً ، فالمأمور به إما الحذر عن البعض لأن منهم من ليس بعدو ، وإما الحذر عن مجموع الفريقين لاشتمالهم على العدو ﴿ وَأَن تَعْفُواْ ﴾ عن ذنوبهم القابلة للعفو بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا ، أو بأمور الدين لكن مقارنة للتوبة بأن لم تعاقبوهم عليها ﴿ وَتَصْفَحُواْ ﴾ تعرضوا بترك التثريب والتعيير ﴿ وَتَغْفِرُواْ ﴾ تستروها بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قائم مقام الجواب ، والمراد يعاملكم بمثل ما عملتم ، ويتفضل عليكم فإنه عز وجل ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ولما كان التكليف ههنا شاقاً لأن الأذى الصادر ممن أحسنت إليه أشد نكاية وأبعث على الانتقام ناسب التأكيد في قوله سبحانه : ﴿ وَأَن تَعْفُواْ ﴾ الخ ، وقال غير واحد : إن عداوتهم من حيث إنهم يحولون بينهم وبين الطاعات والأمور النافعة لهم في آخرتهم ، وقد يحملونهم على السعي في اكتساب الحرام وارتكاب الآثام لمنفعة أنفسهم كما روي عنه صلى الله عليه وسلم : « يأتي زمان على أمتي يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده يعيرانه بالفقر فيركب مراكب السوء فيهلك » .

ومن الناس من يحمله حبهم والشفقة عليهم على أن يكونوا في عيش رغد في حياته وبعد مماته فيرتكب المحظورات لتحصيل ما يكون سبباً لذلك وإن لم يطلبوه منه فيهلك ، وسبب النزول أوفق بهذا القول .

أخرج الترمذي .

والحاكم وصححاه .

وابن جرير .

وغيرهم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ﴿ المؤمنون يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِنَّ مِنْ أزواجكم ﴾ الخ في قوم من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم فأنزل الله تعالى الآية ؛ وفي رواية أخرى عنه أنه قال : كان الرجل يريد الهجرة فيحبسه امرأته وولده فيقول : أما والله لئن جمع الله تعالى بيني وبينكم في دار الهجرة لأفعلنّ ولأفعلنّ فجمع الله عز وجل بينهم في دار الهجرة فأنزل الله تعالى : ﴿ المؤمنون يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِنَّ مِنْ أزواجكم ﴾ الآية .

وقيل : إنهم قالوا لهم لئن جمعنا الله تعالى في دار الهجرة لم نصبكم بخير فلما هاجروا منعوهم الخير فنزلت ، وعن عطاء بن أبي رباح أن عوف بن مالك الأشجعي أراد الغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم فاجتمع أهله أولاده فثبطوه وشكوا إليه فراقه فرق ولم يغز ، ثم إنه ندم فهم بمعاقبتهم فنزلت ، واستدل بها على أنه لا ينبغي للرجل أن يحقد على زوجه وولده إذا جنوا معه جناية وأن لا يدعو عليهم .

(30/767)

﴿ إِنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ ﴾

أي بلاء ومحنة لأنهم يترتب عليهم الوقوع في الإثم والشدائد الدنيوية وغير ذلك ، وفي الحديث " يؤتى برجل يوم القيامة فيقال : أكل عياله حسناته " وعن بعض السلف العيال سوس الطاعات .

وأخرج الإمام أحمد .

وأبو داود .

والترمذي .

والنسائي .

وابن ماجه .

والحاكم وصححه عن بريدة قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله عليه الصلاة والسلام من المنبر فحملهما واحداً من ذا الشق وواحداً من ذا الشق ، ثم صعد المنبر فقال : صدق الله ﴿ إِنَّمَا أَموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ ﴾ إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما " وفي رواية ابن مردويه عن عبد الله بن عمر «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو يخطب الناس على المنبر خرج حسين بن علي على رسول الله عليهما الصلاة والسلام فوطئ في ثوب كان عليه فسقط فبكى فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنبر فلما رآه الناس سعوا إلى حسين يتعاطونه يعطيه بعضهم بعضاً حتى وقع في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قاتل الله الشيطان إن الولد لفتنة ، والذي نفسي بيده ما دريت أني نزلت عن منبري» .

وقيل : إذا أمكنكم الجهاد والهجرة فلا يفتنكم الميل إلى الأموال والأولاد عنهما قال في «الكشف» : الفتنة على هذا الميل إلى الأموال والأولاد دون العقوبة والإثم ، وقدمت الأموال قيل : لأنها أعظم فتنة ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى أَن رَّءاهُ استغنى ﴾ [العلق : 6 ، 7] ، وأخرج أحمد .

والطبراني .

والحاكم .

والترمذي وصححه عن كعب بن عياض سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتي المال " .

(31/767)

وأخرج نحوه ابن مردويه عن عبد الله بن أوفى مرفوعاً ؛ وكأنه لغلبة الفتنة في الأموال والأولاد لم تذكر من التبعيضية كما ذكرت فيما تقدم ﴿ والله عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لمن آثر محبة الله تعالى وطاعته على محبة الأموال والأولاد والسعي في مصالحهم على وجه يخل بذلك .

(32/767)

﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾

أي ابذلوا في تقواه عز وجل جهدكم وطاقتكم كما أخرجه عبد بن حميد .

وابن المنذر عن الربيع بن أنس ، وحكي عن أبي العالية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : 102] اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم فأنزل الله تعالى تخفيفاً على المسلمين ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ فنسخت الآية الأولى ، وجاء عن قتادة نحو منه ، وعن مجاهد المراد أن يطاع سبحانه فلا يعصى ، والكثير على أن هذا هو المراد في الآية التي ذكرناها ﴿ واسمعوا ﴾ مواعظه تعالى ﴿ وَأَطِيعُواْ ﴾ أوامره عز وجل ونواهيه سبحانه ﴿ وَأَنفِقُواْ ﴾ مما رزقكم في الوجوه التي أمركم بالإنفاق فيها خالصاً لوجهه جل شأنه كما يؤذن به قوله تعالى : ﴿ خَيْراً لأَنفُسِكُمْ ﴾ وذكر ذلك تخصيص بعد تعميم ، ونصب ﴿ خَيْرًا ﴾ عند سيبويه على أنه مفعول به لفعل محذوف أي وأتوا خيراً لأنفسكم أي افعلوا ما هو خير لها وأنفع ، وهذا تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر وبيان لكون الأمور خيراً لأنفسهم من الأموال والأولاد ، وفيه شمة من التجريد ، وعند أبي عبيد على أنه خبر ليكن مقدراً جواباً للأمر أي يكن خيراً ، وعند الفراء . والكسائي على أنه نعت لمصدر محذوف أي إنفاقاً خيراً ، وقيل : هو نصب بأنفقوا والخير المال ، وفيه بعد من حيث المعنى ، وقال بعض الكوفيين : هو نصب على الحال وهو بعيد في المعنى والإعراب ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ وهو البخل مع الحرص .

﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ الفائزون بكل مرام .

﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ ﴾

تصرفوا المال إلى المصارف التي عينها عز وجل ، وفي الكلام استعارة تمثيلية ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ مقروناً بالإخلاص وطيب النفس .

﴿ يضاعفه لَكُمْ ﴾ يجعل لكم جل شأنه بالواحد عشراً إلى سبعمائة وأكثر ، وقرىء يضعفه ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ببركة الإنفاق ما فرط منكم من بعض الذنوب ﴿ والله شَكُورٌ ﴾ يعطى الجزيل بمقابلة النزر القليل ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجل بالعقوبة مع كثرة الذنوب .

(34/767)

﴿ عَالِمُ الغيب والشهادة ﴾

لا يخفى عليه سبحانه شيء ﴿ العزيز الحكيم ﴾ المبالغ في القدرة والحكمة ، وفي الآية من الترغيب بالإنفاق ما فيها لكن اختلف في المراد به فقيل : الإنفاق المفروض يعني الزكاة المفروضة وقد صرح به ، وقيل : الإنفاق المندوب ، وقيل : ما يعم الكل ، والله تعالى أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ يأيها الذين ءامنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم ﴾

يعني : أنهم يعادونكم ويشغلونكم عن الخير ، ويدخل في ذلك سبب النزول دخولاً أوّلياً ، وهو أن رجالاً من مكة أسلموا ، وأرادوا أن يهاجروا ، فلم يدعهم أزواجهم ولا أولادهم ، فأمر الله سبحانه بأن يحذروهم ، فلا يطيعوهم في شيء مما يريدونه منهم مما فيه مخالفة لما يريده الله ، والضمير في ﴿ فاحذروهم ﴾ يعود إلى العدوّ ، أو إلى الأزواج والأولاد لكن لا على العموم ، بل إلى المتصفين بالعداوة منهم ، وإنما جاز جمع الضمير على الوجه الأوّل ؛ لأن العدوّ يطلق على الواحد ، والاثنين ، والجماعة ، ثم أرشدهم الله إلى التجاوز ، فقال : ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا ﴾ أي : تعفوا عن ذنوبهم التي ارتكبوها ، وتتركوا التثريب عليها وتستروها ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ بالغ المغفرة والرحمة لكم ولهم ، قيل : كان الرجل الذي ثبطه أزواجه وأولاده عن الهجرة إذا رأى الناس قد سبقوه إليها ، وفقهوا في الدين همّ أن يعاقب أزواجه وأولاده ، فأنزل الله ﴿ وأن تعفوا ﴾ الآية ، والآية تعمّ وإن كان السبب خاصاً ، كما عرفناك غير مرة .

قال مجاهد : والله ما عادوهم في الدنيا ، ولكن حملتهم مودتهم على أن اتخذوا لهم الحرام ، فأعطوهم إياه .

ثم أخبر الله سبحانه بأن الأموال والأولاد فتنة فقال : ﴿ إِنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ ﴾ أي : بلاء واختبار ومحنة ، يحملونكم على كسب الحرام ومنع حق الله ، فلا تطيعوهم في معصية الله ﴿ والله عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لمن آثر طاعة الله ، وترك معصيته في محبة ماله وولده .

ثم أمرهم سبحانه بالتقوى والطاعة فقال : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ أي : ما أطقتم وبلغ إليه جهدكم .

(36/767)

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله سبحانه : ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ ومنهم قتادة ، والربيع بن أنس ، والسديّ ، وابن زيد ، وقد أوضحنا الكلام في قوله : ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ ومعنى ﴿ واسمعوا وَأَطِيعُواْ ﴾ أي : اسمعوا ما تؤمرون به ، وأطيعوا الأوامر .

قال مقاتل ﴿ اسمعوا ﴾ أي : اصغوا إلى ما ينزل عليكم ، وأطيعوا لرسوله فيما يأمركم

وينهاكم .

وقيل : معنى ﴿ اسمعوا ﴾ : اقبلوا ما تسمعون ؛ لأنه لا فائدة في مجرد السماع ﴿ وَأَنفِقُواْ خَيْراً لأنفُسِكُمْ ﴾ أي : أنفقوا من أموالكم التي رزقكم الله إياها في وجوه الخير ولا تبخلوا بها ، وقوله : ﴿ خَيْراً لِانفُسِكُمْ ﴾ منتصب بفعل مضمر دلّ عليه أنفقوا ، كأنه قال : ائتوا في الإنفاق خيراً لأنفسكم ، أو قدّموا خيراً لها ، كذا قال سيبويه .

وقال الكسائي ، والفرّاء : هو نعت لمصدر محذوف ، أي : إنفاقاً خيراً .

وقال أبو عبيدة : هو خبر لكان المقدّرة ، أي : يكن الإنفاق خيراً لكم .

وقال الكوفيون : هو منتصب على الحال ، وقيل : هو مفعول به لأنفقوا ، أي : فأنفقوا خيراً .

والظاهر : في الآية الإنفاق مطلقاً من غير تقييد بالزكاة الواجبة ، وقيل : المراد زكاة الفريضة ، وقيل : النافلة ، وقيل : النفقة في الجهاد ﴿ وَمَن يُوق شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئكَ هُمُ المفلحون ﴾ أي : ومن يوق شحّ نفسه ، فيفعل ما أمر به من الإنفاق ، ولا يمنعه ذلك منه ، فأولئك هم الظافرون بكل خير الفائزون بكل مطلب ، وقد تقدم تفسير هذه الآية .

﴿ إِن تُقْرِضُواْ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ فتصرفون أموالكم في وجوه الخير بإخلاص نية وطيب نفس ﴿ يضاعفه لَكُمْ ﴾ فيجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية ، واختلاف القراء في قراءتها في سورة البقرة ، وسورة الحديد ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أي : يضمّ لكم إلى تلك المضاعفة غفران ذنوبكم ﴿ والله شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ يثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة ، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة .

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي : ما غاب وما حضر لا تخفى عليه منه خافية ، وهو ﴿ العزيز الحكيم ﴾ أي : الغالب القاهر ذو الحكمة الباهرة .

وقال ابن الأنباري : الحكيم هو المحكم لخلق الأشياء .

وقد أخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِنَّ مِنْ أزواجكم وأولادكم عَدُوّاً لَّكُمْ فاحذروهم ﴾ في قوم من أهل مكة أسلموا ، وأرادوا أن يأتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم ، فنزلت إلى قوله : ﴿ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن بريدة قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يخطب ، فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر ، فحملهما واحداً من ذا الشقّ ، وواحداً من ذا الشقّ ثم صعد المنبر فقال : " صدق الله : ﴿ إِنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ ﴾ ، إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما " وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله : استقرضت عبدي فأبى أن يقرضني ، وشتمني عبدي وهو لا يدري ، يقول : وادهراه ، وادهراه ، وأنا الدهر " ، ثم تلا أبو هريرة ﴿ إِن تُقْرِضُوا الله قَرْضاً حَسَناً يضاعفه لَكُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 238 . 239 ﴾

(39/767)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ

تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» . .

هو دعوة للذين استجابوا للّه ولرسوله ، فآمنوا ، أن يعطوا هذا الإيمان حقّه . .

فإنه لا يكفى أن يؤمنوا دون أن يحرسوا هذا الإيمان من الآفات الكثيرة الّتى تعرض له ، وتفسده ، أو تذهب به جملة . .

ومن هذه الآفات ، الفتنة بالزوج والولد . . حيث هما اللذان يملآن

عواطف الإنسان ، ويستوليان على مشاعره ، وبهذا يكون لهما تأثير بالغ عليه ، فى مجال الصلاح والفساد جميعا . . إن الزوج والولد ، أشبه بالأعضاء العاملة فى الجسد ، فإن كانا صالحين ، سلم الجسد ، واقتدر على أداء وظيفته كاملة ، وإن كانا فاسدين ، عجز الجسد عن أن يقوم بما هو مطلوب منه ، بقدر ما فيهما من فساد . .

وفى القرآن الكريم ، أمثله وشواهد كثيرة لهذا . .

فامرأة نوح وابنه ، كانا على خلاف معتقده فى اللّه . . هو رسول اللّه ، مؤمن به ، داع إليه ، وامرأته وولده كافران باللّه ، يقفان من نوح موقف عداوة ومنابذة . .

وإنه ليس أشقّ على الإنسان من أن يكون أعداؤه بعضا من كيانه . .

إن عداوة الغرباء تخفّ وتهون ، إزاء عداوة ذوى القربى . . وإن أقسى العداوات وأمرّها لهى عداوة أقرب الأقربين ، وألصقهم بالإنسان جسدا ، وروحا ، ومشاعر . .

وفى هذا يقول الشاعر الجاهلى (طرفة بن العبد) :

وظلم ذوى القربى أشدّ مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

فقوله تعالى : «إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ» . هو إلفات إلى ما قد يكون من خلاف بين المؤمن وبين زوجه وولده فى مجال العقيدة . . ذلك الخلاف الذي كثيرا ما تغطى عليه مشاعر الحب ، والعطف ، فلا يكاد يشعر المؤمن بما يدخل على إيمانه من ضيم وجور ،

(41/767)

إذا هو استسلم لزوجه أو ولده ، وأصغى إلى ما يلقيان إليه من زور وبهتان . .

ولهذا جاء قوله تعالى : «فَاحْذَرُوهُمْ» حتى يكون المؤمن دائما ، على حذر ، وانتباه من هذه الرياح المسمومة الّتى تهب عليه من أقرب الناس إليه . .

والعداوة الّتى ترد على الإنسان من جهة الزوجة أو الولد ، ليست عداوة ذاتية له ، وإنما هى عداوة متولدة عن فعل يجىء من قبل الزوجة أو الولد . . فإذا فعلت الزوجة فعل العدو

فهى عدوّ ، وإذا فعل الولد فعل العدو ، فهو عدو . .

وإنه لا عدوّ أبلغ فى عداوته ، وأشد فى كيده ، وأعظم فى ضرره .ممن يحول بين المرء وبين طاعة ربه . .

روى البخاري ، عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : « إن الشيطان قعد لابن آدم فى طريق الإيمان ، فقال له : أتؤمن وتذر دينك ودين آبائك ؟ فخالفه ، فآمن . . ثم قعد له على طريق الهجرة ، فقال له : أتهاجر ، وتترك مالك وأهلك ؟ فخالفه فهاجر . . ثم قعد له على طريق الجهاد ، فقال له : أتجاهد ، فتقتل نفسك ، فتنكح نساؤك ويقسم مالك ؟

. . فخالفه ، فجاهد ، فحقّ على اللّه أن يدخله الجنة » . .

وقوله تعالى : « وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . .

هو دعوة إلى الرّفق فى الحذر ، والتلطف فى لقاء المكروه الذي يجىء إلى المؤمن من زوجه أو ولده . . فإذا كان من واجب المؤمن أن يحذر هذا العدوّ الكامن

(42/767)

فى أقرب الناس إليه وآثرهم عنده ، فإن هذا العدوّ يجب أن ينظر إليه من جانب آخر على أنه صديق ، وأن هذه العداوة طارئة ، وأنه يمكن أن تعالج هذه العداوة بالحكمة ، والحسنى

، على ألا يكون ذلك على حساب الدين . .

وبهذا يمكن أن يبقى المؤمن على هذين العضوين الفاسدين فى جسده ، وأن يطبّ لهما ، وأن يعمل على إصلاحهما ما استطاع ، وألا يعجّل بقطعهما إلا بعد أن يستنفد جميع وسائل العلاج ، شأنهما فى هذا شأن أعزّ الأعضاء والجوارح فى الجسد . .

فالعفو ، والصفح ، والمغفرة . . من المؤمن ، لزوجه وولده ، الواقعين فى موقع الفتنة له فى دينه ـ إنّما هو صبر على الأذى ، واحتمال الضرّ ، فى سبيل الإبقاء على علائق الودّ ، ووشائج القربى التي هى من أمر الدين ، ومن طبيعة الحياة . . شريطة ألا يكون ذلك ـ كما قلنا ـ على حساب الدين . . كما يقول سبحانه فيما بين الولد ، والوالدين : « أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً » (14 ، 15 لقمان) .

قوله تعالى : نَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » .

ومن الفتن الّتى تعرض للمؤمن ، فتنة المال ، والأولاد ، حيث يطغى حبهما على قلبه ، ويأخذ على سمعه وبصره ، فلا يرى شيئا غيرهما ، ولا يستمع لنداء غير نداء المال والولد ، فيصرفه ذلك عن ذكر اللّه ، ويلهيه عن العمل الصالح ، ابتغاء مرضاة اللّه . . وبهذا يضمر إيمانه ، وقد يذهب إلى غير عودة ! يقول الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه . « تعس عبد الدّينار ، تعس

عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة . تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » .

[تعس : أي هلك : والخميصة : كساء أسود له أعلام وخطوط . .

والقطيفة ، ثوب مزركش ذو أهداب . . وانتكس : أي عاوده المرض . .

وشيك : أصابته شوكة . . فلاانتقش ، أي فلا خرجت شوكته بالمنقاش وهو الملقط] .

إن الفتنة الّتى تهب على المؤمن هنا ، هى فتنة مهبّها ذاته هو ، وما يفيض به قلبه من مشاعر الحبّ للمال ، والولد . .

وأما الفتنة الواردة على المؤمن فى قوله : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » فهى فتنة متسلطة على الإنسان من خارج ذاته ، فيما تسوقه إليه زوجه أو ولده من صور الشحناء معه ، والخلاف عليه ، فى الدين الّذى يدين به ، والذي يباعد الشقة بينه وبينهما .

وقوله تعالى : اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ »

هو تعويض عن التخفف من من هذا الحبّ الّذى يحمله الإنسان فى قلبه للمال وللولد ،

وإيثارهما على حبّ اللّه والعمل فى طاعته . . فالذى عند اللّه من ثواب ، هو خير من الدنيا كلّها . .

وفى قوله تعالى : « إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ » .

. إشارة إلى أن هذا الحكم ليس على إطلاقه . . لأنه ليس كل الأزواج ولا كل الأولاد تجىء منهم العداوة ، وإنما يقع ذلك من بعضهم ، ولهذا جىء بمن الّتى تفيد التبعيض ، على حين جاء قوله تعالى : نَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ »

بدون « من » التبعيضية ، لأن الأموال والأولاد فتنة مطلقة ، فحيث يكون المال ، وحيث يكون الأولاد ، فالفتنة بهم قائمة . .

يقول الإمام علىّ ـ كرم اللّه وجهه ـ : « لا يقولنّ أحدكم : « اللهم إنى أعوذ بك من الفتنة ، لأنه ليس أحد ، إلا وهو مشتمل على فتنة ، ولكن

(44/767)

من استعاذ فليستعذ بمضلّات الفتن . . فاللّه سبحانه وتعالى يقول : نَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ » .

قوله تعالى : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ

شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

قوله تعالى : [« فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » .

. ما تأويله ؟] هو رحمة من رحمة اللّه بعباده ، وهم فى متلاطم هذه الفتن الّتى تطلع عليهم من أنفسهم ، ومن أهليهم وأقرب الناس إليهم ، إنها حرب مشبوبة الأوار دائما ، لا يستطيع الإنسان أن يدفعها عن نفسه ، أو أن يدفع هو نفسه عنها ، إلا إذا اعتصم بمعتصم يعصمه منها . . إذ كيف له بالتخلص من ذاته ، ومن نزعات نفسه ، ودفعات أهوائه ؟ ونفرض أنه استطاع ذلك بعد مشقة وعناء ، فكيف له بأن ينخلع عن زوجه وولده ؟ إن ذلك لا يكون إلا بالانخلاع عن الحياة الدنيا جملة ! ! والإسلام دين واقع ، ودين رحمة وعدل وإحسان . . لا يرى للناس إلا أنهم بشر تتحكم فيه نوازع ، وعواطف ، وتعرض لهم عوارض الضعف . .

ويلحقهم ما يلحق الكائن الحىّ من جهد وضعف . . ولهذا قامت هذه الشريعة على اليسر ، وعلى رفع الحرج ، كما يقول سبحانه : « وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » (78 : الحج) . . ويقول الرسول الكريم :

« إن هذا الدين يسر فأوغل فيه برفق ، وإنه لن يشادّ الدين أحد إلا غلبة » . .

ويقول الرسول الكريم أيضا . . « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

فقوله تعالى : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » .

. هو الميزان الذي يقيم عليه المؤمن أمر دينه كله . . وأن يتقى هذه الفتن الّتى تهب عليه من كل جهة. أن يتقيها

(45/767)

بقدر ما يملك من قوة، وما يحتمل من جهد . . واللّه سبحانه وتعالى يقول :

« لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها . . لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ » .

فكل نفس لها طاقة من الاحتمال، ولها قدر من القوة، وإنه على قدر طاقتها وقوتها ، تحاسب، فتجزى بما كسبت، وعلى ما اكتسبت . .

ومن أجل هذا كانت شريعة الإسلام. مع عمومها . تنظر إلى ما فى الناس. كأفراد . وإلى ما فيهم من قوة وضعف، فتكلف القوىّ بما لا تكلف به الضعيف . .

ونجد مثلا لهذا فى نساء النبي، وما لهن من خصوصية، وما عندهن من استعداد لقبول الخير، بما كان لحياتهن مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من أثر فى مدّهنّ بأمداد عظيمة من الإيمان والتقوى . . ولهذا قام حسابهن عند اللّه على غير حساب عموم النساء . .

ففى مقام الإحسان يضاعف اللّه لهن الإحسان، فيؤجرن بالحسنة ضعف أجر الحسنة من غيرهن . . فيقول سبحانه : « وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها

أَجْرَها مَرّتَيْنِ وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً » (31 : الأحزاب) . . وكذلك الشأن فى مقام الإساءة.لو فرض أن تقع منهن سيئة.فيقول جل شأنه :

« يا نِساءَ النّبِيّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنّ بِفاحِشَةٍ مُبَيّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ ، وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً » (30 : الأحزاب) . .

وليس هذا فى نساء النّبى وحدهن ، بل إنه فى المؤمنين عامة ، فقد كلف اللّه المؤمنين فى أول الإسلام ، بأن يلقى المسلم منهم فى ميدان القتال عشرة من العدوّ ، وأن يغلبهم ، دون أن ينكل عن لقائهم ، أو يفر منهم إذا التقى بهم . . وذلك لما كان فى قلوب هؤلاء السابقين إلى الإيمان ، من قوة إيمان ، ووثاقة دين ، بما لم يكن لأحد أن يبلغ هذا المستوي العظيم بعد . . فلما دخل الناس فى دين اللّه أفواجا ، وكان كثير من الذين آمنوا دون هذا المستوي ، وعلى بعد بعيد منه.

(46/767)

لمّا كان هذا ، كان أمر اللّه للمسلمين فى القتال ، أن يكون المقاتل منهم فى مقابل اثنين من أعدائهم . .

ومن هذا ندرك السرّ فى تلك التوجيهات الّتى كان يوجه بها النبي أصحابه حين يسألونه

مثلا : أي الأعمال أفضل ؟ فيقول لهذا قولا ، ولذاك قولا ، ولثالث قولا آخر . . وهكذا ، حسب ما يرى الرسول الكريم فيهم من قدرة واستعداد ، فيوجه كلّ واحد منهم الوجهة الّتى يصلح لها ، ويقدر على السير فيها . .

على أن هذا ينبغى ألّا يفهم على غير وجهه السليم ، وألّا يتأول تأويلا فاسدا ، فيجعل المرء هذه الاستطاعة تكأة يتحلل بها من تكاليف الشريعة ، ويتخفف من أوامرها ونواهيها ، محتكما فى ذلك إلى هواه فى تقدير الحدّ الّذى تبلغه استطاعته ، فيترك الصوم مثلا ، لأن الجوع يؤذيه ، والعطش يشقّ عليه ، أو لأن ترك بعض العادات المتمكنة منه ، يفسد تفكيره ، ويعلّ جسده . . وقل مثل هذا فى كثير من أوامر الدين ونواهيه ، حيث يبحث المرء عن مخرج يخرج به منها ، وعن علة يتعلل بها ، للتحلل من هذا القيد ، والفكاك من هذا الالتزام . . إن هذا من شأنه أن يفسد على المرء دينه ، ويغتال كل صالحة فيه .

وإن فى الشرّ خيارا . . وإنه لخير المرء فى هذا المقام أن يترك فريضة من فرائض اللّه ، أو يقصر فى أدائها ، عن فتور ، أو عدم مبالاة . إن ذلك لخير له من أن يكون تركه الفريضة ، أو تقصيره فى أدائها ، ناجما عن فتوى كاذبة خادعة ، يفتى بها نفسه ، ليتحلل من عقد للّه الّذى لزمه ، من فرائض الشريعة وأحكامها . .

إن التكاليف الشرعية لها أعباؤها ، ولها مشقاتها ، وإنها بغير هذا لا يكون لها ميزان فى

فعل الطاعات ، واجتناب المنبهات ، فمن أطاع أمرا ، فإنما تكون طاعته عن مغالبة أهواء ، ودفع شهوات ، ومن انتهى عن منهىّ عنه ، كان

(47/767)

انتهاؤه عن استعلاء على نزعات ، وكبت لرغبات . . وعن هذا الجهد يكون الجزاء . . ولهذا قيل « على قدر المشقة يكون الثواب » . .

ثم إن الدين أمانة بين العبد وربه ، وإن الوفاء بهذه الأمانة إنما يكون حيث يبذل المرء غاية جهده ، ويعطى كل ما عنده ، دون إفراط ، أو تفريط . .

والاحتكام فى هذا ، إنما هو إلى ضمير المؤمن ، وإلى ما يفتيه به قلبه ، كما يشير إلى هذا الرسول الكريم فى قوله : « استفت قلبك . . وإن أفتاك الناس وأفتوك » ! ! فإذا أعفى الدين ـ مثلا ـ أصحاب الأعذار من الجهاد فى سبيل الله ، كما يقول سبحانه . . « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ » (91 : التوبة) ـ إذا بيّن الإسلام هذه الأعذار التي تعفى المسلم من الجهاد ، فإن بيان حدود هذه الأعذار من الضعف ، والمرض ، وضيق ذات اليد فى النفقة ـ إن بيان هذه الحدود ، إنما يرجع إلى ضمير المسلم ذاته ، إن كان مرضه أو ضعفه يعفيانه من الجهاد

أولا ، أو إن كان بين يديه مال خفى أو ظاهر ، أو لا . . فتلك أمور لا يعلمها إلّا اللّه سبحانه ، وإلا أصحابها المتصفون بهذه الصفات . .

وقوله تعالى : « وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ » . .

هو من تمام التقوى التي أمر اللّه سبحانه وتعالى بها فى قوله جلّ شأنه :

« فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » فإن التقوى فى حدود الاستطاعة ، مرجعها إلى القلب ، وما انعقد عليه من إيمان باللّه ، ومراقبة لأوامره ونواهيه . .

فهذا جانب يمثّل الصلة بين العبد وربه . . وحسابه فى هذا على اللّه .

(48/767)

وهناك جانب آخر من الإنسان فيما يتصل بأوامر اللّه ونواهيه ، وهو الجانب الذي يمسّ المجتمع الذي يعيش فيه ، والذي تحكمه أوامر هذا الدين الذي يدين به ، وهو الجانب الظاهر ، الذي يتمثل فى الاستماع لأولى الأمر والطاعة لهم ، وتقديم المال المطلوب منه فيما يبدو من ظاهر حاله لولىّ الأمر . .

وهذا يعنى ألا يقف المسلم عند قوله تعالى : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » وأن يجعل تقديره لاستطاعته ، حكما ملزما لولىّ الأمر .

فإذا دعى من ولى الأمر إلى الجهاد مثلا ، فلا يتعلل بأنه مريض ، أو ضعيف ، وإن كان فى الواقع مريضا أو ضعيفا ، بل يجب أن يسمع ويطيع ، على ما به من مرض أو ضعف . . فإن سمعه وطاعته فى تلك الحال شاهدان يظاهران ما هو عليه من مرض أو ضعف ، وهذا من شأنه أن يجعل ولىّ الأمر هو الذي يعفيه من الجهاد ، ويعزله عن ركب المجاهدين . . أما إذا أبى أن يسمع أو يجيب ، كان ذلك مثار فتنة لغيره ، ثم كان موضع تهمة له بأنه يتصنع المرض أو الضعف ، حتى يتحلل من الاستجابة للجهاد الذي يدعوه إليه ولى الأمر . .

وكذلك الشأن فى الإنفاق فى سبيل اللّه ، وهو أنه من الواجب أن ينفق المرء فى سبيل اللّه من غير دعوة ، فإذا دعى من ولىّ الأمر كان عليه أن يجيب ، وأن يقدم المطلوب منه ، من زكاة أو نحوها . .

وقوله تعالى : « خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ » .

. يجوز أن يكون مفعولا به للفعل « أنفقوا » أي أنفقوا مالا ، أو نحوه ، مما هو خير ، ونافع ، ويكون الجار والمجرور « لأنفسكم » متعلقا بقوله تعالى « خيرا » أي أنفقوا خيرا لأجل أنفسكم . . وعبّر عما ينفق بلفظ الخير ، لأنه خير فى ذاته ، وهو خير لمن ينفق من أجله ، وهو خير لمن ينفقه . .

ويجوز أن يكون « خيرا » منصوبا بفعل مضمر ، تقديره أنفقوا وقدموا خيرا لأنفسكم من أموالكم .

وقوله تعالى : « وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

هو تحريض على البذل والإنفاق فى سبيل اللّه ، وتحذير من الشحّ ، والضنّ بالبذل والسخاء فى وجوه الخير . . فإن من وقى نفسه شرّ هذا الداء ، داء الشحّ ، كان من المفلحين ، حيث إن البخل ، لا يكون إلّا من نفس استهلكها حبّ المال ، فضنت به عن الإنفاق فى قضاء الحقوق ، وفى أداء الواجبات لذوى القربى ، والفقراء والمساكين . . ثم ذهب بها هذا الحرص ، إلى اكتساب المال من كلّ وجه ، فى غير تحرّج أو تأثّم ، فإن حبّ المال يعمى ويصم ! فأقرب الناس إلى السلامة ، وأدناهم إلى الفلاح من خلص بنفسه من ربقة العبوديّة للمال ، ومن حبائل فتنته . . كما يقول سبحانه : «إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ» . . فإذا تحرر الإنسان من هذا الداء ، واستعلى على هذه الفتنة ، استقام له طريقه فى الحياة ، فكان من المفلحين فى الدنيا والآخرة جميعا .

قوله تعالى : « إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ » .

هو إغراء بالإنفاق فى سبيل اللّه ، وإعلاء لشأن المنفق ، ورفع لقدره ، حتى إنه ليقف بين يدى خالقه والمنعم عليه موقف المقرض ، الدائن . . فما أعظم فضل اللّه ، وما أوسع

إحسانه . . إنه يعطى ، ثم يستقرض مما أعطى ! ! واللّه سبحانه غنىّ غنى مطلقا عن هذا القرض الذي يقترضه ، لأن هذا الذي يقترضه ، هو ملك له ، وفضل من فضله ، ولو كان فى حاجة إلى أن يقترض ، لأمسك

(50/767)

هذا الذي يقترضه . . تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا . . ولكن هذا العطاء ، ثم الاقتراض منه ، هو تكريم للإنسان ، وإحسان إليه ، حتى ينال بما ينفق من مال اللّه ثواب اللّه فى الآخرة وحسن الجزاء فى الدنيا ، بما يضاعف للمنفق ما أنفق ، كما يقول سبحانه : « يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ » (276 : البقرة) وكما يقول جل شأنه : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ » (245 : البقرة) .

والقرض الحسن : هو الذي ينفق فى سبيل ، اللّه عن رضا نفس ، وانشراح صدر ، والذي لا يتبعه منّ ولا أذى .

قوله تعالى : « وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ » .

. أي أنه سبحانه عظيم الشكر لمن يقرضه ، وينفق فى سبيله ، فيجزيه الجزاء الحسن على

ما أنفق ، وهو سبحانه « حليم » لا يعجل بعقاب الذين يضنون ويبخلون بما آتاهم اللّه من فضله ، فلا يقطع عنهم أمداد نعمه وإحسانه ، فى هذه الدنيا ، بل يمدّ لهم فى العطاء ، ولا يعجّل لهم الموت حتى يستوفوا آجالهم ، وحتى تكون بين أيديهم فرصة للمراجعة ، والمصالحة مع اللّه . . فإن هم لم يصلحوا أمرهم ، وماتوا على ما هم عليه من الشحّ والبخل ، والضنّ بحقوق اللّه - كان إلى اللّه حسابهم ، فإن شاء عفا ورحم ، وإن شاء عاقب وانتقم .

قوله تعالى : « عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

هو معطوف عطف بيان على قوله تعالى : « وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ » .

. أي هو سبحانه شكور حليم ، وهو عالم الغيب والشهادة ، وهو العزيز الحكيم . .

فهذه صفات اللّه سبحانه التي يتعامل بها مع عباده الذين يقرضونه . . إنه سبحانه

(51/767)

يشكر للمنفقين ما أنفقوا ويضاعف للمقرضين ما أقرضوا ، ولا يعاجل المقصرين منهم فى الإنفاق ، العذاب ، بل يمهلهم ، ويدع لهم فسحة من الوقت حتى تنتهى أعمارهم فى هذه الدنيا ، ليكون لهم فى هذه الفسحة مجال لتصحيح موقفهم ، واللّحاق بالمنفقين الذين

سبقوهم إلى رضوان اللّه . . وهو سبحانه مطلع على سرهم وجهرهم ، عالم بما أنفقوه ، وما بخلوا به . . وهو سبحانه « العزيز » الذي هو مستغن بعزته عن إنفاق المنفقين ، وعون المعينين ، وهو « الحكيم » الذي يقيم موازين الناس بالحكمة والعدل ، ويضع كل إنسان بمكانه الذي هو أهل له . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 14 صـ 987 999.﴾

(52/767)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾

إقبال على خطاب المؤمنين بما يفيدهم كمالاً ويجنبهم ما يفتنهم .

أخرج الترمذي "عن ابن عباس أن رجلاً سأله عن هذه الآية فقال : هؤلاء رجال من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادُهم أن يَدعوهم ، فلما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم أي بعد مدة وجاء معهم أزواجهم وأولادهم ورأوا الناس قد فقهوا في الدين أي سبقوهم بالفقه في الدين لتأخر هؤلاء عن الهجرة فهَمُّوا أن يعاقبوهم على ما تسببوا لهم حتى سبقهم الناس إلى الفقه في الدين فأنزل الله هذه الآية :

أي حتى قوله: ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾ .

وهو الذي اقتصر عليه الواحدي في "أسباب النزول" ومقتضاه أن الآية مدنية" .

وعن عطاء بن يسار وابن عباس أيضاً أن هذه الآية نزلت بالمدينة في شأن عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد فكان إذا أراد الغزو بَكَوا إليه ورققوه وقالوا: إلى من تَدعنا، فيرقُّ لهم فيقعد عن الغزو.

وشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية في شأنهم.

فهذه الآية مستأنفة استئنافاً ابتدائياً ويكون موقعها هذا سبب نزولها صادف أن كان عقب ما نزل قبلها من هذه السورة.

والمناسبة بينها وبين الآية التي قبلها لأن كلتيهما تسلية على ما أصاب المؤمنين من غَمّ من معاملة أعدائهم إياهم ومن انحراف بعض أزواجهم وأولادهم عليهم.

(53/767)

وإذا كانت السورة كلها مكية كما هو قول الضحاك كانت الآية ابتداء إقبال على تخصيص المؤمنين بالخطاب بعد قضاء حق الغرض الذي ابتدئت به السورة على عادة القرآن في تعقيب الأغراض بأضدادها من ترغيب أو ترهيب، وثناء أو ملام، أو نحو ذلك ليوفّى

الطرفان حقيهما ، وكانت تنبيهاً للمسلمين لأحوال في عائلاتهم قد تخفى عليهم ليأخذوا حذرهم ، وهذا هو المناسب لما قبل الهجرة كان المسلمون بمكة ممتزجين مع المشركين بوشائج النسب والصهر والولاء فلما ناصبهم المشركون العداء لمفارقتهم دينهم وأضمروا لهم الحقد وأصبحوا فريقين كان كل فريق غير خال من أفراد متفاوتين في المضادة تبعاً للتفاوت في صلابة الدين ، وفي أواصر القرابة والصهر ، وقد يبلغ العداء إلى نهاية طرفه فتندحض أمامة جميع الأواصر فيصبح الأشد قرباً أشد مضرة على قريبه من مضرة البعيد .

فأيقظت هذه الآية المؤمنين لئلا يغرّهم أهل قرابتهم فيما توهم من جانب غرورهم فيكون ضرهم أشد عليهم وفي هذا الإيقاظ مصلحة للدين وللمسلمين ولذلك قال تعالى : ﴿ فاحذروهم ﴾ ولم يأمر بأن يضروهم ، وأعقبه بقوله : ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾ ، جمعاً بين الحذر وبين المسالمة وذلك من الحزم .

و﴿ مِن ﴾ تبعيضية .

وتقديم خبر ﴿ إنَّ ﴾ على اسمها للاهتمام بهذا الخبر ولما فيه من تشويق إلى الاسم ليتمكن مضمون هذا الخبر في الذهن أتم تمكن لما فيه من الغرابة والأهمية .

وقد تقدم مثله عند قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ﴾ في سورة [البقرة : 8] .

وعَدُوّ وصف من العداوة بوزن فَعول بمعنى فاعل فلذلك لزم حالة الإفراد والتذكير إذا كان وصفاً ، وقد مضى ذلك عند قوله تعالى : ﴿ فإن كان من قوم عدوّ لكم ﴾ في سورة [النساء : 92] .

فأما إذا أريد منه معنى الاسمية فيطابق ما أجري عليه ، قال تعالى : ﴿ يكونوا لكم أعداء ﴾ [الممتحنة : 2] .

(54/767)

والإخبار عن بعض الأزواج والأولاد بأنهم عدوٌّ يجوز أن يحمل على الحقيقة فإن بعضهم قد يضمر عداوة لزوجه وبعضهم لأبويه من جراء المعاملة بما لا يروق عنده مع خباثة في النفس وسوء تفكير فيصير عدوّاً لمن حقه أن يكون له صديقاً ، ويكثر أن تأتي هذه العداوة من اختلاف الدين ومن الانتماء إلى الأعداء .

ويجوز أن يكون على معنى التشبيه البليغ ، أي كالعدوّ في المعاملة بما هو من شأن معاملة الأعداء كما قيل في المَثَل : يفعل الجاهل بنفسه ما يفعل العدوّ لعدوّه .

وهذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه .

وعُطف على قوله : ﴿ فاحذروهم ﴾ جملة ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا ﴾ إلى آخرها

عَطف الاحتراس لأنه إذا كان العفو مطلوباً محبوباً إلى الله تعالى وهو لا يكون إلا بعد حصول الذنب فإن عدم المؤاخذة على مجرد ظنّ العداوة أجدر بالطلب ففهم النهي عن معاملة الأزواج والأبناء معاملةَ الأعداء لأجل إيجاس العداوة ، بل المقصود من التحذير التوقّي وأخذُ الحيطة لابتداء المؤاخذة ، ولذلك قيل : "الحزم سوء الظن بالناس" ، أي لكن دون أن يبنى على ذلك الظن معاملة من صدر منه ما ظننت به قال تعالى : ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ [الحجرات : 12] وقال : ﴿ أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ [الحجرات : 6] .

والعفو : ترك المعاقبة على الذنب بعد الاستعداد لها .

ولو مع توبيخ .

والصفح : الإِعراض عن المذنب ، أي ترك عقابه على ذنبه دون التوبيخ .

والغفر : ستر الذنب وعدم إشاعته .

والجمع بينها هنا إيماء إلى تراتب آثار هذه العداوة وما تقتضيه آثارها من هذه المعاملات الثلاث .

وحذف متعلق الأفعال الثلاثة لظهور أن المراد من أولادكم وأزواجكم فيما يصدر منهم مما يؤذيكم ، ويجوز أن يكون حذف المتعلق لإِرادة عموم الترغيب في العفو .

وإنما يعفو المرء ويصفح ويغفر عن المذنب إذا كان ذنبه متعلقاً بحق ذلك المرء وبهذه الأفعال المذكورة هنا مطلقة وفي أدلة الشريعة تقييدات لها .

(55/767)

وجملة ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ دليل جواب الشرط المحذوف المؤذن بالترغيب في العفو والصفح والغفر فالتقدير وأن تعفوا وتصفحوا وتغفروا يحب الله ذلك منكم لأن الله غفور رحيم ، أي للذين يغفرون ويرحمون ، وجمع وصف رحيم الخصال الثلاث .

إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15)

تذييل لأن فيه تعميمَ أحوال الأولاد بعد أن ذُكر حال خاص ببعْضهم .

وأدمج فيه الأموال لأنها لم يشملها طلب الحذر ولا وصف العداوة .

وقدم ذكر الأموال على الأولاد لأن الأموال لم يتقدم ذكرها بخلاف الأولاد .

ووجه إدماج الأموال هنا أن المسلمين كانوا قد أصيبوا في أموالهم من المشركين فغلبوهم على أموالهم ولم تُذكر الأموال في الآية السابقة لأن الغرض هو التحذير من أشد الأشياء اتصالاً بهم وهي أزواجهم وأولادهم .

ولأن فتنة هؤلاء مضاعفة لأن الداعي إليها يكون من أنفسهم ومن مساعي الآخرين

وتسويلهم .

وجُرد عن ذكر الأزواج هنا اكتفاء لدلالة فتنة الأولاد عليهن بدلالة فحوى الخطاب ، فإن فتنتهن أشد من فتنة الأولاد لأن جُرْأتهن على التسويل لأزواجهن ما يحاولنه منهم أشد من جرأة الأولاد .

والقصر المستفاد من ﴿ إنما ﴾ قصر موصوف على صفة ، أي ليست أموالكم وأولادكم إلا فتنةً .

وهو قصر ادعائي للمبالغة في كثرة ملازمة هذه الصفة للموصوف إذ يندُر أن تخلو أفرادُ هذين النوعين ، وهما أموال المسلمين وأولادهم عن الاتصاف بالفتنة لمن يتلبس بهما .

والإِخبار بـ ﴿ فتنة ﴾ للمبالغة .

والمراد : أنهم سبب فتنة سواء سعوا في فعل الفَتْن أم لم يسعوا .

فإن الشغل بالمال والعناية بالأولاد فيه فتنة .

ففي هذه الآية من خصوصيات علم المعاني التذييلُ والإِدماج ، وكلاهما من الإِطناب ، والاكتفاءُ وهو من الإِيجاز ، وفيها الإِخبار بالمصدر وهو ﴿ فتنة ﴾ ، والإِخبار به من

المبالغة فهذه أربعة من المحسنات البديعية، وفيها القصر، وفيها التعليل، وهو من خصوصيات الفصل، وقد يعد من محسنات البديع أيضاً فتلك ست خصوصيات.

وفصلت هذه الجملة عن التي قبلها لأنها اشتملت على التذييل والتعليل وكلاهما من مقتضيات الفصل.

والفتنة: اضطراب النفس وحيرتها من جراء أحوال لا تلائم مَن عرضت له، وتقدم عند قوله تعالى ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ في سورة [البقرة: 191].

أخرج أبو داود عن بريدة قال: إن رسول الله كان يخطب يوم الجمعة حتى جاء الحسن والحسين يعثران ويقومان فنزل رسول الله عن المنبر فأخذهما وجذبهما ثم قرأ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾.

وقال: رأيت هذين فلم أصبر، ثُم أخذ في خطبته".

وذكر ابن عطية: أن عمر قال لحذيفة: كيف أصبحتَ فقال: أصبحتُ أحب الفتنة وأكره الحق.

فقال عمر: ما هذا؟ فقال: أحب ولدي وأكره الموت.

وقوله: ﴿ والله عنده أجر عظيم ﴾ عطف على جملة ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ لأن قوله: ﴿ عنده أجر عظيم ﴾ كناية عن الجزاء عن تلك الفتنة لمن يصابر نفسه على مراجعة ما تسوله من الانحراف عن مرضاة الله إن كان في ذلك تسويل.

والأجر العظيم على إعطاء حق المال والرأفة بالأولاد ، أي والله يؤجركم عليها .

لقول النبي صلى الله عليه وسلم " من ابتُلي من هذه البنات بشيء وكنّ له سترًا من النار "

وفي حديث آخر " إن الصبر على سوء خلق الزوجة عبادة " .

والأحاديث كثيرة في هذا المعنى منها ما رواه حذيفة : فتنة الرجل في أهله وماله تكفرها الصلاة والصدقة .

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِأَنفُسِكُمْ

(57/767)

فاء فصيحة وتفريع على ما تقدم ، أي إذا علمتم هذا فاتقوا الله فيما يجب من التقوى في معاملة الأولاد والأزواج ومصارِف في الأموال فلا يصدّكم حب ذلك والشغل به عن الواجبات ، ولا يخرجكم الغضب ونحوه عن حدّ العدل المأمور به ، ولا حُبُّ المال عن أداء حقوق الأموال وعن طلبها من وجوه الحلال .

فالأمر بالتقوى شامل للتحذير المتقدم وللترغيب في العفو كما تقدم ولما عدا ذلك .

والخطاب للمؤمنين .

وحذف متعلق (اتقوا) لقصد تعميم ما يتعلق بالتقوى من جميع الأحوال المذكورة وغيرها

وبذلك يكون هذا الكلام كالتذييل لأن مضمونه أعم من مضمون ما قبله .

/

ولما كانت التقوى في شأن المذكورات وغيرها قد يعرض لصاحبها التقصير في إقامتها حرصاً على إرضاء شهوة النفس في كثير من أحوال تلك الأشياء زيد تأكيد الأمر بالتقوى بقوله : ﴿ ما استطعتم ﴾ .

و﴿ مَا ﴾ مصدرية ظرفية ، أي مدة استطاعتكم ليعم الأزمان كلها ويعم الأحوال تبعاً لعموم الأزمان ويعم الاستطاعات ، فلا يتخلوا عن التقوى في شيء من الأزمان .

وجعلت الأزمان ظرفاً للاستطاعة لئلا يقصروا بالتفريط في شيء يستطيعونه فيما أمروا بالتقوى في شأنه ما لم يخرج عن حدّ الاستطاعة إلى حدّ المشقة قال تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة : 185] .

فليس في قوله : ﴿ ما استطعتم ﴾ تخفيف ولا تشديد ولكنه عَدل وإنصافٌ .

ففيه ما عليهم وفيه ما لهم .

روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال : "بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فلقّنني : "فيما استطعت" ، وعن ابن عمر : كنّا إذا بايعنا النبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة يقول لنا "فيما استطعتُ" .

وعطفُ ﴿ واسمعوا وأطيعوا ﴾ على (اتقوا الله) من عطف الخاص على العام للاهتمام به ، ولأن التقوى تتبادر في ترك المنهيات فإنها مشتقة من وقَى .

(58/767)

فتقوى الله أن يقي المرء نفسه مما نهاه الله عنه ، ولما كان ترك المأمورات فيؤول إلى إتيان المنهيات ، لأن ترك الأمر منهي عنه إذ الأمر بالشيء نهي عن ضده .

كان التصريح به بخصوصه اهتماماً بكلا الأمرين لتحصل حقيقة التقوى الشرعية وهي اجتناب المنهيات وامتثال المأمورات .

والمراد : اسمعوا الله ، أي أطيعوه بالسمع للرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته .

والأمر بالسمع أمر بتلقّي الشريعة والإِقبال على سماع مواعظ النبي صلى الله عليه وسلم وذلك وسيلة التقوى قال تعالى : ﴿ فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ [الزمر : 17 ، 18] .

وعطف عليه ﴿ وأطيعوا ﴾ : أي أطيعوا ما سمعتم من أمر ونهي .

وعَطْف ﴿ وأنفقوا ﴾ تخصيصٌ بعد تخصيص فإن الإِنفاق مما أمر الله به فهو من المأمورات .

وصيغة الأمر تشتمل واجب الإنفاق والمندوبَ ففيه التحريض على الإنفاق بمرتبتيه وهذا من الاهتمام بالنزاهة عن فتنة المال التي ذكرت في قوله:

﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ [التغابن: 15].

وانتصب ﴿ خيراً ﴾ على الصفة لمصدرٍ محذوف دل عليه ﴿ أنفقوا ﴾.

والتقدير: إنفاقاً خيراً لأنفسكم.

هذا قول الكسائي والفرّاء فيكون ﴿ خيراً ﴾ اسم تفضيل.

وأصله: أَخْير، وهو محذوف الهمزة لكثرة الاستعمال، أي الإنفاق خير لكم من الإمساك.

وعن سيبويه أنه منصوب على أنه مفعول به لفعل مضمر دل عليه ﴿ أنفقوا ﴾.

والتقدير: ائتوا خيراً لأنفسكم.

وجملة ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ تذييل.

و﴿ مَن ﴾ اسم شرط وهي من صيغ العموم: أي كل من يوق شحّ نفسه والعموم يدل على أن ﴿ من ﴾ مراد بها جنس لا شخص معين ولا طائفة، وهذا حب اقتضاه حرص أكثر الناس على حفظ المال وادخاره والإقلالِ من نفع الغير به وذلك الحرص يسمى الشح.

والمعنى: أن الإنفاق يقي صاحبه من الشحّ المنهي عنه فإذا يُسر على المرء الإنفاق فيما أمر الله به فقد وُقي شُحّ نفسه وذلك من الفلاح.

ولما كان ذلك فلاحاً عظيماً جيء في جانبه بصيغة الحصر بطريقة تعريف المسند ، وهو قصر جنس المفلحين على جنس الذين وُقُوا شحّ أنفسهم ، وهو قصر ادعائي للمبالغة في تحقق وصف المفلحين الذين وقُوا شحّ أنفسهم نزّل الآن فلاح غيرهم بمنزلة العدم .

وإضافة ﴿ شح ﴾ إلى النفس للإشارة إلى أن الشح من طباع النفس فإن النفوس شحيحة بالأشياء المحببة إليها قال تعالى : ﴿ وأحضرت الأنفس الشحّ ﴾ [النساء : 128].

وفي الحديث لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الصدقة قال : " أن تَصدّق وأنت صحيح شَحِيح تخشى الفقر وَتأْمُل الغنى .

وأنْ لا تدَعَ حتى إذا بلغت الحلقومَ قلتَ لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان " وتقدم نظيره ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ في سورة [الحشر : 9] .

إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17)

استئناف بياني ناشىء عن قوله : ﴿ وأنفقوا خيراً لأنفسكم ﴾ [التغابن : 16] ، فإن مضاعفة الجزاء على الإنفاق مع المغفرة خير عظيم ، وبهذا الموقع يعلم السامع أن القرض

أطلق على الإِنفاق المأمور به إطلاقاً بالاستعارة، والمقصود الاعتناء بفضل الإِنفاق المأمور به اهتماماً مكرراً فبعد أن جُعل خيراً جُعل سببَ الفلاح وعُرف بأنه قرض من العبد لربّه وكفى بهذا ترغيباً وتلطفاً في الطلب إذ جُعل المنفق كأنه يعطي الله تعالى مالاً وذلك من معنى الإِحسان في معاملة العبد ربّه وقد بينه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل إذ قال جبريل للنبيء عليهما الصلاة والسّلام: أخبرني عن الإِحسان فقال النبي صلى الله عليه وسلم "الإِحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" فمما ينضوي تحت معنى عبادة الله عبادةَ من يراه أن يستشعر العبدُ أن امتثال أمر ربه بالإِنفاق المأمور به منه كأنه معاملة بين مُقرض ومستقرض.

(60/767)

وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ في سورة [البقرة: 245].

وقرأ الجمهور يضاعفه ﴾ بألف بعد الضاد وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب ﴿ يضعِّفه ﴾ بتشديد العين مضارع ضَعَّف، وهما بمعنى واحد وهو لفظي الضعف.

والمضاعفة: إعطاء الضِعف بكسر الضاد وهو مِثل الشيء في الذات أو الصفة.

وتصدُق بمثل وبعدة أمثال كما قال تعالى : ﴿ أضعافاً كثيرة ﴾ [البقرة : 245] .

وجعل الإِنفاق سبب للغفران كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " الصدقة تطفىء الخطايا كما يطفىء الماء النار " .

والشكور : فَعول بمعنى فاعل مبالغة ، أي كثير الشكر وأطلق الشكر فيه على الجزاء بالخير على فعل الصالحات تشبيهاً لفعل المتفضل بالجزاء بشكر المنعَم عليه على نعمة ولا نعمة على الله فيما يفعله عباده من الصالحات .

فإنما نفعها لأنفسهم ولكن الله تفضّل بذلك حثاً على صلاحهم فرتب لهم الثواب بالنعيم على تزكية أنفسهم ، وتلطف لهم فسمى ذلك الثواب شكراً وجعل نفسه شاكراً .

وقد أوما إلى هذا المقصد إتباع صفة ﴿ شكور ﴾ بصفة ﴿ حليم ﴾ تنبيهاً على أن ذلك من حِلمه بعباده دون حق لهم عليه سبحانه .

وأمّا وصف بـ ﴿ عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ﴾ فتتميم للتذكير بعظمة الله تعالى مع مناسبتها للترغيب والترهيب اللذين اشتملت عليهما الآيات السابقة كلها لأن العالم بالأفعال ظاهرها وخفيّها لا يفيت شيئاً من الجزاء عليها بما رتب لها ، ولأن العزيز لا يعجزه شيء .

و﴿ الحكيم ﴾ : الموصوف بالحكمة لا يدع معاملة الناس بما تقتضيه الحكمة من وضع الأشياء مواضعها ونوط الأمور بما يناسب حقائقها .

والحكيم فعيل بمعنى : المحكم ، أي المتقن في صنعه ومعاملته وهما معاً من صفاته تعالى فهو وصف جامع للمعنيين . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(61/767)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فاحذروهم ﴾ [14]

قال : من حملك من أزواجك وأولادك على جمع الدنيا والركون إليها فهو عدو لك ، ومن حثك على بذلها وإنفاقها ، ودلك على القناعة والتوكل فليس بعدو لك .

وحكي عن الحسن أنه قال : يا ابن آدم ، لا يغرنك من حولك من السباع الضارية ابنك وحليلتك وكلالتك وخادمك ، أما ابنك فمثل الأسد في الشدة والصولة ، ينازعك فيما في يدك ؛ وأما حليلتك ، فمثل الكلبة في الهرير والبصبصة ، تهر أحياناً وتبصبص أحياناً ؛ وأما كلالتك ، فوالله لدرهم يقع في ميراث أحدهم ، أحب إليه من أن لو كنت أعتقت رقبة ؛ وأما خادمك ، فمثل الثعلب في الحيل والسرقة .

وأقول لك يا ابن آدم ، اتق الله ، فلا توقر ظهرك بصلاحهم ، فإنما لك خطوات إلى منزلك القابل لأربعة أذرع في ذراعين ، فإذا وضعوك هناك انصرفوا عنك وصرفوا النيات ، وضربوا الدفوف ، وضحكوا بالقهقهة ، وأنت تحاسب بما في أيديهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير التسترى صـ 169 ﴾

(62/767)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) ﴾

أخرج ابن حبان في الضعفاء والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من مولود يولد إلا وإنه مكتوب في تشبيك رأسه خمس آيات من فاتحة سورة التغابن " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا مكث المني في الرحم أربعين ليلة أتاه ملك

النفوس فعرج به إلى الرب فيقول : يا رب أذكر أم أنثى ؟ فيقضي الله ما هو قاض ، فيقول أشقي أم سعيد ؟ فيكتب ما هو لاق " وقرأ أبو ذر من فاتحة التغابن خمس آيات إلى قوله : ﴿ وصوّركم فأحسن صوركم وإليه المصير ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " العبد يولد مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت مؤمناً ، والعبد يولد كافراً ويعيش كافراً ويموت كافراً ، وإن العبد يعمل برهة من الزمان بالشقاوة ، ثم يدركه الموت بما كتب له ، فيموت شقياً ، وإن العبد يعمل برهة من دهره بالشقاوة ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيداً " .

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (7)

أخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه " عن ابن مسعود أنه قيل له : ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول في (زعموا) قال : سمعته يقول : " بئس مطية الرجل " " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عبد الله بن مسعود أنه كره : زعموا .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد أنه كره زعموا لقول الله : ﴿ زعم الذين كفروا ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن هانىء بن عروة أنه قال لابنه : هب لي اثنتين : " زعموا وسوف " لا يكونان في حديثك .

وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال : زعم كنية الكذب .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن شريح قال : زعم كنية الكذب .

وأخرج ابن أبي شيبة قال : زعموا زاملة الكذب .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾ قال : هو يوم القيامة وذلك ﴿ يوم التغابن ﴾ غبن أهل الجنة أهل النار .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ يوم التغابن ﴾ من أسماء يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ قال : غبن أهل الجنة أهل النار .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ قال : غابن أهل الجنة أهل النار ، والله أعلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن علقمة في قوله : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ قال : هو الرجل تصيبه المصيبة

فيعلم أنها من عند الله فيسلم الأمر لله ويرضى بذلك .

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود رضي الله عنه في الآية قال : هي المصيبات تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ يعني يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

وأخرج ابن المنذر عن جريج رضي الله عنه في قوله : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ قال : من أصاب من الإيمان ما يعرف به الله فهو مهتدي القلب .

قوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

(64/767)

أخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " شعار المؤمنون يوم يبعثون من قبورهم لا إله إلا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون " .

أخرج الفريابي وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية ﴿

يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴾ في قوم من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال : كان الرجل يريد الهجرة فتحبسه امرأته وولده ، فيقول : إنا والله لئن جمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لأفعلن ولأفعلن ، فجمع الله بينهم في دار الهجرة ، فأنزل الله ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا ﴾ .

وأخرج عبد حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴾ قال : منهم من لا يأمر بطاعة ولا ينهى عن معصية ، وكفى بذلك عداوة للمرء أن يكون صاحبه لا يأمر بطاعة ، ولا ينهى عن معصية ، وكانوا يثبطون عن الجهاد والهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ قال : بلاء ﴿ والله عنده أجر عظيم ﴾ قال : الجنة .

وأخرج ابن المنذر والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لا يقولن أحدكم : اللهم إني أعوذ بك من الفتنة ، فإنه ليس أحد منكم إلا وهو مشتمل على فتنة ، فإن الله يقول : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلاتها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي الضحى قال : قال رجل ، وهو عند عمر : اللهم إني أعوذ بك من الفتنة أو الفتن ، فقال عمر : أتحب أن لا يرزقك الله مالاً ولا ولداً ، أيكم استعاذ من الفتن فليستعذ من مضلاتها .

وأخرج ابن مردويه عن كعب بن عياض رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن لكل أمة فتنة ، وإن فتنة أمتي المال " .

وأخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : " لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال " .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال " .

وأخرج وكيع في الغرر عن محمد بن سيرين رضي الله عنه قال : قال ابن عمر لرجل : إنك

تحب الفتنة. قال: أنا؟ قال: نعم فلما رأى ابن عمر ما داخل الرجل من ذاك، قال: تحب المال والولد.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وابن مردويه عن بريدة رضي الله عنه قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر فحملهما واحداً من ذا الشق، وواحداً من ذا الشق، ثم صعد المنبر فقال: "صدق الله، قال: ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما "".

(66/767)

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو يخطب الناس على المنبر خرج الحسين بن علي رضي الله عنه فوطىء في ثوب كان عليه فسقط، فبكى، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنبر، فلما رأى الناس أسرعوا إلى الحسين رضي الله عنه يتعاطونه، يعطيه بعضهم بعضاً حتى وقع في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " قاتل الله الشيطان، إن الولد لفتنة، والذي

نفسي بيده ما دريت أني نزلت عن منبري " " .

وأخرج ابن المنذر عن يحيى بن أبي كثير رضي الله عنه قال : " سمع النبي صلى الله عليه وسلم بكاء حسن أو حسين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " الولد فتنة ، لقد قمت إليه وما أعقل " والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ .

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ [آل عمران : 102] اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ فنسخت الآية الأولى .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن أنس ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ قال : جهدكم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ قال : هي رخصة من الله ، كان الله قد أنزل في سورة آل عمران ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ [آل عمران : 102] وحق تقاته أن يطاع فلا يعصى ، ثم خفف عن عباده ، فأنزل الرخصة ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا ﴾ قال : السمع والطاعة فيما استطعت يا

ابن آدم عليها ، بايع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على السمع والطاعة فيما استطاعوا .

(67/767)

وأخرج ابن سعد وأحمد وأبو داود عن الحكم بن حزن الكلفي قال : وفدنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلبثنا أياماً شهدنا فيها الجمعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام متوكئاً على قوس ، فحمد الله ، وأثنى عليه كلمات طيبات خفيفات مباركات ، ثم قال : " أيها الناس إنكم لن تطيقوا كل ما أمرتم به فسددوا وابشروا " .

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء رضي الله عنه ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ قال : في النفقة .

وأخرج عبد بن حميد عن حبيب بن شهاب العنبري أنه سمع أخاه يقول : لقيت ابن عمر يوم عرفة ، فأردت أن أقتدي من سيرته ، وأسمع من قوله ، فسمعته أكثر ما يقول : اللهم إني أعوذ بك من الشح الفاحش ، حتى أفاض ، ثم بات بجمع ، فسمعته أيضاً يقول ذلك ، فلما أردت أن أفارقه قلت يا عبد الله : إني أردت أن أقتدي بسيرتك فسمعتك أكثر ما تقول أن تعوذ من الشح الفاحش قال : وما أبغي أفضل من أن أكون من المفلحين ؟ قال الله : ﴿ ومن

يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن تقرضوا الله ﴾ الآية .

أخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله استقرضت عبدي فأبى أن يقرضني ، وشتمني عبدي ، وهو لا يدري ، يقول وادهراه وادهراه ، وأنا الدهر " ثم تلا أبو هريرة ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي حيان عن أبيه عن شيخ لهم أنه كان يقول إذا سمع السائل يقول : من يقرض الله قرضاً حسناً ، قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هذا القرض الحسن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 181. 187 ﴾

(68/767)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض لَهُ الملك ﴾

أي : له الملك الدائم الذي لا يزول ، يعني : يحمده المؤمنون في الدنيا وفي الجنة .

كما قال : ﴿ وَلَهُ الحمد ﴾ في الأولى والآخرة ، ويقال : ﴿ لَهُ الحمد ﴾ يعني : هو المحمود

في شأنه ، وهو أهل أن يحمد ، لأن الخلق كلهم في نعمته .

فالواجب عليهم أن يحمدوه .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يعني : قادر على ما يشاء .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ يعني : يخلقكم من نفس واحدة ، ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ يعني : منكم من يصير كافراً ، ومنكم من يصير أهلاً للإيمان ويؤمن بتوفيق الله تعالى .

ويقال : منكم من خلقه كافراً ، ومنكم من خلقه مؤمناً ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ألا إِنَّ بَنِي آدَمَ خُلِقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ شَتَّى " .

وإلى هذا ذهب أهل الجبر .

ويقال : ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ ﴾ يعني : كافر بأن الله تعالى خلقه ، وهو كقوله : ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [عبس : 18/17] وكقوله : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ [الكهف : 37] ، ويقال : ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ ﴾ يعني : كافراً في السر وهم المنافقون ﴿ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ وهم المخلصون .

ويقال : هذا الخطاب لجميع الخلق ، ومعناه : هو الذي خلقكم ، فمنكم كافر بالله وهم المشركون ، ومنكم مؤمن وهم المؤمنون ، يعني : استويتم في خلق الله إياكم ، واختلفتم في أحوالكم ، فمنكم من آمن بالله ، ومنكم من كفر .

ثم قال : ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يعني : عليماً بما تعملون من الخير والشر .

ثم قال عز وجل : ﴿ خُلِقَ السموات والأرض بالحق ﴾ يعني : بالحق والحجة والثواب والعقاب .

(69/767)

﴿ وَصَوَّرَكُمْ ﴾ يعني : خلقكم ، ﴿ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ يعني : خلقكم على أجمل صورة .

وهذا كقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] وكقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءَادَمَ وحملناهم فِى البر والبحر ورزقناهم مِّنَ الطيبات وفضلناهم على كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : 70] ثم قال : ﴿ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ يعني : إليه المرجع في الآخرة ، فهذا التهديد يعني : كونوا على الحذر .

لأن مرجعكم إليه .

ثم قال : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السموات والأرض ﴾ يعني : من كل موجود .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ يعني : ما تخفون وما تضمرون في قلوبكم ، وما تظهرون وتعلنون بألسنتكم .

﴿ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ يعني : عليماً بسرائركم .

ثم قال الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الذين كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ﴾ .

اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به التوبيخ والتقريع ، يعني : قد أتاكم خبر الذين كفروا من قبلكم .

﴿ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ يعني : أصابتهم عقوبة ذنبهم في الدنيا .

ثم أخبر : أن ما أصابهم في الدنيا ، لم يكن كفارة لذنوبهم ، فقال : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة ثم بين السبب الذي أصابهم به العذاب ، فقال : ﴿ ذلك ﴾ العذاب .

﴿ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ يعني : بالأمر والنهي ، ويقال : ﴿ بالبينات ﴾ يعني : بالدلائل والحجج .

﴿ فَقَالُواْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ يعني : آدمياً مثلنا يرشدنا ويأتينا بدين غير دين آبائنا ؟ ﴿ فَكَفَرُواْ ﴾ يعني : جحدوا بالرسل والكتاب ، ﴿ وَتَوَلَّواْ ﴾ يعني : أعرضوا عن الإيمان .

﴿ واستغنى الله ﴾ تعالى عن إيمانهم .

﴿ والله غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ عن إيمان العباد ﴿ حَمِيدٌ ﴾ في فعاله ، يقبل اليسير ويعطي الجزيل .

ثم قال عز وجل : ﴿ زَعَمَ الذين كَفَرُواْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ﴾ يعني : مشركي العرب ، زعموا أن لن يبعثوا بعد الموت .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ بلى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ .

فهذا قسم أقسم أنهم يبعثون بعد الموت .

﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ يعني : تخبرون بما عملتم في دار الدنيا ، ويجزون على ذلك .

ثم قال : ﴿ وَذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ يعني : البعث والجزاء على الله هين .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الناس ﴾ يعني : صدقوا بوحدانية الله تعالى ، وصدقوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ والنور الذى أنزلناه ﴾ يعني : صدقوا بالقرآن الذي نزل به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فسمى القرآن نوراً ، لأنه يهتدى به في ظلمة الجهالة والضلالة ، ويعرف به الحلال والحرام .

ثم قال : ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يعني : عالم بأعمالكم فيجازيكم بها .

ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ يعني : تبعثون في يوم يجمعكم ﴿ لِيَوْمِ الجمع ﴾ يعني : يوم تجمع فيه أهل السماء وأهل الأرض ، ويجمع فيه الأولون والآخرون .

قرأ يعقوب الحضرمي ﴿ يَوْمٍ ﴾ بالنون ، وقراءة العامة بالياء ومعناهما واحد .

ثم قال: ﴿ الجمع ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ يعني: يغبن فيه الكافر نفسه.

وأصله ومنازله في الجنة، يعني: يكون له النار مكان الجنة، وذلك هو الغبن والخسران.

ثم قال: ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صالحا ﴾ يعني: يوحد الله تعالى ويؤدّي الفرائض.

﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سيئاته ﴾ يعني: ذنوبه، ﴿ وَيُدْخِلْهُ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار

خالدين فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الفوز العظيم ﴾ يعني: النجاة الوافرة.

قرأ نافع، وابن عامر ﴿ نُكَفِّرَ ﴾ و ﴿ ندخله ﴾ كلاهما بالنون، والباقون كلاهما بالياء

، ومعناهما واحد.

ثم وصف حال الكافرين فقال عز وجل: ﴿ الميمنة والذين كَفَرُواْ بآياتنا ﴾ يعني:

بالكتاب والرسول.

(71/767)

﴿ أُوْلَئِكَ أَصحاب النار خالدين فِيهَا وَبِئْسَ المصير ﴾ يعني: بئس المرجع الذي صاروا

إليه المغبونين.

ثم قال عز وجل: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ يعني: ما أصاب بني آدم من شدة ومرض

وموت الأهلين، ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ يعني: إلا بإرادة الله تعالى وبعلمه.

﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله ﴾ يعني : يصدق بالله على المصيبة ، ويعلم أنها من الله تعالى ، ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ يعني : إذا ابتلي صبر ، وإذا أنعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفر .

وروي ، عن علقة بن قيس : أن رجلاً قرأ عنده هذه الآية ، فقال : أتدرون ما تفسيرها ؟ وهو أن الرجل المسلم ، يصاب بالمصيبة في نفسه وماله ، يعلم أنها من عند الله تعالى ، فيسلم ويرضى .

ويقال : ﴿ مَن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ للاسترجاع يعني : يوفقه الله تعالى لذلك .

﴿ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : عالم بثواب من صبر على المصيبة .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأَطِيعُواْ الله ﴾ يعني : أطيعوا الله في الفرائض ، ﴿ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ في السنن .

ويقال : أطيعوا الله في الرضا بما يقضي عليكم من المصيبة ، وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الصبر وترك الجزع .

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ يعني : أبيتم وأعرضتم عن طاعة الله وطاعة رسوله .

﴿ فَإِنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين ﴾ أي : ليس عليه أكثر من التبليغ ثم وحَّد نفسه ، فقال عز وجل : ﴿ الله لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ يعني : لا ضار ، ولا نافع ، ولا كاشف إلاَّ هو .

﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ يعني : على المؤمنين أن يتوكلوا على الله ، ويفوضوا أمرهم إليه .

قوله تعالى : ﴿ المؤمنون يا أَيُّهَا الذين ءامَنُوا إِنَّ مِنْ أزواجكم وأولادكم عَدُوّاً لَّكُمْ ﴾ ، حين يمنعونكم الهجرة ، ﴿ فاحذروهم ﴾ أن تطيعوهم في ترك الهجرة.

روى سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن قوماً أسلموا بمكة ، فأرادوا أن يخرجوا إلى المدينة ، فمنعهم أزواجهم وأولادهم.

(72/767)

فلما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم ، رأوا الناس قد فقهوا في الدين ، فأرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم ، فنزل قوله تعالى : ﴿ المؤمنون يا أَيُّهَا الذين ءامَنُوا إِنَّ مِنْ أزواجكم وأولادكم عَدُوّاً لَّكُمْ فاحذروهم ﴾ .

﴿ وَإِن تَعْفُوا ﴾ يعني : تتركوا عقابهم ، ﴿ وَتَصْفَحُوا ﴾ يعني : وتتجاوزوا ، ﴿ وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لذنوب المؤمنين ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهم.

ثم قال : ﴿ إِنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ ﴾ يعني : الذين بمكة بلية لا يقدر الرجل على الهجرة.

روي ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبنا ، فأقبل الحسن والحسين يمشيان ويعثران.

فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نزل إليهما وأخذهما واحداً من هذا الجانب ، وواحداً من هذا الجانب .

ثم صعد المنبر ، فقال : " صَدَقَ الله ﴿ إِنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ ﴾ .

لَمَّا رَأَيْتُ هاذين الغُلامَيْنِ ، لَمْ أَصْبِرْ أَنْ قَطَعْتُ كَلامِي ، وَنَزَلْتُ إِلَيْهِمَا " .

ثم أتم الخطبة .

ثم قال : ﴿ والله عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : ثواب عظيم ، لمن آمن ولمن لم يعص الله تعالى لأجل الأموال والأولاد وأحسن إليهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ يعني : على قدر ما أطقتم .

﴿ واسمعوا ﴾ يعني : اسمعوا ما تؤمرون به من المواعظ .

﴿ وَأَطِيعُواْ ﴾ يعني : وأطيعوا الله والرسول .

﴿ وَأَنفِقُواْ خَيْراً لِأَنفُسِكُمْ ﴾ يعني : تصدقوا خيراً ، يعني : وأنفقوا من أموالكم في حق الله تعالى ﴿ لأنفُسِكُمْ ﴾ يعني : ثوابه لأنفسكم ، ويكون زاداً لكم إلى الجنة .

ويقال معناه : تصدقوا خيراً لأنفسكم من إمساك الصدقة .

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ يعني : يدفع البخل عن نفسه ، ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ يعني : الناجين السعداء .

وقوله تعالى : ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ يعني : صادقاً من قلوبكم .

﴿ يضاعفه لَكُمْ ﴾ يعني : القرض يضاعف حسناتكم .

ويقال : ﴿ يضاعفه لَكُمْ ﴾ يعني : الله تعالى يضاعف القرض لكم ، فيعطي للواحد

عشرة .

إلى سبعمائة ، إلى ما لا يحصى .

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ يعني : يغفر لكم ذنوبكم .

﴿ والله شَكُورٌ ﴾ يعني : يقبل اليسير ويعطي الجزيل .

﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعجل بالعقوبة لمن يبخل .

ثم قال : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ ، وقد ذكرناه .

﴿ العزيز الحكيم ﴾ يعني : العزيز في ملكه ، الحكيم في أمره ، سبحانه وتعالى ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 432 . 436 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ يُسَبّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض لَهُ الملك وَلَهُ الحمد وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الذي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

اختلف العلماء في حكم هذه الآية ، فقال قوم : إنّ اللّه سبحانه خلق الخلق مؤمنين وكافرين .

قال ابن عبّاس : بدأ اللّه خلق بني آدم مؤمناً وكافراً ثمّ يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً .

واحتجّوا بحديث الصادق المصدِّق وقوله : " السعيد من سعد في بطن أمّه والشقي من شقي في بطن أُمّه " .

وكما أخبرنا عبد الله بن كامل الأصبهاني قال : أخبرني أُبو بكر أحمد بن محمد بن يحيى العبدي بنو شيخ قال : حدّثنا أحمد بن نجدة بن العريان قال : حدّثنا المحاملي قال : حدّثنا ابن المبارك عن أبي لهيعة قال : حدّثني بكر بن سوادة عن أبي تميم الحسائي عن أبي ذر عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : " إذا مكث المني في الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس ، فعرج به إلى الرّب تبارك وتعالى ، فقال : يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضي اللّه سبحانه ماهو قاض . أشقيٌ أم سعيد ؟ فيكتب ما هو لاق " وقرأ أُبو ذر من فاتحة التغابن خمس آيات " .

وأخبرنا عبد الخالق قال : أخبرنا ابن حبيب قال : حدّثنا إبراهيم بن إسماعيل السيوطي قال : حدّثنا داود بن المفضل قال : حدّثنا نصر بن طريف قال : أخبرنا قتادة عن أبي حسان الأعرج عن ناجية بن كعب عن عبد اللّه بن مسعود قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " خلق اللّه سبحانه فرعون في بطن أُمّه كافراً ، وخلق يحيى بن زكرّيا في بطن أُمّه مؤمناً " .

وقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " إنّ الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً " .

وقال اللّه سبحانه ﴿ وَلاَ يلدوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح : 27] .

(75/767)

إنّ اللّه سبحانه خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا . قالوا وتمام الكلام عند قوله : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ ﴾ ثم وصفهم ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ وهو مثل قوله : ﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ ﴾ [النور : 45] الآية ، قالوا : فالله خلقهم والمشي فعلهم ، وهذا اختيار الحسن ابن الفضل .

قالوا : أو خلقهم مؤمنين وكافرين لما وصفه بفعلهم في قوله : ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ الكفر فعل الكافر ، والإيمان فعل المؤمن .

واحتجّوا بقوله سبحانه : ﴿ فِطْرَتَ اللهِ التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا ﴾ [الروم : 30] وبقوله : "كل مولود يولد على الفطرة" ، وقوله حكايةً عن ربّه : "إنّي خلقت عبادي كلّهم حنفاء " ونحوها من الأخبار ، ثم اختلفوا في تأويلها ، فروى أبو الجوزاء عن ابن عبّاس قال : "فمنكم مؤمن يكفر ، ومنكم كافر يؤمن" .

وقال أبو سعيد الخدري : "فمنكم كافر حياته مؤمن في العاقبة ، ومنكم مؤمن حياته كافر في العاقبة" ، وقال الضحاك : فمنكم كافر في السّر مؤمن في العلانية كالمنافق ، ومنكم مؤمن في السّر ، كافر في العلانية كعمّار وذويه . فمنكم كافر باللّه مؤمن بالكواكب ، ومنكم مؤمن باللّه كافر بالكواكب ، يعني في شأن الأنوار .

قال الزجّاج : وأحسن ما قيل فيها ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ ﴾ بأنّ اللّه خلقه ، وهو مذهب أهل الدهر والطبائع . ﴿ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ بأنّ اللّه خلقه .

(76/767)

وجملة القول في حكم هذه الآية ومعناها والذّي عليه جمهور الأُمّة والأئمة والمحقّقون من أهل السُنّة هي أنّ اللّه خلق الكافر وكفره فعلاله وكسباً ، وخلق المؤمن وإيمانه فعلاله وكسباً ، فالكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق اللّه سبحانه إيّاه ؛ لأنّ اللّه سبحانه وتعالى قدّر عليه

ذلك وعَلِمَهُ منه ، والمؤمن يؤمن ويختار الإيمان بعد خلق اللّه تعالى إيّاه ؛ لأنّ اللّه سبحانه أراد ذلك منه وقدّره عليه وعَلِمَهُ منه ، ولا يجوز أن يوجد من كلّ واحد منهم غير الذي قدّره اللّه عليه وعلمه منه ، لأنّ وجود خلاف المقدور عجز ، وخلاف المعلوم جهل ، وهما لا يليقان باللّه تعالى ، ولا يجوزان عليه ، ومن سلك هذا السبيل سَلِمَ من الجبر والقدر فأصاب الحقّ كقول القائل :

يا ناظراً في الدّين ما الأمر . . . لا قدرٌ صحّ ولا جبرُ

وقد أخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد العمدة السرخسي قال : حدّثنا عبد اللّه بن مبشر الواسطي قال : حدّثنا أحمد بن منصور الزّيادي قال : سمعت سيلان يقول : قدم أعرابي البصرة فقيل له : ما تقول في القدر ؟ قال : أمر تغالت فيه الظنون ، واختلف فيه المختلفون ، فالواجب علينا أن نردّ ما أشكل علينا من حكمه إلى ما سبق من علمه .

﴿ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السماوات والأرض وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يعني الأُمم الخالية ﴿ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿ ذَلِكَ ﴾ العذاب . ﴿ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ لأنّ البشر وإن كان لفظه واحد فإنّه في معنى الجمع وهو اسم الجنس وواحده إنسان ولا واحد له من لفظه .

﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا واستغنى الله ﴾ عن إيمانهم ﴿ والله غَنِيٌّ ﴾ عن خلقه ، ﴿ حَمِيدٌ ﴾ في أفعاله .

﴿ زَعَمَ الذين كفروا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ ﴾ يا محمّد ﴿ بلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ .

﴿ فَآمِنُوا بالله وَرَسُولِهِ والنور الذي أَنزَلْنَا ﴾ وهو القرآن .

﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ قراءة العامّة بالياء لقوله سبحانه ﴿ فَآمِنُوا بالله وَرَسُولِهِ والنور الذي أَنزَلْنَا والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وقرأ [رويس عن يعقوب (يوم نجمعكم)] بالنون اعتباراً بقوله أنزلنا .

﴿ لِيَوْمِ الجمع ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ وهو تفاعل من الغبن وهو فوت الحظ والمراد ، وقد ورد في تفسير التغابن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أخبرنا الحسن بن محمّد قال : حدّثنا موسى بن محمد بن علي قال : حدّثنا عبد الله بن محمد بن سنان قال : حدّثنا كثير بن يحيى قال : حدّثنا أبو آمنة بن معلّى الثقفي قال : حدّثنا سعيد بن أبي سعيد المنقري عن

أبي هريرة أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : " ما من عبد مؤمن يدخل الجنّة إلاّ أُري مقعده من النّار لو أساء ليزداد شكراً ، وما من عبد يدخل النّار إلاّ أُري مقعده من الجنّة لو أحسن ليزداد حسرة " .

قال المفسّرون : من غبن أهله منازله في الجنّة فيظهر يومئذ غبن كل كافر ببركة الإيمان ، وغبن كلّ مؤمن بتقصيره في الإحسان وتضييعه الأيام .

﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ﴾ قرأ أهل المدينة والشام ها هنا وفي السورة الّتي تليها : نكفّر وندخله بالنون ، والباقون بالياء .

(78/767)

﴿ ذَلِكَ الفوز العظيم ﴾ ﴿ والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ أولئك أَصْحَابُ النار خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ المصير ﴾ ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ بأرادته وقضائه .

﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله ﴾ قصدوا به لا يصيب مصيبةً إلاّ بإذن الله ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ يوفقه لليقين حتّى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه قاله ابن عبّاس .

وأنبأني عبد اللّه بن حامد إجازة قال : أخبرنا الحسن بن يعقوب قال : حدّثنا أبو إسحاق

إبراهيم بن عبد اللّه قال: حدّثنا وكيع عن الأعمش عن أبي ظبيان قال: كنّا نعرض المصاحف على علقمة بن قيس فمرّ بهذه الآية ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ فسألناه عنها فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنّها من عند اللّه فيرضى ويسلّم.

وقال أبو بكر الورّاق: ومن يؤمن باللّه عند النعمة والرخاء، فيعلم أنّها من فضل اللّه يهد قلبه للشكر، ومن يؤمن باللّه عند الشدّة والبلاء فيعلم أنّها من عند اللّه يهدِ قلبه للرضا والصبر.

وقال أبو عثمان الجيري: ومن صحّ إيمانه يهد قلبه لاتباع السنّة.

وقد اختلف القرّاء في هذه الآية، فقراءة العامّة (يهد قلبه) بفتح الياء والباء واختاره أبو عبيده وأبو حاتم، وقرأ السلمي بضم الياء والباء وفتح الدّال على الفعل المجهول، وقرأ طلحة ابن مصرف: نهد قلبه بالنون وفتح الباء على التعظيم.

وأخبرني ابن فنجويه قال: حدّثنا ابن حمدان قال: حدّثنا أحمد بن الفرج المقرئ قال: حدّثنا أبو عمر المقرئ قال: حدّثنا أبو عمارة قال: حدّثنا سهل بن موسى الأسواري قال: أخبرني من سمع عكرمة يقرأ: ومن يؤمن باللّه يهدأ قلبه، من الهدوء أي يسكن ويطمئن.

وقرأ مالك بن دينار: يهدا قلبه بألف لينّة بدلا من الهمزة.

﴿ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين ﴾ التبليغ البيّن .

﴿ الله لاَ إله إِلاَّ هُوَ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فاحذروهم ﴾ نزلت في قوم أرادوا الهجرة فثبّطهم عنها أزواجهم وأولادهم .

قال ابن عبّاس : كان الرجل يُسلم ، فإذا أراد أن يهاجر منعه أهله وولده وقالوا له : ننشدك اللّه أنْ تذهب وتدع أهلك وعشيرتك وتصير بالمدينة بلا أهل ومال ، وإنّا قد صبرنا على إسلامك فلا نصبر على فراقك ، ولا نخرج معك ، فمنهم من يرقّ لهم ويقيم لذلك فلا يهاجر ، فإذا هاجر رأى النّاس قد نقموا في الدّين منهم أن يعاقبهم في تباطئهم به عن الهجرة ، ومنهم من لا يطيعهم ويقولون لهم في خلافهم في الخروج : لئن جمعنا اللّه وإيّاكم لا تصيبون منّي خيراً ، ولأفعلنّ ، وأفعلنّ فأنزل اللّه سبحانه هذه الآية .

وقال عطاء بن يسار وعطاء الخراساني : نزلت في عوف بن مالك الأشجعي ، كان ذا أهل وولد ، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورقّقوه وقالوا : إلى من تكلنا وتدعنا فيرقّ ويقيم ، فأنزل اللّه سبحانه وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ ﴾ لحملهم إيّاكم على المعصية وترك الطاعة فاحذروهم أن تقبلوا منهم .

﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ ﴾ فلا تعاقبوهم على خلافهم إيّاكم ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ بلاء واختبار يحملكم على الكسب من الحرام والمنع عن الحقّ، وقال القتيبي: إغرام يقال فتن فلان بفلانة أي أُغرم بها.

(80/767)

قالت الحكماء: أُدخل من التبعيض في ذكر الأَزواج والأولاد حيث أُخبر عن عداوتهم، لأنّ كلّهم ليسوا بأعداء ولم يذكر من في قوله ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ لأنّها لا تخلو عن الفتنة واشتغال القلب بها، يدلّ عليه قول عبد اللّه بن مسعود: "لا يقولنّ أحد: اللّهم إنّي أعوذ بك من الفتنة، فإنّه ليس منكم أحد يرجع إلى مال وأهل وولد إلاّ وهو مشتمل على فتنة، ولكن ليقل: اللّهم إني أعوذ بك من مضلاّت الفتن".

وأخبرنا ابن منجويه قال: حدّثنا عمر بن الخطاب قال: حدّثنا عبد اللّه بن الفضل قال: حدّثنا أَبو خثمه قال: حدّثنا زيد بن حباب قال: حدّثنا حسين بن واقد قاضي مرو قال: حدثني عبد اللّه بن بريدة عن أبيه قال:

"كان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران، فنزل النّبي (عليه السلام) اليهما فأخذهما فوضعهما في حجره على المنبر

فقال : " صدق الله ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما " ثم أخذ في الخطبة .

﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ ناسخة لقوله ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ [آل عمران : 102] وقد مرّ ذكره .

﴿ واسمعوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ مجازه : يكن الإنفاق خيراً لأنفسكم . ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ ومنعها عن الحقّ ﴿ فأولئك هُمُ المفلحون ﴾ قال ابن عمر : " ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ، وإنّما الشّح أن يطمع الرجل إلى ما ليس له " .

﴿ إِن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ واللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

﴿ عَالِمُ الغيب والشهادة العزيز الحكيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 325.330 ﴾

(81/767)

وقال الزمخشري :

سورة التغابن

مختلف فيها ، وهي ثمان عشرة آية [نزلت بعد التحريم] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة التغابن (64) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2) خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (4)

قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد باللّه عز وجل، وذلك لأنّ الملك على الحقيقة له، لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه، والقائم به، والمهيمن عليه، وكذلك الحمد، لأنّ أصول النعم وفروعها منه. وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء، وحمده اعتداد بأن نعمة اللّه جرت على يده هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ يعنى: فمنكم آت بالكفر وفاعل له «1»

---

(1). قوله «فمنكم آت بالكفر وفاعل له» قد أول الآية بمذهب المعتزلة: من أن العبد هو الخالق لفعله الاختياري، ومذهب أهل السنة: أن العبد ليس له في فعله إلا الكسب، وخالقه في الحقيقة هو اللّه عز وجل، بدليل قوله تعالى وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ خيرا كان أو شرا، وكما أن خلق الكافر لا يستوجب الذم كما سيقول فخلق كفره لا يستوجب الذم لأنه لحكمة وإن خفيت علينا. (ع)

ومنكم آت بالإيمان «1» وفاعل له، كقوله تعالى وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ والدليل عليه قوله تعالى وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أى عالم بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم. والمعنى: هو الذي تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد عن العدم، فكان يجب أن تنظروا النظر الصحيح، وتكونوا بأجمعكم عبادا شاكرين، فما فعلتم مع تمكنكم، بل تشعبتم شعبا، وتفرقتم أمما، فمنكم كافر ومنكم مؤمن، وقدم الكفر لأنه الأغلب عليهم والأكثر فيهم. وقيل: هو الذي خلقكم فمنكم كافر بالخلق وهم الدهرية، ومنكم مؤمن به.

فإن قلت: نعم، إن العباد هم الفاعلون للكفر، ولكن قد سبق في علم الحكيم أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ولم يختاروا غيره، فما دعاه إلى خلقهم مع علمه بما يكون منهم؟ وهل خلق القبيح وخلق فاعل القبيح إلا واحد؟ وهل مثله إلا مثل من وهب سيفا باترا لمن شهر بقطع السبيل وقتل النفس المحرّمة فقتل به مؤمنا؟ أما يطبق العقلاء على ذم الواهب وتعنيفه والدق في فروته «2» كما يذمون القاتل؟ بل إنحاؤهم باللوائم على الواهب أشد؟ قلت: قد علمنا أنّ الله حكيم عالم بقبح القبيح عالم بغناه عنه، فقد علمنا

أن أفعاله كلها حسنة ، وخلق فاعل القبيح فعله ، فوجب أن يكون حسنا ، وأن يكون له وجه حسن ، وخفاء وجه الحسن علينا لا يقدح في حسنه ، كما لا يقدح في حسن أكثر مخلوقاته جهلنا بداعي الحكمة إلى خلقها بِالْحَقِّ بالغرض الصحيح والحكمة البالغة ، وهو أن جعلها مقارّ المكلفين ليعملوا فيجازيهم وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وقرئ : صوركم بالكسر ، لتشكروا . وإليه مصيركم فجزاؤكم على الشكر والتفريط فيه . فإن قلت . كيف أحسن صورهم ؟ قلت : جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه ، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور . ومن حسن صورته

---

(1) . قال محمود : «معناه : فمنكم آت بالكفر وفاعل له ومنكم آت بالايمان . . . الخ» قال أحمد : لقد ركب عمياء وخبط خبط عشواء ، واقتحم وعرا : السالك فيه هالك ، والغابر فيه عاثر ، وإنما ينصب إلى مهاوي الأراك ، ويحوم حول مراتع الاشراك ، ويبحث ولكن على حتفه بظلفه ، ويتحذق وما هو إلا يتشدق ، ويتحقق وما هو إلا يتفسق ، وهب أنه أعرض عن الأدلة العقلية والنصوص النقلية المتظافرة على أن اللّه تعالى خالق كل شيء ، واطرد له في الشاهد ما ادعاه . ومن مذهبه قياس الغائب على الشاهد ، قد التجأ إلى الاعتراف بأن اللّه خالق العبد الفاعل للقبيح ، وأن خلق العبد الفاعل للقبيح بمثابة إعطاء السيف الباتر للرجل الفاجر ، وأن هذا قبيح شاهدا ، ولا يلزم أن يكون مثله قبيحا في خلق اللّه تعالى ، أفلا يجوز أن يكون منطويا على حكمة استأثر اللّه تعالى بعلمها ، فما يؤمنه من

دعوى أن أفعال العبد وإن استقبحها العقلاء مخلوقة للّه تعالى ، وفي خلقها حكمة استأثر اللّه بعلمها ، وهل الفرق إذا إلا عين التحكم ، ونفس اتباع الهوى . هذا ودون تمكنه من اتباع هذه القواعد : أن يمكن من القتاد اختراط ، ومن الجمل أن يلج في سم الخياط .

(2) . قوله «والدق في فروته» في الصحاح «الفروة» : جلدة الرأس . والفروة : قطعة نبات مجتمعة يابسة اه . (ع)

(83/767)

أنه خلق منتصبا غير منكب ، كما قال عز وجل فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . فإن قلت : فكم من دميم مشوّه الصورة سمج الخلقة تقتحمه العيون ؟ قلت : لا سماجة ثم ولكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب ، فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطا بينا وإضافتها إلى الموفى «1» عليها لا تستملح ، وإلا فهي داخلة في حيز الحسن غير خارجة عن حدّه . ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها ، ثم ترى أملح وأعلى في مراتب الحسن منها فينبو عن الأولى طرفك ، وتستثقل النظر إليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها . وقالت الحكماء : شيئان لا غاية لهما : الجمال ، والبيان . نبه بعلمه ما في السماوات والأرض ، ثم بعلمه ما يسره العباد ويعلنونه ، ثم بعلمه ذوات

الصدور : أنّ شيئا من الكليات والجزئيات غير خاف عليه ولا عازب عنه ، فحقه أن يتقى ويحذر ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه . وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد ، وكل ما ذكره بعد قوله تعالى فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ كما ترى في معنى الوعيد على الكفر ، وإنكار أن يعصى الخالق ولا تشكر نعمته فما أجهل من يمزج الكفر بالخلق «2» ويجعله من جملته ، والخلق : أعظم نعمة من اللّه على عباده ، والكفر : أعظم كفران من العباد لربهم .

[سورة التغابن (64) : الآيات 5 إلى 6]

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (5) ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (6)

أَلَمْ يَأْتِكُمْ الخطاب لكفار مكة . وذلِكَ إشارة إلى ما ذكر من الوبال الذي ذاقوه في الدنيا وما أعدّلهم من العذاب في الآخرة بِأَنَّهُ بأنّ الشأن والحديث كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ . . . . . . أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا أنكروا أن تكون الرسل بشرا ، ولم ينكروا أن يكون اللّه حجرا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ أطلق ليتناول كل شيء ، ومن جملته إيمانهم وطاعتهم . فإن قلت : قوله وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ يوهم وجود التولي والاستغناء معا «3» ، واللّه تعالى لم يزل غنيا . قلت : معناه : وظهر استغناء اللّه حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ولم يضطرهم إليه مع قدرته على ذلك .

---

(1) . قوله «وإضافتها إلى الموفى عليها» يعنى إلى المتفوق عليها من الصور . (ع)

(2) . قوله «فما أجهل من يمزج الكفر بالخلق» يريد أهل السنة ، حيث يقولون أنه تعالى هو الخالق لأعمال العباد حتى الكفر وغيره من المعاصي ، ولا وجه لتجهيلهم مع استنادهم إلى قوله تعالى «والله خلقكم وما تعملون . (ع)

(3) . قال محمود : «أطلقه ليتناول كل شيء ثم قال فان قلت كان التولي فيهم . . . الخ» قال أحمد : إنما الحق أنه لم يخلق لهم إيمانا ولا قدرة عليه ، فكان قادرا أن يخلق لهم الايمان والقدرة عليه ، وإنما حرفها الزمخشري إلى قاعدته . [. . . . .]

(84/767)

[سورة التغابن (64) : الآيات 7 إلى 8]

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (7) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8)

الزعم : ادعاء العلم : ومنه قوله عليه السلام «زعموا مطية الكذب» «1» وعن شريح : لكل شيء كنية وكنية الكذب «زعموا» ويتعدّى إلى المفعولين تعدّى العلم . قال :

. . . ولم أزعمك عن ذاك معزلا «2»

وإن مع ما في حيزه قائم مقامهما . والذين كفروا . أهل مكة . وبلى إثبات لما بعد لن ، وهو

البعث وَذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ أى لا يصرفه عنه صارف. وعنى برسوله والنور: محمدا صلى اللّه عليه وسلم والقرآن.

[سورة التغابن (64) : الآيات 9 إلى 10]

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (10)

وقرئ: نجمعكم. ونكفر. وندخله، بالياء والنون. فإن قلت: بم انتصب الظرف؟ قلت بقوله: لتنبؤن، أو بخبير، لما فيه من معنى الوعيد، كأنه قيل: واللّه معاقبكم يوم يجمعكم. أو بإضمار «اذكر» لِيَوْمِ الْجَمْعِ ليوم يجمع فيه الأوّلون والآخرون. التغابن: مستعار من تغابن القوم في التجارة، وهو أن يغبن بعضهم بعضا، لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء، ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء. وفيه تهكم بالأشقياء، لأنّ نزولهم ليس بغبن. وفي حديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء، ليزداد شكرا. وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من

---

(1) . لم أجده مرفوعا بهذا اللفظ وقد تقدم في أوائل البقرة بلفظ «بئس مطية الرجل إلى الكذب زعموا» وقد تقدم عن شريح «زعموا كنية الكذب».

(2) وإن الذي قد عاش يا أم مالك يموت ولم أزعمك عن ذاك معزلا

يقول: وإن كل حي وإن طال عمره يموت، ولم أظنك يا أم مالك معزلا عن ذلك الحكم أو الموت. والمعزل:

مكان العزلة والانفراد، أى: لم أظنك في معزل عنه أو ذات معزل أو معتزلة. أو نفس المقول مبالغة.

(85/767)

الجنة لو أحسن، ليزداد حسرة» «1» ومعنى ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ - وقد يتغابن الناس في غير ذلك اليوم - : استعظام له وأن تغابنه هو التغابن في الحقيقة، لا التغابن في أمور الدنيا وإن جلت وعظمت صالِحاً صفة للمصدر، أى: عملا صالحا.

[سورة التغابن (64) : آية 11]

ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11)

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ إلا بتقديره ومشيئته، كأنه أذن للمصيبة أن تصيبه يَهْدِ قَلْبَهُ يلطف به ويشرحه للازدياد من الطاعة والخير. وقيل: هو الاسترجاع عند المصيبة. وعن الضحاك: يهد قلبه حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه. وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وعن مجاهد:

إن ابتلى صبر ، وإن أعطى شكر ، وإن ظلم غفر . وقرئ. يهد قلبه ، على البناء للمفعول ، والقلب :

مرفوع أو منصوب . ووجه النصب : أن يكون مثل سفه نفسه ، أى : يهد في قلبه . ويجوز أن يكون المعنى : أنّ الكافر ضال عن قلبه بعيد منه ، والمؤمن واجد له مهتد إليه ، كقوله تعالى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ وقرئ : نهد قلبه ، بالنون . ويهد قلبه ، بمعنى : يهتد . ويهدأ قلبه : يطمئن .

ويهد . ويهدا على التخفيف وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يعلم ما يؤثر فيه اللطف من القلوب مما لا يؤثر فيه فيمنحه ويمنعه .

[سورة التغابن (64) : الآيات 12 إلى 13]

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (12) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (13)

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فلا عليه إذا توليتم ، لأنه لم يكتب عليه طاعتكم ، إنما كتب عليه أن يبلغ ويبين فحسب وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ بعث لرسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم على التوكل عليه والتقوّى به في أمره ، حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه .

[سورة التغابن (64) : الآيات 14 إلى 15]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا

وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15)

---

(1) . رواه البخاري من رواية الأعرج عن أبى هريرة: وفي المتفق عليه من حديث أنس في قصة المؤمن، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك اللّه به مقعدا من الجنة. قال نبى اللّه: فيراهما جميعا، ولها عن ابن عمر «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى - الحديث» .

(86/767)

إنّ من الأزواج أزواجا يعادين بعولتهنّ ويخاصمنهم ويجلبن عليهم، ومن الأولاد أولادا يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى فَاحْذَرُوهُمْ الضمير للعدوّ أو للأزواج والأولاد جميعا. أى: لما علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عدوّ، فكونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم وَإِنْ تَعْفُوا عنهم إذا اطلعتم منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلها، فإن اللّه يغفر لكم ذنوبكم ويكفر عنكم. وقيل: إنّ ناسا أرادوا الهجرة عن مكة، فثبطهم أزواجهم وأولادهم وقالوا: تنطلقون وتضيعوننا فرقوا لهم ووقفوا، فلما هاجروا بعد ذلك ورأوا الذين سبقوهم قد فقهوا في الدين: أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم،

فزين لهم العفو. وقيل: قالوا لهم: أين تذهبون وتدعون بلدكم وعشيرتكم وأموالكم، فغضبوا عليهم وقالوا: لئن جمعنا اللّه في دار الهجرة لم نصبكم بخير، فلما هاجروا منعوهم الخير، فحثوا أن يعفوا عنهم ويردّوا إليهم البر والصلة. وقيل: كان عوف بن مالك الأشجعى ذا أهل وولد، فإذا أراد أن يغزو تعلقوا به وبكوا إليه ورققوه، فكأنه همّ بأذاهم، فنزلت تْنَةٌ

بلاء ومحنة، لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة، ولا بلاء أعظم منهما، ألا ترى إلى قوله اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

وفي الحديث «يؤتى برجل يوم القيامة فيقال: أكل عياله حسناته» «1» وعن بعض السلف: العيال سوس الطاعات. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه كان يخطب، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان، فنزل إليهما فأخذهما «2» ووضعهما في حجره على المنبر فقال: «صدق اللّه نما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما» ثم أخذ في خطبته. وقيل: إذا أمكنكم الجهاد والهجرة فلا يفتننكم الميل إلى الأموال والأولاد عنهما.

[سورة التغابن (64): آية 16]

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16)

مَا اسْتَطَعْتُمْ جهدكم ووسعكم، أى: ابذلوا فيها استطاعتكم وَاسْمَعُوا ما توعظون به وَأَطِيعُوا فيما تأمرون به وتنهون عنه وَأَنْفِقُوا في الوجوه التي وجبت عليكم النفقة فيها

---

(1) . لم أره مرفوعا: وأخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة سفيان الثوري من قوله. وروى على بن معبد في الطاعة والمعصية عن إسحاق بن أبى يحيى عن عبد الملك عن بكير قال «ينادى مناد يوم القيامة: أين الذين أكلت عيالهم حسناتهم قوموا فان قبلكم الانبعاث» .

(2) . أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار من روايه حسين بن واقد عن ابن بريدة عن أبيه. قال البزار لا نعلم له طريقا إلا هذا.

(87/767)

خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ نصب بمحذوف، تقديره: ائتوا خيرا لأنفسكم، وافعلوا ما هو خير لها وأنفع، وهذا تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر، وبيان لأنّ هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد وما أنتم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا.

[سورة التغابن (64) : الآيات 17 إلى 18]

إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17) عالِمُ

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)

وذكر القرض : تلطف في الاستدعاء يُضاعِفْهُ لَكُمْ يكتب لكم بالواحدة عشرا وأو سبعمائة إلى ما شاء من الزيادة . وقرئ : يضعفه شَكُورٌ مجاز ، أى : يفعل بكم ما يفعل المبالغ في الشكر من عظيم الثواب ، وكذلك حَلِيمٌ يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسيء ، فلا يعاجلكم بالعقاب مع كثرة ذنوبكم .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة التغابن رفع عنه موت الفجأة» «1» .

انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 545 . 551﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى اللّه عنه .

(88/767)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ ﴾

بأنه خلقه ﴿ وَمِنْكُم مُّؤمِنٌ ﴾ بأنه خلقه ، قاله الزجاج .

الثاني : فمنكم كافر به وإن أقرّ به ، ومنكم مؤمن به .

قال الحسن : وفي الكلام محذوف وتقديره : فمنكم كافر ومنكم مؤمن ومنكم فاسق ، فحذفه لما في الكلام من الدليل عليه .

وقال غيره : لا حذف فيه لأن المقصود به ذكر الطرفين .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون بالقول .

الثاني : بإحكام الصنعة وصحة التقدير .

وذكر الكلبي ثالثاً : أن معناه خلق السموات والأرض للحق .

﴿ وَصَوَّرَكُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني آدم خلقه بيده كرامة له ، قاله مقاتل .

الثاني : جميع الخلق لأنهم مخلوقون بأمره وقضائه .

﴿ فأَحْسَنَ صُوَرَكم ﴾ أي فأحكمها .

﴿ . . . . فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدونَنا ﴾ يعني أن الكفار قالوا ذلك استصغاراً للبشر أن يكونوا رسلاً من الله إلى أمثالهم ، والبشر والإنسان واحد في المعنى ، وإنما يختلفان في اشتقاق الاسم ، فالبشر مأخوذ من ظهور البشرة ، وفي الإنسان وجهان :

أحدهما : مأخوذ من الإنس .

والثاني : من النسيان .

﴿ فَكَفَرُوا ﴾ يعني بالرسل ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ يعني عن البرهان.

﴿ واستغنى اللَّه ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: بسلطانه عن طاعة عباده، قاله مقاتل.

الثاني: واستغنى اللَّه بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه لهم من البيان من زيادة تدعو إلى الرشد وتقود إلى الهداية.

﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ في قوله ﴿ غَنِيٌّ ﴾ وجهان:

أحدهما: غني عن صدقاتكم، قاله البراء بن عازب.

الثاني: عن عملكم، قاله مقاتل.

وفي ﴿ حميد ﴾ وجهان:

أحدهما: يعني مستحمداً إلى خلقه بما ينعم به عليهم، وهو معنى قول عليّ.

الثاني: إنه مستحق لحمدهم.

وحكي عن ابن عباس فيه ثالث: معناه يحب من عباده أن يحمدوه.

﴿ زَعَمَ الذين كَفَروا ﴾ قال شريح زعموا كُنْيةُ الكذب.

﴿ يومَ يَجْمَعُكم ليومِ الجمْعِ ﴾ يعني يوم القيامة ، ومن تسميته بذلك وجهان :

أحدهما : لأنه يجمع فيه بين كل نبي وأمته .

الثاني : لأنه يجمع فيه بين الظالمين والمظلومين .

ويحتمل ثالثاً : لأنه يجمع فيه بين ثواب أهل الطاعة وعقاب أهل المعاصي .

﴿ ذلك يومُ التغابُنِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه من أسماء يوم القيامة ، ومنه قول الشاعر :

وما أَرْتجي بالعيش من دارِ فُرْقةٍ . . . ألا إنما الراحاتُ يوم التغابنِ

الثاني : لأنه غبن فيه أهل الجنة أهل النار ، قال الشاعر :

لعمرك ما شيءٌ يفوتُك نيلُه . . . بغبْنٍ ولكنْ في العقول التغابنُ

الثالث : لأنه يوم غَبَنَ فيه المظلومُ الظالمَ ، لأن المظلوم كان في الدنيا مغبوناً فصار في الآخرة غابناً .

ويحتمل رابعاً : لأنه اليوم الذي أخفاه اللّهُ عن خَلْقه ، والغبن الإخفاء ومنه الغبن في البيع لاستخفائه ، ولذلك قيل مَغابن الجسد لما خفي منه .

﴿ ما أصابَ مِنْ مُّصيبةٍ ﴾ من نفس أو مالٍ أو قول أو فعل يقتضي همّاً أو يوجب عقاباً عاجلاً أو آجلاً .

﴿ إلا بإذْنِ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إلا بأمر اللَّه .

الثاني : إلا بحكم اللَّه تسليماً لأمره وانقياداً لحكمه .

﴿ ومَن يُؤْمِن باللَّهِ يَهْدِ قلبَهُ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : معناه يهدي قلبه اللَّه تعالى .

الثاني : أنه يعلم أنه من عند اللَّه ويرضى ويسلّم ، قاله بشر .

الثالث : أن يسترجع فيقول : إنّا للَّه وإنا إليه راجعون .

الرابع : هو إذا ابتلي صبر ، وإذا أنعم عليه شكر وإذا ظُلم غفر ، قاله الكلبي .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنّ مِنْ أزْواجِكم وأَوْلادِكم عَدوّاً لكم ﴾

فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أنه أراد قوماً أسلموا بمكة فأرادوا الهجرة فمنعهم أزواجهم وأولادهم منها وثبطوهم عنها ، فنزل ذلك فيهم ؛ قاله ابن عباس .

(90/767)

الثاني : من أزواجكم وأولادكم من لا يأمر بطاعة اللَّه ولا ينهى عن معصيته ، قاله قتادة .

الثالث : أن منهم من يأمر بقطيعة الرحم ومعصية الرب ، ولا يستطيع مع حبه ألاّ يطيعه ،

وهذا من العداوة؛ قاله مجاهد .

وقال مقاتل بن سليمان : نبئت أن عيسى عليه السلام قال : من اتخذ أهلاً ومالاً وولداً كان للدنيا عبداً .

الرابع : أن منهم من هو مخالف للدين ، فصار بمخالفة الدين عدواً ، قاله ابن زيد .

الخامس : أن من حملك منهم على طلب الدنيا والاستكثار منها كان عدواً لك ، قاله سهل .

وفي قوله ﴿ فاحذروهم ﴾ وجهان :

أحدهما : فاحذروهم على دينكم؛ قاله ابن زيد .

الثاني : على أنفسكم ، وهو محتمل .

﴿ وإن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا ﴾ الآية . يريد بالعفو عن الظالم ، وبالصفح عن الجاهل ، وبالغفران للمسيء .

﴿ فإنّ اللَّه غفورٌ ﴾ للذنب ﴿ رحيم ﴾ بالعباد ، وذلك أن من أسلم بمكة ومنعه أهله من الهجرة فهاجر ولم يمتنع قال :

لئن رجعت لأفعلنّ بأهلي ولأفعلنّ ، ومنهم من قال : لا ينالون مني خيراً أبداً ، فلما كان عام الفتح أُمِروا بالعفو والصفح عن أهاليهم ، ونزلت هذه الآية فيهم . ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بلاء ، قاله قتادة .

الثاني : محنة ، ومنه قول الشاعر :

لقد فتن الناس في دينهم . . . وخلّى ابنُ عفان شرّاً طويلاً

وفي سبب افتتانه بهما وجهان :

أحدهما : لأنه يلهو بهما عن آخرته ويتوفر لأجلهما على دنياه .

الثاني : لأنه يشح لأجل أولاده فيمنع حق اللَّه من ماله ، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الولد مبخلة محزنة مجبنة " .

﴿ واللَّه عنده أجْرٌ عظيمٌ ﴾ قال أبو هريرة والحسن وقتادة وابن جبير : هي الجنة .

ويحتمل أن يكون المراد بذلك أن يكون أجرهم في الآخرة أعظم من منفعتهم بأموالهم وأولادهم في الدنيا ، فلذلك كان أجره عظيماً .

﴿ فاتّقوا الله ما اسْتطعتم ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني جهدكم ، قاله أبو العالية .

الثاني : أن يطاع فلا يعصى ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه مستعمل فيما يرجونه به من نافلة أو صدقة ، فإنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ اتّقوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ اشتد على القوم فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تعالى ذلك تخفيفاً ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ فنسخت الأولى ، قاله ابن جبير .

ويحتمل إن لم يثبت هذا النقل أن المكْرَه على المعصية غير مؤاخذ بها لأنه لا يستطيع اتقاءها .

﴿ واسْمَعوا ﴾ قال مقاتل : كتاب الله إذا نزل عليكم .

﴿ وأطيعوا ﴾ الرسول فيما أمركم أو نهاكم ، قال قتادة : عليها بويع النبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة .

﴿ وأنفِقوا خيْراً لأنفُسِكم ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدهما : هي نفقة المؤمن لنفسه ، قاله الحسن .

الثاني : في الجهاد ، قاله الضحاك .

الثالث : الصدقة ، قاله ابن عباس .

﴿ ومَن يُوقَ شُحَّ نفسِهِ فأولئك هم المفلِحونَ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : هوى نفسه ، قاله ابن أبي طلحة .

الثاني : الظلم ، قاله ابن عيينة .

الثالث : هو منع الزكاة ، قال ابن عباس : من أعطى زكاة ماله فقد وقاه الله شح نفسه .

﴿ إن تُقْرِضوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : النفقة في سبيل اللَّه ، قاله عمر رضي اللَّه عنه .

الثاني : النفقة على الأهل ، قاله زيد بن أسلم .

الثالث : أنه قول سبحان اللَّه والحمد للَّه ولا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر ، رواه ابن حبان .

وفي قوله ﴿ حَسَناً ﴾ وجهان محتملان :

أحدهما : أن تطيب بها النفس .

الثاني : أن لا يكون بها ممتناً .

﴿ يُضاعِفْه لكم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بالحسنة عشر أمثالها ، كما قال تعالى في التنزيل .

الثاني : إلى ما لا يحد من تفضله ، قاله السدي .

﴿ ويَغْفِرْ لكم ﴾ يعني ذنوبكم .

﴿ واللَّهُ شكورٌ حليمٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن يشكر لنا القليل من أعمالنا وحليم لنا في عدم تعجيل المؤاخذة بذنوبنا .

الثاني : شكور على الصدقة حين يضاعفها ، حليم في أن لا يعجل بالعقوبة من [تحريف]

الزكاة عن موضعها ، قاله مقاتل .

﴿ عالِمُ الغَيْبِ والشهَادةِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : السر والعلانية .

الثاني : الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 20 . 27 ﴾

(93/767)

وقال ابن الجوزى :

سورة التغابن

وقد سبق تفسير فاتحتها إلى قوله تعالى : ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾

وفيه قولان .

أحدهما : أن الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً ، رواه الوالبي عن ابن عباس .

والأحاديث تعضد هذ القول ، كقوله عليه الصلاة والسلام : " خلق فرعون في بطن أمه

كافراً ، وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً " ، وقوله : " فيؤمر الملك بأربع كلمات :

بكتب رزقِهِ، وأجلِهِ، وعملِهِ، وشقيٌ أم سعيدٌ"

والثاني: أن تمام الكلام عند قوله تعالى: ﴿ خلقكم ﴾ ثم وصفهم، فقال تعالى: ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾، واختلف أرباب هذا القول فيه على أربعة أقوال.

أحدها: فمنكم كافر يؤمن، ومنكم مؤمن يكفر، قاله أبو الجوزاء عن ابن عباس.

والثاني: فمنكم كافر في حياته مؤمن في العاقبة، ومنكم مؤمن في حياته كافر، في العاقبة، قاله أبو سعيد الخدري.

والثالث: فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب، قاله عطاء بن أبي رباح، وعنى بذلك شأن الأنواء.

والرابع: فمنكم كافر بالله خلقه، ومؤمن بالله خلقه، حكاه الزجاج.

والكفر بالخلق مذهب الدهرية، وأهل الطبائع.

وما بعد هذا قد سبق إلى قوله تعالى: ﴿ وصوَّركم فأحسن صوركم ﴾ قال الزجاج: أي: خلقكم أحسن الحيوان كلّه.

وقرأ الأعمش "صوركم" بكسر الصاد.

ويقال في جمع صورة: صُور، وصِور، كما يقال في جمع لحية: لِحىّ، ولُحىّ.

وذكر ابن السائب أن معنى "فأحسن صُوَرَكم" أحكمها.

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى : ﴿ ويعلم ما تسرون ﴾ روى المفضل عن عاصم "يسرُّون" و"يعلنون" بالياء فيهما ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل ﴾ هذا خطاب لأهل مكة خوفهم ما نزل بالكفار قبلهم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فذاقوا وبال أمرهم ﴾ أي : جزاء أعمالهم ، وهو ما أصابهم من العذاب في الدنيا ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ في الآخرة ﴿ ذلك ﴾ الذي أصابهم ﴿ بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ فينكرون ذلك ، ويقولون : ﴿ أبشر ﴾ أي : ناس مثلنا ، ﴿ يهدوننا ؟ ! ﴾ والبشر اسم جنس معناه الجمع ، وإن كان لفظه واحداً ﴿ فكفروا وتولّوا ﴾ أي : أعرضوا عن الإيمان ﴿ واستغنى الله ﴾ عن إيمانهم وعبادتهم .

قوله تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا ﴾ كان ابن عمر يقول : "زعموا" كناية الكذب .

وكان مجاهد يكره أن يقول الرجل : زعم فلان .

قوله تعالى : ﴿ وذلك على الله يسير ﴾ يعني : البعث ﴿ والنّور ﴾ هو القرآن ، وفيه بيان أمر البعث والحساب والجزاء .

قوله تعالى : ﴿ يوم يجمعكم ﴾ هو منصوب بقوله تعالى : "لتبعثنَّ ثم لتنبؤنَّ بما عملتم" ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾ وهو يوم القيامة .

وسمي بذلك لأن الله تعالى يجمع فيه الجن والإنس ، وأهل السموات ، وأهل الأرض ﴿

ذلك يوم التغابن ﴾ تفاعل من الغبن، وهو فوت الحظ.

والمراد في تسميته يوم القيامة بيوم التغابن فيه أربعة أقوال.

أحدها: أنه ليس من كافر إلا وله منزل وأهل في الجنة، فيرث ذلك المؤمن، فيغبن حينئذ الكافر، ذكر هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: غبن أهل الجنة أهل النار، قاله مجاهد، والقرظي.

والثالث: أنه يوم غبن المظلوم الظالم، لأن المظلوم كان في الدنيا مغبوناً، فصار في الآخرة غابناً، ذكره الماوردي.

والرابع: أنه يوم يظهر فيه غبن الكافر بتركه للإيمان، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان، ذكره الثعلبي.

قال الزجاج: وإنما ذكر ذلك مثلاً للبيع والشراء، كقوله تعالى: ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ [البقرة: 16]، وقوله تعالى: ﴿ هل أدلكم على تجارة ﴾ [الصف: 10] وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى: ﴿ يكفر عنه سيئآته ﴾ قرأ نافع، وابن عامر، والمفضل عن عاصم "نكفر" "وندخله" بالنون فيهما.

والباقون : بالياء ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ﴾ قال ابن عباس : بعلمه وقضائه ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ فيه ستة أقوال .

أحدها : يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

وقال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من قبل الله تعالى ، فيسلم ، ويرضى .

والثاني : يهد قلبه للاسترجاع ، وهو أن يقول : إنا لله ، وإنا إليه راجعون قاله مقاتل .

والثالث : أنه إذا ابتلي صبر ، وإذا أنعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفر ، قاله ابن السائب ، وابن قتيبة .

والرابع ، يهد قلبه ، أي : يجعله مهتدياً ، قاله الزجاج .

والخامس : يهد وليّه بالصبر والرضى ، قاله أبو بكر الورّاق .

والسادس : يهد قلبه لاتباع السنة إذا صح إيمانه ، قاله أبو عثمان الحيري .

وقرأ أبو بكر الصديق ، وعاصم الجحدري ، وأبو نهيك : "يَهْدَ" بياءٍ مفتوحة .

ونصب الدال "قَلْبُهُ" بالرفع .

قال الزجاج : هذا من هدأ يهدأ : إذا سكن .

فالمعنى : إذا سلّم لأمر الله سَكَنَ قلبُه .

وقرأ عثمان بن عفان ، والضحاك ، وطلحة بن مصرف ، والأزرق عن حمزة : "نَهْد"

بالنون .

وقرأ علي بن أبي طالب ، وأبو عبد الرحمن : "يُهْدَ" بضم الياء ، وفتح الدال "قَلْبُهُ" بالرفع .

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى : ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم ﴾ سبب

نزولها أن الرجل كان يسلم .

فإذا أراد الهجرة منعه أهله ، وولده ، وقالوا : نَنْشُدُكَ الله أن تذهب وتَدَعَ أهلك

وعشيرتك وتصير إلى المدينة بلا أهل ولا مال .

فمنهم من يَرِقُّ لهم ، ويقيم فلا يهاجر ، فنزلت هذه الآية .

فلما هاجر أولئك ، ورأوا الناس قد فَقُهوا في الدِّين همُّوا أن يعاقبوا أهلهم الذين منعوهم ،

فأنزل الله تعالى : ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا ﴾ إلى آخر الآية ، هذا قول ابن عباس .

وقال الزجاج : لما أرادوا الهجرة قال لهم أزواجهم ، وأولادهم : قد صبرنا لكم على

مفارقة الدِّين ولا نصبر لكم على مفارقتكم ، ومفارقة الأموال ، والمساكن ، فأعلم الله عز

وجل أن من كان بهذه الصورة ، فهو عدوٌّ ، وإن كان ولداً ، أو كانت زوجة .

وقال مجاهد : كان حب الرجل ولده وزوجته يحمله على قطيعة رحمه ومعصية ربه .

وقال قتادة : كان من أزواجهم ، وأولادهم من ينهاهم عن الإسلام ، ويثبِّطهم عنه ، فخرج في قوله تعالى : ﴿ عدواً لكم ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : بمنعه من الهجرة ، وهذا على قول ابن عباس .

والثاني : بكونهم سبباً للمعاصي ، وعلى هذا قول مجاهد .

والثالث : بنهيهم عن الإسلام ، وهذا على قول قتادة .

قوله تعالى : ﴿ فاحذروهم ﴾ قال الفراء : لا تطيعوهم في التخلُّف .

قوله تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ أي : بلاء وشغل عن الآخرة .

فالمال والأولاد يوقعان في العظائم إلا من عصمه الله .

وقال ابن قتيبة : أي : إغرام .

يقال : فتن فلان بالمرأة ، وشغف بها ، أي : أغرم بها .

وقال الفراء : قال أهل المعاني : إنما دخل "من" في قوله تعالى : "إن من أزواجكم" لأنه ليس كل الأزواج ، والأولاد أعداءً .

ولم يذكر "من" في قوله تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ لأنها لا تخلو من الفتنة ، واشتغال القلب بها .

وقد روى بريدة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يخطب ، فجاء الحسن ، والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ، ويعثران ، فنزل من المنبر ، فحملهما ، فوضعهما بين يديه ثم قال : "صدق الله عز وجل : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ، ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ، ورفعتهما .

قوله تعالى : ﴿ والله عنده أجر عظيم ﴾ أي : ثواب جزيل ، وهو الجنة .

والمعنى : لا تعصوه بسبب الأولاد ، ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ أي : ما أطقتم ﴿ واسمعوا ﴾ ما تُؤمَرُون به ﴿ وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ﴾ وفي هذه النفقة ثلاثة أقوال .

أحدها : الصَّدقة ، قاله ابن عباس .

والثاني : نفقة المؤمن على نفسه ، قاله الحسن .

والثالث : النفقة في الجهاد ، قاله الضحاك ﴿ ومن يُوقَ شُحَّ نفسه ﴾ حتى يعطيَ حق الله في ماله .

وقد تقدم بيان هذا في [الحشر : 9] وما بعده قد سبق بيانه إلى آخر السورة [البقرة : 245 ، والحديد : 11 ، 18 ، والحشر : 23 ، 24] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 279 . 286 ﴾

(98/767)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ يسبح له ما في السموات والأرض وما في الأرض له الملك وله الحمد ﴾

(99/767)

يعني أنه تعالى متصرف في ملكه كيف يشاء تصرف اختصاص لا شريك له فيه وله الحمد لأن أصول النعم كلها منه وهو الذي يحمد على كل حال فلا محمود في جميع الأحوال إلا هو ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء كما يشاء بلا مانع ولا مدافع ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ قال ابن عباس : إن الله تعالى خلق بني آدم مؤمناً وكافراً ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمناً وكافراً (م) عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لهم وهم في أصلاب آبائهم " (ق) عن أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " وكل الله بالرحم ملكاً فيقول أي

رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال يا رب أذكر أم أنثى أشقي أم سعيد فما الزرق فما الأجل فيكتب ذلك وهو في بطن أمه " وقال جماعة في معنى الآية إن الله تعالى خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا لأن الله ذكر الخلق ثم وصفهم بفعلهم فقال فمنكم كافر ومنكم مؤمن ثم اختلفوا في تأويلها فروي عن أبي سعيد الخدري أنه قال فمنكم كافر حياته مؤمن في العاقبة ومنكم مؤمن حياته كافر في العاقبة وقال عطاء بن أبي رباح فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب وقيل فمنكم كافر أي بأن الله خلقه وهم الدهرية وأصحاب الطبائع ومنكم مؤمن أي بأن الله خلقه وجملة القول فيه أن الله تعالى خلق الكافر وكفره فعلاً له وكسباً وخلق المؤمن وإيمانه فعلاً له وكسباً فلكل واحد من الفريقين كسب واختيار وكسبه واختياره بتقدير الله وبمشيئته فالمؤمن بعد خلق الله إياه يختال الإيمان لأن الله تعالى أراد ذلك منه وقدره عليه وعلمه منه والكافر بعد خلق الله إياه يختار الكفر لأن الله تعالى قدر ذلك عليه وعلمه منه هذا طريق أهل السنة فمن سلك هذا أصاب الحق وسلم من

مذهب الجبرية والقدرية ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أي أنه عالم بكفر الكافر وإيمان المؤمن .

﴿ خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم ﴾ أي إنه أتقن وأحكم صوركم على وجه لا يوجد مثله في الحسن والمنظر من حسن القامة والمناسبة في الأعضاء وقد علم بهذا أن صورة الإنسان أحسن صورة وأكملها ﴿ وإليه المصير ﴾ أي المرجع في القيامة ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ﴾ معناه أنه لا تخفى عليه خافية فاستوى في علمه الظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم قوله تعالى : ﴿ ألم يأتكم ﴾ يخاطب كفار مكة ﴿ نبأ الذين كفروا من قبل ﴾ يعني خبر الأمم الخالية ﴿ فذاقوا وبال أمرهم ﴾ أي جزاء أعمالهم وهو ما لحقهم من العذاب في الدنيا ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي في الآخرة ﴿ ذلك ﴾ أي الذي نزل بهم من العذاب ﴿ بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا ﴾ معناه أنهم أنكروا أن يكون الرسول بشراً وذلك لقلة عقولهم وسخافة أحلامهم ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً ﴿ فكفروا ﴾ أي جحدوا وأنكروا ﴿ وتولوا ﴾ أي أعرضوا ﴿ واستغنى الله ﴾ أي عن إيمانهم وعبادتهم ﴿ والله غني ﴾ أي عن خلقه ﴿ حميد ﴾ أي في أفعاله ثم أخبر الله تعالى عن إنكارهم البعث

﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل ﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿ بلى وربي لتبعثن ﴾ أي يوم

القيامة ﴿ ثم لتنبؤن ﴾ أي لتخبرن ﴿ بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ أي أمر البعث والحساب يوم القيامة ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ لما ذكر حال الأمم الماضية المكذبة وما نزل بهم من العذاب قال فآمنوا أنتم بالله ورسوله لئلا ينزل بكم ما نزل بهم من العقوبة ﴿ والنور الذي أنزلنا ﴾ يعني القرآن سماه نوراً لأنه يهتدى به في ظلمات الضلال كما يهتدى بالنور في الظلمة ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ يعني أنه مطلع عليكم عالم بأحوالكم جميعاً فراقبوه وخافوه.

(101/767)

قوله: ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾ يعني يوم القيامة يجمع الله فيه الأولين والآخرين وأهل السموات وأهل الأرضين ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ من الغبن وهو فوت الحظ والمراد في المجازاة والتجارة وذلك أنه إذا أخذ الشيء بدون قيمته فقد غبن والمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة وذلك لأن كل كافر له أهل ومنزل في الجنة لو أسلم فيظهر يومئذ غبن كل كافر بتركه الإيمان ويظهر غبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان وقيل إن قوماً في النار يعذبون وقوماً في الجنة ينعمون فلا غبن أعظم من هذا وقل هو غبن المظلوم للظالم لأن المظلوم مغبون في الدنيا فصار في الآخرة غابناً لظالمة وأصل الغبن في البيع والشراء وقد ذكر الله في حق الكافرين "

انهم خسروا وغبنوا في شرائهم فقال تعالى : ﴿ اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ﴾ وقال في حق المؤمنين ﴿ هل أدلكم على تجارة ﴾ وقال ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ فخسرت صفقة الكافرين وربحت صفقة المؤمنين ﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ على ما جاءت به الرسل من الإيمان بالبعث والجنة والنار ﴿ ويعمل صالحاً ﴾ أي في إيمانه إلى أن يموت على ذلك ﴿ يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم والذين كفروا ﴾ أي بوحدانية الله وقدرته ﴿ وكذبوا بآياتنا ﴾ أي الدالة على البعث ﴿ أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ﴾ أي بقضاء الله وقدره وإرادته ﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ أي يصدق أنه لا يصيبه مصيبة من موت أو مرض أو ذهاب مال ونحو ذلك إلا بقضاء الله وقدره وإذنه ﴿ يهد قلبه ﴾ أي يوفقه لليقين حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه فيسلم لقضاء الله تعالى وقدره وقيل يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء ﴿ والله بكل شيء عليم وأطيعوا الله ﴾ أي فيما أمر ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أي فيما جاء به عن الله وما أمركم به ﴿

فإن توليتم ﴾ أي عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه ﴿ فإنما على رسولنا البلاغ المبين الله لا إله إلا هو ﴾ أي لا معبود ولا مقصود إلا هو ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

(103/767)

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴾ عن ابن عباس قال هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي (صلى الله عليه وسلم) فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبي (صلى الله عليه وسلم) فلما أتوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رأوا الناس قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴾ الآية أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وعنه قالوا لهم صبرنا على إسلامكم فلا صبر لنا على فراقكم فأطاعوهم وتركوا الهجرة فقال تعالى فاحذروهم أي أن تطيعوهم وتدعوا الهجرة ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا ﴾ هذا فيمن أقام على الأهل والولد ولم يهاجر ثم هاجر فرأى الذين قد سبقوه بالهجرة فقد فقهوا في الدين فهم أن يعاقب زوجته وولده الذين ثبطوه ومنعوه عن الهجرة لما لحقوا به ولا ينفق عليهم ولا يصيبهم بخير فأمره الله بالعفو والصفح عنهم وقال عطاء بن يسار نزلت في عوف بن مالك الأشجعي

وكان ذا أهل وولد فإذا أراد أن يغزو بكوا عليه ورققوه وقالوا إلى من تدعنا فيرق عليهم فيقيم فأنزل الله تعالى إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم بحملهم إياكم على ترك طاعة الله فاحذروهم أي أن تقبلوا منهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا أي فلا تعاقبوهم على خلافكم ﴿ فإن الله غفور رحيم إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ أي بلاء واختبار وشغل عن الآخرة وقد يقع الإنسان بسببهم في العظائم ومنع الحق وتناول الحرام وغصب مال الغير ونحو ذلك ﴿ والله عنده أجر عظيم ﴾ يعني الجنة والمعنى لا تباشروا المعاصي بسبب أولادكم ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم قال بعضهم لما ذكر الله العداوة أدخل من للتبعيض فقال إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم لأنهم كلهم ليسوا بأعداء ولم يذكر من في قوله إنما أموالكم وأولادكم فتنة لأنهم لم يخلوا من الفتنة

(104/767)

واشتغال القلب بهم وكان عبد الله بن مسعود يقول لا يقولن أحدكم اللهم إني أعوذ بك من الفتنة فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى أهل ومال وولد إلا يشتمل على فتنة ولكن ليقل اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن .

عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال "كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يخطبنا فجاء

الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال صدق الله إنما أموالكم وأولادكم فتنة نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب .

وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ أي ما أطقتم وهذه الآية ناسخة لقوله ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ ﴿ واسمعوا وأطيعوا ﴾ أي لله ولرسوله فيما يأمركم به وينهاكم عنه ﴿ وأنفقوا ﴾ أي من أموالكم حق الله الذي أمركم به ﴿ خيراً لأنفسكم ﴾ أي ما أنفقتم في طاعة الله ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ تقدم تفسيره .

﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ القرض الحسن هو التصدق من الحلال مع طيبة نفس يعني إن تقرضوا أي تنفقوا في طاعة الله متقربين إليه بالإنفاق ﴿ يضاعفه لكم ﴾ أي يجزكم بالضعف إلى سبعمائة إلى ما يشاء من الزيادة ﴿ ويغفر لكم والله شكور ﴾ يعني يحب المتقربين إليه ﴿ حليم ﴾ أي لا يعاجل بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم ﴿ عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ﴾ والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 102 .

﴿ 106

وقال النسفي :

سورة التغابن

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السماوات وَمَا فِى الأرض لَهُ الملك وَلَهُ الحمد وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل ، وذلك لأن الملك على الحقيقة له لأنه مبدىء كل شيء والقائم به ، وكذا الحمد لأن أصول النعم وفروعها منه ، وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء وحمد غيره اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ أي فمنكم آتٍ بالكفر وفاعل له ، ومنكم آتٍ بالإيمان وفاعل له ، ويدل عليه ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي عالم وبصير بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم .

والمعنى هو الذي تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد من العدم ، وكان يجب أن تكونوا بأجمعكم شاكرين ، فما بالكم تفرقتم أمماً فمنكم كافر ومنكم مؤمن ؟ وقدم الكفر لأنه الأغلب عليهم والأكثر فيهم وهو رد لقول من يقول بالمنزلة بين المنزلتين .

وقيل : هو الذي خلقكم فمنكم كافر بالخلق وهم الدهرية ، ومنكم مؤمن به .

﴿ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق ﴾ بالحكمة البالغة وهو أن جعلها مقار المكلفين ليعملوا فيجازيهم ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي جعلكم أحسن الحيوان كله وأبهاه بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور ، ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب ، ومن كان دميماً مشوه الصورة سمج الخلقة فلا سماجة ثمّ ، ولكن الحسن على طبقات فلانحطاطها عما فوقها لا تستملح ولكنها غير خارجة عن حد الحسن ، وقالت الحكماء : شيئان لا غاية لهما ، الجمال والبيان ﴿ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ فأحسنوا سرائركم كما أحسن صوركم ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السماوات والأرض وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ والله عَلِيمُ بِذَاتِ الصدور ﴾ نبه بعلمه ما في السماوات والأرض ، ثم بعلمه بما يسره العباد ويعلنونه ، ثم بعلمه بذات الصدور أن شيئاً من الكليات والجزئيات غير خافٍ عليه فحقه أن يتقى ويحذر ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه . وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد وكل ما ذكره بعده قوله ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ في معنى الوعيد على الكفر وإنكار أن يعصى الخالف ولا تشكر نعمته .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ الخطاب لكفار مكة ﴿ نَبَؤُاْ الذين كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ﴾ يعني قوم نوح وهود

وصالح ولوط ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي ذاقوا وبال كفرهم في الدنيا ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في العقبى.

(107/767)

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوبال الذي ذاقوه في الدنيا وما أعد لهم من العذاب في الآخرة ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ بأن الشأن والحديث ﴿ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ بالمعجزات ﴿ فَقَالُواْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أنكروا الرسالة للبشر ولم ينكروا العبادة للحجر ﴿ فَكَفَرُواْ ﴾ بالرسل ﴿ وَتَوَلَّواْ ﴾ عن الإيمان ﴿ واستغنى الله ﴾ أطلق ليتناول كل شيء ومن جملته أيمانهم وطاعتهم ﴿ والله غَنِيٌّ ﴾ عن خلقه ﴿ حَمِيدٌ ﴾ على صنعه.

﴿ زَعَمَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي أهل مكة، والزعم ادعاء العلم ويتعدى تعدي العلم ﴿ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ﴾ "أن" مع ما في حيزه قائم مقام المفعولين وتقديره أنهم لن يبعثوا ﴿ قُلْ بلى ﴾ هو إثبات لما بعد "لن" وهو البعث ﴿ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ أكد الإخبار باليمين.

فإن قلت: ما معنى اليمين على شيء أنكروه؟ قلت: هو جائز لأن التهديد به أعظم موقعاً في القلب فكأنه قيل لهم: ما تنكرونه كائن لا محالة.

﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ ﴾ البعث ﴿ عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ هين ﴿ فَئَامِنُواْ بالله

وَرَسُولِهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ والنور الذى أَنزَلْنَا ﴾ يعني القرآن لأنه يبين حقيقة كل شيء فيهتدي به كما بالنور ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فراقبوا أموركم ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ انتصب الظرف بقوله ﴿ لَتُنَبَّؤُنَّ ﴾ أو بإضمار "اذكر" ﴿ لِيَوْمِ الجمع ﴾ ليوم يجمع فيه الأولون والآخرون ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ وهو مستعار من تغابن القوم في التجارة وهو أن يغبن بعضهم بعضاً لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء ، كما ورد في الحديث ، ومعنى ذلك يوم التغابن .

(108/767)

وقد يتغابن الناس في غير ذلك اليوم استعظام له وأن تغابنه هو التغابن في الحقيقة لا التغابن في أمور الدنيا ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صالحا ﴾ صفة للمصدر أي عملاً صالحاً ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سيئاته وَيُدْخِلْهُ ﴾ وبالنون فيهما : مدني وشامي ﴿ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الفوز العظيم الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا أُوْلَئِكَ أصحاب النار خالدين فِيهَا وَبِئْسَ المصير ﴾ .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ شدة ومرض وموت أهل أو شيء يقتضي همّاً ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ

الله ﴾ بعلمه وتقديره ومشيئته كأنه أذن للمصيبة أن تصيبه ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ للاسترجاع عند المصيبة حتى يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون .

أو يشرحه للازدياد من الطاعة والخير ، أو يهد قلبه حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وعن مجاهد : إن ابتلي صبر وإن أعطى شكر وإن ظلم غفر ﴿ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ عن طاعة الله وطاعة رسوله ﴿ فَإِنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين ﴾ أي فعليه التبليغ وقد فعل ﴿ اللهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ بعث لرسول الله صلى الله عليه وسلم على التوكل عليه حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه .

(109/767)

﴿ ياأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِنَّ مِنْ أزواجكم وأولادكم عَدُوّاً لَّكُمْ ﴾ أي إن من الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهن ويخاصمنهم ، ومن الأولاد أولاداً يعادون آباءهم ويعقّونهم ﴿ فاحذروهم ﴾ الضمير للعدو أو للأزواج والأولاد جميعاً أي لما علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عدوّ فكونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم ﴿ وَإِن تَعْفُواْ ﴾ عنهم إذا اطلعتم منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلها ﴿ وَتَصْفَحُواْ ﴾ تعرضوا عن التوبيخ ﴿ وَتَغْفِرُواْ ﴾

تستروا ذنوبهم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يغفر لكم ذنوبكم ويكفر عنكم سيئاتكم .

قيل : إن ناساً أرادوا الهجرة عن مكة فثبطهم أزواجهم وأولادهم وقالوا : تنطلقون وتضيعوننا .

فرقوا لهم ووقفوا ، فلما هاجروا بعد ذلك ورأوا الذين سبقوهم قد فقهوا في الدين أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم فزين لهم العفو .

﴿ إِنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ ﴾ بلاء ومحنة لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة ولا بلاء أعظم منهما ﴿ والله عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي في الآخرة وذلك أعظم من منفعتكم بأموالكم وأولادكم .

ولم يدخل فيه "من" كما في العداوة لأن الكل لا يخلو عن الفتنة وشغل القلب وقد يخلو بعضهم عن العداوة ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ جهدكم ووسعكم ، قيل : هو تفسير لقوله ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : 102] ﴿ واسمعوا ﴾ ما توعظون به ﴿ وَأَطِيعُواْ ﴾ فيما تؤمرون به وتنهون عنه ﴿ وَأَنْفِقُواْ ﴾ في الوجوه التي وجبت عليكم النفقة فيها ﴿ خَيْراً لأَنفُسِكُمْ ﴾ أي انفاقاً خيراً لأنفسكم .

وقال الكسائي : يكن الإنفاق خيراً لأنفسكم والأصح أن تقديره ائتوا خيراً لأنفسكم وافعلوا ما هو خير لها ، وهو تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر وبيان ، لأن هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد وما أنتم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ أي البخل بالزكاة والصدقة الواجبة ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون * إِن تُقْرِضُواْ الله قَرْضاً حَسَناً ﴾ بنية وإخلاص ، وذكر القرض تلطف في الاستدعاء ﴿ يضاعفه لَكُمْ ﴾ يكتب لكم بالواحدة عشراً أو سبعمائة إلى ما شاء من الزيادة ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ والله شَكُورٌ ﴾ يقبل القليل ويعطي الجزيل ﴿ حَلِيمٌ ﴾ يقيل الجليل من ذنب البخيل أو يضعف الصدقة لدافعها ولا يعجل العقوبة لمانعها ﴿ عالم الغيب ﴾ أي يعلم ما استتر من سرائر القلوب ﴿ والشهادة ﴾ أي ما انتشر من ظواهر الخطوب ﴿ العزيز ﴾ المعز بإظهار العيوب ﴿ الحكيم ﴾ في الإخبار عن الغيوب ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 260. 263 ﴾

(111/767)

وقال ابن جزى :

سورة التغابن

﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾

في تأويل الآية وجهان : أحدهما الذي خلقكم فكان يجب على كل واحد منكم الإيمان به ، لكن منكم من كفر ومنكم من آمن ، فالكفر والإيمان على هذا هو من اكتساب العبد .

والآخر : أن المعنى هو الذي خلقكم على صنفين : فمنكم من خلقه مؤمناً ومنكم من خلقه كافراً ، فالإيمان والكفر على هذا هو ما قضى الله على كل واحد ، والأول أظهر ، لأنه عطفه على خلقكم بالفاء يقتضي أنّ الكفر والإيمان واقعان بعد الخلقة لا في أصل الخلقة .

﴿ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق ﴾ ذكر معناه في مواضع ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ تعديد نعمة في حُسنِ خِلقة بني آدم ؛ لأنهم أحسن صورة من جميع أنواع الحيوان وإن وجد بعض الناس قبيح المنظر ، فلا يخرجه ذلك عن حسن الصورة الإنسانية ، وإنما هو قبيح بالنظر إلى من هو أحسن منه من الناس . وقيل ؛ يعني العقل والإدراك الذي خصّ به الإنسان . والأول أرجح لأن الصورة إنما تطلق على الشكل .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ خطاب لقريش وسائر الكفار ﴿ فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ معناه أنهم استبعدوا أن يرسل الله بشراً أو تكبروا عن اتباع بشر ، والبشر يقع على الواحد والجماعة

﴿ زَعَمَ الذين كفروا أَن لَّن يُبْعَثُواْ ﴾ قال عبد الله بن عمر : زعم كناية عن كذب .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ العامل في يوم لتنبؤن أو محذوف تقديره اذكر ، ويحتمل أن يكون مبتدأ وخبره ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ يعني ، يوم القيامة . والتغابن مستعار من تغابن الناس في التجارة ، وذلك إذا فاز السعداء بالجنة ، فكأنهم غبنوا الأشقياء في منازلهم التي كانوا ينزلون منها لو كانوا سعداء ، فالتغابن على هذا بمعنى الغبن ، وليس المتعارف في صيغة تفاعل من كونه بين اثنين ، كقولك تضارب وتقاتل إنما هي فعل واحد كقولك : تواضع ، قال ابن عطية والزمخشري : يعني نزول السعداء منازل الأشقياء ونزول الأشقياء منازل السعداء ، والتغابن على هذا بين اثنين ، قال : وفيه تهكم بالأشقياء ، لأن نزولهم في جهنم ليس في الحقيقة بغبن للسعداء .

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ يحتمل أن يريد بالمصيبة الرزايا ، وخصها بالذكر لأنها أهم على الناس . أو يريد جميع الحوادث من خير أو شر ، وبإذن الله عبارة عن قضائه وإرادته تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ قيل : معناه من يؤمن بأن كل شيء بإذن الله يهد الله قلبه للتسليم والرضا بقضاء الله ، وهذا أحسن إلا أن العموم أحسن منه .

(يا أيها الذين إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم)

سببها أن قوما أسلموا وأرادوا الهجرة فثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة فحذرهم الله من طاعتهم في ذلك وقيل نزلت في عوف بن مالك الأشجعي وذلك أنه أراد الجهاد

فاجتمع أهله وأولاده فشكوا من فراقه فرق لهم ورجع ثم إنه ندم وهم بمعاقبتهم فنزلت الآية محذرة من فتنة الأولاد ثم صرف تعالى عن معاقبتهم بقوله وإن تعفوا وتصفحوا الآية ولفظ الآية مع ذلك على عمومه في التحذير ممن يكون للإنسان عدوا من أهله وأولاده سواء كانت عداوتهم بسبب الدين أو الدنيا

التغابن (15) إنما أموالكم وأولادكم

(والله عنده أجر عظيم) ترغيب في الأخرة وتزهيد في الأموال والأولاد التي فتن الناس بها

التغابن (16) فاتقوا الله ما استطعتم (قيل إن هذا ناسخ لقوله اتقوا الله حق تقاته وروى أنه لما نزل حق تقاته شق ذلك على الناس حتى نزل ما استطعتم وقيل لا نسخ بينهما لأن حق تقاته معناه فيما استطعتم إذ لا يمكن أن يفعل أحد إلا ما يستطيع وهذه الآية على هذا مبينة لتلك وتحرز بالاستطاعة من الأكراه والنسيان وما لا يؤاخذ به العبد وإعراب ما في قوله ما استطعتم ظرفيه) خيرا لأنفسكم (منصوب بإضمار فعل لا يظهر عند سيبويه وقيل هو مفعول بأنفقوا لأن الخير بمعنى المال وقيل هو نعت لمصدر محذوف تقديره أنفقوا إنفاقا خيرا لأنفسكم) ومن يوق شح نفسه (ذكر في الحشر

التغابن (17)

(إن تقرضوا) ذكر في البقرة والله شكور حكيم ذكر في اللغات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التسهيل حـ 4 صـ 123 . 125 ﴾

وقال البيضاوى :

سورة التغابن

مختلف فيها وآيها ثماني عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ بدلالتها على كماله واستغنائه . ﴿ لَهُ الملك وَلَهُ الحمد ﴾ قدم الظرفين للدلالة على اختصاص الأمرين به من حيث الحقيقة . ﴿ وَهُوَ على كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى الكل على سواء ثم شرع فيما ادعاه فقال :

﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ ﴾ مقدر كفره موجه إليه ما يحمله عليه . ﴿ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ مقدر إيمانه موفق لما يدعوه إليه . ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيعاملكم بما يناسب أعمالكم .

﴿ خَلَقَ السموات والأرض بالحق ﴾ بالحكمة البالغة . ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ فصوركم من جملة ما خلق فيهما بأحسن صورة ، حيث زينكم بصفوة أوصاف

الكائنات ، وخصكم بخلاصة خصائص المبدعات ، وجعلكم أنموذج جميع المخلوقات .

﴿ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ فأحسنوا سرائركم حتى لا يمسخ بالعذاب ظواهركم .

﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السموات والأرض وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ والله عَلِيمُ بذَاتِ الصدور ﴾ فلا يخفى عليه ما يصح أن يعلم كلياً كان أو جزئياً ، لأن نسبة المقتضى لعلمه إلى الكل واحدة ، وتقديم تقرير القدرة على العلم لأن دلالة المخلوقات على قدرته أولاً وبالذات وعلى علمه بما فيها من الإتقان والاختصاص ببعض الأنحاء .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ يا أيها الكفار . ﴿ نَبَأُ الذين كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ﴾ كقوم نوح وهود وصالح عليهم السلام . ﴿ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ ضرر كفرهم في الدنيا ، وأصله الثقل ومنه الوبيل لطعام يثقل على المعدة ، والوابل المطر الثقيل القطار . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة .

﴿ ذلك ﴾ أي المذكور من الوبال والعذاب . ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ بسبب أن الشأن . ﴿ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ بالمعجزات . ﴿ فَقَالُواْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أنكروا وتعجبوا من أن يكون الرسل بشراً والبشر يطلق للواحد والجمع . ﴿ فَكَفَرُواْ ﴾ بالرسل ﴿ وَتَوَلَّواْ ﴾

عن التدبر في البينات . ﴿ واستغنى الله ﴾ عن كل شيء فضلاً عن طاعتهم . ﴿ والله غَنِيٌّ ﴾ عن عبادتهم وغيرها . ﴿ حَمِيدٌ ﴾ يدل على حمده كل مخلوق .

﴿ زَعَمَ الذين كَفَرُواْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ﴾ الزعم ادعاء العلم ولذلك يتعدى إلى مفعولين وقد قام مقامهما أن بما في حيزه . ﴿ قُلْ بلى ﴾ أي بلى تبعثون . ﴿ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ قسم أكد به الجواب . ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ بالمحاسبة والمجازاة . ﴿ وَذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ لقبول المادة وحصول القدرة التامة .

﴿ فَآمِنُوا بالله وَرَسُولِهِ ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام . ﴿ والنور الذى أَنزَلْنَا ﴾ يعني القرآن فيه بإعجازه ظاهر بنفسه مظهر لغيره مما فيه شرحه وبيانه . ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فمجازعليه .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ ظرف ﴿ لَتُنَبَّؤُنَّ ﴾ أو مقدر باذكر ، وقرأ يعقوب "نجمعكم" .

﴿ لِيَوْمِ الجمع ﴾ لأجل ما فيه من الحساب والجزاء والجمع جمع الملائكة والثقلين . ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ يغبن فيه بعضهم بعضاً لنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس ، مستعار من تغابن التجار واللام فيه للدلالة على أن التغابن الحقيقي هو التغابن

في أمور الآخرة لعظمها ودوامها . ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله ويَعْمَلْ صالحا ﴾ أي عملاً صالحاً .

﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سيئاته ويُدْخِلْهُ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ وقرأ نافع وابن عامر بالنون فيهما . ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ الإشارة إلى مجموع الأمرين ، ولذلك جعله الفوز العظيم لأنه جامع للمصالح من دفع المضار وجلب المنافع .

﴿ والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا أُوْلَئِكَ أصحاب النار خالدين فِيهَا وَبِئْسَ المصير ﴾ كأنها والآية المتقدمة بيان ل ﴿ التغابن ﴾ وتفصيل له .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ إلا بتقديره وإرادته . ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ للثبات والاسترجاع عند حلولها ، وقرىء ﴿ يَهْدِ قَلْبُهُ ﴾ بالرفع على إقامته مقام الفاعل وبالنصب على طريقة ﴿ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ ويهدأ بالهمزة أي يسكن . ﴿ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ حتى القلوب وأحوالها .

﴿ وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين ﴾ أي فإن توليتم فلا بأس عليه إذ وظيفته التبليغ وقد بلغ .

﴿ الله لاَ إله إِلاَّ هُوَ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ لأن إيمانهم بأن الكل منه يقتضي ذلك .

﴿ يا أيها الذين ءامَنُوا إِنَّ مِنْ أزواجكم وأولادكم عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ يشغلكم عن طاعة الله أو يخاصمكم في أمر الدين أو الدنيا . ﴿ فاحذروهم ﴾ ولا تأمنوا غوائلهم . ﴿ وَأَن تَعْفُواْ ﴾ عن ذنوبهم بترك المعاقبة . ﴿ وَتَصْفَحُواْ ﴾ بالإعراض وترك التثريب عليها . ﴿ وَتَغْفِرُواْ ﴾ بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها . ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم .

﴿ إِنَّمَا أموالكم وأولادكم فِتْنَةٌ ﴾ اختبار لكم . ﴿ والله عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لمن آثر محبة الله وطاعته على محبة الأموال والأولاد والسعي لهم .

﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ أي ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم . ﴿ واسمعوا ﴾ مواعظه . ﴿ وَأَطِيعُواْ ﴾ أوامره . ﴿ وَأَنفِقُواْ ﴾ في وجوه الخير خالصاً لوجهه . ﴿ خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ ﴾ أي افعلوا ما هو خير لها ، وهو تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر ، ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف تقديره : انفاقاً خيراً أو خبراً لكان مقدراً جواباً للأوامر . ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ سبق تفسيره .

﴿ إِن تُقْرِضُواْ الله ﴾ تصرفوا المال فيما أمره . ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ مقروناً بإخلاص وطيب قلب . ﴿ يضاعفه لَكُمْ ﴾ . يجعل لكم بالواحد عشراً إلى سبعمائة وأكثر ، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب "يضعفه لكم" . ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ببركة الإنفاق . ﴿ والله شَكُورٌ ﴾ يعطي الجزيل بالقليل . ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجل بالعقوبة .

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ لا يخفي عليه شيء . ﴿ العزيز الحكيم ﴾ تام القدرة والعلم .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة التغابن دفع عنه موت الفجأة " والله أعلم .

(1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 344 . 347 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(117/767)

وقال أبو حيان :

سورة التغابن

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾

ومناسبة هذه السورة لما قبلها : أن ما قبلها مشتمل على حال المنافقين ، وفي آخرها خطاب المؤمنين ، فأتبعه بما يناسبه من قوله : ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ ، هذا تقسيم في الإيمان والكفر بالنظر إلى الاكتساب عند جماعة من المتأولين لقوله : كل مولود يولد على الفطرة ، وقوله تعالى : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ وقيل : ذانك في أصل الخلقة ، بدليل ما في حديث النطفة من قول الملك : أشقيّ أم سعيد ؟

والغلام الذي قتله الخضر عليه السلام أنه طبع يوم طبع كافراً .

وما روى ابن مسعود أنه عليه الصلاة والسلام قال : " خلق الله فرعون في البطن كافراً "

وحكى يحيى بن زكريا : في البطن مؤمناً .

وعن عطاء بن أبي رباح : ﴿ فمنكم كافر ﴾ بالله ، ﴿ مؤمن ﴾ بالكواكب ؛ ومؤمن بالله وكافر بالكوكب .

وقدّم الكافر لكثرته .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ وحين ذكر الصالحين قال : ﴿ وقليل ما هم ﴾ وقال الزمخشري : فمنكم آت بالكفر وفاعل له ، ومنكم آت بالإيمان وفاعل له ، كقوله تعالى : ﴿ وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ : أي عالم بكفركم وإيمانكم اللذين هما من قبلكم ، والمعنى : الذي تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد عن العدم ، فكان يجب أن تنظروا النظر الصحيح ، وتكونوا بأجمعكم عباداً شاكرين .

انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال .

وقال أيضاً : وقيل : ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ﴾ بالخلق : هم الدهرية ، ﴿ ومنكم مؤمن ﴾ به .

وعن الحسن : في الكلام حذف دل عليه تقديره : ومنكم فاسق ، وكأنه من كذب المعتزلة على الحسن .

(118/767)

وتقدم الجار والمجرور في قوله : ﴿ له الملك وله الحمد ﴾ ، قال الزمخشري : ليدل بتقدمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل ، وذلك لأن الملك على الحقيقة له ، لأنه مبدىء كل شيء ومبدعه ، والقائم به المهيمن عليه ؛ وكذلك الحمد ، لأن أصول النعم وفروعها منه .

وأما ملك غيره فتسليط منه ، وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده .

وقرأ الجمهور : ﴿ صوركم ﴾ بضم الصاد ؛ وزيد بن عليّ وأبو رزين : بكسرها ، والقياس الضم ، وهذا تعديد للنعمة في حسن الخلقة ، لأن أعضاء بني آدم متصرّفة بجميع ما تتصرّف فيه أعضاء الحيوان ، وبزيادة كثيرة فضل بها .

ثم هو مفضل بحسن الوجه وجمال الجوارح ، كما قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ وقيل : النعمة هنا إنما هي صورة الإنسان من حيث هو إنسان مدرك عاقل ، فهذا هو الذي حسن له حتى لحقته كمالات كثيرة ، وتكاد العرب لا تعرف الصورة

إلا الشكل ، لا المعنى القائم بالصورة .

ونبه تعالى بعلمه بما في السموات والأرض ، ثم بعلمه بما يسر العباد وما يعلنونه ، ثم بعلمه بما أكنته الصدور على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء ، لا من الكليات ولا من الجزئيات ، فابتدأ بالعلم الشامل للعالم كله ، ثم بخاص العباد من سرّهم وإعلانهم ، ثم ما خص منه ، وهو ما تنطوي عليه صدورهم من خفي الأشياء وكامنها ، وهذا كله في معنى الوعيد ، إذ هو تعالى المجازي على جميع ذلك بالثواب والعقاب .

وقرأ الجمهور : ﴿ ما تسرون وما تعلنون ﴾ بتاء الخطاب ؛ وعبيد عن أبي عمرو ، وأبان عن عاصم : بالياء .

﴿ ألم يأتكم ﴾ : الخطاب لقريش ، ذكروا بما حل بالكفار قبلهم عاد وثمود وقوم إبراهيم وغيرهم ممن صرح بذكرهم في سورة براءة وغيرها ، وقد سمعت قريش أخبارهم ، ﴿ فذاقوا وبال أمرِهم ﴾ : أي مكروههم وما يسوؤهم منه .

(119/767)

﴿ ذلك ﴾ : أي الوبال ، ﴿ بأنه ﴾ : أي بأن الشأن والحديث استبعدوا أن يبعث الله تعالى من البشر رسولاً ، كما استبعدت قريش ، فقالوا على سبيل الاستغراب : ﴿ أبشر

يهدوننا ﴾ ، وذلك أنهم يقولون : نحن متساوون في البشرية ، فأنى يكون لهؤلاء تمييز علينا بحيث يصيرون هداة لنا ؟ وارتفع ﴿ أبشر ﴾ عند الحوفي وابن عطية على الابتداء ، والخبر ﴿ يهدوننا ﴾ ، والأحسن أن يكون مرفوعاً على الفاعلية ، لأن همزة الاستفهام تطلب الفعل ، فالمسألة من باب الاشتغال .

﴿ فكفروا ﴾ : العطف بالفاء يدل على تعقب كفرهم مجيء الرسل بالبينات ، أي لم ينظروا في تلك البينات ولا تأمّلوها ، بل عقبوا مجيئها بالكفر ، ﴿ واستغنى الله ﴾ : استفعل بمعنى الفعل المجرد ، وغناه تعالى أزلي ، فالمعنى : أنه ظهر تعالى غناه عنهم إذ أهلكهم ، وليست استفعل هنا للطلب .

وقال الزمخشري : معناه : وظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ، ولم يضطرهم إليه مع قدرته على ذلك .

انتهى ، وفيه دسيسة الاعتزال .

والزعم : تقدم تفسيره ، والذين كفروا : أهل مكة ، وبلى : إثبات لما بعد حرف النفي ، ﴿ وذلك على الله يسير ﴾ : أي لا يصرفه عنه صارف .

﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ : وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ﴿ والنور الذي أنزلنا ﴾ : هو القرآن ، وانتصب ﴿ يوم يجمعكم ﴾ بقوله : ﴿ لتنبؤن ﴾ ، أو بخبير ، بما فيه من معنى الوعيد والجزاء ، أو باذكر مضمرة ، قاله الزمخشري ؛ والأول عن النحاس ،

والثاني عن الحوفي .

وقرأ الجمهور : يجمعكم بالياء وضم العين ؛ وروي عنه سكونها وإشمامها الضم ؛ وسلام ويعقوب وزيد بن علي والشعبي : بالنون .

﴿ ليوم الجمع ﴾ : يجمع فيه الأولون والآخرون ، وذلك أن كل واحد يبعث طامعاً في الخلاص ورفع المنزلة .

(120/767)

﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ : مستعار من تغابن القوم في التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً ، لأن السعداء نزلوا منازل الأشقياء لو كانوا سعداء ، ونزل الأشقياء منازل السعداء لو كانوا أشقياء ، وفي الحديث : " ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً ، وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة " ، وذلك معنى يوم التغابن .

وعن مجاهد وغيره : إذا وقع الجزاء ، غبن المؤمنون الكافرين لأنهم يحوزون الجنة وتحصل الكفار في النار .

وقرأ الأعرج وشيبة وأبو جعفر وطلحة ونافع وابن عامر والمفضل عن عاصم وزيد بن عليّ

والحسن بخلاف عنه : نكفر وندخله بالنون فيهما ؛ والأعمش وعيسى والحسن وباقي السبعة : بالياء فيهما .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11)

الظاهر إطلاق المصيبة على الرزية وما يسوء العبد ، أي في نفس أو مال أو ولد أو قول أو فعل ، وخصت بالذكر ، وإن كان جميع الحوادث لا تصيب إلا بإذن الله .

وقيل : ويحتمل أن يريد بالمصيبة الحادثة من خير وشر ، إذ الحكمة في كونها بأذن الله .

وما نافية ، ومفعول أصاب محذوف ، أي ما أصاب أحداً ، والفاعل من مصيبة ، ومن زائدة ، ولم تلحق التاء أصاب ، وإن كان الفاعل مؤنثاً ، وهو فصيح ، والتأنيث لقوله تعالى : ﴿ ما تسبق من أمة أجلها ﴾ وقوله : ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ أي بإرادته وعلمه وتمكينه .

﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ : أي يصدق بوجوده ويعلم أن كل حادثة بقضائه وقدره ، ﴿ يهد قلبه ﴾ على طريق الخير والهداية .

وقرأ الجمهور : يهد بالياء ، مضارعاً لهدى ، مجزوماً على جواب الشرط .

وقرأ ابن جبير وطلحة وابن هرمز والأزرق عن حمزة : بالنون ؛ والسلمي والضحاك وأبو جعفر : يهد مبنياً للمفعول ، قلبه : رفع ؛ وعكرمة وعمرو بن دينار ومالك بن دينار : يهدأ بهمزة ساكنة ، قلبه بالرفع : يطمئن قلبه ويسكن بإيمانه ولا يكون فيه اضطراب .

وعمرو بن فايد : يهدا بألف بدلاً من الهمزة الساكنة ؛ وعكرمة ومالك بن دينار أيضاً : يهد بحذف الألف بعد إبدالها من الهمزة الساكنة وإبدال الهمزة ألفاً في مثل يهدأ ويقرأ ، ليس بقياس خلافاً لمن أجاز ذلك قياساً ، وبنى عليه جواز حذف تلك الألف للجازم ، وخرج عليه قول زهير بن أبي سلمى :

جزى متى يظلم يعاقب بظلمه . . .

سريعاً وإن لا يبد بالظلم يظلم

أصله : يبدأ ، ثم أبدل من الهمزة ألفاً ، ثم حذفها للجازم تشبيهاً بألف يخشى إذا دخل الجازم .

ولما قال تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ﴾ ، ثم أمر بطاعة الله وطاعة رسوله ، وحذر مما يلحق الرجل من امرأته وولده بسبب ما يصدر من بعضهم من العداوة ، ولا أعدى على الرجل من زوجته وولده إذا كانا عدوين ، وذلك في الدنيا والآخرة .

أما في الدنيا فبإذهاب ماله وعرضه ، وأما في الآخرة فبما يسعى في اكتسابه من الحرام لهما ، وبما يكسبانه منه بسبب جاهه .

وكم من امرأة قتلت زوجها وجذمت وأفسدت عقله ، وكم من ولد قتل أباه .

وفي التواريخ وفيما شاهدناه من ذلك كثير .

وعن عطاء بن أبي رباح : أن عوف بن مالك الأشجعي أراد الغزو مع النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فاجتمع أهله وولده ، فثبطوه وشكوا إليه فراقة ، فرق ولم يغز ؛ إنه ندم بمعاقبتهم ، فنزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ الآية .

وقيل : آمن قوم بالله ، وثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة ، ولم يهاجروا إلا بعد مدة ، فوجدوا غيرهم قد تفقه في الدين ، فندموا وأسفوا وهموا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم ، فنزلت .

وقيل : قالوا لهم : أين تذهبون وتدعون بلدكم وعشيرتكم وأموالكم ؟ فغضبوا عليهم وقالوا : لئن جمعنا الله في دار الهجرة لم نصبكم بخير .

فلما هاجروا ، منعوهم الخير ، فحبوا أن يعفوا عنهم ويردوا إليهم البر والصلة .

ومن في ﴿ من أزواجكم وأولادكم ﴾ للتبعيض ، وقد توجد زوجة تسر زوجها وتعينه على مقاصده في دينه ودنياه ، وكذلك الولد .

وقال الشعب العبسي يمدح ولده رباطاً :

إذا كان أولاد الرجال حزازة . . .

فأنت الحلال الحلو والبارد العذب

لنا جانب منه دميث وجانب . . .

إذا رامه الأعداء مركبه صعب

وتأخذه عند المكارم هزة . . .

كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

وقال قرمان بن الأعرف في ابنه منازل ، وكان عاقاً له ، قصيدة فيها بعض طول منها :

وربيته حتى إذا ما تركته . . .

أخا القوم واستغنى عن المسح شاربه

فلما رآني أحسب الشخص أشخصاً . . .

بعيداً وذا الشخص البعيد أقاربه

تعمد حقي ظالماً ولوى يدي . . .

لوى يده الله الذي هو غالبه

﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ : أي بلاء ومحنة ، لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة ، ولا بلاء أعظم منهما .

وفي باب العداوة جاء بمن التي تقتضي التبعيض ، وفي الفتنة حكم بها على الأموال والأولاد على بعضها ، وذلك لغلبة الفتنة بهما ، وكفى بالمال فتنة قصة ثعلبة بن حاطب ، أحد من نزل فيه ، ومنهم من عاهد الله : ﴿ لئن آتانا من فضله ﴾ الآيات .

وقد شاهدنا من ذكر أنه يشغله الكسب والتجارة في أمواله حتى يصلي كثيراً من الصلوات الخمس فائتة .

وقد شاهدنا من كان موصوفاً عند الناس بالديانة والورع ، فحين لاح له منصب وتولاه ، استناب من يلوذ به من أولاده وأقاربه ، وإن كان بعض من استنابه صغير السن قليل العلم سيىء الطريقة ، ونعوذ بالله من الفتن .

وقدمت الأموال على الأولاد لأنها أعظم فتنة ، ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رءاه استغنى ﴾ شغلتنا أموالنا وأهلونا .

﴿ والله عنده أجر عظيم ﴾ : تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة .

والأجر العظيم : الجنة .

﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ ، قال أبو العالية : جهدكم .

وقال مجاهد : هو أن يطاع فلا يعصى ، ﴿ واسمعوا ﴾ ما توعظون به ، ﴿ وأطيعوا ﴾ فيما أمرتم به ونهيتم عنه ، ﴿ وأنفقوا ﴾ فيما وجب عليكم .

و﴿ خيراً ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره : وأتوا خيرا ، أو على إضمار يكن فيكون خبراً ، أو على أنه نعت لمصدر محذوف ، أي إنفاقاً خيرا ، أو على أنه حال ، أو على أنه مفعول ب : وأنفقوا خيراً ، أي مالاً ، أقوال ، الأول عن سيبويه .

ولما أمر بالإنفاق ، أكده بقوله : ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ ، ورتب عليه تضعيف القرض وغفران الذنوب .

وفي لفظ القرض تلطف في الاستدعاء ، وفي لفظ المضاعفة تأكيد للبذل لوجه الله تعالى .

ثم اتبع جوابي الشرط بوصفين : أحدهما عائد إلى المضاعفة ، إذ شكره تعالى مقابل للمضاعفة ، وحلمه مقابل للغفران .

قيل : وهذا الحض هو في الزكاة المفروضة ، وقيل ، هو في المندوب إليه .

وتقدم الخلاف في القراءة في ﴿ يوق ﴾ وفي ﴿ شح ﴾ وفي ﴿ يضاعفه ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(124/767)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) ﴾

التفسير : قال في الكشاف : قدم الظرفين في قوله ﴿ له الملك وله الحمد ﴾ لمكان الاختصاص وأن لا ملك بالحقيقة إلا له ولا استحقاق حمد في التحقيق إلا له . قلت : لو عكس الترتيب أفاد الخصوصية بوجه آخر وهو أن هذا الجنس وهذه الطبيعة له كما سبق في " الفاتحة " ﴿ هو الذي خلقكم ﴾ ذا فطرة سليمة . وقوله ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ بحسب الأسباب الخارجية كقوله صلى الله عليه وسلم "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه " والكل على وفق المشيئة . قالت المعتزلة : أراد هو الذي تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق فكان يجب عليكم أن تقابلوه بالتوحيد والتكبير مجتمعين مطيعين لا أن يغلب الكفر والجحود عليكم ، ولمكان هذه الغلبة قدم الكافر . والعجب من صاحب الكشاف أنه سلم أن في خلق الكافر قد يكون وجه حسن ولكنه يخفى علينا ولا يسلم أن في خلق داعية الكفر في الكافر قد يكون وجه حسن يخفى عليه . وقيل : هو الذي خلقكم فمنكم كافر بالخلق وهم الدهرية ، ومنكم مؤمن . قوله ﴿ فأحسن صوركم ﴾ كقوله في ﴿ أحسن ﴾ [التين : 4] وسيجيء في " التين " إن شاء الله العزيز . وكل قبيح من الإنسان فهو في نوعه كامل إلا أن الله تعالى خلق أكمل منه من نوعه

وأحسن فلهذا يحكم بدمامته وقبحه، ولهذا قالت الحكماء : شيئان لا غاية لهما : الجمال والبيان . وحين وصف نفسه بالقدرة الكاملة والعلم الشامل أعم أولاً ثم أخص ثم أخفى، هدد كفار مكة بحال الأمم الماضية فقال ﴿ ألم يأتكم ﴾ الآية ﴿ ذلك ﴾ الوبال الدنيوي والعذاب الأخروي ﴿ بأنه ﴾ أي بأن الشان ﴿ كانت ﴾ أي كانت القضية وقد مر نظيره في " حم المؤمن " .

(125/767)

﴿ أبشر ﴾ فاعل فعل محذوف تفسيره ﴿ يهدوننا ﴾ وجمع الضمير لأن البشر اسم جمع ﴿ إنّما أنا بشر ﴾ [الكهف : 110] ﴿ إن نحن إلا بشر ﴾ [إبراهيم : 11] قال أهل المعاني : لم يذكر المستغنى عنه في قوله ﴿ واستغنى الله ﴾ ليتناول كل شيء ومن جملته إيمانهم وطاعتهم . قال في الكشاف : معناه وظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان مع قدرته على ذلك، وإنما ذهب إلى هذا التأويل لئلا يوهم أن يوجد التولي والاستغناء معاً ويلزم منه أن لا يكون الله في الأزل غنياً . قلت : لو جعل الواو للحال أي وقد كان الله مستغنياً قديماً أو والحال وجود استغناء الله في وجودكم لم يحتج إلى التأويل . قوله ﴿ زعم ﴾ من أفعال القلوب وفيه تقريع لكفار مكة لأن الزعم ادعاء العلم مع ظهور

أمارات خلافه ويؤيده ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " زعموا مطية الكذاب " و ﴿ أن لن يبعثوا ﴾ في تقدير مفرد قائم مقام المفعولين . قال جار الله : ﴿ يوم يجمعكم ﴾ منصوب بقوله ﴿ لتنبؤن ﴾ أو ب ﴿ خبير ﴾ لأنه في معنى الوعد كأنه قيل : واله يعاقبكم يوم كذا أو بإضمار " اذكر " قلت : يجوز أن يكون ﴿ يوم ﴾ مبنياً على الفتح ومحله ابتداء والخبر جملة قوله ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ .

(126/767)

سؤال : ما الفائدة في زيادة قوله ﴿ ليوم الجمع ﴾ الجواب إن كان الخطاب في ﴿ يجمعكم ﴾ لكفار مكة فظاهر أي اذكروا وقت جمعكم الواقع في وقت يجمع فيه الأوّلون والآخرون ، وإن كان لعموم الناس فلعل اللام في الجمع للمعهود الذي سلف في نحو قوله ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ [المائدة : 109] ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ [الكهف : 47] ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ [الواقعة : 49 ، 50] هذا ما سمح به الفكر الفاتر والله تعالى أعلم بمراده . قال جار الله : التغابن مستعار من تغابن القوم في التجارة وهو أن يغبن بعضهم بعضاً لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التي ينزلونها لو كانوا أشقياء .

قلت : في تسمية القسم الأخير تغابناً نظر إلا أن يفرض بنزول الشقي في ذلك المنزل يزيد عذاب الشقي ، وزيادة العذاب سبب تضيق المكان عليه . واعتذر عنه جار الله بأنه تهكم بالأشقياء لأن خسران أحد الفريقين مبني على ربح الآخر ولا ربح في التحقيق فيلزم التهكم مثل ﴿ فبشرهم ﴾ [آل عمران : 21] وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من عبد يدخل الجنة إلا يرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً وما من عبد يدخل النار إلا يرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة " ويجوز أن يفسر التغابن بأخذ المظلوم حسنات الظالم وحمل الظالم خطايا المظلوم وإن صح مجيء التغابن بمعنى الغبن فذلك واضح في حق كل مقصر صرف شيئاً من استعداده الفطري في غير ما أعطى لأجله .

(127/767)

قوله ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ كقوله ﴿ وزدناهم هدى ﴾ [الكهف : 13] والأول باللسان والثاني بالجنان أي هدينا قلبه إلى حقيقة الإيمان . وقال جار الله : يلطف به ويشرحه للازدياد من الطاعة والخير ، والتحقيق فيه أن نور الإيمان ينبسط كل يوم بسبب الرسوخ والثبات وتكامل المغيبات وتزايد المعارف والطاعات إلى أن يتنور جميع أجزاء القلب وينعكس منه إلى كل الأعضاء والجوارح . وعن الضحاك : يهد قلبه حتى يعلم أن ما

أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه . وعن مجاهد : إن ابتلى صبر وإن أعطى شكر وإن ظلم غفر ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ يعلم درجات القلوب من الإيمان . ولما كان أكثر ميل الناس عن الطاعات والكمالات الحقيقيات لأجل صرف الزمان في تهيئة أمور الأزواج والأسباب المفضية إليهن أو المعينة عليهن ، ثم الأولاد الذين هم ثمرات الأفئدة وحياة القلوب وقرة العيون ، بيّن الله سبحانه أن العاقل لا ينبغي أن يصرف كده في ذلك ويكون على حذر منهم ومن تكثيرهم ، وبيع الدين بالدنيا لأجلهم فمن الأزواج أزواج يعادين بعولتهن وأعدى عدوّك هي التي تضاجعك ، وهل يستلذ الوسنان إذا كان في مضجعه ثعبان . ومن الأولاد أولاد كيد زائدة قطعها مؤذ وفي إبقائها عيب ﴿ وإن تعفوا ﴾ عنهم إذا أطلعتم منهم على معاداة فإن الله يجازيكم . وروى أن ناساً أرادوا الهجرة عن مكة فثبطهم أزواجهم وأولادهم فلما هاجروا بعد ذلك ورأوا الذين سبقوهم قد فقهوا في الدين أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم فنزلت . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان فنزل إليهما فأخذهما ووضعهما في حجرة على المنبر فقال : صدق الله ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما . وعن بعض السلف : العيال سوس الطاعات . وقال بعض أهل التفسير : أراد إذا أمكنكم الجهاد والهجرة فلا يفتننكم الميل إلى الأموال والأولاد عنهما .

وحين بين أن الأزواج والأولاد لا ينبغي أن يمنعوا المكلف عن طاعة الله أنتج من ذلك الأمر بتقوى الله بمقدار الوسع والطاقة . " وما " للمدة أو للمصدر وقوله ﴿ خيراً لأنفسكم ﴾ نصب بمحذوف هو افعلوا أو ائتوا وقد مر نظيره في آخر " النساء " في قوله ﴿ انتهوا خيراً لكم ﴾ [الآية : 171] وفيه إشارة إلى أن أمثال هذه الأوامر خير من التهالك في أمور الأزواج والأولاد وإغضاب الرب وإتعاب النفس لتكثير المال المخلف ومن أشقى ممن لا يقدّم لأجل نفسه شيئاً يستقرضه منه رازقه مع شدة احتياجه إلى ذلك بعد مماته ويؤخر لأجل وارثه أموالاً عظيمة مع عدم وثوقه بأنه هل يكون له انتفاع بها أم لا اللهم اشغلنا بما يغنينا وبالله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 308.310 ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

سورة التغابن

مدنية في قول الأكثرين، وقال الضحاك: مكية، وقال الكلبي: مدنية ومكية. وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن سورة التغابن نزلت بمكة إلا آيات من آخرها نزلت بالمدنية في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جفاء أهله وولده، فأنزل الله عز وجلّ ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم ﴾ إلى آخرها، وهي ثماني عشرة آية، ومائتان وإحدى وأربعون كلمة، وألف وسبعون حرفاً.

﴿ بسم الله ﴾ مالك الملك فلا كفء له ولا مثيل ﴿ الرحمن ﴾ أي: الذي وسع الخلائق بره الجليل ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص من عمه فوفقهم للجميل.

﴿ يسبح ﴾ أي: يوقع التنزيه التامّ مع التجديد والاستمرار ﴿ لله ﴾ أي: الذي له الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ ما في السموات ﴾ أي: كلها ﴿ وما في الأرض ﴾ كذلك، وقيل: اللام زائدة، أي: ينزه الله تعالى، قال الجلال المحلي: وأتى بما دون من تغليباً للأكثر ﴿ له ﴾ أي: وحده ﴿ الملك ﴾ أي: كله مطلقاً في الدنيا والآخرة ﴿ وله ﴾ أي: وحده ﴿ الحمد ﴾ أي: الإحاطة بأوصاف الكمال كلها، فلذلك نزهه جميع مخلوقاته وقدّم الظرفين ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله تعالى، وذلك بأنّ الملك على الحقيقة له، لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه، والقائم به والمهيمن عليه، وكذا الحمد لأنّ أصول النعم وفروعها منه وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء وحمده اعتداد بأنّ نعمة الله جرت على يده ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾

﴿ هو ﴾ أي : وحده ﴿ الذي خلقكم ﴾ أي : أنشأكم على ما أنتم عليه ﴿ فمنكم ﴾ أي : فتسبب عن خلقه لكم وتقديره ﴿ كافر ﴾ أي : عريق في صفة الكفر ﴿ ومنكم مؤمن ﴾ أي : راسخ في الإيمان في حكم الله تعالى في الأزل ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنّ الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً ، ويعيدهم في القيامة مؤمناً وكافراً .

(130/767)

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : "خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية فذكر شيئاً مما يكون فقال : تولد الناس على طبقات شتى ، يولد الرجل مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت مؤمناً ، ويولد الرجل كافراً ويعيش كافراً ويموت كافراً ، ويولد الرجل كافراً ويعيش كافراً ويموت مؤمناً" ، أي : وسكت عن القسم الآخر ، وهو أن يولد الرجل مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت كافراً اكتفاء بالمقابل ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم "خلق الله تعالى فرعون في بطن أمّه كافراً ، وخلق يحيى بن زكريا عليهما السلام في بطن أمّه مؤمناً وفي الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه : "وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون

بينه وبينها إلا ذراع أو باع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد الساعدي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ، وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس ، وهو من أهل الجنة" قال القرطبي : قال علماؤنا : والمعنى تعلق العلم الأزلي بكل معلوم فيجري ما علم وأراد وحكم ، فقد يريد إيمان شخص على عموم الأحوال ، وقد يريده إلى وقت معلوم ، وكذلك الكفر .

وقيل : في الكلام محذوف ، تقديره : فمنكم مؤمن ومنكم كافر ومنكم فاسق فحذف لما في الكلام من الدلالة عليه ، قاله الحسن . وقال غيره : لا حذف لأنّ المقصود ذكر الطرفين ، وقيل : إنه خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا ، والتقدير : هو الذي خلقكم ، ثم وصفهم فقال : ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ كقوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ﴾ (النور :) ثم قال تعالى : ﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ﴾ (النور :)

(131/767)

الآية . قالوا : فإنه خلقهم والمشي فعلهم ، وهذا اختيار الحسين بن الفضل ، قال : لو خلقهم مؤمنين وكافرين لما وصفهم بفعلهم في قوله تعالى : ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه" قال البغوي : وروينا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن أبيّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الغلام الذي قتله الخضر طبع على الكفر" وقال تعالى : ﴿ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ (نوح :)

وروى أنس رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "وكل الله بالرحم ملكاً ، فيقول : أي رب نطفة ، أي رب علقة ، أي رب مضغة ، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها ، قال : يا رب ذكر أم أنثى ، شقي أم سعيد ، فما الرزق ، فما الأجل ، فيكتب ذلك في بطن أمه" وقال الضحاك : فمنكم كافر في السرّ مؤمن في العلانية كالمنافق ، ومنكم مؤمن في العلانية والسرّ ، كعمار وزيد . وقال عطاء بن أبي رباح : فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب ، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب ، يعني : في شأن الأنواء كما جاء في الحديث . قال القرطبي : وقال الزجاج : وهو أحسن الأقوال .

والذي عليه الأئمة أن الله خلق الكافر وكفره فعل له ، وكسب واختيار ، وخلق المؤمن وإيمانه فعل له ، وكسب واختيار وكسبه واختياره بتقدير الله ومشيئته ، فالمؤمن بعد خلق الله إياه يختار الإيمان لأنّ الله تعالى أراد ذلك منه وقدّره عليه وعلمه منه ، والكافر بعد خلق الله إياه يختار الكفر لأنّ الله تعالى قدره عليه وعلمه منه ، ولا يجوز أن يوجد من كل منهما غير الذي قدره عليه وعلمه منه ، لأنّ وجود خلاف المقدور عجز ، ووجود خلاف

المعلوم جهل فلا يليقان بالله تعالى. قال البغوي: وهذا طريق أهل السنة، من سلكه أصاب الحق وسلم من الجبر والقدر.

(132/767)

قال الرازي: فإن قيل: إنه تعالى حكيم وقد سبق في علمه أنه تعالى إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر فأيّ حكمة دعت إلى خلقهم؟.

فالجواب: إذا علمنا أنه تعالى حكيم علمنا أنّ أفعاله كلها على وفق الحكمة فيكون خلقه تعالى هذه الطائفة على وفق الحكمة، ولا يلزم من عدم علمنا بذلك أن لا يكون كذلك، بل اللازم أن يكون خلقهم على وفق الحكمة ﴿ والله ﴾ أي: الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ بما تعملون ﴾ أي: توقعون عمله كسباً ﴿ بصير ﴾ أي: بالغ العلم بذلك، فهو الذي خلق جميع أعمالكم التي نسب كسبها إليكم، وهو خالق جميع الاستعدادات والصفات كما خلق الذوات خلافاً للقدرية، لأنه لا يتصور أن يخلق الخالق ما لا يعلمه، ولو سئل الإنسان كم مشى في يومه من خطوة لم يدر فكيف لو سئل أين موضع مشيه، ومتى زمانه فكيف، وإنه ليمشي أكثر مشيه وهو غافل عنه، ومن جهل أفعاله كماً وكيفاً وأيناً وغير ذلك لم يكن خالقاً لها بوجه.

ولما ذكر المظروف ذكر ظرفه دالاً على تمام إحاطته بالبواطن والظواهر .

وقوله تعالى : ﴿ خلق السموات ﴾ أي : على علوها وكبرها ﴿ والأرض ﴾ على سعتها ﴿ بالحق ﴾ أي : بالأمر الذي يطابقه الواقع لما أراد ﴿ وصوّركم ﴾ أي : آدم عليه السلام خلقه بيده كرامة له . قال مقاتل : وقيل : جميع الخلائق على صور لا توافق شيئاً من صور العلويات ، ولا السفليات ، ولا فيها صور توافق الأخرى من كل وجه ﴿ فأحسن صوركم ﴾ فجعلها أحسن الحيوانات كلها كما هو مشاهد ، وبدليل أن الإنسان لا يتمنى أن يكون على خلاف ما يرى من سائر الصور ، ومن حسن صورته أن خلقه منتصباً غير منكب كما قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ (التين :)

كما يأتى إن شاء الله تعالى .

فإن قيل : قد يوجد في أفراد هذا النوع من كل مشوه الخلقة سمج الصورة .

أجيب : بأنه لا سماجة لأن الحسن في المعاني ، وهو على طبقات ومراتب ، فانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقه لا يمنع حسنه ، فهو داخل في حيز الحسن غير خارج عن حدّه ، فقبح القبيح منه إنما هو بالنسبة إلى أحسن منه . ولذا قال الحكماء : شيئان لا غاية

لهما الجمال والبيان ، فقدرة الله سبحانه وتعالى لا تتناهى .

قال البقاعي : فإياك أن تصغي لما وقع في كتب الغزالي إنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ، فإن ذلك ينحل إلى أنه سبحانه لا يقدر أن يخلق أحسن من هذا العالم ، وهذا لا يقوله أحد ، ا .

ه . وهو لا ينقص مقدار الغزالي فإن كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه كما قال الإمام مالك ، وعزاه الغزالي نفسه إلى ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال الشافعي : صنفت هذه الكتب وما ألوت فيها جهداً وإني لا علم أن فيها الخطأ لأن الله تعالى يقول : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا ﴾ (النساء :)

ولما كان التقدير فكان منه سبحانه المبدأ عطف عليه قوله تعالى : ﴿ وإليه ﴾ وحده ﴿ المصير ﴾ أي : المرجع بعد البعث فيجازى كلاً بعمله .

(134/767)

﴿ يعلم ﴾ أي : علمه حاصل في الماضي والحال والمآل ﴿ ما ﴾ أي : كل شئ ﴿ في السماوات ﴾ أي : كلها ﴿ والأرض ﴾ كذلك ﴿ ويعلم ﴾ أي : على سبيل الاستمرار ﴿ ما تسرون ﴾ أي : تخفون ﴿ وما تعلنون ﴾ أي : تظهرون من الكلمات والجزئيات ﴿ والله ﴾ أي : الذي له الإحاطة التامة ﴿ عليم ﴾ أي : بالغ العلم ﴿ بذات ﴾ أي :

صاحبة ﴿ الصدور ﴾ من الأسرار والخواطر التي لم تبرز في الخارج سواء كان صاحب الصدر قد علمها أم لا ، وعلمه لكل ذلك على حد سواء لا تفاوت فيه بين علم الخفي وعلم الجلي نبه بعمله ما في السماوات والأرض ، ثم يعلم ما يسره العباد ويعلنونه ، ثم بعلمه ذوات الصدور إن شيئاً من الجزئيات والكليات غير خافٍ عليه ، ولا عازب عنه ، ولا يجترىء على شيء مما يخالف رضاه ، وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد ، وكل ما ذكره بعد قوله : ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ كما ترى في معنى الوعيد على الكفر ، وإنكار أن يعصى الخالق ولا تشكر نعمته .

﴿ ألم يأتكم ﴾ أيها الناس ولا سيما الكفار ﴿ نبأ ﴾ أي : خبر ﴿ الذين كفروا من قبل ﴾ كقوم نوح وهود وصالح ﴿ فذاقوا ﴾ أي : باشروا مباشرة الذائق ﴿ وبال أمرهم ﴾ أي : ضرر كفرهم في الدنيا ، وأصله الثقل ، ومنه الوبيل لطعام يثقل على المعدة ، والوابل : المطر الثقيل القطر ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي : مؤلم في البرزخ ثم يوم القيامة التي هي موضع الفصل الأعظم .

﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم من الوبال الدال قطعاً على أن الكفر أبطل الباطل وأنه مما يغضب الخالق ﴿ بأنه ﴾ أي : بسبب أن الشان العظيم البالغ في الفظاعة ﴿ كانت تأتيهم ﴾ على عادة مستمرة ﴿ رسلهم ﴾ أي : رسل الله الذين أرسلهم إليهم ﴿ بالبينات ﴾ أي : الحجج الظاهرات على الإيمان ﴿ فقالوا ﴾ أي : الكل لرسلهم منكرين غاية الإنكار تكبراً ، وقولهم : ﴿ أبشر يهدوننا ﴾ يجوز أن يرتفع بشر على الفاعلية ويكون من الاشتغال ، وهو الأرجح لأن الأداة تطلب الفعل ، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبر ، وجمع الضمير في يهدوننا ؛ إذ البشر اسم جنس ، وقد يأتي الواحد بمعنى الجمع فيكون اسماً للجنس ، وقد يأتي الجمع بمعنى الواحد كقوله تعالى : ﴿ ما هذا بشراً ﴾ (يوسف :)

فأنكروا على الملك الأعظم إرساله لهم ﴿ فكفروا ﴾ أي : بهذا القول ؛ إذ قالوه استصغاراً ولم يعلموا أن الله يبعث من يشاء إلى عباده ﴿ وتولوا ﴾ عن الإيمان .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ فكفروا ﴾ تعميم يفهم منه التولي فما الحاجة إلى ذكره ؟

أجيب : بأنهم كفروا وقالوا : ﴿ أبشر يهدوننا ﴾ وهذا في معنى الإنكار والإعراض بالكلية ، وهذا هو التولي فكأنهم كفروا وقالوا قولاً يدل على التولي ، فلهذا قال : ﴿ فكفروا وتولوا ﴾ ، وقيل : كفروا بالرسل وتولوا بالبرهان ، وأعرضوا عن الإيمان والموعظة .

ونبه بقوله تعالى : ﴿ واستغنى الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي لا أمر لأحد معه على أن هذا إنما هو لمصالح الخلق فهو غني عن كل شيء .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وتولوا واستغنى الله ﴾ يوهم وجود التولي والاستغناء معاً ، والله تعالى لم يزل غنياً ؟

أجيب : بأن معناه وظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ، ولم يضطرهم إليه مع قدرته على ذلك ﴿ والله ﴾ أي : المستجمع الصفات الكمال ﴿ غني ﴾ عن خلقه ﴿ حميد ﴾ أي : محمود في أفعاله .

(136/767)

﴿ زعم الذين كفروا ﴾ أي : أوقعوا الستر لما دلت عليه العقول من وحدانية الله تعالى ، ولو على أدنى الوجوب . وزعم قال ابن عربي : كنية الكذب ، وقال الزمخشري : الزعم ادعاء العلم ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : "زعموا مطية الكذب" وعن شريح : لكل شيء كنية ، وكنية الكذب زعموا . وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند أبي داود : "بئس مطية الرجال زعموا" ﴿ أن لن يبعثوا ﴾ أي : من أي باعث ما بوجه من الوجوه ﴿ قل ﴾ أي : يا أشرف الرسل لهؤلاء البعداء ﴿ بلى ﴾ أي : لتبعثن ثم أكد بصريح

القسم فقال: ﴿ وربي ﴾ أي: المحسن إلي بالانتقام ممن كذب بي ﴿ لتبعثنّ ﴾ أي: بأهون شيء وأيسر أمر ﴿ ثم لتنبؤن ﴾ أي: تخبرنّ إخباراً عظيماً ممن يقيمه الله تعالى لإخباركم ﴿ بما عملتم ﴾ أي: بأعمالكم لتجزون عليها ﴿ وذلك ﴾ أي: الأمر العظيم عندكم من البعث والحساب ﴿ على الله ﴾ أي: المحيط بصفات الكمال وحده ﴿ يسير ﴾ إذ الإعادة أسهل من الابتداء.

فإن قيل: كيف يفيد القسم في إخباره عن البعث، وهم قد أنكروا الرسالة؟.

أجيب: بأنهم أنكروا الرسالة لكنهم يعتقدون أنه يعتقد ربه اعتقاداً جازماً فيعلمون أنه لا يقدم على القسم بربه إلا وأن يكون الإخبار عنده صدقاً أظهر من الشمس في اعتقاده، ثم إنه أكد الخبر باللام والنون فكأنه قسماً بعد قسم.

ثم إن الله تعالى لما أخبر عن البعث، والاعتراف بالبعث من لوازم الإيمان قال تعالى:

﴿ فآمنوا بالله ﴾ أي: الملك الذي له الإحاطة الكاملة بكل شيء ﴿ ورسوله ﴾ أي: كل من أرسله ولا سيما محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ والنور ﴾ أي: القرآن ﴿ الذي أنزلنا ﴾ أي: بما لنا من العظمة؛ لأنه نور يهتدى به من ظلمة الضلالة كما يهتدى بالنور في الظلمات.

فإن قيل: هلا قيل: ونوره، بالإضافة كما قال: ورسوله؟

أجيب بأن الألف واللام في النور بمعنى الإضافة فكأنه قال : ورسوله ونوره ﴿ والله ﴾ أي : المحيط علماً وقدرة ﴿ بما تعملون خبير ﴾ أي : بالغ العلم بما تسرون وما تعلنون فراقبوه في السر والعلانية .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يجمعكم ﴾ منصوب بقوله تعالى : ﴿ لتنبؤن ﴾ عند النحاس و ﴿ بخبير ﴾ عند الحوفي لما فيه من معنى الوعيد كأنه قال : والله يعاقبكم يوم يجمعكم ، وباذكر مضمراً عند الزمخشري فيكون مفعولاً به ، أو بما دلّ عليه الكلام ، أي : تتفاوتون يوم يجمعكم ؛ قاله أبو البقاء ﴿ ليوم الجمع ﴾ أي : لأجل ما يقع في ذلك اليوم ، وهو يوم القيامة الذي يجمع الله تعالى فيه الأولين والآخرين من الإنس والجن وجميع أهل السماء والأرض .

وقيل : يوم يجمع الله بين كل عبد وعمله ، وقيل : يجمع فيه بين الظالم والمظلوم ، وقيل : يجمع فيه بين كل نبي وأمّته ، وقيل : يجمع فيه ثواب أهل الطاعة وعقاب أهل المعاصي ، بل هو جامع لجميع ما ذكر ﴿ ذلك ﴾ أي : اليوم العظيم ﴿ يوم التغابن ﴾ والتغابن مستعار من تغابن القوم في التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء ، وفيه تهكم بالأشقياء ؛ لأن نزولهم ليس بغبن . ولهذا قيل : التفاعل هنا من واحد لا من اثنين ، وفي الحديث "ما من عبد أدخل الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً

، وما من عبد يدخل النار إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرةً" وهو معنى ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ وقد يتغابن الناس في غير ذلك اليوم استعظاماً له وإن تغابنه هو التغابن في الحقيقة لا التغابن في أمور الدنيا وإن جلت وعظمت .

(138/767)

وذكر في بعض التفاسير أن التغابن هو أن يكتسب الرجل مالاً من غير وجهه ليرثه غيره فيعمل فيه بطاعة الله فيدخل الأول النار والثاني الجنة بذلك المال ، فذلك هو الغبن البين ، والمغابن ما انثنى من البدن نحو الإبطين والفخذين ، والمغبون من غبن في أهله ومنازله في الجنة ، ويظهر يومئذ غبن كل كافر بتركه الإيمان ، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان وبصنيعه في الآثام .

قال الزجاج : ويغبن من ارتفعت منزلته في الجنة بالنسبة إلى من هو أعلى منزلة منه . فإن قيل : فأي معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغبن فيها ؟

أجيب : بأنه تمثيل للغبن في الشراء والبيع كقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ﴾ (البقرة :)

فلما ذكر أن الكفار اشتروا الضلالة بالهدى وما ربحوا في تجارتهم بل خسروا ، ذكر أيضاً

أنهم غبنوا وذلك أن أهل الجنة اشتروا الآخرة بترك الدنيا ، واشترى أهل النار الدنيا بترك الآخرة ، وهذا نوع مبادلة اتساعاً ومجازاً .

(139/767)

وقد فرق الله تعالى الخلق فريقين فريقاً للجنة وفريقاً للنار ، وقال الحسن وقتادة : بلغنا أن التغابن على ثلاثة أصناف : رجل علم علماً فضيعه ولم يعمل به فشقي به ، ورجل علم علماً وعمل به فنجا به ، ورجل اكتسب مالاً من وجوه يسأل عنها وشح عليه وفرط في طاعة ربه بسببه ولم يعمل فيه خيراً ، وتركه لوارث لا حساب عليه ، فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه ، ورجل كان له عبد فعمل ذلك العبد بطاعة ربه فسعد ، وعمل السيد بمعصية ربه فشقي . وروى القرطبي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الله تعالى يقيم الرجل والمرأة يوم القيامة بين يديه فيقول الله تعالى لهما قولاً : ما أنتما قائلان ؟ فيقول الرجل : يا رب أوجبت نفقتها علي فنفقتها من حرام ومن حلال ، وهؤلاء الخصوم يطلبون ذلك ، ولم يبق لي ما أوفي ، فتقول المرأة : يا رب وما عسى أن يقول اكتسبه حراماً وأكلته حلالاً ، وعصاك في مرضاتي ولم أرض له بذلك فبعداً له وسحقاً ، فيقول الله تعالى : قد صدقت فيؤمر به إلى النار ويؤمر بها إلى الجنة ، فتطلع عليه من طبقات الجنة فتقول له : غبناك غبناك

سعدنا بما شقيت أنت به ، فذلك يوم التغابن" .

وقال بعض علماء الصوفية : إن الله تعالى كتب الغبن على الخلق أجمعين فلا يلقى أحد ربه إلا مغبوناً ، لأنه لا يمكنه الاستيفاء للعمل حتى يحصل له استيفاء الثواب قال صلى الله عليه وسلم "لا يلقى الله أحد إلا نادما إن كان مسيئًا إن لم يحسن ، وإن كان محسناً إن لم يزدد" .

(140/767)

تنبيه: : استدل بعض العلماء بقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ أنه لا يجوز الغبن في المعاملات الدنيوية لأن الله تعالى خص التغابن بيوم القيامة فقال تعالى : ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ وهذا الاختصاص يفيد أن لا غبن في الدنيا ، فكل من اطلع على غبن في مبيع فإنه مردود إذا زاد على الثلث ، واختاره البغداديون واحتجوا عليه بقوله صلى الله عليه وسلم لحسان بن سعد : "إذا بايعت فقل لا خلابة ولك الخيار ثلاثاً" ولأن الغبن في الدنيا ممنوع منه بالإجماع في حكم الدين إذ هو من باب الخداع المحرم شرعاً في كل ملة لكن اليسير منه لا يمكن الاحتراز عنه ، فمضى في البيوع إذ لو حكمنا برده ما نفذ بيع أبداً لأنه لا يخلو منه ، فإذا كان كثيراً أمكن الاحتراز عنه فوجب الرد به .

والفرق بين القليل والكثير في الشريعة غير معلوم فقدر بالثلث ، وهذا الحد اعتبره الشارع في الوصية وغيرها ، ويكون معنى الآية على هذا يوم التغابن الجائز مطلقاً من غير تفصيل ، وذلك يوم التغابن الذي لا يستدرك أبداً ﴿ ومن يؤمن ﴾ أي : يوقع الإيمان ويجدده على سبيل الاستمرار ﴿ بالله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي لا كفء له ﴿ ويعمل ﴾ تصديقاً لإيمانه ﴿ صالحاً ﴾ أي : عملاً هو مما ينبغي الاهتمام بتحصيله لأنه لا مثل له في جلب المصالح ودفع المضار ﴿ يكفر عنه سيئاته ﴾ التي غلبه عليها نقصان الطبع واتبع ذلك الحامل الآخر ، وهو التوجيه بجلب المسار لأن الإنسان يطير إلى ربه سبحانه بجناحي الخوف والرجاء ، والرهبة والرغبة ، والنذارة والبشارة ﴿ ويدخله ﴾ أي : رحمة له وإكراماً وفضلاً ﴿ جنات ﴾ أي : بساتين ذات أشجار عظيمة وأغصان ظليلة تستر داخلها ورياض مديدة متنوعة الأزاهير عطرة النشر بهيج ريها ، وأشار إلى دوام ريها بقوله تعالى : ﴿ تجري من تحتها ﴾ أي : من تحت قصورها وأشجارها ﴿ الأنهار ﴾ وقرأ نكفر عنه وندخله ، نافع وابن عامر بالنون فيهما ، أي : نحن بما لنا من العظمة ، والباقون بالياء التحتية ، أي : الله الواحد القهار ﴿ خالدين ﴾ أي : مقدرين الخلود ﴿ فيها ﴾ وأكده

بقوله : ﴿ أبداً ﴾ فلا خروج لهم منها ﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر العالي جداً من الغفران والإكرام ﴿ الفوز العظيم ﴾ لأنه جامع لجميع المصالح ودفع المضار وجلب المسار ، ومن جملة ذلك النظر إلى وجه الله الكريم .

(142/767)

ولما ذكر تعالى الفائز بلزومه التقوى ترغيباً اتبعه بضده ترهيباً فقال عز من قائل : ﴿ والذين كفروا ﴾ أي : غطوا أدلة ذلك اليوم فكانوا في الظلام ﴿ وكذبوا ﴾ أي : أوقعوا جميع التغطية وجميع التكذيب ﴿ بآياتنا ﴾ أي : بسببها مع مالها من العظمة بإضافتها إلينا وهي القرآن فلم يعملوا به ﴿ أولئك ﴾ أي : البعداء البغضاء ﴿ أصحاب النار خالدين ﴾ أي : مقدرين الخلود ﴿ فيها وبئس المصير ﴾ هي ، قال الرازي : فإن قيل : قال تعالى في حق المؤمنين ﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ بلفظ المستقبل ، وفي الكفار قال : ﴿ والذين كفروا ﴾ بلفظ الماضي .

فالجواب : أن تقدير الكلام : ومن يؤمن بالله من الذين كفروا وكذبوا بآياتنا يدخله جنات ، ومن لم يؤمن منهم أولئك أصحاب النار .

فإن قيل : قال تعالى : ﴿ يؤمن ﴾ بلفظ الوحدان و ﴿ خالدين فيها ﴾ بلفظ الجمع .

أجيب : بأن ذلك بحسب اللفظ ، وهذا بحسب المعنى .

فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى : ﴿ وبئس المصير ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ وذلك بئس المصير ؟

أجيب : بأن ذلك وإن كان في معناه فهو تصريح بما يؤكده كما في قوله : ﴿ أبداً ﴾ .

﴿ ما أصاب ﴾ أحداً ﴿ من مصيبة ﴾ أيّ مصيبة كانت دينية أو دنيوية في نفس أو مال أو قول أو فعل تقتضي هماً ، أو توجب عقاباً آجلاً أو عاجلاً ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي : بتقدير الملك الأعظم . وقال الفراء : يريد إلا بأمر الله . وقيل : إلا بعلم الله ، وقيل : سبب نزول هذه الآية أن الكفار قالوا : لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله تعالى عن المصائب في الدنيا ، فبين الله تعالى أن ما أصاب من مصيبة إلا بقضائه وقدره .

فإن قيل : بم يتصل قوله تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ﴾ ؟

أجيب : بأنه يتعلق بقوله تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ .

﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ يصدق بأنه لا تصيبه مصيبة إلا بقضاء الله الملك الأعظم وتقديره وإذنه ﴿ يهد قلبه ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو أن يجعل في قلبه اليقين حتى يعلم

أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، أي : فيسلم لقضاء الله وقدره .

وقال الكلبي : هو إذا ابتلي صبر ، وإذا أنعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفر .

وقيل : يهد قلبه إلى نيل الثواب في الجنة ، وقيل : يثبته على الإيمان . وقال أبو عثمان الحيري : من صح إيمانه يهد الله قلبه لاتباع السنة . وقيل : يهد قلبه عند المصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، قاله ابن جبير . ﴿ والله ﴾ أي : الملك الذي لا نظير له ﴿ بكل شيء ﴾ مطلقاً من غير استثناء ﴿ عليم ﴾ فلا يخفى عليه تسليم من انقاد لأمره ، فإذا تحقق من هدى قلبه ذلك زاح عنه كل اعتقاد باطل من كفر أو بدعة أو صفة خبيثة .

﴿ وأطيعوا الله ﴾ أي : الملك الأعلى الذي له الأمر كله ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أي : هونوا على أنفسكم المصائب واشتغلوا بطاعة الله تعالى ، واعملوا بكتابه وأطيعوا الرسول في العمل بسنته ﴿ فإن توليتم ﴾ أي : عن الطاعة ﴿ فإنما على رسولنا ﴾ أضافه إليه على وجه الكمال تعظيماً له وتهديداً لمن يتولى عنه ﴿ البلاغ المبين ﴾ أي : الظاهر في نفسه المظهر لكل أحد أنه أوضح له غاية الإيضاح ، ولم يدع لبساً ، وليس إليه خلق الهداية في القلوب .

﴿ الله ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال ﴿ لا إله إلا هو ﴾ فهو القادر على خلق الهداية في القلوب والإقبال بها لا يقدر على ذلك غيره ﴿ وعلى الله ﴾ أي : الذي له الأمر لا على غيره ﴿ فليتوكل المؤمنون ﴾ أي : لأن إيمانهم بأن الكل منه يقتضي ذلك . وقال

الزمخشري : هذا بعث لرسول الله صلى الله عليه وسلم على التوكل عليه ، والتقوى به في أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه .

(144/767)

واختلف في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم ﴾ أي : وإن أظهرن غاية المودة ﴿ وأولادكم ﴾ أي : وإن أظهروا غاية الشفقة ﴿ عدواً لكم ﴾ فقال ابن عباس : نزلت بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم جفاء أهله وولده فنزلت ذكره النحاس ، وحكاه الطبري عن عطاء بن يسار قال : نزلت سورة التغابن كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم ﴾ فإنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد ، وكان إذا أراد الغزو بكوه ورققوه ، وقالوا : إلى من تدعنا فيرق فيقيم ، فنزلت هذه الآية إلى آخر السورة بالمدينة .

وروى الترمذي عن ابن عباس وسئل عن هذه الآية قال : هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة ، وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فلما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم رأوا الناس قد تفقهوا في

الدين ، فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله تعالى هذه الآية ، حديث حسن صحيح .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن الشيطان قعد لابن آدم في طرق الإيمان فقال له : أتؤمن وتذر دينك ودين آبائك فخالفه فآمن ، ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له : أتهاجر وتترك أهلك ومالك فخالفه فهاجر ، ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له : أتجاهد فتقتل نفسك فتنكح نساؤك ويقسم مالك فخالفه فجاهد فقتل ، فحق على الله أن يدخله الجنة" .

وقعود الشيطان يكون بوجهين : أحدهما : يكون بالوسوسة ، والثاني : أن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب قال تعالى : ﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ (فصلت :)

وفي حكمة عيسى عليه الصلاة والسلام : من اتخذ أهلاً ومالاً وولداً كان في الدنيا عبداً .

وقال عليه الصلاة والسلام : "تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد القطيفة" ولا دناءة أعظم من دناءة الدينار والدرهم ، ولا أخس من همة ترتفع بثوب جديد ويدخل في قوله تعالى : ﴿ إن من أزواجكم ﴾ الذكر والأنثى ،

فكما أن الرجل تكون زوجته عدواً له كذلك المرأة يكون زوجها عدواً لها بهذا المعنى ﴿ فاحذروهم ﴾ أي : أن تطيعوهم في التخلف عن الخير ، ولا تأمنوا غوائلهم ﴿ وإن تعفوا ﴾ أي : توقعوا المجاوزة عن ذنوبهم بعدم العقاب عليها فإنه لا فائدة في ذلك ، فإن من طبع على شيء لا يرجع عنه وإنما النافع الحذر الذي أرشد إليه تعالى لئلا يكون سبباً للذم المنهي عنه ﴿ وتصفحوا ﴾ أي : بالإعراض عن المقابلة بالتثريب باللسان ﴿ وتغفروا ﴾ أي : بأن تستروا ذنوبهم ستراً تاماً شاملاً للعين والأثر بالتجاوز ﴿ فإن الله ﴾ أي : الجامع لصفات الكمال ﴿ غفور ﴾ أي : بالغ المحو لأعيان الذنوب وآثارها جزاء لكم على غفرانكم لهم ، وهو جدير بأن يصلحهم لكم بسبب غفرانكم ﴿ رحيم ﴾ فيكرمكم بعد ذلك الستر بالإنعام فتخلقوا بأخلاقه تعالى يزدكم من فضله .

﴿ إنما أموالكم ﴾ أي : عامة ﴿ وأولادكم ﴾ كذلك ﴿ فتنة ﴾ أي : اختبار من الله تعالى لكم ، وهو أعلم بما في نفوسكم منكم لكي ليظهر في عالم الشهادة من يميله ذلك فيكون عليه نقمة ممن لا يميله فيكون عليه نعمة ، فربما رام الإنسان صلاح ماله وولده فبالغ فأفسد نفسه ، ثم لا يصلح ذلك ماله ولا ولده . روى أبو نعيم في الحلية في ترجمة سفيان الثوري رضي الله عنه أنه قال : يؤتى برجل يوم القيامة فيقال : أكل عياله حسناته . وعن بعض السلف : العيال سوس الطاعات ويكفي في فتنة المال قصة ثعلبة بن حاطب أحد من نزل فيه قوله تعالى : ﴿ ومنهم من عاهد الله ﴾ (التوبة :)

وعن ابن مسعود : لا يقولن أحدكم اللهم اعصمني من الفتنة ، فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال ولا ولد إلا وهو مشتمل على فتنة ، ولكن ليقل اللهم أعوذ بك من مضلات الفتن . وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم ﴾ أدخل من للتبعيض لأنهم كلهم ليسوا بأعداء ، ولم يذكر في قوله تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ لأنهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما .

روى الترمذي وغيره عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : "رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يخطب فجاء الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل صلى الله عليه وسلم فحملهما ووضعهما بين يديه ، ثم قال : صدق الله عز وجل ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما" ثم أخذ في خطبته . /

تنبيه : قدم الأموال على الأولاد لأن فتنة المال أكثر ، وترك ذكر الأزواج في الفتنة قال البقاعي : لأن منهن من يكون صلاحاً وعوناً على الآخرة ﴿ والله ﴾ أي : ذو الجلال ﴿ عنده ﴾ وناهيك بما يكون منه بسبيل جلاله وعظمته ﴿ أجر ﴾ ثم وصفه بقوله تعالى

: ﴿ عظيم ﴾ أي : لمن ائتمر بأوامره التي أمره بها .

وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي : الملك الأعلى ﴿ ما استطعتم ﴾ أي : جهدكم ووسعكم ناسخ لقوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ (آل عمران :) قاله قتادة والربيع بن أنس السدي ، وذكر الطبري عن ابن زيد في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾ قال جاء أمر شديد قال : ومن يعرف قدر هذا ويبلغه ، فلما علم الله تعالى أنه قد اشتد عليهم نسخه عنهم ، وجاء بهذه الآية الأخرى فقال ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ وقال ابن عباس : وهي محكمة لا نسخ فيها ، ولكن ﴿ حق تقاته ﴾ أن يجاهدوا فيه حق جهاده ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم .

(147/767)

فإن قيل : إذا كانت الآية غير منسوخة فكيف الجمع بين الآيتين ، وما وجه الأمر باتقائه حق تقاته مطلقاً من غير تخصيص ولا مشروطاً بشرط ، والأمر باتقائه بشرط الاستطاعة ؟

أجيب : بأن قوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ معناه : فاتقوا الله أيها الناس وراقبوه فيما جعله فتنة لكم من أموالكم وأولادكم أن تغلبكم فتنتهم وتصدكم عن الواجب لله

عليكم من الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فتتركوا الهجرة وأنتم مستطيعون ، وذلك أن الله تعالى قد عذر من لم يقدر على الهجرة بتركها بقوله تعالى : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ﴾ (النساء :)

فأخبر تعالى أنه قد عفا عمن لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً بالإقامة في دار الشرك ، فكذلك معنى قوله تعالى : ﴿ ما استطعتم ﴾ في الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام أن تتركوها فتنة أموالكم وأولادكم ، ويدل على صحة هذا أن قوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ عقب قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴾ ولا خلاف بين علماء التأويل في أن هذه الآيات نزلت بسبب قوم كفار تأخروا عن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام بتثبيط أولادهم إياهم عن ذلك كما تقدم ، وهذا اختيار الطبري .

وقال ابن جبير : قوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ أي : فيما يتطوع به من نافلة أو صدقة ، فإنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ اشتدت على القوم فقاموا حتى ورمت وقرحت جباههم فأنزل الله تعالى تخفيفاً فيهم ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ فنسخت الأولى .

قال الماوردي : ويحتمل أن يثبت هذا النقل لأن المكره على المعصية غير مؤاخذ بها ، لأنه لا يستطيع اتقاءها ﴿ واسمعوا ﴾ أي : سماع إذعان وتسليم لما توعظون به وجميع أوامره ﴿ وأطيعوا ﴾ أي : وصدقوا ذلك الإذعان بمباشرة الأفعال الظاهرة في الإسلاميات من القيام بأمر الله تعالى ، والشفقة على خلق الله في كل أمر ونهي على حسب الطاقة وحذف المتعلق ليصدق الأمر بكل طاعة ﴿ وأنفقوا ﴾ أي : أوقعوا الإنفاق كما حد لكم فيما وجب أو ندب إليه ، والإنفاق لا يخص نوعاً بل يكون بكل ما رزق الله من الذاتي والخارجي . وقوله تعالى : ﴿ خيراً لأنفسكم ﴾ في نصبه أوجه : أحدها : قال سيبويه إنه مفعول بفعل مقدر دل عليه ﴿ وأنفقوا ﴾ تقديره : وقدموا خيراً لأنفسكم كقوله تعالى : ﴿ انتهوا خيراً لكم ﴾ (النساء :)

الثاني : تقديره يكن الإنفاق خيراً فهو خبر كان المضمرة ، وهو قول أبي عبيدة . الثالث : أنه نعت مصدر محذوف ، وهو قول الكسائي والفراء ، أي : إنفاقاً خيراً لأنفسكم فإن الله يعطي خيراً منه في الدنيا مع ما تزكى به النفس ويدخر عليه من الجزاء في الآخرة مما لا يدري كنهه فلا يغرنكم عاجل شيء من ذلك فإنما هو زخرف .

ولما ذكر ما في الإنفاق من الخير عمم في جميع الأوامر بقوله تعالى : ﴿ ومن يوق شح نفسه ﴾ فيفعل في ماله جميع ما أمر به موقناً به مطمئناً إليه حتى يرتفع عن قلبه الإخطار ، ويتحرر

عن رق المكنونات ، والشح خلق باطنى هو الداء العضال ، والبخل فعل ظاهر ينشأ عن الشح ، والنفس تارة تشح بترك الشهوة من المعاصي فتفعلها ، وتارة بإعطاء الأعضاء في الطاعات فتتركها وتارة بإنفاق المال ومن فعل ما فرض عليه خرج من الشح . ولما كان الواقي هو الله تعالى سبب عن وقايته قوله تعالى : ﴿ فأولئك ﴾ أي : العالو الرتبة ﴿ هم المفلحون ﴾ أي : الفائزون الذين حازوا جميع المرادات بما اتقوا الله فيه .

(149/767)

ثم رغب في الإنفاق بقوله تعالى : ﴿ إن تقرضوا الله ﴾ أي : الملك الأعلى ذا الغنى المطلق الحائز لجميع صفات الكمال ﴿ قرضاً حسناً ﴾ والقرض الحسن هو التصدق من الحلال مع طيب النفس ومع الإخلاص والمبادرة ﴿ يضاعفه لكم ﴾ أي : لأجلكم خاصة أقل ما يكون بالواحد عشراً إلى ما لا يتناهى على حسب النيات .

قال القشيري : يتوجه الخطاب بهذا على الأغنياء في بذل أموالهم ، وعلى الفقراء في إخلاء أيامهم وأوقاتهم من مروآتهم وإيثار مراد الحق على مراد أنفسهم ، فالغني يقال له آثر حكمي على مرادك في مالك وغيره ، والفقير يقال له : آثر حكمي في نفسك وقلبك ووقتك .

ولما كان الإنسان لما له من النقصان وإن اجتهد لا يبلغ جميع ما أمر به لأن الدين وإن كان

يسيراً فهو متين لن يشاده أحد إلا غلبه قال تعالى : ﴿ ويغفر لكم ﴾ أي : يوقع الغفران وهو محو ما فرط عينه وأثره ﴿ والله ﴾ أي : الذي لا تقاس عظمته بشيء ﴿ شكور ﴾ أي : بليغ الشكر لمن يعطي لأجله ، ولو كان قليلاً فيثيبه ثواباً جزيلاً خارجاً عن الحصر ، وهو ناظر إلى المضاعفة ﴿ حليم ﴾ فلا يعجل بالعقوبة على ذنب من الذنوب ، وإن عظم بل يمهل طويلاً ليتذكر العبد الإحسان مع العصيان فيتوب ، ولا يهمل ولا يغتر بحلمه فإن غضب الحليم لا يطاق ، وهو راجع إلى الغفران .

﴿ عالم الغيب ﴾ وهو ما غاب عن الخلق كلهم فيشمل ما هو داخل القلب مما تؤثره الجبلة ، ولا علم لصاحب القلب به فضلاً عن غيره ﴿ والشهادة ﴾ وهو كل ما ظهر وكان بحيث يعلمه الخلق ، وهذا الوصف داع إلى الإحسان من حيث إنه موجب للمؤمن ترك ظاهر الإثم وباطنه ، وكل قصور وفتور وغفلة وتهاون فيعبد الله تعالى كأنه يراه ﴿ العزيز ﴾ أي : الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ﴿ الحكيم ﴾ أي : بالغ الحكمة التي يعجز عن إدراكها الخلائق .

وقال ابن الأنباري : الحكيم : هو المحكم لخلق الأشياء ، فصرف عن مفعل إلى فعيل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ الم تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ (لقمان : ـ)

معناه: المحكم فصرف من مفعل إلى فعيل، وما قاله البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال "من قرأ سورة التغابن رفع عنه موت الفجأة" حديث موضوع. انتهى انتهى. اهـ ﴿السراج المنير حـ 7 صـ 450. 465﴾

(151/767)

وقال القاسمى:

سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ أي: ملك السماوات والأرض، ونفوذ الأمر فيهما ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ أي: الثناء الجميل، لأنه مولى النعم وموجدها.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن: 5 – 6] أي: هو الذي انفرد بإيجادكم في أحسن تقويم، قابل للكمالات العلمية والعملية، ومع ذلك فمنكم مختار للكفر، جاحد للحق، كاسب له على خلاف ما

تستدعيه خلقته ، ومنكم مختار للإيمان ، كاسب له ، حسبما تقتضيه خلقته ، وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان ، شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد ، وما يتفرع عليها من سائر النعم ، فما فعلتم ذلك مع تمام تمكنكم منه ، بل تشعبتم شعباً ، وتفرقتم فرقاً . وتقديم الكفر لأن الأغلب فيما بينهم ، والأنسب بمقام التوبيخ ، أفاده أبو السعود ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي : فيجازيكم به ، فآثروا ما يجديكم ، وجانبوا ما يرديكم .

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [3]

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : بالحكمة البالغة التي ترشد إلى المصالح الدينية والدنيوية ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي : حيث برأكم في أحسن تقويم ؛ وذلك أنه تعالى جعل الْإِنْسَانَ معتدل القامة على أعدل الأمزجة ، وآتاه العقل وقوة النطق ، والتصرف في المخلوقات ، والقدرة على أنواع الصناعات ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي : مرجعكم للجزاء .

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي : بخفاياها ، وما تنطوي عليه ، وفيه تقرير لما قبله ، كالدليل عليه ، لأنه إذا علم

السرائر ، وخفيات الضمائر ، لم يخف عليه خافية من جميع الكائنات .

قال الزمخشري : نبّه بعلمه ما في السماوات والأرض ، ثم بعلمه ما يسرّه العباد ويعلنونه ، ثم بعلمه ذوات الصدور ، أن شيئاً من الكليات والجزئيات غير خافٍ عليه ، ولا عازب عنه فحقه أن يتقى ويحذر ، ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه . وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد . وكل ما ذكره بعد قوله تعالى :

﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ كما ترى ، في معنى الوعيد على الكفر ، وإنكار أن يعصي الخالق ، ولا تشكر نعمته . انتهى .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ أي : معشر الكفرة الفجرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أي : كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ من عذاب الاستئصال . والوبال الثقل ، والشدة المترتبة على أمر من الأمور . و ﴿ أَمْرُهُمْ ﴾ كفرهم ، عبر عنه بذلك ، للإيذان بأنه أمر هائل ، وجناية عظيمة ﴿ وَلَهُمْ ﴾ أي : في الآخرة ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ أي : ذلك المذكور من ذوقهم وبال أمرهم في الدنيا ، وما أعد لهم من عذاب الأخرى ، بسبب أنه أتتهم رسلهم بالواضحات من الأدلة والأعلام ، على حقيقة ما يدعونهم إليه ، فنبذوها ، واتبعوا أهواءهم ، واستهزؤوا برسلهم ، وقالوا : أبشر يهدوننا ؟

قال ابن جرير : استكباراً منهم أن تكون رسل الله إليهم بشراً مثلهم ، واستكباراً عن إتباع الحق من أجل أن بشراً مثلهم دعاهم إليه .

(153/767)

وجمع الخبر عن البشر فقيل ﴿ يَهْدُونَنَا ﴾ ، ولم يقل : يهدينا ؛ لأن البشر وإن كان في لفظ الواحد ، فإنه بمعنى الجميع . انتهى .

وقال القاشاني : لمّا حجبوا بصفات نفوسهم عن النور الذي هو به يفضل عليهم بما لا يقاس ، ولم يجدوا منه إلا البشرية ، أنكروا هدايته ، فإن كل عارف لا يعرف معروفه إلا بالمعنى الذي فيه ، فلا يوجد النور الكمالي إلا بالنور الفطري ، ولا يعرف الكمال إلا الكامل ، ولهذا قيل : لا يعرف الله إلا الله ، وكل طالب وجد مطلوبه بوجه ما دالاً لما أمكن به التوجه نحوه ، وكذا كل مصدق بشيء فإنه واجد للمعنى المصدق به ، بما في نفسه من ذلك المعنى . فلما لم يكن فيهم شيء من النور الفطري أصلاً ، لم يعرفوا منه الكمال فأنكروه ، ولم يعرفوا من الحق شيئاً ، فيحدث فيهم طلب ، فيحتاجوا إلى الهداية ، فأنكروا الهداية .

﴿ فَكَفَرُوا ﴾ أي : بالحق والدين والرسول ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ أي : عن التدبر في الآيات البينات ، ﴿ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ أي : أظهر استغناءه عن إيمانهم وطاعتهم ، حيث أهلكهم

وقطع دابرهم، ولولا غناه تعالى عنهم لما فعل ذلك. ف ﴿ اسْتَغْنَى ﴾ معطوف على ما قبله، وجوز جعله حالاً بتقدير قد. أي: وقد استغنى بكماله، عرفوا أو لم يعرفوا.

﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ أي: بذاته عن العالمين، فضلاً عن إيمانهم، لا يتوقف كمال من كمالاته عليهم، ولا على معرفتهم له.

﴿ حَمِيدٌ ﴾ أي: يحمده كل مخلوق، أو مستحق للحمد بنفسه، وإن لم يحمده حامد.

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ أي: من قبوركم ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أي: في الدنيا ﴿ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي: هين لقبول المادة، وثبوت القدرة الكاملة.

(154/767)

قال ابن كثير: وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقسم بربه عز وجل، على وقوع المعاد ووجوده، فالأولى في يونس: ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ [يونس: 53]، والثانية في سبأ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ: 3]. والثالثة هذه الآية.

﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي: إذا كان الأمر كذلك، فآمنوا بالله وحده وبرسوله فيما

يخبركم به من البعث والجزاء وغيره ﴿ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ يعني القرآن الحكيم .

والالتفات إلى نور العظمة، لإبراز كمال العناية بأمر الإنزال ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ ظرف لـ ﴿ تُنَبَّؤُنَّ ﴾ أو لـ ﴿ خَبِيرٌ ﴾ لما فيه من معنى الوعيد . كأنه قيل : والله مجازيكم يوم يجمعكم ، أو مفعول لـ : اذكر ﴿ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ أي : ليوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، أي : لأجل ما فيه من الحساب والجزاء ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ قال الزمخشري : التغابن مستعار من تغابن القوم في التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً ، لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء ، وفيه تهكم بالأشقياء لأن نزولهم ليس بغبن ، انتهى .

ومما حسن إطلاق التغابن على ما ذكر ، وورد البيع والاشتراء في حق الفريقين ، فذكر تعالى في حق الكافرين أنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وذكر أنهم ما ربحت تجارتهم ، فكأنهم غبنوا أنفسهم . ودل المؤمنين على تجارة رابحة فقال : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ ﴾ [الصف : 10] الآية . وذكر أنهم باعوا أنفسهم بالجنة ، فخسرت صفقة الكفار ، وربحت صفقة المؤمنين .

وقال القاشاني : أي : ليس التغابن في الأمور الدنيوية ، فإنها أمور فانية سريعة الزوال ، ضرورية الفناء ، لا يبقى شيء منها لأحد ، فإن فات شيء من ذلك ، أو أفاته أحد ، ولو كان حياته ، فإنما فات أو أفيت ما لزم فواته ضرورة ، فلا غبن ولا حيف حقيقة ، وإنما الغبن والتغابن في إفاته شيء لو لم يفته لبقي دائماً ، وانتفع به صاحبه سرمداً ، وهو النور الكمالي والاستعدادي ، فتظهر الحسرة والتغابن هناك ، في إضاعة الربح ورأس المال في تجارة الفوز والنجاة ، كما قال :

﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة : 16] ، فمن أضاع استعداده ونور فطرته ، كان مغبوناً مطلقاً ، كمن أخذ نوره وبقي في الظلمة . ومن بقي نور فطرته ولم يكتسب الكمال اللائق به الذي يقتضيه استعداده ، أو اكتسب منه شيئاً ، ولم يبلغ غايته ، كان مغبوناً بالنسبة إلى الكامل التام ، فكأنما ظفر بذلك الكامل بمقامه ومرامه ، وبقي هذا متحيراً في نقصانه ، انتهى .

﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي : بقدرة الله ومشيئته ، كقوله تعالى في آية الحديد :

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ [الحديد : 22] . ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ أي : إلى العمل بمقتضى إيمانه ، ويشرحه للازدياد من الطاعة والخير .

(156/767)

﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : فيعلم مراتب إيمانكم ، وسرائر قلوبكم ، وأحوال أعمالكم وآفاتها ، وخلوصها من الآفات .

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أي : لما أرسل به ، والله سبحانه ولي الانتقام ممن عصاه ، وخالف أمره .

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ قال ابن كثير : الأول خبر عن التوحيد ، ومعناه طلب ، أي : وحدوا الإلهية له ، وأخلصوها لديه ، وتوكلوا عليه ، كما قال : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المزمل : 9] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ خطاب لمن آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان له من أزواجهم وأولادهم من يعاديهم لإيمانهم ، ويؤذيهم بسببه ، فكان ذلك يغيظهم ، وربما يحملهم على البطش بهم ، فأمروا بالحذر من

فتنتهم، وشركهم فحسب، وأن يظهروا فيهم بمظهر أولي الفضل، كما قال: ﴿ وَأَن تَعْفُواْ ﴾ أي: عن ذنوبهم ﴿ وَتَصْفَحُوا ﴾ أي: بترك التثريب والتعيير ﴿ وَتَغْفِرُوا ﴾ أي: جناياتهم بالرحمة لهم، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: يعاملكم بمثل ما عملتم.

روى ابن جرير عن إسماعيل بن أبي خالد قال: كان الرجل يسلم فيلومه أهله وبنوه، فنزلت الآية.

وعن ابن عباس قال: كان الرجل إذا أراد أن يهاجر من مكة إلى المدينة تمنعه زوجته وولده، ولم يألوا يثبطونه عن ذلك، فقال الله: إنهم عدوّ لكم فاحذروهم واسمعوا وأطيعوا، وامضوا لشأنكم، فكان الرجل بعد ذلك إذا منع وثبط، مرّ بأهله وأقسم ليفعلن وليعاقبن أهله في ذلك، فقال الله جل ثناؤه:

﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا ﴾ الآية.

(157/767)

﴿ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أي: تفتتن بهما النفس، ويجري عليها البلاء بهما، إذا أوثرا على محبة الحق.

﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي: لمن آثر طاعة الله ومحبته عليهما.

روى ابن جرير عن الضحاك قال : هذا في أناس من قبائل العرب ، كان يسلم الرجل أو النفر من الحيّ ، فيخرجون من عشائرهم ، ويدعون أزواجهم وأولادهم وآبائهم عامدين إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فتقوم عشائرهم وأزواجهم وأولادهم وآباؤهم فيناشدونهم الله لا يفارقوهم ، ولا يؤثروا عليهم غيرهم ، فمنهم من يرقّ ويرجع إليهم ، ومنهم من يمضي حتى يلحق بنبي الله صلى الله عليه وسلم .

وعن مجاهد : يحمل الرجل ماله وولده على قطيعة الرحم ، أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبّه إلا أن يطيعه به ، فلذلك وعد في إيثار طاعة الله ، وأداء حق الله في الأموال الأجرَ العظيم ، وهو الجنة .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أي : جهدكم ووسعكم ، أي : ابذلوا فيها استطاعتكم ، ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ أي : افهموا هذه الأوامر واعملوا بها ﴿ وَأَنفِقُوا ﴾ أي : أموالكم التي ابتلاكم الله بها في مراضيه ﴿ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾ أي : وائتوا خيراً لأنفسكم ، أي : اقصدوا في الأموال والأولاد ما هو خير لكم . فـ ﴿ خَيْرًا ﴾ مفعول بمقدر ، وهذا قول سيبويه ، كقوله تعالى :

﴿ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ [النساء : 171] ، وقيل : تقديره : يكن الإنفاق خيراً ، فهو خبر يكن مضمراً ، وهو قول أبي عبيد . وقيل : مفعول لـ : ﴿ أَنفِقُوا ﴾ وهو رأي ابن جرير . قال : أي : وأنفقوا مالاً من أموالكم لأنفسكم ستنقذوها من عذاب الله ، والخير

في هذا الموضع المال ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ أي : بالعصمة منه ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : المنجحون الذين أدركوا طلباتهم عند ربهم .

(158/767)

﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ أي : بالإنفاق في سبيله ، ما تحبون من غير منّ ولا أذى . قال الزمخشري : ذكر القرض تلطف في الاستدعاء ﴿ يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ أي : يضاعف جزاءه وخلفه ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أي : ذنوبكم بالصفح عنها ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ ﴾ أي : ذو شكر لأهل الإنفاق في سبيله ، بحسن الجزاء لهم على ما أنفقوا ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أي : عن أهل معاصيه ، بترك معاجلتهم بعقوبته .

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي : ما يغيب عن أبصار عباده وما يشاهدونه ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أي : الغالب في انتقامه ممن خالف أمره ونهيه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ أي : في تدبيره خلقه ، وصرفه إياهم فيما يصلحهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 141 . 148 ﴾

(159/767)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة التغابن

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) ﴾

الدرس الأول: 1 - 4 تسبيح ما في الوجود لله القادر الخالق المصور

(يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض , له الملك وله الحمد) . .

فكل ما في السماوات والأرض متوجه إلى ربه , مسبح بحمده ; وقلب هذا الوجود مؤمن , وروح كل شيء في هذا الوجود مؤمنة , والله مالك كل شيء . وكل شيء شاعر بهذه الحقيقة . والله محمود بذاته ممجد من مخلوقاته . فإذا وقف الإنسان وحده في خضم هذا الوجود الكبير كافر القلب جامد الروح , متمردا عاصيا , لا يسبح لله , ولا يتجه إلى مولاه , فإنه يكون شاذا بارز الشذوذ , كما يكون في موقف المنبوذ من كل ما في الوجود .

(وهو على كل شيء قدير) . .

فهي القدرة المطلقة , التي لا تتقيد بقيد . وهي حقيقة يطبعها القرآن في القلب المؤمن فيعرفها ويتأثر بمدلولها , ويعلم أنه حين يركن إلى ربه فإنما يركن إلى قدرة تفعل ما تشاء , وتحقق ما تريد . بلا حدود ولا قيود .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)

وهذا التصور لقدرة الله وتسبيح كل شيء له , وتوجه الوجود إليه بالحمد . . هو طرف من ذلك التصور الإيماني الكبير .

واللمسة الثانية في صميم القلب الإنساني , الذي يقف في خضم الوجود المؤمن المسبح بحمد الله . مؤمنا تارة وكافرا تارة . وهو وحده الذي يقف هذا الموقف الفريد .

(هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) . .

(160/767)

فعن إرادة الله وعن قدرته صدر هذا الإنسان ; وأودع إمكان الاتجاه إلى الكفر وإمكان الاتجاه إلى الإيمان ; وتميز بهذا الاستعداد المزدوج من بين خلق الله ; ونيطت به أمانة الإيمان بحكم هذا الاستعداد . وهي أمانة ضخمة وتبعة هائلة . ولكن الله كرم هذا المخلوق فأودعه القدرة على التمييز والقدرة على الاختيار ; وأمده بعد ذلك بالميزان الذي يزن به عمله ويقيس به اتجاهه . وهو الدين الذي نزله على رسل منه . فأعانه بهذا كله على حمل هذه الأمانة . ولم يظلمه شيئا .

(والله بما تعملون بصير) . .

فهو رقيب على هذا الإنسان فيما يعمل , بصير بحقيقة نيته واتجاهه , فليعمل إذن وليحذر هذا الرقيب البصير . .

وهذا التصور لحقيقة الإنسان وموقفه هو طرف من التصور الإسلامي الواضح المستقيم لموقف الإنسان في هذا الوجود , واستعداداته وتبعاته أمام خالق الوجود .

واللمسة الثالثة تشير إلى الحق الأصيل الكامن في طبيعة الوجود , الذي تقوم به السماوات والأرض , كما تشير إلى صنعة الله المبدعة في كيان المخلوق الإنساني . وتقرر رجعة الجميع إليه في نهاية المطاف:

(خلق السماوات والأرض بالحق , وصوركم فأحسن صوركم , وإليه المصير) . .

وصدر هذا النص: (خلق السماوات والأرض بالحق) . . يقر في شعور المؤمن أن الحق أصيل في كيان هذا الكون , ليس عارضا وليس نافلة ; فبناء الكون قام على هذا الأساس . والذي يقرر هذه الحقيقة هو الله الذي خلق السماوات والأرض , والذي يعلم على أي أساس قامتا . واستقرار هذه الحقيقة في الحس يمنحه الطمأنينة والثقة في الحق الذي يقوم عليه دينه , ويقوم عليه الوجود من حوله ; فهو لا بد ظاهر , ولا بد باق , ولا بد مستقر في النهاية بعد زبد الباطل !

والحقيقة الثانية: (وصوركم فأحسن صوركم) . . تشعر الإنسان بكرامته على الله , وبفضل الله عليه في تحسين صورته: صورته الخلقية وصورته الشعورية . فالإنسان هو أكمل الأحياء في الأرض من ناحية تكوينه الجثماني ; كما أنه أرقاها من ناحية تكوينه الشعوري واستعداداته الروحية ذات الأسرار العجيبة . ومن ثم وكلت إليه خلافة الأرض , وأقيم في هذا الملك العريض بالقياس إليه !

ونظرة فاحصة إلى الهندسة العامة لتركيب الإنسان , أو إلى أي جهاز من أجهزته , تثبت تلك الحقيقة وتجسمها : (وصوركم فأحسن صوركم) . . وهي هندسة يجتمع فيها الجمال إلى الكمال . ويتفاوت الجمال بين شكل وشكل . ولكن التصميم في ذاته جميل وكامل الصنعة , ووافٍ بكل الوظائف والخصائص التي يتفوق بها الإنسان في الأرض على سائر الأحياء .

(وإليه المصير) . . مصير كل شيء وكل أمر وكل خلق . . مصير هذا الكون ومصير هذا الإنسان . فمن إرادته انبثق , وإليه - سبحانه - يعود . ومنه المنشأ وإليه المصير . وهو الأول والآخر . المحيط بكل شيء من

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (4)
أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (5)

طرفيه: مبدئه ونهايته . وهو - سبحانه - غير محدود !

واللمسة الرابعة في هذا المقطع هي تصوير العلم الإلهي المحيط بكل شيء , المطلع على سر الإنسان وعلانيته , وعلى ما هو أخفى من السر , من ذوات الصدور الملازمة للصدور: (يعلم ما في السماوات والأرض , ويعلم ما تسرون وما تعلنون , والله عليم بذات الصدور) . .

(162/767)

واستقرار هذه الحقيقة في القلب المؤمن يفيده المعرفة بربه , فيعرفه بحقيقته . ويمنحه جانبا من التصور الإيماني الكوني . ويؤثر في مشاعره واتجاهاته ; فيحيا حياة الشاعر بأنه مكشوف كله لعين الله . فليس له سر يخفى عليه , وليس له نية غائرة في الضمير لا يراها وهو العليم بذات الصدور .

وإن آيات ثلاثة كهذه لكافية وحدها ليعيش بها الإنسان مدركا لحقيقة وجوده , ووجود الكون كله , وصلته بخالقه , وأدبه مع ربه , وخشيته وتقواه , في كل حركة وكل اتجاه . .

الدرس الثاني: 5 - 6 تذكير بمصارع الكفار السابقين

والمقطع الثاني في السورة يذكر بمصير الغابرين من المكذبين بالرسل والبينات , المعترضين

على بشرية الرسل . كما كان المشركون يكذبون ويعترضون على بشرية الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويكفرون بما جاءهم به من البينات:

(ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ? ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات, فقالوا:أبشر يهدوننا ? فكفروا وتولوا, واستغنى الله, والله غني حميد) . .

والخطاب هنا للمشركين - غالبا - وهو تذكير لهم بعاقبة المكذبين وتحذير لهم من مثل هذه العاقبة . والاستفهام قد يكون لإنكار حالهم بعد ما جاءهم من نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم . وقد يكون للفت أنظارهم إلى هذا النبأ الذي يقصه عليهم . وهم كانوا يعرفون ويتناقلون أنباء بعض الهلكى من الغابرين . كعاد وثمود وقرى لوط . وهم يمرون عليها في شبه الجزيرة, في رحلاتهم للشمال والجنوب .

(163/767)

ويضيف القرآن إلى المعروف من مآلهم في الدنيا ما ينتظرهم هنالك في الآخرة: (ولهم عذاب أليم) . . ثم يكشف عن السبب الذي استحقوا به ما نالهم وما ينتظرهم: (ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا:أبشر يهدوننا ?) . . وهو الاعتراض ذاته الذي

يعترضه المشركون على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو اعتراض فج ناشئ عن الجهل بطبيعة الرسالة, وكونها منهجا إلهيا للبشر, فلا بد أن تتمثل واقعيا في بشر, يحيا بها, ويكون بشخصه ترجمانا لها; فيصوغ الآخرون أنفسهم على مثاله بقدر ما يستطيعون. ولا ينعزل هو عنهم بجنسه, فيتعذر أن يجدوا للرسالة صورة واقعية يحاولون تحقيقها في ذوات أنفسهم, وفي حياتهم ومعاشهم. وناشئ كذلك من الجهل بطبيعة الإنسان ذاته ورفعة حقيقته بحيث يتلقى رسالة السماء ويبلغها, بدون حاجة إلى أن يحملها إلى الناس ملك كما كانوا يقترحون. ففي الإنسان تلك النفخة من روح الله, وهي تهيئة لاستقبال الرسالة من الله, وأدائها كاملة كما تلقاها من الملأ الأعلى. وهي كرامة للجنس البشري كله لا يرفضها إلا جاهل بقدر هذا الإنسان عند الله, حين يحقق في ذاته حقيقة النفخة من روح الله! وناشئ في النهاية من التعنت والاستكبار الكاذب عن اتباع رسول من البشر. كأن في هذا غضا من قيمة هؤلاء الجهال المتكبرين! فجائز في عرفهم أن يتبعوا رسولا من خلق آخر غير جنسهم بلا غضاضة. أما أن يتبعوا واحدا منهم فهي في نظرهم حطة وقلة قيمة!

ومن ثم كفروا وتولوا معرضين عن الرسل وما معهم من البينات, ووقفت في صدورهم هذه الكبرياء وذلك

ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (6) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (7) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8)

الجهل . فاختاروا لأنفسهم الشرك والكفر . .

(واستغنى الله . والله غني حميد) . . استغنى الله عنهم وعن إيمانهم وعن طاعتهم . . وما هو - سبحانه - بمحتاج إلى شيء منهم ولا من غيرهم , ولا بمحتاج أصلا: (والله غني حميد) .

فهذا نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم . وهذا سبب ما ذاقوا وما ينتظرهم . فكيف يكذب بعد هذا النبأ مكذبون جدد ? أليلقوا مصيرا كهذا المصير ?

الدرس الثالث:7 - 13 رد على تكذيب الكفار بالبعث وافتراق المؤمنين عن الكافرين فيه وتوجيه المؤمنين لطاعة الله

والمقطع الثالث بقية للمقطع الثاني يحكي تكذيب الذين كفروا بالبعث - وظاهر أن الذين كفروا هم المشركون الذين كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يواجههم بالدعوة - وفيه توجيه للرسول أن يؤكد لهم أمر البعث توكيدا وثيقا . وتصوير لمشهد القيامة ومصير

المكذبين والمصدقين فيه ; ودعوة لهم إلى الإيمان والطاعة ورد كل شيء لله فيما يقع لهم في الحياة:

(165/767)

زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا . قل بلى وربي لتبعثن , ثم لتنبؤن بما عملتم . وذلك على الله يسير . فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا . والله بما تعملون خبير . يوم يجمعكم ليوم الجمع , ذلك يوم التغابن , ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته , ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير . ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله , ومن يؤمن بالله يهد قلبه , والله بكل شيء عليم , وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول , فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين . الله لا إله إلا هو , وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

.

ومنذ البدء يسمي مقالة الذين كفروا عن عدم البعث زعما , فيقضي بكذبه من أول لفظ في حكايته . ثم يوجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى توكيد أمر البعث بأوثق توكيد , وهو أن يحلف بربه . وليس بعد قسم الرسول بربه توكيد : (قل:بلى وربي لتبعثن) . . (ثم

لتنبؤن بما عملتم) . . فليس شيء منه بمتروك . والله أعلم منهم بعملهم حتى لينبئهم به يوم القيامة ! (وذلك على الله يسير) . . فهو يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم السر والعلن وهو عليم بذات الصدور . وهو على كل شيء قدير . كما جاء في مطلع السورة تمهيدا لهذا التقرير .

وفي ظل هذا التوكيد الوثيق يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله مع رسوله . وهو هذا القرآن . وهو هذا الدين الذي يبشر به القرآن . وهو نور في حقيقته بما أنه من عند الله . والله نور السماوات والأرض . وهو نور في آثاره إذ ينير القلب فيشرق بذاته ويبصر الحقيقة الكامنة فيه هو ذاته .

ويعقب على دعوتهم إلى الإيمان , بما يشعرهم أنهم مكشوفون لعين الله لا يخفى عليه منهم شيء : (والله بما تعملون خبير) . .

وبعد هذه الدعوة يعود إلى استكمال مشهد البعث الذي أكده لهم أوثق توكيد :

(166/767)

(يوم يجمعكم ليوم الجمع : ذلك يوم التغابن) . .

فأما أنه يوم الجمع فلأن جميع الخلائق في جميع الأجيال تبعث فيه , كما يحضره الملائكة

وعددهم لا يعلمه إلا الله . ولكن قد يقربه إلى التصور ما جاء في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) - عن أبي ذر رضي الله عنه - قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إني أرى ما لا ترون , وأسمع ما لا تسمعون . أطت السماء وحق لها أن تيط , ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجدا . والله

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (10) مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11)

لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا , ولبكيتم كثيرا , ولما تلذذتم بالنساء على الفرش , ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى . لوددت أني شجرة تعضد " . .

والسماء التي ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك . هي هذا الاتساع الهائل الذي لا يعرف له البشر حدودا . والذي تبدو فيه شمس كشمسنا ذرة كالهباءة الطائرة في الفضاء ! فهل هذا يقرب شيئا للتصور البشري عن عدد الملائكة ? إنهم من بين الجمع في يوم الجمع !

وفي مشهد من هذا الجمع يكون التغابن ! والتغابن مفاعلة من الغبن . وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم ; وحرمان الكافرين من كل شيء منه ثم صيرورتهم إلى الجحيم . فهما نصيبان متباعدان . وكأنما كان هناك سباق للفوز بكل شيء , وليغبن كل فريق مسابقه ! ففاز فيه المؤمنون وهزم فيه الكافرون ! فهو تغابن بهذا المعنى المصور المتحرك ! يفسره ما بعده:

(ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) . .

وقبل أن يكمل نداءه إليهم بالإيمان يقرر قاعدة من قواعد التصور الإيماني في القدر , وفي أثر الإيمان بالله في هداية القلب:

(ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله . ومن يؤمن بالله يهد قلبه , والله بكل شيء عليم) . .

ولعل مناسبة ذكر هذه الحقيقة هنا هي مجرد بيانها في صدد عرض حقيقة الإيمان الذي دعاهم إليه في هذا المقطع . فهو الإيمان الذي يرد كل شيء إلى الله , ويعتقد أن كل ما يصيب من خير ومن شر فهو بإذن الله . وهي حقيقة لا يكون إيمان بغيرها . فهي أساس جميع المشاعر الإيمانية عند مواجهة الحياة بأحداثها خيرها وشرها . كما يجوز أن تكون

هناك مناسبة حاضرة في واقع الحال عند نزول هذه السورة . أو هذه الآية من السورة , فيما كان يقع بين المؤمنين والمشركين من وقائع .

وعلى أية حال فهذا جانب ضخم من التصور الإيماني الذي ينشئه الإسلام في ضمير المؤمن . فيحس يد الله في كل حدث , ويرى يد الله في كل حركة , ويطمئن قلبه لما يصيبه من الضراء ومن السراء . يصبر للأولى ويشكر للثانية . وقد يتسامى إلى آفاق فوق هذا , فيشكر في السراء وفي الضراء ; إذ يرى في الضراء كما في السراء فضل الله ورحمته بالتنبيه أو بالتكفير أو بترجيح ميزان الحسنات , أو بالخير على كل حال .

(168/767)

وفي الحديث المتفق عليه: " عجبا للمؤمن ! لا يقضي الله قضاء إلا كان خيرا له . إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن " . .

(ومن يؤمن بالله يهد قلبه) . .

وقد فسرها بعض السلف بأنها الإيمان بقدر الله والتسليم له عند المصيبة . وعن ابن عباس يعني يهدي قلبه هداية مطلقة . ويفتحه على الحقيقة اللدنية المكنونة . ويصله

بأصل الأشياء والأحداث , فيرى هناك منشأها وغايتها . ومن ثم يطمئن ويقر ويستريح . ثم يعرف المعرفة الواصلة الكلية فيستغني عن الرؤية الجزئية المحفوفة بالخطأ والقصور .

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (12) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (13) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (14)

ومن ثم يكون التعقيب عليها :

(والله بكل شيء عليم) . .

فهي هداية إلى شيء من علم الله , يمنحه لمن يهديه , حين يصح إيمانه فيستحق إزاحة الحجب , وكشف الأسرار . . بمقدار . .

ويتابع دعوتهم إلى الإيمان فيدعوهم إلى طاعة الله وطاعة الرسول:

(وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول , فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين) . .

وقد عرض عليهم من قبل مصير الذين تولوا . وهنا يقرر لهم أن الرسول مبلغ . فإذا بلغ فقد أدى الأمانة , ونهض بالواجب , وأقام الحجة . وبقي ما ينتظرهم هم من المعصية والتولي , مما ذكروا به منذ قليل .

ثم يختم هذا المقطع بتقرير حقيقة الوحدانية التي ينكرونها ويكذبونها , ويقرر شأن المؤمنين

بالله في تعاملهم مع الله:

(الله لا إله إلا هو , وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . .

(169/767)

وحقيقة التوحيد هي أساس التصور الإيماني كله . ومقتضاها أن يكون التوكل عليه وحده . فهذا هو أثر التصور الإيماني في القلوب .

وبهذه الآية يدخل السياق في خطاب المؤمنين . فهي وصلة بين ما مضى من السورة وما يجيء .

الدرس الرابع:14 - 18 تحذير من عداوة الأولاد والأزواج والأموال وتوجيه إلى السمع والطاعة والإنفاق

وفي النهاية يوجه الخطاب إلى المؤمنين يحذرهم فتنة الأزواج والأولاد والأموال , ويدعوهم إلى تقوى الله , والسمع والطاعة والإنفاق , كما يحذرهم شح الأنفس , ويعدهم على ذلك مضاعفة الرزق والمغفرة والفلاح . ويذكرهم في الختام بعلم الله للحاضر والغائب , وقدرته وغلبته , مع خبرته وحكمته:

(يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم , وإن تعفوا وتصفحوا

وتغفروا فإن الله غفور رحيم . إنما أموالكم وأولادكم فتنة , والله عنده أجر عظيم .

فاتقوا الله ما استطعتم , واسمعوا وأطيعوا , وأنفقوا خيرا لأنفسكم , ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم , ويغفر لكم , والله شكور حليم . عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم) . .

وقد ورد عن ابن عباس - رضي الله عنه - في الآية الأولى من هذا السياق وقد سأله عنها رجل فقال:فهؤلاء رجال أسلموا من مكة , فأرادوا أن يأتوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم . فلما أتوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رأوا الناس قد فقهوا في الدين , فهموا أن يعاقبوهم , فأنزل الله هذه الآية: (وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم) . . وهكذا رواه الترمذي بإسناد آخر وقال:حسن صحيح . وهكذا قال عكرمة مولى ابن عباس .

(170/767)

ولكن النص القرآني أشمل من الحادث الجزئي وأبعد مدى وأطول أمدا . فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذي في الآية التالية من الأموال والأولاد معا : أنما أموالكم وأولادكم فتنة . . والتنبيه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدوا . . إن هذا يشير

إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية . ويمس وشائج متشابكة دقيقة في التركيب العاطفي وفي ملابسات الحياة سواء . فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله . كما أنهم قد يكونون دافعا للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه

إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16)

فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله ! والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير , وتضحية الكثير . كما يتعرض هو وأهله للعنت . وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده . فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال ! فيكونون عدوا له , لأنهم صدوه عن الخير , وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا . كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه , اتقاء لما يصيبهم من جرائه , أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه , ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله . . وهي كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات . . وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن .

ومن ثم اقتضت هذه الحال المعقدة المتشابكة , التحذير من الله , لإثارة اليقظة في قلوب

الذين آمنوا , والحذر من تسلل هذه المشاعر , وضغط هذه المؤثرات .

ثم كرر هذا التحذير في صورة أخرى من فتنة الأموال والأولاد . وكلمة فتنة تحتمل معنيين:

الأول أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم , فانتبهوا لهذا , وحاذروا وكونوا أبدا يقظين لتنجحوا في الابتلاء , وتخلصوا وتتجردوا لله . كما يفتن الصائغ الذهب بالنار ليخلصه من الشوائب !

والثاني أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم توقعكم بفتنتها في المخالفة والمعصية , فاحذروا هذه الفتنة لا تجرفكم وتبعدكم عن الله .

وكلا المعنيين قريب من قريب .

وقد روى الإمام أحمد - بإسناده - عن عبد الله بن بريدة: سمعت أبي بريدة يقول: "كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يخطب , فجاء الحسن والحسين - رضي الله عنهما - عليهما قميصان أحمران , يمشيان ويعثران فنزل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من المنبر فحملهما , فوضعهما بين يديه . ثم قال: " صدق الله ورسوله . إنما أموالكم وأولادكم فتنة . نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران , فلم أصبر حتى قطعت حديثي

ورفعتهما " . . ورواه أهل السنة من حديث ابن واقد . فهذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهذان ابنا بنته . . وإنه لأمر إذن خطير . وخطر . وإن التحذير والتنبيه فيه لضرورة يقدرها من خلق قلوب الناس, وأودعها هذه المشاعر, لتكفكف نفسها عن التمادي والإفراط, وهي تعلم أن هذه الوشائج الحبيبة قد تفعل بها ما يفعل العدو, وتؤدي بها إلى ما تؤدي إليه مكايد الأعداء !

ومن ثم يلوح لها بما عند الله بعد التحذير من فتنة الأموال والأولاد, والعداوة المستسرة في بعض الأبناء والأزواج . فهذه فتنة (والله عنده أجر عظيم) . .

ويهتف للذين آمنوا بتقوى الله في حدود الطاقة والإستطاعة, وبالسمع والطاعة:

(فاتقوا الله ما استطعتم - واسمعوا وأطيعوا) . .

(172/767)

وفي هذا القيد: (ما استطعتم) يتجلى لطف الله بعباده, وعلمه بمدى طاقاتهم في تقواه وطاعته . وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه " فالطاعة في الأمر ليس لها حدود, ومن ثم يقبل فيها ما يستطاع . أما النهي فلا تجزئة فيه فيطلب بكامله دون نقصان . ويهيب بهم إلى الإنفاق:

إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)

(وأنفقوا خيرا لأنفسكم) . .

فهم ينفقون لأنفسهم . وهو يأمرهم أن ينفقوا الخير لأنفسهم . فيجعل ما ينفقونه كأنه نفقة مباشرة لذواتهم , ويعدها الخير لهم حين يفعلون .

ويريهم شح النفس بلاء ملازما . السعيد السعيد من يخلص منه ويوقاه ; والوقاية منه فضل من الله:

(ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . .

ثم يمضي في إغرائهم بالبذل وتحبيبهم في الإنفاق , فيسمي إنفاقهم قرضا لله . ومن ذا الذي لا يربح هذه الفرصة التي يقرض فيها مولاه ? وهو يأخذ القرض فيضاعفه ويغفر به , ويشكر المقرض , ويحلم عليه حين يقصر في شكره . وهو الله !

(إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم . والله شكور حليم) . .

وتبارك الله . ما أكرمه ! وما أعظمه ! وهو ينشئ العبد ثم يرزقه . ثم يسأله فضل ما أعطاه . قرضا . يضاعفه . . ثم . . يشكر لعبده الذي أنشأه وأعطاه ! ويعامله بالحلم في تقصيره هو عن شكر مولاه . . ! يالله ! ! !

إن الله يعلمنا – بصفاته – كيف نتسامى على نقصنا وضعفنا , ونتطلع إلى أعلى دائما لنراه – سبحانه – ونحاول أن نقلده في حدود طاقتنا الصغيرة المحدودة . وقد نفخ الله في الإنسان من روحه . فجعله مشتاقا أبدا إلى تحقيق المثل الأعلى في حدود طاقته وطبيعته , ومن ثم تبقى الآفاق العليا مفتوحة دائما ليتطلع هذا المخلوق إلى الكمال المستطاع , ويحاول الارتفاع درجة بعد درجة , حتى يلقى الله بما يحبه له ويرضاه .

ويختم هذه الجولة بعد هذا الإيقاع العجيب , بصفة الله التي بها الإطلاع والرقابة على القلوب:

(عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم) . .

فكل شيء مكشوف لعلمه , خاضع لسلطانه , مدبر بحكمته . كي يعيش الناس وهم يشعرون بأن عين الله تراهم , وسلطانه عليهم , وحكمته تدبر الأمر كله حاضره وغائبه .

ويكفي أن يستقر هذا التصور في القلوب , لتتقي الله وتخلص له وتستجيب . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿ الظلال جـ 6 صـ 3584 . 3591 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾

تقدم معنى التسبيح ومدلول ما في السماوات وما في الأرض في أول سورة الحشر والحديد ، وهذه السورة آخر السور المفتتحة بالتسبيح . والفعل هنا بصيغة المضارع الدال على التجدد والحدوث . والتذييل هنا بصفات الكمال لله تعالى بقوله : ﴿ لَهُ الملك وَلَهُ الحمد وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ للإشعار بأن الملك لله وحده لا شريك له : نافذ فيه أمره ماض فيه حكمه بيده أزمة أمره ، كما في قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك : 1] .

وكقوله في سورة يس : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : 82 – 83] .

ومن قدرته على كل شيء ، وتصريفه لأمور ملكه كيف يشاء ، أن جعل العالم كله يسبح له بحمده تنفيذاً لحكمة فيه ، كما في قوله : ﴿ لَهُ الحمد فِي الأولى والآخرة وَلَهُ الحكم وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : 70] ، فجمع الحمد والحكم معاً لجلالة قدرته وكمال صفاته .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2)

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، في مذكرة الدراسة : المعنى أن الله هو الذي خلقكم وقدّر على قوم منكم الكفر ، وعلى قوم منكم الإيمان ، ثم بعد ذلك يهدي كلاًّ لما

قدره عليه كما قال : ﴿ والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 3] فيسر الكافر إلى العمل بالكفر ، ويسر المؤمن للعمل بالإيمان ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " اعملوا فكل ميسر لما خلق له " اه .

(175/767)

ومن المعلوم أن هذا النص من مأزق القدرية والجبرية ، وأن أهل السنة يؤمنون أن كلاً بقدر الله ومشيئته . كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقدية الواسطية : وهم أهل السنة وسط بين قول : إن العبد مجبور على عمله لا اختيار له كالورقة في مهب الريح .

وبين قول : إن العبد يخلق فعله بنفسه ويفعل ما يريده بمشيئته .

وأهل اسلنة يقولون بقوله تعالى : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ [التكوير : 28 – 29] .

وقد ذكر القرطبي أقوال الطائفتين من أهل العلم ، ولكل طائفة ما استدلت به ، الأولى عن ابن مسعود أن النّبي صلى الله عليه وسلم قال : " خلق الله فرعون في بطن أمه كافراً ، وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً "

وبما في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم : " إن أحدكم ليعلم بعمل أهل الجنة حتى ما

يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع ، فسيبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وغن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لم يبق بينه وبينها إلا ذراع أو باع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها "

وقال : قال علماؤنا : تعلق العلم الأزلي بكل معلوم . فيجري ما علم وأراد وحكم .

الثانية ما جاء في قوله : وقال جماعة من أهل العلم : إنَّ الله خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا .

قالوا : وتمام الكلام : وهو الذي خلقكم ، ثم وصفهم فقال : ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ .

وكقوله تعالى : ﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ ﴾ النور : 45] ، قالوا فالله خلقهم والمشي فعلهم .

واختاره الحسين بن الفضل ، قال : لأنه لو خلقهم كافرين ومؤمنين لما وصفهم بفعلهم ، واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم : "كل مولود يولد على الفطرة " الحديث اه .

وبالنظر في هاتين المقالتين نجد الآتي :

أولاً : التشبيه في المقالة الثانية لا يسلم ، لأن وصف الدواب في حالة المشي ليس وصفاً فعلياً ، وإنما هو من ضمن خلقه تعالى لها ولم يكن منها فعل في ذلك .

ثانياً : ما استدلت به كل طائفة من الحديثين لا تعارض بينهما ، لأن الحديث الأول ، " إن أحدكم ليعمل " لبيان المصير والمنتهى ، وفق العلم الأزلي والإرادة القدرية .

والحديث الثاني لبيان مبدأ وجود الإنسان في الدنيا وأنه يولد على الفطرة حينما يولد . أما مصيره فبحسب ما قدر الله عليه .

وقد نقل القطربي كلاماً للزجاج وقال عنه : هو أحسن الأقوال ونصه : إن الله خلق الكافر ، وكفره فعل له وكسب ، مع أن الله خالق الكفر وخلق المؤمن . وإيمانه فعل له وكسب ، مع أن الله خالق الإيمان . والكافر يكفر ويختار الكفر بعد أن خلق الله إياه ، لأن الله تعالى قدر ذلك عليه وعلمه منه ، لأن وجود خلاف المقدر عجز ، ووجود خلاف المعلوم جهل .

قال القرطبي : وهذا أحسن الأقوال ، وهو الذي عليه جمهور الأمة اه .

ولعل مما يشهد لقول الزجاج قوله تعالى : ﴿ والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : 96] .

هذا حاصل ما قاله علماء التفسير ، وهذا الموقف كما قدمنا من مأزق القدر والجبر ، وقد زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام ، وبتأمل النص وما يكتنفه في النص وما يكتنفه من نصوص في السياق مما قبله وبعده : نجد الجواب الصحيح والتوجيه السليم ، وذلك ابتداء

من قوله تعالى : ﴿ لَهُ الملك وَلَهُ الحمد وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن : 1] .

فكون الملك له لا يقع في ملكه إلا ما يشاء ، وكونه على كل شيء قدير يفعل في ملكه ما يريد .

ثم قال : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

(177/767)

ثم جاء بعدها قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ المصير يَعْلَمُ مَا فِي السماوات والأرض وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ .

فخلق السماوات والأرض وخلق الإنسان في أحسن صورة آيتان من آيات الدلالة على البعث ، كما قال تعالى في الأولى : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ولكن أَكْثَرَ الناس ﴾ [غافر : 57] .

وقال في الثانية : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 79] .

ولذا جاء عقبها قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ المصير ﴾ .

أي بعد الموت والبعث . فكأنه يقول لهم : هو الذي خلقكم وخلق لكم آيات قدرته على بعثكم ، من ذلك خلق السماوات والأرض ، ومن ذلك خلقكم وتصويركم في أحسن تقويم ، فكأن موجب ذلك الإيمان بقدرته تعالى على بعثكم بعد الموت ، وبالتالي إيمانكم بما بعد البعث ، من حساب وجزاء وجنة ونار ، ولكن فمنكم كافر ومنكم مؤمن .

وقد جاء بعد ذكر الامم قبلهم : وبيان أحوالهم جاء تفنيد زعم الكفار بالبعث والإقسام على وقوعه في قوله تعالى : ﴿ زَعَمَ الذين كفروا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن : 7] . لأن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس . ويشهد لهذا التوجيه في قوله تعالى في سورة الإنسان : ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾

[الإنسان : 1 -3] .

(178/767)

فقوله تعالى : ﴿ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 3] كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [التغابن : 2] .

ثم قال : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [الإنسان : 2] وهما حاستا الإدراك والتأمل ، فقال : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل ﴾ [الإنسان : 3] مع استعداده للقبول والرفض . وقوله : ﴿ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 3] مثل قوله هنا : ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن : 2] أي بعد التأمل والنظر وهداية السبيل بالوحي ، ولذا جاء في هذا السياق في هذه السورة ﴿ فَآمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ والنور الذي أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن : 8] .

وبكل ما تقدم في الجملة يظهر لنا أن الله خلق الإنسان من نطفة ثم جعل له سمعاً وبصراً ونصب الأدلة على وجوده وقدرته على بعث الموتى ، ومن ثم مجازاتهم على أعمالهم وأرسل إليه رسله وهداه النجدين ، ثم هو بعد ذلك إما شاكراً وإما كفوراً ولو احتج إنسان في الدنيا بالقدر لقيل له : هل عندك علم بما سبق في علم الله عليك ، أم أن الله امرك ونهاك وبين لك الطريق .

وعلى كل ، فإن قضية القدر من أخطر القضايا وأغمضها ، كما قال علي رضي الله عنه : القدر سرّ الله في خلقه .

وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا ذُكر القضاء فأمسِكوا " ، ولكن على المسلم النظر فيما أنزل الله من وحي وبعث من رسل .

وأهم ما في الأمر هو جري الأمور على مشيئة الله وقد جاء موقف عملي في قصة بدر ،

يوضح حقيقة القدر ويظهر غاية العبر في قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأمر ولكن الله سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [الأنفال : 43] .

فهو تعالى الذي سلم من موجبات التنازع والفشل بمقتضى علمه بذات الصدور .

(179/767)

ثم قال : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التقيتم فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور ﴾ [الأنفال : 44] ، فقد أجرى الأسباب على مقتضى إرادته فقلل كلاًّ من الفريقين في أعين الآخر ليقضي الله أمراً كان في سابق علمه مفعولاً ، ثم بين المنتهى ، ﴿ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور ﴾ ، والعلم عند الله تعالى .

ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (6)

فيه استنكار الكفار أن يكون من يهديهم بشراً لا ملكاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94] ، وقوله تعالى : ﴿ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ ﴾ [القمر : 24] .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، في مذكرة الدراسة: فشبهتهم هذه الباطلة ردها الله في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ ﴾ [الأنعام: 9]، وقوله: ﴿ ومَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ [يوسف: 109]. أي لا ملائكة وقوله ﴿ ومَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام ويَمْشُونَ فِي الأسواق ﴾ [الفرقان: 20] الآية.

قوله تعالى: فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا واستغنى الله والله غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام عليه عند قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت ﴾ [آل عمران: 97] إلى قوله ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ العالمين ﴾ [آل عمران: 97].

(180/767)

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (7)

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليهن أي أن الكفار ادعوا أنهم لا يبعثون قائلين: إن العظام الرميم لا تحيي قل لهم، يا نبي الله: بلى وربي لتبعثن، وبلى حرف يأتي لأحد معنيين الأول رد نفي، كما هنا.

الثاني : جواب استفهام مقترن بنفي نحو قوله : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف : 172] ، وقوله : ﴿ ورَبِّي ﴾ قسم بالرب على البعث الذي هو الإحياء بعد الموت ، وقد أقسم به عليه في القرآن ثلاث مرات . الأول هذا .

والثاني قوله : ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وربي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ [يونس : 53] .

الثالث قوله : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَأْتِينَا الساعة قُلْ بلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ : 3] اه .

وقوله : ﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ بينه تعالى بقوله : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقرأ كَتَابَكَ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 13 - 14] ، وقوله : ﴿ وَذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ اسم الإشارة راجع إلى البعث ويسره أمر مسلم ، لأن الإعادة أهون من البدء . كما قال تعالى عن الكفار : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 78 - 79] ، وقوله : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان : 28] ، وقال ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] .

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8)

قوله تعالى: ﴿ فَآمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ والنور الذي أَنزَلْنَا ﴾ .

النور هنا هو القرآن كما قال تعالى: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: 52] وهو القرآن، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى عليه الكلام عليه عند قوله تعالى: ﴿ هُوَ الذي يُنَزِّلُ على عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الحديد: 9] من سورة الحديد، وفي المكرة سماه نوراً لأنه كاشف ظلمات الجهل والشك والشرك والنفاق.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع ﴾ .

يوم الجمع هو يوم القيامة، وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه: ظرف منصوب بأذكر مقدرة أو بقوله ﴿ خَبِيرٌ ﴾ [التغابن: 8].

فيكون المعنى: أنه يوم القيامة خبير بأعمالكم في الدنيا لم يخف عليه منها شيء فيجازيكم عليها، سمي يوم الجمع لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة: 49 - 50].

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام عليه في عدة مواضع منها في الجزء الثالث

عند قوله تعالى : ﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس ﴾ [هود : 103] .

ومنها في الجزء السابع عند الآية المتقدمة ، ﴿ قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة : 49 – 50] .

ومن أصرح الأدلة فيه : آية الشورى ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع ﴾ [الشورى : 7] ، ثم قال : ﴿ فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ﴾ [الشورى : 7] .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ .

(182/767)

الغبن : الشعور بالنقص ومثله الخبن لاشتراكهما في حرفين من ثلاثة ، كما في فقه اللغة ، فبينهما تقارب في المعنى كتقاربهم في الحرف المختلف ، وهو الغين والخاء وخلفاء الغين في الحلق وظهور الخاء عنها كان الغبن لما خفي ، والخبن لما ظهر .

وقد بين تعالى موجب الغبن للغابن والمغبون فقال : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ذَلِكَ الفوز العظيم ﴾ ، وبين حال المغبون بقوله : ﴿ والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ أولئك أَصْحَابُ النار خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ المصير ﴾ [التغابن : 10] .

وقد بين العلماء حقيقة الغبن في هذا المقام بأن كل إنسان له مكان في الجنة ومكان في النار .

فإذا دخل أهل النار النار بقيت أماكنهم في الجنة ، وإذا دخل أهل الجنة الجنة بقيت أماكنهم في النار .

وهناك تكون منازل أهل الجنة في النار لأهل النار ، ومنازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة يتوارثونها عنهم ، فيكون الغبن الأليم ، وهو استبدال مكان في النار بمكان في الجنة ورثوا أماكن الآخرين الذين ذهبوا إلى النار .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11)

في هذه الآية الكريمة نص صريح بأن ما يصيب احداً مصيبة إلا بإذن الله .

ومعلوماً ، ه كذلك ما يصيب أحداً خير إلا بإذن الله على حد قوله : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] أي والبرد .

ولكن التنصيص على المصيبة هنا ليدل أن كل شيء ينال العبد إنما هو بإذن الله ، لأن الجبلة تأبى المصائب وتتوقاها ، ومع ذلك تصيبه ، وليس في مقدوره دفعها بخلاف الخير ، قد يدعي أنه حصله باجتهاد منه كما قال قارون : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عنديا ﴾ [القصص : 78] .

وقوله : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ قرئ يهدأ بالهمز من الهدوء ، وقلبه بالرفع ، وهي بمعنى يهدي قلبه ، لأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، فيسترجع فيطمئن قلبه بهذا ولا يجزع ، وهذا من خصائص المؤمن .

كما قال صلى الله عليه وسلم " عجباً لأمر المؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له حتى الشوكة يشاكها في قدمه "

هذا قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الخوف والجوع وَنَقْصٍ مِّنَ الأموال والأنفس والثمرات وَبَشِّرِ الصابرين الذين إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوۤاْ إِنَّا للَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعونَ أولئك عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وأولئك هُمُ المهتدون ﴾ [البقرة : 155 - 157] .

أي إلى ما يلزمهم من امتثال وصبر ولذا جاء بعدها ﴿ وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [التغابن : 12] .

ومن ناحية أخرى يقال : إن قوله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ والكفر أعظم المصائب ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه .

والإيمان بالله أعظم النعم ، فيقول قائل : إن كان كل ذلك بإذن الله ، فما ذنب الكافر وما فضل المؤمن ، فجاء قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [التغابن : 12]

بياناً لما يلزم العبد ، وهو طاعة الرسل فيما جاءوا به ، ولا يملك سوى ذلك .

وفي قوله تعالى : ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ من نسبة الهداية إلى القلب بيان لقضية الهداية العامة والخاصة ، كما قالوا في قوله تعالى عنه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِنَّكَ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : 52] مع قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص : 56] .

(184/767)

فقالوا : الهداية الأولى دلالة إرشاد كقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ [فصلت : 17] .

والثانية : هداية توفيق وإرشاد ويشهد لذلك شبه الهداية من الله لقلب من يؤمن بالله ، وقوله تعالى ﴿ وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [التغابن : 12] بتكرار فعل الطاعة يدل على طاعة الرسول تلزم مستقلة .

وقد جاءت السنة بتشريعات مستقلة وبتخصيص القرآن ونحو ذلك ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر : 7] .

ومما يشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول وَأُوْلِي الأمر مِنْكُمْ ﴾ [النساء : 59] ، فكرر الفعل بالنسبة لله وللرسول ولم يكرره بالنسبة لأُولِي الأَمْر ، لأن

طاعتهم لا تكون استقلالاً بل تبعاً لطاعة الله وطاعة رسوله ، كما في الحديث : " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فاحذروهم ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على ذلك عند قوله تعالى : ﴿ المال والبنون زِينَة الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 46] .

ومما يعتبر توجيهاً قرآنياً لعلاج مشاكل الحياة الزوجية وقضية الأولاد التعقيب على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن : 14]

أي إن عداوة الزوجة والأولاد لا ينبغي أن تقابل إلا بالعفو والصفح والغفران ، وأن ذلك يخفف أو يذهب أو يجنب الزوج والولد نتائج هذا العداء ، وأنه خير من المشاحة والخصام .

وفي موضع آخر قال : ﴿ أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال : 28] أي قد تفتن عن ذكر الله ، ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ الله ﴾ [المنافقون : 9] .

وتقدم للشيخ هذا المبحث في سورة الكهف كما أشرنا .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16)﴾

قوله تعالى: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾.

يفهم منه أن التكليف في حدود الاستطاعة، ويبينه قوله تعالى: ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: 286].

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ [البقرة: 286].

وفي الحديث: قال الله قد فعلت. وهذا في الأوامر دون النواهي، لأن النواهي تروك.

كما جاء في السنة "ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه"، وهذا من خصائص هذه الأمة.

كما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، عند أواخر سورة البقرة، وتحقيق ذلك في رخص الصلاة والصيام ونحوهما:

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هُمُ المفلحون ﴾.

قالوا: الشح، أخص من البخل، وقيل البخل: أن تضن بمالك، والشح أن تضن بمال غيرك، والواقع أن الشح منتهى منتهى البخل. وإن ذكره هنا بعد قضايا الأزواج والأولاد وفتنتهم وعداوتهم، ثم الأمر بالسمع والطاعة والإنفاق في قوله: ﴿ واسمعوا وَأَطِيعُواْ وَأَنْفِقُواْ خَيْراً لأَنفُسِكُمْ ﴾ يشعر بأن أكثر قضايا الزوجية منشؤها من جانب المال حرصاً عليه أو بخلاً

به ، حرصاً عليه بالسعي إليه بسببهم ، فقد يفتن في ذلك ، وشحاً به بعد تحصيله فقد يعادونه فيه .

والعلاج الناجع في ذلك كله الإنفاق وتوقي الشح ، والشح من جبلة النفس ﴿ وَأُحْضِرَتِ الأنفس الشح ﴾ [النساء : 128] وفي إضافة الشح إلى النفس مع إضافة الهداية فيما تقدم إلى القلب سر لطيف ، وهو أن الشح جبلة البشرية . والهداية منحة إلهية ، والأولى قوة حيوانية ، والثانية قوة روحية .

(186/767)

فعلى المسلم أن يغالب بالقوة الروحية ما جبل عليه من قوة بشرية لينال الفلاح والفوز ، كما أشار تعالى بقوله : ﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 46] .

ثم قال : ﴿ والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف : 46] .

قوله تعالى : ﴿ واسمعوا وَأَطِيعُواْ ﴾ .

أي لا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وعصينا ، ولا كقوم نوح الذين قال عنهم : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعلوا أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ واستغشوا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ واستكبروا استكبارا ﴾ [نوح : 7] .

وقد ندد بقول الكفار : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ [فصلت : 26] .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : اسمعوا ما يقال لكم وأطيعوا فيما سمعتم ، لا كمن قبلكم المشار إليهم بالآيات المتقدمة .

إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17)

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، قد بين تعالى أنه يضاعف الإنفاق سبعمائة إلى أكثر بقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾ [البقرة : 261] إلى قوله : ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : 261] .

وأصل القرض في اللغة : القطع وفي الشرع قطع جزء من المال يعطيه لمن ينتفع به ثم يرده ، أي أن الله تعالى يرد أضعافاً ، وقد سمى معاملته مع عبيده قرضاً وبيعاً وشراء وتجارة .

ومعنى ذلك كله أن العبد يعمل لوجه الله والله جل وعلا يعطيه ثواب ذلك العمل ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [التوبة : 111] .

وقوله: ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم ﴾ [التوبة: 111].

وقوله: ﴿ هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم ﴾ [الصف: 10 – 11] الآية، مع قوله تعالى: ﴿ تجارة لن تبور ﴾ [فاطر: 29].

والقرض الحسن هو ما يكون من الكسب الطيب خالصاً لوجه الله اهـ.

ومما يشهد لقوله رحمه الله في معنى القرض الحسن قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ﴾ [البقرة: 264]. لأن ذلك لم ينفق بإخلاص لوجه الله، ومجيء الحس على القرض الحسن هنا بعد قضية الزوجية والأولاد وتوقي الشح يشعر بأن الإنفاق على الأولاد والزوجة إنما هو من باب القرض الحسن مع الله، كما في قوله تعالى: ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ﴾ [البقرة: 215] الآية.

وأقرب الأقربين بعد الوالدين هم الأولاد والزوجة.

وفي الحديث في الحث على الإنفاق " حتى اللقمة يضعها الرجل في امرأته "

وقوله: ﴿ والله شكور حليم ﴾.

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه شكر الله لعبده هو مجازاته له بالأجر الجزيل على العمل القليل.

وقوله : ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أي لا يعجل بالعقوبة بل يستر ويتجاوز عن ذنوب . ومجيء هذا التذييل هنا يشعر بالتوجيه فيبعض نواحي إصلاح الأسرة ، وهو أن يقبل كل من الزوجين عمل الآخر بشكر ، ويقابل كل إساءة بحلم ليتم معنى حسن الشعرة ، ولأن الإنفاق يستحق المقابلة بالشكر والعداوة تقابل بالحلم .

قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الغيب والشهادة ﴾ .

(188/767)

مجيء الآية بالجملة الاسمية يشعر بالحصر ، وقد صرح به في قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 59] ، ومجيؤه هنا أيضاً يشعر بان الرقابة على الأسرة بين الطرفين إنما هي لله تعالى ، لأنهما يكونان في عزلة عن الناس ولا يطلع على ما بينهما إلا الله ، عالم الغيب والشهادة ، أي فليراقب كل منهما ربه عالم الغيب والشهادة ، ومجازياً كلا منهما على فعله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(189/767)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ التَّغَابُنِ

[فِيهَا خَمْسُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاَللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ : إنَّ الْمُرَادَ بِهِ غَبْنُ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

الْمَعْنَى أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ أَخَذُوا الْجَنَّةَ ، وَأَخَذَ أَهْلُ النَّارِ النَّارَ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَادَلَةِ ، فَوَقَعَ الْغَبْنُ ، لِأَجْلِ مُبَادَلَتِهِمْ الْخَيْرَ بِالشَّرِّ ، وَالْجَيِّدَ بِالرَّدِيءِ ، وَالنَّعِيمَ بِالْعَذَابِ ، عَلَى مَنْ أَخَذَ الْأَشَدَّ وَحَصَلَ عَلَى الْأَدْنَى .

فَإِنْ قِيلَ : فَأَيُّ مُعَامَلَةٍ وَقَعَتْ بَيْنَهُمَا حَتَّى يَقَعَ الْغَبْنُ فِيهَا ؟ قُلْنَا وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ إنَّمَا هَذَا مَثَلٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ مُنْقَسِمِينَ عَلَى دَارَيْنِ : دُنْيَا ، وَآخِرَةٍ ، وَجَعَلَ الدُّنْيَا دَارَ عَمَلٍ ، وَجَعَلَ الْآخِرَةَ دَارَ جَزَاءٍ عَلَى ذَلِكَ الْعَمَلِ ؛ وَهِيَ الدَّارُ الْمَطْلُوبَةُ الَّتِي لِأَجْلِهَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ عَبَثًا ، وَعِنْدَهُ وَقَعَ الْبَيَانُ ، بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ يَعْنِي عَنْ ذَلِكَ وَعَنْ أَمْثَالِهِ مِمَّا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ ، مُقَدَّسٌ مِنْهُ ، وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ النَّجْدَيْنِ ، وَخَلَقَ لِلْقَلْبِ الْمَعْرِفَةَ وَالْحَوَاسَّ سُبُلًا لَهَا ، وَالْعَقْلُ وَالشَّهْوَةُ يَتَنَازَعَانِ لِلْعَلَائِقِ ، وَالْمَلَكُ يُعَضِّدُ الْعَقْلَ ، وَالشَّيْطَانُ يَحْمِلُ الشَّهْوَةَ ، وَالتَّوْفِيقُ قَرِينُ الْمَلَكِ ، وَالْخِذْلَانُ قَرِينُ الشَّيْطَانِ ، وَالْقَدَرُ مِنْ فَوْقِ [ذَلِكَ] يَحْمِلُ الْعَبْدَ إلَى مَا كُتِبَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَدْ فَرَّقَ الْخَلْقَ فَرِيقَيْنِ فِي أَصْلِ الْمِقْدَارِ

وَكَتَبَهُمْ بِالْقَلَمِ الْأَوَّلِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فَرِيقَيْنِ : فَرِيقٌ لِلْجَنَّةِ ، وَفَرِيقٌ لِلنَّارِ ، وَمَنَازِلُ الْكُلِّ مَوْضُوعَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ؛ فَإِنْ سَبَقَ التَّوْفِيقُ حَصَلَ الْعَبْدُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَكَانَ فِي الْجَنَّةِ ، وَإِنْ سَبَقَ الْخِذْلَانُ عَلَى الْعَبْدِ الْآخَرِ فَيَكُونُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَحْصُلُ الْمُوَفَّقُ عَلَى مَنْزِلِ

الْمَخْذُولِ ، وَيَحْصُلُ لِلْمَخْذُولِ مَنْزِلُ الْمُوَفَّقِ فِي النَّارِ ، فَكَأَنَّهُ وَقَعَ التَّبَادُلُ ، فَحَصَلَ التَّغَابُنُ .

وَالْأَمْثَالُ مَوْضُوعَةٌ لِلْبَيَانِ فِي حُكْمِ الْقُرْآنِ وَاللُّغَةِ ؛ وَذَلِكَ كُلُّهُ مَجْمُوعٌ مِنْ نَشْرِ الْآثَارِ .

وَقَدْ جَاءَتْ مُتَفَرِّقَةً فِي هَذَا الْكِتَابِ وَغَيْرِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ اسْتَدَلَّ عُلَمَاؤُنَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْغَبْنُ فِي مُعَامَلَةِ الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّصَ التَّغَابُنَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ ؛ وَهَذَا الِاخْتِصَاصُ يُفِيدُ أَنَّهُ لَا غَبْنَ فِي الدُّنْيَا ، فَكُلُّ مَنْ اطَّلَعَ عَلَى غَبْنٍ فِي مَبِيعٍ فَإِنَّهُ مَرْدُودٌ إذَا زَادَ عَلَى الثُّلُثِ ، وَاخْتَارَهُ الْبَغْدَادِيُّونَ ، وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِ بِوُجُوهٍ ؛ مِنْهَا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحِبَّانَ بْنِ مُنْقِذٍ ﴿ : إذَا بَايَعْت فَقُلْ لَا خِلَابَةَ ، وَلَك الْخِيَارُ ثَلَاثًا ﴾ .

وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ طَوِيلٌ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

(192/767)

نُكْتَتُهُ أَنَّ الْغَبْنَ فِي الدُّنْيَا مَمْنُوعٌ بِإِجْمَاعٍ فِي حُكْمِ الدُّنْيَا ؛ إذْ هُوَ مِنْ بَابِ الْخِدَاعِ الْمُحَرَّمِ شَرْعًا فِي كُلِّ مِلَّةٍ ، لَكِنَّ الْيَسِيرَ مِنْهُ لَا يُمْكِنُ الِاحْتِرَازُ مِنْهُ لِأَحَدٍ فَمَضَى فِي الْبُيُوعِ ؛ إذْ لَوْ حَكَمْنَا بِرَدِّهِ مَا نَفَذَ بَيْعٌ أَبَدًا ، لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْهُ ، حَتَّى إذَا كَانَ كَثِيرًا أَمْكَنَ الِاحْتِرَازُ مِنْهُ ،

فَوَجَبَ الرَّدُّ بِهِ .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ أَصْلٌ فِي الشَّرِيعَةِ مَعْلُومٌ ، فَقَدَّرَ عُلَمَاؤُنَا الثُّلُثَ لِهَذَا الْحَدِّ ؛ إذْ رَأَوْهُ حَدًّا فِي الْوَصِيَّةِ وَغَيْرِهَا .

وَيَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ عَلَى هَذَا : ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ الْجَائِزِ مُطْلَقًا مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ ، أَوْ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ الَّذِي لَا يُسْتَدْرَكُ أَبَدًا ؛ لِأَنَّ تَغَابُنَ الدُّنْيَا يُسْتَدْرَكُ بِوَجْهَيْنِ : إمَّا بِرَدٍّ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ عَلَى قَوْلِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ ، وَإِمَّا بِرِبْحٍ فِي بَيْعٍ آخَرَ وَسِلْعَةٍ أُخْرَى .

فَأَمَّا مَنْ خَسِرَ الْجَنَّةَ فَلَا دَرَكَ لَهُ أَبَدًا .

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الصُّوفِيَّةِ : إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْغَبْنَ عَلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ ، وَلَا يَلْقَى أَحَدٌ رَبَّهُ إلَّا مَغْبُونًا ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ الِاسْتِيفَاءُ لِلْعَمَلِ حَتَّى يَحْصُلَ لَهُ اسْتِيفَاءُ الثَّوَابِ .

وَفِي الْأَثَرِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : لَا يَلْقَى اللَّهَ أَحَدٌ إلَّا نَادِمًا إنْ كَانَ مُسِيئًا إذْ لَمْ يُحْسِنْ .

وَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا إذْ لَمْ يَزْدَدْ ﴾ .

وَالْقَوْلُ مُتَشَعِّبٌ ، وَالْقَدْرُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ مِنْهُ بِالْأَحْكَامِ هَذَا فَاعْلَمُوهُ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاَللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاَللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قَالَ الْقَاضِي : أَدْخَلَ عُلَمَاؤُنَا هَذِهِ الْآيَةَ فِي فُنُونِ الْأَحْكَامِ ، وَقَالُوا : إنَّ ذَلِكَ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ وَالتَّسْلِيمَ لِمَا يَنْفُذُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، وَالْمِقْدَارُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ مِنْهُ بِالْأَحْكَامِ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى الْمَصَائِبِ لِعِلْمِ الْعَبْدِ بِالْمَقَادِيرِ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ ؛ وَهَذَا خَارِجٌ عَنْ سُبُلِ الْأَحْكَامِ ، لَكِنْ لِلْجَوَارِحِ فِي ذَلِكَ أَعْمَالٌ [مِنْ دَمْعِ الْعَيْنِ ، وَالْقَوْلِ بِاللِّسَانِ ، وَالْعَمَلِ بِالْجَوَارِحِ] ، فَإِذَا هَدَأَ الْقَلْبُ جَرَى اللِّسَانُ بِالْحَقِّ .

وَرَكَدَتْ الْجَوَارِحُ عَنْ الْخَرْقِ ، وَلَوْ اسْتَرْسَلَ الدَّمْعُ لَمْ يَضُرَّ .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبَيِّنًا لِذَلِكَ ﴿ : تَدْمَعُ الْعَيْنُ ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ ، وَلَا نَقُولُ إلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا ، وَإِنَّا بِك يَا إبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ .

﴾ وَقَدْ بَيَّنَّا حُكْمَ النِّيَاحَةِ ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ الْأَعْمَالِ الْمَكْرُوهَةِ فِيمَا تَقَدَّمَ ، فَلَا وَجْهَ لِإِعَادَتِهَا .

.

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

(194/767)

الْآيَةُ فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَدْ بَيَّنَّا الْعَدَاوَةَ وَمُقَابِلَتَهَا الْوِلَايَةَ فِي كِتَابِ الْأَمَدِ الْأَقْصَى وَغَيْرِهِ وَحَقَّقْنَا أَنَّ الْوِلَايَةَ هِيَ الْقُرْبُ ، وَأَنَّ الْعَدَاوَةَ هِيَ الْبُعْدُ ، وَأَوْضَحْنَا أَنَّ الْقُرْبَ وَالْبُعْدَ يَكُونَانِ حَقِيقَةً بِالْمَسَافَةِ ؛ وَذَلِكَ مُحَالٌ فِي حَقِّ الْإِلَهِ ، وَيَكُونَانِ بِالْمَوَدَّةِ وَالْمَنْزِلَةِ ؛ وَذَلِكَ جَائِزٌ فِي حَقِّ الْإِلَهِ ، وَكِلَا الْوَجْهَيْنِ يَجُوزُ عَلَى الْخَلْقِ .

وَالْمُرَادُ بِالْعَدَاوَةِ هَاهُنَا بُعْدُ الْمَوَدَّةِ وَالْمَنْزِلَةِ ؛ فَإِنَّ الزَّوْجَةَ قَرِيبٌ ، وَالْوَلَدَ قَرِيبٌ ، بِحُكْمِ الْمُخَالَطَةِ ، وَالصُّحْبَةِ ، وَلَكِنَّهُمَا قَدْ يَقْرُبَانِ بِالْأُلْفَةِ الْحَسَنَةِ وَالْعِشْرَةِ الْجَمِيلَةِ ، فَيَكُونَانِ وَلِيَّيْنِ ، وَقَدْ يَبْعُدَانِ بِالنَّفْرَةِ وَالْفِعْلِ الْقَبِيحِ ، فَيَكُونَانِ عَدُوَّيْنِ ، وَعَنْ هَذَا أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ، وَمِنْهُ حَذَّرَ ، وَبِهِ أَنْذَرَ .

(195/767)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ ثَبَتَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طَرِيقِ التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ سَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ قَالَ : هَؤُلَاءِ

رِجَالٌ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، وَأَرَادُوا أَنْ يَأْتُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَى أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ أَنْ يَدَعُوهُمْ أَنْ يَأْتُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَأَوْا النَّاسَ فَقِهُوا فِي الدِّينِ هَمُّوا أَنْ يُعَاقِبُوهُمْ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ هَذَا يُبَيِّنُ وَجْهَ

الْعَدَاوَةِ ؛ فَإِنَّ الْعَدُوَّ لَمْ يَكُنْ عَدُوًّا لِذَاتِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ عَدُوًّا لِفِعْلِهِ ، فَإِذَا فَعَلَ الزَّوْجُ وَالْوَلَدُ فِعْلَ الْعَدُوِّ كَانَ عَدُوًّا ، وَلَا فِعْلَ أَقْبَحُ مِنْ الْحَيْلُولَةِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الطَّاعَةِ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ فِي طَرِيقِ الْإِيمَانِ .

فَقَالَ لَهُ : أَتُؤْمِنُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ ، فَخَالَفَهُ فَآمَنَ .

ثُمَّ قَعَدَ لَهُ عَلَى طَرِيقِ الْهِجْرَةِ ، فَقَالَ لَهُ : أَتُهَاجِرُ وَتَتْرُكُ أَهْلَكَ وَمَالَكَ ؛ فَخَالَفَهُ فَهَاجَرَ ؛ فَقَعَدَ لَهُ فِي طَرِيقِ الْجِهَادِ ، فَقَالَ : أَتُجَاهِدُ فَتُقْتَلُ نَفْسُكَ وَتُنْكَحُ نِسَاؤُكَ ، وَيُقْسَمُ مَالُكَ ، فَخَالَفَهُ فَجَاهَدَ فَقُتِلَ ، فَحَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ﴾ .

وَقُعُودُ الشَّيْطَانِ يَكُونُ بِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا يَكُونُ بِالْوَسْوَسَةِ .

وَالثَّانِي : بِأَنْ يَحْمِلَ عَلَى مَا يُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ الزَّوْجِ وَالْوَلَدِ وَالصَّاحِبِ .

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ .

فِي حِكْمَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ اتَّخَذَ أَهْلًا وَمَالًا وَوَلَدًا كَانَ لِلدُّنْيَا عَبْدًا .

وَفِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ بَيَانُ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ حَالُ الْعَبْدِ ؛ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ ، تَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ ، تَعِسَ فَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ ﴾ ، وَلَا دَنَاءَةَ أَعْظَمُ مِنْ عِبَادَةِ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ ، وَلَا هِمَّةَ أَخَسُّ مِنْ هِمَّةٍ تَرْتَفِعُ بِثَوْبٍ جَدِيدٍ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ كَمَا أَنَّ الرَّجُلَ يَكُونُ لَهُ وَلَدُهُ وَزَوْجُهُ عَدُوًّا كَذَلِكَ الْمَرْأَةُ يَكُونُ لَهَا وَلَدُهَا وَزَوْجُهَا عَدُوًّا بِهَذَا الْمَعْنَى بِعَيْنِهِ .

وَعُمُومُ قَوْلِهِ : ﴿ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ يَدْخُلُ فِيهِ الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى كَدُخُولِهِمَا فِي كُلِّ آيَةٍ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْلُهُ : ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ ؛ مَعْنَاهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ .

وَالْحذَرُ عَلى النَّفْسِ يَكُونُ بِوَجْهَيْنِ : إمَّا لِضَرَرٍ فِي الْبَدَنِ ، وَإِمَّا لِضَرَرٍ فِي الدِّينِ .

وَضَرَرُ الْبَدَنِ يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا ، وَضَرَرُ الدِّينِ يَتَعَلَّقُ بِالْآخِرَةِ .

فَحَذَّرَ اللَّهُ الْعَبْدَ مِنْ ذَلِكَ وَأَنْذَرَهُ بِهِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ : قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَسْلَمُوا وَمَنَعَهُمْ أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ مِنْ الْهِجْرَةِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : لَئِنْ رَجَعْت لَأُقَتِّلَنَّهُمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : لَئِنْ رَجَعْت لَا يَنَالُونَ مِنِّي خَيْرًا أَبَدًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاَللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ وَاللَّفْظُ لِلتِّرْمِذِيِّ قَالَ ﴿ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُنَا إذْ جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْمِنْبَرِ فَحَمَلَهُمَا وَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : صَدَقَ اللَّهُ ، إنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ، نَظَرْت إلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْت حَدِيثِي وَرَفَعْتهمَا ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ الْفِتْنَةُ مَا بَيَّنَّاهَا فِيمَا تَقَدَّمَ ، وَهِيَ الِابْتِلَاءُ ، فَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ ابْتَلَى الْعَبْدَ بِالْمَالِ وَالْأَهْلِ لِيَنْظُرَ أَيُطِيعُهُ أَمْ يَعْصِيهِ ، حَسْبَمَا ثَبَتَ فِي عِلْمِهِ وَتَقَدَّمَ فِي حُكْمِهِ ؛ فَإِنْ مَالَ الْعَبْدُ إِلَيْهِمَا خَسِرَ ، وَإِنْ صَبَرَ عَلَى الْعُزُوفِ عَنْهُمَا ، وَأَنَابَ إِلَى إِيثَارِ جَانِبِ الطَّاعَةِ عَلَيْهِمَا فَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ، وَهِيَ الْجَنَّةُ بِعَيْنِهَا الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ : وَقَدْ فَتَنَ النَّاسُ فِي دِينِهِمْ

وَخَلَّى ابْنُ عَفَّانَ شَرًّا طَوِيلًا

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ ؛ فَهِيَ الْغَايَةُ ، وَلَا أَجْرَ أَعْظَمَ مِنْهَا فِي قَوْلِ الْمُفَسِّرِينَ .

وَعِنْدِي مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا ، وَهُوَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى ؟ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِك ؟ فَيَقُولُ : أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ قَالُوا : يَا رَبَّنَا ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا .

﴿ وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الرِّضَا غَايَةُ الْآمَالِ ، وَقَدْ أُنْشِدَ بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ فِي تَحْقِيقِ ذَلِكَ : امْتَحَنَ اللَّهُ بِهِ خَلْقَهُ فَالنَّارُ وَالْجَنَّةُ فِي قَبْضَتِهِ فَهَجْرُهُ أَعْظَمُ مِنْ نَارِهِ وَوَصْلُهُ أَطْيَبُ مِنْ جَنَّتِهِ .

الْآيَةُ الْخَامِسَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَمَانِ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي التَّقْوَى : قَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ التَّقْوَى فِيمَا تَقَدَّمَ ، فَلَا وَجْهَ لِإِعَادَتِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ رَوَى زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ : يَقُولُ مُطِيعِينَ قَالَ : فَلَمْ يَدْرِ أَحَدٌ مَا حَقُّ تُقَاتِهِ مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

وَلَوْ اجْتَمَعَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى أَنْ يَبْلُغُوا حَقَّ تُقَاتِهِ مَا بَلَغُوا .

قَالَ : فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُعَلِّمَ خَلْقَهُ قُدْرَتَهُ .

ثُمَّ نَسَخَهَا وَهَوَّنَ عَلَى خَلْقِهِ بِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ ، فَلَمْ يَدَعْ لَهُمْ مَقَالًا .

فَلَوْ قُلْتَ لِرَجُلٍ : اتَّقِ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ رَأَى أَنَّكَ كَلَّفْتَهُ شَطَطًا مِنْ أَمْرِهِ .

فَإِذَا قُلْتَ : اتَّقِ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتَ رَأَى أَنَّكَ لَمْ تُكَلِّفْهُ شَطَطًا ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ .

(200/767)

نَسَخَتْهَا الْآيَةُ الَّتِي فِي النَّحْلِ : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ ﴿ : إذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ .

وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي مَوَاضِعَ ، وَهَا هُنَا ، فِيمَا تَقَدَّمَ وَبَيَّنَّا حِكْمَةَ رَبْطِ الْأَمْرِ بِالِاسْتِطَاعَةِ ، وَإِطْلَاقِ النَّهْيِ عَلَى الْجُمْلَةِ ، وَهَا هُنَا قَدْ قَرَنَ النَّهْيَ بِالِاسْتِطَاعَةِ أَيْضًا ، فَقَالَ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ .

وَعُمُومُ التَّقْوَى يَتَعَلَّقُ بِالْأَمْرِ

وَالنَّهْيِ ، وَمِنْ النَّهْيِ مَا يَقِفُ عَلَى الِاسْتِطَاعَةِ ، وَهُوَ إذَا تَعَلَّقَ بِأَمْرٍ مَفْعُولٍ .

وَقَدْ حَقَّقْنَاهُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ وَأُصُولِ الْفِقْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ إنَّ جَمَاعَةً مِنْ الْمُفَسِّرِينَ رَوَوْا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ لَمَّا نَزَلَتْ قَامَ قَوْمٌ حَتَّى تَوَرَّمَتْ أَقْدَامُهُمْ، وَتَقَرَّحَتْ جِبَاهُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ فَنُسِخَ ذَلِكَ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ وَفِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ قِسْمُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ.

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْلُهُ: ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾: فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا اصْغَوْا إلَى مَا يَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَهُوَ الْأَصْلُ فِي السَّمَاعِ.

(201/767)

الثَّانِي أَنَّ مَعْنَاهُ اقْبَلُوا مَا تَسْمَعُونَ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِالسَّمَاعِ؛ لِأَنَّهُ فَائِدَتُهُ عَلَى أَحَدِ قِسْمَيْ الْمَجَازِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ قَوْلُهُ: ﴿ أَطِيعُوا ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ الطَّاعَةِ، وَأَنَّهَا الِانْقِيَادُ.

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ ﴿ وَأَنْفِقُوا ﴾: قِيلَ: هُوَ الزَّكَاةُ.

وَقِيلَ: هُوَ النَّفَقَةُ فِي النَّفْلِ، وَقِيلَ: نَفَقَةُ الرَّجُلِ عَلَى نَفْسِهِ.

وَإِنَّمَا أَوْقَعَ قَائِلُ ذَلِكَ فِيهِ قَوْلَهُ: ﴿ لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ وَخَفِيَ عَلَيْهِ أَنَّ نَفَقَةَ الْفَرْضِ وَالنَّفْلِ عَلَى الصَّدَقَةِ هِيَ نَفَقَةُ الرَّجُلِ عَلَى نَفْسِهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ

أَسَاءْتُمْ فَلَهَا ﴾ ؛ وَكُلُّ مَا يَفْعَلُهُ الرَّجُلُ مِنْ خَيْرٍ فَلِنَفْسِهِ .

وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا عَامَّةٌ ؛ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ ﴿ قَالَ لَهُ رَجُلٌ : عِنْدِي دِينَارٌ .

قَالَ : أَنْفِقْهُ عَلَى نَفْسِك .

قَالَ : عِنْدِي آخَرُ .

قَالَ : أَنْفِقْهُ عَلَى عِيَالِك .

قَالَ : عِنْدِي آخَرُ .

قَالَ : أَنْفِقْهُ عَلَى وَلَدِك .

قَالَ : عِنْدِي آخَرُ .

قَالَ : تَصَدَّقْ بِهِ ﴾ .

فَبَدَأَ بِالنَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ ، وَجَعَلَ الصَّدَقَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ؛ وَهُوَ الْأَصْلُ فِي الشَّرْعِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾ : تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْحَشْرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(202/767)

"فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة"

قال السمين :

سورة التغابن

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1)

قوله : ﴿ لَهُ الملك ﴾ : مبتدأٌ وخبرٌ . وقدَّمَ الخبر ليفيد اختصاصَ المُلْكِ والحمدِ بالله ، إذ المُلْكُ والحمدُ لله حقيقةٌ .

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)

قوله : ﴿ صُوَرَكُمْ ﴾ : قرأه العامَّةُ بضم الصادِ ، وهو القياسُ في فُعْلَة . وقرأ زيدُ بن علي والأعمش وأبو زيد بكسرِها ، وليس بقياسٍ ، وهو عكسُ "لُحَى" بالضمِّ ، والقياسُ لِحى بالكسر .

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (4)

قوله : ﴿ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ : العامَّةُ على الخطاب في الحرفَيْن . ورُوِي عن أبي عمرو وعاصم بياء الغَيْبة ، فتحتملُ الالتفاتَ وتحتملُ الإِخبارَ عن الغائبين .

ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (6)

قوله : ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ : الهاءُ للشأنِ والحديثِ ، و ﴿ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم ﴾ خبرُها و " استغنى " بمعنى المجرَّد . وقال الزمخشري : " ظَهَر غِناه فالسين ليسَتْ للطلب " .

قوله : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ يجوزُ أَنْ يرتفعَ على الفاعلية ، ويكونَ من الاشتغال ، وهو الأرجحُ لأنَّ الأداةَ تطلبُ الفعلَ ، وأن يكونَ مبتدأً وخبرا . وجُمع الضميرُ في " يَهْدوننا " إذ البشرُ اسمُ جنسٍ .

(203/767)

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (7)

قوله : ﴿ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ﴾ : " أنْ " مخففةٌ ، لا ناصبةٌ لئلا يَدْخُلَ ناصبٌ على مثِله ، و " أنْ " وما في حَيِّزها سادَّةٌ مَسَدَّ المفعولَيْنِ للزعمِ أو المفعول . و " بلى " إيجابٌ للنفي ، و " لَتُبْعَثُنَّ " . جوابُ قسمٍ مقدرٍ .

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9)

قوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ : منصوبٌ بقوله : " لَتُنَبَّؤُنَّ " عند النحاس و ب " خبيرٌ " عند

الحوفي ، و ب " اذكر " مضمراً عند الزمخشري ، فيكون مفعولاً به ، وبما دَلَّ عليه الكلامُ ، أي : تتفاوتون يومَ يجمعُكم ، قاله أبو البقاء . والعامَّةُ بفتح الياءِ وضمِّ العين . ورُوِي سكونُها وإشمامُها عن أبي عمروٍ . وهذا منقولٌ عنه في الراء نحو ﴿ يَنصُرُكُمْ ﴾ [الملك : 20] وبابِه كما تقدَّم في البقرة . وقرأ يعقوب وسلام وزيد بن علي والشعبي " نجمعكم " بنون العظمة .

والتَّغابُنُ : تفاعُلٌ من الغَبْن في البيعِ والشراءِ على الاستعارة وهو أَخْذُ الشيءِ بدون قيمتِه . وقيل : الغَبْنُ : الإِخفاءُ ومنه : غَبْنُ البيعِ لاستخفائِه . والتفاعُل هنا من واحدٍ لا من اثنين ويقال : غَبَنْتُ الثوبَ وخَبَنْتُه ، أي : أَخَذْتُ ما طالَ منه مقدارَك فهو نقصٌ وإخفاءٌ . وفي التفسير : هو أن يكتسبَ الرجلُ مالاً مِنْ غيرِ وجهه ، فَيَرِثَه غيرُه فيعملَ فيه بطاعةِ الله ، فيَدْخلَ الأولُ النارَ والثاني الجنةَ بذلك المالِ ، فذلك هو الغَبْنُ البيِّنُ .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11)

قوله : ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ : بالياءِ مجزوماً جواباً للشرط قراءة العامَّة . وابن جبير وابن هرمز وطلحة والأزرق بالنون والضحاك وأبو جعفر وأبو عبد الرحمن "يُهْدَ" مبنياً للمفعولِ " قلبُه

" قائم مقامَ الفاعلِ . ومالك بن دينار وعمرو بن دينار "يَهْدَأْ" بهمزة ساكنة ، " قلبُه " فاعلٌ به بمعنى يطمئنَّ ويَسْكُن . وعمرو بن فائد "يَهْدا " بألفٍ مبدلة من الهمزة كالتي قبلَها ، ولم يَحْذِفْها نظراً إلى الأصل وهي أفصح اللغتين . وعكرمة ومالك بن دينار أيضاً يَهْدَ بحذفِ هذه الألفِ إجراءً لها مُجرى الألفِ الأصليةِ كقول زهير :

4270 جريءٍ متى يُظْلَمْ يعاقِبْ بظُلْمِه . . . سريعاً وإنْ لا يُبْدَ بالظلمِ يُظْلَمِ

وقد تقدَّم إعرابُ ما قبلَ هذه الآيةِ وما بعدها .

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16)

قوله : ﴿ خَيْراً لأَنفُسِكُمْ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : وهو قول سيبويه أنه مفعولٌ بفعل مقدرٍ ، أي : وَأْتوا خيراً كقوله : ﴿ انتهوا خَيْراً لَّكُمْ ﴾ [النساء : 171] . الثاني : تقديرُه : يكنِ الإِنفاق خيراً ، فهو خبرُ كان المضمرة ، وهو قول أبي عبيد . الثالث : أنه نعتُ مصدرٍ محذوفٍ ، وهو قولُ الكسائيِّ والفراء ، أي : إنفاقاً خيراً . الرابع : أنه حالٌ وهو قولُ الكوفيين . الخامس : أنه مفعولٌ بقوله : " أَنفِقوا " ، أي : أَنفقوا مالاً خيراً . وقد تقدَّم الخلافُ في قراءةِ ﴿ يُضَاعِفَهُ ﴾ [الحديد : 11] و ﴿ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ [الحشر : 9] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 347 . 350 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة التغابن

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة عزيزة من ذكرها يحتاج إلى لسان عزيز في الغيبة لا يتبدل ، وفي ذكر الأغيار لا يستعمل ، ومن عرفها يحتاج إلى قلب عزيز ليس في كل ناحية منه خليط ، ولا في كل زاوية زبيط .

قوله جل ذكره : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

المخلوقات كُلُّها بجملتها لله سبحانه مُسَبِّحةٌ . . ولكن لا يَسْمَعُ تسبيحَها مَنْ به طَرَشُ النكرة .

ويقال : الذي طَرَأَ صَمَمُه فقد يُرْجَى زواله بنوعِ معالجة ، أمّا مَنْ يولَدُ أصمَّ فلا حيلةَ في تحصيل سماعه . قال تعالى : ﴿ فإنك لا تسمع الموتى ﴾ [الروم : 52] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال : 23] .

قوله جل ذكره ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

منكم كافرٌ في سابق حُكْمِه سَمَّاه كافراً ، وعَلِمَ أنه يكفر وأراد به الكفر . . وكذلك كانوا .

ومنكم مؤمنٌ في سابق حُكْمِه سمّاه مؤمناً ، وعِلِمَ في آزاله أنه يُؤمِن وخَلَقَه مؤمناً ، وأراده مؤمناً . . . والله بما تعلمون بصير .

قوله جل ذكره : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ الأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ : أي وهو مُحِقٌّ في خَلْقِه .

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ لم يَقُلْ لشيءٍ من المخلوقات هذا الذي قال لنا ، صوَّرَ الظاهرَ وصوَّرَ الباطنَ ؛ فالظاهر شاهدٌ على كمال قدرته ، والباطن شاهدٌ على جلال قربته .

(206/767)

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

قصِّروا حِيَلكُم عن مطلوبكم ، فهو تتقاصر عنه علومُكم ، وأنا أعلمُ ذلك دونكم . .

فاطلبوا منِّي ، فأنا بذلك أعلم ، وعليه أقدر .

ويقال: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ ﴾ . فاحذوروا دقيقَ الرياء ، وخَفِيَّ ذات الصدور ﴿ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ : فاحذروا ان يخالِفَ ظاهركم باطنكم .

في قوله: ﴿ مَا تُسِرُّونَ ﴾ أمرٌ بالمراقبة بين العبد وربه .

وفي قوله: ﴿ ما تعلنون ﴾ أمرٌ بالصدق في المعاملة والمحاسبة مع الخَلْق .

قوله جل ذكره: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

المراد من ذلك هو الاعتبار بِمَنْ سَلَفَ ، ومَنْ لم يعتبِرْ عَثَرَ في مَهْوَاةٍ من الاملِ ، ثم لا يَنْتَعِشُ إلاّ بعد فواتِ الأمرِ من يده .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم ﴾ . شاهدوا الأمر من حيث الخَلْق فتَطَوَّحوا في متاهاتِ الإشكالِ المختلفةِ الأحوال . ولو نظروا بعين الحقيقة لتخلَّصوا من تفرقة الأباطيل ، واستراحوا بشهود التقدير من اختلاف الأحوال ذات التغيير .

قوله جل ذكره: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

الموتُ نوعان : موتُ نَفْسٍ ، وموتُ قلب ، ففي القيامة يُبْعثون من موت النَّفْس ، وأمَّا موتُ القلبِ فلا بَعْثَ منه – عند كثيرٍ من مخلصي هذه الطائفة ، قال تعالى مُخْبِراً عنهم : ﴿ قَالُواْ يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [يس : 52] فلو عرفوه لَمَا قالوا ذلك ؛ فموتُ قلوبِهم مُسَرْمَدٌ إلى أنْ تصيرَ معارفُهم ضروريةً ، فهذا الوقتُ وقتُ موتِ قلوبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَئَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

﴿ النور الذي أنزلنا ﴾ : القرآن . ويجوز ان يكون ما أنزل في قلوب اوليائه من السكينة وفنون الألطاف .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

المطيعُ – يومئذٍ – في غبن لأنه لم يستكثر من الطاعة ، والعاصي في غبن لأنه استكثر من الزَّلة .

وليس كلُّ الغبنِ في تفاوت الدرجات قلَّةً وكثرة ، فالغبن في الأحوال أكثر .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

أيُّ حُصْلَةٍ حَصَلت فمِنْ قِبَلِه خَلْقاً ، وبعلمه وإرادته حُكماً .

﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ حتى يهتدي إلى الله في السَّراء والضَّراء - اليومَ - وفي الآخرة يهديه إلى الجنة .

ويقال : ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ للأخلاق السنيَّة ، والتنقِّي من شُحِّ النَّفْس .

ويقال : ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ لاتِّباع السُّنَّةِ واجتنابِ البدْعة .

(208/767)

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ .

طاعةُ الله واجبة ، وطاعةُ الرُّسُل - الذين هم سفراءُ بينه وبين الخَلْق - واجبةٌ كذلك .

والأنوار التي تظهر عليك وتطالبُ بمقتضياتها كلُّها حقٌّ ، ومن الحقّ . . فتجب طاعتُها أيضاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

إذا دَعوْكَ لتجمعَ لهم الدنيا فهم عدوٌّ لك ، أمَّا إذا أخذتم منها على وجه العفاف فليسوا

لكم أعداء .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

﴿ فِتْنَةٌ ﴾ : لأنهم يشغلونك عن أداء حقِّ الله ؛ فما تَبْقَ عن الله مشغولاً بجمعه فهو غيرُ ميمونٍ عليك .

ويقال : إذا جمعتم الدنيا لغير وَجْهِه فإنكم تُشْغَلُون بذلك عن أداءِ حقِّ مولاكم ، وتشغلكم أولادكم ، فتبقون بهم عن طاعة الله – وتلك فتنةٌ لكم . . ترومون إصلاحهم . فتفسدون أنتم وهم لا يَصْلَحون !

قوله جل ذكره : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

أي ما دمتم في الجملة مستطيعين ويتوجه عليكم التكليف فاتقوا لله . والتقوى عن شهود التقوى بعد إلا يكونَ تقصيرٌ في التقوى غايةُ التقوى .

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ حتى ترتفعَ الأخطارُ عن قلبه ، ويتحرَّر من رِقِّ المكونات ، ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

قوله جل ذكره : ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

يتوجّه بهذا الخطاب إلى الأغنياء بِبَذْلِ أموالهم، وللفقراء في إخلاءِ أيامهم وأوقاتهم من مراداتهم وإيثارِ مرادِ الحقّ على مرادِ أنفسِهم.

فالغنيُّ يُقال له: آثِرْ حُكْمي على مرادك في مالِك، والفقيرُ يقال له: آثِرْ حُكْمي في نَفْسِك وقلبك ووقتك وزمانك.

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

جلَّ شأنه. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 592. 597﴾

(210/767)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة التّغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1)

الإعراب :

(يسبّح للَّه . . . في الأرض) مرّ إعرابها " 1 " ، (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (الملك) ،

و(له) الثاني خبر للمبتدأ (الحمد) ، (على كلّ) متعلّق بالخبر (قدير) .

جملة : " له الملك . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة : " له الحمد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة له الملك .

وجملة : " هو . . . قدير " لا محلّ لها معطوفة على جملة له الملك .

البلاغة

التقديم : في قوله تعالى " لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ " .

حيث قدّم الظرفان ، ليدل بتقديمها على معنى اختصاص الملك والحمد باللَّه عز وجل ،

وذلك لأنّ الملك على الحقيقة له لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه ، والقائم به والمهيمن عليه ،

وكذلك الحمد ، لأن أصول النعم وفروعها منه . وأما ملك غيره

---

(1) في الآية (1) من سورة الصفّ في هذا الجزء ، مفردات وجملا . [. . . . .]

فتسليط منه واسترعاء ، وحمده اعتداد بأن نعمة اللَّه جرت على يده .

[سورة التغابن (64) : آية 2]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة تفريعيّة (منكم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (كافر) ، و(منكم) الثاني خبر للمبتدأ (مؤمن) ، (الواو) عاطفة (ما) حرف مصدريّ " 1 " ، والمصدر المؤوّل (ما تعملون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بالخبر (بصير) .

جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلقكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " منكم كافر . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة " 2 " .

وجملة : " منكم مؤمن . . . " لا محلّ لها معطوفة على منكم كافر .

وجملة : " اللَّه . . بصير " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

البلاغة

الطباق : في قوله تعالى فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .

حيث طابق بين الكافر والمؤمن وفي الآية التي قبلها حصل طباق بين السموات والأرض .

---

(1) أو اسم موصول والعائد محذوف.

(2) أو معطوفة على جملة الصلة ولا يضرّ عدم وجود العائد إذ المعطوف بالفاء يكفيه وجود العائد في إحدى الجملتين.. وكذا في حاشية الجمل.

(212/767)

[سورة التغابن (64) : آية 3]

خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)

الإعراب:

(بالحقّ) متعلّق بحال من السموات، والباء للملابسة (الفاء) عاطفة (إليه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (المصير).

جملة: "خلق..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "صوركم..." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "أحسن..." لا محلّ لها معطوفة على جملة صوركم.

وجملة: "إليه المصير" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

[سورة التغابن (64) : آية 4]

يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (4)

الإعراب:

(في السموات) متعلّق بمحذوف صلة ما، (ما) الثاني والثالث حرف مصدري " 1 "،

(بذات) متعلّق بالخبر (عليم).

والمصدر المؤوّل (ما تسرّون) في محلّ نصب مفعول به، (ما تعلنون) في محلّ نصب معطوف

على الأول جملة: "يعلم..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يعلم (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "تسرّون..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

(1) أو اسم موصول والعائد محذوف.

(213/767)

وجملة: "تعلنون..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الثاني.

وجملة: "اللَّه عليم" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافية.

[سورة التغابن (64): الآيات 5 إلى 6]

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (5) ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ

تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ

(6)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (قبل) اسم ظرفيّ مبني على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يأتكم)

، (الفاء) عاطفة وكذلك (الواو) ، (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (عذاب) .

جملة: "لم يأتكم نبأ... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "كفروا... "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "ذاقوا... "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: "لهم عذاب... "لا محلّ لها معطوفة على جملة ذاقوا.

6 - الإشارة في (ذلك) إلى العذاب (بالبيّنات) متعلّق بحال من رسلهم (الفاء) عاطفة في

الموضعين (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (بشر) فاعل لفعل محذوف على الاشتغال يفسّره

المذكور بعده" 1 "، (الواو) عاطفة في الموضعين واستئنافيّة في الموضع الثالث...

والمصدر المؤوّل (أنه كانت..) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بخبر المبتدأ (ذلك) .

وجملة: "ذلك بأنّه... "لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "كانت تأتيهم... "في محلّ رفع خبر أنّ" 2 ".

---

(1) أو مبتدأ خبره الجملة المذكورة بعده.

(2) اسم أنّ هو ضمير الشأن.

(214/767)

وجملة: "تأتيهم رسلهم ... " في محلّ نصب خبر كانت.

وجملة: "قالوا ... " في محلّ رفع معطوفة على جملة كانت ...

وجملة: "(يهدينا) بشر ... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "يهدوننا ... " لا محلّ لها تفسيريّة.

وجملة: "كفروا ... " في محلّ رفع معطوفة على جملة قالوا.

وجملة: "تولّوا ... " في محلّ رفع معطوفة على جملة كفروا.

وجملة: "استغنى اللَّه ... " في محلّ رفع معطوفة على جملة تولّوا.

وجملة: "اللَّه غني ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(استغنى)، فيه إعلال بالقلب أصله استغنى - بياء متحرّكة في آخره - ياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا.

[سورة التغابن (64) : آية 7]

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (7)

الإعراب:

(أن) مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير محذوف أي:

أنّهم... و(الواو) في (يبعثوا) نائب الفاعل.

والمصدر المؤوّل (أنّهم لن يبعثوا..) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي زعم.

(بلى) حرف جواب لإيجاب المنفيّ (الواو) واو القسم (ربّي) مجرور بالواو متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (اللام) لام القسم (تبعثنّ) مضارع مرفوع للتجرّد، وعلامة الرفع ثبوت النون، وقد حذفت لتوالي الأمثال، و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين نائب فاعل، و(النون) نون التوكيد (ثمّ) للعطف

(لتنبّؤنّ) مثل لتبعثنّ (ما) حرف مصدريّ - أو موصول - والمصدر المؤوّل (ما عملتم) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (تنبّؤنّ).

(الواو) استئنافيّة، والإشارة في (ذلك) إلى البعث والحساب (على اللّه) متعلّق بالخبر (يسير).

جملة: " زعم الذين... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لن يبعثوا . . . " في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الجواب المقدّرة (ستبعثون) " في محلّ نصب مقول القول .

(215/767)

وجملة : " القسم المقدّرة . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول مؤكّد لمقول القول .

وجملة : " تبعثنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدر .

وجملة : " تنبّؤنّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تبعثنّ .

وجملة : " عملتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الحرفيّ أو الاسميّ .

وجملة : " ذلك على اللّه يسير " لا محل لها استئنافيّة .

الفوائد :

- بلى . .

هي حرف جواب ، وتختص بالنفي ، وتفيد إبطاله ، كقوله تعالى في الآية التي نحن بصددها

: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ) وقوله تعالى :

أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ ؟ بلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ وقوله تعالى : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قالُوا بَلى أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قالُوا بَلى . قال ابن عباس وغيره : لو قالوا " نعم " لكفروا . ووجهه : أن نعم تصديق للمخبر بنفي أو إيجاب .

ولذلك قال جماعة من الفقهاء ، لو قال : أليس لي عليك ألف ، فقال : بلى لزمته ، ولو قال : نعم لم تلزمه ، وقال آخرون : تلزمه فيهما ، وجروا في ذلك على مقتضى العرف لا اللغة ،

والحاصل : أن الاستفهام المسبوق بنفي ، إذا أردت أن تجيب عنه بالإثبات ، تقول (بلى) كما سبق في الآيات الكريمة ، وإذا أردت أن تجيب عنه بالنفي فتقول :

" نعم " فإذا قيل لك : (ألا تحب السباحة ؟) فتقول : بلى أحب السباحة ، للإثبات ، أو نعم ، لا أحب السباحة للنفي .

[سورة التغابن (64) : آية 8]

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (باللَّه) متعلق بـ (آمنوا) ، (الواو) عاطفة في الموضعين ، واستئنافيّة في الموضع الثالث (ما) حرف مصدريّ - أو موصول حذف عائده - جملة : " آمنوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن كان الأمر كذلك في البعث والتنبؤ فآمنوا .

وجملة : " أنزلنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " اللَّه . . . خبير " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الحرفيّ أو الاسميّ .

والمصدر المؤوّل (ما تعملون . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بالخبر (خبير) .

[سورة التغابن (64) : الآيات 9 إلى 10]

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (10)

الإعراب :

(يوم) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (ليوم) متعلّق بـ (يجمعكم) ، (الواو) استئنافيّة ، وعاطفة في الموضعين الثاني والثالث (من) اسم شرط في محلّ رفع مبتدأ (باللَّه) متعلّق بـ (يؤمن) ، (يعمل) مضارع مجزوم معطوف على فعل الشرط (صالحا) مفعول به منصوب "

1 " ، (عنه) متعلّق بـ (يكفّر) بمعنى يخفّف - أو ينزل - (يدخله) مضارع مجزوم معطوف على جواب الشرط (من تحتها) متعلّق بـ (تجري) بحذف مضاف أي من تحت أشجارها (خالدين) حال منصوبة من ضمير المفعول في (يدخله) ، (فيها) متعلّق بـ (خالدين) ، وكذلك الظرف (أبدا) ، والإشارة في (ذلك) إلى تكفير السيئات وإدخال الجنّات . . .

جملة : " (اذكر) يوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يجمعكم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ذلك يوم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " من يؤمن باللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يؤمن باللّه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة : " يعمل . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يؤمن .

وجملة : " يكفّر . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر فهو صفته ، والمفعول به مقدّر .

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

وجملة : " يدخله . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " تجري . . . " في محلّ نصب نعت لجنّات .

وجملة : " ذلك الفوز . . . " لا محلّ لها معترضة .

10 - (الواو) عاطفة في الموضعين (بآياتنا) متعلّق بـ (كذّبوا) ، (خالدين) حال منصوبة من أصحاب (فيها) متعلّق بـ (خالدين) (الواو) استئنافيّة - أو عاطفة - ، والمخصوص بالذم محذوف تقديره هي أي النار .

وجملة : " الذين كفروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من يؤمن .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " كذّبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كفروا .

وجملة : " أولئك أصحاب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " بئس المصير " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

الصرف :

(9) التغابن : مصدر قياسيّ للخماسيّ تغابن ، مأخوذ من الغبن وهو فوت الحظ ، وهو مستعار من تغابن القوم في التجارة . . وزنه تفاعل بفتح الفاء وضمّ العين .

البلاغة

الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى ذٰلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ .

التغابن : مستعار من تغابن القوم في التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضا ، لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كان سينزلها هؤلاء الأشقياء لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كان سينزلها هؤلاء السعداء لو كانوا أشقياء .

---

(1) أو في محلّ نصب معطوفة على الحال خالدين .

فن التهكم : في الآية تهكم بالأشقياء ، لأن نزولهم ليس بغبن . وفي حديث رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه وسلّم " ما من عبد يدخل الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء ، ليزداد شكرا ، وما من عبد يدخل النار إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ، ليزداد حسرة " .

]

سورة التغابن (64) : آية 11]

ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11)

الإعراب :

(ما) نافية (مصيبة) مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل أصاب ، ومفعوله محذوف أي : أحدا

(إلّا) للحصر (بإذن) متعلّق بحال من مصيبة (الواو) عاطفة (من يؤمن باللَّه) مرّ إعرابها " 1 "، (الواو) استئنافيّة - أو حاليّة - (بكل) متعلّق بالخبر (عليم) .

جملة: " أصاب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " من يؤمن . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: " يؤمن باللَّه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة: " يهد قلبه . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء.

وجملة: " اللَّه . . . عليم " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

[سورة التغابن (64) : آية 12]

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (12)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة، والثانية عاطفة، وكذلك (الفاء) ، (تولّيتم) ماض في محلّ جزم فعل الشرط (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّما)

---

(1) في الآية (9) من هذه السورة.

(2) أو في محلّ نصب حال من فاعل يهدي.

كافّة ومكفوفة (على رسولنا) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (البلاغ) .

وجملة: "أطيعوا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: "أطيعوا (الثانية) "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة: "تولّيتم . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة: "إنّما على رسولنا البلاغ . . . "لا محلّ لها تعليل لجواب الشرط المقدّر أي: إن تولّيتم فلا بأس على رسولنا لأنّ عليه البلاغ .

[سورة التغابن (64) : آية 13]

اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (13)

الإعراب:

(لا) نافية للجنس (إلّا) للاستثناء (هو) ضمير منفصل بدل من الضمير المستكنّ في خبر لا المحذوف (الواو) استئنافيّة (على الله) متعلّق بـ (يتوكّل) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اللام) لام الأمر ، والفعل مجزوم وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين . .

جملة: "الله لا إله إلّا هو "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: "لا إله إلّا هو . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (الله) .

وجملة: "ليتوكّل المؤمنون "في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن توكّل الناس على غير

الله فليتوكّل المؤمنون عليه . . وجملة الشرط المقدّرة استئنافيّة .

[سورة التغابن (64) : الآيات 14 إلى 18]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17) عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)

الإعراب :

(من أزواجكم) متعلّق بخبر إنّ (لكم) متعلّق بـ (عدوّا) " 1 " ، (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (الفاء) رابطة لجواب الشرط .

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " إنّ من أزواجكم . . . عدوّا " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة: " احذروهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مسبّب عما سبق أي: تنّبهوا فاحذروهم.

وجملة: " تعفوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء.

وجملة: " تصفحوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء.

وجملة: " تغفروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء.

وجملة: " إنّ الله غفور " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

15 - (إنّما) كافّة ومكفوفة (الواو) عاطفة في الموضعين (عنده) ظرف منصوب متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (أجر).

وجملة: " أموالكم . . . فتنة " لا محلّ لها استئناف في حيّز جواب النداء.

---

(1) أو متعلّق بنعت لـ (عدوّا).

وجملة: " اللَّه عنده أجر " لا محلّ لها معطوفة على جملة أموالكم . . . فتنة.

وجملة: " عنده أجر " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللَّه).

16 - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ما) حرف مصدريّ ظرفيّ (الواو) عاطفة في

المواضع الأربعة . .

والمصدر المؤوّل (ما استطعتم) في محلّ نصب ظرف زمان متعلّق بـ (اتّقوا) ، أي : اتّقوا اللَّه مدة استطاعتكم (خيرا) خبر يكن المقدّر مع اسمه أي : أنفقوا يكن الإنفاق خيرا لأنفسكم " 1 " ، (لأنفسكم) متعلّق بـ (خيرا) (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (الفاء) رابطة لجواب الشرط (هم) ضمير فصل " 2 " . .

وجملة : " اتّقوا اللَّه . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن قمتم إلى الطاعة فاتّقوا اللَّه . . . .

وجملة : " استطعتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

(222/767)

وجملة : " اسمعوا . . . " معطوفة على جملة اتّقوا . . .

وجملة : " أطيعوا . . . " معطوفة على جملة اتّقوا . . .

وجملة : " أنفقوا . . . " معطوفة على جملة اتّقوا . . .

وجملة : " (يكن الإنفاق) خيرا . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

---

(1) هذا الإعراب موافق لتفسير الآية في ابن كثير حيث جاء فيه : " أحسنوا كما أحسن

اللَّه إليكم يكن خيرا لكم في الدنيا والآخرة . . . " أمّا سيبويه فقد جعله مفعولا به لفعل محذوف تقديره ائتوا خيرا لأنفسكم ، والكوفيون يجعلونه مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر فهو صفته أي إنفاقا خيرا . .

أو هو مفعول به عامله أنفقوا ، والخير هو المال .

(2) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره المفلحون ، والجملة الاسميّة خبر المبتدأ أولئك .

(223/767)

وجملة : " من يوق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الشرط المقدّرة " 1 " .

وجملة : " يوق . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة : " أولئك . . . المفلحون " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

17 - 18 - (قرضا) مفعول مطلق منصوب " 3 " ، (لكم) متعلّق بـ (يضاعفه) ، و(لكم) الثاني متعلّق بـ (يغفر) ، (شكور ، حليم ، عالم ، العزيز ، الحكيم) أخبار عن المبتدأ (اللَّه) .

وجملة : " تقرضوا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز جواب النداء .

وجملة : " يضاعفه . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " يغفر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " اللَّه شكور . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 4 " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجدول حـ 28 صـ 263 . 276﴾

---

(1) أو لا محلّ لها استئنافيّة . [. . . . .]

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(3) وهذا بحسب الظاهر . . أو هو مفعول به كما جاء في تفسير ابن كثير : " مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، ومهما تصدّقتم من شيء فعليه جزاؤه . . . "

(4) أو في محلّ نصب حال من فاعل يضاعفه أو يغفر . . .

(224/767)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(64) سورة التغابن

مدنيّة وآياتها ثماني عشرة

[سورة التغابن (64) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2) خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (4)

الإعراب:

)

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) يسبّح فعل مضارع مرفوع ولله متعلقان بيسبّح أو اللام زائدة في المفعول وقد تقدم القول فيها وما فاعل وفي السموات متعلقان بمحذوف صلة ما وما في الأرض عطف على ما في السموات (لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) له خبر مقدّم والملك مبتدأ مؤخر والجملة حال وله الحمد عطف على له الملك وهو مبتدأ وعلى كل شيء متعلقان بقدير وقدير خبر هو

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) هو مبتدأ والذي خبره وجملة خلقكم صلة والفاء عاطفة ومنكم خبر مقدم وكافر مبتدأ مؤخر ومنكم مؤمن عطف على فمنكم كافر

(وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) الواو عاطفة والله مبتدأ وبما متعلقان ببصير وجملة تعملون صلة وبصير خبر الله (خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) خلق فعل ماض وفاعله مستتر يعود على الله والسموات مفعول به والأرض عطف على السموات وبالحق حال أي ملتبسا بالحق فالباء للملابسة (وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) الواو عاطفة وصوركم فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به ، فأحسن عطف على وصوركم ، وصوركم مفعول به وإليه خبر مقدّم والمصير مبتدأ مؤخر (يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ) يعلم فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو يعود على الله تعالى وما مفعول به وفي السموات متعلقان بمحذوف صلة ما وما في الأرض عطف ، ويعلم ما تسرّون وما تعلنون عطف أيضا .

البلاغة :

1- في قوله " له الملك وله الحمد " التقديم فقد قدّم الخبر فيهما للدلالة على اختصاص الأمرين به تعالى .

2- وفي الآيات المتقدمة الطباق بين السموات والأرض وبين كافر ومؤمن وبين تسرّون وتعلنون .

3- وللزمخشري سؤال وجواب في منتهى الطرافة ننقلهما فيما يلي : " فإن قلت : كيف أحسن صورهم ؟ قلت جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن

تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور ، ومن حسن صورته أنه خلق منتصبا غير منكب كما قال عزّ وجلّ : في أحسن تقويم ، فإن قلت : فكم من دميم مشوّه

الصورة سمج الخلقة تقتحمه العيون ؟ قلت لا سماجة ثم ولكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطا بيّنا وإضافتها إلى الموفي عليها لا تستملح وإلا فهي داخلة في حيز الحسن غير خارجة عن حدّه ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ثم ترى أملح وأعلى في مراتب الحسن منها فينبو عن الأولى طرفك وتستثقل النظر إليها بعد افتنانك بها وتهالكك عليها ، وقالت الحكماء : شيئان لا غاية لهما الجمال والبيان " .

[سورة التغابن (64) : الآيات 5 إلى 10]

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (5) ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (6) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَرَ

القرآن وجاء على ظهر الغبراء والغبيراء أي على ظهر الأرض يعني راجلا " وما أظلّت

الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر " ويقال للمحاويج : بنو الغبراء قال طرفة :

رأيت بني الغبراء لا ينكرونني ولا أهل هذاك الطراف الممدّد

وزففن إليّ ذئبة غبساء وتقول : لن يبلغ دبيس ما غبا غبيس وهو علم للجدي سمّي لخفائه ، وخرج في الغبش ونحن في أغباش الليل وهي بقاياه وفلان يتغبش الناس أي يظلمهم وبديه أنه لن يبادهم بالظلم مبادهة ، وغبط الكبش جسّ ظهره ليعرف سمنه وغبطه من بابي ضرب وعلم عظم في عينه وتمنى مثل حاله دون أن يريد زوالها عنه والغبيط الرحل يشدّ عليه الهودج فيخفي الظعينة ، قال امرؤ القيس :

تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

(227/767)

وغبقه من بابي نصر وضرب وسقاه الغبوق وهو الخمر تشرب في العشي حيث يخيفهم الليل ، وغبي يغبى غبا وغباوة الشيء وعنه لم يفطن له أو جهله والشيء عليه خفي عليه ولم يعرفه ويقال في فلان غباوة ترزقه والأغنياء أكثرهم أغبياء ولا يغبى عليّ ما فعلت

والغباء الخفاء من الأرض. وهذا من أعاجيب لغتنا فتدبره.

الإعراب:

(228/767)

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي أو التقريري التوبيخي ولم حرف نفي وقلب وجزم ويأتكم فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والكاف مفعول به ونبأ فاعل والذين مضاف إليه وجملة كفروا لا محل لها لأنها صلة الموصول ومن قبل حال والفاء حرف عطف وذاقوا فعل ماض مبني على الضم والواو فاعل ووبال أمرهم مفعول به والواو حرف عطف ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وأليم نعت لعذاب (ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) ذلك مبتدأ والإشارة إلى عذابي الدنيا والآخرة، وبأنه خبر وأن واسمها وجملة كانت خبرها واسم كانت مستتر يعود على الرسل وجملة تأتيهم خبر ورسلهم فاعل تأتيهم وبالبيّنات متعلقان بتأتيهم (فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا) الفاء عاطفة وقالوا فعل ماض وفاعل وهو معطوف على كانت والهمزة للاستفهام الإنكاري وبشر مبتدأ ساغ الابتداء به لدخول الاستفهام عليه وأجازوا أن يكون مرفوعا على الفاعلية بفعل مضمر يفسره ما بعده

فالمسألة من باب الاشتغال والتقدير أيهدينا بشر وجملة يهدوننا في محل رفع خبر على الأول ولا محل لها من الإعراب لأنها مفسّرة وجملة الاستفهام مقول القول (فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) الفاء عاطفة وتفيد السببية لا التعقيب أي فكفروا بسبب هذا القول ، وتولّوا عطف على فكفروا ، واستغنى الله فعل وفاعل والّله مبتدأ وغني خبر أول وحميد خبر ثان (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ) زعم فعل ماض والذين فاعله وجملة كفروا صلة وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ولن حرف نفي ونصب واستقبال والجملة خبر أن وأن وما في حيّزها سدّت مسدّ

مفعولي زعم وقل فعل أمر وبلى حرف جواب

لإثبات النفي والواو واو القسم وربي مجرور بواو القسم وهما متعلقان بفعل القسم المحذوف واللام واقعة في جواب القسم وتبعثّ فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه حذف النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين واو الجماعة وهي ضمير متصل في محل رفع فاعل (ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ولتنبؤن عطف على لتبعثّ وبما في محل نصب مفعول به وجملة عملتم صلة وذلك

مبتدأ والإشارة إلى ما ذكر من البعث والحساب وعلى الله متعلقان بيسير ويسير خبر ذلك (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا) الفاء الفصيحة لأنها واقعة في جواب شرط مقدّر أي إذا كان الأمر كذلك فآمنوا ، وآمنوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وبالله متعلقان بآمنوا ورسوله عطف على الله والنور عطف أيضا والذي نعت وجملة أنزلنا صفة والعائد محذوف أي أنزلناه (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) الواو استئنافية والله مبتدأ وبما متعلقان بخبير وجملة تعملون صلة وخبير خبر الله (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ) يوم ظرف متعلق بخبير أو بمحذوف دلّ عليه سياق الكلام أي تتفاوتون يوم يجمعكم وقيل هو مفعول به لفعل محذوف أي اذكروا وجملة يجمعكم في محل جر بإضافة الظرف إليها وليوم الجمع متعلقان بيجمعكم سمي بذلك لأن الله يجمع فيه بين الأولين والآخرين لإجراء الحساب والجزاء وذلك مبتدأ والإشارة إلى يوم الجمع ويوم التغابن خبره أي يغبن المؤمنون الكافرين بأخذ منازلهم ، وسيأتي المزيد من معناه في باب البلاغة (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة

مسوقة لبيان التغابن وتفصيله ومن اسم شرط جازم مبتدأ ويؤمن فعل الشرط وبالّله متعلقان بيؤمن ويعمل عطف على يؤمن وصالحا مفعول به أو نعت لمصدر محذوف أي عملا صالحا ويكفّر جواب الشرط وعنه متعلقان بيكفّر وسيئاته مفعول به وفعل الشرط والجزاء خبر من (وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ويدخله عطف على يكفّر والهاء مفعول به وجنات مفعول به ثان على السعة وجملة تجري من تحتها الأنهار نعت لجنات وخالدين حال و

جمع لأنه أعاد على معنى من وهو الجمع وفيها متعلقان بخالدين وأبدا ظرف متعلق بخالدين وذلك مبتدأ والإشارة إلى ما ذكر من التكفير وإدخال الجنات والفوز خبر والعظيم نعت الفوز (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) الواو عاطفة والذين مبتدأ وجملة كفروا صلة وكذبوا عطف على كفروا وبآياتنا متعلقان بكذبوا وأولئك مبتدأ وأصحاب النار خبر وخالدين حال وفيها متعلق بخالدين وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم والمصير فاعل والمخصوص بالذم محذوف تقديره هي أي النار .

البلاغة :

1- في قوله " ذلك يوم التغابن " استعارة تمثيلية ، شبّهت حال الفريقين المتمكنين من اختيار ما يؤدي إلى سعادة الآخرة فاختار كل فريق ما يشتهيه مما كان قادرا عليه بدل ما اختاره الآخر وشبّهه بحال المتبادلين بالتجارة وشبّه ما يتفرع عليه من نزول كلّ منهما منزلة الآخر بالتغابن لأن التغابن تفاعل من الغبن وهو أخذ الشيء من صاحبه بأقل من قيمته وهو لا يكون إلا في عقد المعاوضة ولا معاوضة في الآخرة ، فإطلاق التغابن على ما يكون فيها إنما هو بطريق الاستعارة التمثيلية ، وعبارة الزمخشري : " التغابن مستعار من تغابن القوم في التجارة وهو أن يغبن بعضهم بعضا لنزول السعداء ومنازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء " .

2- وفي الآية أيضا فن التهكّم وقد مرّ فيما مضى ، وهنا يتهكم بالأشقياء لأن نزولهم ليس بغبن وفي الحديث : " ما من عبد يدخل الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا وما من عبد يدخل النار إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة " وفي حديث آخر : " الناس غاديان فمبتاع نفسه فمعتقها ومبتاع نفسه فموبقها " .

[سورة التغابن (64) : الآيات 11 إلى 18]

ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11)
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (12) اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا
هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (13) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا
لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّما أَمْوالُكُمْ
وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15)
فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ
فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ
شَكُورٌ حَلِيمٌ (17) عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)

الإعراب :

(ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) كلام مستأنف مسوق للرد على الكفّار الذين قالوا : لو كان المسلمون على حق لصانهم اللّه من المصائب في الدنيا . وما نافية وأصاب فعل ماض ومن حرف جر زائد ومصيبة مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه فاعل ومفعول أصاب محذوف أي أحدا وإلا أداة حصر وبإذن اللّه متعلقان بأصاب (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) الواو حرف عطف ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ويؤمن فعل الشرط وبالله متعلقان بيؤمن ويهد جواب الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة وقلبه مفعول به وفعل الشرط والجزاء خبر من والله مبتدأ وبكل شيء متعلقان بعليم وعليم خبر الله (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) الواو حرف عطف وأطيعوا فعل أمر والواو فاعل والله مفعول به وأطيعوا الرسول عطف على أطيعوا الله والفاء استئنافية وإن حرف شرط جازم وتوليتم فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والجواب محذوف تقديره فلا ضير على رسولنا في توليكم والفاء حرف تعليل وإنما كافّة ومكفوفة وعلى رسولنا مقدّم والبلاغ مبتدأ مؤخر والمبين نعت للبلاغ (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) الله مبتدأ وجملة لا إله إلا هو خبر وقد تقدم إعراب كلمة الشهادة مفصلا ، وعلى الله متعلقان بيتوكل والفاء عاطفة واللام لام الأمر ويتوكل فعل مضارع مجزوم باللام والمؤمنون فاعل (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) يا أيها الذين آمنوا تقدم إعرابها كثيرا ، وإن حرف مشبه بالفعل ومن أزواجكم خبر إن المقدم وأولادكم عطف على أزواجكم وعدوا اسم إن المؤخر ولكم نعت لعدوا والفاء الفصيحة أي إن عرفتم

ذلك فاحذروهم ، واحذرهم فعل أمر وفاعل ومفعول به (وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

الواو عاطفة وإن حرف شرط جازم وتعفوا فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون وتصفحوا عطف على على تعفوا وتغفروا عطف أيضا والفاء رابطة للجواب لأنه جملة اسمية وإن واسمها وخبرها(إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ)

إنما كافّة ومكفوفة وأموالكم مبتدأ وأولادكم عطف على أموالكم وفتنة خبر(اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

الواو استئنافية واللّه مبتدأ وعنده ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وأجر مبتدأ مؤخر وعظيم نعت لأجر والجملة خبر للّه (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ) الفاء الفصيحة لأنها أفصحت عن شرط مقدّر أي إن علمتم أنه تعالى جعل أموالكم وأولادكم فتنة لكم شاغلة عن أمور الآخرة فاتقوا اللّه ، وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر منصوب بفعل محذوف أي جهدكم واستطاعتكم ، واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا أفعال أمر معطوفة على اتقوا ، وخيرا فيه :

1 - قول سيبويه أنه منصوب بفعل محذوف أي وائتوا خيرا لأنفسكم كقوله : " انتهوا خيرا لكم " وقد اقتصر عليه الزمخشري وأبو البقاء .

2- قول أبي عبيدة أنه خبر ليكن مقدرة أي يكن الاتفاق خيرا .

3- قول الكسائي والفرّاء أنه نعت مصدر محذوف أي إنفاقا خيرا .

4- قول الكوفيين أنه حال .

5- قول بعضهم أنه مفعول به لقوله أنفقوا على تقدير موصوف محذوف أي مالا خيرا .

ولأنفسكم متعلقان بخيرا (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ

(235/767)

ويوق فعل الشرط مجزوم بحذف حرف العلة ونائب الفعل مستتر تقديره هو وشحّ نفسه مفعول به ثان والفاء رابطة لجواب الشرط وجملة فأولئك هم المفلحون في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من (إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ) إن شرطية وتقرضوا فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والله مفعوله وقرضا مفعول مطلق وحسنا نعت ، ويضاعفه جواب الشرط والهاء مفعوله ولكم متعلقان بيضاعفه (وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ) ويغفر عطف على الجواب تبعه في الجزم ولكم متعلقان بيغفر والله مبتدأ وشكور خبر أول وحليم خبر ثان (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) عالم الغيب خبر لمبتدأ محذوف والعزيز خبر ثان والحكيم خبر ثالث .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 105.116 ﴾

(236/767)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورسُلِى .رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الْإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الثامن والستون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/768)

الجزء الثامن والستون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الطلاق)

(4/768)

(سورة الطلاق)

(5/768)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الطلاق

مقصودها تقدير حسن التدبير في المفارقة والمهاجرة بتهذيب الأخلاق، بالتقوى لا سيما في الإنفاق، لا سيما إن كان ذلك عند الشقاق، لا سيما إن كان في أمر النساء لا سيما عند الطلاق، ليكون الفراق على نحو التواصل والتلاق، واسمها الطلاق أجمع ما يكون لذلك، فلذا سميت به وكذا سورة النساء القصرى لأن العدل في الفراق بعض مطلق العدل الذي هو محط مقصود سورة النساء. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 23﴾

(6/768)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى:

(بصيرة فى.. يا أيها النبى إذا طلقتم النساء)

السّورة مدنيّة بالاتّفاق.

وآياتها خمس عشرة فى عَدّ البصرة، واثنتا عشرة عند الباقين.

وكلماتها مائتان وأربعون.

وحروفها ألف وستّون.

والمختلف فيها ثلاث آيات: مخرجاً و ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ ﴿يَاأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ فواصل

آياتها على الألف.

ولها اسمان: سورة الطَّلاق لقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ والثَّانى سورة النِّساءِ القُصْرى.

قاله عبد الله بن مسعود.

معظم مقصود السّورة: بيان طلاق السُنَّة، وأَحكام العِدَّة، والتَّوكُّل على الله تعالى فى الأُمور، وبيان نفقة النِّساءِ حال الحمل والرّضاع، وبيان عُقُوبة المتعدّين وعذابهم، وأَنَّ التَّكليف على قَدْر الطاقة، وللصّالحين الثوابُ والكرامة، وبيان إِحاطة العلم، والقُدْرَة، فى قوله: ﴿لِتَعْلَمُوۤاْ﴾ الآية.

السّورة خالية عن المنسوخ.

وفيها النّاسخ ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

ومن المتشابه قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾ أَمر بالتَّقوى فى أَحكام الطَّلاق ثلاث مرّات، ووعد فى كلِّ مرّة بنوع من الجزاءِ، فقال أَوّلاً: ﴿يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾: يُخرجه ممّا أُدخِل فيه وهو يكرهه، ويُتيح له محبوبه من حيث لا يأْمُل.

وقال فى الثانى: يسهّل عليه الصّعب من أَمره، ويُتيح له خيراً مِّمَّن طلَّقها.

والثالث وَعَد عليه أَفضل الجزاءِ، وهو ما يكون فى الآخرة من النعماءِ.

فضل السّورة

فيه حديث أُبىّ : مَن قرأَها مات على سُنَّة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها فكأَنما ربَّى أَلف يتيم ، وله بكل آية قرأَها مثل ثُواب مَنْ يلقِّن أَلف ميّت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 469 .470 ﴾

(7/768)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الطلاق

سورة) يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ((الطلاق : 1) الخ شاعت تسميتها في المصاحف وفي كتب التفسير وكتب السنة : سورةَ الطلاق ولم ترد تسميتها بهذا في حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) موسوم بالقبول .

وذكر في (الإتقان) أن عبد الله بن مسعود سماها سورة النساء القُصرى أخذاً مما أخرجه البخاري وغيره عن مالك بن عامر قال : كنّا عند عبد الله بن مسعود فذُكر عنده أن الحامل المتوفَّى عنها تعتد أقصى الأجلين (أي أجل وضع الحمل إن كانَ أكثر من أربعة أشهر وعشرٍ ، وأجللِ الأربعة الأشهر وعشرٍ) فقال : أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون عليها

الرخصة لَنزلتْ سورة النّساء القُصرى بعد الطُّولى) وأولاتُ الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ((الطلاق : 4) اه . وفي (الإتقان) عن الداودي إنكار أن تُدعَى هذه السورة بالقصرى للتنزه عن وصف القرآن بصفة نقص ، ورده ابن حجر بأن القِصر أمر نسبي أي ليس مشعراً بنقص على الإطلاق . وابن مسعود وصفها بالقُصرى احترازاً عن السورة المشهورة باسم سورة النساء التي هي السورة الرابعة في المصحف التي أولها) يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ((النساء : 1) . وأما قوله الطُولى فهو صفة لموصوف محذوف أي بعد السورة الطولى يعني سورة البقرة لأنها أطول سور القرآن ويتعين أن ذلك مراده لأن سورة البقرة هي التي ذكرت فيها عدة المتوفَّى عنها . وقد يُتوهم أن سورة البقرة تسمى سورة النساء الطولى من مقابلتها بسورة النساء القصرى في كلام ابن مسعود . وليس كذلك كما تقدم في سورة النساء .

وهي مدنية بالاتفاق .

(8/768)

وعدد آيها اثنتا عشرة آية في عدد الأكثر . وعدها أهل البصرة إحدى عشرة آية .

وهي معدودة السادسةَ والتسعين في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة

الإنسان وقبل سورة البينة .

وسبب نزولها ما رواه مسلم عن طريق ابن جريج عن أبي الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن يسأل ابنَ عمر كيف ترى في الرجل طلق امرأته حائضاً ؟ فقال : طلق ابنُ عمر امرأته حائضاً على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسأل عمرُ رسولَ الله (صلى الله عليه وسلم) فقال له : ليراجعها ، فردّها وقال : إذا طَهرت فليطلق أو لِيُمسك . قال ابن عمر وقرأ النبي : (يأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ((الطلاق : 1) .

وظاهر قوله : وقرأ النبي (صلى الله عليه وسلم) الخ . إنها نزلت عليه ساعتئذٍ . ويحتمل أن تكون نزلت قبل هذه الحادثة . وقال الواحدي عن السدي : إنها نزلت في قضية طلاق ابن عمر ، وعن قتادة أنها نزلت بسبب أن النبي (صلى الله عليه وسلم) طلق حفصة ولم يصح . وجزم أبو بكر بن العربي بأن شيئاً من ذلك لم يصح وأن الأصح أن الآية نزلت بياناً لشرع مبتدإ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ 292 . 293 ﴾

(9/768)

وقال الشيخ سيد قطب :

تقديم لسورة الطلاق

هذه سورة الطلاق , يبين الله فيها أحكامه , ويفصل فيها الحالات التي لم تفصل في السورة الأخرى "سورة البقرة" التي تضمنت بعض أحكام الطلاق ; ويقرر فيها أحكام الحالات المتخلفة عن الطلاق من شؤون الأسرة . وقد تضمنت هذه السورة بيان الوقت الذي يمكن أن يقع فيه الطلاق الذي يقبله الله ويجري وفق سنته: (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) . .

وحق المطلقة وواجبها في البقاء في بيتها - وهو بيت مطلقها - فترة العدة لا تخرج ولا تخرج إلا أن تأتي بفاحشة مبينة: (لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) . .

وحقها بعد انقضاء العدة في الخروج لتفعل بنفسها ما تشاء , ما لم يكن الزوج قد راجعها وأمسكها في فترة العدة , لا ليضارها ويؤذيها بهذا الإمساك ويعطلها عن الزواج , ولكن لتعود الحياة الزوجية بينهما بالمعروف: (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف) . . وهذا مع الإشهاد على الإمساك أو الفراق: (وأشهدوا ذوي عدل منكم) .

.

وفي سورة البقرة بين مدة العدة للمطلقة ذات الحيض - وهي ثلاثة قروء بمعنى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات على خلاف فقهي - وهنا بين هذه المدة بالنسبة للآيسة التي انقطع حيضها وللصغيرة التي لم تحض: (واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن

ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن) . .

وبين عدة الحامل: (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) . .

ثم فصل حكم المسكن الذي تعتد فيه المعتدة ونفقة الحمل حتى تضع: (أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم , ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن . وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن) . .

ثم حكم الرضاعة لولد المطلقة حين تضعه , وأجر الأم على الرضاعة في حالة الإتفاق بينها وبين أبيه على مصلحة الطفل بينهما , وفي حالة إرضاعه من أخرى: (فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف . وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى) . .

(10/768)

ثم زاد حكم النفقة والأجر في جميع الحالات تفصيلا , فجعله تابعا لحالة الزوج وقدرته:

(لينفق ذو سعة من سعته , ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله . لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها) . .

(11/768)

وهكذا تتبعت النصوص سائر الحالات , وما يتخلف عنها , بأحكام مفصلة دقيقة , ولم تدع شيئا من أنقاض الأسرة المفككة بالطلاق إلا أراحته في مكانه , وبينت حكمه , في رفق وفي دقة وفي وضوح . .

ويقف الإنسان مدهوشا أمام هذه السورة وهي تتناول أحكام هذه الحالة ومتخلفاتها . وهي تحشد للأمر هذه الحشد العجيب من الترغيب والترهيب , والتعقيب على كل حكم , ووصل هذا الأمر بقدر الله في السماوات والأرضين , وسنن الله في هلاك العاتين عن أمره , وفي الفرج والسعة لمن يتقونه . وتكرار الأمر بالمعروف والسماحة والتراضي , وإيثار الجميل . والإطماع في الخير . والتذكير بقدر الله في الخلق وفي الرزق , وفي اليسر والعسر . .

يقف الإنسان مدهوشا أمام هذا الحشد من الحقائق الكونية الكبرى في معرض الحديث عن الطلاق أمام هذا الاحتفال والاهتمام - حتى ليوجه الخطاب إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) بشخصه , وهو أمر عام للمؤمنين وحكم عام للمسلمين , زيادة في الاهتمام وإشعارا بخطورة الأمر المتحدث فيه . وأمام هذا التفصيل الدقيق للأحكام حالة حالة , والأمر المشدد في كل حكم بالدقة في مراعاته , وتقوى الله في تنفيذه , ومراقبة الله في تناوله . والإطالة في التعقيب بالترغيب والترهيب , إطالة تشعر القلب كأن هذا الأمر هو

الإسلام كله ! وهو الدين كله ! وهو القضية التي تفصل فيها السماء , وتقف لتراقب تنفيذ الأحكام ! وتعد المتقين فيها بأكبر وأسمى ما يتطلع إليه المؤمن ; وتوعد الملتوين والمتلكئين والمضارين بأعنف وأشد ما يلقاه عاص ; وتلوح للناس بالرجاء الندي والخير المخبوء وراء أخذ الأمر بالمعروف والسماحة والتجمل والتيسير .

(12/768)

ويقرأ القارئ في هذه السورة . . (واتقوا الله ربكم) . . (وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) . . (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) . . (وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله) . . (ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) . . (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . . ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شيء قدرا) . . (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا) . (ذلك أمر الله أنزله إليكم) (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) . . (سيجعل الله بعد عسر يسرا) . .

كما يقرأ ذلك التهديد العنيف الطويل المفصل: (وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا , وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة

أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديدا) . .

يعقبه التحذير من مثل هذا المصير , والتذكير بنعمة الله بالرسول وما معه من النور , والتلويح بالأجر الكبير: (فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا , قد أنزل الله إليكم ذكرا :رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور . ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا) . .

ثم يقرأ هذا الإيقاع الهائل الضخم في المجال الكوني الكبير:(الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن , يتنزل الأمر بينهن , لتعلموا أن الله على كل شيء قدير , وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) . .

يقرأ هذا كله تعقيبا على أحكام الطلاق . ويجد سورة كاملة في القرآن , من هذا الطراز , كلها موقوفة على تنظيم هذه الحالة ومتخلفاتها كذلك ! وربطها هكذا بأضخم حقائق الإيمان في المجال الكوني والنفسي . وهي حالة تهدم لا حالة بناء , وحالة انتهاء لا حالة إنشاء . . لأسرة . . لا لدولة . . وهي توقع في الحس أنها أضخم من إنشاء دولة !

علام يدل هذا ?

إن له عدة دلالات تجتمع كلها عند سمو هذا الدين وجديته وانبثاقه من نبع غير بشري على وجه التأكيد . حتى لو لم تكن هناك دلالة أخرى سوى دلالة هذه السورة !

إنه يدل ابتداء على خطورة شأن الأسرة في النظام الإسلامي:

فالإسلام نظام أسرة . البيت في اعتباره مثابة وسكن , في ظله تلتقي النفوس على المودة والرحمة والتعاطف والستر والتجمل والحصانة والطهر ; وفي كنفه تنبت الطفولة , وتدرج الحداثة ; ومنه تمتد وشائج الرحمة وأواصر التكافل .

ومن ثم يصور العلاقة البيتية تصويرا رفافا شفيفا , يشع منه التعاطف , وترف فيه الظلال , ويشيع فيه الندى , ويفوح منه العبير: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) . . (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) . . فهي صلة النفس بالنفس , وهي صلة السكن والقرار , وهي صلة المودة والرحمة , وهي صلة الستر والتجمل . وإن الإنسان ليحس في الألفاظ ذاتها حنوا ورفقا , ويستروح من خلالها نداوة وظلا . وإنها لتعبير كامل عن حقيقة الصلة التي يفترضها الإسلام لذلك الرباط الإنساني الرفيق الوثيق . ذلك في الوقت الذي يلحظ فيه أغراض ذلك الرباط كلها , بما فيها امتداد الحياة بالنسل , فيمنح هذه الأغراض كلها طابع النظافة والبراءة , ويعترف بطهارتها وجديتها , وينسق بين اتجاهاتها ومقتضياتها . ذلك حين يقول: (نساؤكم حرث لكم) .

فيلحظ كذلك معنى الإخصاب والإكثار .

ويحيط الإسلام هذه الخلية , أو هذا المحضن , أو هذه المثابة بكل رعايته وبكل ضماناته .

وحسب طبيعة الإسلام الكلية , فإنه لا يكتفي بالإشعاعات الروحية , بل يتبعها التنظيمات القانونية والضمانات التشريعية .

(14/768)

والذي ينظر في تشريعات الأسرة في القرآن والسنة في كل وضع من أوضاعها ولكل حالة من حالاتها , وينظر في التوجيهات المصاحبة لهذه التشريعات , وفي الإحتشاد الظاهر حولها بالمؤثرات والمعقبات ; وفي ربط هذا الشأن بالله مباشرة في كل موضع , كما هو الحال في هذه السورة وفي غيرها . . يدرك إدراكا كاملا ضخامة شأن الأسرة في النظام الإسلامي , وقيمة هذا الأمر عند الله , وهو يجمع بين تقواه - سبحانه - وتقوى الرحم في أول سورة النساء حيث يقول: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة , وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء , واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا) . . كما يجمع بين عبادة الله والإحسان للوالدين في سورة الإسراء وفي غيرها : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) . . وبين الشكر لله والشكر

للوالدين في سورة لقمان: (أن اشكر لي ولوالديك) . .

وإن هذه العناية القصوى بأمر الأسرة لتتناسق مع مجرى القدر الإلهي بإقامة الحياة البشرية ابتداء على أساس الأسرة , حين جرى قدر الله أن تكون أول خلية في الوجود البشري هي أسرة آدم وزوجه , وأن يتكاثر الناس بعد ذلك من هذه الخلية الأولى . وكان الله - سبحانه - قادرا على أن يخلق الملايين من الأفراد الإنسانيين دفعة واحدة . ولكن قدره جرى بهذا لحكمة كامنة في وظيفة الأسرة الضخمة في حياة هذا المخلوق , حيث تلبي حياة الأسرة فطرته واستعداداته , وحيث تنمي شخصيته وفضائله , وحيث يتلقى فيها أعمق المؤثرات في حياته . ثم جرت هذه العناية في النظام الإسلامي - منهج الله الأخير في الأرض - مع القدر الإلهي في خلقة الإنسان ابتداء . كما هو الشأن في تناسق كل ما يصدر عن الله بلا تفاوت ولا اختلاف .

(15/768)

والدلالة الثانية لسياق السورة , وللاحتفال بشأن العلاقات الزوجية والعائلية هذا الاحتفال في القرآن كله , هي اتجاه النظام الإسلامي لرفع هذه العلاقات الإنسانية إلى مستوى القداسة المتصلة بالله ; واتخاذها وسيلة للتطهر الروحي والنظافة الشعورية - لا

كما كان ينظر إليها في العقائد الوثنية , وعند أتباع الديانات المحرفة , البعيدة بهذا التحريف عن فطرة الله التي فطر الناس عليها .

[إن الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها , إنما ينظمها ويطهرها , ويرفعها عن المستوى الحيواني , ويرقيها حتى تصبح هي المحور الذي يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية . ويقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية , التي تجعل من التقاء جسدين , التقاء نفسين وقلبين وروحين . وبتعبير شامل التقاء إنسانين , تربط بينهما حياة مشتركة , وآمال مشتركة , وآلام مشتركة , ومستقبل مشترك , يلتقي في الذرية المرتقبة , ويتقابل في الجيل الجديد , الذي ينشأ في العش المشترك , الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان] .

(16/768)

ويعد الإسلام الزواج وسيلة للتطهر والارتفاع فيدعو الأمة المسلمة لتزويج رجالها ونسائها إذا قام المال عقبة دون تحقيق هذه الوسيلة الضرورية لتطهير الحياة ورفعها : (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم , إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم . وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله) . . وبسمي

الزواج إحصانا أي وقاية وصيانة . ويستقر في أخلاد المؤمنين أن البقاء بدون إحصان ولو فترة قصيرة لا ينال رضى الله . فيقول الإمام علي - كرم الله وجهه - وقد سارع بالزواج عقب وفاة زوجه فاطمة بنت الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " لقد خشيت أن ألقى الله وأنا عزب " . فيدخل الزواج في عرف المؤمن في الطاعات التي يتقرب بها إلى ربه . وترتفع هذه الصلة إلى مكان القداسة في ضميره بما أنها إحدى الطاعات لربه .

والدلالة الثالثة لسياق سورة الطلاق ونظائرها هي واقعية هذا النظام الإسلامي ومعاملته للحياة وللنفس البشرية كما هي في فطرتها , مع محاولة رفعها إلى ذلك المستوى الكريم , عن طريق استعداداتها وملابسات حياتها . ومن ثم لا يكتفي بالتشريع الدقيق في هذا الأمر الموكول إلى الضمير . ولا يكتفي بالتوجيه . ويستخدم هذا وذاك في مواجهة واقع النفس وواقع الحياة .

إن الأصل في الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار . والإسلام يحيط هذه الرابطة بكل الضمانات التي تكفل استقرارها واستمرارها . وفي سبيل هذه الغاية يرفعها إلى مرتبة الطاعات , ويعين على قيامها بمال الدولة للفقراء والفقيرات , ويفرض الآداب التي تمنع التبرج والفتنة كي تستقر العواطف ولا تتلفت القلوب على هتاف الفتنة المتبرجة في الأسواق ! ويفرض حد الزنا وحد القذف ; ويجعل للبيوت حرمتها بالاستئذان عليها والاستئذان بين أهلها في داخلها .

وينظم الارتباطات الزوجية بشريعة محددة, ويقيم نظام البيت على أساس قوامة أحد الشريكين وهو الأقدر على القوامة, منعا للفوضى والاضطراب والنزاع . إلى آخر الضمانات والتنظيمات الواقية من كل اهتزاز . فوق التوجيهات العاطفية . وفوق ربط هذه العلاقة كلها بتقوى الله ورقابته .

ولكن الحياة الواقعية للبشر تثبت أن هناك حالات تتهدم وتتحطم على الرغم من جميع الضمانات والتوجيهات . وهي حالات لا بد أن تواجه مواجهة عملية, اعترافا بمنطق الواقع الذي لا يجدي إنكاره حين تتعذر الحياة الزوجية, ويصبح الإمساك بالزوجية عبثا لا يقوم على أساس !

"والإسلام لا يسرع إلى رباط الزوجية المقدسة فيفصمه لأول وهلة, ولأول بادرة من خلاف . إنه يشد على هذا الرباط بقوة, فلا يدعه يفلت إلا بعد المحاولة واليأس .

"إنه يهتف بالرجال: (وعاشروهن بالمعروف, فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) . فيميل بهم إلى التريث والمصابرة حتى في حالة الكراهية, ويفتح لهم تلك النافذة المجهولة: (فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) فما

يدريهم أن في هؤلاء النسوة المكروهات خيرا , وأن الله يدخر لهم هذا الخير . فلا يجوز أن يفلتوه . إن لم يكن ينبغي لهم أن يستمسكوا به ويعزوه ! وليس أبلغ من هذا في استحياء الإنعطاف الوجداني واستثارته , وترويض الكره وإطفاء شرته .

"فإذا تجاوز الأمر مسألة الحب والكره إلى النشوز والنفور , فليس الطلاق أول خاطر يهدي إليه الإسلام . بل لا بد من محاولة يقوم بها الآخرون , وتوفيق يحاوله الخيرون:(وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله , وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما . إن الله كان عليما خبيرا) . . (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا . فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير) . .

(18/768)

[فإذا لم تجد هذه الوساطة , فالأمر إذن جد , وهناك ما لا تستقيم معه هذه الحياة , ولا يستقر لها قرار . وإمساك الزوجية على هذا الوضع إنما هو محاولة فاشلة , يزيدها الضغط فشلا , ومن الحكمة التسليم بالواقع , وإنهاء هذه الحياة على كره من الإسلام , فإن أبغض الحلال إلى الله الطلاق] .

(19/768)

فإذا أراد أن يطلق فليس في كل لحظة يجوز الطلاق . إنما السنة أن يكون في طهر لم يقع فيه وطء . . وفي هذا ما يؤجل فصم العقدة فترة بعد موقف الغضب والانفعال . وفي خلال هذه الفترة قد تتغير النفوس , وتقر القلوب , ويصلح الله بين المتخاصمين فلا يقع الطلاق ! ثم بعد ذلك فترة العدة . ثلاثة قروء للتي تحيض وتلد . وثلاثة أشهر للآيسة والصغيرة . وفترة الحمل للحوامل . وفي خلالها مجال للمعاودة إن نبضت في القلوب نابضة من مودة , ومن رغبة في استئناف ما انقطع من حبل الزوجية .

ولكن هذه المحاولات كلها لا تنفي أن هناك انفصالا يقع , وحالات لا بد أن تواجهها الشريعة مواجهة عملية واقعية , فتشرع لها , وتنظم أوضاعها , وتعالج آثارها . وفي هذا كانت تلك الأحكام الدقيقة المفصلة , التي تدل على واقعية هذا الدين في علاجه للحياة , مع دفعها دائما إلى الأمام . ورفعها دائما إلى السماء .

والدلالة الرابعة للسورة وما فيها من الترغيب والترهيب والتعقيب والتفصيل الشديد والتوكيد , هو أنها كانت تواجه حالات واقعة في الجماعة المسلمة متخلفة من رواسب الجاهلية , وما كانت تلاقيه المرأة من العنت والخسف , مما اقتضى هذا التشديد , وهذا الحشد من المؤثرات النفسية , ومن التفصيلات الدقيقة , التي لا تدع مجالا للتلاعب والالتواء مع ما كان مستقرا في النفوس من تصورات متخلفة عن علاقات الجنسين , ومن

تفكك وفوضى في الحياة العائلية .

ولم يكن الحال هكذا في شبه الجزيرة وحدها , إنما كان شائعا في العالم كله يومذاك . فكان وضع المرأة هو وضع الرقيق أو ما هو أسوأ من الرقيق في جنبات الأرض جميعا . فوق ما كان ينظر إلى العلاقات الجنسية نظرة استقذار , وإلى المرأة كأنها شيطان يغري بهذه القذارة .

(20/768)

ومن هذه الوهدة العالمية ارتفع الإسلام بالمرأة وبالعلاقات الزوجية إلى ذلك المستوى الرفيع الطاهر الكريم الذي سبقت الإشارة إليه . وأنشأ للمرأة ما أنشأ من القيمة والاعتبار والحقوق والضمانات . . وليدة لا توأد ولا تهان . ومخطوبة لا تنكح إلا بإذنها ثيبا أو بكرا . وزوجة لها حقوق الرعاية فوق ضمانات الشريعة . ومطلقة لها هذه الحقوق المفصلة في هذه السورة وفي سورة البقرة وغيرها . . .

شرع الإسلام هذا كله . لا لأن النساء في شبه الجزيرة أو في أي مكان في العالم حينذاك شعرن بأن مكانهن غير مرض ! ولا لأن شعور الرجال كذلك قد تأذى بوضع النساء . ولا لأنه كان هناك اتحاد نسائي عربي أو عالمي ! ولا لأن المرأة دخلت دار الندوة أو مجلس

الشورى ! ولا لأن هاتفا واحدا في الأرض هتف بتغيير الأحوال . . إنما كانت هي شريعة السماء للأرض . وعدالة السماء للأرض . وإرادة السماء بالأرض . . أن ترتفع الحياة البشرية من تلك الوهدة , وأن تتطهر العلاقات الزوجية من تلك الوصمة , وأن يكون للزوجين من نفس واحدة حقوق الإنسان وكرامة الإنسان .

. . هذا دين رفيع . . لا يعرض عنه إلا مطموس . ولا يعيبه إلا منكوس , ولا يحاربه إلا موكوس . فإنه لا يدع شريعة الله إلى شريعة الناس إلا من أخلد إلى الأرض واتبع هواه .

والآن نستعرض الأحكام في سياق السورة – بعد هذا الاستطراد الذي لا يبعد كثيرا عن جو هذا الجزء وما فيه من تنظيم وبناء للجماعة المسلمة – والأحكام في سياق السورة شيء آخر غير ذلك التلخيص . شيء حي . فيه روح . وفيه حركة . وفيه حياة . وفيه إيحاء . . وله إيقاع . وهذا هو الفارق الأصيل بين مدارسة الأحكام في القرآن ومدارستها في كتب الفقه والأصول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3593 . 3598 ﴾

(21/768)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الطلاق

مدنية وآياتها اثنا عشر آية

بين يدي السورة

* سورة الطلاق مدنية وقد تناولت بعض الأحكام التشريعية المتعلقة بأحوال الزوجين ، كبيان أحكام الطلاق وكيفيته ، وما يترتب على الطلاق من (العدة ، والنفقة ، والسكنى ، وأجر المرضع) إلى غير ما هنالك من أحكام .

* تناولت السورة الكريمة في البدء أحكام الطلاق (الطلاق السني) و(الطلاق البدعي) فأمرت المؤمنين بسلوك أفضل الطرق ، عند تعذر استمرار الحياة الزوجية ، ودعت إلى تطليق الزوجة في الوقت المناسب ، وعلى الوجه المشروع ، وهو أن يطلقها طاهرا من غير جماع ، ثم يتركها إلى انقضاء عدتها [يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن . .] الآيات .

* وفي هذا التوجيه الإلهي دعوة للرجال أن يتمهلوا ، ولا يتسرعوا في فصل عرى الزوجية ، فإن الطلاق أبغض الحلال إلى الله ، ولولا الضرورات القسرية لما أبيح الطلاق لأنه هدم للأسرة [فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف] الآيات .

* ودعت السورة إلى إحصاء العدة لضبط انتهائها ، لئلا تختلط الأنساب ، ولئلا يطول

الأمد على المطلقة ، فيلحقها الضرر ، ودعت إلى الوقوف عند حدود الله ، وعدم عصيان أوامره [وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . .] الآيات .

* وتناولت السورة أحكام العدة ، فبينت عدة اليائس التي انقطع عنها دم الحيض لكبر أو مرض ، وكذلك عدة الصغيرة ، وعدة الحامل ، فبينته أوضح بيان مع التوجيه والإرشاد [واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن . .] الآيات .

* وفي خلال تلك الأحكام التشريعية ، تكررت الدعوة إلى " تقوى الله " بالترغيب تارة ، وبالترهيب أخرى ، لئلا يقع حيف أو ظلم من أحد الزوجين ، كما وضحت أحكام السكنى والنفقة [ذلك أمر الله أنزله إليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا . .] الآيات .

(22/768)

---

* وختمت السورة بالتحذير من تعدي حدود الله ، وضربت الأمثلة بالأمم الباغية التي عتت عن أمر الله ، وما ذاقت من الوبال والدمار ، ثم أشارت إلى قدرة الله في خلق سبع سموات طباق ، وخلق الأرضين ، وكلها براهين على وحدانية رب العالمين [وكأين من قرية

عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . .] الآيات إلى نهاية السورة الكريمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير جـ 3 صـ 397 ﴾

(23/768)

فصل في معاني السورة كاملة

قال الشيخ المراغي رحمه الله :

سورة الطلاق

طلقتم النساء : أي أردتم طلاقهن كما جاء في قوله تعالى : " فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ " أي إذا أردت قراءته ، لعدّتهن : أي مستقبلين عدتهن بأن تطلقوهن في طهر لا قربان فيه ، وأحصوا العدة : أي اضبطوها وأكملوها ثلاثة قروء كوامل ، وأصل الإحصاء العدّ بالحصى كما كان يستعمل ذلك قديما ثم استعمل في العدّ والضبط ، والفاحشة المبينة : هي ارتكاب ما يوجب الحد ، أو البذاء على الأحماء أو على الزوج ، أو الخروج قبل انقضاء العدة ، وحدود اللّه : شرائعه التي أمر بها ونهى عن تركها ، ظلم نفسه : أي أضرّ بها ، والأمر : هو الندم على طلاقها والميل إلى رجعتها .

فإذا بلغن أجلهن : أي قارين انتهاء العدة ، فأمسكوهن : أي فراجعوهن ، بمعروف : أي مع حسن عشرة ، أو فارقوهن بمعروف : أي مع إعطاء الحق واتقاء المضارة : كأن يراجعها ثم يطلقها تطويلا للعدة ، بالغ أمره : أي منفذ حكمه وقضاءه فى خلقه يفعل ما يشاء ، قدرا : أي تقديرا وتوقيتا .

من وجدكم : أي من وسعكم ، وقال الفراء : أي على قدر طاقتكم ، ولا تضاروهن : أي فى النفقة والسكنى ، لتضيقوا عليهن : أي لتلجئوهن إلى الخروج بشغل المكان أو بإسكان من لا يردن السكنى معه ، ائتمروا : أي تآمروا وتشاوروا ، بمعروف : أي بجميل فى الأجر والإرضاع ، فلا يكن من الأب مماكسة ولا من الأم معاسرة ، وإن تعاسرتم : أي ضيق بعضكم على بعض بالمشاقة فى الأجر أو يطلب الزيادة ، قدر عليه : أي ضيق ، آتاه اللّه : أي أعطاه ، ما آتاها : أي إلا بقدر ما أعطاها من الأرزاق قلّ أو جلّ .

(24/768)

وكأين من قرية : أي كثير من أهل القرى ، عتت : أي تجبرت وتكبرت ، نكرا : أي منكرا عظيما ، وبال أمرها : أي عاقبة عتوّها ، خسرا : أي خسارة فى الآخرة ، ذكرا : أي قرآنا

، رسولا : أي وأرسل رسولا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 28 صـ 133 . 148 ﴾ . باختصار .

(25/768)

وقال الفراء :

سورة (الطلاق)

﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾

قوله عز وجل: ﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ . . . ﴾ .

فينبغى للرجل إذا أراد أن يطلق امرأته للعدة أمهلها حتى تحيض حيضة ، ثم يطلقها ، فإذا حاضت حيضة بعد الطلاق طلقها أخرى ، فإن حاضت بعد التطليقتين طلقها ثالثة ، فهذا طلاق العدة ، وقد بانت منه ، فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره .

وطلاق السنة: أن يطلقها طاهراً فى غير جماع، ثم يدعها حتى تحيض ثلاث حيضات، فإذا فعل ذلك بانت منه، ولم يَحل له نكاحها إلا بمهر جديد، ولا رجعة له عليها.

قوله: ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ... ﴾ الحيض.

وقوله: ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ... ﴾.

التى طُلِّقن فيها، ولا يَخرجن من قِبَل أنفسهن ﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ ﴾، فقال بعضهم: إلّا أن يأتين بفاحشةٍ [إلا أن تُحدِث حدًّا؛ فتُخْرَجَ ليقام عليها، وقال بعضهم: إلّا أن يأتين بفاحشة] إلّا أن يعصين فيخرُجن، فخروجها فاحشة بينة.

وقوله: ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ... ﴾.

(26/768)

يقول فى التطليقة الباقية بمعروف أو سرحوهن بمعروف. قال: والمعروف: الإحسان.

وقوله: ﴿ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا... ﴾.

هذا الرجعة فى التطليقتين.

وقوله: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ... ﴾.

إذا حاضت حيضة بعد التطليقتين إلى أن تحيض الثالثة، ولا تغتسل، فله رجعتها ما لم

تغتسل من الحيضة الثالثة.

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾

وقوله: ﴿ بَالِغُ أَمْرِهِ... ﴾.

القراء جيمعاً على التنوين. ولو قرئت: بالغ أمرِه [على الإضافة] لكان صوابا، ولو قرىء: بالغٌ أمرُه بالرفع لجاز.

﴿ وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾

وقوله: [/ب] ﴿ وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ... ﴾.

يقول: إن شككتم فلم تدروا ما عدتها، فذكروا: أن مُعاذ بن جبل سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال: قد عرفنا عدة التى تحيض، فما عدة الكبيرة التى قد يئست؟ فنزل ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ فقام رجل فقال: يا رسول الله! فما عدة الصغيرة التى لم تحض؟ فقال: واللائى لم يحضن بمنزلة الكبيرة التى قد يئست عدتها: ثلاثة أشهر. فقام آخر فقال: فالحوامل ما عدتهن؟ فنزل: ﴿ وَأُوْلاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ... ﴾؛ فإذا وضعت الحامل ذا بطنِها حلّت للأزواج، وإن كان زوجها الميت على السرير لم يدفن.

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلاَ تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلاَتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾

وقوله: ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ. . . ﴾ .

يقول: على قدر ما يجد أحدكم ؛ فإن كان موسّعاً وسّع عليها فى: المسكن ، والنفقة وإن كان مُقْتِراً فعلى قدر ذلك ، ثم قال: ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلاَتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ. . . ﴾ ينفق عليها من نصيب ما فى بطنها ، ثم قال: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أجر الرضاع.

وقوله: ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ. . . ﴾ .

يقول: لا تضارّ المرأةُ زوجها ، ولا يضرّ بها ، وقد أجمع القراء على رفع الواو من: "وُجْدكم" ، وعلى رفع القاف من "قُدِر" [وتخفيفها] ولو قرءوا: قدِّر كان صوابا . ولو قرءوا مِنْ "وَجْدِكم" كان صوابا ؛ لأنها لغة لبنى تميم .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ﴾

وقوله: ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً . . . ﴾ .

فى الآخرة ، ﴿ وعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا . . . ﴾ ، فى الدنيا ، وهو مقدّم ومؤخر ، ثم قال:

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ من عذاب الدنيا ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا . . . ﴾ النارَ

وعذابها .

(28/768)

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا

* رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ

إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾

وقوله: ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . . . ﴾ ﴿ رَّسُولًا . . . ﴾ .

نزلت فى الكتاب بنصب الرسول ، وهو وجه العربية ، ولو كانت رسولٌ بالرفع كان صوابا ؛

لأن الذكر رأس آية ، والإستئناف بعد الآيات حسن . ومثله قوله: "التائبون" وقبلها : ﴿ إِنَّ

اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، فلما قال: ﴿ وذلك هو الفوزُ العظيمُ ﴾ استؤنف بالرفع ،

ومثله: ﴿ وتركَهُمْ فى ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ ، صُمٌّ بُكْمٌ ﴾ ، ومثله: ﴿ ذُو الْعَرْشِ

الْمَجِيدُ ﴾ ثم قال: ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ ، وهو نكرة من صفة معرفة ، فاستؤنف بالرفع ،

لأنه بعد آية .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾

وقوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ . . . ﴾ .

خلق سبعاً ، ولو قرئت: "مثلُهن" إذ لم يظهر الفعل كان صوابا .

تقول في الكلام: رأيت لأخيك إبلا ، ولوالدك شاء كثير ، إذا لم يظهر الفعل .

قال يعنى الآخِر جاز: الرفع ، والنصب إذا كان مع الآخر صفة رافعة فقس عليه إن شاء الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 162 . 165 ﴾

(29/768)

وقال بيان الحق الغزنوي :

سورة الطلاق

(يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) [1] أي: قل لأمتك إذا طلقتم النساء ، لأن الطلاق نسخ [منه] حكم النبي بقوله (ولا أن تبدل بهن) . فطلقوهن لعدتهن) . أي: عند عدتهن ، كقوله: (لا يجليها لوقتها إلا هو) ، أي: عند وقتها . وتؤيده القراءة المروية عن النبي عليه

السلام وابن عباس وعثمان ،

وأبي ، و[جابر] بن عبد الله ، ومجاهد ، وعلي بن [الحسين] ، وزيد بن علي ، وجعفر بن محمد : "لقبل عدتهن" . (بفاحشة مبينة) بزنى فيخرجن لإقامة الحد .

وقيل: الفاحشة أن [تبذوا] على أحمائها وتفحش في القول . (فإذا بلغن أجلهن) [2] قارين انقضاء العدة . (وأشهدوا ذوى عدل) أي: على الرجعة . (إن ارتبتم فعدتهن) [4] لما نزلت عدة ذوات الأقراء في البقرة ارتابوا في غيرهن . (وإن تعاسرتم) [6] تضايقتم ، وهو إذا امتنعت المرأة من إرضاع الولد يستأجر /الزوج أخرى ولا يجبرها .

(قد أنزل الله إليكم ذكراً* رسولاً) [10 ، 11] أي: رسولاً ذكركم به وهداكم على لسانه . (ومن الأرض مثلهن) [12] أي: سبع طباق أو سبعة أقاليم ، وهي سبع قطع من الأرض بخطوط متوازية ، حاصرة لبلدان كثيرة ، [تمر] على بسيط الأرض فيما بين المشرق والمغرب طولاً ، وما بين [الشمال] والجنوب عرضاً ، ويزداد النهار الأطول الصيفي ، في الخط المجتاز بالطول –على وسط كل واحد منها– على مقداره في خط وسط الذي هو عنه أجنب بنصف ساعة . (يتنزل الأمر بينهن) أي: يترتب القضاء والقدر بينهن منازل من شتاء وصيف ، ونهار وليل ، ومطر ونبات ، ومحيا وممات ، وملك ودول ، ومحبوب ومحذور ، واختلاف وائتلاف ، كما في شعر الأعشى:

1282- شباب وشيب وافتقار وثروة فلله هذا الدهر كيف [ترددا]

[تمت سورة الطلاق]. انتهى انتهى. اهـ ﴿باهر البرهان صـ 1510. 1514﴾

(30/768)

وقال الأخفش:

سورة (الطلاق)

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾

قال ﴿قَدْراً﴾ وقال بعضهم ﴿قَدَراً﴾ وهما لغتان.

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلاَ تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلاَتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾

وقال ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ و"الوُجْد": المقدِرة ومن العرب من يكسر في هذا المعنى. فاما "الوَجْدُ" إذاَ [176 ب] فتحتَ الواو فهو "الحُبُّ". وهو في المعنى - والله أعلم - "أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُم مِمَّا تَقْدِرُون عليه".

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

وقال ﴿ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ فجعل ﴿ الأَرْض ﴾ جماعة كما تقول: "هَلَكَ الشاةُ والبَعِيرُ" وانت تعني جميعَ الشاءِ وجميعَ الإِبلِ*. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 544 ﴾

(31/768)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الطلاق

مدنية كلها

1 - يا أَيُّها النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ الخطاب للنبي صلّى الله عليه وسلم ، والمراد هو والمؤمنون.

وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ يريد : الحيض. ويقال : الأطهار.

لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ : التي طلّقن فيها ، ولا يَخْرُجْنَ من قبل انفسهن ، إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ : فتخرج ليقام عليها الحدّ.

لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً أي لعل الرجل يرغب فيها قبل انقضاء العدّة، فيتزوجها.

2 - فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ . . . أي منتهي العدّة - : فإمّا امسكتم عن الطلاق فكنّ أزواجا، او فارقتم فراقا جميلا لا إضرار فيه.

4 - إِنِ ارْتَبْتُمْ أي شككتم.

6 - مِنْ وُجْدِكُمْ أي بقدر سعتكم.

و «والوجد» : المقدرة والغني، يقال: افتقر فلان بعد وجد.

وَلا تُضآرُّوهُنَّ قد بيناه في سورة البقرة.

(32/768)

وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ أي همّوا به، واعزموا عليه.

ويقال: هو ان لا تضرّ المرأة بزوجها، ولا الزوج بالمرأة.

وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ أي تضايقتم.

7 - وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ أي ضيّق.

8 - وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أي كم من قرية.

عَذابًا نُكْرًا أي منكرا .

9 - وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْرًا أي هلكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 404.403 ﴾

(33/768)

وقال الغزنوى :

سورة الطلاق

1 فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ عند عدتهنّ ، أي : بحسابها وفي وقت أقرائها ، كقوله : لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها ، أي : عند وقتها ، ويؤيده القراءة المرويّة

(34/768)

عن النّبيّ «1» صلى اللّه عليه وسلم ، وابن عبّاس «2» ، وعثمان ، وأبيّ «3» ، وخالد «4» بن عبد اللّه ، ومجاهد ، وعلي «5» بن الحسن وزيد بن علي ، وجعفر بن محمد لقبل عدّتهنّ «6» .

بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ : بزنا فيخرجن لإقامة الحدّ «7» . وقيل «8» : الفاحشة أن تبذوا على أحمائها وتفحش في القول .

---

(1) صحيح مسلم : 2/ 1098 ، حديث رقم (1471) ، كتاب الطلاق ، باب «تحريم طلاق الحائض بغير رضاها» عن ابن عمر رضي اللّه عنهما مرفوعا .

وينظر المصنف لعبد الرزاق : 6/ 304 حديث رقم (10931) ، كتاب الطلاق ، باب «وجه الطلاق وهو طلاق العدة والسنّة» .

وسنن أبي داود : 2/ 637 حديث رقم (2185) كتاب الطلاق ، باب «في طلاق السنّة» .

وتفسير النسائي : 2/ 441 حديث رقم (621) .

والقراءة الواردة في المصادر السابقة «في قبل عدتهن» .

(2) المصنف للإمام عبد الرزاق : 6/ 303 ، حديث رقم (10928) .

(3) هو أبي بن كعب الأنصاري رضي اللّه تعالى عنه .

(4) كذا في النّسخ المعتمدة هنا ، وفي وضح البرهان للمؤلف : 385 (مخطوط) ، وتحرف عند المحقق في المطبوعة : 2/ 411 إلى : وأبيّ بن خلف وعبد اللّه خلف بن عبد اللّه . وفي المحتسب لابن جني : 2/ 323 : «جابر بن عبد اللّه» .

(5) في المحتسب : علي بن الحسين .

(6) ينظر هذه القراءة في المحتسب: 2/ 323، والكشاف: 4/ 118، وتفسير القرطبي:

18/ 153، والبحر المحيط: 8/ 281، ومعجم القراءات: 7/ 165.

قال أبو حيان «وما روى عن جماعة من الصحابة والتابعين - رضي اللّه تعالى عنهم - من أنهم قرءوا «فطلقوهن في قبل عدتهن»، وعن بعضهم «في قبل عدتهنّ». وعن عبد اللّه «لقبل طهرهن» هو على سبيل التفسير لا على أنه قرآن لخلافه سواد المصحف الذي أجمع عليه المسلمون شرقا وغربا ...».

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 28/ 133 عن الحسن، ومجاهد، ونقله الماوردي في تفسيره: 4/ 252 عن ابن عمر، والحسن، ومجاهد. [.....]

(8) أخرجه الطبري في تفسيره: (28/ 133، 134) عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 8/ 193، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن مردويه - من طرق - عن ابن عباس رضي اللّه عنهما.

2 فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ: قارين انقضاء العدة.

وَأَشْهِدُوا أي: على الرجعة.

4 إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ لمّا نزلت عدّة ذوات الأقراء في «البقرة» «1» ارتابوا في غيرهن.

6 وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ: تضايقتم «2»، وهو إذا امتنعت من الإرضاع يستأجر الزّوج أخرى.

10، 11 قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً، رَسُولًا أي: رسولا ذكركم به وهداكم/ [99/ ب] على لسانه.

12 وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ أي: [سبعة] «3» أقاليم، وهي قطع من الأرض بخطوط متوازية لبلدان كثيرة تمرّ على بسيط الأرض طولا وعرضا، ويزداد النّهار الأطول الصيفيّ في الخط المجتاز بالطول على وسط كل واحد منها على مقداره في خط وسط الذي هو عنه أجنب بنصف ساعة «4».

يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ: تنزلت «5» القضاء والقدر بينهن منازل من شتاء وصيف ونهار وليل، ومطر ونبات، ومحيا وممات، ومحبوب ومحذور، واختلاف وائتلاف. انتهى انتهى. اهـ

﴿معانى القرآن/ للغزنوى حـ 2 صـ 819. 821﴾

---

(1) في قوله تعالى: وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ... [آية: 228].

(2) هذا قول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 471، ونقله الماوردي في تفسيره: 4/ 256 عن ابن قتيبة، وانظر تفسير القرطبي: 18/ 169.

(3) في الأصل: «مسبعة»، والمثبت في النص عن «ك» و«ح».

(4) ينظر تفسير الفخر الرازي: 30/ 40.

(5) في «ح»: يترتب.

(36/768)

وقال ملا حويش:

تفسير سورة الطّلاق

عدد 13 - 99 - 65

نزلت بالمدينة بعد الإنسان، وهي اثنتا عشرة آية ومئتان وتسع وأربعون كلمة والف وستون حرفا، ومثلها في عدد الآي وسورة التحريم فقط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "يا أَيُّهَا النَّبِيُّ" المختار لرسالتنا الأمين على وصيتنا المأمور بتبليغ أوامرنا ونواهينا، قل لأمتك "إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ" أي بعد تمام الحيض أول الطّهر لئلا تطول

عليهن العدة المانعة من زواجهن بغيركم ، روى البخاري ومسلم عن ابن عمر أنه طلق زوجته وهي حائض فذكر ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فتغيظ منه رسول اللّه ، ثم قال مره فليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسها فتلك العدة التي أمر اللّه أن تطلق لها النّساء ، ففعل كما أمر .

(37/768)

واعلموا أيها النّاس أن هذا هو الطّلاق المأمور به من يريده وهو عند اللّه ورسوله وعلى غير هذه الصّورة يكون بدعيا مخالفا للسنة مؤاخذا عليه عند اللّه لما فيه من قصد الإضرار بالزوجة ، قال بعض العلماء لعل هذه الآية هي النّاسخة للمتعة الواردة في الآية 24 من سورة النّساء المارة لأنها متأخرة عنها ولأنها تنص على لزوم إيقاع الطّلاق للعدة أي لزمانها والمتعة لا عدة فيها ، راجع الآية المذكورة في سورة النّساء فيما يتعلق في هذا البحث وقد ذكرنا فيها أنها إنما ثبتت بالسنة ونسخت بها لأن السّنة تنسخ بمثلها ولا تنسخ القرآن ، فالقول الصّحيح أنها لم تنسخ بالقرآن ، وإنما نهى عنها رسول اللّه كما أنها ثبتت بإجازته ، وامتثال أمره ونهيه واجب على الأمة لأنه لا ينطق عن هوى ، وقال تعالى (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) الآية 58 من سورة النّساء المارة وقال (ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما

نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) الآية من سورة الحشر الآتية لذلك فإنها محرمة على القطع بتحريم رسول اللّه كما وتحريمه تحريم الله القائل "وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ" ليعلم أنه إذا أراد زواجها المطلق ضمنها كان له ذلك إذا كان الطّلاق رجعيا وتتزوج بعدها إذا انقضت عدتها له أو لغيره وليتزوج هو بعدها أيضا إذا كان له ثلاث زوجات غيرها إذ لا يجوز لها الزواج قبل نفاد العدة كما لا يجوز له، وهنا إذا قيل لك أيها العاقل هل يعتد الزوج أم لا فقل يعتد في هذه الحالة ولحفظ النّفقة فيها "وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ" أيها المطلقون "لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ" حتى انقضاء عدتهن ولا تطلقوهن إلا بزمانها "وَلا يَخْرُجْنَ" من تلقاء أنفسهن إلّا لحاجة ماسة وليبقين في بيوتهن لا يخرجن منها "إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ

(38/768)

بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ" فلكم حينئذ أن تخرجوهن منها كما لورثتكم ذلك على الوجه المبين في الآيتين 235 و240 من سورة البقرة المارة "وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ" نبينها لكم في الطّلاق هنا وفي الآيات 226 و244 من سورة البقرة وفي الآيات 19 و20 و34 و138 من سورة النّساء المارة، وقد حدّ لكم حدودا في ذلك فإياكم ومجاوزتها "وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ" فيخالف ما أمره ويقدم على ما نهاه "فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ" وأوردها مورد الهلاك

واعلم أن اللّه تعالى إنما نهاك عن الطّلاق البت مع أنه جازه لك لأنك أيها المطلق "لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً" لم يكن بالحسبان بأن يوقع في قلبك حبها كما أوقع فيه كراهيتها فتندم ولات حين مندم إذا كان الطّلاق بنا كما مرّ في الآية 19 من سورة النّساء ، وكذلك على المرأة أن لا تطلب الطّلاق البت بسبب كراهتها لزوجها لاحتمال تبدل الحال معها أيضا كذلك يستحب للرجل أن لا يوقع على زوجته أكثر من طلقتين رجعيتين يبقى له مجالا للرجوع ، وعليها أن لا تطلقه بأكثر من ذلك ليبقى لها الطّريق مفتوحا فيتراجعا متى أرادا ضمن العدة ، فإذا أعلقاه بأيديهما وقد أوقع اللّه في قلوبهما محبة العودة يعظم ندمهما ، وقد يبغيان جهلا طريق التحليل وهو خبيث أثيم منهي عنه ، فالمحلل ليس بهذه النّية زوجا .

وقد جاء في الخبر عن سيد البشر لعن اللّه المحلل والمحلل له .

فما بالكم أيها النّاس يريد اللّه لكم الأصلح وتريدون الأصعب يريد اللّه لكم اليسر وتريدون العسر يريد اللّه أن يخفف عنكم وتريدون التثقيل ، راجع الآيتين 185 في البقرة و27 في النّساء المارتين ، وإذا تشاددتم وأبيتم إلّا الطّلاق البات فليكن بطلقة واحدة بائنة ففيها يحصل المقصود لأن الزوجة تملك عصمتها ولا يحق للزوج الرّجوع عليها إلا برضاها ، حتى إذا بدل اللّه ما في القلوب وتزجها بعقد ومهر جديدين .

مطلب كراهة الطّلاق والنّهي عن البت فيه والعدة على الزوج أو الزوجة .

التوكل على اللّه المانع من الانتحار :

أخرج أبو داود عن محارب بن درثّا أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال ما أحل اللّه شيئًا أبغض إليه من الطّلاق وله .

عن ابن عمر أبغض الحلال إلى اللّه الطّلاق وله .

وللترمذي عن ثوبان إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال أيما امرأة سألت زوجها الطّلاق من غير ما بأس حرام عليها رائحة الجنّة ، فأحذروا أيها المؤمنون من أن توقعوا أنفسكم فيما لا خلاص لكم منه ، وقد جعل اللّه لكم سبيلا ومخرجا لما به صلاحكم ، فاللّه اللّه في أنفسكم قال تعالى "فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ" وكان ما وقع من الطّلاق منكم ليس بتا وعنّ لكم الرّجوع إلى أزواجكم "فَأَمْسِكُوهُنَّ" بالمراجعة في العدة أو تجديد العدة بعدها أو فيها إذا كان الطّلاق بتا وكان دون الثلاث "بِمَعْرُوفٍ"

وإحسان لا لقضاء الشّهوة فقط فيكون مكروها ، وإذا كان للإضرار فحرام "أَوْ فَارِقُوهُنَّ" اتركوهن يتزوجن غيركم إذا لم ترغبوا بالرجوع إليهن "بِمَعْرُوفٍ" أيضا قال تعالى (وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ) الآية 28 من سورة البقرة المارة وتزوجوا غيرهن "وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ" على الطلاق وعلى تجديد النّكاح لئلا يقع تجاهد بينكم في ذلك ، وفي النّفقة والزواج بالغير اشهدوا أيضا لئلا يدع أحد ميراث لآخر على فرض موت أحدهما "وَأَقِيمُوا" أيها الشّهود "الشَّهادَةَ لِلَّهِ" بأن تؤدوها على صحتها راجع الآية 283 من سورة البقرة لتقف على ما يتعلق بالشهادة والآية 221 منها فيما يتعلق بالزواج والطّلاق "ذلِكُمْ" الذي بيناه لكم مما "يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ" في ذلك كله ، وجميع أوامر اللّه ونواهيه فيما يتعلق بينه وبين النّاس وبين ربه فمن يفعل ذلك "يَجْعَلْ لَهُ" مولاه ومالك أمره "مَخْرَجاً" من كل ما يحذر منه ويتعسر عليه وكلّ ضيق "وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ" ولا يعن على فكره ولا يخطر على باله ولا يرجوه "إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ" ومنفذه وممضيه ومبرمه لا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب ، وعلى العبد أن يسلم لأمر اللّه ويسعى ولا يستبطئ ما طلبه ، لأنه لا يقع فيهما إلّا بالوقت الذي قدره "قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً" أجلا وزمنا لا ينخرمان فيقع فيهما حتما دون أن يتوقف على شيء أو يعوقه شيء إذا حان أجله المقدر عنده .

هذا ومن أجال النظر في هذه الآية وعرف مغزى (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً) وما شاكلها من الآيات والأحاديث المؤيدة لها هانت عليه الدّنيا ، وفرج كربه ، ونفس همه ، وانشرح صدره ، وتوسع فيضه ، ولو أنعم فكره إلى مرمى هذه الآيات الواردة في الذكر الحكيم من حدثته نفسه بالانتحار لما انتحر لأنه يعلم أن الله تعالى لا بد أن يبسط عليه من فضله ويمنّ عليه من جوده فيفرج همه ويزيل كربه ويكشف ضيقه ، ولكن أين المتذكرون ، أين المتوكلون يقول الله تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) وأنتم تعرضون عنه فمن أين يستجاب لكم ؟ ويقول الرّسول لو توكلتم على الله حق

التوكل لرزقكم كما يرزق الطّير .

وأنتم لا تلتفتون بل تشكون وتجحدون ولا تصدقون ، فمن أين يأتيكم الخير وكيف يدفع الله عنكم الضّر ؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله .

روي أن عوف بن مالك أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فقال له إن العدو أسر ابني مالكا وشكا إليه فاقته ، فقال اتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلّا بالله ، ففعل فلم يحس إلّا وابنه وإبلا جاء بها ممن أسروه ، فجاء به إلى الرسول فأخبره وقال أيحل أكل ما أتى به ؟ فقال نعم أفتاه بحله لأنه من العدو في الدّين وكلّ ما كان فيه نقص أموالهم ورجالهم جاز فعله بأي صورة كانت ، لأن الحربي لا ذمة له ولا عهد ولا أمانة له فيجوز أخذ ما لهم

سرقة وقمار أو خلسة وبأي صورة كانت قال ابن عباس غفل عنه العدو فاستاق أنعامهم ، وأنا أقول بسبب توكل أبيه وتفويض أمره لربه وأخذه بقول رسوله وأمره له بالصبر والحوقلة كان له ذلك وأعمى عنه أعداءه .

هذا وقد عدّ بعض المفسرين هذه القصة من أسباب نزول هذه الآية ، ولا مانع وهي باقية على عمومها .

ثم لما بين اللّه تعالى أحكام ذوات الحيض من النّساء المدخول بهن

ذكر ما يتعلق بغيرهن فقال عز قوله "وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ" في أحكامهن وشككتم في عدتهن "فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ" فقط "وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ" لصغرهن أو لعدم طرء الحيض عليهن بعد فكذلك عدتهن ثلاثة أشهر "وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ" سواء في ذلك عدة الطّلاق أو الوفاة لاطلاق النّص ولو كان يوما واحدا .

روى البخاري الوداع ومسلم عن سبيعة الأسلمية أنها كانت تحت سعد بن خوله فتوفى عنها في حجة الوداع وهي حامل ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو السّنابل ابن بعلها ، فقال لها مالي أراك تجملت

للخطاب ترجين النّكاح وأنت بعد في العدة ، واللّه ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشرة أيّام ، قالت سبيعة فلما قال ذلك جمعت على ثيابي حتى أمسيت أتيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فسألته عن ذلك ، فأفتاني بأن قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالتزويج إن بدا لي .

وهذا لا يعني أن الآية نزلت وقت السّؤال لأنه واقع في حجة الوداع بل بعد نزولها بأقل من سنتين ، ولكن السّؤال والحادثة وقعت في ذلك ، والفتيا تابعة لها .

(43/768)

وهذه الآية ليست بناسخة للآية 234 من سورة البقرة بل مخصصة لها ، فتلك باق حكمها في غير ذوات الحمل ، وهذه مقتصرة على الحوامل فقط ، فلو وضعت حملها بعد الطّلاق أو الوفاة بيوم واحد فقد حلت للأزواج ، لأن دم النفاس لا يمنع الزواج ، وكذلك الحيض ، ولا تكون ناسخة أيضا للآية 229 من البقرة أيضا ، والآيات الأخر المتقدمة فيها ، لأن حكمها باق في غير الحوامل من ذوات الحيض ، وهذه مخصصة بالحوامل ، لأن النّسخ هو رفع الحكم بالمرة ، وهذا غير موجود هنا ، وكذلك الآية 49 من سورة الأحزاب فإنها غير ناسخة لآية البقرة ولا هذه ناسخة لها ، ولا يوجد في القرآن نسخ بمعنى ابطال الحكم

بالكلية كما قاله بعض المفسرين ، وإن بقاء الآية المنسوخ حكمها للتلاوة فقط ، بل النّسخ يكون بالمعنى الذي ذكرناه من التخصيص والتقييد والتدريج بالأحكام والتخفيف فيها ولهذا فإنك دائما ترى في القرآن العظيم إذا تتبعته بحسب نزوله العام والمطلق سابقين على الخاص والمقيد ، أما النّسخ بمعنى إبطال الحكم بالكلية من أنه مناقض له بحيث لا يمكن التأليف بينهما فغير موجود بالقرآن حتما ، وكذلك ما قيل إن بعض الآيات قد نسخ حكمها وتلاوتها مع بقائها في القرآن لا صحة له البتة ، راجع ما بيناه في المقدمة في بحث النّسخ والآية 107 من البقرة تجد ما يقنعك .

قال تعالى "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً" (4) بأن يسهل عليه أمر الدّنيا والآخرة "ذلِكَ" الحكم المنوه به هو "أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ" أيها النّاس لتعملوا به ، فخذوه واحذروا أن تخالفوه "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ" ويعمل بما أمره به "يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً" (5) كثيرا إذ يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة إلى ما لا نهاية .

ثم بين جل بيانه كيفية التقوى بأمر النساء فقال عز قوله "أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ" بحسب ما تجدونه من السّعة والطّاقة ، لأن اللّه لم يكلفكم فوق قدرتكم "وَلا

تُضارّوهُنّ" فتؤذوهن ولو بالكلام "لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ" كي يخرجن من بيوتهن كرها ، بل عاملوهن بالحسنى مدة عدتهن ، وتذكروا وصية اللّه فيهن ،

واجعلوا نصب أعينكم ما جاء في الآية الأولى المارة والآية 18 من سورة النّساء ، بأن تبغوا طريقا للألفة كي يتيسر لكم الرّجوع إذا عنّ لكم "وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ" غير مقدر بقدر لأنه بالوضع تنتهي العدة وترفع عنكم كلفة نفقتها أما ذوات الحيض والآيات واللائي لم يحضن فلكل منهن قدر معلوم بينه اللّه لكم وألزمكم النفقة بقدره ، أما ذوات الأحمال فإنه قد يتأخر الحمل إلى سنتين في مذهب أبي حنيفة ، وإلى أربع في مذهب الشّافعي لذلك أوجب اللّه النّفقة على المطلق إلى حين الوضع ، وإنهما رضي اللّه عنهما لم يقولا بذلك إلّا لما ثبت لديهما بالاستقراء ، ولا قيمة لقول بعض الأطباء بأن الحمل لا يتأخر عن تسعة أشهر بعد أن ثبت حسا بأقوال الثقات .

ومبنى قول الأطباء على العادة والعادة قد تنخرم أحيانا لأنها تكون أغلبية واللّه خرق العوائد .

هذا وإن هؤلاء المطلقات إذا وضعن حملهن عندكم "فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ" أولادكم باختيارهن إذ لا يجبرن على الإرضاع إلّا بالصورة المبينة في الآية 238 من سورة البقرة "فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ" عليه

لأنهن غير مكلفات إرضاع أولادكم ، وفي حالة التكليف لهن الاجرة المتعارفة عليكم "وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ" لايق بالمروءة ، فعلى الأب أن لا يماكس بقلة الأجرة ويماطل بدفعها ، وعلى الولي عند فقده أن يقوم مقامه ، وعلى المرأة أن لا تعاسر بطلب أكثر من أجر المثل أو تمنع عن الإرضاع في حالة عدم قبول الولد ثدى غيرها حفظا لحق الولد "وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ" بأن أصر كلّ منكم على ما يريده ولم يتساهل أحد منكم فلم تتفقوا على قدر معلوم وكان الولد يقبل ثدى المرضعات "فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى " (6) رفعا للنزاع والتشاحن ، وإلّا فإن لم يقبل غير ثدي أمه فتجبر على إرضاعه بأجر المثل رضيت أم لم ترض كما بيناه في الآية الآنفة الذكر من سورة البقرة ، لأن اللّه تعالى يقول "لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ" على قدر حاله ونسبة أمثاله "وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ" وضيق كسبه ولم يكن له مال "فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ" بقدر ما يتمكن عليه لا على ما تطلبه المرضعة إذ "لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها" الغني بحسب غناه ، والمتوسط بمقتضى حاله ، والفقير على ما تيسر له .

فإذا فعلتم هذا أيها النّاس ولم تتجاوزوا الحالة التي أنتم عليها فاعلموا أنه "سَيَجْعَلُ اللَّهُ" لكم "بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً" (7) وهذا وعد من اللّه للفقير بالسعة إذا لم يتعد قدره فيه ، وللمكروب بالفرج ، إذا لم ييأس ، أما إذا بذخ المتوسط واستدان وأفرط ، وكذلك الفقير إذا فرط وتجاوز حده في النّفقة ، فمصيرهما الهلاك لمخالفتهما قوله تعالى "لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا

وُسْعَهَا " الآية الأخيرة من البقرة ، فراجعها تقف على ما تريد في البحث .

مطلب الحكم الشّرعي في الإشهاد على أن الطّلاق والرّجعة بعد بيان أحوال المطلقات والآية الوحيدة الدّالة على أن الأرضين سبع كالسماوات :

(46/768)

أما الحكم الشّرعي بالإشهاد على الطّلاق والرّجعة فظاهر القرآن أنه واجب فيهما وقد اختلفت أقوال العلماء في ذلك ، منهم من قال بوجوبه ، ومنهم من قال بندبه أخرج أبو داود عن عمران بن حصين أن سئل عن رجل طلق امرأته ثم يقع عليها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها ، فقال طلقة بغير سنة ورجعة بغير سنة ، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد أي أن ذلك جائز وموف بالمقصود إلّا أنه مخالف للسنة .

وقد اختلفت آراء العلماء في مثل هذا ، فذهب أبو حنيفة لندب الإشهاد فيهما لقوله تعالى (وَأَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ) فهو على النّدب أيضا ، وقال الشافعي مندوب في الطّلاق واجب في الرّجعة .

وفي هذا الزمان أرى أن يكون واجبا فيهما لما يرى من التجاحد الذي لازالت تقام فيه الدّعاوى .

قال تعالى "وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ" راجع بحث كلمة كأين في الآية 146 من آل عمران المارة "عَتَتْ" طغت وبغت فتجاوزت وأعرضت فجنحت "عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً" على عتوّها "وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً" (8) فظيعا لا قبل لها به "فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها" الذي فعلته في الدّنيا من الطّغيان "وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً" (9) في الآخرة كما كان في الدّنيا ، وأهل هذه القرية المعتاة وأمثالهم "أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً" فنالوا أهونه في الدّنيا وسينالون أشده في الآخرة.

واعلموا أيها النّاس أن من يعمل عمل أهل تلك القرية منكم ولم يتب ويقلع عنه فإنه سيناله ذلك العذاب أيضا "فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ"

أن تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم.

(47/768)

وفي هذه الآية من التهديد مالا يخص لمن لم يرجع عن غيه ، والمراد تخويف أهل مكة خاصة وغيرهم عامة بأنهم إذا لم يؤمنوا وينقادوا لأوامر نبيهم بوقع بهم ما أوقعه بأهالي القرى السّالفة التي أصرت على كفرها من عذاب الاستئصال ، كقوم عاد وثمود ولوط وشبههم ، فاحذروا عباد اللّه من الإصرار على الكفر والبغي والتعدي على النّاس ، ولا توقعوا

أنفسكم فيما يدمركم "الَّذِينَ آمَنُوا" اسم الموصول هنا منصوب على الاختصاص ، أو بتقدير أعني أولى الألباب الّذين آمنوا "قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا" 10 قرآنا وأرسل إليكم "رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ" لما أحله لكم وحرمه عليكم "لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا" باللّه ورسوله وكتابه "وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ" من ظلمة الجهل وظلمة الشّرك وظلمة النّفاق إلى نور الإيمان والعلم والتوحيد والصّدق والإخلاص ، فيهديهم للاسلام والإيمان وأعمال البر "وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ" الموصوف بهذه الصفات "رِزْقًا" (11) فيما أعطاه وفي هذه الآية معنى التعجب والتعظيم لما يرزق المؤمن من الثواب الجسيم "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ" في العدد ، وهذه أوضح آية في القرآن تبين أن الأرضين سبع كالسموات على أنه لا يبعد أن يراد بها الأقاليم السّبعة التي أشرنا إليها في الآية 4 من سورة الرعد المارة ، لأن اللّه تعالى قال في الآية 15 من سورة نوح المارة في ج 2 سبع سموات طباقا ، والمثلية تقتضي أن تكون مثل المثل به بأن تكون الأرض سبعا طباقا أيضا ، وكلّ ما لم يكشف لنا العلم عنه فاللّه أعلم به .

قال الإمام الغزالي في كتابه المضنون به على غير أهله الأولى كرة النّار ، والثانية كرة الهواء ، والثالثة كرة الطّين المجفف الذي هو فوق الماء ، والرّابعة الماء ، والخامسة الأرض البسيطة ، والسّادسة الممتزجات من هذه الأشياء ، والسّابعة الآثار المعلومة كما أن السّيد عبد الكريم الجبلي ذكر في كتاب الإنسان الكامل مثل هذا .

واللّه أعلم .

وهو القائل "يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ" أي وحي اللّه لرسله واجراء مقدراته وأحكامه على خلقه يكون بين السّموات والأرضين "لِتَعْلَمُوا" أيها الناس كلكم "أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" لا يعجزه شيء وبعد أن رأيتم أيها الناس خلقة السّموات والأرض وما فيها وعليها وتحتهما وفوقهما ، واعتقدتم ذلك فلا يليق بكم أن تشكوا بإعادة الخلق كما بدأه بعد إبادته ، ولا ترتابوا بأنه يعلم الجزئيات من أعمالكم كما يعلم كلياتها ، وكيف يتطرق لكم ذلك الشّك "وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً" (12) فلا شيء فيهما إلّا وهو عالم به ، قليله وكثيره خفية وجليه .

هذا واللّه أعلم ، ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به هذه السورة وقد بدئت سورة التحريم والأحزاب بما بدئت به فقط .

واستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلّا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين وسلم تسليما كثيرا والحمد للّه رب العالمين . انتهى . ا هـ ﴿بيان المعاني حـ 6 صـ 84.75﴾

(49/768)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الطلاق

مكية

لعدتهن حسن وقال أبو عمرو كاف زالا حسن الوقف على وأحصوا العدة ربكم حسن والأحسن الوقف على بفاحشة مبينة وتلك حدود الله تام وكذا فقد ظلم نفسه وأمر اذوي عدل منكم كاف وكذا الله واليوم الآخر تام يحتسب حسن وكذا فهو حسبه أمره كاف قدرا تام وكذا واللائي لم يحضن أي كذلك ولا يبعد جواز الوقف على فعدتهن ثلاثة أشهر أن يضعن حملهن كاف وكذا يسرا أنزله إليكم تام أجرا حسن لتضيقوا عليهن كاف وكذا حملهن أجورهن صالح بمعروف كاف له أخرى تام من سعته حسن وكذا مما آتاه الله

إلا ما آتاها تام وكذا يسرا ونكرا وبال أمرها صالح خسرا حسن شديد كاف الذين آمنوا تام وقال أبو عمرو كاف وقيل تام ذكرا إن نصب رسولا بالأغراء أي عليكم رسولا أو بنحو أرسل رسولا وان نصب بذكر أو على انه بدل منه بجعله بمعنى الرسالة أو انه مفعول معه لا نزل ذلك وقفا إلى النور تام وكذا رزقا مثلهن كاف آخر السورة تام. انتهى. اهـ ﴿المقصد صـ ﴾

(50/768)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني:

سورة الطَّلاق

مدنية إحدى عشرة آية كلمها مائتان وتسع وأربعون كلمة وحروفها ألف ومائة وستون حرفاً

لعدتهن (حسن)

وأحصوا العدة (أحسن) مما قبله

ربكم (حسن)

من بيوتهن (حسن) إن كانت الفاحشة أن تعمل المرأة ما يوجب عليها الحدَّ فتخرج له حتى

يقام عليها الحد وإن كان الخروج هو الفاحشة فلا يجوز الوقف

مبيَّنة (أحسن) منه

حدود الله الأول (تام) للابتداء بالشرط ولا يوقف على حدود الله الثاني لأنَّ جواب

الشرط لم يأت بعد

ظلم نفسه (حسن)

أمراً (كاف) ومثله بمعروف الثاني

منكم (كاف) ومثله لله وكذا واليوم الآخر

لا يحتسب (حسن)

فهو حسبه (كاف) ومثله أمره

لكل شيء (تام) ومثله لم يحضن أي فعدَّة الجميع ثلاثة أشهر فحكم الثاني كحكم الأول

فالواو شركت في المعنى بينهما ولولا هي لما دل نظم الكلام على اشتراكهما في المعنى والمراد

بالارتياب جهل عدتهن أي إن جهلتم عدتهن فهي ثلاثة أشهر وليس المراد بالارتياب الشك

في كونهن حاملات أم لا وقيل إن ارتبتم أي تيقنتم فهو من الأضداد

حملهن (تام) ومثله يسرا وكذا أنزله إليكم للابتداء بالشرط

أجراً (كاف)

من وجدكم (جائز) على استئناف النهي وهو الطاقة والغنى

عليهن (حسن) ومثله حملهن

أجورهن (جائز)

بمعروف (حسن)

له أخرى (تام) على استئناف الأمر واللام لام الأمر

من سعته (تام) للابتداء بالشرط

مما أتاه الله (حسن) ومثله ما آتاها

يسراً (كاف)

نكراً (حسن) ومثله وبال أمرها

خسراً (كاف) على استئناف ما بعده والوبال في كلام العرب الثقل وفي الحديث أيُّما مال

زكي رفع الله وبلته ومنه قول الشاعر

محمد تفد نفسك كل نفس إذا ما خفت من أمر وبالا

شديداً (كاف) على استئناف ما بعده

الألباب (حسن) قاله بعضهم وقال نافع الوقف على الذين آمنوا وهو أليق لأنَّه يجعل الذين آمنوا متصلاً بأولي الألباب ثم يبتدئ قد أنزل الله إليكم ذكراً وهو تام إن نصب رسولاً بالإغراء أي عليكم رسولاً أي اتبعوا رسولاً وكذا إن نصب بنحو أرسل رسولاً أو بعث رسولاً لأنَّ الرسول لم يكن منزّلاً وليس بوقف إن نصب رسولاً بذكر أي أنزل عليكم أن تذكروا رسولاً أو على أنَّه بدل منه أو صفة ومعناه ذا رسول فحذف ذا وأقيم رسولاً مقامه نحو واسأل القرية فعلى هذه التقديرات لا يوقف على ذكراً ولا على مبينات لأنَّه لا يبتدأ بلام العلة

إلى النور (تام) ولا يوقف على الأنهار لأنَّ خالدين حال من جنات ولا يوقف على خالدين وأبداً (حسن)

له رزقاً (تام)

مثلهن (كاف) إن علق لتعلموا بقوله يتنزل أو بمحذوف وليس بوقف إن علق بخلق ولا يوقف على بينهن ولا على قدير

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى ص ﴾

(52/768)

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة ابن جنى :

سورة الطلاق :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "فطلقوهن في قبل عدتهن" - النبي "صلى الله عليه وسلم" وعثمان وابن عباس وأبي بن عب وجابر بن عبد الله ومجاهد وعلي بن الحسين وجعفر بن محمد ، رضي الله عنهم .

قال أبو الفتح : هذه القراءة تصديق لمعنى قراءة الجماعة : ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ ، أي : عند عدتهن . ومثله قول الله تعالى : ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ ، أي : عند وقتها .

ومن ذلك قراءة داود بن أبي هند : "إِنَّ اللَّهَ بَالِغٌ" - منونة - "أَمْرُه" ، بالرفع .

قال أبو الفتح : معناه أن أمره بالغ ما يريده الله به ، فقد بلغ أمر الله ما أرداه ، والمفعول كما ترى محذوف . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 323﴾

(53/768)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الطلاق

مدنية وآيها إحدى عشرة بصري وثنتا عشرة حجازي وكوفي ودمشقي وثلاث عشرة حمصي خلافها أربعة واليوم الآخر دمشقي مخرجا كوفي وحمصي ومدني أخير يأولي الألباب مدني أول قدير حمصي مشبه الفاصلة خمسة ثلاثة أشهر حسابا شديدا إلى النور شيء قدير عكسه موضع له أخرى القراآت قرأ نافع النبيء إذا بهمز النبيء وبتسهيل الثانية كالياء وبإبدالها واوا ويوقف حمزة على إذا بالتحقيق والتسهيل كالياء لأنه متوسط بغيره المنفصل

وقرأ (بيوتهن) الآية 4 بضم الموحدة ورش وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب

وقرأ (مبينة) الآية 1 بكسر الياء نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وخلف وابو جعفر ويعقوب ومر بالنساء وأدغم دال ( ) فقد ظلم ( ) ورش وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف

واختلف في ( ) بالغ أمره (الآية 3 فحفص (بالغ) بغير تنوين (أمره) بالجر مضاف إليه على التخفيف مثل ( ) متم نوره (والباقون بالتنوين والنصب على الأصل في إعمال اسم الفاعل وأدغم دال قد جعل أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف

وقرأ (اللائي) الآية 4 في الموضعين بحذف الياء مع تحقيق الهمزة قالون وقنبل ويعقوب وقرأ ورش وأبو عمرو والبزي بخلفهما وأبو جعفر بتسهيل الهمزة كالياء مع حذف الياء والثاني لأبي عمرو والبزي إبدال الهمزة ياء ساكنة مع إشباع المد والباقون بالمد والهمز المحقق

وبعده ياء ساكنة ومر إيضاحه وتقدم عن النشر في الإدغام الكبير أن أبا عمرو في وجه الإبدال ومن معه وهو البزي واليزيدي إذا وصلوها بيئسن جاز لهم الإظهار والإدغام وأن كلاهما صحيح ولا يخفى أنه من قبيل الإدغام الصغير وإنما ذكر في الكبير لحكمة ذكرت ثمة

واختلف في) من وجدكم (الآية 6 فروح بكسر الواو والباقون بضم الواو لغتان

(54/768)

بمعنى الوسع وأمال أتاه الله ما آتاها حمزة والكسائي وخلف وقللهما الأزرق بخلفه وله فيهما طرق خمسة تقدمت

وقرأ ( ) بعد عسر يسرا (الآية 7 بضم السين فيهما أبو جعفر

وقرأ (وكأين) الآية 8 بالمد ابن كثير وكذا أبو جعفر لكن مع تسهيل همزه مع المد والقصر ومر حكم الوقف عليه بآل عمران كالأصول

وقرأ (نكرا) الآية 8 بإسكان كافها ابن كثير وأبو عمرو وهشام وحفص وحمزة والكسائي وخلف

وقرأ (مبينات) الآية 11 بفتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة وأبو جعفر ويعقوب

وقرأ ﴿ (ندخله ﴾ الآية 11 بنون العظمة نافع وابن عامر وأبو جعفر ومر بالنساء

المرسوم كتبوا إلى (ييئسن) بحذف الألف اتفاقا بصورة الجارة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(55/768)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الطلاق "

" يا أيها النبي إذا " تقدم مثله في سورة الممتحنة .

" طلقتم " بيوتهن ظلم ، ويرزقه ، فهو عليهن ، وأتمروا ، قدر ذكرا ، وكأين ، كله جلي .

" مبينة " فتح الياء ابن كثير وشعبة وكسرها غيرهما .

" بالغ أمره " قرأ حفص بحذف تنوين بالغ وخفض راء أمره وغيره بالتنوين ونصب راء أمره .

" واللائي معا " تقدم الكلام عليه مبسوطا في سورة الأحزاب .

" من أمره يسرا ، بعد عسر يسرا " ضم السين في الجميع أبو جعفر وأسكنها غيره كذلك .

" وجدكم " قرأ روح بكسر الواو وغيره بضمها .

" نكرا " قرأ المكي والبصري وهشام وحفص والأخوان وخلف بإسكان الكاف وغيرهم

بضمها .

" مبينات " فتح الياء المدنيان والمكي والبصريان وشعبة وكسرها غيرهم .

" يدخله " قرأ المدنيان والشامي بالنون وغيرهم بالياء التحتية .

" علما " آخر الربع وآخر السورة .

الممال

" أخرى " بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش . آتاه وآتاها بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " " فقد ظلم نفسه " للبصري وورش والشامي والأخوين وخلف . وقد جعل الله للبصري وهشام والأخوين وخلف ، وأما اللائى يئسن ، فالمأخوذ به من طرق الحرز للبزي والبصري حال إبدال الهمز ياء هو الإظهار فقط ، وأما الإدغام لهما فهو من طرق النشر

" الكبير " " حيث سكنتم ، أمر ربها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 329 ﴾

(56/768)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الطلاق

قولهه تعالى ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ يقرأ بكسر الياء وفتحها وقد ذكر في النساء

قوله تعالى ﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ يقرأ بالتنوين والنصب وبحذفه والإضافة وقد ذكر

قوله تعالى ﴿ وعذبناها عذابا نكرا ﴾ يقرأ بضم الكاف وإسكانها على ما قدمناه من القول في سورة القمر والإختيار ها هنا الإسكان وهناك التحريك ليوفق بذلك ما قبله من رؤوس الاي

قوله تعالى ﴿ وكأين من قرية ﴾ يقرأ بالهمز والتشديد للياء بعد الهمز وبألف ممدودة قبل الهمزة ونون ساكنة بعدها ومعناها معنى كم وقد ذكرنا الحجة فيها فيما مضى

قوله تعالى ﴿ يدخله جنات ﴾ يقرأ بالياء والنون وقد تقدم القول في أمثاله بما يدل عليه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 347 . 348 ﴾

(57/768)

وقال ابن زنجلة :

65 - سورة النساء الصغرى وهي سورة الطلاق

إلا أن يأتين بفحشة مبينة 1

بفاحشة مبينة و مبينات قد ذكرنا في سورة النور إن الله بلغ أمره 3

قرأ حفص إن الله بالغ أمره مضافا وقرأ الباقون بالغ أمره أي سيبلغ أمره فيما يريد فيكم فهذا هو الأصل ومن أضاف حذف التنوين استخفافا والمعنى معنى ثبات النون إنا مرسلو الناقة قد ذكرنا ومن يؤمن بالله ويعمل صلحا يدخله جنت 11

قرأ نافع وابن عامر ندخله جنات إخبار الله عن نفسه وقرأ الباقون بالياء وحجتهم قوله ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 712. 713﴾

(58/768)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الطلاق 65

مدنية وقد ذكر نظيرتها في البصري ونظيرتها في غيره التحريم

وكلمها مئتان وتسع وأربعون كلمة

وحروفها ألف وستون حرفا

وهي إحدى عشرة آية في البصري واثنتا عشرة في عدد الباقين

اختلافها ثلاث آيات (﴿ بالله واليوم الآخر ﴾) عدها الشامي ولم يعدها الباقون (﴿ يجعل له مخرجا ﴾) عدها المدني الأخير والمكي والكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ يا أولي الألباب ﴾) عدها المدني الأول ولم يعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل خمسة مواضع (﴿ ثلاثة أشهر ﴾ حسابا شديدا) (﴿ عذابا شديدا ﴾ من الظلمات إلى النور) (﴿ على كل شيء قدير ﴾) ورؤوس الآي

أمرا

1 مخرجا

2 قدرا

3 يسرا

4 أجرا

5 أخرى

6 يسرا

7 نكرا

8 خسرا

9 ذكرا

10 رزقا

11 علما

12 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 249 ﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (إذا طلقتم) قيل التقدير: قل لامتك إذا طلقتم .

وقيل الخطاب له صلى الله عليه وسلم ولغيره (لعدتهن) أي عند أول ما يعتد لهن به وهو في قبل الطهر .

قوله تعالى (بالغ أمره) يقرأ بالتنوين والنصب وبالإضافة والجر ، والإضافة غير محضة ، ويقرأ بالتنوين والرفع على أنه فاعل بالغ ، وقيل أمره مبتدأ ، وبالغ خبره .

قوله تعالى (واللائى لم يحضن) هو مبتدأ ، والخبر محذوف: أي فعدتهن كذلك ، و (أجلهن) مبتدأ ، و (أن يضعن) خبره ، والجملة خبر أولات ، ويجوز أن يكون أجلهن بدل الاشتمال:

أي وأجل أولات الأحمال .

قوله تعالى (أسكنوهن من حيث) من ها هنا لابتداء الغاية ، والمعنى تسببوا في إسكانهن من الوجه الذى تسكنون ، ودل عليه قوله تعالى (من وجدكم) والوجد الغنى ، ويجوز فتحها وكسرها ، ومن وجدكم بدل من " من حيث " .

قوله تعالى (رسولا) في نصبه أوجه: أحدها أن ينتصب بذكرا : أي أنزل إليكم أن ذكر رسولا .

والثانى أن يكون بدلا من ذكرا ، ويكون الرسول بمعنى الرسالة ، و (يتلو) على هذا يجوز أن يكون نعتا ، وأن يكون حالا من اسم الله

تعالى .

والثالث أن يكون التقدير: ذكر أشرف رسول ، أو ذكرا ذكر رسول ، ويكون المراد بالذكر الشرف ، وقد أقام المضاف إليه مقام المضاف .

والرابع أن ينتصب بفعل محذوف: أي وأرسل رسولا .

قوله تعالى (قد أحسن الله له) الجملة حال ثانية ، أو حال من الضمير في خالدين .

قوله تعالى (مثلهن) من نصب عطفه: أي وخلق من الأرض مثلهن ، ومن رفع استأنفه ، و (يتنزل) يجوز أن يكون مستأنفا ، وأن يكون نعتا لما قبله ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿

إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(60/768)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الطلاق

[سورة الطلاق (65) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً (1)

(61/768)

"يا أَيُّهَا" يا حرف نداء ومنادى نكرة مقصودة وها للتنبيه "النَّبِيُّ" بدل "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "طَلَّقْتُمُ النِّساءَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "فَطَلِّقُوهُنَّ" الفاء رابطة وأمر وفاعله ومفعوله والجملة جواب الشرط لا محل لها "لِعِدَّتِهِنَّ"

متعلقان بمحذوف حال "وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَاتَّقُوا اللَّهَ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "رَبَّكُمْ" بدل "لا تُخْرِجُوهُنَّ" مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله والهاء مفعول به "مِنْ بُيُوتِهِنَّ" متعلقان بالفعل والجملة استئنافية لا محل لها "وَلا يَخْرُجْنَ" مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة وهو في محل جزم بلا الناهية والنون فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "إِلَّا" حرف حصر "أَنْ يَأْتِينَ" مضارع مبني على السكون في محل نصب بأن والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب حال "بِفاحِشَةٍ" متعلقان بالفعل "مُبَيِّنَةٍ" صفة "وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ" مبتدأ وخبره ولفظ الجلالة مضاف إليه والجملة استئنافية لا محل لها "وَ" الواو حرف استئناف "مَنْ" اسم شرط مبتدأ "يَتَعَدَّ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاعل مستتر "حُدُودُ اللَّهِ" مفعول به مضاف إلى لفظ الجلالة "فَقَدْ" الفاء رابطة "قد ظَلَمَ" حرف تحقيق وماض فاعله مستتر "نَفْسَهُ" مفعول به والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ من وجملة من . .

استئنافية لا محل لها "لا" نافية "تَدْرِي" مضارع فاعله مستتر "لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ" لعل واسمها لفظ الجلالة ومضارع فاعله مستتر والجملة خبر لعل "بَعْدَ ذلِكَ" ظرف زمان واسم إشارة في محل جر بالإضافة "أَمْراً" مفعول به والجملة الاسمية سدت مسد مفعولي تدري وجملة تدري استئنافية لا محل لها .

[سورة الطلاق (65) : آية 2]

فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2)

"فَإِذا" الفاء حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "فَأَمْسِكُوهُنَّ" الفاء رابطة وأمر وفاعله ومفعوله "بِمَعْرُوفٍ" متعلقان بالفعل والجملة جواب الشرط لا محل لها "أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ" معطوف على ما قبله "وَأَشْهِدُوا" أمر وفاعله "ذَوَيْ" مفعول به منصوب بالياء "عَدْلٍ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها "مِنْكُمْ" صفة ذوي "وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ" معطوف على ما قبله "لِلَّهِ" متعلقان بالفعل "ذلِكُمْ" اسم إشارة مبتدأ

"يُوعَظُ" مضارع مبني للمجهول "بِهِ" متعلقان بالفعل "مَنْ" نائب فاعل والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "كانَ" كان واسمها المستتر "يُؤْمِنُ" مضارع فاعله مستتر "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل والجملة الفعلية خبر كان وجملة كان صلة من "وَالْيَوْمِ"

معطوف على ما قبله "الْآخِرِ" صفة اليوم "وَ" الواو حرف استئناف "مَنْ" اسم شرط مبتدأ "يَتَّقِ اللَّهَ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والفاعل مستتر ولفظ الجلالة مفعول به "يَجْعَلْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط "لَهُ" متعلقان بالفعل "مَخْرَجاً" مفعول به والجملة جواب الشرط لا محل لها وجملتا الشرط والجواب خبر من وجملة من . . استئنافية لا محل لها .

[سورة الطلاق (65) : آية 3]

(63/768)

وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (3)

"وَيَرْزُقْهُ" معطوف على يجعل مجزوم مثله والهاء مفعول به "مِنْ حَيْثُ" متعلقان بالفعل "لا" نافية "يَحْتَسِبُ" مضارع فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "وَ" الواو حرف عطف "مِنْ" اسم شرط مبتدأ "يَتَوَكَّلْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بالفعل "فَهُوَ حَسْبُهُ" الفاء رابطة ومبتدأ وخبره والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من وجملة من . .

معطوفة على ما قبلها "إِنَّ اللَّهَ بالِغُ" إن واسمها وخبرها "أَمْرِهِ" مضاف إليه والجملة استئنافية لا محل لها "قَدْ جَعَلَ اللَّهُ" قد حرف تحقيق وماض وفاعله "لِكُلِّ" متعلقان بالفعل "شَيْءٍ" مضاف إليه "قَدْراً" مفعول به والجملة حال.

[سورة الطلاق (65) : آية 4]

وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (4)

(64/768)

"وَاللَّائِي" الواو حرف استئناف واسم الموصول مبتدأ "يَئِسْنَ" مضارع وفاعله والجملة صلة "مِنَ الْمَحِيضِ" متعلقان بالفعل "مِنْ نِسائِكُمْ" متعلقان بمحذوف حال "إِنِ ارْتَبْتُمْ" إن حرف شرط جازم وماض وفاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "فَعِدَّتُهُنَّ" الفاء رابطة "عدتهن ثَلاثَةُ" مبتدأ وخبره "أَشْهُرٍ" مضاف إليه والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ اللائي وجملة اللائي .. استئنافية لا محل لها "وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ" مبتدأ ومضارع مجزوم بلم والنون فاعله والجملة صلة وخبر المبتدأ محذوف والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها ، "وَ" الواو حرف استئناف "أُولاتُ" مبتدأ

"الْأَحْمالِ" مضاف إليه "أَجَلُهُنَّ" مبتدأ "أَنْ يَضَعْنَ" مضارع مبني على السكون في محل نصب بأن ونون النسوة فاعله "حَمْلَهُنَّ" مفعول به والمصدر المؤول من أن والفعل في محل رفع خبر أجلهن والجملة الاسمية أجلهن . .

خبر أولات . "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً" : سبق إعرابها .

[سورة الطلاق (65) : آية 5]

ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (5)

(65/768)

"ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ" مبتدأ وخبره ولفظ الجلالة مضاف إليه والجملة استئنافية لا محل لها "أَنْزَلَهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "إِلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة حال ، "وَ" الواو حرف استئناف "مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "يَتَّقِ اللَّهَ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وفاعله مستتر ولفظ الجلالة مفعول به "يُكَفِّرْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط فاعله مستتر "عَنْهُ" متعلقان بالفعل "سَيِّئاتِهِ" مفعول به والجملة جواب الشرط لا محل لها وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ من وجملة من . . استئنافية لا محل لها "وَيُعْظِمْ" معطوف على يكفر "لَهُ" متعلقان بالفعل "أَجْراً" مفعول به .

[سورة الطلاق (65) : آية 6]

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى (6)

(66/768)

"أَسْكِنُوهُنَّ" أمر وفاعله ومفعوله "مِنْ حَيْثُ" متعلقان بالفعل "سَكَنْتُمْ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "مِنْ وُجْدِكُمْ" بدل من قوله من حيث "وَلا تُضَارُّوهُنَّ" الواو حرف عطف ومضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله والهاء مفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "لِتُضَيِّقُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل "عَلَيْهِنَّ" متعلقان بالفعل أيضا "وَ" الواو حرف عطف "إِنْ كُنَّ" إن شرطية جازمة وماض ناقص واسمه "أُولاتِ حَمْلٍ" خبره المضاف إلى حمل والجملة ابتدائية لا محل لها "فَأَنْفِقُوا" الفاء رابطة وأمر وفاعله "عَلَيْهِنَّ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جزم جواب الشرط "حَتَّى يَضَعْنَ" حتى حرف غاية وجر ومضارع مبني على السكون في محل نصب

بأن المضمرة بعد حتى ونون النسوة فاعل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بحتى والجار والمجرور متعلقان بالفعل "حَمْلَهُنَّ" مفعول به "فَإِنْ" الفاء حرف عطف "إِنْ" شرطية جازمة "أَرْضَعْنَ" ماض مبني على السكون ونون النسوة فاعله "لَكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة ابتدائية لا محل لها "فَآتُوهُنَّ" الفاء رابطة وأمر وفاعله ومفعوله الأول "أُجُورَهُنَّ" مفعول به ثان والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَأْتَمِرُوا" الواو حرف عطف وأمر فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "بَيْنَكُمْ" ظرف مكان "بِمَعْرُوفٍ" متعلقان بالفعل "وَإِنْ" شرطية جازمة "تَعاسَرْتُمْ" ماض وفاعله وهو في محل جزم فعل شرط والجملة ابتدائية لا محل لها "فَسَتُرْضِعُ" الفاء رابطة والسين للاستقبال ومضارع مرفوع والجملة في محل جزم جواب الشرط "لَهُ" متعلقان بالفعل "أُخْرى" فاعل.

[سورة الطلاق (65) : آية 7]

(67/768)

لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ ما آتاها سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (7)

"لِيُنْفِقْ" مضارع مجزوم بلام الأمر "ذُو سَعَةٍ" فاعل مضاف إلى سعة والجملة استئنافية لا

محل لها "مِنْ سَعَتِهِ" متعلقان بالفعل "وَ" الواو حرف عطف "مِنْ" اسم شرط مبتدأ "قُدِرَ" ماض مبني للمجهول في محل جزم فعل الشرط "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "رِزْقُهُ" نائب فاعل "فَلْيُنْفِقْ" الفاء رابطة ومضارع مجزوم بلام الأمر والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من وجملة من . .

معطوفة على ما قبلها . "مِمَّا" متعلقان بالفعل "آتَاهُ اللَّهُ" ماض ومفعوله ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة "لا يُكَلِّفُ اللَّهُ" لا نافية ومضارع وفاعله "نَفْساً" مفعوله والجملة استئنافية لا محل لها "إِلَّا" حرف حصر "ما" مفعول به ثان "آتاها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة ما لا محل لها .

"سَيَجْعَلُ اللَّهُ" السين للاستقبال ومضارع ولفظ الجلالة فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "بَعْدَ عُسْرٍ" ظرف زمان مضاف إلى عسر "يُسْراً" مفعول به .

[سورة الطلاق (65) : آية 8]

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً (8)

"وَ" الواو حرف استئناف "كَأَيِّنْ" اسم كناية بمعنى كثير مبني على السكون في محل رفع مبتدأ "مِنْ" حرف جر زائد "قَرْيَةٍ" تمييز "عَتَتْ" ماض وفاعله مستتر والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "عَنْ أَمْرِ" متعلقان بالفعل "رَبِّها" مضاف إليه "وَرُسُلِهِ" معطوف على ما قبلها ، "فَحاسَبْناها" الفاء حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله "حِساباً" مفعول مطلق "شَدِيداً" صفة "وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً" معطوف على ما قبله .

[سورة الطلاق (65) : آية 9]

فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً (9)

"فَذاقَتْ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "وَبالَ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "أَمْرِها" مضاف إليه "وَكانَ عاقِبَةُ" الواو حرف عطف وكان واسمها "أَمْرِها" مضاف إليه "خُسْراً" خبر كان والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الطلاق (65) : آية 10]

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (10)

"أَعَدَّ اللَّهُ" ماض وفاعله "لَهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة استئنافية لا محل لها "عَذاباً" مفعول به "شَدِيداً" صفة "فَاتَّقُوا اللَّهَ" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله ولفظ الجلالة مفعول به والجملة

جواب شرط مقدر لا محل لها . "يا أُولِي" يا حرف نداء ومنادى مضاف "الْأَلْبابِ" مضاف إليه "الَّذِينَ" بدل "آمَنُوا" ماض وفاعله "قَدْ" حرف تحقيق والجملة صلة "أَنْزَلَ اللَّهُ" ماض وفاعله "إِلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل "ذِكْراً" مفعول به والجملة حال .

[سورة الطلاق (65) : آية 11]

(69/768)

رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً (11)

"رَسُولًا" مفعول به ولفعل محذوف "يَتْلُوا" مضارع فاعله مستتر والجملة صفة رسولا "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل "آياتِ اللَّهِ" مفعول به مضاف إلى لفظ الجلالة "مُبَيِّناتٍ" صفة "لِيُخْرِجَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بيتلو "الَّذِينَ" مفعول به "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به "مِنَ الظُّلُماتِ" متعلقان بيخرج "إِلَى النُّورِ" متعلقان بيخرج أيضا "وَ" الواو حرف استئناف "مَنْ" اسم

شرط جازم مبتدأ "يُؤْمِنْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والفاعل مستتر "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "وَيَعْمَلْ" معطوف على يؤمن "صالِحاً" صفة مفعول مطلق محذوف التقدير ويعمل عملا صالحا . "يُدْخِلْهُ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والفاعل مستتر والهاء مفعول به أول "جَنَّاتٍ" مفعول به ثان والجملة جواب الشرط لا محل لها وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ من وجملة من . . استئنافية لا محل لها "تَجْرِي" مضارع مرفوع "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بالفعل "الْأَنْهارُ" فاعل والجملة صفة "خالِدِينَ" حال "فِيها" متعلقان بخالدين "أَبَداً" ظرف زمان "قَدْ" حرف تحقيق "أَحْسَنَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله "لَهُ" متعلقان بالفعل "رِزْقاً" مفعول به والجملة حال .

[سورة الطلاق (65) : آية 12]

(70/768)

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12)

"اللَّهُ الَّذِي" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة الذي "سَبْعَ سَماواتٍ" مفعول به مضاف إلى السموات "وَمِنَ الْأَرْضِ" متعلقان بفعل

محذوف تقديره وخلق "مِثْلَهُنَّ" مفعول به للفعل المحذوف "يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ" مضارع وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها .

"بَيْنَهُنَّ" ظرف مكان "لِتَعْلَمُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بخلق . "أَنَّ اللَّهَ" أن واسمها "عَلَى كُلِّ" متعلقان بقدير "شَيْءٍ" مضاف إليه "قَدِيرٌ" خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل نصب سد مسد مفعولي تعلموا "وَأَنَّ اللَّهَ" أن واسمها "قَدْ" حرف تحقيق "أَحَاطَ" ماض فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر أن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها . "بِكُلِّ" متعلقان بالفعل "شَيْءٍ" مضاف إليه "عِلْماً" تمييز . انتهى انتهى . اهـ

﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 352. 356﴾

(71/768)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَةَ الطَّلَاق

ذكر فِيهَا ثَلَاثَة عشر حَدِيثا

1360 - الحَدِيث الأول

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام من قتل قَتِيلا فَلهُ سلبه

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم من حَدِيث أبي قَتَادَة وَقد تقدم فِي أَوَائِل الْبَقَرَة

1361 - الحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ لِابْنِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهما حِين طلق امْرَأَته وَهِي حَائِض مَا هَكَذَا أَمرك الله إِنَّمَا السّنة أَن تسْتَقْبل الطُّهْر اسْتِقْبَالًا وَتُطَلّقهَا بِكُل قرء تَطْلِيقَة

قلت رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي سنَنه وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث شُعَيْب بن زُرَيْق حَدثنِي عَطاء الْخُرَاسَانِي عَن الْحسن عَن عبد الله بن عمر أَنه طلق امْرَأَته وَهِي حَائِض ثمَّ أَرَادَ أَن يتبعهَا تَطْلِيقَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ عِنْد الْقُرْأَيْنِ فَبَلغ ذَلِك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا بن عمر مَا هَكَذَا أَمرك الله قد أَخْطَأت السّنة وَالسّنة أَن يسْتَقْبل الطُّهْر فَتطلق لكل قرء فَأمرنِي فَرَاجَعْتهَا فَقَالَ إِذا هِيَ طهرت فَطلق عِنْد ذَلِك وَأمْسك فَقلت يَا رَسُول الله أَفَرَأَيْت لَو طلقتهَا ثَلَاثًا أَكَانَ يحل لي أَن أراجعها قَالَ لَا كَانَت تبين مِنْك وَكَانَت مَعْصِيّة . . .

وَفِيه كَلَام فِي أَحَادِيث الْهِدَايَة

1362 - الحَدِيث الثَّالِث

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لعمر مر ابْنك فَلْيُرَاجعهَا ثمَّ لِيَدَعْهَا حَتَّى تحيض ثمَّ تطهر ثمَّ لِيُطَلِّقهَا إِن شَاءَ فَتلك الْعدة الَّتِي أَمر الله أَن تطلق بهَا النِّسَاء

(72/768)

قلت رَوَاهُ الْجَمَاعَة عَن ابْن عمر أَنه طلق امْرَأَته وَهِي حَائِض فَذكر عمر ذَلِك لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مره فَلْيُرَاجعهَا ثمَّ يُمْسِكهَا حَتَّى تطهر ثمَّ تحيض فَتطهر قَالَ فَإِن بدا لَهُ أَن يطلقهَا فَلْيُطَلِّقهَا طَاهِرا قبل أَن يَمَسهَا فَتلك الْعدة الَّتِي أَمر الله أَن تطلق بهَا النِّسَاء انْتَهَى

1363 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن رجلا طلق امْرَأَته ثَلَاثًا بَين يَدَيْهِ فَقَالَ أَتَلْعَبُونَ بِكِتَاب الله وَأَنا بَين أظْهركُم

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي سنَنه فِي الطَّلَاق من حَدِيث مخرمَة عَن أَبِيه عَن مَحْمُود بن لبيد أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر عَن رجل طلق امْرَأَته ثَلَاث تَطْلِيقَات جَمِيعًا فَقَامَ غَضْبَان ثمَّ قَالَ أيلعب بِكِتَاب الله تَعَالَى وَأَنا بَين أظْهركُم حَتَّى قَامَ رجل فَقَالَ يَا رَسُول الله أَلا نقْتلهُ انْتَهَى قَالَ النَّسَائِيّ لَا أعلم رَوَاهُ غير مخرمَة

وَقَالَ عبد الْحق فِي أَحْكَامه ذهب البُخَارِيّ إِلَى أَن مَحْمُودًا لَهُ صُحْبَة وَقَالَ أَبُو حَاتِم لَا يعرف لَهُ صُحْبَة انْتَهَى

1364 - الحَدِيث الْخَامِس

فِي حَدِيث ابْن عمر انه قَالَ يَا رَسُول الله أَرَأَيْت لَو طلقهَا ثَلَاثًا فَقَالَ لَهُ إِذن عصيت رَبك وَبَانَتْ مِنْك امْرَأَتك

قلت هُوَ قِطْعَة من الحَدِيث الثَّانِي الْمُتَقَدّم وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مَوْقُوف عَلَى ابْن عمر أَنه سُئِلَ عَن رجل طلق امْرَأَته فَقَالَ إِن طَلقهَا وَاحِدَة أَو اثْنَتَيْنِ فَرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره أَن يُرَاجعهَا ثمَّ يمهلها حَتَّى تحيض ثمَّ تطهر وَإِن طَلقتهَا ثَلَاثًا فقد عصيت رَبك فِيمَا أَمر بِهِ من طَلَاق امْرَأَتك وَبَانَتْ مِنْك مُخْتَصر

(73/768)

1365 - قَوْله

عَن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أَنه كَانَ لَا يُؤْتَى بِرَجُل طلق امْرَأَته ثَلَاثًا إِلَّا أوجعهُ ضربا وَأَجَازَ ذَلِك عَلَيْهِ

قلت رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة وَعبد الرَّزَّاق فِي مصنفيهما قَالَ ابْن أبي شيبَة ثَنَا عَلّي بن مسْهر

وَقَالَ عبد الرَّزَّاق ثَنَا سُفْيَان بن عُيَيْنَة كِلَاهُمَا عَن شَقِيق ابْن أبي عبد الله عَن انس قَالَ كَانَ عمر إِذا أُتِي بِرَجُل قد طلق امْرَأَته ثَلَاثًا فِي مجْلِس أوجعهُ ضربا وَفرق بَينهمَا انْتَهَى

1366 - الحَدِيث السَّادِس

سُئِلَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَمَّن طلق ثَلَاثًا أَو ألفا هَل لَهُ مخرج فَتَلَاهَا يعْنى قَوْله تَعَالَى وَمن يتق الله يَجْعَل لَهُ مخرجا

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وروى الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالدَّارَقُطْنِيّ فِي سnَنه عَن إِبْرَاهِيم بن عبيد الله بن عبَادَة بن الصَّامِت عَن أَبِيه عَن جده قَالَ طلق بعض آبَائِي امْرَأَته ألفا فَانْطَلق بنوه إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالُوا يَا رَسُول الله إِن أَبَانَا طلق أمنا ألفا فَهَل لَهُ من مخرج فَقَالَ إِن أَبَاكُم لم يتق الله فَيجْعَل لَهُ مخرجا بَانَتْ مِنْهُ بِثَلَاث عَلَى غير السّنة وَتِسْعمِائَة وَسبع وَتسْعُونَ رُبمَا فِي عُنُقه انْتَهَى قَالَ الدَّارَقُطْنِيّ رُوَاته ضعفاء وَمَجْهُولُونَ

وَذكره عبد الْحق فِي أَحْكَامه من جِهَة الدَّارَقُطْنِيّ وَقَالَ فِيهِ سَبْعَة رجال بَين مَجْهُول وَضَعِيف وَأعله ابْن عدي فِي الْكَامِل بِعَبْد الله بن الْوَلِيد الْوَصَّافِي وَضَعفه عَن النَّسَائِيّ وَابْن معِين وَالْفَلَّاس وَوَافَقَهُمْ وَقَالَ إِنَّه ضَعِيف جدا

لَكِن رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده أخبرنَا عبد الله بن إِدْرِيس سَمِعت عبد الله بن الْوَلِيد يحدث عَن دَاوُد بن إِبْرَاهِيم عَن عبَادَة بن الصَّامِت

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث عبيد الله بن الْوَلِيد وَصدقَة ابْن أبي عمرَان عَن إِبْرَاهِيم بن عبيد الله بِهِ

1367 - الحَدِيث السَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه تَلَاهَا فَقَالَ مخرجا من شُبُهَات الدُّنْيَا وَمن غَمَرَات الْمَوْت وَمن شَدَائِد يَوْم الْقِيَامَة

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من طَرِيق ابْن وهب ثَنَا عبد الله بن إِسْحَاق ثَنَا عَمْرو بن الْأَشْعَث ثَنَا سعيد بن رَاشد الْحَنَفِيّ ثَنَا عبد الله بن سعيد بن أبي هِنْد عَن زيد بن أسلم عَن عَطاء عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَرَأَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمن يتق الله يَجْعَل لَهُ مخرجا فَقَالَ مخرجا من شُبُهَات الدُّنْيَا إِلَى آخِره

رَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط من حَدِيث عَمْرو بن الْحصين ثَنَا سعيد بن رَاشد عَن عبد الله بن سعيد بِهِ وَرَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية مَوْقُوفا عَلَى قَتَادَة ذكره فِي تَرْجَمَة

1368 - الحَدِيث الثَّامِن

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي لأعْلم آيَة لَو أَخذ النَّاس بهَا لكفتهم وَمن يتق الله . . . فَمَا زَالَ يقرؤهَا ويُعيدهَا

قلت رَوَاهُ ابْن ماجة فِي سنَنه فِي كتاب الزّهْد من حَدِيث أبي السَّلِيل ضريب ابْن نقير عَن أبي ذَر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِنِّي لأعْلم كلمة أَو قَالَ آيَة لَو أَخذ النَّاس كلهم بهَا لكفتهم قَالُوا يَا رَسُول الله أَيَّة آيَة قَالَ وَمن يتق الله يَجْعَل لَهُ مخرجا وَيَرْزقهُ من حَيْثُ لَا يحْتَسب انْتَهَى

(75/768)

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ وَفِي لَفْظهمَا قَالَ فَجعل يُرَدّدهَا حَتَّى نعست

وَرَوَاهُ عبد الله بن الإِمَام أَحْمد فِي كتاب الزّهْد عَنهُ وَقَالَ فِيهِ فَمَا زَالَ يَقُولهَا وَيُعِيدهَا

1369 - الحَدِيث التَّاسِع

رُوِيَ أَن عَوْف بن مَالك الْأَشْجَعِيّ أسر الْمُشْركُونَ ابْنا لَهُ يُسمى سالما فَأتى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَقَالَ اسر ابْني وشكا إِلَيْه الْفَاقَة فَقَالَ مَا أَمْسَى عِنْد آل مُحَمَّد إِلَّا مد فَاتق واصبر وَأكْثر من ذكر لَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللَّه الْعلي الْعَظِيم فبينا هُوَ فِي بَيته إِذْ قرع ابْنه الْبَاب وَمَعَهُ مائَة من الْإِبِل غفل عَنهُ الْعَدو فاستاقها فَنزلت

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك بِنَقص من حَدِيث عبيد بن كثير العامري عَن عباد بن

يَعْقُوب ثَنَا يَحْيَى بن آدم ثَنَا إِسْرَائِيل ثَنَا عمار بن أبي مُعَاوِيَة عَن سَالم بن أبي الْجَعْد عَن جَابر بن عبد الله قَالَ نزلت هَذِه الْآيَة وَمن يتق الله يَجْعَل لَهُ مخرجا فِي رجل من أَشْجَع كَانَ فَقِيرا خَفِيف ذَات الْيَد كثير الْعِيَال فَأتى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَسَأَلَهُ فَقَالَ اتَّق الله واصبر فَلم يلبث إِلَّا يَسِيرا حَتَّى جَاءَ ابْن لَهُ بِغنم كَانَ الْعَدو أَصَابُوهُ فَأتى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَسَأَلَهُ عَنْهَا وَأخبرهُ خَبَرهَا فَقَالَ لَهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كلهَا فَنزلت وَمن يتق الله يَجْعَل لَهُ مخرجا الْآيَة وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ وَتعقبه الذَّهَبِيّ لِأَن عبيد بن كثير قَالَ فِيهِ الْأَزْدِيّ مَتْرُوك وَعباد بن يَعْقُوب رَافِضِي

(76/768)

وبِسَنَد الْحَاكِم وَمَتنه رَوَاهُ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فِي بَاب قَوْله تَعَالَى وَمن يتق الله يَجْعَل لَهُ مخرجا وَمَا جَاءَ فِيهِ من المعجزات بِسَنَدِهِ إِلَى أبي عُبَيْدَة عَن عبد الله بن مَسْعُود قَالَ أَتَى رجل النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَأرَاهُ عَوْف بن مَالك الْأَشْجَعِيّ فَقَالَ يَا رَسُول الله إِن بني فلَان أغارُوا عَليّ فذهبُوا بِابْني وإبلي فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِن آل مُحَمَّد لأهل كَذَا وَكَذَا بَيت أَظُنهُ قَالَ تسع أَبْيَات مَا فيهم صَاع من طَعَام وَلَا مد من طَعَام فَسَل الله عز وَجل فَرجع

فأخبر امْرَأَته قَالَ فَلم يلبث الرجل أَن رد الله عَلَيْهِ ابْنه وإبله أوفر مَا كَانَت فَأتى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأخْبرهُ فَقَامَ على الْمِنْبَر فَحَمدَ الله وَأثْنى عَلَيْهِ وَأمرهمْ بمسْأَلَة الله عز وَجل وَالرَّغْبَة إِلَيْهِ وَقَرَأَ عَلَيْهِم وَمن يتق الله يَجْعَل لَهُ مخرجا وَيَرْزقهُ من حَيْثُ لَا يحْتَسب انْتهى

(77/768)

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ إِلَى الْكَلْبِيّ عَن أبي صَالح عَن ابْن عَبَّاس قَالَ جَاءَ عَوْف بن مَالك الْأَشْجَعِيّ إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ يَا رَسُول الله إِن ابْني أسره الْعَدو وَجَزِعت أمه فَمَا تَأْمُرنِي قَالَ آمُرك وإياها أَن تستكثروا من لَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللَّه الْعلي الْعَظِيم فَانْصَرف إِلَيْهَا فَقَالَت مَا قَالَ لَك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ أَمرنِي وَإِيَّاك أَن نستكثر من لَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللَّه الْعلي الْعَظِيم فجعلا يقولان ذَلِك فغفل الْعَدو عَن ابْنه يَوْمًا فجَاء وَقد اسْتَاق غنمهم وَهِي أَرْبَعَة آلَاف شَاة فَأتى بهَا إِلَى أَبِيه فنزلت وَمن يتق الله . . . الْآيَة

وَبِسَنَد الْبَيْهَقِيّ فِي الدَّلَائِل وَمَتنه رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره

1370 - قَوْله

وَعَن ابْن عَبَّاس وَعلي قَالَا عدَّة الْحَامِل الْمُتَوفَّى عَنْهَا أبعد الْأَجليْنِ

قلت قَول ابْن عَبَّاس رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه قَالَ جَاءَ رجل إِلَى ابْن عَبَّاس وَأَبُو هُرَيْرَة جَالس عِنْده فَقَالَ أَفْتِنِي فِي امْرَأَة ولدت بعد وَفَاة زَوجهَا بِأَرْبَعِينَ لَيْلَة فَقَالَ ابْن عَبَّاس آخر الْأَجليْنِ مُخْتَصر

وَقَول عَلّي رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه ثَنَا شَبابَة عَن شُعْبَة عَن عبيد ابْن الْحسن عَن عبد الرَّحْمَن بن معقل قَالَ شهِدت عليا وَسَأَلَهُ رجل عَن امْرَأَة توفّي عَنْهَا وَهِي حَامِل قَالَ تَتَرَبَّص أبعد الْأَجليْنِ

حَدثنَا وَكِيع عَن إِسْمَاعِيل عَن الشّعبِيّ قَالَ قَالَ عبد الله أجل كل حَامِل أَن تضع حملهَا قَالَ وَكَانَ عَلّي يَقُول آخر الْأَجليْنِ انْتَهَى

1371 - قَوْله

(78/768)

وَعَن ابْن مَسْعُود رَضِي الله عَنهُ أَنه قَالَ من شَاءَ لَاعَنته أَن سُورَة النِّسَاء الْقُصْرَى نزلت بعد الَّتِي فِي الْبَقَرَة

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ وَابْن ماجة فِي الطَّلَاق من حَدِيث مَسْرُوق عَن ابْن مَسْعُود

قَالَ من شَاءَ لَاعَنته لَا نزلت سُورَة النِّسَاء الْقُصْرَى بعد الْأَرْبَعَة أشهر وَعشر انْتَهَى

وَرَوَاهُ البُخَارِيّ بِمَعْنَاهُ فِي التَّفْسِير قَالَ أتجْعَلُونَ عَلَيْهَا التَّغْلِيظ وَلَا تجْعَلُونَ لَهَا الرُّخْصَة لَا نزلت سُورَة النِّسَاء الْقُصْرَى بعد الطُّولَى وَأولَات الْأَحْمَال أجلهنَّ أَن يَضعن حَملهنَّ انْتَهَى

وَزَاد عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه وَكَانَ بلغه أَن عليا يَقُول هِيَ آخر الْأَجَليْنِ فَقَالَ ذَلِك انْتَهَى

وَمن طَرِيق عبد الرَّزَّاق رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه

1372 - الحَدِيث الْعَاشِر

رَوَت أم سَلمَة أَن سبيعة الأسْلَمِيَّة ولدت بعد وَفَاة زَوجهَا بلَيَال فَذكرت ذَلِك لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ لَهَا قد حللت فانكحي

قلت رَوَاهُ الْأَئِمَّة السِّتَّة فِي كتبهمْ فِي الطَّلَاق وَاللَّفْظ للْبُخَارِيّ من حَدِيث أم سَلمَة قَالَت قتل زوج سبيعة الأسْلَمِيَّة وَهِي حُبْلَى فَوضعت بعد مَوته بِأَرْبَعِينَ لَيْلَة فَخطبت فَأَنْكحهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ لَا نَفَقَة لَك وَلَا سُكْنى

1373 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

رُوِيَ أَن فَاطِمَة بنت قيس أَبَت زَوجهَا طَلَاقهَا فَقَالَ لَهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا سُكْنى وَلَا نَفَقَة

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه من حَدِيث الشّعبيّ عَن فَاطِمَة بنت قيس قَالَت طَلقنِي زَوجي ثَلَاثًا فخاصمته إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السُّكْنَى وَالنَّفَقَة فَلم يَجْعَل لي سُكْنى وَلَا نَفَقَة وَأَمرنِي أَن أَعْتَد فِي بَيت ابْن أم مَكْتُوم انْتهى وَفِي لفظ لَهُ من حَدِيث أبي سَلمَة فِيهَا فَذكرت ذَلِك لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

1374 - الحَدِيث الثَّانِي عشر

عَن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَالَ لَا ندع كتاب رَبنَا وَلَا سنة نَبينَا لقَوْل امْرَأَة لَعَلَّهَا نسيت أَو شبه لَهَا سَمِعت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول لَهَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَة

قلت رَوَاهُ مُسلم وَأَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ مُخْتَصرا ومطولا من حَدِيث أبي إِسْحَاق قَالَ كنت مَعَ الْأسود بن يزِيد جَالِسا فِي الْمَسْجِد الْأَعْظَم ومعنا الشّعبيّ فَحدث الشّعبيّ بِحَدِيث فَاطِمَة بنت قيس أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَجْعَل لَهَا سُكْنى وَلَا نَفَقَة ثمَّ أَخذ الْأسود كفا من حَصى فَحَصَبه بِهِ وَقَالَ وَيلك تحدث بِمثل هَذَا قَالَ عمر لَا نتْرك كتاب الله وَسنة نَبينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقَوْل امْرَأَة لَا نَدْرِي لَعَلَّهَا حفظت أَو نسيت لَهَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَة انْتهى

1375 - الحَدِيث الثَّالِث عشر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَرَأَ سُورَة الطَّلَاق مَاتَ عَلَى سنة رَسُول الله صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير الْعَبْدي عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 47.55 ﴾

(80/768)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الطلاق

قوله تعالى : (فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ) ، الآية/ 1 .

شرحنا معناه في سورة البقرة .

وزمان الطلاق المشروع المعلوم من هذه الآية زمان الطهر لا غير ، لا جرم قال الشعبي : يجوز أن يطلقها في طهر مسها فيه .

وقوله تعالى : (لِعِدَّتِهِنَّ) .

يدل على أن الطهر إن جعل وقت الطلاق ، فالثاني والأول والثالث سواء ، وأن اللفظ عموم فيه .

وقد ظن قوم أنه لما قال : (لِعِدَّتِهِنَّ) ، فينبغي أن ينتظم الكلام على العدة .

وهذا باطل ، فإن فعل الطلاق من الزوج ، إنما يتصور في سماعه ، وإنما الشامل الحاوي وقت العدة والعدة وقت الطلاق .

قوله تعالى : (لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ) ، الآية/ 1 .

فيه دليل على وجوب السكنى لها ما دامت في العدة ، فإن بيوتهن التي نهى اللّه تعالى عن إخراجهن منها ، هي البيوت التي كانت تسكنها قبل

(81/768)

الطلاق ، فأمره بإقرارها في بيتها ، ونسبه إليها بالسكنى كما قال : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) «1» .

قوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ ، الآية/ 1 .

فالفاحشة تحتمل البذاء ، وتحتمل الزنا وتحتمل النشوز «2» .

قوله تعالى : ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ ، الآية/ 2 .

يدل على الإشهاد ، إلا أن الإشهاد لا يظهر انصرافه إلى الطلاق الذي يستحق الزوج به أبدا من غير حاجة إلى فترة ، والرجعة هي التي إذا تأخرت إلى انقضاء العدة امتنعت .

فالظاهر رجوع قوله : ﴿وَأَشْهِدُوا﴾ إلى الرجعة لا إلى الطلاق .

قوله تعالى : ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ ، الآية/ 4 .

فدلت الآية على إثبات الإياس بعد ارتياب ، فلا يجوز أن يكون قوله ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ إثبات حكم الإياس في أول الآية ، فلا جرم اختلف أهل العلم في الريبة المذكورة في الآية «3» ، فروي أن أبي بن كعب قال : يا رسول اللّه ، إن عددا من عدد النساء لم يذكر في الكتاب الصغار والكبار وذوات الأحمال أجلهن ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية .

وأبان أن سبب نزول هذه الآية كان ارتيابهن في عددهن ، صغير أو

---

(1) سورة الأحزاب آية 33 .

(2) وقد استفاض صاحب محاسن التأويل في شرح هذه المسألة في ج 16 ص 5837 فارجع اليه .

(3) انظر تفصيل القول في كتاب أحكام القرآن للجصاص وتفسير القرطبي .

كبير من الصغار «1» والكبار ، فتقدير الكلام (وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ) ، الآية/ 4 .

واختلف السلف في التي ترتفع حيضتها ، فروى سعيد بن المسيب عن عمر أنه قال :

أيما امرأة طلقت فحاضت حيضة أو حيضتين ثم رفعتها حيضتها ، فإنه ينتظر بها تسعة أشهر ، فإن استبان بها حمل فذاك ، وإلا اعتدت بعد ستة أشهر بثلاثة أشهر «2» .

وأمر ابن عباس بالتربص بستة أشهر وقال : تلك الريبة .

وقال الشافعي وأبو حنيفة وأصحابه :

التي ترتفع حيضتها تبقى إلى سن اليأس ، ثم تعتد بثلاثة أشهر ، وهو الحق ، فإن اللّه تعالى جعل عدة الآيسة ثلاثة أشهر ، والمرتابة ليست بآيسة .

قوله تعالى : (وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) ، الآية/ 4 .

ولم يختلف السلف والخلف في أن عدة المطلقة الحامل في أن تضع حملها . .

واختلف السلف في عدة المتوفى عنها زوجها ، وأنها تعتد بأقصى الأجلين أو بوضع الحمل

:

فقال علي رضي الله عنه بأقصى الأجلين.

وقال عمر رضي الله عنه في نفر من الصحابة: إنها تعتد بوضع الحمل.

---

(1) انظر أسباب النزول للواحدي النيسابوري. [. . . . . .]

(2) انظر تفسير الطبري والدر المنثور، وأسباب النزول للواحدي.

(83/768)

ولا شك أن قوله تعالى: (وَأُولاتُ الْأَحْمالِ)، معطوف على ذكر المطلقات، غير أنه عموم، وقد نزل بعد قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ) «1» على ما قال ابن مسعود، وأنه قال: من شاء لاعنته، ما نزلت: (وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ)، إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها.. فكان قوله: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ) عام في كل من يتوفى عنها زوجها، وقوله: (وَأُولاتُ الْأَحْمالِ)، عموم ورد بعده.. ولا دليل من الأول على تخصيص الثاني، فوجب اعتبار المتأخر.

قوله تعالى: (وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ)، الآية/ 6.

يدل على أنه لا نفقة للحامل.

نعم قوله: (وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ)، وإن عم الرجعية والبائنة، وللرجعية النفقة في عموم

الأحوال ، فذلك خرج بدليل الإجماع ، وبقي ما عداه على موجب المفهوم من الآية ، ويزيده تأكيد أنه أطلق السكنى ، وقيد النفقة ، فلو كان الحكم فيها سواء لم يكن لذلك معنى .

قوله تعالى : (فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) ، الآية/ 6 .

دلت الآية على أحكام :

منها إذا أرضعت بأن ترضعه بأجر مثلها ، لم يكن للأب أن يسترضع غيرها بمثل ذلك الأجر .

(1) سورة البقرة آية 234 . انظر تفسير سورة البقرة لابن جرير الطبري .

(84/768)

ويدل على أن الأم أحق بحضانة الولد .

ويدل على أن الأجرة إنما تستحق بالفراغ من العمل ، وإن احتمل أن يراد به غير ذلك «1» .

قوله تعالى : (وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى) .

وقوله : (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ) ، الآية/ 7 .

يدل على أن النفقة تختلف باختلاف أحوال الزوج في يساره وإعساره ، وأن نفقة المعسر

أقل من نفقة الموسر خلافا لأبي حنيفة ، فإنه اعتبر كفايتها .

قوله تعالى : ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها﴾ ، الآية/ 7 .

فيه دليل على أنه لا يجوز التفريق بين الزوج والمرأة ، لعجزه عن نفقتها ، لأن اللّه تعالى لم يوجب النفقة في هذه الحالة .

والذي يخالف هذا من أصحاب الشافعي يقول : إنما فرقنا بينهما لا لأنه ترك واجبا عليه في هذه الحالة من النفقة ، ولكنه عجز عن الإمساك بالمعروف ، فعليه التسريح بالإحسان ، فإنه إذا صار لا بد من أحدهما فمتى فات أحدهما تعين الثاني ، ولا شك أن العاجز عن نفقة عبده أو أمته أو بهيمته لا يجب عليه نفقتها ، لكن يجبر على بيع المملوك ، كذلك هاهنا .

ولأجله ارتفع الحبس عنها في الدار ، وإن لم تجب النفقة على ما ذكروه «2» . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 419 . 423﴾

---

(1) راجع تفسير محاسن التأويل ج 16 سورة الطلاق .

(2) انظر أحكام القرآن للجصاص الجزء الخامس .

وقال السايس :

من سورة الطلاق

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً (1)

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ إنما كان النداء خاصا بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، والخطاب بالحكم عاما له ولأمته تكريما له عليه الصلاة والسلام ، وإظهارا لجلالة منصبه ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كيت وكيت ، إظهارا لمقامه فيهم ، واعتبارا لترؤسه ، وإنه المتكلّم عنهم ، وإنه هو الذي يصدرون عن رأيه ، ولا يستبدّون بأمر دونه .

وقيل الجمع في قوله : إِذا طَلَّقْتُمُ للتعظيم ، مثل قوله تعالى : قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ [المؤمنون : 99] وقول القائل :

ألا فارحموني يا إله محمد .

وقيل : أراد يا أيها النبيّ ويا أيها المؤمنون ، فحذف لدلالة الخطاب عليه .

وقيل : أراد يا أيها النبيّ قل للمؤمنين إذا طلقتم النساء إلخ .

وقد اتفق المفسّرون على اعتبار التجوّز في قوله تعالى : إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ لأن الكلام لا يستقيم دونه ، لما فيه من تحصيل الحاصل ، أو كون المعنى إذا طلقتموهن

فطلقوهنّ مرة ثانية، وهو غير مراد قطعا، فلا بدّ من التجوّز، إما بإطلاق المسبب وإرادة السبب، وإما بتنزيل المشارف للفعل منزلة الشارع فيه، والمعنى: إذا أردتم تطليقهن تطلقوهن لعدتهنّ.

واللام في قوله تعالى: فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ لام التوقيت كاللّام الداخلة في التاريخ، نحو كتبته لثلاث مضين من المحرم، أي فطلّقوهن في عدتهن، أي في وقتها. والمراد بالأمر بإيقاع الطلاق في ذلك النهي عن إيقاعه في الحيض، وردت بذلك السنة الصريحة، فالمعنى: إذا أردتم تطليقهنّ، فلا تطلقوهن في الحيض، فهو مثل

قوله صلّى اللّه عليه وسلّم «1»: «من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم»

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (3/ 226)، 22 - كتاب المساقاة، 24 - باب الرهن، حديث رقم (1604)، والبخاري في الصحيح (3/ 59)، 35 - كتاب السلم، 1 - باب السلم في الوزن حديث رقم (2240).

ليس معناه إيجاب السلم ، بل معناه النهي عن السلم فيما لم يعلم كيله أو وزنه أو أجله .

وكذلك

قوله صلّى اللّه عليه وسلّم «1» : «كل مما يليك»

ليس معناه إيجاب الأكل . بل معناه : النهي عن أن يجيل يده في الإناء ، وهكذا جرى عرف اللسان العربي في كل ما كان من هذا القبيل ، فكانت الآية دليلا على حرمة الطلاق في الحيض .

واتفق الفقهاء على أنّ ذلك طلاق بدعي محرّم . والمعنى : فيه الإضرار بالزوجة بتطويل المدة التي تتربصها ، فإنّ بقية الحيض لا تحسب من العدة عند من يرى أنّ الأقراء الأطهار ، وكذلك لا تحسب هي ولا الطهر بعدها من العدة عند من يرى أنّ الأقراء الحيض .

وأيضا ليس من الوفاء ولا من المروءة أن يطلقها في وقت رغبته عنها ، لسبب لا دخل لها فيه .

وألحق الفقهاء بذلك في الحرمة الطلاق في النفاس ، لما ذكر من المعنى .

وأتت السنة الصحيحة بصورة ثالثة للطلاق البدعي المحرم ، وهي أن يطلّقها في طهر جامعها فيه ، والمعنى في ذلك أنه ربما يندم على الطلاق إذا ظهر الحمل ، إذ الإنسان قد يسمح بطلاق الحائل لا الحامل ، وقد لا يتيسّر له ردها ، فيتضرر هو والولد .

واستثنى كثير من الفقهاء من الطلاق المحرّم خلعها في الحيض بعوض منها ، لأنّ بذلها المال

يشعر بحاجتها إلى الخلاص، وبرضاها بتطويل المدة، وقد قال تعالى: فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ وأذن النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم لثابت بن قيس في الخلع على مال من غير استفصال عن حال زوجته «2».

استدلّ أهل الظاهر بقوله تعالى: فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ على أنّ الطلاق في الحيض لا يقع، ولا يترتب عليه حكم، لأن الآية ظاهرة في النهي عن الطلاق في غير العدة.

وقد بينت السنة ذلك، بأنه الطلاق في الحيض.

وثبت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من حديث عائشة رضي اللّه عنها أنه قال:

«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ» «3»

وفي رواية: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (3/ 1599)، 36- كتاب الأشربة، 135- باب آداب الطعام حديث رقم (107/ 2022)، والبخاري في الصحيح (6/ 241)، 70- كتاب الأطعمة، 2- باب التسمية حديث رقم (5376).

(2) رواه أبو داود في السنن (2/ 244)، كتاب الطلاق، باب في الخلع حديث رقم (2227)، والنسائي في السنن (5- 6/ 481)، كتاب الطلاق، باب في الخلع حديث رقم (3462).

(3) رواه مسلم في الصحيح (3/ 1343)، 30- كتاب الأقضية، 8- باب نقض

الأحكام حديث رقم (17/ 1718) ، والبخاري في الصحيح (3/ 222) ، 53 - كتاب الصلح ، 5 - باب إذا اصطلحوا على صلح جور حديث رقم (2697) .

(87/768)

ردّ»

قالوا : وهذا صريح في أنّ هذا الطلاق المحرم الذي ليس عليه أمره صلّى اللّه عليه وسلّم مردود وباطل . قالوا : وإذا كان النكاح المنهي عنه لا يصح لأجل النهي ، فما الفرق بينه وبين الطلاق ؟ وكيف أبطلتم ما نهى اللّه عنه من النكاح ، وصححتم ما حرّمه ونهى عنه من الطلاق ؟ وليس لكم متمسك في ذلك إلا رواية عن ابن عمر قد خالفها ما هو مثلها أو أحسن منها عن ابن عمر أيضا ، فقد أخرج أبو داود «1» عن أبي الزبير أنّه سمع عبد الرحمن بن أيمن مولى عزة يسأل ابن عمر ، قال أبو الزبير : وأنا أسمع : كيف ترى في رجل طلّق امرأته حائضا فقال : طلّق ابن عمر امرأته حائضا على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فسأل عمر عن ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : إنّ عبد اللّه بن عمر طلّق امرأته وهي حائض .

قال عبد اللّه : فردها عليّ ولم يرها شيئا . وليست رواية نافع عن ابن عمر : «مره

فليراجعها» «2» بأصحّ من رواية أبي الزبير عنه: «فردها عليّ ولم يرها شيئا».

وحينئذ يتعيّن الجمع بينهما بحمل المراجعة في قوله: «مره فليراجعها» على الارتجاع والرد إلى حالة الاجتماع كما كانا من قبل، وليس في ذلك ما يقتضي وقوع الطلاق البتّة.

وأجاب الجمهور عن ذلك بأنّ الاستدلال بالآية على عدم وقوع الطلاق في الحيض موقوف على أنّ النهي عن الشيء يقتضي الفساد، وهي مسألة أصولية كثرت فيها المذاهب والآراء، وصحّح الحنفية منها أنه لا يقتضي الفساد مطلقا. وقال الشافعية: إنّه يدلّ على الفساد في العبادات وفي المعاملات إذا رجع إلى نفس العقد، أو إلى أمر داخل فيه، أو لازم له.

فإن رجع إلى أمر مقارن كالبيع وقت نداء الجمعة، فلا يدل على الفساد، والنهي فيما نحن فيه لأمر مقارن، وهو زمان الحيض، فهو عندهم لا يدل على الفساد أيضا.

وأيّد ذلك بأمر ابن عمر بالرجعة، إذ لو لم يقع الطلاق لم يؤمر بها، وقد قال اللّه تعالى: فَإِنْ طَلَّقَها فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ [البقرة: 230] وهذا يعمّ كلّ طلاق. وكذلك قوله: وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ [البقرة: 228] وقوله: الطَّلاقُ مَرَّتانِ [البقرة: 229] وقوله: وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ [البقرة: 241] وهذه كلها عمومات لا يجوز تخصيصها إلا بنص أو إجماع، والمطلقة في الحيض داخلة في هذه العمومات.

وأما

قوله صلّى اللّه عليه وسلّم: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ»

فما أصحه وما أبعده

---

(1) رواه أبو داود في السنن (2/ 228)، كتاب الطلاق، باب في طلاق السنة حديث رقم (2185).

(2) رواه مسلم في الصحيح (2/ 1093)، 18 - كتاب الطلاق، 1 - باب تحريم طلاق الحائض حديث رقم (1/ 1471)، والبخاري في الصحيح (6/ 199)، 68 - كتاب الطلاق، 1 - باب قول اللّه تعالى:

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حديث رقم (5251).

(88/768)

عن محل النزاع، فإنّ وقوع طلاق الحائض مشروع، فلا يقال فيه: إنه عمل ليس عليه أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم، فهو مردود، وتحريم الطلاق في الحيض لا يمنع ترتيب أثره وحكمه عليه، كالظهار، فإنّه منكر من القول وزور، ولا شكّ في ترتيب أثره وحكمه عليه، وهو تحريم الزوجة إلى أن يكفّر، فهكذا الطلاق البدعي محرّم، ويترتب عليه أثره، إلى أن تراجع، وكذلك القذف محرّم، ويترتب عليه أثره من الحدود والشهادة.

وكذلك وطء الزوجة في الحيض محرّم ، ويترتب عليه أثره وحكمه ، حتى ولو دخل بزوجته وهي حائض اعتبر ذلك وطأ يقرّر المهر ويوجب العدة .

وكذلك الإيمان وهو أصل العقود وأجلها وأشرفها يزول بالكلام المحرّم إذا كان كفرا ، فكيف لا يزول عقد النكاح بالطّلاق المحرم ، الذي وضع لإزالته ؟ وكذلك طلاق الهازل يقع مع تحريمه ، لأنّه لا يحلّ الهزل بآيات اللّه ، فإذا وقع طلاق الهازل مع تحريمه فطلاق الجادّ أولى أن يقع مع تحريمه .

والفرق بين النكاح المحرّم والطلاق المحرّم أنّ للنكاح عقد يتضمن حلّ الزوجة ، وملك بضعها ، فلا يكون إلا على الوجه المأذون فيه شرعا ، فإنّ الأبضاع في الأصل على التحريم ، ولا يباح منها إلا ما أباحه الشارع بخلاف الطلاق ، فإنه إسقاط لحقه ، وإزالة لملكه ، وذلك لا يتوقف على كون السبب المزيل مأذونا فيه شرعا . على أن من النكاح ما يكون محرما ويقع عقده صحيحا ، كمن عقد على مخطوبة الغير ، فإنّ الإقدام على هذا النكاح حرام ، ومع ذلك إذا وقع العقد كان صحيحا .

وأما رواية أبي الزبير عن ابن عمر فردّها عليّ ، ولم يرها شيئا ، فهي مردودة لمخالفة أبي الزبير فيها من هو أوثق منه ، قال أبو داود : والأحاديث كلّها على خلاف ما قال أبو الزبير . وقال الشافعي : ونافع أثبت عن ابن عمر من أبي الزبير عنه ، والأثبت من الحديثين أولى أن يقال به إذا تخالفا ، وكذلك قال الخطابيّ . وقال ابن عبد البر : تفرّد بهذه الرواية أبو الزبير ،

وقد روى الحديث عن ابن عمر جماعة أجلة، فلم يقل ذلك أحد منهم، وأبو الزبير ليس بحجة فيما خالفه فيه مثله، فكيف بخلاف من هو أثبت منه.

وقال بعض أهل الحديث: لم يرو أبو الزبير حديثا أنكر من هذا.

واستدل الشافعيّ بقوله تعالى: فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ على أن الأقراء الأطهار، ووجه الاستدلال به أنّ اللام هي لام الوقت، أي فطلقوهن وقت عدتهن، وقد فسر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم هذه الآية بهذا التفسير،

ففي «الصحيحين» «1» عن ابن عمر رضي اللّه عنهما أنه طلّق امرأته وهي حائض في عهد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم، فسأل عمر النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم عن ذلك، فقال

---

(1) سبق تخريجه.

رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: «مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلّق قبل أن يمسّ، فتلك العدة التي أمر اللّه أن تطلّق لها النساء»

فبيّن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنّ العدة التي أمر اللّه أن تطلق لها النساء هي الطهر الذي

بعد الحيضة ، ولو كان القرء هو الحيض كان قد طلقها قبل العدة ، لا في العدة ، وكان ذلك تطويلا عليها . ويشهد لهذا الذي ذهب إليه الشافعي قراءة ابن مسعود فطلقوهن لقبل طهرهن .

وقال الذاهبون إلى أن الأقراء الحيض : إنّ أهل العربية يفرّقون بين لام الوقت وفي التي للظرفية ، فإذا أتوا باللام لم يكن الزمان المذكور بعدها إلا ماضيا أو منتظرا ، ومتى أتوا بفي لم يكن الزمان المجرور بها إلا مقارنا للفعل ، واعتبر ذلك في قولك :

(كتبته لثلاث خلون) و(كتبته بثلاث بقين) و(كتبته في ثلاث) ففي المثال الأول تكون الكتابة بعد مضي الثلاث ، وفي المثال الثاني تكون الكتابة قبل حلول الثلاث ، وفي المثال الثالث تكون الكتابة في نفس الثلاث وفي أثنائها . إذا تقرر ذلك يكون قوله تعالى : فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ معناه فطلقوهن لاستقبال عدتهن ، لا في عدتهم ، إذ من المحال أن يكون الطلاق وهو سبب العدة واقعا في العدة ، وإذا كانت العدة التي تطلّق لها النساء مستقبلة بعد الطلاق ، فالمستقبل بعدها إنما هو الحيض ، فإنّ الطاهر لا تستقبل الطهر ، إذ هي فيه ، وإنما تستقبل الحيض بعد حالها التي هي فيها .

ولكن المعروف أن اللام إذا دخلت الوقت أفادت معنى التوقيت ، واختصاص بذلك الوقت على الاتصال ، لا استقبال الوقت ، فلا تقول : كتبته لثلاث بقين إلا إذا كنت حين الكتابة متلبسا بأولها ، فيكون معنى فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ فطلقوهنّ للوقت الذي يشرع فيه

في العدة على الاتصال بالطلاق .

واستدل بعض الناس بالآية على أنّ نفس الطلاق مباح ، فإنّه إنما نهي عنه إذا كان سببا في تطويل مدة التربص ، فاقتضى ذلك أنه إذا خلا عن هذا لم يكن منهيا عنه ، بل كان مأذونا فيه ، ولا يخفى على المنصف أنّ الآية لم تدل على أكثر من حرمة الطلاق في الحيض .

وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ أصل الإحصاء العد بالحصا ، كما كانت عادة العرب قديما ، ثم توسع فيه ، فاستعمل في ضبط العدد وإكماله ، فمعنى إحصاء العدة ضبطها وإكمالها ثلاثة قروء كوامل .

وإحصاء العدة واجب لإجزاء أحكامها فيها : من حق الرجعة للزوج ، والإشهاد عليها ، ونفقة الزوجة وسكناها ، وعدم خروجها من بيتها قبل انقضائها ، والإشهاد على فراقها إذا بانت ، وتزوج غيرها من النساء ممن لم يكن يجوز له جمعها إليها .

(90/768)

وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ في الإضرار بهنّ بتطويل العدة عليهن .

لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ نهي للأزواج عن إخراج المطلقات المعتدات من مساكنهنّ عند الطلاق إلى أن تنتهي العدة ، ونهي للمعتدات عن الخروج منها ، وفيه دليل

على وجوب السكنى لهنّ ما دمن في العدة ، وستطلع على كلام في ذلك .

وأضاف البيوت إليهنّ وهي لأزواجهنّ لتأكيد النهي ببيان كمال استحقاقهن لسكناها ، كأنّها ملك لهنّ .

واختلفت آراء الفقهاء في ملازمة المعتدة بيت الفراق ، أهو خالص حقّ الزوجين أم هو حقّ لهما وللشرع ؟

فالصحيح عند الحنفية أنّ للشرع في ذلك حقا لا يملك الزوجان إسقاطه . وعلى ذلك يكون قوله تعالى : لا تُخْرِجُوهُنَّ دالّا على حرمة إخراجهنّ بمنطوقه ، وعلى حرمة الإذن لهنّ في الخروج بإشارته ، لأنّ الإذن في المحرّم محرّم . كأنه قيل لا تخرجوهن ولا تأذنوا لهم في الخروج إذا طلبن ذلك وَلا يَخْرُجْنَ بأنفسهم إن أردن .

وذهب الشافعية إلى أن ملازمتها بيت الفراق خالص حقهما ، فلو اتفقا على الانتقال جاز ، لأنّ الحقّ لا يعدوهما ، وعليه يكون المعنى : لا تستبدّوا بإخراجهنّ ، ولا يخرجن باستبدادهنّ .

إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ اختار بعض المفسّرين أنّ الفاحشة المبيّنة هي نفس الخروج قبل انقضاء العدة . وأنّ هذا الاستثناء راجع إلى قوله تعالى : وَلا يَخْرُجْنَ والمعنى : لا يطلق لهن في الخروج إلا في الخروج الذي هو معصية وفاحشة ، ومعلوم أنه لا يطلق لهن في المعصية والفاحشة ، فيكون ذلك منعا عن الخروج على أبلغ وجه .

ومنه ما روى مسلم في «صحيحه» عن ابن عباس، وقد عرض عليه بعض الناس كتابا كانوا يزعمون أنّ فيه قضاء عليّ كرم اللّه وجهه، فقال: ما قضى بهذا علي إلا أن يكون ضلّ. يريد: أنه لم يقض بهذا أبدا، لأنه لا يقضي به إلا إذا كان قد ضلّ، ومعلوم أنّ عليا لم يضل، فهو لم يقض به، وهذا أسلوب من أساليب العربية البديعة البليغة، تقول: لا تسب أخاك إلا أن تكون قاطع رحم، ولا تزن إلا أن تكون فاسقا فاجرا. روي هذا الوجه من التأويل عن ابن عمرو والسدي وابن السائب والنخعي، وبه أخذ أبو حنيفة رحمه اللّه.

وقال ابن عباس: إلّا أن تبذو على أهله، فإذا فعلت ذلك حلّ لهم أن يخرجوها.

وقد أمر النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم فاطمة بنت قيس بالانتقال حين بذت على أحمائها.

وقال الحسن وزيد بن أسلم: الفاحشة المبيّنة الزنى، فإذا زنت أخرجت لإقامة الحد.

(91/768)

وقيل: الفاحشة المبينة تطلق على النشوز.

قال الجصاص «1»: هذه المعاني كلها يحتملها اللفظ، وجائز أن يكون جميعها مرادا، فيكون خروجها فاحشة، وإذا زنت أخرجت للحد، وإذا بذت على أهله أخرجت أيضا، قال: وما ذكرنا من التأويل المراد يدل على جواز انتقالها للعذر، لأنّ اللّه تعالى قد

أباح لها الخروج للأعذار التي وصفنا .

ولكنّك تعلم أننا إذا خرّجنا الآية على المعنى الأول فإنّها تدلّ على أنه لا يباح خروجها بحال ، فكيف يقول الجصاص : وجائز أن يكون جميع هذه المعاني مرادا ؟

وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ أي الأحكام السابقة حدود اللّه التي حدّها وعيّنها لعباده ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ أي ومن يتجاوز هذه الحدود المذكورة فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ فقد حمّل نفسه وزرا ، وأكسبها إثما ، فصار بذلك لها ظالما وعليها متعديا . أو فقد ظلم نفسه بتعريضها للضرر الدنيوي ، كما سيأتي تفصيله .

لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً هذه جملة مستأنفة مسوقة لتعليل مضمون الشرطية السابقة .

والخطاب فيها للمتعدي بطريق الالتفات ، لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدي .

والمعنى : من يتعدّى حدود اللّه فقد عرّض نفسه للضرر ، فإنك لا تدري أيها المتعدي عاقبة الأمر ، لعل اللّه يحدث في قلبك بعد الذي فعلت من التعدي أمرا يقتضي خلاف ما فعلت ، فامتثل أمر ربّك ، ولا تطلّق في الحيض ، ولا تهمل في إحصاء العدة ، ولا تخرج المعتدة من بيتها ، لا يحملنك البغض والغضب على أن تفعل شيئا من ذلك ، فإنّ الكراهة والمحبة بيد اللّه مقلب القلوب ، فعسى أن ينقلب البغض محبة والمقت مقة ، والطلاق رجعة ، فانظر لنفسك ، وأبق للصلح بابا ، ولا تبتّ حبل المودة بتا ، فتندم حين لا ينفع الندم ،

والواقع يصدّق ذلك، فإن الغالب في الطلاق أن يكون نتيجة كراهة كاذبة، أو ثورة غضب جامحة تغمر العقل، وتقوى عليه، حتى إذا تمّ الانفصال، وهدأت الأعصاب، وثاب الرجل إلى رشده، انتابته عوامل القلق والحنين إلى صحبة مضت أن تعود، وتذكّر من زوجته خلالا كان يرضاها، وقلما يخلو أحد من ذلك، كما

قال صلّى اللّه عليه وسلّم: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقا رضي خلقا»»

وقد يكون بينهما ولد، أو يظهر بها حمل، فتتأكد الرغبة فيها، والندم على طلاقها.

---

(1) انظر أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص (3/ 462).

(2) رواه مسلم في الصحيح (2/ 1091)، 17 - كتاب الرضاع، 18 - باب الوصية بالنساء حديث رقم (61/ 1469). [.....]

قال اللّه تعالى: فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (3) فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ هذا من مجاز المشارفة،

بقرينة ما بعده ، لأنّه لا يؤمر بالإمساك بعد انقضاء العدة ، أي فإذا شارفن آخر عدتهنّ فأمسكوهنّ بمعروف ، أو فارقوهنّ بمعروف ، والإمساك بالمعروف مراجعتهن مع حسن المعاشرة ، والإنفاق المناسب ، والمفارقة بالمعروف تخليتهنّ حتى تنقضي عدتهن مع إيفائهن حقهن ، واتقاء الضّرار بهن .

وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ أي وأشهدوا عند الرجعة إن اخترتموها ، أو الفرقة إن اخترتموها ، لأنّ الإشهاد يقطع النزاع ، ويدفع الريبة .

وهذا أمر ندب واستحباب في الرجعة والفرقة ، كما في قوله تعالى : وَأَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ [البقرة : 282] وللشافعي قول في القديم بوجوب الإشهاد في الرجعة ، وأنه شرط في صحتها . والجديد أنه لا يشترط لصحتها الإشهاد عليها ، بناء على الأصح أنّها في حكم استدامة النكاح لا ابتدائه ، ومن ثمّ لم يحتج فيها لولي ولا لرضاها ، وإنما يندب فيها الإشهاد لقوله تعالى : وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وصرفه عن الوجوب إجماعهم على عدم الوجوب عند الطلاق ، فكذلك عن الإمساك .

وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ أي أدوا الشهادة أيها الشهود خالصة لوجه اللّه ، وفيه دليل على وجوب إقامة الشهادات عند الحكام على الحقوق كلها ، لأنّ الشهادة هنا اسم للجنس ، وإن كان مذكورا بعد الأمر بإشهاد ذوي عدل على الرجعة أو الفرقة ، لأنّ ذكرها بعده لا يمنع استعمال اللفظ على عمومه .

ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ الإشارة إلى ما تقدّم من الحث على إقامة الشهادة لله، أو إلى ما تقدّم من الأحكام كلها، من إيقاع الطلاق على وجه السنة، وإحصاء العدة، والكف عن الإخراج والخروج، والإشهاد على الرجعة أو الفرق، وإقامة الشهادة لله، أي هذه الأحكام يوعظ بها من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، لأنه المنتفع بها.

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ هذا اعتراض جيء به لتأكيد ما سبق من الأحكام، أي وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ في كل عمله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا من هموم الدنيا ومضارها، وغمرات الموت وأهوال الآخرة وشدائدها، ويرزقه الفوز بخيري الدارين، من وجه لا يخطر بباله، وإذا كان هذا وعدا لعامة المتقين، تناول بعمومه الزوج الذي اتقى الله في الطلاق للسنة، ولم يخرج المعتدة من مسكنها، وأمسك

(93/768)

بمعروف أو فارق بمعروف، واحتاط فأشهد على ما اختار، يعد الله هذا الزوج بالخلاص مما عسى أن يقع فيه من الهموم ومشاكل الزوجية، ويفرّج عنه ما يعتريه من الكروب، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وكذلك يتناول الزوجة التي اتقت الله فيما عليها من حق، فلم تخرج من منزل عدتها، ولم تكتم ما خلق الله في رحمها، فالله يعدها على هذه التقوى

بتفريج كربها ، ورزقها من حيث لا تحتسب .

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ أي فهو كافيه جل شأنه في جميع أموره ، لأنّ اللّه هو القادر على كل شيء ، الغني عن كل شيء ، الجواد بكل شيء ، فإذا فوّض العبد الضعيف أمره إليه كفاه لا محالة ما أهمّه .

إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ إنّ اللّه يبلغ ما يريده سبحانه ، ولا يفوته مراد .

قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً أي إنّه عزّ وجل قدّر الأشياء قبل وجودها ، وعلم مقاديرها وأوقاتها ، وإذا كان كلّ شيء من الرزق وغيره لا يكون إلا بتقديره تعالى ، ولا يقع إلا حسبما علم ، لم يسع العاقل إلا التسليم للقدر ، وفي هذه الجملة كسابقتها بيان لوجوب التوكل عليه تعالى ، وتفويض الأمر إليه جلّ ثناؤه .

قال اللّه تعالى : وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (4) ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (5) أخرج الحاكم ، وصححه البيهقي في «سننه» وجماعة عن أبيّ بن كعب أنّ أناسا من أهل المدينة لما نزل قوله تعالى في سورة البقرة : وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ [البقرة : 228] قالوا : لقد بقي من عدة النساء عدد لم تذكر في القرآن : الصغار والكبار اللاتي قد انقطع عنهنّ الحيض ، وذات الحمل ، فأنزل اللّه التي في سورة النساء القصرى وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ

الْمَحِيضِ الآية «1» .

جعل اللّه عدّة الآيسة ثلاثة أشهر ، ولا خلاف بين الفقهاء في أن المرأة ما دامت ترى الحيض فهي من ذوات الأقراء ، لا تكون آيسة ولو بلغت مئة سنة .

إنما خلافهم فيمن انقطع حيضها متى تكون آيسة ، وتعتد بالأشهر ؟ ألذلك حدّ معين أم ليس له حد معين ؟

والقائلون بالتحديد مختلفون ، فمنهم من قدّره بالسنين . بخمسين سنة وبخمس وخمسين وبستين وباثنتين وستين إلى أقوال أخر ، أقصاها خمس وثمانون ، ومنهم

---

(1) انظر تفسير ابن جرير الطبري المسمى جامع البيان في تفسير القرآن (28/ 91) .

من اعتبره بيأس النساء في بلدها الذي هي فيه ، فإنّ المكان إذا كان طيب الهواء والماء كبعض الصحارى يبطئ فيها سنّ اليأس ، وقيل : يأس كل النساء إلخ .

قال أصحاب التحديد : إن اليأس يعتمد غلبة الظن ، ومهما انقطع دم المرأة فإنّها لا تزال ترجو عوده ، ولا يتأكد الظن بعدم عوده إلا إذا بلغت من السن مبلغا لا يحيض مثلها فيه ، وأمر العدد مبني على الاحتياط وطلب اليقين ما أمكن .

والقائلون بعدم التحديد يقولون : اليأس ضدّ الرجاء ، فإذا كانت المرأة قد يئست من الحيض ولم ترجه فهي آيسة ، ولو خالفت في ذلك عادة النساء جميعا ، ولو كان لها أربعون سنة أو أقل ، كما أنّها ما دامت تحيض وترى الدم وترجوه فهي ليست آيسة ، ولو كان لها سبعون سنة أو أكثر ، ولو خالفت في ذلك عادة النساء جميعا . وكما أنه يرجع في الاعتداد بالأقراء إلى عادة المعتدة نفسها ، لا إلى عادة غيرها ، كذلك يرجع في الإياس إلى كل امرأة من نفسها ، وكما أنّهم لم يجعلوا للصغر الموجب للاعتداد بالأشهر حدّا ، كذلك ينبغي ألا يكون للكبر الموجب للاعتداد بها حدا .

وينبني على الخلاف في التحديد وعدمه خلافهم في المرأة التي طلّقت ، وكانت من ذوات الأقراء ، ثم ارتفع حيضها ، بماذا تعتد ؟

فأصحاب التحديد يقولون : تنتظر حتى ترى الدم أو تبلغ حدّ اليأس ، فتعتد بثلاثة أشهر ، ولو كانت مدة التربص أكثر من عشر سنين . وهذا هو مذهب الحنفية وقول الشافعي في الجديد .

والذين لا يرون لليأس حدّا يقولون : تتربّص غالب مدة الحمل ، ثم تعتد عدة الآيسة ، ثم تحلّ للأزواج مهما كانت سنها ، قالوا : وقد صحّ عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه في امرأة طلّقت ، فحاضت حيضة أو حيضتين ، ثم ارتفعت حيضتها ، لا تدري ما رفعها ، أنّها تتربص تسعة أشهر ، فإن استبان بها حمل وإلا اعتدت ثلاثة أشهر . وقد وافقه كثير من

الفقهاء على هذا منهم مالك وأحمد والشافعي في القديم .

وكذلك اختلفوا في متعلّق الارتياب في قوله تعالى : إِنِ ارْتَبْتُمْ فقال جماعة :

إن ارتبتم في حكمهنّ فلم تدروا ما عدتهن ؟ فعدتهن ثلاثة أشهر ، وعلى ذلك يكون

الشرط بيانا للواقعة التي نزل فيها الحكم من غير قصد للتقييد ، فلا مفهوم له عند القائلين

بالمفهوم .

قال آخرون : إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس أهو دم حيض أم استحاضة ، وإذا كانت

هذه عدة المرتاب في دمها ، فغير المرتاب في دمها أولى بذلك .

وقال الزجاج : المعنى : إن ارتبتم في حيضهن ، وقد انقطع عنهن الدم ، وكن ممن يحيض

مثلهن . إلى أقوال أخر .

(95/768)

قال ابن جرير الطبري « 1 » رحمه اللّه : وأولى الأقوال في ذلك بالصحة قول من قال : عنى

بذلك إن ارتبتم فلم تدروا ما الحكم فيهنّ . وذلك أنّ معنى ذلك لو كان كما قاله من قال : إن

ارتبتم بدمائهن فلم تدروا أدم حيض أم استحاضة ، لقيل : إن ارتبتنّ ، لأنهنّ إذا أشكل

الدم عليهن فهن المرتابات بدماء أنفسهن لا غيرهن . وفي قوله : إِنِ ارْتَبْتُمْ وخطابه للرجال

بذلك دون النساء الدليل الواضح على صحة ما قلنا من أنّ معناه : إن ارتبتم أيها الرجال بالحكم فيهنّ .

وأخرى : وهي أنّه جل ثناؤه قال : وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ واليائسة من المحيض هي التي لا ترجو محيضا للكبر ، ومحال أن يقال : واللائي يئسن ، ثم يقال : ارتبتم بيأسهن ، لأن اليأس هو انقطاع الرجاء ، والمرتاب بيأسها مرجو لها ، وغير جائز ارتفاع الرجاء ووجوده في وقت واحد اه .

وهذا الذي اختاره ابن جرير وافقه عليه جمهور المفسرين ، وليس عليه اعتراض سوى أن يقال : إذا كان معنى إِنِ ارْتَبْتُمْ إن جهلتم عدتهن فسألتم عنها ، فأي فائدة في ذكر هذا الشرط بعد أن كان معلوما في كل الأحكام الشرعية أنّ اللّه أنزلها لتعليم من لا يعلم ؟

وأجابوا عن ذلك بأنّ المقصود : إن سألتم عن حكمهنّ ، وشككتم فيه ، فقد بيناه لكم أيها السائلون ، ففيه تنويه بشأن السائلين ، وبيان لنعمته تعالى عليهم حين أجاب طلبهم ، وأزال ما عندهم من الشك والريب ، بخلاف المعرض عن طلب العلم الذي لم يخطر بباله ، استوفيت عدد النساء أم لم تستوف ؟

وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ مبتدأ خبر محذوف ، أي واللائي لم يحضن كذلك ، أي عدتهن ثلاثة أشهر ، يريد أنّ المعتدة التي لم يسبق لها حيض تعتد بثلاثة أشهر ، سواء أكان عدم حيضها لصغر ، أم لعلة ، أم لمنعه بدواء .

ولا نعلم خلافا في أنّ التي لم تر الحيض أصلا تعتد بثلاثة أشهر ، مهما بلغت من السنّ ، إلا رواية عن أحمد رحمه اللّه فيمن بلغت ولم تحض أنّها تتربص تسعة أشهر غالب مدة الحمل ، فإن استبان حملها وإلا اعتدت ثلاثة أشهر ، فيكون مثلها كمثل التي ارتفع حيضها ، لا تدري ما رفعه. والرواية الثانية عن أحمد الموافقة لرأي الجمهور أنها تعتد ثلاثة أشهر ، ولم يجعلوا للصغر الموجب للاعتداد بالأشهر حدّا .

أخذ العلماء من قوله تعالى : وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ أن للإنسان أن يزوّج ولده الصغار ، لأنّ اللّه تعالى جعل على من لم تحض من النساء لصغر أو غيره عدة ، ولا يكون على الصغيرة عدة إلّا أن يكون لها نكاح.

---

(1) في تفسيره جامع البيان تفسير القرآن المشهور بتفسير الطبري (28/ 91) .

(96/768)

وظاهر العموم في قوله تعالى : وَاللَّائِي يَئِسْنَ وقوله تعالى : وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ أنّ الحرة والأمة في ذلك سواء ، فكما تعتد الحرة الآيسة أو الصغيرة بثلاثة أشهر ، كذلك تعتد الأمة الآيسة أو الصغيرة ثلاثة أشهر ، وبهذا قال أهل الظاهر وابن سيرين ومكحول ومالك ، وهو أحد الأقوال في مذهب الشافعي ، ورواية عن أحمد رحمهم اللّه .

وقال جمهور العلماء : عدة الأشهر فرع وبدل عن عدّة الأقراء ، وقد جرى عمل المسلمين من الصحابة والتابعين على أنّ عدة الأمة ذات الأقراء قرآن ، ولا يعرف في الصحابة مخالف في ذلك . وبه قال الأئمة الأربعة ، وخلائق من فقهاء الأمصار لا يحصون عدا ، ذهبوا إلى أنّها على النصف من عدة الحرة . ولولا أنّ القرء لا يمكن تنصيفه لكانت عدتها قرءا ونصفا .

ثم من هؤلاء الفقهاء من قال : عدة الأمة الآيسة والصغيرة شهران ، لأن عدتها بالأقراء قرآن ، فجعل كلّ شهر مكان قرء ، وهو أحد أقوال الشافعي ، وأشهر الروايات عن أحمد . ومنهم من قال : عدتها شهر ونصف ، لأن التصنيف في الأشهر ممكن ، فتنصفت بخلاف القروء ، ونظير هذا أنّ المحرم إذا وجب عليه في جزاء الصيد نصف مدّ أخرجه ، فإن أراد الصيام مكانه لم يجز إلا صوم يوم كامل ، وهذا هو مذهب أبي حنيفة ، والقول الثالث للشافعي ، ورواية ثالثة عن أحمد رحمهم اللّه .

ثم إنّه لا تعارض بين قوله تعالى : وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وقوله تعالى في سورة البقرة : وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ [البقرة : 228] . فإنّ آية البقرة خاصّة بذوات الأقراء ، والآيسة والتي لم تحض ليستا من ذوات الأقراء ، وهو ظاهر . إنما التعارض بين الآية التي معنا وقوله تعالى فى سورة البقرة : وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً [البقرة

: 234] فإنّ آية البقرة عامة تشمل ذوات الأقراء واللائي يئسن واللائي لم يحضن ، فتقضي بعمومها أنّ عدة الوفاة للآيسة والصغيرة أربعة أشهر وعشرا ، والآية التي معنا عامة في السبب الذي من أجله كانت العدة ، سواء أكان فرقة حي أم فرقة ميت ، فاقتضت بعمومها أنّ عدة الوفاة للآيسة والصغيرة ثلاثة أشهر ، فكان بين النصين تعارض في ظاهرهما .

لكنّ العلماء يكادون يجمعون على أنّ الآية التي معنا واردة في خصوص عدة الطلاق ، لأنّ سياق الآية ظاهر في ذلك ، وحينئذ يكون اعتداد الآيسة والصغيرة ثلاثة أشهر خاصا بالمعتدات المطلقات ، فلا يكون بين الآيتين تعارض .

وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ أجل الشيء مدته كلها ، وأجله أيضا آخر

(97/768)

مدته ، والمراد بالأجل هنا آخر المدة التي تتربصها المرأة ، أي آخر عدتهن أن يضعن حملهن ، وظاهر هذا أنّ المعتدة الحامل تنتهي عدتها بوضع الحمل ، سواء أكانت معتدة عن طلاق أم عن وفاة ، فتكون الآية معارضة لآية البقرة ، وهي قوله تعالى :

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً لأن بين الآيتين

عموما وخصوصا من وجه . وذلك أنّ آية البقرة أعم من التي معنا في المعتدات ، إذ تشمل الحامل وغير الحامل ، وأخص من التي معنا في سبب العدة وهو الوفاة وعلى العكس من ذلك الآية التي معنا ، فكان التعارض واقعا بينهما في القدر الذي اجتمعتا عليه واشتركتا فيه ، وهو عدة المتوفى عنها الحامل ، فآية البقرة تجعل عدتها أربعة أشهر وعشرا ، والآية التي معنا تجعل عدتها مدة حملها ، فمتى وضعت فقد انقضت عدتها .

ومن أجل هذا التعارض اختلف السلف في عدة المتوفى عنها إذا كانت حاملا ، فقال علي وابن عباس وجماعة من الصحابة رضي اللّه عنهم : تعتد بأبعد الأجلين من وضع الحمل أو أربعة أشهر وعشرا ، وهذا أحد القولين في مذهب مالك رحمه اللّه ، واختاره سحنون .

وقال جمهور الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة : إنّ عدتها تنتهي بوضع الحمل ، ولو كان الزوج على مغسله فوضعت حلّت .

فمن ذهب إلى أبعد الأجلين احتجّ بأنّ النصين متعارضان على ما سمعت ، ولا يمكن تخصيص العموم في أحدهما بالخصوص في الآخر ، لأنّ ذلك إلغاء ، ولا يصار إلى الإلغاء إلا إذا تعذّر الجمع ، والجمع هنا ممكن ، فكان هو المتعين ، وبالاعتداد بأبعد الأجلين يحصل الجمع بين النصين ، لأنّ مدة الحمل إن زادت فقد تربصت أربعة أشهر وعشرا مع الزيادة ، وإن قصرت وتربصت المدة فقد وضعت وتربصت ، فيحصل العمل بمقتضى الآيتين .

وأنت تعلم أنّ هذا إنما هو جمع بين المدتين ، ولا يعدّ جمعا بين النصين .

وإعمالا لعموم كل منهما في مقتضاه ، وذلك أنها إذا وضعت الحمل قبل أربعة أشهر وعشر ثم حكمنا عليها بأنها لا تزال في العدة ، كان ذلك إهدارا لمقتضى الحصر والتوقيت في قوله تعالى : وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فإنّه ظاهر في أنه لا عدة عليها بعد وضع الحمل ، وأنها حلال للأزواج متى وضعت حملها .

وأصحاب هذا الرأي يحرمونها على الأزواج ، ويلزمونها القرار في مسكن العدة إلى أن تنتهي أربعة الأشهر والعشر . فكيف يقال بعد ذلك إنّهم عملوا بمقتضى الآية التي معنا ؟ وكذلك يقال فيمن مضى عليها أربعة أشهر وعشر ولم تضع حملها إذا ألزمناها

الاعتداد إلى وضع الحمل ، كان ذلك إهدارا لمقتضى الحصر والتوقيت في قوله تعالى : يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً وهو ظاهر . فلم يكن في هذا المذهب جمع بين النصين ، بل فيه إهدار لأحد النصين لا محالة .

أما الجمهور الذين قالوا : إنّ عدتها تنتهي بوضع الحمل فقط ، فدليلهم على ذلك : أنّ السنة الصريحة دلت على اعتبار الحمل فقط . كما

في «الصحيحين» «1»

أنّ سبيعة بنت الحرث الأسلمية كانت تحت سعد بن خولة ، فتوفي عنها وهي حامل ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تعلّت من نفاسها تجمّلت للخطاب ، فدخل عليها أبو السنابل ، فقال لها : ما لي أراك متجملة ؟ لعلك ترجين النكاح إنّك واللّه ما أنت بناكح حتى تمرّ عليك أربعة أشهر وعشر . قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي ، وأمرني بالتزوّج إن بدا لي .

وصحّ أيضا أنّ أبا سلمة بن عبد الرحمن وابن عباس اجتمعا عند أبي هريرة وهما يذكران المرأة تنفس بعد وفاة زوجها بليال فقال ابن عباس : عدّتها آخر الأجلين . وقال أبو سلمة : قد حلت ، فجعلا يتنازعان ذلك فقال أبو هريرة : أنا مع ابن أخي - يعني أبا سلمة - ، فبعثوا كريبا - مولى ابن عباس - إلى أم سلمة رضي اللّه عنها يسألها عن ذلك ، فجاءهم ، فأخبرهم أنّ أمّ سلمة قالت : إنّ سبيعة الأسلمية نفست بعد وفاة زوجها بليال ، وإنها ذكرت ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فأمرها أن تتزوّج «2» .

وروى الضياء في «المختارة» وابن مردويه وغيرهما عن أبي بن كعب قال : قلت للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن أهي المطلقة ثلاثا والمتوفى عنها ؟ قال : «هي المطلقة ثلاثا والمتوفى عنها» .

فجاءت السنة مبيّنة أنّ قوله تعالى : وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ عام في

المطلقة والمتوفى عنها ، وأنّ عموم الآية مراد ، وإن كان السياق يقتضي أنها خاصة بالمطلقات ، فصارت الآية بعد بيان السنة ناصّة على أنّ عدة الحامل المتوفى عنها تنتهي بوضع الحمل فقط ، والآية التي معنا نزلت بعد آية البقرة ، كما أخرج أبو داود

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (2/ 1121) ، 11 - كتاب الطلاق ، 6 - باب المطلقة ، حديث رقم (53/ 1482) ، والبخاري في الصحيح (6/ 223) ، 68 - كتاب الطلاق ، 39 - باب وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ حديث رقم (5318) .

(2) رواه مسلم في الصحيح (2/ 1122) ، 18 - كتاب الطلاق ، 8 - باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها ، حديث رقم (57/ 1485) ، والبخاري في الصحيح (6/ 79) ، 65 - كتاب التفسير 25 - باب وَأُولاتُ الْأَحْمالِ حديث رقم (4909) .

(99/768)

والنسائي وابن ماجه عن ابن مسعود «1» رضي اللّه عنه أنه قال : من شاء باهلته أنّ الآية التي في سورة النساء الصغرى وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ إلخ نزلت بعد سورة البقرة بكذا وكذا شهرا .

وفي البخاري «2» عنه أيضا أشهد لنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى فتكون الآية

التي معنا ناسخة لآية البقرة فيما اجتمعتا عليه ، واشتركتا فيه ، فصار المراد من الأزواج في قوله تعالى : وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً الآية غير الحوامل من المتوفى عنهن .

ومن الناس من قال : الآية التي معنا خاصة بالمطلقات كما هو ظاهر السياق .

وآية البقرة خاصّة بالمتوفى عنهن ، فلا تعارض بينهما ، غير أنّ السنة الصحيحة وردت بإخراج الحوامل من عموم الأزواج في قوله تعالى : وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً فجعلت المراد منهن غير الحوامل ، فكانت آية البقرة مخصوصة بالسنة ، وكان حكم الحوامل المتوفى عنهنّ معلوما من السنة لا من الكتاب .

ومنهم من قال : الآية التي معنا أخصّ مطلقا مما في سورة البقرة ، وبيان ذلك أنّ اللّه ذكر في سورة البقرة حكم المطلقات من النساء ، وحكم المتوفى عنهنّ في آيتين على التفريق ، ثم وردت هذه الآية التي معنا بعدهما مخصّصة في البابين معا ، ولا شك أنّ المستفاد من آيتي البقرة هو أنّ عدة المعتدات الحوامل وغير الحوامل إما ثلاثة قروء ، وإما أربعة أشهر وعشر ، وأن المستفاد من الآية التي معنا أنّ عدة المعتدات الحوامل تنتهي بوضع الحمل ، فكانت الآية معنا أخص مطلقا من آيتي البقرة ، وقد نزلت بعدهما ، فكانت مخصّصة لهما . واللّه أعلم .

واقتضى قوله تعالى : أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ أنّ العدة تنقضي بوضع الحمل ، وأنّ المرأة إذا وضعت حملها فقد حلّت للأزواج ، ولا يتوقف حلّها على طهرها من النفاس خلافا

للشعبي والحسن وإبراهيم النخعي وحماد ، فإنّهم قالوا : لا يصحّ زواجها حتى تطهر من نفاسها ، واحتجوا بقوله في

حديث سبيعة : «فلما تعلّت من نفاسها»

أي طهرت منه ، ولا حجة لهم فيه ، لأنّ ذلك إخبار عنه وقت سؤالها ، ولذلك

قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنها حلت حين وضعت»

ولم يعلّل بالطهر من النفاس .

وكذلك اقتضى قوله تعالى : أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ أنها إذا كانت حاملا بتوأمين لم

---

(1) رواه أبو داود في السنن (2/ 276) ، كتاب الطلاق ، باب عدة الحامل حديث رقم (2307) ، وابن ماجه في السنن (1/ 654) ، 10 - كتاب الطلاق ، 7 - باب الحامل حديث رقم (2030) ، والنسائي في السنن (5 - 6/ 508) ، كتاب الطلاق ، باب عدة الحامل حديث رقم (13522) .

(2) رواه البخاري في الصحيح (6/ 79) ، 65 - كتاب التفسير ، 2 - باب وَأُولاتُ الْأَحْمالِ حديث رقم (4910) .

تنقض عدتها حتى تضعهما جميعا ، واقتضى أيضا أن العدة تنقضي بوضع الحمل ، سواء أكان حيا أم ميتا ، تام الخلقة أم ناقصها ، نفخ فيه الروح أم لم ينفخ .

وظاهر العموم في قوله تعالى : وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أنّ الحرة الأمة في الاعتداد بوضع الحمل سواء ، ولا نعلم خلافا في ذلك بين العلماء .

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً أي ومن يخف اللّه فيأتمر بما أمر به وينته عما نهى عنه يسهّل عليه أمره كله .

ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ الإشارة إلى ما تقدّم من الأحكام كلّها يقول تعالى ذكره : هذا الذي بينت لكم من حكم الطلاق والرجعة والعدة أمر اللّه أنزله إليكم لتأتمروا له ، وتعملوا به وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ يمح ذنوبه من صحائف أعماله ، ولا يؤاخذه بها إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ [هود : 114] وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ويضاعف له جزاء حسناته ، ويجزل له المثوبة على عمله .

قال اللّه تعالى : أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى (6) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ أي أسكنوهنّ بعض مكان سكناكم مِنْ وُجْدِكُمْ بدل : أو عطف بيان لقوله تعالى : مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ . والوجد : الوسع ، أي أسكنوهنّ من وسعكم ، ومما تطيقونه .

وظاهر قوله تعالى : أَسْكِنُوهُنَّ يقتضي وجوب السكنى لكل مطلقة ، سواء أكانت رجعية أم بائنا ، وسواء أكانت حاملا أم غير حامل .

وظاهر قوله تعالى : وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ يقتضي بمنطوقه وجوب النفقة للمطلقات الحوامل ، سواء أكنّ رجعيات أم بوائن ، وبمفهومه عند القائلين به أنه لا نفقة لغير الحامل ، سواء أكانت رجعية أم بائنا .

وقد أجمع العلماء على أنّ للرجعية السكنى والنفقة ، أما السكنى فلقوله تعالى : أَسْكِنُوهُنَّ وقوله تعالى : لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ أما النفقة فلأنّ الرجعية كالزوجة في بقاء حبس الزوج وسلطته عليها ، فكان إجماعهم على وجوب النفقة لها ، ولو لم تكن حاملا مخصّصا لمفهوم قوله تعالى : وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ لغير الرجعية عند القائلين بالمفهوم .

وكذلك على أن للبائن الحامل السكنى والنفقة ، لقوله تعالى : أَسْكِنُوهُنَّ وقوله تعالى : وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ .

أما البائن غير الحامل فقد اختلف العلماء في سكناها ونفقتها على ثلاثة أقوال :

أحدها : وجوب السكنى والنفقة .

والثاني : عدم وجوبهما .

والثالث : وجوب السكنى دون النفقة .

فأما وجوب السكنى والنفقة فهو قول عمر بن الخطاب ، وابن مسعود ، وكثير من فقهاء الصحابة والتابعين . وهو مذهب أبي حنيفة والثوري وسائر فقهاء الكوفة :

احتجوا لوجوب السكنى بقوله تعالى : أَسْكِنُوهُنَّ فهو أمر بالسكنى لكل مطلقة . ولوجوب النفقة بأنها جزاء الاحتباس ، وهو مشترك بين الحائل والحامل ، ولو كان الإنفاق جزاء للحمل لوجب في ماله إذا كان له مال ، ولم يقولوا به .

وقوله تعالى : وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ ليس للشرط فيه مفهوم مخالفة ، بل فائدته أن الحامل قد يتوهم أنها لا نفقة لها لطول مدة الحمل ، فأثبت لها النفقة ، ليعلم غيرها بطريق الأولى فهو من مفهوم الموافقة . وقد قال عمر رضي الله عنه : لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم لقول امرأة لا ندري جهلت أم نسيت . يريد قول فاطمة بنت قيس حين طلّقها زوجها البتّة : لم يجعل لي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم سكنى ولا نفقة .

وأما القول بأنها لا سكنى لها ولا نفقة فهو مروي عن ابن عباس وأصحابه ، وجابر بن عبد اللّه ، وفاطمة بنت قيس من فقيهات نساء الصحابة ، وكثير من التابعين ، وإليه ذهب

إسحاق وداود وأحمد وسائر أهل الحديث ، وحجتهم في ذلك حديث فاطمة بنت قيس الذي اتفق على صحته المحدثون .

أخرج مسلم «1» وغيره عن فاطمة بنت قيس أنّ أبا عمرو بن حفص طلّقها البتة وهو غائب ، فأرسل إليها وكيله بشعير فسخطته ، فقال : واللّه مالك علينا من شي ء ، فجاءت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فذكرت ذلك له فقال : «ليس لك عليه نفقة» وفي رواية «لا نفقة لك ولا سكنى»

، وفي أخرى للنسائي «2»

«إنما النفقة والسكنى للمرأة إذا كان لزوجها عليها الرجعة» .

وقالوا : وقوله تعالى : أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ إنما هو في الرجعيات خاصة ، لأنّ اللّه تعالى ذكر للمطلقات في هذه السورة أحكاما متلازمة ، لا ينفك بعضها عن بعض :

أحدها : أن الأزواج لا يخرجوهن من بيوتهن .

والثاني : أنّهن لا يخرجن .

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (2/ 1114) ، 18 - كتاب الطلاق ، 6 - باب المطلقة حديث رقم (1480) .

(2) رواه مسلم في الصحيح (2/ 1118) ، 18 - كتاب الطلاق ، 6 - باب المطلقة ،

حديث رقم (44/ 1480) ، والنسائي في السنن (5 - 6/ 518 - 519) ، كتاب الطلاق ، باب الرخصة في خروج المبتوتة ، حديث رقم (3547 - 3551) .

(102/768)

والثالث : أنّ لأزواجهن إمساكهن بالمعروف قبل انقضاء الأجل ، أو فرقتهن بالمعروف .

والرابع : إشهاد ذوي عدل ، وهو إشهاد على ما اختار من الرجعة والفرقة ، وأشار سبحانه إلى حكمة ذلك ، وأنّه في الرجعيات خاصة بقوله لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً والأمر الذي يرجى إحداثه هاهنا هو المراجعة ، كما قال السلف ، ثم ذكر سبحانه الأمر بإسكان هؤلاء المطلقات فقال : أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ فكان الظاهر من سياق الكلام ونظمه أنّ الضمائر كلها متّحد مفسرها ، وأحكامها كلها متلازمة . وكان قول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنما النفقة والسكنى للمرأة إذا كان لزوجها عليها رجعة»

مفسّرا لكتاب اللّه ، ومبيّنا للمراد منه ، وأنّ الأمر بالإسكان إنما هو في خصوص الرجعيات .

قالوا : ولو سلمنا أنّ الآية عامة في الرجعيات والبوائن لكان الحديث مخالفا لعمومها ،

وحينئذ يكون الحديث مخصصا لعموم الآية ، فحكمها حكم تخصيص العام من الكتاب بالخاص من السنة ، وهو كثير .

قالوا : وإذا بانت المرأة من زوجها صارت أجنبية ، ولم يبق إلّا مجرد اعتدادها منه ، وذلك لا يوجب لها نفقة كالموطوءة بشبهة أو زنى ، ولأنّ النفقة إنما تجب في مقابلة التمكين في الاستمتاع ، والبائن لا يمكن استمتاعه بها بعد بينونتها ، ولأنّ النفقة لو وجبت عليه لأجل عدتها لوجبت للمتوفى عنها من ماله ، ولا قائل به .

وأما القول بأنّ لها السكنى دون النفقة : فهو رأي فقهاء المدينة ، وإليه ذهب مالك والشافعي ، واحتجوا لوجوب السكنى بظاهر العموم في قوله تعالى : أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ ولعدم وجوب النفقة بحديث فاطمة بنت قيس مع ظاهر قوله تعالى : وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فإنّ مفهومه أنهنّ إذا لم يكن حوامل لا ينفق عليهن ، قالوا : وحديث فاطمة صحيح لا ننكر صحته ، ولكنه قد خالف في السكنى ظاهر العموم في قوله تعالى : أَسْكِنُوهُنَّ ويجب قبيل القول بالتخصيص أو النسخ الجمع بين الحديث والآية ما أمكن . وقد جاء في «الصحيحين» عن عائشة وغيرها أنّ فاطمة كانت امرأة لسنة ، وأنها استطالت على أحمائها ، فأمرها النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم بالانتقال من مسكن فراقها .

وفي «صحيح البخاري» عن عائشة رضي اللّه عنها أنها قالت : إنّ فاطمة كانت في مكان

وحش ، فخيف على ناحيتها ، فلذلك أرخص النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لها .

وفي «صحيح مسلم» «1» عن هشام عن أبيه عن فاطمة نفسها قالت : قلت : يا

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (2/ 1121) ، 18 - كتاب الطلاق ، 6 - باب المطلقة حديث رقم (53/ 1481) .

(103/768)

رسول اللّه ، زوجي طلّقني ثلاثا ، وأخاف أن يقتحم علي ، قال : فأمرها فتحوّلت . فلما كان من الممكن حمل إسقاط السكنى في الحديث على أنّه كان لاستطالتها على أحمائها ، أو لخوفها أن يقتحم عليها ، أو لهما معا ، تعيّن تأويل الحديث على هذا المعنى ، للجمع بينه وبين الآية ، وصار المراد من الحديث أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم أذن لها في الانتقال لعذر ، وهذا لا ينافي وجوب السكنى للمعتدة البائن .

قال الجصاص «1» في حديث فاطمة بنت قيس : وهذا حديث قد ظهر من السلف النكير على راويه ، ومن شرط قبول أخبار الآحاد تعرّيها من نكير السلف اه .

ولما كان هذا ردّا لحديث صححه المحدثون ، وأخذ به جمع من الفقهاء والأئمة العارفين بعلل الأحاديث وطرق الجرح والتعديل ، أحببنا أن نذكر خلاصة للمطاعن التي وردت

على هذا الحديث مع بيان ما فيها .

روى مسلم في «صحيحه» «2» عن الأسود بن يزيد أنّ عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال – وقد ذكر له قول فاطمة بنت قيس – : لا نترك كتاب اللّه وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري لعلها حفظت أو نسيت ، لها السكنى والنفقة ، قال اللّه تعالى : لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .

وروى ابن حزم في «المحلى» والجصاص في «أحكام القرآن» «3» عن حماد بن سلمة عن حماد بن أبي سليمان أنه أخبر إبراهيم النخعي بحديث الشعبي عن فاطمة ابنت قيس ، فقال له إبراهيم : إنّ عمر بن الخطاب أخبر بقولها فقال : لسنا بتاركي آية في كتاب اللّه وقول النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم لقول امرأة لعلها أوهمت ! سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول :

«لها السكنى والنفقة» «4»

. وفي النسائي «5» أن الأسود بن يزيد سمع الشعبي يحدّث بحديث فاطمة بنت قيس ، فأخذ كفا من حصباء فحصبه وقال : ويلك لم تفتي بمثل هذا ؟ قال عمر رضي اللّه عنه : إن جئت بشاهدين يشهدان أنهما سمعاه من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وإلا لم نترك كتاب ربنا لقول امرأة .

وروى مسلم في «صحيحه» «6» أن مروان بن الحكم قال في حديث فاطمة : لم نسمع

هذا إلا من امرأة سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها .

---

(1) انظر أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص (3/ 461) .

(2) رواه في الصحيح (2/ 1118) ، 18 - كتاب الطلاق ، 6 - باب المطلق حديث رقم (46/ 1480) .

(3) انظر أحكام القرآن للجصاص (3/ 460) .

(4) رواه مسلم في الصحيح (2/ 1118) ، 18 - كتاب الطلاق ، 6 - باب المطلقة ، حديث رقم (44/ 1480) .

(5) رواه النسائي في السنن (5 - 6/ 518) ، كتاب الطلاق حديث رقم (3547) .

[. . . . . .]

(6) في الصحيح (2/ 1118) ، 18 - كتاب الطلاق ، 6 - باب المطلقة حديث رقم (41/ 1480) .

وحاصل هذه المطاعن يرجع إلى أربعة أمور :

الأول : أنّ راويته امرأة .

والثاني : أنّها لم تأت بشاهدين يتابعانها على حديثها .

والثالث : أن روايتها تضمنت مخالفة القرآن .

والرابع : أن روايتها خالفت السنة .

فأما أنها امرأة ، فإنّ ذلك لا ينبغي أن يعدّ مطعنا ، فإن أحدا من أصحاب الجرح والتعديل لم يقل بأنّ الأنوثة من الأمور التي تردّ بها الرواية ، ولم يختلفوا في أنّ السنن تؤخذ عن المرأة كما تؤخذ عن الرجل ، وكما أنّ في الرجال عدالة وضبطا كذلك في النساء عدالة وضبط ، وكم من سنة تلقتها الأئمة بالقبول عن امرأة ، وهذه مسانيد نساء الصحابة بأيدي الناس ، لا تشاء أن ترى فيها سنة تفرّدت بها امرأة منهنّ إلا رأيتها .

وأما أنّها لم تأت بشاهدين ، فذلك أيضا ليس بجرح ترد له الرواية ، ولم يشترط أحد في الرواية نصابا ، ولم يكن طلب عمر الشهادة على الرواية وكذلك تحليف عليّ كرّم اللّه وجهه ، إلا تثبتا منهما رضي اللّه عنهما ، حتّى لا يركب الناس الصعب والذلول في الرواية عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم .

وقد نقل مثل ذلك عن عمر رضي اللّه عنه في حديث أبي موسى الأشعري في الاستئذان حتّى شهد له أبو سعيد الخدري رضي اللّه عنه ، وفي حديث المغيرة بن شعبة في إملاص المرأة حتى شهد له محمد بن مسلمة «1» كلّ ذلك كان تثبتا منه رضي اللّه عنه ، وتحذيرا من الإكثار في الرواية عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، لأنّه كان يعتبر الشهادة شرطا في

قبول الرواية ، وإلا فقد قبل عمر خبر الضحاك بن سنان الكلابي وحده ، وقبل لعائشة رضي اللّه عنها عدّة أخبار تفرّدت بها .

وأما أن روايتها تضمنت مخالفة القرآن ، فقد أجبنا عنه في تقرير مذهب أهل الحديث في سكنى البائن ونفقتها ، وحاصله أنّ الآية إما أن تكون خاصّة بالرجعيات كما هو ظاهر السياق ، وإما أن تكون عامة في الرجعيات والبوائن .

فإن كانت خاصة بالرجعيات فلا مخالفة بينها وبين حديث فاطمة ، وهو ظاهر ، وإليه ذهب الإمام أحمد ، رحمه اللّه ، روى عنه أصحابه أنّه أنكر هذا من قول عمر ، وجعل يتبسم ويقول : أين في كتاب اللّه إيجاب السكنى والنفقة للمطلّقة ثلاثا ؟ وأنكرته قبله الفقيهة الفاضلة فاطمة بنت قيس راوية الحديث ، وقالت : بيني وبينكم كتاب اللّه ، قال اللّه تعالى : لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا وأي أمر يحدث بعد الثلاث ؟

---

(1) رواه البخاري في الصحيح (8/ 190) ، 97 - كتاب الاعتصام ، 13 - باب ما جاء في اجتهاد القضاء ، حديث رقم (7317) ، (7318) .

وإن كانت الآية عامة في الرجعيات والبوائن ، فليس هذا أوّل موضع خصّص فيه الكتاب بالسنة ، فآية المواريث خصّصت بالسنة الدالة على أن الكافر والقاتل والرقيق لا يرثون ، وقوله تعالى : وَأُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ [النساء : 24] خصّص بقوله صلّى اللّه عليه وسلّم :

«لا تنكح المرأة على عمتها» الحديث .

وأما أنّ روايتها تضمنت مخالفة السنة فلا نجد سنة مخافة لحديث فاطمة ، إلا روايتين عن عمر رضي اللّه عنه :

إحداهما : قوله لا ندع كتاب ربّنا وسنة نبينا ، وهذا له حكم المرفوع .

والثانية : قوله سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : «لها السكنى والنفقة» .

أما الرواية الأولى عن عمر فقد قال فيها الإمام أحمد رحمه اللّه : لا يصحّ ذلك عن عمر رضي اللّه عنه وقال أبو الحسن الدار قطني قوله : «وسنة نبينا» هذه زيادة غير محفوظة ، لم يذكرها جماعة من الثقات ، بل السنة بيد فاطمة بنت قيس قطعا ، ومن له إلمام بسنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يشهد شهادة اللّه أنه لم يكن عند عمر رضي اللّه عنه سنة عن رسول اللّه أنّ للمطلقة ثلاثا السكنى والنفقة .

وأمّا الرواية الثانية : فلم يخرّجها فيما نعلم إلا ابن حزم والجصّاص عن حماد عن إبراهيم أنّ عمر إلخ ومعلوم أنّ إبراهيم لم يولد إلا بعد وفاة عمر بسنين ، فالخبر منقطع ، وقد أنكره

علماء الحديث ، وصرّح ابن القيم بأنّه مكذوب على عمر ، وأنه لو كان هذا عند عمر عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لخرست فاطمة وذووها ، ولما فات هذا الحديث أئمة الحديث والمصنفين في السنن والأحكام ، فإن كان مخبر أخبر به إبراهيم عن عمر رضي اللّه عنه ، وأحسنّا به الظن ، كان قد روى قول عمر بالمعنى ، وظنّ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم هو الذي حكم بثبوت النفقة والسكنى للمبتوتة حين قال عمر : لا ندع كتاب ربنا لقول امرأة .

وقد تناظر في هذه المسألة ميمون بن مهران وسعيد بن المسيّب فذكر له ميمون خبر فاطمة بنت قيس فقال سعيد : تلك امرأة فتنت الناس .

فقال له ميمون : لئن كانت إنما أخذت بما أفتاها به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ما فتنت الناس ، وإنّ لنا في رسول اللّه أسوة حسنة اه .

ولا نعلم أحدا من الفقهاء إلّا وقد احتجّ بحديث فاطمة بنت قيس هذا ، وأخذ به في بعض الأحكام . وقد ذكر النووي في «شرحه على صحيح مسلم» ستة عشر حكما استنبطها العلماء من هذا الحديث .

وإذا قد تبيّن أنّ هذه المطاعن مردودة ولم يقدح شيء منها في صحة الحديث لزم القائلين بوجوب السكنى والنفقة للمبتوتة أن يجمعوا بينه وبين الآية ما أمكنهم الجمع ، وإلا فالنسخ أو التخصيص .

وقد سلك الجصاص «1» في تأويل الحديث طريقة أقرب إلى الصواب، وأخفّ في الاستهجان من رد الحديث وإنكاره، والطعن فيه بغير مطعن، قال: وللحديث عندنا وجه صحيح يستقيم على مذهبنا فيما روته من نفي السكنى والنفقة، وذلك أنّه قد روي أنها قد استطالت بلسانها على أحمائها، فأمروها بالانتقال، فلما كان سبب النقلة من جهتها، كانت بمنزلة الناشزة، فسقطت نفقتها وسكناها جميعا اه.

والخطاب في قوله تعالى: أَسْكِنُوهُنَّ وقوله تعالى: فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ للأزواج، فاقتضى ذلك بظاهره أنّ السكنى والنفقة إنما تكونان للزوجات المطلقات، لا المتوفى عنهن من الزوجات.

وقد روى الدار قطني «2» بإسناد صحيح عنه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال: «ليس للحامل المتوفّى عنها زوجها نفقة»

فالمتوفّى عنها غير الحامل أولى ألا يكون لها نفقة.

ولا نعلم خلافا في ذلك إلا ما روي عن علي وابن مسعود رضي اللّه عنهما أنهما كانا يقولان بوجوب النفقة للمتوفّى عنها من التركة، وظاهر الآية والسنة الصحيحة على خلاف ما

يقولان .

فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ أي فإن أرضعن لكم بعد انقضاء عدتهن بوضع حملهن فأدوا إليهنّ أجورهن على الإرضاع ، والتزموا ذلك لهن .

دلّ هذا على أنّ الأمّ إذا رضيت أن ترضع ولدها بأجر المثل ، فهي أحقّ به ، لوفور شفقتها ، فهي أولى بحضانته وإرضاعه من كل أحد ، وليس للأب أن يسترضع غيرها حينئذ .

ودلّ على أنّ الأجرة إنما تستحق بالفراغ من العمل ، لا بالعقد ، لأنّ الله أوجبها بعد الرضاع ، بقوله : فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ .

ودلّ أيضا على أنّ نفقة الولد الصغير على أبيه ، لأنّه إذا لزمه أجرة الرضاع فكفايته ألزم ، ومن ثمّ أجمعوا على ذلك في طفل لا مال له ، وألحق به بالغ عاجز كذلك ، لخبر هند بنت عتبة «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف» «3» .

وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ أي ليأمر بعضكم بعضا بجميل في الإرضاع والأجر وغيرهما .

---

(1) انظر أحكام القرآن للجصاص (3/ 462) .

(2) رواه الدار قطني في السنن (4/ 21) .

(3) رواه مسلم في الصحيح (3/ 1338) ، 30 - كتاب الأقضية ، 4 - باب قضية هند حديث رقم (1714) ، والبخاري في الصحيح (3/ 24) ، 34 - كتاب البيوع ، 44 - باب من أجرى أمر الأمصار حديث رقم (2211) .

وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ أي ، وإن ضيّق بعضكم على بعض في الأجرة ، أو في الرضاع ، كأن تشتطّ الأمّ في الأجرة ، أو تأبى الرضاع ، أو يشاح الأب في أجرة المثل فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى الكلام على معنى : فليطلب له الأب مرضعة أخرى ، وبذلك يظهر الارتباط بين الشرط والجزاء .

وإنما اختير ما في النظم الجليل ليكون فيه نوع من المعاتبة للأمّ ، كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيأبى : سيقضيها غيرك ، أي ستقضي وأنت ملوم ، ففيه تنبيه على أنّ الأمّ لا ينبغي لها أن تعاسر في رضاع ولدها ، فإنّ المبذول من جهتها هو لبنها لولدها ، ولبنها غير متموّل ، ولا مضنون به في العرف والعادة ، وخصوصا من الأم للولد ، وليس كذلك المبذول من جهة الأب ، فإنّه المال المضنون به عادة ، فكانت الأمّ أجدر باللوم ، وأحقّ بالعتب .

ودلّ قوله تعالى : وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى على أنّها إذا طلبت أكثر من أجر المثل ، فللأب أن يسترضع غيرها ممن يرضى بأجرة المثل ، إذا قبل الصبيّ ثدي الأجنبية ، ولم يحصل له ضرر بلبنها ، وإلا أجبرت الأمّ على إرضاعه بأجرة المثل .

قال اللّه تعالى : لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (7) قدّر اللّه الرزق : ضيّقه ، ولم

يبسطه .

دلت الآية على أنّ نفقة الزوجات والأقارب متفاوتة بحسب اليسار والإعسار .

ولم تقدّر الآية في النفقة شيئًا معينا ، لا كيلا ولا وزنا ، ولا نوعا من الطعام ، بل أحالت ذلك على العادة ومتعارف الناس في نفقاتهم ، فدلّ ذلك على أنّ النفقة ليست مقدرة شرعا ، وإنما تتقدّر بالاجتهاد على مجرى العادة بحسب حال المنفق وكفاية المنفق عليه .

وأيد ذلك ما أثبت عنه صلّى اللّه عليه وسلّم من أنه ردّ الأزواج في النفقة إلى المعروف ، وهو ما جرى عليه الناس في عرفهم .

ففي «صحيح مسلم» «1» أنه صلّى اللّه عليه وسلّم قال في خطبة الوداع : «واتقوا اللّه في النساء ، فإنكم أخذتموهنّ بأمان اللّه ، واستحللتم فروجهنّ بكلمة اللّه ، ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف» .

وفي «الصحيحين» «2»

أنّ هند امرأة أبي سفيان قالت له : إنّ أبا سفيان رجل

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (2/ 886) ، 15 - كتاب الحج ، 18 - باب في المتعة بالحج حديث رقم (146/ 1218) .

(2) سبق تخريجه .

شحيح ليس يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم .

فقال : «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف» .

ولقد جعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم نفقة المرأة مثل نفقة الخادم ، وسوّى بينهما في عدم التقدير ، وردهما إلى المعروف ،

فقال في الزوجات : «ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف»

وقال في الخادم : «للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف» «1»

ولا ريب أنّ نفقة الخادم غير مقدرة ، ولم يقل أحد بتقديرها ، فكذلك نفقة الزوجة .

ولم يحفظ عن أحد من الصحابة قط تقدير النفقة ، لا بمدّ ولا برطل ، بل المحفوظ عنهم والذي اتصل به العمل في كل عصر ومصر أنّهم كانوا ينفقون على أهليهم الخبز والإدام من غير تقدير ولا تمليك .

وصحّ عن ابن عباس في قوله تعالى : مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ [المائدة : 89] الخبز والزيت . وعن عمر : الخبز والسمن ، والخبز والتمر ، ومن أفضل ما تطعمون الخبز واللحم ، ومثل هذا مرويّ عن عليّ وابن مسعود وابن عمر وأبي موسى الأشعري وأنس بن مالك

من الصحابة رضوان الله عليهم ، وروي مثله عن كثير من التابعين .

وبعدم تقدير النفقة قال الجمهور من فقهاء الأمصار .

وخالف الشافعي وأبو يعلى «2» فقدّرا نفقة الأزواج ، إلا أنّ أبا يعلى قدّرها بالخبز ، فجعل الواجب رطلين من الخبز في كل يوم في حق الموسر والمعسر ، اعتبارا بالكفّارات ، فإنّها لا تختلف قلة وكثرة باختلاف اليسار والإعسار ، وإنما تختلف جودة ورداءة ، لأنّ الموسر والمعسر سواء في قدر المأكول ، وما تقوم به البنية ، وإنما يختلفان في جودته ، فكذلك النفقة الواجبة .

وأما الشافعي فإنّه قدرها بالحبّ ، فجعل على الفقير مدا ، وعلى الموسر مدّين ، وعلى المتوسط مدّا ونصفا ، قال أصحاب الشافعي : نفقة الزوجات متفاوتة ومقدرة بالمد ، ومعينة الجنس وهو الحبّ ، فهذه ثلاث دعاوى :

أما أصل التفاوت فدليله قوله تعالى : لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ .

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (3/ 1284) ، 27 - كتاب الأيمان ، 10 - باب إطعام المملوك ، حديث رقم (41/ 1662) .

(2) القاضي أبو الحسين بن الفراء البغدادي الحنبلي ، كان مفتيا مناظرا عارفا بالمذهب

ودقائقه، صلبا في السنة كثير الحط على الأشاعرة توفي سنة (526 ه) انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد (2/ 79).

(109/768)

وأما التقدير بالأمداد وتعيين الحب: فبالقياس على الكفارة، بجامع أنّ كلّا مال وجب بالشرع، ويستقر في الذمة، وأكثر ما وجب في الكفارات لكل مسكين مدان، مثل كفارة الحلق في النسك.

وأقل ما وجب له مد في كفارة اليمين ونحوه، والمد يكتفي به الزهيد، وينتفع به الرغيب، فلزم الموسر من الأزواج الأكثر، والمعسر منهم الأقل، والمتوسط ما بينهما.

وأيضا فإنّ النفقة عليهنّ في مقابلة التمتع بهنّ، وشرف القوامة عليهنّ، فاقتضى ذلك تقديرها كما يقدر كل ذي مقابل، وإنما لم تعتبر الكفاية كنفقة القريب لأنّها تجب للمريضة والشبعانة.

وليس في الآية الكريمة أكثر من الدلالة على أنها متفاوتة، وما اقتضاه حديث هند من تقديرها بالكفاية يجاب عنه بأنّه لم يقدّرها بالكفاية فقط، بل بها بحسب المعروف، وما ذكر من توزيع الأمداد بحسب اليسار والإعسار هو المعروف المستقر في العقول، ولو فتح

للنساء باب الكفاية من غير تقدير لوقع التنازع لا إلى غاية ، فتعيّن ذلك التقدير اللائق بالعرف .

قالوا : وقد روي التقدير في الكفارات عن الصحابة ، فعن عمر في كفارة اليمين : لكل مسكين صاع من تمر أو شعير ، أو نصف صاع من بر . ومثله عن عائشة .

وعن علي : نصف صاع لكل مسكين .

وعن زيد بن ثابت : يجزئ لكل مسكين مدّ حنطة ، وروي مثله عن ابن عمر ، وابن عباس ، وابن المسيّب ، وابن جبير ، ومجاهد ، والقاسم ، وسالم ، وأبي سلمة .

وقال سليمان بن يسار : أدركت الناس وهم يطعمون في كفارة اليمين مدّا بالمد الأول .

قالوا : وثبت في «الصحيحين» «1» أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم قال لكعب بن عجرة في كفارة فدية الأذى : «أطعم ستة مساكين نصف صاع طعاما لكل مسكين»

فدلّ ذلك على أنّ الإطعام في الكفارات مقدّر بالأمداد من الحبّ المقتات ، فجعلنا ذلك أصلا ، وعدّيناه إلى نفقة الزوجات لما تقدم .

ومعلوم أنّ الشافعية لم يقولوا بتقدير نفقة الزوجة إلا عند تنازع الزوجين ، أمّا إذا تراضيا على أن تأكل من بيته ، فأكلت قدر كفايتها ، كان ذلك إنفاقا عليها ، وليس لها

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (2/ 859) ، 15 - كتاب الحج ، 10 - باب جواز حلق

الرأس حديث رقم (80/ 1201) ، والبخاري في الصحيح (5/ 185) ، 65 - كتاب التفسير ، 32 - باب (فمن كان منكم مريضا) حديث رقم (4517) .

(110/768)

أن تطالبه بنفقة عن المدة التي أكلتها عنده ، سواء أأكلت معه أم وحدها ، أم أضافها شخص إكراما له ، كل ذلك يعتبر إنفاقا عليها ، ويسقط نفقتها ، لإطباق الناس عليه في زمنه صلّى اللّه عليه وسلّم وبعده ، ولم ينقل خلافه .

واختار جمع من أصحاب الشافعي أنّ نفقة الزوجات معتبرة بالكفاية لا بالأمداد ، لقوة الدليل على ذلك ، حتى قال الأذرعي «1» : لا أعرف لإمامنا رضي اللّه عنه سلفا في التقدير بالأمداد ، ولولا الأدب لقلت : الصواب أنها بالمعروف تأسيا واتباعا اه .

والمأمور بالإنفاق في قوله تعالى : لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ إلخ الآباء الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى : فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ومن ثمّ كانت الآية أصلا في وجوب النفقة للولد على الأب دون الأمّ .

ودلّ قوله تعالى : لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها على أنه لا فسخ بالعجز عن الإنفاق على الزوجة ، لأنه قد تضمّن أنه إذا لم يقدر على النفقة لم يكلفه اللّه الإنفاق في هذه الحال ، فلا

يجوز إجباره على الطلاق من أجل النفقة ، لأنّ فيه إيجاب التفريق لشيء لم يجب عليه ، وكذلك قوله تعالى : سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا يدلّ على أنه لا يفرّق بينهما من أجل عجزه عن النفقة ، لأنّ العسر يرجى له اليسر ، كما قال اللّه تعالى : وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ [البقرة : 280] وبهذا قال أهل الظاهر ، وهو مذهب أبي حنيفة وصاحبيه ، وأحد قولي الشافعي رواية عن أحمد رحمهم اللّه .

وعلى هذا لا يلزمها تمكينه من الاستمتاع ، لأنّه لم يسلم إليها عوضه ، كما لو أعسر المشتري بثمن المبيع لم يجب تسليمه إليه .

وعلى الزوج تخلية سبيلها ، لتكتسب ، وتحصل ما تنفقه على نفسها ، لأنّ في حبسها بغير نفقة إضرارا بها .

والقول بالفسخ مذهب مالك ، وأظهر قولي الشافعي ، ورواية عن أحمد رحمهم اللّه ، وحجتهم في ذلك خبر الدار قطني والبيهقي في الرجل لا يجد شيئا ينفق على امرأته يفرّق بينهما . قالوا : وقضى به عمر رضي اللّه عنه ، ولم يخالفه أحد من الصحابة ، وقال ابن المسيّب : إنّه من السنة .

قالوا : وقد شرع الفسخ بالعنة لإزالة الضرر ، والضرر الذي يلحقها بعدم النفقة أشدّ من ضررها بالعنة ، فكان الفسخ بالعجز عن النفقة أولى من الفسخ بالعنة .

وفي تخلية سبيلها للكسب تشويش على الحياة الزوجية ، وإخلال بالسكن الذي

(1) أحمد بن حمدان أبو العباس شهاب الدين ، فقيه شافعي ولد بأذرعات الشام وتفقه بالقاهرة استقر في حلب وتوفي فيها سنة (783 ه) انظر الأعلام للزركلي (1/ 119) .

(111/768)

هو ثمرة الزواج ، وما بقاء الزوجية بعد أن خلينا سبيلها ، ورفعنا يد الزوج عنها ، ولم نلزمها تمكينه من استمتاع بها ؟

وقد تناظر في ذلك مالك وغيره فقال مالك : أدركت الناس يقولون : إذا لم ينفق الرجل على امرأته يفرّق بينهما .

فقيل له : قد كانت الصحابة رضي اللّه عنهم يعسرون ويحتاجون .

فقال مالك : ليس الناس اليوم كذلك ، إنما تزوجته رجاء اه .

ومعنى كلامه إنّ نساء الصحابة رضي اللّه عنهم كنّ يردن الدار الآخرة وما عند اللّه ، ولم يكن مرادهنّ الدنيا ، فلم يكن يبالين بعسر أزواجهن ، لأن أزواجهنّ كانوا كذلك ، وأما النساء اليوم ، فإنما يتزوجن رجاء دنيا الأزواج ونفقتهم وكسوتهم ، فالمرأة إنما تدخل اليوم على رجاء الدنيا ، فصار هذا المعروف كالمشروط في العقد ، وكان عرف الصحابة رضي اللّه عنهم كذلك كالمشروط في العقد ، والشرط العرفي في أصل مذهبه كاللفظي .

وفي المسألة مذهبان آخران :

أحدهما : أنه إذا أعسر بنفقتها حبس حتى يجد ما ينفقه ، وهذا مذهب حكاه الناس عن عبيد اللّه بن الحسن العنبري قاضي البصرة ، وهو مذهب غير معقول ، لأنّه إذا حبس فمن أين يجد النفقة ؟ ولعلّ العنبري من القائلين بالتفريق للإعسار ، وأنه يريد أنّ الحاكم إذا أمره بالطلاق فامتنع حبسه حتى يطلّق ، أو يظهر له مال ، وإلا فالكلام على ظاهره بيّن البطلان .

والثاني : أنه لا فسخ ، وعليها نفقة نفسها إن كانت غنية ، وإن عجز الزوج عن نفقة نفسه أيضا كلّفت المرأة الإنفاق عليه ، وهو مذهب ابن حزم ، قال في «المحلى» :

فإن عجز الزوج عن نفقة نفسه وامرأته غنية كلّفت النفقة عليه ، لا ترجع بشيء من ذلك إن أيسر . وهذا المذهب مع بطلانه ومخالفته قواعد الشرع وعمل الناس أقرب إلى العقل من مذهب العنبري واللّه الموفق .

ودلّت الآية أيضا على أنّه ينبغي للإنسان مراعاة حال نفسه في النفقة والصدقة ، وفي الحديث : «إنّ المؤمن أخذ عن اللّه أدبا حسنا ، إذا هو وسع عليه وسع ، وإذا هو قتر عليه قتر» «1» . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير آيات الأحكام / للسايس صـ 772. 798 ﴾

---

(1) رواه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (6/ 239) .

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى:

«سورة الطّلاق» (65)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً» (3) منتهى..

«وَاللَّائِي يَئِسْنَ» (4) واحدها ذات..

«وَأُولاتُ الْأَحْمالِ» (4) واحدها ذات..

«مِنْ وُجْدِكُمْ» (6) من سعتكم، من الجدة. انتهى انتهى. اهـ ﴿مجاز القرآن جـ 2 صـ 260﴾

فصل في ذكر آيات الأحكام في السورة الكريمة

قال العلامة القنوجي :

سورة الطلاق

إحدى واثنتا عشرة آية

وهي مدنيّة ، قال القرطبي «1» : في قول الجميع .

[الآية الأولى]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً (1) .

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ : نادى النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أولا تشريفا له ثم خاطبه مع أمته ، أو الخطاب له خاصة والجمع للتعظيم ، وأمته أسوته في ذلك . والمعنى إذا أردتم تطليقهن وعزمتم عليه .

فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ : أي مستقبلات لعدتهن ، أو في قبل عدتهن ، أو لقبل عدتهن ، أو لزمان عدتهن وهو الطهر .

والمراد أن تطلقوهن في طهر لم يقع فيه جماع ثم يتركن حتى تنقضي عدتهن فإذا طلقتموهن هكذا فقد طلقتموهن لعدتهن .

وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ: أي احفظوها واحفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق حتى تتم العدة وهي ثلاثة قروء، والخطاب للأزواج، وقيل: للزوجات، وقيل: للمسلمين على العموم. والأول أولى لأن الضمائر كلها لهم «2».

---

(1) انظره في «تفسيره» (18/147).

(2) انظر: زاد المسير (8/288)، جامع الأمهات لابن الحاجب (ص 319)، مغني المحتاج

وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ: فلا تعصوه فيما أمركم ولا تضاروهن.

لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ: أي التي كن فيها عند الطلاق ما دمن في العدة، وأضاف البيوت إليهن مع كونها لأزواجهن لتأكيد النهي وبيان كمال استحقاقهن للسكنى في مدة العدة، ومثله: وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ [الأحزاب: 34]، وقوله: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ [الأحزاب: 33].

ثم لما نهى الأزواج عن إخراجهن من البيوت التي وقع الطلاق وهن فيها، نهى الزوجات عن الخروج أيضا فقال: وَلا يَخْرُجْنَ: أي من تلك البيوت ما دمن في العدة إلا لأمر ضروري

وقيل : المراد لا يخرجن من أنفسهن إلا إذا أذن الأزواج لهن ، فلا بأس ، والأول أولى .

إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ : فهذا الاستثناء هو من الجملة الأولى ، أي لا تخرجوهن من بيوتهن ، لا من الجملة الثانية .

قال الواحدي : أكثر المفسرين على أن المراد بالفاحشة هنا الزنا ، وذلك أن تزني فتخرج لإقامة الحد عليها .

وقال الشافعي وغيره : هي البذاء في اللسان والاستطالة به على من هو ساكن معها في ذلك البيت .

ويؤيد هذا ما قال عكرمة : إن في مصحف أبيّ : إلّا أن يفحشن عليكم وقيل : المعنى إلا أن يخرجن تعديا ، فإن خروجهن على هذا الوجه فاحشة ، وهو بعيد .

وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ : يعني أن هذه الأحكام التي بينها لعباده هي حدوده التي حددها لهم ليس لأحد أن يتجاوزها إلى غيرها .

وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ : أي يتجاوزها إلى غيرها أو يحل شيئا منها .

فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ : بإيرادها موارد الهلاك وأوقعها في مواقع الضرر ، بعقوبة اللّه له

(3/ 384) ، شرح الزركشي على الخرقي (5/ 534 ، 535) ، مشكل القرآن للقيسي (2/ 384) ، الكشاف للزمخشري (4/ 557) ، وحاشية الجمل على الجلالين

(4/ 359) ، الكافي لابن قدامة (2/ 925) ، المحرر لأبي البركات (2/ 103) .

والروضة الندية (2/ 69) ، مراتب الإجماع لابن حزم (ص 87) .

(115/768)

على مجاوزته لحدوده وتعديه لرسمه .

لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً (1) قال القرطبي «1» : قال جميع المفسرين أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة ، والمعنى التحريض على الطلاق الواحدة ، والنهي عن الثلاث . فإنه إذا طلق ثلاثا أضر بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة في الارتجاع ، فلا يجد إلى المراجعة سبيلا .

وقال مقاتل : بعد ذلك ، أي بعد طلقة أو طلقتين أمرا بالمراجعة .

قال الواحدي : الأمر الذي يحدث أن يوقع في قلب الرجل المحبة لرجعتها بعد الطلقة والطلقتين .

قال الزجاج : وإذا طلقها ثلاثا في وقت واحد ؟ ! فلا معنى لقوله : لعل اللّه يحدث بعد ذلك أمرا .

[الآيتان : الثانية والثالثة] فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3) .

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ : أي قاربن انقضاء أجل العدة .

فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ : أي راجعوهن بحسن معاشرة ورغبة فيهن من غير قصد إلى مضارة لهن .

أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ : أي اتركوهنّ حتى تنقضي عدتهنّ ، فيملكن نفوسهن مع بقائهن بما هو لهن عليكم من الحقوق وترك المضارة لهن .

وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ : على الرجعة ، وقيل : على الطلاق ، وقيل : عليهما قطعا للتنازع وحسما لمادة الخصومة . والأمر للندب كما في قوله : وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ [البقرة : 282]

---

(1) انظر تفسيره (18/ 156 ، 157) .

وقيل : إنه للوجوب . وإليه ذهب الشافعي .

قال : الإشهاد واجب للرجعة مندوب إليه في الفرقة ، وإليه ذهب أحمد بن حنبل ، وفي قول للشافعي : إن الرجعة لا تفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق . وروي نحو هذا عن أبي حنيفة وأحمد .

وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ : هذا أمر للشهود بأن يأتوا بما شهدوا به تقربا إلى اللّه .

وقيل : الأمر للأزواج بأن يقيموا الشهادة عند الرجعة فيكون قوله : وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ أمرا بنفس الإشهاد ، ويكون قوله : وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ ، أمرا بأن تكون خالصة للّه «1» .

ذلِكُمْ : أي ما تقدم من الأمر بالإشهاد وإقامة الشهادة .

يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ : وخص المؤمن .

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لأنه المنتفع بذلك دون غيره .

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2) مما وقع فيه من الشدائد والمحن .

وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ أي من وجه لا يخطر بباله ولا يكون في حسابه .

قال الشعبي والضحاك : هذا في الطلاق خاصة ، أي من طلق كما أمر اللّه يكن له مخرج في الرجعة في العدة وأنه يكون كأحد الخطاب بعد العدة .

قال الكلبي : ومن يتق اللّه بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجا من النار إلى الجنة .

وقال الحسن: مخرجا مما نهى اللّه عنه.

وقال أبو العالية: مخرجا من كل شيء ضاق على الناس.

وقال الحسين بن الفضل: ومن يتق اللّه في أداء الفرائض يجعل له مخرجا من العقوبة، ويرزقه الثواب من حيث لا يحتسب، أي يبارك له فيما آتاه.

وقال سهل بن عبد اللّه: ومن يتق اللّه في اتباع السنة يجعل له مخرجا من عقوبة

---

(1) انظر: الأحكام لابن العربي (1813)، والناسخ والمنسوخ (2/ 391)، الفرّاء (3/ 162)، المجاز (2/ 259)، ابن قتيبة (471)، الطبري (28/ 93).

أهل البدع، ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب، وقيل غير ذلك.

وظاهر الآية العموم، ولا وجه للتخصيص بنوع خاص، ويدخل ما فيه السياق دخولا أوليا.

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ: أي ومن يثق باللّه فيما نابه كفاه ما أهمه.

إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ: أي بالغ ما يريده من الأمر، لا يفوته شيء ولا يعجزه مطلوب، أو نافذ أمره لا يرده شيء.

قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (3) : أي تقديرا وتوقيتا أو مقدارا ، فقد جعل اللّه سبحانه للشدة أجلا تنتهي إليه وللرخاء أجلا ينتهي إليه .

وقال السدي : هو قد الحيض والعدة «1» .

[الآية الرابعة] وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (4) .

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ : من الكبار اللاتي قد انقطع حيضهن وأيسن منه .

إِنِ ارْتَبْتُمْ : أي شككتم وجهلتم كيف عدتهن .

فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ : لصغرهن وعدم بلوغهن سن المحيض ، أي فعدتهن ثلاثة أشهر أيضا ، وحذف هذا لدلالة ما قبله عليه .

وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ : أي انتهاء عدتهن وضع الحمل ، وظاهر الآية أن عدة الحوامل هي بالوضع سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن ، وقد تقدم الكلام في هذا في سورة البقرة «2» مستوفى ، وحققنا البحث في هذه الآية وفي الآية الأخرى :

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً .

---

(1) انظر : الفراء (3/ 163) ، زاد المسير (8/ 296) .

(2) سورة البقرة : آية (233) .

وقيل : معنى إِنِ ارْتَبْتُمْ : إن تيقنتم .

ورجح ابن جرير «1» أنه بمعنى الشك ، وهو الظاهر .

قال الزجاج : إن ارتبتم في حيضها وقد انقطع عنها الحيض وكانت ممن تحيض مثلها .

وقال مجاهد : إِنِ ارْتَبْتُمْ أي لم تعلموا عدة الآيسة والتي لم تحض ، فالعدة هذه .

وقيل : المعنى إن ارتبتم في الدم الذي يظهر منها هل هو حيض أم لا بل استحاضة ، فالعدة ثلاثة أشهر «2» .

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (4) : أي من يتقيه في امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، يسهل عليه أمره في الدنيا والآخرة .

وقال الضحاك : من يتق اللّه فيطلق للسّنّة ، يجعل له من أمره يسرا في الرجعة .

وقال مقاتل : من يتق اللّه في اجتناب معاصيه ، يجعل له من أمره يسرا في توفيقه للطاعة .

[الآيتان : الخامسة والسادسة]

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ

بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (6) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (7) .

---

(1) انظر: الطبري (28/ 96) . [. . . . .]

(2) انظر: كفاية الأخيار (ص 424) ، جامع الأمهات (ص 318، 319) ، شرح الزركشي على الخرقي (5/ 555) ، والإشراف (4/ 282) ، والإجماع لابن المنذر (4470) ، والإفصاح للوزير (2/ 174) ، مراتب الإجماع لابن حزم (ص 87) ، مغني المحتاج (5/ 388) ، الروضة للمصنف (2/ 69) .

(119/768)

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ: هذا بيان ما يجب للنساء من السكنى، و(من) للتبعيض، أي بعض مكان سكناكم، وقيل: زائدة.

مِنْ وُجْدِكُمْ: أي من سعتكم وطاقتكم.

والوجد: القدرة.

قال الفراء: يقول على من يجد، فإن كان موسعا وسع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيرا فعلى قدر ذلك.

قال قتادة : إن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه .

وقد اختلف أهل العلم في المطلّقة ثلاثا هل لها سكنى ونفقة أم لا ؟

فذهب مالك والشافعي إلى أن لها السكنى ولا نفقة لها .

وذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أن لها النفقة والسكنى .

وذهب أحمد وإسحق وأبو ثور إلى أنه لا نفقة لها ولا سكنى ، وهذا هو الحق .

وقد قرره الشوكاني في «شرحه للمنتقى» «1» بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره .

وَلا تُضارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ : في المسكن والنفقة .

وقال مجاهد : في المسكن .

وقال مقاتل : في النفقة .

وقال أبو الضحى : هو أن يطلقها فإذا بقي يومان من عدتها راجعها ثم طلقها .

وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ : أي إلى غاية هي وضعهن للحمل .

ولا خلاف بين العلماء في وجوب النفقة والسكنى للحامل المطلقة .

فأما الحامل المتوفى عنها زوجها ، فقال علي وابن عمر وابن مسعود وشريح والنخعي والشعبي وحماد وابن أبي ليلى وسفيان وأصحابه : ينفق عليها من جميع المال حتى تضع .

وقال ابن عباس وابن الزبير وجابر بن عبد اللّه ومالك والشافعي وأبو حنيفة

---

(1) حقا ما قاله المصنف وانظر : نيل الأوطار (7/ 105 ، 108) .

وأصحابه: لا ينفق عليها إلا من نصيبها، وهذا هو الحق للأدلة الواردة في ذلك من السنة.

فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ: أولادكم بعد ذلك.

فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ أي أجور إرضاعهن. والمعنى أن المطلقات إذا أرضعن أولاد الأزواج المطلّقين لهن منهن، فلهن أجورهن على ذلك.

وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ: هو خطاب للأزواج والزوجات، أي تشاوروا بينكم بمعروف غير منكر، وليقبل بعضكم من بعض المعروف والجميل.

وأصل معناه: ليأمر بعضكم بعضا بما هو متعارف بين الناس غير منكر عندهم.

قال مقاتل: المعنى ليتراض الأب والأم على أجر مسمى. قيل: فالمعروف الجميل من الزوج أن يوفر لها الأجر، والمعروف الجميل منها أن لا تطلب ما يتعاسره الزوج من [الأجر] «1».

وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ: أي في أجر الرضاع، فأبى الزوج أن يعطي الأم الأجر وأبت الأم أن ترضعه إلا بما تريد من الأجر.

فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى (6): أي يستأجر مرضعة أخرى ترضع ولده، ولا يجب عليه أن يسلم

بما تطلبه الزوجة، ولا يجوز له أن يكرهها على الإرضاع بما يريد من الأجر.

قال الضحاك: إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإن لم تقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر.

لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ: فيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسائهم على قدر سعتهم.

وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ: أي كان رزقه بمقدار القوت أو مضيقا ليس بموسع.

فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ: أي مما أعطاه من الرزق ليس عليه غير ذلك.

لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها: أي ما أعطاها من الرزق، فلا يكلف الفقير بأن ينفق ما ليس في وسعه، بل عليه ما يقدر عليه وتبلغ إليه طاقته مما أعطاه اللّه من الرزق.

سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (7): أي بعد ضيق وشدة سعة وغنى «2». انتهى انتهى.

اهـ ﴿نيل المرام صـ 449.456﴾

---

(1) وقع في «المطبوعة» (الأب) وهو خطأ صوبناه من فتح القدير (5/ 245).

(2) انظر: تفسير القرطبي (18/ 169).

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الطلاق

سورة الطلاق تسمى سورة النساء الصغرى. وقد أودع الله فيها جملة أحكام تتصل بالأسرة، وتقيم كيانها على أسس سليمة، وتعالج ما قد يعرض لها من علل ومتاعب. وأسلوب السورة كلها وحدة موضوعية جديرة بالتأمل العميق، وتدل ! على ترابط الآيات وتماسك سياقها فى إبراز حقيقة معينة. وليس فى السورة حكم فقهى من اجتهادى الخاص، وإنما اخترت من اجتهادات الأقدمين ما يناسب هذا التفسير وما يوافق رأيى. . ولمن شاء مخالفتى فلست مكرها أحدا على وجهة نظر لى. فى صدر السورة نداء للنبى عليه الصلاة والسلام لأنه قائد الأمة وإمام الهدى ! ومناداة الرسول فى شأن يشيع يين أفراد الأمة كلها يشير إلى أن الأمر مهم، وأنه يخرج من النطاق الفردى الخاص إلى النطاق الجماعى العام. والواقع أن الطلاق يتجاوز الرجل الذى أوقعه، إلى امرأته، وأولادهما وأسرتيهما، فلابد من وضع ضوابط له، حتى لا يكون صدوره بإرادة مفردة بابا إلى الطيش والتظالم. . ومن هنا حدد الشارع له وقتا معينا ؟ فلا يجوز فى أثناء الحيض والنفاس، ولا يجوز بعد طهر مس امرأته فيه، وينبغى أن يحضره شاهدان. وعلى الزوجة إذا سمعت الطلاق، أن تبقى فى بيت الزوجية، فليس ما سمعته إجهازا على الحياة الزوجية وإنما هو

إنذار بالقضاء عليها ، وبقاؤها حيث هى مطلوب ، فقد تستأنف هذه الحياة مع تغير الظروف التى دفعت إلى الطلاق . إن ثورات الغضب قد تتلاشى وتتغلب بواعث الوئام خلال شهرين أو ثلاثة ، وذاك معنى الآية الأولى " يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا " .

(122/768)

وقد لاحظت أن الإيمان بالغيوب والانبعاث عن تقوى الله تكرر خلال الآيات والأحكام الفقهية ، حتى يمكن تفريج الأزمات العائلية الباعثة على الشقاق بالاعتماد على الله ومغالبة الأمر الواقع " ومن يتق الله يجعل له مخرجا " . وذكر الوحى الكريم تفصيلات للإنفاق فى السراء والضراء وبيانات لحالات الإرضاع وغيرها . وبدا من الإرشاد الإلهى أن الله سبحانه لا يريد أن يتحول الطلاق إلى كارثة اجتماعية كالحة ، وألا يفقد المسلمون أدبهم وتواصلهم مع هذه المحنة . . ومع ذلك كله ، فإن الطلاق كما مارسه المسلمون اقترن بمآس كئيبة . فمن الناحية الفقهية وقع الاعتراف بالطلاق البدعى ، وانتشر الحلف

بالطلاق، كما انتشر تعليقه على التوافه المحقرة، وسطرت فى كتب الفقه نوادر لوقوع الطلاق تستدعى العجب. ولا يزال الأوروبيون ينظرون إلى سهولة الطلاق وميوعة حدوده عندنا نظرة إنكار، وهى ميوعة اختلقها الناس ولا يعرفها الإسلام. ويكاد يستحيل أن تسمع امرأة الطلاق وتبقى فى البيت، كما يكاد يندر وقوع الطلاق داخل النطاق الذى رسمته السنة النبوية من طهر، واعتزال! وإشهاد.. والفقهاء المتربصون بمصير الأسرة المرحبون بتمزيق عراها لأتفه الأسباب والأقوال، لا حصر لهم.. وقد أضر ذلك إضرارا بليغا بسمعة الإسلام وانتشار رسالته، واستغله أعداؤه استغلالا واسعا..

ولذلك فأنا انظر إلى النصف الثانى من السورة على أنه امتداد وتكميل لنصفها الأول، وتحذير لأمتنا من العبث بأحكام الطلاق. ويبدأ، ذلك بقوله تعالى: "وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا * فذاقت وبال أمرها . . . " . إلخ. وليتدبر القارئ قوله تعالى فى إحكام الطلاق: "ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا " . وقوله بعد ذلك "وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله. . "إن السياق متماسك، ولفظ الأمر واحد. ولا يجوز لأمة شرفها الله بالوحى والهدى أن تفرط

وتعبث وتجعل نظام الأسرة فى مجتمعها لغوا ! ! كما لا يجوز أن تبعثر العقبات فى طريق الدعوة وانتشار الرسالة بسوء تطبيقها للإسلام وسوء تنفيذها لأحكامه !

وأخيرا تختم السورة بهذه الآية الدالة على أن الله خلق الكون لنعرفه، وأنزل الوحى لنتبعه؟ وبين الكون الدال على الله بصمته، والوحى الهادر بنطقه يعرف المسلمون طريقهم " الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما " . هذه سورة الطلاق أدعو كل مسلم لقراءتها مرة أخرى، على ضوء ما شرحت لعله واجد فيها ما يهدى ويجدى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 467.465﴾

(124/768)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والستون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والستون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من (سورة الطلاق)

وحتى الآية ﴿ 7 ﴾ من السورة

(5/769)

" فصل "

قال السيوطي :

سورة الطلاق

أقول: لما وقع في سورة التغابن: (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ) وكانت عداوة الأزواج تفضي إلى الطلاق ، وعداوة الأولاد قد تفضي إلى القسوة ، وترك الإنفاق عليهم ، عقب ذلك بسورة فيها ذكر أحكام الطلاق ، والإنفاق على الأولاد والمطلقات بسببهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 140 ﴾

(6/769)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ

يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (1) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي له جميع صفات الكمال (الرحمن) الذي عم برحمته النوال (الرحيم) الذي خص بالرحمة ذوي الهمم العوال .

لما ختمت التغابن بأنه تعالى شكور حليم عزيز حكيم مع تمام العلم وشمول القدرة ، بعد التحذير من النساء بالعداوة ، وكانت العداوة تجر إلى الفراق ، افتتح هذه بزم لأنفس عند ثوران الحظوظ بزمام التقوى ، وأعلى الخطاب جداً بتوجيهه إلى أعلى الخلق تنبيهاً على عظمة الأحكام الواردة في هذه السورة فإنها مبنية على الأسماء الأربعة لتتلقى بغاية الرغبة فقال : ﴿ يا أيها النبي ﴾ مخصصاً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ذاكراً الوصف الذي هو سبب التلقي لغرائب العلوم ورغائب الحكم والفهوم .

ولما علم من الإقبال عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عظمة الحكمة ، ومن التعبير في النداء بأداة التوسط التي لا تذكر في أمر مهم جداً أن الذي هو أقرب أهل الحضرة غير مقصود بها

من كل وجه ، وأن القصد التنبيه لجلالة هذه الأحكام ، وبذل الجهد في تفهيمها والعمل بها ، فلذا أقبل على الأمة حين انتبهوا وألقوا أسماعهم ، فقال معبراً بأداة التحقق لأنه من أعظم مواضعها : ﴿ إذا طلقتم ﴾ وعلم من ذلك عموم الحكم له ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكن لما كان للإنسان مع نسائه حالان أحدهما المشاححة ، كان غيره أولى بالخطاب فيه ، وثانيهما الجود والمصالحة بالحلم والعفو ، فكان هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ أولى بذلك فجاءت له سورة التحريم ﴿ النساء ﴾ أي أردتم طلاق هذا النوع واحدة منه فأكثر ﴿ فطلقوهن ﴾ أي إن شئتم مطلق طلاق ثلاثاً أو دونها ، وكلما قل كان أحب بدليل ما يأتي من لواحق الكلام من الإشارة إلى الرجعة ﴿ لعدتهن ﴾ أي في وقت أو عند استقبال العدة أي استقبال طهر يحسب منها ، وهو الطهر الذي لم يجامع فيه إن كانت مدخولاً بها ، ذلك معنى قراءة ابن عباس وابن عمر ـ رضى الله عنه ـم " في قبل عدتهن " فهذا طلاق السنة وغيره طلاق البدعة ، فإن الطلاق في الحيض تطويل للعدة لأنه غير محسوب ، ولا بد أن يكون الطهر لم يجامع فيه لأنها إذا جومعت ربما حملت فطالت العدة ، وهذه اللام للوقت مثلها في " كتب هذا لخمس بقين من شهر كذا " واختير التعبير بها لأنها تفهم مع ذلك أن ما دخلت عليه كالعلة الحاملة على متعلقها ، فصار كأنه قيل : طلقوا لأجل العدة وإذا كان لأجلها علم أن المراد تخفيفها على المرأة بحسب الطاقة لأن مبنى الدين على اليسر ، وذلك دال على أن العدة بالأسهار ، وأن الطلاق في الحيض حرام لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده

، ولا يدل على عدم الوقوع لأن النهي غير مستلزم للفساد ، وقد بين ذلك كله " حديث ابن عمر - رضى الله عنهما - في طلاقه زوجته في الحيض الذي كان سبب

(8/769)

النزول ، فغضب النبي - صلى الله عليه وسلم - وأمره أن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم إن شاء أمسك وإن شاء طلق قبل أن يمس "

وعلم أن من عدتها بغير الأقراء التي يمكن طولها وقصرها وهي غير المدخول بها والتي لم تحض والآئسة والحامل لا سنة في طلاقها ولا بدعة ، وكذا للخالعة لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - أذن لثابت بن قيس - رضى الله عنه - في الخلع من غير استفصال عن حال امرأته لأنه إنما يكون في الغالب عن تشاجر وتساؤل من المرأة ، ويقع الطلاق البدعي لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - أمر ابن عمر - رضى الله عنهما - بالمراجعة منه ، ويأثم به بعد العلم ، ولو طلق في الحيض وراجع جاز له أن يطلق حال انقضاء الحيض قبل المجامعة ، والأمر بالإمساك إلى كمال الطهر والحيض الذي بعده للندب حتى لا يكون في صورة من راجع للطلاق ، ولا بدعة في جمع الثلاثة لأنه لا إشارة إليه في الآية ولا في حديث ابن عمر - رضى الله عنهما - الذي هو سببها ، نعم قد يدعي ذلك في آية البقرة في قوله تعالى :

﴿ الطلاق مرتان ﴾ [البقرة : 229] و " الطلاق أبغض الحلال إلى الله " كما رواه أبو داود وابن ماجه عن ابن عمر - رضى الله عنهما - فأبغضه إليه أنهاه " وما حلف به ولا استحلف إلا منافق " كما في الفردوس عن أنس - رضى الله عنه - .

ولما كان نظر الشارع إلى العدة شديداً لما فيها من الحكم بالتأني لاحتمال الندم وبالظن لبراءة الرحم احتياطاً للأنساب وبقطع المنازعات والمشاجرات المفضية إلى ذهاب الأموال والارواح ، وقد أفهمه التعبير باللام ، صرح به بصيغة الأمر فقال : ﴿ وأحصوا ﴾ أي اضبطوا ضبطاً كأنه في إتقانه محسوس بعد الحصي ﴿ العدة ﴾ لتكملوها ثلاثة أقراء كما تقدم الأمر به ليعرف زمان النفقة والرجعة والسكنى وحل النكاح لأخت المطلقة مثلاً ونحو ذلك من الفوائد الجليلة .

(9/769)

ولما كان الطلاق على غير هذا الوجه حراماً للضرار ومخالفة الأمر وكذا التهاون في الضبط حتى يحتمل أن تنكح المرأة قبل الانقضاء ، أمر بمجانبة ذلك كله بقوله : ﴿ واتقوا ﴾ أي في ذلك ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الخلق والأمر لذاته في الزمن والإحصاء لأن في ذلك ما هو حقه ﴿ ربكم ﴾ أي لإحسانه في تربيتكم في حملكم على الحنيفية السمحة

ودفع جميع الآصار عنكم.

ولما أمر بالتقوى وناط بعضها بصفة الإحسان فسره بقوله: ﴿لا تخرجوهن﴾ أي أيها الرجال في حال العدة ﴿من بيوتهن﴾ أي المساكن التي وقع وهي سكنهن، وكأنه عبر بذلك إشارة إلى أن استحقاقها لإيفاء العدة به في العظمة كاستحقاق المالك، ولأنها كانت في حال العصمة كأنها مالكة له، فليس من المروءة إظهار الجفاء بمنعها منه، ولأنها إن روجعت كانت حاصلة في الحوزة ولم يفحش الزوج في المقاطعة، وإن لم يحصل ذلك فظهر أنها حامل لم تحصل شبهة في الحمل.

ولما كان ذلك ربما أفهم أنه لحقهن فقط نفاه بقوله: ﴿ولا يخرجن﴾ أي بأنفسهن إن أردن ذلك من غير مخرج من جهة الزوج أو غيره، فعلم من ذلك تحتم استكمال العدة في موضع السكنى وأن الإسكان على الزوج، وتخرج لضرورة بيع الغزل وجذاذ النخل ونحوه.

ولما كان منطوق ذلك أنه لا يجوز له إخراجها كارهة، ولا يجوز لها أن تخرج بنفسها فقط وهو كاره فأفهم ذلك أنهما لو اتفقا جاز لأن ذلك خارج عن المنهي، استثنى من كلا شقي المنهي عنه بقوله.

﴿ إلا أن يأتين ﴾ أي جنس المطلقات الصادق بواحدة وأكثر ﴿ بفاحشة ﴾ أي خصلة محرمة شديدة القباحة ﴿ مبينة ﴾ أي ظاهرة في نفسها ظهوراً بيناً عند كل من أريد بيانها له ، وذلك كالبذاءة منها على الزوج أو أقاربه فإنه كالنشوز يسقط حقها من السكنى ، فيجوز له إخراجها لقطع الشر ، وهو معنى قراءة أبي - رضى الله عنه - : إلا أن يفحشن عليكم ، وكالزنا فتخرج بنفسها ويخرجها غيرها من الزوج وغيره لإقامة الحد عليها وغير ذلك من الفواحش كما أنه يطلقها للنشوز فإنه لا سكنى لها حينئذ .

ولما كان التقدير : هذه أحكام هذا الفرع ، عطف عليه تعظيماً لها قوله تعالى :

﴿ وتلك ﴾ أي الأحكام العالية جداً بما فيها من الجلالة وبانتسابها إلى الملك الأعلى من هذا الذي ذكر في هذه السورة وغيره ﴿ حدود الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي هو نور السماوات والأرض .

ولما كان التقدير : فمن تحاماها فقد أنصف نفسه بأخذه النور المبين ، عطف عليه قوله :

﴿ ومن يتعد ﴾ أي يقع منه في وقت من الأوقات أنه يتعمد أن يعدو ﴿ حدود الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ فقد ظلم نفسه ﴾ بأن مشاها في الظلام فصارت تضع الأشياء في غير مواضعها ، فصار بمعرض الهلاك بالعقاب كما أن الماشي في الظلام معرض للوقوع في حفرة والدوس على شوكة أو حية أو عقرب أو سبع ، أو لأن ينفرد بقاطع ، أو أن يضل عن

الطريق إلى مهالك لا يمكن النجاة منها ، ومثال ذلك الحكيم إذا وصف دواء بقانون معلوم في وقت محدود ومكان مخصوص فخولف لم يضر المخالف ذلك الحكيم وإنما ضر نفسه .

(11/769)

ولما كان له الخلق جميعاً تحت أوامره سبحانه مع أنها كلها خير لا شر فيه بوجه إسرار وإغوار ، لا تدرك ولا تحصى ، وقد يظهر بعضها لسان الحدثان بيد القدرة ، وكان متعديها ظالماً وكان من أقرب ظلمه وأبينه الإيقاع في مهاوي العشق ، فسره سبحانه بقوله مبيناً عظمته بخطاب الإعلاء : ﴿ لا تدري ﴾ أي يا أيها النبي الكريم ما يكون عن ذلك من الأمور التي يحدثها الله لتشير على المطلق بشيء مما يصلحه فغيرك من باب الأولى .

ولما نفى عنه العلم المغيب لاختصاصه سبحانه به وحذف المتعلق إعراقاً في التعميم ، وكان كل أحد فيما يحدث له من الأمور ما بين رجاء وإشفاق ، عبر عن ذلك بأداة صالحة لها فقال : ﴿ لعل الله ﴾ أي الذي بيده القلوب ومقاليد جميع الأمور ﴿ يحدث ﴾ أي يوجد شيئاً حادثاً لم يكن إيجاداً ثابتاً لا يقدر الخلق على التسبب في زواله فيكون مستغرقاً لزمان العمر كما أشار إليه نزع الخافض في قوله تعالى : ﴿ بعد ذلك ﴾ أي الحادث من الإشارة بالضرار بالإخراج أو تطويل العدة أو غير ذلك ﴿ أمراً ﴾ أي من الأمور المهمة

كالرغبة المفرطة في الزوجة فلا يتأتى ذلك إما بأن كان الضرار بالطلاق الثلاث أو بأن كانت من ذوي الأنفة فأثرت فيها الإساءة وفيمن ينتصر لها فمنعت نفسها منه .

(12/769)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تقدم قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ [المنافقين : 9] وقوله في التغابن : ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴾ [التغابن : 14] وقوله تعالى ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ [التغابن : 15] والمؤمن قد يعرض له ما يضطره إلى فراق من نبه على فتنته وعظيم محنته ، وردت هذه السورة منبهة على كيفية الحكم في هذا الافتراق ، وموضحة أحكام الطلاق ، وأن هذه العداوة وإن استحكمت ونار هذه الفتنة ، إن اضطرمت لا توجب التبرؤ بالجملة وقطع المعروف ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ [الطلاق : 1] ووصى سبحانه بالإحسان المجمل في قوله : ﴿ أو تسريح بإحسان ﴾ [البقرة : 229] وبين تفصيل ذلك وما يتعلق به ، فهذا الرفق المطلوب بإيقاع الطلاق في أول ما تستعده المطلقة في عدتها وتحسبه من مدتها تحذيراً من إيقاع الطلاق في الحيض الموجب تطويل العدة وتكثير المدة ، وأكد هذا سبحانه بقوله ﴿ واتقوا الله ربكم ﴾ [الطلاق : 1] ثم نبه سبحانه

على حقهن أيام العدة من الإبقاء في مستقرهن حين إيقاع الطلاق إلى انقضاء العدة فقال :

﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ [الطلاق : 1] إلى ما استمرت عليه السورة من بيان الأحكام المتعلقة بالطلاق وتفصيل ذلك كله .

ولما كان الأولاد إذا ظهر منهم ما يوجب فراقهم وإبعادهم غير مفترقين إلى ما سوى الرفض والترك بخلاف المرأة ، لم يحتج إلى ما احتيج إليه في حقهن فقد وضح وجه ورود سورة الطلاق في هذا الموضع - والله سبحانه وتعالى أعلم انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 23.27 ﴾

(13/769)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات ﴿ بالغ أمره ﴾ بالإضافة : حفص . الآخرون : بالتنوين والنصب ﴿ وجدكم ﴾ بكسر الواو : روح. ﴿ ندخله ﴾ بالنون : أبو جعفر ونافع وابن عامر والمفضل .

الوقوف : ﴿ العدة ﴾ ج تعظيماً لأمر الاتقاء ﴿ ربكم ﴾ ط لاتصال المعنى مع عدم العاطف ﴿ مبينة ﴾ ج ﴿ وتلك حدود الله ﴾ ط ﴿ نفسه ﴾ ط ﴿ أمراً ﴾ ه ﴿

لله ﴾ ط ﴿ الآخر ﴾ ط ﴿ مخرجاً ﴾ لا ﴿ لا يحتسب ﴾ ط ﴿ حسبه ﴾ ط ﴿ أمره ﴾ ط ﴿ قدراً ﴾ ه ﴿ أشهر ﴾ لا للعطف أي واللائي لم يحضن كذلك ﴿ لم يحضن ﴾ ط ﴿ حملهن ﴾ ط ﴿ يسراً ﴾ ه ط ﴿ إليكم ﴾ ط ﴿ أجراً ﴾ ه ﴿ عليهن ﴾ ط ﴿ حملهن ﴾ ط ﴿ أجورهن ﴾ ط ﴿ بمعروف ﴾ ك ﴿ أخرى ﴾ ه ط ﴿ من سعته ﴾ ط ﴿ آتاه الله ﴾ ط ﴿ يسراً ﴾ ه ﴿ نكراً ﴾ ه ﴿ خسراً ﴾ ه ﴿ الألباب ﴾ ه ز والوصل ههنا والوقف على ﴿ آمنوا ﴾ أجوز من العكس ﴿ ذكراً ﴾ ه لأن ما بعده بدل أو غيره كما يجيء ﴿ إلى النور ﴾ ط ﴿ أبداً ﴾ ط ﴿ رزقاً ﴾ ه ﴿ مثلهن ﴾ ط ﴿ علماً ﴾ ه. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 311. 312﴾

(14/769)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾

أما التعلق بما قبلها فذلك أنه تعالى قال في أول تلك السورة : ﴿ لَهُ الملك وَلَهُ الحمد وَهُوَ على

كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن : 1] والملك يفتقر إلى التصرف على وجه يحصل منه نظام الملك ، والحمد يفتقر إلى أن ذلك التصرف بطريق العدل والإحسان في حق المتصرف فيه وبالقدرة على من يمنعه عن التصرف وتقرير الأحكام في هذه السورة متضمن لهذه الأمور المفتقرة إليها تضمناً لا يفتقر إلى التأمل فيه ، فيكون لهذه السورة نسبة إلى تلك السورة ، وأما الأول بالآخر فلأنه تعالى أشار في آخر تلك السورة إلى كمال علمه بقوله : ﴿ عالم الغيب ﴾ [التغابن : 18] وفي أول هذه السورة إلى كمال علمه بمصالح النساء وبالأحكام المخصوصة بطلاقهن ، فكأنه بين ذلك الكلي بهذه الجزئيات ، وقوله : ﴿ يأَيُّهَا النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾ عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة فأتت إلى أهلها فنزلت ، وقيل : راجعها فإنها صوامة قوامة وعلى هذا إنما نزلت الآية بسبب خروجها إلى أهلها لما طلقها النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله في هذه الآية : ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾ وقال الكلبي : إنه عليه السلام غضب على حفصة لما أسر إليها حديثاً فأظهرته لعائشة فطلقها تطليقة فنزلت ، وقال السدي : نزلت في عبد الله بن عمر لما طلق امرأته حائضاً والقصة في ذلك مشهورة وقال مقاتل : إن رجالاً فعلوا مثل ما فعل ابن عمر ، وهم عمرو بن سعيد بن العاص وعتبة بن غزوان فنزلت فيهم ، وفي قوله تعالى : ﴿ يأَيُّهَا النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾ وجهان أحدهما : أنه نادى النبي صلى الله عليه

وسلم ثم خاطب أمته لما أنه سيدهم وقدوتهم، فإذا خوطب خطاب الجمع كانت أمته داخلة في ذلك الخطاب.

(15/769)

قال أبو إسحق: هذا خطاب النبي عليه السلام، والمؤمنون داخلون معه في الخطاب وثانيهما: أن المعنى يا أيها النبي قل لهم: إذا طلقتم النساء فأضمر القول، وقال الفراء: خاطبه وجعل الحكم للجميع، كما تقول للرجل: ويحك أما تتقون الله أما تستحيون، تذهب إليه وإلى أهل بيته و ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ أي إذا أردتم التطليق، كقوله: ﴿إِذَا قمتم إلى الصلاة﴾ [المائدة: 6] أي إذا أردتم الصلاة، وقد مر الكلام فيه، وقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال عبد الله: إذا أراد الرجل أن يطلق امرأته، فيطلقها طاهراً من غير جماع، وهذا قول مجاهد وعكرمة ومقاتل والحسن، قالوا: أمر الله تعالى الزوج بتطليق امرأته إذا شاء الطلاق في طهر لم يجامعها فيه، وهو قوله تعالى: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي لزمان عدتهن، وهو الطهر بإجماع الأمة، وقيل: لإظهار عدتهن، وجماعة من المفسرين قالوا: الطلاق للعدة أن يطلقها طاهرة من غير جماع، وبالجملة، فالطلاق في حال الطهر لازم، وإلا لا يكون الطلاق سنياً، والطلاق في السنة إنما يتصور في البالغة المدخول بها غير

الآيسة والحامل ، إذ لا سنة في الصغير وغير المدخول بها ، والآيسة والحامل ، ولا بدعة أيضاً لعدم العدة بالأقراء ، وليس في عدد الطلاق سنة وبدعة ، على مذهب الشافعي حتى لو طلقها ثلاثاً في طهر صحيح لم يكن هذا بدعياً بخلاف ما ذهب إليه أهل العراق ، فإنهم قالوا : السنة في عدد الطلاق أن يطلق كل طلقة في طهر صحيح .

(16/769)

وقال صاحب "النظم" : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ صفة للطلاق كيف يكون ، وهذه اللام تجيء لمعان مختلفة للإضافة وهي أصلها ، ولبيان السبب والعلة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله ﴾ [الإنسان : 9] وبمنزلة عند مثل قوله : ﴿ أَقِمِ الصلاة لِدُلُوكِ الشمس ﴾ [الإسراء : 78] أي عنده ، وبمنزلة في مثل قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن دِيارِهِمْ لأَوَّلِ الحشر ﴾ [الحشر : 2] وفي هذه الآية بهذا المعنى ، لأن المعنى فطلقوهن في عدتهن ، أي في الزمان الذي يصلح لعدتهن فقال صاحب "الكشاف" : فطلقوهن مستقبلات لعدتهن كقوله : أتيته لليلة بقيت من المحرم أي مستقبلاً لها ، وفي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم : (من قبل عدتهن) فإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأول من أقرائها فقد طلقت مستقبلة العدة ، المراد أن يطلقن في طهر لم يجامعن

فيه ، يخلين إلى أن تنقضي عدتهن ، وهذا أحسن الطلاق وأدخله في السنة وأبعده من الندم ويدل عليه ما روي عن إبراهيم النخعي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون أن لا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تنقضي العدة وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاث تطليقات ، وقال مالك بن أنس : لا أعرف طلاقاً إلا واحدة ، وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة ، وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد ، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض : " ما هكذا أمرك الله تعالى إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالاً وتطلقها لكل قرء تطليقة " وعند الشافعي لا بأس بإرسال الثلاث ، وقال : لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح فمالك يراعي في طلاق السنة الواحدة والوقت ، وأبو حنيفة يراعي التفريق والوقت ، والشافعي يراعي الوقت وحده ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَحْصُواْ

العدة ﴾ أي أقراءها فاحتفظوا لها واحفظوا الحقوق والأحكام التي تجب في العدة واحفظوا نفس ما تعتدون به وهو عدد الحيض ، ثم جعل الإحصاء إلى الأزواج يحتمل

وجهين أحدهما : أنهم هم الذين يلزمهم الحقوق والمؤن وثانيهما : ليقع تحصين الأولاد في العدة ، ثم في الآية مباحث :

الأول : ما الحكمة في إطلاق السنة وإطلاق البدعة ؟ نقول : إنما سمي بدعة لأنها إذا كانت حائضاً لم تعتد بأيام حيضها عن عدتها بل تزيد على ثلاثة أقراء فتطول العدة عليها حتى تصير كأنها أربعة أقراء وهي في الحيض الذي طلقت فيه في صورة المعلقة التي لا هي معتدة ولا ذات بعل والعقول تستقبح الإضرار ، وإذا كانت طاهرة مجامعة لم يؤمن أن قد علقت من ذلك الجمع بولد ولو علم الزوج لم يطلقها ، وذلك أن الرجل قد يرغب في طلاق امرأته إذا لم يكن بينهما ولد ولا يرغب في ذلك إذا كانت حاملاً منه بولد ، فإذا طلقها وهي مجامعة وعنده أنها حائل في ظاهر الحال ثم ظهر بها حمل ندم على طلاقها ففي طلاقه إياها في الحيض سوء نظر للمرأة ، وفي الطلاق في الطهر الذي جامعها فيه وقد حملت فيه سوء نظر للزوج ، فإذا طلقت وهي طاهر غير مجامعة أمن هذان الأمران ، لأنها تعتد عقب طلاقه إياها ، فتجري في الثلاثة قروء ، والرجل أيضاً في الظاهر على أمان من اشتمالها على ولد منه .

الثاني : هل يقع الطلاق المخالف للسنة ؟ نقول : نعم ، وهو آثم لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً بين يديه ، فقال له : " أو تلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم "

الثالث : كيف تطلق للسنة التي لا تحيض لصغر أو كبر أو غير ذلك ؟ نقول : الصغيرة والآيسة والحامل كلهن عند أبي حنيفة وأبي يوسف يفرق عليهن الثلاث في الأشهر ، وقال محمد وزفر : لا يطلق للسنة إلا واحدة .

وأما غير المدخول بها فلا تطلق للسنة إلا واحدة ، ولا يراعى الوقت .

(18/769)

الرابع : هل يكره أن تطلق المدخول بها واحدة بائنة ؟ نقول : اختلفت الرواية فيه عن أصحابنا ، والظاهر الكراهة .

الخامس : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾ عام يتناول المدخول بهن ، وغير المدخول بهن من ذوات الأقراء ، والآيسات والصغار والحوامل ، فكيف يصح تخصيصه بذوات الأقراء والمدخول بهن ؟ نقول : لا عموم ثمة ولا خصوص أيضاً ، لكن النساء اسم جنس للإناث من الإنس ، وهذه الجنسية معنى قائم في كلهن ، وفي بعضهن ، فجاز أن يراد بالنساء هذا وذاك فلما قيل : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ علم أنه أطلق على بعضهن ، وهن المدخول بهن من المعتدات بالحيض ، كذا ذكره في "الكشاف" .

ثم قال تعالى : ﴿ واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة

مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ .

قوله : ﴿ اتقوا الله ﴾ قال مقاتل : اخشوا الله فلا تعصوه فيما أمركم و ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ ﴾ أي لا تخرجوا المعتدات من المساكن التي كنتم تساكنونهن فيها قبل الطلاق ، فإن كانت المساكن عارية فارتجعت كان على الأزواج أن يعينوا مساكن أخرى بطريق الشراء ، أو بطريق الكراء ، أو بغير ذلك ، وعلى الزوجات أيضاً أن لا يخرجن حقاً لله تعالى إلا لضرورة ظاهرة ، فإن خرجت ليلاً أو نهاراً كان ذلك الخروج حراماً ، ولا تنقطع العدة .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ قال ابن عباس : هو أن يزنين فيخرجن لإقامة الحد عليهن ، قال الضحاك الأكثرون : فالفاحشة على هذا القول هي الزنا ، وقال ابن عمر : الفاحشة خروجهن قبل انقضاء العدة ، قال السدي والباقون : الفاحشة المبينة هي العصيان المبين ، وهو النشوز ، وعن ابن عباس : إلا أن يبذون فيحل إخراجهن لبذائهن وسوء خلقهن ، فيحل للأزواج إخراجهن من بيوتهن ، وفي الآية مباحث :

البحث الأول : هل للزوجين التراضي على إسقاطها ؟ نقول : السكنى الواجبة في حال قيام الزوجية حق للمرأة وحدها فلها إبطالها ، ووجه هذا أن الزوجين ما داما ثابتين على النكاح فإنما مقصودهما المعاشرة والاستمتاع ، ثم لا بد في تمام ذلك من أن تكون المرأة مستعدة له لأوقات حاجته إليها ، وهذا لا يكون إلا بأنه يكفيها في نفقتها ، كطعامها وشرابها وأدمها ولباسها وسكناها ، وهذه كلها داخلة في إحصاء الأسباب التي بها يتم كل ما ذكرنا من الاستمتاع ، ثم ما وراء ذلك من حق صيانة الماء ونحوها ، فإن وقعت الفرقة زال الأصل الذي هو الانتفاع وزواله بزوال الأسباب الموصلة إليه من النفقة عليها ، واحتيج إلى صيانة الماء فصارت السكنى في هذه الحالة بوجوبها الإحصاء لأسبابها ، لأن أصلها السكنى ، لأن بها تحصينها ، فصارت السكنى في هذه الحالة لا اختصاص لها بالزوج ، وصيانة الماء من حقوق الله ، ومما لا يجوز التراضي من الزوجين على إسقاطه ، فلم يكن لها الخروج ، وإن رضي الزوج ، ولا إخراجها ، وإن رضيت إلا عن ضرورة مثل انهدام المنزل ، وإخراج غاصب إياها أو نقلة من دار بكراء قد انقضت إجارتها أو خوف فتنة أو سيل أو حريق ، أو غير ذلك من طريق الخوف على النفس ، فإذا انقضى ما أخرجت له رجعت إلى موضعها حيث كان الثاني : قال : ﴿ واتقوا الله ربَّكُمْ ﴾ ولم يقل : واتقوا الله مقصوراً عليه فنقول : فيه من المبالغة ما ليس في ذلك فإن لفظ الرب ينبههم على أن التربية التي هي الإنعام والإكرام بوجوه متعددة غاية التعداد فيبالغون في التقوى حينئذ

خوفاً من فوت تلك التربية الثاني : ما معنى الجمع بين إخراجهم وخروجهن ؟ نقول : معنى الإخراج أن لا يخرجهن البعولة غضباً عليهن وكراهة لمساكنتهن أو لحاجة لهم إلى المساكن وأن لا يأذنوا لهن في الخروج إذا طلبن ذلك ، إيذاناً بأن إذنهم لا أثر له في رفع الحظر ، ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ذلك .

(20/769)

الثالث : قرىء : ﴿ بفاحشة مُّبَيِّنَةٍ ﴾ و ﴿ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ فمن قرأ مبينة بالخفض فمعناه : أن نفس الفاحشة إذا تفكر فيها تبين أنها فاحشة ، ومن قرأ ﴿ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ بالفتح فمعناه أنها مبرهنة بالبراهين ، ومبينة بالحجج ، وقوله : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾ والحدود هي الموانع عن المجاوزة نحو النواهي ، والحد في الحقيقة هي النهاية التي ينتهي إليها الشيء ، قال مقاتل : يعود ما ذكر من طلاق السنة وما بعده من الأحكام ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ ﴾ وهذا تشديد فيمن يتعدى طلاق السنة ، ومن يطلق لغير العدة ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أي ضر نفسه ، ولا يبعد أن يكون المعنى ومن يتجاوز الحد الذي جعله الله تعالى فقد وضع نفسه موضعاً لم يضعه فيه ربه ، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه ، وقوله تعالى : ﴿ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ قال ابن عباس : يريد الندم على طلاقها والمحبة

لرجعتها في العدة وهو دليل على أن المستحب في التطليق أن يوقع متفرقاً ، قال أبو إسحق :
إذا طلقها ثلاثاً في وقت واحد فلا معنى في قوله : ﴿ لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ .
انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 27 . 30 ﴾

(21/769)

وقال القرطبى :
﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾
فيه أربع عشرة مسألة :
الأولى : قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء ﴾ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، خوطب بلفظ الجماعة تعظيماً وتفخيماً .
وفي سنن ابن ماجه عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلّق حفصة رضي الله عنها ثم راجعها .
وروى قتادة عن أنس قال : طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة رضي الله عنها فأتت أهلها ، فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ يا أيها النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ .

وقيل له : راجعها فإنها قَوّامة صوّامة ، وهي من أزواجك في الجنة .

ذكره الماورديّ والقُشَيْري والثَّعْلَبيّ .

زاد القُشيري : ونزل في خروجها إلى أهلها قوله تعالى : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾ .

وقال الكَلْبيّ : سبب نزول هذه الآية غضبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم على حفصة ، لمّا أسرّ إليها حديثاً فأظهرته لعائشة فطلّقها تطليقةً ، فنزلت الآية .

وقال السُّدّيّ : نزلت في عبد الله بن عمر ، طلّق امرأته حائضاً تطليقةً واحدة فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر وتحيض ثم تطهر ، فإذا أراد أن يطلقها فليطلّقها حين تطهر من قبل أن يجامعها .

فتلك العدّة التي أمر الله تعالى أن يطلّق لها النساء .

وقد قيل : إن رجالاً فعلوا مثل ما فعل عبد الله بن عمر ، منهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعمرو بن سعيد بن العاص ، وعُتْبة بن غَزْوان ، فنزلت الآية فيهم .

قال ابن العربي : وهذا كله وإن لم يكن صحيحاً فالقول الأوّل أمثل .

والأصح فيه أنه بيان لشَرْع مبتدأ .

وقد قيل : إنه خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمّته .

وغاير بين اللفظين من حاضر وغائب وذلك لغة فصيحة، كما قال: ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بهم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [يونس: 22].

تقديره: يا أيها النبيّ قل لهم إذا طلقتم النساء فطلقوهنّ لعدّتهن.

وهذا هو قولهم: إن الخطاب له وحده والمعنى له وللمؤمنين.

وإذا أراد الله بالخطاب المؤمنين لاطفه بقوله: ﴿ يا أيها النبي ﴾.

فإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعاً له قال: "يأَيُّهَا الرَّسُولُ".

قلت: ويدل على صحة هذا القول نزول العِدّة في أسماء بنت يزيد بن السَّكَن الأنصارية.

ففي كتاب أبي داود عنها أنها طُلِّقت على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولم يكن للمطلقة عِدة، فأنزل الله تعالى حين طُلِّقت أسماء بالعدة للطلاق، فكانت أوّل من أنزل فيها العدّة للطلاق.

وقيل: المراد به نداء النبيّ صلى الله عليه وسلم تعظيماً، ثم ابتدأ فقال: ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ﴾ [المائدة: 90] الآية.

فذكر المؤمنين على معنى تقديمهم وتكريمهم؛ ثم افتتح فقال: ﴿ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ﴾ الآية.

الثانية: روى الثّعلبيّ من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق" وعن عليّ: عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "تزوّجوا ولا تطلّقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش" وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لاتطلقوا النساء إلا من ريبة فإن الله عز وجل لا يحب الذوّاقين ولا الذوّاقات" وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق" أسند جميعه الثّعلبي رحمه الله في كتابه.

(23/769)

وروى الدّارقُطْنيّ قال: حدّثنا أبو العباس محمد بن موسى بن علي الدُّولابي ويعقوب بن إبراهيم قالا حدّثنا الحسن بن عرفة قال حدّثنا إسماعيل بن عيّاش عن حُميد ابن مالك اللَّخْمِيّ عن مَكْحول عن معاذ بن جبل قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا معاذ ما خلق الله شيئاً على وجه الأرض أحبّ إليه من العِتاق ولا خلق الله شيئًا على وجه الأرض أبغض من الطلاق.

فإذا قال الرجل لمملوكه أنت حرّ إن شاء الله فهو حرّ ولا استثناء له.

وإذا قال الرجل لامرأته أنتِ طالق إن شاء الله فله استثناؤه ولا طلاق عليه" حدّثنا محمد

بن موسى بن علي قال : حدّثنا حميد بن الربيع قال حدّثنا يزيد بن هارون حدّثنا إسماعيل بن عَيّاش بإسناده نحوه .

قال حميد : قال لي يزيد بن هارون : وأيّ حديث لو كان حميد بن مالك معروفاً ؟ قلت : هو جَدّي .

قال يزيد : سَرَرْتَني سَرَرْتَني ! الآن صار حديثاً .

حدّثنا عثمان بن أحمد الدّقاق قال حدّثنا إسحاق بن إبراهيم بن سُنَين حدّثنا عمر بن إبراهيم بن خالد حدّثنا حميد بن مالك اللَّخْميّ حدّثنا مكحُول عن مالك بن يَخامر عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أحلّ الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق فمن طلق واستثنى فله ثنياه " قال ابن المنذر : اختلفوا في الاستثناء في الطلاق والعِتْق ؛ فقالت طائفة : ذلك جائز .

وروينا هذا القول عن طاوس .

وبه قال حماد الكوفي والشافعي وأبو ثَوْر وأصحاب الرأي .

ولا يجوز الاستثناء في الطلاق في قول مالك والأوزاعي .

وهذا قول قتادة في الطلاق خاصة .

قال ابن المنذر : وبالقول الأوّل أقول .

الثالثة : روى الدّارَقُطنيّ من حديث عبد الرزّاق أخبرني عَميّ وهب بن نافع قال : سمعت

عكرمة يحدّث عن ابن عباس يقول : الطلاق على أربعة وجوه : وجهان حلالان ووجهان حرامان ؛ فأما الحلال فأن يطلقها طاهراً عن غير جماع وأن يطلقها حاملاً مُستبيناً حَمْلُها .

(24/769)

وأما الحرام فأن يطلقها وهي حائض ، أو يطلّقها حين يجامعها ، لا تدري اشتمل الرّحم على ولَدٍ أم لا .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ في كتاب أبي داود عن أسماء بنت يزيد بن السَّكَن الأنصارية أنها طُلِّقت على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يكن للمطلقة عِدّة ، فأنزل الله سبحانه حين طلّقت أسماء بالعدّة للطلاق ؛ فكانت أوّل من أنزل فيها العدّة للطلاق .

وقد تقدّم .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ يقتضي أنهن اللاتي دخلن بهن من الأزواج ؛ لأن غير المدخول بهن خرجن بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذَا نَكَحْتُمُ المؤمنات ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ [الأحزاب : 49] .

السادسة : من طلّق في طُهر لم يجامع فيه نفذ طلاقه وأصاب السُّنَّة .

وإن طلقها حائضاً نفذ طلاقه وأخطأ السُّنة .

وقال سعيد بن المسيّب في آخرى : لا يقع الطلاق في الحيض لأنه خلاف السنة .

وإليه ذهبت الشّيِعة .

وفي الصحيحين واللفظ للدَّارَقُطْنيّ : " عن عبد الله بن عمر قال : طلقت امرأتي وهي حائض ؛ فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فتغيّظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "ليراجعها ثم ليمسكها حتى تحيض حيضة مستقبلة سوى حيضتها التي طلّقها فيها فإن بدا له أن يطلّقها فليطلقها طاهراً من حيضتها قبل أن يَمَسَّهَا فذلك الطلاق للعِدة كما أمر الله" " وكان عبد الله بن عمر طلّقها تطليقة ، فحسبت من طلاقها وراجعها عبد الله بن عمر كما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

في رواية " عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "هي واحدة" " وهذا نصٌّ .

وهو يردّ على الشّيِعة قولهم .

السابعة : عن عبد الله بن مسعود قال : طلاق السُّنَّة أن يطلقها في كل طهر تطليقة ؛ فإذا كان آخر ذلك فتلك العِدة التي أمر الله تعالى بها .

رواه الدَّارَقُطْنيّ عن الأعمَش عن أبي إسحاق عن أبي الأحْوص عن عبد الله .

قال علماؤنا : طلاق السنة ما جمع شروطاً سبعة : وهو أن يطلقها واحدة ، وهي ممن تحيض ، طاهراً ، لم يَمَسَّها في ذلك الطهر ، ولا تقدّمه طلاق في حيض ، ولا تبعه طلاق في طُهْر يتلوه ، وخلا عن العوض .

وهذه الشروط السبعة من حديث ابن عمر المتقدّم .

وقال الشافعي : طلاق السنة أن يطلقها في كل طُهْر خاصةً ، ولو طلقها ثلاثاً في طُهر لم يكن بِدْعة .

وقال أبو حنيفة : طلاق السنة أن يطلقها في كلّ طهر طلقة .

وقال الشَّعْبيّ : يجوز أن يطلقها في طهر جامعها فيه .

فعلماؤنا قالوا : يطلقها واحدة في طُهر لم يَمَسّ فيه ، ولا تبعه طلاق في عدّة ، ولا يكون الطُّهر تالياً لحيض وقع فيه الطلاق .

لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم :

" مُرْهُ فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسك وإن شاء طلق .

فتلك العدّة التي أمر الله أن يطلّق لها النساء " وتعلق الإمام الشافعي بظاهر قوله تعالى : ﴿

فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ وهذا عام في كل طلاق كان واحدة أو اثنتين أو أكثر .

وإنما راعى الله سبحانه الزمان في هذه الآية ولم يعتبر العدد .

وكذلك حديث ابن عمر لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم علّمه الوقت لا العدد .

قال ابن العربيّ : "وهذه غفلة عن الحديث الصحيح ؛ فإنه قال : " مُرْهُ فليراجعها " وهذا يدفع الثلاث .

وفي الحديث أنه قال : " أرأيت لو طلقها ثلاثاً ؟ قال حَرُمت عليك وبانت منك بمعصية "

وقال أبو حنيفة : ظاهر الآية يدل على أن الطلاق الثلاث والواحدة سواء .

وهو مذهب الشافعيّ لولا قوله بعد ذلك : ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ .

وهذا يبطل دخول الثلاث تحت الآية .

وكذلك قال أكثر العلماء ؛ وهو بديع لهم .

وأما مالك فلم يَخْفَ عليه إطلاق الآية كما قالوا ، ولكن الحديث فسَّرها كما قلنا .

(26/769)

وأما قول الشعبيّ : إنه يجوز طلاق في طُهر جامعها فيه ، فيرده حديث ابن عمر بنصّه ومعناه .

أمّا نَصّه فقد قدمناه ، وأمّا معنها فلأنه إذا منع من طلاق الحائض لعدم الاعتداد به ، فالطهر الجامع فيه أوْلى بالمنع ؛ لأنه يسقط الاعتداد به مخافة شَغل الرحم وبالحيض التالي له .

قلت : وقد احتج الشافعيّ في طلاق الثلاث بكلمة واحدة بما رواه الدّارَقُطنيّ عن سلمة ابن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أن عبد الرحمن بن عوف طلق امرأته تُماضِر بنت الأصبغ الكلبية وهي أمّ أبي سلمة ثلاث تطليقات في كلمة واحدة ؛ فلم يبلغنا أن أحداً من أصحابه عاب ذلك .

قال : وحدّثنا سَلمة بن أبي سلمة عن أبيه أن حفص بن المُغيرة طلق امرأته فاطمة بنت قيس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث تطليقات في كلمة ؛ فأبانها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبلغنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم عاب ذلك عليه .

واحتج أيضاً بحديث عُوَيْمِر العَجْلانيّ لما لاعن قال : يا رسول الله ، هي طالق ثلاث .

فلم ينكر عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقد انفصل علماؤنا عن هذا أحسن انفصال .

بيانه في غير هذا الموضع .

وقد ذكرناه في كتاب (المقتبس من شرح مُوَطّأ مالك بن أنس) .

وعن سعيد بن المسّيب وجماعة من التابعين أن من خالف السنة في الطلاق فأوقعه في

حيض أو ثلاث لم يقع ؛ وشبّهوه بمن وكّل بطلاق السنة فخالف .

الثامنة : قال الجُرْجَانِيّ : اللام في قوله تعالى : ﴿ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ بمعنى في ؛ كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى أَخْرَجَ الذين كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن دِيَارِهِمْ لأول الحشر ﴾

[الحشر : 2] .

أي في أوّل الحشر .

فقوله : ﴿ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي في عدتهن ؛ أي في الزمان الذي يصلح لعدّتهن .

وحصل الإجماع على أن الطلاق في الحيض ممنوع وفي الطهر مأذون فيه .

ففيه دليل على أن القُرْءَ هو الطُّهر .

(27/769)

وقد مضى القول فيه في "البقرة" فإن قيل : معنى ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي في قُبُل عدتهن ، أو لِقُبُل عدتهن .

وهي قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال ابن عمر في صحيح مسلم وغيره .

فقُبُل العِدّة آخرُ الطُّهر حتى يكون القرء الحيض ، قيل له : هذا هو الدليل الواضح لمالك ومن قال بقوله ؛ على أن الأقراء هي الأطهار .

ولو كان كما قال الحنفي ومن تبعه لوجب أن يقال : إن من طلق في أوّل الطُّهر لا يكون مطلقاً لقُبُل الحيض ؛ لأن الحيض لم يُقبل بعد .

وأيضاً إقبال الحيض يكون بدخول الحيض ؛ وبانقضاء الطُّهر لا يتحقق إقبال الحيض .

ولو كان إقبال الشيء إدبار ضدّه لكان الصائم مفطراً قبل مغيب الشمس ؛ إذ الليل يكون مقبلاً في إدبار النهار قبل انقضاء النهار .

ثم إذا طلق في آخر الطُّهر فبقية الطُّهر قُرْء ، ولأن بعض القُرْء يسمّى قرءاً لقوله تعالى : ﴿ الحج أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ [البقرة : 197] يعني شوّالاً وذا القعدة وبعض ذي الحجة ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 203] وهو ينفر في بعض اليوم الثاني .

وقد مضى هذا كله في "البقرة" مستوفىً .

التاسعة : قوله تعالى : ﴿ وَأَحْصُواْ العدة ﴾ يعني في المدخول بها ؛ لأن غير المدخول بها لا عدّة عليها ، وله أن يراجعها فيما دون الثلاث قبل انقضاء العدّة ، ويكون بعدها كأحد الخُطَّاب .

ولا تحلّ له في الثلاث إلا بعد زوج .

العاشرة : قوله تعالى : ﴿ وَأَحْصُواْ العدة ﴾ معناه احفظوها ؛ أي احفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق ، حتى إذا انفصل المشروط منه وهو الثلاثة قروء في قوله تعالى : ﴿

والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قروء ﴾ [البقرة : 228] حلّت للأزواج .

وهذا يدل على أن العدّة هي الأطهار وليست بالحيض .

(28/769)

ويؤكده ويفسره قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم "لقبُل عِدّتهن" وقبُل الشيء بعضه لغةً وحقيقةً ، بخلاف استقباله فإنه يكون غيره .

الحادية عشرة : مَن المخاطَب بأمر الإحصاء ؟ وفيه ثلاث أقوال : أحدها أنهم الأزواج .

الثاني أنهم الزوجات .

الثالث أنهم المسلمون .

ابن العربيّ : "والصحيح أن المخاطب بهذا اللفظ الأزواج ؛ لأن الضمائر كلها من "طَلّقتم" و "أَحْصُوا" و "لاَتُخْرِجُوهُنَّ" على نظام واحد يرجع إلى الأزواج ، ولكن الزوجات داخلة فيه بالإلحاق بالزوج ؛ لأن الزوج يُحْصِي ليراجع ، ويُنفق أو يقطع ، ولِيُسكن أو يُخْرِج ، ولِيُلحق نسَبَه أو يقطع .

وهذه كلها أمور مشتركة بينه وبين المرأة ، وتنفرد المرأة دونه بغير ذلك .

وكذلك الحاكم يفتقر إلى الإحصاء للعدّة للفتوى عليها ، وفصل الخصومة عند المنازعة

فيها .

وهذه فوائد الإحصاء المأمور به2 .

الثانية عشرة : قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله رَبَّكُمْ ﴾ أي لا تعصوه .

﴿ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾ أي ليس للزوج أن يخرجها من مسكن النكاح ما دامت في العدّة ، ولا يجوز لها الخروج أيضاً لحق الزوج إلا لضرورة ظاهرة ، فإن خرجت أثمت ولا تنقطع العدة .

والرجعية والمَبْتُوتة في هذا سواء .

وهذا لصيانة ماء الرجل .

وهذا معنى إضافة البيوت إليهن ؛ كقوله تعالى : ﴿ واذكرن مَا يتلى فِي بيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ الله والحكمة ﴾ [الأحزاب : 34] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب : 33] فهو إضافة إسكان وليس إضافة تمليك .

وقوله : "لاَ تُخْرِجُوهُنَّ" يقتضي أن يكون حقاً في الأزواج .

ويقتضي قوله : ﴿ وَلاَ يَخْرُجْنَ ﴾ أنه حق على الزوجات .

وفي صحيح الحديث : " "عن جابر بن عبد الله قال : طُلِّقت خالتي فأرادت أن تَجُدّ نخلها فزجرها رجل أن تخرج ؛ فأتت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : بلى فجُدِّي نخلكِ فإنك عسى أن تَصَدّقي أو تفعلي معروفاً" " خرّجه مسلم .

ففي هذا الحديث دليل لمالك والشافعيّ وابن حَنْبل واللّيث على قولهم : إن المعتدة تخرج بالنهار في حوائجها ، وإنما تلزم منزلها بالليل .

وسواء عند مالك كانت رجعيةً أو بائنة .

وقال الشافعيّ في الرجعية : لا تخرج ليلاً ولا نهاراً ، وإنما تخرج نهاراً المَبْتُوتَة .

وقال أبو حنيفة : ذلك في المُتَوَفَّى عنها زوجها ، وأما المطلقة فلا تخرج لا ليلاً ولا نهاراً .

والحديث يردّ عليه .

وفي الصحيحين : " أن أبا حفص بن عمرو خرج مع عليّ بن أبي طالب إلى اليمن ، فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقة كانت بقيت من طلاقها ، وأمر لها الحارث بن هشام وعَيّاش بن أبي ربيعة بنفقةٍ ؛ فقالا لها : والله ما لك من نفقة إلا أن تكوني حاملاً .

فأتت النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكرت له قولهما .

فقال : "لا نفقة لكِ" ، فاستأذنته في الانتقال فأذِن لها ؛ فقالت : أين يا رسول الله ؟ فقال : "إلى ابن أمّ مَكْتُوم" " ، وكان أعمى تضع ثيابها عنده ولا يراها .

فلما مضت عدّتها أنكحها النبيّ صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد .

فأرسل إليها مَرْوان قَبِيصة بن ذُؤَيْب يسألها عن الحديث ، فحدّثته .

فقال مَرْوان : لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة ، سنأخذ بالعِصْمة التي وجدنا الناس عليها .

فقالت فاطمة حين بلغها قول مَرْوان : فبيني وبينكم القرآن ، قال الله عز وجل : ﴿ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾ الآية ، قالت : هذا لمن كانت له رجعة ؛ فأي أمرٍ يَحْدُث بعد الثلاث ؟ فكيف تقولون : لا نفقة لها إذا لم تكن حاملاً ، فعلام تحبسونها ؟ لفظ مسلم .

فبيّن أن الآية في تحريم الإخراج والخروج إنما هو في الرجعية .

وكذلك استدلت فاطمة بأن الآية التي تليها إنما تضمّنت النّهي عن خروج المطلقة الرجعية ؛ لأنها بصدد أن يحدث لمطلقها رأي في ارتجاعها مادامت في عدتها ؛ فكأنها تحت تصرف الزوج في كل وقت .

(30/769)

وأما البائن فليس له شيء من ذلك فيجوز لها أن تخرج إذا دعتها إلى ذلك حاجة ، أو خافت عورة منزلها ؛ كما أباح لها النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك .

وفي مسلم " قالت فاطمة يا رسول الله ، زَوْجي طلقني ثلاثاً وأخاف أن يُقتحم عليّ .

قال : فأمرها فتحوّلت " وفي البخاري عن عائشة أنها كانت في مكان وَحْش فخيف على ناحيتها ؛ فلذلك أرخص النبيّ صلى الله عليه وسلم لها .

وهذا كله يردّ على الكوفي قوله .

وفي حديث فاطمة : أن زوجها أرسل اليها بتطليقة كانت بقيت من طلاقها ؛ فهو حجة لمالك وحجة على الشافعي .

وهو أصح من حديث سلمة بن أبي سلمة عن أبيه أن حفص بن المغيرة طلّق امرأته ثلاث تطليقات في كلمة ؛ على ما تقدّم .

الثالثة عشرة : قوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ قال ابن عباس وابن عمر والحسن والشَّعْبي ومجاهد : هو الزِّنى ؛ فتخرج ويقام عليها الحدّ .

وعن ابن عباس أيضاً والشافعيّ : أنه البَذاء على أحمائها ؛ فَيحِل لهم إخراجها .

وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال في فاطمة : تلك امرأة استطالت على أحمائها بلسانها فأمرها عليه السلام أن تنتقل .

وفي كتاب أبي داود قال سعيد : تلك امرأة فتنت الناس ، إنها كانت لَسِنة فوُضِعَتْ على يدي ابن أم مكتوم الأعمى .

قال عكرمة : في مصحف أُبَيّ "إِلَّآ أَنْ يَفْحُشْنَ عَلَيْكُمْ" .

ويقوّي هذا أن محمد بن إبراهيم بن الحارث روى أن عائشة قالت لفاطمة بنت قيس : اتقّي

الله فإنك تعلمين لِمَ أُخْرِجْتِ؟ وعن ابن عباس أيضاً: الفاحشة كل معصية كالزنى والسرقة والبَذاء على الأهل.

وهو اختيار الطَّبري.

وعن ابن عمر أيضاً والسُّدي: الفاحشة خروجها من بيتها في العدّة.

وتقدير الآية: إلا أن يأتين بفاحشة مبينة بخروجهن من بيوتهن بغير حق؛ أي لو خرجت كانت عاصية، وقال قتادة: الفاحشة النشوز، وذلك أن يطلقها على النشوز فتتحوّل عن بيته.

(31/769)

قال ابن العربي: أما من قال إنه الخروج للزنى؛ فلا وجه له؛ لأن ذلك الخروج هو خروج القتل والإعدام: وليس ذلك بمستثنىً في حلال ولا حرام.

وأما من قال: إنه البذاء؛ فهو مفسر في حديث فاطمة بنت قيس.

وأما من قال: إنه كل معصية؛ فوَهم لأن الغيبة ونحوها من المعاصي لا تبيح الإخراج ولا الخروج.

وأما من قال: إنه الخروج بغير حق؛ فهو صحيح.

وتقدير الكلام : لا تُخرجوهن من بيوتهن ولا يَخرجن شرعاً إلا أن يخرجن تعدياً .

الرابعة عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾ أي هذه الأحكام التي بيّنها أحكام الله على العباد ، وقد منع التجاوز عنها ، فمن تجاوز فقد ظلم نفسه وأوردها مَوْرد الهلاك .

﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ الأمر الذي يحدثه الله أن يقلّب قلبه من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه ؛ فيراجعها .

وقال جميع المفسرين : أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة .

ومعنى القول : التحريض على طلاق الواحدة والنهي عن الثلاث ؛ فإنه إذا طلّق ثلاثاً أضرّ بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة في الارتجاع ، فلا يجد عند الرجعة سبيلاً .

وقال مقاتل : "بَعْدَ ذَٰلِكَ" أي بعد طلقة أو طلقتين "أَمْرًا" أي المراجعة من غير خلاف .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(32/769)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أيُّها النبى إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾

خص النداء به صلى الله عليه وسلم وعم الخطاب بالحكم لأن النبي عليه الصلاة والسلام إمام أمته كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كيت وكيت إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه ، وأنه المتكلم عنهم والذي يصدرون عن رأيه ولا يستبدون بأمر دونه فكان هو وحده في حكمهم كلهم وساداً مسد جميعهم ، وفي ذلك من إظهار جلالة منصبه عليه الصلاة والسلام ما فيه ، ولذلك اختير لفظ ﴿ النبى ﴾ لما فيه من الدلالة على علو مرتبته صلى الله عليه وسلم ، وقيل : الخطاب كالنداء له صلى الله عليه وسلم إلا أنه اختير ضمير الجمع للتعظيم نظير ما في قوله

: ألا فارحموني يا إله محمد . . .

(33/769)

وقيل : إنه بعد ما خاطبه عليه الصلاة والسلام بالنداء صرف سبحانه الخطاب عنه لأمته تكريماً له صلى الله عليه وسلم لما في الطلاق من الكراهة فلم يخاطب به تعظيماً ، وجعل بعضهم الكلام على هذا بتقدير القول أي قل لأمتك : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ ، وقيل : حذف نداء الأمة ، والتقدير يا أيها النبي وأمة النبي إذا طلقتم ، وأياً مّا كان فالمعنى إذا أردتم تطليقهن على تنزيل المشارف للفعل منزلة الشارع فيه ، واتفقوا على أنه لولا هذا التجوز لم

يستقم الكلام لما فيه من تحصيل الحاصل ، أو كون المعنى إذا طلقتم فطلقوهن مرة أخرى وهو غير مراد ، وقال بعض المحققين : لك أن تقول : لا حاجة إلى ذلك بل هو من تعليق الخاص بالعام وهو أبلغ في الدلالة على اللزوم كما يقال : إن ضربت زيداً فاضربه ضرباً مبرحاً لأن المعنى إن يصدر منك ضرب فليكن ضرباً شديداً ، وهو أحسن من تأويله بالإرادة فتدبر انتهى ، وأنت تعلم أن المتبادر فيما ذكره كونه على معنى الإرادة أيضاً ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي لاستقبال عدتهن ، واللام للتوقيت نحو كتبته لأربع ليال بقين من جمادى الأولى ، أو مستقبلات لها على ما قدره الزمخشري ، وتعقبه أبو حيان بما فيه نظر واعتبار الاستقبال رأي من يرى أن العدة بالحيض وهي القروء في آية البقرة كالإمام أبي حنيفة ليكون الطلاق في الطهر وهو الطلاق المأمور به ، والمراد بالأمر بإيقاعه في ذلك النهي عن إيقاعه في الحيض .

وقد صرحوا جميعاً بأن ذلك طلاق بدعي حرام ، وقيد الطهر بكونه لم يجامعن فيه ، واستدل لذلك ، ولاعتبار الاستقبال بما أخرجه الإمامان : مالك .

والشافعي .

والشيخان .

وأبو داود .

والترمذي .

والنسائي .

وابن ماجه .

(34/769)

وآخرون عن ابن عمر " أنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر رضي الله تعالى عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتغيظ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء "

وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن

وكان ابن عمر كما أخرج عنه ابن المنذر .

وغيره يقرأ كذلك ، وكذلك ابن عباس ، وفي رواية عنهما أنهما قرآ قبل عدتهن .

ومن يرى أن العدة بالاطهار وهي القروء في تلك الآية كالإمام الشافعي يعلق لام التوقيت بالفعل ولا يعتبر الاستقبال ، واعترض على التأويل بمستقبلات لعدتهن بأنه إن أريد التلبس بأولها فهو للسافعي ، ومن يرى رأيه لا عليه وعلى الخالف لا له ، وإن أريد المشارفة عادة فخلاف مقتضى اللفظ لأن اللام إذا دخلت الوقت أفادت معنى التأقيت والاختصاص

بذلك الوقت لا استقبال الوقت ، وعلى الاستدلال بقراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم تعالى عله وسلم حسبما تضمنه الحديث السابق بأن قبل الشيء أوله نقيض دبره فهي مؤكدة لمذهب الشافعي لا دافعة له ، ويشهد لكون العدة بالإطهار قراءة ابن مسعود لقبل طهرهن ومنهم من قال : التقدير لاطهار عدتهن ، وتعقب بأنه إن جعلت الإضافة بمعنى من دل على أن القرء هو الحيض والطهر معاً ، وإن جعلت بمعنى اللام فيكفي ما في قولك لإطهار الحيض من التنافر رداً مع ما فيه من الإضمار من غير دليل .

(35/769)

وفي الكشاف المراد أي من الآية أن يطلقن في طهر لم يجامعن فيه ، ثم يخلين حتى تنقضي عدتهن وهو أحسن الطلاق وأدخله في السنة وأبعد من الندم ، ويدل عليه ما روي عن إبراهيم النخعي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون أن لا يطلقها للسنة إلا واحدة ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تنقضي العدة ، وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثاً في ثلاثة أطهار ، وقال مالك : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو مفروقة ، وأما أبو حنيفة .

وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد فأما مفروقا في الاطهار فلا لما

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض : " ما هكذا أمرك الله إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالاً وتطلقها لكل قرء تطليقة " وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال لعمر : " مر ابنك فليراجعها ثم ليدعها حتى تحيض ثم تطهر ثم ليطلقها إن شاء " .

وعند الشافعي لا بأس بإرسال الثلاث ، وقال : لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح ، فمالك يراعي في طلاق السنة الواحدة .

والوقت ، وأبو حنيفة يراعى التفريق .

والوقت ، والشافعي يراعى الوقت انتهى .

وفي فتح القدير في الاحتجاج على عدم كراهة التفريق على الاطهار وكونه من الطلاق السني رواية غير ما ذكر عن ابن عمر أيضاً ، وقد قال فيها ما قال إلا أنه في الآخرة رجح قبولها ، والمراد بإرسال الثلاث دفعة ما يعم كونها بألفاظ متعددة كأن يقال : أنت طالق أنت طالق أنت طالق ، أو بلفظ واحد كأن يقال : أنت طالق ثلاثاً ، وفي وقوع هذا ثلاثاً خلاف ، وكذا في وقوع الطلاق مطلقاً في الحيض ، فعند الإمامية لا يقع الطلاق بلفظ الثلاث .

ولا في حالة الحيض لأنه بدعة محرمة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " ونقله غير واحد عن ابن المسيب .

وجماعة من التابعين ، وقال قوم منهم فيما قيل طاوس .

وعكرمة : الطلاق الثلاث بفم واحد يقع به واحدة ، وروي هذا أبو داود عن ابن عباس وهو اختيار ابن تيمية من الحنابلة وفي الصحيحين أن أبا الصهباء قال لابن عباس : ألم تعلم أن الثلاث كانت تجعل واحدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأبي بكر .

وصدر من خلافة عمر قال : نعم ، وفي رواية لمسلم أن ابن عباس قال : كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأبي بكر .

وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر : إن الناس قد استعجلوا في أمر كان لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم فأمضاه عليهم ، ومنهم من قال في المدخول بها : يقع ثلاث ، وفي الغير واحدة لما في مسلم .

وأبي داود .

والنسائي أن أبا الصهباء كان كثير السؤال من ابن عباس قال : أما علمت أن الرجل إذا طلق امرأته ثلاثاً قبل أن يدخل بها جعلوها واحدة ؟ فقال ابن عباس : بلى كان الرجل إذا

طلق امرأته ثلاثاً قبل أن يدخل بها جعلوا ذلك واحدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأبي بكر .

وصدر من خلافة عمر الحديث ، والذي ذهب إليه جمهور الصحابة .

والتابعين ، ومن بعدهم من أئمة المسلمين ومنهم الأئمة الأربعة وقوع الثلاث بفم واحد .

بل ذكر الإمام ابن الهمام وقوع الإجماع السكوتي من الصحابة على الوقوع .

ونقل عن أكثر مجتهديهم كعلي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس .

وابن مسعود .

وأبي هريرة .

وعثمان بن عفان .

وعبد الله بن عمرو بن العاص الإفتاء الصريح بذلك ، وذكر أيضاً أن إمضاء عمر الثلاث عليهم مع عدم مخالفة الصحابة له مع علمهم بأنه كانت واحدة لا يمكن إلا لأنهم قد اطلعوا في

الزمان المتأخر على وجود ناسخ ، أو لعلمهم بانتهاء الحكم لعلمهم بإناطته بمعان علموا انتهاءها في الزمان المتأخر ، واستحسن ابن حجر في التحفة الجواب بالاطلاع على ناسخ بعد نقله جوابين سواه وتزييفه لهما ، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى بعض أخبار مرفوعة يستدل بها على وقوع الثلاث ، لكن قيل : إن الثلاث فيها يحتمل أن تكون بألفاظ ثلاثة كأنت طالق أنت طالق أنت طالق ، ولعله هو الظاهر لا بلفظ واحد كأنت طالق ثلاثاً ، وحينئذ لا يصلح ذلك للرد على من لم يوقع الثلاث بهذا اللفظ لكن إذا صح الإجماع ولو سكوتياً على الوقوع لا ينبغي إلا الموافقة والسكوت ، وتأويل ما روي عن عمر ، ولذا قال بعض الأئمة : لو حكم قاض بأن الثلاث بفم واحد واحدة لم ينفذ حكمه لأنه لا يسوغ الاجتهاد فيه لإجماع الأئمة المعتبرين عليه ، وإن اختلفوا في معصية من يوقعه كذلك ، ومن قال : بمعصيته استدل بما روي النسائي عن محمود بن لبيد قال :

"أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته ثلاثاً جميعاً فقام غضبان فقال : أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟! حتى قام رجل فقال : يا رسول الله ألا أقتله" وبما أخرجه عبد الرزاق عن عبادة بن الصامت أن أباه طلق امرأة له ألف تطليقة فانطلق عبادة فسأله صلى الله عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام : "بانت بثلاث في معصية الله وبقي تسعمائة وسبعة وتسعون عدوان وظلم إن شاء الله تعالى عذبه وإن شاء غفر له

"ويفهم من هذا حرمة إيقاع الزائد أيضاً وهو ظاهر كلام ابن الرفعة ، ومقتضى قول الروياني واعتمده الزركشي .

(38/769)

وغيره أنه يعزر فاعله ، ووجه بأنه تعاطي نحو عقد فاسد وهو حرام ، ونوزع في ذلك بما فيه نظر ، وبما في سنن أبي داود عن مجاهد قال : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال : إنه طلق زوجته ثلاثاً فقال له : عصيت ربك وبانت منك امرأتك إلى غير ذلك .

ومن قال بعدمها استدل بما رواه الشيخان من أن عويمراً العجلاني لما لاعن امرأته طلقها ثلاثاً قبل أن يخبره صلى الله عليه وسلم بحرمتها عليه ، وقال : إنه لو كان معصية لنهاه عنه لأنه أوقعه معتقداً بقاء الزوجية ، ومع اعتقادها يحرم الجمع عند المخالف ، ومع الحرمة يجب الإنكار على العالم وتعليم الجاهل ولم يوجدا ، فدل على أن لا حرمة وبأنه قد فعله جماعة من الصحابة منهم عبد الرحمن بن عوف طلق زوجته تماضر ثلاثاً في موضعه .

والحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما طلق زوجته شهبانوا ثلاثاً لما هنته بالخلافة بعد وفاة علي كرم الله تعالى وجهه ، وقال بعض الحنفية في ذلك : إنه محمول على أنهم قالوا :

ثلاثاً للسنة ، وهو أبعد من قول بعض الشافعية فيما روي من الأدلة الدالة على العصيان فيه أنه محمول على أنه كان في الحيض فالمعصية فيه من تلك الحيثية .

(39/769)

واستدل على كونه معصية إذا كان في الحيض بما هو أظهر من ذلك كالروايتين السابقتين فيما نقل عن الكشاف ، وفي الاستدلال بهما على حرمة إرسال الثلاث بحث ، وربما يستدل بالثانية على وجوب الرجعة لكن قد ذكر بعض أجلة السافعية أنها لا تجب بل تندب في الطلاق البدعي ، وإنما لم تجب لأن الأمر بالأمر بالشيء ليس أمراً بذلك الشيء ، وليس في فليراجعها أمر لابن عمر لأنه تفريع على أمر عمر ، فالمعني فليراجعها لأجل أمرك لكونك والده ، واستفادة الندب منه حينئذ إنما هي من القرينة ، وإذا راجع ارتفع الاثم المتعلق بحق الزوجة لا في الرجعة قاطعة للضرر من أصله فكانت بمنزلة التوبة ترفع أصل المعصية ، وبه فارق دفن البصاق في المسجد فإنه قاطع لدوام ضرره لا لأصله لأن تلويث المسجد به قد حصل ، ويندفع بما ذكر ما قيل : رفع الرجعة للتحريم كالتوبة يدل على وجوبها إذ كون الشيء بمنزلة الواجب في خصوصية من خصوصياته لا يقتضي وجوبه ، ولا يستدل بما اقتضته الآية من النهي عن إيقاع الطلاق في الحيض على فساد الطلاق فيه إذا النهي عند

أبي حنيفة لا يستلزم الفساد مطلقاً ، وعند الشافعي يدل على الفساد في العبادات وفي المعاملات إذا رجع إلى نفس العقد أو إلى أمر داخل فيه أو لازم له فإن رجع إلى أمر مقارن كالبيع وقت النداء فلا ، وما نحن فيه لأمر مقارن وهو زمان الحيض فهو عنده لا يستلزم الفساد هنا أيضاً ، وأيد ذلك بأمر ابن عمر بالرجعة إذ لو لم يقع الطلاق لم يؤمر بها قيل : وما كان منه من التطليق في الحيض سبب نزول هذه الآية والذي رواه ابن مردويه من طريق أبي الزبير عنه وحكى عن السدي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال : بلغنا أن قوله تعالى : ﴿ الحكيم يأَيُّهَا النبى إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ الآية نزل في عبد الله بن عمرو بن العاص .

وطفيل بن الحرث .

وعمرو بن سعيد بن العاص ، وقال بعضهم : فعله ناس منهم ابن عمرو بن العاص .

(40/769)

وعتبة بن غزوان فنزلت الآية ، وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين أنها نزلت في حفصة بنت عمر طلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدة فنزلت إلى قوله تعالى : ﴿ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ فراجعها عليه الصلاة والسلام ، ورواه قتادة عن أنس ، وقال القرطبي نقلاً عن

علماء الحديث : إن الأصح أنها نزلت ابتداءاً لبيان حكم شرعي ، وكل ما ذكر من أسباب النزول لها لم يصح ، وحكى أبو حيان نحوه عن الحافظ أبي بكر بن العربي ، وظاهرها أن نفس الطلاق مباح ، واستدل له أيضاً بما رواه أبو داود .

وابن ماجه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن من أبغض المباحات عند الله عز وجل الطلاق " وفي لفظ " أبغض الحلال إلى الله الطلاق " لوصفه بالإباحة والحل لأن أفعل بعض ما يضاف إليه ، والمراد من كونه مبغوضاً التنفير عنه أو كونه كذلك من حيث أنه يؤدي إلى قطع الوصلة وحل قيد العصمة لا من حيث حقيقته في نفسه .

(41/769)

وقال البيهقي : البغض على إيقاعه كل وقت من غير رعاية لوقته المسنون ، وبطلاقه صلى الله عليه وسلم حفصة ثم أمره تعالى إياه أن يراجعها فإنها صوامة قوامة ، وقال غير واحد : هو محظور لما فيه من كفران نعمة النكاح ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : " لعن الله كل مذواق مطلاق " وإنما أبيح للحاجة ، قال ابن الهمام : وهذا هو الأصح فيكره إذا لم يكن حاجة ، ويحمل لفظ المباح على أما أبيح في بعض الأوقات أعني أوقات تحقق الحاجة المبيحة وهو ظاهر في رواية لأبي داود ما أحل الله تعالى شيئاً أبغض إليه من الطلاق فإن

الفعل لا عموم له في الأزمان ، ومن الحاجة الكبر وعدم اشتهائه جماعها بحيث يعجز أو يتضرر بإكراهه نفسه عليه وهي لا ترضي بترك ذلك ، وما روي عن الحسن وكان قيل له في كثرة تزوجه وطلاقه من قوله : أحب الغني قال الله سبحانه : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ ﴾ [النساء : 130] فهو رأي منه إن كان على ظاهره ، وكل ما نقل من طلاق الصحابة كطلاق المغيرة بن شعبة الزوجات الأربعة دفعة فقد قال لهن : أنتن حسنات الأخلاق ناعمات الأطواق طويلات الأعناق اذهبن فأنتن طلاق فمحمله وجود الحاجة ، وإن لم يصرح بها ، وقال ابن حجر : هو إما واجب كطلاق مول لم يرد الوطء وحكمين رأياه ، أو مندوب كأن يعجز عن القيام بحقوقها ولو لعدم الميل إليها ، أو تكون غير عفيفة ما لم يخش الفجور بها ، ومن ثم أمر صلى الله عليه وسلم من قال : "إن زوجتي لا ترد يد لامس" أي لا تمنع من يريد الفجور بها على أحد أقوال في معناه بإمساكها خشية من ذلك .

ويلحق بخشية الفجور بها حصول مشقة له بفراقها تؤدي إلى مبيح تيمم ، وكون مقامها عنده أمنع لفجورها فيما يظهر فيهما ، أو سيئة الخلق أي بحيث لا يصبر على عشرتها عادة فيما يظهر ، وإلا فغير سيئة الخلق كالغراب الأعضم أو يأمره به أحد والديه أي من غير

تعنت كما هو شأن الحمقي من الآباء والأمهات ، ومع عدم خوف فتنة أو مشقة بطلاقها فيما يظهر ، أو حرام كالبدعي ، أو مكروه بأن سلم الحال عن ذلك كله للخبر الصحيح "ليس شيء من الحلال أبغض إلى الله من الطلاق" ولدلالته على زيادة التنفير عنه قالوا : ليس فيه مباح لكن صورة الإمام بما إذا لم يشتهها أي شهوة كاملة ولا تسمح نفسه بمؤنتها من غير تمتع اه .

والآية على ما لا يخفى على المنصف لا تدل على أكثر من حرمته في الحيض ، والمراد بالنساء فيها المدخول بهن من المعتدات بالحيض على ما في الكشاف ، وغيره لمكان قوله سبحانه : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ .

﴿ وَأَحْصُوا العدة ﴾ واضبطوها وأكملوها ثلاثة قروء كوامل ، وأصل معنى الإحصاء العد بالحصى كما كان معتاداً قديماً ثم صار حقيقة فيما ذكر ﴿ واتقوا الله رَبَّكُمْ ﴾ في تطويل العدة عليهن والاضرار بهن ، وفي وصفه تعالى بربوبيته عز وجل لهم تأكيد للأمر ومبالغة في إيجاب الاتقاء ﴿ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾ من مساكنهن عند الطلاق إلى أن تنقضي عدتهن ، وإضافتها إليهن وهي لأزواجهن لتأكيد النهي ببيان كمال استحقاقهن لسكناها كأنها أملاكهن ، وعدم العطف للإيذان باستقلاله بالطلب اعتناءاً به ، والنهي عن الإخراج يتناول عدم إخراجهن غضباً عليهن .

أو كراهة لمساكنتهن.

أو لحاجة لهم إلى المساكن.

(43/769)

أو محض سفه بمنطوقه، ويتناول عدم الاذن لهن في الخروج بإشارته لأن خروجهن محرم بقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ أما إذا كانت لا ناهية كالتي قبلها فظاهر، وأما إذا كانت نافية فلأن المراد به النهي، وهو أبلغ من النهي الصريح كما لا يخفى، والاذن في فعل المحرم محرم فكأنه قيل: لا تخرجوهن ولا تأذنوا لهن في الخروج إذا طلبن ذلك ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن، فهناك دلالة على أن سكونهن في البيوت حق للشرع مؤمد فلا يسقط بالاذن، وهذا على ما ذكره الجلبي مذهب الحنفية، ومذهب الشافعية أنهما لو اتفقا على الانتقال جاز إذ الحق لا يعدوهما، فالمعنى لا تخرجوهن ولا يخرجن باستبدادهن؛ وتعقب الشهاب كون ذلك مذهب الحنفية بقوله: فيه نظر، وقد ذكر الرازي في الأحكام ما يدل على خلافه وأن السكنى كالنفقة تسقط بالاسقاط انتهى.

والذي يظهر من كلامهم ما ذكره الجلبي" وقد نص عليه الحصكفي في الدر المختار، وعلله بأن ذلك حق الله تعالى فلا يسقط بالاذن، وفي الفتح لو اختلعت على أن لا سكنى لها

تبطل مؤنة السكنى عن الزوج ويلزمها أن تكتري بيته ، وأما أن يحل لها الخروج فلا ﴿ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ ﴾ أي ظاهرة هي نفس الخروج قبل انقضاء العدة كما أخرجه عبد الرزاق .

وعبد بن حميد .

وابن المنذر .

والبيهقي في سننه .

وابن مردويه .

والحاكم وصححه عن ابن عمر ، وروي عن السدى .

وابن السائب .

والنخعي وبه أخذ أبو حنيفة والاستثناء عليه راجع إلى ﴿ لَا يَخۡرُجۡنَ ﴾ والمعنى لا يطلق لهن في الخروج إلا في الخروج الذي هو فاحشة ، ومن المعلوم أنه لا يطلق لهن فيه فيكون ذلك منعاً عن الخروج على أبلغ وجه ، وقال الإمام ابن الهمام : هذا كما يقال في الخطابية : لا تزن إلا أن تكون فاسقاً .

ولا تشتم أمك إلا أن تكون قاطع رحم ، ونحو ذلك وهو بديع وبليغ جداً ، والزنا على ما روي عن قتادة .

والحسن .

والشعبي .

وزيد بن أسلم .

والضحاك .

وعكرمة .

وحماد .

(44/769)

والليث ، وهو قول ابن مسعود .

وقول ابن عباس ؛ وبه أخذ أبو يوسف ، والاستثناء عليه راجع إلى لا تخرجوهن على ما يقتضيه ظاهر كلام جمع أي لا تخرجوهن إلا إن زنين فأخرجوهن لإقامة الحد عليهن ، وقال بعض المحققين : هو راجع إلى الكل وما يوجب حداً من زنا .

أو سرقة .

أو غيرهما كما أخرجه عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب واختاره الطبري ، والبذاء على الأحماء أي أو على الزوج كما أخرجه جماعة من طرق عن ابن عباس والاستثناء راجع إلى الأول أي لا تخرجوهن إلا إذا طالت ألسنتهن وتكلمن بالكلام الفاحش القبيح

على أزواجهن أو أحمائهن ، وأيد بقراءة أبيّ إلا أن يفحشن عليكم بفتح الياء وضم الحاء ، وفي موضح الأهواري يفحشن من أفحش ، قال الجوهري : أفحش عليه في النطق أي أتى بالفحس ، وفي حرف ابن مسعود إلا أن يفحشن بدون عليكم والنشوز ، والمراد إلا أن يطلقن على النشوز على ما روي عن قتادة أيضاً ، والاستثناء عليه قيل : راجع إلى الأول أيضاً ، وفي الكشف هو راجع إلى الكل لأنه إذا سقط حقها في السكنى حل الإخراج والخروج أيضاً ، وأياً مّا كان فليس في الآية حصر المبيح لفعل المنهى عنه بالاتيان بالفاحشة ، وقد بينت المبيحات في كتب الفروع فليراجعها من أراد ذلك .

وقرأ ابن كثير .

(45/769)

وأبو بكر ﴿ مُّبَيَّنَةٍ ﴾ بالفتح ﴿ وَتِلْكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأحكام أي تلك الأحكام الجليلة الشأن ﴿ حُدُودَ الله ﴾ التي عينها لعباده عز وجل ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله ﴾ أي حدوده تعالى المذكورة بأن أخل بشيء منها على أن الإظهار في موضع الإضمار لتهويل أمر التعدي والاشعار بعلة الحكم في قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أي أضر بها كما قال شيخ الإسلام ، ونقل عن بعض تفسير الظلم بتعريضها للعقاب ، وتعقبه بأنه يأباه

قوله سبحانه : ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ فإنه استئناف مسوق لتعليل مضمون الشرطية ؛ وقد قالوا : إن الأمر الذي يحدثه الله تعالى أن يقلب قلبه عما فعله بالتعدي إلى خلافه فلا بد أن يكون الظلم عن ضرر دنيوي يلحقه بسبب تعديه ولا يمكنه تداركه ، أو عن مطلق الضرر الشامل للدنيوي والأخروي ، وخص التعليل بالدنيوي لكون احتراز أكثر الناس منه أشد واهتمامهم بدفعه أقوى .

(46/769)

ورد بأن الضرر الدنيوي غير محقق فلا ينبغي تفسير الظلم ههنا به ، وأن قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِى ﴾ الخ ليس تعليلاً لما ذكر بل هو ترغيب للمحافظة على الحدود بعد الترهيب ، وفيه أنه بالترهيب أشبه منه بالترغيب ، ولعل المراد من أضربها عرضها للضرر ، فالظلم هو ذلك التعريض ولا محذور في تفسيره به فيما يظهر ، وجملة الترجي في موضع النصب ب ﴿ لَا تَدْرِى ﴾ ، وعد أبو حيان ﴿ لَعَلَّ ﴾ من المعلقات ، والخطاب في ﴿ لَا تَدْرِى ﴾ للمتعدي بطريق الالتفات لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدي لا للنبي صلى الله عليه وسلم كما قيل ، فالمعنى من يتعدى حدود الله تعالى فقد عرض نفسه للضرر فإنك لا تدري أيها المتعدي عاقبة الأمر ﴿ لَعَلَّ ٱللَّهَ ﴾ تعالى يحدث في قلبك ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ الذي فعلت

من التعدي ﴿ أمْراً ﴾ يقتضي خلاف ما فعلته فيكون بدل بغضها محبة وبدل الاعراض عنها إقبالاً إليها ، ولا يتسنى تلافيه برجعة أو استئناف نكاح. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(47/769)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾

توجيه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أسلوب من أساليب آيات التشريع المهتم به فلا يقتضي ذلك تخصيص ما يذكر بعده النبي صلى الله عليه وسلم مثل ﴿ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ﴾ [الأنفال : 65] لأن النبي صلى الله عليه وسلم الذي يتولى تنفيذ الشريعة في أمته وتبيين أحوالها .

فإن كان التشريع الوارد يشمله ويشمل الأمة جاء الخطاب مشتملاً على ما يفيد ذلك مثل صيغة الجمع في قوله هنا ﴿ إذا طلقتم النساء ﴾ وإن كان التشريع خاصاً بالرسول صلى الله عليه وسلم جاءت بما يقتضي ذلك نحو ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ [المائدة : 67] .

قال أبو بكر بن العربي : "وهذا قولهم أن الخطاب له لفظاً .

والمعنى له وللمؤمنين ، وإذا أراد الله الخطاب للمؤمنين لاطفه بقوله : ﴿ يا أيها النبي ﴾ ،

وإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعاً له قال : ﴿ يا أيها الرسول ﴾ [المائدة : 67] أ

هـ .

ووجه الاهتمام بأحكام الطلاق والمراجعة والعِدّة سنذكره عند قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله

ربكم ﴾ .

فالأحكام المذكورة في هذه السورة عامة للمسلمين فضمير الجمع في قوله : ﴿ إذا طلقتم

النساء ﴾ وما بعده من الضمائر مثِله مراد بها هو وأمته .

وتوجيه الخطاب إليه لأنه المبلغ للناس وإمام أمته وقدوتَهم والمنفذ لأحكام الله فيهم فيما

بينهم من المعاملات فالتقدير إذا طلقتم أيها المسلمون .

وظاهر كلمة ﴿ إذا ﴾ أنها للمستقبل وهذا يؤيد ما قاله أبو بكر بن العربي من أنها شرع

مبتدأ قالوا : إنه يجوز أن يكون المراد إذا طلقتم في المستقبل فلا تعودوا إلى مثل ما فعلتم

ولكن طلقوهن لعدتهن ، أي في أطْهارهن كما سيأتي .

(48/769)

وتكرير فعل ﴿ فطلقوهن ﴾ لمزيد الاهتمام به فلم يقل إذا طلقتم النساء فلطهرهن وقد تقدم نظير ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ في سورة [الشعراء : 130] ، وقوله : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ في سورة [الفرقان : 72] .

واللام في لعدتهن ﴾ لام التوقيت وهي بمعنى عند مثل كُتب ليومِ كذا من شهر كذا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ [الإسراء : 78] لا تحتمل هذه اللام غير ذلك من المعاني التي تأتي لها اللام .

ولما كان مدخول اللام هنا غير زمان عُلم أن المراد الوقت المضاف إلى عدتهن أي وقت الطهر .

ومعنى التركيب أن عدة النساء جعلت وقتاً لإيقاع طلاقهن فكني بالعدة عن الطهر لأن المطلقة تعتد بالأطهار .

وفائدة ذلك أن يكون إيماء إلى حكمة هذا التشريع وهي أن يكون الطلاق عند ابتداء العِدة وإنما تُبتدأ العدة بأول طُهر من أطْهار ثلاثة لدفع المضرة عن المطلقة بإطالة انتظار تزويجها لأن ما بين حيضها إذا طلقت فيه وبين طهرها أيام غير محسوبة في عدتها فكان أكثر المطلقين يقصدون بذلك إطالة مدة العدة ليوسعوا على أنفسهم زمن الارتياء للمراجعة قبل أن يَبِنّ منهم .

وفعل ﴿ طلقتم ﴾ مستعمل في معنى أردتم الطلاق وهو استعمال وارد ومنه قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة : 6] الآية والقرينة ظاهرة .

والآية تدل على إباحة التطليق بدلالة الإشارة لأن القرآن لا يقدِّر حصول فعل محرَّم من دون أن يبيّن منعه .

(49/769)

والطلاق مباح لأنه قد يَكون حاجيّاً لبعض الأزواج فإن الزوجين شخصان اعتشرا اعتشاراً حديثاً في الغالب لم تكن بينهما قبله صلة من نسب ولا جوار ولا تخلق بخلق متقارب أو متماثل فيكثر أن يحدث بينهما بعد التزوج تخالف في بعض نواحي المعاشرة قد يكون شديداً ويعسر تذليله ، فيمل أحدهما ولا يوجد سبيل إلى إراحتهما من ذلك إلا التفرقة بينهما فأحله الله لأنه حاجيّ ولكنه ما أحله إلا لدفع الضر فلا ينبغي أن يجعل الإِذن فيه ذريعة للنكاية من أحَد الزوجين بالآخر .

أو من ذوي قرابتهما ، أو لقصد تبديل المذاق .

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم "أبغض الحلال إلى الله الطلاق" .

وتعليق ﴿ طلقتم ﴾ بإذا الشرطية مشعر بأن الطلاق خلاف الأصل في علاقة الزوجين

التي قال الله فيها : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ [الروم : 21] .

واختلف العلماء في أن النبي صلى الله عليه وسلم طلق وجزم به الخطابي في "شرح سنن أبي داود" : ولم يثْبُتْ تطليق النبي صلى الله عليه وسلم بحديث صحيح والمروي في ذلك خبرانِ ، أولهما ما رواه ابن ماجة عن سويد بن سعيد وعبد الله بن عامر بن زرارة ومسروق بن المرزبان بسندهم إلى ابن عباس عن عُمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصَة ثم راجعها .

وفي هذا السند ضعف لأن سُوَيد بن سعيد ضعيف نسبه ابن معين إلى الكذب وضعفه ابن المديني والنسائي وابن عدي .

وقَبله أحمد بن حنبل وأبو حاتم .

وكذلك مسروق بن المرزبان يضعف أيضاً .

وبقي عبد الله بن عامر بن زرارة لا متكلم فيه فيكون الحديث صحيحاً لكنه غريب وهو لا يُقبل فيما تتوفر الدواعي على روايته كهذا .

وهذا الحديث غريب في مبدئه ومنتهاه لانفراد سعيد بن جبير بروايته عن ابن عباس ، وانفراد ابن عباس بروايته عن عمر بن الخطاب مع عدم إخراج أهل الصحيح إياه فالأشبه أنه لم يقع طلاق النبي صلى الله عليه وسلم حفصة ولكن كانت قضيةُ الإيلاء بسبب حفصة .

والمعروف في "الصحيح" عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آلى من نسائه فقال الناس طلق رسول الله نساءه .

قال عمر : "فقلت يا رسول الله أطلقتَ نساءك ؟ ، قال : "لا آليت منهن شهراً" .

فلعل أحد رواة الحديث عن ابن عباس عبر عن الإيلاء بلفظ التطليق وعن الفَيْئة بلفظ راجع على أن ابن ماجه يضعف عند أهل النقد .

وثانيهما : حديث الجونية أسماءَ أو أميمة بنت شُراحيل الكندية في "الصحيح" : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها وأنه لما دخل يبني بها قالت له : "أعوذ بالله منك ، فقال : قد عذت بمعاذ الحقي بأهلك" وأمَرَ أبا أُسيد الساعدي أن يكسوها ثوبين وأن يلحقها بأهلها ، ولعلها أرادت إظهار شرفها والتظاهر بأنها لا ترغب في الرجال وهو خُلق شائع في النساء .

والأشبه أن هذا طلاق وأنه كان على سبب سؤالها فهو مثل التخيير الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا ﴾ في سورة [الأحزاب :

.[28

فلا يعارض ذلك قوله : أبغض الحلال إلى الله الطلاق .

إذ يكون قوله ذلك مخصوصاً بالطلاق الذي يأتيه الزوج بداع من تلقاء نفسه لأن علة الكراهية هي ما يخلفه الطلاق من بغضاء المطلقة من يطلقها فلا يصدر من النبي ابتداء تجنباً من أن تبغضه المطلقة فيكون ذلك وبَالاً عليها ، فأما إذا سألته فقد انتفت الذريعة التي يجب سدها .

وعُلم من قوله تعالى : لعدتهن ﴿ أنهن النساء المدخول بهن لأن غير المدخول بهن لا عدة لهن إجماعاً بنص آية الأحزاب .

(51/769)

وهذه الآية حجة لمالك والشافعي والجمهور أن العدة بالأطهار لا بالحِيَض فإن الآية دلت على أن يكون إيقاع الطلاق عند مبدإ الاعتداد فلو كان مبدأ الاعتداد هو الحيض لكانت الآية أمراً بإيقاع الطلاق في الحيض ولا خلاف في أن ذلك منهي عنه لحديث عمر في قضية طلاق ابنه عبد الله بن عمر زوجه وهي حائض .

واتفق أهل العلم على الأخذ به فكيف يخالف مخالف في معنى القرء خلافاً يفضي إلى

إبطال حكم القضية في ابن عمر وقد كانت العدة مشروعة من قبل بآية سورة البقرة وآيات الأحزاب فلذلك كان نوط إيقاع الطلاق بالحال التي تكون بها العدة إحالة على أمر معلوم لهم .

وحكمة العدة تقدم بيانها .

﴿ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا ﴾ .

الإحصاء : معرفة العدّ وضبطه .

وهو مشتق من الحصى وهي صغار الحجارة لأنهم كانوا إذا كثرت أعداد شيء جعلوا لكل معدود حصاةً ثم عدوا ذلك الحصى ، قال تعالى : ﴿ وأحصى كل شيء عدداً ﴾ [الجن : 28] .

والمعنى : الأمر بضبط أيام العدة والإتيان على جميعها وعدم التساهل فيها لأن التساهل فيها ذريعة إلى أحد أمرين ؛ إما التزويج قبل انتهائها فربّما اختلط النسب ، وإما تطويل المدة على المطلقة في أيام منعها من التزوج لأنها في مدة العدة لا تخلو من حاجة إلى من يقوم بها .

وأما فوات أمد المراجعة إذا كان المطلق قد ثاب إلى مراجعة امرأته .

والتعريف في العدة للعهد فإن الاعتداد مشروع من قبل كما علمته آنفاً والكلام على تقدير مضاف لأن المحصَى أيام العدة .

والمخاطب بضمير ﴿ أحصوا ﴾ هم المخاطبون بضمير ﴿ إذا طلقتم ﴾ فيأخذ كل

من يتعلق به هذا الحكم حَظه من المطلق والمطلقة ومن يطلع على مخالفة ذلك من المسلمين وخاصة ولاة الأمور من الحكام وأهل الحسبة فإنهم الأولى بإقامة شرائع الله في الأمة وبخاصة إذا رأوا تفشي الاستخفاف بما قصد ته الشريعة.

وقد بيّنا ذلك في باب مقاصد القضاء من كتابي "مقاصد الشريعة".

(52/769)

ففي العدة مصالح كثيرة وتحتها حقوق مختلفة اقتضتها تلك المصالح الكثيرة وأكثر تلك الحقوق للمطلِّق والمطلَّقة وهي تستتبع حقوقاً للمسلمين وولاةِ أمورهم في المحافظة على تلك الحقوق وخاصة عند التحاكم.

﴿ العدة واتقوا الله ﴾.

اعتراض بين جملة ﴿ وأحصوا العدة ﴾ وجملة ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ والواو اعتراضية.

وحذف متعلّق ﴿ اتقوا الله ﴾ ليعم جميع ما يتقى الله فيه فيكون هذا من قبيل الاعتراض التذييلي وأول ما يقصد بأن يتقى الله فيه ما سيق الكلام لأجله.

فقوله: ﴿ واتقوا الله ربكم ﴾ تحذير من التساهل في أحكام الطلاق والعدة.

ذلك أن أهل الجاهلية لم يكونوا يقيمون للنساء وزناً وكان قرابة المطلقات قلما يدافعن عنهن فتناسى الناس تلك الحقوق وغمصوها فلذلك كانت هذه الآيات شديدة اللهجة في التحدّي، وعبر عن تلك الحقوق بالتقوى وبحدود الله ولزيادة الحرص على التقوى أتبع اسم الجلالة بوصف ﴿ ربّكم ﴾ للتذكير بأنه حقيق بأن يتقى غضبه.

﴿ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ ﴾ .

استئناف أو حال من ضمير ﴿ أحصوا العدة ﴾ ، أي حالة كون العدة في بيوتهن، ويجوز أن تكون بدل اشتمال من مضمون جملة ﴿ أحصوا العدة ﴾ لأن مكثهن في بيوتهن في مدة العدة يحقق معنى إحصاء العدة.

ولكلا الوجهين جردت الجملة عن الاقتران بالواو جوازاً أو وجوباً.

وفي إضافة البيوت إلى ضمير النساء إيماء إلى أنهن مستحقات المكث في البيوت مدة العدة بمنزلة مالك الشيء وهذا ما يسمى في الفقه مِلْك الانتفاع دون العين ولأن بقاء المطلقات في البيوت اللاّتي كنّ فيها أزواجاً استصحاب لحال الزوجية إذ الزوجة هي المتصرفة في بيت زوجها ولذلك يدعوها العرب "ربّة البيت" وللمطلقة حكم الزوجة ما دامت في العدة إلا في استمتاع المطلق.

وهذا الحكم سببُه مركب من قصد المكارمة بين المطلّق والمطلقة.

وقصد الانضباط في علة الاعتداد تكميلاً لتحقق لحاق ما يظهر من حمل بأبيه المطلّق حتى يبرأ النسب من كل شك .

وجملة ﴿ ولا يخرجن ﴾ عطف على جملة ﴿ لا تخرجوهن ﴾ وهو نهي لهن عن الخروج فإن المطلق قد يُخرجها فترْغب المطلقة في الخروج لأنها تستثقل البقاء في بيت زالت عنه سيادتها فنهاهن الله عن الخروج .

فَإذا كان البيت مكترى سكنْته المطلقة وكراؤه على المطلق وإذا انتهى أمد كرائه فعلى المطلق تجديده إلى انتهاء عدة المطلقة .

وهذا الترتب بين الجملتين يشعر بالسببية وأن لكل امرأة معتدة حق السكنى في بيت زوجها مدة العدة لأنها معتدة لأجله أي لأجل حفظ نسبه وعِرضه فهذا مقتضى الآية .

ولذلك قال مالك وجمهور العلماء بوجوب السكنى للمطلقة المدخول بها سواء كان الطلاق رجعياً أو بائناً وقال ابن أبي ليلى : لا سكنى إلا للمطلقة الرجعية ، وعلل وجوب الإسكان للمطلقة المدخول بها بعدة أمور : حفظ النسب ، وجبر خاطر المطلقة وحفظ عرضها .

وسيجيء في هذه السورة قوله تعالى : ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم ﴾ [الطلاق : 6] الآية .

وتَعلم أن ذلك تأكيداً لما في هذه الآية من وجوب الإِسكان في العدة أعيد ليبين عليه قوله :

﴿ من وجدكم ﴾ [الطلاق : 6] وما عطف عليه.

والاستثناء في قوله : ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ يحتمل أن يرجع إلى الجملتين اللتين قبله كما هو الشأن فيه إذا ورد بعد جمل على أصح الأقوال لعلماء الأصول.

ويحتمل أن يرجع إلى الأخيرة منهما وهو مقتضى كونه موافقاً لضميرها إذ كان الضمير في كلتيهما ضمير النسوة.

وهو استثناء من عموم الأحوال التي اقتضاها عموم الذوات في قوله : ﴿ لا تخرجوهن ﴾ ﴿ ولا يخرجن ﴾ .

فالمعنى : إلا أن يأتين بفاحشة فأخرجوهن أو ليخرجْن، أي يباح لكم إخراجهن وليس لهن الامتناع من الخروج وكذلك عكسه.

(54/769)

والفاحشة : الفِعلة الشديدة السوء بهذا غلب إطلاقها في عرف اللغة فتشمل الزنا كما في قوله تعالى : ﴿ واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم ﴾ الآية في سورة [النساء : 15] .

وشَمل غيره من الأعمال ذات الفساد كما في قوله : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ﴾ [الأعراف : 28] .

وقوله تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ في سورة [الأعراف : 33] .

قال ابن عطية : قال بعض الناس : الفاحشة متى وردت في القرآن معرَّفة فهي الزنا (يريد أو ما يشبهه) كما في قوله : ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ [الأعراف : 80] ومتى وردت منكرة فهي المعاصي .

وقرأ الجمهور ﴿ مبينة ﴾ بكسر الياء التحتية ، أي هي تُبيِّن لمن تبلغه أنها فاحشة عظيمة فإسناد التبيين إليها مجاز باستعارة التبيين للوضوح أو تبين لولاة الأمور صدورَها من المرأة فيكون إسناد التبيين إلى الفاحشة مجازاً عقلياً وإنما المبيِّن ملابسها وهو الإقرار والشهادة فيحمل في كل حالة على ما يناسب معنى التبيين .

وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم ﴿ مبيَّنة ﴾ بفتح التحتية ، أي كانت فاحشة بَينْتَها الحجة أو بينَها الخارج ومحمل القراءتين واحد .

ووصفها بـ ﴿ مبينة ﴾ إما أن يراد به أنها واضحة في جنس الفواحش ، أي هي فاحشة عظيمة وهذا المقام يشعر بأن عظمها هو عظم ما يأتيه النساء من أمثالها عرفاً .

وإما أن يراد به مبينة الثبوت للمدة التي تخرج .

وقد اختلفوا في المراد من الفاحشة هنا وفي معنى الخروج لأجلها فعن ابن مسعود وابن عباس والشعبي والحسن وزيد بن أسلم والضحاك وعكرمة وحماد والليث بن سعْد وأبي

يوسف : أن الفاحشة الزنا ، قالوا : ومعاد الاستثناء الإِذن في إخراجهن ، أي ليقام عليهن الحد .

(55/769)

وفسرت الفاحشة بالبَذَاء على الجيران والأحماء أو على الزوج بحيث أن بقاء أمثالهن في جوار أهل البيت يفضي إلى تكرر الخصام فيكون إخراجها من ارتكاب أخف الضررين ونسب هذا إلى أبي بن كعب لأنه قرأ "إلا أن يفحشن عليكم" (بفتح التحتية وضم الحاء المهملة أي الاعتداء بكلام فاحش) وروي عن ابن عباس أيضاً واختاره الشافعي .

وفسرت الفاحشة بالمعصية من سرقة أو سب أو خروج من البيت فإن العدة بَلْه الزنا ونسب إلى ابن عباس أيضاً وابن عُمر وقاله السدي وأبو حنيفة .

وعن قتادة الفاحشة : النشوز ، أي إذا طلقها لأجلِ النشوز فلا سكنى لها .

وعن ابن عمر والسدي إرجاع الاستثناء إلى الجملة التي هو موال لها وهي جملة ﴿ ولا يخرجن ﴾ أي هن منهيات عن الخروج إلا أن يردن أن يأتين بفاحشة ، ومعنى ذلك إرادة تفظيع خروجهن ، أي إن أردن أن يأتين بفاحشة يخرجن وهذا بما يسمى تأكيد الشيء بما يشبه ضده كذا سماه السكاكي تسمية عند الأقدمين تأكيد المادح بما يشبه الذم ومنه قول

النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

بهن فلول من قراع الكتائب . . .

فجعلت الآية خروجهن ريبة لهن وحذرت النساء منه بأسلوب خطابي (بفتح الخاء)

فيكون هذا الاستثناء منعاً لهن من الخروج على طريقة المبالغة في النهي .

ومحمل فعل ﴿ يأتين ﴾ على هذا الوجه أنه من يردن أن يأتين مثل ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة : 6] .

(56/769)

وقد ورد في "الصحيح" عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتته فاطمة بنت قيس الفهرية فأخبرته أن زوجها أبا عمرو بن حفص أو أبا حفص بن عَمرو (وكان وجهه النبي صلى الله عليه وسلم مع عليّ إلى اليمن) فأرسل إليها من اليمن بتطليقة صادفت آخر الثلاث فبانت منه ، وأنه أرسل إلى بعض ذويه بأن ينفقوا عليها مدة العدة فقالوا لها : ما لكِ نفقة إلا أن تكوني حاملاً ، وأنها رفعت أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : لا نفقة لك فاستأذنته في الانتقال فأذن لها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم .

وفي روايةأنها قالت : أخاف أن يُقْتَحَم عليَّ (بالبناء للمجهول) ، وفي روايةأنها كانت في مكان وحْش مخيف على ناحيتها فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم بالانتقال .

واختلف العلماء في انتقالها فقال جماعة : هو رُخصة لفاطمة بنت قيس لا تتجاوزها وكانت عائشة أم المؤمنين ترى ذلك ، روَى البخاري أن يحيى بن سعيد بن العاص طلق امرأته عَمرة بنت عبد الرحمان بن الحكم وكان عمُّها مروان بن الحكم أميرَ المدينة يومئذٍ فانتقلها أبوها إليه فبلغ ذلك عائشةَ أم المؤمنين فأرسلت إلى مروان أن اتَّقِ الله وأرددها إلى بيتها فقال مروان : أو ما بلغك شأن فاطمة بنت قيس ؟ قالت عائشة : لا يضركَ أن لا تذكر حديثَ فاطمة ، فقال مروان : إن كان بكِ الشَرّ فحسبكِ ما بين هذين من الشَرّ ، (ولعل عائشة اقتنعت بذلك إذ لم يرد أنها ردت عليه) .

وفي "الصحيح" عن عمر بن الخطاب أنه قال : لا ندع كتاب الله وسنةَ نبينا لقول امرأة لا ندري أحفظت أم نسيت .

وقالت عائشة : ليس لفاطمة بنت قيس خبر في ذكر هذا الحديث وعابت عليها أشدَّ العيب .

وقالت إن فاطمة كانت في مكان وحش مُخيف على ناحيتها فرخص لها النبي صلى الله عليه وسلم بالانتقال .

ويظهر من هذا أنه اختلاف في حقيقة العذر المسوغ للانتقال .

قال مالك : وليس للمرأة أن تنتقل من موضع عدتها بغير عذر رواه الباجي في "المنتقى" .

(57/769)

وقال ابن العربي : إن الخروج للحدث والبَذاء والحاجة إلى المعايش وخوفِ العودة من المسكن جائز بالسنة .

ومن العلماء من جوز الانتقال للضرورة وجعلوا ذلك محمل حديث فاطمة بنت قيس فإنها خيف عليها في مكان وحش وحدث بينها وبين أهل زوجها شر وبَذاء قال سعيد بن المسيب : تلك امرأة استطالت على أحمائها بلسانها أنها كانت لَسِنَة فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنتقل وهذا الاختلاف قريب من أن يكون اختلافاً لفظياً لاتفاق الجميع عدا عمر بن الخطاب على أن انتقالها كان لعذر قَبله النبي صلى الله عليه وسلم فتكون تلك القضية مخصصة للآية ويجري القياس عليها إذا تحققت علة القياس .

أما قول عمر بن الخطاب : لا نَدع كتابَ الله وسنةَ نبينا لقول امرأة أحفظتْ أم نسيت .

فهو دحض لرواية فاطمة ابنة قيس بشكَ له فيه فلا تكون معارضة لآية حتى يصار إلى الجمع بالتخصيص والترخيص .

وقال ابن العربي : قيل إن عمر لم يخصص القرآن بخبر الواحد .

وأما تحديد منع خروج المعتدة من بيتها فلا خلاف في أن مبيتها في غير بيتها حرام .

وأما خروجها نهاراً لقضاء شؤون نفسها فجوزه مالك والليث بن سعد وأحمد للمعتدة مطلقاً .

وقال الشافعي : المطلقة الرجعية لا تخرج ليلاً ولا نهاراً والمبتوتة تخرج نهاراً .

وقال أبو حنيفة : تخرج المعتدة عدة الوفاة نهاراً ولا تخرج غيرها ، لا ليلاً ولا نهاراً .

وفي "صحيح مسلم" أن مروان بن الحكم أرسل إلى فاطمة بنت قيس يسألها عن حديثها فلما أبلغ إليه قال : لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة سنأخذ بالعِصمة التي وجدنا عليها الناس .

فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان : "فبَيني وبينكم القرآن قال الله عز وجل : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ .

هذا لمن كان له رجعة فأيّ أمر يحدث بعد الثلاث فكيف تقولون لا نفقة لها إذا لم تكن حاملاً فعَلام تحبسُونها فظنت أن ملازمة بيتها لاستبقاء الصلة بينها وبين مفارقها وأنها ملزمة بذلك لأجْل الإنفاق .

والذي تخلص لي أن حكمة السكنى للمطلقة أنها حفظ الإعراض فإن المطلقة يكثر إلتفات العيون لها وقد يتسرب سوء الظن إليها فيكثر الاختلاف عليها ولا تجد ذا عصمة يذب عنها فلذلك شرعت لها السكنى ولا تخرج إلا لحاجياتها فهذه حكمة من قبيل المَظنة فإذا طرأ على الأحوال ما أوقعها في المشقة أو أوقع الناس في مشقة من جرائها أخرجت من ذلك المسكن وجرَى على مكثها في المسكن الذي تنتقل إليه ما يجري عليها في مسكن مطلقها لأن المظِنة قد عارضتها مَئِنَّة .

ومن الحكم أيضاً في ذلك أن المطلقة قد لا تجد مسكناً لأن غالب النساء لم تكن لهن أموال وإنما هن عيال على الرجال فلما كانت المعتدة ممنوعة من التزوج كان إسكانها حقاً على مفارقها استصحاباً للحال حتى تحل للتزوج فتصير سكناها على من يتزوجها .

ويزاد في المطلقة الرجعية قصد استبقاء الصلة بينها وبين مطلقها لعلهُ أن يثوب إليه رشده فيراجعها فلا يحتاج في مراجعتها إلى إعادة التذاكر بينه وبينها أو بينه وبين أهلها .

فهذا مجموع علل فإذا تخلفت واحدة منها لم يتخلف الحكم لأن الحكم المعلل بعلتين فأكثر لا يبطله سقوط بعضها بخلاف العلة المركبة إذا تخلف جزء منها .

﴿ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ﴾ .

الواو اعتراضية والجملة معترضة بين جملة ﴿ ولا يخرجن ﴾ ، وجملة ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ أريد بهذا الاعتراض المبادرة بالتنبيه إلى إقامة الأحكام المذكورة من أول السورة إقامة لا تقصير فيها ولا خيرة لأحد في التسامح بها ، وخاصة المطلَّقة والمطلِّق أن يحسبا أن ذلك من حقهما انفراداً أو اشتراكاً .

والإشارة إلى الجمل المتقدمة باعتبار معانيها بتأويل القضايا .

(59/769)

والحدودُ : جمع حد وهو ما يَحُد ، أي يمنع من الاجتياز إلى ما ورائه للأماكن التي لا يحبون الاقتحام فيها إما مطلقاً مِثل حدود الحِمى وإما لوجوب تغيير الحالة مثل حدود الحَرم لمنع الصيد وحدود المواقيت للإحرام بالحج والعمرة .

والمعنى : أن هذه الأحكام مشابهة الحدود في المحافظة على ما تقتضيه في هذا .

ووجه الشبه إنما يراعى بما يسمح به عرف الكلام مثل قولهم : "النحو في الكلام كالملح في الطعام" فإن وجه التشبيه أنه لا يصلح الكلام بدونه وليس ذلك بمقتض أن يكون الكثير من النحو في الكلام مفسداً ككثرة الملح في الطعام .

ووقوع ﴿ حدود الله ﴾ خبراً عن اسم الإشارة الذي أشير به إلى أشياء معينة يجعل إضافة حدود إلى اسم الجلالة مراداً منها تشريف المضاف وتعظيمه .

والمعنى : وتلك مما حدّ الله فلا تفيد تعريف الجمع بالإضافة عموماً لصرف القرينة عن إفادة ذلك لظهور أن تلك الأشياء المعينة ليست جميع حدود الله .

﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ ﴾ .

عطف على جملة ، ﴿ وتلك حدود الله ﴾ .

فهو تتميم وهو المقصود من التذييل وإذ قد كان حدود الله جمعاً معرفاً بالإضافة كان مفيداً للعموم إذ لا صارف عن إرادة العموم بخلاف إضافة حدود الله السابق .

والمعنى : من يتعد شيئاً من حدود الله فقد ظلم نفسه ، وبهذا تعلم أن ليس في قوله : ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ إظهار في مقام الإضمار لاختلاف هذين المركبين بالعموم والخصوص وجيء بهذا الإطناب لتهويل أمر هذا التعدي .

وأُخبر عن متعديها بأنه ظلم نفسه للتخويف تحذيراً من تعدي هذه الحدود فإن ظلم النفس هو الجريرة عليها بما يعود بالإضرار وذلك منه ظلم لها في الدنيا بتعريض النفس لعواقب سيئة تنجر من مخالفة أحكام الدين لأن أحكامه صلاح للناس فمن فرط فيها فاتته المصالح المنطوية هي عليها .

قال : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطَهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ [المائدة : 6] .

ومنه ظلم للنفس في الآخرة بتعريضها للعقاب المتوعد به على الإخلال بأحكام الدّين قال تعالى : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنتُ لمن الساخرين أو تقولَ لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ﴾ [الزمر : 56 58] فإن للمؤمنين حظاً من هذا الوعيد بمقدار تفاوت ما بين الكفر ومجرد العصيان وجيء في هذا التحذير بمَن الشرطية لإفادة عموم كل من تعدى حدود الله فيدخل في ذلك الذين يتعدون أحكام الطلاق وأحكام العدة في هذا العموم .

﴿ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ .

هذه الجملة تعليل لجملة ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ وما ألحق بها مما هو إيضاح لها وتفصيل لأحوالها .

ولذلك جاءت مفصولة عن الجمل التي قبلها .

ويجوز كونها بَدلاً من جملة ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ بدل اشتمال لأن ظلم النفس بعضه حاصل في الدنيا وهو مشتمل على إضاعة مصالح النفس عنها .

وقد سلك في هذه الآية مسلك الترغيب في امتثال الأحكام المتقدمة بعد أن سلك في

شأنها مسلك الترهيب من مخالفتها .

فمن مصالح الاعتداد ما في مدة الاعتداد من التوسيع على الزوجين في مهلة النظر في مصير شأنهما بعد الطلاق ، فقد يتضح لهما أو لأحدهما متاعب وأضرار من انفصام عروة المعاشرة بينهما فَيعُدّ ما أضجرهما من بعض خُلقهما شيئاً تافهاً بالنسبة لما لحقهما من أضرار الطلاق فيندم كلاهما أو أحدهما فيجدا من المدة ما يسع للسعي بينهما في إصلاح ذات بينهما .

والمقصود الإشارة إلى أهم ما في العدة من المصالح وهو ما يُحدثه الله من أمر بعد الطلاق وتنكير أمر للتنويع .

أي أمراً موصوفاً بصفة محذوفة ، أي أمراً نافعاً لهما .

(61/769)

وهذا الأمر هو تقليب القلوب من بغض إلى محبة ، ومن غضب إلى رضى ، ومن إيثار تحمل المخالفة في الأخلاق مع المعاشرة على تحمل آلام الفراق وخاصة إذا كان بين المتفارقين أبناء ، أو من ظهور حمل بالمطلقة بعد أن لم يكن لها أولاد فيلزُّ ظهوره أباه إلى مراجعة أمه المطلقة .

على أن في الاعتداد والإسكان مصالح أخرى كما علمته آنفاً .

والخطاب في قوله : ﴿ لا تدري ﴾ لغير معين جار على طريقة القصد بالخطاب إلى كل من يصلح للخطاب ويهمه أمر الشيء المخاطب به من كل من قَصر بصره إلى حالة الكراهية التي نشأ عليها الطلاق ولم يتدبر في عواقب الأمور ولا أحاط فِكرُه بصور الأحوال المختلفة المتقلبة كما قال تعالى : ﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ [النساء : 19] .

ولعل كلمة ﴿ لا تدري ﴾ تجري مجرى المثل فلا يراد مما فيها من علامة الخطاب ولا من صيغة الإفراد إلا الجري على الغالب في الخطاب وهو مبني على توجيه الخطاب لغير معين .

و﴿ لعل ﴾ ومعمولاها سادّة معلقة فعل ﴿ تدري ﴾ عن العمل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(62/769)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الحدود والحديد)

الحَدّ : الحاجز بين الشيئين الَّذى يمنع اختلاط أَحدهما بالآخر .

يقال : حددْت كذا : جعلت له حدّاً يميّزه .

وَحدُّ الدّار : ما تتميّز به عن غيرها .

وحدّ الشئ : الوصف المحيط بمعناه المميّز له عن غيره .

وحدّ الزّانى والخمر سمّى لكونه مانعاً لمتعاطيه عن معاودة مثله ومانعاً لغيره أَن يسلك مسلكه .

وقوله تعالى ﴿ وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ أَى أَحكامه ، وقيل : حقائق معانيه .

وجميع حدود الله على أَربعة أَضرب : إِمّا شئ لا يجوز أَن يُتعدّى بالزيادة عليه ، ولا يجوز النقصان عنه ، كأَعداد ركعات صلاة الفرض ؛ وإِما شئ يجوز الزيادة عليه ولا يجوز النقصان عنه ؛ وإِمّا شئ يجوز النقصان عنه ولا يجوز الزِّيادة عليه ؛ [وإِمّا شئ يجوز كلاهما] .

والحدود جاءَت فى القرآن على سبعة أَوجه : الأَوّل حدّ الاعتكاف لإِخلاص العبادة ﴿ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ الثّانى : حد الخُلْع لبيان الفِدْية ﴿ فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ .

الثّالث : حدُّ الطَّلاق لبيان الرَّجعة ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

الرّابع : حَدّ العِدّة لمنع الضرار وبيان المدّة .

الخامس : حَدّ الميراث لبيان القسمة ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ﴾ السادس : حدّ الظِّهار لبيان الكفارة ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ إلى قوله ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾ .

السَّابع : حَدّ الطَّلاق لبيان مُدّة العِدّة ﴿ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾ إلى قوله ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أَى يمانعون .

وذلك إمّا اعتباراً بالممانعة ، وإمّا باستعمال الحديد .

(63/769)

والحديد معروف ، قال تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ وحددت السّكين : رقَّقت حَدّه ، وأَحددته : جعلت له حَدّاً .

ثمّ يقال لكلّ ما دَقَّ فى نفسه من حيث الخلقة أَو من حيث المعنى كالبصر والبصيرة : حديد .

فيقال : هو حديد النّظر وحديد الفهم .

قال تعالى ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ ويقال : لسانٌ حديدٌ نحو لسان صارم وماض وذلك إِذا كان يؤثِّر تأْثير الحديد ، قال تعالى ﴿ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ ولتصوُّر المنع سُمّى البوّاب حَدّاداً .

وفى الحديث : "مَنْ أَشار إِلى أَخيه بحديدةٍ فإِنَّ الملائكة تلعنه" وفى المثل : الحديد بالحديد يُفْلَح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 437 . 438 ﴾

(64/769)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

(سورة الطلاق)

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ .

الآية .

ظاهر في خصوص الخطاب به صلى الله عليه وسلم وقوله: ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ الآية يقتضي خلاف ذلك .

والجواب هو ما تقدم محررا في سورة الروم من أن الخطاب الخاص بالنبي صلى الله عليه وسلم حكمه عام لجميع الأمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 297 ﴾

(65/769)

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما حد سبحانه ما يفعل في العدة ، أتبعه ما يفعل عند انقضائها فسبب عما أمره بها فيها معبراً بأداة التحقق لأن الخطاب على تقدير الحياة ، معلماً أن له الرجعة إلى آخر جزء من العدة لأنها إذا ثبتت في آخرها البعيد من الطلاق كان ما قبله أولى لأنه أقرب إلى الطلاق فقال : ﴿ فإذا بلغن ﴾ أي المطلقات ﴿ أجلهن ﴾ أي شارفن انقضاء العدة مشارفة عظيمة ﴿ فأمسكوهن ﴾ أي بالمراجعة ، وهذا يدل على أن الأولى من الطلاق ما دون

البائن لا سيما الثلاث.

ولما كان الإنسان لما له من النقصان لا يقدر على كمال الإحسان قال منكراً:

﴿بمعروف﴾ أي حسن عشرة لا بقصد المضارة بطلاق آخر لأجل إيجاب عدة أخرى ولا غير ذلك ﴿أو فارقوهن﴾ أي بعدم المراجعة لتتم العدة فتملك نفسها ﴿بمعروف﴾ بإيفاء الحق مع حسن الكلام وكل أمر عرفه الشرع - أي حسنه - فلا يقصد أذاها بتفريقها من ولدها مثلاً أو منه إن كانت محبة له مثلاً بقصد الأذى فقط من غير مصلحة وكذا ما أشبه ذلك من أنواع الضرر بالفعل أو القول، فقد تضمنت الآية بإفصاحها الحث على فعل الخيرات وبإبهامها اجتناب المنكرات.

ولما كان كل من المرافقة والمفارقة أمراً عظيماً، تبنى عليه أحكام فتحرم أضدادها، فيكون الخلاف فيها في غاية الخطر، وكان الإشهاد أليق بالمراد، وأقطع للنزاع، قال تعالى حاثاً على الكيس واليقظة والبعد عن أفعال المغفلين العجزة: ﴿وأشهدوا﴾ أي على المراجعة أو المفارقة ﴿ذوي عدل﴾ أي مكلفين حرين ثقتين يقظين ﴿منكم﴾ أي مسلمين وهو أمر إرشاد مندوب إليه، وعن الشافعي رضي الله تعالى عنه وجوبه في الرجعية والصحيح الأول، ومن فوائده أن لا يموت أحدهما فيدعي الآخر الزوجية ببقاء علقة العدة ليرث.

ولما كان أداء الشهادة يعسر على الشاهد لترك مهماته وعسر لقاء الحكم الذي يؤدي عنده ، وربما بعد مكانه ، وكان للعدل في الأداء عوائق أيضاً ، وكان الشهود من المأمورين بالإشهاد ، حث على الأداء على وجه العدل بقوله : ﴿ وأقيموا ﴾ أي أيها المأمورون حيث كنتم شهوداً ﴿ الشهادة ﴾ أي التي تحملتموها بأدائها على أكمل أحوالها كما يفعل من يريد إقامة شيء ليصير واقفاً بنفسه غير محتاج إلى ما يدعمه .

ولما كان ربما ميل أحد من المشهود عليهما الشاهد بشيء من المرغبات فأداها على وجهها لذلك الشيء لا لكونه الحق ، قال مرغباً مرهباً ﴿ لله ﴾ أي مخلصين لوجه الملك الأعلى المحيط بكل شيء علماً وقدرة وهو ذو الجلال والإكرام في أدائها على وجه الحق ظاهراً وباطناً ، لا لأجل المشهود له ولا المشهود عليه ، ولا شيء سوى وجه الله .

ولما كانت أحكامه سبحانه وتعالى لا سيما في الكتاب المعجز مقرونة بعللها وفيها عند التأمل رقائق ودقائق تخشع لها القلوب وتجب الأفئدة في داخل الصدور قال ﴿ ذلكم ﴾ أي الذي ذكرت لكم أيتها الأمة من هذه الأمور البديعة النظام العالية المرام ، وأولاها بذلك هنا الإشهاد وإقامة الشهادة .

ولما كانت أوامر الله تعالى وقصصه وأحكامه وجميع كلامه مختصاً من بين كلام الناس بأنه يرقق القلوب ويلين الشكائم لكونه روحاً لما فيه العدل الذي تهواه النفوس ، وتعشقه الألباب ، وتميل إليه الطبائع ، وقامت به السماوات والأرض ، ولما فيه أيضاً من ذكر من تعشقه الفطر القويمة من جميع أهل الخير من الأنبياء والملائكة والأولياء ، مع تشريف الكل بذكر الله ، سمي وعظاً ، وبني للمجهول إشارة إلى أن الوعظ بنفسه نافع ولو لم يعرف قائله ، وإلى أن الفاعل معروف أنه الله لكونه سمي وعظاً مع كونه أحكاماً فقال : ﴿ يوعظ به ﴾ أي يلين ويرقق ﴿ من كان ﴾ أي كوناً راسخاً ، من جميع الناس ﴿ يؤمن بالله ﴾ أي يوقع ويجدد منكم ومن غيركم على سبيل الاستمرار من صميم قلبه الإيمان بالملك الذي له الكمال كله .

ولما كان البعث محط الحكمة لأن الدنيا مزرعة للآخرة ، ولا يكون زرع بغير حصاد ، كان خلو الإيمان عنه معدماً للإيمان فقال : ﴿ واليوم الآخر ﴾ فإنه المحط الأعظم للترقيق ، أما من لم يكن متصفاً بذلك فكأنه لقساوة قلبه ما وعظ به لأنه لم ينتفع به أبداً .

ولما كانت العبادة لا تكون إلا بالإعانة ، وكان التقدير : فمن اتعظ بذلك كان اتعاظه شاهداً له بإيمانه بذلك ، وكان متقياً ، عطف عليه قوله اعتراضاً بين هذه الأحكام تأكيداً للترغيب في الإعانة المترتبة على التقوى : ﴿ ومن يتق الله ﴾ أي يخف الملك الأعظم فيجعل بينه وبين ما يسخطه وقاية مما يرضيه ، وهو اجتلاب ما أمر به واجتناب ما نهى عنه من الطلاق وغيره ظاهراً وباطناً ، وذلك صلاح قوي العلم بالإيمان والعمل بفعل المأمور به وترك المنهي عنه لأنه تقدم أن التقوى إذا انفردت في القرآن عن مقارن عمت الأمر والنهي ، وإذا قرنت بغيرها نحو إحسان أو رضوان خصت المناهي : ﴿ يجعل ﴾ أي الله سبحانه بسبب التقوى ﴿ له مخرجاً ﴾ بدفع المضار من كل ضيق أحاط به في نظير ما اجتنب من المناهي ﴿ ويرزقه ﴾ بحوله وقوته بجلب المسار في الدين والدنيا والآخرة في نظير ما اجتلب من فعل الأوامر .

(69/769)

ولما كان أحلى الهبات ما جاء من مكان لا يرجى قال : ﴿ من حيث لا يحتسب ﴾ أي لا يقوى رجاؤه له ، ولما أكد في هذا وأعظم الوعد لأنه وإن كان عاماً لكل متق فتعلقه بما تقدم أقوى والنظر فيما تقدم إلى حقوق العباد أكثر ، والمضايقة فيها أشد ، والدواعي إليها أبلغ ،

فالاتقاء فيه بعدم الطلاق في الحيض والإضرار بالمرأة بتطويل العدة أو الإخراج من المسكن وكتمان الشهادة والعسر في أدائها والإخلال بشيء منها والتأكيد والإبلاغ في الوعد لأجل ما جبل عليه الإنسان من القلق في أموره ، عطف على ذلك قوله : ﴿ ومن يتوكل ﴾ أي يسند أموره كلها ويفوضها معتمداً فيها ﴿ على الله ﴾ أي الملك الذي بيده كل شيء ولا كفوء له فقد جمع الأركان الثلاثة التي لا يصلح التوكيل إلا بها ، وهي العلم المحيط لئلا يدلس عليه ، والقدرة التامة لئلا يعجز ، والرحمة بالمتوكل والعناية به لئلا يحيف عليه ، والتوكل يكون مع مباشرة الأسباب وهو من المقامات العظيمة وإلا كان اتكالاً ، وليس بمقام بل خسة همة وعدم مروءة ، لأنه إبطال حكمة الله التي أحكمها في الدنيا من ترتيب المسببات على الأسباب - قاله الملوي ﴿ فهو ﴾ أي الله في غيب غيبه فضلاً عن الشهادة بسبب توكله ﴿ حسبه ﴾ أي كافيه ، وحذف المتعلق للتعميم ، وحرف الاستعلاء للاشارة إلى أنه قد حمل أموره كلها عليه سبحانه لأنه القوي الذي لا يعصيه شيء ، والكريم الذي يحسن حمل ذلك ورعيه ، والعزيز الذي يدفع عنه كل ضار ويجلب له كل سار ، إلى غير ذلك من المعاني الكبار ، فلا يبدو له في عالم الشهادة شيء يشقيه لا من الغيب ولا من غيب الغيب ، وفي الحديث

" لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً " .

ولما كان ذلك أمراً لا يكاد يحيط به الوهم، علله بقوله مهولاً له بالتأكيد والإظهار في موضع الإضمار: ﴿إن الله﴾ أي المحيط بكل كمال المنزه عن كل شائبة نقص ﴿بالغ أمره﴾ أي جميع ما يريده فلا بد من نفوذه سواء حصل توكل أم لا، وسماه أمراً إشارة إلى أنه مما يستحق أن يؤمر به وإلى أنه في سرعة الكون إذا أريد لم يتخلف بوجه بل يكون كالمؤتمر الحقير للملك الجليل الكبير.

ولما كان ضرب المقادير من القادر موجباً لعدم الإخلال بشيء منها، علل ذلك بما اقتضى تحتم الوعد والتوكل فقال: ﴿قد جعل الله﴾ أي الملك الذي لا كفوء له ولا معقب لحكمه جعلاً مطلقاً من غير تقيد بجهة ولا حيثية ﴿لكل شيء قدراً﴾ أي تقديراً لا يتعداه في مقداره وزمانه ومكانه وجميع عوارضه وأحواله وإن اجتهد جميع الخلائق في أن يتعداه، فمن توكل استفاد الأجر وخفف عنه الألم، وقذف في قلبه السكينة، ومن لم يتوكل لم ينفعه ذلك، وزاد ألمه وطال غمه بشدة سعيه وخيبة أسبابه التي يعتقد أنها هي المنجحة، فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط، جف القلم فلا يزاد في المقادير شيء ولا ينقص منها شيء، ويحكى أن رجلاً أتى عمر ـ رضى الله عنه ـ فقال: أولني مما أولاك الله فقال: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قال: إنا لا نولي من لا يقرأ القرآن، فانصرف الرجل واجتهد حتى تعلم القرآن رجاء أن يعود إلى عمر فيوليه، فلما تعلم القرآن تخلف عن عمر فرآه ذات

يوم فقال : يا هذا ! أهجرتنا ، فقال : يا أمير المؤمنين ! لست ممن يهجر ؟ ولكني تعلمت القرآن فأغناني الله عن عمر وعن باب عمر ، قال : أي آية أغنتك ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ [الطلاق : 2 و 3] انتهى .

(71/769)

ومن توكل على غيره سبحانه وتعالى ضاع لأنه لا يعلم المصالح وإن علمها لم يعلم أين هي ، وإن علم لم يعلم متى يستعملها وإن علم لم يعلم كم المقدار المستعمل ، وإن علم لم يعلم كيف يستعملها وهو سبحانه المنفرد بعلم ذلك كله وما لا يعلمه حق علمه غيره ، والآية تفهم أن من لم يتق الله يقتر عليه ، وهو موافق لما روى ابن حبان في صحيحه والحاكم واللفظ له – وقال : صحيح الإسناد – عن ثوبان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه " وتفهم أن من لم يتوكل لم يكف شيئاً من الأشياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 27. 31 ﴾

(72/769)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾

أي قاربن انقضاء أجل العدة لا انقضاء أجلهن ، والمراد من بلوغ الأجل هنا مقاربة البلوغ ، وقد مر تفسيره .

قال صاحب "الكشاف" : هو آخر العدة وشارفته ، فأنتم بالخيار إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف ، وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة ، وإتقاء الضرار وهو أن يراجعها في آخر العدة ، ثم يطلقها تطويلاً للعدة وتعذيباً لها .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوِى عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ أي أمروا أن يشهدوا عند الطلاق وعند الرجعة ذوي عدل ، وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة كما في قوله :

﴿ وَأَشْهِدُواْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ [البقرة : 282] وعند الشافعي هو واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة ، وقيل : فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد ، وأن لا يتهم في إمساكها ولئلا يموت أحدهما فيدعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث ، وقيل : الإشهاد إنما أمروا به للاحتياط مخافة أن تنكر المرأة المراجعة فتنقضي العدة فتنكح زوجاً .

ثم خاطب الشهداء فقال : ﴿ وَأَقِيمُواْ الشهادة ﴾ وهذا أيضاً مر تفسيره ، وقوله :

﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ قال الشعبي : من يطلق للعدة يجعل الله له سبيلاً إلى الرجعة ، وقال غيره : مخرجاً من كل أمر ضاق على الناس ، قال الكلبي : ومن يصبر على المصيبة يجعل الله له مخرجاً من النار إلى الجنة ، وقرأها النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم القيامة ، " وقال أكثر أهل التفسير : أنزل هذا وما بعده في عوف بن مالك الأشجعي أسر العدو ابناً له فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر له ذلك وشكا إليه الفاقة فقال له : " اتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله " ففعل الرجل ذلك فبينما هو في بيته إذ أتاه ابنه ، وقد غفل عنه العدو ، فأصاب إبلاً وجاء بها إلى أبيه ، وقال صاحب "الكشاف" : فبينا هو في بيته ، إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها ، فذلك قوله : ويرزقه من حيث لا يحتسب ويجوز أنه إن اتقى الله وآثر الحلال والصبر على أهله فتح الله عليه إن كان ذا ضيق ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ وقال في "الكشاف" : ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله ﴾ جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة كما مر .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي من وثق به فيما ناله كفاه الله ما أهمه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله " وقرىء : ﴿ إِنَّ اللهَ بالغ أَمْرِهِ ﴾ بالإضافة ﴿ وبالغ أمره ﴾ أي نافذ أمره ، وقرأ المفضل ﴿ بالغاً أمره ﴾ ، على أن قوله ﴿ قَدْ جَعَلَ ﴾ خبر ﴿ إن ﴾ ، و ﴿ بالغاً ﴾ حال .

(74/769)

قال ابن عباس يريد في جميع خلقه والمعنى سيبلغ الله أمره فيما يريد منكم و ﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ أي تقديرا وتوقيتاً ، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله تعالى وتفويض الأمر إليه ، قال الكلبي ومقاتل : لكل شيء من الشدة والرخاء أجل ينتهي إليه قدر الله تعالى ذلك كله لا يقدم ولا يؤخر .

وقال ابن عباس : يريد قدرت ما خلقت بمشيئتي ، وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ إلى قوله : ﴿ مَخْرَجاً ﴾ آية ومنه إلى قوله : ﴿ قَدْرًا ﴾ آية أخرى عند الأكثر ، وعند الكوفي والمدني المجموع آية واحدة ثم في هذه الآية لطيفة : وهي أن التقوي في رعاية أحوال النساء مفتقرة إلى المال ، فقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ وقريب من هذا قوله :

﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النور : 32] فإن قيل : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ يدل على عدم الاحتياج للكسب في طلب الرزق ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ [الجمعة : 10] يدل على الاحتياج فكيف هو ؟ نقول : لا يدل على الاحتياج ، لأن قوله : ﴿ فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ للإباحة كما مر والإباحة مما ينافي الاحتياج إلى الكسب لما أن الاحتياج مناف للتخيير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 31. 32 ﴾

(75/769)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾

الطلاق على الجملة مكروه ، لأنه تبديد شمل في الإسلام ، وروى أبو موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تطلقوا النساء إلا من ريبة ، فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات " . وروى أنس أنه عليه السلام قال : " ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق " . واختلف في ندائه النبي . ثم قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ طلقتم ﴾ ، فقال بعض النحويين حكاه الزهراوي ، في ذلك خروج من مخاطبة أفراد إلى مخاطبة جماعة ، وهذا

موجود ، وقال آخرون منهم في نداء النبي صلى الله عليه وسلم : أريدت أمته معه ، فلذلك قال : ﴿ إذا طلقتم ﴾ ، وقال آخرون منهم إن المعنى : ﴿ يا أيها النبي ﴾ قل لهم ﴿ إذا طلقتم ﴾ ، وقال آخرون إنه من حيث يقول الرجل العظيم فعلنا وصنعنا خوطب النبي صلى الله عليه وسلم ب ﴿ طلقتم ﴾ إظهاراً لتعظيمه ، وهذا على نحو قوله تعالى في عبد الله بن أبي : ﴿ هم الذين يقولون ﴾ [المنافقون : 7] إذا كان قوله مما يقوله جماعة ، فكذلك النبي في هذه ما يخاطب به فهو خطاب الجماعة .

(76/769)

قال القاضي أبو محمد : والذي يظهر لي في هذا أنهما خطابان مفترقان ، خوطب النبي على معنى تنبيهه لسماع القول وتلقي الأمر ثم قيل له : ﴿ إذا طلقتم ﴾ ، أي أنت وأمتك ، فقوله : ﴿ إذا طلقتم ﴾ ، ابتداء كلام لو ابتدأ السورة به ، وطلاق النساء : حل عصمتهن وصورة ذلك وتنويعه مما لا يختص بالتفسير ، وقوله تعالى : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ أي لاستقبال عدتهن وقوامها وتقريبها عليهن ، وقرأ عثمان وابن عباس وأبي بن كعب وجابر بن عبد الله ومجاهد وعلي بن الحسين وزيد بن علي وجعفر بن محمد : " فطلقوهن في قبل عدتهن " ، وروي عن بعضهم وعن ابن عمر " لقبل طهرهن " ، ومعنى هذه الآية ، أن لا

يطلق أحد امرأته إلا في طهر لم يمسها فيه ، هذا على مذهب مالك وغيره ممن قال : بأن الاقراء الاطهار فيطلق عندهم المطلق في طهر لم يمس فيه وتعتد به المرأة ، ثم تحيض حيضتين تعتد بالطهر الذي بينهما ، ثم يقيم في الطهر الثالث معتدة به ، فإذا رأت أول الحيضة الثالثة حلت ، ومن قال : بأن الإقراء الحيض وهم العراقيون قال : ﴿ لعدتهن ﴾ ، معناه أن تطلق طاهراً ، فتستقبل ثلاث حيض كوامل ، فإذا رأت الطهر بعد الثالثة حلت ويخف عند هؤلاء مس في طهر الطلاق أو لم يمس ، وكذلك مالك يقول : إن طلق في طهر قد مس فيه معنى الطلاق ، ولا يجوز طلاق الحائض ، لأنها تطول العدة عليها ، وقيل بل ذلك تعبد ولو علل بالتطويل لا ينبغي أن يجوز إذا رضيته ، والأصل في ذلك حديث عبد الله بن عمر قال : طلقت امرأتي وهي حائض ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعمر :

" مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم يطلقها إن شاء ، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء " . وروى حذيفة أنه عليه السلام قال : " طلقوا المرأة في قبل طهرها " ، ثم أمره تعالى بإحصاء العدة لما يلحق ذلك من أحكام الرجعة والسكنى

والميراث وغير ذلك ، ثم أخبر تعالى بأنهن أحق بسكنى بيوتهن التي طلقن فيها ، فنهى عن إخراجهن وعن خروجهن ، وسنة ذلك أن لا تبيت المرأة المطلقة عن بيتها ولا تغيب عنه نهاراً إلا في ضروة ، ومما لا خطب له من جائز التصرف وذلك لحفظ النسب والتحرز بالنساء ، فإن كان البيت ملكاً للزوج أو بكراء منه فهذا حكمه ، فإن كان لها فعليه الكراء ، فإن كان قد أمتعته طول الزوجية ففي لزوم خروج العدة له قولان في المذهب اللزوم رعاية لانفصال مكارمة النكاح ، والسقوط من أجل العدة من سبب النكاح ، واختلف الناس في معنى قوله : ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ فقال قتادة والحسن ومجاهد : ذلك الزنا فيخرجن للحد ، وهذا قول الشعبي وزيد بن أسلم وحماد والليث ، وقال ابن عباس : ذلك لنداء على الإحماء ، فتخرج ويسقط حقها من السكنى وتلزم الإقامة في مسكن يتخذه حفظاً للنسب . وفي مصحف أبي بن كعب " إلا أن يفحشن عليكم " ، وقال ابن عباس أيضاً الفاحشة جميع المعاصي ، فمن سرقت أو قذفت أو زنت أو أربت في تجارة وغير ذلك فقد سقط حقها في السكنى ، وقال السدي وابن عمر : الفاحشة الخروج عن البيت ، خروج انتقال ، فمتى فعلت ذلك ، فقد سقط حقها في السكنى ، وقال قتادة أيضاً : المعنى ﴿ أن يأتين بفاحشة ﴾ في نشوز عن الزوج فيطلق بسبب ذلك ، فلا يكون عليه سكنى . وقال بعض الناس الفاحشة متى وردت معرفة فهي الزنا ، ومتى جاءت منكرة فهي المعاصي يراد بها سوء عشرة الزوج ومرة غير ذلك ، وقرأ عاصم : " مبيَّنة " بفتح

الياء المشددة تقول : بان الأمر وبينته أنا على تضعيف التعدية ، وقرأ الجمهور : " مبيِّنة " بكسر الياء ، تقول

(78/769)

بان الشيء وبين بمعنى واحد ، إلا أن التضعيف للمبالغة ، ومن ذلك قولهم قد بين الصبح لذي عينين وقوله تعالى : ﴿ وتلك حدود الله ﴾ إشارة إلى جميع أوامره في هذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ ، قال قتادة وغيره : يريد به الرجعة ، أي أحصوا العدة وامتثلوا هذه الأوامر المتفقة لنسائكم الحافظة لأنسابكم ، وطلقوا على السنة تجدوا المخلص إن ندمتم فإنكم لا تدرون لعل الرجعة تكون بعد ، والإحداث في هذه الآية بين التوجه عبارة عما يوجد من التراجع ، وجوز قوم أن يكون المعنى ﴿ أمراً ﴾ من النسخ ، وفي ذلك بعد ، وقوله تعالى : ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ يريد به آخر القروء ، و" الإمساك بالمعروف " : هو حسن العشرة في الإنفاق وغير ذلك ، و" المفارقة بالمعروف " : هو أداء المهر والتمتيع ودفع جميع الحقوق والوفاء بالشروط وغير ذلك حسب نازلة ، وقوله تعالى : ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ يريد على الرجعة ، وذلك شرط في صحة الرجعة ، وللمرأة منع الزوج من نفسها حتى يشهد ، وقال ابن عباس

المراد على الرجعة ، والطلاق ، لأن الإشهاد يرفع من النوازل إشكالات كثيرة ، وتقييد تاريخ الإشهاد من الإشهاد ، وقال النخعي : العدل : من لم تظهر منه ريبة ، وهذا قول الفقهاء ، والعدل حقيقة الذي لا يخاف إلا الله ، وقوله تعالى : ﴿ أقيموا الشهادة لله ﴾ أمر للشهود ، وقوله تعالى : ﴿ ذلكم يوعظ به ﴾ إشارة إلى إقامة الشهادة ، وذلك أن جميع فصول الأحكام والأمور فإنما تدور على إقامة الشهادة ، وقوله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ .

(79/769)

قال علي بن أبي طالب وكثير من المتأولين نفي من معنى الطلاق ، أي ومن لا يتعدى في الطلاق السنة إلى طلاق الثلاث وغير ذلك يجعل الله له مخرجاً إن ندم بالرجعة المباحة ويرزقه ما يطعم أهله ويوسع عليه ، ومن لا يتق الله فربما طلق وبت وندم ، فلم يكن له مخرج وزال عليه رزق زوجته . وقد فسر ابن عباس نحو هذا فقال للمطلق ثلاثاً : أنت لم تتق الله فبانت منك امرأتك ولا أرى لك مخرجاً . وقال ابن عباس أيضاً معنى : ﴿ يجعل له مخرجاً ﴾ يخلصه من كرب الدنيا والآخرة ، واختلف في ألفاظ رواية هذه القصة ، قال ابن عباس للمطلق ، لكن هذا هو المعنى ، وقال بعض رواة الآثار : نزلت هذه الآية في عوف بن مالك

الأشجعي وذلك أنه أسر ولده وقدر عليه رزقه ، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر بالتقوى ، فقيل : لم يلبث أن تفلت ولده وأخذ قطيع غنم للقوم الذين أسروه ، وجاء أباه ، فسأل عوف رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتطيب له تلك الغنم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعم " ونزلت الآية في ذلك . وقوله تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ ، الآيات كلها عظة لجميع الناس ، والحسب : الكافي المرضي ، وقال ابن مسعود هذه أكثر الآيات حضاً على التفويض ، وروي أن رجلاً قال لعمر : ولّني مما ولاك الله ، فقال له عمر : أتقرأ القرآن ؟ قال : لا . قال : فأنا لا أولي من لا يقرأ القرآن . فتعلم الرجل رجاء الولاية ، فلما حفظ كثيراً من القرآن تخلف عن عمر فلقيه يوماً فقال له عمر ما أبطا بك ؟ قال له تعلمت القرآن ، فأغناني الله تعالى عن عمر وعن بابه .

(80/769)

ثم قرأ هذه الآيات من هذه السورة . وقوله تعالى : ﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ بيان وحض على التوكل ، أي لا بد من نفوذ أمر الله توكلت أيها المرء أو لم تتوكل قاله مسروق . فإن توكلت كفاك وتعجلت الراحة والبركة ، وإن لم تتوكل وكلك إلى عجزك وتسخطك ، وأمره في الوجهين نافذ ، وقرأ داود بن هند ورويت عن أبي عمرو " بالغ أمرُه " برفع الأمر وحذف

مفعول تقدير : بالغ أمره ما شاء ، وقرأ جمهور السبعة : " بالغ أمرَه " بنصب الأمر وقرأ حفص والمفضل عن عاصم : " بالغُ أمرِه " على الإضافة وترك التنوين في : " بالغُ " ، ورويت عن أبي عمرو ، والأعمش ، وهي قراءة طلحة بن مصرف ، وقرأ جمهور الناس : " قدْراً " بسكون الدال ، وقرأ بعض القراء : " قدَراً " بفتح الدال وهذا كله حض على التوكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(81/769)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾

أي قارين انقضاء العدّة ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾ [البقرة : 231] أي قربن من انقضاء الأجل .

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ يعني المراجعة بالمعروف ؛ أي بالرغبة من غير قصد المضارّة في الرجعة تطويلاً لعدّتها .

كما تقدّم في "البقرة" .

﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي اتركوهنّ حتى تنقضي عدّتهن فيملكن أنفسهن .

وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ ما يوجب أن يكون القول قول المرأة في انقضاء العدّة إذا ادّعت ذلك، على ما بيّناه في سورة "البقرة" عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ [البقرة: 228] الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَي عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوا ﴾ أمْرٌ بالإشهاد على الطلاق.

وقيل: على الرجعة.

والظاهر رجوعه إلى الرجعة لا إلى الطلاق.

فإن راجع من غير إشهاد ففي صحة الرجعة قولان للفقهاء.

وقيل: المعنى وأشهدوا عند الرجعة والفُرْقة جميعاً.

وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة؛ كقوله تعالى: ﴿ وأشهدوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ [البقرة: 282].

وعند الشافعي واجب في الرجعة، مندوب إليه في الفرقة.

وفائدة الإشهاد ألاّ يقع بينهما التجاحد، وألاّ يُتَّهَمَ في إمساكها، ولئلا يموت أحدهما فيدّعي الباقي ثبوت الزوجية لِيرث.

الثانية: الإشهاد عند أكثر العلماء على الرجعة نَدْب.

وإذا جامع أو قَبل أو باشر يريد بذلك الرجعة، وتكلّم بالرجعة يريد به الرجعة فهو مراجع

عند مالك ، وإن لم يرد بذلك الرجعة فليس بمراجع .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : إذا قَبّل أو باشر أو لاَمَسَ بشهوة فهو رجعة .

وقالوا : والنظر إلى الفَرْج رجعة .

(82/769)

وقال الشافعي وأبو ثَوْر : إذا تكلّم بالرجعة فهو رجعة .

وقد قيل : وَطْؤُه مراجعة على كل حال ، نواها أو لم ينوها .

وروي ذلك عن طائفة من أصحاب مالك .

وإليه ذهب اللّيث .

وكان مالك يقول : إذا وَطِىء ولم ينو الرجعة فهو وَطْءٌ فاسد ؛ ولا يعود لوطئها حتى يستبرئها من مائه الفاسد ، وله الرجعة في بقية العِدة الأولى ، وليس له رجعة في هذا الاستبراء .

الثالثة : أوجب الإشهاد في الرجعة أحمد بن حنبل في أحد قوليه ، والشافعي كذلك لظاهر الأمر .

وقال مالك وأبو حنيفة وأحمد والشافعي في القول الآخر : إن الرجعة لا تفتقر إلى القبول ،

فلم تفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق ، وخصوصاً حلّ الظِّهار بالكفارة .

قال ابن العربي : وركّب أصحاب الشافعي على وجوب الإشهاد في الرجعة أنه لا يصح أن يقول : كنت راجعت أمس وأنا أشهد اليوم على الإقرار بالرجعة ، ومن شرط الرجعة الإشهاد فلا تصح دونه .

وهذا فاسد مبنيّ على أن الإشهاد في الرجعة تَعَبُّدٌ .

ونحن لا نسلّم فيها ولا في النكاح بأن نقول : إنه موضع للتوّثق ، وذلك موجود في الإقرار كما هو موجود في الإنشاء .

الرابعة : من ادّعى بعد انقضاء العدّة أنه راجع امرأته في العدّة ، فإن صدّقته جاز وإن أنكرتْ حلفت ، فإن أقام بيّنة أنه ارتجعها في العدّة ولم تعلم بذلك لم يضره جهلها بذلك ، وكانت زوجته ، وإن كانت قد تزوّجت ولم يدخل بها ثم أقام الأول البيّنة على رجعتها فعن مالك في ذلك روايتان : إحداهما أن الأوّل أحق بها .

والأخرى أن الثاني أحق بها .

فإن كان الثاني قد دخل بها فلا سبيل للأوّل إليها .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ ذَوَي عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ قال الحسن : من المسلمين .

وعن قتادة : من أحراركم .

وذلك يوجب اختصاص الشهادة على الرجعة بالذكور دون الإناث ؛ لأن "ذَوَى" مذكَّر .

ولذلك قال علماؤنا : لا مدخل للنساء فيما عدا الأموال .

وقد مضى ذلك في سورة "البقرة" .

(83/769)

السادسة : قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الشهادة لِلَّهِ ﴾ أي تقرباً إلى الله في إقامة الشهادة على وجهها ، إذا مسّت الحاجة إليها من غير تبديل ولا تغيير .

وقد مضى في سورة "البقرة" معناه عند قوله تعالى : ﴿ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ ﴾ [البقرة : 282] .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ ﴾ أي يرضى به .

﴿ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر ﴾ فأما غير المؤمن فلا ينتفع بهذه المواعظ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ .

عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه سئل عمن طلّق ثلاثاً أو ألفاً هل له من مخرج؟ فتلاها .

وقال ابن عباس والشَّعْبيّ والضحاك : هذا في الطلاق خاصة ؛ أي من طلّق كما أمره الله يكن له مخرج في الرجعة في العِدّة ، وأن يكون كأحد الخُطَّاب بعد العِدّة .

وعن ابن عباس أيضاً ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ ينجيه من كل كَرْب في الدنيا والآخرة .

وقيل: المخرج هو أن يُقنعه الله بما رزقه؛ قاله عليّ بن صالح.

وقال الكلبي: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ ﴾ بالصبر عند المصيبة.

﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ من النار إلى الجنة.

وقال الحسن: مخرجاً مما نهى الله عنه.

وقال أبو العالية: مخرجاً من كل شدّة.

الربيع بن خَيْثم: ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ من كل شيء ضاق على الناس.

الحسين بن الفضل: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ ﴾ في أداء الفرائض، ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ من العقوبة.

﴿ وَيَرْزُقْهُ ﴾ الثواب ﴿ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ أي يبارك له فيما آتاه.

وقال سهل بن عبد الله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ ﴾ في اتباع السُّنة ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ من عقوبة أهل البدع، ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب.

وقيل: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ ﴾ في الرزق بقطع العلائق يجعل له مخرجاً بالكفاية.

وقال عمر بن عثمان الصَّدفي : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ ﴾ فيقف عند حدوده ويجتنب معاصيه يخرجه من الحرام إلى الحلال ، ومن الضِّيق إلى السّعة ، ومن النار إلى الجنة .

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ من حيث لا يرجو .

وقال ابن عُيينة : هو البركة في الرزق .

وقال أبو سعيد الخُدْرِيّ : ومن يبرأ من حوْله وقوّته بالرجوع إلى الله يجعل له مخرجاً مما كلفه بالمعونة له .

وتأوّل ابن مسعود ومسروق الآية على العموم .

وقال أبو ذرّ : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " "إني لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم تلا ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً .

وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ " .

فما زال يكررها ويعيدها " وقال ابن عباس : " قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ قال : "مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة" " وقال أكثر المفسرين فيما ذكر الثَّعلبي : إنها نزلت في عوْف بن مالك الأشْجَعِيّ .

روى الكَلْبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : جاء عوْف بن مالك الأشجعيّ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن ابني أسره العدوّ وجزِعت الأم .

وعن جابر بن عبد الله : نزلت في عَوْف بن مالك الأشجعي أسر المشركون ابنا له يُسَمَّى سالماً ، فأَتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه الفاقة وقال : إن العدو اسر ابني وَجزِعت الأمّ ، فما تأمرني ؟ فقال عليه السلام : " اِتّقِ الله واصبر وآمرك وإياها أن تستكثِرا من قول لاَ حَوْلَ ولاَ قُوّةَ إلاّ بِالله " فعاد إلى بيته وقال لامرأته : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني وإيّاكِ أن نستكثر من قول لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوّةَ إلاّ بِالله .

فقالت : نِعْمَ ما أمرنا به .

(85/769)

فجعلا يقولان ؛ فَغفَل العَدُوّ عن ابنه ، فساق غنمهم وجاء بها إلى أبيه ؛ وهي أربعة آلاف شاة .

فنزلت الآية ، وجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم تلك الأغنام له .

في رواية : أنه جاء وقد أصاب إبلاً من العدوّ وكان فقيرا .

قال : الكلبي : أصاب خمسين بعيرا .

وفي رواية : فأفلت ابنه من الأسْر وركب ناقة للقوم ، ومرّ في طريقه بَسْرح لهم فاستاقه .

وقال مقاتل : أصاب غَنماً ومتاعاً فسأل النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أيحل لي أن آكل مما

أتى به ابني ؟ قال : "نعم" " ونزلت : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ .

فروى الحسن عن عِمْران بن الحُصَيْن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من انقطع إلى الله كفاه الله كلّ مؤونة ورزقه من حيث لا يحتسب .

ومن انقطع إلى الدنيا وَكَله الله إليها " وقال الزجاج : أي إذا اتّقى وآثر الحلال والتصبُّرَ على أهله ، فتح الله عليه إن كان ذا ضيقة ورزقه من حيث لا يحتسب .

وعن ابن عباس : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هَمٍّ فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب "

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي من فوّض إليه أمره كفاه ما أهَمَّه .

وقيل : أي من اتقى الله وجانب المعاصي وتوكّل عليه ، فله فيما يعطيه في الآخرة من ثوابه كفاية .

ولم يرد الدنيا ؛ لأن المتوكل قد يصاب في الدنيا وقد يقتل .

﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ قال مسروق : أي قاض أمْرَه فيمن توكّل عليه وفيمن لم يتوكّل عليه ؛ إلا أن من توكّل عليه فيكفر عنه سيئاته ويُعْظم لهُ أجراً .

وقراءة العامة "بالغٌ" منونا .

"أمْرَه" نصباً .

وقرأ عاصم "بالِغُ أَمْرِه" بالإضافة وحذف التنوين استخفافاً .

وقرأ المفضّل "بالِغاً أمْرَه" على أن قوله : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ ﴾ خبر "إنّ" و "بالغاً" حال .

(86/769)

وقرأ داود بن أبي هند "بَالِغٌ أَمْرُه" بالتنوين ورفع الراء .

قال الفرّاء : أي أمره بالغ .

وقيل : "أَمْره" مرتفع ب "بالغ" والمفعول محذوف ؛ والتقدير : بالغ أمره ما أراد .

﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ أي لكل شيء من الشدّة والرخاء أجلاً ينتهى إليه .

وقيل تقديراً .

وقال السُّدّي : هو قدر الحيض في الأجل والعِدّة .

وقال عبد الله ابن رافع : لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ قال أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم : فنحن إذا توكلنا عليه نرسل ما كان لنا ولا نحفظه ؛ فنزلت : ﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ فيكم وعليكم .

وقال الربيع بن خُثَيْم : إن الله تعالى قضى على نفسه أن من توكّل عليه كفاه ، ومن آمن به هداه ، ومن أقرضه جازاه ، ومن وثِق به نجّاه ، ومن دعاه أجاب له .

وتصديق ذلك في كتاب الله : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن : 11] .

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ .

﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ [التغابن : 17] .

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : 101] .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : 186] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(87/769)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ يا أَيُّهَا النبى إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾

تخصيصُ النداءِ بهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ مع عُمومِ الخطابِ لأمتِهِ أيضاً لتشريفهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وإظهارِ جلالةِ منصبِه ، وتحقيقِ أنَّه المخاطبُ حقيقةً ، ودخولِهم في الخطابِ بطريقِ استتباعِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إيَّاهُم . وتغليبِه عليهم لا لأنَّ نداءَهُ كندائِهم ، فإنَّ ذلكَ الاعتبارَ لو كانَ في حيزِ الرعايةِ لكانَ الخطابُ هو الأحقَّ بهِ لشمولِ حُكمِهِ للكلِّ قطعاً والمَعْنَى إذا أردتُم تطليقهنَّ وعزمتُم عليهِ كما في قولِهِ تعالَى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة ﴾

﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي مستقبلاتٍ لها كقولك أتيتُهُ لليلةٍ خلتْ من شهرِ كَذَا فإن المرأةَ إذا طلقتْ في طهرٍ يعقبُهُ القرْءُ الأول من أقرائِهَا فقد طلُقتْ مستقبلةً لعدتِهَا ، والمرادُ أن يُطلّقن في طُهْرٍ لم يقعْ فيهِ جماعٌ ثم يُخلّينَ حتى تنقضي عدتُهنَّ وهَذا أحسنُ الطلاقِ وأدخلُهُ في السنةِ ﴿ وَأَحْصُواْ العدة ﴾ واضبطُوها وأكملوها ثلاثةَ أقراءٍ كواملَ ﴿ واتقوا الله رَبَّكُمْ ﴾ في تطويلِ العدةِ عليهنَّ والإضرارِ بهنَّ . وفي وصفِهِ تعالَى بربوبيتِهِ لهم تأكيدٌ للأمرِ ومبالغةٌ في إيجابِ الاتقاءِ ﴿ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾ من مساكنِهنَّ عندَ الفراقِ إلى أنْ تنقضيَ عِدتُهُنَّ ، وإضافتُهَا إليهنَّ وهيَ لأزواجهنَّ لتأكيدِ النَّهيِ ببيانِ كمالِ استحقاقِهنَّ لسُكنَاهَا كأنها أملاكُهنَّ ﴿ وَلاَ يَخْرُجْنَ ﴾ ولو بإذنٍ منكم فإنَّ الإذنَ بالخروجِ في حُكمِ الإخراجِ ، وقيلَ المَعْنَى لا يخرجنَّ باستبدادٍ منهنَّ أما إذَا اتفقَا على الخروجِ جازَ إذِ الحقُّ لا يعدوهُمَا ﴿ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بفاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ استثناءٌ من الأولِ قيلَ هيَ الزنا فيخرجنَ لإقامةِ الحدِّ عليهنَّ وقيلَ إلا أنْ يبذونَ على الأزواجِ فيحلُّ حينئذٍ إخراجهُنَّ ، ويؤيدُهُ قراءةُ إلا أنْ يفحُشْنَ عليكُم

أو من الثاني للمبالغةِ في النّهيِ عن الخروجِ ببيانِ أنَّ خروجَهَا فاحشةٌ ﴿ وَتِلْكَ ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكرَ من الأحكامِ وما في إسمِ الإشارةِ من مَعْنَى البُعْدِ مع قُربِ العهدِ بالمشارِ إليهِ للإيذانِ بعلوِّ درجتِهَا وبعدِ منزلتِهَا ﴿ حُدُودُ اللهِ ﴾ التي عيَّنَهَا لعبادِه ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ ﴾ أي حدودَهُ المذكورةَ بأنْ أحلَّ بشيءٍ منها على أنَّ الإظهارَ في حيزِ الإضمارِ لتهويلِ أمرِ التعدِّي، والإشعارِ بعلةِ الحكمِ في قولِهِ تعالَى: ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أي أضرَّ بهَا، وتفسيرُ الظلمِ بتعريضِهَا للعقابِ يأباهُ قولُهُ تعالَى: ﴿ لا تَدْرِى لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ فإنه استئنافٌ مسوقٌ لتعليلِ مضمونِ الشرطيةِ، وقد قالُوا إن الأمرَ الذي يحدثُهُ اللهُ تعالى أنْ يقلبَ قلبَهُ عمَّا فعلَهُ بالتعدِّي إلى خلافِهِ فلا بُدَّ أن يكونَ الظلمُ عبارةً عن ضررٍ دنيويٍّ يلحقُهُ بسببِ تعدِّيهِ ولا يمكنُ تداركُهُ أو عنْ مُطلقِ الضررِ الشاملِ للدنيويِّ والأُخرويِّ، ويخصُّ التعليلُ بالدنيويِّ لكونِ احترازِ الناسِ منهُ أشدَّ واهتمامِهِمْ بدفْعِهِ أَقْوَى. وقولُهُ تعالَى: ﴿ لا تَدْرِى ﴾ خطابٌ للمتعدِّي بطريقِ الالتفاتِ لمزيدِ الاهتمامِ بالزجرِ عن التعدِّي، لا للنبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ كما توهِّمَ، فالمَعْنَى ومن يتعدَّ حدودَ اللهِ فقدْ أضرَّ بنفسِهِ فإنكَ لا تدْري أيُّها المتعدِّي عاقبَةَ الأمرِ لعلَّ اللهَ يحدثُ في قلبكَ بعدَ ذلكَ الذي فعلتَ من التعدِّي أمراً يقتضِي خلافَ ما فعلتَهُ فيبدِّلُ ببغضِهَا محبةً، وبالإعراضِ عنها إقبالاً إليها ويتسنَّى تلافيهِ رجعةً أو استئنافَ نكاحٍ.

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾

شارفن آخر عدتهن ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾ فراجعوهنّ ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بحسن معاشرةٍ وإنفاقٍ لائقٍ ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بإيفاءِ الحقّ واتقاءِ الضرر بأنْ يراجعهَا ثم يُطلقهَا تطويلاً للعدةِ ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ عند الرجعةِ والفرقةِ قطعاً للتنازعِ، وهذا أمر ندبٍ كما في قولِه تعالَى: ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ ويُروى عن الشافعي أنه للوجوبِ في الرَّجعةِ ﴿ وَأَقِيمُوا الشهادة لِلَّهِ ﴾ أيُّها الشهودُ عندَ الحاجةِ خالصاً لوجهِه تعالَى: ﴿ ذلكم ﴾ إشارةٌ إلى الحثّ على الإشهادِ والإقامةِ أو على جميعِ ما في الآيةِ ﴿ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر ﴾ إذْ هو المنتفعُ بِه والمقصودُ تذكيرُه وقولُه تعالَى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله ﴾ الخ جملةٌ اعتراضيةٌ مؤكدةٌ لما سبقَ منْ وجوبِ مراعاةِ حدودِ الله تعالى بالوعدِ على الاتقاءِ عن تعدّيها كَما أن ما تقدمَ من قولِه تعالَى: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ مؤكدٌ لهُ بالوعيدِ على تعدّيها فالمعنَى ومنْ يتقَ الله فطلقَ للسنةِ ولم يُضارَّ المعتدةَ ولم يُخرجها من مسكنِهَا واحتاطَ في الإشهادِ وغيرِه من الأمورِ ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ مما عَسَى يقعُ في شأنِ الأزواجِ من الغمومِ والوقوعِ في المضايقِ ويفرجْ عنه ما يعتريهِ من الكروبِ ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ أي من وجهٍ لا يخطرُ ببالِه ولا يحتسبُه ويجوزُ أن يكونَ

كلاماً جيءَ بِهِ على نهجِ الاستطرادِ عند ذكرِ قولِهِ تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ إلى آخرِهِ فالمَعْنَى ومن يتقِ اللهَ في كلِّ ما يأتي وما يذرُ يجعلْ لهُ مخرجاً ومخلصاً من غمومِ الدُّنيا والآخرةِ فيندرجُ فيهِ ما نحنُ فيهِ اندراجاً أولياً . عن النبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ أنه قرأَها فقالَ : "

(90/769)

مخرجاً من شبهاتِ الدُّنيا ومن غمراتِ الموتِ ومن شدائدِ يومِ القيامةِ " وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : " إني لأعلمُ آيةً لو أخذَ الناسُ بها لكفتْهُم " ﴿ ومن يتقِ الله ﴾ فما زالَ يقرؤها ويعيدُهَا . وروُيَ أن عوفَ بنَ مالكٍ الأشجعيَّ أسرَ المشركونَ ابنَهُ سالماً فأتى رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقال : " أسرَ ابني وشكَا إليهِ الفاقةَ " فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : " اتقِ اللهَ وأكثِرْ قولَ لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ " ففعلَ فبينَا هُوَ في بيتِهِ إذ قرعَ ابنُهُ البابَ ومعهُ مائةٌ من الإبلِ غفلَ عنها العدوُّ فاستاقَهَا فنزلتْ .

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي كافيهِ في جميعِ أمورِه ﴿ إِنَّ اللَّهَ بالغ أَمْرِهِ ﴾ بالإضافةِ أي منفذ أمرِهِ وقُرِىءَ بتنوينِ بالغ ونصبِ أمرِهِ أي يبلغُ ما يريدُهُ لا يفوتهُ مرادٌ ولا يُعجزُه مطلوبٌ ، وقُرِىءَ برفعِ أمرِهِ على أنه مبتدأٌ وبالغٌ خبرٌ مقدمٌ ، والجملةُ خبرُ إنَّ أو بالغٌ

خبر إنّ ، وأمرُه مرتفعٌ بِه على الفاعليةِ أي نافذ أمرُه . وقُرِئ بالغاً أمرَه على أنَّه حالٌ وخبرُ إنّ قولُه تعالى : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ أي تقديرا وتوقيتاً أو مقدارا وهُو بيانٌ لوجوبِ التوكلِ عليهِ تعالى ، وتفويضُ الأمرِ إليهِ لأنَّه إذا علمَ أنَّ كلَّ شيءٍ من الرزقِ وغيرِه لا يكونُ إلا بتقديرِه تعالى لا يبقى إلا التسليمُ للقدرِ والتوكلُ على الله تعالى . انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(91/769)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾

شارفن آخر عدتهن .

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾ فراجعوهن ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بحسن معاشرة وإنفاق مناسب للحال من الجانبين .

﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بإيفاء الحق واتقاء الضرار مثل أن يراجعها ثم يطلقها تطويلاً للعدة .

﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَى عَدْلٍ مّنكُمْ ﴾ عند الرجعة إن اخترتموها أو الفرقة إن اخترتموها تبريا

عن الريبة وقطعاً للنزاع ، وهذا أمر ندب كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ [البقرة : 282] ، وقال الشافعي في القديم : إنه للوجوب في الرجعة ، وزعم الطبرسي أن الظاهر أنه أمر بالاشهاد على الطلاق وأنه مروى عن أئمة أهل البيت رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

وأنه للوجوب وشرط في صحة الطلاق ﴿ وَأَقِيمُوا۟ الشهادة ﴾ أي أيها الشهود عند الحاجة ﴿ لِلَّهِ ﴾ خالصاً لوجهه تعالى ، وفي الآية دليل على بطلان قول من قال : إنه إذا تعاطف أمران لمأمورين يلزم ذكر النداء أو يقبح تركه نحو أضرب يا زيد .

وقم يا عمرو ، ومن خص جواز الترك بلا قبح باختلافهما كما في قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا واستغفرى لِذَنبِكِ ﴾ [يوسف : 29] فإن المؤمور بقوله تعالى : ﴿ اشهدوا ﴾ للمطلقين ؛ وبقوله سبحانه : ﴿ أَقِيمُوا۟ الشهادة ﴾ كما أشرنا إليه ، وقد تعاطف من غير اختلاف في أفصح الكلام .

﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر ﴾ أي لأنه المنتفع بذلك ، والإشارة على ما اختاره صاحب الكشاف إلى الحث على إقامة الشهادة لله تعالى ، والأولى كما في الكشف أن يكون إشارة إلى جميع ما مر من إيقاع الطلاق على وجه السنة .

وإحصاء العدة .

والكف عن الإخراج والخروج .

وإقامة الشهادة للرجعة أو المفارقة ليكون أشد ملاءمة لقوله عز وجل :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ .

(92/769)

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ فإنه اعتراض بين المتعاطفين جيء به لتأكيد ما سبق من الأحكام بالوعد على اتقاء الله تعالى فيها ، فالمعنى ومن يتق الله تعالى فطلق للسنة ، ولم يضارّ المعتدة ، ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد يجعل له سبحانه مخرجاً مما عسى أن يقع في شأن الأزواج من الغموم والوقوع في المضايق ؛ ويفرج عنه ما يعتريه من الكروب ، ويرزقه من وجه لا يخطر بباله ولا يحتسبه ، وفي الأخبار عن بعض أجلة الصحابة كعلي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس في بعض الروايات عنه ما يؤيد بظاهره هذا الوجه ، وجوز أن يكون اعتراضاً جيء به على نهج الاستطراد عند ذكر قوله تعالى : ﴿ ذلك يُوعَظُ بِهِ ﴾ [الطلاق : 2] الخ ، فالمعنى ومن يتق الله تعالى في كل ما يأتي وما يذر يجعل له مخرجاً من غموم الدنيا والآخرة وهو أولى لعموم الفائدة ، وتناوله لما نحن فيه تناولاً أولياً ، ولاقتضاء أخبار في سبب النزول وغيره له ، فقد أخرج أبو يعلى .

وأبو نعيم .

والديلمي من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ﴾ الخ فقال : مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة ، وأخرج أحمد .

والحاكم وصححه .

وابن مردويه .

وأبو نعيم في المعرفة والبيهقي عن أبي ذر قال : "جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو هذه الآية ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : 2 ، 3] فجعل يرددها حتى نعست ثم قال : " يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم " .

(93/769)

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : جاء عوف بن مالك الأشجعي فقال : يا رسول الله إن ابني أسره العدو وجزعت أمه فما تأمرني ؟ قال : آمرك وإياها أن تستكثرا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله فقالت المرأة : نعم ما أمرك فجعلا يكثران

منها فتغفل العدو فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه فنزلت ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ ﴾ " الآية ، وفي رواية ابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق مولى آل قيس قال : " جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : أسر ابن عوف فقال له عليه الصلاة والسلام : أرسل إليه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله وكانوا قد شدوه بالقدّ فسقط القدّ عنه فخرج فإذا هو بناقة لهم فركبها فإذا سرح للقوم الذين كانوا شدّدوه فصاح بها فاتبع آخرها أولها فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادي بالباب فأتى أبوه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فنزلت : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ ﴾ " الخ .

وفي بعض الروايات أنه أصابه جهد وبلاء فشكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " اتق الله واصبر فرجع ابنه وقد أصاب أعنزاً فذكر ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام فنزلت فقال : هي لك " إلى غير ذلك مما هو مضطرب على ما لا يخفى على المتتبع ، وعلى القول بالاستطراد قيل : المعنى من يتق الحرام يجعل له مخرجاً إلى الحلال ، وقيل : ﴿ مَخْرَجاً ﴾ من الشدة إلى الرخاء ، وقيل : من النار إلى الجنة .

وقيل : ﴿ مَخْرَجاً ﴾ من العقوبة ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ من الثواب ، وقال الكلبي : ﴿ مَن يَتَّقِ الله ﴾ عند المصيبة ﴿ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ إلى الجنة ، والكل كما ترى ، والمعول عليه العموم الذي سمعته ، وفي الكشف إن تنويع الوعد للمتقي وتكرير الحث عليه بعد الدلالة على أن التقوى ملاك الأمر عند الله تعالى ناط به سبحانه سعادة الدارين يدل على أن أمر الطلاق والعدة من الأمور التي تحتاج إلى فضل تقوى لأنه أبغض المباح إلى الله عز وجل لما يتضمن من الايحاش وقطع الألفة الممهدة ، ثم الاحتياط في أمر النسب الذي هو من جلة المقاصد يؤذن بالتشديد في أمر العدة فلا بد من التقوى ليقع الطلاق على وجه يحمد عليه ، ويحتاط في العدة ما يجب فهنالك يحصل للزوجين المخرج في الدنيا والآخرة ، وعليه فالزوجة داخلة في العموم كالزوج ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي كافيه عز وجل في جميع أموره .

وأخرج أحمد في الزهد عن وهب قال : " يقول الرب تبارك وتعالى : إذا توكل عليّ عبدي لو كادته السماوات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج " ﴿ إِنَّ الله بالغ أَمْرِهِ ﴾ بإضافة الوصف إلى مفعوله والأصل بالغ أمره بالنصب كما قرأ به الأكثرون أي يبلغ ما يريده عز وجل ولا يفوته مراد .

وقرأ ابن أبي عبلة في رواية .

وداود بن أبي هند .

وعصمة عن أبي عمرو بالغ بالرفع منوناً ﴿ أَمَرُهُ ﴾ بالرفع على أنه فاعل بالغ الخبر لأن أو مبتدأ ، و﴿ بالغ ﴾ خبر مقدم له ، والجملة خبر ﴿ إن ﴾ أي نافذ أمره عز وجل ، وقرأ المفضل في رواية أيضاً بالغاً بالنصب ﴿ أَمَرَهُ ﴾ بالرفع ، وخرج ذلك على أن بالغاً حال من فاعل ﴿ جَعَلَ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَىْء ﴾ لا من المبتدأ لأنهم لا يرتضون مجيء الحال منه ، وجملة ﴿ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ ﴾ الخبر ﴿ إن ﴾ ، وجوز أن يكون بالغاً هو الخبر على لغة من ينصب الجزأين بإن كما في قوله :

إذا اسود جنح الليل فلتأت ولتكن . . .

خطاك خفافاً "إن" حراسنا أسدا

وتعقب بأنها لغة ضعيفة ، ومعنى ﴿ قَدْراً ﴾ تقديراً ، والمراد تقديره قبل وجوده ، أو مقداراً من الزمان ، وهذا بيان لوجوب التوكل عليه تعالى وتفويض الأمر إليه عز وجل لأنه إذا علم أن كل شيء من الرزق.

وغيره لا يكون إلا بتقديره تعالى لا يبقى إلا التسليم للقدر ، وفيه على ما قيل : تقرير لما تقدم من تأقيت الطلاق والأمر بإحصاء العدة ، وتمهيد لما سيأتي إن شاء الله تعالى من

مقاديرها .

وقرأ جناح بن حبيش ﴿ قَدْراً ﴾ بفتح الدال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 28 صـ ﴾

(96/769)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ .

تفريع على جميع ما تقدم من أحكام العدة معطوف على جملة ﴿ وأحصوا العدة ﴾ [الطلاق : 1] لأن إحصاءها بحفظ مدتها واستيعاب أيامها فإذا انتهت المدة فقد أعذر الله لهما والزيادة عليها إضرار بأحدهما أو بكليهما وفائدة الآجال الوقوف عند انتهائها .

وبلوغ الأجل أصله انتهاء المُدة المقدرة له كما يؤذن به معنى البلوغ الذي هو الوصول إلى المطلوب على تشبيه الأجل المعين بالمكان المسير إليه وشاع ذلك في الاستعمال فالمجاز في لفظ الأجل وتبعه المجاز في البلوغ وقد استعمل البلوغ في هذه الآية في مقاربة ذلك الإِنتهاء مبالغة في عدم التسامح فيه وهذا الاستعمال مجاز آخر لمشابهة مقاربة الشيء بالحصول فيه والتلبس به .

وقرينة المجاز هنا هو لفظ الأجل لأنه لا تتصور المراجعة بعد بلوغ الأجل لأن في ذلك رفع معنى التأجيل.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ﴾ في سورة [البقرة: 231].

والإمساك: اعتزام المراجعة عبر عنه بالإمساك للإيماء إلى أن المطلقة الرجعية لها حكم الزوجة فيما عدا الاستمتاع فكأنه لما راجعها قد أمسكها أن لا تفارقه فكأنه لم يفارقها لأن الإمساك هو الضن بالشيء وعدم التفريط فيه ومنه قوله تعالى: ﴿ أمسك عليك زوجك ﴾ [الأحزاب: 37] وأنه إذا لم يراجعها فكأنه قد أعاد فراقها وقسا قلبه.

ومن أجل هذه النكتة جعل عدم الإمساك فراقاً جديداً في قوله: ﴿ أو فارقوهن بمعروف ﴾.

والأمر في ﴿ فأمسكوهن ﴾ ﴿ أو فارقوهن ﴾ للإباحة، و ﴿ أو ﴾ فيه للتخيير.

والباء في ﴿ بمعروف ﴾ للملابسة أي ملابسة كل من الإمساك والفراق للمعروف.

والمعروف: هو ما تعارفه الأزواج من حسن المعاملة في المعاشرة وفي الفراق.

فالمعروف في الإِمساك : حسن اللقاء والاعتذارُ لها عما فرط والعودُ إلى حسن المعاشرة .

والمعروف في الفراق : كف اللسان عن غِيبتها وإظهارِ الاستراحة منها .

والمعروف في الحالين من عمل الرَّجل لأنه هو المخاطب بالإِمساك أو الفراق .

وأما المعروف الذي هو من عمل المرأة فمقرر من أدلة أخرى كقوله تعالى : ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾ [البقرة : 228] .

وتقديم الإِمساك أعني المراجعة على إمضاء المفارقة ، إيماء إلى أنه أرضى لله تعالى وأَوفَقُ بمقاصد الشريعة مع ما تقدم من التعبير عن المراجعة بالإمساك ، ففهم أن المراجعة مندوب إليها لأن أبْغض الحلال إلى الله الطلاق .

ولَمَّا قيد أمر الإباحة من قوله : ﴿ فأمسكوهن ﴾ ﴿ أو فارقوهن ﴾ ، بقيد بالمعروف ، فُهِم منه أنّه إن كان إمساك دون المعروف فهو غير مأذون فيه وهو الإمساك الذي كان يفعله أهل الجاهلية أن يطلق الرجل امرأته فإذا قاربت انتهاء عدتها راجعها أياماً ثم طلقها يفعل ذلك ثلاثاً ليطيل عليها من العدة فلا تتزوج عدة أشهر إضراراً بها .

وقد تقدم هذا عند قوله تعالى : ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، إلى قوله : ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ﴾ في سورة [البقرة : 231] .

﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَى عَدْلٍ ﴾ .

ظاهر وقوع هذا الأمر بعد ذكر الإِمساك أو الفراق ، أنه راجع إلى كليهما لأن الإِشهاد جُعل

تتمة للمأمور به في معنى الشرط للإمساك أو الفراق لأن هذا العطف يشبه القيد وإن لم يكن قيداً وشأن الشروط الواردة بعد جمل أن تعود إلى جميعها .

وظاهر صيغة الأمر الدلالة على الوجوب فيتركب من هذين أن يكون الإشهاد على المراجعة وعلى بتّ الطلاق واجباً على الأزواج لأن الإشهاد يرفع أشكالاً من النوازل وهو قول ابن عباس وأخذ به يحيى بن بُكير من المالكية والشافعي في أحد قوليه وابن حنبل في أحد قوليه وروي عن عمران بن حصين وطَاوس وإبراهيم وأبي قلابة وعطاء .

وقال الجمهور : الإشهاد المأمور به الإشهاد على المراجعة دون بتّ الطلاق .

أما مقتضى صيغة الأمر في قوله تعالى : ﴿ وأشهدوا ذوي عدل ﴾ فقيل هو مستحب وهو قول أبي حنيفة والمشهورُ عن مالك فيما حكاه ابن القصار ولعل مستند هذا القول عدمُ جريان العمل بالتزامه بين المسلمين في عصر الصحابة وعصور أهل العلم ، وقياسه على الإشهاد بالبيع فإنهم اتفقوا على عدم وجوبه وكلا هذين مدخول لأن دعوى العمل بترك الإشهاد دونها مَنع ، ولأن قياس الطلاق والرجعة على البيع قد يقدح فيه بوجود فارق معتبر وهو خطر الطلاق والمراجعة وأهمية ما يترتب عليهما من الخصومات بين الأنساب ،

وما في البيوعات مما يغني عن الإِشهاد وهو التقايض في الأعواض.

وقيل الأمر للوجوب المراجعة دون الفرقة وهو أحد قولي الشافعي وأحمد ونسبه إسماعيل بن حماد من فقهاء المالكية ببغداد إلى مالك وهو ظاهر مذهب ابن بكير.

واتفق الجميع على أن هذا الإِشهاد ليس شرطاً في صحة المراجعة أو المفارقة لأنه إنما شرع احتياطاً لحقهما وتجنباً لنوازل الخصومات خوفاً من أن يموت فتدعي أنها زوجة لم تطلق، أو أن تموت هي فيدعي هو ذلك، وكأنهم بنوه على أن الأمر لا يقتضي الفور، على أن جعل الشيء شرطاً لغيره يحتاج إلى دليل خاص غير دليل الوجوب لأنه قد يتحقق الإثم بتركه ولا يبطل بتركه ما أمر بإيقاعه معه مثل الصلاة في الأرض المغصوبة، وبالثوب المغصوب.

قال الموجبون للإِشهاد: لو راجع ولم يشهد أو بتّ الفراق ولم يشهد صحت مراجعته ومفارقته وعليه أن يشهد بعد ذلك.

قال يحيى بن بكير: معنى الإشهاد على المراجعة والمفارقة أن يشهد عند مراجعتها إنْ راجعها، وعند انقضاء عدتها إن لم يراجعها أنه قد كان طلقها وأن عدتها قد انقضت.

ولفقهاء الأمصار في صفة ما تقع المراجعة من صيغة بالقول ومن فعل ما هو من أفعال الأزواج، تفاصيل محلها كتب الفروع ولا يتعلق بالآية إلا ما جعله أهل العلم دليلاً على المراجعة عند من جعله كذلك.

﴿ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ الشهادة ﴾ .

عطف على ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ .

والخطاب موجه لكل من تتعلق به الشهادة من المشهود عليهم والشهود كلٌ يأخذ بما هو حظه من هذين الخطابين.

وليس هو من قبيل ﴿ يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبكِ ﴾ [يوسف : 29] لظهور التوزيع هناك باللفظ دون ما هنا فإنه بالمعنى فالكل مأمورون بإقامة الشهادة.

فتعريف الشهادة للاستغراق، أي كل شهادة وهو استغراق عرفي لأن المأمور به الشهادة الشرعية.

ومعنى إقامة الشهادة : إيقاعها مستقيمة لا عوج فيها فالإقامة مستعارة لإيقاع الشهادة على مستوفيها ما يجب فيها شرعاً مما دلت عليه أدلة الشريعة وهذه استعارة شائعة وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وأقوم للشهادة ﴾ في سورة [البقرة : 282] .

وقوله : ﴿ لله ﴾ ، أي لأجل الله وامتثال أمره لا لأجل المشهود له ولا لأجل المشهود عليه ولا لأجل منفعة الشاهد والإبقاء على راحته.

وتقدم بعض هذا عند قوله تعالى : ﴿ ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ﴾ في سورة [البقرة : 282] .

﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ﴾ .

الإشارة إلى جميع ما تقدم من الأحكام التي فيها موعظة للمسلمين من قوله : ﴿ وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم ﴾ [الطلاق : 1] ، إلى قوله : ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ .

والوعظ : التحذير مما يضر والتذكير الملين للقلوب وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله ﴾ في سورة [البقرة : 232] وعند قوله تعالى : ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله ﴾ في سورة [النور : 17] .

(100/769)

الآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ ﴾ ﴿ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ .

اعتراض بين جملة ﴿ وأقيموا الشهادة ﴾ وجملة ﴿ واللائي يئسن من المحيض ﴾ [الطلاق : 4] الآية ، فإن تلك الأحكام لما اعتبرت موعظة بقوله : ﴿ ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ أعقب ذلك بقضيّة عامة ، وهي أن تلك من تقوى الله تعالى

وبما لتقوى الله من خير في الدنيا والآخرة على عادة القرآن من تعقيب الموعظة والترهيب بالبشارة والترغيب.

ولمّا كان أمر الطلاق غير خال من حرج وغم يعرض للزوجين وأمر المراجعة لا يخلو في بعض أحواله من تحمل أحدهما لبعض الكره من الأحوال التي سببت الطلاق، أعلمهما الله بأنه وعد المتقين الواقفين عند حدوده بأن يجعل لهم مخرجاً من الضائقات، شبه ما هم فيه من الحرج بالمكان المغلق على الحالّ فيه وشبه ما يمنحهم الله به من اللطف وإجراء الأمور على ما يلائم أحوالهم بجعلِ منفذ في المكان المغلق يتخلص منه المتضائق فيه.

ففي الكلام استعارة أن إحداهما ضمنية مطوية والأخرى صريحة وشمل المَخْرَج ما يحف من اللطف بالمتقين في الآخرة أيضاً بتخليصهم من أهوال الحساب والانتظار فالمخرج لهم في الآخرة هو الإِسراع بهم إلى النعيم.

ولما كان من دواعي الفراق والخلاف بين الزوجين ما هو من التقتير في الإنفاق لضيق ذات اليد فكان الإحجام عن المراجعة عارضاً كثيراً للناس بعد التطليق، أُتبع الوعد بجعل المخرَج للمتقين بالوعد بمخرج خاص وهو مخرج التوسعة في الرزق.

وقوله: ﴿ من حيث لا يحتسب ﴾ احتراس لئلا يتوهَّم أحد أن طرق الرزق معطلة عليه فيستبعد ذلك فيمسك عن مراجعة المطلقة لأنه لا يستقبل مالاً ينفق منه، فأعلمه الله أن هذا الرزق لطف من الله والله أعلم كيف يهيىء له أسباباً غير مرتقبة.

فمعنى ﴿ من حيث لا يحتسب ﴾ : من مكان لا يحتسب منه الرزق أي لا يظن أنه يرزق منه.

و﴿ حيثُ ﴾ مستعملة مجازاً في الأحوال والوجوه تشبيهاً للأحوال بالجهات لأنها لما جعلت مقارنة للرزق أشبهت المكان الذي يَرِد منه الوارد ولذلك كانت ﴿ مِن ﴾ هنا للابتداء المجازي تبعاً لاستعارة ﴿ حيث ﴾ .

ففي حرف ﴿ مِن ﴾ استعارة تبعية.

وذكر الواحدي في "أسباب النزول" أنها نزلت في شأن عوف بن مالك الأشجعي إذْ أَسَرَ المشركون ابنه سالماً فأتى عوف النبي صلى الله عليه وسلم وشكا إليه ذلك وأن أمه جزعت فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "اتق الله واصبر" وأمره وزوجَه أن يكثرا قولاً : لا حول ولا قوة إلا بالله فغفل المشركون عن الابن فَسَاقَ عنزاً كَثيرة من عنز المشركين وجاء بها المدينة فنزلت الآية ، فيجوز أن يكون نزولها في أثناء نزول هذه السورة فصادفت الغرضين ، ويكون ذلك من قبيل معجزات القرآن.

﴿ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بالغ ﴾ .

تكملة للتي قبلها فإن تقوى الله سبب تفريج الكُرَب والخَلاص من المضائق ، وملاحظةُ المسلم ذلك ويقينُه بأن الله يدفع عنه ما يخطر بباله من الخواطر الشيطانية التي تثبطه عن التقوى يحقق وعد الله إياه بأن يجعل له مخرجاً ويرزقَه من حيث لا يحتسب .

وَحَسْب : وصف بمعنى كافٍ .

وأصله اسم مصدر أو مصدر .

وجملة ﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ في موضع العلة لجملة ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ ، أي لا تستبعدوا وقوع ما وعدكم الله حين ترون أسباب ذلك مفقودة فإن الله إذا وعد وعداً فقد أراده وإذا أراد الله أمراً يسَّرَ أسبابه .

ولعل قوله : ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ إشارة إلى هذا المعنى ، أي علم الله أن يكفي من يتوكل عليه مهمّة فقدّر لذلك أسبابه كما قدّر أسباب الأشياء كلها فلا تشُكّوا في إنجاز وَعده فإنه إذا أراد أمراً يسّر أسبابه من حيث لا يحتسب الناس وتصاريف الله تعالى خفية عجيبة .

ومعنى ﴿ بالغ أمره ﴾ : واصلٌ إلى مراده .

والبلوغ مجاز مشهور في الحصول على المراد .

والأمر هنا بمعنى الشأن .

وعن عبد الله بن رافع لما نزل قوله تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ قال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (أي بعضهم) : فنحن إذا توكلنا نرسل ما كان لنا ولا نحفظه فنزلت ﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ ، أي فيكم وعليكم أ هـ .

وقرأ الجمهور ﴿ بالغٌ ﴾ بالتنوين و ﴿ أمرَه ﴾ بالنصب .

وقرأه حفص عن عاصم ﴿ بالغُ أمرِه ﴾ بإضافة ﴿ بالغ ﴾ إلى ﴿ أمره ﴾ .

﴿ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَىْءٍ ﴾ .

لهذه الجملة موقع تتجلى فيه صورة من صور إعجاز القرآن في ترتيب مواقع الجمل بعضها بعد بعض كما نبهت عليه في مواقع سلفت .

فهذه الجملة لها موْقع الاستئناف البياني ناشىء عما اشتملت عليه جمل ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ ، إلى قوله : ﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ لأن استعداد السامعين لليقين بما تضمنته تلك الجمل متفاوت فقد يستبعد بعض السامعين تحقق الوعد لأمثاله بما تضمنته تلك الجمل بعرضها على ارتباك أحْواله ، أو يتردد يقينه فيقول : أين أنا من تحصيل هذا ، حين يُتبع نظره فيرى بَوْنا عن حصول الموعود بسبب انعدام وسائله لديه فيتملكه اليأس .

فهذا الاستئناف البياني وقع عقب الوعد تذكيراً بأن الله علم مواعيده وهيأ لها مقادير حصولها لأنه جعل لكل شيء قدراً .

ولها موقع التعليل لجملة ﴿ وأحصوا العدة ﴾ [الطلاق : 1] فإن العِدة من الأشياء فلما أمر الله بإحصاء أمرها عَلّل ذلك بأن تقدير مدة العدة جعله الله ، فلا يسوغ التهاون فيه .

ولهذا موقع التذييل لجملة ﴿ وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ [الطلاق : 1] ، أي الذي وضع تلك الحدود قد جعل لكل شيء قدراً لا يعدوه كما جعل الحدود .

ولها موقع التعليل لجملة ﴿ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴾ ، لأن المعنى إذا بلغن القَدْر الذي جعله الله لمدة العدة فقد حصل المقصد الشرعي الذي أشار إليه قوله تعالى : ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ [الطلاق : 1] فالمعنى : فإن لم يُحدث الله أمر المراجعة فقد رفق بكم وحطّ عنكم امتداد العدة .

ولها موقع التعليل لجملة ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ فإن الله جعل الشهادة قدراً لرفع النزاع .

فهذه الجملة جُزء آية وهي تحتوي على حقائق من الحكمة .

ومعنى ﴿ لكل شيء ﴾ لكل موجود ، أي لكل حادث فالشيء الموجود سواء كان ذاتاً أو معنى من المعاني قال تعالى : ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ [القمر : 52] .

فعموم قوله : ﴿ لكل شيء ﴾ صريح في أن ما وعد الله به يَجعل له حين تكوينه قَدْراً .

قال الراغب في "مفرداته" : وذلك أن فعل الله ضربان : ضرب أوجده بالفعل ، ومعنى إيجاده بالفعل أنه أبدعه كاملاً دفعة لا تعتريه الزيادة والنقصان إلى أن يشاء أن يغنيه أو يبدله كالسماوات وما فيها .

ومنها ما جعل أصوله موجودة بالفعل وأجزاءَه بالصلاحية وقدَّره على وجه لا يتأتى منه غير ما قدره فيه كتقديره في النواة أن ينبت منها النخل دون أن ينبت منها تفاح أو زيتون .

وتقديره نطفة الإنسان لأن يكون منها إنسان دون حيوان آخر .

فتقدير الله على وجهين : أحدهما بالحُكم منه أن يَكون كذا أو لا يكون ، كذا إما على سبيل الوجوب وإما على سبيل الإمكان .

وعلى ذلك قوله : ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ .

والثاني بإعطاء القدرة عليه ، وعلى ذلك قوله : ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾ [المرسلات : 23] أو يكون من قبيل قوله : ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ أ هـ .

والقَدْر : مصدر قَدَره المتعدي إلى مفعول بتخفيف الدال الذي معناه وَضع فيه بمقدار كمية ذاتيةً أو معنوية تُجعل على حسب ما يتحمله المفعول .

(104/769)

فقَدر كلّ مفعولٍ لفعل قَدَرَ ما تتحمله طاقته واستطاعتُه من أعمال ، أو تتحمله مساحته من أشياء أو يتحمله وَعْيه لما يَكُدُّ به ذهنه من مدارك وأفهام .

ومن فروع هذا المعنى ما في قوله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ في سورة [البقرة : 286] .

وقوله هنا : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ [الطلاق : 7] .

ومن جزئيات معنى القَدْر ما يسمى التقدير : مصدر قَدَّر المضاعف إذا جَعَل شيئاً أو أشياء على مقدار معين مناسب لما جُعل لأجله كقوله تعالى : ﴿ وقدر في السرد ﴾ في سورة [سبأ : 11] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

(105/769)

وقال الشيخ الصابونى فى الآيات السابقة :

﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم ﴾

سورة الطلاق

[1] أحكام الطلاق

التحليل اللفظي

﴿ لعدتهن ﴾ : أي لزمان عدتهن ، أو لاستقبال عدتهن . قال الجرجاني : اللام بمعنى (في) أي في الزمان الذي يصلح لعدتهن ، وعدة المرأة أيام قروئها ، وأيام إحدادها على بعلها ، وأصل ذلك كله من العد لأنها تعد أيام أقرائها ، أو أيام حمل الجنين ، أو أربعة أشهر وعشر ليال .

﴿ وأحصوا ﴾ : أي اضبطوا ، واحفظوا ، وأكملوا العدة ثلاثة قروء كوامل . وأصل معنى الإحصاء : العد بالحصى كما كان معتادا قديما ، ثم صار حقيقة فيما ذكر .

﴿ اتقوا الله ﴾ : أي اجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية تحميكم وتصونكم ، وذلك بالطاعة في الأوامر ، واجتناب النواهي .

﴿ بفاحشة ﴾ : الفاحشة ، والفحش ، والفحشاء : القبيح من القول والفعل ، وجمعها فواحش ، وكل ما اشتد قبحه من الذنوب والمعاصي يسمى (فاحشة) ولهذا يسمى الزنى فاحشة قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وسآء سبيلا ﴾ [الإسراء : 32] .

﴿ حدود الله ﴾ : الحدود هي الموانع عن المجاوزة نحو النواهي ، والحد في الحقيقة هو

النهاية التي ينتهي إليها الشيء ، وحدود الله ضربان : ضرب حدها للناس في مطاعمهم ومشاربهم مما أحل وحرم ، والضرب الثاني عقوبات جعلت لمن ركب ما نهي عنه كحد السارق .

﴿ ظلم نفسه ﴾ : الظلم : وضع الشيء في غير موضعه ، قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] .

﴿ أجلهن ﴾ : الأجل غاية الوقت ومدته . والمراد في الآية أي قارين انقضاء أجل العدة .

﴿ بمعروف ﴾ : المعروف ما يستحسن من الأفعال ، وأصل المعروف ضد المنكر .

والمعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله ، والتقرب إليه ، والإحسان إلى الناس ، وكل ما ندب إليه الشرع ، ونهى عنه من المحسنات والمقبحات .

والمعروف في الإمساك النصفة وحسن العشرة والصحبة فيما للزوجة على زوجها ، وفي المفارقة أداء المهر والتمتيع ، والحقوق الواجبة والوفاء بالشرط .

﴿ ذوى عدل ﴾ : أي رجلين بينا العدالة ، والعدل : المرضي قوله وحكمه .

قال الحسن : ذوي عدل من المسلمين .

﴿ يتوكل ﴾ : يستسلم ويعتمد في أموره على الله ، لعلمه أن الله كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده ، ويصرف أمره إليه .

﴿ حسبه ﴾ : أي كافيه . ومنه قول المؤمن (حسبي الله ونعم الوكيل) .

﴿ بالغ ﴾ : أي نافذ أمره والمعنى سيبلغ الله أمره فيما يريد منكم .

﴿ قدرا ﴾ : أي تقديرا وتوقيتا ، وهو بيان لوجوب التوكل عليه تعالى وتفويض الأمر إليه ، لأن العبد إذا علم أن كل شيء من الرزق وغيره لا يكون إلا بتقديره تعالى ، لا يبقى له إلا التسليم للقدر ، والتوكل على الله تعالى .

المعنى الإجمالي

يخاطب الله سبحانه نبيه المختار صلى الله عليه وسلم قائد الأمة إلى الخير ، وهاديها إلى الحق ، تشريفا له وتعظيما ، وتنبيها لأمته وتعليا ، بأن المسلم إذا أراد أن يطلق زوجه فله ذلك . ولكن عليه أن يراعي في ذلك الوقت الذي يطلقها فيه ، فلا يطلقها إلا في طهر لم يجامعها فيه ، فإن فعل ذلك فعليه أن يحصي الوقت ، ويضبط أيام العدة ليعرف وتعرف انتهاء عدتها .

وانفصام عرى الزوجية بينهما ، وعلى المؤمن أن يكون مصاحبا لتقوى الله وخشيته في كل عمل يؤديه ، وأمر يقوم به ليكون عمله صحيحا سليما .

المعتدة تقعد في منزل زوجها لا يجوز له أن يخرجها ، ولا يجوز لها أن تخرج ، ولو أذن لها زوجها بذلك إلا إذا ارتكبت فاحشة محققة تعذر معها البقاء في منزل زوجها فتخرج لذلك ، هذا أمر الله وحكمه ، وحده الفاصل الذي أقامه لطاعته فمن تعداه ، فقد ارتكب ما نهاه الله عنه ، وجلب الشر والندم لنفسه ، فإنه لا يدري لعل الله يحدث في قلبه ما يغير حاله ، ويجعله راغبا في زوجه ، مريدا إبقاءها في بيته ، فإذا تمهل في أمر الطلاق ، واتبع ما أرشده إليه الكتاب الكريم كان له سعة فيما يريد ، وإلا ندم ، ولات ساعة مندم .

وإذا شارفت المعتدة على نهاية عدتها فالخيار للزوج ، والأمر إليه ، إذا أراد أن يعيدها إلى منزله فعليه أن يعاملها برفق ولين ، وإن أراد أن يفارقها فله ذلك مع توفية جميع حقوقها ، وسواء اختار المفارقة أو الإمساك فعليه أن يشهد على ذلك رجلين عدلين في دينهما ، وخلقهما ، واستقامتهما .

وعلى الشهود أن يؤدوا الشهادة لوجه الله تعالى ، ولا يكتموها ، أمر من عند الله يتبعه المؤمن ويخبت له ، ويعلم أن أمامه يوما يسأل فيه عما قدم وأخر .

وتقوى الله – سبحانه – تجعل للعبد مخرجا من المضايق مادية كانت أو معنوية ، ويرزق الله

-القدير - عبده التقي من حيث لا يؤمل ، ولا يتوهم ، ومن يرجع إلى الله في أموره ، ويتوكل عليه حق التوكل ، فالله كافيه همه ، وميسر عليه أمره ، وأمر الله وحكمه في الخلائق نافذ لا محالة ، يفعل ما يشاء ويختار ، ولكن لكل أجل كتاب ، ولكل أمر وقت محدد .

وجوه القراءات

مبينة : قرأ الجمهور بالكسر ، وقرأ ابن كثير وأبو بكر ﴿ مبينة ﴾ بالفتح .

قوله تعالى : ﴿ أجلهن ﴾ : قرأ الجمهور ﴿ أجلهن ﴾ على الإفراد .

وقرأ الضحاك وابن سيرين ﴿ آجالهن ﴾ على الجمع .

قوله تعالى : بالغ أمره : قرأ الجمهور بالتنوين ﴿ بالغ ﴾ .

وروي عن حفص ﴿ بالغ أمره ﴾ بالإضافة .

وروي ﴿ بالغ أمره ﴾ .

وروي ﴿ بالغا أمره ﴾ .

وجوه الإعراب

1- قوله تعالى : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ هو على حذف مضاف أي لاستقبال عدتهم .

واللام للتوقيت نحو كتبته لليلة بقيت من شهر رجب .

2- قوله تعالى : ﴿ لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾ .

نصب (لا تدري) على جملة الترجي ، فلا تدري معلقة عن العمل ، والجملة المترجاة في موضع نصب بلا تدري .

3- قوله تعالى : ﴿ بالغ أمره ﴾ .

من قرأ بالتنوين فعلى الأصل ، لأن اسم الفاعل هاهنا بمعنى الاستقبال و (أمره) منصوب باسم الفاعل (بالغ) لأن اسم الفاعل يعمل عمل الفعل .

ومن قرأ بغير تنوين ، حذف التنوين للتخفيف ، وجر ما بعده بالإضافة .

ومن قرأ (أمره) بالرفع على أنه فاعل ل (بالغ) التي هي خبر إن .

أو مبتدأ وبالغ خبر مقدم له ، والجملة خبر إن .

ومن قرأ (بالغا) على أنها حال من فاعل جعل لا من المبتدأ لأنهم لا يرتضون مجيء الحال منه (وقد جعل . . .) خبر (إن) .

سبب النزول

أولا : روي في " سنن " ابن ماجه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة رضي الله عنها ثم راجعها

.

وروى قتادة : عن أنس قال : طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة رضي الله عنها فأتت أهلها فأنزل الله تعالى عليه ﴿ يا أَيُّهَا النبي إذا طلقتم النسآء فطلقوهن لعدتهن ﴾ وقيل له راجعها فإنها قوامة صوامة ، وهي من أزواجك في الجنة .

وقال الكلبي : سبب نزول هذه الآية غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم على حفصة لما أسر إليها حديثا ، فأظهرته لعائشة ، فطلقها تطليقة فنزلت الآية .

ثانيا : وقال السدي : نزلت في عبد الله بن عمر طلق امرأته حائضا تطليقة واحدة ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ، وتحيض ، ثم تطهر ، فإذا أراد أن يطلقها ، فليطلقها حين تطهر من قبل أن يجامعها ، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء .

لطائف التفسير

(109/769)

اللطيفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا النبي ﴾ نداء للنبي صلى الله عليه وسلم وخطاب له على سبيل التكريم والتنبيه .

ويحتمل تخصيص النبي بالخطاب وجوها :

أحدها : اكتفاء بعلم المخاطبين بأن ما خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم خطاب لهم إذ كانوا مأمورين بالاقتداء به ، إلا ما خص به دونهم .

والثاني : أن تقديره : يا أيها النبي قل لأمتك ﴿ إذا طلقتم النسآء . . . ﴾ .

والثالث : خص النداء به صلى الله عليه وسلم على العادة في خطاب الرئيس الذي يدخل فيه الأتباع ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم إمام أمته ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كيت وكيت إظهارا لتقدمه واعتبارا لترؤسه . وفيه إظهار لجلالة منصبه عليه الصلاة والسلام ما فيه ، ولذلك اختير لفظ (النبي) لما فيه من الدلالة على علو مرتبته .

والرابع : الخطاب كالنداء له صلى الله عليه وسلم إلا انه اختير ضمير الجمع للتعظيم نظير ما في قوله : (ألا فارحموني يا إله محمد) .

والخامس : إنه بعد ما خاطبه عليه الصلاة والسلام بالنداء صرف سبحانه الخطاب عنه لأمته تكريما له صلى الله عليه وسلم لا في الطلاق من الكراهة فلم يخاطب به تعظيما .

والسادس : حذف نداء الأمة ، والتقدير يا أيها النبي وأمة النبي إذا طلقتم .

قال القرطبي : إذا أراد الله بالخطاب المؤمنين لاطفه بقوله : ﴿ يا أَيُّهَا النبي ﴾ فإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعا له قال : (يا أيها الرسول) .

اللطيفة الثانية : فإن قيل : ما السر في تسمية الطلاق ب (الطلاق البدعي) ، أو (الطلاق

السني) ؟

فالجواب كما قال الإمام الرازي : إنما سمي بدعة لأنها إذا كانت حائضا لم تعتد بأيام حيضها من عدتها بل تزيد على ثلاثة أقراء ، فتطول العدة عليها حتى تصير كأنها أربعة أقراء ، وهي في الحيض الذي طلقت فيه في صورة المعلقة التي لا هي معتدة ، ولا ذات بعل ، والعقول تستقبح الإضرار .

(110/769)

ففي طلاقة إياها في الحيض سوء نظر للمرأة ، وفي الطلاق في الطهر الذي جامعها فيه ، وقد حملت فيه سوء نظر للزوج .

فإذا طلقت وهي طاهر غير مجامعة أمن هذان الأمران ، لأنها تعتد عقيب طلاقه إياها ، على أمان من اشتمالها على ولد منه .

اللطيفة الثالثة : قال الربيع بن خيثم : " إن الله تعالى قضى على نفسه أن من توكل عليه كفاه ، ومن آمن به هداه ، ومن أقرضه جازاه ، ومن وثق به نجاه ، ومن دعاه أجاب له " .

وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ [التغابن : 11] ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ ﴿ إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه ﴾ [التغابن : 17]

﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾ [آل عمران : 101] ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ [البقرة : 186] .

اللطيفة الرابعة : قال الله تعالى : ﴿ واتقوا الله ربكم ﴾ ولم يقل (واتقوا الله) .

قال الفخر الرازي : فيه من المبالغة ما ليس في ذلك ، فإن لفظ الرب ينبههم على التربية التي هي الإنعام والإكرام بوجوه متعددة غاية التعداد فيبالغون في التقوى حينئذ خوفا من فوت تلك التربية .

اللطيفة الخامسة : قال الرازي : ثم في هذه الآية لطيفة ، وهي أن التقوى في رعاية أحوال النساء مفتقرة إلى المال ، فقال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ وقريب من هذا قوله تعالى : ﴿ إن يكونوا فقرآء يغنهم الله من فضله ﴾ [النور : 32]

اللطيفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ وأحصوا العدة ﴾ إحصاء العدة يكون لمعان :

أحدها : لما يريد من رجعة وإمساك ، أو تسريح وفراق .

والثاني : لكي يشهد على فراقها ، ويتزوج من النساء غيرها ممن لم يكن يجوز له جمعها إليها كأختها ، أو أربع سواها .

والثالث : لتوزيع الطلاق على الأقراء إذا أراد أن يطلق ثلاثا .

اللطيفة السابعة : قوله تعالى : ﴿ لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾ ، أي من الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه فيراجعها . والمقصود التحريض على طلاق الواحدة ، والنهي عن طلاق الثلاث ، فإنه إذا طلق ثلاثا أضر بنفسه عند الندم على الفراق ، والرغبة في الارتجاع ، فلا يجد للرجعة سبيلا .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل الطلاق مباح أو محظور ؟

لقد أباح الله تعالى الطلاق بقوله : ﴿ إذا طلقتم النسآء فطلقوهن لعدتهن ﴾ وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" إن من أبغض المباحات عند الله عز وجل الطلاق " .

وفي لفظ " ابغض الحلال إلى الله الطلاق " .

قال الحنفية والحنابلة : الطلاق محظور لما فيه من كفران نعمة النكاح لقوله صلى الله عليه وسلم : " لعن الله كل مذواق مطلاق " وإنما أبيح للحاجة ، ويحمل لفظ المباح على ما أبيح في بعض الأوقات التي تتحقق فيه الحاجة المبيحة .

وقد نقل عن ابن حجر أن الطلاق :

أ- إما واجب كطلاق المولي بعد التربص مدة أربعة أشهر وطلاق الحكمين في الشقاق بين

الزوجين إذا لم يمكن الإصلاح .

ب- أو مندوب كأن يعجز عن القيام بحقوقها ولو لعدم الميل إليها ، أو تكون غير عفيفة .

ج- أو حرام وهو الطلاق البدعي .

د- أو مكروه بأن سلم الحال عن ذلك كله للحديث .

الحكم الثاني : ما هو الطلاق السني وما هي شروطه ؟

روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض ، فذكر ذلك عمر للنبي صلى الله عليه وسلم فتغيظ ، فقال : ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر ، وإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسها ، فتلك العدة التي أمر الله عز وجل .

ولهذا الحديث حصل الإجماع على أن الطلاق في الحيض ممنوع ، وفي الطهر مأذون فيه إذا لم يجامعها فيه .

والجمهور : على أنه لو طلق لغير العدة التي أمر الله وقع طلاقه وأثم ، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة جدهن جد وهزلهن جد : النكاح ، والطلاق ، والرجعة " .

واختلف الفقهاء فيما يدخل في طلاق السنة .

فقال الحنفية : إن طلاق السنة من وجهين :

أحدهما : في الوقت وهو أن يطلقها طاهرا من غير جماع ، أو حاملا قد استبان جملها .

والآخر : من جهة العدد وهو أن لا يزيد في الطهر الواحد على تطليقة واحدة .

وقال المالكية : طلاق السنة ما جمع شروطا سبعة :

وهو أن يطلقها واحدة ، وهي ممن تحيض ، طاهرا ، لم يمسها في ذلك الطهر ، ولا تقدمه طلاق في حيض ، ولا تبعه طلاق في طهر يتلوه ، وخلا عن العوض .

وقال الشافعية : طلاق السنة أن يطلقها كل طهر خاصة ، ولو طلقها ثلاثا في طهر لم يكن بدعة .

وقال الحنابلة : طلاق السنة أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه .

فالاتفاق واقع على أن طلاق السنة في طهر لم يجامعها فيه ، وأما من أضاف كونها حاملا فلما ورد في حديث عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر : " مره فليراجعها ثم ليطلقها إذا طهرت ، أو وهي حامل " .

وأما العدد والخلاف فيه فبحثه عند قوله تعالى : ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾

[البقرة : 229] .

وأما قول المالكية : " وهي ممن تحيض " فهذا شرط متفق عليه .

قال الفخر الرازي : والطلاق في السنة إنما يتصور في البالغة المدخول بها ، غير الآيسة ، والحامل ، إذ لا سنة في الصغيرة وغير المدخول بها ، والآيسة ، ولا بدعة أيضا لعدم العدة بالأقراء .

وقال أبو بكر الجصاص : والوقت مشروط لمن يطلق في العدة لأن من لا عدة عليها بأن كان طلقها قبل الدخول فطلاقها مباح في الحيض .

وأما بقية الشروط فمختلف فيها وتنظر في كتب الفروع .

الحكم الثالث : هل للمعتدة أن تخرج من بيتها ؟

(113/769)

دل قوله تعالى : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ على أن المطلقة لا تخرج من مسكن النكاح ما دامت في العدة ، فلا يجوز لزوجها أن يخرجها ، ولا يجوز لها الخروج أيضا إلا لضرورة ظاهرة ، فإن خرجت أثمت ولا تنقطع العدة ، والرجعية والمبتوتة في هذا سواء .

واختلف الفقهاء في خروج المعتدة من بيتها لقضاء حوائجها على مذاهب :

أ- قال مالك وأحمد : المعتدة تخرج في النهار في حوائجها ، وإنما تلزم منزلها بالليل .

ب- وقال الشافعي : لا تخرج الرجعية ليلا ولا نهارا وإنما تخرج المبتوتة في النهار .

ج- وقال أبو حنيفة : المطلقة لا تخرج ليلا ولا نهارا ، والمتوفى عنها زوجها لها أن تخرج في النهار .

دليل المالكية والحنابلة :

استدل مالك وأحمد بحديث (جابر من عبد الله) قال : " طلقت خالتي فأرادت أن تجد نخلها ، فزجرها رجل أن تخرج ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " بلى فجدي نخلك ، فإنك عسى أن تصدقي أو تفعلي معروفا " .

دليل الشافعية :

واستدل الشافعي بالآية الكريمة : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ بالنسبة للمطلقة رجعيا فلا تخرج ليلا ولا نهارا .

واما المبتوتة فاستدل بحديث (فاطمة بنت قيس) فقد ورد في صحيح مسلم أن (فاطمة بنت قيس) قالت يا رسول الله : زوجي طلقني ثلاثا وأخاف أن يقتحم علي قال : فأمرها فتحولت .

وفي البخاري : عن عائشة أن (فاطمة بنت قيس) كانت في مكان وحش فخيف على ناحيتها ، فلذلك أرخص النبي صلى الله عليه وسلم لها .

دليل الحنفية :

واستدل أبو حنيفة بعموم قوله تعالى : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ فقد حرمت على المطلقة أن تخرج ليلا أو نهارا ، سواء كانت رجعية أم مبتوتة ، وأما المتوفى عنها زوجها فتحتاج للخروج نهارا لقضاء حوائجها ولا تخرج ليلا لعدم الضرورة .

قال الحنفية : ليس لها أن تخرج لأن السكنى حق للشرع مؤكد لا يسقط بالإذن حتى لو اختلعت على أن لا سكنى لها تبطل مؤنة السكنى عن الزوج ، ويلزمها أن تكتري بيته ، وأما أن يحل لها الخروج فلا .

قال الشافعية : إنهما لو اتفقا على الانتقال جاز إذ الحق لا يعدوهما ، فالمعنى لا تخرجوهن ولا يخرجن باستبدادهن .

وقد قال الفخر الرازي : " فلم يكن لها الخروج ، وإن رضي الزوج ، ولا إخراجها وإن رضيت إلا عن ضرورة " .

الحكم الرابع : ما هي الفاحشة التي تخرج بها المعتدة من المنزل ؟

لقد اختلف السلف في المراد بالفاحشة في قوله تعالى : ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾

وتبعا لذلك اختلف الفقهاء .

فقال أبو حنيفة : بقول ابن عمر : خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة . فيكون معنى الآية إلا أن يأتين بفاحشة مبينة بخروجهن من بيوتهن بغير حق .

والاستثناء عليه راجع إلى ﴿ لا يخرجن ﴾ والمعنى : "لا يسمع لهن في الخروج إلا في الخروج الذي هو فاحشة ، ومن المعلوم أنه لا يسمع لهن فيه فيكون ذلك منعا عن الخروج على أبلغ وجه .

قال ابن الهمام : كما يقال : "لا تزن إلا أن تكون فاسقا ، ولا تشتم أمك إلا أن تكون قاطع رحم ، ونحو ذلك وهو بديع وبليغ جدا " .

وقال أبو يوسف بقول الحسن وزيد بن أسلم : هو أن تزني فتخرج للحد (أي لا تخرجوهن إلا إن زنين) .

وعن ابن عباس قال : إلا أن تبذو على أهله ، فإذا فعلت ذلك حل لهم أن يخرجوها ، كما ورد عن فاطمة بنت قيس أنها أخرجت لذلك .

وعنه أيضا قال : جميع المعاصي من سرقة أو قذف أو زنا أو غير ذلك واختاره الطبري .

وقال الضحاك : الفاحشة المبينة : عصيان الزوج .

وقال قتادة : إلا أن تنشز فإذا فعلت حل إخراجها .

قال أبو بكر الجصاص : هذه المعاني كلها يحتملها اللفظ ، وجائز أن يكون جميعها مرادا ،

فيكون خروجها فاحشة ، وإذا زنت أخرجت للحد ، وإذا بذت على أهله أخرجت أيضا .

(115/769)

فأما عصيان الزوج والنشوز ، فإن كان في البذاءة وسوء الخلق اللذين يتعذر القيام معها فيه فجائز أن يكون مرادا ، وإن كان إنما عصت زوجها في شيء غير ذلك فإن ذلك ليس بعذر في إخراجها " .

وأما ابن العربي فقال : أما من قال إنه الخروج للزنى ، فلا وجه له لأن ذلك الخروج هو خروج القتل والإعدام ، وليس ذلك بمستثنى في حلال ولا حرام ، وأما من قال إنه البذاء فهو مفسر في حديث فاطمة بنت عيس ، وأما من قال إنه الخروج بغير حق فهو صحيح وتقدير الكلام : " لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن شرعا إلى أن يخرجن تعديا " .

الحكم الخامس : ما حكم الإشهاد في الفرقة والرجعة ؟

قال أبو حنيفة : الإشهاد مندوب إليه في الفرقة والرجعة لقوله تعالى : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ [البقرة : 282] فإن الإشهاد في البيع مندوب لا واجب فكذا هنا وهو قول مالك والشافعي وأحمد في أحد قوليهما .

وقال الشافعي وأحمد : في القول الآخر : الإشهاد واجب في الرجعة ، مندوب إليه في الفرقة .

أدلة الجمهور :

1- لما جعل الله تعالى للزوج الإمساك أو الفراق ، ثم عقبه بذكر الإشهاد ، كان معلوما وقوع الرجعة إذا رجع ، وجواز الإشهاد بعد ذلك ؛ إذ لم يجعل الإشهاد شرطا في الرجعة .

2- لم يختلف الفقهاء في أن المراد بالفراق المذكور في الآية إنما هو تركها حتى تنقضي عدتها ، وأن الفرقة تصح ، وإن لم يقع الإشهاد عليها ، وقد ذكر الإشهاد عقيب الفرقة ، ثم لم يكن شرطا في صحتها فكذلك الرجعة .

3- وأيضا لما كانت الفرقة حقا للزوج ، وجازت بغير الإشهاد ، إذ لا يحتاج فيها إلى رضا غيره ، وكانت الرجعة أيضا حقا له وجب أن تجوز بغير إشهاد .

(116/769)

4- وأيضا لما أمر الله بالإشهاد على الإمساك ، أو الفرقة احتياطا لهما ، ونفيا للتهمة عنهما ، إذا علم الطلاق ولم يعلم الرجعة ، أو لم يعلم الطلاق والفراق ، فلا يؤمن التجاحد بينهما ، ولم يكن معنى الاحتياط مقصورا على الإشهاد في حال الرجعة أو الفرقة ، بل يكون

الاحتياط باقيا وإن أشهد بعدهما وجب أن لا يختلف حكمهما إذا أشهد بعد الرجعة بساعة أو ساعتين .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولا : الطلاق السني هو الطلاق الذي يكون في طهر لم تجامع فيه المرأة .

ثانيا : الطلاق البدعي ما كان في الطهر الذي جومعت فيه المرأة ، أو في وقت الحيض .

ثالثا : السكنى واجبة للمطلقة على زوجها قبل انتهاء عدتها فقد عصت الله وأثمت .

رابعا : إذا خرجت المرأة من بيت زوجها قبل انتهاء عدتها فقد عصت الله وأثمت .

خامسا : حدود الله تعالى يجب التزامها وعدم تعديلها لأنها شريعة الله .

سادسا : إقامة الشهادة حق لله تعالى على عباده لدفع الظلم عن الخلائق .

سابعا : التوكل على الله والالتجاء إليه ، ملاك الأمر كله ، وراحة النفس .

خاتمة البحث :

حكمة التشريع

الأسرة لبنة من لبنات المجتمع الإسلامي ، وبها قوامه ، ففيها تلتقي النفوس على المودة والرحمة ، والتعاطف والستر ، وفي كنفه تنبت الطفولة ، وتدرج الحداثة ، ومنه تمتد وشائج الرحمة ، وأواصر التكافل .

ولكن الحياة الواقعية والطبيعة البشرية تثبت بين الفينة والأخرى ، أن هناك حالات لا يمكن

معها استمرار الحياة الزوجية ، لذلك شرع الله الطلاق كآخر حل من حلول تتقدمه ، إن لم تجد كل المحاولات ، وأباح للرجل أن يركن إلى أبغض الحلال وهو الطلاق .

(117/769)

ولكن ليس من السنة أن يطلق الرجل في كل وقت يريد ، فليس له أن يطلقها وهو راغب عنها في الحيض ، وفي ذلك دعوة له ليتمهل ولا يسرع ليفصل عرى الزوجية ، ويتفكر في محاسن زوجه لعلها تغلب سيئاتها ، فتتغير القلوب ، وتعود إلى صفائها بعد موجة من الغضب اعترتها ، وسحابة غشيت المودة التي يكنها الزوج لزوجه .

والطلاق يقع حيثما طلق في الوقت الذي بينه الشرع أو في غيره ، لأن فك الزوجية ، وهدم اللبنة الأولى للمجتمع ليس لعبا تلوكه الألسنة في كل وقت ، وعند أدنى بادرة ، بل هو الجد كل الجد فمن نطق به لزمته نتائجه وعصى الله – جلت حكمته – لأنه لم يقف عند حدوده ، ويتبع تعاليمه .

وأمر الله – العليم الخبير – بإحصاء العدة لضبط انتهائها ، ومعرفة أمدها بدقة لعدم إطالة الأمد على المطلقة ، والإضرار بها ، ولكيلا تنقص من مدتها مما لا يؤدي إلى المراد منها وهو

التأكد من براءة رحم المطلقة من الحمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روائع البيان حـ 2 صـ 587 ـ 604. ﴾

(118/769)

قوله تعالى ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (4) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (5) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (6) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وسط بين العدد هذه الجمل الواعظة دلالة على عظمتها حثاً على امتثالها والمبادرة إليها ، وختم بالتقدير ، أتبع ذلك بيان مقادير العدد على وجه أبان أن الكلام الماضي كان

في الحوائض الرجعيات فقال : ﴿ واللائي يئسن ﴾ أي من المطلقات ﴿ من المحيض ﴾ أي الحيض وزمانه لوصولها إلى سن يجاوز القدر الذي ترجو فيه النساء الحيض فصارت بحيث لا ترجوه ، وذلك السن خمس وخمسون سنة أو ستون سنة ، وقيل : سبعون وهن القواعد ، وأما من انقطع حيضها في زمن ترجو فيه الحيض فإنها تنتظر سن اليأس .

ولما كان هذا الحكم خاصاً بأزواج المسلمين لحرمة فرشهم وحفظ أنسابهم قال : ﴿ من نسائكم ﴾ أي أيها المسلمون سواء كن مسلمات أو من أهل الكتاب ، ولما كان الموجب للعدة إنما هو الدخول لا مجرد الطلاق قال : ﴿ إن ارتبتم ﴾ بأن أجلتم النظر في أمرهن ، فأداكم إلى ريب في هل هن حاملات أم لا ، وذلك بالدخول عليهن الذي هو سبب الريب بالحمل في الجملة ﴿ فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ كل شهر يقوم مقام حيضة لأن أغلب عوائد النساء أن يكون كل قرء في شهر .

ولما أتم قسمي ذوات الحيض إشارة وعبارة قال : ﴿ واللائي لم يحضن ﴾ أي لصغرهن أو لأنهن لا حيض لهن أصلاً وإن كن بالغات فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً ، وهذا مشير إلى أن أولات الحيض بائنات كن أو لا عدتهن ثلاثة قروء كما تقدم في البقرة لأن هذه الأشهر عوض عنها ، فأما أن يكون القرء – وهو الطهر – بين حيضتين ، أو بين الطلاق والحيض ، وهذا كله في المطلقة ، وأما المتوفى عنها زوجها فأربعة أشهر وعشراً كما في البقرة .

ولما فرغ من آئسات الحوامل أتبعه ذكر الحوامل فقال : ﴿ وأولات الأحمال ﴾ أي من جميع الزوجات المسلمات والكفار المطلقات على كل حال والمتوفى عنهن إذا كان حملهن من الزوج مسلماً كان أو لا ﴿ أجلهن ﴾ أي لمنتهى العدة سواء كان لهن مع الحمل حيض أم لا ﴿ أن يضعن ﴾ ولما كان توحيد الحمل لا ينشأ عنه لبس ، وكان الجمع ربما أوهم أنه لا تحل واحدة منهن حتى يضع جمعاً قال : ﴿ حملهن ﴾ وهذا على عمومه مخصص لآية ﴿ يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ [البقرة : 234] لأن المحافظة على عمومه أولى من المحافظة على عموم ذلك في قوله : ﴿ أزواجاً ﴾ لأن عموم هذه بالذات لأن الموصول من صيغ العموم ، وعموم ﴿ أزواجاً ﴾ بالعرض لأنه بدلي لا يصلح لتناول جميع الأزواج في حال واحد ، والحكم معلل هنا بوصف الحملية بخلاف ذاك ولأن سبيعة بنت الحارث وضعت حملها بعد وفاة زوجها بليال ، فأذن لها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن تتزوج ، ولأن هذه الآية متأخرة النزول عن آية البقرة ، فتقديمها على تلك تخصيص ، وتقديم تلك في العمل بعمومها رفع لما في الخاص من الحكم فهو نسخ والأول هو الراجح للوفاق عليه ، فإن كان الحمل من زنا أو شبهة فلا حرمة له ، والعدة بالحيض .

ولما كانت أمور النساء في المعاشرة والمفارقة من المعاسرة والمياسرة في غاية المشقة ، فلا يحمل على العدل فيها والعفة إلا خوف الله ، كرر تلميعاً بالحث على التقوى إشارة إلى ذلك وترغيباً في لزوم ما حده سبحانه ، فقال عاطفاً على ما تقديره : فمن لم يحفظ هذه الحدود عسر الله عليه أموره : ﴿ ومن يتق الله ﴾ أي يوجد الخوف من الملك الأعظم إيجاداً مستمراً ليجعل بينه وبين سخطه وقاية من طاعاته اجتلاباً للمأمور واجتناباً للمنهي ﴿ يجعل له ﴾ أي يوجد إيجاداً مستمراً باستمرار التقوى "إن الله لا يمل حتى تملوا" ﴿ من أمره ﴾ أي كله في النكاح وغيره ﴿ يسراً ﴾ أي سهولة وفرجاً وخيراً في الدارين بالدفع والنفع ، وذلك أعظم من مطلق المخرج المتقدم في الآية الأولى .

ولما كان تكرير الحث على التقوى للسؤال عن سببه ، استأنف قوله كالتعليل له :

﴿ ذلك ﴾ أي الأمر المذكور من جميع هذه الأحكام العالية المراتب ﴿ أمر الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الكمال كله ، ونبه على علو رتبة الأمر بقوله : ﴿ أنزله إليكم ﴾ ولما كان التقدير : فمن أباه هوى في مهاوي المهلكات إلى أسفل سافلين ، عطف عليه قوله :

﴿ ومن يتق الله ﴾ أي الذي لا أمر لأحد معه بالاجتلاب والاجتناب ، ولما كان الإنسان محل العجز والنقصان ، أنسه بأنه إذا وقع منه زلل فراجعه بالتقوى لطف به فيه جزاء على تقواه بالدفع والنفع فقال : ﴿ يكفر ﴾ أي يغطي تغطية عظيمة ويستر ويغيب ويسقط

﴿ عنه ﴾ جميع ﴿ سيئاته ﴾ ليتخلى عن المبعدات فإن الحسنات يذهبن السيئات .

ولما كان الكريم لا يرضى لمن أقبل إليه بالعفو فقط قال : ﴿ ويعظم له أجراً ﴾ بأن يبدل سيئاته حسنات ويوفيه أجرها في الدارين مضاعفاً فيتحلى بالمقربات ، وهذا أعظم من مطلق اليسر المتقدم .

(121/769)

ولما قدم التكفير وأتبعه الأجر الكبير ، وكان قد تقدم إيجاب ترك المطلقة في منزل الطلاق وأذن في إخراجها عند الفاحشة المبينة ، وكان ربما كان منزل الطلاق مستعاراً ، وكان مما لا يليق بالزوج ، وكان ربما نزل الكلام السابق عليه ، استأنف البيان له بما لا يحتمل لبساً فقال آمراً بعد ذلك النهي على وجه مشير بسابقه ولاحقه إلى الحلم عنهن فيما يمكن الحلم فيه حفظاً للقلوب وإبعاداً للشقاق بعد الإيحاش بالطلاق لئلا يعظم الكسر والوحشة :

﴿ أسكنوهن ﴾ أي هؤلاء المفارقات في العدة إن كن مطلقات حاملات كن أو لا مبتوتات كن أو رجعيات بخلاف ما كان من العدة عن وفاة بغير حمل أو كان عن شبهة أو فسخ .

ولما كان المراد مسكناً يليق بها وإن كان بعض مسكن الرجل ، إدخل أداة التبعيض فقال :

﴿ من حيث سكنتم ﴾ أي من أماكن سكناكم لتكون قريبة منكم ليسهل تفقدكم لها

للحفظ وقضاء الحاجات.

ولما كان الإنسان ربما سكن في ماضي الزمان ما لا يقدر عليه الآن قال مبيناً للمسكن المأمور به مبقياً للموادة بعدم التكليف بما يشق : ﴿ من وجدكم ﴾ أي سعتكم وطاقتكم بإجارة أو ملك أو إعارة حتى تنقضي العدة بحمل كانت أو غيره.

ولما كان الإسكان قد يكون مع الشنآن قال : ﴿ ولا تضاروهن ﴾ أي حال السكنى في المسكن ولا في غيره.

ولما كانت المضارة قد يكون لمقصد حسن بأن يكون تأديباً لأمر بمعروف ليتوصل بصورة شر قليل ظاهر إلى خير كثير قال : ﴿ لتضيقوا ﴾ أي تضييقاً بالغاً لا شبهة في كونه كذلك مستعلياً ﴿ عليهن ﴾ حتى يلجئهن ذلك إلى الخروج.

(122/769)

ولما كانت النفقة واجبة للرجعية، وكانت عدتها تارة بالأقراء وتارة بالأشهر وتارة بالحمل، وكان ربما توهم أن ما بعد الثلاثة الأشهر من مدة الحمل للرجعية وجميع المدة لغيرها لا يجب الإنفاق فيه قال : ﴿ وإن كن ﴾ أي المعتدات ﴿ أولات حمل ﴾ أي من الأزواج كيف ما كانت العدة من موت أو طلاق بائن أو رجعي ﴿ فأنفقوا عليهن ﴾ وإن مضت الأشهر

﴿ حتى يضعن حملهن ﴾ فإن العلة الاعتداد بالحمل ، وهذه الشرطية تدل على اختصاص الحوامل من بين المعتدات البوائن بوجوب النفقة .

ولما غيى سبحانه وجوب الإنفاق بالوضع ، وكانت قد تريد إرضاع ولدها ، وكان اشتغالها بإرضاعه يفوت عليها كثيراً من مقاصدها ويكسرها ، جبرها بأن قال حاثاً على مكافأة الأخوان على الإحسان مشيراً بأداة الشك إلى أنه لا يجب عليها الإرضاع : ﴿ فإن أرضعن ﴾ وبين أن النسب للرجال بقوله تعالى : ﴿ لكم ﴾ أي بأجرة بعد انقطاع علقة النكاح ﴿ فآتوهن أجورهن ﴾ على ذلك الإرضاع .

ولما كان ما يتعلق بالنساء من مثل ذلك موضع المشاجرة لا سيما أمر الرضاع ، وكان الخطر في أمره شديداً ، وكان الله تعالى قد رحم هذه الأمة بأنه يحرك لكل متشاحين من يأمرهما بخير لا سيما في أمر الولد رحمة له قال مشيراً إلى ذلك : ﴿ وأتمروا ﴾ أي ليأمر بعضكم بعضاً في الإرضاع والأجر فيه وغير ذلك وليقبل بعضكم أمر بعض ، وزادهم رغبة في ذلك بقوله : ﴿ بينكم ﴾ أي إن هذا الخير لا يعدوكم ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ بمعروف ﴾ ونكره سبحانه تحقيقاً على الأمة بالرضى بالمستطاع ، وهو يكون مع الخلق بالإنصاف ، ومع النفس بالخلاف ، ومع الحق بالاعتراف .

ولما كان ذلك موجباً للمياسرة ، وكان قد يوجد في الناس من الغالب عليه الشر ، قال مشيراً بالتعبير بأداة الشك إلى أن ذلك وإن وجد فهو قليل عاطفاً على ما تقديره فإن تياسرتم فهو حظكم وأنتم جديرون بسماع هذا الوعد بذلك : ﴿ وإن تعاسرتم ﴾ أي طلب كل منكم ما يعسر على الآخر بأن طلبت المرأة الأجرة وطلب الزوج إرضاعها مجاناً فليس له أن يكرهها .

ولما كان سبحانه قد تكفل بأرزاق عباده وقدرها قبل إيجادهم .

قال مخبراً جبراً للأب بما يصلح عتاباً للأم : ﴿ فسترضع ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ، وصرف الخطاب إلى الغيبة إيذاناً بأن الأب ترك الأولى فيما هو جدير به من المياسرة لكونه حقيقاً بأن يكون أوسع بطاناً وأعظم شأناً من أن يضيق عما ترضى به المرأة استناناً به. صلى الله عليه وسلم. في أنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً أو قطعية رحم فقال : ﴿ له ﴾ أي الأب ﴿ أخرى ﴾ أي مرضعة غير الأم ويغني الله عنها وليس له إكرهها إلا إذا لم يقبل ثدي غيرها ، وهذا الحكم لا يختص بالمطلقة بل المنكوحة كذلك .

ولما كانت المعاسرة في الغالب في ترك السماح، وكان ترك السماح من خوف الإعدام، نبه سبحانه على أن ذلك ليس بعذر بتقسيم الناس إلى موسع عليه وغيره، ولأن الأليق بالموسع عليه أن يوسع ولا يسيء الظن بربه وقد جرب رفده، وأن المقتر عليه لا ينبغي أن يفعل فعل من يخاف أن يخلف وعده، فقال شارحاً للمياسرة: ﴿لينفق ذو سعة﴾ أي مال واسع ولم يكلفه سبحانه جميع وسعه بل قال: ﴿من سعته﴾ التي أوسعها الله عليه.

ولما كان الإعطاء من غير تقدير ملزوماً للسعة، كان التقدير كناية عن الضيق فقال: ﴿ومن قدر﴾ أي ضيق وسكنت عليه حركته ورقدت عنه معيشته ﴿عليه رزقه﴾ بأن جعله الله الذي لا يقدر على التضييق والتوسيع غيره بقدر ضرورياته فقط من غير وسع لشيء غيرها لأمر من الأمور التي يظهر الله بها عجز العباد رحمة لهم ليهذب به نفوسهم، وبناه للمفعول تعليماً للأدب معه سبحانه وتعالى: ﴿فلينفق﴾ أي وجوباً على المرضع وغيرها من كل ما أوجبه الله عليه أو ندبه إليه، وبشر سبحانه وتعالى بأنه لا يخلي أحداً من شيء يقوم به ما دام حياً بقوله مشيراً بالتبعيض إلى أن ما أوجبه سبحانه لا يستغرق ما وهبه: ﴿مما آتاه الله﴾ أي الملك الذي لا ينفذ ما عنده ولا حد لجوده، ولو من رأس المال ومتابع البيت ومن ثمن الضيعة إن لم يكن له من الغلة لأنه سبحانه قد ضمن الإخلاف، ومن ملك ما يكفيه للوقت ثم اهتم للزيادة للغد فذلك اهتمام غير مرحوم، وصاحبه غير معان، وفي هذا إرشاد إلى الاقتداء به -صلى الله عليه وسلم- في عدم

التكلف واليسر في كل أمر على حسب الأوقات .

ولما كان تعالى له التكليف بما لا يطاق ، أخبر بأنه رحم العباد بأنه لا يفعله ، فقال معللاً أو مستأنفاً جواباً لمن يقول : فما يفعل من لم يكن له موجود أصلاً ، محبباً في دينه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما فيه من اليسر : ﴿ لا يكلف الله ﴾ أي الذي له الكمال بأوصاف الرحمة والإنعام علينا بالتخفيف ﴿ نفساً ﴾ أي نفس كانت ﴿ إلا ما آتاها ﴾ وربما أفهم ، أن من كلف إنفاقاً وجد من فضل ما عنده ما يسده من الأثاث الفاضل عن سد جوعته وستر عورته .

(125/769)

ولما كان التذكير بالإعدام ربما أوجع ، قال تعالى جابراً له وتطبيباً لقلبه نادباً إلى الإيمان بالغيب : ﴿ سيجعل الله ﴾ أي الملك الذي له الكمال كله فلا خلف لوعده ، ونزع الجار زيادة في الخبر فقال : ﴿ بعد عسر ﴾ أي من الأمور التي تعسرت لا أنه يجعل ذلك بعد كل عسر ﴿ يسراً ﴾ أي لا بد من ذلك ولا يوجد أحد يستمر التقتير عليه طول عمره في جميع أحواله ، قال القشيري : وانتظار اليسر من الله صفة المتوسطين في الأحوال الذين انحطوا عن درجة الرضى واستواء وجود السبب وفقده وارتقوا عن حد اليأس والقنوط

ويعيشون في أفناء الرجاء ويتعللون بحسن المواعيد – انتهى .

ولقد صدق الله وعده فيمن كانوا موجودين حين نزول الآية ، ففتح عليهم جميع جزيرة العرب ثم فارس والروم وانتثلوا كنوزها حتى صاروا أغنى الناس ، وصدق الآية دائم غير أنه كان في الصحابة رضي الله تعالى عنهم أبين لأن إيمانهم أتم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 31.36 ﴾

(126/769)

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ واللائى يَئِسْنَ مِنَ المحيض ﴾ الآية ،

ذكر الله تعالى في سورة البقرة عدة ذوات الأقراء والمتوفى عنها زوجها وذكر عدة سائر النسوة اللائي لم يذكرن هناك في هذه السورة ، وروي أن معاذ بن جبل قال : يا رسول الله قد عرفنا عدة التي تحيض ، فما عدة التي لم تحض فنزل : ﴿ واللآئي يَئِسْنَ مِنَ المحيض ﴾ وقوله : ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ أي إن أشكل عليكم حكمهن في عدة التي لا تحيض ، فهذا حكمهن ، وقيل : إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ الإياس وقد قدروه بستين سنة وبخمس وخمسين أهو

دم حيض أو استحاضة ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثلاثة أَشْهُرٍ ﴾ فلما نزل قوله تعالى : ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثلاثة أَشْهُرٍ ﴾ قام رجل فقال : يا رسول الله فما عدة الصغيرة التي لم تحض ؟ فنزل : ﴿ واللائي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ أي هي بمنزلة الكبيرة التي قد يئست عدتها ثلاثة أشهر ، فقام آخر وقال ، وما عدة الحوامل يا رسول الله ؟ فنزل : ﴿ وأولات الأحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ معناه أجلهن في انقطاع ما بينهن وبين الأزواج وضع الحمل ، وهذا عام في كل حامل ، وكان علي عليه السلام يعتبر أبعد الأجلين ، ويقول : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ ﴾ [البقرة : 234] لا يجوز أن يدخل في قوله : ﴿ وأولات الأحمال ﴾ وذلك لأن أولات الأحمال إنما هو في عدة الطلاق ، وهي لا تنقض عدة الوفاة إذا كانت بالحيض ، وعند ابن عباس عدة الحامل المتوفى عنها زوجها أبعد الأجلين .

وأما ابن مسعود فقال : يجوز أن يكون قوله : ﴿ وأولات الأحمال ﴾ مبتدأ خطاب ليس بمعطوف على قوله تعالى : ﴿ واللائي يَئِسْنَ ﴾ ولما كان مبتدأ يتناول العدد كلها ، ومما يدل عليه خبر سبيعة بنت الحرث أنها وضعت حملها بعد وفاة زوجها بخمسة عشر يوماً ، فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتزوج ، فدل على إباحة النكاح قبل مضي أربعة أشهر وعشر ، على أن عدة الحامل تنقضي بوضع الحمل في جميع الأحوال .

وقال الحسن : إن وضعت أحد الولدين انقضت عدتها ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ولم يقل : أحمالهن ، لكن لا يصح ، وقرىء (أحمالهن) ، وقوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ أي ييسر الله عليه في أمره ، ويوفقه للعمل الصالح .

وقال عطاء : يسهل الله عليه أمر الدنيا والآخرة ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ يعني الذي ذكر من الأحكام أمر الله أنزله إليكم ، ومن يتق الله بطاعته ، ويعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يكفر عنه سيئاته من الصلاة إلى الصلاة ، ومن الجمعة إلى الجمعة ، ويعظم له في الآخرة أجراً ، قاله ابن عباس .

فإن قيل قال تعالى : ﴿ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ولم يقل : أن يلدن ، نقول : الحمل اسم لجميع ما في بطنهن ، ولو كان كما قاله ، لكانت عدتهن بوضع بعض حملهن ، وليس كذلك .

قوله تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ ﴾ وما بعده بيان لما شرط من التقوى في قوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ ﴾ [الطلاق : 4] كأنه قيل : كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات ، فقيل : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ ﴾ قال صاحب "الكشاف" : (من) صلة ، والمعنى أسكنوهن حيث سكنتم .

قال أبو عبيدة : ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ أي وسعكم وسعتكم ، وقال الفراء : على قدر طاقتكم ، وقال أبو إسحاق : يقال وجدت في المال وجداً ، أي صرت ذا مال ، وقرىء بفتح الواو أيضاً وبخفضها ، والوجد الوسع والطاقة ، وقوله : ﴿ وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ ﴾ نهي عن مضارتهن بالتضييق عليهن في السكنى والنفقة ﴿ وَإِن كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ وهذا بيان حكم المطلقة البائنة ، لأن الرجعية تستحق النفقة ، وإن لم تكن حاملاً ، وإن كانت مطلقة ثلاثاً أو مختلعة فلا نفقة لها إلا أن تكون حاملاً ، وعند مالك والشافعي ، ليس للمبتوتة إلا السكنى ولا نفقة لها ، وعن الحسن وحماد لا نفقة لها ولا سكنى ، لحديث فاطمة بنت قيس أن زوجها بت طلاقها ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا سكنى لك ولا نفقة .

(129/769)

" وقوله : ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ﴾ يعني حق الرضاع وأجرته وقد مر ، وهو دليل على أن اللبن وإن خلق لمكان الولد فهو ملك لها وإلا لم يكن لها أن تأخذ الأجر ، وفيه دليل على أن حق الرضاع والنفقة على الأزواج في حق الأولاد وحق الإمساك

والحضانة والكفالة على الزوجات وإلا لكان لها بعض الأجر دون الكل ، وقوله تعالى : ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ قال عطاء : يريد بفضل معروفاً منك ، وقال مقاتل : بتراضي الأب والأم ، وقال المبرد : ليأمر بعضكم بعضاً بالمعروف ، والخطاب للأزواج من النساء والرجال ، والمعروف ههنا أن لا يقصر الرجل في حق المرأة ونفقتها ولا هي في حق الولد ورضاعه وقد مر تفسير الائتمار ، وقيل : الائتمار التشاور في إرضاعه إذا تعاسرت هي ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ ﴾ أي في الأجرة : ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أخرى ﴾ غير الأم ، ثم بين قدر الإنفاق بقوله : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ أمر أهل التوسعة أن يوسعوا على نسائهم المرضعات على قدر سعتهم ومن كان رزقه بمقدار القوت فلينفق على مقدار ذلك ، ونظيره : ﴿ عَلَى الموسع قَدَرُهُ وَعَلَى المقتر قَدْرُهُ ﴾ [البقرة : 236] وقوله تعالى : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ مَا ءَاتَاهَا ﴾ أي ما أعطاها من الرزق ، قال السدي : لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني ، وقوله : ﴿ سَيَجْعَلُ الله بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ﴾ أي بعد ضيق وشدة غنى وسعة ورخاء وكان الغالب في ذلك الوقت الفقر والفاقة ، فأعلمهم الله تعالى أن يجعل بعد عسر يسراً وهذا كالبشارة لهم بمطلوبهم ، ثم في الآية مباحث :

الأول : إذا قيل : (من) في قوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ ما هي ؟ نقول : هي التبعيضية أي بعض مكان سكناكم إن لم يكن (لكم) غير بيت واحد فأسكنوها في بعض جوانبه .

الثاني: ما موقع ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾؟ نقول: عطف بيان لقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ وتفسير له، أي مكاناً من مسكنكم على قدر طاقتكم.

الثالث: فإذا كانت كل مطلقة عندكم يجب لها النفقة، فما فائدة الشرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ نقول: فائدته أن مدة الحمل ربما طال وقتها، فيظن أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار مدة الحمل، فنفى ذلك الظن. انتهى انتهى. اهـ

﴿مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 32. 34﴾

(131/769)

وقال ابن عطية:

﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾

﴿اللائي﴾: هو جمع ذات في ما حكى أبو عبيدة وهو ضعيف، والذي عليه الناس أنه: جمع التي، وقد يجيء جمعاً للذي، واليائسات من المحيض على مراتب، فيائسة هو أول يأسها، فهذه ترفع إلى السنة، ويبقيها الاحتياط على حكم من ليست بيائسة، لأَنَّا لا ندري لعل الدم يعود، ويائسة قد انقطع عنها الدم لأنها طعنت في السن ثم طلقت، وقد

مرت عادتها بانقطاع الدم ، إلا أنها مما يخاف أن تحمل نادراً فهذه التي في الآية على أحد التأولين في قوله : ﴿ إن ارتبتم ﴾ وهو قول من يجعل الارتياب بأمر الحمل وهو الأظهر ، ويائسة قد هرمت حتى تتيقن أنها لا تحمل ، فهذه ليست في الآية ، لأنها لا يرتاب بحملها ، لكنها في حكم الأشهر الثلاثة إجماعاً فيما علمت ، وهي في الآية على تأويل من يرى قوله : ﴿ إن ارتبتم ﴾ ، في حكم اليائسات ، وذلك أنه روى إسماعيل بن أبي خالد أن قوماً منهم أبي بن كعب وخلاد بن النعمان لما سمعوا قول الله عز وجل : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ [البقرة : 228] قالوا يا رسول الله : فما عدة من لا قرء لها من صغر أو كبر ؟ فنزلت الآية ، فقال قائل منهم : فما عدة الحامل ؟ فنزلت : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ ، وقد تقدم ذكر الخلاف في تأويل : ﴿ إن ارتبتم ﴾ ، ﴿ وأولات ﴾ جمع ذات ، وأكثر أهل العلم على أن هذه الآية تعم الحوامل المطلقات والمعتدات من الوفاة والحجة حديث سبيعة الأسلمية قالت : كنت تحت سعد بن خولة فتوفي في حجة الوداع ، ووضعت حملها قبل أربعة أشهر ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : " قد حللت " وأمرها أن تتزوج ، وقال ابن مسعود : نزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى ، يعني أن قوله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ نزلت بعد قوله تعالى ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ [البقرة : 234] ، وقال ابن عباس وعلي بن أبي طالب : إنما هذه في المطلقات ،

وأما في الوفاة فعدة الحامل آخر الأجلين إن وضعت قبل أربعة أشهر وعشر تمادت إلى آخرها ، والقول الأول أشهر ، وعليه الفقهاء ، وقرأ الضحاك : " أحمالهن " على الجمع ، وأمر الله تعالى بإسكان المطلقات ولا خلاف في ذلك في التي لم تبت . وأما المبتوتة ، فمالك رحمه الله يرى لها السكنى لمكان حفظ النسب ، ولا يرى لها نفقة ، لأن النفقة بإزاء الاستمتاع ، وهو قول الأوزاعي والشافعي وابن أبي ليلى وابن عبيد وابن المسيب والحسن وعطاء والشعبي وسليمان بن يسار ، وقال أصحاب الرأي والثوري : لها السكنى والنفقة ، وقال جماعة من العلماء : ليس لها السكنى ولا نفقة . والوجد : السعة في المال ، وضم الواو وفتحها وكسرها ، هي كلها بمعنى واحد ، وقرأ الجمهور : " وُجدكم " بضم الواو بمعنى سعة الحال ، وقرأ الأعرج فيما ذكر عصمة " وَجدكم " بفتح الواو ، وذكرها أبو عمرو عن الحسن وأبي حيوة ، وقرأ الفياض بن غزوان ويعقوب : بكسر الواو وذكرها المهدوي عن الأعرج وعمرو بن ميمون ، وأما الحامل فلا خلاف في وجوب سكناها ونفقتها بتت أو لم تبت لأنها مبينة في الآية ، واختلفوا في نفقة الحامل المتوفى عنها زوجها على قولين لعلماء الأمة ، فمنعها قوم وأوجبها في التركة قوم ، وكذلك النفقة على المرضع

واجبة وهي الأجر مع الكسوة وسائر المؤن التي بسطها في كتب الفقه ، وقوله تعالى : ﴿ وائتمروا بينكم بمعروف ﴾ أي ليأمر كل واحد صاحبه بخير ، ولا شك أن من أمر بخير فهو أسرع إلى فعل ذلك الخير وليقبل كل واحد ما أمر به من المعروف ، والقبول والامتثال هو الائتمار ، وقال الكسائي : ﴿ ائتمروا ﴾ معناه : تشاوروا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ [القصص : 20] ، ومنه قول امرئ القيس :

(133/769)

ويعدو على المرء ما يأتمر . . . وقوله تعالى : ﴿ وإن تعاسرتم ﴾ أي تشططت المرأة في الحد الذي يكون أجرة على الرضاع ، فللزوج أن يسترضع أخرى بما فيه رفقه إلا أن لا يقبل المولود غير أمه فتجبر حينئذ على رضاعه بأجرة مثلها ومثل الزوج في حالهما وغناهما ، ثم حض تعالى أهل الجدة على الإنفاق وأهل الإقتار على التوسط بقدر حاله . وهذا هو العدل بينهم لئلا تضيع هي ولا يكلف هو ما لا يطيق . واختلف العلماء في الذي يعجز عن نفقة امرأته ، فقال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو هريرة وابن المسيب والحسن : يفرق بينهما ، وقال أصحاب الرأي وعمر بن عبد العزيز وجماعة : لا يفرق بينهما ، ثم رجى تعالى باليسر تسهيلاً على النفوس وتطييباً لها ، وقرأ الجمهور : " يعظم " بالياء ، وقرأ

الأعمش : " نعظم " بالنون واختلف عنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(134/769)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واللائي يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارتبتم فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ .

فيه سبع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ واللائي يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ لما بين أمر الطلاق والرّجعة في التي تحيض ، وكانوا قد عرفوا عِدّة ذوات الأقراء ، عرفهم في هذه السورة عدّة التي لا ترى الدم .

وقال أبو عثمان عمر بن سالم : لما نزلت عدّة النساء في سورة "البقرة" في المطلقة والمتوفى عنها زوجها قال أُبَي بن كعب : يا رسول الله ، إن ناساً يقولون قد بقي من النساء من لم يذكر فيهن شيء : الصغار وذوات الحمل ، فنزلت : ﴿ واللائي يَئِسْنَ ﴾ الآية .

وقال مقاتل : لما ذكر قوله تعالى : ﴿ والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قروء ﴾ قال خَلاّد بن النعمان : يا رسول الله ، فما عِدّة التي لم تَحِض ، وعِدّة التي انقطع حَيْضُها ، وعدّة

الحبلى؟ فنزلت: ﴿ واللائي يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ يعني قَعدن عن المحيض.

وقيل: إن معاذ بن جَبَل سأل عن عدّة الكبيرة التي يئِست؛ فنزلت الآية.

والله أعلم.

وقال مجاهد: الآية واردة في المستحاضة لا تَدري دَمَ حَيْض هو أو دم عِلة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ أي شككتم، وقيل تَيَقَّنتم.

وهو من الأضداد؛ يكون شكّاً ويقيناً كالظنّ.

واختيار الطبري أن يكون المعنى: إن شككتم، فلم تدروا ما الحكم فيهنّ.

وقال الزجاج: إن ارتبتم في حيضها وقد انقطع عنها الحيض وكانت ممن يحيض مثلها.

القشيريّ: وفي هذا نظر؛ لأنّا إذا شككنا هل بلغت سِن اليأس لم نقل عدتها ثلاثة أشهر.

والمعتبر في سن اليأس في قول: أقصى عادة امرأة في العالم، وفي قولٍ: غالب نساء عشيرة المرأة.

وقال مجاهد: قوله ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ للمخاطبين؛ يعني إن لم تعلموا كم عدّة اليائسة والتي لم تحض فالعِدّة هذه.

وقيل : المعنى إن ارتبتم أن الدم الذي يظهر منها من أجل كِبر أو من الحيض المعهود أو من الاستحاضة فالعدة ثلاثة أشهر .

وقال عكرمة وقتادة : من الرِّيبة المرأة المستحاضة التي لا يستقيم لها الحيض ؛ تحيض في أوّل الشهر مراراً وفي الأشهر مرة .

وقيل : إنه متصل بأول السورة .

والمعنى : لا تُخرجوهن من بيُوتهن إن ارتبتم في انقضاء العدّة .

وهو أصح ما قيل فيه .

الثالثة : المرتابة في عدتها لا تنكح حتى تستبرىء نفسها من رِيبتها ، ولا تخرج من العدة إلا بارتفاع الريبة .

وقد قيل في المرتابة التي ترفعها حيضتها وهي لا تدري ما ترفعها : إنها تنتظر سنة من يوم طلقها زوجها ؛ منها تسعة أشهر استبراء ، وثلاثة عدة .

فإن طلقها فحاضت حيضة أو حيضتين ثم ارتفع عنها بغير يأس منها انتظرت تسعة أشهر ، ثم ثلاثة من يوم طهرت من حيضتها ثم حَلّت للأزواج .

وهذا قاله الشافعي بالعراق .

فعلى قياس هذا القول تقيم الحُرّة المُتَوفى عنها زوجها المستبرأة بعد التسعة أشهر أربعة أشهر وعشراً ، والأمةُ شهرين وخمس ليال بعد التسعة الأشهر .

وروي عن الشافعي أيضاً أن أقراءها على ما كانت حتى تبلغ سن اليائسات .

وهو قول النَّخَعِي والثَّوري وغيرهما ، وحكاه أبو عبيد عن أهل العراق .

فإن كانت المرأة شابة وهي :

المسألة الرابعة : اسْتُؤْنِي بها هل هي حامل أم لا ؛ فإن استبان حملها فإن أجَلها وَضْعه .

وإن لم يَسْتَبِن فقال مالك : عِدة التي ارتفع حيضها وهي شابة سَنَةٌ .

وبه قال أحمد وإسحاق ورَوَوْه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره .

وأهل العراق يَرَوْن أن عدتها ثلاثُ حِيض بعد ما كانت حاضت مرة واحدة في عمرها ، وإن مكثت عشرين سنة ، إلا أن تبلغ من الكبر مبلغاً تيأس فيه من الحيض فتكون عدتها بعد الإياس ثلاثةَ أشهر .

قال الثعلبيّ : وهذا الأصح من مذهب الشافعي وعليه جمهور العلماء .

وروي ذلك عن ابن مسعود وأصحابه .

قال الكِيا : وهو الحق ؛ لأن الله تعالى جعل عدة الآيسة ثلاثة أشهر ؛ والمرتابة ليست آيسة .

الخامسة : وأمّا من تأخّر حَيْضها لمرض ؛ فقال مالك وابن القاسم وعبد الله بن أصْبَغ : تعتدّ تسعة أشهر ثم ثلاثة .

وقال أشهب : هي كالمرضع بعد الفطام بالحيض أو بالسَّنة .

وقد طلّق حَبّان بن مُنقِذ امرأته وهي تُرْضع ؛ فمكثت سنة لا تحيض لأجل الرضاع ، ثم مرِض حَبّان فخاف أن ترثه فخاصمها إلى عثمان وعنده عليّ وزيد ، فقالا : نرى أن تَرِثه ؛ لأنها ليست من القواعد ولا من الصغار ؛ فمات حَبّان فورِثته واعتدّت عِدة الوفاة .

السادسة : ولو تأخر الحيض لغير مرض ولا رضاع فإنها تنتظر سنة لا حَيض فيها ، تسعة أشهر ثم ثلاثة ؛ على ما ذكرناه .

فتحِلّ ما لم تَرْتَب بحَمْل ؛ فإن ارتابت بحمل أقامت أربعة أعوام ، أو خمسة ، أو سبعة ؛ على اختلاف الروايات عن علمائنا .

ومشهورها خمسة أعوام ؛ فإن تجاوزتها حَلَّت .

وقال أشهب : لا تحلّ أبداً حتى تنقطع عنها الرِّيبة .

قال ابن العربي : وهو الصحيح ؛ لأنه إذا جاز أن يبقى الولد في بطنها خمسة أعوام جاز أن يبقى عشرة وأكثر من ذلك .

وقد رُوي عن مالك مثله .

السابعة : وأما التي جُهل حيضها بالاستحاضة ففيها ثلاثة أقوال : قال ابن المسيب : تعتدّ

سنة .

وهو قول الليث .

قال الليث : عِدّة المطلّقة وعدّة المتوفى عنها زوجها إذا كانت مستحاضة سَنَةٌ .

وهو مشهور قول علمائنا ؛ سواء علمت دم حيضها من دم استحاضتها ، وَميّزت ذلك أو لم تميّزه ، عدّتها في ذلك كلّه عند مالك في تحصيل مذهبه سنَة ؛ منها تسعة أشهر استبراء وثلاثة عدّة .

وقال الشافعي في أحد أقواله : عدّتها ثلاثة أشهر .

وهو قول جماعة من التابعين والمتأخرين من القرويّين .

ابن العربيّ : وهو الصحيح عندي .

وقال أبو عمر : المستحاضة إذا كان دمها ينفصل فعلِمت إقبال حيضتها أو إدبارها اعتدّت ثلاثة قرُوء .

وهذا أصحّ في النظر ، وأثبت في القياس والأثر .

قوله تعالى : ﴿ واللاتي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ يعني الصغيرة فعدّتهن ثلاثة أشهر ؛ فأضمر الخبر .

وإنما كانت عدّتها بالأشهر لعدم الأقراء فيها عادة ، والأحكام إنما أجراها الله تعالى على العادات ؛ فهي تعتدّ بالأشهر .

فإذا رأت الدم في زمن احتماله عند النساء انتقلت إلى الدم لوجود الأصل ، وإذا وجد الأصل لم يبق للبدل حكم ؛ كما أن المُسِنّة إذا اعتدّت بالدم ثم ارتفع عادت إلى الأشهر . وهذا إجماع .

قوله تعالى : ﴿ وَأُوْلَاتُ الأحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَأُوْلَاتُ الأحمال أَجَلُهُنَّ ﴾ وَضْعُ الحمل ، وإن كان ظاهراً في المطلقة لأنه عليها عُطف وإليها رجع عقب الكلام ؛ فإنه في المتوفَّى عنها زوجها كذلك ؛ لعموم الآية وحديث سُبَيْعة .

وقد مضى في "البقرة" القول فيه مستوفى .

الثانية : إذا وضعت المرأة ما وضعت من عَلَقة أو مُضْغَة حلّت .

وقال الشافعيّ وأبو حنيفة : لا تحُلّ إلا بما يكون ولدا .

وقد مضى القول فيه في سورة "البقرة" وسورة "الرعد" والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ قال الضحاك : أي من يَتّقه في طلاق السُّنة يجعل له من أمره يسراً في الرجعة .

مقاتل : ومن يَتّق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يُسْراً في توفيقه للطاعة .

﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ ﴾ أي الذي ذُكر من الأحكام أَمْرُ الله أنزله إليكم وبيّنه لكم .

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ ﴾ أي يعمل بطاعته .

﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ﴾ من الصلاة إلى الصلاة ، ومن الجمعة إلى الجمعة .

﴿ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾ أي في الآخرة .

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ

فيه أربع مسائل :

(138/769)

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ قال أشهب عن مالك : يخرج عنها إذا طلّقها ويتركها في المنزل ؛ لقوله تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ ﴾ .

فلو كان معها ما قال أسكنوهن .

وقال ابن نافع : قال مالك في قول الله تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ .

يعني المطلقات اللّاتي بِنَّ من أزواجهن فلا رَجْعَة لهم عليهن وليست حاملا ، فلها السُّكْنى ولا نفقة لها ولا كسوة ، لأنها بائن منه ، لا يتوارثان ولا رجعة له عليها .

وإن كانت حاملاً فلها النفقة والكسوة والمسكن حتى تنقضي عِدّتها .

فأما من لم تَبِنْ فإنهن نساؤهم يتوارثون ، ولا يخرجن إلا أن يأذن لهن أزواجهن ما كُنّ في عِدتهن ، ولم يؤمروا بالسكنى لهن لأن ذلك لازم لأزواجهن مع نفقتهن وكسوتهن ، حوامل كن أو غير حوامل .

وإنما أمر الله بالسكنى للائى بِنّ من أزواجهن مع نفقتهن ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ فجعل عز وجل للحوامل اللائي قد بِنّ من أزواجهن السكنى والنفقة .

قال ابن العربي : وبَسْطُ ذلك وتحقيقه أن الله سبحانه لما ذكر السّكْنَى أطلقها لكل مطلَّقة ، فلما ذكر النفقة قيّدها بالحمل ، فدلّ على أن المطلقة البائن لا نفقة لها .

وهي مسألة عظيمة قد مَهدنا سُبُلَها قرآنا وسُنَّةً ومعنى في مسائل الخلاف .

وهذا مأخذها من القرآن .

قلت : اختلف العلماء في المطلقة ثلاثاً على ثلاثة أقوال ، فمذهب مالك والشافعيّ : أن لها السكنى ولا نفقة لها .

ومذهب أبي حنيفة وأصحابه : أن لها السكنى والنفقة .

ومذهب أحمد وإسحاق وأبي ثَوْر : أن لا نفقة لها ولا سكنى ، على : " حديث فاطمة بنت قيس ، قالت : دخلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعي أخو زوجي فقلت

: إن زوجي طلقني وإن هذا يزعم أن ليس لي سكنى ولا نفقة؟ قال : "بل لكِ السُّكْنَى ولكِ النفقة" .

(139/769)

قال : إن زوجها طلّقها ثلاثاً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما السكنى والنفقة على من له عليها الرجعة" .

فلما قدمتُ الكوفة طلبني الأسود بن يزيد ليسألني عن ذلك ، وإن أصحاب عبد الله يقولون : إن لها السكنى والنفقة " خرّجه الدَّارَقُطْنِيّ .

ولفظ مسلم عنها : "أنه طلّقها زوجها في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكان أنفق عليها نفقة دُونٍ ، فلما رأت ذلك قالت : والله لأُعْلِمَنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كان لي نفقة أخذت الذي يصلحني وإن لم تكن لي نفقة لم آخذ شيئاً .

قالت : فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "لا نفقة لكِ ولا سكْنى" "

وذكر الدارَقُطْنيّ عن الأسود قال : قال عمر لما بلغه قول فاطمة بنت قيس : لا نجيز في المسلمين قول امرأة .

وكان يجعل للمطلقة ثلاثاً السكنى والنفقة .

وعن الشعبي قال : لَقِيَني الأسود بن يزيد فقال .

يا شَعْبي ، اتق الله وارجع عن حديث فاطمة بنت قيس ؛ فإن عمر كان يجعل لها السكنى والنفقة .

قلت : لا أرجع عن شيء حدثني به فاطمة بنت قيس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : ما أحسن هذا .

وقد قال قتادة وابن أبي لَيْلَى : لا سكنى إلاّ للرجعية ؛ لقوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ ﴾ راجع إلى ما قبله ، وهي المطلقة الرجعية .

والله أعلم .

ولأن السكنى تابعةٌ للنفقة وجاريةٌ مجراها ؛ فلما لم تجب للْمَبْتُوتَة نفقة لم يجب لها سكنى .

وحجة أبي حنيفة أن للمبتوتة النفقة قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ وترك النفقة من أكبر الأضرار .

وفي إنكار عمر على فاطمة قولها ما يبيّن هذا ، ولأنها معتدّة تستحق السكنى عن طلاق فكانت لها النفقة كالرجعية ، ولأنها محبوسة عليه لحقّه فاستحقت النفقة كالزوجة .

ودليل مالك قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ ﴾ الآية .

على ما تقدم بيانه .

وقد قيل : إن الله تعالى ذكر المطلقة الرجعية وأحكامها أوّل الآية إلى قوله : ﴿ ذَوَي عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ ثم ذكر بعد ذلك حُكْما يعم المطلقات كلّهن من تعديد الأشهر وغير ذلك .

وهو عام في كل مطلقة ؛ فرجع ما بعد ذلك من الأحكام إلى كل مطلقة .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ أي من سعَتكم ؛ يقال وَجَدْتُ في المال أَجِدُ وُجْداً (ووَجْداً ووِجْداً) وجِدةً .

والوِجْد : الغنى والمقدرة .

وقراءة العامة بضم الواو .

وقرأ الأعرج والزهري بفتحها ، ويعقوب بكسرها .

وكلها لغات فيها .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ قال مجاهد : في المسكن مُقاتل : في النفقة ؛ وهو قول أبي حنيفة .

وعن أبي الضحى : هو أن يطلقها فإذا بقي يومان من عدّتها راجعها ثم طلّقها .

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ لا خلاف بين العلماء في وجوب النفقة والسكنى للحامل المطلّقة ثلاثاً أو أقلّ منهن حتى تضع حملها.

فأما الحامل الْمُتَوَفّىَ عنها زوجها فقال عليّ وابن عمر وابن مسعود وشُرَيح والنَّخَعيّ والشَّعْبي وحمّاد وابن أبي لَيْلَى وسُفيان والضّحاك: يُنفق عليها من جميع المال حتى تضع.

وقال ابن عباس وابن الزبير وجابر بن عبد الله ومالك والشافعيّ وأبو حنيفة وأصحابهم: لا ينفق عليها إلا من نصيبها.

وقد مضى في "البقرة" بيانه.

قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ يعني المطلقات أولادكم منهن فعلى الآباء أن يعطوهنّ أجرة إرضاعهن.

وللرجل أن يستأجر امرأته للرضاع كما يستأجر أجنبية ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه الاستئجار إذا كان الولد منهنّ ما لم يَبِن.

ويجوز عند الشافعي.

وتقدّم القول في الرضاع في "البقرة" و "النساء" مستوفى ولله الحمد.

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ هو خطاب للأزواج والزوجات ؛ أي وليَقْبَل بعضكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل .

والجميل منها إرضاع الولد من غير أجرة .

والجميل منه توفير الأجرة عليها للإرضاع .

وقيل : ائتمروا في رضاع الولد فيما بينكم بمعروف حتى لا يلحق الولد إضرار .

وقيل : هو الكسوة والدِّثار .

وقيل : معناه لا تضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ ﴾ أي في أجرة الرضاع فأبى الزوج أن يعطي الأمّ رضاعها وأبت الأم أن ترضعه فليس له إكراهها ؛ وليستأجر مرضعة غير أمّه .

وقيل : معناه وإن تضايقتم وتشاكستم فليسترضع لولده غيرها ؛ وهو خبر في معنى الأمر .

وقال الضحاك : إن أبت الأمّ أن ترضع استأجر لولدها أخرى ، فإن لم يقبل أجبرت أمّه على الرضاع بالأجر .

وقد اختلف العلماء فيمن يجب عليه رضاع الولد على ثلاثة أقوال : قال علماؤنا : رضاع الولد على الزوجة ما دامت الزوجية ؛ إلا لشرفها وموضعها فعلى الأب رضاعه يومئذ في ماله .

الثاني قال أبو حنيفة : لا يجب على الأمّ بحال .

الثالث يجب عليها في كل حال .

الرابعة : فإن طلقها فلا يلزمها رضاعه إلا أن يكون غير قابل ثَدْيَ غيرها فيلزمها حينئذ الإرضاع .

فإن اختلفا في الأجر فإن دعت إلى أجر مثلها وامتنع الأب إلا تَبَرُّعاً فالأمّ أَوْلى بأجر المثل إذا لم يجد الأب متبرعاً .

وإن دعا الأب إلى أجر المثل وامتنعت الأم لتطلب شططاً فالأب أَوْلى به .

فإن أعسر الأب بأجرتها أخذت جبراً برضاع ولدها .

لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (7)

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ﴾ أي لينفق الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير على قدر وُسعه حتى يوسّع عليهما إذا كان مُوَسَّعاً عليه .

ومن كان فقيراً فعلى قدر ذلك .

فتقدّر النفقة بحسب الحالة من المنفِق والحاجة من المنفَق عليه بالاجتهاد على مجرى حياة العادة ؛ فينظر المفتي إلى قدر حاجة المنفَق عليه ثم ينظر إلى حالة المنفِق ، فإن احتملت الحالة أمضاها عليه ، فإن اقتصرت حالته على حاجة المنفق عليه ردّها إلى قدر احتماله .

وقال الإمام الشافعيّ رضي الله عنه وأصحابه : النفقة مقدّرة محدّدة ، ولا اجتهاد لحاكم ولا لِمُفْتٍ فيها .

وتقديرها هو بحال الزوج وحده من يُسْره وعُسْره ، ولا يعتبر بحالها وكفايتها .

قالوا : فيجب لابنة الخليفة ما يجب لابنة الحارس .

فإن كان الزوج مُوسِراً لزمه مُدّان ، وإن كان متوسطاً فَمُدّ ونصف ، وإن كان معسِراً فَمُدّ .

واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ الآية .

فجعل الاعتبار بالزوج في اليُسْر والعُسْر دونها ؛ ولأن الاعتبار بكفايتها لا سبيل إلى علمه للحاكم ولا لغيره ؛ فيؤدّي إلى الخصومة ؛ لأن الزوج يدّعي أنها تلتمس فوق كفايتها ، وهي تزعم أن الذي تطلب تطلبه قدر كفايتها ؛ فجعلناها مقدّرة قطعاً للخصومة .

والأصل في هذا عندهم قوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ كما ذكرنا ، وقوله : ﴿ عَلَى الموسع قَدَرُهُ وَعَلَى المقتر قَدْرُهُ ﴾ [البقرة : 236] .

والجواب أن هذه الآية لا تعطي أكثر من فرق بين نفقة الغنيّ والفقير ، وإنما تختلف بُعْسر الزوج ويُسْره .

وهذا مُسَلَّم .

فأما إنه لا اعتبار بحال الزوجة على وجهه فليس فيه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَعلَى المولود لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بالمعروف ﴾ [البقرة : 233] وذلك يقتضي تعلّق المعروف في حقهما ؛ لأنه لم يخص في ذلك واحداً منهما .

(143/769)

وليس من المعروف أن يكون كفاية الغنيّة مثل نفقة الفقيرة : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهند : " خُذِي ما يكْفِيك وولدكِ بالمعروف " فأحالها على الكفاية حين علم السَّعة من حال أبي سفيان الواجب عليه بطلبها ، ولم يقل لها لا اعتبار بكفايتك وأن الواجب لك شيء مقدّر ، بل ردّها إلى ما يعلمه من قدر كفايتها ولم يعلقه بمقدار معلوم .

ثم ما ذكروه من التحديد يحتاج إلى توقيف ؛ والآية لا تقتضيه .

الثانية : روي أن عمر رضي الله عنه فرض للمنفوس مائة درهم ، وفرض له عثمان خمسين درهماً .

ابن العربيّ : "واحتمل أن يكون هذا الاختلاف بحسب اختلاف السنين أو بحسب حال القدر في التسعير لثمن القوت والملبس ، وقد روى محمد بن هلال المُزَنيّ قال : حدّثني أبي وجدّتي أنها كانت ترِد على عثمان ففقدها فقال لأهله : ما لي لا أرى فلانة ؟ فقالت امرأته : يا أمير المؤمنين ، ولدت الليلة ؛ فبعث إليها بخمسين درهماً وشُقَيْقَة سُنْبُلانيّة .

ثم قال : هذا عطاء ابنك وهذه كسوته ، فإذا مَرّت له سنة رفعناه إلى مائة .

وقد أُتيَ عليّ رضي الله عنه بمنبوذ ففرض له مائة .

قال ابن العربيّ : "هذا الفرض قبل الفِطام مما اختلف فيه العلماء ؛ فمنهم من رآه مستحباً لأنه داخل في حكم الآية ، ومنهم من رآه واجباً لما تجدّد من حاجته وعَرَض من مؤونته ؛ وبه أقول .

ولكن يختلف قدره بحاله عند الولادة وبحاله عند الفطام .

وقد روى سفيان بن وهب أن عمر أخذ المُدّ بيدٍ والقِسْط بيد فقال : إني فرضت لكل نفس مسلمة في كل شهر مُدَّيْ حِنطة وقِسْطَيْ خَلٍّ وقِسْطَيْ زيت .

زاد غيره : وقال إنا قد أَجْرَيْنا لكم أعطياتكم وأرزاقكم في كل شهر ، فمن انتقصها فعل الله به كذا وكذا ؛ فدعا عليه .

قال أبو الدَّرْداء : كم سُنّة راشدة مَهْديّة قد سَنّها عمر رضي الله عنه في أمة محمد صلى

الله عليه وسلم ! والمُدّ والقسْط كيلان شامِيّان في الطعام والإدام ؛ وقد دُرِسَا بعرف آخر .

(144/769)

فأما المُدّ فدُرِس إلى الكَيْلَجَة .

وأما القِسْط فدُرِس إلى الكيل ، ولكن التقدير فيه عندنا رُبعان في الطعام وثُمنان في الإدام .

وأما الكسوة فبقدر العادة قميصٌ وسراويل وجُبّة في الشتاء وكساء وإزار وحصير .

وهذا الأصل ، ويتزيد بحسب الأحوال والعادة" .

الثالثة : هذه الآية أصل في وجوب النفقة للولد على الوالد دون الأم ؛ خلافاً لمحمد بن الموّاز يقول : إنها على الأبوين على قدر الميراث .

ابن العربيّ : ولعلّ محمداً أراد أنها على الأم عند عدم الأب .

وفي البخاريّ : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " تقول لك المرأة أنفق عليّ وإلا فطلقني ويقول لك العبد أنفق عليّ واستعملني ويقول لك ولدك أنفق عليّ إلى من تَكِلُني " فقد تعاضد القرآن والسُّنّة وتواردا في شِرْعة واحدة .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ أي لا يكلف الفقير مثل ما

يكلف الغنيّ .

﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ أي بعد الضيق غِنىً ، وبعد الشدّة سَعَة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 18 صـ ﴾

(145/769)

وقال أبو السعود :

﴿ واللائى يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِن نّسَائِكُمْ ﴾

لِكبرهنَّ وقد قدَّروه بستينَ سنة وبخمسٍ وخمسينَ ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ أي شككتُم وجهلْتُم كيفَ عدّتهن ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثلاثة أَشْهُرٍ واللائى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ بعدُ لصغرهِنَّ أي فعدَّتهنَّ أيضاً كذلكَ فحذفَ ثقةً بدلالةِ ما قبلَه عليهِ ﴿ وأولات الأحمال أَجَلُهُنَّ ﴾ أي مُنْتهى عدّتهِنَّ ﴿ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ سواءً كُنَّ مطلقاتٍ أو مُتوفيًّ عنهُنَّ أزواجُهُنَّ وقد نُسخَ بِهِ عمومُ قولِه تعالَى : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أزواجا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ لتراخِي نزولِه عن ذلكَ لما هُو المشهورُ من قولِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللَّهُ عنْهُ : من شاءَ باهلتُه أنَّ سورةَ النساءِ القُصْرى نزلتْ بعدَ التي في سورةِ البقرةِ ، وقد صحَّ أنَّ سُبيعةَ بنت الحارثَ الأسلميةَ ولدتْ بعدَ وفاةِ زوجِهَا بليالٍ فذكرتْ ذلكَ لرسولِ اللَّهِ صلى الله عليه

وسلم فقال لَهَا قدْ حللتِ فتزوَّجي ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ ﴾ في شأنِ أحكامِهِ ومراعاةِ حقوقِهَا ﴿ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ أي يُسْهل عليهِ أمرهُ ويوفّقْهُ للخيرِ. ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ من الأحكامِ، وما فيهِ من مَعْنَى البُعدِ مع قُربِ العهدِ بالمُشارِ إليه للإيذانِ ببُعدِ منزلتِهِ في الفضلِ. وإفرادُ الكافِ معَ أنَ الخطابَ للجمعِ كما يفصحُ عنه قولُه تعالى: ﴿ أَمْرُ اللهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ لِما أنها لمجردِ الفرقِ بين الحاضرِ والمنقضِي لا لتعيينِ خصوصيةِ المخاطبينَ وقد مرَّ في قولِه تعالَى: ﴿ ذلك يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ ﴾ من سورةِ البقرةِ ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ ﴾ بالمحافظةِ على أحكامِهِ ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سيئاته ﴾ فإنَّ الحسناتِ يُذهبنَ السيئاتِ ﴿ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ بالمضاعفةِ.

وقولُه تعالى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾

استئنافٌ وقعَ جواباً عن سؤالٍ نشأَ مما قبلَهُ من الحثِّ علَى التَّقوى كأنَّه قيلَ كيفَ نعملُ بالتَّقوى في شأنِ المعتداتِ فقيلَ أَسكنوهنَّ مسكناً من حيثُ سكنتُم أي بعضَ مكانٍ سكناكم. وقولُه تعالَى: ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ أي من وُسعِكم أي مما تطيقونَهُ عطفُ بيانٍ لقولِهِ من حيثُ سكنتُم وتفسيرٌ له.

﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ ﴾ أيْ في السُّكنى ﴿ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ وتُلْجِئوهنَّ إلى الخروجِ ﴿ وَإِن كُنَّ ﴾ أي المطلقاتُ ﴿ أولاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ فيخرُجنَ من العدةِ ، أما المُتوفَّى عنهنَّ أزواجُهنَّ فلا نفقةَ لهُنَّ ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ بعدَ ذلكَ ﴿ فَئَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ على الإرضاعِ ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي تشاوروا ، وحقيقتُه ليأمرْ بعضُكم بعضاً بجميلٍ في الإرضاعِ والأجرِ ولا يكُن من الأبِ مماكسةٌ ولا من الأمِّ معاسرةٌ ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ ﴾ أي تضايقتُم ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أخرى ﴾ أي فستوجَدُ ولا تُعوزُ مرضعةٌ أُخرى ، وفيه معاتبةٌ للأمِّ على المعاسرةِ ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا ءاتَاهُ الله ﴾ وإنْ قلَّ أي لينفقْ كُلُّ واحدٍ من الموسرِ والمعسرِ ما يبلغُه وسعُه ﴿ لاَ يُكَلّفُ الله نَفْساً إِلاَّ مَا ءاتَاهَا ﴾ جَلَّ أو قَلَّ فإنَّه تعالَى لا يكلفُ نفساً إلا وُسعَها وفيهِ تطييبٌ لقلبِ المُعسرِ وترغيبٌ لهُ في بذلِ مجهودِهِ وقد أُكِّدَ ذلكَ بالوعدِ حيثُ قيلَ ﴿ سَيَجْعَلُ الله بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ﴾ أي عاجلاً أو آجلاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ واللائى يَئِسْنَ مِنَ المحيض ﴾ ،

وقرىء ييأسن مضارعاً ﴿ مّن نِّسَائِكُمُ ﴾ لكبرهن ، وقد قدر بعضهم سن اليأس بستين سنة ، وبعضهم بخمس وخمسين ، وقيل : هو غالب سن يأس عشيرة المرأة ، وقيل غالب سن يأس النساء في مكانها التي هي فيه فإن المكان إذا كان طيب الهواء والماء كبعض الصحاري يبطىء فيه سن اليأس ، وقيل : أقصى عادة امرأة في العالم ، وهذا القول بالغ درجة اليأس من أن يقبل ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ أي إن شككتم وترددتم في عدتهن ، أو إن جهلتم عدتهن ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثلاثة أَشْهُرٍ ﴾ أخرج الحاكم وصححه .

والبيهقي في سننه .

وجماعة عن أبي بن كعب أن ناساً من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية التي في البقرة في عدة النساء قالوا : لقد بقي من عدة النساء عدد لم تذكر في القرآن الصغار والكبار اللاتي قد انقطع عنهن الحيض وذوات الحمل ، فأنزل الله تعالى في سورة النساء القصرى ﴿ واللائى يَئِسْنَ ﴾ الآية ، وفي رواية أن قوماً منهم أبي بن كعب .

وخلاد بن النعمان لما سمعوا قوله تعالى : ﴿ والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثلاثة قُرُوء ﴾ [البقرة : 228] قالوا : يا رسول الله فما عدة من لا قرء لها من صغر أو كبر ؟ فنزل ﴿ واللائى يَئِسْنَ ﴾ الخ ، فقال قائل : فما عدة الحامل ؟ فنزل ﴿ وأولات الاحمال ﴾ الخ .

ويعلم مما ذكر أن الشرط هنا لا مفهوم له عند القائلين بالمفهوم لأنه بيان للواقعة التي نزل فيها من غير قصد للتقييد ، وتقدير متعلق الارتياب ما سمعت هو ما أشار إليه الطبري .

(148/769)

وغيره ، وقيل : إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس أهو دم حيض أو استحاضة فعدتهن الخ ، وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بذلك ، وقال الزجاج : المعنى ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ في حيضهن وقد انقطع عنهن الدم وكن ممن يحيض مثلهن ، وقال مجاهد : الآية واردة في المستحاضة أطبق بها الدم لا تدري أهو دم حيض أو دم علة ، وقيل : ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ أي إن تيقنتم إياسهن ، والارتياب من الأضداد والكل كما ترى .

والموصول قالوا : إنه مبتدأ خبره جملة ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ﴾ الخ ، ﴿ وَأَنْ ارتبتم ﴾ شرط جوابه محذوف تقديره فاعلموا أنها ثلاثة أشهر ، والشرط وجوابه جملة معترضة ، وجوز كون ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ﴾ الخ جواب الشرط باعتبار الإعلام والإخبار كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مّن نّعْمَةٍ فَمِنَ الله ﴾ [النحل : 53] والجملة الشرطية خبر من غير حذف وتقدير ، وقوله تعالى :

﴿ واللائي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي واللائي لم يحضن كذلك أو عدتهن ثلاثة

أشهر ، والجملة معطوفة على ما قبلها ، وجوز عطف هذا الموصول على الموصول السابق وجعل الخبر لهما من غير تقدير ، والمراد باللائي لم يحضن الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض .

واستظهر أبو حيان شموله من لم يحضن لصغر ومن لا يكون لهن حيض البتة كبعض النساء يعشن إلى أن يمتن ولا يحضن ، ومن أتى عليها زمان الحيض وما بلغت به ولم تحض ، ثم قال : وقيل : هذه تعتدّ سنة .

﴿ وأولات الاحمال أَجَلُهُنَّ ﴾ أي منتهى عدتهن ﴿ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ولو نحو مضغة وعلقة ولا فرق في ذلك بين أن يكن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن كما روى عن عمر .

وابنه ، فقد أخرج مالك .

والشافعي .

وعبد الرزاق .

وابن أبي شيبة .

وابن المنذر عن ابن عمر أنه سئل عن المرأة يتوفى عنها زوجها وهي حامل فقال : إذا وضعت حملها فقد حلت فأخبره رجل من الأنصار أن عمر بن الخطاب قال : لو ولدت وزوجها على سريره لم يدفن لحلت ، وعن ابن مسعود فقد أخرج عنه أبو داود .

والنسائي .

وابن ماجه أنه قال : من شاء لاعنته أن الآية التي في سورة النساء القصرى ﴿ وأولات الاحمال ﴾ الخ نزل بعد سورة البقرة بكذا وكذا شهراً وكل مطلقة أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها ، وفي رواية ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري بسبع سنين ولعله لا يصح ، وعن أبي هريرة .

وأبي مسعود البدري .

وعائشة وإليه ذهب فقهاء الأمصار وروى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخرج عبد بن حميد في "زوائد المسند" .

وأبو يعلى .

والضياء في المختارة .

وابن مردويه عن أبيّ بن كعب قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وأولات الاحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ أهي المطلقة ثلاثاً والمتوفى عنها ؟ قال : " هي المطلقة ثلاثاً والمتوفى عنها " وروى جماعة نحوه عنه من وجه آخر ، وصح أن سبيعة بنت الحرث

الأسلمية كانت تحت سعد بن خولة فتوفى عنها في حجة الوداع وهي حامل فوضعت بعد وفاته بثلاثة وعشرين يوماً ، وفي رواية بخمس وعشرين ليلة ، وفي أخرى بأربعين ليلة فاختضبت وتكحلت وتزينت تريد النكاح فأنكر ذلك عليها فسئل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إن تفعل فقد خلا أجلها " وذهب علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس رضي الله تعالى عنهما إلى أن الآية في المطلقات ، وأما المتوفى عنها زوجها فعدتها آخر الأجلين ، وهو مذهب الإمامية كما في "مجمع البيان" .

وعلى ما تقدم فالآية ناسخة لقوله تعالى : ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أزواجا يَتَرَبَّصْنَ ﴾ [البقرة : 234] الآية على رأي أصحاب أبي حنيفة ومن وافقهم من الشافعية لأن العام المطلق المتأخر ناسخ عندهم فأولى أن يكون العام من وجه كذلك ، وأما من لم يذهب إليه فمن لم يجوز تأخير بيان العام قال : بالنسخ أيضاً لأن العام الأول حينئذ مراد تناوله لأفراده ، وفي مثله لا خلاف في أن الخاص المتراخي ناسخ بقدره لا مخصص ، ومن جوز ذهب إلى التخصيص بناءاً على أن التي في القصرى أخص مطلقاً ، ووجهه أنه ذكر في البقرة حكم المطلقات من النساء وحكم المتوفى عنهن الأزواج على التفريق ، ثم وردت هذه

مخصصة في البايين لشمول لفظ الأجل العدتين ، وخصوص أولات الأحمال مطلقاً بالنسبة إلى الأزواج ، وهذا كما يقول القائل : هندية الموالي لهم كذا وتركيتهم لهم كذا لجنس آخر ، ثم يقول : والكهول منهم لهم دون ذلك أو فوقه أو كذا مريداً صنفاً آخر يكون الأخير مخصصاً للحكمين ، ولا نظر إلى اختلاف العطايا لشمول اللفظ الدال على الاختصاص وخصوص الكهول من الموالي مطلقاً كذلك فيما نحن فيه لا نظر إلى اختلاف العدتين لشمول لفظ الأجل ، وخصوص أولات الأحمال بالنسبة إلى الأزواج مطلقاً ، وإن شئت فقل : بالنسبة إلى المطلقات والمتوفى عنهن رجالهن مطلقاً فلا فرق قاله في "الكشف" ثم قال : ومن ذهب إلى أبعد الأجلين احتج بأن النصين متعاضدان لأن بينهما عموماً وخصوصاً من وجه ولا وجه للإلغاء فيلزم الجمع ، وفي القول بذلك يحصل الجمع لأن مدة الحمل إذا زادت فقد تربصت أربعة أشهر وعشراً مع الزيادة وإن قصرت وتربصت المدة فقد وضعت وتربصت فيحصل العمل بمقتضى الآيتين ، والجواب أنه إلغاء للنصين لا جمع إذ المعتبر الجمع بين النصين لا بين المدتين وذلك لفوات الحصر والتوقيت الذي هو مقتضى الآيتين اه فتدبر .

وقرأ الضحاك أحمالهن جمعاً ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ ﴾ في شأن أحكامه تعالى ومراعاة حقوقها : ﴿ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ بأن يسهل عز وجل أمره عليه ، وقيل : اليسر الثواب ﴿ وَمِنْ ﴾ قيل : للبيان قدم على المبين للفاصلة ، وقيل : بمعنى في ، وقيل : تعليلية .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأحكام وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد المنزلة في الفضل ، وإفراد الكاف مع أن الخطاب للجمع كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ لما أنها لمجرد الفرق بين الحاضر والمنقضي لا لتعيين خصوصية المخاطبين ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ ﴾ بالمحافظة على أحكامه عز وجل ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سيئاته ﴾ فإن الحسنات يذهبن السيآت ﴿ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ بالمضاعفة ، وقرأ الأعمش نعظم بالنون التفاتاً من الغيبة إلى التكلم ، وقرأ ابن مقسم يعظم بالياء والتشديد مضارع عظم مشدداً ، وقوله تعالى :

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ مما قبله من الحث على التقوى كأنه قيل : كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات ؟ فقيل : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ ﴾ الخ ، و ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض أي أسكنوهن بعض مكان سكناكم ، ولتسكن إذا لم يكن إلا بيت واحد في بعض نواحيه كما روى عن قتادة ، وقال الحوفي .

وأبو البقاء : هي لابتداء الغاية ، وقوله تعالى : ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ أي من وسعكم أي مما تطيقونه عطف بيان لقوله تعالى : ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ على ما قاله الزمخشري ، ورده

أبو حيان بأن لا يعرف عطف بيان يعاد فيه العامل إنما هذا طريقة البدل مع حرف الجر ولذلك أعربه أبو البقاء بدلاً ، وتعقب بأن المراد أن الجار والمجرور عطف بيان للجار والمجرور لا المجرور فقط حتى يقال ذلك مع أنه لا يبرد له بسلامة الأمير وأنه لا فرق بين عطف البيان والبدل إلا في أمر يسير ، ولا يخفى قوة كلام أبي حيان ، وقرأ الحسن .

والأعرج .

وابن أبي عبلة .

(152/769)

وأبو حيوة ﴿ مّن وُجْدِكُمْ ﴾ بفتح الواو ، وقرأ الفياض بن غزوان .

وعمرو بن ميمون .

ويعقوب بكسرها وذكرها المهدوي عن الأعرج والمعنى في الكل الوسع ﴿ وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ ﴾ ولا تستعملوا معهن الضرار في السكنى ﴿ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ﴾ فتلجئوهن إلى الخروج بشغل المكان أو بإسكان من لا يردن السكنى معه ونحو ذلك ﴿ وَإِن كُنَّ ﴾ أي المطلقات ﴿ أُوْلاَتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ فيخرجن عن العدة ، وأما المتوفى عنهن أزواجهن فلا نفقة لهن عند أكثر العلماء ، وعن علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن مسعود تجب نفقتهن في التركة ، ولا خلاف في وجوب سكنى المطلقات أولات الحمل ونفقهتهن بت الطلاق أو لم يبت .

واختلف في المطلقات اللاتي لسن أولات حمل بعد الاتفاق على وجوب السكنى لهن إذا لم يكن مبتوتات ، فقال ابن المسيب .

وسليمان بن يسار .

وعطاء .

والشعبي .

والحسن .

ومالك .

والأوزاعي .

وابن أبي ليلى .

والشافعي .

وأبو عبيدة : للمطلقة الحائل المبتوتة السكنى ولا نفقة لها ، وقال الحسن .

وحماد .

وأحمد .

وإسحاق .

وأبو ثور .

والإمامية : لا سكنى لها ولا نفقة لحديث فاطمة بنت قيس قالت : طلقني زوجي أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي البتة فخاصمته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في السكنى والنفقة فلم يجعل لي سكنى ولا نفقة وأمرني أن أعتد في بيت ابن أم مكتوم ثم أنكحني أسامة بن زيد ، وقال أبو حنيفة .

والثوري : لها السكنى والنفقة فهما عنده لكل مطلقة لم تكن ذات حمل ، ودليله أن عمر رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في المبتوتة : "لها النفقة والسكنى" مع أن ذلك جزاء الاحتباس وهو مشترك بين الحائل والحامل ، ولو كان جزاءاً للحمل لوجب في ماله إذا كان له مال ولم يقولوا به .

(153/769)

ويؤيد ذلك قراءة ابن مسعود أسكنوهن من حيث سكنتم وأنفقوا عليهن من وجدكم ومن خص الانفاق بالمعتدات أولات الحمل استدل بهذه الآية لمكان الشرط فيها وهو لا يتم على النافين لمفهوم المخالفة مع أن فائدة الشرط ههنا أن الحامل قد يتوهم أنها لا نفقة لها لطول مدة الحمل فأثبت لها النفقة ليعلم غيرها بالطريق الأولى كما في "الكشاف" فهو من مفهوم

الموافقة ، وحديث فاطمة بنت قيس قد طعن فيه عمر .

وعائشة .

وسليمان بن يسار .

والأسود بن يزيد .

وأبو سلمة بن عبد الرحمن .

وغيرهم ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ أي بعد أن يضعن حملهن ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ على الارضاع ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ خطاب للآباء والأمهات ، والافتعال بمعنى التفاعل ، يقال : ائتمر القوم .

وتآمروا بمعنى ، قال الكسائي : والمعنى تشاوروا ، وحقيقته ليأمر بعضكم بعضاً بمعروف أي جميل في الأجرة والإرضاع ولا يكن من الأب مماكسة ولا من الأم معاسرة ، وقيل : المعروف الكسوة والدثار ﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ ﴾ أي تضايقتم أي ضيق بعضكم على الآخر بالمشاحة في الأجرة أو طلب الزيادة أو نحو ذلك ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾ أي فستوجد ولا تعوز مرضعة أخرى ، وفيه على ما قيل : معاتبة للأم لأنه كقولك لمن تستقضيه حاجة فتتعذر منه : سيقضيها غيرك أي ستقضي وأنت ملوم .

وخص الأم بالمعاتبة على ما قال ابن المنير لأن المبذول من جهتها هو لبنها لولدها وهو غير متمول ولا مضمون به في العرف وخصوصاً من الأم على الولد ، ولا كذلك المبذول من جهة الأب فإنه المال المضنون به عادة ، فالأم إذن أجدر باللوم وأحق بالعتب ، والكلام على معنى فليطلب له الأب مرضعة أخرى فيظهر الارتباط بين الشرط والجزاء ، وقال بعض الأجلة : إن الكلام لا يخلو عن معاتبة الأب أيضاً حيث أسقط في الجواب عن حيز شرف الخطاب مع الإشارة إلى أنه إذا ضايق الأم في الأجر فامتنعت من الإرضاع لذلك فلا بد من إرضاع امرأة أخرى ، وهي أيضاً تطلب الأجر في الأغلب والأم أشفق فهي به أولى ، وبذلك يظهر كمال الارتباط ، والأول أظهر فتدبر ، وقيل : ﴿ فَسَتُرْضِعُ ﴾ خبر بمعنى الأمر أي فلترضع ، وليس بذاك ، وهذا الحكم إذا قبل الرضيع ثدي أخرى أما إذا لم يقبل إلا ثدي أمه فقد قالوا : تجبر على الإرضاع بأجرة مثلها .

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ ﴾ أي ضيق ﴿ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا عَبْدُ اللهُ ﴾ وإن قل ، والمراد لينفق كل واحد من الموسر والمعسر ما يبلغه وسعه ، والظاهر أن المأمور بالانفاق الآباء ، ومن هنا قال ابن العربي : هذه الآية أصل في وجوب النفقة على الأب ، وخالف في ذلك محمد بن المواز فقال : بوجوبها على الأبوين على قدر الميراث ، وحكى أبو معاذ أنه قرئ ﴿ لِيُنفِقْ ﴾ بلام كي ونصب القاف على أن التقدير شرعنا

ذلك لينفق .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ قُدِرَ ﴾ مشدد الدال ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ﴾ أي إلا بقدر ما أعطاها من الطاقة ، وقيل : ما أعطاها من الأرزاق قل أو جل ، وفيه تطييب واستمالة لقلب المعسر لمكان عبارة ﴿ عَلَيْهَا أَتَاهَا ﴾ الخاصة بالإعسار قبل وذكر العسر بعد ، واستدل بالآية من قال لا فسخ بالعجز عن الانفاق على الزوجة ، وهو ما ذهب إليه عمر بن عبد العزيز .

وأبو حنيفة .

وجماعة .

(155/769)

وعن أبي هريرة .

والحسن .

وابن المسيب .

ومالك .

والشافعي .

وأحمد .

وإسحق يفسخ النكاح بالعجز عن الانفاق ويفرق بين الزوجين ، وفيها على ما قال السيوطي : استحباب مراعاة الإنسان حال نفسه في النفقة والصدقة ، ففي الحديث "إن المؤمن أخذ عن الله تعالى أدباً حسناً إذا هو سبحانه وسع عليه وسع وإذا هو عز وجل قتر عليه قتر" ، وقوله تعالى : ﴿ سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ موعد لفقراء ذلك الوقت بفتح أبواب الرزق عليهم ، أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ما قدروا عليه ولم يقصروا ، وهو على الوجهين تذييل إلا أنه على الأول مستقل ، وعلى الثاني غير مستقل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 28 ص ﴾

(156/769)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ يأَيُّهَا النبى إِذَا طَلَّقْتُمُ النساء ﴾

نادى النبيّ صلى الله عليه وسلم أوّلاً تشريفاً له ، ثم خاطبه مع أمته ، أو الخطاب له خاصة ، والجمع للتعظيم ، وأمته أسوته في ذلك ، والمعنى : إذا أردتم تطليقهن وعزمتم عليه ﴿

فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي : مستقبلات لعدتهنّ ، أو في قبل عدتهنّ ، أو لقبل عدتهنّ .

وقال الجرجاني : إن اللام في ﴿ لعدتهنّ ﴾ بمعنى في ، أي : في عدتهنّ .

وقال أبو حيان : هو على حذف مضاف أي : لاستقبال عدتهنّ ، واللام للتوقيت نحو لقيته لليلة بقيت من شهر كذا ، والمراد أن يطلقوهنّ في طهر لم يقع فيه جماع ، ثم يتركن حتى تنقضي عدتهنّ ، فإذا طلقوهنّ هكذا ، فقد طلقوهنّ لعدتهنّ ، وسيأتي بيان هذا من السنة في آخر البحث إن شاء الله ﴿ وَأَحْصُوا۟ العدة ﴾ أي : احفظوها ، واحفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق حتى تتمّ العدّة ، وهي ثلاثة قروء ، والخطاب للأزواج ، وقيل : للزوجات ، وقيل : للمسلمين على العموم ، والأول أولى ؛ لأن الضمائر كلها لهم ﴿ واتقوا الله رَبَّكُمْ ﴾ فلا تعصوه فيما أمركم ولا تضارّوهن ﴿ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾ أي : التي كنّ فيها عند الطلاق ما دمن في العدّة ، وأضاف البيوت إليهنّ وهي لأزواجهنّ لتأكيد النهي ، وبيان كمال استحقاقهنّ للسكنى في مدّة العدّة ، ومثله قوله : ﴿ واذكرن مَا يتلى فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب : 34] وقوله : ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب : 33] ثم لما نهى الأزواج عن إخراجهنّ من البيوت التي وقع الطلاق وهنّ فيها نهى الزوجات عن

الخروج أيضاً فقال : ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ أي : لا يخرجن من تلك البيوت ما دمن في العدّة إلاّ لأمر ضروري ، كما سيأتي بيان ذلك ، وقيل : المراد لا يخرجن من أنفسهن إلاّ إذا أذن لهنّ الأزواج ، فلا بأس ، والأوّل أولى ﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ هذا الاستثناء هو من الجملة الأولى ، أي : لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ ، لا من الجملة الثانية .

قال الواحدي : أكثر المفسرين على أن المراد بالفاحشة هنا : الزنا ، وذلك أن تزني ، فتخرج لإقامة الحدّ عليها .

(158/769)

وقال الشافعي وغيره : هي البذاء في اللسان ، والاستطالة بها على من هو ساكن معها في ذلك البيت ، ويؤيد هذا ما قال عكرمة : إن في مصحف أبيّ : (إلاّ أن يفحشن عليكم) وقيل المعنى : إلاّ أن يخرجن تعدّياً ، فإن خروجهنّ على هذا الوجه فاحشة ، وهو بعيد . والإشارة بقوله : ﴿ وَتِلْكَ ﴾ إلى ما ذكر من الأحكام وهو مبتدأ ، وخبره ﴿ حُدُودَ اللهِ ﴾ والمعنى : أن هذه الأحكام التي بينها لعباده هي حدوده التي حدّها لهم لا يحل لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ ﴾ أي : يتجاوزها إلى غيرها ، أو يخلّ بشيء منها ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ بإيرادها مورد الهلاك ، وأوقعها في مواقع الضرر بعقوبة

الله له على مجاوزته لحدوده وتعديه لرسمه ، وجملة : ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها وتعليله .

قال القرطبي : قال جميع المفسرين : أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة ؛ والمعنى : التحريض على طلاق الواحدة ، والنهي عن الثلاث ، فإنه إذا طلق ثلاثاً أضرّ بنفسه عند الندم على الفراق ، والرغبة في الارتجاع ، فلا يجد إلى المراجعة سبيلاً .

وقال مقاتل ﴿ بعد ذلك ﴾ أي : بعد طلقة أو طلقتين ﴿ أمراً ﴾ بالمراجعة .

قال الواحدي : الأمر الذي يحدث أن يوقع في قلب الرجل المحبة لرجعتها بعد الطلقة والطلقتين .

قال الزجاج : وإذا طلقها ثلاثاً في وقت واحد ، فلا معنى لقوله : ﴿ لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي : قاربن انقضاء أجل العدة ، وشارفن آخرها ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي : راجعوهنّ بحسن معاشرة ، ورغبة فيهنّ من غير قصد إلى مضارّة لهنّ ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي : اتركوهنّ حتى تنقضي عدتهنّ ، فيملكن نفوسهن مع

إيفائهنّ بما هو لهنّ عليكم من الحقوق، وترك المضارة لهنّ ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ على الرجعة، وقيل: على الطلاق، وقيل: عليهما قطعاً للتنازع، وحسماً لمادة الخصومة، والأمر للندب، كما في قوله: ﴿ وَأَشْهِدُواْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ [البقرة: 282] وقيل: إنه للوجوب، وإليه ذهب الشافعي قال: الإشهاد واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة، وإليه ذهب أحمد بن حنبل.

وفي قول للشافعي: إن الرجعة لا تفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق، وروي نحو هذا عن أبي حنيفة وأحمد ﴿ وَأَقِيمُواْ الشهادة لِلَّهِ ﴾ هذا أمر للشهود بأن يأتوا بما شاهدوا به تقرباً إلى الله، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة البقرة، وقيل: الأمر للأزواج بأن يقيموا الشهادة، أي: الشهود عند الرجعة، فيكون قوله: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ أمراً بنفس الإشهاد، ويكون قوله: ﴿ وَأَقِيمُواْ الشهادة ﴾ أمراً بأن تكون خالصة لله، والإشارة بقوله: ﴿ ذلكم ﴾ إلى ما تقدّم من الأمر بالإشهاد، وإقامة الشهادة لله، وهو مبتدأ، وخبره ﴿ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الاخر ﴾ وخص المؤمن بالله واليوم الآخر؛ لأنه المنتفع بذلك دون غيره ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ أي: من يتق عذاب الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف على حدوده التي حدّها لعباده، وعدم مجاوزتها يجعل له مخرجاً مما وقع فيه من الشدائد والمحن.

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ أي: من وجه لا يخطر بباله، ولا يكون في حسابه.

قال الشعبي، والضحاك: هذا في الطلاق خاصة، أي: من طلق كما أمره الله يكن له مخرج في الرجعة في العدّة، وأنه يكون كأحد الخطاب بعد العدّة.

وقال الكلبي: ومن يتق الله بالصبر عند المصيبة يجعل له مخرجاً من النار إلى الجنة.

وقال الحسن: مخرجاً مما نهى الله عنه.

وقال أبو العالية: مخرجاً من كل شيء ضاق على الناس.

وقال الحسين بن الفضل: ومن يتق الله في أداء الفرائض يجعل له مخرجاً من العقوبة، ويرزقه الثواب من حيث لا يحتسب، أي: يبارك له فيما آتاه.

وقال سهل بن عبد الله: ومن يتق الله في اتباع السنة يجعل له مخرجاً من عقوبة أهل البدع، ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب، وقيل: غير ذلك.

وظاهر الآية العموم، ولا وجه للتخصيص بنوع خاص، ويدخل ما فيه السياق دخولاً أولياً ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي: ومن وثق بالله فيما نابه كفاه ما أهمه ﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ قرأ الجمهور بتنوين بالغ، ونصب أمره، وقرأ حفص بالإضافة، وقرأ ابن أبي عبلة، وداود بن أبي هند، وأبو عمرو في رواية عنه بتنوين بالغ، ورفع أمره على أنه فاعل

بالغ ، أو على أن أمره مبتدأ مؤخر ، وبالغ خبر مقدم .

قال الفراء في توجيه هذه القراءة ، أي : أمره بالغ ؛ والمعنى على القراءة الأولى ، والثانية : أن الله سبحانه بالغ ما يريده من الأمر لا يفوته شيء ، ولا يعجزه مطلوب ، وعلى القراءة الثالثة : أن الله نافذ أمره لا يرده شيء .

وقرأ المفضل : (بالغا) بالنصب على الحال ، ويكون خبر إن قوله : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ أي : تقديرا وتوقيتاً أو مقداراً .

فقد جعل سبحانه للشدة أجلاً تنتهي إليه ، وللرخاء أجلاً ينتهي إليه .

وقال السدي : هو قدر الحيض والعدة .

(161/769)

﴿ واللائى يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِن نِّسَائِكُمْ ﴾ وهن الكبار اللاتي قد انقطع حيضهن وأيسن منه ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ أي : شككتم وجهلتم كيف عدتهن ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثلاثة أَشْهُرٍ واللائى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ لصغرهن ، وعدم بلوغهن سن المحيض ، أي : فعدتهن ثلاثة أشهر ، وحذف هذا لدلالة ما قبله عليه ﴿ وأولات الأحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ أي : انتهاء عدتهن وضع الحمل ، وظاهر الآية أن عدة الحوامل بالوضع سواء كن مطلقات أو متوفى

عنهن ، وقد تقدّم الكلام في هذا في سورة البقرة مستوفى ، وحققنا البحث في هذه الآية وفي الآية الأخرى ﴿ والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أزواجا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة : 234] وقيل : معنى ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ إن تيقنتم ، ورجح ابن جرير أنه بمعنى الشك ، وهو الظاهر .

قال الزجاج : إن ارتبتم في حيضها ، وقد انقطع عنها الحيض ، وكانت ممن يحيض مثلها .

وقال مجاهد : إن ارتبتم : يعني لم تعلموا عدّة الآيسة والتي لم تحض فالعدّة هذه .

وقيل المعنى : إن ارتبتم في الدم الذي يظهر منها هل هو حيض أم لا ؟ بل استحاضة ، فالعدّة ثلاثة أشهر ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ أي : من يتقه في امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه يسهل عليه أمره في الدنيا والآخرة .

وقال الضحاك : من يتق الله ، فليطلق للسنة يجعل له من أمره يسراً في الرجعة .

(162/769)

وقال مقاتل : من يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسراً في توفيقه للطاعة ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما ذكر من الأحكام ، أي : ذلك المذكور من الأحكام ﴿ أَمْرُ الله أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ أي : حكمه الذي حكم به بين عباده ، وشرعه الذي شرعه لهم ،

ومعنى ﴿ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ ﴾ أنزله في كتابه على رسوله ، وبينه لكم وفصل أحكامه ، وأوضح حلاله وحرامه ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ بترك ما لا يرضاه ﴿ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ﴾ التي اقترفها ؛ لأن التقوى من أسباب المغفرة للذنوب ﴿ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ أي : يعطه من الأجر في الآخرة أجراً عظيماً ، وهو الجنة .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أنس قال : طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة ، فأتت أهلها ، فأنزل الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ فقيل له : راجعها ، فإنها صوّامة قوّامة ، وهي من أزواجك في الجنة .

وأخرجه ابن جرير عن قتادة مرسلاً .

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال : طلق عبد يزيد أبو ركانة أمّ ركانة ، ثم نكح امرأة من مزينة ، فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ما يغني عني إلاّ ما تغني عني هذه الشعرة لشعرة أخذتها من رأسها ، فأخذت رسول الله صلى الله عليه وسلم حمية عند ذلك ، فدعا رسول الله ركانة وإخوته ، ثم قال لجلسائه : أترون كذا من كذا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد يزيد : " طلقها " ، ففعل ، فقال لأبي ركانة " ارتجعها " ، فقال : يا رسول الله إني طلقتها ، قال : " قد علمت ذلك ، فارتجعها " ، فنزلت : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ .

قال الذهبي : إسناده واه ، والخبر خطأ ، فإن عبد يزيد لم يدرك الإسلام .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن ابن عمر : أنه طلق امرأته ، وهي حائض ، فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتغيظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : " ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض ، وتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها ، فتلك العدّة التي أمر الله أن يطلق لها النساء " ، وقرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم : (يا أيها النبيّ إذا طلقتم النساء فطلقوهنّ في قبل عدتهنّ) .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، وابن المنذر ، والحاكم ، وابن مردويه عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : (فطلقوهنّ في قبل عدتهنّ) .

وأخرج ابن الأنباري عن ابن عمر أنه قرأ : (فطلقوهنّ لقبل عدتهنّ) .

وأخرج ابن الأنباري ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والبيهقي عن مجاهد أنه قرأ كذلك .

وأخرج عبد الرزاق ، وأبو عبيد في فضائله ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن مردويه ، والبيهقي عن ابن عباس أنه قرأ كذلك .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن مسعود قال : من

أراد أن يطلق للسنة، كما أمره الله، فليطلقها طاهراً في غير جماع.

وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ قال: طاهراً من غير جماع، وفي الباب أحاديث.

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود: ﴿ وَأَحْصُوا۟ العدة ﴾ قال: الطلاق طاهراً في غير جماع.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عمر في قوله: ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بفاحشة مُّبَيِّنَةٍ ﴾ قال: خروجها قبل انقضاء العدّة من بيتها هي الفاحشة المبينة.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ قال: الزنا.

وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي من طرق عن ابن عباس قال: الفاحشة المبينة أن تبذو المرأة على

أهل الرجل ، فإذا بذت عليهم بلسانها ، فقد حلّ لهم إخراجها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن فاطمة بنت قيس في قوله : ﴿ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ قالت : هي الرّجعة .

وأخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين أن رجلاً سأل عمران بن حصين أن رجلاً طلق ، ولم يشهد ، قال : بئس ما صنع ، طلق في بدعة وارتجع في غير سنة ، فليشهد على طلاقه وعلى مراجعته ، ويستغفر الله .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ قال : مخرجه أن يعلم أنه من قبل الله ، وأن الله هو الذي يعطيه وهو يمنعه ، وهو يبتليه وهو يعافيه وهو يدفع عنه ، وفي قوله : ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ قال : من حيث لا يدري .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ قال : ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة .

وأخرج الحاكم وصححه ، وضعفه الذهبي من طريق سالم بن أبي الجعد عن جابر قال : نزلت هذه الآية : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾ في رجل من أشجع كان فقيراً خفيف ذات اليد كثير العيال ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " اتق الله واصبر " ، فلم يلبث إلاّ يسيراً حتى جاء ابن له بغنم كان العدوّ أصابوه ، فأتى رسول الله

صلى الله عليه وسلم، فسأله عنها، وأخبره خبرها، فقال: كلها، فنزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ الآية.

(165/769)

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إن ابني أسره العدوّ، وجزعت أمه، فما تأمرني؟ قال: "آمرك وإياها أن تستكثرا من قول لا حول ولا قوّة إلاّ بالله"، فقالت المرأة: نعم ما أمرك، فجعلا يكثران منها، فتغفل عنه العدوّ، فاستاق غنمهم، فجاء بها إلى أبيه، فنزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾ الآية.

وفي الباب روايات تشهد لهذا.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة في الآية قالت: يكفيه همّ الدنيا وغمها.

وأخرج أحمد وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، والبيهقي عن أبي ذرّ قال: جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ فجعل يردّدها حتى نعست، ثم قال: "يا أبا ذرّ لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم" وفي الباب أحاديث.

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود في قوله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ قال: ليس المتوكل الذي يقول تقضي حاجتي، وليس كل من يتوكل على الله كفاه ما أهمه، ودفع عنه ما يكره، وقضى حاجته، ولكن الله جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجراً، وفي قوله: ﴿ إِنَّ اللهَ بالغ أَمْرِهِ ﴾ قال: يقول قاضي أمره على من توكل، وعلى من لم يتوكل، ولكن المتوكل يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجراً، وفي قوله: ﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ قال: يعني: أجلاً ومنتهى ينتهي إليه.

(166/769)

وأخرج ابن المبارك، والطيالسي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأبو يعلى، والحاكم وصححه، والبيهقي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أنكم توكلتم على الله حقّ توكله لرزقتم كما ترزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً" وأخرج إسحاق بن راهويه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن أبيّ بن كعب أن ناساً من أهل المدينة لما نزلت هذه الآية في البقرة في عدّة النساء قالوا: لقد بقي من عدّة النساء عدد لم يذكر في القرآن الصغار والكبار اللاتي قد انقطع حيضهنّ، وذوات الحمل، فأنزل الله:

﴿ واللائى يَئِسْنَ مِنَ المحيض ﴾ الآية .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، وأبو يعلى ، والضياء في المختارة ، وابن مردويه عن أبيّ بن كعب قال : قلت للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ وأولات الأحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ أهي المطلقة ثلاثاً ، أو المتوفى عنها ؟ قال : " هي المطلقة ثلاثاً ، والمتوفى عنها "

وأخرج نحوه عنه مرفوعاً ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والدارقطني من وجه آخر .

وأخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه من طرق عن ابن مسعود أنه بلغه أن علياً قال : تعتدّ آخر الأجلين ، فقال : من شاء لاعنته إن الآية التي في سورة النساء القصرى نزلت بعد سورة البقرة ﴿ وأولات الأحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ بكذا وكذا أشهراً ، وكل مطلقة ، أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها .

وروي نحو هذا عنه من طرق ، وبعضها في صحيح البخاري .

وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث أم سلمة: أن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت فأنكحها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي الباب أحاديث.

(168/769)

قوله: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾

هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان ما يجب للنساء من السكنى، ومن للتبعيض، أي: بعض مكان سكناكم، وقيل: زائدة ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ أي: من سعتكم وطاقتكم، والوجد القدرة.

قال الفرّاء: يقول على ما يجد، فإن كان موسعاً عليه، وسع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيراً فعلى قدر ذلك.

قال قتادة: إن لم تجد إلاّ ناحية بيتك فأسكنها فيه.

وقد اختلف أهل العلم في المطلقة ثلاثاً، هل لها سكنى ونفقة أم لا؟ فذهب مالك، والشافعي أن لها السكنى ولا نفقة لها.

وذهب أبو حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة .

وذهب أحمد ، وإسحاق ، وأبو ثور أنه لا نفقة لها ولا سكنى ، وهذا هو الحق ، وقد قررته في شرحي للمنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره .

﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ نهى سبحانه عن مضارتهنّ بالتضييق عليهنّ في المسكن والنفقة .

وقال مجاهد : في المسكن .

وقال مقاتل : في النفقة .

وقال أبو الضحى : هو أن يطلقها ، فإذا بقي يومان من عدّتها راجعها ، ثم طلقها ﴿ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ أي : إلى غاية هي وضعهنّ للحمل . ولا خلاف بين العلماء في وجوب النفقة والسكنى للحامل المطلقة ؛ فأما الحامل المتوفى عنها زوجها ، فقال عليّ ، وابن عمر ، وابن مسعود ، وشريح ، والنخعي ، والشعبي ، وحماد ، وابن أبي ليلى ، وسفيان وأصحابه : ينفق عليها من جميع المال حتى تضع .

وقال ابن عباس ، وابن الزبير ، وجابر بن عبد الله ، ومالك ، والشافعي ، وأبو حنيفة وأصحابه : لا ينفق عليها إلاّ من نصيبها ، وهذا هو الحق للأدلة الواردة في ذلك من السنة ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ أولادكم بعد ذلك ﴿ فآتوهن اجورهنّ ﴾ أي : أجور إرضاعهنّ والمعنى : أن المطلقات إذا أرضعن أولاد الأزواج المطلقين لهنّ منهنّ ، فلهنّ أجورهنّ على ذلك ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ هو خطاب للأزواج والزوجات ، أي : تشاوروا بينكم بما هو معروف غير منكر ، وليقبل بعضكم من بعض من المعروف والجميل ، وأصل معناه ليأمر بعضكم بعضاً بما هو متعارف بين الناس غير منكر عندهم .

قال مقاتل : المعنى : ليتراض الأب والأم على أجر مسمى ، قيل : والمعروف الجميل من الزوج أن يوفر لها الأجر ، والمعروف الجميل منها : أن لا تطلب ما يتعاسره الزوج من الأجر ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ ﴾ أي : في أجر الرضاع ، فأبى الزوج أن يعطي الأمّ الأجر ، وأبت الأمّ أن ترضعه إلاّ بما تريد من الأجر ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أخرى ﴾ أي : يستأجر مرضعة أخرى ترضع ولده ، ولا يجب عليه أن يسلم ما تطلبه الزوجة ، ولا يجوز له أن يكرهها على الإرضاع بما يريد من الأجر .

قال الضحاك : إن أبت الأمّ أن ترضع استأجر لولده أخرى ، فإن لم تقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر .

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ فيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسائهم على قدر سعتهم ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ أي : كان رزقه بمقدار القوت ، أو مضيق ليس بموسع ﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّا ءاتَاهُ اللهُ ﴾ أي : مما أعطاه من الرزق ليس عليه غير ذلك ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ مَا ءاتَاهَا ﴾ أي : ما أعطاها من الرزق ، فلا يكلف الفقير بأن ينفق ما ليس في وسعه ، بل عليه ما يقدر عليه وتبلغ إليه طاقته مما أعطاه الله من الرزق ﴿ سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ﴾ أي : بعد ضيق وشدّة سعة وغنى .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ قال : من سعتكم ﴿ وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ﴾ قال في المسكن .

وأخرج ابن المنذر عنه في قوله : ﴿ وَإِن كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ ﴾ الآية ، قال : فهذه في المرأة يطلقها زوجها ، وهي حامل ، فأمره الله أن يسكنها وينفق عليها حتى تضع ، وإن أرضعت حتى تفطم ، فإن أبان طلاقها وليس بها حمل ، فلها السكنى حتى تنقضي عدّتها ولا نفقة لها .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي سنان قال : سأل عمر بن الخطاب عن أبي عبيدة ، فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ماذا يصنع بها إذا أخذها ؟ فما لبث أن لبس ألين الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاء

الرسول ، فأخبره ، فقال : رحمه الله تأوّل هذه الآية ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا ءاتَاهُ اللهُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 240 . 246 ﴾

(171/769)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ﴾

عطف على قوله : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ [الطلاق : 1] فإن العدة هنالك أريد بها الأقراء فأشعر ذلك أن تلك المعتدة ممن لها أقراء ، فبقي بيان اعتداد المرأة التي تجاوزت سن المحيض أو التي لم تبلغ سن من تحيض وهي الصغيرة .

وكلتاهما يصدق عليها أنها آيسة من المحيض ، أي في ذلك الوقت .

والوقف على قوله : ﴿ واللائي لم يحضن ﴾ ، أي هن معطوفات على الآيسين .

واليأس : عدم الأمل .

والمأيوس منه في الآية يعلم من السياق من قوله : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ [الطلاق : 1] ، أي يئسن من المحيض سواء كان اليأس منه بعد تعدده أو كان بعدم ظهوره ، أي لم يكن

انقطاعه لمرض أو إرضاع.

وهذا السنّ يختلف تحديده باختلاف الذوات والأقطار كما يختلف سن ابتداء الحيض كذلك.

وقد اختُلف في تحديد هذا السنّ بعدد السنين فقيل: ستون سنة، وقيل: خمس وخمسون، وترك الضبط بالسنين أولى وإنما هذا تقريب لإبان اليأس.

والمقصود من الآية بيِن وهي مخصصة لعموم قوله: ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ من سورة [البقرة: 228].

وقد نزلت سورة الطلاق بعد سورة البقرة.

وقد خفي مفاد الشرط من قوله: إن ارتبتم ﴾ وما هو متصل به.

وجمهور أهل التفسير جعلوا هذا الشرط متصلاً بالكلام الذي وقع هو في أثنائه، وإنه ليس متصلاً بقوله: ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ [الطلاق: 1] في أول هذه السورة خلافاً لشذوذ تأويل بعيد وتشتيت لشمل الكلام، ثم خفيَ المراد من هذا الشرط بقوله: ﴿ إن ارتبتم ﴾.

وللعلماء فيه طريقتان:

الطريقة الأولى : مشَى أصحابها إلى أن مرجع اليأس غير مرجع الارتياب باختلاف المتعلق ، فروى أشهب عن مالك أن الله تعالى لما بين عدة ذوات القُروء وذوات الحمل ، أي في سورة البقرة ، وبقيت اليائسة والتي لم تحض ارتاب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في أمرهما فنزلت هذه الآية ، ومثله مروي عن مجاهد ، وروى الطبري خبراً عن أبيّ بن كعب أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اعتداد هاتين اللتين لم تذكرا في سورة البقرة ، فنزلت هذه الآية .

فجعلوا حرف ﴿ إنْ ﴾ بمعنى (إذْ) وأن الارتياب وقع في حكم العدة قبل نزول الآية ، أي إذ ارتبتم في حكم ذلك فبيّنّاه بهذه الآية قال ابن العربي : حديث أُبي غير صحيح .

وأنا أقول : رواه البيهقي في "سننه" والحاكم في "المستدرك" وصَحّحه .

والطبراني بسنده عن عَمرو بن سالم أن أبَيًا قال : وليس في رواية الطبري ما يدل على إسناد الحديث .

وهو في رواية البيهقي بسنده إلى أبي عثمان عُمر بن سالم الأنصاري عن أُبي بن كعب وهو منقطع ، لأن أبا عثمان لم يلق أُبي بن كعب وأحسب أنه في "مستدرك الحاكم" كذلك لأن البيهقي رواه عن الحاكم فلا وجه لقول ابن العربي : هو غير صحيح .

فإن رجال سنده ثقات .

وفي "أسباب النزول" للواحدي عن قتادة أن خلاد بن النعمان وأبيًا سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنزلت هذه الآية .

وقيل : إن السائل معاذ بن جبل سأل عن عدة الآيسة .

فالريبة على هذه الطريقة تكون مراداً بها ما حصل من التردد في حكم هؤلاء المطلقات فتكون جملة الشرط معترضة بين المبتدأ وهو الموصول وبين خبره وهو جملة ﴿ فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ .

والفاء في ﴿ فعدتهن ﴾ داخلة على جملة الخبر لما في الموصول من معنى الشرط مثل قوله تعالى : ﴿ واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ﴾ [النساء : 16] ومثله كثير في الكلام .

والارتياب على هذا قد وقع فيما مضى فتكون ﴿ إنْ ﴾ مستعملة في معنى اليقين بلا نكتة .

والطريقة الثانية : مشى أصحابها إلى أن مرجع اليأس ومرجع الارتياب واحد ، وهو حالة المطلقة من المحيض ، وهو عن عكرمة وقتادة وابن زيد وبه فسر يحيى بن بكير وإسماعيل بن هاد مِن المالكية ونسبه ابن لبابة من المالكية إلى داود الظاهري .

وهذا التفسير يمحض أن يكون المراد من الارتياب حصول الريب في حال المرأة .

وعلى هذا فجملة الشرط وجوابه خَبَر عن ﴿ اللاء يئسن ﴾ ، أي إن ارتبن هُن وارتبتُم أنتم لأجل ارتيابهن ، فيكون ضمير جمع الذكور المخاطبين تغليباً ويبقى الشرط على شرطيته .

والارتياب مستقبل والفاء رابطة للجواب .

وهذا التفسير يقتضي أن يكون الاعتداد بثلاثة أشهر مشروطاً بأن تحصل الريبة في يأسها من المحيض فاصطَدم أصحابُه بمفهوم الشرط الذي يقتضي أنه إن لم تحصل الريبة في يأسهن أنهن لا يعتددن بذلك أو لا يعتددن أصلاً فنسب ابنُ لبابة (من فقهاء المالكية) إلى داود الظاهري أنه ذهب إلى سقوط العدة عن المرأة التي يُوقَن أنها يائسة .

قلت ولا تُعرف نسبة هذا إلى داود .

فإن ابن حزم لم يحكه عنه ولا حكاه أحد ممن تعرضوا لاختلاف الفقهاء ، قال ابن لبابة : وهو شذوذ ، وقال ابن لبابة : وأمّا ابن بكير وإسماعيلُ بن حمَّاد ، أي من فقهاء المالكية فجعلا المرأة المتيقّن يأسها ملحقةً بالمرتابة في العدة بطريق القياس يريد أن العدة لها حكمتان براءة الرحم ، وانتظار المراجعة ، وأما الذين لا يعتبرون مفهوم المخالفة فهم في سعة مما لزم الذين يعتبرونه .

وأصحاب هذا الطريق مختلفون في الوجهة وفي محمل الآية بحسبها : فقال عكرمة وابن زيد وقتادة : ليس على المرأة المرتاب في معاودة الحيض إليها عدّة أكثر من ثلاثة أشهر تعلقاً بظاهر الآية (ولعل علة ذلك عندهم أن ثلاثة الأشهر يتبيّن فيها أمر الحمل فإن لم يظهر حمل بعد انقضائها تمت عدة المرأة) ، لأن الحمل بعد سنّ اليأس نادر فإذا اعترتها ريبة الحمل انتَقل النظر إلى حكم الشك في الحمل وتلك مسألة غير التي نزلت في شأنها الآية .

وقال الأكثرون من أهل العلم : إن المرتاب في يأسها تمكث تسعة أشهر (أي أمدَ الحملِ المعتادِ) فإن لم يظهر بها حمل ابتْدأت الاعتداد بثلاثة أشهر فتكمل لها سنةٌ كاملة .

وأصل ذلك ما رواه سعيد بن المسيب من قضاء عمر بن الخطاب ولم يخالفه أحد من الصحابة ، وأخذ به مالك .

وعن مالك في "المدونة" : تسعة أشهر للريبة والثلاثة الأشهر هي العدة .

ولعلهم رأوا أن العدة بعد مضي التسعة الأشهر تعبُّد لأن ذلك هو الذي في القرآن وأما التسعة الأشهر فأوجبها عمر بن الخطاب لعله بالاجتهاد ، وهو تقييد للإِطلاق الذي في الآية .

وقال النخعي وسفيان الثوري وأبو حنيفة والشافعي : تعتد المرتاب في يأسها بالأقراء (أي تنتظر الدم إلى أن تبلغ سن من لا يشبه أن تحيض ولو زادت مدة انتظارها على تسعة أشهر

) .

فإذا بلغت سن اليأس دون ريبة اعتدّت بثلاثة أشهر من يومئذٍ .

ونحن نتأول له بأن تقدير الكلام : فعدتهن ثلاثة أشهر ، أي بعد زوال الارتياب كما سنذكره ، وهو مع ذلك يقتضي أن هذه الثلاثة الأشهر بعد مضي تسعة أشهر أو بعد مضي مدة تبلغ بها سن من لا يشبه أن تحيض تعبدٌ ، لأن انتفاء الحمل قد اتضح وانتظار المراجعة قد امتدّ .

(175/769)

إلا أن نعتذر لهم بأن مدة الانتظار لا يتحفز في خِلالها المطلّق للرأي في أمر المراجعة لأنه في سعة الانتظار فيُزاد في المدة لأجل ذلك ، وفي "تفسير القرطبي" : "قال عكرمة وقتادة : من الريبة المرأة المستحاضة التي لا يستقيم لها الحيض تحيض في أول الشهر مراراً ، وفي الأشهر مرة (أي بدون انضباط) " أ هـ .

ونقل الطبري مثل هذا الكلام عن الزهري وابن زيد ، فيجب أن يصار إلى هذا الوجه في تفسير الآية .

والمرأة إذا قاربت وقت اليأس لا ينقطع عنها المحيض دفعة واحدة بل تبقى عدة أشهر

يتنابها الحيض غِبًّا بدون انتظام ثم ينقطع تماماً .

وقوله تعالى : ﴿ واللائي لم يحضن ﴾ عطف على ﴿ واللائي يئسن ﴾ والتقدير :

عدتهن ثلاثة أشهر .

ويحسن الوقف على قوله : ﴿ فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ .

﴿ يَحِضْنَ وأولات الاحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ ﴾ .

معطوفة على جملة ﴿ واللائي لم يحضن ﴾ فهي إتمام لأحوال العدة المجمل في قوله تعالى :

﴿ وأحصوا العدة ﴾ [الطلاق : 1] وتقدير الكلام : وأولات الأحمال منهن ، أي من

المطلقات أجلهن أن يضعن حملهن .

فحصل بهذه الآية مع التي قبلها تفصيل لأحوال المطلقات وحصل أيضاً منها بيان لإِجمال

الآية التي في سورة البقرة .

﴿ وأولات ﴾ اسم جَمع لذاتتٍ بمعنى : صاحبة .

وذات : مؤنث ذو ، بمعنى : صاحب .

ولا مفرد ل ﴿ أولات ﴾ من لفظه كما لا مفرد للفظ (أولو) و ﴿ أولات ﴾ مثل ذوات

كما أن أولو مثل ذَوُو .

ويكتب ﴿ أولات ﴾ بواو بعد الهمزة في الرسم تبعاً لكتابة لفظ (أولو) بواو بعد الهمزة

لقصد التفرقة في الرسم بين أولي في حالة النصب والجر وبين حرف (إلى) .

وليتهم قصروا كتابته بواو بعد الهمزة على لفظ أولي المذكر المنصوب أو المجرور وتركوا التكلف في غيرهما .

وجعلت عدة المطلقة الحامل منهّاة بوضع الحمل لأنه لا أدل على براءة الرحم منه ، إذ الغرض الأول من العدة تحقق براءة الرحم من ولدٍ للمطلِّق أو ظهور اشتغال الرحم بجنين له .

(176/769)

وضمّ إلى ذلك غرض آخر هو ترقب ندم المطلق وتمكينه من تدارك أمره بالمراجعة ، فلما حصل الأهم أُلغي ما عداه رعْياً لحق المرأة في الانطلاق من حرج الانتظار ، على أن وضع الحمل قد يحصل بالقرب من الطلاق فألغي قصد الانتظار تعليلاً بالغالب دون النادر ، خلافاً لمن قال في المتوفى عنها : عليها أقصى الأجلين وهو منسوب إلى علي بن أبي طالب وابن عباس .

وبهذا التفسير لا تعارض هذه الآية مع آية عدة المتوفى عنها التي في سورة [البقرة : 234] ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ لأن تلك في وادٍ وهذه في وادٍ ، تلك في شأن المتوفى عنهن وهذه في شأن المطلقات .

ولكن لما كان أجل أربعة أشهر وعشر للمتوفى عنها منحصرةً حكمتُه في تحقق براءة رحم

امرأة المتوفى من ولدٍ له إذ له فائدة فيه غيرَ ذلك (ولا يتوهم أن الشريعة جعلت ذلك لغرض الحزن على الزوج المتوفى للقطع بأن هذا مقصد جاهلي) ، وقد دلت الشريعة في مواضع على إبطاله والنهي عنه في تصاريف كثيرة كما بينّاه في تفسير قوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن ﴾ الخ في سورة [البقرة : 234] .

وقد علمنا أن وضع الحمل غاية لحصول هذا المقصد نجم من جهة المعنى أن المتوفى عنها الحاملَ إذا وضعت حملها تخرج من عدة وفاة زوجها ولا تقضي أربعة أشهر وعشراً كما أنها لو كان أمد حملها أكثر من أربعة أشهر وعشر لا تقتصر على الأربعة الأشهر وعشر إذ لا حكمة في ذلك .

من أجْل ذلك كانت الآية دالة على أن عدة الحامل وضع حملها سواء كانت معتدة من طلاق أم كانت معتدة من وفاة .

ومن أجل ذلك قال جمهور أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم : إن عدة الحامل المتوّفى عنها كعدتها من الطلاق وضع حملها غير أن أقوالهم تدل على أن بينهم من كانوا يرون في تعارض العمومين أن العامّ المتأخر منهما ينسخ العامّ الآخر وهي طريقة المتقدمين .

(177/769)

روى أهل الصحيح أن عبد الله بن مسعود لما بلغه أن عليّ بن أبي طالب قال في عدة الحامل المتوّفي عنها : إن عليها أقصى الأجلين أي أجل وضع الحمل وأجل الأربعة الأشهر والعشر قال ابن مسعود : لَنَزَلَتْ سورة النساء القُصرى أي سورة الطلاق بعد الطولى أي بعد طولى السور وهي البقرة ، أي ليست آية سورة البقرة بناسخة لما في آية سورة الطلاق .

ويعضدهم خبر سبيعة بنت الحارث الأسلمية توفي زوجها سعدُ بن خولة في حجة الوداع بمكة وتركها حاملاً فوضعت بعد وفاته بخمس عشرة ليلة وقيل بأربعين ليلة .

فاستأذنت رسولَ الله في التزوج فقال لها : قد حَلَلْتِ فانكحي إن شئتِ .

روته أم سلمة أم المؤمنين وقبله معظم الصحابة الذين بلغهم .

وتلقاه الفقهاء بعدهم بالقبول ويشهد له بالمعنى والحكمة كما تقدم آنفاً .

واختلف المتأخرون من أهل الأصول في وجه العمل في تعارض عمومين كل واحد منهما عام من وجه مثل هاتين الآيتين فالجمهور درجوا على ترجيح أحدهما بمُرجح والحنفية جعلوا المتأخِر من العمومين ناسخاً للمتقدم .

فقوله : وأولات الأحمال ﴾ لأن الموصول من صيغ العموم فيعم كل حامل معتدة سواء كانت في عدة طلاق أو في عدة وفاة ، وقوله : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ [البقرة : 234] تَعمّ كلّ امرأة تركها الميت سواء كانت حاملاً أو غير حامل ، لأن ﴿ أزواجاً ﴾ نكرة وقعت مفعولَ الصلة وهي ﴿ يَذرون ﴾

المشتملة على ضمير الموَصول الذي هو عام فمفعوله تبع له في عمومه فيشمل المتوفى عنهن الحوامل وهن ممن شملهن عموم ﴿ أولات الأحمال ﴾ فتعارض العمومان كل من وجه ، فآية ﴿ وأولات الأحمال ﴾ اقتضت أن الحوامل كلهن تنتهي عدتهن بالوضع وقد يكون الوضع قبل الأربعة الأشهر والعشر ، وآية البقرة يقتضي عمومها أن المتوفّى عنهن يتربصن أربعة أشهر وعشراً .

وقد يتأخر هذا الأجل عن وضع الحمل .

(178/769)

فذهب الجمهور إلى ترجيح عموم ﴿ وأولات الأحمال ﴾ على عموم ﴿ ويذرون أزواجاً ﴾ [البقرة : 234] من وجوه .

أحدها : أن عموم ﴿ وأولات الأحمال ﴾ حاصل بذات اللفظ لأن الموصول مع صلته من صيغ العموم ، وأما قوله : ﴿ ويذرون أزواجاً ﴾ فإن ﴿ أزواجاً ﴾ نكرة في سياق الإثبات فلا عموم لها في لفظها وإنما عرض لها العموم تبعاً لعموم الموصول العامل فيها وما كان عمومه بالذات أرجح مما كان عمومه بالعرض .

وثانيها : أن الحكم في عموم ﴿ وأولات الأحمال ﴾ علق بمدلول صلة الموصول وهي

مشتق ، وتعليق الحكم بالمشتق يؤذن بتعليل ما اشتق منه بخلاف العموم الذي في سورة البقرة ، فما كان عمومه معللاً بالوصف أرجح في العمل مما عمومه غير معلل .

وثالثها : قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدّة سُبَيْعة الأسلمية .

وذهب الحنفية إلى أن عموم ﴿ وأولات الأحمال ﴾ ناسخ لعموم قوله : ﴿ ويذرون أزواجاً ﴾ [البقرة : 234] في مقدار ما تعارضا فيه .

ومآل الرأيين واحد هو أن عدة الحامل وضعُ حملها سواء كانت معتدة من طلاق أم من وفاة زوجها .

والصحيح أن آية البقرة لم يرتفع حكمها وشذ القائلون بأن المتوفّى عنها إن لم تكن حاملاً ووضعت حملها يجب عليها عدة أربعة أشهر وعشر .

وقال قليل من أهل العلم بالجمع بين الآيتين بما يحقق العمل بهما معاً فأوجبوا على الحامل المتوفّى عنها زوجها الاعتداد بالأقصى من الأجلين أجل الأربعة الأشهر والعشر .

وأجل وضع الحمل ، وهو قول علي بن أبي طالب وابن عباس .

وقصدهم من ذلك الاحتياط لأنه قد تأتّى لهم هنا إذ كان التعارض في مقدار زمنين فأمكن العمل بأوسعهما الذي يتحقق فيه الآخَر وزيادة فيصير معنى هذه الآية ﴿ أولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ ما لم تكن عدة وفاة ويكون معنى آية سورة البقرة وأزواج

المتوفَّيْن يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ما لم تكنّ حوامل فيزدْن تربّصاً إلى وضع الحمل.

(179/769)

ولا يجوز تخصيص عموم ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ [البقرة: 234] بما في آية ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ من خصوص بالنظر إلى الحوامل المتوفَّى عنهن، إذ لا يجوز أن تنتهي عدة الحامل المتوفّى عنها التي مضت عليها أربعة أشهر وعشر قبل وضع حملها من عِدة زوجها، وهي في حالة حمل لأن ذلك مقرر بطلانه من عدة أدلة في الشريعة لا خلاف فيها وإلى هذا ذهب ابن أبي ليلى.

وفي "صحيح البخاري" "عن محمد بن سيرين قال: كنت في حلقة فيها عُظْم من الأنصار (أي بالكوفة) وفيهم عبد الرحمان بن أبي ليلى وكان أصحابه يعظمونه فذَكَرَ آخرَ الأجلين، فحدثتُ حديث عبد الله بن عتبة في شأن سُبيعة بنت الحارث فقال عبد الرحمان لكن عمه (أي عم عتبة وهو عبد الله بن مسعود) كان لا يقول ذلك (أي لم يحدثنا به) فقلت: إني إذن لجَرِيء إن كذبتُ على رجل في جانب الكوفة (وكان عبد الله بن عتبة ساكناً

بظاهر الكوفة) فخرجتُ فلقيت عامراً أو مالك بن عوف فقلت : كيف كان قول ابن مسعود في المتوفّى عنها زوجها وهي حامل ، فقال : قال ابن مسعود : أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون لها الرخصة لنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى (أي البقرة) .

وفي "البخاري" عن أبي سلمة جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس عنده فقال : أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة فقال ابن عباس : آخرُ الأجلين : فقلتُ أنا ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ .

قال أبو هريرة : أنا مع ابن أخي (أي مع أبي سلمة) فأرسل ابن عباس كريباً إلى أمّ سلمة يسألها فقالت : قُتل (كذا والتحقيق أنه مات في حجة الوداع) زَوج سُبيعة الأسلمية وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة فخُطِبت فأنكحها رسول الله .

وقد قال بعضهم : إن ابن عباس رجع عن قوله .

ولم يذكر رجوعه في حديث أبي سلمة .

(180/769)

﴿ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ ﴿ يُسْراً * ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سيئاته وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾ .

تكرير للموعظة وهو اعتراض .

والقول فيه كالقول في قوله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ [الطلاق : 2 ، 3] .

والمقصود موعظة الرجال والنساء على الأخذ بما في هذه الأحكام مما عسى أن يكون فيه مشقة على أحد بأن على كل أن يصبر لذلك امتثالاً لأمر الله فإن الممتثل وهو مسمى المتقي يجعل الله له يسراً فيما لحقه من عسر .

والأمر : الشأن والحال .

والمقصود : يجعل له من أمره العسير في نظره يسراً بقرينة جعل اليسر لأمره .

و﴿ مِن ﴾ للابتداء المجازي المراد به المقارنةُ والملابسة .

واليسر : انتفاء الصعوبة ، أي انتفاء المشاقّ والمكروهات .

والمقصود من هذا تحقيق الوعد باليسر فيما شأنه العسر لحث الأزواج على امتثال ما أمر الله به الزوج من الإنفاق في مدة العدة ومن المراجعة وترك منزِله لأجل سكناها إذا كان لا يسعهما وما أمر به المرأة من تربص أمد العدة وعدم الخروج ونحو ذلك .

والإِشارة بقوله : ﴿ ذلك أمر الله ﴾ إلى الأحكام المتقدمة من أول السورة .

وهذه الجملة معترضة بين المتعاطفتين .

والأمر في قوله : ﴿ أمر الله ﴾ : حكمه وما شرعه لكم كما قال : ﴿ وكذلك أوحينا

إليك روحاً من أمرنا ﴾ [الشورى : 52] .

وإنزاله : إبلاغه إلى الناس بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم أطلق عليه الإِنزال تشبيهاً لشرف معانيه وألفاظه بالشيء الرفيع لأن الشريف يتخيل رفيعا .

وهو استعارة كثيرة في القرآن .

ففي قوله : ﴿ أنزله ﴾ استعارة مكنية .

والكلام كناية عن الحث على التهمّم برعايته والعمل به وبعث الناس على التنافس في العلم به إذ قد اعتنى الله بالناس حيث أنزل إليهم ما فيه صلاحهم .

(181/769)

وأعيد التحريض على العمل بما أمر الله بالوعد بما هو أعظم من الأرزاق وتفريج الكرب وتيسير الصعوبات في الدنيا .

وذلك هو تكفير للسيئات وتوفير للأجور .

والجملة معطوفة على الجملة المعترضة فلها حكم الاعتراض .

وجيء بالوعد من الشرط لتحقيق تعليق الجواب على شرطه .

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ﴾

هذه الجملة وما ألحق بها من الجمل إلى قوله : ﴿ وكأين من قرية عتت ﴾ [الطلاق : 8] الخ تشريع مستأنف فيه بيان لما أُجمل في الآيات السابقة من قوله : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ [الطلاق : 1] وقوله : ﴿ أو فارقوهن بمعروف ﴾ [الطلاق : 2] ، وقوله : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ [الطلاق : 4] فتتنزّل هذه الجمل من اللاتي قبلها منزلة البيان لبعض ، وبدل الاشتمال لبعض وكل ذلك مقتضى للفصل .

وابتدىء ببيان ما في ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ [الطلاق : 1] من إجمال .

والضمير المنصوب في ﴿ أسكنوهن ﴾ عائد إلى النساء المطلقات في قوله : ﴿ إذا طلقتم ﴾ [الطلاق : 1] .

وليس فيما تقدم من الكلام ما يصلح لأن يعود عليه هذا الضمير إلا لفظ النساء وإلاّ لفظ ﴿ أولات الأحمال ﴾ [الطلاق : 4] ، ولكن لم يقل أحد بأن الإِسكان خاص بالمعتدّات الحوامل فإنه ينافي قوله تعالى : ﴿ لا تخرجوهن ﴾ [الطلاق : 1] فتعين عود الضمير إلى النساء المطلقات كلّهن ، وبذلك يشْمل المطلقة الرجعية والبائنة والحامل ، لما علمتَه في أول السورة من إرادة الرجعية والبائنة من لفظ ﴿ إذا طلقتم النساء ﴾ [الطلاق : 1] .

وجمهور أهل العلم قائلون بوجوب السكنى لهن جميعاً .

قال أشهب : قال مالك : يَخرج عنها إذا طلقها وتبقى هي في المنزل .

وروى ابن نافع قال مالك : فأما التي لم تبِنْ فإنها زوجة يتوارثان والسكنى لهن لازمة

لأزواجهن أ هـ .

يريد أنها مستغنى عن أخذ حكم سكناها من هذه الآية .

ولا يريد أنها مستثناة من حكم الآية .

(182/769)

وقال قتادة وابن أبي ليلى وإسحاق وأبو ثور وأحمد بن حنبل : لا سكنى للمطلقة طلاقاً بائناً .

ومتمسكهم في ذلك ما روته فاطمة بنت قَيس : أن زوجها طلقها ثلاثاً وأن أخا زوجها منعها من السكنى والنفقة ، وأنها رفعت أمرها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : "إنما السكنى والنفقة على من له عليها الرجعة" وهو حديث غريب لم يعرفه أحد إلا من رواية فاطمة بنت قيس .

ولم يقبله عُمر بن الخطاب فقال : لا نترك كتاب الله وسنة نبيئنا لقول امرأة لا ندري لعلها نسيت أو شُبّه عليها .

وأنكرته عائشة على فاطمة بنت قيس فيما ذكرتْه من أنه أذن لها في الانتقال إلى مكان غير الذي طلقت فيه كما تقدم .

وروي أن عمر "روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن للمطلقة البائنة سكنى" .

ورووا أن قتادة وابن أبي ليلى أخذا بقوله تعالى : ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ [الطلاق : 1] إذ الأمر هو المراجعة ، فقصَرا الطلاق في قوله : ﴿ إذا طلقتم النساء ﴾ [الطلاق : 1] ، على الطلاق الرجعي لأن البائن لا تترقب بعده مراجعة وسبقها إلى هذا المأخذ فاطمة بنت قيس المذكورة .

روى مسلم أن مروان بن الحكم أرسل إلى فاطمة بنت قيس يسألها عن الحديث فحدثته فقال مروان : لم نسمع هذا الحديث إلا من المرأة سنأخذ بالعصْمة التي وجدنا عليها الناس فبلغ قولُ مروان فاطمة بنت قيس فقالت : "بيني وبينكم القرآن ، قال الله عزّ وجل: ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ، إلى قوله : لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ [الطلاق : 1] قالت : هذا لمن كانت له رجعة فأي أمر يحدث بعد الثلاث" أ هـ .

ويرد على ذلك أن إحداث الأمر ليس قاصراً على المراجعة فإن من الأمر الذي يحدثه الله أن يرقق قلوبهما فيرغبا معاً في إعادة المعاشرة بعقد جديد .

وعلى تسليم اقتصار ذلك على إحداث أمر المراجعة فذكر هذه الحكمة لا يقتضي تخصيص عموم اللفظ الذي قبلها إذ يكفي أن تكون حكمة لبعض أحوال العام .

فالصواب أن حق السكنى للمطلقات كلهن ، وهو قول جمهور العلماء .

وقوله : ﴿ من حيث سكنتم ﴾ ، أي في البيوت التي تسكنونها ، أي لا يكلف المطلق بمكان للمطلقة غير بيته ولا يمنعها السكنى ببيته .

وهذا تأكيد لقوله : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ [الطلاق : 1] .

فإذا كان المسكن لا يسع مبيتين متفرقين خَرج المطلق منه وبقيت المطلقة ، كما تقدم فيما رواه أشهب عن مالك .

و﴿ مِن ﴾ الواقعة في قوله : ﴿ من حيث سكنتم ﴾ للتبعيض ، أي في بعض ما سكنتم ويؤخذ منه أن المسكن صالح للتبعيض بحسب عرف السكنى مع تجنب التقارب في المبيت إن كانت غير رجعية ، فيؤخذ منه أنه إن لم يسعهما خرج الزوج المطلق .

و﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ من وجدكم ﴾ بدل مطابق ، وهو بيان لقوله : ﴿ من حيث سكنتم ﴾ فإن مسكن المرء هو وجده الذي وجده غالباً لمن لم يكن مقتراً على نفسه .

والوُجد : مثلث الواو هو الوسع والطاقة .

وقرأه الجمهور بضم الواو .

وقرأه رَوْح عن يعقوب بكسرها .

﴿ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا ﴾ .

أتبع الأمر بإسكان المطلقات بنهي عن الإضرار بهن في شيء مدة العدة من ضيق محلّ أو تقتير في الإنفاق أو مراجعة يعقبها تطليق لتطويل العدة عليهن قصداً للكناية والتشفي كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزؤاً ﴾ في سورة [البقرة: 231].

أو للإلجاء إلى افتدائها من مراجعته بخلع.

والضارة: الإضرار القوي فكأن المبالغة راجعة إلى النهي لا إلى المنهي عنه، أي هو نهي شديد كالمبالغة في قوله: ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ [فصلت: 46] في أنها مبالغة في النفي ومثله كثير في القرآن.

والمراد بالتضييق: التضييق المجازي وهو الحرج والأذى.

(184/769)

واللام في ﴿ لتضيقوا عليهن ﴾ لتعليل الإضرار وهو قيد جرى على غالب ما يعرض للمطلقين من مقاصد أهل الجاهلية، كما تقرر في قوله تعالى: ﴿ ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ﴾ [البقرة: 231] وإلا فإن الإضرار بالمطلقات منهي عنه وإن لم يكن لقصد التضييق عليهن.

﴿ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حتى يَضَعْنَ ﴾.

ضمير ﴿ كن ﴾ يعود إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ أسكنوهن ﴾ كما هو شأن ترتيب الضمائر ، وكما هو مقتضى عطف الجمل ، وليس عائداً على خصوص النساء الساكنات لأن الضمير لا يصلح لأن يكون معاداً لضمير آخر .

وظاهر نظم الآية يقتضي أن الحوامل مستحقات الإنفاق دون بعض المطلقات أخذاً بمفهوم الشرط ، وقد أخذ بذلك الشافعي والأوزاعي وابن أبي ليلى .

ولكن المفهوم معطل في المطلقات الرجعيات لأن إنفاقهن ثابت بأنهن زوجات .

ولذلك قال مالك : إن ضمير ﴿ أسكنوهن ﴾ للمطلقات البوائن كما تقدم .

ومن لم يأخذ بالمفهوم قالوا : الآية تعرضت للحوامل تأكيداً للنفقة عليهن لأن مدة الحمل طويلة فربما سئم المطلق الإنفاق ، فالمقصود من هذه الجملة هو الغاية التي بقوله : ﴿ حتى يضعن حملهن ﴾ وجعلوا للمطلقة غير ذات الحمل الإنفاق .

وبه أخذ أبو حنيفة والثوري .

ونسب إلى عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما .

وهذا الذي يرجح هو هذا القول وليس للشرط مفهوم وإنما الشرط مسوق لاستيعاب الإنفاق جميع أمد الحمل .

﴿ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ ﴾ .

لما كان الحمل ينتهي بالوضع انتُقل إلى بيان ما يجب لهن بعد الوضع فإنهن بالوضع يصرن بائنات فتنقطع أحكام الزوجية فكان السامع بحيث لا يدري هل يكون إرضاعها ولدها حقاً عليها كما كان في زمن العصمة أو حقاً على أبيه فيعطيها أجر إرضاعها كما كان يعطيها النفقة لأجل ذلك الولد حين كان حملاً .

وهذه الآية مخصصة لقوله في سورة [البقرة : 233] ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن ﴾ الآية .

وأفهم قوله : لكم ﴿ أن إرضاع الولد بعد الفراق حق على الأب وحده لأنه كالإِنفاق والأُم ترضع ولدها في العصمة تبعاً لإِنفاق أبيه عليها عند مالك خلافاً لأبي حنيفة والشافعي ، إذ قالا : لا يجب الإِرضاع على الأم حتى في العصمة فلما انقطع إنفاق الأب عليها بالبينونة تمحضت إقامة غذاء ابنه عليه فإن أرادت أن ترضعه فهي أحق بذلك ، ولها أجل الإِرضاع وإن أبت فعليه أن يطلب ظئراً لابنه فإن كان الطفلُ غير قابل ثديَ غير أمه وجب عليها إرضاعه ووجب على أبيه دفع أجرة رضاعه .

وقال أبو ثور : يجب إرضاع الابن على أمه ولو بعدَ البينونة .

نقله عند أبو بكر ابن العربي في "الأحكام" وهو عجيب.

وهذه الآية أمامه.

والائتمار: التشاور والتداول في النظر.

وأصله مطاوع أمره لأن المتشاورين يأمر أحدهما الآخر فيأتمر الآخر بما أمره.

ومنه تسمية مجامع أصحاب الدعوة أو النحلة أو القصد الموحّد مؤتمراً لأنه يقع الاستئمار فيه، أي التشاور وتداول الآراء.

وقوله: ﴿ وأتمروا بينكم ﴾ خطاب للرجال والنساء الواقع بينهم الطلاق ليتشاوروا في أمر إرضاع الأمّ ولدها.

وما يبذله الأب لها من الأجرة على ذلك.

وقيدَ الائتمارُ بالمعروف، أي ائتماراً ملابساً لما هو المعروف في مثل حالهم وقومهم، أي معتاد مقبول، فلا يشتَطّ الأب في الشحّ ولا تشتط الأم في الحرص.

وقوله: ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾ عتاب وموعظة للأب والأمّ بأن ينزّل كل منهما نفسه منزلة ما لو اجتُلبت للطفل ظِئر، فلا تسأل الأمُّ أكثر من أجر أمثالها، ولا يشحّ

الأب عما يبلغ أجرَ أمثال أمّ الطفل ، ولا يسقط حق الأمّ إذا وجد الأب من يرضع له مجاناً

لأن الله قال : ﴿ فسترضع له أخرى ﴾ وإنما يقال : أرضعت له ، إذا استؤجرت لذلك ،

كما يقال : استرضَع أيضاً ، إذا آجر من يرضع له ولده .

وتقدم في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم ﴾ [233]

الآية .

والتعاسر صدور العسر من الجانبين .

وهو تفاعل من قولكم : عسرتُ فلاناً ، إذا أخذته على عسره ، ويقال : تعاسر البيِّعان إذا

لم يتفقا .

فمعنى تعاسرتم ﴾ اشتدّ الخلاف بينكم ولم ترجعوا إلى وفاق ، أي فلا يبقى الولد بدون

رضاعة .

وسين الاستقبال مستعمل في معنى التأكيد ، كقوله : ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي ﴾

في سورة [يوسف : 98] .

وهذا المعنى ناشيء عن جعل علامة الاستقبال كنايَة عن تجدد ذلك الفعل في أزمنة

المستقبل تحقيقاً لتحصيله .

وهذا الخبر مستعمل كناية أيضاً عن أمر الأب باستئجار ظئر للطفل بقرينة تعليق له ﴾

بقوله : ﴿ فسترضع ﴾ .

فاجتمع فيه ثلاث كنايات : كناية عن موعظة الأب ، وكناية عن موعظة الأم ، وكناية عن أمر الأب بالاسترضاع لولده .

لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (7)

تذييل لما سبق من أحكام الإنفاق على المعتدات والمرضعات بما يعمّ ذلك .

ويعم كل إنفاق يطالَب به المسلم من مفروض ومندوب ، أي الإنفاق على قدر السعة .

والسَّعة : هي الجِدَة من المال أو الرزق .

والإنفاق : كفاية مؤونة الحياة من طعام ولباس وغير ذلك مما يُحتاج إليه .

(187/769)

و ﴿ من ﴾ هنا ابتدائية لأن الإنفاق يصدر عن السعة في الإعتبار ، وليست ﴿ من ﴾ هذه كـ (مِن) التي في قوله تعالى : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [الأنفال : 3] لأن النفقة هنا ليست بعضاً من السعة ، وهي هناك بعض الرزق فلذلك تكون (مِن) من قوله : ﴿ فلينفق مما آتاه الله ﴾ تبعيضية .

ومعنى ﴿ قدر عليه رزقه ﴾ جعل رزقه مقدوراً ، أي محدوداً بقدر معين وذلك كناية

عن التضييق .

وضده ﴿ يرزقون فيها بغير حساب ﴾ [غافر : 40] ، يقال : قدر عليه رزقه ، إذا قتّره ، قال تعالى : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ وتقدم في سورة [الرعد : 26] أي من كان في ضيق من المال فلينفق بما يسمح به رزقه بالنظر إلى الوفاء بالإنفاق ومراتبه في التقديم .

وهذا مُجمَل هنا تفصيله في أدلة أخرى من الكتاب والسنة والاستنباط ، قال النبي لهند بنت عتبة زوج أبي سفيان : خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف .

والمعروف : هو ما تعارفه الناس في معتاد تصرفاتهم ما لم تبطله الشريعة .

والرزق : اسم لما ينتفع به الإنسان في حاجاته من طعام ولباس ومتاع ومنزل .

سواء كان أعياناً أو أثماناً .

ويطلق الرزق كثيراً على الطعام كما في قوله تعالى : ﴿ وجد عندها رزقاً ﴾ [آل عمران : 37] .

ولم يختلف العلماء في أن النفقات لا تتحدد بمقادير معينة لاختلاف أحوال الناس والأزمان والبلاد .

وإنما اختلفوا في التوسع في الإنفاق في مال المؤسر هل يقضَى عليه بالتوسعة على من يُنفق هو عليه ولا أحسب الخلاف في ذلك إلا اختلافاً في أحوال الناس وعوائدهم ولا بدّ من اعتبار

حال المنفَق عليه ومعتاده، كالزوجة العالية القَدر.

وكل ذلك داخل تحت قول النبي صلى الله عليه وسلم لهند: "ما يكفيك وولدَك بالمعروف".

وجملة ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ تعليل لقوله: ﴿ ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾.

(188/769)

لأن مضمون هذه الجملة قد تقرر بين المسلمين من قبل في قوله تعالى: ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ في سورة [البقرة: 286]، وهي قبل سورة الطلاق.

والمقصود منه إقناع المنفَق عليه بأن لا يطلب من المنفِق أكثر من مقدُرته.

ولهذا قال علماؤنا: لا يطلَّق على المعسر إذا كان يقدر على إشباع المنفَق عليها وإكسائها بالمعروف ولو بشظف، أي دون ضر.

ومما آتاه الله ﴾ يشمل المقدرة على الاكتساب فإذا كان مَن يجب عليه الإنفاق قادراً على الاكتساب لِينفق من يجب عليه إنفاقه أو ليكمِّل له ما ضاق عنه ماله، يجبر على الاكتساب.

وأما من لا قدرة له على الاكتساب وليس له ما ينفق منه فنفقته أو نفقة من يجب عليه إنفاقُه

على مراتبها تكون على بيت مال المسلمين .

وقد قال عمر بن الخطاب : "وأن رب الصريمة ورب الغُنيمة إن تهلك ماشيتهما يأتيني ببينة

يقول يا أمير المؤمنين يا أمير المؤمنين ، أفتاركهم أينا" ، رواه مالك في "الموطأ" .

وفي عجز الزوج عن إنفاق زوجه إذا طلبت الفراق لعدم النفقة خلاف .

فمن الفقهاء من رأى ذلك موجباً بينهما بعد أجلٍ رجاء يسر الزوج وقُدر بشهرين ، وهو

قول مالك .

ومنهم من لم ير التفريق بين الزوجين بذلك وهو قول أبي حنيفة ، أي وتنفَق من بيت مال

المسلمين .

والذي يقتضيه النظر أنه إن كان بيت المال قائماً فإن من واجبه نفقة الزوجين المعسرين وإن

لم يُتوصل إلى الإنفاق من بيت المال كان حقاً أن يفرِّق القاضي بينهما ولا يترك المرأة وزوْجها

في احتياج.

ومحل بسط ذلك في مسائل الفقه .

وجملة ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾ تكملة للتذييل فإن قوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً

إلا ما آتاها ﴾ يناسب مضمون جملة ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾ .

وقوله : ﴿ سيجعل الله ﴾ الخ تناسب مضمون ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ الخ .

وهذا الكلام خبر مستعمل في بعث الترجّي وطرح اليأس عن المعسر من ذوي العيال .

(189/769)

ومعناه : عسى أن يجعل الله بعد عُسركم يُسراً لكم فإن الله يجعل بعد عسر يسراً .

وهذا الخبر لا يقتضي إلا أنّ من تصرفات الله أن يجعل بعد عسر قوم يسراً لهم ، فمن كان في عسر رجَا أن يكون ممن يشمله فضل الله ، فيبدل عسره باليسر .

وليس في هذا الخبر وعْد لكل معسر بأن يصير عُسره يُسراً .

وقد يكون في المشاهدة ما يخالف ذلك فلا فائدة في التكلف بأن هذا وعد من الله للمسلمين الموحدين يومئذٍ بأن الله سيبدل عسرهم باليسر ، أو وعد للمُنفقين الذين يمتثلون لأمر الله ولا يشحّون بشيء مما يسعه مالهم .

وانظر قوله تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ [الشرح : 5] .

ومن بلاغة القرآن الإتيان بـ (عسر ويسراً) نكرتين غير معرفين باللام لئلا يتوهم من التعريف معنى الاستغراق كما في قوله : ﴿ فإن مع العسر يسرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 28 صـ ﴾

وقال الشيخ الصا بونى

﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن ﴾

[2] أحكام العدة

التحليل اللفظي

﴿ يئسن ﴾ : اليأس : القنوط ، وقيل : اليأس نقيض الرجاء .

﴿ المحيض ﴾ : أي الحيض ، يقال حاضت المرأة حيضا ومحيضا ، والمحيض يكون اسما ويكون مصدرا ، والحيض والمحيض : اجتماع الدم في الرحم ومنه الحوض لاجتماع الماء فيه .

﴿ ارتبتم ﴾ : أي أشكل عليكم من الريبة أي الشك ، وقيل ترددتم أو جهلتم ، وقيل : تيقنتم فهو من الأضداد .

﴿ يكفر ﴾ : أي يستر ويمحو الخطيئة ، وأصل الكفر : تغطية الشيء تغطية تستهلكه .

﴿ وجدكم ﴾ : الوجد : المقدرة والغنى واليسار والسعة والطاقة ، والمقصود من

سعتكم وما ملكتم ، وعلى قدر طاقتكم ، وقيل من مساكنكم . والوجد : يستعمل في الحزن والغضب والحب ، يقال : وجدت في المال أي صرت ذا مال ، ووجدت على الرجل وجدا وموجدة ، ووجدت الضالة وجدانا ، والوجد بالضم الغنى والقدرة يقال افتقر الرجل بعد وجد .

﴿ وأتمروا ﴾ : افتعلوا – من الأمر – يقال ائتمر القوم وتأمروا إذا أمر بعضهم بعضا .

وقال الكسائي : وائتمروا أي تشاوروا ومنه قوله تعالى : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ [القصص : 20] .

وقول أمرئ القيس :

أحار بن عمرو فؤادي خمر . . . ويعدو علي المرء ما يأتمر

وحقيقته ليأمر بعضكم بعضا بمعروف أي جميل في الأجرة والإرضاع ولا يكن معاكسة ولا معاسرة .

﴿ تعاسرتم ﴾ : أي تضايقتم ، وتشاكستم ، ولم يتفق الرجل والمرأة بالمشاحة من الرجل ، أو طلب الزيادة من المرأة .

﴿ ذو سعة ﴾ : السعة نقيض الضيق ، والوسع ، والوسع ، والسعة : الجدة والطاقة ، وأصل السعة وسعة فحذفت الواو ونقصت .

المعنى الإجمالي

يبن الله سبحانه وتعالى عدة المرأة المطلقة في سورة البقرة في قوله : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ [البقرة : 228] فربط العدة بالحيض ، وأما المرأة التي لا تحيض لكبر سنها ، أو لصغرها أو لحملها ، فقد جاءت هذه الآيات لتقول للمؤمنين : إذا جهلتم عدة التي يئست من المحيض وأشكل عليكم أمرها فعدتها ثلاثة أشهر ، وكذلك عدة التي طلقت ولم تر الحيض ثلاثة أشهر ، وأما الحامل فتنتهي بولادتها عدتها .

ومن يخشى الله في ما يفعل ، أو يذر ، ييسر الله له أمره ، ويوفقه إلى الخير ، وتلك الأحكام التي مرت في الطلاق ، والعدة فرض الله ، وحكمه ، فرضه على الناس ، ومن يتق الله بالتزام ما شرعه ، والبعد عما نهى عنه يمح الله سيئاته ، ويعطه في الآخرة أجرا عظيما ، وثوابا كبيرا .

وعلى الرجل أن يسكن مطلقته في داره التي يسكنها على قدر طاقته ، ووسعه ، وليس له أن يضيق عليها ، ويضارها في النفقة والسكنى ليلجئها إلى الخروج من داره .

وإذا كانت المرأة حاملا فعليه أن ينفق عليها ولو طالت مدة الحمل بعد الطلاق حتى تضع حملها ، فإذا ولدت ، ورضيت أن ترضع ابنها ، فعلى الرجل أن يدفع لها أجر الرضاعة ،

وليأمر كل منهما الآخر بالمعروف في أمر الرضاع، وأجره، والحضانة ووقتها، فإن عسر الاتفاق بين الأم والأب، ولم يتوصلا إلى أمر وسط يرضيهما، فللأب حينئذ أن يفتش لابنه عمن يرضعه غير أمه.

هذا، والإنفاق على المعتدة بحسب طاقة الرجل، فإن كان غنيا فليعطها ما يلائم غناه، وإن كان فقيرا، ضيق العيش، فليس عليه أن يدفع إلا بقدر ما يستطيع فإن الله – جلت حكمته – لم يكلف الإنسان إلا بقدر ما أعطاه من الرزق، وليعلم أن حال الدنيا لا يبقى على حال، فإن الله سيجعل بعد عسر يسرا.

سبب النزول

1 – أخرج الحاكم وصححه وابن جرير الطبري والبيهقي في سننه وجماعة:

أنها لما نزلت عدة المطلقة، والمتوفى عنها زوجها في البقرة قال أبي بن كعب: يا رسول الله إن نساء من أهل المدينة يقلن: قد بقي من النساء ما لم يذكر فيه شيء قال: وما هو؟ قال: الصغار، والكبار، وذوات الحمل.

فنزلت هذه الآية ﴿ واللائي يئسن . . . ﴾ الآيات.

2- وروى الواحدي والبغوي والخازن :

أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن . . . ﴾ [البقرة : 228] الآية ، قال خلاد بن النعمان الأنصاري : يا رسول الله ، فما عدة التي لا تحيض ، وعدة التي لم تحض ، وعدة الحبلى ؟ فنزلت هذه الآية : ﴿ واللائي يئسن . . . ﴾ .

وجوه القراءات

1- قوله تعالى : ﴿ يئسن ﴾ : قرا الجمهور ﴿ يئسن ﴾ فعلا ماضيا . وقرئ ﴿ ييئسن ﴾ بياءين مضارعا .

2- قوله تعالى : ﴿ حملهن ﴾ : قرأ الجمهور ﴿ حملهن ﴾ مفردا . وقرأ الضحاك ﴿ أحمالهن ﴾ جمعا .

3- قوله تعالى : ﴿ ويعظم ﴾ : قرأ الجمهور ﴿ يعظم ﴾ بالياء مضارع أعظم . وقرأ الأعمش ﴿ نعظم ﴾ بالنون خروجا من الغيبة للتكلم .

وقرأ ابن مقسم ﴿ يعظم ﴾ بالياء والتشديد مضارع ﴿ عظم ﴾ مشددا . 4- قوله تعالى : ﴿ من وجدكم ﴾ : قرأ الجمهور ﴿ من وجدكم ﴾ بضم الواو . وقرأ الحسن وغيره ﴿ من وجدكم ﴾ بفتحها .

وقرأ يعقوب وغيره ﴿ من وجدكم ﴾ بكسرها .

وهي لغات ثلاث بمعنى الوسع .

5- قوله تعالى : ﴿ لينفق ذو سعة ﴾ : قرأ الجمهور ﴿ لينفق ﴾ بلام الأمر .

وحكى أبو معاذ قراءة ﴿ لينفق ﴾ بلام كي ونصب القاف ، ويتعلق بمحذوف تقديره " شرعنا ذلك لينفق " .

6- قوله تعالى : ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ : قرأ الجمهور ﴿ قدر ﴾ مخففا .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ قدر ﴾ مشدد الدال .

وقرأ أبي بن كعب ﴿ قدر ﴾ بضم القاف وتشديد الدال .

وجوه الإعراب

1- ﴿ واللائي يئسن ﴾ مبتدأ ، خبره جملة فعدتهن .

2- ﴿ إن ارتبتم ﴾ شرط جوابه محذوف ، تقديره فاعلموا أنها ثلاثة أشهر ، والشرط وجوابه جملة معترضة .

وجوز كون (فعدتهن) إلخ جواب الشرط باعتبار الإعلام والإخبار كما قوله تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ [النحل : 53] والجملة الشرطية خبر من غير حذف وتقدير .

3- قوله تعالى : ﴿ واللائي لم يحضن ﴾ :

قال الأنباري : تقديره واللائي يئسن من المحيض من نسائكم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر ، إلا أنه حذف خبر الثاني لدلالة خبر الأول عليه كقولك زيد أبوه منطلق وعمرو ، أي وعمرو أبوه منطلق ، وهذا كثير في كلامهم .

قال أبو حيان : والأولى أن يقدر " مثل أولئك " أو " كذلك " فيكون المقدر مفردا .

وجوز عطف هذا الموصول على الموصول السابق ، وجعل الخبر لهما من غير تقدير .

والجملة معطوفة على ما قبلها فإعرابه مبتدأ كإعراب ﴿ واللائي يئسن ﴾ .

4- قوله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال ﴾ مبتدأ . وأجلهن : مبتدأ ثان .

وأن يضعن حملهن : خبر المبتدأ الثاني ، والمبتدأ وخبره خبر عن المبتدأ الأول .

ويجوز أن يكون (أجلهن) بدلا من (أولات) بدل الاشتمال وجملة (أن يضعن) الخبر والله أعلم .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : قال أبو حيان : لما كان الكلام في أمر المطلقات ، وأحكامهن ، من العدة وغيرها ، وكن لا يطلقهن أزواجهن إلا عن بغض لهن وكراهة ، جاء عقيب بعض الجمل (الأمر بالتقوى) حيث المعنى مبرزا في صورة شرط وجزاء في قوله ﴿ ومن يتق الله . . . ﴾ إذ الزوج المطلق قد ينسب إلى مطلقته بعض ما يشينها ، وينفر الخطاب عنها ، ويوهم

أنه فارقها لأمر ظهر له منها ، فلذلك تكرر قوله : ﴿ ومن يتق الله ﴾ في العمل بما أنزله من هذه الأحكام ، وحافظ على الحقوق الواجبة عليه من ترك الضرار ، والنفقة على المعتدات . . . وغير ذلك مما يلزمه يرتب له تكفير السيئات ، وإعظام الأجر .

(194/769)

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ ذلك أمر الله أنزله إليكم ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأحكام ، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد المشار إليه للإيذان ببعد منزلته في الفضل ، وإفراد الكاف مع أن الخطاب للجمع كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ أمر الله أنزله إليكم ﴾ لما أنها لمجرد الفرق بين الحاضر والمنقضي لا لتعيين خصوصية المخاطبين .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ أسكنوهن ﴾ وما بعده استئناف ، وقع جوابا عن سؤال نشأ مما قبله من الحث على التقوى في قوله : ﴿ ومن يتق الله ﴾ .

كأنه قيل : كيف يعمل بالتقوى في شأن المعتدات ؟ ! فقيل : اسكنوهن مسكنا من حيث سكنتم .

اللطيف الرابعة : إذا كانت كل مطلقة يجب لها النفقة فما فائدة الشرط في قوله تعالى : ﴿ وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن ﴾ ؟ !

نقول : فائدته أن مدة الحمل ربما طال وقتها بعد الطلاق ، فيظن أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار من مدة الحمل ، فنفي ذلك الظن بإثبات النفقة للحامل حتى تلد .

اللطيفة الخامسة : في قوله تعالى : ﴿ فسترضع له أخرى ﴾ يسير معاتبة للأم إذا تعاسرت كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى "سيقضيها غيرك وأنت ملوم" .

قال ابن المنير : " وخص الأم بالمعاتبة لأن المبذول من جهتها هو لبنها لولدها ، وهو جهة الأب ، فإنه المال المضنون به عادة ، فالأم إذن أجدر باللوم ، وأحق بالعتب ، والمعنى ليطلب له الأب مرضعة أخرى فيظهر الارتباط بين الشرط والجزاء " .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما هي عدة المرأة التي لا تحيض ؟

المرأة غير الحائض تشمل من بلغت سن اليأس ، والصغيرة التي لم تر الحيض بعد ، أما من يئست من الحيض فعدتها ثلاثة أشهر بلا خلاف ، وكذا الصغيرة التي لم تحض .

واختلف في تقدير سن اليأس على أقوال عديدة :

فقدره بعض الفقهاء بستين سنة .

وقدره بعضهم بخمس وخمسين سنة .

وقيل : غالب سن يأس عشيرة المرأة .

وقيل : أقصى عادة امرأة في العالم .

وقيل : غالب سن يأس النساء في مكانها التي هي فيه ، فإن المكان إذا كان طيب الهواء والماء ، يبطئ فيه سن اليأس .

وأما المرأة إذا كانت تحيض ثم لم تر الحيض في عدتها ولم يدر سببه :

فقال الحنفية والشافعية : إن عدتها الحيض حتى تدخل في السن التي لا تحيض أهلها من النساء فتستأنف عدة الآيسة ثلاثة أشهر .

ونقل عن علي وعثمان ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود .

وقال مالك وأحمد : تنتظر تسعة أشهر لتعلم براءة رحمها لأن هذه المدة هي غالب مدة الحمل فإذا لم يبن الحمل فيها علم براءة الرحم ، ثم تعتد بعد ذلك عدة الآيسات ثلاثة أشهر .

ونقل عن عمر أنه قضى ذلك .

الحكم الثاني : ما المراد من قوله تعالى : ﴿ إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ ؟

قال الجصاص : غير جائز أن يكون المراد به الارتياب في الإياس ؛ لأنا إذا شككنا هل بلغت سن اليأس لم نقل عدتها ثلاثة أشهر .

واختلف أهل العلم في (الريبة) المذكورة في الآية على أقوال :

اختار الطبري : أن يكون المعنى " إن شككتم فلم تدروا ما الحكم فيهن ؟ فالحكم أن عدتهن ثلاثة أشهر " وهو قول الجصاص فقد قال : " وذكر الارتياب في الآية إنما هو على وجه ذكر السبب الذي نزل عليه الحكم فكان بمعنى واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر . . . " ونقل عن مجاهد .

وقال مجاهد : الآية واردة في المستحاضة أطبق بها الدم لا تدري أهو دم حيض أو دم علة .

وقال عكرمة وقتادة : من الريبة المرأة المستحاضة التي لم يستقيم لها الحيض ، تحيض في أول الشهر مرارا وفي الأشهر مرة .

وقيل : إنه متصل بأول السورة والمعنى " لا تخرجوهن من بيوتهن إن ارتبتم في انقضاء العدة " .

قال القرطبي : وهو أصح ما قيل فيه .

وقال الزجاج : المعنى إن ارتبتم في حيضهن ، وقد انقطع عنهن الدم وكن ممن يحيض مثلهن .

وقيل : إن ارتبتم أي تيقنتم وهو من الأضداد .

الحكم الثالث : ما هي عدة الحامل ؟

نصت الآية على أن الحامل تنتهي عدتها بولادتها ، ودل قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾ [البقرة : 234] على أن عدة املتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا ، فإذا كانت المتوفى عنها زوجها حاملا فبأي الأجليت تأخذ ؟ ولم يختلف السلف والخلف أن عدة المطلقة الحامل أن تضع حملها ، واختلفوا في المتوفى عنها زوجها .

قال الجمهور : عدة المتوفى عنها زوجها الحامل أن تضع حملها .

وقال علي وابن عباس : ﴿ وأولات الأحمال ﴾ في المطلقات ، وأما المتوفى عنها فعدتها أبعد الأجلين ، فلو وضعت قبل أربعة أشهر وعشر صبرت إلى آخرها .

حجة الجمهور :

استدل الجمهور بحديث سبيعة الأسلمية أنها كانت تحت (سعد بن خوله) وهو ممن شهد بدرا فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها رجل من بني عبد الدار فقال لها : مالي أراك متجملة ، لعلك ترتجين النكاح؟ إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشرا .

قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت ، فأتيت رسول الله صلى

الله عليه وسلم : فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالتزوج إن بدا لي .

وعن ابن مسعود أنه بلغه أن عليا يقول : تعتد آخر الأجلين فقال : ما شاء لاعنته ، ما نزلت : ﴿ وأولات الأحمال ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها .

قال أبو بكر الجصاص : أفاد قول ابن مسعود أن الآية مكتفية بنفسها في إفادة الحكم على عمومها ، غير مضمنة بما قبلها من ذكر المطلقة فوجب اعتبار الحمل في الجميع ، من المطلقات ، والمتوفى عنهن أزواجهن " .

الحكم الرابع : هل للمطلقة ثلاثا سكنى ونفقة ؟

لا خلاف بين العلماء في إسكان المطلقات الرجعيات ، واختلفوا في المطلقة ثلاثا على أقوال :

ذهب مالك والشافعي : ورواية عن أحمد إلى أن لها السكنى ولا نفقة لها .

وذهب أبو حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة ما دامت في العدة .

وذهب أحمد وغيره إلى أنها لا نفقة لها ولا سكنى .

دليل المذهب الأول :

قوله تعالى : ﴿ وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ﴾ . وذلك أن الله سبحانه لما ذكر السكنى أطلقها لكن مطلقة ، فلما ذكر النفقة قيدها بالحمل ، فدل على أن المطلقة البائن لا نفقة لها .

دليل المذهب الثاني :

1- قوله تعالى : ﴿ ولا تضآروهن لتضيقوا عليهن ﴾ وترك النفقة من أكبر الإضرار وفي إنكار عمر على فاطمة قولها ما يبين هذا .

2- ولأنها معتدة تستحق السكنى عن طلاق فكانت لها النفقة كالرجعية .

3- ولأنها محبوسة عليه لحقه فاستحق النفقة كالزوجة .

4- أن السكنى لا كانت حقا في مال ، وقد أوجبها الله لها بنص الكتاب إذ كانت الآية قد تناولت المبتوتة والرجعية ، فقد اقتضى ذلك وجوب النفقة إذا كانت السكنى حقا في مال وهي بعض النفقة .

دليل المذهب الثالث :

1- حديث فاطمة بنت قيس : أنه طلقها زوجها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وكان أنفق عليها نفقة دون ، فلما رأت ذلك قالت : والله لأعلمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كان لي نفقة أخذت الذي يصلحني ، وإن لم تكن لي نفقة لم آخذ شيئًا .

قالت : فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " لا نفقة لك ولا سكنى " .

وفي رواية " إنما السكنى والنفقة على من له عليها رجعة " .

2- إن النفقة إنما تجب لأجل التمكين من الاستمتاع بدليل أن الناشز لا نفقة لها .

وللعلماء في مناقشة الأدلة كلام طويل ينظر في كتب الفروع .

الحكم الخامس : على من يجب الرضاع ؟

قال المالكية : رضاع الولد على الزوجة ما دامت الزوجية إلا لشرف الزوجة وموضعها فعلى الأب رضاعة يومئذ في ماله ، فإن طلقها فلا يلزمها رضاعة إلا أن يكون غير قابل ثدي غيرها فيلزمها رضاعه .

وقال الحنفية : لا يجب الرضاع على الأم بحال .

وقيل : يجب الرضاع على الأم في كل حال .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولا : المرأة اليائسة من الحيض ، والصغيرة التي لم تحض ، إذا طلقتا فعدتهما ثلاثة أشهر .

ثانيا : المرأة الحامل تنقضي عدتها بوضع الحمل .

ثالثا : تقوى الله تعالى تيسر أمور المؤمن في الدنيا ، وتكفر السيئات ، وتعظم الأجر في الآخرة .

رابعا : المرأة المعتدة تسكن في منزل زوجها حتى تنقضي عدتها .

خامسا : على الرجل أن لا يضيق على المعتدة في النفقة أو السكنى ليجبرها على الخروج من منزله .

سادسا : نفقة الحامل تستمر حتى تضع الحمل ، وإن طالت المدة .

سابعا : للمرأة الحق الكامل في أن تأخذ أجرة على إرضاع ولدها من الرجل .

ثامنا : الإنفاق يكون بحسب مال الرجل غنى وفقرا .

تاسعا : التكليف منوط بالقدرة التي مكن الله بها عبده .

حكمة التشريع

الزواج هو الأساس في بناء المجتمع الإسلامي ، والطلاق هو السبيل لقطع علاقات الزوجين بعضهما من بعض ، ولكن للزوجية آثارا قد يتأخر ظهورها وقتا ، فجعل الله جل ثناؤه العدة تمكث المرأة فيها مدة من الزمن ينفق عليها مطلقها ، ويسكنها في بيته ، ليكون في أمان واطمئنان ، وهي تحت نظره ، إن ظهر حملها ، فالولد ولده ، وإن لم يظهر الحمل في مدة العدة ، فلم يعد بين الرجل وزوجه أية علاقة تربطهما ، هو بالنسبة إليها كسائر الرجال ، وهي بالنسبة إليه كسائر النساء ، لا تستطيع أن تطالبه بنسب ، ولا نفقة ، ولا غير ذلك .

وبهذا لم يظلم الإسلام المرأة حيث فرض لها النفقة ، والسكنى ما دامت محبوسة لصالح الرجل ، وأمن الرجل من جهة زوجه حيث كمثت مدة يتبين معها شغل رحمها أو فراغه .

وأما الحوامل فقد جعل الله تعالى عدتهن الوضع طال أمد الحمل بعد الطلاق أم قصر ، وذلك لأن براءة الرحم بعد الوضع مؤكدة ، فلا حاجة إلى الانتظار .

(199/769)

وأمر الله عز وجل الرجال أن يسكنوا النساء مما يجدون هم من سكن ، وما يستطيعونه حسب مقدرتهم وغناهم ، لا أقل مما هم عليه في سكناهم ، ونهاهم أن يعمدوا إلى الإضرار بهن بالتضييق عليهن في فسحة المسكن ، أو في المعاملة أثناء إقامتهن .

وخصت ذوات الأحمال بذكر النفقة مع وجوب النفقة لكل معتدة ، لتوهم أن طول مدة الحمل يحدد زمن الإنفاق ببعضه دون بقيته ، أو بزيادة المدة إذا قصرت مدة الحمل ، فأوجب النفقة حتى الوضع ، وهو موعد انتهاء العدة لزيادة الإيضاح التشريعي .

وأما الرضاع ، فلم يجعله الله سبحانه واجبا على الأم دون مقابل ، وما دامت ترضع الطفل المشترك بينهما ، فمن حقها أن تنال أجرا على رضاعة تستعين به على حياتها ، وعلى إدرار اللبن للطفل ، وهذا منتهى المراعاة للأم في هذه الشريعة .

وفي الوقت ذاته أمر الأب والأم أن يأتمرا بينهما بالمعروف في شأن هذا الوليد ، ويتشاورا في أمره ، ورائدهما مصلحته – وهو أمانة بينهما – فلا يكون فشلهما هما في حياتهما نكبة على الصغير البريء .

والأمر منوط بالله في الفرج بعد الضيق ، واليسر بعد العسر ، فأولى لهما أن يعقدا به الأمر كله ، ويتجها إليه ، ويراقباه في كل أمرهما ، وهو المانح المانع ، القابض الباسط .

والزوجان يتفارقان – في ظل هذه التوجيهات القرآنية – وفي قلب كل منهما بذور للود لم تمت ، وربما جاءها ما ينعشها في يوم من الأيام ، إلى أدب رفيع يريد الإسلام أن يصبغ به حياة الجماعة المسلمة ويشيع فيها أرجه وشذاه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روائع البيان حـ 2 صـ 620.605﴾

(200/769)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى وجد)

وَجَدَ مطلوبَهُ يَجِدُهُ وُجوداً ، ويَجُدُه بالضمّ لغة عامريّة لا نظير لها فى باب المِثال .

ووَجِدَ بكسر الجيم لغةٌ ، قال جرير :

*لَمْ أَرَ مِثْلَكِ يا أُمامَ خَلِيلاً * أَنْأَى بحاجَتِنا وأَحْسنَ قِيلاَ*

*لو شِئْتِ قَدْ نَقَعَ الفؤادُ بشَرْبة * تدَعُ الصَّوادِيَ لاَ يَجِدْنَ غَلِيلاَ*

*بالعَذْبِ من وَصْفِ القِلاتِ مَقِيلة * قَضَّ الأَباطحِ لا يزالُ ظَلِيلاَ*

ووَجَدَ ضالَّته وِجْداناً .

ووَجَد عليه فى الغَضَبِ يَجِدُ ويَجُدُ مَوْجِدَةً ووِجْداناً أَيضاً ، حكاها بعضهم : ووَجَدَ فى الحُزْن وَجْداً .

ووَجَدَ فى المال وُجْداً ووَجْداً وجِدَةً : استغنى .

وقرأَ الأَعرج ونافعٌ ويَحْيَى بن يَعْمُرَ وسَعِيد بن جُبَيْرٍ وطاوُسُ وابنُ أَبى عَبْلَةَ وأَبو حَيْوَة وأَبو البَرَهْسَم ﴿ مِنْ وَجْدِكم ﴾ بفتح الواو ، وقرأَ أَبو الحَسَن رَوْحُ بنُ عبدِ المؤمن ﴿ مِنْ وِجْدِكم ﴾ بالكَسْرِ ، والباقون : مِنْ وُجْدِكم بالضَمّ .

ووَجَدَ فى الحُبّ وَجْداً لا غير ، قالت شاعرةٌ :

*مَنْ يُهْدِ لِى من ماءِ نقعاءَ شَرْبَةً * فإِنَّ له مِنْ ماءِ لِينَةَ أَرْبَعا *

*لقد زادَنا وَجْداً بنَقْعاءَ أَنَّنا * وَجَدْنا مَطايانا بِلِينَةَ ظُلَّعا *

*فمن مُبْلِغٌ تِرْبَيَّ بالرَمْلِ أَنَّنى * بَكَيْتُ فلم أَتْرُكْ لعَيْنَيَّ مَدْمَعا *

قال أَبو القاسم الأَصبهانىّ : الوُجودُ أَضْرُبٌ : وُجودٌ بإِحدى الحواسِّ الخمس نحو : وَجَدْتُ

زيداً ، ووَجدْت طَعْمه ورائحتَه وصَوْته وخُشونَتَه ، ووجُودٌ بقوّة الشَهْوة نحو : وَجَدْتُ الشِبَعَ ، ووجُودٌ بقوّةِ الغضَب ، كوُجود الحُزْنِ والسَّخط ، ووجودٌ بالعَقْل أو بوسَاطةِ العقل ، كمَعْرفة الله تعالى ومَعْرفة النُبوّة .

(201/769)

وما نُسِبَ إلى الله تعالى من الوُجودِ فبمعنى العِلْم المجرّد إذْ كان الله تعالى مُنَزّها عن الوَصْف بالجَوارح والآلاتِ نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ وكذا المعدوم يُقال على ضدّ هذه الأَوجه .

ويُعَبّر عن التَمكّن من الشىءِ بالوُجود نحو : ﴿ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ أَى حيث رأَيتموهم .

وقوله : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ وُجودٌ بالبَصِيرة ، وكذا قوله : ﴿ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً ﴾ .

وقوله : ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ ﴾ أَى إن لم تَقْدِروا على الماءِ وقوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ أَى من تمكُّنكم وقَدْرِ غِناكُمْ .

وقال : بعضهم : الموجوداتُ ثلاثة أَضْرُب : موجود لا مَبْدَأَ له ولا مُنْتَهى ، وليس ذلك إِلاَّ البارِى تعالَى ، وموجودٌ له مبدأٌ ومُنْتَهًى كالجَوَاهِر الدُّنْيَوِيّة ؛ وموجودٌ له مبدأٌ وليس له مُنْتَهًى كالنَّاس فى النَّشْأَةِ الآخِرَة .

وأَوْجَدَه اللهُ : أَغْنَاه ، وأَوْجَدَه مَطْلُوبَه : أَظْفَرَه به .

وأَوْجَدَه على الأَمْرِ : أَكْرَهَه .

ووُجِدَ عن عَدَمٍ فهو موجُودٌ ، كحُمّ فهو مَحْمُومٌ ، ولا يُقال وَجَدَه الله ، وإِنَّما يقال : أَوْجَدَه الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 162.164 ﴾

(202/769)

لطيفة أخرى

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى قدر)

هو قادر ومقتدر : ذو قُدرة ومقْدِرَة .

وأَقدره الله عليه .

وقادرته : قاويته .

وهم قَدْرُ مائة ، وقَدَر مائة ، ومقدارها : مبلغها .

والأُمور تجرى بقَدَر الله ومقدارِه وتقديره وأَقداره ومقاديره .

وقدرت الشيء أَقْدُرُه وأَقدِره ، وقدَّرته .

ولا يُقادَر قَدْره : لا يطاق .

ورجل مقتدر الطُول : ربْعة .

وصانع مقتدِر : رفيق بالعمل ، قال :

*لها جَبْهَة كسَرَاة المِجَنّ * (م) حَذَّقَه الصَّانعُ المُقْتَدِرْ*

وقد ورد القدر وما يتصرَّف منه لمعان مختلفة :

الأَول : بمعنى الشرف والعظمة : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ ، وقيل معناه : ليلة قيّضتَها لأُمور مخصوصة .

الثَّانى : بمعنى ضِيق المكان والمعيشة : ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ، ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ أَى ضُيِّق ، ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أَى لن نضيِّق عليه .

الثالث : بمعنى التزيين وتحسين الصّورة : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ صوَّرنا فنعم المصوِّرون : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ ، أَى خلق فصوّر .

الرابع : بمعنى الجَعْل والصُّنع : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ ، أَى جعل له منازل ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ ، ﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ ، ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ .

/الخامس : بمعنى العلم والحكمة : ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى يعلم .

السَّادس : بمعنى القدرة والقوّة : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ أى يقوى ، ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ ﴾ .

ولها نظائر .

وتقدير الله تعالى الأُمورَ على نوعين : أَحدهما بالحكم منه أَن يكون كذا أَولا يكون كذا ، إِمّا وجوباً وإِمَّا إِمكاناً ، وعلى ذلك قوله : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ .

والثانى : بإِعطاء القدرة عليه .

(203/769)

وقوله : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ تنبيه أَن كل ما حكم به فهو محمود فى حكمه ، أَو يكون مثل قوله : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ ، وقرئ (فقدَّرْنا) مشدَّدة ، وذلك منه أَو من إِعطاءِ القدرة .

وقوله : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ تنبيه أَن ذلك فيه حكمة من حيث إِنه هو المقدّر ، وتنبيه أَن الأَمر ليس كما زعم المجوس : أَن الله يخلق وإِبليس يقتل .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴾ فـ (قَدَراً) إِشارة إِلى ما سبق به القضاءُ والكتابة

فى اللَّوح المحفوظ ، والمشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام : "فَرَغ ربّكم من الخَلق والخُلُق والأَجل والرزق" ، (ومقدورا) إشارة إلى ما يحدث حالاً فحالاً ، وهو المشار إليه بقوله : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ ، وعلى ذلك قوله : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ﴾ أضى ما يليق بحاله مقدورًا عليه .

وقوله : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ ، أَى أَعطى كلّ شىءٍ ما فيه مصلحة ، وهداه لما فيه خلاص ، إِمّا بالتسخير وإِمّا بالتعليم ؛ كما قال : ﴿ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ .

والتقدير من الإِنسان على وجهين : أَحدهما : التفكّر فى الأَمر بحسب نظر العقل ، وبناءُ الأَمر عليه ، وذلك محمود .

والثَّانى : أَن يكون بحسب التمنىِّ والشهوة ، وذلك مذموم ، كقوله : ﴿ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ .

وتستعار القُدرة والمقدور للحال والسّعة والمال .

والقَدَر : وقت الشىءِ المقدَّرُ له ، والمكان المقدّر له .

وقوله : ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ أَى بقدر المكان [المقدّر] لأَن يسعها ؛ وقرئ (بِقَدْرِهَا) أَى تقديرها .

وقوله : ﴿ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ ، أَى معيّنين لوقت قدّروه .

وكذلك قوله : ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ .

وقدرت عليه الشيء وصَفْته ، وقوله : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أَي ما عرفوا كنهه ، تنبيهاً أَنَّه كيف يمكنهم أَن يدركوا كنهه وهذا وصفه ، وهو قوله : ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ أَي أَحكِمه .

ومقدار الشىءِ : المقدّر له وبه وقتاً كان أَو زماناً أَو غيره .

وقوله : ﴿ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ يعجزون عن تحصيل شىءٍ منه .

والقدير : هو الفاعل لما يشاءُ على قدر ما تقتضى الحكمة ، لا زائدا عليه ولا ناقصاً عنه ، ولذلك لا يصحّ أَن يوصف به إلا الله تعالى .

والمقتدر يقاربه إِلاَّ أَنَّه قد يوصف به البشر ، ويكون معناه المتكلَّف والمكتسب للقدرة .

ولا أَحد يوصف بالقدرة من وجه إِلاَّ ويصحّ أَن يوصف بالعجز من وجه ، غير الله تعالى ، فهو الذى ينتفى عنه العجزُ من كلّ وجه تعالى شأْنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 243.246 ﴾

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman Bin Mohammed AL-QAMMASH

38